١- باب الإخلاص وإحضار النية

في جميع الأعمال والأقوال والأحوال البارزة والخفية

قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾[البينة: ٥] وقال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ﴾[الحج: ٣٧] وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ﴾[آل عمران: ٢٩].

الحديث رقم (١)

١- عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أبي حفْصٍ عُمرَ بنِ الْخَطَّابِ بْنِ نُفَيْلِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى بن رياح بْن عبدِ اللَّهِ بْن قُرْطِ بْنِ رزاح بْنِ عَدِيِّ بْن كَعْبِ بْن لُؤَيِّ بن غالبٍ القُرَشِيِّ العدويِّ. رضي الله عنه، قال: سمعْتُ رسُولَ الله ﷺ يقُولُ: ((إنَّما الأَعمالُ بالنِّيَّات، وإنَّمَا لِكُلِّ امرئٍ مَا نَوَى، فمنْ كانَتْ هجْرَتُهُ إِلَى الله ورَسُولِهِ فهجرتُه إلى الله ورسُولِهِ، ومنْ كانْت هجْرَتُه لدُنْيَا يُصيبُها، أَو امرَأَةٍ يَنْكحُها فهْجْرَتُهُ إلى ما هَاجَر إليْهِ)) متَّفَقٌ على صحَّتِه[(١)].

رواهُ إِماما المُحَدِّثِين:

أَبُو عَبْدِ الله مُحَمَّدُ بنُ إِسْمَاعيل بْن إِبْراهيمَ بْن الْمُغيرة بْن برْدزْبَهْ الْجُعْفِيُّ الْبُخَارِيُّ، وأَبُو الحُسَيْن مُسْلمُ بْن الْحَجَّاجِ بن مُسلمٍ القُشَيْريُّ النَّيْسابُوريُّ رَضَيَ اللَّه عَنْهُمَا، في صَحيحيهما اللَّذَيْنِ هما أَصَحُّ الْكُتُبِ الْمُصَنَّفَة في علم الحديث.

ترجمة الراوي:

عمر بن الخطاب: هو عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي أبو حفص ثاني الخلفاء الراشدين أمير المؤمنين الفاروق.

---

(١) رواه البخاري (٥٤)، ومسلم (١٥٥/١٩٠٧)، وبهذا اللفظ رواه البيهقي في الاعتقاد (ص: ٢٠٥). أورده المنذري في ترغيبه (١٥).

كان قبل أن يسلم شديدًا على المسلمين، وكان من أشراف قريش، له السفارة فيهم، فكان يشبه وزير الخارجية في عصرنا، دعا النبي ﷺ أن يُعزّ الإسلام به فقال: ((اللَّهُمَّ أعِزَّ الإِسْلامَ بِعُمَرَ بنِ الخَطَّابِ خاصَّةً))(١) فأسلم في السنة السادسة من البعثة، فكان إسلامه فتحًا للمسلمين ومنعة لهم. قال ابن مسعود رضي الله عنه: ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر. فصلى المسلمون عند الكعبة وأظهروا أمرهم. قال عكرمة مولى ابن عباس: لم يزل الإسلام في اختفاء حتى أسلم عمر.

وهاجر إلى المدينة وشهد مع النبي ﷺ المشاهد كلها، وأثنى عليه ثناء كبيرًا، من ذلك أنه قال: ((إنَّ اللّهَ جَعَلَ الْحَقَّ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ وقَلْبِهِ))(٢) وقال: ((لَوْ كانَ نَبِيٌّ بَعْدِي لَكَانَ عُمَر))(٣). وكان هو وأبوبكر الصديق وزيري النبي ﷺ يشاورهما، وكان القرآن ينزل موافقًا لرأيه أحيانًا، وتوفي النبي ﷺ وهو عنه راضٍ، فلما تولى أبوبكر رضي الله عنه كان وزيره ومعاونه الأول، واستخلفه عند موته سنة ١٣هـ، فكانت خلافته خيرًا للمسلمين، فقد فتحت البلاد وبنيت المدن، ففتحت الشام ومصر وفارس وغيرها. وأمر ببناء البصرة والكوفة، حتى قيل: انتصب في خلافته اثنا عشر ألف منبر.

وكان سابقًا لأمور تنظيمية في عهده، فدوّن الدواوين وكتب أسماء المسلمين وأعطاهم العطاء والمرتَّبات حسب سبقهم إلى الإسلام وبلائهم فيه. وهو أول من أرّخ بالتاريخ الهجري بعد مشورة الصحابة رضي الله عنهم. كل ذلك وهو يَسُوسُ الناس بالعدل، وقد أنزل نفسه من مال الله تعالى بمنزلة كافل اليتيم واتخذ نقشًا لخاتمه: كفى بالموت واعظًا يا عمر.

وقد كان آدم شديد الأدمة - أي أسمر شديد السمرة- طوالاً مشرفًا على الناس كث اللحية أصلع أعسر أيسر، له من الأحاديث ٥٣٧ حديثًا، قتله أبو لؤلؤة المجوسي غلام المغيرة بن شعبة وهو في صلاة الصبح سنة ٢٣هـ، فكانت مدة خلافته عشر

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٠٥) وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٨٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٦٨٢) وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٩٠٨).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٦٨٦) وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٩٠٩).

سنوات ونصفًا. وفيه قال عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه: كان إسلام عمر فتحًا وكانت هجرته نصرًا، وكانت إمارته رحمة[(١)].

غريب الألفاظ:

يصيبها: يحصلها[(٢)].

الشرح الأدبي

إن كل من يتأمل بلاغة الرسول صلى الله عليه وسلم في أحاديثه الشريفة يدرك عن يقين أن المعنى والمبنى يمتزجان في البيان النبوي الكريم، وأن الفكر والأسلوب يتعانقان في هذا الأدب الفصيح المشرق بالتوحيد والهداية، ليقدما للبشرية المنهج الإسلامي السديد المنبثق من هدي القرآن العظيم.

يقول القاضي عياض في معرض الإشادة بأدب النبوة، وأسرار البيان في الحديث النبوي: "إن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يحمل سلاسة طبع، وبراعة منزع، وإيجاز مقطع، ونصاعة لفظ، وجزالة قول، وصحة معانٍ، وقلة تكلف، أوتي جوامع الكلم. وخص ببدائع الحِكَم، وعُلِّم ألسنة العرب، فكان يخاطب كل أمة بلسانها، ويحاورها بلغتها، ويباريها في منزع بلاغتها، حتى كان كثير من أصحابه يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه، وتفسير قوله، ومن تأمل حديثه وسِيَره علم ذلك وتحققه"[(٣)].

والحديث الشريف الذي بين أيدينا يدعونا إلى أن نتأمل معانيه في ضوء مبانيه، فالبناء اللغوي هو مفتاح النص للوصول إلى المعاني الممتدة التي لا تتناهى كما يقول

---

(١) انظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد ٢٦٥/٣، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٤٧٣، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير ١٣٧/٤، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ٩٤٩، وسير أعلام النبلاء، الذهبي ٣٦٠/١، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي ٣٤١/٥، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٢٢١/٣، والأعلام، خير الدين الزركلي ٤٥/٥، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك ٢٩٠/١.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٤/١.

(٣) الشفا، بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض ص ١٥٨.

الجاحظ، وفي ظل إشراقات وخصائص أساليب الحديث النبوي الشريف، واتكاءً على يقين المؤمن بأنه ﷺ، أوتي جوامع الكلم.

إن هذا الحديث النبوي الشريف يحدد المنهج الصحيح للمسلم في حياته السلوكية والقولية والعملية، وافتتح به الإمام النووي كتابه "رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين" وكأن هذا الافتتاح إشارة من صاحب هذا المصنَّف الجليل أن يكون إقدامه على هذا العمل مصاحبًا بالنية الحسنة، والعمل الصالح، وأن يتقبل الله منه هذا العمل، وأن تكون ثمرته المغفرة والرضوان، وأن ينتفع به المسلمون وغيرهم في كل زمان ومكان، وشاهِدُ ذلك أنه جعل هذا الحديث في بداية باب "الإخلاص وإحضار النية في جميع الأعمال والأقوال والأحوال البارزة والخفية".

ومما يؤكد هذا المنهج السديد في الحرص على سلامة النية والإخلاص في القول والعمل أن النووي صدر هذا الباب بأربع آيات بينات تحض على الإخلاص في العبادة، وفي إقامة الشعائر وفي الإنفاق ، والقربات، وحتى في أحاديث النفس، وحصائد الألسن، وفي كل ما تدبجه أقلام العلماء والأدباء والمفكرين في كل زمان ومكان. قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ﴾[1].

ولنتأمل جمال الصياغة، ودقة اللغة، وعمق الدلالة، وإشعاع الأسلوب في البناء اللغوي والأدبي.

إن الحديث يتكون في مبناه ومعناه من أربع جمل.. تتصاعد من التعميم إلى التخصيص، وتجنح إلى الإيحاء في ثوب التعريض، وتنأى عن التصريح والتشهير.

الجملة الأولى أو البارقة الأولى تمثل قاعدة كلية من قواعد المنهج الإسلامي: "إنما الأعمال بالنيات" ودلالة هذه الجملة التي صيغت في أسلوب القصر توحي وترشد وتنبئ عن مناسبة الحديث وعن القصة التي أشرقت في سياقها هذه القاعدة الكلية: "إنما الأعمال بالنيات".

(١) سورة آل عمران، آية: ٢٩.

والتعبير بـ"إنما" يفيد القصر والتأكيد، و"الأعمال" جاءت معرفة بأل: لتفيد العموم، فالأعمال في هذا السياق هي كل ما يقدم عليه الإنسان في حركته الحياتية، فلابد أن تكون هذه الحركة متلبسة بالإخلاص أو مصاحبة له أو مستعينة به.

وفي الجملة إشعاع أسلوبي آخر وهو مجيء "الأعمال" جمعًا وفي بعض الروايات جاء لفظ النية مفردًا "إنما الأعمال بالنية" وقيل إن هذا التصرف اللغوي جمع الأعمال مقابل إفراد النية. لأن النية محلها القلب وهو متحد فناسب إفرادها، بخلاف الأعمال فإنها متعلقة بالظواهر والجوارح فناسب جمعها. فاختلاف الرواية في ألفاظ الحديث خير شاهد على بلاغة الرسول ﷺ وأن كل رواية لها مدلولها وإشعاعها في اتساع المعنى نظرًا لتغير المبنى.

وأما الجملة الثانية في هذا الحديث الشريف فهي: "وإنما لكل امرئ ما نوى"، وهى كذلك تأتي في صيغة: القصر وهذه الصيغة الأسلوبية تجمع بينها وبين الجملة السابقة، ويجمعها كذلك قالب الجملة الاسمية التي تؤكد ثبات المعنى ورسوخ القاعدة، ولا يضعف من ثباتها ارتباطها بزمن دون آخر فكل نفس بما كسبت رهينة، ولكل إنسان في هذا الوجود ما اتجهت إليه مداركه واكتسبته جوارحه، وجاءت هذه الجملة المتممة والموضحة للقاعدة الأولى لبيان أن الأعمال لا يعتد بها شرعًا إلا بالنية المصاحبة لها، وجزاء العامل على عمله بحسب نيته من خير أو شر؛ وبعد هذا الإجمال المشع ببريق الهداية النبوية يفصل المصطفى ﷺ القول ويُضئُ جوانب القصة، ويومئ إلى الظروف والملابسات التي من أجلها كانت هذه المقدمة الكلية التي تصلح من أمر العباد: في السر والعلن، وتجعل للقصد والإرادة دورًا في شرعية العمل، ومسؤولية الفعل.

وحين نتساءل – لماذا جاءت الهجرة في هذا السياق، ولم تأت الإشارة إلى أي حادث آخر؟ ولماذا لم يحدد رسول الله ﷺ اسم ذلك المهاجر لدنيا يصيبها؟، ولماذا كرر الجملة الكريمة فهجرته إلى الله ورسوله؟، ولماذا لم تتكرر العبارة الأخرى المقابلة للحدث الأول المصاحب للنية الإيمانية، واكتفى المصطفى ﷺ بقوله " فهجرته إلى ما هاجر إليه"؟ والحادثة التي يومئ إليها رسول الله ﷺ هي كما يروي عن ابن مسعود رضي الله عنه حيث يقول: "كان فينا رجل خطب امرأة يقال لها أم قيس، فأبت أن

تتزوجه حتى يهاجر، فهاجر فتزوجها: يقول ابن مسعود ﷺ: فكنا نسميه مهاجر أم قيس، وقيل اسمها قيلة؛ ولم يحدد الرسول ﷺ اسم الرجل: سترًا عليه"، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ولأن المصطفى ﷺ: أوتي جوامع الكلم، فقد أراد أن لا يكون الحكم مرتبطًا بحدث واحد، ومحدودًا بإطار زماني ومكاني محدد، ولكن لابد أن يكون التوجيه النبوي لكل صاحب نية وقصد وإرادة، ولكل من يُقْدِم على إنجاز عمل، وصياغة فكر، وأداء شعيرة.

وهذا التميز الأسلوبي، وصفاء الحاسة، وثقوب الذهن، واجتماع النفس، وقوة الفطرة، كل هذه السمات نبعت من التوفيق والنشأة، مع عنصر التوفيق الإلهي حيث اصطنعه لوحيه، ونصبه لبيانه، وخصه بكتابه، واصطفاه لرسالته – كما قال الرافعي.

وبهذا البيان السامق يشيد الأديب الانجليزي "توماس كارليل". حيث يقول: "وقد لاحظوا: أن ما من كلمة تخرج من فيه إلا وفيها حكمة بليغة وإني لأعرف أنه كان كثير الصمت. يسكت حيث لا موجب للكلام، فإذا نطق فما شئت من أدب وفضل وإخلاص وحكمة، لا يتناول غرضًا فيتركه إلا وقد أنار شبهته، وكشف ظلمته وأبان حجته واستثار دفينته وهكذا يكون الكلام ... وإلا فلا".

وجاءت الجملتان الثالثة والرابعة في قالب الشرط والجواب لكي يعرف كل إنسان أن الجزاء من جنس العمل "فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله" فالجزاء كناية عن شرف الهجرة وكونها بمكانة عنده تعالى، أو عن كونها مقبولة مرضية والتعبير بالفعل "كان" هنا لا يرتبط بالزمن الماضي، وإنما يدل على الكينونة وثبات الفعل، لأن الأزمنة تستوي في الحكم التكليفي إلا لمانع -كما يقول العلماء، وكرر جملة الجواب بالصيغة نفسها في قوله "فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله" لكون ذلك أبلغ في الهجرة إليهما.

ولم تتكرر عبارة الجواب في قوله ﷺ: "ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه" لأن عدم التكرار هنا يدل على رفض

الرسول ﷺ لهذه النية التي لم تُخْلص لله ولا لرسوله، وكذلك يرشد عدم تكرار جملة الجواب إلى أن العدول عن ذكرهما أي ذِكْر الدنيا والمرأة أبلغ في الزجر عن قصدهما.

وقال بعض الصالحين "إنما الأعمال بالنيات" يتعلق بما وقع في القلوب من أنوار الغيوب، والنية جمع الهمة في تنفيذ العمل للمعمول له، وألا يسنح في السر ذكر غيره.

إن هذا الحديث الجامع يهذب السلوك الإنساني، ويضع سلوك المؤمن الذي يبتغي وجه الله تعالى في كل أحواله في قمة الأعمال الصالحة التي في ظلالها المؤمنة تتقدم المجتمعات وتصلح الأمم.

وفي أحاديث كثيرة يتأكد هذا المنهج الإسلامي السديد وهو الإخلاص وإحضار النية في جميع الأعمال والأقوال والأحوال البارزة والخفية .

ومن هذه الأحاديث النبوية الهادية إلى هذا الطريق السوي حديث رواه جابر بن عبدالله رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: ((يحشر الناس على نياتهم))[1].

وروى عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال:

((من غزا في سبيل الله ولم ينو إلا عقالاً فله ما نوى))[2] وقيل صلاح القلب بصلاح العمل وصلاح العمل بصلاح النية.

فقه الحديث

هذا الحديث الشريف هو الأساس الذي بنيت عليه القاعدة الفقهية الكبرى: "الأمور بمقاصدها"[3] قال الخطابي: (وهذا الحديث أصل كبير من أصول الدين، ويدخل في أحكام كثيرة ... ومعناه أن صحة أحكام الأعمال في حق الدِّين إنما تقع بالنية، وأن النيات هي الفاصلة بين ما يصح منها وبين ما لا يصح)[4]. وقال الشاطبي:

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٣٩٢/٢ رقم ٩٠٩٠، وقال محققو المسند: صحيح لغيره.

(٢) أخرجه النسائي ٣١٣٨، وحسنه الألباني (صحيح سنن النسائي، ٢٩٤١).

(٣) انظر: الأشباه والنظائر، السيوطي ص ٣٩ وما بعدها، والأشباه والنظائر، ابن نجيم ص ٩ وما بعدها.

(٤) أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري، الخطابي ١١٢/١.

(إن الأعمال بالنيات والمقاصد معتبرة في التصرفات من العبادات والعادات، والأدلة على هذا المعنى لا تنحصر، ويكفيك منها أن المقاصد تفرق بين ما هو عادةً وما هو عبادة، وفي العبادات ما هو واجب وغير واجب، وفي العادات بين الواجب والمندوب والمباح والمكروه والمحرم والصحيح والفاسد وغير ذلك من الأحكام ... وأيضًا: فالعمل إذا تعلق به القصد تعلقت به الأحكام التكليفية وإذا عرى عن القصد لم يتعلق به شيئ منها كفعل النائم والغافل والمجنون)[1].

وقال ابن رجب في شرح الحديث: (هاتان كلمتان جامعتان وقاعدتان كليتان لا يخرج عنهما شيء)[2] وخلاصة الموضوع أن (هذا الحديث من جوامع الأحاديث للأحكام الشرعية)[3] (والواقع أنها قاعدة عالمية الاعتبار ولها تفاريع جمة واسعة النطاق في كتب الفقه والقانون)[4]. ويذكر ابن رجب صورًا لبيان أثر النية في التكاليف الشرعية فيقول: (وأما النية بالمعنى الذي يذكره وهو أن تمييز العبادات من العادات وتمييز العبادات بعضها من بعض، فإن الإمساك عن الأكل والشرب يقع تارة حِمْية[5] وتارة لعدم القدرة على الأكل، وتارة تركًا للشهوات لله عز وجلّ، فيحتاج في الصيام إلى نية ليتميز بذلك عن ترك الطعام على غير هذا الوجه، وكذلك العبادات: كالصلاة والصيام منها فرض ومنها نفل. والفرض يتنوع أنواعًا فإن الصلوات المفروضات خمس صلوات كل يوم وليلة، والصوم الواجب تارة يكون صيام رمضان، وتارة صيام كفارة، أو عن نذر، ولا يتميز هذا كله إلا بالنية، وكذلك الصدقة تكون نفلاً وفرضًا، والفرض منه زكاة، ومنه كفارة، ولا يتميز إلا بالنية، فيدخل ذلك في عموم قوله ﷺ: "إنما لكل امرئ ما نوى" وفي بعض ذلك اختلاف مشهور

(١) الموافقات في أصول الشريعة، الشاطبي ٢/٣٢٣-٣٢٤.

(٢) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١/٧٢.

(٣) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير ٢/٣٤٠ نقلاً عن جمهرة القواعد الفقهية في المعاملات المالية، د. علي أحمد الندوي ١/١٣٠.

(٤) جمهرة القواعد الفقهية في المعاملات المالية، د. علي أحمد الندوي ١/١٣٢.

(٥) الحمية: الإقلال من الطعام ونحو مما يضر. الوسيط "حمى".

بين العلماء...)[١]. وهو يسقط الألم النفسي عن كثير غاب عنهم الذكر باللسان مع ربط الفعل بالقلب، كالإمساك عن الطعام خشية أذان الفجر، والاغتسال لرفع الجنابة مع نسيان النطق وسبق اللسان بما يخالف القلب ومقتضى الحال كمن نطق صلاة العصر بلسانه وهو ينوي الظهر بقلبه ويصليه في الوقت نفسه.

المضامين الدعوية

أولاً- من موضوعات الدعوة: بيان أهمية النية في الأعمال.

ثانيًا- من صفات الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: بيان فضل الهجرة.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: ارتباط النوايا بالأعمال وأثر النية في العمل.

خامسًا- من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: بيان أهمية النية في الأعمال:

لقد اشتمل هذا الحديث النبوي الشريف على بيان أهمية النية في الأعمال. حيث بيّن النبي ﷺ ذلك في قوله: "إنما الأعمال بالنيات"، قال النووي: (أجمع المسلمون على عظم موقع هذا الحديث وكثرة فوائده وصحته)[٢]، وقال القاضي عياض: (ذكر الأئمة أن هذا الحديث ثلث الإسلام وقيل: ربعه، وأن أصول الدين وعمده من عمل الطاعات)[٣]، ومفسر لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[٤].

قال بعض شيوخنا: (قوله "إنما الأعمال بالنيات" يرجع إلى معنيين: أحدهما: تجريد العمل من الشرك بالله بخالص التوحيد، والآخر: تجريده بخالص السنة)[٥].

---

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٨٥/١.

(٢) المنهاج في شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٢٢١.

(٣) كذا في المطبوع والغالب على الظن أن هناك سقطًا، وأن العبارة هي: "وأنه أصل من أصول الدين وعمدة من عمل الطاعات" والله أعلم.

(٤) سورة البينة، آية: ٥.

(٥) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٣٣٢/٦.

قال جماهير العلماء من أهل العربية والأصول وغيرهم: (لفظة "إنما" موضوعة للحصر تثبت المذكور وتنفي ما سواه، فتقدير هذا الحديث: إن الأعمال تحسب بنية، ولا تحسب إذا كانت بلا نية، وفيه دليل على أن الطهارة وهي: الوضوء والغسل والتيمم لا تصح إلا بالنية، وكذلك الصلاة والزكاة والصوم والحج وسائر العبادات)[1].

إن النية لها منزلة عظيمة في كل عمل خير يقوم به الإنسان، ليحقق من خلاله مرضاة الله تعالى ورسوله ﷺ، لذا ينبغي للداعية أن يؤكد على هذه المعاني العظيمة في الدعوة إلى الله تعالى، فيرسخ في أذهان المدعوين أهمية النية لكل عمل يقوم به الإنسان، ويحثهم على الإخلاص لله تعالى، لأن النية لها مدار عظيم في الأعمال، فلربما لا يتمكن الإنسان من إنجاز العمل -الذي نواه- أو إكماله فيجازيه الله تعالى على نيته الحسنة، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2].

قال السعدي في بيان معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾: (أي: لا يجدون زادًا، ولا راحلة يتبلغون بها في سفرهم، فهؤلاء ليس عليهم حرج، بشرط أن ينصحوا لله ورسوله، بأن يكونوا صادقي الإيمان، وأن يكون من نيتهم وعزمهم أنهم لو قدروا لجاهدوا، وأن يفعلوا ما يقدرون عليه من الحث والترغيب والتشجيع على الجهاد.

﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ أي: من سبيل يكون عليهم فيه تبعة، فإنهم - بإحسانهم فيما عليهم من حقوق الله تعالى وحقوق العباد- أسقطوا توجه اللوم عليهم، وإذا أحسن العبد فيما يقدر عليه، سقط عنه ما لا يقدر عليه.

---

(١) انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢٢١.

(٢) سورة التوبة، آية: ٩١.

ويستدل بهذه الآية على قاعدة وهي: أن من أحسن إلى غيره، في نفسه أو في ماله، ونحو ذلك، ثم ترتب على إحسانه نقص أو تلف، أنه غير ضامن لأنه محسن، ولا سبيل على المحسنين، كما أنه يدل على أن غير المحسن -وهو المسيء- كالمفرط، أن عليه الضمان)[١].

ومما يؤكد ذلك قول النبي ﷺ لأصحابه رضي الله عنهم: ((لَقَدْ تَرَكْتُمْ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ، وَلا قَطَعْتُمْ مِنْ وَادٍ إلاَّ وَهُمْ مَعَكُم فِيهِ. قالُوا: يا رَسُولَ اللَّه وَكَيْفَ يَكُونُونَ مَعَنَا وَهُمْ بالمَدِينَةِ؟ قال: حَبَسَهُم الْعُذْرُ))[٢].

قال المهلب: يشهد لهذا الحديث قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾، الآية. فإنه فاضل بين المجاهدين والقاعدين ثم استثنى أولي الضرر من القاعدين فكأنه ألحقهم بالفاضلين. وفيه أن المرء يبلغ بنيته أجر العامل إذا منعه العذر عن العمل[٣].

ثانيًا- من صفات الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم:

إن ذلك يتأكد من خلال إرشاد النبي ﷺ لأهمية النية في الأعمال، وتأكيده ﷺ "أن لكل امرئ ما نوى" ثم ذكره ﷺ لما يؤكد ذلك من قوله: (فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ...)، ولا شك أن ذلك مما ينبغي أن يتصف به الداعية، حيث يكون مرشدًا للمدعوين إلى ما ينفعهم، وقد كان النبي ﷺ أسوة في ذلك، حيث قام بإرشاد أمته إلى فعل ما ينفعها، من تصحيح النية وإخلاصها لله تعالى، وهذا مما ينبغي أن يتحلى به الداعية في إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم، مثل بيان أهمية النية في الأعمال.

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٣٤٨.

(٢) أخرجه البخاري ٤٤٣٣، وأبو داود ٢٥٠٨، واللفظ لأبي داود.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٦/٦.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: بيان فضل الهجرة:

إن للهجرة منزلة عظيمة في الإسلام، لأنها كانت مرحلة تحول عظيمة بالنسبة للدعوة الإسلامية، فكانت الهجرة برهانًا عظيمًا على صدق الإيمان والاتباع للنبي ﷺ حيث ترك المهاجرون ديارهم وأموالهم، وكل ما يملكون رغبة في نصرة الإسلام، وتحملوا ألوان المشقة والعذاب، وصبروا واحتسبوا طمعًا في نشر الدعوة الإسلامية، من خلال الإسهام في توفير المناخ الاجتماعي المناسب، الذي يمكن أن تترعرع فيه الدعوة الإسلامية، ويتسنى للمسلمين الانسياح في الأرض، والنهوض بالمسؤولية التي حملّهم الله تعالى إياها في البلاغ، ولذا أثنى الله تعالى على هؤلاء الذين هاجروا لنصرة دينه ومؤازرة نبيه ﷺ.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾(١).

قال ابن كثير: "لقد أثنى الله ورسوله على المهاجرين والأنصار في غير ما آية في كتابه فقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ﴾(٣).

وأحسن ما قيل في قوله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ﴾(٤). أي: لا يحسدونهم على فضل ما أعطاهم الله تعالى على هجرتهم، فإن ظاهر الآيات تقديم

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٧٤.

(٢) سورة التوبة، آية: ١٠٠.

(٣) سورة التوبة، آية: ١١٧.

(٤) سورة الحشر، جزء من آية: ٩.

المهاجرين على الأنصار، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء، لا يختلفون في ذلك[١].

(إنه لعِظَم شأن الهجرة فقد فضل الله تعالى المهاجرين على الأنصار، لأن هؤلاء المهاجرين تركوا ديارهم وأوطانهم وأهليهم وأموالهم، وفَرُّوا بدينهم مهاجرين إلى الله تعالى ورسوله، لأن أعظم الهجرة: الهجرة من بلد الكفر إلى بلد الإسلام)[٢].

لقد فصّل النبي ﷺ في هذا الحديث الإجمال بمثال تطبيقي واضح فقال: "فمن كانت هجرته" من دار الكفر إلى دار الإسلام "إلى الله ورسوله" أي مخلصًا قصدًا ونية ابتغاء رضوان الله تعالى "فهجرته إلى الله ورسوله" ثوابًا وخيرًا، فالشرط إذًا غير متحد مع الجزاء، لأنهما وإن اتحدا لفظًا فقد اختلفا معنى. "ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها" أي من هاجر لتحصيل منفعة دنيوية، من جاه أو مال أو (امرأة ينكحها) يتزوجها (فهجرته إلى ما هاجر إليه) أي مقصورة على قصده، لا تترقى إلى مثوبة الله سبحانه وتعالى، وقد قسم العلماء الهجرة إلى ستة أقسام:

القسم الأول: الخروج من دار الحرب إلى دار الإسلام، وهي باقية إلى يوم القيامة، والتي انقطعت بالفتح في قوله ﷺ: (لا هجرة بعد الفتح)[٣] هي القصد إلى رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة للإقامة بها.

القسم الثاني: الخروج من أرض البدعة، قال ابن القاسم: سمعت مالكًا يقول: لا يحل لأحد أن يقيم بأرض يُسبّ فيها السلف[٤]، وليس ذلك فحسب، بل ينبغي للمسلم أن يهجر كل عمل نُهي عنه، وأن يهجر ما نهاه الله تعالى عنه من المعاصي والفسوق، كما قال النبي ﷺ: ((المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسانِهِ وَيَدِهِ، والمهاجِرُ مَن هَجَرَ ما نَهى اللّهُ عنه))[٥]، فاهجر كل ما حرّم الله تعالى عليك، سواء كان مما يتعلق بحقوق الله

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٩٦/٤.

(٢) شرح رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، محمد بن صالح العثيمين ١٢/١.

(٣) أخرجه البخاري ٣٠٧٧، ومسلم ١٨٦٤.

(٤) انظر: شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم ص ١٥.

(٥) أخرجه البخاري واللفظ له ٦٤٨٤، ومسلم ٦٥.

تعالى أو مما يتعلق بحقوق عباد الله تعالى.

بل تشرع هجرة مَنْ يجاهر بالمعصية - أي تركه أو الإعراض عنه- قال أهل العلم: مثل الرجل المجاهر بالمعصية الذي لا يبالي بها، فإنه يُشرع هجره إذا كان في هجره فائدة ومصلحة، والمصلحة والفائدة أنه إذا هُجر عرف قدر نفسه، ورجع عن المعصية.

أما إذا كان الهجر لا يفيد ولا ينفع وهو من أجل معصية لا من أجل كفر، لأن الكافر المرتد يُهجر على كل حال -أفاد أم لم يفد- لكن صاحب المعصية التي دون الكفر إذا لم يكن في هجره مصلحة؛ فإنه لا يحل هجره؛ لأن الرسول ﷺ قال: ((لاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثِ لَيَالٍ. يَلْتَقِيَانِ فَيُعْرِضُ هذَا وَيُعْرِضُ هذَا. وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلاَمِ))[1][2].

القسم الثالث: الخروج من أرض يغلب عليها الحرام؛ فإنَّ طَلَب الحلال فريضة على كل مسلم[3]، وتسمى هذه: هجرة المكان كأن ينتقل الإنسان من مكان تكثر فيه المعاصي ويكثر فيه الفسوق، وربما يكون بلد كفر إلى بلد لا يوجد فيه ذلك، وأعظمه الهجرة من بلد الكفر إلى بلد الإسلام، وقد ذكر أهل العلم أنه تجب الهجرة من بلد الكفر إلى بلد الإسلام إذا كان الإنسان لا يستطيع أن يُظهر دينه، وأما إذا كان قادرًا على إظهار دينه ولا يُعارض إذا أقام شعائر الإسلام؛ فإن الهجرة لا تجب عليه ولكنها تستحب، وبناءً على ذلك يكون السفر إلى بلد الكفر أعظم من البقاء فيه، فإذا كان بلد الكفر الذي كان وطن الإنسان إذا لم يستطع إقامة دينه فيه وجب عليه مغادرته والهجرة منه فكذلك إذا كان الإنسان من أهل الإسلام ومن بلاد المسلمين فإنه لا يجوز له أن يسافر إلى بلاد الكفر لما في ذلك من الخطر على دينه وعلى أخلاقه ولما في ذلك من إضاعة ماله ولما في ذلك من تقوية اقتصاد الكفار...)[4].

---

(١) أخرجه البخاري ٦٠٧٧، ومسلم واللفظ له ٢٥.

(٢) انظر: شرح رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، محمد بن صالح العثيمين١/١٤.

(٣) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم ص ١٥.

(٤) انظر: شرح رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، محمد بن صالح العثيمين ١/١٢.

القسم الرابع: الفرار من الأذية في البدن. وذلك فضل من الله تعالى أرخص فيه، فإذا خشي على نفسه في مكان فقد أذن الله تعالى له في الخروج عنه. والفرار بنفسه يخلصها من ذلك المحذور.

القسم الخامس: الخروج خوف المرض من البلاد الوخمة إلى الأرض النزهة، وقد أذن ﷺ للعرنيين في ذلك حين استوخموا المدينة أن يخرجوا إلى المرج[(١)].

القسم السادس: الخروج خوفًا من الأذية في المال، فإن حرمة مال المسلم كحرمة دينه[(٢)].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: ارتباط الأعمال بالنوايا وأثر النية في العمل:

إن من مظاهر عظمة الإسلام وتميّزه على سائر الأديان وسمو تعاليمه، أن ربط بين الأعمال والنوايا، فكل عمل يستمد أجره من خلال نية صاحبه، ويُسلب أجره من خلال النية السيئة؛ ولذا فإنه يمكن القول أن الأعمال تدور مع النوايا، ومما يؤكد ذلك قوله ﷺ في هذا الحديث: "إنما الأعمال بالنية"، هذا الحديث من أعظم أصول الإسلام، وذكر القاضي عياض عن الأئمة أن هذا الحديث ثلث الإسلام، وجّهه العيني: في عمدة القاري بأن الإسلام قول، وفعل، ونية. فالنية ثلث الإسلام، وهذا الحديث يتضمنها. وقال ابن مهدي الحافظ: من أراد أن يصنف كتابًا: فليبدأ بهذا الحديث ولو صنفت كتابًا لبدأت في كل باب منه بهذا الحديث.

وقال أبو بكر بن داسة: سمعت أبا داود يقول: كتبت عن النبي ﷺ خمسمائة ألف حديث انتخبت منها أربعة آلاف حديث وثمانمائة حديث في الأحكام، فأما أحاديث الزهد والفضائل فلم أخرجها. ويكفي الإنسان لدينه من ذلك أربعة أحاديث: الأعمال بالنيات، والحلال بيّن والحرام بيّن[(٣)]، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا

(١) أخرجه البخاري ٢٣٣، ومسلم ١٦٧١.

(٢) انظر: شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم ص ١٦.

(٣) أخرجه البخاري ٥٢، ومسلم ١٥٩٩.

يعنيه[١]، ولا يكون المؤمن مؤمنًا حتى يرضى لأخيه ما يرضى لنفسه[٢][٣].

والنية كما فسّرها البيضاوي: عبارة عن انبعاث القلب نحو ما يراه موافقًا لغرض من جلب نفع، أو دفع ضر حالاً أو مآلاً. والشرع خصّصه بالإرادة المتوجهة نحو الفعل لابتغاء رضاء الله تعالى وامتثال حكمه. والنية في الحديث محمولة على المعنى اللغوي ليحسن تطبيقه على ما بعده، وتقسيمه أحوال المهاجر، فإنه تفصيل لما أجمل.

ثم تقدير عبارة الحديث: "إنما الأعمال تثاب بالنية" فلا يثاب الرجل على عمل صالح إلا إذا أراد به وجه الله تعالى ، والمراد من الأعمال: الأعمال المشروعة، كما دل عليه تمثيلها بالهجرة، فالأعمال غير المشروعة لا يثاب عليها، وإن باشرها المرء بنية صالحة. أما الأعمال المشروعة سواء كانت واجبة أو مسنونة أو مباحة، فيؤجر عليها بحسب النية، فالأمور المباحة لا ثواب عليها ولا عقاب، ولكن إذا أتى بها الإنسان بنية حسنة أثيب عليها، مثل: أكل الطعام، فإنه مباح، ولكن إذا أكَلَ الرجل بنية التقوِّي على الحسنات، أثيب عليه أيضًا.

ومقصود الحديث التأكيد على إخلاص الأعمال الصالحة لله تعالى، وتطهيرها عن شوائب الرياء والسمعة، والأغراض الدنيوية، وقد أطال العلماء رحمهم الله في بيان حقيقة النية والإخلاص وأحكام ما يشوبها من الشوائب.

قوله: "وإنما لكل امرئ ما نوى" قال النووي: (قالوا: فائدة ذكره بعد "إنما الأعمال بالنية" بيان أن تعيين المنوي شرط، فلو كان على الإنسان صلاة مقضية لا يكفيه أن ينوي الصلاة الفائتة، بل يشترط أن ينوي كونها ظهرًا أو غيرها، ولولا اللفظ الثاني لاقتضى الأول صحة النية بلا تعيين، أو أوهم ذلك)[٤]. أي دلّ عليه.

وذكر السمعاني في أماليه ما يفيد أن اللفظ الأول ينبئ عن اشتراط الإخلاص في

---

(١) أخرجه الترمذي ٢٣١٧، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٨٨٦).

(٢) أخرجه البخاري ١٣، ومسلم ٤٥، وهو بلفظ "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه".

(٣) انظر: عمدة القاري، العيني ١/ ٢٧.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢٢.

ثواب الطاعات، واللفظ الثاني لبيان أن الأعمال الخارجة عن العبادة لا تفيد الثواب إلا إذا نوى بها فاعلها القربة، كالأكل إذا نوى به التَّقَوِّي على الطاعة. وهذا أوضح ما قيل في الفرق بين الجملتين(١).

قال ابن القيم: "أما العبادات فتأثير النيات في صحتها وفسادها أظهر من أن يحتاج إلى ذكره؛ فإن القربات كلها مَبْنَاها على النيات، ولا يكون الفعل عبادة إلا بالنية والقَصْد(٢).

وقال السيوطي: "ومن أحسن ما استدلوا به على أن العبد ينال أجرًا بالنية الصالحة في المباحات والعادات، قوله ﷺ "ولكل امرء ما نوى" فهذه يثاب فاعلها إذا قصد بها التقرب إلى الله تعالى، فإن لم يقصد ذلك فلا ثواب له..."(٣).

وقوله ﷺ: ((وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ)) قَالُوا: يَا رَسُولَ اللّهِ، أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: ((أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلاَلِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ))(٤).

وقال النووي: "وفي هذا دليل على أن المباحات تصير طاعات بالنيات الصالحات، فالجماع يكون عبادة إذا نوى به قضاء حق الزوجة ومعاشرتها بالمعروف الذي أمر الله تعالى به أو طلب ولد صالح، أو إعفاف نفسه أو إعفاف الزوجة ومنعهما جميعًا من النظر إلى الحرام، أو الفكر فيه، أو الهم به أو غير ذلك من المقاصد"(٥).

وقد دلّ هذا الحديث الذي نحن بصدده على ما يلي:

١- أن النية من الإيمان، لأنها عمل القلب، والإيمان عند أهل السنة والجماعة تصديق بالجنان، ونطق باللسان وعمل بالأركان. لذلك أورد الإمام البخاري هذا الحديث في كتاب الإيمان.

---

(١) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني١/١٤، وتكملة فتح الملهم، محمد تقي العثماني٣/٣٧٠، ٣٧١.

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم ص ٦٠٠ - ٦٠١.

(٣) شرح السيوطي على سنن النسائي، السيوطي ١/١٩.

(٤) أخرجه مسلم ١٠٠٦.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦٤١.

٢- كما في الحديث دليل على أنه يجب على المسلم قبل القدوم على العمل أن يعرف حكمه، هل هو مشروع، أم لا، هل هو واجب أم مستحب، لأن في الحديث العمل يكون منتفيًا - من الأجر- إذا خلا من النية المشروعة فيه.

٣- والحديث يدل على اشتراط النية في أعمال الطاعات، وأن ما وقع من الأعمال بدونها غير مُعْتَدٍّ به(١).

خامسًا- من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب:

إن الترغيب من الأساليب الدعوية الناجحة التي يمكن أن يفيد منها الداعية في دعوته.

وقد رغب رسول الله ﷺ في هذا الحديث في إخلاص النية لله تعالى والتوجه بالأعمال خالصة لوجهه سبحانه، وقد بيّن النبي ﷺ ذلك بأسلوب عملي من خلال بيان الهجرة الخالصة لله ورسوله، حيث قال ﷺ: (فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله). وذلك للترغيب في الإخلاص في الأعمال، والترهيب من عدم الإخلاص في العمل، والحث على فعل الخير، وأداء الطاعات، والاستقامة على أمر الله تعالى في الكتاب والسنة مقرونًا ببُشريات كثيرة في الدنيا والآخرة معًا، ولذا وجب على الداعي أن يقدم البشارة قبل النذارة والترغيب قبل الترهيب.

فالداعي يقدم الترغيب في الإخلاص قبل الترهيب من الرياء، والترغيب في نشر العلم على الترهيب من كتمانه، والترغيب في الصلاة في وقتها قبل الترهيب من تركها وهكذا؛ لأن أسلوب الترغيب قد يكون أجدى وأنفع من تقديم الترهيب دائمًا في كل حديث فليست طبيعة الناس واحدة.

إنه لا يمكن تجاهل الترهيب لاختلاف طبائع النفوس، ولكنه يبشر أولاً قبل أن ينذر، علّ القلب يستجيب والنفس تستقيم وهذا أسلوب القرآن الكريم وسنة رسول الله ﷺ كمنهج واضح المعالم في التعامل مع نفوس البشر، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾(٢). وقال تعالى: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي

(١) انظر: قواعد وفوائد من الأربعين النووية، ناظم محمد سليمان ص ٣٢ - ٣٥.

(٢) سورة الملك، آية: ١٤.

﴿ هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾[(١)]. وفي سورة غافر قال: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾[(٢)].

ويدعو القرآنُ الناسَ إلى الإيمان فيشعرهم بالجائزة التي تنتظرهم فيقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[(٣)]، فينبغي الترغيب في الإيمان، والعمل الصالح وما يجلبان من خير للمسلم في دنياه؛ لأن من طبيعة النفس الإنسانية أنها تطمع في سعة العيش، ويسر الرزق.

ولذا وجدنا رسول الله ﷺ لا يقنِّط الناس من رحمة الله تعالى بل يحببهم ويرغبهم في الطاعات، واسمع إلى أبي هريرة رضي الله عنه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ. هَلْ يَبْقَىٰ مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ؟)) قَالُوا: لاَ يَبْقَىٰ مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ. قَالَ: ((فَذَٰلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ. يَمْحُو الله بِهِنَّ الْخَطَايَا))[(٤)].

فأنت ترى ترغيبًا قبل ترهيب لتتفتح القلوب الغلف والعيون العمي والآذان الصم، وتشتاق النفس إلى هذا الخير الذي ينتظرها، فتنجذب إليه، ولا تستثقل فعله فإذا بها تسارع إلى الخيرات حين تستشعر رحمات الله عليها.

فعلى الداعي أن يفقه حال المدعو حين يدعوه فلا يرهب أحدًا قبل أن يرغبه فبعض الناس وهم يعيشون بعيدًا عن طاعة الله تعالى يوسوس لهم الشيطان كأن أملاكهم ستسلب وأعمارهم ستنتهي بمجرد التزامهم بمنهج الله تعالى، فلا ملك عريض ولا حياة طيبة فإن أطاعوا أوامر الله انتهت حرياتهم التي لا حدود لها، وسينتقلون إلى شظف العيش ومرارة الحرمان... هؤلاء يحتاجون إلى أن نبين لهم خزائن الله تعالى التي لا تنفد والحياة الرغدة التي تنتظرهم[(٥)].

---

(١) سورة الحجر، الآيتان: ٤٩، ٥٠.

(٢) سورة غافر، آية: ٣.

(٣) سورة الحديد، آية: ٢٨.

(٤) أخرجه البخاري ٥٢٨، ومسلم واللفظ له ٦٦٧.

(٥) انظر: الدعوة قواعد وأصول، أ. جمعة أمين عبدالعزيز ٢٠٨ - ٢٠٩.

الحديث رقم (٢)

٢- وَعَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أُمِّ عَبْدِ اللَّهِ عَائِشَةَ ﵂، قالت: قال رسول الله ﷺ: «يَغْزُو جَيْشٌ الْكَعْبَةَ فَإِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءَ مِنَ الأَرْضِ يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ». قَالَتْ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ وَفِيهِمْ أَسْوَاقُهُمْ وَمَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ؟ قَالَ: «يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ، ثُمَّ يُبْعَثُونَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[1]، هذا لَفْظُ الْبُخَارِيِّ.

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق ﵂: عائشة بنت أبي بكر الصديق عبدالله بن عثمان التيمي، كانت تكنى بابن أختها أسماء (عبدالله)، كناها بذلك رسول الله ﷺ، روت عن رسول الله ﷺ من العلم الكثير الطيب المبارك فيه، وروى لها الجماعة، ويبلغ مسندها (٢٢١٠) حديثًا، اتفق البخاري ومسلم منها على (١٧٤) حديثًا، وانفرد البخاري بـ (٥٤)، ومسلم بـ (٦٩).

وكان النبي ﷺ قد تزوجها قبل الهجرة، وبنى بها في المدينة وهي بنت تسع سنين، بعد منصرفه من غزوة بدر في شوال، ومكثت معه تسع سنين، ومات رسول الله ﷺ وعمرها ثمانية عشر سنة.

وكان النبي ﷺ قد أُرِيها قبل أن يتزوجها مرتين في المنام، فعن عائشة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ: ((أُريتُك في المنام مرتين، إذا رجل يحملك في سَرَقَةٍ من حرير، فيقول: هذه امرأتك فاكشفها فإذا هي أنت، فأقول: إن يكن هذا من عندالله يُمضه))[2] وكانت عائشة ﵂ أحب أزواج النبي ﷺ إليه وأفضلهن منزلة عنده، فعن أبي موسى الأشعري ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: ((كَمُل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام))[3].

---

(١) أخرجه البخاري ٢١١٨ واللفظ له، ومسلم ٢٨٨٤/٨. أورده المنذري في ترغيبه ١٦.

(٢) أخرجه البخاري ٧٠١١، ومسلم ٢٤٣٨.

(٣) أخرجه البخاري ٣٤١١، ومسلم ٢٤٣١.

وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم بعثه على جيش ذات السلاسل، فأتيته فقلت: ((أي الناس أحب إليك؟ قال عائشة، فقلت: من الرجال؟ فقال: أبوها))[١] وكان حب رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها أمرًا مستفيضًا فكان الناس يتحرون بهداياهم يومها إرضاءً له صلى الله عليه وسلم فعن هشام عن أبيه قال: كان الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة، قالت عائشة: فاجتمع صواحبي إلى أم سلمة، فقلن: يا أم سلمة، والله إن الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة، وإنا نريد الخير كما تريده عائشة، فمُري رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأمر الناس أن يُهدوا إليه حيثما كان -أو حيثما دار- قالت: فذكرت ذلك أم سلمة للنبي صلى الله عليه وسلم قالت: فأعرض عنها، فلما عاد إليَّ ذكرت له ذلك فأعرض عني، فلما كان من الثالثة ذكرت له، فقال: يا أم سلمة لا تُؤْذيني في عائشة فإنه والله ما نزل عليَّ الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها))[٢] ولم ينكح رسول الله صلى الله عليه وسلم بكرًا غيرها.

وبرّأ الله ساحتها في حادثة الإفك من فوق سبع سماوات، وأنزل في ذلك قرآنًا يتلى إلى يوم القيامة.

أما علمها فكانت أفقه الناس وأعلمهم وأحسنهم رأيًا، قال الزّهْري: لو جمع علم عائشة رضي الله عنها إلى جميع أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وعلم جميع النساء، لكان علم عائشة أفضل، وقال عطاء بن أبي رباح: كانت عائشة أفقه الناس، وأعلم الناس، وأحسن الناس رأيًا في العامة، وقال هشام عن عروة عن أبيه: ما رأيت أحدًا أعلم بفقهٍ ولا بطب ولا بشعر من عائشة. ولها خطب ومواقف وما كان يحدث لها أمر إلا أنشدت فيه شعرًا، وكان أكابر الصحابة رضي الله عنهم يرجعون إلى علمها، عدَّها ابن سعد في الطبقات من أهل العلم والفتوى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورَوى بسنده عن محمود بن لبيد قال: كان أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يحفظن من حديث النبي صلى الله عليه وسلم كثيرًا، ولا مِثلاً لعائشة وأم سلمة، وكانت عائشة رضي الله عنها تفتي في عهد عمر وعثمان رضي الله عنهما إلى أن ماتت، وكان الأكابر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر وعثمان بعده يرسلان إليها فيسألانها عن السنة

---

(١) أخرجه البخاري ٣٦٦٢، ومسلم ٢٣٨٤.

(٢) أخرجه البخاري ٣٧٧٥، ومسلم ٣٧٧٥.

وكانت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مضرب المثل في الكرم والسخاء، فكانت من أكرم أهل زمانها وأعظمهم سخاءً، وفضائلها ومناقبها من الكثرة بمكان.

وكانت ممن نقم على عثمان عمله في حياته، ثم غضبت له بعد مقتله، وكان لها في هودجها بوقعة الجمل موقفها المعروف.

توفيت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بالمدينة المنورة، ليلة الثلاثاء لسبع عشرة خلت من رمضان أو شوال سنة (٥٧) أو (٥٨)، وصلى عليها أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكانت قد أمرت أن تُدفن ليلاً، فدفنت بعد الوتر بالبقيع، ونزل في قبرها خمسة من محارمها هم ابنا أختها أسماء "عبدالله وعروة"، وابنا أخيها محمد "القاسم وعبدالله"، وابن أخيها عبدالرحمن "عبدالله"[١].

غريب الألفاظ:

البَيْداءُ: الصحراء؛ سُمِّيت كذلك لأنها تُبيد مَن يحلُّها أي تهلكه[٢].

يُخسَفُ بأولهم: يُغَيَّبون في الأرض، فتغور بهم تحت أقدامهم[٣].

أسواقهم: جمع سُوقٍ، والمُراد أهل أسواقهم، فحذف المضاف إليه وأبقى المضاف، يعني الذين لا يقاتلون[٤]. وقيل العبيد الذين يؤمرون فيخرجون غير مقتنعين ولكنهم يساقون للقتال مكرهين[٥].

---

(١) انظر: الطبقات، ابن سعد ٢٧٤/٢، ٣٧٨، ٥٨/٨-٨١، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٩١٨-٩٢١، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير ١٨٦/٧-١٨٩، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ١٧٢٦، ٢٧٢٧، وسير أعلام النبلاء، الذهبي ١٣٥/٢-٢٠١، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي ٥٥٢/٨-٥٥٤، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٦٨٠/٤، ٦٨١، والأعلام، خير الدين الزركلي ٢٤٠/٣، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك ٩٦/١-١٢٨.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ب ي د)، لسان العرب، ابن منظور في (ب ي د).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير واللسان والوسيط في (خ س ف).

(٤) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٩٩/٤، والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (س و ق).

(٥) لسان العرب في (س و ق).

الشرح الأدبي

إن مكة المكرمة، بلد الله الحرام "والبلد الأمين" تنبع قيمتها من إجلال القرآن الكريم لها ... مكانًا ... وموقعًا وتأثيرًا في مسيرة التاريخ الإنساني، وهذا القدر من الجلال والجمال والكمال تشع أضواءه من بريق النص القرآني الكريم حيث يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٩٦ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

وفي سورة المائدة يشرق هذا التعظيم للكعبة المشرفة في سياق التنبيه والحض على الحفاظ على حرمتها .. والإقرار بقداستها، وحتمية صد المعتدين عنها. فهي مثابة للناس وأمن للعالمين يقول الله عز وجل: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[2].

والحديث النبوي الشريف ينبه جموع المسلمين إلى أن الكعبة المشرفة التي صانها الله عز وجل قد تتعرض لأذى المعتدين، وجموح المغيرين الحاقدين الذين يكيدون للإسلام، وهذا التنبيه النبوي جاء في صيغة إنذار مستقبلي حتى يستعد المؤمنون للدفاع عن بلد الله الحرام. تنفيذًا للأمر الإلهي: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ﴾[3].

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ٩٦، ٩٧.

(٢) سورة المائدة، آية: ٩٧.

(٣) سورة الأنفال، آية: ٦٠.

والصيغة المستقبلية تكمن في التعبير بالفعل المضارع يغزو جيش الكعبة. ومن أسرار هذا التعبير المستقبلي أنه فيه إيحاء بأن هجوم أبرهة على الكعبة في عام الفيل ليس مقصودًا في هذا الحديث، وإنما يمكن أن يحاول الكفار تكرار مثل هذا الصنيع، وكما هُزِمَ السابقون وأرسل الله عليهم طيرًا أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل، وجعلهم الله كعصف مأكول، فإن أي محاولة من أعداء الإسلام تحاول النيل من قداسة البيت الحرام فإن مآلها الهلاك والخسران المبين -كما أنبأ رسول الله ﷺ.

ومجيء لفظ "جيش" في ثوب النكرة له دلالة وسر تعبيري حيث لم يحدد الرسول ﷺ الجيش ولم يُعرِّفه وإنما جعل الأمر مشاعًا حتى لا يتحدد هذا الجيش بزمان أو مكان أو عنصر أو مذهب وإنما تظل دلالته غائمة مجهولة، وذلك أدعى إلى زيادة الحرص واستمرارية الاستعداد والتصدي الدائم واليقظة الكاملة. ويحدد الرسول ﷺ مصير هؤلاء المغيرين الذين سيلقون مصير أصحاب الفيل. ويجئ هذا التحديد في قالب لغوي يشع بالدلالة المرادة حيث كان أسلوب الجزاء والشرط هو ذلك القالب اللغوي اليقيني في قول رسول الله ﷺ: ((فإذا كانوا ببيداء من الأرض يخسف بأولهم وآخرهم)).

وأداة الشرط "إذا" تفيد التحقق واليقين، والبيداء: هي الأرض الملساء التي لا شيء فيها كما يقول القرطبي والتحديد المكاني لهلاك هؤلاء المغيرين ينبئ عن رحمة الله بأهل البلد الأمين، وعن حمايته للكعبة المشرفة؛ لأنه لن يخسف بهؤلاء المعتدين وهم في مكة، فهي كلها بلد آمنٌ طيرها آمنٌ وشجرها آمنٌ، وجبالها تسبح بحمد ربها ولذلك يصف رسول الله ﷺ مكان الخسف بأنه بيداء ولم يحدد هذا المكان، وإنما قال بيداء من الأرض وكأن هذا إشارة إلى أن عذاب الله تعالى سيصيب المعتدين في أي مفازة يهربون إليها. وهذا العذاب يأخذ صفة العموم ويصاغ في أسلوب لغوي دال وهو صيغة المبني للمجهول "يخسف بأولهم وآخرهم" وكأن المصطفى ﷺ بهذه الصيغة ينبه إلى احتقار الله تعالى ونبذه لهؤلاء الطاغين الغازين فهم لا يستحقون أن يعرفوا

مصدر ذلك الخسف لأنهم لم يعظموا شعائر الله تعالى ولم يصونوا حرمة البيت العتيق، فهم ليسوا أهلاً للتعريف بأن الله هو الذي خسف بأولهم وآخرهم، وتبرق إشارة أخرى في سياق هذا التعبير وهو أنه لا يُلْحِقُ بالمعتدين الخسفَ إلا الله عز وجل وليس في مقدور أحد من البشر ذلك. وفي الخسف الذي لحق بقارون وبداره خير عظة وأعظم عبرة، قال تعالى: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾[١].

ولنتأمل هذا الحوار الرشيد بين رسول الله ﷺ وعائشة رضي الله عنها. وهو من أساليب الإقناع، وعوامل التأثير؛ حيث تعرض عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها لقضية من قضايا الإسلام الأساسية وهي: المسؤولية الخاصة عن الفعل الذي تدفع به الإرادة والنية وهذه القضية ومتعلقاتها هي التي جعلت الإمام النووي يدرج هذا الحديث الشريف في باب الإخلاص وإحضار النية فتأمل وليس في باب القتال؛ وتعجب أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ليس اعتراضًا ولكنه رغبة في معرفة الحقيقة قالت: يا رسول الله ... وفي هذا النداء الحبيب إلى النفس من عائشة رضي الله عنها تقدير ومحبة لرسول الله ﷺ ويوحي بأنها لا تتكر شيئًا من مقالة رسول الله ﷺ لأنه لا ينطق عن الهوى وإنما تريد معرفة الحكم في هذه القضية حتى لا يلتبس الأمر على جموع المؤمنين. قالت: "كيف يخسف بأولهم وآخرهم وفيهم أسواقهم ومن ليس منهم". ومعنى "أسواقهم" أي: أهل أسواقهم أو السوق أى العوام الذين لم يخرجوا للقتال وإنما يبيعون ويشترون أو أنهم ليسو من جنس هؤلاء المعتدين أو أنهم التقوا بهم في الطريق ولم يعرفوا مقصدهم.

وهذا السؤال الذي يبحث عن حقيقة الموقف لا يظل حائرًا ولكن يُحدِّد الرسول ﷺ الأمر في إيجاز وإقناع، ويجعل المصير مرتبطًا بالنية والقصد والإرادة فيقول في إجابته الكافية الشافية الوافية.. التي تطمئن كل مسلم يطوف بذهنه مثل هذه المسألة يخسف بأولهم وآخرهم ثم يبعثون على نياتهم.

---

(١) سورة القصص، آية: ٨١.

وفي الحديث الشريف تحذير من مصاحبة العصاة والملاحدة والكفار، فلا تكون الصحبة لهم إلا للاضطرار وبعض المنافع الدنيوية التي لا تؤثر في عقيدة المسلم ولا تجعل الشك يتسرب إلى نفسه.

فقه الحديث

قال ابن حجر: (قال المهلب: في هذا الحديث إن من كثّر سواد قوم في المعصية مختارًا، أن العقوبة تلزمه معهم، قال: واستنبط منه مالك عقوبة من يجالس شَرَبَة الخمر وإن لم يشرب. وتعقبه ابن المنير بأن العقوبة التي في الحديث هي الهجمة السماوية فلا يقاس عليها العقوبات الشرعية)[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: بيان حرمة الكعبة.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: عدم الركون إلى الظلمة.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: أهمية النية وبيان فضلها.

رابعًا: من دلائل النبوة: إخبار النبي ﷺ ببعض الأمور.

خامسًا: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

سادسًا: من مهام الداعية: توضيح الحقائق وإزالة الإبهام.

أولاً- من موضوعات الدعوة: بيان حرمة الكعبة:

يظهر هذا من قول النبي ﷺ "يغزو جيش الكعبة فإذا كانوا ببيداء من الأرض يخسف بأولهم وآخرهم" فيعاقب الله هذا الجيش بالخسف، لكونه قصد الكعبة بالأذى، وفي هذا بيان لحرمة هذا البيت وشرفه عند الله تعالى، ولا عجب في ذلك، فالكعبة هي أول بيت وضع للناس للعبادة في الأرض، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾[2] وهي المكان الذي يثوب الناس إليه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٤١/٤.

(٢) سورة آل عمران، الآيتان: ٩٦، ٩٧.

وَأَمۡنٗا﴾[(١)] قال ابن كثير: (وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يقول: لا يقضون منه وطرًا، يأتونه ثم يرجعون إلى أهليهم ثم يعودون إليه، وعن أبي العالية يقول: أمنًا من العدو وأن يحمل فيه السلاح، وقد كانوا في الجاهلية يُتخطَّفُ الناس من حولهم وهم آمنون لا يُسْبَون)[(٢)] وجعلها الله تعالى قيامًا، قال سبحانه: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ﴾[(٣)].

قال السعدي: (يقوم بالقيام بتعظيمه دينهم ودنياهم فبذلك يتم إسلامهم وبه تحط أوزارهم، وتحصل لهم - بقصده- العطايا الجزيلة، والإحسان الكثير. وبسببه تُنفق الأموال وتُقْتحم - من أجله - الأهوال. ويجتمع فيه من كل فج عميق جميع أجناس المسلمين، فيتعارفون، ويستعين بعضهم ببعض، ويتشاورون على المصالح العامة، وتنعقد بينهم الروابط، في مصالحهم الدينية والدنيوية، ومن أجل كون البيت قيامًا للناس قال: مَنْ قال من العلماء: إن حج بيت الله فرض كفاية في كل سنة، فلو ترك الناس حجه، لأثم كل قادر، بل لو ترك الناس حجه، لزال ما به قوامهم، وقامت القيامة)[(٤)] وإلى الكعبة يكون الهدي ﴿هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ﴾[(٥)] وتوعد الله على إرادة السوء فيه ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾[(٦)] وإلى الكعبة تكون قبلة الصلاة ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ﴾[(٧)] وإلى الكعبة يكون الحج، وحولها يكون الطواف ﴿وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾[(٨)]. ومن خلال ما سبق يتضح فضل البيت الحرام، ومكانة الكعبة المشرفة.

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٢٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٤١٢/١.

(٣) سورة المائدة، آية: ٩٧.

(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٢٠٧.

(٥) سورة المائدة، آية: ٩٥.

(٦) سورة الحج، آية: ٢٥.

(٧) سورة البقرة، آية: ١٤٤.

(٨) سورة البقرة، آية:١٢٥.

(إن الله سبحانه قضى في سابق علمه أن يضع فيه البذرة الطاهرة من ولد إبراهيم عليه السلام ليكونوا ركيزة للإسلام إلى يوم القيامة، وأمر الله تعالى خليله إبراهيم عليه السلام ببناء البيت ليكون مركز الدائرة للعالم الإسلامي وجعل الله البيت مرزوقًا يجبى إليه ثمرات كل شيء. ومن فضائل هذا البيت أنه مبارك، والبركة لها معنيان: أحدهما: النمو والتزايد، ثانيهما: البقاء والدوام وهذا البيت مبارك بجميع المعاني، فإن الطاعات يزداد ثوابها فيه ويتضاعف وهذا على تفسير البركة بالنماء أما على تفسيرها بالبقاء والدوام فإن الكعبة لا تخلو من الطائفين والعاكفين والركع السجود)[(١)].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: عدم الركون إلى الظلمة:

يتضح هذا من الحديث "كيف يخسف بأولهم وآخرهم وفيهم أسواقهم ومن ليس منهم" فقد دلَّ على أن الخسف يشمل الجميع، قال النووي: (وفي الحديث من الفقه التباعد من أهل الظلم والتحذير من مجالستهم ومن مجالسة البغاة ونحوهم من المبطلين لئلا يناله ما يعاقبون به، وفيه أن من كثَّر سواد قوم جرى عليه حكمهم في ظاهر عقوبات الدنيا)[(٢)]. وقال ابن حجر: (وفي الحديث التحذير من مصاحبة أهل الظلم ومجالستهم وتكثير سوادهم إلا لمن اضطر إلى ذلك، ويتردد النظر في مصاحبة التاجر لأهل الفتنة هل هي إعانة لهم على ظلمهم أو هي من الضرورة البشرية ثم يعتبر عمل كل أحد بنيته وعلى الثاني يدل ظاهر الحديث)[(٣)].

ونهى القرآن الكريم عن مجالسة الذين ظلموا والركون إليهم فقال: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾[(٤)] قال ابن كثير: (قال أبو العالية: لا ترضوا أعمالهم

---

(١) الحج أحكامه وأسراره ومنافعه، عبدالرحمن محمد الدوسري ص ٢٣، ٢٤.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٧٤.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤/٤٠٠.

(٤) سورة هود، آية: ١١٣.

وقيل: لا تداهنوا. وقيل: هو الركون إلى الشرك. وقال ابن جريج، عن ابن عباس رضي الله عنهما: ولا تميلوا إلى الذين ظلموا وهذا القول حسن، أي: لا تستعينوا بالظلمة فتكونوا كأنكم قد رضيتم بباقي صنيعهم فليس لكم من دون الله من وليٍّ ينقذكم، ولا ناصر يخلصكم من عذابه)[١]. وقال الشوكاني: (فيه إشارة إلى أن الظلمة أهل النار أو كالنار ومصاحبة النار توجب لا محالة مس النار ... والمعنى: أنها تمسكم النار حال عدم وجود من ينصركم وينقذكم منها ثم لا تنصرون من جهة الله تعالى إذ قد سبق في علمه أنه يعذبكم بسبب الركون الذي نُهيتم عنه فلم تنتهوا عنادًا وتمردًا)[٢].

وقال السعدي: (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فإنكم إذا ملتم إليهم، ووافقتموهم على ظلمهم، أو رضيتم ما هم عليه من الظلم تمسكم النار إن فعلتم ذلك وما لكم من دون الله من أولياء يمنعونكم من عذاب الله تعالى، ولا يحصلون لكم شيئًا من ثواب الله تعالى ففي هذه الآية: التحذير من الركون إلى كل ظالم، والمراد بالركون الميل والانضمام إليه بظلمه وموافقته على ذلك، والرضا بما هو عليه من الظلم وإذا كان هذا الوعيد في الركون إلى الظلمة، فكيف حال الظلمة؟ نسأل الله العافية من الظلم)[٣].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: اعتبار الأعمال بنية العامل:

لقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه "يخسف بأولهم وآخرهم ثم يبعثون على نياتهم" قال ابن علان: (يعاملُ كلٌّ بقصده من الخير أو الشر)[٤]. ولا بأس بإيراد رواية مسلم فإن فيها بعض الزيادة، قالت عائشة رضي الله عنها: عَبِث رسول الله صلى الله عليه وسلم في منامه[٥] فقلنا: يا رسول الله، صنعت شيئًا في منامك لم تكن تفعله، فقال: ((العجب إن ناسًا من أمتي يؤمون

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣٥٤/٤.

(٢) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، الشوكاني ٥٣١/٢.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٣٤٧.

(٤) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٣٤.

(٥) قيل معناه: اضطرب بجسمه وقيل: حرّك أطرافه كمن يأخذ شيئًا أو يدفعه، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦/١٨/٩ ط/ دار الكتب العلمية.

بالبيت برجل من قريش، قد لجأ بالبيت حتى إذا كانوا بالبيداء خسف بهم)) فقلنا: يا رسول الله إن الطريق قد يجمع الناس. قال: ((نعم فيهم المستبصر والمجبور وابن السبيل، يهلكون مهلكًا واحدًا، ويصدرون مصادر شتى يبعثهم الله على نياتهم))[١]. قال النووي: (أما المستبصر فهو المستبين لذلك القاصد له عمدًا، وأما المجبور فهو المكره، وأما ابن السبيل فالمراد به سالك الطريق معهم وليس منهم، ويهلكون مهلكًا واحدًا، أي يقع الهلاك في الدنيا على جميعهم ويصدرون يوم القيامة مصادر شتى، أي يبعثون مختلفين على قدر نياتهم، فيجازون بحسبها)[٢] وقال ابن حجر: (وفي هذا الحديث أن الأعمال تعتبر بنية العامل)[٣].

وقد تكون بعض الأعمال خيرًا لكن لا ينال فاعلها الثواب إلا إذا قصد بها وجه الله تعالى وابتغاء مرضاته. قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[٤].

قال ابن رجب: (فنفي الخير عن كثير مما يتناجى به الناس إلا في الأمر بالمعروف وخصّ من أفراده الصدقة والإصلاح بين الناس، لعموم نفعهما، فدلّ ذلك على أن التناجي بذلك خير، وأما الثواب عليه من الله، فخصه بمن فعله ابتغاء مرضاة الله.

وإنما جعل الأمر بالمعروف من الصدقة والإصلاح بين الناس وغيرهما خيرًا، وإن لم يبتغ وجه الله، لما يترتب على ذلك من النفع المتعدّي فيحصل به للناس إحسان وخير، وأما بالنسبة إلى الأمر، فإن قصد به وجه الله وابتغاء مرضاته، كان خيرًا له وأثيب عليه، وإن لم يقصد ذلك لم يكن خيرًا له ولا ثواب له عليه. وهذا بخلاف من صام وصلّى وذكر الله يقصد بذلك عَرَض الدنيا، فإنه لا خير له فيه بالكلّيّة، لأنه لا نفع

---

(١) أخرجه مسلم ٢٨٨٤، ٨.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦/١٨/٩.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٤١/٤.

(٤) سورة النساء، آية: ١١٤.

في ذلك لصاحبه، لما يترتب عليه من الإثم فيه، ولا لغيره، لأنه لا يتعدى نفعه إلى أحد، اللهم إلا أن يحصل لأحد به اقتداء في ذلك)[١].

رابعًا- من دلائل النبوة: إخبار النبي ﷺ عن الغيوب المستقبلة:

هذا الحديث الشريف إخبار من النبي ﷺ عمّا يقع في المستقبل وهو واقع لا محالة لأنه الصادق المصدوق، وقد أطلعه على ذلك عالم الغيب والشهادة، كما وقع غيره مما أخبر به، وكان ذلك من دلائل نبوته، قال القاضي عياض: (ومن جملة معجزاته ﷺ ما أُطْلِع عليه من الغيوب وما يكون، والأحاديث في هذا الباب بحر لا يُدْرك قَعْره ولا يُنْزف غَمْرُه وهذه المعجزة من جملة معجزاته المعلومة على القطع الواصل إلينا خبرها على التواتر لكثرة رواتها واتفاق معانيها على الاطلاع على الغيب)[٢].

(إن من معجزات الرسول ﷺ ودلائل نبوته ما أطلعه الله عليه من الغيوب الماضية والمستقبلة وإخباره عنها ومن المعلوم المقرر أن علم الغيب مختص بالله تعالى وحده دون خلقه، وقد جاءت أدلة تفيد أن الله تعالى استثنى من خلقه من ارتضاه من الرسل فأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحي إليهم وجعله معجزة لهم ودلالة صادقة على نبوتهم، فما جاء على لسان رسول الله ﷺ من الإخبار بالمغيبات فبوحي من الله تعالى وهو من إعلام الله عز وجل لرسوله ﷺ للدلالة على ثبوت نبوته وصحة رسالته.

قال حسان بن ثابت:

نبي يرى ما لا يرى الناس حوله ... ويتلو كتاب الله في كل مشهد
فإن قال في يوم مقالة غائب ... فتصديقها في صحوة اليوم أو غد[٣]

خامسًا- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

حيث جاء في الحديث "كيف يخسف بأولهم وآخرهم وفيهم أسواقهم ومن ليس منهم؟ وجاء الجواب: يخسف بأولهم وآخرهم ثم يبعثون على نياتهم" والسؤال والجواب

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٦٧/١.

(٢) الشفا، بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض ٣٢٩/١.

(٣) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين، ٥٤٢/١، ٥٤٣.

أسلوب من أساليب الدعوة يزيل ما قد يكون لدى المدعو من إشكال.

(إن مجالس السؤال والجواب لها قيمة تأثيرية عظيمة لدى طارحي الأسئلة الذين يتلقون الإجابات على أسئلتهم ممن وجهوها لهم، ولدى المستمعين الآخرين فمن طبيعة السائلين أن يطرحوا أسئلتهم عادة على من يحترمونه ويقدرونه ويثقون بعلمه وأمانته العلمية، وبقدرته على فهم أسئلتهم فهمًا دقيقًا فهم إذا تلقوا منه الجواب تلقفوه تلقفًا، لأن كل أبواب أفكارهم ونفوسهم متفتحة لتلقي الإجابة منه)[1].

سادسًا- من مهام الداعية: توضيح الحقائق وإزالة ما لدى المدعو من إشكال:

إن توضيح الحقائق من المهام الأساسية التي يقوم بها الداعية لأن دعوته تقوم على البيان والإيضاح لمسائل الدين، ولمصالح الدنيا والآخرة قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2].

قال الماوردي: (ومن آداب العلماء أن لا يبخلوا بتعليم ما يحسنون، ولا يمتنعوا من إفادة ما يعلمون فإن البخل به لؤم وظلم، والمنع منه حسد وإثم وجاء عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: ما أخذ الله العهد على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ العهد على أهل العلم أن يعلّموا)[3]. وقد بيّن رسول الله ﷺ في هذا الحديث حقيقة الخسف الذي يحدث لمن يغزون الكعبة، وأزال الإشكال الذي وقع عند عائشة رضي الله عنها ببيان أن الخسف يقع للجميع، ولكن كل يبعث حسب نيته.

---

(١) فقه الدعوة إلى الله، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، ٥٨/٢.

(٢) سورة النحل، آية: ٤٤.

(٣) أدب الدنيا والدين ٨٧.

الحديث رقم (٣)

٣- وعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَت قالَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: «لا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ، وَلكنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ، وَإِذَا اسْتُنْفرِتُمْ فانْفِرُوا» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[١].

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

غريب الألفاظ:

لا هِجْرَةَ: وَمَعْنَاهُ: لا هِجْرَةَ مِنْ مَكَّةَ؛ لأَنَّهَا صَارَتْ دَارَ إِسْلامٍ.

الفتح: فتح مكة وكان في ٢٠ رمضان ٨ هـ[٢].

الاستنفار: الاستنجاد والاستنصار، أي: إذا طلب منكم النصرة فأجيبوا وانفروا خارجين إلى الإغاثة[٣].

الشرح الأدبي

إن هذا الحديث النبوي الشريف تتمثل فيه بعض خصائص البيان النبوي الكريم- وأولى هذه الخصائص خاصية الإيجاز؛ والإيجاز والاختصار وحذف فضول الكلام يعد من شروط الفصاحة والبلاغة لأنه يعبر عن المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة.

وقد ألمح إلى هذه الخاصية الجمالية في الحديث النبوي : هند بن أبي هالة حينما سأله الحسن عن منطق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال في سياق وصفه لمنطق النبي صلى الله عليه وسلم. (ويتكلم بجوامع الكلم فَصْلٌ لا فضول فيه ولا تقصير)[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٨٠)، ومسلم واللفظ له (١٨٦٤/٨٦). وهو متفق عليه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما باللفظ الذي ذكره النووي، أخرجه البخاري ٢٧٨٣، ومسلم ١٣٥٣.

(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٦/٦، وأطلس السيرة النبوية، د. شوقي أبو خليل ١٩٧-١٩٨، وأطلس الحديث النبوي، د. شوقي أبو خليل ٣٤٩.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٩٣١.

(٤) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، البيهقي ١٤٣٠/١، ٢٨٧، والترمذي في مختصر الشمائل المحمدية ٢٠.

وأشاد الجاحظ بهذه الخاصية التي تؤكد اتساع الدلالة وقوة الأداء وعمق المعنى في البيان النبوي بقول الجاحظ واصفًا كلام رسول الله ﷺ: "هو الكلام الذي قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه وجمع بين المهابة والحلاوة وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام، وبين الخطب الطوال بالكلم القصار".

ولنقتبس من هذا الحديث الشريف بعض المعاني الوضيئة، ولنحدق في معانيه ومبانيه الموجزة المشعة بكثير من الدلالات التي تسبح في آفاق يرنو إليها كل مسلم حريص على دينه وأمته، وأول بارقة من بوارق هذا الحديث الشريف ترسي قاعدة كلية من قواعد الإسلام وهى "لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية".

فالهجرة في مدلولها اللغوي: هي ترك مكان إلى آخر وهى مشتقة من الهجر وهو مفارقة الإنسان ببدنه أو لسانه أو قلبه، واستعملت في لسان الشارع كما يقول صاحب كتاب الأدب النبوي في ترك دار الخوف إلى دار الأمن، كما فعل بعض الصحابة رضي الله عنهم في تركهم مكة إلى الحبشة في أول الأمر، وفي ترك دار الكفر إلى دار الإسلام فرارًا بالدين كما فعل المسلمون في مغادرتهم مكة إلى المدينة لما انتشر الإسلام فيها؛ ومما ينبئ عن عمق الدلالة في هذا الحديث أن العلماء تعددت آراؤهم في تفسير المراد من قول رسول الله ﷺ: "لا هجرة بعد الفتح" أي: لا هجرة بعد فتح مكة لأنها صارت دار إسلام فلا يتصور منها الهجرة حيث ستظل آمنة محفوظة لأنها بلد الله الحرام "وهذا المعنى فيه بشارة للمؤمنين بنصر الله تعالى لهم، وفيه ارتباط بالحديث السابق: الذي توعد فيه رسول الله ﷺ المعتدين الغازين بأنه سيخسف بأولهم وآخرهم وسيفرون إلى البيداء ثم يهلكون مثل أصحاب الفيل، وفي إطار هذه الدلالة المشعة ببريق التأييد الإلهي والوعد بالنصرة وحفظ البيت الحرام، ويرى بعض العلماء أن الحديث يتضمن معجزة لرسول الله ﷺ وهى أن مكة تبقى دار إسلام لا يتصور منها الهجرة ، وهى كذلك -إن شاء الله- إلى يوم الدين، وصيغة النفي في الجملة الأولى تجعل القاعدة ثابتة ولكن هذا الثبات لا يعني عدم الحركة ولا يعني الاستسلام والخنوع، ولكن يظل التحرك للجهاد قائمًا وتظل النية الخالصة لنصرة دين الله هي الدافع الأقوى لكل مسلم،

"ولكن" وهي للاستدراك الذي قال عنه العلماء أنه نفي ما يتوهم ثبوته وإثبات ما توهم نفيه، ولكن في إطار هذه الدلالة الاستدراكية تقتضي مخالفة ما بعدها لما قبلها أي: المفارقة عن الأوطان المسماةُ بالهجرة المطلقة انقطعت، لكن المفارقة بسبب الجهاد باقية مدى الدهر، وكذا المفارقة بسبب نية خالصة لله تعالى كطلب العلم والفرار بالدين وطلب الرزق، وطلب الأمان والبعد عن العصاة والظالمين... إلخ.

ولا يترك المصطفى ﷺ الأمر غامضًا قابلاً للتأويلات ولكنه يختم الحديث الشريف بهذا التوجيه الراشد السديد الذي يجعل المسلمين دائمًا على استعداد وفي حالة استنفار دفاعًا عن بلد الله الحرام وحرصًا على اتساع رقعة الإسلام وهذا الاستعداد يتكئ على ثلاثة أسس : الجهاد والنية والاستنفار.

وصياغة طلب الاستنفار في قالب الشرط والجزاء، في قوله: "وإذا استنفرتم فانفروا" يرشد إلى حتمية الاستجابة لأمر الإمام والقائد الذي يطلب من المسلمين الخروج للجهاد إما لمزيد من الفتوحات الإسلامية ونشر كلمة التوحيد ورفع راية الإسلام وإما للدفاع عن العرض والدين والمال والوطن: إذا تعرضت هذه المكونات التي تحفظ للمسلم كرامته وتصون هيبته- للعدوان والتشويه والإيذاء. يقول الله عز وجل: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(١).

وفي سورة النساء يأتي الأمر الإلهي مؤيدًا رسوله الكريم ﷺ في وجوب الاستنفار والاستعداد الكامل بقول الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾(٢).

---

(١) سورة التوبة، آية: ٤١.

(٢) سورة النساء، آية: ٧١.

فقه الحديث

في هذا الحديث من الفقه ما يلي:

١- الهجرة من بلد الكُفْر: قال ابن حجر: (قوله "لا هجرة بعد الفتح" أي: فتح مكة، أو المراد ما هو أعمّ من ذلك، إشارة إلى أن حكم غير مكة في ذلك حكمها، فلا تجب الهجرة من بلدٍ قد فتحه المسلمون، أما قبل فتح البلد فمن به مِنْ المسلمين أحد ثلاثة:

الأول: قادر على الهجرة منها لا يمكنه إظهار دينه ولا أداء واجباته، فالهجرة منه واجبة.

الثاني: قادر لكنه يمكنه إظهار دينه وأداء واجباته [فهجرته] مستحبة، لتكثير المسلمين بها ومعونتهم وجهاد الكفار والأمن من غدرهم والراحة من رؤية المنكر بينهم.

الثالث: عاجز بعذر من أَسْر أو مرض أو غيره، فتجوز له الإقامة فإن حمل على نفسه وتكلف الخروج منها أُجِر)[(١)].

وقال ابن حجر في موضع آخر: (قوله "كان المؤمنون يفر أحدهم بدينه ... إلخ"[(٢)] أشارت عائشة رضي الله عنها إلى بيان مشروعية الهجرة وأن من سببها خوف الفتنة، والحكم يدور مع علته، فمقتضاه أن مَنْ قدر على عبادة الله في أي موضع اتفق، لم تجب عليه الهجرة منه وإلا وجبت. ومن ثم قال الماوردي: إذا قدر على إظهار الدين في بلدٍ من بلاد الكفر فقد صارت البلد به دار إسلام، فالإقامة فيها أفضل من الرحلة منها لما يترجى من دخول غيره في الإسلام)[(٣)].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٩٠/٦.

(٢) هذه رواية البخاري (٣٨٩٨، ٤٣١٢).

(٣) المرجع السابق ٢٢٩/٧، وانظر للمزيد: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، الهروي ١٨٢/٤، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٣٦٨/١، والمبسوط، السرخسي ٦/١٠، والمعيار المعرب، الونشريسي ١٢١/٢ وما بعدها، وروضة الطالبين وعمدة المفتين، الإمام النووي ٢٨٢/١٠، والمهذب في اختصار السنن الكبير، الذهبي ٢٢٨/٢، وتحفة المحتاج في شرح المنهاج، ابن حجر ٢٦٩/٩، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي ٧٨/٨، ومعالم السنن، الخطابي ٣٥٢/٣، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٩٤/٢، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي ٣٨/٣، والمبدع في شرح المقنع، ابن مفلح ٣١٤/٣، و موع فتاوى ابن تيمية، ابن تيمية ٢٤٠/٢٨، والمغني، ابن قدامة ٤٥٧/٨ (عن الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٨٣/٤٢-١٨٨).

٢- وجوب النفرة لقتال العدوّ:

قوله ﷺ "وإذا استنفرتم فانفروا" فيه أمر بالاستنفار والخروج للجهاد إذا استنفر الإمام، قال ابن حجر: (الجهاد بعده ﷺ فرض كفاية على المشهور إلا أن تدعو الحاجة إليه كأن يدهم العدو ويتعين على من عينه الإمام، ويتأدى فرض الكفاية بفعله في السنة مرة عند الجمهور، ومن حجتهم أن الجزية تجب بدلاً عنه، ولا تجب في السنة أكثر من مرة اتفاقًا فليكن بدلها كذلك، وقيل يجب كلما أمكن وهو قوي.

والذي يظهر أنّه استمر على ما كان عليه في زمن النبي ﷺ إلى أن تكاملت فتوح معظم البلاد وانتشر الإسلام في أقطار الأرض ثم صار إلى ما تقدم ذكره. والتحقيق أيضًا أن جنس جهاد الكفار متعين على كل مسلم إما بيده وإما بلسانه وإما بماله وإما بقلبه، والله أعلم)(١).

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: الحث على انقطاع الهجرة بعد فتح مكة.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: أهمية الجهاد في سبيل الله تعالى.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل النية بالنسبة للأعمال.

رابعًا: من تاريخ الدعوة: فتح مكة.

خامسًا: من مهام الداعية: بيان الحقائق للمدعوين.

أولاً- من موضوعات الدعوة: انقطاع الهجرة بعد فتح مكة:

يتضح هذا من قوله ﷺ في الحديث: "لا هجرة بعد الفتح"، قال ابن علان: (قال

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٧/٦-٣٨، وانظر للمزيد حاشية ابن عابدين، محمد أمين بن عمر بن عبدالعزيز ٢١٩/٣، والمبسوط، السرخسي ٣/١٠، وحاشية الدسوقي على الشرح الكبير، محمد بن عرفة الدسوقي ١٧٥/٢، ١٨٢، وجواهر الإكليل ٢٥٠/١، ٢٥٢، والمهذب في اختصار السنن الكبير، الذهبي ٢٢٧/٢، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي ٤٥/٨، والمغني، ابن قدامة ٣٤٥/٨، ٣٥٢، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي ٣٢/٣، ٣٣، والمحلى، ابن حزم ٢٩١/٧ (عن الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٢٩/٦-١٣٢).

الخطابي: كانت الهجرة على معنيين: أحدهما أنهم إذا أسلموا وأقاموا بين قومهم أوذوا، فأمروا بالهجرة ليسلم لهم دينهم ويزول عنهم الأذى. والآخر: الهجرة من مكة إلى المدينة، لأن أهل الدين بالمدينة كانوا قليلين ضعيفين، فكان الواجب على من أسلم أن يهاجر إلى رسول الله ﷺ إن حدث حادث استعان بهم في ذلك، فلما فتحت مكة استغنى عن ذلك؛ إذ كان معظم الخوف من أهلها، فأمر المسلمون أن يقيموا أوطانهم، ويكونوا على نية الجهاد مستعدين لأن ينفروا إذا استنفروا. قال المصنف: يتضمن الحديث على هذا القول معجزة لرسول الله ﷺ؛ وهي أن مكة تبقى دار إسلام لا يتصور منها الهجرة، قال: وقيل معنى الحديث: "لا هجرة بعد الفتح"، فضلها كفضل الهجرة قبل الفتح، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾، وقوله: "ولكن جهاد ونية"، قال الطيبي: (كلمة "لكن" تقتضي مخالفة ما بعدها لما قبلها أي: المفارقة عن الأوطان المسماة بالهجرة المطلقة انقطعت، ولكن المفارقة بسبب الجهاد باقية مدى الدهر وكذا المفارقة بسبب نية خالصة لله تعالى، كطلب العلم والفرار بدينه ونحوه وقال المصنف: تحصيل الخير بسبب الهجرة قد انقطع بالفتح، ولكن حصلوه بالجهاد والنية)[١].

قال ابن دقيق العيد: (اسم الهجرة يقع على أمور:

الهجرة الأولى: إلى الحبشة عندما آذى الكفار الصحابة رضي الله عنهم.

الهجرة الثانية: من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة.

الهجرة الثالثة: هجرة القبائل إلى النبي ﷺ لتعلم الشرائع، ثم يرجعون إلى المواطن ويعلّمون قومهم.

الهجرة الرابعة: هجرة من أسلم من أهل مكة ليأتي إلى النبي ﷺ ثم يرجع إلى مكة.

الهجرة الخامسة: هجر ما نهى الله عنه[٢].

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٣٥.

(٢) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، تقي الدين بن دقيق العيد ص ٢٦.

وبيّن ابن القيم حال القلب المهاجر إلى ربه فقال: "وللعبد في كل وقت هجرتان: هجرة إلى الله تعالى بالطلب والمحبة والعبودية والتوكل والإنابة والتسليم والتفويض والخوف والرجاء والإقبال عليه وصدق الملجأ والافتقار في كل نفس إليه. وهجرة إلى رسوله ﷺ في حركاته، وسكناته الظاهرة والباطنة، بحيث تكون موافقة لشرعه الذي هو تفصيل محابِّ الله ومرضاته، ولا يقبل الله من أحد دينًا سواه، وكلُّ عمل سواه، فعيش النفس وحظها لا زاد المعاد"(١).

وإذا كانت الهجرة لها هذا الفضل فهل انقطعت بتمام الفتح أم هي باقية؟

جاء في الموسوعة الفقهية: "وأما بقاء الهجرة بعد فتح مكة: فقد وردت أحاديث ظاهرها التعارض في هذه المسألة: فبعض الأحاديث يدلُّ على أن الهجرة انقطعت بفتح مكة، مثل ما ورد عن النبي ﷺ أنه قال: "لا هِجرةَ بعدَ الفتحِ، ولكنْ جِهادٌ ونيَّة"(٢)، وما ورد أيضًا أن عبيد بن عمير سأل عائشة رضي الله عنها عن الهجرة؟ فقالت: ((لا هجرةَ اليوم، كان المؤمنونَ يَفِرُّ أحدُهم بدينِهِ إلى الله تعالى وإلى رسولِهِ صلى الله عليه وسلم مخافةَ أن يُفتَنَ عليه، فأما اليومَ فقد أظهرَ اللّهُ الإِسلام، والمؤمن يَعبُدُ ربَّهُ حيث شاء، ولكن جهادٌ ونيَّة))(٣).

وكذلك ما ورد عن مجاشع بن مسعود رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ أنا وأخي فقلت: بايعنا على الهجرة قال: مَضَتِ الهجرةُ لأهلِها. فقلت: عَلامَ تُبايعُنا؟ قال: ((على الإسلام والجهادِ))(٤).

وبعضها الآخر يدل على أن الهجرة باقية إلى قيام الساعة، عن معاوية رضي الله عنه قال: ((لاَ تَنْقَطِعُ الهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلاَ تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا))(٥)، وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((لا تَنْقَطِعُ الهِجْرَةُ ما

---

(١) طريق الهجرتين، ابن القيم ص ٢٤.

(٢) هو حديث الباب.

(٣) أخرجه البخاري ٤٣١٢.

(٤) أخرجه البخاري ٢٩٦٢، ومسلم ١٨٦٣.

(٥) أخرجه أبو داود ٢٤٧٩، وصححه الألباني، (صحيح سنن أبي داود ٢١٦٦).

دَامَ العَدُوُّ يُقَاتَلُ))[١]، وعن جنادة بن أبي أمية رضي الله عنه عن النبي ﷺ: ((إِنَّ الهِجْرَةَ لا تَنْقَطِعُ مَا كَانَ الجِهَادُ))[٢].

وقد اختلفت طرائق الفقهاء في الجمع بين تلك الأحاديث التي ظاهرها التعارض، وتأويلها على ثلاثة أقوال:

الأول: أن الهجرة كانت في أول الإسلام مندوبًا إليها، ثم فرضت بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة، فلما فتحت مكة ارتفع وجوب الهجرة، وعاد الأمر فيها إلى الندب والاستحباب، فهما هجرتان: المنقطعة هي المفروضة، والباقية هي المندوبة. وهو قول الحنفية والخطابي[٣].

والثاني: أن الهجرة من مكة إلى المدينة ارتفعت يوم الفتح، لأن مكة صارت يوم الفتح دار إسلام، وكانت الهجرة منها قبل ذلك واجبةً، لكونها مساكن أهل الشرك، فمن حصل عليها فاز بها وانفرد بفضلها دون مَنْ بعدهم. وهذا هو الفرض الذي سقط. أما الهجرة الباقية الدائمة إلى يوم القيامة فهي هجرة من أسلم بدار الكفر، إذ يلزمه أن لا يقيم بها حيث تُجرى عليه أحكامهم[٤]، إلا أن هذه الهجرة لا يحرم على المهاجر بها الرجوع إلى وطنه إن عاد إلى دار الإسلام كما حرم على المهاجرين من أصحاب رسول الله ﷺ الرجوع إلى مكة للذي ادخره الله لهم من الفضل في ذلك.

وقد توسع بعض أصحاب هذا القول في داعي الهجرة الباقية فقال: إن مفارقة الأوطان إلى الله ورسوله التي هي الهجرة المعتبرة الفاضلة المميزة لأهلها من سائر الناس

---

(١) أخرجه أحمد ١٩٢/١، رقم ١٦٧١، وقال محققو المسند: إسناده حسن ٢٠٦/٣.

(٢) أخرجه أحمد ٦٢/٤، رقم ١٦٥٩٧، وقال محققو المسند: إسناده صحيح ١٤٢/٢٧.

(٣) معالم السنن، الخطابي ٣٥٢/٣، ومرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، الهروي ١٨٢/٤، والمبسوط، السرخسي ٦/١٠.

(٤) شرح السنة، للبغوي ٢٩٥/٧، ٢٧٣/١٠، ومرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، الهروي، شرح مشكاة المصابيح، الملا علي القاري ١٨٢/٤، والمقدمات الممهدات، أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد الجد ١٥٣/٢، وعارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي، القاضي أبو بكر بن العربي ٨٨/٧، ونيل الأوطار، الشوكاني ٢٦/٧، وشرح الأبي على صحيح مسلم ٢١١/٥، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٨/١٣، وعمدة القاري، العيني ٢١٧/١١، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٩/٦، والمغني، ابن قدامة ٤٥٦/٨.

امتيازًا ظاهرًا انقطعت، لكن المفارقة من الأوطان بسبب نية خالصة لله تعالى كطلب العلم والفرار بدينه من دار الكفر ومما لا يُقام فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وزيارة بيت الله تعالى، ومسجد رسول الله ﷺ والمسجد الأقصى وغيرها أو بسبب الجهاد في سبيل الله تعالى باقية مدى الدهر.

والثالث: أن الهجرة الفاضلة التي وعد الله عليها بالجنة، كان الرجل يأتي النبي ﷺ ويدع أهله وماله، لا يرجع في شيء منه انقطعت بفتح مكة. أما الهجرة الباقية فهي هجر السيئات. حيث ورد عن النبي ﷺ أنه قال: ((إِنَّ الْهِجْرَةَ خَصْلَتَانِ إِحْدَاهُمَا أَنْ تَهْجُرَ السَّيِّئَاتِ وَالأُخْرَى أَنْ تُهَاجِرَ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلاَ تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ مَا تُقُبِّلَتِ التَّوْبَةُ وَلاَ تَزَالُ التَّوْبَةُ مَقْبُولَةً حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنَ الْمَغْرِبِ فَإِذَا طَلَعَتْ طُبِعَ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ بِمَا فِيهِ وَكُفِيَ النَّاسُ الْعَمَلَ))[(١)].

وورد من حديث فضالة بن عبيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((الْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ))[(٢)]، وورد عن النبي ﷺ قال: ((المهاجر من هجر ما نهى الله عنه))[(٣)].

وقد صرح ابن قدامة بأن حكم الهجرة باقٍ لا ينقطع إلى يوم القيامة في قول عامة أهل العلم"[(٤)].

هذا وقد مدح الله المهاجرين ووعدهم بالثواب العظيم والأجر الكبير، قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾[(٥)]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[(٦)]، وسمَّى الله تعالى المهاجرين من الصحابة بالصادقين:

---

(١) أخرجه أحمد ١/١٩٢ رقم ١٦٧١ وقال محققو المسند: إسناده حسن ٣/٢٠٦.

(٢) أخرجه ابن ماجه ٣٩٣٤، وصحح الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٣١٧٨).

(٣) أخرجه البخاري ١٠، ومسلم ٤٠.

(٤) انظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ومصادرها ٤٢/١٨٠ - ١٨٢.

(٥) سورة آل عمران، آية: ١٩٥.

(٦) سورة البقرة، آية: ٢١٨.

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾[1]، وأخبر عن رضاه عنهم، فقال: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[2].

قال الكاندهلوي: "لقد ترك الصحابة رضي الله عنهم أوطانهم العزيزة، وكان ذلك أحب إليهم من الدنيا ومتاعها، وقدموا الدين على الدنيا فلم يبالوا بضياعها ولم يلتفتوا إلى فنائها، وفروا من بلاد إلى بلاد احتفاظًا لدينهم من الفتنة فكأنهم قد خُلقوا للآخرة وكانوا من أبنائها فصارت الدنيا كأنها خلقت لهم"[3].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: الحث على الجهاد في سبيل الله:

يتضح هذا من قوله ﷺ: (ولكن جهاد ونية)، ما بينه ابن عثيمين: "أي: الأمر بعد هذا جهاد، أي يخرج أهل مكة من مكة إلى الجهاد والنية، أي النية الصالحة للجهاد في سبيل الله وذلك بأن ينوي الإنسان بجهاده أن تكون كلمة الله هي العليا"[4]، وقد حثّت نصوص القرآن على الجهاد في سبيل الله، قال تعالى: ﴿وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[6]، وقوله تعالى: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾[7]، وبيّن الرسول ﷺ فضل الجهاد، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ أيُّ العَمَلِ أَفْضَلُ؟ فقال: ((إِيمانٌ باللّهِ ورَسولِهِ)). قيل: ثم ماذا؟ قال: ((الجهاد في سبيل

(١) سورة الحشر، آية: ٨.

(٢) سورة التوبة، آية: ١٠٠.

(٣) حياة الصحابة، محمد يوسف الكاندهلوي ص ١٧٤.

(٤) شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين ١/١٧.

(٥) سورة الحج، آية: ٧٨.

(٦) سورة التوبة، آية: ٤١.

(٧) سورة النساء، آية: ٩٥.

الله)). قيل: ثُمَّ ماذا؟ قال: ((حَجٌّ مَبْرور))[١].

ومن هذه النصوص يتبيّن فضل وأهمية الجهاد في سبيل الله، "ولما كان الجهاد من فرائض الإسلام فقد عظمت به الوصية، واشتدت إليه الحاجة وأصبح من لوازم الحياة الكريمة، حيث يبذل المسلم ماله ونفسه وجميع ما يملك لإعلاء كلمة الله سبحانه وتعالى امتثالاً لأمره جل وعلا، والجهاد يضمن بقاء أمة الإسلام قوية مهابة الجانب يحسب لها الطامعون ألف حساب، وهذا الأثر لو لم يكن إلا هو فقد كفى ذلك، لأن أعداء الإسلام والمسلمين قذف الله في قلوبهم حب الدنيا والتدافع عليها، والحرص على زخارفها وهذا يترك في النفس البشرية الخوف والجبن، أما المسلمون يقبلون على القتال في سبيل الله بشوق لما يعلمون ما أعده المولى جل وعلا للشهيد من مقام رفيع وأجر عظيم ومرتبة عالية"[٢].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل النية بالنسبة للأعمال:

يؤخذ هذا من قوله ﷺ: (ولكن جهاد ونية)، وما من شك في أن النية لها أثر كبير في الأعمال، عن أبي موسى رضي الله عنه قال: ((جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: الرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ قال: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله))[٣]، قال ابن تيمية: (فالمؤمن إذا كانت له نية، أتت على عامة أفعاله، وكانت المباحات من صالح أعماله لصلاح قلبه ونيته، والمنافق - لفساد قلبه ونيته- يعاقب على ما يظهره من العبادات رياءً)[٤].

وقال السعدي: "إن صلاح الأعمال وفسادها بالنيات، وأنه يحصل للعبد من الثمرات والنتائج بحسب نيته، ومعلوم أن جميع العبادات لا تصح إلا بالنية، بأن ينوي ذلك العمل، ويميز ذلك العمل، ويميز بين العادة والعبادات، وبين مراتب العبادات، ثم لا بد

---

(١) أخرجه البخاري ٢٦، ومسلم ٨٣.

(٢) قواعد الدعوة الإسلامية، د. الشريف حمدان الهجاري ص ٢٤١.

(٣) أخرجه البخاري ٢٨١٠، ومسلم ١٩٠٤.

(٤) مجموع الفتاوى، ابن تيمية ١٤/٤٧٠.

مع ذلك أن يكون القصد منها والغرض وجه الله وثوابه، وينبغي للعبد في العبادات أن يكون له فيها نية عامة مطلقة، ونية خاصة مقيدة. فأما النية العامة فإنه يعقد بقلبه عزمًا جازمًا لا تردد فيه أن جميع ما عمل من الأعمال الاعتقادية والبدنية والمالية والقولية والمركبة من ذلك مقصوده بها وجه الله تعالى والتقرب إليه وطلب رضاه واحتساب ثوابه. وأما النية الخاصة المقيدة أن يتعبد لله بإخلاص في كل جزء من أعماله، ويسأل الله تعالى أن يحقق له الإخلاص في كل ما يأتي وما يذر، وإذا حقق النية في العبادات فليغتنم النية في المباحات والعادات فليجعلها بالنية الصالحة عبادة أو قريبة منها"[(١)].

رابعًا- من تاريخ الدعوة: فتح مكة:

يتضح هذا من قوله ﷺ في الحديث: "لا هجرة بعد الفتح"، (ووقع فتح مكة لعشر بقين من رمضان سنة ثمان من الهجرة[(٢)]، ولقد كان فتح مكة تاريخًا فاصلاً في الدعوة الإسلامية وبفتحها انقطعت الهجرة، "لقد طويت منذ تلك اللحظة جاهلية قريش فلتطو معها سائر عاداتها وتقاليدها، ولتدفن في غياهب الماضي الذي أدبر ولتغتسل قريش من بقية أدرانها لتنضم إلى القافلة وتسير مع الركب)[(٣)]، ولم يسو القرآن بين قبل الفتح وبعده، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[(٤)].

قال ابن الأثير: "ولما دخل رسول الله ﷺ مكة كانت عليه عمامة سوداء، فوقف على باب الكعبة وقال: ((لاَ إله إلا الله وَحْدَهُ لاَ شريكَ لَهُ صدقَ وعدَهُ ونصرَ عبدَهُ وهزمَ الأحزابَ وحدَهُ))، ثم قال: ((يا معشر قريش ما ترونَ أني فاعلٌ بكُم ؟)) قالُوا: خيرًا أخٌ

---

(١) الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة، عبدالرحمن السعدي ص ٢٠٨ - ٢٠٩.

(٢) الدرر في اختصار المغازي والسير، ابن عبد البر، تحقيق: د. شوقي ضيف ص ٢٢٣.

(٣) فقه السيرة، د. محمد سعيد رمضان البوطي ص ٤١٤.

(٤) سورة النساء، آية: ٩٥.

كريمٌ وابنُ أخٍ كريمٍ، قالَ: ((اذهبُوا فأنتُمْ الطلقاءُ))، فعفا عنهم، وكان الله قد أمكنه منهم، وكانوا له فَيْئًا[١]، فلذلك سمي أهل مكة: الطلقاء، وطاف بالكعبة سبعًا، ودخلها وصلى فيها، ورأى فيها صور الأنبياء فأمر بها فمحيت، وكان على الكعبة ثلاثمائة وستون صنمًا، وكان بيده قضيب فكان يشير به إلى الأصنام وهو يقرأ: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[٢]، فلا يشير إلى صنم منها إلا سقط لوجهه، وقيل: بل أمر بها وحُطِّمت وكُسِّرت، ثم جلس رسول الله ﷺ للبيعة على الصفا وعمر بن الخطاب رضي الله عنه تحته، واجتمع الناس لبيعة رسول الله ﷺ على الإسلام، فكان يبايعهم على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا"[٣].

خامسًا- من مهام الداعية: بيان الحقائق للمدعوين:

يستنبط هذا من بيان النبي ﷺ: "لا هجرة بعد الفتح" ولكن الذي ينبغي على المسلم الجهاد وإخلاص النية لله، وفي ذلك بيان للحقائق.

ذلك لأن الداعية منهي عن الكتمان ومأمور بالبيان والبلاغ وبهذا أمر الله رسوله ﷺ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[٤]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾[٥]، ونعى الله على أهل الكتاب كتمانهم: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾[٦]، ولذا كان من أبرز مهام الداعية: بيان الحقائق للمدعوين.

"لقد أمر الله تعالى الأنبياء عليهم السلام وأتباعهم أن يوضحوا الحق للناس، وأن يقولوا

---

(١) الفيء ما يحصل عليه النبي بلا قتال.

(٢) سورة الإسراء، آية: ٨١.

(٣) الكامل في التاريخ، عز الدين ابن الأثير، تحقيق: د. عمر عبدالسلام تدمري، ١٢٥/٢.

(٤) سورة النحل، آية: ٤٤.

(٥) سورة المائدة، آية: ٦٧.

(٦) سورة آل عمران، آية: ١٨٧.

لهم في أنفسهم قولاً بليغًا ولا يكون البيان على كماله إلا بالإيضاح الوافي، ولا يكون الكلام بليغًا إلا إذا كان واضحًا للنفوس المخاطبة وإن دعوة الإسلام دعوة واضحة، فعقيدتها بسيطة وسهلة وأدلتها في متناول الجميع، ولقد كان سيد الدعاة ﷺ يوضح للناس ولأتباعه ويكرر كلامه ثلاثًا ليتحقق الإيضاح"[1].

---

(١) فقه الدعوة، د. بسام العموش ص ٢٦ – ٢٧.

الحديث رقم (٤)

٤- وعَنْ أبي عَبْدِ اللَّهِ جابرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ في غَزَاة، فَقَالَ: «**إِنَّ بِالْمَدِينَةِ لَرِجَالاً مَا سِرْتُمْ مَسِيراً، وَلاَ قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلاَّ كَانُوا مَعكُم، حَبَسَهُمُ الْمَرَضُ**»[(١)].

وَفِي رِوايَةِ: «**إِلاَّ شَرِكُوكُمْ في الأَجْرِ**» رَواهُ مُسْلِمٌ[(٢)].

ورواهُ البُخَارِيُّ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: رَجَعْنَا مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «**إِنَّ أَقْوَامًا خلْفَنَا بالمدِينةِ[(٣)] مَا سَلَكْنَا شِعْبًا وَلاَ وَادِيًا إِلاَّ وَهُمْ مَعَنَا[(٤)]، حَبَسَهُمْ الْعُذْرُ**»[(٥)].

ترجمة الراويين:

الأول: جابر بن عبدالله الأنصاري: هو جابر بن عبدالله بن حرام الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

صاحب رسول الله ﷺ، وابن صاحبه، شهد ليلة العقبة مع والده، وكان والده من النُقباءِ البدريين، استشهد يوم أحد، وكان جابر من أصغر الأنصار الذين بايعوا النبي ﷺ في ليلة العقبة، (وقد غزا مع رسول الله ﷺ تسع عشرة غزوة، وأراد شهود بدرٍ فخلفه أبوه على إخوته وكن تسعًا وخلفه أيضًا حين خرج إلى أحد، ولما قُتل أبوه عبدالله لم يتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة قط)[(٦)]، وكان من أهل بيعة الرضوان، ومن أهل السبق في الإسلام. وقد قال النبي ﷺ للمسلمين يوم الحديبية. وكان فيهم جابر ((أنتم خيرُ أهلِ الأرض))[(٧)] وكان عدد المسلمين آنذاك ألفًا وأربعمائة.

---

(١) أخرجه مسلم (١٩١١/١٥٩).

(٢) بعد حديث (١٩١١/١٥٩، بدون رقم).

(٣) لفظ البخاري: (بالمدينة خلفنا)، والمثبت لفظ المنذري في ترغيبه.

(٤) عند البخاري زيادة: (فيه)، وهي لا توجد عند المنذري في ترغيبه، فتبعه عليه المؤلف.

(٥) أخرجه البخاري الشطر الأول من قول أنس برقم (٢٨٣٨)، و (٤٤٢٣)، والمرفوع منه برقم (٢٨٣٩). أورده المنذري في ترغيبه (١٨) جمعًا، وتبعه عليه المؤلف.

(٦) أخرجه مسلم (١٨١٣) بنحوه.

(٧) أخرجه البخاري ٤١٥٤، ومسلم ١٨٥٦، ٧١.

وكان رضي الله عنه من المكثرين للحديث الحافظين للسنن، وقد بلغت روايته عن النبي صلى الله عليه وسلم ١٥٤٠ حديثًا، وكان ذا همة عالية في جمع أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، فقد رحل في حديث القِصاص من المدينة إلى الشام ليسمعه من عبدالله بن أنيس، وقد رحل في آخر عمره إلى مكة في أحاديث سمعها، ثم انصرف إلى المدينة، وكانت له في آخر أيامه حلقة في المسجد النبوي يؤخذ فيها العلم، وقد كُفَّ بصره في آخر عمره، وكان آخر من مات بالمدينة من الصحابة.

وتوفي سنة ٧٣هـ، وقيل ٧٧هـ، وقيل ٧٩هـ، وقيل غير ذلك، وقال البخاري: صلى عليه الحجاج[١].

الثاني: أنس بن مالك: هو أنس بن مالك بن النضر الأنصاري.

صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخادمه، ولد بالمدينة قبل عام الهجرة بعشر سنين وأسلم صغيرًا، وأتت به أمه "أم سُلَيْم" إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله هذا ابني وهو غلام كاتب، يخدمك، فَقَبِله صلى الله عليه وسلم، وقد دعا له النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: ((اللهمَّ، أكثر مالَهُ وَوَلَدَهُ وبارك لهُ فيما أعطيتهُ)) فقال أنس إن مالي لكثير، وإن ولدي وولد ولدي ليتعادُّن عَلَى نحوِ المائة، اليوم[٢].

وقد شهد بدرًا وهو غلام يخدم النبي صلى الله عليه وسلم، وشهد الحديبية وشهد عمرة النبي صلى الله عليه وسلم وحجه، وشهد الفتح وحنينًا والطائف وخيبر. فصحب النبي صلى الله عليه وسلم أتمَّ الصحبة، ولزمه أكملَ الملازمة إلى أن قُبض صلى الله عليه وسلم فرحل إلى دمشق ومنها إلى البصرة. وكان أحسن الناس صلاة في الحضر والسفر.

---

(١) الطبقات، ابن سعد ٥٦٢/٣-٥٦٣، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ١١٤-١١٥، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير ٤٩٢/١-٤٩٤، وسير أعلام النبلاء، الذهبي ١٨٩/٢-١٩٤، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ١٦٦، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي ٤٢٥/١-٤٢٨، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٢٨١/١-٢٨٢، والأعلام، خير الدين الزركلي ١٠٤/٢، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك ٥٥٣/١-٥٥٥.

(٢) أخرجه البخاري ١٩٨٢، ومسلم واللفظ له ٢٤٨، ١٤٣.

قال فيه أبو هريرة رضي الله عنه: ما رأيتُ أحدًا أشبه صلاةً برسول الله ﷺ من ابن أم سليم، أنس بن مالك.

وكان يطيل القيام حتى تَفَطَّر قدماه دمًا، وقد دخل عليه الزهري يومًا فوجده يبكي!! فقال ما يبكيك؟ فقال: ما أعرف شيئًا مما أدركنا إلا هذه الصلاة، وهذه الصلاة قد ضُيعت -أي بتأخيرها من قبل الولاة عن أول وقتها، فأحزنه ذلك وأبكاه.

وكان يقول: ما من ليلة إلا وأنا أرى فيها حبيبي ﷺ ثم يبكي وبلغ مسنده من الأحاديث ٢٢٨٦، وقد تجاوز عمره المائة. وتوفي في ٩٣هـ[1].

غريب الألفاظ:

الغزاة: الغزوة[2].

قطعتم واديًا: اجتزتموه وسلكتموه[3].

حَبَسهم المرضُ: منعهم[4].

شركوكم: شاركوكم[5].

تبوك: بلدة بين وادي القرى والشام، بين الحجر وأول الشام تبعد عن المدينة المنورة ٧٧٨كم، وقد توجه النبي ﷺ إليها ٩هـ، وهي آخر غزواته[6].

الشِّعْبُ: الطريق في الجبل[7].

---

(١) الطبقات، ابن سعد ١٧/٧، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٥٢-٥٤، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير ٢٩٤/١-٢٩٧، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ٨٣-٨٤، وسير أعلام النبلاء، الذهبي ٣٩٥/٣-٤٠٦، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي ٢٨٩/١-٢٩٥، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ١٩٠/١-١٩١، والأعلام، خير الدين الزركلي ٢٤/٢-٢٥، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك ٤٦٥/١-٤٧١.

(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (غ ز و).

(٣) اللسان والوسيط في (ق ط ع).

(٤) اللسان والوسيط في (ح ب س).

(٥) انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢٢٢.

(٦) أطلس الحديث النبوي، د. شوقي أبو خليل ٨٩.

(٧) اللسان والقاموس والوسيط في (ش ع ب).

الشرح الأدبي

هذا الحديث النبوي الشريف تدور معانيه في فلك ما قبله من أحاديث حيث تهدف كلها إلى بيان قيمة الإخلاص، واستحضار النية في جميع الأعمال والأقوال البارزة والخفية.

وراوي الحديث قدوة صالحة في العمل الصالح -والنية الخالصة- لأنه تربى في مدرسة النبوة، ونشأ قريبًا من المصطفى ﷺ حيث كان من أصغر الصحابة سنًا وكان من ساداتهم وفضلائهم المتحفين بحب رسول الله ﷺ.

وصيغة هذا الحديث تأتي في قالب الحكاية تشويقًا للسامع والقارئ وتثبيتًا لقيمة المحبة التي كان يكنها أصحاب رسول الله ﷺ له، ومن أمارات هذه المحبة أن المصطفى ﷺ كان حريصًا على إزالة كل الشبهات التي تطرأ على بال وفكر بعض الصحابة وكان حريصًا على إنصاف أصحاب الحاجات والمرضى الذين تقعدهم ظروفهم الصحية والاجتماعية وتحول بينهم وبين الجهاد في سبيل الله ولكن قلوبهم معقودة على الجهاد وحب الإسلام.

وحين نتأمل البناء اللغوي لهذا الحديث الشريف، ونحاول استخراج أسرار التعبير من خلال ما توحي به اللغة من معان وإشارات: فالتعبير بالمحبة في قول الراوي: كنا مع النبي ﷺ يفيد الصحبة الخيرة ويرشد إلى محبة الصحابة المجاهدين لقائدهم وحبيبهم محمد ﷺ، والتعبير بصيغة الجمع في قوله: "كنا"، يعلن عن التكاتف والقوة فليس الأمر متعلقًا بشخص، وليس الهدف من هذا الخبر الافتخار وادعاء التفرد بصحبة النبي ﷺ وإنما المسلمون كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا؛ وعدم تحديد الغزوة يخرج القضية من تحديدها الزمني والمكاني إلى فضاء أعم وأشمل، وهو، حقيقة الجهاد الخالص، والنية الخالصة، والغزوة كما يقول "الرواه" هي غزوة تبوك، وفيها حدثت معجزات حسية من شأنها تقوية شوكة المسلمين حيث فتح الله البلاد وأمدهم بالماء والرزق الوفير وأيدهم بالنصر والفتح المبين.

ويؤكد المصطفى ﷺ أمر إخلاص هؤلاء الذين حبسهم المرض، ويصفهم بالرجال، ويصوغ الخبر في أسلوب التوكيد، ويقدم لفظ المدينة وهي خبر على اسم إنَّ فيقول إن بالمدينة لرجالاً، وهذا التقديم من شأنه الإفادة بأهمية المدينة وكأن هؤلاء

المرضى بإخلاصهم النية لله. قادرون على حماية المدينة من أي معتد أو مغير، وهم في الوقت نفسه تتحرك قلوبهم وعزائمهم مع المجاهدين بالدعوات والأمنيات، والمحافظة على ما تركوه من متاع ومال وأهل وولد، وهذه المشاركة المعنوية الوجدانية يصوغها المصطفى ﷺ في أسلوب القصر (ما سرتم مسيرًا ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم) ولكن كما يقول: "حبسهم المرض".

والأمر هنا على حقيقته؛ لأن الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، وفي رواية أخرى يتأكد هذا المعنى حين يقول رسول الله ﷺ "وكان لهم مثل أجركم مضاعفاً" والحديث يؤكد على ضرورة الإخلاص والنية الصالحة والمؤازرة والتعاضد بين المسلمين، في السلم والحرب، وفي كل ميادين الحياة التي تعلي من شأن الإسلام.

وفي رواية البخاري لهذا الحديث الشريف تحدد الغزوة .. وهى غزوة تبوك ولا تعارض بين الروايتين فرواية مسلم تعمم الحكم؛ حيث يثيب الله سبحانه من صلحت نيته ولم يتمكن من أداء ما أراد القيام به، ورواية البخاري تحدد الغزوة ولكن لا تحدد الحكم فالأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى.

فقه الحديث

الجهاد فرض على الكفاية متى قام به البعض سقط عن الباقين، (أما إذا كان النفير عامًا فالجهاد يصبح فرض عين على كل قادر من المسلمين، وهذا الحكم في فرضية الجهاد متفق عليه بين الفقهاء، ولكن من لا قدرة له فلا يطالب بالجهاد لأنه معذور، وقد أشار سبحانه وتعالى في كتابه إلى أصحاب الأعذار فقال: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾[1])[2].

---

(١) سورة الفتح، آية: ١٧.

(٢) بدائع الصنائع، الكاساني ٧/٩٧-٩٨، وتبيين الحقائق، الزيلعي ٣/٢٤١، وحاشية ابن عابدين، محمد أمين بن عمر بن عبدالعزيز ٣/٢٢١، وبداية المجتهد ونهاية المقتصد، القرطبي ١/٣٨٠، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٠/٣٣١، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي ٨/٥٥، والمغني، ابن قدامة ٨/٣٤٨، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي ٣/٢٦، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٦/١٣٨-١٣٩، ٣٠/٣١.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل النية في الخير.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: سعة فضل الله على عباده.

ثالثًا: من ميادين الدعوة: ساحات القتال.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة على ملازمة النبي ﷺ في الغزوات.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل النية في الخير:

يظهر هذا من قوله ﷺ في الحديث: "إن بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيرًا ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم" قال النووي: (وفي هذا الحديث فضيلة النية في الخير، وأن من نوى الغزو وغيره من الطاعات فعرض له عذر منعه حصل له ثواب نيته، وأنه كلما أكثر من التأسف على فوات ذلك وتمنى كونه مع الغزاة ونحوهم كثر ثوابه)[١]. وقال ابن علان: (وفي قوله "إلا كانوا معكم" أي شركوكم في الأجر وكان لهم مثل أجركم مضاعفًا لصحة نيتهم في مباشرة كل ما باشره إخوانهم المجاهدون، وما حبسهم إلا المرض فلصحة النية أعطاهم الله الأجر المباشر)[٢]. وقال ابن حجر: (في الحديث أن المرء يبلغ بنيته أجر العامل إذا منعه العذر عن العمل)[٣] ولما كانت الأعمال كثيرة والقدرة محدودة والأعذار متعددة، والعوائق متكاثرة، لم يكن أمام المسلم إلا النية الصالحة في فعل الخير، وبهذا ينال أجر العاملين.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: سعة فضل الله على عباده:

إن هؤلاء المجاهدين قد حبسهم العذر عن الجهاد مع إخوانهم، فلم يقاتلوا كما قاتلوا ولم يقطعوا واديًا كما قطعوا ولا ساروا كما ساروا، ولا اغبرت أقدامهم كما اغبرت أقدامهم، ولم يعالجوا ملاقاة الأعداء كما عالجوا، ومع ذلك فقد أَخبَرَ رسول

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢٢٢.

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٣٦.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦/٤٧.

الله ﷺ أن هؤلاء المعذورين قد نالوا أجر المقاتلين "إلا شركوكم في الأجر" وذلك بسبب صدق نيتهم في الجهاد والقتال، فإنهم ودوا لو كانوا معهم، سيوفهم قبل سيوفهم ورماحهم قبل رماحهم ونفوسهم قبل نفوسهم، لذا نالوا مثل أجرهم، وهذا من فضل الله ومنّه على عباده أن جعل النية الصادقة تحصّل للمعذور أجر العامل غير المعذور. قال القرطبي: (إن الناوي لأعمال البر الصادق النية فيها إذا منعه من ذلك عذر كان له مثل أجر المباشر مضاعفاً وقد دلّ عليه من الحديث ذكرُ قطع الوادي والمسير، فإن هذا إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[١] ولما كان القاعدون لأجل العذر قد صحت نيتهم في مباشرة كل ما باشره إخوانهم المجاهدون، أعطاهم الله تعالى مثل أجر من باشر)[٢].

وقال ابن حجر: (قال المهلب: يشهد لهذا الحديث قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ...﴾[٣]، فإنه فاضل بين المجاهدين والقاعدين ثم استثنى أولي الضرر من القاعدين فكأنه ألحقهم بالفاضلين)[٤].

فإذا أدرك المدعو ذلك حرص على الخير وفعله وإلا نواه فيصيبه فضل الله فيعطيه أجر العاملين. وعن أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((إِنَّمَا الدُّنْيَا لأَرْبَعَةِ

---

(١) سورة التوبة، الآيتان: ١٢٠، ١٢١.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٣/٧٤٥-٧٤٦.

(٣) سورة النساء، آية: ٩٥.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦/٤٧.

نَفَرٍ: عَبْدٍ رَزَقَهُ الله مَالاً وَعِلْماً فَهُوَ يَتَّقِي رَبَّهُ فِيهِ وَيَصِلُ بِهِ رَحِمَهُ وَيَعْلَمُ لله فِيهِ حَقًّا فَهَذَا بِأَفْضَلِ المَنَازِلِ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ الله عِلْماً وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالاً فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِيَ مَالاً لَعمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلاَنٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ الله مَالاً وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْماً فهو خبط فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ لاَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ وَلاَ يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَلاَ يَعْلَمُ لله فِيهِ حَقًّا فَهَذا بِأَخْبَثِ المَنَازِلِ، وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ الله مَالاً وَلاَ عِلْماً فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِيَ مَالاً لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلاَنٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ))(١).

ثالثًا- من ميادين الدعوة: ساحات القتال:

حيث جاء في الحديث "كنا مع النبي في غزاة" وفي رواية البخاري "رجعنا من غزوة تبوك" ولاشك أن الداعية لا يترك فرصة ولا ميدانًا يسنح له إلا ويدعو فيه إلى الله، حتى ولو كان هذا المكان هو ساحات القتال (ففي أعقاب الحرب تسنح الفرصة تمامًا للدعاة بأن ينتشروا في الأصقاع وينشروا الإسلام ويعرِّفوا الناس به وتُستغل في ذلك وسائل الإعلام الشخصية منها والجماهيرية للتبليغ والإنذار)(٢). وساحات القتال لا يكون فيها مع الداعية إلا أقوياء الإيمان، وقلوبهم مستعدة للموعظة وللترغيب وللترهيب (والجهاد دليل واضح على الإيمان بالله ورسوله لأن المسلم يبادر إليه امتثالاً لأمر ربه، وفي الجهاد تكون هناك عزة وقوة للمسلمين وفخر، وفي الجهاد تتحقق عوامل الاتحاد والائتلاف، ومن هنا كانت ساحات القتال أرضًا خصبة لنشر الدعوة)(٣).

رابعًا- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة على ملازمة النبي في الغزوات:

يتضح هذا من الحديث "كنا مع النبي في غزاة" وهذا يدل على فضل الصحابة رضي الله عنهم ومدى كفاحهم وجهادهم في سبيل نشر الدين وإعلاء كلمة الله عز وجل حتى في شدة الحر وقلة الزاد فإنهم يخرجون مجاهدين استجابة لقول الله تعالى:

---

(١) أخرجه الترمذي ٢٣٢٥ وهذا لفظه، وابن ماجه ٤٢٢٨، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٨٩٤٠)، وانظر جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢/٢٢٠-٢٢١.

(٢) الدعوة الإسلامية الوسائل والأساليب، محمد خير رمضان يوسف ص ١٩، ٢٠.

(٣) قواعد الدعوة الإسلامية، د. الشريف حمدان راجح الهجاري، ٢٤٢.

﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[١] فاستحقوا رضي الله عنهم ما أعدّ لهم من جنات وخيرات.

ومن أبرز صور ونماذج حرص الصحابة رضي الله عنهم على ملازمة النبي صلى الله عليه وسلم في الغزوات ما حدث من أبي خيثمة في غزوة تبوك فيما ذكره ابن كثير عن ابن إسحاق قال: ((إن أبا خيثمة رجع بعد ما سار رسول الله صلى الله عليه وسلم أيامًا إلى أهله في يوم حار فوجد امرأتين له في عريشين لهما في حائطه قد رشت كل واحدة عريشها وبرّدت له فيه ماءً، وهيأت له فيه طعامًا فلما دخل ونظر إلى امرأتيه وما صنعتا له فقال: رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في الشمس والريح والحر وأبو خيثمة في ظل بارد وماء مهيأ وامرأة حسناء في ماله مقيم ما هذا بالنَّصف ثم قال: والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله صلى الله عليه وسلم فهيئا زادًا ففعلتا، ثم قدم ناضحه[٢] فارتحله ثم خرج في طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أدركه حين نزل تبوك قال الناس هذا راكب على الطريق مقبل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "كن أبا خيثمة" فقالوا: يا رسول الله، هو والله أبو خيثمة فلما بلغ أقبل فسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: "أولى لك يا أبا خيثمة" ثم أخبر رسول الله الخبر فقال خيرًا ودعا له بخير))[٣].

ومن النماذج المضيئة في حرص الصحابة رضي الله عنهم على ملازمة النبي صلى الله عليه وسلم في الغزوات ما حدث من حنظلة بن أبي عامر في غزوة أحد ففي صحيح ابن حبان عن ابن إسحاق، حدثني يحيى بن عباد بن عبدالله بن الزبير، عن أبيه عن جده، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: وقد كان الناس انهزموا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتهى بعضهم إلى دون الأعراض[٤]، إلى جبل بناحية المدينة، ثم رجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ،وقد كان

(١) سورة التوبة، آية: ٤١.

(٢) الجمل الذي يحمل عليه الزاد.

(٣) البداية والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ١٥٦/٧، ١٥٧، وانظر دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، البيهقي ٢٢٣/٥-٢٢٦.

(٤) أعراض المدينة: قال الأصمعي: هي قراها التي في أوديتها، وقال شمر: أعراض المدينة: هي بطون سوادها حيث الزرع والنخل. انظر: هامش صحيح ابن حبان لمحققه شعيب الأرناؤوط ٤٩٥/١٥.

حنظلة بن أبي عامر التقى هو وأبو سفيان بن حرب فلما استعلاه حنظلة رآه شداد بن الأسود، فعلاه شداد بالسيف حتى قتله وقد كاد يقتل أبا سفيان، فقال النبي ﷺ: إن صاحبكم تغسله الملائكة، فاسألوا صاحبته؛ فقالت: خرج وهو جنب لما سمع الهيعة[١]، فقال النبي ﷺ: فذاك قد غسلته الملائكة[٢].

(١) الهيعة: الصوت الذي تفزع منه وتخافه من عدو. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير لابن الأثير في (هـ ي ع).

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه ٧٠٢٥، وقال محققه: حديث صحيح رجاله ثقات.

الحديث رقم (٥)

٥- وَعَنْ أبي يَزِيدَ مَعْنِ بْن يَزِيدَ بْنِ الأَخْنسِ ﷺ، وَهُوَ وَأَبُوهُ وَجَدّهُ صَحَابِيُّونَ[(١)]، قَالَ: كَانَ أبي يَزِيدُ أَخْرَجَ دَنَانِيرَ يَتصَدَّقُ بهَا فَوَضَعَهَا عِنْدَ رَجُلٍ في الْمَسْجِدِ فَجِئْتُ فَأَخَذْتُهَا فَأَتَيْتُهُ بِهَا. فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا إِيَّاكَ أَرَدْتُ! فَخَاصمتُهُ إِلَى رسول اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «**لَكَ مَا نويْتَ يَا يَزِيدُ، وَلَكَ مَا أَخذْتَ يَا مَعْنُ**» رواه البخاريُّ[(٢)].

ترجمة الراوي:

معن بن يزيد بن الأخنس: هو معن بن يزيد بن الأخنس السلمي، له ولأبيه ولجده صحبة. شهد هو وأبوه وجده بدرًا. وقال يزيد بن حبيب: ولا أعلم رجلاً هو [أي الأخنس] وابنه وابن ابنه شهدوا بدرًا غيرهم[(٣)].

وكان له مكانة عند النبي ﷺ قال عن نفسه: بايعت النبي أنا وأبي وجدي وخاصمت إليه وخطب عليّ فأنكحني [أي طلب لي النكاح فأجيب][(٤)].

وكان صاحب شجاعة وبلاء في المغازي والفتوحات وشهد فتح دمشق. وكان عمر ابن الخطاب يجلّه ويقدره.

نزل الكوفة ودخل مصر ثم نزل الشام وسكن دمشق وكان مع معاوية بعد موقعة صفين، وقد جعله معاوية أميرًا على غزوة غزت الروم[(٥)]، وقتل في موقعة مرج راهط ٦٤هـ[(٦)].

---

(١) لفظ البخاري: (بايعتُ رسول الله ﷺ أنا وأبي وجدّي، وخطب عليَّ فأنكحني، وخاصمتُ إليه) وعبّر عنها النووي بقوله: (وهو وأبوه وجدّه صحابيون).

(٢) برقم (١٤٢٢). أورده المنذري في ترغيبه (٢٣).

(٣) قال الحافظ: ولم يتابع على ذلك. وينظر فتح الباري، ابن حجر العسقلاني (٣٤٢/٣).

(٤) أخرجه البخاري (١٤٢٢) وقصة المخاصمة هي التي بينه وبين أبيه في الصدقة وقد ذكرها النووي في الرياض وهو الحديث المشروح.

(٥) انظر: سنن أبي داود ٢٧٥٤، ومسند أحمد ٤٧٠/٣، رقم ١٥٨٦٢.

(٦) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٦٩٠، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير ٢٣٠/٥، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ١٢٧٧، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي ١٨٩/٧، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ١٣٠/٤، والأعلام، خير الدين الزركلي ٢٧٤/٧، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك ١٨١٨/٣.

الشرح الأدبي

يموج هذا الحديث بكثير من القيم الإسلامية، والحقوق الاجتماعية التي تقوي روابط الأخوة بين أبناء الأمة الإسلامية، والتوجيهات النبوية الراشدة لا تُقدَّم دائمًا في قالب واحد، وإنما تتعاون أساليبها وتتنوع صيغها تشويقًا لكل سامع وقارئ، ومراعاة للمقام والسياق الذي قيلت فيه هذه التوجيهات، وهنا يوجه المصطفى ﷺ أصحابه وكل أبناء الأمة الإسلامية إلى وجوب اقتران النية الصالحة بالعمل الذي يترجم هذه النية إلى سلوك راشد، وثمرة نافعة صالحة، والقصة الواقعية هي الصيغة التي قُدِّم من خلالها هذا التوجيه النبوي.

وأشخاص هذه القصة الحوارية هم من الصحابة الأخيار: الابن: معن، والأب: يزيد ابن الأخنس رضي الله عنهما، والرجل الذي يلازم المسجد وأودعت عنده الأمانة ابتغاء الصدقة، والفعل "كان" يعلن عن أسلوب الحكاية في هذا النص النبوي، والفاء التي تربط بين الجمل وتعلن عن توالي مشاهد الحدث ف هذه الحكاية الواقعية بين الابن وأبيه، والفاء للترتيب والتعقيب، وسرعة الحركة وتوالي الزمن بلا فواصل، وتتوالى الأفعال في سرعة إيحاءً بحرص كلٍ من أطراف هذه الحكاية على إنجاز العمل حسب نيته، والأفعال المصورة لهذا الحدث تأتي في هذا النسق (كان أبي يزيد أخرج دنانير يتصدق بها: فوضعها عند رجل في المسجد، ثم يقول معن: فجئت فأخذتها فأتيته بها فقال) ولنتأمل توالي حرف العطف الفاء خمس مرات في مقام واحد ثم تتكرر مرتين بعد ذلك في قوله: "فخاصمته فقال".

والحوار بين الأب وابنه يوضح صدق نية الأب، وصدق نية الابن في حاجته لهذا المال ولكن الأب يواجه الابن في حسم وبأسلوب حازم يأتي في صيغة الحرص والقسم في قوله "والله ما إياك أردت" وإخلاص الأب في نيته الصادقة يتفوق على عاطفة الأبوة، فهو لم يضعف أمام ابنه الذي لم يأخذ المال على الرغم من حاجته إليه، وإنما أعطاه لأبيه مرة ثانية رغبة في أن يقدمه الأب له طواعية واختيارًا.

وفي الحديث توجيه وأدب يجب أن يتحلى به كل مسلم، وهو الاحتكام إلى

الكتاب والسنة في أي موقف خلافي، وهنا يلجأ الابن إلى رسول الله ﷺ لمعرفة الحكم في هذه المسألة، ويأتي جواب رسول الله ﷺ مُطَمئنًا ومرغبًا وجامعًا مانعًا ليقضي على أسباب المخاصمة الناشئة بين الأب وابنه، وهي ليست مخاصمة بين الأضداد ولكنها خلاف حول من الأحق بهذا المال الابن المحتاج، أم يعطى هذا المال للسائل والمحروم الذي لا يعرفه صاحب الصدقة رغبة في مضاعفة الثواب. فيقول رسول الله ﷺ: "لك ما نويت يا يزيد ولك ما أخذت يا معن".

أي لك ثواب نيتك الخالصة يا يزيد : لأنك نويت التصدق بهذا المال على محتاج، وابنك محتاج والمال حلال لمعن؛ لأنه أخذ المال أخذًا صحيحًا، وهنا تنبيه وإرشاد نبوي لكل الأبناء وهو حسن معاملة الآباء، وضرورة رعاية الآباء للأبناء، والحرص على إعطاء المال لمستحقه، ووضعه في المكان المناسب. وفي هذا الحديث دلالة رائعة على عدم محاباة الآباء لأبنائهم، وأهمية الالتزام بهدي الإسلام في سائر الأمور، وقد ضرب الأب -يزيد بن الأخنس- أروع الأمثلة للآباء في هذا المجال من التعامل الحياتي الذي كثيرًا ما يقع بين الناس، فتكون المحاباة والغفلة عن معرفة رأي الإسلام، إنها صورة رائعة في تعامل الأب مع ابنه، وعدم محاباته.

فقه الحديث

وفي هذا الحديث من الفقه ما يلي:

١- حكم إعطاء الزكاة لمن لا يستحقها: ينبغي لمن يخرج الزكاة أن يجتهد في معرفة من يصرفها إليه وأن الآخذ لها من مستحقي الزكاة، فإن اجتهد فأخطأ وأعطى الزكاة لمن ظنه من أهلها فظهر الأمر بخلاف ذلك، فقد اختلف الفقهاء في إجزائها عنه على قولين:

القول الأول: ذهب أبو حنيفة ومحمد[١] والشافعية في مقابل الأصح[٢] إلى أن دافع الزكاة في هذه الحالة تجزئه ولا تجب عليه مرة أخرى ولا يلزم الآخذ ردها أخذًا بهذا الحديث.

---

(١) تبيين الحقائق، الزيلعي ٣٠٤/١، العناية على الهداية، البابرتي ٢٧٥/٢.

(٢) الأم، الأمام الشافعي ٧٩/٢.

القول الثاني: ذهب جمهور الفقهاء ومنهم أبو يوسف(١) والمالكية(٢) والشافعية في الأصح(٣) والحنابلة(٤) إلى أن دافع الزكاة لمن يظنه خطأ لا تجزئه الزكاة هكذا وإنما يجب عليه إخراجها ثانية إن لم يستردها من الآخذ، على أن المالكية قالوا بهذا الحكم فيما لو كان الدافع لها هو رب المال أما إن كان الدافع هو الإمام أو الوصي مثلاً فإنه إن لم يستطع استردادها أجزأت عنه.

٢- التحاكم بين الأب والابن: قال ابن حجر: (فيه جواز التحاكم بين الأب والابن وإن ذلك بمجرده لا يكون عقوقًا)(٥).

٣- الاستخلاف في الصدقة: قال ابن حجر: (فيه جواز الاستخلاف في الصدقة ولا سيما صدقة التطوع لأن فيه نوع إسرار)(٦).

٤- رجوع الأب عن الصدقة لابنه: قال ابن حجر: (فيه أن الأب لا رجوع له في الصدقة على ولده بخلاف الهبة)(٧).

المضامين الدعوية

أولاً- من موضوعات الدعوة: الحرص على بذل الصدقات.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: أهمية الاحتكام إلى الله ورسوله.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل النية.

رابعًا- من صفات الداعية: القدرة على الفصل في المنازعات.

خامسًا- من أساليب الدعوة: الحوار.

---

(١) تبيين الحقائق، الزيلعي ٣٠٤/١، العناية على الهداية، البابرتي ٢٧٥/٢.

(٢) مواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٣٥٩/٢، حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، محمد بن عرفة الدسوقي ٥٠١/١.

(٣) الأم، الأمام الشافعي٧٩/٢، أسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري٤٠٥/١.

(٤) شرح منتهى الإرادات، البهوتي ٤٦٥/١، كشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي ٢٩٥/٢.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٩٣/٣.

(٦) المرجع السابق، الموضع نفسه.

(٧) المرجع السابق، الموضع نفسه.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الحرص على بذل الصدقات:

يظهر هذا من خلال ما ورد في الحديث "كان أبي يزيد أخرج دنانير يتصدق بها" ولاشك أن المسلم يجب أن يحرص على بذل الصدقات قال تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾(١) ووعد بالأجر الكريم على الصدقة فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾(٢) والحرص على بذل الصدقات من صفات المتقين ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾(٣) وبين رسول الله ﷺ أن الصدقة تزيد المال فقال في الحديث ((ما نقصت صدقة من مال))(٤)، وأن الصدقة تقي من النار فقال ((مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَتِرَ مِنَ النَّارِ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَلْيَفْعَلْ))(٥) وفي الحديث أيضًا ((لاَ حَسَدَ إِلاَّ فِي اثْنَيْنِ: رَجُلٍ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، وَرَجُلٍ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَهُوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ))(٦). وقال ابن أبي الجعد: (إن الصدقة لتدفع سبعين بابًا من السوء، وفضل سرها على علانيتها سبعين ضعفًا)(٧) والآيات والأحاديث في فضل الصدقة كثيرة فعلى الدعاة إرشاد الناس لها.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: أهمية الاحتكام إلى الله ورسوله:

يتضح هذا من خلال ما ورد في الحديث "فخاصمته إلى رسول الله ﷺ أي: أخذ معن يزيد إلى رسول الله ﷺ ليفصل بينهما في الأمر. وهذا حال الصحابة رضي الله عنهم دائمًا

---

(١) سورة المزمل، آية: ٢٠.

(٢) سور الحديد، آية: ١٨.

(٣) سورة الذاريات، آية: ١٧-١٩.

(٤) أخرجه مسلم ٢٥٨٨.

(٥) أخرجه البخاري ١٤١٧، ومسلم واللفظ له ١٠١٦.

(٦) أخرجه البخاري ٥٠٢٥، ومسلم ٨١٥.

(٧) المتجر الرابح في ثواب العمل الصالح، الدمياطي ص ١٤٨.

وديدنهم، فيه دلالة على ورع الصحابة رضي الله عنهم وتثبتهم في معرفة الأحكام، وسؤالهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل ما أشكل عليهم[(١)]. وهذا من علامة الإيمان، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[(٢)].

قال الشوكاني: (أي حتى يجعلوك حكمًا بينهم في جميع أمورهم لا يحكمون أحدًا غيرك فيما اختلف بينهم واختلط، ولا يجدون في أنفسهم إثمًا بإنكارهم ما قضيت، وينقادون لأمرك وقضائك انقيادًا لا يخالفونه في شيء ويسلمون لحكمك تسليمًا لا يدخلون على أنفسهم شكًا ولا شبهة فيه، والظاهر أن هذا شامل لكل فرد في كل حكم)[(٣)].

وفي أهمية الاحتكام إلى الله ورسوله قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[(٤)] وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾[(٥)].

قال الدكتور محمد محمود حجازي: (إن المؤمنين الصادقين قولهم الحق الناشئ عن إيمانهم الصادق، إذ دعوا إلى الله ورسوله في أي شيء يتعلق بهم وبخاصة في الحكم بكتاب الله وسنة رسول الله، إنما كان قولهم أن يقولوا بألسنتهم وقلوبهم: سمعنا وأطعنا، أي سمعنا دعوتكم للتحاكم لرسول الله وشرعه، وأطعناكم فيما تطلبون، وتلك مقالة المؤمنين الواثقين المتمكنين. ومن يطع الله ورسوله في أمور الدين كلها، ومن يخش الله أي يخف عذابه وعقابه فيما مضى من الذنوب ويتقه فيما يستقبل منها

---

(١) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم ص ٢٠١.

(٢) سورة النساء، آية: ٦٥.

(٣) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، الشوكاني ١/٤٨٣.

(٤) سورة النساء، آية: ٦٤.

(٥) سورة النور، الآيتان: ٥١، ٥٢.

فأولئك هم الفائزون وحدهم، لأجل اتصافهم بطاعة الله وطاعة رسوله وبخشيته وتقواه)[١].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل النية:

يظهر هذا من قول النبي ﷺ "لك ما نويت يا يزيد" والنية الصالحة يثاب عليها الإنسان، قال ابن حجر: (أي إنك نويت أن تتصدق بها على من يحتاج إليها وابنك يحتاج إليها فوقعت الموقع وإن كان لم يخطر ببالك أنه يأخذها، وفي الحديث أن للمتصدق أجر ما نواه سواء صادف المستحق أو لا)[٢]. وقال ابن عثيمين: (والحديث يدل على أن الأعمال بالنيات، وأن الإنسان إذا نوى الخير حصل له، وإن كان يزيد لم ينو أن يأخذ هذه الدراهم ابنه لكنه أخذها وابنه من المستحقين فصارت له فالإنسان يكتب له أجر ما نوى، وإن وقع الأمر على خلاف ما نوى)[٣].

إن النية أساس العمل وقاعدته قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[٤] وإذا دخل الشرك في العبادة أفسدها (لقد حصر الله أمر المكلفين كله في عبادته وجعل شرط ذلك الإخلاص، ولا يميز العمل الخالص من غيره إلا بالنية؛ فالنية رأس الأمر وعموده وأساسه وأصله الذي عليه يبنى فإنها روح العمل وقائده وسائقه، والعمل تابع لها يبنى عليها، يصح بصحتها، ويفسد بفسادها وبها يستجلب التوفيق، وبعدمها يحصل الخذلان، وبحسبها تتفاوت الدرجات في الدنيا والآخرة)[٥].

رابعًا- من صفات الداعية: القدرة على الفصل في المنازعات:

يظهر هذا من فصل النبي ﷺ في النزاع بين معن وأبيه يزيد، وقدرة الداعية على

---

(١) التفسير الواضح، د. محمد محمود حجازي ٨٣/١٨/٢.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٤٣/٣.

(٣) شرح رياض الصالحين ٢٠/١.

(٤) سورة البينة، آية: ٥.

(٥) النية وأثرها في الأحكام الشرعية، د. صالح السدلان ص ١٥١/١.

الفصل في المنازعات تحتاج إلى رجاحة عقل، وتوقد فكر، وذكاء ذهن (وإذا كان للإيمان نورانيته وآثاره، وللعلم فاعليته ودوره، فيبقى للذكاء والفطنة أهميتهما التي لا تنكر، فالداعية إذا توفر لديه الذهن الوقّاد والعقل السديد استطاع أن يرجح إذا اختلفت الآراء، ويحلل ويدلل إذا فقد الإدراك وغاب التصور، ويتقن ترتيب الأولويات، ويحسن التخلص من المشكلات، ويقوى على الرد على الشبهات)[١].

ومن الشواهد والأمثلة على القدرة على الفصل في المنازعات ما جاء في مسند أبي داود الطيالسي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: (لما بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن حفر قوم زبية[٢] للأسد فازدحم الناس على الزبية ووقع فيها الأسد فوقع فيها رجل وتعلق الرجل برجل وتعلق الآخر بالآخر حتى صاروا أربعة فجرحهم الأسد فيها فهلكوا وحمل القوم السلاح فكادوا أن يكون بينهم قتال قال: فأتيتهم فقلت أتقتلون مائتي رجل من أجل أربعة أناس تعالوا أقضِ بينكم بقضاء فإن رضيتموه فهو قضاء بينكم، وإن أبيتم رفعتم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو أحق بالقضاء، قال: فجعل للأول ربع الدية وجعل للثاني ثلث الدية وجعل للثالث نصف الدية وجعل للرابع الدية وجعل الديات على من حفر الزبية على القبائل الأربعة فسخط بعضهم ورضي بعضهم ثم قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقصوا عليه القصة فقال: "أنا أقضي بينكم" فقال قائل فإن عليًا قد قضى بيننا فأخبروه بما قضى علي رضي الله عنه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((القضاء كما قضى علي)) قال هذا: حماد وقال: قيس فأمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم قضاء علي رضي الله عنه)[٣].

خامسًا- من أساليب الدعوة: الحوار:

يظهر هذا من الحوار الذي جرى بين معن وأبيه يزيد، ومما هو معلوم أن الحوار أسلوب من أساليب الدعوة، قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ

---

(١) مقومات الداعية الناجح، د. علي بن عمر بادحدح ص ٩٢.

(٢) الزُّبْيَة: حفرة تحفر للأسد والصيد، ويُغطى رأسها بما يسترها ليقع فيها. المعجم الوسيط، مع اللغة العربية في (ز ب ي).

(٣) أخرجه أبو داود الطيالسي رقم ١١٦، وقال محققو المسند: إسناده حسن.

وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾[(١)] (ووصف الجدال بالتي هي أحسن يخرج الطرق السيئة ويلزم الداعي تجنب الغضب والإغضاب من جانبه، ويوطده على الصبر والتحمل والهدوء في الحوار أمام من يجادلهم ليصل إلى ما يريد من هدايتهم وبيان الحق لهم)[(٢)].

والحوار أسلوب قرآني ونبوي (إن القرآن الكريم يكثر فيه الاعتماد على المناقشة والحوار، وللقرآن في ذلك أسلوب رائع عجيب فهو إذ يناقش ويحاور يثير النظر إلى الأدلة، ويعرض لها ويدع ثمارها ونتائجها مكشوفة في تضاعيف الكلام دون أي نص على هذه النتائج بل يترك الربط والاستنتاج للسامع المتأمل وفي سنة الرسول ﷺ كذلك تجد فيها الكثير من الحوارات التي استخدمها الرسول ﷺ في تعليم أصحابه لإثارة انتباه السامعين وتشويق نفوسهم إلى الجواب، وحضهم على إعمال الفكر بالجواب ليكون ذلك أقرب إلى الفهم في النفس)[(٣)].

---

(١) سورة النحل، آية: ١٢٥.

(٢) قواعد الدعوة الإسلامية، د. الشريف حمدان الهجاري ص ٥٠٧.

(٣) الحوار آدابه وتطبيقاته في التربية الإسلامية، أ. خالد محمد المغامسي ص ٨.

الحديث رقم (٦)

٦- وَعَنْ أبي إِسْحَاقَ سعْدِ بْنِ أبي وَقَّاصٍ مَالك بن أُهَيْبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ زُهـرةَ بْنِ كِلابِ بْنِ مُرَّةَ بْنِ كعْبِ بنِ لُؤيٍّ الْقُرشِيِّ الزُّهَرِيِّ رضي الله عنه ، أَحدِ الْعَشرة الْمَشْهودِ لَهمْ بِالْجَنَّة رضي الله عنهم ، قال: «كانَ رسولُ الله ﷺ يَعُودُنِي عَامَ حَجَّة الْوَداعِ مِنْ وَجعٍ اشْتدَّ بِي، فَقُلْتُ: [يا رسُول اللَّهِ][1] إِنِّي قَدْ بلغَ بِي مِن الْوجعِ [مَا تَرى][2]، وَأَنَا ذُو مَالٍ وَلاَ يَرِثُني إلاَّ ابْنَةٌ [لِي]، أفأَتَصدَّق بثُلُثَيْ مالِي؟ قَالَ: ((لا))، قُلْتُ: بالشَّطْرِ يَا رسُولَ اللَّه[3]؟ فقالَ: ((لا))، قُلْتُ: ثم قال الثُّلُثُ يا رسول اللَّه[4]؟ قال: **((الثُّلُثُ والثُّلُثُ كثِيرٌ (أَوْ: كَبِيرٌ) إِنَّك إِنْ تَذرَ وَرثَتك أغنِياءَ خَيْرٌ مِن أَنْ تَذرهُمْ عالَةً يَتكفَّفُونَ النَّاس، وَإِنَّك لَنْ تُنفِق نَفَقةً تبْتغِي بِهَا وجْهَ الله إِلاَّ أُجرْتَ عَلَيْهَا[5] حَتَّى ما تَجْعلُ في فِي امْرَأَتِك))**.

قَالَ[6]: فَقلْت: يَا رَسُولَ الله أُخَلَّفُ بَعْدَ أَصْحَابِي؟ قَالَ: **((إِنَّك لن تُخَلَّفَ فتعْمَل عَمَلاً[7] تَبْتغِي بِهِ وَجْهَ الله[8] إلاَّ ازْددْتَ بِهِ دَرجةً ورِفعةً، و[9] لعلَّك أَنْ تُخلَّف حَتَى ينْتفعَ بك أَقَوامٌ وَيُضرَّ بك آخرُونَ. اللَّهُمَّ أَمْضِ لأِصْحابي هجْرتَهُم، وَلاَ تَردَّهُمْ علَى أَعْقَابِهم))**[10]، لَكن الْبائسُ سعْدُ بْنُ خوْلَةَ «يَرْثِي لَهُ رسولُ الله ﷺ» أَن مَاتَ بمكَّةَ» متفقٌ عليه.

---

(١) قوله: (يا رسول الله) لا يوجد عند البخاري بهذا الرقم، وإنما عنده برقم (٣٩٣٦)، و (٤٤٠٩)، و (٦٣٧٣).

(٢) قوله: (ما ترى) لا يوجد عند البخاري بهذا الرقم، وإنما عنده برقم (٣٩٣٦)، و (٤٤٠٩)، و (٦٣٧٣).

(٣) قوله: (يا رسول الله) لا يوجدُ عند البخاري.

(٤) قوله: (قلت: فالثلث يا رسول الله) لا يوجد عند البخاري بهذا الرقم، وإنما عنده برقم (٢٧٤٢، ٢٧٤٤).

(٥) لفظ البخاري: (بها).

(٦) (قال) لا توجد عند البخاري.

(٧) عند البخاري في هذه الرواية زيادة: (صالحًا)، وأما قوله: (فتعمل عملاً تبتغي به وجه) فعنده برقم (٣٩٣٦).

(٨) (تبتغي به وجه الله) لا توجد عند البخاري في هذه الرواية، وإنما عنده برقم (٣٩٣٦).

(٩) لفظ البخاري في هذه الرواية: (ثم)، وأما بالواو، فعنده برقم (٣٩٣٦).

(١٠) أخرجه البخاري واللفظ له ١٢٩٥، ومسلم ١٦٢٨/٥. وسيكرره المؤلف برقم (٩١٦).

تنبيه: من قوله: (فقلتُ: يا رسول الله أخلف بعد أصحابي) إلى آخره بلفظه عند البخاري برقم (٣٩٣٦)، و (٤٤٠٩).

ترجمة الراوي:

سعد بن أبي وقاص: واسم أبي وقاص مالك بن أُهَيْب، ويُقَال: وُهَيْب بن عبد مناف ابن زهرة بن كلاب بن مُرَّة الزهري القرشي، يلتقي مع رسول الله ﷺ في كلاب بن مرة، ويكنى بأبي إسحاق.

قال إبراهيم بن المنذر: كان قصيرًا دَحْدَاحًا، غليظًا، ذا هامةٍ، شَثْن الأصابع، أشعر، جعد الشعر، وكان يخضب بالسواد[1].

كان رضي الله عنه من السابقين الأولين إلى الإسلام، قال ابن المسيِّب: سمعت سعد بن أبي وقاص يقول: ((ما أسلم أحدٌ إلا في اليوم الذي أسلمت فيه، ولقد مكثت سبعة أيام، وإني لثلث الإسلام))[2].

أسلم رضي الله عنه قبل أن تفرض الصلاة وهو ابن ١٧ سنة، جاهدته أمه ليرجع عن دينه فحلفت ألا تكلمه أبدًا حتى يكفر بدينه، ولا تأكل ولا تشرب حتى يَموت فيعير بقتلها، ومكثت ثلاثًا حتى غشي عليها من الجهد، فقام ابنٌ لها يسمى عمارة فسقاها[3] ولم يثنه ذلك عن إسلامه، وهو من أصحاب الرواية، روى جملة صالحة من الأحاديث، له في كتب الحديث ٢٧١ حديثًا، في الصحيحين منها ١٥ حديثًا، وانفرد البخاري بخمسة، ومسلم بثمانية عشر حديثًا، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، وكما في حديث سعيد بن زيد عن رسول الله ﷺ قال: ((عَشَرَةٌ في الجنّة: النبي في الجنّة، أبوبكر في الجنة... الحديث)) وفيه ((وسعد بن مالك في الجنة))[4].

---

(١) الدَحْداح هو: الشثن الأصابع: أي الخشن مع غلظة، المعجم الوجيز في (ش ش ن)، الأشعر: كثيف الشعر، الخضب: الصبغ بما يغير اللون. المعجم الوجيز في (خ ض ب).

(٢) أخرجه البخاري ٣٧٢٧.

(٣) أخرجه مسلم ١٧٤٨ بعد الحديث ٢٤١٢، في باب فضائل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه من كتاب فضائل الصحابة.

(٤) أخرجه أبو داود ٤٦٤٩، والترمذي ٣٧٥٧، وابن ماجه ١٣٣، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٨٨٦).

هاجر قبل رسول الله ﷺ، وكان في مقدمة المجاهدين في سبيل الله فشهد بدرًا والمشاهد كلها مع رسول وهو أول من رمى بسهم في سبيل الله، حدث عن نفسه قائلاً: ((إني لأول العرب رمى بسهم في سبيل الله))[(١)].

وكان من أبرز الفرسان الصالحين الذين كانوا يدافعون عن رسول ﷺ ويحرسونه في المغازي، فعن عائشة رضي الله عنها قالت أَرِقَ رسول الله ﷺ ذات ليلة فقال: ((ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة))، قالت: وسمعنا صوت السلاح فقال رسول الله ﷺ ((من هذا؟)) قال سعد بن أبي وقاص يا رسول الله جئت أحرسك، قالت عائشة رضي الله عنها: فنام رسول الله ﷺ حتى سمعت غطيطه[(٢)]، وفي رواية فقال له رسول الله ﷺ: ((ما جاء بك؟)) فقال: وقع في نفسي خوف على رسول الله ﷺ فجئت أحرسه فدعا له رسول الله ﷺ ثم نام))[(٣)].

وقال علي بن أبي طالب ((ما جمع رسول الله ﷺ أبويه لأحد غير سعد بن مالك فإنه جعل يقول له يوم أحد: فداك أبي وأمي))[(٤)].

وهو الذي تولى قتال فارس، وفتح الله على يديه القادسية وغيرها. مما جعله جديرًا بأن يعرف بأنه فارس الإسلام.

وهو الذي كوّف الكوفة فجعلها خططًا، وابتنى بها دارًا فكثرت الدور فيها، ونفى الأعاجم منها، وكان أميرًا لعمر عليها، ثم عزله ثم أعاده ثم عزله، وقال في مرضه: إن وليها سعد فذاك، وإلا فليستعن به الوالي، فإني لم أعزله عن عجز ولا خيانة، وأقره عثمان عليها زمنًا ثم عزله فعاد إلى المدينة وفقد بصره.

وكان رضي الله عنه مشهورًا بأنه مجاب الدعاء لدعوة رسول الله ﷺ ((اللهم استجب له إذا دعاك يعني سعدًا))[(٥)] فمناقبه وفضائله كثيرة جدًا وأخباره من الشجاعة والشدة في

---

(١) أخرجه البخاري ٣٧٢٨، ومسلم ٢٩٦٦

(٢) أخرجه البخاري ٢٨٨٥، ٧٢٣١، ومسلم ٢٤١٠، ٣٩.

(٣) أخرجه مسلم ٢٤١٠، ٤٠.

(٤) أخرجه البخاري ٢٩٠٥، ومسلم ٢٤١١.

(٥) أخرجه ابن حبان، كتاب أخباره ﷺ عن مناقب الصحابة، باب ذكر دعاء المصطفى ﷺ لسعد (٤٥٠/١٥) حديث رقم (٦٩٩٠)، وقال محقق ابن حبان: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وقال الترمذي: حديث صحيح.

دين الله، وإتباع سنة رسول الله ﷺ وهديه وتواضعه وصدقه كثيرة واسعة.

وكان سعد قد اعتزل الفتنة بعد مقتل عثمان وطلب السلامة فعن عامر بن سعد بن أبي وقاص قال: كان سعد في إبله فجاء ابنه عمر فلما رآه سعد قال: أعوذ بالله من شر هذا الراكب، فنزل فقال له: أنزلت في إبلك وغنمك، وتركت الناس يتنازعون الملك بينهم؟ فضرب سعد في صدره فقال: اسكت سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي))[1].

توفي رضي الله عنه في قصره بالعقيق -على عشرة أميال من المدينة- وحمل إلى المدينة على رقاب الرجال، ودفن بالبقيع، وصلى عليه مروان بن الحكم وهو يومئذ والي المدينة.

وكان رضي الله عنه آخر العشرة المبشرين بالجنة وآخر المهاجرين وفاة بالمدينة، واختلف في تاريخ وفاته فقيل سنة ٥١، وقيل: ٥٤، وقيل ٥٦، وقيل ٥٧، وقيل: ٥٨، وقيل ٥٥ وهو المشهور، مات وهو ابن ٧٣ سنة، وقيل ٨٢، وقيل ٨٣[2].

غريب الألفاظ:

يعودني: يزورني[3].

الشطر: النصف[4].

عالة: فقراء[5]، مفردها: عَيِّل.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الزهد، باب الدنيا سجن المؤمن ص ١٢٨٤، ١٢٨٥ حديث رقم ٢٩٦٥.

(٢) الطبقات الكبرى، ابن سعد الكبرى ١٣٧/٣-١٤٩، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٢٧٥-٢٨٠، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير ٤٥٢/٢-٤٥٧، وسير أعلام النبلاء، الذهبي ٩٢/١-١٢٤، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي ١٣٠/٣، ١٣١، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٦٩٨/١، ٦٩٩، والسندي ٤٨٠/٣، والأعلام، خير الدين الزركلي ٨٧/٣، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك ٣٥٥/١-٣٦٥.

(٣) اللسان في (ز و ر).

(٤) اللسان في (ش ط ر).

(٥) اللسان في (ع ي ل).

يتكففون الناس: يسألون الناس بأكفهم[١].

أُخلَّف: تحتمل معنيين: أي أُترك في مكة وقد انصرف الرسول ﷺ وأصحابه عنها، أو أعيش بعد جماعات من أصحابي[٢].

الدَّرَجَةُ: المنزلة في الشرف[٣].

اللهم أمض لأصحابي هجرتهم: أنفذها وتممها لهم ولا تنقصها عليهم[٤].

ولا تردهم على أعقابهم: أي حالتهم الأولى من ترك الهجرة[٥].

البائس: هو الذي عليه أثر البؤس وهو الفقر والقلة[٦].

يرثى له رسول الله ﷺ: الرثاء ذكر محاسن الميت والمراد هنا: التوجع له لكونه مات في البلدة التي هاجر منها، وذلك أنه كان يحرم الإقامة بمكة على من هاجر منها قبل الفتح[٧].

الشرح الأدبي

ما أجمل المعاني والقيم التي نقتبسها من هذا الحديث الشريف، وما أروع هذه الصيغة الحوارية التي تشع بالمودة والرحمة بين البشير النذير وأصحابه الأخيار الأطهار الذين وصفهم بأنهم كالنجوم في الهداية، وبأيهم اقتدينا اهتدينا.

إن هذا الحوار المقنع الممتع يدور بين سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ونبي هذه الأمة حول قضية اجتماعية لها مكانتها وتأثيرها في سر تقدم الأمة الإسلامية، وهي قضية المال وكيفية كسب المؤمن وتحصيله له، وكيفية توزيعه، ولكن هذه القضية تقدم في

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٣١/٥.

(٢) انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٠٢٥.

(٣) الوسيط في (د ر ج).

(٤) عمدة القاري، العيني ٦٨/١٧.

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ع ق ب).

(٦) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٠٣٦.

(٧) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣١٣/٧، ٣١٦، وعمدة القاري، العيني ٦٨/١٧.

إطار سلوك إنساني، وسياق اجتماعي، يقدمه النبي ﷺ حين يعود صاحبه في مرضه مقدمًا بذلك القدوة والأسوة الحسنة في التواضع ولين الجانب، وفيه كما يقول العلماء عيادة الكبير أتباعه.

والقيمة الثانية: التي نقتبسها من أضواء هذا البيان النبوي هي وجوب رعاية الأبناء، والعمل على إعزازهم في حياتهم وذلك لا يكون إلا بالجد والسعي على الرزق والكدح، واكتساب المال من الطرق المشروعة التي تُجَمِّل وجه الحياة في عيون الأبناء، وهذه القيمة الحضارية تشع بها هذه الوصية النبوية الهادية القويمة في خطابه لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وهو في الوقت ذاته يوجه الخطاب إلى كل أب مسؤول عن رعيته وأبنائه إذ يقول " إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس" فالمؤمن عزيز النفس بمنأى عن الذلة التي تدفع إليها الفاقة ويجلبها العوز.

وحتى لا يتسرب الظن إلى الذين يحاولون التشكيك في قيم الإسلام وعدالته وسماحته أردف المصطفى ﷺ هذه الوصية بوصية أخرى فيها حث على الإنفاق والتصدق، حتى لا يظل السعي قاصرًا على الجانب الذاتي بل يتعداه إلى المشاركة في رفع المعاناة عن الفئات الضعيفة وعن أصحاب الحاجات والفقراء والمساكين وغيرهم من الذين يستحقون الصدقات في ظل التكافل الاجتماعي الذي شرعه الإسلام، وهذه الوصية تأتي في أسلوب التوكيد وأسلوب القصر حتى تظل قيمة الإنفاق راسخة ومتأصلة في سلوكيات المؤمنين، ويظل إيقاع التعاون والتكافل لحنًا ساريًا بين أبناء الأمة الإسلامية.

والوصية تقدمها هذه الصيغة الموشاة بالتأكيد وأسلوب القصر: يقول رسول الله ﷺ عقب وصيته بضرورة ووجوبية رعاية الأبناء "وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها".

ومن القيم الإنسانية الحضارية التي تشع بها كلمات هذا الحديث النبوي قيمة المودة والرحمة والسكن بين الزوج وزوجته، وهذه القيمة ذات البعد الاجتماعي تتمثل في حسن الرعاية والقوامة، وأن يدخل الزوج السرور على زوجته وأن يبادلها المودة والملاطفة، وله الثواب المضاعف حتى على أقل صور هذه المودة في الأثر الخارجي،

ولكن لها آثار نفسية عميقة ذات دلالة وجدانية اجتماعية تتمثل في محبة الزوج لزوجته، ومن أمارات هذه المحبة أن يطعمها وأن يشعرها بالدفء والحنان، والحرص على العلاقة الزوجية في إطار السكن والمودة والرحمة.

ومن القيم الإسلامية التي تفيض بها كلمات هذا الحديث الشريف في قالب حواري مقنع وممتع هو الإحساس بالمسؤولية الاجتماعية والمسؤولية الفردية ففي لحظة المرض واشتداد الوجع لا يحزن الصحابي الجليل على فراق ماله، ولا يخاف من الموت، ولكنه يفكر في أمر المسلمين، ويدور هذا الحوار البليغ الإيماني بين الصحابي الجليل والنبي الكريم ﷺ.

يا رسول الله: إني قد بلغ بي من الوجع ما ترى وأنا ذو مال ولا يرثني إلا ابنة لي أفأتصدق بثلثي مالي؟: قال رسول الله له: لا، قلت: فالشطر يا رسول الله، فقال: لا، قلت فالثلث يا رسول الله؟ قال: الثلث، والثلث كثير أو كبير.

إن هذا الأدب الجم في مخاطبة رسول الله ﷺ كان شأن كل الصحابة رضي الله عنهم مع الحبيب المصطفى ﷺ وهذا الزهد في متاع الحياة، والحرص على التصدق بثلثي المال: أو شطر المال يعطي درسًا جميلاً نبيلاً في العطاء والترفع والقوة أمام إغراء المال، وهذه المراجعة المتأدبة مع رسول الله ﷺ حول الميراث الذي يتنازل عن بعضه صاحبه إلى فقراء المسلمين، هذا السلوك الإيماني الذي يمثله الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أحد الستة أصحاب الشورى، وهو أول من أراق دمًا في الإسلام، وأول من رمى بسهم في سبيل الله، وأخباره في الشجاعة والشدة في دين الله، واتِّباع السنة والزهد والورع وإجابة الدعوة والصدق والتواضع شهيرة.

وتتوهج القيم الإسلامية ذات البعد الاجتماعي في هذا الحوار المشع ببريق العطاء، والنبوءة، والخوف من فراق الأصحاب والأخلاء، والمصطفى ﷺ في القسم الثاني مَن هذا الحوار يطمئن صاحبه وحارسه فارس الإسلام سعد بن أبي وقاص، ويدعو له بالشفاء وطول العمر ويستجيب الله لدعاء الحبيب المصطفى ﷺ ويُعافَى سعد من مرضه ويتحقق رجاء رسول الله ﷺ الذي قدمه في هذه الجملة الموشاة بالأمل، والاطمئنان، وما أرق هذه الكلمات، وما أجمل إيقاعها في سمع وقلب سعد بن

أبي وقاص وقد تحقق هذا الرجاء بقول رسول الله ﷺ: "ولعلك أن تخلف حتى ينتفع بك أقوام ويُضَّر بك آخرون".

وقد تحققت نبوءته عليه السلام وعاش سعد بن أبي وقاص وكان من أكبر القواد في المعارك ضد الفرس حيث تولى قيادة جيش المسلمين بعد وفاة المثنى بن حارثة الشيباني، وانهزم الفرس هزيمة نكراء وقتل قائدهم رستم في المعركة، وتقدم سعد بن أبي وقاص قائد الجيوش إلى عاصمة الفرس "المدائن" فاستولى عليها، وذلك في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ويقول العلماء في تفسير قوله ﷺ: "حتى ينتفع بك أقوام" في دينهم ودنياهم "ويُضَرَّ بك آخرون": يقولون: "هذا من جملة إخباره ﷺ بالمغيبات فإن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عاش حتى فتح العراق وغيره وانتفع به قوم في دينهم ودنياهم، وتضرر به الكفار في دينهم ودنياهم: فإنهم قتلوا ومضوا إلى جهنم وسبيت نساؤهم وأولادهم، وغنمت أموالهم وديارهم، وولى سعد بن أبي وقاص العراق فاهتدى على يديه خلائق بإقامته الحق فيهم.

وهذا الحوار المتألق بالقيم الإيمانية يختمه المصطفى ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، والذي أيده ربه بالمعجزات الحسية والمعنوية؛ ويأتي هذا الختام بعد هذه النبوءة التي صيغت في أسلوب الرجاء، وتحقق وعد الله لرسوله. واستجاب لدعاء حبيبه محمد ﷺ، وما أصدق هذا الختام وذلك الدعاء الصادر من القلب "اللهم امضي لأصحابي هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم".

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى أكثر من حكم فقهي:

الأول: حكم عيادة المريض، وقد اختلف الفقهاء في حكمها على أقوال كثيرة، فذهب الجمهور[1] إلى أنها سنة، وذهب ابن حزم[2] إلى أنها فرض ولو لمرة واحدة على

(١) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٣٢١/٤، الفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم المالكي ٣٢٧/٢، المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٠٢/٥ وما بعدها، أسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري٢٩٥/١، إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ابن دقيق العيد ٣٩٦/٢، المغني، ابن قدامة ١٦٠/٢، الفروع، ابن مفلح ١٧٤/٢، الآداب الشرعية، ابن مفلح ٢٠٠/٢، الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ٤٦١/٢.

(٢) المحلى، ابن حزم ٤٠٢/٣ وما بعدها.

الجار الذي لا تشق عيادته، وقيل هي سنة كفاية[١]، وقيل هي واجبة على الكفاية[٢]، ونقل النووي الإجماع على عدم الوجوب[٣].

الثاني: جواز قول المريض أنا وجع ونحو ذلك إذا لم يكن على سبيل التسخط وإظهار الجزع:

قال النووي: (قوله: "عادني من وجع أشفيت منه على الموت" ... فيه جواز ذكر المريض ما يجده لغرض صحيح من مداواة أو دعاء صالح أو وصية أو استفتاء عن حاله ونحو ذلك، وإنما يكره من ذلك ما كان على سبيل التسخط ونحوه، فإنه قادح في أجر مرضه)[٤].

الثالث: حكم الوصية، فقد اتفق الفقهاء على جواز الوصية وإن اختلفوا في حكمها من حيث الوجوب والندب، فذهب جمهور الفقهاء[٥] إلى أن الوصية بالمال ليست واجبة بل هي مستحبة أو مندوبة، ونقل ابن عبدالبر الإجماع على ذلك[٦]، وقال البعض[٧] إنها فرض للوالدين إذا كانوا ممن لن يرثوه، وقال آخرون إنها فرض للأقرباء الذين لا يرثون[٨].

---

(١) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٦٧/٣١.

(٢) الفتاوى الكبرى ٣٠٥/٥، الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ٤٦١/٢.

(٣) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٠٢/٥، نيل الأوطار، الشوكاني ٢٢/٤.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦٥/١١/٦، وانظر: رياض الصالحين، الباب رقم ١٤٩، الأحاديث ٩١٥-٩١٧، والأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار، الإمام النووي ١٦٣-١٦٤ ط مكتبة الصفا، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٢٣/١-١٢٥، الأحاديث ٥٦٦٥-٥٦٦٨.

(٥) المبسوط، السرخسي ١٤٢/٢٧، بدائع الصنائع، الكاساني ٢٧٨/٧، مواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٣٦٤/٦، أسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري٢٩/٣، الغرر البهية في شرح البهجة الوردية، القاضي أبو يحيى زكريا الأنصاري ٢/٤ وما بعدها، كشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي ٢٣٨/٤، الفروع، ابن مفلح ٦٥٩/٤.

(٦) المغني، ابن قدامة ٥٥/٦.

(٧) المبسوط، السرخسي ١٤٢/٢٧، بدائع الصنائع، الكاساني ٣٣١/٧.

(٨) وبه قال منذر بن سعيد، وأبوبكر بن عبدالعزيز وغيرهم، انظر: المبسوط، السرخسي ١٤٢/٢٧، بدائع الصنائع، الكاساني ٣٣١/٧، مواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٣٦٤/٦، المغني، ابن قدامة ٥٥/٦.

الرابع: المقدار الذي يجوز الوصية به من المال، فقد اتفق الفقهاء[١] على أن الوصية تمليك مضاف إلى ما بعد الموت، وأنها لا تصح إلا من ثلث التركة فقط ولا تزيد عليها، فإن زاد الموصي عن الثلث لم ينفذ ما زاد إلا برضا كل الورثة وإجازتهم لها.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل عيادة المريض.

ثانيًا: من تاريخ الدعوة: حجة الوداع.

ثالثًا: من واجبات المدعو: السؤال عما يشغله.

رابعًا: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: فضل النفقة على الزوجة والأولاد.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: الحث على فضل النية الصالحة.

سابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل الصدقة والوصية.

ثامنًا: من موضوعات الدعوة: خوف الصحابة المهاجرين من الموت في مكة.

تاسعًا: من صفات الداعية: الشفقة والرحمة بالمدعوين.

عاشرًا: من دلائل النبوة: الإخبار عن المغيبات.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل عيادة المريض:

يتضح هذا من خلال ما ورد في الحديث: "جاءني رسول الله يعودني"، قال ابن هبيرة: (في هذا الحديث استحباب عيادة المريض، ومن آداب العيادة أن تكون بعد ثلاث، لأن ما دونها لا يؤثر في الانقطاع تأثيرًا يقتضي العيادة)[٢]، ولا يخفى أن عيادة

---

(١) بدائع الصنائع، الكاساني في ترتيب الشرائع للكاساني ٣٣١/٧، تكملة البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم للطوري ٤٦٠/٨، شرح منح الجليل على مختصر خليل، الشيخ محمد بن أحمد بن محمد عليش لعليش ٥٠٣/٩، حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، محمد بن عرفة الدسوقي ٤٢٤/٤، مغني المحتاج للشربيني ٧/٤، نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي ٤١/٦، المغني، ابن قدامة ٥٦/٦، ٥٧، الفروع، ابن مفلح ٦٦٠/٤.

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٣٢٥/١.

المريض لها فضل كبير فهي من حقوق المسلم، قال ﷺ: ((حَقُّ المسلمِ على المسلمِ خَمسٌ: ردُّ السلامِ، وعيادةُ المريضِ، واتِّباعُ الجَنائزِ، وإجابةُ الدَّعوةِ، وتشميتُ العاطِسِ))[١]، وفي الحديث أيضًا: ((إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا عَادَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، لَمْ يَزَلْ فِي خُرْفَةِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَرْجِعَ))، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا خُرْفَةُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ ((جَنَاهَا))[٢].

قال ابن عثيمين: (ولقد كان من هدي النبي ﷺ عيادة المرضى لأنه عاد سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وفي عيادة المرضى جلب للمحبة والمودة بين المسلمين، لأنها تؤنس المريض وتشرح صدره، وتُذكّر العائد بنعمة الله عليه في الصحة، وبالعيادة يؤدي المسلم حق أخيه المسلم"[٣].

ثانيًا- من تاريخ الدعوة: حجة الوداع:

ويظهر هذا مما ورد في الحديث: (جاءني رسول الله يعودني في حجة الوداع)، قال ابن علان: "سميت بذلك لأنه ﷺ ودعهم فيها، وتسمى حجة البلاغ لأنه ﷺ قال لهم فيها: (هل بلغت؟)، وبحجة الإسلام لأنها الحجة التي حج فيها المسلمون وليس فيها مشرك"[٤]، وتمثل حجة الوداع تاريخًا هامًا في الدعوة الإسلامية، قال ابن حزم: "اعلم رسول الله ﷺ الناس أنه حاج، ثم أمر بالخروج للحج فقصد مكة عام حجة الوداع التي لم يحج من المدينة منذ هاجر إليها غيرها وذلك يوم الخميس لست بقين من ذي القعدة سنة عشر نهارًا بعد أن ترجّل وادهن، وبعد أن صلى الظهر بالمدينة[٥].

ولقد تجمع في هذه الحجة أعداد غفيرة من المسلمين للاقتداء بالنبي ﷺ والحج معه، فكان لها معنًى دعويًا مهمًا جدًا، قال البوطي: (إن لحجة رسول الله ﷺ هذه معنى جليلاً يتعلق بالدعوة الإسلامية، ويتعلق بحياته ﷺ، فيبدو أن الله ألقى في روعه

---

(١) أخرجه البخاري ١٢٤٠، ومسلم ٢١٦٢.

(٢) أخرجه مسلم ٢٥٦٨.

(٣) شرح رياض الصالحين ١/٢٥.

(٤) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٣٩.

(٥) حجة الوداع، ابن حزم الأندلسي الظاهري ص ١١٥.

أن مهمته في الأرض توشك أن تنتهي فأراد أن يلتقي بهذه الحشود المسلمة ليُلخِّص لهم تعاليم الإسلام ونظامه في كلمات جامعة وموعظة مختصرة)[١].

ثالثًا- من واجبات المدعو: السؤال عما يشغله:

يبدو هذا من قول سعد رضي الله عنه: (يا رسول الله بلغ بي من الوجع وأنا ذو مال أفأتصدق بثلثي مالي؟) وقد قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٢]، وهذا السؤال يدل على حبّه للدين وتعاليمه والفقه فيه والعمل بما يرشده إليه واجتناب ما نهى عنه، وفي ذلك قال ابن القيم: (سؤال الناس هو عيب ونقص في الرجل وذلّة تنافي المروءة إلاّ في العلم، فإنه عين كماله ومروءته وعزّه كما قال بعض أهل العلم: خير خِصال الرجل السؤال عن العلم. وقيل: إذا جلست إلى عالم فَسَلْ تفقّها لا تعنتًا،وقيل: لا ينال العلم مستحي ولا متكبر هذا، يمنعه حياؤه من التعلم وهذا يمنعه كبره)[٣].

رابعًا- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

حيث جاء في الحديث: (أفأتصدق بثلثي مالي؟ قال: لا، قلت: فالشطر؟ قال: لا، قلت: فالثلث، قال: الثلث، والثلث كثير) فقد سأل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن التصدق بثلثي ماله فأجابه النبي صلى الله عليه وسلم بالنفي وهكذا حتى أقرّه النبي صلى الله عليه وسلم على الثلث، فكان هذا بيان إلى الوصية بالثلث.

خامسًا- من موضوعات الدعوة: فضل النفقة على الزوجة والأولاد:

حيث جاء في الحديث: (وإنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس ولست تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى اللقمة تجعلها في فيّ امرأتك)، قال النووي: (والعالة: الفقراء، ويتكففون: يسألون الناس،وفي هذا الحديث حث على صلة الأرحام والإحسان إلى الأقارب والشفقة على الورثة، وأن صلة القريب الأقرب والإحسان إليه أفضل من الأبعد)[٤]، وقال ابن هبيرة: (وقوله: "أن تذر

---

(١) فقه السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد بن محمد أبو شهبة ٤٨٠.

(٢) سورة النحل، آية: ٤٣.

(٣) فضل العلم والعلماء، ابن القيم ص ٢٢٦.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٠٣٥.

ورثتك أغنياء" خيرُ دليل على أن ترك الرجل ورثته أغنياء خير من تركهم فقراء إذا أمكنه، لأن الخلق عيال الله، وهذا المتصدق إنما يخرج ماله إلى بعض عيال الله عز وجلّ، وورثته هم من بعض عيال الله عز وجل. فإذا عزم على التصدق فالأولى أن يبدأ بمن يجمع بين الصدقة عليه وبين صلة الرحم فيه من ورثته، ولأن الرجل كاسب لورثته في حال حياته، فقد سعى لهم مدة حياته، فإذا ترك لهم بعده شيئًا كان أيضًا كالساعي لهم بما ترك لهم من ماله في أيديهم، فلذلك قال رسول الله ﷺ "إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير")[١].

سادسًا- من موضوعات الدعوة: على النية الصالحة:

يتضح هذا من قوله: (تبتغي بها وجه الله)، فدل على أن الإنسان يثاب بقدر نيته الصالحة، قال الله تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ﴾[٢]، قال ابن هبيرة: (فيه من الفقه أنه ينبغي للرجل المؤمن أن لا ينفق نفقة في بيته وعلى أهله وزوجته وولده إلا لله عز وجل)[٣].

قال ابن حجر: "والنفقة مقيدة بابتغاء وجه الله وعلق حصول الأجر بذلك وهو المعتبر، ويستفاد منه أن أجر الواجب يزداد بالنية، لأن الإنفاق على الزوجة واجب، وفي فعله الأجر فإن نوى به ابتغاء وجه الله ازداد أجره بذلك، قال ابن دقيق العيد: فيه أن الثواب في الإنفاق مشروط بصحة النية وابتغاء وجه الله"[٤].

وقال السيد سابق: "والعمل لا يعتد به، ولا يعتبر خيرًا إلا إذا كان عن نية طيبة خالصة لوجه الله لأن العمل حينئذ يناط بغاية واحدة ومثل أعلى هو الله، والله لا يأمر إلا بالخير، ولا يحب إلا الخير، فتكون وجهة الإنسان في الحياة وجهة الخير لنفسه، وللناس جميعًا"[٥].

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٣٢٥/١.

(٢) سورة الليل، الآيات: ١٩ - ٢١.

(٣) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٣٢٦/١.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٣٢/٥.

(٥) إسلامنا، الشيد سابق ص ٣٨.

سابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل الصدقة والوصية:

لقد أقرّ النبي ﷺ سعدًا على الوصية بالثلث، فقال: "الثلث والثلث كثير"، وهذه الوصية إفادة لغير الورثة ونفع لهم، قال ابن هبيرة: (فيه [أي الحديث] أيضًا من الفقه أن رسول الله ﷺ جعل للرجل من ماله الثلث ليتصدق به في وجوه يراها أولى من ورثته، لأنه قد يكون في الناس من يعرف ناسًا ذوي ضرورة ملحفة فهم في العاجل أولى من ورثته، فلو كان محظورًا على الرجل أن يتصدق من ماله بشيء لكن ذلك إضرارًا بأولئك المستحقين، كما أنه لو كان مفسوحًا[1] للرجل أن يتصدق بكل ماله لكان ذلك إضرارًا بورثته، فلما كان الأمر في ذلك من الجانبين اقتضت حكمة الله ما قدّره رسول الله ﷺ بالثلث، إلا أنَّه إنما قدر الثلث من حيث ترجيح الورثة بجانب الفاقة وجانب الرحم، فصار الورثة يُدْلون بسببين والفقراء غيرهم يدلون بسبب واحد، فلذلك صار الثلث للأجانب والثلثان للأقارب)[2].

وبالجملة فإن الوصية يحتاج الناس إليها زيادة في القربات والحسنات وتداركًا لما فرط به الإنسان في حياته من أعمال الخير لذا شرعها الشارع تمكينًا من العمل الصالح، ومكافأة لمن أسدى للمرء معروفًا، وصلة الرحم والأقارب غير الوارثين، وسد خلة المحتاجين وتخفيف الكرب عن الضعفاء والبؤساء والمساكين"[3].

ثامنًا- من موضوعات الدعوة: خوف الصحابة المهاجرين من الموت في مكة:

حيث جاء في الحديث: (يا رسول الله أخلف بعد أصحابي) قال النووي: (معناه أخلف بمكة بعد أصحابي فقاله إما إشفاقًا من موته بمكة لكونه هاجر منها وتركها لله تعالى فخشي أن يقدح ذلك في هجرته أو في ثوابه عليها، أو خشي بقاءه بمكة بعد انصراف النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة وتخلفه عنهم بسبب المرض، وكانوا يكرهون الرجوع فيما تركوه لله تعالى)[4]، وقال ابن حجر: (وكانوا يكرهون الإقامة

---

(١) الفسح: شبه الجواز، فسح له الأمير في السفر: كتب له الفسح. القاموس المحيط في (ف س ح).

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٣٢٦/١.

(٣) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٢٢/٤٣.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٠٣٥.

في الأرض التي هاجروا منها وتركوها مع حبهم فيها لله تعالى، فمن ثم خشي سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن يموت بها، وتوجع رسول الله ﷺ لسعد بن خولة لكونه مات بها)[١]. وقال ابن عثيمين: (ومن فوائد الحديث: خوف الصحابة المهاجرين من مكة أن يموتوا فيها، لأن سعدًا رضي الله عنه قال: "أخلف بعد أصحابي" وهذه الجملة استفهامية والمعنى "أَأُخلف؟" وهذا استفهام توقعي مفروض يعني أنه لا يحب أن يتخلف فيموت في مكة وقد خرج منها مهاجرًا إلى الله ورسوله)[٢].

تاسعًا- من صفات الداعية: الشفقة والرحمة بالمدعوين:

يظهر هذا في الحديث من دعاء النبي ﷺ لأصحابه ومن عيادته لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في مرضه، ودعائه ﷺ لسعد بالشفاء كما في رواية مسلم "اللهم اشف سعدًا اللهم اشف سعدً" ثلاث مرات[٣] قال ابن هبيرة: (فيه دليل على استحباب الدعاء للمؤمن بطول البقاء مشروع)[٤] ودعائه ﷺ للمهاجرين "اللهم أمضِ لأصحابي هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم" قال ابن هبيرة: (في هذا الحديث دليل على أن المهاجر لا يستغني عن الدعاء له في إمضاء هجرته قبولاً وارتضاءً من الله سبحانه ... وقوله "ولا تردهم على أعقابهم" دليل على الخوف من الارتداد بعد الإيمان والنكوص على العقبين بعد الهجرة)[٥].

ومما لا شك فيه أن من أهم صفات الداعية الرحمة والشفقة بالمدعوين، "ولقد تحلى قدوة الدعاة النبي الخاتم ﷺ بالرحمة والرفق في أقواله وأفعاله مع من دعاهم إلى الله تعالى، وكان ذلك سببًا رئيسًا من أسباب نجاح دعوته"[٦].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٩٦/٣.

(٢) شرح رياض الصالحين ٢٩/١، ٣٠.

(٣) أخرجه مسلم ١٦٢٨، ٨.

(٤) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٣٢٧/١.

(٥) المرجع السابق ٣٢٧/١.

(٦) صفات الداعية، د. حمد بن ناصر العمار ص ٥٤.

عاشرًا- من دلائل النبوة: الإخبار عن المغيبات:

يظهر هذا من قول النبي ﷺ: (إنك لن تخلف، ولعلك إن تخلف حتى ينتفع بك أقوام ويضر بك آخرون)، قال ابن علان: "هذا من جملة إخباره ﷺ بالمغيبات فإن سعدًا عاش حتى فتح العراق وغيره، وانتفع به قوم في دينهم ودنياهم، وتضرر به الكفار في دينهم ودنياهم، فإنهم قتلوا إلى جهنم وسبيت نساؤهم وأولادهم وغنمت أموالهم وديارهم، وولي العراق فاهتدى على يديه خلائق، وتضرر به خلائق بإقامته الحق فيهم من كفار ونحوهم"[1].

قال ابن عثيمين: (وهذا الحديث من معجزات الرسول ﷺ، فإن الأمر وقع كما توقعه ﷺ، فإن سعدًا عمَّر إلى خلافة معاوية، وهذه من آيات النبي ﷺ أن يخبر عن أمر مستقبل يقع كما أخبر به)[2].

وقد كان الإخبار من النبي ﷺ لسعد عن نفعه للمؤمنين وإضراره بالكافرين وغيرهم، فعرّفه ﷺ أن قول عمر المؤمن زيادة درجات له بمقتضى كل عمل يعمله في كل يوم وساعة ونفس، فإن المؤمن لا يستوي يومان أبدًا بل هو في زيادة، وفيه أيضًا ما يدل على أن المؤمن كما ينتفع به المؤمنون فكذلك يستضرّ به الفاسقون والمجرمون[3].

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٤١.

(٢) شرح رياض الصالحين ١/٣٠.

(٣) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ١/٣٢٦.

الحديث رقم (٧)

٧- عَنْ أبي هُرَيْرة عَبْدِ الرَّحْمن بْنِ صخْرٍ ﵁، قال: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إنَّ الله لا يَنْظُرُ إلى ((أَجْسامِكْم))**[1]**، وَلا إلى صُوَرِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إلَى قُلُوبِكُمْ**» رواه مسلم[2].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: هو أبو هريرة راوية الإسلام، اختلف في اسمه على أقوالٍ كثيرة أرجحها: عبدالرحمن بن صخر الدَّوسي اليماني، كُني بأبي هريرة، لأنه كان يلعب بقطة وهو يرعى غنمًا لأهله، فكنوه بذلك.

أسلم أول سنة سبع عام فتح خيبر، وكان فقيرًا لا مال له ولا أهل، فلازم النبي ﷺ أربع سنوات، فكان معه ﷺ حيثما كان، واجتهد في طلب الحديث والحرص عليه، فحفظ عن النبي ﷺ علمًا كثيرًا، حتى كان أكثر الصحابة رواية للحديث، فبلغ مسنده ٥٣٧٤ حديثًا، وروى عنه هذا العلم أكثر من ٨٠٠ من الصحابة والتابعين.

وقد كان حفظه من معجزات النبوة، قال: إنكم تقولون إن أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله ﷺ وتقولون: ما للمهاجرين والأنصار لا يحدثون مثله؟ إن إخواني المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق وكان إخواني من الأنصار يشغلهم عمل أموالهم، وكنت امرأً مسكينًا من مساكين الصُفّة، ألزم رسول الله ﷺ على مِلء بطني فأحضر حين يغيبون وأعي حين ينسون. ولقد قال رسول الله ﷺ يومًا: ((أيكم يبسط ثوبه فيأخذ من حديثي هذا، ثم يجمعه إلى صدره، فإنه لم ينس شيئًا سمعه)). فبسطت بردة عليّ حتى فرغ من حديثه، ثم جمعتها إلى صدري. فما نسيت بعد ذلك اليوم شيئًا حدثني به[3].

---

(١) لفظ مسلم: (أجسادكم)، والمثبت لفظ المنذري في ترغيبه.

(٢) برقم (٣٣/٢٥٦٤)، وزاد في آخره: (وأشار بأصابعه إلى صدره). وبرقم (٣٤) زيادة: (وأعمالكم). أورده المنذري في ترغيبه (١٩).

(٣) أخرجه البخاري ٢٠٤٧، ومسلم ٢٤٩٢.

وقد شهد له الصحابة بذلك، قال له عبدالله بن عمر: (يا أبا هريرة أنت كنت ألزمنا لرسول الله ﷺ وأحفظنا لحديثه)[(١)].

وقال طلحة بن عبيد الله: والله ما أشك أنه سمع من رسول الله ﷺ ما لم نسمع وعلم ما لم نعلم.

وكان لشدة حيطته في رواية الحديث يبتدئ حديثه بأن يقول: قال رسول الله ﷺ أبو القاسم الصادق المصدوق: ((من كذب عليّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار))[(٢)].

واستعمله عمر على البحرين ثم عزله فأراد أن يستعمله مرة أخرى فأبى وقال: إني أخشى ثلاثًا: أن أقول بغير علم وأقضي بغير حكم ويُضرب ظهري ويُشتم عرضي ويُنزع مالي.

وكان صاحب عبادة، فكان هو وامرأته وخادمه يقسمون الليل ثلاثًا يصلي هذا ثم يوقظ هذا. وكان يسبح كل يوم اثنتي عشرة ألف تسبيحة ويقول: أسبح بقدر ديتي. وكان طيب الأخلاق كريم الشمائل متواضعًا، ولي المدينة مرة أيام معاوية بن أبي سفيان فأقبل يحمل حزمة حطب في السوق وهو يقول: أوسع الطريق للأمير.

وكان من فقهاء الصحابة، جاءت مسألة إلى ابن عباس ومعه أبو هريرة فقال له: أفته يا أبا هريرة فقد جاءتك مُعضلة.

ولما حضرته الوفاة بكى فقيل له: ما يبكيك؟ قال: ما أبكي على دنياكم هذه، لكن على بعد سفري وقلة زادي إني أمسيت في صَعُود ومهبطه على جنة أو نار، فلا أدري أيهما يؤخذ بي.

ومات بالمدينة سنة ٥٧هـ ودفن بالبقيع وشيعه ابن عمر وأبو سعيد الخدري[(٣)].

---

(١) أخرجه الترمذي ٣٨٣٦، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٣٠١٣).

(٢) أخرجه أحمد ٤١٣/٢ رقم ٩٣٥٠، وقال محققو المسند: حديث متواتر، وهذا إسناد قوي ٢٠٤/١٥.

(٣) الطبقات الكبرى، ابن سعد ٣٦٢/٢، ٣٢٥/٤، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٨٦٢، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير ٣١٣/٦، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ١٥٧٠، والسير ٥٧٨/٢، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي ٤٤٧/٨، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٦٠١/٤، والأعلام، خير الدين الزركلي ٣٠٨/٣، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك ٢٠٩٧/٣.

الشرح الأدبي

إن الإنسان في حركته الحياتية يحتاج إلى الجوارح المتمثلة في: الحواس الخمس، حتى يستطيع القيام بأعباء وتكاليف الحياة، وقد منح الله عز وجل الإنسان نعمًا لا تعد ولا تحصى ومنها: نعمة النطق - والبصر - والسمع - واليد التي من خلالها يؤدي عمله في إتقان وكذلك نعمة المشي حيث وهبه الرجلين؛ وهذه الحواس الظاهرة لا تتحرك إلا بمشيئة الله وإرادته وتسخير أجهزة الجسم المتعددة، مراكز الإحساس مع مكونات الجسم الأخرى وقد نبه الحق سبحانه وتعالى إلى الحفاظ على هذه النعم الظاهرة والباطنة فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولٗا﴾[1].

والحديث النبوي الشريف يرشد إلى أن هذه النعم التي وهبها الله لعباده هي الوسائل التي بها يجابه الإنسان متغيرات الحياة ويقوي على عمارة الكون.

هذه الوسائل الجسمانية والشكلية تفقد قيمتها ووظيفتها الحقيقية في الحياة إذا لم يكن القلب هو الميزان الذي ينظم حركتها، ويضبط إيقاعها بفضل توفيق الله، واستجابة العبد لأوامر الخالق ونواهيه.

وكل هذه المعاني تكمن في رياض كلمات هذا الحديث الشريف الذي يعد من جوامع كلمه ﷺ، ويتسم بالإيجاز والدقة والشمول، واتساع المعنى، وتعدد الدلالة، والخلوص والقصد والاستيفاء ("إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم") والمعنى المراد من نفي نظر الله عز وجل: انتفاء الثواب والقرب من الله عز وجل.

وفي القرآن الكريم آيات متعددة تؤكد هذا المعنى الذي يعد من سمات التصرف الإيماني وعلامات الشخصية الإسلامية في علاقتها بالله سبحانه وتعالى: يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٣٦.

إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[(١)].

وتجيء صياغة الحديث في قالب الجملة الاسمية المؤكدة لتدل على ثبات هذه الحقيقة التي تؤكد الاعتناء بحال القلب وصفاته بتحقيق علومه، وتصحيح مقاصده وتطهيره عن كل وصف مذموم، وتحليته بكل نعت محمود.

والقلب: ميزان الإيمان وعلامة القبول والاطمئنان؛ ومما يؤكد هذه الوظيفة الإيمانية أن المصطفى ﷺ نبه إلى مكانة القلب من الجسد: فهو مقياس الصلاح والفساد حيث يقول في حديثه الشريف. ((ألا وإن في الجسد مضغة: إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب))[(٢)].

وقال أحد الصالحين العابدين مصورًا خشية الله ومراقبته، وعدم الغفلة والنسيان: "إن لله عبادًا ذكروه فخرجت نفوسهم إعظامًا واشتياقًا، وقوم ذكروه فوجلت قلوبهم فرقًا وهيبة فلو حرقوا بالنار لم يجدوا مس النار وآخرون ذكروه في الشتاء وبرده فارفضوا عرقًا من خوفه، وقوم ذكروه فحالت ألوانهم غبرًا، وقوم ذكروه فجفت أعينهم سهرًا".

وهؤلاء العباد هم الأولى بفضل الله ورعايته ونظره ومعيته وهم الذين تصور واقعهم هذه الأبيات التي استشهد بها النووي في مقدمة كتاب رياض الصالحين قائلاً:

ولقد أحسن القائل:

إن لله عبادًا فطنا	طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها فلما علموا	أنها ليست لِحَيٍّ وطنا
جعلوها لجة واتخذوا	صالح الأعمال فيها سفنا

وفي هذا الحديث عدة مسائل تفصح عنها لغة الحديث وصياغته ودلالته ومنها:

أ- الحض على النية الحسنة، وضرورة إصلاح القلب؛ لأن عمل القلب هو المصحح

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٢.

(٢) أخرجه البخاري ٥٢، ٢٠٥١، ومسلم ١٥٩٩.

للأعمال الشرعية، والقلب منطلق الأحاسيس والمشاعر، ويجب أن تكون هذه المشاعر متسمة بالنبل والرأفة والحب لكل القيم الإنسانية والمبادئ الإسلامية.

ب- يرشد الحديث إلى مقاومة آفات الحواس الظاهرة، وآفات القلوب ومنها آفة النفاق، وآفة الرياء، وآفة الحسد وكل ما يشوه القيم الإسلامية ويمزق الأواصر الاجتماعية.

ج- مقاومة الغرور الذي يصيب بعض الأفراد الذين خدعتهم مقومات القوة المادية، فغدوا يتباهون بما رزقوا من جمال في الهيئة، وقوة في الجسد، وبهاء في الشكل الحسي الجسدي، وربما يؤدي ذلك إلى التعالي والكبر، والبطش والاستبداد والظلم، واحتقار الغير والانتقاص من قدره، وهذا المغرور الأحمق لا يفقه دلالة هذا الحديث الشريف، ولا يدرك فداحة الخطب ومرارة الحرمان حين يحرم من نظر الله عز وجل وحمايته، وحين يطرد من ساحة رضوانه ورحمته وهو بهذا الغرور والسفه، وإهمال إصلاح قلبه، واهتمامه بالعرض دون الجوهر، والأجسام دون الأحلام والإفهام، إن هذا الصنف ألقى بنفسه في دائرة الماديين والحمقى الذين اشتروا بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

إن الآفات الشخصية والأمراض الاجتماعية يحذر منها هذا الحديث الشريف في أسلوب يتسم بالإيجاز، والإيحاء، والإيماء، وعدم الإطناب والتفصيل، وتلك الخصائص من أهم سمات البيان النبوي فهو كما قال الجاحظ: الكلام الذي قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه، وجمع بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام، وبين الخطب الطوال بالكلم القصار.

وفي هذا الحديث الموجز يعثر كل قارئ وطالب للهداية على نسق البلاغة النبوية التي خضعت الأفكار لآيتها وحُسرت العقول دون غايتها، وألفاظ النبوة يعمرها قلب متصل بجلال خالقه ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه.

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٧٧.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد والاستدراك.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: أهمية العناية بسلامة القلب.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: العناية بالأعمال الصالحة.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: عدم الغلو في تعظيم صاحب الأعمال الصالحة في احتقار المقترف للأعمال السيئة.

خامسًا: من واجبات الداعية: الإخبار بأن الله تعالى لا ينظر إلى الأجسام وإنما ينظر إلى القلوب.

أولاً- من أساليب الدعوة: التوكيد والاستدراك:

لقد جاء الحديث النبوي الشريف في صيغة "التوكيد" ليؤكد مضمون ما بعده، وهو نفي نظر الله سبحانه وتعالى إلى الأجسام أو الصور من عباده، وفائدة التوكيد هنا إزالة ما يكون قد علق بأذهان بعض المدعوين من نظر الله إلى قوة الأجساد أو حسن الصورة، كما يقع ذلك من البشر، تعالى عن ذلك ربي علوًا كبيرًا، ولله المثل الأعلى. وبعد هذا النفي المؤكد يأتي الاستدراك، ليبين أهمية المستدرك وهو الأعمال ونظر الله إليها، مما يلزم عنه تحسينها وتجويدها وإخلاصها.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: أهمية العناية بسلامة القلب:

حيث جاء في الحديث "ولكن ينظر إلى قلوبكم" ومما هو معلوم أن القلب عليه المدار في الأعمال قال القرطبي: (وفي الحديث الاعتناء بحال القلب وصفاته بتحقيق علومه، وتصحيح مقاصده وعزومه، وتطهيره عن كل وصف مذموم، وتحليته بكل نعت محمود، فإنه لما كان القلب محل نظر الرب، حق على العالم بقدر اطلاع الله تعالى على قلبه أن يفتِّش عن صفات قلبه وأحواله، لإمكان أن يكون فيه وصف مذموم يمقته الله بسببه. والاعتناء بإصلاح القلب وصفاته مقدم على عمل الجوارح، لأن عمل القلب هو المصحح للأعمال الشرعية إذ لا يصح عمل شرعي إلا من مؤمن عالم بمن كلّفه، مخلص له فيما يعمله، ثم لا يكمل إلا بمراقبته تعالى فيه المعبر عنها بالإحسان)[1].

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٥٣٨/٦، وانظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٤٣.

ولأهمية العناية بسلامة القلب قال ابن مفلح: (قال تقي الدين: إن صلاح القلب مستلزم لصلاح سائر الجسد، وفساده مستلزم لفساد سائر الجسد، فإذا رأى ظاهر الجسد فاسدًا غير صالح علم أن القلب ليس بصالح بل فاسد، ويمتنع فساد الظاهر مع صلاح الباطن، كما يمتنع صلاح الظاهر مع فساد الباطن، إذ كان صلاح الظاهر وفساده ملازمًا لصلاح الباطن وفساده)(١).

وقال ابن القيم: (ولله على كل قلب هجرتان، وهما فرض لزوم له على الأنفاس: هجرة إلى الله سبحانه بالتوحيد والإخلاص والإنابة والحب والخوف والرجاء والعبودية، وهجرة إلى رسوله ﷺ بالتحكيم له والتسليم والتفويض والانقياد لحكمه فما لم يكن لقلبه هاتان الهجرتان فليحثُ على رأسه الرماد، وليراجع الإيمان من أصله، فيرجع وراءه ليقتبس نورًا، قبل أن يحال بينه وبينه، ويقال له ذلك على الصراط من وراء السور)(٢).

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: العناية بالأعمال الصالحة:

يظهر هذا من الحديث في قوله "ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم"(٣) وقد دلت النصوص الشرعية على فضل عمل الصالحات قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾(٤) والعمل الصالح سبب لتبديل السيئات حسنات، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾(٥) والعمل الصالح سببٌ لدخول الجنة، قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ

(١) الآداب الشرعية، حماد بن عبدالله الحماد ١/١٦٠.

(٢) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٣/٣٢٦.

(٣) كما في الرواية ٢٥٦٤، ٣٤ عند مسلم.

(٤) سورة التوبة، آية: ١٠٥.

(٥) سورة الفرقان، آية: ٧٠.

ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجۡرِى مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَـٰرُ﴾(١) والعمل الصالح يرفعه الله إليه ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾(٢) ومما يجب على المسلم في العمل الصالح أن ينقيه من الرياء والشرك ويجعله خالصًا لله تعالى حتى يثاب عليه قال ابن قدامة المقدسي: (والعمل بغير نية عناء، والنية بغير إخلاص رياء، والإخلاص من غير تحقيق هباء قال الله تعالى ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٍ فَجَعَلۡنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾(٣) فالوظيفة الأولى على كل عبد أراد طاعة الله تعالى أن يعلم النية أولاً لتحصل له المعرفة، ثم يصححها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والإخلاص اللذين هما وسيلتان للعبد إلى النجاة)(٤).

رابعًا- من موضوعات الدعوة: عدم الغلو في تعظيم صاحب الأعمال الصالحة وفي احتقار المقترف للأعمال السيئة:

قال القرطبي: (يستفاد من هذا الحديث فوائد: ... الثالثة: أنه لما كانت القلوب هي المصحِّحة للأعمال الظاهرة وأعمال القلب غيب عنا، فلا يقطع بمغيب أحد، لما يرى عليه من صور أعمال الطاعة أو المخالفة، فلعلّ من يحافظ على الأعمال الظاهرة يعلم الله تعالى من قلبه وصفاً مذمومًا لا تصحّ معه تلك الأعمال، ولعل من رأينا عليه تفريطًا أو معصية يعلم الله من قلبه وصفًا محمودًا يغفر له بسببه، فالأعمال أمارات ظنية لا أدلة قطعية، ويترتب عليها عدم الغلوِّ في تعظيم من رأينا عليه أفعالاً صالحة، وعدم الاحتقار لمسلم رأينا عليه أفعالاً سيئة؛ بل تحتقر وتذم تلك الحالة السيئة، لا تلك الذات السيئة، فتدبَّر هذا، فإنه نظر دقيق)(٥) لأن الموضوعية والتوسط في النظر للأمور مطلب

---

(١) سورة محمد، آية: ١٢.

(٢) سورة فاطر، آية: ١٠.

(٣) سورة الفرقان، آية: ٢٣.

(٤) مختصر منهاج القاصدين، ابن قدامة المقدسي تحقيق: زهير الشاويش ص ٢٩٣.

(٥) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٥٣٩/٦.

هام وضروري، ينبغي على المؤمن أن يحرص عليهما، خاصة وإن قلوب العباد بين إصبعي الرحمن يقلب كيف يشاء.

خامسًا- من واجبات الداعية: الإخبار بأن الله تعالى لا ينظر إلى الأجسام وإنما ينظر إلى القلوب:

حيث أخبر النبي ﷺ بأن الله لا ينظر إلى الأجسام والصور ولكن إلى القلوب والأعمال. لذا يعتبر من أهم واجبات الداعية أن يخبر المدعوين بالحقائق الدينية التي يعلمها، وقد أمر الله رسوله بذلك ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ ﴾[1] وقال جل شأنه ﴿ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[2] وفي إخبار الداعية بالحقائق إقامة الحجة على المدعوين، حتى يكون كل واحد منهم على بيّنة يوجه اهتمامه وعنايته إلى قلبه، فيعمد إلى تطهيره من الغِلّ والحسد والحقد وغير ذلك من الأمراض التي تؤثر عليه، وبعد ذلك من الواجبات المناطة بالداعية.

قال السعدي: (أمر الله نبيه ﷺ بأعظم الأوامر وأجلها، وهو التبليغ لما أنزل الله إليه، ويدخل في هذا: كل أمر تلقته الأمة عنه ﷺ من العقائد والأعمال والأقوال والأحكام الشرعية والمطالب الإلهية. فبلغ ﷺ أكمل تبليغ ودعا وأنذر وبشّر ويسّر، وعلم الجهال الأميين حتى صاروا من العلماء الربانيين، وبلغ بقوله وفعله وكتبه ورسله فلم يبق خير إلا دلَّ أمته عليه، ولا شر إلا حذرها منه، وشهد له بالتبليغ أفاضل الأمة من الصحابة رضي الله عنهم فمن بعدهم من أئمة الدين ورجال المسلمين)[3].

---

(١) سورة المائدة، آية: ٦٧.

(٢) سورة النحل، آية: ٤٤.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٢٠١.

الحديث رقم (٨)

٨- وعَنْ أبي مُوسَى عبْدِ اللّهِ بْنِ قَيْسٍ الأَشعرِيِّ رضي الله عنه قالَ: سُئِلَ رسول الله ﷺ عَنِ الرَّجُلِ يُقاتِلُ شَجَاعَةً، ويُقاتِلُ حَمِيَّةً، ويقاتِلُ رِياءً، أَيُّ ذلِك في سَبِيلِ اللّهِ؟ فَقَالَ رسول الله ﷺ: «مَنْ قاتَلَ لِتَكُون كلِمةُ اللّهِ هِي الْعُلْيَا، فهُوَ في سَبِيلِ اللّهِ» مُتَّفَقٌ عليه(١).

ترجمة الراوي:

أبو موسى الأشعري: عبدالله بن قيس بن سُليم، كنيته أبو موسى الأشعري. مشهور باسمه وكنيته، لكن بكنيته أكثر.

أتى مكة فأسلم، ثم رجع إلى قومه باليمن فأقام بها حتى قدم مع الأشعريين - وكان عددهم نحو خمسين- في سفينة فألقتهم الريح إلى أرض الحبشة حيث وجدوا جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه هناك فأقاموا ثم خرجوا معه إلى المدينة، فأتوا النبي ﷺ بعد فتح خيبر، فقال لهم: ((لكم الهجرة مرتين: هجرتكم إلى الحبشة وهجرتكم إلى المدينة))(٢).

وشارك في الغزوات والجهاد، فشارك في غزوة أوطاس -وهي غزوة بعد غزوة حنين- وأبلى فيها بلاءً حسنًا فأتى النبي ﷺ فدعا له فقال: ((اللهم اغفر لعبدالله بن قيس ذنبه، وأدخله يوم القيامة مدخلاً كريمًا))(٣).

وبعثه النبي ﷺ هو ومعاذ بن جبل إلى اليمن، وولاه على بعض بلادها كزبيد وعدن وأعمالهما، فلما كانت الفتوحات شارك في فتوح الشام، وأقام هناك حتى استعمله عمر بن الخطاب واليًا على البصرة، فافتتح الأهواز ثم أصبهان، فلما عزله عثمان توجه إلى الكوفة يفقّه الناس ويعلمهم، حتى طلب أهلها من عثمان أن يوليه عليهم فولاه.

---

(١) أخرجه البخاري ٧٤٥٨، ومسلم واللفظ له ١٩٠٤/١٥٠. أورده المنذري في ترغيبه ١٩٨٧.

(٢) أخرجه البخاري ٤٢٣٠، ٤٢٣١، ومسلم ٢٥٠٢، ٢٥٠٣، وأحمد واللفظ له ٤١٢/٤ رقم ١٩٦٩٤.

(٣) أخرجه البخاري ٤٣٢٣، ومسلم ٢٤٩٨.

فلما وقعت الفتنة اعتزلها وكان أحد الحكمين اللذيْن حكما في أمر المسلمين وما وقع بينهم من خلاف وقتال.

أما عن صفاته فكان قصيرًا خفيف الجسم قليل شعر اللحية، أعطاه الله حسن الصوت، فكان أحسن الصحابة صوتًا، قال عنه النبي ﷺ وقد سمعه يقرأ القرآن ((لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحة! لقد أوتيت مزمارًا من مزامير آل داود))[١]، ولذلك كانت أزواج النبي ﷺ يستمعن لقراءته إذا قرأ بالليل في المسجد. وقال عنه أبو عثمان النهدي - أحد الذين أسلموا على عهد النبي ﷺ ولم يلقه-: إن كان ليصلي بنا فنودُّ أنه قرأ البقرة من حسن صوته.

ولذا كان عمر بن الخطاب يطلب منه أن يقرأ عليه القرآن ويقول له: ذكرنا ربنا يا أبا موسى. وفي رواية: شوّقنا إلى ربنا.

وكان صاحب عبادة وعلم وفقه وزهد. قال الحسن البصري: ما قدم البصرة راكب خير لأهلها من أبي موسى. واجتهد قبل موته اجتهادًا شديدًا فقيل له: لو أمسكت ورفقت بنفسك. قال: إن الخيل إذا أُرسلت فقاربت رأس مجراها أخرجت جميع ما عندها، والذي بقي من أجلي أقل من ذلك. قال عنه الذهبي: "كان صوامًا قوامًا ربانيًا عابدًا ممن جمع العلم والعمل والجهاد وسلامة الصدر لم تغيره الإمارة ولا اغتر بالدنيا"[٢]. مات سنة ٤٤هـ بالكوفة أو المدينة وقيل غير ذلك في سنة وفاته[٣].

غريب الألفاظ:

الحَمِيَّة: الأَنَفَة والغيرة من أجل الأهل والعشيرة والصاحب ونحو ذلك[٤].

كلمة الله: حُكْمُه وإرادتُه[٥].

---

(١) أخرجه البخاري ٥٠٤٨، ومسلم ٢٣٦-٧٩٣.

(٢) سير أعلام النبلاء، الذهبي ٣٩٦/٢.

(٣) الطبقات الكبرى، ابن سعد ٣٢٤/٢، ١٠٥/٤، ١٦/٦، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٤٣٢، ٨٥١، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير ٣٦٤/٣، ٢٩٩/٦، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ٨٢١، والسير ٣٨٠/٢، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي ٢٤٣/٤، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٤٠٥/٢، والأعلام، خير الدين الزركلي ١١٤/٤.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ح م ي)، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢١٩، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٤/٦.

(٥) الوسيط في (ك ل م).

الشرح الأدبي

في هذا الحديث النبوي الشريف تتجلى خاصية أسلوبية لها أثرها في تقريب المعنى وتشويق السامع وإقناع المخاطب، وهي خاصية "الحوار" عن طريق السؤال والجواب؛ والحوار من شأنه أن يحدث تفاعلاً بين السائل والمجيب، وأن ينتهي إلى فائدة هي: الإقناع والإمتاع.

والبيان النبوي في الأحاديث الشريفة ينطوي على أسرار تعبيرية دقيقة تحتاج إلى التأمل والتفكر والتدبر في كل كلمة وكل جملة، وفي كيفية بناء الحديث أسلوبيًا، وهذا التأمل يقودنا إلى اكتشاف مواطن الجمال والقوة في كلام سيد المرسلين فكلامه ﷺ كلما زدْتَه فكرًا زادك معنى، وتفسيره قريب كالروح في جسمها البشري، ولكنه كالروح في سرها الإلهي كما يقول الرافعي: والأمر يزداد جلاء حين ينبه الرافعي إلى ضرورة التأمل في كلام رسول الله واستكشاف مقاصده وأسراره ومواطن جماله. "فهو معك على قدر ما أنت معه إن وقفت على حد وقف وإن مددت مدّ وما أدّيت به تأدى.

وراوي الحديث أبو موسى الأشعري: هو الذي صاغ القالب الحواري عن طريق روايته، وهو نموذج للمؤمن الذي قاتل وجاهد لتكون كلمة الله هي العليا مع أصحاب المصطفى الأخيار.

وأول ما يلفت الانتباه في صياغة هذا الحديث الشريف هو بناء الفعل "سئل" للمجهول وعدم تحديد السائل، وذلك لأن القضية لا تتعلق بشخص السائل، وإنما تتعلق بمنهج الإسلام في إخلاص النية وسلامة العقيدة والحرص على إعلاء كلمة الإسلام ورفع راية التوحيد، وأن لا ينازع هذا المقصد الأسمى مقصد دنيوي آخر، وقيل أن السائل هو: لاحق بن ضمرة الباهلي.

ولم يأت لفظ الرجل في صيغة النكرة مجردًا من أل، ولكنه جاء مقترنًا بأل وهي للجنس أي جنس الرجل وهي ليست للتعريف؛ حتى يزول أي إيحاء بتحديد رجل معين لأن السياق يُعْنى به توضيح مبدأ عام من مبادئ الإسلام في الدفاع عن الدين، والجهاد في سبيل الله والاستشهاد في الميدان.

وصيغة يقاتل تنبئ عن حقيقة إسلامية وميدانية وهي الدفاع عن النفس والدين والعرض والمال؛ لأن الصيغة تدل على المفاعلة والقتال من الجانبين فالقتال ليس اعتداءً ولكنه دفاع ومقاتلة؛ وآية سورة التوبة دليل صدق هذا المنهج الإسلامي والقرآن تفيض آياته البينات بمعالم هذا المنهج في سبيل إعلاء كلمة الله : يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[1].

وكرر الفعل يقاتل بهذه الصيغة التفاعلية ثلاث مرات.

وفي روايتي الحديث: حتى تستقر في الذهن هذه الصيغة التي تعلن عن جو الصراع وطبيعة الجهاد وهو الدفاع عن النفس وليس العدوان، وحتى يعلم المنافقون والملحدون وأعداء الإسلام بصفة عامة أن الدين الإسلامي ليس دين قتل كما يدعون، ويزعمون، ويبالغون في هذا الادعاء، حين يقولون بأن الإسلام انتشر بحدّ السيف، ولم يتدبر هؤلاء الجاحدون قول الله عز وجل: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[2].

والأسلوب الحواري في الحديث يوضح أنواع القتال، وأبعاد الصراع في الحياة ولكن هذا التحديد لم يُقدَّم في صيغة مألوفة تقديرية وإنما جاء في هذه الصيغة ليحمل لكل من تحدثه نفسه بإشعال نيران الفتنة، وإذكاء أسباب الصراع الذي تتعدد أشكاله وأبعاده، بأن كل صراع في الحياة وكل صراع في سبيل غاية ذاتية أو طبقية أو قبلية أو شعوبية أو مادية كل هذه الغايات تذهب سدى، وهي هباء تذروه الرياح ما لم تتحصن بالغاية المثلى والمقصد الأسنى، وهي أن تكون كلمة الله هي العليا، وهذا هو المنهج الإسلامي الصحيح.

---

(١) سورة التوبة، آية: ١١١.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٩٠.

فالنية هنا هي: ثمرة نجاح العمل أو إخفاقه مهما تعددت دواعيه ومهما تشعبت نتائجه.

والجمع بين الروايتين يوضح أن أسباب طلب القتال خمسة وهي: (طلب المغنم، وإظهار الشجاعة، والرياء، والحمية، والغضب) إلا أنه لا يكون في سبيل الله إلا من كان سبب قتاله طلب إعلاء كلمة الله.

وحين نتأمل الموقع الإعرابي لهذه الكلمات التي ترصد أبعاد الصراع وأنواع القتال في هذا الحديث الشريف وهي: شجاعة، وحمية، ورياء، نرى أنها منصوبة في موقع "المفعول له" أي أن القتال لم يكن إلا بدافع خارجي بعيد عن الدافع الحقيقي وهو إعلاء كلمة الله ورفع راية التوحيد.

فالمقاتل يواجه الخصوم ويجول ويصول في ميدان المعركة من أجل أن يمدحه الناس، ويعددون مآثره ودلائل شجاعته وفروسيته؛ ولكن الشجاعة إذا سبقت بنية القتال في سبيل الله فهي مطلب محمود؛ لأن المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وقد ذهب المحققون إلى أنه إذا كان الباعث الأول قصد إعلاء كلمة الله لم يضره ما إنضاف إليه، وقد ورد عن أبي أمامه أنه قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله ((أرأيت رجلا غزا يلتمس الأجر والذكر. ماله؟ قال: "لا شيء له"، ثم قال رسول الله ﷺ: إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا وابتغى به وجهه تعالى))[1].

والحمية هي الأنفة والغيرة والمحاماة عن العشيرة: والقتال في هذا الميدان مسؤولية اجتماعية، توجب على الإنسان التصدي لكل من يغير على حماه، وينتهك حرماته ولكن هذا التصدي وذلك الدفاع لن يصبغ بصبغة المنهج الإسلامي إلا إذا كانت النية متجهة إلى صيانة الحرمات، وحماية الأعراض والدفاع عن الديار والأوطان التي أمر الإسلام بالحفاظ عليها، والدفاع عنها وهذا السلوك من مكونات الرؤية الإسلامية في الحياة التي ترى في كل عمل صالح قوة للمسلمين، وإعلاءً لراية الإسلام، أما الرياء في

---

(١) أخرجه النسائي ٣١٤٠، وحسنه الألباني (صحيح سنن النسائي ٢٩٤٣).

النص النبوي الشريف "ويقاتل رياءً" فهو الدافع إلى المقاتلة لأنه "مفعول له"، وكأن هذا المقاتل لا يبتغي ثمرة إلا السمعة والإشادة ببطولته وشجاعته مثلما يفعل كثير من قادة الحروب في العالم قديمًا وحديثًا.

وإذا كان القتال شجاعة والقتال حمية مصحوبًا بإرادة القصد ونية إعلاء كلمة الله مقبولاً وله ثمرته المرجوة، فإن القتال رياءً لا تجدي معه إرادة أخرى ولا قصد آخر؛ لأن إرادة الرياء وقصديته تحجب كل بارقة من بوارق القبول والثواب.

وجملة الاستفهام "أي ذلك في سبيل الله" تحدد موقف السائل من دوافع القتال السابقة من خلال الإشارة إليها باسم الإشارة "ذلك" الذي يوحي بالبعد، وعدم التآلف مع هذه الدوافع، والتعبير بـ "هذا" يدل على القرب والتحقق والتميز حسب سياق الأسلوب.

ولنتأمل بعد هذه الجولة الأسلوبية التي تحاول استكشاف مواطن الجمال في البيان النبوي الكريم، كيف كانت إجابة المصطفى ﷺ على هذا السؤال. إنها إجابة غير متوقعة حيث لم يحدد الرسول ﷺ نوعًا واحدًا من الأنواع السابقة، ولكن الإجابة كما يقول "الأسلوبيون" في العصر الحديث: فيها عدول عن الطريق المعهود المتوقع، حيث عدل رسول الله كما يقول العلماء إلى لفظ جامع عدل به عن الجواب عن ماهية القتال إلى حال المقاتل، فتضمن الجواب وزيادة، وقيل بأنه لو أجاب بأن جميع ما ذكره السائل ليس في سبيل الله لاحتمل أن يكون ما عداه في سبيل الله، وليس كذلك كما يقول الحافظ في فتح الباري.

وهذه الإجابة الجامعة تفتح منافذ الرجاء لمن تحدثه نفسه بدوافع أخرى مع الحرص على إعلاء كلمة الله، فقد تتحقق الدوافع الأخرى وقد تستجد دوافع جديدة، ولكنها تظل في دائرة المنهج الإسلامي وصون الأعراض والحرمات والأموال والنفس والوطن والأهل، وكل ما يدخل تحت رعاية المسلم ومسؤوليته.

وحين نطيل التأمل في استكشاف معالم الجمال في أساليب الحديث النبوي ندرك كما يقول د. محمد رجب البيومي في كتابه "البيان النبوي" أنها: تلج بالمعنى إلى شعاب النفس فتزيده وضوحًا في الخاطر، وجلاءً في الذهن لتسيل أفكاره الهادية دمًا يترقرق في عروق المسلم، ونورًا يمتد في عقله وبصره ونَفَسًا يتردد في رئتيه، وذلك بعض ما يفيض به البيان الساحر والأدب الرفيع.

فقه الحديث

١- بيان أن الأعمال إنما تحسب بالنيات الصالحة، وأن الفضل الذي ورد في المجاهدين في سبيل الله يختص بمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا[١].

٢- جواز السؤال عن العلة وتقدم العلم على العمل[٢].

٣- ذم الحرص على الدنيا وعلى القتال لحظ النفس في غير الطاعة[٣].

٤- وجوب الإخلاص في الجهاد والتصريح بأن القتال للشجاعة والحمية والرياء خارج عن ذلك[٤].

قال ابن دقيق العيد: (في الحديث دليل على وجوب الإخلاص في الجهاد وتصريح بأن القتال للشجاعة والحمية والرياء خارج عن ذلك)[٥].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

ثانيًا: من واجبات المدعو: السؤال عما أشكل عليه.

ثالثًا: من مهام الداعية: توضيح المسائل وبيان الحقائق للمدعوين.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: الإخلاص وحسن النية في الجهاد.

أولاً- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

يظهر هذا من الحديث "سئل رسول الله ... أي ذلك في سبيل الله؟" والسؤال والجواب أسلوب من أساليب الدعوة حيث يعتمد على الحوار بين الداعية والمدعو (والأسلوب

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٤٩/١٣، فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٧/٦، نيل الأوطار، الشوكاني ٢١٥/٧.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٧/٦.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٧/٦.

(٤) مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، الشيخ مصطفى السيوطي ٥٣٠/٢، إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، تقي الدين بن دقيق العيد ٣٤١/٢.

(٥) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، تقي الدين بن دقيق العيد ٣٨٤.

الحواري الاستجوابي يثير الانتباه، ويحرك الفطنة والذكاء، ويذهب الملل والسآمة، وقد سُئل رسول الله ﷺ عن أنواع من القتال أيها في سبيل الله؟ وقد أجاب ﷺ بأن من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله. ويصب في مشاعر الأحاسيس معين المعرفة وسلسبيل الهدى)[١].

ثانيًا- من واجبات المدعو: السؤال عما أشكل عليه:

يتضح هذا من سؤال النبي ﷺ في الحديث: (أي ذلك في سبيل الله؟) والمدعو واجب عليه أن يسأل عما لا يعلم، وعما أشكل عليه حتى يعمل عن علم فيعرف الصواب فيفعله، ويعرف نقيضه فيجتنبه، وقد أمر الله بالسؤال فقال: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٢] وقال سبحانه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾[٣].

وبسؤال المدعو عما خفي عليه يزول اللبس والإبهام لديه، حتى يعبد الله عز وجل على بينة من أمره (إن المدعو بعد أن وفق إلى الحق والخير، فإن عليه أن يسأل ويستوضح عن كل ما لا يعرفه أو يشكل عليه من أمور العقيدة والعبادات وأمور المعاملات وطرق الخير وأبواب البر، وعن كل شبهة ترد عليه في دينه حتى يعبد الله، وقد خلص قلبه وعقله من كل الشبهات، والأصل في المسلم أن يسأل عما لا يعلم، وكان الصحابة رضوان الله عليهم يسألون رسول الله ﷺ عن كل ما يعنّ لهم في شؤون الدين بل في الكثير من شؤون الدنيا، حتى أن بعضهم كان يسأل عن الشر مخافة أن يقع فيه)[٤].

ثالثًا- من مهام الداعية: توضيح المسائل وبيان الحقائق للمدعوين:

حيث بيّن النبي ﷺ مَنْ الذي يقاتل في سبيل الله، قال ابن حجر: (وفي إجابة النبي ﷺ من جوامع كلمه لأنه أجاب بلفظ جامع لمعنى السؤال مع الزيادة عليه)[٥].

قال ابن رجب: (وقد سئل النبي ﷺ عن اختلاف نيات الناس في الجهاد وما يقصد به

---

(١) صفات الداعية، د. حمد العمار ص ٩٧.

(٢) سورة النحل، آية: ٤٣.

(٣) سورة الفرقان، آية: ٥٩.

(٤) أصناف المدعوين وكيفية دعوتهم، د. حمود بن أحمد الرحيلي ص ١٧، ١٨.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٦٨/١.

من الرياء، وإظهار الشجاعة والعصبية وغير ذلك، أي: ذلك في سبيل الله فقال: "من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله" فخرج بهذا كل ما سألوا عنه من المقاصد الدنيوية وسائر الأعمال كالجهاد في هذا المعنى، فصلاحها وفسادها بحسب النية الباعثة عليها، كالهجرة والحج)[١].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: الإخلاص وحسن النية في الجهاد:

حيث جاء في الحديث "من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله"، قال الإمام النووي: (وفي الحديث أن الأعمال تحسب بالنيات الصالحة، وأن الفضل الذي ورد في المجاهدين في سبيل الله يختص بمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا)[٢].

وقال السيد سابق: (والإخلاص: أن يقصد الإنسان بقوله وعمله وجهاده وجه الله، وابتغاء مرضاته، من غير نظر إلى مغنم أو جاه أو لقب أو مظهر أو تقدم أو تأخر، ليرتفع المرء عن نقائص الأعمال، ورذائل الأخلاق ويتصل مباشرة بالله، والعمل لا يعتد به، ولا يعتبر خيرًا إلا إذا كان عن نية طيبة خالصة لوجه الله، لأن العمل حينئذٍ يناط بغاية واحدة، ومثل أعلى هو الله)[٣].

وقال القرطبي: (قوله ﷺ: "من قاتل لتكون كلمة الله هي العلياء؛ فهو في سبيل الله" يعني بـ "كلمة الله": دين الإسلام. وأصله: أنَّ الإسلام ظهر بكلام الله تعالى؛ الذي أظهره على لسان نبيه ﷺ.

ويفهم من هذا الحديث: اشتراط الإخلاص في الجهاد، وكذلك هو شرطٌ في جميع العبادات؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[٤]. والإخلاص: مصدر من: أخلصت العسل وغيره: إذا صفَّيته، وأفردته من شوائب كدره. أي: خلَّصته منها. فالمخلِصُ في عباداته هو الذي يُخلِّصها من شوائب الشرك والرياء. وذلك لا يتأتى له إلا

---

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٧٥/١ مع تصرف يسير.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢١٩.

(٣) إسلامنا، السيد سابق ٣٧، ٣٨.

(٤) سورة البينة، آية: ٥.

بأن يكون الباعثُ له على عملها قصد التقرُّب إلى الله تعالى، وابتغاء ما عنده. فأمَّا إذا كان الباعثُ عليها غير ذلك من أعراض الدنيا؛ فلا يكون عبادةً، بل يكون مصيبةً موبقةً لصاحبها؛ فإمَّا كفرٌ، وهو: الشرك الأكبر؛ وإما رياءٌ، وهو: الشرك الأصغر. ومصيرُ صاحبه إلى النَّار، كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه في الثلاثة المذكورين فيه[1]، هذا إذا كان الباعث على تلك العبادة الغرضُ الدنيوي وحده، بحيث لو فُقِد ذلك الغرض لتُرك العمل. فأمَّا لو انبعث لتلك الحالة -العبادة- لمجموع الباعثين -باعث الدنيا وباعث الدين- فإن كان باعثُ الدُّنيا أقوى، أو مساويًا ألحق القسم الأول في الحكم بإبطال ذلك عند أئمة هذا الشأن، وعليه يدل قوله صلى الله عليه وسلم حكاية عن الله تبارك وتعالى: ((مَن عَمِل عملاً أشركَ معي فيه غيري تركتُه وشريكه))[2]. فأمَّا لو كان باعث الدين أقوى؛ فقد حكم المحاسبي بإبطال ذلك العمل متمسكًا بالحديث المتقدم؛ وبما في معناه، وخالفه في ذلك الجمهور، وقالوا بصحة ذلك العمل، وهو الأقدم في فروع مالك. ويستدلُّ على هذا بقوله صلى الله عليه وسلم: ((إنَّ من خيرِ معايش الناس رجلاً ممسكًا فرسه في سبيل الله))[3] فجعل الجهاد مما يصح أن يتخذ للمعاش، ومن ضرورة ذلك أن يكون مقصودًا، لكن لمَّا كان باعثُ الدِّين على الجهاد هو الأقوى والأغلب، كان ذلك لغرض مُلْغى، فيكون معفوًّا عنه، كما إذا توضأ قاصدًا رفع الحديث والتبرُّد، فأما لو تفرَّد باعث الدين بالعمل؛ ثم عرض باعث الدنيا في أثناء العمل فأولى بالصحة[4].

---

(١) أخرجه مسلم ١٩٠٥.

(٢) أخرجه مسلم ٢٩٨٥.

(٣) أخرجه مسلم ١٨٨٩.

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٣/٧٤٢-٧٤٣.

الحديث رقم (٩)

٩- وعن أبي بَكْرَة نُفيْع بْنِ الْحارِثِ الثَّقفِي ﵁ ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺقال: «إِذَا الْتقى الْمُسْلِمَانِ بسيْفيْهِمَا فالْقاتِلُ والمقْتُولُ في النَّارِ» قُلْتُ: يَا رَسُول اللَّهِ، هَذَا الْقَاتِلُ فمَا بَالُ الْمقْتُولِ؟ قَال: «إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ» متفقٌ عليه[1].

ترجمة الراوي:

أبوبكرة الثقفي: اسمه: نُفيع بن الحارث، وقيل نُفيعٌ بن مَسْرُوح.

مولى رسول الله ﷺ، وقد تدلَّى في حصار الطائف ببَكْرة، وفرَّ إلى النبي ﷺ، وأسلم على يده، وأعلمه أنه عبد، فأعتقه النبي ﷺ وكناه أبا بكرة، وقد سألت ثقيف رسول الله ﷺ. أن يَرُدَّ إليهم أبا بكرة عبدًا، فأبى النبي ﷺ وقال ((هو طليقُ الله وطليقُ رسوله))[2]، وكان يقول: أنا أبوبكرة مولى رسول الله ﷺ فإن أبي الناس إلا أن ينسبوني، فأنا نُفيعُ بن مَسْرُوح.

وقد آخى النبي ﷺ بينه وبين أبي بَرْزَة الأسلمي، وكان رجلاً صالحًا ورعًا، وكان من خيار الصحابة.

وقد سكن البصرة. قال فيه الحسن البصري: لم ينزل البصرة من الصحابة ممَّن سكنها أفضل من عمران بن حصين، وأبي بكرة ﵄.

وكان ممَّن اعتزل الفتنة يوم الجمل وأيام صفين، ولم يقاتل مع أحد من الفريقين وكان كثير العبادة حتى مات، وكان أولاده أشرافًا في البصرة، بكثرة المال والعلم والولايات.

وقد روى عن النبي ﷺ جُملة أحاديث بلغت ١٣٢ حديثًا.

وفي مرض موته أوصى أن يصلي عليه أبو برزة الأسلمي، فصلى عليه. وتوفي بالبصرة سنة ٥١هـ، وقيل ٥٢هـ[3].

---

(١) أخرجه البخاري ٣١ واللفظ له، ومسلم ٢٨٨٨/١٤.

(٢) أخرجه أحمد ١٦٨/٤، رقم ١٧٥٣٠، وقال محققو المسند: (إسناده صحيح ٧١/٢٩).

(٣) الطبقات، ابن سعد ١٥/٧، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٧٨٢، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير ٣٥/٦-٣٦، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ١٣٣٩-١٣٤٠، وسير أعلام النبلاء، الذهبي ٥/٣-١٠، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي ٣٥٨/٧-٣٥٩، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٢٣٩/٤، والأعلام، خير الدين الزركلي ٤٤/٨، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك ١٩٠٨/٣.

الشرح الأدبي

إن المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، وكل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه، وهذه القاعدة الشرعية التي تصون دماء المسلمين، وتُحرِّم الاقتتال بين أبناء الأمة مهما كانت الأسباب الدافعة إلى ذلك.

وقد أرسى القرآن الكريم القانون الإلهي في إدارة الصراع بين الفريقين أو الطائفتين الإسلاميتين حيث قال سبحانه: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[1].

فإذا اشتد الصراع وتحكم في المتصارعين الاندفاع، ولم يحتكما إلى الشرع القويم، وانساقًا وراء التعصب الذميم، وغاب عن أفق الصراع صوت العقل الحكيم ومنطق الهدى العظيم.

في ظل هذا الهوى الجامح، والطيش اللافح يأتي البيان النبوي السديد؛ ليقدم الحكم الرشيد، حتى يرتدع كل معتد أثيم، وكل باغ زنيم؛ ويؤكد المصطفى ﷺ أن المُسلِمَيْن إذا التقيا بسيفيهما -وتقاتلا- وقتل أحدهما الآخر فالقاتل مصيره النار، وكذلك المقتول يلقى المصير نفسه، ويا بؤسه من مصير يقود صاحبه إلى الشر المستطير، والهلاك الخطير والمأوى جهنم وبئس المصير.

ويشع في قلب هذا الجو السؤال الباحث عن الحقيقة: حيث يتساءل أبو بكرة نفيع ابن الحارث الثقفي قائلاً: يا رسول الله: هذا القاتل: أي هذا مصير القاتل فما بال المقتول؟! فيجيب رسول الله ﷺ "إنه كان حريصًا على قتل صاحبه".

وهنا في هذا المقام يعاقب الله سبحانه على النية التي سيطرت على هذين المتقاتلين، والنية تتأرجح بين الهم والعزم، فالهم مرور الفكرة بالنفس من غير استقرار فيها، وهذا

---

(١) سورة الحجرات: ٩.

الهم ربما لا يعاقب عليه الإنسان، وأما العزم فهو التصميم على فعل شيء ما، وتوطين النفس عليه، فهذان المتقاتلان: كل منهما عقد العزم على قتل صاحبه، وهما ما لم يعف الله عنهما أو عن أحدهما- في النار: لأنهما لم يتمسكا بجوهر العقيدة، ولم يتبعا تعاليم القرآن، وتوجيهات السنة النبوية، ولكن إذا اضطر المسلم إلى الدفاع عن نفسه أمام من يعتدي عليه فهذا حقه؛ لأنه لم يبادر بالعدوان والقتال وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أنه جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله: أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي؟ قال: ((فلا تعطه مالك)) قال: أرأيت إن قاتلني؟ قالت: ((قاتله)) قال: أرأيت إن قتلني؟ قال: ((فأنت شهيد)) قال: أرأيت إن قتلته؟ قال: ((هو في النار))[1]، فعلى المسلمين أن يوحدوا كلمتهم، وأن يستعيدوا قوتهم وأن يتجمعوا تحت لواء التوحيد، وأن يعملوا على تقوية شوكتهم ونصرة عقيدتهم، حتى ينهضوا من عثرتهم، ويعودوا إلى هويتهم.

فقه الحديث

في الحديث نهي عن قتال المسلم أو رفع السلاح في وجهه، وأن من أعظم الكبائر عند الله عز وجل قتل امرئ مسلم بغير حق.

وحديث النفس على خمس مراتب، الخاطر وهو حديث النفس، والميل ولا يؤاخذ الإنسان بهما قطعًا، وكذا الهم، أما الهم المقرون بالعزم والعمل فهو مؤاخذ به عند المحققين من الفقهاء وقد عدوا[2] رفع المسلم سيفه في وجه أخيه من باب القصد والعزم من العمل المؤاخذ عليه واحتجوا بهذا الحديث على ما ذهبوا إليه، وقال البعض لا يؤاخذ به ما لم يكن هناك عمل.

---

(١) أخرجه مسلم ١٤٠.

(٢) بريقة محمودية في طريقة محمدية وشريعة نبوية في سرية أحمدية، محمد بن مصطفى الخادمي للخادمي ٢٤٢/٢، والأشباه والنظائر لابن نجيم ص ٣٤، وغمز العيون والبصائر للحموي ١٧٥/١ وما بعدها، والمنثور في القواعد الفقهية للزركشي ٣٦/٢، والزواجر عن اقتراف الكبائر، أبو العباس أحمد بن محمد الهيتمي ٣٧٥/٢، وحاشية العطار على شرح الجلال المحلى، حسن بن محمد العطار على الجلال المحلي ٥٢٠/٢، والفتاوى الكبرى لابن تيمية ٤٤٢/٣ وما بعدها، وغذاء الألباب للسفاريني ٥٧٢/٢. وانظر كذلك: جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٣٢٢/٢-٣٢٦، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٢٧/١١، ٣٢٨، ١٩٧/١٢.

المضامين الدعوية

أولاً: من واجبات الداعية: كشف الشبهات وحل الإشكالات.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: حرمة الاقتتال لطلب الدنيا أو لأي غرض غير شرعي آخر.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: المؤاخذة بالعزم.

أولاً- من واجبات الداعية: كشف الشبهات وحل الإشكالات:

يتضح هذا من خلال بيان النبي ﷺ لذلك بقوله "إذا التقى المسلمان بسيفيهما" وإن من أوجب الواجبات على الداعية بيان الأمور المهمة للمدعوين، وكشف الشبهات وحلّ الإشكالات، وقد أمر الله رسوله ﷺ بالبيان فقال سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1] وقال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ﴾[2].

قال ابن عثيمين: (وفي هذا الحديث دليل على أن الصحابة كانوا يوردون على الرسول ﷺ الشبهة فيجيب عنها، ولهذا لا نجد شيئًا من الكتاب والسنة فيه شبهة حقيقية إلا وقد وجد حلها. إما أن يكون حلها بنفس الكتاب والسنة من غير إيراد سؤال، وإما أن يكون بإيراد سؤال يجاب عنه)[3].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: حرمة الاقتتال لطلب الدنيا أو لأي غرض غير شرعي آخر:

لقد أخبر النبي ﷺ بمصير القاتل والمقتول في هذا الحديث بأنه في النار، وهذا يدل على حرمة اقتتالهما هذا، قال ابن حجر: (وقد أخرج البزار في حديث "القاتل والمقتول في النار" زيادة تبين المراد وهي"إذا اقتتلتم على الدنيا فالقاتل والمقتول في النار" ويؤيده ما أخرجه مسلم بلفظ: ((لا تذهب الدنيا حتى يأتي على الناس زمان لا يدري

---

(١) سورة النحل، آية: ٤٤.

(٢) سورة المائدة، آية: ٦٧.

(٣) شرح رياض الصالحين ١/٣٦.

القاتل فيم قتل ولا المقتول فيم قُتل، فقيل: كيف يكون ذلك؟ قال: الهرْج، القاتل والمقتول في النار))[١] قال القرطبي: (فبين هذا الحديث أن القاتل إذا كان على جهل من طلب الدنيا أو اتباع هوىً فهو الذي أريد بقوله ((القاتل والمقتول في النار))[٢])[٣].

وقال النووي: (وأما كون القاتل والمقتول من أهل النار فمحمول على من لا تأويل له، ويكون قتالهما عصبية ونحوها، ثم كونه في النار معناه مستحق لها وقد يجازى بذلك، وقد يعفو الله تعالى عنه، هذا مذهب أهل الحق... واعلم أن الدماء التي جرت بين الصحابة رضي الله عنهم ليست بداخلة في هذا الوعيد، ومذهب أهل السنة والحق، إحسان الظن بهم والإمساك عما شجر بينهم وتأويل قتالهم وأنهم مجتهدون متأولون لم يقصدوا معصية ولا محْض الدنيا، بل اعتقد كل فريق أنه المحق ومخالفه باغٍ فوجب قتاله، ليرجع إلى أمر الله، وكان بعضهم مصيبًا وبعضهم خطئًا معذورًا في الخطأ لأنه اجتهاد والمجتهد إذا أخطأ لا إثم عليه [وكان عليٌّ رضي الله عنه هو المحق المصيب في تلك الحروب]. هذا مذهب أهل السنة، وكانت القضايا مشتبهة حتى إن جماعة من الصحابة تحيروا فيها فاعتزلوا الطائفتين ولم يقاتلوا ولم يتيقنوا الصواب، ثم تأخروا عن مساعدة أي منهم [أي مساعدة من كان في حقه الصواب])[٤].

وقال ابن حجر: (كان الذين توقفوا عن القتال في الجمل وصفين أقل عددًا من الذين قاتلوا، وكلهم متأول مأجور إن شاء الله بخلاف من جاء بعدهم مما قاتل على طلب الدنيا، ومما يؤيد ما تقدم ما أخرجه مسلم عن أبي هريرة رفعه ((من قاتل تحت راية عَمِيّة يغضب لعصبة أو يدعو إلى عصبة أو ينصر عصبة فقتل فقتلته جاهلية))[٥])[٦].

---

(١) أخرجه مسلم ٢٩٠٨، ٥٦.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٢١٥/٧.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٤/١٣.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٠/١٨/٩، وانظر فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٣/١٣-٣٤.

(٥) أخرجه مسلم ١٨٤٨، ٥٣.

(٦) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٤/١٣.

وقال الطبري: (لو كان الواجب في كل اختلاف يقع بين المسلمين الهرب منه بلزوم المنازل وكسر السيوف، لما أقيم حدٌّ ولا أبطل باطل، ولوجد أهل الفسوق سبيلاً إلى ارتكاب المحرمات من أخذ الأموال وسفك الدماء وسبي الحريم بأن يحاربوهم ويكف المسلمون أيديهم عنهم بأن يقولوا هذه فتنة، وقد نهينا عن القتال فيها وهذا مخالف للأمر بالأخذ على أيدي السفهاء)(١).

والخلاصة أن هذا الوعيد الذي تضمنه هذا الحديث الشريف كما يقول الخطابي: (لمن قاتل على عداوة دنيوية أو طلب ملك مثلاً، فأما من قاتل أهل البغي أو دفع الصائل فقتل فلا يدخل في هذا الوعيد لأنه مأذون له في القتال شرعًا)(٢).

ثالثًا- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

حيث جاء في الحديث: يا رسول الله: هذا القاتل فما بال المقتول؟ فأجاب النبي ﷺ: "أنه كان حريصًا على قتل صاحبه".

ولا شك أن السؤال والجواب أسلوب من أساليب الدعوة وهو يعتمد على الحوار بين الداعية والمدعو، ويلفت انتباه المدعوين، ويجذب أسماعهم وعقولهم. (لذا كان تشجيع الناس على طرح الأسئلة وإبداء الرأي حول مختلف القضايا أمر في غاية الأهمية؛ لأن ذلك يعمق التواصل والمشاركة وتحمل المسؤولية، وهو من الطرق الفعالة في إيجاد القناعة لدى المدعوين لأن الناس يحتاجون إلى إقناع ولا يتأتى ذلك إلا بالمشاركة في عملية التعلم، والتفهم للموضوعات المطروحة، وهم بحاجة إلى التدريب على ذلك، والترحيب باستجابتهم لهذه الدعوة؛ بدلاً مما يحصل الآن من الحرص على صمتهم واستماعهم لما يلقى عليهم)(٣).

ومن صور استعمال القرآن الكريم لأسلوب السؤال والجواب قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى﴾(٤) وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾(٥).

---

(١) نقلاً عن فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٣/٣٤.

(٢) نقلاً عن المرجع السابق ١٢/١٩٧.

(٣) مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي، د. عبدالكريم البكار، ١٥٥.

(٤) سورة البقرة، آية: ٢٢٢.

(٥) سورة الأحزاب، آية: ٦٣.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: المؤاخذة بالعزم:

قال ابن حجر: (استدل بقوله ﷺ "إنه كان حريصًا على قتل صاحبه" من ذهب إلى المؤاخذة بالعزم وإن لم يقع الفعل، وأجاب من لم يقل بذلك أن في هذا فعلاً وهو المواجهة بالسلاح ووقوع القتال ولا يلزم من كون القاتل والمقتول في النار أن يكونا في مرتبة واحدة، فالقاتل يعذب على القتال والقتل، والمقتول يعذب على القتال فقط، فلم يقع التعذيب على العزم المجرد)[١]. وقال في موضع آخر: (احتج به الباقلاني ومن تبعه على أن من عزم على المعصية يأثم ولو لم يفعلها وأجاب من خالفه بأن هذا شرع في الفعل، والاختلاف فيمن همّ مجردًا ثم صمّم ولم يفعل شيئًا، هل يأثم؟)[٢].

ويحسن بنا أن نعرف العزم والعلاقة بينه وبين النية، ولهذا ساقه النووي في هذا الباب -باب الإخلاص وإحضار النية- وبين بعض صور العزم التي يؤاخذ عليها من التي لا يؤاخذ عليها.

العزم في الاصطلاح: جزم الإرادة بعد تردد[٣].

والصلة بين النية والعزم أنهما مرحلتان من مراحل الإرادة، والعزم اسم للمتقدم على الفعل، والنية اسم للمقترن بالفعل مع دخوله تحت العلم بالـمَنْوِيّ[٤].

وقد أفاض ابن رجب الحنبلي في ذكر أنواع الهمّ بالسيئات من غير عمل ولخصّ معظمها ابن حجر، ونسوق تلخيصه من باب الإيجاز ومن أراد التوسع فليراجع ما كتبه ابن رجب الحنبلي وهو نفيس في بابه[٥].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٤/١٢.

(٢) المرجع السابق ١٩٧/١٢.

(٣) قواعد الفقه للبركتي (عن الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٦٠/٤٢).

(٤) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٢٥/١، ورد المحتار ٧٢/١، والذخيرة ص ٢٣٥ ط/ وزارة الأوقاف، والمنثور في القواعد ٢٨٤/٣ ط/ وزارة الأوقاف، الكويت (عن الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٦٠/٤٢).

(٥) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٣٢١/٢-٣٢٧ شرح الحديث ٣٧ من الأربعين النووي.

قال ابن حجر: (قسم بعضهم ما يقع في النفس أقسامًا: أضعفها: أن يخطر له ثم يذهب في الحال، وهذا من الوسوسة وهو معفو عنه وهو دون التردد، وفوقه أن يتردد فيه فيهمّ به ثم ينفر عنه فيتركه ثم يهمّ به ثم يترك كذلك ولا يستمر على قصده، وهذا هو التردد فيعفى عنه أيضًا وفوقه أن يميل إليه ولا ينفر عنه لكن لا يصمم على فعله وهذا هو الهمّ فيعفى عنه أيضًا. ومعرفة أن يميل إليه ولا ينفر منه بل يصمم على فعله فهذا هو العزم وهو منتهى الهمّ، وهو على قسمين:

القسم الأول: أن يكون من أعمال القلوب صرفًا كالشك في الوحدانية أو النبوة أو البعث فهذا كفر ويعاقب عليه جزمًا، ودونه المعصية التي لا تصل إلى الكفر كمن يحب ما يبغضه الله ويبغض ما يحبه الله ويحب للمسلم الأذى بغير موجب لذلك فهذا يأثم، ويلتحق به الكبر والعجب والبغي والمكر والحسد، وفي بعض هذا خلاف.

والقسم الثاني: أن يكون من أعمال الجوارح كالزنا والسرقة وشرب الخمر والقتل والقذف ونحو ذلك فهو الذي يقع فيه النزاع، فذهبت طائفة إلى عدم المؤاخذة بذلك أصلاً، ونقل عن نص الشافعي، ... وذهب كثير من العلماء إلى المؤاخذة بالعزم المصمم...)[1].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١/٣٢٧-٣٢٨.

الحديث رقم (١٠)

١٠- وَعَنْ أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «صَلاَةُ الرَّجُلِ فِي جماعةٍ تزيدُ عَلَى صَلاَتِهِ فِي سُوقِهِ وَبَيْتِهِ[١] بضعًا وعِشْرِينَ دَرَجَةً، وذلِكَ أنَّ أحَدَهُمْ إذا تَوَضَّأَ فَأحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ أتَى الْمَسْجِدَ لا يُرِيدُ إلاَّ الصَّلاَةَ، لا يَنْهَزُهُ إلاَّ الصَّلاَةُ[٢]، لَمْ يَخطُ خُطوَةً إلاَّ رُفِعَ لَهُ بِها دَرجةٌ، وَحُطَّ عَنْهُ بِهَا خَطيئَةٌ حتَّى يَدْخلَ الْمَسْجِدَ، فَإذَا دخل الْمَسْجِدَ كانَ فِي الصَّلاَةِ مَا كَانَتِ الصَّلاةُ هِيَ التي تحبِسُهُ، وَالْمَلائِكَةُ يُصلُّونَ عَلَى أحَدِكُمْ ما دام فِي مَجْلِسِهِ الَّذي صَلَّى فِيهِ، يقُولُونَ: اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ تُبْ عَلَيْهِ، مالَمْ يُؤْذِ فِيهِ، مَا لَمْ يُحْدِثْ فِيهِ» متفقٌ عليه[٣]، وهَذَا لَفْظُ مُسْلمٍ.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

حُطَّ: أُسْقِط[٤]، والمراد: غُفرت.

بضعًا: ما بين الثلاثة والعشرة[٥].

ينهزه: يخرجه وينهضه[٦].

الشرح الأدبي

إن هذا الحديث النبوي يحث على صلاة الجماعة بصفتها مظهرًا من مظاهر توحد المسلمين، واجتماع شملهم ووحدة صفوفهم، وفي صلاة الجماعة بالمساجد يبدو المسلمون كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا، وأسلوب هذا الحديث بمكوناته في ألفاظه ..

---

(١) لفظ مسلم: (في بيته، وصلاته في سوقه)، والمثبت لفظ البخاري برقم ٢١١٩.

(٢) لفظ مسلم بتقديم وتأخير.

(٣) أخرجه البخاري ٢١١٩، ومسلم واللفظ له ٦٤٩/٢٧٢. أورده المنذري في ترغيبه ٤٥١.

(٤) الوسيط في (ح ط ط).

(٥) معجم لغة الفقهاء، أ.د. محمد رواس قلعة جي ٨٨.

(٦) رياض الصالحين ٤٤.

وتراكيبه والأدوات التي تربط بين الجُمَل، هذه المكونات كلها تشارك في توصيل المعنى المراد، وترغب المسلمين في ارتياد المساجد وكثرة الخطا إليها.

ومن سمات الترغيب في الحديث الشريف: تكرار لفظ "الصلاة" ست مرات وتكرار الفعل "صلىَّ"، مرتين: مرة في صيغة المضارع يصلون ومرة في صيغة الماضي "صلىَّ" وهذا التكرار من شأنه أن يرغب المسلم في الصلاة وأن يحببها إلى كل أجيال المسلمين وطوائفهم، استجابة لقول الرسول ﷺ: "مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين واضربوهم عليها وهم أبناء عشر"[1].

وكلمات الحديث الشريف تبوح بأسرار بلاغية توحي بما في الحديث من بلاغة وفصاحة وإبراز للمعنى.

ولنتأمل الجملة الأولى في هذا الحديث الشريف، ولنتعرف على أسرارها البلاغية واللغوية (صلاة الرجل في جماعة تزيد على صلاته في سوقه وبيته بضعًا وعشرين درجة).

فالصلاة في اللغة الدعاء وهي معنى الخضوع والخشوع، ولكنها تتجاوز المدلول اللغوي إلى المدلول "الاصطلاحي" الذي حدده الفقهاء لأركان الصلاة وواجباتها ولم يذكر المصطفى ﷺ مكان الصلاة التي تؤدى جماعة إشارة إلى أن الصلاة في المسجد لها أفضليتها وثوابها، وتنبيها إلى أن الصلاة في المسجد أمر معروف لا يحتاج إلى تنبيه ... وهذه السمة الأسلوبية يسميها البلاغيون بلاغة الحذف.

وفي رواية أخرى: صلاة الجميع والجميع ضد المتفرق.

ولفظ: السوق يوحي بأن المسلم لا يترك الصلاة حتى وهو مشغول بالبيع والشراء، وقال العلماء: الصلاة في البيت مطلقًا أولى منها في السوق لما ورد من كون الأسواق؛ محلاً للشياطين؛ وفي حديث آخر يحذر المصطفى ﷺ من الأسواق وما يحدث فيها من اضطراب، وتشويه، واختلاط في الأمور فيقول ﷺ "إياكم وهيشات الأسواق"[2] أي: اختلاطها وفسادها.

---

(١) أخرجه أبو داود، ٤٩٥، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤٦٦).

(٢) أخرجه مسلم ٤٣٢.

ولفظ البضع له دلالة تعددية: فقيل: من الثلاثة إلى العشرة، وقيل من ثلاث إلى تسع، ولكن الروايات الأخرى تحدد المراد من البضع حيث تحدد بعض هذه الروايات بأن صلاة الجميع تزيد على صلاته ... خمسًا وعشرين درجة وفي رواية أخرى سبعًا وعشرين درجة.

ولفظ الدرجة لا يعني العدد ولكنه يفيد الكثرة والارتفاع والسمو والعلو، وقد ذكر ذلك صاحب دليل الفالحين رواية عن ابن الأثير حيث يقول: (إنما قال درجة لأنه أراد الثواب من جهة العلو والارتفاع وأن تلك فوق هذه بكذا درجة لأن الدرجات إلى جهة فوق).

وهذه الجملة الأولى : تمثل قاعدة الحديث الكلية، وفيها تمام الفائدة، وفيها إشارة إلى أن المسلم لا يترك الصلاة في أي مكان: البيت أو السوق: أو أي مكان يتواجد فيه، ولكن الصلاة مع الجماعة في المسجد لها ثوابها العظيم ودرجاتها العلى.

وبعد هذا الإجمال يُفَصِّل المصطفى ﷺ الأمر ويزيده وضوحًا وترغيبًا، ويسوق هذا التوضيح في أسلوب القصة، وهي طريقة فيها إرشاد للمسلم وتعليم له لكيفية الذهاب إلى المسجد، والإخلاص في النية، وترك كل مشاغل الحياة أثناء التهيؤ لأداء الصلاة، وعن كيفية الذهاب إلى المسجد يقول ﷺ: ((إذا ثُوِّبَ[1] للصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون، وأتوها وعليكم السكينة، فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتموا))[2].

والجملة الثانية في الحديث الشريف .. تمثل كيفية إعداد المسلم نفسه للصلاة والذهاب إلى المسجد، وترك الصلاة في البيت والسوق.

وقد تكرر لفظ "المسجد" ثلاث مرات، وذلك ليس إطنابًا، ولا إسهابًا. ولكن هذا التكرار ينبئ عن تلذذ اللسان بذكر لفظ المسجد تعلقًا به، وحبًا للصلاة فيه، وكذلك

---

(١) معناها: نودي، المعجم الوجيز في (ث و ب).

(٢) أخرجه مسلم ٦٠٢.

لينبه القارئ والسامع بأفضلية الصلاة في المساجد، وكذلك لأن مادة "سجد" تفيد معنى الخضوع والطاعة، وهي صفات يتحلى بها المؤمن في عبادته وعلاقته بربه عز وجل.

ولفظ "ذلك" ليس للإشارة ولكنه للتعليل، حيث يعلل المصطفى ﷺ أفضلية الصلاة في المسجد، وهي لابد لها من مقدمات وحيثيات، وأداة الشرط "إذا" تفيد التحقق، وفعل الشرط متحقق وهو "توضأ فأحسن الوضوء" وجواب الشرط متحقق كذلك، وهو الثواب المضاعف المتمثل في رفع الدرجات، ومحو الخطايا؛ وما أجمل هذا الأسلوب النبوي في الترغيب، والإرشاد إلى الطريق الأمثل، والاستعداد الجميل لأداء الصلوات وجمال هذا الأسلوب يكمن في أنه عليه الصلاة والسلام لم يقدم تعليماته، وإرشاداته في جمل وأساليب آمرة، وتعاليم جافة، ولكنه وهو الذي لا ينطق عن الهوى يتمثل قول الله عز وجل ويستجيب لهذه الدعوة الإلهية: في : ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾(١).

ومجيء "الفاء" أداة للعطف: في قوله: "إذا توضأ فأحسن الوضوء" يرشد إلى المتابعة وعدم التمهل في الاستعداد والنظافة والتهيؤ للصلاة؛ وجاء التعبير بـ"ثم" في قوله "ثم أتى المسجد" لينبئ عن السكينة التي أمر بها رسول الله ﷺ في الذهاب إلى الصلاة في قوله: "إذا ثوب للصلاة، فلا تأتوها تسعون، وأتوها وعليكم السكينة".

وتنبيهًا إلى أن هذه الحركة نحو الصلاة يجب أن يصاحبها الإخلاص في النية، وعدم الانشغال بالأموال والأولاد، أو أي مشاغل أخرى يقول عليه الصلاة والسلام: "لا ينهزه إلا الصلاة" أي لا يشغله إلا الصلاة : وهذا الإخلاص ثمرته تعود عليه في كل مراحل طاعته سواء أكان جالسًا في المسجد أم مصليًا.

والإشارة إلى الإخلاص في النية مرة أخرى يتمثل في ختام الجزء الثاني من الحديث الشريف، وهي إشارة بليغة حيث صُوِّر المصلي وهو فارغ البال من كل شواغل الدنيا ما عدا الصلاة بأن الصلاة تحبسه: أي أنه محاط بأسوارها الإيمانية، وجدرانها

---

(١) سورة النحل، آية: ١٢٥.

المعنوية، وستائرها الرضوانية، وإفادة العموم في الثواب ومضاعفة الأجر تتجلى في هذا الطباق بين اللفظين "رفع؛ وحط" وهما فعلان متضادان في الدلالة ولكنها متحدان في البناء للمجهول، والذي يرفع الدرجات ويحط الخطايا لا يحتاج إلى تعريف لأنه هو الذي يعلم السر وأخفى إنه الخلاق العليم رب العالمين، وما أعظم هذا الأجر الذي ينتظر ذلك المصلي الذي أخلص نيته لله وارتاد المساجد، مصليًا، ومعتكفًا، وداعيًا، ومستغفرًا، إن هذا الأجر يتضاعف إلى سبع وعشرين درجة أو خمس وعشرين، وقيل إن السبع مختص بالجهرية والخمس بالسرية.

ومع هذا الأجر المضاعف تستغفر الملائكة، وتدعو لذلك المؤمن الذي دخل المسجد وصلى ثم جلس داعيًا ومستغفرًا... وتدعوا الملائكة له بالرحمة والمغفرة والتوبة.

وفي الحديث تنبيه إلى آداب الجلوس في المسجد، وهي كثيرة متعددة ولكن المصطفى ﷺ أجمل هذه الآداب في جملة قصيرة مكثفة قليل لفظها وكثير معناها، وهي "ما لم يؤذ" وفي رواية: "لم يحدث فيه"، وقد جمع الحديث هنا بين الروايتين فالجالس في المسجد لا يؤذي غيره ولا يؤذي نفسه، ولا يرتكب ما ينقض الوضوء، أو يقدح في شخصيته فيبتعد عن الغيبة والنميمة والكذب والنفاق وغير ذلك.

وقيل: قد تأول أكثر العلماء الأذى بالغيبة والضرب، والجملة على الرغم من اختصارها في فعلين هما "يؤذي ويحدث" فإنها تتسع لكثير من السلوكيات التي تدور في حقلين لغويين هما "الأذى والحدث"، وهذان الفعلان لا يليقان بالمؤمن الذي تستغفر له الملائكة، وتدعو له بالرحمة والمغفرة والتوبة، فقد روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم وهو أعلم بهم كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون))(١).

---

(١) أخرجه مسلم ٦٣٢.

فقه الحديث

لصلاة الجماعة فضل كبير، كما بينها هذا الحديث الشريف، ولأهميتها يقول الفقهاء: (الصلاة في الجماعة معنى الدين، وشعار الإسلام، ولو تركها أهل مصرٍ - بلد من البلدان - قوتلوا، وأهل حارة جبروا عليها وأكرهوا)[١].

ثم اختلفوا بعد ذلك في حكم صلاة الجماعة على ثلاثة أقوال:

القول الأول: ذهب الحنفية في الأصح[٢] وجمهور المالكية[٣] والشافعية في وجه[٤] إلى أنها سنة مؤكدة للرجال.

القول الثاني: ذهب الحنفية في قول[٥] والحنابلة[٦] إلى أنها واجبة وجوب عين فمن تركها فهو آثم.

القول الثالث: ذهب بعض المالكية[٧] والشافعية في الأصح[٨] إلى أنها فرض كفاية إذا قام بها البعض كَفَوْا، وإن تركها الجميع أثموا.

---

(١) المغني، ابن قدامة ١٧٦/٢-١٧٧، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٩٣/٤-١٩٤، والحطاب بهامشه المواق ٨١/٢، ومغني المحتاج ٢٢٩/١ (عن الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٦٥/٢٧).

(٢) تبيين الحقائق، الزيلعي ١٣٢/١.

(٣) مواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي الخطابي ٨١/٢، شرح منح الجليل على مختصر خليل، الشيخ محمد بن أحمد بن محمد عليش لعليش ٣٥١/١.

(٤) مغني المحتاج للشربيني ٤٦٥/١، نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي ١٣٥/٢.

(٥) بدائع الصنائع، الكاساني ١٥٥/١.

(٦) المغني، ابن قدامة ٣/٢، الفروع، ابن مفلح ٥٧٦/١.

(٧) مواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي الخطابي ٨١/٢، شرح منح الجليل على مختصر خليل، الشيخ محمد بن أحمد بن محمد عليش لعليش ٣٥١/١.

(٨) مغني المحتاج للشربيني ٤٦٥/١، نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي ١٣٥/٢.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التزغيب.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل صلاة الجماعة.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل الخطى إلى المساجد.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل انتظار الصلاة.

أولاً- من أساليب الدعوة: الترغيب:

حيث رغب النبي ﷺ في الحديث في فضل صلاة الجماعة والذهاب للمسجد من خلال بيان رفع الدرجات، وحط الخطايا، ودعاء الملائكة، ولاشك أن أسلوب الترغيب له دوره الرئيس في تحفيز النفس للقيام بالأعمال الصالحة (لأن النفس البشرية جبلت على حب الخير والسعي في الحصول عليه ... لذا فإن أسلوب الترغيب فيما عند الله من أجر عظيم لعبده الذي أطاعه واتقاه محبب إلى النفس؛ لأنها تهفو إليه، وتسعد به، وتنصت له ... والداعية المتمكن الحكيم يكثر من المرغبات كبيان جنس الطاعة، كالإيمان بالله تعالى والتوجه الخالص له جل وعلا، والإخلاص في العبادات التي فرضها الإسلام على كل مسلم، وأنه إذا قام بما أوجبه الله تعالى عليه سينال أجر ذلك العمل في الدنيا والآخرة)[1]. ومن صور استعمال القرآن لأسلوب الترغيب قوله تعالى: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴾[2] وقوله جل شأنه: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴾[3].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل صلاة الجماعة:

حيث جاء في الحديث "صلاة الرجل في جماعة تزيد على صلاته في سوقه وبيته بضعًا وعشرين درجة" قال ابن حجر: (ومن صور الفضل في صلاة الجماعة أن فيها إجابة المؤذن بنية الصلاة في الجماعة، ودخول المسجد داعيًا، وصلاة الملائكة عليه

---

(١) قواعد الدعوة الإسلامية، د. الشريف حمدان الهجاري ص ٤٤٠-٤٤١ بتصرف.

(٢) سور النبأ، الآيتان: ٣١، ٣٢.

(٣) سورة الانفطار، آية: ١٣.

واستغفارهم له، والسلامة من الشيطان حين يفر من الإقامة وإظهار شعائر الإسلام، وإرغام الشيطان بالاجتماع على العبادة والتعاون على الطاعة ونشاط المتكاسل، والسلامة من صفة النفاق والانتفاع بالاجتماع على الدعاء والذكر، وعود بركة الكامل على الناقص إلى آخر هذه الفضائل[1].

هذا وقد جاء عن ابن مسعود ﷺ قال: ((مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى الله غَدًا مُسْلِمًا فَلْيُحَافِظْ عَلَى هؤُلاءِ الصَّلَوَاتِ حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ. فَإِنَّ الله شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ سُنَنَ الْهُدَى وَإِنَّهُنَّ مِنْ سُنَنِ الْهُدَى. وَلَوْ أَنَّكُمْ صَلَّيْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ كَمَا يُصَلِّي هذَا الْمُتَخَلِّفُ فِي بَيْتِهِ لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ. وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ. وَمَا مِنْ رَجُلٍ يَتَطَهَّرُ فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ ثُمَّ يَعْمِدُ إِلَى مَسْجِدٍ مِنْ هذِهِ الْمَسَاجِدِ إِلاَّ كَتَبَ الله لَهُ بِكُلِّ خَطْوَةٍ يَخْطُوهَا حَسَنَةً. وَيَرْفَعُهُ بِهَا دَرَجَةً. وَيَحُطُّ عَنْهُ بِهَا سَيِّئَةً. وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلاَّ مُنَافِقٌ، مَعْلُومُ النِّفَاقِ. وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يُهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ))[2].

ولأهمية صلاة الجماعة قال ابن القيم: (ومن تأمل السنة حق التأمل تبين له أن فعل الصلاة في المساجد فرض على الأعيان إلا لعارض يجوز معه ترك الجمعة والجماعة، فترك حضور المسجد لغير عذر كترك أصل الجماعة لغير عذر، وبهذا تتفق جميع الأحاديث والآثار)[3].

لقد حث الإسلام على حضور الجماعة في المسجد، وبيّن فضل الخطى إلى المساجد حيث جاء في الحديث "ثم أتى المسجد لا يريد إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفع له بها درجة، وحط عنه بها خطيئة" وقد دلت النصوص الشرعية على فضل الخطى إلى المساجد قال ﷺ ((مَنْ غَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ أَوْ رَاحَ. أَعَدَّ الله لَهُ فِي الْجَنَّةِ نُزُلاً. كُلَّمَا غَدَا أَوْ رَاحَ))[4] وقال ﷺ أيضًا ((بَشِّرِ الْمَشَّائِينَ فِي الظُّلَم إِلَى الْمَسَاجِدِ بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))[5].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢/١٥٧.

(٢) أخرجه مسلم ٦٥٤.

(٣) الصلاة وحكم تاركها، ابن قيم الجوزية ص ١٣٧.

(٤) أخرجه البخاري ٦٦٢، ومسلم ٦٦٩.

(٥) أخرجه الترمذي ٢٢٣، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٨٥).

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((أعظم الناس أجرًا في الصلاة أبعدهم فأبعدهم ممشى، والذي ينتظر الصلاة حتى يصليها مع الإمام أعظم أجرًا من الذي يصلي ثم ينام))[١].

قال ابن رجب الحنبلي: (وهذا الحديث إنما يدل على فضل المشي إلى المسجد من المكان البعيد، وأن الأجر يكثر ويعظم بحسب بعد المكان عن المسجد)[٢]، وقد بيّن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن المصلي له في كل خطوة يخطوها إلى المسجد درجة، فعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: كانت ديارنا نائية عن المسجد، فأردنا أن نبيع بيوتنا فنقترب من المسجد، فنهاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ((إن لكم بكل خطوة درجة))[٣].

وفي حديث أبي هريرة بيّن صلى الله عليه وسلم أنها ترفع المصلي درجة وتحط عنه خطيئة فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (من تطهر في بيته ثم مشى إلى بيت من بيوت الله، ليقضي فريضة من فرائض الله، كانت خطوتاه إحداهما تحط خطيئة، والأخرى ترفع درجة)[٤].

وقد دلت هذه الأحاديث على أن المشي إلى المساجد يكتب لصاحبه أجره، وهذا مما تواترت السنن به[٥].

وهذا فضل عظيم من الله به على عباده المشائين إلى بيته فهو الكريم وحق عليه أن يكرم زائره، وإكرامه تعالى يبدأ من أول خروج الإنسان من بيته للذهاب إلى الصلاة في المسجد.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل انتظار الصلاة:

حيث جاء في الحديث "فإذا دخل المسجد كان في الصلاة ما كانت الصلاة هي تحبسه والملائكة يصلون على أحدكم ما دام في مجلسه الذي صلى فيه..." وفي فضل

---

(١) أخرجه البخاري ٦٥١، ومسلم ٦٦٢.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤/٣٩.

(٣) أخرجه مسلم ٦٦٤.

(٤) أخرجه مسلم ٦٦٦.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤/٤٤.

انتظار الصلاة قال ﷺ ((إِنَّ أَعْظَمَ النَّاسِ أَجْرًا فِي الصَّلَاةِ أَبْعَدُهُمْ إِلَيْهَا مَمْشىً، فَأَبْعَدُهُمْ. وَالَّذِي يَنْتَظِرُ الصَّلَاةَ حَتَّى يُصَلِّيَهَا مَعَ الإِمَامِ أَعْظَمُ أَجْرًا مِنَ الَّذِي يُصَلِّيهَا ثُمَّ يَنَامُ))[1]. قال ابن رجب الحنبلي: (وهذا الحديث يدل على فضل السبق إلى المسجد في أول الوقت، وانتظار الصلاة فيه مع الإمام)[2].

وقد جعل الرسول ﷺ من يتعلق قلبه بالمسجد لانتظار الصلاة من الذين يظلهم الله في ظله ففي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((سَبعةٌ يُظِلُّهم اللهُ في ظِلِّهِ يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ: الإمامُ العادِلُ، وَشابٌّ نَشأَ في عِبادةِ ربِّه، ورجلٌ قلبُه مُعَلَّقٌ في المساجد، وَرجُلانِ تَحابّا في اللهِ اجتَمَعا عليهِ وتَفَرَّقا عليه، ورجلٌ طَلَبَتهُ امرأةٌ ذاتُ مَنصِبٍ وجمال فقال: إني أخافُ اللهَ، ورجلُ تَصدَّقَ بصدقةٍ فَأَخْفَاهَا حتى لا تَعلمَ شِمالُه ما تُنفِقُ يمينُه، ورَجُلٌ ذكرَ اللهَ خاليًا ففاضَتْ عَيناه))[3] (وهذا الحديث يبين أن الصلاة من الوسائل الفعالة التي اختارها الله تعالى لتنقية قلب العبد، وتطهير روحه ونفسه من شوائب الدنيا وعلائق المادة، وليكون العبد مندفعًا إلى المسجد مشتاقًا للصلاة فيه، ويضع نصب عينيه أن الملائكة تنتظره في رحاب هذا المسجد وأن بيت الله يشع نورًا وضياءً، وينعش النفس، ويربط قلبه بالله تعالى)[4].

---

(١) أخرجه البخاري ٦٥١، ومسلم ٦٦٢.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٩/٤.

(٣) أخرجه البخاري واللفظ له ٦٦٠، ومسلم ١٠٣١.

(٤) انظر: دراسات تربوية في الأحاديث النبوية، د. محمد لقمان الأعظمي الندوي ص ٣٤٤.

الحديث رقم (١١)

١١- وَعَنْ أبِي الْعَبَّاسِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِب رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا، عَنْ رسول الله ﷺ، فِيما يَرْوِى عَنْ ربِّهِ، تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَالَ: **«إنَّ الله كتَبَ الْحسناتِ والسَّيِّئاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذلك: فمَنْ هَمَّ بحَسَنَةٍ فَلَمْ يعْمَلْهَا كتبَهَا اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِنْدَهُ حسنةً كامِلةً وَإنْ همَّ بهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ**[١] **عَشْرَ حَسَنَاتٍ إلَى سَبْعِمَائَةِ ضِعْفٍ إلَى أَضْعَافٍ كثيرةٍ، وَإنْ هَمَّ بسيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ تَعَالَى عِنْدَهُ حَسَنَةً كامِلَةً، وَإنْ هَمَّ بها فعَمِلهَا كَتَبَهَا اللَّهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً»** متفقٌ عليه[٢].

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: صحابي مشهور، علم من أعلام الصحابة، حبر الأمة، وإمام التفسير، وهو عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصَيٍّ، القرشي الهاشمي، ابن عم رسول الله ﷺ، كنيته أبو العباس، وهو أكبر ولده، وُلِد عبدالله بن عباس في الشِّعْب قبل خروج بني هاشم منه، وكان ذلك قبل الهجرة بثلاث سنوات، لازم النبي ﷺ فأخذ عنه علمًا جمًّا، وكان ابن ثلاث عشرة سنة إذ توفي رسول الله ﷺ روى عن النبي ﷺ وروى له الجماعة، ومسنده (١٦٦٠)، له من ذلك في الصحيحين ٧٥ حديثًا متفق عليهما، وتفرد البخاري بـ (١٢٠) ومسلم بـ (٩) أحاديث.

دعا له رسول الله ﷺ بتعلم الحكمة، وتأويل القرآن، والفقه في الدين، فعنه رضي الله عنه أنه قال: ضمني رسول الله ﷺ وقال: ((اللهم علمه الكتاب))[٣] وعنه أن النبي ﷺ دخل الخلاء فوضَعْتُ له وَضوء، قال من وضع هذا؟ فأُخبر، فقال: ((اللهم فقهه في الدين))[٤] بلغ من المنزلة في العلم والفقه ما جعل الصحابة يُجلّونه، ومنهم عمر

---

(١) عند مسلم زيادة: (عنده).

(٢) أخرجه البخاري ٦٤٩١، ومسلم واللفظ له ١٣١/٢٠٧. أورده المنذري في ترغيبه ٢١.

(٣) أخرجه البخاري ٧٥.

(٤) أخرجه البخاري ١٤٣، ومسلم ٢٤٧٧.

- وهو أمير المؤمنين- كان يحبه ويدنيه ويقربه ويشاوره مع أجلّة الصحابة فعنه أنه قال: ((كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر فكأن بعضهم وجد في نفسه، فقال: لم تُدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من قد عَلِمتُم، فدعاه ذات يوم فأدخله معهم، فما رُئيت أنه دعاني يومئذ إلا ليُريهم، قال: ما تقولون في قول الله تعالى ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾[1]. فقال بعضهم: أُمرنا نَحْمَدَ الله ونستغفره إذا نُصِرنا وفُتِحَ علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئًا، فقال لي: أكذاك تقولُ يا ابن عباس؟ فقلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعْلَمَه له، قال: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾ وذلك علامة أجلك ﴿ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴾[2] فقال عمر: ما أعلمُ منها إلا ما تقول))[3] وقال ابن مسعود نعم ترجمان القرآن: عبدالله بن عباس وقال مسروق: كنت إذا رأيت عبدالله بن عباس قلت: أجمل الناس، فإذا تكلم: قلت أفصح الناس، فإذا تحدّث قلت: أعلم الناس، وقال عمرو بن دينار: ما رأيت مجلسًا أجمع لكل خيرٍ من مجلس ابن عباس، الحلال والحرام، والعربية والأنساب، والشعر، وقال عبيد الله بن عبدالله ما رأيت أحدًا كان أعلم بالسُّنة، ولا أجلَّ رأيًا، ولا أثقب نظرًا من ابن عباس، ولقد كان عمر يعده للمعضلات مع اجتهاد عمر ونظره للمسلمين.

وكان ابن عباس قد عَمِي في آخر عمره، فقال في ذلك:

إن يأخذ الله من عينيَّ نورهما ففي لساني وقلبي منهما نور
قلبي ذكيٌّ، وعقلي غيرُ ذي دَخَل وفي فمي صارم كالسيف مأثور[4]

أما عن صفاته الخَلْقية: فكان وسيما، جميلاً، مديد القامة، مهيبًا، كامل العقل، ذكيّ النفس، من رجال الكمال، وقال ابن مَنْده: كان أبيض طويلاً مُشْرَبا

---

(١) سورة النصر، آية: ١.

(٢) سورة النصر.

(٣) أخرجه البخاري ٤٩٧٠.

(٤) الوافي بالوفيات ١٢/١٧.

بصفرة، جسيمًا، وسيمًا، صبيح الوجه له وفرة، يخضب بالحِنّاء.

شهد مع عبدالله بن أبي السرح غزو إفريقية، كما شهد مع عليٍّ الجمل وصفين والنهروان.

استعمله علي بن أبي طالب على البصرة، فبقي عليها أميرًا ثم فارقها قبل أن يقتل عليٌّ، وعاد إلى الحجاز، وحج بالناس لما حُصِرَ عثمان بن عفان رضي الله عنه.

توفي عبدالله بن عباس بالطائف سنة (٦٨) في أيام ابن الزبير، وكان ابن الزبير قد أخرجه من مكة إلى الطائف، ومات بها، وهو ابن (٧٠) سنة، وقيل (٧١)، وقيل (٧٤)، وصلى عليه محمد بن الحنفية، وكبر عليه أربعًا، وقال: اليوم مات ربانِيُّ هذه الأمة، وضرب على قبره فسطاطًا[١]. والفسطاط هو البيت من الشَعْر.

غريب الألفاظ:

هَمَّ بحسنةٍ: عزم عليها[٢].

الشرح الأدبي

إن المسلم لا بد أن يكون يقظًا متنبهًا إلى الأمور والوساوس التي تأخذه بعيدًا عن طريق الطاعة، وحياة المؤمن مرآة ناصعة، وسلوكياته لا تخرج عن دائرة الإيمان ولا تجنح إلى مسالك الشيطان، وأبواب الرجاء مفتوحة على مصراعيها، وكرم الله لعباده المقبلين على رحابه يظللهم، ورحمته تحوطهم بجناحيها.

وفي ظل هذه الرعاية الإلهية تشرق معاني ومقاصد هذا الحديث الشريف، ومعالم هذه الرعاية الربانية تتمثل في هذه المقدمة المشعة لهذا الحديث في قول الراوي متحدثًا

---

(١) الطبقات، ابن سعد ٢/٣٦٥-٣٧٢، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٤٢٣-٤٢٦، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير ٣/٢٩١-٢٩٥، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ٧٩٥، ٧٩٦، وسير أعلام النبلاء، الذهبي ٣٣١-٣٥٩، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي ٤/١٧٦-١٧٨، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٣٦٤-٣٦٦، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك ١٢٢٦-١٢٣٤.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (هـ م م).

عن رسول الله ﷺ حيث يقول : فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى.

ودلالة: الفعل "تبارك" لها صلة عضوية بجو الحديث وأفق العفو والكرم الإلهي اللامتناهي فالفعل "تبارك" معناه: تكاثر خيره، والبركة كثرة الخير ولمادة الفعل "تبارك" دلالة أخرى، وهي تفيد الزيادة أي: تزايد عن كل شيء وتعالى عنه في صفاته، وأفعاله فإن البركة تتضمن معنى الزيادة، والحديث الشريف يبشر كل مسلم يتوج مسيرته بالعمل الصالح بكثرة الثواب، وزيادة الجزاء الحسن ومضاعفة الأجر، وهذه المعاني المبشرة توحي بها هذه الجملة الدالة المباركة "فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى.

ويبدأ الحديث الشريف: بصيغة التوكيد ((إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك)).

وحين نتساءل : ما سر العطف بـ"ثم" وما دلالة اسم الإشارة "ذلك" والعطف هنا يفيد أن كل شيء بأمر الله عز وجل، وأنه على كل شيء قدير، وقد بين ذلك الخلاق العليم للكتبة من الملائكة حتى عرفوه، واستغنوا به عن الاستفسار كل وقت كيف يكتبونه – كما يقول صاحب دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين.

ولنتأمل كيف تكون كتابة الحسنات والسيئات التي أمرت بها الملائكة كما يقول الله عز وجل: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾[١].

وحياة الإنسان في نهجها وسلوكها على كفتي ميزان إلهي عادل: الحسنات والسيئات، والحسنات ثمرة ومقياس العمل الصالح، والسيئات نتيجة الإقدام على المنهيات، فما الطريق إلى النجاة من مغريات الحياة؟ وما الطريق إلى الفوز بالجنة والنجاة من النار؟

إن الطريق المضيء بالعدالة والفضل والرحمة والود والعفو والرجاء: يوضحه المصطفى ﷺ في هذا الحديث الشريف.

يأتي هذا التوضيح البين المعالم في ثلاث جمل متوالية -متماثلة في الصياغة،

---

(١) سورة الانفطار، الآيات: ١٠-١٢.

ولكنها متنوعة الدلالة، والصياغة جاءت في قالب: الشرط والجزاء، وهذه الصيغة اللغوية تتواءم مع منطق الثواب والعقاب؛ الثواب وهو ثمرة الحسنات، والعقاب ثمرة السيئات، وما أعظم كرم الله عز وجل، وما أجلّ رحمته حين يثيب على النية، والهم بالحسنات، دون العمل حيث يقول "فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله تبارك وتعالى عنده حسنة كاملة" وترك العمل هنا لا يكون متعمدًا- وإنما تحول بينه وبين التحقق ظروف وملابسات طارئة، ومعنى "الهم" هنا أي الإرادة وترجيح الفعل، وإذا كانت النية عزمًا وتصميمًا ثم لم يتم العمل لأمر خارج عن إرادة المسلم، فإن الرحمن الرحيم يكتبها حسنة كاملة، ويفسر العلماء التعبير بلفظ "عنده" بأنها عندية شرف ومكانة لتنزهه تعالى عن عندية المكان.

ووصف الحسنة بأنها "كاملة" ليس زيادة في الأسلوب، ولا إطنابًا في المعنى فالبيان النبوي كما يقول الرافعي: هو البلاغة الإنسانية التي خضعت الأفكار لآيتها، وحسرت العقول دون غايتها، وألفاظ النبوة يعمرها قلب متصل بجلال خالقه ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه، فهي إن لم تكن من الوحي ولكنها جاءت من سبيله، وإن لم يكن لها منه دليل فقد كانت هي من دليله.

ولذلك جاء وصف الحسنة بأنها "كاملة": لئلا يظن أنها لكونها مجرد هم ينقص ثوابها، والناس ينقسمون إلى أربعة أقسام في موقفهم من النية والعمل، والحديث هنا مرتبط ارتباطاً موضوعيًا بالباب كله الذي افتتحه صاحب رياض الصالحين بحديث إنما الأعمال بالنيات.

وحين نتأمل مصير الأقسام الأربعة نجد فضل الله وعفوه وكرمه يُظل عباده في ثلاث أقسام، فالمسلم في حركته لا يخرج عن نطاق هذه المنطقة ذات الزوايا الأربع:

أ- الهَمُّ بالحسنة وعدم العمل لعدم الإمكان.

ب- الهَمُّ بالحسنة والعمل لتوفر الأسباب.

ج- الهَمُّ بالسيئة وعدم العمل للعجز عن ذلك أو للخوف من الله.

د- الهَمُّ بالسيئة والعمل بالاختيار مع توفر الأسباب.

ففي **الحالة الأولى** توفرت النية الصالحة، ولكنها لم تترجم إلى عمل حياتي

وسلوكي لعدم توفر الأسباب المؤدية للقيام، والله هنا يثيب على النية الصالحة، ويكافئ العبد على ما نوى وكأنه قام بالتنفيذ حيث تكتب الحسنة كاملة، ولفظ "الحسنة" تتعدد دلالاته وتتسع آفاقه.. وهو من الألفاظ المشعة بكثير من المعاني، فكل إنجاز صالح في الحياة يفيد الفرد والمجتمع، ويقصد به التقرب إلى الله فهو حسنة كاملة.

والحالة الثانية وهي ذروة العمل الصالح حيث تجمع بين الحُسْنيين النية الصالحة والعمل الصالح، وتضم إلى الهم العزم والتصميم والتنفيذ، والجزاء في هذه الحالة مضاعف فالله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم، وإن هم بها فعملها كتبها عنده بعشرة حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

والحالة الثالثة تتجلى فيها رحمة الله بعباده، وفضله على خلقه فهو لا يسجل على العبد خواطره الخاصة، وأحاديثه النفسية إلا إذا كانت في صالحه، ومنبعها التوحيد والإيمان أما إذا كانت هذه الخواطر من باب الوساوس والنوايا السيئة والتفكير في إلحاق الأذى بالناس، فالله يفتح باب الخلاص والنجاة منها، وذلك بعدم تنفيذ ما يموج داخل الإنسان من انفعالات وأوهام وظنون، وحينئذ يثيب الله عبده ويكافئه على هذه المراجعة وهذه المقاومة ويكتب له حسنة كاملة مقابل كل خاطرة سيئة أقلع عنها.

وأما **الحالة الرابعة** فهي الحالة التي يسجل فيها الخالق سبحانه السيئة؛ لأن العبد أصر عليها حين هم بها، ثم نفذها ولكن فضل الله وعدله يجعل هذه السيئة؛ سيئة واحدة، أما الحسنة فهي تتضاعف إلى سبعمائة ضعف وإلى أضعاف كثيرة.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم فقهي يتعلق بحديث النفس وما يتعلق به من أحكام وهل يؤاخذ الإنسان عليه أم لا؟

وقد ذكر الفقهاء[1] أن حديث النفس على خمس مراتب وهي الخاطر والميل والهم

---

(١) انظر في ذلك: بريقة محمودية في طريقة محمدية وشريعة نبوية في سرية أحمدية، محمد بن مصطفى الخادمي للخادمي ٢٤٢/٢، والأشباه والنظائر لابن نجيم ص ٣٤، وغمز العيون والبصائر للحموي ١٧٥/١ وما بعدها، والمنثور في القواعد الفقهية للزركشي ٣٦/٢، والزواجر عن اقتراف الكبائر، أبو العباس أحمد بن محمد الهيتمي ٣٧٥/٢، وحاشية العطار على شرح الجلال المحلى، حسن بن محمد العطار على الجلال المحلي ٥٢٠/٢، والفتاوى الكبرى لابن تيمية ٤٤٢/٣ وما بعدها، وغذاء الألباب للسفاريني ٥٧٢/٢ وفيه تفصيل جميل.

والعزم والقصد مع العمل، والمراتب الثلاثة الأولى لا يؤاخذ الإنسان عليها ما لم يقترن الهم بالعزم، أما العزم فيؤاخذ عليه عند المحققين من العلماء.

ويثور هنا سؤال ما الحكم إن سعى العبد في حصول المعصية بما أمكنه ولكن حال بينه وبينها القدر هل يحاسب عليها أم لا؟

ذكر جماعة من العلماء أنه يعاقب عليها حينئذ لأن سعيه جهده يدل على عمله لها ولكن عجز عن تحصيل النتيجة.

وذهب جماعة من المتأخرين إلى أنه لا يعاقب على المعصية التي تكلم بها ما لم تكن قولاً محرمًا كالقذف والغِيبة والكذب، أمَّا ما كان متعلقًا بعمل الجوارح فلا يأثم بمجرد التكلم به دون العمل.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التفصيل بعد الإجمال.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: بيان كرم الله وفضله على عباده.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: تفاوت أجر العمل بتفاوت الإخلاص.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: الهمّ بالسيئات من غير عمل لها.

أولاً- من أساليب الدعوة: التفصيل بعد الإجمال:

لقد جاء الحديث في صيغة الإجمال "إن الله كتب الحسنات والسيئات"[1] ثمّ أعقبه التفصيل بعد ذلك، ولا شكّ أن الإجمال وإعقابه بالتفصيل مما يجذب الانتباه ويشد الأسماع ويجعل الأفهام أكثر وعيًا وإدراكًا لما يقال، ويُلقى عليها.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: بيان كرم الله وفضله على عباده:

حيث جاء في الحديث: (فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله تبارك وتعالى عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها الله عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى

---

(١) قال ابن هبيرة في الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٣/٧٨: أي قدر مبالغ تضعيفها فعرفت الكتبة من الملائكة ذلك التقدير. فلا يحتاجون أن يستفسروا في كل وقت كيف يكتبون ذلك، بل قد شرع سبحانه ما تعمل الملائكة بحسبه.

أضعاف كثيرة، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة)، وهذا من كرم الله وفضله وإحسانه على جميع خلقه قال الإمام النووي: (وفي الحديث بيان ما أكرم الله تعالى به هذه الأمة زادها الله شرفًا وخففه عنهم مما كان على غيرهم من الإصر وهو الثقل والمشاق، وبيان ما كانت الصحابة رضي الله عنهم عليه من المسارعة إلى الانقياد لأحكام الشرع)[(١)].

وقد نص القرآن الكريم على مضاعفة الحسنات وهذا يدل على فضل الله وكرمه لعباده، قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[(٢)] وبين الله سبحانه أنه يضاعف بعد ذلك ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ﴾[(٣)].

قال ابن حجر: (قال ابن بطال: في هذا الحديث بيان فضل الله العظيم على هذه الأمة لأنه لولا ذلك كاد أن لا يدخل أحد الجنة لأن عمل العباد للسيئات أكثر من عملهم للحسنات، وفي الحديث بيان ما يترتب للعبد على هجران لذّاته وترك شهوته من أجل ربه رغبة في ثوابه، ورهبة من عقابه، وفي الحديث بيان دليل على أن الحفظة لا تكتب المباح للتقييد بالحسنات والسيئات، وفيه أن الله سبحانه وتعالى بفضله وكرمه جعل العدل في السيئة والفضل في الحسنة فضاعف الحسنة ولم يضاعف السيئة، بل أضاف فيها إلى العدل الفضل فأدارها بين العقوبة والعفو)[(٤)].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: تفاوت أجر العمل بتفاوت الإخلاص:

يظهر هذا من الحديث من قوله "وإن همَّ بها فعملها كتبها الله عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة"، قال ابن هبيرة: (ثم قوله: "إلى سبعمائة ضعف" فإنما يعني على مقدار ما يكون فيها من خلوص النية وإيقاعها في مواضعها التي يزيدها

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٧٦.

(٢) سورة الأنعام، آية: ١٦٠.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٦١.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٣٦/١١.

حسنًا، كما قال عز وجل: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾[(١)] ... وعلى هذا جميع أعمال البرّ في معاملة الله عز وجل إذا خرجت سهامها عن نيةٍ وأغرقت في نزع قوس الإخلاص تلك السهام ممتدة لا تنتهي عن يوم القيامة)[(٢)] وقال ابن رجب: (إن مضاعفة الحسنات زيادة على العشر تكون بحسب حسن الإسلام، وتكون بحسب كمال الإخلاص، وبحسب فضل ذلك العمل في نفسه وبحسب الحاجة إليه)[(٣)]. قال ابن عثيمين: (وهذا التفاوت في المضاعفة مبني على الإخلاص والمتابعة فكلما كان الإنسان في عبادته أخلص لله كان أجره أكثر، وكلما كان الإنسان متبعًا للرسول ﷺ في عبادته كانت عبادته أكمل وثوابه أكثر ففي الحديث دليل على اعتبار النية وأن النية قد توصل صاحبها إلى الخير)[(٤)].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: الهم بالسيئات من غير عمل لها:

جاء في الحديث "وإن همّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله تعالى عنده حسنة كاملة"، قال ابن رجب: (وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: ((إنما تركه من جرَّاي))[(٥)] يعني: من أجلي. وهذا يدلُّ على أن المراد من قدر على ما هم به من المعصية، فتركه الله تعالى، وهذا لا ريب في أنه يكتب له بذلك حسنة؛ لأن تركه للمعصية بهذا القصد عمل صالحُ.

فأما إن همَّ بمعصية، ثم ترك عملها خوفًا من المخلوقين، أو مراءاةً لهم، فقد قيل: إنه يعاقب على تركها بهذه النية، لأن تقديم خوف المخلوقين على خوف الله محرم. وكذلك قصدُ الرياء للمخلوقين محرَّم، فإذا اقترن به ترك المعصية لأجله، عوقب على هذا الترك. وقد خرَّج أبو نعيم[(٦)] بإسناد ضعيف عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: يا صاحب

---

(١) سورة الشورى، آية: ٢٣.

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٣/٧٨-٨٠.

(٣) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢/٣١٦.

(٤) شرح رياض الصالحين ١/٣٩.

(٥) أخرجه البخاري ٤٢، ومسلم ١٢٩ وهذه لفظة مسلم ليست عند البخاري.

(٦) في الحلية ١/٣٢٤.

الذنب، لا تأمنن سوء عاقبته، ولما يتبع الذَّنب أعظم من الذنب إذا عملته، و ذكر كلامًا، وقال: وخوفُك من الريح إذا حرَّكت ستر بابك وأنت على الذنب، ولا يضطرب فؤادك من نظر الله إليك، أعظم من الذنب إذا عملته.

وقال الفضيل بن عياض: كانوا يقولون: تركُ العمل للناس رياءً، والعمل لهم شرك.

وأما إن سعى في حصولها بما أمكنه، ثم حال بينه وبينها القدر، فقد ذكر جماعةٌ أنَّه يعاقب عليها حينئذٍ لقول النبي ﷺ: ((إنَّ الله تجاوز لأمَّتي عمَّا حدَّثت به أنفُسَها، ما لم تكلَّمْ به أو تعمل))[1] ومن سعى في حصول المعصية جهده، ثم عجز عنها، قد عمل، وكذلك قول النبي ﷺ: ((إذا التقى المسلمان بسيفيهما، فالقاتِلُ والمقتولُ في النَّار))، قالوا: يا رسول الله، هذا القاتلُ، فما بالُ المقتول؟! قال: ((إنه حريصًا على قتل صاحبه))[2].

وقوله: "ما لم تكلَّم به، أو تعمل" يدل على أن الهام بالمعصية إذا تكلم بما هم به بلسانه أنه يعاقب على الهم حينئذٍ، لأنه قد عمل بجوارحه معصيةً، وهو التكلُّمُ باللِّسان، ويدلُّ على ذلك حديث الذي قال: ((لو أنَّ لي مالاً، لعملتُ فيه ما عَمِلَ فلان)) يعني: الذي يعصي الله في ماله، قال: ((فهُمَا في الوِزْرِ سَوَاءٌ))[3].

ومن المتأخرين من قال: لا يعاقب على التكلم بما هم به ما لم تكن المعصية التي هم بها قولاً محرمًا، كالقذف والغيبة والكذب؛ فأمَّا ما كان متعلقُها العمل بالجوارح، فلا يأثم بمجرَّد التكلُّم ما همَّ به، وهذا قد يستدلُّ به على حديث أبي هريرة المتقدم: "وإذا تحدث عبدي بأن يعمل سيئة، فأنا أغفرُها له ما لم يعملها". ولكن المراد بالحديث هنا حديث النفس، جمعًا بينه وبين قوله: "ما لم تكلّم به أو تعمل"، وحديث أبي كبشة يدلُّ على ذلك صريحًا، فإنَّ قول القائل بلسانه: "لو أنَّ لي

---

(١) أخرجه البخاري ٢٥٢٨ و٢٥٢٩ و٦٦٦٤، ومسلم ١٢٧.

(٢) أخرجه البخاري ٣١، ٦٨٧٥، ٧٠٨٣، ومسلم ٢٨٨٨.

(٣) هو جزء من حديث أبي كبيشة الأنماري مطولاً، أخرجه الترمذي ٢٣٢٥ وابن ماجه ٤٢٨٨، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ١٨٩٤).

مالاً، لعملتُ فيه بالمعاصي، كما عمل فلانٌ"، ليس هو العمل بالمعصية التي همَّ بها، وإنَّما أخبر عمَّا همَّ به فقط مما متعلقه إنفاقُ المال في المعاصي، وليس له مالٌ بالكلية، وأيضًا، فالكلام بذلك محرّمٌ، فكيف يكون معفوًّا عنه، غير معاقَبٍ عليه؟...).

وأما إن انفسخت نيته، وفترت عزيمته من غير سبب منه، فهل يعاقب على ما همَّ به من المعصية، أم لا؟ هذا على قسمين:

أحدهما: أن يكون الهم بالمعصية خاطرًا خطر، ولم يساكنه صاحبه، ولم يعقد قلبه عليه، بل كرهه، ونفر منه، فهذا معفو عنه، وهو كالوساوس الرديئة التي سئل النبي ﷺ عنها، فقال: ((ذاك صريح الإيمان))[1].

ولما نزل قوله تعالى: "إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله" دليل على اعتبار النية، وأن النية قد توصل صاحبها إلى الخير[2].

---

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢/٢٢١-٢٢٣، وانظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ١/٣٤٢-٣٤٣.

(٢) شرح رياض الصالحين ١/٣٩.

الحديث رقم (١٢)

١٢- وعن أبي عَبْد الرَّحْمَن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخطَّابِ، رضي الله عنهما قال: سَمِعْتُ رسول اللَّه ﷺ يَقُولُ: «انْطَلَقَ ثَلاثَةُ نَفرٍ[١] مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَتَّى آوَاهُمُ[٢] الْمبِيتُ إِلَى غَارٍ فَدَخَلُوهُ، فانْحدَرَتْ صَخْرةٌ مِنَ الْجبلِ فَسَدَّتْ عَلَيْهِمْ الْغَارَ، فَقَالُوا: إِنَّهُ لا يُنْجِيكُمْ مِنْ الصَّخْرَةِ إِلاَّ أَنْ تَدْعُوا اللَّه بصالح أَعْمَالكُمْ.

قال رجلٌ مِنهُمْ: اللَّهُمَّ كَانَ لِي أَبوانِ شَيْخَانِ كَبِيرانِ، وكُنْتُ لاَ أَغْبِقُ قبْلهَما أَهْلاً وَلا مالاً فنأَى بي طَلَبُ الشَّجرِ[٣] يَوْمًا فَلَمْ أُرِحْ عَلَيْهِمَا حَتَّى نَامَا فَحَلَبْت لَهُمَا غبُوقَهمَا فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ، فَكَرِهْت أَنْ أُوقظَهمَا[٤] وَأَنْ أَغْبِقَ قَبْلَهُمَا أَهْلاً أَوْ مَالاً، فَلَبِثْتُ - وَالْقَدَحُ عَلَى يَدِي- أَنْتَظِرُ اسْتِيقَاظَهُما حَتَّى بَرِقَ الْفَجْرُ وَالصِّبْيَةُ يَتَضاغَوْنَ عِنْدَ قَدَميَّ[٥] فَاسْتَيْقَظَا فَشَرِبَا غَبُوقَهُمَا. اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَة، فانْفَرَجَتْ شَيْئًا لا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهُ.

قَالَ[٦] الآخَرَ: «اللَّهُمَّ إِنَّهُ[٧] كَانَتْ لِيَ ابْنَةُ عمٍّ كانتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ» وفي رواية: «كُنْتُ أُحِبُّهَا كَأَشد مَا يُحبُّ الرِّجَالُ النِّسَاءِ[٨]، فَأَرَدْتُهَا عَلَى نَفْسهَا فَامْتَنَعَتْ مِنِّى حَتَّى أَلَمَّتْ بِهَا سَنَةٌ مِنَ السِّنِينَ فَجَاءَتْنِى فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِينَ وَمِائَةَ دِينَارٍ عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا ففعَلَت، حَتَّى إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا» وفي رواية: «فَلَمَّا قَعَدْتُ بَيْنَ رِجلَيْهَا، قَالتْ: اتَّقِ

---

(١) لفظ البخاري في هذه الرواية: (رهط)، وبهذا اللفظ برقم (٣٤٦٥)، و(٥٩٧٤).

(٢) لفظ البخاري في هذه الرواية: (أووا).

(٣) لفظ البخاري في هذه الرواية: (في طلب شيء)، وعنده برقم (٥٩٧٤) (وإنه ناء بي الشجر).

(٤) لفظ البخاري في هذه الرواية (أن أغبق) فقط، بدون: (أن أوقظهما)، وهذه الزيادة عند البخاري برقم (٢٢١٥)، و(٢٣٣٣).

(٥) قوله: (والصبية يتغاضون عند قدمي) لا يوجد عند البخاري في هذه الرواية، وإنما عنده برقم (٢٢١٥)، و(٢٣٣٣)، و (٥٩٧٤).

(٦) عند البخاري في هذه الرواية قبلها زيادة: (قال النبي @).

(٧) (إنه) لا توجد عند البخاري في هذه الرواية، وإنما عنده برقم (٥٩٧٤)

(٨) هذه الزيادة عنده برقم (٢٢١٥).

اللّٰه[١]، ولا تَفُضَّ الْخَاتَمَ إلاَّ بِحَقِّهِ[٢]، فانْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إلَيَّ وَتركْتُ الذَّهَبَ الَّذي أَعْطَيْتُهَا، اللَّهُمَّ إنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ، فانفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ غَيْرَ أَنَّهُمْ لا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهَا.

وقَالَ[٣] الثَّالِثُ: اللَّهُمَّ اسْتَأْجَرْتُ أُجرَاءَ وَأَعْطَيْتُهم أَجْرَهُمْ غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ الَّذي لَّه وذهب، فثمَّرت أجره حتى كثرت منه الأموال فجاءني بعد حين فقال يا عبد الله أَدِّ إلَيَّ أَجْرِي، فَقُلْتُ[٤]: كُلُّ مَا تَرَى منْ أَجْرِكَ: مِنَ الإبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَم وَالرَّقِيق فقال: يا عَبْدَ اللَّهِ لا تَسْتَهْزِئْ بي، فَقُلْتُ: لاَ أَسْتَهْزِئُ بك، فَأَخَذَهُ كُلَّهُ فاسْتاقَهُ فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْه شَيْئًا، اللَّهُمَّ إنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ، فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ فخرَجُوا يَمْشُونَ» متفقٌ عليه[٥].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: صحابيٌّ جليل، من أعز بيوتات قريش، وهو: عبد الله بن عمر بن الخطاب بن نُفَيل، القرشي، العدوي، المكي، ثم المدني، يكنى بأبي عبدالرحمن.

أسلم مع أبيه وهو صغير لم يبلغ الحُلُمَ بعد، وهاجر إلى المدينة قبل أبيه، لم يشهد بدرًا، واختلف في حضوره غزوة أحد، والصحيح أن أول مشاهده الخندق، وشهد الحديبية وكان ممن بايع رسول الله ﷺ وشهد غزوة مُؤتة مع جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، أدرك فتح مكة وهو ابن عشرين سنة، كما شهد اليرموك، وفتح مصر، غزا إفريقية مرتين، مرة مع عبدالله بن سعد بن أبي السرح، ومرة مع معاوية بن حديج سنة (٣٤)، كما قدم الشام والعراق والبصرة وفارس غازيًا.

---

(١) هذه الزيادة عنده برقم (٢٢١٥).

(٢) في هذه الرواية زيادة: (فتحرجت من الوقوع عليها).

(٣) في هذه الرواية قبلها زيادة: (قال النبي ﷺ).

(٤) في هذه الرواية زيادة: (له).

(٥) أخرجه البخاري (٢٢٧٢) واللفظ له، ومسلم (٢٧٤٣/١٠٠). أورده المنذري في ترغيبه (١).

وكان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ جريئًا جهيرًا -نشأ في الإسلام- معدودٌ في أهل العلم من الصحابة، رَوَى عن رسول الله ﷺ ورُوي عنه، له في كتب الحديث (٢٦٣٠) حديثًا، قال ابن سعد في الطبقات بسنده عن أبي جعفر قال: لم يكن أحد من أصحاب رسول الله ﷺ إذا سمع من رسول الله ﷺ حديثًا أحذر أن لا يزيد فيه ولا ينقص منه، ولا، ولا ... من عبدالله بن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وعن عمرو بن دينار قال: كان ابن عمر يُعد من فقهاء الأحداث، وقال مالك قد أقام ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بعد النبي ﷺ ستين سنة يفتي الناس في الموسم وغير ذلك، وكان من أئمة المسلمين، وكان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كثير الإتباع لرسول الله ﷺ حتى أنه لينزل منازله، ويصلي في كل مكان صلّى فيه، وحتى إن النبي ﷺ نزل تحت شجرة فكان ابن عمر يتعاهدها بالماء لئلا تيبس.

وكان مضرب المثل في العبادة، أثنى عليه رسول الله ﷺ، فروى أنه ﷺ قال لزوجه حفصة بنت عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أخت عبدالله: ((نعم الرجل عبدالله، لو كان يصلي من الليل، فكان بعد لا ينام من الليل إلا قليلاً))[١] كما كان من أهل الورع، فكان شديد التحري والاحتياط والتوقي في فتياه، وقال جابر بن عبدالله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ((ما منا أحد إلا مالت به الدنيا وما بها ما خلا عمر وابنه عبدالله، وقال ميمون بن مهران: ما رأيت أورع من ابن عمر ولا أعلم من ابن عباس، وكان قد أشكلت عليه حروب عليّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقعد عنها تورعًا، ثم ندم على ذلك حين حضرته الوفاة، وقال ما أجدني آسى على شيء فاتني من الدنيا إلا أني لم أقاتل الفئة الباغية مع عليّ، وقال: "كففت يدي فلم أُقْدِم، والمقاتل على الحق أحق"، ولشدة ورعه ترك المنازعة في الخلافة، مع كثرة ميل أهل الشام إليه ومحبتهم له.

أما عن صفاته الخَلقية فكان ربعة[٢]، جسيمًا[٣]، آدم[٤]، يتزر إلى أنصاف ساقيه، وكان يخضب بالصُفرة وله جُمَّة.

---

(١) الربعة: المتوسط الطول في القامة، المعجم الوجيز في (ر ب ع).

(٢) الآدم: من اشتدت سمرته، المعجم الوجيز في (آ د م).

(٣) الجُمّة: عظم الرأس، المعجم الوجيز في (ج م م).

(٤) أخرجه البخاري ١١٢٢.

وكان قد كف بصره في آخر حياته، ومات بمكة سنة (٧٣) بعد قتل عبدالله بن الزبير رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا بثلاثة أشهرٍ وقيل لستة أشهر، وكان قد أوصى أن يدفن في الحِلِّ فلم يُقْدَر على ذلك من أجل الحَجّاج، ودفن بذي طُوى في مقبرة المهاجرين، وسبب موته أن الحجاج أمر رجلاً فسمَّ زُجّ رمحه وزحمه في الطريق، ووضع الزج في ظهر قدمه، فمرض منها أيامًا ثم مات رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وهو ابن (٨٦) سنة، وصلى عليه الحجاج[(١)].

غريب الألفاظ:

آواهم المبيت إلى غار: أي دفعهم طلب البيات إلى أن يلجأوا إلى الغار[(٢)].

لا أَغْبُق قبلهما أهلاً ولا مالاً: أغبق أهلاً: أسقيهم الغَبُوق، و المال: الإبل: يعني يُرضع صغارها من أمهاتها. والغَبُوق: شُرْب اللبن العشاء، والصَّبُوح: شرب أول النهار[(٣)].

فنأى بي طلب الشجر: نأى: بعُد، والمراد: أنه بعد به طلب الرعي (الشجر) لغنمه عن المكان الذي اعتاده[(٤)].

أرح عليهما: أرجع إليهما[(٥)].

برق الفجر: طلع وظهر[(٦)].

يتضاغون: يصيحون ويستغيثون من الجوع[(٧)].

---

(١) الطبقات، ابن سعد ٢/٣٧٣، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٤١٩-٤٢١، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير ٣/٣٣٦-٣٤١، الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ٨٠٨-٨١١، سير أعلام النبلاء، الذهبي ٣/٢٠٣-٢٣٩، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي ٤/٢١٧-٢١٩، تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٣٨٩، ٣٩٠، الأعلام، خير الدين الزركلي ٤/١٠٨، موسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك ٢/١٢٤١-١٢٤٦.

(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦/٥٨٥.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير والوسيط في (غ ب ق).

(٤) انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٠٦، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦/٥٨٧.

(٥) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الفيومي في (ر و ح).

(٦) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الفيومي والقاموس المحيط في (ب ر ق).

(٧) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٠٧.

ألـمَّت: نزلت بها[١].

السنةُ: الجدب والفقر[٢].

الخاتم: البكارة؛ لأنها كانت عذراء[٣].

فثمرت أجره: كثّرته بالزرع أو التجارة ونحو ذلك[٤].

الشرح الأدبي

هـذا الحـديث الـشريف يقـدم درسًـا إيمانيًـا عظيمًـا في ضـرورة إخـلاص النيـة ثـم ترجمتها إلى عمل صـالح، وهـذا الـدرس النبـوي التربـوي النمـوذجي يتخـذ صيغة جديـدة مشوقة ممتعة هـي الصيغة القصصية، وفي القصص عبرة وقدوة وموعظـة وأسوة، فالقصة فن التشويق والإمتاع والفائدة والإقناع.

وهذا الحديث الشريف نموذج للقصص النبوي الهادف الـذي ينبـع مـن آفـاق التـصور الإسـلامي والواقـع التاريخي، ويمثـل الـصراع بـين قـوى الخـير وقـوى الـشر في الـنفس الإنسانية، ويزكـى جانـب الخير ويحـث عليـه في أسلوب مـشوق، وهـو بيـان جـزاء كـل شخصية حسب عملها الذي قدمته.

والقصص النبوي له نـسيج خـاص وبنـاء متميـز حيـث يعتمـد علـى المقـدمات القـصيرة وقـد تبـدو عقـدة القـصة في المقدمـة، ويتخـذ مـن تـصعيد العُقـد وتتـابع المفاجـآت وظهـور الخـوارق طريقًـا للحـل العـادل، وتـشويقًا للقـارئ والـسامع، وزيـادة في الإقنـاع والإمتـاع، وتأكيدًا للتأثير في النفوس والقلوب.

والقصة في بنائها الفني تتكون من شخصيات، وأحداث، وحوار، وعقـدة، ولحظـة تنوير، أو حل لما جـاء في القصة من أحـداث معقـدة، وهـذا الحـل يمثل النهايـة المـصيرية

---

(١) اللسان والقاموس والوسيط في (ل م م).

(٢) اللسان والقاموس والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (س ن ن).

(٣) اللسان والقاموس والوسيط في (خ ت م).

(٤) اللسان والقاموس والوسيط في (ث م ر).

لكل شخصية حسب مكانها ودورها في القصة، وهذه المقدمات تقدم في أسلوب قصصي يعتمد على الحكاية والتشويق والتأثير والفائدة؛ وحين نتأمل مشاهد القصة في هذا الحديث الشريف حسب الرواية الموجودة ندرك أن القصة سماعية: حيث سمعها الصحابي الجليل عبدالله بن عمر رضي الله عنهما الذي حج ستين حجة واعتمر ألف عمرة وأفتى في الإسلام ستين سنة، وحمل على ألف فرس في سبيل الله.

وتتكون القصة من ثلاثة شخصيات لم تحدد أسماؤهم، ولم يحدد زمن وقوع هذه الحادثة، ولم يعين مكان وقوعها؛ وذلك لأن العبرة هي المقصود الأسمى من القصة، وتأكيد الثمرة الطيبة للنية الخالصة، والعمل الصالح هو الهدف من تقديم هذا الدرس الإيماني والأخلاقي العميق.

وجانب الإيحاء والرمز في القصص النبوي عامة -وفي هذه القصة بصفة خاصة من أدق الخصائص والسمات، فالقصص النبوي لا يسهب في الوصف، ولا يعني بتحديد الزمان ولا المكان، وإنما تصبح القصة نموذجًا سلوكيًا يتكرر في كل زمان وفي كل مكان، وثمرة القصة ونتيجتها ضوء إيماني يسير في طريقه كل من ينشد طريق الحق، وينأى عنه كل من اتبع هواه فأضله الله.

وفي ظل هذا التصور يظل القصص النبوي تصويرًا لأدواء النفوس البشرية، وعلاجًا ناجعًا لهذه الأدواء في ظل المنهج الإسلامي السديد.

وتبدأ القصة بالأزمة والعقدة التي تحتاج إلى حل، فالأشخاص الثلاثة يسعون على رزقهم، وحينما يُجنَّهم الليل لا يجدون غير غار يؤويهم، ودخلوا هذا الغار وتحدث المفاجأة التي لم يتوقعوها، حيث تسد باب الغار صخرة انحدرت من الجبل ولنتأمل دقة البيان النبوي الكريم في قوله: "حتى آواهم المبيت إلى غار" وحتى هنا توحي بالمسير والحركة، وأن هؤلاء الثلاثة لجأوا إلى الغار بعد إرهاق وتعب وكلل ونصب، ويشع بهذا المعنى قوله: "آواهم المبيت " أي: اضطرهم إلى دخول الغار حيث لم يجدوا مأوى غيره وتنكير لفظ "غار" يوحي بعدم تحديد هذا الغار، وعدم حرصه ﷺ على تحديد المكان والزمان؛ لأن القصة يمكن أن تتكرر ولا ينفع الإنسان إلا ما قدم من عمل صالح.

والدرس الإيماني يتجلى في موقف هؤلاء الثلاثة حين حلت بهم هذه الكارثة، فالموت مصيرهم، والهلاك نهايتهم، وهذا الدرس يتمثل في ثبات المؤمن عند الشدائد، ولجوئه إلى ربه في مثل هذه المواقف، ولنتأمل كيف استقبل هؤلاء المحاصرون المسجونون في الغار هذا الحدث الجسيم إنهم استقبلوه بالحكمة، وبميراثهم من الأعمال الصالحة، وبالدعاء الخالص لله عز وجل، والدعاء منهج إسلامي اتباعًا لقول الله عز وجل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[1].

ويجيء الحل في صورة جماعية فكلهم له ميراث من صالح الأعمال.

فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم.

ولم يعترض أحد ولم يفزع ولم ييأس منهم أحد؛ لأنهم اطمأنوا إلى رحمة ربهم وفضل خالقهم فماذا قدم الأول من صالح الأعمال؟ إنه صوّر مشهدًا فريدًا من مشاهد البر بالوالدين: طاعة واحترامًا وبرًا وعطفًا ورعاية وتقديرًا: حيث يحكي قصة من قصص هذا البر في ذلك المشهد الرائع ومن ملامحه إنه كان لا يشرب اللبن في المساء قبل أبيه وأمه "كنت لا أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً" وحين يتأخر عنهما ذات ليلة لظروف اضطرارية، وليس إهمالا لهما يجدهما نائمين ولكن يأبى أن يقدِّم على أبيه أهله وماله، والأطفال يتضاغون أي: يصيحون من الجوع لأنه ظل مستيقظًا حتى الفجر حاملاً القدح على يده برًا بأبويه، وحين استيقظا شربا غبوقهما؛ ولأن النية خالصة لوجه الله استجاب الله لدعائه، وانفرجت الصخرة ولكن بمقدار الثلث؛ ويبقى الآخران فماذا قدما من عمل صالح؟

ويصور الثاني مشهدًا من مشاهد العفاف وصون الأعراض، والمحافظة على ذوي الأرحام والقربات ويروي ويتذكر قصته مع ابنة عمه فهو يحبها كأشد ما يحب الرجال النساء، ولا يوجد أبلغ من هذا التعبير الدقيق في تصوير العاطفة الجامحة بين فتى

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٨٦.

وفتاة، ويحرك الشيطان رغبته وينسى في غمرة هذه الرغبة قرابته وعفته، فيراود ابنة عمه عن نفسها، ولكنها تأبى أن تنزلق معه في مهاوي الشيطان، ولا تستجيب لإغراءات الفجور والعصيان، وتتطور الأحداث وتقع هذه الفتاة في ذل الحاجة، وتضطر لأن تمد يدها لابن عمها طالبة المساعدة المادية حتى تسد رمقها، ولكن الشيطان يتحرك من جديد في دم هذا الفتى المحب: فيمزق كل روابط القرابة، ولا يَرْعى حقوق ذوي الأرحام، ويتعقد الحدث وتتفاقم الأزمة حين تستسلم الفتاة في بادئ الأمر استسلامًا شكليًا ظاهرًا، ولكن نيتها معقودة على التمنع وحفظ الرحم، ولنتأمل هذا الخطاب البليغ الذي يبوح بكل المشاعر النفسية المؤمنة "اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه إن هذه الكناية الجميلة المؤثرة، ترشدنا إلى ضرورة اختيار العبارات الموحية المؤثرة والبعد عن التصريح بالألفاظ الحسية التي تخدش الحياء وتعمل على إشاعة الفحشاء.

ويستجيب الله سبحانه وتعالى وتنفرج الصخرة التي تحركت بأمر مَنْ خلقها وأمرها وجعلها تسبح بحمده، ولكن لم يأت الفرج فالباب مازال ضيقًا، والصخرة مازالت تسد جزءًا من باب الغار بحيث لا يتسع للخروج.

ويتذكر الثالث عمله الصالح، ويقدم درسًا اجتماعيًا ودينيًا في أداء الأمانة، وإتقان العمل، وحفظ مال الشريك وتنمية مال الأجير، وحين يغيب الأجير لا يأخذ أجره، لا يكتفي صاحب العمل بحفظ الأجر فقط، ولكنه ينمي له هذا المال القليل حتى يصير واديًا من الإبل والبقر يقول: فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال وحين عاد صاحب الأجرة قال له صاحب العمل: (كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق) فأخذه كله فلم يترك منه شيئًا!!!

ويدعو هذا الرجل الأمين ربه بأن يفرج الكرب إذا كانت نيته خالصة لوجه الله، فانفرجت الصخرة: فخرجوا يمشون.

ما أجمل هذه المشاهد السلوكية، وما أعمق هذه الدروس الاجتماعية التي قدمتها هذه القصص الحقيقية الناطقة بالحكمة والفضيلة، وما أجدر المسلمين في كل مكان وزمان بالإصغاء إلى هذه الدروس النبوية الشافية الوافية.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى أكثر من حكم فقهي:

الأول: حكم بر الوالدين، وقد اتفق الفقهاء[١] على أن بر الوالدين واجب ما داما يأمران بالمعروف فإن كان أمرهما بمعصية فلا طاعة لهما، وأن من أكبر الكبائر عقوق الوالدين.

الثاني: حكم إعطاء الأجير أجره، وقد اتفق الفقهاء[٢] على أنه يجب على المستأجر أن يعطي الأجير أجره بعد تمام العمل المؤجر عليه، ويحرم عليه أن يمنعه إياه، أو يؤخره عنه إلا برضاه.

الثالث: حكم جريمة الزنا، وقد اتفق الفقهاء[٣] على أن الزنا من أكبر الكبائر وأن مرتكبه يقام عليه حد الله سواء أكان محصنًا أم غير محصن ولكل عقوبته

---

(١) أحكام القرآن للجصاص ٢٧٤/٢ وما بعدها، بدائع الصنائع، الكاساني ٩٨/٧، شرح السير الكبير على مختصر خليل، أبو البركات أحمد بن محمد الدردير ١٩٢/١، الفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم المالكي ٢٩٠/٢، أحكام القرآن لابن العربي ٥٤٤/١ وما بعدها، أسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري٤٨٦/٢، مغني المحتاج ٥٧٤/٣، إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، تقي الدين بن دقيق العيد ١٦٣/١ وما بعدها، الفتاوى الكبرى ١٨٤/١، الفروع، ابن مفلح ١٩٩/٦، المغني، ابن قدامة ١٧٠/٩.

(٢) المبسوط، السرخسي ٧٤/١٥، بدائع الصنائع، الكاساني ١٧٤/٤، الزواجر عن اقتراف الكبائر، أبو العباس أحمد بن محمد الهيتمي ٤٣٧/١، شرح منتهى الإرادات، البهوتي ٢٧٣/٢، مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، الشيخ مصطفى السيوطي ٦٨٦/٣، سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، الصنعاني ١١٨/٢.

(٣) تبيين الحقائق، الزيلعي ١٧٥/٣، بدائع الصنائع، الكاساني ٣٣/٧، حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، محمد بن عرفة الدسوقي ٣١٣/٤، مواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٢٩٠/٦، أسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري١٢٥/٤، تحفة المحتاج في شرح المنهاج، ابن حجر ١٠١/٩، كشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي ٨٩/٦، شرح منتهى الإرادات، البهوتي ٣٤٣/٣ وما بعدها.

التي قررها الشرع الشريف.

الرابع: حكم بيع الفضولي، وقد اختلف الفقهاء في حكم بيع الفضولي، فذهب الحنفية والمالكية[١] إلى أن بيع الفضولي جائز ويتوقف على إجازة المالك فإن شاء أمضى البيع وإن شاء رده، وذهب الشافعية والحنابلة[٢] إلى أن بيع الفضولي باطل ويفسخ ولا يصح بإجازة أو غيرها لأنه بيع فيما لا يملك[٣].

والراجح: القول الأول، لأنه لا ضرر فيه على البائع، لأن البيع لا ينفذ إلا بإجازته فإن أجازه نفذ وإلا فسخ.

المضامين الدعوية

أولاً: من وسائل الدعوة: القصة.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: اللجوء والتضرع إلى الله.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل العمل الصالح.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل بر الوالدين.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: فضل الإخلاص في الأعمال.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: فضل العفة والخوف من الله.

سابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل إعطاء الأجير حقه.

ثامنًا: من أساليب الدعوة: الترغيب.

أولاً- من وسائل الدعوة: القصة:

حيث جاء في الحديث "انطلق ثلاثة نفر" وذكر النبي ﷺ قصة هؤلاء الثلاثة نفر.

---

(١) بدائع الصنائع، الكاساني ١٤٧/٥ وما بعدها، تبيين الحقائق، الزيلعي ١٠٣/٤، مواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٢٤٠/٤، شرح الخرشي ١٨/٥.

(٢) أسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري١٠/٢، الغرر البهية في شرح البهجة الوردية، القاضي أبو يحيى زكريا الأنصاري ٤٠٦/٢، حاشيتا قليوبي وعميرة ٢٠١/٢، شرح منتهى الإرادات، البهوتي ٩/٢، كشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي ١٥٨/٣.

(٣) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١١٥/٩ وما بعدها.

ومما لاشك فيه أن القصة وسيلة هامة من وسائل الدعوة حيث (تمتاز القصة بأنها تصور نواحي الحياة فتعرض لك الأشخاص وحركاتهم وأخلاقهم وأفكارهم واتجاهات نفوسهم وبيئتهم الطبيعية والزمنية، وتمتاز القصة كذلك بأن النفس تميل إليها فغريزة حب الاستطلاع تعلق عين السامع وأذنه وانتباهه بنسق القصص البارع، استشرافًا لمعرفة ما خفي من بقية الأنباء)[١].

ومن أفضل أنواع القصص وتأثيره في نفس الإنسان هو قصص القرآن والسنة (فقصص القرآن والسنة مزيج من العقيدة والمعرفة ومن العاطفة والفكر، والحق والجمال، فهو لم ينس حظ العقل من حكمة وعبرة، ولا حظ القلب من ترقيق وتحذير)[٢]. فعلى الدعاة إلى الله استخدام القصة كوسيلة من وسائل الدعوة بما فيها من عبرة وعظة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾[٣]. وقد كانت القصة في هذا الحديث وسيلة دعوية مهمة، ثمَّ من خلالها التأكيد على أهمية إخلاص النية لله تعالى في كل عمل يقوم به الإنسان، لأن الأعمال الخالصة تكون سببًا في النجاة في الدنيا والآخرة، وقد بينت القصة أهمية الإخلاص من خلال ما دار من أحداث بين أطرافها، حيث تقرَّب كل واحد منهم بعمله الصالح راجيًا رحمة الله تعالى، طامعًا في تخفيفه سبحانه ما هم فيه من ضيق وشدة، لذا يحسن بالداعية أن يفيد من مثل هذه القصص النبوي في مجال الدعوة إلى الله تعالى ومعالجة الأمور.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: اللجوء والتضرع إلى الله:

حيث جاء في الحديث "إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعو الله" ويظهر أيضًا من لجوء الثلاثة نفر إلى دعاء الله سبحانه، ومما لاشك فيه أن المسلم ينبغي أن

---

(١) تذكرة الدعاة، البهي الخولي ص ٤٤.

(٢) القصة في القرآن الكريم، د. مريم عبدالقادر السباعي ص ٢٧٩.

(٣) سورة يوسف، آية: ١١١.

يتوجه إلى الله بالدعاء في كل وقت وخاصة عند الشدة وقد أخبر سبحانه أنه قريب من عباده ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾[1].

وأخبر عن نفسه أنه يجيب دعوة المضطر ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾[2] وكان هذا حال الأنبياء دائمًا يلجؤون إلى الله عند الشدائد، فلما لجأ إبراهيم عليه السلام إلى الله أنجاه الله من النار ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ۝ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾[3]، وكان حال موسى عليه السلام ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾[4]، ويونس عليه السلام، لما التقمه الحوت ﴿ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ۝ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾[5] وامتن الله على عباده بأنه هو الذي ينجيهم من الكربات ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾[6] ولذا كان من تعليم الرسول لابن عمه عبدالله بن عباس رضي الله عنهما أن قال له ((احْفَظِ الله يَحْفَظْكَ، احْفَظِ الله تَجِدْهُ أَمَامَكَ، وإذَا سألْتَ فاسألِ الله، وإذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بالله))[7].

قال ابن رجب الحنبلي: (واعلم أن سؤال الله تعالى دون خلقه هو المتعين، لأن السؤال فيه إظهار الذل من السائل والمسكنة والحاجة والافتقار، وفيه الاعتراف بقدرة المسؤول

(١) سورة البقرة، آية: ١٨٦.

(٢) سورة النمل، آية: ٦٢.

(٣) سورة الأنبياء، آية: ٦٨، ٦٩.

(٤) سورة الشعراء، آية: ٦١، ٦٢.

(٥) سورة الأنبياء، آية: ٨٧، ٨٨.

(٦) سورة الأنعام، آية: ٦٣.

(٧) أخرجه الترمذي ٢٥١٦، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي٢٠٤٣).

على دفع هذا الضرر، ونيل المطلوب وجلب المنافع، ودرء المضار، ولا يصلح الذل والافتقار إلا لله وحده، لأنه حقيقة العبادة، والله سبحانه يحب أن يُسأل ويُرغب إليه في الحوائج، ويُلَحَّ عليه في سؤاله ودعائه، ويغضب على من لا يسأله، ويستدعي من عباده سؤاله، وهو قادر على إعطاء خلقه كلهم سؤلهم من غير أن ينقص من ملكه شيء والمخلوق بخلاف ذلك كله: يكره أن يُسأل، ويحب أن لا يسأل لعجزه وفقره وحاجته، وأما الاستعانة بالله عز وجل دون غيره من الخلق؛ فلأن العبد عاجز عن الاستقلال بجلب مصالحه، ودفع مضاره، ولا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله عز وجل، فمن أعانه الله فهو المعان، ومن خذله فهو المخذول، ومن ترك الاستعانة بالله واستعان بغيره، وكله الله إلى من استعان به فصار مخذولا)[١].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل العمل الصالح:

جاء في الحديث "إلا أن تدعو الله بصالح أعمالكم" وذكر كل منهم عملاً صالحًا له ففرج الله عنهم. قال الإمام النووي: (ويستدل من هذا الحديث على أنه يستحب للإنسان أن يدعو في حال كربه، وفي دعاء الاستسقاء وغيره بصالح عمله ويتوسل إلى الله تعالى به لأن هؤلاء فعلوه فاستجيب لهم وذكره النبي ﷺ في معرض الثناء عليهم وجميل فضائلهم)[٢].

وقد مدح الله الذين يعملون الصالحات فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[٣] وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾[٤] وأخبر الرسول ﷺ أن خير ما يوفق إليه الإنسان هو العمل الصالح ففي الحديث ((إِنَّ الله إِذَا أَرَادَ بِعَبْدٍ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ، فَقِيلَ: كَيْفَ يَسْتَعْمِلُهُ يا رسولَ الله؟ قال: يُوَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ قَبْلَ الْمَوْتِ))[٥].

---

(١) جامع العلوم و الحكم، ابن رجب ٤٨١/١، ٤٨٢.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٠٦.

(٣) سورة البقرة، آية: ٨٢.

(٤) سورة الكهف، آية: ٣٠.

(٥) أخرجه أحمد في مسنده ١٠٦/٣ رقم ١٢٠٣٦، وقال محققو المسند: إسناده صحيح على شرط الشيخين ٩٤/١٩.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل بر الوالدين:

جاء في الحديث "اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً" قال ابن علان: (وفي تقديم النبي لعمل هذا الرجل على الرجلين بعده إشارة إلى شرف بر الوالدين، والاهتمام بشأنهما فإن التقديم في الذكر يكون للاهتمام وفي الحديث فضيلة بر الوالدين وفضل خدمتهما وإيثارهما على من سواهما من الولد والزوجة)[١] وقد وصى القرآن الكريم ببر الوالدين في غير ما موضع قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾[٢] وقال جلّ شأنه: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾[٣] وقال سبحانه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾[٤] وقال سبحانه: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾[٥].

قال الطاهر ابن عاشور: (وعطف الأمر بالإحسان إلى الوالدين على ما هو في معنى الأمر بعبادة الله، لأن الله هو الخالق فاستحق العبادة لأنه أوجد الناس. ولما جعل الله الوالدين مظهر إيجاد الناس أمر بالإحسان إليهما فالخالق مستحق العبادة لغناه عن الإحسان، ولقد جبل الله الوالدين على الشفقة على ولدهما فأمر الولد بمجازاة ذلك بالإحسان إلى أبويه، وشمل الإحسان كل ما يصدق فيه هذا الجنس من الأقوال والأفعال والبذل والمواساة، وإذا بلغ أحد الوالدين أو كلاهما حد الكبر وهما عندك، وفي كفالتك فوطئ لهما خلقك ولين جانبك وخص حالة الكبر بالبيان لأنها مظنة انتفاء الإحسان بما يلقى الولد من أبيه وأمه من مشقة القيام بشؤونهما ومن سوء الخلق

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٥٢.

(٢) سورة النساء، آية: ٣٦.

(٣) سورة الأنعام، آية: ١٥١.

(٤) سورة الإسراء، آية: ٢٣.

(٥) سورة العنكبوت، آية: ٨.

منهما)[١].

وقد جعل الله تعالى شكر الوالدين في المرتبة الثانية بعد شكره سبحانه، فقال جلّ شأنه: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾[٢].

خامسًا- من موضوعات الدعوة: فضل الإخلاص في الأعمال:

حيث جاء في دعاء كل واحد منهم "اللهم إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة" قال الإمام ابن حجر: (وفي الحديث فضل الإخلاص في العمل قال السبكي الكبير: وعلى الشخص أن يعتقد تقصيره في نفسه ويسيء الظن بها، ويبحث كل واحد من عمله ما يظن أنه أخلص فيه فيفوض أمره إلى الله ويعلق الدعاء على علم الله به فإن لم يغلب على ظنه إخلاصه، ولو في عمل واحد فليقف عند حده ويستحي أن يسأل بعمل ليس بخالص)[٣].

هذا وقد أمر الشرع الحنيف بالإخلاص قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾[٤] وقال: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[٥].

قال السيد سابق: (والاتصاف بصفة الإخلاص والصدق يكسب الفرد النجاح والظفر، والجماعة التي تتألف من أفراد مخلصين، تتجه إلى الخير، وتتنزه عن الدنايا، وتترفع عن شهوات الدنيا، وتسير إلى غاياتها تظللها المحبة ويعمها الأمن والسلام ولقد كان التحلي بحلية الإخلاص سببًا في تطهير أنفس الصحابة من الرياء والنفاق والكذب فاندفعوا إلى غاياتهم الكبرى ينشدون إقامة الحق والعدل، ويبتغون وجه

---

(١) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ٦/١٥/٦٨، ٦٩.

(٢) سورة لقمان، آية: ١٤.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦/٥٨٩.

(٤) سورة البينة، آية: ٥.

(٥) سورة الكهف، آية: ١١٠.

الله، وإعلاء كلمته فمكّن الله لهم في الأرض وجعلهم قادة الدنيا وسادة العالم، والأعذار التي تحول بين الإنسان وبين ممارسة الأعمال الصالحة لا تنقص من مكانته عند الله ما دام مخلصًا)[١].

سادسًا- من موضوعات الدعوة: فضل العفة والخوف من الله:

حيث جاء في الحديث "إنه كانت لي ابنة عم... فلما قعدت بين رجليها قالت: اتّق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه فانصرفت عنها وهي أحب الناس إلي" قال ابن عثيمين: (وهذا توسل إلى الله بالعفة التامة، وهذا يدل على فضيلة العفة عن الزنا، وأن الإنسان إذا عف عن الزنا مع قدرته عليه فإن ذلك من أفضل الأعمال)[٢].

هذا وقد جعل الرسول الكريم ﷺ من يتحلى بالعفة ممن يظله الله في ظله ففي الحديث ((سَبعةٌ يُظلُّهمُ اللَّهُ تعالى في ظِلِّهِ يومَ لا ظِلَّ إلاَّ ظِلّهُ: ... ورجُلٌ دَعَتْهُ امرأةٌ ذاتُ مَنصِبٍ وجَمالٍ فقال: إني أخافُ اللَّهَ))[٣].

ووعد الله بالأجر الكبير لكل من يخافه ويتقيه قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[٤] وقال سبحانه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾[٥].

قال ابن القيم: (والخوف اضطراب القلب وحركته من تذكر المخوف وقيل: الخوف قوة العلم بمجاري الأحكام، وهذا سبب الخوف لا أنه نفسه وقيل: الخوف هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره قال أبو حفص: الخوف سوط الله يقوم به الشاردين عن بابه، وقال: الخوف سراج في القلب به يبصر ما فيه من الخير والشر،

---

(١) إسلامنا، السيد سابق ٤١.

(٢) شرح رياض الصالحين ١/٤١.

(٣) أخرجه البخاري ١٤٢٣، ومسلم ١٠٣١.

(٤) سور النازعات، الآيتان: ٤٠، ٤١.

(٥) سورة الرحمن، آية: ٤٦.

وكل أحد إذا خفته هربت منه إلا الله عز وجل فإنك إذا خفته هربت إليه. وقال أبو سليمان: ما فارق الخوف قلبًا إلا خرب، وقال إبراهيم بن سفيان: إذا سكن الخوف القلوب أحرق مواضع الشهوات منها، وطرد الدنيا عنها وقال ذو النون: الناس على الطريق ما لم يزل عنهم الخوف فإذا زال عنهم الخوف ضلوا الطريق، والخوف المحمود الصادق: ما حال بين صاحبه وبين محارم الله عز وجل فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط قال أبو عثمان: صدق الخوف هو الورع عن الآثام ظاهرًا وباطنًا. قال ابن تيمية: الخوف المحمود ما حجزك عن محارم الله)[1].

حيث جاء في الحديث "اللهم استأجرت أجراء وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ... فجاءني بعد حين فقال: (يا عبدالله أدِّ إلي أجري فقلت: كل ما ترى من أجرك) وقد أمر الرسول الكريم بإعطاء الأجير أجره ففي الحديث ((أَعْطُوا الأجيرَ أَجْرَهُ، قبلَ أَنْ يَجِفَّ عَرَقُهُ))[2] وجعل الرسول ﷺ من يمنع حق الأجير بأنه خصمه يوم القيامة ففي الحديث ((قال اللهُ تعالى: ثلاثةٌ أنا خَصمُهُمْ يومَ القِيَامةِ: رجلٌ أعطى بي ثمَّ غَدَر، ورجلٌ باعَ حُرًّا فأكلَ ثمَنَهُ، ورجلٌ استأجَرَ أجيرًا فاستوفى منهُ ولم يُعطِهِ أجرَه))[3]. وقد أبرز النبي ﷺ فضل إعطاء الأجير حقه، وبين أن ذلك من أسباب تفريج الكروب وتيسير الأمور، ومما يُتقرب به إلى الله تعالى، حيث تضرع الرجل بعمله هذا الذي ابتغى به مرضاة ربه، طمعًا في تفريج كربته وكربة إخوانه ممن حُبسوا في الغار، ويحسن بالداعية أن يبرز فضل مثل هذا السلوك الإيجابي والإيماني خاصة في هذا العصر الذي أصبحت فيه فئة من الناس تتفنن في أكل حقوق العمال والأجراء مستغلة سيطرتها وسطوتها، وما خُوِّل لها من صلاحيات، فالأحرى بهؤلاء وبغيرهم ممن تتطلع نفوسهم إلى مثل هذا السلوك المشين أن يخافوا الله تعالى، ويتقربوا إليه بأداء الحقوق لأصحابها، وعدم ظلم الناس.

---

(١) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ١٣٩/٢، ١٤٠.

(٢) أخرجه ابن ماجه ٢٤٤٣، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ١٩٨٠).

(٣) أخرجه البخاري ٢٢٧٠.

ثامنًا- من أساليب الدعوة: الترغيب:

حيث جاء في الحديث "فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون" ومما لا شك فيه أن أسلوب الترغيب من أساليب الدعوة حيث تميل النفس دائمًا إلى ما يسرها والترغيب يحفز النفس إلى العمل الصالح، وينهض بهمة الإنسان في الطاعات. (والترغيب هو تشويق الناس إلى ثواب الله والجنة وأسلوب الترغيب والترهيب في الشريعة يأتي حسب الأحوال والنفوس والمواقف، يأتي علاجًا وردعًا، يأتي بشيرًا ونذيرًا فمن النفوس من ترغب في الخير، وتهفوا إلى الهدى، وتشتاق إلى النور، ذكر الخير يرغبها، ودعوة الإحسان تدفعها، ونور الحق يدفئها)[1].

إن أسلوب الترغيب المستنبط من هذا الحديث يحمل كل مؤمن إلى المسارعة إلى مثل هذه الأعمال الصالحة من بر الوالدين والعفة عن محارم الله وتقوى الله، والبعد عن الفواحش، وكذلك عدم ظلم الناس بأكل حقوقهم سواء كانوا عمالاً أو غير ذلك، حيث كانت هذه الأعمال الخالصة سببًا في تفريج الكروب، مما يعد حافزًا للاستزادة من هذه الأعمال وغيرها مما يدخل في عدادها، للتقرب إلى الله تعالى واستحقاق رحمته سبحانه.

---

(١) الدعوة إلى الله الرسالة الوسيلة الهدف، د. توفيق الواعي، ١٩٩، ٢٠٠.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

جاء الإسلام ليربي الإنسان على مكارم الأخلاق، ويهذب النفس البشرية من خلال تلك الأنماط السلوكية التي يتم غرس أصولها في نفس المؤمن، ومن عظمة الإسلام أنه لا يميل إلى ناحية التنظير - التي تجعل الناس يختلفون في عملية التطبيق- وإنما يعمل على تنزيل تلك المبادئ التي يدعو إليها - على الواقع العملي للناس بأن يربيهم على ذلك مع تنوع ميادين التربية.

ولذا يحسن بنا في مستهل الحديث عن المضامين التربوية للباب الأول من كتاب رياض الصالحين - باب الإخلاص وإحضار النية- أن نشير إلى مفهوم التربية الإسلامية، حيث تعتبر التربية الإسلامية الوسيلة الفعّالة لتحقيق أهداف الإسلام لإعداد الإنسان الصالح الذي يعبد الله حق عبادته.

وإن محتوى التربية الإسلامية هو الإسلام حيث تترجم حقائقه بدون زيادة ونقصان إلى مواقف سلوكية في حياة المسلم، ليسير الإنسان في حياته على منهج الله الذي ارتضاه لخلقه[1].

ومن تعريفات التربية الإسلامية: "أنها تلك المفاهيم التي يرتبط بعضها ببعض في إطار فكري واحد يستند إلى المبادئ والقيم التي جاء بها الإسلام والتي ترسم عدداً من الإجراءات والطرائق العملية التي يؤدي تنفيذها إلى أن يسلك المرء سلوكاً يتفق وعقيدة الإسلام"[2].

ومن تعريفات التربية الإسلامية: أنها تنشئة وتكوين إنسان سليم مسلم متكامل من جميع نواحيه المختلفة من الناحية الصحية والعقلية والاعتقادية والروحية والأخلاقية والإرادية والإبداعية في جميع مراحل نموه في ضوء المبادئ والقيم التي بها الإسلام[3].

---

(١) انظر: التربية الإسلامية مفهومها - مصادرها، أسسها وأهدافها، ميادينها أساليبها وخصائصها، د. سليمان بن عبدالرحمن الحقيل، ص٥، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩١م.

(٢) عرض وتحليل كتاب: أصول التربية الإسلامية، د. إسماعيل علي ص٩٢، نقلاً عن التربية الإسلامية.

(٣) أهداف التربية الإسلامية، مقداد يالجن ص٢٠.

هـذه بعـض التعريفـات للتربيـة الإسـلامية، والـتي تعـني ترجمـة حقـائق الإسـلام إلى مواقف سلوكية في ضوء مبادئ وقيم الإسلام ليسلك المسلم سلوكاً يتفق مع ما جاء به الإسلام.

أما بالنسبة لأحاديث الباب الذي معنا فهي عن الإخلاص وإحضار النية، وتتضمن عددًا من المضامين التربوية من أبرزها ما يلي:

أولاً- من أهداف التربية الإسلامية: تحقيق الإخلاص واستحضار النية الصالحة:

لا شك أن التربيـة الإسـلامية تهدف إلى تحقيـق عـدد مـن الأهـداف الرئيسة في حياة المسلم والتي من جملتها: تحقيق الإخلاص واستحضار النية الصالحة في سائر الأعمال، وقد كان في طليعة أحاديث هذا الباب قوله ﷺ: ((إنما الأعمال بالنيات ...))، حيث أكد النبي ﷺ في هذا الحديث على أهمية تربية النفس على استحضار النية الصالحة في كافة الأعمال، ثم جعل الهجرة كميدان تطبيقي لما يستصحبه الإنسان من نية، وهذا أمر تربوي عظيم ينبغي للمسلم أن يستشعره في حياته، حتى ينشأ ويتربى على الإخلاص في كل عمل يقوم به، وبيّن ﷺ أهمية النية واستصحابها من خلال أحاديث هذا الباب الذي أخبر فيه النبي ﷺ بالجيش الذي يغزو الكعبة وأنه سيخسف بأولهم وآخرهم وفيهم من ليس منهم، فبيّن ﷺ أنهم سيبعثون على نياتهم، مما يؤكد أهمية التربية الإسلامية -في تأصيل إخلاص النية لله تعالى، وأن النية تدفع بالمؤمن إلى المنازل الرفيعة حتى وإن قعدت به الأسباب المادية-.

ثانيًا- من أسس التربية الإسلامية: تعميق الصلة بين الإيمان والعمل:

إن أسـس التربيـة الإسـلامية أنهـا تربـي الإنسـان تربيـة روحيـة "عقائديـة" عـن طريق تكوين الرغبة في الاعتقاد وتثبيت العقيدة، وبيان التكافل بين الإيمان والعمل الصالح والإخلاص، وأداء الواجب.

إن طريقـة عقـد الصلة بين الإيمان والعمـل الصـالح مـن الطـرق الـتي تتبعهـا التربيـة الإسـلامية في تربيـة المسلم تربيـة روحيـة ... وعلـى طريـق التكامـل بـين الإيمـان والعمـل الصالح والإخلاص وأداء الواجب، يتم عقد الصلة الدائمة بين الإنسان وبين الله تعالى

في كل لحظة، في كل عمل وكل فكرة وكل شعور، وذلك عن طريق إثارة حساسية القلب برقابة الله الدائمة عليه، وإثارة وجدان التقوى والخشية الدائمة لله ومراقبته في كل عمل...

إن الضمير هو الأساس المهم من أسس تربية الخلق، فهو يرتبط مباشرة بالإيمان بالله تعالى، لأن الله تعالى هو الذي يعلم ما في السرائر، ويعرف خبايا النفوس، وإن النبي ﷺ حينما يركز على أهمية النية في الأعمال، فإنما يضع أساساً لتربية الضمير المستمدة من الإيمان بالله ... لأن كل سلوك يسلكه الإنسان في حياته قولاً وفكراً وعملاً والضمير ليس متوارثاً، بل يتأتى بالتربية والتدريب والتثقيف، فالضمير هو الوازع النفسي القوي الذي يكون للإنسان بمثابة المرشد لسلوكه في الحياة يبصره بعواقب أفعاله.

وقد كان الرسول ﷺ يربي ضمير المسلم(١).

ثالثًا- بيان أن الإخلاص سبب في قبول الأعمال والنجاة في الدنيا والآخرة:

إن الأعمال الصالحة المقبولة عند الله تعالى هي التي تقصد بها وجه الله تعالى وحده، فلابد فيها من النية الخالصة، ثم أن تكون موافقة للسنة مطابقة لأحكام الشريعة، أما إذا كانت الأعمال ظاهرها الصلاح والموافقة للشريعة، ولكن القصد منها المراءاة وحسن السمعة بين الناس، فمثل هذه الأعمال التي لم يرد بها وجه الله تعالى، ينال صاحبها جزاءه في الدنيا وتحبط في الآخرة، لكن إذا أخلص الإنسان في عمله الصالح واستحضر عند عمله النية، فلابد أن ينظر إلى مطابقة عمله للشريعة، لأن العمل لا يكون صالحاً إذا خالف الشريعة، وليس بصادق من ادعى محبة الله ومحبة رسوله ﷺ ثم خالف حكمها...(٢).

ولذا فإن هؤلاء الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار فسقطت صخرة فسدت فتحة الغار، وليس لهم منفذ إلا الله تعالى، فإذا بهم يضرعون إلى الله تعالى ويتقربون إليه

---

(١) انظر: فلسفة التربية الإسلامية في الحديث الشريف، أ. عبد الجواد السيد بكر، ص١٨١، ١٩٧، ٢٣١.

(٢) انظر: التربية الروحية والاجتماعية في الإسلام، د. أكرم ضياء العمري، ٦٩-٧٠.

سبحانه بصالح عملهم الذي كان ثمرة لتربية أنفسهم على الإخلاص والتوجه لله وحده بالعمل الذي لا يبتغى به الأجر إلا من الله تعالى، وأخذ كل واحد منهم يذكر ما قام به من عمل ابتغاء مرضاة الله تعالى ويقول: "اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فكانت الصخرة تنفرج حتى انفرجت وخرجوا جميعاً...".

إن تفريج تلك الكربة كان بفضل الله تعالى أولاً، ثم بهذا الإخلاص الذي تربَّت عليه تلك النفوس المؤمنة، مما يجعل المسلم يحرص أشد الحرص على التزام الإخلاص والنية الصالحة، وتحري ذلك في كافة شؤونه وأحواله، وتربية أولاده عليه.

لأن من ثمرات الإخلاص وصلاح النية قبول العمل والنجاة في الدنيا والآخرة.

٢- باب التوبة

قَالَ العلماءُ: التَّوْبَةُ وَاجبَةٌ مِنْ كُلِّ ذَنْب، فإنْ كَانتِ المَعْصِيَةُ بَيْنَ العَبْدِ وبَيْنَ اللهِ تَعَالَى لاَ تَتَعلَّقُ بحق آدَمِيٍّ فَلَهَا ثَلاثَةُ شُرُوط:

أحَدُها: أنْ يُقلِعَ عَنِ المَعصِيَةِ.

والثَّانِي: أَنْ يَنْدَمَ عَلَى فِعْلِهَا.

والثَّالثُ: أنْ يَعْزِمَ أَنْ لا يعُودَ إِلَيْهَا أَبَدًا. فَإِنْ فُقِدَ أَحَدُ الثَّلاثَةِ لَمْ تَصِحَّ تَوبَتُهُ.

وإنْ كَانَتِ المَعْصِيةُ تَتَعَلقُ بآدَمِيٍّ فَشُرُوطُهَا أرْبَعَةٌ: هَذهِ الثَّلاثَةُ، وأنْ يَبْرَأَ مِنْ حَقِّ صَاحِبِها، فَإِنْ كَانَتْ مالاً أَوْ نَحْوَهُ رَدَّهُ إِلَيْه، وإنْ كَانَت حَدَّ قَذْفٍ ونَحْوَهُ مَكَّنَهُ مِنْهُ أَوْ طَلَبَ عَفْوَهُ، وإنْ كَانْت غِيبَةً استَحَلَّهُ مِنْهَا. ويجِبُ أنْ يَتُوبَ مِنْ جميعِ الذُّنُوبِ، فَإِنْ تَابَ مِنْ بَعْضِها صَحَّتْ تَوْبَتُهُ عِنْدَ أهْلِ الحَقِّ مِنْ ذلِكَ الذَّنْبِ وبَقِيَ عَلَيهِ البَاقي. وَقَدْ تَظَاهَرَتْ دَلائِلُ الكتَابِ والسُّنَّةِ، وإجْمَاعِ الأُمَّةِ عَلَى وُجوبِ التَّوبةِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[النور: ٣١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾[هود: ٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحا﴾[التحريم: ٨].

الحديث رقم (١٣)

١٣- وعَنْ أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: سمِعتُ رسول الله ﷺ يَقُولُ: «**والله إنِّي لأَسْتَغْفرُ اللهَ، وَأَتُوبُ إليْه في اليَوْمِ أكثر مِنْ سَبْعِين مرَّةً**» رواه البخاري[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

(١) برقم ٦٣٠٧. وسيكرره المؤلف برقم ١٨٧٢.

الشرح الأدبي

يعرض هذا الحديث الشريف أمام المسلم قضية من قضايا الإيمان، ومشهدًا من مشاهد السلوك الإسلامي، وأنموذجًا من نماذج العلاقة بين العبد وخالقه عز وجل.

وهذه القضية، وذلك المشهد يقدمان في أسمى نموذج، وأعظم قدوة: وهو سلوك المصطفى ﷺ وحرصه على التواصل مع ربه عز وجل.

ويأتي إقرار النبي ﷺ بالاستغفار في أسلوب القسم والتأكيد "والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه" وهذا القسم على لسان النبي ﷺ يؤكد قيمة الاستغفار، وفضل التوبة، وفيه أمر تشريعي وهو ندب الحلف لتأكيد الأمر وتقويته ليبادر كل من قصر إلى الإتيان بذلك.

ولكن هل استغفار النبي ﷺ وتوبته تكون من ذنب؟؟ وكيف وهو المعصوم من الخطأ، وهو لا ينطق عن الهوى، وهو الذي غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟! وللعلماء توجيه سديد لهذا الأمر حيث يفسرون استغفار النبي ﷺ بأنه: يطلب من ربه مغفرة تليق بمقامه المبرأ عن كل وصمة ذنب أو مخالفة ولو سهوًا وقبل النبوة (كما يقول صاحب دليل الفالحين إلى طرق رياض الصالحين).

وفي القرآن الكريم آيات بينات تخاطب النبي ﷺ وتأمره بالاستغفار في مثل قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[(1)].

والمراد من هذا الخطاب: "سلة غفران ذنوب المذنبين" وقد أومأ إلى ذلك تعميم حذف المستَغْفر منه حيث لم يحدد مجال الاستغفار، وقيل: إن الدعاء كلما كان أعم كان أتم وفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾[(2)].

قيل أي استغفر عن أمتك، ولفظ توابًا جاء في صيغة المبالغة ليؤكد أن استغفار الرسول ﷺ كان عن أمته، حيث تدل المبالغة على كثرة عدد المغفور لهم، والذنوب المغفورة.

---

(١) سورة النساء، آية: ١٠٦.

(٢) سورة النصر، آية: ٣.

والاستغفار منهج إسلامي نقتدي به في سلوك الحبيب المصطفى ﷺ، وهو يفتح أبواب الرزق، ويسد منافذ العوز، ويسخر للمؤمن كل ما حوله من ظواهر الكون ويكون سببًا في كثرة الذرية، وكثرة المال، وخصوبة الأرض، وجريان الأنهار واستمرار مظاهر الحياة.

قال تعالى: على لسان نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا﴾(١).

وقد ورد ما يؤكد أن النبي ﷺ كان يستغفر لأمته ويكثر من ذلك، وبعض الطوائف كانوا لا يستجيبون ومنهم "المنافقون" الذين أعرضوا عن هذه النعمة وتلك المكرمة: يقول الله عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾(٢).

ولنتأمل دلالة الكثرة في الاستغفار "أكثر من سبعين مرة" ففي هذا كما يقول العلماء: تحريض للأمة على التوبة والاستغفار، فإنه ﷺ مع كونه معصومًا وكونه خير الخلائق يستغفر ويتوب أكثر من سبعين مرة، واستغفاره ليس من الذنب بل من اعتقاده أن نفسه قاصرة في العبودية عما يليق بحضرة ذي الجلال والإكرام، وعن الأغر المزني رضي الله عنه(٣) أن رسول الله ﷺ قال: "إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة"(٤)، والمراد بالغين: فترات عن الذكر الذي من شأنه أن يداوم عليه كما يقول صاحب فتح الباري رواية عن عياض فإذا فتر رسول الله عن الذكر - الذي شأنه أن يداوم عليه عد ذلك ذنبًا فاستغفر منه إظهارًا للعبودية والشكر لله عز وجل.

---

(١) سورة نوح، الآيات: ١٠- ١٢.

(٢) سورة المنافقون، آية: ٥.

(٣) الأغر بن يسار المزني، له صحبة وروى عن رسول الله ﷺ، انظر ترجمته في: الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ١/٥٦.

(٤) أخرجه مسلم ٢٧٠٢.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: القسم - التوكيد.

ثانيًا: من صفات الداعية: القدوة الحسنة.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الاستغفار.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: الحرص على التوبة والإنابة إلى الله.

أولاً- من أساليب الدعوة: القسم، التوكيد:

١- **القسم:** يعد القسم من الأساليب الدعوية المهمة لما يتضمنه من المعاني التي يُراد توجيه المدعو إلى أهميتها وفضلها ولذا أقسم النبي ﷺ وأكد على أنه يستغفر الله ويتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة، وذلك حيث جاء في الحديث: (والله) مما يؤكد على أهمية الاستغفار والتوبة والإنابة إلى الله تعالى، قال ابن حجر: (فيه القسم على الشيء تأكيدًا له وإن لم يكن عند السامع فيه شك)[1]. ومن المواضع التي أمر الله فيها نبيه بالقسم قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾[2].

٢- **التوكيد:** حيث جاء في الحديث: (إني لأستغفر الله)، حيث أكد النبي ﷺ قوله: بـ"إنّ" والتوكيد أسلوب من أساليب الدعوة التي تؤكد على صدق الخبر، وصدق القائل وهو من أساليب القرآن الكريم ومنه قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾[4].

ثانيًا- من صفات الداعية: القدوة الحسنة:

حيث جاء في الحديث: (والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة)، ولذا تعتبر القدوة الحسنة من أهم صفات الداعية، وقد كان رسول

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٧٥٨/٣.

(٢) سورة يونس، آية: ٥٣.

(٣) سورة النبأ، آية: ٣١.

(٤) سورة الكهف، آية: ١٠٧.

الله ﷺ ولا زال هو القدوة المطلقة: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾(١)، (وعلى الداعية أن يبذل كل جهده ليكون قدوة في نظر المدعوين فإذا أمرهم بالصلاة كان أولهم، وإذا أمرهم بالصدقة كان أكرمهم، وإن الداعية الذي لا يراعي القدوة في دعوته يسهم في ابتعاد الناس عنه ونفورهم منه، وبهذا يكون داعية للسوء والشر، وهذا لا يقبله الداعية الصادق مع ربه والمحب لرسوله ﷺ)(٢).

إن الداعية الناجح يجب أن يتمثل القدوة في جميع تصرفاته: (فلا شك أن قيام الداعية بامتثال ما يدعو إليه والالتزام به من أهم عوامل نجاح دعوته؛ لأن المدعوين يرون في هذا الشخص الذي يبلغهم أمر دينهم المثل الصالح والقدوة لهم، والمدعو دائمًا ينظر إلى سلوك الداعية ومدى تمسكه وقيامه بما يقول ويحدث الناس عنه)(٣).

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: الاستغفار:

جاء في الحديث: (إني لأستغفر الله)، وهذا هو الرسول عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ومع ذلك يقول: "والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة" وهذا يدل على أهمية الاستغفار، والاستغفار مما أَمَر به نوح قومه، قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾(٤).

وأمر به هود قومه: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾(٥).

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

(٢) انظر: فقه الدعوة، د. بسام العموش ص ٥٢.

(٣) عدة الداعية المسلم، د. الشريف حمدان الهجاري ص ٤٢.

(٤) سورة نوح، الآيات: ١٠- ١٢.

(٥) سورة هود، آية: ٥٢.

والاستغفار سبب لمغفرة الذنوب ففي الحديث القدسي: ((... يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا. فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ...))[١]، وعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ))[٢]، وعنه ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: ((يَنْزِلُ رَبُّنَا كُلَّ لَيْلَةٍ إِلى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حَتَّى يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ فَيَقُولُ مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، وَمَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ))[٣].

قال النووي: (جاء عن الفضيل بن عياض قال: استغفار بلا إقلاع توبة الكذابين، ويقاربه ما جاء عن رابعة العدوية قالت: استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير، وعن بعض الأعراب أنه تعلق بأستار الكعبة وهو يقول: اللهم إن استغفاري مع إصراري لؤم، وإن تركي الاستغفار مع علمي بسعة عفوك لعجز، فكم تتحبب إليَّ بالنعم مع غناك عني، وأتبغض إليك بالمعاصي مع فقري إليك، يا من إذا وعد وفَّى، وإذا توعد تجاوز وعفا، أدخل عظيم جرمي في عظيم عفوك يا أرحم الراحمين)[٤].

وجاء في منهاج الصالحين: "قال الربيع بن خثيم: تضرعوا إلى ربكم وادعوه في الرخاء فإن الله قال: (من دعاني في الرخاء أجبته في الشدة، ومن سألني أعطيته، ومن تواضع إليّ رفعته، ومن تضرع إليّ رحمته، ومن استغفرني غفرت له"[٥]، ومن خلال هذا يتضح فضل وأهمية الاستغفار، وإن الداعية الناجح هو الذي يوجه المدعوين إلى ذلك.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: الحرص على التوبة والإنابة إلى الله:

حيث جاء في الحديث: (والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه)، وقد جاء الأمر بالتوبة في كثير من النصوص الشرعية منها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ

(١) أخرجه مسلم ٢٥٧٧.

(٢) أخرجه مسلم ٢٧٤٩.

(٣) أخرجه البخاري ٧٤٩٤، ومسلم ٧٥٨ واللفظ له.

(٤) الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار، الإمام النووي ٤٥٢.

(٥) منهاج الصالحين، عز الدين بليق ص ٩٥١.

تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾[(١)]، وقوله: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[(٢)]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[(٣)]، وقال: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾[(٤)]، وقال: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[(٥)].

وحث الرسول الكريم ﷺ على التوبة والإنابة إلى الله ففي الحديث: ((إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ، لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ. وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ، لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ. حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا))[(٦)]، وفي الحديث أيضًا: ((مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ))[(٧)].

قال ابن مفلح: "والتوبة هي الندم على ما مضى من المعاصي والذنوب، والعزم على تركها دائمًا لله عز وجل، لا لأجل نفع الدنيا أو أذى، وأن لا تكون عن إكراه أو إلجاء، بل اختيارًا حال التكليف. وقال ابن عقيل: والندم توبة، مع شرط العزم أن لا يعود، ورد المظلمة من يده، وقال الحسن البصري: التوبة النصوح ندم بالقلب، واستغفار باللسان، وترك بالجوارح، وإضمار أن لا يعود، وقال الكلبي: هي أن يستغفر باللسان، ويندم بالقلب، ويمسك بالبدن، وذكر ابن الجوزي عن عمر رضي الله عنه: أن التوبة النصوح أن يتوب العبد من الذنب وهو يحدث نفسه أن لا يعود"[(٨)].

---

(١) سورة التحريم، آية: ٨.

(٢) سورة المائدة، آية: ٧٤.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٢٢.

(٤) سورة الزمر، آية: ٥٤.

(٥) سورة المائدة: آية: ٣٩.

(٦) أخرجه مسلم ٢٧٥٩.

(٧) أخرجه مسلم ٢٧٠٣.

(٨) الآداب الشرعية، حماد بن عبدالله الحماد ١١٤/١ – ١١٦ بتصرف.

الحديث رقم (١٤)

١٤- وعن الأَغَرِّ بْن يَسار المُزنِيِّ رضي الله عنه قال: قال رسول صلى الله عليه وسلم: **«يا أَيُّها النَّاس تُوبُوا إِلى اللَّهِ ((واستْغفرُوهُ))[١]، فإِني أَتوبُ في اليَوْمِ مائة مَرَّة»** رواه مسلم[٢].

ترجمة الراوي:

الأغر بن يسار المُزَنيُّ: وهو: الأغرّ بن يسار المُزني، ويقال الجهني، .والمزني أصح، وهو من المهاجرين.

له صحبة، ورواية محدودة، روى عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أبي بكر الصديق، وروى عنه عمر بن الخطاب، ومعاوية بن قرة، وأبو بُرْدة بن أبي موسى الأشعري، وروى له البخاري في "الأدب" ومسلم وأحمد وأبو داود، والنسائي في "اليوم والليلة، وروى عنه أهل البصرة، ولم يؤرخ لحياته ولا لوفاته[٣].

الشرح الأدبي

لقد فتح الله سبحانه وتعالى لكل مسلم باب التوبة والرجوع، ووعد التائبين بالأجر الكبير والثواب العظيم، وهذا الوعد يرد في سورة "الفرقان" حيث يقول الله عز وجل في سياق تعداد مناقب وصفات المؤمنين: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[٤].

فالوعد الإلهي أكرم وأعظم من كل ما يحلم به التائبون، فهو غافر الذنب، وقابل التوب، ويزيد في الإكرام والمثوبة فيبدل سيئات التائبين حسنات، ويغفر لهم ويرحمهم

---

(١) قوله: (واستغفروه) لا يوجد عند مسلم.

(٢) برقم ٢٧٠٢/٤٢.

(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٦٤، ٦٥، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير ٢٥٩/١، ٢٦٠، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ٦٤، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي ٢٨١/١، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ١٨٥/١، والسندي ٣٩٠/٢٩.

(٤) سورة الفرقان ٧٠.

من ذنوبهم وأنفسهم وندمهم ووساوسهم.

والحديث الشريف ينادي البشرية جمعاء حيث يخاطب رسول الله ﷺ وينادي: الناس جميعًا وذلك ليفتح الباب أمام المشركين والكفار والملاحدة ليتوبوا إلى رشدهم ويعودوا إلى فطرتهم التي.فطر الله الناس عليها، والإسلام يَجُبّ ما قبله فهل تصغى الملايين التي ابتعدت عن ربها إلى النداء النبوي الكريم: فتنجو بنفسها من المصير الأليم.

وصيغة الأمر تغلّف الحض على التوبة والاستغفار (توبوا إلى الله واستغفروه) والأمر للوجوب فالتوبة واجبة على كل إنسان وخاصة "المسلم العاصي" وكذلك أهل الملل الأخرى، لأنهم مأمورون بإتباع الإسلام وبالدخول في دين الله أفواجا.

والمدلول اللغوي للتوبة لا يتعارض مع المدلول الشرعي والاصطلاحي: فالتوبة في اللغة تعني "الرجوع" ويقال تاب وأناب وآب بمعنى رجع فالتائب إلى الله في ظل هذا المدلول اللغوي، وفي ظل الدلالة الشرعية: هو الراجع من شيء إلى شيء، راجع من الأوصاف المذمومة إلى الأوصاف المحمودة، راجع عما نهى الله عنه إلى أمره، وعن معصيته إلى طاعته، وعما يكرهه إلى ما يرضاه.

وللتوبة مراحل تشع بها دلالة الألفاظ الدالة على كل مرحلة حسب عمق الشعور الإيماني والصلة الروحية بالله عز وجل، والإخلاص في التوبة واستحضار النية الصادقة، وهذه المراحل تمثلها هذه المقامات الثلاث.

فمن رجع عن المخالفات خوفًا من عذاب الله فهو تائب، ومن رجع حياء من الله فهو منيب، ومن رجع تعظيمًا لجلال الله سبحانه فهو أواب، والدرجات الثلاث عند الله مقبولة، والترقي في كمال الطاعة ومدارج المحبة رغبات صادقة مأمولة.

والتوبة والاستغفار يتفقان في الرجوع إلى العمل الصالح وقال بعض العلماء: إن التوبة لا تتم إلا بالاستغفار لقوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾[1]. وكأن الاستغفار ثمرة التوبة، أو أنه الطريق إليها حتى تكون توبة نصوحا: وقيل في دلالة

---

(١) سورة هود، آية: ٣.

الاستغفار إنه: طلب المغفرة إما باللسان أو بالقلب أوبهما، فالاستغفار باللسان فيه نفع لأنه خير من السكوت، ولأن المستغفر بلسانه يعتاد على قول الخير، والاستغفار بالقلب نافع جدًا، لأنه يؤكد صدق التوبة، ويبعد صاحبه عن الرياء والنفاق والادعاء، والاستغفار باللسان والقلب أبلغ وأكثر تأكيدًا وأدل على صدق صاحبه اتباعًا لقول الله عز وجل: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[1].

وفي ختام الحديث الشريف يأتي التأكيد بإن مضافًا إلى ياء المتكلم والمتكلم هو أشرف الخلائق النبي المعصوم وخاتم النبيين ﷺ، وهو في هذا التأكيد يعلل أمره ونداءه الواجب التنفيذ، فهو القدوة في التوبة والاستغفار، إنه لا يتوب من ذنب، ولكن يواصل استغفاره وتوبته في اليوم مائة مرة، شكرًا لربه، وحمدًا لخالقه، ورحمة بأمته، ورجاءً في قبول توبة التائبين، وغفران ذنوب العاصين، وإجابةً لدعاء المنيبين، حتى يتم نصر الله لأمته، وتعود للإسلام شوكته، وترفع في العالمين رايته.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النداء، الأمر.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الحث على التوبة.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الحث على الاستغفار.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: وجوب الاقتداء والتأسي بالنبي ﷺ.

خامسًا: من صفات الداعية: توجيه المدعوين إلى ما ينفعهم.

أولاً- من أساليب الدعوة: النداء، الأمر:

أ- النداء: وذلك في قوله "يا أيها الناس" والنداء من الأساليب الدعوية المفيدة لما فيه من تقريب المدعوين إلى الداعي بالنداء عليهم بما يحبون، وتوجيه الدعوة إليهم، والنداء في القرآن والسنة من أبرز الأساليب وقد تكرر كثيرًا في القرآن كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

(١) سورة الفرقان، آية: ٧٠.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[١]

والله سبحانه إذا نادى عباده إنما يناديهم ليأمرهم بما فيه سعادتهم وكمالهم أو لينهاهم عما فيه شقاؤهم ونقصانهم أو ليبشرهم أو ينذرهم، أو ليعلمهم ما ينفعهم[٢].

ب- الأمر: وجاء هذا الأسلوب في قوله ﷺ "توبوا إلى الله واستغفروه" أمر بالتوبة إلى الله واستغفاره من الخطايا والذنوب، والأمر أحد الأساليب المفيدة في الدعوة إلى الله لما فيه من حمل المدعو على الالتزام بما ورد في الأمر الموجه إليه، لأن أسلوب الأمر من الأساليب ذات القيمة التأثيرية العالية، فهو أسلوب يتسابق المؤمنون لتحقيقه والوفاء بالمراد منه، فلا تأخر ولا تلكؤ ولا تراجع، وهذا هو مقتضى الإيمان، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه، وأسلوب الأمر يدل على أهمية المأمور به ووجوب الوفاء به وعدم الإخلال بمقتضاه[٣]، وقد تكرر أسلوب الأمر في القرآن كثيرًا ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[٤].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: الحث على التوبة:

إن التوبة طريق للنجاة ودليل على صدق العبد ورجوعه والتجائه إلى الله، وقد جاء في الحديث الحث على التوبة في قوله ﷺ "توبوا إلى الله" والتوبة أهم قواعد الإسلام وهي أول مقامات سالكي طريق الآخرة[٥] والأمر بالتوبة في الحديث موافق لقول الله عز وجل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾[٦] وقوله ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[٧] ففي هذه الآية خاطب الله بها أهل الإيمان وخيار

---

(١) سورة الحج، آية: ٧٧.

(٢) نداءات الرحمن لأهل الإيمان، أبوبكر الجزائري ص ٧.

(٣) انظر: العهد والميثاق في القرآن الكريم، د. ناصر بن سليمان العمر ص ٥٠، ٥١.

(٤) سورة البقرة، آية: ٢١.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٩٢.

(٦) سورة التحريم، آية: ٨.

(٧) سورة النور، آية: ٣١.

خلقه أن يتوبوا إليه، ثم علق الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه، وأتى بأداة "لعل" المشعرة بالترجي، إيذانًا بأنكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح، فلا يرجوا الفلاح إلا التائبون[١] وللتوبة ثلاثة شروط "أن يقلع عن المعصية وأن يندم على فعلها، وأن يعزم عزمًا جازمًا أن لا يعود إلى مثلها أبدًا، فإن كانت المعصية تتعلق بآدمي فلها شرط رابع وهو رد المظلمة إلى صاحبها أو تحصيل البراءة منه"[٢].

إن التوبة هروب من المعصية إلى الطاعة، ومن السيئة إلى الحسنة، ومن وحشة العصيان إلى الأنس بالرحمن، ...، وهروب من الجبار إلى رحابه، وعياذ برضاه من سخطه، وبمعافاته من عقوبته، وبه منه لا يُحصى ثناءٌ عليه، لا ملجأ منه إلا إليه، ولا مفرٌ عنه إلى سواه ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾[٣].

والتوبة ملاذ مكين، وملجأ حصين. دنس المعاصي يغسل بماء التوبة، ولوثة الخطايا تزال بزلال الاستغفار.

أسأت ولم أحسن وجئتك تائبًا ... وأنى لعبدٍ من مواليه مهربُ

يؤمّل غفرانًا فإن خاب ظنه ... فما أحدٌ منه على الأرض أخيبُ

إن في القلب شعث، لا يلمه إلا الإقبال على الله، وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس به في خلوته، وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته وصدق معاملته، وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه والفرار منه إليه. وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضى بأمره ونهيه، وقضائه ومعانقة الصبر على ذلك إلى لقائه، وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته والإنابة إليه ودوام ذكره وصدق الإخلاص له. ولو أعطي الدنيا وما فيها لم تُسد تلك الفاقة منه أبدًا[٤].

---

(١) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٣٣٣/١ وما بعدها.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٩٢.

(٣) سورة الذاريات، آية: ٥٠.

(٤) انظر: مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٧٠٢/٣، كتاب: الله أهل الثناء والمجد، د. ناصر بن مسفر الزهراني ص ٦٠ - ٧٣.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: الحث على الاستغفار:

لقد جاء الحث على الاستغفار في الحديث في قوله ﷺ "واستغفروه" والاستغفار من "الغفر" وهو الستر والتغطية ومن أسماء الله تعالى "الغفار والغفور" وهما من أبنية المبالغة ومعناهما: الساتر لذنوب عباده وعيوبهم، المتجاوز عن خطاياهم وذنوبهم[(١)].

وقد أمر الله بالاستغفار في كثير من الآيات منها: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾[(٢)] وقد وعد الله على الاستغفار بالخير الكثير في الدنيا والآخرة قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾[(٣)].

وقال على لسان نبيه نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا﴾[(٤)] وبيّن الحق تبارك وتعالى أن الاستغفار أمان من عذابه فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[(٥)]. فإن الله لا يعذب مستغفرًا[(٦)].

وقد أعطانا النبي ﷺ مثلاً تطبيقيًا في التوبة والاستغفار[(٧)] كما هو في الحديث الذي معنا "يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإني أتوب في اليوم مائة مرة" وما روى عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: ((إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ مَائَةَ مَرَّةٍ: رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ))[(٨)].

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ص ٦٧٤.

(٢) سورة محمد، آية: ١٩.

(٣) سورة هود، آية: ٣.

(٤) سورة نوح، الآيات: ١٠-١٢.

(٥) سورة الأنفال، آية: ٣٣.

(٦) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ١/٥٤٣.

(٧) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد ٢/٢٩٩.

(٨) أخرجه أبو داود ١٥١٦، وصححه الألباني، (صحيح سنن أبي داود ١٤٩٣).

رابعًا- من موضوعات الدعوة: وجوب الاقتداء والتأسي بالنبي ﷺ:

جاء في الحديث أمر رسول الله ﷺ بالتوبة والاستغفار في قوله "يا أيها الناس توبوا الله واستغفروه" عمليًا مثلاً تطبيقًا للتوبة والاستغفار وألمح إلي الاقتداء به فقال فإني أتوب في اليوم مائة مرة" ولقد حثنا القرآن على الاقتداء برسول الله ﷺ في أكثر من موضع منها: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ (١) فقوله أسوة حسنة أي قدوة حسنة(٢).

وقال ابن كثير: (هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله)(٣) وما من شك أن القدوة الحسنة لها كبير الأثر في إنجاح الدعوة، فالناس بطبيعتهم يتطلعون إلى الإنسان المتصف بصفات الإيمان والمتحلي بأخلاق الإسلام الحسنة وصاحب المسالك والأفعال الحميدة الذي يحب الخير للناس ويبعد الشر عنهم ويصدقهم في معاملاتهم وعلاقاتهم(٤).

إن الإنسان يحتاج إلى قدوة صالحة، لأن المحاكاة غريزة كامنة في النفس، وإذا بحثنا عن السر في تأثير القدوة الحسنة في بناء الشخصية وجدنا ذلك يرجع إلى أسباب منها:

١- القدوة الحسنة تحتل مكانة مرموقة في المجتمع وتحظى بالاحترام والتقدير من غالب المجتمع، وهذا يكون حافزًا قويًا لمحاكاتها وتقليدها في السلوك الحسن، ومن هنا: يكتسب الفرد شخصية متحلية بالفضائل.

٢- نجد أن القدوة الحسنة ذات الفضائل الخلقية الرفيعة: تكون لدى الأفراد ممن حولها الاقتناع الكامل بأن الوصول إلى هذه الفضائل والتحلي بها ممكن وغير

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

(٢) زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي ، ابن الجوزي، ٣٦٧/٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣٩١/٦.

(٤) وسائل الدعوة، د. عبدالرحيم بن محمد المغذوي ص ٢٠٥.

مستحيل. والإنسان مفطور على المحاكاة والتقليد، وهذا مما يسهل عليه اكتساب الفضائل والسلوك الإسلامي إذا جعل أمام عينيه قدوة حسنة يقتدي بها والمنهج الإسلامي اتخذ من القدوة الحسنة وسيلة من وسائله لترقية الإنسان في سلم الكمال السلوكي[١].

فالله سبحانه وتعالى عندما أنزل القرآن الكريم: لم يكن مراده من ذلك أن يحفظه الناس كنظرية من النظريات، وإنما كان مراده أن يترجم إلى سلوك ويطبق في واقع الحياة. لذا اختار الله سبحانه وتعالى محمدًا ﷺ ليكون القدوة والمثل الأعلى للناس، فكان بشخصه وشمائله وسلوكه وتعامله مع الناس ترجمة عملية حية لتعاليم القرآن وآدابه تشريعاته.

وقد أشارت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها إلى ذلك بقولها: ((كَانَ خُلُقُهُ الْقُرآنَ))[٢]، أي كان سلوكه صورة عملية لما في القرآن.

وهذا الاختيار مبني على علم قال تعالى: ﴿...ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ...﴾[٣].

فسيرة النبي محمد ﷺ العطرة: لا يخفى منها شيء وذلك لكي يكون الاقتداء بها على أحسن وجه وأكمله[٤].

فالله سبحانه وتعالى اختار لنا وسيلة هامة لبناء الشخصية الإسلامية، وذلك بإرساله محمدًا ﷺ إلى هذه الأمة، وهو يجمع كل الصفات العظيمة والخلال الحميدة.

فكان يجمع في شخصيته الفريدة كل مزايا الإنسانية، مما جعله القدوة الكاملة والمثل الأعلى الذي كلما تعاقبت الأجيال وجدوا في شخصيته الأسوة الصالحة والمنار

---

(١) انظر: الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبدالرحمن حسن حبنكة ٢٠٣/١ - ٢٠٤.

(٢) أخرجه مسلم ٦١١.

(٣) سورة الأنعام، آية: ١٢٤.

(٤) انظر: منهج القرآن في تربية ال تمع، د. عبدالفتاح عاشور ص ٢٣٧.

الهادي إلى الصراط المستقيم. ولهذا: كان بحق القدوة الصالحة لبني الإنسان في كل زمان ومكان يأخذون منه سمات الشخصية الإسلامية ويتحلون بها.

فشخصية الرسول ﷺ لم تتميز من بين الشخصيات الأخرى؛ لأنه نبي وصاحب رسالة سماوية فحسب، بل مع ذلك لأنه كان قدوة صالحة، ومثلاً رفيعًا للاستقامة الإنسانية والمبادئ السامية التي تضمنتها دعوته. وتلك المبادئ هي التي تصور لنا الرشد الإنساني والنضج البشري.

وأهمية هذه القدوة الحسنة التي امتاز بها الرسول ﷺ عامة ليست خاصة بالاقتداء به في العبادات أو الزهد فقط، بل تشمل الاقتداء به في سائر الأمور فيما ليس من خصوصياته ﷺ[(١)].

خامسًا- من صفات الداعية: توجيه المدعوين إلى ما ينفعهم:

إن من مهام الداعي وصفاته الرئيسة: توجيه المدعوين إلى الخير، وإلى ما ينفعهم في دنياهم وأخراهم، ففي هذا الحديث وجه النبي ﷺ الناس إلى ما يغفر ذنوبهم ويكفر سيئاتهم من التوبة والاستغفار فقال: "يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإني أتوب في اليوم مائة مرة" وتلك مهمة الداعي: دعوة الناس إلى الخير وما فيه صالحهم قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[(٢)]. أي ولتكن منه أمة منتصبة للقيام بأمر الله، في الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[(٣)].

إن الداعي لا بد أن يكون ذا قلب ينبض بالرحمة والشفقة على الناس وإرادة الخير لهم، والنصح لهم، ومن شفقته عليهم دعوتهم إلى الإسلام، لأن في هذه الدعوة نجاتهم

---

(١) انظر: الشخصية ومنهج الإسلام في بنائها ورعايتها، د. ناصر بن عبدالله بن ناصر التركي، إحدى رسائل سلسلة الرسائل الجامعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ص ١٧٨ - ١٨١.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٠٤.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢/ ٩١.

من النار وفوزهم برضوان الله تعالى. إنه يحب لهم ما يحب لنفسه الإيمان والهدى، فهو يحبب ذلك إليهم أيضًا[1]. والداعي يسعى بدعوته إلى دلالة الناس إلى ما ينفعهم في دنياهم وأخراهم.

(١) أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان ص ٣٥٦.

الحديث رقم (١٥)

١٥- وعنْ أبي حَمْزَةَ أَنَس بن مَالِكٍ الأَنْصَارِيِّ خَادِمِ رسول الله ﷺ، رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((للّهُ أفرحُ بتوبةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ سقطَ عَلَى بعِيرِهِ، وقد أَضلَّهُ في أَرضٍ فَلاةٍ)) متفقٌ عليه[1].

وفي رواية لمُسْلِمٍ: «للّهُ أَشدُّ فرحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِين يتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كان عَلَى راحِلَتِهِ بِأَرْضٍ فلاةٍ، فانْفلتتْ مِنْهُ وعليْها طعامُهُ وشرَابُهُ فأَيِسَ مِنْهَا، فأَتَى شَجَرةً فاضْطَجَعَ في ظِلِّهَا، و[2] قد أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنما[3] هوَ كَذَلِكَ إِذْ هُوَ بِها قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخذ بِخطامِهَا ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الفَرحِ: اللَّهُمَّ أَنت عبْدِي وأَنا ربُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الفرح»[4].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

أضلّه: فقده وذهب منه بغير قصده[5].

أرض فلاة: قفر لا ماء فيها[6].

أيس منها: يئس وانقطع رجاؤه[7].

الخطام: ما وُضع على خطْم الدابةِ -أنفها- لتُقاد به[8].

---

(١) أخرجه البخاري واللفظ له ٦٣٠٩، ومسلم ٢٧٤٧/٨. أورده المنذري في ترغيبه ٤٦١٩.

(٢) لفظ مسلم بدون الياء.

(٣) لفظ مسلم: (بينا).

(٤) أخرجه مسلم ٢٧٤٧/٧. أورده المنذري في ترغيبه ٤٦١٩.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦١٠، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١١/١١.

(٦) القاموس المحيط، والمصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الفيومي في (ف ل و).

(٧) اللسان والوسيط في (أ ي س).

(٨) الصحاحي واللسان والقاموس والوسيط في (خ ط م).

الشرح الأدبي

ما أعظم رحمة الخالق بالمخلوقين وما أجمل نعمة الله وثوابه لعباده التائبين، وفي هذا الحديث الشريف تتجلى سمات هذه الرحمة، وتتوهج أشعة تلك النعمة حيث يقدمها رسول الله ﷺ في صورة بيانية مشرقة، ومشهد ترغيبي مؤثر، وأسلوب سهل ميسر، في إطار صورة تشبيهية قريبة نابعة من مشاهد البيئة التي تصافح وجدان الإنسان صباح مساء، ويتأملها ذووا الألباب ببصرهم وبصيرتهم، فيدركون أن رحمة الله وسعت كل شيء وأن الله غفور رحيم، وتواب حكيم.

ومن معالم هذه الصورة التي تقرب أمل التوبة، وترغب في الانتصار على المعصية جو الصحراء، وراكب الدابة، ثم فقدان المتاع والطعام والشراب، والبحث المضني عن هذه الممتلكات، وهي مقومات حياة هذا المسافر، ثم اليأس من العثور عليها، والركون إلى ظل شجرة طلبًا للراحة أو يأسًا من العثور على ما فقده أو انتظارًا للموت، وفجأة تهب نسائم الخير، وتشرق شمس الأمان، وإذا بذلك اليائس يجد راحلته وطعامه وشرابه، فتسري الفرحة في أوصاله، وتسبح بحمد الله وشكره مشاعره، وتتسابق الكلمات الحامدة الشاكرة على لسانه، فيسبق بعضها بعضًا وتختلط المفردات والمعاني في غمرة هذا الانفعال، وذلك الفرح الذي أعاده للحياة والأمان، ويغفر الله له هذا السهو الطارئ، هذه الصورة البهيجة المضيئة الراصدة للحظة انتصار الإرادة على اليأس، وانتصار هاتف الإيمان على وساوس الشيطان، يضعها المصطفى ﷺ في صورة تشبيه مركب عقلي من غير نظر إلى مفردات التركيب، بل تؤخذ الزبدة من المجموع فتكون غايته ونهايته، وفائدة إبرازه في صورة التشبيه، تقرير المعنى في ذهن السامع، والمعنى المراد هو أن الله عز وجل يفرح بعبده التائب أكثر من فرح ذلك الذي فقد كل مقومات حياته، ثم أكرمه الله وأعاد إليه الأمل وحقق له الرجاء، وفي هذا التشبيه إيحاء بضرورة نزع اليأس من قلوب العاصين وإرشاد إلى الإقبال على التوبة والإنابة مهما كان حجم الذنوب، استجابة لذلك النداء الإلهي الرحيم: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ

أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[(١)].

وقيل بأن الصورة الأدبية في الحديث جاءت في قالب "التشبيه التمثيلي" حيث يتوهم للمشبه الحالات التي للمشبه به وينتزع له منها ما يناسبه، فهي صورة تقريبية مؤثرة ترغب الذين ضعفوا أمام إغراءات الحياة فاتبعوا أهواءهم، واستسلموا لرغباتهم ونزواتهم أن ينيبوا إلى الله ويتوبوا توبة نصوحًا، والصورة البيانية في الحديث النبوي تجمع بين الجمال والجلال، وبين المهابة والحلاوة وبين الإقناع والإمتاع، وتغذي العقول، وتمتع الأسماع وحين نطيل التأمل في استكشاف معالم الجمال والجلال فيها ندرك أنها تلج بالمعنى إلى شعاب النفس فتزيده وضوحًا في الخاطر، وجلاءً في الذهن ونورًا يمتد في عقل المسلم وبصره ونَفَسًا يتردد في رئتيه، وذلك بعض ما يفيض به البيان الساحر والأدب الرفيع.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: منزلة التوبة عند الله تبارك وتعالى.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: التشبيه وضرب المثل.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الترغيب.

رابعًا: من مهام الداعية: بعث الأمل في نفوس المدعوين.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: إثبات صفة الفرح لله عز وجل.

أولاً- من موضوعات الدعوة: منزلة التوبة عند الله تبارك وتعالى:

إن لتوبة العبد وإنابته إلى ربه منزلة لا تدانيها منزلة، والحديث يبين منزلتها وعلو شأنها وقبول الله لها: (لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره، وقد أضله في أرض فلاة)، وذلك بيان لسرعة قبول الله توبة عبده التائب، وأنه يقبل عليه بمغفرته ورحمته، ويعامله معاملة من يفرح به[(٢)].

---

(١) سورة الزمر، آية: ٥٣.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٧/٧١-٧٢.

ففي الحديث شبه الرسول ﷺ قبول الله لتوبة العبد التائب ورضاه بها، ورحمته الواسعة بعباده، وشفقته عليهم برجل في أرض جدباء مهلكة ضاع منه بعيره الذي عزم اجتياز تلك الفلاة به، ثم وجده وقد أشرف على الهلاك، ويئس من النجاة؛ تشجيعًا للناس على التوبة ودفعًا لما يصرف عنها، وفتحًا لباب الرجاء أمام العباد، فالله تعالى مع قدرته العظيمة وعزه الكبير رؤوف رحيم، يشجع العباد على التوبة، ويكرمهم بقبولها، ويوجههم إلى ما فيه النجاة والسعادة في الدنيا والآخرة.

وفي الحديث كناية عن إحسان الله إلى عبده التائب، وتجاوزه عن سيئاته، لأن العاصي إذا وقع في المعصية صار في قبضة الشيطان وأسره، فأشرف على الهلاك، فإذا وفقه الله للتوبة خرج من شؤم تلك المعصية وتخلص من قبضة الشيطان، فأقبل الله عليه بمغفرته ورحمته، فالتمثيل إنما هو لحال العبد التائب، وما يتحصل له بسبب التوبة من النجاة والفوز، ولقد بلغ من روعة التصوير أن اشتملت الصورة على كل مؤثراتها، أخذًا بلب السامع وتحريكًا لخياله وأحاسيسه وأفكاره، لتنتج الأثر المطلوب. والصورة هنا هي صورة رجل في صحراء مقفرة، معه زاده من الطعام والماء ومركبه من الإبل، فضاع كل ذلك بغتة، وأعياه البحث حتى يئس من استرداد شيء من ذلك. لقد أحاطت به كل صور اليأس،وتمثل في نفسه اليأس من النجاة، وبين التعب والألم واليأس والاستسلام للموت والهلاك، إذ براحلته عليها طعامه وشرابه، فقام كالمأخوذ ممسكًا بها حتى لا تهرب منه، صائحًا من شدة الفرح: (اللهم أنت عبدي وأنا ربك) فأخطأ من شدة الفرح.

هذا الرجل بفرحته التي لا تضارع وسروره الذي لا يمكن تحديده، ليس أشد حرصًا على الحياة وقبولاً للراحلة وتلقيًا للنجاة من قبول الله لتوبة عبده المؤمن وإقباله عليه، لأن عودة الراحلة فيها حياته الدنيوية، وعودته بالتوبة فيها حياته الأخروية، وهي التي طلبها الله منه ودعاه إلى الحفاظ عليها والاستمساك بها[1].

---

(١) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم ص ٣٥.

ففي الحديث حض على التوبة[١]، والإنابة والرجوع إلى الله، وقد علق الله سبحانه وتعالى الفلاح المطلق على فعل المأمور وترك المحظور، فقال: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٢]، فكل تائب مفلح، ولا يكون مفلحًا إلا من فعل ما أمر به وترك ما نهي عنه، لذا كانت التوبة لها المنزلة الرفيعة عند الله، وكانت غاية كل مؤمن[٣].

ثانيًا- من أساليب الدعوة: التشبيه وضرب المثل:

ورد استخدام التشبيه وضرب المثل في الحديث في قوله ﷺ: (لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعير وقد أضله في أرض فلاة) قال القرطبي: (ووجه هذا المثل أن العاصي حصل بسبب معصيته في قبضة الشيطان وأسره وقد أشرف على الهلاك، فإذا لطف الله به ووفقه للتوبة خرج من شؤم تلك المعصية، وتخلص من أسر الشيطان ومن المهلكة التي أشرف عليها فأقبل الله عليه بمغفرته، وبرحمته)[٤]، فالتشبيه وضرب المثل يحدث في النفس حركة التفات بارعة يلتفت بها المرء من الكلام الجديد إلى صورة المثل المأنوس، فيلمح ما بينهما من التشابه أو التطابق، فلا يلبث أن يتلقى الأمر الجديد بمزيد من القبول والارتياح[٥].

(وتظهر أهمية ضرب الأمثال وفائدتها في أن الأمثال تبرز المعقول في صورة المحسوس، الذي يلمسه الناس فتقبله العقول، لأن المعاني المعقولة لا تستقر في الذهن، إلا إذا صيغت في صورة حية قريبة الفهم، وتكشف الأمثال عن الحقائق وتعرض الغائب في معرض الحاضر، وتجمع الأمثال المعنى الرائع في عبارة موجزة. ويضرب المثل

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٠٨.

(٢) سورة النور، آية: ٣١.

(٣) انظر: مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ١/٥٤٠ - ٥٤١.

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٧/٧٢.

(٥) تذكرة الدعاة، البهي الخولي ص ٦٧ - ٦٨.

للترغيب في الممثل به حين يكون مما ترغب فيه النفوس، ويضرب المثل للتنفير حينما يكون الممثل به مما تكره النفوس، ويضرب المثل لمدح الممثل به، ويضرب المثل حين يكون الممثل به فيه صفة يستحقها الناس"[١].

ولضرب المثل أهداف تربوية ودعوية منها: أن الأمثال تقرب المعنى إلى الأذهان، فقد ألف الناس تشبيه الأمور المجردة بالأشياء الحسية، ليستطيعوا فهم تلك الأمور المعنوية أو الغيبية، بما قد ألفوه وعرفوه، حيث يتم تقريب المراد للعقل وتصويره بصورة المحسوس، أو تصوير المعاني بصورة الأشخاص لأنها أثبت في الأذهان، لاستعانة الذهن فيها بالحواس ومن ثم كان الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي، والغائب بالشاهد.

ومنها: أن للأمثال قدرة على الاستحواذ على المشاعر، وإيقاظ النفوس، وتجديد نشاطها، فالإنسان يميل ببيعته إلى الاستشهاد بالأمثال لما يرى فيها من جمال حكمتها، ولطافة لفظها، وإصابتها المعنى)[٢].

ومنها: أن الأمثال وسيلة من وسائل الإقناع، فإن المورد للمثل، إنما هو في الحقيقة يقيس الأمر الذي يدعيه على أمر معروف ومسلم به عند من يخاطبه،ومن ثم لزم التسوية بينهما في الحكم[٣].

ثالثًا- من أساليب الدعوة: الترغيب:

ورد أسلوب الترغيب ضمنيًا في الحديث ترغيبًا في الإسراع بالتوبة إلى الله عز وجل ووعد بقبولها عند الله تبارك وتعالى، وجاء ذلك في قوله ﷺ: (لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله في فلاة) فمعلوم ان الإنسان في هذه الحياة تحيط به صوارف كثيرة، تؤثر على قيامه بما كلف به من أمر الدين، وفي نفس الوقت جُبلت نفسه على حب الخير والسعي في الحصول عليه، وكُره الشر، والرغبة في البعد عنه، لهذا فإن أسلوب الترغيب فيما عند الله من أجر عظيم لعبده الذي أطاعه واتقاه محبب

---

(١) فلسفة التربية الإسلامية في الحديث الشريف، د. عبدالجواد سيد بكر ص ٣٤٢.

(٢) أسلوب الدعوة القرآنية بلاغة ومنهاجًا، د. عبدالغني محمد سعيد بركة ص ٢٢٩.

(٣) أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد محمود العاني ص ٤٢٣ - ٤٢٤.

إلى النفس البشرية تهفو إليه وتسعد به وتنصت له[١].

وأسلوب الترغيب من أبرز الأساليب استخدامًا في القرآن الكريم، ومن ذلك ترغيب الله وتبشيره المؤمنين بالجنة، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[٢]، فالترغيب يجعل العبد يتوق إلى ما أعده الله للطائعين، فيزداد طاعة وتقوى، كما أنه يورث الصبر على المكاره في الدنيا، رجاء أن يعوض عنه بالنعيم المقيم في الآخرة، ويولد الأمل ويبعث على النشاط والعمل للآخرة[٣].

إن الترغيب يورث في قلب الإنسان الرجاء وحسن الظن بالله تعالى، والإقبال على الأعمال الصالحات والإعراض عن الطالحات، فالرجاء حاد يحدو القلوب إلى بلاد المحبوب، ويطيّب السير إلى العزيز القدير، إنه استبشار بجود الرب، وطمع في كرم الكريم وأمل في رحمة الرحيم، وثقة في فضل العظيم، ونظر إلى سعة الرحمة، وجميل العفو، والامتنان بالغفران، والتعلق بالمحسن المتفضل، ولولا روح الرجاء لعُطلت عبودية القلب والجوارح، وهدمت صوامع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرًا. لولا روح الرجاء ما تحركت الجوارح بالطاعة، ولا ترنمت الألسنة بالدعاء، ولا فاضت القلوب بالثناء.

إن من الواجب على العالم في علمه، والمربي في تربيته، والواعظ في وعظه أن يجمع بين الأمرين، ويقرن بين الحسنيين، ويمزج بين الغرضين، فليس التخويف بمفرد في سبيل للعلاج، وأداة للتقويم، وطريقة للدعوة، بل قد يكون الرجاء أجمل، والترغيب أوقع، وإن المتأمل لكتاب الله تعالى ولسنة نبيه ﷺ يجد جانب الترغيب، ونصوص الرجاء أكثر عددًا وأجمل موقعًا، وألذ سماعًا، وأطرب استمتاعًا.

---

(١) قواعد الدعوة الإسلامية، د. الشريف حمدان راجح المهدي الهجاري ص ٤٤.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٥.

(٣) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد ٢١٥٦/٦.

والرجاء ليس له قيمة ولا تبدو له فائدة، ولا تنال منه ثمرة إن لم يكن مصحوبًا بالعمل، مقرونًا بالطاعة ممزوجًا بالعطاء، فليس معنى الرجاء أن ينغمس المرء في الذنوب ويتقاعس عن الطاعة، ويتنكر للعبادة، ويفرط في الحقوق، ويضيع الواجبات، ثم يرجو النجاة من النار والفوز بالجنة، بل هو يعمل ويرجو، ويجتهد ويطمع، ويبذل ويرغب، وهو معترف بتقصيره مقرٌ بذنوبه، مؤمل في نيل غفران ربه.

وإذا تأملت الآيات القرآنية أدركت هذه الحقيقة، وآمنت بهذا المبدأ:

انظر إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢١٨﴾ ﴾(1).

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرْجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ﴾(2).

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحْذَرُ ٱلْأٓخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾(3).

فهؤلاء الذين تعلقوا بالرجاء وطمعوا في العطاء كانت لهم مؤهلات ولديهم أسباب(4)، أهمها شفاعة الرجاء بالعمل الصالح.

رابعًا- من مهام الداعية: بعث الأمل في نفوس المدعوين:

إن بعث الأمل في نفوس المدعوين، وزرع الرجاء في نفوسهم إلى الأفضل من أهم صفات الداعية، وفي هذا الحديث تبرز تلك الصفة من خلال بعث الأمل في نفوس المدعوين، وطمأنتهم بأن باب التوبة مفتوح، حيث ورد في الحديث: (لله أفرح بتوبة عبده

---

(1) سورة البقرة، آية: ٢١٨.

(2) سورة فاطر، الآيتان: ٢٩ - ٣٠.

(3) سورة الزمر، آية: ٩.

(4) انظر: كتاب الله أهل الثناء وال د، د. ناصر بن مسفر الزهراني ص ٦٦٣ - ٦٦٥.

من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله في فلاة) فإذا ما علم الإنسان سعة رحمة ربه عز وجل وقبول توبته وتكفير سيئاته وغفران ذنوبه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[١]، وتبديل سيئاته حسنات: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[٢]، فإن ذلك وغيره مما يفتح للعباد باب الأمل والرجاء في رحمة الله تعالى، فتعلو همتهم عن دناءة المعصية إلى شرف الطاعة والتقرب إلى الله، والإقلاع عن مستوى المعصية، والصعود إلى علو الطاعة وشرف التقرب إلى الله.

خامسًا- من موضوعات الدعوة: إثبات صفة الفرح لله عز وجل:

ورد إثبات صفة الفرح لله عز وجل في قوله ﷺ (لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم...) قال ابن أبي العز الحنفي: "ما أثبته الله ورسوله أثبتناه، وما نفاه الله ورسوله نفيناه"[٣]، فالواجب إثبات أسمائه سبحانه وتعالى وصفاته واعتقاد ما تدل عليه من صفات كماله ونعوت جلاله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل على حد قوله سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[٤][٥].

وقال ابن تيمية: (وفي هذا الحديث إثبات صفة الفرح لله عز وجل، والكلام فيه كالكلام في غيره من الصفات: أنه صفة حقيقة لله عز وجل، على ما يليق به، وهو من صفات الفعل التابعة لمشيئته تعالى وقدرته)[٦].

---

(١) سورة التحريم، آية: ٨.

(٢) سورة الفرقان آية: ٧٠.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي، تحقيق: جماعة من العلماء ص ٢١٨.

(٤) سورة الشورى، آية: ١١.

(٥) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، والرد على أهل الشرك والإلحاد، د. صالح بن فوزان بن عبدالله الفوزان ص ١٦٦.

(٦) شرح العقيدة الواسطية، ابن تيمية ص ٢٠٠.

الحديث رقم (١٦)

١٦- وعن أبي مُوسى عَبْدِ اللَّهِ بنِ قَيْسٍ الأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه ، عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «**إن الله تعالى يبْسُطُ يدهُ بالليْلِ ليتُوب مُسيءُ النَّهَارِ ويبْسُطُ يَدهُ بالنَّهَارِ ليَتُوبَ مُسِيءُ الليْلِ حتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِن مغْرِبِها**» رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو موسى الأشعري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨).

الشرح الأدبي

إن المصطفى صلى الله عليه وسلم الذي أرسله ربه رحمة للعالمين، ووصفه بأنه: ﴿رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[2]. إنه يقدم مشهدا جليلاً مهيبًا من مشاهد قبول توبة التائبين وفرح الله عز وجل بعباده المذنبين الذين استجابوا لنداء الله عز وجل: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[3].

إن هذا المشهد الجليل المرتبط بعزة الله وجلاله وقدرته وكماله يتجلى في فتح باب التوبة في كل زمان وفي كل مكان ليلاً ونهارًا، صبحًا ومساءً، فالمسيئون ليلاً الذين ارتكبوا المعاصي في الخفاء ظنًا بأن الله يخفي عليه ذلك وهم يجهلون بأن الله يعلم السر وأخفى، هؤلاء الغافلون حينما يستيقظون ويستجيبون لهواتف الطاعة وإشراقات التوبة، يتوب الله عليهم، وهذه التوبة تكون في العلن، ويشهدها الجميع وكأن الإشارة إلى الزمن هنا... إيحاء بأن هؤلاء الذين أوغلوا في كتمان معاصيهم يصبحون وقد تاب الله عليهم منخرطين في سلك المؤمنين، لا يخافون لومة لائم، ولا يخشون ضعفًا أمام

---

(١) برقم (٣١/٢٧٥٩). أورده المنذري في ترغيبه (٤٥٨٧).

(٢) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

(٣) سورة النور، آية: ٣١.

إغراءات الحياة، وكذلك الذين جاهروا بالمعاصي نهارًا وتجرأوا على حرمات الله عز وجل حين يعودون إلى حديقة الطاعة، وينعمون بعفو الله عز وجل ويتوب الله عليهم، ولا يفضحهم أمام الخلائق، بل يبدل سيئاتهم حسنات؛ وينصر بهم الإسلام بعد أن يفيئوا إلى ظلاله وينعموا ببهائه وجلاله.

إن هذا الكرم الإلهي، والفيض الرباني يقدمه رسول الله ﷺ في هذا الأسلوب البياني المشوق، ويبدأ بصيغة التوكيد المقترنة بلفظ الجلالة وصفة العزة والجلال في قوله: "إن الله عز وجل" ثم يأتي إنعام الله في قوله: "يبسط يده" وهذا البسط من علامات الجود والتنزه عن المنع، ومن أمارات رحمة الله، وكثرة تجاوزه عن الذنوب وجاء فعل البسط في صيغة "المضارع" دلالة على الاستمرار وعدم الانقطاع وكذلك الفعل "يتوب" في صيغته الآنية والمستقبلية يرشد إلى أن باب التوبة مفتوح لا يغلق في أي لحظة، والجمع بين الليل والنهار في قبول التوبة فيه اطمئنان لكل من تحدثه نفسه بالرجوع إلى الله عز وجل طيلة الدهر ليلاً ونهارًا، وقيل في تفسير سر هذه المقابلة في الموقف وذلك الطباق في الألفاظ إن الله عز وجل يوسع جوده وفضله على العصاة بالليل ليلهموا التوبة بالنهار، وعلى العصاة بالنهار ليلهموا التوبة بالليل، وفي ذلك إرشاد إلى عدم الإصرار على المعصية يومًا واحدًا، حتى يكون العاصي حريصًا على قطع أسباب العصيان، وحريصًا على مجابهة ومخاصمة مسالك الشيطان.

ولنتأمل اتساع مجال التوبة في الزمان والمكان الذي تفيده "حتى" في قوله: "حتى تطلع الشمس من مغربها" وحتى تفيد الغاية حيث سيظل باب التوبة مفتوحًا، ويظل كرم الله وبسط يده ليلاً ونهارًا مادام للحياة أنفاس، وللمعصية وسواس وللطاعة أقباس وللإيمان حراس؛ وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: "من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه"[(١)]، وعن صفوان بن عسال: عن النبي ﷺ قال: ((إن الله عز وجل جعل بالمغرب بابا مسيرة عرضه سبعون عامًا للتوبة لا يغلق ما لم تطلع

(١) أخرجه مسلم ٢٧٠٣.

الشمس من قبله وذلك قول الله عز وجل: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾[١]))[٢] وفي المسند عن عبدالرحمن بن عوف وعبدالله بن عمرو ومعاوية عن النبي ﷺ قال: ((لا تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من المغرب فإذا طلعت طبع على كل قلب بما فيه وكفى الناس العمل))[٣].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: بيان سعة رحمة الله وفضله على عباده.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: الترغيب.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: بيان فتح الله لأبواب التوبة إلى أن تطلع الشمس من مغربها.

رابعًا: من مهام الداعية: عدم تقنيط الناس من رحمة الله عز وجل.

أولاً- من موضوعات الدعوة: بيان سعة رحمة الله وفضله على عباده:

جاء في الحديث بيان للون من ألوان رحمة الله عز وجل وكرمه وأنه تعالى يقبل التوبة حتى وإن تأخرت، فإذا أذنب الإنسان ذنبًا في النهار فإن الله تعالى يقبل توبته ولوتاب في الليل، وكذلك إذا أذنب في الليل وتاب في النهار فإن الله يقبل توبته بل إن الله يبسط يده حتى يتلقى هذه التوبة التي تصدر من عبده المؤمن[٤] فهو سبحانه كما قال عن نفسه ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[٥] وقال ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِي ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾[٦] وقال ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾[٧]. أي: كل من تاب إليَّ تبت عليه من أي ذنب كان[٨].

---

(١) سورة الأنعام، آية: ١٥٨.

(٢) أخرجه أحمد ٢٤١/٤، رقم ١٨١٠٠، وقال محققو المسند: إسناده حسن.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ١٩٢/١، رقم: ١٦٧١، وقال محققو المسند: إسناده حسن.

(٤) المرجع السابق ٥٣/١.

(٥) سورة الأعراف، آية: ١٥٦.

(٦) سورة غافر، آية: ٣.

(٧) سورة طه، آية: ٨٢.

(٨) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣٠٨/٥.

فهو سبحانه غفار كثير الغفران لمن تاب عمن كان فيه من كفر أو شرك أو معصية أو نفاق وعمل صالحًا بجوارحه ثم اهتدى، أي: استقام وثبت على الهدى المذكور، وهو التوبة والإيمان والعمل الصالح، ونحوه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾(١)، وفي الآية ترغيب لمن وقع في وهدة الطغيان ببيان المخرج منه كي لا ييأس(٢).

ثانيًا- من أساليب الدعوة: الترغيب:

جاء الترغيب في الحديث في دعوة من وقع في معصية بالتوبة إلى الله، والوعد بقبول الله لتوبته وهذا في قوله ﷺ "إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها" والترغيب من الأساليب الدعوية المفيدة التي تحمل الناس على التوبة والتشمير عن ساعد الجد في طاعة الله تعالى لنيل السعادة في الدنيا والآخرة(٣). ولقد حفلت آي الذكر الحكيم، ووردت الأحاديث بالترغيب في رضا الله والجنة والفوز بالنعيم الأبدي المقيم، وبيان ما أعده الله للمتقين، قال تعالى: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾(٤) ترغيبًا للمؤمنين وحثًا لهم على الطاعات وتحمل مشاق العبادة، ذلك أن الإنسان إذا علم أن الله قد أعد له دارًا فيها كل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين (ورضوان الله أكبر) تولدت عنده الرغبة الصادقة في أن يكون من أهل هذه الجنة وسعى لها سعيها فكان من عباد الله الأوابين المنيبين الذين ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾(٥))(٦).

---

(١) سورة الأحقاف، آية: ١٣.

(٢) محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ١٨٣/١١/٧.

(٣) انظر: هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة، علي محفوظ، دار الاعتصام ص ١٩٢.

(٤) سورة النبأ، آية: ٣٦.

(٥) سورة السجدة، آية: ١٦.

(٦) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد ٢١٢٧/٦.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: بيان فتح الله لأبواب التوبة إلى أن تطلع الشمس من مغربها:

إن من فضل الله على عباده أن فتح لهم باب التوبة، إلى طلوع الشمس من مغربها إيذانًا بقيام الساعة كما نص على ذلك الحديث "إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها" فهو سبحانه يوسع جوده وفضله على العصاة بالليل ليُلْهَموا التوبة بالنهار، وبالنهار ليُلْهَموا التوبة بالليل، فسبق ذلك الكرم والجود علة للتوبة ما دام بابها مفتوحًا[١] فما على الإنسان إلا أن يتوب فإن تاب قبله الله ولم يمنعه رفده، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال قال رسول الله ﷺ: ((مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، تَابَ اللّهُ عَلَيْهِ))[٢]، قال العلماء: (هذا حد لقبول التوبة، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ﴾[٣])[٤].

رابعًا- من مهام الداعية: عدم تقنيط الناس من رحمة الله عز وجل:

إن أهم ما يجب أن يتصف به الداعية بيان سعة رحمة الله وعدم تيئيس الناس من رحمة الله، وليقتدي في ذلك برسول الله ﷺ الذي بيّن لنا سعة رحمة الله في الحديث قائلاً: "إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها" فإن رحمة الله وسعت كل شيء قال تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾[٥].

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٦٢.

(٢) أخرجه مسلم ٢٧٠٣.

(٣) سورة الأنعام، آية: ١٥٨.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٩٢.

(٥) سورة الأعراف، آية: ١٥٦.

وقد ذم الله اليأس وأهله فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[(١)] وقال على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾[(٢)] ونهانا الله عن القنوط من رحمته في كثير من النصوص القرآنية منها: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[(٣)].

فهذه الآية الكريمة وما شابهها دعوة لجميع العصاة، من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة وإخبار بأن الله يغفر الذنوب جميعًا لمن تاب منها ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر، ولا يصح حمل هذه الآية على غير توبة لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه وفي سبب نزول هذه الآية: عن ابن عباس رضي الله عنهما: ((أنَّ ناسًا من أهل الشِّركِ كانوا قد قتلوا وأكثروا، وزنوا وأكثروا، فأتَوا محمدًا صلى الله عليه وسلم فقالوا: إنَّ الذي تقولُ وتَدعو إليه لَحَسن، لو تُخبرُنا أنَّ لما عملنا كفَّارةً. فنزل ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[(٤)]، ونزل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[(٥)]))[(٦)].

فهذه الآيات وغيرها دالة على مغفرة الله لمن تاب، فلا يقنط عبد من رحمة الله وإن عظمت ذنوبه وكثرت، فإن باب التوبة والرحمة واسع.

---

(١) سورة يوسف، آية: ٨٧.

(٢) سورة الحجر، آية: ٥٦.

(٣) سورة الزمر، آية: ٥٣.

(٤) سورة الفرقان، آية: ٦٨.

(٥) سورة الزمر، آية: ٥٣.

(٦) أخرجه البخاري ٤٨١٠، ومسلم ١٢٢.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[(٢)]، وقال تعالى في حق المنافقين: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾[(٣)]، وقال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[(٤)]، ثم قال: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[(٥)]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟﴾[(٦)].

قال الحسن البصري: انظر إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة! والآيات في هذا كثيرة جدًا[(٧)].

---

(١) سورة التوبة، آية: ١٠٤.

(٢) سورة النساء، آية: ١١٠.

(٣) سورة النساء، الآيتان: ١٤٥ – ١٤٦.

(٤) سورة المائدة، آية: ٧٣.

(٥) سورة المائدة، آية: ٧٤.

(٦) سورة البروج، آية: ١٠.

(٧) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١٠٧/٧.

الحديث رقم (١٧)

١٧- وعَنْ أبي هُرَيْرةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«مَنْ تاب قَبْلَ أَنْ تطلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مغْرِبِهَا، تَابَ الله علَيْه»** رواه مسلم(١).

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

إن الإنسان في سيرته الحياتية يظل في صراع بين رغباته وواجباته، ويظل مؤرجحًا بين السلوك الملتزم بالتعاليم الشرعية، والرغبة الجامحة في تحقيق أمانيه الدنيوية؛ وتلك طبيعة النفس الإنسانية في استقبالها لمتقلبات الحياة وإغراءاتها، والاستقرار لا يناله إلا صاحب الإرادة القوية، والنزعة الوجدانية الإيمانية، وفي سورة الشمس تتوهج هذه الحقيقة التي تعلن عن فوز المؤمن الذي انتصر على نفسه، وأما من استسلم لأهوائه فمآله الخسران المبين.

يقول الله عز وجل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾(٢).

والتوبة: واجبة من كل ذنب ووجوبها مجمع عليه: لا فرق بين الصغائر والكبائر وغير ذلك من أنواع الذنوب.

والتوبة النصوح من أعظم دلائل الانتصار على النفس وهى تفتح آفاق الرجاء والأمل أمام كل من أسرف على نفسه، فهو لا يقنط من رحمة الله وهذا الرجاء لا يخبو ضياؤه، ولا ينطفئ بهاؤه، وهذا الحديث الشريف يقدم هذا الرجاء في صيغة "الشرط والجزاء" فالجزاء من جنس العمل، فالتوبة تظل ممتدة أمام أى إنسان حتى يأذن الحق سبحانه وتعالى.

---

(١) برقم (٢٧٠٣/٤٣). أورده المنذري في ترغيبه (٤٥٨٨).

(٢) سورة الشمس ٧- ١٠.

ولنتأمل بلاغة الإيجاز في هذا النص النبوي الشريف، حيث يدخل الملايين من البشر إلى أن تقوم الساعة في دائرة أداة الشرط "من" وهى تتكون من حرفين، ولكنها تضم في دائرتها الكبرى التي تتسع باتساع الزمن واتساع الأماكن، وعبر توالي الأجيال، فكل من يقبل على ربه تائبًا قبل أن يغلق باب التوبة بطلوع الشمس من مغربها يقبل الله توبته.

ولكن كما قال العلماء للتوبة المقبولة شروط حسب نوع المعصية فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى: لا تتعلق بحق آدمي فلها ثلاثة شروط: وهي: الإقلاع عن المعصية، والندم على فعلها، والعزم على أن لا يعود المذنب إلى المعصية أبدًا.

وحتى لا تضيع حقوق العباد يضاف شرط رابع إذا كانت المعصية تتعلق بآدمي: وهو أن يبرأ المذنب من حق صاحب الذنب: أي الذي ارتكب في حقه ذلك الذنب، ويجب على من ظلم إنسانًا أو اغتصب ماله أو ألحق به الأذى يجب عليه أن يعيد الحقوق إلى أصحابها في صورة ملائمة مناسبة لا تؤدي إلى فتنة أو تجديد العداء، وإثارة الشحناء، وهذه الشروط التي يجب على التائب تنفيذها حتى تقبل توبته لا يجني ثمرتها التائب فقط ولكنها لها الأثر الحميد في السلوك الاجتماعي وفي إصلاح أحوال المجتمع، وفي تماسك بنيان الأمة بكل طوائفها؛ لأن خير الخطائين التوابون، وإذا حرص كل إنسان على التوبة النصوح بكل ما تحمل من سمات الإخلاص فإن عاطفة المحبة ستسود بين كل أبناء الأمة، وميزان التسامح سيكون هو الإيقاع الخلقي الساري في أقوال الناس وأفعالهم، وآمالهم، وأحلامهم وهم في ظل هذا السلوك الإيماني يتضرعون إلى الله عز وجل ويدعونه في صدق ويقين: ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾[1].

(١) سورة آل عمران ١٩٣-١٩٤.

المضامين الدعوية[1]

أولاً: من موضوعات الدعوة: الحث على المسارعة في التوبة والإنابة إلى الله تعالى.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: بيان فضل الله على عباده.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الترغيب.

رابعًا: من مهام الداعية: إرشاد المدعوين وبيان الحقائق.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الحث على المسارعة في التوبة والإنابة إلى الله تعالى:

إن مما رغب الشرع فيه: الحث على المسارعة في التوبة والإنابة إلى الله لأن الإنسان لا يدري متى ينقضي أجله، لذا وجبت المسارعة والتوبة، ويظهر ذلك من قوله ﷺ "من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه" وقوله "إن الله عز وجل يقبل توبة العبد ما لم يغرغر" من الغرغرة أي ما لم تبلغ الروح إلى الحلقوم يعني ما لم يتيقن بالموت[2].

قال القرطبي: (يعني: أن التوبة تصح وتُقبل دائمًا إلى الوقت الذي تطلع فيه الشمس من حيث تغرب، فإذا كان ذلك طبع على كلِّ قلب بما فيه، ولم تنفع توبة أحد، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾[3]، وسر ذلك وسببه: أن ذلك هو أول قيام الساعة؛ فإذا شوهد ذلك، وعوين الإيمان الضروري، وارتفع الإيمان بالغيب الذي هو المكلف به)[4].

وقال النووي: (قال العلماء في الحديث بيان لحدّ قبول التوبة، وذلك يضيف للتوبة شرطًا آخر وهو: أن يتوب العبد قبل الغرغرة، وأما في حالة الغرغرة وهي حالة النزع فلا تقبل توبته ولا غيرها ولا تنفذ وصيته ولا غيرها)[5].

---

(١) تم د المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٧- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٨).

(٢) تحفة الأحوذي، المباركفوري، ٢٤٩٧/٢.

(٣) سورة الأنعام، آية: ١٥٨.

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ١٠٥/٧.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٩٣.

لذا ينبغي على الإنسان الإسراع بالتوبة قبل معاينة الموت وتيقنه فإن التوبة ساعتها لا يعتد بها وكما قال تعالى: ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[١] ففي الآية تنبيه على نفي القبول عن نوع من التوبة وهي التي تكون عند اليأس من الحياة، لأن المقصد من العزم ترتب آثاره عليه وصلاح الحال في هذه الدار بالاستقامة الشرعية، فإذا وقع اليأس من الحياة ذهبت فائدة التوبة[٢].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: بيان فضل الله تعالى على عباده:

إن من فضل الله على عباده أن فتح لهم باب التوبة، ولا يأذن له بالانغلاق إلا عند طلوع الشمس من مغربها وعند وصول الروح إلى الحلقوم وتيقن الموت "من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه" فإذا طلعت الشمس من مغربها أغلق باب التوبة وهذا معنى قول الله عز وجل ﴿ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا ۗ ﴾[٣] أي ولا يقبل منها كسب عمل صالح إذا لم يكن عاملاً به قبل ذلك[٤].

لذا ينبغي التعجيل والمبادرة إلى التوبة، كما أمر الله بالمسارعة في ذلك فقال تعالى: ﴿ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[٥].

---

(١) سورة النساء، آية: ١٨.

(٢) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ٢٨١/٤/٢.

(٣) سورة الأنعام، آية: ١٥٨.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣٧٦/٣.

(٥) سورة آل عمران، الآيات: ١٣٣-١٣٥.

أي: سارعوا إلى ما يؤدى إليهما من الاستغفار والتوبة والأعمال الصالحة[١]، فذلك أمر بالمسارعة إلى مغفرته وإدراك جنته التي عرضها السماوات والأرض فكيف بطولها التي أعدها الله للمتقين فهم أهلها وأعمال التقوى هي الموصلة إليها[٢].

ثالثًا- من أساليب الدعوة: الترغيب:

لقد رغّب رسول الله ﷺ في هذا الحديث ببيان قبول الله لتوبة العبد ما لم يغرغر أو تطلع الشمس من مغربها فقال: "من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه" وقال "إن الله عز وجل يقبل توبة العبد ما لم يغرغر" والترغيب من الأساليب الدعوية النافعة المفيدة، وله تأثيره في نفوس كثير من البشر، فإن الإنسان جبل على حب الخير والرغبة في الحصول على كل محبوب، فغريزة حب الإنسان لنفسه تدفعه إلى أن يحقق كل خير لنفسه سواء كان ذلك عاجلاً أو آجلاً[٣]، لذا وجدنا القرآن يرغب في الخير ويبشر بحسن المثوبة، ويرهب من الشر ويتوعّدُ المخالفين المتعدين لحدوده ﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[٤].

رابعًا- من مهام الداعية: إرشاد المدعوين وبيان الحقائق:

إن من أهم مهام الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم، وبيان الحقائق لهم حتى يكونوا على بينة من أمرهم وأن يأخذوا حذرهم ولا يردوا أنفسهم موارد التهلكة وفي الحديث نجد أن الرسول ﷺ أرشد الناس إلى التوبة وبين لهم حقيقة قبولها وأن ذلك ليس على إطلاقه وإنما قبول التوبة مقيد بعدم طلوع الشمس من مغربها، وعدم صعود

---

(١) محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ٢/٤/٢٢٨ - ٢٢٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ١١٥ - ١١٦.

(٣) الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى، سعيد بن علي بن وهف القحطاني ص ٤٨٦.

(٤) سورة الإسراء، الآيتان: ٩، ١٠.

الروح إلى الحلقوم[١] وقد ذكر القرآن الكريم لنا أنموذجًا من الدعاة من غير الأنبياء والمرسلين تحملوا أمانة إرشاد الناس وتبيين الحقائق لهم، فذكر لنا قصة مؤمن آل فرعون الذي حكى القرآن من كلامه لقومه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[٢]. مما يؤكد على أن إرشاد المدعوين وبيان الحقائق لهم، والأخذ بأيديهم إلى سبل الهداية يُعد من المهام الأساسية للداعية.

(١) انظر: تحفة الأحوذي، المباركفوري، ٢/٢٤٩٧.

(٢) سورة غافر، آية: ٣٨.

الحديث رقم (١٨)

١٨- وعَنْ أبي عَبْدِ الرَّحْمن عَبْدِ اللَّهِ بن عُمرَ بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما، عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم قال: «إِنَّ الله عزَّ وجَلَّ يقْبَلُ توْبَة العبْدِ مَا لَم يُغَرْغرِ» رواه الترمذي وقال: حديث حسنٌ[(١)].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

ما لم يغرغر: أي: لم تبلغ روحه حلقومه فتكون بمنزلة الشيء الذي يتغرغر به المريض[(٢)].

الشرح الأدبي

إن هذا الحديث الشريف يفتح أبواب الأمل والرجاء أمام كل الخلائق من البشر الذين ضلوا الطريق الصحيح، وحادوا عن المنهج السليم، وأوغلوا في اتباع أهوائهم، وغرقوا في التعصب لمذاهبهم ومناهجهم الفاسدة، وسلوكياتهم المنحرفة وممارساتهم الحياتية الضالة.

إن هذه الطوائف المتشعبة والممتدة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها لا نغلق في وجوههم أبواب القبول ومداخل التوبة، وفي كلمة واحدة ينطق بها رسول الله ﷺ تتجمع كل هذه الوجوه التي تتعدد ثقافاتها، وتتباين اتجاهاتها وكلمة "العبد" تندرج في دلالتها كل الدلالات السابقة للجموع التي ضلت طريق الرشاد فكل بني آدم يدينون بالعبودية لله عز وجل لأنه خلقهم ورزقهم، وهو الذي يهيمن على كل أمورهم في حياتهم وأخراهم.

فتأمل أخي المسلم سر الجمال في حديث المصطفى ﷺ ومن منابع أسرار هذا الجمال الإيجاز والقصد والاستيفاء.

وصيغة الحديث تقدم في ثوب التوكيد والأداة "إن" في قوله عليه الصلاة والسلام

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٣٧) وقال: هذا حديثٌ حسنٌ غريب، وكذا في تحفة الأشراف (٣٢٨/٥، رقم ٦٦٧٤). وصحّحه ابن حبان (الإحسان ٦٢٨)، وقال الحاكم (٢٥٧/٤): هذا حديثٌ صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الذهبي في السير (١٦٠/٥): هذا حديث عال صالح الإسناد. أورده المنذري في ترغيبه (٤٦٠٠).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (غ ر غ ر).

"إن الله عز وجل يقبل توبة العبد مالم يغرغر".

وهذا التأكيد يطمئن كل من تبرق في نفسه أشعة التوبة والرجوع إلى الطريق الصحيح طريق الهداية والرشاد والفعل "يقبل" بدلالته الزمنية يجعل هذا القبول مستمرًا وغير محدود بزمان أو مكان: فالفعل المضارع من خصائصه الوقوع في الحال والاستقبال، فقبول التوبة عام وشامل إذا التزم العبد بشروط التوبة النصوح ولابد أن تكون التوبة قبل لحظة الاحتضار التي عبر عنها رسول الله ﷺ بقوله: "مالم يغرغر" أي: تصل روحه حلقومه؛ وهذا الفعل مأخوذ من الغرغرة: وهي جعل الشراب في الفم والغرغرة كلمة فصيحة ولكنها تجرى على ألسنة العامة وكأنها كلمة عامية.

ويمكن أن يكون هذا اليسر الواضح في هذه الكلمة والذي كنى به رسول الله ﷺ عن لحظة الموت وساعة خروج الروح يمكن أن يكون هذا الشيوع للكلمة تذكيرًا بهذه اللحظة الفارقة حتى يستعد كل الناس لها.

وفي القرآن الكريم تحديد لهذه القضية، وحسم لهذا الأمر، وتوضيح للمعنى المراد في الحديث الشريف: حيث يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١٧ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾(١).

والله يحب التوابين، ويحب المتطهرين، ويرغب رسول الله ﷺ في التوبة والاستغفار: حيث يروى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله تعالى بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله تعالى فيغفر لهم))(٢). فاللهم اغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار.

المضامين الدعوية(٣)

(١) سورة النساء، الآيتان: ١٧، ١٨.

(٢) أخرجه مسلم ٢٧٤٩.

(٣) تم د ها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (١٩)

١٩- وعَنْ زرِّ بْنِ حُبْيْشٍ، قَال: أَتيْتُ صفْوانَ بْنِ عسَّالٍ ﷺ أَسْأَلُهُ عن الْمَسْحِ عَلَى الْخُفَّيْنِ فقال: مَا جَاءَ بِكَ يَا زِرُّ؟ فقُلْتُ: ابْتغَاءُ الْعِلْمِ، فقَال: إِنَّ الْملائِكَةَ تَضَعُ أَجْنِحتِها لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بمَا يَطلُبُ، فَقلْتُ: إِنَّه قد[1] حَكَّ فِي صدْرِي الْمسْحُ عَلَى الْخُفَّيْنِ بَعْدَ الْغَائِطِ والْبوْلِ، وكُنْتَ امْرَءًا مِنْ أَصْحاب النَّبيِّ ﷺ، فَجِئْت أَسْأَلُكَ: هَلْ سمِعْتَهُ يذْكرُ فِي ذَلِكَ شيْئًا؟ قال: نعَمْ. ((**كانَ يأْمُرنا إذا كُنا سَفرًا أوْ مُسافِرينَ: أَن لا ننْزِعَ خفافَنا ثلاثة أَيَّامٍ ولَيَالِيهِنَّ إلاَّ مِنْ جنَابةٍ، ولكِنْ مِنْ غائطٍ وبَوْلٍ ونَوْمٍ**)).

فقُلْتُ: هَل سمِعتهُ يذكُر فِي الْهوى شيْئًا؟ قال: نعمْ. كُنَّا مَع رسول الله[2] ﷺ فِي سفرٍ، فبيْنا نحنُ عِنْدهُ إِذ نادَاهُ أَعْرابي بصوْتٍ له جهوريٍّ: يا مُحمَّدُ، فأَجَابهُ رسولُ الله ﷺ نحْوا مِنْ صَوْتِه: «**هاؤُمْ**» فقُلْتُ[3] لهُ: وَيْحَكَ اغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ فإِنَّك عِنْد النَّبيِّ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلَّم وقدْ نُهيت عَنْ هذا، فقال: واللَّه لا أَغضُضُ: قَالَ الأَعْرابيُّ: الْمَرْءُ يُحِبُّ الْقَوم ولَمَّا يلْحق بِهِمْ؟ قال النَّبيُّ ﷺ: «**الْمرْءُ مع منْ أَحبَّ يوْمَ الْقِيامةِ**» فما زَالَ يُحدِّثُنَا حتَّى ذكر بابًا مِنْ[4] الْمَغْرب مَسيرةُ[5] عرْضِه أوْ يسِير الرَّاكِبُ فِي عرْضِهِ أَرْبَعِينَ أَوْ سَبْعِينَ عامًا.

قَالَ سُفْيانُ (أَحدُ الرُّوَاةِ)[6]: قِبَلَ الشَّامِ خلقَهُ اللَّهُ تعالى يوْم خلق السموات والأَرْضَ مفْتوحًا[7] لِلتَّوبة لا يُغلقُ حتَّى تَطلُعَ الشَّمْسُ مِنْهُ» رواه التِّرْمذي وغيره وقال: حديث حسن صحيح[8].

---

(١) (قد) لا توجد عند الترمذي.

(٢) لفظ الترمذي: (النبي).

(٣) لفظ الترمذي: (وقلنا له).

(٤) عند الترمذي زيادة: (قِبَل).

(٥) عند الترمذي زيادة: (سبعين عامًا).

(٦) هذا التفسير من المؤلف.

(٧) عند الترمذي زيادة: (يعني).

(٨) أخرجه الترمذي (٣٥٣٥). قال ابن عبد البر في جامع بيان العلم (١٥٩/١): حديث صفوان هذا وقفه قومٌ عن عاصم، ورفعه عنه آخرون، وهو حديث صحيحٌ حسنٌ ثابتٌ محفوظٌ مرفوعٌ، ومثله لا يقال بالرأي.

ترجمة الراوي:

صفوان بن عسال: صحابي مشهور، علم من أعلام الصحابة، وهو صفوان بن عسال من بني زاهر بن عامر المراديٍّ، عرف بالصحبة والرواية عن رسول الله ﷺ وهو ممن سكن الكوفة وكان رضي الله عنه حريصًا على الجهاد في سبيل الله إعلاءً لكلمة الحق والدين، وبلغت غزواته مع رسول الله ﷺ اثنتي عشرة غزوة، وحدَّث بذلك عن نفسه فقال ((غزوت مع رسول الله ﷺ اثنتي عشرة غزوة))[1].

كما كان حريصًا شغوفًا بطلب العلم، والاستزادة منه، وفرح به رسول الله ﷺ وأثنى عليه، وبين له فضل العلم والعلماء فجاء في الطبراني عنه أنه قال: أتيت النبي ﷺ وهو متكئ على بُرْدٍ له، فقلت له: يا رسول الله إني جئت أطلب العلم، فقال: مرحبًا بطالب العلم، طالب العلم تحفه الملائكة وتظله بأجنحتها ثم يركب بعضه بعضًا حتى يبلغوا السماء الدنيا من حبهم لما يطلب))[2].

توفي رضي الله عنه في حدود الأربعين للهجرة[3].

غريب الألفاظ:

حكَّ في صدري: لم أكن منشرح الصدر وداخلني منه شيء من الشك والريبة في قلبي[4].

صوت جَهْوري: شديد عالٍ[5].

---

(١) أخرجه أحمد ٢٣٩/٤ رقم ١٨٠٩٠، وقال محققو المسند: إسناده حسن، ١٠/٣٠.

(٢) الطبراني في الكبير ٥٤/٨ رقم ٧٣٤٧، وقال الهيثمي في مع الزوائد ١٣١/١: رجاله رجال الصحيح.

(٣) الطبقات، ابن سعد ٢٧/٦ والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٣٤٤، ٣٤٥، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير ٢٨/٣، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ٦١٢، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي ٤٦٠/٣، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٢١٣/٢، وحاشية السندي ٩/٣٠، وعظماء حول الرسول ١٠٦٤/٢-١٠٦٥.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ح ك ك).

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ج هـ ر)، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري ٢٤٩٦/٢.

هاؤم: أي تعال أو خُذ(١).

ويحك: ويح: كلمة ترحم وتوجع تقال لمن وقع في هلكة لا يستحقها، وقد تقال بمعنى المدح والتعجب(٢).

الشرح الأدبي

ما أجمل الحوار بين أبناء الأمة وما أعظم فائدته حين يكون بين المسلمين وغيرهم من أبناء الملل الأخرى ولقد أمر الله نبيه محمدًا ﷺ بذلك وأمر كل مسلم يحرص على نشر كلمة التوحيد وتعاليم الإسلام حيث يقول الله عز وجل: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾(٣).

وفي هذا الحديث الشريف تتجلى قيمة الحوار في الإسلام وتظهر ثمرته النافعة في الإقناع والتعليم والتوجيه وبيان قيمة طلب العلم وحسن الصحبة وقيمة المودة والمحبة بين الناس والحرص على القدوة الحسنة والتآسي بسلوكها وقولها وشمائلها بصفة عامة.

وقد يستغرب القارئ من وضع هذا الحديث في "باب التوبة" وهو الحديث السابع في هذا الباب ويتساءل: لماذا وضعه الإمام أبو زكريا النووي في هذا السياق وأين الحض على التوبة؟ وأين الترغيب في الاستغفار .

وإذا تأملنا الحديث وتتبعنا الحوار الدائر بين زر بن حُبَيْش وهو تابعي وصفوان بن عسال رضي الله عنه وهو صحابي غزا مع رسول الله ﷺ اثنتي عشرة غزوة ندرك أن زر بن حُبَيْش من طلاب العلم وراغبي المعرفة ومن الحريصين على فقه الأمور كلها حيث يقول: قال لي أُبيّ ابن كعب "يازر ما تريد أن تدع آية إلا سألتني عنها".

إن الحوار في هذا الحديث الشريف يختم بقول رسول الله ﷺ "المرء مع من أحب يوم القيامة" ثم يتابع الراوي عناصر الحوار وهو يحكي عن النبي ﷺ ويحدث عنه:

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (هاؤم).

(٢) المرجع السابق في (و ي ح).

(٣) سورة النحل، آية: ١٢٥.

فيقول: "فما زال رسول الله ﷺ يحدثنا حتى ذكر بابًا من المغرب مسيرة عرضه أو يسير الراكب في عرضه أربعين أو سبعين عامًا".

ويقول سفيان أحد الرواة محددًا صلة هذا الحديث بباب التوبة ومجيبًا على ما ينشأ من تساؤل عند بعض الراغبين في المعرفة أو يزيل الشك من نفوس بعض المعاندين والمكابرين: يقول مستكملاً الرواية السابقة بعد قول الرسول عليه الصلاة والسلام أو سبعين عاما: ((قبل الشام خلقه الله تعالى يوم خلق السماوات والأرض مفتوحًا للتوبة لا يغلق حتى تطلع الشمس منه)).

فالحديث هنا يفتح باب الرجاء والتوبة أمام البشر أجمعين إلى قيام الساعة، وهذا المعنى في هذا الإطار الزمني ورد في الحديثين السابع عشر والثامن عشر فالحديث هنا ليس مقحمًا وليس غريبًا عن آفاق التوبة.

وهذا الحديث الشريف ليس فيه إيجاز وليس فيه إطناب وإنما صيغ في قالب بلاغي هو: المساواة، فالإجابة تأتي واضحة مقنعة للسائل ولا تترك في ذهنه بذرة من الحيرة أو الجهل أو الشك .

وقد قسم العلماء دلالة الألفاظ على المعاني ثلاثة أقسام:

أحدها: المساواة: وهو أن يكون المعنى مساويًا للفظ.

والثاني: التذييل: وهو أن يكون اللفظ زائدًا على المعنى وفاضلاً عنه.

والثالث: الإشارة: وهو أن يكون المعنى زائدًا على اللفظ أى أنه لفظ موجز يدل على معنى طويل على وجه الإشارة واللمحة[1].

وهذه المساواة بين المعاني والألفاظ في هذا الحديث الشريف تتجلى فيها عدة أمور يظهر الحديث قيمتها. وهى قيمة طلب العلم لما له من أثر نافع مفيد في تقوية الصلة بين العبد وربه وفي العمل على تقدم الأمة وأخذها بأسباب الحضارة والرقى وفي ضرورة معرفة الأحكام والحقوق والواجبات حتى يكون المسلم على بصيرة من دينه ومن الأحكام التي حرص السائل على معرفتها "حكم المسح على الخفين" وهو من أبواب

(١) انظر: سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجى ص ٢٠٧.

الفقه المعروفة ويعطي صورة واضحة مشرقة عن سماحة الإسلام وتيسيره في العبادات، وهذا التيسير من شأنه أن يلقي على المسلم عبء القيام بالواجبات وعدم التهاون في شأنها وعدم التقصير في أدائها؛ ومحبة رسول الله ﷺ من أدق صفات المؤمنين وهي ليست قولاً باللسان وإنما اقتداء وقيام بالأركان وشعور صادق ينبع من الجنان وثناء وصلاة وتسليم على المصطفى المُجتبي الذي أرسله ربه رحمة للعالمين وتأتي إجابة رسول الله ﷺ على من يحبه ويظن أنه سيظل بعيدًا عنه فيطمئنه المبعوث رحمة للعالمين بقوله: "المرء مع من أحب يوم القيامة"، وهذا الحب الخالص الذي يتوج حياة المؤمن تضيء معالمه في سورة آل عمران: بقول الله عز وجل: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

وحين نتأمل ما في الحديث من أسرار تعبيرية وجماليات أسلوبية نجد أن أسلوب النبي ﷺ في أحاديثه الشريفة يجمع بين خاصيتى: المساواة والإشادة وليست فيه ألفاظ زائدة على المعنى لأن الزيادة اللفظية تعد عيبًا من عيوب فصاحة اللسان العربي وخاصية الإيجاز تعد صدى مضيئًا وترجمانًا قوليًا صادقًا لقوله ﷺ أوتيت جوامع الكلم.

وخاصية المساواة في هذا الحديث الشريف تتمثل في حرص السائل على المعرفة وحرص المجيب على الإفادة والسؤال الأول الذي سأله زر بن حُبَيْش كان عن المسح على الخفين وأشاد صفوان بن عسال بهذا الحرص على المعرفة وقال مشيدًا بذلك في أسلوب التوكيد "إن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يطلب" وأي تقدير أعظم من هذا التقدير، حيث تكف الملائكة أجنحتها عن الطيران وتنزل لسماع العلم وقال بعض العلماء إن هذا التعبير على سبيل الحقيقة وإن لم نشاهده عملاً بالقاعدة المشهورة "أن كل ما ورد وأمكن حمله على ظاهره حمل عليه ما لم يرد ما يصرفه عنه"[2].

وتتابع الحوار بين السائل والمجيب نلمسه في تتابع الأسلوب وتدفقه من خلال فاء العطف التي تفيد الترتيب والتعقيب. وهذه الجمل ترد على هذا النحو فقال – فقلت؛

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٣١.

(٢) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١/ ٩٠.

فقال؛ فقلت، فجئت، والأسلوب يكشف عن حيرة زر بن حُبَيْش حيث يقول مؤكدا إنه قد حك في صدري المسح على الخفين.. وجملة حك في صدري كناية عن الحيرة وعدم الاطمئنان وقوله: "وكنت أمرءًا من أصحاب النبي ﷺ" فيه تقدير للصحابة وهم كالنجوم في الهداية وفيه حرص على الدقة العلمية وتحرى الصواب في الأحكام والتعبير بالفعل "يأمرنا" يدل على وجوب هذا الأمر وقد توسع الفقهاء في هذا الباب كل حسب أدلته ومذهبه.

والسؤال عن الهوى: وهو الميل في قصد واعتدال إلى محبة الآخر فما بالنا إذا كان المحبوب هو رسول الله ﷺ، ويتجلى حلم رسول الله ﷺ في استجابته لنداء الأعرابي البدوي الذي يأبى أن يغض صوته، ويراعي رسول الله حالته في ضوء الحكمة التي منحها الله له ومراعاة لمقتضى حال الرجل الذي يحب رسول الله ويخشى أن لا يلحق به في الأعمال وطرق الكمال فيبشره الحبيب المصطفى ﷺ بقوله: "المرء مع من أحب يوم القيامة" وفي ذلك فضل محبة الله ورسوله ﷺ وقال أنس: "ما فرحنا بعد الإسلام فرحًا أشد مما فرحنا بقول النبي ﷺ: المرء مع من أحب" ويختم الحديث بفتح باب التوبة أمام الناس أجمعين إلى يوم القيامة وما أعظم البشارتين بشارة محبة رسول الله وبشارة القرب من الله عز وجل.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكمين فقهيين:

الأول: حكم طلب العلم، وقد ذكر الفقهاء[1] أن طلب العلم لمعرفة الحلال والحرام ومعرفة فروض الإسلام وكيفية أداء الصلاة والصيام وفرائض الإسلام فرض على كل مسلم ومسلمة ويحمل عليه حديث الرسول ﷺ في هذا الشأن ((طلب العلم

---

(١) أحكام القرآن للجصاص ٢٣٤/٣، والمبسوط، السرخسي ٢/١، ٢٦٠/٣٠، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم المالكي ٢٧٢/٢، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٤٩، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري١٨١/٤، والآداب الشرعية، ابن مفلح ٣٤/٢.

فريضة على كل مسلم))[١]، أما طلب الأدلة والتفصيلات وتعليمها فهو فرض من فروض الكفايات متى قام به البعض سقط عن الباقين.

الثاني: حكم المسح على الخفين وشرائطه المعتبرة، وقد اتفق الفقهاء[٢] على مشروعية المسح على الخفين وأنه رخصة رخصها حديث رسول الله ﷺ المذكور هنا متى كان الماسح لابسًا للخف على طهارة، وقدنقل ابن المنذر الإجماع على مشروعيته، ولم يخالف في ذلك إلا ابن عباس فيما روي عنه وكذا قول للرافضة، واختلفوا في مدة المسح الجائزة فقيل: ثلاثة أيام بلياليهن للمسافر ويوم وليلة للمقيم، وهو ما عليه عامة أهل العلم، وقيل: سبعة أيام بلياليهن للمسافر وهو ما قال به بعض الصحابة وما نص عليه المالكية، وقيل: ليست له مدة وهو قول ضعيف عند البعض.

وشرط ذلك ألا تقوم جنابة بالماسح في هذه المدة فإن وقعت وجب خلع الخفين والاغتسال ثم اللبس ثانية مع جواز المسح في حدود المدة المذكورة.

المضامين الدعوية

أولاً: من واجبات المدعو: السؤال عما أشكل عليه.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل طلب العلم.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: يسر الشريعة الإسلامية.

خامسًا: من صفات الداعية: بيان الحقائق للمدعو.

سادسًا: من صفات الداعية: التلطف مع المدعو.

سابعًا: من موضوعات الدعوة: الحرص على محبة المؤمنين الأتقياء.

---

(١) أخرجه ابن ماجه ٢٢٤، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ١٨٣).

(٢) بدائع الصنائع، الكاساني ٨/١ وما بعدها، وتبيين الحقائق، الزيلعي ٤٥/١ وما بعدها، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٣١٨/١ وما بعدها، وشرح منح الجليل على مختصر خليل، الشيخ محمد بن أحمد بن محمد عليش ١٣٤/١ وما بعدها، ومغني المحتاج ١٩٧/١ وما بعدها، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي ١٩٨/١ وما بعدها، والمغني، ابن قدامة ١٤/١ وما بعدها، والفروع، ابن مفلح ١٥٨/١ وما بعدها.

أولاً- من واجبات المدعو: السؤال عما أشكل عليه:

إن مما يجب على المدعو: السؤال عما أشكل عليه، وما عنَّ له من القضايا والمسائل، ليعبد ربه على بصيرة، وذلك ما حمل زِرَّ بن حبيش أن يأتي صفوان بن عسّال يسأله فعن زر بن حبيش قال: أتيت صفوان بن عسال رضي الله عنه أسأله عن المسح على الخفين "وذكر له الدافع على هذاالسؤال بقوله "إنه قد حكَّ في صدري المسح على الخفين بعد الغائط والبول". وقد عتب النبي صلى الله عليه وسلم على قوم أفتوا بلا علم وبين أن شفاء الجهل السؤال، فعن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: أصاب رجلاً جرح في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم احتلم، فأُمر بالاغتسال، فاغتسل، فمات، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ((قَتَلُوهُ قَتَلَهُمُ اللهُ، أَلَمْ يَكُنْ شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ))[1] أي لِمَ لم يسألوا حين لم يعلموا لأن شفاء الجهل السؤال[2].

ثانيًا- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

تكرر هذا الأسلوب في الحديث "فقلت أنه قد حكّ في صدري المسح على الخفين بعد الغائط والبول وكنت امرءًا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فجئت أسألك هل سمعته يذكر في ذلك شيئًا؟ قال: نعم كان يأمرنا إذا كنا سفرًا -أو مسافرين- ألا ننزع خفافنا ثلاثة أيام ولياليهن إلا من جنابة، لكن من غائط وبول ونوم" كما سأله "هل سمعته يذكر في الهوى شيئًا؟ ... الحديث" وأسلوب السؤال والجواب من الأساليب المفيدة في الدعوة إلى الله عز وجل وذلك لما فيه من إقبال المدعو على الدعوة واستفادة الداعي من ذلك في تبليغ دعوته، وفي نشر المعرفة وتثبيتها، وتناقلها بين الناس، بشرط أن تكون الإجابات واضحات جليات مفصلات لا غموض فيها ولا التباس، وأن يكون المجيب على علم مؤكد بالجواب الصحيح[3].

---

(١) أخرجه أبو داود ٣٣٦، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٢٥).

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم آبادي ص ١٨٦.

(٣) فقه الدعوة إلى الله، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، ٦٢/٢.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل طلب العلم:

وقد ورد التصريح بفضل طلب العلم في الحديث فعندما سأل صفوان بن عسال زرَّ بن حبيش رضي الله عنهما ما جاء بك يا زرُّ؟ فقال: ابتغاء العلم، فقال: "إن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضىً بما يطلب" ووضع الملائكة أجنحتها لطالب العلم تواضعًا وتوقيرًا وإكرامًا لما يحمله من ميراث النبوة ويطلبه وهو يدل على المحبة والتعظيم، فمن محبة الملائكة له وتعظيمه تضع أجنحتها له، لأنه طالبٌ لما به حياةُ العالم ونجاتُه ففيه شَبَهٌ من الملائكة وبينه وبينهم تناسب[1].

وقد جاءت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية مبينة فضل العلم حاضّة عليه، ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾[2] وقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾[3] وقوله: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾[4] وقال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[5].

قال ابن القيم: (استشهد الله عز وجل بأهل العلم على أجلِّ مشهود به وهو التوحيد، وقرن شهادتهم وشهادة ملائكته، وفي ضمن ذلك تعديلهم، فإنه تعالى لا يستشهد بمجروح[6]، وهذا أعلى درجات تكريم العلم وأهله، أن يعتد الله بشهادة العلماء على أكبر حقيقة من الحقائق الإلهية وينزلها المنزلة التي تلي شهادة الملائكة[7]. وعن أبي

---

(١) فضل العلم والعلماء، ابن قيم الجوزية ص ٦٥.

(٢) سورة فاطر، آية: ٢٨.

(٣) سورة الزمر، آية: ٩.

(٤) سورة الرعد، آية: ١٩.

(٥) سورة آل عمران، آية: ١٨.

(٦) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢/ ٤٧٠.

(٧) انظر: عناصر القوة في الإسلام، السيد سابق ص ٥٧.

هريرة ﷺ قال قال رسول الله ﷺ: ((... وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ. وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلاَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ. وَمَنْ بطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ))(١).

إن الإسلام يدفع المسلم دفعًا إلى تحصيل العلم واكتسابه والاستزادة منه، يقول الله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾(٢)، ويقرر الإسلام أن غاية الرسالة الإسلامية هي تلاوة آيات الله على الناس وتزكيتهم بالتحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل وتعليمهم الكتاب والحكمة، يقول سبحانه: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾(٣).

إن العالم والجاهل لا يستويان، لا في المنزلة عند الله ولا في الوجاهة عند الناس ولا في فهم قيمة الحياة، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٤).

فالعالم له قدره، ومنزلته، ومكانته: يقول الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾(٥).

أما الجاهل فهو مطموس البصيرة، منقوص القدر، يقول الله سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٦).

ومثلهما مثل البصير والأعمى، هل يستويان مثلا؟ يقول الله سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى

(١) أخرجه مسلم ٢٦٩٩.

(٢) سورة طه، آية: ١١٤.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٦٤.

(٤) سورة الزمر، آية: ٩.

(٥) سورة ال ادلة، آية: ١١.

(٦) سورة الروم، آية: ٥٩.

ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾[(١)] ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾[(٢)].

إن الإسلام ينوه بالعلم، ويرفع من شأنه، ويدفع أهله إليه، لأن به يميز الإنسان بين الحق والباطل، والخير والشر، والصواب والخطأ،والهدى والضلال، والحسن والقبيح، والنافع والضار، فهو للعقل كالنور للعين لا يستغنى عنه بحال،ومن ثم كانت قيمة الإنسان على قدر تحصيله منه.

وعلى قدر أخذ الأمم به يكون نهوضها الحضاري، ورقيها الصناعي، وازدهارها التجاري، ونموها الزراعي، واتساعها العمراني، فهو الذي يرقى بالحياة،ويجعلها وارفة الظلال جديرة بأن ينعم بها الإنسان، ويسعد[(٣)].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: يسر الشريعة الإسلامية:

من مظاهر التيسير في الشريعة الإسلامية: رخصة المسح على الخفين والتي وردت في قول صفوان بن عسال رضي الله عنه لزر بن حبيش لما سأله عن المسح على الخفين وهل سمع فيه شيئًا من رسول الله صلى الله عليه وسلم "قال نعم، كان يأمرنا إذا كنا سَفْرًا -أو مسافرين-أن لا ننزع خفافنا ثلاثة أيام ولياليهن إلا من جنابة، لكن من غائط أو بول أو نوم" والمسح على الخفين من خصائص هذه الأمة، ومشروعية المسح على الخفين للمسافر والمقيم من هدي النبي صلى الله عليه وسلم، ومن الأمور التي سطع نور الشريعة بها تخفيفًا وتيسيرًا على المكلفين[(٤)]، وصدق الله ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾[(٥)]، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[(٦)].

---

(١) سورة الرعد، آية: ١٦.

(٢) سورة فاطر، آية: ١٩.

(٣) انظر: عناصر القوة في الإسلام، السيد سابق ص ٥٦ - ٥٩.

(٤) مظاهر التيسير في التشريع الإسلامي، د. عبدالعزيز محمد عزام ص ١٤٣.

(٥) سورة الحج، آية: ٧٨.

(٦) سورة البقرة، آية: ١٨٥.

لذا ينبغي على الدعاة إلى الله تعالى أن يبرزوا للناس هذا المعلم البارز في شريعة الإسلام - معلم التيسير- وأن ينتهجوه في دعوتهم إلى الله تعالى وأن يكون لهم سننا عامًا.

إن مهمة الدعوة إلى الله تعالى مهمة جليلة، يختار الله لها من عباده من اصطفاهم لنفسه.

فعملهم امتداد لعمل الأنبياء عليهم السلام، وغايتهم هي غاية الأنبياء، ولذا كان عليهم أن يقتدوا بالأنبياء عليهم السلام في سمتهم ووقارهم، وفي حكمتهم وحسن تصرفهم وفهمهم.

إنها المهمة العظيمة التي من خلالها يكون صلاح الأمم، من حيث الأخلاق والسلوك، ومن حيث الاعتقاد والعبادة، ومن حيث التعامل الاجتماعي والاقتصادي.

ومن هنا كانوا ورثة الأنبياء، كما قال سيد البشر محمد ﷺ، وإذا كانت مهمة الدعوة بهذه المكانة وهذا الفضل، فينبغي لمن اختار طريقها أن يكون على قدر من العلم بسيرته ﷺ في دعوته للناس، حتى يكون على الأثر.. وحتى يكون في الطريق الصحيح.. وحتى يصل إلى الغاية المرجوة.

إن من أول واجبات الداعية أن يكون حسن السيرة ملتزمًا بالأخلاق الحميدة، بحيث تكون دعوته إلى الخير بلسان حاله قبل لسان مقاله.. وعندما يكون الحال والمقال متطابقين، فإن الكلمات تأخذ طريقها إلى القلوب، ويكون لها أثرها وفعاليتها.

وأن يكون عندهم فقه تام ليسر الإسلام وسماحته في إطار مهمتهم تطبيقًا في سلوكهم وبيانًا ودعوة للآخرين.

وهو ما دعا إليه ﷺ وطبقه، وعلمه ووصى به صحابته رضي الله عنهم.

فقد بعث ﷺ أبا موسى الأشعري ومعاذًا بن جبل رضي الله عنهما إلى اليمن وكان من وصيته لهما: ((يَسِّرا ولا تُعسِّرا، وبَشِّرا ولا تُنفِّرا، وتطاوَعا ولا تختَلِفا))[1].

---

(١) أخرجه البخاري ٣٠٣٨، ومسلم ١٧٣٣.

وقد تكررت دعوته بذلك، ففي خطاب عام قال ﷺ: ((ولا تعسروا، وسكّنوا ولا تنفّروا))[١].

تلك هي السمة العامة لهذا الدين، ومن مهمة الدعاة بيانها للناس...[٢].

خامسًا- من صفات الداعية: بيان الحقائق للمدعو:

إن من أهم ما ينبغي أن يتصف به الداعية بيان الحقائق للمدعوين حتى يكونوا على بصيرة من أمرهم، وفي الحديث ورد ما يبين ذلك عمليًا من رسول الله ﷺ ببيان رخصة المسح على الخفين وجوابه ﷺ على سؤال الأعرابي "المرء يحب القوم ولما يلحق بهم؟ قال النبي ﷺ المرء مع من أحب يوم القيامة" وقد بيّن الحق تبارك وتعالى أنّ وظائف النبي ﷺ التبيين للناس، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٣].

وأمر الله العلماء ببيان العلم وإظهار حقائقه للناس، وحذرهم من كتمانها والإهمال في تبليغها، قال تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾[٤]، وفي الآية دليل واضح وكفى به دليلاً على أنه مأخوذ على العلماء أن يبينوا الحق للناس وما علموه وأن لا يكتموا منه شيئًا لغرض فاسد من تسهيل على الظلمة وتطييب لنفوسهم واستجلاب لمسارّهم أو لجر منفعة وحطام دنيا، أو لتقية مما لا دليل عليه ولا إمارة، أو لبخل بالعلم وغيره أن ينسب إليه غيرهم[٥].

سادسًا- من صفات الداعية: التلطف مع المدعو:

---

(١) أخرجه البخاري ٦١٢٥، ومسلم ١٧٣٤.

(٢) انظر: الإسلام دين التيسير، صالح أحمد الشامي ص ٣٩ - ٤٠.

(٣) سورة النحل، آية: ٤٤.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٨٧.

(٥) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي ص ٢١٠.

جاء في هذا الحديث ما يدل على التلطف فذلكم الأعرابي الذي نادى على الرسول ﷺ باسمه مجردًا بصوت جهوري، لم يعنفه ﷺ، ولم يغلظ له القول، وإنما تلطف معه، وبيّن له ما أراده "فبينا نحن عنده إذ ناداه أعرابي بصوت له جهوري يا محمد فأجابه رسول الله نحوًا من صوته هاؤم" فقلت له ويحك اغضض من صوتك فإنك عند النبي ﷺ وقد نهيت عن هذا فقال والله لا أغضض" ومع ذلك اتخذ النبي ﷺ معه اللطف منهجًا وسبيلاً وصدق الله ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ﴾[1] أي: برحمة الله لك ولأصحابك مَنَّ الله عليك فألنت لهم جانبك وخفضت لهم جناحك وترققت عليهم وحسنت خلقك لهم فاجتمعوا عليك وأحبوك وامتثلوا أمرك[2].

سابعًا- من موضوعات الدعوة: الحرص على محبة المؤمنين الأتقياء:

جاء في الحديث: الترغيب في محبة المؤمنين الصالحين، ببيان أن المرء مع من أحب كما هو واضح من سؤال الأعرابي وإجابة النبي ﷺ "قال الأعرابي: المرء يحب القوم ولَمَّا يلحق بهم؟ أي يحب القوم الأخيار أحياءً وأمواتًا ولما يلحق بهم، أي: في الأعمال، وطرق الكمال أي لم يعمل بعملهم[3] قال النبي ﷺ "المرءُ مع من أحب" وقد جاء هذا المعنى في الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلاً من الأعراب أتى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله متى الساعة؟ قال وما أعددت للساعة؟ قال:حب الله ورسوله، قال فإنك مع من أحببت" قال أنس: فما فرحنا بعد الإسلام فرحًا أشد من قول النبي ﷺ فإنك مع من أحببت، قال أنس: ((فَأَنَا أُحِبُّ اللّهَ وَرَسُولَهُ. وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ. فَأَرْجُو أَنْ

(١) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ١٢١.

(٣) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٦٧.

أَكُونَ مَعَهُمْ. وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ بِأَعْمَالِهِمْ))[١]. قال النووي: (فيه فضل حب الله ورسوله ﷺ والصالحين وأهل الخير الأحياء والأموات، ومن فضل محبة الله ورسوله امتثال أمرهما واجتناب نهيهما والتأدب بالآداب الشرعية[٢].

---

(١) أخرجه البخاري ٣٦٨٨، ومسلم ٢٦٣٩.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٦٥.

الحديث رقم (٢٠)

٢٠- وَعَنْ أبي سَعِيدٍ سَعْد بْنِ مالك بْنِ سِنانٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَن نَبيِّ الله ﷺ قَال: «كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلكُمْ رَجُلٌ قتل تِسْعةً وتِسْعِين نفسًا، فسأل عن أعلم أهْلِ الأرْض فدُلَّ على راهِبٍ، فَأَتَاهُ فقال: إنَّهُ قَتَل تِسعةً وتسعِينَ نَفْسًا، فَهلْ لَهُ مِنْ توْبَةٍ؟ فقال: لا. فقتلَهُ فكمَّلَ بِهِ مِائةً. ثمَّ سألَ عن أعلم أهلِ الأرضِ، فدُلَّ على رجلٍ عالمٍ. فقال: إنهَ قَتل مائةَ نفسٍ فهلْ لَهُ مِنْ تَوْبةٍ؟ فقالَ: نَعَمْ. ومنْ يحُولُ بيْنَهُ وبيْنَ التوْبةِ؟ انْطلِقْ إلى أرْضِ كذا وكذا، فإنَّ بها أُنَاسًا يعْبُدُونَ الله تعالى فاعْبُدِ الله مَعْهُمْ، ولا تَرْجِعْ إلى أرْضِكَ فإنَّها أرْضُ سُوءٍ، فانطَلَق حتَّى إذا نَصَفَ الطَّريقَ أتَاهُ الْموْتُ، فاختَصمتْ فيهِ مَلائكَةُ الرَّحْمَةِ وملائكةُ الْعَذابِ. فقالتْ ملائكةُ الرَّحْمَةَ: جاءَ تائِبًا مُقْبلا بِقلْبِهِ إلى اللَّهِ تعالى، وقالتْ ملائكَةُ الْعذابِ: إنَّهُ لمْ يَعْمَلْ خيْرًا قطُّ، فأَتَاهُمْ مَلكٌ في صُورةِ آدمي فجعلوهُ بيْنهُمْ (أي حكمًا)، فقال: قيسوا ما بَيْن الأَرْضَين فإلَى أيَّتهما كَان أدْنى فهْو لَهُ، فقاسُوا فوَجَدُوه أدْنى إلَى الأَرْضِ التي أرَادَ، فَقبضَتْهُ مَلائكَةُ الرَّحمةِ» متفقٌ عليه[١].

وفي روايةٍ في الصحيح: «فكَان إلَى الْقرْيَةِ الصَّالحةِ أَقْربَ بِشِبْرٍ، فجُعِل مِنْ أَهْلِها»[٢].

وفي روايةٍ في الصحيح: «فأَوْحَى اللَّهُ تعالَى إلَى هَذِهِ: أن تَبَاعَدِي، وإلى هَذِهِ: أن تَقرَّبي[٣]. وقَال: قِيسُوا مَا بيْنهمَا، فَوَجدُوه إلَى هَذِهِ أَقربَ بِشِبْرٍ، فَغُفَرَ لَهُ»[٤]. وفي روايةٍ: «فنأى[٥] بِصَدْرِهِ نَحْوهَا»[٦].

---

(١) أخرجه البخاري ٣٤٧٠، ومسلم واللفظ له ٢٧٦٦/٤٦. أورده المنذري في ترغيبه ٤٦١٣.

(٢) أخرجه مسلم ٢٧٦٦/٤٧. أورده المنذري في ترغيبه ٤٦١٣.

(٣) هذا لفظ مسلم برقم ٢٧٦٦/٤٨، وعند البخاري تكررت: (أوحى) مرتين.

(٤) رواه البخاري ٣٤٧٠. اورده المنذري في ترغيبه ٤٦١٣.

(٥) لفظ البخاري: (فناء)، والمثبت لفظ المنذري في ترغيبه. قال الحافظ في الفتح ١٢٨/٨: فناء: بنون ومدّ، أي بعد، أو المعنى: مال أو نهض مع تثاقل، فعل هذا فالمعنى: فمال إلى الأرض التي طلبها، هذا هو المعروف في هذا الحديث، وحكى بعضهم فيه: (فنأى) بغير مدٍّ قبل الهمز، وبإشباعها بوزن: (سعى) تقول: نأى ينأى نأيًا، أي بعد. وعلى هذا فالمعنى: فبعد على الأرض التي خرج منها. ووقع في رواية هشام، عن قتادة ما يشعر بأن قوله: (فناء بصدره) إدراجٌ، فإنه قال في آخر الحديث: (قال قتادة: قال الحسن: ذكر لنا أنه لما أتاه الموتُ ناء بصدره).

(٦) أخرجه البخاري ٣٤٧٠. أورده المنذري في ترغيبه ٤٦١٣.

ترجمة الراوي:

أبو سعيد الخدري: وهو سعد بن مالك بن سِنان بن ثعلبة بن عبيد بن الأبجر وهو خدرة بن عوف بن الحارث بن الخزرج، الأنصاري، الخُدْرِي نسبة إلى خُدْرة. وهو بطن من الأنصار، كنيته "أبو سعيد" وبها اشتهر، وأخو أبي سعيد لأمه هو قتادة بن النعمان الظفري أحد البدريين. استشهد أبوه مالك يوم أحد. وكان أبو سعيد ﵁ من الحفاظ المكثرين والعلماء الفقهاء، العقلاء الفضلاء، الإمام المجاهد، ومفتي المدينة، وكان ﵁ من ملازمي النبي ﷺ فحفظ عنه سننًا كثيرة، وعلمًا جَمًّا، له في كتب الحديث (١١٧٠) حديثًا، اتفق البخاري ومسلم على (٤٣) وانفرد البخاري بـ (١٦)، ومسلم بـ(٥٢) حديثًا.

أما عن جهاده في سبيل الله، فقد استصغره النبي ﷺ يوم أحد وأجازه يوم الخندق، وشهد مع رسول الله ﷺ اثنتي عشرة غزوة، ومما ذكر عن صفاته الخلقية أنه كان يحفي شاربه ويصفر لحيته.

توفي ﵁ بالمدينة المنورة، يوم جمعة، ودفن بالبقيع سنة (٧٤) هجرية وهو الأشهر، وقيل (٦٣)، أو (٦٤)، أو (٦٥)، وهو ممن له عقب من الصحابة[١].

غريب الألفاظ:

راهب: هو من اعتزل الناس إلى دير وانقطع للعبادة[٢].

نصَف الطريق: بلغ نصفها[٣].

قبضته: أخذته[٤].

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٨١٥، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير ٤٥١/٢، ٤٥٢، ١٣٨/٦، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ٤٩٢، ٤٩٣، وسير أعلام النبلاء، الذهبي ١٦٨/٣-١٧٢، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي ١٢٧/٣، ١٢٨، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٦٩٦/١، ٦٩٧، والأعلام، خير الدين الزركلي ٨٧/٣، والسندي ٤/١٧، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك ٨٩٧/٢، ٨٩٨.

(٢) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الفيومي ٢٨٦، ومعجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ص ١٩٤.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير والقاموس والوسيط في (ن ص ف).

(٤) مختار الصحاح ٥١٩.

الشرح الأدبي

تتعدد الأساليب والطرق التي يخاطب بها رسول الله ﷺ أمته وكل أسلوب يحمل في لبناته اللغوية التشويق والترغيب والتأثير إذا كان الشأن في سياق العمل الصالح، ويحمل الأسلوب كل وسائل الترهيب والتنفير إذا كان الخطاب متعلقًا بأمر كريه، وسلوك شائن ومخالفة صريحة لأوامر الشرع ونواهيه: اتباعًا لقول الله عز وجل: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾(١).

وهذا الحديث الشريف جاء في قالب القصة: لتشويق السامع والقارئ وللتأثير المقنع، ولفتح باب التوبة، ونزع القنوط واليأس من نفوس العاصين الذين تهب عليهم نفحات الوصول، وتشرق في نفوسهم أنوار الإنابة والقبول.

وهذه القصة الواقعية التي يرويها رسول الله ﷺ للعظة والعبرة تعد قصة حقيقية تاريخية، وليست من قبيل ضرب الأمثال: لأن المصطفى ﷺ قال: ((كان فيمن كان قبلكم رجل)) ومادة الفعل "كان" تدل على كينونة الحدث ووقوعه، واسم الموصول "مَنْ" وهو للعاقل يؤكد واقعية الحدث وتكرار الفعل "كان" يحدد أن هذه القصة حدثت في الأمم السابقة: التي عبر عنها سيد الخلق. "كان فيمن قبلكم" أي قبل أمة الإسلام؛ ولم يحدد الرسول ﷺ التاريخ ولا القوم الذين حدثت فيهم هذه القصة، ولا اسم البلدتين ولا زمن الوقوع؛ لأن الغرض هو العبرة والدرس النافع والاعتبار بأحوال الأمم الماضية وزرع الأمل في نفوس العاصين الذين يرغبون في التوبة إلى الله والعمل الصالح.

والقصة التاريخية في البيان النبوي لا تتفق مع مصطلح القصة التاريخية في الفنون الأدبية الحديثة، وتخالف ما اصطلح عليه النقاد في هذا المجال، وذلك لأن القصة التاريخية في الحديث النبوي لم تنشأ ولم تُرْوَ بدافع الرغبة في إبداع نوع أدبي، أو إعادة صياغة للتاريخ، أو للمبالغة في تجميل أو تشويه مرحلة تاريخية معينة حسب توجهات الأديب ورغباته ومواقفه.

---

(١) سورة الحشر، آية: ٧.

وإنما القصة التاريخية في الحديث النبوي واقعية محددة تحكي ما وقع في صيغة العموم والشمول، رغبة في الاقتداء والانتفاع بهذا الواقع جميلاً وصالحًا، وأيضًا رغبة في إصلاح هذا الواقع إذا كان مريضًا تشوبه الأهواء والنوازع أو رفضًا لهذا الواقع إذا كان فاسدًا متصادمًا مع منهج الإسلام الحافل بالعطاء الإلهي، والهدي النبوي.

فالقصة في الحديث النبوي تجمع بين صدق الواقع وجمال الغرض، وجلال الموقف، وإصابة الهدف، ونبل المقصد، وسمو الغاية، ومادة هذه القصة مأخوذة من أحداث التاريخ الواقعة فيما مضى من سالف الدهر، والقصة تتخير من الأحداث التاريخية ماله أثر في التربية والتوجيه، وتعليم الجماعة المسلمة وتأييد أهداف الدعوة الإسلامية وتحقيق أغراضها[١].

وحين نتأمل البناء اللغوي في هذا النص النبوي الشريف الذي صيغ في القالب القصصي نكتشف كثيرًا من الأسرار التعبيرية، والجماليات الأسلوبية التي تتفق مع الهدف من هذا الدرس النبوي المفيد العميق.

ولنتساءل: لماذا لم يحدد الرسول ﷺ اسم ذلك الرجل، وأتى به في صيغة النكرة بعيدًا عن أي وسيلة من وسائل التعريف؟؟ إن هذا التنكير للتعميم والتغليب؛ وذلك لأن الغرض هو الإفادة من ثمرة هذه القصة، وهي يمكن أن تتكرر في كل زمان إذا حدثت الملابسات نفسها.

وهذا الرجل الذي يبحث عن باب للتوبة يستعيد من خلاله إيمانه وتوازنه بعد أن تمادى في القتل وقتل تسعة وتسعين نفسًا، وهذا العدد ربما يكون للتكثير وليس للتحديد؛ والتعبير بقوله "نفسًا" ولم يقل رجلاً: هذا العدول من سمات البلاغة النبوية التي تتسم بالشمول والإيجاز فكلمة نفس أعم وأشمل: وفي إطارها تندرج كل أنواع النفوس البشرية (المرأة والطفل والشيخ والشاب والذكر والأنثى وغير ذلك) ولفظ "النفس" أعم وأشمل من الجسد والإنسان والرجل.

---

(١) انظر القصص في الحديث النبوي، د. محمد بن حسن الزير ص ٣٥٥، والحديث النبوي: رؤية فنية جمالية د. صابر عبدالدايم ص (٩٠ – ٩١).

وقد ورد في القرآن الكريم كثيرًا في سياقات متعددة (النفس اللوامة -النفس المطمئنة- النفس الأمارة بالسوء) وفي سورة المائدة يقول الله عز وجل: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[1].

وشخصية الرجل في هذه القصة تتطور ملامحها، وتتجدد سلوكياتها فهو لا يظل أسير المعصية، ولا يظل غارقًا في دماء قتلاه، وإنما تهب عليه نفحات الوصول، وتحين لديه ساعة الإنابة والقبول؛ فالله يقبل توبة العبد مالم يغرغر ويسأل هذا الراغب في التوبة عن أعلم أهل الأرض في زمانه؛ وهذا السؤال يعطي لكل راغب في التوبة: مشروعية البحث عمن يرشده للطريق الصحيح، وأفعل التفضيل في قوله "أعلم أهل الأرض" يدل على أن الباحث عن الهداية لابد أن يسأل أهل العلم المتخصصين حتى يطمئن قلبه، وحتى يهتدي إلى الوسيلة الناجحة لبداية حياة إيمانية جديدة في بيئة صالحة غير ملوثة بأنفاس العاصين.

والعطف على التوالي بـ"الفاء" يوحي بسرعة الأحداث وضرورة الإسراع في التوبة، ولنتأمل هذه الجمل التي تحكي سرعة الأحداث وعدم التمهل (فسأل- فَدُلَّ على راهب، فأتاه، فقال).

والتعبير بقوله: "إنه" ولم يقل: "إني" فيه التفات من التكلم إلى الغيبة وقال العلماء في تفسير هذا الالتفات وهو من جماليات الأداء الأسلوبي في البيان النبوي قالوا: إنه عدل إليه عن حكاية لفظه وهو "إني" بضمير المتكلم تنبيهًا على الأدب في حكاية مثل ذلك مما يكره النطق به فيؤتي به بضمير الغيبة وكأن هذا التائب يعلن البراءة من ملامح شخصيته العاصية، وهو في حال إقبال على الطاعة والتوبة النصوح.

وعُقْدة القصة تتجلى في فتوى ذلك الراهب الذي أفتى بغير علم، وجعل اليأس يتسرب إلى هذا الرجل الباحث عن أبواب التوبة، ولكن ذلك الراهب يصدمه: ويقول له: ليست لك توبة.

---

(١) سورة المائدة، آية: ٣٢.

واختيار لفظ "راهب" واقترانه بهذه النتيجة المؤلمة المفزعة حيث أقدم ذلك الرجل على قتله يأسًا وقنوطًا؛ هذا الراهب لقي هذا المصير لأنه أبعد الرجل عن أبواب رحمة الله عز وجل؛ ومجيء هذا اللفظ هنا فيه إرشاد إلى نقد هذه الفئة التي تبتدع في أصول العقيدة، وتتقول على الله عز وجل.

والرجل لم يقنط من رحمة الله وعاود السؤال: "فَدُلَّ على رجل عالم، وهذا التعبير يرشد إلى ضرورة سؤال أهل الذكر والبحث عن كبار العلماء، وتأتي لحظة التنوير في هذه القصة وتُحل العقدة وتنتهي أزمة الرجل حين يجيب العالم بـ "نعم" ثم يقول في دهشة واستنكار ومن يحول بينه وبين التوبة.

والعالم يعرف مسؤوليته تجاه ذلك التائب حيث يرشده إلى الطريق العملي الصحيح الذي يحافظ به على توبته، لأن التوبة ليست كلامًا فقط، وإنما لابد من العمل الصالح والندم على مافات والعزم على هجر المعاصي وتبدأ مرحلة جديدة في حياة ذلك الرجل فيذهب إلى أرض بها أناس صالحون ويترك البيئة العاصية التي نشأ فيها ولكن يوافيه الأجل في الطريق وتختصم ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ولكن الله عز وجل يقبل توبته. فالأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى، والله غفور رحيم، وتواب حكيم، وهو اللطيف الخبير.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم توبة القاتل عمدًا، وقد ذكر جماهير أهل العلم[1] أن توبة القاتل مقبولة عند الله عز وجل، ويروى عن ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عنه[2]

---

(١) أحكام القرآن للجصاص ٢٤٦/٣، والمبسوط، السرخسي ٨٤/٢٧، وشرح منح الجليل على مختصر خليل، الشيخ محمد بن أحمد بن محمد عليش ٥٨٢/٨، والتاج والإكليل شرح مختصر خليل، محمد بن أبي يوسف العبدري ٢٨٧/٨، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم المالكي ١٧٨/٢، وتحفة المحتاج في شرح المنهاج، ابن حجر ٣٧٥/٨، ومغني المحتاج ٢١١/٥، والفتاوى الكبرى لابن تيمية ١١٢/١، ٥٢١/٥، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي ١٧٨/٦، والآداب الشرعية، حماد بن عبدالله الحماد ٥٨/١، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ٣٣٥/١٠.

(٢) المبسوط، السرخسي ٨٤/٢٧، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٨٦/١، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري٢٨١/٤.

أنه ليس لقاتل العمد توبة، وفي أخرى روي عنه أن له توبة كغيره، وروي عن مالك أنه لا توبة لقاتل العمد[(١)]، وكذا عن أحمد روايتان في قبول توبته[(٢)]، والصحيح ما عليه المذهب قبول توبته. وإنما كان القول بمنع التوبة أو عدم قبولها للردع والزجر وإغلاق باب القتل.

المضامين الدعوية

أولاً: من أهداف الدعوة: الاستفادة من أخبار السابقين.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الترغيب.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: أهمية البعد عن أماكن المعاصي والبحث عن أماكن تتيسر فيها سبل الطاعة.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: بيان سعة رحمة الله وفضله على عباده.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: ضرورة المسارعة إلى التوبة.

سابعًا: من وسائل الدعوة: القصة.

ثامنًا: من واجبات الداعية: التبشير وعدم التقنيط من رحمة الله.

أولاً- من أهداف الدعوة: الاستفادة من أخبار السابقين:

تهدف الدعوة إلى توجيه المدعوين إلى الاستفادة من أخبار السابقين. يؤخذ ذلك من قوله ﷺ "كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسًا" أي رجل من الأمم قبلكم[(٣)]، وقد أذن رسول الله ﷺ في التحديث عن بني إسرائيل ورفع الحرج عن ذلك، فعن عبدالله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: ((بلِّغوا عني ولو آيةً، وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرجَ، ومن كذَبَ عليَّ مُتعَمِّدًا فليتَبوَّأْ مَقعدهُ منَ النار))[(٤)] قال ابن حجر:

---

(١) الفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم المالكي ١٧٨/٢.

(٢) الفتاوى الكبرى لابن تيمية ١١٢/١، ٥٢١/٥، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي ١٧٨/٦، والآداب الشرعية، حماد بن عبدالله الحماد ٥٨/١، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ٣٣٥/١٠.

(٣) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٦٩.

(٤) أخرجه البخاري ٣٤٦١.

أي لا ضيق عليكم من الحديث عن بني إسرائيل وقال الشافعي: (من المعلوم أن النبي ﷺ لا يجيز التحدث بالكذب فالمعنى حدثوا عن بني إسرائيل بما لا تعلمون كذبه، وأما ما تجوزونه فلا حرج عليكم في التحدث به عنهم)[١].

وفي الحديث دليل عملي على أهمية الاستفادة من أخبار السابقين، فقد جاء في الحديث ما قصّه النبي ﷺ من قصة ذلك الرجل الذي قتل تلك الأنفس العديدة وما فيها من بيان فتح الله لباب التوبة، وما يؤخذ من القصة من فضل العلم وأن العبادة التي تفتقد إلى العلم غالبًا ما يتطرق إليها الفساد ونحوه.

قال القرطبي: (قول الراهب لقاتل التسعة والتسعين إنه لا توبة له: دليل على قلة علم ذلك الراهب، وعدم فطنته، حيث لم يُصب وجه الفتيا، ولا سلك طريق التحرز على نفسه، ممن صار القتل له عادة معتادة، فقد صار هذا مثل الأسد الذي لا يبالي بمن يفترسه، فكان حقه ألا يشافهه بمنع التوبة مداراة لدفع القتل عن نفسه، كما يدارى الأسد الضاري، لكنه أعانه على نفسه، فإنه لما آيسه من رحمة الله وتوبته قتله، بحكم سبعيته[٢] ويأسه من رحمة الله وتوبته عليه، ولما لطف الله به بقي في نفسه الرغبة في السؤال عن حاله. فما زال يبحث إلى أن ساقه الله تعالى إلى هذا الرجل العالم الفاضل، فلما سأله نطق بالحق والصواب، فقال له: ومن يحول بينها وبينك؟ مفتيًا ومنكرًا على من ينفيها عنه، ثم إنه أحاله على ما ينفعه، وهو مفارقته لأرضه التي كانت غلبت عليه بحكم عادة أهلها الفاسدة، ولقومه الذين كانوا يعينونه على ذلك، ويحملونه عليه. وبهذا يعلم فضل العلم على العبادة، فإن الأول غلبت عليه الرهبانية، واغتر بوصف الناس له بالعلم فأفتى بغير علم، فهلك في نفسه وأهلك غيره. والثاني كان مشتغلاً بالعلم ومعتنيًا به، فوفق للحق، فأحياه الله في نفسه، وأحيا به الناس)[٣].

ولقد جاء القرآن الكريم بكثير من قصص الأنبياء والرسل مع قومهم لأخذ

---

(١) فتح الباري، ٦/٥٧٥، ٥٧٦.

(٢) أي صارت طِباعُه وحشية كالسبع.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٧/٩٠.

الفوائد والعبر منها، وهذا مما يؤكد أهمية الاستفادة من أخبار السابقين، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[١].

قال السعدي: ("لقد كان في قصصهم" أي: قصص الأنبياء والرسل مع قوهم "عبرة لأولي الألباب" أي: يعتبرون بها، أهل الخير، وأهل الشر، وأن من فعل مثل فعلهم، ناله ما نالهم، من كرامة، أو إهانة، ويعتبرون بها أيضًا، ما لله من صفات الكمال والحكمة العظيمة، وأنه الله، الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له.

وقوله "ما كان حديثًا يفترى" أي: ما كان هذا القرآن، الذي قص الله به عليكم من أنباء الغيب ما قص، من الأحاديث المفتراه المختلقة، "ولكن" كان تصديق "الذي بين يديه" من الكتب السابقة، يوافقها، ويشهد لها بالصحة "وتفصيل كل شيء" يحتاج إليه العباد من أصول الدين وفروعه، ومن الأدلة والبراهين.

"وهدى ورحمة لقوم يؤمنون" فإنهم -بسبب ما يحصل لهم به من العلم بالحق وإيثاره- يحصل لهم الهدى، وبما يحصل لهم من الثواب العاجل والآجل، فتحصل لهم الرحمة[٢].

ثانيًا- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

جاء أسلوب السؤال والجواب في الحديث فيما حكاه النبي ﷺ عما وقع بين الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفسًا وبين الراهب وكذلك بينه وبين العالم "فدل على راهب فأتاه فقال إنه قتل تسعة وتسعين نفسًا فهل له من توبة؟ فقال لا فقتله فكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على رجل عالم فقال: إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ فقال نعم ومن يحول بينه وبين التوبة" فالسؤال والجواب من الأساليب المفيدة في الدعوة، وفيه فرصة للاطلاع على الحقائق من قِبَل المدعوين والقدرة على إيصال الحقائق وبيان الأمور من قبل الدعاة.

---

(١) سورة يوسف، آية: ١١١.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٣٦٢.

ثالثًا- من أساليب الدعوة: الترغيب:

ورد هذا الأسلوب في هذا الحديث في ترغيب العالم لذلك الرجل الذي قتل مائة نفس في التوبة ببيان قبولها منه إن تاب، إذ لا يوجد هناك من يحول بينه وبين التوبة " فقال إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ فقال: "نعم ومن يحول بينه وبين التوبة؟" فالترغيب أسلوب من الأساليب الدعوية المفيدة، إذ أنه يشوق المدعو ويستميله إلى الاستجابة وقبول الحق والثبات عليه[1]. والترغيب أبرز الأساليب الدعوية في القرآن والسنة النبوية، فالنفس لا ترغب إلا فيما فيه سعادتها وصلاح أمرها، وما جاء به الشرع الحنيف كله -بعد الإقرار بالوحدانية وصدق الرسول ﷺ-لا يعدو أن يكون ترغيبًا في الخيرات وترهيبًا من المعاصي والموبقات، وثمرة ذلك حث المؤمن على الرغبة فيما عند الله تعالى والرهبة من عقابه[2].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: أهمية البعد عن أماكن المعاصي والبحث عن أماكن تتيسر فيها سبل الطاعة:

إن مما نُصِح به ذلك الرجل الذي قتل مائة نفس أن يهجر أرضه، التي تيسرت فيها سبل المعصية، ووفرت له وسائلها، ولم يوجد فيها ما يمنع من المعصية، ويذهب إلى مكان تتهيأ فيه سبل الطاعة، والإنابة إلى الله تعالى، "انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسًا يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء".

قال القاضي عياض: (وقول العالم له: "انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن فيها أناس يعبدون الله فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك" فيه الحض على مفارقة الإنسان المواضع التي أصاب فيها الذنوب والأقران الذين ساعدوه عليها، ومعاداتهم لله تعالى، مبالغة في التوبة وقطع علائقها، والاستبدال بذلك صحبة أهل الخير والصلاح ومن يقتدى به، ويتأكد بمشاهدته توبته)[3].

---

(١) انظر: مستلزمات الدعوة في العصر الحاضر، علي بن صالح المرشد ص ١٦٠.

(٢) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد ٢١٢٧/٦.

(٣) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٢٦٩/٨.

لذا فإنه ينبغي لمن عاش في أرض بمثل تلك الصفة أو لم يستطع إقامة دينه أن يهجرها، وقد عاب الله أقوامًا بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾[1] قال القاسمي: (وهذا دليل على أن الرجل إذا كان في بلد لا يتمكن فيه من إقامة أمر دينه كما يجب لبعض الأسباب، والعوائق عن إقامة الدين لا تنحصر، أو علم أنه في غير بلده أقوم بحق الله وأدوم على العبادة حقت عليه المهاجرة)[2].

خامسًا- من موضوعات الدعوة: بيان سعة رحمة الله وفضله على عباده:

جاء في الحديث بيان لفضل الله وواسع عطائه، ومن ذلك: قبوله سبحانه توبة التائب مهما اقترف من ذنوب وآثام، مما جعل العالِم يصرح بأنه لا يوجد مَنْ يحول بين الإنسان والتوبة "ومن يحول بينه وبين التوبة" وتجلى فضل الله في قبول توبة هذا الرجل، وما أمر به الأرض من التباعد والتقارب، حتى تقبضه ملائكة الرحمة "فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدي وإلى هذه أن تقربي وقال قيسوا ما بينهما، فوجدوه إلى هذه أقرب بشبرٍ فغفر له".

قال القرطبي: (وقوله: "فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: إنه جاء تائبًا مقبلاً بقلبه". هذا نص صريح في أن الله تعالى أطلع ملائكة الرحمة على ما في قلبه من صحة قصده إلى التوبة وحرصه عليها، وأن ذلك خفي على ملائكة العذاب حتى قالت: إنه لم يعمل خيرًا قط. ولو اطلعت على ما في قلبه من التوبة، لما صحّ لها أن تقول هذا، ولا تنازع ملائكة الرحمة في قولها: إنه جاء تائبًا مقبلاً بقلبه، بل شهدت بما في علمها، كما شهد الآخرون بما تحققوه. لكن شهادة ملائكة الرحمة على إثبات، وشهادة ملائكة العذاب بما تحققوه، وشهادة الإثبات مقدمة.

---

(١) سورة النساء، آية: ٩٧.

(٢) محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ٤٠١/٥/٣.

فلا جرم لما تنازع الصنفان وخرج كلاهما عن الشهادة إلى الدعاوى بعث الله إليهما ملكًا حاكمًا يفصل بينهما، وصوّره بصورة الآدمي، إخفاء عن الملائكة وتنويهًا ببني آدم، وأن منهم من يصلح لأن يفصل بين الملائكة إذا تنازعوا.

وقوله: "فجعلوه بينهم" فيه حجة لمالك على قوله أن المتخاصمين إذا حكّما بينهما رجلاً يصلح للتحكيم لزمهما ما يحكم به، وقد خالفه في ذلك الشافعي.

وقوله: "فقيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له" دليل على أن الحاكم إذا تعارضت الأقوال عنده، وتعذرت الشهادات، وأمكنه أن يستدل بالقرائن على ترجيح بعض الدعاوى، نفذ الحكم بذلك، كما فعله سليمان عليه السلام حيث قال: ائتوني بالسكين أشقه بينهما.

تنبيه: قال القاضي: جعل الله قُربَه من القرية علامة للملك عند اختلافهم مع عدمهم معرفة حقيقة باطنه التي اطلع الله عليها، ولو تحققوا بتوبته لم يختلفوا ولم يحتاجوا للمقايسة.

قلت: وهذه غفلة منه عن قول ملائكة الرحمة: "جاء تائبًا بقلبه إلى الله عز وجل" وهذا نص في أن الملائكة علمت ما في قلبه، فلو علمت ملائكة العذاب ما في قلبه لما تنازعوا لأن الملائكة كلهم، لا يخفى عليهم أن قبول التوبة إذا صحت في القلب، وعُمل على مقتضاها بالجوارح بالقدر الممكن مقبولة بفضل الله تعالى ووعده الصادق، والأحسن ما ذكرناه إن شاء الله تعالى، وإنما جعل الله قرب تلك الأرض سببًا مرجحا لحجة ملائكة الرحمة، ومصدقًا لصحة التوبة، وفيه دليل على أن أعمال الظاهر عنوان على الباطن.

وقوله: "فأوحى الله إلى هذه أن تباعدي وإلى هذه أن تقربي" إنما كان ذلك لما حكم الحاكم بقياس الأرض. ويفهم منه أن الرجل كان أقرب إلى الأرض التي خرج منها، فلو ترك الله الأرض على حالها، لقبضته ملائكة العذاب، لكن غمرته الألطاف الإلهية، وسبقت له العناية الأزلية، فقرّبت البعيد، وألانت الحديد، ويستفاد من هذا أن الذنوب وإن عظمت فعفو الله أعظم منها وأن من أُلهم صدق التوبة فقد سُلِكَ به طريق اللطف والقربة[1].

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٩١/٧ - ٩٣.

سادسًا- من موضوعات الدعوة: ضرورة المسارعة إلى التوبة:

لعلنا نلمح هذا المعنى في بحث الرجل وسؤاله عما إذا كانت له توبة أم لا؟ ولَمَّا دله العالم على أرض يذهب إليها ليعبد الله فيها جاء التعبير بقوله "فانطلق" فإنه مما ينبغي للمرء أن يسارع فيه: التوبة استجابة لمثل قول الله ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾(١) وقوله ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾(٢) وبيّن الحق أن من صفات المتقين أنه إذا وقعت منهم معصية بادروا بالتوبة بمجرد وقوعها ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(٣) أي: تابوا من ذنوبهم ورجعوا إلى الله عن قريب، ولم يستمروا على المعصية ولم يصروا عليها غير مقلعين عنها، ولو تكرر منهم الذنب تابوا عنه(٤).

سابعًا- من وسائل الدعوة: القصة:

استخدمت وسيلة القصة في الحديث، حيث قص النبي ﷺ قصة رجل قتل تسعة وتسعين نفسًا، وبحثه عن التوبة حتى هدي لذلك العالم فدلّه على باب التوبة، وأرشده إلى التوجه إلى أرض لا يجد فيها من دواعي المعصية ومغرياتها "كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسًا فسأل عن أعلم أهل الأرض... الحديث".

والقصة من وسائل الدعوة المفيدة في الحقل الدعوي لأنها تمتاز بأنها تصور الحياة فتعرض لك الأشخاص وحركاتهم وأخلاقهم وغير ذلك حتى لكأنك تراهم رأي العين، كما تمتاز القصة بأن النفس تميل إليها، فغريزة حب الاستطلاع تعلق عين السامع وأذنه وانتباهه بنسق القصص البارع، استشرافًا لمعرفة ما خفي من بقية الأنباء، والقصة بهاتين الميزتين من خير الوسائل التي يتوصل بها الداعية لإبلاغ تعاليمه إلى أعماق القلوب(٥).

---

(١) سورة الحديد، آية: ٢١.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٣٣.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٣٥.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١٢٥/٢.

(٥) انظر: تذكرة الدعاة، البهي الخولي ص ٤٤، ٤٥.

ويعتبر الأسلوب القصصي من أنجح الأساليب للهداية والتقويم، ولقد روى لنا القرآن أخبار الأمم الماضية وقدمها للعقل والقلب والروح بطرق مثيرة لعواطف الخير فيه منفرة لنوازع الشر[١]، وذلك كقصة يوسف عليه السلام وغيرها، وصرح القرآن بأن قصصه أحسن القصص ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ ﴾[٢].

لذا ينبغي على الدعاة ألا يهملوا جانب القصة في دعوتهم، والاطلاع ومعرفة ما ذكر الله من مناهج الدعاة من الأنبياء عليهم السلام وأتباعهم في الدعوة إلى الله، ومعرفة الدعاة ما أصاب سابقيهم في الدعوة إلى الله من أذى، ليعلم أن ما اصاب المؤمنين السابقين من الدعاة إلى الله يصيب أيضًا الدعاة المؤمنين اللاحقين، وبهذا جرت سنة الله في الأولين كما تجري في اللاحقين، ولكن العاقبة كانت وتكون دائمًا للمتقين، قال تعالى: ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[٣].

وفي قصص القرآن ما أشرنا إليه من بيان لما جبلت عليه النفس البشرية من غرائز وميول ورغبات. وهذه أمور مهمة جدًا يستفيد منها الدعاة في أساليب دعوتهم، وكيفية معالجتهم لأحوال الناس الذين يدعونهم ولأحوال أتباعهم من المؤيدين والأنصار، ولا يجوز للدعاة إغفال هذه الأمور المتعلقة بالنفس البشرية، لأنهم في دعوتهم يتعاملون مع بشر، ودعوة البشر،ووضعهم على الصراط السوي بعد تخليصهم من العوائق، وإقناعهم بمعاني الدعوة، كل ذلك يحتاج إلى فقه واسع وعميق وصحيح في النفس البشرية وطبعها وما جبلت عليه،وهذا يمكن معرفته وتعريف الدعوة به من خلال النظر فيما قصه الله علينا من قصص الماضين المؤمنين والفجار والصعاليك وذوي السلطان.

ومما يزيد من أهمية هذه الفائدة أن النفس البشرية وما جبلت عليه وطبعها وأصول غرائزها وصفاتها لا تتغير فهي هي الآن كما كانت من زمن آدم عليه السلام وإلى أن يرث

(١) القصة في القرآن الكريم، د. مريم عبدالقادر السباعي ص ١١.

(٢) سورة يوسف، آية: ٣.

(٣) سورة الأعراف آية: ١٢٨.

الله الأرض ومن عليها. ويكفي أن أشير هنا إلى قصة ابني آدم وكيف أن الحسد حمل أحد الأخوين على قتل أخيه، ولا تزال هذه الصفة - صفة الحسد - مغروسة في نفوس بني آدم حتى الآن)[١]. وقد كانت القصة في هذا الحديث النبوي وسيلة دعوية ناجحة في بيان أهمية البحث عن التوبة وعدم القنوط من رحمة الله، وضرورة الأخذ بأسباب الفلاح والإنابة إلى الله تعالى مثلما حدث مع هذا الرجل الذي قتل مائة نفس، ومع ذلك ظلت نفسه تتوق إلى التوبة حتى هيّأ الله تعالى له أسبابها، وقد تبلورت هذه الأحداث من خلال القصة التي أخبر بها النبي ﷺ.

ثامنًا- من واجبات الداعية: التبشير وعدم التقنيط من رحمة الله:

جاء ذلك واضحًا في قول العالم لذلك الذي قتل مائة نفسًا وقد سأله فقال: "إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ فقال: نعم ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها قومًا يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم ... الحديث" وقد وردت الآيات الكثيرة التي تبشر برحمة الله وتنهى عن القنوط منها، مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[٢] أي لا تيأسوا من رحمة الله[٣] وابعثوا الرجاء في أنفسكم[٤] فإن رحمة الله أوسع ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ﴾[٥].

فيجب على الداعية أن يُبشر المدعوين برحمة الله تعالى، وأنه سبحانه واسع المغفرة، ويؤكد على عدد من المعاني العظيمة في هذا الباب، ومن أبرزها: أن عفو الله تعالى وكرمه أكبر وأعظم من أي ذنب، فلا ينبغي للعبد أن يستعظم ذنبه ويستكثره

(١) المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة، د. عبدالكريم زيدان ٨/١ - ٩.

(٢) سورة الزمر، آية: ٥٣.

(٣) زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي ، ابن الجوزي ١٩١/٧.

(٤) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ٣٩/٢٤/٩.

(٥) سورة الأعراف، آية: ١٥٦.

على الله، بل يجب عليه أن يسارع في التوبة والإنابة إلى الله تعالى، وهجر المعاصي والذنوب، والداعية حينما يبشر برحمة الله، فإنما يتأسى في ذلك برسول الله ﷺ وهو خاتم الأنبياء وإمام الدعاة وهو ﷺ الذي قصّ خبر هذا العالم الذي سأله الرجل الذي قتل "مائة"، فدلّه العالم على أسباب التوبة التي لا يوجد بينه وبينها حائل.

الحديث رقم (٢١)

٢١- وعَنْ عبْدِ اللَّهِ بنِ كَعْبِ بنِ مَالكٍ، وكانَ قائِدَ كعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ بَنِيهِ حِينَ عَمِيَ، قال: سَمِعْتُ كعْبَ بن مَالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُحَدِّثُ بحديثِهِ[1] حِين تخلَّف عَنْ رسول الله ﷺ، في غزوةِ تبُوكَ. قال كعْبٌ: لمْ أَتخلَّفْ عَنْ رسولِ الله ﷺ، في غَزْوَةٍ غَزَاها[2] إلاَّ في غزْوَةِ تَبُوكَ، غَيْر أَنِّي قدْ تخلَّفْتُ في غَزْوةِ بَدْرٍ، ولَمْ يُعَاتَبْ أَحَدٌ[3] تَخلَّف عنْهُ، إنَّما خَرَجَ رسولُ الله ﷺ والمُسْلِمُونَ يُرِيدُونَ عِيرَ قُرَيْش حتَّى جَمعَ اللهُ تعالَى بيْنَهُم وبيْن عَدُوِّهِمْ عَلَى غيْرِ ميعادٍ. وَلَقَدْ شهدْتُ مَعَ رسولِ اللَّهِ ﷺ ليْلَةَ العَقَبَةِ حِينَ تَوَاثَقْنَا عَلَى الإِسْلامِ، ومَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ، وإن كَانتْ بدْرٌ أَذْكَرَ في النَّاسِ مِنهَا وكَانَ من خَبَرِي حِينَ تخلَّفْتُ عَنْ رسول الله ﷺ، في غَزْوَةِ تبُوك أَنِّي لَمْ أَكُنْ قَطُّ أَقْوَى ولا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخلَّفْتُ عَنْهُ في تِلْكَ الْغَزْوَة، واللَّهِ ما جَمعْتُ قبْلها رَاحِلتَيْنِ قطُّ حتَّى جَمَعْتُهُما في تلك الْغَزوَةِ، (ولَم يكُن رسول الله ﷺ يُرِيدُ غَزْوةً إلاَّ ورَّى بغَيْرِهَا حتَّى كَانَتْ تِلكَ الْغَزْوةُ) [4]، فغَزَاها رسول الله ﷺ في حَرٍّ شَديدٍ، وَاسْتَقْبلَ سَفرًا بَعِيدًا وَمَفَازًا. وَاسْتَقْبَلَ عَددًا[5] كَثِيرًا، فجَلَّى للْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ ليَتَأَهَّبوا أُهْبَةَ غَزْوِهِمْ فَأَخْبَرَهُمْ بوَجْهِهِمُ الَّذي يُرِيدُ، وَالْمُسْلِمُون مَع رسول الله كَثِيرٌ ولاَ يَجْمَعُهُمْ كِتَابٌ حَافِظٌ «يُرِيدُ بذلكَ الدِّيوان».

قال كَعْبٌ: فقلَّ رَجُلٌ يُريدُ أَنْ يَتَغَيَّبَ إلاَّ[6] ظَنَّ أَنَّ ذلكَ سَيَخْفى بِهِ[7] مَا لَمْ يَنْزِلْ فيهِ وَحْيٌ مِن اللَّهِ، وغَزَا رسول الله ﷺ تلكَ الغزوةَ حين طَابت الثِّمَارُ والظِّلالُ، فَأَنا إِلَيْهَا

---

(١) لفظ مسلم: (حديثه).

(٢) عند مسلم زيادة: (قطُّ) والمثبت لفظ البخاري.

(٣) لفظ مسلم: (وَلَمْ يُعَاتِبْ أَحَدًا).

(٤) هذه الزيادة عند البخاري، وكذا عند المنذري، وتبعه المؤلف عليه.

(٥) لفظ مسلم: (عدوًّا).

(٦) (إلا) لا توجد عند مسلم، قال القاضي عياض في الإكمال: هكذا هو في جميع نسخ مسلم، وصوابه: (إلا يظنُّ أن ذلك سيخفي له) بزيادة: (إلا)، وكذا رواه البخاريّ، والمثبت لفظ المنذري.

(٧) لفظ مسلم: (له).

أَصْغرُ، فتجهَّز رسول الله ﷺ وَالْمُسْلِمُون معهُ، وطفِقْت أَغدو لِكَيْ أَتَجهَّزَ معهُ فأَرْجعُ ولمْ أَقْض شيئًا، وأَقُولُ في نَفْسي: أَنا قَادِرٌ على ذلك إِذا أَرَدْتُ، فلمْ يَزلْ[1] يتمادى بي حتَّى اسْتمرَّ بالنَّاسِ الْجِدُّ، فأَصْبَحَ رسول الله ﷺ غاديًا والْمُسْلِمُونَ معَهُ، وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جهازي شيئًا، ثُمَّ غدَوْتُ فَرَجَعْتُ وَلَم أَقْض شَيْئًا، فَلَمْ يزَلْ[2] يَتَمادَى بِي حَتَّى أَسْرَعُوا وتَفَارَط الْغَزْوُ، فَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِل فأُدْرِكَهُمْ، فَيَالَيْتَني فَعلْتُ، ثُمَّ لَمْ يُقَدَّرْ ذلك لي، فَطفقتُ إِذَا خَرَجْتُ في النَّاسِ بَعْد خُرُوجِ رسُول الله ﷺ يُحْزُنُنِي أَنِّي لا أَرَى لِي أُسْوَةً، إِلاَّ رَجُلاً مَغْمُوصًا عَلَيْه في النِّفاقِ، أَوْ رَجُلاً مِمَّنْ عَذَرَ اللَّهُ تعالَى مِن الضُّعَفَاءِ، ولَمْ يَذكُرني رسول الله ﷺ حتَّى بَلَغ تَبُوكَ[3]، فقالَ وَهُوَ جَالِسٌ في القوْمِ بتَبُوك: ما فَعلَ كعْبُ بْنُ مَالكٍ؟ فقالَ رَجُلٌ مِن بَنِي سلمِةَ[4]: يا رسول الله حَبَسَهُ بُرْدَاهُ، وَالنَّظرُ في عِطْفيْه. فَقَال لَهُ مُعَاذُ بْنُ جبَلٍ رضي الله عنه: بِئس ما قُلْتَ، وَاللَّهِ يا رسول الله مَا عَلِمْنَا علَيْهِ إِلاَّ خَيْرًا، فَسكَتَ رسول الله ﷺ. فبَيْنَا[5] هُوَ علَى ذلك رَأَى رَجُلاً مُبْيضًا يَزُولُ به السَّرَابُ، فقالَ رسولُ الله ﷺ: كُنْ أَبَا خَيْثمَةَ، فَإِذا هو أَبُو خَيْثَمَةَ الأَنْصَارِيُّ وَهُوَ الَّذي تَصَدَّقَ بصاع التَّمْر حين لَمَزَهُ المنافقون.

قَالَ كَعْبٌ: فَلَّما بَلَغني أَنَّ رسول الله ﷺ قَدْ توَجَّهَ قَافلا مِنْ تَبُوكَ حَضَرَني بَثِّي، فطفقتُ أَتذكَّرُ الكذِبَ وَأَقُولُ: بِمَ أَخْرُجُ من سَخطه غَدًا وَأَسْتَعِينُ عَلَى ذلكَ بِكُلِّ[6] ذِي رَأْيٍ مِنْ أَهْلِي، فَلَمَّا قِيلَ[7]: إِنَّ رسول الله ﷺ قدْ أَظَلَّ قادمًا زاحَ عَنِّي الْبَاطِلُ، حَتَّى عَرَفتُ أَنِّي لم أَنج[8] مِنْهُ بِشَيءٍ أَبَدًا فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ، وأَصبَحَ رسول الله ﷺ

---

(١) عند مسلم زيادة: (ذلك).

(٢) عند مسلم زيادة: (ذلك).

(٣) عند مسلم: (تبوكًا) والمثبت لفظ المنذري.

(٤) هو: عبد الله بن أنيس، قاله الواقدي. تنبيه المعلم (١١١٢).

(٥) لفظ مسلم: (بينما).

(٦) لفظ مسلم: (كل) بدون حرف الجر، والمثبت لفظ المنذري.

(٧) عند مسلم زيادة: (لي)، وهي لا توجد عند المنذري.

(٨) عند مسلم: (لَمْ أَنْجُوَ).

قَادمًا، وكان إذا قدمَ مِنْ سَفَرٍ بَدأَ بالْمَسْجد فركعَ فيه رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ جلس للنَّاس، فلمَّا فعل ذَلك جَاءَهُ الْمُخلَّفُونَ[١] يعْتذرُون إليْه ويَحْلفُون لَهُ، وكانوا بضعًا وثمَانين رَجُلا فقبل منْهُمْ[٢] عَلانيَتهُمْ وبايعهم واسْتغفر لهُمْ ووَكلَ سَرَائرَهُمْ إلى الله تعَالى. حتَّى جئْتُ، فلمَّا سَلَمْتُ تبسَّم تبَسُّم الْمُغْضَبِ. ثمَّ قَالَ: تَعَالَ، فجئتُ أَمْشي حَتى جَلَسْتُ بيْن يَدَيْهِ، فقالَ لِي: مَا خَلَّفكَ؟ أَلَمْ تكُنْ قد ابْتَعْتَ ظَهْرَك، قَالَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله إنِّي والله لَوْ جلسْتُ عنْد غيْرِكَ منْ أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَني سَأَخْرُج منْ سَخَطه بعُذْرٍ، لقدْ[٣] أُعْطيتُ جَدَلا، وَلَكنني وَاللَّه لقدْ عَلمْتُ لَئن حَدَّثْتُك الْيَوْمَ حديث كَذبٍ ترْضى به عنِّي لَيُوشكَنَّ اللَّهُ[٤] يُسْخِطَكَ عليَّ، وإنْ[٥] حَدَّثْتُكَ حَديث صدْقٍ تجدُ علَيَّ فيه، إنِّي لأَرْجُو فِيه عُقْبَى الله عَزَّ وَجلَّ، واللَّه ما كان لِي مِنْ[٦] عُذْرٍ، واللَّهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلا أَيْسر مِنِّي حِينَ تَخلفْتُ عَنك. قَالَ: فقالَ رسول الله ﷺ: **«أَمَّا هذَا فقَدْ صَدَقَ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضيَ اللَّهُ فيكَ»**[٧] وسَارَ[٨] رِجَالٌ مِنْ بَنِي سَلمة فاتَّبعُوني، فقالُوا لِي: واللَّهِ مَا عَلِمْنَاكَ أَذنْبتَ ذَنْبًا قبْل هذَا، لقَدْ عَجَزتَ في أن لا تَكُون اعتذَرْت إلَى رسول الله ﷺ بمَا اعْتَذَرَ[٩] إليهِ الْمُخَلَّفُون فقَدْ كَانَ كافِيَكَ ذنْبَكَ اسْتِغفارُ رسول الله ﷺ لَك.

قَالَ: فوالله مَا زَالُوا يُؤنِّبُونني حتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ إلى رسول الله ﷺ فَأُكَذِّبَ نَفْسِي[١٠]، ثُمَّ قُلتُ لهُم: هَلْ لَقِيَ هَذا معِي مِنْ أَحدٍ؟ قَالُوا: نَعَمْ لقِيَهُ معك رَجُلان قَالا مِثْلَ

---

(١) عند مسلم بعدها زيادة: (فطفقوا).

(٢) عند مسلم زيادة: (رسول الله ﷺ)، وهي لا توجد عند المنذري.

(٣) عند مسلم (ولقد) بزيادة الواو.

(٤) عند مسلم بعدها زيادة: (أن).

(٥) عند مسلم: (ولئن).

(٦) (من) لا توجد عند مسلم، وكذا لا توجد عند المنذري.

(٧) عند مسلم زيادة: (فقمتُ).

(٨) لفظ مسلم: (وثار).

(٩) عند مسلم زيادة: (به)، وهي لا توجد عند المنذري.

(١٠) عند مسلم زيادة: (قال).

مَا قُلْتَ، وقيل لَهمَا مِثْلُ مَا قِيلَ لكَ، قَالَ: قُلْتُ: مَن هُمَا؟ قالُوا: مُرارةُ بْنُ الرَّبِيعِ[1] الْعَمْرِيُّ، وهِلال بْن أُميَّةَ الْوَاقِفِيُّ؟ قَالَ: فَذكَروا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْن قدْ شَهِدا بدْرًا فِيهِمَا أُسْوَةٌ. قَالَ: فَمَضيْت حِينَ ذَكَروهُمَا لِي.

وَنهَى رسول الله ﷺ عن كَلامِنَا أَيُّهَا الثلاثَةُ مِن بَين من تَخَلَّف عَنهُ.

قالَ: فاجْتَنبَنا النَّاسُ أَوْ[2] قَالَ: تَغَيَّرُوا لَنَا حَتَّى تَنَكَّرت لِي فِي نفسي الأَرْضُ، فَمَا هيَ بالأَرْضِ التي أَعْرِفُ، فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلكَ خمْسِينَ لَيْلَةً. فأَمَّا صَاحِبايَ فَاستَكَانَا وَقَعَدَا فِي بُيُوتهمَا يَبْكيَانِ، وأَمَّا أَنَا فَكُنتُ أَشَبَّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ، فَكُنتُ أَخْرُج فَأَشْهَدُ الصَّلاة مَعَ الْمُسْلِمِينَ[3]، وَأَطُوفُ فِي الأَسْوَاقِ وَلا يُكَلِّمُنِي أَحدٌ، وآتِي رسول الله ﷺ فأُسَلِّمُ عَلَيْهِ، وَهُو فِي مجلِسِهِ بعدَ الصَّلاةِ، فَأَقُولُ فِي نفسِي: هَل حَرَّكَ شفتَيهِ بردِّ السَّلامِ أَم لا؟ ثُمَّ أُصلِّي قريبًا مِنهُ وأُسَارِقُهُ النَّظَرَ، فَإِذَا أَقبَلتُ على صلاتِي نَظر إِلَيَّ، وإِذَا الْتَفَتُّ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي، حَتى إذا طَال ذلكَ عَلَيَّ مِن جَفْوَةِ الْمُسْلمِينَ مشَيْت حَتَّى تَسوَّرْت جدارَ حَائط أبي قَتَادَةَ، وَهُوَا ابْن عَمِّي، وأَحبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَسلَّمْتُ عَلَيْهِ فَواللَّهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلامَ، فَقُلْت لَه: يا أَبَا قتادَةَ أَنْشُدكَ باللَّه هَلْ تَعْلَمُني[4] أُحبُّ اللهَ وَرَسُولَه ﷺ؟ فَسَكَتَ، فَعُدت فَنَاشَدتُه فَسكَتَ، فَعُدْت فَنَاشَدْته فقَالَ: الله ورَسُولُهُ أَعْلَمُ. فَفَاضَتْ عَيْنَايَ، وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسوَّرتُ الْجدَارَ.

فَبَيْنَا أَنَا أَمْشي فِي سُوقِ المدينةِ إذَا نَبَطيٌّ منْ نبطِ أَهْلِ الشَّام مِمَّنْ قَدِمَ بالطَّعَامِ يبيعُهُ بالمدينةِ يَقُولُ: مَنْ يَدُلُّ عَلَى كعْبِ بْنِ مَالكٍ؟ فَطَفقَ النَّاسُ يشيرون له إِلَيَّ حَتَّى جَاءَني

---

(١) لفظ مسلم: (ربيعة العامري) قال الجياني في التقييد (٩٢٥/٣): هكذا قال: (العامري)، وإنما هو العَمري، من بني عمرو بن عَوف. وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (٧٢٤/٧): وهو خطأ. وقال القاضي عياض في الإكمال (٢٧٧/٨) وعنه النووي في المنهاج (٩٢/١٧): كذا ذكره البخاري (٤٤١٨) وكذا نسبه ابن إسحاق، وأبو عمر ابن عبد البر وغيرهما، ووقع في نسخ مسلم: (مرارة بن الربيعة) وفي البخاري: (ابن الربيع) قال ابن عبد البر: يقال بالوجهين.

(٢) عند مسلم بالواو فقط، والمثبت لفظ المنذري.

(٣) قوله: (مع المسلمين) لا يوجد عند مسلم.

(٤) لفظ مسلم: (تَعْلَمَنَّ أنِّي).

فَدَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا منْ مَلِكِ غسَّانَ، وكُنْتُ كَاتِبًا. فَقَرَأْتُهُ فَإِذَا فيهِ: أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّهُ قَدْ بلَغنَا أَن صاحِبَكَ قدْ جَفَاكَ، ولمْ يجْعلْكَ اللَّهُ بدَارِ هَوَانٍ وَلا مَضْيعَةٍ، فَالْحقْ بنا نُوَاسِك، فَقلْت حِين قرأْتُهَا: وَهَذِهِ أَيْضًا من الْبَلاءِ فَتَيمَّمْتُ بِهَا التَّنُّور فَسَجرْتُهَا[1].

حَتَّى إذَا مَضَتْ أَرْبَعُون مِن الْخَمْسِينَ وَاسْتَلْبَثَ الْوَحْيُ إذَا رسولُ رسولِ الله ﷺ يَأْتِينِي، فَقَالَ: إنَّ رسول الله ﷺ يَأمُرُكَ أَنْ تَعْتزِلَ امْرأَتك، فقلْتُ: أُطَلِّقُهَا، أَمْ مَاذا أَفعلُ؟ قَالَ: لا. بَلْ اعتزِلْهَا فلا تقربَنَّهَا، وَأَرْسَلَ إِلى صَاحِبيَّ بِمِثْلِ ذلِكَ. فَقُلْتُ لامْرَأَتِي: الْحقِي بِأَهْلكِ فَكُونِي عِنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِي هذَا الأَمر، فَجَاءَت امْرأَةُ هِلالِ ابْنِ أُمَيَّةَ رسول الله ﷺ فقالتْ لَهُ: يا رسول الله إنَّ هِلالَ بْنَ أُميَّةَ شَيْخٌ ضَائعٌ ليْسَ لَهُ خادِمٌ، فهلْ تَكْرهُ أَنْ أَخْدُمهُ؟ قال: لا، وَلَكِنْ لا يَقْربَنَّك. فَقَالَتْ: إنَّهُ وَاللَّه مَا بِهِ مِنْ حَرَكةٍ إِلَى شَيءٍ، وَوَاللَّه ما زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا.

فَقَال لِي بعْضُ أَهْلِي: لَو اسْتأْذنْت رسول الله ﷺ فِي امْرَأَتِك، فقدْ أَذن لامْرأَةِ هِلالِ بْنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ؟ فقلْتُ: لا أَسْتَأْذِنُ فِيهَا رسول الله ﷺ، ومَا يُدْرِيني مَاذا يَقُولُ رسولُ الله ﷺ إذَا اسْتَأْذَنْتُهُ فِيهَا، وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ، فلَبِثْتُ بذلك عشْر ليالٍ، فَكَمُلَ لَنا خمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حينَ نُهي عَنْ كَلامنا.

ثُمَّ صَلَّيْتُ صَلاَةَ الْفَجْرِ صباحَ خمْسينَ لَيْلَةً عَلَى ظهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا، فَبينَا أَنَا جَالسٌ عَلَى الْحال التي ذكَر اللَّهُ تعالَى مِنَّا، قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي وَضَاقَتْ عَليَّ الأَرضُ بمَا رَحُبَتْ، سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أوفى[2] عَلَى سَلْعٍ يَقُولُ بأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ أَبْشِرْ، فخرَرْتُ سَاجِدًا، وَعرَفْتُ أَنَّهُ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ.

فَآذَنَ رسول الله ﷺ النَّاس بتوْبَةِ الله عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْنَا حِين صَلَّى صَلاة الْفَجْرِ فذهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُوننا، فذهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ، وركَضَ رَجُلٌ إليَّ فرسًا وَسَعَى ساعٍ مِنْ أَسْلَمَ قِبَلِي وَأَوْفَى عَلَى[3] الْجَبلِ، وكَان الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الْفَرَسِ، فلمَّا جَاءَنِي الَّذي

---

(١) عند مسلم زيادة: (بها)، وهي لا توجد عند المنذري.

(٢) لفظ مسلم: (ووافى) والمثبت لفظ المنذري

(٣) (على) لا توجد عند مسلم، والمثبت لفظ المنذري.

سمِعْتُ صوتَهُ يُبَشِّرُنِي نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبَيَّ فَكَسَوْتُهُمَا إِيَّاهُ ببشارته، واللّه ما أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يوْمَئذٍ، وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبستُهُمَا وانْطَلَقتُ أَتَأَمَّمُ رسول الله ﷺ يَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا يُهَنِّئُونني بِالتَّوْبَةِ وَيَقُولُون لِي[1]: لِتَهْنِكَ تَوْبَةُ الله عَلَيْكَ، حتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا رسول الله ﷺ جَالِسٌ[2] حَوْلَهُ النَّاسُ، فَقَامَ طلْحَةُ بْنُ عُبَيْد الله رضي الله عنه يُهَرْوِل حَتَّى صَافَحَنِي وهَنَّأَنِي، واللّه مَا قَامَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهاجِرِينَ غَيْرُهُ.

فَكَانَ كَعْبٌ لا يَنْساهَا لِطَلْحَةَ.

قَالَ كَعْبٌ: فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رسول الله ﷺ، قال: وَهوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنَ السُّرُور[3]. أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ، مُذْ ولَدَتْكَ أُمُّكَ، فقُلْتُ: أمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُول اللّهِ أَم مِنْ عِنْد اللّه؟ قَالَ: لاَ بَلْ مِنْ عِنْد اللّه عَز وجَلَّ، وكَانَ رسول الله ﷺ إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ حتَّى كَأَنَّ وجْهَهُ قِطْعَةُ قَمر، وكُنَّا نعْرِفُ ذَلِكَ مِنْهُ.

فلَمَّا جلَسْتُ بَيْنَ يدَيْهِ قُلتُ: يَا رسول اللّهِ إنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِن مَالي صدَقَةً إِلَى اللّهِ وإِلَى رَسُولِهِ.

فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: أَمْسِكْ عَلَيْكَ[4] بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْر لَكَ، فَقُلْتُ: إِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي الَّذي بِخيْبَر. وَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله إن الله تَعَالَى إنَّما أَنْجَانِي بالصدق، وَإِنْ مِنْ تَوْبَتي أَن لا أُحدِّثَ إِلاَّ صِدْقًا ما بَقِيتُ، فوا للّه ما علِمْتُ أحدًا مِنَ المسلمِين أَبْلاَهُ اللّهُ تَعَالَى في صدْق الْحَديث مُنذُ ذَكَرْتُ ذَلكَ لرِسُولِ الله ﷺ أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلاَنِي اللّهُ تَعَالَى[5]، وَاللّهِ مَا تَعمَّدْت كِذْبَةً مُنْذُ قُلْت ذَلِكَ لرَسُولِ اللّهِ ﷺ إِلَى يَوْمِي هَذا، وَإِنِّي لأَرْجُو أَنْ يَحْفَظني اللّهُ تَعَالى فِيمَا بَقِي.

قَالَ: فَأَنْزَلَ اللّهُ تَعَالَى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ

---

(١) (لي) لا توجدث عند مسلم.

(٢) عند مسلم زيادة: (في المسجد)، وهي لا توجد عند المنذري.

(٣) عند مسلم زيادة: (ويقول).

(٤) (عليك) لا توجدُ عند مسلم.

(٥) عند مسلم زيادة: (به)، وهي لا توجد عند المنذري.

ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ حتَّى بلَغَ: ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ حتى بلغ: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[التوبة: ١١٧، ١١٩].

قالَ كعْبٌ: واللَّهِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ بَعْدَ إِذْ هَدانِي اللَّهُ لِلإِسْلام أَعْظمَ فِي نَفسِي مِنْ صِدْقِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَن لاَّ أَكُونَ كَذَبْتُهُ، فأهلكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا، إِن اللَّه تَعَالَى قَالَ للَّذِينَ كَذَبُوا حِينَ أَنزلَ الْوَحْيَ شَرَّ مَا قَالَ لأحدٍ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[التوبة ٩٥، ٩٦].

قال كَعْبٌ: كنَّا خُلِّفْنَا أَيُّهَا الثَّلاَثَةُ عَنْ أَمْرِ أُولئِكَ الَّذِينَ قَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ حلَفوا لَهُ، فبايعَهُمْ واسْتَغْفَرَ لَهُمْ، وأرْجَأَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ أمْرَنا حَتَّى قَضَى اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ، بِذَلكَ قَالَ اللَّه تَعَالَى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾.

وليْسَ الَّذِي ذَكَرَ مِمَّا خُلِّفنا تخَلُّفُنا عَن الغزو، وإِنَّمَا هُوَ تَخْلِيفهُ إِيَّانا وإرجاؤُهُ أَمْرَنا عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ واعْتَذَرَ إِليْهِ فقَبِلَ مِنْهُ. مُتَّفَقٌ عليه(١).

وفي رواية «**أَنَّ النَّبيَّ ﷺ خَرَجَ فِي غَزْوةِ تَبُوك يَوْمَ الخميسِ، وكَان يُحِبُّ أَنْ يَخْرُجَ يَوْمَ الخميس**»(٢).

وفي رِوَايةٍ: «**وَكَانَ لاَ يَقدُمُ مِنْ سَفَرٍ إِلاَّ نهارًا في الضُّحَى. فإِذَا قَدِم بَدَأَ بالْمسجدِ فصلَّى فِيهِ ركعتيْنِ ثُمَّ جلَس فِيهِ**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩/٥٣) واللفظ له. أورده المنذري في ترغيبه (٤٣١٠). وسيكرره المؤلف مختصرًا برقم ١٥٣٢.

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٥٠).

(٣) أخرجه البخاري (٤٦٧٧)، ومسلم (٧١٦/٧٤).

ترجمة الراوي:

كعب بن مالك: هو كعب بن مالك بن أبي كعب الأنصاري الخزرجي شاعر الرسول ﷺ، كان من أوائل الأنصار إسلامًا، فشهد العقبة الثانية، وبايع النبي ﷺ، اشتهر بالشعر في الجاهلية، فكان شاعرًا فصيحًا مجيدًا، فلما أسلم دافع بشعره عن النبي ﷺ، وذبّ عنه ودفع الأذى عنه، وأثنى النبي ﷺ على شعره ومدحه إذ ذهب إلى النبي ﷺ فقال له: إن الله عز وجلّ قد أنزل في الشعر ما أنزل. فقال له النبي ﷺ: ((إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده لكأن ما ترمونهم به نضح النَّبْل))[١].

وقد جادت قريحته بالأشعار الحسان في المغازي وغيرها، وكان يغلب على شعره تهديد أعداء الإسلام بالحرب، وله بيتان كانا السبب في إسلام قبيلة دَوْس وهما:

قضينا من تِهامة كل وِتْر ... وخيبرَ ثم أغمدنا السيوفا
نخيّرها ولو نطقت لقالت ... قواطعُهنَّ دَوسًا أو ثقيفا[٢]

فلما بلغ ذلك دوسًا قالت: انطلقوا فخذوا لأنفسكم لا ينزل بكم ما نزل بثقيف.

ولما هاجر المسلمون إلى المدينة آخى النبي ﷺ بينه وبين الزبير بن العوّام. وقيل: بينه وبين طلحة بن عبيدالله.

وقد شهد المشاهد كلها ما عدا بدرًا. وقد تخلف عن تبوك وتاب الله عليه وأنزل فيه ورفيقيه قرآنًا يتلى إلى يوم القيامة كما في الحديث المشروح.

وله في غزوة أحد الموقف الجميل والفعل الشجاع، فقد ثبت وقت انكشاف المسلمين وأعلنهم بأن النبي ﷺ حيٌّ لم يمت. وقاتل قتالاً شديدًا حتى جرح سبعة عشر جرحًا.

له أحاديث تبلغ الثلاثين متفق على ثلاثة منها. وقد اختلف في وفاته: فقيل: مات في خلافة عليٍّ. وقيل: في خلافة معاوية[٣].

---

(١) أخرجه أحمد ٣٨٧/٦ رقم ٢٧١٧٤ وقال محققو المسند: إسناده صحيح ١٤٨/٤٥.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ٦١١/٥.

(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٦٢٥، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير ٤٦١/٤، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ١١٢٩، والسير ٥٢٣/٢، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي ١٧١/٦، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٤٧١/٣، والأعلام، خير الدين الزركلي ٢٢٨/٥، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك ﷺ ١٦٦٠/٣.

غريب الألفاظ:

تواثقنا على الإسلام: تحالفنا عليه وتعاهدنا[١].

ورّى بغيرها: أي أوهم أنه يريد غزوة غيرها[٢].

مفازًا: برية طويلة قليلة الماء يخاف فيها الهلاك، وسميت بذلك تفاؤلاً بالسلامة[٣].

جلّى: وضّح[٤].

الأُهبة: عُدَّةُ الحرب[٥].

فأخبرهم بوجههم: أي بمقصدهم[٦].

الديوان: هو الدفتر الذي يكتب فيه أسماء الجيش وأهل العطاء، وأول من دوّن الدواوين عمر رضي الله عنه، وهو فارسي معرب[٧].

أصعر: أَمْيَل[٨].

طفقت أغدو لكي أتجهز معه: أي أخذت في التجهز والاستعداد للغزو[٩].

يتمادي بي: تمادى به الأمر: تطاول وتأخر[١٠].

استمر بالناس الجِدُّ: أي اجتهدوا في التجهز والاستعداد للخروج حتى أوشكوا على الانتهاء من ذلك[١١].

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير واللسان والوسيط في (و ث ق).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير واللسان والقاموس في (و ر ي).

(٣) اللسان والمصابح والوسيط في (ف و ز).

(٤) اللسان والوسيط في (ج ل ى)

(٥) اللسان والوسيط في (أ هـ ب).

(٦) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٢١.

(٧) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير واللسان في (ص ع ر).

(٨) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ص ع ر).

(٩) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٥٦٥.

(١٠) الوسيط ٨٥٩.

(١١) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ١٤٠، والمصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الفيومي ١١٣، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧٢٢/٧.

جِهازي: أهبة سفري[١].

تفارط الغَزْوُ: فات وقتُه وتقدَّم[٢].

أسوة: القدوة المتبوع، أو النظير المماثل يتأسى به[٣].

مغموصًا عليه في النفاق: مطعونًا في دينه متهمًا بالنفاق[٤].

حبسه برداه والنظر في عِطفيه: عطفاه: جانباه من رأسه إلى وركه، إشارةً إلى إعجابه بنفسه ولباسه[٥].

مُبَيِّضًا: لابسًا بياضًا[٦].

يزول به السراب: يرفعه ويُظهره، ويظهر شخصه في السراب خيالاً[٧].

لمزه المنافقون: أشاروا إليه بأعينهم ورؤوسهم وشفاههم، احتقارًا لصغر صدقته[٨].

قافلاً: راجعًا[٩].

بَثِّي: أشَدُّ حُزني[١٠].

أَظَلَّ قادمًا: أقبل ودَنَا قدومه، كأنه ألقى عليه ظلّه[١١].

---

(١) اللسان في (ج هـ ز).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير واللسان في (ف ر ط).

(٣) انظر: المفصح المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي لمعاني صحيح مسلم ٣٣، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧٢٥/٧.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير واللسان في (غ م ص).

(٥) انظر: المفصح المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٣٢٢، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٢٢، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧٢٣/٧.

(٦) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير واللسان في (ب ي ض).

(٧) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير واللسان في (ز و ل).

(٨) اللسان والوسيط في (ل م ز).

(٩) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير واللسان والوسيط في (ق ف ل).

(١٠) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير واللسان والقاموس في (ب ث ث).

(١١) انظر: المفصح المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٢٠١، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٢٢، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير والقاموس في (ظ ل ل).

زاح: زال وذهب[١].

أجمعتُ صِدقَهُ: عزمت على أن أصدقَهُ[٢].

المخلفون: هم الذين لم يخرجوا مع النبي ﷺ إلى تبوك وتخلفوا عنه[٣].

بضعًا: البضع: بكسر الباء وفتحها: ما بين الثلاثة والعشرة[٤].

المغضب: الغضبان[٥].

ابتعت ظهرك: اشتريت دابة تحمل أثقالك وتركب عليها[٦].

جدلاً: فصاحة وقوة في الكلام وبراعة بحيث أخرج عن عهدة ما ينسب إليّ إذا أردت[٧].

تجد علي فيه: تغضب[٨].

إني لأرجو فيه عقبي الله: أي أن يعقبني خيرًا وأن يثبتني عليه[٩].

يؤنبونني: يلومونني أشد اللوم[١٠].

أيها الثلاثة: أسلوب اختصاص معناه: أن النبي ﷺ خصنا نحن الثلاثة من دون بقية المتخلفين بألا يكلمنا المسلمون[١١].

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير واللسان والقاموس والوسيط في (ز ي ح).

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧٢٣/٧، والوسيط في (ج م ع).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير ١٨٩/٤.

(٤) اللسان في (ب ض ع).

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٢٢.

(٦) انظر: المعجم الوسيط، مع اللغة العربية ٧٩، ٥٨٧.

(٧) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٢٢.

(٨) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧٢٤/٧.

(٩) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٢٢.

(١٠) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٢٢.

(١١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٢٢، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧٢٥/٧.

تنكرت الأرضُ: معناه: تغير عليّ كل شيء حتى الأرض فإنها توحشت عليّ وصارت كأنها أرض لم أعرفها لتوحشها علي، وذلك لشدة الحزن والهم[(١)].

استكانا: خضعا[(٢)].

أشب القوم وأجلدهم: أصغرهم سنًا وأقواهم[(٣)].

أسارقه: أنظر إليه في خفية[(٤)].

تسورت جدار حائط أبي قتادة: علوت سور حديقته[(٥)].

أنشدك: أسألك[(٦)].

النبطيُّ: واد النَّبَط، وهم جيل من الناس أصلهم في سواد العراق[(٧)].

ملك غسان: غسان قبيلة عربية سكنت جنوب الشام. واسم هذا الملك جبلة بن الأيهم[(٨)].

عَمَّمْتُ: قصدتُ[(٩)].

التنُّور: الفرن تُخبز فيه[(١٠)].

سَجَرْتُها: أحرقتها[(١١)].

---

(١) انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٢٢، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧٢٥/٧، واللسان والوسيط في (ن ك ر).

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٢٢.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧٢٥/٧.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧٢٥/٧.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٢٢، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧٢٥/٧، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير واللسان والوسيط في (س و ر).

(٦) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧٢٥/٧.

(٧) الصحاح واللسان في (ن ب ط).

(٨) انظر: أطلس الحديث النبوي، د. شوقي أبو خليل ٢٨٦، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧٢٦/٧.

(٩) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير واللسان في (ي م م).

(١٠) اللسان والوسيط في (ت ن ر)

(١١) اللسان والقاموس والوسيط في (س ج ر).

استلبث الوحي: أي أبطأ وتأخر[١].

أوفي على سلع: أي صعد وارتفع على جبل سَلْع وهو اليوم في وسط عمران المدينة[٢].

آذن: أعلم[٣].

ركض فرسًا: ضربها برجله يستحثها على العَدْوِ[٤].

أتأمّم: أقصد[٥].

لتهنك توبة الله عليك: لتفرح وتسعد وتسرّ[٦].

برق وجهه: لمع وتلألأ[٧].

أنخلع من مالي: أخرج منه وأتصدق به كله[٨].

سهمي: السهم: الحصة والنصيب. والمراد: مالي وأرضي التي بخيبر[٩].

الشرح الأدبي

إن هذا الحديث الشريف يتسم بالطول والإطناب وليس الإسهاب؛ والتوسع في حكاية المشاهد هنا مطلوب ومناسب للمقام فالحديث يرويه عبدالله ابن الصحابي الجليل والشاعر الفارس كعب بن مالك أحد شعراء الرسول الثلاثة "حسان بن ثابت ، وعبدالله بن رواحة ، كعب بن مالك" رضي الله عنهم.

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ل ب ث).

(٢) انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٢٣ ، وأطلس السيرة النبوية ، د. شوقي أبو خليل ٢٢٢.

(٣) اللسان والوسيط في (أ ذ ن).

(٤) الصحاح واللسان والوسيط في (ر ك ض).

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير واللسان والوسيط في (أ م م).

(٦) المعجم الوسيط، مع اللغة العربية في (هـ ن أ).

(٧) الوسيط (ب ر ق).

(٨) انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٢٣ ، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧٢٨/٧.

(٩) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير والوسيط في (س هـ م)، ومعجم لغة الفقهاء ، أ.د. محمد رواس قلعة جي ٢٢٥.

ومجيء هذا الحديث في باب التوبة قد يثير التساؤلات لأنه يحكي بعض مشاهد غزوة تبوك، ويوضح موقف كعب بن مالك في هذه الغزوة ويبين كيف تطور موقفه بعد تخلفه عن ركب الجهاد مع رسول الله ﷺ، ولكن التساؤلات تجد المخرج حين نتابع قراءة ما يرويه عبدالله بن كعب سماعًا عن أبيه كعب، حيث يختم الحديث بمشهد التوبة والبراءة، ويدور هذا الحوار الصادق المؤثر بين كعب بن مالك شاعر الإسلام والفارس المغوار، وبين رسول الله ﷺ: يقول كعب بعد أن تاب الله عليه وبشره رسول الله ﷺ بذلك "يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله ﷺ: فقال رسول الله ﷺ أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك فقلت: إني أمسك سهمي الذي بخيبر، وقلت: يارسول الله إن الله تعالى إنما أنجاني بالصدق وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقًا ما بقيت".

وحين نتأمل مشاهد هذا الحديث النبوي الحواري الذي صيغ في قالب القصة، وهو يحكي وقائع حقيقية، ولكنها تحتاج إلى إمعان النظر، واستلهام العبر، ندرك أن هذه المشاهد التي تكون قصة التوبة في هذا النص النبوي الشريف تتوالى على النسق الآتي:

١- الاستعداد لغزوة تبوك وتخلف كعب بن مالك عن الغزوة بغير سبب أو عذر شرعي حيث يقول "إني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عن رسول الله في تلك الغزوة" ولنتأمل التأكيد في أول العبارة.

٢- كعب بن مالك وحالة التردد والقلق، ومحاولاته اللحاق بجيش المسلمين، وتصوير الحزن الشديد حين رأى نفسه في المدينة بين طوائف غير محمودة، أو أصحاب أعذار شرعية؛ ويصور كعب هذه الحالة الندمية التي يغلفها الحزن والأسى بسبب التخلف عن اللحاق بالجيش: يقول: "فطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ "يحزنني أني لا أرى لي أسوة إلا رجلاً مغموصًا عليه في النفاق أو رجلاً ممن عذر الله تعالى من الضعفاء".

ودلالة كره النفاق تبوح بها هذه الكلمة التي جاءت صفة لرجل وهي "مغموصًا" ومعناها أنه مطعون عليه في دينه، ومحتقر ومتهم في عقيدته لأنه منافق يظهر الإسلام ويخفي الكفر.

وكأن كعب بن مالك حين يواجه المنافقين بهذا الواقع ينفي عن نفسه أن يكون منهم؛ لأنه ذكر بعد ذلك أصحاب الأعذار من الضعفاء والمرضى والعميان، وكل ذوي الحاجات، وكعب ليس منهم وهو الذي شهد له رسول الله ﷺ وأخبره بأن الله شكره على قوله ولا ينسى تأييده للإسلام؛ فكيف لا يحزن كعب بن مالك بعد تخلفه عن الجهاد وهو الذي قال له رسول الله ﷺ: "أترى الله نسي لك قولك:

زعمت سخينة أن ستغلب ربها ... وليُغْلَبَنَّ مغالبُ الغلاب[1]

وفي رواية: لقد شكرك الله ياكعب على قولك هذا[2].

وكيف لا يندم كعب بن مالك؟ أبعد هذه المواقف العظيمة يتخلف عن الغزو؟ وهو كما يقول العلماء أحد شعراء النبي ﷺ المجاهدين بألسنتهم وأيديهم وهم ثلاثة: حسان وكعب وابن رواحة، وكان حسان يقع في الأنساب، وابن رواحة يعيرهم بالكفر، وكعب يخوفهم وقائع السيف.

٣- والمشهد الثالث من مشاهد هذه القصة هو: سؤال رسول الله ﷺ عن كعب بن مالك بعد أن وصل إلى تبوك وتتعدد الآراء في تفسير سبب تخلفه؛ فقد أدان موقفه رجل من بني سلمة وقيل هو: عبدالله بن أنيس، حيث قال: "يا رسول الله حبسه برداه والنظر في عطفية" وهذا اتهام لكعب وهو كناية عن العجب والزهو والاهتمام بالزينة الخاصة: ويقول القرطبي مستنكرًا هذا التعليل والتفسير: وكأن هذا القائل كان في نفسه حقد على كعب، فنسب كعب إلى الزهو والكبر وكانت نسبة باطلة؛ وقول القرطبي صحيح لأن معاذ بن جبل رضي الله عنه استنكر هذا التفسير وشهد لكعب بن مالك بالفضل وقال في رده على هذا الرجل "بئس ما قلت، ثم قال والله يارسول الله ما علمنا عليه إلا خيرًا".

---

(١) طبقات فحول الشعراء ٢٢٢/١.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الأشراف والبخاري في التاريخ الكبير ١٢٠/١.

وانظر: طبقات فحول الشعراء، ابن سلام، ص٢٢٢، وانظر النظرة النبوية في نقد الشعر د. وليد قصابي، ص٣٦.

٤- والمشهد الرابع يصور رجوع الجيش، وتفكير كعب بن مالك رضي الله عنه في تبرير الموقف بعيدًا عن الكذب والنفاق، ويقول مصورًا هذه الحالة الشعورية وهو يدرك تقدير رسول الله صلى الله عليه وسلم له وموقفه تجاهه، ورغم ذلك يقول: "فلما بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توجه قافلاً من تبوك حضرني بثي" والبث: أشد الحزن فطفقت أتذكر الكذب: وأقول بما أخرج من سخطه غدا؟ وأستعين على ذلك بكل ذي رأى من أهلي.

وهذه المراجعة الشديدة والمحاسبة الذاتية التي يجريها كعب مع نفسه، على الرغم من أنه أحد شعراء الإسلام الكبار وحضر الغزوات كلها، وهي: سبع وعشرون غزوة مع رسول الله ماعدا خيبر وبدر، هذه المحاسبة تؤكد صدق شعور كعب، وشدة محبته لرسول الله وقوة ارتباطه بالإسلام ونبي الإسلام: محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم.

٥-والمشهد الخامس يصور المتخلفين عن غزوة تبوك وكانوا بضعًا وثمانين رجلاً، وهم يعتذرون إلى رسول الله ويحلفون له، ومنهم من اعتذر بالمرض، ومنهم من اعتذر بغيره وهو كاذب فيه، فقبل الرسول منهم أعذارهم والتعبير بلفظ "علانيتهم" يوحي بأن هذا العلن قد يخالف الحقيقة، ولكن الرسول قبل عذرهم وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله تعالى كما يروي كعب بن مالك.

٦- والمشهد السادس يصور موقف كعب أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يدور حوار صريح هادئ تغلفه الحكمة، وتوشيه المحبة، ويأبى كعب أن يكذب أو أن يتعلل بأسباب واهية، ويرى أن الصدق سفينة النجاة، وبعد استماع رسول الله له عقب سؤاله "ما خلفك؟" ويصدق كعب في الإجابة حيث يقول: "والله ما كان لي من عذر" فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أما هذا فقد صدق: فقم حتى يقضي الله فيك" ويذعن كعب لأمر رسول الله، ويؤنبه رجال من بني سلمة على صدقه وعدم اعتذاره، ثم يحاول ملك غسان إغراء كعب، وإيهامه بظلم رسول الله له، ولكن كعب يلقي برسالته في التنور فيحرقها، وظل كعب وصاحباه خمسين ليلة ينتظرون حكم الله عز وجل وهم في شبه عزلة حتى عن زوجاتهم، ونزلت التوبة عليهم من السماء وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكعب "أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك" والآيات في سورة التوبة خير بشارة وأعظم

ثواب، قال الله عز وجل: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾(١).

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى عدة أحكام فقهية:

الأول فيه دليل على جواز دخول الإنسان بستان صديقه وقريبه الذي يُدّل عليه ويعرف أنه لا يكره ذلك بغير إذنه بشرط أن يعلم أنه ليس هناك زوجة مكشوفة ونحو ذلك(٢).

الثاني: حكم السلام على المبتدعة، وقد ذكر جمهور الفقهاء(٣) أنه لا يسلم على أهل البدع والأهواء وإذا ابتدأوا هم بالسلام لم يرد عليهم زجرًا لهم، وللشافعية وجه حكاه النووي في المجموع أنه يستحب السلام عليهم لأنهم مسلمون.

الثالث: وفيه دليل على أن السلام كلام، فمن حلف لا يكلم أحدًا فسلم عليه أو رد عليه السلام حنث(٤).

---

(١) سورة التوبة ١١٧-١١٩.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٩/٧، ط دار إحياء التراث العربي بيروت.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٩/٧، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٤٦٧/٤، وطرح التثريب ٩٨/٨، والفتاوى الكبرى ٢١/٣، والفروع، ابن مفلح ١٨٤/٢، والآداب الشرعية، حماد بن عبدالله الحماد ٢٣٧/١، ٢٤٤، ونيل الأوطار، الشوكاني ١١٥/٢، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٦٧/٢٥ وما بعدها.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٩/٧.

الرابع: حكم صريح الطلاق وكنايته، فالطلاق من حيث صيغته نوعان طلاق صريح وطلاق كِنائي، وقد اتفق الفقهاء[(١)] على أن الصريح في الطلاق ما لم يستعمل إلا فيه غالبًا أو ما ثبت حكمه الشرعي بلا نية، كقوله لزوجته: أنت طالق أو مطلقة أو بائنة، وهذا النوع يقع الطلاق به بدون نية، ويقع بالنية المناقضة -أي اللفظ غير الصريح في الطلاق إذا سئل عنه أمام القاضي- وأما الكنائي في الطلاق فهو ما لم يوضع اللفظ له واجتمله وغيره كقوله لزوجته الحقي بأهلك أو اغربي عن وجهي أو أنت حرة أنت خلية أو برية أو بتة، ولا يقع به الطلاق إلا بالنية.

الخامس: حكم التبشير والتهنئة، وقد ذكر الفقهاء[(٢)] أنه يستحب التبشير والتهنئة عند حدوث نعمة، أو اندفاع كربة شديدة.

السادس: حكم إجازة البشير بخلعة، فقد ذكر الفقهاء[(٣)] أنه يستحب إجازة من يحمل البشرى بما يقدر عليه المرء من خلعة من مال أو ثوب أو أي شيء آخر.

السابع: حكم سجود الشكر، وقد اختلف الفقهاء في حكم سجود الشكر على قولين:

القول الأول: ذهب أكثر الحنفية[(٤)] والشافعية[(٥)] والحنابلة[(٦)] والظاهرية[(٧)] إلى أن

---

(١) تبيين الحقائق، الزيلعي ١٩٧/٢، والجوهرة النيرة شرح مختصر القدوري، أبو بكر الحوازي اليمني ٣٣/٢، وشرح حدود ابن عرفة ص ١٩٣، وأنوار البروق ١٥٢/٣ وما بعدها، والغرر البهية في شرح البهجة الوردية، القاضي أبو يحيى زكريا الأنصاري ٢٥٠/٤، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي ٢٤٥/٥، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٩/٧، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٦/٢٩.

(٢) المدخل لابن الحاج ١٧٠/١، وطرح التثريب ٦٩/٨، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٩/٧، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٩٤/٨.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٩/٧، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٩٥/٨.

(٤) شرح فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، الشوكاني ٥٢٣/١، بدائع الصنائع، الكاساني ١٧١/١.

(٥) الأم، الأمام الشافعي١١٠/٢، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٥٦٤/٣ وما بعدها، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري١٩٨/١.

(٦) المغني، ابن قدامة ٣٦٣/١، والفروع، ابن مفلح ٥٠٤/١، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ٢٠٠/٢.

(٧) المحلى، ابن حزم ٣٣١/٣.

سجود الشكر عند وجود سببه سنة ويشترط فيه ما يشترط في سجود التلاوة، وتكون سجدة الشكر في كل حال عند حدوث نعم أو تجددها، أو عند اندفاع نقم.

القول الثاني: ذهب أبو حنيفة وأبو يوسف[١]، والمالكية[٢] إلى أن سجود الشكر مكروه، لأنه لم يثبت عن النبي ﷺ مع كثرة تجدد النعم في عهده، لكنه مكروه كراهة تحريم عند مالك وكراهة تنزيه عند أبي حنيفة[٣].

الثامن: حكم إعارة الثوب للبس، وقد اتفق الفقهاء[٤] على جواز الإعارة في الجملة، ومن ذلك إعارة الثوب للبس والدابة للركوب والكتاب للقراءة وغير ذلك، واختلفوا في حكمها فذهب جمهور الفقهاء من الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة إلى أنها مندوبة، وقيل هي واجب.

التاسع: حكم مصافحة القادم والقيام له، وقد ذكر الفقهاء[٥] أنه يستحب مصافحة القادم والقيام له عند السلام عليه، متى كان ذلك بغير قصد المباهاة والسمعة والكبرياء، فإن كان القصد كذلك فقد ورد النهي عنه.

---

(١) شرح فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، الشوكاني ٥٢٣/١، و بدائع الصنائع، الكاساني ١٧١/١.

(٢) المدونة الكبرى عن رواية سحسنون عن ابن قاسم، الإمام مالك الصبحي ١٩٧/١، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٦١/٢، وأنوار البروق للقرافي ٢٢٠/٤.

(٣) انظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٤٧/٢٤.

(٤) تبيين الحقائق، الزيلعي ٨٣/٥، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٢٦٨/٥، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٩/٧، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري ٣٢٤/٢، والمغني، ابن قدامة ١٢٨/٥، والفروع، ابن مفلح ٤٦٩/٤، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٨٢/٥.

(٥) المدخل لابن الحاج ١٧٠/١، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٩/٧، والآداب الشرعية، حماد بن عبدالله الحماد ٤٠٦/١، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١١٤/٣٤ وما بعدها.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: أهمية مراجعة النفس ومحاسبتها.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الحذر من الكسل والقعود عن المشاركة في أبواب الخير.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: أمانة الكلمة.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل التزام الصدق.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: شناعة الكذب وعاقبته الأليمة.

سادسًا: من أساليب الدعوة: الهجر الإيجابي الزاجر.

سابعًا: من موضوعات الدعوة: قوة إيمان كعب بن مالك ﷺ وثباته أمام الإغراءات.

ثامنًا: من أساليب الدعوة: البشارة.

تاسعًا: من صفات الداعية: مشاركة إخوانه مناسباتهم السارة.

عاشرًا: من موضوعات الدعوة: فضل الصدقة.

حادي عاشر: من صفات المدعو: الاستجابة لأوامر الرسول ﷺ.

أولاً- من موضوعات الدعوة: أهمية مراجعة النفس ومحاسبتها:

إن مما ينبغي على الإنسان فعله أن يراجع نفسه ويحاسبها بين الفينة والأخرى ليعرف مدى صلاحه فإن كان محسنًا حمد الله وازداد إحسانًا وإن كان غير ذلك استغفر وأناب إلى ربه، وكان ممن اتصف بذلك كعب بن مالك ﷺ حين تخلف عن الغزو مع قدرته عليه يقول "وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك أني لم أكن قط أقوى، ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة...".

ويبدو من فقرات الحديث؛ أنه حاسب نفسه وأحزنه ما وقع فيه من تفريط "فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ يحزنني أني لا أرى لي أسوة إلا رجلاً مغموصًا عليه في النفاق، أو رجلاً ممن عذر الله تعالى من الضعفاء" إن مراجعة النفس ومحاسبتها من الأمور التي يمتدحها القرآن ويعلي من شأنها فأقسم الله بالنفس اللوامة فقال: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾[1] أي بنفس المؤمن الذي لا تراه إلا يلوم نفسه، يقول:

---

(١) سورة القيامة، آية: ٢.

ما أردت بكذا؟ فلا تراه إلا وهو يعاتب نفسه، قاله ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم[١] ولذا ينبغي على الإنسان أن يحاسب نفسه وأن يزن أعماله[٢]، فما وجد فيها من صواب حسّنه، وما وجد من اعوجاج قوّمه.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: الحذر من الكسل والقعود عن المشاركة في أبواب الخير:

لقد حذرنا الإسلام من الكسل وتسويف الأعمال لما يؤول في النهاية من فوات الخير وعدم تدارك ما فات، وفي الحديث إشارة إلى ما تسبب فيه كسل كعب بن مالك رضي الله عنه من التخلف قال كعب "وطفقت أغدو لكي أتجهز معه، فأرجع ولم أقض شيئًا، وأقول في نفسي: أنا قادر على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى استمر بالناس الجد فأصبح رسول الله ﷺ غاديًا والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئًا...".

ولخطورة الكسل كان رسول الله ﷺ يستعيذ منه فعن أنس بن مالك رضي الله عنه: كان النبي ﷺ يقول: ((اللَّهمَّ إِني أَعوذُ بكَ منَ العجز والكسل، والجُبنِ والهرَم، وأَعوذُ بكَ من فتنةِ المحيا والممات، وأَعوذُ بكَ من عَذابِ القَبر))[٣] فالمؤمن من يوقن أن السعادة في الآخرة والنجاح في الأولى موقوف على العمل، فالجنة في الآخرة ليست جزاء لأهل البطالة والكسل والفراغ، بل لأهل الجد والعمل والاتقان ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٤][٥].

وقد بيّن الراغب خطر الكسل وعواقبه الوخيمة، فقال: "من تعطل وتبطل انسلخ من الإنسانية، بل من الحيوانية وصار من جنس الموتى، ومن تعود الكسل ومال إلى الراحة فقد الراحة، وقد قيل: إن أردت ألا تتعب فاتعب لئلا تتعب، وقيل أيضًا: إياك والكسل والضجر، فإنك إن كسلت لم تؤد حقًا، وإن ضجرت لم تصبر على الحق،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٠/١٩/٩٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٨/٢١٣.

(٣) أخرجه البخاري ٢٨٢٣.

(٤) سورة الزخرف، آية: ٧٢.

(٥) الإيمان والحياة، د. يوسف القرضاوي ص ٢٥٤.

ولأن الفراغ يبطل الهيئات الإنسانية فكل هيئة بل كل عضو ترك استعماله يبطل، كالعين إذا غمضت، واليد إذا عطلت، ولذلك وضعت الرياضات في كل شيء، ولما جعل الله تعالى للحيوان قوة التحرك لم يجعل له رزقًا إلا بسعي ما منه، لئلا تتعطل فائدة ما جُعل له من قوة التحرك، ولما جعل للإنسان قوة الفكرة ترك من كل نعمة أنعمها تعالى عليه جانبًا يصلحه هو بفكرته لئلا تبطل فائدة الفكرة، فيكون وجودها عبثًا، وكما أن البدن يتعود الرفاهية بالكسل، كذلك النفس تتعوده بترك النظر، والتفكر مما يجعلها تتبلد وتتبله، وترجع إلى رتبة البهائم، وإذا تأملت قول النبي ﷺ: ((سافروا تغنموا))[1] ونظرت إليه نظرًا عاليًا علمت أنه حثك على التحرك الذي يثمر لك جنة المأوى ومصاحبة الملأ الأعلى، بل مجاورة الله تعالى.

والكسل قسمان: الأول: كسل العقل بعدم إعماله في التفكر والتدبر والنظر في آلاء الله من ناحية، وفي تركه النظر إلى ما يصلح شأن الإنسان، ومن حوله في الدنيا التي فيها معاشه. وليس تأخر الأمم ناتجًا إلا عن كسل أصحاب العقول فيها وقلة اكتراثهم بالقوة الإبداعية المفكرة التي أودعها الله فيهم.

الثاني: كسل البدن بما يشتمل عليه من الجوارح، وينجم عن هذا الكسل تأخر الأفراد، بله الأمم في مجالات النشاط المختلفة من زراعة وصناعة وغيرهما"[2].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: أمانة الكلمة:

إن الكلمة من الأمانات التي يسأل عنها الإنسان يوم القيامة قال تعالى: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[3] ولقد استشعر كعب بن مالك رضي الله عنه أمانة الكلمة فأبى أن يخونها، وقال: "فقال لي رسول الله ﷺ ما خلفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟

(١) أورده المنذري في الترغيب والترهيب برقم ١٤٧٠ بلفظ: "اغزوا تغنموا، وصوموا تصحوا، وسافروا تستغنوا"، وقال: رواه الطبراني في الأوسط ٨٣٠٨ ورواته ثقات، وضعفه محقق الترغيب والترهيب.

(٢) الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الأصفهاني ص ٣٨٣ - ٣٨٤.

(٣) سورة ق، آية: ١٨.

قال: قلت يا رسول الله: إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، لقد أعطيت جدلاً، ولكنني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني، ليوشكن الله أن يسخطك علي..." فإن من أهم الأمانات التي ينبغي المحافظة عليها هي الكلمة وقد أدرجها المفسرون تحت قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾[1][2] ونهانا الله عن خيانة الأمانة فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[3].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل التزام الصدق:

إن الصدق طريق الجنة والتقرب إلى الله، وهو دليل القوة وسمة الثقة بالنفس[4] وقد أمرنا الله بالصدق والكون مع أصحابه فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[5] وقد آمن كعب بن مالك رضي الله عنه بانجاء الصدق لصاحبه فلم يرض به بديلاً، يقول كعب: "فلما بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توجه قافلاً من تبوك حضرني بَثِي، فطفقت أتذكر الكذب وأقول بم أخرج من سخطه غدًا، وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل لي: إن رسول الله قد أظل قادمًا، زاح عني الباطل حتى عرفت أني لم أنج منه بشيء أبدًا فأجمعتُ صِدْقَهُ".

لذا ينبغي على الداعية والمدعو على حد سواء التحلي بالصدق فإنه فضيلة الفضائل، وأنس الخلائق يقوم عليه نظام الاجتماع وترتيب الأمور، وسيرها السير الحميد، وإنه ليعلي صاحبه عند الناس جميعًا فيجعله موضع ثقتهم، مرغوب الحديث عندهم، محبوبًا إليهم، محترم الكلمة عند حكامهم، مقبول الشهادة عند قضاتهم[6].

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٧٢.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢٥٤/١٤/٧.

(٣) سورة الأنفال، آية: ٢٧.

(٤) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد ٢٥١٦/٦.

(٥) سورة التوبة، آية: ١١٩.

(٦) الأدب النبوي، محمد عبدالعزيزالخولي ص ١٤٧، ١٤٨.

فالصدق له من الآثار الحميد ومن العوائد العديد، وهو حسنة تنساق بصاحبها إلى الحسنات فهو دليل على حسن السيرة، ونقاء السريرة، وسمو الهمة، ورجحان العقل.

فبالصدق يشرف قدر المرء،وتعلو منزلته، ويصفو باله، ويطيب عيشه، فهو ينجي صاحبه من رجس الكذب، ووخز الضمير، وذل الاعتذار، ويحميه من إساءة الناس إليه، ونزع الثقة منه، كما أنه يكسبه عزة وشجاعة، وثقة في النفس، فيظل موفور الكرامة، عزيز النفس، مهيب الجناب.

ولا يمكن أن يستقيم لأحد سؤدد، ولا تعلو مكانة، ولا يحرز قبولاً في القلوب، ما لم يرزق لسان صدق(١).

ثم إن الصدق يهدي إلى البر، وحسن الخلق من جملة ذلك البر، قال بعض البلغاء: الصادق مصان خليل، والكاذب مهان ذليل.

خامسًا- من موضوعات الدعوة: شناعة الكذب وعاقبته الأليمة:

إن الكذب جماع كل شر وأصل كل ذم لسوء عواقبه وخبث نتائجه لأنه ينتج النميمة التي تنتج البغضاء والبغضاء تؤول إلى العداوة، وليس مع العداوة أمن ولا راحة، لذلك قيل من قل صدقه قل صديقه(٢)، وكما أن الصدق أس الفضائل فإن الكذب أس الرذائل، به يتصدع بنيان المجتمع، ويختل سير الأمور ويسقط صاحبه من العيون، لا يصدقونه في قول، ولا يثقون به في عمل، ولا يحبون له مجلسًا، أحاديثه منبوذة، وشهادته مردودة، لذلك نهى الإسلام عن الكذب ونفر منه(٣).

ولقد أحسن كعب بن مالك صنعًا بالتزامه الصدق فنجاه الله به يقول: "وقلت يا رسول الله إن الله تعالى إنما أنجاني بالصدق وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقًا ما بقيت فوالله ما علمت أحدًا من المسلمين أبلاه الله تعالى في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك

---

(١) سوء الخلق "مظاهره، أسبابه، علاجه"، محمد بن إبراهيم الحمد ص ١٢٦.

(٢) أدب الدنيا والدين، الماوردي ص ٢٦٢.

(٣) المرجع السابق ١٥٠.

لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني الله تعالى" وأنزل الله ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حتى بلغ ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ حتى بلغ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[1] أما الذين كذبوا الله ورسوله فباءوا عاقبة كذبهم، وبئست هي العاقبة قال كعب "فإن الله تعالى قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد فقال تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[2].

سادسًا- من أساليب الدعوة: الهجر الإيجابي الزاجر:

ورد استعمال هذا الأسلوب في الحديث في قول كعب رضي الله عنه: "ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، قال: فاجتنبنا الناس أو قال تغيروا لنا، حتى تنكرت لي نفس الأرض، فما هي بالأرض التي أعرف" ويكون هذا الهجر ممن له سلطة مادية كالزوج والأب والحاكم أو معنوية -كالعالم- على المهجور[3]، قال ابن القيم: (وفي القصة دليل على هجران الإمام والعالم والمطاع، لمن فعل ما يستوجب العتب، ويكون هجرانه دواءً له، بحيث لا يضعف عن حصول الشفاء به، ولا يزيد في الكمية والكيفية عليه فيهلكه، إذ المراد تأديبه لا إتلافه[4].

(١) سورة التوبة، الآيات: ١١٧-١١٩.

(٢) سورة التوبة، الآيتان: ٩٥ - ٩٦.

(٣) الهجر في الكتاب والسنة، مشهور حسن محمود سلمان ص ١٥٧.

(٤) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم ٥٧٨/٣.

سابعًا- من موضوعات الدعوة: قوة إيمان كعب بن مالك رضي الله عنه وثباته أمام الإغراءات:

يظهر هذا جليًا في موقف كعب بن مالك رضي الله عنه من كتاب ملك غسان الذي أرسله له مع النبطي، ففي شدة معاناته من هجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم له، وطول مدة الهجر إلى أن ضاقت عليه الأرض وتنكر له الناس، وفي هذا الوقت العصيب يأتيه الاختبار والامتحان لقوة إيمانه -كتاب ملك غسان مع النبطي يعرض عليه أن يلحق بهم ويخرج من دار الإسلام التي جفوه أهلها وتنكروا له، فيقول رضي الله عنه: "فبينا أنا أمشي في سوق المدينة إذا نبطيٌ من نبط الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له إليَّ حتى جاءني فدفع إليَّ كتابًا من ملك غسان، وكنت كاتبًا فقرأته فإذا فيه: أما بعد فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك، فقلت حين قرأتها: وهذه أيضًا من البلاء فتيممت بها التنور فسجرتها".

قال ابن حجر: (قوله "فتيممت" أي قصدت والتنور ما يخبز فيه، فسجرته أي أحرقته.

ودل صنيع كعب هذا على قوة إيمانه ومحبته لله ولرسوله، وإلا فمن صار في مثل حاله من الهجر والإعراض قد يضعف عن احتمال ذلك وتحمله الرغبة في الجاه والمال على هجران من هجره ولا سيما مع أمنه من الملك الذي استدعاه إليه أنه لا يكرهه على فراق دينه، لكن لما احتمل عنده أنه لا يأمن من الافتتان حسم المادة وأحرق الكتاب ومنع الجواب، هذا مع كونه من الشعراء الذين طبعت نفوسهم على الرغبة، ولا سيما بعد الاستدعاء والحث على الوصول إلى المقصود من الجاه والمال، ولا سيما الذي استدعاه قريبه ونسيبه، ومع ذلك فغلب عليه دينه وقوي عنده يقينه، ورجع ما هو فيه من النكد والتعذيب على ما دعي إليه من الراحة والنعيم، حبًا في الله ورسوله، كما قال صلى الله عليه وسلم: ((وأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما))[1] وعند ابن عائذ أنه

---

(١) أخرجه البخاري واللفظ له ١٦، ومسلم ٤٣.

شكا حاله إلى رسول الله ﷺ وقال: ما زال إعراضك عني حتى رغب في أهل الشرك[١].

قال ابن القيم: (وفي مكاتبة ملك غسان له بالمصير إليه ابتلاء من الله تعالى، وامتحان لإيمانه ومحبته لله ورسوله، وإظهار للصحابة أنه ليس ممن ضعف إيمانه بهجر النبي ﷺ والمسلمين له، ولا هو ممن تحمِلُه الرغبة في الجاه والملك مع هجران الرسول ﷺ والمؤمنين له على مفارقة دينه، فهذا من تبرئة الله له من النفاق، وإظهار قوة إيمانه، وصدقه لرسوله وللمسلمين ما هو من تمام نعمة الله عليه، ولطفه به، وجبره لكسره، وهذا البلاء يُظهر لُبَّ الرجل وسره، وما ينطوي عليه فهو كالكير الذي يخرج الخبيث من الطيب.

وقوله: "فتيممت بالصحيفة التنور" فيه المبادرة إلى ما يخشى منه الفساد والمضرة في الدين، وأن الحازم لا ينتظر به ولا يؤخره، وهذا كالعصير إذا تخمّر، وكالكتاب الذي يخشى منه الضرر والشر، فالحزم المبادرة إلى إتلافه وإعدامه)[٢].

ثامنًا- من أساليب الدعوة: البشارة:

وردت الإشارة إلى هذا الأسلوب في الحديث من تبشير الرسول ﷺ وأصحابه لكعب رضي الله عنه بالتوبة قال: "فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى عنا، ضاقت علي نفسي وضاقت علي الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ أوفى على سلع يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر فخررت ساجدًا وعرفت أنه قد جاء فرج، فآذن رسول الله ﷺ الناس بتوبة الله عز وجل علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا... قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور: أبشر بخير يوم مر عليك مذ ولدتك أمك" قال النووي: (وفي الحديث استحباب التبشير بالخير، واستحباب تهنئة من رزقه الله خيرًا ظاهرًا[٣] أو صرف عنه شرًا ظاهرًا

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٩١٧/٢.

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم ٥٨٠/٥، ٥٨١.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٦٢٤.

وفيه جواز إظهار الفرح بأمور الخير والدين[١] فالتبشير من أكثر أساليب الدعوة إفادة قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾[٢].

فالتبشير من أساليب الدعوة والتربية التي استخدمها النبي ﷺ وأوصى بها والتبشير من وسائل التحفيز للإنسان، فإذا ما صبغت الدعوة بتبشير المدعو غمرت قلبه الفرحة وعمت نفسه البهجة ولا يشعر بثقل التكاليف والواجبات عليه[٣].

تاسعًا: من صفات الداعية: مشاركة إخوانه مناسباتهم السارة:

وذلك واضح في الحديث من خلال ما فعله الرسول ﷺ وصحابته رضي الله عنهم من مشاركتهم لكعب بن مالك رضي الله عنه في فرحته وتهنئتهم له قال كعب: "فآذن رسول الله ﷺ الناس بتوبة الله عز وجل علينا حين صلى صلاة الفجر فذهب الناس يبشروننا" وقال "وانطلقت أتأمم رسول الله ﷺ يتلقاني الناس فوجًا فوجًا يهنئونني بالتوبة ويقولون لي لتهنك توبة الله عليك... فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور: "أبشر بخير يوم مر عليك مذ ولدتك أمك" لذا ينبغي على الداعية أن يعلم أن مشاركة المدعوين أفراحهم وأتراحهم من أهم أسباب نجاح دعوته، يكسب دعوتهم ويوثق الروابط بهم، فمشاركته لهم في مناسباتهم السارة وغيرها تنبئ عن اهتمامه بهم ومراعاته شعورهم وأحاسيسهم[٤].

عاشرًا- من موضوعات الدعوة: فضل الصدقة:

لقد علم كعب بن مالك فضل الصدقة وتكفيرها للذنوب فتصدق إتمامًا لتوبته وكما في الحديث قال كعب: "فلما جلست بين يديه قلت يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله فقال رسول الله ﷺ أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك، فقلت: إني أمسكت سهمي الذي بخيبر" فالصدقة ضرب من ضروب الشكر لله تعالى وابتغاء الثواب[٥]. قال النووي: (وفي الحديث استحباب الصدقة

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٨٨.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٤٥.

(٣) انظر: منهاج الشاب المسلم في أسرته، د. محسن عبدالحميد.

(٤) معالم في منهج الدعوة، صالح بن عبدالله بن حميد.

(٥) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٩٠.

شكر للنعم المتجددة لا سيما ما عظم منها)[١].

لقد جعل الله الصدقة من صفات المؤمنين الصالحين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[٢].

وقد جاءت الأحاديث النبوية مبينة لفضل الصدقة وثوابها عند الله تعالى منها أن الله عز وجل جعلها تطفئ نار الخطيئة كما يطفئ الماء النار فقد ورد عن رسول الله ﷺ قوله: ((... والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار))[٣] قال المباركفوري: (قوله: "والصدقة تطفئ الخطيئة" من الإطفاء أي تذهبها وتمحو أثرها، أي إذا كانت متعلقة بحق الله تعالى، وإذا كانت من حقوق العباد فتدفع تلك الحسنة إلى خصمه عوضًا عن مظلمته)[٤].

وجعلها الله من أسباب زيادة المال وإحلال البركة فيه عن أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((ثَلاَثٌ أُقسِمُ عَلَيْهِنَّ وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فاحْفَظُوهُ. قَالَ مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ، وَلاَ ظُلِمَ عَبْدٌ مَظْلِمَةً صَبَرَ عَلَيْهَا إلاَّ زَادَهُ الله عِزًّا، وَلاَ فَتَحَ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إلاَّ فَتَحَ الله عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ أَوْ كَلِمَةٍ نَحْوَهَا وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فاحْفَظُوهُ. قَالَ: إنَّمَا الدُّنْيَا لأرْبَعَةِ نَفَرٍ: عَبْدٍ رَزَقَهُ الله مَالاً وَعِلْمًا فَهُوَ يَتَّقِي رَبَّهُ فِيهِ وَيَصِلُ بِهِ رَحِمَهُ وَيَعْلَمُ لله فِيهِ حَقًّا فَهَذَا بِأَفْضَلِ المَنَازِلِ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ الله عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالاً فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِيَ مَالاً لَعمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلاَنٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ الله مَالاً وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا فهو يُخْبَطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ لاَ

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٢٣.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٣٥.

(٣) أخرجه الترمذي ٢٦١٦، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢١١٠).

(٤) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري ٢/٢٠٠٤.

يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ وَلاَ يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَلاَ يَعْلَمُ للهِ فِيهِ حَقًّا فَهَذا بِأَخْبَثِ المَنَازِلِ، وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ اللهُ مَالاً وَلاَ عِلْمًا فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِيَ مَالاً لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلاَنٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ))[١].

حادي عاشر- من آداب المدعو: الاستجابة لأوامر الرسول ﷺ:

ضرب الصحابة رضي الله عنهم ومنهم كعب رضي الله عنه أرفع الأمثلة في الاستجابة المطلقة لأوامر رسول الله ﷺ، ومن دلائل ذلك ما جاء في الحديث من استجابتهم لأمر رسول الله ﷺ بهجر الثلاثة الذين خلفوا، قال كعب: "ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه فاجتنبنا الناس - أو قال تغيروا لنا" وكذلك عندما أمرهم النبي ﷺ باعتزال نسائهم، قال كعب: "واستلبث الوحي إذا رسول رسول الله ﷺ يأتيني، فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ فقال: لا، بل اعتزلها فلا تقربنها وأرسل إلى صاحبيّ بمثل ذلك، فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر" إنها استجابة مطلقة دونما شرط أو قيد.

وعملاً بمثل قول الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[٢] وقوله: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[٣] فاتباع أمر الله وهدي رسول الله ﷺ فيهما من المصالح ما لا يدخل تحت الحصر، وليس هناك رخصة ولا عذر في ترك العمل بهما، أو تقديم قول غيرها[٤].

---

(١) أخرجه الترمذي ٢٣٢٥، وصححه الألباني، (صحيح سنن الترمذي ١٨٩٤).

(٢) سورة الأنفال، آية: ٢٤.

(٣) سورة الحشر، آية: ٧.

(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٧٨٩.

الحديث رقم (٢٢)

٢٢- وَعَنْ أبي نُجَيْد بِضَم النُّونِ وَفَتْحِ الْجِيمِ عِمْرانَ بْنِ الحُصيْنِ الخُزاعيِّ رضي الله عنهما أَنَّ امْرَأَةً مِنْ جُهينةَ أَتَت رَسُولَ اللهِ[١] ﷺ وَهِيَ حُبْلَى مِنَ الزِّنَا، فقَالَتْ: يَا رسول الله[٢] أَصَبْتُ حَدًّا فأَقِمْهُ عَلَيَّ، فَدَعَا نَبِيُّ اللهِ ﷺ وليَّهَا، فقَالَ: أَحْسِنْ إليْهَا، فَإذَا وَضَعَتْ فَأْتِنِي فَفعَلَ فَأَمَرَ بِهَا نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ، فَشُدَّتْ عَلَيْهَا ثِيَابُها، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَرُجِمتْ، ثُمَّ صلَّى عَلَيْهَا.

فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: تُصَلِّي عَلَيْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ[٣] وَقَدْ زَنَتْ؟ قَالَ[٤]: لَقَدْ تَابَتْ تَوْبةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْن سبْعِينَ مِنْ أَهْلِ المدِينَةِ لوسعتهُمْ، وَهَلْ وَجَدْتَ[٥] أَفْضَلَ مِنْ أَنْ جَادَتْ بِنفْسهَا للَّهِ عَزَّ وجَلَّ؟» رواه مسلم[٦].

ترجمة الراوي:

عمران بن الحُصيْن: هو عمران بن الحصين بن عُبيد بن خلف الخزاعي الكعبي، كنيته: أبو نُجيْد اسم ابنه.

أسلم هو وأبو هريرة عام خيبر [٧هـ] وأقام ببلاد قومه وكان يغزو مع رسول الله ﷺ الغزوات، و شهد فتح مكة وكان يحمل راية خزاعة.

كان من كبار فقهاء الصحابة وفضلاءهم، قال عنه الذهبي: القدوة الإمام، بعثه عمر بن الخطاب إلى البصرة ليفقه أهلها، فنشر فيها علمًا كثيرًا وتخرج على يديه بعض كبار التابعين، كالحسن البصري، ومحمد بن سيرين الذي كان يقول: أفضل من نزل البصرة من الصحابة عمران بن الحصين. وكان الحسن يحلف بالله: ما قدمها راكب خير من عمران بن الحصين.

---

(١) لفظ مسلم: (نبي الله).

(٢) لفظ مسلم: (نبي الله).

(٣) لفظ مسلم: (نبي الله).

(٤) لفظ مسلم: (فقال).

(٥) عند مسلم زيادة: (توبة)، وهي لا توجد عند المنذري.

(٦) برقم (١٦٩٦/٢٤). أورده المنذري في ترغيبه (٤٦١٠). وسيكرره المؤلف برقم (٩١٨).

كان ورعًا تقيًا خاشعًا زاهدًا، يقول عن نفسه: ما مسست ذَكَري بيميني منذ بايعت بها رسول الله ﷺ[1] وولي قضاء البصرة فلم يلبث فيه إلا قليلاً حتى تركه، وكان يقول خشية وخوفًا: وددت أني رمادٌ تذروني الرياح.

وكان مجاب الدعاء صبورًا على ما أصابه وألمّ به، مرض بالاستسقاء سنين طويلة وشُقَّ بطنه ولازم الفراش ثلاثين سنة فكان يقول صابرًا محتسبًا راضيًا: والله إن أحب ذلك إليّ أحبُّه إلى الله عز وجل.

وبلغ من تقواه أن الملائكة كانت تُسلّم عليه فلما اكتوى -لعلاج مرضه- فقدها، ثم عادت بعد أن ترك الكي[2].

وقد اعتزل الفتنة فلم يقاتل مع أيٍّ من الفريقين. وبلغ مسنده ١٨٠ حديثًا، اتفق الشيخان له على تسعة أحاديث وانفرد البخاري بأربعة أحاديث، ومسلم بتسعة، وتوفي بالبصرة ٥٢هـ[3].

الشرح الأدبي

ما أعظم رحمة الله بعباده وما أحوج البشر جميعًا إلى رحمة خالقهم التي وسعت كل شيء، ومن أجلّ آثار هذه الرحمة الإلهية قبول توبة التائبين، والعفو عن زلات العاصين وأي مكافأة أسمى وأجَلّ من أن الله يفرح بتوبة العبد، ويقول رسول الله ﷺ: ((لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله في أرض فلاة))[4].

---

(١) أخرجه أحمد ١٩٩٤٣/٣٣، والحاكم ٤٧٢/٣، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وقال محققو المسند: إسناده صحيح.

(٢) صحيح مسلم ١٦٧-١٢٢٦.

(٣) الطبقات الكبرى، ابن سعد ٢٨٧/٤، ٩/٧، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٥٢١، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير ٢٦٩/٤، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ٩٥٤، والسير ٥٠٨/٢-٥١٢، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي ٤٨١/٥، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٣١٦/٣، والأعلام، خير الدين الزركلي ٧٠/٥ وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك ١٣٨٨/٢.

(٤) أخرجه البخاري ٦٣٠٩، ومسلم ٢٧٤٧.

والتوبة في هذا الحديث الشريف ليست توبة كلامية، وليست إقلاعًا عن المعصية فقط، وليست ندمًا مصاحبًا للإقلاع والإقرار بالذنب والعزم على عدم الرجوع إلى ميدان المعصية، ولكنها توبة عملية خالصة ثمنها الحياة بكاملها كما قال رسول الله ﷺ وهو يصوغ تقديره لهذه التوبة، ويضعها في أعلى مرتبة في أسلوب الاستفهام التقريري الذي يثبت مضاعفة الثواب والجزاء الحسن يقول سيد الخلق في الرد على عمر "وهل وجدت توبة أفضل من أن جادت بنفسها لله عز وجل".

وقيمة التوبة هنا تكمن في الاعتراف والإقرار، مع أن المرأة تدرك العاقبة وهي الرجم حتى الموت، ومع ذلك لم تتحمل ثقل المعصية، وجاءت إلى رسول الله ﷺ وهي حبلى من الزنا "ومن" هنا تفيد السببية والتعليل أي بسبب الزنا وليس حملاً شرعيًا، ولنتأمل الحوار الدائر بين هذه المرأة الغامدية ورسول الله ﷺ، إنها تبدأ بالنداء والمنادى هو رسول الله ﷺ وكأنها تقول من خلال هذا التخصيص بالرسالة: إنني خالفت ما أمرتنا به في رسالتك ولابد من العقاب. ولم تصرح المرأة بفعل الزنا تجنبًا لهذا الأمر الكريه، وإنما حالها دل عليها، وقالت في إيحاء وإيماء لهذا الحال "أصبت حدًا فأقمه علي" أي: ارتكبت ما يلزم به الحد، وذلك من باب "المجاز المرسل" وفعل الأمر في قولها "فأقمه علي" ليس أمرًا حقيقيًا، وإنما هو طلب والتماس تلتمسه من رسول الله ﷺ، ويدل على شجاعة فائقة وعلى إخلاص النية لكي تطهر من تبعة هذا الذنب في الآخرة، والحديث في رواية أخرى يصرح بفعل التطهير من الذنب . قالت: "طهرني".

وأمام هذا الاعتراف وهو سيد الأدلة: يتجلى موقف الرسول الكريم ﷺ وهو كما وصفه ربه ﴿بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾[1] حيث لم يقم عليها الحد فورًا، وإنما أرجأه إلى أن تضع حملها، ولم يسجنها، ولم يقيدها بالسلاسل وإنما أمر وليها بأن يحسن إليها والأمر بالإحسان هنا يحمل دلالات كثيرة، وينبئ عن روعة البيان النبوي ومراعاته لمقتضى الحال: فقوله: "أحسن إليها" يموج بكثير من ألوان الرعاية والحماية والدفاع

---

(١) سورة التوبة، جزء من آية: ١٢٨.

عنها ضد قالة السوء والذين يلمزون ويغمزون من الأهل والجيران، والذين يشوهون سيرة الناس، ويخوضون في أعراضهم.

ونلاحظ توالي وقائع هذا الحدث الخطير من خلال عطف الكلمات والأفعال بحرف الفاء: ولنتأمل هذه السمة الأسلوبية فالمرأة تستعمل إقامة الحد فتقول: "أصبت حدًا فأقمه علي". والراوي ينقل سرعة استجابة رسول الله ﷺ حيث يقول: "فدعا نبي الله ﷺ وليها" فقال: وبعد أن وضعت يقول الراوي: "ففعل، فأمر بها نبي الله ﷺ فشدت عليها ثيابها".

إن توالي وقائع الحدث هنا يفصح عنه الأسلوب الذي يميز البيان النبوي الكريم.

ونلاحظ هدوء الإيقاع الأسلوبي، وبطء الحدث بعد قوله: "فشدت عليها ثيابها"، استعدادًا لإقامة الحد يقول الراوي: ثم أمر [أي رسول الله] بها فرجمت فبعد الاستعداد لإقامة الحد تأتي ثمَّ لتعلن عن التروي والتأني، ربما لإعطاء هذه المرأة فرصة للرجوع عن أقوالها، وربما لعدم ترويعها ولكن بعد أن أصدر رسول الله أمره بدأ التنفيذ الفوري "ثم أمر بها فرجمت".

وفعل الرجم مبني للمجهول لأن المقصود هو تنفيذ العقوبة وإقامة الحد، وليس المراد تحديد القائم بالرجم، أو تحديد الذي يُقِمْ الحدّ، والبناء للمجهول في فعل الرجم يدل على أن الرسول ﷺ لم يحضر الرجم، ولم يشارك فيه لأن الحد ليس انتقامًا شخصيًا وإنما هو تكفير وتوبة نصوح، والرسول ﷺ لا يريد الاقتداء به في ضرورة حضور الإمام إقامة الحد لئلا يتوهم البعض أن الهدف هو الرغبة في الانتقام وليس التوبة وتنفيذ ما أمر به الله عز وجل.

ولنتأمل جلال المشهد وجمال الموقف في ختام هذه الواقعة حيث ينشأ حوار بين رسول الله ﷺ، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد أن صلى رسول الله على هذه المرأة : يقول عمر في سؤال ودهشة: "تصلي عليها يارسول الله وقد زنت"، وقال العلماء إن هذا السؤال بدر من عمر لاستكشاف حكمة صلاته ﷺ عليها مع أنه قد وقع منها أمر يقتضي إهمال أمرها والإعراض عنه.

ويعطي رسول الله ﷺ القدوة الحسنة في العفو والصفح الجميل، ويفتح أبواب الرجاء أمام من زلّت أقدامهم، وانخرطوا في سلك العاصين ويقول لعمر مبينًا له ما خفي عنه من أمر التوبة النصوح "لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم، وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله عز وجل.

واقتران الجملة النبوية المبشرة بقد التي تفيد التحقيق واللام التي تفيد التوكيد يؤكد مضاعفة الثواب وعظيم الأجر، والاستفهام مع أفعل التفضيل، والمادة اللغوية في "أفضل" والتعبير بقوله: "جادت بنفسها لله عز وجل" كل هذه الوسائل الأسلوبية تؤكد ثبات الأجر، وقبول التوبة وتفتح أمام كل من يقترف ذنبًا أو يرتكب معصية أو يكسب إثما أو خطيئة - الباب على مصراعيه للتوبة النصوح وما أحوج الكثير من أبناء هذه الأمة في العصر الحديث إلى المواجهة الحقيقية مع النفس الأمارة بالسوء، وما أكثر الغافلين المبتعدين عن دوحة الإيمان ظلال الباقيات الصالحات وما أحوج هؤلاء إلى الاقتداء بهذه المرأة التي انتصرت على شيطان الخطيئة، واستيقظت من غفلة الرذيلة وطهرت نفسها وجادت بها لله عز وجل فكان جزاؤها الجنة ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1].

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى أكثر من حكم فقهي:

الأول: حكم حد الزنا، وبم يثبت، وقد اتفق الفقهاء[2] على أن أحد الأمور التي تثبت بها جريمة الزنا الإقرار، وإن اختلفوا في عدد مرات الإقرار المطلوبة هنا فالحنفية والحنابلة: يشترطون أن يكون أربع مرات كالشهادة عليه، والمالكية والشافعية: يكتفون في الزنا بالإقرار مرة واحدة.

---

(١) سورة آل عمران ١٤٧.

(٢) تبيين الحقائق، الزيلعي ١٦٦/٣، شرح فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، الشوكاني ٢١٣/٥، مواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي الخطابي ٢٩٤/٦، شرح منح الجليل على مختصر خليل، الشيخ محمد بن أحمد بن محمد عليش لعليش ٢٥٦/٩، مغني المحتاج للشربيني ٤٥٢/٥، نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي ٤٣٠/٧، المغني، ابن قدامة ٦٠/٩ وما بعدها، الفروع، ابن مفلح ٧٧/٦.

الثاني: إقامة حد الزنا على الحامل، وقد اتفق الفقهاء[1] أيضًا على أن الحامل لا يقام عليها الحد حين حملها بل تدفع إلى وليها حتى تضع وتكتمل مدة رضاع مولودها، أو توجد مرضعة يقبلها المولود، سواء كان الحمل من الزنا أم من الزوجية، لأن المولود لا ذنب له في جريمة أمه، ولأنه روح يجب المحافظة عليها بغض النظر عن كونه جاء من طريق حرام أم من طريق حلال.

الثالث: حكم الصلاة على المرجوم، وقد اختلف الفقهاء في حكم الصلاة على من مات بالرجم هل يصلى عليه أم لا؟ فذهب الجمهور من العلماء[2] إلى أنه يصلى عليه لأنه يُصَلّى على كل مسلم إلا أهل البدع المكفرة، وذهب المالكية[3] إلى أنه لا يصلي الإمام على من مات بالرجم، أو بسبب الحد الذي يقيمه عليه، ويصلي عليه الناس، وقال الزهري لا يصلى على المرجوم مطلقًا[4].

والراجح أنه يصلى عليه لأنه مسلم وارتكابه للكبيرة وإقامة الحد عليه لم يخرجه من الإسلام، وصلاة الجنازة تكون لكل مسلم.

الحكم الرابع: قال النووي: (يستحب لأهل المريض ومن يخدمه الرفق به واحتمال الصبر على ما يشق عليه من أمره، وكذلك من قرب موته بسبب حدٍّ أو قصاص

---

(١) تبيين الحقائق، الزيلعي ١٧٥/٣، وشرح فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، الشوكاني ٢٤٥/٥، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي الخطابي ٢٩٥/٦، وشرح منح الجليل على مختصر خليل، الشيخ محمد بن أحمد بن محمد عليش للشيخ عليش ٢٦٥/٩، ومغني المحتاج للشربيني ٤٥٧/٥، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي ٤٣٤/٧، والمغني، ابن قدامة ٤٧/٩ وما بعدها.

(٢) المبسوط، السرخسي ٥٢/٢، والعناية على الهداية، البابرتي ٢٢٨/٥، والجوهرة النيرة شرح مختصر القدوري، أبو بكر الحوازي اليمني ١٥١/٢، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢٢٢/٥، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري١٢٥/٤، والمغني، ابن قدامة ٢٢٠/٢، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٣٦٦/١، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي ١٢٣/٢.

(٣) المدونة الكبرى عن رواية سحنون عن ابن قاسم، الإمام مالك الصبحي ٥٠٨/٤، التاج والإكليل شرح مختصر خليل، محمد بن أبي يوسف العبدري ٥٦/٣.

(٤) نيل الأوطار، الشوكاني ٦٠/٤.

ونحوهما، ويستحب للأجنبي أن يوصيهم بذلك، لحديث عمران بن الحصين أن امرأة من جهينة أتت النبي ﷺ ..." الحديث[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من أهداف الدعوة: إقامة الحدود.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل التوبة الصادقة.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الحفاظ على ستر عورة المرأة.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: حماية النفس، وإقرار حق الحياة للإنسان.

أولاً- من أهداف الدعوة: إقامة الحدود:

تهدف الدعوة الإسلامية من جملة ما تهدف إلى خمسة مقاصد هي: حفظ الدين وحفظ النفس، وحفظ العقل، وحفظ النسب، وحفظ المال[2]، ومن وسائل الحفاظ عليها: تشريع الزواجر والحدود، وقد ورد في الحديث الإشارة إلى حد من الحدود وهو: حد الرجم فعن أبي نجيد عمران بن الحصين الخزاعي رضي الله عنهما أن امرأة من جهينة أتت رسول الله ﷺ وهي حبلى من الزنى... ثم أمر بها فرجمت".

فالإسلام جاء للحفاظ على طهارة المجتمع ونقائه، لذا وضع وسائل وطرقًا بإمكانها أن تحد من الإجرام وتضييق الخناق عليه، وتحدّ من انتشاره، وتمنعه من رفع رأسه عاليًا في المجتمع تلك هي الحدود والتعزيرات، التي وضعها التشريع الإسلامي على الجرائم، وأودع فيها من قوة الكبت والمنع، ما تبطل به الدوافع إلى الإجرام والبواعث له، حتى وصفها العلماء بقولهم (إنها -أي الحدود والتعزيرات- موانع قبل الفعل وزواجر بعده) أي أن العلم بشرعيتها يمنع الإقدام على الفعل، وإيقاعها بعده يمنع العود إليه[3].

وبذلك ينحسر الفساد والمعصية في المجتمع، ولذلك اقتضت الحكمة تشريع

---

(١) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي، شرح المهذب في اختصار السنن الكبير، الذهبي ٧٧/٥، والأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار، الإمام النووي ١٦٢، وانظر: الحديث رقم ٩١٤ من رياض الصالحين.

(٢) مستلزمات الدعوة في العصر الحاضر، علي بن صالح المرشد ص ٦٠.

(٣) واقعية التشريع الإسلامي وآثارها، زياد بن صالح لوبانغا، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ٢/ ٢٨٥.

الحدود حسمًا للفساد وزجرًا عن ارتكابه، ليبقى العالم على نظم الاستقامة، فإن إخلاء العالم عن إقامة الزاجر يؤدي إلى انحرافه، وفيه من الفساد ما لا يخفى، ولذا قال صاحب الهداية: والمقصد الأصلي من شرعه الانزجار عما يتضرر به العباد[1].

إن الدعوة الإسلامية تربي في نفوس الناس حب الخير وفعله، وتنفرهم من الشر وتبغضه إليهم ﴿...وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَ﴾[2]، وقد رتب الله الجزاء الحسن لمن فعل الخير، والعقاب الشديد لمن فعل الشر، عناية منه بهذا الإنسان حتى ترتفع نفسه عن الوقوع في الآثام، ولتقرب كثيرًا من الخير وتفعله، وقد أقام الإسلام عقوبات لمن ارتكب شيئًا من المحرمات الكبيرة، صيانة لروحه وحفاظًا على ماله وعرضه ونفسه ودينه وعقله، ومراعاة لحقوق المجتمع العامة[3].

وقد شرعت العقوبة لمنع الناس من ارتكاب الجرائم، فإن هم ارتكبوها وقعت عليهم فلا يعودون مرة أخرى لارتكابها، ولذلك يقال: إن العقوبات موانع قبل الفعل زواجر بعده.

العقوبة في الإسلام علاج للمجرم وكفارة لذنبه وبالتالي فهي علاج نفسي للقلق الذي يصيبه عن توبته[4]، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: ((كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي مَجْلِسٍ، فَقَالَ: «تُبَايِعُونِي عَلَى أَنْ لاَ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلاَ تَزْنُوا، وَلاَ تَسْرِقُوا، وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إلاَّ بِالْحَقِّ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ أَصَابَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَعُوقِبَ بِهِ، فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَسَتَرَهُ اللَّهِ عَلَيْهِ، فَأَمْرُهُ إلَى اللَّهِ، إنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ))[5].

---

(١) ابن عابدين، ١٤٠/٣، نقلاً عن الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية، ١٣١/١٧.

(٢) سورة الحجرات، آية: ٧.

(٣) انظر: أساليب الدعوة الإسلامية، د. حمد بن ناصر العمار ص ٥٢٤.

(٤) الحدود في الإسلام، د. أحمد فتحي بهنسي ص ٩-١٠.

(٥) أخرجه البخاري ٦٧٨٤، ومسلم ١٧٠٩.

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((مَنْ أَصَابَ مِنْكُمْ حَدًّا، فَعُجِّلَتْ لَهُ عُقُوبَتُهُ، فَهُوَ كَفَّارَتُهُ. وَإِلاَّ، فَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ))[1][2].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل التوبة الصادقة:

بين النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث فضل توبة الإنسان إذا صدق فيها، وأنها أوسع من المعاصي التي أتى بها، ففي الحديث لمَّا رجمت المرأة "صلى عليها فقال له عمر: تصلي عليها يا رسول الله وقد زنت؟ قال: "لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم، وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله عز وجل" فالتوبة الصادقة دليل الإيمان الصادق[3]، ومعية المؤمنين قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[4] والتوبة الصادقة هي التوبة النصوح التي أمرنا الله بها فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾[5] قال قتادة: هي الصادقة الناصحة[6].

والتوبة معناها: الرجوع من الأوصاف المذمومة في الشرع إلى الأوصاف المحمودة فيه، وهي الإنابة إلى الله ولزوم طريق الطاعة والاستقامة[7].

وقد حث الإسلام على التوبة وعلى أن تطلب مباشرة من الله سبحانه وبدون واسطة، وأنّ بابها مفتوح، وأنها مقبولة إذا كانت صادقة نصوحًا ما لم تصل الروح إلى الحلقوم أو تقوم الساعة، قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا

(١) أخرجه ابن ماجه ١٤١٦، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٢١٠٩).

(٢) الحدود في الإسلام، د. أحمد فتحي بهنسي ص ٩ - ١٠.

(٣) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد ١٢٧٧/٤.

(٤) سورة النساء، آية: ١٤٦.

(٥) سورة التحريم، آية: ٨.

(٦) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ١٠٨/٢٣.

(٧) التوبة، أحمد عز البيانوني ٣٠/١.

حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُولَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[1]، وفي معرض حث الإسلام على التوبة قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[4].

فما من مخلوق إلا وقدر الله عليه أن يرتكب إثمًا ويقترف خطأ -باستثناء الأنبياء- وما من مخلوق إلا وقد أمر بالتوبة إلى الله، والرجوع عما اقترفه من الآثام، والاستغفار منها، والإنابة إلى الله سبحانه، وهذا ما يتمشى مع فطرة الإنسان، وطبائعه التي ركبت فيه، وهو ما جاءت به نصوص الشريعة بتقريره وتأكيده[5]، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((كلُّ ابْنِ آدمَ خَطَّاء، وَخيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ))[6].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((وَالَّذي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللّهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللّهَ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ))[7].

---

(١) سورة النساء، آية: ١٨.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٢٢.

(٣) سورة الأنعام، آية: ٥٤.

(٤) سورة التحريم، آية: ٨.

(٥) صور من سماحة الإسلام، د. عبدالعزيز عبدالرحمن الربيعة ٣ ٤١ - ٤٢.

(٦) أخرجه الترمذي ٢٦٢٩، وصححه الألباني، (صحيح سنن الترمذي ٢٠٢٩).

(٧) أخرجه مسلم ٢٧٤٩.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((للّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ أَحَدِكُمْ، مِنْ أَحَدِكُمْ بِضَالَّتِهِ، إِذَا وَجَدَهَا))[1].

وعن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ، لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ. وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ، لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ. حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا))[2].

وعن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: ((أنَّ ناسًا من أهل الشِّركِ كانوا قد قَتَلوا وأكثروا، وزَنَوْا وأكثروا، فأتَوا محمدًا ﷺ فقالوا: إنَّ الذي تقولُ وتَدعو إليه لَحَسن، لو تُخبرُنا أنَّ لما عملنا كفّارةً. فنزل ﴿والذين لا يَدْعونَ مَعَ الله إلهًا آخَرَ، ولا يَقتلونَ النَّفْسَ التي حرَّمَ الله إلاّ بالحقّ، ولا يزْنون﴾[3] ونزلَ ﴿قل يا عبادي الذين أسرَفوا عَلَى أنفسهم لا تَقنَطوا من رحمةِ الله﴾[4]))[5].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: الحفاظ على ستر عورة المرأة:

إن مما دعا إليه الإسلام وأكد عليه: الحفاظ على ستر عورة المرأة وعدم تكشفها، حتى ولو في مقام تنفيذ العقوبة وإقامة حدٍّ من حدود الله، وورد في الحديث "فأمر بها نبي الله ﷺ فَشُدَّت عليها ثيابها" أي جمعت أطرافها لتستتر، وذلك لئلا ينكشف ثوبها في تقلبها وتكرر اضطرابها[6] فالإسلام لم يكتف بحماية الإنسان في حالة حياته، بل كفل له الاحترام بعد مماته[7] ففي هذا الحديث لم يرض لهذه المرأة أن تتكشف ويعبث الناظرون بأعينهم في جسدها حتى في وقت إقامة الحد عليها. وقد أمر المولى تبارك وتعالى بستر العورات فقال لنبيه ﷺ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ

---

(١) أخرجه مسلم ٢٦٧٥.

(٢) أخرجه مسلم ٢٧٥٩.

(٣) سورة الفرقان، آية: ٦٨

(٤) سورة الزمر، آية: ٥٣.

(٥) أخرجه البخاري ٤٨١٠، ومسلم ١٩٣.

(٦) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٠٩٠، دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٩٥.

(٧) الخصائص العامة للإسلام، د. يوسف القرضاوي ص ٨٧.

أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ...﴾[1] إلخ الآية، فستر العورة واجب على المسلم والمسلمة وهذا مما يؤكد على أهمية حرص المرأة المسلمة على ستر عورتها، وعدم السفور، والتزام الحشمة والوقار، وعدم تقليد غير المسلمات في السفور والتبرج.

رابعًا- من أهداف الدعوة: حماية النفس وإقرار حق الحياة للإنسان:

لقد أجلّ النبي ﷺ إقامة الحد على المرأة حتى تضع "فدعا نبي الله ﷺ وليها فقال: أحسن إليها، فإذا وضعت فآتني بها" فالإسلام قرر حق الحياة والرعاية، وحماه بالتربية والتوجيه والتشريع والقضاء، واعتبر الحياة هبة من الله لا يجوز لأحد أن يسلبها غيره ولم يفرق الإسلام في حق الحياة بين أبيض وأسود، ولا بين شريف ومشروف، ولا بين حر وعبد، ولا بين رجل وامرأة، ولا بين كبير وصغير، حتى الجنين في بطن أمه له حرمة لا يجوز المساس حتى بالجنين الذي جاء عن طريق غير مشروع؛ ولذا جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال لولي المرأة: "فإذا وضعت فآتني بها" كل هذا رعاية لحق الجنين لأنه لا ذنب له فيما جنته أمه أو اقترفه أبوه[2] قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[3]. وقال: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[4] فكل نفس ظلمت نفسها بكفر أو شيء من الذنوب فإنما عليها وزرها، لا يحمله عنها أحد، وكما لا يحمل عليه وزر غيره، كذلك لا يحصل من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه[5].

وهذا مما يظهر عظمة الإسلام في صيانته للحقوق، وكفالته للضمانات اللازمة، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى.

---

(١) سورة النور، الآيتان: ٣٠، ٣١.

(٢) المرجع السابق ٨٤، ٨٥.

(٣) سورة فاطر، آية: ١٨.

(٤) سورة النجم، الآيتان: ٣٨، ٣٩.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٧/٤٦٥.

الحديث رقم (٢٣)

٢٣- وَعَنِ ابْنِ عَبَّاس[1]، وأنس بن مالك[2] رضي الله عنهم أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**لَوْ أَنَّ لابْنِ آدَمَ وَادِيًا مِنْ ذَهَبٍ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ وادِيانِ، وَلَنْ يَمْلأَ فَاهُ إِلاَّ التُّرَابُ، وَيَتُوب اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[3].

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١).

وأنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

الشرح الأدبي

إن كلمات هذا الحديث النبوي تشع بهالات الحقيقة، وتنطق بحقيقة الطبع الإنساني الراغب في التزود من متع الحياة، وتحقيق الرغبات مهما كانت الوسائل، وهذه الحقيقة ليست واقعًا مطلوبًا ولا مفروضًا، ولكنها طبع مركوز في فطرة الإنسان وعليه أن يقاوم هذه الغريزة التي تركض خلف زينة الحياة الدنيا وما تقدمه من وسائل وغايات.

وهذا الواقع الذي يدعو الحديث إلى مقاومته عن طريق التوبة والعمل الصالح يوضح القرآن الكريم بعض ملامحه التي تجذب كثيرًا من طلاب المتع، وأرباب الأهواء والبدع حيث يقول الله عز وجل: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾[4].

---

(١) أخرجه البخاري ٦٤٣٦، ومسلم ١٠٤٩/١١٨. أورده المنذري في ترغيبه ٢٥٥٧.

(٢) أخرجه البخاري وهذا لفظه ٦٤٣٨، ومسلم ١٠٤٨/١١٧. أورده المنذري في ترغيبه ٢٥٥٦.

(٣) تنبيه: اللفظ الذي أورده المؤلف هو لحديث أنس، واللفظ للبخاري. ثمَّ إن المؤلف جمع بين الحديثين في لفظ واحد، وفرقهما المنذري في ترغيبه.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٤.

والأسلوب في هذا الحديث النبوي ينطق بالدلالة التي نجنيها من الكلمات، ومن توظيف الأدوات النحوية في تقديم المعنى المراد فالحديث يتكون من ثلاث جمل تشع بكثير من المعاني في إيجاز بليغ، وصياغة يسيرة تصل إلى كل من يستمع أو يقرأ في غير عناء ولا كد وتجمع بين الجزالة والرقة.

ولنتأمل دلالة الجملة الأولى حيث يكشف الرسول ﷺ عن الطبع الإنساني وعدم قناعته بما يقدره الله له، ولكن دائمًا يرجو المزيد والمزيد، وقد أفصحت الصياغة التي جاءت في قالب الشرط والجزاء، عن هذا المعنى الدقيق العميق وأداة الشرط لو وهي أداة امتناع لامتناع، وكأن هذا النموذج الذي لا يقنع بما يقسمه الله له هو من النماذج المستحيلة في عالم السلوك المعتدل الذي يحكمه الاتزان والرضا والعطاء والتعبير بقوله " لابن آدم" يرشد إلى أن هذا طبع بشري ولا يقتصر على شعب دون آخر، ولا على قبيلة معينة، أو عنصر محدد؛ وتخصيص الذهب هنا فيه إيحاء بأن الإنسان يحرص على كل شيء، ولا يقنع بأى شيء، وقد صور الشاعر العربي ذلك فقال:

ما كل ما فوق البسيطة كافيًا وإذا قنعت فبعض شيء كافي[1]

وإذا كان الذهب لا يشبع نهم الإنسان للمال فهل يشبعه شيء آخر؟؟!.

وتصاغ الجملة الثانية في أسلوب القصر، "ولن يملأ فاه إلا التراب" وهذا الأسلوب فيه سخرية وتهكم على هؤلاء الطامعين الذين لم يتعظوا بما يجري لغيرهم من جميع الأمم، وهذه الجملة كناية عن حال هذا المغتر الطامع فهو مهما أوتي من أموال يظل حريصًا على الدنيا، حتى يموت ويمتلئ جوفه من تراب قبره وهذا كما يقول صاحب دليل الفالحين حكم غالب النوع الإنساني: الحرص على الدنيا.

والجملة الثالثة تضع أمام كل الراغبين في العودة إلى منطقة التوازن والسماح والتقوى منافذ الرجاء وأبواب التوبة، ويقول رسول الله ﷺ "ويتوب الله على من تاب".

ودلالة الفعل المضارع في هذه الجملة المباركة يفيد الاستمرار "فالله يتوب على من تاب" في كل حين.

(١) يتيمة الدهر ١/ ٧٠.

ومنطوق هذا الحديث يضع أمامنا مفهومه، فالمنطوق يسخر من المتكالبين على متع الدنيا، والمفهوم مقترن بالزهد والقناعة، والإنفاق والحرص على اتباع تعاليم الكتاب والسنة، وهذه أهم ملامح الشخصية المسلمة، التي يجب أن يتحلى بها كل من ينطق بشهادة التوحيد "لا إله إلا الله محمد رسول الله".

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: حب الإنسان للمال.

ثانيًا: من مهام الداعية: التعرف على طبائع النفوس.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: قبول الله تعالى لتوبة التائب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: حب الإنسان للمال:

بيّن النبي ﷺ في هذا الحديث حقيقة من حقائق النفس البشرية وهي حب المال والسعي في طلبه فالإنسان مجبول على حب المال والسعي في طلبه وجمعه، قال ابن عثيمين: "إن ابن آدم لن يشبع من المال، ولو كان له واد (أحب)، أي: طلب أن يكون له واديان، ولا يملأ جوفه إلا التراب، وذلك إذا مات ودفن وترك الدنيا وما فيها حينئذ يقتنع؛ لأنها فاتته"[1].

ولقد عبّر القرآن الكريم عن ذلك بالتكاثر وانشغال الإنسان به حتى الموت، قال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾[2]، "أي: شغلكم الاشتغال بالأموال والعدد والمباهاة بها عن طاعة الله حتى متم ودفنتم في المقابر، وتركتم كل شيء، روي عن مطرِّف عن أبيه قال: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَقْرَأُ أَلْهكُمُ التَّكَاثُرُ قَالَ: ((يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي. مَالِي قَالَ وَهَلْ لَكَ، يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلاَّ مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟ وما سِوَى ذلِكَ فهو ذاهبٌ وتارِكُهُ للناسِ))[3]، وقال ابن

---

(١) شرح رياض الصالحين ١/٦٦ - ٦٧.

(٢) سورة التكاثر، الآيتان: ١ - ٢.

(٣) أخرجه مسلم ٢٩٥٩.

عباس رضي الله عنهما: (قرأ النبي ﷺ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾، قال: تكاثر الأموال: جمعها من غير حقها ومنعها من حقها وشدها في الأوعية"[١].

والنهي عن التكاثر بالمال لا يعني زرع البغض والكراهية للمال وإنما المراد أن يطلبه الإنسان من مصادره الشرعية وينفقه في مصارفه الشرعية، وأن لا يتملك المال من قلب الإنسان وإنما يجعله الإنسان في يده لا في قلبه.

لقد أشار الإسلام إلى أن المال من مقومات الحياة الدنيا وزينتها، قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾[٢].

وأمر الإسلام بطلب الرزق، والسير في الدنيا لجمع المال وتحصيله بشرط أن لا يقسو القلب على طاعة الله، قال تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٤].

فهذه الآيات تبيح جمع المال وطلب الرزق، وفي هذا عناية بالجانب المادي في حياة الإنسان، ولكن ينبغي أن لا يطغى جمع المال على روح الإنسان، فيصبح جمع المال هدفًا عنده، فعن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((نِعْمَ المالُ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ))[٥].

وعن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: سألتُ رسولَ اللّهِ ﷺ فأعطاني، ثمَّ سألتُهُ فأعطاني، ثم سألته فأعطاني ثمَّ قال: ((يا حكيمُ، إنَّ هذا المالَ خَضِرةٌ حُلْوةٌ، فمن

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٦٩/٢٠/١٠.

(٢) سورة الكهف، آية: ٤٦.

(٣) سورة القصص، آية: ٧٧.

(٤) سورة الجمعة، آية: ١٠.

(٥) أخرجه أحمد ١٩٧/٤ رقم ١٧٧٦٣، وقال محققو المسند: إسناده صحيح على شرط مسلم، ٢٩٩/٢٩.

أخذَهُ بَسخاوةِ نفسٍ بوركَ له فيه، ومن أخذَهُ باشرافِ نفسٍ لم يُبارَك له فيه، وكان كالذي يأكلُ ولا يشبَعُ. اليدُ العُليا خيرٌ منَ اليدِ السُّفلى)). قال حكيمٌ: فقلتُ: يا رسولَ اللّهِ، والذي بَعثَك بالحقِّ لا أرزأُ أحدًا بعدَكَ شيئًا حتى أُفارِقَ الدنيا. فكان أبو بكرٍ ﵁ يَدعو حكيمًا إلى العطاءِ فيأبى أن يَقبلَه منه. ثمَّ إن عمرَ ﵁ دعاهُ ليعطِيَهُ فأبى أن يَقبلَ منهُ شيئا، فقال عمرُ: إني أُشهِدُكم يا معشرَ المسلمينَ على حكيمٍ أني أعرِضُ عليهِ حقَّهُ من هذا الفَيْءِ فيأبى أن يأخُذَه، فلم يَرْزَأْ حكيمٌ أحدًا منَ الناسِ بعدَ رَسولِ اللّهِ ﷺ حتى تُوُفِّي[1].

وعن الزبير بن العوام ﵁ عن النبي ﷺ قال: ((لأنْ يأخُذَ أحدكم حبلَهُ فيأتيَ بحُزْمةِ الحطبِ على ظهرِهِ فيبيعَها فيَكفَّ اللّهُ بها وجهَهُ، خيرٌ لهُ من أنْ يسألَ الناسَ أعْطُوهُ أو مَنَعُوه))[2]. وعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: ((لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ. وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ))[3].

وجمع المال في الإسلام يقوم على فكرة أن المال في الأصل مال الله والإنسان مستخلف عليه وهو وسيلة للحياة لا هدفًا لذاته، ويجمع المال لأمور منها:

أ- النفقة على النفس والأهل والعيال:

عن ثوبان ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: ((أَفْضَلُ دِينَارٍ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ: دِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى عِيَالِهِ. وَدِينَارٌ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ عَلَى دَابَّتِهِ فِي سَبِيلِ اللّهِ. وَدِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى أَصْحَابِهِ فِي سَبِيلِ اللّهِ))[4].

وعن سعد بن أبي وقاص ﵁ قال: عَادَنِي رَسُولُ اللّهِ ﷺ، فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ، مِنْ وَجَعٍ أَشْفَيْتُ مِنْهُ عَلَى الْمَوْتِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللّهِ بَلَغَنِي مَا تَرَى مِنَ الْوَجَعِ، وَأَنَا ذُو مَالٍ، وَلاَ يَرِثُنِي إِلاَّ بنت لِي وَاحِدَةٌ، أَفَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثَيْ مَالِي؟ قَالَ: «لاَ» قَالَ قُلْتُ: أَفَأَتَصَدَّقُ

(١) أخرجه البخاري واللفظ له ١٤٧٢، ومسلم ١٠٣٥.

(٢) أخرجه البخاري ١٤٧١.

(٣) أخرجه البخاري ٦٤٤٦، ومسلم ١٠٥١.

(٤) أخرجه مسلم ٩٩٤.

بِشَطْرِهِ؟ قَالَ: ((لاَ، الثُّلُثُ، وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ، إِنَّكَ إِنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ، وَلَسْتَ تُنْفِقُ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ، إلاَّ أُجِرْتَ بِهَا، حَتَّى اللُّقْمَةُ تَجْعَلُهَا فِي فِي امْرَأَتِكَ ...))[1].

ب- النفقة في وجوه البر والخير عامة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ما مِن يومٍ يُصبحُ العِبادُ فيه إلاَّ مَلَكانِ يَنزِلانِ فيقولُ أحدُهما: اللَّهمَّ أعطِ مُنفِقًا خَلَفًا، ويَقولُ الآخَرُ: اللّهمَّ أعطِ مُمسِكًا تلَفًا))[2][3].

ثانيًا- من مهام الداعية: التعرف على طبائع النفوس:

إن معرفة الداعية بطبائع النفوس والإطلاع عليها يؤدي إلى تيسير الدعوة إلى الله بالوصول إلى الطرق والأساليب الدعوية المناسبة واكتشاف العوامل والأسباب الفاعلة والمؤثرة في جذب النفوس وتشويقها إلى طريق الخير، فالنفس البشرية قد تجذب بالمال والعطاء، وقد تجذب باللين والتدرج، وأحيانًا بالقدوة وعرض النموذج التطبيقي الحي[4]، وغير ذلك، لذا كان على الداعية أن يفيد من علم النفس ليتسنى له التعرف على طبائع النفوس.

ولقد أطلعنا النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث على ما جبلت عليه النفس البشرية من حبٍّ للمال: (لو أن لابن آدم واديًا من ذهب أحب أن يكون له واديان...)، لذا ينبغي على الداعية أن يكون على علم بالنفس البشرية، لأنه سيفيد من ذلك في تعامله مع المدعوين وعلاجه لمشكلاتهم المتعلقة بالجوانب المادية، وقد أفاد النبي صلى الله عليه وسلم من هذا الجانب في تأليف قلوب فئة من الناس بالمال، ويمكن الإفادة من هذا الجانب في دعوة المسلمين وغير المسلمين ممن يعانون بعض المشكلات المالية، وقد أفاد المنصرون من توظيف المال

---

(١) أخرجه مسلم ١٦٢٨.

(٢) أخرجه البخاري ١٤٤٢، ومسلم ١٠١٠.

(٣) انظر: أساليب الدعوة الإسلامية، د. حمد بن ناصر العمار ص ٤٩١ - ٤٩٤.

(٤) انظر: علم النفس الدعوي، د. عبدالعزيز بن محمد النغيمشي ص ١٣.

في التنصير، والأولى أن يفيد الدعاة والمؤسسات الدعوية من توظيف المال من خلال الطرق المشروعة التي تعمل على استقطاب المدعوين، وتأليف قلوبهم.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: قبول الله تعالى لتوبة التائب:

إن من فضل الله على خلقه وكمال إحسانه، قبوله توبة من تاب منهم، وقد صرح النبي ﷺ بذلك في الحديث فقال: "ويتوب الله على من تاب"، أي أن الله تعالى يقبل التوبة مع الحرص المذموم الذي ورد في الحديث: (لو أن لابن آدم واديًا من ذهب أحب أن يكون له واديان)، وغيره من المذمومات[١]، وفي ذلك إخبار بقبول الله توبة من يتوب إليه، وكما قال الحق تبارك وتعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾[٢]، فوصف الله نفسه بالغفار، الذي يغفر ذنوب عباده مرة بعد أخرى، فكلما تكررت ذنوبهم تكررت مغفرته[٣]، لمن ندم على ما صدر منه وآمن وعمل صالحًا ثم اهتدى بأن استمر على الهدى وثبت عليه وذلك كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾[٤][٥].

وقبول الله عز وجل لتوبة التائب من مظاهر رحمته بعباده، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾[٦].

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٩٦.

(٢) سورة طه، آية: ٨٢.

(٣) زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي ، ابن الجوزي، ٣١١/٥.

(٤) سورة الأحقاف، آية: ١٣.

(٥) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ٢٧٦/١٦/٧.

(٦) سورة النساء، الآيات: ٢٦ - ٢٨.

قال ابن القيم: "والتوبة من أفضل مقامات السالكين لأنها أول المنازل وأوسطها وآخرها، فلا يفارقها العبد ولا يزال فيها إلى الممات، وإن ارتحل السالك منها إلى منزل آخر ارتحل به ونزل به، فهي بداية العبد ونهايته، وحاجته إليها في النهاية ضرورية كما حاجته إليها في البداية كذلك"(١).

إن التوبة عن الذنوب تعتبر الخطوة الأولى في علاج أمراض الشخصية وأسلوبًا من أساليب تطهير النفس، فالاعتراف لله بالذنوب والآثام هي الخطوة الأولى في العلاج وراحة النفس، إلا أن هذه الراحة لا تكون كاملة ومستمرة إلا عن طريق التوبة بالإقلاع عن تلك الذنوب والآثام والعزم على تركها، والمثابرة لإرضاء الله بالعمل الصالح الخالص وتلافي ما فات من الخير. لا كما ينادي به أصحاب المدارس النفسية بالاكتفاء بالاعتراف فقط دون أن يكون هناك توبة وتكفير عن الذنوب. لذا نجد المنهج الإسلامي يرغب في التوبة ويأمر بها. ففي القرآن الكريم آيات عديدة منها: قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(٢)، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾(٣)، فالإنسان يجب عليه ألا يتوانى في التوبة إلى الله حتى وإن كانت ذنوبه كثيرة، قال عز وجل: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾(٤).

وقد منح الله التائب محبة منه، وهذا يدلنا على فضل التوبة وأهميتها كعلاج لأمراض الشخصية، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾(٥).

---

(١) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ١/١٩٨.

(٢) سورة النور، آية: ٣١.

(٣) سورة التحريم، آية: ٨.

(٤) سورة النساء آية: ١١٠.

(٥) سورة البقرة، آية: ٢٢٢.

إن التوبة لها آثار حميدة على الإنسان، ومن ذلك:

أ- تفتح أمام الإنسان الطريق الذي حطمته ذنوبه وآثامه، وأصبحت عبئًا ثقيلاً لا يستطيع تحمله في معترك الحياة، تفتح أمامه الأمل في تطهير النفس. إن هذا الأمل يجعله يشعر بالراحة النفسية والنظر إلى الحياة نظرة مختلفة، يسودها التفاؤل بعد أن كانت كلها تشاؤم وخوف ومرارة.

ب- تؤدي التوبة بصاحبها إلى احترام ذاته،وهذا الاحترام يقوي فيه شعوره بذاته، وبعبارة أخرى نستطيع القول: إن التوبة تؤدي إلى تأكيد الذات، وهذا دافع هام في تكوين الشخصية التي تتمتع بقدر كاف من الصحة النفسية.

ج- تؤدي التوبة إلى أن يتقبل الفرد لذاته، بعد أن كان دومًا يعلن الحرب عليها، ويحتقرها، ويحط من شأنها بسبب الآثام والذنوب التي ارتكبها.

إن الشخص الذي يتقبل ذاته لا يتطرف إلى الغرور الزائف، بل يواجه مشكلاته الشخصية بشجاعة وبأسلوب واقعي، إن الشخص الواقعي مستعد لمواجهة الحقائق عن نفسه، وعن عمله، وعن قدراته وظروفه، وعن المجال الذي يعيش فيه، حتى ولو كانت هذه الحقائق مؤلمة. إنه يرى في هذه الصعوبات حافزًا لأن يعمل ويكد ويضاعف من كفاحه أمام الأزمات.

د- تدفع التوبة إلى التحرر من الشعور بالذنب والخوف، وذلك أن الفرد المذنب يشعر بالتعاسة ويحس بالتوتر الذي يعوق نجاحه في أي مجال من المجالات التي يتحرك فيها، نتيجة لخوفه الشديد من الأذى الذي قد يصيبه بسبب الشعور المؤلم بالذنب عما يعتقد أنه عمل خاطئ قام به"[1].

---

(١) الإنسان وصحته النفسية، د. مصطفى فهمي ص ٢٨١ - ٢٨٢.

الحديث رقم (٢٤)

٢٤- وَعَنْ أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**يَضْحَكُ اللَّهُ سبْحَانُه وتَعَالَى إلَى رَجُلَيْنِ يقْتُلُ أحدُهُمَا الآخَرَ يدْخُلاَنِ الجنَّة، يُقَاتِلُ هَذَا في سبيلِ اللَّهِ فيُقتل، ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْقَاتِلِ فيُسلِمُ**[١] **فَيُسْتَشْهَدُ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[٢].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

يقول علماء البلاغة في وصف بلاغة الكلام وفصاحته: "إن الكلام إذا أشرقت شمس لفظه انكشف لبس معناه"، ومعنى أشرقت شمسه أي كان فصيحًا لما في الإشراق من الانكشاف والظهور، والمراد من قولهم: انكشف لبس معناه، أي يقدم المعنى في إطار بلاغي يبين المعنى ويجليه، وقالوا: لا يستحق الكلام الاتصاف بالبلاغة حتى يسابق لفظه معناه، ومعناه لفظه، فلا يكون لفظه أسبق إلى سمعك من معناه إلى قلبك[٣].

والبيان النبوي يتسنَّم ذروة الفصاحة والبلاغة، وهو كما قال الجاحظ لم يسمع بكلام قط أعم نفعًا، ولا أصدق لفظًا، ولا أعدل وزنًا، ولا أجمل مذهبًا، ولا أكرم مطلبًا، ولا أحسن موقعًا، ولا أسهل مخرجًا، ولا أفصح عن معناه، ولا أبين عن فحواه من كلامه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٤].

وفي ضوء جماليات الأداء الأسلوبي في الحديث النبوي نقرأ هذا الحديث الشريف، ونستنطق معانيه من خلال مبانيه والحديث يختم به النووي باب التوبة وهو ختام موفق وهو مسك الختام، ويؤكد منهج النووي في ترتيب الأحاديث وهو منهج سديد يكشف

---

(١) (فيسلم) لا توجد عند البخاري، وإنما هو لمسلم.

(٢) أخرجه البخاري واللفظ له ٢٨٢٦، ومسلم ١٢٨/١٨٩٠.

(٣) انظر كتاب الطراز "المجلد الأول" ليحيى بن حمزة اليمني.

(٤) انظر: كتاب البيان والتبيين للجاحظ، ١٨/٢.

عن بصيرة نافذة، وميل إلى الترغيب أكثر من الترهيب، ولذلك سمَّي كتابه: "رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين" والحديث يبشر حتى غير المسلمين أملاً في إسلامهم، وترغيبًا لهم في التوبة، ويبدأ الحديث ببشارة إلهية تتمثل في اختيار الفعل المضارع "يضحك" إلى الرجلين المتصارعين. فالمسلم المقتول شهيد يدخل الجنة، ولكن كيف يدخل القاتل الكافر الجنة، والأسلوب هنا فيه مفارقة واستغراب، والأفعال الثلاثة في الجزء الأول من الحديث تتوالى في صيغة المضارع "يضحك الله، ويقتل أحدهما الآخر، يدخلان الجنة" وهذه الصيغة اللغوية توحي باستمرار الصراع بين المسلمين وغيرهم من الكفار والمشركين، ولكن يظل باب التوبة مفتوحًا، والإسلام يَجُبّ ما قبله؛ ويفسر رسول الله ﷺ هذا التضاد الظاهري في الموقف حين سأله الصحابة: كيف يا رسول الله؟ ولنتأمل أدب الخطاب في لغة الصحابة رضي الله عنهم فهم لم يعترضوا ولكنهم أرادوا معرفة الحقيقة بدليل أنهم قالوا: يا رسول الله؟ ولم يكتفوا بلفظ كيف؟ ويجيب المصطفى ﷺ ويفيد بأن المسلم -وأشار إليه بهذا تكريمًا وتمييزًا له عن غيره- يقاتل في سبيل الله فيقتل ويدخل الجنة؛ ولكن القاتل لا تغلق أمامه أبواب التوبة، ويشاء الله له الخير فيسلم ثم يصبح من جنود الإسلام. ويقاتل مثل صاحبه السابق في سبيل الله ويستشهد، ويكون مصيره الجنة، وهي المأوى والنعيم المقيم، والحديث ينبئ عن واقع مجيد تحقق في زمن البعثة حيث أسلم كثير من المشركين، وصاروا من أقوى المدافعين عن الإسلام، ومن جنوده الأوفياء، ومازال أتباع الملل الأخرى يدخلون في دين الله أفواجا بعد الحروب الدامية؛ والملاحم القتالية التي سجلها التاريخ تشهد بذلك، وكثير من الفرس والروم والمغول والتتار وغيرهم، دخلوا في دين الله أفواجا، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: إثبات الضحك لله تعالى.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل الشهادة في سبيل الله.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: بيان فضل الله على عباده.

رابعًا: من أساليب الدعوة: الترغيب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: إثبات الضحك لله تعالى:

صرح النبي ﷺ في الحديث بنسبة الضحك لذات الله العلية فقال: "يضحك الله سبحانه وتعالى إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر، يدخلان الجنة".

يثبت أهل السنة والجماعة الضحك لله عز وجل -كما أفاده هذا الحديث وغيره- على المعنى الذي يليق به سبحانه، والذي لا يشبهه ضحك المخلوقين، عندما يستخفهم الفرح، أو يستفزهم الطرب، بل هو معنى يحدث في ذاته عند وجود مقتضيه، وإنما يحدث بمشيئته وحكمته؛ فإن الضحك إنما ينشأ في المخلوق عند إدراكه لأمر عجيب يخرج عن نظائره، وهذه الحالة المذكورة في هذا الحديث كذلك؛ فإن تسليط الكافر على قتل المسلم مدعاةٌ في بادئ الرأي لسخط الله على هذا الكافر وخذلانه، ومعاقبته في الدنيا والآخرة، فإذا منّ الله على هذا الكافر بعد ذلك بالتوبة، وهداه للدخول في الإسلام، وقاتل في سبيل الله حتى يستشهد فيدخل الجنة؛ كان ذلك من الأمور العجيبة حقًا.

وهذا من كمال رحمته وإحسانه وسعة فضله على عباده سبحانه، فإن المسلم يقاتل في سبيل الله، ويقتله الكافر فيكرم الله المسلم بالشهادة، ثم يمنُّ على ذلك القاتل، فيهديه للإسلام، والاستشهاد في سبيله فيدخلان الجنة جميعًا.

"وأما تأويل ضحكه سبحانه بالرضا أو القبول أو أن الشيء حلّ عنده بمحل ما يضحك منه، وليس هناك في الحقيقة ضحك، فهو نفي لما أثبته رسول الله ﷺ لربه فلا يلتفت إليه"[(١)].

وصفة الضحك لا يلزم من إثباتها تشبيه الله بخلقه -تعالى عن ذلك- لأن صفات الخالق تخصه وتليق به، وصفات المخلوقين تليق بهم وتخصهم، ولا تشابه بين الصفتين، كما أنه لا تشابه بين ذات الخالق سبحانه، وذات المخلوقين فكما أنّ لله ذاتًا لا تشبه الذوات فكذلك له صفات لا تشبه الصفات ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[(٢)(٣)]. صفات تليق بعظمته وجلاله، فلا يجوز لنا أن نتوهم أنها مثل صفاتنا لأن

---

(١) شرح العقيدة الواسطية لابن تيمية، محمد خليل هراس ص ٢٠١ - ٢٠٢.

(٢) سورة الشورى، آية: ١١.

(٣) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد والرد على أهل الشرك والإلحاد، د. صالح بن فوزان بن عبدالله الفوزان ص ١٦٩، ١٧١.

الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته عز وجل[١].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل الشهادة في سبيل الله:

إن الشهادة في سبيل الله لها عظيم الأجر وكبير الفضل، ومن فضلها الذي ورد في الحديث دخول الجنة "يضحك الله سبحانه وتعالى إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر، يدخلان الجنة، يقاتل هذا في سبيل الله فيقتل، ثم يتوب الله على القاتل فيسلم فيستشهد" قال ابن حجر: (قال ابن عبدالبر: يستفاد من هذا الحديث أن كل من قُتل في سبيل الله فهو في الجنة)[٢]. وذلك لما للجهاد من فضل في حفظ حوزة الإسلام وأمان الأنام في جميع المعاقل والأمصار، في سائر الليالي والأيام[٣].

وقد تضافرت النصوص في القرآن والسنة التي تعلي من شأن الشهادة والشهداء، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٤].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((مَا مِنْ نَفْسٍ تَمُوتُ. لَهَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ. يَسُرُّهَا أَنَّهَا تَرْجِعُ إِلَى الدُّنْيَا. وَلاَ أَنَّ لَهَا الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا. إِلاَّ الشَّهِيدُ. فَإِنَّهُ يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجِعَ فَيُقْتَلَ فِي الدُّنْيَا. لِمَا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ))[٥].

قال العز بن عبدالسلام: (لما بذل الشهداء أنفسهم من أجل الله، أبدلهم الله حياة خيرًا من حياتهم التي بذلوها، وقال: يشرف البذل بشرف المبذول، وأفضل ما بذله الإنسان نفسه وماله، ولما كانت الأنفس والأموال مبذولة في الجهاد، جعل الله مَنْ بذل

---

(١) شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين، ١/٥٢، ٥٣.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢/١٤٠٠.

(٣) كتاب الاجتهاد في طلب الجهاد، لابن كثير تحقيق: د. عبدالله عبدالرحيم عسيلان ص ٦١، ٦٢.

(٤) سورة آل عمران، الآيات: ١٦٩-١٧١.

(٥) أخرجه مسلم ١٨٧٧.

نفسه في أعلى رتب الطائعين وأشرفها لشرف ما بذله مع محو الكفر ومحق أهله وإعزاز الدين وصون دماء المسلمين)[١].

لقد ضمن الله عز وجل للمجاهد في سبيله وإعلاء كلمته أن يرزقه بأحد الحسنيين كما جاء في الحديث الذي روي عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: ((تَضَمَّنَ اللّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ، لاَ يُخْرِجُهُ إلاَّ جِهَادًا فِي سَبِيلي، وَإِيمَانًا بِي، وَتَصْدِيقًا بِرُسُلِي. فَهُوَ عَلَيَّ ضَامِنٌ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ. أَوْ أَرْجِعَهُ إلَىٰ مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ. نَائِلاً مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ. وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا مِنْ كَلْمٍ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِ اللّهِ، إلاَّ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ حِينَ كُلِمَ، لَوْنُهُ لَوْنُ دَمٍ وَرِيحُهُ مِسْكٌ. وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلاَ أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، مَا قَعَدْتُ خِلاَفَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللّهِ أَبَدًا. وَلَٰكِنْ لاَ أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلَهُمْ. وَلاَ يَجِدُونَ سَعَةً. وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي. وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أَغْزُو فِي سَبِيلِ اللّهِ فَأُقْتَلُ. ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ. ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ))[٢].

بهذه الصورة الرائعة يصور الرسول الكريم ﷺ أجر الغازي والمجاهد في سبيل الله، ذلك الإنسان الذي ضحّى بنفسه وماله في سبيل رفعة شأن الدين وإعزاز كلمة الله، وأي أجر أعظم، بل أيةُ منزلة أسمى من تلك المنزلة الرفيعة التي خص الله عز وجل بها المجاهدين في سبيله؟ حين قال عنهم: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٣].

إنها الحياة الأبدية السرمدية في جنان الخلد ودار النعيم هي بعض ما أكرمهم الله عز وجل به، عدا ما أعد لهم من الذكر الحسن في الدنيا حيث تخلّد أسماؤهم في سجل الخالدين فهم أحياء حتى بعد مماتهم، ذكرهم على كل لسان، وحبّهم في كل قلب،

---

(١) أحكام الجهاد وفضائله، عز الدين بن عبدالسلام ٦١.

(٢) أخرجه مسلم ١٨٧٦.

(٣) سورة آل عمران، الآيتان: ١٦٩ - ١٧٠.

وهذا هو السر في نهينا عن القول في الشهداء بأنهم أموات لأن الله عز وجل خلّد ذكرهم، ويكفي ذلك شرفًا وفخرًا لهم. وقد بيّن هذا الحديث النبوي الشريف أن الله عز وجل قد تكفل بالجنة لمن جاهد في سبيل الله، مخلصًا عمله لله، مؤمنًا برسله، مصدقًا بوعد الله تبارك وتعالى، وليس هذا الجزاء العظيم إلا للمجاهد الذي يبتغي من وراء جهاده إعلاء كلمة الله، وإعزاز شأن الدين، ولقد سئل الرسول ﷺ عن الرجل الذي يقاتل للشهرة ليعرف أنه شجاع، أو يقاتل للمغنم، أو يقاتل حمية لعشيرته فقال كلمته الرائعة المأثورة: (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله...)[(١)].

وقد ختم ﷺ حديثه بالقسم بأنه لولا أن يقع المسلمون في ضيق وحرج، ولولا المشقة التي ستلحق بالمؤمنين لما تخلّف عن الخروج في غزوة من الغزوات أبدًا، ولكنه لشفقته ﷺ على أمته ترك الخروج في بعض الغزوات.

ولقد تمنى صلوات الله وسلامه عليه أن يقتل في سبيل الله، ثم تعود إليه الحياة فيجاهد ثم يقتل وهكذا لما يعرف من ثواب الشهادة في سبيل الله. فأكرم به من قائد وزعيم وما أجمل كلمة الأديب التركي المسلم: (إذا لم تحترق أنت، ولم أحترق أنا، فمن أين يخرج النور؟) اللهم اجعلنا ممن جاهد في سبيلك ابتغاء مرضاتك"[(٢)].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: بيان فضل الله على عباده:

إن من فضل الله على عباده توفيقهم لطاعته ودخول جنته وكما هو ظاهر في الحديث "يضحك الله سبحانه وتعالى إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر، يدخلان الجنة، يقاتل هذا في سبيل الله فيقتل، ثم يتوب الله على القاتل فيسلم فيستشهد" وهذا من كمال رحمته وإحسانه وسعة فضله على عباده، فإن المسلم يقاتل في سبيل الله ويقتله الكافر، فيكرم الله المسلم بالشهادة، ثم يَمُنُّ على ذلك القاتل، فيهديه للإسلام والاستشهاد في سبيله فيدخلان الجنة جميعًا[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري ٢٨١٠، ومسلم ١٩٠٤.

(٢) من كنوز السنة، محمد علي الصابوني ص ١٧٥- ١٧٦.

(٣) شرح العقيدة الواسطية، لابن تيمية ص ٢٠١.

وذلك إشارة إلى حصول الهداية عقب تعلق العناية بالعبد من غير تراخ إذ لا مانع لما أراد سبحانه، وإلى أنه لم يمكث بعد إسلامه زمنًا يقترف فيه شيئًا من موبقات الذنوب، بل عقب إسلامه استشهد فعمل قليلاً وحاز خيرًا كثيرًا، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء(١).

رابعًا- من أساليب الدعوة: الترغيب:

لقد استعمل النبي ﷺ في الحديث أسلوب الترغيب، حيث رغب النبي ﷺ في الجهاد مبينًا أنه يغفر الذنوب ويدخل الجنة "يضحك الله سبحانه وتعالى لرجلين يقتل أحدهما الآخر يدخلان الجنة، يقاتل هذا في سبيل الله فيقتل ثم يتوب الله على القاتل فيسلم فيستشهد" وفي ذلك إشارة إلى أن الإنسان ينبغي له أن يتوب من الذنب الذي اقترفه، وإن كان كبيرة، ولا يؤيسه ذلك من رحمة الله تعالى، فإن الله هو التواب الرحيم، والذنب وإن عظم قدره -كالكبائر- وكثر عدده، إذا قوبل بفضل الله وعفوه كان يسيرًا قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾(٢) وقال البوصيري:

يا نفس لا تقنطي من زلة عظمت ... إن الكبائر في الغفران كاللمم(٣)

لذا فينبغي للداعية ألا يقنّط الناس من رحمة الله، وأن يرغبهم بوعد الطائعين الحافظين لحدود الله بعظيم الخير، وتبشيرهم بحسن المثوبة، وفي ذلك ما يحمل الناس على التشمير عن ساعد الجد في طاعة الله تعالى لنيل السعادة في الدنيا والآخرة(٤).

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٩٧. والبيت للإمام البوصيري في البردة قافية الميم. انظر: الديوان ص ٢٤٨.

(٢) سورة النجم، آية: ٣٢.

(٣) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٩٧.

(٤) هداية المرشدين، علي محفوظ ص ١٩٢.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

خلق الله تعالى الإنسان وجعله مستعداً لفعل الخير والتزود منه، وكذلك اقتراف الشر، ومن رحمته سبحانه أنه لم يترك عباده هملاً، بل ألهمهم وأرشدهم إلى التوبة من المعاصي والإنابة إليه سبحانه، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[1]، وقد أمر الله تعالى المؤمنين بالتوبة، وجعلها رجاء الفلاح فقال: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2].

وعدّ المصرُّ على ذنبه ظالماً فقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[3].

فالإسلام يتسم بنظرته الواقعية للإنسان، فهو ليس ملاكاً ولا شيطاناً، بل كائن عاقل رفيع كريم، فيه من أشواق الروح وتطلعاتها ما يرتفع به إلى عليين، وفيه من رغبات الجسم وأهواء النفس ما يقرنه بالمزخرفين من الشياطين، .... فمن طبيعته التسامي والارتقاء ومن طبيعته السقوط والالتواء.

فما دامت طبيعة البشر قابلة للوقوع في الذنب، فإن الباب لا يوصد أمام الإنسان، وإن الرحمة لا يطرد عنها لئلا يظل المرء في شقاء دائم.

وكان الرسول ﷺ - وقد أعلى الله منزلته وقدره وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر- لا يغفل يوماً عن التوبة والاستغفار ويوصي بها أصحابه رضي الله عنهم فمرة يقول: "والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة"، ويقول ﷺ: ((يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإني أتوب في اليوم مائة مرة)).

---

(١) سورة الشمس، آيات: ٧-١٠.

(٢) سورة النور، آية: ٣١.

(٣) سورة الحجرات، آية: ١١.

إن التوبة تجديد للإيمان وفي الاستغفار حياة للقلب... والقلب الذي فيه حياة يتدارك الذنب بالتوبة النصوح، فيندم صاحبه على الوقوف في المعصية، ويعجل إلى الإقلاع عنها[1].

إن تربية النفس على التوبة والإنابة إلى الله تعالى، تجعل العبد قريباً من ربه منيباً إليه وما أحوج النفوس إلى هذه النوع العظيم من التربية الإسلامية الواعية، تلك التربية الموضوعية والواقعية التي تتعامل مع النفس على طبيعتها واستعدادها كما خلقها الله تعالى، مزودة باستعدادات الخير واستعدادات الشر، فالتربية الإسلامية تتعامل مع واقع النفس، لأن النفس في نظر التربية الإسلامية ليست ملائكية وليست شيطانية، بل هي مستعدة للخير والشر، لكنها بحاجة إلى توجيهات وإرشادات وإلى فتح أبواب الأمل في رحمة الله، خاصة إذا كثرت المعاصي، وتكاثرت الذنوب عندئذ تكون نفس الإنسان بحاجة إلى الطمع في رحمة الله وعفوه، هذا ما تركز عليه التربية الإسلامية في الأحاديث التي وردت في باب التوبة والتي اشتملت على عدد من المضامين التربوية المهمة والتي من أبرزها ما يلي:

أولاً- التركيز على أسلوب القدوة العملية في التربية الإسلامية:

حيث أراد النبي ﷺ أن يربي أصحابه رضي الله عنهم والأمة من بعدهم على الحرص على التوبة والتزامها فجعل نفسه القدوة العملية في ذلك، مع تسليمنا بالمنزلة الرفيعة التي أنزلها الله تعالى لرسوله الكريم، حيث رفع ذكره وزكاه وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وغير ذلك مما يصعب استقصاؤه، إلا أن النبي ﷺ يستخدم القسم في تأكيده على أهمية التربية على التوبة، والإنابة إلى الله تعالى، فيقول: "والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه"، ويهيب بالناس أن يتوبوا إلى الله، ويجعل من نفسه قدوة في ذلك، لأجل تأصيل عملية تربية النفوس على التوبة، والإنابة إلى الله تعالى، ولا شك أن أسلوب القدوة العملية يعد من أبرز أساليب التربية الإسلامية في التأكيد على النفوس حيث يشعر الإنسان بأهمية هذا الأمر الذي لا تستغني عنه النفس البشرية، نظراً

---

(١) انظر: التربية الروحية الاجتماعية، د. أكرم ضياء العمري ٨٠-٨١.

لاقترافها الذنوب، وعدم سلامتها من الوقوع في المعاصي، ومن ثم فإن النبي ﷺ بيّن أن باب التوبة مفتوح على مصراعيه أمام كل إنسان تعثرت خطاه، واحتاج إلى رحمة الله، ليسارع في التوبة إلى الله والاستغفار، حيث كان النبي ﷺ حريصًا على التوبة ملازمًا لها ليبين للناس بأسلوب عملي أهمية التوبة والإنابة إلى الله تعالى.

ثانياً- التركيز على أسلوب المثل في التربية لبيان قيمة التوبة والإنابة إلى الله تعالى:

إن توبة العبد تؤدي إلى رضوان الله تعالى وفرحته بإنابة عبده، وقد وظّف النبي ﷺ المثل توظيفاً تربوياً رائعاً في تصوير حالة هذا الرجل الذي انفلتت عنه راحلته وعليها طعامه وشرابه حتى استبدَّ به اليأس من إدراكها، فأوى إلى شجرة واضطجع فبينما هو كذلك إذا براحلته فامتلأت نفسه سروراً حتى أخطأ من شدة الفرح... وقال: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح".

إن النبي ﷺ أراد أن يعمق في نفوس مدى فرحة الله تعالى بتوبة عبده ورجوعه إليه ورحمته به، حتى تتربى الأُمّة على حب التوبة وملازمتها.

ثالثًا- التربية بالقصة:

إن التربية بالقصة مفيدة في عدد من المجالات التربوية التي تعمق في النفوس معاني الصدق، والأمانة، والوفاء، والرحمة، والإيثار، والتوبة، وغير ذلك، وقد بيّن النبي ﷺ - من خلال القصة في باب التوبة- أهمية تربية النفس على التوبة والحرص عليها، والبحث عنها، مهما تعثرت خطا الإنسان، وانحرف عن المسار الصحيح، وضلت به السبل، فلا ينبغي أن يستبد به اليأس ويحلّ به القنوط، بل يُؤمل في رحمة الله، ويطمع في قبوله سبحانه لتوبة عبده، وقد اتضح ذلك من خلال قصة هذا الرجل الذي قتل تسعاً وتسعين نفساً... بل أكمل قتل مائة نفس، وظل يبحث عن التوبة حتى يسّرها الله تعالى له، وقبلها منه، وذلك ما ورد في القصة التي أخبر بها النبي ﷺ.

كل ذلك ليؤصل النبي ﷺ في النفوس حب التوبة ويربيها على أهمية الحرص عليها، وعدم اليأس من الذنوب، واليقين في رحمة الله تعالى ولطفه بعباده.

رابعاً- الحرص على التربية الجادة على التوبة والاستغفار:

إن الإنسان لا يستطيع إدراك أهدافه إلا إذا كان جاداً ومثابراً في بلوغها، إن التوبة بحاجة إلى الصدق والشفافية مع الله تعالى، وإلا فإن الرواسب التربوية -التي كانت سبباً في بعض الذنوب والمعاصي في المراحل السابقة على التوبة-، يمكن أن تكدر صفوها، نظراً للخليط المتنافر من السلوكيات التي لا تنسجم مع التوبة إنه لابد من التخلص من الركام التربوي الذي يتعارض مع أصول التوبة وشروطها، وهذا ما ركز عليه النبي ﷺ في تربيته الجادة لأصحابه رضي الله عنهم، تلك التربية التي ساهمت في انتشالهم من السلوكيات التربوية الخاطئة في المجتمع العربي آنذاك، واستطاع من خلال تلك التربية الجادة أن يقتلع الجذور الاجتماعية والأنماط السلوكية الخاطئة والأفكار والمعتقدات التي عمل الإسلام على اجتثاثها من خلال بيان القيم الإسلامية في مجال العبادات والسلوكيات والآداب التي ينبغي للمسلم أن يتحلى بها في مجال التعامل مع أهل الفضل وغيرهم من الناس وأدب الخطاب وغير ذلك، وقد ربّى النبي ﷺ أصحابه رضي الله عنهم تربية جادة من خلال التجربة العملية في مقاطعة من تخلفوا عن غزوة تبوك وعدم التعامل معهم، ومنع أصحابه رضي الله عنهم من التواصل معهم حتى تاب الله عليهم.

إن من ثمرات التربية الجادة إعداد المسلم الممتثل لأوامر الله تعالى، لأن التربية تعمل على تهيئة المسلم للقيام بالمهمة التي من أجلها خلق وهي: العبادة لله تعالى، وإعمار هذا الكون من خلال طاعة الله تعالى، واجتناب معاصيه والإنابة إليه سبحانه.

خامسًا- من نتاج التربية الجادة: الامتثال لأوامر الله:

حين استنفر النبي ﷺ أصحابه في غزوة تبوك فتخلّف عن الغزوة من تخلف، وكان ممن تخلف من الصادقين: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، حين سألهم النبي ﷺ عن سبب تخلفهم عن الغزوة، ولم يكن لهم عذر يقبله ﷺ، فأمر بأن لا يكلمهم أحد، وبقوا على هذه الحال يمشون في شوارع المدينة، ويجوبونها وكأنهم يتعاملون مع أشباح وصور، وحين بلغوا أربعين يوماً، أُمروا أن يعتزلوا زوجاتهم فكانت عزلة أكثر، وحصاراً أشد، حتى بلغ بهم الحال إلى ما وصفه الله سبحانه

وتعالى في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1]. وفي هذه الحالة يجيء كعب بن مالك رضي الله عنه خطاب من ملك غسان يطلب منه أن يلحق به، فيسجره في التنور، ويسلم أمره لله، فجاء الفرج بعد خمسين ليلة. إنها صورة من صور التربية الجادة، والتي تربى عليها أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.

مما يعكس أثر التربية النبوية وهي في فترة النضج والتمام في العاشرة من الهجرة[2].

❁ ❁ ❁

(١) سورة التوبة، آية: ١١٨.

(٢) انظر: التربية الجادة ضرورة، أ. محمد بن عبدالله الدويش ٤٨-٤٩.

٣- باب الصبر

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ﴾[آل عمران: ٢٠٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[البقرة: ١٥٥]، وَقالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[الزمر: ١٠]، وَقالَ تَعَالَى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[الشورى: ٤٣]، وَقالَ تَعَالَى: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[البقرة: ١٥٣]، وَقالَ تَعَالَى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾[محمد: ٣١]، وَالآياتُ فِي الأمر بالصَّبْر وَبَيانِ فَضْلِهِ كَثيرةٌ مَعْرُوفةٌ.

الحديث رقم (٢٥)

٢٥- وعن أبي مَالِكٍ الْحَارِثِ بْنِ عَاصِمٍ الأشْعريِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **((الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ للَّه تَمْلأُ الْميزانَ وسُبْحَانَ الله والحَمْدُ للَّه تَمْلآنِ -أَوْ تَمْلأُ- مَا بَيْنَ السَّمَاواتِ وَالأَرْضِ وَالصَّلاَةِ نورٌ، والصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، والْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ. كُلُّ النَّاس يَغْدُو، فَبائِعٌ نَفْسَهُ فمُعْتِقُها، أَوْ مُوبِقُهَا))** رواه مسلم(١).

ترجمة الراوي:

أبو مالك الأشعري: هو أبو مالك الأشعري معروف بكنيته مختلف في اسمه اختلافاً كبيراً: فقيل: الحارث بن الحارث. وقيل: عبيد. وقيل: عبيدالله. وقيل: عمرو. وقيل: كعب بن عاصم. وقيل: كعب بن كعب. وقيل: عامر بن الحارث بن هانئ بن كلثوم.

وهو غير أبي مالك الأشعري الذي يروي عنه أبو سلام الأسود وشهر بن حوشب. فهذا يروي عنه عبدالرحمن بن غَنْم الأشعري وغيره.

---

(١) برقم ٢٢٣/١. أورده المنذري في ترغيبه ٣٠١. وسيكرره المؤلف برقم ١٠٣٣، و ١٤١٥.

نزل أبو مالك الشام ومات في خلافة عمر بسبب الطاعون الذي وقع هناك.

قال عبدالرحمن بن غنم: طعن معاذ بن جبل وأبو عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة وأبو مالك الأشعري في يوم واحد[١].

تنبيه: قال الحافظ ابن حجر في الإصابة ٢٢٢: ذكر النووي في الأذكار[٢] عند ذكر حديث أبي مالك الأشعري ((الطهور شطر الإيمان)) - أن اسمه الحارث بن عاصم وهذا وهم، وإنما هو كعب بن عاصم أو الحارث بن الحارث.

غريب الألفاظ:

الطُّهورُ: التطهر. أما بالفتح "الطَّهُور" فهو الماء الذي يُتطهر به[٣].

شطر: نصف[٤].

الميزان: هو الميزان الذي توزن به يوم القيامة الصحائف التي كتبت فيها أعمال العباد، وله كفتان إحداهما للحسنات والأخرى للسيئات[٥].

يغدو: الغُدُوُّ: السَّيرُ أوّل النهار، والمراد يسعى[٦].

---

(١) الطبقات الكبرى، ابن سعد ٤٠٠/٧ والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٨٥٢، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير ٢٦٦/٦، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ١٥٤٥، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي ٤١٦/٨، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٥٨٠/٤، ٣٢٧/١، و٤٦٩/٣.

(٢) كذا قال الحافظ: في الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار، الإمام النووي، وإنما ذكره النووي في الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار، الإمام النووي بكنيته دون اسمه في الحديث رقم ١٣ منه، وإنما ذكر ذلك النووي في رياض الصالحين عند الحديث رقم ٢٥ أول باب الصبر.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ط هـ ر).

(٤) اللسان في (ش ط ر).

(٥) شرح الطيبي، الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ١٨٢/١٠، وعون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم آبادي ٢٠٦٤.

(٦) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (غ د و).

معتقها: مُحَرِّرُها[١]، وذلك إذا باعها لله تعالى، بطاعته.

موبقها: مهلكُها؛ وذلك إذا باعها للشيطان، بمعصية الله وطاعة الشيطان[٢].

الشرح الأدبي

يجب على كل مسلم أن يقف أمام هذا الحديث النبوي الشريف وقفة تأمل وتدبر وتفكر، لأنه من جوامع كلمه ﷺ وحياة المسلم القولية والفعلية، ومصيره في دنياه وآخرته ونجاته من مغريات الحياة، ورغائب النفس، كل هذه الآفاق التي يتحرك فيها المسلم تشرق فيها أنوار هذا الحديث الشريف، وهذه الأنوار منارات من الهدى واليقين تنطلق منها أشعة النجاة، وبوارق الفلاح وأضواء الأمان والإيمان.

ويتسم البيان النبوي في هذا الحديث بالإيجاز فكل جملة من جمل الحديث تتضمن أسراراً بلاغية، وتوحي بمعان وإيحاءات عديدة، وتفسيرات لغوية، وتحليلات لدلالة الألفاظ ونسق الأساليب، وهذا الإيجاز لم يجعل المعنى غامضاً، ولا البناء اللغوي معقداً وإنما الكلمات تشع ببريق المعاني، وتفصح الدلالات عن كثير من التفسيرات والبُشريات.

وقد قسم العلماء دلالة الألفاظ على المعاني ثلاثة أقسام: أحدها: المساواة وهو: أن يكون المعنى مساوياً للفظ ، والثاني: التذييل، وهو أن يكون اللفظ زائداً على المعنى وفاضلاً عنه، والثالث: الإشادة: وهو أن يكون المعنى زائداً على اللفظ: أي أنه لفظ موجز يدل على معنى طويل على وجه الإشادة واللمحة[٣].

وأسلوب النبي ﷺ في أحاديثه الشريفة يجمع بين خاصتي: "المساواة والإشادة" وليست في أحاديثه ألفاظ زائدة على المعنى لأن الزيادة اللفظية تعد عيباً من عيوب فصاحة اللسان العربي.

---

(١) المرجع السابق في (ع ت ق).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير واللسان في (و ب ق).

(٣) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي.

وخاصية الإيجاز في كلام المصطفى ﷺ تعد صدىً مضيئاً وترجماناً قولياً صادقاً لقوله ﷺ ((أوتيت جوامع الكلم))[١].

وقد ألمح إلى هذه الظاهرة الجمالية في الحديث النبوي هند بن أبي هالة: حينما سأله الحسن عن منطق رسول الله ﷺ: فقال في معرض وصفه للمنطق النبوي (ويتكلم بجوامع الكلم فصلاً لا فضول فيه ولا تقصير)[٢].

ولنتأمل مظاهر الجمال الأسلوبي والأداء البلاغي ومعالم البيان النبوي في هذا الحديث الشريف: وأول مظهر من مظاهر الجمال الأسلوبي.. هو العبارات والجمل القصيرة المتوازية، والسجع غير المتكلف الذي يحدث التأثير الصوتي، وصولاً إلى الدلالة المضيئة، ورغبة في الامتثال لكل قيمة إسلامية أشرقت معانيها في آفاق هذا الحديث الشريف.

وهذه الجمل القصيرة المتوازية التي يضبطها الإيقاع الأسلوبي والمعنوي، يحكمها ويعلي من قيمتها التأثيرية "التوازن" وهو من خصائص البيان النبوي؛ لأن هذا البيان يخاطب العاطفة قدر ما يخاطب العقل، ولا يجور فيه الخيال على الحقيقة ولا يطغى فيه المحسوس على المعقول، ولا يتجه إلى قوم دون آخرين ولا يخضع لمؤثرات بيئية، ولا لحيثيات زمنية، إن الأدب النبوي خطاب شامل للبشرية جمعاء، وهي تستظل بظلال الإسلام في كل زمان وفي كل مكان، مهما اختلفت اللغات، ومهما تباينت الأجناس وتعددت البيئات، فالشعور الإيماني هو الدائرة التي يتحركون في فلكها، وهو المنبع والمجرى والمصب، منبع العقيدة، ومجرى السلوك ومصب الرؤى والإشراقات.

وكل ما في الحديث الشريف ينطق بالتوازن الذي يعد من سمات الشخصية الإسلامية، ولنتأمل هذه الأسرار التعبيرية، والمظاهر الجمالية في صياغة الحديث الشريف.

---

(١) أخرجه مسلم ٥٢٣.

(٢) أخرجه البيهقي في دلائل النبوية ١/ ٢٨٧.

فلفظ "الطهور" يحمل عدة دلالات: حسب ضبْطه الشكلي، فهو بضم الطاء: يفيد فعل الوضوء نفسه، وبفتح الطاء هو اسم لهذا الفعل؛ والجذر لهذا اللفظ اللغوي من "الطهارة" وهي تدل على النظافة حسية كانت أو معنوية.

وهذه الدلالة اللغوية للطهارة تشارك في توضيح الدلالة الشرعية، فالطهارة شرعاً: فعل ما يترتب عليه إباحة أو ثواب مجرد؛ والمراد بالطهور: في الحديث الشريف هو الوضوء.

ولا يكتمل مدلول "الطهور" ولا يفهم المراد منه إلا بقوله عليه الصلاة والسلام "شطر الإيمان" فالطهور مبتدأ الكلام، وشطر الإيمان الخبر الذي تمت به الفائدة.

وحول تفسير "شطر الإيمان" دارت آراء عديدة، وتأويلات كثيرة. وكلها تؤكد قيمة البيان النبوي وعمق دلالاته، ودقة إشاراته.

فالشطر: معناه: النصف: ولفظ الإيمان: قيل المراد به: الصلاة لا تصح إلا بالوضوء فكان كالشطر، والذين فسروا الإيمان على حقيقته: قالوا: ينتهي تضعيف أجره إلى نصف أجر الإيمان -كما ذكر صاحب كتاب دليل الفالحين-.

وتتعدد دلالة لفظ "الطهور" حيث فسرها بعضهم: الطهور ها هنا: بترك الذنوب.

وحول علاقة الطهور بالإيمان، ودلالة الشطر: قال بعض العلماء: الإيمان نوعان: فعل وترك فنصفه فعل المأمورات، ونصفه ترك المحظورات: وهو تطهير النفس بترك المعاصي، فانظر أخي المسلم إلى هذه الإشعاعات الدلالية، والمقاصد الشرعية التي تشع بها ألفاظ الحديث الشريف، وتراكيبه اللغوية الناطقة بالإيحاء، والتي يقف أمامها العلماء بكل ما لديهم من تفسيرات وآراء.

ولنتأمل هذه الحقيقة الإيمانية: "الحمد لله تملأ الميزان": كيف توحي صياغتها بالبشارات، وكيف تعلن عن الجزاء المضاعف الذي ينتظر المؤمن الذي يحمد ربه في كل المواقف الحياتية.

وهذا الجزاء المضاعف يصوغه المصطفى ﷺ في أوجز عبارة، في جملة واحدة: بدايتها "الحمد لله" وختامها "تملأ الميزان"، وهل هناك ثواب أكمل وأجمل وأعظم من

أن يُملأ ميزان المؤمن.. وهذا كناية عن القبول والرضا والفوز في الدنيا، لأن الحمد كان قرين كل قول وفعل، والفوز في الآخرة وما أعظمه من فوز حين يملأ الميزان، وتتوج بذلك حياة الإنسان.

وحول كيفية هذه الحقيقة: "الحمد لله تملأ الميزان" تعددت آراء العلماء، وتعددت الوجوه والتفسيرات. وهي كثيرة وتؤكد القيمة الأسلوبية والدلالية للبيان النبوي العظيم، ومن هذه الآراء قولهم: وإنما ملأ ثواب هذه الجملة كفة الميزان مع سعتها المفرطة لأن معاني الباقيات الصالحات في ضمنها.

ومن التراكيب الأسلوبية المضيئة بالدلالات والمعاني العميقة قوله ﷺ "أو تملأ ما بين السماوات والأرض".

ولنتساءل لماذا جاء لفظ السماوات في صيغة الجمع، ولفظ الأرض مفردًا؟

ويقول البيضاوي: في تعليل هذه الظاهرة اللغوية إنما جمع السماوات وأفرد الأرض لأن طبقات السماوات متفاصلة بالذات مختلفة في الحقيقة، بخلاف الأرضين.

وقيل في تعليل هذا الثواب العظيم لكل من ينبض قلبه، وينطق لسانه، ويؤيد ذلك سلوكه ويقينه، حيث يكون نهجه في حياته قولاً وعملاً "سبحان الله والحمد لله"، ويقول العلماء وإنما ملأ ثواب ما ذكر ما بين السماء والأرض التي لا يحيط بسعتها إلا خالقها سبحانه؛ لأن العالم كله شاهد بأن الله هو خالقه والقائم بتدبيره، وسبحان الله والحمد لله يتضمنان إثبات الرب الواحد وجميع صفات الجلال والكمال له، ونفى جميع النقائص عنه، فكأن قائلها شاهد لله بذلك.

"والصلاة نور والصدق برهان والصبر ضياء": إن هذه الحقائق الثلاث التي تمثل ثلاثة من مبادئ الإسلام وقد جاءت صياغتها مبشرة للمؤمن الذي امتزجت حركته الحياتية بالتحميد والتسبيح.

وتشبيه الصلاة بالنور وحذف أداة التشبيه، أو أنها على الحقيقة نور: حيث تضيء لصاحبها في ظلمات الموقف يوم القيامة؛ وليس هناك تصوير للصلاة أعظم تقديراً، وأوسع دلالة من هذا التصوير بأنها نور، فهي نور في الحياة، ونور وبرهان ونجاة يوم القيامة.

الصدقة برهان: والبرهان هو الشعاع الذي يلي وجه الشمس، ومنه سميت الحجة القاطعة برهاناً لوضوح دلالتها على ما دلت عليه، فكذلك الصدقة برهان على صحة الإيمان.

والصبر ضياء: وأي علاقة توجد بين قيمة الصبر، وهو مسلك إيماني يحتاج إلى مجاهدة ومعاناة، وبين: متعلقات وملابسات الضياء، والضياء في اللغة: هو النور الذي يحصل فيه نوع حرارة وإحراق كضياء الشمس، بخلاف القمر فإنه نور محض فيه إشراق بغير إحراق، وهنا تكمن المجاهدة في الصبر ومقاومة كل الإحباطات والمعوقات والوساوس، وهذه المقاومة لا تكون إلا بوهج الضياء وقوة اليقين "والقرآن حجة لك أو عليك"، إن هذا الموقف الصارم الذي صيغ في قالب موجز موضوع على كفتى الطباق "لك أو عليك" يضع المسلم أمام مسؤولية مصيرية، ونهاية الحديث لا تحصر هذا المصير في دائرة المسلم، ولكنها توسع الدائرة، فإذا الناس كلهم أمام خيارين، إما أن يبيع نفسه لله فيفوز ويعتق نفسه، أو يكون مصيره الهلاك والبوار.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى أكثر من حكم فقهي نذكر منها:

الأول: حكم الطهارة، وقد ذكر الفقهاء(١) أنها شرط لصحة الصلاة، ثم اختلفوا في كونها عبادة أم لا على قولين، فقال البعض إنها عبادة بناءً على هذا الحديث، وذهب الآخرون إلى أنها ليست عبادة.

الثاني: حكم ذكر الله تعالى: الذكر محبوب مطلوب من كل أحد مرغب فيه في جميع الأحوال، إلا في حال ورد الشرع باستثنائها، كحال الجلوس على قضاء الحاجة، وحال سماع الخطبة(٢).

---

(١) انظر: البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٢/١، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٢٣٠/١، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٠٦/٦، المبدع في شرح المقنع، ابن مفلح ١١٦/١، وشرح العمدة لابن تيمية ٣٢٠/١، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري ٣٥٠/٩.

(٢) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٢٢/٢١، نقلاً عن فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٠٢/١١، ٢١٢.

الثالث: فريضة الصلاة، وقد اتفق الفقهاء[1] على أن الصلاة فرض عين على كل مسلم ومسلمة متى كان بالغًا عاقلاً ولا تسقط إلا بالموت فقط.

الرابع: حكم الصدقة، والصدقة أنواع فمنها ما هو واجب وهو الزكاة حيث يطلق عليها صدقة، ومنها ما هو واجب على البدن وهو زكاة الفطر، ومنها الصدقة المفروضة من الشخص على نفسه وهو النذور، ومنها الصدقة المفروضة حقًا لله تعالى وهي الفدية والكفارة، ومنها ما هو تطوع وهذا هو المصطلح الأشهر عند ذكر الصدقة[2].

وقد ذكر الفقهاء[3] أن صدقة التطوع سنة ورد بفضلها الكتاب والسنة، وهي مستحبة في جميع الأوقات، وصدقة السر فيها أفضل من صدقة العلانية وفي كل خير، وهي أفضل في وقت الصحة، وفي رمضان، وأوقات الحاجة، وفي كل زمان ومكان فاضل.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل الطهور.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: فضل الحمد والتسبيح.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: فضل الصلاة.

---

(١) بدائع الصنائع، الكاساني ٨٩/١، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٢٥٦/١، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٣٧٨/١، وشرح منح الجليل على مختصر خليل، الشيخ محمد بن أحمد بن محمد عليش ١٧٧/١، ومغني المحتاج ٣١٢/١، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي ٣٨٧/١ وما بعدها، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ١٢٥/١، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي ٢٢١/١.

(٢) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٣٢٥/٢٦.

(٣) أحكام القرآن للجصاص ٦٢٨/١، وأحكام القرآن لابن العربي ٢٠٤/١، ٣١٤، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢٣٥/٦ وما بعدها، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري ٤٠٥/١، والمغني، ابن قدامة ٣٦٨/٢، والفروع، ابن مفلح ٦٤٩/٢، وسبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، الصنعاني ٥٤١/١، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٨٩/٢٤، ٣٢٥/٢٦.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: فضل الصدقة.

خامساً: من موضوعات الدعوة: فضل الصبر.

سادساً: من موضوعات الدعوة: فضل العمل بالقرآن وخطورة الإعراض عنه.

سابعاً: من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب.

ثامناً: من أساليب الدعوة: التشبيه وضرب الأمثال.

تاسعاً: من موضوعات الدعوة: فضل العمل الصالح.

عاشرًا: من مهام الداعية: حث الناس على فعل ما ينفعهم.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل الطهور:

صرح الرسول ﷺ في الحديث بفضل الطهور وبيان منزلته من الإيمان، فقال: "الطهور شطر الإيمان"، قال القرطبي: (وقد اختلف في معنى قوله عليه الصلاة والسلام: "الطهور شطر الإيمان" على أقوال كثيرة؛ أولاها: أن يقال: إنه أراد بالطهور الطهارة من المستخبثات الظاهرة والباطنة. والشطر: النصف. والإيمان هنا: هو بالمعنى العام. ولا شك أن هذا الإيمان ذو خصال كثيرة، وأحكام متعددة، غير أنها -أي الخصال- منحصرة فيما ينبغي التنزه والتطهر منه، وهي كل ما نهى الشرع عنه، وفيما ينبغي التلبس والاتصاف به، وهي: كل ما أمر الشرع به، فهذان الصنفان عبر أحدهما بالطهارة على مستعمل اللغة، وهذا كما روي مرفوعا: "الإيمان نصفان: نصف شكر ونصف صبر".

وقد قيل: إن الطهارة الشرعية لما كانت تُكفر الخطايا السابقة كانت كالإيمان الذي يَجُبُّ ما قبله، فكانت شطر الإيمان بالنسبة إلى محو الخطايا، وهذا فيه بُعد؛ إذ الصلاة وغيرها من الأعمال الصالحة تُكفر الخطايا؛ فلا يكون لخصوصية الطهارة بذلك معنى.

ثم لا يصح أيضاً معنى كون الطهارة نصف الإيمان بذلك الاعتبار؛ لأنها إنما تكون مثلاً له في التكفير، ولا يقال على المثل للشيء: شطره، وقيل: إن الإيمان هنا

يراد به الصلاة، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾[١]، أي: صلاتكم على قول المفسرين، ومعناه على هذا: أن الصلاة لما كانت مفتقرة إلى الطهارة كانت كالشطر لها. وهذا أيضاً فاسد، إذ لا يكون شرط الشيء شطره، لا لغة، ولا معنى. فالأولى: التأويل الأول. والله أعلم.

فإن قيل: كل ما ذكرتم مبنيٌّ على أن المراد بالطهور: الطهارة، وذلك لا يصح، لأنه لم يروه أحد فيما علمناه: الطهور بالضم، وإنما روي بالفتح، فإذا هو الاسم على ما تقدم. قلنا: يصح أن يقال: يحمل هذا على مذهب الخليل كما تقدم، ويمكن حمله على المعروف ويراد به استعمال الطهور شطر الإيمان"[٢].

قال ابن رجب الحنبلي: (والصحيح الذي عليه الأكثرون أن المراد بالطهور هاهنا: التطهر بالماء من الأحداث)[٣]، وقال النووي: (ويحتمل أن يكون معناه أن الإيمان تصديق بالقلب وانقياد بالظاهر، وهما شطران للإيمان، والطهارة متضمنة الصلاة فهي انقياد في الظاهر)[٤]، والطهور سبب لمحبة الله عز وجل، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[٥].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: فضل الحمد والتسبيح:

إن حمد الله واجب على خلقه، وبيّن الرسول ﷺ في الحديث فضل الحمد فقال: "والحمد لله تملأ الميزان"، أي أن هذه الكلمة "الحمد لله" أو هي وما يؤدي مؤداها من الثناء على الله -سبحانه- بصفات كماله تملأ الميزان باعتبار ثواب التلفظ بالحمد مع استحضار معناه، أي الثناء على الله بالجميل الاختياري والإذعان له[٦]، وقد أمرنا الله

(١) سورة البقرة، آية: ١٤٣.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٤٧٤/١ - ٤٧٥.

(٣) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٧/٢.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٢٥٠.

(٥) سورة البقرة، آية: ٢٢٢.

(٦) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ١٠٠.

تبارك وتعالى بحمده في كثير من آيات القرآن منها قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾[١]، وكان من السنة بدء كل شيء وإنهاؤه بحمد الله، قال قتادة: "افتتح الله أول الخلق بالحمد لله، فقال: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾[٢]، وختم بالحمد فقال: ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[٣]، فلزم الاقتداء به والأخذ في ابتداء كل أمر بحمده وخاتمته بحمده[٤].

كما بيّن ﷺ فضل تسبيح الله فقال: "وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السماوات والأرض"، قال النووي: (وأما معناه فيحتمل أن يقال لو قدر ثوابهما جسماً لملأ ما بين السموات والأرض، وسبب عظم فضلهما ما اشتملتا عليه من التنزيه لله تعالى بقوله سبحان الله: والتفويض والافتقار إلى الله تعالى بقوله: الحمد لله)[٥]، فالتحميد إثبات المحامد كلها لله، ويدخل في ذلك إثبات صفات الكمال ونعوت الجلال كلها، والتسبيح: تنزيه الله عن النقائص والعيوب والآفات[٦]، ولما اشتمل التسبيح والتحميد على هذه المعاني استحق من الله جزيل العطاء وحسن الثواب.

(فإنْ حَمَد المسلم ربه مستحضراً معنى الحمد في قلبه امتلأ ميزانه من الحسنات فإن أضاف إلى ذلك: سبحان الله، الذي معناه تبرئة الله، وتنزيهه عن كل ما لا يليق به من النقائص، ملأت حسناته -وثوابها زيادة على ذلك- ما بين السماوات والأرض؛ إذ الميزان مملوء بثواب التحميد، وذكر السماوات والأرض على جهة الاغياء -بلوغ الغاية- على العادة العربية، والمراد أن الثواب على ذلك كثير جداً بحيث لو كان أجساماً لملأ ما بين السماوات والأرض)[٧].

---

(١) سورة النمل، آية: ٥٩.

(٢) سورة الأنعام، آية: ١.

(٣) سورة الزمر، آية: ٧٥.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢٨٧/١٥/٨.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٢٥٠.

(٦) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١٧/٢ - ١٨.

(٧) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٤٧٦/١.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: فضل الصلاة:

قال ﷺ مبيناً فضل الصلاة: (والصلاة نور)، قال ابن علان: "ولم يجئ في فعل متعبد به أنه نور في نفسه سوى الصلاة، فهي تضئ لصاحبها في ظلمات الموقف بين يديه كما أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر وتهدي إلى الصواب فتصد عن المهالك وتوصل إلى طريق السلامة كما يستضاء بالنور"[١]، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾[٢]، فهي سبب للانتهاء عن الفحشاء والمنكر وتحمل صاحبها على العمل بمحاسن الآداب ومكارم الأخلاق[٣]، وهي سبب لإشراق أنوار المعارف، وانشراح القلب، ومكاشفات الحقائق، لفراغ القلب فيها، وإقباله على الله ظاهراً وباطناً[٤].

لقد حدد الله الصلاة وجعل لها أوقاتاً معينة، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾[٥].

فلها ركعات معدودة تؤدى بها هذه الصلوات الخمس دائماً، وقد داوم عليها رسول الله ﷺ مدة حياته، حتى في الحروب، وتواترت أخبارها تواتراً لا يعرف لأي عمل أو عبادة في ملة من الملل، وفي دور من أدوار التاريخ، وتوارثتها الأمة جيلاً بعد جيل،وطبقة بعد طبقة من غير فترة يوم واحد، حتى في أدق ساعاتها وأعظم محنها وأزماتها.

وهذه الصلوات الخمس بأوقاتها وركعاتها، وجبات روحية، شرعها الخلاق العظيم، المبدع الحكيم، الذي لا يطبّب النفوس فحسب، بل هو خالقها العليم، وصانعها الحكيم كذلك، فلا بد من الإيمان والخضوع لحكمتها وتشريعها، ولا بد من التمسك بها، والعض عليها بالنواجذ، والإتيان بها في أوقاتها، التي لا يعلم أسرارها

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ١٠١.

(٢) سورة العنكبوت، آية: ٤٥.

(٣) محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ١٥٢/١٣/٨.

(٤) شرح الطيبي، الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٦/٢.

(٥) سورة النساء، آية: ١٠٣.

وما يظهر فيها من تجليات وإشراقات، وما يتنزل فيها من بركات ورحمات، وما يوجب فيها التعبد لله والسجود له وحده مخالفة لعبّاد الشمس والكواكب، ولعبّاد الأحجار والنار، وقد خضعت الأجيال البشرية، والعقول السليمة، لتوجيهات أطباء البشر ووصاياهم وتحديداتهم، وهم من بني جلدتهم، وفي مستواهم البشري، لتجارب محدودة، أو تخمينات مظنونة وما ظنك بالرب الحكيم؟ ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾(١)، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾(٢).

لقد جعل الله الصلاة فريضة على عباده وفارقاً بين المسلمين وغيرهم وشرطاً للنجاة وحارسة للإيمان، وقد ذكرها الله تعالى من الأشراط الأساسية للهداية والتقوى، فقال: ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾(٣)، وقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾(٤)، وقد استثنى المحافظين على الصلوات من أصحاب الأخلاق الذميمة، فقال: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾(٥)، وقال، وهو يذكر المؤمنين المفلحين: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾(٦)، وقال وهو يحكي أهل النار: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ۝ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾(٧)، وقال عن المنافقين: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾(٨).

---

(١) سورة طه، آية: ٥٠.

(٢) سورة الملك، آية: ١٤.

(٣) سورة البقرة، الآيات: ١ - ٣.

(٤) سورة الأعلى، الآيتان: ١٤ - ١٥.

(٥) سورة المعارج، الآيتان: ٢٢ - ٢٣.

(٦) سورة المؤمنون، آية: ٩.

(٧) سورة المدثر، الآيتان: ٤٢ - ٤٣.

(٨) سورة النساء، آية: ١٤٢.

وهي فريضة دائمة مطلقة على كل مسلم ومسلمة بالعين عاقلين وعلى كل عبد وحر، وغني وفقير، وصحيح ومريض، ومقيم ومسافر، لا تسقط عمن بلغ الحلم في حال من الأحوال، بخلاف الصيام والزكاة، والحج، الأركان الثلاثة التي وجبت بشروط وصفات، وفي أوقات معينة محدودة، حتى أُمر بها في ساحة الحرب، وميدان القتال، وشرعت صلاة الخوف، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾[1]، وقال: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾[2][3].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل الصدقة:

إن الصدقة برهان وحجة على إيمان فاعلها[4]، وهي دليل على صحة إيمان صاحبها، وصدق باطنه مع ظاهره، وهذه المعاني أشار إليها النبي ﷺ في الحديث فقال: (والصدقة برهان) فهي تعني الدلالة على صدق العقيدة وثبوتها، فالأعمال البدنية

---

(١) سورة النساء، الآيات: ١٠١ - ١٠٣.

(٢) سورة البقرة، الآيتان: ٢٣٨ - ٢٣٩.

(٣) انظر: الأركان الأربعة، أبو الحسن الندوي ص ٢٣ - ٢٧.

(٤) المرجع السابق ٦/٢.

والقولية سهلة ميسورة، أما إخراج المال وهو قرين النفس عن طواعية واختيار فهو الدليل القوي على صدق إيمان من يقوم بهذا البذل ابتغاء رضوان الله تبارك وتعالى[(١)].

قال تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾[(٢)]، قال القرطبي: (قوله: (صدقة) مأخوذ من الصدق إذ هي دليل على صحة إيمان من يخرجها وصدق باطنه مع ظاهره)[(٣)].

وما ذكره الله تعالى من تطهير الصدقة للمؤمنين يشمل أفرادهم وجماعاتهم، فهي تطهر نفوس الأفراد من الذنوب ومن أرجاس البخل والدناءة والقسوة والأثرة والطمع وغير ذلك من الرذائل الاجتماعية التي هي مثار التحاسد والتعادي والعدوان والفتن والحروب، وتزكي أنفسهم أي تنميها وترفعها بالخيرات والبركات الخلقية والعملية حتى تكون بها أهلاً للسعادة الدنيوية والأخروية.

كما أن الصدقات والإنفاق عامة له أكبر الأثر في القضاء على الفقر الذي هو أشر أدواء البشر، وبالقضاء على الفقر وقاية للمجتمعات من الانحراف سواء أكان عملاً أو فكراً.

فالفقر يحمل الواقعين تحت سلطانه على إتيان جميع ضروب الشرور للحصول على أخص حاجات الحياة وهو القوت، فالبطون إذا جاعت دفعت أصحابها لاستساغة جميع صنوف الجرائم، وعدت ذلك عملاً مشروعاً، وفي البيئات التي يشيع فيها الفقر تروج جميع المذاهب المتطرفة، وتستحل جميع الأعمال الوحشية للوصول إلى أغراضها[(٤)].

خامساً- من موضوعات الدعوة: فضل الصبر:

إن قيام الإنسان بالطاعات واجتنابه المنهيات يحتاج إلى صبر ومجاهدة نفس كما أن تحمل الإنسان ما ينزل به من مصائب ونوائب يحتاج إلى صبر، لذا قرن الله العبادات

---

(١) التكافل الاجتماعي في الشريعة الإسلامية، د. محمد بن أحمد الصالح ص ٨٨.

(٢) سورة التوبة، آية: ١٠٣.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢٤٩/٨/٤.

(٤) انظر: روح الدين الإسلامي، عفيف عبدالفتاح طبّارة ص ٣٤٣.

بالصبر في كثير من المواطن منها: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾(١)، وأمرنا بالصبر ليتجاوز به الإنسان ما يلم به فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾(٢)، ولما للصبر من أثر في حياة الإنسان وصفه النبي ﷺ في الحديث فقال: (والصبر ضياء)، قال الطيبي: "والمعنيّ بالصبر: الصبر على طاعة الله وعلى اجتناب معصيته وعلى النائبات والمكاره، أي: لا يزال صاحبه مستضيئاً مهتدياً مستمراً على الصواب"(٣).

إن الصبر على طاعة الله وعن معصيته يتجلى في سرعة امتثال العبد لله فيما أمر به واجتنابه فيما نهى عنه، والصبر على الأقدار إنما ينبغي أن يكون ملازماً للإنسان عند وقوع المصيبة وبعدها، بل يصبر عليها منذ الوهلة الأولى، روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: مَرَّ النبيُ ﷺ بامرأةٍ تبكي عندَ قبرٍ فقال: اتَّقي اللهَ واصبري: قالت: إليكَ عنِّي، فإنكَ لم تُصَبْ بُمصيبتي. ولم تعرِفه. فقيل لها: إنه النبيُّ ﷺ، فأتتِ النبيَّ ﷺ فلم تجِدْ عندَهُ بَوّابينَ، فقالت: لم أعرِفْكَ. فقال: ((إنّما الصبرُ عندَ الصَّدْمةِ الأولى))(٤).

ما أشد وقع المصيبة على النفس حين تكون بعزيز غال، أو ولد حبيب!! إنها لخطب جلل وكارثة عظيمة قد يضيق عنها الصبر ولا تتحملها الأنفس، ولكن الدين داوى هذه النفوس الجزعة بما يخفف عنها وقع المصيبة وألم الكارثة. فالمؤمن يعتقد بقضاء الله وقدره، وأن كل ما يحدث في هذه الحياة، من خير أو شر، ومن نفع أو ضر، إنما هو بقضاء من الله وتقدير منه فيرضى بحكم الله صابراً محتسباً، طمعاً في مرضاة الله عز وجل، وإلى ذلك تشير الآية الكريمة: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٢٢ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا

---

(١) سورة هود، آية: ١١.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٥٣.

(٣) شرح الطيبي، الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٦/٢.

(٤) أخرجه البخاري ١٢٥٢، ومسلم ٩٢٦.

تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾[١]...

هذه فائدة الإيمان (بالقضاء والقدر) أن تخف المصيبة على قلب الإنسان بسبب اعتقاده أنها بإرادة الله ومشيئته، بينما الكافر ينفد صبره ويضيع رشده، ولربما أضاع حياته أيضاً بالانتحار، لانه ليس لديه ما يسليه أو يعزيه، أو يخفف المصاب عنه، ولقد كان جزاء الصبر عظيماً عند الله، لأنه حبس للنفس على ما تكره، وصون لها عن فعل ما يغضب الله، ومقاومة للنوازع الفطرية في نفس الإنسان ولذا كان الثواب عظيماً. قال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾[٢].

سادساً- من موضوعات الدعوة: فضل العمل بالقرآن وخطورة الإعراض عنه:

بعد ما بيّن النبي ﷺ فضل الطهور، وذكر الله من تسبيح وحمد وغيره، والصلاة والصدقة والصبر، ختم تلك الشعب بالقرآن فقال: "القرآن حجة لك أو عليك" فسلك به -أي القرآن- مسلكاً غير مسلكها دلالة على أن القرآن سلطاناً قاهراً وحاكماً فيصلاً، يفرق بين الحق والباطل، حجة الله في الخلق، به السعادة والشقاوة[٣]، فالقرآن حجة لك إن امتثلت أوامره واجتنبت نواهيه، وكان حجة لك في المواقف التي تسأل فيها عنه، كمسألة الملكين في القبر، والمسألة عند الميزان، وفي عقبات الصراط، وإن لم تمتثل ذلك احتج عليك[٤].

وكما رُوي عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه أنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ يَقُولُ: ((اقْرَأُوا الْقُرْآنَ. فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعاً لأَصْحَابِهِ...))[٥].

وروى البيهقي عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((الْقُرْآنُ شَافِعٌ

---

(١) سورة الحديد، الآيتان: ٢٢ - ٢٣.

(٢) سورة البقرة، الآيات: ١٥٥ - ١٥٧.

(٣) شرح الطيبي، الطيبي ٩/٢.

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٤٤٧/١.

(٥) أخرجه مسلم ٨٠٤.

مُشَفَّعٌ، وَمَاحِلٌ مُصَدَّقٌ، مَنْ جَعَلَهُ أَمَامَهُ قَادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَهُ سَاقَهُ إِلَى النَّارِ))[1].

(ويحتمل أن يراد به: أن القرآن هو الذي يُنتهى إليه التنازع في المباحث الشرعية والوقائع الحكمية، فبه تستدل على صحة دعواك،وبه يستدل عليك خصمك)[2].

والقرآن بما فيه من أوامر يجب أن تؤدى وتطاع، ونواه يجب أن تجتنب وتترك، وتوجيهات يجب أن تتبع. حاكم للإنسان أو عليه، فعلى كل امرئ أن يطبق القرآن على سلوكه وكل أموره، ويعرض نفسه عليه قبل أن يحاسب به، ويؤاخذ على أساسه[3].

سابعاً- من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب:

تكرر هذا الأسلوب كثيراً في الحديث فرغب النبي ﷺ في الطهور، وذِكرِ الله والصلاة، والصدقة، والصبر، ورغب في العمل بالقرآن، ورهب من الإعراض عنه، والعمل بما ينافيه، فقال: (الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السماوات والأرض والصلاة نور والصدقة برهان والصبر ضياء والقرآن حجة لك أو عليك)، وأسلوب الترغيب والترهيب من الأساليب الدعوية التي أولاها القرآن والسنة اهتماماً خاصاً، فقد ورد فيهما النصوص الكثيرة التي ترغّب الناس في قبول دعوة الإسلام والتحذير من رفضها، مما يدل دلالة قاطعة على أهمية هذا الأسلوب في الدعوة إلى الله، وعدم إهماله من قبل الداعي إلى الله عز وجل[4].

ثامناً- من أساليب الدعوة: التشبيه وضرب الأمثال:

حيث شبّه النبي ﷺ في الحديث الناس وعلاقتهم بالأعمال الصالحة بمعاملات الناس، فمنهم من يسعى إلى الربح، ومنهم من لا يتطلع إليه، ويغلب عليه كسله وركونه إلى الدعة مما يعود عليه بالخسران، فقال ﷺ: (كل الناس يغدو فبائع

---

(١) أخرجه ابن حبان ١٢٤، وقال محقق الصحيح: إسناده صحيح على شرط مسلم، وصححه الألباني (الصحيحة ٢١٠٩).

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٤٧٧/١.

(٣) رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم ص ٥١.

(٤) أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان ص ٤٣٧.

نفسه فمعتقها أو موبقها)، فالتشبيه وضرب المثل من الأساليب المفيدة في الدعوة، نظراً لما تحدثه في النفس من حركة التفات بارعة، يلتفت بها المرء من الكلام الجديد إلى صورة المثل المأنوس، فيلمح ما بينهما من التشابه أو التطابق، فلا يلبث أن يتلقى الأمر الجديد بمزيد من القبول والارتياح(١).

فلم تكن الأمثال القرآنية والنبوية مجرد عمل فني يقصد من ورائه الرونق البلاغي فحسب، بل إن لها غايات نفسية وتربوية ودعوية حققتها نتيجة لنبل المعنى، وسمو الغرض، بالإضافة إلى الإعجاز البلاغي وتأثير الأداء(٢)، ومن الأمثلة التي ضربها القرآن قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾(٣).

تاسعاً- من موضوعات الدعوة: فضل العمل الصالح:

إن العمل الصالح نجاة لصاحبه ورفعة لمنزلته، فرسول الله ﷺ لما بيّن في الحديث جانباً من القربات وبين فضلها ورغب فيها، أتبع ذلك بأن أحداً لا يترك نفسه هملاً، بل لا بد له من عمل يغدو له فقال: (كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها)، زد على ذلك ما في لفظه: (يغدو) من معاني الإسراع واغتنام الفرصة في عتق النفس والبعد بها عن المهالك، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾(٤)، فهؤلاء سعوا في خلاص نفوسهم وتوجهوا بقلبهم إلى ربهم وطلب ما عنده(٥).

---

(١) تذكرة الدعاة، البهي الخولي ص ٦٧ - ٦٨.

(٢) أصول التربية الإسلامية وأساليبها، عبدالرحمن النحلاوي ص ٢٢٣.

(٣) سورة الرعد، آية: ١٧.

(٤) سورة التوبة، آية: ١١١.

(٥) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ١٠٢ - ١٠٣.

عاشرًا- من مهام الداعية: حث الناس على فعل ما ينفعهم:

إن من أعظم ما يقوم به الداعية هو: حث الناس على فعل الخير، واجتناب الشر، ودعوة الناس إلى تهذيب النفوس، وإصلاح القلوب وإحيائها، وتهذيب الضمائر وتقويم الغرائز، وتوجيه الناس إلى القيم العالية والمبادئ الروحية السامية، والتوجه إلى الله توجهاً صحيحاً[1]، وليكن للدعاة في رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة حيث لم يألو جهداً في دعوة الناس وحثهم على فعل الخير وبيان روافده وأسبابه، كما نرى في الحديث من ذكره لكثير من طرق الخير والنجاة.

---

(١) انظر: مرشد الدعاة، محمد نمر الخطيب ص ١٢٦-١٢٧.

الحديث رقم (٢٦)

٢٦- وَعَنْ أبي سَعيدٍ سَعْد بْن مَالِك بْن سِنَانِ الخُدْرِيِّ رضي الله عنهما أَنَّ نَاساً مِنَ الأنصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ الله ﷺ فأَعْطاهُم، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ، حَتَّى نَفِد مَا عِنْدَهُ، ((فَقَالَ لَهُمْ حِينَ أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ بِيَدِهِ)) (١): «مَا يَكُنْ(٢) مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ الله وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ. وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْراً وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ » مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٣).

ترجمة الراوي:

أبو سعيد الخدري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢١).

الشرح الأدبي

في هذا الحديث النبوي الشريف تتجلى صفة من صفات رسول الله وسجية من سجاياه وهي: صفة العطاء والكرم، وكذلك ينطق الحديث بشمائل النبوة الكثيرة التي أشار إليها القاضي عياض في كتابه الشفا. وقد قال بعد تعداد هذه المناقب التي تجمع بين خصال الجمال والكمال: إنه المصطفى ﷺ لا مريه أنه كان أعقل الناس وأذكاهم، ومن تأمل سيرته وعجيب شمائله وبديع سيره فضلاً عما أفاضه من العلم، دون تعلم سبق، ولا ممارسة تقدمت، ولا مطالعة للكتب منه لم يمتر في رجحان عقله، وثقوب فهمه.

وفي هذا الحديث الشريف يرشد النبي ﷺ في ضوء سجاياه الكريمة، ومن خلال توجيه الخطاب إلى جماعة من الأنصار إلى ما هو الأجدر بالمسلم أن يتحلى به من التعفف عن الحرام وذل السؤال، وإظهار الغنى بالنفس والمال والصبر على شظف العيش حتى يأتي الفرج القريب من رب العالمين(٤).

---

(١) الزيادة لا توجد عند مسلم، وإنما هي عند البخاري برقم ٦٤٧٠ بلفظ: (حين نفد كلّ شيء أنفق بيده).

(٢) لفظ البخاري في هذه الرواية: (ما يكون)، وعندهما بعدها زيادة: (عندي).

(٣) أخرجه البخاري ١٤٦٩ واللفظ له، ومسلم ١٢٤/١٠٥٣. أورده المنذري في ترغيبه ١٢١٢.

(٤) انظر: المنهل العذب الفرات من الأحاديث الأمهات، د. عبدالعال أحمد عبدالعال ١٢١/٢.

وهذه المعاني التي تهذب سلوك المسلم وتترجم حسن العلاقة بين الرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، يفصح عنها البناء اللغوي للحديث الشريف، وتُجليها دلالات الألفاظ والصيغ اللغوية، والأساليب المتنوعة والمتناسقة في هذا البيان النبوي الكريم، فالتأكيد في أول الحديث "أنّ" يدل على تحقق الفعل وواقعية الحدث، ودلالة لفظ "ناساً" مأخوذة عن الأنس، ومن الفعل "أنس" لأنهم يستأنسون بأمثالهم من الصحابة وبالنبي ﷺ.

ولم يحدد الراوي أسماء هؤلاء، وإنما قال من الأنصار للتعميم وعدم تحديد وكشف أسمائهم للستر عليهم؛ ولأن القضية تشمل التوجيه إلى عامة المسلمين وضرورة إعزاز أنفسهم عن مذلة السؤال؛ ولفظة "الأنصار" لفظة جديدة من مصطلحات العقلية الإسلامية عَلَمٌ بالغلبة على أولاد الأوس والخزرج وسموا به لنصرتهم رسول الله ﷺ ودينه.

وحذف المعمول الثاني للفعل سألوا ... يرشد إلى عموم الحاجة، وإلى كرم النبي ﷺ، وتكرار جملة السؤال مع تكرار العطاء متلبساً بفاء العطف التي تفيد الاستجابة الفورية من رسول الله في الحالتين يدل على حلم رسول الله وعلى كرمه وصبره على السائلين، وربما حدث ذلك مراراً وتكراراً.

والفعل أنفق : يختص في دلالته بإخراج الشيء في الخير، وفي القرآن الكريم شواهد كثيرة على ذلك.

ولم ينهَرْهم الرسول ﷺ بل خاطبهم في محبة ومودة وحلم، وقال بعد أن نفد ماعنده: "ما يكن عندي من خير فلن أدخره عنكم" ومجيء هذه الجملة الواعدة بالعطاء في صيغة الشرط والجزاء تجعل الوعد في مقام التحقق، وكيف لا: والرسول ﷺ هو الصادق الوعد الأمين، وبعد هذا الوعد، يعطيهم درساً في التحمل والصبر، والتوكل على الله، والأخذ بالأسباب: فيقول بعد أن وعدهم بادِّخار الخير لهم وعدم حجبه عنهم:

"ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر".

وهـذه الإرشـادات النبويـة، والتوجهـات الإسـلامية مـن شـأنها أن تعيـد التـوازن إلى شخصية المسلم، وتحفظ لها ملامحها وعزتها، لأن الله هو الرزاق ذو القوة المتين.

وتـأتي هـذه التوجيهـات في صـيغة "الـشرط والجـزاء"، وتتـوالى في تـوازن أسـلوبي عجيب، وفي تنظيم لغوي دقيق، وليس الجزاء هنا مساوياً للعمل، ولكنه أوفى وأجـزل، لأن المجازي هو الله، والمكافئ هو الله، فالعفة مـن الله، والغنـى مـن الله، والـصبر مـن الله، وهو بكل خلق عليم.

ولنتأمـل صـيغة فعـل الـشرط، وهـي: تـدل علـى المعانـاة في التعفـف، والمجاهـدة في الاستغناء والمشقة والمكابدة في التـصبر – وزيـادة الـسين والتـاء في يـستعفف، ويستغن، والتـاء في يتـصبر، تجـسد العنـاء والمجاهـدة والمشقة، لأن زيـادة المبنـى في اللغـة تـدل علـى زيادة المعنى؛ والزمن اللغوي للشرط والجزاء يعلن عن استمرار المسلم في هـذه المقاومـة في كل زمان ومكان، حيث جاء الشرط في قالب الفعل المضارع وكذلك الجواب... إعلاناً عـن استمرار هـذا الواقـع، وتنبيهـا إلى أن المـسلم دائمـاً في حاجـة إلى خالقـه عـز وجـل، ولذلك تكرر لفظ "الجلالة" ثلاث مـرات مـع كـل أسـلوب مـن أسـاليب الـشرط، ليـزداد اطمئنان كـل مـن يتوكـل علـى الله. ويجاهـد ويقـاوم كـل المعوقـات في الحيـاة، ويـسعى علـى رزقه سعياً كـريماً، فالله لا يضيع أجر من أحسن عملا، ويختم الحـديث الـشريف بالحث على الصبر، وبأنه أفضل عطاء حيث يقـول ﷺ: "ومـا أعطـي أحـد عطـاء خـيراً وأوسع من الصبر" لأن الصبر جامع لمكـارم الأخـلاق وهـو مـن الإيمـان بمنزلـة الـرأس مـن الجسد، فمن لا صبر له لا إيمان له، وهذا المعنى كما يقول العلمـاء مبـني علـى أن كـل جملة من هذه الجمل الشرطية الثلاث خاصة بفضيلة، وجعل بعضهم معـاني هـذه الجمـل مرتباً كل منها علـى الـتي قبلـها، وفي ذلـك سمـة خاصـة مـن سمـات البيـان النبـوي وهـي التنظيم الدقيق، والترتيب العميق وتفسير ذلك: أن من يطلب العفة عن السؤال ولم يظهـر الإلحاح والمذلـة يعفه الله أي يصيره عفيفاً، ومـن ترقـى عـن هـذه المرتبـة إلى مـا هـو أعلـى مـن إظهـار الاسـتغناء عـن الخلـق لكـن إن أعطـي شـيئاً لم يـرده يمـلأ الله قلبـه غنـى واستغناء بالله عز وجل، ومن ترقى وتصبر وإن أعطى لم يقبل فهو الأعلى مرتبة. فالصبر

جامع لمكارم الأخلاق وليس هناك عطاء خير وأوسع من الصبر، وهو زاد المؤمن في حياته كلها، الصبر مع العمل، والصبر مع السعي على الرزق، والصبر على البلاء، والصبر على النعمة، والصبر على الطاعة، والصبر على الحرمان، وما أوفى جزاء الصابرين حيث يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1].

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم سؤال الفقير للصدقة متى كان محتاجاً ولا مال له، وأنه ينبغي لمن سئل أن يعطي ما لم ينفد ما عنده، وله في ذلك الجزاء العظيم من الله سبحانه وتعالى.

وقد اتفق الفقهاء[2] على أنه يجوز للفقير المعدم[3]، والمدين المغرم[4]، أن يسأل الصدقة للقيام بما عليه من واجب سداد الدين، والإنفاق على أهله ونفسه عند العجز عن الكسب لمرض أو غيره، أو عند عدم كفايته، وإن كان الأفضل له أن يستعفف عن السؤال، وأن يلجأ إلى الله، ويستعين بالصبر حتى يفرج الله عنه، ويشترط للسؤال هنا أن يكون السؤال بقدر الحاجة، وأن لا يذل نفسه بالسؤال، وأن لا يلح فيه، وأن لا يؤذي المسؤول، ويحرم سؤال الصدقة للغني القادر على الكسب، والإنفاق على نفسه وأهله، وإذا سأل الصدقة لم يعط منها، وإذا أخذ وجب عليه ردها، وكره الحنابلة[5] سؤال الصدقة في المسجد والتصدق على السائل فيه.

---

(١) سورة الزمر: ١٠.

(٢) بدائع الصنائع، الكاساني ٤٨/٢، وبريقة محمودية في طريقة محمدية وشريعة نبوية في سرية أحمدية، محمد بن مصطفى الخادمي للخادمي ٢٢٧/٣، والغرر البهية في شرح البهجة الوردية، القاضي أبو يحيى زكريا الأنصاري ٨٣/٤، وحاشيتا قليوبي وعميرة ٢٠٠/٣، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي ٣٧٢/٢، والمغني، ابن قدامة ٢٧٨/٢، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٩٧/٢٤ وما بعدها.

(٣) أي الذي لا يملك شيئًا.

(٤) الذي غرم في الصلح بين المتخاصمين.

(٥) كشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي ٣٧٢/٢.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: بيان كرم وسخاء النبي ﷺ.

ثانياً: من مهام الداعية: توجيه المدعوين إلى ما ينفعهم.

ثالثاً: من أساليب الدعوة: الترغيب.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: فضل العفة والاستغناء عن سؤال الناس.

خامساً: من موضوعات الدعوة: فضل الصبر.

أولاً- من موضوعات الدعوة: بيان كرم وسخاء النبي ﷺ:

إن الكرم والسخاء من كمال الإيمان وحسن الإسلام، وهو دليل حسن الظن بالله تعالى، ويقصد به (إفادة ما ينبغي لا لغرض، فمن يهب المال لغرض جلباً للنفع أو خلاصاً من الذم فليس بكريم. فالكريم من يوصل النفع بلا عوض)[1]، وقد كان النبي ﷺ أكرم الناس وأجود الناس، وهذا ما أكده نص الحديث في قول الراوي "إن ناساً من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، حتى نفد ما عنده، فقال لهم حين أنفق كل شيء بيده: ما يكن عندي من خير فلن أدخره عنكم... إلخ".

قال ابن حجر: (وقوله ﷺ "فلن أدخره عنكم" أي أحبسه وأخبؤه وأمنعكم إياه منفرداً به عنكم، وفيه ما كان عليه ﷺ من السخاء وإنفاذ أمر الله)[2].

وهذا ما أكده الصحابة رضوان الله عليهم، فعن أنس رضي الله عنه قال: ((كان رسولُ الله ﷺ أحسنَ الناس، وأجْوَدَ الناس، وأشجعَ الناس))[3].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ((كان النبيُّ ﷺ أجْوَدَ الناسِ بالخير، وكان أجْوَدَ ما يكون في رمضانَ حِينَ يَلْقَاهُ جبريلُ، وكان جبريلُ عليه السلام يَلقاهُ كلَّ ليلةٍ في رمضانَ حتّى يَنْسَلِخَ، يَعرِضُ عليهِ النبيُّ ﷺ القُرآنَ، فإذا لَقيَهُ جبريلُ عليه السلام كان أجْوَدَ بالخيرِ منَ الرّيح المرسَلَةِ))[4].

---

(١) انظر: التعريفات، الجرجاني، ٢٣٤.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣/٣٩٣.

(٣) أخرجه البخاري ٢٨٢٠، ومسلم ٢٣٠٧.

(٤) اخرجه البخاري ١٩٠٢، ومسلم ٢٣٠٨.

وعن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: ((بينما أسيرُ مع رسول الله ﷺ ومعه الناس مَقْفَلَهُ من حنين فَعَلِقَتِ الناس يسألونه حتى اضطروه إلى سمرة[١]، فخطفت رداءه فوقف النبي ﷺ، فقال: أعطوني ردائي لو كان لي عدد هذه العضاه نعماً لقسمته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذوباً ولا جباناً))[٢].

وعن سهيل بن سعد رضي الله عنه قال: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ ببردة، فقالت: ((يا رسولَ الله، أكسوكَ هذهِ، فأخذَها النبيُّ ﷺ محتاجاً إليها فلبِسَها، فرآها عليه رجلٌ من الصحابةِ فقال: يا رسولَ الله، ما أحسَنَ هذهِ، فاكسُنيها. فقال: نعم. فلما قامَ النبيُّ ﷺ لامَهُ أصحابهُ فقالوا: ما أحسَنتَ حينَ رأيتَ النبيَّ ﷺ أخذَها مُحتاجاً إليها ثم سألتَهُ إياها، وقد عرفتَ أنه لا يُسألُ شيئاً فيَمنَعُه. فقال: رجوتُ برَكتَها حين لَبِسَها النبيُّ ﷺ لعلِّي أُكفَّنُ فيها))[٣] وفي الاقتداء بكرم النبي ﷺ وسخائه تأليف للقلوب، وكسب لمودتها.

ثانياً- من مهام الداعية: توجيه المدعوين إلى ما ينفعهم:

قد أشار الحديث إلى ذلك من قوله ﷺ "ومن يستعفف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يصبره الله وما أُعطي أحد عطاءً خيراً وأوسع من الصبر" فحري بالداعية أن يوجه المدعوين إلى ما ينفعهم ممتثلاً في ذلك بقول النبي ﷺ ((الدِّينُ النَّصِيحَةُ))[٤]، لما في ذلك من عِظم الأجر والفائدة لقوله ﷺ ((مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً))[٥]. وفي الحديث الذي نحن بصدد شرحه شرحًا دعويًا يوجه النبي ﷺ المدعوين إلى ما ينفعهم من العفة، والاستغناء عن الناس، والتصبر صيانة للكرامة، وترفعًا عن المسألة.

---

(١) اسم شجرة بها شوك.

(٢) أخرجه البخاري ٢٨٢١.

(٣) أخرجه البخاري ٦٠٣٦.

(٤) أخرجه مسلم ٥٥.

(٥) أخرجه مسلم ٢٦٧٤.

ثالثاً- من أساليب الدعوة: الترغيب:

الترغيب من الأساليب الدعوية التي ينبغي للداعية استخدامها في دعوته مما يشوق النفس إلى ما رغبت فيه فيحملها ذلك على الانقياد والقبول، وقد ورد هذا الأسلوب في الحديث من قوله ﷺ ومن يستعفف يعفه الله، ومن يتصبر يصبره الله، (وقد أفاد الحث على التعفف والقناعة والصبر على ضيق العيش وغيره من مكاره الدنيا)[1].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: فضل العفة والاستغناء عن سؤال الناس:

(إن العفة والاستغناء عن سؤال الناس من ثمرات الدين ونتاج الإيمان، وهي دليل كمال النفس وعزها، فضلاً عن أنها ركن من أركان المروءة التي ينال بها الحمد والشرف)[2]، ومن أجل ذلك حث النبي ﷺ على التخلق بخلق العفة والاستغناء عن سؤال الناس، وهذا ما ورد في نص الحديث من قوله ﷺ "ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله".

قال ابن حجر: (وفيه الحض على التعفف عن المسألة والتنزه عنها ولو امتهن المرء نفسه في طلب الرزق وارتكب المشقة في ذلك، ولولا قبح المسألة في نظر الشرع لم يفضل ذلك عليها، وذلك لما يدخل على السائل من ذل السؤال ومن ذل الرد إذا لم يعط ولما يدخل على المسؤول من الضيق في ماله إن اعطى كل سائل)[3].

ومن أجل ذلك رغب النبي ﷺ في العفة وحث على عدم سؤال الناس فقال: ((وَأَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلاَثَةٌ: ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ. وَرَجُلٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ، وَعَفِيفٌ ذُو عِيَالٍ))[4] وقال ﷺ ((مَنْ يكفُلَ لِي أَنْ لاَ يَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئاً وأَتَكَفَّلَ لَهُ بالْجَنَّةِ، فَقَالَ ثَوْبَانُ أَنَا فَكَانَ لاَ يَسْأَلُ أَحَداً شَيْئاً))[5]، وفي ذلك بيان عظيم على فضل العفة والاستغناء عن سؤال الناس.

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦٦٢.

(٢) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد ٢٨٨٨/٧.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٩٤/٣.

(٤) أخرجه مسلم ٢٨٦٥.

(٥) أخرجه أبي داود ١٦٤٣، وصححه الألباني ١٤٤٦.

خامساً- من موضوعات الدعوة: فضل الصبر:

هذا ما أشار إليه نص الحديث في قوله ﷺ: "ومن يتصبر يصبره الله وما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر" قال ابن القيم: (والصبر هو حبس النفس عن الجزع والتسخط، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن التشويش)(١)، وهو واجب بإجماع الأمة، وهو نصف الإيمان، فإن الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر.

وقد عظم الله تعالى منزلته وفضله في كتابه العزيز، فأثنى على أهله فقال: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾(٢)، وقد أوجب سبحانه محبته لأهله فقال: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾(٣) وأخبر جل وعلا عن إيجاب الجزاء لأهله بأحسن أعمالهم فقال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾(٤) وبيّن تعالى أن جزاء أهله بغير حساب، فقال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(٥))(٦) قال السعدي: (وهذا عام في جميع أنواع الصبر: الصبر على أقدار الله المؤلمة، فلا يسخطها، والصبر عن معاصيه، فلا يرتكبها، والصبر على طاعته، حتى يؤديها، فوعد الله الصابرين أجرهم بغير حساب، أي: بغير حد، ولا عد، ولا مقدار، وما ذاك إلا لفضيلة الصبر ومحله عند الله، أنه المعين على كل الأمور)(٧).

---

(١) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢/٤٢٦.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٧٧.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٤٦.

(٤) سورة النحل، آية: ٩٦.

(٥) سورة الزمر، آية: ١٠.

(٦) انظر: مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢/٤٢١-٤٢٢.

(٧) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٦٦٧.

الحديث رقم (٢٧)

٢٧- وَعَنْ أبي يَحْيَى صُهَيْبِ بْنِ سِنَانٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**عَجَباً لأمْرِ الْمُؤْمِنِ إنَّ أمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لأحَدٍ إلاَّ للْمُؤْمِنِ: إنْ أصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ، وَإنْ أصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْراً لَهُ**» رواه مسلم(١).

ترجمة الراوي:

صُهَيْب بن سِنان الرومي: صحابي مشهور، عَلَم من أعلام الصحابة وفضلائهم، واسمه صهيب بن سنان بن مالك بن عبد عمرو بن نفيل بن عامر الرَّبَعِيِّ النَّمَرِيِّ، ونقل الوزير أبو القاسم المغربيُّ أنه كان اسمه عميراً فسماه الروم صهيباً، وإنما قيل له الرومي لأن الروم سَبَوْه صغيراً حيث كان أبوه وعمه عاملين لكسرى على الأُبُلة، وكانت منازلهم على دجلة عند الموصل، أو الفرات من أرض الجزيرة، فأغارت الروم عليهم فأخذت صهيباً، وهو صغير من نينوى من أعمال الموصل، فنشأ بالروم، فنشأ ألّكن، فابتاعه منهم بنو كلب، ثم قدموا به مكة، فاشتراه منهم: عبدالله ابن جُدعان، أو أن صهيباً لما كبر وعقل هرب من الروم فقدم مكة، فحالف عبدالله ابن جدعان، وأقام معه حتى مات عبدالله بن جدعان.

هذا عن اسمه، أما كنيته: "أبو يحيى" فكنّاه بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان رضي الله عنه من السابقين البدريين الأولين إلى الإسلام، أسلم هو وعمار بن ياسر في يوم واحد بعد بضعة وثلاثين رجلاً، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في دار الأرقم بن أبي الأرقم، وكان من المستضعفين بمكة الذين عذبوا في سبيل الله، كما كان أسبق الروم إلى الإسلام، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((السُّبَّاق أربعة، أنا سابق العرب، وصهيب سابق الروم، وسلمان سابق الفرس، وبلال سابق الحبَش))(٢) وكان من أرمى

---

(١) برقم ٢٩٩٩/٦٤. أورده المنذري في ترغيبه ٤٩٧٨.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير ٢٩/٨، ٧٢٧٨ وقال الهيثمي في ال مع: رجاله رجال الصحيح غير عمارة ابن زاذان وهو ثقة ٣٠٥/٩.

العرب سهماً وأشدهم بأساً، فشهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ.

ومن صفاته الخلقية: كان رضي الله عنه أحمر شديد الحمرة، ليس بالطويل ولا بالقصير، وهو إلى القصر أقرب، كثير شعر الرأس.

وعندما هاجر إلى المدينة تبعه نفر من المشركين فنثل كنانته، وقال لهم: يا معشر قريش تعلمون أني من أرماكم، ووالله لا تصلون إليّ حتى أرميكم بكل سهم معي، ثم أضربكم بسيفي ما بقي في يدي منه شيء، فإن كنتم تريدون مالي دللتكم عليه، قالوا: فدلنا على مالك ونخلّى عنك، فتعاهدوا على ذلك، فدلهم عليه، ولحق برسول ﷺ فقال رسول الله ﷺ: رَبُحَ البيع أبا يحيى، فأنزل الله عز وجل قوله ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [1] [2].

وكان في هجرته قد أدرك رسول الله ﷺ بقُباء قبل أن يدخل المدينة، ولما وصل المدينة نزل مع من نزل من العزاب من أصحاب رسول الله ﷺ على سعد بن خَيْثَمة، وكان النبي ﷺ قد آخى بينه وبين الحارث بن الصِّمّة.

ولفضله وثقة إخوانه من الصحابة به وتقديرهم له أثرٌ بيّن، ومما يدل على ذلك أن عمر بن الخطاب أوصى إليه بالصلاة بجماعة المسلمين حتى يتفق أهل الشورى، واستخلف على ذلك ثلاثة أيام، وهذا مما أجمع عليه أهل السيَر والعلمِ بالخبر.

وكان رضي الله عنه ممن اعتزل الفتنة بعد مقتل عثمان رضي الله عنه، وأقبل على شأنه، وكان موصوفاً بالكرم والسماحة، فاضلاً، وافر الحرمة، وكان مع فضله وعلو منزلته وارتفاع قدره، صاحب مداعبة وخُلُق حسن، روى عنه أنه قال: جئت النبي ﷺ وهو نازل بقباء، وبين أيديهم رطب وتمر، وأنا أرمد، فأكلت فقال النبي ﷺ أتأكل التمر وأنت أرمد فقلت: إنما آكل على شق عيني الصحيحة، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه [3].

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٠٧.

(٢) أخرجه الطبراني ٢٩/٨ رقم ٧٢٨٩ وقال الهيثمي: رجاله ثقات، ٣٧/٨، ٧٣٠٨، ٣١٨/٦.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤٩١/٤، ٥٧٥٦ وقال: صحيح الإسناد، والنواجذ جوانب الأسنان.

وكان رضي الله عنه من أصحاب الرواية، فله في كتب الحديث (٣٠٧) حديثاً.

مات سنة ٣٨هـ، وقيل سنة ٣٩، وهو ابن ٧٣ سنة أو ٧٠، أو (٨٤)، أو (٩٠) سنة.

مات بالمدينة المنورة، وصلى عليه سعد بن أبي وقاص، ودفن بالبقيع رضي الله عنه[1].

غريب الألفاظ:

سرّاء: النعمة والرخاء والمسرة[2].

الضراء: كل حالة تضر[3].

الشرح الأدبي

إن للمؤمن في المنظور الإسلامي صفات وأمارات تشهد بصدق إيمانه، وتؤكد رسوخ عقيدته، لأنه يمتثل في أقواله وأفعاله بكل ما يتطلبه الإيمان من أركان، فالإيمان كما يقول العلماء هو: التصديق بالجنان، والإقرار باللسان، والعمل بالأركان.

والمصطفى صلى الله عليه وسلم يؤكد حقيقة السلوك الإيماني في مصاحبته للأمور الحياتية ، وفي مواجهته واستقباله للأحداث، والمؤمن في كل هذه الحالات ينبض قلبه بالشكر في السراء، وبالصبر في الضراء؛ فالخير دائماً مكافآته، لأنه لا يجحد النعمة، ولا يقنط ولا ييأس أمام المصائب.

ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا البيان النبوي، ويبدأ الحديث بشعاع من بلاغة المصطفى صلى الله عليه وسلم في قوله: "عجباً لأمر المؤمن" فالرسول لا يتعجب عن استغراب، ولكنه يقدر قيمة هذه الصفة في المؤمن فحياته كلها خير، والكلام فيه إيجاز

(١) الطبقات، ابن سعد ٣/٢٢٦-٢٣٠، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٣٣٩-٣٤١، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير ٣/٣٨-٤١، الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ٦١٨-٦١٩، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي ٣/٤٦٨، تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٢/٢١٨، ٢١٩، الأعلام، خير الدين الزركلي ٣/٢١٠، موسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك ٢/١٠٧٣، ١٠٧٨.

(٢) الوسيط في (س ر ر).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير والوسيط في (ض ر ر).

واختصار والتقدير أعجب عجباً، وهذا ما يسميه البلغاء: بلاغة الحذف، ولفظ "أمر" يعني الشأن وهو لفظ قليل الحروف، متعدد الدلالات، لأنه يختصر آلاف الحالات التي تتلبث بها حياة المؤمن في كل مراحل حياته؛ في أفراحها وأتراحها.

واختيار لفظ "المؤمن" والعدول به عن لفظ "المسلم" فيه إرشاد وتنبيه إلى أن مرتبة الإيمان أعلى من مرتبة الإسلام، وخير دليل على ذلك قول الله عز وجل: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾[1].

وللعلماء في هذه القضية أقوال وآراء نابعة من تقديرهم لقيمة البيان النبوي، وتعدد آرائهم حول بيان المراد من البيان الجامع المانع لرسول الله ﷺ، فقد أُعطي جوامع الكلم، والمراد بالمؤمن هنا الكامل الإيمان وهو كما يقول العلماء. العالم بالله الراضي بأحكامه، العامل على تصديق موعوده.

ومصدر التعجب هو: جمع المؤمن بين ما يظن أنهما متناقضان: وهما السراء والضراء، فهما في الحقيقة خير: لأنهما من تقدير الله عز وجل؛ ولنتأمل تكرار لفظ "المؤمن" في قوله ﷺ: "وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن"، ولم يقل إلا له: حيث وضع الظاهر موضع المضمر بدافع الإعلاء من شأن كل مؤمن يتسم بهذه السمة الإيمانية في استقباله لأحداث الحياة، وصيغة القصر تغلف هذه الخصوصية التي اختص بها رسول الله ﷺ المؤمن حين يقصر هذه الصفة على المؤمن وهي صفة "الخيرية" ولفظ "أحد" عام شامل يحوي كل أصناف البشر الخارجين بعيداً عن دائرة "الخير" والمؤمن صفة تنطبق كذلك على الملايين الذين يتسمون بهذا السلوك الإيجابي، وهذه الصفة المتوازنة في الحياة؛ ولنتأمل الجملتين الأخيرتين، فهما قد صيغتا في قالب الشرط والجزاء دلالة على أن المقدمات مهما كانت فإن النتيجة في صالح المؤمن، فهو في السراء شاكر، وهو في الضراء صابر، ومن مظاهر الجمال الأسلوبي في هذا الحديث: مراعاة النظير في بناء الجملتين، والتوازي والتوازن في ترتيب عناصرهما، وكذلك السجع بين سراء

---

(١) سورة الحجرات، آية: ١٤.

وضراء وشكر وصبر وهو يحدث إيقاعاً وتناغما يجذب السامع، ويدعو إلى التفكير في كيفية الجمع بين هاتين الحالتين المتناقضتين، وهو ما يسمونه الطباق في بلاغة العرب وهو من مظاهر البديع في الأسلوب، وكأن هذه السمات الأسلوبية الجميلة التي تعطي للكلام وهجاً وحسناً وإيقاعاً. وانجذاباً للقارئ، وهي تمثل صورة ذلك المؤمن بين غيره من البشر فأمره كله خير.. وهم لذلك يحبون أن يكونوا مثله، وأن ينالوا مثل أجره من الثواب والجزاء.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التعجب، والترغيب.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: حسن حال المؤمن.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: فضل الشكر.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: فضل الصبر على الابتلاء.

أولاً- من أساليب الدعوة: التعجب، والترغيب:

إن التعجب من الأساليب الدعوية التي يكون بها لفت انتباه المدعوين واستحضار أذهانهم: لبيان أهمية وعظم الأمر المدعو إليه، وهذا ما ظهر جلياً في الحديث (من تعجبه ﷺ لأمر المؤمن، وذلك على وجه الاستحسان؛ لأن أمره كله خير، فإن شكر على نعمة كان خيراً له، وإن صبر على بلية كان خيرًا له، وليس ذلك لأحد إلا المؤمن)[١].

أما الترغيب (فهو من الأساليب الدعوية المهمة التي ينبغي للداعية أن يسلكها في إرشاد المدعوين وحملهم على التشمير عن ساعد الجد في طاعة الله تعالى لنيل السعادة في الدنيا والآخرة)[٢]، وهذا ما ورد في الحديث من ترغيبه ﷺ في شكر الله على نعمه والصبر على ابتلائه وقدره، لما في ذلك من رفع الدرجات وغفران الزلات ونعيم

---

(١) انظر: شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين، ١/ ٧٩.

(٢) انظر: هداية المرشدين، علي محفوظ، ١٩٢.

الجنات، وذلك في قوله ﷺ "إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له".

ثانياً- من موضوعات الدعوة: حسن حال المؤمن:

هذا ما أكده نص الحديث، وفي بيان ذلك قال ابن عثيمين: (إن المؤمن على كل حال ما قدَّر الله له فهو خير له إن أصابته الضراء صبر على أقدار الله، وانتظر الفرج من الله، واحتسب الأجر على الله فكان خيرًا له، فنال بهذا أجر الصابرين، وإن أصابته سراء من نعمة دينية كالعلم والعمل الصالح، ونعمة دنيوية: كالمال والبنين والأهل شكر الله، وذلك بالقيام بطاعة الله عز وجل فيكون خيراً له، ويكون له نعمتان: نعمة الدين، ونعمة الدنيا، نعمة الدنيا بالسرَّاء، ونعمة الدين بالشكر، وهذا حال المؤمن)[(١)] وفي ذلك بيان على حسن حال المؤمن.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: فضل الشكر:

هذا ما أكد عليه نص الحديث وعظّم منزلته، في قوله ﷺ "... إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له".

(والشكر هو ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده: ثناء واعترافاً، وعلى قلبه: شهوداً ومحبة، وعلى جوارحه: انقياداً وطاعة)[(٢)].

(وقد أمر الله به، ونهى عن ضده، وأثنى على أهله، ووصف به خواص خلقه، وجعله غاية خلقه وأمره، ووعد أهله بأحسن جزائه، وجعله سبباً للمزيد من فضله، وحارساً وحافظاً لنعمته، وأخبر أن أهله هم المنتفعون بآياته، واشتق لهم اسماً من أسمائه، فإنه سبحانه هو "الشكور" وهو يوصل الشاكر إلى مشكوره بل يعيد الشكر مشكوراً، وهو غاية الرب من عبده، وأهله هم القليل من عباده قال الله تعالى: ﴿وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[(٣)].

---

(١) المرجع السابق.

(٢) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢/٥٧٥.

(٣) سورة النحل، آية: ١١٤.

وقال تعالى: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾(١)، وقال عن خليله إبراهيم عليه السلام ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٠ شَاكِرًا لِّأَنۡعُمِهِ﴾(٢)، وقال عن نوح عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدًا شَكُورًا﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾(٤)، وقال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾(٥)، وقال تعالى: ﴿وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾(٦)، وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ﴾(٧)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾(٨).

وسمى نفسه "شاسكراً" و"شكوراً" وسمى الشاكرين بهذين الاسمين. فأعطاهم من وصفه، وسماهم باسمه، وحسبك بهذا محبة للشاكرين وفضلاً.

وإعادته للشاكر مشكوراً. كقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا﴾(٩)، ورضى الرب عن عبده به. كقوله: ﴿وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ﴾(١٠)، وقلة

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٥٢.

(٢) سورة النحل، الآيتان: ١٢٠-١٢١.

(٣) سورة الإسراء، آية: ٣.

(٤) سورة النحل، آية: ٧٨.

(٥) سورة العنكبوت، آية: ١٧.

(٦) سورة آل عمران، آية: ١٤٤.

(٧) سورة إبراهيم، آية: ٧.

(٨) سورة لقمان، آية: ٣١.

(٩) سورة الإنسان، آية: ٢٢.

(١٠) سورة الزمر، آية: ٧.

أهله في العالمين تدل على أنهم هم خواصه. كقوله: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾[١])[٢].

وقد كان النبي ﷺ هو القدوة والأسوة في شكر الله حق شكره؛ فعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه ((أن النبي ﷺ صلى حتى انتفخت قدماه، فقيل له: أتكلف هذا؟ وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال: أفلا أكون عبداً شكوراً))[٣].

قال القاضي عياض: (وقوله: "أفلا أكون عبداً شكوراً"، الشكر: معرفة إحسان المحسن والتحدث به، وسمي المجازاة على فعل الجميل شكراً؛ لأنها بمعنى الثناء عليه وسطوته على ذلك، والشكر بالفعل أظهر منه بالمقال، وشكر العباد لله: اعترافهم بنعمه وثناؤهم عليه، وتمام ذلك مواظبتهم على طاعته، قال الله تعالى: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾[٤])[٥]، وهذا ما أكده ابن قدامة في قوله: (والشكر يكون بالقلب واللسان والجوارح. أما القلب فهو أن يقصد الخير ويضمره للخلق كافة. وأما باللسان: فهو إظهار الشكر لله بالتحميد، وإظهار الرضى عن الله تعالى.

أما الجوارح: فهو استعمال نعم الله في طاعته، والتوقي من الاستعانة بها على معصيته، فمن شُكر العينين أن تستر كل عيب تراه للمسلم، ومن شكر الأذنين أن تستر كل عيب تسمعه)[٦].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: فضل الصبر على الابتلاء:

هذا ما أشار إليه الحديث في قوله ﷺ "وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له" (والابتلاء في الأصل هو التكليف بالأمر الشاق، لكنه لما استلزم الاختبار إلى من يَجهلُ

---

(١) سورة سبأ، آية: ١٣.

(٢) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢/٥٧٢-٥٧٣.

(٣) أخرجه البخاري ١١٣٠، ومسلم ٢٨١٩.

(٤) سورة إبراهيم، آية: ٧.

(٥) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٨/٣٥٥.

(٦) مختصر منهاج القاصدين، ابن قدامة المقدسي ٣٠٥.

العواقبَ ظُنَّ ترادُفُهما، وينقسم الابتلاء إلى قسمين: الأول: الابتلاء بالشر، وهو مناط الصبر. والثاني: الابتلاء بالخير، وهو مناط الشكر، وفيما يتعلق بالنوع الأول -وهو مقصود الحديث- فإنه يشمل الابتلاء بالمحن والكوارث ونقص الأموال والأنفس والثمرات مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾[1]. وهنا يكون الصبر والرضا هما المقياس الحقيقي للإيمان الصادق)[2].

قال ابن كثير: (أخبر تعالى أنه يبتلي عباده المؤمنين، أي: يختبرهم ويمتحنهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾[3] فتارة بالسراء، وتارة بالضراء من خوف وجوع، كما قال تعالى: ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾[4].

فإن الجائع والخائف كل منهما يظهر ذلك عليه؛ ولهذا قال: لباس الجوع والخوف. وقال هاهنا "بشيء من الخوف والجوع" أي: بقليل من ذلك "ونقص من الأموال" أي: ذهاب بعضها "والأنفس" كموت الأصحاب والأقارب والأحباب "والثمرات" أي: لا تُغِلّ الحدائق والمزارع كعادتها. كما قال بعض السلف: فكانت بعض النخيل لا تثمر غير واحدة. وكل هذا وأمثاله مما يختبر الله به عباده، فمن صبر أثابه الله، ومن قنط أحلّ الله به عقابه. ولهذا قال: "وبشر الصابرين".

ثم بين تعالى حقيقة الصابرين الذين شكرهم، فقال: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٥٥.

(٢) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد ٦/٢٤٤٥-٢٤٤٦.

(٣) سورة محمد، آية: ٣١.

(٤) سورة النحل، آية: ١١٢.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾[1] أي: تسلّوا بقولهم هذا عما أصابهم، وعلموا أنهم ملْك لله يتصرف في عبيده بما يشاء، وعلموا أنه لا يضيع لديه مثقال ذرة يوم القيامة، فأحدث لهم ذلك اعترافهم بأنهم عبيده، وأنهم إليه راجعوان في الدار الآخرة. ولهذا أخبر تعالى عما أعطاهم على ذلك فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾[2] أي: ثناء من الله عليهم ورحمة.

قال سعيد بن جبير: أي أمنةٌ من العذاب ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾[3] قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: نعم العدلان ونعمت العلاوة "أولئك عليكم صلوات من ربهم ورحمة" فهذان العدلان "وأولئك هم المهتدون" فهذه العلاوة، وهي ما توضع بين العدلين، وهي زيادة في الحمل وكذلك هؤلاء، أعطوا ثوابهم وزيدوا أيضاً)[4].

وقد أكد النبي صلى الله عليه وسلم على عموم فضل الصبر على الابتلاء، بأن جعل عاقبته الجنة، فعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال لعطاء: ((أَلاَ أُرِيكَ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ قُلْتُ: بَلَى. قَالَ: هذِهِ الْمَرْأَةُ السَّوْدَاءُ. أَتَتِ النَّبِيَّ قَالَتْ: إِنِّي أُصْرَعُ. وَإِنِّي أَتَكَشَّفُ. فَادْعُ اللّهَ لِي. قَالَ: إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الْجَنَّةُ. وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللّهَ أَنْ يُعَافِيَكِ. قَالَتْ: أَصْبِرُ. قَالَتْ: فَإِنِّي أَتَكَشَّفُ. فَادْعُ اللّهَ أَنْ لاَ أَتَكَشَّفَ، فَدَعَا لَهَا))[5].

وعن أنس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((إن الله عز وجل قال: إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه، فصبر عوضته منهما الجنة يريد عينيه))[6].

وقد بين ابن القيم: (أن هناك ثلاثة أشياء، تبعث المتلبس بها على الصبر في البلاء:

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٥٦.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٥٧.

(٣) سورة البقرة، آية: ١٥٧.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١/٤٦٧-٤٦٨.

(٥) أخرجه البخاري ٥٦٥٢، ومسلم ٢٥٧٦.

(٦) أخرجه البخاري ٥٦٥٣.

إحداها: ملاحظة حسن الجزاء. وعلى حسب ملاحظته والوثوق به ومطالعته يخف حمل البلاء، لشهود العوض؛ وهذا كما يخف على كل متحمل مشقة عظيمة حملها، لما يلاحظه من لذة عاقبتها وظفره بها؛ ولولا ذلك لتعطلت مصالح الدنيا والآخرة، وما أقدم أحد على تحمل مشقة عاجلة إلا لثمرة مؤجلة، فالنفس موكلة بحب العاجل، وإنما خاصة العقل: تلمح العواقب، ومطالعة الغايات.

وأجمع عقلاء كل أمة على أن النعيم لا يدرك بالنعيم، وأن من رافق الراحة فارق الراحة (وحصل على المشقة وقت الراحة في دار الراحة)، فإن على قدر التعب تكون الراحة.

على قدر أهل العزم تأتي العزائم ... وتأتي على قدر الكريم الكرائم

ويكبر في عين الصغير صغيرها ... وتصغر في عين العظيم العظائم

والقصد: أن ملاحظة حسن العاقبة تعين على الصبر فيما تتحمله باختيارك وغير اختيارك.

والثاني: انتظار روح الفرج. يعين راحته ونسيمه ولذته؛ فإن انتظاره ومطالعته وترقبه يخفف حمل المشقة، ولا سيما عند قوة الرجاء، أو القطع بالفرج؛ فإنه يجد في حشو البلاء من روح الفرج ونسيمه وراحته ما هو من خفي الألطاف، وما هو فرج معجل، وبه -وبغيره- يفهم معنى اسمه "اللطيف".

والثالث: تهوين البلية بأمرين.

أحدهما: أن يعد نعم الله عليه وأياديه عنده. فإذا عجز عن عدها، وأيس من حصرها، هان عليه ما هو فيه من البلاء ورآه -بالنسبة إلى أيادي الله ونعمه- كقطرة من بحر.

الثاني: تذكر سوالف النعم التي أنعم الله بها عليه؛ فهذا يتعلق بالماضي؛ وتعدد أيادي المنن: يتعلق بالحال؛ وملاحظة حسن الجزاء، وانتظار روح الفرج: يتعلق بالمستقبل. وأحدهما في الدنيا، والثاني يوم الجزاء[1].

---

(١) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢/٤٤٥-٤٤٧.

الحديث رقم (٢٨)

٢٨- وعنْ أَنسٍ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا ثقُلَ النَّبيُّ ﷺ جَعَلَ يتغشَّاهُ (الكرْبُ)[1] فقَالتْ فاطِمَةُ رضي الله عنها: واكَرْبَ أبَتَاهُ، فَقَالَ[2]: «ليْسَ عَلَى أبيك كرْبٌ بعْدَ اليَوْمِ» فلمَّا مَاتَ قالَتْ: يَا أبتَاهُ أَجَابَ ربّاً دعَاهُ، يا أبتَاهُ[3] جنَّةُ الفِرْدَوْسِ مأوَاهُ، يَا أَبَتَاهُ إِلَى جبْريلَ نَنْعَاهُ، فلَمَّا دُفنَ قالتْ فاطِمَةُ رضي الله عنها[4]: أطَابتْ أنفسُكُمْ أَنْ تَحْثُوا علَى رسُول الله ﷺ التُّرابَ؟ روَاهُ البُخاريُّ[5].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٥).

غريب الألفاظ:

يتغشّاه: يُلابسه وينتابه[6].

الكَرْبُ: الشِّدّة والخطب العظيم[7].

واكرب أبتاه: ما أعظم شدَّتك يا أبتاه[8].

الفردوس: قال ﷺ: ((إذا سألتم الله الجنة، فاسألوه الفردوس؛ فإنه أعلى الجنة، وأوسط الجنة، وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجَّر أنهار الجنَّة))[9].

---

(١) أي يشتد به الوجع حتى يصير كالمغشي عليه.

(٢) عند البخاري زيادة: (لها)، وهي لا توجد عند الحميدي.

(٣) عند البخاري زيادة: (من). وهي لا توجد عند الحميدي.

(٤) عند البخاري زيادة: (يا أنس)، وهي لا توجد عند الحميدي.

(٥) برقم ٤٤٦٢. والسياق للحميدي في جمعه ٦٢٤/٢، رقم ٢٠٦٠.

(٦) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير والوسيط في (غ ش ي).

(٧) الصحاح والوسيط في (ك ر ب).

(٨) انظر: شرح الطيبي، الطيبي ١٧٩/١١، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧٥٦/٧، وعمدة القاري، العيني ٧٥/١٨، والوسيط ٩١٠.

(٩) أخرجه البخاري ٧٤٢٣.

مأواه: منزله(١).

نَنعاه: من نعى الميت: إذا أذاع موته وأخبر به(٢).

تحثوا: أي تهيلوا التراب عليه ﷺ من أجل دفنه ﷺ(٣).

الشرح الأدبي

هذا الحديث الشريف يصور حالة الحزن والرضا بقضاء الله وقدره ساعة احتضار النبي ﷺ، وقمة الصبر تتجلى في مواجهة الكروب، وأي كرب أفدح من فراق الحبيب المصطفى، والنبي المجتبى محمد بن عبدالله رسول الله وخاتم النبيين، وهو القدوة الحسنة في مواجهة الشدائد كلها حتى أمام هذه اللحظة التي يضعف أمامها القياصرة والأكاسرة والطغاة والجبابرة وهي لحظة الموت.

ولكن المصطفى ﷺ يواجه سكرات الموت وما أشدها بالامتثال والصبر والفرح بلقاء ربه الذي أرسله رحمة للعالمين، والحديث حوار بين الثلاثة بين خير الخلق محمد عبدالله ورسوله ﷺ وابنته أحب خلق الله إليه، وبين فاطمة رضي الله عنها وأنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ.

وتتعدد عبارات الحديث - فمنها ما كان لأنس رضي الله عنه، ومنها ما تفوه به رسول الله ﷺ، ومنها ما نطقت به فاطمة رضي الله عنها، ولنتأمل كيف صورت دلالة الألفاظ وأبنيتها وقائع هذا الحدث الجلل، والمصاب الفادح، فقول: أنس : "لما ثقل النبي ﷺ" كناية عن شدة المرض والوجع والألم.

ولنتأمل موحيات هذه العبارة الناضحة بالمرارة والأسى، "جعل يتغشاه الكرب"، وهى توحي بأن الشدة من سكرات الموت أحاطت برسول الله ﷺ وكأنها الموج يعلو.. شيئاً فشيئاً ويحيط به من كل جانب، وقيل إن هذه الشدة: لعلو درجته وشرف رتبته،

(١) عمدة القاري، العيني ١٨/٧٥.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٩٢٨.

(٣) انظر: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الفيومي ، والوسيط في (ح ث و).

وفي الحديث "أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل"[(١)(٢)].

وأي حزن يضارع حزن فاطمة رضي الله عنها وهي ترى أباها في هذه اللحظة فتهتف في سكينة ومحبة وأسى: "واكرب أبتاه" وهذه الصيغة تأتي للندبة.. وتقال في مقام الندب والحزن، وهذا الحزن الذي يستضيء بقضاء الله وقدره يقابله المصطفى ﷺ بالصبر على البلاء والرضا بالقضاء، والفرح باللقاء، لقاء الرحيم الرحمن، حيث يُطَمْئِنُ الأب - النبي المصطفى ﷺ- ابنته رضي الله عنها ويغمر مشاعرها بالسكينة والرضا: فيقول: "ليس على أبيك كرب بعد اليوم". ولنتأمل ماذا وراء لفظ أبيك ووط يُشعه من هالات وعواطف، ولم يقل ليس علي، أو ليس على النبي أو الرسول: وإنما صفة الأبوة هنا يستدعيها المقام ويتطلبها الحال؛ والمشهد الثاني يشرق بهذه العبارات البليغة والكلمات المؤمنة الرصينة، النابعة من صدر مكلوم، وقلب ملتاع، ونفس آلمها الفراق، ولكنها تمزج نُدبتها بالدعاء والرجاء، والاستسلام لحكم القضاء الإلهي.

وما أشد تأثير هذه العبارات في كل النفوس، وما أعظم صدقها في التعبير عن المشاعر وتقديم النافع من الدروس. وتكرار لفظ "يا أبتاه" بما تضمنه من نداء ولهفة، وندبة ورجفة ، يوحي بقوة العاطفة، وشدة المصاب، وألم الفراق . تقول فاطمة: "يا أبتاه: أجاب ربا دعاه، يا أبتاه: جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه".

والمشهد الثالث في الحديث يرصد لحظة دفن رسول الله ﷺ، وترى فاطمة رضي الله عنها أباها وهو يُوارَى في التراب، فتقول في أسىً وعاطفة واستسلام، "يا أنس أطابت أنفسكم أن تحثو على رسول الله ﷺ، التراب".

وقيل إن أنسًا سكت عن جوابها: رعاية لها، ولسان حاله يقول: لم تطب أنفسنا بذلك، إلا أنا قهرنا على فعله امتثالاً لأمره.

وهذه اللحظة لم تكن قاسية على فاطمة بنت رسول الله فقط، ولكن الصحابة الأخيار، والكرام الأطهار انتابتهم بعض لحظات الضعف الإنساني في مثل هذه

---

(١) أخرجه أحمد ١٧٢ رقم ١٤٨١، وقال محققو المسند: إسناده حسن ٧٨/٣.

(٢) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١٤٧/١.

المواقف، وأي موقف أجل، وأي مصاب أفدح من مصاب فراق رسول الله ﷺ، حبيب الرحمن والمبعوث رحمة للعالمين، وقيل إن عثمان بن عفان رضي الله عنه حينما أُخبر بموت النبي ﷺ "أخرس" فجعل لا يكلم أحداً، فيؤخذ بيده ويُجاء به فينقاد، وأما عليّ رضي الله عنه فقيل: إنه ليط بالأرض أي: سقط من قيام كأنما صُرع، فقعد ولم يبرح البيت، حتى دخل أبو بكر، وأما عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد كذّب الخبر في أول الأمر وقال: "ما مات" ولكنه بعد ذلك أذعن وصدّق حينما "يتقن" من الخبر وقال حينما أسمعه أبو بكر قول الله عز وجل: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[1]. فقال : والله لكأني لم أسمع بها في كتاب الله من قبل، لما نزل بنا، أشهد أن الكتاب كما نزل، وأن الحديث كما حدث. وأن الله حي لا يموت، وإنا لله وإنا إليه راجعون، ثم جلس إلى جنب أبي بكر رضي الله عنهما.

وما أصدق هذه الكلمات الوضيئة التي تفوه بها أبو بكر رضي الله عنه وهو يرى لحظة احتضار رسول الله ﷺ فقد دخل رضوان الله عليه -كما يروى- على النبي ﷺ، وهو مُسجًّى بثوب فكشف عنه الثوب وقال: "بأبي أنت وأمي: طبت حياً وميتا.

إن هذا الحديث الشريف يعد أعظم درس في الامتثال والإذعان لأمر الله عز وجل، وما أجدر بكل مسلم أن ينقش هذه الكلمات المضيئة بالصبر والإيمان والامتثال في قلبه، وأن يتخذها نبراساً في كل الشدائد والكروب والمصائب. إنها كلمات فاطمة رضي الله عنها "يا أبتاه: أجاب رباً دعاه، يا أبتاه: من جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه.." صلى الله وسلم عليك يارسول الله، وطبت حياً وميتاً وجمعنا الله بك في الفردوس الأعلى مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

---

(١) سورة الزمر، آية: ٣٠.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكمين فقهيين:

الأول: حكم التوجع للميت عند احتضاره، وقد ذكر الفقهاء[١] أنه يجوز التوجع للميت عند احتضاره على نحو ما فعلت فاطمة رضي الله عنها في هذا الحديث، وكذا أجاز الشافعية البكاء عليه قبل موته، والأولى عندهم ترك البكاء مع وجوب الاستغفار للمحتضر.

الثاني: حكم ذكر محاسن الميت، وقد ذكر الفقهاء[٢] أنه يجوز تعداد محاسن الميت وذكرها على نحو ما فعلت فاطمة رضي الله عنها، وذكر الحنفية أنه لا بأس بترثية الميت بشعر ونحوه، بشرط عدم الإفراط فيه، وكره الشافعية ترثية الميت بذكر آبائه وخصائله وأفعاله، والأولى الاستغفار له، وذكر الحنابلة أن ما هيج المصيبة من وعظ أو شعر ونحوه فهو من النياحة المنهي عنها.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: ذكر الموت وشدته.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: جواز نعي الميت.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: بيان حب فاطمة رضي الله عنها للنبي صلى الله عليه وسلم.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٤٩/٨، وحاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني، علي بن أحمد العدوي ٤٠٩/١، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢٨٠/٥، ونيل الأوطار، الشوكاني ١٦١/٤.

(٢) الجوهرة النيرة شرح مختصر القدوري، أبو بكر الحوازي اليمني ١٠٨/١، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٤٩/٨، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢٨٠/٥، وتحفة المحتاج في شرح المنهاج، ابن حجر ١٨٠/٣، والمغني، ابن قدامة ٢١٣/٢، مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، الشيخ مصطفى السيوطي ٩٢٥/١، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي ١٦٣/٢، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٩٨/٢٢.

أولاً- من موضوعات الدعوة: ذكر الموت وشدته:

(إن في رسول الله ﷺ أسوة حسنة في كل أحواله، ومعلوم أنه ليس في المخلوقين أحد أحب إلى الله تعالى منه، وقد لقي ﷺ من الموت شدة)[١]، أشار إليها نص الحديث في قول أنس رضي الله عنه "لما ثقل النبي ﷺ جعل يتغشاه الكرب فقالت فاطمة رضي الله عنها: واكرب أبتاه ... إلخ" وهذا ما أكدته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في قولها: ((إن رسول الله ﷺ كان بين يديه رَكوةٌ -أو علبةٌ فيها ماء- يَشك عمرُ. فجعل يُدخل يَده في الماء فيمسَحُ بها وجهَهُ ويقول: لاإلهَ إلا الله، إن للموتِ سَكرات. ثم نَصبَ يدَه فجعلَ يقول: في الرفيق الأعلى. حتى قُبِضَ ومالت يدُه))[٢]، وقالت رضي الله عنها: ((مَا أَغْبِطُ أحَداً بَهونِ مَوْتٍ بَعْدَ الّذِي رَأَيتُ مِنْ شِدَّةِ مَوْتِ رسول الله))[٣]، وفي ذلك بيان عظيم على شدة الموت وسكراته.

قال ابن قدامة: (اعلم أنه لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كرب، ولا هول سوى الموت، لكان جديراً أن يتنغص عليه عيشه، ويتكدر عليه سروره، وتطول فيه فكرته، والعجب أن الإنسان لو كان في أعظم اللذات، فانتظر أن يدخل عليه جندي يضربه خمس ضربات، (لكدرت)[٤] عليه عيشه ولذته، وهو في كل نفس بصدد أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات النزع، وهو غافل عن ذكر ذلك، وليس لهذا سبب إلا الجهل والغرور.

اعلم أن الموت أشد من ضرب السيف. وإنما يصيح المضروب، ويستغيث لبقاء قوته، وأما الميت عند موته، فإنه ينقطع صوته من شدة ألمه؛ لأن الكرب قد بالغ فيه، وغلب على قلبه وعلى كل موضع منه، وضعفت كل جارحة فيه، فلم يبق فيه قوة لاستغاثة، ويود لو قدر على الاستراحة بالأنين والصياح والاستغاثة، وتجذب الروح من جميع العروق، ويموت كل عضو من أعضائه تدريجاً، فتبرد أولاً قدماه، ثم ساقاه، ثم

---

(١) انظر: مختصر منهاج القاصدين، ابن قدامة المقدسي ٤٢٦.

(٢) أخرجه البخاري ٦٥١٠ واللفظ له، ومسلم ٢٤٤٤.

(٣) أخرجه الترمذي ٩٧٩، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٧٨٣).

(٤) في المطبوع (لدكرت) وهو قلب من الناسخ.

فخذاه، حتى تبلغ الحلقوم، فعند ذلك ينقطع نظره إلى الدنيا وأهلها، ويغلق دونه باب التوبة)[١].

ومما لا شك فيه أن ذكر الموت وشدته، يكون به التزود بالصالحات وترك المنكرات، والاستعداد للقاء رب العباد، قال ابن الجوزي: (يا ابن آدم إلى حسن العمل، بينا أنت في فسحة ومهل، وتب إلى مولاك من قبيح الخطايا والزلل، قبل أن يقال فلان عليل، أو مدنف ثقيل، فهل إلى دوائه سبيل، أو على طبيب من دليل، فتدعى لك الأطباء، ويجمع لك الدواء فلا يزيدك ذلك إلا بلاء. وقد اجتمع عند الإخوان والأحباء، والأهل والأقرباء، وكثر حولك البكاء، ثم يقال: حشرْج ونفسه توشك أن تخرج، وأنت تعاين الأمر العظيم بعد اللذة والنعيم، وعدلت ببصرك عن القريب والحميم، وحل بك القضاء، وخرجت الروح من الأعضاء، ثم عرج بها إلى السماء، فيا لها من سعادة أو شقاء. وأنشدوا:

فلو يكن شيء سوى الموت والبلى ... وتفريق أعضاء ولحم مبدد

لكنت حقيقاً يا ابن آدم بالبكا ... على نائبات الدهر مع كل مسعد

فاستعذ من ذنوبك يا مسكين، قبل عرق الجبين، وانتشار العرقين، وقبل مد الشمال وقبض اليمين، وتضعيف قوتك بالأنين، ويكثر حواليك بالبكا والحنين وجرت دموعك لمفارقة الأهل والبنين، ولا ينفعك ما جمعت من الأموال في الشهور والسنين، ثم أنت في قبرك لعملك رهين، إلى يوم عرضك على أسرع الحاسبين. قد تغير جسمك في الجنادل والتراب، بعد تنعمك بدقائق الشباب.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: نعي الميت:

هذا ما ورد في الحديث من قول فاطمة رضي الله عنها "يا أبتاه إلى جبريل ننعاه"، والنعي هو الإخبار بموت الميت[٢]. قال ابن هبيرة: (وقولها: "إلى جبريل ننعاه"، تشير بذلك إلى انقطاع

---

(١) مختصر منهاج القاصدين، ابن قدامة المقدسي ٤٢٣.

(٢) شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين، ٨١/١.

نـزول جبريـل بوقـوع الفرقـة بينهمـا في الـدنيا فكـأنهـا تقـول: أو أنعـي النـاس الميت إلى أمثـالهم، ننعيـه إلى جبريـل مـن أهـل السـماء، وهـذا منهـا عليها السلام نعـت محـزون وقولهـا: ننعاه، فكأنها تقول: لست أنا وحدي أنعاه؛ ولكن أنا والأمة ننعاه(١). وفي ذلك بيان على جـواز نعي الميـت. وهـذا مـا فعلـه الرسـول ﷺ حـين بلغـه مـوت النجاشـي، فنعـاه إلى المسلمين، وفعله حين بلغه وفاة جعفر بن أبي طالب.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: بيان حب فاطمة رضي الله عنها للنبي ﷺ:

يظهر ذلك في الحديث من قول فاطمة رضي الله عنها: واكرب أبتاه، وقولها للصحابة رضي الله عنهم عقب دفنهم لرسول الله ﷺ "أطابت أنفسكم أن تحثُوا على رسول الله ﷺ التراب".

قال ابن حجر: (وأشارت عليها السلام بذلك إلى عتابهم على إقدامهم على ذلك لأنـه يـدل على خلاف ما عرفته منهم من رقة قلوبهم عليـه لشدة محبتهم لـه، وسـكت أنـس رضي الله عنه عن جوابها رعاية لها ولسان حاله يقول: لم تطب أنفسنا بذلك، إلا أنا قهرناها على فعله امتثالاً لأمره. وقد قال أبو سعيد فيما أخرجه البزار بسند جيد "وما نفضنا أيدينا من دفنه حتى أنكرنا قلوبنا")(٢).

ويظهر حب فاطمة رضي الله عنها للنبي ﷺ جلياً من قول عائشة رضي الله عنها: ((دَعا النبيُّ ﷺ فاطمةَ عليها السلام في شكواهُ الذي قُبضَ فيه، فسارَّها بشيء فبَكت، ثم دَعاها فسارَّها بشيء فضحكت، فسألناها عن ذلك فقالت: سارَّني النبيُّ ﷺ أنه يُقبَضُ في وَجَعِهِ الذي تُوفِّيَ فيه فبكَيتُ، ثم سارَّني فأخبرَني أني أولُ أهلِهِ يتَبَعُهُ فضحكت))(٣) وفي بكائها رضي الله عنها لفراق النبي ﷺ وفرحها في أنها أول من يلحق به ﷺ لدليل على حب السيدة فاطمة رضي الله عنها للنبي ﷺ وفيها الأسوة للعلاقة الحسنة بين الأبناء والآباء.

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٣٠٧/٥.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧٥٦/٧.

(٣) أخرجه البخاري ٤٤٣٣، ٤٤٣٤.

الحديث رقم (٢٩)

٢٩- وعنْ أبي زيْد أُسامَة بن زيد بن حَارثَة موْلَى رسُول الله ﷺ وحبِّهِ وابْنِ حبِّهِ رضِيَ الله عنهُمَا، قال: أَرْسلَتْ بنْتُ النَّبيِّ ﷺ[1]: (إنَّ ابْنِي قَد احتُضِرَ فاشْهدْنَا)[2]، فأَرسَلَ يقْرِئُ السَّلامَ ويَقُول: «**إن للّه مَا أخَذَ، ولهُ مَا أعْطَى، وكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بأجَلٍ مُسمًّى، فلتصْبِر ولتحْتسبْ**» فأرسلَتْ إليْهِ تُقْسمُ علَيْهِ ليأْتينَّها. فقَامَ ومَعَهُ سَعْدُ بْنُ عُبادَةَ، وَمُعَاذُ ابْنُ جَبَلٍ، وأُبَيُّ بْنَ كَعْبٍ، وَزَيْدُ بْنِ ثَابِتٍ، وَرِجَالٌ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ، فَرُفِعَ إِلَى رَسُولِ اللّهِ ﷺ الصبيُّ، ((فأقعَدَهُ في حِجْرِهِ))[3] ونفْسُهُ تَقعْقعُ[4]، فَفَاضتْ عيْناهُ، فقالَ سعْدٌ: يَا رسُولَ الله مَا هَذَا؟ فقالَ: «هَذِهِ رَحْمةٌ جعلَهَا اللّهُ تعَالَى في قُلُوبِ عِبَادِهِ»[5].

وفي رِوايةٍ[6]: «**فِي قُلُوبِ منْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

ترجمة الراوي:

أسامة بن زيد: هو ابن حارثة بن شراحيل.

حِبُّ رسول الله ﷺ، ومولاه، وابن مولاه، ولد بمكة قبل الهجرة ونشأ على الإسلام، لأن أباه كان من أول الناس إسلاماً، وأمهُ "أمُّ أيمن" حاضنة النبي ﷺ،

---

(١) لفظ البخاري في هذه الرواية: (إليه، أنَّ ابنًا لي قد قبض، فأتنا). ساق الحميدي في جمعه، لفظ الحديث هكذا، ثمَّ قال: (وفي رواية حفص بن عمر، عن شعبة: إن ابني قد احتضر فاشهدنا) ثمّ قال: (وفي رواية حجاج: إن ابنتي قد احتضرت) فاختار المؤلف من بين ألفاظ الروايات الثلاثة لفظ رواية حفص بن عمر، عن شعبة.

(٢) هذه الزيادة عند البخاري برقم ٦٦٥٥ من رواية حفص بن شعبة.

(٣) هذه الزيادة عند البخاري برقم ٦٦٥٥ من رواية حفص بن شعبة، تبع المؤلف فيه الحميدي في جمعه حيث قال: (وفي رواية حفص بن عمر: فأقعده في حجره).

(٤) في هذه الرواية عند البخاري زيادة: (قال: حسبته أنه قال: كأنها شنٌّ) أسقطها المؤلف.

(٥) أخرجه البخاري (١٢٨٤)، ومسلم (٩٢٣/١١). وسيكرره المؤلف برقم (٩٢٧).

(٦) أخرجها البخاري (٥٦٥٥) من رواية حجاج بن منهال، عن شعبة، وكذا في (٦٦٥٥) من رواية حفص ابن عمر.

هاجر إلى المدينة واستعمله النبي ﷺ على جيشٍ لغزو الشام وهو في الثامنة عشرة من عمره وكان في الجيش أبوبكر وعمر رضي الله عنهما، فلم ينفذ الجيش حتى توفي النبي ﷺ، فبادر الصديق رضي الله عنه ببعثهم، وقال أسامة رضي الله عنه: إن النبي ﷺ كان يأخذُني والحسن، فيقول ((اللهم إني أحبُّهُما، فأحِبَّهُما))[1] وقالت فيه عائشة ﷺ: ما ينبغي لأحد أن يبغض أسامة، بعد ما سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((من كان يُحِب الله ورسوله، فليحب أسامة))[2].

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يُجلّه ويكرمه وما لقيه إلا قال له: السلامُ عليك أيها الأمير ورحمةُ الله! توفي رسولُ الله ﷺ وأنت علَيّ أمير.

وقد فرض عمر رضي الله عنه لأُسامة ثلاثةَ آلاف وخمس مائة، وفرض لابنه -عبدالله ابن عمر- ثلاثة آلاف فقال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: لم فضلته عليَّ فوالله ما سبقني إلى مشهد؟ فقال عمر: لأنَّ أباه كان أحبَّ إلى رسول الله من أبيك، وهو أحبُّ إلى رسول الله ﷺ منك فآثرتُ حب رسول الله على حبِّي.

وقد دخل على رسول الله ﷺ في مرض موته، فجعل رسول الله ﷺ يضع يده عليه ويرفعها فعرف أنه يدعو له[3].

وقد روى له البخاري ومسلم (١٢٨) حديثاً.

وتوفي في سنة ٥٤هـ وهو ابن خمسٍ وسبعين في آخر خلافة معاوية رضي الله عنه[4].

---

(١) أخرجه البخاري، رقم ٣٧٣٥.

(٢) أخرجه أحمد ١٥٦/٦، وقال محققو المسند: صحيح لغيره ١٣٣/٤٢.

(٣) الترمذي، كتاب المناقب، رقم ٣٨١٣، ضعفه الألباني في الجامع الصغير ١٦٨.

(٤) الطبقات، ابن سعد (٦١/٤-٧١)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر (٤٦-٤٧)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير (١٩٤/١-١٩٦)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني (٣٥)، وسير أعلام النبلاء، الذهبي (٤٩٦/٢-٥٠٧)، (١٦٧/١-١٦٨)، وتهذيب التهذيب (١٠٧/١-١٠٨)، والأعلام، خير الدين الزركلي (٢٩١/١)، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك (٤٣٤/١-٤٣٩).

غريب الألفاظ:

حبّه: محبوبه[١].

احتُضر: دنا موته[٢]، وفي رواية عند البخاري ٧٣٧٧: "ابنها في الموت".

اشهدنا: أي تطلب منه الحضور[٣].

لتحتسب: أي تنوي بصبرها طلب الثواب من ربها، ليحسب لها ذلك من عملها الصالح[٤].

تَقَعْقَع: تتحرك وتضطرب[٥].

فاضت عيناه: أي امتلأت عيناه بالدموع حتى سالت على وجهه ﷺ[٦].

الشرح الأدبي

أمام هذا الموقف الإنساني من نبي الرحمة في هذا الحديث الشريف لا يملك أي مسلم محب لله ولرسوله إلا أن يتلو قول الله عز وجل: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾[٧].

والحديث يقدم درسًا في الاحتساب والصبر تجاه فقد الأبناء؛ ويجيء بعد الحديث السابق الذي يعد درساً في الصبر تجاه فقد الآباء، وأي أب حضره الموت في الحديث

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ح ب ب).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢١٤.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٢٣/١٠.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٨٧/٣، وانظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢٠٦.

(٥) رياض الصالحين ٦٠.

(٦) انظر: اللسان ٧٦/٩/٥.

(٧) سورة الملك: ١-٢.

السابق؟ إنه خاتم النبيين، وسيد ولد آدم ﷺ؛ والحديث يصاغ في قالب قصصي، والقصة واقعية، والأشخاص حقيقيون؛ والصبر هو الدرس المستفاد من هذا الحديث الشريف، وهو يتكون من ثلاثة مشاهد تكوِّن في مجموعها هذه القصة الراشدة؛ والمشهد الأول يروي تفاصيله أسامة بن زيد رضي الله عنهما وهو من أحب الناس إلى رسول الله ﷺ، ولأن القصة حقيقية فقد صيغت في إطار الأفعال الماضية؛ ولب القصة هو "الطفل المحتضر" وهو ابن بنت النبي ﷺ وهي زينب رضي الله عنها، وقيل اسمه علي أو عبدالله، والأم ترغب في أن يحضر معها أبوها -رسول الله- هذه اللحظة ليخفف عنها الآلام، ولكن "الجدّ" وهو رسول الله ﷺ يرسل كلمات تنزل برداً وسلاماً على قلب الأم... وعلى قلب كل أم في مثل حالتها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وعدم حضوره ربما فيه إيحاء بالصبر والاحتساب، وإيماء إلى الرضا بقضاء الله وقدره، وبأن الحضور لن يؤخر الأجل، فهو معلوم ومحدود.

ولنتأمل الجمال الأسلوبي الممزوج بالعاطفة الإيمانية والموشّى بالصبر والاحتساب والتسليم يقول رسول الله ﷺ في رسالته لابنته: "إن لله ما أخذ وله ما أعطى، وكل شئ عنده بأجل مسمى، فلتصبر ولتحتسب".

فالتأكيد، وتقديم لفظ الجلالة في الجملة الأولى والتعبير بلفظ الموصول عن عطاء الله، كل هذه جماليات أسلوبية تؤكد صدق العقيدة والإقرار بحقيقة الموت، وفي العبارة الثانية "وله ما أعطى" أي كل ما نملكه في حياتنا من عطاء الله، حتى المال فنحن مستخلفون فيه، والأولاد هبة من الله ذكوراً كانوا أم إناثاً، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها، ولنتساءل لماذا قدم الأخذ على الإعطاء؟ مع أن الأخذ متأخر عن الإعطاء، وذلك للاهتمام بما يقتضيه المقام؛ وكل شيء عنده بأجل مسمى وتكمن وراء التعبير بـ"كل شيء عنده" أسرار كثيرة وتأويلات عديدة، فكل شيء عنده بمقدار، وكل شيء بأجل مسمى: الإنسان والنبات، والحيوان وكل ما خلق الله في السماوات والأرض، وكل ما بث فيهما من دابة، ويجيء الأمر صريحاً بعد هذه المقدمات الثلاث حيث يقول رسول الله ﷺ، "فلتصبر ولتحتسب"، والصبر يكون على مقادير الله؛

ولتحتسب أي: تنوي بصبرها طلب الثواب من ربها، والمشهد الثالث يبدأ بالقسم تقسم عليه ليأتينها ويستجيب الأب لابنته، وكيف لا وهو الرحمة المهداة، والسراج المنير، ولم يكتف بالحضور فرداً، وإنما أحضر معه ثلة من الأخيار وهم سعد بن عبادة، ومعاذ ابن جبل، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، ورجال رضي الله عنهم؛ وما أعظم هذا المشهد الجليل والصبي يحتضر في حجر رسول الله ﷺ، وتفيض عينا الرسول بالدمع، ويتساءل سعد: ما هذا؟ فيقول الرحمة المهداة: هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده.

فالعين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضي ربنا.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم البكاء على الميت، وأنه لا حرمة فيه متى كان تعبيراً عن حزن ورحمة، ولم يكن سخطاً على حكم الله عز وجل، أو تبرماً من قضائه وقدره، وأنه تعبير عن الرحمة وتنفيث عما يخالج القلب من ألم الفراق للأحبة.

وقد اتفق الفقهاء[1] على أنه يجوز البكاء على الميت من غير نياحة ولا يجوز التلفظ بألفاظ تدل على السخط والتبرم وذلك لفعل رسول الله ﷺ له، وأنه يحرم البكاء على الميت بصوت عال أو نياحة أو الندب بتعداد محاسن الميت برفع صوت أو أن يفعل فعلاً من أفعال الجاهلية كلطم الخدود وشق الجيوب والنواح وما أشبه ذلك.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل الصبر والاسترجاع.

ثانياً: من صفات الداعية: مواساة المدعوين والسعي في تخفيف المصائب عنهم.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: بيان رحمة ورقة قلب النبي ﷺ.

رابعاً: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

---

(١) انظر في ذلك: البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ١٩٥/٢، وشرح معاني الآثار للطحاوي ٢٩١/٤، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد الباجي للباجي ٢٥/٢، وأحكام القرآن لابن العربي ١١/٢، والأم، الأمام الشافعي ١٣٤/٨، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢٧٩/٥، والفتاوى الكبرى لابن تيمية ٦٥/٣، ٣٦٢/٥، والمغني، ابن قدامة ٢١٢/٢، والآداب الشرعية، ابن مفلح ٤/١.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل الصبر والاسترجاع:

قد أشار الحديث إلى ذلك من قوله ﷺ: "إن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل شيء عنده بأجل مسمى فلتصبر ولتحتسب" وهذا ما رغب فيه الحق تبارك وتعالى في قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾[1].

قال السعدي: ("أولئك" الموصوفون بالصبر المذكور "عليهم صلوات من ربهم" أي: ثناء وتنويه بحالهم "ورحمة" عظيمة، ومن رحمته إياهم، أن وفقهم للصبر الذي ينالون به كمال الأجر، "وأولئك هم المهتدون" الذين عرفوا الحق، وهو في هذا الموضع، علمهم بأنهم لله، وأنهم إليه راجعون، وعملوا به وهو هنا صبرهم لله.

ودلَّت هذه الآية، على أن من لم يصبر، فله ضد ما لهم، فحصل له الذم من الله، والعقوبة والضلال والخسارة، فما أعظم الفرق بين الفريقين "وما أقل تعب الصابرين، وأعظم عناء الجازعين"، فقد اشتملت هاتان الآيتان على توطين النفوس على المصائب قبل وقوعها، لتخف وتسهل إذا وقعت، وبيان ما تقابل به إذا وقعت وهو الصبر، وبيان ما يعين على الصبر، وما للصابرين من الأجر، ويعلم حال غير الصابر بضد حال الصابر.

وأن هذا الابتلاء والامتحان سنة الله التي قد خلت، ولن تجد لسنة الله تبديلاً)[2]، وقد ورد في ثواب الاسترجاع، وهو قوله "إنا لله وإنا إليه راجعون" عند المصائب أحاديث كثيرة منها قول أم سلمة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((مَا مِنْ عَبْدٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ: إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلِفْ لِي خَيْراً مِنْهَا ـ إِلاَّ أَجَرَهُ اللّهُ فِي مُصِيبَتِهِ. وَأَخْلَفَ لَهُ خَيْراً مِنْهَا. قَالَتْ: فَلَمَّا تُوُفِّيَ أَبُو سَلَمَةَ قُلْتُ كَمَا أَمَرَنِي رَسُولُ اللّهِ. فَأَخْلَفَ اللّهُ لِي خَيْراً مِنْهُ. رَسُولَ اللّهِ))[3].

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٥٥-١٥٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٥٩.

(٣) أخرجه مسلم ٩١٨.

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((قال الله: يا ملك الموت، قبضت ولد عبدي؟ قبضت قرة عينه وثمرة فؤاده؟ قال: نعم. قال: فما قال؟ قال: حمدك واسترجع، قال: ابنوا له بيتاً في الجنة، وسموه بيت الحمد))[١]. وكفى بذلك دلالة على عظم فضل الصبر والاسترجاع إلى الله عند المصيبة.

ثانياً- من صفات الداعية: مواساة المدعوين والسعي في تخفيف المصائب عنهم:

هذا ما ظهر جلياً في الحديث في مواساة النبي ﷺ (لابنته زينب)[٢] رضي الله عنها في وفاة ابنها.

ومواساة المسلمين من أطيب أخلاق المؤمنين، فبها تكون الألفة بين المؤمنين وعليها تقوى العلاقات بين المسلمين، والنبي ﷺ هو القدوة والأسوة الحسنة في مواساة المسلمين؛ فعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: ((إنا والله قد صحبنا رسول الله ﷺ في السفر والحضر، وكان يعود مرضانا ويتبع جنائزنا ويغزو معنا، ويواسينا بالقليل والكثير))[٣] والمواساة أنواع بيّنها ابن القيم في قوله: (مواساة بالمال، ومواساة بالجاه، ومواساة بالبدن والخدمة، ومواساة بالنصيحة والإرشاد، ومواساة بالدعاء والاستغفار لهم، ومواساة بالتوجُّع لهم.

وعلى قدر الإيمان تكون هذه المواساة؛ فكلما ضعف الإيمان ضعفت المواساة، وكلما قوي قويت. وكان رسول الله ﷺ أعظم الناس مواساة لأصحابه بذلك كلّه، فلأتباعه من خلق المواساة بحسب اتباعهم له.

(واستصحاب الداعية لهذه النصوص وتفهمه معانيها وإدراكه أن دين الإسلام يدعو لما فيه تعاطف المسلمين وتآلفهم وترابطهم، يجعله يتفاعل مع الناس، فيواسيهم بالقليل والكثير، ويشاركهم عاطفياً وعقلياً وحسياً، ويتأثر لهم وبهم ويندمج في جماعتهم،

---

(١) أخرجه الترمذي ١٠٢١، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٨١٤).

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣/١٨٦.

(٣) أخرجه أحمد ٥٠٤، وقال محققو الإسناد: إسناده حسن.

ومما لا شك فيه أن الداعية الموفق هو الذي يستشعر أهمية ذلك في تبليغ الدعوة وتأليف القلوب)[١].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: بيان رحمة وشفقة النبي ﷺ:

هذا ما ظهر جلياً في الحديث من قول الراوي "فرفع إلى رسول الله ﷺ الصبيُ، فأقعده في حجره ونفسه تقعقع، ففاضت عيناه فقال سعد: يا رسول الله ما هذا؟ فقال: "هذه رحمة جعلها الله تعالى في قلوب عباده" وفي رواية "في قلوب من شاء من عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء" والرحمة كما بينها الكفوي: (هي حالة وجدانية تعرض غالباً لمن به رقة القلب، وتكون مبدأ للانعطاف النفساني الذي هو مبدأ الإحسان)[٢].

والنبي ﷺ رقيق القلب رحيم الفؤاد، وهذا ما أكده أنس بن مالك رضي الله عنه في قوله: ((دَخلْنا مع رسولِ اللّهِ ﷺ على أبي سَيفٍ القَينِ. وكانَ ظئراً لإبراهيمَ عليه السلام. فأخذَ رسول اللّهِ ﷺ إبراهيمَ فقبَّلهُ وشَمَّهُ. ثمَّ دَخلْنا عليهِ بعدَ ذلك. وإبراهيمُ يَجودُ بنفسِهِ. فجعلَتْ عَينا رسولِ اللّهِ ﷺ تَذْرِفانِ. فقال له عبدُ الرحمن بنُ عَوفٍ رضي الله عنه: وأنتَ يا رسولَ اللّهِ؟ فقال يا ابنَ عَوفٍ إنها رحمةٌ. ثمَّ أتبعها بأُخرى فقال ﷺ: إن العينَ تَدمعُ، والقلبَ يحزَنُ، ولا نقولُ إلاّ ما يَرضى رَبُّنا، وإنَّا بفِراقِكَ يا إبراهيمُ لَمحزُونون))[٣].

قال ابن حجر: (قوله: "وأنت يا رسول الله؟" قال الطيبي: فيه معنى التعجب، والواو تستدعي معطوفاً عليه أي الناس لا يصبرون على المصيبة وأن تفعل كفعلهم، كأنه تعجب لذلك منه مع عهده منه أنه يحث على الصبر وينهى عن الجزع، فأجابه بقوله "إنها رحمة" أي الحالة التي شاهدتها مني هي رقة القلب على الولد لا ما توهمت من الجزع)[٤].

---

(١) انظر: صفات الداعية الناجح، صالح محمد العليوي، ٦٥-٦٦.

(٢) الكليات ، معجم المصطلحات والفروق الفردية، أبو البقاء الكفوي ٤٧١.

(٣) أخرجه البخاري ١٣٠٣، ومسلم ٢٣١٥.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٠٧/٣-٢٠٨.

رابعاً- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

قد ورد هذا الأسلوب في الحديث من سؤال سعد ﷺ للنبي ﷺ بقوله: "يا رسول الله ما هذا؟"، وإجابة النبي ﷺ بقوله "هذه رحمة جعلها الله تعالى في قلوب عباده" وفي رواية "في قلوب من شاء من عباده"، وذلك عندما فاضت عيناه ﷺ ببكائه على احتضار ابن بنته زينب ﷺ (والسؤال والجواب من الأساليب الدعوية الهامة التي تجعل المدعو في حالة استعداد فكري ونفسي لمعرفة إجابة سؤاله، وهذا الاستعداد أمر مهم جداً لتلقف المعرفة واختزانها في الذاكرة، ثم لتطبيق إرشاداتها في السلوك)[1].

وقد أشار نص الحديث إلى أن هذه المعرفة التي يجب اختزانها في الذاكرة وتطبيقها في السلوك هي: (أن مجرد البكاء ودمع العين ليس بحرام ولا مكروه بل هو رحمة وفضيلة، وإنما المحرم النوح والندب والبكاء المقرون بهما أو بأحدهما)[2].

---

(١) انظر: فقه الدعوة إلى الله وفقه النصح والإرشاد، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، ٥٨/٢.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٩٧.

الحديث رقم (٣٠)

٣٠- وَعَنْ صُهَيْبٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ، فَلَمَّا كَبِرَ قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ فَابعَثْ إِلَيَّ غُلاماً أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلَاماً يعلِّمُهُ، وَكَانَ فِي طَرِيقِهِ إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ، فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلَامَهُ فَأَعْجَبَهُ، وَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْه، فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ فقال: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرِ فَقُلْ: حبَسَنِي أَهْلِي، وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ.

فَبَيْنَمَا هُوَ عَلَى ذَلِكَ[1] إِذْ أتَى عَلَى دابَّةٍ عظِيمَةٍ قدْ حَبَسَت النَّاس فقال: اليوْمَ أعْلَمُ السَّاحِرُ أفْضَلُ أم الرَّاهبُ أفْضلُ؟ فأخَذَ حجَراً فقالَ: اللهُمَّ إنْ كان أمْرُ الرَّاهب أحَبَّ إلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ، فاقتُلْ هَذِهِ الدَّابَّة حتَّى يمْضِيَ النَّاسُ، فرَماها فقتَلَها ومَضى النَّاسُ، فأتَى الرَّاهب فأخبَرَهُ. فقال لهُ الرَّاهبُ: أيْ بُنيَّ أَنْتَ اليوْمَ أفْضلُ منِّي، قدْ بلَغَ مِنْ أمْرِكَ مَا أَرَى، وإنَّكَ ستُبْتَلَى، فإنِ ابْتُليتَ فَلاَ تدُلَّ عليَّ، وكانَ الغُلامُ يبْرِئُ الأكْمَهَ والأبرصَ، ويداوي النَّاس مِنْ سائِرِ الأدواءِ. فَسَمِعَ جلِيسٌ للملِكِ كانَ قدْ عمِيَ، فأتَاهُ بهدايا كثيرَةٍ فقال: ما ههُنَا لك أجْمَعُ إنْ أنْتَ شفَيْتني، فقال إنِّي لا أشفِي أحَداً، إنَّمَا يشْفِي الله تعَالى، فإنْ آمنْتَ بِاللَّهِ تعَالَى دعوْتُ الله فشَفاكَ، فآمَنَ باللَّه تعالى فشفَاهُ اللَّهُ تَعالَى، فأتَى المَلِكَ فجَلَس إليْهِ كما كانَ يجْلِسُ فقالَ لَهُ المَلكُ: منْ ردَّ عليْك بصَرك؟ قال: ربِّي. قَالَ: ولكَ ربٌّ غيْري؟، قَالَ: رَبِّي وربُّكَ الله، فأَخَذَهُ فلَمْ يزلْ يُعذِّبُهُ حتَّى دلَّ علَى الغُلَامِ فجيءَ بِالغُلَامِ، فقال لهُ المَلكُ: أيْ بُنَيَّ قدْ بَلَغَ منْ سِحْرِك مَا تبْرِئُ الأكمَهَ والأبرَصَ وتَفعلُ وَتفْعَلُ فقالَ: إنِّي لا أشْفي أَحَداً، إنَّما يشْفي الله تَعَالَى، فأخَذَهُ فَلَمْ يزَلْ يعذِّبُهُ حتَّى دلَّ علَى الرَّاهبِ، فجِئَ بالرَّاهِبِ فقيل لَهُ: ارجَعْ عنْ دِينِكَ، فأبَى، فدَعا بالمِنْشَار فوُضِع المِنْشَارُ في مفْرقِ رأْسِهِ، فشقَّهُ حتَّى وقَعَ شقَّاهُ، ثُمَّ جِيء بجَلِيسِ المَلكِ فقِيلَ لَهُ: ارجعْ عنْ دينِكَ فأبَى، فوُضِعَ المِنْشَارُ في مفْرِقِ رَأسِهِ، فشقَّهُ به حتَّى وقع

---

(١) لفظ مسلم (كذلك) بدل: (على ذلك).

شقَّاهُ، ثُمَّ جيءَ بالغُلامِ فقِيل لَهُ: ارجعْ عنْ دينِكَ، فأبَى، فدَفعَهُ إلَى نَفَرٍ مِنْ أصْحابِهِ فقال: اذهبُوا بِهِ إلَى جبَلِ كَذَا وكذَا فاصعدُوا بِهِ الجبلَ، فإذَا بلغتُمْ ذروتهُ فإنْ رجعَ عنْ دينِهِ وإلاَّ فاطرَحوهُ، فذهبُوا به فصعدُوا بِهِ الجَبَل فقال: اللَّهُمَّ اكفنِيهمْ بمَا شئْت، فرجَفَ بِهِمُ الجَبَلُ فسَقطُوا، وجَاءَ يمْشي إلَى المَلِكِ، فقالَ لَهُ المَلكُ: ما فُعِلَ بأَصحَابُكَ؟ فقالَ: كفانيهِمُ الله تعالَى، فدفعَهُ إلَى نَفَرَ مِنْ أصْحَابِهِ فقال: اذهبُوا بِهِ فاحملُوه في قُرقُور وتَوسَّطُوا بِهِ البحْرَ، فإنْ رَجَعَ عنْ دينِهِ وإلاَّ فَاقْذفُوهُ، فذَهبُوا بِهِ فقال: اللَّهُمَّ اكفنِيهمْ بمَا شِئْت، فانكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفينةُ فغرِقوا، وجَاءَ يمْشِي إلَى المَلِك. فقالَ لَهُ الملِكُ: ما فُعِلَ بأَصحَابُكَ؟ فقال: كفانِيهِمُ الله تعالَى. فقالَ للمَلِكِ إنَّك لسْتَ بقَاتِلِي حتَّى تفعْلَ ما آمُركَ بِهِ. قال: ما هُوَ؟ قال: تجْمَعُ النَّاس في صَعيدٍ واحدٍ، وتصلُبُنِي عَلَى جذْعٍ، ثُمَّ خُذ سهْماً مِنْ كنَانتِي، ثُمَّ ضعِ السَّهْمِ في كَبدِ القَوْسِ ثُمَّ قُل: بسْمِ اللَّهِ ربِّ الغُلاَمِ ثُمَّ ارمِنِي، فإنَّكَ إذَا فعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتنِي. فجَمَعَ النَّاس في صَعيدٍ واحِدٍ، وصلَبَهُ عَلَى جذْعٍ، ثُمَّ أخَذَ سهْماً منْ كنَانَتِهِ، ثُمَّ وضَعَ السَّهمَ في كبدِ القَوْسِ، ثُمَّ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ رَبِّ الغُلامِ، ثُمَّ رماهُ فَوقَعَ السَّهمُ في صُدْغِهِ، فوضَعَ يدَهُ في صُدْغِهِ فمَاتَ.

فقَالَ النَّاسُ: آمنَّا برَبِّ الغُلاَمِ[1]، فأُتِيَ المَلكُ فقِيلُ لَهُ: أرَأَيْت ما كُنْت تحْذَر قَدْ وَاللَّه نَزَلَ بِكَ حَذرُكَ. قدْ آمنَ النَّاسُ. فأمَرَ بالأخدُودِ بأفْوَاهِ السِّكك فخُدَّتَ وَأُضْرِمَ فِيها[2] النيرانُ وقالَ: مَنْ لَمْ يرْجَعْ عنْ دينِهِ فأقْحمُوهُ فِيهَا أوْ قيلَ لَهُ: اقْتَحمْ، ففعَلُوا حتَّى جَاءتِ امرَأَةٌ ومعَهَا صَبِيٌّ لهَا، فَتقَاعَسَت أنْ تَقعَ فِيهَا، فقال لَهَا الغُلاَمُ: يا أمَّاهْ اصبِرِي فَإنَّكِ عَلَي الحَقِّ» رواهُ مُسْلمٌ[3].

ترجمة الراوي:

صُهَيْب بن سِنان الرومي: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٧).

---

(١) عند مسلم تكررت ثلاث مرّات.

(٢) (فيها) لا توجد عند مسلم.

(٣) برقم (٣٠٠٥/٧٣).

غريب الألفاظ:

راهب: هو من اعتزل الناس إلى دير وانقطع للعبادة[١].

دابة: كل ما يدب على الأرض وقد غلب على ما يركب من الحيوان[٢].

ستبتلي: من البلاء وهو المحنة والشدة تنزل بالمرء ليختبر بها ويمتحن[٣].

الأكمه: هو الذي ولد أعمى وقيل: هو الذي أصابه العمى[٤].

الأبرص: هو الذي أصابه البرص وهو بياض يقع في الجسد لِعِلّة[٥].

ذروته: ذروة الجبل: أعلاه[٦].

رجف بهم الجبل: اضطرب وتحرك حركة شديدة[٧].

القُرْقُور: بضم القافين: نوع من السفن، وقال النووي في شرح مسلم: السفينة الصغيرة، وقيل: السفينة العظيمة[٨].

انكفأت بهم السفينة: انقلبت[٩].

الصعيد: المكانُ الواسع[١٠].

تصلبني: صَلَب الجسم: شد أطرافه وعلقه على شيء ما[١١].

---

(١) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الفيومي ٢٨٦، ومعجم لغة الفقهاء، أ.د. محمد رواس قلعة جي ١٩٤.

(٢) الوسيط ٢٦٨.

(٣) انظر: الوسيط ٧١.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير والوسيط في (ك م هـ).

(٥) الوسيط في (ب ر ص).

(٦) رياض الصالحين ٦٢، واللسان والوسيط في (ذ ر و).

(٧) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٧٢٣.

(٨) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٧٢٣، والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ق ر ق ر).

(٩) رياض الصالحين ٦٢، والوسيط في (ص ع د).

(١٠) رياض الصالحين ٦٢.

(١١) الوسيط ٥١٩.

جذع: ساق النخلة ونحوها[١].

كنانتي: الكنانة: جعبة صغيرة من جلد للنبْل والسهام[٢].

كبد القوس: مقبضها عند الرمي[٣].

نزل بك حذرك: أي ما كنت تحذر[٤].

الأُخْدود: الشقوق في الأرض كالنهر الصغير[٥].

أفواه السكك: أبواب الطرق[٦].

خُدّت: حفرت[٧].

أُضْرِم: أُوقِد[٨].

تقاعست: توقفت وجبنت[٩].

الشرح الأدبي

هذا الحديث المطول يحتاج إلى تأمل وتدبر وتفكر، فهو ليس مجرد قصة للتسلية أو المتعة، ولكنه يفيض بالدروس والعبر، والحِكَم والمواعظ، ويدعو إلى التأمل في أحوال الخلق، ويحدد المنهج الذي يجب أن يتبع في نشر الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، واتخاذ الوسائل المتعددة ومنها الأسلوب القصصي في توصيل أسس

---

(١) الوسيط ١١٣.

(٢) اللسان والوسيط في (ك ن ن).

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٧٢٣.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٧٢٣.

(٥) رياض الصالحين ٦ ٢.

(٦) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٧٢٣.

(٧) الوسيط في (خ و د).

(٨) رياض الصالحين ٦٢.

(٩) رياض الصالحين ٦٢.

الدعوة، وأصول العقيدة إلى الناس، وتحمل الأهوال والشدائد في سبيل الله.

والحديث جاء في قالب قصصي "حقيقي" ولكن لم يحدد الزمان ولا المكان، ولا أسماء الأشخاص، وبعض الكتب ذكرت أسماء بعض الشخصيات التي تضمنتها هذه القصة الهادفة الراشدة الهادية.

والقصة لها بداية ووسط ونهاية، وهي تُعْطي نموذجاً متكاملاً للقصة في الحديث النبوي: حيث يقوم الهيكل العام للقصة النبوية في الأغلب العام على ثلاث دعائم تشكل إطاراً يحدد شكلها القصصي، وهذه الدعائم تبرز لنا في البداية والوسط والنهاية، وهذه التركيبة الهيكلية قائمة على أساس من الترابط العضوي الذي يشد بعضها إلى بعض، بحيث نحس ونحن نقرأ هذه القصص قراءة متعمقة أن هناك خيوطاً منظورة وغير منظورة تؤدي وظيفتها في تحقيق التلاحم بين دعائم هيكل القصة الثلاث[1].

والشخصيات من مكونات القصة الرئيسة هنا، وفي هذا الحديث القصصي تصنع الأحداث عدة شخصيات إنسانية وهي:

الغلام: الذي رفض تعلم السحر.. وتعلم على يد الراهب.. وهو من النصارى.. حيث تقول بعض الروايات إن هذا الراهب كان بنجران – واسم الغلام عبدالله بن تامر، وكان يبرئ الأكمه والأبرص ويداوي الناس من سائر الأدواء.

الراهب: وهو المتعبد من النصارى المتخلي من أشغال الدنيا التارك لملاذها بالزهد فيها، الصابر على مشاقها المعتزل عن أهلها، ودوره ايجابي في هذه القصة لأنه يمثل جانب الإيمان في مقابل الطغيان والكفر لدى الملك.

الملك: وهو كما يروي ابن عباس: كان بنجران، وكان طاغية يدعي الألوهية، ويقال إنه الذي حرّق أصحاب الأخدود.

الساحر: وهو رمز الخداع والتمويه والكذب وعدم الثبات وعدم تحمل العذاب لأنه

---

(١) انظر تفصيل سمات القصة النبوية في كتاب القصة في الحديث النبوي د. محمد بن حسن الزير.

دل على الراهب.

جليس الملك: الأعمى الذي شفي على يد الغلام بإذن الله سبحانه ورفض تأليه الملك وآمن بالله سبحانه.

المرأة وابنها الذي تكلم في المهد في نهاية القصة تحدياً للملك: وقال لأمه: اصبري فإنك على الحق ولم يخش النيران.

جموع الناس الذين آمنوا برب الغلام بعد أن رأوا شجاعته وصبره: وهو يقابل القتل بإيمان وصبر واستهزاء بالملك.

وبعض الشخصيات لا تكون من الإنس ولكن قد تشارك في الأحداث بعض كائنات الطبيعة الحية والجامدة. ومنها في هذا الحديث: الدابة، وقد قتل هذه الدابة الغلام بحَجَرٍ، وذلك لأنه أراد أن يثبت أن الراهب أفضل من الساحر، وللسفينة والجبل دور في تعضيد موقف الغلام، وحمايته بفضل تسخير الله لها لحمايته، لأنها من خلق الله، وتسبح بحمد ربها ولكن لا نفقه تسبيحها.

إن هذه الشخصيات شاركت كلها في صنع أحداث هذه القصة، وتآزرت في تكوين مشاهدها المتوالية من بدايتها إلى نهايتها، وهي تتكون من أحد عشر مشهداً، تتوالى كلها في يسر وسهولة وإمتاع وإقناع، مع تعدد العقد والمفاجآت في تطور الأحداث، ولكن النهاية تصور انتصار النموذج الإيماني وتحديه القوي لكل الطغاة المتجبرين.

والمشهد الأول: يمثل بداية القصة، وبدء حكاية الملك الطاغية، ورغبة الساحر الذي كبر في تعليم غلام بعده أصول فن السحر، حتى يضمن استمرار ما عليه من باطل ونفوذ وحظوة لدى الملك الطاغية.

ولكن الغلام يكره الساحر، ويهيئ الله له الراهب... فيتعلم منه تعاليم الدين في هذا الوقت وهو النصرانية.

والمشهد الثاني: يمثل تطوراً في شخصية الغلام حيث يستفيد بعلمه الذي تعلمه، وينقذ الناس من خطر الدابة التي حبست الناس: ويقتل هذه الدابة بحجر، وهذا

الانتصار جاء مقترناً بالإيمان وإثبات بطلان فعل الساحر لأن الغلام دعا وقال: (اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة، حتى يمضي الناس فرماها فقتلها).

وهذا المشهد يمثل اختباراً حقيقياً لقدرات الغلام، وثقته بالله وفي نفسه، ورفضه لتعاليم الساحر الباطلة.

والمشهد الثالث: يعد ثمرة حقيقية للحدث في المشهد الثاني حيث أقر الراهب للغلام العالم بالأفضلية وقال: "يا ابني: أنت اليوم أفضل مني..." وفي هذا إرشاد لكل معلم بضرورة رعاية تلاميذه، والغبطة والفرح حين يتفوقون، ويخاف الراهب على الغلام ويدرك بفراسته أو بطريق العادة والتجربة أن الغلام سيبتلى، وسيقابل أهوالاً من الكفار والطغاة، ويعاهده أنه إذا ابتلي فلا يدل عليه، ولا يخلف الغلام الوعد، حيث تمسك بالعهد.

والمشهد الرابع: يقدم تجربة ناجحة، واختباراً لقدرات ذلك الغلام: حيث شفى الله على يديه جليس الملك الذي أصابه العمى: وكان الغلام يبرئ الأكمه -وهو الذي ولد أعمى، وكذلك الذي فقد بصره- والأبرص بفضل الله سبحانه وتعالى، وما أجمل هذا السبيل في الدعوة إلى الله: فالغلام يشترط الإيمان بالله ثمناً للشفاء ويقول، وما أصدق قوله مؤكداً منطقة ومنهجه: "إني لا أشفي أحداً، إنما يشفي الله تعالى، فإن آمنت بالله دعوت الله فشفاك، فآمن الأعمى بالله تعالي فشفاه الله تعالى" ولنتأمل هذه المؤثرات الأسلوبية في تقديم المعنى التأكيد بإنما وقصر الشفاء على الله تعالى، ثم جعل الإيمان شرطاً للجزاء وهو الشفاء، وتوالي فاءات العطف يدل على سرعة الاستجابة.

وفي **المشهد الخامس:** تحتدم المواجهة بين قوى الباطل وأنصار الحق والإيمان، وتحدث المفاجأة للملك حين يرى جليسه ومستشاره قد رُدَّ إليه بصرُه: فيسأله: من رد إليك بصرك، فيقول مستشاره "ربي" فيثور الملك ويوغل في حمأة الباطل ويقول مستنكراً! أولك رب غيري؟ ويعذب مستشاره حتى عرف منه مكان الغلام.

وفي **المشهد السادس:** يبلغ التحدي أقصاه بين الملك والغلام، واعتقد الملك أن الغلام

ساحر، ولكن الغلام يرفض ذلك، ويقول: إنما يشفي الله تعالى، معلنا رفضه لربوبية ذلك الملك الطاغية، ويعرف الملك مكان الراهب الذي علم الغلام، وبصَّره بتعاليم الدين.

وفي **المشهد السابع**: يصمد الحق أمام الباطل، ويفضل الراهب وجليس الملك الموت في سبيل التمسك بالدين؛ لأن الملك طلب منهما الرجوع عن الدين والبقاء على الاعتقاد في ربوبيته ولكنهما أبيا وتمسكاً بدينهما.

ما أهول هذا المنظر الذي ينقل صورة القتل، حيث وُضِع المنشار في مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه!!!.

والمشهد الثامن: يصور ذكاء الغلام وقوة حجته في مواجهة الملك بعد أن نجاه الله من القتل وسخر له الجبل حيث رجف بمن أرادوا قتل الغلام فسقطوا وكذلك : السفينة انكفأت بهم فغرقوا في البحر، وقد نجى الله الغلام.

ليبدأ **المشهد التاسع** وهو تاج المشاهد كلها، حيث استطاع الغلام أن يستدرج الملك من حيث لا يعلم إلى الإقرار والتفوه باسم الله رب الغلام، بعد أن قال له: لست بقاتلي حتى تفعل ما أمرك به! ما أعظم الإيمان الذي يقوي القلوب والإرادة.

فالغلام المؤمن يأمر الملك الجبار الكافر، ويستجيب الملك الغبي المغرور؟ ويطل **المشهد العاشر** حيث تجمع الناس في صعيد واحد وصُلب الغلام، وأخذ الملك سهماً من كنانته وأطلقه صائحاً بأعلى صوته "بسم الله رب الغلام، ويموت الغلام المؤمن ولكن دعوته تبقى، وتأثيره يزداد، وإذا بالناس يصيحون في ثقة وإيمان وتحد للملك، آمناً برب الغلام ثلاث مرات.

ما أعظم المشهد، وما أعظم استشهاد الغلام، وما أقوى حجته، ولكن الملك يفقد صوابه، ويأمر بالقتل الجماعي للناس في الأخدود حرقاً، وتكون المفاجأة على لسان صبي في المهد يتحدى الملك وينطق بالحق والشجاعة ويقول لأمه الخائفة من النيران: اصبري فإنك على الحق .. يا أماه جعلنا الله من الصابرين الصامدين الموحدين.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكمين فقهيين:

الأول: حكم العمل بالسحر وتعليمه وتعلمه، وقد اتفق الفقهاء[1] على أن العمل بالسحر حرام وكبيرة من الكبائر، وأن الساحر كافر خارج عن دين الله عز وجل، وأنه يقتل متى قدر عليه قبل توبته، وإن اختلفوا في كيفية قتله فقيل يقتل حداً بضرب السيف وقيل يقتل تعزيراً لاقترافه أمراً يخرج عن الملة، واستثنى الشافعي[2] حالة ما إذا أقر الساحر أنه قتل بسحره شخصاً فقيل عليه الدية فقط في هذه الحالة متى تاب وقال أصحابه يقتل قصاصاً، واختلفوا في حكم تعلم السحر دون العمل به فذهب جمهور الفقهاء من الحنفية والمالكية والحنابلة[3] إلى أن تعلم السحر وتعليمه حرام وكفر مخرج من الملة، واستثنى بعض الحنفية تعلم السحر لرد سحر أهل الحرب فجعلوه فرضاً، وكذا تعلمه للإصلاح بين الزوجين فهو جائز عندهم، ورُدّ هذا من معظم الحنفية.

وذهب الشافعية[4] إلى أن تعليمه حرام إلا إذا كان للوقوف على حقيقته أو كان

---

(١) تبيين الحقائق، الزيلعي ٢٩٣/٣، وأحكام القرآن للجصاص ٧٢/١، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد الباجي للباجي ١١٧/٧، وأحكام القرآن لابن العربي ٤٨/١، وأنوار البروق للقرافي ١٥١/٤، وتبصرة الحكام لابن فرحون ٢٨٤/٢، وفتاوى السبكي لتقي الدين السبكي الشافعي ٢٢٣/٢ وما بعدها، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري٨٢/٤، ومختصر المزني ص٣٦٣، والسياسة الشرعية لابن تيمية ص ١٥٤، والفتاوى الكبرى ٦١/١، والمغني، ابن قدامة ٣٥/٩، والفروع، ابن مفلح ١٧٧/٦.

(٢) الأم، الأمام الشافعي ٣٦٣/٨.

(٣) تبيين الحقائق، الزيلعي ٢٩٣/٣، أحكام القرآن للجصاص ٧٢/١، المنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد الباجي للباجي ١١٧/٧، أحكام القرآن لابن العربي ٤٨/١، أنوار البروق للقرافي ١٥١/٤، تبصرة الحكام لابن فرحون ٢٨٤/٢، السياسة الشرعية لابن تيمية ص ١٥٤، الفتاوى الكبرى ٦١/١، المغني، ابن قدامة ٣٥/٩، الفروع، ابن مفلح ١٧٧/٦.

(٤) فتاوى السبكي لتقي الدين السبكي الشافعي ٢٢٣/٢ وما بعدها، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري٨٢/٤، والأم، الأمام الشافعي ٣٦٣/٨.

تعلمه لتحصيل نفع أو دفع ضرر فهو جائز حينئذ.

الثاني: حكم الكذب لمصلحة، وقد اتفق الفقهاء[1] على أن الأصل في الكذب أنه حرام، ومع ذلك قد يكون الكذب مباحاً أو واجباً، فالكلام وسيلة إلى المقصود، وكل مقصود محمود يمكن تحصيله بغير الكذب يحرم الكذب فيه، فإن لم يتأتى تحصيله بغير الكذب جاز الكذب فيه.

المضامين الدعوية

أولاً: من وسائل الدعوة: القصة.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: الانتفاع بأخبار السابقين ممن ابتلاهم الله.

ثالثاً: من صفات المدعو: الحرص على تعلم العلوم النافعة.

رابعاً: من واجبات المدعو: التبيّن والتثبت.

خامساً: من موضوعات الدعوة: الثبات على الحق والصبر على الأذى.

سادساً: من موضوعات الدعوة: الاستعانة بالله واللجوء إليه.

سابعاً: من مهام الداعية: العمل على نصرة الدعوة.

ثامنًا: من أساليب الدعوة: الحوار.

أولاً- من وسائل الدعوة: القصة:

قد وردت القصة كوسيلة دعوية هامة في الحديث من قوله ﷺ "كان ملك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر... إلخ".

(والقصة تمتاز بأنها تصور نواحي الحياة، فتعرض لك الأشخاص، وحركاتهم

---

(١) المبسوط، السرخسي ١٤٥/١٦، وتبيين الحقائق، الزيلعي ٢٤١/٤، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد الباجي للباجي ٣١٣/٧، وحاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني، علي بن أحمد العدوي على الخرشي ٤١٢/٢، وأنوار البروق للقرافي ٨/٤، وأدب الدنيا والدين للماوردي ص ٢٦١، والزواجر عن اقتراف الكبائر، أبو العباس أحمد بن محمد الهيتمي ٣٢٢/٢، وطرح التثريب ٢١٤/٧، والآداب الشرعية، حماد بن عبدالله الحماد ١١/١، ١٩، وغذاء الألباب ١٣٤/١، وإعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم ٩٣/١، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٠٥/٣٤.

وأخلاقهم، وأفكارهم، واتجاهات نفوسهم، وبيئتهم الطبعية والزمنية، تعرضهم عليك بعرض أعمالهم وتصرفاتهم ونقاشهم، فإذا رأيت هذه التصرفات والأعمال، ومضيت مع الحوار والنقاش عرفت ما يستكن في النفوس من طباع، وما يهجس فيها من خواطر، وانشرح صدرك لأهل الخير منهم وضقت ذرعاً بذوي النفوس المظلمة والوسائل الملتوية، حتى لكأنك تراهم رأي العين، وتسمع منهم سمع الأذن، وتعاشرهم وتحيا بينهم.

وتمتاز القصة كذلك بأن النفس تميل إليها، فغريزة حب الاستطلاع، تعلق عين السامع وأذنه وانتباهه بنسق القصصي البارع، استشرافاً لمعرفة ما خفي من بقية الأنباء.

والقصة بهاتين الميزتين من خير الوسائل التي يتوسل بها الداعية لإبلاغ تعاليمه إلى أعمال القلوب، فهي بالميزة الأولى تعرض هذه التعاليم في صورة عملية حية تحرك الوجدان، وترفع نبض المشاعر وهي بالميزة الثانية ميزة التنبه والتقبل، تجعل النفوس أوعية مفتوحة، يصب فيها الداعية ما يشاء فيبلغ القرار.

فعلى الداعية أن يستمسك بهذه الوسيلة التي من سنة الله تعالى، فالله عز شأنه قد سنها في القرآن الكريم، فقص على رسوله أحسن القصص، وضمنه خير التعاليم والمواعظ تثبيتاً له ولأمته على الحق ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾(١).

وخير القصص كله، قصص القرآن الكريم، بما فيه وإلى ما فيه؛ فقد أحكمت به عروة العقيدة، واكتمل نظام الأخلاق، واشتدت به أركان الحضارة الإسلامية، فكانت أوفى وأكمل الحضارات...)(٢).

ثانياً- من موضوعات الدعوة: الانتفاع بأخبار السابقين ممن ابتلاهم الله:

إن الانتفاع بأخبار السابقين من الذين آمنوا بربهم وثبتوا على دينهم وصبروا على ما كان في ذلك من بلاء؛ لعظيم الفائدة في اتخاذ العبرة والعظة، والتيقن بأن العاقبة في

---

(١) سورة هود، آية: ١٢٠.

(٢) تذكرة الدعاة، البهي الخولي، ٤٤-٤٥، بتصرف يسير.

ذلك لعباد الله المتقين، وهذا ما يستفاد جلياً من نص الحديث، وقد أرشد الحق تبارك وتعالى نبيه وعباده إلى ذلك فقال: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[١].

قال ابن كثير: (وفي ذلك يقول الله تعالى: وكل أخبار نقصّها عليك، من أنباء الرسل المتقدمين قبلك مع أممهم، وكيف جرى لهم من المحاجّات والخصومات، وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى، وكيف نصر الله حزبه المؤمنين وخذل أعداءه الكافرين كل هذا مما نثبت به فؤادك -يا محمد- أي: قلبك، ليكون لك بمن مضى من إخوانك من المرسلين أسوة)[٢]، قال القاسمي: (وقوله تعالى "وموعظة وذكرة للمؤمنين" أي عبرة لهم يحترزون بها عما أهلك الأمم، وتذكير لما يجب أن يتدينوا به ويجعلوه طريقهم وسيرتهم)[٣]، وفي ذلك قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[٤] وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[٥].

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[٦].

---

(١) سورة هود، آية: ١٢٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣٦٣/٤.

(٣) محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ١٨٤/٩/٦.

(٤) سورة الأنعام، آية: ١١.

(٥) سورة الروم، آية: ٩.

(٦) سورة غافر، الآيتان: ٢١-٢٢.

قال ابن كثير: (يقول تعالى: أولم يسر هؤلاء المكذبون برسالتك يا محمد "في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم" أي: من الأمم المكذبة بالأنبياء، ما حل بهم من العذاب والنكال، مع أنهم كانوا أشد من هؤلاء قوة، "وآثاراً في الأرض" أي: أثروا في الأرض من البنايات والمعالم الديارات، ما لا يقدر عليه هؤلاء، كما قال: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ [١]، وقال: ﴿وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [٢] أي: ومع هذه القوة العظيمة والبأس الشديد، أخذهم الله بذنوبهم، وهي كفرهم برسلهم "وما كان لهم من الله من واق" أي: ما دفع عنهم عذاب الله أحد، ولا رده عنهم راد، ولا وقاهم واق.

ثم ذكر علة أخذه إياهم وذنوبهم التي ارتكبوها واجترموها، فقال: "ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات" أي: بالدلائل الواضحات والبراهين القاطعات "فكفروا" أي: مع هذا البيان والبرهان كفروا وجحدوا "فأخذهم الله" أي: أهلكهم ودمَّر عليهم وللكافرين أمثالها، "إنه قوي شديد العقاب" أي: ذو قوة عظيمة وبطش شديد، وهو "شديد العقاب" أي: عقابه أليم شديد وجيع. أعاذنا الله منه) [٣].

فعلى المرء أن يتخذ العبرة والعظة فيما كان من أخبار السابقين؛ حتى يثبت على دين الله ويصبر على ماكان في ذلك من بلاء ويعلم أن العاقبة في ذلك للمتقين، وهذا ما أكده النبي ﷺ لخباب بن الأرت رضي الله عنه عندما جاءه يشتكي ما أصابه من المشركين طالباً منه ﷺ الدعاء والاستنصار قائلاً: ألا تدعو الله؟ فقعد ﷺ وهو محمر الوجه فقال: ((لقد كان من قبلكم ليُمشَط بمشاطِ الحديد، ما دُون عظامهِ من لحمٍ أو عَصَب، ما يَصرفهُ ذلك عن دينه، ويوضَع المِنشارُ على مفرِق رأسهِ فيُشَقُّ باثنين، ما يصرِفه ذلكَ عن دينه. ولَيُتِمَّنَّ اللَّهُ هذا الأمرَ حتى يَسيرَ الراكبُ مِن صَنعاءَ إلى حَضرمَوتَ ما يَخافُ إلاَّ اللَّه)) [٤].

---

(١) سورة الأحقاف، آية: ٢٦.

(٢) سورة الروم، آية: ٩.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١٣٨/٧.

(٤) أخرجه البخاري ٣٨٥٢.

ثالثاً- من صفات المدعو: الحرص على تعلم العلوم النافعة:

يظهر ذلك في الحديث من قوله ﷺ "وكان في طريقه إذا سلك راهب، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه، وكان إذا أتى الساحر مرَّ بالراهب وقعد إليه" (والعلم في اللغة: يطلق على المعرفة والشعور والإتقان واليقين، يقال: علمت الشيء أعلمه علما عرفته، ويقال: ما علمت بخبر قدومه أي: ما شعرت، ويقال: علم الأمر وتعلّمه: أتقنه. واصطلاحاً: هو حصول صورة الشيء في العقل)[1].

(وينقسم العلم تبعاً لفائدته وأهمية الحاجة إليه، فمنه ما تعلمه فرض، ومنه ما هو محرم)[2].

قال ابن قدامة في بيان العلم الذي هو فريضة على كل مسلم: (اختلفت عبارات الناس في بيان العلم المفروض، والصحيح أن يقال: هو علم معاملة العبد لربه وهو يدخل في باب الاعتقاد والأفعال وهذا العلم المفروض ينقسم إلى قسمين:

فرض عين: وهو ما يتعين وجوبه على الشخص من توحيد الله ومعرفة أوامره وحدوده في العبادات والمعاملات التي يحتاج إليها، وفرض كفاية: وهو كل علم لا يستغنى عنه في قوام الدنيا:

كالطب والحساب وأصول الصناعات. فلو خلا البلد عمن يقوم بهذه العلوم والصناعات أثم أهل البلد جميعاً وإذا قام بها واحد فقط وكفاهم سقط الإثم عن الباقين)[3].

ومما لا شك فيه أن كل علم يحصل به عز الإسلام والمسلمين، يكون من أجلِّ العبادات وأفضل الطاعات إلى إرضاء رب العباد. والناظر في السنن الكونية يعلم أنها سنن مطردة لا تتغير ولا تتبدل، فلا تحابي أمة على أمة إلا بقوة مكانتها وعظم شأنها؛

---

(١) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٩٠/٣٠، ومصادرها.

(٢) المرجع السابق ٢٩١/٣٠.

(٣) انظر: مختصر منهاج القاصدين، ابن قدامة المقدسي ٢٠/١٩.

وذلك لا يكون للأمة الإسلامية إلا بالعودة إلى الإسلام عقيدة وفقهاً وجهاداً، ومن أعظم الجهاد امتلاك معرفة العلوم العصرية معرفة تحفظ لهذه الأمة هيبتها وتحمي بيضتها.

وقد كان في ترك الأمة لهذه العلوم والتخلف عنها، أن أصبح زمام العالم وقيادته بغير أيدي المسلمين، وهذا ما يأباه الإسلام ويرفضه، وتخلف المسلمين في ذلك يرجع إلى تخاذلهم عن فهم كتاب ربهم وسنة نبيهم، ولنضرب "مثالاً في ذلك"[(١)] فقد أخبر القرآن الكريم "في غير ما سورة"[(٢)] أن الله تعالى سخر لنا البحر فقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[(٣)].

فتقاصرنا عن فهم مراد ربنا؛ بأن إرشاده تعالى بتسخير البحر لنا يعني أن نبلغ أقصى ما يكون في استعماله بما يعز الإسلام ويحمي بيضة المسلمين، وقد فهم غير المسلمين ذلك فأنشأوا المرافئ لصنع السفن وأعدوا حاملات الطائرات، وأبدعوا في إنشاء الغواصات، ونسي المسلمون أنهم في ذلك (أبناء بجدتها)[(٤)] (فقد ركب معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما البحر في جيش عظيم من المسلمين، وكان أول من غزا البحر في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه ففتح الله على يديه قبرص سنة ثمان وعشرين من الهجرة)[(٥)].

وها هوذا عبدالله بن سعد بن أبي السرح في غزوة الصواري سنة أربع وثلاثين يركب البحر ويغزو الروم، قال ابن كثير: (فلما تراءى الجمعان بات الروم يقسقسون ويصلبون، وبات المسلمون يقرأون ويصلون، فلما أصبحوا صف عبدالله بن سعد

---

(١) انظر: كيف نتعامل مع القرآن الكريم، محمد الغزالي ص ٢١.

(٢) سورة النحل، آية: ١٤، سورة فاطر، آية: ١٢.

(٣) سورة الجاثية، آية: ١٢.

(٤) أي: العالمين بالشيء المتقنين له، (المعجم الوسيط، مع اللغة العربية في (ج د د).

(٥) انظر: البداية والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢٢٨/١٠، وتاريخ الطبري ٧٢٨.

أصحابه صفوفاً في المراكب، وأمرهم بذكر الله وتلاوة القرآن. قال بعض من حضر ذلك: فأقبلوا إلينا في أمرٍ لم يُر مثله من كثرة المراكب، وتعداد صواريها، وكانت الريح لهم وعلينا، فأرسينا ثم سكنت الريح عنا، فقلنا لهم: إن شئتم خرجنا نحن وأنتم إلى البر فمات الأعجل منا ومنكم. قال: فنخروا نخرة رجل واحد وقالوا: الماء الماء. قال: فدنونا منهم وربطنا سفننا بسفنهم، ثم اجتلدنا وإياهم بالسيوف، يثب الرجال على الرجال بالسيوف والخناجر، وضربت الأمواج في عيون تلك السفن حتى ألجأتها إلى الساحل، وألقت الأمواج جثث الرجال إلى الساحل، حتى صارت مثل الجبل العظيم، وغلب الدم على لون الماء، وصبر المسلمون يومئذٍ صبراً لم يعهد مثله قط، وقُتل منهم بشرٌ كثير، ومن الروم أضعاف ذلك، ثم أنزل الله نصره على المسلمين، فهرب قسطنطين وجيشه -وقد قلّوا جداً- وبه جراحات شديدة كثيرة مكث حيناً يداوى منها بعد ذلك، وأقام عبدالله بن سعد بذات الصواري أياماً، ثم رجع مؤيداً منصوراً مظفراً)[1].

وقد أيد الله تعالى المسلمين بالنصر على عدوهم؛ لاجتهادهم وعدم تخلفهم في معرفة العلوم الدنيوية التي أنشأوا بها السفن، فكانت سبباً في عز الإسلام ونصر المسلمين.

(أما القسم الثاني من العلوم، فهو القسم المحرم الذي لا فائدة فيه بل يكون وبالاً على صاحبه)[2]، وقد كان النبي ﷺ يستعيذ من هذا العلم فيقول: ((اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع))[3] (ومن ذلك العلم المحرم، الشعوذة وهي: خفة في اليد كالسحر ترى الشيء بغير ما عليه)[4] وهذا ما أشار إليه نص الحديث في قوله ﷺ "فلما كبر قال للملك: إني قد كبرت فابعث إلي غلاماً أُعلمه السحر".

---

(١) البداية والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢٣٧/١٠، وتاريخ الطبري ٧٣٩.

(٢) انظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٩٣/٣٠.

(٣) أخرجه مسلم ٢٧٢٢.

(٤) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٩٣/٣٠.

وقد أكد الشاطبي على ذلك فقال: (من العلم ما هو من صلب العلم، ومنه ما هو من مُلح العلم، لا من صلبه، ومنه ما ليس من صلبه ولا مُلَحه)[١]، ثم بين هذا العلم الذي ليس من صلب العلم ولا مُلحه فقال: (هو ما لم يرجع إلى أصلٍ قطعي ولا ظني وإنما شأنه أن يكر على أصله أو على غيره بالإبطال مما صح كونه من العلوم المعتبرة، والقواعد المرجوع إليها في الأعمال والاعتقادات، أو كان منهضاً إلى إبطال الحق وإحقاق الباطل على الجملة؛ فهذا ليس بعلم؛ لأنه يرجع على أصله بالإبطال، فهو غير ثابت، ولا حاكم، ولا مطرد أيضاً، ولا هو من مُلَحه؛ لأن الملح هي التي تستحسنها العقول، وتَسْتَمْلُحها النفوس؛ إذ ليس يصحبها منفرد، ولا هي مما تُعادي العلوم؛ لأنها ذاتُ أصلٍ مبنيٌ عليه في الجملة، بخلاف هذا القسم؛ فإنه ليس فيه شيء من ذلك.

هذا وإن مال بقوم فاستحسنوه وطلبوه؛ فلشبهٍ عارضة، واشتباه بينه وبين ما قبله، فربما عدَّه الأغبياء مبنياً على أصل، فمالوا إليه من ذلك الوجه، وحقيقة أصله وهمٌ وتخييل لا حقيقة له[٢].

رابعاً- من واجبات المدعو: التبيّن والتثبت:

قد أشار الحديث إلى ذلك من قوله ﷺ "فبينما هو على ذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل؟... إلخ".

(وهذا ما فعله سلمان الفارسي رضي الله عنه في استثباته واستبيانه لنبوة النبي ﷺ من قبوله ﷺ للهدية وعدم أكله للصدقة وفي وجود خاتم النبوة على كتفه الشريف ﷺ)[٣]، وفي بيان ذلك قال سلمان رضي الله عنه ((فلما رآني رسول الله ﷺ استدبرته عرف أني أستثبت في شيء وصف لي، فألقى رداءه عن ظهره، فنظرت إلى الخاتم، فعرفته، فانكببت عليه أقبله وأبكي))[٤]، فعلى المدعو أن يسلك طريق

---

(١) الموافقات في أصول الشريعة، الشاطبي ١٠٧/١.

(٢) انظر: الموافقات في أصول الشريعة، الشاطبي ١٢٠/١-١٢٣.

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي، ٥١٠/١.

(٤) أخرجه أحمد ٤٤٢/٥، ٢٣٧٣٦، وقال محققو المسند: إسناده حسن ورجاله ثقات ١٤١/٣٩.

الاستبيان والاستثبات وذلك بسؤاله لأهل العلم فيما أشكل عليه ممتثلاً في ذلك لقوله تعالى: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[(١)]، ومن جانب آخر أمر الحق تبارك وتعالى عباده بالتبيّن والتثبت إن جاءهم فاسق بنبأ، فقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴾[(٢)] أي: (عليكم أن تتثبتوا في خبر الفاسق وعدم أخذه مجرداً فإن في ذلك خطراً كبيراً، ووقوعاً في الإثم)[(٣)]، وفي ذلك بيان على عظم وأهمية التبيّن والتثبيت في حياة المسلم.

خامساً- من موضوعات الدعوة: الثبات على الحق والصبر على الأذى:

قد أشار الحديث إلى ذلك من قوله ﷺ "فجيء بالراهب فقيل له: ارجع عن دينك فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه، فشقه به حتى وقع شقاه" وأيضاً في قوله ﷺ: "فأمر بالأخدود بأفواه السكك فخدت وأضرم فيها النيران وقال: من لم يرجع عن دينه فأقحموه فيها، أو قيل له اقتحم ففعلوا حتى جاءت امراة ومعها صبي لها، فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمه اصبري فإنك على الحق.

وقد أمر الحق تبارك وتعالى بالثبات على الحق والصبر على الأذى فقال: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[(٤)].

قال ابن كثير: (هذه تسلية للنبي ﷺ وتعزية له فيمن كذبه من قومه، وأَمْر له بالصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، وَوَعْد له بالنصر كما نصروا، وبالظفر حتى كانت لهم العاقبة، بعد ما نالهم من التكذيب من قومهم والأذى البليغ، ثم جاءهم

---

(١) سورة النحل، آية: ٤٣.

(٢) سورة الحجرات، آية: ٦.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي ٧٤٣.

(٤) سورة الأنعام، آية: ٣٤.

النصر في الدنيا، كما لهم النصر في الآخرة؛ ولهذا قال: "ولا مبدل لكلمات الله" أي: التي كتبها بالنصر في الدنيا والآخرة لعباده المؤمنين كما قال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[(٢)] وقوله: "ولقد جاءك من نبأ المرسلين" أي: من خبرهم نُصروا وأُيدوا على من كذبهم من قومهم، فلك فيهم أسوة وبهم قدوة)[(٣)]. وقال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[(٤)].

وقد أمر النبي ﷺ بالثبات على الحق والصبر على الأذى فقال لآل ياسر عندما كانوا يعذبون ((صَبْرًا آلَ يَاسِرٍ فَإِنَّ مَوْعِدَكُمْ الْجَنَّةُ))[(٥)]، وفي ذلك بيان عظيم على أهمية الثبات على الحق والصبر على الأذى في الله.

سادساً- من موضوعات الدعوة: الاستعانة بالله واللجوء إليه:

إن الاستعانة بالله واللجوء إليه هو عز المؤمن وقوته، فبه تزول الصعاب وتمحى العقبات وتحدث الخيرات، ويكون النصر في الدنيا، وهذا ما ظهر جلياً في نص الحديث من قوله ﷺ "ثم جيء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك فأبى، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عند دينه وإلا فاطرحوه، فذهبوا به فصعدوا به الجبل، فقال: "اللهم أكفينهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فسقطوا".

---

(١) سورة الصافات، الآيات: ١٧١-١٧٣.

(٢) سورة المجادلة، آية: ٢١.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢٥٢/٣.

(٤) سورة إبراهيم، آية: ١٢.

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤٧٠/٤، ٥٦٩٦، وقال: حديث صحيح.

وقد أمر الله تعالى عباده بالاستعانة به واللجوء إليه فقال في سورة الأعراف: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟﴾[١] أي: (اعتمدوا على الله في جلب ما ينفعكم، ودفع ما يضركم، وثقوا بالله، أنه سيتم أمركم)[٢] والدعاء هو اللجوء إلى الله والاستعانة به، قال ابن القيم: (وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يستنصر به على عدوه، وكان أعظم جنده، وكان يقول لأصحابه: "لستم تنصرون بكثرة، وإنما تنصرون من السماء، وكان يقول: "إني لا أحمل هم الإجابة ولكن همَّ الدعاء، فإذا ألهمتم الدعاء فإن الإجابة معه)[٣].

ومما لاشك فيه (أن الأدعية والتعوذات بمنزلة السلاح، والسلاح بضاربه، لا بحدِّه فقط؛ فمتى كان السلاح سلاحاً تاماً لا آفة به، والساعد ساعدًا قوي، والمانع مفقودًا، حصلت به النِّكاية في العدو، ومتى تخلَّف واحد من هذه الثلاثة؛ تخلف التأثير، فإذا كان الدعاء في نفسه غير صالح، أو الداعي لم يجمع بين قلبه ولسانه في الدعاء، أو كان ثم مانع من الإجابة؛ لم يحصل الأثر)[٤].

سابعاً- من مهام الداعية: العمل على نصرة الدعوة:

إن الداعية يعمل على نصرة دعوته وإبلاغها للناس بشتى الطرق الممكنة والوسائل المتاحة، ولو أدى ذلك إلى هلاكه بل إنه يدل على طريقة قتله إذا رأى في ذلك إبلاغاً لدعوته، ونشراً لها بين الناس، ودحضاً للباطل وأهله، وتقويضاً للكفر وحزبه، وهذا ما يتضح جلياً في قصة هذا الغلام الداعية، فكلما نجاه الله من كيد الملك الكافر عاد إليه وواجهه ووقف أمامه ثابتاً شامخاً، لا يرهبه ولا يخافه، معتزاً بدعوته ورسالته، ثم خطا خطوة رآها تنشر دعوته بين الناس، وتجعلهم يؤمنون بها ويعتنقونها، فدل الملك

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٢٨.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي ٢٦٣.

(٣) الداء والدواء، ابن القيم ٢٤.

(٤) المرجع السابق ٢١-٢٢.

الكافر على طريقة قتله التي تعلن بكل وضوح أنه على الحق، وأن الملك على الباطل فقال له: (إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به. قال: ما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد وتصلبني على جذع، ثم خذ سهماً من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس ثم قل: بسم الله رب الغلام، ثم ارمني، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني). ففعل الملك ذلك وهو يظن أنه سيقضي عليه وعلى دعوته، لكن خاب أمله، وَأُتِي من حيث لم يحتسب، ووقع ما كان يخشاه، فقد آمن الناس برب الغلام وتركوا عبادة الملك؛ لأن الناس لما رأوا ذلك عرفوا صدق الغلام وكذب الملك فقالوا بصوت واحد "آمنا برب الغلام" فردد أشياع الملك على أذنه قولهم: أرأيت ما كنت تحذر قد والله نزل بك حذرك. قد آمن الناس" والخلاصة أن الغلام رضي بالقتل من أجل نصرة دعوته والجهاد في سبيل نشرها بين الناس، وقد ضرب لنا سلفنا الصالح أروع الأمثلة في هوان حياتهم عندهم من أجل إبلاغ دعوة ربهم.

وليس أدل على ذلك من قول ابن عباس رضي الله عنه: ((ألا أخبركم بإسلام أبي ذر؟ قلنا بلى. قال: قال أبو ذر: بلغني أن رجلاً بمكة قد خرج، يزعم أنه نبي، فأرسلتُ أخي ليكلِّمه، فقلت: انطلق إلى هذا الرجل، فكلمه. فانطلق فلقيه، ثم رجع، فقلت: ما عندك؟ قال: والله، لقد رأيت رجلاً يأمر بالخير، وينهى عن الشر. قلت: لم تشفني. فأخذت جراباً وعصا، ثم أقبلت إلى مكة، فجعلت لا أعرفه وأكره أن أسأل عنه، وأشرب من ماء زمزم، وأكونُ في المسجد. فمرَّ علي بن أبي طالب، فقال: هذا رجلٌ غريب؟ قلت: نعم. قال: انطلق إلى المنزل. فانطلقت معه، لا أسأله عن شيء، ولا يخبرني!

فلما أصبح الغدُ، جئت إلى المسجد لا أسأل عنه، وليس أحد يخبرني عنه بشيء. فمر بي علي، فقال: أما آن للرجل أن يعود؟ قلت: لا. قال: ما أمرك، وما أقدمك؟ قلت: إن كتمت عليَّ أخبرتك؟ قال: أفعل. قلت: قد بلغنا أنه قد خرج نبي. قال: أما قد رشدت! هذا وجهي إليه، فاتبعني وادخل حيث أدخل، فإني إن رأيت أحداً أخافه عليك، قمتُ إلى الحائط كأني أصلحُ نعلي! وامض أنت.

فمضى، ومضيت معه، فدخلنا على النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله، اعرض علي الإسلام. فعرض علي، فأسلمت مكاني. فقال لي: يا أبا ذر، اكتم هذا الأمر، وارجع

إلى قومك! فإذا بلغك ظهورنا، فأقبل. فقلت: والذي بعثك بالحق، لأصرخنَّ بها بين أظهرهم.

فجاء إلى المسجد وقريشُ فيه، فقال: يا معشر قُريش، إني أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله. فقالوا: قوموا إلى هذا الصابئ. فقاموا، فضربت لأموت! فأدركني العباس، فأكب عليَّ، وقال: ويلكم تقتلون رجلاً من غفار، ومتجركم وممركم على غِفار! فأطلقوا عني. فلما أصبحتُ، رجعتُ، فقلت مثل ما قلت بالأمس. فقالوا: قوموا إلى هذا الصابئ! فصنع بي كذلك، وأدركني العباس، فأكب علي. فهذا أول إسلام أبي ذر)[1]. فعلى الدعاة إلى الله أن يقتدوا بسلفهم الصالح في إبلاغ دعوة ربهم ونصره دينهم ولو كان في ذلك شيء من أذاهم.

ثامنا- من أساليب الدعوة: الحوار:

قد ورد الحوار كأسلوب دعوي في مجمل نص الحديث، فقد بدأ بحوار الملك والساحر، ثم ثنى بحوار الغلام والراهب، ثم اتبع ذلك بحوار بين الغلام وجليس الملك، إلى أن انتهى بحوار الغلام والملك.

(والحوار كأسلوب دعوي يعد العنصر الأساس للعلاقات الاجتماعية الإنسانية ومنذ خلق الله تعالى آدم فإن كل العلاقات البشرية، النافعة منها وغير النافعة، ابتدأت بمرحلة الحوار، وبالتالي فإن الحضارات الإنسانية المترتبة على هذه العلاقات، إنما هي نتائج طبيعية للحوار الإنساني المعبر عن التفاعل الفكري المتبادل لبني آدم عليه السلام.

ولا شك أن أرقى أنواع الحوار هو حوار الدعوة إلى الله تعالى، ذلك هو حوار الرسل وأتباعهم؛ لفطرة الإنسان، ليجلو عنها ما ران وغبر: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾[2])[3].

(فالحوار هو القوة الكبرى في فن العلاقات الإنسانية ... إنه المنهج الوحيد الذي تتحقق به المواجهة المباشرة بين القلوب والعقول، ولما كانت القلوب والعقول خاضعة

---

(١) أخرجه البخاري ١٣٤، ومسلم ٢٤٧٤.

(٢) سورة الكهف، الآيتان: ٣٧، ٣٨.

(٣) مجلة الحكمة، العدد الثامن، ١٤١٦هـ ص ١١.

للفطر السليمة من ناحية، وللتعاليم المحرفة التي تطرأ عليها من ناحية أخرى، فقد وجب أن تكون الغلبة في النهاية للحوار الذي يستنير بهذه الفطرة السليمة)[1]. وهذا ما ظهر جلياً في نص الحديث من انتصار الغلام في حواره على الملك وأعوانه وإيمان الناس بدعوته إلى الله تعالى.

(١) الدعوة الإسلامية الوسائل والأساليب، محمد خير رمضان يوسف، ١١٥.

الحديث رقم (٣١)

٣١- وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: مَرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِامْرَأَةٍ تَبْكِي عِنْدَ قَبْرٍ فَقَالَ: «**اتَّقِي اللهَ وَاصْبِرِي**» فَقَالَتْ: إِلَيْكَ عَنِّي، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَبْ بِمُصِيبتى، وَلَمْ تعْرِفْهُ، فَقيلَ لَها: إِنَّه النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَتَتْ بَابَ النَّبِّي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلَمْ تَجِد عِنْدَهُ بَوَّابِينَ، فَقالتْ: لَمْ أَعْرِفْكَ، فقالَ: «**إِنَّما الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأولَى**» متفقٌ عليه(١).

وفي رواية لمُسْلمٍ: «**تَبْكِي عَلَى صَبيٍّ لَهَا**»(٢).

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

إليك عني: هو من أسماء الأفعال ومعناه: تَنَحّ وابتعد(٣).

الصبر عند الصدمة الأولى: أي عند قوة المصيبة وشدتها(٤).

الشرح الأدبي

إن هذا الحديث الشريف يُعدُّ واحة مثمرة بالصبر، وهو حديقة من المعاني نتفيَّأ ظلالها، ونستروح نسائمها، وأي ظلال أطهر وأنقى من ظلال نستمدها من أصداء كلمات رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ وأي نسائم أكثر عبقاً وأطيب ريحاً من نسائم محملة بعطور النبوة، وشذا الرسالة المحمديَّة.

إن هذه الواحة يُعدُّ الصبر أعذب ثمارها، والتقوى أفضل أشجارها، وكلمات المصطفى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظم وأصدق ما نجنيه من عطائها.

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٨٣) واللفظ له، ومسلم (٦٢٦/١٥).

(٢) أخرجه مسلم (٦٢٦/١٥).

(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٤٥، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٧٨/٧.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٥١٢.

ولنتأمل المؤثرات التعبيرية والمكونات الأسلوبية في هذه الدوحة الباسقة التي تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، وما أعظم الدرس الذي يقدمه رسول الله ﷺ في الاحتساب والصبر عبر ذلك الحوار التربوي الهادئ الذي يرسخ بعض أصول المنهج الإسلامي في تبصير الأمة بحقائق الدين وسمات المنهج الرباني، وأصول التصور الإسلامي.

ولنتأمل بداية الحديث وهو يتمثل في مرور النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قبر، وصنيع الرسول ﷺ هنا يؤكد تفقده لأحوال أمته، ووقوفه على أمور رعاياه، واسم المرأة لم يحدد لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ولم يحدد اسم الذي تبكي عليه المرأة، ويمكن أن يكون ولدها كما ورد في رواية مسلم.

ويدور حوار حكيم بين النبي البشير النذير وهذه المرأة الثكلى: ولم يُعنفها رسول الله ﷺ ولم يغلظ لها القول. ولكنه قال: "اتقي الله واصبري" والفعلان هنا في صيغة الأمر، والأمر للوجوب، وهما كلمتان ولكنهما تفيضان بالدلالات الكثيرة، ولنتساءل لماذا قُدم فعل الأمر "اتقي" على أمره لها بالصبر، قيل: بأن اتقي الله توطئة لقوله واصبري: كأنه قال لها: (خافي غضب الله إن لم تصبري، واصبري ليحصل لك الثواب)[1].

ولكن المرأة الثكلى لم تستجب لهذا التوجيه النبوي لأنها لم تتعرف على شخصية الرسول ﷺ وهذا يحتاج إلى تأمل: فالنبي لم يتخذ حراساً ولا حجاباً، ولم يكن يلبس ملابس خاصة تميزه عن غيره مثلما يفعل الملوك والرؤساء قديماً وحديثاً، وليس هذا بمستغرب فهو نبي الله الخاتم، وهو القدوة الحسنة، وهو يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، والمرأة ترد في عنف وغلظة: "إليك عني" أي تنح وابعد عني، فإنك لم تصب بمصيبتي، وهذه الغلظة يقابلها مَنْ بالمؤمنين رؤوف رحيم، بالعفو والصفح والتسامح، وينصرف عنها، وجملة: "ولم تعرفه" في الحديث احتراس: حتى يؤخذ العذر لهذه المرأة

---

(١) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ١٦٤.

في مخاطبتها غير اللائقة لرسول الله ﷺ؛ وقيل سألها الفضل بن العباس، هل تعرفينه: فقالت: لا؛ ولنتدبر موقف المرأة حينما عرفت أنه رسول الله ﷺ، يروي مسلم ((أنها أخذها مثل الموت))[1] من شدة الكرب والأسى؛ ولأن الرسول ﷺ يعفو ويصفح ويحلم اطمأنت المرأة وذهبت بنفسها لتعتذر؛ وقصدت باب النبي ﷺ "ولم تجد بوابين"، وهذه العبارة لها دلالتها العظيمة في تقديم ملامح شخصية الرسول ﷺ في حياته ومسكنه ومطعمه ومشربه، وقالت بعد أن شَرُفت بمقابلة خاتم الأنبياء، والله ما عرفتك ولم يعاتبها رسول الله، ولم يوجه لها لوماً ولم يعاقبها، وإنما نطق بالحكمة، وفاه بالحقيقة "إنما الصبر عند الصدمة الأولى"، وجواب النبي ﷺ على طريقة: أسلوب الحكيم، حيث عدل عن الأمر الخاص، والشأن الشخصي إلى معالجة القضية التي يثيرها الحديث وهي: الصبر، وجاء الحث على الصبر في أسلوب القصر، وقيل كأن النبي ﷺ قال لها دعي الاعتذار فإني لا أغضب لغير الله، وانظري لنفسك في تفويتك الثواب الجزيل بعدم الصبر عند مفاجأة المصيبة قال تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾[2].

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكمين فقهيين:

الأول: حكم زيارة القبور، وقد اتفق الفقهاء[3] على أن زيارة القبور مستحبة للرجال لما فيها من التذكير بالآخرة، أما زيارة النساء للقبور فقد اختلف فيها الفقهاء على قولين:

---

(١) أخرجه مسلم ٩٢٦.

(٢) سورة المؤمنون، آية: ١١١.

(٣) بدائع الصنائع، الكاساني ١/ ٣٢٠، والتاج والإكليل شرح مختصر خليل، محمد بن أبي يوسف العبدري ٣/ ٥٠، والمدخل ١/ ٢٥٠، والأم، الأمام الشافعي١/ ٣١٧، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٥/ ٢٨٥، والفتاوى الكبرى ٣/ ٣٩، والفروع، ابن مفلح ٢/ ٢٢٩، والمحلى، ابن حزم ٣/ ٣٨٨.

القول الأول: ذهب الحنفية في الأصح[١] والمالكية في قول[٢] والشافعي في وجه[٣] وأحمد في رواية[٤] إلى أن زيارة النساء للقبور جائزة للحديث، وأن النهي عنها في الأحاديث الأخرى نهي تنزيه لا تحريم، بل هي عند الحنفية في الأصح مندوبة كزيارة الرجال لها.

القول الثاني: ذهب الحنفية في قول[٥] والمالكية في قول[٦] والشافعية في وجه[٧] والإمام أحمد في رواية[٨] إلى أن زيارة النساء للقبور غير جائزة وتمنع منها لما فيها من البدع والفتن المحرمة.

الثاني: حكم البكاء على الميت عند زيارة قبره، وقد ذهب جمهور الفقهاء[٩] إلى أن البكاء على الميت عند زيارة القبر جائز متى كان من غير نياحة، ولا التلفظ

---

(١) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٢/٢١٠، والفتاوى الهندي ٥/٣٥٠.

(٢) المدخل ١/١٥٠، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٢/٢٣٧.

(٣) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٥/٢٨٥، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري١/٣٣١، والغرر البهية في شرح البهجة الوردية، القاضي أبو يحيى زكريا الأنصاري ٢/١٢٠.

(٤) الفروع، ابن مفلح ٢/٢٩٩، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ٢/٥٦٢.

(٥) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٢/٢١٠، والفتاوى الهندي ٥/٣٥٠.

(٦) المدخل ١/٢٥٠، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٢/٢٣٧.

(٧) معالم القربة في طلب الحسبة ص ٥١، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، عبدالرحمن بن نصر الشيزري ص ١١٠.

(٨) الفتاوى الكبرى ٣/٣٩، الفروع، ابن مفلح ٢/٢٩٩، الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ٢/٥٦٢.

(٩) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٢/١٩٥، شرح معاني الآثار للطحاوي ٤/٢٩١، المنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد الباجي للباجي ٢/٢٥، أحكام القرآن لابن العربي ٣/١١، مختصر المزني ص١٣٤، المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٥/٢٧٩، فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣/١٥٤، الفتاوى الكبرى لابن تيمية ٣/٦٥، ٥/٣٦٢، المغني، ابن قدامة ٢/٢١٢، الآداب الشرعية، ابن مفلح ١/٤، الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٨/١٧٣.

بألفاظ تدل على السخط والتبرم، وكره ابن تيمية[١] البكاء على الميت بعد موته أو عند قبره، لأنه يؤذيه البكاء كما وردت بذلك الأحاديث وهو ما عليه الحنابلة في وجه، ولا يلزم من ذلك أن يكون بكاؤهم سببًا لتعذيبه إنما المراد به النياحة المنهي عنها أو شدة البكاء أو إذا وصى بفعل ذلك عن قبره.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: الأمر بالتقوى والصبر.

ثانياً: من صفات الداعية: مراعاة أحوال المدعوين وتقدير مشاعرهم.

ثالثاً: من صفات الداعية: التواضع.

رابعاً: من أساليب الدعوة: الحوار.

خامساً: من صفات المدعو: التأدب بأدب الإسلام.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الأمر بالتقوى والصبر:

ورد الأمر بالتقوى والصبر في هذا الحديث في أمره ﷺ لتلك المرأة التي تبكي على ولدها حيث "مر النبي ﷺ على امرأة تبكي عند قبر فقال: اتقي الله واصبري" فالظاهر من قوله "اتقى الله أنه كان في بكائها قدر زائد من نوحٍ وغيره ولهذا أمرها بالتقوى[٢] قال الطيبي: (قوله "اتقي الله" توطئة لقوله "واصبري" كأنه قيل لا تجزعي وخافي غضب الله[٣] وفي الحديث أرشد النبي ﷺ إلى التحلي بفضيلة خلق الصبر عند المصائب، وعند كل ما يجلب الآلام ويورث المتاعب والأكدار، ولقد وعد الإسلام الصابرين بالأجر العظيم والثواب الجزيل إذا صبروا ورضوا بقضاء الله، طاعة له، وابتغاء مرضاته، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾[٤][٥].

---

(١) الفتاوى الكبرى لابن تيمية ٤٦٥/٣، الآداب الشرعية، ابن مفلح ٤/١.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٧٨/٣.

(٣) شرح الطيبي، الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٣٩٦/٣، ٣٩٧.

(٤) سورة البقرة، الآيات: ١٥٥-١٥٧.

(٥) الوجيزة في الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني ص ٣٨٠، ٣٨١.

وما أشد وقع المصيبة على النفس حين تكون بعزيز غالٍ، أو ولد حبيب!! إنها لخطب جلل وكارثة عظيمة قد يضيق عنها الصبر ولا تتحملها النفس، ولكن الدين داوى هذه النفوس الجزعة بما يخفف عنها وقع المصيبة وألم الكارثة. فالمؤمن يعتقد بقضاء الله وقدره وأنّ كل ما يحدث في هذه الحياة من خير أو شر، ومن نفع أو ضر، إنما هو بقضاء من الله وتقدير منه فيرضى بحكم الله صابراً محتسباً طمعاً في مرضاة الله -عز وجل- وإلى هذا تشير الآية الكريمة: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[1].

هذه هي فائدة الإيمان (بالقضاء والقدر) أن تخفف المصيبة عن قلب الإنسان بسبب اعتقاده أنها بإرادة الله ومشيئته بينما الكافر ينفد صبره ويضيع رشده، ولربما أضاع حياته أيضاً بالانتحار؛ لأنه ليس لديه ما يسليه أو يعزيه، أو يخفف المصاب عنه، ولقد كان جزاء الصبر عظيماً عند الله؛ لأنه حَبْس للنفس على ما تكره، وصون لها عن فعل ما يغضب الله، ومقاومة للنوازع الفطرية في نفس الإنسان؛ ولذا كان الثواب عظيماً. قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾[2].

وفي هذا الحديث الشريف دعوة إلى الصبر وتقوى الله لتلك المرأة التي فقدت ولدها، ولكن وقع المصيبة كان عظيماً لذلك، فقد خاطبت الرسول ﷺ بألفاظ لا تليق بمقامه الشريف، ولكن الرسول ﷺ قابلها بالسماحة والعفو، ولم تلبث أن جاءت تعتذر فقبل الرسول اعتذارها وضرب لها أروع الأمثال في أسلوب النصيحة بقوله: (إنما الصبر عند الصدمة الأولى).

---

(١) سورة الحديد، الآيتان: ٢٢ - ٢٣.

(٢) سورة البقرة، الآيات: ١٥٥ - ١٥٧.

ثانياً- من صفات الداعية: مراعاة أحوال المدعوين وتقدير مشاعرهم:

إن المتأمل في توجيه النصيحة من رسول الله ﷺ لتلك المرأة التي كانت "تبكي على صبي لها" يلمس اللطف والرفق وعدم التعنيف وتقدير مشاعر الحزن والجزع ومن ثم أمر بتقوى الله والصبر، فلم نر في توجيه الرسول ﷺ لها تعنيفاً ولا زجراً حتى مع إعراضها عنه في بادئ الأمر "فقال لها اتقي الله واصبري، فقالت: إليك عني، فإنك لم تصب بمصيبتي، ولم تعرفه".

ولذا ينبغي على الداعية أن يراعي أحوال المدعوين فلقد كان رسول الله ﷺ يُعنى عناية شديدة بأحوال المخاطبين، وكان يهتم اهتماماً بالغاً بمراعاتها أثناء الدعوة والتوجيه والإرشاد، قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾[1] قال الشيخ ابن عثيمين في تفسيرها: (فقد كان ﷺ يدعو على بصيرة فيما يدعو إليه، وعلى بصيرة في حال المدعو، وعلى بصيرة في كيفية الدعوة)[2].

ثالثاً- من صفات الداعية: التواضع:

تتضح صفة التواضع في بساطة النبي ﷺ، وعدم وجود الحواجز أو الموانع بينه وبين المدعوين. ومن الشواهد على ذلك في الحديث الذي معنا ما ورد فيه: "فأتت باب النبي ﷺ فلم تجد عنده بوابين" قال ابن حجر: (وفي هذا الحديث من الفوائد ما كان عليه الصلاة والسلام من التواضع والرفق بالجاهل، ومسامحة المصاب وقبول اعتذاره وملازمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفيه الترغيب في احتمال الأذى عند بذل النصيحة ونشر الموعظة[3]؛ فالتواضع من الصفات التي ينبغي أن يتحلى بها الدعاة، وذلك لأن التواضع يمكنهم من النجاح في دعوتهم، فقلوب المدعوين تحب المتواضع وتنفر من المتكبر، فما أحوج الداعية إلى أن يصل إلى قلوب المدعوين بسهولة ويسر،

---

(١) سورة يوسف، آية: ١٠٨.

(٢) مراعاة أحوال المخاطبين، د. فضل إلهي ص ٢٣.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٧٩/٣.

وهذا يكون عن طريق التواضع)[١].

ولقد كانت حياة رسول الله ﷺ مثالاً حياً وتطبيقاً فعلياً لخلق التواضع، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصر، منها ما روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ((كانت ناقةٌ لرسول اللّه ﷺ تسمى العَضْباء، وكانت لا تُسبَق، فجاء أعرابيٌّ على قَعودٍ له فسبَقها، فاشتد ذلك على المسلمينَ وقالوا: سُبِقتِ العَضباءُ، فقال رسول اللّه ﷺ: «إن حقّاً على اللّهِ أن لا يَرفَعَ شيئاً من الدنيا إلا وَضَعَه»))[٢].

قال ابن حجر: (فيه إشارة إلى الحث على عدم الترفع والحث على التواضع والإعلام بأن أمور الدنيا ناقصة غير كاملة، قال ابن بطال: فيه هوان الدنيا والتنبيه على ترك المباهاة والمفاخرة، وأن كل شيء هان على الله فهو في مَحَلِّ الضعة فحق على كل ذي عقل أن يزهد فيه، ويقلل منافسته في طلبه، وقال ابن حجر: فيه أيضاً حسن خلق النبي ﷺ وتواضعه لكونه رضي أن أعرابياً يسابقه)[٣].

إن التواضع يمكّن الدعاة من جميع الأتباع ويحببهم إلى الناس فيستمعون إليهم ويتأثرون بهم، ويتأسون بأفعالهم، ويجب أن يكون التواضع مع جميع الناس مع الكبير والصغير، والرئيس والمرؤوس، والغني والفقير، والضعيف والقوي، ومع العالم والجاهل، وكل أصناف المجتمع.

فمن التواضع: طيب الحديث، والتبسم في وجه الناس، والرفق بهم وعدم مؤاخذتهم بزلاتهم، وتهدئة روعهم إذا فزعوا[٤].

وبالجملة فإن التواضع يجعل الداعية محبوباً في قومه وبيئته ذا أثر فعال بينهم، وقوامه عليهم صفة التواضع وخفض الجناح، فالكبر يشكل جداراً وحاجزاً بين الداعية والناس، بل ويجعل الداعية معزولاً عن مجتمعه غير مألوف ممن حوله[٥].

---

(١) قواعد الدعوة الإسلامية، د. الشريف حمدان راجح المهدي الهجاري ص ٣٧٧.

(٢) أخرجه البخاري ٦٥٠١.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٤٩/١١.

(٤) انظر: أسس الدعوة وآداب الدعاء، محمد السيد الوكيل ص ٨١ – ٨٢.

(٥) صفات الداعية، د. حمد بن ناصر العمار ص ٦٠.

رابعاً- من أساليب الدعوة: الحوار:

يتضح هذا الأسلوب فيما وقع بين النبي ﷺ، وتلك المرأة الثكلى من حوار "فقال اتقي الله واصبري، فقالت: إليكَ عني فإنك لم تصب بمصيبتي، لم تعرفه... فقالت: لم أعرفك، فقال إنما الصبر عند الصدمة الأولى" والحوار فن وأسلوب من أساليب الحديث المشوقة للنفس، وفي مجال الحوار يحسن التأدب والمجاملة والرقة وحسن الخلق مع المحاور معه وعدم الخوض في الفروع التي لا توصل إلى نتيجة[1].

إن الغاية من الحوار في الدعوة هي هداية الناس والحرصُ على إصلاحهم فالحوار ينبغي أن لا يتجه إلى مجرد الإفحام والإلزام، بل يتجه في الكثير الغالب إلى إرشاد الناس والأخذ بأيديهم إلى الحق وتوجيه النظر إلى الحقائق[2].

وقد ذكر لنا القرآن الآداب التي ينبغي مراعاتها في الحوار، ومنها:

أ- العلم، فقد ذم الله عز وجل أهل الكتاب في مجادلتهم في إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَـٰٓأَنتُمۡ هَـٰٓؤُلَآءِ حَـٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾[3].

ب- استخدام الأسلوب الحسن في الحوار، قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَـٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾[4].

ففي هذه الآية "أمر الله بالمجادلة بالتي هي أحسن، ومن تأمل الطرق التي نصب

---

(١) الدعوة الإسلامية الوسائل والأساليب، محمد خير رمضان يوسف ص ١١٣.

(٢) المعجزة الكبرى "القرآن"، محمد أبو زهرة ص ٢٦٧.

(٣) سورة آل عمران، الآيتان: ٦٥ - ٦٦.

(٤) سورة العنكبوت، آية: ٤٦.

الله المحاجة بها مع المبطلين على أيدي رسله رآها أوضح من الحجج وأقوى منها، وأقومها وأدلها على إحقاق الحق وإزهاق الباطل، على وجه لا تشويش فيه، ولا إزعاج"[١].

ج- الإنصاف، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٢].

قال أبو السعود: "انظر إلى ما روعي في هذه القصة من المبالغة في الإرشاد، وحسن التدرج في المحاجة حيث بيّن أولاً أحوال عيسى عليه السلام، وما توارد عليه من الأطوار المنافية للإلهية، ثم ذكر كيفية دعوته الناس إلى التوحيد والإسلام، فلما ظهر عنادهم دُعوا إلى المباهلة بنوعٍ من الإعجاز ثم لما أعرضوا عنها، وانقادوا بعض الانقياد دُعوا إلى ما اتفق عليه عيسى عليه السلام والإنجيل وسائرُ الأنبياء عليهم السلام والكُتب، ثم لما ظهر عدم إجدائه أيضاً أمر بأن يقال لهم: اشهدوا بأنا مسلمون"[٣].

د- تنوع الإقناع: تختلف مدارك الناس في عملية إقناعهم، فالبعض قد يصعب إقناعه بسهولة "وهؤلاء لا بد لهم من طريق جدلية تزيل ما لبس الحق عليهم، ويتخذ بها قوة مما يعتقدون، إذ يلزمهم بما عندهم ويفحصهم بما بين أيديهم، ويتخذ ما يعرفون

---

(١) القواعد الحسان لتفسير القرآن، عبدالرحمن السعدي ص ٤٤.

(٢) سورة آل عمران، الآيات: ٦٤ - ٦٨.

(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، محمد بن محمد أبو السعود ٢/٤٧ - ٤٨.

وسيلة لإلزامهم بما يرفضون"[١].

خامساً- من صفات المدعو: التأدب بأدب الإسلام:

ظهر هذا الأدب في قول المرأة معتذرة لرسول الله ﷺ "لم أعرفك" قال النووي: فيه الاعتذار إلى أهل الفضل إذا أساء الإنسان أدبه معهم[٢] فالأدب ومنه الاعتذار، من مكارم الأخلاق، وهو زينة الإنسان؛ لذا كان من الواجب على الداعي والمدعو على حد سواء التأدب بمكارم الأخلاق، فما أحوج المرء إليها قال ابن المقفع: ما نحن إلى ما نتقوى به على حواسنا من المطعم والمشرب بأحوج منا إلى الأدب، الذي هو لقاح عقولنا، فإن الحبة المدفونة في الثرى لا تقدر أن تطلع زهرتها ونضارتها إلا بالماء الذي يعود إليها من مستودعها، وحكى الأصمعي أن أعرابياً قال لابنه: يا بني: الأدب دعامة أَيَّد الله بها الألباب، وحلية زين الله بها عواطل الأحساب، فالعاقل لا يستغني وإن صحت غريزته من الأدب المخرج زهرته، كما لا تستغني الأرض وإن طابت تربتها عن الماء المخرج ثمرتها، وقال بعض البلغاء: الفضل بالعقل والأدب لا بالأصل والحسب؛ لأن من ساء أدبه، ضاع نسبه، ومن قل عقله ضل أصله[٣].

---

(١) المعجزة الكبرى "القرآن"، محمد أبو زهرة ص ٢٦٧.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٥٩٨.

(٣) أدب الدنيا والدين، لأبي الحسن الماوردي ص ٢٢٦، ٢٢٧.

الحديث رقم (٣٢)

٣٢- وَعَنْ أبي هَرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**يَقولُ اللّهُ تَعَالَى: مَا لِعَبْدِي المُؤْمِنِ عِنْدِي جَزَاءٌ إِذَا قَبضْتُ صَفِيَّهُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا ثُمَّ احْتَسَبَهُ إِلاَّ الجَنَّةَ**» رواه البخاري[١].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

صفيّه: الصفيُّ: الحبيب المصافي المخلص الودَّ، كالولد والأخ وكل من يحبه الإنسان[٢].

احتسبه: صبر على فقده راجياً الأجر من الله على ذلك[٣].

الشرح الأدبي

إننا نقتبس من هذا الحديث الشريف هالات من المعاني التي تشع بكثير من طاقات الإيمان، وإشعاعات اليقين، وهذا الحديث يصطبغ بصبغة خاصة وهو أنه حديث قدسي، وشاهد ذلك أن مقدمة الحديث تقول: يقول الله تعالى: وقال ابن حجر: لابد من بيان الفرق بين الوحي المتلو وهو القرآن، والوحي المروي عنه صلى الله عليه وسلم، عن ربه عز وجل، وهو ما ورد من الأحاديث الإلهية ، وتسمى القدسية، وهى أكثر من مائة.

وقد حدد بعض العلماء الفروق بين القرآن والحديث القدسي في ستة أوجه ومنها: أن القرآن معجز والحديث القدسي ليس معجزاً، وأن الصلاة لا تكون إلا بالقرآن بخلاف الحديث القدسي، وأن القرآن يجب أن يكون لفظه من الله تعالى، بخلاف الحديث القدسي فيجوز أن يكون اللفظ من النبي صلى الله عليه وسلم.

---

(١) برقم (٦٤٢٤).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ص ف و)، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٤٧/١١.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٤٧/١١.

والحديث القدسي يلتقي مع الحديث النبوي في أن كليهما لفظه من رسول الله ﷺ مفردات وتراكيب وأساليب وصيغاً وصوراً جمالية، ولكن الحديث القدسي يحكيه النبي حكاية عن الله تعالى، ويسند مضمونه إليه، أما الحديث النبوي فمن كلام النبي ﷺ نفسه[1].

وحين نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف.. نجد أنه يتسم بسمة أسلوبية خاصة وهي أنه يتكون في صيغته اللغوية من جملة واحدة، بحيث لا نستطيع أن نتوقف عند كلمة في الحديث إلا بعد الانتهاء منه فالمعنى لا يتم إلا بنطق آخر كلمة وهي "الجنة" فالحديث كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا، وقد صيغ في أسلوب القصر عن طريق النفي "ما" والاستثناء "إلا"، والألفاظ التي تتحصن داخل هذا السور اللغوي المحكم تشع بهالات إيمانية وظلال روحانية، ووعود إلهية. وما أعظم الوعد الإلهي الذي ينتهي بصاحبه الموعود إلى الجنة، ولنتأمل السر وراء اختيار هذه الكلمة "لعبدي" بما توحيه من إقرار العبد بعبوديته لله عز وجل وإضافة العبد إلى ياء المتكلم تفيد التشريف والتكليف، لأن المتكلم هو رب العالمين، وإضافة العبد إليه فيه إيماء بأن الله يحمي عبده وينصره ويواسيه في مصائبه، وحين يوصف هذا العبد بالمؤمن فإن هذا الوصف يثبت إضافة العبودية لله عز وجل؛ لأن كل الخلائق عبيد الله، ومنهم الصالحون والطالحون، ولكن الذي يستحق كرم الله هو "العبد المؤمن" ولفظ "عندي" يؤكد حماية الله لعبده، والعندية هنا عندية شرف لا عندية مكان، فالله يتعالى ويتنزه عن المكان والزمان، ولفظ "جزاء" صيغ في قالب النكرة لإفادة العموم والشمول وهو أعظم من أن يحدد إلا إذا كان هذا الجزاء هو "الجنة"، وأسلوب الشرط في قوله عز وجل "إذا قبضت صفيه" يفيد تحقق الشرط لأن إذا أداة شرط تفيد وقوع الحدث، وحذف الجواب يفتح المجال لكثير من التأويلات وفي مقدمتها العلم به وهو الرضا والصبر والاحتساب، وكأن هذه الصفة الإيمانية كالضوء الباهر الذي لا تحجبه

---

(١) انظر: الأحاديث القدسية ١/٤ – ٧.

الغيوم ولا كتل الظلام والأحزان، و"صفيه"، لفظ مشع بكل طاقات الود، ومواثيق الأخوة، وتحديد هذا اللفظ وعدم العدول عنه إلى لفظ الأخ أو الصديق أو الحبيب أو الابن لأن لفظ "صفيه" يجمع كل هذه الصفات المعنوية والحسية؛ ولفظ الجنة يجيء في ختام الحديث الشريف ليبشر كل محتسب صابر راض بقضاء الله وقدره، مهما كان حجم المصيبة، ومهما كانت صلته بمن قبضه الله إليه، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من مصادر الدعوة: الحديث القدسي.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: فضل الصبر والاحتساب.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: بيان فضل الله على عباده.

أولاً- من مصادر الدعوة: الحديث القدسي:

يعد الحديث القدسي من مصادر الدعوة التي يفيد منها الداعية في دعوته، وما من شك أن نجاح الدعوة يعتمد اعتماداً كلياً على مصادر الدعوة والتي منها الحديث القدسي، والحديث القدسي هو الذي يرويه النبي ﷺ عن ربه، (وهو ما كان معناه من الله ولفظه من عند الله أو من عند النبي ﷺ ولا يتعبد به بخلاف القرآن لفظه ومعناه عن الله تعالى ويتعبد بتلاوته)[2]؛ ومن الأحاديث القدسية ما ورد فيما روي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: يقول الله تعالى: ((ما لعبدي المؤمِن عندي جَزاءٌ إذا قَبَضتُ صفيَّه مِن أهلِ الدنيا ثمَّ احتَسَبه إلا الجنّة)).

---

(١) سورة البقرة: ١٥٥-١٥٧.

(٢) تيسير مصطلح الحديث، د. محمود الطحان ص ١٢٧.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: فضل الصبر والاحتساب:

لقد أرشد الإسلام إلى التحلي بفضيلة خُلق الصبر عند المصائب،وعند كل ما يجلب الآلام ويورث المتاعب والأكدار.

ووجّه الإسلام المؤمنين إلى الرضى بقضاء الله وقدره في كل ما ينجزه القضاء والقدر من أمره، وأبان للمؤمنين أن حكمة الابتلاء في ظروف الحياة الدنيا قد تقضي بأن يكون الابتلاء بالمكاره والمؤلمات، وأنّ ما يأتي به القضاء والقدر مما لا كسب للإنسان فيه ولا مسؤولية عليه به هو خير في حقيقة أمره، وإن كان ظاهره مكروهاً وموجعاً، وإن كان في عرف الناس مصيبة من المصائب؛ وأبان للمؤمنين أنه ما يصيبهم من حسنة فمن فضل الله وواسع رحمته وجوده، وما يصيبهم من سيئة فبسبب من أنفسهم.

ووعد الإسلام الصابرين بالأجر العظيم، والثواب الجزيل، إذا صبروا رضىً بقضاء الله، وطاعة له،وابتغاء مرضاته.

وجاء في الحديث بيان فضل الصبر وأنه لا جزاء له عند الله إلا الجنة ويظهر ذلك من قول الله في الحديث القدسي "ما لعبدي المؤمن عندي جزاءٌ إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة".

قال أبو الحسن الماوردي: اعلم أن من حسن التوفيق، وأمارات السعادة، الصبر على الملمّات، والرفق عند النوازل، وبه نزل الكتاب وجاءت السنة، قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[1]،[2] وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ فإن الصابرين بأنفسهم على طاعة الله والتكاليف المنوطة بهم والتقوى ومجاهدة النفس ونهيها عن الهوى وتزكيتها ومحاسبتها ومراقبتها عند الابتلاءات جزاؤهم أن يوفى لهم أجورهم بغير حساب، وقد أطلق الله

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٢٠٠.

(٢) أدب الدنيا والدين، أبو الحسن الماوردي ص ٢٧٦.

البشرى لأهل الصبر على الابتلاء بمصائب الحياة ومصاعبها بأن جزاءهم على صبرهم هو الحصول على صلواتٍ من ربهم ورحمة وهداية إلى الصراط المستقيم بإذن الله[1]، كقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾[2].

فدلّ هذا النص على المصائب المؤلمة في الأنفس، أو في الأجسام، أو في الأموال، أو في الثمرات قد تكون نوعاً من الامتحان في ظروف الحياة الدنيا، لقول الله تعالى "ولنبلونكم" والابتلاء هو الامتحان.

وقد أرشد هذا النص إلى التحلي بفضيلة الصبر في مجال الإصابة بالمصائب المختلفة، والتي منها مصائب الخوف، ومصائب الجوع، ومصائب النقص من الأموال، ومصائب النقص من الأنفس، ومصائب النقص من الثمرات.

وأبان النص أن من آداب الصابرين على المصائب التي تأتيهم من عند الله لابتلائهم، وامتحان إيمانهم، واختبار تسليمهم ورضاهم بما يجري به قضاء الله وقدره، أن يقولوا: إنا لله وإنا إليه راجعون، معلنين بهذا أنّ كل شيء هو مملوك لله، وأنه إلى الله يرجع.

واشتمل النص على البشارة من الله للصابرين، إذ يقول تبارك وتعالى فيه: "وبشر الصابرين"؛ وهذه البشارة قد جاءت بأمرين محبوبين عظيمين:

الأمر الأول: أنّ عليهم صلوات من ربّهم.

الأمر الثاني: أنّ عليهم من ربهم رحمة.

وقد استحقوا البشارة بهذا الجزاء الكريم لأنهم هم المهتدون إلى سبيل سعادتهم، وهم السالكون في الطريق القويم.

إنهم لما صبروا ابتغاء مرضاة الله استحقوا أنواعاً من رحمة الله وغفرانه، ومن أجل

---

(١) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروز آبادي، ٣/٣٧٥.

(٢) سورة البقرة، الآيات: ١٥٥-١٥٧.

ذلك كان عليهم صلوات من ربهم، ولما أعلنوا رضاهم عن الله، وتسليمهم لما تجري به مقاديره، بقولهم: إنا لله وإنا إليه راجعون، استحقوا نوعاً آخر خاصّاً من رحمة الله، مضافاً إلى أنواع الرحمات السابقات التي استحقوها بالصبر.

ومن هذا ندرك: أن رحمة الله أنواع كثيرة، وقد أشارت الآية إلى هذه الأنواع بعطف الرحمة على الصلوات من الله، مع أن الصلوات من الله هي أيضاً رحمات منه[1].

ووَصَفَ الرسول ﷺ الصبر بالضياء، فعن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ ((الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ ... وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو. فَبَائِعٌ نَفْسَهُ، فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا))[2].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: بيان فضل الله على عباده:

إن فضل الله على عباده عظيم لا يُبْلغ منتهاه ولا يمكن لإنسان أن يحصي فضل الله عليه، ومن مظاهر ذلك الفضل أن الله لا يبتلي إنساناً بشيء إلا عوضه خيراً منه وكما جاء في الحديث "يقول الله تعالى: ما لعبدي المؤمن عند جزاءٌ إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة".

قال ابن حجر: (والمراد بـ "احتسبه" أي: صبر على فقده راجياً الأجر من الله تعالى)[3].

قال ابن عثيمين: (والصفي: من يصطفيه الإنسان ويختاره من ولد وأخ، أو عم أو أب أو أم أو صديق، المهم أن مَنْ يصطفيه الإنسان ويختاره ويرى أنه ذو صلة منه قوية، إذا أخذه الله عز وجل ثم احتسبه الإنسان فليس له جزاءٌ إلا الجنة، وفي ذلك دليل على فضل الله تعالى وكرمه على عباده، فإن الملك ملكه، والأمر أمره، وأنت وصفيك كلاكما لله عز وجل ومع ذلك إذا قبض الله صفي الإنسان واحتسب فإن له هذا الجزاء العظيم)[4].

---

(١) الوجيزة في الأخلاق الإسلامية، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني ص ٣٨١ - ٣٨٣.

(٢) أخرجه مسلم ٢٢٣.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٤٧/١١.

(٤) شرح رياض الصالحين ٩٣.

فإن العبد إذا سلم أمره ورضي بحكمه وصبر على ما يصيبه كان ثوابه جزيلاً، فمن مات له حبيب أو قريب فصبر ورضي بحكم الله وقاوم الجزع والهلع عند الصدمة الأولى كان جزاؤه الجنة، لأنه تحكم في عواطفه وسيطر على سلوكه ومشاعره، وما ذلك إلا بتأثير الإيمان.

ويؤخذ من هذا الحديث: فضل الصبر وأنه دليل على كمال العبودية وأن جزاءه الجنة.

وفيه: أن الصبر على الأحبة والأخلاء والأصفياء دليل على حصول ملكة الصبر[1].

(١) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم ص ٥٧.

الحديث رقم (٣٣)

٣٣- وعَنْ عائشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنهَا سَأَلَتْ رسولَ اللَّه ﷺ عَن الطَّاعونِ، فَأَخبرَهَا[١] أَنَهُ كَانَ عَذَاباً يَبْعَثُهُ اللَّه تعالى علَى منْ يَشَاءُ، فَجَعَلَهُ اللَّهُ تعالَى رحْمةً للْمُؤْمنِينَ، فَلَيْسَ مِنْ عَبْدٍ يَقَعُ في الطَّاعُون فَيَمْكُثُ في بلَدِهِ صَابِراً مُحْتَسِباً يَعْلَمُ أَنَّهُ لاَ يُصِيبُهُ[٢] إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ إِلاَّ كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ الشَّهِيدِ» رواه البخاري[٣].

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

غريب الألفاظ:

الطاعون: مرض وَرَمِيّ وبائيّ[٤].

محتسباً: أي غير منزعج ولا قلقاً بل مسلماً لأمر الله راضياً بقضائه راجياً الأجر منه[٥].

الشرح الأدبي

إن النبي محمداً ﷺ هو طبيب الإنسانية: عقلاً وجسداً وروحاً، وإن البيان النبوي يتضمن إرشادات طبية تعالج الأمراض الجسمية والعقلية والروحية، والطب النبوي شاهد على ذلك، ولا تقتصر أحاديثه -ﷺ- الطبية على فرع من الطب دون غيره، بل إنه تحدث في فروع الطب المتعددة ومنها الطب الوقائي، والطب العلاجي، والطب النفسي، وأصول علم الصحة، وعلم الوراثة.

وهذا الحديث الشريف يعد وثيقة طبية نفسية اجتماعية في إطار العقيدة

---

(١) عند البخاري زيادة: (نبي الله ﷺ).

(٢) عند البخاري: (لن يصيبه).

(٣) برقم (٥٧٣٤).

(٤) الوسيط في (ط ع ن).

(٥) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠/٢٠٤.

الصحيحة، والتسليم بالقضاء والقدر، والصبر والاحتساب؛ والحديث ورد في صيغة السؤال والجواب، والسؤال يرد من الصدِّيقة بنت الصديق، وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، والمجيب هو خير مجيب، وهو الذي أُعطي جوامع الكلم، وهو الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى؛ والمسؤول عنه هو مرض الطاعون. والطاعون كما يقول العلماء هو: بثر مؤلم يخرج غالباً في الآباط مع لهب واسوداد حواليه، وخفقان القلب والقيء. وإجابة الرسول ﷺ لم تكن توصيفاً لحقيقة مرضى الطاعون توصيفاً طبياً، ولا تشخيصاً لأعراضه، وإنما جاءت إجابته عليه السلام تشخيصاً لأثر الطاعون وأسبابه ونتائجه، وقال: "كان عذاباً يبعثه الله تعالى على من يشاء"، وهذه إشارة إلى جانب من جوانب آثار الطاعون ومسبباته، فهو من مظاهر عذاب الله للأمم السابقة، ولكنه تتغير صورته وتتغير آثاره مع المؤمنين، حيث جعله الله تعالى رحمة للمؤمنين، ولنتأمل المقابلة بين هذين الموقفين المتضادين، كيف يكون الشيء الواحد عذاباً ورحمة؟ عذاباً لقوم ورحمة لآخرين!! ولكن رسول الله ﷺ لا يترك للظن والوهم مساحة في تفكير الإنسان ووجدانه: فيقول: "فليس من عبد يقع في الطاعون فيمكث في بلده صابراً محتسباً يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له، إلا كان له مثل أجر الشهيد".

فالرحمة تتمثل في ثواب الله لهؤلاء الذين صبروا واحتسبوا ولم يصبهم إلا ما كتب الله لهم.

وعدم الخروج من البلد التي أصابها الطاعون يُعد من الطب الوقائي وله مظاهر كثيرة ومنها تحريم الخمر، وعدم الإفراط في الأكل والشرب، ومن مظاهر الطب الوقائي: "الحجر الصحي"، ومكوث مرض الطاعون في المنطقة المصابة من دلائل "الحجر الصحي"، حتى لا يصاب غيرهم، ويقول ﷺ مؤكداً هذا المعنى: ((إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا منها))[1]، ويقول: ((فر من المجذوم فرارك من الأسد))[2]؛ وقوله: "فليس من عبد" يدل على

(١) أخرجه البخاري ٥٧٢٨، ومسلم ٢٢١٨.

(٢) أخرجه البخاري ٥٧٠٧.

استقصاء كل أصناف الناس وخاصة المؤمنين وحرف الجر: "من"، قبل: "عبد"، يدل على هذا الاستقصاء؛ والتعبير بقوله: "يقع في الطاعون"، والتعبير "بفي"، يجعل الطاعون كأنه لجة يغرق فيها المريض، والمكث جاء في صيغة المضارع ليوحي بالاستمرار في المكوث، ولا يخرج حفاظاً على الباقين من انتشار مرض الطاعون، والصبر والاحتساب في موقع الحال الدائمة، إيحاء بعدم اليأس، وعدم القنوط من رحمة الله، وهو مؤمن بالقضاء والقدر، وبما كتب الله له، ومن كان هذا مسلكه في مواجهة المرض، وكان حريصاً على عدم انتشار هذا المرض بين الآخرين جعل الله له أجراً مثل أجر الشهيد، وما أعظمه من أجر وما أكرمه من جزاء يعطيه الله لمن يشاء.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم من مرض بمرض مُعدٍ كالطاعون وغيره وهل يجوز له الفرار منه أم يمكث في بلد الإصابة صابراً حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً ولا يتسبب في الضرر للآخرين؟

وقد ذهب جمهور الفقهاء[1] إلى أنه لا يجوز لمن كان في بلد وقع فيها الطاعون أن يخرج منها فراراً منه للأحاديث الواردة في النهي عن ذلك ومنها هذا الحديث ما لم يكن خروجه للسفر دون الفرار، وكذا لا يجوز لمن هو خارج هذه البلد أن يدخلها طالما سمع بالمرض بها، ويجوز الخروج من بلد الطاعون والدخول إليها متى كان ذلك للعمل أو كان الغرض غير الفرار.

وأجاز البعض القدوم إلى بلد الطاعون والخروج منها فراراً[2].

---

(١) انظر في ذلك: شرح معاني الآثار للطحاوي ٣٠٣/٤، وأحكام القرآن للجصاص ٦١٥/١، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد الباجي ١٩٨/٧، وأحكام القرآن لابن العربي ٣٠٤/١، وأنوار البروق ٢٥٨/٤، ومختصر المزني ص٥٩١، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢٩٢/٥، وإعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم ٣٠١/٤، والآداب الشرعية، حماد بن عبدالله الحماد ٣٧٠/٣.

(٢) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٣٣٢/٢٨.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: فضل الابتلاء والصبر عليه.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: أهمية الصبر والاحتساب.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: بيان منزلة اليقين.

أولاً- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

ورد هذا الأسلوب في هذا الحديث عندما سألت عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ عن الطاعون فأخبرها" ولأسلوب السؤال والجواب دور في لفت أنظار المدعوين وإثارة انتباههم وشد أذهانهم لما يقوله الداعية؛ ولأن السؤال من المدعو دليل على حرصه على الفهم والاستيعاب لكل ما يقوله الداعية أو ما يلتبس على المدعو.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: فضل الابتلاء والصبر عليه:

جاء في الحديث بيان النبي ﷺ لفضل الابتلاء وما ينطوي عليه من رحمة فأجاب عائشة على سؤالها عن الطاعون "أنه كان عذاباً يبعثه الله تعالى على من يشاء، فجعله الله تعالى رحمة للمؤمنين"؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال ((ما يُصيبُ المسلمَ من نَصبٍ ولا وَصَبٍ ولا همّ ولاَحَزَن ولا أذى ولا غَمّ -حتى الشَّوكةِ يُشاكها- إلا كفَّرَ اللهُ بها من خَطاياه))[1] والابتلاء من الله خير كله، فعن صهيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((عَجَباً لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إلاَّ لِلْمُؤْمِنِ، إنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْراً لَهُ. وَإنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْراً لَهُ))[2] إضافة إلى ما في الابتلاء من إظهار حقائق الإيمان من الرضى بقضاء الله وقدره وأن كل ما يحدث في هذه الحياة من خير أو شر، ومن نفع أو ضر، إنما هو بقضاء من الله وتقدير منه فيرضى بحكم الله صابراً محتسباً طمعاً في مرضاة الله عز وجل[3].

---

(١) أخرجه البخاري ٥٦٤١.

(٢) أخرجه مسلم ٢٩٩٩.

(٣) من كنوز السنة النبوية، محمد علي الصابوني ص ١٣٢.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: أهمية الصبر والاحتساب:

لقد نوّه النبي ﷺ بمكانة الصبر والاحتساب وما يثمر عنها من استحقاق الجنة وبلوغ منزلة الشهداء، فقال في الحديث "فليس من عبد يقع في الطاعون فيمكث في بلده صابراً محتسباً يعلم أن لا يصيبه إلا ما كتب الله له إلا كان له مثل أجر الشهيد" قال ابن عثيمين: (ففيه دليل على فضل الصبر والاحتساب وأن الإنسان إذا صبّر نفسه في الأرض التي نزل فيها الطاعون ثم مات كتب الله له مثل أجر الشهيد)[1].

وقد أمرنا الله تعالى بالصبر وبين أنه من أسباب الفلاح فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[2] أي: اصبروا على ما تبتلون به فإن ذلك تكفيراً للذنوب ورفعاً للدرجات، وطريقاً للفلاح والفوز العظيم المتمثل في دخول الجنة بعد النجاة من النار[3].

إن المسلم إذا علم أن الله يمتحنه بالمصائب ليختبر مقدار صبره ورضاه عن ربه، وليكتب له الأجر العظيم عنده، فإنه يجد نفسه مدفوعاً لتحمل المصائب بصبر ورضى عن الله.

وحين يعلم أن الله يثيبه فيكفّر عنه من ذنوبه وخطاياه بالمصائب التي يصيبه بها، فإنه يزداد اندفاعه لتحمل المصائب بصبر ورضى عن الله[4].

روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: ((دَخلتُ على رسولِ الله ﷺ وهو يوعَك فقلتُ: يارسولَ الله، إنك توعَكُ وَعْكاً شديداً. قال: أجَل، إني أوعَك كما يوعَكُ[5] رجُلان منكم، قلت: ذلك بأن لك أجرَين، قال: أجَل، ذلكَ كذلك، ما من مُسلم يُصيبُهُ أذىً

(١) شرح رياض الصالحين ص ٩٤، ٩٥.

(٢) سورة آل عمران، آية: ٢٠٠.

(٣) انظر: نداءات الرحمن لأهل الإيمان، أبوبكر جابر الجزائري ص ٤٩، ٥٠.

(٤) الوجيزة في الأخلاق الإسلامية وأسسها، حبنكة الميداني ص ٣٨٤.

(٥) يتألم من شدة المرض.

-شَوكَةٌ فما فوقها- إلا كفَّرَ الله بها سَيِّئاته، كما تَحُطُّ الشجرة وَرقَها))[1].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: بيان منزلة اليقين:

لقد رتب الله عز وجل على اليقين من عظيم الأجر وجزيل المثوبة ما يدل على أهمية قوة اليقين، وقد وردت الإشارة إليه في الحديث في قوله ﷺ "يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له" فاليقين من أسباب الإمامة في الدين ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[2] وقد خص الله أهل اليقين بالهدى والفلاح من بين العالمين فقال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[3].

واليقين من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد، وبه تفاضل العارفون، وتنافس المتنافسون، ومتى وصل اليقين إلى القلب امتلأ نوراً وإشراقاً، وانتفى عنه كل ريب وشك وسخط، وهم وغم، فامتلأ محبة لله، وخوفاً منه، ورضى به، وشكراً له، وتوكلاً عليه، وإنابة إليه[4].

كما أن اليقين يورث الإنسان الزهد فيما عند الناس، ويكسب صاحبه العزة والرفعة ويباعده عن مواطن الذلة والضَّعة، وبالجملة فإن المسلم لا يدرك مناه في الآخرة إلا إذا كان متصفاً بصفة اليقين[5].

إن الإيمان المجمل الذي هو قول القلب وعمل القلب، لا يتحقق إلا بهذا اليقين. فمن شك في الله أو في رسوله ﷺ وما جاء به من عند الله فهو كافر لا شهادة له ولا إيمان له.

---

(١) أخرجه البخاري ٥٦٦٧، ومسلم ٢٥٧١.

(٢) سورة السجدة، آية: ٢٤.

(٣) سورة البقرة، الآيتان: ٤، ٥.

(٤) انظر: مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٣/٢٢٠، ٢٢١.

(٥) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد ٨/٣٧٣٠.

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾(١).

فاشترط في صدق إيمانهم بالله ورسوله ﷺ كونهم لم يرتابوا أي لم يشكوا، والشك ينافي اليقين والمرتاب من المنافقين الذي قال الله فيهم: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾(٢).

وبذلك أخبر الله تعالى عن الكفار حين قالوا لرسلهم: ﴿ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾(٣).

وأخبر سبحانه أنهم إذا طلب منهم الإيمان بالبعث قالوا: ﴿ مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾(٤).

ولكن إذا كان يوم القيامة يقولون: ﴿ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾(٥).

ولهذا جاء وصف القرآن أكثر من مرة بأنه لا ريب فيه، وعن معاذ رضي الله عنه أنه قال حين حضرته الوفاة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((من شهد أن لا إله إلا الله مخلصاً من قلبه أو يقيناً من قلبه، لم يدخل النار))(٦).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه في قصة تبوك أن النبي ﷺ قال: ((أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلهَ إِلاَّ الله،

---

(١) سورة الحجرات، آية: ١٥.

(٢) سورة التوبة، آية: ٤٥.

(٣) سورة إبراهيم، الآيتان: ٩ - ١٠.

(٤) سورة الجاثية، آية: ٣٢.

(٥) سورة السجدة، آية: ١٢.

(٦) أخرجه أحمد ٥/٢٣٦، ٢٢٠٦٠، وقال محققو المسند: صحيح ٣٦/٣٨٢.

وَأَنِّي رَسُولُ اللّهِ، لاَ يَلْقَى الله بِهِمَا عَبْدٌ، غَيْرَ شَاكٍ، إلا دخل الْجَنَّةِ))، وفي رواية: ((لاَ يَلْقَى الله بِهِمَا عَبْدٌ، غَيْرَ شَاكٍ، فَيُحْجَبَ عَنِ الْجَنَّةِ))[1].

وعنه في حديث آخر أن النبي ﷺ قال له: ((اذْهَبْ بِنَعْلَيَّ هَاتَيْنِ، فَمَنْ لَقِيتَ مِنْ وَرَاء هذَا الْحَائِطِ[2] يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلهَ إِلاَّ اللّهُ، مُسْتَيْقِنا بِهَا قَلْبُهُ. فَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ))[3].

قال النووي في شرحه لهذا الحديث: "معناه: أخبرهم أن من كانت هذه صفته فهو من أهل الجنة، وإلا فأبو هريرة لا يعلم استيقان قلوبهم... وذكر القلب هنا للتأكيد... وإلا فالاستيقان لا يكون إلا بالقلب"[4].

وهذا اليقين - بهذا المعنى- هو حقيقة العلم بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ.

قال الحسن البصري: "ما طُلِبت الجنة إلا باليقين، ولا هُرِب من النار إلا باليقين، ولا أُديت الفرائض إلا باليقين، ولا صبر على الحق إلا باليقين".

وقال سفيان الثوري: "لو أن اليقين وقع في القلب كما ينبغي لطارت القلوب اشتياقاً إلى الجنة، وخوفاً من النار"[5].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قلما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الكلمات لأصحابه: ((اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وبَيْنَ مَعَاصِيكَ ومِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ. ومِنَ اليَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مُصِيبَاتِ الدُّنْيَا...)) الحديث[6].

وعن شداد بن أوس رضي الله عنه عن النبي ﷺ: ((سيدُ الاستغفارِ أن تقولَ: اللهمَّ أنتَ ربِّي

---

(١) أخرجه مسلم ٤٤، ٤٥.

(٢) الحائط: حديقة لها سور.

(٣) أخرجه مسلم ٥٢.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٢٣٧.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني في صحيح البخاري، ابن رجب الحنبلي، ١٤/١ - ١٥.

(٦) أخرجه الترمذي ٣٥٠٢، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٧٨٣).

لاإلهَ إلا أنت، خلَقتني وأنا عبدُك، وأنا على عهدِكَ ووَعدِكَ ما استطعتُ، أعوذُ بك من شر مَا صنعتُ، أبُوءُ لك بنعمتكَ عليَّ، وأبُوءُ لك بذنبي، فاغْفِرْ لي، فإنه لايَغفرُ الذنوبَ إلا أنت. قال: ومن قالها من النهارِ مُوقِناً بها فماتَ من يومهِ قبل أن يمسي فهو من أهلِ الجَنة، ومن قالها من الليلِ وهو موقِنٌ بها فماتَ قبلَ أن يصبحَ فهو من أهل الجنة))[1].

وهذا الإيمان الذي لا شك فيه هو الذي يوصل صاحبه إلى درجة اليقين، الذي هو الإيمان كله[2].

---

(١) أخرجه البخاري ١١/٨٣، ٨٤.

(٢) انظر: أعمال القلوب، د. سهل العتيبي، ١/٢٥٣ - ٢٥٩.

الحديث رقم (٣٤)

٣٤- وعَنْ أَنسٍ رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم يقولُ: «**إنَّ اللّه عَزَّ وجَلَّ قَالَ: إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبدِي بحبيبتَيْهِ فَصبَرَ عَوَّضْتُهُ مِنْهُمَا الْجنَّةَ**» يُريدُ عينيْه، رواه البخاريُّ[١].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

ابتُلي بحبيبتيه: عَمِيَتْ عيناه[٢].

الشرح الأدبي

إن نعم الله وآلاءه لا تعد ولا تحصى؛ والإنسان مطالب بالتأمل والتفكر في هذه النعم التي تحيط به من كل جانب، وأن خلق الإنسان على هذه الصورة السوية من أجل النعم، ومن أعظم الآيات الدالة على قدرة الله عز وجل، وقد دعا القرآن الكريم جميع الخلائق إلى النظر والتفكر في مظاهر قدرة الله سبحانه، وفي نعمه الجليلة فقال: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾[٣].

وفي سورة البلد يمن الله على الإنسان ويذكره بنعمة البصر ، ونعمة اللسان،ونعمة العقل، حتى لا يظل سادراً في غيه، وحتى يعترف ويقوم بحق هذه النعمة: يقول الله عز وجل: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾[٤].

وفي ضوء ما أنعم الله به على الإنسان من نعم ظاهرة وباطنة ومنها نعمة البصر. نقرأ

---

(١) برقم (٥٦٥٣).

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١/١٢١.

(٣) سورة الذاريات، الآيات: ٢٠-٢٣.

(٤) سورة البلد ، الآيات: ٨ -١٠.

ونتأمل هذا الحديث القدسي الجليل الذي يرويه الحبيب المصطفى ﷺ عن ربه عز وجل، ويرويه أنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ. وجمل الحديث تتكون من ثلاثة أقسام: قسم تفوه به أنس بن مالك رضي الله عنه وهو: "سمعت رسول الله ﷺ"، يقول. ورواية أنس لما سمعه من النبي ﷺ في أمانة وصدق يعد استجابة لرغبة رسول الله ﷺ، في قوله: "نضر الله امرءاً سمع منا شيئاً فبلغه كما سمعه"(١).

والفعل "يقول": جاء في قالب المضارع: وهو مع فاعله المحذوف جملة حالية وصاحب الحال هو لفظ النبي ﷺ، وهو في موقع المفعول به للفعل: "سمعت" وقيل أتى بهذا الفعل مضارعاً بعد سمع حكاية للحال الماضية.

وأما القسم الثاني: فهو من قول رسول الله ﷺ، وقد جاء في ثوب التوكيد حيث يقول: "إن الله عز وجل" قال: وهذه الجملة مع التوكيد تجمع بين صفتي العزة والجلال: أي عَزَّ شأنه وجل برهانه، وجمع الرسول بينهما، وهما متقاربان في المعنى. لأن المقام للثناء وكذلك للتمهيد لموضوع الحديث، وهو الجزاء والثواب والتعويض لمن "فقد عينيه" وصبر ولا يقدر على هذا الجزاء وهو الجنة إلا رب العزة والجلال، المتصف بكل كمال، والمتنزه عن كل نقص.

وأما القسم الثالث: فهو النص القدسي: "إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة".

ولنتأمل الصياغة في هذا الحديث الكريم، إنه جملة واحدة شرطية، مكونة من أداة الشرط "إذاً" وفعل الشرط وجواب الشرط، وأداة الشرط "إذا" وهي تدل على الاستقبال والتحقق، حيث قال النحويون: إنها اسم شرط لما يستقبل من الزمان: خافض لشرطه منصوب بجوابه؛ وهي في ضوء هذه الخصوصية الوظيفية تصلح لملايين الحالات في كل زمان ومكان وفعل الشرط هو "الابتلاء"، والمبتلي هو الله وابتلاؤه رحمة، والمبتلى هو العبد الصابر وقد نسبه الرحمن عز وجل إليه فقال: "عبدي" وأي مقام

---

(١) أخرجه الترمذي، ٢٦٥٧، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢١٤٠).

أشرف وأجل من هذا المقام، فالابتلاء هنا اختبار وليس انتقاماً، ولنتأمل ما وراء هذا التعبير عن العينين بلفظ "حبيبتيه"، قيل لأنهما أحب أعضاء الإنسان إليه، وقيل: إن فاقد العينين، حبيس، فالدنيا سجنه، وهو محروم من مشاهدة آيات الله في الكون، وزينة الحياة الدنيا.

وقد عطف الفعل "صبر" على فعل "الابتلاء" بالفاء إشارة إلى أن ذلك المبتلى لم ييأس ولم يفقد الصبر، ولم تمر به حالة من الانهيار، ولكنه رضي بواقعه وبما قدر له خالق الليل والنهار، ولذلك يجيء جواب الشرط وهو "العوض" مسنداً إلى تاء الفاعل ومن هو: إنه الله الكبير المتعال، صاحب العزة والجلال، وأي عوض وأي مكافأة أعظم وأجل من جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: البشارة.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: الصبر.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: فضل الله وإكرامه للصابرين.

أولاً- من أساليب الدعوة: البشارة:

إن من أهم الأساليب الدعوية الناجحة: أسلوب التبشير برحمة الله وبفضله في الدنيا والآخرة، وقد ورد هذا الأسلوب في الحديث في تبشير الله لمن فقد حبيبتيه بالجنة، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: إن الله قال: "إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة" وأسلوب التبشير من أبرز الأساليب الدعوية التي استعملها النبي صلى الله عليه وسلم، انطلاقاً من تكليف الله تعالى له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾[1].

قال ابن رجب الحنبلي في تفسير هاتين الآيتين: "أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم في كتابه أن يذكره ويعظ ويقص، وأن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة وأن يبشر

(١) سورة الأحزاب، آية: ٤٥-٤٦.

وينذر وسماه الله ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾[١] والتبشير هو الترغيب وهو يوجب رقة القلوب، وزهداً في الدنيا ورغبة في الآخرة[٢]. إضافة إلى ما تحدثه البشارة من انشراح للصدر وسعادة للقلب وسبب لاستقرار النفس وراحة البال، كما أنها تجلب الطمأنينة وسكون النفس ورفعًا للروح المعنوية، كما أنها تكسب الداعية حب الناس واستئناسهم به[٣].

والتبشير من وسائل التحفيز للإنسان لا سيما إذا كان في بداية إسلامه أو هدايته، فلا بد من تيسير الأمور عليه وتبسيطها وعرضها دون تشدد أو تكلف، يرافقها التبشير، حتى تغمر قلبه الفرحة، وتعم نفسه البهجة ولا تشعر بثقل التكاليف والواجبات عليها، وهي ما زالت تنوء بحمل كبير من العادات السيئة التي يجب التخلص منها؛ لأن التشدد وعدم التيسير والتبشير يؤديان إلى ردود أفعال عكسية، ومُنفرة من الإسلام وأهله، تؤدي في النتيجة إلى حفر خنادق عميقة بين المجتمع المراد هدايته وبين المسلمين يصعب الالتقاء عليها، بل تصبح المفاهيم الإسلامية مثار سخرية واستهزاء، ومسوغاً واضحاً للمتصيدين في الماء العكر لمحاربة الإسلام وأهله وإبعاد الناس عنه[٤].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: الصبر:

إن الصبر فضله عظيم وشأنه كبير، فبه يحصل الثواب وترفع الدرجات[٥] وقد ورد في الحديث أجر الصبر على فقد العينين فقال الله في الحديث القدسي "إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة".

ففي الحديث بيان أنه ما من إنسان يقبض الله حبيبتيه -يعني عينيه- فيعمى ثم

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٤٥ - ٤٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ابن رجب الحنبلي ٩٠/٢. انظر: لطائف المعارف لمواسم العام من الوظائف، الإمام ابن رجب الحنبلي ص ٤٦.

(٣) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد ٨١١/٣.

(٤) منهاج الشاب المسلم في أسرته، د. محسن عبدالحميد ص ١١.

(٥) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. خالد بن حامد الحازمي ص ٢٦٥، ٢٦٦.

يصبر إلا عوضه الله بهما الجنة؛ لأن العين محبوبة للإنسان، فإذا أخذهما الله سبحانه وتعالى وصبر الإنسان واحتسب فإن الله يعوضه بهما الجنة.

واعلم أن الله سبحانه وتعالى إذا قبض من الإنسان حاسة من حواسه فإن الغالب أن الله يعوضه في الحواس الأخرى ما يُخفف عليه ألم فقد هذه الحاسة التي فقدها، فالأعمى يمن الله عليه بقوة الإحساس والإدراك، حتى أن بعض الناس إذا كان أعمى تجده في السوق يمشي وكأنه مُبصر، يحس بالمنعطفات في الأسواق، ويحس بالمنحدرات وبالمرتفعات، حتى أن بعضهم يتفق مع صاحب السيارة -سيارة الأجرة- يركب معه من أقصى البلد إلى بيته وهو يقول لصاحب السيارة: تيامن تياسر حتى يوقفه عند بابه؛ لأن صاحب السيارة لا يعرف البيت، والله الموفق(١).

قال ابن حجر: والمراد بالصبر: أنه يصبر مستحضراً ما وعد الله به الصابرين من الثواب، لا أن يصبر مجرداً عن ذلك، لأن الأعمال بالنيات، وابتلاء الله عبده في الدنيا ليس من سخطه عليه بل إما لدفع مكروه أو لكفارة ذنوب أو لرفع منزلة، فإذا تلقى ذلك بالرضى تم له المراد(٢).

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: فضل الله وإكرامه للصابرين:

من فضل الله على عباده إكرامه للصابرين وإجزال المثوبة لهم قال تعالى ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(٣) وقد ورد في الحديث جزاء الله للون من ألوان الصبر وهو الصبر على ما ينزل بالإنسان من الابتلاء، فإن صبر الإنسان عليه طائعاً ينال المثوبة، وإلا احتمل هماً لازماً وصَبَر كارهاً آثماً، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه للأشعث بن قيس: إنك إن صبرت جرى عليك القلم وأنت مأجور، وإن جزعت جرى عليك القلم وأنت مأزور(٤).

---

(١) انظر: شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين، ١/٩٥.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠/١٢١.

(٣) سورة الزمر، آية: ١٠.

(٤) انظر: أدب الدنيا والدين، أبو الحسن الماوردي ص ٢٧٧، ٢٧٨.

وقد جاء في الحديث ثواب الصبر على فقد النظر "إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة" والمقصود بالحبيبتين: المحبوبتان (العينان) لأنهم أحب أعضاء الإنسان إليه، لما يحصل له بفقدهما من الأسف على فوات رؤية ما يريد رؤيته من خير فيسر به، أو شر فيجتنبه، وقوله عوضته منهما الجنة (وهذا أعظم العوض؛ لأن الالتذاذ بالبصر يفنى بفناء الدنيا والالتذاذ بالجنة باقٍ ببقائها)(١).

إن العباد دائماً في اختبار وابتلاء، والابتلاء تارة يكون بالمال ليشكروا، وتارة بالمضار ليصبروا، فصارت المحنة والمنحة جميعاً بلاء، فالمحنة مقتضية للصبر والمنحة مقتضية للشكر، والقيام بحقوق الصبر أيسر من القيام بحقوق الشكر، فصارت المنحة أعظم البلاء.

وفي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ عن ربه عز وجل أن العبد إذا صبر على العمى وفقد النظر واحتسب ذلك، وتصبّر بما أعد الله له من الثواب على صبره، فلم يتذمر، ولم يشك، ولم تتعقد حياته، أو يكتئب عيشه، إذا كان العبد كذلك عوّضه الله الجنة بصبره على ما قسم الله، وفي ذلك ما فيه من رعاية للمكفوفين وتأنيس لهم وجبر لخواطرهم بما يكون في الآخرة.

ويؤخذ من الحديث: فضل الصبر على كل الأمور، طبيعية ومكتسبة؛ وفيه: أن الجزاء على قدر المشقة والتحمل؛ وفيه: أن الحساب لن يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا اعتبرها؛ وفيه: سعة رحمة الله تعالى وتوجيه الأنظار إلى أن ما يراه الإنسان شراً قد يكون خيراً باعتبار آثاره(٢).

---

(١) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٢١/١٠.

(٢) انظر: شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم ص ٥٨.

الحديث رقم (٣٥)

٣٥- وعنْ عطاءِ بْن أبي رَباحٍ قالَ: قالَ لِي ابْنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ألا أريكَ امْرَأَةً مِن أَهْلِ الجنَّة؟ فَقُلت: بلَى، قَالَ: هذهِ الْمرأَةُ السوْداءُ أَتَتِ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالَتْ: إنِّي أُصْرَعُ، وإنِّي أَتكَشَّفُ، فَادْعُ اللَّه تعالى لِي قَالَ: «**إن شئْتِ صَبَرْتِ ولكِ الْجنَّةُ، وإنْ شِئْتِ دعَوْتُ اللَّه تَعالَى أنْ يُعافِيَكِ**» فقَالتْ: أَصْبرُ، فقالت: إنِّي أَتَكشَّفُ، فَادْعُ اللَّه أَنْ لا أَتكشَّفَ، فَدَعَا لَهَا. متَّفقٌ عليْهِ[١].

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١).

غريب الألفاظ:

أُصْرَع: أُصابُ بنوبات الصرع وهو: علّة في الجهاز العصبي تصحبها غيبوبة وتشنج في العضلات[٢].

أتكشف: أفتضِح بظهور عورتي[٣].

الشرح الأدبي

إن المتأمل في هذا الحديث الشريف. يدرك أن المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخاطب أصحابه، ومن حوله على قدر إدراكهم، وهو يعالج أمراضهم، ويصف لهم الدواء الناجع؛ وما أجدر بالمسلمين أن يعودوا إلى اكتشاف أسرار الطب النبوي لأنه يعالج بعض الأمراض العضوية والأمراض النفسية، ومع يقين المسلم في قيمة الطب النبوي عليه أن يأخذ بالأسباب، وأن يذهب إلى الأطباء إذا كانت العلة تقتضي ذلك، وهذا ما أقرَّ به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ففي مسند أحمد من حديث زياد بن علاقة عن أسامة بن شريك: أن رسول

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٥٢)، ومسلم (٢٥٧٦/٥٤) ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه (٥٠٠٩).

(٢) الوسيط في (ص ر ع).

(٣) الوسيط في (ك ش ف).

الله ﷺ، قال: "تداووا عباد الله، فإن الله عز وجل لم ينزل داء إلا أنزل معه شفاء إلا الموت والهرم"(١).

وهذا الحديث الشريف يقدم درساً في التسلح بالصبر والإيمان، والتوكل على مَنْ بيده مقاليد السماوات والأرض، والسعي إلى التداوي مع التجمل بالسكينة وعدم التردي في مهاوي اليأس والقنوط.

وصيغة الحوار تغلف أسلوب الحديث، وتشوق القارئ والسامع، ومع هذه الصيغة الحوارية تبرز عدة وسائل تأثيرية أسلوبية تعمق من جماليات الأداء الأسلوبي في الحديث النبوي، والحديث يبدأ بداية قصصية تحكي مشهداً من مشاهد الصبر والإيمان، والاحتساب والإذعان، فابن عباس، حبْر الأمة يقول: لعطاء بن أبي رباح في براعة استهلال مستخدماً "ألا" الافتتاحية وهي أداة عرض وذلك لتنبيه السامع إلى ما بعدها، ولم يشأ أن يأتي بالموضوع في أسلوب خبري تقريري فقال: "ألا أريك امرأة من أهل الجنة" فيجيبه عطاء "بلى"، وتأتي إجابة ابن عباس في صورة حكاية تروي واقع هذه المرأة، فهي في المنظور الدنيوي لا تثير انتباه أحد لأنها امرأة سوداء مصابة بداء الصرع، ولا تعي ولا تدرك حين تأتيها نوبة الصرع شيئاً فينكشف جسمها، فما أشد بلاء هذه المرأة، وما أعظم مصيبتها في نفسها وبدنها، ولكنها لأنها من أهل الجنة تأخذ بالأسباب، ولا تقع فريسة اليأس، ولا تنهزم أمام فتك المرض اللعين، ولا تسلم نفسها لأوهام الشيطان وبراثن الاكتئاب، ولكنها تتوجه إلى رسول الله ﷺ وتعرض عليه مصابها، وتنطق بثلاث جمل تصور واقعها وأملها: فأما تصوير الواقع الأليم فقد شخصته في أسلوب خبري مغلف بالتوكيد إثباتاً للحالة، وبرهاناً على الصدق، فقالت: "إني أصرع"، ثم تكرر التوكيد وتقول "وإني أتكشف" ولنتأمل الفعلين هنا فهما مضارعان يبوحان ويصرحان باستمرار الصرع والتكشف، وبتكرارهما وما أقسى هذا الواقع، وما أشد إيلامه، وما أسوأ آثاره ونتائجه النفسية والعضوية والاجتماعية،

---

(١) أخرجه أحمد ٢٧٨/٤، رقم ١٨٤٥٥، وقال محققو المسند: حديث صحيح.

وصيغة التفعيل في أتكشف توحي بصعوبة ومرارة الإحساس بهذا الواقع ومعايشته.

فيقول لها الحبيب المصطفى ﷺ وهو يعطيها حرية الاختيار والمشيئة "إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله تعالى أن يعافيك"، وهذا التخيير جزء من العلاج النفسي: حيث تشعر هذه المرأة المهملة الضعيفة بالثقة والإرادة، وبأن الأمر كله مرده إلى الله، فقالت المرأة في سكينة وثقة: "أصبر!!" ولكنها تمر بحالتين: الصرع والتكشف. والصرع حالة ذاتية، ومرض عضوي نفسي يمكن أن يزول، ويمكن أن يبقى ولا مخرج إلا الصبر، ولكن ماذا تفعل أمام الناس حين يتكشف جسمها، ويظهر منها ما حرم الله النظر إليه من جميع بدنها. ولكنها لا تعي ولا تدرك، وتكون مثاراً للسخرية من الآخرين!!!؟ وهذا أمر يحتاج إلى الستر مع الصبر، ولذلك أعادت المشكلة أمام رسول الله، وطلبت منه الدعاء أن لا تتكشف فدعا لها، فرحمها الله واستجاب لنبيه الكريم ومن عليها بالستر والصبر.

فقه الحديث

في هذا الحديث قد أخبرت المرأة عن أنها تصرع، وهذا من المرض، فهل للمريض أن يتداوى من مرضه؟

إن التداوي مشروع من حيث الجملة، لما روى أسامة بن شريك رضي الله عنه قال: قالت الأعراب: يا رسول الله ألا نتداوى؟ قال: ((نعم يا عباد الله تداوَوْا، فإن الله لم يضع داءً إلا وضع له شفاء أو دواءً إلا داءً واحدًا))[1] فقالوا: يا رسول الله، ما هو؟ قال: ((الهرم))[2].

---

(١) أخرجه الترمذي ٢٠٣٨، وقال حديث حسن صحيح (صحيح سنن الترمذي ١٦٦٠).

(٢) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١١/١١٦-١١٧، وانظر: حاشية ابن عابدين، محمد أمين بن عمر بن عبدالعزيز ٥/٢١٥، ٢٤٩، والهداية تكملة فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، الشوكاني ٨/١٣٤، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم المالكي ٢/٤٤٠، وروضة الطالبين وعمدة المفتين، الإمام النووي ٢/٩٦، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي ٢/٧٦، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ٢/٤٦٣، وحاشية الجمل ٢/١٣٤، والآداب الشرعية، حماد بن عبدالله الحماد ٢/٣٥٩ وما بعدها.

وقد ذهب جمهور الفقهاء من "الحنفية والمالكية" إلى أن التداوي مباح، غير أن عبارة المالكية: لا بأس بالتداوي.

وذهب الشافعية والقاضي ابن عقيل وابن الجوزي إلى استحبابه ومحل الاستحباب عند الشافعية عند عدم القطع بإفادته، أما لو قطع بإفادته كعصب محل الفصد، فإنه واجب.

ومذهب الحنابلة، أن تركه أفضل. ونصّ عليه أحمد، قالوا: لأنه أقرب إلى التوكل.

قال ابن القيم: (في الأحاديث الصحيحة الأمر بالتداوي، وأنه لا ينافي التوكل بل لا تتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التي نصبها الله مقتضيات لمسبباتها قدرًا وشرعًا، وأن تعطيلها يقدح في نفس التوكل، كما يقدح في الأمر والحكمة، ويضعفه من حيث يظنّ معطلها أن تركها أقوى في التوكل، فإن تركها عجز ينافي التوكل الذي حقيقته اعتماد القلب على الله في حصول ما ينفع العبد في دينه ودنياه، ودفع ما يضره في دينه ودنياه، ولا بد في هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب، وإلا كان معطلاً للحكمة والشرع، فلا يجعل العبد عجزه توكلاً ولا توكله عجزًا)[(١)].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: جزاء الصبر.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: الرغبة في التستر وعدم التكشف.

رابعاً: من صفات المدعو: الرغبة والطمع فيما عند الله تعالى.

خامساً: من مهام الداعية: إعانة المدعوين في حل مشكلاتهم وحثهم على ما ينفعهم.

أولاً- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

ورد هذا الأسلوب في الحديث فيما دار بين عبدالله بن عباس وعطاء بن أبي رباح رضي الله عنهم من سؤال وجواب "ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ فقلت: بلى" فالسؤال

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم ١٥/٤.

والجواب له أثره في استدعاء لفت نظر السامعين، وإثارة انتباههم وشد أذهانهم ورغبتهم في التعرف على إجابة السؤال المطروح وهذا ما بينه ابن عباس رضي الله عنهما في إجابته للسؤال الذي أثاره من خبر تلك المرأة التي بيّن أنها من أهل الجنة. لذا كان السؤال والجواب من الأساليب المفيدة والناجحة في الدعوة إلى الله.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: جزاء الصبر:

لو عرف الناس جزاء وثواب الصبر لفرحوا بالمصائب: من مرض وهمّ وغير ذلك. فهذه امرأة سوداء صالحة يصيبها الصرع، فتسقط غير شاعرة بشيء، وقد ينكشف بعض جسدها، فسألت الرسول صلى الله عليه وسلم أن يدعو لها، فبيّن لها أن زوال المرض منها حرمان لها من نعيم الجنة بالصبر، وعليها أن تختار عافية الدنيا المحدودة، أو سعادة الآخرة اللانهائية، فاختارت الصبر لحسن عاقبته، واكتفت بطلب الستر وعدم كشف شيء من عورتها، أو جسدها، فتحقق لها بحسن اختيارها وجميل تصرفها النجاة والنعيم[1].

ولقد صرح النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث بأن الصبر عاقبته الجنة "إن شئت صبرت ولك الجنة"، قال ابن عثيمين في شرح الحديث: (قوله: "ألا أريك امرأة من أهل الجنة"، يعرض عليه وذلك لأن أهل الجنة ينقسمون إلى قسمين: قسم نشهد لهم بالجنة بأوصافهم، وقسم نشهد لهم بالجنة بأعيانهم.

أ- أما الذين نشهد لهم بالجنة بأوصافهم فكل مؤمن، تقي فإننا نشهد له أنه من أهل الجنة، كما قال الله سبحانه وتعالى في الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[2] وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ۝ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾[3]، فكل مؤمن متقٍ يعمل الصالحات فإننا نشهد أنه من أهل الجنة.

(١) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم ص ٥٨.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٣٣.

(٣) سورة البينة، الآيتان: ٧ - ٨.

ولكن لا نقول: هو فلان وفلان لأننا لا ندري ما يختم له ولا ندري هل باطنه كظاهره فلذلك لا نشهد له بعينه.

نقول مثلاً: إذا مات رجل يُشْهد له بالخير قلنا: نرجو أن يكون من أهل الجنة لكن ما نشهد أنه من أهل الجنة.

ب- قسم آخر نشهد له بعينه وهم الذين شهد لهم النبي ﷺ بأنهم في الجنة: مثل العشرة المُبشرين بالجنة وهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وسعيد بن زيد، وسعد بن أبي وقاص، وعبدالرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله، وأبو عبيدة عامر ابن الجراح، والزبير بن العوام رضي الله عنهم.

ومثل ثابت بن قيس بن شماس ومثل سعد بن معاذ ومثل: عبدالله بن سلام، ومثل: بلال بن رباح وغيرهم ممن عينهم الرسول ﷺ.

هؤلاء نشهد لهم بأعيانهم نقول: نشهد بأن أبا بكر في الجنة، ونشهد بأن عمر في الجنة وهكذا. من ذلك هذه المرأة التي قال ابن عباس لتلميذه عطاء بن أبي رباح: (ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ قلت: بلى! قال: هذه المرأة السوداء).

امرأة سوداء لا قيمة لها في المجتمع، كانت تُصرع وتتكشف فأخبرت الرسول ﷺ وسألته أن يدعو الله لها فقال لها: إن شئت دعوت الله لك وإن شئت صبرت ولك الجنة؟ قالت: أصبر، وأنها كانت تتألم وتتأذى من الصرع، لكنها صبرت من أجل أن تكون من أهل الجنة. ولكنها قالت: يا رسول الله إني أتكشّف فادع الله أن لا أتكشف. فدعا الله أن لا تتكشف فصارت تُصرع ولا تتكشف.

الشاهد من هذا الحديث قول الرسول ﷺ: (إن شئت صبرت ولك الجنة، فقالت: أصبر)، ففيه دليل على فضيلة الصبر وأنه سبب لدخول الجنة[1].

وقد وردت في القرآن الآيات الكثيرة التي تبين أن الصبر لا جزاء له إلا الجنة قال تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾[2] وقال ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ

---

(١) شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين ص ٩٥ – ٩٨.

(٢) سورة المؤمنون، آية: ١١١.

بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴾[١] وقال ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾[٢] فتلك بعض الآيات التي تبين نتيجة الصبر يوم القيامة[٣] وهي دخول الجنة، والعطاء الواسع، والثواب الجزيل، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[٤].

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (كل مطيع يكال له كيلاً ويوزن له وزناً إلا الصابرون، فإنهم يحثى لهم حثياً)[٥]، وقال ابن الجوزي (إنما يوفى الصابرون الذي صبروا لأجل الله تعالى ما نالهم "بغير حساب أي: يعطون عطاءً كثيراً أوسع من أن يحسب، وأعظم من أن يُحاط به، لا على قدر أعمالهم[٦].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: فضل التستر والحذر من التكشف:

تلك الخصال الكريمة من لوازم إيمان المرأة وحيائها، وفي الحديث طلبت تلك المرأة من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يدعو لها بعدم التكشف "فقالت: إني أصرع وإني أتكشف فادع الله تعالى لي، قال: إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله تعالى أن يعافيك، فقالت أصبر، فقالت إني أتكشف، فادع الله ألا أتكشف، فدعا لها".

وقد أمر الله نساء المؤمنين بالحجاب وستر أجسادهن فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[٧].

وحذّر النبي صلى الله عليه وسلم المرأة من أن تكشف شيئاً من جسمها خارج بيتها فعن أبي المَلِيح

---

(١) سورة الفرقان، آية: ٧٥.

(٢) سورة الإنسان، آية: ١٢.

(٣) انظر: أخلاقنا، د. محمد ربيع محمد جوهري ص ٢٣٩.

(٤) سورة الزمر، آية: ١٠.

(٥) معالم التنزيل، البغوي، ١١١/٧.

(٦) زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي ، ابن الجوزي، ١٦٨/٧.

(٧) سورة الأحزاب، آية: ٥٩.

قال: دخل نسوة من أهل الشام على عائشة رضي الله عنها فقالت: ممن أنتن؟ قلن: من أهل الشام، فقالت لعلكن من الكورة التي تدخل نساؤها الحمّامات؟ قلن: نعم، قالت: أما إني سمعت رسول الله ﷺ يقول ((مَا مِنْ امْرَأَةٍ تَخْلَعُ ثِيَابهَا فِي غَيْرِ بَيْتِهَا إلاَّ هَتَكَتْ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللّه تعالى))[1] أي هتكت الستر وحجاب الحياء وجلباب الأدب، وذلك لأنها مأمورة بالتستر والتحفظ من أن يراها أجنبي[2].

لقد حذر الإسلام من التبرج والسفور أيما تحذير وبيّن أن من تفعل ذلك تدرج نفسها في أصناف أهل النيران، روي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: ((صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا. قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ. وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ، مُمِيلاَتٌ مَائِلاتٌ، رُؤُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ، لاَ يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ، وَلاَ يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا))، وفي رواية أخرى: ((وَرِيحُهَا يُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ خَمْسِمِائَةِ عام))[3].

إن هذا الصنف من النساء اللائي خالفن تعاليم الدين وآداب الإسلام فخلعن ملابسهن، وكشفن عن سواعدهن وأفخاذهن، ولبسن الملابس الرقيقة التي لا تستر جسداً، ولا تخفي عورة، وإنما تزيد في الفتنة والإغراء ومَشَيْنِ مِشْية فيها التخنث والتكسر، وفيها لفت أنظار الرجال.

ولقد صوّر عليه أفضل الصلاة والتسليم، هؤلاء النسوة وهنّ يتبخترن في الشوارع والطرقات، ويتسكعن في الأسواق والمنتديات، ليس لهن عمل إلا إغراء الرجال، وإفساد الشباب والمراهقين، صورهن بصورة من تتقصد إثارة الفتنة، وإغراء الرجل، حتى ليخيل إلى الناظر أنها - بهذه المشية الخليعة - تدعوه إلى نفسها، وتراوده من أجل عمل الفاحشة بها وهذا هو معنى قوله ﷺ: (مائلات مميلات) أي أنهن مائلات في مشيتهن مميلات لقلوب الرجال يقصدن إثارة الشهوة في قلوبهم، ثم عدّد الرسول الكريم ﷺ

---

(١) أخرجه أبو داود ٤٠١٠، وصححه الألباني، (صحيح سنن أبي داود ٣٣٨٦).

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم آبادي، العظيم آبادي ص ١٦٢٠.

(٣) أخرجه مسلم ١٢١٢٨.

من قبائحهن بأنهنّ يصففن شعورهن حتى يصبح شعر الواحدة منهن مثل سنام الجمال في الارتفاع، وقد وضعت عليه أنواع الزينة، وصبغته بأنواع من الأصباغ المغرية، وكدسته فوق رأسها كأنه شاهق من الجبل، أو سد عال من سدود الصين.

وقد ختم ﷺ هذا الحديث الشريف بما يفزع له قلب الإنسان فقال: (لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها).

وأي عذاب أشد من هذا العذاب أن يحرم الإنسان الجنة ونعيمها وألا يجد ريحها أبداً مع أن ريحها يوجد من مسيرة خمسمائة عام، اللهم احفظنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن إنك سميع مجيب الدعاء[(١)].

رابعاً- من صفات المدعو: الرغبة والطمع فيما عند الله تعالى:

إن مما ينبغي أن يتصف به المدعو الرغبة والطمع فيما عند الله تعالى، وفي الحديث مثال على ذلك، وذلك في قول المرأة التي تصرع وقد طلبت منه أن يدعو لها "إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله تعالى أن يعافيك، فقالت أصبر، فقالت إني أتكشف فادع الله ألا أتكشف فدعا لها" فاختارت البلاء والصبر لجزيل الثواب المترتب عليهما وقالت: "أصبر" أي على الصرع لأنه يرجع إلى النفس، ولما كان التكشف راجعاً لحق الله تعالى، وإذ هي مأمورة بستر جميع البدن لكونه عورة (قالت إني أتكشف فادع الله لي ألا أتكشف فدعا لها)[(٢)].

قال ابن حجر: (وفيه أن الصبر على بلايا الدنيا يورث الجنة، وأن الأخذ بالشدة أفضل من الأخذ بالرخصة لمن علم من نفسه الطاقة ولم يضعف عن التزام الشدة)[(٣)] لذا ينبغي الحرص على ما عند الله لأنه خير وأبقى قال تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾[(٤)] وقال: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾[(٥)] أي ثواب الله في الدار

---

(١) من كنوز السنة، محمد علي الصابوني ص ١١٤.

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ١٢١، ١٢٢.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠/١٢٠.

(٤) سورة النحل، آية: ٩٦.

(٥) سورة الأعلى، الآيتان: ١٦، ١٧.

الآخرة خير من الدنيا وأبقى، فإن الدنيا دنيّة فانية، والآخرة شريفة باقية، فكيف يؤثر عاقل ما يفنى على ما يبقى، ويهتم بما يزول عنه قريباً ويترك الاهتمام بدار البقاء والخلد؟![1]

خامساً- من مهام الداعية: إعانة المدعوين في حل مشكلاتهم وحثهم على ما ينفعهم:

لقد عمل النبي ﷺ على إعانة تلك المرأة على حل مشكلتها فأمرها بالصبر، ودعا الله لها بالستر وعدم التكشف وقد خيّر النبي ﷺ تلك المرأة بين الصبر والجنة وبين المعافاة "قالت إني أصرع وإني أتكشف فادع الله تعالى لي، قال إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله تعالى أن يعافيك" فقالت: أصبر، فقالت: إني أتكشف فادع الله ألا أتكشف فدعا لها" وذلك من حرص النبي ﷺ على المدعوين.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[2] لذا فإنه مما ينبغي للداعية أن يحرص على إعانة الناس على حلّ مشكلاتهم وقضاء حاجاتهم وتيسير أمورهم.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣٨٢/٨.

(٢) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

الحديث رقم (٣٦)

٣٦- وعنْ أَبي عبْدِ الرَّحْمنِ عبْدِ اللَّه بنِ مسْعُودٍ ﷺ قَال: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلى رسولِ اللَّه ﷺ يحْكي نَبِيّاً منَ الأَنْبِياءِ، صلواتُ اللَّهِ وسَلامُهُ علَيْهم، ضَرَبُهُ قَوْمُهُ فَأَدْموْهُ وهُو يمْسحُ الدَّم عنْ وجْهِهِ، يقُولُ: «**اللَّهمَّ اغْفِرْ لِقَوْمي فإِنَّهُمْ لا يعْلمُونَ**» متفقٌ عَلَيْه[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: أحد أعلام الصحابة ومشاهيرهم، وهو عبدالله بن مسعود بن غافل بن حبيب بن شمخ بن فار بن مَخْزوم، حليف بني زهرة، يكنى بأبي عبدالرحمن، له صحبة ورواية، روى له الجماعة، وله في كتب الحديث (٨٤٨) حديثاً.

وكان ﷺ من السابقين الأولين إلى الإسلام، فكان إسلامه قديماً في أول الإسلام، أسلم حين أسلم سعيد بن زيد وزوجته فاطمة بنت الخطاب، دعا له رسول الله ﷺ قائلاً ((يرحمك الله فإنك غُلَيِّمٌ مُعَلَّمٌ))[2].

وضمه رسول الله ﷺ إليه، فكان عبدالله يَلِجُ عليه[3]، ويلبسه نعليه، ويمشي أمامه، ويستره إذا اغتسل، ويوقظه إذا نام، وقال له رسول الله ﷺ إذنك عليَّ أن يُرفع الحجاب، وأن تستمع سِوادي حتى أنهاك))[4] وكان يُعرف في الصحابة بصاحب السِّواد والسِّواك.

وهذه الملازمة لرسول الله ﷺ جعلته من أقرأ الصحابة للقرآن، وقال ﷺ: ((استقرئوا القرآن من أربعة: عبدالله بن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة، وأُبيّ بن كعب، ومعاذ بن جبل))[5] وقال: ((من أحب أن يقرأ القرآن غَضًّا كما أُنزل فليقرأه

---

(١) أخرجه البخاري ٣٤٧٧، ومسلم ١٧٩٢/١٠٥. أورده المنذري في ترغيبه ٣٩٦٤. وسيكرره المؤلف برقم ٦٤٦.

(٢) أخرجه أحمد ٣٧٩/١ رقم ٣٥٩٨، وقال محققو المسند إسناده حسن ٨٢/٦.

(٣) أي يدخل عليه.

(٤) أخرجه مسلم ٢١٦٩.

(٥) أخرجه البخاري ٣٧٦٠.

على قراءة ابن أم عبد))[١] واستمع له النبي ﷺ فعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: ((اقرأ عليَّ القرآن، قال: قلت: آقرأ عليك، وعليك أنزل قال: إني أحب أن أسمعه من غيري))[٢]، وكان أول من جهر بالقرآن بمكة بعد رسول الله ﷺ، وكان أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ سمتاً، فعن عبدالرحمن بن يزيد قال: ((سألنا حذيفة عن رجل قريب السَّمْت والهَدْي من النبي ﷺ حتى نأخذ عنه، فقال: ما أعَرِفُ أحداً أقربَ سمتاً وهدياً ودَلاً بالنبي ﷺ من ابن أم عبد))[٣] فكان من أعلم الصحابة بالقرآن ودين الله تبارك وتعالى، مما جعل ابن سعد في الطبقات يعده في أهل العلم والفتوى من أصحاب رسول الله ﷺ.

هاجر عبدالله بن مسعود الهجرتين، وصلى إلى القبلتين، وشهد بدراً وأحداً والخندق، وبيعة الرضوان، وسائر المشاهد مع رسول الله ﷺ وهو الذي أجهز على أبي جهل[٤]، وبعد وفاة رسول الله ﷺ شهد اليرموك بالشام، وسيره عمر إلى الكوفة ليعلم أهلها أمور دينهم، ثم أمَّره عثمان عليها، ثم عزله، فأمره بالرجوع إلى المدينة.

أما عن صفاته الخلقية فكان نحيف الجسم خفيف اللحم. رُوِي أن النبي ﷺ أمر ابن مسعود فصعد على شجرة يأتيه منها بشيء فنظر أصحابه إلى ساق عبدالله فضحكوا من حُمُوشة -دقة- ساقيه، فقال رسول الله ﷺ ((ما تضحكون؟ لَرِجْلُ عبدالله أثقل في الميزان يوم القيامة من أحد))[٥] فكان نحيف الجسم كما يفهم من الحديث، كما كان آدم[٦]، قصيراً، وكان لا يغير شيبة، وكان يحب التطيب، ويكثر منه، فإذا خرج من بيته عرف جيران الطريق أنه مَرّ من طيب رائحته.

---

(١) أخرجه أحمد ٤٤٨/٢ رقم ٩٧٥٤، وقال محققو المسند: صحيح لغيره ٤٦٩/١٥.

(٢) أخرجه البخاري ٥٠٤٩.

(٣) أخرجه البخاري ٣٧٦٢.

(٤) أخرجه البخاري ٣٩٦٢.

(٥) أخرجه أحمد ١١٤/١ رقم ٩٢٠، وقال محققو المسند: صحيح لغيره ٢٤٤/٢.

(٦) شديدة السمرة.

مات رضي الله عنه بالمدينة المنورة، سنة (٣٢) وهو ابن بضع وستين سنة، ودفن بالبقيع، وكان الذي صلى عليه هو: عثمان بن عفان وقيل: عمار بن ياسر، وقيل: صلّى عليه الزبير، ودفنه ليلاً بإيصائه بذلك إليه، ولم يعلم عثمان بدفنه فعاتب الزبير على ذلك[(١)].

غريب الألفاظ:

أَدْمَوْه: أي ضربوه حتى خرج منه الدم[(٢)].

الشرح الأدبي

ما أجمل أخلاق رسول الله ﷺ، وما أعظم شمائله، وما أرق طبعه، وكيف لا: وقد خاطبه رب العالمين بأسمى خطاب فقال في محكم آيات الكتاب: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[(٣)].

وفي ظلال هذا الحديث الشريف تتجول مشاعرنا، وتتأمل مداركنا، وتقتبس قلوبنا فيوضاً من التسامح النبوي، والخلق المحمدي، والصحابي الجليل عبدالله بن مسعود صاحب سرّ رسول الله ﷺ، وسواكه ونعليه وطهوره في السفر والذي بشره ﷺ بالجنة، هذا الصحابي الجليل يقتبس من شموس أخلاق النبوة هالات من الشمائل والقيم تتموج وتمتد إلى كل نفس تطمح إلى الهداية، وتبحث عن اليقين، هذه الهالات والفيوضات يصورها، عبدالله بن مسعود رضي الله عنه في إطار المقارنة والموازنة بين ما كابده رسول الله من مشقات، وما لاقاه من قومه من عنت، وبين بعض أنبياء الله من

---

(١) الطبقات، ابن سعد ٣٤٢/٢-٣٤٤، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٤٠٧-٤١١، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير ٢٨١/٣-٢٨٧، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ٨٣٢، ٨٣٣، وسير أعلام النبلاء، الذهبي ٤٦١/١-٥٠٠، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي ٢٨٤/٤، ٢٨٥، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٤٣١/٢، ٤٣٢، والأعلام، خير الدين الزركلي ١٣٧/٤، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك ١٢٦٦/٢-١٢٧٨.

(٢) الوسيط في (د م و).

(٣) سورة القلم، آية: ٤.

أولي العزم من الرسل، وقيل هو نوح ﷺ قبل أن ييأس من استجابة قومه ويدعو عليهم.

وهذه الموازنة الراشدة الإيجابية يشير إليها رب العالمين في كثير من آيات القرآن الكريم ومنها ما ورد في سورة آل عمران: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾(١).

وفي سورة الأنعام يقول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾(٢).

وتأتي موازنة عبدالله بن مسعود ومقارنته في إطار التشبيه والتوكيد، وهو يشخص موقف رسول الله من معارضيه، ومن الذين طردوه وعذبوه ووقفوا له بالمرصاد في مكة والطائف والمدينة... وغيرها: وهو يعفو ويتسامح، ويدعو لهم بالمغفرة، ويرجو أن يخرج الله من أصلابهم ذرية تعبد الله وتنصر دينه، وقد تحقق رجاء المصطفى المختار، وانتشر الإسلام في جميع الأقطار؛ ومن أصلاب هؤلاء المشركين والكفار، خرجت الجموع المؤمنة الموحدة، التي رفعت راية الإسلام في جميع أنحاء المعمورة بالجهاد، والعلم، والحكمة، والموعظة الحسنة.

ولنتأمل هذه الصورة الواقعية التي تعرض لها رسول الله ﷺ كثيراً في مكة والطائف، وأحد، كما تعرض كثير من الأنبياء عليهم السلام وأي تأثير أقوى في النفس من تأثير هذا المنظر الأليم، وأي مشاعر كانت تتموج في قلب ونفس هذا النبي العظيم أمام هذه الصورة الدامية التي صورها ابن مسعود حيث يقول "كأني انظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء: صلوات الله وسلامه عليهم ضربه قومه فَأَدْمَوْه وهو يمسح الدم عن وجهه وهو يقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون".

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٨٤.

(٢) سورة الأنعام، آية: ٣٤.

فداك أبي وأمي يا رسول الله. أي خلق أسمى من هذا الخلق القرآني الكريم، وأي محبة إسلامية تعلو فوق هذه المحبة، إنك تقابل من أسالوا دمك بالدعاء لهم وليس بالدعاء عليهم، لأنه علمك شديد القوى، ولا تنطق عن الهوى، ولذلك دعوت لهم بالمغفرة واستجاب الله لدعائك، وخفف من بلائك، وهؤلاء الذين عذبوك بالأمس، الذين بعد ذلك آزروك وناصروك، ومن أصلابهم خرجت الملايين إلى جميع أقطار المعمورة، يكبرون للرحمن، ويرفعون الأذان، ويأتون إلى البيت الحرام من كل فج عميق، وهم في شوق إلى رضوان الله عليهم، ومحبتك تشرق في قلوبهم وسيرتك الوضاءة تغمر مشاعرهم، وتمتزج بأنفاسهم فأنت الأسوة الحسنة، وأنت الرحمة المهداة، وأنت السراج المنير، وأنت البشير النذير، وقد بشرك الكبير المتعال بالنصر والتمكين، ووعدك بالحفظ وإتمام الدعوة وإكمال الدين وخاطبك مبشراً ومن أصدق من الله قيلا... يقول الله عز وجل: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾(١).

ولقد تأسى بك الخليفة العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين دخل عليه عُيَيْنَة ابن حصن الفزاري، وكان يسمى بالأحمق المطاع، لأنه كان رئيس قومه، وقد أسلم في عهدك يا رسول الله وكنت تتألفه على الرغم من حماقته ليسلم قومه، ولكنه ارتد في خلافة أبي بكر رضي الله عنه وحارب، ثم رجع إلى الإسلام وحضر بعض الفتوح في عهد عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، ولكن حماقته لم تفارقه: فحينما دخل على أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب واجهه بالتهم وقال: يا ابن الخطاب والله ما تعطينا الجزل، وما تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتى هم بأن يقع به -أي يبالغ في ضربه-، فقال ابن أخيه، الحر ابن قيس الذي استأذن له في الدخول على عمر يا أمير المؤمنين إن الله قال لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾(٢)، وإن هذا من الجاهلين، وقالوا: فو

---

(١) سورة الطور، الآيتان: ٤٨، ٤٩.

(٢) سورة الأعراف، آية: ١٩٩.

الله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافا عند كتاب الله عز وجل"[(١)].

ومن منابع البيان النبوي العذب، ومن فيوضات سيرته العطرة، ومن عبق شمائله الكريمة، وسجاياه الحميدة، تشرق هذه المشاعر التي تصور بعض شمائله وفضائله، وعفوه وتسامحه[(٢)]:

هــو الفقــير ويــأبى أن تكــون لــه	جبــال مكــة في دنيــا الــورى ذهبــا
فنفســه مــن صــفاء الحــب معــدنها	والله أغنــاه بالقـــــرآن حـــين أبـــى
وصـــــار في قلبـــه القـــرآن ملحمـــة	وجــدان كــل ظــم مــن نورهــا شــربا
فـــإن مـــشى كـــان قرآنـــا جوانبـــه	تفــيض بالــذكر للقلــب الــذي نــضبا
وإن تحـــــدث فالآيـــــات منطقـــــه	تــرد للكــل حقــاً كــان قــد ســلبا
ففـــي تواضـــعه أســـرار حكمتـــه	هــو الــنبي ولكــن يجمــع الحطبــا
وفي تعاطفـــــــه أســـــرار قوتـــــه	قــد أخــضع العجــم بــالقرآن والعربــا
وفي تـــــسامحه أســـــرار هيبتـــــه	والحــب في الله قــد أحْنــى لــه الــشهبا

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الحكاية.

ثانياً: من صفات الداعية: احتمال الأذى في سبيل الدعوة.

ثالثاً: من صفات الداعية: الرفق والشفقة بالمدعوين.

أولاً- من أساليب الدعوة: الحكاية:

ورد هذا الأسلوب في الحديث في قول الراوي عبدالله بن مسعود: "كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم"، والحكاية من

(١) أخرجه البخاري ٤٦٤٢.

(٢) انظر: ديوان مدائن الفجر شعر د. صابر عبدالدايم.

قولك حكيت فلاناً وحاكيته فعلت مثل فعله أو قلت مثل قوله سواءً لم أجاوزه، وحكيت عنه الحديث حكاية، والحكاية من أساليب الدعوة المفيدة لما فيها من عرض الأحداث القديمة[1] بعثاً للهمم وتحفيزاً للعزائم، ومن المعاني التي تضمنتها الحكاية في هذا الحديث بيان مدى تحمل الأنبياء في سبيل نشر الدعوة وتبليغها وما يتعرضون له من أذى وصبرهم وتحملهم في سبيل الدعوة إلى الله "كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عنه وجهه... الحديث" فإن في أسلوب الحكاية والتسلية شرح للمعاني بالأمثلة الحية في الصبر والتحمل في سبيل الإيمان بالله وحده والحفاظ على العقيدة بالثبات عليها، واحتمال أنواع الأذى في سبيلها والتضحية من أجلها بما يملك الإنسان من جاه ومنصب ومال، أو رفض ما يعرض عليه من هذا[2] ولقد ثبت بالتجربة أن التأسي يهوّن المصاب ويفيد شيئاً من السلوة، قالت الخنساء:

ولولا كثرة الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي[3]

وما يكون مثل أخي ولكن ... أعزي النفس عنه بالتأسي[4]

ثانياً- من صفات الداعية: احتمال الأذى في سبيل الدعوة:

في هذا الحديث حكى لنا النبي ﷺ تحمل ذلك النبي لما أصابه "ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه"، قال القاضي عياض: (وفي الحديث بيان ما كانوا عليه صلوات الله عليهم من الحلم والصبر والشفقة على قومهم وأممهم، وأنهم مع فعلهم بهم وأذاهم لهم دعوا بالغفران وعذروهم بالجهل وقلة العلم بما أتوهم به)[5].

---

(١) القصة في القرآن الكريم، د. مريم عبدالقادر السباعي، مكتبة مكة، ط/١، الرياض: ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ص ٣١.

(٢) تذكرة الدعاة، البهي الخولي ص ٥٩.

(٣) ديوان الخنساء، قافية السين، البحر الوافر التام.

(٤) القصة في القرآن الكريم، د. مريم عبدالقادر السباعي ص ١٩٧.

(٥) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ١٦٤/٦.

وقال القرطبي: (وإذا تأمل الفطن هذا الدعاء: "رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون"، في مثل تلك الحال علم معنى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[١]، فإنه ﷺ لم يدع عليهم فينتصر ولم يقتصر على العفو حتى دعا لهم ولم يقتصر على الدعاء لهم حتى أضافهم لنفسه على جهة الشفقة ولم يقتصر على ذلك حتى جعل لهم جهلهم بحاله كالعذر وإن لم يكن عذراً وهذا غاية الفضل والكرم التي لا يشارك فيها ولا يُوصلُ إليها)[٢].

ولقد ضرب لنا النبي ﷺ أعظم الأمثلة في الصبر واحتمال الأذى في سبيل دعوته، وقدأمره الله في كثير من آيات القرآن بالصبر منها قوله: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٣] فبعدما ساق الله قصة نوح مع قومه أمر النبي ﷺ بالصبر، قياساً لحاله مع قومه على حال نوح مع قومه، فكما صبر نوح فكانت العاقبة له كذلك تكون العاقبة لك، ﴿فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي اصبر لأن داعي الصبر قائم وهو أن العاقبة الحسنة تكون للمتقين فتكون لك وللمؤمنين معك[٤].

ثالثاً- من صفات الداعية، الرفق والشفقة بالمدعوين:

إن من أجمل ما يتصف به الداعي الرفق والشفقة بالمدعوين، وقد حكى لنا النبي ﷺ صورة حية لرفق ذلك النبي بقومه مع إيذائهم الشديد له "ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه، وهو يقول: "اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون" قال النووي: (فيه ما كانوا عليه صلوات الله وسلامه عليهم من الحلم والتصبر والعفو والشفقة على

---

(١) سورة القلم، آية: ٤.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٢١٣/٦.

(٣) سورة هود، آية: ٤٩.

(٤) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ٩٣/١٢/٥.

قـومهم ودعـائهم لهـم بالهدايـة والغفـران وعـذرهم في جنـايتهم علـى أنفـسهم بـأنهم لا يعلمون)[١] وهذا لا يكون إلا من صاحب قلب رحيم، والداعية المسلم يجب أن يكون كذلك تأسياً بالمرسلين، فلا يتعجل النتائج، ولا يغضب من سوء المعاملة والصدود من المدعوين، فالداعية المسلم لا يكون إلا رحيماً، لأنه يدعو إلى الإسلام دين الرحمة، وهو بهذا يظهر أعظم معلم من معالم هذا الدين الذي أمر بالرحمة وحث عليها ورغب فيها وجعل الثواب العظيم لمن اتصف بها وتمثلها واقعاً مُعاشاً في حياته[٢].

قال السعدي: (والله سبحانه وتعالى يحب من عباده أهل الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف والرفق من العبد لا ينافي الحزم، فيكون رفيقاً في أموره متأنياً، ومع ذلك لا يفوِّت الفرص إذا سنحت ولا يهملها إذا عرضت)[٣].

فما أجمل الإسلام رسالة الهداية والإصلاح، ودين السماحة واليسر، وما أسمى تعاليمه الحكيمة التي تدعو إلى الرفعة واللين في النصح والإرشاد، وإلى معالجة المشكلات الاجتماعية بطريق الرأفة لا الغلظة وبأسلوب اللين لا الشدة.

لقد كان الرفق دَيْدَن دعوة الأنبياء عليهم السلام، فقد دعا نوح عليه السلام قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، استخدم معهم أنواعاً من الأساليب، ليقبلوا على دعوته ويقبلوا منه، لكن المحصلة كانت قليلة، وكذا صبر إبراهيم، وموسى، وعيسى عليهم الصلاة والسلام على لأواء أقوامهم يدعونهم إلى الله برفق وعدم عجلة، حتى نصّ القرآن الكريم على توجيه من توجيهات الرب تبارك وتعالى لموسى وأخيه هارون عليهما السلام في دعوتهما إلى فرعون: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾[٤][٥].

فالقول اللين: هو القول الذي لا خشونة فيه، وإذا كان موسى عليه السلام أُمر بأن يقول

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١١٥٩.

(٢) قواعد الدعوة الإسلامية، د. الشريف حمدان راجح المهدي الهجاري ص ٢٩٣، ٢٩٤.

(٣) توضيح الكافية الشافية، عبدالرحمن السعدي، الرياض، بدون تاريخ ص ١٢٣.

(٤) سورة طه، الآيتان: ٤٣ - ٤٤.

(٥) انظر: صفات الداعية د. حمد بن ناصر العمار ص ٥٤ - ٥٦.

لفرعون قولاً ليناً، فمن دونه أحرى بأن يقتدي بذلك في خطابه، وأمره بالمعروف في كلامه، وقد قال الله تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [(١)]"[(٢)].

ولقد تحلى قدوة الدعاة النبي الخاتم محمد ﷺ بالرفق في أقواله وأفعاله مع من دعاهم إلى الله تعالى، وكان ذلك سبباً رئيساً من أسباب نجاحه في دعوته ﷺ ومن ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: ((بَالَ أَعْرَابِيٌّ فِي المَسْجِدِ فَقَامَ النَّاسُ إِلَيْهِ لِيَقَعُوا فِيهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ: دَعُوهُ وَأَرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ سَجْلاً مِنْ مَاءٍ، أَوْ ذَنُوباً مِنْ مَاءٍ، فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ، وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ))[(٣)].

وعن معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه قال: ((بينا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللّهِ ﷺ. إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ الله فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ. فَقُلْتُ: وَاثُكْلَ أُمِّيَاهْ! مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ؟. فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي، لكِنِّي سَكَتُّ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللّهِ ﷺ. فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي مَا رَأَيْتُ مُعَلِّماً قَبْلَهُ وَلاَ بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيماً مِنْهُ، فَوَالله مَا كَهَرَنِي وَلاَ ضَرَبَنِي وَلاَ شَتَمَنِي. قَالَ: إِنَّ هذِهِ الصَّلاَةَ لاَ يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلاَمِ النَّاسِ. إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ))[(٤)].

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: (("إِنَّ فَتًى شَابًّا أَتَى النَّبِىَّ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ائْذَنْ لِى بِالزِّنَا فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ وَقَالُوا مَهْ مَهْ فَقَالَ ادْنُهْ فَدَنَا مِنْهُ قَرِيباً قَالَ فَجَلَسَ قَالَ أَتُحِبُّهُ لأُمِّكَ قَالَ لاَ وَاللَّهِ جَعَلَنِى اللَّهُ فِدَاكَ قَالَ وَلاَ النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لأُمَّهَاتِهِمْ قَالَ أَفَتُحِبُّهُ لاِبْنَتِكَ قَالَ لاَ وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ جَعَلَنِى اللَّهُ فِدَاكَ قَالَ وَلاَ النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ قَالَ أَفَتُحِبُّهُ لأُخْتِكَ قَالَ لاَ وَاللَّهِ جَعَلَنِى اللَّهُ فِدَاكَ قَالَ وَلاَ النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لأَخَوَاتِهِمْ قَالَ أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ قَالَ لاَ وَاللَّهِ جَعَلَنِى اللَّهُ فِدَاكَ قَالَ وَلاَ النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ قَالَ أَفَتُحِبُّهُ

---

(١) سورة البقرة آية: ٨٣.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٥/١٠/٢٠٠.

(٣) أخرجه البخاري ٢٢٠.

(٤) أخرجه مسلم ٥٣٧.

لِخَالَتِكَ قَالَ لاَ وَاللَّهِ جَعَلَنِى اللَّهُ فِدَاكَ قَالَ وَلاَ النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالاَتِهِمْ قَالَ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ وَطَهِّرْ قَلْبَهُ وَحَصِّنْ فَرْجَهُ قَالَ فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَىْءٍ أو كما قال رسول الله ﷺ))(١).

ولقد حث النبي ﷺ المسلمين عامة، ويدخل في ذلك الدعاة من باب أولى إلى التحلي بالرفق، فمن ذلك: ما روته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: ((إِنَّ اللّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ. وَيُعْطِي عَلَىٰ الرِّفْقِ مَا لاَ يُعْطِي عَلَىٰ الْعُنْفِ. وَمَا لاَ يُعْطِي عَلَىٰ مَا سِوَاهُ))(٢).

وعن جرير بن عبدالله رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: ((مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ، يُحْرَمِ الْخَيْرَ))(٣).

وعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: ((إِنَّ الرِّفْقَ لاَ يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلاَّ زَانَهُ، وَلاَ يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ شَانَهُ))(٤).

فبالرفق تُساس الطباع، ويُعرف مكمن الداء، ويعطى الدواء، لتستقيم الأنفس على الخير، وتقبل دعوة الله عز وجل، ويزول ما في الصدور ما حلّ فيها من عوارض البغض، وأسباب الشحناء، ولا شك أنّ الداء لهذا كلّه بلسم الرفق"(٥).

---

(١) أخرجه أحمد ٢٥٧/٥ رقم ٢٢٢١١، وقال محققو المسند: إسناده صحيح ٥٤٥/٣٦.

(٢) أخرجه مسلم ٢٥٩٣.

(٣) أخرجه مسلم ٢٥٩٢.

(٤) أخرجه مسلم ٢٥٩٤.

(٥) كيف يدعو الداعية، عبدالله ناصح علوان ص ٧٤ - ٧٥.

الحديث رقم (٣٧)

٣٧- وَعنْ أَبي سَعيدٍ وأَبي هُرَيْرة رضي الله عنهما، عن النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «**مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلاَ وَصَبٍ وَلاَ هَمٌّ وَلاَ حَزَن وَلاَ أَذًى وَلاَ غمٌّ، حتَّى الشَّوْكَةُ يُشَاكُها إِلاَّ كفَّر اللَّه بهَا مِنْ خطَايَاه**» متفقٌ عليه[1].

ترجمة الراوي:

أبو سعيد الخدري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٠).

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

الْوَصَب: الْمرضُ[2].

الشرح الأدبي

تتوالى أحاديث رسول الله ﷺ في ميدان الصبر، لأنه سلاح المؤمن في مواجهته لأعباء الحياة فالصبر على ما يلحق بالإنسان من مرض الصرع أو الطاعون، قد أشار إليه رسول الله ﷺ في حديثين سابقين، والصبر على أعباء الدعوة إلى الله، وتحمل حماقة الجاهلين والمعاندين من أهم سمات الداعية ورسول الله هو القدوة في ذلك السبيل، ودعاؤه لمن ضربوه وأدموه خير برهان على ذلك السلوك الراشد القويم.

وهذا الحديث يعد دستوراً عاماً، ومنهجاً قويماً للمسلم في حياته وهو يواجه كثيراً من الأزمات والشدائد .

وتتسم ألفاظ الحديث بالإيجاز والإيحاء، فكل لفظ يشع بدلالات متعددة يمكن أن تمور بها حياة المسلم.

وهكذا البيان النبوي ألفاظه يعمرها قلب متصل بجلال خالقه، ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه، ويقول الرافعي مؤكداً ما قال في العبارة السابقة، من خلال

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٤٢) واللفظ له، ومسلم (٢٥٧٣/٥٢). أورده المنذري في ترغيبه (٤٩٩٨).

(٢) بنصه في الترغيب للمنذري (١٧٩/٤).

استقراء بلاغة البيان النبوي: (إذا نظرت فيما صح نقله من كلام النبي ﷺ، على جهة الصناعتين اللغوية والبيانية رأيته في الأولى أي: الصناعة اللغوية مسدداً اللفظ محكم الوضع ،جزل التركيب متناسب الأجزاء في تأليف الكلمات فخم الجملة واضح الصلة، بين اللفظ ومعناه، واللفظ وضريبه في التأليف والنسق، ثم لا ترى فيه حرفاً مضطرباً، ولا لفظة مستدعاة لمعناها أو مستكرهة عليه، ولا كلمة غيرها أتم منها أداء للمعنى وتأتيا لسره في الاستعمال)[1].

وفي ضوء السمات الأسلوبية السابقة للبيان النبوي نقتبس من كلمات هذا الحديث بعض إشعاعاته وموحياته.

فالحديث كله جملة واحدة تفوه بها رسول الله ﷺ وصيغت في قالب "القصر" عن طريق النفي والاستثناء، فلا يملك قارئ هذا الحديث أن يتوقف عن كلمة في وسطه فالمعنى لن يتم إلا بتمام قراءة الحديث كله، فلا إسهاب ولا إطناب، وإنما الحديث جزل التراكيب، متناسب الأجزاء في تأليف الكلمات، واضح الصلة بين اللفظ ومعناه، وهو يطمئن أي مسلم يستقبل أحداث الحياة المؤلمة بصبر وسكينة وتسليم بالقضاء والقدر، بالثواب الجزيل وتكفير الخطايا، بقدر الصبر على البلايا، ولنتأمل هذه الحالات الست التي تكمن في سراديب هذه الألفاظ الموجبة الدالة ـ فالرسول ﷺ يخصص المسلم، ولم يقل الإنسان، لأن المسلم يستقبل هذه الابتلاءات بالصبر والاحتساب، وهو الموعود بتكفير الخطايا، ومضاعفة الثواب والتفسير بالمضارع في قوله: "ما يصيب" إيحاء بدوام هذه الابتلاءات لأنها طبيعة الحياة، ولكنها تتوج عند الصبر بالجزاء الأوفى، والثواب الأجزل.

والنَصَبْ: هو التعب، وهى كلمة عامة تسبح في فضائها كل أنواع الأزمات وما أكثر صنوف البلاء التي يبتلى بها البشر، ومجيء حرف "من" يومئ إلى الاستقصاء، فمهما كان حجم أو نوع ذلك النصب: فالله سبحانه وتعالى يجعله مكفراً للخطايا.

---

(١) انظر: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، الرافعي ص ٢٥٤.

ولفظ "الوصب" أعم من "النصب" ولكن بينهما تشابه في اللفظ، وتجانس في الأثر وقيل: "الوصب" هو الوجع الدائم، ويضيف إلى النصب أبعاداً أخرى للآلام؛ "والهم"، هو ما يؤرق الإنسان تجاه مستقبله، والحزن ثمرة التفكير في الماضي الجريح، والأذى لفظ يتسع حقله الدلالي ليشمل كل ما يصيب النفس من مكروه، فتأمل كم يحمل هذا اللفظ من إشارات إلى حالات النفس الإنسانية "والغم" هو نتيجة الحزن الشديد، فهو حين يتمكن من الإنسان يغمى عليه، ويفقد الإحساس بمن حوله، ولكنه يثوب إلى رشده، ويرضى بما قسمه الله، وتأتي النتيجة "وهي" الثواب الإلهي لمن صبر واحتسب، فالله يكفر بسبب ذلك من خطاياه.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التبشير.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: فضل الصبر والاحتساب.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: المصائب مكفرات للذنوب.

رابعاً: من أساليب الدعوة: التسرية والتسلية.

أولاً- من أساليب الدعوة: التبشير:

التبشير من أنجح الأساليب الدعوية، وقد استعمله النبي ﷺ في الحديث، فبشر المسلم بتكفير خطاياه إن صبر على ما يصيبه من آلام نفسية وحسية فقال: (ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه).

وقد كان التبشير من لوازم دعوته ﷺ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾[1]، فقوله: (مبشراً) من الأوصاف التي تنطوي على مجامع الرسالة المحمدية والمبشِّر هو المخبر بالبشرى والبشارة، وهي الخبر المسر لمن يُخْبر به

(١) سورة الأحزاب، آية: ٤٥.

والوعد بالعطية، فالنبي ﷺ مبشر لأهل الإيمان والمطيعين بمراتب فوزهم، وقدمت البشارة على النذارة، لأن النبي ﷺ غلب عليه التبشير لأنه رحمة للعالمين، ولكثرة عدد المؤمنين في أمته.

وقال السعدي في تفسير قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ۝ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾[(١)]:

"هذه الأشياء الخمسة التي وصف الله بها رسوله محمداً ﷺ هي المقصود من رسالته وزبدتها وأصولها التي اختص بها وهي خمسة أشياء: أحدها: كونه (شاهداً) أي: شاهداً على أمته بما عملوه، من خير وشر، كما قال تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[(٢)]، ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾[(٣)]، فهو ﷺ شاهد عدل مقبول.

الثاني والثالث: كونه ﴿مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾، وهذا يستلزم ذكر المبشر والمنذر، وما يبشر به وينذر، والأعمال الموجبة لذلك.

فالمبشَّرون: المؤمنون المتقون، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، وترك المعاصي. لهم البشرى في الحياة الدنيا، بكل ثواب دنيوي وديني، رتب على الإيمان والتقوى. وفي الأخرى بالنعيم المقيم.

وذلك كله يستلزم ذكر تفصيل المذكور، من تفاصيل الأعمال، وخصال التقوى، وأنواع الثواب.

والمنذرون: هم: المجرمون الظالمون، أهل الظلم والجهل، لهم النذارة في الدنيا، من العقوبات الدنيوية والدينية، المترتبة على الجهل والظلم، وفي الأخرى بالعقاب الوبيل، والعذاب الطويل.

---

(١) سورة الاحزاب، الآيات: ٤٥ - ٤٧.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٤٣.

(٣) سورة النساء، آية: ٤١.

وهذه الجملة تفصيلها ما جاء به ﷺ من الكتاب والسنة، المشتمل على ذلك.

الرابع: كونه (داعياً إلى الله) أي: أرسله الله يدعو الخلق إلى ربهم، ويشوقهم لكرامته، ويأمرهم بعبادته، التي خلقوا لها، وذلك يستلزم استقامته على ما يدعو إليه، وذكر تفاصيل ما يدعو إليه، بتعريفهم لربهم بصفاته المقدسة، وتنزيهه عما لا يليق بجلاله، وذكر أنواع العبودية والدعوة إلى الله بأقرب طريق موصل إليه، وإعطاء كل ذي حق حقه، وإخلاص الدعوة إلى الله، لا إلى نفسه وتعظيمها، كما قد يعرض ذلك لكثير من النفوس في هذا المقام. وذلك كله "بإذنه" تعالى له في الدعوة وأمره وإرادته وقدره.

الخامس: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾، وذلك يقتضي أن الخلق كانوا في ظلمة عظيمة، لا يهتدي به في ظلماتها، ولا علم يستدل في جهالاتها. حتى جاء الله بهذا النبي الكريم، فأضاء الله به تلك الظلمات، وعلم به من الجهالات، وهدي به ضلالاً إلى الصراط المستقيم.

فأصبح أهل الاستقامة، قد وضح لهم الطريق، فمشوا خلف هذا الإمام وعرفوا به الخير والشر، وأهل السعادة من أهل الشقاوة، واستناروا به لمعرفة معبودهم وعرفوه بأوصافه الحميدة، وأفعاله السديدة وأحكامه الرشيدة.

وقوله: "وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً" ذكر في هذه الجملة المبشَّرين، وهم المؤمنون، وعند ذكر الإيمان بمفرده، تدخل فيه الأعمال الصالحة.

وذكر المبشَّرَ به، وهو الفضل الكبير، أي: العظيم الجليل، الذي لا يقادر قدره من النصر في الدنيا، وهداية القلوب، وغفران الذنوب، وكشف الكروب، وكثرة الأرزاق الدارة، وحصول النعم السارة، والفوز برضا ربهم وثوابه، والنجاة من سخطه وعقابه.

وهذا مما ينشط العاملين أن يذكر لهم، من ثواب الله على أعمالهم، ما به يستعينون على سلوك الصراط المستقيم، وهذا من جملة حكم المشرع، كما أن من حكمه أن يذكر في مقام الترهيب العقوبات المترتبة على ما يرهب منه، ليكون عوناً على الكف عما حرّم الله"[1].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٦١٤ - ٦١٥.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: فضل الصبر والاحتساب:

إن للصبر على ما ينزل بالإنسان من شدائد وآلام، واحتساب أجر ذلك عند الله تبارك وتعالى فضائل كثيرة منها ما ورد في الحديث بتكفير الخطايا، فقال ﷺ: (ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه).

وقد أمرنا الله بالاستعانة بالصبر فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾(1)، فالله سبحانه وتعالى يحب من عباده معالي الأمور، والتخلق بأكرم الصفات، والتي منها: الصبر وهو تحمل النفس مكاره الحياة وعدم الجزع لنوائب الدهر ونكباته، والصبر هو عين الراحة وينبوع الفرح إذا احتسبت صابراً خوفاً من الله ورجاء فيه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(2)(3).

إن الحياة صراع بين الحق والباطل، ويفوز في هذا الصراع الأطول نفساً والأكثر احتمالاً: ﴿... وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ...﴾(4)، ويتواصى أهل الباطل بالصبر على باطلهم: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ...﴾(5)، ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا...﴾(6)، أفلا يقول أهل الحق للمبطلين: ﴿...وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا...﴾(7)، حتى تتحقق فيهم سنة الله بالنصر والتمكين: ﴿... وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ...﴾(8)، ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً

---

(1) سورة البقرة، آية: ١٥٣.

(2) سورة الزمر، آية: ١٠.

(3) انظر: كلمات من نور، ثاني المنصور ص ١١٠- ١١١.

(4) سورة الفرقان، آية: ٢٠.

(5) سورة ص، آية: ٦.

(6) سورة الفرقان، آية: ٤٢.

(7) سورة إبرهيم، آية: ١٢.

(8) سورة الأعراف، آية: ١٣٧.

يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ ...﴾[١].

كثير من الناس يتعللون بأن طِباعُهم تغلبهم، وأنه ليس لديهم القدرة على التحمل والصبر، ولو جاهد أحدهم نفسه لكظم الغيظ، وعف عن الحرام، ووسع صدره، وقنع بما آتاه الله إياه، وتجلّد على ما ابتلاه به؛ حتى يكتسب هذا الخلق، فقد قال ﷺ: ((ومَن يَستعفِفْ يُعفَّهُ اللّهُ، ومَن يَستغْنِ يُغنِه اللّهُ، ومَن يَتصبَّرْ يُصبِّرْهُ اللّه...))[٢]، ويوضح هذا المعنى ابن حجر بقوله: (... يصبره الله: أي فإنه يقويه ويمكنه من نفسه حتى تنقاد له، ويذعن لتحمل الشدة، فعند ذلك يكون الله معه فيظفر بمطلوبه)[٣].

والصبر المحمود ما كان بغير تسخط ولا جزع ولا يأس ولا شكوى، وفي هذا المعنى يقول ﷺ: ((ليسَ مِن أحدٍ يَقعُ الطاعون فَيمكثُ في بلدهِ صابراً محتسِباً يعلم أنهُ لا يُصيبهُ إلا ما كتب اللهُ له إلا كان له مثلُ أجرِ شهيد))[٤]، يقول ابن حجر: (صابراً: أي غير منزعج ولا قلق، بل مسلّمًا لأمر الله راضيًا به)[٥]، وحين أمر رسول الله ﷺ بالصبر في بداية الدعوة أمر بالصبر الجميل ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرًا جَمِيلاً﴾[٦].

يقول القرطبي: (والصبر الجميل: هو الذي لا جزع فيه ولا شكوى لغير الله)[٧].

والصبر المحمود ما كان فيه تمام التوكل على الله وكمال اليقين به، هذا اليقين الذي يجعل المجاهد مقبلاً غير مدبر، فعن أبي قتادة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قام فيهم، فذكر لهم أن الجهاد في سبيل الله والإيمان بالله أفضل الأعمال، فقام رجل

---

(١) سورة السجدة، آية: ٢٤.

(٢) أخرجه البخاري ١٤٦٩.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٠٤/١١.

(٤) أخرجه البخاري ٣٤٧٤.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٩٣/١٠.

(٦) سورة المعارج، آية: ٥.

(٧) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٨٤/١٨/٩.

فقال: يا رسول الله أرأيت إن قتلت في سبيل الله يكفر عني خطاياي؟ فقال: رسول الله ﷺ: ((نعم، إنْ قُتِلْتَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ، مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ...))[(١)]، وهو الصبر المتجمل باليقين في ساعة المصيبة، بحيث لا يفقد صوابه ولا يهذي بلسانه.

والمجتمع المسلم هو الذي يعم فيه التناصح بالصبر والتواصي به، فحين مرّ رسول الله ﷺ بامرأة وهي تبكي عند قبر قال لها: ((اتَّقي اللّهَ، واصبري))[(٢)]، وحين أرسلت إليه إحدى بناته تخبره أن ابنها قبض أرسل إليها بقوله: ((إنَّ للّه ما أخذَ وله ما أعطى، وكلٌ عندَه بأجَلٍ مُسمًّى، فلْتَصبرْ ولْتحْتَسِبْ....))[(٣)].

ولا يزول الخسران عن المجتمع البشري ما لم يكن من صفاتهم: ﴿...وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾[(٤)]، ﴿...وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾[(٥)].

ولأن طعم الصبر مرٌ فلا بد أن يتعهد الإنسان نفسه ويتزود بالصبر الجميل، ومما يعين المسلم على التصبر استحضار ما أعدّ الله للصابرين، من تكفير السيئات ورفع الدرجات وتكثير الحسنات، ففي قصة المرأة التي كانت تصرع أن رسول الله ﷺ خيرها: ((إن شِئتِ صَبرتِ ولكِ الجنة ، وإن شِئتِ دَعَوتُ اللّه أن يُعافِيكِ. فقالت: أصبرُ))[(٦)].

ويعين المرء على الصبر والثبات تذكّر سير الصالحين والتأسي بهم، فحين ذُكر لرسول الله ﷺ أن رجلاً قدح في قسمة رسول الله ﷺ قال: ((يرحمُ اللّه موسى، قد

---

(١) أخرجه الترمذي ١٧١٢، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٣٩٩).

(٢) أخرجه البخاري ١٢٨٣.

(٣) أخرجه البخاري ١٢٨٤.

(٤) سورة العصر، آية: ٣.

(٥) سورة البلد، آية: ١٧.

(٦) أخرجه البخاري ٥٦٥٢.

أوذِيَ بأكثرَ من هذا فصبرَ))[١]، وقد وجهه القرآن إلى هذا المعنى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ...﴾[٢].

ويهون على النفس استقبال البلاء وتلقي المحن، حين تعلم أن البلاء والصبر على قدر صلابة الدين عند الإنسان وقوته، فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله أي الناس أشد بلاء؟ قال: ((الأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ. يُبْتَلَى الْعَبْدُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صُلْباً اشْتَدَّ بَلاَؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلاَءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ، وَمَا عَلَيْهِ مِنْ خَطِيئَةٍ))[٣].

وحين يعلم الصابر ما يزيحه الصبر عن كاهله من الذنوب يكون أكثر طمعاً في رحمة الله وأكثر رضى بقدر الله هذا عدا معية الله للصابرين، قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[٤]، وَعَدَ وفاءِ الله بوعده لعباده الصابرين: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾[٥]"[٦].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: المصائب مكفرات للذنوب:

من فضل الله ونعمه أنه يبتلي عبده بالمصائب، وتكون تكفيراً لسيئاته، وحطاً لذنوبه، وقد بيّن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك في الحديث: (ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه).

قال القرطبي: (ومقصود هذا الحديث وأمثاله أن الأمراض والأحزان -وإن دقّت- والمصائب - وإن قلت- أُجِرَ المؤمن على جميعها، وكُفِّرت عنه بذلك خطاياه حتى يمشي

---

(١) أخرجه البخاري ٣٤٠٥.

(٢) سورة الأحقاف، آية: ٣٥.

(٣) أخرجه ابن ماجه ٣٢٤٩، والحديث حسن صحيح، (صحيح سنن ابن ماجه ٣٢٤٩).

(٤) سورة الأنفال، آية: ٤٦.

(٥) سورة الروم، آية: ٦٠.

(٦) انظر: هذه أخلاقنا حين نكون مؤمنين، محمود محمد الخزندار ص ٨٠ - ٨٥.

على الأرض وليست له خطيئة، كما جاء في الحديث الآخر، لكن هذا كله إذا صبر المصاب واحتسب، وقال ما أمر الله تعالى به في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾[1]، فمن كان كذلك وصل إلى ما وعد الله به رسوله من ذلك"[2].

والإنسان في هذه الدنيا لا يمكن أن يبقى مسروراً دائماً، بل هو يوم يُسرُّ ويوم يَحْزنَ، فهو مصاب بمصائب في نفسه وبدنه ومجتمعه وأهله، ولا تحصى المصائب التي تصيب الإنسان، ولكن المؤمن أمره كله خير فعن صهيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((عَجَباً لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ. إنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ. وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إلاَّ لِلْمُؤْمِنِ. إنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ. فَكَانَ خَيْراً لَهُ. وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْراً لَهُ))[3].

قوله: "عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير"، المؤمن هنا: هو العالم بالله، الراضي بأحكامه، العامل على تصديق موعوده، وذلك: أن المؤمن المذكور إما أن يُبتلى بما يضره، أو بما يسره؛ فإن كان الأول صبر واحتسب ورضي، حصل على خير الدنيا والآخرة وراحتهما، وإن كان الثاني عرف نعمة الله عليه، ومنته فيها فشكرها، وعمل بها، فحصل على نعيم الدنيا ونعيم الآخرة.

وقوله: "وليس ذلك إلا للمؤمن"، أي: المؤمن الموصوف بما ذكرته؛ لأنه إن لم يكن كذلك لم يصبر على المصيبة ولم يحتسبها، بل: يتضجر ويتسخط، فينضاف إلى مصيبته الدنيوية مصيبته في دينه، وكذلك لا يعرف النعمة، ولا يقوم بحقها ولا يشكرها، فتنقلب النعمة نقمة، والحسنة سيئة -نعوذ بالله من ذلك-)[4].

فإذا أصبت بمصيبة فلا تظن أن هذا الهم أو الألم، ولو كان شوكة لا تظن أنه يذهب سدى، بل ستعوض عنه خيراً منه، ستحط عنك الذنوب كما تحط الشجرة

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٥٦.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٦/٥٤٦.

(٣) أخرجه مسلم ٢٩٩٩.

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٦/٦٣٠.

ورقها، وهذا من نعمة الله[١]، كما قال ﷺ: ((مَامِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى، إِلاَّ حَاتَّ اللَّهُ عَنْهُ خَطَايَاهُ، كَمَا تَحَاتُّ وَرَقُ الشَّجَرِ))[٢]، وقوله: إلا حات، أي: فتت، وذلك كناية عن إذهاب الخطايا[٣].

رابعاً- من أساليب الدعوة: التسرية والتسلية:

التسرية بمعنى كشف الألم وإزالته عن الفؤاد، وذلك من أنفذ الأساليب الدعوية إلى قلوب المدعوين، وفي الحديث: سلّى النبي ﷺ المصاب وسرّى عنه ما به من هم وغم ونحوه، ببيان أن جزاء ذلك تكفير خطاياه، فقال: (ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها عنه خطاياه)، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ دخل على أعرابي يعوده: قال: وكان النبي ﷺ إذا دخل على مريض يعوده، قال: ((لا بأس عليك، طهور إن شاء الله))[٤]، وعن جابر رضي الله عنه قال: دخل النبي ﷺ على أم السائب وهي تزفزف[٥]. فقال: ((مالك؟ قالت: الحمَّى، أخزاها الله، فقال النبي ﷺ: مه، لا تسبيها فإنها تذهب خطايا المؤمن، كما يذهب الكير خبث الحديد))[٦]. وفي ذلك بيان أن الأمراض وغيرها من المؤذيات التي تصيب المؤمن مطهرة له من الذنوب، وأنه ينبغي للإنسان ألا يجمع على نفسه بين ضررين عظيمين: الأذى الحاصل، وتفويت ثوابه[٧]، فأسلوب التسلية والتسرية عن المصابين وغيرهم من أهم الأساليب التي ينبغي على الداعية أن يتبعها إظهاراً لتعاليم الإسلام مجسدة وكدليل على إخلاصه للدعوة وحبه للمدعوين[٨].

---

(١) شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين ٩٩/١ - ١٠٠.

(٢) أخرجه البخاري ٥٦٤٧.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١٥/١٠.

(٤) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٥١٤، وصححه الألباني (صحيح الأدب المفرد ٣٩٩).

(٥) تزفزف: ترتعد، الوسيط في (ز ف ز ف).

(٦) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٥١٦، وصححه الألباني (صحيح الأدب المفرد ٤٠١).

(٧) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ١٢٤.

(٨) انظر: قواعد الدعوة الإسلامية، د. الشريف حمدان راجح المهدي الهجاري ص ٢٧٠.

الحديث رقم (٣٨)

٣٨- وعن ابْن مسعُود رضي الله عنه قَالَ: دَخلْتُ عَلى النَبيِّ ﷺ وَهُو يُوعَكُ فَقُلْتُ يا رسُولَ اللَّه إِنَّكَ تُوعكُ وَعْكاً شَدِيداً قال: «**أَجَلْ إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلانِ مِنْكُم**» قُلْتُ: ذلك أَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ؟ قال: «**أَجَلْ ذَلك كَذَلك مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى، شوْكَةٌ فَمَا فوْقَهَا إِلاَّ كَفَّر اللَّه بِهَا سيئاته، (وَحطَّتْ عنْهُ ذُنُوبُهُ)** [١] **كَمَا تَحُطُّ الشَّجرةُ وَرقَهَا**» متفقٌ عليه[٢].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

غريب الألفاظ:

الْوَعْكُ: مَغْثُ الحُمَّى، وقيل: الْحُمى. وهو الألم الشديد من المرض

الشرح الأدبي

إن أحاديث المصطفى ﷺ كالبنيان المرصوص يشد بعضها بعضاً، ولابد من قراءتها في ذلك السياق المتكامل، وترتيب مؤلف رياض الصالحين لها نابع من إدراكه لهذه القيمة التكوينية في تكامل دلالات الأحاديث.

فهذا الحديث الذي ينقل مشهداً مهيباً جليلاً مؤثراً وهو مشهد مرض النبي ﷺ له صلة عضوية بالحديث السابق: فهو تطبيق عملي، وتجربة حياتية لما قيل في الحديث السابق من أنواع الابتلاءات، وفي ختام هذا المشهد الحواري يَردُ الحديث السابق، وكأن هذه شفرة أسلوبية وإشادة معنوية لضرورة الربط بين الحديثين.

ولنتأمل هذا الحوار المضيء بالتعاليم النبوية، والتوجيهات الإسلامية، فالرسول ﷺ حتى في لحظة المرض لا يتوانى عن التوضيح والتوجيه والدعوة إلى الله، وشواهد الحوار يعلن عنها تكرار الفعل : فقلت، قال، قلت، قال.

---

(١) هذه الزيادة ليست عند البخاري ومسلم.

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٤٨) واللفظ له، ومسلم (٢٥٧١/٤٥)، إلا قوله: (وحطت عنه ذنوبه) فليس عندهما. وسيكرره المؤلف برقم (٩١٥).

والإيجاز هنا مناسب للمقام والسياق، فالرسول ﷺ يمر بلحظة لا مجال فيها للتفصيل والتفريع، ولذلك جاء كلام ابن مسعود موجزاً، وإجابات الرسول غاية في الإيجاز مع وضوح الدلالة، وبيان المراد.

ولفظ "يوعك" فعل مبني للمجهول، وأعاده ابن مسعود في حواره "إنك توعك وعكاً شديداً"، والوعك: حرارة الحمى الشديدة ووهناً للبدن وإضعافها إياه، وهذا درس في الابتلاء فالأنبياء يضاعف عليهم الوجع، فيضاعف الأجر، كما ورد في الحديث الشريف فيما معناه.

وهذا الحوار الموجز صاحبته عدة ظواهر أسلوبية تقرب المعنى وتوضحه في نفس السامع والقارئ، فالنداء في قول ابن مسعود: "يارسول الله" يدل على اللهفة والأسى لمرض المصطفى ﷺ.

والتأكيد بإنّ المصاحبة لكاف الخطاب "إنك" ثم زيادة التأكيد بمجيء الفعل المطلق مع صفته. "وعكاً شديداً" هذا الأسلوب يفصح عن موقف ابن مسعود وهو الخوف على رسول الله ﷺ وكيف لا وهو: صاحب سر رسول الله ﷺ، وبشره رسول الله بالجنة وقال تكريمًا له: ((رضيت لأمتي ما رضي لها ابن أم عبد))[1].

وإعادة رسول الله ﷺ للألفاظ التي تحمل دلالة الحمى الشديدة وهي "الوعك" وما يدور في دائرتها، يوحي بثقل المرض الذي أشار إليه المصطفى ﷺ "يوعك مثل رجلين من الصحابة". ويربط ابن مسعود بين شدة الحمى ومضاعفة الأجر، ويقره الرسول ﷺ على ذلك في إيجاز يناسب المقام، ويراعي مقتضى الحال: فيقول: "أجل ذلك كذلك"، أي: مضاعفة الأجر مثل مضاعفة المرض، وفي ذلك مواساة لكل مسلم يبتليه الله بأي مرض أو نَصَب أو وَصَب أو هم أو حزن، أو أذى أو غم، ثم يُرسِي الرسول ﷺ قاعدة عامة ومنهجا في الاحتساب والصبر وله ظلاله وقبساته في الحديث السابق، لأن هذه الحالة ليست خاصة بالرسول فقط، وإنما الذي يخصه هو مضاعفة الأجر لشدة المرض، هذا المنهج يتمثل في قوله ﷺ "ما من مسلم يصيبه أذى: شوكة فما فوقها إلا كفر الله بها سيئاته، وحطت عنه ذنوبه، كما تحط الشجرة أوراقها".

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين ٥٤٣٨، وقال: هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

وفي هذه القاعدة ظاهرتان من ظواهر الأسلوب في البيان النبوي وهما: أسلوب القصر ثم التشبيه، والقصر يحدد اختصاص المسلم بهذه الميزة وذلك الثواب، والتشبيه لتقريب المعنى إلى ذهن السامع وتمكينه منه - كما يقرر صاحب الطراز في باب التشبيه، ويرى أن أول أغراض التشبيه: التقرير والتمكين في النفس ولا يسقط من الشجرة إلا الورق التالف، والثمر المعطوب، فكأن المسلم الصابر المحتسب يظل مثل الشجرة الخضراء الوارفة الظلال اليانعة الثمار لا تؤثر فيها العواصف والأنواء، بل تظل دائمة العطاء.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الحوار.

ثانياً: من صفات الداعية: الصبر والتحمل وعدم الضجر.

ثالثاً: من خصوصيات النبي ﷺ: تحمل ما لا يطيقه غيره.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: المصائب مكفرات للذنوب.

أولاً- من أساليب الدعوة: الحوار:

ورد هذا الأسلوب الدعوي في الحديث وذلك من خلال ما دار بين رسول الله ﷺ وعبدالله بن مسعود رضي الله عنه من حوار، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (دخلت على النبي ﷺ وهو يوعك، فقلت: يا رسول الله إنك توعك وعكاً شديداً، قال: أجل... الحديث)، والحوار: نمط من أنماط التعبير تتحدث به شخصيتان أو أكثر، وقد اتسم حديثهم بالموضوعية والإيجاز والإفصاح أو غير ذلك، وهو الطابع الذي يتسق به الكلام بطريقة تجعله يثير الاهتمام باستمرار[(١)].

لذا ينبغي على الدعاة أن يفتحوا قنوات الاتصال بالمدعوين ومن أهمها الحوار، إذ أن أسلوب الحوار يؤدي دوراً فعالاً ومهماً في الدعوة، ويعطيها الحيوية والحركة ويبعث فيها النشاط[(٢)].

---

(١) القصة في القرآن الكريم، د. مريم عبدالقادر السباعي ص ١٢١.

(٢) المرجع السابق ١٢٢.

ولقد استخدم النبي ﷺ في دعوته الحوار في كثير من المواقف، وكان من بين أغراضه وأهدافه: تعليم الصحابة والناس أمور دينهم، ويبدأ الحوار بسؤال من الرسول ﷺ أو بسؤالٍ من أحد أصحابه، يستفيد منه المستمعون لهذا الحوار، والأمثلة على الحوار التعليمي في سنة الرسول ﷺ كثيرة، ومنها ما يأتي:

ما روي عن عبدالرحمن بن أبي ليلى قال: ((لَقِيني كعبُ بن عُجرةَ فقال: ألا أُهدي لكَ هَديةً سمعتُها منَ النبيِّ ﷺ؟ فقلت: بَلى فأهدها لي، فقال: سألْنا رسولَ الله ﷺ فقلنا: يا رسولَ الله كيفَ الصلاةُ عليكم أهلَ البيت، فإن اللهَ قد علمنا كيفَ نسلِّم. قال: قولوا اللَّهمَّ صل على محمدٍ وعَلَى آلِ محمدٍ كما صليتَ على إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيمَ إنكَ حَميدٌ مَجيد، اللَّهمَّ بارك على محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ كما باركتَ على إبراهيم وعلى آلِ إبراهيمَ إنَّكَ حَميدٌ مَجيد))[1].

دار هذا الحوار بين الرسول ﷺ وأصحابه، فقد سأل الصحابة رضي الله عنهم الرسول ﷺ سؤالاً، فأجاب عليهم وعلمهم.

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: ((كُنتُ مع النبي ﷺ فأصبحتُ قريباً منه ونحن نسير فقلت: يا نبيَّ الله أخبرني بعملٍ يُدخِلني الجنَّة ويُبعِدُني عن النَّار قال: لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيمٍ وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ الله عَلَيْهِ. تُقِيمُ الصَّلاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ، ثُمَّ قَالَ: أَلا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ، الصَّوْمُ جُنَّةٌ، والصَّدَقَةُ تُطفِىءُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطفِىءُ الْمَاءُ النارَ، وَصَلاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ، ثُمَّ تَلا ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُم عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ حَتَّى ﴿يَعْمَلُونَ﴾ ثُمَّ قَالَ: أَلا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ (قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «رَأسُ الأَمْرِ الإسلام، وعَمودُهُ الصَّلاةُ وذِرْوَةُ سَنَامِهِ) الْجِهَادُ»، ثُمَّ قَالَ: «أَلا أُخْبِرُكَ بِمِلاكَ ذَلِكَ كُلِّهِ؟» قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسانه فقال: «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا» قلت: يا رسول الله وإنَّا لمُؤاخَذون بما نتكلَّمُ به؟ قَالَ: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ - أَوْ قَالَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ - إلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ))[2].

---

(١) أخرجه البخاري ٣٣٧٠.

(٢) أخرجه الترمذي ٢٦١٦، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢١١٠).

دار هذا الحوار بين الرسول ﷺ ومعاذ بن جبل رضي الله عنه وقد علمه الرسول ﷺ أموراً مهمة لكل مسلم[(١)].

ثانياً- من صفات الداعية: الصبر والتحمل وعدم الضجر:

إن ما يعين الداعية على الاستمرارية في دعوته وتبليغها للناس تجمُّله بالصبر والتحمل وعدم التبرم والضجر، وليكن له في رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة في تحمله للشدائد كلها بلا استثناء، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (دخلت على النبي ﷺ وهو يوعك، فقلت: (يا رسول الله إنك توعك وعكاً شديداً، قال: أجل إني أوعك كما يوعك رجلان منكم..)، فإن تحلي الداعية بالصبر يجعله يتغلب على ما يقابله من عوائق وعقبات، ولقد أمر الله تعالى رسوله الكريم ﷺ بالصبر متأسياً في ذلك بإخوانه من الرسل عليهم السلام فقال: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾[(٢)].

فما نرى الله عز وجل أوصى رسله بشيء أكثر مما أوصاهم بالصبر، وليس معنى الصبر هنا الاستكانة والذلة والقعود عن الدعوة، والكف عن التفكير في معالجة من يستطيلون بالأذى على الأحرار الأبرياء، وإنما الصبر هنا معناه أن يهضم الداعية ما يلقى من إعراض وعناد، وتحدٍّ وأذى، وأن يروض نفسه ومعدته العصبية على هضم ذلك كله وأن يحسن الاحتمال واستقبال كل شدة بالرضا والتسليم، وحمد الله على كل حال، وطلب المغفرة لمن يجهلون عليه، فإنهم لا يعلمون[(٣)].

إن الداعية إلى الله عز وجل في أمس الحاجة إلى خلق الصبر، إذ أن نظام الكون اقتضى أن يكون لأصحاب الدعوات أعداء يمكرون بهم، ويكيدون لهم ويتربصون بهم الدوائر، ولذلك كان لآدم عليه السلام إبليس، وكان لإبراهيم عليه السلام نمروذ، وكان لموسى عليه السلام فرعون، وكان لمحمد ﷺ أبو جهل ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾[(٤)].

---

(١) الحوار: "آدابه - تطبيقاته"، خالد محمد المغامسي ص ٩٥ - ٩٦.

(٢) سورة الأحقاف، آية: ٣٥.

(٣) انظر: تذكرة الدعاة، البهي الخولي ص ٢٦٦ - ٢٦٧.

(٤) سورة الفرقان، آية: ٣١.

فما أحوج الداعية إلى الصبر على هذا البلاء ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[1].

وقد جاء التوجيه لنبينا محمد ﷺ وهو خير الدعاة وإمامهم: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾[2].

فإذا كان الصبر ضرورياً لكل مسلم فإنه بالنسبة للداعي أشد ضرورة؛ لأن الداعية يعمل في ميدانين: ميدان نفسه، يجاهدها ويحملها على الطاعة، ويمنعها من المعصية، وميدانٍ خارج نفسه وهو ميدان الدعوة الفسيح، ومخاطبة الناس ومخالطتهم؛ لأن المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم[3].

ولقد أدرك هذه الحقيقة لقمان الحكيم وهو يوصي ولده وصيته المشهورة والتي نصّ عليها القرآن الكريم ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[4]، ونلاحظ في هذه الوصية المباركة أن لقمان رتب الأمر ترتيباً يحسن بالدعاة مراعاته، حيث بدأها بإعداد النفس وأخذها بالطاعة، ثم ثنى بدعوة الغير ثم أمره بالصبر على ما يصيبه، وتحمل ما يعرض له[5].

ولقد ضرب لنا رسول الله ﷺ أروع الأمثلة في صبره وشدة تحمله على ما أصابه في طريق الدعوة فقد ألصقت به ﷺ عبارات السوء فقالوا عنه: شاعر، وكاهن،

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٣٤.

(٢) سورة الأحقاف، آية: ٣٥.

(٣) انظر: الدعوة قواعد وأصول، جمعة أمين عبدالعزيز ص ٦٠ - ٦١.

(٤) سورة لقمان آية: ١٧.

(٥) أسس الدعوة وآداب الدعاة، محمد السيد الوكيل ص ٧٧.

وساحر، ويعلمه بشر... إلخ، وقد كسرت رباعيته وشج وجهه يوم أحد وصبر على ذلك ﷺ. وكان من صور صبره ﷺ في دعوته للمشركين ما جاء في حديث خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا؟ فقال: ((كان الرَّجلُ فيمن قبلَكمْ يُحفَرُ له في الأرضِ فيُجعَلُ فيه، فيُجاء بالمنشارِ فيوضعُ على رأسهِ فيُشَقُّ باثنتَينِ، . وما يَصُدُّهُ ذلك عن دينه، ويُمشَطُ بأمشاطِ الحديدِ ما دُونَ لحمهِ من عظمٍ أو عَصَب، وما يَصدُّهُ ذلكَ عن دينه. واللهِ لَيتمَّنَّ هذا الأمرُ حتى يَسيرَ الراكبُ من صنعاءَ إلى حَضْرَمَوتَ لا يخافُ إلاّ اللهَ، أوِ الذِّئبَ على غَنمه، ولكنَّكم تَستَعجِلون))[1].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ((يَا رَسُولَ اللّهِ! هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ فَقَالَ: «لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ، وَكَانَ أَشَدُّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلاَلٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَىٰ مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلاَّ بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ. فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي. فَقَالَ: إِنَّ اللّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ. قَالَ: فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ. ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ! إِنَّ اللّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ، وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ. فَمَا شِئْتَ؟ إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ». فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللّهِ : «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللّهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللّهَ وَحْدَهُ، لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً))[2].

ثالثاً- من خصوصيات النبي ﷺ: تحمل ما لا يطيقه غيره:

لقد اختص الله رسول الله ﷺ بما لم يخص به غيره، ومن ذلك ما ورد في الحديث من تحمله ما لا يطيقه غيره، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (يا رسول الله إنك توعك وعكاً شديداً، قال: أجل إني أوعك كما يوعك رجلان منكم، قلت: ذلك أن

---

(١) أخرجه البخاري ٣٦٢١٢.

(٢) أخرجه مسلم ١٧٩٥.

لك أجرين؟ قال: أجل ذلك كذلك)، قال القاضي عياض: "والحكمة في إجراء الأمراض وشدتها على نبينا ﷺ، وعلى غيره من الأنبياء، أن ذلك زيادة في مكانتهم ورفعة في درجاتهم، وأسبابٌ لاستخراج حالات الصبر والرضا والشكر والتسليم والتوكل والتفويض والدعاء والتضرع منهم، وتأكيد لبصائرهم في رحمة الممتحنين والشفقة على المسلمين، وتذكرة لغيرهم وموعظة لسواهم ليتأسوا في البلاء بهم ويتسلوا في المحن بما جرى عليهم ويقتدوا بهم في الصبر"[1].

رابعاً: من موضوعات الدعوة: المصائب مكفرات للذنوب:

إنه لمن فضل الله عز وجل ونعمته على عبده المسلم أن يبتليه بالمصائب، وتكون -إن صبر عليها- تكفيراً لسيئاته وحطاً لذنوبه[2]، وفي الحديث صرح النبي ﷺ بذلك، فقال: (ما من مسلم يصيبه أذى، شوكة فما فوقها إلا كفر الله بها سيئاته، وحُطّت عنه ذنوبه، كما تحط الشجرة ورقها)، قال الطيبي: "قوله: وحُطت عنه ذنوبه كما تحط الشجرة ورقها، وحالة المريض وإصابة المرض جسده، ثم محو السيئات عنه سريعاً بحالة الشجرة، وهبوب الرياح الخريفية، وتناثر الأوراق منها سريعاً وتجردها عنها، فهو تشبيه تمثيلي لانتزاع الأمور المتوهمة في المشبه من المشبه به، فوجه التشبيه: الإزالة الكلية على سبيل السرعة لا الكمال والنقصان؛ لأن إزالة الذنوب عن الإنسان سبب كماله، وإزالة الأوراق عن الشجرة سبب نقصانها"[3].

إن من نعم الله تعالى على عبده أن يبتليه بالمصائب فتكون تكفيراً لسيئاته وحطاً لذنوبه، والإنسان في هذه الدنيا لا يمكن أن يبقى مسروراً دائماً، بل هو يوم يُسر، ويوم يحزن، ويوم يأتيه شيء ويوم لا يأتيه، فهو مصاب بمصائب في نفسه، ومصائب في بدنه، ومصائب في مجتمعه ومصائب في أهله، ولا تحصى المصائب التي تصيب الإنسان، ولكن المؤمن أمره كله خير، إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وإن

---

(١) كتاب الشفا، بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض ص ٥٣١ - ٥٣٢.

(٢) شرح رياض الصالحين ٩٩/١.

(٣) شرح الطيبي، الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٢٩٨/١٣.

اصابته سراء شكر فكان خيراً له.

فإذا أصبت بالمصيبة فلا تظن أن هذا الهم الذي يأتيك أو هذا الألم الذي يأتيك ولو كان شوكة لا تظن أنه يذهب سدى، بل ستعوض عنه خيراً منه، ستحط عنك الذنوب كما تحط الشجرة ورقها وهذا من نعمة الله.

وإذا زاد الإنسان على ذلك، الصبر والاحتساب أي: احتساب الأجر كان له مع هذا أجر. فالمصائب تكون على وجهين:

أ- تارة إذا أصيب الإنسان تذكر الأجر واحتسب هذه المصيبة على الله فيكون فيها فائدتان: تكفير الذنوب، وزيادة الحسنات.

ب- وتارة يغفل عن هذا فيضيق صدره، ويغفل عن نية الاحتساب والأجر على الله بشرط أن لا يضيق ذرعًا أو ينطق كفرًا فيكون في ذلك تكفير لسيئاته، إذاً هو رابح على كل حال في هذه المصائب التي تأتيه.

فإما أن يربح تكفير السيئات وحط الذنوب بدون أن يحصل له أجر لأنه لم ينو شيئاً ولم يصبر ولم يحتسب الأجر. وإما أن يربح شيئين كما تقدم.

ولهذا ينبغي للإنسان إذا أصيب ولو بشوكة فليتذكر الاحتساب من الله على هذه المصيبة، وهذا من نعمة الله سبحانه وتعالى وجوده وكرمه حيث يبتلي المؤمن ثم يثيبه على هذه البلوى أو يكفر عنه سيئاته. فالحمد لله رب العالمين[1] على جزيل عطائه.

---

(١) شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين، ١/٩٩ - ١٠٠.

الحديث رقم (٣٩)

٣٩- وعنْ أَبي هُرَيرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْراً يُصِبْ مِنْهُ» رواه البخاري[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

يصب منه: ضبطوا يُصب بفتح الصاد وكسرها: ومعناه: ابتلاه بالمصائب ليثيبه عليها[2].

الشرح الأدبي

إن الصبر تاج المؤمن، والاحتساب سلاحه الإيماني الذي يواجه به كوارث الحياة، ويقتحم ميادين المفاجآت، والمؤمن في استقباله لأحداث الحياة أمره كله خير؛ لأنه يدرك مصدر التدبير، ومنابع التقدير، فكل بارقة من بوارق الحياة تستمد أنوارها من الخالق الوهاب، وكل ما يغشى حياة المسلم من سحابات العناء، وغواشي الهموم. فمرده إلى رب الأرض والسماء، وهو الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم؛ ولأن المؤمن يستمد من عطاءات ربه ما يقوي عزيمته، ويشحذ إرادته: فأمره كله خير: إن أصابته سراء شكر، وإن أصابته ضراء صبر.

وحين نتأمل الأسرار التعبيرية التي تجلي واقع المؤمن، وتؤطر سلوكه في مواجهة أحداث الحياة من خلال قراءة هذا الحديث الشريف، قراءة جمالية للوقوف على بعض أسرار البيان النبوي، نرى أن المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجعل الابتلاء بوابة لميدان الخير، والخير هنا ليس مكاسب دنيوية، ولا أمنيات قلبية، ولا خطرات نفسية، وإنما الخير هنا هو

---

(١) برقم (٥٦٤٥). أورده المنذري في ترغيبه (٤٩٨٩).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٥٢٨، وانظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١٢/١٠.

مراد الله للإنسان الصابر على البلاء، والراضي بالقضاء، والشاكر على النعماء.

وهذه المكافأة الإلهية للمؤمن الصابر يفصح عنها البناء اللغوي لهذا الحديث الشريف، فالحديث يتكون من سبع كلمات تجمع أنواع الكلم كلها: الاسم والفعل والحرف، وتنتظمه جملة لغوية واحدة، وهذه الجملة صيغت في أسلوب يعلن عن مضمون الحديث وهو مضاعفة الثواب للمؤمن الصابر المحتسب، وأسلوب الشرط والجزاء هو الصيغة المناسبة لأداء المعنى في هذا الحديث الشريف، وكثير من أحاديث المصطفى ﷺ، تجيء في هذا القالب اللغوي الإيحائي، وتلك سمة بلاغية مضيئة تعضد قول عبدالقاهر الجرجاني في تحديد قيمة بلاغة الكلام، وتحديد الطريق إلى استكشافها : فيقول البلاغة: تَوخِّي معاني النحو بين الكلم. وفعل الشرط جاء مضارعاً "يُرد" ليوحي بتحقيق الجزاء وديمومته، وتحقق المراد الإلهي، لأنه لا راد لأمر الله والله يفعل ما يريد، ولفظ الجلالة هنا: وهو الفاعل والقائم بالإرادة، هذا اللفظ يضئ حياة المؤمن، ويسكن في قلبه الخشوع والخضوع، والهيبة والجلال، ويدفع به إلى مقاومة ما يفاجئه من أهوال، وذكر الله في كل المواقف يرسخ قيمة الصبر والسكينة والتوكل على الله في نفس المؤمن مهما كابد وعانى في الحياة، ولفظ "به" حيث اكتفى رسول الله بالضمير، وهو عمدة المعارف ولم يحدد الرسول ﷺ هوية هذا الضمير وجعله يعود على كل ما يحرص عليه الإنسان من بدن ومال وولد ومكتسبات حياتية، والإيجاز من أهم سمات البلاغة النبوية، فهذه الجملة الشرطية لا تحدد شخصاً واحداً، ولا تحدد قيمة واحدة، ولكنها تنطبق على ملايين البشر الذين يستقبلون أقدار الله بالرضا والسكينة.

والمفارقة الأسلوبية والمعنوية تصبغ جو الحديث الشريف: فكيف يكون الخير هو طريق الابتلاء، وكيف يكون الابتلاء ثمرة من ثمار الخير: إنها إرادة الله عز وجل، وقال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾[1].

---

(١) سورة محمد، آية: ٣١.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾(١).

والتعبير بقوله: "يصب منه": جواب الشرط: أي يصيب الله المؤمن ببلاء، والتعبير بقوله: "منه" يفصح عن رحمة الله بعبده الصابر: فالمصيبة تظل جزئية، ولا تشمل كل جوانب الحياة لأن مِنْ للتبعيض: تبارك الله أرحم الراحمين.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: الابتلاء.

ثانياً: من أساليب الدعوة: البشارة.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الابتلاء:

إذا ابتلى الله عبده بشيء من أنواع البلايا والمحن، فإنّ ردّه ذلك الابتلاءُ والمحنُ إلى ربه، وجمعه عليه وطرحه ببابه، فهو علامة سعادته وإرادة الخير به. والشدَّة بتراء لا دوام لها، وإن طالت، فتقلع عنه حين تقلع، وقد عوض منها أجلّ عوض وأفضله، وهو رجوعه إلى الله، بعد أن كان شارداً عنه، وإقباله عليه بعد أن كان نائياً عنه، وانطراحه على بابه وقد كان عنه معرضاً، وللوقوف على أبواب غيره متعرضاً، وكانت البلية في حق هذا عين النعمة، وإن ساءته وكرهها طبعه ونفرت منها نفسه، فربما كان مكروه النفوس إلى محبوبها سبباً ما مثله سبب، وقوله تعالى في ذلك هو الشفاء والعصمة: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(٢)(٣).

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٨٦.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢١٦.

(٣) طريق الهجرتين وباب السعادتين، ابن القيم ص ١٥٣.

فالابتلاء في ذلك هو تطهير للمؤمن ورحمة وتكميلٌ له، وهذا ما أكده نص الحديث في قوله: "من يرد الله به خيراً يصب من"، قال ابن حجر: (قال الهروي: معناه يبتليه بالمصائب ليثيبه عليها)[1].

وقد عظّم النبي ﷺ هذا الثواب فقال: ((ما يُصيبُ المسلمَ من نَصبٍ ولا وَصَبٍ ولا همّ ولاَحَزَن ولا أذى ولا غَمّ ـ حتى الشَّوكةِ يُشاكها ـ إلا كفَّرَ اللهُ بها من خَطاياه))[2]، وقال ﷺ: ((مَا مِنْ مُصِيبَةٍ تُصِيبُ المُسْلِمَ، إلاَّ كَفَّرَ اللهُ بهَا عنهُ ، حتَّى الشَّوْكَةُ يُشَاكُهَا))[3]، وقال ﷺ: ((عَجَباً لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ))[4].

قال ابن عثيمين: (إن المراد من يصبر على هذه المصائب، فإن ذلك خير له، وذلك في تكفير الذنوب وحط الخطايا، ولا شك أن ذلك خير للإنسان، لأن المصائب غاية ما فيها أنها مصائب دنيوية تزول بالأيام كلما مضت الأيام خففت عليك المصيبة لكن عذاب الآخرة باقٍ والعياذ بالله! فإذا كفّر الله عنك بهذه المصائب صار ذلك خير لك)[5].

ثانياً- من أساليب الدعوة: البشارة:

ورد ذلك في الحديث من تبشير النبي ﷺ لمن أصابته بلية بالخير والثواب من الله، ويحصل ذلك بصبره ورضائه وتسليم أمره لله، والبشارة من الأساليب الدعوية الهامة التي تبعث على انشراح الصدر وسعادة القلب، وذلك أدعى إلى جلب الطمأنينة وسكون النفس واستقرارها، وقد كان لنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة فكان ﷺ يبشر أصحابه رضي الله عنهم بعظيم الثواب من الله ويأمر بذلك، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١٢/١٠.

(٢) أخرجه البخاري ٥٦٤١، ٥٦٤٢.

(٣) أخرجه البخاري ٥٦٤٠.

(٤) أخرجه مسلم ٢٩٩٩.

(٥) شرح رياض الصالحين ١٠١/١.

النبي ﷺ بعثه ومعاذاً إلى اليمن فقال: ((يَسِّرا ولا تُعسِّرا، وبَشِّرا ولا تُنفِّرا، وتطاوَعا ولا تختَلِفا))(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((مَن أنْفقَ زَوجَين في سَبيلِ اللهِ نُودِيَ من أبوابِ الجنّةِ: يا عَبدَ اللهِ هذا خيرٌ، فمَن كانَ مِن أهلِ الصلاةِ دُعِيَ من بابِ الصَّلاَةِ، ومَن كان مِن أهلِ الجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الجِهَادِ، ومَنْ كَان مِنْ أَهْلِ الصِّيامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ، ومَن كانَ من أهلِ الصدّقةِ دُعي من بابِ الصدَقة)). فقال أبو بكرٍ رضي الله عنه: بأبي أنتَ وأُمي يا رسولَ اللهِ، ما على من دُعى من تلكَ الأبوابِ من ضَرورةٍ، فهل يُدعَى أحدٌ من تلكَ الأبوابِ كلِّها؟ قال: ((نعم، وأرجو أن تكونَ منهم))(٢).

فحري بالدعاة أن يقتدوا برسول الله ﷺ في تبشيره بعظيم الثواب، وحسن الجزاء من الله تعالى؛ وذلك أدعى إلى قبول الدعوة ونفاذها إلى قلوب المدعوين فضلاً عن حملهم على حسن العمل وإخلاصه بين يدي الله.

---

(١) أخرجه البخاري ٣٠٣٨، ومسلم ١٧٣٣.

(٢) أخرجه البخاري ١٨٩٧، ومسلم ١٠٢٧.

الحديث رقم (٤٠)

٤٠- وعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ: «**لا يتَمنينَّ أَحدُكُمُ الْمَوْتَ لِضُرٍّ[1] أَصَابَهُ، فَإِنْ كَانَ لا بُدَّ فاعلاً فليقُل: اللَّهُمَّ أَحْيني ما كَانَت الْحياةُ خَيراً لِي وتوفَّني إِذَا كَانَتِ الْوفاةُ خَيْراً لِي**» متفق عليه[2].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

الشرح الأدبي

إن المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف؛ وميزان قوة المؤمن في قدرته على مواجهة المصائب، وفي يقينه الذي توهج به الحديث السابق وهو أن الابتلاء الإلهي طريق للخير الدنيوي والأخروي، إذا أحسن العبد استقبال مراد الله فيه، وصبر على البلاء، ورضي بالقضاء.

ولكن النفس البشرية تنتابها لحظات الضعف، وتسيطر على أجزاء من تضاريسها المتشبعة – أحياناً، أشباح اليأس، وتسري في شعابها وسراديبها أوهام الظنون، ويفقد بعض الناس تصالحه مع الحياة، فيحاول الهرب من واقعه إلى أودية الخيالات، ومتاهات المفازات، ويبالغ البعض في هروبه من ميدان المجابهة، ويتمنى أن يرحل عن آفاق هذه الحياة؛ ويوغل في أمنياته اليائسة فيتمنى الموت، "ولكن سوابق الهمم لا تخرق أسوار الأقدار" كما يقول العلماء الأخيار.

ولذلك يتوجه رسول الله ﷺ بالنهي إلى هذه الطائفة المهزومة التي تتكرر في كل زمان، وفي كل مكان، ويقول في أسلوب حاسم جازم مؤكد "لا يتمنين أحدكم الموت لضر أصابه".

---

(١) لفظ البخاري في هذه الرواية: (من ضر)، وبهذا اللفظ عنده برقم (٦٣٥١).

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٧١) واللفظ له، ومسلم (١٠/٢٦٨٠). أورده المنذري في ترغيبه (٤٩٣٣). وسيكرره المؤلف برقم (٥٨٦).

والنهى هنا يحمل في طياته الأمر بعدم الوقوع في شباك هذه الأمنية اليائسة، وجاء الفعل مؤكداً بنون التوكيد الثقيلة ليفصح عن شدة الأمر، وعظم المسؤولية، وحتمية الكف عن مثل هذه الخواطر والوساوس التي تتحول إلى واقع كئيب مظلم يؤدي بصاحبه إلى اليأس والانتحار والخروج من ملة الإسلام، والموت على الكفر.

ومجيء الفعل في صيغة المضارع يوحي بأن هذا الواقع المتصادم مع الحياة يمكن أن يستمر مع كل الأجيال، وجميع الأمم، ولكن المؤمن القوي قادر على المواجهة، وعلى الصبر، وعلى إسلام الوجه لله، والتسليم بإرادته عز وجل.

ولفظ "أحدكم" حين نتساءل لماذا عدل رسول الله ﷺ عن لفظ المسلم، أو المؤمن، أو العبد، إلى هذا اللفظ: الواحد منكم؟ إن الإجابة تكشف عن قيمة البيان النبوي المضيء بالألفاظ الموحية، والمعاني الصافية، وكأن المصطفى ﷺ يريد أن يبتعد بلفظ المسلم أو غيره من الألفاظ التي يتحدد مدلولها من خلال منطوقها عن جو هذا السلوك اليائس، ولذلك قال "أحدكم"، وكاف الخطاب: تتوجه بهذا الأمر إلى كل من يقرأ ومن يسمع، حتى لغير المسلم، عسى الله أن يتوب عليه ويأخذ بيده إلى آفاق الهداية، ومنارات اليقين وكلمة "ضر" جاءت في ثوب النكرة، لتفيد الشمول والعموم، فهذا اللفظ الموجز يموج بجميع أنواع الابتلاءات التي تصيب الإنسان في نفسه أو ماله، أو من يلوذ به أو نحوه، كما يقول الله عز وجل: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[1].

وفي التعبير، بـ"يتمنى" دون يسأل، إيماء إلى أنه قد يكون من المستحيل لعدم مجيء حينه، فحصوله حينئذ أى الموت محال، وإن كان بأنواع السؤال، فسوابق الهمم لا تخرق أسوار الأقدار[2].

وقال العلماء: يجوز تمني الموت شوقاً للقاء رب العالمين، حيث لا يعرف اليأس طريقاً

(١) سورة البقرة، آية: ١٥٥.

(٢) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١٧٣/١.

للذين أحبوا ربهم، ((ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه))[(١)].

والتعبير بصيغة الماضي في "أصابه" إيحاء بعدم مصاحبة الضر واستمراره ولكنه عارض زائل، والمؤمن القوي يوقن أن الضر خير.

والجزء الثاني من الحديث جاء في قالب الشرط والجزاء، والجواب جاء في صيغة الأمر "فليقل"، للإيمان بوجوبية هذا السلوك تجاه هذه الحالة النفسية التي يتشوق فيها الإنسان للقاء ربه، والنجاة تمثل في الدعاء والاستنجاد بالله عز وجل: "اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي".

فقه الحديث

بين الحديث أهمية النفس الإنسانية وحرمتها وأن أحد الموبقات الموجبة لسخط الله وعذابه إلقاء النفس في التهلكة، أو تمني الموت والسعي إليه في غير حقه.

وقد اتفق الفقهاء[(٢)] على أنه يكره للإنسان أن يتمنى الموت نفسه، على أن المقصود هنا التمني المطلق؛ لأن فيه نوع اعتراض ومراغمة للقدر المحتوم، وأن التمني هنا إذ أريد به الفرار للآخرة فغير منهي عنه، كخوف الفتنة فغير منهي عنه، على أن يكون بالصيغة الواردة في الحديث؛ لأن فيها نوع تفويض لله تعالى وتسليمًا للقضاء.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النهي.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: عدم تمني الموت لما يصيب الإنسان من ضر.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: أهمية الاستجابة لتوجيهات النبي ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري ٦٥٠٧، ومسلم ٢٦٨٣.

(٢) حاشية ابن عابدين، محمد أمين بن عمر بن عبدالعزيز ٤١٩/٦، وشرح منح الجليل على مختصر خليل، الشيخ محمد بن أحمد بن محمد عليش ١٦٤/٣، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٥٧/٥، وحاشيتا قليوبي وعميرة ٣٤٨/١، والزواجر عن اقتراف الكبائر، أبو العباس أحمد بن محمد الهيتمي لابن حجر ٩٦/٢، والمغني، ابن قدامة ٤١٨/٢، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٢٨/١٠، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٩/١٧.

أولاً- من أساليب الدعوة: النهي:

قد ورد هذا الأسلوب في الحديث من نهيه ﷺ عن تمني الموت؛ لضر أصاب الإنسان؛ لأن في موته انقطاعاً لعمله الصالح وعدم زيادته، والنهي من الأساليب الدعوية التي يحسن بالداعية استعمالها في توجيه المدعو إلى اجتناب ما فيه هلاكه وهذا ما أفاده نص الحديث وكثر استخدامه في القرآن والسنة.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: عدم تمني الموت لما يصيب الإنسان من ضر:

هذا ما أشار إليه الحديث في قوله ﷺ "لا يتمنينَّ أحدكم الموت لضر أصابه ... إلخ" وهذا ما أكده النبي ﷺ في قوله ((لا يتمنى أحدكم الموت ولا يدعو به من قبل أن يأتيه، إنه إذا مات أحدكم انقطع عمله، وإنه لا يزيد المؤمنَ عمرُه إلا خيراً))[1].

قال ابن هبيرة: (في هذا الحديث من الفقه أنه لا يجوز أن يتمنى الموت أحد من أجل ضيق نزل به؛ لأن طلبه الموت فرار من قدر الله، ويقاس على هذا أنه من تمناه من غير ضر لم يستحب له ذلك؛ لأن المؤمن إن كان على سبيل عمل صالح فإنه كل وقت في زيادة، وإن كان على غير عمل صالح فإنه يستعجل بتمني الموت ما هو شر له، فأما تمني الموت لخوف الفتنة فقد ذكر عن جماعة من الأخيار إلا إني أخاف أن يكون نفس تمنيهم الموت فتنة، وليس إلا الرضا بما يريد الله عز وجل به عبده)[2].

وهذا ما أكده القرطبي في قوله: (إنما نهى النبي ﷺ عن تمني الموت لأجل الضر؛ لأن ذلك دليل على الضجر والتسخط بالمقدور، وعدم الصبر والرضا، هذا مقصود هذا الحديث، وأما حديث أبي هريرة ففيه: النهيُ عن تمني الموت مطلقاً لضر ولغير ضر، ألا ترى أنه علَّل النهي بانقطاع العمر، فهذان الحديثان يفيدان مقصودين مختلفين لا يُحمل أحدهما على الآخر.

وقوله: "فإن كان لابُد متمنيًا فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي" في هذا الحديث دليلٌ على استعمال التفويض وسؤال الخِيَرَة، حتى فيما لابد منه، وهو الموت،

---

(١) أخرجه البخاري ٥٣٧٦، ومسلم ٢٦٨٢.

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٥١/٥.

وقد كان النبي ﷺ يعلمهم الاستخارة في الأمور كلها، كما يعلمهم السورة من القرآن، فإذا تمنَّى الموتَ، وجزم به، كان قد اختار لنفسه ما لعلَّه ينقطعُ عنه به خير، كما قال ﷺ: ((إن المؤمن لا يزيدُه عُمُرُه إلا خيراً))[١] وقد فسَّر هذا الخير البخاري، فزاد في هذا الحديث فقال: ((لا يتمنى أحدكم الموت، إما محسناً فلعله يزداد حسناً، وإما مسيئاً فلعله أن يستعتب))[٢] والاستعتاب: طلب العتبى، وهو الرضا، وذلك لا يحصلُ إلا بالتوبة والرجوع عن الذنوب)[٣].

وهذا ما بينه ابن حجر في قوله: (وفي الحديث إشارة إلى أن المعنى في النهي عن تمني الموت والدعاء به هو انقطاع العمل بالموت، فإن الحياة يتسبب منها العمل، والعمل يحصل زيادة الثواب، ولو لم يكن إلا استمرار التوحيد فهو أفضل الأعمال، ولا يرد على هذا أنه يجوز أن يقع الارتداد والعياذ بالله تعالى عن الإيمان لأن ذلك نادر، والإيمان بعد أن تخالط بشاشته القلوب لا يسخطه أحد، وعلى تقدير وقوع ذلك -وقد وقع لكن نادراً- فمن سبق له في علم الله خاتمة السوء فلابد من وقوعها طال عمره أو قصر، فتعجيله بطلب الموت لا خير له فيه...، واستشكل بأنه قد يعمل السيئات فيزيد عمره شراً؟ وأجيب بأجوبة: أحدها حمل المؤمن على الكامل وفيه بعد. والثاني أن المؤمن بصدد أن يعمل ما يكفر ذنوبه إما من اجتناب الكبائر، وإما من فعل حسنات أخر، وما دام الإيمان باق فالحسنات بصدد التضعيف، والسيئات بصدد التكفير. والثالث يقيد ما أطلق في هذه الرواية بما وقع في رواية الباب من الترجي حيث جاء بقوله "لعله" والترجي مشعر بالوقوع غالباً لا جزماً، فخرج الخبر مخرج تحسين الظن بالله، وأن المحسن يرجو من الله الزيادة بأن يوفقه للزيادة من عمله الصالح، وأن المسيء لا ينبغي له القنوط من رحمة الله ولا قطع رجائه)[٤].

---

(١) أخرجه أحمد ٢٣/٦ رقم ٢٣٩٧٣، وقال محققو المسند: صحيح لغيره ٣٩٦/٣٩.

(٢) أخرجه البخاري ٥٦٧٣.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٦٤٢/٢-٦٤٣.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٣٦/١٠.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: الاستجابة لتوجيهات النبي ﷺ:

ما يستفاد من سياق الحديث في الاستجابة لنهي النبي ﷺ عن تمني الموت لضر أصاب الإنسان، وقد أمر الله تعالى عباده بطاعة نبيه في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾[1] وقد رتب الحق تبارك وتعالى على طاعة نبيه حسن الجزاء وعظيم الأجر فقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾[2] أي: (من عمل بما أمره الله ورسوله، وترك ما نهاه الله عنه ورسوله، فإن الله عز وجل يسكنه دار كرامته، ويجعله مرافقاً للأنبياء ثم لمن بعدهم في الرتبة، وهم الصديقون ثم الشهداء، ثم عموم المؤمنين وهم الصالحون الذين صلحت سرائرهم وعلانيتهم)[3] وفي ذلك بيان على عِظم وأهمية الاستجابة لتوجيهات النبي ﷺ.

---

(١) سورة النساء، آية: ٥٩.

(٢) سورة النساء، الآيتان: ٦٩-٧٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣٥٣/٢.

الحديث رقم (٤١)

٤١- وعنْ أبي عبدِ اللّهِ خَبَّابِ بْنِ الأَرتِّ رضي الله عنه قال: شَكَوْنَا إِلَى رسولِ اللّهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوسِّدٌ بُردةً لَهُ فِي ظلِّ الْكَعْبةِ، فَقُلْنَا: أَلا تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلا تَدْعُو لَنَا؟ فَقَالَ: «**قَد كَانَ مَنْ قَبْلكُمْ يؤْخَذُ الرَّجُلُ فيُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ فيجْعلُ فِيهَا، ثمَّ يُؤْتَى[1] بالْمِنْشارِ فَيُوضَعُ علَى رَأْسِهِ فيُجعلُ نصْفَيْن، ويُمْشطُ بِأَمْشاطِ الْحديدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعظْمِهِ، ما يَصُدُّهُ ذلكَ عَنْ دِينِهِ، واللّه ليتِمنَّ اللّهُ هَذا الأَمْر حتَّى يسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صنْعاءَ إِلَى حَضْرمْوتَ لا يخافُ إِلاَّ الله والذِّئْبَ عَلَى غنَمِهِ، ولكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ**» رواه البخاري[2].

وفي رواية: «وهُوَ مُتَوسِّدٌ بُرْدةً[3] وقَدْ لقِينَا مِنَ الْمُشْركِين شِدَّةً»[4].

ترجمة الراوي:

خباب بن الأرت: هو خباب بن الأرت بن جندلة التميمي.

من السابقين الأولين إلى الإسلام، وممن عُذّب في الله تعالى فصبر، وكان سادس ستة في الإسلام، وكان أول من أظهر إسلامه مع رسول الله ﷺ، وأبي بكر، وصهيب وبلال وعمار، وسميّة أم عمار رضي الله عنهم، وكان في الجاهلية قيناً[5] يعمل السيوف، فأصابه سِباءٌ فبيع بمكة، فاشترته أم أنمار الخزاعية، وقيل: هو حليف بني زهرة، فلما أسلم استضعفه المشركون، فعذبوه ليرجع عن دينه فصبر ولم يُعطِ الكفار ما سألوا، فجعلوا يلزقون ظهره بالرَّضْف -وهي الحجارة التي حُميت بالشمس أو النار- حتى ذهب لحم متنِهِ.

وقد سأله عمر بن الخطاب رضي الله عنه عمَّا لقي من المشركين، فقال خباب رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين، انظر إلى ظهري، فنظر، فقال: ما رأيت كاليوم ظهر رجل!! قال خباب:

---

(١) لفظ البخاري (ثمَّ يجاءُ)، وكذا عنده برقم (٣٦١٢).

(٢) أخرجه البخاري ٦٩٤٣.

(٣) عند البخاري زيادة: (وهو في ظل الكعبة).

(٤) أخرجه البخاري ٣٨٥٢.

(٥) القين: الحداد، المعجم الوجيز في (ق ي ن).

لقد أوقِدت لي نارٌ وسحبتُ عليها فما أطفأها إلا وَدَك[1] ظهري.

وكان رضي الله عنه من المهاجرين الأولين، شهد بدراً، وأحداً، والخندق، والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد آخى النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبين تميم مولى خراش بن الصِّمَّة، وقيل جَبْر بن عتيك رضي الله عنهما.

وقد أتى العاصَ بن وائل السهمي حتى يتقاضاه حقاً عنده، فقال العاص: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم، فقال: لا حتى تموت ثم تبعث، فقال: وإني لميت ثم مبعوث؟ قال خباب: نعم، قال: إن لي هناك مالاً وولداً فأقضيك، فذكر خباب ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنزلت هذه الآية ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا﴾[2][3].

وقد مات بالكوفة، وهو أول من دفن بظهر الكوفة من الصحابة، وقال فيه علي بن أبي طالب رضي الله عنه بعد موته: رحم الله خباباً، أسلم راغباً، وهاجر طائعاً، وعاش مجاهداً، وابتلي في جسمه، ولن يضيع الله أجر من أحسن عملا.

وقد روى له البخاري ومسلم وغيرهما ٣٢ حديثاً، وتوفي سنة ٣٧هـ وقيل ٣٩هـ[4].

غريب الألفاظ:

متوسد بردة: البردة: كساء مخطط يلتحف به أو كساء مربع أسود صغير، وتوسد: أي اتكأ أو وضع رأسه عليها[5].

---

(١) الودك: الشحم والدهن، المعجم الوجيز في (و د ك).

(٢) سورة مريم، آية: ٧٧.

(٣) أخرجه البخاري، رقم (٤٧٣٢).

(٤) الطبقات، ابن سعد (٣/١٦٤-١٦٧)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر (٦٥٦)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير (٢/١٤٧-١٥٠)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني (٢٣٣)، وسير أعلام النبلاء، الذهبي (١/٣٢٣-٣٢٥)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي (٢/٣٧٨)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (١/٥٣٩)، والأعلام، خير الدين الزركلي (٢/٣٠١)، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك (١/٦٩١-٦٩٥).

(٥) انظر: معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ٨٦، والوسيط ١٠٣١، وعون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم آبادي ١١٣٠.

يمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه: المشط: ما يتمشط ويرجل الشعر به، وقد يكون من حديد.

ما دون لحمه وعظمه: أي ما عند عظمه. والمعنى: أن الأمشاط لحدتها وقوتها كانت تنفذ من اللحم إلى العظم وما يلتصق به من العصب[١].

الأمر: الإسلام[٢].

الشرح الأدبي

في ظل الكعبة المشرفة، وفي رحاب البيت الحرام، تتصاعد أنفاس المؤمنين، وتجأر قلوبهم بالشكوى إلى الله عز وجل، وإلى رسول الله ﷺ، وما أقدس المكان، وما أطهر الزمان، وما أجل الموقف، والشاكون هم ثلة من المسلمين الأولين، والمستمع هو الذي لا ينطق عن الهوى، والذي علمه شديد القوى، محمد بن عبدالله الصادق الوعد الأمين، والشكوى ليست ضعفاً ولا خوراً في الدين، وليست اعتراضاً ولا رفضاً لمنطق الصمود أمام جبروت الطغاة والظالمين، ولكنها شكوى تتضح في هالة الاستنصار، وهذا الاستنصار أي طلب النصر من القوي القهار، يتوجه به المصطفى المختار إلى ربه، لتثبيت أمته في وجه المشركين والكفار، واختيار المكان هنا في ظل الكعبة له دلالة شعورية، وحجة شرعية تتمثلان في صدق الدعاء، واتخاذ القدوة الحسنة، والاستنجاد بمن يقوي العزائم، ويهدي إلى طريق الرشاد.

وفي ظل الكعبة المشرفة يتوجه المؤمن إلى ربه داعياً مستغفراً، ومبتهلا مستنفراً، ولسان حاله يقول:

هنا الركن والحجر الطهور وزمزم ... هنا مشرق الرؤيا.. هنا الحب والمهد
أفيء إلى الأستار أُلْقي مواجعي ... وأحمل أثقالاً ينوء بها الجهد

---

(١) انظر: المفصح المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٢٤٠، والوسيط ٨٧١، وشرح الطيبي، الطيبي ١١/٧٠، وعون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم آبادي ١١٣٠.

(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧/٢٠٤.

وتجـأر أسـراري.. وتنطـق أدمعـي ... بمـا النفس تطويـه .. وفي بوحهـا يبـدو
وتظمـأ أشـواقي .. وتـذوي منـابعي ... وفي حجـر إسماعيـل ينهمـر الوعـد
وعـيني ناجـت.. واللـسان مـشاهد ... يرى الضوء فواحاً به الحجر الصلد!!!
هنا الضوء إيقاع ... هنا العطر سدرة ... بهـا تـسبح الأرواح في سـاحها تـشدو
هنـا أول الأشـواق مـن عهـد آدم ... هنـا كـان ميثـاق النبـيين .. والعهـد
هنـا البيـت مثـوى الآمـنين تحـوطهم ... مـن الله أمـلاك .. وتحرسـهم جنـد
هنـا تـشرق الآيـات أمنـاً ورحمـة ... بكـل فـؤاد نبـضه الـصدق والـود
هنـا الطـير للإنـسان يفـضي بـسره ... هنـا الـصخر أواب.. وإيقاعـه حمـد
هنـا تخطـر الأشـجار في نـور أمنهـا ... وفي ظلـها الفينـان.. لا يفـزع الـصيد[1]

وحين نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث النبوي الشريف ندرك أن كل حرف، وكل كلمة، وكل جملة تنبض بالمعنى الدقيق، وتفصح الصياغة اللغوية عن دلالات كثيرة تصور الواقع الأليم، والخطر الجسيم الذي كان يلاقيه القابضون على دينهم، كأنهم يقبضون على الجمر، وراوي الحديث من هذه النماذج الصامدة التي أبت أن تستسلم، وأن تفرط في عقيدتها.

والشكوى تقدم إلى رسول الله في صيغة الجمع، "شكونا إلى رسول الله ﷺ"، وكان خباب من زمرة الشاكين، ولم يحدد نوع الشكوى لأنها ليست شكوى ذاتية فردية خاصة، وليست شكوى بدافع الحاجة وضيق ذات اليد، وليست شكوى من والٍ ظالم أو جار جائر، ولكنها شكوى تعلو فوق كل هذه الرغبات لأنها تنْبع من الحرص على العقيدة، والصمود في وجه أعداء الدين، ومكان الشكوى يعطي دلالة اختيار المكان والزمان في طلب الدعاء، واختيار أولى الألباب الذين يؤازرون، ويناصرون، وعن

---

(١) هذه الأبيات من قصيدة: أشواق حجازية الإيقاع: من شعر د. صابر عبدالدايم، وقد نشرت ب لة: الأدب الإسلامي، و لة الأزهر؛ وملحق الرسالة الإسلامية بجريدة: المدينة السعودية.

الحق يدافعون وطلب الاستنصار أو الدعاء، يأتي في صيغة الأسلوب الإنشائي "الطلبي" ويتكرر لفظ "ألا" مرتين وهي أداة استفتاح أو عرض ليوحي هذا التكرار بشدة رغبة هؤلاء المستضعفين المعذبين في الثبات أو الاستشهاد، ويتكرر التعبير بقولهم، "لنا" مرتين لتصوير هذه اللهفة إلى المؤازرة والمناصرة، وممن تكون من الله الكبير المتعال: الذي يقول للشيء كن فيكون، والذي يعد عباده الصامدين المجاهدين بالنصر المبين حيث يقول عز وجل: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[1].

وعدم التصريح بلفظ "ربك" بعد الفعلين، هو إيجاز بالحذف.. وله دلالة وسر من أسرار البيان النبوي حيث يومئ بل ويرشد ويبين هذا الحذف أنه لا ناصر إلا الله، ولا مجيب للدعاء إلا الله، قال تعالى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[2]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾[3].

فتأمل أخي المسلم هذه الأسرار اللغوية التي تكمن في كل حرف، وكل كلمة، وكل جملة من البيان النبوي الشريف.

ولنتأمل: إجابة رسول الله، وماذا قال لهم: إنه لم يدع لهم مباشرة، ولم يستنصر لهم ربهم لأن النصر متحقق، والدعاء مستجاب طالما ظلوا صامدين صابرين محتسبين وهم كذلك لأن فيهم بلالاً وخبابا وصهيباً، وياسراً وعماراً وهم الذين أوصى بهم ربهم رسوله محمداً ﷺ فقال: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾[4].

لقد قدم لهم رسول الله صورة أشد وأقسى في العذاب من ذلك الذي يلاقونه على أيدي المشركين في مكة.

---

(١) سورة الحج، آية: ٤٠.

(٢) سورة غافر، آية: ٦٠.

(٣) سورة الحج، آية: ٣٨.

(٤) سورة الكهف، آية: ٢٨.

فقال: لقد كان من قبلكم... الحديث، وهذه الصور حقيقية، وليست أمثلة تقريبية: لأن الرسول أكد هذا الخبر في قوله: "لقد" فاللام للتأكيد، وقد للتحقيق، واسم الموصول "من" وما بعده "قبلكم"، يختصر الأمكنة والأزمنة حيث يومئ إلى ما حدث من عذاب في الأمم السابقة، وهذا المشهد التاريخي الذي قدمه رسول الله في هذا الحديث الشريف يجمع بين الواقع الماضي والواقع الآني، والواقع المستقبلي، حيث يصور المثل الأعلى في التضحية والفداء، من أجل العقيدة، وانتصار الحق وليس هناك تعذيب أقسى وأبشع من هذه الصورة التي رواها المصطفى ﷺ، في هذا الحديث الشريف، وهو بهذا التصوير الواقعي الصادق للبطولة والفداء يضع أمام الجماعة المؤمنة في كل عصر وفي كل مكان البشارات والوعود في نصر الله لأمة الإسلام المتمسكة بأصول الإيمان وأركان الإسلام: يقول الله عز وجل: "﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾"[1][2]. ولفظ الرجل للتغليب، وللإشارة إلى أن المؤمنين لابد أن يظلوا صامدين وإيحاءً وتذكيراً بقول الله عز وجل: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾[3]؛ ونلاحظ توالي الفاء في المشهد فيوضع فيجعل نصفين، وقبل ذلك يقول: مصوراً عجلة الكفار في إيقاع العذاب بالمؤمنين "يؤخذ الرجل، فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها" ويفصل بـ"ثم"، بين الإعداد والتنفيذ، إشارة إلى أن الكفار يرغبون في رجوع المؤمنين عن دينهم، ولكن هيهات: فرسول الله بشرهم بأن الله ناصرهم، وأن الدعوة ستنتشر وقد تحقق الوعد وأجيب الدعاء.

---

(١) سورة الروم، آية: ٤٧.

(٢) انظر: الحديث النبوي: رؤية فنية جمالية، د. صابر عبدالدايم، وانظر: القصة في الحديث النبوي، د. محمد بن حسن الزير.

(٣) سورة الأحزاب، آية: ٢٣.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم فقهي يتعلق بباب الإكراه، وهو: هل يجوز للمسلم إجراء كلمة الكفر على لسانه جراء الإكراه؟

اتفق الفقهاء: على أن الأفضل له أن يصبر على ما أكره به ولا ينطق بهذه الكلمة.

واختلفوا: في حكم من أجراها وأخذ بالرخصة:

جمهور الحنفية، ووجه للشافعية ووجه للحنابلة: على أنه يباح له إظهار اللفظ على معنى المعاريض والتورية صرف اللفظ إلى غير معنى الكفر من غير اعتقاد لمعنى ما أكره عليه فيصير اللفظ بمنزلة الناسي، وذلك لأن حفظ الحياة أعظم في نظر الشارع من أي شيء، لذلك قالوا من أكره بالقتل ولم يسعه أن ينطق بهذا اللفظ فهو آثم[1].

وجه للأحناف والمالكية، ووجه للشافعية وجمهور الحنابلة: على أنه لا يجوز له نطق هذه الكلمة بأي حال وله أن يصبر حتى لو قتل وهو أفضل، وذلك لأن إظهار الكفر محظور من طريق العقل لا يجوز استباحته للضرورات[2].

والصواب جواز النطق إذا كان فيه حفظٌ للحياة أو منعٌ من الهلكة، لأن القرآن عذر هؤلاء ﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾[3] والرسول ﷺ رفع الحرج عن المستكره كما في الحديث الشريف ((رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه))[4].

---

(١) المبسوط، السرخسي ١٥٥/٢٤، والعناية على الهداية، البابرتي شرح الهداية ٢٧٧/٣، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري٢٩١/٢، وقواعد الأحكام في مصالح الأنام ص ٩٣، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي ١٨٥/٦.

(٢) المبسوط، السرخسي ١٥/٢٤، والتاج والإكليل شرح مختصر خليل، محمد بن أبي يوسف العبدري ٣١٣/٥، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري٢٩١/٢، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي ١٨٥/٦.

(٣) سورة النحل، آية: ١٠٦.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٦٠/٥، ١٦١.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: ثبات الصحابة رضي الله عنهم وتحملهم للأذى في سبيل نصرة الإسلام.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: الابتلاء سنة الله في المؤمنين.

ثالثاً: من أساليب الدعوة: القسم.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: التبشير بانتصار الإسلام.

أولاً- من موضوعات الدعوة: ثبات الصحابة رضي الله عنهم وتحملهم للأذى في سبيل نصرة الإسلام:

هذا ما أشار إليه نص الحديث من قول خباب بن الأرت رضي الله عنه: "شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا؟" وهذا بيان لما لقيه الصحابة رضوان الله عليهم من شدة العذاب وبؤسه بسبب إيمانهم بالله تعالى، والذي يجعل العيون تقر والقلوب تسعد بهجة وفرحاً، وتحملهم للأذى في سبيل رضوان الله عليهم، فضربوا لنا بذلك أروع الأمثلة في الثبات على دين الله، وقد استفاضت السِيَرُ ببيان صبرهم رضي الله عنهم وثباتهم على إيمانهم، وكان من ذلك ما أخرجه الإمام أحمد عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: ((أول من أظهر إسلامه سبعة: رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبوبكر، وعمار، وأمه سمية، وصهيب، وبلال، والمقداد، فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمنعه الله بعمه أبي طالب، وأما أبوبكر، فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون، فألبسوهم أدراع الحديد، وصهروهم في الشمس، ....)) الحديث وفيه: ((أما بلال، فإنه هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه، فأَعْطَوْه الولدان، وأخذوا يطوفون به شعاب مكة، وهو يقول: أحدٌ، أحد))(١).

قال الذهبي: (وروى منصور: عن مجاهد: أول من أظهر إسلامه سبعة، فذكرهم، زاد فجاء أبو جهل يشتم سُمية، وجعل يطعن بحربته في قُبُلها حتى قتلها، فكانت أول شهيدة في الإسلام)(٢).

---

(١) أخرجه أحمد ٤٠٤/١ رقم ٣٨٣٢، وقال محققو المسند: إسناده حسن ٣٨٢/٦.

(٢) سير أعلام النبلاء، الذهبي ٤٠٩/١.

وعن الشعبي قال: (دخل خباب بن الأرت رضي الله عنه على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأجلسه على متكئه وقال: ما على الأرض أحدٌ أحق بهذا المجلس من هذا إلا رجل واحد. قال له خباب: من هو يا أمير المؤمنين؟ قال: بلال. فقال خباب: ما هو بأحق مني، إن بلالا كان له في المشركين من يمنعه الله به، ولم يكن لي أحدٌ يمنعني، فلقد رأيتني يوماً أخذوني فأوقدوا لي ناراً ثم سلقوني فيها، ثم وضع رجل رجله على صدري. فما اتقيت الأرض-أو قال: برد الأرض- إلا بظهري؛ قال: ثم كشف عن ظهره فإذا هو قد برِص)[١].

وفي رواية: (فقال: يا أمير المؤمنين، انظر إلى ظهري، فقال عمر: ما رأيت كاليوم. قال: أوقدوا لي ناراً فما أطفأها إلا ودك ظهري)[٢].

وفي ذلك بيان على ثبات الصحابة رضي الله عنهم وتحملهم لصنوف العذاب من أجل إيمانهم بالله تعالى وفي ذلك عظيم القدوة والأسوة الحسنة.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: الابتلاء سنة الله في المؤمنين:

هذا ما أكد عليه نص الحديث في قوله ﷺ "قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصده ذلك عن دينه".

فالابتلاء من الله تعالى هو باب من أبواب تمحيص العباد، وإظهار ما كان من صدق حب الله في القلوب، فيميز الله بذلك الخبيث من الطيب، وهذا ما أكده الحق تبارك وتعالى في قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾[٣] أي: (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة قبل أن تبتلوا وتختبروا وتمتحنوا، كما فعل بالذين من قبلكم من الأمم)؛ ولهذا قال: "ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم

---

(١) حياة الصحابة، للكاندهلوي، ٤٥٠ والمراد أن به بياضًا أثر الحرق.

(٢) المرجع السابق ٤٥٢.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢١٤.

البأساء والضراء" وهي: الأمراض؛ والأسقام، والآلام، والمصائب والنوائب ... و"زلزلوا" خوفاً من الأعداء زلزالاً شديداً، وامتحنوا امتحاناً عظيماً، كما جاء في نص حديث خباب بن الأرت)[1]. وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾[2].

قال القاسمي: (أي أحسب الذين أجرواكلمة الشهادة على ألسنتهم، وأظهروا القول بالإيمان، أنهم يتركون بذلك غير ممتحنين، بل يمتحنهم الله بضروب المحن، حتى يختبر صبرهم وثبات أقدامهم وصحة عقائدهم. لتمييز المخلص من غير المخلص. كما قال: ﴿لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾[3] وكقوله: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[4] وكل هذه الآيات وأمثالها مما نزل بمكة في تثبيت قلوب المؤمنين، وتصبيرهم على ما كان ينالهم من أذى المشركين "ولقد فتنا الذين من قبلهم" أي من أتباع الأنبياء عليهم السلام، بضروب من الفتن من أعدائهم، كما دون التاريخ اضطهادهم. أي فصبروا وما وهنوا لما أصابهم حتى علت كلمة الله "فليعلمن الله الذين صدقوا" أي في قولهم "آمنا" "وليعلمن الكاذبين" أي فيه: وذلك بالامتحان)[5].

(وقد حصل من هذا جانب عظيم للصحابة رضي الله عنهم، في يوم الأحزاب، كما قال تعالى: ﴿إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ۝ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٥٧١/١.

(٢) سورة العنكبوت، الآيات: ١-٣.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٨٦.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٤٢.

(٥) محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ١٢٦/١٣/٨-١٢٧.

فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾[١] ((ولما سأل هرقل أبا سفيان: هل قاتلتموه؟ قال: نعم، قال: فكيف كان الحرب بينكم؟ قال: سجالاً، يدال علينا وندال عليه. قال: كذلك الرسل تبتلى، ثم تكون لها العاقبة))[٢])[٣]. وفي ذلك بيان على أن الابتلاء سنة من سنن الله تعالى في المؤمنين.

رابعاً- من أساليب الدعوة: القسم:

يعتبر أسلوب القسم وسيلة هامة من وسائل إبلاغ الدعوة، إذ أنه يبصر الداعية بنفسه، ويعرفه مقامه الكبير، ويطلعه على ضرورة الصبر وعدم اليأس.

والغرض منه هو الاهتمام بالمقسم به، وبيان دوره في الدلالة على الهدف المقصود وهذا ما ظهر في الحديث، فالرسول ﷺ ما أقسم على تمام هذا الدين إلا ليشدّ من عزيمة أصحابه رضي الله عنهم، ويجعلهم يصبرون ويتحملون[٤].

قد ورد هذا الأسلوب الدعوي الهام في الحديث من قسم النبي ﷺ باتمام الله تعالى لهذا الدين، وذلك في قوله ﷺ: "والله ليتمَّنَّ الله هذا الأمر ... إلخ".

(وأسلوب القسم عرفه الناس قديماً واستعملوه تأكيداً لخبر، أو تعظيماً لشيء، أو جمع الانتباه حول غاية وقد أحس العرب بأهدافه ومراميه فاستعملوه في كلامهم وجعلوه دليلاً على إثبات الحق)[٥]، وهذا ما ورد جلياً في الحديث من استعمال النبي ﷺ له في إثبات انتصار الإسلام وتتمة الله تعالى له.

رابعاً- من موضوعات الدعوة: التبشير بانتصار الإسلام:

هذا ما أكد عليه نص الحديث في قوله ﷺ "والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون".

---

(١) سورة الأحزاب، الآيات: ١٠-١٢.

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري ٧.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١/٥٧١-٥٧٢.

(٤) الدعوة الإسلامية: أصولها ووسائلها، د. أحمد غلوش ص ٣٢٩-٣٣٩.

(٥) المرجع السابق ٣٢٧.

قال د. يوسف القرضاوي: (أعتقد أن حديثنا عن المبشرات بانتصار الإسلام مطلوب -وخصوصاً في هذه الآونة- لأكثر من سبب:

١- هو مطلوب، لأننا مأمورون بصفة عامة أن نبشِّر ولا ننفر، كما نحن مأمورون أن نيُسِّر ولا نعسِّر، فإنَّ النبي ﷺ حينما أرسل معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري إلى اليمن أوصاهما بهذه الوصية الموجزة الجامعة: ((يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا))[1].

٢- وهو مطلوب، لأن المسلمين عامة -والعاملين للإسلام خاصة- يمرون بمرحلة عصيبة من مراحل تاريخهم المعاصر، وتكاد تغلب في هذه المرحلة عوامل اليأس، ومشاعر الإحباط، وهذا الشعور إذا استسلمت له الأنفس، قتل فيها الهمم، وخدَّر العزائم، ودمَّر الطموحات، وهذه المعاني هي التي تحرِّك الإرادات للعمل، وبذل الجهد.

ومردُّ هذا الشعور الأسود إلى الضَّربات المتلاحقة التي توجه بخبث ومكر -من أعداء الإسلام- إلى الصحوة الإسلامية والحركة الإسلامية، بغية إطفاء نور الإسلام، ووقف حركته، وتمويت يقظته، واستعانوا على ذلك ببعض حكام المسلمين، الذين خوَّفوهم من الصحوة، وحرَّضوهم على الصفوة، وأمروهم بضرب الدعوة.

٣- وهو مطلوب، لأن القوى المعادية للإسلام تريد أن تعلن -بل قد أعلنت بالفعل- على الإسلاميين حرباً نفسية، تُيئسُهُم من الأمل في غدٍ أفضل، والرجاء في مستقبل مشرق. وبدأت حملات مسعورة، تحركها قلوب موتورة، وتقودها أقلام مأجورة، وأبواقٌ مأمورة، تتهم وتلطخ وتشوِّه كل ما هو إسلامي، وتتهم دعاة الإسلام وأبناء الصحوة بالتطرُّف حيناً، وبالعنف أحياناً، وبالإرهاب طوراً، وبالأصول أطواراً، مطلقين على الحركة التي تدعو إلى الإسلام المتكامل - عقيدة وشريعة، وديناً ودولة- (اسم: الإسلام السياسي)، والإسلام الحقيقي لابدّ أن يكون سياسياً.

لهذا كان علينا أن نقاوم هذه الحملات المعادية بسلاح مضاد، وهو نشر الأمل بانتصار الإسلام، وإحياء الرَّجاء في مستقبله، وشحن نفوس الجيل الصاعد بهذا الشعاع الذي يبدّد ظلمات اليأس، وغيوم الإحباط.

---

(١) أخرجه البخاري ٣٠٣٨، ومسلم ١٧٣٣.

٤- وهو مطلوب كذلك، لأن كثيراً من المتدينين يشيع بينهم فكر مغلوط عن "آخر الزمان" وبعبارة أخرى: عن مستقبل الأمة، وهو مستقبل أقرب إلى السواد، إن لم يكن أسود حالكاً، هو فكر مؤسس على أفهام شاعت لبعض الأحاديث التي وردت في سياق الكلام عن الفتن والملاحم وأشراط الساعة، ولكن هذه الأفهام غير سليمة.

لهذا كنا في حاجة إلى تجلية حقيقة "المبشرات" الغائبة عن كثيرين: من القرآن الكريم، ومن السُّنة المشرَّفة، ونشيعها بين المسلمين، حتى نبعث الأمل المحرك للعزائم ونهزم اليأس القاتل للنفوس)[١].

وعن تميم الداري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((ليبلغنَّ هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين، بعزِّ عزيزٍ أو بذل ذليل، عزاً يعزُّ الله به الإسلام، وذلاً يُذلُّ الله به الكفر. وكان تميم الداري يقول: قد عرفت ذلك في أهل بيتي، لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز، ولقد أصاب من كان منهم كافراً الذل والصغار والجزية))[٢].

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة، والدين والنصر والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا، لم يكن له في الآخرة نصيب))[٣].

وكان من المبشرات النبوية: عودة الخلافة على منهاج النبوة لقول حذيفة رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافةٌ على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون مُلكاً عاضاً، فيكون ما شاء الله أن يكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون مُلكاً جبرية، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافةٌ على منهاج نبوة ثم سكت))[٤].

---

(١) المبشرات بانتصار الإسلام، د. يوسف القرضاوي ص ٥-٩.

(٢) أخرجه أحمد ١٠٣/٤ رقم ١٦٩٥٧، وقال محققو المسند: إسناده صحيح ١٥٤/٢٤.

(٣) أخرجه أحمد ١٣٤/٥ رقم ٢١٢٢٤، وقال محققو المسند: حديث صحيح ١٤٨/٣٥.

(٤) أخرجه أحمد ٢٧٣/٤ رقم ١٨٤٠٦، وقال محقق المسند: إسناده حسن ٣٥٥/٣٠.

(والملك العاض -وفي رواية: العضوض- هو الذي يصيب الناس فيه عسف وظلم كأنه له أنياباً تعض. أما ملك الجبرية فهو القائم على الجبروت والطغيان، أشبه بالحكم العسكري المستبد في عصرنا.

فهذا الحديث يبشِّر بانقشاع عهود الاستبداد والظلم والطغيان، وعودة الخلافة الراشدة، المتبعة لمنهاج النبوة في إقامة العدل والشورى، ورعاية حدود الله وحقوق العباد)[1].

(١) المبشرات بانتصار الإسلام، د. القرضاوي، ٣٥.

الحديث رقم (٤٢)

٤٢- وعن ابن مَسعُودٍ ﷺ قال: لَمَّا كَانَ يَوْمُ حُنَيْنٍ آثر رسولُ اللَّه ﷺ ناساً في القِسْمَةِ: فأَعْطَى الأَقْرعَ بْنَ حابِسٍ مئةً مِنَ الإبِلِ وأَعْطَى عُيَيْنَةَ (بْنَ حِصْنٍ)[1] مِثْلَ ذلِكَ، وأعطى ناساً مِنْ أشرافِ الْعربِ وآثَرهُمْ يوْمَئِذٍ في الْقِسْمَةِ. فَقَالَ رجُلٌ[2]: واللَّهِ إنَّ هَذِهِ قِسْمةٌ[3] ما عُدِلَ فِيها، وما أُريد فِيهَا وَجهُ اللَّه، فَقُلْتُ: واللَّه لأُخْبِرَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فأتيتُهُ فَأخبرته بِما قال، فتغَيَّر وَجْهُهُ حتَّى كَانَ كَالصِّرْفِ. ثُمَّ قال: «**فَمنْ يَعْدِلُ إذَا لَمْ يعدِلِ اللَّهُ ورسُولُهُ؟**» ثم قال: «**يرحَمُ اللَّهُ موسى قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصبرَ**» فَقُلْتُ: لا جرمَ لا أَرْفعُ إلَيه بعْدها حديثاً. متفقٌ عليه[4].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

غريب الألفاظ:

يوم حنين: حنين وادٍ بين الطائف ومكة المكرمة وهو إلى مكة أقرب (٢٦ كم شرقي مكة) و١١ كم عن حدود الحرم من علمي نجد وفيه وقعت غزوة حنين شوال ٨هـ[5].

كالصِّرف: هو بكسر الصاد المهملة: وهو صبغ أحْمرُ[6].

الشرح الأدبي

يصور هذا الحديث مشهداً من مشاهد السيرة النبوية العطرة وهو الاحتفاء بالنصر في غزوة حنين، وما أروع هذا المشهد الذي يتصدره رسول الله ﷺ وهو يوزع على الناس ما منَّ الله به عليهم من الغنائم في غزوة حنين، بعد أن تلاقى الجمعان، واشتد

---

(١) الزيادة من المؤلف.

(٢) هو: معتب بن قُشير. تنبيه المعلم (٤٢١).

(٣) لفظ مسلم: (لقسمة)، ولفظ البخاري: (القسمة).

(٤) أخرجه البخاري (٣١٥٠)، ومسلم (١٠٦٢/١٤٠) ولفظهما سواء.

(٥) أطلس الحديث النبوي، د. شوقي أبو خليل ١٥٦.

(٦) رياض الصالحين ٦٥.

الصراع بين المسلمين والمشركين وكاد المسلمون يهزمون لولا تأييد الله لجند الإسلام، وقد أصاب بعضَ النفوس الغرورُ، وقال البعض: لن نغلب اليوم عن قلة؛ ويقول الله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾[1]. ونتلقى من رسول الله درساً في الصبر والشجاعة حين استعاد المسلمون توازنهم وثقتهم في الله وفي أنفسهم. حين دوت صيحة المصطفى المختار في قلب المعركة مثبتاً قلوب أصحابه الأخيار، فقال: أنا النبي لا كذب وأنا ابن عبدالمطلب".

ورجحت كفة المسلمين، وباء المشركون بالخسران المبين، والهزيمة النكراء: وتظل صيحة رسول الله تتحدى كل ظالم جبار.

أنت الحبيب المصطفى والمجتبى	والله ينصر كل من والاكا
"وأنا النبي ولا كذب، وأنا ابن	... تتحديان عداكا
تتحديان المغمضين قلوبهم	والرافضين سبيل من قوّاكا
تتكاثران مع الزمان فكلنا	حرب على من يستبيح حماكا
هي صيحة لك في حُنَيْنٍ حطمت	جيش الضلال وخلدت دعواكا[2]

ما أعظم حلمك يا رسول الله، وما أقوى حجتك، أبعد هذه الشجاعة ، وذلك اليقين، وهذا الانتصار يجيء من يقدح في حكمك ورؤيتك وموقفك؟ وأنت تؤلف القلوب، وترغب ضعفاء الإيمان، وتستميل أشراف العرب الذين مازالوا يحتكمون إلى الموازين الدنيوية، والمواقف الاجتماعية القبلية، وأي إيذاء أكثر إيلاماً من هذا القول أو هذا الاتهام لرسول الله ﷺ: بعد أن آثر ناسا في القسمة، يقول أحد المعارضين: "والله إن هذه قسمة ما عدل فيها، وما أريد فيها وجه الله".

وما أجمل عفوك يا رسول الله إنك قد صبرت على الإيذاء، ولم تعاقب مثل هذا

---

(١) سورة التوبة، آية: ٢٥.

(٢) انظر: ديوان مدائن الفجر، د. صابر عبدالدايم، مكتبة العبيكان، الرياض، السعودية، من إصدارات رابطة الأدب الإسلامي العالمية.

الرجل على ما أبدى من آراء، ولكنك لم تستطع كتمان ما تشعر به من ضيق، فتغير وجهك حتى صار كالدم، ولكنك صبرت. وفي حزم وعدل نطقت فأفحمت، وبنيت فأقنعت ، وقلت في صدق ويقين.

"فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله؟؟" وهكذا يكون البيان: يزيل الشبهات، ويدحض الافتراءات. فالبيان- كما قال ابن المعتز ترجمان القلوب، وصقل العقول، ومجلي الشبهة، وموجب الحجة والحاكم عند اختصام الظنون، والمفرق بين الشك واليقين، وهو من سلطان الرسل الذي انقاد به المصعب واستقام الأصْيَد، وبُهت الكافر، وسلَّم الممتنع، حتى قوي الحق بأنصاره، وخلا ربع الباطل من عُماره وخير البيان، ما كان مصرِّحاً عن المعنى، ليسرع إلى الفهم تلقيه، وموجزاً ليخف على اللفظ تعاطيه[1].

إن هذه الجملة المشرقة بكل المعاني المضيئة بالقيم الإيمانية كشفت الشبهة، وأزالت الظنون.

وصاغها رسول الله ﷺ في نسيجين لغويين يفصحان عن الموقف، ويعبران عن الضيق الذي شعر به رسول الله ﷺ، ولكنه صبر حرصاً على مصلحة الأمة، والنسيج اللغوي الأول: هو أسلوب الاستفهام الإنكاري تأكيداً لصواب الموقف، وصحة التقسيم، ورداً على هذا المعترض الذي يجهل كثيراً من مقاصد الدعوة، وأهدافها، والنسيج الثاني هو أسلوب الشرط والجزاء، وهذان النسيجان يمتزجان في عبارة، أو جملة متكاملة تحدد الموقف، وتزيل اللبس، في قوله ﷺ: "فمن يعدل! إذا لم يعدل الله ورسوله"، ولنتأمل دقة هذا البيان المحكم؛ حيث جاء بلفظ الجلالة، ونسب العدل إلى الله ثم إليه أي إلى الرسول، لأنه يبلغ عن ربه، ولأنه لا ينطق عن الهوى، ونلاحظ أن جواب الشرط محذوف: وقد دل عليه ما قبل فعل الشرط، وكأن حذف الجواب يعلن عن أنه لا وجود للنظير أو المكافئ في هذا السياق أو المجال، أو في أى مجال آخر فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله؟!! لا أحد، يكافئهما ويساويهما في ذلك.

---

(١) انظر: زهر الآداب للحصري القيرواني.

والحديث حوار بين عدة أطراف، حوار بين ابن مسعود ، ومعتب بن قشير، الذي اعترض على القسمة ، وقيل إنه ذو الخويصرة ، وهو أبو الخوارج؛ وعدم التصريح باسمه في الحديث لعدم التشهير به ، أو لأن القضية ليست قضية أشخاص ولكنها تحديد مواقف، وحسن خطاب لرسول الله ﷺ، وهذا الرجل لم يوفق في هذا الموقف ولم يحسن الخطاب في اعتراضه المشين على تصرف النبي ﷺ.

ومما يدل على تسرعه، وبعده عن الحكمة في القول أنه صاغ اعتراضه في أسلوب القسم والتأكيد ، وأنه نفى أن تكون هذه القسمة لوجه الله ، وهذا حمق في التصور ، وإيغال في الاعتراض:

وقال بعض العلماء في تعليل موقف هذا الرجل الذي لم يفهم سر هذا التقسيم، ورصد صورته الخارجية فقط، يقول مفيداً بأن هذا الاتهام يدل على حجب بصيرة قائله عن مشكاة أنواره ﷺ ، وإلا فلو أشرق فيه بعض ذلك النور "أي نور الهداية" لامتلاء قلبه من الخير، وعلم أنه ﷺ الطبيب الحاذق الذي يداوي كل سفيه، ويذهب بحكمته كل ضير وألم ، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور[1].

ولقد عالج رسول الله أدواء كثيرٍ من العناصر التي اعتنقت الإسلام حديثاً. تأليفاً لقلوبهم، وترغيباً لهم في الإخلاص للإسلام، والأقرع بن حابس كان من وجهاء العرب، وطالما تصدى للمسلمين، وكذلك عينية بن حصن بن بدر الفزاري، كان من قواد جيش الأحزاب في غزوة الخندق، وله مكانة في قومه وكذلك غيره من أشراف العرب، وضعفائهم الذين آثرهم رسول الله بالزيادة.

وقيل إن اختيار لفظ "ناساً" في سياق هذا الإيثار في القسمة له دلالة تفسر ذلك الموقف وهو أن لفظ "الناس" قد يذكر ويراد به الفضلاء دون من يتناوله اسم الناس تجوزاً، وذلك إذا اعتبر معنى الإنسانية، وهو: وجود العقل والذكر وسائر القوى المختصة فهذا اللفظ من هذا السياق يحدد المراد من هؤلاء الناس.

---

(١) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١/ ١٧٩.

والحوار الذي دار بين ابن مسعود ورسول الله ﷺ يرشد إلى قيمة الأمانة وصدق الحديث وضرورة تبليغ القائد والراعي بكل ما تموج به أحاديث العامة من إفك وافتراءات تؤثر في المناخ العام، وتثير البلبلة في أوساط المجتمع وكذلك يصور هذا الحوار أدب الصحابة في مخاطبة رسول الله ﷺ؛ ويصور كذلك حرص رسول الله على التئام شمل أمته، وعلى أنه لا يغضب لذاته ولكنه لله تعالى؛ ويعلم أمته درساً في الصبر والثبات ومواجهة الأزمات مهما كانت .فيقول معقباً على موقف هذا المعترض: "يرحم الله موسى، قد أوذي بأكثر من هذا فصبر"، ويتألم ابن مسعود للإيذاء الذي حدث لرسول الله ﷺ فيقول موضحاً الموقف في هذا السياق، "لا جرم: لا أرفع إليه بعدها حديثاً" إنه الحب لرسول الله ﷺ والخوف عليه من آثار الكلمة السيئة، والفعل المشين، ولكنه ﷺ يعلمنا أعظم الدروس في الصبر والعدالة والشجاعة والفصاحة واليقين.

فقه الحديث

بين الحديث أحكام قسمة الغنائم وأنها إلى الإمام، وله أن يؤثر البعض في القسمة لحكمة يراها، كما فعل رسول الله ﷺ، حين آثر البعض في القسمة تأليفاً لقلوبهم، وترغيباً لهم في الإسلام، وكذا ما يقاس على هذا من أمور يرى الإمام فيها مصلحة المسلمين أياً كانت.

وقد اتفق الفقهاء[1] على أنه يجوز للإمام أن يؤثر بعض المقاتلين بشيء من الغنيمة لهدف يراه كأن كان أكثرهم شجاعة وثباتاً وفداء، أو كان له دور مؤثر، أو تأليفاً

---

(١) بدائع الصنائع، الكاساني ١١٤/٧ وما بعدها، وتبيين الحقائق، الزيلعي ٢٤٨/٣ وما بعدها، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم المالكي لأحمد بن غنيم النفراوي ٤٠٠/١ وما بعدها، ط/ دار الفكر، وشرح منح الجليل على مختصر خليل، الشيخ محمد بن أحمد بن محمد عليش للشيخ عليش ١٨٠/٣ وما بعدها، ومغني المحتاج للشربيني ١٥١/٤، ١٦٣، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي ١٤٣/٦ وما بعدها، والمغني، ابن قدامة ٣١٢/٦، ٣١٤، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٦٤١/١ وما بعدها، ونيل الأوطار، الشوكاني ٣٤٢/٧.

لقلب جمع منهم لمصلحة المسلمين وتقديمهم على من كان من أجناده قوي الإيمان مُؤثِراً للآخرة على الدنيا وغير ذلك.

المضامين الدعوية

أولاً: من وسائل الدعوة: الحكاية.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: تأليف قلوب المدعوين بالمال.

ثالثاً: من آداب المدعو: وجوب التسليم بحكم الله ورسوله ﷺ.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: بيان جزاء من آذى النبي ﷺ.

خامساً: من فقه الداعية: تقديم مصلحة الإسلام على الانتصار لنفسه.

سادساً: من صفات الداعية: الصبر والمصابرة.

سابعاً: من أساليب الدعوة: القسم.

ثامناً: من آداب المدعو: عدم نقل ما يؤدي إلى الشحناء والبغضاء.

أولاً- من وسائل الدعوة: الحكاية:

"الحكاية من قولك: كقولك حَكَيْت فلاناً و حاكَيْتُه فعَلْتُ مثل فِعْله أو قُلْتُ مثل قَوْله سواءً لم أُجاوزه، وحكيت عنه الحديث حكاية"[1]، وهذا ما ورد في الحديث (من قول ابن مسعود رضي الله عنه حاكياً ما كان يوم حنين من إيثار النبي ﷺ لبعض الناس في القسمة تأليفاً لقلوبهم، وما تبع ذلك من قول)، والحكاية من الوسائل الدعوية الهامة التي يتوصل بها الداعية إلى أعماق قلوب المدعوين، لما في ذلك من ميل النفس إليها وتعلق عين المدعو وأذنه وانتباهه بنسقها.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: تأليف قلوب المدعوين بالمال:

إن تأليف القلوب بالمال يعد من أهم مداخل الدعوة إلى الله تعالى، فقد يكون المال سببًا في إسلام غير المسلم، أو تثبيت إيمان مسلم، وهذا ما ظهر جلياً في نص الحديث من تأليف النبي ﷺ لقلوب من كان حديث عهد بالإسلام، فعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه

(١) لسان العرب ٩/١٨/ ٣٠٨، والقاموس المحيط ١١٧٣.

قال: (لما كان يوم حنين آثر رسول الله ﷺ ناساً في القسمة، فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وأعطى عيينة بن حصن مثل ذلك، وأعطى ناساً من أشراف العرب وآثرهم يومئذ في القسمة).

ونظراً إلى أهمية تأليف القلوب بالمال، نجد أن الحق تبارك وتعالى قد عد ذلك من مصارف الزكاة فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[1].

قال ابن الجوزي: (قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ قوم كان رسول الله ﷺ يتألفهم على الإسلام بما يعطيهم، وكانوا ذوي شرف، وهم صنفان: مسلمون، وكافرون. فأما المسلمون، فصنفان؛ صنف كانت نياتهم في الإسلام ضعيفة، فتألفهم تقوية لنياتهم، كعيينة بن حصن، والأقرع؛ وصنف كانت نياتهم حسنة، فأعطوا تألفا لعشائرهم من المشركين، مثل عدي بن حاتم، وأما المشركون، فصنفان؛ صنف يقصدون المسلمين بالأذى، فتألفهم دفعا لأذاهم، مثل عامر بن الطفيل؛ وصنف كان لهم ميل إلى الإسلام، تألفهم بالعطية ليؤمنوا، كصفوان بن أمية"[2].

وقد كان صفوان مشركاً يوم حنين، فأعطاه النبي ﷺ حتى قال: ((وَاللّهِ لَقَدْ أَعْطَانِي رَسُولُ اللّهِ ﷺ مَا أَعْطَانِي، وَإِنَّهُ لأَبْغَضُ النَّاسِ إِلَيَّ. فَمَا بَرِحَ يُعْطِينِي حَتَّى إِنَّهُ لأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ))[3]، ومما لا شك فيه أن الداعي الذي يعطي إذا صار أحب الناس إلى المدعو فإن كلامه يسمع وأمره ينفذ، ونهيه يحترم[4].

وكان من أصناف المؤلفة قلوبهم كما بينها ابن الجوزي، صنف كانت نياتهم في الإسلام ضعيفة فتألفهم النبي ﷺ تقوية لنياتهم، وليس أدل على ذلك من قول سعد

(١) سورة التوبة، آية: ٦٠.

(٢) زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي ٣/٤٥٧.

(٣) أخرجه مسلم ٢٣١٣.

(٤) ركائز الدعوة إلى الله تعالى في ضوء النصوص وسير الصالحين، د. فضل إلهي ص ٢٣٦.

ابن أبي وقاص رضي الله عنه: إنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ أعْطى رَهْطاً -وسعدٌ جالسٌ- فتركَ رسولُ اللّه ﷺ رجُلاً هُوَ أَعْجَبُهُم إليَّ. فقلتُ: يا رسولَ اللّهِ ما لَكَ عنْ فُلانٍ؟ فوَاللّهِ إنّي لأَراهُ مُؤْمِناً. فقال: أو مُسْلماً. فسَكتُّ قَليلاً. ثمَّ غَلَبَني ما أعْلَمُ مِنه فعُدتُ لِمَقالتي فقلتُ: ما لَكَ عن فُلانٍ؟ فوَاللّهِ إني لأراهُ مُؤْمناً فقالَ: أوْ مُسلِماً. ثمَّ غَلَبَني ما أعلم منهُ فعُدْتُ لِمَقالَتي، وعادَ رسولُ اللّه ﷺ. ثمَّ قال: ((يا سَعدُ، إنّي لأُعْطِي الرَّجُلَ وغيرُهُ أَحَبُّ إليَّ منهُ، خَشْيَةَ أَنْ يَكُبَّهُ اللّهُ في النار))[1].

قال ابن حجر: (وقوله رضي الله عنه: "مالك عن فلان؟" يعني أيُّ سببٍ لعدولك عنه إلى غيره؟...، ومحصل القصة أن النبي ﷺ كان يوسع العطاء لمن أظهر الإسلام تألفا، فلما أعطى الرهط وهم من المؤلفة، وترك جعيلا وهو من المهاجرين مع أن الجميع سألوه، خاطبه سعد في أمره؛ لأنه كان يرى أن جعيلا أحق منهم لما اختبره منه دونهم، ولهذا راجع فيه أكثر من مرة، فأرشده النبي ﷺ إلى أمرين: أحدهما: إعلامه بالحكمة في إعطاء أولئك، وحرمان جعيل مع كونه أحب إليه ممن أعطى؛ لأنه لو ترك إعطاء المؤلف لم يؤمن ارتداده فيكون من أهل النار)[2].

أما ما أورده ابن الجوزي في أن من أصناف المؤلفة قلوبهم، من كانت نياتهم حسنة، فأعطوا تألفاً لعشائرهم من المشركين، فدليل ذلك ما رواه الإمام مسلم عن أنس رضي الله عنه: ((أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ غَنَماً بَيْنَ جَبَلَيْنِ. فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ. فَأَتَى قَوْمَهُ فَقَالَ: أَيْ قَوْمِ أَسْلِمُوا. فَوَاللّهِ إِنَّ مُحَمَّداً ﷺ لَيُعْطِي عَطَاءً مَا يَخَافُ الْفَقْرَ))[3]، فأصبح المدعو بعد تأليف قلبه بالمال داعياً إلى الإسلام، فما أعظم وأجل أثر الإعطاء على القلوب.

وقد بين القاسمي: (أن المؤلفة قلوبهم حكمهم باق؛ لأنه ﷺ أعطى المؤلفة من المسلمين والمشركين فيعطون عند الحاجة. ويحمل ترك عمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم

---

(١) أخرجه البخاري ٢٧، ومسلم ٢٣٧.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١/١٠٠ - ١٠١.

(٣) أخرجه مسلم ٢٣١٢.

إعطاءهم على عدم الحاجة إلى إعطائهم في خلافتهم، لا لسقوط سهمهم)[1].

وفي إيضاح ذلك قال د. محمد سعيد البوطي: (ولقد كان اجتهاد عمر رضي الله عنه في هذا متعلقاً بتحقيق المناط، فلقد رأى أن الإسلام وصل شأنه إلى القمة في القوة والمنعة، سواء من الناحية المعنوية المتعلقة بسطوع حجته وبرهانه، أو من الناحية المادية المتعلقة بكثرة أهله وسعة انتشاره... فتبدى له رضي الله عنه أن مناط حق هؤلاء في الزكاة لم يعد متحققاً في عهده، فالإسلام في منعة وعزة لا يحتاج معهما إلى أن يخاطب ودهم بالمال، فألغى عطاءهم موافقة لنص الآية التي ربطت حق عطائهم بتألف المسلمين إياهم)[2].

ثالثاً- من آداب المدعو: وجوب التسليم بحكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم:

هذا واضح من تغير وجه النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن قال المنافق قالة السوء: (والله إن هذه قسمة ما عدل فيها، وما أريد فيها وجه الله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله؟).

فدلّ هذا على: أن المدعو يجب عليه أن يسلم بما حكم الله به ورسوله صلى الله عليه وسلم سواء أفهم الحكمة أم لم يفهم، وسواء أصابه نفع، أم لم يصبه في الظاهر له، فإن حكم الله ورسوله عدل كله وخير كله.

والأصل في العبادات بالنسبة للمكلف التعبد والامتثال دون الالتفات إلى الحكم والمعاني، وإن كانت ظاهرة في كثير منها، قال ابن عثيمين مقرراً ذلك: (يجب أن نعلم أن ما أمر الله به ورسوله، أو نهى الله عنه ورسوله فهو الحكمة، فعلينا أن نُسلم، ونقول إذا سألنا أحد عن الحكمة في أمر من الأمور: إن الحكمة أمر الله ورسوله في المأمورات، ونهي الله ورسوله في المنهيات، ودليل ذلك من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[3].

---

(١) محاسن التأويل ٢٤٤/٨/٥.

(٢) ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية ١٤٣ - ١٤٤.

(٣) سورة الأحزاب، آية: ٣٦.

وسئلت عائشة رضي الله عنها (ما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة؟ فقالت: كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصيام ولا نؤمر بقضاء الصلاة[١] ، فاستدلت بالسنة ولم تذكر العلة، وهذا هو حقيقة التسليم والعبادة، أن تكون مسلّماً لأمر الله ورسوله عرفت حكمته أم لم تعرف، ولو كان الإنسان لا يؤمن بالشيء حتى يعرف حكمته لقلنا: إنك ممن اتبع هواه فلا تمتثل إلا حيث ظهر لك أن الامتثال خير"[٢].

ولله در الفاروق عمر رضي الله عنه حين قال: (فيم الرملان والكشف عن المناكب وقد أطّأ[٣] الله الإسلام، ونفى الكفر وأهله؟مع ذلك لا ندع شيئاً كنا نفعله على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم)[٤].

ولا يفهم أحد مما سبق أن البحث عن الحكم والمعاني في العبادات التي دلت عليها القرائن ليس بمطلوب، كيف لا وقد ذكر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم شيئاً من ذلك مثل قول الله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾[٥]، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٦]، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٧].

... ولكن المراد التحذير من التنطع في استخراجها، أو ربط القيام بالتنفيذ والعمل بمعرفتها، والأصل في العادات والمعاملات الالتفات إلى المعاني والبحث عن الحكم، وإن كانت لا تظهر في اشياء منها)[٨].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: بيان جزاء من آذى النبي صلى الله عليه وسلم:

---

(١) انظر: البخاري مع فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٠١/١، رقم ٣٢١.

(٢) الشرح الممتع على زاد المستقنع ١٦٥/٤ - ١٦٦.

(٣) أطّأ الله الإسلام: ثبته وأرساه. النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (أ ط أ).

(٤) أخرجه أبو داود ١٨٨٧، وقال الألباني: حديث حسن صحيح، (صحيح سنن أبي داود ٢٦٦٢).

(٥) سورة البقرة، آية: ٢١٩.

(٦) سورة آل عمران، آية: ٢٠٠.

(٧) سورة البقرة، آية: ١٨٣.

(٨) اتباع النبي صلى الله عليه وسلم في ضوء الوحيين، فيصل بن علي البعداني ص ١٠٤ - ١٠٥، ضمن سلسلة كتاب المنتدى حقوق النبي صلى الله عليه وسلم بين الإجلال والإخلال.

يستفاد هذا مما ورد في الحديث من قول القائل في قسمة النبي ﷺ: (هذه قسمة ما عدل فيها، وما أريد فيها وجه الله) قال القرطبي: (هذا قول جاهل بحال النبي ﷺ غليظ الطبع، حريص، شره، منافق. وكان حقه أن يقتل؛ لأنه آذى رسول الله ﷺ. وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [1])[2].

وخير دليل على هذا ما أخرجه النسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما: ((أن أعمى كان على عهد رسول الله ﷺ وكانت له أم ولد وكان له منها ابنان، وكانت تكثر الوقيعة برسول الله ﷺ وتسبه، فيزجرها فلا تنزجر وينهاها فلا تنتهي، فلما كان ذات ليلة ذكرت النبي ﷺ فوقَعَت فيه فلم أصبر أن قمت إلى المغول فوضعته في بطنها فاتكأت عليه فقتلتها، فأصبحت قتيلاً، فذُكر ذلك للنبي ﷺ فجمع الناس وقال: أنشد الله رجلاً لي عليه حقٌ فَعَل ما فَعَل إلا قام، فأقبل الأعمى يتَدَلْدَل فقال: يا رسول الله أنا صاحبها، كانت أم ولدي وكانت بي لطيفة رقيقة ولي منها ابنان مثل اللؤلؤتين ولكنها كانت تكثر الوقيعة فيك وتشتمك، فأنهاها فلا تنتهي وأزجرها فلا تنزجر، فلما كانت البارحة، ذكرتُك فوقعت فيك، فقمت إلى المِغْول فوضعته في بطنها فاتكأت عليها حتى قتلتها، فقال رسول الله ﷺ: ألا أشهدوا أن دَمَها هَدَرٌ))[3].

وعن أبي برزة رضي الله عنه قال: (إنَّ رجلاً سَبَّ أَبَا بكرٍ رضي الله عنه، فقلتُ: أَلاَ أَضْرِبُ عُنُقَهُ يا خليفةَ رسولِ الله فقالَ: لا، ليستْ هذِهِ لأحدٍ بعدَ رسولِ الله ﷺ)[4]، وبلغ أبا بكر الصديق رضي الله عنه أن المهاجر بن أبي أمية -وكان أميراً على اليمامة- قد رفع إليه امرأتان مغنيتان غنت إحداهما بشتم النبي ﷺ فقطع لسانها ونزع ثناياها، وغنت الأخرى بهجاء المسلمين فقطع لسانها ونزع ثناياها، فكتب إليه أبو بكر رضي الله عنه: بلغني الذي فعلت بالمرأة التي تغنت بشتم النبي ﷺ، ... ولولا ما سبقتني فيها لأمرتك بقتلها؛ لأن

---

(١) سورة التوبة، آية: ٦١.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٣/١٠٧.

(٣) أخرجه النسائي ٧/١٠٧، وأخرجه أبو داود ٤٣٦١ وصححه الألباني.

(٤) سنن النسائي، ط/ دار الريان للتراث ٧/١٠٩، ١١٠.

حد الأنبياء ليس يشبه الحدود فمن تعاطى ذلك من مسلم فهو مرتد، أو معاهد فهو محارب غادر؛ وأما التي تغنت بهجاء المسلمين: فإن كانت ممن يدعي الإسلام فأدب دون المثلة، وإن كانت ذمية فلعمري لما صفحت عنه من الشرك أعظم، ولو كنت تقدمت إليك في مثل هذا لبلغت مكروهاً"[(١)].

"وفي ذلك بيان على أن من سب النبي ﷺ وهو مسلم فإنه يكون مرتداً وفي استتابته خلاف". ويشمل ذلك الحكم كل من سبّ نبياً من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، أو استخف بحقه، أو انتقصه، أو نسب إليه ما لا يجوز عليه، كعدم الصدق والتبليغ..

خامساً- من فقه الداعية: تقديم مصلحة الإسلام على الانتصار لنفسه:

إن تمكين الإيمان من القلوب وتحقيق دعوة الإسلام وقيام دولته، غاية عظيمة وهدف جليل، والداعية المحنك هو الذي يوازن بين المصالح والمفاسد، فيسعى إلى تحقيق غايته ولو كان في ذلك صبرٌ على بعض المفاسد، وهذا ما فعله النبي ﷺ -وهو القدوة والأسوة- من عدم قتل من آذاه من المنافقين كما في الحديث الذي نهى فيه عن قتل المنافق.

قال القرطبي: (العذاب في الدنيا لمن آذى رسول الله ﷺ هو: القتل، لكن لم يقتل النبي ﷺ هذا المنافق الذي أظهر ضغن قلبه وخبث نفسه؛ للمعنى الذي قال ﷺ وهومن حديث جابر رضي الله عنه: ((لا يتَحدَّثُ الناسُ أنَّ محمداً يَقتُلُ أصحابَه))[(٢)]، ولهذه العلة امتنع النبي ﷺ من قتل المنافق)[(٣)].

قال النووي: (قوله ﷺ: «دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه» فيه ما كان عليه ﷺ من الحلم، وفيه ترك بعض الأمور المختارة والصبر على بعض المفاسد خوفاً من أن تترتب على ذلك مفسدة أعظم منه، وكان ﷺ يتألف الناس ويصبر على جفاء الأعراب والمنافقين وغيرهم لتقوى شوكة المسلمين وتتم دعوة الإسلام ويتمكن

(١) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٣٦/٢٤.

(٢) أخرجه البخاري ٣٥١٨، ومسلم ٢٥٨٤.

(٣) انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ١٠٧/٣.

الإيمان من قلوب المؤلفة ويرغب غيرهم في الإسلام، وكان يعطيهم الأموال الجزيلة لذلك، ولم يقتل المنافقين لهذا المعنى ولإظهارهم الإسلام، وقد أمر بالحكم بالظاهر والله يتولى السرائر، ولأنهم كانوا معدودين في أصحابه ﷺ ويجاهدون معه إما حمية وإما لطلب دنيا أو عصبية لمن معه من عشائرهم)(١).

قال البهي الخولي: (هذا هو المعنى المطلوب من الداعية في باب سياسة العقبات تحقيقاً للغاية العظمى، وقد قصّ الله عز وجل على رسوله مثلاً فيه الكثير من التوجيه الحسن في هذه السياسة: فإن موسى عليه السلام لما بلغ أشده واستوى، راعته مظاهر الظلم التي ينزلها المصريون بالشعب الإسرائيلي... وموسى شاب يهيئه الله سبحانه للرسالة، فهو ذو نفس حساسة، تكره الظلم، وتثور على مظاهره، فدخل المدينة مرة على حين غفلة من أهلها ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾(٢).

إن الظلم جريمة يجب استئصالها بدون نزاع، وموسى عليه السلام إنما كانت رسالته تخليصَ بني إسرائيل مما كان يقع بهم، فهل سلك موسى بهذا العمل سبيلاً سديداً في علاج هذا الفساد؟

ماذا عاد على الإسرائيليين من قتل المصري المعتدي؟ هل استؤصل الظلم وامتنع

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٤٥.

(٢) سورة القصص، الآيات: ١٤ - ١٩.

الأذى؟

إن المصري قد يكون له بعض العذر في ضرب الإسرائيلي وظلمه؛ لأنه إنما يجري في ذلك على عادة شائعة موروثة، وسنة مرعية، يرعاها فرعون مصر الأكبر.. فإذا أردنا العلاج الصحيح، فلن يكون بعلاج الحوادث الفردية، وإنما بتغيير العادة الشائعة، وإبطال السنة، أو القانون الذي يرعاه فرعون... أما قتل فرد أو عدة أفراد كما حدث من موسى عليه السلام، فهو عمل لا يقرب من الإصلاح خطوة واحدة، وقد نَعَته موسى بأنه من عمل الشيطان.

على أن علاج الفساد بعلاج حوادثه الفردية، كثيراً ما يوقع تحت طائلة القانون، ويغضب مقامات كبيرة لها منفعة في استمراره على ما هو عليه، وحينئذ يعرِّضُ الداعية نفسه لحكم القانون ولبطش الجبارين في غير نفع يعود على الرسالة.

لا نشير بالجبن، ولا بالاستكانة، ولكنا نحب للداعية أن يتسع أفقه العقلي والنفسي، فيعالج مبعث العلة، وأصلها بالحكمة والروية وحسن النظر في مبادئ الأمور ونهاياتها، فذلك هو السبيل الطبيعي للعلاج، أما الوثوب على الحوادث الفردية، ومظاهر الفساد المتفرقة، فشأن البسطاء الذين يذهبون مع حرارة العاطفة دون تقيد بالنظر في عواقب الأمور، وشأن من لا يدخرون أنفسهم لما هو أجل...

وما على الداعية في علاج هذه العقبة الكبرى... إلا أن يستمسك بعزته ويعتصم به، ولا يفرط في رسالته، عليه أن لا يفتر عن الدعوة إليها، وسوف يرى أن فيض الرسالة سيغرق العقبة كما أغرق الله فرعون في نهاية أمره.

ونحن نلاحظ في سيرة رسول الله ﷺ أن قد ثبت فؤاده بهذا القصص، فلم يعجل عليه السلام بعلاج فردي، بل كان يصلي في الكعبة في جوف الليل. والأصنام تطل عليه بعيونها الجامدة البغيضة، فلم يرفع إليها يداً، ولم يحرك نحوها ساكناً ولو مدّ إليها يداً لما رآه أحد، ولكن ماذا تكون العاقبة؟ تعود الأصنام لما كانت، بل إلى أحسن مما كانت، ويعاجل رسول الله ﷺ بالأذى ولكنه علم أن سبيل العلاج شيء غير هذا، هو الصبر والاستمرار على الدعوة، وتجميع الأنصار وتعبئة القوى، وتقرير العقيدة السليمة

والاحتكام إلى معايير العقل، فلما أن أتى الله باليوم الموعود، كان ﷺ يشير إلى الصنم بقضيب في يده قائلاً: ((جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ))[1]، فينكفئ إلى وجهه إلى حيث لا رجعة، إنا لنعلم أن شباب الدعوة المحمدية الأولين، كانوا كثيراً ما يعرضون على رسول الله ﷺ أن يثوروا إلى أسلحتهم وأن يهبوا في وجوه أعدائهم، فكان ﷺ يسكن ثورتهم، ويطلب إليهم أن ينتظروا.. لقد كانوا يعلمون وهم في مكة قبل أن يشرع الجهاد، أنهم موعودون بيوم يحملون فيه السلاح، كانوا يقرأون في القرآن المكي قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾[2]، فتهفو نفوسهم إلى هذا اليوم، ولكنه ﷺ لم يَعْجَل بَعجَلة هؤلاء الشباب، ولم يخف لخفتهم بل كان يطلب إليهم أن يكفوا أيديهم عن هذا الآن ويكتفوا بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة حتى تكتمل القوة، وتنضج الثمرة، وتَطلُع الأقدار بأيام الله.

ونحن نأثم أشد الإثم إذا نصحنا للداعية في علاج العقبات بغير المنهج الذي سنه الله لرسوله، والتزمه ﷺ في حكمة وأناة وقوة.

فإذا انتهى الداعية من علاج عقباته، وخلا له الجو وصار سيد أمره شرع في إقامة النظام الذي تريده دعوته، واستقبل مرحلة لا تقل خطورة ومسؤولية عن مرحلة العقبات وما لابسها من مشقات؛ إن لم تتضاعف فيها المسؤولية وتكثر التكاليف.

والداعية في هذه المرحلة يبني أمة ويؤسس دولة، يبنيها على تقوى من الله ورضوان"[3].

---

(١) أخرجه البخاري ٢٤٧٨، ومسلم ١٧٨٠.

(٢) سورة المزمل، آية: ٢٠.

(٣) تذكرة الدعاة ص ٢٦٨ - ٢٧٢.

سادساً- من صفات الداعية: الصبر والمصابرة:

"قد ابتلي رسل الله -صلوات الله عليهم وسلامه- بعقبات، وأوذوا وهددوا بالقتل والنفي، وغيرهما من ألوان العذاب فكان العلاج الأكبر الذي عالجوا به أمرهم هو الصبر ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾[1][2].

وهذا ما أكد عليه النبي ﷺ في نص الحديث من قوله: (يرحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر)، وقد كان النبي ﷺ هو القدوة والأسوة الحسنة للدعاة إلى الله في الصبر والمصابرة، وليس أدل على ذلك من قول عائشة رضي الله عنها للنبي ﷺ: (هل أتى عليكَ يومٌ كان أشدَّ من يوم أحُدٍ؟ قال: ((لقد لَقِيتُ من قومك ما لقيت، وكان أشدَّ ما لقيتُ منهم يومَ العقبةِ إذ عرَضتُ نفسي على ابنِ عبد يا ليل بن عبد كُلال فلم يُجِبني إلى ما أردتُ، فانطلقتُ وأنا مَهمومٌ، على وَجهي، فلم أستَفق إلا وأنا بقرنِ الثَّعالب[3]، فَرَفَعتُ رأسي، فإذا أنا بسحابةٍ قد أظلَّتني، فنظرتُ فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله قد سمعَ قولَ قومكَ لك وما ردوا عليك، وقد بعث اللهُ إليكَ ملَكَ الجبالِ لتأمرَهُ بما شئتَ فيهم، فناداني ملكُ الجبال فسلم علي ثم قال: يا محمد، فقال: ذلكَ فيما شئتَ، إن شئتَ أن أطبِقَ عليهم الأخشَبَينِ. فقال النبيُّ ﷺ: بل أرجو أن يُخرجَ الله من أصلابهم من يَعبُدُ اللهَ وحدَهُ لا يُشركُ بهِ شيئاً))[4].

وما نرى الله عز شأنه، أوصى رسله عليهم السلام بشيء أكثر مما أوصاهم بالصبر، وليس معنى الصبر هنا الاستكانة والذلة، والقعود عن الدعوة، والكف عن التفكير في معالجة من يستطيلون بالأذى على الأحرار الأبرياء، وإنما الصبر هنا معناه:

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٣٤.

(٢) تذكرة الدعاة، البهي الخولي ص ٢٦٦.

(٣) قال ابن الأثير: هو قرن المنازل، وهو اسم موضع يُحرم منه أهل نجد، وأصل القرن كل جبل صغير ينقطع من جبل كبير، انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير والأثر ص ٧٤٨.

(٤) أخرجه البخاري ٣٢٣١، ومسلم ١٧٩٥.

١- أن يهضم الداعية ما يلقى من إعراض وعناد، وتحد، وأذى؛ بحيث لا يشعر أن هذه العقبات غصة يشرق بها حلقه "لقمة في الزور" فإن ذلك يضايقه، ويصرفه عن حسن علاجها، بل عليه أن يروض نفسه ومعدته العصبية على هضم ذلك كله أما "الغضب" من كل حادث لا يعجبه، فهو بمثابة وقوف "اللقمة في الزور" وهو ما لا يستقيم عليه أمر الدعوة والداعية، فعليه بحسن الاحتمال واستقبال كل شدة بالرضا والتسليم، وحمد الله على كل حال، وطلب المغفرة لمن يجهلون عليه، فإنهم لا يعلمون.

٢- أن يرتقب ما يأتي به الزمن، فللزمن مفاجآته وفرصه التي تجيء بغير ما ينتظر، وقد يجري الله في غضونه من الأحداث والتصرفات ما يهون به شأن هذه العقبات أو يزيلها، وما على الداعية إلا أن يحذر انطفاء حماسته بطول الزمن، بل عليه أن يتخذ مما هضمت أعصابه مدداً لثورته الباطنة وقواه الكامنة، فلا تزيده الأيام إلا قوة على أمره.

٣- أن يتخذ سبيله في غير طريق هذه العقبات، عليه أن يدور حولها ويمضي إلى ما خلفها... عليه أن يمضي في دعوته، يدعو الناس ويجمع حوله الأنصار ويتألف قلوب الجماهير بما يبذل لهم من شتى الخدمات والمنافع والمساعدات، أمامه مفاسد لا يحميها القانون، ولا منفعة لأحد في استمرارها فعليه بعلاجها وإبعاد الناس عنها)[١].

وبذلك يكون الداعية قد اصاب المقصود الحقيقي للصبر والمصابرة.

سادساً- من أساليب الدعوة: القسم:

قد ورد هذا الأسلوب الدعوي في الحديث من تأكيد الصحابي رضي الله عنه على تبليغ النبي صلى الله عليه وسلم ما كان من قول المنافق بشأن قِسْمته صلى الله عليه وسلم، والقَسَم من أساليب الدعوة الهامة التي يكون بها تأكيد الأمر وإثباته في أذهان المدعوين.

ثامناً- من آداب المدعو: عدم نقل ما يؤدي إلى الشحناء والبغضاء:

هذا يستفاد من نص الحديث في قول الصحابي رضي الله عنه: "لا جرم لا أرفعُ إليه بعدها حديثاً"، وهذا الأدب في عدم نقل الأخبار التي تؤدي إلى الشحناء والبغضاء من أهم ما

(١) تذكرة الدعاة، البهي الخولي ص ٢٦٦ - ٢٦٧.

يحفظ على المسلمين وحدتهم، وسلامة صدورهم، فيزدادوا بذلك قوة ومنعة وتماسكاً، وهذا الأدب من أخلاق المؤمنين وشيم الصالحين.

وقد جسد لنا سلفنا الصالح هذا الخلق في أحلك أوقات الأمة ظلاماً، ففي حادث الإفك قالت عائشة رضي الله عنها: (وقلت لأمي يغفر الله لك، تحدّث الناس بما تحدثوا ولا تذكرين لي من ذلك شيئاً)[1]، وقالت رضي الله عنها: (وقد انتهى الحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أبويَّ، لا يذكرون لي منه قليلاً ولا كثيراً)[2]، فعلى المدعو أن يقتدي بخلق سلفه الصالح في عدم نقل الأخبار التي يحصل بها الشحناء والبغضاء، لأن وحدة المسلمين وسلامة مجتمعاتهم وتماسكها من الأمور التي حث الإسلام عليها.

---

(١) البداية والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٦/٥٩٦.

(٢) المرجع السابق ٦/٥٩٥.

الحديث رقم (٤٣)

٤٣- وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بعبْدِهِ خَيْراً[1] عجَّلَ لَهُ الْعُقُوبةَ في الدُّنْيَا، وإِذَا أَرَادَ اللَّه بعبدِهِ الشَّرَّ أمسَكَ عنْهُ بذَنْبِهِ حتَّى يُوافِيَ بهِ يَومَ الْقِيامةِ»[2].

وقَالَ النبيُّ ﷺ: «إِنَّ عِظَمَ الْجزاءِ مَعَ عِظَمِ الْبلاءِ، وإِنَّ اللَّه تعالى إِذَا أَحَبَّ قَوماً ابتلاهُمْ، فَمنْ رضِيَ فلَهُ الرضَا، ومَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ» رواه الترمذي وقَالَ: حديثٌ حسنٌ[3].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

حتى يوافي به يوم القيامة: أي يجيء في الآخرة متوفر الذنوب وافيها فيستوفَي حقه من العقاب[4].

الشرح الأدبي

إن العلاقة بين العبد وربه، علاقة أزلية، ووثيقة، تحتاج من العبد أن يوثق عُراها بالطاعات والأعمال الصالحة، و لقد كرّم الله بني آدم، وفضّلهم على كثير ممن خلق تفضلا.

ويوضح المصطفى ﷺ ما يجب على العبد تجاه ربه في ضوء هذه المنزلة التي منحها الله لآدم والصالحين من ذريته، فقال: "ثلاث من كن فيه : وجد حلاوة الإيمان:

---

(١) لفظ الترمذي: (الخير).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٩٦). وصحَّحه ابن القطان في كتابه: النظر في أحكام النظر (٣٥).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٩٦) وقال: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ من هذا الوجه. فيه سعد بن سنان: صدوق له أفراد، ولذلك حسنّه الترمذي. وله شاهد أخرجه أحمد (٢٣٦٢٣) عن محمود بن لبيد، قال الهيثمي في ال مع (٢٩١/٢)، والمنذري في ترغيبه (١٧٦/٤): رواه أحمد ورواته ثقات. أورده المنذري في ترغيبه (٤٩٩١).

(٤) شرح الطيبي، الطيبي ٣١٠/٣.

أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار"(١).

وفي ضوء هذه الصلة بين العبد وربه يجب أن يكون موقفنا صحيحاً تجاه أحداث الحياة، وأن يكون استقبالنا لما يحل بنا من ابتلاءات استقبالاً إيمانياً يثق في عدالة الله سبحانه، ويسلم أمره كله إلى بارئه جل وعلا.

ونقتبس من أنوار الحديث الشريف بعض الهالات التي تضيء ظلام النفوس، وتمحو كدر المشاعر، وتبدد غيوم الأسى، وتتقشع أمام وهجها سحابات الأحزان.

يقول الله عز وجل: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ﴾(٢).

وصياغة الحديث الشريف تتفق مع دلالته والمقصد منه، فهو يتكون في قسمه الأول من جملتين شرطيتين، وأداة الشرط "إذا" الدالة على التحقق تتكرر في الجملتين، فالأولى ترد على هذا النحو، "إذا أراد الله بعبده خيراً عجل له العقوبة في الدنيا"، والمفارقة تبدو بين دلالة الشرط ودلالة الجواب، وتدعو للتساؤل: كيف يكون الخير هو تعجيل العقوبة في الدنيا، والإنسان يطمح إلى الفرار من أي عقوبة مهما كانت ذنوبه؟؟!! ولذلك يقرن الله الخير بإرادته، ويضيف الرسول ﷺ، لفظ العبد إلى الضمير الذي يعود على لفظ الجلالة، ويقيد العقوبة بقوله في الدنيا، وذلك لأن عقوبة الدنيا أهون وأخف كثيراً كثيراً من عقوبة الآخرة، وعقوبة الدنيا تتنوع وتتعدد وجوهها وتشمل كثيراً من أنواع الابتلاءات وهي كفارة لجنايات العبد، فيوافي القيامة وقد خلص من تبعات الذنب، وعلى العبد المؤمن أن يقابل الابتلاء في الحياة بالصبر والاحتساب: لأن الله يريد به خيراً، والعبد لا يدري!!

وما أعظم المفارقة الأسلوبية التي تدعو للدهشة والتأمل والتفكر والتدبر حين

---

(١) أخرجه البخاري ١٦، ومسلم ٤٣.

(٢) سورة البقرة: ٢١٦.

يعلمنا المصطفى ﷺ هذا الدرس العميق، حيث يجب أن لا نفرح بعدم العقوبة في الدنيا، وعدم وقوع الابتلاءات لكثير من العاصين المجاهرين لأن هذا هو الشر بعينه الذي يغري الإنسان فيتمادى في ضلالاته، وغواياته، ولكن كما قال رسول الله ﷺ: ((وإن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته))[(١)]، ويوم القيامة لا شفيع ولا حسيب ولا مدافع: ﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون﴾[(٢)] ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم﴾[(٣)]، وأسلوب الشرط والجواب يناسب منطق الثواب والعقاب: وكذلك المقابلة بين الموقفين موقف الخير وناقدته العقوبة، وموقف الشر وناقدته عدم العقوبة في الدنيا، ولكن الفائز من أحب الله لقاءه.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: ما يصيب المؤمن من عقوبة في الدنيا دليل على إرادة الخير به.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: تأخير العقوبة دليل على غضب الله تعالى.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: فضل الرضا والتسليم بما قدره الله تعالى.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: التحذير من الجزع.

أولاً- من موضوعات الدعوة: ما يصيب المؤمن من عقوبة في الدنيا دليل على إرادة الخير به:

هذا ما أكده نص الحديث في قوله ﷺ "إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا" وأيضاً في قوله ﷺ "إن عظم الجزاء من عظم البلاء، وإن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم" قال المباركفوري: (قوله: "إذا أراد الله بعبده الخير عجل" بالتشديد أي

---

(١) أخرجه البخاري ٤٦٨٦، ومسلم ٢٥٨٣.

(٢) سورة النور، آية: ٢٤.

(٣) سورة الشعراء، الآيتان: ٨٨، ٨٩.

أسرع "له العقوبة" أي الابتلاء بالمكاره "في الدنيا" ليخرج منها وليس عليه ذنب ومن فعل ذلك معه فقد أعظم اللطف به والمنة عليه" ...، وقوله ﷺ "إن عظم الجزاء" أي كثرته "من عِظَم البلاء" بكسر المهملة، وفتح الظاء فيهما ويجوز ضمها مع سكون الظاء فمن ابتلاؤه أعظم فجزاؤه أعظم)(١).

وهذا ما أكده ابن عثيمين في قوله: (إن الإنسان لا يخلو من خطأ ومعصية وتقصير في الواجب؛ فإذا أراد الله بعبده الخير عجَّل له العقوبة في الدنيا: إما بماله أو بأهله أو بنفسه أو بأحد ممن يتصل به، المهم أن تعجل له العقوبة؛ لأن العقوبات تكفر السيئات)(٢)، وقد أخبر النبي ﷺ بذلك فعن مصعب بن سعيد عن أبيه رضي الله عنه قال: ((قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء؟ قال: الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل: فيبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صُلباً اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة))(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله وما عليه خطيئة))(٤).

وقال ﷺ: ((ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله بها عنه، حتى الشوكة يشاكها))(٥)، وقال ﷺ: ((ما يصيب المؤمن، من وصب، ولا نصب، ولا سقم، ولا حزن، حتى الهم يهمه، إلا كَفَّر به من سيئاته))(٦).

قال ابن هبيرة: (في هذا الحديث من الفقه إعلام النبي ﷺ أمته أن نَصَبها ووصَبَها وسَقَمها وحزنها وهمها يكفر الله به من خطاياها؛ وذلك لأنه لما كانت الدنيا عند الله

---

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري ١٨٨٩/٢.

(٢) شرح رياض الصالحين ١٠٨/١.

(٣) أخرجه الترمذي ٣٩٨، وقال الألباني: حديث حسن صحيح (صحيح سنن الترمذي ١٩٥٦).

(٤) أخرجه الترمذي ٢٣٩٩، وقال الألباني: حديث حسن صحيح (صحيح سنن الترمذي ١٩٥٧).

(٥) أخرجه البخاري ٥٦٤٠.

(٦) أخرجه البخاري ٥٣١٨، ومسلم ٢٥٧٣.

ليست رضى منه لعباده المؤمنين مقراً له دائماً، وكانت حكمته أن يخرجهم عن هذا المقر الأدنى إلى مقر أعلى؛ فأحل بهم سبحانه من المزعجات ما ينفرهم عنه ويزعجهم منه، وكان من لطفه بهم أن لا يعرض لهم الألم إلا بثواب وثمن هو تكفير السيئات عنهم، فجمع لهم بين تكفير الخطايا والإزعاج عن هذا المقر الأدنى والارتياح للخروج منه إلى دار المقامة)[١]. وهذا أعظم بينة وأقوى دليلاً على إرادة الخير لمن عجلت له العقوبة في الدنيا.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: تأخير العقوبة دليل على غضب الله تعالى:

(إذا أراد الله بعبده الشر، أمهل له واستدرجه وأَدَرَّ عليه النعم، ودفع عنه النقم حتى يبطر؛ ويفرح فرحاً مذموماً بما أنعم الله به عليه، وحينئذٍ يلاقي ربه وهو مغمور بسيئاته فيعاقبه الله بها أشد العقاب)[٢]، وهذا ما أكده النبي ﷺ في الحديث من قوله "وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة".

قال المباركفوري (وقوله ﷺ: "أمسك" أي أخر "عنه" ما يستحقه من العقوبة "بذنبه" أي بسببه "حتى يوافي به يوم القيامة" أي حتى يأتي العبد بذنبه يوم القيامة)[٣] قال الطيبي: (والمعنى لا يجازيه بذنبه حتى يجيء في الآخرة متوفر الذنوب وافيها، فيستوفي حقه من العقاب)[٤].

وهذا ما أكده النبي ﷺ في قوله: ((إِذَا رَأَيْتَ اللهَ يُعْطِي العَبْدَ من الدنيا على معاصيه مَا يحِبُّ، فإنَّمَا هُو اسْتِدْرَاجٌ. ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾[٥]))[٦].

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٢٥٢/٦-٢٥٣.

(٢) انظر: شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين، ١٠٨/١.

(٣) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري ١٨٨٩/٢.

(٤) شرح الطيبي، الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٣١٠/٣.

(٥) سورة الأنعام، آية: ٤٤.

(٦) أخرجه أحمد ١٤٥/٤ رقم ١٧٣١١، وقال محققو المسند: حديث حسن ٥٤٧/٢٨.

قال القاسمي: (وقوله تعالى: "فلما نسوا ما ذُكروا به" أي: من البأساء والضراء، أي تركوا الاتعاظ به "فتحنا عليهم أبواب كل شيء" أي: من النعم، كالصحة والسعة وراحة البال والأمن، وصنوف رغائبهم، استدراجاً وإملاءً ومكراً بهم، عياذاً بالله من مكره "حتى إذا فرحوا بما أتوا" من مطالبهم ورغائبهم، مع الشرك "أخذناهم" أي: بالعذاب المستأصل، "بغتة" أي: فجأة بلا تقديم مذكّر، إذ لم يفدهم في المرة الأولى "فإذا هم مبلسون" متحسرون، يئسون من كل خير، ... وقال الحسن البصري: من وسع الله عليه، فلم ير أنه يمكر به، فلا رأي له، ومن قتَّر عليه، ولم ير أنه ينظر له، فلا رأي له. ثم قرأ: "فلما نسوا ..." الآية -قال الحسن: مكر بالقوم، ورب الكعبة! أعطوا حاجتهم ثم أُخِذوا.

وقال قتادة: بغت القومَ أمرُ الله، وما أخذ الله قوماً قط إلا عند سكرتهم وغرتهم ونعمتهم، فلا تغتروا بالله، فإنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون- روى ذلك ابن أبي حاتم-وقال الرازي: قال أهل المعاني: وإنما أخذوا في حال الرخاء والراحة ليكون أشد، لتحسرهم على ما فاتهم من السلامة والعافية)[1]. فعلى المرء أن يحذر من معصية الله ولا يغتر بحلم الله عليه فقد يكون في ذلك هلاكه.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: فضل الرضا والتسليم بما قدره الله تعالى:

إن الرضا بما قدره الله تعالى والتسليم له، دليل كمال الإيمان وحسن الإسلام والفوز بالجنان والنجاة من النيران، وهذا ما أكده نص الحديث في قوله ﷺ "فمن رضي فله الرضا".

قال المباركفوري: (قوله ﷺ "فمن رضي" بما ابتلي به "فله الرضا" منه تعالى وجزيل الثواب)[2]، وبين الطيبي: (أن هذا شرط وجزاء، فَهِم منه أن رضى الله تعالى مسبوق برضا العبد، ومحال أن يرضى العبد عن الله إلا بعد أن يرضى الله عن العبد، كما قال: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾[3] ومحال أن يحصل رضا الله ولا يحصل رضا

---

(١) محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ٥٢٩/٦/٤-٥٣٠.

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري ١٨٨٩/٢.

(٣) سورة البينة، آية: ٨.

العبد في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾[١] فعن الله الرضى أزلاً وأبداً، سابقاً ولاحقاً)[٢].

قال الراغب: (ورضا العبد عن الله أن لا يكره ما يجري به قضاؤه)[٣]. (وقيل: ارتفاع الجزع في أي حكم كان. وقيل: رفع الاختيار، وقيل: استقبال الأحكام بالفرح. وقيل: سكون القلب تحت مجاري الأحكام. وقيل: نظر القلب إلى قديم اختيار الله للعبد، وهو ترك السخط)[٤].

وبين ابن القيم: (أن الرضا كسبي باعتبار سببه، مَوْهبي باعتبار حقيقته، فيمكن أن يقال بالكسب لأسبابه؛ فإذا تمكن في أسبابه وغرس شجرته: اجتنى منها ثمرة الرضى، فإن الرضا آخر التوكل، فمن رسخ قدمه في التوكل والتسليم والتفويض: حصل له الرضا ولابد؛ ولكن لعزته وعدم إجابة أكثر النفوس له، وصعوبته عليها لم يوجبه الله على خلقه رحمة بهم، وتخفيفاً عنهم؛ لكن ندبهم إليه، وأثنى على أهله، وأخبر أن ثوابه رضاه عنهم الذي هو أعظم وأكبر وأجل من الجِنان ومافيها؛ فمن رضي عن ربه رضي الله عنه -بل رضا العبد عن الله من نتائج رضا الله عنه- فهو محفوف بنوعين من رضاه عن عبده: رضًا قبله أوجب له أن يرضى عنه، ورضًا بعده هو ثمرة رضاه عنه. ولذلك كان الرضا باب الله الأعظم، وجنة الدنيا، ومستراح العارفين، وحياة المحبين، ونعيم العابدين، وقرة عيون المشتاقين)[٥].

وقال بعد أن ساق حديثين: الأول: قوله ﷺ: ((ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً))[٦]. والثاني: قوله: ((من قال حين يسمع النداء: رضيت

---

(١) سورة الفجر، الآيتان: ٢٧-٢٨.

(٢) شرح الطيبي، الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٣/٣١١.

(٣) المفردات في غريب القرآن ١٩٧.

(٤) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢/٤٦٢-٤٦٣.

(٥) المرجع السابق، ٢/٤٥٧-٤٥٨.

(٦) أخرجه مسلم ٣٤.

بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً غفرت له ذنوبه))[١] - (هذان الحديثان عليهما مدار مقامات الدين، وإليهما ينتهي، وقد تضمنا الرضا بربوبيته سبحانه وألوهيته. والرضا برسوله، والانقياد له، والرضا بدينه والتسليم له، ومن اجتمعت له هذه الأربعة فهو الصديق حقاً، وهي سهلة بالدعوى واللسان، وهي من أصعب الأمور عند حقيقة الامتحان، ولا سيما إذا جاء ما يخالف هوى النفس ومرادها، من ذلك تبين أن الرضا كان لسانه به ناطقاً. فهو على لسانه لا على حاله ...، ثم بين المقصود برضا الربوبية فقال: أن يتضمن الرضا بتدبيره لعبده، ويتضمن إفراده بالتوكل عليه، والاستعانة به، والثقة به، والاعتماد عليه، وأن يكون راضياً بكل ما يفعل به)[٢].

وقد عظَّم النبي ﷺ جزاء من يرضا عن الله تعالى ويسلم له نفسه فيما أجرى عليه من أقدار، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لنسوة من الأنصار: ((لا يموت لإحداكن ثلاثة من الولد فتحتسبه إلا دخلت الجنة. فقالت امرأة منهن: أو اثنين يا رسول الله؟ قال: أو اثنين))[٣].

وعن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها. إلا أخلف الله له خيراً منها))[٤].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((إذا مات ولد العبد، قال الله لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده، فيقولون: نعم، فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع، فيقول الله: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد))[٥].

---

(١) أخرجه مسلم ٣٨٦.

(٢) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢/٤٥٥.

(٣) أخرجه البخاري ١٢٤٩، ومسلم ٢٦٣٢.

(٤) أخرجه مسلم ٩١٨.

(٥) أخرجه الترمذي ١٠٢١، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٨١٤).

فعلى العبد أن يرضى عن الله وبالله ولله، وأن يسلّم أمره وقلبه وكله لله، فهو تعالى الأعلم بحال عباده، المقدر لهم الخير في الدنيا والآخرة، فله الحمد حتى يرضى وله الحمد بعد الرضا.

رابعاً- من موضوعات الدعوة: التحذير من الجزع:

(إن الجزع لدليل على انتفاء كمال الإيمان، وعدم الرضا بالمقدور والعجز عن فعل المأمور)[1]، وقد ذمه الحق تبارك وتعالى في كتابه فقال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾[2].

قال ابن كثير: (أي إذا أصابه الضر فزع وجزع وانخلع قلبه من شدة الرعب، وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير)[3]، وهذا ما حذر منه النبي ﷺ في نص الحديث من قوله "ومن سخط فله السخط".

قال المباركفوري: ("ومن سخط" بكسر الخاء أي كره بلاء الله وفزع ولم يرض بقضائه "فله السخط" منه تعالى وأليم العذاب، ومن يعمل سوءاً يجز به، والمقصود الحث على الصبر على البلاء بعد وقوعه لا الترغيب في طلبه للنهي عنه)[4].

وقد رهب النبي ﷺ من الجزع بأمر الله تعالى، وعدم الصبر والرضى بقضائه فعن جندب بن عبدالله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((كان فيمن كان قبلكم رجل به جرح فجزع فأخذ سكيناً فحزَّ بها يده، فما رقأ الدم حتى مات. قال الله تعالى: بادرني عبدي بنفسه، حرمت عليه الجنة))[5].

قال ابن حجر: (قوله ﷺ "فجزع" أي لم يصبر على ألم تلك القرحة وقوله ﷺ "فما رقأ الدم" بالقاف والهمزة أي لم ينقطع وقوله ﷺ "قال الله عز وجل: بادرني

---

(١) انظر: نضرة النعيم، ٤٣٥٧/٩.

(٢) سورة المعارج، الآيات: ١٩-٢٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢٢٦/٨.

(٤) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري ١٨٨٩/٢-١٨٩٠.

(٥) أخرجه البخاري ٣٤٦٣، ومسلم ١١٣.

عبدي نفسه" هو كناية عن استعجال المذكور الموت، وقوله "حرمت عليه الجنة" جار مجرى التعليل للعقوبة؛ لأنه لما استعجل الموت بتعاطي سببه من إنفاذ مقاتله فجعل له فيه اختياراً عصى الله به فناسب أن يعاقبه، ودل ذلك على أنه حزها لإرادة الموت لا لقصد المداواة التي يغلب على الظن الانتفاع بها، وقد استشكل قوله "بادرني بنفسه" وقوله "حرمت عليه الجنة"؛ لأن الأول يقتضي أن يكون من قتل فقد مات قبل أجله لما يوهمه سياق الحديث من أنه لو لم يقتل نفسه كان قد تأخر عن ذلك الوقت وعاش، لكنه بادر فتقدم، والثاني يقتضي تخليد الموحد في النار، والجواب عن الأول أن المبادرة من حيث التسبب في ذلك والقصد له والاختيار، وأطلق عليه المبادرة لوجود صورتها وإنما استحق المعاقبة؛ لأن الله لم يطلعه على انقضاء أجله فاختار هو قتل نفسه فاستحق المعاقبة لعصيانه.

وقال القاضي أبوبكر: قضاء الله مطلق ومقيد بصفة، فالمطلق يمضي على الوجه بلا صارف، والمقيد على الوجهين مثاله أن يقدر لواحد أن يعيش عشرين سنة إن قتل نفسه وثلاثين سنة إن لم يقتل، وهذا بالنسبة إلى ما يعلم به المخلوق كملك الموت مثلاً، وأما بالنسبة إلى علم الله فإنه لا يقع إلا ما علمه، ونظير ذلك الواجب المخير فالواقع منه معلوم عند الله والعبد مخير في أي الخصال يفعل، والجواب عن الثاني من أوجه: أحدها أنه كان استحل ذلك الفعل فصار كافراً. ثانيها: كان كافراً في الأصل وعوقب بهذه المعصية زيادة على كفره. ثالثها: أن المراد الجنة حرمت عليه في وقت ما كالوقت الذي يدخل فيه السابقون أو الوقت الذي يعذب فيه الموحدون في النار ثم يخرجون. رابعها: أن المراد جنة معينة كالفردوس مثلاً. خامسها: أن ذلك ورد في سبيل التغليظ والتخويف وظاهره غير مراد. سادسها: أن التقدير حرمت عليه الجنة إن شئت استمرار ذلك.

سابعها: قال "النووي"(١) ويحتمل أن يكون ذلك شرع من مضى أن أصحاب الكبائر يكفرون بفعلها)(٢). وفي كل ذلك دليل على الترهيب من الجزع وعدم الصبر على قضاء الله، فعلى المرء أن يحذر من ذلك.

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٦.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٧٧/٦.

الحديث رقم (٤٤)

٤٤- وعنْ أَنَسٍ ﵁ قال: كَانَ ابْنٌ لأبي طلْحةَ ﵁ يَشْتَكي، فخرج أبُو طَلْحة، فَقُبِضَ الصَّبِيُّ، فَلَمَّا رَجَعَ أَبُو طَلْحَةَ قال: ما فَعَلَ ابنِي؟ قَالَت أمُّ سُلَيْم (وَهِيَ أمُّ الصَّبِيِّ)[١]: هو أَسْكَنُ مَا كَانَ، فَقَرَّبَتْ إِلَيْهِ الْعَشَاءَ فَتَعَشَّى، ثُمَّ أَصابَ مِنْهَا، فَلَمَّا فرغَ قَالَتْ: وارُوا الصَّبِيَّ، فَلَمَّا أَصْبحَ أَبُو طَلْحَة أَتَى رسولَ اللَّه ﷺ فَأَخْبرَهُ، فَقَالَ: «أَعرَّسْتُمُ اللَّيْلَةَ؟» قَالَ: نَعَمْ، قال: «اللَّهمَّ بارِكْ لَهُما» فَولَدتْ غُلاماً فقَالَ لِي أَبُو طَلْحَةَ: احْمِلْهُ حتَّى تَأْتِيَ بِهِ النبيَّ ﷺ[٢]، وبَعثَ[٣] مَعهُ بِتمْرَات[٤]، فقال: «أَمعهُ شيءٌ؟» قال[٥]: نعمْ، تَمراتٌ فَأَخَذَهَا النَّبيُّ ﷺ فَمضَغَهَا، ثُمَّ أَخذَهَا مِنْ فِيهِ فَجَعَلَهَا في فِي الصَّبِيِّ ثُمَّ حَنَّكَه وسمَّاهُ عبدَ اللَّهِ. متفقٌ عليه[٦].

وفي روايةٍ للْبُخَارِيِّ[٧]: قال ابنُ عُيَيْنَة: فَقَالَ رجُلٌ منَ الأَنْصارِ: فَرَأَيْتُ تسعة أَوْلادٍ كلُّهُمْ قدْ قَرؤُوا[٨] الْقُرْآنَ، (يعْنِي مِنْ أَوْلادِ عَبْدِ اللَّه الْمَوْلُود)[٩].

وفي روايةٍ لمسلِم[١٠]: ماتَ ابْنٌ لأبِي طَلْحَةَ مِنْ أُمِّ سُلَيْمٍ، فَقَالَتْ لأهْلِهَا: لا تُحَدِّثُوا أَبَا طَلْحَةَ بابنِهِ حتَّى أَكُونَ أَنَا أُحَدِّثُهُ، فَجَاءَ فَقَرَّبَتْ إِلَيْهِ عَشَاءً فَأَكَلَ وشَرِبَ، ثُمَّ تَصنَّعتْ

---

(١) هذا من تفسير المؤلف.

(٢) عند البخاري ومسلم زيادة: (فأتى به النبي ﷺ).

(٣) لفظ البخاري: (وأرسلت)، ولفظ مسلم: (وبعثت).

(٤) عند البخاري ومسلم زيادة: (فأخذه النبي ﷺ).

(٥) لفظ البخاري ومسلم: (قالوا).

(٦) أخرجه البخاري (٥٤٧٠)، ومسلم (٢١٤٤/٢٣) ولفظهما سواء.

(٧) برقم (١٣٠١).

(٨) لفظ البخاري: (قرأ).

(٩) ما بين القوسين من تفسير المؤلف.

(١٠) برقم (٢١٤٤/١٠٧، كتاب فضائل الصحابة، باب ٢٠).

تنبيه: هذا الحديث لم يكن في موضعه حسب الترقيم، وإنما أورده مسلم في فضائل الصحابة، ولأجل ذلك لم يوثق أحدٌ ممن عُني بكتاب رياض الصالحين موضعه من صحيح مسلم.

لهُ أَحْسنَ ما كانت[١] تَصنَّعُ قَبْلَ ذلكَ، فَوقعَ بهَا، فَلَمَّا أَنْ رأَتْ أَنَّهُ قَدْ شَبع وأَصَابَ مِنْهَا قَالتْ: يا أَبَا طلْحةَ، أَرَأيْتَ لَوْ أَنَّ قَوْماً أَعارُوا عارِيتهُمْ أَهْل بيْتٍ فَطَلبوا عارِيَتَهُم، أَلَهُمْ أَنْ يمْنَعُوهَا[٢]؟ قَالَ: لا، فَقَالَتْ: فاحتسِبْ ابْنَكَ. قَالَ: فغَضِبَ، ثُمَّ[٣] قَالَ: تركتنِي حتَّى إذَا[٤] تَلطَّخْتُ ثُمَّ أَخْبرتِني بابْني، فَانْطَلَقَ حتَّى أَتَى رسولَ اللَّه ﷺ فأَخْبَرهُ بما كَانَ، فَقَالَ رسولُ اللَّه ﷺ: «**بَارَكَ اللَّه لكُما في[٥] ليْلَتِكُما**».

قَال: فحملَتْ، قَال: وكَانَ رسول اللَّه ﷺ في سفَرٍ وهِي مَعَهُ وكَانَ رسولُ اللَّه ﷺ إِذَا أَتَى الْمَدِينَةِ مِنْ سَفَرٍ لاَ يَطْرُقُهَا طُرُوقاً فَدنَوْا مِنَ الْمَدِينَةِ، فَضَرَبَهَا الْمَخاضُ، فَاحْتَبَس علَيْهَا أَبُو طلْحَةَ، وانْطلَقَ رسولُ اللَّه ﷺ. قَالَ: يقُولُ أَبُو طَلْحةَ: إِنَّكَ لتعلمُ يَا ربِّ أَنَّهُ يعْجبُنِي أَنْ أَخْرُجَ معَ رسولِ اللَّه ﷺ[٦] وسلَّم إِذَا خَرَجَ، وأَدْخُلَ مَعهُ إِذَا دَخَلَ، وقَدِ احْتَبَسْتُ بِما تَرى. تقولُ أُمُّ سُلَيْمٍ: يا أَبَا طَلْحةَ مَا أَجِد الَّذي كنْتُ أَجِدُ، انْطَلِقْ، فانْطَلَقْنَا، وضَربهَا المَخاضُ حينَ قَدِمَا فَولَدتْ غُلاماً. فقالَتْ لِي أُمِّي: يا أَنَسُ لا يُرْضِعُهُ أَحدٌ[٧] تَغْدُوَ بهِ علَى رسُول اللَّه ﷺ، فلمَّا أَصْبحَ احتملْتُهُ فانطَلقْتُ بهِ إِلَى رسولِ اللَّه ﷺ. وذَكَرَ تمامَ الْحَدِيثِ.

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

يشتكي: يُعاني المرض[٨].

---

(١) لفظ مسلم: (كان).

(٢) لفظ مسلم: (يمنعوهم).

(٣) لفظ مسلم بالواو.

(٤) عند مسلم بدون: (إذا).

(٥) عند مسلم زيادة: (غابر).

(٦) عند مسلم: (نبيك).

(٧) عند مسلم زيادة: (حتى).

(٨) اللسان والوسيط في (ش ك و).

هو أسكن ما كان: المقصود: أنه مات. ووقع في رواية للبخاري: ١٣٠١: قد هدأت نفسه وأرجو أن يكون قد استراح[١].

أصاب منها: جامَعها[٢].

وَارُو الصبيَّ: ادفنوه[٣].

أعرستم: أأعرستُمْ، وحذف همزة الاستفهام تخفيفًا، والإعراسُ هنا: الجماع[٤].

حنّكه: من التحنيك، وهو مضغ الشيء ووضعه في فم الصبي ودلك حنكه به[٥].

تصنعت له: أي تزينت وتجملت له، وفي رواية: "ثم تطيبت"[٦].

قرؤوا القرآن: يعني عن نظر وحفظ[٧].

عاريتهم: العارية: ما تعطيه غيرك على أن يعيده إليك[٨].

تلطخت: أي تنجست وتقذرت بالجماع[٩].

لا يطرقها طروقاً: أي لا يدخلها في الليل[١٠].

المخاض: وجع الولادة وهو الطلق[١١].

احتبس عليها: أي حبس نفسه عليها فأقام معها وتأخر عن ركب رسول الله ﷺ[١٢].

---

(١) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٠٣/٣.

(٢) اللسان والوسيط في (ص ي ب).

(٣) اللسان والوسيط في (و ر ى).

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ع ر س).

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٠١/٩، والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ح ن ك).

(٦) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٠٣/٣.

(٧) الوسيط في (ق ر أ).

(٨) اللسان والوسيط في (ع ر و).

(٩) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ل ط خ).

(١٠) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٤٩٣.

(١١) الوسيط في (خ و ض).

(١٢) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير والوسيط في (ح ب س).

الشرح الأدبي

هذا الحديث النبوي ليس كلمات توجيهية فقط، وليس تقويماً لأمر حدث تقويماً مباشراً، وإنما هو حكاية واقعية مضيئة بالقيم الإسلامية الجميلة، والآداب الاجتماعية النبيلة، وهذه الحكاية شارك في نسج أحداثها أشخاص حقيقيون، ضربوا المثل الأعلى في التمسك والتحلي بالصبر الجميل، إنهم استضاءوا بنور الله وهدي المصطفى المختار، وهم يقدمون النموذج الإسلامي الحقيقي في الانتصار على المصائب، وفي استقبال قدر الله في جميع الخلائق: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[1].

فأم سليم: وهي أم الصبي الذي مات: واسمها: سهيلة، وقيل: رميثة، أو مليكة، وتحديد الاسم ليس هو المراد، ولكن الدرس الإيماني الذي قدمته هذه الأم، وتلك الزوجة: هو المقصد الأسنى، والهدف الأقوى، من هذه الحكاية الواقعية التي تظل إلى يوم الدين نبراساً في الصبر، ومثلاً أعلى في الاقتداء.

ولنتأمل أحداث هذه الحكاية ولنحدق في زواياها - وصياغتها، ولننقل شريط تطور الحدث فيها إلى جيلنا، وإلى الأجيال القادمة، كما تناقله جيل السلف، وتوارثه الخلف من الأوائل الذين سبقونا، والحديث يجمع في صياغته بين القول والفعل والتقرير.

ويبدأ الحديث في روايته الأولى بالفعل "كان" إشارة إلى الحكاية التي وقعت، وإيحاءً بأنها ستظل هكذا تروى للأجيال المسلمة القادمة، وابن أبي طلحة: هو عمير، وقيل: كنى رسول الله ﷺ. أبا طلحة بأبي عمير، إيحاء وإنباء بقصر عمر ذلك الغلام الذي دارت أحداث هذه القصة حول حكايته وحدث موته، ولنتأمل الفعل "يشتكي"، وهو كناية عن المرض أى يشتكي الداء والمرض.

والحوار الصادق الذي دار بين الأب: أبي طلحة، والأم: أم سليم، ينبئ عن العاطفة الرقيقة الصادقة من الزوجة تجاه زوجها. في مثل هذه الظروف، فالابن المريض مات،

---

(١) سورة الزمر، آية: ٣٠.

والأب يسأل بعد أن خرج وعاد، مافعل ابني؟ وتجيب الأم في بلاغة وفصاحة وصبر وخشوع، وإيمان واطمئنان، ومحبة وحنان: قائلة: "هو أسكن ما كان" وفي هذه العبارة صدق الحديث، وتخفيف المصاب، وعدم مفاجأة الأب بالخبر المفزع، والتعبير كناية عن الراحة حيث خف ألم النزع، وذهبت دواعي المرض؛ والأم استطاعت أن تكتم مشاعرها الحزينة، وأن تتغلب على انفعالاتها الدفينة، وأن تواجه زوجها بهذه الكلمات العذبة الرصينة، ولم تكتف الأم الثكلى بهذا الصنيع، بل واصلت أداء دورها الإيجابي في توجيه الأحداث، حرصاً على راحة زوجها، واستعداداً لأمر قدره الذي يعلم السر وأخفى: وهو أن الله سيبشرها بغلام يكون فيه العوض والمثوبة والأجر، وهي لا تدرك حقيقة هذا الغيب، ولكنها بفطرتها الإيمانية تتحرك، وتفعل ما يجب على المرأة المسلمة القيام به من طاعة للزوج، ومن إشاعة عبير السكن والمودة والرحمة في أجواء وفضاءات الحياة الزوجية، إنها تقدم العشاء الطيب لزوجها، ولنتأمل سرعة تطور الحدث ثم التريث بعد ذلك في الحديث الشريف، "فقربت له العشاء فتعشى"، ويقول: "ثم أصاب منها"، وذلك كناية عن الجماع، والتعبير بثم يوحي بالتمهل والأناه والتروي، وبأن الأمر لم يكن بلهفة منها، ولكن هو الذي بادر، بعد أن تهيأت بما يناسب مثل هذا المقام وذلك الحال.

وأي عزيمة يتوقد بها قلب هذه الأم؟ وأي إرادة تتجمل بها هذه الزوجة: وهي تصارع أحزانها، وتغالب أوجاعها، ولنتابع هذه القصة العجيبة: فالزوجة لا تكتفي بذلك، ولكنها تواصل أداء دورها.

وتقول بعد ذلك "واروا الصبي"، ويبدأ مشهد جديد من مشاهد أحداث هذه القصة الواقعية: ويدور حوار بين رسول الله ﷺ وأبي طلحة حينما توجه إليه في الصباح.. وأخبره بما حدث، فيقول له رسول الله مبشراً ومهنئاً.. وكأنه يواسيه ويعزيه ولكن في أسلوب إيماني عظيم: قال الرسول له: "أعرستم الليلة"، والجملة استفهامية وهي مثال من أدب النبوة، فهي كناية عن "الوطء" ولكنه لم يصرح بذلك، إشارة إلى ما يجب قوله في هذه المواقف، فإن التلميح يغني عن التصريح، والإشارة تغني عن العبارة.

والكناية من أبدع المسالك البيانية، والطرق الأسلوبية التي يعبر بها المنشئ عن المعنى تعبيراً مُظِلاً هادفاً موجزاً يخفي تحت ظلاله لطائف مراده.

ويقول أبو طلحة: "نعم"، ويدعو الرسول ﷺ للأم والأب -والزوج والزوجة- قائلاً: "اللهم بارك لهما"، وفي رواية أخرى، قال: "بارك الله لكما في ليلتكما"؛ وقد استجاب الله سبحانه وتعالى لدعاء نبيه عليه الصلاة والسلام، وحملت المرأة الصابرة المحتسبة المحبة لزوجها والتي أقنعته بالتمهيد وضرب المثل قبل أن تخبره بخبر وفاة ابنه، وبعد أن أصاب منها، وتحققت نبوءة المصطفى ﷺ، وحلت البركة، وولدت هذه الأم غلاماً، وحنكه النبي ﷺ بالتمر، وسماه عبدالله، ويروي البخاري بأن رجلاً من الأنصار وهو عباية بن رفاعة قال: فرأيت تسعة أولاد كلهم قد قرءوا القرآن: يعني من أولاد عبدالله ابن أبي طلحة المولود من تلك الإصابة في هذه الليلة المدعو لها بالبركة من رسول الله ﷺ، فتأمل أخي المسلم جزاء الصابرين المحتسبين، إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب.

وفي الحديث في روايتيه كثير من الأسرار التعبيرية، والصور الجمالية، ومنها "الجناس" في قوله: "ثم أخذها من فيه فجعلها في فيِّ الصبي"، وهى التمرات التي مضغها رسول الله ﷺ، ورغم تكرار حرف "الفاء"، وحرف "في" ثم الاسم، في "الصبي"، فإن الأسلوب ليس فيه تعقيد، ولكنه سهل ميسور وكأن هذا التكرار وهذا التجانس يناسب هذا الحدث "الطفولي" السعيد، وتكرار الكلمات، والحروف والمشاهد من تقنيات وآليات عالم الطفولة وأدبها وخطابها، وقد أحسن الراوي صنعاً وحديثاً بهذه الكلمات الملائمة المناسبة، والفعل هنا أجمل من القول: لأن النبي ﷺ يأخذ التمرات من الصبي، ويمضغها، حتى تمتزج وتختلط بريقه الشريف، وفمه الطاهر، الذي تفوه بجوامع الكلم، وبلغ آيات الكتاب الحكيم، ويحنك النبي ﷺ الغلام، وتسري بركة الدعاء في شرايينه وأوصاله... ويحقق الله البشرى لأبويه وله بعد ذلك.

وفي الرواية الثانية للحديث: تظهر حكمة الزوجة وتتجلى في طريقة إخبار زوجها بخبر وفاة الصبي بعد أن أصاب منها.

وشاء الله أن تكون هذه الليلة مباركة كما بشرهما رسول الله ﷺ: قالت المرأة لزوجها في تلطف وسكينة: "يا أبا طلحة: أرأيت لو أن قوماً أعاروا عاريتهم، أهل بيت: فطلبوا عاريتهم: ألهم أن يمنعوهم؟ قال: لا. وتأمل صيغة النداء وتعين "الكنية" استمالة لقلب الرجل، ثم هذه الاستفهام المتكرر، "أرأيت؟ ألهم أن يمنعوهم؟" ثم أسلوب الشرط: وأداته: لو: هي أداة امتناع لامتناع: أي أن الأمر على سبيل ضرب المثل والشاهد أو أن التعبير يتضمن دلالة الحدث وهو أن الذين أعيروا الشيء لن يمنعوا صاحب العارية من أن يستردها، وكذلك: أهل الغلام: فابنهم هبة من الله وعارية مستردة، والمعار باق على ملك المعير، فله استرداده متى شاء كما يقول صاحب دليل الفالحين؟ ثم تقول الزوجة والأم لزوجها بعد أن أقنعته عن طريق هذا التمهيد "فاحتسب ابنك" ولم تقل أنه مات لأنه لا راد لقضاء الله، وأن ميزان الإيمان يتجلى في الثبات لحظة استقبال الأحزان.

وقالوا: إن أم سليم كان لها من قوة القلب وثبات الجنان الغاية القصوى، فكانت تشهد الحرب وتداوي الجرحى فاللهم اجعلنا من الصابرين المحتسبين.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكمين فقهيين:

الأول: حكم المعاريض، فقد أجاز الفقهاء التعريض عند وقوع حالة من الحالات التي يباح فيها الكذب كالإصلاح بين المتخاصمين وإرضاء الزوجة والخدعة في الحرب، وكذا يجوز استخدام المعاريض في مخادعة الظالم المبطل، ولا يجوز استخدامها لمخادعة المحق، ولا تكون المعاريض إلا فيما حرم الشرع من الكذب ولا تكون في غيرها، فلا تجوز في البيع والشراء، والمعاريض كما تكون بالقول تكون بالفعل كما ذكر ابن القيم[1].

---

(١) أحكام القرآن للجصاص ٢٥٩/٣، والمبسوط، السرخسي ٢١١/٣٠ وما بعدها، والفتاوى الهندية ٤٣٦/٦، شرح السير الكبير على مختصر خليل، أبو البركات أحمد بن محمد الدردير ١١٩/١ وما بعدها، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد الباجي للباجي ٣١٣/٧ وما بعدها، أدب الدنيا والدين للماوردي ص ٢٦٥، ومغني المحتاج ١٨٢/٦، المغني، ابن قدامة ٤٢٠/٩، والفتاوى الكبرى ٧٩/٦ وما بعدها، ١٢١/٦ وما بعدها، وإعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم ١٨٧/٣ وما بعدها، والفروع، ابن مفلح ٥٦٣/٦، والآداب الشرعية، ابن مفلح ١٤/١ وما بعدها، ونيل الأوطار، الشوكاني ٣٠٣/٧.

الثاني: حكم تحنيك الصبي وتسميته، وذلك في باب العقيقة. وقد اتفق الفقهاء[١] على أنه يستحب لمن ولد له مولود أن يحنكه بعد ولادته سواء كان القائم بالتحنيك رجلاً أو امرأة، ويكون التحنيك بالتمر اتباعاً لسنته ﷺ، فإن لم يكن تمر فشيء حلو وأولاها عسل النحل، ويسمى المولود في اليوم السابع لولادته، وأفضل الأسماء ما كان فيه اسم الله تعالى كعبدالله وعبدالرحمن وما شابه ذلك.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الكناية، والاستفهام والجواب.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: حسن التوصل إلى الإخبار بما يكرهه الإنسان.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: الصبر على المصيبة وعدم الجزع.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: إجابة دعوة النبي ﷺ.

خامساً: من موضوعات الدعوة: تحنيك المولود.

سادساً: من دلائل النبوة: بركة دعاء النبي ﷺ.

أولاً- من أساليب الدعوة: الكناية، وأسلوب الاستفهام والجواب:

قد ورد أسلوب الكناية في الحديث من قول الراوي "ثم أصاب منها" وفي رواية "فوقع بها" وأيضاً ورد هذا الأسلوب في قوله ﷺ "أعرَّسْتُمُ الليلة؟".

قال القرطبي: (وقوله ﷺ "أعرستم الليلة؟" هو كناية عن الجماع. يقال: أعرسَ الرجل بأهله إذا بنى بها، وكذلك إذا غشيها)[٢]. وذلك من جميل وعظيم أدب الإسلام، قال النووي: (والمستحب في مثل هذا الكناية عن قبيح الأسماء واستعمال المجاز والألفاظ التي تحصل الغرض ...، وبهذا الأدب جاء القرآن العزيز والسنن كقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ

---

(١) مواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي الخطابي ٢٥٦/٣، وشرح الخرشي ٤٨/٣، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري ٥٤٩/١، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٤١٤/٨، وطرح التثريب ٢١١/٥ وما بعدها، والمغني، ابن قدامة ٣٦٥/٩، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي ٢٩/٣.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٤٦٧/٥.

لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ﴾[١] ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾[٢] ﴿فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾[٣] وقد يستعمل صريح الاسم لمصلحة راجحة، وهي إزالة اللبس أو الاشتراك أو نفي المجاز أو نحو ذلك كقوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى﴾[٤] وكقوله ﷺ ((أنكتها))[٥] وكقوله ﷺ ((أدبر الشيطان وله ضراط))[٦]... إلخ)[٧]. فعلى الداعية أن يكني في ألفاظه عن قبيح الأسماء إن لم يكن هناك مصلحة للتصريح بها.

أما أسلوب الاستفهام والجواب فقد ورد في الحديث من قول أنس رضي الله عنه: "فلما رجع أبو طلحة قال: ما فعل ابني؟ قالت أم سليم وهي أم الصبي: هو أسكن ما كان" وكذلك في قوله رضي الله عنه: "قالت: يا أبا طلحة أرأيت لو أن قوماً أعاروا عاريتهم أهل بيت فطلبوا عاريتهم، ألهم أن يمنعوهم؟ قال: لا" والاستفهام والجواب من الأساليب الدعوية الهامة التي تجعل المدعو على بصيرة من دينه، فتزيل عنه ما التبس من أفهام، وتكشف له عما خفي عنه، فيعبد الله على بصيرة وعلم وفي ذلك عظم الفائدة.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: حسن التوصل إلى الإخبار بما يكرهه الإنسان:

إن حسن التقديم للإخبار بما يكره الإنسان من المصائب ونحوها، من أعظم الأسباب التي يكون بها تهوين المصائب على صاحبها، فضلاً عن تقويته على عدم الجزع وحمله على الصبر.

وهذا ما ظهر جلياً في نص الحديث من فعل أم سليم رضي الله عنها، وتعريضها في القول بما

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٨٧.

(٢) سورة النساء، آية: ٢١.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٢٢.

(٤) سورة النور، آية: ٢.

(٥) أخرجه البخاري ٦٨٢٤.

(٦) أخرجه البخاري ٦٠٨، ومسلم ٣٨٨.

(٧) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٣.

يؤدي إلى تسكين قلب زوجها -أبو طلحة رضي الله عنه-، وحمله على الصبر وعدم الجزع لموت ابنه، قال أنس رضي الله عنه: "فلما رجع أبي طلحة قال: ما فعل ابني؟ قالت أم سليم وهي أم الصبي: هو أسكن ما كان، فقربت له العشاء فتعشى، ثم أصاب منها، فلما فرغ قالت: واروا الصبي" وفي رواية "فقالت لأهلها: لا تحدثوا أبا طلحة بابنه حتى أكون أنا أحدثه، فجاء فقربت إليه العشاء فأكل وشرب، ثم تصنعت له أحسن ما كانت تصنع قبل ذلك، فوقع بها.

فلما أن رأت أنه قد شبع وأصاب منها قالت: يا أبا طلحة أرأيت لو أن قوماً أعاروا عاريتهم أهل بيت فطلبوا عاريتهم، ألهم أن يمنعوهم؟ قال: لا، فقالت فاحتسب ابنك" وقد بين ابن هبيرة هذا الفقه الزاكي والأدب الرائع لأم سليم رضي الله عنها فقال: (وفي هذا الحديث ما يدل على حسن التوصل في تسكين القلوب المنزعجة، كما فعلت أم سليم من توصلها حتى أعلمت أبا طلحة بعد أن قضت هي أربها، فإن أرب أم سليم كان أن تجاهد نفسها حتى تكون مع بعلها، وفي دارها، وولدها ميت، فإن هذا من المقامات العجيبة، ولو كانت قد أعلمت أبا طلحة من قبل أن يقضي أربها لما تم لها مرداها، مما يدل على أن الإيمان هو محرك العقل. والثاني أن أم سليم توصلت بحسن عقلها ونياتها ومجاهدتها نفسها وإعراضها عما يستحسنه أراذل الناس، وسمو همتها، إلى ما يكون هو الحسن عند الله، وعند خيار المسلمين، فآثرت الأعلى حتى قاربت بمقام جمع لها من حسن الصبر، وكريم العزاء، وتجهيل الرجال الذين لا يكونون مثلها، وحسن القول الذي توصلت إلى غرضها به من التعريض العجيب الذي سلمت به من الكذب؛ فقالت رضي الله عنها قول يرضى الله ويمضي رسوله صلى الله عليه وسلم ويرضى كل مؤمن يسمع بهذا الحديث إلى يوم القيامة)[1].

وهذا ما أكده القرطبي في قوله: (وقولها: هو أسكنُ مما كان" هذا من المعاريض المغنية عن الكذب؛ فإنها أوهمته: أنَّ الصبيَّ سكنَ ما كان به بلفظ يصلحُ إطلاقه لما

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٥/٦٧.

عندها من موته، ولما فهمه أبو طلحة من سكون مرضه. وهذا كلُّه لئلا تفاجئه بالإعلام بالمصيبة فيتنغص عليه عيشه، ويتكدَّرَ عليه وقته، فلما حصلت راحته من تعبه، وطاب عيشه بإصابة لذته التي ارتجت بسببها أن يكون لهما عوض، وخلف مما فاته عرَّفته بذلك، فبلغها الله أمنيتها، وأصلح ذريتها)[١].

(وفي ذلك دليل على فضل أم سليم رضي الله عنها، وتثبُّتها، وكمال عقلها، وحسن تبعُّلها لزوجها)[٢]، فحري بالمسلمين نساءً ورجالاً أن يقتدوا بفعلها ويهتدوا بهديها.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: الصبر على المصيبة وعدم الجزع:

هذا ما أكد عليه نص الحديث من فعل أم سليم رضي الله عنها في صبرها على صدمة موت ابنها وتثبُّتها وعدم جزعها. قال ابن مُفلح المقدسي: (قال ابن عقيل في "الفنون": النعم أضياف وقِرَاها الشكرُ، والبلايا أضياف وقِراها الصبر، فاجتهدْ أنْ ترحل الأضياف شاكرةً حُسْنَ القِرَى، شاهدة بما تسمع وترى ...، وقال ابن تيمية: من تمام نعمة الله على عباده المؤمنين أن يُنزِلَ بهم من الشدة والضر ما يلجئهم إلى توحيده فيدعونه مخلصين له الدين، ويرجونه لا يرجون أحداً سواه، فتتعلق قلوبهم به لا بغيره، فيحصل لهم من التوكل عليه والإنابة إليه وحلاوة الإيمان وذوق طعمه والبراءة من الشرك ما هو أعظم نعمة من زوال المرض والخوف، أو الجدب أو الضر، وما يحصلُ لأهلِ التوحيد المخلصين لله الدين فأعظم من أن يُعبِّرَ عنه مقال، ولكل مؤمن من ذلك نصيب بقدر إيمانه)[٣].

وقد بشر الله تعالى الصابرين وعظّم أجرهم فقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾[٤].

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٥/٤٦٧.

(٢) انظر: المرجع السابق ٥/٤٦٧.

(٣) الآداب الشرعية، حماد بن عبدالله الحماد ٢/١٧٨.

(٤) سورة البقرة، الآيات: ١٥٥-١٥٧.

قال ابن كثير: (وقوله تعالى: "أولئك عليهم صلوات من ربهم" أي: ثناء من الله تعالى ورحمة. قال سعيد بن جبير: أي أَمَنَة من العذاب "وأولئك هم المهتدون" قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: نعم العدلان ونعمت العلاوة، وهي ما توضع بين العدلين، وهي زيادة في الحمل وكذلك هؤلاء، أعطوا ثوابهم وزيدوا أيضاً)[١].

قال ابن مفلح المقدسي: (وعلى العبد أن يعلم أن الجزع لا يرد المصيبة بل هو مرض يزيدها، وأنه يسرُ عدوه ويسيءُ محبه، وأن فوات ثوابها بالجزع أعظم منها، ومنه بيت الحمد الذي يبنى له في الجنة على حمده واسترجاعه، كما بينه النبي ﷺ في قوله: ((إذَا مَاتَ وَلَدُ العَبْدِ قالَ الله لِمَلاَئِكَتِهِ قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ نَعَمْ فَيَقُولُ قبضتم ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ. فَيَقُولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ حَمِدَكَ واسْتَرْجَعَ، فَيَقُولُ الله: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتاً فِي الجَنَّةِ وسَمُّوهُ بَيْتَ الحَمْدِ))[٢])[٣].

وقال ابن مفلح: (قال عبدالقادر: يا بني، المصيبةُ ما جاءت لتهلك، وإنما جاءت لتمتحن صبرك وإيمانك، يا بني، القَدَرُ سَبُعُ، والسَّبُعُ لا يأكلُ الميتةَ؛ فالمصيبةُ كيرُ العبد، فإما أن يخرج ذهباً أو خبثاً، كما قيل:

سَبَكْنَاهُ ونَحْسَبُهُ لُجَيْنَا ... فأبدى الكيرُ عن خَبَثِ الحديدِ[٤]

اللجين: الفضة جاء مُصغراً مثل الثُريا وكُمَيت.

واعلم أنه لولا المصائب لبطر العبدُ وبغى وطغى، فيحميه بها من ذلك، ويطهره مما فيه، فسبحان من يرحم ببلائه، ويبتلى بنعمائه كما قيل:

قد ينعمُ الله بالبلوى وإنْ عَظُمَتْ ... ويبتلي الله بعضَ القومِ بالنعمِ)[٥]

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٤٦٨/١.

(٢) أخرجه الترمذي ١٠٢١، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٨١٤).

(٣) انظر: الآداب الشرعية، حماد بن عبدالله الحماد ١٧٨/٢.

(٤) العقد الفريد ٤٢١/٣.

(٥) الآداب الشرعية، حماد بن عبدالله الحماد ١٨٢/٢. والبيت في خزانة الأدب ٣٧٧/٢، والعقد الفريد ١٧١/٣.

رابعاً- من موضوعات الدعوة: إجابة دعوة النبي ﷺ:

(لقد كان لرسول الله ﷺ من الدعوات المستجابات ما لا يُحْصى كثرةً مما حفلت به مصنفات الحديث ومدونات السير)[1]، وكان من ذلك ما ورد في نص الحديث من قول الراوي "فقال ﷺ أعرستم الليلة؟" قال: نعم، قال "اللهم بارك لهما"، فولدت غلاماً، وفي رواية "فحملت" ... فولدت غلاماً".

قال القرطبي: (وفي هذا الحديث ما يدل: على إجابة دعوة النبي ﷺ وعلى عظم مكانته، وكرامته عند الله، وكم له منها، وكم! حتى قد حصل بذلك العلم القطعيُّ، واليقين الضروري؛ وذلك: أنه لما دعا لأم سليم وزوجها ولدت له من ذلك الغِشْيَان عبدالله بن أبي طلحة وكان من أفاضل الصحابة)[2].

وكما ذكرنا أنه قد استفاضت الأدلة على إجابة دعاء النبي ﷺ، وكان مما يؤكد ذلك قول أنس بن مالك رضي الله عنه: ((أصابَتِ الناسَ سَنَةٌ على عَهدِ النبيِّ ﷺ فبَينما النبيُّ ﷺ يَخطُبُ في يومِ جُمعةٍ قامَ أَعرابيٌّ فقال: يا رسولَ اللهِ، هَلَكَ المالُ، وجاعَ العِيالُ، فادعُ اللهَ لنا. فَرفعَ يدَيهِ ـ وما نَرى في السماءِ قَزَعةً[3] فو الذي نفسي بيَدِه ما وَضعَها، حتى ثارَ السحابُ أمثالَ الجِبال، ثمَّ لم يَنزِلْ عن مِنبَرِهِ حتى رأَيتُ المطرَ يتَحادَرُ على لِحيتِهِ ﷺ. فمُطِرْنا يومَنا ذلكَ، ومِنَ الغَدِ، وبَعدَ الغَدِ، والذي يليهِ حتى الجُمعةِ الأُخرَى. وَقام ذلكَ الأعرابيُّ ـ أو قال غيرُهُ ـ فقال: يارسولَ اللهِ تهدَّمَ البِناءُ، وَغَرِقَ المالُ، فادعُ اللهَ لنا. فرفعَ يدَيهِ فقال: اللهمَّ حَوالَينا ولا علينا. فما يُشير بيدِهِ إلى ناحيةٍ مِنَ السحابِ إلا انفرجَتْ، وصارتِ المدينةُ مثلَ الجَوْبَةِ. وسالَ الوادي قَناةُ شهراً، وَلم يَجِىءْ أَحدٌ من ناحيةٍ إلاّ حدَّث بالجَودِ))[4] وفي ذلك يقين كامل على أن محمداً ﷺ رسول الله وأن الله تعالى يؤيده ويسدده ويستجيب دعاءه.

---

(١) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد ٥٣٩/١.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٤٦٧/٥-٤٦٨.

(٣) السحابة الصغيرة.

(٤) أخرجه البخاري ٩٣٣.

خامساً- من موضوعات الدعوة: تحنيك المولود:

إن من الأحكام التي شرعها الإسلام للمولود تحنيكه عقب الولادة، وهذا ما أكده نص الحديث في قول أنس ﷺ فقال لي أبو طلحة: احمله حتى تأتي به النبي ﷺ، وبعثت معه بتمرات، فقال: "أمعه شيء؟" قال: نعم، تمرات، فأخذها النبي ﷺ فمضغها، ثم أخذها من فيه فجعلها في في الصبي، ثم حنكه".

قال ابن هبيرة: (في هذا الحديث من الفقه حمل الصبي إلى الإمام أو العالم تبركاً به ليحنكه اقتداءً بالنبي ﷺ)[1].

وقال القرطبي: (فلا ينبغي أن يعدل عن ذلك اقتداءً بالنبي ﷺ واغتناماً لبركة الصالحين، ودعائهم)[2].

(والتحنيك معناه مضغ التمرة، ودلك حنك المولود بها؛ وذلك بوضع جزء من الممضوغ على الأصبع، وإدخال الأصبع في فم المولود، ثم تحريكه يميناً وشمالاً بحركة لطيفة، حتى يتبلغ الفم كله بالمادة الممضوغة، وإن لم يتيسر التمر فليكن التحنيك بأية مادة حلوة كالمعقود، أو رائب السكر الممزوج بماء الزهر، تطبيقاً للسنة، واقتداءً بفعله ﷺ.

ولعل الحكمة في ذلك تقوية عضلات الفم بحركة اللسان مع الحنك مع الفكين بالتلمظ، حتى يتهيأ المولود لِلقم الثدي، وامتصاص اللبن بشكل قوي، وحالة طبيعية. ومن الأفضل أن يقوم بعملية التحنيك من يتصف بالتقوى والصلاح تبركاً به، وتيمناً بصلاح المولود وتقواه)[3].

سادساً- من موضوعات الدعوة: بركة دعاء النبي ﷺ:

هذا ما يؤكده نص الحديث في قول ابن عيينة: فقال رجل من الأنصار: فرأيت تسعة أولاد كلهم قد قرؤوا القرآن، يعني من أولاد عبدالله المولود.

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٦٧/٥.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٤٦٨/٥.

(٣) تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، ٧١/١.

قال ابن هبيرة: (وفي الحديث أن النبي ﷺ دعا لهم بالبركة، والبركة في دعاء رسول الله ﷺ تنصرف إلى الدين، فإن الولد الذي ولد لهما كان عالماً قارئاً؛ لهذا قال الأنصاري: فرأيت تسعة من الأولاد كلهم قد قرأ القرآن)[1].

وقد شملت بركة دعاء النبي ﷺ المال والولد كما شملت البركة في الدين وليس أدل على ذلك من قول أنس بن مالك رضي الله عنه: ((جَاءَتْ بِي أُمِّي، أُمُّ أَنَسٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ. وَقَدْ أَزَّرَتْنِي بِنِصْفِ خِمَارِهَا وَرَدَّتْنِي بِنِصْفِهِ. فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هذَا أُنَيْسٌ، ابْنِي. أَتَيْتُكَ بِهِ يَخْدُمُكَ. فَادْعُ اللَّهَ لَهُ. فَقَالَ: اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ، قَالَ أَنَسٌ: فَوَاللَّهِ إِنَّ مَالِي لَكَثِيرٌ. وَإِنَّ وَلَدِي وَوَلَدَ وَلَدِي لَيَتَعَادُّونَ عَلَى نَحْوَ الْمِائَةِ، الْيَوْمَ))[2].

قال النووي: (قوله: "إن ولدي وولد ولدي ليتعادّون على نحو المائة اليوم" معناه: ويبلغ عددهم نحو المائة. وثبت في صحيح البخاري عن أنس: أنه دفن مع أولاده قبل مقدم الحجاج بن يوسف مائة وعشرون والله أعلم، وهذا من أعلام نبوته ﷺ)[3].

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٥/٦٧-٦٨.

(٢) أخرجه مسلم ٢٤٨١.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٠٤-١٥٠٥.

الحديث رقم (٤٥)

٤٥- وعنْ أَبي هُريرةَ رضي الله عنه أن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال: «**لَيْسَ الشديدُ بالصُّرَعةِ إِنمَّا الشديدُ الَّذي يمْلِكُ نَفسَهُ عِنْد الْغَضَبِ**» متفقٌ عليه[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

الصُّرعة: من يصرع الناس، وفي النهاية: الصُّرَعَة: المبالغ في الصِّراع، الذي لا يُغلب، فنقله إلى الذي يغلب نفسه عند الغضب؛ فإنه إذا مَلَكَها كان قد قهر أقوى أعدائه وشَرَّ خصومه[2].

الشرح الأدبي

إن الصبر لا تنحصر أشعته الهادية في دائرة الابتلاءات فقط بكل ما تموج به من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، فهذه الدائرة يمكن أن يقابل الإنسان طغيان أحداثها بالصبر والاحتساب والتأمل والحكمة والرضا والخشوع، وإنما الصبر تتسع دائرته لتشمل الصبر على النعمة، والصبر على أداء الطاعة، والصبر على مقاومة المعصية، والصبر على مقاومة جموح النفس، والانتصار لها، في المواقف التي يستثار فيها الإنسان، ويظن أن الإهانة لحقت به، وأن معالم شخصيته تتبدد.

والحديث النبوي الشريف يقودنا إلى مجاهدة النفس وهو الجهاد الأكبر، فالنفس أمارة بالسوء.

وغرور القوة يوقع الإنسان في حمأة الباطل، والاغترار بالمظاهر المادية والعنفوان الجسدي، ينسي الإنسان أحياناً، كثيراً من القيم الإنسانية الجميلة مثل التسامح ، والتواضع، والاتزان والثبات.

---

(١) أخرجه البخاري ٦١١٤، ومسلم ٢٦٠٩/١٠٧ ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه (٤٠٥٢). وسيكرره المؤلف برقم (٦٤٧).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ص ر ع)، ورياض الصالحين ٦٧.

والحديث في بنائه اللغوي يتكون من جملتين موجزتين ، ولكنهما تفصحان عن المعنى المراد والهدف المقصود ، والجملة الأولى حكم عام ، ومبدأ إسلامي وإنساني قويم: وقد صيغ في قالب النفي، والنفي هنا أسلوب يجسد المفارقة بين الشدة والصرعة، حيث يعدل البيان النبوي عن المألوف، ويلجأ إلى ما يسمى بالعدول والانزياح، "في علم الأسلوب"، فالذي ألفه العرب والناس جميعاً أن الشديد هو القوي الجسد المتكامل البنيان وهو الشخص "الصرعة" أي الذي يصرع الناس كثيراً؛ وربما قدرة هذا الشخص الجسدية لا تؤازرها قدرة عقلية، أو رقة شعورية أو حكمة نفسية وقلبية، ولذلك كان بيان الرسول ﷺ محكماً حين قال: "ليس الشديد بالصرعة" ولفظ الشديد يشع بكل ألوان الشدة والقوة على جميع توجهاتها وتصوراتها ، ولفظ "الصرعة" على وزن "فُعَلة" بضم الفاء وفتح العين، وبنية الكلمة هنا تجسد الفعل، وتوضح الحدث، وتومئ إلى ما ألفه الناس.

أما الجملة الثانية: فهي توضيح للإبهام الذي أثارته الجملة الأولى، وكأنها إجابة عن سؤال نشأ ، ومن هو الشديد إذن؟ فأجاب رسول الله ﷺ في أسلوب القصر، كناية عن تلازم الشيئين وإتصاف الشديد بصفة مستقرة دائمة "فهو الذي يملك نفسه عند الغضب" إنما تدل على القصر إيماءً بثبات هذه الصفة، والتعبير بقوله: "يملك نفسه" كناية عن تحكم الإنسان في نفسه ساعة الغضب، لأن الغضب يحمل على الوقوع في أسباب الهلاك في دينه، ومن المفارقات اللغوية المثيرة للدهشة أن الغضب في مدلوله اللغوي يعني الرضا، وكأن الغاضب يرضى عن نفسه حالة هياجه وانفعاله؛ وسبب الغضب – كما يقول العلماء حصول مخالف لمراد الإنسان ممن هو دونه وتحت يده فيحصل منه تلك الحالة المقتضية لفعل ما لا يجوز، من قتل أو ضرب أو سب، وقال: جعفر ابن محمد : "الغضب مفتاح كل شر" قال الحسن: أربع من كن فيه عصمه الله من الشيطان وحرَّمه على النار: من ملك نفسه عند الرغبة والرهبة والشهوة والغضب وقال بعض السلف: الغضبان إذا كان سبب غضبه مباحاً كالمرض والسفر أو الطاعة كالصوم لا يلام عليه ،لأنه لا يؤذي غيره[1] .

---

(١) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي ص ٣٦٨، ٣٧٤.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم الغضب وأثره في التصرفات، وقد ذكر الفقهاء[1] أن الغضب منه المحمود ومنه المذموم، فالغضب المحمود ما كان في جانب الحق والدين، والذب عن الحرم، والعرض، وانتهاك حرمات الدين وما ماثل ذلك، والغضب المذموم ما كان في سبيل الباطل، ويهيجه الكبر والاستعلاء والأنفة.

وقد ذهب جمهور الفقهاء[2] إلى أن الغضبان مكلف في حال غضبه ويؤاخذ بما يصدر عنه من كفر وقتل وطلاق وعتاق ويمين وأخذ مال بغير حق وغيره، كما أنه لا يجوز للمفتي أن يفتي في حال غضبه.

المضامين الدعوية

أولاً: من مهام الداعية: تصحيح المفاهيم السائدة بين الناس.

ثانياً: من أساليب الدعوة: أسلوب النفي وأسلوب القصر.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: فضيلة كظم الغيظ.

أولاً- من مهام الداعية: تصحيح المفاهيم السائدة بين الناس:

إن من أبرز المهام التي ينبغي أن يقوم بها الداعية: تصحيح المفاهيم السائدة بين الناس وتعديلها في ضوء الشرع وميزانه، وذلك لخطورة انتشار المفاهيم الخاطئة وتأثيرها الشديد على المجتمع؛ لأنها تسهم في تشكيل السلوك الفردي والجماعي لبعض فئات

---

(١) بريقة محمودية في طريقة محمدية وشريعة نبوية في سرية أحمدية، محمد بن مصطفى الخادمي ٢/٢٦٩، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد الباجي للباجي ٧/٢١٤، والزواجر عن اقتراف الكبائر، أبو العباس أحمد بن محمد الهيتمي ١/٨٣، وسبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، الصنعاني ٢/٦٥٧، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٣١/٢٥٨ وما بعدها.

(٢) رد المحتار ٣/٢٤٤، وأحكام القرآن لابن العربي٢/٣٢٦، وحاشية الدسوقي على الشرح الكبير، محمد بن عرفة الدسوقي ٢/٣٦٦، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١/٨٠، وتحفة المحتاج في شرح المنهاج، ابن حجر ٨/٣٢، وحاشية الجمل ٤/٣٢٤، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي ٥/٢٣٥، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي للمرداوي ٨/٤٨١، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٣١/٢٥٩.

المجتمع، ومن ثُمّ يكون تأثيرها ممتداً إلى الأفراد والجماعات.

لذا كان وجود المفاهيم غير الصحيحة يمثل عائقاً كبيراً أمام الداعية في تبليغ دعوته، وجني ثمارها وتحقيق أهدافها؛ ومن ثمَّ وجب على الداعية أن يصحح هذه المفاهيم حتى يتصرف الأفراد وفق المفهوم الصحيح ويحكموا على التصرفات والأفعال في ضوئه.

وقد ضرب لنا النبي ﷺ المثل في ذلك فقد صحح مفهوم القوة، فإذا كان الناس يعتقدون أن القوي هو الذي يصرع الناس ويتغلب عليهم، وما يترتب على ذلك من انتشار ثقافة العنف في المجتمع واختفاء روح التسامح والرفق منه، وما في ذلك من أشد الضرر على الفرد والجماعة، لما كان الناس يعتقدون ذلك قام النبي ﷺ بتوجيههم إلى المفهوم الصحيح للقوة، وهو كظم الغيظ وتحمل الأذى والتحكم في النفس ودفعها عن إنفاذ الغضب وكفها عن الاستجابة لمقتضياته من رد العدوان والاقتصاص، أما قوة الجسد والتغلب على الآخرين فليست من القوة في شيء[(١)].

قال ابن هبيرة: "في هذا الحديث من الفقه نفي رسول الله ﷺ الشدة عن قوة أعضاء الإنسان وإثباتها في عقله الذي يصرع هواه عند الغضب"[(٢)].

كما خاطبهم النبي ﷺ فقال: ((فَمَا تَعُدُّونَ الصُّرَعَةَ فِيكُمْ؟)) فأجابوه بما هو شائع بينهم: ((الَّذِي لاَ يَصْرَعُهُ الرِّجَالُ)) فأجابهم مصححاً ومقوماً: ((لَيْسَ بِذَلِكَ. وَلَكِنَّهُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ))[(٣)]. قال النووي: (تعتقدون أن الصرعة الممدوح القوي الفاضل هو القوي الذي لا يصرعه الرجال بل يصرعهم، وليس هو كذلك شرعاً بل هو من يملك نفسه عند الغضب فهذا هو الفاضل الممدوح الذي قلّ من يقدر على التخلق بخلقه ومشاركته في فضيلته بخلاف الأول)[(٤)].

---

(١) انظر: حاشية السندي على مسند أحمد (١٩٨/٣٨).

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٨٩/٦.

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٠٨).

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٥٤.

وفي الحقيقة إذا نظرنا بالعين الفاحصة والفهم الدقيق لوجدنا أن القوة هي القوة النفسية التي تتحكم في الجسد وتوجهه وتضبطه، أما القوة الجسدية التي تتصرف في النفس وتوجهها وتقودها فليست من القوة في شيء؛ لأنها تجعل الإنسان يستجيب لنزعاته وأهوائه واندفاعاته، فيكون ضعيفاً أمامها مقوداً لا قائداً مفعولاً لا فاعلاً، ولذا رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: ((الصُّرَعَةُ كُلُّ الصُّرَعَةِ، الصُّرَعَةُ كُلُّ الصُّرَعَةِ، الرَّجُلُ الذي يَغْضَبُ فَيَشْتَدُ غَضَبُهُ وَيَحْمَرُّ وَجْهُهُ وَيَقْشَعِرُّ شَعْرُهُ فَيَصْرَعُ نفسه))(١).

قال الغزالي: (ومن أشد البواعث على الغضب عند أكثر الجهال تسميتهم الغضب شجاعة ورجولة وعزة نفس وكِبَرْ همة، وتلقيبه بالألقاب المحمودة غباوة وجهلاً، حتى تميل النفس إليه وتستحسنه، وقد يتأكد ذلك بحكاية شدة الغضب عن الأكابر في معرض المدح بالشجاعة؛ والنفوس مائلة إلى التشبه بالأكابر فيهيج الغضب إلى القلب بسببه. وتسمية هذا عزة نفس وشجاعة جهل، بل هو مرض قلب ونقصان عقل وهو دليل على ضعف النفس ونقصانها. وآية أنه لضعف النفس أن المريض أسرع غضباً من الرجل، والصبي أسرع غضباً من الرجل الكبير والشيخ الضعيف أسرع غضباً من الكهل، وذو الخلق السيئ والرذائل القبيحة أسرع غضباً من صاحب الفضائل، فالرذل يغضب لشهوته إذا فاتته اللقمة، ولبخله إذا فاتته الحبة، حتى أنه يغضب على أهله وولده وأصحابه)(٢).

ولا شك أن الإنسان إذا جمع بين القوة النفسية والقوة الجسدية فإنه يكون قد جمع من الخير الكثير.

وعلى نهج تصحيح المفاهيم جاء حديث النبي ﷺ ((أَتَدْرُونَ مَنْ الْمُفْلِسُ؟)) فأجابه الصحابة الكرام بما استقرَّ في وجدانهم من أنه الفقير، فقالوا: ((الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ)) فصحح لهم النبي ﷺ هذا المفهوم فأخبرهم أن المفلس الذي يحق أن يطلق عليه لفظ المفلس هو الذي يأتي يوم القيامة وقد زادت سيئاتهُ عن حسناته، بسبب

---

(١) أخرجه أحمد ٣٦٧/٥ رقم ٢٣١١٥، وقال محققو المسند: هذا إسناد ضعيف ١٩٦/٣٨.

(٢) إحياء علوم الدين، الغزالي ١٦٥٧/٣.

عدوانه على الناس وظلمه لهم[1].

قال النووي: (إن هذا حقيقة المفلس، وأما من ليس له مال ومن قلّ مالُه فالناس يسمونه مفلساً. وليس هو حقيقة المفلس، لأن هذا أمر يزول وينقطع بموته وربما ينقطع بيسارٍ يحصل له بعد ذلك في حياته، وإنما حقيقة المفلس هذا المذكور في الحديث، فهو الهالك الهلاك التام، والمعدوم الإعدام المقطع)[2].

ثانياً- من أساليب الدعوة: النفي والقصر:

استخدم النبي ﷺ في هذا الحديث أسلوب النفي والقصر، وذلك لأنه ﷺ أراد أن ينفي المفهوم الشائع للقوة عند المدعوين، فاستخدم أسلوب النفي ((ليس الشديدُ بالصّرَعة))؛ لينزع من النفوس ما استقر فيها.

ثم استخدم ﷺ أسلوب القصر "إنما" ليثبت المفهوم الصحيح للقوة، وليقضي نهائياً على المعنى السائد وينشر المعنى الصحيح، ويُقره في الأفهام والعقول، لتتمثله في أعمالها وأحكامها.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: فضيلة كظم الغيظ:

لما كان الإنسان مدنياً بطبعه يعيش في مجتمع تختلف فيه الطبائع والمشارب والرغبات، فتنشأ الاختلافات وتظهر المنازعات، فتتوافر الأسباب الداعية للغضب، وما يترتب على ذلك من إنفاذه والاقتصاص من المسبب له؛ وما يترتب على ذلك أيضاً من العداوة والشقاق والتنازع والتخاصم بين أفرادِ المجتمع وجماعاته لما كان الأمر كذلك، فإن كظم الغيظ يبرز هنا ليقطع هذا التسلسل وذلك الترتيب بين دوافع الغضب في النفس وبين إعماله وإنفاذه في أرض الواقع؛ ولاشكّ أن هذا يحتاج إلى مجاهدة شديدة وقوة نفسية كبيرة.

وقال ابن هبيرة: "والذي أرى أن رسول الله ﷺ ذكر الغضب من أجل أنّ النفس إذا غضبت فإنما يكون ذلك منها لأذى اتصل بها فتفور إلى الانتقام، ولا يكون ذلك في الأكثر إلا على مقدور عليه، فذكر رسول الله ﷺ هذا العارض منبهاً لها أنه إن

---

(١) أخرجه مسلم ٢٥٨١.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٤٤.

كان عن خوف أو عن طمع أو عن هوى كان في كل ذلك مكابداً بها منها ما لا يلحق درجة الغضب، لأنها لا تغضب إلا في مقام تظل فيه متسلطة، والمؤمن يذكرها عن استشاطتها بالغضب وما في عاقبة الكظم واطلاع الله عز وجل عليه، مع كونه قد أتى من مساخط الله تعالى أضعاف ما أتاه المسخوط عليه، فأمهل سبحانه وسامح فليمثل في نفسه عفواً بعفو وانتقاماً بانتقام.

وقوله: "الشديد"؛ بالألف واللام المعرفتين، يريد به أن الرجل ذا اللب مسلط عليه الغضب أكثر من غيره؛ لأنه كله حسن وجملته فطنة، فإذا أتى عليه ما يغضبه ثار في طلب الانتقام بجملته وأحس بالمؤذي، فجميع أجزائه حينئذ ينبغي أن تشكر نعمة الله عليه في تعزيز لبه وزيادة حسه، وليكن أشدّ كفًا، كلما كان أشد قدرة ليحظى بالإخلاص في العفو لوجه الله عز وجل"[١].

لذا كان كظم الغيظ من صفات المتقين أصحاب الجنة، فهم ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[٢]، كما أن الله سبحانه يعظم له الأجر والمكافأة، فأخبر النبي ﷺ أنه ((مَا مِنْ جُرْعَةٍ أَعْظَمُ أَجْراً عِنْدَ اللَّهِ، مِنْ جُرْعَةِ غَيْظٍ، كَظَمَهَا عَبْدٌ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ))[٣]، فيكافئه سبحانه بطريقة تدل على تميزه وعلو مكانته عنده سبحانه، وذلك بأن كافأه أمام الناس يوم القيامة، مباهاة ومفاخرة بفعله، بأن ((دَعَاهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُؤوسِ الْخَلاَئِقِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ فِي أَيِّ الْحُورِ شَاءَ))[٤]، وذلك لأنه لما ضيّق على نفسه في الدنيا بسط الله له الجزاء يوم القيامة.

لذا كان كظم الغيظ صفةً من تحلى بها فاز وربح. فما أحسن أن يتحلى بها المسلمون[٥].

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٦/٨٩ - ٩٠.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣٤.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤١٨٩)، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٣٣٧٧).

(٤) أخرجه أبو داود (٤٧٧٧)، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٩٩٧).

(٥) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد ٨/٣٢٣٦-٣٢٤٤.

الحديث رقم (٤٦)

٤٦- وعنْ سُلَيْمانَ بْنِ صُرَدٍ ﷺ قال: كُنْتُ جالِساً مع النَّبي ﷺ، ورجُلان يستَبَّانِ وأَحدُهُمَا قَد[1] احْمَرَّ وَجْهُهُ. وانْتَفَخَتْ أوداجهُ. فقال رسولُ اللَّه[2] ﷺ: «**إنِّي لأعلَمُ كَلِمةً لَوْ قَالَهَا لذَهَبَ عنْهُ ما يجِدُ، لوْ قَالَ: أعوذُ باللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ذَهَبَ عنْهُ ما يجدُ**». فقَالُوا لَهُ: إنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ: «**تعوَّذْ باللَّهِ مِن الشَّيطان الرَّجِيمِ**» متفقٌ عليه[3].

ترجمة الراوي:

سليمان بن صُرد: سليمان بن صُرد بن الجَوْن بن أبي الجَوْن، الأَزديُّ السلوليّ الخزاعيّ الكوفي، صحابي ومن الزعماء القادة.

وكان قبل أن يدخل الإسلام يُسمى يساراً فغير النبي ﷺ اسمه كعادته في تغيير الأسماء السيئة إلى الحسنة فسماه سليمان.

له في المرويات خمسة عشر حديثاً وكان ممن سكن الكوفة، وابتنى بها داراً في خزاعة، وكان نزوله بها في أول ما نزلها المسلمون، وكان ﷺ خيِّراً فاضلاً له دين وعبادة، وفي قومه كان له سن عالية وشرف، وقدر وكلمة فيهم.

وكان ممن شهد مع علي بن أبي طالب ﷺ الجَمَل وصفين وهو الذي قتل حوشباً ذا ظُليم الألهاني بصفين مبارزة ثم اختلط الناس يومئذ، ثم كان ممن كاتب الحسين يسأله القدوم إلى الكوفة، فلما قدمها ترك القتال معه، فلما قُتل الحسين قدم هو والمسيب بن نَخَبَه وجميع من خذله على رأس أربعة آلاف سموا بالتوابين فخرجوا إلى الشام في الطلب بدم الحسين، وكانوا يطلبون قتل عبيدالله بن زياد، وأن يخرج مَنْ في العراق مِنْ أصحاب ابن الزبير، ويردوا الأمر لأهل البيت، فالتقاهم عبيد الله بن زياد

---

(١) (قد) لا توجد عند البخاري في هذه الرواية، وإنما عنده برقم (٦١١٥).

(٢) لفظ البخاري: (النبي).

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٨٢) واللفظ له، ومسلم (٢٦١٠/١٠٩). أورده المنذري في ترغيبه (٤٠٦١).

بمكان يُسمى عين الوردة بعسكر مروان فقتل سليمان بن صُرد ومن معه، وكان الذي قتل سليمان بن صُردٍ يزيدُ بن الحصين بن نمير رماه بسهم فقتله وحمل رأسه ورأس المسيب بن نَخْبَة إلى مروان بن الحكم أدهم بن محرز الباهلي، وكان ذلك في سنة خمس وستين في شهر ربيع الأول، وكان سليمان يوم أن قتل ابن ثلاث وسبعين سنة[1].

غريب الألفاظ:

يَسْتَبّان: أي يسبُّ كل منهما الآخر، والسب: الشتم[2].

الأوداج: واحدها وَدَجٌ: ما أحاط بالعنق من العروق وهما وَدَجَان[3]، ينتفخان عند شدة الغضب.

الشيطان الرجيم: المطرود عن الخيرات وعن منازل الملأ الأعلى[4].

الشرح الأدبي

يقدم هذا الحديث الشريف دواء ناجعاً لداء "الغضب"، من خلال موقف عملي، وتجربة واقعية، وهذا الحديث يأتي توضيحاً وتفصيلاً للإجمال والإيجاز في الحديث السابق، وهو ثمرة نافعة نقطفها من رياض الصالحين وكلام سيد المرسلين، وكثير من الأحاديث تصاغ في قالب حواري تشهده مجالس الرسول ﷺ، وتعمر بها مواقفه الراشدة في توجيه عامة المسلمين وخاصتهم إلى سبيل الرشاد ووقائع هذه الجلسة يقدمها الراوي: سليمان بن صرد رضي الله عنه، وكان خيّراً فاضلاً ذا دين وعبادة وشرف في قومه، ويبدأ بقوله: "كنت جالساً مع النبي ﷺ" وأَعْظِم بهذه الجلسة وأَكْرِم بها ولهذه

---

(١) الطبقات، ابن سعد (٢٩٢/٤، ٢٩٣)، (٢٧/٦)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر (٢٩٤)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير (٥٤٨/٢، ٥٤٩)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني (٥٣٦)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي (٢٨٤/٣، ٢٨٥)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٩٨/٢، ٩٩)، والأعلام، خير الدين الزركلي (١٢٧/٣).

(٢) انظر: الوسيط في (س ب ب).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (و د ج)، والوسيط في (و د ج).

(٤) المفردات ١٩٠.

الجلسة آداب ومقاييس وملامح ومعالم فكان رسول الله إذا تكلم سكت جلساؤه، وإذا سكت تكلم أصحابه كل حسب دوره، لا حسب مكانته، لا يقاطع أحدُهم الآخر، ولا يقاطع رسولُ الله أحدهم وكان صبورا حليماً صبراً على الغضب، وحليماً على الجهل، وكان حازماً في رد النفاق، كان صبيح الوجه حسن الصوت، عليه الصلاة والسلام(١).

هذه آداب مجلس رسول الله ﷺ، وهذه شمائله مع أصحابه.. ولكن... ويا للعجب!! هذا المجلس النبوي تقطع سكونَه المهيب وجلالَه الوضاء، هذه السلوكيات من بعض الذين لم يقطعوا أسباب الغضب، والذين ينتصرون لرغبات أنفسهم، ولا يتحكمون في جموح انفعالاتهم، ففي مجلس رسول الله ﷺ الذي تحفه السكينة وتغشاه الرحمة، وتحضره الملائكة نشهد على مرآى ومسمع من رسول الله رجلين يستبّان: أي يسب كل منهما الآخر، وأحدهما بلغ به الغضب ذروته، فظهر أثر الغضب على هيئته، فاحمر وجهه وانتفخت أوداجه، والأوداج ما أحاط بالعنق من العروق التي يقطعها الذابح.

ولنتأمل موقف مَنْ بالمؤمنين رءوف رحيم؛ هل نَهَرَهُما؟ هل حاكمهما؟ هل أمر بطردهما؟ لا لا، هكذا تكون أخلاق النبوة: إنه عالج الموقف بالحكمة والموعظة الحسنة، وأرشدهما إلى كبح جماح الغضب بالالتجاء إلى الله، والاستعاذة به من الشيطان الرجيم، لأن الغضب - من الشيطان، والشيطان من النار، وإنما تطفأ النار بالماء، والوضوء مع الاستعاذة والبسملة هو الطريق إلى الانتصار على شيطان الغضب، ولذلك قال رسول الله: في أسلوب التأكيد، ودلالة العلم اليقينية، "إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد"، والكلمة هنا: المراد منها الكلام المفيد كما قال ابن مالك، "وكلمة بها كلام قد يؤم"(٢)، وهذه الكلمة التي جاءت في صيغة النكرة تدل على العموم والشمول: لأنها حين حددها رسول الله ﷺ، تظل دواءً لآلاف بل وملايين

---

(١) انظر: محمد رسول الله ﷺ، محمد متولي الشعراوي ص ٣١.

(٢) أي يراد أو يقصد بها جمع من الكلام.

الحالات الانفعالية الغضبية في كل الأزمنة وجميع الأمكنة، وسائر الأحوال وهي: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وأعوذ: معناه: ألجأ وأعتصم بالله، من الشيطان، ومَنْ غير الإله القوي القادر يستطيع حماية الإنسان من أغواء الشيطان؟ والمدلول اللغوي للفظ الشيطان يصور وظيفته ودوره في إضلال البشرية، لأن لفظ الشيطان إما أن يكون من شاط أي احترق، وهذا المدلول ينبئ عن مصير الذين يتبعون وساوس الشيطان، وعن مصير الشيطان نفسه، فمآله الجحيم، وإما أن يكون أصل الكلمة، "شطن"، وتومئ بالبعد عن رحمة الله. أو تكسيل العبد وتصيده بالذنوب، وهكذا يكون العلاج النبوي هو الطريق السوي للقضاء على نزغات الشياطين.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم الاستعاذة من الغضب، والاستعاذة سنة عند أغلب الفقهاء[1] وقال البعض بوجوبها عند قراءة القرآن وعند الخوف، أما في حالة الغضب فقد ذكر الفقهاء أنه ينبغي لمن غضب أن يتعوذ بالله من الشيطان الرجيم فإنه علاج لغضبه ومسكن لما تهيج منه كما أخبر بذلك النبي ﷺ.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على مجالسة النبي ﷺ.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: بيان مساوئ الغضب.

ثالثاً: من مهام الداعية: تقديم العلاج المناسب للمشكلات.

رابعاً: من أساليب الدعوة: التوكيد والتشويق والأمر.

خامساً: من مهام الداعية: التحذير من الشيطان وعداوته للإنسان.

سادساً: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على نقل الأخبار الواردة عن النبي ﷺ.

---

(١) بريقة محمودية في طريقة محمدية وشريعة نبوية في سرية أحمدية، محمد بن مصطفى الخادمي ٢٧٦/٢، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٣/١٦، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٥/٤.

أولاً- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة ﷺ على مجالسة النبي ﷺ:

لقد بعث الله النبي محمداً ﷺ بالإسلام، وأمره أن يبلغه للناس، فمنهم من أعرض عنه، ومنهم من شرح الله صدره فآمن به وصحبه. فكانوا أصحابه، وكان من أخلاقهم الحرص على مجالسة النبي ﷺ، وذلك للتعلم منه والاقتداء به، وحفظ شريعته ونقلها إلى من بعدهم؛ لذا كانوا أحرص ما يكون على مجالسته ﷺ وملازمته، كما في هذا الحديث: ((كنتُ جالساً معَ النبيِّ ﷺ)).

وقد بلغ من حرصهم على ذلك أنهم إذا شغلهم طلب العيش تناوبوا النزول عليه ﷺ، فينقل من حضر إلى من غاب ما كان من أمره ﷺ.

قال عمر بن الخطاب ﷺ: ((كنتُ أنا وجارٌ لي مِنَ الأنصارِ في بني أُمَيَّةَ بن زيدٍ -وهيَ مِن عوالي[1] المدينةِ- وكنا نَتَناوَبُ النُّزولَ عَلَى رسول الله ﷺ، يَنزِلُ يَوماً وأَنزِلُ يَوماً، فإذا نَزَلتُ جِئتُه بِخَبَرِ ذلكَ اليومِ مِنَ الوحيِ وغيرِه، وإذا نَزَلَ فَعلَ مِثلَ ذلِكَ))[2].

وكانوا في مجالستهم إياه ﷺ يلتزمون الأدب الرفيع والتبجيل والإجلال له، مع مراقبة أحواله وسرعة الامتثال لأوامره. قال عروة بن مسعود الثقفي واصفاً أحوالهم معه ﷺ في غزوة الحديبية، وقد راعه ذلك: ((والله لقَد وفَدْتُ على المُلوكِ، ووَفدتُ على قَيصَرَ وكِسْرَى والنَّجاشيِّ، واللهِ إنْ رأيتُ مَلِكاً قطُّ يُعظِّمهُ أصحابهُ ما يعظم أصحابُ محمدٍ ﷺ محمداً، ... إذا أمرَهم ابتَدروا أمرَه، ... وإذا تكلموا خَفَضوا أصواتَهم عندَه، وما يُحِدُّونَ إليهِ النَّظرَ تَعظيماً له))[3].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: بيان مساوئ الغضب:

كل حالة شعورية تنتاب الإنسان تظهر ملامحها عليه في الأغلب الأعمّ، ومن أشد الحالات الشعورية التي تنعكس على الإنسان ومظهره وهيئته وتصرفاته - حالة الغضب، يظهر ذلك جلياً في خروجه عن شعوره، وفقده السيطرة على نفسه وضبطها،

---

(١) اسم مكان قريب من المدينة المنورة.

(٢) أخرجه البخاري (٨٩)، ومسلم (٣٤-١٤٧٩).

(٣) أخرجه البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢).

فضلاً عن تغير شكله وهيئته؛ فيحمر وجهه وتنتفخ عروقه ويضيق نَفَسُه ونحو ذلك. مما قد يكون نذيراً ومقدمة إلى فعل ما لا تحمد عقباه، فيندم بعد ذلك أشد الندم، أو إلى تأثر صحته تأثراً سلبياً قد يكون كبيراً. ومن ثم كان من الموضوعات الجديرة بأن تعالج دعوياً بيان مساوىء الغضب التي تؤثر في الجسد والنفس. وهذا ما فعله الصحابي الجليل في هذا الحديث (وأحدهما قد احمرَّ وجهه وانتفخت أوداجه) وقد وصف معاذ بن جبل أثر ذلك فقال: ((اسْتَبَّ رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَغَضِبَ أَحَدُهُمَا غَضَباً شَدِيداً حَتَّى خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّ أَنْفَهُ يَتَمَزَّعُ مِنْ شِدَّةِ غَضَبِهِ))[1].

قال ابن رجب: (إن الغضب جماع الشر، وأن التحرز منه جماع الخير... قال جعفر بن محمد: الغضب مفتاح كل شر. وقيل لابن المبارك: اجمع لنا حسن الخلق في كلمة، قال: ترك الغضب. وكذا فسر الإمام أحمد وإسحاق بن راهويه حسن الخلق بترك الغضب ... والغضب هو غليان دم القلب طلباً لدفع المؤذي عند خشية وقوعه، أو طلباً للانتقام ممن حصل منه الأذى بعد وقوعه، وينشأ من ذلك كثير من الأفعال المحرمة كالقتل والضرب وأنواع الظلم والعدوان، وكثير من الأقوال المحرمة كالقذف والسبِّ والفحش، وربما ارتقى إلى درجة الكفر وكالأيمان التي لا يجوز التزامها شرعاً، وكطلاق الزوجة الذي يُعْقِب الندم)[2].

ثالثاً- من مهام الداعية: تقديم العلاج المناسب للمشكلات:

يواجه الداعية كثيراً من المشكلات التي يستطيع بعلمه وحكمته أن يضع لها العلاج المناسب. وفي هذا الحديث رأى النبي ﷺ الرجل قد غضب غضباً شديداً، وقد ظهر ذلك على هيئته وعلى لون وجهه وانتفاخ أوداجه ونحو ذلك. وهذا كله قد يدفعه إلى أن يُنفذ غضبه، فيقتص ممن أغضبه، ومن ثم قد يزداد هذا الغضب ويؤدي إلى

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٠٨٦/٣٦) وأبو داود (٤٧٨٠) وضعفه الألباني (ضعيف سنن أبي داود ١٠٢٤) لكن قال محققو المسند: صحيح لغيره.

(٢) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٣٦٢/١، ٣٦٣، ٣٦٩.

نتائج غير مرضية. لذا سارع النبي ﷺ إلى وضع العلاج المناسب حتى يذهب ما في نفسه من الغضب، فقال: ((لو قال: أعوذُ باللّهِ منَ الشيطان الرجيم ذَهبَ عنه ما يَجدُ))، فكان من صفات هذا العلاج أنه يُذهب الغضب وبآثاره الناتجة عنه فيما لو استمرّ وتطور.

وقال ابن رجب: (وكان النبي ﷺ يأمر من غَضِب بتعاطي أسباب تدفع عنه الغضب. وتسكنه، ويمدح من ملك نفسه عند غضبه... أخرج الإمام أحمد وأبو داود من حديث أبي ذر أن النبي ﷺ قال: ((إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ، فَإِنْ ذَهَبَ عَنْهُ الْغَضَبُ وَإِلاَّ فَلْيَضْطَجِعْ))[1]. وقد قيل: إن المعنى في هذا أن القائم متهيئ للانتقام، والجالس دونه في ذلك، والمضطجع أبعد عنه، فأمره بالتباعد عن حالة الانتقام)[2].

رابعاً- من أساليب الدعوة: التوكيد والتشويق والأمر:

١- التوكيد: في قوله ﷺ: "إني لأعلم كلمةً...". وقد جاء هذا التوكيد مناسباً لحالة التأزم بين الرجلين بسبب التشاتم والتغاضب بينهما، فجاء التوكيد ليكون على مستوى هذا التأزم، ليؤكد أن ما يقوله النبي ﷺ هو الحل المناسب لهذا الموقف.

٢- التشويق: في قوله ﷺ: "إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد..." فقد ذكر النبي ﷺ أن هذه الكلمة تذهب الغضب دون أن يصرح بها مباشرة، وذلك ليدفع السامعين إلى التشوق والتطلع إلى هذا الحل. وقد جاء هذا التشويق مناسباً للحالة النفسية للمدعوين: فهو من ناحية يصرف أذهان السامعين عن الاسترسال مع التشاتم والتسابب. ويدفع المتشاتمين إلى التوقف عن ذلك. كما أنه يثبت هذا العلاج في أذهان المدعوين من ناحية أخرى.

٣- الأمر: وذلك في قول الصحابة للمغضب: إن النبي ﷺ قال: "تعوذ بالله من الشيطان الرجيم".

---

(١) أخرجه أحمد ٢١٣٤٨/٣٥، وأبو داود ٤٧٨٢، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤٠٠٠).

(٢) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٣٦٤/١-٣٦٥.

فقد أمر النبي ﷺ بالاستعاذة من الشيطان الرجيم، للتغلب على وسوسة الشيطان ومحاولته السيطرة على الإنسان في مثل تلك الحالات من الغضب.

خامساً- من مهام الداعية: التحذير من الشيطان وعداوته للإنسان:

إن مما ينبغي للداعية أن يحرص عليه تحذير المدعوين من الشيطان وعدواته للإنسان، ويقتدي في ذلك بقول النبي ﷺ: "لو قال: أعوذُ باللهِ منَ الشيطان ذَهبَ عنه ما يَجدُ"، وذلك لأن الشيطان عدو الإنسان، فيريد أن يخرجه من ملة الإسلام، فإن لم يستطع ذلك أوقعه في الكبائر، فإن لم يستطع أوقعه فيما دون ذلك. قال النووي: (إن الغضب من نزعات الشيطان، ولهذا يخرج الإنسان عن اعتدال حاله، و يتكلم بالباطل ويفعل المذموم، وينوي الحقد والبغض وغير ذلك من القبائح المترتبة على الغضب)[١].

وقد قال الله تعالى محذراً منه: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[٢] وعلى ذلك فهو لا يفوت فرصة تسنح له في إيقاع المرء فيما لا تحمد عقباه إلا واستغلها. ومن أنسب الحالات التي يستطيع أن يوسوس للإنسان ليدفعه لارتكاب ما حرم الله -حالة الغضب، لأن الإنسان قد يرتكب هذا بزعم رد العدوان عنه، والاقتصاص من المعتدي، وهذا من تلبيس إبليس، فأرشد النبي ﷺ الغضبان إلى الاستعاذة بالله والالتجاء إليه، ليحميه من وساوس الشيطان.

قال الطوفي: (أقوى الأشياء في دفع الغضب استحضار التوحيد الحقيقي، وهو أن لا فاعل إلا الله، وكل فاعل غيره فهو آلة له، فمن توجه إليه بمكروه من جهة غيره فاستحضر أن الله لو شاء لم يمكن ذلك الغير منه-اندفع غضبه، لأنه لو غضب والحالة هذه كان غضبه على ربه جلّ وعلا. وهو خلاف العبودية). قال ابن حجر معقباً على ذلك: (وبهذا يظهر السر في أمره ﷺ الذي غضب بأن يستعيذ من الشيطان، لأنه إذا توجه إلى الله في تلك الحالة بالاستعاذة به من الشيطان، أمكنه استحضار ما

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٥٥.

(٢) سورة فاطر، أية: ٦.

ذكر، وإذا استمرّ الشيطان متلبساً متمكناً من الوسوسة، لم يمكنه من استحضار شيء من ذلك، والله أعلم)(١).

سادساً- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة على نقل الأخبار الواردة عن النبي ﷺ:

يتضح ذلك في قولهم للرجل المغضب: إن النبي ﷺ قال: "تعوذ بالله من الشيطان الرجيم" بعد سماعهم قول النبي ﷺ "لو قال: أعوذُ باللهِ منَ الشيطان الرجيم ذَهبَ عنه ما يَجدُ"، وهذا يدل على حرصهم على تبليغ الرجل ما قاله النبي ﷺ لينتفع به هو ومن يأتي بعده. وفي رواية أبي داود: ((فَجَعَلَ مُعَاذُ يَأْمُرُهُ))(٢) قال ابن حجر: (وليس في الخبر أنه أمرهم أن يأمروه بذلك، لكن استفادوا ذلك من طريق عموم الأمر بالنصيحة للمسلمين).

وهذا الحرص هو الذي حفظ لنا سنة النبي ﷺ نقية، تتدارسها الأجيال على مر العصور وتعمل بها وقد نُفي عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين. قال الدكتور عمر سليمان الأشقر: (قد قام الصحابة على دين الله، فحفظوه من الضياع، وبلغوه للعالمين، وجاهدوا في الله حقّ جهاده، وقد تحققت الشورى في أسمى مراتبها في عهد الخلفاء الراشدين، وكانت الشريعة الإسلامية هي المهيمنة على الأمة الإسلامية، وهي المصرفة لأمورهم، والقائدة لشؤونهم، وقد كان فقهاء الصحابة هم أصحاب الشورى وبيدهم تدبير الأمور، فلم يكن يصدر أمر إلا إذا كان موافقاً للشريعة، وقد كانوا يشجعون المسلمين على مراقبة الحكام وفق مقاييس الشريعة، وكانت نصوص الشريعة غضة طرية لم تدخلها التأويلات والتمحلات المتكلفة)(٣).

جاء في كتاب أصول الإيمان: "الصحابة رضي الله عنهم هم خير القرون وصفوة هذه الأمة، وأفضل هذه الأمة بعد نبيها ﷺ ويجب علينا أن نتولاهم ونحبهم ونترضى عنهم وننزلهم

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٣٧/١٠.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٨١).

(٣) تاريخ الفقه الإسلامي، د. عمر سليمان الأشقر ص ٦٤.

منازلهم، فإن محبتهم واجبة على كل مسلم وحبهم دين وإيمان وقربى إلى الرحمن، وبغضهم كفر وطغيان. فهم حملة هذا الدين، فالطعن فيهم طعن في الدين كله، لأنه وصلنا عن طريقهم بعد أن تلقوه غضاً طرياً عن رسول الله ﷺ مشافهة ونقلوه لنا بكل أمانة وإخلاص ونشروا الدين في كافة ربوع الأرض في أقل من ربع قرن وفتح الله على أيديهم بلاد الدنيا، فدخل الناس في دين الله أفواجاً"[1].

(١) أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، إعداد: نخبة من العلماء ص ٢٧١.

الحديث رقم (٤٧)

٤٧- وعنْ مُعاذ بْنِ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ كظَمَ غيظاً، وهُو قَادِرٌ علَى أَنْ يُنْفِذَهُ، دَعَاهُ اللَّهُ سُبْحانَهُ وتَعالَى عَلَى رُؤُوسِ الْخلائقِ يَوْمَ الْقِيامَةِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ مَا شَاءَ**» رواه أَبُو داوُدَ، والتِّرْمِذيُّ وقال: حديثٌ حسنٌ[1].

ترجمة الراوي:

معاذ بن أنس الجُهَني: هو معاذ بن أنس الجهني حليف الأنصار، له ولأبيه صحبة، ونزل مصر والشام وهو والد سهل بن معاذ الذي قال عنه المزي: لين الحديث إلا أن أحاديثه حسان في الرغائب والفضائل.

كان من المجاهدين في سبيل الله بنفسه وماله في عهد النبي ﷺ وبعده؛ مُعلياً كلمة الله ومخرجاً الناس من الظلمات إلى النور وناشراً العدل على ربوع العالم.

قال ابنه سهل: غزوت مع أبي الصائفة [الغزوة وقت الصيف] في زمن عبدالملك بن مروان وعلينا عبدالله بن عبدالملك، فضيّق الناس المنازل وقطعوا الطريق فقال معاذ: أيها الناس إنا غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة كذا وكذا. فضيق الناس الطريق. فبعث النبي ﷺ منادياً فنادى: ((من ضيق منزلاً أو قطع طريقاً فلا جهاد له))[2].

ومقتضى ذلك أن وفاته تأخرت إلى ما بعد ٦٥هـ وهي السنة التي تولى فيها عبدالملك الخلافة بعد أبيه مروان[3].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٧٧) واللفظ له، والترمذي (٢٠٢١)، وقال: هذا حديث حسنٌ غريبٌ. قال العقيلي في الضعفاء الكبير (١٠٣/٣): قد روي بأسانيد صالحة. أورده المنذري في ترغيبه (٤٠٥٩).

(٢) أخرجه أحمد ٤٤١/٣ رقم ١٥٦٤٨، وقال محققو المسند: رجاله ثقات ٤٠٥/٢٤، وأبو داود (٢٦٢٩، ٢٦٣٠) وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢٢٨٩، ٢٢٩٠).

(٣) الطبقات، ابن سعد (٥٠٢/٧) والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٦٥٥ وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير (١٨٦/٥) والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ١٢٥٢، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي (١٣٧/٧) وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٩٧/٤) وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك (١٧٨٤/٣).

غريب الألفاظ:

كظم غيظه: تجرّعه واحتمل سببه وصبر عليه[١].

الحور العين: هن نساء أهل الجنة، واحدتهن حوراء وهي: الشديدة بياض العين الشديدة سوادها وذلك نهاية في الحسن من العين[٢].

الشرح الأدبي

العفو عند المقدرة من شيم الكرام، وسمات الصالحين، وأرباب النهى، وأولى العزم. يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[٣].

والصبر على أذى الناس من أعلى مراتب الصبر، لأنه يتعاون فيه باعث الدين وباعث الشهوة والغضب جميعاً، وليس للإنسان اختيار في بواعث هذا الأذى، ولكن له اختيار في دفعه بالصبر والتحمل والعفو وكظم الغيظ، وذلك إذا أوذي الإنسان بفعل أو قول، أو جُني عليه في نفسه أو ماله، فالصبر على ذلك بترك المكافأة تارة يكون واجباً، وتارة يكون فضيلة، ويقول بعض الصحابة تأكيداً لهذا الموقف الإيماني، "ما كنا نعد إيمان الرجل إيماناً إذا لم يصبر على الأذى"، قال تعالى: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[٤].

وفي هذا الأفق الإيماني الوضاء تتوهج أضواء هذا الحديث النبوي الشريف، ترغيباً لكل مسلم في التحلي بهذا الخلق الإسلامي الرفيع، ولغة الحديث وصياغته وكلماته كلها ترغب في العفو والتسامح. فالحديث يرد في جملة شرطية: وركنا: الشرط والجزاء، من كظم غيظاً، وهو قادر، ثم الجواب: دعاه الله سبحانه وتعالى على رؤوس الخلائق يوم القيامة... وهذه الصيغة اللغوية تفصح عن تحقق الجزاء والثواب، وهو جزاء

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ج ر ع).

(٢) المفردات والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ح و ر).

(٣) سورة الشورى، آية: ٤٣.

(٤) سورة إبراهيم، آية: ١٢.

مضاعف، وثواب جزيل.

ومادة كظم مرتبطة بالغيظ، تدل على أن هذا الصابر المحتسب: تجرَّع الغيظ، واحتمل وقائعه وصبر عليه، والغيظ تغير يطرأ على الإنسان عند احتدام الغضب، ولكن صاحب الإرادة القوية والإدراك الإيماني يكتم غيظه، ويقاوم موجات الغضب المحتدمة في نفسه.

وجاء لفظ: غيظاً نكرة، ولم يأت مُعرّفاً لإفادة العموم والشمول، فهو ليس غيظاً واحداً محدداً ولكنه ألوان من الغيظ، وأنواع من الغضب تأتي وتتكرر كثيراً.

وجملة: "وهو قادر على أن ينفذه" في موقع الحال: أي أن ذلك المسلم الذي يكتم غيظه ليس عن ضعف أو هوان أو قلة حيلة لأنه يملك أسباب القوة والانتقام ورد الأذى، ولكنه تحلى بالصبر الجميل، والصفح النبيل، وجواب الشرط هو، "دعاه الله سبحانه وتعالى على رؤوس الخلائق".

وهو ثواب مضاعف، وأجر جزيل، فإذا كان ذلك المؤمن كظم غيظه في موقف أو موقفين وأمام عدد محدود من الخلائق، فالله سبحانه وتعالى يضعه في قمة التقدير، والخلائق جميعاً تشهده يوم القيامة وهو يأخذ جائزته، ويُخيِّر في اختيار ما يريد وما يشاء من "الحور العين"، وما شاء توحي بالاختيارات الكثيرة، وسبحان الله الخلاق العليم، وأي مكافأة أعظم من هذه المكافأة لكل من يحرص على إقامة جسور المودة وهي تتمثل في قول رسول الله ﷺ، "صِلْ من قطعك، وأعط من حرمك، واعف عمن ظلمك"(١).

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ١٤٨/٤، ١٥٨، رقم ١٧٣٣٤، ١٧٤٥٢، وقال محققو المسند: حديث حسن ٥٧٠/٨، ٦٥٤.

المضامين الدعوية

أولاً: من آداب الداعية: الثناء على أهل الأخلاق الطيبة والإشادة بهم.

ثانياً: من أساليب الدعوة: التبشير.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: بيان فضل كظم الغيظ.

أولاً- من آداب الداعية الثناء على أهل الأخلاق الطيبة والإشادة بهم:

يؤخذ هذا من قوله ﷺ "من كظم غيظه ... دعاه الله سبحانه وتعالى على رؤوس الخلائق يوم القيامة.." فإن الله عز وجل يدعو من كظم غيظه وهو قادر على أن يقتص ممن أغضبه. يدعوه على رؤوس الأشهاد يوم القيامة ليكافئه ويعطيه ثوابه، فيكون هذا أعظم الجزاء وأحسن المكافأة له؛ فإنه يقال في حقه أمام الناس في هذا المشهد العظيم: (هذا الذي صدرت منه هذه الخصلة العظيمة)[1].

وإذا كان الله وهو رب العالمين يثني على أهل الأخلاق الطيبة، فإنه حريٌّ بالداعية أن يثني على أهل الفضل ويشيد بهم، إذا كانوا يستحقون ذلك ويُؤمن عليهم الاغترار، فإن في ذلك فائدتين: الأولى: تثبيتهم على هذه الأخلاق إن لم يكن العمل على زيادتها. والأخرى: دعوة غيرهم، لأن يكونوا مثلهم.

وهذا ما فعله النبي ﷺ حين أثنى على عمرو بن تغلب رضي الله عنه الذي قال: إن رسول الله ﷺ أتى بمالٍ أو بسبي فقسمه فأعطى رجالاً وترك رجالاً، فبلغه أن الذين تركَ عتبوا، فحمد الله ثم أثنى عليه ثم قال: ((إني أُعطي الرجلَ وأَدَع الرجل، والذي أدع أحبُّ إليَّ من الذي أعطي، أعطي أقواماً لما في قلوبهم من الجزع والهلع، وأَكِلُ أقواماً إلى ما جعل الله في قلوبهم منَ الغِنى والخير، منهم عُمرو بن تَغلب، فقال عَمرو: ما أحبُّ أنَّ لي بكلمةِ رسولِ الله ﷺ حُمْرَ النَّعم))[2].

قال ابن مفلح: (كراهة المدح في الوجه لمن خيف عليه مفسدة من عُجْب ونحوه، وجوازه لمن أمن من ذلك في حقه... فأما من مدح على الفعل الحسن، والأمر المحمود

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٢٤٤/٩.

(٢) أخرجه البخاري (٩٢٣، ٣١٤٥، ٧٥٣٥). وحُمْر النَعَم هي أفضل أنواع الإبل عند العرب.

ترغيباً في أمثاله، وتحريضاً للناس على الاقتداء به في أشباهه فليس بمداح، وإن كان قد صار مادحاً بما تكلم به من جميل القول)(١).

ثانياً- من أساليب الدعوة: التبشير:

وهذا يؤخذ من قوله ﷺ "دعاه اللهُ سبحانه وتعالى على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيّره من الحور العين ما شاء"، فالداعية يسلك في سبيل إنجاح دعوته التبشير بالثواب العظيم الذي أعده الله للصالحين من عباده؛ وذلك تشجيعاً لهم وحثّاً لهممهم على الاستجابة والطاعة، فإن النفس مجبولة على معرفة ثواب الأعمال التي تكلف بها.

وعن طريق هذا الأسلوب يدفع الداعية المطيعين إلى زيادة الطاعة والإكثار منها، كما يجذب المقصرين والمتخاذلين إلى ساحة الإذعان وميدان التطبيق.

وقد بشر النبي ﷺ في هذا الحديث من يكظم غيظه بالثواب العظيم، ليدعو المسلمين إلى الالتزام بهذا الأدب الرفيع والخلق الكريم.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: فضل كظم الغيظ:

يتضح هذا في قوله ﷺ "من كظم غيظاً... دعاه الله على رؤوس الخلائق..." فقد أبان ﷺ عن فضل كاظم غيظه وهو أن الله يدعوه يوم القيامة على رؤوس الأشهاد مباهياً ومفاخراً سبحانه وتعالى به، ليعطيه جائزته ومكافأته على فعله، بأن خيره من الحور العين -نساء أهل الجنة- يأخذ أيهن شاء. وهذا (كناية عن إدخاله الجنة المنيعة وإيصاله الدرجة الرفيعة)(٢). وإنما استحق ذلك كاظم غيظه لأنه قهر نوازع الاقتصاص ودوافع الانتقام في نَفْسه الأمّارة بالسوء، ولم يستجب لها، وارتفع عن رد العدوان وارتقى إلى درجة تحمل الأذى والصبر، فكان مجاهداً لنفسه، فحملته المجاهدة إلى الدرجات العلا، لذا قال ﷺ ((مَا مِنْ جُرْعَةٍ أَعْظَمُ أَجْراً عِنْدَ اللَّهِ، مِنْ جُرْعَةِ غَيْظٍ، كَظَمَهَا عَبْدٌ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ))(٣).

---

(١) الآداب الشرعية، حماد بن عبدالله الحماد ٣/٤٣٦-٤٣٧.

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري ١٦٧١.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤١٨٩)، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٣٣٧٧).

قال الطاهر بن عاشور: (كظم الغيظ إمساكه وإخفاؤه حتى لا يظهر عليه، وهو مأخوذ من كظم القربة إذا ملأها وأمسك فمها، قاله المبرد، فهو تمثيل الإمساك مع الامتلاء ولاشك أن أقوى القوى تأثيراً على النفس القوة الغاضبة فتشتهي إظهار آثار الغضب، فإذا استطاع إمساك مظاهرها مع الامتلاء منها، دل ذلك على عزيمة راسخة في النفس، وقهر الإرادة للشهوة، وهذا أكبر من قوى الأخلاق الفاضلة)[١].

إن مما ينبغي للداعية أن يبينه، ويشيد به فضل الله تعالى وكرمه على عباده المؤمنين. ويقتدي بالنبي ﷺ كما في هذا الحديث عندما قال: "دعاه الله سبحانه وتعالى على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيّره من الحور العين ما شاء"، فهذا يدل على فضل الله وكرمه على عباده، فهو سبحانه يُثيب على العمل اليسير بالثواب العظيم، كرماً منه ومِنةً، مع أنه سبحانه لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية، فرتب سبحانه على مجرد كظم الغيظ هذا الثناء الجميل والجزاء الجزيل، (فكيف إذا انضم العفو إليه أو زاد بالإحسان عليه؟!)[٢].

فكظم الغيظ، وإن كان عملاً شاقاً على النفس، إلا أنه في ميزان تقييم الأعمال لا يبلغ هذا الثواب العظيم الذي أعده الله له، لكن كرماً من الله وتفضلاً على عباده وَعَدهم بهذا الجزاء الكبير، لهذا خاطب النبي ﷺ أصحابه فقال: "لن يُدخِل أحداً منكم عملُه الجنة" قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ((وَلاَ أَنَا. إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللّهُ مِنْهُ بفضلٍ وَرَحْمَةٍ))[٣]. وصدق الله إذا قال: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[٤].

---

(١) التحرير والتنوير، ٩١/٤/٢.

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري ١٦٧١.

(٣) أخرجه البخاري (٥٦٧٣) ومسلم (٢٨١٦).

(٤) سورة النساء، آية: ١١٣.

الحديث رقم (٤٨)

٤٨- وعنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلاً قَالَ للنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: أوْصِنِي، قَالَ: «**لا تَغضَبْ**» فَرَدَّدَ مِراراً قَالَ، «**لا تَغْضَبْ**» رواه البخاريُّ(١).

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

إن الغضب يجمع الشر كله، ويلقي بالإنسان في مهاوي الرَّدى، وأوهام الباطل، وربما تحكمت فيه شهوة الغضب فأفسدت عليه حياته، وباعدت بينه وبين رَحِمه.

وربما يدفع الغضب الإنسان إلى ارتكاب الحماقات، وإلى ردَّة الفِعْل العمياء- وكما يقول الشاعر:

مالي غضبت فطار أمري من يدي والأمر يخرج من يد الغضبان

والمصطفى صلى الله عليه وسلم، يعالج أمراض النفس البشرية، ويداوي كل من أصابه داء من الهم والوسواس، والإحساس بالقهر، والشعور بالظلم، وتسلل داء الغيرة أو اليأس إلى النفس، والغضب من أشد الأمراض السلوكية فتكاً وتدميراً لقواعد السلوك البشري، وتقطيعاً لأواصر المودة والرحمة، والحديث السابق يجعل الذي يكظم غيظه، ويكتم غضبه في الدنيا على رؤوس الخلائق يوم القيامة، ويخيره الله من الحور العين ما شاء.

وهذا الحديث الشريف يُقدَّم في صيغة أسلوبية جديدة: وهي الوصية: وهي تفيد الوجوب وهذه الوصية تشرق كلماتها الموجزة في سياق حواري مقنع، فأبو هريرة رضي الله عنه يروي أن "رجلاً" قال للنبي صلى الله عليه وسلم: "أوصني": فمن هو ذلك الرجل؟ ومتى قال للنبي صلى الله عليه وسلم ذلك وفي أي مكان طلب هذه الوصية، ولماذا طلبها: كل هذه أسئلة تتحرك في فضاء هذه الوصية الجامعة المانعة التي تعالج داء ذلك الرجل، وحالته ربما تشابه ملايين الحالات الإنسانية في كل زمان ومكان، فاسم الرجل ليس مطلباً ضرورياً لأن القضية ليست ذاتية وإنما هي قضية عامة.

---

(١) أخرجه البخاري (٦١١٦). أورده المنذري في ترغيبه (٤٠٤٦). وسيكرره المؤلف برقم (٦٣٩).

ولذلك يأتي طلب الوصية في صيغة الأمر وهي للالتماس والرجاء، وليست أمراً حقيقياً لأن الأمر من الأدنى للأعلى دعاء، ومن الأعلى للأدنى أمر حقيقي واجب التنفيذ، وإذا كان من متساويين فهو التماس، وهذا الرجل مساو للرسول ﷺ في بشريته وإنسانيته، ولكن الرسول ﷺ تعلو درجته بالنبوة والعصمة والرسالة، وبأنه يوحى إليه ، وبأنه لا ينطق عن الهوى وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين، وأنه أفضل خلق الله تعالى.

وإجابة رسول الله ﷺ، ترد حاسمة جازمة موجزة مقنعة في صيغة النهي: "لا تغضب" وكأن الرجل يشعر بأنه مازال محتاجاً إلى مزيد من الوصايا – ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام يعرف داءه، ويدرك الطريق الصحيح لعلاجه وهو ترك الغضب، وفي ذلك حفاظ على نفسه وبدنه لأن الجسم يتأثر بالغضب الشديد، وتحدث مضاعفات مرضية خطيرة ربما تؤدي إلى هلاك الإنسان، وكذلك تنتشر سموم الغضب وتصيب كل من حول ذلك الغاضب الذي لا يدري عاقبة أمره، وربما يدفعه الغضب إلى تشتيت شمل أسرته، أو تقطيع رحم قرابته، أو الاعتداء على الغير ثأراً لكرامته، أو ظلم الناس صوناً – كما يزعم لعزته أو إذلال الرعية حفاظاً على هيبته، واستمرارا لسلطته، لأن الغضب من نزغات الشيطان، ولذا يخرج الإنسان عن اعتداله فيتكلم بالباطل، ويفعل المذموم، ولذلك يوصي رسول الله بعدم الغضب لأن ترك الغضب مفتاح الخير كله.

المضامين الدعوية

أولاً: من آداب المدعو: طلب النصيحة والوصية من أهل العلم.

ثانياً: من مهام الداعية: توجيه المدعو إلى ما ينفعه.

ثالثاً: من أساليب الدعوة: النهي والتكرار.

أولاً– من آداب المدعو: طلب النصيحة والوصية من أهل العلم:

هذا الرجل ذهب إلى النبي ﷺ وقال له: "أوصني" عدة مرات. قال ابن حجر: (قوله "فردد مراراً" أي: ردد السؤال يلتمس أنفع من ذلك أو أبلغ أو أعم، فلم يزده على ذلك)[1].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠/٥٣٦.

وهكذا شأن المدعو دائماً مع أهل العلم الصادقين، يسألهم ويطلب منهم النصيحة، ليستفيد من ذلك في دنياه وآخرته؛ لأنهم أعلم بما يصلحه وبما هو أنسب له وأرفق، ولذا كان هذا السائل حريصاً على أن يعقل الوصية ويفهمها حتى يطبقها خير تطبيق، ففي رواية الترمذي: ((عَلِّمْنِي شَيْئاً وَلاَ تُكْثِرْ عَلَيَّ لَعَلِّي أَعِيهُ))[1].

ولاشك أن خير ما يسأله طالب الوصية ما يبعده عن غضب الله وما يدخله الجنة فهذا عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم: ماذا يباعدني من غضب الله عز وجل؟ قال: "لا تغضب"[2]. وهذا أبو الدرداء رضي الله عنه يسأله فقال: يا رسول الله دلني على عمل يُدخلني الجنة. قال ((لاَ تَغْضَبْ وَلَكَ الْجَنَّةَ))[3].

وهكذا حال المدعو، يطلب من أهل العلم الأتقياء الصالحين أن يدلوه على طرق الخير الموصلة إلى جنة الرحمن المبعدة عن غضبه عز وجل.

ثانياً- من مهام الداعية: توجيه المدعو إلى ما ينفعه:

يتضح هذا في قوله صلى الله عليه وسلم: "لا تغضب"، فدلّه على ما ينفعه في الدنيا والآخرة، فنهاه عن الغضب الدنيوي؛ لأنه يؤدي إلى مفاسد جمّة تشمل الظاهر والباطن، وتظهر في اللسان واليد، كما أنها لا تقتصر على الغضبان ومن أغضبه فحسب، بل تمتد كذلك إلى غيره ممن لا يكون له علاقة بسبب غضبه؛ يقول ابنُ حجر في ذلك: (يترتب على الغضب من تغير الظاهر والباطن كتغير اللون والرعدة في الأطراف وخروج الأفعال من غير ترتيب، واستحالة الخلقة حتى لو رأى الغضبان نفسه في حال غضبه لكان غضبه حياءً من قبح صورته، واستحالة خلقته، هذا كله في الظاهر، وأما الباطن فقبحه أشد من الظاهر، لأنه يولد الحقد في القلب والحسد، وإضمار السوء على اختلاف أنواعه، بل أولى شيء يقبح منه باطنه وتغير ظاهره ثمرة تغير باطنه، وهذا كله أثره في الجسد.

---

(١) أخرجه الترمذي ٢٠٢٠، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٦٤٤).

(٢) أخرجه أحمد ١٧٤/٢ رقم ٦٦٣٥، وقال محققو المسند: صحيح لغيره ٢١١/١١.

(٣) ذكره الهيثمي في ال مع ٧٠/٨ وقال: رواه الطبراني في الكبير والأوسط وأحد إسنادي الكبير رجاله ثقات.

وأما أثره في اللسان فانطلاقه بالشتم والفحش الذي يستحي منه العاقل ويندم قائله عند سكون الغضب، ويظهر أثر الغضب أيضاً في الفعل بالضرب أوْ القتل، وإن فات ذلك بهرب المغضوب عليه رجع إلى نفسه فيمزق ثوب نفسه ويلطم خده، وربما سقط صريعاً، وربما أغمي عليه وربما كسر الآنية وضرب من ليس له في ذلك جريمة، ومن تأمل هذه المفاسد عرف مقدار ما اشتملت عليه هذه الكلمة اللطيفة من قوله ﷺ: "لا تغضب" من الحكمة واستجلاب المصلحة في درء المفسدة، مما يتعذر إحصاؤه والوقوف على نهايته، وهذا كله في الغضب الدنيوي لا الغضب الديني)[١].

ولهذا قال الرجل الذي أوصاه النبي ﷺ بألا يغضب- قال: ففكرت حين قال النبي ﷺ ما قال، فإذا الغضب يجمع الشر كله[٢] وهذا يلزم عنه أنّ (التحرّز منه جماع الخير)[٣].

قال ابن رجب: (قوله ﷺ: "لا تغضب" يحتمل أمرين: أحدهما أن يكون مراده الأمر بالأسباب التي توجب حسن الخلق من الكرم والسخاء والحلم والحياء والتواضع والاحتمال وكف الأذى والصفح والعفو وكظم الغيظ والطلاقة والبشر ونحو ذلك من الأخلاق الجميلة، فإن النفس إذا تخلقت بهذه الأخلاق وصارت لها عادة أوجب لها ذلك دفع الغضب عند حصول أسبابه، والثاني: أن يكون المراد لا تعمل بمقتضى الغضب إذا حصل لك، بل جاهد نفسك على ترك تنفيذه والعمل بما يأمر به، فإن الغضب إذا ملك ابن آدم كان كالآمر الناهي له)[٤].

ثالثاً- من أساليب الدعوة: النهي والتكرار:

النهي في قوله ﷺ: "لا تغضب" وكذلك التكرار منه ﷺ رداً على تكرار الرجل سؤاله: (فردد مراراً)[٥] وفي رواية الترمذي (قال: لا تغضب فردد ذلك مراراً، كلُّ

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٣٧/١٠، وانظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب ٣٦٩/١.

(٢) أخرجه أحمد ٢٣١٧١/٣٨، وقال محققو المسند: إسناده صحيح.

(٣) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٣٦٢/١.

(٤) المرجع السابق ٣٦٣/١ - ٣٦٤.

(٥) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٣٦/١٠.

ذلك يقول لا تغضب)[١]، وإنما استخدم النبي ﷺ النهي؛ لأنه في مقام توجيه النصيحة والوصية، كما استخدم التكرار رداً على إعادة الرجل سؤاله، ليؤكد له أهمية عدم الغضب وأثر ذلك في حياة الفرد والجماعة. وكان من عادة النبي ﷺ أنه كان يعيد الكلمة ثلاثاً -أحيانًا- لتفهم عنه. قال أنس بن مالك رضي الله عنه: ((إن النبي ﷺ كان إذا تكلَّم بكلمةٍ أَعادَها ثلاثاً حتّى تُفهمَ عنه))[٢].

(١) أخرجه الترمذي ٢٠٢٠.

(٢) أخرجه البخاري ٩٥.

الحديث رقم (٤٩)

٤٩- وَعَنْ أبي هُرَيْرةَ رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللّهِ ﷺ: «**مَا يَزَالُ الْبَلاءُ بِالْمُؤْمِنِ وَالْمؤمِنَةِ فِي نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ ومَالِهِ حَتَّى يَلْقَى اللّه تعالى وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ**» رواه التِّرْمِذيُّ وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

البلاءُ: الامتحان والاختبار[2].

الشرح الأدبي

إن المؤمن أمره كله خير، في السراء والضراء، فهو حامد شاكر في زمن السراء، وهو محتسب صابر في زمن الضراء، والشكر جزاؤه موفور، والصبر يتضاعف ثوابه، فهو نصف الإيمان، والمؤمن يسير في ظل شجرة إيمانية ثمارها الشكر والصبر، والحمد والاحتساب، وهذه الشجرة الوارفة الظلال، جذورها تمتد في قلب المؤمن الصبور، وتسري أفياؤها في شرايين المسلم الشكور، فلا يزال العبد في نعمة البلاء.. والمحنة في ظل هذا النعيم تغدو بفضل الله منحة، والابتلاء في ظل الاحتساب يغدو تمحيصاً وعطاء.

والحديث الشريف يصور حياة المؤمن تصويراً واقعياً ممتزجاً بسمات الشخصية الإيمانية، وخصائص التصور الإسلامي للكون والحياة والإنسان، فالمسلم تحكم شخصيته، وتؤطر سلوكه عدة أسس تمثل قواعد المنهج الإسلامي، وخصائص الشخصية المؤمنة.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٩٩). وصحّحه ابن حبان (الإحسان ٢٩١٢)، وقال الحاكم (٣٤٦/١): هذا حديثٌ صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. أورده المنذري في ترغيبه (٥٠٠١).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ب ل و).

وهذه الخصائص هي: [الربانية، التوازن، الثبات، الشمولية، الواقعية، الإيجابية، التوحيد، فالمسلم في استقباله لأحداث الحياة وابتلاءات الزمن لا يلجأ إلا إلى الله رب العالمين، ولا يهزمه القلق والشك بل يظل متوازناً في السراء والضراء، ولا تتغير مواقفه وتصوراته ومبادئه؛ بل يظل الثبات هو ميزان حياته، ومنهاج تفكيره في مسيرته ومصيره، وهو لا ينظر من خلال منظور جزئي قاصر بل تظل نظراته للأشياء شمولية سابحة في محيط الإيمان بالقضاء والقدر، وهو مع ذلك يخوض غمار الحياة مؤمناً بالقدر خيره وشره، وحلوه ومره.

إن هذه القيم المضيئة وهذه السلوكيات الإيجابية في الحياة من سمات المؤمن الذي يتوج مشاعره وتفكيره ومنطقه وسلوكه بالتوحيد، فمصدر قوته وعزته وأمله ينبع من معتقده وهو التوحيد"**لا إله إلا الله محمد رسول الله**"؛ والحديث الشريف يرشد إلى كل المعاني السابقة من خلال كلماته المشعة، وعباراته الرصينة، ودلالاته الموحية الهادية.

فالفعل: ما يزال: يدل على الاستمرار، ويؤكد بأن حياة المؤمن كلها جهاد، ومعاناة، وابتلاءات، وكلمة "البلاء": تشمل جوانب جميع المصاعب والمتاعب، واقتران لفظ "المؤمن" بحرف الباء يوحي بمصاحبة المؤمن للبلاء بكل أنواعه: في نفسه وولده وماله، والبلاء في النفس من أشد أنواع الابتلاءات وهو متعدد الألوان والأشكال، فهو إما أن يكون مرضاً يصيب الجسد، فهو بلاء ذاتي، أو يكون فقراً وضيقاً في الرزق فهو بلاء اجتماعي، أو يكون غربة نفسية ومكانية وزمانية حيث يشعر المؤمن بأنه غريب في تمسكه بأصول دينه، ومعالم عقيدته، وهذا ابتلاء نفسي روحي؛ ويتعدى البلاء هذه الدرجة الذاتية إلى الابتلاء في الولد، من عدم البر، والانحراف عن السلوك الجاد، أو المرض أو الموت، أو الاختلاط بقرناء السوء، أو الإدمان، أو غير ذلك من المعاصي، والابتلاء في المال تتعدد وجوهه، ويظل المؤمن في هذه المحنة حتى الموت، ولكنها في النهاية تتراءى للمؤمن منحة من الله العلي القدير، لأن العبد الصابر المحتسب، يلقى ربه وهو يرفل في الطاعة وما عليه خطيئة واحدة وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

المضامين الدعوية

أولاً: من مهام الداعية: إعداد المدعو وتهيئته لتحمل ما يلحق به من ضرر.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: بيان أن نزول البلاء كفارة للذنوب.

ثالثاً: من أساليب الدعوة: الترغيب.

أولاً- من مهام الداعية: إعداد المدعو وتهيئته لتحمل ما يلحق به من ضرر:

إن للداعية دوراً بارزاً في الإعداد المعنوي للمدعو وتهيئته لتحمل البلاء والصبر على الضرر، يظهر ذلك في قوله ﷺ "ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله..." فالحياة إنما جعلت للاختبار والابتلاء، قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾[1] فعلى الداعية أن يُعلم المدعوين أن الحياة ليست بالطريق المفروش بالورود والرياحين، وإنما يجتمع فيها الخير والشر والنفع والضر والسعادة والشقاء. وهذا من سنن الله في خلقه وعباده، وسنن الله جارية وواقعة لا تتخلف.

وهذا ما استصحبه النبي ﷺ في بداية دعوته في مكة، فقد شكا إليه المسلمون ما يلقونه من المشركين من شدة وأذى وقالوا له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا؟ فقال: ((قد كان من قبلكم يؤخذُ الرجل فيُحفرُ له في الأرض فيجعَل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضعُ على رأسه فيجعل نصفين ويُمشط بأمشاط الحديد من دُونَ لحمه وعظمه، فما يَصدُّه ذلك عن دينه. والله ليَتِمَّنَّ الله هذا الأمر حتى يسيرَ الراكبُ من صنعاءَ إلى حَضْرَمَوتَ لا يخافُ إلا الله والذِّئبَ على غَنمه، ولكنكم تَستعجلون))[2].

وهذا النبي ﷺ يضرب المثل الأعلى والقدوة المثلى للمدعوين في تحمل ما يلحق به من ضرر، فقد لحقه بعض الأذى، فقال: ((رَحِمَ اللهُ موسى. قد أُوذِيَ بأكثرَ من هذا فصبرَ))[3] ولا شك أن إعداد المدعو لهذا فيه من الفوائد الكثيرة فإنه يجعل المدعو

---

(١) سورة محمد، آية: ٣١.

(٢) أخرجه البخاري ٣٦١٢.

(٣) أخرجه البخاري (٣١٥) ومسلم (١٠٦٢).

يوطن نفسه على تحمل ما لحق به، فلا تتأثر همته وعزيمته سلباً، وإنما تزداد عزيمته صلابة وهمته قوة ومضاء، وفضلاً عن هذا فإنه يرضى بما نزل به فلا يسخط ولا يتضجر وإنما يسلم الأمر كله لله ومن ثم يرضى الله عنه. قال رسول الله ﷺ: ((إنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلاَءِ، وَإِنَّ الله إِذَا أَحَبَّ قَوْماً ابْتَلاَهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَى، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ))[١].

"قال الله تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ﴾[٢] جفّ القلم ورفعت الصحف وقضي الأمر، كتبت المقادير ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾[٣]، ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك. إن هذه العقيدة إذا رسخت في نفسك ووقرت في ضميرك صارت البلية عطية والمحنة منحة. وكل الوقائع جوائز وأوسمة ((ومن يرد الله به خيراً يصب منه))[٤]، فلا يصيبك قلق من مرض أو موت ابنٍ أو خسارة مالية أو احتراق بيت، فإن الباري قد قدّر والقضاء قد حلّ، والاختيار هكذا. والخيرة لله والأجر حصل والذنب كُفّر"[٥].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: بيان أن نزول البلاء كفارة للذنوب:

إن من المعاني التي ينبغي للداعية أن يرسخها في أذهان المؤمنين أن ما ينزل بالمؤمن من بلاء كفارة للذنوب وهذا ما يجعل المؤمن يصبر ويحتسب الأجر عند الله تعالى، يتضح ذلك في قوله ﷺ: "ما يزال البلاء بالمؤمن... حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة" وقد ضرب النبي ﷺ مثلاً لهذا، قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: ((دَخلتُ على رسولِ الله ﷺ وهو يوعَك فقلتُ: يارسولَ الله، إنك توعَكُ وَعْكاً شديداً. قال: أجَل، إني أوعَك كما يوعكُ رجُلان منكم. قلت: ذلك بأن لك أجرَين. قال: أجَل، ذلكَ

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٩٦)، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٩٥٣).

(٢) سورة الحديد، آية: ٢٢.

(٣) سورة التوبة، آية: ٥١.

(٤) أخرجه البخاري ٥٦٤٥.

(٥) لا تحزن، عائض القرني، ٢٥.

كذلك، ما من مُسلم يُصيبُهُ أذىً - شَوكةٌ فما فوقها - إلا كفَّرَ الله بها سَيِّئاته، كما تَحُطُّ الشجرة وَرقَها))[1] وقال ﷺ: ((ما يُصيبُ المسلمَ من نَصبٍ ولا وَصَبٍ ولا هَمّ ولاَحَزَن ولا أذى ولا غَمّ - حتى الشَّوكةِ يُشاكها - إلا كفَّرَ اللهُ بها من خَطاياه))[2].

وعلى ذلك كان البلاء خيراً للعبد، لأنه لا ينفك غالباً عن ارتكاب الذنوب وفعل السيئات.

كما أن البلاء ينزل على قدر درجة العبد ومنزلته عند ربه، فلا يزال به حتى يكفر عنه كل خطاياه، عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال قُلْتُ: ((يا رسولَ الله، أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاَءً؟ قال: الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فالأَمْثَلُ: فَيُبْتَلَى العبد عَلَى حَسَبِ دِينِه، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صُلْباً اشْتَدَّ بَلاَؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حسب دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ بالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ))[3].

(وفي هذه الأحاديث -كما يقول ابن حجر- بشارة عظيمة لكل مؤمن، لأن الآدمي لا ينفك غالباً من ألمٍ بسبب مرض أو همٍّ أو نحو ذلك، وإن الأمراض والأوجاع والآلام - بدنيةً كانت أو قلبية- تكفر ذنوب من تقع له)[4].

بل إن البلاء ينزل ليعوض النقص في العمل حتى يبلغ العبدُ المنزلة التي كتبها الله له، ففي الحديث: ((إنَّ الْعَبْدَ إذَا سَبَقَتْ لَهُ مِنْ الله مَنْزِلَةٌ لَمْ يَبْلُغْهَا بِعَمَلِهِ ابْتَلاَهُ الله فِي جَسَدِهِ أَوْ فِي مَالِهِ أَوْ فِي وَلَدِهِ، ثُمَّ صَبَّرَهُ حَتَّى يُبْلِغَهُ الْمَنْزِلَةَ الَّتِي سَبَقَتْ لَهُ مِنه))[5].

ثالثاً- من أساليب الدعوة: الترغيب:

للترغيب أثر عظيم في الدعوة إلى الله تعالى، حيث يحمل المدعوين على الإقبال على

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٤٧، ٥٦٤٨)، ومسلم ٢٥٧١.

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٤١، ٥٦٤٢)، ومسلم (٢٥٧٣).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٩٨)، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٩٥٦)، وابن ماجه ٤٠٢٣ وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٣٢٤٩).

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني (١١٢/١٠).

(٥) أخرجه أبو داود ٣٠٩٠، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢٦٤٩).

الطاعات طمعاً في الأجر من الله تعالى، وهذا واضح في قوله ﷺ: "ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة... حتى يلقى الله وما عليه خطيئة" فإنه لما كان البلاء ثقيلاً على النفس شديداً عليها، ذكر النبي ﷺ أن البلاء يكفر الذنوب والخطايا، حتى يُرغّب من وقع به ومن سيقع به على الصبر عليه والرضا بقضاء الله وقدره[١].

(١) انظر: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري ١٨٩٠.

الحديث رقم (٥٠)

٥٠- وَعَنْ ابْنِ عَبَاسٍ رضي الله عنهما، قال: قَدِمَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ[١]، فَنَزلَ عَلَى ابْنِ أَخِيهِ الْحُرِ بْنِ قَيْسٍ، وَكَانَ مِنَ النَّفَرِ الَّذِين يُدْنِيهِمْ عُمرُ رضي الله عنه، وَكَانَ الْقُرَّاءُ أَصْحابَ مَجْلِسِ[٢] عُمَرَ رضي الله عنه وَمُشاوَرَتِهِ كُهولاً كَانُوا أَوْ شُبَّانًا، فَقَالَ عُيَيْنَةُ لابْنِ أَخيهِ: يَا ابْنَ أَخِي لَكَ وَجْهٌ عِنْدَ هَذَا الأَمِيرِ فَاسْتَأْذِنْ لِي عَلَيْهِ، فاستَأذنَ[٣] فَأَذِنَ لَهُ عُمرُ. فَلَمَّا دخَلَ[٤] قَالَ: هِيْ يا ابْنَ الْخَطَّاب، فَوَاللَّه مَا تُعْطِينَا الْجَزْلَ وَلا تَحْكُمُ فِينَا[٥] بالْعَدْل، فغَضِبَ عُمَرُ رضي الله عنه حتَّى هَمَّ أَنْ يُوقِعَ بِهِ، فَقَالَ لَهُ الْحُرُّ: يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إنَّ اللَّه تعَالى قَال لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجاهلينَ﴾[سورة الأعراف: ١٩٨]، وإنَّ هَذَا مِنَ الجاهلينَ، وَاللَّه ما جاوَزَها عُمَرُ حِينَ تلاها، وكَانَ وَقَّافاً عِنْد كِتَابِ اللَّهِ تعالى. رواه البخاري[٦].

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١).

غريب الألفاظ:

القراء: العلماء العباد[٧].

هي: ويقال: هيه وتبدل الهاء الأولى ألفاً فيقال إيه. وهي كلمة تقال لغرضين: الاستزادة من عمل أو حديث. والآخر: الزجر والتهديد والكف. والذي يقتضيه السياق أنه أراد بهذه الكلمة الزجر وطلب الكف لا الازدياد[٨].

---

(١) عند البخاري زيادة: (ابن حذيفة).

(٢) عند البخاري: (الس).

(٣) عند البخاري زيادة: (لي عليه، قال: سأستأذن لك عليه، قال ابن عباس: فاستأذن الحرّ لعيينة).

(٤) عند البخاري زيادة: (عليه).

(٥) لفظ البخاري (بيننا).

(٦) برقم (٤٦٤٢)، وسيكرره المؤلف برقم (٣٥٧).

(٧) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٧٢/١٣.

(٨) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٧٣/١٣.

الجزل: الكثير العظيم من كل شيء[١].

هم أن يوقع به: أي يضربه[٢].

كان وقّافاً عند كتاب الله تعالى: أي يعمل بما فيه ولا يتجاوزه[٣].

الشرح الأدبي

هذا مشهد من مشاهد الحياة يتكرر بين الراعي والرعية، ولكن قد لا تتفق النتائج مع المقدمات، فكم من كلمة صدق أطاحت برأس قائلها، وكم من نصيحة مخلصة أودت بحياة مُسْديها.

وقليلة هي المواقف التي يستجيب فيها الراعي لنصح رعاياه، ولكن للنصيحة معالم وسمات، يجب أن تقدم في ثوب جميل، وأن تغلفها الحكمة والقصد النبيل، وأن لا تكون تشويهاً لصورة الحاكم، أو تضخيماً لعيوبه، فالدين نصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم.

ويقدم هذا الحديث الشريف صورة زاهية متموجة بالتواضع والإنصاف من صور عدالة الحاكم وصبره على الرعية؛ ويقدم لوحة من لوحات كظم الغيظ، والعفو عن الناس، والإعراض عن الجاهلين الذين لم يفقهوا لغة الخطاب الراشد في إسداء النصيحة وهى مراعاة مقتضى الحال، ومعرفة أن لكل مقام مقالاً وأسلوباً يناسب ذلك المقام.

وهذا الموقف الإسلامي يرد في سياق قصة واقعية في أحداثها وأشخاصها؛ وشخصية الفاروق عمر بن الخطاب هى القدوة المثلى في الصبر والتواضع والخضوع للتوجيهات القرآنية، فهو أمير المؤمنين، وهو من هو: زهداً وعدلاً ورحمة وتواضعاً وقوة وشجاعة وحمية لله ولرسوله.

---

(١) الوسيط في (ج ز ل).

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٣/ ٢٧٣.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٣/ ٢٧٣.

وعلى الرغم من هذه السجايا الكريمة يواجهه عيينة بن حصن الفزاري مواجهة شديدة ويتهمه بما هو منه براء، وعيينة كان قائداً في جيش الأحزاب، وله مكانته في الجاهلية والإسلام.

وأسلم يوم فتح مكة وقيل قبله، وكان من المؤلفة قلوبهم، ومن الأعراب الجفاة، وارتد وأُتي به أسيراً إلى الصديق فأسلم فأطلقه(١).

هذا الرجل مازال يحمل ميراث الرفض والعناد، والكبر، وقد أصابته هذه الخصال بغشاوة حجبت عنه أضواء الشخصية العمرية فلم يبصر ملامحها ولم يدرك عبقريتها، ولم يفطن إلى أبعادها الإيمانية، ولذلك نراه يقول بعد أن أذن له عمر: هي يا ابن الخطاب: فوالله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم فينا بالعدل! ولنتأمل التشكيل الأسلوبي لهذه العبارة ذات الدلالة الرافضة، إنها لم تلتزم بأدب الخطاب في مواجهة ولى الأمر، ولم تخاطب عمر بلقبه الرسمي: أمير المؤمنين، ولكن الرجل توعد وقال: هي يا ابن الخطاب: وهى؛ كلمة تقال في مقام التهديد، وقيل هي ضمير وبعده محذوف والتقدير: هى داهية، وقوله يا ابن الخطاب: فيه إشارة إلى عدم احترامه لمنصب أمير المؤمنين.

والقسم في قوله: "فوالله ما تعطينا الجزل"، فيه مبالغة مرفوضة حيث يتهم عمر بن الخطاب بمنع العطاء أو بقلّة العطاء؛ والقسم نفسه يغلف التهمة الثانية، "ولا تحكم فينا بالعدل".

ولا يملك أمير المؤمنين إلا أن يغضب من هذا الهجوم السافر الذي يجافي الحقيقة، وهمّ أن يعاقب عيينة، ولكن يأتي دور المشير الناصح، والصاحب الصادق: وهو الحر بن قيس ابن أخي عيينة، وكان عمر يدنيه من مجلسه لأنه من الفقهاء والقراء، وقال الحر: يا أمير المؤمنين: إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾(٢)، فامتثل عمر، وعفا عن الرجل اقتداء برسول الله ﷺ، وما أجمل

---

(١) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١٤٠.

(٢) سورة الأعراف، آية: ١٩٩.

العفو عند المقدرة! وما أكرم الصفح الجميل! وما أحوج ولاة الأمور في عصرنا إلى هذه الدروس النافعة الهادية الراشدة!

فقه الحديث

١- ورد في الحديث الأمر بحسن المعاشرة مع الناس، وبذل الجهد في الإحسان إليهم والمداراة معهم، والإغضاء عنهم[١].

٢- إذا جهل شخص على الحاكم عمدًا، واستخفافًا بحقه فله تعزيره، وإذا كان غير ذلك: فالإعراض والصفح أولى، كما فعل الخليفة العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه[٢].

٣- ينبغي على الحاكم أن يقرب أهل الفضل والدين، ويتخذهم مرجعًا للرأي والمشورة.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: الحرص على مجالسة أهل العلم ومشاورتهم.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: الاستئذان.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: مراعاة آداب الخطاب مع ولاة الأمر.

رابعاً: من أساليب الدعوة: التوكيد والاستشهاد بآيات القرآن الكريم.

خامساً: من صفات الداعية: القدوة الحسنة.

سادساً: من موضوعات الدعوة: التحلي بمكارم الأخلاق.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الحرص على مجالسة أهل العلم ومشاورتهم:

لقد بين الإسلام فضل مجالسة أهل العلم، والحرص على ذلك، نظراً لتلك الرحمة التي تغشى هذه المجالس كما أخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَطْلُبُ فِيهِ عِلْماً سَلَكَ اللهُ عز وجل بِهِ طَرِيقاً مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضاً لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٢/٢٥٩-٢٦٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٧/٣٤٧.

لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْحِيتَانِ فِي جَوفِ الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَاراً وَلا دِرْهَماً، وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ))(١).

لذا كان عمر رضي الله عنه حريصاً على مجالسة أهل العلم وتقريبهم منه ووجه الدلالة هنا قوله (وكان القراء أصحاب مجلس عمر رضي الله عنه ومشاورته كهولاً كانوا أو شباباً) لما في مشاورة أهل العلم والرأي من سداد في القصد وصواب في الرأي، وقد أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾(٢) وأثنى الله بها على جماعة المؤمنين فقال ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾(٣)، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم حريصاً كل الحرص على استشارة أصحابه رضي الله عنهم في الأمور التي لم ينزل فيها الوحي مثل استشارته لأهل بدر من المهاجرين والأنصار وغير ذلك مما يؤكد على أهمية مجالسة أهل العلم والرأي ومشاورتهم.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: الاستئذان:

إن الاستئذان من الآداب الإسلامية التي ينبغي الالتزام بها خاصة في الاستئذان على أصحاب الشأن والوجاهة وأهل الفضل، ويتضح ذلك في الحديث من خلال طلب عيينة ابن حصن من ابن أخيه الحر بن قيس أن يستأذن له على عمر بن الخطاب، فاستأذن له فأذن له عمر، وكان عمر رضي الله عنه لا يحتجب عن الناس إلا في وقت خلوته، وكان استئذان الحر بن قيس من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حتى يجتمع عيينة بن حصن به، لذا ينبغي الالتزام بهذا الأدب وحث الناس عليه، لأن الاستئذان من الآداب الاجتماعية التي أدبنا الله تعالى بها، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ

(١) أخرجه أبو داود ٣٦٤١، والترمذي ٢٦٨٢، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٢٦٥، وصحيح سنن الترمذي ٢١٥٩).

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

(٣) سورة الشورى، آية: ٣٨.

بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾[1].

(فهذه آداب شرعية أدّب الله بها عباده المؤمنين ففي الاستئذان أمر الله المؤمنين ألا يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم حتى يستأنسوا أي يستأذنوا قبل الدخول ويسلموا بعده)[2].

إن الاستئذان من الآداب السامية، ومن دواعي البعد عن الريبة والظن ومن أسس الآداب والمدنية الإنسانية، وفي هذه الآيات يوجه الله تعالى عباده المؤمنين إلى أهمية الاستئذان، لأنه أدعى للأنس وإزالة الوحشة، ولذا سمي الإذن أنساً، بدليل قوله تعالى: (فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم)، والاستئذان بقرع الباب أو النداء لمن في البيت، أو التسبيح والتحميد أو صريح الاستئذان وغير ذلك من الصور المشروعة.

ومنع الدخول قبل الاستئذان عام في الرجال والنساء، مع المحارم وغير المحارم وذلك حال المجيئ من خارج السكن وأما حال الإقامة معًا فلا إلا ما ورد به النص إذ كل إنسان له حالات لا يحب أن يطلع عليها أحد، ولو كان والداً أو ولداً، حتى تستأنسوا، وتسلموا على أهلها أي على من فيها، وظاهر الآية أن الاستئذان يحصل ثم السلام، وبعضهم يرى العكس، والبعض يرى أنه إذا رأى أحد في الدار سلم أولاً ثم استأذن، فإن لم ير استأذن أولاً.

ذلكم خير لكم وأفضل، فإنه أغض للبصر، وأحفظ للسر، وأدعى إلى احترام البيوت والحرمات، ولا تظنوا أن في الاستئذان مذلة، بل هو خير لكم وأزكى، لعلكم تذكرون ذلك فتعملوا بمقتضاه.

---

(١) سورة النور، الآيات: ٢٧ - ٢٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣٦/٦.

فإن لم تجدوا فيها أحداً من ساكنيها فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم، وهذا تعبير دقيق يشير إلى معنى أدق، فربما كان في البيت صاحبه، ولم يرد عليك ولم يأذن لك فيصدق على المستأذن أنه لم يجد أحداً في البيت.

وقد يكون في البيت ما يدعو إلى الدخول بلا إذن كحريق أو حادث أو استغاثة مثلاً وهنا تدخل بلا إذن. ولا حرج عليك.

ومن الآداب أنك عند زيارتك لإنسان، ووجدت الباب مفتوحاً، أن تقف بحيث لا تطلع على شيء في البيت، وروي في الصحيح عن سهل بن سعد رضي الله عنه: ((أن رجلاً اطلعَ من جُحرٍ في دارِ النبيِّ ﷺ -والنبيُّ ﷺ يَحُكُّ رأسَهُ بالمدرَى- فقال: لو علمتُ أنك تَنظرُ لطعَنتُ بها في عينك، إنَّمَا جُعلَ الإذنُ من قِبل البصر))[1][2].

وقد تحرى الصحابة رضي الله عنهم الدقة في الامتثال لهذا الأدب والالتزام بآدابه، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كنت في مجلس من مجالس الأنصار، إذ جاء أبو موسى كأنه مذعور، فقال: (استأذنت على عمر ثلاثاً فلم يؤذن لي فرجعت، قال: ما منعك؟ قلت: استأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لي فرجعت، وقال رسول الله ﷺ إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع، فقال: والله لتقيمن عليه بينة، أمنكم أحد سمعه من النبي ﷺ؟ فقال أبيٌّ: والله لا يقوم معك إلا أصغر القوم فكنت أصغر القوم فقمت معه فأخبرت عمر أن النبي ﷺ قال ذلك)[3].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: مراعاة آداب الخطاب مع ولاة الأمر:

يبدو ذلك واضحاً جلياً في كلام الحر بن قيس مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه يا أمير المؤمنين: إن الله تعالى قال لنبيه: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[4]

---

(١) أخرجه البخاري ٥٩٢٤، ومسلم ٢١٥٦.

(٢) انظر: التفسير الواضح، د. محمد محمود حجازي ٢/١٨/٦٠ - ٦٢.

(٣) أخرجه البخاري ٢٦٢٤٥، ومسلم ٢١٥٣.

(٤) سورة الأعراف، آية: ١٩٩.

وإن هذا من الجاهلين، فيبدو منه استصحاب الحر بن قيس للتلطف والرفق والابتعاد عن التعنيف والغلظة، فنجده يبتدئ كلامه بقوله: (يا أمير المؤمنين تأدباً معه، ثم يستشهد بآية من القرآن ليكون أدعى للقبول، ثم يعتذر عما بدر من عمه عيينة بن حصن بقوله "وإن هذا من الجاهلين" لذا ينبغي على الإنسان أن يتصف بالتلطف والرفق خاصة مع ولاة الأمر وأصحاب الشأن.

وقد أمر الله بإلانة القول والتلطف فيه فقال: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾[1] ففي الآية أمر من الله للمؤمنين بأن يقولوا أقوالاً تعرب عن حسن النية وعن نفوس ذكية، في كلمة جامعة يقولوا التي هي أحسن واسم التفضيل "أحسن" مستعمل في قوة الحسن، ونظيره قوله تعالى: ﴿ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[2] والمقصد الأهم من هذا التأديب تأديب الأمة في معاملة بعضهم بعضاً -خاصة مع ولاة أمرهم- بحسن المعاملة وإلانة القول"[3].

رابعاً- من أساليب الدعوة: التوكيد والاستشهاد بآيات من القرآن:

يتضح ذلك من خلال استخدام الحر بن قيس في توكيد قوله بـ"إن الله يقول"، ولقوله: "وإن هذا من الجاهلين" لما في التوكيد من دواعي قبول الحق والاطمئنان إليه، كذلك استشهاده بالقرآن وذلك من خلال سوقه لقول الله ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[4] وذلك لما جبلت عليه النفوس من تسليم بالأمر إذا شُفّع بالدليل خاصة إذا كان من كتاب الله تعالى أو سنة رسوله ﷺ.

خامساً- من صفات الداعي: القدوة الحسنة:

يستنبط ذلك من قوله (والله ما جاوزها عمر حين تلاها، وكان وقافاً عند كتاب

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٥٣.

(٢) سورة النحل، آية: ١٢٥.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ١٣١/٦، ١٣٢.

(٤) سورة الأعراف، آية: ١٩٩.

الله تعالى) فقد أعطانا عمر رضي الله عنه مثالاً حياً يحتذى به في الاقتداء، وذلك مما يجب أن يتسم به من نصب نفسه للإمامة أو الإفتاء والدعوة أو ما شاكل ذلك، ليكون حافزاً لغيره على الالتزام بما يسمع أو يقرأ من كتاب الله وسنة رسوله الكريم ﷺ حيث كان عمر رضي الله عنه نموذجًا رائعًا في الوقوف عند كتاب الله، والسمع والطاعة لأوامر الله تعالى.

لقد غرس الإسلام في نفوس أتباعه أدب الاقتداء بأهل التقى والعلم وبمن يؤخذ عنهم وعلى رأسهم رسول الله ﷺ فقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[1] (وهذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله)[2] وبين الحق تبارك وتعالى الدافع الذي يدفع المسلم إلى التأسي برسوله ﷺ وهو رجاء ثواب الله، والأمن يوم القيامة فقال: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾.

لقد حث الإسلام أتباعه على الاقتداء بالصلحاء والشرفاء والعقلاء، وفي مقدمة أولئك أنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾[4].

قال الحسن البصري: (عظ الناس بعملك ولا تعظهم بقولك).

وقال أيضاً: (الواعظ من وعظ الناس بعمله لا بقوله وكان ذلك شأنه إذا أراد أن يأمر الناس بشيء بدأ بنفسه ففعله، وإذا أراد أن ينهى عن شيء انتهى عنه، فمن أسرته

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٦/٣٩١.

(٣) سورة الأنعام آية: ٩٠.

(٤) سورة الممتحنة، آية: ٦.

نفسه، وأصبح عبداً لهواه فلا يمكن أن ينكر على الآخرين)[١].

وقديماً قيل: ما خرج من اللسان لا يتجاوز الآذان، وما خرج من القلب فإنه يستقر في القلب.

وإذا خالف فعل الداعية قوله ربما لم يقتصر الضرر على نفسه، بل تعدى ذلك الضرر إلى غيره، وكان قدوة سوء في المجتمع.

ولهذا ذم الله تعالى مثل هذا السلوك فقال سبحانه: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[٢].

وقال سبحانه: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[٣].

لذا ينبغي على الداعية أن يلتزم بحسن الأخلاق والأعمال وأن يبتعد عن دنيئها، فالداعية إلى الله يكسب لدعوته بسلوكه الحسن، وقدوته الطيبة أكثر مما يكسبه لها بأقواله اللبقة، لأنَّ الناس ينظرون دائماً إلى الدعاة كنماذج حيّة لما يدعونه إليه، ويتأثرون بسلوكهم العملي أعظم مما يتأثرون بكلماتهم وخطبهم المثيرة[٤].

سادساً- من موضوعات الدعوة: التحلي بمكارم الأخلاق:

يستنبط هذا من الآية التي استشهد بها الحر بن قيس وهي قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾[٥] والآية قد جمعت مكارم الأخلاق، لأن فضائل الأخلاق لا تعدو أن تكون عفواً عن اعتداء فتدخل في ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ أو إغضاء عما لا

---

(١) فقه الدعوة في إنكار المنكر، عبدالحميد البلالي ص ٥٠ - ٥١.

(٢) سورة البقرة، آية ٤٤.

(٣) سورة الجمعة، آية: ٥٠.

(٤) أسس الدعوة وآداب الدعاة، محمد السيد الوكيل ص ٧٤.

(٥) سورة الأعراف، آية: ١٩٩.

يلائم فتدخل في ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ أو فعل خير واتساماً بفضيلة فتدخل في ﴿ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ ﴾[(١)] وبهذا جمعت الآية حسن الخلق مع الناس، وما ينبغي في معاملتهم من شكر لهم على إحسانهم واستقامتهم، وتجاوز عن تقصيرهم، وأمر بكل قول حسن وفعل جميل وخلق كامل للقريب والبعيد، ولما كان لابد من أذية الجاهل أمر الله تعالى أن يقابل الجاهل بالإعراض عنه وعدم مقابلته بجهله[(٢)].

لقد أعلى الإسلام مرتبة الأخلاق، وجعل من الدين الخلق الحسن، وأكمل المؤمنين إيماناً أحاسنهم أخلاقاً، إنه الدين الذي أرسى مبادئ الأخلاق ونهى عن دنيئها وسافلها، وبُعث النبي ﷺ ليتمم صالحها ومكارمها، فقال ﷺ: ((إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلاَقِ))[(٣)(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٢٩/٩/٤.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٣١٢.

(٣) أخرجه أحمد ٨٩٣٩، والبخاري في الأدب المفرد ٢٧٣، وصححه الألباني، (سلسلة الأحاديث الصحيحة ٤٥).

(٤) الوجيز في الأخلاق والآداب الشرعية، حماد بن عبدالله الحماد ، حماد بن محمد الحماد ص ٧.

الحديث رقم (٥١)

٥١- وعَن ابْنِ مسْعُودٍ رضي الله عنه أنَّ رسولَ اللَّه صلى الله عليه وسلم قال: «**إِنَّهَا سَتَكُونُ بَعْدِي أَثَرَةٌ وَأُمُورٌ تُنْكِرونَهَا**» ، قَالُوا: (يَا رسُولَ اللَّهِ فَمَا تَأمرُنا) [(١)]؟ قَالَ: «**تُؤَدُّونَ الْحقَّ الَّذي علَيْكُمْ وتَسْأَلونَ اللَّه الذي لكُمْ**» متفقٌ عليه[(٢)].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

غريب الألفاظ:

الأثرة: الانفراد بالشيء عمن له فيه حق، وفي النهاية: الأثَرَة: الاسم من آثرَ يؤثر إيثارًا ، أراد أنه يُسْتأثر عليكم فيُفَضَّلُ غيرُكم في نصيبه من الفَيْء[(٣)].

الشرح الأدبي

إن أسلوب الحوار بين الرسول وأصحابه من أجمل الأساليب المقنعة ، وهو من وسائل التربية الحديثة، فالنفس الإنسانية قد لا تستجيب للموعظة المرسلة،أو الحكمة المجردة، ولكنها تنفعل بالموقف وتستجيب للأمر المطروح على مائدة الحوار الإيجابي البناء، وما أجلَّ الحوار بين أستاذ الإنسانية وهادي البشرية وبين الصحابة الأخيار! إنه حوار أساسه القواعد الإيمانية، والتوجيهات النبوية، والحوار هنا يأخذ صبغة جديدة، لأنه لا يفتتح بسؤال من الصحابة أو طلاب الهداية كما هي العادة في مثل هذه المواقف، "التحاورية"، ولكن الحوار يبدأ بطرح قضية سلوكية يتنبئ بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهي واقعة لا محالة لأن من أخبر عنها هو الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم كما أن وقوعها جزء من تكوينات النفس البشرية، وهي "الأثرة" وحب النفس، والرغبة في المزيد مع الميل إلى تفضيل الذات والاستئثار بحق الغير، وهذا المسلك المعوج بمنأى عن السلوك الإيماني

---

(١) لفظ مسلم: (يا رسول الله! كيف تأمر من أدرك منا ذلك) وإنما هذا لفظ البخاري (٣٦٠٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٠٣)، ومسلم (١٨٤٣/٤٥).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (أ ث ر)، ورياض الصالحين ٦٩.

السوي المتمثل في قول الله جلّ وعلا: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾(١)، وفي قول الله عز وجل: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(٢).

إن هذه القضية الاجتماعية يقدمها سيد الخلق في أسلوب بياني بليغ، وسياق بلاغي حواري محكم، ولنتأمل التشكيل الأسلوبي في عرض هذه المسألة: إن رسول الله ﷺ يتوجه إلى صحابته ولم يحددهم، إيحاءً بأن هذا الخطاب لعامة المسلمين ولخاصتهم حتى يتنبهوا إلى علامات الفتن وأمارات الانحراف، وبدأ الكلام بالتأكيد وقال: "إنها ستكون بعدي أثرة" والتأكيد يحتم الوقوع، وارتباط الضمير بحرف التأكيد يوحي بوقوع هذه المشكلة وغيرها من المخالفات: لأن الضمير لا يعود على مجهول، بل "إنها" والتعبير بالفعل "ستكون" يتضمن أكثر من إشارة بلاغية: فصيغة المضارع تومئ إلى استمرارية هذا السلوك، والاقتران بالسين يدل على قرب الوقوع ولكن بعد وفاة رسول الله ﷺ، ولذلك قال رسول الله "بعدي"، والأثرة: هي الانفراد بالشيء ومنع المستحق من نصيبه أو من بعضه.

وتنكير اللفظ يرشد إلى شيوع هذه الظاهرة وانتشارها لأن النفس الإنسانية في غياب الوازع الإيماني تظل عرضة لنزغات الشيطان ووساوسه، والتعبير بقوله: "أمور تنكرونها" فيه إيجاز وتكثيف لأن كلمة "أمور"، تشمل كل المنكرات والمنهيات وتنكيرها يومئ إلى هذا الشيوع، والأمور المنكرة نشهدها في مجال العقائد والعبادات والمعاملات وما أكثرها وما أبعدها عن التصور العقدي الصحيح!

والتعبير بالمضارع وصيغة الجمع يلقي بالمسؤولية على كل مسلم في موقفه من المنكر وفي حتمية السعي إلى تغييره وإزالته إما باليد أو باللسان أو بالقلب، ولذلك يسأل الصحابة رسول الله: "فما تأمرنا"، واختيار مادة الأمر، يرشد إلى وجوب التنفيذ وعدم التفريط في متعلقات هذا الأمر، ولذلك وضع لهم الرسول المنهج حيث قال: "تؤدون الحق

(١) سورة الحشر، آية: ٩.

(٢) سورة الحشر، آية: ٩.

الذي عليكم، وتسألون الله الذي لكم". والتعبير بصيغة الجمع يدل على أن المسؤولية جماعية.

والمادة اللغوية المختارة في الفعل "تؤدون"، تفصح عن قيمة هذا الحق، وهو أمانة يجب أن تؤدي، والتعبير بقوله: "عليكم" يؤكد هذا المفهوم، والطباق بين "عليكم" "ولكم" يرشد إلى الموقفين موقف الواجب والحق الذي يجب أن يؤدى، وموقف الطلب والحاجة وهو لا يتحقق إلا بسؤال الله عز وجل، وسؤال الله عز وجل منهج إسلامي سديد، كما جاء في الحوار بين رسول الله وابن عباس وهو غلام حيث قال له: ((إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله))[1].

وصيغة المضارع في الجملتين تعلن عن استمرار هذا المنهج الذي يبتعد بالإنسان المسلم عن الأثرة وحب الذات، والرغبة في الاستعلاء على الغير وتفضيل النفس.

وهذا الحديث الشريف قد يبدو غريباً إدراجه في باب الصبر، وحين نتأمل مقاصد الحديث وندرك مراميه وأسراره، نعرف أنه يرشد إلى التحلي بالصبر، والانتصار على النفس حين نقاوم الأثرة، ونؤدي الحق الذي علينا. وهو أفق واسع، ومجال ينأى عن التحديد، والمقاومة في هذا الميدان تحتاج إلى إرادة قوية، وعزيمة نافذة.

فقه الحديث

في الحديث الأمر بطاعة أولي الأمر، وقد أجمع العلماء على وجوب طاعة أولي الأمر من الأمراء والحكام ما التزموا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ. وقد نقل النووي عن القاضي عياض وغيره هذا الإجماع[2]. قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ وقد ذهب جمهور الفقهاء والمفسرين إلى أن المقصود بأولي الأمر في الآية: الأمراء وأهل السلطان والحكم[3].

---

(١) أخرجه أحمد ٢٩٣/١، والترمذي ٢٥١٦، قال محققو المسند: إسناده قوي، ٤٠٩/٤-٤١٠.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١١٨٩.

(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٤٢٨/٦ وما بعدها، و انظر كذلك: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٣٢٣/٢٨، وشرح رياض الصالحين ١١٨/١-١١٩.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: من دلائل نبوته ﷺ إخباره ببعض ما يحدث بعده.

ثانياً: من أساليب الدعوة: الإخبار والتوكيد.

ثالثاً: من صفات المدعو: الحرص على السؤال عن الأمور المهمة والتفقه في الدين.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: الحث على السمع والطاعة.

خامساً: من موضوعات الدعوة: الصبر.

أولاً- من موضوعات الدعوة: من دلائل نبوته ﷺ إخباره ببعض ما يحدث بعده:

إن من معجزات النبوة التي أيد الله بها نبيه محمداً ﷺ إخباره ببعض الأمور التي ستحدث من بعده، كما في قوله ﷺ: "إنهاستكون بعدي أثرة وأمور ينكرونها" قال ابن عثيمين: (فيه دليل على نبوة الرسول ﷺ لأنه أخبر بأمر وقع، فإن الخلفاء والأمراء منذ عهد بعيد كانوا يستأثرون بالمال فنجدهم يأكلون إسرافًا، ويشربون إسرافًا، ويلبسون إسرافًا، ويسكنون إسرافًا، ويركبون إسرافًا، وقد استأثروا بمال الناس لمصالح أنفسهم الخاصة، ولكن هذا لا يعني أن ننزع يدًا من طاعة، أو أن ننابذهم، بل نسأل الله الذي لنا ونقوم بالحق الذي علينا) ولاشك أن ذلك ينطوي على حكم بالغة من أبرزها تحذير أمته مما يحدث من فتن وأمور يستنكرها المؤمنون، وإرشاده إلى كيفية التعامل مع تلك المتغيرات. فمن معجزات رسول الله ﷺ ودلائل نبوته ما اطلع عليه من الغيوب الماضية والمستقبلة وإخباره عنها، ومن المعلوم المقرر أن علم الغيب مختص بالله تعالى وحده، وقد أضافه إلى نفسه في غير ما آية من كتابه العزيز قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ (١) وقال: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ (٢) ومن المعلوم أيضاً أن الأنبياء لا يعلمون الغيب ولا اطلاع لهم على شيء منه، ذكر الله تعالى عن غير واحد من رسله الكرام أنهم قالوا لأقوامهم

---

(١) سورة النمل، آية: ٦٥.

(٢) سورة الأنعام، آية: ٥٩.

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ [١]. وكما جاءت النصوص تدل على أن الله تبارك وتعالى قد اختص بمعرفة علم الغيب وأنه استأثر به دون خلقه، جاءت أدلة أخرى تفيد أن الله استثنى من خلقه من ارتضاه من الرسل فأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحي إليهم، وجعله معجزة لهم ودلالة صادقة على نبوتهم، قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾ [٢])[٣].

ثانياً- من أساليب الدعوة: الإخبار والتوكيد:

ورد ذلك في قوله ﷺ: "إنها ستكون بعدي أثرة وأمور تنكرونها"، وذلك إخبار منه ﷺ وتأكيده بقوله "إنها" وذلك أوقع في قلب المستمع بحصول ذلك الأمر وتيقن القائل به لتأكيده ذلك الأمر؛ مما يحض المستمع على أخذ الأهبة والاستعداد.

ثالثاً- من صفات المدعو: الحرص على السؤال عن الأمور المهمة والتفقه في الدين:

لقد كان الصحابة رضي الله عنهم حريصين كل الحرص على السؤال عن الأمور المهمة، ومما يبين ذلك سؤالهم للنبي ﷺ فور إخبارهم بما سيحدث من بعده حيث قالوا: "يا رسول الله فما تأمرنا"، وذلك حتى لا يقعوا في محظور شرعي فيعبدوا الله ويدعوا إليه على بينة من أمرهم وكما قال الله تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [٤]. وحتى يكونوا على بينة من أمرهم، فلا تختلط عليهم الأمور، ولا يخوضون مع الخائضين، بل يتبعون المنهج الذي انتهجه لهم رسول الله ﷺ، وهذا دليل على حرص الصحابة رضي الله عنهم على التمسك بالمبادئ الإسلامية الصحيحة في التعامل مع المتغيرات.

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٥٠.

(٢) سورة الجن، آية: ٢٦ - ٢٧.

(٣) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد ٥٤٢/١، ٥٤٣.

(٤) سورة يوسف، آية: ١٠٨.

رابعاً- من موضوعات الدعوة: الحث على السمع والطاعة:

إن السمع والطاعة مما يحفظ على الأمة تماسكها وسلامتها من التفرق شريطة الائتمار بالمعروف والانتهاء عن المنكر. قال النووي في شرحه هذا الحديث: (وفيه الحث على السمع والطاعة وإن كان المتولي ظالماً عسوفاً فيعطى حقه من الطاعة، ولا يخرج عليه ولا يخلع، بل يتضرع إلى الله في كشف أذاه ودفع شره وإصلاحه)(١).

وقد أمرنا النبي ﷺ بالسمع والطاعة في كثير من النصوص ومن ذلك ما رواه العرياض بن سارية رضي الله عنه قال: ((وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَوْعِظَةً، وَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَأَوْصِنَا. قَالَ ﷺ: أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ. وَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافاً كَثِيراً، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ))(٢).

قال ابن رجب الحنبلي: (وقوله ﷺ: "أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة"، فهاتان الكلمتان تجمعان سعادة الدنيا والآخرة، أما التقوى فهي كافلة بسعادة الدنيا والآخرة لمن تمسك بها وهي وصية الله للأولين والآخرين كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾(٣).

وأما السمع والطاعة لولاة أمور المسلمين ففيها سعادة الدنيا وبها تنتظم مصالح العباد في معايشهم وبها يستعينون على إظهار دينهم وطاعة ربهم، كما قال على بن أبي طالب رضي الله عنه إن الناس لا يصلحهم إلا إمام بر أو فاجر، إن كان فاجرا عبد المؤمن فيها ربه وحمل الفاجر فيها إلى أجله.

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٩٣.

(٢) أخرجه أبو داود ٤٦٠٧، والترمذي ٢٦٧٦، وابن ماجه ٤٣، ٤٤، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٨٥١).

(٣) سورة النساء، آية: ١٣١.

وقال الحسن في الأمراء: هم يلون من أمورنا خمسا: الجمعة والجماعة والعيد والثغور والحدود والله ما يستقيم الدين إلا بهم وإن جاروا أو ظلموا، والله لما يصلح الله بهم أكثر مما يفسدون، والله إن طاعتهم لغيظ وإن فرقتهم لكفر"(١).

خامساً- من موضوعات الدعوة: الصبر:

إن مما ينبغي للمسلم أن يتحلى به الصبر، فهو من أعظم أسباب نجاح الدعوات، وهو سبب من أسباب النصر، ومن ألوان الصبر: الصبر على ما يقع من ولاة الأمر من بعض التجاوزات، وهذا ظاهر من قوله ﷺ لما سئل "فما تأمرنا؟ قال: تؤدون الحق الذي عليكم وتسألون الله الذي لكم" فقوله "تؤدون الحق الذي عليكم" أي: بذل المال الواجب في الزكاة والنفس في الخروج إلى الجهاد عند التعيين ونحو ذلك، وقوله "وتسألون الله الذي لكم" بأن يلهمهم إنصافكم أو يبدلكم خيراً منهم"(٢).

وفي ذلك حض على الصبر ولزوم الطاعة على كل حال والاستسلام والضراعة إلى الله في كشف ما نزل(٣).

قال ابن عثيمين: (أخبر النبي ﷺ بما يكون بعده من أثرة فقال: (إنها ستكون بعدي أثرة)، والأثرة يعني الاستئثار بالشيء عمن له فيه حق. يريد بذلك ﷺ أنه يستولي على المسلمين وُلاة يستأثرون بأموال المسلمين يصرفونها كما شاؤوا ويمنعون المسلمين حقهم فيها. وهذه أثرة وظلم من الولاة أن يستأثروا بالأموال التي للمسلمين فيها الحق، ويستأثروا بها لأنفسهم عن المسلمين، ولكن قالوا: "فما تأمرنا؟". قال: "تؤدون الحق الذي عليكم" يعني: لا يمنعكم استئثارهم بالمال عليكم أن تمنعوا ما يجب عليكم نحوهم من السمع والطاعة وعدم الإثارة وعدم التشويش عليهم. بل اصبروا واسمعوا وأطيعوا ولا تنازعوهم الأمر الذي أعطاهم الله "وتسألون الذي لكم" أي:

---

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١١٦/٢ – ١١٧ بتصرف.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٨/١٣.

(٣) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٢٥١/٦.

اسألوا الحق الذي لكم من الله. أي: أسألوا الله أن يهديهم حتى يؤدوكم الحق الذي عليهم لكم، وهذا من حكمة النبي ﷺ؛ فإنه عليه الصلاة والسلام علم أن النفوس شحيحة وأنها لن تصبر على من يستأثر عليهم بحقوقهم، ولكنه ﷺ أرشد إلى أمر يكون فيه الخير. وذلك بأن نؤدي ما يجب علينا نحوهم من السمع والطاعة، وعدم منازعة أولي الأمر وغير ذلك، وندعو الله لهم بأن يعطونا حقنا وفي هذا خير.

وقد جاءت الآيات والأحاديث حاضة على الصبر والتخلق به منها قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1] قال الطبري: أي اصبروا على دينكم وطاعة ربكم، وذلك أن الله لم يخصص من معاني الصبر على الدين والطاعة شيئاً فيجوز إخراجه من ظاهر التنزيل، ومن ثم يكون الأمر بالصبر على جميع معاني طاعة الله فيما أمر ونهى صعبها وشديدها وسهلها وخفيفها[2].

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٢٠٠.

(٢) جامع البيان ١٤٨/٤، ١٤٩.

الحديث رقم (٥٢)

٥٢- وَعن أبي يحيَى أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ ﵁ أَنَّ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ قال: يا رسولَ اللَّهِ أَلا تَستَعْمِلُني كَمَا استَعْملتَ فُلاناً وفلاناً[١]، فَقَالَ: «**إِنَّكُمْ[٢] سَتَلْقَوْنَ بَعْدي أَثَرَةً فاصْبِرُوا حَتَّى تلقَوْنِي علَى الْحوْضِ**» متفقٌ عليه[٣].

ترجمة الراوي:

أُسَيْد بن الحُضَيْر: هو ابن سماك بن عتيك بن عبدالأشهل.

كان شريفاً في الجاهلية والإسلام، مقدماً في قبيلته (الأوس) من أهل المدينة، وكان من عقلاء العرب وذوي الرأي فيهم، وكان من السابقين إلى الإسلام وكان إسلامه علي يد مصعب بن عمير، وهو أحد النقباء الاثني عشر، فقد شهد العقبة الثانية مع السبعين من الأنصار، ولم يشهد بدراً، فندم وقال ظننت أنها العير، ولو ظننت أنه غزو ما تخلفت، وقيل: إنه شهد بدرًا. وشهد أحداً وثبت مع رسول الله ﷺ حين انكشف الناس عنه ﷺ وجرح سبع جراحات، وشهد الخندق والمشاهد كلها. وقد آخى النبي ﷺ بينه وبين زيد بن حارثة ﵁.

وقال فيه رسول الله ﷺ ((نعم الرجل أسيد بن حضير))[٤].

وكان فيه مُزاحٌ وطيب أخلاق، فبينما يحدث القوم ويضحكهم، طعنه النبي ﷺ في خاصرته (بعود فقال: أصبرني، فقال: اصطبر[٥]، قال: إن عليك قميصاً وليس عليَّ قميص فرفع النبي ﷺ عن قمصيه، فجعل يقبل فاحتضنه وجعل يقبل

---

(١) عند البخاري ومسلم: (فلانًا) مرّة فقط، قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١١٧/٧): ذكرتُ في المقدمة أن السائل أسيد بن حُضير، والمستعمل: عمرو بن العاص، ولا أدري الآن من أين نقلته.

(٢) (إنكم) عند البخاري برقم (٧٠٥٧).

(٣) أخرجه البخاري (٣٧٩٢) واللفظ له، ومسلم (١٨٤٥/٤٨).

(٤) الترمذي، رقم ٣٧٩٥، وصحّحه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٩٥٩).

(٥) أي: أقدني من نفسك. قال: استقد. يقال: صبر فلان من خصمه واصطبر. أي اقتص منه. وأصبره الحاكم أي: أقصه من خصمه. النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ص ب ر).

كشحه قال: إنما أردت هذا يا رسول الله)[1] وكان من أحسن الناس صوتاً بالقرآن، فقد كان يقرأ من الليل سورة البقرة فإذا في السماء مثلُ الظُّلة فيها أمثال المصابيح فقال له النبي ﷺ ((تلك الملائكة دنت لِصَوتِك، ولو قرأت لأصبحت ينظُر الناسُ إليها، لا تتوارى منهم))[2].

وكان أبوبكر رضي الله عنه يكرمه، ولا يقدم عليه أحداً، من الأنصار، وقد شهد فتح المقدس مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقدم الجابية معه.

وقالت فيه عائشة رضي الله عنها إنه من أفاضل الناس، وقالت أيضاً: ثلاثة من الأنصار لم يكن أحد منهم يلحق في الفضل كلهم من بني عبد الأشهل سعد بن معاذ وأسيد بن حُضير وعباد بن بشر وروى له البخاري ومسلم (١٨) حديثاً. وتوفي بالمدينة سنة ٢٠هـ[3].

غريب الألفاظ:

تستعملني: أي تجعلني عاملاً على الصدقة أو على بلد[4].

الأَثَرَة: سبق تفسيرها في الحديث السابق بالمعنى نفسه.

الشرح الأدبي

في ظل هذا الحديث الشريف نستروح نسائم الصبر، ونتذوق حلاوة الإيثار، ونتأمل أحوال الخلق، ونستكشف كثيراً من أسرار السلوك الإنساني.

والحديث في صيغته اللغوية والفنية محاورة بين رسول الله ﷺ، ورجل من الأنصار، وقيل هو: أسيد بن حضير نفسه. موضوع الحوار: هو طلب الولاية، وهذا

---

(١) أبو داود، رقم ٥٢٢٤، وقال الألباني حديث صحيح.

(٢) أخرجه مسلم ٧٩٦، وهو عند البخاري ٥٠١٨ معلقاً.

(٣) الطبقات، ابن سعد (٣/٦٠٣-٦٠٧)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر (٤٤-٤٦)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير (١/٢٤٠-٢٤٢)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ٥٤، وسير أعلام النبلاء، الذهبي (١/٣٤٠)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي (١/٢٦٦)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (١/١٧٦)، والأعلام، خير الدين الزركلي (١/٣٣٠)، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك (١/٤٤٤-٤٤٧).

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٤٧/٧.

الطلب -كما توحي بذلك إجابة رسول الله ﷺ- لم يكن بدافع الرغبة في السيطرة والمنفعة والتسلط، وإنما الحافز هو طلب تحمل المسؤولية. والطالب يرى نفسه أهلاً لذلك، وهو: أسيد بن حضير، وقد شهد له الرسول بالفضل، فقال: "نعم الرجل أسيد بن حضير"[1]. وكان أبو بكر يكرمه ولا يقدم عليه أحدا.

ولذلك نراه يلتزم بآداب الخطاب في حضرة رسول الله، وهذا الالتزام يتجلى في هذا النداء الجميل "يارسول الله" ولم يتقدم بطلبه مباشرة، ولم يطلب الولاية في صيغة الأمر أو الاستفهام، وإنما الطلب يجيء في ثوب ملائم وسياق كريم أقرب إلى الرجاء: "ألا تستعملني".

والمادة اللغوية لهذا الفعل وهي: الاستعمال، ترشد إلى أن الرجل يطلب الولاية من أجل العمل الصالح المفيد، ولم يقل "ألا تؤمرني"، أو "أريد أن تجعلني والياً"، ولكنه طَلَبَ الولايةَ من أجل العمل الدائب النافع في ظل تحمل المسؤولية، وقوله: "كما استعملت فلاناً وفلانا" ليس غيرة ولا طلباً للأثرة ولكن للتدليل على أن نظراءه في الفضل والإخلاص تحملوا المسؤولية، ولم يحدد الراوي اسم فلان وفلان، حتى لا تنشأ شبهة الغيرة، أو يظن بهذا الطالب الأثرة.

وتكملة هذه المحاورة الموجزة تتوهج في إجابة رسول الله ﷺ التي جاءت غير مباشرة، حيث لم يحقق للسائل رجاءه، ولم يرفضه، وإنما وضع قاعدة صادقة شريفة تتجاوز الحدود الزمانية والمكانية والذاتية لتمتد في شعاب الحياة المستقبلية، ولتقرأ أحداث الحياة المطوية في عالم الغيب، ويحذر الرسول من طلب الولاية من "الأثرة" التي تهزم إرادة كثير من الولاة، فيسعون إلى اغتصاب المواقع، وإلى الصراع والتنافس المريب في ميدان الوصول إلى باب السلطان.

ولذلك يأمر الرسول ﷺ المخلصين من طلاب الولاية بالصبر في مواجهة من يحاولون إزاحتهم عن موقع المسؤولية، أو التشكيك في قدراتهم ونواياهم.

والتعبير بقوله: "حتى تلقوني على الحوض"، إشارة إلى أن الصراع والأثرة سيظلان

---

(١) أخرجه الترمذي ٣٧٩٥، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي، ٢٩٥٩).

يسيطران على حركة الحياة المائجة بالتقلبات والنوازع والأهواء إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

واللقاء على الحوض بشارة من الرسول الكريم لكل الصابرين الذين لا يتبوأون المنزلة اللائقة بهم في دنيا الناس، ويكفيهم لقاء الحبيب المصطفى يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، ومن شرب من الحوض شربة لم يظمأ بعدها أبداً، كما جاء في وصفه عن رسول الله ﷺ(١).

فقه الحديث

ورد في الحديث أن الرجل قد سأل النبي ﷺ أن يستعمله فقال: "يا رسول الله ألا تستعملني كما استعملت فلانًا وفلانًا؟"، فما الحكم في أن يطلب المرء الولاية؟

لقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال لعبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه: ((يا عبدالرحمن بن سَمُرة لا تسأل عن الإمارة، فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها))(٢). قال النووي: (في هذا الحديث فوائد منها: كراهة سؤال الولاية سواء ولاية الإمارة والقضاء والحسبة وغيرها)(٣).

قال القرطبي صاحب المفهم: (وسببه أن سؤالها والحرص عليها مع العلم بكثرة آفاتها وصعوبة التخلص منها دليل على أنه يطلبها لنفسه ولأغراضه، ومن كان هكذا أوشك أن تغلب عليه نفسه فيهلك، وهذا معنى قوله "وكل إليها"، ومن أباها لعلمه بآفاتها ولخوفه من التقصير في حقوقها، وفرّ منها، ثم ابتلي بها فيرجى له ألا تغلب عليه نفسه، للخوف الغالب عليه، فيتخلص من آفاتها، وهذا معنى قوله "أعين عليها". وهذا كله محمول على ما إذا كان هنالك جماعة ممن يقوم بها، ويصلح لها، فأما لو لم يكن هنالك ممن لا يصلح إلا واحد لتعيّن ذلك عليه ووجب أن يتولاها ويسأل ذلك

(١) أخرج البخاري ٦٥٧٩، ومسلم ٢٢٩٢ مرفوعًا: حوضي مسيرة شهر، وزواياه سواء، وماؤه أبيض من الورق، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، فمن شرب منه فلا يظمأ بعده أبدًا".

(٢) أخرجه البخاري ٧١٤، ومسلم ١٦٥٢.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦/١١/٩٧.

ويخبر بصفاته التي يستحقها من العلم والكفاية وغير ذلك، كما قال يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[1])[2] وقال القرطبي صاحب التفسير: (فأمّا لو كان هناك من يقوم بها ويصلح لها، وعلم بذلك فالأولى ألا يطلب)[3].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الاستفهام، والإخبار والتوكيد، والأمر.

ثانياً: من دلائل نبوته ﷺ إخباره ببعض ما سيقع بعده.

ثالثاً: من صفات الداعية: الحكمة في الإجابة.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: الصبر.

خامساً: من موضوعات الدعوة: الحوض.

أولاً- من أساليب الدعوة: الاستفهام والإخبار والتوكيد والأمر:

أ- الاستفهام في قول الصحابي: ألا تستعملني كما استعملت فلانًا وفلانًا؟ وقد كشف هذا السؤال عما يدور بداخله وعما يشغله وعن رغبته في الولاية، منتظرًا الإجابة من النبي ﷺ الذي سيرشده إلى ما فيه خيره ونفعه.

ب- الإخبار والتوكيد: يتضح ذلك في قول رسول الله ﷺ "إنكم ستلقون بعدي أثرة" فقد جاء الإخبار مؤكدًا ليبين تحقق وقوع المخبر به، ومن ثمّ يستعد المخاطب بما يناسبه ويلائمه.

ج- الأمر: في قوله ﷺ "فاصبروا" وقد جاء ليرشد المخاطبين إلى ما يفعلونه تجاه

---

(١) سورة يوسف، آية: ٥٥.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ١٦/٤.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٣٨٥/١١. ولمزيد من التفصيل انظر: تبيين الحقائق، الزيلعي ١٧٦/٤، وبريقة محمودية في طريقة محمدية وشريعة نبوية في سرية أحمدية، محمد بن مصطفى الخادمي ٢٨٠/٣، ومعين الحكام، الطرابلسي ص ٩، والعناية على الهداية، البابرتي ٢٦٢/٧ وما بعدها، وتبصرة الحكام، ابن فرحون ١٥/١، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ١٠٣/٦، وأحكام القرآن، ابن العربي ٥٩/٣، وإحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، تقي الدين بن دقيق العيد ٢٥٣/٢.

الأثرة التي يلقونها من الحكام والولاة.

ثانياً- من دلائل نبوته ﷺ إخباره ببعض ما سيقع بعده:

ذلك من قوله ﷺ: "إنها ستكون بعدي أثرة وأمور تنكرونها" قال ابن حجر: (وأشار بذلك إلى أن الأمر يصير في غيرهم فيختصون دونهم بالأموال، وكان الأمر كما وصف ﷺ وهو معدود فيما أخبر به من الأمور الآتية، فوقع كما قال)(١)، وهذا من الدلائل على أنه نبي من عند الله مؤيد بوحيه ومنصور بقدرته ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾(٢).

فما وقع على لسان رسول الله ﷺ من الإخبار بالمغيبات فبوحي من الله تعالى، وهو إعلام من الله عز وجل لرسوله ﷺ للدلالة على ثبوت نبوته وصحة رسالته، وقد اشتهر أمره ﷺ بإطلاع الله له على المغيبات: قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما: ((قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ مَقَاماً. مَا تَرَكَ شَيْئاً يَكُونُ فِي مقَامِه ذلك إلى قِيَامِ السَّاعَةِ. إلاَّ حَدَّثَ بِهِ. حَفِظَهُ مَنْ حَفِظَهُ وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ))(٣).

قال القرطبي: "قلتُ: على أني أقولُ: إن النبي ﷺ كأن الله تعالى قد أعلمه بتفاصيل ما يجري بعده لأهل بيته وأصحابه، وبأعيان المنافقين، وبتفاصيل ما يقع في أمته من كبار الفتن، وصغارها، وأعيان أصحابها، وأسمائهم، وأنه بث الكثير من ذلك عند من يصلحُ لذلك من أصحابه كحذيفة رضي الله عنه وبهذا يُعلم أن أصحابه، كان عندهم من علم الكوائن الحادثة إلى يوم القيامة العلمُ الكثير والحظُ الوافر لكن لم يشيعوها، إذ ليست من أحاديث الأحكام، وما كان فيها شيء من ذلك حدثوا به، ونقضوا عن عهدته"(٤).

وقال القاضي عياض عن الأحاديث التي ورد فيها إخباره عما يقع بعده من الغيوب:

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢/١٦٩٨.

(٢) سورة النجم، الآيتان: ٣، ٤.

(٣) أخرجه البخاري ٦٦٠٤، ومسلم ٢٣، ٢٨٩١.

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٧/٢٢١.

(والأحاديث في هذا الباب، بحر لا يدرك قعره ولا ينزف غمره، وهذه المعجزة من جملة معجزاته، المعلومة على القطع الواصل إلينا خبرها على التواتر، لكثرة رواتها واتفاق معانيها على الاطلاع على الغيب)(١).

ثالثاً- من صفات الداعية: الحكمة والإجابة:

الملاحظ أن سؤال الصحابي كان مُنْصَبًّا على طلب الولاية "يا رسول الله ألا تستعملني كما استعملت فلانًا وفلانًا" وكان من المتوقع أن تكون إجابة النبي ﷺ مباشرة على سؤال الصحابي، لكنه ﷺ عدل عن ذلك إلى إخباره بما يقع في المستقبل من أثرة واستئثار، "إنكم ستلقون بعدي أثرة" وهذا له من الأولوية ما ليس لسؤال الإمارة. لذا اقتضى الإخبار به والإنباء عنه، وإذا كان أمر الأثرة مما تتحير أمامه العقول وتضطرب الأفئدة ويملؤها الغضب والحنق، فتقع في مفاسد عظيمة في سبيل الحصول على حقوقها، جاء الأمر النبويّ "فاصبروا حتى تلقوني على الحوض".

والمقصود أن في الحديث درسًا بليغًا فيما ينبغي أن يكون عليه الداعية مِنْ حكمة في الإجابة، ومن ألوان هذه الحكمة الإجابة بما هو أولى وأهمّ فيما يخصّ السائل وإرشاده إلى ما يفعل ويعمل فيه. ويلاحظ كذلك أنّ جوابه ﷺ كان فيه بشارة للأنصار: "اصبروا حتى تلقوني على الحوض" قال القرطبي: (فيه بشارة لهم بأنهم يَرِدُون عليه الحوض، ولعلّهم المشار إليهم بقوله ﷺ: ((إني لأذود الناس عن حوْضي بعصاي لأهل اليمن))(٢) فإن المدينة يمانية، وأهلها سبّاق أهل اليمن إلى الإسلام، وهم الأنصار)(٣).

ولعله من قبيل الحكمة في الإجابة لِلَفْتِ نظر السائل إلى ما هو أولى بانشغاله واهتمامه، ما وقع من ابن عمر رضي الله عنهما حينما سأله رجل من أهل العراق: عن المُحْرِم يقتل الذباب؟ فقال: أهل العراب يسألون عن الذباب وقد قتلوا ابن ابنة رسول الله ﷺ وقال

(١) الشفا، بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض ٣٢٩/٢.

(٢) اخرجه مسلم ٢٣٠١، وانظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي عليه.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٥٤/٤.

النبي ﷺ: ((هما ريحانتاي من الدنيا))[١] قال ابن حجر: (أورد ابن عمر هذا متعجبًا من حرص أهل العراق على السؤال عن الشيء اليسير وتفريطهم في الشيء الجليل)[٢].

والمقصود أنه في بعض الأحيان لا يجيب الداعية على سؤال المدعو مباشرة، وذلك لحكمٍ يراها، منها لفت انتباه المدعو إلى الانشغال بما هو أولى وأنسب له، ونحو ذلك. وهذا مجال رحب فسيح يتفاوت فيه الدعاة بحسب فطنتهم وخبرتهم وحسن تصرفهم، ومما لا شك فيه أنه إذا أحسن الداعية هذه المهارة كان ذلك من الأسباب القوية لنجاحه في دعوته.

رابعاً- من موضوعات الدعوة: الصبر:

ورد الأمر النبويّ صريحاً بالصبر: "اصبروا حتى تلقوني على الحوض" قال ابن عثيمين: (يعني أنكم إذا صبرتهم، فإن من جزاء الله لكم على صبركم أن يسقيكم من حوضه، حوض النبي ﷺ، ففي هذا الحديث: حث على الصبر على استئثار ولاة الأمور في حقوق الرعية)[٣].

وفي الحديث دعوة إلى مواجهة الشدائد بالهمة والصبر والعمل الثابت المفيد وذم الاستئثار بالشيء عن مستحقيه وأنّه مُبعدٌ عن الحوض والثواب يوم القيامة وبيان فضل الصبر والصابرين[٤]، إذ أن الصبر من جميل الأخلاق التي يتحلى بها الإنسان ومن ألوان الصبر في الحديث الصبر على الولاة وما يقع منهم من تجاوزات فبعد أن أخبر النبي ﷺ "إنكم ستلقون بعدي أثرة" قال "فاصبروا" أي على استئثارهم عليكم بما تستحقونه، ولا يكون ذلك داعياً للخروج عليهم أو الثورة على حكمهم أو ما شاكل ذلك، حماية للأمة من معاول الهدم والضعف وصيانة لوحدة الأمة من التفرق والتشرذم

---

(١) أخرجه البخاري ٢٧٥٣، ٥٩٩٤.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٦٩٠/٢.

(٣) شرح رياض الصالحين ١١٩/١.

(٤) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم ص ٧٠.

استجابة وإعمالاً لقول الله عز وجل: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ ﴾[(١)].

خامساً- من موضوعات الدعوة: الحوض:

بشّر رسول الله ﷺ الصابرين من أصحابه وأتباعه بلقائه على الحوض "فاصبروا حتى تلقوني على الحوض"، وهذا يكون يوم القيامة، لذا كان من عقيدة المسلم الإيمان بالحوض وقد جاءت الأحاديث النبوية بإثبات حوض النبي ﷺ حتى عُدَّت من الأحاديث المتواترة، قال السيوطي: (ورد ذكر الحوض من رواية بضعة وخمسين صحابيًا، منهم الخلفاء الأربعة الراشدون، وحفاظ الصحابة المكثرون وغيرهم، رضوان الله عليهم أجمعين)[(٢)] قال ابن أبي العز الحنفي: (والذي يتلخص من الأحاديث الواردة في صفة الحوض، أنه حوض عظيم ومورد كريم، يُمَدُّ من شراب الجنة، من نهر الكوثر الذي هو أشد بياضًا من اللبن، وأبرد من الثلج، وأحلى من العسل، وأطيب ريحًا من المسك، وهو في غاية الاتساع، عرضه وطوله سواء، كل زاوية من زواياه مسيرة شهر)[(٣)].

ومما لا شك فيه أن الإيمان بالحوض يدفع المؤمن إلى الجدّ والاجتهاد في الطاعة، لأن (هذا الحوض الذي يكون في يوم القيامة -كما يقول ابن عثيمين- في مكانٍ وزمانٍ أحوج ما يكون الناس إليه، لأنه في ذلك المكان والزمان في يوم القيامة يحصل على الناس من الهمّ والغمّ والكرب والعرق والحرّ ما يجعلهم في أشد الضرورة إلى الماء، فيروون من حَوْض الرسول ﷺ)[(٤)].

قال أبو عبدالله القرطبي: (قال علماؤنا رحمة الله عليهم أجمعين: فكل من ارتدّ عن دين الله أو أحدث فيه ما لا يرضاه الله ولم يأذن به الله فهو من المطرودين عن الحوض المبعدين عنه وأشدهم طردًا من خالف جماعة المسلمين وفارق سبيلهم على اختلاف فرقهم -أي الخارجين-، فهؤلاء كلهم مبدلون وكذلك الظلمة المسرفون في

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٠٣.

(٢) نقلاً عن الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، الفوزان ص ٣٣٢.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ١/٢٨٠-٢٨١.

(٤) شرح رياض الصالحين ١/١١٩.

الجور وتطميس الحق وقتل أهله وإذلالهم والمعلنون بالكبائر المستخفون بالمعاصي، وجماعة أهل الزيغ والأهواء والبدع، ثم البعد قد يكون في حال ويقربون بعد المغفرة، إن كان التبديل في الأعمال، ولم يكن في العقائد)[١].

(١) التذكرة في أحوال الموتى والآخرة ص ٣٠٦-٣٠٧، وانظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٨/١٥/٤٢-٥٣.

الحديث رقم (٥٣)

٥٣- وَعنْ أبي إِبْراهيمَ عَبْدِ اللَّه بْنِ أبي أَوْفى رَضِيَ اللهُ عَنْهُما أَنَّ رسولَ اللَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بعْضِ أَيَّامِهِ التي لَقِيَ فِيهَا الْعَدُوَّ، انْتَظرَ[1] حَتَّى إِذَا مَالَتِ الشَّمْسُ قَامَ فِيهِمْ فَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ لا تَتَمنَّوا لِقَاءَ الْعدُوِّ، وَاسْأَلُوا اللَّه العَافِيَةَ، فَإِذَا لقيتُموهم فاصْبِرُوا، واعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلاَلِ السُّيُوفِ**» ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[2]: «**اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ وَمُجْرِيَ السَّحَابِ، وَهَازِمَ الأَحْزابِ، اهْزِمْهُمْ وَانْصُرْنا عَلَيْهِمْ**» متفقٌ عليه[3]، وباللَّه التَّوْفيقُ.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن أبي أوفى: وهو عبدالله بن علقمة بن خالد بن الحارث بن أبي أَسيد بن رفاعة بن ثعلبة بن هوازن بن أسلم، الأسلمي، كان يكنى بأبي معاوية، ويقال: أبو إبراهيم وبه جزم البخاري، ويقال: أبو محمد، له ولأبيه صحبة ورواية.

وكان من المجاهدين في سبيل الله مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد شهد الحديبية، فهو معدود من أصحاب الشجرة، وشهد خيبر وما بعد ذلك من المشاهد، وقد قال: غزونا مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سبع غزوات أو ستًا كنا نأكل الجراد[4]، وقال إسماعيل بن أبي خالد: ((رأيت بيده [أي بيد عبدالله بن أبي أوفى] ضربة على ساعده، فقلت: ما هذه؟ قال: ضُربتها يوم حنين، فقلت له: أشهدت معه حنينًا؟ قال: نعم، وقيل ذلك))[5] بل إن ابن حجر قال: وفي كتاب الجهاد من صحيح البخاري ما يدل على أنه شهد الخندق[6]. ولم يزل مقيماً بالمدينة المنورة حتى قُبضَ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم تحول إلى الكوفة، وكان قد ابتنى بها داراً في حَيِّ -أسلم- وهو آخر من بقي بالكوفة من أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

(١) لفظ مسلم: (ينتظر).

(٢) لفظ مسلم: (ثمّ قام النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال).

(٣) أخرجه البخاري (٢٩٦٥، ٢٩٦٦)، ومسلم (١٧٤٢/٢٠) واللفظ له. وسيكرره المؤلف برقم (١٣٢٣).

(٤) أخرجه البخاري ٥٤٩٥، ومسلم ١٩٥٢.

(٥) أخرجه أحمد ٣٥٥/٤، ١٩١٣١ وقال محققو المسند: إسناده صحيح.

(٦) تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٢٠٥/٢.

وكان كُفَّ بصره، وكان يصبغ رأسه ولحيته بالحِنَّاء، وكان له ضفيرتان، مات بالكوفة سنة (٨٦)، أو (٨٦)، وقيل (٨٨)، وهو آخر من مات بالكوفة من صحابة رسول الله ﷺ[١].

غريب الألفاظ:

مالت الشمس: زالت عن كبد السماء. وكبد الشيء: وسطه ومعظمه[٢].

تحت ظلال السيوف: يعني الجهاد في سبيل الله.

الشرح الأدبي

إن قيمة الصبر في هذا الحديث الشريف تتجاوز الصبر على الابتلاءات الذاتية في الأنفس والأموال والثمرات، وتدخل بنا منطقة الجهاد والمكابدة، والدفاع عن العقيدة ضد البغاة والمحاربين من الكفار والمشركين، والمصطفى ﷺ هو القدوة المثلى والأسوة الحسنة في الشجاعة والفداء، وكان الصحابة يقولون: "كنا إذا حمي الوطيس نتقي برسول الله. وأن الشجاع منا للذي يحاذي به"، وفي رواية "كنا إذا احمر البأس..."[٣].

ويقدم هذا الحديث درساً عملياً في خبرة القتال، والتخطيط لإحراز النصر، وينقل إلينا عبدالله بن أبي أوفى مشهداً من مشاهد هذا الصراع بين المسلمين والكفار،

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر (٣٨٢، ٣٨٣)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير (١٨١/٣، ١٨٢)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني (٧٤٣، ٧٤٤)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي (٩١/٤)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٣٠٤/٢، ٣٠٥)، والسندي (٤٤٩/٣١).

(٢) الوسيط ٧٧٢، ٨٩٤.

(٣) أخرجه أحمد ١٥٦/١ عن علي بن أبي طالب > قال: كنا إذا احمرَّ البأس ولقي القومُ القوم، اتقينا برسول الله ﷺ، فما يكون منا أحد أدنى إلى القوم منه"، وأخرجه النسائي في السنن الكبرى ٨٥٨٥ بلفظ: كنا إذا حمي البأس -وفي رواية إذا احمرَّ البأس- ولقي القوم القوم، اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون منا أحد أدنى إلى القوم منه. والحديث صححه محققو المسند ٤٥٤/٢، وانظر: الشفا، بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض ١٨١/١-١٨٢.

ولنتأمل كيف أفصح التشكيل الأسلوبي والبناء اللغوي عن الدلالات الكثيرة المتعددة.

فالتعبير بقوله: "في بعض أيامه" يتجاوز الدلالة الزمنية لليوم المألوف، حيث تدخل دلالة جديدة يفرضها السياق، فالمراد بالأيام هنا، "أيام الحروب"، لأن أيام الحرب تطلق على الأيام التي كانوا يتقاتلون فيها، ولذلك يقول الراوي الذي بايع رسول الله يوم بيعة الرضوان، وشهد خيبر وما بعدها: يقول: "في بعض أيامه"، لأن أيام الرسول ﷺ لم تكن حروباً متواصلة، وإضافة الأيام إلى الضمير العائد على رسول الله ﷺ يضيف دلالة أخرى وهى أن رسول الله ﷺ هو القائد وهو الذي يخطط للدفاع عن العقيدة ونشر راية الإسلام.

والتعبير بالفعل "لقي" يحدد طبيعة هذا اللقاء فهو ليس هجوماً ولا اعتداء وإنما هو لقاء بين الفريقين، وكلمة "العدو" المراد منها، الكافر والمشرك وكل من يتصدى للمسلمين بالإيذاء.

وكلمة "انتظر": تفيد تأخر القتال إلى الوقت الملائم وهو وقت الزوال، وحتى، غائية وما بعدها مترتب على ما قبلها، والجملة بعد "حتى"، شرطية "حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال" وأداة الشرط "إذا" تفيد التحقق والوقوع، والرواية أحداثها واقعية والراوي يحكي ما حدث حقيقة، ولم يحدد اليوم أو الغزوة لأن هذا كان منهج رسول الله في حربه مع أعدائه[1]، وقيل إنه كان يؤخر القتال إلى ميل الشمس ليبرد الوقت على المقاتلة، ويخف عليهم حمل السلاح الذي يؤلم حمله في شدة الهاجرة، وقيل: بل كان يفعل ذلك لانتظار هبوب ريح النصر التي نُصر بها، وفي حديث عند أبي داود عن النعمان بن مقرن قال: "شهدت رسول الله ﷺ إذا لم يقاتل من أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس وتهب رياح النصر"[2][3].

---

(١) أخرج البخاري ٢٩٤٨، ومسلم ٢٧٦٩ من حديث كعب بن مالك >: كان رسول الله @ قلما يريد غزوة يغزوها إلا ورى بغيرها. قال ابن حجر: معنى ورًى: ستر، وتستعمل في إظهار شيء مع إرادة غيره. فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٤٣٠/٢.

(٢) أخرجه أبو داود ٢٦٥٥، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢٣١٣).

(٣) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١٧١/١

ولنتأمل مقالة رسول الله ﷺ: "يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو...".

إن الخطاب موجه إلى كل الخلائق من المسلمين، ولفظ "الناس" فيه إيحاء بالأنس والإيناس، حتى يتذكر المتقاتلون رابطة الإنسانية بينهم، وأنهم منتسبون إلى أب واحد وأم واحدة.

وأن الإسلام نعمة كبرى، ومنّة فضلى، وأن الناس كلهم لآدم وآدم من تراب. ولذلك ينهي رسول الله عن أن يكون لقاء العدو أمنية، لأن الحروب دمار وخراب، وأن القاعدة الإسلامية تنطلق من قول الله عز وجل: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾(١).

وأسلوب الشرط والجواب يغلف المعنى الذي قدمه رسول الله ﷺ في صياغة لقاء الأعداء، وأداة الشرط "إذا" تفيد تحقق التقاء الجمعين؛ لأن أعداء الإسلام يتربصون به الدوائر، ويكيدون له، ويحيكون المؤامرات والدسائس، ولذلك يأتي جواب الشرط في صيغة الأمر بالصبر، والصبر في القتال من أقوى مراتب الصبر وأعلاها منزلة، وصفة الصحابة مع رسول الله أنهم، "صبر في الحرب".

"واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف" وهذه الجملة تشع ببريق النصر، وبشارات القوة. وهي كناية عن الاستشهاد في سبيل الخير والحق، ونشر راية التوحيد، وكلمة، "ظلال السيوف" فيها من التصوير والبلاغة ما فيها، ولم يقل تحت قعقعة السيوف أو صليل السيوف، لأن السيوف هنا تحمي الحق، وتحمي الخير، وتقضي على كل باطل ينشر الفساد في الأرض، ويحاول تشويه خيراتها ونهب ثرواتها لاستغلالها في سبيل الشيطان.

وقال القرطبي: (هذا من الكلام النفيس البديع الذي جمع ضروب البلاغة من جزالة اللفظ وعذوبته وحسن استعارته وشمول المعاني الكثيرة مع الألفاظ المقبولة الوجيزة بحيث يعجز الفصحاء اللسن البلغاء عن إيراد مثله، وأن يأتوا بنظيره وشكله،

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٦١.

فإنه استفيد منه -مع وجازته- الحض على الجهاد والإخبار بالثواب عليه، والحض على مقاربة العدو واستعمال السيوف والاعتماد عليها، واجتماع المقاتلين حين الزحف بعضهم ببعض حتى تكون سيوفهم بعضها يقع على العدو ويرتفع عليهم حتى كأن السيوف أظلت الضاربين بها)[1].

والظلال توحي بالرحمة والخير، وتوحي بأن القتال والجهاد من أجل الحياة الكريمة القائمة على طاعة الله ومحبة رسوله، وإسعاد المسلم بما أحل الله له من الطيبات في الرزق الحلال.

ويأتي دعاء النبي ﷺ في ختام الحديث إرشاداً للمسلمين بالتوكل على الله وعدم الاغترار بالقوة والكثرة والعدة والعتاد، ولم يدع الرسول على أعدائه بالهلاك لأنه يرجو أن يهديهم الله للإسلام، وقد حدث ذلك حينما أسلم أهل مكة وأهل الطائف، وكثير من أهالي البلاد التي فتحها المسلمون ودخل الناس في دين الله أفواجاً.

وجمال الإيقاع، والسجع الجميل في الدعاء، وحين تقسيم العبارات، ينبئ عن فصاحة الرسول وعذوبة أسلوبه حتى في وقت الشدة، ولا غرو فقد أوتي جوامع الكلم.

فقه الحديث

في هذا الحديث يمكن ذكر ما يلي:

أ-استحباب القتال بعد الزوال: قال ابن دقيق العيد: (فيه دليل على استحباب القتال بعد زوال الشمس)[2].

ب-تمني لقاء العدو:

قال النووي: (إنما نهى عن تمني لقاء العدو لما فيه من صورة الإعجاب والاتكال على النفس والوثوق بالقوة وهو نوع بغي، وقد ضمن الله تعالى لمن بُغي عليه أن ينصره، ولأنّه يتضمن قلة الاهتمام بالعدو واحتقاره، وهذا يخالف الاحتياط والحزم، وتأوّله

(١) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١/١٧١.

(٢) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، تقي الدين بن دقيق العيد ٣٧٥.

بعضهم على النهي عن التمني في صورة خاصة وهي إذا شكّ في المصلحة فيه، وحصول ضرر وإلا فالقتال كلّه فضيلة وطاعة. والصحيح الأول)[(١)].

وقد ذكر القاضي عياض بعض أفراد هذه الصورة الخاصة، فقال: (أو يكون المراد: لا تتمنوا لقاءه على حالة يشك في غلبته لكم أو يخاف منه أن يستبيح الحريم أو يذهب الأنفس والأموال، أو يدرك منه ضرر)[(٢)].

ج-طلب المبارزة: قوله ﷺ: "لا تتمنوا لقاء العدو، سلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا" قال ابن حجر: (واستدل بهذا الحديث على منع طلب المبارزة، وهو رأى الحسن البصري)[(٣)].

وقال القرطبي: (وقد فهم بعض العلماء من هذا الحديث كراهة المبارزة، وبها قال الحسن)[(٤)] وقال القاضي عياض: (روى عن عليٍّ رضي الله عنه أنه قال: يا بني لا تدعونّ أحدًا إلى المبارزة، ومن دعاك إليها فاخرج إليه، فإنه باغٍ، وقد تضمن الله سبحانه وتعالى نصر من بُغِيَ عليه)[(٥)]. وقال ابن المنذر: (أجمع كل من أحفظ عنه العلم على جواز المبارزة)[(٦)]. وقال ابن قدامة: (ولم يزل أصحاب النبي ﷺ يبارزون في عصر النبي ﷺ وبعده، ولم ينكر منكر، فكان ذلك إجماعًا)[(٧)].

وهل يشترط إذن الإمام لطلب المبارزة؟ قال القاضي عياش: (شرط بعضهم فيها إذن الإمام، وهو قول الثوري وأحمد وإسحاق وبعضهم أجازها مطلقًا ولم يشترط فيها أمر الإمام، وهو قول مالك والشافعي، واختلف في ذلك قول الأوزاعي)[(٨)]، ويبين ابن

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٩.

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٤٣/٦ وهو موجود بنصه في المعلم بفوائد مسلم ١٢٨/٢.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٤٤٨/٢ ، وانظر المغني، ابن قدامة ٣٩/١٣.

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٥٢٤/٣.

(٥) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٤٣/٦.

(٦) المرجع السابق، الموضع نفسه، والمفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٥٢٤/٣.

(٧) المغني، ابن قدامة ٣٨/١٣-٣٩.

(٨) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٤٣/٦.

قدامة الحكمة من شرط إذن الإمام: (إن الإمام أعلم بفرسانه وفرسان العدو، ومتى برز الإنسان إلى من لا يطيقه، كان معرضًا نفسه للهلاك، فيكسر قلوب المسلمين، فينبغي أن يفوض ذلك إلى الإمام ليختار للمبارزة من يرضاه لها. فيكون أقرب إلى الظفر وجبر قلوب المسلمين وكسر قلوب المشركين فإنه إذا كان مبارزًا تعلقت قلوب الجيش به وارتقبوا ظفره، فإن ظفر، جبَرَ قلوبهم وسرَّهم وكسر قلوب الكفار، وإن قُتل كان بالعكس)[1].

د-السجع في الدعاء: قال القرطبي: (قوله ﷺ "اللهم منزل الكتاب ومجري السحاب وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم" دليل على جواز السجع في الدعاء إذا لم يتكلف)[2].

هـ-الدعاء عند اللقاء والاستنصار: قال النووي: (فيه استحباب الدعاء عند اللقاء والاستنصار)[3].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النداء والنهي والأمر والشرط.

ثانياً: من فقه الداعية: مراعاة نشاط النفوس لفعل الطاعة.

ثالثاً: من مهام الداعية: وصية المدعوين بما فيه صلاح أمرهم وتعليمهم ما يحتاجون إليه.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: استحباب الدعاء عند اللقاء والاستنصار.

خامساً: من ميادين الدعوة: ساحات الجهاد وميادين المعارك.

سادسًا: من وسائل الدعوة: الجهاد.

أولاً- من أساليب الدعوة: النداء والنهي والأمر والشرط:

النداء في قوله ﷺ "يا أيها الناس" وذلك لإعدادهم ولفت انتباههم لما يلقى عليهم بعد ذلك، و إن كان الصحابة رضي الله عنهم قلوبهم قبل أبصارهم معلقة بالنبي ﷺ

(١) المغني، ابن قدامة ٣٩/١٣.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٥٢٥/٣.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١١٩.

ويصيخون الأفئدة قبل الأذان لما يقوله لهم، فيكون المقصود بهذا النداء توكيد إعدادهم ولفت انتباههم.

ويأتي بعد النداء النهي "لا تتمنوا لقاء العدو" ويأتي بعده أمر لتوكيد هذا النهي "واسألوا الله العافية" فإن هذا النهي (نظير سؤال العافية من الفتن)[١]، وبعد ذلك يأتي أسلوب الشرط "فإذا لقيتموهم فاصبروا" ويتبع هذا الشرط بالأمر "واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف" ليؤكد أمر الصبر في الجهاد، فإنه لا يتصور جهاد بدون صبر ومثابرة، وعلى قدر ذلك يكون الجزاء عند الله وهو الجنة.

ثانيًا- من فقه الداعية: مراعاة نشاط النفوس لفعل الطاعة:

وهذا واضح جليٌّ من قول الصحابي عبدالله بن أبي أوفى رضي الله عنهما: "أن رسول الله ﷺ في بعض أيامه التي لقي فيها العدو انتظر حتى مالت الشمس قام فيهم ..." الحديث. فلم يقاتل النبي ﷺ وقت اشتداد الحرّ بل أخر ذلك إلى وقت الإبراد ووقت النشاط، قال ابن حجر: (وفي الحديث ... مراعاة نشاط النفوس لفعل الطاعة)[٢] وقد بوّب البخاري على هذا الحديث في كتاب الجهاد: باب كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل أوَّل النهار أخّر القتال حتى تزول الشمس[٣]، قال ابن حجر: (لأن الرياح تهب غالبًا بعد الزوال فيحصل بها تبريد حدّة السلاح والحرب وزيادة في النشاط)[٤] وقال القرطبي عن ذلك: (إنه كان يؤخر القتال عن الهاجرة إلى أن تميل الشمس ليبرد الوقت على المقاتلة [أي المقاتلين] ويخف عليهم حمل السلاح التي يؤلم حملها في شدة الهاجرة، ولأن ذلك الوقت وقت الصلاة، وهو مظنة إجابة الدعاء)[٥] وقد ذكر البخاري[٦] ذلك مبينًا فقال:

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٤٤٨/٢، وهو قول ابن بطال.

(٢) المرجع السابق ١٤٤٨/٢.

(٣) فوق الحديثين ٢٩٦٥، ٢٩٦٦.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٤٣٣/٢.

(٥) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٥٢٣/٣، وانظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٤٤/٦.

(٦) أخرجه البخاري ٣١٦٠.

(حتى تهب الأرواح وتحضر الصلوات)[١]. وذكر القرطبي كذلك - تبعًا للقاضي عياض- احتمالاً آخر لانتظار النبي ﷺ للقتال لما بعد الزوال، فقال: (وقيل بل كان يفعل ذلك لانتظار هبوب ريح النصر التي نُصَر بها كما قال: "نصرت بالصبا"[٢]، وفي حديث آخر: "أنه ﷺ كان ينتظر حتى تزول الشمس وتهب رياح النصر"[٣]).

وسواء كان تأخير القتال بعد الزوال لكون هذا أنسب للقتال والحرب، أو انتظارًا لهبوب ريح النصر، فإن في هذا مراعاة لنشاط النفوس لفعل الطاعة، فإن كان للسبب الأول فهذا واضح، وإن كان للسبب الثاني فإنه لا شكّ أن إشعار المجاهدين بأن ريح النصر تهب وشعورهم بذلك يدفعهم إلى النشاط والإقبال على القتال إقبالاً شديدًا يجعلهم لا ينصرفون إلا بإحدى الحسنيين: إما النصر أو الشهادة.

ثالثًا- من مهام الداعية: وصية المدعوين بما فيه صلاح أمرهم وتعليمهم ما يحتاجون إليه:

لقد خاطب النبي ﷺ أصحابه قائلاً: "يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنّة تحت ظلال السيوف"، لقد وصّى النبي ﷺ صحابته المجاهدين بما فيه نفعهم وخيرهم، قال ابن حجر: (وفي الحديث ... وصية المقاتلين بما فيه صلاح أمرهم وتعليمهم بما يحتاجون إليه)[٤].

أ- النهي عن تمني لقاء العدو: قال ابن دقيق العيد: (لما كان لقاء الموت من أشقّ الأشياء وأصعبها على النفوس من وجوهٍ كثيرة، وكانت الأمور المقدرة عند النفس ليست كالأمور المحققة لها، خشي ألا تكون عند التحقيق كما ينبغي فكره تمني

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٤٤/٦.

(٢) أخرجه البخاري ١٣٠٥، ومسلم ٩٠٠.

(٣) أخرجه أبو داود ٢٦٥٥، والترمذي ١٦١٣ من حديث النعمان بن مقرن رضي الله عنه قال: شهدت مع رسول الله ﷺ فكان إذا لم يقاتل أول النهار انتظر حتى تزول الشمس وتهب الرياح وينزل النصر" والحديث صححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢٣١٣).

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٤٤٨/٢.

لقاء العدو لذلك، ولما فيه -إن وقع- من احتمال المخالفة لما وعد الإنسان من نفسه، ثمّ أمر بالصبر عند وقوع الحقيقة)[١] وفي هذا المعنى يقول ابن بطال: (حكمة النهي أن المرء لا يعلم ما يؤول إليه الأمر، وهو نظير سؤال العافية من الفتن)[٢] وقال ابن حجر: (ويؤيد هذا النهي بقوله: "وسلوا الله العافية" وأخرج سعيد بن منصور من طريق يحيى بن أبي كثير مرسلاً: "ولا تمنوا لقاء العدو فإنكم لا تدرون عسى أن تبتلوا بهم")[٣].

لكن القرطبي يقدّم في بيان الحكمة من هذا النهي هي كون تمني اللقاء مع عدم الاستعداد الجيد للعدو يشكل خطرًا عليهم، فيقول: (قيل: إن فائدة هذا النهي ألا يستخف أمر العدو فيتساهل في الاستعداد والتحرز منه، وهذا لما فيه من المكاره والمحن والنكال ولذلك قال متصلاً "واسألوا الله العافية")[٤] وفي ذلك يقول القاضي عياض: (فيكون المراد بهذا لا تستهينوا بالعدو فتتركوا الحذر والتحفظ على أنفسكم وعلى المسلمين)[٥]، لكن قد يرد إشكال هنا: "إذا كان الجهاد طاعة فتمني الطاعات حسن، فكيف ينهى عنه؟" فلقاء العدو وقتاله طاعة يحصل منه إما الظَّفر بالعدو وإما الشهادة، فكيف ينهى عنه، وقد حضّ الشرع على تمني الشهادة ورغب فيه فقال: "من سأل الشهادة صادقًا من قلبه، بلغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه"[٦])[٧].

ويجيب القرطبي عن هذا الإشكال بأن متعلق النهي يختلف عن متعلق الترغيب، فإنما تعلق النهي بما يؤول إليه اللقاء من محن ومكاره ونحو ذلك بسبب عدم أخذ الاستعداد المناسب له في الغالب، أما إذا كان اللقاء يؤول إلى ظفر أو شهادة فهذا

---

(١) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، تقي الدين بن دقيق العيد ص ٣٧٥.

(٢) نقلاً عن فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٤٤٨/٢١.

(٣) المرجع السابق، الموضع نفسه بتصرف.

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٥٣٥/٣.

(٥) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٤٣/٦ وهو بنصه في المعلم بفوائد مسلم ١٢٨/٢.

(٦) المعلم ١٢٨/٢.

(٧) أخرجه مسلم ١٩٠٩.

مرغب ومندوب إليه، يقول القرطبي: (لقاء العدو وإن كان جهادًا وطاعة[١] ومحصلاً لأحد الأمرين فلم ينه عن تمنّيه من هذه الجهات، وإنما نهى عنه من جهات تلك الاحتمالات المتقدمة[٢]، ثم هو ابتلاء وامتحان لا يعرف عما تسفر عاقبته، وقد لا تحصل فيه غنيمة ولا شهادة، بل ضد ذلك، وتحريره: أن تمني لقاء العدو المنهي عنه غير تمني الشهادة المرغب فيه، لأنّه قد لا يحصل اللقاء ولا تحصل الشهادة ولا الغنمية [أي تكون الهزيمة] فانفصلا)[٣].

ب- سؤال الله العافية: نهى رسول الله ﷺ أصحابه: "لا تتمنوا لقاء العدو" ثم عقب هذا النهي بأمر "واسألوا الله العافية" قال ابن بطال: (حكمة النهي أن المرء لا يعلم ما يؤول إليه المرء، وهو نظير سؤال العافية، وقد قال الصديق: (لأن أعافى فأشكر أحبّ إليّ من أن أبتلى فأصبر). وقال القاضي عياض: (قال بعضهم: نهى النبي ﷺ أمته عن تمني المكاره، ولهذا قال السلف: الصالح العافيةُ من الفتن والمحن؛ لاختلاف الناس في الصبر، ولهذا قال متصلاً بقوله هذا في الحديث: "واسألوا الله العافية")[٤] وبيّن النووي مدلول كلمة العافية، التي تدل على نفي جميع ما يكره في الدين والدنيا والآخرة، فقال: (وقد كثرت الأحاديث في الأمر بسؤال العافية، وهي من الألفاظ العامة المتناولة لدفع جميع المكروهات في البدن والباطل في الدين والدنيا والآخرة)[٥].

ج- الصبر في القتال: لقد أمر النبي ﷺ أصحابه بالصبر عند لقاء الأعداء فقال: "وإذ لقيتموهم فاصبروا" قال القاضي عياض: (حض على الصبر وتوطين النفس في هذا يكون الثبات ويرجى النصر، ومع الهلع تحذر اليد والرجل، ويستولي العدو)[٦] وقال

---

(١) ذكر القرطبي ثلاثة احتمالات، ذكرنا فيما تقدم أولها، ثم قال القرطبي: وكل ذلك محتمل، انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٥٢٣/٣.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٥٢٣/٣-٥٢٤.

(٣) نقلاً عن فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٤٤٨/٣.

(٤) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٤٣/٦.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١١٩.

(٦) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٤٤/٦.

النووي: (فهذا حث على الصبر في القتال وهو آكد أركانه، وقد جَمَعَ الله سبحانه آداب القتال في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٤٥ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٤٦ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾[(١)])[(٢)].

د- الحض على الجهاد: وذلك في قوله ﷺ: "واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف" قال القرطبي: (إنه استفيد منه مع وجازته الحض على الجهاد، والإخبار بالثواب عليه، والحضّ على مقاربة العدو، واستعمال السيوف والاعتماد عليها واجتماع المقاتلين حين الزحف بعضهم لبعض حتى تكون سيوفهم بعضها يقع على العدو، وبعضها يرتفع عنهم حتى كأن السيوف أظلّت الضاربين بها، ويعني: أن الضارب بالسيف في سبيل الله يدخله الله الجنة بذلك)[(٣)] وقال النووي: (معناه: ثواب الله والسبب الموصل إلى الجنة عند الضرب بالسيوف في سبيل الله ومشي المجاهدين في سبيل الله، فاحضروا فيه بصدق واثبتوا)[(٤)].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: استحباب الدعاء عند اللقاء والاستنصار:

بعد أن وصّى النبي ﷺ أصحابه وعلمهم بما يحتاجونه، توجه إلى الله بالدعاء فقال: "اللهم منزل الكتاب ومجري السحاب وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم" قال ابن حجر: (أشار بهذا الدعاء إلى وجوه النصر عليهم، فبالكتاب إلى قوله تعالى:

---

(١) سورة الأنفال، الآيات: ٤٥-٤٧.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١١٩.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٣/٥٢٥-٥٢٦، وانظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٦/٤٤.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٩ ، وانظر: إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ابن دقيق العيد ص ٣٧٥.

﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾[(١)] وبمجري السحاب إلى القدرة الظاهرة في تسخير السحاب حيث يحرك الريح بمشيئة الله تعالى. وحيث يستمر في مكانه مع هبوب الرياح، وحيث تمطر تارة وأخرى لا تمطر فأشار بحركته إلى إعانة المجاهدين في حركتهم في القتال، وبوقوفه إلى إمساك أيدي الكفار عنهم وبإنزال المطر إلى غنيمة ما معهم حيث يتفق قتلهم، وبعدمه إلى هزيمتهم حيث لا يحصل الظفر بشيء منهم، وكلها أحوال صالحة للمسلمين. وأشار بهازم الأحزاب إلى التوسل بالنعمة السابقة، وإلى تجريد التوكل واعتقاد أن الله هو المنفرد بالفعل[(٢)]. وفيه التنبيه على عظم هذه النعم الثلاث، فإن بإنزال الكتاب حصلت النعمة الأخروية وهي الإسلام، وبإجراء السحاب حصلت النعمة الدنيوية وهي الرزق، وبهزيمة الأحزاب حصل حفظ النعمتين، وكأنه قال: اللهم كما أنعمت بعظيم النعمتين الأخروية والدنيوية وحفظتهما فأبقهما. وروى الإسماعيلي في هذا الحديث من وجه آخر أنه ﷺ دعا أيضًا فقال: "اللهم أنت ربنا وربهم ونحن عبيدك وهم عبيدك نواصينا ونواصيهم بيدك، فاهزمهم وانصرنا عليهم" ولسعيد بن منصور من طريق أبي عبدالرحمن الحنبلي عن النبي ﷺ مرسلاً نحوه، بصيغة الأمر عطفًا على قوله "سلوا الله العافية، فإن بليتم بهم فقولوا اللهم ..." فذكره وزاد "وغضوا أبصاركم واحملوا عليهم على بركة الله" ... وفي الحديث استحباب الدعاء عند اللقاء والاستنصار)[(٣)].

خامساً- من ميادين الدعوة: ساحات الجهاد وميادين المعارك:

إن الدعوة لا تقتصر على أماكن العبادة أو على المنابر، وإنما تمتد لتشمل جميع ميادين الحياة حتى أشدها وأثقلها وطأة وهو ميدان الجهاد في سبيل الله، إذ أن الدعوة في هذا الوقت من أهم الأسباب التي تحث وتحفز المقاتلين على الجهاد في سبيل الله والثبات عند لقاء الأعداء، وقد كانت الدعوة هنا في ساحات الجهاد كما هو ظاهر في الحديث.

---

(١) سورة التوبة، آية: ١٤.

(٢) انظر: إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، تقي الدين بن دقيق العيد ٣٧٥.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٤٤٨/٢ ، شرح الحديثين ٣٠٢٤، ٣٠٢٥، وانظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٤٥/٦، والمفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٥٢٥/٣.

سادساً- من وسائل الدعوة: الجهاد:

لقد حثّ النبي ﷺ على الجهاد فقال: "واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف" والجهاد يكون موجهًا في المقام الأول إلى أعداء الدعوة الذين يملكون من الأسباب والوسائل ما يستطيعون به محاربة الدعوة الإسلامية وإرهاب أفرادها بل ودفع بعضهم كرهًا إلى الارتداد عن الإسلام. فشُرع الجهاد، حماية للدعوة والمؤمنين بها والراغبين في التعرف عليها، فضلاً عن أهداف وأغراض أخرى لشرع الجهاد، ليس هنا مجال للإشارة إليها وتفصيلها، وإنما يهمنا في المقام الأول هنا أن نبين كيف يكون الجهاد من وسائل تأمين الدعوة وحمايتها. يبين ذلك الدكتور محمد أبو شهبة في معرض حديثه عن أسباب الجهاد وحكمه فيقول: (شرع الجهاد لتأمين دعوة الإسلام، الدين العام الخالد، الذي ارتضاه الله للبشرية جمعاء، ولمساندة هذه الدعوة التحريرية الكبرى، حتى يتمكن النبي ﷺ من تبليغ رسالة ربه حسبما صدع به الوحي في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[1]، وقوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾[2].

وتأمين المسلمين الذين اعتنقوا الإسلام عن رضا واطمئنان، وحمايتهم من أذى المشركين، ومنحهم حقهم في الإعلام عن عقيدتهم وهم آمنون، وليس من الحق والعدل أن يدافع أصحاب المذاهب الباطلة عن باطلهم بالقوة، وأن يترك أصحاب العقائد الصحيحة والشريعة السمحة من غير أن يؤذن لهم في الدفاع عن عقيدتهم ودينهم، فإنه من الظلم البين أن لا يجد الهداة والمصلحون متنفساً لدعوتهم في أرض الله الواسعة وأن يحجر عليهم فلا يستطيعون الإعلان عن عقائدهم، ولا إظهار شعائرهم[3].

(١) سورة المائدة، آية: ٦٧.

(٢) سورة الأنعام، آية: ١٩.

(٣) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد بن محمد أبو شهبة ٢/٧٦ بتصرف.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

شاء الله تعالى ألا تستقيم الحياة على وتيرة واحدة، فالله تعالى يقلب الليل والنهار، ويغير الأحوال ويرفع قوماً ويخفض آخرين، ويعطي ويمنع، ويقبض ويبسط، والمؤمن يواجه الحياة بكل تقلباتها، وأفراحها واتراحها، ولذا فهو يحتاج إلى عون الله وتوفيقه، ثم إلى المزيد من الصبر الذي لا يستغنى عنه بحال من الأحوال حتى يستطيع الصمود في تلك الحياة.

ولذا فإن الله تعالى أمر عباده المؤمنين بالصبر والمصابرة فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾[1]، وأمر سبحانه بالاستعانة بالثبر والصلاة فقال: ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ...﴾[2]، إلخ النصوص التي وردت في الأمر بالصبر والاستعانة به.

وفي هذا الباب -باب الصبر- جملة من الأحاديث النبوية التي وردت في الإشادة بالصبر وبيان فضله، والحث عليه، وحاجة كل مؤمن أن يتربى على مائدة الصبر.

إن الله تعالى أراد إعانة عباده على طاعته، فأمرهم بالصبر من خلال تربية النفس وتهذيبها بالصبر على الشدائد والمصائب، وإن النبي ﷺ بيّن أهمية حرص المؤمن على التزام الصبر والتذرع به، ليوفق لكل خير، بل الخير كل الخير في تربية النفس وترويضها على الصبر، ولذا فإن الله تعالى قال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾[3].

وحينما يصبح الصبر خلقاً للمؤمن ومنهجاً تشرق نفسه بالرضا والشكر والحمد.

لقد كان من هدي النبي ﷺ تربية أصحابه رضي الله عنهم على الصبر والاحتساب، ومن أبرز المضامين التربوية في هذا الباب -الصبر- ما يلي:

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٢٠٠.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٥٣.

(٣) سورة الزمر، آية: ١٠.

أولاً- التربية بالقدوة:

وهي من أعظم أساليب التربية تأثيراً في النفوس، وقد ضرب رسول الله ﷺ أروع الأمثلة في الصبر والتحمل وربى أصحابه رضي الله عنهم على ذلك فهو ﷺ الذي صبر واحتسب، وتحمل الأذى والبلاء في سبيل نصرة هذا الدين، وحرص على تربية أصحابه رضي الله عنهم على ذلك، فحينما جاءوا يشكون إليه شدة العذاب من المشركين، بيّن لهم أنه لابد من الصبر على البلاء حتى يمكن الله لهذا الدين وكان قدوتهم في ذلك.

ثانياً- من أهداف التربية الإسلامية: بناء الشخصية الإسلامية السوية:

إن الصبر يسهم إسهاماً كبيراً وعظيماً في بناء شخصية المسلم، من خلال تربية النفس على الصبر وتعويدها عليه، مما يكسبها الثبات والمرونة في مواجهة المصائب والمحن، وقد بيّن الرسول ﷺ لأصحابه رضي الله عنهم أجر الصابر المحتسب، وما ينبغي للمسلم قوله عند وقوع المصيبة كنوع من أنواع الوقاية حتى لا يصاب المسلم بصدمة قوية عند حلول المصيبة التي قد تفقده صوابه، وتدفعه إلى التصرف بخلاف ما يرضي الله تعالى[1]، فبين أجر المؤمن الصابر بقوله: "عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير...".

ثالثاً: من أساليب التربية الوصية:

وقد استخدم النبي ﷺ الوصية كأسلوب تربوي ناجح، لما له من أثر كبير على سلوكيات المؤمن، حيث أوصى النبي ﷺ من جاءه طالباً وصيته بألا يغضب، وردد مراراً قال: لا تغضب، وفي هذا توجيه تربوي نبوي عظيم لتجنب أسباب الغضب، ذلك لأن الغضب مفتاح لكل شر، فالذي يعجز عن قهر غضبه فهو عن غيره من السلوكيات الخاطئة أعجز...

إن الصبر من الصفات اللازمة لكل إنسان، إذ بدونه لا يستطيع بلوغ ما يريد، وإذا كان الصبر لأي إنسان من لوازم بقائه وسيره في الحياة، وبلوغ ما يريد، فإن المسلم أحوج من غيره إلى التذرع بالصبر في سائر الأحوال، لأن المسلم مطلوب منه أن يهذب نفسه، ويكفها عن المعصية، لأن في المعصية نوع من لذة النفس، لذا يحتاج الإنسان إلى

---

(١) انظر: أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد العاني، ٢٦١.

قدر كبير من ضبط النفس، وإرادة قوية تكفه عن مقارفة الخطايا[١].

رابعاً: التربية بالتحفيز:

إن التربية بالتحفيز من الأساليب التربوية المهمة في مجال التربية، حيث فطر الله تعالى الإنسان على محبة الخير والاستزادة منه، والحذر من الألم والشقاء وسوء المصير..

ولما كانت سبل الخير محفوفة بالمكاره ومخالفة هوى النفس، وسبل الشر محفوظة بمغريات الأنفس، وفواتن الأهواء والأفكار، كانت إذن أصول التربية تستدعي إيجاد قوة محرضة وجاذبة إلى طريق الهداية، زائدة على الإقناع الفكري المجرد، وتستدعي كذلك إيجاد قوة صادة عن سبيل الشر وطريق الغواية، زائدة بعضها أيضاً على قوة الإقناع الفكري المجرد[٢].

وهاتان القوتان هما الترغيب والترهيب، أو: التحفيز والتحذير، وهما من الأساليب التربوية التي اعتمدها النبي ﷺ، والتربية بالتحفيز تحتوي على الترغيب من خلال القوة المحرضة الدافعة لفعل الخير، ووظيفتها دغدغة المطامع الإنسانية في اتجاه طرق الخير التي قد ترتفع عن الإنسان الصوارف النفسية التي تصرفه عن فعل الخير إذ تستعطف شهواته مغريات أخرى واقفة في اتجاه سبل الشر المختلفة[٣].

وقد استخدم الرسول ﷺ الترغيب كأسلوب من أساليب التربية والإعداد مصحوباً بتصوير فني رائع لنعيم الجنة، مثيراً الانفعالات الوجدانية والعواطف الربانية[٤]، لأنه ﷺ لم يغفل عن أية طريقة، أو أي أسلوب يوجه به الإنسان ويرشده إلى السلوك الذي يصلح لحياته[٥].

ومن أمثلة ذلك ما ورد في أحاديث الباب والتي نذكر منها: أن رسول الله ﷺ

---

(١) المرجع السابق، ٢٧٤-٢٧٥، ٣٣٤.

(٢) انظر: أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها، عبدالرحمن حبنكة الميداني، ٥٣-٢٥٤.

(٣) انظر: أصول التربية ووسائلها ٢٥٧ وأسس الحضارة الإسلامية ٢٥٣، نقلاً عن أساليب الدعوة والتربية، ٢٢٠.

(٤) انظر: أسس الحضارة ٢٥٤.

(٥) انظر: فلسفة التربية الإسلامية في الحديث الشريف، د. عبدالجواد سيد بكر ص ٣٤٥.

قال: ((يَقُولُ اللّه تَعالى: ما لِعَبْدِي المُؤمِنَ عِندِي جَزَاءٌ إذَا قَبَضْتُ صَفِيَّهُ مِنْ أهْلِ الدُّنْيا ثُمَّ احْتَسَبَهُ إلاَّ الجَنَّةَ))، وقوله ﷺ: ((مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلاَ وَصَبٍ، وَلاَ هَمٍ، وَلاَ حَزَنٍ، وَلاَ أَذىً، وَلاَ غَمٍ، حَتَّى الشَّوْكَةُ يُشَاكُهَا إلاَّ كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ)).

وقوله ﷺ: ((مَنْ كظَمَ غَيْظاً وهُوَ قادِرٌ على أنْ يُنْفِذَهُ دعاه اللّهُ سُبحانَهُ وتَعالى على رؤوسِ الخَلائِقِ يَومَ القِيامَةِ حتَّى يُخَيِّرَهُ مِنَ الحُورِ الْعِينِ ما شَاءَ)).

وقوله ﷺ: ((مَا يَزَالُ الْبَلاَءُ بِالْمُؤْمِنِ وَالْمُؤْمِنَةِ فِي نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ تَعَالَى وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ)).

خامساً: تعميق القيم الإيمانية:

تأتي القيم الإيمانية في مقدمة القيم التي يجب تربية النفوس عليها والحرص على التزامها في الحياة، وقد أمر النبي ﷺ بتقوى الله تعالى والصبر في قوله للمرأة التي فجعت بموت ولدها، وهي تبكي بكاء شديد فقال لها: ((....اتق الله واصبري.....)).

وقد بين النبي ﷺ أن من أراد الله به خيراً أصاب منه، وفي ذلك تعميق لقيم الإيمان بالله والرضا بما قدره سبحانه، فالله تعالى لا يريد خيراً إلا بالمؤمنين الطائعين المخبتين، والنبي ﷺ يأمر بالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم عند الغضب، ولاشك أن المؤمن بحاجة إلى تلك تعميق تلك القيم الإيمانية في نفسه، وأن يلزمها بذلك، ومن هنا كان النبي ﷺ حريصاً على تعميق ذلك، وربطه بالمواقف العملية التي قد يتعرض لها المسلم في حياته، فما أكثر صور الابتلاء في الحياة، مما يستلزم المزيد من الإيمان، الذي يكسب النفس الثبات والتسليم والرضا.

سادساً: تعميق القيم الأخلاقية:

النفس الإنسانية بحاجة إلى التربية والتهذيب وغرس القيم الأخلاقية فيها، ولذا حرص النبي ﷺ على تربية أصحابه رضي الله عنهم على القيم العليا التي تؤهلهم رضوان الله تعالى، فما أجمل الاستعفاف والاستغناء عن الناس، وما أروع أن يربي المسلم نفسه على ذلك، إن النبي ﷺ أراد أن يعمق قيم الاستعفاف والاستغناء في نفوس أصحابه رضي الله عنهم، حينما جاءه أناس يسألونه فأعطاهم ثم سألوه فأعطاهم حتى نفد ما عنده ثم قال لهم

حين أنفق كل شيء بيده، ما يكن من خير فلن أدخره عنكم، ومن يعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطى أحدٌ عطاء خيراً وأوسع من الصبر.

إن الإسلام يستعلي بالمؤمن ويربأ به أن يريق ماء وجهه، أو يفقد عزته بالسؤال، بل يأمره أن يلتمس أسباب العزة والكرامة من خلال استعفافه واستغنائه عن الناس وسعيه في طلب الرزق وأن يكون صاحب اليد العليا.

فحرى بالمؤمن أن يربي نفسه وأولاده وأهله وإخوانه على تلك القيم الأخلاقية النبيلة، ومن القيم الأخلاقية الرائعة التي أراد النبي ﷺ أن يعمقها في نفوس أصحابه وأمته قيمة الصبر والإعراض عن جعل الجاهلين، مثلما حدث في توزيع النبي ﷺ للغنائم يوم حنين وقول الرجل: والله إن هذه قسمة ما عدل فيها وما أريد بها وجه الله، فلما بلغ الخبر رسول الله ﷺ تغير وجهه ثم قال: فمن يعدل الله ورسوله؟ ثم قال: يرحم الله موسى فقد أوذي بأكثر من هذا فصبر.

ويتكرر موف آخر مع عمر رضي الله عنه حينما يدخل عليه عيينة بن حصن ويقول له: ((هِي يَا ابنَ الْخَطَّابِ فَوَاللَّهِ مَا تُعْطِينا الْجَزْلَ، وَلاَ تَحْكُمُ فِينَا بِالْعَدْلِ فَغَضِبَ عُمَرُ رضي الله عنه حَتَّى هَمَّ أَنْ يُوقِعَ بِهِ، فَقَالَ لَهُ الْحُرُّ بن قَيس: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ اللَّهَ قَالَ لِنَبِيهِ: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[1]، وَإِنَّ هـذَا مِنَ الْجَاهِلِينَ، فَوَاللَّهِ مَا جَاوَزَهَا عُمَرُ رضي الله عنه حِينَ تَلاَهَا عَلَيْهِ، وَكَانَ وَقَّافاً عِنْدَ كِتَابِ اللَّهِ تعالى)).

(١) سورة الأعراف، آية: ١٩٩.

٤- باب الصدق

قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[سورة التوبة:١١٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ ﴾[سورة الأحزاب:٣٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾[سورة محمد:٢١].

وأما الأحاديث:

الحديث رقم (٥٤)

٥٤- فَالأَوَّلُ: عَن ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «**إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الجنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ ليصْدُقُ حَتَّى يُكتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقاً، وإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفجُورِ وَإِنَّ الفجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكتَبَ عِنْدَ اللّهِ كَذَّاباً**» متفقٌ عليه[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

غريب الألفاظ:

يهدي: يرشد ويُدلُّ[2].

البر: أصله التوسع في فعل الخير وهو اسم جامع للخيرات كلها، ويطلق على العمل الخالص الدائم[3].

الفجور: أصل الفُجر: الشق. فالفجور شق ستر الديانة، ويطلق على الميل إلى الفساد

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧/١٠٣) واللفظ له. أورده المنذري في ترغيبه (٤٣١٩). وسيكرره المؤلف برقم (١٥٤٤).

(٢) الوسيط ٩٧٨.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ٥٢٤/١٠، وانظر: المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني ٤٠، والكليات معجم المصطلحات والفروق الفردية، أبو البقاء الكفوي ٢٣١.

وعلى الانبعاث في المعاصي وهو اسم جامع للشر[١].

الشرح الأدبي

الصدق هالة من النور تحيط بالمؤمن الصدوق، وتنشر حوله أشعة من البهاء والوقار، وتمتد إلى من حوله فتضيء أنفسهم بالثقة والحبور، فالصدق -كما يرى العلماء- هو استواء السر والعلانية، والظاهر والباطن، بألا تكذب أحوال العبد أعماله، ولا أعماله أحواله، والكذب ظلمة تغشى النفس فتحجب عنها مصادر النور، ومنابع الهدى، وتصيب حياة الإنسان بالاضطراب، وتنزع الثقة من كل عمل أو قول في مسيرته وصلاته بالناس.

وهذا الحديث الشريف يتصدر باب الصدق في رياض الصالحين، ويفوح عبيره، وتعبق زهوره، والنفس الإنسانية لا تجمل إلا بالصدق والإخلاص، صدق اللسان، وإخلاص النية. وصياغة الحديث اللغوية وتشكيله الأسلوبي يؤكدان أهمية الصدق ودوره في حياة الإنسان ومسيرته الدنيوية ومآله الأخروي. وكذلك يرشد إلى خطورة الكذب وأثره في تدمير العلاقات الاجتماعية وتشويه القيم الإنسانية.

ولو تأملنا الصياغة الأسلوبية في هذا الحديث تأملاً لا يفصل المبنى عن المعنى لاكتشفنا كثيراً من أسرار البيان النبوي، فالحديث يتكون من ست جمل لغوية، وهى تتصاعد في ترتيب منطقي وتنسيق جمالي، وكل جملة تبدأ بالتأكيد بحرف "إن"، ويتكرر هذا الحرف ست مرات، وكأن هذا التكرار تنبيه للمؤمن، وتحصين له من الانزلاق إلى هاوية الكذب والنفاق ومن التفريط في جوهرة الصدق التي تضيء له كل الدروب، وتحميه من النوازل والكروب.

والفعل "يهدي" معناه هنا: يوصل، وهو هنا قريب من الدلالة المألوفة وهى الهداية إلى الطريق الصحيح، أما في جانب الكذب فالفعل "يهدي"، لا يتجاوز مدلوله اللغوي وهو التوصيل؛ لأن الوصول للفجور ليس هداية وإنما زيغ وضلال، ولعل هذا التعبير من باب السخرية من ذلك الكذاب المنافق.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ١٠/٥٢٤، والمفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني ٣٧٣، والوسيط ٦٧٤.

والبر: كلمة جامعة تشمل كل أنواع الخير من الأعمال الصالحة الخالصة من كل مذموم. ولذلك فإن "البر" هو الطريق إلى الجنة، وفيها النعيم المقيم السرمد الذي لا يزول، وقد كرر لفظ "البر" مرتين تأكيداً لأثره في إصلاح النفس، وإصلاح المجتمع والحياة بأسرها.

والأفعال في الحديث تتوالى في نسق لغوي منتظم: صيغة المضارع، إشارة إلى استحضار هذا السلوك الصادق في الحال، والاستقبال استحضاراً دائماً لا ينقطع بانقطاع السبب أو الدافع أو المؤثر.

والتعبير: بـ"حتى" في قلب هذه الجملة: "وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً" يفسر ديمومة هذه الصفة، ومعنى "يكتب" أي يحكم له بذلك ويستحق الوصف بمنزلة الصديقين وثوابهم. والمراد: إظهار ذلك للمخلوقين، فيلقي الله ذلك في قلوب الناس وألسنتهم، كما يوضع له القبول.

وصيغة المبالغة: "في صدِّيقًا"، ترشد إلى جمال الصدق، وإلى أن من يحرص على هذه الصفة يهيئ الله له الأسباب للحفاظ عليها، واقتران الفعل، "يصدق باللام" بعد "إن" يضاعف التأكيد، ويكشف عن شدة حرص الإنسان على الصدق والمجاهدة في سبيله حتى ينال الجزاء الأوفى ويكتب عند الله صديقاً.

والجزء الثاني من الحديث يتكون من ثلاث جمل مثل الجزء الأول، ولكن القضية تختلف مع أن البناء اللغوي متشابه، والجمل متناسقة، ولكن "الكذب" هنا هو الخصلة الذميمة التي يحذر منها رسول الله ﷺ، وقد قُدِّم "الصدق" لشرفه ولأثره الإيجابي في الحياة، وأخرَ الكذب لأنه من أقبح الخصال، وأذم الفعال، وأردأ الأقوال.

ولعله جاء في ختام الحديث حتى يحذر المؤمن الصدوق من إغراءات الباطل ووسوسات الشياطين، ويظل متيقظاً خوف الوقوع في شرك الأكاذيب.

والكذب طريق إلى "الفجور" وهو الأعمال السيئة، وكلمة "الفجور"، تتسع دلالتها لتشمل كل أنواع السلوك السيئ والأعمال المشينة، والكذب هو الطريق الموصل إلى ذلك المهوى السحيق، والنفق العميق، والفجور -بكل ما يتضمنه من ضروب الإثم والرذيلة- يقود الإنسان إلى النار وبئس القرار.

والحديث في بنائه اللغوي يتضمن كثيراً من مظاهر الجمال الأسلوبي: ومن سمات الجمال الشمولية وهي السلامة من العيوب، والقصد، والتناسق، والتنظيم.

والحديث يبوح بكل هذه المظاهر الجمالية الأسلوبية، فهو خال من التعقيد اللفظي والمعنوي، وهو خال من تنافر الحروف والكلمات، وصياغته تسير وفق نظام مقصود، وتناسق في التراكيب وتنظيم في العبارات والأدوات.

والمقابلة في الحديث بين موقفين: موقف الصدق، وموقف الكذب، وكلاهما صيغ في ثلاث جمل، وكل جملة تبدأ "بإن" وبعدها المصدر "الصدق أو الكذب" ثم الطباق بين البر والفجور، والجنة والنار، والفعل: "ليصدق"، و"ليكذب" وكذلك الطباق بين صدِّيقاً وكذَّاباً وهما متوافقان في الصيغة النحوية والبلاغية، ولكن لكل منهما دلالة تخالف الدلالة الأخرى، والحديث دستور اجتماعي رشيد يضع أسس السلوك القولي والعملي، وكل حديث صحيح لم يرد ما ينسخه، وكان موضوعه جزءاً من رسالة النبي ﷺ بحيث أصبح في نهاية الأمر تعبيراً عن الإرادة الإلهية، هذا الحديث له في نظر المسلمين نفس السلطة التشريعية والأخلاقية التي للنص القرآني لأنها تنبع من تعاليمه[1].

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم الكذب.

فقد ذكر الفقهاء[2] أن الأصل في الكذب أنه حرام، وهو من الكبائر إن كان

---

(١) انظر: دستور الأخلاق في القرآن الكريم، د. محمد عبدالله دراز، تعريب وتحقيق وتعليق: د. عبدالصبور شاهين.

(٢) انظر في ذلك: المبسوط، السرخسي ١٤٥/١٦، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، الزيلعي ٢٤١/٤، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد الباجي الباجي ٢١٣/٧، وحاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني، العدوي ٤١٢/٢، وأنوار البروق، القرافي ٨/٤، وأدب الدنيا والدين، الماوردي ص ٢٦١، والزواجر عن اقتراف الكبائر، أبو العباس أحمد بن محمد الهيتمي ٣٢٢/٢، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين عبدالرحيم بن الحسن ٢١٤/٧، والآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ١١/١، ١٩، وغذاء الألباب شرح منظومة الآداب، الإسفراييني ١٣٤/١، وإعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم ٩٣/١، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٠٥/٣٤.

في شهادة زور لما فيه من القول بغير حق، وأنه ينبغي للمسلم أن يكون صادقاً في حديثه، وقد يكون الكذب مباحاً أو واجباً، فالكلام وسيلة إلى المقصود، وكل مقصود محمود يمكن تحصيله بغير الكذب يحرم الكذب فيه، فإن لم يمكن تحصيله بغير الكذب جاز الكذب فيه، وهنا ينظر إن كان تحصيل المقصود واجباً كان الكذب واجباً كما لو اختفى مسلم من ظالم يريد قتله أو أخذ ماله وسئل إنسان عنه وجب الكذب بإخفائه، وإن كان المقصود مباحاً كان الكذب مباحاً، وإن كان لا يتم مقصود الحرب أو إصلاح ذات البين أو إصلاح الزوجة وتأليفها إلا بالكذب كان الكذب مباحاً، إلا أنه ينبغي أن يتحرز منه ما أمكن.

ومن الجدير بالذكر أن بعض العلماء، منهم الطبري قالوا: لا يجوز الكذب في شيء أصلاً، قالوا: وما جاء من الإباحة في هذا المرادُ به التورية واستعمال المعاريض لا صريح الكذب[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار والتوكيد.

ثانياً: من مهام الداعية: توجيه المدعوين إلى ما ينفعهم.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: فضل الصدق.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: الصدق طريق إلى الجنة ومرافقة النبيين.

خامساً: من موضوعات الدعوة: ذم الكذب وبيان عاقبته.

سادساً: من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار والتوكيد:

لقد أخبر النبي ﷺ عن فضيلة الصدق وحسن عاقبته كما أخبر ﷺ عمن قبح الكذب وسوء عاقبته، وقد أكدّ هذا الإخبار ليكون أوقع عند المخاطب سواءً المصدق بذلك أو المنكر، فيزداد الأول صدقًا على صدق، أما الآخر فقد يصير كالأول

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٥٣.

مصدقاً وإلا فقد أقيمت عليه الحجة.

ثانياً- من مهام الداعية: توجيه المدعوين إلى ما ينفعهم:

والداعية وهو يفعل ذلك يقتدي بالنبي ﷺ، كما يظهر جليًا في هذا الحديث الشريف، فقد بيّن النبي ﷺ فضل الصدق ومذمة الكذب، والغرض من ذلك توجيه أتباعه إلى التحلي بالصدق فهو نافع لهم، وثمرته مرضيته، والابتعاد عن الكذب فهو ضار بهم ضررًا بالغًا في الدنيا والآخرة ويتبع ذلك الاقتداء ويليه اهتمام الداعية بمن يدعوهم ويخاف عليهم مع بذل المستطاع في دعوتهم إلى الله، وتغيير واقعهم إلى ما هو أفضل وأرقى انطلاقاً من السجية التي ينبغي أن تكون ملازمة للداعية، وهي حب الخير التي تنمّ عن كرم النفس وصفاء القلب وسلامته من مساوئ الأخلاق وردئ الخلال، وتلك هي بغية الدعاة وعلى رأسهم الأنبياء عليهم السلام قال تعالى عن شعيب وما قاله لقومه: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾[1].

قال القاسمي: (قوله: "إن أريد الإصلاح ما استطعت" أي: إصلاح نفوسكم بالتزكية، والتهيئة لقبول الحكمة، ما دمت مستطيعاً متمكناً منه. "وما توفيقي إلا بالله" أي: وما كوني موفقاً للإصلاح إلا بمعونة الله وتأييده. "عليه توكلت" أي: أعتمد "وإليه أنيب" أي: أرجع في السراء والضراء)[2].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: فضل الصدق:

جاء في صريح الحديث بيان فضل الصدق والتخلق به، فقال ﷺ "إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل يصدق حتى يكتب عند الله صديقاً"، قال القاضي عياض: (قوله: "إن الرجل يصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، ويكذب حتى يكتب عند الله كذاباً": فيه تحريض على تحري الصدق وتجنب الكذب وترك التساهل فيه؛ فإن ذلك يؤدي إلى أمثاله، ويقع فيه ويكثر منه إذا لم

---

(١) سورة هود، آية: ٨٨ .

(٢) محاسن التأويل، القاسمي ٦/٩/٢٦٣.

يتحفظ من الكذب حتى يعرف به، ويكتب عند الله بالمبالغة في الصدق إذا اعتاده، أو بالكذب إذا اعتاده، فإن فعيل وفعال من "صديق وكذاب" من أبنية المبالغة والكثرة. ومعنى كتبنا هنا: أي حكم عليه وله بذلك وحق له منزلة الصديقين وثوابهم، أو صفة الكذابين وعقابهم. وقيل في قوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ﴾ أي حكم، ويكون هذا إظهار حكمه فيها وإنفاذ قدره له بالشقاوة والسعادة بمقتضى الصفتين، أو كتب ذلك في كتاب ليشهر بالصفتين في الملأ الأعلى، أو يلقى ذلك في ألسنة الناس، كما يوضع القبول والبغضاء، وإلا فقضاؤه المتقدم وكتابه السابق قد سبق فيه بما كان ويكون فيه هذا.

وقوله: "وإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة،وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار"، معناه: أن الصدق يهدي إلى البر بالعمل الصالح الخالص من الإثم. والبر اسم جامع للخير كله، وقيل: البر: الجنة وقيل ذلك في قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ﴾ ويوصل إليه، والبر يوصل إلى الجنة ويرشد إليها، والكذب يوصل إلى الفجور وأصله الميل عن القصد، وقيل: الانبعاث في المعاصي، ومنه قيل للفاجر: كاذب، وللمكذب بالحق: فاجر. ومعنى: "يتحرى الصدق ويتحرى الأدب": أي يقصده ويعتمده، والحرى: ناحية الشيء)[1].

إن الصدق من الصفات التي لا تكمل شخصية المسلم إلا بها، وقد أمرنا الله بالتزام الصدق والتخلق به، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[2]. أي: كونوا مع الصادقين والتزموا انتهاجهم الصدق في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، الذين أقوالهم صدق وأعمالهم وأحوالهم لا تكون إلا صدقاً خالية من

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٨/٨١ – ٨٢.

(٢) سورة التوبة، آية: ١١٩.

الكسل والفتور سالمة من المقاصد السيئة مشتملة على الإخلاص والنية الصالحة[١]، فالصدق ينبغي أن تصبغ به حياة المسلم كلها بلا استثناء في الأقوال والأفعال والأحوال، قال ابن القيم: (والصدق ثلاثة: قول وعمل وحال:

فالصدق في الأقوال: استواء اللسان على الأقوال كاستواء السنبلة على ساقها.

والصدق في الأعمال: استواء الأفعال على الأمر والمتابعة كاستواء الرأس على الجسد.

والصدق في الأحوال: استواء أعمال القلب والجوارح على الإخلاص، واستفراغ الوسع وبذل الطاقة، فبذلك يكون العبد من الذين جاءوا بالصدق، وبحسب كمال هذه الأمور فيه وقيامها به تكون صديقته)[٢].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: الصدق طريق إلى الجنة ومرافقة النبيين:

جاء ذلك وضحاً في صريح قوله ﷺ: «إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة» أي أن الصدق يهدي ويوصل إلى البر وهو اسم جامع للخيرات كلها ويطلق على العمل الخالص الدائم، وإن البر بدوره يهدي إلى الجنة، قال ابن بطال: مصداقه في كتاب الله تعالى ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾[٣]،[٤]، فالصدق يهدي إلى كل عمل صالح خالص من كل مذموم[٥]، فإذا لازم الإنسان الصدق وأخذ نفسه به فإنه يتعوده حتى يصير صديقاً يصدق قوله ويصدق فعله ويصدق حسه وشعوره، ويقوده الصدق وملازمته إلى كل صفة خير وهي البر فيسمو في كل سلوكه وتصرفاته ويصل باستقامته إلى

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٣١٢.

(٢) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢/ ٢٨١.

(٣) سورة الانفطار، آية: ١٣ .

(٤) فتح الباري، ابن حجر ١٠/ ٥٢٤.

(٥) انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٥٤.

الجنة[١]، ومعية النبيين والشهداء المنعم عليهم من قبل الله والمغدق عليهم بفيض رحمته وكريم عطائه، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾[٢].

خامساً- من موضوعات الدعوة: ذم الكذب وبيان عاقبته:

جاء في الحديث بيان أن الكذب مدعاة لسيء الأخلاق والأعمال، وأنه طريق إلى النار -والعياذ بالله- فقال ﷺ: "وإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً"، فالكذب يوصل إلى الفجور، وهو الميل عن الاستقامة، وقيل الانبعاث في المعاصي[٣].

وفي المعنى جاءت نصوص كثيرة ومنها ما بيَّن بأن الكذب من خصال النفاق وشيم المنافقين، فقال ﷺ: ((أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خلة منهن كانت فيه خلة من نفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر))[٤].

فالكذب إذا لازم الإنسان فإنه يسوقه إلى كل شر فيتوصل بذلك إلى النار[٥]، لهذه الأسباب وغيرها عد العلماء الكذب من الكبائر، فذكر الإمام ابن حجر الهيتمي والإمام الذهبي الكذب -الذي لا رخصة فيه- من الكبائر، وأفحش الكذب ما كان

---

(١) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني عبدالمجيد هاشم، ص٧١.

(٢) سورة النساء، الآيتان: ٦٩، ٧٠ .

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٥٤.

(٤) أخرجه البخاري ٣٤، ومسلم، ٥٨.

(٥) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم، ص ٧١.

كذباً على الله عز وجل أو كذبا على رسوله ﷺ[١] إضافة إلى مايؤدي إليه الكذب من مضار سواء أكان على مستوى الأفراد أو على مستوى المجتمعات، فهو وسيلة لدمار صاحبه أمما وأفراداً، ويورث فساد الدين والدنيا، ناهيك عما يصيب صاحبه من خسة ودناءة وذهاب للمروءة والجمال والبهاء[٢]، فالإنسان المشتهر بالكذب يسقط اعتباره وتذهب مهابته، ويصبح هملاً في سقط المتاع[٣].

إن الكذب من الأخلاق المرذولة، والصفات القبيحة، وهو عنوان سفه العقل، وآية سقوط الهمة، وخبث الطوية، والكذاب مهين النفس بعيد عن عزتها المحمودة، قال الماوردي: "والكذب جماعُ كل شر، وأصل كل ذم، لسوء عواقبه، وخبث نتائجه، لأنه ينتج النميمة، والنميمة تنتج البغضاء، والبغضاء تؤول إلى العداوة، وليس مع العداوة أمن ولا راحة.

ولذلك قيل: من قلّ صدقه قلّ صديقه"[٤].

ومن مظاهر الكذب المحرمة: الكذب على الله ورسوله ﷺ والكذب لإفساد ذات البين والكذب لإضحاك السامعين،والكذب في المطالبات والخصومات والكذب للتخلص من المواقف المحرجة. ومن مظاهر الكذب -أيضاً- نقل الأخبار الكاذبة وحذف بعض الحقيقة والتوسع في باب المصلحة والمبالغة في المعاريض والتملق لأرباب الثراء والجاه والكذب على الأولاد ونحو ذلك[٥].

---

(١) انظر: الزواجر عن اقتراف الكبائر، أبو العباس أحمد بن محمد الهيتمي ، ابن حجر الهيتمي، ص ١٢٤-١٢٥، والكبائر، الذهبي، ص ١٢٨-١٣٥.

(٢) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد ١١/ ٥٤٣٠.

(٣) أخلاقية الداعية، عبدالله ناصح علوان ص ١٦-١٧.

(٤) أدب الدنيا والدين، الماوردي ص ٢٦٢.

(٥) انظر: سوء الخلق "مظاهره - أسبابه - علاجه، محمد بن إبراهيم الحمد، ص ٤٥ - ٤٦.

سادساً- من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب:

يتضح ذلك في الحديث من خلال ترغيب الرسول ﷺ في الصدق بأنه يهدي بصاحبه في النهاية إلى الجنة، وترهيبه من الكذب ببيان سوء عاقبته وأنه يسوق صاحبه إلى النار والعياذ بالله إن أسلوب الترغيب والترهيب من أنفس الأساليب الدعوية لما له من أثر بالغ في النفوذ إلى القلوب وانقياد المدعوين وقبولهم لما يزجى إليهم من قبل الداعية، فالترغيب في الثواب والترهيب من العقاب يحملان النفس على فعل ما أمر الله به سبحانه وتعالى وترك ما نهى عنه، فالترغيب يشوق النفس ويعلي الهمة، والترهيب يخيف ويحذر من عدم الاستجابة أو رفض الحق أو عدم الثبات عليه بعد قبوله، لذا كان على الداعية إتباع أسلوب الترغيب والترهيب وعدم تركهما أو التركيز على أحدهما دون الآخر فهما كجناحى طائر لا يطير إلا بهما معاً.

ولا شك أن للترغيب والترهيب آثارًا واضحة في نفوس المدعوين، مما يجعل الداعية حريصًا على الإفادة من ذلك في تعامله وتوجيهه وإرشاده للمدعوين.

الحديث رقم (٥٥)

٥٥- الثَّاني: عَنْ أبي مُحَمَّدٍ الْحَسنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أبي طَالِبٍ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ حفِظْتُ مِنْ رسولِ اللَّه ﷺ: «دَعْ ما يَرِيبُكَ إلَى مَا لا يَرِيبُكَ، فَإنَّ الصِّدْقَ طُمأنينَةٌ، وَ[1] الْكَذِبَ رِيبةٌ» رواه التِرْمذي وقال: حديثٌ صحيحٌ[2].

ترجمة الراوي:

الحسن بن علي بن أبي طالب: الإمام السيد، ريحانة رسول الله ﷺ وسبطه، وسيد شباب أهل الجنة، أمير المؤمنين ولد بالمدينة المنورة في شعبان سنة ثلاثٍ من الهجرة وقيل في نصف رمضانها، ولما ولد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، جاءه النبي ﷺ، فقال ((أروني ابني، ما سمَّيتُموه؟)) قال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: حرب، فقال النبي ﷺ ((بل هو حسن))[3]، (وعقَّ عنه النبي ﷺ بكبش)[4]، وكان الحسن عاقلاً، حليماً، محباً للخير، فصيحاً، من أحسن الناس منطقاً وبديهة، وكان شبيهاً برسول الله ﷺ، فقد صلى أبوبكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ العصر يوماً ثم قام وعليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يمشيان، فرأى الحسن رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يلعبُ مع الغلمان، فأخذه أبوبكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وحمله على عنقه، وقال: بأبي شبيه بالنبي: ليس شبيهاً بعلي، وعلي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يضحك[5].

أحبه النبي ﷺ ودعا لمن أحبَّه ((اللهم إني أحبُّه فأحبَّه، وأحببَّ مَنْ يحبُّه))، قال أبو هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: فما كان أحدٌ أحبَّ إلي من الحسن بن علي بعدما قال رسول الله ﷺ ما قال[6].

---

(١) عند الترمذي زيادة: (إنَّ).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥١٨)، وقال: هذا حديث حسن صحيح. وصحّحه ابن خزيمة (٢٣٤٨)، وابن حبان (الإحسان ٧٢٢)، وقال الحاكم (١٣/٢): هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الذهبي في التلخيص (٩٩/٤): سنده قويٌّ. أورده المنذري في ترغيبه (٢٥٩١). وسيكرره المؤلف برقم (٥٩٣).

(٣) أخرجه أحمد ٩٨/١ رقم ٧٦٩، وقال محققو المسند: إسناده حسن ١٥٩/٢.

(٤) أخرجه أبو داود (٢٨٤١) وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢٤٦٦).

(٥) أخرجه البخاري ٣٥٤٢، ٣٧٤٢.

(٦) أخرجه البخاري ٢١٢٢، ٥٨٨٤ واللفظ له، ومسلم ٢٤٢١.

وقال عبدالله بن الزبير رضي الله عنه: رأيتُ الحسن يأتي النبي صلى الله عليه وسلم، وهو ساجد، فيركب رقبته، أو قال ظهره، فما ينزله حتى يكون هو الذي ينزل ولقد رأيته يجئ وهو راكع فيفرج له بين رجليه حتى يخرج من الجانب الآخر[١].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة))[٢].

وقد بايعه أهل العراق بالخلافة بعد مقتل أبيه علي بن أبي طالب رضي الله عنهما سنة ٤٠هـ، وأشاروا عليه بالمسير إلى الشام لمحاربة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، فأطاعهم وزحف بمن معه وبلغ معاوية رضي الله عنه خبره، فقصده بجيشه، وتقارب الجيشان في موضع يقال له "مسكن" بناحية من الأنبار، فكره الحسن رضي الله عنه أن يقتتل المسلمون وقال: قد كانت جماجم العرب في يدي يحاربون من حاربتُ ويسالمونَ من سالمتُ، فتركتها ابتغاء وجه الله وحقن دماءِ أمة محمد صلى الله عليه وسلم، فكتب إلى معاوية يشترط شروطاً للصلح ورضي معاوية، فخلع الحسن رضي الله عنه نفسه من الخلافة وسلم الأمر لمعاوية رضي الله عنه سنة ٤١هـ وسمى هذا العام "عام الجماعة" لاجتماع كلمة المسلمين. وتحقق قول النبي صلى الله عليه وسلم الذي قال فيه ((إن ابني هذا سيّدٌ ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين))[٣]، وانصرف الحسن رضي الله عنه إلى المدينة حيث أقام إلى أن توفي. ويوم أن مات الحسن رضي الله عنه بكى أبو هريرة ونادى بأعلى صوته: يا أيها الناس مات اليوم حِبُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فابكوا فبكى الناس نساءً وصبياناً ورجالاً.

واختلف في سنة وفاته فقيل مات سنة ٤٩هـ، وقيل ٥٠هـ، وقيل ٥١هـ، وقيل غير ذلك، ودفن بالبقيع[٤].

---

(١) قال محققو السير: إسناده ضعيف، السير ٢٤٩/٣ هامش (٣).

(٢) أخرجه الترمذي ٣٧٨١ وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٩٧٥).

(٣) مجمع الزوائد ١٧٥/٩.

(٤) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر (١٧٩-١٨٤)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير (١٣/٢-٢١)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني (٢٧٤-٢٧٦)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي (١٤٣/٢-١٥٢)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٤٠٣/١-٤٠٦)، وسير أعلام النبلاء، الذهبي (٢٤٥/٣-٢٧٩)، والأعلام، الزركلي (١٩٩/٢-٢٠٠)، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك (٣٩٢/١-٤٠١).

غريب الألفاظ:

دعْ ما يَرِيبُك إلى ما لا يريبُك: دع ما تشكُّ فيه إلى ما لا تشك فيه، أو عليك بالصافي من الأمور ودع المشتبه منها[١].

رِيبَة: ترتاب به القلوب فلا تسكن إليه، بل تنفر منه[٢].

الشرح الأدبي

جاء هذا الحديث عبارته موجزة، وألفاظه سهلة، ومعانيه واضحة الدلالة، ولكنها تتسع وتمتد لتشمل كثيراً من الأمور التي تحير الإنسان، وما أكثرها وما أدَقها: في العبادات، والمعاملات والعقائدّ وعن ابن مسعود قال: ما تريد إلى ما يريبك وحولك أربعة الآف لا تريبك؟ وقال عمر: دعوا الربا والريبة، يعني ما ارتبتم فيه وإن لم تتحققوا أنه ربًا.

ومعنى هذا الحديث يرجع إلى الوقوف عند الشبهات واتقائها، فإن الحلال المحض لا يحصل لمؤمن في قلبه منه ريب، وهو القلق والاضطراب، بل الحلال تسكن إليه النفس، ويطمئن به القلب، وأما المشتبهات فيحصل بها للقلوب القلق والاضطراب، والموجب للشك[٣].

والحديث يتكون من ثلاث جمل واضحة مختصرة : الجملة الأولى تتكون من ثلاثة أفعال وتتنوع. فالفعل الأول: "دع"، وهو فعل أمر بمعنى اترك، والأمر للوجوب، وقيل للندب، لأن توقي الشبهات مندوب على الأصح، والأمر موجه إلى كل مسلم مؤمن حريص على الالتزام بأوامر الشرع ونواهيه، والأمر بذلك موجه إلى ملايين المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، والفعل الثاني، مضارع مثبت، "يريبك"، والفعل الثالث: مضارع منفي، ومن أسرار التعبير في هذا الحديث الشريف أن الفعل الأول المثبت هو الذي يأمرنا الرسول بتركه وهو ما يتحقق فيه الريب والشك، أما الفعل المنفي "لا

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ر ي ب)، ورياض الصاحلين ٧٠.

(٢) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١/٢٨٤، ٢٨٥.

(٣) المرجع السابق ١/٢٨٠.

يريبك"، فهو الذي يأمرنا الرسول بالإقدام عليه وفعله في أي ميدان كان، وفي أي زمان، وفي أي مجال، وكاف الخطاب تتعدى دائرة المخاطب الفرد إلى المخاطبين من جميع أمة الإسلام الذين يحرصون على النجاة والطمأنينة.

- والجملتان الثانية والثالثة: تجيئان في الصيغة الإخبارية المؤكدة وهما جملتان اسميتان ثابتتان في الدلالة غير مرتبطتين بزمن لأنهما قاعدتان من قواعد الخلق الإسلامي، فإن الصدق طمأنينة، والصدق هنا صدق نفسي وشعوري وعملي، والكذب مع النفس وعدم تصديق الإحساس يعد ترسيخا للشك والإثم، فرسول الله في هذا الحديث يرشد إلى التحلي بالصدق والبعد عن الكذب.

فقه الحديث

في هذا الحديث من الفقه:

ترك ما فيه ريبة، والريبة هي الشك والتردد، وترك ما فيه ريبة أصل عظيم في الورع، يقول الخطابي: كل ما شككت فيه فالورع اجتنابه، ثم هو على ثلاثة أقسام واجب ومستحب ومكروه، فالواجب اجتناب ما يستلزمه ارتكاب المحرم، والمندوب اجتناب معاملة من أكثر ماله حرام، والمكروه اجتناب الرخص المشروعة على سبيل التنطع"[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من واجبات المدعو: الاهتمام بسنة النبي ﷺ.

ثانياً: من أساليب الدعوة: الأمر.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: الأخذ بجانب الحيطة والوقوف عند الشبهات.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: الورع.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٢٩٣/٤، تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٨٧/٧، سبل السلام، الصنعاني ١٥٢/٤، الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٩٦/٢٣.

خامسًا: من آداب الدعوة: البعد عن الشبهات والتيقن في الأمور.

سادساً: من موضوعات الدعوة: بيان فضل الصدق وشناعة الكذب.

سابعاً: من أساليب الدعوة: التوكيد، والترغيب والترهيب.

أولاً- من واجبات المدعو الاهتمام بسنة النبي ﷺ:

(السنة كل ما أثر على الرسول ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خلقية أو خلقية أو سيرة، وهي المصدر الثاني بعد القرآن الكريم وهي شارحة القرآن ومبينة له ومفصلة لما أجمل منه، كما أنها قصة كفاح وخلاصة تجارب لأعظم داعية وأكرم عقل في الوجود، كما أنها نفحات قدسية وتوجيهات ربانية وتجليات إلهية لفهم القرآن وتوجيهه في الحياة ليعمل عمله في آلاء الكون وسنن الاجتماع، وعلل النفوس ومشكلات الحياة، وضروب الإصلاح وسياسة الأمم ورسم الطريق المستقيم، كما أنه ينبوع بل ينابيع الخلق والمثل، ومكارم الأخلاق التي تتزود منها الإنسانية طول فترة بقائها على وجه هذه المعمورة وإلى يوم أن يرث الله الأرض ومن عليها...، وهي كذلك أساليب للتربية وخطوات للتوجيه...، فضلاً عن أنها منهل للعلم النافع، والفكر الصائب، والزاد الطاهر...، فهي العطاء الغامر والفيوضات الكريمة التي يحتاجها كل مسلم وينتفع بها كل بشر في هذا العالم المضطرب المائج بالأهواء والفتن والحروب والإحن)[1].

وقد كان في سلف الأمة الصالح القدوة والأسوة في الاهتمام بسنة النبي ﷺ (فهاهو ابن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما كان يتبع أمر رسول الله ﷺ، وآثاره وحاله، ويهتم به، حتى كان قد خيف على عقله من اهتمامه بذلك)[2]، وفي ذلك قالت عائشة رضي الله عنها: (ما رأيت أحداً ألزم للأمر الأول من ابن عمر)[3]، وقد ورد هذا الاهتمام بسنة

---

(١) الخطابة وإعداد الخطيب، د. توفيق الواعي، ١٢٧-١٢٩.

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي ٣/٢١٣.

(٣) المرجع السابق ٣/١١٢.

النبي ﷺ في الحديث من قول الصحابي: "حفظتُ من رسول الله ﷺ"، وما ذلك إلا امتثالاً لأمر النبي ﷺ ((بلِّغوا عني ولو آيةً))[١] ورغبةً في أن يكون ممن دعا لهم النبي ﷺ بقوله: ((نَضَّرَ الله امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثاً فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ غَيْرَهُ))[٢] وفي ذلك مسلكاً لحفظ سنة النبي ﷺ وتبليغها إلى الغير فيحصل بذلك كامل الأجر والفائدة. وهكذا استمر حفظ سنة النبي ﷺ عبر الأجيال والأزمان، ومما لا شك فيه أن المدعوين تختلف استعداداتهم لحفظ السنة، ولكن المتفق عليه هو العمل بها وتطبيقها في مختلف مجالات الحياة وإخراجها من بطون دواوين السنة إلى الحياة حاكمة ومطبقة.

ثانياً- من أساليب الدعوة: الأمر:

لقد ورد هذا الأسلوب الدعوي في الحديث في أمره ﷺ بترك كل ما فيه شك وشبهة والأخذ بكل ما تسكن إليه النفس وتطمئن وذلك في قوله ﷺ: "دع ما يريبك إلى ما لا يريبك". وأسلوب الأمر من الأساليب المباشرة للحث على الامتثال والإذعان، وكان هذا مناسباً للابتعاد عن الشبهات، واجتناب كل ما هو مشكوك فيه، والأخذ بما ليس فيه شك أو ريبة. ومما لاشك فيه أن الأمر من الأساليب الدعوية الهامة التي تعين الداعية على إرشاد المدعو وتوجيهه إلى فعل ما يجب عليه.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٦١).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٥٦) وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢١٣٩).

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: الأخذ بجانب الحيطة والوقوف عند الشبهات:

مما لا شك فيه أن المؤمن يحتاط لنفسه ويقف عند الشبهات ويتقيها وهذا ما أشار إليه نص الحديث في قوله ﷺ "دع ما يريبك إلى ما لا يريبك (فالحلال المحض لا يحصل للمؤمن في قلبه منه ريب -والرَّيْبُ بمعنى القلق والاضطراب- بل تسكن إليه النفس، ويطمئن به القلب وأما المشتبهات فيحصل بها للقلوب القلق والاضطراب الموجب للشك)[١].

وقد رغب النبي ﷺ في ترك الشبهات واتخاذ الحيطة والورع ورهب من الوقوع فيها فقال: ((إنَّ الْحَلاَلَ بَيِّنٌ وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لاَ يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمىً، أَلاَ وَإِنَّ حِمَى اللّهِ مَحَارِمُهُ، أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ، فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ))[٢] وقد كان ﷺ يقول: ((إني لأنقلِبُ إلى أهلي، فأجِدُ التمرةَ ساقطةً على فِراشي فأرفعُها لآكلَها، ثمَّ أخشَى أن تكونَ صدَقةً فأُلقيها))[٣] وقال عمر رضي الله عنه: (دعوا الربا والريبة، يعني: ما ارتبتم فيه، وإن لم تتحققوا أنه رباً)[٤].

وقد خرَّج ابن جرير بإسناده عن بشير بن كعب أنه قرأ قول الحق تبارك وتعالى ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾[٥] فقال لجارية له: إن دريتِ ما مناكبها فأنتِ حُرّة لوجه الله، فقالت: إن مناكبها جبالُها. فكأنما سُفع في وجهه، ورَغِبَ في جاريته، فسألهم، فمنهم من أمره، ومنهم من نهاه، فسأل أبا الدرداء فقال: (الخير طمأنينة، والشر ريبة، فذَرْ ما

---

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١/٢٨٠.

(٢) أخرجه البخاري ٥٢، ٢٠٥١، ومسلم ١٥٩٩.

(٣) أخرجه البخاري ٢٣٢، ومسلم ١٠٦٩.

(٤) جامع العلوم والحكم، ابن رجب ١/٢٨٠.

(٥) سورة الملك، آية: ١٥.

يريبك إلى ما لا يريبك)[١]، وبذلك يتحقق اطمئنان القلب وسكون النفس وكفى بذلك فائدة وكفي بذلك مغنمًا.

رابعاً- من موضوعات الدعوة: الورع:

إن الورع من أصول الدين وقواعده، ومن صوره ترك ما يشك المسلم فيه، وهذا مفهوم من عموم الحديث: قال ابن حجر: (والمعنى إذا شككت في شيء فدعه، وترك ما يشك فيه أصل عظيم في الورع)[٢]، وقال ابن تيمية: (والورع من قواعد الدين)[٣].

وقال أبو عبدالرحمن العمري الزاهد: "إذا كان العبد ورعاً ترك ما يريبه إلى ما لا يريبه". وقال حسان بن أبي سنان: ما شيء أهون من الورع إذا رابك شيء فدعه. وهذا إنما يسهل على مثل حسان.

قال ابن المبارك: كتب غلام لحسان بن أبي سنان إليه من الأهواز: إن قصب السكر أصابته آفة، فاشتر السكر فيما قِبَلَك. فاشتراه من رجل، فلم يأت عليه قليل فإذا فيما اشترى ربح ثلاثين ألفاً، قال: فأتى صاحب السكر فقال: يا هذا إن غلامي كان كتب إليّ فلم أعلمك. فأقلني فيما اشتريت منك، فقال له الآخر: قد أعلمتني الآن وقد طيبته لك، قال : فرجع فلم يحتمل قلبه فأتاه فقال: يا هذا إني لم آت هذا الأمر من قبل وجهه، فأحب أن تسترد هذا البيع، قال: فما زال به حتى رد عليه)[٤].

وقال البغوي: (وجملة الشبه العارضة في الأمور قسمان: أحدهما هو ما لا يعرف له أصل في تحليل ولا تحريم. فالورع تركه. والثاني أن يكون له أصل في التحليل أو التحريم، فعليه التمسك بالأصل، ولا ينزل عنه إلا بيقين علم، وذلك مثل الرجل الذي يتطهر للصلاة ثم يشك في الحدث، فإنه يصلي ما لم يعلم الحدث يقيناً، وكذلك الماء يجده في الفلاة يشك في نجاسته، فهو على أصل الطهارة. فعليه التمسك به حتى لا يقع

---

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن، الطبري ١٢٨/٢٣.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٣٤٣/٤.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ١٧٤/١٥.

(٤) المرجع السابق ٢٨٠/١.

في الوسواس... وإن كان أصله الحظر مثل أن يشك في نكاح امرأة أو شراء جارية أو في لحم شاة أنها مذكاة أو ميتة. فلا يحل له شيء منها حتى يتيقن المِلْك والذكاة. وكذلك لو اختلطت امرأته بنساء أجنبيات أو مذكاة بميتات يجب عليه أن يتجنب أكلها حتى يعرف الزوجة والمذكاة بعينها)[١].

خامساً- من آداب المدعو: البعد عن الشبهات والتيقن في الأمور:

إن البعد عن الشبهات يورث الطمأنينة والسكينة، لذا فإن على المدعو أن يبتعد عما يشك فيه ويرتاب، حتى يحفظ دينه، وهذا واضح من عموم الحديث، وفي الحديث زيادة عند الترمذي: ((فإن الصدق طمأنينة وإن الكذب ريبة))[٢]، ولفظ ابن حبان: ((الخير طمأنينة والشر ريبة))[٣].

قال ابن تيمية: (فجعل الطمأنينة ضد الريبة وكذلك اليقين ضد الريب، واليقين يتضمن معنى الطمأنينة والسكون)[٤].

وقال البغوي: (نوع من الاشتباه أن يقع للرجل حادثة يشتبه عليه وجه الحكم فيها بين الحل والحرمة، فسبيله إن كان عالماً أن يجتهد، وإن كان عامياً أن يسأل أهل العلم، ولا يجوز له سبيل الاستباحة من غير اجتهاد أو تقليد مجتهد إن كان عامياً)[٥].

وقد نبه ابن تيمية على مداخل للغلط في فهم الورع فقال: "يقع الغلط في الورع من ثلاث جهات:

أحدها: اعتقاد كثير من الناس أنه من باب الترك، فلا يرون الورع إلا في ترك الحرام لا في أداء الواجب، فترى أحدهم يتورع عن الكلمة الكاذبة وعن الدرهم فيه شبهة ومع هذا يترك أموراً واجبة عليه من صلة الرحم وحق جار ومسكين وابن سبيل

---

(١) شرح السنة، الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ومحمد زهير الشاويش ٨/١٥-١٦.

(٢) أخرجه الترمذي ٢٥١٨.

(٣) أخرجه ابن حبان ٧٢٢.

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٣/٣٣٨.

(٥) شرح السنة، الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ومحمد زهير الشاويش ٨/١٦.

ونهي عن منكر وأمر بمعروف، وعن الجهاد في سبيل الله إلى غير ذلك مما فيه نفع للخلق في دينهم ودنياهم مما وجب عليه ... وهذا الورع قد يوقع صاحبه في البدع الكبار.

الثانية: إن كثيراً من الناس تنفر نفسه عن أشياء لعادة ونحوها، فيكون ذلك مما يقوي تحريمها في نظره واشتباهها عنده ويكون بعضهم في أوهام وظنون كاذبة، مبناها على الورع الفاسد. كحال أهل الوسوسة في النجاسات، وورع قوم يعدون غالب أموال الناس أو كلها محرمة أو مشتبهة، ولهذا يحتاج المتدين المتورع إلى علم كثير بالكتاب والسنة والفقه في الدين وإلا فقد يفسد تورعه الفاسد أكثر مما يصلح.

الثالثة: جهة المعارض الراجح، فإن الشيء قد يكون جهة فساده يقتضي تركه فيلحظه المتورع، ولا يلحظ ما يعارضه من الصلاح الراجح وبالعكس. وقد تبين أن من جعل الورع: الترك فقط، وأدخل في هذا الورع أفعال قوم ذوي مقاصد صالحة بلا بصيرة من دينهم وأعرض عما فوتوه بورعهم من الحسنات الراجحة، فإن الذي فاته من دين الإسلام أعظم مما أدركه، فإنه قد يعيب أقواما هم إلى النجاة والسعادة أقرب)[1].

ومما يجدر ذكره في هذا المقام ذكر قاعدة فقهية هي من القواعد الفقهية الكبرى، وهي قاعدة: "اليقين لا يزول بالشك"، قال أحمد الزرقا: (إن هذه القاعدة من أمهات القواعد التي عليها مدار الأحكام الفقهية، وقد قيل: إنها تدخل في جميع أبواب الفقه، والمسائل المخرجة عليها، من عبادات ومعاملات وغيرها، يبلغ ثلاثة أرباع علم الفقه. ومعناها أن ما كان ثابتاً متيقناً لا يرتفع بمجرد طروء الشك عليه، لأن الأمر اليقيني لا يعقل أن يزيله ما هو أضعف منه بل ما كان مثله أو أقوى.

هذا ولا فرق بين أن يكون السابق مقتضياً للحظر أو مقتضياً للإباحة، فإن العمدة عليه في كلتا الحالتين، ولا يلتفت إلى الشك في عروض المبيح على الأول وعروض الحاظر على الثاني.

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ١٠/٢٤٢-٢٤٣، وانظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٤٣/١١٠-١١٢.

فمن القسم الأول: ما لو غاب إنسان غيبة منقطعة بحيث لا يعلم موته ولا حياته فإن المعتبر اليقين السابق وهو حياته إلى أن يعلم موته بالبينة أو بموت جميع أقرانه وإن كان احتمال موته قائماً في كل لحظة. فلا يجوز قبل ذلك قسمة ماله بين الورثة، ولو كان له وديعة عند آخر فيجب على المستودع حفظها، فلو أعطاها للورثة يكون ضامناً.

ومن القسم الثاني: ما إذا كان إنسان يعلم أن بكراً مديون لعمرو بألف مثلاً. فإنه يجوز له أن يشهد على بكر بالألف وإن خامره الشك في وفائها أو في إبراء الدائن له عنها، إذ لا عبرة للشك في جانب اليقين السابق.

ومنها ما إذا كان يعلم أن العين الفلانية كانت ملك بكر ثم نازعه فيها أحد، فإنه يجوز له أن يشهد لبكر بأن العين ملكه وإن كان يحتمل أنه باعها لمن ينازعه)[١].

سادساً- من موضوعات الدعوة: بيان فضل الصدق وشناعة الكذب:

يظهر ذلك في قول النبي ﷺ "الصدق طمأنينة والكذب ريبة"، فالصدق تطمئن له النفوس الكريمة وهو دعامة الفضائل ودليل الكمال، وبه وصف الحق تبارك وتعالى نفسه فقال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾[٢] وقال ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ﴾[٣] وهو وصف الأنبياء والمرسلين وبه أمر الحق عباده فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾[٤]. وبه تتحقق راحة الضمير، وطمأنينة النفس، والزيادة في الخير والبركة في الكسب؛ وذلك لقوله ﷺ ((البَيِّعانِ بالخيارِ مالم يَتفرَّقا، فإن صَدَقا وبَيَّنا بورِكَ لهما في بيعِهما))[٥]، وبالصدق يتحقق الفوز بمنزلة الشهداء، لقوله ﷺ

---

(١) شرح القواعد الفقهية ٨١-٨٢، وانظر: جمهرة القواعد الفقهية في المعاملات المالية، د. علي أحمد الندوي ٢٢٩/١-٢٣٦.

(٢) سورة النساء، آية: ٨٧.

(٣) سورة آل عمران، آية: ٩٥.

(٤) سورة التوبة، آية: ١١٩.

(٥) أخرجه البخاري ١٥٣٢، ومسلم ١٥٣٢.

((مَنْ سَأَلَ اللّهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ ، بَلَّغَهُ اللّهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ، وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ))(١) وفي ذلك دعوة إلى تحري الصدق وبيان عظيم فضله.

أما الكذب فبه الريبة والاضطراب، وقد قبحه الإسلام، ونفّر منه، وجعله من خصال الكافرين، فقال جل شأنه ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ﴾(٢) وبيّن الحق تبارك وتعالى سوء عاقبة الكذب فقال: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾(٣). وقال ﷺ: ((وإيَّاكم والكذبَ، فإنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إلَى الفُجُورِ، وإنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ وَمَا يزَالُ العبْدُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ الله كَذَّاباً))(٤).

(ومن هنا كان العقلاء في عهد النبي ﷺ إذا سمعوا كلامَه وما يدعو إليه، عرفوا أنه صادق، وأنه جاء بالحق، وإذا سمعوا كلام مسيلمة، عرفوا أنه كاذب، وأنه جاء بالباطل، وقد رُوي أن عمرو بن العاص سمعه قبل إسلامه يدَّعي أنه أنزل عليه: يا وبر يا وبر، لك أذنان وصدر، وإنك لتعلم يا عمرو، فقال: والله إني لأعلم أنك تكذب. فينبغي على المرء ألا يعتمد على قول كل قائل...، وإنما يعتمد على قول من يقول الصدق، وعلامة الصدق أنه تطمئن به القلوب، وعلامة الكذب أنه تحصل به الريبة، فلا تسكن القلوبُ إليه، بل تنفر منه)(٥).

سابعاً- من أساليب الدعوة: التوكيد، والترغيب والترهيب:

التوكيد من الأساليب الدعوية الهامة في تقوية الكلام وإثباته في أذهان المدعوين. وقد ورد هذا الأسلوب الدعوي في الحديث من قوله ﷺ "فإن الصدق طمأنية،

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٠٩).

(٢) سورة النحل، آية: ١٠٥.

(٣) سورة الزمر، آية: ٥٩.

(٤) أخرجه البخاري ٢٦٠٧، ومسلم ١٨٠٩ واللفظ له.

(٥) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢٨٥/١.

والكذب ريبة" مؤكداً ﷺ على أهمية الصدق وشناعة الكذب.

أما الترغيب والترهيب، فهو أسلوب دعوي ناجع للنفس البشرية في تقويمها لقبول الحق والبعد عن كل ضيق وعذاب وهذا ما ورد في هذا الحديث من ترغيبه ﷺ في الصدق وترهيبه من الكذب بقوله "فإن الصدق طمأنينة، والكذب ريبة، (والأصل في الترغيب أن يكون في نيل رضى الله ورحمته وجزيل ثوابه في الآخرة، وأن يكون الترهيب بالتخويف من غضب الله وعذابه في الآخرة، وهذا هو نهج رسل الله الكرام كما بينه القرآن الكريم وجاءت به السنة النبوية المطهرة)[1].

(١) انظر: أصول الدعوة، عبدالكريم زيدان ص ٤٢١.

الحديث رقم (٥٦)

٥٦- الثَّالثُ: عنْ أبي سُفْيانَ صَخْرِ بْنِ حَرْبٍ ﷺ. في حديثِه الطَّويلِ في قِصَّةِ هِرقْلُ، قَالَ هِرقْلُ: فَماذَا يَأْمُرُكُمْ يعْني النَّبِيَّ ﷺ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: قُلْتُ: يقول **«اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ لا تُشرِكُوا بِهِ شَيْئاً، واتْرُكُوا ما يَقُولُ آباؤُكُمْ، ويَأْمُرنَا بالصَّلاةِ[1] والصِّدْقِ، والْعفَافِ، والصِّلَةِ»**. متفقٌ عليه[2].

ترجمة الراوي:

أبو سفيان صخر بن حرب: هو صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، الأموي القرشي، اشتهر بكنيته (أبو سفيان) وكان يكنى بأبي حنظلة بابنه حنظلة المقتول يوم بدر مشركاً، ولد قبل الفيل بعشر سنين، فكان أسنّ من النبي ﷺ بعشر سنين، وعاش بعده عشرين سنة، وهو والد أم حبيبة زوج النبي ﷺ، قال الزبير بن بكار: وتزوج رسول الله ﷺ أم حبيبة بنت أبي سفيان، زوّجه إياها النجاشي، فقيل لأبي سفيان: إن محمداً قد نكح ابنتك، قال: ذاك الفَحْل لا يُقْرع أَنْفُه، يعني أنه كريم لا يرد.

وكان من أشراف قريش وساداتها، ومن الشجعان الأبطال، وكان تاجراً يجهز التجار بماله وأموال قريش إلى الشام وغيرها من أرض العجم، وكان أحياناً يخرج بنفسه، وكانت إليه راية الرؤساء المعروف بالعقاب، وكان لا يحبسها إلا رئيس، فإذا حميت الحرب اجتمعت قريش، فوضعت تلك الراية بيد الرئيس، وكان من رؤساء المشركين في حرب الإسلام عند ظهوره، قاد قريشاً وكنانة يوم أحد، ويوم الخندق لقتال رسول الله ﷺ، أسلم يوم الفتح، وقصة إسلامه يوم الفتح مشهورة كما جاء في حديث العباس بن عبدالمطلب أنه أتى به وقد أردفه خلفه يوم الفتح إلى رسول الله ﷺ وسأله أن يؤمنه... فشهد وأسلم، ثم سأل له العباس رسول الله ﷺ -أن يؤمن من دخل داره، وقال إنه رجل يحب الفخر والذكر فأسعفه رسول الله ﷺ في ذلك، وقال ((من

---

(١) عند البخاري زيادة: (والزكاة).

(٢) أخرجه البخاري (٧) واللفظ له، ومسلم (١٧٧٣/٧٤).

دخل دار أبي سفيان فهو آمن...))[(١)] فأبو سفيان نال شرف الصحبة وقبلها شرف المصاهرة، وغفر الله ما كان منه، والله يغفر لمن يشاء وهو أرحم الراحمين.

شهد حنيناً، وأعطاه النبي ﷺ من غنائمها مائة بعير، وأربعين أوقية وَزَنها له بلال، وأعطى ابنيه يزيد ومعاوية، وفقئت عين أبي سفيان يوم الطائف فلم يزل أعور حتى فقئت عينه الأخرى يوم اليرموك، أصابها حجر فشدخها فَعمِيَ، وكان في المعركة ذاتها يقف على الكراديس[(٢)] فيقول للناس: الله الله فإنكم دارة العرب وأنصار الإسلام، وإنهم دارة الروم وأنصار المشركين، اللهم هذا يوم من أيامك، اللهم أنزل نصرك على عبادك.

قال الذهبي: (وشهد قتال الطائف فقلعت عينه حينئذٍ ثم قلعت الأخرى يوم اليرموك، وكان يومئذٍ قد حسن إن شاء الله إيمانه، فإنه كان يومئذ يحرِّض على الجهاد ... فإن صحَّ هذا عنه فإنه يغبط بذلك، ولا ريب أن حديثه عن هرقل وكتاب النبي ﷺ يدل على إيمانه، ولله الحمد).

وكان عمر يحترمه وذلك لأنه كان كبير بني أمية.

أما عن صفاته الخَلْقية: فكان رَبْعة دَحْدَاحاً[(٣)] ذا هامة عظيمة.

مات سنة (٣١) وقيل (٣٢)، وقيل (٣٣)، وقيل (٣٤)، في خلافة عثمان بن عفان، وصلى عليه ابنه معاوية، وقيل: بل صلى عليه عثمان بموضع الجنائز، ودفن بالبقيع، مع بقية صحابة رسول الله ﷺ، وهو ابن (٨٨) سنة وقيل (٩٣) سنة[(٤)].

---

(١) أخرجه الطبراني ٧٢٦٤، والبيهقي في الدلائل ٣٢/٥، وسنده حسن، فإن فيه ابن إسحاق وقد صرّح بالتحديث، وقوله ﷺ: "من دخل دار أبي سفيان فهو آمن" أخرجه مسلم ١٧٨٠.

(٢) الكراديس: واحدتها: الكردوسة: وهي الطائف العظيمة من الخيل والجيش، الوسيط في (ك ر د س).

(٣) الدحداح هو القصير السمين، انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير لابن الأثير ص (٢٩٨). والرجل والمرأة "الربعة" وسيط القامة، الوجيز في (ر ب ع).

(٤) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر ٨١٣، ٨١٤، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير ٩/٣، ١٠، ١٤٤/٦، ١٤٥، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ٦٠٣، وسير أعلام النبوة ١٠٥/٢-١٠٧، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي ٤٤٢/٣، ٤٤٣، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٢٠٤/٢، ٢٠٥، والأعلام، خير الدين الزركلي ٢٠١/٣، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك ١٠٤٣/٢-١٠٤٦.

غريب الألفاظ:

هرقل: ملك الروم وهرقل اسمه ... ولقبه: قيصر، كما يُلقب ملك الفرس: كسرى[١].

العفاف: الكف عما لا يحل ولا يجمل من قول أو فعل[٢].

الصلة: صلة الأرحام وكل ما أمر الله به أن يوصل[٣].

الشرح الأدبي

إن مشاهد السيرة النبوية العطرة تتوالى أطيافها، وتتماوج ألوانها، وتدعونا دائماً إلى التأمل والتفكر والتدبر، وهذا الحديث الشريف مشهد مقنع ومؤثر له ظلاله الندية، وإشعاعاتُه الوضيئة، وله إيقاعه الخاص والمؤثر في النفس والقلب والعقل والروح، لماذا؟ لأن كلماته مروية عن رسول الله ومنقولة عنه على لسان أبي سفيان وهو حين نقل هذه التعاليم النبوية لم يكن مسلماً، ولكنه كان مشركاً، وكان من أشد المعارضين للإسلام، حيث أراد في العام السادس من الهجرة المباركة أن يوضح لهرقل قيصر الروم المبادئ التي يدعو إليها محمد النبي عليه الصلاة والسلام، وذلك حين كتب الرسول ﷺ، إلى هرقل يدعوه للإسلام، فأرسل هرقل إلى أبي سفيان، يسأله عن التعاليم التي يدعو إليها محمد، ولذلك يجيء الحديث في صياغة "الحكاية" وهو جزء من حديث طويل في قصة "هرقل"، يقول أبو سفيان وهو يحكي مشهداً من مشاهد السيرة العطرة: "قال: هرقل: فماذا يأمركم؟" ولم يقل: فماذا يقول لكم؟ وذلك لأن هرقل يعرف أن كلام الأنبياء أمر واجب التنفيذ، ولذلك نراه يرغب في دخول الإسلام لولا معارضة قومه لذلك كما جاء في هذا الحديث الطويل، ويحكي أبو سفيان في صيغة الفعل الماضي قائلاً: "قلت: يقول" وذلك للدلالة على أن هذا الحوار كان في وقت مضى، ورواه أبو سفيان بعد إسلامه للتدليل على صدق النبي محمد فيما يقول، وكذلك للتدليل على أن أباسفيان لم يكن على حق وهو يعارض النبي ﷺ ويحاربه

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٤٤/١ وانظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٤٢.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٤٣اَ، والوسيط في (ع ف ف).

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٤٣.

حتى أسلم يوم فتح مكة. وفي التعبير بقوله: "قلت: يقول" إيحاء أيضاً بعدم اقتناع أبي سفيان وقتها بكلام النبي ﷺ ولكنه أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه. وقدّم أبو سفيان الأمر بعبادة الله وحده، وعدم الإشراك به؛ لأن هذا الأمر هو أساس عقيدة الإسلام، وهذا ما يرفضه وقتها أبو سفيان، وكان يظن أن هرقل سيوافقه على هذا الرفض، ولذلك عطف على هذه الجملة جملة أخرى تفيد رفضه للتوحيد وسخريته منه حين قال: "واتركوا ما يقول آباؤكم" والتعبير بقوله: "ما يقول" فيه إشارة وإيحاء بأن النبي ﷺ يرغب المشركين في الإسلام، وأن عبادتهم مجرد أقوال مزعومة من الآباء، ولا يجوز أن يظل الأبناء أسرى هذه المزاعم وتلك الأقاويل، ثم قال أبو سفيان: "ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة" والصلاة من أسس الإسلام، ولذلك جاء بعد قوله: "أعبدوا الله" والصدق والعفاف والصلة من أقوى المظاهر الخلقية التي تقوي الصلات بين أفراد المجتمع، وتصلح ما اعوج من السلوك الإنساني".

فقه الحديث

جاء في الحديث الأمر بالصلاة والصدق والعفاف والصلة:

- أ- الصلاة: وقد اتفق الفقهاء[1] على أن الصلاة فرض عين على كل مسلم ومسلمة متى كان بالغًا عاقلاً ولا تسقط إلا بالموت فقط.
- ب- الصدق في الحديث: ذكر الفقهاء[2] أن الصدق واجب وأن الأصل في

---

(١) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني ٨٩/١، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٢٥٦/١، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن المغربي ٣٧٨/١، وشرح منح الجليل على مختصر خليل، الشيخ محمد بن أحمد بن محمد عليش ١٧٧/١، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، الشربيني ٣١٢/١، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، شمس الدين الرملي ٣٨٧/١ وما بعدها، وشرح منتهى الإرادات ١٢٥/١، وكشاف القناع، البهوتي ٢٢١/١.

(٢) المبسوط، السرخسي ١٤٥/١٦، تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، الزيلعي ٢٤١/٤، المنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد الباجي الباجي ٣١٣/٧، وحاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني، العدوي ٤١٢/٢، وأنوار البروق، القرافي ٨/٤، وأدب الدنيا والدين، الماوردي ص ٢٦١، والزواجر عن اقتراف الكبائر، أبو العباس أحمد بن محمد الهيتمي ٣٢٢/٢، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين عبدالرحيم بن الحسن ٢١٤/٧، والآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ١١/١، ١٩، وغذاء الألباب شرح منظومة الآداب، الإسفراييني ١٣٤/١، وإعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم ٩٣/١، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٠٥/٣٤.

الكذب أنه حرام، ومع ذلك قد يكون الكذب مباحًا أو واجبًا، فالكلام وسيلة إلى المقصود، وكل مقصود محمود يمكن تحصيله بغير الكذب يحرم الكذب فيه، فإن لم يمكن تحصيله بغير الكذب جاز الكذب فيه.

- ج- العفاف: (عن الأطماع وسؤال الناس): يحرص الإسلام على حفظ كرامة الإنسان وصونه عن الابتذال، فيحرم السؤال على من يملك ما يغنيه عن السؤال من مالٍ أو قدرة على التكسب، أما من كان محتاجًا إلى الصدقة وممن يستحقونها لفقر أو زمانة أو عجز عن الكسب، فيجوز له السؤال بقدر الحاجة بشروط(١).
- د- صلة الأرحام: وقد ذكر الفقهاء(٢) أنه يستحب استحبابًا متأكدًا صلة الأرحام سواء كانت قريبة أم بعيدة، ونقل البعض (٣) الإجماع على وجوبها.

المضامين الدعوية

أولاً: من أصناف المدعوين: غير المسلمين.

ثانياً: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: توحيد الله تعالى وعدم الإشراك به.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: بيان أهمية الصلاة والالتزام بالأخلاق الحميدة.

خامساً: من فقه الداعية: ترتيب الأولويات.

أولاً- من أصناف المدعوين: غير المسلمين:

(إن دعوة غير المسلمين إلى الإسلام وترغيبهم في الدخول فيه من أوجب الواجبات ومن أسباب خيرية هذه الأمة، ومن أسباب الفلاح في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾(٤) وقال

---

(١) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٦٤/٣٠.

(٢) انظر: المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢٤٤/٦، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٨٦/٧، ١١٨/١٧.

(٣) انظر: كتب ورسائل ابن تيمية في الفقه، شيخ الإسلام ابن تيمية١٨٦/٢٩، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد النفراوي المالكي ٢٩٣/٢.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١١٠.

تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[1])[2].

(فدعوة غير المسلمين إلى الإسلام، واجب إسلامي يجدر بالعاملين في الحقل الإسلامي أن ينهضوا به ويولوه حقه من جهدهم وتفكيرهم ووقتهم. بل إن هذا الواجب بالذات هو المهمة الأصيلة الأساسية لكل داعية)[3]، وقد تميزت الدعوة الإسلامية بأنها دعوة عالمية؛ ومما يؤكد ذلك (أن في القرآن الكريم من دعوة أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ومن دعوة المشركين وعباد الأوثان، وجميع الإنس والجن؛ ما لا يحصى إلا بكلفة، وهذا كله معلوم بالاضطرار من دين الإسلام)[4] وقد دعا النبي ﷺ ملوك الأرض في زمانه، كملك فارس كسرى، وملك الروم هرقل، كما هو منصوص عليه في الحديث.

(فحري بالدعاة إلى الإسلام أن يبذلوا جهودهم في ذلك، وألا يكونوا على هامش الدعوة. فكثير من دعاة الإسلام في هذا العصر غير متفهمين تماماً لطبيعة الأهداف التي يعملون لها، ولا بعد الطريق التي يسيرون فيها، ولحقيقة المتطلبات التي يحتاجها العمل الإسلامي من حياتهم ووقتهم وتفكيرهم، ومن أنفسهم وأموالهم. وهذا ما يجعلهم في كثير من الأحيان أمثلة غير حسنة لما يدعون الناس إليه، ونماذج غير صالحة لما يأمرون الناس به. وبالتالي يجعلهم في حياة الحركة الإسلامية عبئاً ثقيلاً، وأوزاراً تعيق سيرها وتحول دون انطلاقها.

إن فريقاً من هؤلاء يظنون أن تكاليف العمل الإسلامي تسقط عن كواهلهم إذا هم أصدروا كتاباً، أو كتبوا مقالاً، أو ألقوا محاضرة. وآخرين يعتقدون أن مجرد انتسابهم إلى حركة إسلامية وحضورهم اجتماعاتها، ودورانهم في فلكها هو غاية الغايات ومنتهى الأمنيات.

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٠٤.

(٢) دعوة غير المسلمين إلى الإسلام، د. عبدالله بن إبراهيم اللحيدان، ص ٥.

(٣) انظر: كيف ندعو إلى الإسلام، فتحي يكن ص ١٤.

(٤) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ابن تيمية، ١/٢٣٦-٢٣٧.

إن هؤلاء وأولئك -لا شك- يعيشون على هامش العمل الإسلامي، ولم يدخلوا في الواقع ميدانه الأصيل أو يعيشوا أجواءه الحقيقية.

إن المفهوم الصحيح لتكاليف العمل الإسلامي ينبغي أن يرسخ في أذهان العاملين أنهم مدعوون لتقديم مصلحة الإسلام على كل مصلحة، ومن مصلحة الإسلام نشره وتبليغه لغير المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها وبيان حاجة الناس إليه)[١].

(وإذا قلنا: إن الناس بحاجة إلى الدين، وإلى الدعوة الدينية، فإنما نعني الإسلام، لا أي تدين مبهم... فالعالم محتاج إلى أن يعرف الله كما عرَّف نفسه إلى عباده في القرآن الكريم. فإن صور الوجود الإلهي بلغت في أسلوب القرآن قمة لم يبلغها كتاب آخر. والنفس الإنسانية لا تدرك أطرافاً في الكمال الأعلى يغرس في أعماقها أروع العقائد، وأرسخ الإيمان إلا إذا اتصلت بهذا القرآن، واستمعت إليه وفتحت أنظارها لهديه.

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾[٢].

والعالم بحاجة إلى أن يعرف "محمداً" ﷺ وأن يدرس سيرته دراسة بعيدة عن الافتراء والتزيد، ليأخذ من الإحاطة بهذه السيرة أمجد درس فيما تستطيع المواهب البشرية بلوغه من خير وفضل وجلالة وسناء.

وسيعرف كل دارس لحقيقة هذا الإنسان الكبير أن المثل التي ذكرها أصحاب النظريات الخلقية العليا قد تجسدت في هذا الرجل واستحالت سنناً وضيئاً هادياً يثير الحب والإعزاز والاقتداء.

العالم محتاج إلى أن يدرك جملة الحقائق التي جاء بها الإسلام من عقائد وعبادات وأخلاق ومعاملات. فإن هذه الحقائق هداية نافعة له، والعمل بها -مجتمعة- يحصل

(١) انظر: كيف ندعو إلى الإسلام، فتحي يكن ١١-١٢.

(٢) سورة الرعد، آية: ٣٠.

خيراً جزيلاً وينفي شراً كثيراً)[١].

ثانياً- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

قد ورد هذا الأسلوب الدعوي في الحديث من استفهام هرقل وسؤاله عن دعوة النبي ﷺ وما أمر به، وذلك في قول الراوي: "قال هرقل: فماذا يأمركم -يعني النبي ﷺ، أما الجواب فقد ورد في الحديث من قول أبي سفيان بن حرب: "يقول: اعبدوا الله وحده لا تشركوا به شيئاً... "، ومما لاشك فيه أن السؤال والاستفهام عما أشكل والجواب عنه طريق لمعرفة الحق، فضلاً عن استحضار الأذهان لتلقف المعرفة مما يزيد في بيانها وإيضاحها وفي ذلك عظيم الفائدة.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: توحيد الله تعالى وعدم الإشراك به:

إن الإيمان بالله تعالى وتوحيده وعدم الإشراك به هو غاية بعثة الرسل عليهم السلام، لذا كان كل نبي يستفتح دعوته بقول: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾[٢]، وهذا ما أكده نص الحديث من قول أبي سفيان: يقول -أي النبي ﷺ- "اعبدوا الله وحده لا تشركوا به شيئاً".

ومما لا شك فيه (أن توحيد الله تعالى والإيمان به هو أهم أصول الإيمان، وأعظمها شأناً، وأعلاها قدراً، بل هو أصل أصول الإيمان، وأساس بنائه، وقوام أمره، وبقية الأصول متفرعة منه، راجعة إليه، مبنية عليه. والإيمان بالله عز وجل هو الإيمان بوحدانيته سبحانه في ربوبيته، وألوهيته، وأسمائه وصفاته، فهذه أصول ثلاثة يقوم عليها الإيمان بالله، بل إن الدين الإسلامي الحنيف إنما سمي توحيداً لأن مبناه على أن الله واحد في ملكه وأفعاله لا شريك له، وواحد في ذاته وأسمائه وصفاته لا نظير له، وواحد في ألوهيته وعبادته لا ندَّ له.

وبهذا يعلم أن توحيد الأنبياء والمرسلين ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

---

(١) مع الله: دراسات في الدعوة والدعاة، محمد الغزالي، ٢٥-٢٧.

(٢) سورة الأعراف: الآيات: (٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥).

القسم الأول: توحيد الربوبية، وهو الإقرار بأن الله تعالى ربُّ كل شيء ومليكه وخالقه ورازقه، وأنه المحيي المميت النافع الضار، المتفرد بالإجابة عند الاضطرار، الذي له الأمر كله، وبيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله، لا شريك له في ذلك.

القسم الثاني: توحيد الألوهية، وهو إفراد الله وحده بالذل له والخضوع والمحبة والخشوع والركوع والسجود والذبح والنذر، وسائر أنواع العبادة لا شريك له.

القسم الثالث: توحيد الأسماء والصفات، وهو إفراد الله تعالى بما سمى ووصف نفسه في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ وتنزيهه عن النقائص والعيوب ومماثلة الخلق فيما هو من خصائصه، والإقرار بأن الله بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنه الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، له المشيئة النافذة والحكمة البالغة، وأنه سميع بصير، رؤوف رحيم، على العرش استوى، وعلى الملك احتوى، وأنه الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، سبحانه الله عما يشركون، إلى غير ذلك من الأسماء الحسنى، والصفات العلا.

ولكل قسم من هذه الأقسام الثلاثة دلائل كثيرة من الكتاب والسنة.

فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم.

وهذه الأقسام الثلاثة للتوحيد قد أخذها أهل العلم بالاستقراء والتتبع لنصوص الكتاب والسنة، وهو استقراء تام لنصوص الشرع، أفاد هذه الحقيقة الشرعية، وهي أن التوحيد المطلوب من العباد هو الإيمان بوحدانية الله في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، فمن لم يأت بهذا جميعه فليس بمؤمن)[1].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: بيان أهمية الصلاة والالتزام بالأخلاق الحميدة:

هذا ما أكد عليه نص الحديث من قول أبي سفيان إخبارًا عن النبي ﷺ "ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة".

(فالصلاة عماد الدين، والفارق بين الكفار والمسلمين وشرط النجاة وحارسة

---

(١) كتاب أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، نخبة من العلماء، إعداد نخبة من العلماء، ٩-١٠.

الإيمان، وقد ذكرها الله تعالى من الأشراط الأساسية للهداية والتقوى، فقال: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[1] وقال: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾[2] وقد استثنى المحافظين على الصلوات من أصحاب الأخلاق الذميمة، وقال: ﴿ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾[3] وقال، وهو يذكر المؤمنين المفلحين: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾[4]، وقال وهو يحكي أهل النار: ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ قَالُوا۟ ۝٤٢ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴾[5] وقال عن المنافقين: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[6].

وهي فريضة دائمة مطلقة على عبد وحر، وغني وفقير، وصحيح ومريض، ومقيم ومسافر، لا تسقط عمّن بلغ الحلم في حال من الأحوال، بخلاف الصيام، والزكاة، والحج، الأركان الثلاثة التي وجبت بشروط وصفات، وفي أوقات معينة محدودة، حتى أُمر بها [أي الصلاة] في ساحة الحرب وميدان القتال، وشرعت صلاة الخوف، فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ۝١٠١ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ

---

(١) سورة البقرة، الآيات: ١-٣.

(٢) سورة الأعلى، الآيتان: ١٤-١٥.

(٣) سورة المعارج، الآيتان: ٢٢-٢٣.

(٤) سورة المؤمنون، آية: ٩.

(٥) سورة المدثر، آية: ٤٢.

(٦) سورة النساء، آية: ١٤٢.

لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾[1] وقال: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾[2].

ولا تسقط هذه الفريضة عن نبي مرسل، فضلاً عن صالح أو عارف، أو مجاهد، وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾[3] ومن رأى أنها تسقط عنه لفضل معرفته ووصوله إلى درجة اليقين و[المشاهدة] أو لحسن بلائه في الإسلام، أو لسوابقه ومآثره الكثيرة، فقدأتلف نفسه وعرَّضها للخطر الأكبر)[4].

وفي ذلك بيان لعظم أمر الصلاة كآكد أركان الإسلام بعد التوحيد بالله تعالى.

أما الصدق (فهو منزلة القوم الأعظم الذي منه تنشأ جميع منازل السالكين والطريق الأقوم الذي لمن لم يسر عليه فهو من المنقطعين الهالكين. وبه تميز أهل النفاق من أهل الإيمان، وسكان الجنان من أهل النيران، وهو سيف الله في أرضه الذي ما وُضع على شيء إلا قطعه، ولا واجه باطلاً إلا أراده وصرعه؛ من صال به لم ترد صولته، ومن نطق به علت على الخصوم كلمته؛ فهو روح الأعمال، ومحك الأحوال، والحامل

(١) سورة النساء، الآيات: ١٠١-١٠٣.

(٢) سورة البقرة، الآيتان: ٢٣٨-٢٣٩.

(٣) سورة الحجر، آية: ٩٩.

(٤) الأركان الأربعة، أبو الحسن الندوي، ٢٦-٢٧.

على اقتحام الأهوال، والباب الذي دخل منه الواصلون إلى حضرة ذي الجلال؛ وهو أساس بناء الدين، وعمود فسطاط اليقين، ودرجته تالية لدرجة "النبوة" التي هي أرفع درجات العالمين؛ ومن مساكنهم في الجنات تجري العيون والأنهار إلى مساكن الصديقين؛ كما كان من قلوبهم إلى قلوبهم في هذه الدار مددٌ متصل ومعين.

وقدأمر الله سبحانه أهل الإيمان أن يكونوا مع الصادقين، وخص المنعم عليهم بالنبيين والصديقين والشهداء والصالحين. فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾(١) وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾(٢) فهم الرفيق الأعلى ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ ولا يزال الله يمدهم بأنعمه وألطافه ومزيده وإحساناً منه وتوفيقاً؛ ولهم مرتبة المعية مع الله، فإن الله مع الصادقين، ولهم منزلة القرب منه؛ إذ درجتهم منه ثاني درجة النبيين.

وأخبر تعالى أن من صدَّقه فهو خير له، فقال: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾(٣).

وأخبر تعالى عن أهل البر، وأثنى عليهم بأحسن أعمالهم من الإيمان، والإسلام، والصدقة والصبر، بأنهم أهل الصدق فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ

(١) سورة التوبة، آية: ١١٩.

(٢) سورة النساء، آية: ٦٩.

(٣) سورة محمد، آية: ٢١.

وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ (١)، وهذا صريح في أن "الصدق" بالأعمال الظاهرة والباطنة، وأن "الصدق" هو مقام الإسلام والإيمان.

وقسم الله سبحانه الناس إلى صادق ومنافق. فقال: ﴿ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ ﴾ (٢).

والإيمان أساسه الصدق، والنفاق أساسه الكذب؛ فلا يجتمع كذب وإيمان إلا وأحدهما محارب للآخر.

وأخبر سبحانه أنه في يوم القيامة لا ينفع العبد وينجيه من عذابه إلا صدقه، قال تعالى: ﴿ هَـٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (٣)، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ (٤) فالذي جاء بالصدق هو من شأنه الصدق في قوله وعمله وحاله؛ فالصدق في هذه الثلاثة:

فالصدق في الأقوال: استواء اللسان على الأقوال، كاستواء السنبلة على ساقها.

والصدق في الأعمال: استواء الأفعال على الأمر والمتابعة، كاستواء الرأس على الجسد.

والصدق في الأحوال: استواء أعمال القلب والجوارح على الإخلاص، واستفراغ الوسع، وبذل الطاقة. فبذلك يكون العبد من الذين جاءوا بالصدق)(٥).

هذا عن الصدق، أما عن العفاف (فهو الكف عما لا يحل ولا يجمل، يقال: عف الرجل: إذا امتنع عن المحارم والأطماع الدنيئة)(٦)، (والعفة من ثمرات الأديان ونتاج

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٧٧.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٢٤.

(٣) سورة المائدة، آية: ١١٩.

(٤) سورة الزمر، آية: ٣٣.

(٥) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٣/٥-٨.

(٦) انظر: الكليات معجم المصطلحات والفروق الفردية، أبو البقاء الكفوي ٦٥٦، ولسان العرب، ابن منظور في (ع ف ف).

الإيمان، وهي دليل كمال النفس وعزها، وهي من أركان المروءة التي ينال بها الحمد والشرف، فبالتخلق بها تحفظ الأعراض وتصان العورات في الدنيا، وتحصل لذة النعيم في الآخرة)[١].

قال الماوردي: (والعفة نوعان: أحدهما العفة عن المحارم، والثاني العفة عن المآثم، فأما العفة عن المحارم، فنوعان: أحدهما ضبط الفرج عن الحرام، والثاني كفُّ اللسان عن الأعراض، فأما ضبط الفرج عن الحرام فلأن عدمه مع وعيد الشرع وزاجر العقل معرَّةٌ فاضحة، وهتكةٌ واضحة...، وأما كف اللسان عن الأعراض؛ فلأن عدمه ملاذُ السفهاء وانتقام أهل الغوغاء، وهو مستسهل الكف، وإذا لم يقهر نفسه عنه برادع كافٍ، وزاجر صادٍ، تلبط بمعاره، وتخبط بمضارة...، وأما العفة عن المآثم فنوعان أيضاً أحدهما: الكف عن المجاهرة بالظلم، والثاني: زجر النفس عن الإسرار بخيانة. فأما المجاهرة بالظلم فعُتُوٌّ مهلك وطغيان مُتْلِفٌ، ويؤول إن استمر إلى فتنة تحيط في الغالب بصاحبها فلا تنكشف إلا وهو بها مصروعٌ.

وأما الإسرار بالخيانة فَضَعَة لأنه بذلّ الخيانة مَهِين، ولقلة الثقة به مستكين. وقيل في منثور الحكم: من يخُنْ يَهُنْ...، هذا ولا يجعل ما يتظاهر به من الأمانة زوراً، ولا ما يبديه من العفة غروراً، فينتهك الزور، وينكشف الغرور، فيكون مع هتكه للتدليس أقبحُ ولمعرَّة الرياء أفضح)[٢].

فالدعوة إلى العفة أمر عظيم، وبها يكون الكمال في الدين، قال محمد بن الحنفية (الكمال في ثلاثة: العفة في الدين، والصبر على النوائب، وحسن التدبير في المعيشة)[٣].

ومن الأخلاق الحميدة التي أمر بها النبي ﷺ صلة الأرحام، وفي ذلك قول الحق

---

(١) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد ٢٨٨٨/٧.

(٢) أدب الدنيا والدين، الماوردي ٣٠٩-٣١٢. ومعنى تلبط: التصق، وَضَعَه: حقارة.

(٣) المرجع السابق ٣١٧.

تبارك وتعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ﴾[(١)] وقد بيّن النبي ﷺ فضل ذلك فقال ((مَن سَرَّهُ أن يُبسَطَ لهُ في رِزقهِ أو يُنْسَأَ لهُ في أثَرِهِ فليَصِل رحِمَه))[(٢)] وعظّم النبي ﷺ مخالفة ذلك فقال: ((لا يدخل الجنة قاطع))[(٣)] أي قاطع رحم (والصلة هي صلة الأرحام، وهي كناية إلى الإحسان إلى الأقربين من ذوي النسب والأصهار والتعفف عليهم والرفق بهم والرعاية لأحوالهم وكذلك إن بعدوا وأساءوا، وقطع الرحم قطع ذلك كله ... فكأنه بالإحسان إليهم قد وصل ما بينه وبينهم من علاقة القرابة والصهر)[(٤)].

وفي الدعوة إلى هذه الأخلاق الحميدة بيان لقول النبي ﷺ ((إنّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ))[(٥)].

خامساً- من فقه الداعية ترتيب الأولويات:

هذا يظهر في الحديث في دعوة النبي ﷺ إلى التوحيد أولاً بقوله "اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً" ثم دعوته ﷺ إلى الصلاة، والصدق والعفاف والصلة، فلا شك أن التوحيد هو أصل أصول الإيمان، لذا قدّم في الدعوة إليه، وكان هو المطلوب الأول من المدعوين ثم بعد ذلك يأمرون بمقتضيات هذا التوحيد من عبادات كالصلاة والزكاة ونحوهما، ومن أخلاق كالصدق والعفاف وصلة الأرحام، ومما هو جدير بالذكر أن صياغة الحديث تشير إلى هذا الترتيب، قال ابن حجر: (وفي قوله" يأمرنا" بعد قوله "يقول اعبدوا الله ..."، إشارة إلى أن المغايرة بين الأمرين لما يترتب على مخالفهما، إذ مخالف الأول كافر، والثاني ممن قبل الأول، عاصٍ)[(٦)] ومما يؤكد

---

(١) سورة النساء: آية ١.

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٨٥).

(٣) أخرجه البخاري (٥٩٨٤)، ومسلم (٢٥٥٦).

(٤) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، العيني ٨١/٢٢.

(٥) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٢٧٣) وصححه الألباني في الصحيحة رقم (٤٥) ص (١١٢).

(٦) فتح الباري، ابن حجر ٢٦٩/٢.

صحة استنباطنا قول النبي ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه عندما أرسله إلى اليمن ((إنكَ تَقْدَمُ على قومٍ أهلِ كتابٍ، فلْيكُنْ أولَ ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله تعالى، فإذا عَرفوا اللهَ فأخبرهم: أنَّ اللهَ فرضَ عليهم خمس صلواتٍ في يومِهم وليلتَهم))[1]. وقد أشار النووي إلى ذلك بقوله: (إن النبي ﷺ رتب ذلك في الدعاء إلى الإسلام وبدأ بالأهم فالأهم)[2]، فدل ذلك على أهمية ترتيب الأولويات في الدعوة والتعليم.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٧٣)، ومسلم (١٩).

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٩٧.

الحديث رقم (٥٧)

٥٧- الرَّابِعُ: عَنْ أبي ثَابِتٍ، وقِيلَ: أبي سعيدٍ، وقِيلَ: أبي الْوَلِيدِ، سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ، وَهُوَ بدرِيٌّ، رضي الله عنه، أَن النبيَّ ﷺ قال: **«مَنْ سَأَلَ اللَّهَ تعالَى الشَّهَادَة بِصِدْقٍ، بلَّغهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشُّهدَاء، وإِنْ مَاتَ عَلَى فِراشِهِ»** رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

سهل بن حُنيف: هو سهل بن حُنيف الأنصاري الأوسي العوفي، يُكْنى بأبي ثابت، ويقال أبو سعيد، ويقال أبو سعد، ويقال أبو عبدالله، ويقال أبو الوليد.

كان رضي الله عنه من السابقين الأولين، له صحبة ورواية، له في كتب الحديث (٤٠) حديثاً، شهد مع رسول الله ﷺ المشاهد كلها، فهو صحابي أنصاري بدريّ، ثبت مع رسول الله ﷺ يوم أحد، وكان بايعه يومئذ على الموت، فثبت معه حين انكشف الناس عنه، وجعل ينضح[2] يومئذ بالنبل عن رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ نَبِّلوا[3] سهلاً فإنه سهل[4]، كما أثنى رسول الله ﷺ على بسالته في القتال، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ((دخل عليٌّ بسيفه على فاطمة، وهي تغسل الدم عن وجه رسول الله ﷺ فقال خذيه فلقد أحسنت به القتال، فقال النبي ﷺ إن كنت قد أحسنت القتال اليوم فلقد أحسن سهل بن حُنيف وعاصم بن ثابت، والحارث بن الصِّمة، وأبو دُجانة))[5].

---

(١) برقم (١٩٠٩/١٥٧). أورده المنذري في ترغيبه (١٩٢٨).

(٢) ينضح أي يرمي، انظر: القاموس المحيط، مجد الدين بن يعقوب الفيروز آبادي والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ن ض ح).

(٣) نبِّلوا أي ناولوه النبل ليرمي، انظر: النهاي في (ن ب ل).

(٤) أخرجه الحاكم ٤٠٩/٣، ٥٧٨٨ عن عاصم بن عمر بن قتادة مرسلاً، وفي إسناده محمد بن عمر الواقدي، وهو متروك.

(٥) أخرجه الحاكم ٢٤/٣، ٤٣٦٥، ٤٣٦٦، و٤٠٩/٣-٤١٠، ٥٧٩١، ٥٧٩٢، وصححه الحاكم لكن نقل القول، أن المشهور من حديث ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن عكرمة مرسلاً.

آخى رسول الله ﷺ بينه وبين عليّ بن أبي طالب، وكان عمر يقول عنه: سهل غير حَزَنٍ. وكان رضي الله عنه من فقراء الأنصار.

وكان حسن الجسم والجلد، أبيض اللون، فعن أبي أمامة بن سهل بن حنيف أن أباه حدثه أن رسول الله ﷺ خرج وساروا معه نحو مكة حتى إذا كانوا بشعب الخَرَّار من الجحفة، اغتسل سهل بن حنيف، وكان رجلاً أبيض، حسن الجسم والجلد، فنظر إليه عامر بن ربيعة وهو يغتسل فقال: ما رأيت كاليوم ولا جلدَ مُخَبَّأةٍ[1]، فلُبِطَ[2] بسهل، فأُتي رسول الله ﷺ، فقيل له: يا رسول الله هل لك في سهل، والله ما يرفع رأسه وما يُفِيقُ، قال: هل تتهمون فيه من أحد؟ قالوا: نظر إليه عامر بن ربيعة، فدعا رسول الله ﷺ عامراً فتغيَّظ عليه، وقال: علام يقتلُ أحدكم أخاه؟ هلا إذا رأيت ما يُعْجِبُك برّكت[3]؟ ثم قال له: اغتسل له فغسل وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه وداخلة إزاره[4] في قدح، ثم صُبَّ ذلك الماءُ عليه يصبه رجل على رأسه وظهره من خلفه، ثم يكفئ[5] القدح وراءه ففعل به ذلك فراح سهل مع الناس ليس به بأس))[6].

صحب عليّ بن أبي طالب حين بويع بالخلافة، واستخلفه عليّ على المدينة حين خرج إلى البصرة، ثم شهد مع عليّ صفين، كما ولاه عليّ أيضاً على فارس.

مات سهل بن حنيف بالكوفة سنة ٣٨، وصلى عليه عليٌّ وكبر عليه خمساً وقيل ستاً فكأن البعض أنكر ذلك فبين عليٌّ لهم فضله قائلاً هذا سهل بن حنيف، من أهل

---

(١) الجارية التي في خدرها لم تتزوج بعد، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (خ ب أ).

(٢) لُبِطَ أي صُرِعَ وسقط إلى الأرض، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ل ب ط).

(٣) أي: دعوت بالبركة حاشية السندي على مسند أحمد ٢٥/٣٥٨.

(٤) داخلة إزاره: قيل هو الفرج، وقيل: ما يلي البدن من الإزار، حاشية السندي ٢٥/٣٥٨.

(٥) يكفئ: أي: يقلب، المرجع السابق، الموضع نفسه.

(٦) أخرجه أحمد ٣/٤٨٦ رقم ١٥٩٨٠ واللفظ له، وابن ماجه ٣٥٠٩، وقال محققو المسند: حديث صحيح ٢٥/٣٥٥-٣٣٦.

بدر، ولأهل بدر فضل على غيرهم فأردت أن أُعْلِمَكُم فضلهم[1].

الشرح الأدبي

ما أجمل الصدق في حياة الإنسان؛ وما أعظم دوره في الارتقاء بعاطفة الإنسان ومداركه إلى الدرجات العلى؛ فالصدق إيقاع القلوب المؤمنة، والصدق وسام في جبين الصالحين، والصدق نور في وجوه العارفين، والصدق من شيم الشهداء الأبرار الذين أقبلوا على ساحات الجهاد ملبين نداء القوي القهار، العزيز الغفار، وهم يدافعون عن ديار الإسلام ويحمون حرمات المسلمين؛ لذا كان دمهم يوم القيامة عنوان قبولهم، وفي الدنيا عرس حياتهم.

ويكمن سر اختيار صاحب رياض الصالحين لهذا الحديث في باب الصدق في هذا التوجه القلبي الصادق لكل من صدقت نيته وصحت عزيمته وقويت إرادته وهو ينهض لنصرة الإسلام والمسلمين، ويثب في قوة وشجاعة إلى إحدى الحسنيين إما النصر وإما الشهادة.

وكلمات الحديث الشريف مصابيح من نور الهداية، وهى -في إيجازها- تتسع لكثير من الدلالات، وتعلن في صدق وترغيب أن صدق القلب سبب لبلوغ الأرب، وأن من نوى شيئاً من عمل البر أثيب عليه وإن لم يتفق له عمله[2].

والحديث في بنائه اللغوي يتكون من جملة واحدة شرطية تتكون من أداة الشرط وفعل الشرط وجواب الشرط، فالجزاء من جنس العمل، والمقدمة الصحيحة تؤدي إلى النتيجة الصحيحة، والحديث قاعدة عامة تفتح الباب للملايين من أمة الإسلام في كل

---

(١) الطبقات، ابن سعد لابن سعد (٤٧١/٣-٤٧٣)، (١٥/٦)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر (٣٠٧)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير (٥٧٢/٢، ٥٧٣)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني (٥٤٧، ٥٤٨)، وسير أعلام النبلاء، الذهبي (٣٢٥/٢-٣٢٩)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي (٣٢٣/٣، ٣٢٤)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (١٢٣/٢)، والأعلام، خير الدين الزركلي (١٤٢/٣)، وعظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك (٩٦٧/٢، ٩٦٨).

(٢) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١٧٨/١ .

زمان وفي كل مكان للمشاركة في حماية العقيدة الإسلامية، والحفاظ على حرمات الإسلام.

ولذلك جاء فعل الشرط: "سأل الله تعالى الشهادة"، فهي أمنية ورجاء ومطلب ضروري والتعبير بالفعل، "سأل" أقوى وأكثر إيحاءً وصدقاً، وهو دليل على إخلاص النية وسلامة القصد، وهو غير الفعل، طلب أو أراد، وكلمة "الشهادة" وردت معرفة بأل للتدليل على علميتها وعلى أنها مضمونة الثواب متحققة الجزاء والرجاء. وتقييد السؤال بكلمة "بصدق" للتفرقة بين الذي يطلب أو يرجو وهو غير صادق أو وهو خائف أو من أجل الغنيمة فقط، وجواب الشرط تفصح كلماته، عن المكنون من الجزاء الأوفى لذلك الذي خلصت نيته، وصحت عزيمته، والتعبير بقوله: "بَلَّغَه" أفصح وأقوى في الدلالة من أعطاه أو أثابه. وذلك لأن منازل الشهداء عالية ولا يصل إليها إلا الذين صدقوا ماعاهدوا الله عليه، ولذلك قال: "منازل": ولم يقل: "منزلة"، ويقول رسول الله ﷺ، "والذي نفس محمد بيده ما شحب وجه ولا اغبرت قدم في عمل تبتغي به درجات الجنة بعد الصلاة المفروضة، كالجهاد في سبيل الله، ولا ثقل ميزان عبد كدابة تنفق له في سبيل الله أو يحمل عليها في سبيل الله)[1] وذروة سنام هذا الأمر، أي الدين، الجهاد في سبيل الله.

فقه الحديث

قال النووي: (فيه استحباب سؤال الشهادة واستحباب سؤال الخير)[2].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده مطولاً، ٢٤٦/٥ رقم ٢٢١٢٢، وقال محققو المسند: صحيح بطرقه وشواهده دون قوله: "ما شحب وجه...إلخ" فإنه حسن لغيره.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٤٨/١٣.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل صدق النية.

ثانياً: من أساليب الدعوة: الترغيب.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: استحباب سؤال الشهادة في سبيل الله.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: عظيم فضل الله على عباده.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل صدق النية:

لقد أخبر النبي ﷺ عن جزاء من سأل الشهادة وكان في ذلك صادقًا، أن الله يبلغه منازل الشهداء ولو مات على فراشه، فقد "أفاد هذا الحديث ثمرة النية الصادقة، وأن من نوى شيئًا من أعمال البرّ أثابه الله عليه ولو قصرت النية عن العمل، والنية الصادقة هي التي لا يشوبها عَرض من أعراض الدنيا ولم يصبها التردد والضعف في العزيمة على الوفاء بها. ومثل هذا الحديث ما رواه مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((من طلب الشهادة صادقًا أعطيها ولو لم تصبه))[1][2] قال النووي: (ومعناهما جميعًا أنه إذا سأل الشهادة بصدق أعطى من ثواب الشهداء وإن كان على فراشه، وفيه استحباب سؤال الشهادة واستحباب نية الخير)[3] ولعل ما يفسر فضل صادق النية في الخير ومن أعلاه الشهادة، لعل ما يفسر ذلك أنه يكون ليل نهار مشغولاً بهذا الخير يقترب منه كل يوم خطوة بل خطوات، ويدفعه هذا إلى بذل ما في وسعه وطاقته إلى الوصول إليه فهو ينتقل من خير إلى خير.

ثانياً- من أساليب الدعوة: الترغيب:

(إن الترغيب من الأساليب الدعوية الهامة التي ينبغي للداعية أن يسلكها في إرشاد المدعوين وحملهم على التشمير عن ساعد الجد في طاعة الله تعالى لنيل السعادة في

---

(١) أخرجه مسلم ١٩٠٨، ١٥٦.

(٢) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، عبدالعزيز بن ناصر الجليل ١/٢٩٦.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢٢١.

الدنيا والآخرة)[١]، وهذا ما ورد في الحديث من ترغيبه ﷺ في سؤال الله تعالى الشهادة بصدق لما في ذلك من نيل منزلتها ولو مات المرء على فراشه.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: استحباب سؤال الشهادة في سبيل الله:

قال النووي: عن هذا الحديث وغيره مما في معناه: (وفيه استحباب سؤال الشهادة)[٢] لأنه إما أن ينالها السائل في ساحات القتال والمعارك وإما أن ينالها في الآخرة فيكون مع الشهداء، وذلك بسبب صدقه في طلب الشهادة، والمسلم إذا سأل الله الشهادة في سبيله دلّ ذلك على صدقه في إيمانه وعلى تعلّقه بما يرضي الرب سبحانه وتعالى، وحبّه لما يحب ولو أدى ذلك إلى إتلاف نفسه وماله في سبيل نيل مرضاته، هذا إن قاتل وحارب وجاهد، وإلا فهو مستعدٌ لذلك في كل وقت وكل حين، يترقب أن تحين الفرصة لأن يعلن حبّه لله والمسارعة في مرضاته، وربما كان من المستحسن أن ننقل هنا كلمات نيّرة لابن القيم عن الجهاد، تبين حال المجاهد مع ربه، وهذا يصدق أيضًا على مَنْ يسال الشهادة بصدق، يقول ابن القيم: (وأما الجهاد فناهيك به من عبادة هي سنام العبادات وذروتها، وهو المحك والدليل المفرق بين المحبّ والمدعي، فالمحب قد بذل مهجته وماله لربه وإلهه؛ متقربًا إليه ببذل أعز ما بحضرته يودّ لو أن له بكلّ شعرة نفسًا يبذلها في حبه ومرضاته، ويود أن لو قُتل فيه ثم أحيي ثم قتل ثم أحيي ثم قتل، فهو يفدي بنفسه حبيبه ﷺ وعبده ﷺ ورسوله ﷺ، ولسان حاله يقول:

يَفْديكَ بالنَّفْسِ صبٌّ لَوْ يكونُ لَهُ   أعزَّ مِنْ نَفْسِهِ شيءٌ فَدَاكَ بهِ

فهو قد سلّم نفسه وماله لمشتريها وعلم أنه لا سبيل إلى أخذ السلعة إلا ببذل ثمنها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ﴾[٣] وإذا كان من المعلوم المستقرّ عند الخلق أن علامة المحبة

---

(١) انظر: هداية المرشدين، علي محفوظ ١٩٢.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢٢١.

(٣) سورة التوبة، آية: ١١١.

الصحيحة بذل الروح والمال في مرضات المحبوب، فالمحبوب الحق الذي لا تنبغي المحبة إلا له، وكل محبة سوى محبته فالمحبّة له باطلة، أولى بأن يشرع لعباده الجهاد الذي هو غاية ما يتقربون به إلى إلههم وربهم، وكانت قرابين مَنْ قبلهم من الأمم في ذبائحهم وقرابينهم تقديم أنفسهم للذبح في الله مولاهم الحق، فأي حسن يزيد على حسن هذه العبارة، ولهذا ادخرها الله لأكمل الأنبياء وأكمل الأمم عقلاً وتوحيدًا ومحبة لله)[١].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: عظيم فضل الله على عباده:

(إن الله عز وجل هو أكرم الأكرمين لا يوازيه كريم، ولا يعادله نظير، يبتدئ بالنعمة من غير استحقاق، ويتبرع بالإحسان من غير استثابة)[٢]، وليس أدل على ذلك من أنه تعالى يبلغ من سأله الشهادة بصدق منزلة الشهداء وإن مات على فراشه، فكرمه تعالى بعباده وفضله عليهم لا يحده حد ولا يقيد قيد، فهو الوهاب المتفضل بالعطايا والمنعم على عباده بما لا يلزمه، وليس أدل على ذلك من قوله ﷺ: ((مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ. وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا، كَتَبَهَا اللهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً))[٣] وقوله ﷺ: ((مَنْ أَتَى فِرَاشَهُ وَهُوَ يَنْوِي أَنْ يَقُومَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ فَغَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ حَتَّى أَصْبَحَ كُتِبَ لَهُ مَا نَوَى وَكَانَ نَوْمُهُ صَدَقَةً عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ))[٤] وفي ذلك دليل على عظيم فضل الله تعالى وعميم كرمه على عباده.

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، ابن القيم ٢/ ٤.

(٢) الأسماء والصفات، البيهقي، ١/ ١٠٠، ١٠٣.

(٣) أخرجه البخاري ٦٤٩١، ومسلم ١٣١.

(٤) أخرجه النسائي ١٧٨٨، وابن ماجه ١٣٤٤، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ١١٠٥).

الحديث رقم (٥٨)

٥٨- الخامِسُ: عَنْ أبي هُرَيْرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «غزا نَبيٌّ مِنَ الأَنْبياءِ صلواتُ الله وسلامُهُ عليهِمْ فقَالَ لقوْمِهِ: لا يتْبعْني رَجُلٌ ملَكَ بُضْعَ امْرَأَةٍ، وَهُوَ يُرِيدُ أن يَبْنِيَ بهَا وَلَمَّا يَبْنِ بها، ولا أحدٌ بنَى بيُوتاً لَمْ يرفَع سُقوفَهَا، ولا أحَدٌ اشْتَرى غَنَماً أَوْ خَلَفَاتٍ وهُو يَنْتَظرُ أوْلادَهَا. فَغزَا فَدنَا مِنَ الْقَرْيةِ صلاةَ الْعصْرِ أوْ قَريباً مِنْ ذلكَ، فَقَال للشَّمس: إنَّكِ مَأمُورةٌ وأنا مأمُورٌ، اللهمَّ احْبسْهَا علَينا، فَحُبستْ حَتَّى فَتَحَ اللهُ عليْهِ، فَجَمَعَ الْغَنَائِم، فَجاءَتْ يَعْنِي النَّارَ لتَأكُلهَا فَلَمْ تطْعمْهَا، فقال: إنَّ فِيكُمْ غُلُولاً، فليبايعنِي منْ كُلِّ قبيلَةٍ رجُلٌ، فلزقتْ يدُ رَجُلٍ بيدِهِ فَقَالَ: فِيكُم الْغُلولُ، فليبايعنِي قبيلَتُك، فلزقَتْ يدُ رجُلينِ أو ثلاثَةٍ بيَدِهِ فقَالَ: فِيكُمُ الْغُلُولُ، فَجاءوا برَأْسٍ مِثْلِ رَأْس بَقَرَةٍ مِنْ الذَّهبِ، فوضَعها فَجَاءَت النَّارُ فأَكَلَتها، ((فلمْ تَحل الْغَنَائِمُ لأحدٍ قَبلَنَا)) [1]، ثُمَّ أَحَلَّ اللَّهُ لَنا الغَنَائِمَ لَمَّا [2] رأَى ضَعفَنَا وعجزَنَا فأحلَّها لنَا» متفقٌ عليه[3].

«الخَلِفاتُ» بفتح الخاءِ المعجمة وكسرِ اللامِ: جمْعُ خَلِفَةٍ، وهِي النَّاقَةُ الحاملُ[4].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

بُضْع امرأة: البضع يطلق على عقد النكاح والجماع والفرج والمعاني الثلاثة لائقة هنا[5].

---

(١) هذه الزيادة ليست عند البخاري، وإنما عند مسلم.

(٢) لفظ البخاري: (ثم).

(٣) أخرجه البخاري (٣١٢٤) واللفظ له، ومسلم (١٧٤٧/٣٢).

(٤) بنصه في الترغيب للمنذري (٣٧٠/٤).

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٧١، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٢١، وفتح الباري، ابن حجر ٢٥٦/٦.

ولمّا يبن بها: أي ولم يدخل عليها. والأصل في ذلك: أن الرجل كان إذا تزوج امرأة بنى عليها قُبة ليدخل بها فيها[1]، وفي رواية عند ابن حبان ٤٨٠٧: "لم يدخل بها".

خَلِفات: بفتح الخاء المعجمة وكسر اللام: جمع خلفة وهي الناقة الحامل[2].

غُلولاً: الغلول: الخيانة في المغنم والسرقة في الغنيمة قبل القسمة.

الشرح الأدبي

تتنوع أساليب البيان النبوي في تقديم الموعظة، وكشف سبل الهداية، والإبانة عن المقصود، ومن هذه الوسائل "القصة"، وهي من سبل التشويق والإقناع، والقصة في هذا الحديث الشريف مستمدة من الواقع، وأحداثها يمكن أن تتكرر في كثير من المواقف، والإشعاع الذي تتوهج به هذه القصة هو الصدق وعدم الخيانة، وصدق النية في الجهاد وعدم انشغال بال الإنسان بهمومه الخاصة التي تحول بينه وبين الإقدام والثبات في مواجهة الأعداء، في ميادين القتال.

ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف، ولنحدق في التكوينات الأسلوبية التي تحول الحقائق التاريخية إلى قطعة أدبية ناطقة بالجمال اللغوي والأدبي، تحمل طاقات نورانية من الهداية والتأثير والحكمة والموعظة الحسنة.

- وبداية الحديث تفصح عن جو القصة، وعن ثوبها الفني، فالفعل "غزا" يوضح أن القضية تتعلق بالجهاد والدفاع عن العقيدة، وعدم تحديد اسم النبي يرشد إلى أن الأمر ليس خاصاً بنبي ما، ولكنه قاعدة عامة، وأمر مشترك بين جميع الأنبياء: وهو ضرورة إخلاص النية في الجهاد، وعدم التعلق بشواغل الدنيا، من الأهل، والأموال، والممتلكات الخاصة، وقيل أن النبي هو يوشع بن نون عليه السلام.
- والأحداث في هذه القصة متتابعة متلاحقة، والعطف بالفاء في كل جمل

---

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٩١.

(٢) رياض الصالحين ٧١.

الحديث الشريف يؤكد ذلك حيث ترد الفاء العاطفة في الربط بين الجمل التي تكون في مجموعها أحداث هذه القصة، وفي نهاية الحديث يرد حرف العطف "ثم" ولكن في جملة مغايرة لما سبق، وهي التي توضح ما من الله به على أمة محمد ﷺ حيث أحلت لهم الغنائم، ولم تحل للأمم السابقة فحرف العطف "ثم" في قوله: "ثم أحل الله لنا الغنائم" يرشد إلى هذه الخصوصية التي جاءت بعد مضى زمان طويل من توالي الأمم وتعدد الأنبياء، فتأمل أخا الإسلام وافقه أسرار هذا البيان النبوي الكريم، وهذه الأسرار تكمن في الحروف والكلمات والجمل، وفي بنيان الحديث المتكامل كأنه البنيان المرصوص، والنسيج المتلائم المتلاحم في مبناه ومعناه.

والحديث في القسم الأول منه: تتسم عباراته بجمال التنظيم والتنسيق، وروعة الأداء. فالجمل الثلاث ترد في إطار "النهي" عن الانشغال بالأمور الذاتية الدنيوية في ساح الجهاد.

والسجع والتوازي في بناء الجمل يشكل إيقاعاً أسلوبياً مؤثراً مشوقاً فعلى الرغم من أن المظاهر السلوكية منهي عنها، ولكنها صيغت في أسلوب مؤثر مشوق حتى تكون الاستجابة سريعة، ولنتأمل نهايات هذه الجمل: لولما يبن بها، لم يرفع سقوفها، وهو ينتظر أولادها].

والأمور التي نهى عنها هذا النبي وهى كذلك منهي عنا في شريعتنا وفي دفاعنا عن ديننا: هي عدم الانشغال بالمرأة في الجهاد، وبخاصة في أول مراحل الارتباط وأول العهد بالزواج، وهذا جانب نفسي اجتماعي عميق لا يهمل البعد الاجتماعي، ولا البعد النفسي في مثل هذه الحالات.

وحتى ما يملكه الإنسان من متاع الحياة وفي ذروته: إعداد البيت الذي يسكنه، ولم يتمه، سيظل مشغولاً بهذا الهاجس: وهو في الجهاد، وربما يطمع في الغنائم وربما يؤديه ذلك إلى "الغلول" الذي سيق من أجله هذا الحديث، فالجهاد يحتاج إلى قلب فارغ من هموم الحياة، ممتلئ يعبير الإيمان، وسحائب الشجاعة والإقدام والرضوان.

وحتى ما يحرص عليه الإنسان من الأنغام وهي في حالة انتظار الولادة.. التي ترمز لاستمرار الرزق ومتاع الحياة، لا يترك المؤمن ذلك إلى الجهاد إذا كان سيظل متعلقاً بما تركه، والأمور الثلاثة تمثل أسس الحياة المادية وهى من مكونات القوة في دنيا الناس.

الزواج والاستقرار "ملك بضع امرأة"، وتشييد المسكن للسكن وإيواء الأبناء، وامتلاك الأموال التي تعن على مواصلة الحياة، ورمز إليهما الحديث بالغنم أو الخلفات.

وهذه الأسس لا يجب أن تحول بين الإنسان وبين الجهاد في سبيل الله وإنما في أوقات محددة تنتهي بزوال السبب، فالرجل عندما يبني بالمرأة ويستقر، والذي يرفع سقوف بيوته، وكذلك الذي يطمئن على أغنامه أو أمواله بصفة عامة. على هؤلاء أن يعودوا للجهاد، وأن يؤدوا واجبهم في الدفاع عن العقيدة وهم فارغو البال من شواغل الحياة الدنيا وعرضها الزائل ولا يقولون: شغلتنا أموالنا وأهلونا، ولا يقدمون أعذاراً واهية لتخلفهم عن الجهاد.

والتكرار من الظواهر الأسلوبية في هذا الحديث الشريف حتى يتنبه الغافلون، وحتى يزداد أولوا الألباب تبصرةً وتذكرةً وتفكراً وتدبراً ، والتكرار يتمثل في إعادة بعض الجمل أو الكلمات مثل قوله : [يريد أن يبني بها، ولما يبين بها]، وقوله: ولا أحد بنى، ولا أحد اشترى، [إنك مأمورة، وأنا مأمور].

والخطاب الذي يوجهه النبي للشمس: هو خطاب حقيقي: لأن الشمس مسخرة للإنسان بأمر الله سبحانه، وهى مثل كل الكائنات: تسبح بحمد ربها، ومظاهر الطبيعة في المنظور الإسلامي تستجيب لأمر الله والمساواة بين الشمس والإنسان في الأمر تجيء على سبيل المشاكلة: فجميع الكائنات مسخرة بأمر الله، غير أن أمر الجمادات أمر تسخير وتكوين، وأمر العقلاء تكليف، كما يقول العلماء.

وحبس الشمس من معجزات الأنبياء وكذلك استجابة الدعاء. وتأخير غروب الشمس بفضل الله سبحانه ترشد إلى أن الله ينصر من ينصره، ويقول: وكان حقاً علينا نصر المؤمنين.

- ومن المشاهد المعجزة في هذا الحديث: مشهد النار التي لم تطعم الغنائم.. وهى نار من السماء- كما تقول الروايات، وعدم التهام النار للغنائم علامة على عدم القبول، ويبرق الشعاع الأسنى في هذا الحديث وهو: "النهي عن الغلول"، أي الخيانة في المغنم، وأدرك هذا النبي أن بعض الذين شاركوا في الحرب قاموا بأخذ بعض الغنائم ، وهذا إعجاز أخرجنا الله به أنبياءه واكتشف النبي سر عدم القبول حتى رد هؤلاء الذين خانوا الأمانة ما أخذوه، وأكلته النار: وذلك رمز للقبول. وعلامة للصدق والنية الخالصة، والتوبة النصوح، وحل عقدة هذه القصة يبرق في الجملة الأخيرة التي توضح فضل الأمة الإسلامية وإكرام الله لها حيث أحل لها الغنائم، "ثم أحل الله لنا الغنائم": لما رأى ضعفنا وعجزنا فأحلها لنا": وهذا من خصوصيات أمة الإسلام.

فقه الحديث

يبين هذا الحديث أن الغنائم كانت محرمة على الأمم السابقة، ولا يحل لأحد أن يأخذ منها شيئاً، بل كانت تجمع فتجيء نار من السماء فتأكلها فيكون ذلك علامة على القبول وعدم الغلول[(١)]، ثم كان من رحمة الله بهذه الأمة وتفضيله لها أن أحل لها الغنائم، والغنيمة كما يقول الفقهاء هي اسم للمأخوذ من أهل الحرب على سبيل القهر والغلبة[(٢)]، وقد اتفق الفقهاء[(٣)] على مشروعية أخذ الغنائم وأنها تستحق لكل من حضر

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٢/١٢.

(٢) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني ١١٧/٧، والمغني، ابن قدامة ٣١٣/٦.

(٣) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني ١١٧/٧ وما بعدها، تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، الزيلعي ٢٤٨/٣، مواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن المغربي ٣٦٦/٣ وما بعدها، شرح منح الجليل على مختصر خليل، الشيخ محمد بن أحمد بن محمد عليش ١٨٠/٣ وما بعدها، نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، شمس الدين الرملي ١٤٣/٦ وما بعدها، مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، الشربيني ١٥٥/٤ وما بعدها، شرح منتهى الإرادات ٦٣٨/١ وما بعدها، المغني، ابن قدامة ٣١٣/٦ وما بعدها.

الوقعة وخرج لأجلها سواء باشر القتال أو عهد إليه برباط في مكان معين، فهو كمن يقاتل تماماً، لأن القتال لا يتم إلا بالرباط والتعاون، فكل من خرج للجهاد من المسلمين يستحق سهماً من الغنيمة التي يقوم الإمام بتقسيمها على الغانمين، ويجوز للإمام أن يرضخ للنساء والصبيان منها، وهي تقسم خمسة أخماس[1] أربعة أخماسها للغانمين وخمسها يصرف للفقراء والمساكين والمصالح العامة.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: مراعاة حال المدعوين وتهيئة نفوسهم للدعوة أولاً.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: الدعاء وفضل الالتجاء إلى الله.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: دلائل قدرة الله تعالى.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: بيان خصوصية النبي ﷺ وفضل هذه الأمة.

خامساً: من وسائل الدعوة: القصة.

أولاً- من موضوعات الدعوة: مراعاة حال المدعوين وتهيئة نفوسهم للدعوة أولاً:

إن من عوامل التأثير في المدعوين تهيئة نفوسهم ومراعاة أحوالهم وهذا ما ورد في الحديث من قوله ﷺ "فقال لقومه لا يتبعنٌ رجل ملك بضع امرأة وهو يريد أن يبني بها، ولا أحد بنى بيوتاً لم يرفع سقوفها ولا أحد اشترى غنماً أو خلفات وهو ينتظر أولادها.

وقد أمرالحق تبارك وتعالى بتهيئة نفوس المدعوين للدعوة فقال: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾[2] (فلا ضير من إعطاء

---

(١) شرح معاني الآثار ٢٧٦/٣، تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، الزيلعي ٢٤٨/٣، المدونة ٥٠٣/١، المنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد الباجي ١٧٨/٣، الأم، الإمام الشافعي ١٤٦/٤، الأحكام السلطانية، أبو الحسن الماوردي ص ١٦١، شرح منتهى الإرادات ٦٣٨/١، المغني، ابن قدامة ٢١٣/٦.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٦.

المشركين الفرصة لكي تتهيأت نفوسهم لسماع القرآن ومعرفة هذا الدين، لعل قلوبهم تتفتح وتتلقى وتستجيب، فتزكو تلك القلوب، وتطيب تلك النفوس)[١]، وإن كان ذلك في حق غير المسلمين فهو في حق المسلمين أولى، وقد كان النبي ﷺ القدوة والمثل في تهيئة نفوس المدعوين ومراعاة أحوالهم في الدعوة إلى الله (فحينما جاءه عتبة بن ربيعة، لمفاوضته ﷺ استمع إليه حتى انتهى من كلامه ثم قال له: "أفرغت يا أبا الوليد" قال: نعم. قال: "فاسمع مني")[٢].

وفي رواية ذكرها القرطبي قال: ("يا ابن أخي أسمع" ولا يخفى على أحد ما في هذه الملاطفة والتكنية من تهيئة للنفس السامع)[٣]، (وها هو ذا مصعب بن عمير رضي الله عنه سفير الدعوة مبعوث النبي ﷺ بدأ بتهيئة نفوس مدعويه للسماع أولاً، فحينما جاءه كل من زعيمي بني عبد الأشهل، أسيد بن حضير، وسعد بن معاذ رضي الله عنهما قال لكل منهما أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كف عنك ما تكرهه، وبهذه الملاطفة والعرض المنصف، هيأ نفسيهما للسماع، فلما سمعا أسلما، وأسلم أقوامهما)[٤]، ومن تهيئة نفوس المدعوين الترحيب بهم والتلطف معهم والثناء عليهم، فعن أبي جمرة قال: ((كنتُ أقعُدُ معَ ابنِ عبّاسٍ، يُجْلِسُني على سَرِيره، فقال: أَقِمْ عِندي حتَّى أَجْعَلَ لكَ سَهْماً مِنْ مالي، فأقمتُ معَهُ شَهرَينِ، ثمَّ قال: إنَّ وفدَ عبدِ القَيْسِ لما أَتَوُا النبيَّ ﷺ قال: «مَنِ القَوْمُ -أوْ مَنِ الْوَفْدُ؟- قالوا: رَبيعةُ. قال: مَرْحَباً بالقَوْمِ -أو بالوفدِ- غيْرَ خَزايا ولانَدامَى)) [٥] قال ابن حجر: (وفيه دليل على جواز الثناء على الإنسان في وجهه إذا أمن عليه الفتنة)[٦]. فمراعاة أحوال المدعوين وتهيئة نفوسهم للدعوة

---

(١) التدرج في دعوة النبي ﷺ، إبراهيم بن عبدالله المطلق ص ١٥٢.

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير، ١٥٩/٤.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٣٩٠/١٨.

(٤) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام، ٥٩/٢ - ٦٠.

(٥) أخرجه البخاري ٥٣.

(٦) فتح الباري، ابن حجر ١٦٠/١.

أولاً من أهم عوامل وركائز بلوغ الدعوة ووصولها إلى قلوب المدعوين.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: الدعاء وفضل الالتجاء إلى الله:

مما لا شك فيه أن الدعاء من صفات عباد الله المتقين، وهو مفزع المظلومين وملجأ المستضعفين وهو دليل الإيمان وحسن الإسلام، وقد أشار الحديث إلى أهمية الدعاء وفضل الالتجاء إلى الله من قوله صلوات الله وسلامه عليه: "فقال للشمس: إنك مأمورة وأنا مأمور اللهم أحبسها علينا، فحبست حتى فتح الله عليه".

فالدعاء من أعظم العبادات وقد بين النبي ﷺ ذلك فقال الدعاء هو العبادة ثم قرأ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾(١)، (٢).

فالدعاء من أقوى أسباب دفع المكروه وحصول المطلوب لقوله ﷺ: ((لاَ يَزِيدُ فِي الْعُمْرِ إلاَّ الْبِرُّ. وَلاَ يَرُدُّ الْقَدَرَ إلاَّ الدُّعَاءُ))(٣) وقوله ﷺ: ((إِنَّ الدُّعاءَ يَنْفَعُ مِمَّا نَزَلَ وَمِمَّا لَمْ يَنْزِلْ فَعَلَيْكُمْ عِبَادَ الله بالدُّعَاءِ))(٤) والدعاء من أحب الأمور إلى الله تعالى لقوله ﷺ: ((لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى الله تَعَالَى مِنَ الدُّعَاءِ))(٥)، ويتطلب الدعاء الإخلاص والثقة بالله تعالى واليقين بالإجابة وذلك لقوله ﷺ ((أُدْعُوا الله وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بالإجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الله لا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لاَهٍ))(٦) (فينبغي للداعي أن يكون حاضر القلب متفهماً لما يقول، مستشعراً عظمة من يدعوه إذ لا يليق بالعبد الذليل أن يخاطب ربه ومولاه بكلام لا يعيه هذا الداعي وبجملٍ قد اعتاد تكرارها دون

---

(١) سورة غافر: الآية ٦٠.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٧١٤، صححه الألباني (صحيح الأدب المفرد ٥٥٠).

(٣) أخرجه ابن ماجه ٩٠، وحسنه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٧٣).

(٤) أخرجه الترمذي ٣٥٤٨، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٨١٣).

(٥) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٧١٢، صححه الألباني (صحيح الأدب المفرد ٥٤٩).

(٦) أخرجه الترمذي رقم (٣٤٧٩) وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٥٧٤).

فهم لفحواها، أو أن تجري على لسانه -هكذا- على سبيل العادة)[١]، و(للدعاء آداب وشروط يجب توافرها كي يكون الدعاء كاملاً منها: الثناء على الله قبل الدعاء والصلاة على النبي ﷺ، والإقرار بالذنب والخشوع والرهبة بين يدي الرب، والإلحاح بالدعاء والعزم في المسألة، و استقبال القبلة ورفع الأيدي، وأن يقدم بين يدي دعائه عملاً صالحاً، وذلك فضلاً عن اجتناب الحرام وأكل الحلال...)[٢]. فعلى الداعية أن ينبه إلى عظيم فضل الدعاء وما به من خير وعبادة.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: دلائل قدرة الله تعالى:

(فالله عز وجل هو القادر الذي لا يعجزه شيء، بل يستتب له ما يريد على ما يريد، فلا يلابس قدرته عجز بوجه)[٣]، وهذا ما ظهر جلياً في الحديث من قوله ﷺ "فحبست الشمس"، فهي القدرة التي لا يعجزها شيء في الأرض ولا في السماء فلا يحدها حد ولا يمنعها مانع، وبها يخاطب العقل ويرسخ الإيمان فقال جل شأنه ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[٤] وقال: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ﴾[٥] وقال جل شأنه ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾[٦].

---

(١) الدعاء، محمد بن إبراهيم الحمد ص٢٣.

(٢) انظر: المرجع السابق، ٣٧-٥٢.

(٣) الأسماء والصفات، البيهقي، ١/٥٢، ٨١.

(٤) سورة فصلت، آية: ٥٣.

(٥) سورة العنكبوت، آية: ٢٠.

(٦) سورة الرعد، آية: ١.

رابعاً- من موضوعات الدعوة: بيان خصوصية النبي ﷺ وفضل هذه الأمة:

(قد اختص الله تبارك وتعالى عبده ورسوله محمدًا ﷺ دون غيره من الأنبياء عليهم السلام بخصائص كثيرة تشريفاً له وتكريماً مما يدل على جليل رتبته وشرف منزلته عند ربه)[١] وكان من ذلك قوله ﷺ في الحديث "فلم تحلَّ الغنائم لأحدٍ قبلنا ثم أحل الله لنا الغنائم"، وهذا ما أكده النبي ﷺ في قوله ﷺ ((فضلت على الأنبياء بست" ثم ذكر ﷺ من ذلك ((وأُحِلَّتْ ليَ المَغانِمُ))[٢]. (وفي هذا الحديث دليل على فضل هذه الأمة في اختصاصها بحل الغنيمة، وكان ابتداءُ ذلك من غزوة بدر وفيها نزل قوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلاً طَيِّبًاۚ﴾[٣].

فأحل الله لهم الغنيمة[٤]، (وقد كانت الأمم قبلنا على ضربين فمنهم من لم يؤذن له في الجهاد فلم تكن لهم غنائم، ومنهم من أذن له فيه فكانوا يغزون ويجاهدون ويأخذون أموال أعدائهم وأسلابهم، لكن لا يتصرفون فيها بل يجمعونها، وعلامة قبول غزوهم ذلك أن تنزل النار من السماء فتأكلها، وعلامة عدم قبوله أن لا تنزل. ومن أسباب عدم القبول أن يقع فيهم الغلول، وقد منّ الله تعالى على هذه الأمة ورحمها وجبر عجزها وضعفها لشرف نبيها عنده، فأحل لهم الغنائم وستر عليهم الغلول، فطوى عنهم فضيحة أمر عدم القبول، فلله الحمد على نعمه تترى)[٥].

وقد بين الحق تبارك وتعالى عظيم فضل هذه الأمة في قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِۗ﴾[٦] وقال ﷺ ((أنتم

---

(١) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد ٤٤٩/١.

(٢) أخرجه البخاري ٥٣٥.

(٣) سورة الأنفال، آية: ٦٩.

(٤) فتح الباري، ابن حجر ٢٥٨/٦.

(٥) انظر: المرجع السابق.

(٦) سورة آل عمران، آية: ١١٠.

تُتِمُّون سبعين أُمَّةً، أنتمُ خيرُها وأكرمُها عند الله))[١]، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: ((نحن خير الناس للناس، نسوقهم بالسلاسل إلى الإسلام))[٢]، وقد بين الحق تبارك وتعالى سبب خيرية هذه الأمة في قوله تعالى: ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ قال القرطبي: (وهذا مدح لهذه الأمة ما أقاموا ذلك واتصفوا به، فإذا تركوا التغيير وتواطؤوا على المنكر، زال عنهم اسم المدح، ولحقهم اسم الذم)[٣].

خامساً- من أساليب الدعوة: القصة:

إن القصة من الملامح التي تلازم الداعية وتملأه انفعالاً بدعوته[٤]، (وتمتاز بأنها تصور نواحي الحياة، فتعرض لك الأشخاص، وحركاتهم وأخلاقهم وأفكارهم، واتجاهات نفوسهم، وبيئتهم الطبعية والزمنية. تعرضهم عليك بعرض أعمالهم وتصرفاتهم ونقاشهم، فإذا رأيت هذه التصرفات والأعمال ومضيت مع الحوار والنقاش عرفت ما يستكن في النفوس من طباع، وما يهجس فيها من خواطر، وانشرح صدرك لأهل الخير منهم وضقت ذرعاً بذوي النفوس المظلمة والوسائل الملتوية، حتى لكأنك تراهم رأي العين، وتسمع منهم سمع الأذن، وتعاشرهم وتحيى بينهم، وتمتاز القصة كذلك بأن النفس تميل إليها، فغريزة حب الاستطلاع، تعلق عين السامع وأذنه وانتباهه بنسق القصص البارع استشرافاً لمعرفة ما خفي من بقية الأنباء والقصة بهاتين الميزتين من خير الوسائل التي يتوسل بها الداعية لإبلاغ تعاليمه إلى أعماق القلوب، فهي بالميزة الأولى تعرض هذه التعاليم في صورة عملية حية تحرك الوجدان وترفع نبض المشاعر... وهي بالميزة الثانية: ميزة التنبيه والتقبل، تجعل النفوس أوعية مفتوحة، يصب فيها الداعية ما يشاء فيبلغ القرار.

---

(١) أخرجه الترمذي ٣٠٠١، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٣٩٩).

(٢) أخرجه البخاري ٤٥٥٧.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢٦٤/٥.

(٤) الدعوة الإسلامية: أصولها ووسائلها، د. أحمد غلوش، ٢٩٣.

وقد بيّن الحق عز شأنه هذه الوسيلة في القرآن الكريم فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾(١) وقال: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾(٢))(٣) وقد وردت هذه الوسيلة الدعوية الهامة في الحديث من قوله ﷺ "غزا نبي من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه" قاصاً ﷺ ما كان بين هذا النبي عليه السلام وبين قومه، وما كان من حبس الشمس له، وما كان من غلول قومه للغنائم، ولاشك أن لهذه الأحداث والمواقف تأثير كبير في النفوس.

---

(١) سورة يوسف، آية: ١١١.

(٢) سورة هود، آية: ١٢٠.

(٣) تذكرة الدعاة، البهي الخولي ص ٤٤-٤٥.

الحديث رقم (٥٩)

٥٩- السادسُ: عن أبي خالدٍ حكيمِ بنِ حزَامٍ ﷺ ، قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ : «**الْبيِّعَان بالخِيارِ ما لم يَتفرَّقا، فإن صدقا وبيَّنا بُورِك لهُما في بَيعْهِما، وإن كتَما وكذَبَا مُحِقَتْ بركةُ بيْعِهِما**» متفقٌ عليه[1].

ترجمة الراوي:

حكيم بن حزام: هو ابن خويلد بن أسد القرشي، يكنى أبا خالد، هو ابن أخي خديجة بنت خويلد زوج النبي ﷺ.

ولد في الجاهلية قبل عام الفيل بثلاث عشرةَ سنة، في جوف الكعبة وكان شديد الأُدْمَة، خفيف اللحم شهد حرب الفجار، وكان من أشراف قريش، وعُقلائها، ونُبلائها، وعليه كانت الرّفادة، وكان عالماً بالأنساب وقد شهد بدراً مع الكفار، ونجا مع من نجا، فكان إذا اجتهد في يمينه قال: لا والذي نجاني يوم بدر من القتل، وكان ﷺ في جاهليته محباً للنبي ﷺ، فعن عراك بن مالك أن حكيم بن حزام قال: ((كان محمد ﷺ أحبَّ الناسِ إليَّ في الجاهلية، شهد حكيم الموسم كافراً، فوجد حُلَّةً لذي يَزَنٍ تُباع، فاشتراها بخمسين ديناراً ليهديها إلى رسول الله، فقدم بها عليه المدينة، فأراده على قبضها هدية، فأبى. قال عبيدالله: حسبته قال: "إنا لا نقبل من المشركين شيئاً، ولكن إن شئت أخذناها بالثمن، فأعطيته حين أبي عليَّ الهدية))[2].

وقد أسلم ﷺ يوم الفتح وحُسن إسلامهُ، وغزا حنيناً والطائف قال فيه النبي ﷺ يوم الفتح ((من دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن))[3].

قال عروة بن الزبير: إن حكيم بن حزام ﷺ أعتق في الجاهلية مائة رقبة، وحمل

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٧٩)، ومسلم (١٥٣٢/٤٧) ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه (٢٦٥٩).

(٢) أخرجه أحمد ٤٠٢/٣-٤٠٣ رقم ١٥٣٢٣، وقال محققو المسند: إسناده صحيح ٣٩/٢٤-٤٠.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير ٦/٨ رقم ٧٢٦٣ عن عروة بن الزبير مرسلاً، كما أن في إسناده ابن لهيعة وقد احترقت كتبه فحدّث من حفظه فاختلط، انظر: تقريب التقريب ٤٤٤/١.

على مائة بعير، فلما أسلم حمل على مائة بعير وأعتق مائة رقبة، قال: فسألت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، أرأيت أشياء كنت أضعها في الجاهلية؟ كنت أتحنَّث بها - يعني: أتبرر بها؟ فقال رسول الله ﷺ: أسلمت على ما سلف من خير[١].

وكان جواداً، كريماً، باع دار الندوة من معاوية بمائة ألف، فقال له ابن الزبير بعت مكرمة قريش، فقال: ذهبت المكارم يا ابن أخي إلا التقوى، إني اشتريت بها داراً في الجنّة أشهدكم أني جعلتها لله.

وقد روى عن النبي ﷺ أحاديث بلغت أربعين حديثاً.

وتوفي بالمدينة سنة ٥٤هـ وقيل ٥٠هـ وكان يقول في موته: لا إله إلا الله، قد كنت أخشاك وأنا اليوم أرجوك ربي وقد عاش مائة وعشرين سنة شطرها في الجاهلية وشطرها في الإسلام[٢].

غريب الألفاظ:

البَيِّعان: البائع والمشتري، يُقال لكلٍّ منهما: بائع وبَيِّع[٣].

محقت بركة بيعهما: أي ذهبت بركته وهي زيادته ونماؤه، والمحق: النقص والمحو والإبطال[٤].

الخيار: طلب خير الأمرين من إمضاء عقد وفسحه[٥].

---

(١) أخرجه البخاري ٢٥٣٨، ومسلم ١٢٣.

(٢) الطبقات، ابن سعد ١٠٩/٣، ٦٥/٤، و الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر ١٥٦-١٥٧، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير ٥٨/٢-٦٠، وسير أعلام النبلاء، الذهبي ٤٤/٣-٥١، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي ٢٥٨/٢-٢٦٣، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٤٧٣/١-٤٧٤، والأعلام، خير الدين الزركلي ٢٦٩/٢.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ب ي ع).

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٩٧٢، والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٨٥٩.

(٥) الروض الندي في فقه الإمام أحمد للعلامة البعلي ص ٢١٢.

الشرح الأدبي

هذا الحديث يأتي في ختام باب الصدق. وهو مسك الختام، لأن الصدق ليس في الحديث فقط ولكن صدق الأفعال يأتي ثمرة لصدق الأقوال، وكلا الاثنين لابد أن ينبعا من صدق الجنان، ولذلك يعد الإيمان الصحيح في الذروة من قيمة الصدق؛ لأنه - كما قال العلماء- التصديق بالجنان والإقرار باللسان والعمل بالأركان؛ وكل سلوك في الحياة لابد أن تتضمنه هذه الدائرة الخلقية المحكمة وهى : صدق القلب، وصدق اللسان، وصدق العمل.

وفي وهج هذه الدائرة تتموج أشعة الصدق، ونقتبس من أشعة البيان النبوي الأضواء الهادية لإصلاح العلاقات الاجتماعية بين أفراد الأمة، وفي مقدمة هذا الإصلاح ضبط حركة البيع والشراء ضبطاً إيمانياً صحيحاً، لأنها حركة صاخبة مائجة تتحكم في إيقاع الحياة، وهذا التحكم إما أن يضبط ميزان السلوك الاجتماعي، وإما أن يؤدي به إلى الخلل والجور والفساد.

ولذلك يضع المصطفى ﷺ هذه القاعدة المجردة التي تنطبق على كل بائع وكل مشترٍ في جميع الأزمنة والأمكنة التي تضبط حركتها تعاليم الإسلام، وسنة المصطفى ﷺ.

ولذلك يبدأ الحديث بهذه القاعدة "البيعان بالخيار ما لم يتفرقا"، والمراد بهما البائع والمشتري، والمساواة بينهما في لفظ واحد ترشد إلى أن المسؤولية مشتركة ومتساوية وعليهما بالصدق في النية والقول والعمل، وعليهما بتجنب فساد النية، وكذب اللسان، ومخالفة الأعمال للأقوال، والتعبير بقوله، "بالخيار"، فيه بلاغة وإيجاز، ويرشد إلى أمور متعددة: فالخيار اسم من الاختيار والتخيير أي حرية الموقف قبولاً أو رفضاً للبيع، والتعبير بهذا اللفظ يوحي كذلك بقبول خير الأمرين من الفسخ والإجازة، فالخيرية تكون هي الحكم والمعيار، وليس الهوى الشخصي أو المصلحة الشخصية الضيقة، والتعبير بلفظ "يتفرقا" فيه تصوير حركي.

والجزء الثاني من الحديث ورد في جملتين شرطيتين، ليبين ارتباط جواب الشرط

بفعل الشرط، وأنه لازم عنه، وواقع بوقوعه، فيختار البائعان أي النتيجتين يريدان، فإن أراد البركة كان عليهما الصدق، وأن سلكا طريق الغش والخداع والتدليس رغبة في زيادة المال والإكثار منه، جاءت النتيجة بعكس ذلك تمامًا، وهي المحق والنقص والخسران.

فقه الحديث

هذا الحديث نص في خيار المجلس، وهو نوع من أنواع الخيار التي وردت في الفقه الإسلامي، وقد اختلف الفقهاء في مشروعية خيار المجلس نظراً لاختلافهم في فهم الحديث، والمقصود بالتفرق فيه وكذا اختلافهم في معنى المتبايعين هل هما المتساومان أم المتعاقدان بالفعل؟ وذلك على قولين:

القول الأول: يرى الحنفية(١) والمالكية(٢) أن المقصود بالتفرق هنا التفرق بالأقوال لا بالأبدان، ولذا فهم لا يقولون بخيار المجلس ولا يرون مشروعيته، فمتى تم العقد بين البائع والمشتري لزم ولو ظلا مكانهما في مجلس العقد ولم يتفرقا وليس لواحد منهما خيار الرجوع فيه ما لم توجد إقالة من الطرف الآخر.

القول الثاني: للشافعية(٣) والحنابلة(٤) وأكثر أهل العلم حيث أخذوا بظاهر الحديث، وقالوا بمشروعية خيار المجلس، فيحق لكل من البائع والمشتري الرجوع في

---

(١) درر الحكام شرح غرر الأحكام، محمد بن فراموز الحنفي منلا خسرو ١٧٧/٢، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٢٨٣/٥، وأحكام القرآن للجصاص ٢٥٤/٢.

(٢) مواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن المغربي ٤١٠/٤، الفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد النفراوي المالكي ٨٤/٢.

(٣) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي شرح المهذب للنووي ٢٠٥/٩، ط مطبعة المنيرية، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري ٤٦/٢، وحاشيتا قليوبي وعميرة ٢٣٥/٢، ط/ دار إحياء الكتب العربية.

(٤) المغني، ابن قدامة لابن قدامة ٥/٤، ٦، والفتاوى الكبرى ٣٩٠/٥، والفروع ٨١/٤، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين أبو الحسن علي بن سليمان المرداوي ٣٦٣/٣.

عقد البيع بعد تمامه ما دام أنهما لم يتفرقا من مجلس العقد بعد، فإن تفرقا وذهب كل إلى حاله لزم العقد وانتهى خيار المجلس.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: يسر الشريعة الإسلامية.

ثانياً: من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: بيان فضل الصدق وشناعة الكذب.

رابعاً: من واجبات الداعية: حرصه على إفادة المدعو.

أولاً- من موضوعات الدعوة: يسر الشريعة الإسلامية:

إن اليسر من أهم مظاهر وسمات هذا الدين، لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[1] ولقوله ﷺ: ((إِنَّ خَيْرَ دِينِكُمْ أَيْسَرُهُ، إِنَّ خَيْرَ دِينِكُمْ أَيْسَرُهُ))[2] وقد ورد بيان التيسير في الحديث من قوله ﷺ "البيعان بالخيار ما لم يتفرقا" (وهو خيار كل من المتعاقدين في الإقدام على العقد أو الإحجام عنه قبل التفرق وبذلك يتحقق تمحيص الإرادتين وتنقية عنصر التراضي من الشوائب أو استدراكاً لندم قد يقع من أحدهما)[3]، (فلا يفترقان إلا عن تراض بينهما فيما يتعلق بإعطاء الثمن وقبض المبيع وإلا فقد يحصل الضرر والضرار وهو منهي في الشرع، أو المراد منه أن يشاور مريد الفراق صاحبه ألك رغبة في المبيع، فإن أراد الإقالة أقاله)[4] (والإقالة من صور التيسير في الشريعة الإسلامية، ويقصد بها: أن يتم عقد البيع بين طرفين، ثم يندم بعد ذلك المشتري - أو البائع- على إتمام هذه الصفقة لسبب من الأسباب، كأن يستجد له أمر،

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

(٢) أخرجه أحمد ٤٧٩/٣ رقم ١٥٩٣٦ وقال محققو المسند: إسناده حسن ٢٨٤/٢٥.

(٣) انظر: فتح الباري، ابن حجر ٣٤٨٩/٤، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية، ٧٩/٢٠، ١٤٦.

(٤) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي على سنن أبي داود، محمد أشرف الحق بن أمير العظيم آبادي، ١٤٨٣.

فيرى أنه بحاجة إلى أموال لقضاء حاجة ضرورية، أو لها أولوية، أو ما أشبه ذلك فيأتي إلى البائع، ويرغب إليه في أن يحلله من هذا العقد... فموافقة البائع على إلغاء هذا العقد، هو ما يسمى بالإقالة، وقد رغب الإسلام في ذلك تيسيراً وتسهيلاً على الناس)[١] فقال النبي ﷺ ((مَنْ أقَالَ مُسْلِماً أقَالَ الله عَثْرَتَهُ))[٢] قال صاحب عون المعبود: (أي: غفر زلته وخطيئته)[٣] فالإسلام دين السماحة واليسر فلا حرج فيه على أحد كما قال سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[٤] قال القرطبي: (أي وما جعل عليكم في الدين من ضيق...، وهذه الآية تدخل في كثير من الأحكام؛ وهي مما خص الله بها هذه الأمة)[٥]. فينبغي للداعية بيان يسر الإسلام وسماحته للمدعوين، فإن بيان ذلك يعد عاملاً مهماً من عوامل استجابة المدعو وانقياده للدعوة.

ثانياً- من أساليب الدعوة: الترغيب الترهيب:

لقد رغب النبي ﷺ البائعين في الصدق بأن أخبر بجزائه وهو البركة في بيعهما: السلعة والثمن، ولما كانت النفس قد يدفعها حب المال إلى التدليس وكتمان العيوب، رهب النبي ﷺ من ذلك بأن أخبر بأن جزاء ذلك هو محق البركة، فكان الجزاء عكس مقصود الغاش والمدلس.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: بيان فضل الصدق وشناعة الكذب:

(إن الصدق هو الطريق الأقوم الذي يجب أن يسلكه المؤمنون، وبالصدق يتميز أهل الإيمان عن أرباب النفاق، والصدق سيف الله في أرضه الذي ماوضع على شيء إلا قطعه، ولا واجه باطلاً إلا أرداه وصرعه؛ من صال به لم تُردّ صولته، ومن نطق به علت

---

(١) الإسلام دين التيسير، صلاح أحمد الشامي ص ٨٧.

(٢) أخرجه أبو داود ٣٤٦٠، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢٩٥٤).

(٣) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ، محمد أشرف الحق بن أمير العظيم آبادي، ١٤٨٤.

(٤) سورة الحج (٧٨)

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٤٥١/١٤.

على الخصوم كلمته؛ فهو روح الأعمال، ومحكُّ الأحوال، والحامل على اقتحام الأهوال...، وهو أساس بناء الدين، وعمود فسطاط اليقين)[١]، ومن أجل ذلك رغب النبي ﷺ في تحري إقامته والبعد عن تركه فقال في نص الحديث: ((فإن صَدَقا وبَيَّنا بورك لهما في بَيعِهما، وإن كَتَما وكذَبا مُحِقَتْ بركةُ بَيعهما)) (فإن صَدَق البائع في إخبار المشتري مثلاً وبين العيب إن كان في السلعة، وصدق المشتري في قدر الثمن مثلاً وبين العيب إن كان في الثمن تحقق فضل الصدق في حصول البركة)[٢].

فالإخبار عن الشيء على ما هو عليه من اللزوم على المؤمنين من رب العالمين وفي ذلك قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[٣][٤] أي: (اصدقوا والزموا الصدق تكونوا مع أهله وتنجوا من المهالك ويجعل لكم فرجاً من أموركم ومخرجاً)[٥] وقد حث النبي ﷺ على ذلك فقال: ((عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ. فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَىٰ الْبِرِّ. وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَىٰ الْجَنَّةِ. وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّىٰ الصِّدْقَ حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ اللّهِ صِدِّيقاً...))[٦] (وقد كان النبي ﷺ إمام الصادقين وكانت حياته ﷺ أفضل مثال للإنسان الكامل الذي اتخذ من الصدق في القول والأمانة في المعاملة خطاً ثابتاً لا يحيد عنه قيد أنملة، وقد كان ذلك فيه بمثابة السجية والطبع فعرف بذلك حتى قبل البعثة، وكان لذلك يلقب بالصادق الأمين، واشتهر بهذا وعرف به بين أقرانه، وقد اتخذ ﷺ من الصدق الذي اشتهر به بين أهله وعشيرته مدخلاً إلى المجاهرة بالدعوة)[٧].

---

(١) انظر: مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٥/٣.

(٢) انظر فتح الباري، ابن حجر (٣٨٦/٤).

(٣) سورة التوبة، آية: ١١٩.

(٤) الأخلاق في الشريعة الإسلامية، د. أحمد عليان ص ٢١٩.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢٣٣/٤.

(٦) أخرجه مسلم ١٨٠٩.

(٧) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد ٢٤٧٧/٦.

إذ إنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[١] (صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي "يا بني فهر، يا بني عدي"، لبطون قريش حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: "أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقاً. قال: "فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد"...)[٢] فكان الصدق باباً في نشر الدعوة إلى الله. (وأما الكذب فجماع كل شر، وأصل كل ذم لسوء عواقبه، وخبث نتائجه)[٣]، ففضلاً عن كونه ماحقاً للبركة في الدنيا كما ورد في نص الحديث، إلا أنه سبب في استحقاق صاحبه النار لقوله ﷺ ((وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ. فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَىٰ الْفُجُورِ. وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَىٰ النَّارِ. وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّىٰ الْكَذِبَ حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ اللّهِ كَذَّاباً))[٤].

والكذب من الأخلاق المرذولة، والصفات القبيحة، فهو خصلة من خصال النفاق لقوله ﷺ ((آيةُ المُنافِقِ ثلاثٌ إذا حَدَّثَ كَذَب، وإذا وَعَدَ أخْلَفَ، وإذا أؤْتُمِنَ خان))[٥] وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (لأن يضعني الصدق -وقلما يضع- أحب إلي من أن يرفعني الكذب وقلما يفعل). وقال بعض الحكماء: الصدق منجيك وإن خفته، والكذب مرديك وإن أمنته...، فالكذب لا يصدر إلا عن مهانة النفس ودناءة الهمة وقد قال الجاحظ: لم يكذب أحد قط إلا لصغر قدر نفسه عنده، قال الشاعر:

وما شيء إذا فكرت فيه ... بأذهب للمروءة والجمال

من الكذب الذي لا خير فيه ... وأبعد بالبهاء من الرجال[٦]

---

(١) سورة الشعراء، آية: ٢١٤.

(٢) أخرجه البخاري ٤٧٧٠.

(٣) أدب الدنيا والدين، الماوردي، ٢٥٣.

(٤) أخرجه مسلم ١٨٠٩.

(٥) أخرجه البخاري ٣٣، ومسلم ٥٩.

(٦) أدب الدنيا والدين، الماوردي ٢٥٣، ٢٥٥.

وفي ذلك بيان شناعة الكذب وسوء عواقبه، لما فيه من خسة النفس ودناءتها، فحري بالداعية أن يبين فضل الصدق وشناعة الكذب حثاً منه على الامتثال لأمر الله تعالى ورسوله ﷺ.

رابعاً- من واجبات الداعية: حرصه على إفادة المدعو:

مما لا شك فيه أن الحافز الحقيقي إلى الدعوة وبذل النصح بما في ذلك من إرشاد المدعوين إلى ما فيه صلاح لهم في الدنيا والآخرة، هو الإيمان بالآخرة وتمثل ما فيها من سعادة دائمة وشقاء دائم، وما أعد الله فيها لعباده المؤمنين المطيعين من جزاء، وللكفار العصاة من عقاب، فذلك هو الحافز الحقيقي إلى دعوتهم، وبذل نصحهم وهو الذي يقلقهم ويكدر صفو عيشهم، حتى لا يهدأ لهم بال ولا يقر لهم قرار، وهو حافز أقوى وأعظم سلطاناً على نفوسهم مما يشاهدونه من اختلال النظام واضطراب الأحوال، وما يشعرون به من الأخطار المحيطة بهذا المجتمع إذا انتشر فيه الفساد، ويجعلون ذلك موجباً لدعوتهم وإنذارهم وسبباً لقلقهم وإشفاقهم، فيقول القرآن عن نوح عليه السلام وهو أول رسول يذكره القرآن بتفصيل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾[1] ويقول عن هود عليه السلام وهو من أقدم الأنبياء، وقد بعث في قوم تهيأت لهم أسباب العيش، وتوسعت لهم الدنيا، وطابت لهم الحياة: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[2] ويقول عن شعيب عليه السلام وقد بعث في قوم لان لهم العيش وانتشر في أرضهم الخصب: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾[3])[4]، وقد كان النبي ﷺ وهو القدوة والمثل الأعلى أشد الناس حرصاً على

(١) سورة هود، الآيتان: ٢٥، ٢٦.

(٢) سورة الشعراء، الآيات: ١٣٢-١٣٥.

(٣) سورة هود، آية: ٨٤.

(٤) النبوة والأنبياء في ضوء القرآن، أبو الحسن علي الحسني الندوي ص ٦٥-٦٦.

هداية المدعوين وبذل النصح لهم وهذا ما بينه الحق تبارك وتعالى في قوله: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾[٢].

فعلى الداعية أن يحرص على إفادة المدعوين وإرشادهم إلى ما فيه صلاح لهم، مقتدياً في ذلك بحرص الأولين من الأنبياء والصالحين على هداية الناس، وهذا ماورد في نص الحديث من حثه ﷺ على الصدق وترهيبه من الكذب وبيانه ﷺ لما في الإسلام من يسر وسماحة، وفي ذلك إفادة ونفع وتوجيه المدعوين لما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة.

---

(١) سور يوسف، آية: ١٠٣.

(٢) سورة النحل، آية: ٣٧.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

الصدق قيمة عظيمة في حياة الأفراد والأسر والمجتمعات، لأن الصدق يتسع باتساع مجالات الحياة وليس الصدق محصوراً في مجال الأقوال، بل مقياس ومؤشر الصدق في مجال الأعمال ومطابقتها للأقوال، وعدم الازدواجية بين الأقوال والأعمال.

لذا أكدَّ النبي ﷺ على حقيقة أن الصدق يهدي إلى البر مؤكداً على أهمية الحرص على الصدق وتحريه في الحياة وميادينها، وتربية النفوس على ذلك حتى يصبح سمتاً لا ينفك عن المؤمن، وفي المقابل يُنفّر النبي ﷺ من الكذب، ومن التلبس به نظراً لآثاره الوخيمة، لأن الإسلام يوجه إلى الاستمساك بالصدق في كل شأن، وتحريه في كل قضية، لأنه عمود المجتمعات وركنها الركين، يحفظ عليها جوانب حياتها ومقوماتها.

فالصدق في العقائد وفي التبليغ عن الله ورسوله يحفظ على الأمة عقيدتها وهديها، ويمدها بالزاد والقوة من النبع الأصيل، ويحفظ للأمة كرامتها، ويبعدها عن الهوان والضعف.

إن من أبرز المضامين التربوية في أحاديث الباب -الصدق- ما يلي:

أولاً: بيان حقيقة الصدق في حياة الإنسان:

حيث بيّن النبي ﷺ حقيقة الصدق بأنه يهدي إلى البر وإلى طرق الخير التي يحتاج الإنسان إلى سلوكها في حياته، ولا يتأتى ذلك إلا من خلال التنشئة السليمة والصحيحة على تحري الصدق في كافة تعاملات الإنسان، أملاً في النجاة، لأن الصدق مع النفس ومع الناس من الأسباب الأساسية في علاج الكثير من المشكلات، وإن الصدق يُنمّي ملكة المراقبة للنفس والمحاسبة لها، حتى لا تقع في غوائل الكذب الذي يظنه بعض الناس أنه قد ينقذ الإنسان، ويجعله يظفر بمراده، وفي الحقيقة أن ذلك نوع من الوهم الذي عمت به البلوى، ولذا فإن النبي ﷺ يؤكد على حقيقة الصدق أنه يهدي إلى البر، مما يكون سبباً في دخول الجنة، ويجعل الإنسان يرتقي إلى مصاف الصديقين، والنبي ﷺ يبين الأسلوب الحكيم في البيع والشراء فيقول: البيعان بالخيار ما لم

يتفرقا فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما..

إن التاجر قد يكذب في بيان سلعته وعرض ثمنها، ويعتبر هذا من الذكاء في كسب الربح، وما علم أنه محق وخسارة وعدم ثقة، وأن الصدق ثقة وبركة وأمانة، وهذا مما غفل عنه كثير من المسلمين في معاملاتهم التي تنوعت وتعددت، وتعددت، كذلك ألوان الكذب والخداع، فكان ذلك ممحقة للبركة، في حين أخذ غيرهم بتعاليم الإسلام فربحت تجارتهم وربت، وإن كانوا على غير ملتهم، ولكنهم ساروا على نهج الإسلام[1].

ألا ما أجمل هذا الدين وما أحسنه؟

إنه طريق مفتوح لجميع البشر، وأفق يتطلع إليه الجميع، ليس فيه احتكار للمقامات وليس فيه خصوصيات محجوزة لأناس بأعيانهم، وليس إلا العمل الصالح المبني على التقوى[2].

والصدق كحمل الجبال الرواسي، لا يطيقه إلا أصحاب العزائم القوية، ولذلك صار موصلاً إلى الجنة.

ثانياً: التحفيز على الصدق:

إن من أبرز أساليب التربية تأثيراً على النفوس: التحفيز بالحث على تحرِّي الصدق والتزامه، لأنه درجات والتي من أولها: صدق القصد وهو كما العزم وقوة الإرادة، بأن يكون القلب داعية صادقة إلى السلوك، وبه يتلافى كل تفريط فيصلح من قلبه ما مزقته يد الغفلة.

ثانيها: أن لا يتمنى الحياة إلا للحق، ولا يشهد من نفسه إلا أثر النقصان... فمن عرف نفسه وعرف ربه لم ير نفسه إلا بعين النقصان والتقصير ويعمل على رضا محبوبه.

ثالثها: الصدق في معرفة الصدق، فإن العبد إذا صدق الله رضي الله بعمله وحاله

---

(١) انظر: سلوك المسلم، د. توفيق يوسف الواعي، ٤٧-٤٩.

(٢) انظر: موسوعة فقه القلوب، محمد بن إبراهيم التويجري ٢/١٨٨٤.

ويقينه، لأنه قد رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ رسولاً، فرضي الله به عبداً، ورضي بأقواله وأعماله القائمة على الإخلاص والمتابعة[١].

ثالثاً: الجد في التعامل مع الأمور:

إن من الآثار التربوية لتحري الصدق في الحياة: الجد في التعامل مع الأمور، لأن التربية على الصدق تجعل المسلم حازماً منجزاً حريصاً على أن يكون عمله مثمراً، وليس في حياته مجال لكثرة الأعذار، ولا يبحث عن المبررات التي تخول له التقاعس في إنجاز الأعمال، أو الأعذار التي تعفيه من القيام بإنجاز الأعمال المنوطة به، لأنه المسلم الجاد يدرك قيمة الوقت، وأنه مسؤول عنه يوم القيامة، والمسلم الصادق عالي الهمة يتطلع إلى معالي الأمور، ويسعى في إنجازها، ويرفض عملياً أن يعطي وكالة للغير نيابة عنه في القيام بأعماله المنوطة به والواجبة عليه، ولقد أثمر ذلك ثماراً عظيماً في حياة الصحابة رضي الله عنهم فكانوا رجالاً رفعوا رايات الإسلام، وتحملوا المسؤولية بأمانة وجد.

(١) انظر: المرجع السابق، ٢/١٨٨٥.

٥- باب المراقبة

قَالَ اللَّه تَعَالَى: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾[الشعراء: ٢١٩-٢٢٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُم﴾[الحديد: ٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ﴾[آل عمران: ٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾[الفجر: ١٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾[غافر: ١٩] وَالآيات في البابِ كثيرة معلومة.

وأمَّا الأحاديث:

الحديث رقم (٦٠)

٦٠- **فالأوَّلُ:** عَنْ عُمرَ بنِ الخطابِ رضي الله عنه، قال: «بَيْنما نَحْنُ جُلُوسٌ[1] عِنْد رسولِ اللَّه صلى الله عليه وسلم، ذَات يَوْمٍ، إِذْ طَلع عَلَيْنَا رجُلٌ شَديدُ بياضِ الثِّيابِ، شَديدُ سوادِ الشَّعْرِ، لا يُرَى[2] عليهِ أَثَر السَّفَرِ، ولا يَعْرِفُهُ منَّا أَحدٌ، حتَّى جلَسَ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، فَأَسْنَدَ رَكْبَتَيْهِ إِلَى رُكبَتَيْهِ، وَوَضع كفَّيْه عَلَى فخِذيهِ، وقال: يا محمَّدُ أَخبِرْنِي عن الإسلام؟ فقالَ رسولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم: ((**الإِسلامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لا إِلهَ إِلاَّ اللَّهُ، وأَنَّ مُحَمَّداً رسولُ اللَّهِ، وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكاةَ، وتصُومَ رَمضَانَ، وتحُجَّ الْبيْتَ إِنِ استَطَعتَ إِلَيْهِ سَبيلاً**)).

قال: صدَقتَ. فَعجِبْنا لَهُ يسْأَلُهُ ويصدِّقُهُ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عن الإِيمانِ. قَالَ: ((**أَنْ تُؤْمِنَ باللَّهِ وملائِكَتِهِ، وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ، والْيومِ الآخِرِ، وتُؤمِنَ بالْقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ**)). قال: صدقْتَ. قال: فأَخْبِرْنِي عن الإِحْسانِ. قال: ((**أَنْ تَعْبُدَ اللَّه كَأَنَّكَ تَراهُ. فإِنْ لَمْ تَكُنْ تَراهُ فإِنَّهُ يَراكَ**)). قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عن السَّاعةِ؟ قَالَ: ((**مَا المسْؤُولُ عَنْهَا بأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**)). قَالَ:

(١) هذه اللفظ لا توجد عند مسلم.

(٢) قال النووي: ضبطناه بالياء المثناة من تحت المضمومة، وكذلك ضبطناه في الجمع بين الصحيحين وغيره، وضبطه الحافظ أبو حازم العدوي هنا: "نرى" بالنون المفتوحة. وكذا هو في مسند أبي يعلى الموصلي، وكلاهما صحيح، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٨٢.

فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا؟ قَالَ: ((أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ))، ثُمَّ انْطَلَقَ، فلبثْتُ مليًّا، ثُمَّ قَالَ: ((يَا عُمَرُ، أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟)) قلتُ: اللَّهُ ورسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: ((فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُم دِينَكُمْ)) رواه مسلمٌ[١].

ترجمة الراوي:

عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١).

غريب الألفاظ:

أماراتها: علاماتها[٢].

تلد الأمة ربتها: أي سيدتها ومعناه: أن تكثر السراري حتى تلد الأمة السرية بنتاً لسيِّدها، وبنت السيد في معنى السيد. وقيل غير ذلك[٣].

العالة: الفقراء، ومفردها عائل[٤].

رِعاء الشاة: الرعاء -بكسر الراء وبالمد- جمع راعي الغنم ويقال فيهم: رُعاة بضم الراء وزيادة الهاء[٥].

يتطاولون في البنيان: أي يتبارون ويتنافسون في البناء من أجل المباهاة والفخر[٦].

ملياً: أي زماناً طويلاً وكان ذلك ثلاثاً، أي: بعد ثلاث ليال[٧].

---

(١) برقم (٨/١). أورده المنذري في ترغيبه (٥١٣).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (أ م ر).

(٣) رياض الصالحين ٧٣.

(٤) رياض الصالحين ٧٣، واللسان والقاموس في (ع ي ل).

(٥) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٣٦٤، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٨٢.

(٦) انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٨٢، والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير والوسيط في (ط و ل).

(٧) رياض الصالحين ٧٣، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٨٣.

الشرح الأدبي

في ظلال هذا الحديث الشريف نستروح نسمات الإيمان، ونشتمّ عبير النبوة، ونتأمل أسرار البيان النبوي الكريم التي يتضمنها هذا الحديث الجامع الذي يعد من جوامع كلمه ﷺ، وأسلوب الحديث يتسم بالشرح والتفصيل، والإقناع والتدليل، وهو مع ذلك في غاية الإيجاز، فلا إسهاب في عباراته، وإنما كل عبارة وراءها معان ومداخل.

ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث النبوي الشريف، وهو أداء جمالي تربوي قصصي هادف.

فالحديث يبدأ بصيغة السرد والحكاية ويعتمد في بدايته على عنصر المفاجأة والتشويق والدهشة.

والتعبير بقول عمر "بينما نحن جلوس عند رسول الله ذات يوم"، فيه معنى المفاجأة ومعنى الشرط، وهذه القصة واقعية الحدث وليست قصة متخيلة. إنما يروي وقائعها الفاروق عمر رضي الله عنه وأشخاصها هم الأعلى مكانة ورتبة في الخلائق وهم: المصطفى ﷺ وجبريل عليه السلام وبعض الصحابة الأخيار، ودقة الوصف المثير للتأمل والدهشة تتجلى في قول عمر: "إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر لا يُرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد".

هذا الوصف فيه مفارقة، لأن الرجل بدا غريباً. فهو ليس من أهل المدينة، ومع ذلك ثيابه نظيفة، وليس عليه مسحة من غبار السفر، وشعره لس أشعث، ورغم ذلك لا يعرفه أحد من الحاضرين.

- والتعبير بقوله: "طلع علينا رجل"، يدل على أنه ظهر بغتة، وهذا التعبير مستعار من طلعت الشمس ولا يذكر إلا فيما له شأن، وذلك مناسب لهذه الشخصية، لأنها في الحقيقة هى شخصية جبريل ﷺ، فقد طلع على الناس طلوع الشمس من خدرها.
- وقال بعض المحققين: طلوعه كذلك يقوي معنى قولهم: "حسن الأدب في الظاهر عنوان حسن الأدب في الباطن"، والملائكة تتمثل في أحسن الصور،

وتأخذ الزينة، وفي هذا أسوة حسنة لأهل العلم الداعين إلى الله أن يتجملوا من الحلال الطيب بما يحسن منظره ولا يزري بلابسه"[١].

- ولنتأمل طريقة جلوس هذا الرجل السائل، حيث جلس من النبي مجلساً يثير تعجب الحاضرين، وذلك لأن جلسته توحي بعدم اكتراث هذا السائل، وبأن هيئته في جلسته هيئة معلّم مهتم بشؤون التعليم والعلم، وهذا ليس شأن السائل المعتاد، ونداؤه لرسول الله "يا محمد" يوحي بعدم التوقير ويثير مزيداً من عجب الحاضرين لمزيد من التشويق ومتابعة ما يدور من حوار وإجابات. وقيل: زيادة في التغريب عند افتتاح الخطاب بالمسألة، وإمعاناً في إيهام السامعين وتعليماً لهم كرر السائل جملة: "أخبرني" أربع مرات في سؤاله عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة وأمارات الساعة، ولفظ "أخبرني" لا يوحي بجهل السائل، وإنما يوحي بمعرفته للإجابة، والقصد من السؤال هو تعليم الحاضرين وكل من يتلقى هذه الإجابات النبوية الدقيقة العميقة، والتعقيب بقول السائل: "صدقت" يؤيد هذا المنحى في تفسير قوله: "أخبرني"، ولذلك تعجب الصحابة: كيف يسأله ثم يصدقه، لأن من شأن السائل أن يكون جاهلاً وغير عارف إجابة السؤال إلا إذا كان في مقام التعليم والتقويم، ويجيبه المصطفى ﷺ موضحاً معالم الإسلام، ومعالم الإيمان وهما متلازمان في العقيدة الصحيحة، وكل معلم وكل ركن من أركان الإسلام الخمسة أسهب في توضيحه الفقهاء وعلماء العقيدة، وتفيض آثارهم العلمية بالذخائر والنفائس في هذا المجال، وكذلك الإيمان يحتاج إلى مجلدات وهي موجودة ومحققة تشرح حقيقته وأركانه ومتعلقاته وهي التي وضحها الحديث الشريف: من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشره.

---

(١) انظر: المختار من كنوز السنة، ودليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان في تفصيل هذا الموضوع.

وقيل: قدم الملائكة على الكتب مراعاة للترتيب الواقع لأنه تعالى أرسل الملك بالكتاب إلى الرسل. ولفظ "الملائكة" يفيد معنى توصيل الرسالة، فهم رسل الله إلى أنبيائه.

- والإيجاز البليغ يتمثل في قوله: "ما المسؤول عنها بأعلم من السائل"، وكذلك الدلالات اللغوية الموحية في تصوير أمارات الساعة تعد من جوامع كلمه ﷺ وفيها نبوءات بما سيحدث، وفيها بشارات بكثرة الفتوحات، وكثرة المخالفات، وفساد الأحوال.
- وعقدة القصة تحل بلحظة التنوير وإضاءة الحدث وهي الكشف عن شخصية السائل وهو جبريل عليه السلام.

فقه الحديث

قال القاضي عياض: "وقد اشتمل على جميع وظائف العبادات الظاهرة والباطنة من عقود الإيمان، وأعمال الجوارح، وإخلاص السرائر والتحفظ من آفات الأعمال، حتى إن علوم الشريعة كلها راجعة إليه ومتشعبة منه. ويقول القرطبي: (فيصلح هذا الحديث أن يقال فيه إنه أم السنة، لما تضمنه من جمل علم السنة)[1]. وفيه من الفقه:

١-تحسين الثياب والهيئة عند الدخول على العلماء والملوك والأدب في مجالستهم:

- قوله: "إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر" قال القرطبي: (فيه دليل على استحباب تحسين الثياب والهيئة والنظافة عند الدخول على العلماء والفضلاء والملوك، فإن جبريل عليه السلام أتى معلّمًا للناس بحاله ومقاله)[2].
- ٢-البدء بالسؤال قبل السلام: قال جبريل عليه السلام: "يا محمد أخبرني عن الإسلام؟" قال ابن حجر: (فإن قيل: فكيف بدأ بالسؤال قبل السلام؟ أجيب بأنه يحتمل أن يكون ذلك مبالغة في التعمية لأمره، أو ليبين أن ذلك غير

---

(١) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١٩٢ – ١٩٣.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ١/١٣٧.

واجب، أو سلم فلم ينقله الراوي، قلت [القائل ابن حجر]: وهذا الثالث هو المعتمد، فقد ثبت في رواية أبي فروة ففيها ((حتى سلم من طرف البساط فقال: السلام عليك يا محمد، فرد عليه السلام))[1])[2].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة على مجالسة النبي ﷺ.

ثانياً: من صفات الداعية: الرفق واللين.

ثالثاً: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

رابعاً: من واجبات المدعو: التسليم بالحقائق.

خامساً: من موضوعات الدعوة: معرفة أركان الإسلام والإيمان وحقيقة الإحسان.

سادساً: من موضوعات الدعوة: مراقبة الله والإخلاص في عبادته.

سابعاً: من موضوعات الدعوة: ترك الأمور التي لا تعني الإنسان.

ثامنًا: من موضوعات الدعوة: أمارات الساعة.

تاسعًا: من مهام الداعية: إزالة اللبس والاستغراب عن المدعوين.

عاشراً: من وسائل الدعوة: التعليم.

أولاً- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة على مجالسة النبي ﷺ:

يظهر ذلك في قوله عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ...".

قال ابن عثيمين: (وكان الصحابة رضي الله عنهم يجلسون عند النبي ﷺ كثيراً، لأن الرسول ﷺ لا يغيب عن أصحابه رضي الله عنهم أو أهله: إما في البيت: في شؤون بيته ﷺ يحلب الشاة، ويرقع الثوب، ويخصف النعل[3].

(١) أخرجه أبو داود ٤٦٩٨، والنسائي ٤٩٩٤، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٩٣١).

(٢) فتح الباري، ابن حجر ١/٣٠٤.

(٣) انظر في ذلك: ما أخرجه أحمد في مسنده ٦/١٢١.

وإما مع أصحابه في المسجد، وإما ذاهباً إلى عيادة مريض أو زيارة قريب، أو غير ذلك من الأمور التي لا يمضي منها لحظة إلا وهو في طاعة الله[١].

وقد حرص صحابة رسول الله ﷺ على مجالسته لينالوا شرف مصاحبته وينهلوا من علمه ويتأسوا بأخلاقه وصفاته التي خصه الله بها وجعله خير خلق الله وأعظمهم خُلقاً قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٢] وكذلك ليعلموا أمور دينهم، وكان الصحابة رضي الله عنهم أشد الناس حرصاً على أخذ العلم وأمور دينهم عن رسول الله ﷺ لأنه المعلم الأول لهذه الأمة، قال تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾[٣].

ثانياً- من صفات الداعية: الرفق واللين:

يظهر ذلك في قول عمر رضي الله عنه حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه. فالرفق واللين من الداعية أمر مطلوب فعليه أن يكون هيناً عطوفاً مشفقاً على الناس، ينظر إليهم على أنه طبيب يعطي كل مريض علاجه الذي يناسبه[٤].

ورسول الله ﷺ كان يحب الحلم والأناة ويعفو ويصفح فلابد أن يقتدي الداعية برسول الله ﷺ الذي ضرب أروع الأمثلة في اللين والرفق بأمته. يقول تعالى مخبراً عن ذلك: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾[٥].

ثالثاً- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

من الأساليب الدعوية المهمة السؤال والجواب لما لهما من أثر في إثارة انتباه المدعوين

---

(١) شرح رياض الصالحين ١/١٦٣.

(٢) سورة القلم، آية: ٤.

(٣) سورة البقرة، آية: ١٥١.

(٤) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأثرهما في حفظ الأمة، د. عبدالعزيز أحمد المسعود ١/٢٨٦.

(٥) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

وإقبالهم على ما يقال. ومن الشواهد في الحديث: أن جبريل عليه السلام يسأل رسول الله ﷺ عن الإسلام، والإيمان، والإحسان، والساعة، ورسول الله ﷺ يجيب.

فأسلوب السؤال والجواب من أساليب الدعوة المفيدة نظراً لأنه يعمل على جذب انتباه المدعوين، لأجل الإلمام بما يطرح من أسئلة وأجوبة عليها، خاصة إذا كانت متعلقة بأمور الدين والقضايا الأساسية فيه، والأسئلة تثير الرغبة في المدعوين لمعرفة الجواب وقد تنزع نفوسهم إلى المشاركة في الإجابة عليها كأنهم هم المسؤولون، وفي كلتا الحالتين تتفتح أذهانهم لمعرفة الجواب، من المتصدر للإجابة، العالم بأجوبة المسائل المطروحة[(١)].

رابعاً- من واجبات المدعو: التسليم بالحقائق:

يظهر ذلك في قول جبريل عليه السلام: "صدقت" فلم ينكر ولم يعارض بل صدق وسلم بالحقائق التي ذكرها رسول الله ﷺ.

فالمدعو مطالب بالتسليم بالحقائق إذا تبينت له: وذلك أن الله تعالى قد أعطى الإنسان عقلاً يميز به بين ما ينفعه وما يضره، وما هو خير، وما هو شر، وقد أرسل الله الرسل والأنبياء، وأنزل معهم الكتاب والميزان، ليقوم الناس بالقسط. قال سبحانه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[(٢)].

وطالب الله سبحانه أمة الدعوة جميعاً بأن يستجيبوا للرسول محمد ﷺ؛ لأنه يدعوهم لما يحييهم في الدنيا حياة طيبة، ويعطيهم في الآخرة رضا الله. فقال لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[(٣)].

---

(١) انظر: فقه الدعوة إلى الله، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، ص ٥٩.

(٢) سورة الحديد، آية: ٢٥.

(٣) سورة الأنفال، آية: ٢٤.

إن المدعو مطالب بأن يسلم بالحق بمجرد أن يستبين له، ومطالب بأن يكف عن المعصية، ويخرج من ذلها وإثمها، ليستمتع بعز الطاعة وعظيم أجرها عند الله، ومطالب بأن يستمر على طاعته، وأن يستزيد منها ومن فعل الخير. إن المدعو مطالب بذلك كله، وهذا هو الانقياد والانصياع إلى الحق، وهذا هو واجبه الذي لا محيد عنه إلا بهمزات الشياطين من الإنس أو الجن، أو بإغلاق القلب والعقل عن تقبل الحق عناداً أو كبرياء. ومن يفعل ذلك بعد أن يتبين له الحق فإنه يسيء إلى مستقبله مع الله، لأنه لن يفلت من عقاب مخالفة الرسول ﷺ[1].

خامساً- من موضوعات الدعوة: معرفة أركان الإسلام والإيمان وحقيقة الإحسان:

يظهر ذلك في سؤال جبريل عليه السلام لرسول الله ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان. قال رسول الله ﷺ "سلوني"[2] قال النووي: (هذا ليس بمخالف للنهي عن سؤاله، فإن هذا المأمور فيما يحتاج إليه وهو موافق[3] لقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[4].

قال السعدي: (وهذه الآية وإن كان سببها خاصاً بالسؤال عن حالة الرسل المتقدمين من أهل الذكر، وهم أهل العلم، فإنها عامة في كل مسألة من مسائل الدين، أصوله وفروعه، إذا لم يكن عند الإنسان علم منها، أن يسأل من يعلمها. ففيه الأمر بالتعلم والسؤال لأهل العلم، ولم يؤمر بسؤالهم، إلا لأنه يجب عليهم التعليم والإجابة عما علموه)[5].

---

(١) انظر: أصناف المدعوين وكيفية دعوتهم، د. حمود بن أحمد الرحيلي ص ١٤، ١٥.

(٢) أخرجه مسلم مطولاً برقم ١٠.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي النووي ص ٨٥.

(٤) سورة النحل، آية: ٤٣.

(٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٤٦٨.

والمسلم الذي يجهل أمور دينه يجب عليه أن يسأل العالم بها حتى يعلم حقيقة دينه وأركانه، لأنه يجب على كل مسلم أن يكون لديه إلمام ومعرفة بأركان الإسلام والإيمان والفرق بينهما، وأن يعرف حقيقة الإحسان.

وأن من واجبات الداعية: بيان الأشياء التي يقوم عليها الدين الإسلامي وكذلك الأشياء التي يتحقق بها كمال الدين، وهذا ما فعله النبي ﷺ حينما أخبر عن الإسلام، والإيمان، والإحسان. والدعاة هم الذين حملوا مواريث النبوة، واضطلعوا بأعباء الرسالة. فعليهم أن يقودوا الناس إلى الله، ويوجهوهم إلى وجهة الحق والخير. فتعلو بذلك إنسانيتهم وتسمو مواهبهم ويحققوا معاني الهدى والرشاد[١].

فإن الدعاة إلى الله هم الهداة إلى الله، والدعاة إلى كلمته، والقوامون على دينه، والذائدون عن حرماته، والواقفون على مفترق الطريق يرشدون الحيارى، ويبصرونهم أعلام الطريق.

هؤلاء الذين يبلغون رسالات الله، والذين اصطفاهم الله لحمل أمانته ودعوة الخلق إلى الحق[٢]، فينبغي عليهم أن يبينوا للمدعوين أسس الدين وأركانه.

سادساً- من موضوعات الدعوة: مراقبة الله والإخلاص في عبادته:

وهذا ما عبر عنه رسول الله ﷺ بقوله "أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك" فهذا من جوامع الكلم التي أوتيها ﷺ لأنا لو قدرنا أن أحدنا قام في عبادة وهو يعاين ربه سبحانه وتعالى، لم يترك شيئاً مما يقدر عليه من الخضوع والخشوع وحسن السمت، واجتماعه بظاهره وباطنه على الاعتناء بتتميمها على أحسن وجوهها إلا أتى به. فقال ﷺ "اعبد الله في جميع أحوالك كعبادتك في حال العيان" فإن التتميم المذكور في حال العيان إنما كان لعلم العبد باطلاع الله سبحانه وتعالى عليه، فلا يقدم العبد على تقصير في هذا الحال للاطلاع عليه، وهذا المعنى موجود مع عدم رؤية العبد،

---

(١) انظر: دعوة الإسلام، السيد سابق، ص ٢٨٥.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص ٢٩٣.

فينبغي أن يعمل بمقتضاه، فمقصود الكلام الحث على الإخلاص في العبادة، ومراقبة العبد ربه تبارك وتعالى في إتمام الخشوع والخضوع وغير ذلك. وقد ندب أهل الحقائق إلى مجالسة الصالحين؛ ليكون ذلك مانعًا من تلبُّسه بشيء من النقائص، احترامًا لهم واستحياء منهم فكيف بمن لا يزال الله تعالى مطلعًا عليه في سره وعلانيته(١).

سابعاً- من موضوعات الدعوة: ترك الأمور التي لا تعني الإنسان:

يظهر ذلك في سؤال جبريل عن الساعة وإخبار الرسول ﷺ أنّ الخلق كلهم في علمها سواء وفي هذا إشارة إلى أن الله تعالى استأثر بعلمها(٢).

يقول تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٣).

قال ابن كثير: (أمر تعالى نبيه ﷺ إذا سئل عن وقت الساعة أن يرد علمها إلى الله تعالى، فإنه هو الذي يجليها لوقتها أي: يعلم جلية أمرها ومتى يكون التحديد أي لا يعلم ذلك أحد إلا هو تعالى)(٤). فعلم الساعة يترك لله تعالى ولا يسأل الإنسان إلا فيما يعنيه فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((مِنْ حُسْنِ إِسْلاَمِ المَرْءِ تَرْكُهُ ما لا يعْنِيهِ))(٥).

قال ابن رجب: أن من حسن إسلامه ترك ما لا يعنيه من قول وفعل، واقتصر على ما يعنيه من الأقوال والأفعال، ومعنى يعنيه: أنه تتعلق عنايته به، ويكون مقصده ومطلوبه(٦).

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٨٢.

(٢) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١٣٥/١.

(٣) سورة الأعراف، آية: ١٨٧.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٥١٨/٣.

(٥) أخرجه الترمذي ٢٣١٧ وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٨٨٦).

(٦) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢٨٨/١.

ثامنًا- من موضوعات الدعوة: أمارات الساعة:

قد ذكر رسول الله ﷺ للساعة علامتين:

الأولى: "أن تلد الأمة ربتها" والمراد بربتها سيدتها ومالكتها. وهذا إشارة إلى فتح البلاد، وكثرة جلب الرقيق حتى تكثر السراري ويكثر أولادهن فتكون الأم رقيقة لسيدها، وأولاده منها بمنزلته. فإن ولد السيد بمنزلة السيد، فيصير ولد الأمة بمنزلة ربها وسيدها[(١)].

الثانية: "أن ترى الحفاة العراة العالة" أي أهل البادية وأشباههم من أهل الحاجة والفاقة تبسط لهم الدنيا حتى يتباهون في البنيان[(٢)]. وهذه الأمارات من الأشياء التي خص الله عز وجل نبيه بها.

ومن معاني "يتطاولون في البنيان" أن كل قادر يحاول أن يزيد في ارتفاع بنيانه الذي يبنيه حتى يكون أعلى من غيره، في منافسة زائفة لا نهاية لها، ولا هدف من ورائها غير التفاخر والتطاول، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. والتطاول فيه معنى المنافسة، والمباهاة، والتفاخر، وهو أكثر من التطويل.

وفي هذا الحديث الشريف ذكر المصطفى ﷺ نبوءتين من أشراط الساعة تحققتا بالكامل في العقود المتأخرة من القرن العشرين وما كان أحد يمكن له أن يتخيل - مجرد تخيل - إمكانية وقوعهما: والنبوءة الأولى منهما: "أن تلد الأمة ربتها".

ومن معاني هذه النبوءة النبوية الشريفة أن يسود العالم حثالات البشر من أبناء وبنات الإماء والعبيد، وأبناء الزنا ومجهولي الأنساب بمعنى أن تكون الأم وضيعة الأصل، حقيرة المنشأ، ومعدومة التربية، ثم يصل أبناؤها أو بناتها إلى حكم المجتمعات، ويدعون أمهاتهم فيما هن من هوان وذل وانحطاط.

وقد يكون المقصود بهذا النص النبوي الشريف أن ينتشر عقوق الوالدين، خاصة عقوق الأمهات، وذلك لأن لفظة (الأمة) كما تعني غير الحرة (أي العبدة) وجمعها

---

(١) المرجع السابق ١/١٣٦.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٨٢.

(إماء)، تعني أيضاً أياً من النساء، وبذلك يعني النص أن الناس سوف يصلون إلى زمن يفقدون فيه الاحترام الواجب للوالدين بصفة عامة، وللأم بصفة خاصة فيعاملونها معاملة السيد للخادمة ويهدرون كل ما لها من حقوق، وقد وصل الناس إلى هذا المستوى من نكران الجميل، وغمط الحقوق ولم يكن ممكناً لأحد أن يتصوره أبداً أبداً من قبل عقود قليلة..!!

والنبوءة الثانية في هذا الحديث النبوي الشريف هي: (وأن ترى الحفاة، العراة، العالة، رعاء الشاء يتطاولون في البنيان) وقد تطاولوا!!

ولا يمكن لعاقل أن يتصور مدى التطاول في البنيان الحاصل على سطح الأرض اليوم بصفة عامة، وفي الجزيرة العربية بصفة خاصة، وإن جاز ذلك - وهو لا يجوز - في دول تحتاج إلى شبر من الأرض مثل كل من اليابان وبريطانيا، فلا يجوز أبداً في الصحاري العربية والإسلامية الممتدة لملايين الكيلومترات المربعة، وتكلفة عمارة واحدة من هذه العمارات التي تطاولت في الارتفاع تبنى آلاف الدور، وتنشر العمران على الأرض، تلطف الجو، وتتيح الفرصة لمزيد من الزرع، ولمزيد من المكان لكل من الإنسان، والحيوان، وتخفف الضغط على البيئة، وهي في نفس الوقت أقل كلفة في الإنشاء وفي الخدمة والصيانة والتأمين ضد الحرائق وغيرها من المخاطر، والأمن في حالات الحرروب والزلازل حيث إن مثل هذه العمائر الشاهقة الارتفاع تعتبر نقاط ضعف في حالات الحروب والزلازل لسهولة تدميرها والقضاء على من فيها. هذا غير تأثيرها السيئ على البيئة والإنسان من النواحي البيئية والصحية والنفسية والاجتماعية، فهي تعزل الناس عن بعضهم البعض، وتقطع أو تحد من علاقاتهم، وتشجع على العزلة الاجتماعية والفردية، كما تشجع على الجريمة، وتعزل الناس عن الطبيعة وتفصلهم عن الجيران[1].

وفي الوقت نفسه تلغي الخصوصية وتحرم الأطفال من أماكن لهوهم، وتؤدي إلى ازدحام الشوارع ،وإلى كثرة السيارات بها، وإلى تلوث البيئة، وإلى ضعف الإبصار وإلى العديد من الأمراض الأخرى.

---

(١) الإعجاز العلمي في السنة النبوية، د. زغلول النجار، ١٥٧/٢ - ١٥٩.

إن كل عربي ومسلم يفرح لانتشار العمران والتقدم المادي في بلاد العرب والمسلمين، ولكنه في نفس الوقت يكره النظام السائد في الإنفاق من أجل التطاول في البنيان في صحاري تحتاج إلى انتشار العمران انتشاراً أفقياً وليس امتدادٌ رأسياً.

هل يمكن لعاقل أن يبرر هذا التسابق الجنوني على التطاول في البنيان؟ أو يملك النظر إلى هذه الكتل الخرسانية المرتفعة لمستويات مبالغ فيها جداً دون حاجة إلى ذلك إلا أن يفسره بالرغبة في التطاول في البنيان؟ وهل يمكن للناظر إلى القصور الباذخة، والسيارات الفارهة، والإسراف المخل في كل اتجاه إلا أن يدرك حجم المؤامرة على بلادنا العربية والمسلمة لصرف إنفاقها عن الاتجاه الصحيح الذي يهدف إلى بناء الإنسان نفسياً وروحياً، ودينياً، وفكرياً، علمياً وتقنياً، بدنياً وعسكرياً حتى يتمكن من الدفاع عن أرضه ، وعرضه، وماله، ونفسه وولده، ودينه ومقدساته، فلا يكون وما يملك نهباً لقطاع الطريق الدوليين الجدد الذين أغرقوا بلاد العرب والمسلمين في ترف كاذب، وألهوهم عن بناء شعوبهم البناء الصحيح، في الوقت الذي طوروا هم أنفسهم علمياً وتقنياً، وتفوقوا في ذلك تفوقاً كبيراً ليفرضوا إرادتهم على العرب والمسلمين وعلى بقية دول العالم بحد الغلبة العسكرية الجائرة!! (١).

تاسعًا- من مهام الداعية: إزالة اللبس والاستغراب عن المدعوين:

وهذا ما فعله النبي ﷺ عندما استغرب الصحابة والتبس عليهم أمر جبريل عليه السلام فأزال النبي ﷺ هذا الالتباس والاستغراب بإخباره ﷺ عمر بأنه جبريل جاء يعلمهم أمر دينهم.

وهذا كان شأنه دائماً ﷺ في كل ما التبس على صحابته رضي الله عنهم أو استغربوا له وهو القدوة للدعاة ولعامة المسلمين.

عاشراً- من وسائل الدعوة: التعليم:

إن من الوسائل الدعوية التي تعين الداعية في توصيل دعوته إلى المدعوين: التعليم وقد حفل هذا الحديث بتعليم الأمة أمور دينها من خلال تلك الأسئلة التي طرحها جبريل عليه السلام على النبي ﷺ وقد أخبر النبي ﷺ "بأنه جبريل أتاكم يعلمكم أمور

(١) المرجع السابق ٢/١٥٩ - ١٦٠.

دينكم". وقال ابن رجب (فمن تأمل هذا الحديث العظيم علم أن جميع العلوم والمعارف ترجع إليه وتدخل تحته وأن جميع العلماء من فرق هذه الأمة لا تخرج علومهم التي يتكلمون فيها عن هذا الحديث)[1].

ولقد اهتم الرسول صلوات الله وسلامه عليه بتعليم أصحابه اهتماماً كبيراً، لأنه كان يعلم أن الجهل أساس كل داء، وأن من جهل شيئاً عاداه، فما عليه إلا أن يفتح عقولهم ليسمعوا كلمة الحق ويتبعوا الدين المبين، وليدعوا الناس على بصيرة وفهم. وعلى الداعية أن ينتبه لهذا، ويعلم الناس أحكام الدين، ويعرّفهم بحدود الله، ولا يكتفي منهم بالعاطفة الطيبة... كما لا يكتفي بإلقاء البذرة في الأرض دون تعهدها بالتقشيب والسقي وغير ذلك. فعليه أن يبلغ أن الإسلام دين شامل للحياة وعليه أن يوصي بالاتصال الدائم بكتاب الله فهماً وتدبراً، وسيرة نبيه ﷺ وعليه أن يدعو إلى المحافظة على أركان الدين وأصوله[2].

---

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ص ١٣٤.

(٢) انظر: الدعوة الإسلامية، محمد خير رمضان يوسف، ٧٥، ٧٦.

الحديث رقم (٦١)

٦١- الثَّاني: عن أبي ذَرٍّ جُنْدُبِ بْنِ جُنَادةَ، وأبي عبْدِ الرَّحْمنِ مُعاذِ بْنِ جبل رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، عنْ رسولِ اللَّهِ ﷺ، قال: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحسنةَ تَمْحُهَا، وخَالقِ النَّاسَ بخُلُقٍ حَسَنٍ» رواهُ التِّرْمذيُّ، وقال: حديثٌ حسنٌ[١].

ترجمة الراويين:

أبو ذر الغفاري: اختلف في اسمه اختلافاً كثيراً فقيل: جندب بن جنادة، قال بن الأثير: وهو أكثر وأصح ما قيل فيه. والمشهور: جندب بن جنادة بن قيس بن عمرو بن مُلَيل بن صغير بن حَرام بن غفار، وجاء في سنن ابن ماجه عن أبي ذر قال: مر بي النبي ﷺ وأنا مضطجع على بطني فركضني برجله وقال: ((يا جنيدب إنما هذه ضِجْعةٌ أهل النار))[٢] قال ابن حجر: فإن صحّ إسناده فهو صريح في أن اسمه جندب، وهو من كبار الصحابة، وفضلائهم، له صحبة ورواية، روى ٢٨١ حديثاً.

وكان أبو ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قد أسلم قديماً، يقال أسلم بعد ثلاثة وقيل بعد أربعة، فكان خامساً، ثم انصرف إلى بلاد قومه فأقام بها حتى قدم على النبي ﷺ، ذلك أنّه لما بلغ أبا ذر مبعث رسول الله ﷺ... تزود وحمل شنَّة له فيها ماء حتى قدم مكة... فجاء النبي ﷺ فطاف بالبيت وصلّى ركعتين خلف المقام، قال أبو ذر: فأتيته، فإني لأول الناس حياه بتحية الإسلام، فقلت: السلام عليك يا رسول الله. قال: ((وعليك السلام، من أنت؟))[٣] قلت: رجل من بني غفار، فعرض عليَّ الإسلام، فأسلم، وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فقال له رسول الله ﷺ: ((ارجع إلى قومك فأخبرهم

---

(١) رواه الترمذي (١٩٨٧)، وقال: هذا حديث حسن صحيح. ونقل الترمذي عن شيخه في هذا الحديث محمود ابن غيلان أنه قال: والصّحيح حديث أبي ذر أهـ قلتُ: وفيهما انقطاعٌ، وأخرجه ابن حجر في الأمالي المطلقة (ص: ١٣١) بإسناده من طريق الدارمي برقم (٢٧٩٤) ثمّ ذكر له شاهدين وصحّحه. وقال ابن منده في التوحيد (٣٢٨/١): هذا إسناد مشهور، رواه ثقات. أورده المنذري في ترغيبه (٤٦٢٤).

(٢) أخرجه ابن ماجه ٣٧٢٤، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٣٠٠١).

(٣) أخرجه مسلم ٢٤٧٣، ١٣٢.

واكتم أمرك عن أهل مكة فإني أخشاهم عليك، فقلت: والذي نفسي بيده لأصرخنَّ بها بين ظهرانيهم، فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فثار القوم إليه فضربوه حتى أضجعوه، وأتى العباس فأكب عليه، وقال: ويلكم ألستم تعلمون أنه من غفار وأن طريق تجارتكم إلى الشام تمر عليهم، وأنقذه منهم))[1]، ثم لحق بقومه فكان هذا أول إسلام أبي ذر رضي الله عنه.

ولما رجع إلى بلاده دعا قومه إلى الإسلام فأسلم بعضهم، ودعا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولقبيلة أسلم فقال ((غفار غفر الله لها وأسلمُ سالمها الله))[2] وأقام في قبيلة غفار حتى مضت بدر وأحد والخندق -ومع ذلك كان عمر يلحقه بالبدريين- ثم قدم على النبي صلى الله عليه وسلم المدينة فصحبه إلى أن مات، ثم خرج بعد وفاة أبي بكر إلى الشام، فلم يزل بها حتى ولي عثمان، ثم سكن الرَّبَذة[3]، حتى مات بها، وكان قد شهد فتح بيت المقدس مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء من رجل أصدق لهجة من أبي ذر))، وكان رضي الله عنه ذا علم وافر وأثنى الجميع على علمه، وكان يفتي في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان، إذ أنه كان من أوعية العلم المبّرزين، وعده ابن سعد من الطبقات في أهل العلم والفتوى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكان كريماً لا يخزن من المال قليلاً ولا كثيراً، رأساً في الزهد والصدق والعلم والعمل كما كان قوّالاً بالحق لا تأخذه في الله لومة لائم على حِدَّةٍ فيه.

أما عن صفاته الخَلْقية فكان آدمَ[4] طويلاً جسيماً -وقيل كان نحيفاً- كث اللحية.

---

(١) أخرجه البخاري ٣٥٢٢، ومسلم ٢٤٧٤، ١٣٣.

(٢) أخرجه الترمذي ٣٨٠١، وابن ماجه ١٥٦، وصححه الالباني (صحيح سنن ابن ماجه ١٢٧).

(٣) الرَّبَذة بالراء، وبعدها باء موحدة والذال المعجمة وبالتحريك لها ذكر في أخبار أبي ذر. وكانت قرية عامرة ولكنها خربت سنة ٣١٩هـ بسبب الحروب وتقع في الشرق إلى الجنوب من بلدة الحناكية مائة كيل عن المدينة في الطريق إلى الرياض وبينها وبين مهد الذهب على مسافة ١٥٠ كيلاً. المعالم الأثيرة في السنة والسيرة، ص ١٢٥.

(٤) الأُدْمة: السُمْرة، والآدَمُ من الناس الأَسْمر والجمع أُدْمَانَ، مختار الصحاح في (ا د م).

توفي رضي الله عنه بالرّبْذة سنة (٣١) وقيل سنة (٣٢) وعليه الأكثر، وصلى عليه عبدالله ابن مسعود[(١)].

معاذ بن جبل: هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس أبو عبدالرحمن الأنصاري الخزرجي. أسلم وسنه ١٨ عاماً، وقد شهد العقبة وشهد بدراً والمشاهد كلها.

جمع الله له الهيبة وجمال الشكل وبهاء المنظر وحسن الأخلاق والإمامة في علم الحلال والحرام وقراءة القرآن.

فقد كان طويلاً أبيض وضئ الوجه حسن الثغر أكحل العينين، كان من أجمل الرجال، ولا يسأل شيئاً إلا أعطاه، وكان الصحابة إذا تحدثوا وفيهم معاذ نظروا إليه؛ هيبة له.

أحبّه النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره بحبه، فقال له: يا معاذ والله إني لأحبك والله إني لأحبك[(٢)].

وقد جمع القرآن في حياة النبي صلى الله عليه وسلم[(٣)] وأمر النبي صلى الله عليه وسلم بأخذ القرآن منه، فقال صلى الله عليه وسلم: ((خذوا القرآن من أربعة: من عبدالله بن مسعود وسالم ومعاذ وأبي بن كعب))[(٤)].

وقد شهد له النبي صلى الله عليه وسلم بأنه أعلم الصحابة في الحلال والحرام، فقال: ((وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ))[(٥)].

---

(١) الطبقات، ابن سعد (٣٥٤/١)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر (١١٠-١١٢)، (٨٠٠-٨٠٢)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير (٩٦/٦-٩٨)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني (١٤٦٦-١٤٦٨)، وسير أعلام النبلاء، الذهبي (٤٦/٢-٧٨)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي (٣٠٣/٨، ٣٠٤)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٥١٩/٤، ٥٢٠)، والأعلام، خير الدين الزركلي (١٤٠/٢)، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك (٢٠٥٦/٣).

(٢) أخرجه أبو داود (١٥٢٢)، وغيره وهو الحديث المذكور في الرياض برقم ٣٨٤ وصححه النووي.

(٣) صحيح البخاري (٥٠٠٣)، ومسلم (٢٤٦٥).

(٤) أخرجه البخاري (٤٩٩٩) ومسلم (٢٤٦٤).

(٥) أخرجه الترمذي: (٣٧٩٠، ٣٧٩١)، وابن ماجه (١٥٤) وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ١٢٥).

وقال عمر: من أراد الفقه فليأتِ معاذ بن جبل. وقال مرة: عجزت النساء أن يلدن مثل معاذ. ولولا معاذ لهلك عمر.

وقد استعمله النبي ﷺ على اليمن ورجع بعد وفاته وكان من أهل مشورة عمر.

ومناقبه كثيراً جداً، ومآثره عديدة، يلخصها قول ابن مسعود: إن معاذاً كان أمة قانتاً لله، إن كنا نشبهه بإبراهيم عليه السلام، إن الأمة الذي يعلم الخير والقانت المطيع لله ولرسول الله ﷺ، وكذلك كان معاذ بن جبل.

نزل حمص بالشام وكانت وفاته بالطاعون سنة ١٨ وقيل سنة ١٧ وعمره أقل من الأربعين[١].

غريب الألفاظ:

أتبع السيئة الحسنة: أتبع الشيء شيئاً: جعله له تابعاً وألحقه به، والمعنى: إذا فعلت سيئة فافعل حسنة وراءها[٢].

تمحها: تذهب بآثارها وتزيلها[٣].

خالق الناس: خالطهم وعاملهم وعاشرهم[٤].

---

(١) الطبقات، ابن سعد (٥٨٣/٣) والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر ٦٥٠، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير (١٨٧/٥) والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ١٢٥٢، والسير (٤٤٣/١)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي (١٣٧/٧) وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٩٧/٤)، والأعلام، خير الدين الزركلي (٢٥٨/٧)، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك (١٧٨٥/٣).

(٢) انظر: الوسيط ٨١.

(٣) انظر: القاموس المحيط، مجد الدين بن يعقوب الفيروز آبادي ١٣٣٣، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٦٥٤.

(٤) انظر: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٦٥٤، اللسان والوسيط في (خ ل ق).

الشرح الأدبي

حين نتأمل صياغة هذا الحديث النبوي الشريف ندرك أنه جاء في قالب الوصية.

وبوارق هذه الوصية تصدر أشعتها الهادية في اتجاهات ثلاثة تحيط بكل ما يحفظ على الإنسان علاقته بربه، وعلاقته بنفسه، وعلاقته بالناس، في ظل رؤية إسلامية راشدة.

- وأول إشعاع من أشعة هذه الوصية نقتبسه من قوله عليه الصلاة والسلام، "اتق الله حيثما كنت" وترد الصياغة اللغوية في أسلوب الأمر، والأمر للوجوب، "اتق الله"، والفعل مشتق من الوقاية: أي يقي الإنسان نفسه من غضب ربه وذلك بامتثال أوامره تعالى واجتناب نواهيه، والتقوى لا تكون أسيرة لحظة أو مكان أو مناسبة، وإنما قال المصطفى ﷺ "حيثما كنت".
- والأسلوب هنا شرطي، والجواب محذوف: أي: "حيثما كنت فاتق الله" وهذه قمة المراقبة والخشية؛ فالكينونة تكون في الزمان والمكان، لأن التقوى لابد أن تخالط كينونة المسلم في كل حرف وكل كلمة وكل حركة وكل زمان وكل مكان؛ لأن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾[1].

والإشعاع الثاني من بوارق هذه الوصية يمثل أفقاً من آفاق الفرج واستمرارية التقوى، وهو الحرص على التوبة والعودة إلى واحة الطاعة وحصن التقوى، وجاء ذلك في أسلوب الأمر وجواب الأمر، وهو يؤكد وجوب هذا المسلك الراشد الذي يتضوأ في هذه الجملة الموجزة التي تحمل المقدمة والنتيجة، والعمل والثواب، (وأتبع السيئة الحسنة تمحها)، والتعبير بـ "تمحها" أكثر تصويراً للموقف والمعنى من تغيرها أو تزلها، وفي هذا اطمئنان لكل من أراد أن يتوب لأن الثواب مضاعف "ويبدل الله سيئاتهم حسنات". والوصية الأخيرة، تمثل الثمرة الحقيقية للتقوى والتوبة وهي ترد في صيغة الأمر الذي يرشد إلى ضرورة إشاعة الخلق الحسن، والعلاقات الحسنة السوية: "وخالق الناس بخلق حسن".

---

(١) سورة النساء، آية: ١.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الأمر.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: الحث على تقوى الله.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: حسن الخلق.

رابعاً: من واجبات الداعية: الحرص على مصلحة المدعوين.

أولاً- من أساليب الدعوة: الأمر:

جاءت صياغة هذا الحديث الشريف في أسلوب الأمر "اتق الله ... وأتبع السيئة الحسنة ... وخالق الناس..." ولعل ما يفسر استخدام الامر هنا أن هذه المطلوبات الثلاثة مطالب بها كل واحد من المسلمين نظرًا لأهميتها الشديدة ومكانتها السامية، فلا تحتمل تأخيرًا أو تلميحًا، بل يناسبها التصريح والمباشرة، وهذا ما يؤديه الأمر خير أداء.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: الحث على تقوى الله:

يظهر ذلك في قول رسول الله ﷺ "اتق الله حيثما كنت...".

إن التقوى أساس الدين وبها يرتقي إلى مراتب اليقين(١). وتقوى الله تكون في كل زمان ومكان؛ لأن التقوى من الأمور التي حث عليها الإسلام ورغب فيها وجعلها سبباً لكثير من الخيرات قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾(٢).

قال السعدي: (أن تقوى الله وسيلة إلى حصول العلم، وأوضح من هذا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾(٣) أي علماً تفرقون به بين الحق والباطل)(٤).

---

(١) تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي، المباركفوري ١٦٥٤/٢.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٨٢.

(٣) سورة الأنفال، آية: ٢٩.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ١٠٠.

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾(١).

قال السعدي: (فكل من اتقى الله، ولازم مرضاته في جميع أحواله يثيبه الله في الدنيا والآخرة، ويسوق له الرزق من وجه لا يحتسبه ولا يشعر به)(٢). وغيرها من الآيات التي ترغب في تقوى الله وتبين أنها سبب في تيسير الأعمال وتكفير الذنوب وحصول المطلوب.

كذلك حث النبي على تقوى الله وأمر بها في كثير من أحاديثه منها: ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل يا رسول الله من أكرم الناس؟ قال ((أتقاهم))(٣) وكان يدعو بها ﷺ ويقول ((اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَىٰ وَالتُّقَىٰ، وَالْعَفَافَ وَالْغِنَىٰ))(٤) وغيره مما حث على تقوى الله وذلك لأن الله وعد المتقين بقوله ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾(٥). ولم يزل السلف الصالح يتواصون بها، كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يقول في خطبته: (أما بعد، فإني أوصيكم بتقوى الله، و أن تثنوا عليه بما هو أهله، وأن تخلطوا الرغبة بالرهبة، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة، فإن الله عز وجل أثنى على زكريا وأهل بيته، فقال: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾(٦))(٧).

---

(١) سورة الطلاق، الآيتان: ٢-٣.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٨٠٦.

(٣) أخرجه البخاري، ٣٣٥٣، ومسلم ٢٥٢٦.

(٤) أخرجه مسلم، ٢٧٢.

(٥) سورة القمر، الآيتان: ٥٤، ٥٥.

(٦) سورة الأنبياء، آية: ٩٠.

(٧) الخبر في المصنف لابن أبي شيبة ٢٥٨/١٣، ورواه من طريقه الحاكم في المستدرك ٣٨٣/٢، وأبو نعيم في الحلية ٣٥/١، وصححه الحاكم، ورده الذهبي بقوله: عبدالرحمن بن إسحاق كوفي ضعيف.

ولما حضرته الوفاة، وعهد إلى عمر، فوصَّاه بوصيةٍ، وأول ما قال له: اتق الله يا عمر.

وكتب عمر إلى ابنه عبدالله: أما بعد، فإني أوصيك بتقوى الله عز وجل، فإنه من اتقاه وقاه، ومن أقرضه جزاه، ومن شكره زاده، فاجعل التقوى نصب عينيك وجلاء قلبك.

واستعمل عليُّ بن أبي طالب رجلاً على سريَّةٍ، فقال له: أوصيك بتقوى الله الذي لا بدَّ لك من لقائه، ولا منتهى لك دونه وهو يملك الدنيا والآخرة.

وكتب عمر بن عبدالعزيز إلى رجل: أوصيك بتقوى الله عز وجل التي لا يقبل غيرها، ولا يرحم إلا أهلها، ولا يثيب إلا عليها، فإن الواعظين بها كثير، والعاملين بها قليل، جعلنا الله وإياك من المتقين.

ولما وُلِّي خطب، فحمد الله، وأثنى عليه، وقال: أوصيكم بتقوى الله عز وجل، فإنَّ تقوى الله عز وجل خلفٌ من كل شيء، وليس من تقوى الله خلف.

وقال رجل ليونس بن عبيد: أوصني، فقال: أوصيك بتقوى الله والإحسان. فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.

وقال له رجل يريد الحج: أوصني، فقال له: اتق الله، فمن اتقى الله، فلا وحشة عليه.

وقيل لرجل من التابعين عند موته: أوصنا، فقال: أوصيكم بخاتمة سورة النحل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾[(١)].

وكتب رجل من السلف إلى أخٍ له: أوصيك بتقوى الله، فإنها أكرم ما أسررت، وأزين ما أظهرت، وأفضلُ ما ادَّخرت، أعاننا الله وإياك عليها، وأوجب لنا ولك ثوابها.

وكتب رجل منهم إلى أخ له: أوصيك وأنفسنا بالتقوى، فإنها خير زاد الأخرة والأولى، واجعلها إلى كل خيرٍ سبيلك، ومن كل شر مهربك، فقد توكل الله عز وجل لأهلها بالنجاة مما يحذرون، والرزق من حيث لا يحتسبون.

وقال شعبة: كنتُ إذا أردت الخروج، قلت للحكم: ألك حاجةٌ، فقال: أوصيك بما أوصى به النبي ﷺ معاذ بن جبل: ((اتق الله حيثما كنت، واتبع السيئة الحسنة

---

(١) سورة النحل، آية: ١٢٨.

تمحها، وخالق الناس بخلق حسن)). وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه كان يقول في دعائه: ((اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفة والغني))[١])[٢].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: حسن الخلق:

يظهر ذلك في قوله ﷺ "... وخالق الناس بخلق حسن".

إن حسن الخلق من الموضوعات ذات الأهمية البالغة في الدعوة الإسلامية، وذلك لأن حسن الخلق أساس عظيم من أسس الأخلاق الإسلامية وقد سُئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الجنة؟ فقال: "تقوى الله وحسن الخلق"[٣].

قال السعدي: (حسن الخلق ومكارم الأخلاق تحبب العبد إلى أعدائه، وسوء الخلق ينفر عنه أولاده وأصدقاءه. ومن مزايا حسن الخلق أن صاحبه يتمكن من إرضاء الناس على اختلاف طبقاتهم، كل من جالسه وخالطه أحبه، لا يمله الجليس)[٤].

وكذلك رسول الله ﷺ رغّب في حسن الخلق لأن حسن الخلق ينعكس على الفرد وعلى الجماعة. وقد كان رسولنا الكريم أحسن الناس أخلاقاً وقد رغب ﷺ في حسن الخلق فقال: (أَكْمَلُ المؤمنينَ إيماناً أحْسَنُهُمْ خُلُقاً)[٥] إن رسول الله ﷺ هو القدوة لنا في حسن الخلق وسعة صدره وتلطفه مع الناس ورفقه بهم وحلمه مع جهل عليه وقد زخرت السنة بنماذج عظيمة في حسن خلقه ﷺ وقد سئلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن خلقه ﷺ فقالت: "كان خلقه القرآن"[٦].

قال ابن رجب: (وقوله: "وخالق الناس بخلقٍ حسن" هذا من خصال التقوى، ولا تتم

---

(١) أخرجه مسلم ٢٧٢١، وفيه العفاف بدل العفة.

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٤٠٥/١-٤٠٧.

(٣) أخرجه الترمذي ٢٠٠٤ وقال الالباني: حسن الإسناد (صحيح سنن الترمذي ١٦٣٠).

(٤) الرياض الناضرة، ص ٧٧، ٧٨.

(٥) أخرجه الترمذي ١١٦٢، وقال الألباني: حسن صحيح (صحيح سنن الترمذي ٩٢٨).

(٦) أخرجه مسلم ٧٤٦.

التقوى إلا به، وإنما أفرده بالذكر للحاجة إلى بيانه، فإن كثيرًا من الناس يظن أن التقوى هي القيام بحق الله دون حقوق عباده، فنصّ له على الأمر بإحسان العشرة للناس، فإنه كان قد بعثه إلى اليمن معلمًا لهم ومفقهًا وقاضيًا، ومن كان كذلك، فإنه يحتاج إلى مخالقة الناس بخلق حسن ما لا يحتاج إليه غيرُه ممن لا حاجة للناس به ولا يخالطهم، وكثيرًا ما يغلب على من يعتني بالقيام بحقوق الله، والانعكاف على محبته وخشيته وطاعته وإهمال حقوق العباد بالكلية أو التقصير فيها، والجمع بين القيام بحقوق الله وحقوق عباده عزيز جدًا لا يقوى عليه إلا الكمل من الأنبياء والصديقين.

وقال الحارث المحاسبي: ثلاثة أشياء عزيزة أو معدومة: حسن الوجه مع الصيانة، وحسن الخلق مع الديانة، وحسن الإخاء مع الأمانة.

وقال بعض السلف: جلس داود عليه السلام خاليًا، فقال الله عز وجل: مالي أراك خاليًا؟ قال: هجرت الناس فيك يا رب العالمين، قال: يا داود ألا أدلك على ما تستبقي به وجوه الناس، وتبلغ فيه رضاي؟ خالق الناس بأخلاقهم، واحتجز الإيمان بيني وبينك.

وقد عدَّ الله في كتابه مخالقة الناس بخلق حسن من خصال التقوى، بل بدأ بذلك في قوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾(١).

وروى ابن أبي الدنيا بإسناده عن سعيد المقبري قال: بلغنا أن رجلاً جاء إلى عيسى بن مريم عليه السلام، فقال: يا معلم الخير، كيف أكون تقيًا لله عز وجل كما ينبغي له؟ قال: بيسير من الأمر: تحبُّ الله بقلبك كله، وتعمل بكدحك وقوتك ما استطعت، وترحم ابن جنسك كما ترحم نفسك، قال: من ابن جنسي يا معلم الخير؟ قال: ولدُ آدم كلهم، وما لا تحب أن يؤتى إليك، فلا تأته لأحدٍ وأنت تقي لله عز وجل كما ينبغي له.

وقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم حسن الخلق أكمل خصال الإيمان، كما خرج الإمام أحمد

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ١٣٣، ١٣٤.

وأبو داود من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: ((أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا)) وخرجه محمد بن نصر المروزي، وزاد فيه: ((وإن المرء ليكون مؤمنًا وإنَّ في خلقه شيئًا فينقُصُ ذلك من إيمانه)).

وخرّج أحمد وأبو داود النسائي وابن ماجه، من حديث أسامة بن شريك قال: قالوا يا رسول الله، ما أفضل ما أعطي المرء المسلم؟ قال: ((الخلق الحسن)).

وأخبر النبي ﷺ أن صاحب الخلق الحسن يبلُغُ بخلقه درجة الصائم القائم لئلا يشتغل المريد للتقوى عن حسن الخلق بالصوم والصلاة، ويظن أن ذلك يقطعه عن فضلهما، فخرج الإمام أحمد وأبو داد من حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: ((إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجات الصائم القائم)).

وأخبر أن حسن الخلق أثقل ما يوضع في الميزان، وأن صاحبه أحب الناس إلى الله وأقربهم من النبيين مجلسًا، فخرج الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي من حديث أبي الدرداء، عن النبي ﷺ، قال: ((ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق، وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة)). وخرج ابن حبان في "صحيحه" في حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: "ألا أخبركم بأحبكم إلى الله وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة؟" قالوا: بلى، قال: "أحسنكم خلقًا".

رابعاً- من واجبات الداعية: الحرص على مصلحة المدعوين:

إن من أهم ما يجب على الداعية القيام به، وعدم الغفلة عنه، هو الحرص على نفع المدعوين وتوجيههم إلى ما فيه نفعهم، مثل: أمره بتقوى الله في كل حال، وفعل الحسنات والتخلق مع الناس بالأخلاق الحسنة، وتذكير المدعوين بما يجب عليهم نحو ربهم من تقواه ومراقبته والخوف من عقابه وتذكيرهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[1]. وكذلك حثهم على كسب الحسنات، والبعد عن الذنوب والمعاصي.

---

(١) سورة الحجرات: آية ١٣.

وكذلك ما يجب عليهم نحو إخوانهم من حسن الخلق وذلك لأن الإسلام ربط بين تقوى الله وحسن الخلق فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الجنة فقال ((تَقْوَى اللهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ))[1] إن من أوجب الواجبات على الداعية حث المدعوين على تقوى الله تعالى، والتزود منها، نظرًا لعموم نفعها في الدنيا والآخرة ولحاجة كل مسلم إلى ذلك، وحاجته أيضًا للأخلاق الحسنة التي تؤهله إلى أعلى المنازل يوم القيامة.

(١) أخرجه الترمذي ٢٠٠٤، وقال الألباني: حسن الإسناد (صحيح سنن الترمذي ١٦٣٠).

الحديث رقم (٦٢)

٦٢- الثَّالثُ: عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: «كُنْتُ خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ يوْماً فَقَال: «يَا غُلامُ إِنِّي أُعلِّمكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّه، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، واعلَمْ: أَنَّ الأُمَّةَ لَو اجتَمعتْ عَلَى أَنْ يَنْفعُوكَ بِشيْءٍ، لَمْ يَنْفعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَد كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوك بِشَيْءٍ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بَشَيْءٍ قد كَتَبَهُ اللَّه عليْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلامُ، وجَفَّتِ الصُّحُفُ». رواهُ التِّرمذيُّ وقَالَ: حديثٌ حسنٌ صَحيحٌ[1].

وفي روايةِ غيرِ التِّرْمِذيِّ: «احفظَ اللَّهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ، تَعَرَّفْ إِلَى اللَّهِ فِي الرَّخَاءِ يعرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ، واعْلَمْ أنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصيبَكَ، وَمَا أَصَابَكَ لمْ يَكُن لِيُخْطِئَكَ واعْلَمْ أنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وأَنَّ مَعَ الْعُسرِ يُسْراً»[2].

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١).

غريب الألفاظ:

رفعت الأقلام وجفت الصحف: أي كتب في اللوح المحفوظ ما كتب من التقديرات ولا يكتب بعد الفراغ منه شيء آخر، فعبر عن سبق القضاء والقدر برفع القلم وجفاف الصحيفة بعد فراغ الكاتب من كتابته[3].

---

(١) رواه الترمذي (٢٥١٦). قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس (٦٠/١): وقد روي هذا الحديث عن ابن عباس من طرق كثيرة من رواية ابنه علي، ومولاه عكرمة، وابن أبي مليكة وغيرهم، وأصحّ الطرق كلها طريق حنش الصنعاني التي أخرجها الترمذي، كذا قاله ابن منده وغيره.

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٣٣١/٩)، والحاكم في المستدرك (٥٤٢/٤). قال السخاوي في المقاصد (ص: ١٥٧): ومن طريق الطبراني أورده الضياء في المختارة، وهو حسنٌ.

(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ر ف ع)، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٩٤٦.

الشرح الأدبي

- تكمن عظمة منهج الإسلام التربوي في أنه يستند في أساسه على العبادة بمعناها الواسع الشامل، وعلى الصلة الدائمة بالله، فالتربية على أساس العبادة تزود الإنسان دائماً بشحنات متتالية من القوة، وهي مستمدة من قوة الله عز وجل، ولقد وضح الدين الإسلامي أن للعبادة دوراً رئيساً في حياتنا وسلوكنا، وأن هذه العبادة ليست مجرد شعائر تؤدى فحسب، بل إن لها كذلك دورًا إيجابيًا مهمًا في تكوين شخصية الفرد وصقلها: والمفهوم الصحيح للعبادة هو ما أوضحه شيخ الإسلام ابن تيمية عندما سئل عن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾[١]، فأجاب رحمة الله: بأن العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالعبادة تشمل الفرائض التعبدية كما تشمل حسن المعاملة والوفاء بحقوق العباد والأخلاق والفضائل الإنسانية كلها من صدق الحديث وأداء الأمانة والوفاء بالعهود[٢].
- وانطلاقاً من هذا المفهوم المتسع للعبادة والسلوك الإسلامي تجئ هذه الوصايا المشرقة في هذا الحديث الشريف والمصطفى ﷺ يتوجه بها في أسلوب تربوي تعليمي إلى عبدالله بن عباس وهو غلام في سن العاشرة وكان قد أردفه خلفه على دابته. وقيل: إن هذه الوصايا الجامعة الرفيعة المقدار، الجامعة من العلوم والمعارف ما يفوق الحصر، فيها دليل على أنه ﷺ علم ما يؤول إليه أمر ابن عباس من العلم والمعرفة وكمال الأخلاق وحسن الأحوال.
- وهذه الوصايا المحكمة تؤكد اهتمام الإسلام بالطفولة، وحرص النبي ﷺ على غرس القيم الإسلامية في نفوس الناشئة، وقد ضرب المثل،

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ١٤٩/١٠.

وأعطى الأسوة الحسنة في تعليمه لابن عباس، وقال له: "إني أعلمك كلمات ..." الحديث.

وعنايةً من الإسلام بمستقبل الطفل أمر الآباء بحسن رعاية أبنائهم والقيام على تربيتهم وفق مفاهيم الإسلام، وأرشد الآباء إلى ضرورة إكساب الطفل المهارات والقدرات التي تجعله رجلاً قوياً ثابتاً متزناً في كل خطواته وتحركاته وأقواله وأفعاله.

ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث النبوي الذي يعد وثيقة تربوية تعليمية يتأسى بها علماء التربية وهم يخططون لثقافة الطفل وتربيته وتنشئته على أسس صحيحة.

- ورواية الحديث على لسان ابن عباس رضي الله عنهما: ترشد إلى الطريقة التربوية التي كان يعامل بها النبي ﷺ أصحابه وأبناء الصحابة وهى الملاطفة والحرص على تقديم النصيحة في أي وقت حتى وقت ركوب الدابة، وفي ذلك عدم تضييع الوقت، ولكن يجب استغلال كل دقيقة في النصح والتعليم.
- والنداء في قوله ﷺ: "ياغلام" فيه إيناس وتنبيه إلى أهمية ما بعد هذه النداء، والنداء بحرف الياء للإشعار بمزيد من الاهتمام والانتباه، وكذلك لم يحدد اسم الغلام مع أنه معروف وذلك للإشعار بأن هذه الوصايا ليست خاصة بابن عباس وإنما هى موجهة إلى كل من في مثل سنه وإلى كل مسلم بصفة عامة، والحديث -كما يقول العلماء- أصل عظيم في مراقبة الله ومراعاة حقوقه، والتفويض لأمره، والتوكل عليه، وشهود توحيده وتفرده، وعجز الخلائق كلهم وافتقارهم إليه[1].

والتأكيد في قوله: "إني أعلمك كلمات" يرشد إلى أهمية هذه الكلمات القليلة التي يسهل حفظها، وتحديد مصطلح "التعليم" فيه إيذان بوجوب هذا الأمر على كل مسؤول وعالم وأب بأن يتولى مسؤولية تعليم الأبناء وإرشادهم إلى الطريق الصحيح. وقوله "كلمات" في هذه الصيغة المنكرة للإيحاء بقلتها وسرعة حفظها، وذلك من باب الترغيب الذي يوائم العمر الزمني وحاجات الطفولة للتيسير، والتكرار في كثير من

(١) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١/ ٢٠٠.

جمل الحديث وكلماته له وظيفة تأثيرية تناسب جو الطفولة، لأن الغلام في هذه السن يحتاج إلى توضيح وتفصيل، والحديث في روايتيه يتكون من عشرة وصايا وفيها يتكرر كثير من الكلمات والجمل، وتتقارب المعاني وتتقابل في هذه الوصايا التربوية الأخلاقية الرائعة.

"احفظ الله يحفظك" هذه الوصية من جوامع كلمه ﷺ، فقد جمعت سائر أحكام الشريعة قليلها وكثيرها، وهي صيغت في قالب الأمر وجوابه، وألفاظها قليلة، ومعانيها كثيرة مترامية، وليس بها لفظ غريب، ولا تركيب ملتوٍ غامض، ولا أسلوب معقد ، وإنما هى تسطع وتتوهج كالشمس في كبد السماء.

"احفظ الله تجده تجاهك"، وهنا يتكرر فعل الأمر، "احفظ الله"، وهو ملازمة تقوى الله، وفي ذلك صلة وتواصل مع الحديث السابق: "اتق الله حيثما كنت". والوصية السابقة كانت للرجال، أما هذه الوصايا فهي للغلام الذي يعد لرجولة كاملة في ظل تعاليم الإسلام، والتعبير بقوله: "تجده تجاهك" أي: تجده معك بالحفظ والإحاطة والتأييد والإعانة.

والوصية الثالثة: "إذا سألت فاسأل الله"، وهذه الوصية في صيغة الشرط والجزاء، وأداة الشرط "إذا" وهى للتحقق، ويرشد ذلك إلى أن الله يحقق للعبد السائل المخلص رجاءه وسؤاله، وكذلك تربي هذه الوصية المسلم على الشجاعة وعدم إراقة ماء الوجه أمام أي مخلوق.

والوصية الرابعة: وهى الاستعانة لا تكون إلا بالله، في ظل سؤال الله الخالص من كل شائبة من الشرك والظنون والأوهام، وتكرار لفظ الجلالة أربع مرات في هذه الوصايا، يؤكد ثبات عقيدة المسلم واطمئنانه إلى حفظ الله وإجابته وإعانته في كل أموره الخاصة والعامة في دنياه وآخرته.

والوصية الخامسة: تغلفها عدة ظواهر أسلوبية ومنها الأمر والتأكيد والشرط والقصر، وهي تؤكد بهذه الأساليب أن النفع لا يكون إلا من الله، ولذلك يجب أن لا يتوهم الإنسان نفعاً خالصاً من أحد، والتعبير بـ"لو" يدل على أن النفع الجماعي من

البشر مستحيل ويكون عدمًا هباء، إذا أراد الله سبحانه وتعالى غيره وقدّر سواه.

والوصية السادسة: تجيء متوازية ومتوازنة في أسلوبها مع الوصية السابقة: ولكن تتغير أداة الشرط وهي "إنْ" لأن وقوع الضرر من الممكنات البشرية، والنفس أمارة بالسوء، وقيل: إن اجتماع الناس على الإمداد والنفع من المستحيلات بخلاف اجتماعهم على الأذى فإنه ممكن. وبين الوصيتين مقابلة أسلوبية وتضاد في المعنى، وهذا التضاد كان من أسباب تغير أداة الشرط، والتضاد بين "لك" و"عليك" يشير إلى ثمرة كل من الوصيتين.

- وبقية الوصايا في الرواية الثانية تحصنها عدة ظواهر أسلوبية مثل الأمر والتكرار والطباق والمقابلة لتأكيد المراد.

المضامين الدعوية

أولاً: من واجب الدعاة: الاهتمام بالموهوبين وأصحاب العبقريات من صغرهم.

ثانيًا: من الحلول الدعوية العملية لمشاكل التعليم: استخدام الوسائل المتاحة.

ثالثًا: من المهام الدعوية: الحرص على الجمع بين المعلم المتقن والطالب المُجِدِّ:

رابعًا: من أساليب الدعوة: النداء والأمر.

خامسًا: من صفات الداعية: الحرص على نفع المدعوين.

سادسًا: من وسائل الدعوة: التعليم.

سابعًا: من موضوعات الدعوة: الالتجاء إلى الله تعالى، وسؤاله سبحانه.

ثامنًا: من موضوعات الدعوة: بيان أن الأمور تجري بقدر الله.

تاسعًا: من موضوعات الدعوة: حسن الصلة بالله.

- عاشرًا: من موضوعات الدعوة: أهمية اليقين في الله.

أولاً- من واجب الدعاة: الاهتمام بالموهوبين وأصحاب العبقريات منذ صغرهم:

إن النبي ﷺ يعرف عبقرية ابن عباس وموهبته وكيف لا وهو الذي دعا له "اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل". لذلك حرص النبي ﷺ أن يردفه خلفه على دابته وأن يخصه بهذا الدرس العلمي الجامع النافع.

ثانيًا- من الحلول الدعوية العملية لمشاكل التعليم: استخدام الوسائل المتاحة:

استخدام الوسائل المتاحة: فقد جعل النبي ﷺ من ظهر الدابة فصلاً مدرسيًا متنقلاً، مما يوجب على الدعاة توظيف الوسائل المتاحة في كل بيئة للتعليم والدعوة وفي ذلك تيسير عملية التعليم واستغلال الأوقات التي لا تمر دون فائدة.

ثالثًا- من المهام الدعوية: الحرص على الجمع بين المعلم المتقن والطالب المُجِدُّ:

حيث كان المعلم رسول الله ﷺ وكان الطالب عبدالله بن عباس وإذا توفر للتعليم ذلك وللدعوة خطت الأمة خطوات عظيمة نحو التقدم.

رابعًا- من أساليب الدعوة: النداء والأمر:

أ- النداء: يعد النداء من الأساليب الدعوية التي لا يستغني الداعية عن الإفادة منها في الدعوة، وقد ورد النداء في هذا الحديث في قوله ﷺ "يا غلام" و(يا) النداء تستعمل لنداء البعيد حقيقة، أو حكماً، ولكن تستعمل مع القريب للتوكيد، وللتنبيه[١]. وهذا ما فعله النبي ﷺ مع ابن عباس في قوله (يا غلام) لشد انتباهه، وتأكيداً لأهمية النصيحة التي سوف يذكرها له.

ب- الأمر: وهو من الأساليب الدعوية المهمة لأنه يدل على أهمية الموضوع، وحرص الداعية على طلبه، ويشعر المدعو بضرورة الاستجابة لهذا الأمر لأهمية المأمور به، وذلك لأن الأمر بالشيء أمر بجميع ما لا يتم الشيء إلا به، وهذا ذكره السعدي[٢] في تفسير قوله تعالى: ﴿وأمر أهلك بالصلاة﴾ ورسول الله ﷺ استخدم أسلوب الأمر في أكثر من موضع في هذا الحديث "احفظ الله... فاستعن بالله.. وأعلم أن الأمة... تعرَّف إلى الله..." وهذا يدل على حرص النبي ﷺ على تأكيد الأمر على ابن عباس.

---

(١) انظر: القاموس المحيط، مجد الدين بن يعقوب الفيروز آبادي ص ١٣٥٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن اللويحق ص ٤٦٦.

خامسًا- من صفات الداعية: الحرص على نفع المدعوين:

من صفات الداعية الحرص على نفع المدعوين ويستنبط هذا من مجموع الوصايا التي أوصى بها ﷺ ابن عباس رضي الله عنهما في هذا الحديث والتي تبين ما اتصف به النبي ﷺ من حرص على نفع المدعو من خلال جملة الوصايا التي عهد بها إليه والتي تؤكد على أهمية تأسي كل داعية بالنبي ﷺ وحرصه على نفع المدعوين.

قال ابن رجب: (هذا الحديث يتضمن وصايا عظيمة وقواعد كليّة من أهم أمور الدين)[1]. إن هدف الداعية حب الخير للمدعوين، إذ أن حقيقة الدعوة حب الخير للغير، والحرص على تحقيق المصلحة له، وظهور هذا الحرص يجعل الدعوة محل قبول وامتثال، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[2]. وحرص الداعية على نفع المدعوين وتحقيق الخير لهم يجعل القلوب تلتف حوله ويقبلون دعوته[3].

سادسًا- من وسائل الدعوة: التعليم:

يعتبر التعليم من أهم الوسائل الدعوية وذلك لأن التعليم هو الذي ينقل الدعوة من الداعية إلى المدعو وكذلك ينقل العلم من جيل إلى جيل عن طريق التعليم وقد جعل الإسلام رفعة الإنسان بالعلم قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[4].

وكان التعليم وسيلة دعوة ابن عباس حيث علّمه رسول الله ﷺ من خلالها جملة من الحقائق المفيدة له وهي: حفظ نفسه من المعاصي من أجل أن يحفظه الله، وكذلك الالتجاء إليه، وسؤاله، والاستعانة به، وترك غيره، والاعتماد على الله وحده، وإخلاص

---

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٤٦٢/١.

(٢) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

(٣) انظر: النصيحة وموقعها من أسلوب الحكمة، الباز: محمد عبدالفتاح الدميري، ص ٦١، ٦٢.

(٤) سورة المجادلة: آية ١١.

العبودية لله تعالى، لذا كان من اللازم للداعية أن يفيد من هذه الوسيلة الدعوية التي جاءت في صورة وصايا عظيمة من النبي لابن عباس رضي الله عنهما وللأمة من بعده.

سابعًا- من موضوعات الدعوة: الالتجاء إلى الله تعالى:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله".

قال ابن رجب: (واعلم أن سؤال الله تعالى دون خلقه هو المتعين لأن السؤال إظهار الذل من السائل، والمسكنة والحاجة والافتقار، وفيه الاعتراف بقدرة المسؤول على دفع هذا الضرر وجلب المنافع ... ولا يصلح الذل والافتقار إلا لله وحده، لأنه حقيقة العبادة... وأما الاستعانة بالله دون غيره من الخلق، فلأن العبد عاجز عن الاستقلال بجلب مصالحه، ودفع مضاره، ولا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله عز وجل فمن أعانه الله فهو المعان ومن خذله فهو المخذول وهذا معنى قول (لا حول ولا قوة إلا بالله)[(١)].

يظهر هذا من قوله ﷺ "واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك..." قال ابن رجب المراد أن ما يصيب العبد في دنياه مما يضره أو ينفعه، فكله مقدّر عليه، ولا يصيب العبد إلا ما كتب من ذلك في الكتاب السابق، ولو اجتهد على ذلك الخلق كلهم جميعاً[(٢)].

وقد دل القرآن على مثل هذا في قوله عز وجل: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾[(٣)]، وفي ذلك تقوية لعقيدة المؤمن، وزيادة في إيمانه، مما يدفع الوساوس والمخاوف التي تسيطر على الإنسان في حياته، وتجعله يخضع لمخلوق مثله، يتملقه وينافقه، ويطلب رضاه، ويخشى غضبه إلى غير ذلك من الأمور التي يتوجس المؤمن من عواقبها، إلا أن يقين المؤمن بأن الأمور تجري بقدر الله يحرره من كافة المخاوف، ويجعله يقبل على الحياة باطمئنان وثقة، لا يرجو إلا فضل الله تعالى.

---

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٤٨١، ٤٨٢.

(٢) المرجع السابق ٤٨٣، ٤٨٤.

(٣) سورة التوبة: آية ٥١.

تاسعًا- من موضوعات الدعوة: حسن الصلة بالله:

يستنبط هذا من عموم الحديث ويتحقق حسن الصلة بالله بحفظ أوامره واجتناب نواهيه وذكر الله ومعرفته في الصحة والرخاء فإذا اتقى العبد الله وحفظ حدوده وراعى حقوقه في حال رخائه وصحته كانت صلته بالله قوية ولا يلجأ إلى الله في شيء إلا أعطاه إياه. قال رسول الله ﷺ: ((إن اللَّهَ تعالى قال: ... وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيءٍ أحب إلي مما افترَضْته عليه. وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أُحبه، فإذا أحبَبته كنت سمعه الذي يسمع به وبَصرَه الذي يبصر به ويدَه التي يبطِش بها. ورجله التي يمشي بها، وإنْ سألني لأَعطينه، ولئن استعاذني لأعيذَنه))[1].

عاشرًا- من موضوعات الدعوة: أهمية اليقين في الله:

يظهر هذا من دعوته ﷺ إلى الصبر على الشدائد والرضا بالقضاء في قوله ﷺ: "واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك وما أصابك لم يكن ليخطئك فمهما يصيب المسلم من شدة وكرب فلابد أن يكون على يقين في أن هذا الأمر فيه خير له وأن هذا البلاء سوف يزول ويفرج الله عنه الكرب ويجعل له من أمره يسراً، واليقين يعين العبد على أن ترضى نفسه بما أصابه.

(وتظهر حقيقة اليقين بالله في مراحل الضعف؛ إذ ليس صاحب اليقين من تنفرج أساريره وينشرح صدره، ويتهلل وجهه حين يرى قوة الإسلام وعزة أهله، وبشائر نصره، وإنما يكون اليقين لصاحب الثقة بالله مهما حلك الظلام، واشتد الضيق، واجتمعت الكروب، وتكالبت الأمم؛ لأن أمله بالله كبير ويقينه بأن العاقبة للمتقين، وأن المستقبل لهذا الدين)[2].

---

(١) أخرجه البخاري ٦٥٠٢.

(٢) هذه أخلاقنا حين نكون مؤمنين حقاً، محمود محمد الخزندار ص ٣٥.

الحديث رقم (٦٣)

٦٣- الرَّابِعُ: عنْ أَنَس رضي الله عنه قالَ: «إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالاً هِيَ أَدقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعَرِ، كُنَّا[1] نَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ رسولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْمُوبِقاتِ» رواه البخاري[2].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

أدق: أصغر[3].

الموبقات: الذنوب المهلكات[4].

الشرح الأدبي

- إن المسلم يجب أن يتحلى بخلق المراقبة، ويجب أن يرقى إلى مقام الإحسان في العبادة، فالإحسان كما حدده جبريل في حواره مع رسول الله ﷺ هو: "أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك"[5]، وهذا التوجه هو السر في إدراج هذا الحديث في باب المراقبة، لأن المؤمن عليه أن لا يستهين بأي أمر فيه أدنى مخالفة أو شبهة تقدح في عقيدته أو سلوكه، حتى يظل قلبه مضيئاً بنور التقوى والخشية والورع والصلة الدائمة بالله عز وجل؛ ولنتساءل: ماذا في صيغة هذا الحديث من كلام النبي ﷺ؟ إن الحديث رواه البخاري وهو من لفظ "أنس بن مالك" رضي الله عنه ولكنه يتفق في معناه مع كثير من أحاديث رسول الله ﷺ ومع كثير من الأمور التي أقرها

---

(١) عند البخاري زيادة: (إن كنا).

(٢) برقم (٦٤٩٢). أورده المنذري في ترغيبه (٣٦٤٣).

(٣) انظر: الوسيط في (د ق ق).

(٤) رياض الصالحين ٧٤، والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ي (و ب ق).

(٥) أخرجه البخاري ٥٠، ومسلم ٩.

المصطفى عليه الصلاة والسلام ، ولنتأمل الظواهر الأسلوبية والفنية التي تبرز جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الذي رواه البخاري.

- وأول ظاهرة تدعونا إلى التأمل والتفكر هي الخطاب الجمعي الذي ورد في أسلوب التوكيد الموجه من أنس الراوي الأعلى، إلى المتساهلين في الأعمال الذين يستهينون بكثير من الصغائر، وهذا الخطاب الجمعي يوحي بأن هذا السلوك سينتشر بين أفراد الأمة، ولذلك يحذر منه أنس عن طريق الإيحاء بقوله: "كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات" أي: المهلكات.

واقتران الفعل "تعملون" باللام زيادة في التوكيد والتنبيه على خطورة هذا السلوك الذي يستهين ببعض الأعمال المخالفة، ومجيء الفعل "تعملون" في صيغة المضارع يوحي باستمرار اقتراف هذه الأعمال، ومن ثم يكون الاعتراض الضمني على ذلك، وتنكير لفظ "أعمالاً" يوحي بشيوع هذا السلوك وكثرته، وكذلك يوحي بعدم إحساس الناس بخطورة هذه الأعمال وأثرها الضار على سلامة عقيدة المسلم وسلامة منهجه في الحياة وهو لا يأبه بنتائج هذه الأعمال غير المرضية.

وتصوير الأعمال بأنها أدق في الأعين من الشعر للمبالغة في عدم إحساس الناس بأضرارها فهي لا تكاد تحس، ولا يكاد يشعر القائمون بها بمدى ضررها لظنهم أنها من المباحات أو من "المسكوت عنه" وهم لا يدركون أنها من الشبهات، ومن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، وتأمل قوله: "كنا نعدها على عهد رسول الله من الموبقات"، فالتعبير بالفعل "كنا" في صيغته الجمعية يدل على أن هذا كان سلوكاً عاماً عند الصحابة وذلك لكمال الخشية الناشئة عن كمال المعرفة[1].

والتعبير بالفعل "كنا" في هذه المادة اللغوية يوحي كذلك بالتحسر على قيمة الورع والخشية التي كادت تضيع في سياق السلوكيات التي تستهين بصغائر الأمور ولا تتقي الشبهات.

---

(١) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١٧١.

ولفظ: "الموبقات" يعطي دلالة الهلكة، والهلاك هو صفة جامعة لكل أنواع الخسران في الحياة الدنيا والآخرة وتقول العرب: وبقت الإبلُ في الطين إذا وحلت فنشبت فيه، فالصغائر تغرق الإنسان في الذنوب، والموبقات هي الذنوب المهلكات.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد.

ثانياً: من تاريخ الدعوة: الدعوة في العهد المدني.

ثالثاً: من أساليب الدعوة: الترهيب من استصغار الذنوب.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: بيان ورع الصحابة رضي الله عنهم.

خامساً: من واجبات الداعية: الحرص على مصلحة المدعوين.

أولاً- من أساليب الدعوة: التوكيد:

ورد أسلوب التوكيد في هذا الحديث في قوله (إنكم لتعملون...) وقد استعمل التوكيد هنا لبيان أن الأعمال التي كان الناس يأتونها بعد رسول الله ﷺ وهي أدنى من الشعر في أعينهم، كان الصحابة رضي الله عنهم يعدونها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات. وقد أفاد التوكيد هنا بيان تلك الحالة التي كان عليها أصحاب رسول الله ﷺ من الورع والخشية لله تعالى، وشدة المراقبة لأنفسهم.

ثانياً- من تاريخ الدعوة: الدعوة في العهد المدني:

يظهر هذا في قول أنس رضي الله عنه: "... كنا نَعُدُّها على عهد رسول الله ﷺ ...".

والعهد المدني هو بداية الدولة الإسلامية وبداية تكوين مجتمع له نظمه، وتشريعاته العظيمة أما العهد المكي فهو عهد تربية وإعداد، وقد ربى رسول الله ﷺ أصحابه رضي الله عنهم، واستطاع أن يصوغ منهم مجتمعًا يطبق شرع الله، ويعمل على نشر الإسلام، وإقامة دولته التي كانت نواتها الأولى في المدينة النبوية، وكان يدعو إلى ربه بالحكمة والموعظة الحسنة.

فحينما هاجر رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم بدأت الدعوة في العهد المدني، واستمرت عشر سنين، خاض فيها رسول الله ﷺ أشهر غزوات الإسلام، وقاد

أصحابه من نصر إلى نصر، ومن فتح إلى فتح، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، والتفوا حول نبيهم ومعلمهم، وإمامهم وقائدهم ﷺ يفدونه بأرواحهم، ويؤثرونه على أنفسهم، وكان يفيض عليهم من بره ورحمته وعطفه ورأفته[١].

فمجتمع المدينة كان مجتمعاً مثالياً، تسوده الفضيلة، ويطبق شرع الله، لا مكان فيه إلا لحب الله ورسوله، ونصرة دين الله.

فالعهد المدني عهد مجتمع له نظمه، وتشريعاته العظيمة، فمن نظمه: ذلك الإخاء الإسلامي الذي قام بين المهاجرين والأنصار، وهو أعجب نظام اجتماعي عرفته البشرية.

ومن تشريعاته ما أذن به الحق سبحانه وتعالى للمؤمنين من قتال المعتدين ومحاربة المعاندين الظالمين، فكان في ذلك تأمين لحرية الدعوة ودفع للعدوان ومنع للفتنة في الدين.

ولم يكن تشريع الجهاد قاعدة من قواعد نشر الدعوة إلى الله وتبليغ الرسالة، وإنما كان علاجاً لمرض فجور الكفر وعتو العناد عند المشركين[٢].

لقد استطاع النبي ﷺ أن ينطلق بالدعوة الإسلامية في العهد المدني وأن يبعث بأصحابه رضي الله عنهم إلى البلدان والأمصار، وأن يرسل الرسائل والكتب إلى الملوك والقياصرة، وكان العهد المدني عهد ازدهار وانتشار للدعوة الإسلامية.

ثالثاً- من أساليب الدعوة: الترهيب من استصغار الذنوب:

إن من أساليب الدعوة: الترهيب، وفي هذا الحديث ترهيب من استصغار الذنوب لأن استصغار الذنوب سوف يؤدي بالإنسان إلى المهالك، ولأن الأصل في الإسلام أن الإنسان محاسب على كل شيء صغيراً كان أم كبيراً، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[٣] وعن عبدالله بن مسعود عن رسول الله ﷺ قال: ((إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ

---

(١) انظر: الأسلوب النبوي في الدعوة، د. الشريف حمدان راجح الهجاري ص ٥٣٤.

(٢) المرجع السابق ٥٣٤.

(٣) سورة الزلزلة: آية ٨.

فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكْنَهُ وإن رسول الله ﷺ ضرب لهن مثلاً كمثل قوم تركوا أرض فلاة فحقر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سوادًا فأججوا نارًا، وأنضجوا ما قذفوا فيها))[١].

وقال ابن بطال: المحقرات إذا كثرت صارت كباراً مع الإصرار، وعن أبي أيوب الأنصاري قال: ((إن الرجل ليعمل الحسنة فيثق بها وينسى المحقرات فيلقى الله وقد أحاطت به، وإن الرجل ليعمل السيئة فلا يزال منها مشفقًا حتى يلقى الله آمناً))[٢].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: بيان ما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم من المراقبة لأنفسهم:

يظهر ورع الصحابة رضوان الله عليهم في قول أنس: "... كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات" أي من المهلكات وهذا لا عجب فيه فإن صحابة رسول الله ﷺ أفضل الأمة إيماناً وخلقاً وتمسكاً بالحق وطلباً لرضاء الله عز وجل وقد قال في حقهم رسول الله ﷺ ((خيرُ النّاسِ قَرني...))[٣]؛ لأنهم كانوا ينهلون من معين رسول الله ﷺ، كان القرآن ينزل على النبي ﷺ، فيتلوه عليهم، وكانوا يزنون أنفسهم بميزان الإسلام، يدققون في أعمالهم، ويحاسبون أنفسهم محاسبة شديدة.

خامساً- من واجبات الداعية الحرص على مصلحة المدعوين:

إن من الصفات التي ينبغي أن يتحلى بها الداعية حرصه على مصلحة المدعوين وأن يبين لهم حقيقة أفعالهم فإذا كانت خيراً أثنى عليه وإذا كانت شراً نهى عنه وهذا ما فعله الصحابي الجليل أنس بن مالك رضي الله عنه عندما رأى الناس لا يتهاونون في بعض الأمور العظيمة، قال ابن عثيمين: (أنس بن مالك من المعمرين، فبقي بعد النبي ﷺ حوالي تسعين سنة، فتغيرت الأمور في عهده رضي الله عنه، واختلفت أحوال الناس وصاروا يتهاونون في بعض الأمور العظيمة في عهد الصحابة رضي الله عنهم)[٤].

---

(١) مسند أحمد ٤٠٢/١ رقم ٣٨١٨ وقال محققو المسند حسن لغيره.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٣٣٧/١١.

(٣) أخرجه البخاري ٣٦٥١، ومسلم ٢٥٣٣.

(٤) شرح رياض الصالحين ٢٣٥/١.

الحديث رقم (٦٤)

٦٤- الْخَامِس: عَنْ أبي هريْرَةَ ﷺ، عن النبيِّ ﷺ قال: ((إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَغَارُ، وَغَيْرَةُ اللَّهِ تَعَالَى، أنْ يَأْتِيَ الْمَرْءُ[1] مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ[2])) متفقٌ عليه[3].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

الغيرة: الأَنَفَةُ[4]، وقال ابن حجر: (هي في اللغة تغير يحصل من الحمية والأنفة)[5].

الشرح الأدبي

- ما أجمل حياة المؤمن وهي تخطر في بساتين الطاعة، وهي تذوق حلاوة ثمار الإيمان وما أرقى السلوك الإنساني الدائر في فلك التصور الإسلامي، والأفق الإيماني؛وهذا السلوك يستجيب دائماً في حركته الحياتية وفي كل أقواله وأفعاله إلى نداء الحق سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾[6].

- وفي ضوء هذا السلوك الإيماني يتوجه هذا الحديث الشريف في مفهومه إلى هؤلاء الذين ينأون عن مقتضيات السلوك الصحيح في ظل الإسلام، ومنطوق الحديث الشريف يصرح بذلك حين يقول المصطفى ﷺ في أسلوب توكيدي. "إن الله تعالى يغار"، وفي رواية أخرى: و"المؤمن يغار".

---

(١) لفظ البخاري ومسلم: (المؤمن).

(٢) زيادة (عليه) عند مسلم.

(٣) أخرجه البخاري (٥٢٢٣) واللفظ له، ومسلم (٢٧٦١/٣٦). أورده المنذري في ترغيبه (٣٤٥٣).

(٤) رياض الصالحين ٧٤.

(٥) فتح الباري، ابن حجر ٧٣١/١.

(٦) سورة الأحزاب، الآيتان: ٤١، ٤٢ .

• وفي ذلك بيان لأهمية ابتعاد المؤمن عن محارم الله تعالى، والحرص على فعل الطاعات وتحقيق مرضاة الله، والتوبة والإنابة إلى الله تعالى.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: إثبات الغيرة لله.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: مراقبة الله تعالى، واجتناب ما حرّمه سبحانه.

أولاً- من أساليب الدعوة: التوكيد:

يعد التوكيد من الأساليب الدعوية التي يستخدمها الداعية في تثبيت أمر من الأمور في ذهن المدعو، وقد استخدم النبي ﷺ التوكيد هنا لإثبات غيرة الله تعالى عند إتيان المرء ما حرم الله عليه. ويظهر أسلوب التوكيد في قوله ﷺ: "إن الله تعالى يغار..." حيث أكد ثبوت الغيرة لله تعالى.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: إثبات الغيرة لله تعالى:

ورد في هذا الحديث إثبات صفة الغيرة لله تعالى: "إن الله تعالى يغار" كما وردت في غير ذلك من الأحاديث، فعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا ((لا أحد أغير من الله، ولذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحبّ إليه المدح من الله))[(١)]، وعن عائشة رضي الله عنها مرفوعًا: ((يا أمة محمد، ما أحد أغير من الله أن يرى عبده أو أمته تزني، يا أمة محمد، لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا))[(٢)] وعن أسماء رضي الله عنها مرفوعًا: ((لا شيء أغير من الله))[(٣)] قال ابن عثيمين عن حديث الباب: (وفي هذا الحديث إثبات الغيرة لله تعالى، وسبيل أهل السنة والجماعة فيه وفي غيره من أحاديث الصفات وآيات الصفات، أنهم يثبتونها لله سبحانه على الوجه اللائق به يقولون: إن الله

---

(١) أخرجه البخاري ٤٦٣٤، ومسلم ٢٧٦٠، ٣٣.

(٢) أخرجه البخاري ٥٢٢١، ومسلم ٩٠١.

(٣) أخرجه البخاري ٥٢٢٢، ومسلم ٢٧٦٢.

يغار لكن ليست كغيرة المخلوق وإن الله يفرح ولكن ليس كفرح المخلوق وإن الله له ما له من الصفات الكاملة ما يليق به، ولا تشبه صفات المخلوقين)[١].

وأسماء الله وصفاته الواردة في الكتاب والسنة كثيرة ويجب على المسلم إثباتها لله تبارك وتعالى على ما يليق بجلاله وكماله، كما أثبتها الله لنفسه في كتابه، وهو أعلم بنفسه من خلقه، وأثبتها له رسوله ﷺ في سنته، وهو أعلم الخلق بربه وأكملهم نصحًا وأفصحهم وأبلغهم بيانًا وأتقاهم وأخشاهم له، وليحذر من تعطيل الله من صفاته أو تشبيهها بصفات المخلوقين، لأن الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[٢])[٣].

ولا يلزم عن إثبات الصفات لله التشبيه والتجسيم فإن من نَفَى صفة من صفاته التي وصَفَ الله بها نفسه كالرضا الغضب والمحبة والبغض ونحو ذلك، وزعم أن ذلك يستلزم التشبيه والتجسيم. قيل له: فأنت تثبت له الإرادة والكلام والسمع والبصر مع أن ما تثبته له ليس مثل صفات المخلوقين، فقل فيما نفيته وأثبته الله ورسوله مثل قولك فيما أثبتَّه، إذ لا فرق بينهما.

فإن قال: أنا لا أثبت شيئًا من الصفات قيل له: فأنت تثبت له الأسماء الحسنى مثل حي عليم قدير، والعبد يسمى بهذه الأسماء، وليس ما يثبت للرب من هذه الأسماء مماثلاً لما ثبت للعبد، فَقُلْ في صفاته نظير قولك في مسمّى أسمائه)[٤].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: مراقبة الله تعالى واجتناب ما حرّمه سبحانه:

إن مما يجب على العبد تركه واجتنابه والابتعاد عنه: تلك المعاصي التي تسبب غضب الله تعالى، حيث ثبتت غيرة الله على عباده عند ارتكابهم الفواحش والمعاصي التي حرمها الله عليهم، فينبغي للمؤمن أن يطيع الله تعالى، ويبتعد عن المعاصي التي تسبب غضبه، وتوجب عقابه، وذلك لأن الله حرمها، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ

---

(١) شرح رياض الصالحين ٢٣٦/١.

(٢) سورة الشورى، آية: ١١.

(٣) أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، نخبة من العلماء ، إعداد نخبة من العلماء ص ٨٩.

(٤) شرح العقيدة الطحاوية ٦٠/١-٦١.

ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ ...﴾[١].

قال السعدي (ذكر الله المحرمات، التي حرمها الله في كل شريعة من الشرائع فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ أي: الذنوب الكبار التي تستفحش وتستقبح، لشناعتها وقبحها، وذلك كالزنا، واللواط، ونحوهما.

وقوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ أي: الفواحش التي تتعلق بحركات البدن، والتي تتعلق بحركات القلوب، كالكبر، والعجب، والرياء، والنفاق، ونحو ذلك ﴿وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: الذنوب التي تؤثم، توجب العقوبة في حقوق الله والبغي على الناس، في دمائهم وأموالهم، وأعراضهم، فدخل في هذا: الذنوب المتعلقة بحق الله والمتعلقة بحق العباد[٢]. فمما ينبغي معرفته أن الذنوب والمعاصي ضررها في القلوب كضرر السموم في الأبدان، على اختلاف درجاتها في الضرر، وهل في الدنيا والآخرة شر وداء إلا وسببه الذنوب والمعاصي؟[٣].

فعلى المسلم الابتعاد عن هذه المعاصي وغيرها امتثالاً لأمره تعالى وبعداً عن غضبه.

---

(١) سورة الأعراف، آية: ٣٣.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٢٥٠.

(٣) انظر: الداء والدواء، ابن القيم ص ٦٥.

الحديث رقم (٦٥)

٦٥- السَّادِسُ: عَنْ أبي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّهُ سمِع النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إنَّ ثَلاثَةً مِنْ بَنِي إسْرائيلَ: أَبْرَصَ، وأَقْرَعَ، وأَعْمَى، أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ فَبَعثَ إلَيْهِمْ مَلَكاً، فأَتَى الأَبْرَصَ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحبُّ إلَيْكَ؟ قَالَ: لَوْنٌ حسنٌ، وَجِلْدٌ حَسَنٌ، ويُذْهَبُ عنِّي الَّذي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ، فَمَسَحهُ فذَهَب عنهُ قذره وَأُعْطِيَ لَوْناً حَسناً. قَالَ: فَأَيُّ المالِ أَحبُّ إلَيْكَ؟ قال: الإبلُ (أَوْ قَالَ البَقَرُ -شكَّ الرَّاوي) [١] فأُعْطِيَ نَاقَةً عُشَراءَ، فقَالَ: بارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيها.

فأَتَى الأَقْرعَ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحب إلَيْكَ؟ قال: شَعْرٌ حسنٌ، ويذْهبُ عنِّي هَذَا الَّذي [٢] قَذِرَنِي النَّاسُ، فَمسحهُ عنْهُ. أُعْطِيَ شَعراً حسناً. قال: فأَيُّ الْمَالِ أَحبُّ إلَيْكَ؟ قال: الْبَقرُ، فأُعطيَ [٣] بقرةً حامِلاً، وقَالَ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا.

فَأَتَى الأَعْمَى فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إلَيْكَ؟ قال: أَنْ يرُدَّ اللَّهُ إلَيَّ بَصَرِي فأُبْصِرَ [٤] النَّاسَ فَمَسَحَهُ فَرَدَّ اللَّهُ إلَيْهِ بصرَهُ. قال: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إلَيْكَ؟ قال: الْغنمُ فَأُعْطِيَ شَاةً والِداً، فَأَنْتجَ هذَانِ وَوَلَّدَ هَذا، فكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنَ الإبلِ، ولهَذَا وَادٍ مِنَ البَقَرِ، وَلَهَذَا وَادٍ مِنَ الْغَنَم.

ثُمَّ إنَّهُ أَتَى الأبرص في صورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ قدِ انقَطعت [٥] بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي، فَلا بَلاغَ لِيَ الْيَوْمَ إلاَّ باللَّهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بالَّذي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ، والْجِلْدَ الْحَسَنَ، والْمَالَ، بَعيراً أَتبلَّغُ بِهِ فِي سفَرِي، فقال [٦]: الحقُوقُ كَثِيرةٌ. فقال: كَأَنِّي أَعْرِفُكَ أَلَمْ تَكُنْ أَبْرصَ يَقْذُرُكَ النَّاسُ، فَقيراً، فَأَعْطَاكَ اللَّهُ، فقَالَ: إنَّما وَرِثْتُ هَذا المالَ

---

(١) لفظ البخاري: (هو شك في ذلك) بدل: (شكَّ الراوي). ووقع عند مسلم عن شيبان بن فروخ عن همام التصريح بأن الذي شكَّ في ذلك، هو: إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة.

(٢) عند البخاري ومسلم زيادة: (قد).

(٣) لفظ البخاري: (فأعطاه).

(٤) عند البخاري ومسلم زيادة: (به).

(٥) لفظ البخاري: (تقطعت).

(٦) عند البخاري ومسلم زيادة: (له).

كَابراً عَنْ كابرٍ، فقالَ: إنْ كُنْتَ كَاذِباً فَصَيَّرك اللَّهُ إلى مَا كُنْتَ.

وأَتَى الأَقْرَع في صورتِهِ وهيئَتِهِ[1]، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ما قَالَ لهذا، وَرَدَّ عَلَيْه مِثْلَ مَاردَّ هَذَّا، فَقَالَ: إنْ كُنْتَ كَاذِباً فَصَيّرَكَ اللهُ إلى مَا كُنْتَ.

وأَتَى الأَعْمَى في صُورتِهِ وهَيْئَتِهِ، فقالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ وابْنُ سَبِيلٍ انْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ في سَفَرِي، فَلا بَلاغَ لِيَ اليَوْمَ إلاَّ باللَّهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بالَّذي رَدَّ عَلَيْكَ بصرَكَ شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا في سَفَرِي؟ فقالَ: قَدْ كُنْتُ أعْمَى فَرَدَّ اللَّهُ إلَيَّ بَصري، فَخُذْ مَا شِئْتَ وَدعْ مَا شِئْتَ، فَوَاللَّهِ ما[2] أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ بِشَيْءٍ[3] أَخَذْتَهُ للَّهِ عزَّوجلَّ.

فقالَ: أَمْسِكْ مالَكَ فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ فَقَدْ رُضِيَ اللَّهُ عنك، وَسَخَطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ» متفقٌ عليه[4].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

الأبرص: هو الذي أصابه البرص وهو بياض يقع في الجسد لعلة[5].

أراد الله أن يبتليهم: الابتلاء: هو الاختبار والامتحان، والمعنى: أن الله قضى أن يمتحنهم ويختبرهم[6].

قذرني الناس: اشمأزوا من رؤيتي فكرهوني واجتنبوني[7].

الناقة العشراء: الحامل[8].

---

(١) (هيئته) لا توجد عند مسلم، وهي عند البخاري.

(٢) لفظ البخاري ومسلم: (لا).

(٣) هذا لفظ البخاري، ولفظ مسلم: (شيئًا).

(٤) أخرجه البخاري (٣٤٦٤)، ومسلم (٢٩٦٤/١٠) ولفظهما سواء.

(٥) انظر: الوسيط ٤٩.

(٦) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٩٠، وفتح الباري، ابن حجر ٥٧٩/٦.

(٧) فتح الباري، ابن حجر ٥٧٩/٦، والوسيط في (ق ذ ر).

(٨) رياض الصالحين ٧٦.

شاة والداً: أي عرف منها كثرة النتاج، ويقال: حامل[١].

أنتج: وفي رواية فنتج، معناه: تولى نتاجها، والناتج للناقة كالقابلة للمرأة[٢].

وولّد هذا: هو بتشديد اللام، أي: تولى ولادتها، وهو بمعنى أنتج في الناقة. فالمولّد والناتج والقابلة بمعنى، لكن هذا للحيوان وذاك لغيره[٣].

انقطعت بي الحبال: هو بالحاء المهملة والباء الموحدة، أي الأسباب[٤].

البلاغ، ما يُتَبلّغ ويتوصل به إلى الشيء المطلوب[٥].

أتبلغ به: أي أتوصل به إلى مرادي[٦].

كابراً عن كابر: أي ورثته عن آبائي الذين ورثوه من أجدادي الذين ورثوه من آبائهم كبيرا عن كبير في العز والشرف[٧].

لا أجْهَدُك: معناه: لا أشق عليك في رد شيء تأخذه أو تطلبه من مالي، وفي رواية البخاري: لا أحْمَدك بالحاء المهملة والميم، ومعناه: لا أحمدك بترك شيء تحتاج إليه كما قالوا: ليس على طول الحياة ندم. أي على فوات طولها[٨].

ابتليتم: أي امتحنتم[٩].

---

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (و ل د)، وفتح الباري، ابن حجر ٥٨٠/٦.

(٢) رياض الصالحين ٧٦.

(٣) رياض الصالحين ٧٦.

(٤) رياض الصالحين ٧٦.

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ب ل غ).

(٦) فتح الباري، ابن حجر ٥٨٠/٦.

(٧) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٧١٠.

(٨) رياض الصالحين ٧٦، انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٧٠.

(٩) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٩٠، وفتح الباري، ابن حجر ٥٨١/٦.

الشرح الأدبي

إن القصص في الحديث النبوي مسرح لأنواع النفوس وألوان التجارب التي تمر بالرجال والنساء، والأسلوب في هذه الأحاديث القصصية هو أسلوب القصة الذي يحلو فيه الأطناب، بتكرار بعض العبارات، ولكنه مع ذلك موجز محبوك، جيد الفصل والوصل، متماسك النظم، دقيق الإشارة، وجانب الإيحاء والرمز في القصص النبوي من أدق خصائصه، فهو لا يسهب في الوصف، ولا يُعنى بتحديد الزمان ولا المكان، وإنما تصبح القصة أنموذجاً سلوكياً، يتكرر في كل زمان، وفي كل مكان، وثمرة القصة ونتيجتها ضوء إيماني يسير في وجهته من ينشد طريق الحق، وقد يتعظ به من اتبع هواه وشهواته، فهو تصوير لأدواء النفوس البشرية، وعلاج ناجع لهذه الأدواء في ظل المنهج الإسلامي السديد.

وحين نتأمل هذه القصة، التي يحكى وقائعها ويروي أحداثها رسول الله ﷺ، ندرك أنها سيقت للموعظة والهدى، واتخاذ الدروس النافعة من تجارب الحياة، وإدراك أن الناس مجزيون بأعمالهم: إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وعناصر القصة تكتمل في هذا الحديث النبوي الشريف، وهي: الشخصيات، والأحداث والمواقف ثم الحوار المصور للمواقف والأحداث، والمعبر عن حركة الشخصية ومعالم تطورها، ثم العقدة والحبكة، والحل أو لحظة التنوير.

والعنصران الزماني والمكاني ليسا ظاهرين في هذا الحديث السردي القصصي، ولكن عنصر الزمن تجلى عن طريق الإيحاء، والإشارة إلى بني إسرائيل، فهي قصة حدثت لثلاثة من بني إسرائيل، ولكن من هم؟ وفي أي مكان؟ وفي أي زمن؟ إن هذه التفصيلات لا تؤدي دوراً في الحديث لأن الدرس المستفاد عام، وهو يفيد أفراد الأمة في كل زمان ومكان.

وشخصيات القصة وردت بالصفات والملامح وليس بالأسماء فهم ثلاثة شخصيات يجمع بينهم المرض: أبرص، وأقرع، وأعمى. وهي أمراض حسية ظاهرة يراها الناس ولهم منها موقف. والشخصية الرابعة في هذه القصة هي شخصية "الملك". الذي بعثه الله

وأرسله لهؤلاء الثلاثة في صورة إنسان له هيئته الحسنة ووقاره، وتظهر عليه مخايل النعمة والجاه والثراء، لأن سياق القصة يفرض ذلك التفسير، فهو يسألهم عن أمنياتهم وهم لا يعرفون أنه ملك أرسله الله.

وقد حدد رسول الله ﷺ الهدف من هذه القصة الواقعية حين قال: "أراد الله أن يبتليهم" أي: يختبرهم، ليعرف الناس ويتعظ أصحاب الحاجات وذوو العاهات حين يمنّ الله عليهم بالشفاء والمال.

والأحداث لا تنفصل عن سلوك الشخصيات وتطور ملامحها ومعالمها، وتتحرك الأحداث في مرحلتين: فالمرحلة الأولى تمثل الوعود والأمنيات، وتحقق هذه الوعود حسب أمنية كل شخصية، ويبدأ الاختبار بالحوار بين الأبرص والملك الذي أتى في صورة إنسان مرتين، وقد تحققت أمنيته حيث أعطى لوناً حسناً وجلداً حسناً، وأصبح يملك وادياً من الإبل، ولكنه لم يشكر النعمة، ولم يعترف بالفضل، ونسي ماضيه ومرضه وفقره حين جاءه الملك مرة أخرى في هيئة رجل أبرص مسكين وكأنه يذكره بماضيه البائس وسأله المساعدة، ولكن الرجل تنكر وادّعى أن الحقوق كثيرة. وهنا تأتي المفاجأة في القصة وهي عقدة كذلك، قال له السائل وقد رآه يرسب في هذا الاختبار: "كأني أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرك الناس، فقيراً فأعطاك الله؟ فقال مكابراً وجاحداً فضل الله "إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر". وقد صيغ هذا الادعاء في أسلوب القصر للتعبير عن مبالغة هذا الرجل في الكذب والادعاء، وتكتمل دائرة الحوار بين الملك (السائل) وذلك الجاحد فيقول له الملك موضحاً لحظة التنوير وحل العقدة "إن كنت كاذباً في دعواك، فصيرك الله إلى ما كنت". وقد كان أي: حدث ذلك . ولكن الحديث ألمح إلى ذلك في نهاية الحديث حين قال الملك للأعمى الذي ظهر في صورة الشاكر الحامد المعطي المعترف بفضل الله عليه: "فقد رضي الله عنك، وسخط على صاحبيك" أي: الأبرص والأقرع.

والمشهد نفسه يتكرر مع الأقرع ولكنه يرسب في هذا الاختبار وينال سخط ربّه.

والمشهد الثالث يتكرر مع الأعمى ولكن النتيجة تغاير مصير السابقين، وفي هذا

السرد يتجلى عنصر التشويق والإفادة والموعظة، وما أجمل الشكر! وما أعظم الاعتراف بالفضل! ولنتأمل موقف الأعمى في مقام الشكر حين يجيئه الملك في صورة رجل أعمى ويسأله العطاء ويذكره في سؤاله بماضيه قائلاً له: "أسألك بالذي رد عليك بصرك" فلا يتأفف الرجل ولا يتكبر، ولكن يزداد تواضعاً وشكراً ويعترف قائلاً في صدق وحمد "قد كنت أعمى فردّ الله إلى بصري" ثم يقول للسائل: "فخذ ما شئت ودع ما شئت".

ويتوج الحوار الجميل بهذه النتيجة المثمرة التي أضاءت الموقف وأثبتت أن الرجل أخلص النية لله وراقب الله في السر والعلن ولم يطغه المال، ولم يزده الثراء إلا تواضعاً وحمداً. قال له الملك في لحظة مفاجئة ولكنها سارة مضيئة: "أمسك عليك مالك" وكشف عن نتيجة الابتلاء والاختبار حيث فاز الأعمى الشاكر الحامد، وخسر الاثنان: الأبرص والأقرع، وعادا إلى هيئتهما وصورتهما الأولى: يقول الملك: "فإنما ابتليتم، فقد رضي الله عنك، وسخط على صاحبيك".

وهذه القصة قد اكتملت أركانها وعناصرها الفنية من أشخاص وأحداث وحوار وأسلوب وعُقْدَة وحلّ وإشارات زمانية ومكانية. وهذه العناصر تمثل عاملاً مشتركاً بين جميع أنواع القصص، ولكن يضاف إليها في القصة النبوية الحقيقة المضيئة التي تضفي على عناصر القصة النبوية صيغة الجلال والجمال، وتعطيها مذاق الحقيقة، وواقعية الحدث، وقداسة المنبع والإيمان بالغيب، فالمصطفى ﷺ لا ينطق عن الهوى، وإنما يوحي إليه ربه ويلهمه أسرار البيان وروعة الكلام وعمق المعنى ودقة التصوير.

المضامين الدعوية

أولاً: من تاريخ الدعوة: الحديث عن بني إسرائيل للاعتبار.

- ثانياً: من أساليب الدعوة: التوكيد، التنويع، السؤال والجواب، الترهيب.

ثالثاً: من وسائل الدعوة: القصة.

رابعاً: من آداب الداعية: التعريض عند الحديث عن الأشخاص.

خامساً: من موضوعات الدعوة: تعرض الإنسان للبلاء والاختبار.

- سادساً: من موضوعات الدعوة: الحث على الرفق بالضعفاء وإكرامهم.

سابعاً: من موضوعات الدعوة: الحذر من الكذب والبخل.

- ثامناً: من موضوعات الدعوة التحدُّث بنعمة الله عز وجل وذمّ جحدها.
- تاسعاً: من موضوعات الدعوة: فضل الكرم والصدقة.
- **أولاً- من تاريخ الدعوة: الحديث عن بني إسرائيل للاعتبار:**
- يستنبط هذا من قول النبي ﷺ "إن ثلاثة في بني إسرائيل" والحديث عنهم إنما يأتي للاعتبار بالأمم الماضية، وما حدث لهم، وقد أذن النبي ﷺ بالحديث عنهم، كما في الحديث الشريف: ((بلّغوا عني ولو آيةً، وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرجَ، ومن كذَبَ عليَّ مُتعَمِّداً فليتَبوَّأْ مَقعدهُ منَ النار))[(١)].

قال ابن حجر: (أي لا ضيق عليكم في الحديث عنهم لأنه كان تقدم منه ﷺ الزجر عن الأخذ عنهم، والنظر في كتبهم ثم حصل التوسع في ذلك، وكأن النهي وقع قبل استقرار الأحكام الإسلامية والقواعد الدينية خشية الفتنة، ثم لما زال المحذور وقع الإذن في ذلك لما في سماع الأخبار التي كانت في زمانهم من الاعتبار)[(٢)].

هذا وقد جاء في مسند أحمد عن ابن أبي نملة أن أبا نملة الأنصاري أخبره أنه بينا هو جالس عند رسول الله ﷺ جاءه رجل من اليهود فقال: يا محمد، هل تتكلم هذه الجنازة؟ قال رسول الله ﷺ: "الله أعلم" قال اليهودي: أنا أشهد أنها تتكلم فقال رسول الله ﷺ: إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم وقولوا: آمنا بالله وكتبه ورسله فإن كان حقاً لم تكذبوهم، وإن كان باطلاً لم تصدقوهم[(٣)].
وضابط المسألة في التحديث عن بني إسرائيل أن يقال: "إن أخبار أهل الكتاب على ثلاثة أقسام:

(١) أخرجه البخاري ٣٤٦١.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٦/٥٧٥.

(٣) أخرجه أحمد ٤/١٣٦ رقم ١٧٢٢٥، وقال محققو المسند: إسناده حسن. ٢٨/٤٦٠.

١- ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق فذاك صحيح.

٢- ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه.

٣- ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل، ولا من هذا القبيل فلا نؤمن به ولا نكذبه وتجوز حكايته[1] وعليه يصدق قوله ﷺ ((بلِّغوا عني ولو آيةً، وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرجَ، ومن كذَبَ عليَّ مُتعَمِّداً فليتَبوَّأْ مَقعدهُ منَ النار))[2].

ولا يرى أحمد شاكر التحديث عنهم في تفسير القرآن وما يتعلق بذلك، فيقول: (إن إباحة التحدث عن بني إسرائيل فيما ليس عندنا دليل على صدقه، ولا كذبه شيء، وذِكْرُ ذلك في تفسير القرآن و جعله قولاً أو رواية في معنى الآيات، أو في تعيين ما لم يعين فيها، أو في تفصيل ما أجمل فيها، شيء آخر لأن في إثبات مثل ذلك بجوار كلام الله، ما يوهم أن هذا الذي لا نعرف صدقه ولا كذبه مبين لمعنى قول الله سبحانه، ومفصل لما أجمل فيه، وحاشا لله ولكتابه من ذلك، وإن رسول الله ﷺ إذ أذن بالتحدث عنهم أمرنا أن لا نصدقهم ولا نكذبهم، فأي تصديق لرواياتهم وأقاويلهم أقوى من أن نَقْرِنها بكتاب الله، ونضعها منه موضع التفسير أو البيان؟ اللهم غفراً)[3].

وقد أخبر النبي ﷺ بخبر هؤلاء الثلاثة الذين ابتلاهم الله تعالى، وكانوا من بني إسرائيل، وذلك للاعتبار والتدبر وأهمية مراقبة الإنسان لنفسه وعدم الافتتان بالنعم، والغفلة عن فضل الله تعالى.

ثانياً- من أساليب الدعوة: التوكيد، التنويع، السؤال والجواب، والترهيب:

١- التوكيد: ويظهر هذا في قول النبي ﷺ "إن" ولاشك أن التوكيد له أثر في إقناع المدعو ويعطي دلالة أن الداعية لا يرتاب في ما يقول، ولكنه مستيقن منه.

٢- التنويع: ويتضح هذا من خلال ذكر قصة ثلاثة من بني إسرائيل، ثم ضرب المثل

---

(١) انظر: تعليق محققي مسند أحمد بن حنبل ٢٨/٤٦١.

(٢) أخرجه البخاري ٣٤٦١.

(٣) نقلاً عن تعليق محققي مسند أحمد ٢٨/٤٦٢.

وذلك في قوله "أتى الأبرص في صورته وهيئته" ومما لا يخفى أن التنويع في أساليب الدعوة يساعد على معالجة أحوال المدعوين، من خلال بيان عواقب الأمور، وهذا يختلف باختلاف الوقائع والأحداث.

٣- السؤال والجواب: وهذا ظاهر من خلال الحوار الذي جرى بين الملك والأبرص والأقرع والأعمى، والسؤال والجواب من أساليب الدعوة التي تعين على فهم الحقائق وكثيراً ما كان الرسول ﷺ يستخدم هذا الأسلوب مع الصحابة ليكون أدعى للانتباه، وأثبت في قلب السامع.

٤- الترهيب: حيث جاء في الحديث أن كلاً من الأبرص والأقرع عادا إلى حالتهما الأولى، وأن الله سخط عليهما، والنفس البشرية أحياناً لا ترعوي ولا تزدجر إلا عندما تشعر بسوء المصير والمنقلب، ولذا فإن الداعية الحصيف هو الذي يستخدم أسلوب الترهيب في موطنه لزجر النفوس عن المعاصي وعن مخالفة منهج الله تعالى.

ثالثاً- من وسائل الدعوة: القصة:

هذا واضح من سياق الحديث حين يحكى قصة ثلاثة من بني إسرائيل، والقصة وسيلة بيانية ولها دور رئيس في الدعوة إلى الله لأن فيها العبرة والعظة والاعتبار بحال السابقين قال الله عز وجل: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(١) وبعد الحديث عن أقوام عاد وثمود ونوح وشعيب قال الله عز وجل: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾(٢).

قال السعدي: (تلك القرى الذين تقدم ذكرهم نقص عليك من أنبائها ما يحصل به عبرة للمعتبرين، وازدجار للظالمين وموعظة للمتقين)(٣) ويستطيع الداعية من خلال

---

(١) سورة يوسف، آية: ١١١.

(٢) سورة الأعراف، آية: ١٠١.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٢٦١.

القصة أن يقنع المدعوين، ويقدم لهم نماذج على ما يصيب الإنسان من خير إذا أطاع، وما يحيق به من سوء إذا عصى. (تمتاز القصة بأنها تصور نواحي الحياة، فتعرض لك الأشخاص، وحركاتهم وأخلاقهم وأفكارهم واتجاهات نفوسهم وبيئتهم الطبعية والزمنية تعرضهم عليك بعرض أعمالهم وتصرفاتهم ونقاشهم، فإذا رأيت هذه التصرفات والأعمال، ومضيت مع الحوار والنقاش، عرفت ما يستكن في النفوس من طباع، وما يهجس فيها من خواطر، وانشرح صدرك لأهل الخير منهم، وضقت ذرعاً بذوي النفوس المظلمة والوسائل الملتوية حتى لكأنك تراهم رأي العين، وتسمع منهم سمع الأذن، وتمتاز القصة بأن النفس تميل إليها بما في الإنسان من غريزة حب الاستطلاع، والقصة بهاتين الميزتين من خير الوسائل التي يتوسل بها الداعية لإبلاغ تعاليمه إلى أعماق القلوب)[1].

رابعاً- من آداب الداعية: التعريض عند الحديث عن الأشخاص:

يستنبط هذا من قول النبي ﷺ "إن ثلاثة في بني إسرائيل" هكذا بالتنكير بدون ذكر لأسمائهم، ذلك لأن الداعية لا يجرح المشاعر، وليس مهمته فضح الناس إنما التركيز يكون على مضمون القصة وما يستفاد منها، خاصة وأن ذكر الأسماء في القصة لا يفيد. يقول الإمام ابن حجر: (وفي الحديث جواز ذكر ما اتفق لمن مضى ليتعظ به من سمعه، ولا يكون ذلك غيبة فيهم، ولعل هذا هو السر في ترك تسميتهم، ولم يفصح بما اتفق لهم بعد ذلك، والذي يظهر أن الأمر فيهم وقع كما قال الملك)[2].

خامساً- من موضوعات الدعوة: تعرض الإنسان للبلاء والاختبار:

يتضح هذا من الحديث "أراد الله أن يبتليهم" والإنسان في الحياة معرض للامتحان والاختبار، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[3] وليس شرطاً أن يكون الابتلاء بالشر، فقد يكون الابتلاء بالخير، كالمال والولد لينظر هل

---

(١) تذكرة الدعاة، البهي الخولي، ص ٤٤، ٤٥.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٥٧٥/٦.

(٣) سورة الملك، آية: ٢.

يشكر أم يكفر كما حدث مع هؤلاء الثلاثة قال الله عز وجل: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[(١)] والمعنى (نختبركم بالشدة والرخاء والصحة والسقم، والغنى والفقر، وقيل: بما تحبون وما تكرهون "فتنة" ابتلاء لننظر كيف شكركم فيما تحبون، وصبركم فيما تكرهون)[(٢)]. ويستطيع الداعية من خلال هذا الموضوع توطين نفوس المدعوين على الصبر والشكر فيما تكره وتحب. ولقد أخبر القرآن الكريم عن حال الإنسان مع البلاء والاختبار بقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾[(٣)] وقال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾[(٤)] وقال سبحانه: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾[(٥)].

قال علي محفوظ: (إن الإنسان جُبل على الضعف والعجز والقلق وقلة الصبر، كما جُبل على الغرور والبطر والنسيان والتمرد والعتو فإذا نزل به البلاء حمله ضعفه وعجزه على كثرة الدعاء والتضرع وإظهار الخضوع والانقياد، وإذا زال عنه ذلك البلاء وحصل على الراحة استولى عليه النسيان، وغفل عن إحسان الله تعالى إليه، ووقع في الغيّ والعدوان، والجحود والنكران، وهذه الأحوال كلها من نتائج طبيعته إلا من رحم الله وعصمه من هذه الدنايا والنقائص وقليل ما هم، وهم الذين يرجعون إليه تعالى في جميع الأحوال موقنين بأنه وحده سبحانه هو المقدر للأمور حسب علمه وحكمته والمصرِّف لها وفق مشيئته وإرادته فلا جرم إذا أصابتهم السراء شكروا، وإن أصابتهم الضراء

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ٣٥.

(٢) معالم التنزيل، البغوي ٣١٨/٥.

(٣) سورة يونس، آية: ١٢.

(٤) سورة المعارج، آية: ١٩-٢١.

(٥) سورة فصلت، آية: ٥١.

صبروا، وأفنوا إرادتهم في إرادته، وقبلوا حكمه ورضوا بقضائه)[١]. ولذا ينبغي للداعية أن يبين للمدعوين أن كل واحد معرض للابتلاء في هذه الحياة، سواء عن طريق النعمة أو النقمة، ولكن لابد من الشكر والصبر، وعدم الفتنة.

سادساً- من موضوعات الدعوة: الحث على الرفق بالضعفاء وإكرامهم:

يظهر هذا من الحديث "رجل مسكين وابن سبيل، انقطعت بي الحبال في سفري". يقول الإمام النووي: (وفي هذا الحديث الحث على الرفق بالضعفاء وإكرامهم وتبليغهم ما يطلبون ما يمكن، والحذر من كسر قلوبهم واحتقارهم)[٢].

وقد تضافرت النصوص الشرعية في الحث على الرفق بالضعفاء والمساكين، قال الله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾[٣].

وقال النبي ﷺ ((من لا يَرحمُ لا يُرحَم))[٤] وهذا باب هام يجب أن يطرقه الداعية، ويحث المدعوين عليه. قال الشيخ السيد سابق: (إن غاية الإسلام أن يطهر المجتمع من الفقر، وأن يحفظ للفقراء قواهم البدنية بهذه الرعاية والكفالة فإن لهم أفواهاً ومِعىً وأجساداً، ولهم قلوب ومشاعر وعواطف، ولهم كرامة، ولابد من أن تصان هذه الأجسام، وأن تراعى هذه القلوب والمشاعر، وأن تحفظ هذه الكرامات وما ينبغي أن تهدر كرامة فقير، والفقر هو أعظم مهدر للكرامة، ولا أن ينظر إلى الفقراء نظرة ازدراء واحتقار فقد يكون لهم من الملكات والقدرات، ومن القوى العقلية ما يستطيعون بها أن يصلوا إلى القمة من السيادة والقيادة والعلم والعمل)[٥].

---

(١) هداية المرشدين إلى طريق الوعظ والخطابة، الشيخ علي محفوظ٣٤٧، ٣٤٨.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٧١٠.

(٣) سورة الكهف، آية: ٢٨.

(٤) أخرجه البخاري ٦٠١٣.

(٥) عناصر القوة في الإسلام ١٢٧.

ومما لاشك فيه أن الرفق بالضعفاء وإكرامهم هدف نبيل، وغاية عظمى من غايات الإسلام ومما أمر به الإسلام فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((ابْغُونِي فِي ضُعَفَائِكُمْ، فَإِنَّمَا تُرْزَقُونَ وَتُنْصَرُونَ بِضُعَفَائِكُمْ))[1].

سابعاً- من موضوعات الدعوة: الحذر من الكذب والبخل:

يظهر هذا في الحديث في قوله: "إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر" وهذا كذب وقوله: (الحقوق كثيرة) وهذا من دواعي البخل، ولاشك أن الكذب والبخل من المساوئ الأخلاقية التي حذر منها الشرع، والبخل يوصل إلى الكذب حتى يمنع صاحبه الخير عن الناس يقول الإمام ابن حجر: (وفي الحديث الزجر عن البخل لأنه حمل صاحبه على الكذب وعلى جحد نعمة الله تعالى)[2] وقال القرطبي: (حمله بخله على نسيان منّة الله تعالى، وعلى جحد نعمه وعلى الكذب، ثم أورثه ذلك سخط الله الدائم، وكل ذلك بشؤم البخل)[3]. وقد قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[4] وفي الأمر بالصدق واجتناب الكذب قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[5] وينبغي للداعية أن يبين مساوئ الكذب والبخل، ويأمر المدعوين بالابتعاد عن الرذائل، والتحلي بالفضائل.

ثامناً- من موضوعات الدعوة التحدث بنعمة الله عز وجل وذمّ جحدها:

لقد تحدث الأعمى بنعم الله عليه فقال: "قد كنت أعمى فرد عليَّ بصري"، قال النووي: (فيه التحدث بنعمة الله وذم جحدها)[6] وقال القرطبي: (واعتبر بحال الأعمى لما اعترف بنعمة الله تعالى عليه، وشكره عليها وسمحت نفسه بها ثبتها الله عليه، وشكر

---

(١) أخرجه الترمذي ١٧٠٢، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٣٩٢).

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٥٨١/٦.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ١١٩/٧.

(٤) سورة التوبة، آية: ٣٤.

(٥) سورة التوبة، آية: ١١٩.

(٦) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٧٨/١٨/٩.

فعله ورضي عنه، فحصل على الرتب الفاخرة وجمعت له نعم الدنيا والآخرة)[١]. وهذا الإقرار بنعمة الله عز وجل يكون سبباً في رضا الله، ووجه من وجوه الشكر. قال الإمام الراغب: (الشكر تصور النعمة وإظهارها ويضاده الكفر الذي هو نسيان النعمة وسترها فالشكر هو الامتلاء من ذكر المنعم عليه)[٢]. وقال ابن القيم: (الشكر ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده: ثناءً واعترافاً، وعلى قلبه شهوداً ومحبةً، وعلى جوارحه انقياداً وطاعةً)[٣].

وقد قال الله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[٤] والمعنى (لئن شكرتم نعمتي عليكم لأزيدنكم منها ولئن كفرتم النعم وسترتموها وجحدتموها "إن عذابي لشديد" وذلك بسلبها عنهم، وعقابه إياهم على كفرها)[٥] وقال قتادة: (حق على الله أن يعطي من سأله، ويزيد من شكره، والله منعم يحب الشاكرين فاشكروا لله نعمه)[٦].

وقد قال ﷺ ((إنَّ للطاعِمِ الشاكِرِ من الأجرِ، مِثْلَ ما للصائمِ الصابرِ))[٧] وعلَّم النبي ﷺ معاذاً رضي الله عنه أن يدعو بالإعانة على ذكره وشكره ففي الحديث عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أخذ بيده وقال: ((يَا مُعَاذُ، وَاللَّهِ إِنِّي لأُحِبُّكَ، يَا مُعَاذُ، وَاللَّهِ إِنِّي لأُحِبُّكَ. فقال: أُوصِيكَ يا معاذ أَنْ لا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاةٍ، أنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك))[٨]. وعن أنس رضي الله عنه أنه قال: قال رسول

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ١١٩/٧.

(٢) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني في غريب القرآن ٢٦٥.

(٣) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢٤٤/٢.

(٤) سورة إبراهيم، آية: ٧.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٤٧٩/٤.

(٦) الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي في التفسير بالمأثور، الإمام السيوطي ٤٩١/٨.

(٧) أخرجه الترمذي ٢٤٨٦، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٠٢١).

(٨) أخرجه أبو داود ١٥٢٢، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ١٣٤٧).

اللّه ﷺ: ((إِنَّ اللّه لَيَرْضَىٰ عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا. أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا))[١].

جاء في موسوعة نضرة النعيم: (قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه إن النعمة موصولة بالشكر، والشكر يتعلق بالمزيد، وهما مقرونان في قرن، فلن ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من العبد. وقال مطرف: لأن أعافى فأشكر، أحب إليَّ من أن أبتلى فأصبر. وقال الشعبي: الشكر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله، وقال الفُضَيل بن عياض: عليكم بملازمة الشكر على النعم فقلَّ نعمةٌ زالت عن قوم فعادت إليهم. وقال أيضاً: من عرف نعمة الله بقلبه، وحمده بلسانه لم يستتمَّ ذلك حتى يرى الزيادة، وإن من شكر النعمة أن يحدث بها[٢].

تاسعاً- من موضوعات الدعوة: فضل الكرم والصدقة:

يؤخذ هذا من قوله في الحديث "فخذ ما شئت ودع ما شئت" فكانت النتيجة "فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك" ولاشك أن الصدقة والإنفاق لهما أجر كبير وثواب جزيل قال الله تعالى في وصف المتقين: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾[٣] وقال رسول الله ﷺ ((قال الله عز وجل: يا ابن آدم أنفق أنفق عليك))[٤] وهذا موضوع دعوى واسع يمكن أن يفيد منه الداعية في توجيه المدعوين، وترغيبهم في أبواب الخير، وإعانة المحتاج والفقير، والتحلي بالكرم فقد قال النبي ﷺ في الحديث ((من كان يُؤمن بالله واليوم الآخِرِ فلْيُكرِم ضَيفَه))[٥] وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((المُؤْمِنُ غِرٌّ كَرِيمٌ، والفَاجِرُ خِبٌّ لَئِيمٌ))[٦].

---

(١) أخرجه مسلم ٢٧٣٤.

(٢) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد ٢٤١٥/٦-٢٤١٧ بتصرف. والقَرَنُ: الحبل الذي يقرن به البعير، الوجيز في (ق ر ن).

(٣) سورة الذاريات، آية: ١٩.

(٤) أخرجه مسلم ٩٩٣.

(٥) أخرجه البخاري ٦٠١٨، واللفظ له، ومسلم ٤٧.

(٦) أخرجه أبو داود ٤٧٩٠، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤٠٠٦).

قال حكيم بن حزام: (ما أصبحت صباحاً قط فرأيت بفنائي طالب حاجة ضاق بها ذرعاً فقضيتها إلا كانت من النعم التي أحمد الله عليها، ولا أصبحت صباحاً لم أر بفنائي طالب حاجة إلا كان ذلك من المصائب التي أسأل الله عز وجل الأجر عليها)[1].

قال الإمام الماوردي: (وعلى من أسعد بجاهه ثلاثة حقوق يستكثر بها الشكر ويستمد بها المزيد من الأجر أحدها: أن يستسهل المعونة مسروراً، ولا يستثقلها كارهاً، فيكون بنعم الله متبرماً ولإحسانه متسخطاً ... الثاني: مجانبة الاستطالة، وترك الامتنان، فإنها من لؤم الطبع، وضيق الصدر، وفيها هدم الصنيع وإحباط الشكر ... الثالث: ألا يقرن بمشكور سعيه تقريعاً بذنب، ولا توبيخاً على هفوة ... وإن الكريم إذا وجد مصاباً بحوادث دهره: حثه الكرم وشكر النعم على الإسعاف فيها بما استطاع سبيلاً إليه، ووجد قدرة عليه ... وقد قيل لحكيم: هل شيء خير من الذهب والفضة؟ قال معطيهما)[2].

---

(١) مكارم الأخلاق، ابن أبي الدنيا ١٠٧.

(٢) أدب الدنيا والدين، الماوردي ٣٢٢، ٣٢٣ بتصرف يسير.

الحديث رقم (٦٦)

٦٦- السَّابعُ: عَنْ أبي يَعْلَى شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِما بَعْدَ المَوْتِ، وَالعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَه هَوَاهَا، وتمَنَّى عَلَى اللَّهِ**» رواه التِّرْمِذيُّ وقالَ حديثٌ حَسَنٌ[1].

ترجمة الراوي:

شداد بن أوس: هو شداد بن أوس بن ثابت بن المنذر بن حَرَام الأنصاري الخزرجي البخاريّ، وهو ابن أخي حسان بن ثابت شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم يكنى بأبي يَعْلى، ويقال: أبو عبدالرحمن المدني، وكان رضي الله عنه من سادات الصحابة وفضلائهم وعلمائهم، له ولأبيه صحبة، وقد آتاه الله العلم والحلم، قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه: كان شداد بن أوس ممن أوتي العلم والحلم. كما كان كثير العبادة، والورع، والخوف من الله تعالى. قال أسد بن وداعة: كان شداد بن أوس بن ثابت إذا أخذ مضجعه من الليل، كان كالحبة على المقلى، فيقول: اللهم إن النار قد حالت بيني وبين النوم، ثم يقوم فلا يزال يصلي حتى يصبح، كما كان زاهداً، قال المُفَضَّل بن غسَّان الغَلابي: زهاد الأنصار ثلاثة: أبو الدرداء، وشداد بن أوس، وعمير بن سعد، وقال سعيد بن عبدالعزيز: فُضِّل شداد بن أوس الأنصاري بخَصْلَتين: ببيانٍ إذا نطق، وبكَظْمٍ إذا غضب، نزل بالشام بناحية فلسطين ببيت المقدس وكان قد ولاه عمر إمارة حمص فلما قُتِل عثمان اعتزل وعكف على العبادة، توفي في أيام معاوية وعَقِبُه ببيت المقدس، وقبره ببيت المقدس، قاله ابن حبان.

أما تحديد سنة وفاته فقيل ٤١، وقيل ٦٤ وقيل ٥٨ وهو المشهور.

مات وهو ابن ٧٥ سنة[2].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥٩). قال ابن طاهر في الذخيرة (٤٤١٩): رواه أبو بكر بن أبي مريم، عن ضمرة بن حبيب، عن شداد بن اوس، وأبوبكر: ضعيف. وقال الحافظ ابن حجر في هداية الرواة: إسناده ضعيف.

(٢) الطبقات، ابن سعد (٤٠١/٧)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر (٣٢٩)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير (٦١٣/٢، ٦١٤)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني (٥٧٢، ٥٧٣)، وسير أعلام النبلاء، الذهبي (٤٦٠/٢-٤٦٧)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي (٣٦٧/٣، ٣٦٨)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (١٥٤/٢، ١٥٥)، والأعلام، خير الدين الزركلي (١٥٨/٣)، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك (١٠١٤/٢-١٠١٦).

غريب الألفاظ:

الكيس: العاقل[١].

دان نفسه: حاسبها[٢].

الشرح الأدبي

يقدم هذا الحديث صورتين للإنسان وهو يخوض غمار الحياة: إحداهما إيجابية والأخرى سلبية، والصورتان تجيئان في قالب المفارقة التي تدعو إلى التأمل والتدبر، فالصورة الأولى تتشكل من قسماتها ملامح الإنسان العاقل الذي لا يعيش أسير شهواته، ولا تتملكه نفسه، فهو دائماً يحاسب نفسه اتباعاً لقول الله عز وجل: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[٣]، والمفارقة تتجسد في شبهة التضاد بين المبتدأ وهو "الكيس" والخبر وهو جملة "من دان نفسه"، فكيف يكون عاقلاً ويقوم بإدانة نفسه؟ ولكن العجب يزول حين يدرك الإنسان أنه مأمور بتشذيب رغبات النفس، لأن النفس أمارة بالسوء، وقد صور ذلك الشاعر المسلم حين قال:

والنفس كالطفل إن تهمله شب ... حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

ويقول الشاعر الآخر في تصوير النفس وكيفية كبح جماحها:

والنفس راغبة إذا رغبتها ... وإذا ترد إلى قليل تقنع

فالكيِّس في اللغة: معناه العاقل، والكيْس، بسكون الياء، العقل، والكيس خلاف الحمق، ومن معاني "الكيس": الخفة والتوقد، ولذلك المدلول صلة بحسن الإدراك، ومعرفة العواقب، والذكاء الإيماني هو الذي يبعد صاحبه عن الشبهات

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ك ي س).

(٢) رياض الصالحين ٧٦.

(٣) سورة النازعات، الآيتان: ٤٠، ٤١.

ويجعله في حياته بمنأى عن مسالك الشيطان، ودروب العصيان، ويعمل لآخرته. وهذه هي الصفة الثانية "للكيس" الذي يعمل لآخرته كأنه يموت غداً، ويعمل لدنياه كأنما يعيش أبداً ويجعل عقله دائماً مستضيئاً بنور القيم الإسلامية، والتعاليم الربانية.

وأما الصورة الثانية للإنسان فهي تشكل ملامح العجز، وضعف الإرادة، وهي صورة مضادة للصورة الأولى الإيجابية، وما أبعد المسافة بين الصورتين! صورة "الكيس" المؤمن الفطن، وصورة "العاجز" الذي يظن نفسه منطلقاً في الحياة وقادراً على فعل ما تهواه نفسه. وفي الحقيقة إنه ضعيف الإرادة وعاجز عن مقاومة رغبات نفسه مستسلم لأهوائها وهى لا حدّ لها، إنها تقوده إلى مهاوي الردَّى، وما أجمل البيان النبوي في إيجازه وعظم دلالته وقوة تأثيره، حين يصف العاجز بأنه: "من أتبع نفسه هواها" ثم يأتي الوصف الثاني ممتزجاً بالسخرية من ذلك العاجز، الذي يتمنى على الله، ويرجو الفوز في الآخرة، وهو لم يقدم عملاً صالحاً يستحق به ذلك الفوز.

إن هذا الحديث يجري مجرى الحكمة وألفاظه قليلة ولكن معانيه جليلة ودلالاته تتعدد آفاقها. ومن جهات كثيرة يكون إشراقها، والعاقل من استضاء بنورها، والعاجز من عمى عن أسرارها.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار، الترهيب.

ثانياً: من واجبات الداعية: توضيح الحقائق للمدعوين.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: فضل الكياسة.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: اغتنام الحياة في العمل لما بعد الموت.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار، الترهيب:

١- الإخبار: ويستنبط هذا من قول النبي ﷺ "الكيس من دان نفسه" فهذا إخبار منه ﷺ عن الكيس، ولاشك أن الإخبار من أساليب الدعوة التي يستخدمها الداعية في سوق الحقائق إلى المدعوين، ومن أهم شروط الخبر: الصدق حتى يتقبله الناس بقبول حسن، وأخبار النبي ﷺ كلها صادقة، لذا فإن الداعية يعتمد بشكل أساسي على

الأسلوب الخبري في نقل الحقائق للمدعوين.

٢- الترهيب: ويستنبط هذا من قول النبي ﷺ: "والعاجز من أتبع نفسه هواها" حيث وصف الإنسان الذي يتبع هوى النفس ويؤجل التوبة، ويفرط في العمل الصالح بأنه عاجز ولاشك أن صفة العجز ينفر منها المؤمن الصادق، وفي الحديث ترهيب له من الوقوع في مصاف العاجزين باتباع الأهواء والشهوات.

ثانياً- من واجبات الداعية: توضيح الحقائق للمدعوين:

يظهر هذا من سياق الحديث حيث يجب أن يحرص الداعية على بيان الحقائق للمدعوين لما في ذلك من النصح لهم، وتوجيههم إلى الخير، خاصة وأن مهمة الداعية تقوم على البيان قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

يقول السعدي: (وأنزلنا إليك الذكر أي القرآن الذي فيه ذكر ما يحتاج إليه العباد من أمور دينهم ودنياهم الظاهرة والباطنة، وهذا شامل لتبيين ألفاظه، وتبيين معانيه)[2].

وفي هذا الحديث بيان لواجب من واجبات الداعية: وهو توضيح الحقائق للمدعوين ويتمثل ذلك في بيان أن الكيس أي العاقل من حاسب نفسه وتدبر عواقب الأمور، وأعدّ العدة وتزود بالتقوى واستعد للقاء الله، والعاجز من غفل عن آخرته، وأطلق العنان لشهواته، ولم يحاسب نفسه، ولذا ينبغي للداعية أن يبين هذه الحقائق وأن يوضحها.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: فضل الكياسة:

ليس الكيس الذي يسير في الدنيا يجمع المال، ويتبع الأهواء بدون النظر إلى عواقب الأمور، ولكن النبي ﷺ يبين أن الكيس الفطن الحقيقي هو (العاقل المتبصر في الأمور، الناظر في العواقب، وهو من دان نفسه أي حاسبها وأذلها واستعبدها وقهرها حتى

---

(١) سورة النحل: آية ٤٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٣٩٤.

صارت مطيعة منقادة لأوامر الله ورسوله ﷺ وعمل لما بعد الموت ليصير على نور من ربه فالموت عاقبة أمر الدنيا، فالكيس من أبصر العاقبة)[1]. وقد قال الله تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾[2] والداعية الحصيف هو الذي يبين للمدعوين من هو الكيس الحقيقي ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[3].

وفي فضل العقل وحسن استخدامه قال الإمام الماوردي: (اعلم أن لكل فضيلة أساً، ولكل أدب ينبوعاً، وأس الفضائل وينبوع الآداب هو العقل الذي جعله الله تعالى للدين أصلاً، وللدنيا عماداً فأوجب التكليف بكماله، وجعل الدنيا مُدَبَّرة بأحكامه، وألف بين خلقه مع اختلاف هممهم ومآربهم، وتباين أغراضهم ومقاصدهم قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أصل الرجل عقله، وحسبه دينه، ومروءته خلقه، وقال الحسن البصري: ما استودع الله أحداً عقلاً إلا استنقذه به يوماً ما، وقال بعض الحكماء: العقل أفضل مرجو، والجهل أنكى عدو، وقال بعض الأدباء: صديق كل امرئ عقله، وعدوه جهله، وقال بعض البلغاء: خير المواهب العقل، وشر المصائب الجهل)[4]؛ لذا يحسن بالعاقل أن يتدبر عواقب الأمور، وأن يتزود بالطاعات، ويحاسب نفسه قبل أن يحاسب، ويراقب نفسه مراقبة دقيقة حتى يكون أهلاً لرحمة الله.

رابعاً- من موضوعات الدعوة: اغتنام الحياة في العمل لما بعد الموت:

يظهر هذا من قول النبي ﷺ "وعمل لما بعد الموت" فواجب الإنسان الكيس العاقل أن يغتنم عمره في الأعمال الصالحة استعداداً للحياة الباقية بعد الموت ذلك لأن العمر يمضي، والموت آت لا محالة ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ﴾[5].

---

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري ٢/١٩٢١.

(٢) سورة القيامة: آية ١٤، ١٥.

(٣) سورة الشعراء: آية ٨٨، ٨٩.

(٤) أدب الدنيا والدين، الماوردي ١٩.

(٥) سورة آل عمران: ١٨٥.

قال ابن علان: (والحاصل أن الحزم الإتيان بواجب العبودية من أداء الخدمة، ومحاسبة النفس، حذر مجاوزة الحدود، وعدم الالتفات إلى ذلك بالقلب والركون إليه، بل يكون مع ذلك اعتماده على فضل مولاه سبحانه، وأما ترك أداء مقام العبودية فذلك من رعونات النفس الخفية لاسيما إن أوقعها في ميدان شهواتها الذي فيه هلكها ومحقها)[١].

وقال ابن القيم: (طالب الله والدار الآخرة لا يستقيم له سيره وطلبه إلا بحبسين: حبس قلبه في طلبه ومطلوبه، وحبسه عن الالتفات إلى غيره وحبس لسانه عما لا يفيد، وحبسه على ذكر الله وما يزيد في إيمانه ومعرفته، وحبس جوارحه عن المعاصي والشهوات، وحبسها على الواجبات والمندوبات، فلا يفارق الحبس حتى يلقى ربه فيخلصه من السجن إلى أوسع فضاء وأطيبه، ومتى لم يصبر على هذين الحبسين وفرَّ منهما إلى فضاء الشهوات أعقبه ذلك الحبس الفظيع عند خروجه من الدنيا: فكل خارج من الدنيا إما متخلص من الحبس وإما ذاهب إلى الحبس)[٢].

قال محمد عبدالعزيز الخولي: "فالعاقل حقيقة من قهر نفسه وأخضعها لحكمة عقله وشريعة ربه فهو يحاسبها على كل ما تأتي وما تذر. فإن خيراً ازداد منه وحمد الله وإن كان شراً أناب إليه وعاد على نفسه بالقهر والإذلال حتى تسلك الإمام[٣] المبين ولا تحيد عنه يمنة أو يسرة. وسلوكه بالقيام بالواجب عليه لربه ونفسه وأهله وقومه فذلك ما ينفع لما بعد الموت من بعث وحشر وحساب ونعيم، وعقاب، والحازم من يستعد لهذه الرحلة الطويلة ولذلك اليوم المشهود ولتلك الدار الباقية بنفس يطهرها وخلق طيب يتجمل به وعمل صالح يقدمه ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[٤]، ذلك الكيس الحاذق.

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ١٧٩.

(٢) الفوائد المشوقة إلى علم القرآن وعلم البيان، ابن القيم ٥٤.

(٣) الإمام: الطريق الواسع الواضح، الوسيط في (أ م م).

(٤) سورة الشعراء، الآيتان: ٨٨ - ٨٩.

أما العاجز المقصر في الواجب فهو الذي لم يأتمّ بهواه فنفسه أسيرة شهواته كلما أهابت به لاقتراف فاحشة لبّى نداءها وكلما أخذت به عن سنن الحق سار وراءها غير مبالٍ بما هو صائر إليه ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾[١].

أما عقله ودينه فمقهوران لشهوته، فهي صاحبة الأمر تصرفه كما تريد فبحَقٍ ذلك هو الأحمق وإنه ليزيد حمقاً تمنيه على الله الأماني الكاذبة فهو يعلل نفسه بعفو الله ومغفرته وسعة رحمته أو باستدراك ما فاته آخر حياته، ولم يدر هذا العاجز أن رحمة الله كتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين يؤمنون بآيات الله ويتبعون الرسول النبي الأمي ﷺ. لم يدر هذا العاجز أن الموت غائب لا يدري متى يقدم وأنه قد يباغت الناس في ريعان الشباب حيث البنية سليمة والقوة موفورة، فالعاقل يجعل هواه خاضعاً لعقله ومن وراء إذن ربه.

والعاقل لا يتمنى من المكافآت إلا ما يتناسب مع عمله الذي قدمه إن كان له عمل والجنة ثمنها الإيمان والعمل الصالح ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾[٢].

وفي الحكم:

إذا أنت لم تزرع وأبصرت حاصداً ندمت على التفريط في زمن البذر[٣]

والقرآن يمنع التسوية بين الكيس والعاجز ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾[٤].

قال الطيبي: (والعاجز الذي غلب عليه نفسه وعمل بما أمرته به نفسه، فصار عاجزاً لنفسه فأتبع نفسه، وأعطاها ما اشتهته. وقوبل الكيس بالعاجز والمقابل

---

(١) سورة القصص، آية: ٥٠.

(٢) سورة طه، آية: ٧٥.

(٣) الأدب النبوي ٢١٣ - ٢١٤.

(٤) سورة محمد: آية ١٤.

الحقيقي للكيس: السفيه الرأي، وللعاجز: القادر ليؤذن بأن الكيس هو القادر، والعاجز هو السفيه (وتمنى على الله الأماني) أي يذنب ويتمنى الجنة من غير توبة ولا استغفار)(١).

وقال ابن الجوزي: (اعلم أن مطلق الهوى يدعو إلى اللذة الحاضرة من غير فكر في عاقبة، ويحث على نيل الشهوات عاجلاً، وإن كانت سبباً للألم والأذى في العاجل، ومنع لذاتٍ في الآجل. فأما العاقل فإنه ينهى نفسه عن لذة تعقب ألماً، وشهوة تورث ندماً، وكفى بهذا القدر مدحاً للعقل وذماً للهوى، وبهذا القدر فُضِّل الآدمي على البهائم - أعني ملكة الإرادة- لأن البهائم واقفة مع طباعها، لا نظر لها إلى عاقبة، ولا فكر في مآل وإذا عرف العاقل أن الهوى يصير غالباً، وجب عليه أن يرفع كل حادثة إلى حاكم العقل فإنه سيشير عليه بالنظر في المصالح الآجلة، ويامره عند وقوع الشبهة باستعمال الأحوط في كف الهوى إلى أن يتيقن السلامة من الشر في العاقبة)(٢).

وقال ابن الجوزي أيضاً: "عن معاوية رضي الله عنه قال: المروءة ترك اللذة وعصيان الهوى، وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: إذا أصبح الرجل اجتمع هواه وعمله فإن كان عمله تبعاً لهواه فيومه يوم سوء، وإن كان هواه تبعاً لعمله فيومه يوم صالح. وقال مالك بن دينار: من غلب شهوات الدنيا فذلك الذي يفرق الشيطان من ظله وقال أيضاً: بئس العبد عبدٌ همه هواه وبطنه. و قال الأصمعي: سمعت أعرابياً يقول: إذا أشكل عليك أمران لا تدري أيهما أرشد فخالف أقربهما من هواك فإن أكثر ما يكون الخطأ مع متابعة الهوى، وقال بشر: اعلم أن البلاء كله في هواك، والشفاء كله في مخالفتك إياه، وقال الفضيل بن عياض: من استحوذت عليه الشهوات انقطعت عنه مواد التوفيق)(٣).

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، حسين بن محمد الطيبي ٣٥٥/٩.

(٢) ذم الهوى، أبو الفرج بن الجوزي ص ١٣.

(٣) انظر: المرجع السابق نفسه، ص ٢٢-٢٤ بتصرف.

الحديث رقم (٦٧)

٦٧- الثَّامِنُ: عَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قالَ رسولُ اللّه صلى الله عليه وسلم: ((مِنْ حُسْنِ إسْلامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَالاَ يَعْنِيهِ» حديثٌ حسنٌ، رواهُ التِّرْمذيُّ وغيرُهُ[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

يعنيه: يهمه[2].

الشرح الأدبي

جملة واحدة تستضيء حروفها بنور سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم، في هذا الحديث النبوي المحكم، وكلماته تتلاقى حول دلالة إسلامية تتموج آثارها، وتتضوأ كلماتها، وتقدم هذه الجملة الحديثية صورة متألقة للسلوك الإسلامي في حياة الناس، وهذا السلوك يعني بأوامر الشرع ونواهيه، ولا يُعني بأي أمر يشوه صورة المسلم أو يبدد طاقته أو يجلب له الهلاك أو يوقعه في الشبهات.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣١٧)، وقال: هذا حديث غريبٌ. وابن ماجه (٣٩٧٦) ولفظهما سواء. ورواه الترمذي برقم (٢٣١٨) عن الزهري، عن علي بن حسين، وقال: وهكذا روى غير واحد من أصحاب الزهريّ، عن علي بن حسين، عن النبي صلى الله عليه وسلم نحو حديث مالك مرسلاً، وهذا عندنا أصحُ من حديث أبي سلمة، عن أبي هريرة، وعلي بن حسين، لم يدرك علي بن أبي طالب. قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس (٢٨٧/١): وقد حسّنه المصنف، لأن رجال إسناده ثقات، وقرّة بن عبد الرحمن بن حيويل وثّقه قومٌ وضعفه آخرون، وقال ابن عبد البر: هذا الحديث محفوظٌ عن الزهري بهذا الإسناد من رواية الثقات، وهذا موافق لتحسين الشيخ له، وأما أكثر الأئمة، فقالوا: ليس هو بمحفوظ بهذا الإسناد، وإنما هو محفوظ عن الزهري، عن علي بن حسين، عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلاً، كذلك رواه الثقات عن الزهري، منهم مالك في الموطأ، ويونس، ومعمر، وإبراهيم بن سعد، إلا أنه قال: (من إيمان المرء تركه ما لا يعنيه). وممن قال إنه لا يصحُ إلا عن علي بن حسين مرسلاً: الإمام أحمد، ويحيى بن معين، والبخاري والدارقطني أهـ أورده المنذري في ترغيبه (٤٢٤٧).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٦٤٧.

ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف الموجز المحكم.

إن أول ظاهرة أسلوبية في هذا الحديث هي ظاهرة التقديم والتأخير؛ ففي الحديث عدول عن الترتيب المألوف للجملة: لأن قوله ﷺ: "من حسن إسلام المرء" في موقع الخبر، وقد جاء مقدماً على المبتدأ وهو "تركه ما لا يعنيه"، وتقديم الخبر يسمى في علم الأسلوب الحديث عدول أو انزياحًا عن الترتيب النمطي للجملة، لأن الثمرة المبتغاة هى الحرص على حسن إسلام المرء وحسن الإسلام عبارة عن كماله، وهو أن تستقيم نفسه في الإذعان لأمر الله تعالى والاستسلام لأحكامه، كما يقول صاحب كتاب: دليل الفالحين[1].

والجملة الثانية هي المبتدأ، وحقها أن تكون في أول الكلام، لأن المبتدأ له الصدارة، ولكن التأخير له سره البلاغي، وقيمته الأسلوبية، وهو أن ترك ما لا يعني الإنسان لابد أن يكون مصحوباً بالنية الخالصة التي تحرص على حسن الإسلام، والمراقبة التامة لكل سلوك.

وذلك هو السر في إدراج هذه الحديث الشريف في باب المراقبة، لأن الإنسان قد يترك ما لا يعنيه بدافع مذهبي أو اجتماعي أو فلسفي، ولا يكون ذلك بدافع من الحرص على التعاليم الإسلامية، ولذلك تأتي الإشارة الأسلوبية في التعبير بـ"من"، فهي تبعيضية أي: أن ترك ما لا يعني الإنسان هو جزء من التكوين الجمالي الذي يعطي الصورة الكلية للسلوك الإسلامي. ولنتأمل موجبات هذه العبارة القليلة في ألفاظها "تركه ما لا يعنيه". أي الذي لا يعنيه، فكل الأقوال والأفعال التي لا تشارك في بناء حياة المسلم يتضمنها هذا الترغيب في تركها؛ حفاظاً على صورة المسلم الصحيحة، لأن معنى يعنيه أنه تتعلق عنايته به ويكون من مقصده ومطلوبه، والعناية شدة الاهتمام بالشيء، يقال عناه يعنيه: إذا اهتم به وطلبه. وإذا حسن الإسلام اقتضى ترك ما لا يعني كله من المحرمات أو المشتبهات والمكروهات وفضول المباحات التي لا يحتاج إليها، فإن هذا كله لا يعني المسلم إذا كمل إسلامه وبلغ

(١) ص ١٧٩.

إلى درجة الإحسان، فمن عَبَدَ الله على استحضار قربه ومشاهدته بقلبه أو على استحضار قرب الله منه واطلاعه عليه، فقد حسن إسلامه، ولزم من ذلك أن يترك كل ما لا يعنيه في الإسلام، ويشتغل بما يعنيه فيه[1]. فإن العبد إذا شغل بما لا يعنيه فإنه يضيع زمانه ويحاسب على عمل لسانه ويحرم من نعيم الله ورضوانه.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانياً: من أهداف الدعوة: توجيه الناس إلى الخير.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: ترك المرء ما لا يعنيه أمارة على حسن إسلامه.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار:

جاء الحديث الشريف في أسلوب الإخبار "من حُسْن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه" ولعلَّ السبب في كون صياغة الحديث جاءت في ثوب الإخبار، لعل السبب في ذلك هو أن الحديث جاء ليقرر حقيقة تلقتها العقول والأفهام بالقبول والتسليم، فلا تحتاج إلى توكيد أو أمر أو نحو ذلك، وإنما يكفي في ذلك الإخبار بها، فيفهم المدعوون المراد بذلك، فيعملون بمقتضاها ويلتزمون بها. وهناك وجه آخر لبيان الحكمة من استخدام الإخبار، وهو أنه يناسب فتح باب التنافس واسعًا بين المدعوين، فمما لا شك فيه أن حسن الإسلام يختلف باختلاف المسلمين، فهناك من يكون إسلامه أحسن من غيره، وهكذا، وذلك على قدر طاعة كل مسلم وامتثاله، ومن ذلك تركه لما لا يعنيه، فجاء الإخبار ليحث المدعوين على ترك ما لا عناية لهم به، وكلما كانوا أصدق في ذلك كانوا أحسن إيمانًا، والله أعلم.

ثانياً- من أهداف الدعوة: توجيه الناس إلى الخير:

إن من أهداف الدعوة التي ترمي إلى تحقيقها: توجيه الناس إلى الخير، وتوجيههم إلى ما ينفعهم. وفي هذا الحديث يوجه النبي أمته إلى طريق من طرق حسن الإسلام من

---

(١) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ص ٩٨.

خلال ترك ما لا يعنيهم، لأن ذلك يجعل المؤمن يهتم ويُعنى بما طلب منه من تكليفات، وينشغل بنفسه وتهذيبها عن الآخرين وهذا ما يهدف إليه الإسلام.

وقال القاري في معنى "تركه ما لا يعنيه" أي: (ما لا يهمه ولا يليق به قولاً وفعلاً، ونظراً وفكراً، وحقيقة ما لا يعنيه ما لا يحتاج إليه في ضرورة دينه ودنياه، ولا ينفعه في مرضاة مولاه بأن يكون عيشه بدونه ممكناً، وهو في استقامة حاله بغيره متمكناً، وذلك يشمل الأفعال الزائدة والأقوال الفاضلة)[١].

وإذا كان اشتغال الإنسان بما لا يعنيه من اللغو فإن الله وصف المؤمنين بأنهم معرضون عن اللغو ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾[٢] ووصف عباد الرحمن بأنهم ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾[٣] يقول القاسمي في تفسير آية سورة المؤمنون: (﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾ أي: عن الفضول وما لا يعني من الأقوال والأفعال، معرضون في عامة أوقاتهم، لاستغراقهم بالجد)[٤] ومن هنا وجب على الدعاة إلى الله توجيه الناس إلى ترك ما لا يعنيهم طلباً لحسن الإسلام. وتحذيراً لهم من حرمان الجنان.

قال الطوفي: "فإن قيل: فلم قال: من حسن إسلام المرء على التبعيض، ولم يقل: حسن إسلام المرء".

قلنا: لأن ترك ما لا يعني ليس هو كل حسن الإسلام، بل بعضه، وإنما جميع حسن الإسلام ترك ما لا يعني، وفعل ما يعني فإذا فعل ما يعنيه، وترك ما لا يعنيه فقد كمل حسن إسلامه.

فإن قيل: فلم قال: من حسن إسلامه، ولم يقل من إسلامه؟

قلنا: لأن ترك ما لا يعني ليس هو نفس الإسلام ولا جزءاً منه، بل هو وصفه وهو

---

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٨٥٠/٢.

(٢) سورة المؤمنون: آية ٣.

(٣) سورة الفرقان: آية ٧٢.

(٤) محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي ٧١/١٢/٧.

حسنه، وحسن الشيء ليس هو ذاته ولا جزءه.

أما الإسلام نفسه فهو الانقياد لغة، والأركان الخمسة شرعاً فهو كالجسم، وترك ما لا يعني كالشكل واللون له.

واعلم أن كل شيء فإما أن يعني الإنسان أو لا يعنيه، وعلى التقديرين فإما أن يفعله أو يتركه فهي أربعة أقسام:

فعل ما يعني، وترك ما لا يعني، وهما حسنان، وترك ما يعني وفعل ما لا يعني وهما قبيحان.

والذي يعني الإنسان من أمر معاشه ما يشبعه من جوع، ويرويه من عطش، ويستره من ظهور عورته، ويعفه من زنا، وما تعلق بذلك على جهة دفع الضرر لا على جهة التلذذ والتمتع والاستكثار، والذي يعنيه من أمر معاده الإسلام والإيمان والإحسان، والإمعان في ذلك والاستكثار أولى من الإقلال والاختصار.

وهذا الحديث يرجع إلى قوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾[١]، ونحوه لأن ذلك جميعه مما لا يعنيه. والله عز وجل أعلم بالصواب[٢].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: ترك المرء ما لا يعنيه أمارة على حسن إسلامه:

قال ابن رجب: (وهذا الحديث يدل على أن ترك ما لا يعني المرء من حسن إسلامه، فإذا ترك ما لا يعنيه، وفعل ما يعنيه كله، فقد كمل حسن إسلامه، وقد جاءت الأحاديث بفضل من حسن إسلامه وأنه تضاعف حسناته وتكفر سيئاته، وكثرة المضاعفة تكون بحسب حسن الإسلام فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((إِذَا أَحْسَنَ أَحَدُكُمْ إِسْلاَمَهُ فَكُلُّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ. وَكُلُّ سَيِّئَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ بِمِثْلِهَا حَتَّى يَلْقَى اللهَ))[٣].

---

(١) سورة الأنعام، آية: ١٢٠.

(٢) التعيين في شرح الأربعين، نجم الدين الطوفي ص ١٢٢ - ١٢٣.

(٣) أخرجه مسلم ١٢٩.

فالمضاعفة للحسنة بعشر أمثالها لابدَّ منه، والزيادة على ذلك تكون بحسب إحسان الإسلام، وإخلاص النية والحاجة إلى ذلك العمل وفضله[(١)].

وقال أيضاً: "وهذا الحديث أصل عظيم من أصول الأدب، وقد حكى الإمام أبو عمرو بن الصلاح عن أبي محمد بن أبي زيد إمام المالكية في زمانه أنه قال: جماع آداب الخير وأزمته تتفرع من أربعة أحاديث قول النبي ﷺ: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت)[(٢)]، وقوله ﷺ (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه)، وقوله ﷺ للذي اختصر له في الوصية: (لا تغْضَب)[(٣)]، وقوله ﷺ: (المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه)[(٤)].

ومعنى هذا الحديث: أن من حسن إسلامه ترك ما لا يعنيه من قولٍ وفعلٍ واقتصر على ما يعنيه من الأقوال والأفعال. ومعنى يعنيه: أنه تتعلق عنايته به ويكون من مقصده ومطلوبه، والعناية: شدة الاهتمام بالشيء. يقال: عناه يعنيه إذا اهتَّم به وطلبه، وليس المراد أنه يترك ما لا عناية له به ولا إرادة بحكم الهوى وطلب النفس، بل بحكم الشرع والإسلام، ولهذا جعله من حسن الإسلام فإذا حَسُنَ إسلامُ المرء تَركَ ما لا يعنيه في الإسلام من الأقوال والأفعال؛ فإن الإسلام يقتضي فعل الواجبات.

وإن الإسلام الكامل الممدوح يدخل فيه ترك المحرمات، كما قال النبي ﷺ: ((المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسانِهِ وَيَدِهِ))[(٥)]، وإذا حسن الإسلام اقتضى ترك ما لا يعني كله من المحرمات والمشتبهات والمكروهات، وفضول المباحات التي لا يحتاج إليها؛ فإن هذا كله لا يعني المسلم إذا كمل إسلامه وبلغ إلى درجة الإحسان، وهو أن يعبد الله تعالى كأنه يراه فإن لم يكن يراه، فإن الله يراه فمن عبدالله على استحضار

---

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢٩٥/١.

(٢) أخرجه البخاري ٦١٣٦، ومسلم ٤٧.

(٣) أخرجه البخاري ٦١١٦.

(٤) أخرجه البخاري ١٣ واللفظ له، ومسلم ٤٥ مرفوعًا: (لا يؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه).

(٥) أخرجه البخاري ١٠، ومسلم ٤٠.

قربه ومشاهدته بقلبه أو على استحضار قرب الله منه واطلاعه عليه، فقد حسن إسلامه ولزم من ذلك أن يترك كل ما لا يعنيه في الإسلام ويشتغل بما يعنيه فيه، فإنه يتولد من هذين المقامين الاستحياء من الله وترك كل ما يستحيي منه.

قال بعضهم: استحي من الله على قدر قربه منك، وخف الله على قدر قدرته عليك.

وقال بعض العارفين: إذا تكلمت فاذكر سمع الله لك، وإذا سكتّ فاذكر نظره إليك.

وقد وقعت الإشارة في القرآن العظيم إلى هذا المعنى في مواضع كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ۝ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾[3].

وأكثر ما يراد بترك ما لا يعني حفظ اللسان من لغو الكلام كما أشير إلى ذلك في الآيات الأول التي هي في سورة (ق).

وقال عمر بن عبدالعزيز: (من عد كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه. وهو كما قال فإن كثيرًا من الناس لا يعد كلامه من عمله فيجازف فيه ولا يتحرى)[4].

وحسن الإسلام من وسائل تحقيقه: إمساك اللسان عن الخوض فيما لا يعنيه، فقد

---

(١) سورة ق، الآيات: ١٦ – ١٨.

(٢) سورة يونس، آية: ٦١.

(٣) سورة الزخرف، آية: ٨١.

(٤) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢٨٨/١ – ٢٩١.

قال ابن قدامة: "وآفات اللسان كثيرة متنوعة، ولها في القلب حلاوة، ولها بواعث من الطبع، ولا نجاة من خطرها إلا بالصمت، فالصمت يجمع الهمة ويفرغ الفكر.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: ما شيء أحوج إلى طول سجن من لساني.

وقال أبو الدرداء: انصف أذنيك من فيك، فإنما جعلت لك أذنان وفم واحد، لتسمع أكثر مما تتكلم به. وقال مخلد بن الحسين: ما تكلمت منذ خمسين سنة بكلمة أريد أن أعتذر منها.

ومن أولى آفات اللسان: الكلام فيما لا يعني.

فاعلم أن من عرف قدر زمانه وأنه رأس ماله، لم ينفقه إلا في فائدة، وهذه المعرفة توجب حبس اللسان عن الكلام فيما لا يعني لأنه من ترك ذكر الله تعالى واشتغل فيما لا يعني كان كمن قدر على أخذ جوهرة، فأخذ عوضها مَدَرة[1]، وهذا خسران العمر.

وقد قيل للقمان الحكيم: ما بلغ من حكمتك؟ قال: لا أسأل عما كفيته، ولا أتكلم بما لا يعنيني.

وقد روي أنه دخل على داود عليه السلام وهو يسرد درعاً، فجعل يتعجب مما رأى، فأراد أن يسأله عن ذلك، فمنعته حكمته فأمسك، فلما فرغ داود عليه السلام، قام ولبس الدرع ثم قال: نعم الدرع للحرب. فقال لقمان: الصمت حكم وقليل فاعله!!"[2].

وإذا كان حسن الإسلام له من الفضل والأجر الكثير فيجب على الداعية أن ينبه المدعوين إلى الأمور التي يكون بها حسن الإسلام والتي منها ترك المرء ما لا يعنيه.

---

(١) المدر: الطين اللّزج المتماسك، والقطعة منه مَدَرة، الوسيط في (م د ر).

(٢) مختصر منهاج القاصدين ١٨٠ - ١٨١.

الحديث رقم (٦٨)

٦٨- التَّاسِعُ: عَنْ عُمَرَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لا يُسْأَلُ الرَّجُلُ فِيمَ ضَرَبَ امْرَأَتَهُ**» رواه أبو داود وغيرُه(١).

ترجمة الراوي:

عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١).

الشرح الأدبي

- إن هذا الحديث الشريف يعرض لقضية اجتماعية في ظل القيم الإسلامية الراشدة، وهذه القضية هي العلاقة بين الرجل وامرأته في الإسلام، وهي علاقة وطيدة الأركان متماسكة البنيان. وقد حرص الإسلام على ترسيخ هذه العلاقة، وعلى إقامتها على أسس قوية متينة؛ فجعلها من دلائل قدرة الله وآياته حيث قال عز وجل: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۝ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٢).
- وفي خطبة حجة الوداع يوصي رسول الله ﷺ المسلمين جميعاً بضرورة رعاية النساء وأن يستوصي الرجال بهن خيراً، فقال وهو ينظم العلاقة الحميمة بين الرجل والمرأة في ظل التعاليم الإسلامية، وهو ينادي الناس جميعاً: «أَلاَ واسْتَوْصُوا بالنِّسَاءِ خَيراً، فإنَّمَا هُنَّ عَوانٌ عِنْدَكمْ لَيْسَ تَمْلِكُونَ مِنْهُنَّ شَيْئاً غَيْرَ ذلِك، إلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ فَإِنْ فَعَلْنَ فَاهجُرُوهُنَّ في

---

(١) أخرجه أبو داود (٢١٤٧) واللفظ له، وابن ماجه (١٩٨٦). قال ابن كثير في مسند الفاروق (١٨٢/١): قال ابن المديني: هذا إسناد مجهول، وداود بن عبد الله الأودي لا أعلم أحدًا روى عنه إلا زهير، وأبو عوانة. وعبد الرحمن المسلي، ويكنى بأبي وبرة: لا أعلم روى عنه غير هذا.

(٢) سورة الروم: ٢٠-٢١ .

المضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْباً غَيْرَ مُبَرِّحٍ. فَإِنْ أطَعْنَكُمُ فَلاَ تَبْغُوا علَيْهِنَّ سَبِيلاً. ألاَ إنّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُم حَقّاً. ولِنِسَائِكمْ عَلَيْكُمْ حَقاً. فَأَمَّا حَقكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ فَلاَ يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ مَنْ تَكْرَهُونَ ولاَ يَأْذَنَّ فِي بُيُوتِكُمْ لِمَنْ تَكْرَهُونَ. ألاَ وحَقهُنَّ عَلَيْكُمْ أنْ تُحسِنُوا إلَيْهِنَّ فِي كِسْوَتِهِنَّ وطَعَامِهِن»[١].

إن هذه الوصايا النبوية الحكيمة ترشد كل عاقل إلى أن الأمور الزوجية، وأبعاد العلاقة بين الرجل وامرأته تظل في دائرة الكتمان والأمانة، ولا يجوز لمسلم أن يفشي أسرار بيته، وكذلك لا يجوز للمرأة المسلمة أن تذيع أسرار بيتها؛ حفاظاً على هذه الأمانة وحرصاً على أن تظل الحياة متوجة بسياج من السكن والمودة والرحمة، فهذه هي أهم معالم الروضة الزوجية وأهم ثمرات الحياة الأسرية.

- وفي ضوء هذه الأبعاد وهذه التعاليم يمكن أن نعلل السر الذي من أجله نفى رسول الله ﷺ سؤال الرجل: لم ضرب امرأته؟ وفي أي موقف؟ ولأي سبب كان هذا الضرب غير المبرح؟ لأنه وسيلة من وسائل إصلاح الحياة وإعادة العلاقة، وقد يكون السبب سراً من أسرار الحياة الزوجية لا يحسن ذكره، ومن هنا يجئ هذا الحديث في إشاراته وموحياته ليحافظ على جمال العلاقة بين الرجل وامرأته، ولتظل هذه الحياة بكل ملابساتها أمانة بين الزوجين حفاظاً على الأبناء ومستقبلهم، وضماناً لوأد الخلافات، وحرصاً على طاعة الزوجة.
- وقيل: إن السر في عدم السؤال احتمال أن يكون السبب مما يستحيا من ذكره، بل يترك ذلك إلى الزوج المسلم وإلى مراقبته لمولاه إلا إذا احتاج الأمر إلى جريان الأحكام والرفع إلى الحكام فتبين الأمور[٢].

---

(١) أخرجه الترمذي ١١٦٣، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي،٩٢٩).

(٢) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٢١٢.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم ضرب الرجل زوجته تأديباً لها، وقد اتفق الفقهاء على أنه يجوز للزوج تأديب زوجته بالموعظة والهجر والضرب إن لم تستجب للأولين، على أن يكون الضرب خفيفاً يتقي فيه المقاتل والمهانة، كاللكزة ونحوها، وأن يقصد به زجر المرأة وعودتها إلى الحق، فإن فاءت لم يكن له أن يبغي عليها أو يضرب ثانية وإلا ضمن تلفها إن حدث، ويكون تأديب الزوج لزوجته لتركها حقه هو باتفاق الفقهاء كأن تخرج بغير إذنه أو تترك الزينة له مع القدرة عليها، أو تترك الاغتسال من الجنابة، أو لا تجيبه إلى الفراش إذا دعاها إليه، أما ضربها لحق الله تعالى كأن كانت لا تصلي فذهب الحنفية والشافعية إلى أنه لا يجوز له تأديبها لحق الله تعالى، وذهب المالكية والحنابلة إلى جواز تأديبها لحق الله تعالى[(١)].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النفي.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: المحافظة على خصوصيات الحياة الزوجية.

- ثالثاً: من موضوعات الدعوة: عدم التدخل في شؤون الغير.

أولاً- من أساليب الدعوة: النفي:

جاء الحديث في أسلوب النفي "لا يُسأل الرجل فيم ضرب زوجته" وهو بمعنى النهي، ولعل أسلوب النفي هنا يستنبط منه أن هذا الأمر مقرر وثابت فلا يحتاج معه زيادة في التنبيه، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنه يستنبط منه دفع الرجل إلى مراقبةالله في

(١) تكملة البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٣٩٢/٨، ومجمع الأنهر لداماد أفندي ٦٣٢/٢، وأحكام القرآن لابن العربي ٢٦١/٤، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٧٢/٥، وتبصرة الحكام لابن فرحون ٢٤٠/٢، والغرر البهية للأنصاري ١٠٨/٥، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري ١٦٣/٤، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين أبو الحسن علي بن سليمان المرداوي ٧٩/٦، والمغني، ابن قدامة لابن قدامة ١٥٠/٩، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢١/١٠ وما بعدها.

تعامله مع زوجته، فإذا كان يسأل عن ضربه لزوجته، فهذا أدعى لأن يراقب الله فيها، فلا يعاملها إلا بالحسنى. لذا كان أسلوب النفي -في رأينا- هنا أبلغ من النهي، والله أعلم.

- **ثانياً- من موضوعات الدعوة: المحافظة على خصوصيات الحياة الزوجية:**
- يرغب الإسلام دائماً في قيام الحياة الزوجية على الستر فلا الزوجة تنشر سر زوجها، ولا الزوج ينشر سر زوجته وقد وصف الله العلاقة بينهما بأن كليهما لباس للآخر، واللباس إنما يتخذ للستر، قال الله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾(١) وفي النهي عن سؤال الرجل فيم ضرب امرأته حفظ للستر؛ لاحتمال أن يكون السبب مما يستحيا من ذكره كالامتناع من التمكين ولذا دعا الإسلام إلى معالجة مشكلات الحياة الزوجية بين الزوجين في داخل البيت قال الله عز وجل: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾(٢).
- وإن فشل هذا التدرج في معالجة المشكلة فلا مناص من الإخبار للغير ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾(٣).
- يقول الطيبي: (وقوله: "لا يسأل" عبارة عن عدم التحرج والتأثم؛ لقوله تعالى:

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٨٧.

(٢) سورة النساء، آية: ٣٤.

(٣) سورة النساء، آية: ٣٥.

﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً ﴾[١] أي أزيلوا عنهن التعرض بالأذى والتوبيخ والتنحي، وتوبوا عليهن، واجعلوا ما كان منهن كأن لم يكن)[٢].

- وبالجملة فهذا الموضوع من الموضوعات الدعوية الهامة التي يجب أن يفطن الدعاة إليه لتوجيه المدعوين إلى حفظ أسرار البيوت، وعدم نشر مشكلاتها حفاظاً على خصوصية الحياة الزوجية.
- **ثالثاً- من موضوعات الدعوة: عدم التدخل في شؤون الغير:**
- وهذا من توجيهات الإسلام لأفراد المجتمع وقد جاء في الحديث الشريف ((مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ ما لا يعْنِيهِ))[٣] ولهذا كان من الآداب الإسلامية ألا يتدخل المرء في شؤون الغير إلا إذا طلب منه ذلك بقصد الإصلاح وحل التنازع، وإبداء الرأي والمشورة، أو بالجملة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وأما التدخل في شؤون الغير لكشف الأسرار، ونشر المشكلات، والشماتة بالآخرين فهذا مما ينأى الإسلام بأتباعه عنه؛ لأنه ليس من خصال أهل الإسلام؛ ولذا قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولاً ﴾[٤]؛ فلا يتبع الإنسان الخاطر النفسي، والظن العقلي في الحكم على تصرفات الآخرين، قال ابن عاشور: (وهذا أدب خلقي عظيم، وهو أيضاً إصلاح عقلي جليل يعلم الأمة التفرقة بين مراتب الخواطر العقلية بحيث لا يختلط عندها المعلوم والمظنون والموهوم، ثم هو أيضاً إصلاح اجتماعي جليل يجنب الأمة من الوقوع والإيقاع في الأضرار والمهالك من جراء الاستناد إلى أدلة موهومة)[٥].

---

(١) سورة النساء، آية: ٣٤.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٣٢٠/٦.

(٣) أخرجه الترمذي ٢٣١٧، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٨٨٦).

(٤) سورة الإسراء، آية: ٣٦.

(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور مج١٠١/١٥/٦.

إن المسلم مشغول بحال نفسه، ولا يقحم نفسه في شؤون غيره باحثاً عن عيوبهم، وقضاياهم، وما يعنيهم ومن ثمَّ يربي الإسلام أتباعه على قلة الكلام، وحفظ اللسان، حتى لا يقع فيما يخص الآخرين من أمور.

قال ابن حبان: (جاء عن الفضيل بن عياض أنه قال: شيئان يقسيان القلب: كثرة الكلام، وكثرة الأكل).

وقال سفيان الثوري: (أول العبادة الصمت، ثم طلب العلم، ثم العمل به ثم حفظه، ثم نشره).

قال الأحنف بن قيس: (الصمت أمان من تحريف اللفظ، وعصمة من زيغ المنطق، وسلامة من فضول القول، وهيبة لصاحبه).

قال أبو حاتم: الواجب على العاقل أن يلزم الصمت إلى أن يلزمه التكلم، فما أكثر من ندم إذا نطق، واقل من يندم إذا سكت، وأطول الناس شقاء وأعظمهم بلاء من ابتلي بلسان مطلق، وفؤاد مطبق.

واللسان فيه عشر خصال يجب على العاقل أن يعرفها، ويضع كل خصلة منها في موضعها: هو أداة يظهر بها البيان، وشاهد يخبر عن الضمير وناطق يرد به الجواب، وحاكم يفصل به الخطاب، وشافع تدرك به الحاجات، وواصف تعرف به الأشياء، وحاصد تذهب الضغينة، ونازع يجذب المودة، ومُسلٍ يذكي القلوب ومُعزٍ تردّ به الأحزان.

ولقد أحسن الذي يقول:

ان كان يعجبك السكوت فإنه ... قد كان يعجب قبلك الأخيارا

ولئن ندمتُ على سكوتٍ مرة ... فلقد ندمتُ على الكلام مرارا

ان السكوت سلامة ولربما ... زرع الكلام عداوة وضرارا

واذا تقرب خاسر من خاسر ... زادا بذلك خسارة وتبارا[1][2]

---

(١) التبار: الهلاك.

(٢) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ٤٣.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

يهدف الإسلام إلى تنمية روح المراقبة والمحاسبة الذاتية التي تنبع من داخل الإنسان، وذلك من خلال عدد من المضامين التربوية التي يعمل على ترسيخها في النفس، وبيان المفاهيم الصحيحة والحقائق الإيمانية وأهمية ذلك في تربية النفس على مراقبة الله والخوف منه، ومراعاة حرماته، وحفظ حدوده، والاستعانة به سبحانه.

إن من أبرز المضامين التربوية التي يجدر ذكرها والمتعلقة بأحاديث باب المراقبة ما يلي:

أولاً: التكامل بين الإيمان والعمل الصالح:

من أبرز أهداف التربية الإسلامية العمل على إيجاد التكامل بين الإيمان والعمل الصالح، لأن طريقة عقد الصلة بين الإيمان والعمل الصالح من الطرق التي تتبعها التربية الإسلامية، كما تبدو في ضوء الحديث الشريف في معنى الإسلام والإحسان الذي ورد في الحديث الشريف حيث بيَّن الأصول الثابتة لطريقة التكامل بين الإيمان والعمل الصالح في التربية الروحية.

وفي هذا البيان تكامل الإيمان مع العمل، والتوجه بذلك نحو الخالق، فإحسان العمل عبادة لله، وهذا يشكل أساساً للتكامل، توحد فيه التربية الروحية الإسلامية بين سلوك الفرد "الخارجي الظاهر، وبين إيمانه الباطن وعقيدته الداخلية، بين التصديق بالقلب وعمل الجوارح، بين الإيمان والإسلام"[(١)]. فالإيمان قول وعمل.

وعلى طريق التكامل بين الإيمان والعمل الصالح والإخلاص وأداء الواجب والإنتاج المثمر وإنكار الذات يتم عقد الصلة الدائمة بين الإنسان وبين الله في كل لحظة -في كل عمل وكل فكرة وكل شعور، وذلك عن طريق إثارة حساسية القلب برقابة الله الدائمة عليه وإثارة وجدان التقوى والخشية الدائمة لله، ومراقبته في كل عمل وكل فكرة وكل شعور[(٢)].

---

(١) التربية في الإسلام، د.أحمد فؤاد الأهواني، ص٧٧.

(٢) انظر: فلسفة التربية الإسلامية في الحديث الشريف، د.عبدالجواد سيد بكر، ١٨٦-١٩٧.

ثانياً: من وسائل التربية الإسلامية: التوجيه المباشر:

إن التوجيه المباشر وسيلة من وسائل العادة التعليمية التطبيقية، وهو طلب المربي المباشر والصريح من طلابه القيام بعمل معين، وهو بمثابة ممارسة العمل للمتعلم أمام مربيه أو العكس قيام المربي بممارسة العمل أمام المتعلم، ثم يتابعه المتعلم[١].

وقد قام النبي ﷺ بتوجيه أصحابه رضي الله عنهم توجيهاً مباشراً، ولم يكتف بمجرد ذلك، بل عمل على الربط بين الإيمان والعمل، وتنمية ملكة المراقبة للسلوك والعمل على إيجاد نوع من التوازن الإيجابي، وتلافي واستدراك جوانب النقص والسعي في تكميلها، ومن توجيهاته المباشرة قوله ﷺ لأبي ذر: ((اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ)).

ثالثاً: تربية النفس على امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه:

إن تعميق الامتثال لأوامر الله تعالى، والانتهاء عما نهى عنه سبحانه لمن أهم ما يجب أن يُربَّى عليه المؤمن، وإذا حفظ العبد ربه، فإن الله يحفظه في مصالح دينه ودنياه...

وإن العبد قد يحيطه الله تعالى بأنواع من الحفظ ولا يشعر بها، بل قد يكره ذلك، وهو لا يعلم أن في ذلك مصلحته.... ولا ينبغي أن ينسى العبد ربه في الرخاء ويذكره في الشدة، بل ينبغي أن يتعرف عليه ويراقبه في حال رخائه واطمئنانه، كما أوصى النبي ﷺ بقوله: ((تَعَرَّفْ إِلَى اللَّهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ))[٢].

فالعبد محتاج إلى الاستعانة بالله في فعل المأمورات وترك المحظورات، والصبر على المقدورات فإن القلم جف بما هو كائن، وإنه لا يقدر أحد على مضرة ونفع إلا إذا كتبه الله تعالى[٣].

إن من الأساليب التربوية التي تساعد في حمل النفس على الامتثال لأوامر الله أسلوب الترغيب، لأن التربية الإسلامية لا تغفل أية طريقة، أو أي أسلوب توجه به الإنسان وترشده إلى السلوك الذي يصلح لحياته، وهي بذلك تعطيه حقه من التربية،

---

(١) انظر: أصول التربية الإسلامية ووسائلها، ٢٤٢. أساليب الدعوة والتربية، د. زياد محمود العاني، ٢٨٤.

(٢) رواه أحمد، ٣٠٧/١.

(٣) انظر: التربية الروحية والاجتماعية، د.أكرم ضياء العمري، ٦٤-٦٦.

فالإنسان حسب طبيعته الإنسانية التي حددها التصور الإسلامي فيه جانب الخير وجانب الشر[١].

وقد رغب النبي ﷺ في حفظ العبد لربه بطاعته، واجتناب معاصيه، بأن ذلك يكون سبباً في حفظ الله تعالى للعبد وتوفيقه له، ولاشك أن ذلك يؤثر في النفس تأثيراً إيجابياً، ويحملها على الطاعة طمعاً في تأييد الله وتوفيقه لعبده المؤمن.

رابعاً: تربية المسلم على ترك مالا يعنيه:

إن الأمور التربوية التي ربى الإسلام المسلم عليها: تركه مالا يعنيه لأجل الإفادة من وقته وطاقته وإمكاناته فيما ينفعه من أمور في الدنيا والآخرة، وليس معنى ذلك أن يكون الشخص نفعياً أو أنانياً لا يُعني إلا بما فيه مصلحته الشخصية، بل تربية المؤمن على أن يترك ما لا يعنيه، ولا ينشغل به لئلا يضيع وقته وجهده في أمور تتعلق بالآخرين، ولئلا يحاول التدخل في خصوصياتهم وشؤونهم الخاصة، مما يجلب النفرة والكراهية والعداوة، وهذا لا يتعارض مع مبدأ التعاون مع الآخرين، أو إغاثة الملهوف، بل إن ذلك مما يثاب المسلم على فعله ويأثم على تركه عند القدرة عليه.

إن الإسلام أراد تربية المسلم على تركيزه على ما طلب منه شرعاً وأن يُعني بما أنيط به من مسؤوليات ومهام وأدوار، حتى لا يكن همّه الأكبر في هذه الحياة تعقب الآخرين من أين جاءوا؟ وإلى أين سيذهبون؟... وما شابه ذلك من تدخلات سافرة، وكأنه ليس له قضية أو دور في هذه الحياة إلا معرفة أخبار الناس.

إن من عظمة التربية الإسلامية في المجال الفكري أنها ركّزت ورشّدت طاقات العقل في الأمور النافعة وعدم تبديد طاقاته، لقد كان النبي ﷺ ينهي الصحابة رضي الله عنهم عن الخوض في أمور غير واقعة، أو لا يترتب عليها عمل أو فائدة وكأن ينهاهم عن الأغلوطات وعضل المسائل وكثرة السؤال فيما لم يكن ولا فائدة منه[٢].

---

(١) فلسفة التربية الإسلامية في الحديث الشريف، د.عبدالجواد سيد بكر، ٣٤٥.

(٢) انظر: أسس العلم وضوابطه في السنة النبوية، د.فاروق حمادة، ٦٥-١٠٥.

وكان ﷺ يقول: ((اللَّهُمَّ إِني أَسْأَلُكَ عِلْماً نَافِعاً وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لاَ يَنْفَعُ))(١).

"إن العقل المسلم عندما فهم طبيعة الدور والمسؤولية المناطة به وعلم المجال الذي يعمل فيه -الكون بما فيه-واستنار بتوجيهات الوحي، ولم يقحم نفسه في الأمور الغيبية التي لا تعنيه، ولم يؤهل للبحث فيها.

عندئذ انطلق العقل المسلم يفكر ويحلل ويستنبط ويستوعب ويبدع....إلخ العمليات الفكرية التي تُرجمت إلى الواقع، فتمخضت عنها الحضارة الإسلامية"(٢) التي أنتجتها العقول الإسلامية التي رباها الإسلام على ترك ما لا يعنيها من مجالات فكرية لا يُجدي البحث فيها مثل: مجال الغيب وغير ذلك من المجالات التي تبدد طاقات العقل مثل: المعارك الفكرية الطاحنة التي أضاعت الفرق الإسلامية طاقات العقول في المساجلات الفكرية فيها، كان من الممكن إثراء الفكر الإسلامي فيها.

ومن هنا جاءت التربية الإسلامية لتربي المسلم على تركه مالا يعنيه.

خامساً: التربية العقلية:

تُعنى التربية الإسلامية بتربية العقل أي تزويده بالمعلومات والمعارف التي تساعد على تكوين الإنسان المسلم العابد الصالح، كما أن عنايتها بتربية الجسد وتربية الروح بهدف خلق الشخصية المسلمة المتكاملة، التي تسهم في بناء المجتمع المسلم.

إن التربية الإسلامية ترمي إلى غرس عدد من القيم في نفس المسلم، ومن أبرز هذه القيم ما يلي:

- قيمة التأمل والتفكر.
- قيمة الدقة والتثبت العلمي.

ويمكن القول أن هناك العديد من القيم التي تتصل بتربية العقل مثل قيم حب البحث العلمي والتحري، ودقة الملاحظة والوصول إلى الحقائق، والنقد والترتيب.

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه ٢٨٣/١، وابن أبي شيبة ١٨٥/١٠، وابن عبدالبر في جامع بيان العلم وفضله، ١٩٥/١.

(٢) انظر: العلاقة بين العقل والوحي وأثرها على الفكر الإسلامي، د. محيي الدين عفيفي أحمد، ١١٢.

ويرتبط بكل ذلك قيم خلقية مثل التواضع، وقيم اجتماعية مثل مساعدة الآخرين.

إن من أهداف التربية العقلية التي تتضمنها فلسفة التربية الإسلامية ما يلي:

١- تربية الإنسان المسلم على أسلوب التفكير العلمي.

٢- تربية الإنسان المسلم على حب البحث والسعي وراء الحقيقة.

٣- تربية الإنسان المسلم على أسلوب التفكير التأملي والتعامل مع قوى الكون.

٤- تربية الإنسان المسلم على الاستفادة مما يتعلمه، وذلك باستخلاص النتائج والتطبيق، الذي يستفيد من نتائجه في نفع نفسه، ونفع مجتمعه.

٥- المحافظة على الطاقة العقلية للإنسان وعدم شغل عقله بالتفكير في الأمور الغيبية ليتفرغ للتفكير في أمور الطبيعة المادية[1].

❁ ❁ ❁

(١) انظر: فلسفة التربية الإسلامية في الحديث الشريف، د.عبدالجواد سيد بكر، ١٩٨-٢٠١.

٦- باب التقوى

قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾[آل عمران: ١٠٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَاتَّقُوا اللّه مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[التغابن: ١٦]. وهذه الآية مبينة للمراد مِنَ الأُولى. وَقالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾[الأحزاب: ٧٠]، وَالآيات في الأمر بالتقوى كثيرةٌ معلومةٌ، وَقالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾[الطلاق: ٢-٣]، وَقالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[الأنفال: ٢٩] والآيات في البابِ كثيرةٌ معلومةٌ.

وأمَّا الأَحَاديثُ:

الحديث رقم (٦٩)

٦٩- فَالأَوَّلُ: عَنْ أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: قِيلَ: يا رسولَ اللَّهِ مَن أَكْرَمُ النَّاسِ؟ قال: «**أَتْقَاهُمْ**» فقَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذا نَسْأَلُكَ، قَالَ: «**فيُوسُفُ نَبِيُّ اللَّهِ ابن نَبِيِّ اللَّهِ ابن نَبِيِّ اللَّهِ ابنِ خَلِيلِ اللَّهِ**». قَالُوا: لَيْسَ عن هَذَا نَسْأَلُكَ، قال: «**فعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَب تسْأَلُونِي**[١]؟ **خِيَارُهُمْ في الْجاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ في الإِسلامِ إذَا فَقُهُوا**» متفقٌ عليه[٢].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

معادن العرب: أصولها التي ينسبون إليها ويتفاخرون بها[٣].

فقُهوا: بضم القاف على المشهور وحكي كسرُها: أي علموا أحكام الشرع[٤].

---

(١) لفظ البخاري: (تسألون).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٥٣)، ومسلم (١٦٨/٢٣٧٨) ولفظهما سواء.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ع د ن)، وانظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٢٠.

(٤) رياض الصالحين ٧٧.

الشرح الأدبي

- تَسْطع كلمة "أتقاهم" في أفق الحديث الشريف الذي جعله صاحب رياض الصالحين في صدارة باب التقوى، وجاءت صيغة التقوى في قالب: "أفعل التفضيل"، حيث سئل رسول الله ﷺ: "من أكرم الناس؟ فقال: أتقاهم"، فالسؤال ورد في صيغة أفعل التفضيل، وكذلك الجواب ورد مناظراً ومساوياً في المبنى والمعنى، وللكرم دلالات كثيرة ومنها: كثرة الخير ولكن رسول الله ﷺ، كما قال العلماء، أخبر بأكرم الكرم وأعمه، فالكرم ليس عطاءً مادياً فحسب، ولكنه أعم من ذلك وأشمل، وفي اللغة، الكريم: الجامع لأنواع الخير والشرف والفضائل[1].
- والتقوى من الوقاية وهي اتخاذ وقاية تقيك مما تخافه وتحذره، وللتقوى ثلاث مراتب: الأولى: التوقي عن العذاب المخلد بالتبري عن الشرك، والثانية: التجنب عن كل ما يؤلم من فعل أو ترك حتى الصغائر عند قوم، وهو المتعارف عليه باسم التقوى في الشرع، والثالثة: أن ينتزه عما يشغل سره عن الحق ويتبتل إليه، وهو التقى الحقيقي المطلوب بقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾[2]. وفي هذه الدائرة الإيمانية تتحرك سمات ومعالم الذين عناهم الرسول ﷺ بقوله: أتقاهم، في توضيحه لمن هو أكرم الناس، وفي ذلك موافقة صريحة للنص القرآني: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾[3].

وفي الحديث ظواهر فنية وأسلوبية كثيرة تفصح عن القيمة الأسلوبية والبيانية للحديث النبوي الشريف.

- والحوار التدريجي أول وسيلة من وسائل الإقناع والإفهام والتعليم، والحديث محاورة عظيمة تربوية توجيهية تعليمية بين الرسول ﷺ وبعض أصحابه،

---

(١) لسان العرب، ابن منظور في (ك ر م).

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٠٢.

(٣) سورة الحجرات، آية: ١٣.

ومن أسرار هذا الحديث أن السائل لم يحدد، وهم مجموعة وليسوا فرداً واحداً، وذلك يشير إلى أن هذه الأسئلة كانت تدور في خلد الكثيرين.

- وعلمهم رسول الله ﷺ عن طريق هذا الحوار، فكما أن للتقوى مراتب، فكذلك للكرم مراتب، وبدأ الرسول بأكرم الكرم وأعمه، فإن من كان متقياً كان كثير الخير في الدنيا، صاحب الدرجات العليا في الآخرة.
- والإجابة الثانية تتدرج في الكرم وتحدد المعالم الشخصية والروحية مع النسب الكريم، وفضل النبوة وكلها تجتمع في شخصية يوسف عليه السلام. وتكرار العبارات والألفاظ، وحذف بعض الجمل، والعطف بالفاء في ربط كلمات الحديث، كلها من وسائل التأثير والإفهام والإقناع، وأدرك الرسول ﷺ مقصد السائلين بعد أن أخبرهم بدرجات الكرم أشملها ثم أخصها، وأوضح أن المعدن الأصيل لا يصدأ، والكريم لا يكون خسيساً وكذلك الناس.

فقه الحديث

الجواب بحسب ما يظهر: قال القرطبي: (فيه [أي في الحديث] أن العالم يجوز له أن يجيب بحسب ما يظهر له، ولا يلزمه أن يستفصل السائل عن تعيين الاحتمالات، إلا إن خاف على السائل غلطًا أو سوء فهم فيستفصله)[١].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

ثانياً: من واجبات المدعو: السؤال عن معالي الأمور.

ثالثاً: من صفات الداعية: حضور البديهة.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: فضل التقوى.

- خامساً: من موضوعات الدعوة: فضل نبي الله يوسف عليه السلام.
- سادساً: من موضوعات الدعوة: فضل التفقه في الدين.

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٦/٢٢٧.

أولاً- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

يظهر هذا من الحديث ((من أكرم الناس؟)) والسؤال والجواب من أساليب الدعوة التي يتوصل بها الداعية إلى تبليغ رسالته، ولا شك أن السؤال والجواب كأسلوب دعوي يجعل المادة الدعوية تثبت في أذهان المدعوين، ويعين على فهم المراد، ويحدث نوعاً من الحوار بين الداعية والمدعو. قال الدكتور عبدالكريم البكار: "إن أسلوب الحوار والمناقشة والمراجعة كان هو الأسلوب الأكثر انتشاراً في الحلقات العلمية في تراثنا القديم، وحين تراجعت جذوة حب المعرفة في نفوس المسلمين، ودخلوا في عصور التقهقر ساد أسلوب التلقين وصارت عملية الاتصال الدعوي تقوم على طرف واحد هو الداعية أو الخطيب أو المعلم، والمدعوون غير قادرين على المناقشة ومن أسباب ذلك عجز الداعية عن إثارة حماسة المخاطبين، واستخراج الفضول لديهم بسبب عدم اشتمال كلامه على الطارف الجديد الذي يستحق التساؤل والتحاور، ومن هنا كان لابد من تشجيع الناس على طرح الأسئلة"[1].

ثانياً- من واجبات المدعو: السؤال عن معالي الأمور:

كثير من الناس يحجم عن سؤال الداعية، أو يسأل فيما لا يعود بنفع، وفي هذا الحديث إرشاد للمدعوين أن يكون السؤال عن معالي الأمور وينفع في أمور الدين والدنيا فقد كان السؤال في هذا الحديث عن أكرم الناس. وقد علَّم الله المؤمنين هذا الأدب فقال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾[2] قال الإمام ابن كثير: (هذا تأديب من الله تعالى لعباده المؤمنين، ونهي لهم عن أن يسألوا عن أشياء مما لا فائدة لهم في السؤال والتنقيب عنها؛ لأنها إن ظهرت لهم تلك الأمور ربما ساءتهم وشق عليهم سماعها)[3] وواجب المدعوين أن يلتزموا بهذا الأدب القرآني وأن يسألوا عن الأمور التي تنفعهم وتفيدهم في دنياهم وأخراهم.

---

(١) مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي، د. عبدالكريم بكار ١٥٤.

(٢) سورة المائدة، آية: ١٠١.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢٠٣/٣.

ثالثاً- من صفات الداعية: حضور البديهة:

ويظهر هذا من الحديث من إجابة النبي ﷺ على سؤال من سأله، وتعدد إجاباته ﷺ وصولاً إلى مقصودهم، وهذا يدل على فطنته وحضور بديهته ﷺ، وهكذا يجب أن يكون الداعي حتى يتمكن من محاورة المدعوين وإقناعهم. "وإذا كان للإيمان ثمرات، وللعلم فاعليته ودوره فإن للذكاء والفطنة أهميتها التي لا تنكر، أو إيجابيتهما التي لا تخفى، وتوفر الذهن الوقاد والعقل السديد ميزة عظمى يتحلى بها الداعية فلا سذاجة تضيع بها معاني الريادة، ولا طيش ولا خفة تطمس معالم الهيبة، بل عقل فطن يرَّجحُ إذا اختلفت الآراء، ويحلل ويدلل إذا فقد الإدراك وغاب التصور ويتقن ترتيب الأولويات، واختيار الأوقات، وانتهاز الفرص والمناسبات، ويحسن التخلص من المشكلات، ويقوى على الرد على الشبهات، والتكيف مع الأزمات"[1]. ومن الصفات الواجبة للرسل عليهم السلام الفطنة والذكاء، قال تعالى عن سليمان عليه السلام: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[2].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: فضل التقوى:

هذا واضح من قول النبي ﷺ عندما سئل من أكرم الناس فقال: أتقاهم وهو موافق لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ﴾[3] وفي الأمر بالتقوى قال الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾[4] وقال ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾[5] وفي بيان فضلها قال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُۚ﴾[6] وقال جل

(١) مقومات الداعية الناجح، د. علي عمر بادحدح ص ٩٢.

(٢) سورة الأنبياء، آية: ٧٩.

(٣) سورة الحجرات: آية ١٣.

(٤) سورة آل عمران: آية ١٠٢.

(٥) سورة الأحزاب: آية ٧٠.

(٦) سورة الطلاق: الآيتان ٢، ٣.

شأنه: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ﴾[1]. والمتقون لهم المكانة العالية عند الله والارتفاع فوق الكفرة والساخرين قال الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾[2]. والمتقون ينالون محبة الله قال الله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾[3]. والمتقون في معية الله سبحانه ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾[4]، وقال جل شأنه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾[5]. والمتقون لهم الفلاح قال الله عز وجل: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[6]، والمتقون ينتفي عنهم الخوف والحزن ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾[7]، والمتقون لهم الفوز والبشرى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[8]، والمتقون لهم حسن العاقبة قال تعالى: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾[9]، وقال جل شأنه: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[10]، والمتقون تتنزل عليهم البركات ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[11].

---

(١) سورة الأنفال: آية ١٩.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢١٢.

(٣) سورة آل عمران، آية: ٧٦.

(٤) سورة البقرة، آية: ١٩٤.

(٥) سورة النحل، آية: ١٢٨.

(٦) سورة المائدة، آية: ١٠٠.

(٧) سورة الأعراف، آية: ٣٥.

(٨) سورة يونس، الآيتان: ٦٣-٦٤.

(٩) سورة طه، آية: ١٣٢.

(١٠) سورة القصص، آية: ٨٣.

(١١) سورة الأعراف، آية: ٩٦.

خامساً- من موضوعات الدعوة: فضل نبي الله يوسف:

ذلك لأن النبي لما قالوا له: ليس عن هذا نسأل قال: "فأكرم الناس يوسف" يقول الإمام ابن حجر: (الجواب الأول من جهة الشرف بالأعمال الصالحة، والثاني من جهة الشرف بالنسب الصالح)[1] وهذا يدل على فضل نبي الله يوسف فهو ابن نبي الله يعقوب ابن نبي الله إسحاق بن نبي الله إبراهيم عليهم السلام. وقد قال له أبوه عليه السلام ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾[2].

قال القرطبي (الاجتباء اختيار معالي الأمور للمجتبى، وهذا ثناء من الله تعالى على يوسف عليه السلام، وتعديد فيما عدده عليه من النعم التي آتاه الله تعالى؛ من التمكين في الأرض، وتعليم تأويل الأحاديث، والسجود له، والنبوة)[3]. ولقد كان من دعائه عليه السلام ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[4]، وآتاه الله الحكم والعلم، قال تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[5]، ومكن الله له في الأرض، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[6].

سادساً- من موضوعات الدعوة: فضل التفقه في الدين:

يظهر هذا من قول النبي ﷺ "إذا فقهوا" حيث جعل شرط الشرف في الإسلام بعد

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٤٧٧/٦.

(٢) سورة يوسف، آية: ٦.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٢٩/٥.

(٤) سورة يوسف، آية: ١٠١.

(٥) سورة يوسف، آية: ٢٢.

(٦) سورة يوسف، آية: ٥٦.

الشرف في الجاهلية بالفقه في الدين يقول ابن حجر: (إن الأفضل من جمع بين الشرف في الجاهلية والشرف في الإسلام، وكان شرفهم في الجاهلية بالخصال المحمودة من جهة ملائمة الطبع، ثم الشرف في الإسلام بالخصال المحمودة شرعاً، ثم أرفعهم منزلة ومرتبة من أضاف إلى ذلك التفقه في الدين)[١] وفي فضل الفقه في الدين قال النبي ﷺ: ((مَنْ يُرِدِ اللّهُ به خَيراً يُفَقِّهْهُ في الدِّين))[٢] قال النووي: (وفي الحديث فضل العلم والتفقه في الدين والحث عليه وسببه أنه قائد إلى تقوى الله عز وجل)[٣].

وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾[٤]، قال ابن كثير: «أي ليتعلموا ما أنزل الله على نبيهم، وليعلموا السرايا إذا رجعت إليهم»[٥].

قال ابن القيم: «وأما فقهاء الإسلام ومن دارت الفتيا على أقوالهم بين الأنام الذين خصوا باستنباط الأحكام، وعنوا بضبط قواعد الحلال والحرام، فهم في الأرض بمنزلة النجوم في السماء، بهم يهتدي الحيران في الظلماء، وحاجة الناس إليهم أعظم من حاجتهم إلى الطعام والشراب، وطاعتهم أفرض عليهم من طاعة الأمهات والآباء بنص الكتاب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[٦]».

قال ابن عباس في إحدى الروايتين عنه ومجاهد في إحدى الروايتين عنه وجابر بن عبدالله والحسن البصري وأبو العالية وعطاء بن أبي رباح والضحاك: أولوا الأمر هم العلماء وهو إحدى الروايتين عن أحمد[٧].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٤٧٧/٦.

(٢) أخرجه البخاري ٧١، ومسلم ١٠٣٧.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦٥٦.

(٤) سورة التوبة، آية: ١٢٢.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢٣٦/٢.

(٦) سورة النساء، آية: ٥٩.

(٧) إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم ١٨.

الحديث رقم (٧٠)

٧٠- الثَّانِي: عَنْ أبي سَعيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ الدُّنْيا حُلْوَةٌ خضِرَةٌ، وإنَّ اللّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا. فينْظُر كَيْفَ تَعْمَلُونَ. فَاتَّقوا الدُّنْيَا واتَّقُوا النِّسَاءِ. فَإنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إسْرَائيلَ كَانَتْ في النسَاء» رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

أبو سعيد الخدري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٠).

غريب الألفاظ:

خضرة: غضة ناعمة طرية[٢].

الشرح الأدبي

- هذه قطعة أدبية سامقة المعنى، رائعة التصوير، جليلة الألفاظ، جميلة الأداء، تتسم بالإيجاز الذي لا نقص فيه، وبالوضوح الذي لا ضعف في دلالاته ومبانيه، وكان ﷺ لا يستكره في بيانه معنى، ولا يند في لسانه لفظ، ولا تغيب عنه لغة، ولا تضرب له عبارة، ولا يشوبه تكلف، ولا يشق عليه منزع، وقد نُزه ﷺ عن جميع عيوب الفصاحة، وسلم كلامه من كل عيوبها، وخرج سبكه خالصاً لا شوب فيه. وكما يقول الرافعي: كأنما وَضَعَ يَدَه على قلب اللغة ينبض تحت أصابعه[٣].
- وفي ضوء هذه الخصائص الأسلوبية للبيان النبوي نستكشف جماليات الأداء الأسلوبي والتصويري في هذا الحديث الشريف، ففيه قوة الأسلوب ودقة التصوير، والهداية والإرشاد في إيحاء لا يشوبه غموض، ووضوح لا يعيبه

---

(١) برقم (٩٩/٢٧٤٨). أورده المنذري في ترغيبه (٤٧٠٥).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (خ ض ر)، وانظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٠٥.

(٣) انظر: تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، ٢/٢٨٦.

الإلف والفتور، وأول ما يلفت الانتباه هو عنصر التصوير الفني في الحديث الشريف، حيث صور الرسول ﷺ الدنيا بأنها "حلوة خضرة"، أي فاكهة جميلة المذاق جذابة وحسنة اللون، وهذا التصوير يوحي بسطوة إغراء الدنيا مذاقاً ورؤية، ويوحي كذلك بالتحذير من فتنتها، ويوحي كذلك هذا التشبيه بسرعة زوال هذا البريق الدنيوي وذلك المذاق الجميل لأن الفاكهة عمرها قصير، وسرعان ما تذبل وتصفر وتعطب.

والتأكيد في أول الحديث يضاعف من التحذير من هذا البريق المغري وذلك المذاق المفتن. والجملة صيغت في قالب الجملة الاسمية وفي ذلك إيحاء بثبات هذه الصفة المغرية الخادعة.

وتكرار التأكيد ثلاث مرات في الحديث الشريف يرشد إلى حرص النبي ﷺ على مصلحة الأمة، وإلى حتمية ترسيخ المعاني والإرشادات التي جاءت في الحديث الشريف.

والجملة الثانية ترد مؤكدة كذلك، وهي تنبه إلى حقيقة يجب أن لا نغفل عنها وهي أننا مستخلفون في الدنيا، ولسنا مخلدين فيها، والتعبير بالاستخلاف يرشد إلى أمرين: هما: ضرورة القيام بأعباء هذا الاستخلاف لأنه من الله، وأول الأعباء هو حمل الأمانة حملاً صحيحاً والقيام بأداء الواجبات الشرعية. والأمر الثاني: هو الإيحاء بعدم البقاء لأننا مستخلفون، أي جئنا بعد أقوام سابقين، وسيأتي بعدنا اللاحقون، وجملة: "فينظر كيف تعملون"، تحمل من المعاني والدلالات الكثير، وأي اختبار أقسى وأشد من هذا الاختبار الدنيوي الذي يراقبنا فيه الله عز وجل، ولا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، والتعبير "بكيف" غير "ماذا"، لأن كيفية أداء العمل والإخلاص والتقوى في الأداء هو السبيل إلى النجاة والنجاح في هذا الاختبار، ويتكرر الأمر بالتقوى: تقوى الدنيا وتقوى النساء؛ لأنهما بوابة الفتن ومصدر الإغراء. ويأتي الدليل على ذلك في نهاية الحديث، فبنو إسرائيل أهلكتهم فتنة النساء، وهذا تحذير وإنذار وتخويف من الفتن القادمة.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: حلاوة الدنيا ونضارتها.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: استخلاف الله للناس في الأرض.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: الابتلاء والاختبار.

خامساً: من أساليب الدعوة: التحذير من الانبهار بالدنيا.

سادساً: من أساليب الدعوة: الأمر.

سابعاً: من موضوعات الدعوة: الحذر من فتنة النساء.

ثامناً: من تاريخ الدعوة: فتنة بني إسرائيل بالنساء.

تاسعاً: من صفات الداعية: الشفقة على المدعوين.

أولاً- من أساليب الدعوة: التوكيد:

وهذا واضحٌ في قوله ﷺ: (إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها)، حيث أكد النبي ﷺ قوله بـ (إن) وذلك للاهتمام بالمؤكد، وتثبيت المعنى لدى المخاطب، قال القاسمي: (واعلم أنه لا تؤكد العرب إلا ما تهتم به، فإن من اهتم بشيء أكثر ذكره، وكلما عظم الاهتمام كثر التأكيد، وكلما خفّ التأكيد. وإن توسط الاهتمام توسط التأكيد)[(١)].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: حلاوة الدنيا ونضارتها:

إن من موضوعات الدعوة المستنبطة من هذا الحديث حلاوة الدنيا ونضارتها، حيث خلق الله تعالى الدنيا وجعلها حلوة خضرة كما ذكر ذلك رسول الله ﷺ في هذا الحديث، قال النووي: (ومعنى الدنيا خضرة حلوة يحتمل أن المراد به شيئان: أحدهما: حسنها للنفوس ونضارتها ولذتها كالفاكهة الخضراء الحلوة فإن النفوس تطلبها طلباً حثيثاً فكذا الدنيا. الثاني: سرعة فنائها كالشيء الأخضر في هذين الوصفين)[(٢)].

---

(١) محاسن التأويل، القاسمي ١/٢٥٧.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٠٥.

كثيراً ما يفتن الإنسان بالدنيا وبزخارفها، ويخلد إلى زينتها ومن ثم حذر الله تعالى منها، قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾[(١)].

وقال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[(٢)].

وقال ابن كثير: (يقول الله تعالى موهناً أمر الحياة ومحقراً لها: (إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد)، أي: إنما حاصل أمرها عند أهلها هذا كما قال: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾[(٣)].

ثم ضرب الله مثل الحياة الدنيا في أنها زهرة فانية ونعمة زائلة (كمثل غيث)، وقوله: (أعجب الكفار نباته)، أي: يعجب الزراع نبات ذلك الزرع الذي نبت بالغيث، وكما يعجب الزراع ذلك كذلك تعجب الحياة الدنيا الكفار، فإنهم أحرص شيء عليها، وأميل الناس إليها... ولما كان هذا المثل دالاً على زوال الدنيا وانقضائها وفراغها لا محالة، وأن الآخرة كائنة لا محالة، حذّر من أمرها ورغب فيما فيها من الخير)[(٤)].

---

(١) سورة الكهف، آية: ٤٥.

(٢) سورة الحديد، آية: ٢٠.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٤.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢٤/٨.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: استخلاف الله للناس في الأرض:

إن من موضوعات الدعوة في هذا الحديث: استخلاف الله للناس في الأرض وذلك في قوله ﷺ: (وإن الله مستخلفكم فيها).

فالله تعالى استخلف الإنسان في الأرض، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

وقد كرم الله الإنسان وأسجد له الملائكة، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[2].

وقد سخر الله تعالى المخلوقات للإنسان، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3].

وكرم الله بني آدم تكريماً يليق بمكانتهم واستخلافهم في الأرض، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[4].

وإن الإنسان ليس غريباً عن الأرض، لأنه خلق منها، وهو أولى بالخلافة فيها لما لديه من خصائص التكوين[5].

---

(١) سورة البقرة، آية: ٣٠.

(٢) سورة ص، الآيتان: ٧١ - ٧٢.

(٣) سورة الجاثية آية: ١٣.

(٤) سورة الإسراء، آية: ٧٠.

(٥) انظر: الإنسان وجوده وخلافته في الأرض في ضوء القرآن الكريم، د. عبدالرحمن إبراهيم المطرودي، ص ٣٥٠ - ٣٦٧.

إن الله تعالى استخلف الإنسان في الأرض ليقيم شرع الله، ويسير على المنهج الذي رسمه له، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾[١].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: الابتلاء والاختبار:

إن من موضوعات الدعوة في هذا الحديث الابتلاء والاختبار فينظر كيف تعملون قال ابن علان: (ومعنى قوله: "فينظر كيف تعملون"، أي من إنفاقها في مراضيه فتثابون، أو في مساخطه فتأثمون، فإن الجزاء إنما يترتب على ما يبدو في عالم الشهادة من الأعمال أو فينظر كيف تعملون، أي أتعتبرون بحالهم وتتدبرون في مآلهم)[٢].

والابتلاء سنة من سنن الله في خلقه، لا بد من التمحيص والاختبار والصبر والمصابرة، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾[٣].

قال عبدالرحمن السعدي: (يخبر الله تعالى عن تمام حكمته، وأن حكمته لا تقتضي أن كل من قال أنه مؤمن وادعى لنفسه الإيمان أن يبقوا في حالة، يسلمون فيها من الفتن المحن، ولا يعرض لهم ما يشوش عليهم إيمانهم وفروعه، فإنهم لو كان الأمر كذلك لم يتميز الصادق من الكاذب والمحقّ من المبطل.

ولكن سنته تعالى وعادته في الأولين في هذه الأمة أن يبتليهم بالسراء والضراء والعسر واليسر والغنى والفقر ونحو ذلك من الفتن.

فمن كان عند ورود الشبهات يثبت إيمانه ولا يتزلزل، ويدفعها بما معه من الحق وعند ورود الشهوات الموجبة والداعية إلى المعاصي والذنوب، أو الصارفة عن ما أمر الله

---

(١) سورة الذاريات، الآيتان: ٥٦، ٥٧.

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١٨٥.

(٣) سورة العنكبوت، الآيات: ١ - ٣.

به ورسوله، يعمل بمقتضى الإيمان، ويجاهد شهوته، دلّ ذلك على صدق إيمانه وصحته)[1]. إنه لا بد من الابتلاء والاختبار والمؤمن صادق الإيمان هو الذي يثبت في ذلك.

خامساً- من أساليب الدعوة: التحذير من الانبهار بالدنيا:

إن من أساليب الدعوة المستنبطة من هذا الحديث أسلوب التحذير، فينظر كيف تعملون فالنبي ﷺ يرهب أمته من الانبهار بالدنيا، والانخداع ببريقها وزينتها ومتعها ولذائذها الأمر الذي قد يورد صاحبه المهالك، خاصة إذا أخذ يرتع في الشهوات والملذات، ولذا فإن النبي ﷺ يحذر المسلم من الركون إلى الدنيا بل ينبغي أن يكون المسلم في حالة من اليقظة والحذر حتى لا يقع في تشرَكها.

وإن أسلوب التحذير يعد من الأساليب الدعوية النافعة في مثل هذه المواطن، حتى يكون رادعاً للإنسان، ولذا يقول الله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾[2].

سادساً- من أساليب الدعوة: الأمر:

هذا واضحٌ في قوله ﷺ: (فاتقوا الدنيا واتقوا النساء) ولا شك أن أسلوب الأمر الصادر من النبي ﷺ له وقعه المؤثر في نفس المدعو، حيث إنّ النبي ﷺ يأمر باتخاذ الحذر والوقاية واجتناب فتنة الدنيا التي يمكن أن تهلك الإنسان لو أقبل عليها وأهمل الآخرة والعمل لها.

وكذلك الأمر بالحذر من فتنة النساء، واجتناب تلك الفتنة لأنها تورد الإنسان الهلاك، ولذا جاء الأمر من النبي ﷺ اتقاء لخطورة الدنيا إذا أقبل عليها الإنسان إقبالاً كلياً ينسيه آخرته، وكذلك للبعد عن فتن النساء، والوقوع في حبائلهن نظرًا للعواقب الوخيمة المترتبة على ذلك، ومن ثم فإن أسلوب الأمر يعد من الأساليب الدعوية

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٥٧٦.

(٢) سورة الحديد، آية: ٢٠.

المؤثرة في نفسية المدعو.

سابعاً- من موضوعات الدعوة: الحذر من فتنة النساء:

من موضوعات الدعوة المستمدّة من هذا الحديث الحذر من فتنة النساء حيث جاء في الحديث: (واتقوا النساء)، قال النووي: (... فاتقوا الدنيا ومعناه تجنبوا الافتتان بها وبالنساء، وتدخل في النساء الزوجات وغيرهن، وأكثرهن فتنة الزوجات ودوام فتنتهن وابتلاء أكثر الناس بهن)(١).

قال المباركفوري: ("واتقوا النساء" أي: كيدهن ومكرهن)(٢).

قال أبو العباس القرطبي: (أي واحذرا فتنة النساء، فإنهن أول فتنة بني إسرائيل، وفتنتهن على الرجال أشد من كل فتنة، والمحنة بهن أعظم من كل محنة، لأن النفوس مجبولة على الميل إليهن، وعلى اتباع أهوائهن مع نقص عقولهن، وفساد آرائهن، ومن ملّك قياده سفيه ناقص فجدّه ناكص)(٣).

وقال الدكتور الحسيني هاشم: (وأظهر مظاهر الفتنة في الدنيا النساء لجمالهن وإغرائهن وحنان الرجال الطبيعي لهن، فليحذر الرجال الوقوع في حبائلهن والسكوت على أخطائهن، والانجرار معهن أو بهن إلى المعاصي والحرمات، وفي الحديث الإشارة إلى فتن النساء من العرى وغيره، ووقوع الرجال في الذنب بالسكوت)(٤).

وقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾(٥).

---

(١) انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٩/١٧/٤٦.

(٢) انظر: تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي، المباركفوري ٢/١٧٧٨.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٧/٣١٢.

(٤) شرح رياض الصالحين ٨٣.

(٥) سورة آل عمران آية: ١٤.

أخبر الله تعالى عن حالة الناس في إيثار الدنيا على الآخرة، وبيّن التفاوت العظيم والفرق الجسيم بين الدارين، فأخبر أن الناس زينت لهم هذه الأمور، فرمقوها بالأبصار واستحلوها بالقلوب، وعكفت على لذاتها النفوس، كل طائفة من الناس تميل إلى نوع من هذه الأنواع قد جعلها أكبر هممهم ومبلغ علمهم وهي -مع هذا- متاع قليل[(١)].

قال ابن عثيمين: ("اتقوا النساء" أي: احذروهن، وهذا يشمل الحذر من المرأة في كيدها مع زوجها، ويشمل أيضاً الحذر من النساء وفتنتهن، ولهذا قال: "فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء". فافتتنوا في النساء فضلّوا وأضلوا -والعياذ بالله)[(٢)].

ثامناً- من تاريخ الدعوة: فتنة بني إسرائيل بالنساء:

إن مما يستنبط من هذا الحديث تاريخ الدعوة المتعلق بإخبار النبي ﷺ بأن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء، قال الشيخ محمد تقي العثماني: (وقوله: "فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء"، إشارة إلى ما وقع في أرض بلعام في عهد موسى عليه السلام حيث أشار بلعام على قومه بأن يرسلوا النساء إلى عسكر بني إسرائيل، ففعلوا، وزنى بهن بعض بني إسرائيل فابتلوا بالطاعون)[(٣)].

ولذلك نجد أعداءنا وأعداء ديننا أعداء شريعة الله عز وجل يركزون اليوم على مسألة النساء وتبرجهن واختلاطهن بالرجال ومشاركتهن للرجال في الأعمال حتى يصبح الناس كأنهم الحمير لا يهمهم إلا بطونهم وفروجهم -والعياذ بالله- وتصبح النساء كأنهن دمًى أي صور لا يهتم الناس إلا بشكلها، كيف يزينونها؟ وكيف يجملونها؟ وكيف يأتون لها بالمجملات والمحسنات وما يتعلق بالشعر وما يتعلق بالجلد ونتف الشعر والساق والذراع والوجه وكل شيء حتى يجعلوا أكبر همّ النساء أن تكون المرأة كالصورة من البلاستيك لا يهمها عبادة ولا يهمها أولاد.

---

(١) انظر: تيسر الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي ص ١٠٢.

(٢) انظر: شرح رياض الصالحين ١/٢٤٩-٢٥٠.

(٣) تكملة فتح الملهم ١١/٤٧٢.

وإذا كان بنو إسرائيل ممن فضلهم الله على العالمين وآتاهم من الآيات والطيبات الكثير، إذا كان هذا حالهم فإنهم لما افتتنوا بالنساء وانشغلوا بهن، كان هذا بداية المعاصي والذنوب التي فعلوها واستحقوا بها الطرد من رحمة الله وغضبه، فكأن فتنتهم بالنساء هي أول حلقة طغيانهم وعتوهم وضلالهم، وكأنهم لما استهانوا بهذه الفتنة كان ما وراءها لهم أسهل فوقعوا في الذنوب الكبيرة والآثام المهلكات، وفي ذلك تحذير للمسلمين أن يتقوا فتنة النساء ولا يستهينوا بها حتى لا يصيبهم ما أصاب بني إسرائيل.

تاسعاً: من صفات الداعية: الشفقة على المدعوين

وتظهر تلك الصفة في هذا الحديث الذي نحن بصدده من خلال شفقة وتحذير النبي ﷺ لأمته من الركون إلى الدنيا والوقوع في فتنة النساء، لأن هذه الأمور تفسد على المؤمن دينه، وتؤدي إلى خسارته في الدنيا والآخرة، وتجعله أسيرًا للشهوات، ولذا كان النبي ﷺ مشفقًا على أمته من الوقوع في مثل هذه الفتن، ولذا يحسن بكل داعية أن يتأسى بالنبي ﷺ في ذلك وفي كافة الشؤون.

لأنه ينبغي أن يكون من أبرز صفات الداعية الخوف والشفقة على المدعوين، ومن ثم فهو ينصحهم ويحذرهم ويبين لهم عواقب الأمور، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

قال السعدي: (يمتن الله على عباده المؤمنين بما بعث فيهم النبي الأمي الذي من أنفسهم يعرفون حاله يتمكنون من الأخذ عنه، ولا يأنفون عن الانقياد له وهو ﷺ في غاية النصح لهم، والسعي في مصالحهم، ويشق عليه الأمر الذي يشق عليكم ويعنتكم وهو حريص عليكم فيحب لكم الخير ويسعى جهده في إيصاله إليكم، ويحرص على هدايتكم إلى الإيمان، ويكره لكم الشر، ويسعى جهده في تنفيركم عنه، وهو شديد الرأفة والرحمة بهم، أرحم من والديهم)[2].

---

(١) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٣١٣.

الحديث رقم (٧١)

٧١- الثالثُ: عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتُّقَى وَالْعفافَ والْغِنَى» رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

غريب الألفاظ:

التقى: المفرد: التقاة وهي الخشية والخوف[2].

العفاف: الكف عما لا يحلّ ولا يجمل من قول أو فعل[3].

الشرح الأدبي

في ظلال هذا الحديث تتنسَّم مشاعرنا عبير المناجاة وتتذوق حلاوة الإيمان، وتتطلع أفئدتنا إلى رضوان الرحيم الرحمن، وأصداء هذا الدعاء الصاعد من قلب الحبيب المصطفى، والنبي المجتبى تسري في شرايين الكون، وتصافح الأحاسيس المؤمنة، فالدعاء يتفوه به لسان مَنْ أرسله الله رحمة للعالمين، وينبض به جنان خاتم المرسلين، وهو أقرب الأنبياء إلى ربه، وأشد المؤمنين تعلقاً بمولاه فهو لا يفتأ يدعوه في كل ساعة تمر، حتى ترك من أدعيته وابتهالاته الرائعة أدباً عالياً له سماته الجميلة من حرارة العاطفة وقوة الصدق وجمال التعبير.

- ورسول الله هو المثل الأعلى للمؤمن الحقيقي، وهو دائماً يذكر ربه في كل طرفة عين، ويتجه إليه مع كل خفقة قلب، فهو يسبحه ويدعوه إذا أصبح وإذا أمسى، وإذا نام، وإذا استيقظ، وإذا سافر، وإذا رحل، وإذا أكل، وإذا شرب، وإذا سمع الرعد، وإذا نزل المطر، وإذا هبت الريح، وإذا أشرقت

---

(١) برقم (٢٧٢١/٧٢). وسيكرره المؤلف برقم (١٤٧٠).

(٢) اللسان والوسيط في (و ق ى).

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٤٣، والوسيط في (ع ف ف).

الشمس، وإذا بزغ الهلال، وإذا مرض، وإذا عوفي، وإذا فزع، وإذا أمن، وله في ذلك، كما يقول د. محمد رجب البيومي، مأثورات رائعات مشهورات، ترددها كتب الصحاح، وهي من الأدب الصميم لبّ اللباب[1].

- وتشع كلمات هذا الحديث الشريف ببريق الحب الإلهي الذي يتوهج في هذه الضراعة الصادقة الخاشعة التي يتصدرها النداء الضارع إلى الله عز وجل، "اللهم" وهذا النداء أصله يا الله فحذف حرف النداء وعوض عنه الميم، وما أصدق هذا النداء! وما أجل وأعظم وأسرع الإجابة من الله عز وجل! والداعي والسائل هو خاتم النبيين وإمام المرسلين، ويأتي التأكيد بإن مقترناً بياء المتكلم، "إني" ليؤكد حرص الرسول ﷺ على الدعاء، والتصريح بقوله: "أسألك" فيه خطاب جليل من خاتم المرسلين إلى رب العالمين، وفيه إشعار بحاجة السائل إلى عون المسؤول عز وجل.
- ويسأل محمد ﷺ ربه مزيداً من الهدى والتقى والعفاف والغنى، لأن هذه الخصال من سماته.
- والهدى: تتحرك دلالته في مدارات متعددة والرشاد هو الجامع لكل هذه الدلالات المضيئة، وحين يهتدي الإنسان إلى حقيقة ما يبحث عنه تصبح التقوى منهجه في حياته، فهو في ظل الهداية يحرص على الوقاية من أي سلوك يدفع به إلى حمأة الباطل ومهاوي الردى، وهذا التصور في ظل النماذج البشرية العادية، ولكن في ظل دعاء المصطفى ﷺ يكون الدعاء لطلب المزيد من الهدى والتقى، وكذلك العفاف: وهو التنزه عما لا يباح والكف عنه، وكذلك الغنى وهو غنى النفس.

وهذه المطالب المرجوة يمكن أن يكون سؤال الرسول لربه أن يتحقق له المزيد منها، وأن يهيئ الله سبل تحقيقها لكل فرد من أبناء الأمة الإسلامية في كل زمان ومكان، لأن هذه الخصال الأربع تعد من المقومات الأساسية لتكوين معالم شخصية

---

(١) انظر: البيان النبوي، د. محمد رجب البيومي، ص ٢٠٠.

المسلم، وهنا تكمن قيمة الإيجاز والإيحاء في هذا الحديث الذي يمثل الدعائم الأساسية للشخصية الإسلامية.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: حرص المؤمن على طلب الهدى والتقى.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: الحث العفاف والغنى في حياة المؤمن.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: أهمية المال في حياة المؤمن.

رابعاً: من أساليب الدعوة: النداء والتوكيد.

أولاً- من موضوعات الدعوة: حرص المؤمن على طلب الهدى والتقى:

لقد سأل النبي ﷺ ربه الهدى والتقى، قال ابن هبيرة: (في هذا الحديث جواز أن يكون سأل الهدى لأمته إلى يوم القيامة، فإن الهدى مما قال الله عز وجل فيه: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾(١)، وقد سأل ﷺ مع الهدى التقى، والتقوى نطق قد تكرر في القرآن، وأصل التقوى تقوى الشرك ثم ترتفع في الدرجات، فهي كلمة شاملة إلا أنها راجعة إلى الحذر)(٢).

والمؤمنون يدعون ربهم قائلين: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾(٣) قال ابن القيم: (الهداية هي البيان والدلالة ثم التوفيق والإلهام وهو بعد البيان والدلالة، ولا سبيل إلى البيان والدلالة إلا من جهة الرسل، فإذا حصل البيان والدلالة والتعريف ترتب عليه هداية التوفيق، وجعل الإيمان في القلب وتحبيبه إليه وتزيينه في القلب وجعله مؤثراً له راضياً به راغباً فيه، وهما هدايتان لا يحصل الفلاح إلا بهما)(٤).

---

(١) سورة الليل، آية: ١٢.

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٢/١٢٨.

(٣) سورة الفاتحة، الآيتان: ٦، ٧.

(٤) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ١/٥٠-٥١.

وقال ابن تيمية: (والعبد مضطر دائماً إلى أن يهديه الله الصراط المستقيم فهو مضطر إلى مقصود هذا الدعاء، فإنه لا نجاة من العذاب ولا وصول إلى السعادة إلا بهذه الهداية، فمن فاته فهو إما من المغضوب عليهم وإما من الضالين، وهذا الهدى لا يحصل إلا بهدى الله)(١).

ويقول ابن الجوزي مبيناً الارتباط بين الهدى والتقى: (تأملت قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾(٢) قال المفسرون: هداي: رسول الله ﷺ وكتابي، فوجدته على الحقيقة: أن كل من اتبع القرآن والسنة وعمل بما فيهما فقد سلم من الضلال بلا شك وارتفع في حقه شقاء الآخرة بلا شك إذا مات على ذلك، وكذلك شقاء الدنيا فلا يشقى أصلاً، ويبيّن هذا قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾(٣))(٤).

وقال في موضع آخر: (ضاق بي أمر أوجب غماً لازماً دائماً وأخذت أبالغ في الفكر في الخلاص من هذه الهموم بكل حيلة وبكل وجه، فما رأيت طريقاً للخلاص، فعرضت لي هذه الآية: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾(٥) فعلمت أن التقوى سبب للمخرج من كل غم، فما كان إلا أن هممت بتحقيق التقوى فوجدت المخرج)(٦).

ويبيّن الله سبحانه الارتباط بين الهداية والتقوى في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾(٧) (فالمراد أن القرآن من شأنه الإيصال إلى المطالب الخيرية وأن

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٢٥٣/٧.

(٢) سورة طه، آية: ١٢٣.

(٣) سورة الطلاق، آية: ٢.

(٤) صيد الخاطر، ابن الجوزي، تحقيق: عبدالقادر عطا ١٩٨-١٩٩.

(٥) سورة الطلاق، آية: ٢.

(٦) صيد الخاطر، ابن الجوزي، تحقيق: عبدالقادر عطا ٢٧٣.

(٧) سورة البقرة، آية: ٢.

المستعدين للوصول به إليها هم المتقون، أي هم الذين تجردوا عن المكابرة ونزهوا أنفسهم عن حضيض التقليد للمضلين وخشوا العاقبة وصانوا أنفسهم من خطر غضب الله، والمراد بالمتقين المؤمنون الذين آمنوا بالله وبمحمد ﷺ وتلقوا القرآن بقوة وعزم على العمل به)(١).

ثانياً- من موضوعات الدعوة: الحث على العفاف والغنى في حياة المؤمن:

قد سأل النبي ﷺ ربه "العفاف والغنى"، قال ابن هبيرة: "ثم سأل ﷺ العفاف، والعفاف قد يكون منه العفاف عن الرذائل على كثرتها، ومنه العفاف عن أموال الناس، ومنه العفاف عن سؤال الأجر على تبليغ الحق. ومنه العفاف الذي يؤدي إلى العون عما لا يحل من النظر فما فوقه، ومنه العفاف عما جاوز الكفاية بالمعروف في كل معنى. ثم سأل ﷺ الغنى، وقد جاء عنه ﷺ أنه قال: ((الغَنَى غِنَى النفس))(٢). وكذلك هو، وهو الذي سأله رسول الله ﷺ، لأن الغنى مطلق ينصرف إليه، إذ غنى الأعراض قد يكون فقراً من وجوه كثيرة، منها الاشتغال بها، والخدمة لها، والحاجة إلى دوامها وغير ذلك" (٣).

قال النووي: (أما العفاف والعفة فهو التنزه عما لا يباح والكف عنه، والغنى غنى النفس والاستغناء عن الناس وعما في أيديهم)(٤).

وقد كان النبي ﷺ يحض أصحابه رضي الله عنهم على العفاف وغنى النفس، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: ((إنَّ نَاساً مِنَ الأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللّهِ، فَأَعْطَاهُمْ. ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ. حَتَّىٰ إِذَا نَفِدَ مَا عِنْدَهُ قَالَ: «مَا يَكُنْ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ. وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللّهِ. وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللّهُ. وَمَنْ يَصْبِرْ يُصَبِّرْهُ اللّهُ. وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ مِنْ

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢٦/١/١.

(٢) أخرجه البخاري ٦٤٤٦، ومسلم ١٠٥١ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: (ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس).

(٣) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ١٢٨/٢.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٩٩.

عَطَاءٍ خَيْرٌ وَأَوْسَعُ مِنَ الصَّبْرِ))[١].

قال النووي: (في هذا الحديث الحث على التعفف والقناعة والصبر على ضيق العيش وغيره من مكاره الدنيا)[٢].

وقال النبي ﷺ: ((لأنْ يأخُذَ أحدكم حبلَهُ فيأتيَ بحُزْمةِ الحطبِ على ظهرِهِ فيبيعَها فيَكفَّ اللّهُ بها وجهَهُ، خيرٌ لهُ من أنْ يسألَ الناسَ أعْطَوْهُ أو مَنَعُوه))[٣].

قال ابن حجر: (وفيه الحض على التعفف عن المسألة والتنزه عنها ولو امتهن المرء نفسه في طلب الرزق وارتكب المشقة في ذلك، ولولا قبح المسألة في نظر الشرع لم يفضل ذلك عليها، وذلك لما يدخل على السائل من ذل السؤال، ومن ذل الرد إذا لم يُعط ولما يدخل على المسؤول من الضيق في ماله إن أعطى كل سائل)[٤].

وقال الراغب الأصفهاني: (لا يكون الإنسان تام العفة حتى يكون عفيف اليد واللسان والسمع والبصر، فمن عَدَمِها في اللسان: السخرية والتجسس والغيبة والهمز والنميمة والتنابز بالألقاب. ومن عدمها في البصر: مد العين إلى المحارم وزينة الحياة الدنيا المولدة للشهوات الرديئة. ومن عدمها في السمع: الإصغاء إلى المسموعات القبيحة وعماد عفة الجوارح كلّها ألا يطلقها صاحبها في شيء مما يختص بكل واحد منها إلا فيما يسوغه العقل والشرع دون الشهوة والهوى)[٥].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: أهمية المال في حياة المؤمن:

فقد طلب النبي ﷺ من ربه الغنى، (والغنى -كما يقول النووي- غنى النفس والاستغناء عن الناس وعما في أيديهم)[٦] ولاشك أن أقوى ما يعين على ذلك أن يكون

---

(١) أخرجه البخاري ١٤٦٩، ومسلم ١٠٥٣.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦٦٢.

(٣) أخرجه البخاري ١٤٧١.

(٤) فتح الباري، ابن حجر ٣/٣٩٤.

(٥) الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الأصفهاني ص ٣١٩.

(٦) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٩٩.

بين يدي المسلم من المال ما يجعله مستغنياً عن سؤال الناس والتعرض لهم. فقد قال سعيد بن المسيب: (لا خير فيمن لا يحب المال، يعبد به ربه، ويؤدي به أمانته، ويصون به نفسه، ويستغني به عن الخلق)[١].

وقال ابن الجوزي: (حضرنا بعض أغذية أرباب الأموال فرأيت العلماء أذل الناس عندهم، العلماء يتواضعون لهم ويذلون لموضع طمعهم فيهم، وهم لا يحفلون بهم، لما يعلمونه من احتياجهم إليهم... فالأولى للعالم أن يجتهد في طلب الغنى ويبالغ في الكسب)[٢].

(فلو أنه نظر -كما يقول ابن الجوزي أيضاً- في سير الرجال وابتلائهم وتأمل صحاح الأحاديث عن رؤسائهم، لعلم أن الخليل عليه الصلاة والسلام كان كثير المال حتى ضاقت بلدته بمواشيه. وكذلك لوط عليه الصلاة والسلام وكثير من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والجمع الغفير من الصحابة رضي الله عنهم. وإنما صبروا عند العدم، ولم يمتنعوا من كسب ما يصلحهم ولا من تناول المباح عند الوجود. وكان أبو بكر رضي الله عنه يخرج للتجارة والرسول ﷺ حيٌّ، وكان أكثرهم يخرج فاضلَ ما يأخذ من بيت المال، ويسلم من ذل الحاجة إلى الإخوان... فالواجب على العاقل أن يحفظ ما معه وأن يجتهد في الكسب ليربح مداراة ظالم أو مداهنة جاهل)[٣].

رابعاً- من أساليب الدعوة: النداء والتوكيد:

أما النداء فقوله ﷺ "اللهم"[٤] فهو ينادي ربه ويدعوه خاضعاً متذللاً مقبلاً خاشعاً، فناسب هذا النداء، وفي هذا دعوة للمدعوين إلى الالتزام بهذه الآداب والهيئات عند دعاء الله تعالى، فهو ﷺ قدوتهم يقتدون به في حلّهم وترحالهم وجميع أحوالهم،

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ١٥/١٥٥.

(٢) صيد الخاطر، ابن الجوزي، تحقيق: عبدالقادر عطا ٢٩٤-٢٩٥.

(٣) صيد الخاطر، ابن الجوزي، تحقيق: عبدالقادر عطا ٦٩-٧٠، وقال محققه: يعني يريح نفسه فلا يضطر إلى هذه المداراة أو المداهنة.

(٤) اللهمَّ: كلمة تستعمل في النداء مثل: يا الله، الوسيط (أ ل هـ).

ثم أتبع ﷺ النداء بالتوكيد "إني" ليؤكد حاجته الملحة وحاجة كل مسلم -دعاة ومدعوين- إلى الهدى والتقى والعفاف والغنى، فهي في الحقيقة ملاك أمر المسلم في دينه ودنياه، فهو مع الله مهدي متقٍ ومع الناس عفيف غنيٌّ عنهم، وقد بلغ من حرص بعض الصحابة رضي الله عنهم على العفاف أنه كان ((يَسْقُطُ سَوْطُ أَحَدِهِمْ. فَمَا يَسْأَلُ أَحَداً يُنَاوِلُهُ إِيَّاهُ))[1].

(١) أخرجه مسلم ١٠٤٣.

الحديث رقم (٧٢)

٧٢- الرَّابِعُ: عَنْ أبي طَرِيفٍ عديّ بْنِ حاتمٍ الطائِيِّ رضي الله عنه قال: سمعت رسولَ اللَّه ﷺ يقُولُ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يمِينٍ ثُمَّ رَأَى أتقَى للَّهِ مِنْها، فَلْيَأْتِ التَّقْوَى» رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

عدي بن حاتم: هو عدي بن حاتم بن عبدالله بن سعد الطائي، كنيته: أبو طريف. ويقال: أبو وهب، رئيس قبيلة طيء في الجاهلية والإسلام، وأبوه حاتم الذي يضرب بن المثل في الكرم والجود.

كان نصرانياً وأسلم في السنة السابعة من الهجرة -وقيل بعد ذلك- بعد تمنعٍ، فأتى النبي ﷺ فأعلن إسلامه، وكان النبي يكرمه ويحترمه، قال: ما دخلت على النبي ﷺ قط إلا وسع لي أو تحرك لي. وقد دخلت عليه يوماً في بيته وقد امتلأ من أصحابه فوسع لي حتى جلست إلى جنبه[٢].

وحَسُن إسلامه فقال: ما أقيمت الصلاة منذ أسلمت إلا وأنا على الوضوء، وقال: وما جاء وقت صلاة قط إلا وقد أخذت لها أهبتها، وما جاءت إلا وأنا إليها بالأشواق.

وكان له في أيام الردة الموقف الجليل والعمل العظيم، فقد ثبت على إسلامه ومنع قومه من الردة وجاء بصدقة قومه إلى أبي بكر الصديق، فاستحق ثناء عمر بن الخطاب فيه إذ قال له: ((أسلمت إذ كفروا وأقبلت إذ أدبروا ووفيت إذ غدروا وعرفت إذ أنكروا))[٣] ((وإن أول صدقة بيضتْ وجه رسول الله ﷺ ووجوه أصحابه ﷺ صدقة طيء جئت بها إلى رسول الله ﷺ))[٤].

---

(١) برقم (١٦٥١/١٥).

(٢) أخرجه ابن عبدالبر في الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر وقال محققه: سنده حسن إن شاء الله.

(٣) أخرجه البخاري (٤٣٩٤).

(٤) أخرجه ٢٥٢٣.

وشارك في الفتوحات، فشهد فتوح العراق وشهد القادسية وفتح المدائن، وانتقل مع خالد بن الوليد من العراق إلى الشام حيث شارك في بعض الفتوحات، وبعثه خالد بخُمُس الغنائم إلى أبي بكر الصديق بالمدينة.

ونزل الكوفة وقاتل مع علي بن أبي طالب وكان من أمراء الجند، فشهد الجمل وصفين والنهروان وذهبت عينه في صفين. وقيل في الجمل.

كان سيداً شريفاً في قومه معظماً عندهم وعند غيرهم متواضعاً خطيباً حاضر الجواب، واشتهر بالكرم، بعث إليه الأشعث بن قيس يستعير منه قدوره، فبعثها إليه وقد ملأها طعاماً وقال له: إنا لا نعيرها فارغة.

وكان رحيماً رقيقاً: كان يفت الخبز للنمل ويقول: إنهن جارات ولهن حق.

روى ٦٦ حديثاً، وعاش طويلاً وعُمِّر فمات وهو ابن مائة وعشرين سنة وقيل أكثر. وتوفي سنة ٦٨هـ بالكوفة وقيل غير ذلك[(١)].

الشرح الأدبي

إن المؤمن صادق في أفعاله وأقواله، والقسم يؤكد صدق الإنسان، ويؤكد مصداقيته وموقعه في نفوس الناس، والمصطفى ﷺ يرسي قاعدة شرعية تحكم منهج المسلم وتوجه سلوكه، وهذا الحديث الشريف يرسي دعائم هذه القاعدة في صياغة لغوية تفصح عن المعنى المراد، حيث جاءت هذه القاعدة في أسلوب الشرط والجواب، والشرط يتكون من جزءين: [من حلف على يمين] والجملة المعطوفة المتعلقة بالشرط "ثم رأى أتقى لله منها"، ثم يأتي الجواب في صيغة الطلب مقترناً بالفاء وجوباً "فليأت التقوى"، وكأن هذه الصيغة اللغوية التي يجب فيها اقتران الجواب بالفاء لأن

---

(١) الطبقات، ابن سعد (٢٢/٦)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر ٥٧٧، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير (٧/٤)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ٨٩٦، والسير (١٦٢/٢)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي (١٤٤/٥) وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٨٥/٣)، والأعلام، خير الدين الزركلي (٢٢٠/٤)، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك (١٣٣٢/٢).

جملة الجواب طلبية، كأنها ترشد إلى القاعدة الشرعية وهى وجوب العدول عن اليمين التي تتعلق بأمر فيه تقصير أو مخالفة، "كأن حلف ليتركن الصلاة أو ليشربن المسكر"، فيجب على هذا الحالف، الحنث والإتيان بما هو التقوى من فعل المأمور به وترك المنهي عنه[1].

ولنتأمل البناء اللغوي ونحاول إدراك دلالات المفردات اللغوية وما ورائها من أسرار تعبيرية تؤكد جماليات الأداء الأسلوبي في الحديث النبوي.

- فالحديث يتكون من جملة واحدة وهى الجملة الشرطية، وأداة الشرط "من" وهي للعاقل وفي إطارها تموج ملايين الأشخاص، وما لا يعد ولا يحصى من الحالات المماثلة، فكل فرد من أبناء الأمة الإسلامية، على اختلاف أجناسهم وألوانهم وأماكنهم وأزمنتهم، يمكن أن يتعرض لمثل هذا الموقف الذي بينه رسول الله ﷺ وشخص المشكلة ثم حدد الحل، وهو أن يتجه المسلم إلى السلوك الذي من شأنه أن يكون صياغة عملية لصفة التقوى.
- وما أروع الإيجاز والإيحاء في قوله "فليأت التقوى"، وكأن التقوى تجسدت وأصبحت ملاذاً يحتمي به ذلك الذي وقع في شباك وبراثن "اليمين" التي يشوبها الابتعاد عن أفضل الأعمال، واليمين، كما يقول علماء اللغة، الحلف والقسم، وهى مؤنثة، والجمع: أيمن وأيمان وفي الحديث: "يمينك على ما يصدقك به صاحبك"[2]. أي يجب عليك أن تحلف له على ما يصدقك به إذا حلفت له، وقال الجوهري: سميت اليمين بذلك، لأن العرب كانوا إذا تحالفوا ضرب كل امرئ يمينه على يمين صاحبه. وقال بعض اللغويين: قيل للحلف يمين باسم يمين اليد، وكانوا يبسطون أيمانهم إذا حلفوا وتحالفوا وتعاقدوا وتبايعوا، وجمع الرسول ﷺ بين الحلف واليمين وهما بمعنى واحد تأكيدًا للحلف وهو العقد بالعزم والنية، وحرف العطف "ثم" يوحي بالتأني بين الموقفين وتأمل الموقف الأول في ضوء متعلقات الموقف الثاني،

---

(١) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٢١٨/١.

(٢) أخرجه مسلم ١٦٥٣.

والتعبير بالفعل "رأى" يفيد التحقق واليقين؛ لأن رأى هنا علمية وبصرية والمقصود أنه بعد التأمل والمشاهدة والعلم يرى موقفاً أتقى لله، وأفعل التفضيل في "أتقى" يوحي بأن الموقف كان في المباح، ولكنه رأى الأكثر ورعاً وتقوى وأبعد عن الشبهات والتعبير بقوله "لله" يرشد إلى أن تغير الموقف لا يكون بدافع شخصي أو هوى مذهبي أو كسب مادي، وإنما يكون لله عز وجل نية وقولاً وعملاً.

فقه الحديث

في الحديث من الفقه ما يلي:

أ- **اليمين التي يقع فيها الحنث:** لا خلاف بين الفقهاء في أن الحنث لا يقعُ إلا في اليمين المنعقدة وقد اتفقوا على أن اليمين تنعقد على المستقبل: كوالله لا أفعل كذا، أو لأفعلن كذا ونحو ذلك فيحنث في هذه اليمين بمخالفتها في المستقبل، فلا يكون الحنث إلا في اليمين التي قصد عقدها على المستقبل[1].

ب- **استحباب الحنث:** قال النووي: (في هذه الأحاديث [أي حديث الباب وغيره مما في معناه] دلالة على من حلَف على فعل شيء أو تركه وكان الحنث خيرًا من التمادي على اليمين، استحبّ له الحنث وتلزمه الكفارة، وهذا متفق عليه)[2].

ج- **الكفارةُ قبل الحنث:** اختلف الفقهاء في جواز الكفارة قبل الحنث، فقال

---

(١) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني ١٥/٣، وشرح الزرقاني على الموطأ، محمد بن عبدالباقي بن يوسف الزرقاني ٥٧/٣، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري ٢٤٠/٤-٢٤١، وروضة الطالبين وعمدة المفتين، الإمام النووي ٣/١١، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي ٢٣٥/٦ (عن الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٦٧/١٨).

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٩١/١١/٦، وانظر: بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني ١٨/٣، وحاشية ابن عابدين ٦٢/٣، وروضة الطالبين وعمدة المفتين، الإمام النووي ٢٠/١١-٢١، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري ٢٤٨/٤، والمغني، ابن قدامة ٦٨٢/٨، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي ٢٣٠/٦ (عن الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٦٧/١٨).

المالكية في المعتمد والشافعية: يستحبّ تأخير التكفير عن الحنث، ويجوز التكفير قَبْل الحنث، وقيد الشافعية ذلك بما لو كفّر بغير الصوم ولم يكن الحنث معصية، قال النووي: (جوزها مالك والأوزاعي والثوري والشافعي وأربعة عشر صحابيًا وجماعات من التابعين وهو قول جماهير العلماء لكن يستحب كَوْنها بعد الحنث)(١).

وقال الحنابلة: يجوز التقديم وإن كانت الكفارة صومًا ويستوي التقديم والتأخير في الفضيلة، وقال ابن أبي موسى: التأخير أفضل.

وعند الحنفية: وهو غير المعتمد للمالكية لا يجوز تقديم الكفارة على الحنث(٢).

وقال النووي: (ودليل الجمهور ظواهر هذه الأحاديث والقياس على تعجيل الزكاة)(٣).

د-**خصال الكفارة:** خصال الكفارة وردت في قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ۖ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ﴾(٤).

- قال ابن كثير: (فهذه خصال ثلاث في كفارة اليمين أيها فعل أجزأ عنه بالإجماع، وقد بدأ بالأسهل فالأسهل، فالإطعام أيسر من الكسوة، كما أن الكسوة أيسر من العتق، فرقى فيها من الأدنى إلى الأعلى، فإن لم يقدر

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٩٢/١١/٦.

(٢) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني ٢٠/٣، وحاشية الدسوقي ١٣٤/٢، وجواهر الإكليل ٢٢٩/١، وروضة الطالبين وعمدة المفتين، الإمام النووي ١٧/١١، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري ٢٩٥/٤-٢٩٦، والمغني، ابن قدامة ٧١٤/٨ (عن الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٦٨/١٨)، وانظر كذلك: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٤٨/٣٥-٥١.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٩٢/١١/٦.

(٤) سورة المائدة، آية: ٨٩.

المكلف على واحدة من هذه الخصال الثلاث كفر بصيام ثلاثة أيام كما قال تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾(١) وقال ابن العربي: (وإنما اختلفوا الأفضل من خلالها، وعندي أنها تكون بحسب الحال، فإن علمت محتاجًا فالإطعام أفضل، لأنك إذا أعتقت لم ترفع حاجتهم وزدت محتاجًا حادي عشر إليهم، وكذلك الكسوة تليه، ولما علم الله غلبة الحاجة بدأ بالمهم المقدّم)(٢).

- وقال صالح الفوزان: (ويغلط كثير من العوام فيظنون أنهم مخيرون بين الصيام وبين بقية خصال الكفارة، فيصومون مع قدرتهم على الإطعام أو الكسوة، والصيام في هذه الحالة لا يجزئهم ولا يبرئ ذمتهم من كفارة اليمين، لأنه لا يجزئ إلا عند العجز من الإطعام أو الكسوة أو العتق، فيجب التنبيه لمثل هذا الأمر)(٣).

المضامين الدعوية

أولاً: من صفات الداعية: الرحمة والشفقة على المدعوين.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: يسر الشريعة الإسلامية.

ثالثاً: من صفات المدعو: إتيان الأفضل وفعله.

أولاً- من صفات الداعية: الرحمة والشفقة على المدعوين:

إن من أهم الصفات التي ينبغي أن يتصف بها الداعية: الرحمة والشفقة، نظراً لأهميتها في الدعوة إلى الله تعالى ومما يؤكد ذلك أمر النبي ﷺ من حلف على يمين وقد رأى أن الحنث في اليمين خير، وطريق إلى تقوى الله، فليأت ما يوصله إلى تقوى

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣٢٧/٥.

(٢) أحكام القرآن، ابن العربي ٦٤٩/٢-٦٥٠، وانظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٤٠/٨-١٤١.

(٣) الملخص الفقهي ٤٨٢/٢.

الله ويدع ما حلف عليه، وفي هذا رحمة وشفقة بالحالف وبمن يحيط به ممن له علاقة باليمين، لأنّ في ذلك سوقاً للخير لهم، ففي رواية لمسلم ((فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْراً مِنْهَا، فَلْيَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ، وَلْيَتْرُكْ يَمِينَهُ))[١].

ولحديث الباب قصتان توضحان ما سبق، ((جَاءَ سَائِلٌ إِلَى عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ، فَسَأَلَهُ نَفَقَةً فِي ثَمَنِ خَادِمٍ أَوْ فِي بَعْضِ ثَمَنِ خَادِمٍ، فَقَالَ: لَيْسَ عِنْدِي مَا أُعْطِيكَ إِلاَّ دِرْعِي وَمِغْفَرِي، فَأَكْتُبُ إِلَى أَهْلِي أَنْ يُعْطُوكَهَا، قَالَ: فَلَمْ يَرْضَ، فَغَضِبَ عَدِيٌّ، فَقَالَ: أَمَا وَاللَّهِ لاَ أُعْطِيكَ شَيْئاً، ثُمَّ إِنَّ الرَّجُلَ رَضِيَ، فَقَالَ: أَمَا وَاللَّهِ لَوْلاَ أَنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ ثُمَّ رَأَى أَتْقَى لِلَّهِ مِنْهَا، فَلْيَأْتِ التَّقْوَى» مَا حَنَّثْتُ يَمِينِي))[٢].

والقصة الثانية (أن رجلاً أتاه يسأله مائة درهم فقال: تسألني مائة درهم وأنا ابن حاتم؟ والله لا أعطيك ثم قال: لولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: من حلف... فذكر الحديث وقال للرجل: ولك أربعمائة في عطائي)[٣]. فلمّا تراجع حاتمٌ عن المضي في يمينه وحنث فيها استفاد هذا السائل صلته وهبته.

وقد قال النبي ﷺ ((وَاللَّهِ لأَنْ يَلَجَّ أَحَدُكُمْ بِيَمِينِهِ فِي أَهْلِهِ، آثَمُ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ أَنْ يُعْطِيَ كَفَّارَتَهُ الَّتِي فَرَضَ اللَّهُ))[٤].

قال النووي: (معنى الحديث أنه إذا حلف يميناً تتعلق بأهله ويتضررون بعدم حنثه ويكون الحنث ليس بمعصية فينبغي له أن يحنث فيفعل ذلك الشيء، ويكفّر عن يمينه، فإن قال: لا أحنث بل أتورع عن ارتكاب الحنث وأخاف الإثم فهو مخطئ بهذا القول، بل استمراره في عدم الحنث وإدامة الضرر على أهله أكثر إثماً من الحنث)[٥].

وقال ابن حجر: (ويستنبط من معنى الحديث أن ذكر الأهل خرج مخرج الغالب، وإلا

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٥١، ١٧.

(٢) أخرجه مسلم ١٦٥١، ١٥.

(٣) أخرجه مسلم ١٦٥١، ١٨.

(٤) أخرجه البخاري ٦٦٢٥، ٦٦٢٦، ومسلم ١٦٥٥. هذا ومعنى يلَجُّ أي يتمادى ويستمر، الوجيز في (ل ج ج)

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٠٥٥.

فالحكم يتناول غير الأهل إذا وجدت العلة، والله أعلم)[١].

وقال أبو العباس القرطبي: (والأصلح تارة يكون من جهة الثواب وكثرته، وهو الذي أشار إليه في حديث عدي حيث قال: "فليأت التقوى". وقد يكون من حيث المصلحة الراجحة الدنيوية التي يطرأ عليه بسبب تركها حرج ومشقة، وهي التي أشار إليها النبي ﷺ بقوله: "لأن يلج أحدكم بيمينه آثم له عند الله من أن يكفر"، يعني بذلك أن استمراره على مقتضى يمينه إذا أفضى به إلى الحرج -وهو المشقة- قد يفضي به إلى أن يأثم، فالأولى به أن يفعل ما شرع الله له من تحنيثه نفسه وفعل الكفارة)[٢].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: يسر الشريعة الإسلامية:

إن مما تميزت به الشريعة الإسلامية عن غيرها من الشرائع السابقة اليسر وعدم التشديد على الناس، ومن مظاهر اليسر في هذا الحديث الذي معنا أمر النبي ﷺ الحالف إذا رأى الخير في غير يمينه أن يأتي الخير ويدع يمينه، ولاشك أن هذا من يسر الشريعة ورفعها الحرج عن المكلفين، جاء في الموسوعة الفقهية: (رفع الحرج: إزالة ما في التكليف الشاق من المشقة برفع التكليف من أصله أو بتخفيفه أو بالتخيير فيه أو بأن يجعل له مخرج، كرفع الحرج في اليمين بإباحة الحنث فيها مع التكفير عنها أو بنحو ذلك من الوسائل، فرفع الحرج لا يكون إلا بعد الشدة خلافاً للتيسير...

واليسر وانتفاء الحرج صفتان أساسيتان في دين الإسلام وشريعته، والتيسير مقصدٌ أساسي من مقاصد الشريعة الإسلامية، ويدل على هذا الأصل آيات كثيرة في كتاب الله تعالى وأحاديث نبوية صحيحة وأجمعت الأمة عليه)[٣].

ومن الأمثلة التطبيقية لرفع الحرج ما رواه زهدم الجرمي قال: ((كُنَّا عِنْدَ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ، فَدَعَا بِمَائِدَتِهِ وَعَلَيْهَا لَحْمُ دَجَاجٍ، فَدَخَلَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَيْمِ اللهِ، أَحْمَرُ، شَبِيهٌ بِالْمَوَالِي، فَقَالَ لَهُ: هَلُمَّ فَتَلَكَّأَ فَقَالَ: هَلُمَّ فَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللّهِ يَأْكُلُ مِنْهُ،

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٢٩٢٩/٣.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٦٣٢/٤.

(٣) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢١٣/١٤، وانظر أيضاً: ٢٨٢/٢٢-٢٩١ في الموسوعة نفسها.

فَقَالَ الرَّجُلُ: إِنِّي رَأَيْتُهُ يَأْكُلُ شَيْئاً فَقَذِرْتُهُ[١]، فَحَلَفْتُ أَنْ لاَ أَطْعَمَهُ، فَقَالَ: هَلُمَّ أُحَدِّثْكَ عَنْ ذَلِكَ، إِنِّي أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ فِي رَهْطٍ مِنَ الأَشْعَرِيِّينَ نَسْتَحْمِلُهُ، فَقَالَ: «وَاللَّهِ لاَ أَحْمِلُكُمْ، وَمَا عِنْدِي مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ» فَلَبِثْنَا مَا شَاءَ اللَّهُ، فَأُتِيَ رَسُولُ اللَّهِ بِنَهْبِ إِبِلٍ[٢]، فَدَعَا بِنَا، فَأَمَرَ لَنَا بِخَمْسِ ذَوْدٍ غُرِّ الذُّرَى[٣]، قَالَ: فَلَمَّا انْطَلَقْنَا، قَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ: أَغْفَلْنَا رَسُولَ اللَّهِ يَمِينَهُ[٤]، لاَ يُبَارَكُ لَنَا، فَرَجَعْنَا إِلَيْهِ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا أَتَيْنَاكَ نَسْتَحْمِلُكَ، وَإِنَّكَ حَلَفْتَ أَنْ لاَ تَحْمِلَنَا، ثُمَّ حَمَلْتَنَا، أَفَنَسِيتَ؟ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «إِنِّي، وَاللَّهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، لاَ أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْراً مِنْهَا، إِلاَّ أَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ، وَتَحَلَّلْتُ عَنْ يَمِينِي، فَانْطَلِقُوا، فَإِنَّمَا حَمَلَكُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ»)[٥].

قال ابن دقيق العيد: (وقد أكد النبي ﷺ في هذا الحديث الحكم المذكور باليمين بالله تعالى، وهو يقتضي المبالغة في ترجيح الحنث على الوفاء عند هذه الحالة، وهذا "الخير" الذي أشار إليه النبي ﷺ أمرٌ يرجع إلى مصالح الحنث المتعلقة بالمفعول المحلوف على تركه مثلاً)[٦] فكان هذا من رسول الله ﷺ مثالاً تطبيقيًا لبيان يسر الشريعة وسماحتها وانتفاء الحرج عنها.

ثالثاً- من صفات المدعو: إتيان الأفضل وفعله:

قال النووي: (في هذه الأحاديث دلالة على من حلف على فعل شيء أو تركه وكان الحنث خيراً من التمادي على اليمين استحبَّ له الحنث وتلزمه الكفارة وهذا متفق

---

(١) قال القرطبي في المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ٦٢٧/٤: يعني به: أنه رأى الدجاج يأكل نجاسة فاستقذره، فحلف ألا يأكله لذلك، وظاهر قول هذا الرجل أنه كان يكره أكل ما يأكل النجاسات من الحيوانات، وقد اختلف في ذلك.

(٢) أي غنيمة: انظر شرح مسلم للنووي ١٠٥٠.

(٣) معناه أمر لنا بإبل بيض الأسنمة، شرح مسلم ١٠٤٩.

(٤) معناه: كنا سبب غفلته عن يمينه ونسيانه إياه وما ذكرناه إياها: أي أخذنا منه ما أخذنا وهو ذاهل عن يمينه، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٠٥٠.

(٥) أخرجه البخاري ٣١٣٣، ومسلم ١٦٤٩، ٩.

(٦) إحكام الأحكام، ص ٣٥١.

عليه)[١]. وما يدل على ذلك من حديث الباب "فليأتِ التقوى".

وهكذا حال المسلم دائماً يفعل الأحسن ويأتيه، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُ﴾[٢] وقال عز وجل عن عباده ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾[٣] وقال عمرو بن العاص رضي الله عنه: (ليس العاقل من يعرف الخير من الشر ولكن هو الذي يعرف خير الشرّين)[٤].

ولعله من الملائم هنا أن نذكر أن بعض أصحاب كتب القواعد الفقهية ذكروا ثلاثة أشياء هي نفل ولكنها أفضل من الفرض، فالفرض لاشك أفضل من النفل، لكن الفقهاء نصوا على أن هذه الثلاثة أفضل من الفرض، نظراً لما فيها من نفع وخير كثير، وهي[٥]:

١- إبراء المعسر مندوب أفضل من إنظاره الواجب، قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾[٦].

٢- الابتداء بالسلام سنة أفضل من رده الواجب.

٣- الوضوء قبل الوقت مندوب أفضل من الوضوء بعد الوقت وهو الفرض.

وهكذا حال المدعو دائماً يحاول أن يفعل الأحسن والأفضل والأصلح، فإن كان أمامه فعلان أحدهما أفضل من الآخر، فإنه يفعل ما هو أفضل ويدع ما هو مفضول،

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٠٤٨.

(٢) سورة الإسراء، آية: ٥٣.

(٣) سورة الزمر، آية: ١٨.

(٤) سير أعلام النبلاء، الذهبي ٧٤/٣.

(٥) انظر: الأشباه والنظائر في قواعد وفروع فقه الشافعية، السيوطي ص ١٦١، والأشباه والنظائر: ابن نجيم، زين الدين بن إبراهيم ص ١٥٧، وللتوسع انظر فقه الموازنات وأثره في المعاملات المالية، عطية حسين ص ١٢٢.

(٦) سورة البقرة، آية: ٢٨٠.

لأن هذا من باب الإحسان، والله يحبّ المحسنين، كما أنه مشعر بقوة إيمانه وبحبّه معالي الأمور وبشرف نفسه، يقول ابن القيم: (النفوس الشريفة لا ترضى من الأشياء إلا بأعلاها وأفضلها وأحمدها عاقبة)[1].

(١) الفوائد المشوقة إلى علم القرآن وعلم البيان، ابن القيم ٢٥٤.

الحديث رقم (٧٣)

٧٣- الْخَامِسُ: عنْ أبي أُمَامَةَ صُدَيٍّ بْنِ عَجْلانَ الْبَاهِلِيِّ ﷺ قال: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يَخْطُبُ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ فَقَالَ: «**اتَّقُوا الله، وصَلُّوا خَمْسَكُمْ، وصُومُوا شَهْرَكُمْ، وأَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ، وَأَطِيعُوا**[١] **أُمَرَاءَكُمْ، تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ**» رواه التِّرْمِذِيُّ، في آخر كتاب الصلاةِ، وقال: حديثٌ حسنٌ صحيح[٢].

ترجمة الراوي:

أبو أُمامة الباهليُّ: هو صُدى بن عجلان بن وهب الباهليُّ.

صاحب النبي ﷺ، وسمع منه، وشهد حجّة الوداع وهو ابن ثلاثين سنة، أرسله النبي ﷺ إلى قومه فدعاهم إلى الإسلام، فكذبوه وردوه فقال: فانطلقت وأنا جائع ظمآن، فنمت، فأُتيتُ في منامي بشربة من لبن، فشربتُ ورويتُ وعَظُمَ بطني، فقال القوم: أتاكم رجل من أشرافكم وخياركم فرددتموه؟ قال: فأتوني بطعام وشراب فقلت: لا حاجة لي فيه. إن الله قد أطعمني وسقاني، فنظروا إلى حالي فآمنوا[٣].

وكان كثير الصيام هو وامرأته وخادمه، وما كانوا يُلْقَوْن إلا صياماً وما ذلك إلا لقول النبي ﷺ لأبي أمامة ((عليك بالصَّوم، فإنَّه لا مِثْلَ له)) فكان إذا رُئي في داره دُخانٌ بالنهار، قيل: اعتراه ضيف أو نزل به نازل[٤]. وكان كثير الذكر لله.

وقد جاء إليه رجل فقال له يا أبا أمامة، إني رأيتُ في منامي الملائكة تُصلّي عليك

---

(١) عند الترمذي زيادة: (ذا).

(٢) أخرجه الترمذي (٦١٦). وصحّحه ابن حبان (الإحسان ٤٥٦٣)، وقال الحاكم (٩/١): هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولا نعرف له علة ولم يخرجاه، وقد احتج البخاري ومسلم بأحاديث سليم بن عامر وسائر رواته متفق عليهم.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير ٢٧٩/٨، ٨٠٧٣، ٨٠٧٤، والحاكم ٦٤١/٣-٦٤٢، ٦٧٦١، وقال الهيثمي في المجمع ٣٨٧/٩: رواه الطبراني بإسنادين، وإسناد الأولى حسن، وفيه أبو غالب وقد وثق.

(٤) أخرجه أحمد ٢٤٨/٥-٢٤٩ رقم ٢٢١٤٠، وقال محققو المسند: إسناده صحيح ٤٥٦/٣٦، وقد أخرجه النسائي ٢٢٢٢، ٢٢٢٣ مختصرًا.

كلما دخلت وكلما خرجتَ، وكلما قُمتَ، وكلما جلستَ. قال رضي الله عنه: اللهم غُفْراً، دَعُونا عنكم، وأنتم لو شئتُم صلَّت عليكم الملائكةُ، ثم قرأ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾[(١)].

وقد روى علماً كثيراً، وكان إذا حدث عن رسول الله ﷺ قال: إنّ هذه المجالس من بلاغ الله إيّاكم، وإن رسول الله ﷺ، قد بلغَّ ما أُرسل به إلينا فبلّغوا عنّا أحسن ما تسمعون.

سكن بالشام وتوفي في أرض حمص، وهو آخر من مات من الصحابة بالشام وقد توفي سنة ٨٦هـ وقيل ٨١هـ، وقد ناف على المائة سنة[(٢)].

الشرح الأدبي

- هذا الحديث باقة من الهدى والرشاد، ومصباح من التعاليم يقود القلوب إلى النجاة في يوم المعاد، وهو نجمة تشرق في فضاء متوهج بالمبادئ والقيم التي أرساها الرسول ﷺ في خطبة حجة الوداع، وفي هذه الخطبة تتجلى معالم البيان النبوي وتتألق أبعاده، فالخطابة فن أدبي كاد يندثر في عصرنا الحديث، وما أحوجنا إلى تأمل النماذج العليا من هذا الفن الأدبي الراقي، إنه فن الإلقاء وفن صياغة الكلمة صياغة آسرة تؤثر في المتلقي، وتأسر أحاسيسه، وتثير انفعالاته وتمتع عقله، وتشبع عاطفته[(٣)].

---

(١) سورة الأحزاب، الآية ٤٣.

(٢) الطبقات، ابن سعد (٤١١/٧-٤١٢)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر (٣٤٨)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير (١٥/٣-١٦)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ٦٠٦، وسير أعلام النبلاء، الذهبي (٣٥٩/٣-٣٦٢)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي (٤٥١/٣-٤٥٢)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٢٠٩/٢-٢١٠)، والأعلام، الزركلي (٢٠٣/٣)، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك (١٠٤٧/٢-١٠٥٤).

(٣) انظر: الشرح الأدبي واللغوي لخطبة حجة الوداع في كتاب: الأدب الإسلامي بين التنظير والتطبيق، د. صابر عبدالدايم.

- وللخطابة النبوية خصائص وسمات فنية وأدائية لها دورها في التأثير والإقناع، فقد كان محمد ﷺ يخطب في العرب على هدي القرآن الكريم ليخرجهم من ظلمات الوثنية إلى نور الهداية السماوية، وقد أوتي من اللسن والفصاحة ما ملك به أزمَّة القلوب، وكأنما كانت المعاني موقوفة بشخوصها بين يديه ليختار منها ما تهش له الأسماع وتصغي له الأفئدة.
- ومن الخصائص الأدبية الأدائية لخطابة المصطفى عليه الصلاة والسلام، أنه كان يستعمل جميع فمه للتكلم ولا يقتصر على تحريك الشفتين، كما يقول هند بن أبي هالة "ويفتتح الكلام ويختمه بأشداقه، ويتكلم بجوامع من الكلم" وقد برأ الله سبحانه رسوله ﷺ من عيوب المنطق الخلقية التي لا تتفق مع جلال الرسالة ومهابة التبليغ، حيث برئ أسلوبه ونطقه من تنافر الحروف ومن التعقيد والمعاظلة ومن الغرابة المستكرهة ومن الألفاظ الوعرة الوحشية في غير قصد أو غرض، كما برئ منطق المصطفى ﷺ في خطابته وأحاديثه من عيوب النطق التي تصدر عن مبالغة وتكلف كسباً لرضا المستمعين واستجلاباً لثنائهم مثل التنطع والتملق والتفيهق وغيرها، وتتسم خطابة المصطفى ﷺ بالدقة والوضوح وعدم المبالغة، وهو عليه الصلاة والسلام في أسلوبه الخطابي بعيد عن الانفعال الذي ينأى بالخطيب عن دائرة الحقيقة، فكل ما يتفوه به في خطابته صدق وجد وترغيب وترهيب وإرشاد وتشريع وهداية وتبشير[1].

ولنتأمل في ضوء الخصائص والسمات السابقة للخطابة النبوية جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف، وهو جزء من الخطبة المباركة في حجة الوداع، وهذه الجماليات الأسلوبية تتمثل في الآتي:

السجع غير المتكلف: حيث عدل رسول الله ﷺ عن الأسلوب المرسل إلى صياغة

---

(١) انظر: الحديث النبوي، رؤية فنية جمالية، د. صابر عبدالدايم.

إيقاعية مؤثرة يؤدي السجع فيها دوراً عميقاً لجذب الأسماع معتمدا على تكرار كاف الخطاب الجمعي حيث تختم الجمل في الحديث بهذا الخطاب المتوازي والمتوازن مع عدم التكلف وعدم الإطناب، وأفعال الأمر نفسها التي تبتدئ بها الجمل وتنتهي جميعها بواو الجماعة في صياغة أقرب إلى السجع غير المقصود.

وحتى لا تطرأ شبهة تكلف السجع جاءت الجملة الأولى غير مسجوعة وهى "اتقوا الله" ثم تتوالى الجمل الأخرى على هذا النسق الإيقاعي الجميل المؤثر: "وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدُّوا زكاة أموالكم، وأطيعوا أمراءكم، تدخلوا جنة ربكم".

الإيجاز وتكثيف العبارة: فالحديث ألفاظه قليلة ولكنه يحض ويأمر بوجوب تنفيذ ثلاثة من أركان الإسلام، وفي رواية أخرى، أربعة أركان حيث قال، "وحجوا بيت ربكم".

- والجملة الأولى "اتقوا الله" مع بقية الحديث تتضمن شهادة التوحيد، وهى الركن الأول من أركان الإسلام، لأنه لن يؤدي هذه الأركان إلا من قال، "لا إله إلا الله محمد رسول الله" صادقاً مخلصاً، والمصطفى ﷺ يتوجه بهذا الخطاب الجمعي الواجب التنفيذ إلى المسلمين الموحدين الذين ينطقون بشهادة التوحيد ويؤدون كل موجباتها. وطاعة ولي الأمر فيما أحل الله لها دور بارز في استقرار الأمة وتثبيت دعائم أركانها وتقوية أواصر وحدتها والدفع بها إلى مجالات القوة المادية والروحية، وهذه القوة التي تقوم على أسس من التقوى والإيمان وإقامة أركان الإسلام ثمرتها العزة والنصر في الحياة الدنيا والفوز بالجنة في الآخرة، والحديث يشع ويموج بكل هذه المعاني الراشدة.
- أفعال الأمر المتوالية الصادرة من رسول الله ﷺ (اتقوا، وصلوا، وصوموا، وأدوا، وأطيعوا" هذه الصيغ اللغوية الآمرة تعلن عن وجوب القيام بهذه الأركان، وعدم التهاون في شأنها، والعطف بالواو يدل على مطلق الجمع

بين هذه الأمور ولكن ترتيب الأوامر يتفق مع حديث: "بني الإسلام على خمس ..." الحديث[1]، ويوحي بضرورة أداء هذه الأركان وعدم التهاون في أدائها على الوجه الأكمل. والصلاة لا تسقط عن المسلم العاقل البالغ في أي حالة يمر بها. ويمكن في حالة العجز التام أن يجري أركان الصلاة على قلبه طالما كان عقله سليماً يعي ويدرك ما حوله.

والصيام لا يجب إلا على القادر المكلف، والزكاة لا تجب إلا على من يملك النصاب، وطاعة ولي الأمر، ليست من الأركان ولكنه من الواجبات، ومن هنا ندرك سر هذا الترتيب في جمل الحديث الشريف.

ولم يأت العطف بالفاء؛ لأن أداء الأركان ليس منقطعاً ولا منفصلاً، فيمكن للإنسان المسلم الصوم والصلاة في وقت واحد، وكذلك الحج والصلاة، والزكاة تؤدي عن الإنسان أحياناً وهو يؤدي بعض الشعائر.

والبناء اللغوي في الحديث يدعونا إلى التأمل والتفكر في رصد أسرار البيان النبوي، فالحديث في ظاهره يتكون من ست جمل لغوية تفصيلاً، ولكنه في حقيقته جملة واحدة إجمالاً، لأن الحديث يتكون من الأمر وجواب الأمر، ولا يتم الكلام إلا إذا أتممنا قراءة الحديث، فجملة "اتقوا الله" هي البداية ثم عطف عليها أربع جمل أو خمس جمل، وهي ما بعدها، ثم تجئ الجملة الأخيرة، "تدخلوا جنة ربكم"، وهي بها تتم الفائدة لأن فعلها مجزوم في جواب الأمر، والجواب "وهو دخول الجنة" يحدد ثمرة وجزاء التقوى والصلاة والزكاة والصوم والطاعة.

وإضافة الجنة إلى ربكم يوحي بالفوز والأنس والطمأنينة فهي ليست جنة من جنان الدنيا وهى البساتين المثمرة، ولكنها "جنة الله" واختيار لفظ "ربكم" لتعميق الشعور بالاطمئنان ولترسيخ المفهوم الإيماني وهو أن الله يتولى تربية القلب والشعور والسلوك تربية إيمانية موافقة للفطرة التي فطر الله الناس عليها.

---

(١) أخرجه البخاري ٨، ومسلم ١٦.

ودلالة أفعال الأمر السابقة تشارك في تكوين الوجدان الإسلامي تكويناً صحيحاً حتى يتهيأ لدخول الجنة في ظل رعاية إلهية، وسلوك إيماني خالص، يقول عز وجل: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾[1].

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى أكثر من حكم فقهي:

الأول: فريضة الصلاة، وقد سبق ذكر حكمها أكثر من مرة ولا داعي للتكرار.

الثاني: فريضة الزكاة، وقد اتفق الفقهاء[2] على أن الزكاة في الإسلام فرض على القادر المالك للنصاب من الأموال وبالشروط المعتبرة لذلك شرعًا وهناك خلافات كثيرة حول ما يجب فيه الزكاة من الأموال وكيفية وجوبها وغير ذلك من مسائل لا يسمح المقام هنا بذكرها ومحلها كتب الفقه المتخصصة.

الثالث: فريضة الصيام، وقد اتفق الفقهاء[3] على أن صيام رمضان فرض على كل مسلم ومسلمة بالغ عاقل صحيح مقيم ليس به مانع شرعي.

الرابع: حكم طاعة أولي الأمر، وقد أجمع العلماء[4] على وجوب طاعة أولي الأمر

---

(١) سورة ق: ٣١-٣٤.

(٢) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني ٧٥/٢، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٢٧٦/٢، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن المغربي ٣٧٨/٢، وشرح منح الجليل على مختصر خليل، الشيخ محمد بن أحمد بن محمد عليش ١٠٨/٢، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، الشربيني ١٤٠/٢، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، شمس الدين الرملي ١٤٨/٣، وشرح منتهى الإرادات ٤٦٩/١، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي ٢٠٨/٢.

(٣) الاختيار لتعليل المختار ١٦٤/١، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد النفراوي المالكي ٣٥١/١، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، الشربيني ٤٢٠/١، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي ٣٤٥/٢.

(٤) المغني، ابن قدامة ٣/٩، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي ١٥٨/٦، وفتح الباري، ابن حجر ٨/١٣، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي للنووي ٢٢٩/١٢، ونيل الأوطار ٢٠٧/٧ وما بعدها، الدراري المضية للشوكاني ٥٠٦/١، الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٣٢٣/٢٨ وما بعدها.

من الأمراء والحكام، وأن الخروج عليه محرم، والخارج على الإمام باغ يعاقب بعقوبة البغي حتى يفيء إلى أمر الله، فإن ظهر من الإمام جور فهل يجوز الخروج عليه؟ قال الداودي: الذي عليه العلماء في أمراء الجور أنه إن قدر على خلعه بغير فتنة ولا ظلم وجب وإلا فالواجب الصبر، وعن بعضهم لا يجوز عقد الولاية لفاسق ابتداء فإن أحدث جورًا بعد أن كان عدلاً فاختلفوا في جواز الخروج عليه والصحيح المنع إلا أن يكفر فيجب الخروج عليه مع الإشارة إلى وجوب نصحه في الله تعالى حتى إن تعرض الناصح لأذى.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: تقوى الله والمحافظة على الصلوات وصيام رمضان وأداء الزكاة.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: طاعة ولي الأمر.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: جزاء الطائعين الجنة.

رابعاً: من فقه الداعية: ترتيب الأولويات.

خامساً: من أساليب الدعوة: الأمر والترغيب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: تقوى الله والمحافظة على الصلوات وصيام رمضان وأداء الزكاة:

لقد حضّ النبي ﷺ على تقوى الله والصلاة وصوم شهر رمضان وأداء الزكاة. أما التقوى فقد جاءت آيات كريمة من القرآن تحض على التقوى فكثيرة تلك الآيات التي نصها ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾[1]. وقال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[2]، وقال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[3]. وقال العز ابن عبدالسلام: (التقوى فعل الواجبات وترك المحرمات، وهي وصية الله في الأولين والآخرين)[4].

---

(١) انظر معجم ألفاظ القرآن الكريم، رتبه حسان عبدالمنان ص ٦٤٢.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٩٤.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٠٢.

(٤) شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال، العز بن عبدالسلام ص ٣٠٠.

أما الصلاة وصيام رمضان وأداء الزكاة فمن أركان الإسلام. قال النبي ﷺ: ((بُنِيَ الإسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ. شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلهَ إِلاَّ الله، وَأَنَّ مُحَمَّدا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. وَإِقَامِ الصَّلاَةِ. وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ. وَصِيام رَمَضَانَ وَحَجِّ الْبَيْتِ))[1].

قال النووي: (هذا الحديث أصل عظيم في معرفة الدين وعليه اعتماده وقد جمع أركانه)[2].

ومن ذلك حديث طلحة بن عبدالله رضي الله عنه: ((جاءَ رَجُلٌ إلى رسولِ اللّهِ ﷺ مِنْ أهلِ نَجْدٍ ثائرَ الرأْسِ يُسمعُ دَوِيُّ صَوتِه ولا يُفْقَهُ ما يقولُ، حتى دَنا، فإذا هُوَ يَسْأَلُ عنِ الإسلام، فقال رسولُ اللّهِ ﷺ: خَمسُ صَلَواتٍ في الْيَوْمِ والليلةِ. فقال: هَل عَلَيَّ غَيْرُها؟ قال: لا، إلاّ أنْ تَطَوَّعَ. وَصِيامُ شهر رَمَضانَ. قالَ: هلْ عَلَيَّ غَيرُهُ؟ قال: لا، إلاّ أن تَطَوَّعَ. وَذَكَرَ له رسولُ اللّهِ ﷺ الزَّكاةَ، قال هلْ عَلَيَّ غيرُها؟ قال: لا، إلاّ أن تَطَوَّعَ. قال فأدْبَرَ الرَّجُلُ وَهُوَ يقولُ: وَاللّهِ لا أزيدُ عَلَى هذا ولا أنقُصُ منه فقال رسولُ اللّهِ ﷺ: أفْلَحَ إنْ صَدَقَ))[3]. (والمقصود من العبادة تهذيب النفس بالتوجه إلى الله، والخضوع له والانقياد لأحكامه بالامتثال لأمره)[4].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: طاعة ولي الأمر:

لقد أمر النبي ﷺ المسلمين فقال: "وأطيعوا أمراءكم".

قال المباركفوري: (قال القاري: أي الخليفة والسلطان وغيرهما من الأمراء، أو المراد: العلماء أو أعم، أي كل من تولى أمراً من أموركم سواء كان السلطان -ولو جائراً أو متغلباً- وغيره من أمرائه وسائر نوابه إلا أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق)[5].

---

(١) أخرجه البخاري ٨، ومسلم ١٦.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٩٠.

(٣) أخرجه البخاري ٢٤٦، ومسلم ١١.

(٤) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٥٧/٢٩.

(٥) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٨٦٠/١.

وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[1]، قال ابن حجر: (واختلف في المراد بأولي الأمر في الآية[2]، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "هم الأمراء" أخرجه الطبري وإسناده صحيح وأخرج عن ميمون بن مهران وغيره نحوه. وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: هم أهل العلم والخير. وعن مجاهد وعطاء والحسن وأبي العالية: هم العلماء. ومن وجه آخر أصح منه عن مجاهد قال: هم الصحابة رضي الله عنهم، وهذا أخص. وعن عكرمة قال: أبوبكر وعمر. وهذا أخص من الذي قبله، ورجّح الشافعي الأول واحتج له بأن قريشاً كانوا لا يعرفون الإمارة ولا ينقادون إلى أمير، فأمروا بالطاعة لمن ولي الأمر، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ((مَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي)) متفق عليه[3]. واختار الطبري حملها على العموم وإن نزلت في سبب خاص)[4].

وذكر العيني (لأولي الأمر منكم) أحد عشر قولاً ثم قال: (الحادي عشر: عام في كل من ولي أمر شيء وهو الصحيح وإليه مال البخاري بقوله: ذوي الأمر)[5].

وقال ابن عثيمين: (وهذا يشمل أمراء المناطق والبلدان ويشمل الأمير العام، أي: أمير الدولة كلها، فإن الواجب على الرعية طاعتهم في غير معصية الله، أما في معصية الله فلا تجوز طاعتهم ولو أمروا بذلك، لأن طاعة المخلوق لا تُقدم على طاعة الخالق جل وعلا، ولهذا قال الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ فعطف طاعة ولاة الأمور على طاعة الله ورسوله، وهذا يدل على أنها تابعة، لأن المعطوف تابع للمعطوف عليه لا مستقل)[6].

---

(١) سورة النساء، الآية: ٥٩.

(٢) انظر: الآثار في ذلك في جامع البيان، الطبري ١٧٧/٧ وما بعدها، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣٤٢/٢ وما بعدها، والدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي ٥٠٢/٤ وما بعدها.

(٣) أخرجه البخاري ٧١٣٧، ومسلم ١٨٣٥.

(٤) فتح الباري، ابن حجر ١٠٢/٨.

(٥) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، العيني ١٧٦/١٨.

(٦) شرح رياض الصالحين ٢٥٥/١.

وإنما أمر النبي ﷺ بطاعة أولي الأمر في غير معصية الله، حتى يحفظ على مجتمع المسلمين استقراره وأمنه، فإن في الخروج على أولي الأمر فساداً كبيراً وخطراً عظيماً.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: جزاء الطائعين الجنة:

قد جعل الله ثواب التقوى والصلاة والزكاة والصيام وطاعة أولي الأمر، دخول الجنة، قال المباركفوري: (قال الطيبي: حكمة إضافة هذا -صلوا خمسكم- وما بعده إليهم إعلامهم بأن ذوات هذه الأعمال بكيفيتها المخصوصة من خصوصياتهم التي امتازوا بها عن سائر الأمم وحثهم على المبادرة للامتثال بتذكيرهم بما خوطبوا به وتذكيرهم بأن هذه الإضافة العملية يقابلها إضافة فضلية هي أعلى منها وأتم وهي الجنة المضافة إلى وصف الربوبية المشعر بمزيد تربيتهم وتربية نعيمهم بما فارقوا به سائر الأمم)[1].

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾[2]، وقال عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[3].

وقال النبي ﷺ: ((كُلُّ أُمَّتي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إلاَّ مَنْ أَبَى، قالوا: يا رسولَ الله ومن يأبى؟ قال: مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَد أَبَى))[4].

"والجنة هي دار الثواب لمن أطاع الله، وقد أعد الله لأهل الجنة فيها من النعيم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر"[5].

---

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١/٨٥٩-٨٦٠.

(٢) سورة التوبة، آية: ١١١.

(٣) سورة الصف، الآيات: ١٠-١٢.

(٤) أخرجه البخاري ٧٢٨٠.

(٥) أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، نخبة من العلماء ٢٣٨.

رابعاً- من فقه الداعية: ترتيب الأولويات:

لقد بدأ النبي ﷺ بالحث على تقوى الله ثم الصلاة ثم صوم رمضان ثم أداء الزكاة ثم طاعة ولي الأمر. فلا شكّ أن التقوى هي الذروة من هذه الأعمال فهي المحركة لها والباعثة عليها ﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾[1] والتقوى أكثر ما يدخل الجنة فقد سئل الرسول: ((مَا أَكْثَرُ مَا يُدْخِلُ الْجَنَّةَ؟ قَالَ: التَّقْوَى وَحُسْنُ الْخُلُقِ))[2]. ثم ثنى رسول الله ﷺ بالصلاة، وبعدها صوم رمضان وهكذا رتب النبي ﷺ هذه الخصال حسب أولويتها ودرجتها، فالصلاة عماد الدين وهي لا تسقط بحال عن المكلفين، فضلاً عن أنها عبادة يومية أدائها عمود الإسلام، لذا استحق تقديمها على غيرها، ولما كان عدد من تجب عليهم الزكاة أقل ممن يجب عليهم الصيام، قدم الصيام في الذكر..

كما ختم النبي ﷺ بالأمر بطاعة أولي الأمر، فإذا كانت التقوى وهذه العبادات توفر للإنسان الأمن النفسي، فإن طاعة أولي الأمر توفر الأمن الاجتماعي، ومن ثم يجتمع له الأمنان الداخلي والخارجي.

وكان النبي ﷺ يوجه دعاته إلى ترتيب الأولويات، فقد وجه معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى اليمن، وقال له: ((إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ. فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إلى أن يوحدوا الله تعالى. فَإِذَا عَرَفُوا ذلك، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الله فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ. فَإِذَا صلُوا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الله قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً أَمْوَالِهِمْ))[3].

خامساً- من أساليب الدعوة: الأمر والترغيب:

لقد أمر النبي ﷺ المؤمنين قائلاً لهم: "اتقوا الله..." وكان الموقف موقف خطبة فاستخدم النبي ﷺ الأمر ليكون أنسب في إيصال المراد مباشرة صريحاً واضحاً؛

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٩٧.

(٢) أخرجه الترمذي ٢٠٠٤، وابن ماجه ٤٦٢٦، وحسنه الألباني (السلسلة الصحيحة ٩٧٧).

(٣) أخرجه البخاري ٧٣٧٢، ومسلم ١٩.

ليكون الامتثال أسرع، وبيّن ﷺ قيمة هذا الأمر بأن بين عاقبة امتثاله وهو دخول الجنة، فجمع النبي ﷺ بين الأمر والترغيب؛ ليجعل المدعوين أكثر استجابة وأشد امتثالاً لما أمرهم به.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

لقد اهتم الإسلام اهتماماً كبيراً بتربية المسلمين على التقوى والعمل على تأصيلها في القلوب، وقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالتقوى، وقد كانت التقوى وصية الله للأولين والآخرين، ولذا فإن النبي ﷺ عمل على تنشئة أصحابه رضي الله عنهم وتربيتهم على تقوى الله، ومن ثم فقد وردت أحاديث كثيرة في الحث على تقوى الله والترغيب فيها والأمر بها وبيان فضلها، ومن جملة هذه الأحاديث ما ورد في هذا الباب -التقوى- الذي اشتمل على عدد من المضامين التربوية والتي من جملتها ما يلي:

أولاً: من أساليب التربية السؤال والجواب:

إن السؤال والجواب من أبرز وأهم أساليب التربية، حيث يبرهن السؤال برهنة عملية على رغبة المتعلم في المعرفة والتعلم ومعرفة ما يجهله من أمور، ولذا كان الصحابة رضي الله عنهم يسألون رسول الله ﷺ، وكان صدره يتسع لأسئلتهم، ويقوم بإجابتهم بأسلوب تربوي رائع، يعمل فيه على ترسيخ المعاني الإيمانية العظيمة، مثلما ما ورد في الحديث: من أكرم الناس؟ قال: أتقاهم.

وقد كانت إجابات النبي ﷺ شمولية وجامعة ومركزة وهادفة ومستوعبة للخلفيات الفكرية للسائل، وليس ذلك فحسب، بل تعمل على تعميق الفهم التربوي الواعي لعدد من الحقائق التي يحتاج الناس إلى معرفتها.

ومن الميادين التربوية التي تسعى إلى تزويد المتعلم بالمعرفة الدينية اللازمة له المدرسة: حيث لا ينبغي أن تقتصر مهمة التربية الدينية على إشباع حاجة التلميذ إلى المعرفة الدينية. وإنما ينبغي أن تسعى إلى تزويده بالمعرفة اللازمة له في مستقبل أمره، وإن لم يشعر في هذه اللحظة، أو في الوقت الحاضر بالحاجة إليها، إن التربية عموماً، والتربية الدينية خصوصاً، لا ينبغي أن تكون ضيقة النظرة، لا تتعدى نظرتها مواقع أقدامها، بل ينبغي أن تمد بصرها إلى الأمام فتعطي التلميذ ما يحتاجه في الغد القريب على الأقل، إن لم يكن في الغد البعيد، لأن المدرسة ينبغي أن يكون من أهدافها تعميق معرفة التلميذ بالعقائد الدينية، وبالشعائر الدينية والمعاملات مع الناس وأن تزيد من

فهمه لها، حتى ينمو معرفياً في هذه الجوانب، ولا يثبت عند وضع معين فيها، وإذا كانت هناك دراسة موضوعات بعينها، في مراحل التعليم المختلفة فهي تدرس بعمق معين في مرحلة ثم بعمق أكبر في المرحلة التي تليها وهكذا[١].

ثانياً: التربية على الزهد في الدنيا والحذر من الافتتان بها وبالنساء:

إن من المعالم التربوية التي أراد النبي ﷺ ترسيخها في نفوس أصحابه رضي الله عنهم أن الدنيا حلوة وخضرة ومبهجة وتغري بالافتتان بها، وما أكثر من يفتن بها ويقع في حبائلها، والأولى بالعاقل أن يدرك حقيقة الدنيا، وأنها إلى زوال وإلى فناء، فلا يكن ذلك باعثاً على الافتتان بها، بل يجب الحذر منها ومن مغرياتها مثل النساء.

ويمثل ذلك حلقة من حلقات التربية النبوية لأصحابه رضي الله عنهم، وكيف كان ﷺ يهتم بالتربية الشاملة، والحديث ليس دعوة للزهد في طيبات الحياة، ولكن دعوة إلى الاعتدال والتوازن في مجالات الحياة الدنيوية المتعددة، ودعوة إلى تقوية الصلة بالله، فلا تتهاوى النفس أمام زخارف الدنيا وزينتها، ولا تفقد اعتدادها بالقيم العليا[٢].

ثالثاً: التربية الروحية للإنسان:

تستهدف التربية الإسلامية: تربية الذات الإسلامية، وهي تربية شاملة ومستمرة، والتربية الإسلامية تعمل على أن ينتفع الإنسان بما يتعلمه، وتستمد تلك التربية شموليتها أو صلاحيتها للإنسان في كل زمان ومكان من شمولية الإسلام، لأن هدفها الإنسان بكيانه متكاملاً وبطاقاته وقدراته كلها، وهي بذلك تعني بالجانب العقلي والروحي والجسمي والخلقي والاجتماعي والجمالي وغير ذلك[٣].

إن هدف التربية الإسلامية هو تنمية وتكوين الإنسان العابد الصالح[٤].

---

(١) انظر: التربية الإسلامية وطرق تدريسها، د.إبراهيم محمد الشافعي، ص٥٤.

(٢) انظر: دراسات تربوية في الأحاديث النبوية، د. محمد لقمان الأعظمي الندوي، ٤٢٦، ٤٢٧.

(٣) انظر: فلسفة التربية الإسلامية في الحديث الشريف، د.عبدالجواد سيد بكر ص ١٧٠-١٧٦.

(٤) من الأصول التربوية في الإسلام، د.عبدالفتاح جلال ص ٧٩.

-فلسفة التربية كما يحددها القرآن الكريم، علي خليل مصطفى ص ١٤٥.

-التربية في الإسلام، د. أحمد فؤاد الأهواني ص ٩.

وقد جمعت التربية الإسلامية بين تأديب النفس وتصفية الروح وتثقيف العقل وتقوية الجسم فهي تعني بالتربية الدينية والخلقية والعلمية والجسمية دون تضحية بأي نوع على حساب الآخر.

إن من أهداف التربية الروحية تقوية الجانب الروحي للإنسان، حيث حرص الإسلام على نقاء هذا الجانب وطهارته، بحيث يسمو الإنسان فوق رغائب وأغلال المادة[1].

ولذا فإن النبي ﷺ كان يقول: ((اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتُّقَى، وَالْعَفَافَ وَالْغِنَى))، وكان ﷺ يأمر بتقوى الله وأداء العبادات والتخلُّق بالأخلاق الحسنة مما يساعد على تحقيق تقوى الله وتزكية وتربية النفس.

---

(١) انظر: فلسفة التربية الإسلامية في الحديث الشريف، د.عبدالجواد سيد بكر ص ١٨٢-١٨٤.

٧- باب اليقين والتوكل

قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً﴾[الأحزاب: ٢٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللّهِ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾[آل عمران: ١٧٣-١٧٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ﴾[الفرقان: ٥٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[إبراهيم: ١١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّه﴾[آل عمران: ١٥٩]، والآيات في الأمرِ بالتوكلِ كثيرةٌ معلومةٌ. وَقالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[الطلاق: ٣]: أي كافِيهِ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[الأنفال: ٢]، والآيات في فضل التوكل كثيرةٌ معروفةٌ.

وأمَّا الأحاديث:

الحديث رقم (٧٤)

٧٤- **فالأوَّل:** عَن ابْن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسولُ اللّه ﷺ: «**عُرِضَت عليَّ الأمَمُ، فَرَأيْت النَّبيَّ وَمعَه الرُّهيْطُ، والنَّبيَّ ومَعَهُ الرَّجُل وَالرَّجُلانِ، وَالنَّبيَّ وليْسَ مَعَهُ أحدٌ، إذ رُفِعَ لِي سوادٌ عظيمٌ فظننتُ أنَّهُم أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هذا موسى وقومه ولكن انظر إلى الأفق فإذا سواد عظيم فقيل لي انظر إلى الأفق الآخر فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هَذه أُمَّتُكَ، ومعَهُمْ سبعُونَ ألفاً يَدْخُلُونَ الْجَنَّة بِغَيْرِ حِسَابٍ ولا عَذَابٍ**».

ثُمَّ نَهض فَدخَلَ منْزِلَهُ، فَخَاض النَّاسُ في أُولَئِكَ الَّذينَ يدْخُلُون الْجنَّةَ بِغَيْرِ حسابٍ وَلا عذابٍ، فَقَالَ بعْضهُمْ: فَلَعَلَّهُمْ الَّذينَ صَحِبُوا رسول اللّه ﷺ، وقَال بعْضهم: فلعلَّهُمْ الَّذينَ وُلِدُوا في الإِسْلامِ، فَلَمْ يُشْرِكُوا باللّه شيئاً وذَكَروا أشْياء، فَخرجَ علَيْهِمْ رسول

اللَّه ﷺ فَقَالَ: «مَا الَّذي تَخُوضونَ فِيهِ؟» فَأخْبَرُوهُ فَقَالَ: «هُمُ الَّذِينَ لا يرقُونَ، وَلا يَسْتَرْقُونَ، وَلاَ يَتَطيَّرُون، وَعَلَى ربِّهِمْ يتَوكَّلُونَ» فقَامَ عُكَّاشَةُ بنُ مُحْصِنٍ فَقَالَ: ادْعُ اللَّه أنْ يجْعَلَني مِنْهُمْ، فَقَالَ: «انْت مِنْهُمْ» ثُمَّ قَام رَجُلٌ آخَرُ فَقَالَ: ادْعُ اللَّه أنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ فقال: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ» متفقٌ عليه[١].

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١).

غريب الألفاظ:

الرهيط: بضم الراء تصغير رهط، وهم دون عشرة أنفس[٢].

سواد عظيم: السواد هو الشخص والمقصود: أشخاص كثيرة[٣].

الأفق: الناحية والجانب[٤].

تخوضون: تتفاوضون[٥].

يرقون: من الرقية وهي العوذة التي يُرقى بها صاحب الآفة كالحمى والصرع وغير ذلك من الآفات[٦].

يسترقون: أي يطلبون الرقية[٧].

يتطيرون: من الطِيَرة وهو التشاؤم. وأصلها أنهم كانوا في الجاهلية إذا قصدوا لأمر فإذا رأوا الطير طار يمنة تيمنوا بذلك واستمروا في الأمر، وإذا طار يسرة تشاءموا ورجعوا[٨].

---

(١) رواه البخاري (٦٥٤١)، ومسلم (٢٢٠/٣٧٤) واللفظ له.

(٢) رياض الصالحين ٨٠.

(٣) انظر: فتح الباري، ابن حجر ٤١٥/١١، والوسيط في (س و د).

(٤) رياض الصالحين ٨٠.

(٥) الصحاح في (ف و ض).

(٦) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ر ق ي).

(٧) انظر: الوسيط في (ر ق ي).

(٨) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ط ي ر)، والمفصح المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ١٩٦، وفتح الباري، ابن حجر ٢٢٣/١٠، والوسيط في (ط ي ر).

عُكَّاشه: بضم العين وتشديد الكاف وبتخفيفها، والتشديد أفصح[(١)].

الشرح الأدبي

- ما أجل البشارات التي يهديها المصطفى ﷺ إلى أمته وهي خير أمة أخرجت للناس! وما أعظم الدلائل والبراهين التي يقدمها المبعوث رحمة للعالمين على فضل أمة الإسلام وعلى إكرام الله لها وتفضيلها على سائر الأمم! ونقتبس من هذا الحديث الشريف ومضات متألقة تشع بالأفضلية والخيرية لهذه الأمة المباركة. والحديث يُصدِّر به الإمام النووي باب اليقين والتوكل، وهو بهذا التصدير يعلن ويؤكد أن التوكل واليقين من ثمرات التقوى.
- وأول وصية في الحديث السابق هي: "اتقوا الله"، وجزاء التقوى وما يلزم عنها دخول الجنة، والتوكل على الله -في رأى بعض العلماء- وهو الثقة بالله والإيقان بأن قضاء نافذ واتباع سنة نبيه ﷺ والسعي فيما لا بد منه من مطعم ومشرب والتحرز من العدو كما فعله الأنبياء.

واليقين في اللغة: العلم الذي لا شك فيه.

وهذا الحديث النبوي الشريف يقدم صورة مشرقة من أساليب البيان النبوي، وهي تموج بالحركة والحوار والمناظرة والجدال بالتي هي أحسن.

- والنهج القصصي هو الوسيلة الفنية التي قدم في إطارها هذا الحديث الشريف، وأول مشهد من مشاهد هذه الصورة القصصية إخبار النبي ﷺ بما رآه في قوله: "عرضت على الأمم" وهذا العرض - كما قال العلماء- يحتمل أن يكون مناماً أي: رؤيا، أو يكون العرض في اليقظة ليلة الإسراء أو غيرها، والتعبير بقوله: "عرضت"، فيه سرّان من أسرار التعبير وهما: بناء الفعل للمجهول؛ لأن الفاعل معلوم وهو الله عز وجل: فهو الذي عرض عليه

---

(١) رياض الصالحين ٨٠.

مشاهد الأمم، والتعبير بمادة العرض يوحي بتعدد المشاهد وتعدد العروض، ويتضح ذلك من قوله ﷺ: "فرأيت النبي... والنبي ... والنبي..." وهذا التكرار يؤكد كثرة المشاهد.

- وليس الأمر إطناباً ولكن التكرار لإظهار الحقيقة، ففي المرة الأولى النبي معه الرهيط: وهو العدد من ثلاثة إلى عشرة أو ما دون العشرة، وفي المرة الثانية يرى النبي معه أقل من ذلك: "الرجل أو الرجلان"، وفي الثالثة النبي ليس معه أحد ولم يحدد الرسول أسماء هؤلاء الأنبياء، لأنهم كثيرون ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾[1]. ولنتأمل قلة الاتباع، ومعاناة الأنبياء مع أقوامهم ولنشكر الحق سبحانه على أن جعل الناس يدخلون في دين الله أفواجا.
- والمشهد الرابع يخصه الرسول بالتفصيل والتوضيح "إذْ رفع لي سواد عظيم" أي أشخاص كثيرون فظن الرسول أنهم أمته. وفي هذا الظن رجاء وأمنيات أن يجعل أمته أكثر عدداً، ولكن توقع المصطفى ﷺ لم يتحقق وقيل له: "هذا موسى وقومه" وعندما يحكي رسول الله ﷺ لأصحابه هذه المشاهد فهو يشوقهم ويثير مشاعرهم ويهيئهم للبشرى بعد الظنون.
- والتعبير يقوله "ولكن" يصور ما جال بنفوس الصحابة وبنفس الرسول ﷺ، فهي للاستدراك وهو إثبات ما يتوهم نفيه، أو نفي ما يتوهم ثبوته، وما بعد "لكن" يوضح الموقف.

وما أجمل تصوير هذا المشهد الذي لم يره إلا الحبيب المصطفى والنبي المجتبي! هذا المشهد يتجلى في هذه المحاورة المبشرة البليغة الناطقة بالحقيقة الرامزة، "انظر إلى الأفق فنظرت فإذا سواد عظيم" ويتابع المشهد الجليل، الذي يرويه البشير النذير، "فقيل لي: انظر إلى الأفق الآخر. فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك".

---

(١) سورة غافر، آية: ٧٨.

- فأي فضل أعظم من هذا؟ وأي كرم أفضل من هذا؟ وأي بشارة بالفوز لهذه الأمة أسمى من هذه البشارة؟ والسواد العظيم في الأفق، مشهد حقيقي ولكنه يرمز لحقائق ممتدة ومستقبل آمن، وقد تحققت هذه النبوءة، والفتوحات الإسلامية خير شاهد على ذلك، وقد اتسعت أرجاء الدولة في المشرق والمغرب. والأفقان في الحديث الشريف يوحيان بانتشار الدعوة الإسلامية في أرجاء المعمورة كلها شرقاً وغرباً وقد تحقق ذلك، ويعد ذلك من معجزاته ﷺ ونبوءاته التي أكرمه الله بها. والتعبير بلفظ الإشارة، "هذه أمتك" يدل على التحديد والتكريم لأن الله أضاف الأمة إلى كاف الخطاب والمخاطب هو سيد الخلق ﷺ، والمزيد من الكرم يتجلى في تخصيص الله أفراداً من أمة محمد الذين بيّن رسول الله ﷺ صفاتهم بعد ذلك، وهم يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب. والقسم الثاني من الحديث تدور فيه مناظرة أخرى ومجادلة بين أصحاب النبي ﷺ في تفسير وتأويل المراد بهؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حساب، وكان من الممكن أن يخبرهم الرسول بصورة مباشرة بهؤلاء ولكن البيان النبوي يلجأ إلى التشويق وإلى إثارة ما في نفوس الناس من آراء؛ ولذلك جاء الفاصل بين المحاورتين بـ"ثم" في قوله: "ثم نهض"، وكثير من الجمل عطفت بالفاء والواو، وثم جاءت مرتين فقط، والعطف بثم هنا يعطي مسافة للتفكير والحوار والتفسير والتأويل، ولذلك عبر بالفعل "خاض الناس" والمراد: الكلام المتشعب، وكأنهم تموج بهم الأحاديث من شدة اللهفة على معرفة الحقيقة، وبعد أن خاضوا وتأولوا وتعددت تفسيراتهم واتجهت إلى صحابة رسول الله أو الذين ولدوا في الإسلام، والكل يتمنى أن يكون من هؤلاء المقربين. ولكن المصطفى ﷺ يسألهم سؤالاً تقريرياً "ما الذي تخوضون فيه؟" فأخبروه. فتجيء إجابة المصطفى ﷺ تصحيحًا لمفاهيم كثيرة، وحين يحدد الذين يدخلون الجنة بغير حساب، لا يحصرهم في طائفة محددة، ولا في زمن

معين، فهم ليسوا من الصحابة فقط، وليسوا من الذين ولدوا في عصر البعثة فقط، ولكنهم يمكن أن تشملهم جميع العصور، وجميع الأمكنة في كل الأجيال كذلك؛ لأن صفاتهم هي المعيار والمقياس، فالذي تتحقق فيه هذه الصفات وتلك السلوكيات يكون من هؤلاء. وتكلم عنهم الرسول بصيغة الجمع المخبر عنهم فقال: "هم الذين" ثم أتى بثلاث صفات في صيغة النفي "لا يرقون ولا يسترقون، ولا يتطيرون" والصفة الرابعة هي الجامعة المانعة وفي صيغة الإثبات، وصيغة القصر عن طريق التقديم والتأخير "وعلى ربهم يتوكلون".

- والعنصر الصوتي المتمثل في السجع المتوالي وختام الأفعال المضارعة بواو الجماعة وثبوت النون، يوحي بقوة الأداء واستمرارية هذا السلوك، والمراد أنهم يتركون ما كان من رقى في الجاهلية أو بأية رقى غير شرعية لا تعتمد على الله ولا تفوض أمره إليه.

فقه الحديث

في الحديث من الفقه ما يلي:

أ- **إباحة المناظرة في العلم**: قال النووي: (قوله "فخاض الناس": أي تكلموا وتناظروا، وفي هذا إباحة المناظرة في العلم، والمباحثة في نصوص الشرع على جهة الاستفادة وإظهار الحق)[1].

ب- **الرقى**: اختلف الفقهاء في الرقى: فذهب الجمهور إلى جواز الرُّقْى من كلّ داء يصيب الإنسان بشروط ثلاثة:

أولها: أن يكون بكلام الله تعالى أو بأسمائه وصفاته.

ثانيها: أن يكون باللسان العربي أو بما يعرف معناه من غيره.

ثالثها: أن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها بل بإذن الله تعالى وقدرته، لما روى عوف

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي.

ابن مالك رضي الله عنه قال: (كنا نرقى في الجاهلية فقلنا: يا رسول الله كيف ترى في ذلك؟ فقال: "عرضوا على رقاكم، لا بأس بالرُّقى ما لم يكن فيه شرك")(١).

وعن جابر رضي الله عنه قال: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرقى فجاء آل عمرو بن حزم فقالوا: يا رسول الله إنه كانت عندنا رقية نرقى بها العقرب وإنك نهيت عن الرقى، قال: فعرضوها عليه، فقال: ((ما أرى بأسًا من استطاع منكم أن ينفع أخاه فلينفعه))(٢).

وقال قوم من العلماء: لا تجوز الرقية إلا من العين واللدغة لقول عمران بن حصين رضي الله عنهما: ((لا رقية إلا من عين أو حمة))(٣).

وذهب بعض العلماء إلى أنه تكره الرقى حتى وإن كانت بكتاب الله أو أسمائه وصفاته؛ لأنها قادحة في التوكل على الله، واستدلوا بحديث الباب "هم الذين لا يرقون ولا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون" ومن هؤلاء سعيد ابن جبير.

وذهب آخرون إلى كراهة الرقى إلا بالمعوذات.

وفرق قوم من العلماء بين الرقى قبل وقوع البلاء وبعد وقوعه، فقالوا: المنهي عنه من الرقى هو ما يكون قبل وقوع البلاء، والمأذون فيه ما كان بعد وقوعه)(٤).

---

(١) أخرجه مسلم ٢١٩٩، ٦٤.

(٢) أخرجه مسلم ٢١٩٩، ٦٢، ٦٣.

(٣) أخرجه البخاري ٥٧٠٥ موقوفًا على عمران بن حصين رضي الله عنهما، وأخرجه أبو داود ٣٨٨٤ عن عمران بن حصين رضي الله عنهما مرفوعًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٢٨٩). وانظر: فتح الباري، ابن حجر ٢٥٣١/٣.

(٤) فتح الباري، ابن حجر ٢٥٣١/٣، شرح الحديث ٥٧٠٥، ٢٥٤٦/٣، شرح الحديث ٥٧٣٥، ٢٥٥٣/٣، شرح الحديث ٥٧٥٢، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٤/٧/١٤١-١٤٢، والقوانين الفقهية ص ٤٥٣، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد النفراوي المالكي ٤٤٢/٢، وحاشية العدوي ٤٥٣/٢، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، الشربيني ١٣٧/١، والمغني، ابن قدامة لابن قدامة ٤٤٩/٢، وحاشية ابن عابدين ٢٣٢/٥، والموسوعة الفقهية ٢٣/٩٦-٩٨.

ج- التطير: جاء في الحديث عن صفات هؤلاء السبعين "ولا يتطيرون" (وأصل التطير أن العرب إذا خرج أحدهم لأمر قصد إلى عش طائر، فيهيجه فإذا طار الطير يمنةً تيمن به، ومضى في الأمر ويسمونه السانح. أما إذا طار يسرةً تشاءم به ورجع عما عزم عليه، وكانوا يسمونه "البارح" فأبطل الإسلام ذلك ونهى عنه، وأرجع الأمر إلى سنن الله الثابتة، وإلى قدره المحيط ومشيئته المطلقة)[١] وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما مرفوعًا: ((من ردته الطيرة من حاجة فقد أشرك))[٢]. ونقل ابن حجر عن الحليمي: (وكان العرب يتطيرون بصوت الغراب وبمرور الظباء فسموا الكل تطيرًا؛ لأن أصله الأول)[٣].

أما عن الحكم التكليفي للتطير، فإن اعتقد المكلف أن الذي شاهده من حال الطير موجب لما ظنه مؤثر فيه، فقد كفر، لما في ذلك من التشريك في تدبير الأمور، أما إذا علم أن الله سبحانه وتعالى هو المتصرف والمدبر وحده ولكنه في نفسه يجد شيئًا من الخوف من الشرّ، لأن التجارب عنده قضت أن صوتًا من أصوات الطير أو حالاً من حالاته يرادفه مكروه، فإن وطن نفسه على ذلك فقد أساء، وإن استعاذ بالله من الشرّ وسأله الخير ومضى متوكلاً على الله، فلا يضره ما وجد في نفسه من ذلك، وإلا فيؤاخذ)[٤] لحديث معاوية بن حكم السلمي قال: قلت: يا رسول الله: منا رجال يتطيرون. قال: ((ذلك شيء يجدونه في صدورهم فلا يصدنهم))[٥].

هذا وقد اتفق أهل التوحيد على تحريم التطير ونفي تأثيره في حدوث الخير أو الشر، لما في ذلك من الإشراك بالله في تدبير الأمور[٦]، والنصوص في النهي عن ذلك

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٢٥٥٣/٣، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٨٣/١٢.

(٢) أخرجه أحمد ٢٢٠/٢ رقم ٧٠٤٥ وقال محققو المسند: حديث حسن ٦٢٣/١١.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ٢٥٥٤/٣.

(٤) فتح الباري، ابن حجر ٢٥٥/٣، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٨٣/١٢.

(٥) أخرجه مسلم ٥٢٧.

(٦) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٨٣/١٢، وقال ابن مفلح: وقد ذكر بعض العلماء أن الطيرة من الكبائر، وما تقدم من أنها مكروهة ذكره غيرو احد من الأصحاب [من الحنابلة] والأولى القطع بتحريمها، ولعل مرادهم بالكراهة التحريم، الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ٣٦٠/٣.

كثيرة منها حديث: "لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر"[١].

أما الفأل الحسن فهو جائز[٢]، وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما كان رسول الله ﷺ يتفاءل ولا يتطيّر ويعجبه الاسم الحسن[٣]، وقال أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: ((لا عدوى ولا طيرة ويعجبني الفأل الصالح "الكلمة الحسنة"))[٤].

قال البغوي: (الفأل قد يكون في ما يحسن ويسوء، والطيرة لا تكون إلا فيما يسوء، وإنما أحبّ النبي ﷺ الفأل، لأنه فيه رجاء الخير والعائدة، ورجاء الخير أحسن بالإنسان من البأس وأقطع الرجاء عن الخير)[٥].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: ما اختص به النبي ﷺ.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: فضل الأمة الإسلامية على الأمم السابقة.

ثالثاً: من مهام الداعية: تعريف المدعو بالحقائق الأساسية.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: فضل اليقين والتوكل.

خامساً: من صفات المدعو: السبق إلى تحصيل ما ينفعه في أخراه.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: فضل عكاشة بن محصن رضي الله عنه.

سابعًا: من فقه الداعية: الإجابة الحاسمة إذا اقتضى الموقف ذلك.

ثامناً: من أساليب الدعوة: الإخبار والتساؤل والتشويق والاستفهام.

أولاً- من موضوعات الدعوة: ما اختص به النبي ﷺ:

يتضح ذلك في قوله ﷺ "عُرِضَت عليّ الأُمم" وقد نصّ على ذلك ابن الملقن فذكر تحت ما اختص به ﷺ من الفضائل والكرامات (المسألة الثالثة والثلاثون: عرض عليه

---

(١) أخرجه البخاري ٥٧٠٧، ومسلم ٢٢٢٠.

(٢) حاشية ابن عابدين ٥٥٥/١.

(٣) أخرجه أحمد ٢٥٧/١ رقم ٢٣٢٨، وقال محققو المسند: حسن لغيره ١٦٩/٤.

(٤) أخرجه البخاري ٥٧٥٦، ومسلم ٢٢٢٤.

(٥) شرح السنة ١٧٥/١٢، وانظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٢٨/٢٥-٢٣٠.

الخلق كلهم من آدم إلى من بعده كما علم آدم أسماء كل شيء، ذكره العراقي في شرح المهذب)[١].

وفي صحيح ابن حبان عُنون هذا الحديث تحت عنوان "ذكر عرض الله جل وعلا الأمم على المصطفى"[٢].

وما اختص به النبي ﷺ أنواع:

(أ- الأحكام التكليفية التي لا تتعداه إلى أمته ككونه لا يورث، وغير ذلك.

ب- المزايا الأخروية، كإعطائه الشفاعة، وكونه أول من يدخل الجنة، وغير ذلك.

ج- الفضائل الدنيوية ككونه أصدق الناس حديثاً.

د- المعجزات كانشقاق القمر، وغيره.

هـ- الأمور الخَلْقية، ككونه يرى من خَلْفه ونحو ذلك)[٣].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: فضل الأمة الإسلامية على الأمم السابقة:

لقد فضل الله الأمة الإسلامية على سائر الأمم، وجعلها خير أمة أخرجت للناس، ومن الشواهد على ذلك ما ورد في قوله ﷺ "فنظرت فإذا سواد كثير قال: هؤلاء أمتك وهؤلاء سبعون ألفاً قدامهم لا حساب عليهم ولا عذاب" قال النووي: (فيه عظم ما أكرم الله سبحانه وتعالى به النبي ﷺ وأمته زادها الله فضلاً وشرفاً)[٤] وذكر ابن الملقن أن من خصائصه ﷺ أنه أكثر الأنبياء أتباعاً[٥].

وقد جاءت أحاديث في هذا المعنى، من ذلك قول النبي ﷺ: ((إنما بَقاؤكم فيمن سلَف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروبِ الشمس، أوتيَ أهل التوراةِ

---

(١) نهاية السول ٢٨٨، وانظر: فتح الباري، ابن حجر ٤١٤/١١-٤١٥.

(٢) صحيح ابن حبان ٣٣٩/١٤.

(٣) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية، ٢٥٧/٢، وانظر روضة الطالبين وعمدة المفتين، الإمام النووي للنووي، ٢٣٤/٥-٣٦٣.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٢٤٥.

(٥) نهاية السول، ابن الملقن، ٢٧٠.

التوراةَ فعملوا بها حتى إذا انتصف النهارُ عَجزوا فأعطوا قيراطاً قيراطاً، ثم أُوتيَ أهلُ الإنجيل الإنجيلَ فعملوا به إلى صلاة العصرُ ثم عَجزوا فأعطُوا قيراطاً قيراطاً، ثم أوتينا القرآنَ فعملنا به حتى غَرَبَتِ الشمسُ فأعطينا قيراطين قيراطيْن، فقال أهلُ الكتابين أي ربنا أعطيت هؤلاء قيراطين قيراطين وأعطتنا قيراطاً قيراطاً، ونحن كنا أكثر عملاً؟، قال الله: هل ظلمتكم من أجركم من شيء شيئاً؟ قالوا: لا، قال: فهو فضلي أوتيهِ من أَشاء))[1].

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: ((قَالَ لَنَا رَسُولُ اللّهِ : «أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟» قَالَ فَكَبَّرْنَا. ثُمَّ قَالَ: «إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ. وَسَأُخْبِرُكُمْ عَنْ ذٰلِكَ. مَا الْمُسْلِمُونَ فِي الْكُفَّارِ إِلاَّ كَشَعْرَةٍ بَيْضَاءَ فِي ثَوْرٍ أَسْوَدَ. أَوْ كَشَعْرَةٍ سَوْدَاءَ فِي ثَوْرٍ أَبْيَضَ))[2].

وقال ابن كثير: (إنما حازت هذه الأمة قصب السبق إلى الخيرات بنبيها محمد صلوات الله وسلامه عليه، فإنه أشرف خلق الله وأكرم الرسل على الله، وبعثه الله بشرع كامل عظيم لم يعطه نبياً قبله ولا رسولاً من الرسل، فالعمل على منهاجه وسبيله يقوم القليل منه ما لا يقوم العمل الكثير من أعمال غيرهم مقامه)[3].

ثالثاً- من مهام الداعية: تعريف المدعو بالحقائق الأساسية:

يضطلع الداعية بمهام أساسية في الدعوة إلى الله تعالى، ومن تلك المهام تعريف المدعو بالحقائق الأساسية التي ينبغي له التعرف عليها، فقد خرج عليهم النبي ﷺ وقال لهم: "ما الذي تخوضون فيه؟ فأخبروه فقال: "هم الذين لا يرقون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون"، فقد بين ﷺ صفات هؤلاء الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب بعد أن اختلفت اجتهاداتهم في تحديدهم فكان هذا منه ﷺ بياناً للحقائق الأساسية لهم.

---

(١) أخرجه البخاري ٥٥٧.

(٢) أخرجه البخاري ٦٥٢٨، ومسلم ٢٢١ واللفظ له.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١٤٣/٣.

رابعاً- من موضوعات الدعوة: فضل اليقين والتوكل:

لقد ذكر النبي ﷺ أن صفات هؤلاء السبعين أنهم "لا يرقون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون".

قال ابن القيم: (إن النبي ﷺ جعل الوصف الذي يستحق به هؤلاء دخول الجنة بغير حساب هو تحقيق التوحيد وتجريده، فلا يسألون غيرهم أن يرقيهم ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون، والطيرة نوع من الشرك، ويتوكلون على الله وحده لا غيره وتركهم الاسترقاء والتطير هو من تمام التوكل على الله)[1].

(ويحصل التوكل - كما نقل ابن حجر عن جمهور العلماء- بأن يثق [العبد] بوعد الله ويوقن بأن قضاءه واقع، ولا يترك اتباع السنة في ابتغاء الرزق مما لابد منه من مطعم ومشرب وتحرز من عدو بإعداد السلاح وإغلاق الباب ونحو ذلك، ومع ذلك فلا يطمئن إلى الأسباب بقلبه بل يعتقد أنها لا تجلب بذاتها نفعاً ولا تدفع ضراً، بل السبب والمسبب فعل الله تعالى والكلُ بمشيئته، فإذا وقع من المرء ركون إلى السبب قدح في توكله)[2].

وقال ابن القيم: (التوكل نصف الدين والنصف الثاني الإنابة، فإن الدين استعانة وعبادة، فالتوكل هو الاستعانة والإنابة هي العبادة)[3] وقال أيضاً: (واليقين قرين التوكل ولهذا فسر التوكل بقوة اليقين. والصواب أن التوكل ثمرته ونتيجته، ولهذا حسن اقتران الهدى به قال الله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾[4] فالحق

---

(١) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، ابن القيم، ١٠٠. وقال ابن هبيرة: "فيه من الفقه أن الرقية جائزة وتركها توكلاً على الله تعالى أفضل منها، وكذلك الكي فإنه جائز وتركه أحسن. وأما الطيرة فلا تحلّ بحال"، الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٦٥/٣.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٤١٧/١١، وانظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٤٦٧/١-٤٦٨.

(٣) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٣٥١/٢.

(٤) سورة النمل، آية: ٧٩.

هو اليقين... ومتى وصل اليقين إلى القلب امتلأ نوراً وإشراقاً، وانتفى عنه كل ريب وشك وسخط وهم وغم فامتلأ محبة لله وخوفاً منه ورضي به وشكراً له وتوكلاً عليه وإنابة إليه، فهو مادة جميع المقامات والحامل لها)[١].

خامساً- من صفات المدعو: السبق إلى تحصيل ما ينفعه في أخراه:

إن المؤمن مأمور بالسبق لتحصيل ما ينفعه في أخراه، وذلك بالتزود بالأعمال الصالحة، ومن الشواهد على ذلك في هذا الحديث مسلك عكاشة بن محصن عندما قام وقال: ادع الله أن يجعلني منهم فقال ﷺ "أنت منهم ثم قام رجل آخر طلب ما طلبه عكاشة فقال النبي ﷺ: لا سبقك بها عكاشة" فقد سارع عكاشة إلى طلب أن يكون ممن يدخلون الجنة بغير حساب.

وقد وقع ذلك من الصحابة كثيراً، من ذلك سبق عُمير بن الحمام رضي الله عنه إلى الجنة يوم بدر، فقد سمع النبي ﷺ يقول: ((قُومُوا إِلَىٰ جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ قَالَ: يَقُولُ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ الأَنْصَارِيُّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ؟ قَالَ: نَعَمْ قَالَ: بَخْ بَخْ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخْ بَخْ قَالَ: لاَ. وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلاَّ رَجَاءَةَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا. قَالَ: فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرَنِهِ[٢]. فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ. ثُمَّ قَالَ: لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّىٰ آكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ، إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ. قَالَ فَرَمَىٰ بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ التَّمْرِ. ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّىٰ قُتِلَ))[٣].

قال ابن القيم: (قال بعض الزهاد: ما علمت أن أحداً سمع بالجنة والنار تأتي عليه ساعة لا يطيع الله فيها بذكر أو صلاة أو قراءة أو بإحسان)[٤].

---

(١) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢٢١/٣.

(٢) جعبة النشاب والنبل، انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢١٨.

(٣) أخرجه مسلم ١٩٠١.

(٤) الفوائد المشوقة إلى علم القرآن وعلم البيان، ابن القيم ١٧٢.

سادسًا- من موضوعات الدعوة: فضل عكاشة بن محصن رضي الله عنه :

إن هذا يستنبط من مبادرته إلى سؤال رسول الله ﷺ أن يدعو له أن يكون من هؤلاء السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب، فأليست هذه المبادرة منه رضي الله عنه دليلاً على فضله؟ يؤيد ما ذهبنا إليه قول القرطبي: (ولقوة يقينه وشدة حرصه على الخير ورغبته فيما عند الله سبحانه، وسبق الصحابة كلهم بقوله: ادع الله أن يجعلني منهم، ولما لم يكن عند القائم بعده من تلك الأحوال الشريفة ما كان عند عكاشة قال له: "سبقك بها عكّاشة")[1] قال ابن كثير: (وكان من سادات الصحابة وفضلائهم)[2] وقال عنه ابن حجر: (كان من السابقين إلى الإسلام وكان من أجمل الرجال وكنيته أبو محصن وهاجر وشهد بدرًا وقاتل فيها، قال ابن إسحاق[3]: بلغني أن النبي ﷺ قال: ((خير فارس في العرب عكاشة)) وقال أيضًا[4]: قاتل يوم بدر قتالاً شديدًا حتى انقطع سيفه في يده فأعطاه رسول الله ﷺ جِزْلاً[5] من حطب فقال: قاتل بهذا. فقاتل به فصار في يده سيفًا طويلاً شديد المتن أبيض، فقاتل به حتى فتح الله فكان ذلك السيف عنده حتى استشهد في قتال الردة مع خالد بن الوليد سنة اثنتي عشرة[6].

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٤٦٩/١.

(٢) البداية والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٥٠١/٩.

(٣) السيرة النبوية، ابن هشام ٢٩١/١، بتحقيق الساق والإيباري وشلبي.

(٤) المرجع السابق ٢٩٠/٢، وانظر: دلائل النبوية للبيهقي ١٤٦/٥، والبداية والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ١٤٦/٥.

(٥) الجزل: أصل الشجرة وغيرها بعد ذهاب الفرع، الوسيط في (ج ز ل). وهي ما عظم من الحطب ويبس، الوجيز في (ج ز ل).

(٦) فتح الباري، ابن حجر ٤١١/١١-٤١٢، وانظر ترجمته في: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر ٥٨٤، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير ٦٤/٤-٦٥، والسير ٣٠٧/١-٣٠٨، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ٩٢٦.

لما سأل عكاشة بن محصن رضي الله عنه أن يدعو له النبي ﷺ أن يكون من هؤلاء السبعين ألفًا، قال له النبي ﷺ: "أنت منهم" ولما قام رجل آخر وطلب ما طلب عكاشة قال النبي ﷺ "سبقك بها عكاشة" وقد اختلف قول أهل العلم في بيان الحكمة من هذا الجواب النبوي الشريف، قال ابن حجر: (فتحصل لنا من كلام هؤلاء الأئمة على خمسة أجوبة والعلم عند الله تعالى)[1].

ومن هذه الأقوال ما رجحه أهل العلم، وهذا القول يذهب إلى أن النبي ﷺ قال: "سبقك بها عكاشة" حسمًا لمادة السؤال وإغلاقًا لباب الطلب، قال ابن الجوزي: (يظهر لي أن الأوّل سأل عن صدق قلب فأجيب، وأما الثاني فيحتمل أن يكون أريد به حسم المادة، فلو قال للثاني نعم، لأوشك أن يقوم ثالث ورابع إلى ما لا نهاية وليس كل الناس يصلح لذلك)[2].

وقال القرطبي: (لما لم يكن عند القائم بعده من تلك الأحوال الشريفة ما كان عند عكاشة قال له: "سبقك بها عكاشة" وأيضًا فلئلا يطلب كل من هنالك ما طلبه عكاشة والرجل الآخر، ويتسلسل الأمر، فسدّ رسول الله ﷺ الباب بما قال لعكاشة وهذا أولى من قول من قال: إن ذلك الرجل كان منافقًا، لوجهين:

أحدهما: أن الأصل في الصحابة منحة الإيمان والعدالة، فلا يظن بأحد منهم شيء يقتضي خلاف ذلك الأصل، ولا يسمع ما لا يصح نقله، ولا يجوز تقديره.

والثاني: أنه قلّ أن يصدر مثل ذلك السؤال عن منافق، إذ ذلك السؤال يقتضي تصديقًا صحيحًا ويقينًا ثابتًا، والله أعلم)[3].

وقال ابن حجر: (وإلى هذا جنح ابن تيمية)[4].

(١) فتح الباري، ابن حجر ٤١٣/١١.

(٢) نقلاً عن فتح الباري، ابن حجر ٤١٢/١١.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٤٦٩/١.

(٤) فتح الباري، ابن حجر ٤١٢/١١.

ثامنًا- من أساليب الدعوة: الإخبار والتساؤل والتشويق والاستفهام:

أما الإخبار فقوله ﷺ "عُرِضَت عليّ الأُمم" ووظيفة الإخبار هنا بيان الحقيقة وتقريرها وجعلها مسلّمة لدى المدعوين.

أما التساؤل فواضح من رواية البخاري ((يا جبريلُ هؤلاء أمَّتي؟))[1] وذلك كان بعد أن رأى النبي ﷺ عدداً كبيراً من الناس، وذلك التساؤل يدل على حب النبي ﷺ لأمته. أما التشويق فكان دخول النبي ﷺ بيته بعد أن أخبر أن من أمته سبعين ألفاً يدخلون الجنة بدون حساب، فكان هذا التشويق دافعاً لأصحابه أن يجتهدوا في تحديدهم وتعيينهم فلما خرج عليهم سألهم "ما الذي تخوضون فيه؟" لكي يعلم ما يخوضون فيه ومن ثم أخبرهم فتشوق عكاشة أن يكون منهم فأخبره أنه منهم على حين أخبر الآخر أن عكاشة قد سبقه.

---

(١) صحيح البخاري ٦٥٤١.

الحديث رقم (٧٥)

٧٥- الثَّانِي: عَنْ ابْن عبَّاس رضي الله عنهما أيْضاً، أَنَّ رسول اللَّهِ ﷺ كانَ يقُولُ: «اللَّهُم لَكَ أسْلَمْتُ وبِكَ آمنْتُ، وعليكَ توَكَّلْتُ، وإلَيكَ أنَبْتُ، وبِكَ خاصَمْتُ. اللَّهمَّ[1] أعُوذُ بِعِزَّتِكَ، لا إلَه إلاَّ أنْتَ، أنْ تُضِلَّنِي أنْت الْحيُّ الَّذي لا تمُوتُ، وَالْجِنُّ وَالإِنْسُ يمُوتُونَ» متفقٌ عليه[2]. وَهَذا لَفْظُ مُسْلِمٍ وَاخْتَصرهُ الْبُخَارِيُ.

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١).

غريب الألفاظ:

أنبتُ: أقبلتُ ورجعتُ إليك بالتوبةِ[3].

خاصمت: نازعت[4]، و المراد: خاصمتُ ثقة في نصرك ومؤازرتك لي.

الشرح الأدبي

هذه الدعوات الصاعدة من قلب الحبيب محمد ﷺ يعمرها قلب متصل بجلال خالقه، ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه، كما يقول الرافعي.

وجماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف تمتزج بجلال المعاني، وصدق المناجاة ووهج المحبة الإلهية، وشدة الحاجة إلى فيض القدرة الربانية.

وتتجلى هذه الجماليات الأسلوبية في الظواهر الآتية:

أ-التوازن في البناء اللغوي للحديث، حيث ترد الجمل الست الأولى في بناء متناسق متوازن لا أثر فيه للتكلف ولا للتصنع فهي لم تصنع ولكنها من الإحكام كأنها مصنوعة، ولم يتكلف لها وهي على السهولة بعيدة ممنوعة، والتوازن هنا ليس

---

(١) عند مسلم زيادة: (إنِّي).

(٢) أخرجه البخاري (٦٣١٧)، ومسلم (٢٧١٦/٦٦) واللفظ له.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ن و ب).

(٤) الوسيط في (خ ص م).

استعراضاً أسلوبياً وليس زخرفة لفظية وليس تهويماً في أودية الخيال ومسابح الظنون، بل هو حقائق تلبس أردية الجمال ووقائع تناصر فيها الأفعال الأقوال، والسجع والإيقاع الصوتي من مظاهر ذلك التوازن.

ب-أسلوب القصر عن طريق التقديم والتأخير "اللهم لك أسلمت، وبك آمنت..." وهذا المنحى الأسلوبي يعد من مظاهر التوازن والإيقاع في البناء اللغوي للحديث الشريف، ويؤكد أنه لا إسلام لغير الله ولا إيمان بغير الله ولا توكل على غير الله.

ج-تكرار كاف الخطاب في بداية كل جملة يؤكد الخشوع والحرص على إجابة الدعاء ، ويؤكد كذلك إخلاص النية وصدق اليقين والتوكل على الله عز وجل، وتنويع أدوات الجر مع مناسبة كل أداة للسياق والمعنى الذي قيلت فيه يرتبط بحسن مخاطبة الله عز وجل، ويفصح عن بلاغة الرسول التي خضعت الأفكار لآيتها وحُسرت العقول دون غايتها ، فالحرف له دلالة ولا يقلّ في تمثيله للمعنى عن الكلمة والجملة في سياق أداء المعنى والمقصد الكامل من الحديث النبوي الشريف.

ولنتأمل عدول الرسول عن التعبير بـ"في" إلى التعبير بقوله "وبك خاصمت" لأن الباء للإستعانة فهو يستعين على الخصم بالله، وذلك أبلغ من التعبير بـ"وفيك خاصمت". وفي ذلك إيحاء بغاية الورع والسمو في مخاطبة الله عز وجل.

أفعال الدعاء كلها ماضية (أسلمت – آمنت – توكلت – أنبت – خاصمت) لأن الإسلام والإيمان الصحيحان لا يتغيران فهما يسكنان قلب المؤمن ويضيئان وجهه ويصلحان أعماله، وكذلك التوكل عزيمة ثابتة تستقر في كيان المسلم لا يعتريها نقص ولا يشوبها خلل. والإنابة لا يتكرر حدوثها بل هي مستقرة متصلة بكل حرف وكل كلمة وكل فعل وكل حركة وكل سكون في حياة المصطفى ﷺ فهو في طاعة دائمة، وقول الرسول ﷺ "وبك خاصمت" فيه إيجاز وإيحاء بتأييد الله له عز وجل ومعنى "بك" أي بما أعطيت من البرهان والحجج القولية أو النصرة ونحوها من الحجج الفعلية ، كما يقول صاحب دليل الفالحين.

وفي بداية القسم الثاني من الحديث يتكرر النداء: "اللهم"، وفي هذا الدعاء

استجارة بالله عز وجل واستغاثة بعد أن أقر بكل المبادئ والقيم السابقة في ظل توفيق الله ورعايته ونصرته.

ولنتأمل مقدمة الحديث في قول الصحابي: "إن رسول الله ﷺ كان يقول..." ولم يقل الراوي: "قال" إشارة إلى أن هذا القول وذلك الدعاء كان منهجاً متصلاً ومستقراً في حياة رسول الله ﷺ، فقد كانت هذه الأدعية تجري على لسانه وتنبع من قلبه في كل المواقف. والمصطفى ﷺ يستعيذ ويعتصم ويلتجئ إلى الله من الضلال ليس خوفاً من ذلك ولكن بدافع من الحرص على الطاعة الكاملة، ولذلك لم يقل "أن أضل" لأنه معصوم، ولكنه قال "من أن تضلني"، والجزء الأول من الحديث يعد برهاناً صادقاً على ابتعاد الرسول عن هذه الدائرة، ولكن كل شيء بأمر الله عز وجل، وهو قد أسلم أمره لله وآمن به وتوكل عليه، والله يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وزيادة من التمكين في الهداية يستجير الرسول بعزة الله عز وجل، ويقدم إقراره بالتوحيد تأكيداً لقدرة الله عز وجل وعزته وحمايته ونصرته للمصطفى ﷺ.

ولنتأمل ختام الحديث الشريف: إنه مناسب للسياق والمقام، وهو برهان على صدق التوجه وقوة الإرادة، وتمكن العقيدة الخالصة، فالله وحده هو الحي الذي لا يموت، ولذلك يجب التوجه إليه وحده لا غيره بالإسلام والإيمان والتوكل والإنابة، والدفاع عن دينه القويم. والجملتان الأخيرتان في الحديث بينهما مقابلة أي تضاد في المعنى ومفارقة في الدلالة والإيحاء ففيهما برهان ساطع على صدق التوكل على الله وحده واليقين بنصرته وعزته؛ فالجن والإنس يموتون، والله حي لا يموت، وهذه المقابلة توحي وترشد إلى عدم الاستعانة بغير الله عز وجل، لأن الذي يموت لا يقدر على حماية نفسه، فكيف يحمي غيره؟ والتعبير بالفعل المضارع في جملة: "والجن والإنس يموتون" يعطي دلالة استمرار حدوث الفناء في عالم الجن والإنس، فهم غير قادرين على حفظ حياة أنفسهم، ولا حفظ حياة غيرهم، ومن غيرهم، فالتوكل كما يعلمنا المصطفى ﷺ، إنما هو على الحي الذي لا يموت؛ فمن اعتز بغير الله ذل، ومن اهتدى بغير هدايته ضل، ومن اعتصم بالله تعالى وتوكل عليه عز وجل.

المضامين الدعوية

أولاً: من آداب الداعية: الاستعانة بالله تعالى وسؤاله واللجوء إليه والخضوع له والتوكل عليه.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: الاستعاذة بالله من الضلال.

ثالثا: من موضوعات الدعوة: بيان فناء كل المخلوقات وبقاء الحي الذي لا يموت.

أولاً- من آداب الداعية: الاستعانة بالله تعالى وسؤاله واللجوء إليه والخضوع له والتوكل عليه:

فالحديث لوحة مشرقة للتوجه إلى الله والالتجاء إليه والخضوع له، فقوله ﷺ "اللهم لك أسلمت وبك آمنت" معناه: "لك انقدت وبك صدقت" وقوله: و"عليك توكلت" أي: "فوضت أمري إليك"[(١)].

قال ابن هبيرة: (في هذا الحديث من الفقه أن الإسلام درجة أولى والإيمان مقام وراء ذلك، لأنه ﷺ قال: "لك أسلمت"، ثم أتبعه بقوله: "وبك آمنت" فلما بدأ بالإسلام ثم ثنى بالإيمان لم يبق حينئذ إلا تبيين ثمرة الإيمان،وهو التوكل على الله، فقال: و"عليك توكلت" ثم لما لم يخل بسر ما يقتضي الإنابة مع ذلك كله، قال بعده: "وإليك أنبت" ثم لما استقر ذلك كله جاء بالحب في الله والبغض في الله، فقال: "وبك خاصمت" وهذا أبلغ من قوله "وفيك خاصمت" لأن ذلك نوع تزكية للنفس، ودعوى قوله: "وبك خاصمت" يتضمن صدق التوكل: والمعنى: أنت مستندي وتفويض الانتصار بالله تعالى، وأنه خاصم في الله، بدليل أنه لا ينتصر إلا فيما يخاصم به فيه)[(٢)].

والنبي ﷺ حاله مع ربه سبحانه هكذا دوماً، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ((كَانَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ قَالَ: وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ الْعَالَمِينَ لاَ شَرِيكَ لَهُ

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٩٨.

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٨٤/٣.

وَبِذٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ. اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لاَ إِلهَ إِلاَّ أَنْتَ. أَنْتَ رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ. ظَلَمْتُ نَفْسِي وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعاً. إِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ. وَاهْدِنِي لأَحْسَنِ الأَخْلاَقِ. لاَ يَهْدِي لأَحْسَنِهَا إِلاَّ أَنْتَ. وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا. لاَ يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلاَّ أَنْتَ. لَبَّيْكَ. وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ. وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ. أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ. تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ. أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ. وَإِذَا رَكَعَ قَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ. وَبِكَ آمَنْتُ. وَلَكَ أَسْلَمْتُ. خَشَعَ لَكَ سَمْعِي وَبَصَرِي. وَمُخِّي وَعَظْمِي وَعَصَبِي. وَإِذَا رَفَعَ قَالَ: اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ مِلْءَ السَّمَاوَاتِ وَمِلْءَ الأَرْضِ وَمِلْءَ مَا بَيْنَهُمَا وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ. وَإِذَا سَجَدَ قَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ سَجَدْتُ. وَبِكَ آمَنْتُ. وَلَكَ أَسْلَمْتُ. سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ، وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ. تَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ثُمَّ يَكُونُ مِنْ آخِرِ مَا يَقُولُ بَيْنَ التَّشَهُّدِ وَالتَّسْلِيمِ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ. وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ. وَمَا أَسْرَفْتُ. وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي. أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ. لاَ إِلهَ إِلاَّ أَنْتَ))(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ((كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل قال: اللهم لك الحمدُ أنتَ نور السماوات والأرض، ولك الحمد، أنت قَيَّامُ السمواتِ والأرضِ ولك الحمدُ، أنت ربُّ السمواتِ والأرض ومَن فيهنَّ، أنت الحقُّ، ووعدُك الحقُّ، وقولكَ الحقُّ، ولقاؤكَ حقٌّ، والجنةُ حقٌّ، والنار حقٌّ، والساعةُ حقٌّ، اللهمَّ لك أسلمتُ، وبك آمنتُ، وعليك توكلتُ، وإليك أنبت، وبك خاصمتُ، وإليك حاكمتُ، فاغفر لي ما قدَّمتُ وأخَّرتُ وأسررتُ وأعلنت أنت إلهي لا إله إلا أنتَ))(٢).

قال ابن هبيرة: "قوله: (بك آمنت) يجمع الإيمان بالله والاعتراف أنه لم يؤمن به إلا بتوفيقه"(٣).

قال النووي: (ومعنى سؤاله ﷺ المغفرة مع أنه مغفور له: أنه يسأل ذلك تواضعاً

---

(١) أخرجه مسلم ٧٧١.

(٢) أخرجه البخاري ١١٢٠، ومسلم ٧٦٩ واللفظ له.

(٣) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ١٩/٣.

خضوعاً وإشفاقاً وإجلالاً، وليقتدى به في أصل الدعاء والخضوع وحسن التضرع في هذا الدعاء المعين، وفي هذا الحديث وغيره مواظبته ﷺ في الليل على الذكر والدعاء والاعتراف لله تعالى بحقوقه والإقرار بصدقه ووعده ووعيده والبعث والجنة والنار وغير ذلك)[١].

وقال ابن حجر: (قال الكرماني: فيه الإشارة إلى النبوة وإلى الجزاء ثواباً وعقاباً ووجوب الإيمان والإسلام والتوكل والإنابة والتضرع إلى الله والخضوع له. انتهى وفيه زيادة معرفة النبي ﷺ بعظمة ربه وعظيم قدرته ومواظبته على الذكر والدعاء والثناء على ربه والاعتراف له بحقوقه والإقرار بصدق وعده ووعيده وفيه استحباب تقديم الثناء على المسألة عند كل مطلوب اقتداءً به ﷺ)[٢].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: الاستعاذة بالله من الضلال:

لقد استعاذ النبي ﷺ من الضلال فقال: "اللهم أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني"، قال ابن هبيرة: "قوله: (أعوذ بعزتك) العزة: تحتمل وجهين: أحدهما الامتناع. والثاني: ارتفاع القدرة، فهو عز وجل عزيز في قلوب أوليائه، فيجوز أن يكون الإضلال فعلاً للعزة، فيكون المعنى: أعوذ بك أن تضلني عزتك، أي تمنعني عظمتك واحتقاري لنفسي أن أسميك أو أصفك بما سميت به ووصفت به نفسك أو سماك ووصفك بك رسلك. ويجوز أن يكون الإضلال عائداً إلى الله تعالى، فقد قال الله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٣][٤].

فالله سبحانه وتعالى: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾[٥] وسبحانه ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص٥٢٤.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٨/١٣. وانظر: الفوائد، ابن القيم، ١٦٧-١٦٨.

(٣) سورة إبراهيم، آية: ٢٧.

(٤) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٨٤/٣.

(٥) سورة النحل، آية: ٩٣.

ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾[(١)] ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴾[(٢)] لذا كان دعاء المؤمنين قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾[(٣)].

وقد كان النبي ﷺ يستعيذ من أن يضل، فعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: ((مَا خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ بَيْتِي قَطُّ إلاَّ رَفَعَ طَرْفَهُ إِلَى السَّمَاءِ فقالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَّ أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ))[(٤)].

وقال ابن القيم: (قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾[(٥)]، والهدى منعه من الضلال، والرحمة منعه من الشقاء، وهذا هو الذي ذكره في أول السورة في قوله: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴾[(٦)]، فجمع له بين إنزال القرآن عليه ونفى الشقاء عنه، كما قال في آخرها في حق أتباعه: ﴿فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾، فالهدى والفضل والنعمة والرحمة متلازمات لاينفك بعضها عن بعض، كما أن الضلال والشقاء متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾[(٧)]، والسعر: جمع سعير، وهو العذاب الذي هو غاية الشقاء... ومن هذا أنه

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٧٨.

(٢) سورة الإسراء، آية: ٩٧.

(٣) سورة الفاتحة، آية: ٦-٧.

(٤) أخرجه أبو داود ٥٠٩٤، وابن ماجه ٣٨٨٤ وصححه الألباني. صحيح سنن أبي داود، ٤٢٤٨.

(٥) سورة طه، آية: ١٢٣.

(٦) سورة طه، الآيتان: ١-٢.

(٧) سورة القمر، آية: ٤٧.

سبحانه يجمع بين الهدى وانشراح الصدر والحياة الطيبة، وبين الضلال وضيق الصدر والمعيشة والضنك، قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾[1][2].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: بيان فناء كل المخلوقات وبقاء الحي الذي لا يموت:

لقد أثنى رسول الله ﷺ على خالقه عز وجل بأنه "الحي الذي لا يموت والجن والإنس يموتون".

قال ابن هبيرة: (وذلك أن كلّ حي سواه فحياته عارية، وهو الحي الدائم)[3].

قال ابن حجر: (قوله "الجن والإنس يموتون" استدل به على أن الملائكة لا تموت ولا حجة فيه، لأنه مفهوم لقب[4] ولا اعتبار له، وعلى تقديره فيعارضه ما هو أقوى منه وهو عموم قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[5] مع أنه لا مانع من دخولهم في مسمّى الجن الجامع ما بينهم من الاستتار عن عيون الإنس)[6].

وقد قال الله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾[7] (أي: كل من على الأرض من إنس وجن ودواب وسائر المخلوقات يفنى ويبيد ويبقى الحي الذي لا يموت)[8] وقال ابن القيم: (الفناء في الآية الهلاك والعدم، أخبر سبحانه أن كل

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٣١.

(٢) الفوائد المشوقة إلى علم القرآن وعلم البيان، ابن القيم، تحقيق: محمد عثمان الخشت ص ١٩٦-١٩٧.

(٣) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٨٥/٣.

(٤) مفهوم اللقب: هو إذا قيد الحكم أو الخبر بالاسم فهل يدل على نفي الحكم عما عداه. وهو ليس بحجة عند جمهور الأصوليين. انظر: المهذب في علم أصول الفقه المقارن، د. عبدالكريم بن علي النملة، مكتبة الرشد، الرياض، ط/١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ١٧٩٩/٤-١٨٠٢.

(٥) سورة القصص، آية: ٨٨.

(٦) فتح الباري، ابن حجر ٣٨٢/١٣.

(٧) سورة الرحمن، آية: ٢٦-٢٧.

(٨) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٧٧٠.

من على الأرض يعدم ويموت ويبقى وجهه سبحانه، قال الشعبي: إذا قرأت (كل من عليها فان) فلا تسكت حتى تقرأ: (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) وهذا من فقهه في القرآن وكمال علمه، إذ المقصود الإخبار بفناء من عليها مع بقاء وجهه سبحانه، فإن الآية سيقت لتمدحه بالبقاء وحده، ومجرد فناء الخليقة ليس فيه مدحه إنما المدح في بقائه بعد فناء خلقه)[1].

---

(١) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٤/٢١٠.

الحديث رقم (٧٦)

٧٦- **الثَّالِثُ**: عـن ابْـنِ عَبَّـاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أيـضاً قـال: «حـسْبُنَا اللَّـهُ ونِعْـمَ الْوكِيـلُ قَالَهَـا إبْراهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حينَ أُلْقِي في النَّارِ، وَقالَهَا مُحمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينَ قَالُوا: «**إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إيماناً وقَالُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوكِيلُ**» رواه البخارى[1].

وفي رواية له عن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: «**كَانَ آخِرَ قَوْلِ إبْراهِيمَ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم حِينَ أُلْقِيَ في النَّارِ «حسْبِي اللَّهُ وَنِعمَ الْوَكِيلُ»**»[2].

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١).

غريب الألفاظ:

حسبنا: من حَسْب: اسم بمعنى كافٍ[3].

نِعْم: فعل غير متصرف لإنشاء المدح[4].

الشرح الأدبي

نقتبس من هذا الحديث موقفين جليلين من المواقف الإيمانية التي يتجلى فيها ثبات المؤمن وتوكله على الله ويقينه من نصرة الله له، والتوكل منزل من منازل الدين ومقام من مقامات الموقنين، بل هو من معالي درجات المقربين كما يقول صاحب إحياء علوم الدين.

- والموقف الأول هو موقف إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، حين ألقاه الكفار في النار بعد أن أورد عليهم الحجة القوية، كما جاء في سورة الصافات بقوله تعالى على لسانه: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝٩٥ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[5]، فقال

---

(١) برقم (٤٥٦٣).

(٢) برقم (٤٥٦٤).

(٣) الوسيط ١٧١.

(٤) الوسيط ٩٣٥. والفعل غير المتصرف أي الجامد الذي لا يشتق منه مثل عسى وليس.

(٥) سورة الصافات، الآيتان: ٩٥، ٩٦.

الكفار بعد أن عجزوا عن الجواب: ﴿ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ﴾[١]، والجحيم هي النار العظيمة، كما قال الزجاج: كل نار بعضها فوق بعض فهي جحيم، فقال إبراهيم، كما يروي ابن عباس: حسبنا الله ونعم الوكيل، ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾[٢].

- وحين وكل إبراهيم أمره إلى ربه وأيقن أن الله كافيه، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾[٣]، وقال سبحانه: ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾[٤]. والمعنى: أن في وقت المحاجة حصلت الغلبة له، وعندما ألقوه في النار فقال: حسبنا الله ونعم الوكيل، فصرف الله عنه ضرر النار.
- وأما الموقف الثاني فهو موقف النبي محمد ﷺ وهو يواجه المشركين الذين أرادوا الكيد للإسلام والقضاء على المسلمين، وإذا كان إبراهيم الخليل قال: حسبنا الله ونعم الوكيل في موقف التصدي لعبّاد الأوثان وهو في قلب الجحيم أي النار العظيمة، فإن رسول الله ﷺ قالها بعد غزوة أحد وبعد أن عزم أبو سفيان على الانصراف من المدينة إلى مكة، نادى: يا محمد موعدنا موسم بدر الصغرى فنقتتل بها إن شئت، ولم يخش الرسول هذا التهديد، وخرج أبو سفيان في الموعد المحدد ولكن الله ألقى الرعب في قلبه، وقرر الرجوع بحجة أن العام عام جدب، ولكن نعيم ابن مسعود الأشجعي أخبره أن المسلمين يتجهزون، وقال للمسلمين يذكرهم بما حصل في أحد: أتوكم في دياركم وقتلوا أكثركم، فإن ذهبتم إليهم لم يرجع

(١) سورة الصافات، آية: ٩٧.

(٢) سورة الصافات، آية: ٩٩.

(٣) سورة الأنبياء، آية: ٦٩.

(٤) سورة الصافات، آية: ٩٨.

منكم أحد، فوقع هذا الكلام في قلوب قوم منهم، ولكن كان للرسول موقف حاسم فيه يقين بالله وتوكل عليه وقال: ((والذي نفسي محمد بيده لأخرجن إليهم ولو وحدي))(١). وخرج المسلمون إلى بدر الصغرى ولم يلقوا أحداً من المشركين، وباعوا واشتروا بسوق بدر الصغرى، وانصرفوا سالمين غانمين. وكل هذه الأحداث يقدمها هذا الحديث الشريف في إشارات مضيئة موحية تستمد إشعاعها الإيماني وبرهانها اليقيني من قولهم: "حسبنا الله ونعم الوكيل" والمراد بالناس: أبو سفيان وأصحابه ورؤساء عسكره، وكل من يتصدى للهجوم على أمة الإسلام. ومعنى "جمعوا لكم" أي: جمعوا الجموع. والعرب تسمى الجيش جمعاً ويجمعونه جموعاً أي جيوشاً، ولم يخش المسلمون هذه الجموع، وأودع الله قلوب الغالبين في أحد، وهم المشركون، الخوف والرعب، وأودع قلوب المغلوبين القوة والحمية والصلابة وزادهم إيمانا وقالوا في عزة ويقين: "حسبنا الله ونعم الوكيل" أي: كافينا الله. والوكيل، كما قال الفراء: الكفيل والكافي: لأن "نِعْمَ" يكون الذي بعدها موافقاً للذي قبلها، فتقدير الآية يكفينا الله ونعم الكافي"(٢) والله تكفل بنصر من ينصره ويؤمن به ويتوكل عليه فقال ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٣).

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري ٦/٢٤٢-٢٤٣، وفي إسناده عطية بن سعد العوفي صدوق يخطئ كثيرًا كان شيعيًا مدلسًا، تقريب تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٢/٢٤.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب للرازي، ج٤.

(٣) سورة الروم، آية: ٤٧.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: الاستعانة بالله تعالى والالتجاء إليه.

ثانياً: من صفات الداعية: التوكل والاعتماد على الله وحده.

ثالثاً: من صفات الداعية: عدم الخوف والرهبة واليقين بنصر الله.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الاستعانة بالله تعالى والالتجاء إليه:

لا يستغنى العبد عن الاستعانة بخالقه، واللجوء إليه في كل الأحوال، وفي شتى الأمور يطلب منه العون والنصر، ويستغيث به في الشدائد. يظهر ذلك في قول ابن عباس رضي الله عنهما "حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم... الحديث" فقد بين الحديث استعانة والتجاء أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى الله تعالى، وهذا مما ينبغي أن يكون عليه المسلم في كل وقت وخاصة عند الشدة.

وقد أخبر سبحانه بأنه قريب من عباده فقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾(١) وأخبر عن نفسه تعالى بأنه يجيب دعوة المضطر فقال ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾(٢) وقد كان ذلك حال الأنبياء دائماً يلجأون إلى الله عند الشدائد ويستعينون به؛ فيونس عليه السلام لما التقمه الحوت ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٣) وكان ذلك حال موسى عليه السلام ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾(٤) وهذا نبي الله إبراهيم عليه السلام عندما لجأ إلى

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٨٦.

(٢) سورة النمل، آية: ٦٢.

(٣) سورة الأنبياء، الآيتان: ٨٧، ٨٨.

(٤) سورة الشعراء، الآيتان: ٦١، ٦٢.

الله واستعان به أنجاه من النار ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝٦٨ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾[1] وهذا كان حال نبي الله ورسوله محمد ﷺ وأصحابه فكانوا يلتجئون إلى الله ويستعينون به، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ۝١٧٣ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾[2].

وهذا ما يجب أن يكون عليه حال المؤمنين حتى ينجيهم من كل كرب وهمّ ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٦٣ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾[3]. فينبغي على الداعية أن يدعو الناس إلى الاستعانة بالله والالتجاء إليه.

ثانياً- من صفات الداعية: التوكل والاعتماد على الله وحده:

إن من صفات الداعية التي تستنبط من عموم الحديث التوكل والاعتماد على الله وحده، وهذا يظهر في توكل واعتماد إبراهيم عليه السلام على الله وحده وكذلك محمد ﷺ.

وقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالتوكل والاعتماد عليه وحده فقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾[4] أي: في أمورك كلها كن متوكلاً على الله الحي الذي لا يموت أبداً الذي ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[5] الدائم الباقي السرمدي الأبدي، الحي القيوم رب كل شيء ومليكه، اجعله ذخرك وملجأك، وهو الذي يتوكل عليه ويفزع

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ٦٨، ٦٩.

(٢) سورة آل عمران، الآيتان: ١٧٣، ١٧٤.

(٣) سورة الأنعام، الآيتان: ٦٣، ٦٤.

(٤) سورة الفرقان، آية: ٥٨.

(٥) سورة الحديد، آية: ٢.

إليه، فإنه كافيك وناصرك ومؤيدك ومظفرك[(١)].

وقد جعل الله تعالى التوكل عليه من صفات المؤمنين فقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[(٢)] وجعل سبحانه التوكل عليه كافي الإنسان فقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[(٣)]، وقال: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ فينبغي على الداعية التوكل والاعتماد على الله وحده فهو المعين وهو الكافي والقادر على كل شيء.

ثالثاً– من صفات الداعية: عدم الخوف والرهبة واليقين بنصر الله:

من صفات الداعية التي تظهر من عموم الحديث عدم الخوف والرهبة واليقين بنصر الله عز وجل، وهذا يظهر في عدم خوف إبراهيم عليه الصلاة والسلام من النار بل كان على يقين بنصر الله عز وجل، وكذلك رسول الله ﷺ لم يرهب جموع الأعداء بل كان على يقين من نصر الله عز وجل وهذا ما يجب أن يكون عليه الداعية وقد ورد في القرآن ما يؤيد ذلك في قصة موسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾[(٤)].

قال القرطبي: (لما لحق فرعون بجمعه جمع موسى وقرب منهم، ورأت بنو إسرائيل العدو القوي والبحر أمامهم ساءت ظنونهم وقالوا لموسى على جهة التوبيخ والجفاء "إنا لمدركون" فرد عليهم قولهم وزجرهم وذكرهم وعد الله سبحانه له بالهداية والظفر "كلا" أي لم يدركوكم "إن معي ربي" أي بالنصر على العدو "سيهدين" أي سيدلني على طريق النجاة[(٥)].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١١٨/٦.

(٢) سورة إبراهيم، آية: ١١.

(٣) سورة الطلاق، آية: ٣.

(٤) سورة الشعراء، الآيتان: ٦١، ٦٢.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٠٦/١٣/٧.

فهذا كان حال أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام لا يرهبون عدو ويخافونه على يقين بنصر الله وإنصافه لهم.

وهذا ما يجب أن يكون عليه الداعية من التأسي برسل الله وأنبيائه في عدم الخوف والرهبة من شيء، واليقين والثقة بنصر الله فمهما حلك الظلام، واشتد الضيق، واجتمعت الكروب وتكالبت الأمم، لأن أمله بالله كبير ويقينه بأن العافية للمتقين، وأن المستقبل لهذا الدين[١].

فعدم الخوف واليقين في نصر الله المحرك الدائم لهمة الداعية حتى يعمل دون فتور أو كلال وأن يقاوم - في نفسه- نوازع التقاعد، والتخاذل إذا أحس بقوة الباطل وكثر أتباعه.

إنها صفة تجعل الداعية - في أحرج المواقف- يوقن بأن الباطل زهوق، وأن دولته ساعة، ودولة الحق إلى قيام الساعة، ومن ثم فهو لا يدخر وسعاً في استغلال كل الطاقات والإمكانات لنصرة دعوته، فإن حدث ولم ير الداعية ثمرة عاجلة لدعوته لم يتسلل إليه اليأس والإحباط بل يوقن بأن الثمرة آتية لاريب فيها، في الوقت والمكان الذي يريده الله تعالى لا الذي يريده الدعاة[٢].

---

(١) انظر: هذه أخلاقنا، محمود محمد الخزندار، ص ٣٥.

(٢) أخلاق الدعاة إلى الله تعالى (النظرية والتطبيق)، د. طلعت محمد عفيفي سالم، ص٨٦.

الحديث رقم (٧٧)

٧٧- الرَّابِعُ: عَن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ عن النبي ﷺ «يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أقْوَامٌ أفْئِدتُهُمْ مِثْلُ أفئدة الطَّيْرِ» رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

أفئدتهم مثل أفئدة الطير: قيل: معناه متوكلون. وقيل: قلوبهم رقيقة[2].

الشرح الأدبي

- ما أجمل البشرى في هذا الحديث الشريف! وما أصدق كلمات المصطفى ﷺ وما أوجزها! فالحديث جملة واحدة مفيدة تتآزر كلماتها في وحدة أسلوبية وموضوعية، فأنت لا تستطيع أن تسكت عند أي كلمة إلا بعد تمام الحديث، وقد صيغ في أسلوب خبري مبشر، واعتمد على تقديم الصورة الأدبية البليغة المناسبة للمقام، وهي واضحة وضوح ضياء الشمس في وسط النهار في ألفاظها ومدلولها، ولكن إيحاءها تتسع أرجاؤه وتتشعب أبعاده. وقد يتساءل بعض الناس: هل هذا الحديث مناسب لإدراجه في باب اليقين والتوكل؟ والإجابة: نعم، ونقتبس هذه الإجابة من بعض أشعة الحديث التي تسري في بيانه ﷺ، وتجعل من الأحاديث حدائق من الضياء والهدى واليقين، وكل ما تموج به هذه الحدائق البيانية من عطر كلمات المصطفى ﷺ يناصر بعضه بعضاً وتومض أجزاؤه بوميض الحق والرشاد، فإذا البيان كله شمس تتوهج بالهدي الإلهي والبيان النبوي.

---

(١) برقم (٢٧/٢٨٤٠).

(٢) رياض الصالحين ٨٠، وانظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٧٥.

- وهذا الحديث يستضيء بإشراقة اليقين والتوكل في قوله ﷺ: "لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً"[1] وهؤلاء الأقوام الذين يدخلون الجنة توكلوا على الله حق توكله، وهم في توكلهم وإخلاصهم وضعفهم وقلة حيلتهم مثل الطير، ولكنهم مطمئنون إلى أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين.

ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الدال الموجز الذي تشكله صورة أدبية بليغة فالتعبير بالمضارع في قوله: "يدخل الجنة" دلالة على الاستقبال، والوعد الصادق: يدخلون الجنة، و"أل" في الجنة للعهد، فهي معروفة ومعدة، ولهم ما يشاءون فيها وقد أُعدت للمتقين، ولفظ "أقوام" جاء منكراً دلالة على الشيوع والكثرة والتنوع وأنهم يتواجدون في كل عصر وفي كل مكان. والأقوام جمع قوم: والمراد منه: الرجال والنساء على سبيل التغليب؛ لأن العرب يطلقون القوم على جماعة الرجال دون النساء، ولكن في القرآن الكريم أريد به الرجال والنساء في أغلب المواضع. ولنتأمل دلالة لفظ الأفئدة وكيف يمتزج المعنى بالمبنى في إعطاء الدلالة والإيحاء المراد من هذا اللفظ في الحديث الشريف، وهل لفظ مثل أنفسهم أو بطونهم أو ذواتهم كان يغني عن اللفظ المذكور؟ لا، لأن الأفئدة جمع الفؤاد والمراد به القلب، وفي أصله اللغوي يرتبط بالشعور والتوهج لأن التفؤد في اللغة هو التوقد، والفؤاد هو القلب لتفؤده وتوقده؛ فهؤلاء الأقوام تتوقد قلوبهم وتتوهج بالإيمان وتسكن وتطمئن إلى فضل الرحيم الرحمن، وقد شبه قلوب هؤلاء الأقوام بقلوب الطير في الصفاء والتوكل على خالق الأرض والسماء وفي ضعف الحال وقلة التدبير. ولكن الطير يسعى ويعمل، وعلى الإنسان أن يعتبر بهذه المخلوقات الضعيفة، ولكنها تقوى بفضل رعاية الكبير المتعال.

والصورة هنا واضحة تدعو إلى التأمل والنظر في خلق السماوات والأرض والاتعاظ والاهتداء، وهي ليست صورة جمالية لتزيين الكلام أو لإظهار الصنعة الفنية، ولكن للإقناع والتأثير والإيمان بأن الله هو الرزاق ذو القوة المتين.

---

(١) أخرجه أحمد ٣٠/١ رقم ٢٠٥، وقال محققو المسند: إسناده قوي ٣٣٢/١.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: البشارة.

ثانياً: من أساليب الدعوة: الترغيب.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: شدة الخوف من الله وحسن التوكل عليه.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: العلاقة بين حالة القلب ومصير الإنسان.

- **أولاً- من أساليب الدعوة البشارة:**
- إن من أساليب الدعوة التي تظهر في هذا الحديث أسلوب البشارة ويظهر هذا في قوله ﷺ "يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير" فبشر رسول الله ﷺ أصحاب القلوب الرقيقة بدخول الجنة.
- ويعد أسلوب التبشير بالخير من أساليب الدعوة المهمة، لما له من أثر في إقبال النفوس وابتهاجها، واشتياقها إلى الخير لما بشرت به؛ فالله سبحانه بعث النبيين مبشرين لأقوامهم حتى يقبلوا على دعوتهم ويسمعوها، قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ﴾[1].
- وكان رسول الله ﷺ يستخدم أسلوب التبشير في دعوته وكان يبشر أصحابه بالخير وبشّر عدداً منهم بالجنة وقد أمر بالتبشير فقال: ((يَسِّروا ولا تُعَسِّروا، وبَشِّروا ولا تُنَفِّروا))[2]. فينبغي على الداعية أن يستخدم أسلوب التبشير في دعوته لجذب المدعوين إلى الدعوة وترغيبهم في قبولها.

ثانياً- من أساليب الدعوة: الترغيب:

يظهر ذلك من عموم الحديث حيث رغّب رسول الله ﷺ في ترقيق القلوب وعدم غلظتها وبيّن أن الذين يدخلون الجنة هم أصحاب القلوب الرقيقة لأنهم أسرع فهماً وقبولاً للخير وامتثالاً له.

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢١٣.

(٢) أخرجه البخاري، ٦٩، ومسلم، ١٧٣٢.

وأسلوب الترغيب من أساليب الدعوة التي ينبغي على الداعية أن يفيد منها في دعوته حتى يرغّب المدعوين فيها ويجعلهم يقبلون عليها؛ فالترغيب يشوق المدعو إلى الاستجابة وقبول الحق والثبات عليه[١].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: التأكيد على شدة الخوف من الله وحسن التوكل عليه:

إن للجنة طرقًا تؤهل من يسلكها للظفر بفضل الله وإنعامه على عباده المؤمنين، ومن هذه الطرق شدة الخوف من الله وحسن التوكل عليه.

وهذا ما نص عليه الحديث في قوله ﷺ "يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير" قال القاضي عياض: (يحتمل أنه أراد: في رقتها وضعفها، كما قال لأهل اليمن: ((أرق قلوبًا، وأضعف أفئدة))[٢] أي: أنها ذات خشية واستكانة سريعة الاستجابة والتأثير بقوارع التذكير، سالمة من الغلظ والشدة والقسوة التي وصف بها قلوب الآخرين[٣]، فيحتمل أنه ﷺ أراد في قوله "مثل أفئدة الطير" الخوف والهيبة. فالطير أكثر الحيوان ذعرًا وفزعًا؛ ولهذا قالوا: أحذر من غراب، وكالطائر الحذر، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[٤]، فكأنه يريد بذلك قومًا غلب عليهم الخوف، كما قد روى عن جماعة من السلف وغيرهم ممن أماتهم الخوف، وصدع قلوبهم الوعظ، وفاضت أنفسهم عند سماع الوعد والوعيد، وتذهلت عقولهم عند مشاهدة الهول والحادث الشديد[٥].

قال الطيبي: (وقيل المراد بقوله ﷺ "مثل أفئدة الطير" أي: متوكلون كما ورد ((لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا

---

(١) انظر: أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان، ص: ٤٣٧.

(٢) أخرجه البخاري ٤٣٨٩، ومسلم ٥٢ واللفظ له.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢٩.

(٤) سورة فاطر، آية: ٢٨.

(٥) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٣٧٣/٨.

وتروح بطانًا))[١] أقول: قد تقرر في علم البيان أن وجه الشبه إذا أضمر عم تناوله، فيكون أبلغ مما لو صرح به، فينبغي أن يحمل الحديث على المذكورات كلها، ومن ثم خص الفؤاد بالذكر دون القلب[٢].

إن المؤمن بحاجة إلى أن يكون شديد الخوف من الله تعالى حسن التوكل عليه، نظرًا لأن الخوف من الله تعالى يجعل المؤمن ممتثلاً لأوامر الله، حريصًا على مرضاته، ومتوكلاً عليه سبحانه وتعالى، وهذا مما يدل على صدق الإيمان.

رابعاً- من موضوعات الدعوة: العلاقة بين حالة القلب ومصير الإنسان:

من موضوعات الدعوة التي تستنبط من عموم الحديث العلاقة بين حالة القلب ومصير الإنسان، وذلك لأن القلب إذا استنار بنور التوحيد وأدرك ما ينفعه وما يضره انعكست آثاره على سلوك الإنسان، وسلوك الإنسان وعمله هو الذي يكون سبباً في سعادته أو شقاوته، لذلك قال تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾[٣] وقال ابن كثير: (أي: لقي الله يوم القيامة بقلب سليم منيب إليه خاضع)[٤].

وقال رسول الله ﷺ ((ألا وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً : إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كلُّه، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجسَدُ كله، ألا وهِيَ الْقَلْبُ))[٥]، قال ابن حجر: "وخص القلب بذلك لأنه أمير البدن، وبصلاح الأمير تصلح الرعية وبفساده تفسد، وفيه تنبيه على تعظيم قدر القلب، والحث على صلاحه"[٦]. فينبغي على الداعية أن يبين للمدعوين العلاقة بين حالة القلب ومصير الإنسان ويدعوهم إلى صفاء القلوب وسلامتها.

---

(١) أخرجه أحمد ٣٠/١، ٢٠٥، وقال محققو المسند: إسناد قوي، رجاله ثقات ٣٣٢/١.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٢٤٤/١٠.

(٣) سورة ق، آية: ٣٣.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٤٠٦/٧.

(٥) أخرجه البخاري ٥٢، ومسلم ١٥٩٩.

(٦) فتح الباري، ابن حجر ١٥٦/١.

الحديث رقم (٧٨)

٧٨- **الْخَامِسُ:** عنْ جَابِرٍ ﷺ أَنَّهُ غَزَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ قِبَلَ نَجْدٍ فَلَمَّا قَفَل رسول اللّه ﷺ قَفَل مَعهُمْ، فأدْرَكتْهُمُ الْقَائِلَةُ في وادٍ كَثِيرِ الْعِضَاهِ، فَنَزَلَ رسولُ اللَّهِ ﷺ، وتَفَرَّقَ النَّاسُ يسْتظِلُّونَ بالشجر، ونَزَلَ رسولُ اللَّه ﷺ تَحْتَ سمُرَةٍ، فَعَلَّقَ بهَا سيْفَه، ونِمْنَا نوْمةً، فإذا رسولُ اللَّهِ ﷺ يدْعونَا، وإِذَا عِنْدَهُ أعْرابِيٌّ فقَالَ: «**إنَّ هَذَا اخْتَرَطَ عَلَيَّ سيْفِي وأَنَا نَائِمٌ، فاسْتيقَظتُ وَهُو في يدِهِ صَلْتاً، قالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ منِّي؟ قُلْتُ: اللَّه ثَلاثاً**» وَلَمْ يُعاقِبْهُ وَجَلَسَ، متفقٌ عليه[1].

وفي رواية: قَالَ جابرٌ: كُنَّا مع رسول اللَّهِ[2] ﷺ بذاتِ الرِّقاعِ، فإذَا أتينا على شَجرةٍ ظليلة تركْنَاهَا لرسول اللَّه ﷺ، فَجاء رجُلٌ من الْمُشْرِكِين، وسيف رسول اللَّه ﷺ مُعَلَّقٌ بالشَّجرةِ، فاخْترطهُ فقال: تَخَافُنِي؟ قَالَ: «**لا**» قَالَ: فمَنْ يمْنَعُكَ مِنِّي؟ قال: «**اللَّه**»[3].

وفي رواية أبي بكرٍ الإِسماعيلي في صحيحِه[4]: قال: منْ يمْنعُكَ مِنِّي؟ قَالَ: «**اللَّهُ**» قال: فسقَطَ السَّيْفُ مِنْ يدِهِ، فأخذ رسَول اللَّه ﷺ السَّيْفَ فَقال: «**مَنْ يمنعُكَ منِّي؟**» فَقال: كُن خَيْرَ آخِذٍ، فَقَالَ: «**تَشهدُ أنْ لا إلَه إلا اللَّهُ، وأنِّي رسولُ اللَّه؟**» قال: لا، ولكِنِّي أعاهِدُك أن لا أقَاتِلَكَ، ولا أكُونَ مع قوم يقاتلونك، فَخلَّى سبِيلهُ، فَأتى أصحابَه فقَالَ: جِئْتكُمْ مِنْ عِندِ خيرِ النَّاسِ.

ترجمة الراوي:

جابر بن عبدالله الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩١٠ معلّقا) واللفظ له، ومسلم (٨٤٢/٣١٠).

(٢) لفظ البخاري في المواضع الثلاثة: (النبي).

(٣) أخرجه البخاري (٤١٣٦).

(٤) رواية أبي بكر الإسماعيلي أوردها الحميدي في الجمع بين الصحيحين (٣١٠/٢، عقب الحديث رقم ١٥٢٦)، وقال: وقد ذكر أبوبكر الإسماعيليّ متنه من حديث أبي عوانة، عن أبي بشر، عن سليمان بن قيس -هو اليشكري، والد فليح-، عن جابر.

غريب الألفاظ:

قفل: أي رجع[١].

القائلة: الظهيرة، أو النوم وقت الظهيرة[٢].

العِضاة: الشجر الذي له شوك[٣].

سمرة: السمرة -بفتح السين وضم الميم- الشجرة وهي العظام من شجر العضاة[٤].

اخترط السيف: أي سلّهُ وهو في يده[٥].

آخذ: آسِر[٦].

صلتاً: بفتح الصاد وضمها أي مسلولاً منتزعًا من غمده أو جرابه في رفق[٧].

ذات الرقاع: غزوة ذات الرقاع وقعت في المحرم ٥هـ، سار النبي ﷺ في ٤٠٠ من أصحابه يريد بني محارب وبني ثعلبة من غطفان الذين جمعوا لمحاربته، وسميت ذات الرقاع لعصب المسلمين أرجلهم بالخرق، ولقد كان كلُّ ستة نفر على بعير يعتقبونه، فدميت أرجلهم وجرحت، وهي عند نخل شمال خيبر، وقيل على بعد ١٠٠ كم فقط شمال المدينة المنورة[٨].

الشرح الأدبي

- هذا مشهد عظيم من مشاهد اليقين والتوكل التي تثبت شجاعة الرسول ﷺ في مواجهة أعدائه، وهذه الشجاعة مصدرها التوكل على الله عز

---

(١) رياض الصالحين ٨١.

(٢) الوسيط في (ق ي ل).

(٣) رياض الصالحين ٨١.

(٤) رياض الصالحين ٨١.

(٥) رياض الصالحين ٨١. أي أخرجه وانتزعه برفق.

(٦) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (أ خ ذ). خير من يأسر ويعاقب.

(٧) رياض الصالحين ٨١.

(٨) أطلس الحديث النبوي، د. شوقي أبو خليل ١٧٩.

وجل والإيمان به وإسلام الوجه لله. وهذه قصة واقعية تمثل مشهداً من مشاهد السيرة النبوية الحافلة بالمواقف البطولية الجليلة، والمشاهد الإنسانية النبيلة، هذه القصة تتكامل أركانها وأسسها وكأنها أعدت وصنعت وهى لم تعد ولم تصنع من قبل البشر، ولكنها من صنع الخلاق العليم، وفي هذه القصة الحقيقية تتجلى أهم العناصر: وهي الأشخاص، والأحداث والأماكن والبيئة والحوار والعقدة والمفاجأة والحل والنهاية أو لحظة التنوير.

- وشخصية رسول الله ﷺ هي التي تضئ آفاق هذه الواقعة وتقدم النموذج الأعلى في الشجاعة واليقين والتوكل على الله، لأن الأعرابي أخذ سيفه وهو نائم، ثم أيقظه وقال: من يمنعك مني؟ ولم يخف الرسول ﷺ ولم يخش الموت، بل قال لهذا الخائن: الله. ثلاث مرات، وحقاً وصدقاً منعه الله وأعزه وسقط السيف من يد الأعرابي، وهنا يحدث التحول وتبرق المفاجأة، يقول له رسول الله: من يمنعك مني؟ فيستسلم ذلك الأعرابي ويقول: كن خير آخذ. ويعرض عليه الرسول ﷺ الإسلام فيأبى ولكن يعاهد الرسول على عدم قتاله مع أي قوم ولا يدعو لقتاله، ويعفو عنه الرسول. وتأتي الثمرة: ثمرة العفو والتوكل على الله، يتحول الرجل إلى مشيد بالرسول ﷺ، ويقول لقومه: جئتكم من عند خير الناس. فأي موقف أعظم من هذا؟ وأي سلوك أجمل من هذا وأنبل؟
- وشخصية الأعرابي الذي حاول خيانة الرسول ﷺ ولكنه فشل، والرسول أراد أن يشهد أصحابه هذا الموقف وأن يعلمهم درساً في العفو والتوكل على الله. وشعر الرجل بالخزي والضعف، وشعر الصحابة بالقوة والثبات.
- والصحابة رضي الله عنهم، ومعهم جابر، هم الشاهدون على صدق هذا الموقف وهم المجاهدون الذين استظلوا بالشجر من حرارة الصحراء بعد رجوعهم من غزوة ذات الرقاع.
- والمكان يشارك في صنع وقائع هذه القصة الواقعية وهو ليس مكاناً مريحاً

وإنما هو واد ممتلئ بأشجار العِضاةَ: أي شجر كثير الشوك ضخم، ويختار الرسول ﷺ شجرة من الطلح، وهي السمرة، ليعلق بها سيفه.

- والبيئة قاسية، والحر شديد قائظ، والوقت في منتصف النهار القائلة أو القيلولة، والصحابة راجعون من الجهاد وهو مجهدون، ورسول الله كذلك، وفي خضم هذه المعاناة يحدث هذا الموقف العصيب وينجي الله نبيه الصادق الوعد الأمين، ويجعل له الغلبة والفوز ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾[1].

ولكن الرسول في النهاية يعفو عفو القادرين ويصفح الصفح الجميل ويضرب الأنموذج الأعلى والمثل الأوفى في الأسوة الحسنة. والحوار في الحديث الشريف تكتمل أبعاده في الروايات الثلاث، ويتجلى في الرواية الثالثة وهو يفصح عن ثبات موقف الرسول ﷺ وهلع وفزع الأعرابي ثم شهادته واعترافه بفضل الرسول أمام قومه.

وهذا الحديث يعد من معجزات رسول الله التي وقعت أمام الناس للتأييد والتأسي والثقة في نصر الله لهذه الأمة.

- وعلى أمتنا في العصر الحديث أن تواجه أعداءها بهذا الثبات وذلك اليقين، فلله العزة ولرسوله والمؤمنين.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل الجهاد في سبيل الله.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل الصحابة في نشر العلم الذي تعلموه في هذه الرحلة وعدم كتمانه.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل التوكل على الله والاستعانة به.

رابعًا: من صفات الداعية: اليقين في الله وعدم الخوف.

خامسًا: من أساليب الدعوة: الحوار.

سادسًا: من صفات الداعية: العفو عند المقدرة.

---

(١) سورة الحج، آية: ٤٠ .

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل الجهاد في سبيل الله:

حيث خرج النبي ﷺ وخرج معه أصحابه ليكون دليلاً عمليًا على أن الجهاد يأتي بالعزة والتمكين.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: فضل الصحابة في نشر العلم الذي تعلموه في هذه الرحلة وعدم كتمانه:

حيث نقل جابر بن عبدالله رضي الله عنه هذه الواقعة بكل ما فيها من فوائد نفعت الأمة.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل التوكل على الله والاستعانة به:

يظهر هذا في قوله ﷺ لأصحابه عن الأعرابي " إنَّ هذا اخترَطَ سَيفي وأنا نائمٌ، فاستيقظتُ وهو في يدِهِ صلْتاً، فقال: من يمنَعُك منِّي؟ فقلتُ: الله -ثلاثاً-".

وفضل التوكل على الله والاستعانة به عظيم قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[(١)] قال السعدي: (من يتوكل على الله" في أمر دينه ودنياه، بأن يعتمد على الله في جلب ما ينفعه، ودفع ما يضره، ويثق به في تسهيل ذلك "فهو حسبه" أي: كافيه الأمر الذي توكل عليه فيه)[(٢)].

والتوكل على الله له فضل عظيم على الإنسان قال رسول الله ﷺ ((لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ. تَغْدُو خِمَاصاً، وَتَرُوحُ بِطَاناً))[(٣)]. هذا الحديث أصل في التوكل، وأنه أعظم الأسباب التي يستجلب بها الرزق قال بعض السلف: (بحسبك من التوسل إليه أن يعلم من قلبك حسن توكلك عليه فكم من عبد من عباده قد فوض إليه أمره، فكفاه منه ما أهمه)[(٤)].

---

(١) سورة الطلاق، آية: ٣.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٨٠٦.

(٣) أخرجه الترمذي ٢٣٤٤، وابن ماجه ٤١٦٤، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٩١١).

(٤) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس /٤٩٧.

والاستعانة تجمع أصلين: الثقة بالله، والاعتماد عليه. (والتوكل) معنى يلتئم من أصلين: من الثقة، والاعتماد. وهو حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾(١)، وهذان الأصلان -وهما التوكل والعبادة- قد ذكر في القرآن في عدة مواضع، قرن بينهما فيها. هذا أحدها(٢).

فينبغي للداعية حث المدعوين على التوكل على الله، والاستعانة به، حتى يكون لهم معيناً وناصراً، ومخرجاً لهم، وقاضياً لحاجاتهم.

رابعًا- من صفات الداعية: اليقين في الله وعدم الخوف:

يظهر هذا في نومه ﷺ تحت الشجرة وكذلك عندما اخترط عليه الأعرابي السيف فلم يخف، ولكن كان على يقين في الله تعالى، وقال يمنعني منك الله.

فعلى الداعية أن يكون على يقين بالله عز وجل وفي نصره له، ولا يخشى من أحد غيره، وله القدوة والأسوة الحسنة في أنبياء الله عليهم السلام فقد كانوا في أشد المواقف وأصعبها ومع ذلك لم يخافوا ولم يجزعوا، بل كانوا على يقين في الله عز وجل، فهذا نبي الله إبراهيم عليه السلام يلقى في النار ومع ذلك لم يخف، ولم يتزعزع يقينه في الله فكان جزاؤه أن جعل الله النار برداً وسلاماً عليه قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾(٣) وهذا نبي الله موسى عليه السلام كاد فرعون وجنوده أن يصلوا إليه ومن معه وخاف من معه وقالوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾(٤) فلم يخف ولم يرهب ولكنه ثابت على يقينه في الله وإنصافه له. ولنا في رسول الله ﷺ أفضل الأسوة والتآسي في يقينه بالله وعدم خوفه من أحد، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ

---

(١) سورة الفاتحة، آية: ٥.

(٢) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم في شرح منازل السائرين، ابن القيم ابن القيم الجوزية، ١/١٦١.

(٣) سورة الأنبياء، آية: ٦٩.

(٤) سورة الشعراء، الآيتان: ٦١، ٦٢.

قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾[١].

فعلى الداعية أن يكون على يقين بالله وثقة في نصره لهذا الدين، فهو يؤمن بأن الإسلام لابد أن ينتصر وتعلو رايته وينتشر في مشارق الأرض ومغاربها مهما مكر أعداء الله ومهما كادوا[٢]، فعلى الداعية ألا يخاف ولا يرهب إلا الله.

ثالثاً- من أساليب الدعوة: الحوار:

ويظهر هذا في حواره ﷺ مع الأعرابي الذي أراد قتله، والحوار فن وأسلوب من أساليب الحديث المشوقة للنفس والذي يدور حول فكرة أو موضوع محدد بين اثنين، للتوصل إلى نتيجة[٣].

فعلى الداعية أن يحاور المدعوين ويشوقهم إلى دعوته، ولا يكثر الجدل فيما لا فائدة منه، ولابد أن يكون متواضعاً في تحاوره متودداً للمدعوين، مقدراً لهم، حتى يستمعوا له ويقبلوا عليه.

رابعاً- من صفات الداعية: العفو عند المقدرة:

إن من صفات الداعية التي تظهر من الحديث العفو عند المقدرة ويظهر هذا من عفوه ﷺ عمن أراد قتله مع تمكنه منه وقدرته على قتله، ولكن لم يفعل لأن خلقه: العفو عند المقدرة. وقد أمره الله بالعفو والإعراض عن الجاهلين، قال تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾[٤].

وقد أمر الله نبيه أن يأمر بالمعروف، ويدخل في ذلك جميع الطاعات، وبالإعراض عن الجاهلين، وذلك وإن كان أمراً لنبيه ﷺ فإنه تأديب لخلقه باحتمال من ظلمهم واعتدى عليهم[٥].

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٧٣.

(٢) انظر: الدعوة قواعد وأصول، جمعة أمين عبدالعزيز، ٦٣، ٦٤.

(٣) الدعوة الإسلامية الوسائل والأساليب، محمد خير رمضان يوسف، ص ١١٣.

(٤) سورة الأعراف، آية: ١٩٩.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٥٣٢/٣.

ورسول الله ﷺ ضرب المثل الحي في العفو عند المقدرة ويتجلى ذلك في عفوه ﷺ عن أهل مكة بعد فتحها وهم الذين آذوه وكذبوه وأخرجوه منها وعذبوا أصحابه رضي الله عنهم وقاتلوه وكانوا يتربصون به وبالمسلمين الدوائر ومع ذلك بعد أن منّ الله عليه بفتح مكة وقدر على رد الإساءة والعقاب إليهم أضعاف ما فعلوه معه، ولكنه أبى ذلك وآثر العفو عنهم تكرماً فقال: (يا معشر قريش، ماترون أني فاعل بكم قالوا: خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم؛ قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء)[1]. وهذا ما ينبغي أن يكون عليه الداعية فالدعاة هم ورثة الرسل فيجب عليهم أن يتأسوا بهم في دعوتهم.

(١) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام ٥٥/٤.

الحديث رقم (٧٩)

٧٩- **السادِسُ**: عَنْ عمرَ رضي الله عنه قال: سمعْتُ رسولَ اللّه صلى الله عليه وسلم يقولُ: «**لَوْ أنَّكم**[١] **تتوكَّلونَ على اللّهِ حقَّ تَوكُّلِهِ لرزَقكُم**[٢] **كَما يرزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِماصاً وتَرُوحُ بِطَاناً**» رواه الترمذي، وقال: حديثٌ حسنٌ[٣].

ترجمة الراوي:

عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١).

غريب الألفاظ:

تغدو خماصاً وتروح بطاناً: معْناهُ تَذْهَبُ أوَّلَ النَّهَارِ خِماصاً: أي ضَامِرةَ الْبُطونِ مِنَ الْجُوعِ، وترْجِعُ آخِرَ النَّهَارِ بِطَاناً: أيْ مُمْتَلِئَةَ الْبُطُونِ[٤].

الشرح الأدبي

إن منهج المسلم في حياته هو إسلام الوجه لله والتوكل عليه والأخذ بالأسباب والسعي على الرزق وإتقان العمل وتشع كلمات هذه الحديث الشريف بهذه المعاني المشرقة وتتموج بكثير من الرؤى التي تصاحب حركة المسلم وتضيء سلوكياته في الحياة انطلاقاً من يقينه وتوكله على ربه. والتوكل كما قال العلماء ثلاث درجات: التوكل ثم التسليم ثم التفويض، فالمتوكل يسكن إلى وعده، والمُسلِّم يكتفي بعلمه، وصاحب التفويض يرضى بحكمه، وصاحب التفويض يرضى بحكمه، وقال صاحب

---

(١) عند الترمذي زيادة: (كنتم).

(٢) عند الترمذي: (لرزقتم).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٤٤) وقال: هذا حديث حسن صحيح. وصحّحه ابن حبان (الإحسان ٧٣٠)، وقال الحاكم (٤/٣١٨): هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الحافظ ابن كثير في مسند الفاروق (٢/٦٣٧): رواه علي بن المديني، وقال: لم نجده إلا من هذا الوجه، وإسناده مصريٌّ ورجاله معروفون عند أهل مصر.

(٤) رياض الصالحين ٨٢.

"الإحياء" في بيان حقيقة التوكل: (أعلم أن العلم يورث الحال، والحال يثمر الأعمال، وقد يظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن، وترك التدبير بالقلب والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة، وهذا ظن الجهال، فإن ذلك حرام في الشرع، والشرع قد أثنى على المتوكلين).

والحديث الشريف فيه التوجيه السديد والمنهج الرشيد، ويرويه عمر بن الخطاب، وهو الذي أعطى السائل، ثم ضربه عندما رآه يصر على ذل السؤال، ويترك العمل ويعطل طاقاته ومداركه.

والحديث في صياغته الآسرة يموج بعدة ظواهر أسلوبية تفصح عن مقاصده الشريفة، ومعانيه اللطيفة: هذه الظواهر أنه يتكون من جملتين: جملة شرطية، وجملة حالية. وبينهما تتألق صورة تشبيهية لتقريب المعنى وتوضيح القضية، وأداة الشرط "لو"، تؤدي دوراً في الكشف عن طبيعة النفس البشرية في مقارفتها للأعمال الدنيوية، فالناس في أغلبهم لا يتجملون بصفة التوكل الحقيقي، ولذلك عبر المصطفى عليه الصلاة والسلام، بأداة الشرط "لو" وهي أداة امتناع لامتناع كما يقول النحويون، والبلاغة هي توخي معاني النحو بَيْن الكلم، فتأمل أخي المسلم كيف أفصحت هذه الأداة التي تتكون من حرفين عن المراد والمكنون، والتقدير، كما يقول العلماء، "لو تحقق توكلكم على الله" والجواب ممتنع لامتناع الشرط، لأن التوكل لم يتحقق عند الكثيرين، والرسول صادق الوعد، فلو تحقق التوكل الحقيقي لتحقق وعد الله بالرزق الحلال الفياض، ولنتأمل التأكيد في قوله: "لو أنكم"، ومع التأكيد يأتي الخطاب الجماعي الموجه إلى الأمة كلها، وهذا الخطاب ممتد عبر الزمن وموجه إلى كل مسلم في كل زمان ومكان، والتعبير بصيغة المضارع، "تتوكلون" يفصح عن هذا البعد الدلالي وعن صفة الاستمرار ما دامت الحياة ومادام الناس وزيادة في الحرص على مصلحة الأمة قيد الرسول التوكل بأنه "حق التوكل"، وهو التوكل مع العمل الصالح والسعي الحميد، وهذا السعي إما أن يكون لأجل جلب نافع هو مفقود كالكسب، أو لحفظ نافع هو موجود كالادخار، أو لدفع ضار لم ينزل بالعبد كدفع الصائل

والسارق والسباع، أو لإزالة ضار قد نزل بالعبد كالتداوي من المرض، فهذه كلها لا تنافي التوكل إذا أخلص الإنسان النية وأسلم أمره للخالق عز وجل.

ولنتأمل الصورة البلاغية التي تطمئن المسلم على رزقه في حاله توكله حق التوكل وهى صورة الطير، تغدو خماصاً حيث تتحرك وتسبح في الفضاء وتلتقط رزقها من ثمرات الأرض ومما تثمر الأشجار والبساتين وغيرها من الخيرات، وهذا حالها دائماً فحركة الطير ترشد إلى ضرورة العمل "تغدو وتروح"، وهكذا الإنسان يسعى ويتوكل على الله ويسلم أمره لله والله خير الرازقين.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: أثر التوكل الحقيقي.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: تكفل الله تعالى بالأرزاق.

ثالثاً: من مهام الداعية: بيان الحقائق للمدعوين.

رابعاً: من أساليب الدعوة: التشبيه.

أولاً- من موضوعات الدعوة: أثر التوكل الحقيقي:

يظهر هذا في قوله ﷺ "لو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً، وتروح بطاناً" الحديث.

قال ابن رجب: (هذا الحديث أصل في التوكل، وأنه أعظم الأسباب التي يستجلب بها الرزق، قال الله عز وجل: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ﴾(١) فلو حقق الناس التقوى والتوكل لاكتفوا بذلك في مصالح دينهم ودنياهم)(٢).

فالتوكل على الله له أثره على حياة الإنسان لأن الإنسان المتوكل على الله يفوض

---

(١) سورة الطلاق، الآيتان: ٢، ٣.

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢/٤٩٦، ٤٩٧.

أمره إلى الله، فهو يجعل الإنسان يرضى بقضاء الله وقدره ويترك الحرص الشديد على الطلب والتكالب على الرزق والشكوى من عدم التوفيق، وقد علمنا الله تعالى في أدعيتنا أن نخصه بالتوكل والاستعانة فلا نستعين بسواه، وذلك في كل صلاة بقوله تعالى في فاتحة الكتاب: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[(١)] كما أمر رسوله ﷺ بالتوكل عليه ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾[(٢)] فالتوكل دليل الإيمان[(٣)] ولازمه ومن خلا قلبه من التوكل خلا من الإيمان، لذلك وصف الله تعالى المؤمنين بأنهم ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[(٤)] فينبغي على الداعية أن يبيّن للمدعوين أثر التوكل الحقيقي على الله، وإن المتوكل الحقيقي يعلم أن الله قد ضمن لعبده رزقه وكفايته فيصدق الله فيما ضمنه، ويثق بقلبه[(٥)].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: تكفل الله تعالى بالأرزاق:

إن من موضوعات الدعوة التي تستنبط من عموم الحديث تكفل الله تعالى بالأرزاق فالله سبحانه وتعالى تكفل بأرزاق العباد وقد ورد ما يؤيد ذلك في كثير من الآيات والأحاديث.

قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[(٦)]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[(٧)]، قال ابن كثير: (أخبر تعالى أنه متكفل بأرزاق المخلوقات، من سائر دواب الأرض، صغيرها،

---

(١) سورة الفاتحة، آية: ٥.

(٢) سورة النمل، آية: ٧٩.

(٣) التربية الروحية والاجتماعية في الإسلام، د. أكرم ضياء العمري، ص ٧٢.

(٤) سورة الأنفال، آية: ٢.

(٥) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٥٠٨/٢.

(٦) سورة الذاريات، آية: ٢٢.

(٧) سورة هود، آية: ٦.

وكبيرها، بحريها، وبريها)[١].

وقال رسول الله ﷺ ((فَإِنَّ نَفْساً لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا، وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ. خُذُوا مَا حَلَّ، وَدَعُوا مَا حَرُمَ))[٢] فما دام العبد حياً، فرزقه على الله، وقد يسره الله له بكسب وبغير كسب، فمن توكل على الله لطلب الرزق، فقد جعل التوكل سبباً وكسباً، ومن توكل عليه لثقته بضمانه، فقد توكل عليه ثقة به وتصديقاً[٣].

فينبغي على الداعية تذكير المدعوين بأن الله سبحانه متكفل بأرزاقهم.

ثالثاً- من مهام الداعية: بيان الحقائق للمدعوين:

ويظهر ذلك في بيانه ﷺ حقيقة التوكل على الله وأنه من أعظم الأسباب في استجلاب الرزق وأن الله سبحانه قد تكفل بأرزاق العباد، قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[٤] قال السعدي: (الباري تبارك وتعالى تكفل بأرزاق الخلائق كلهم، قويهم وعاجزهم)[٥] وهذا ما ينبغي أن يكون عليه الداعية مع المدعوين فيبين لهم حقيقة الأشياء ويطمئنهم إلى ما يثق بوجوده من نعم الله لعباده.

رابعاً- من أساليب الدعوة: التشبيه:

ويظهر ذلك في تشبيهه ﷺ التوكل الحقيقي الصادق وأثره في جلب الرزق بتوكل الطير، يظهر ذلك في قوله ﷺ (لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير) وأسلوب التشبيه أسلوب جميل في الدعوة حيث إنه يقرب المعنى، ويجعله

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣٠٥/٤.

(٢) أخرجه ابن ماجه برقم ٢١٤٤، وصححه الألباني. (صحيح سنن ابن ماجه، ١٧٤٣).

(٣) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٥٠٨/٢.

(٤) سورة العنكبوت، آية: ٦٠.

(٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٥٨٤.

واضحاً للمدعوين في صورة هي من واقع الحياة يرونها ويعرفونها، وهذا له تأثير بالغ على المدعوين وإقبالهم على الدعوة.

فينبغي على الداعية استخدام أسلوب التشبيه في دعوته، بما يوضح المعنى ويظهر الخفاء مما يساعد في بيان الحقائق.

الحديث رقم (٨٠)

٨٠- **السَّابِعُ:** عن أبي عُمَارةَ الْبراءِ بْنِ عازِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ: «**يا فُلان إذَا أَويْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَقُل: اللَّهمَّ أَسْلَمْتُ نفْسي إِليْكَ، ووجَّهْتُ وجْهِي إِلَيْكَ، وفَوَّضْتُ أمري إِلَيْكَ، وألْجأْتُ ظَهْرِي إِليْكَ. رغْبَة ورهْبةً إِليْكَ، لا ملجأ ولا منْجى مِنْكَ إلاَّ إِليْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذي أنْزَلْتَ، وبنبيِّكَ الَّذي أرْسلتَ، فَإِنَّكَ إنْ مِتَّ مِنْ لَيْلَتِكَ مِتَّ عَلَى الْفِطْرَةِ، وإنْ أصبحْتَ أَصَبْتَ خيْراً**» متفقٌ عليه[1].

وفي روايةٍ في الصَّحيحين[2] عن الْبرَاء قال: قال لي رسول اللَّه ﷺ: «**إذَا أتَيْتَ مضجعَكَ فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ للصَّلاَةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الأيْمَنِ**» (وقُلْ: وذَكَر نحْوَه)[3]: ثمَّ قال: «**وَاجْعَلْهُنَّ آخرَ ما تَقُولُ**»[4].

ترجمة الراوي:

البراء بن عازب: هو ابن الحارث أبو عُمارة الأنصاريُّ.

صاحب رسول الله ﷺ وابن صاحبه، أسلم وهو فتىً مع أبيه، وأراد أن يشارك في غزوة بدر، فردَّه النبي ﷺ لصغر سنه. وقد قال في ذلك استصغرني رسول الله ﷺ يوم بدر أنا وابن عمر، فردَّنا، فلم نشهدها وكنت أنا وابن عمر لِدةً.

وقال: غزوت مع رسول الله ﷺ خمس عشرة غزوة، وسافرتُ مع رسول الله ﷺ ثمانية عشر سفراً، فلم أرَهُ ترك ركعتين قبل الظهر.

وكان البراء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قائداً ومن أصحاب الفتوحات، افتتح الريّ (بفارس) سنة أربع وعشرين، ولما ولي عثمان بن عفان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ جعله أميراً عليها، فغزا أبهر (غربي قزوين) وفتحها ثم قزوين فملكها، وانتقل إلى زنجان فافتتحها عنوة، وشهد غزوة تُستُر مع أبي

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٨٨) واللفظ له، ومسلم (٢٧١٠/٥٦). أورده المنذري في ترغيبه (٨٧٣).

(٢) قال الحميدي في الجمع بين الصحيحين (٥٢١/١): وأخرجاه من حديث سعد بن عُبيدة، عن البراء.

(٣) هذا قول الحميدي في جمعه.

(٤) أخرجه البخاري (٢٤٧) واللفظ له، ومسلم (٢٦١٠/٥٦). وسيكرره المؤلف برقم (١٤٦٤) بتمامه. أورده المنذري في ترغيبه (٨٧٣).

موسى رضي الله عنه، وشهد مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه الجملَ وصفّين، وقتال الخوارج.

وقد روى عن النبي ﷺ جملة أحاديث بلغت ٣٠٥ حديثاً. وروى أيضاً عن أبي بكر وعمر، وأبي أيوب، وبلال، وغيرهم رضي الله عنهم. وعاش إلى أيام مصعب بن الزبير، فسكن الكوفة واعتزل الأعمال. وتوفي في زمنه سنة ٧٢هـ وهو ابن بضع وثمانين سنة[١].

غريب الألفاظ:

أويت إلى فراشك: أي دخلت فيه[٢].

أسلمت نفسي إليك: أي استسلمت وانقدت وجعلت نفسي منقادة لك طائعة لحكمك[٣]. ألجأتُ ظهري: أسندتُه، والمراد: توكلتُ عليك.

الفطرة: أي الحالة الأولى التي خلق الخلق عليها وهي التوحيد والإسلام[٤].

الشرح الأدبي

ما أحوج المسلم إلى الشعور بالاطمئنان في كل حركاته وسكناته! وما أكثر حاجته! إلى تسليم أمره إلى من بيده مقاليد السماوات والأرض، والتضرع والمناجاة من سمات منهج المسلم في حياته: في صحوه ونومه، في حركته وسكونه، في شدته ورخائه، في صباحه وإمسائه، في يقظته وإغفائه.

---

(١) الطبقات، ابن سعد (١٧/٦)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر (٨٠-٨١)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير (٢٦٢/١-٢٦٣)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني (١١٤-١١٥)، وسير أعلام النبلاء، الذهبي (١٩٤/٣-١٩٦)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي (٣٣٢/١)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٢١٥/١-٢١٦)، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك (٥١٥/١).

(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر ١١٧/١١.

(٣) انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٩٦، وفتح الباري، ابن حجر ١١٤/١١، اللسان والوسيط في (ل ج أ).

(٤) المفصح المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٣٣٧، والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ف ط ر)، وانظر: فتح الباري، ابن حجر ١١٥/١١.

والمصطفى ﷺ يعطينا مفاتيح الاطمئنان في هذه العبارات التي تعبق بطيوب الإيمان.

ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا البيان النبوي الفائق الصادق في معانيه ومبانيه.

أ- والنداء في أول الحديث يعد شعاعاً يضيء الذاكرة، وينبه كل من يحب الله ورسوله، والله ورسوله أحب إليه مما سواهما، والمنادى غير محدد، فالرسول عليه الصلاة والسلام يقول: "يافلان"، وعدم التحديد يوحي بأن هذا التوجيه عام لكل مسلم يسمع هذا النداء أو يقرؤه أو يحفظه في كل زمان ومكان؛ وقيل المنادي: هو أسيد بن حضير، ولكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فهذه الأدعية تلهج بها الألسنة، وتنبض بها القلوب المؤمنة في كل مساء، والتعبير بأداة الشرط "إذا" في قوله: "إذا أويت إلى فرشك فقل" يكشف عن بلاغة البيان النبوي، لأن "إذا" للتحقق، ولا تغني عنها أداة غيرها، لأن الكل يأوى إلى فراشه ولا مجال للشك في ذلك.

ب- العنصر الإيقاعي والتوازي الأسلوبي في صياغة الحديث يزيد من جمال لغة الحديث، ويعمق التأثير، ويؤدي إلى سرعة الحفظ؛ لأنها أدعية تقال إذا أوى الإنسان إلى فراشه، ومن مظاهر هذا الإيقاع الصوتي أن الأفعال في العبارات الأربع ماضية ومتوازية في بنائها اللغوي المتناسق، "أسلمت، وجهت، فوضت، ألجأت"، والأفعال كلها تقترن بتاء الفاعل المضمومة، والمعاني لا تتكرر، ولكن كل عبارة لها ظلالها وإشعاعها، وأصداؤها، فإسلام النفس لله يعني إسلام الذات كلها قلباً ونفساً وروحاً وعقلاً، كناية عن التسليم المطلق. وتوجيه الوجه لله كناية عن عدم الانحراف عن الطريق المستقيم والتمسك بالطريق القويم. وتفويض الأمر كناية عن التوكل على الله في جميع الشؤون الدنيوية والأخروية، وألجأت الظهر إليه: كناية عن الاستناد إلى الله والاحتماء بعزته بعد تفويض الأمر إليه، والسجع الجميل بين التراكيب له تأثير عجيب.

ج- تكرار لفظ "إليك" ست مرات لم يحدث رتابة ولا إسهاباً ولكنه لزيادة تأكيد التوكل على الله والتعلق به، لأن كاف الخطاب يتوجه بها إلى من له الكبرياء في

السماوات والأرض ومن يقول للشيء كن فيكون، ويضيف هذا التكرار بعداً صوتياً إيقاعياً يساعد على الحفظ مع الإحساس بشرف وعظمة الانتماء لله عز وجل.

د- الإيجاز البليغ في قوله: "رغبة ورهبة إليك" فالرغبة طمعاً في الثواب، والرهبة خوفا من العقاب. وقيل في هذه الجملة لف ونشر مرتب: فالرغبة تتعلق بتفويض الأمر، والرهبة تتعلق بإلجاء الظهر رهبة من العقاب.

هـ- أسلوب القصر في قوله: لا ملجأ ولا منجا منك إلا اليك، وهذا الأسلوب يؤكد الإخلاص في الدعاء والاعتراف بفضل الله عز وجل، وفي العبارة سجع وجناس وهما من جماليات الأداء الأسلوبي.

و- ختام الحديث يتوافق مع بدايته في البناء اللغوي حيث بدأ بأسلوب الشرط، وختم بأسلوب الشرط، ولكن في الختام جاءت أداة الشرط "إن" وهي احتمالية وليست يقينية، لأن الأعمار بيد الله عز وجل، فالتعبير بـ"إن" أوفق وأدل على صدق وقوة البيان النبوي الجميل.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى ما يستحب للمرء فعله عند الاستعداد للنوم سواء أكانت أذكاراً أم أفعالاً ليكون في معية الله في اليقظة والمنام.

وقد ذكر الفقهاء[1] أنه يستحب للنائم حين يضع جسده على الفراش أن يتوضأ، وأن يضطجع على شقه الأيمن، وأن يقرأ ما تيسير له من كتاب الله تعالى وخاصة آية الكرسي وآخر آيتين من سورة البقرة وسورة الإخلاص والمعوذتين، وأن يقول الدعاء الوارد في هذا الحديث، فإن نام على هيئته هذه ومات مات على الفطرة وإن استيقظ أصبح في خير وأصاب خيراً.

---

(١) انظر في ذلك: المدونة ١٣٥، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد الباجي شرح الموطأ ٢٦٠/٧، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٩٨/٢، ٣٤٥/٤، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين عبدالرحيم بن الحسن ١٩٤/٨، والآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح والمنح المرعية ٢٤١/٣، وغذاء الألباب شرح منظومة الآداب، الإسفراييني شرح منظومة الآداب ٢٧٩/٢.

المضامين الدعوية

أولاً: من وسائل الدعوة: التعليم.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: النداء، والأمر.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: أهمية وفضل التوكل على الله تعالى.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل الذكر.

أولاً- من وسائل الدعوة: التعليم:

لا شك أن التعليم من الوسائل الدعوية المهمة التي يستطيع الداعية من خلالها توضيح أمور الدين والآداب التي ينبغي أن يحرص عليها المسلم، يظهر هذا في تعليم رسول الله ﷺ البراء بن عازب رضي الله عنهما ما ينفعه حيث أوصاه النبي ﷺ أن يقول عند نومه: (إذا آوى إلى فراشه، اللهم أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك.. إلخ الحديث) وهذا الدعاء يتضمن تفويض الإنسان أمره إلى ربه وأنه معتمد على الله في ظاهره وباطنه ومفوض أمره إليه.

وأمره النبي ﷺ أن يضطجع على الجنب الأيمن؛ لأن ذلك هو الأفضل، وقد ذكر الأطباء أن النوم على الجنب الأيمن أفضل للبدن وأصح من النوم على الجنب الأيسر(١)، والاضطجاع على الجنب الأيمن أسرع إلى الانتباه والقلب متعلق إلى جهة اليمين فلا يثقل في النوم(٢)، كما أمره بالوضوء حتى يبيت على طهارة لئلا يبغته الموت فيكون على هيئة كاملة، ويؤخذ منه الندب إلى الاستعداد للموت بطهارة القلب لأنه أولى من طهارة البدن(٣).

وهذا يدل على حرص رسول الله ﷺ على تعليم البراء ما ينفعه وهذا كان شأنه ﷺ مع المسلمين، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا

---

(١) انظر: شرح رياض الصالحين ٢٦٨/١.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ١١٣/١١.

(٣) المرجع السابق ١١٣/١١.

عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1]، قال السعدي: (... وهو ﷺ في غاية النصح لهم والسعي في مصالحهم "حريص عليكم" فيحب لكم الخير، ويسعى جهده في إيصاله إليكم، ويحرص على هدايتكم إلى الإيمان، ويكره لكم الشر، ويسعى جهده في تنفيركم عنه)[2]، وهذا مما ينبغي أن يحرص عليه الداعية في تعليم المدعوين ما ينفعهم.

ثانياً- من أساليب الدعوة: النداء، والأمر:

يظهر أسلوب النداء في قوله ﷺ: "يا فلان..."، وأسلوب الأمر في قوله ﷺ: "... فقل... فتوضأ... ثم اضطجع... وقل... واجعلهن آخر ما تقول"، وأسلوب النداء من أساليب الدعوة التي تجذب انتباه المدعو وتعلمه أن الدعوة موجهة إليه فينتبه ويهتم بما يُنادى لأجله.

وأسلوب الأمر من الأساليب الدعوية المهمة التي يتمكن الداعية من خلالها إلى بيان أهمية المأمور به وما يتضمنه من حقائق وفوائد دينية ودنيوية كما في هذا الحديث.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: أهمية وفضل التوكل على الله تعالى:

يظهر ذلك من قول رسول الله ﷺ للبراء رضي الله عنه فقل: (اللهم أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك.. الحديث)، وكل ذلك يدعو إلى التوكل على الله تعالى، ويدل على أهمية وفضل التوكل عليه سبحانه، وقد كان رسول الله ﷺ يعلم أصحابه حقيقة التوكل[3]، ففي صحيحي البخاري ومسلم كان يقول في دعائه: ((اللّهمَّ لكَ أسلمتُ، وبكَ آمنتُ، وعليكَ تَوكلتُ))[4]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[5]، أي: من فوض إليه أمره كفاه ما أهمه[6].

---

(١) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٣١٣.

(٣) التربية الروحية والاجتماعية في الإسلام، د. أكرم ضياء العمري، ص ٧٢.

(٤) أخرجه البخاري ١١٢٠، ومسلم ٧٦٩.

(٥) سورة الطلاق، آية: ٣.

(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي مج ١٦١/١٨/٩.

والتوكل على الله عاصم من الشيطان، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾(١)، والإيمان بالله تعالى يقتضي التوكل عليه، قال تعالى: ﴿... وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(٢).

فينبغي للداعية أن يدعو الناس إلى التوكل على الله، ويبين لهم فضل التوكل عليه سبحانه.

قال ابن القيم: ("التوكل" نصف الدين. والنصف الثاني "الإنابة"؛ فإن الدين استعانة وعبادة؛ فالتوكل هو الاستعانة، والإنابة هي العبادة.

ومنزلته: أوسع المنازل وأجمعها، ولا تزال معمورة بالنازلين، لسعة متعلق التوكل، وكثرة حوائج العالمين، وعموم التوكل، ووقوعه من المؤمنين والكفار، والأبرار والفجار، والطير والوحش والبهائم. فأهل السماوات والأرض -المكلفون وغيرهم- في مقام التوكل وإن تباين متعلق توكلهم، فأولياؤه وخاصته يتوكلون عليه في حصول ما يرضيه منهم وفي إقامته في الخلق، ويتكلون عليه في الإيمان، ونصرة دينه، وإعلاء كلمته، وجهاد أعدائه، وفي محابة وتنفيذ أوامره.

ودون هؤلاء من يتوكل عليه في استقامته في نفسه، وحفظ حاله مع الله، فارغاً عن الناس.

ودون هؤلاء من يتوكل عليه في معلوم يناله منه، من رزق أو عافية أو نصر على عدو، أو زوجة أو ولد، ونحو ذلك.

ودون هؤلاء من يتوكل عليه في حصول ما لا يحبه ويرضاه من الظلم والعدوان وحصول الإثم والفواحش، فإن أصحاب هذه المطالب لا ينالونها غالباً إلا باستعانتهم بالله، وتوكلهم عليه، بل قد يكون توكلهم أقوى من توكل كثير من أصحاب الطاعات؛ ولهذا يلقون أنفسهم في المتالف، والمهالك معتمدين على الله أن يسلمهم، ويظفرهم بمطالبهم.

---

(١) سورة النحل، آية: ٩٩.

(٢) سورة المائدة، آية: ٢٣.

ومن صدق توكله على الله في حصول شيء ناله فإن كان محبوباً له مرضياً كانت له فيه العاقبة المحمودة، وإن كان مسخوطاً مبغوضاً كان ما حصل له بتوكله مضرة عليه، وإن كان مباحاً حصلت له مصلحة التوكل دون مصلحة ما توكل فيه إن لم يستعن به على طاعاته"[1].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل الذكر:

حيث حرص النبي ﷺ أن يعلم صاحبه ذكر الله عز وجل لما فيه من العطاء والمنح "فاذكروني أذكركم" وفي الحديث القدسي "أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه".

(١) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢/٢٥٢ - ٢٥٣.

الحديث رقم (٨١)

٨١- **الثَّامِنُ:** عنْ أبي بَكْرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه عبدِ اللَّه بنِ عثمانَ بنِ عامِرِ بنِ عُمَرَ بن كعب بن سعد بْنِ تَيْمِ بْن مُرَّةَ بْنِ كَعْبِ بْن لُؤيِّ بْنِ غَالِبٍ الْقُرَشِيِّ التَّيْمِيِّ رضي الله عنه وهُو وأبُوهُ وَأُمَّهُ صحابَةٌ رضي الله عنهم، قالَ: نظرتُ إلى أقْدَامِ الْمُشْرِكِينَ ونَحنُ في الْغَارِ وهُمْ علَى رؤوسنا. فقلتُ: يا رسولَ اللَّهِ لَوْ أنَّ أحَدَهمْ نَظرَ تَحتَ قَدميْهِ لأبصرَنا[1]، فقال[2]: «**مَا ظَنُّكَ يا أبا بكرٍ باثْنَيْنِ اللَّهُ ثالِثُهُما**» متفقٌ عليه[3].

ترجمة الراوي:

أبو بكر الصديق: هو عبدالله بن عثمان القرشي، ولد بمكة بعد عام الفيل بسنتين وستة أشهر، وكان رضي الله عنه أبيضًا نحيفًا خفيف العارضين معروق الوجه ناتئ الجبهة يخضب بالحناء والكتم. وهو أول من آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم من الرجال، وأول الخلفاء الراشدين، وأول من جمع المصحف الشريف، وأول من أقام للناس حجّهم في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعده، صحب النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة وسبق إلى الإيمان، فكان أول القوم إسلاماً وأكملهم إيماناً وأعظمهم عناءً، وأفضلهم مناقب، وأكثرهم سوابق، وأرفعهم درجة، وأشبههم برسول الله صلى الله عليه وسلم هدياً وخلقاً وسمتاً وفعلاً، وهو أبو عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم وقد رافق النبي صلى الله عليه وسلم في الهجرة وفي الغار وفي المشاهد كلها.

وكان رجلاً مألوفاً لقومه محبباً سهلاً وكان تاجراً، ذا خلق وكان رجلاً بكاءً لا يملك دمعه حين يقرأ القرآن، وكان أنسب قريش لقريش وأعلمهم مما كان منها من خير أو شر، أسلم على يديه عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيدالله، وسعد بن أبي وقاص، وعبدالرحمن بن عوف رضي الله عنهم وغيرهم كثير، وأعتق بلالاً رضي الله عنه ولُقب بالعتيق والصديق لتصديقه النبي صلى الله عليه وسلم في خبر الإسراء.

---

(١) هذا لفظ البخاري، ولفظ مسلم: (أبصرنا تحت قدميه).

(٢) عندهما زيادة: (يا أبا بكر).

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٥٣)، ومسلم (٢٣٨١).

قال فيه النبي ﷺ ((إن من أمَنِّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبوبكر، ولو كنتُ متخذاً خليلاً غير ربِّي لاتخذتُ أبابكر خليلاً، ولكن أخوَّة الإسلام ومودَّته، لا يبقين في المسجد بابٌ إلا سُدّ إلا باب أبي بكر))(١).

وصلى بالمسلمين في حياة النبي ﷺ عندما اشتد المرض برسول الله ﷺ بعد أن قال النبي ﷺ ((مُرُوا أبابكر فيصلِّ بالناس))(٢).

وكان ثابت العقل، شديد البأس، له رصانة عقل في أشد المواطن وأحكمها، فشهد الحروب واحتمل الشدائد، وبذل الأموال، وبويع للخلافة يوم وفاة النبي ﷺ، فحارب المرتدين والممتنعين عن الزكاة، وافتتحت في أيامه الشام وقسم كبير من العراق.

وقال فيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه: كان أبوبكر سيدنا وخيرنا، وأحبنا إلى رسول الله ﷺ وخطب علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوماً فقال: "أنشدكم الله أمؤمن آل فرعون خيرٌ أم أبوبكر؟ فسكت القوم فقال: ألا تجيبون؟ فوالله لساعة من أبي بكر خيرٌ من مثل مؤمن آل فرعون؛ ذاك رجلٌ كتم إيمانه، وهذا رجل أعلن إيمانه".

ومناقب أبي بكر رضي الله عنه عنه كثيرة جدًا، وكان من أعظمها قول الله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾(٣) فإن المراد بصاحبه أبو بكر لا نزاع ومن مناقبه رضي الله عنه أن كان له أربعون ألفًا فأنفقها في سبيل الله وأعتق سبعة كلهم يعذب في الله أعتق بلالاً وعامر بن فهيرة وزنيرة والنهدية وابنتها وجارية بني المؤمل وأم عبيس.

وكانت مدة خلافته سنتين وثلاثة أشهر ونصف الشهر. وله في كتب الحديث ١٤٢ حديثاً.

---

(١) أخرجه البخاري ٤٦٦، ٣٦٥٤.

(٢) أخرجه مسلم ٤١٨.

(٣) سورة التوبة، آية: ٤٠.

وتوفي في ١٣هـ بالمدينة وهو ابن ثلاث وستين سنة[1].

الشرح الأدبي

- هذا المشهد جليل من مشاهد الهجرة النبوية المباركة، يرويه أبو بكر الصديق في ثقة وفخر واعتزاز، ولِمَ لا وقد شرف الصديق بصحبة خير رفيق وأكرم صديق وهو الصادق الوعد الأمين خاتم الأنبياء وسيد المرسلين: محمد ﷺ. والحديث نجوى إيمانية بين اثنين هما أعظم من عرفت البشرية صدقاً وبراً ومودة ورحمة وشجاعة وتقوى، وصاحبه أبو بكر رضي الله عنه الصديق المخلص المعين والمحب الأمين خير الأمة بعد رسولها ﷺ. ومكان هذه النجوى الحوارية غار ثور، وهو الملاذ الذي لجأ إليه الصاحبان محمد ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه، للاستعداد إلى التوجه إلى المدينة المنورة؛ ليبدأ عهد جديد من أطوار الدعوة الإسلامية، وقبلها نشأ النبي ﷺ في مكة استنبئ على رأس الأربعين من سنة، وقضى ثلاث عشرة سنة يدعو إلى الله قبل أن يهاجر إلى المدينة، فلم يكن في الإسلام أول بدأته إلا رجل وامرأة وغلام، أما الرجل فهو رسول الله ﷺ، وأما المرأة فزوجه خديجة، وأما الغلام فعليٌّ ابن عمه أبي طالب، ثم كان أول النمو في الإسلام بحرٍّ وعبد، أما الحر فأبو بكر، وأما العبد فبلال، ثم اتسق النمو قليلاً ببطء الهموم في سيرها، وصبر الحر في تجلده وكأن التاريخ واقف لا يتزحزح، ضيق لا يتسع، جامد لا ينمو، وكأن النبي ﷺ أخو الشمس يطلع كلاهما وحده كل يوم.

---

(١) الطبقات، ابن سعد (٣/٥٤، ١٧٠، ٢٤٣، ٥/١٨٧)، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر (٧٧٩-٧٨٠)، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير (٣/٣١٠-٣٣٢)، الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ٨٠٤-٨٠٥، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي ٤/٢٠٥-٢٠٦، تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٢/٢٨٣-٢٨٤، الأعلام، الزركلي (٤/١٠٢)، سير أعلام النبلاء، الذهبي ١/٣١٥-٣٣٠، موسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك ١/٢٦٥-٢٨٩.

- حتى إذا كانت الهجرة من بعد فانتقل الرسول إلى المدينة بدأت الدنيا تتقلقل، كأنما مر بقدمه على مركزها فحركها وكانت خطواته في هجرته تخط في الأرض، ومعانيها تخط في التاريخ، وكانت المسافة بين مكة والمدينة، ومعناها بين المشرق والمغرب[1].

ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا المشهد الجليل من مشاهد الهجرة المباركة، وكان أبو بكر فصيحاً بليغاً وأُعطى رسول الله جوامع الكلم. والتعبير بالفعل، "نظرت" في مادته اللغوية "نظر" أعم من "شاهدت" لأن النظر يشمل المشاهدة والنظر المصحوب بالتفكير والتأمل، فماذا يكون مصيرهما إذا رآهما المشركون؟.

وتحديد النظر إلى أقدام المشركين يرشد إلى وصولهم ووقوفهم على باب الغار، وبأنهم لم يَرَوا الصاحبين، حيث لم تلتق وجوههم، وإنما رأى أقدامهم، لأن الله صرفهم عن النظر داخل الغاز بما نسج حول باب الغار من نسيج العنكبوت، وأغصان الشجر وهى من المعجزات الإلهية، التي أيد الله بها رسوله ونصره وحماه.

وجملة "وهم على رؤوسنا" تصف حال المشركين وموقعهم، وقبلها جملة، "ونحن في الغاز" تصف حال النبي ﷺ وصاحبه، وبينهما مفارقة تدعو إلى التأمل والدهشة والاستغراب، فالصاحبان المهاجران محاصران داخل الغار، والمشركون على باب الغار يقفون على الصخور وهي مسافة قصيرة، ومساحة قليلة ولكن كما يقول الشاعر:

عناية الله أغنت عن مضاعفة ... من الدروع وعن عال من الأطم

ويقول أحمد شوقي في الإشادة بهذه المعجزة وذلك التأييد الإلهي:

سلْ عصبةَ الشِّركِ حولَ الغار سائمةً ... لولا مطاردةُ المختار لم تُسم

هل أَبصروا الأثر الوضَّاءَ، أم سمِعوا ... همْسَ التسابيحِ والقرآن من أَمَم؟

وهل تمثّل نسيجُ العنكبوتِ لهم ... كالغابِ، والحائماتُ الزُّغْبُ

(١) انظر: من وحي القلم للرافعي ج٢، مقالة من وحي الهجرة.

فأدبروا، ووجوهُ الأرضِ تلعنُهم كباطلٍ من جلالِ الحق منهزِم

لولا يدُ اللّهِ بالجارَيْنِ ما سلِما وعينُه حولَ ركنِ الدين؛ لم يقم[1]

وما أصدق الحوار في القسم الثاني من الحديث! حيث ينادي أبو بكر قائلاً: "يا رسول الله" فناداه بما اختصه الله به من الرسالة والنبوة، والهجرة من أجل حماية الرسالة، ومواصلة طريق الدعوة، وحماية الله له وتأييده لأنه رسول الله وخاتم النبيين.

- ويجيء كلام المصطفى ﷺ ثابتاً راسخاً واثقاً في تأييد الله ونصرته: فيطمئن حبيبه الصديق قائلاً "وما ظنك يا أبا بكر باثنين، الله ثالثهما؟" وهذا الاستفهام لتقرير الحقيقة الثابتة وهي تأييد الله. وحمايته لرسوله الكريم وحفظه للدعوة الإسلامية، لأنه وعد رسوله بذلك.
- وفي هذا الجواب الذي صيغ في قالب الاستفهام تسكين لما حصل للصديق حينئذ من القلق على رسول الله ﷺ: يقول الله عز وجل: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[2].

المضامين الدعوية

أولاً: من صفات الداعية: اليقين والثقة بالله مع الأخذ بالأسباب.

ثانياً: من تاريخ الدعوة: الهجرة.

ثالثاً: من صفات الداعية: التفاؤل والبشر.

رابعاً: من ميادين الدعوة: الغار.

---

(١) انظر: ديوان شوقي، ٦٢٦/١: توثيق وتبويب وشرح وتعقيب د. أحمد محمد الحوفي.

(٢) سورة التوبة، آية: ٤٠.

أولاً- من صفات الداعية: اليقين والثقة بالله مع الأخذ بالأسباب:

إن من أهم الصفات التي ينبغي أن يتصف بها الداعية: اليقين والثقة بالله. يتضح ذلك في قول النبي ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه: (ما ظنك باثنين الله ثالثهما).

قال النووي: (معناه: ثالثهما بالنصر والمعونة، والحفظ، والتسديد وهو داخل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾[1])[2].

قال ابن كثير: (أي معهم بتأييده ونصره ومعونته، وهذه معية خاصة كقوله: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى الْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾[3] وقوله لموسى وهارون: ﴿لا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[4] وقول النبي ﷺ للصديق رضي الله عنه وهما في الغار: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[5])[6].

واليقين والثقة بالله تعالى والتوكل عليه من الأسباب التي تُنال بها الإمامة، قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةً يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾[7].

واليقين والثقة بالله تعالى هو حال المؤمنين دائماً فهم ثابتون على يقينهم بعون الله ونصره، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا﴾[8].

وإن اليقين والثقة بنصر الله تتجلى في قوله ﷺ: (ما ظنك يا أبا باكر باثنين الله

---

(١) سورة النحل، آية: ١٢٨.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٤٥٩.

(٣) سورة الأنفال، آية: ١٢.

(٤) سورة طه، آية: ٤٦.

(٥) سورة التوبة، آية: ٤٠.

(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٤/٦١٥.

(٧) سورة السجدة، آية: ٢٤.

(٨) سورة الأحزاب، آية: ٢٢.

ثالثهما؟)، وكان يقين رسول الله ﷺ وثقته بنصر الله لا يتزعزع، وقد ورد عنه كثير من الأحاديث التي تدل على يقينه وثقته بنصر الله، منها:

حديث سهل بن حنيف عن صلح الحديبية قال: فجاءَ عمرُ رضي الله عنه فقال: يا رسول الله أَلَسْنا على الْحقِّ، وهم على الباطل؟ أَلَيْس قَتْلانا فِي الْجنَّة، وقتلاهم فِي النّار؟ قال: فقال بَلَى فقال: ففيم نعْطي الدَّنيَّةَ فِي دِيننا، ونرْجِعُ، ولمّا يحكمِ اللهُ بَيْننا؟ فقال: ((يا ابن الْخَطاب: إني رسولُ الله، ولن يُضَيِّعني الله أبداً))[1]. ومع يقين الرسول ﷺ بالنصر والثقة في الله تعالى أخذ بالأسباب فأحسن التخطيط بكل خطوات الهجرة بدءًا من استبقاء أبي بكر وعلي ثم أمره أبا بكر بشراء الإبل التي سيركبونها واختيار الدليل والغار وغير ذلك ليعلم الدعاة الأخذ بالأسباب مع حسن الإعداد وتمام اليقين.

قال رسول الله ﷺ: ((إنَّ اللَّهَ عز جَلّ قال: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، إنْ ظَنَّ خَيراً فَلَهُ، وَإنْ ظَنَّ شَراً فَلَهُ))[2]، فليوقن الداعية بنصر الله وعونه ليكون مثالاً وقدوة للمدعوين.

ثانياً- من تاريخ الدعوة: الهجرة:

إن من تاريخ الدعوة في هذا الحديث: الهجرة، وهي من أهم الأحداث في تاريخ الدعوة الإسلامية، ذلك لأنه عندما اشتد بالمسلمين الأذى، وضيقت قريش على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه رضي الله عنهم الخناق، حتى أصبحوا يحاربونهم في أرزاقهم، ويحملون قريشاً على مقاطعتهم على وسائل الحياة، ودبّروا لرسول الله ﷺ مؤامرة ليقتلوه وإن كان تدبير الله فوق تدبيرهم: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾[3]، حين ذاك أذن الله له بالهجرة ومعه صاحبه أبو بكر رضي الله عنه فأنجاهما الله من مكرهم، وكان له في الهجرة خير نصير على

(١) أخرجه البخاري ٤٨٤٤، ومسلم ١٧٨٥.

(٢) أخرجه أحمد ٣٩١/٢ رقم ٩٠٧٦، وقال محققو المسند: حديث صحيح ٣٦/١٥.

(٣) سورة الأنفال، آية: ٣٠.

إعلاء الدين، وحماية الحق[١]. ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾[٢]، فبعد الهجرة انتشرت الدعوة الإسلامية في أرجاء المعمورة وتنفس المسلمون الصعداء وعلت مكانة الدين وقوي المسلمون.

ثالثاً- من صفات الداعية: التفاؤل والبشر:

يظهر هذا في قوله ﷺ: (ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما؟)، عندما قال له أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا فلم يتشاءم بل تفاءل وبشر أبا بكر رضي الله عنه بمعية الله لهما.

فرسول الله ﷺ كان دائماً مبشراً ويحب الفأل ويكره التشاؤم قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾[٣]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ((كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعْجِبُهُ الْفَأْلُ الْحَسَنُ، وَيَكْرَهُ الطِّيَرَةَ))[٤]، فينبغي على الداعية أن يكون متفائلاً مبشراً بالخير محذراً من اليأس والتشاؤم. فيبدأ الناس بالأخبار السارة المروحة للنفوس، المزيلة للهموم فتشحذ منهم العزائم، وتعلو الهمم، فيقبلون على الأعمال الطيبة[٥].

رابعاً: من ميادين الدعوة: الغار

يظهر ذلك في قول أبي بكر رضي الله عنه: ونحن في الغار، والغار من ميادين الدعوة المشهورة في الدعوة الإسلامية وبداية انتشار الدين الإسلامي، وقد ورد ذكره في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ

---

(١) انظر: دعوة الرسل، محمد أحمد العدوي، ص ٤١٥ - ٤١٦.

(٢) سورة النساء، آية: ١٠٠.

(٣) سورة الإسراء، آية: ١٠٥.

(٤) أخرجه ابن ماجه ٣٥٣٦، وقال الألباني: حسن صحيح، (صحيح سنن ابن ماجه ٢٨٤٨).

(٥) انظر: الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي، ص ١٠٣ - ١٠٤.

هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ...﴾[١]، أي: عام الهجرة لما هم المشركون بقتله أو حبسه أو نفيه[٢].

قال القاسمي: (وقوله تعالى: "فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا" يعني كفار مكة حين مكروا به، فصاروا سبب خروجه، فخرج ومعه أبو بكر الصديق رضي الله عنه "ثاني اثنين" حال من ضميره صلى الله عليه وسلم أي: أحد اثنين "إذ هما في الغار" بدل من "إذ أخرجه" بدل البعض، إذ المراد به زمان متسع. والغار نقب في أعلى ثور، وهو جبل في الجهة اليمنى من مكة على مسيرة ساعة، مكثا فيه ثلاثاً، ليرجع الطلب الذين خرجوا في آثارهما، ثم يسيرا إلى المدنة "إذ يقول" بدل ثان، أي رسول الله صلى الله عليه وسلم "لصاحبه" أي أبي بكر "لا تحزن")[٣].

وكان الغار من ميادين الدعوة التي علّم بها الداعية الأول رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمة في الأخذ بالأسباب، وأخذ أسباب النجاة من وسائل الحذر، وذلك في إيوائه وصاحبه إلى الغار وكذلك علّم الأمة أهمية اليقين والثقة بالله عز وجل، فعندما جزع أبو بكر وخاف من المشركين قال له: (ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما).

وهذا ما ينبغي أن يكون عليه الداعية فلا يترك ميداناً من الميادين إلا ويستثمره في الدعوة إلى الله تعالى.

فهذا نبي الله يوسف عليه السلام لم يترك الدعوة حتى في السجن.

إن من المواقف الدعوية التي أبرزتها سورة يوسف، ذلك الموقف الفريد الذي تبناه نبي الله يوسف عليه السلام مع صاحبي السجن، ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٣٦ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا

---

(١) سورة التوبة، آية: ٤٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٤/١٥٥.

(٣) محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، ٥/٨/٥٦-٢١٧.

نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾(١).

فهذا الموقف بكل تفاصيله: هناك رجلان يدخلان السجن، ويريان في المنام رؤيا عجيبة، فيتوقان إلى الإطلاع على الحقيقة التي تنطوي عليها هذه الرؤيا، فيريان يوسف عليه السلام بين هؤلاء السجناء، الرجل الوحيد الذي يمكن أن يسعفهم بالحاجة، فيعرضان عليه، وهما يكنّان له كلّ الإجلال والإكبار، والتقدير والإعجاب، ولكن يوسف عليه السلام لا يسرع في الإجابة، ولا يكتفي بإرضاء الحاجة، ولا يستغل هذه الفرصة في تضخيم شخصيته أمام أعينهما، أو في كسب إعجابهما، أو في نيل المصالح الذاتية، بل يقدر هذه اللفتة الكريمة الثمينة من الرجلين، فيستخدمها في نشر الدعوة.

وينفذ إلى الغرض من خلال الأسلوب الذي ينمّ عن أن الكلام الدعوي تفرع من صميم الحديث الذي بدأ فيه من أجل تأويل رؤياهما، ولم يقصده تواً، مما يدل على أمرين مهمين:

الأول: أنه ينبغي للداعي أن يترقب الفرصة المناسبة لنشر الدعوة، ترقّب الفلاحين لنزول المطر، واعتدال الجوّ، ومواتاة الطقوس.

---

(١) سورة يوسف، الآيات: ٣٦ - ٤١.

الثاني: أنّه إذا أتاح الله له فرصة ما، تلائم عرض الدعوة، فلا يجوز له أن يدعها تضيع هدراً، بل يبادر في استعمالها في أكبر غاية وأعظم هدف"[١].

لقد استثمر يوسف عليه السلام هذا الموقف؛ لكونه صاحب هدف سام، ودعوة ربانية، فإنّ الفتيين -لما تقرر عند يوسف عليه السلام أنهما رأياه بعين التعظيم والإجلال، وأنه محسن معلم- ذكر لهما أنّ هذه الحالة التي أنا عليها، كله من فضل الله وإحسانه؛ حيث منَّ عليَّ بترك الشرك، وباتباع ملة آبائي، فبهذا وصلت إلى ما رأيتما، فينبغي لكما أن تسلكا ما سلكت.

ثم صرّح لهما بالدعوة: أأرباب عاجزة ضعيفة، لا تنفع ولا تضر، لا تعطي ولا تمنع وهي متفرقة، ما بين أشجار، وأحجار، وملائكة، وأموات، وغير ذلك من أنواع المعبودات التي يتخذها المشركون، أم من له صفات الكمال في ذاته وأفعاله فلا شريك له في شيء من ذلك، بل هو القهار الذي انقادت الأشياء لقهره، وسلطانه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن[٢].

ومن المعلوم أنّ من هذا شأنه وووصفه، خيرٌ من الآلهة المتفرقة التي هي مجرد أسماء، لا كمال لها، ولا فعال لديها[٣].

وفي هذه دلالة على أهمية استثمار الفرص في الدعوة إلى الله وتوظيفها التوظيف الإيجابي المثمر في مجال الدعوة.

---

(١) منهج الدعوة إلى الله، أمين أحسن إصلاحي ص ٩٣ وما بعدها.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٣٩٨.

(٣) المرجع السابق ٣٩٨.

الحديث رقم (٨٢)

٨٢- **التَّاسِعُ**: عَنْ أُمِّ المُؤمِنِينَ أُمِّ سلَمَةَ، واسمُهَا هِنْدُ بنْتُ أبي أُمَيَّةَ حُذَيْفَةَ المخزومية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبيَّ ﷺ كانَ إذَا خَرجَ مِنْ بيْتِهِ قالَ: «**[بِسْمِ اللَّهِ، توكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ]** [1]، **اللَّهُمَّ إنِّي أعوذُ بِكَ أنْ أَضِلَّ أو أُضَلَّ، أَوْ أَزِلَّ أوْ أُزلَّ، أوْ أظلِمَ أوْ أُظلَم، أوْ أَجْهَلَ أو يُجهَلَ عَلَيَّ**» حديثٌ صحيحٌ رواه أبو داود والتِّرمذيُّ وَغيْرُهُمَا بأسانِيدَ صحيحةٍ. قالَ التِّرْمذي: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ، وهذا لَفظُ أبي داودَ[2].

ترجمة الراوي:

أم سلمة: هي هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبدالله القرشية المخزومية بنت عمّ خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ولدت في مكة قبل البعثة بنحو سبع عشرة سنة.

وهي من المهاجرات الأول إلى الحبشة وأول المهاجرات إلى المدينة وكانت قبل النبي ﷺ عند أخيه من الرضاعة: أبي سلمة بن عبدالأسد المخزومي.

تزوجها رسول الله ﷺ سنة أربع من الهجرة وكانت من أجمل النساء وأشرفهن نسباً، وأوفرهن عقلاً، وكان عمرها قريباً من خمس وثلاثين سنة.

ولقد صحبت النبي ﷺ في غزوات كثيرة، فكانت معه في غزوة خيبر، وفي فتح مكة وفي حصار الطائف، وفي غزوة هوازن وثقيف، ثم صحبتهُ في حجة الوداع وكانت قد أشارت عليه ﷺ بمشورة أنجت بها أصحابهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من غضب الله ورسوله ﷺ

---

(١) هذه الزيادة عند الترمذي برقم (٣٤٧٢)، ولا توجد عند أبي داود.

(٢) أخرجه أبوداود (٥٠٩٤)، والترمذي (٣٤٢٣) ولفظهما سواء، إلا قوله: (كان إذا خرج من بيته) فهو لفظ الترمذي. وقال الحاكم (٥١٩/١): هذا حديث صحيح على شرطهما ولم يخرجاه، وربما توهم متوهم أن الشعبيَّ لم يسمع من أم سلمة، وليس كذلك فإنه دخل على عائشة وأم سلمة جميعًا ثمَّ أكثر الرواية عنهما جميعًا. وقد خالف ذلك في علوم الحديث (ص: ١١١) له، فقال: لم يسمع الشعبي من عائشة، وقال علي بن المديني في كتاب العلل: لم يسمع الشَّعبي من أم سلمة. قال الحافظ ابن حجر في نتائج الأفكار (١٦٠/١): وعلى هذا فالحديث منقطعٌ. فلعل من صحّحه سهّل الأمر فيه؛ لكونه من الفضائل، ولا يقال: اكتفى بالمعاصرة؛ لأن محل ذلك أن لا يحصل الجزم بانتفاء المتعاصرين إذا كان النافي واسع الاطلاع مثل ابن المديني.

وذلك حين أعرضوا عن امتثال أمره في صلح الحديبية، فعندما فرغ رسول الله ﷺ من إتمام صلح الحديبية قال: لأصحابه رضي الله عنهم: ((قوموا فانحروا ثم احلقوا)) فما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحدُ دخل على "أم سلمة" فذكر لها ما لقي من الناس من عدم الاستجابة. فقالت رضي الله عنها يا نبي الله!! أتحب ذلك؟ أي: أن يُطيعك أصحابك فيما تأمرهم به؟! فأومأ إليها -أي نعم- قالت أخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بُدْنكَ، وتدعو حالقك فيحلُقك، فخرج ﷺ فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك -نحر بدنة- ودعا حالقه. فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً"[١].

وقد بلغ مسندها ثلاث مائة وثمانية وسبعين حديثاً، واتفق البخاري ومسلم لها على ثلاثة عشر.

وتوفيت في شوال، سنة ٥٩هـ[٢].

غريب الألفاظ:

أزل أو أُزل: من الزلل وهو الخطأ والذنب، والمعنى: أن أفعل ذنباً أو أُدفع إلى فعله[٣].

أجهل أو يجهل عليّ: أي أفعل بالناس فعل الجهال من الإيذاء وإيصال الضرر إليهم أو يفعل بي الناس مثل ذلك[٤].

---

(١) أخرجه البخاري، رقم ٢٧٣٢.

(٢) الطبقات، ابن سعد لابن سعد (٨٦/٨)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر لابن عبدالبر (٩٤١)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير لابن الأثير (٢٧٨/٧)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني (١٨٠٧، ١٨٠٨)، وسير أعلام النبلاء، الذهبي للذهبي (٢٠١/٢-٢٠٢)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي (٥٨٢/٨-٥٨٣)، والأعلام، الزركلي (٩٧/٨-٩٨)، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك (١٤٤-١٤٥).

(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ز ل ل)، وشرح الطيبي ١٧٦/٥، وعون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ٢١٧٦.

(٤) انظر: شرح الطيبي، الطيبي ١٧٧/٥، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٢٤٤٩.

الشرح الأدبي

هذا الحديث تتوهج كلماته وعباراته بأشرف المعاني وأجمل المباني، وهذه الأدعية النابعة من قلب المصطفى ﷺ شموس تضيء آفاق السلوك الإنساني وتنشر أشعة الخير والمودة والرحمة في كل أرجاء الحياة، وتربط حياة الإنسان على الأرض بتوجيه وقدرة خالق الأرض والسماء. وهذه الدعوات من المأثورات التي ينبغي على كل مسلم أن يتفوه بها وأن تكون صاعدة من قلبه مع ترجمتها إلى سلوك إيماني قويم اقتداء بسنة المصطفى ﷺ وعملاً بسنته القولية والعملية، وهى مصابيح إيمانية تنير لكل مسلم طريقه في الحياة وتضيء قلبه بأنوار الهداية، وتنجيه من دروب المفاسد والغواية، وإذا التزم بها المسلمون استقامت أمور حياتهم، وأشرقت بالأخوة آفاق مجتمعهم.

ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا البيان النبوي الهادي الرشيد، البليغ الموجز.

إنها أدعية يتحصن بها المسلم من مغريات الفتن، ومزالق الشيطان، وما أحوج المسلمين إلى مثل هذه الأدعية وهم يخوضون غمار الحياة، ويصارعون أمواج الشهوات، وطوفان الإغراءات، والمعصوم محمد ﷺ كان يستجير ويدعو ربه مع أنّه قد غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وماتأخر ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[١].

وقوله "بسم الله توكلت على الله": علم المسلم المنهج السديد، فكل عمل لا يبدأ باسم الله فهو أبتر، وهنا بلاغة الحذف، والتقدير: "أتحصن باسم الله" ولا يضر مع اسمه شيء، وقوله: "توكلت على الله" أي: أفوض أمري إليه، وأطلب الاستعلاء بالله تعالى على كل ما نبتغيه في هذه الحياة، وبعد هذا الثناء الذي يبدأ به رسول الله الدعاء وهو يخرج من البيت، يتوجه إلى الله بعد أن تحصن باسمه وتوكل عليه، وينادي: "اللهم" ثم يؤكد الدعاء حيث يلجأ إلى الله ويعتصم به فيقول: "اللهم إني أعوذ بك ..." وكل

---

(١) سورة الفتح، آية: ٢.

عبارة تتضمن دعاءً موجزاً تكمن وراءه نجاوي وابتهالات ومطالب كثيرة، تتكاثر بمقدار الداعين والطالبين حماية الله، والعائذين به، وكم بكت قلوب، وفاضت عيون، وخشعت نفوس وهي تجأر بهذه الأدعية النبوية الفياضة بالحب والصدق والخشوع والإيمان والتوحيد. وكل دعاء يحمل تحذيراً وإدانة: التحذير من أهواء النفس، ونزعات الهوى، والإدانة لكل مؤثر خارجي يسلب الإنسان نزعة الإخلاص، والتمسك بحبل الطاعة، وهناك بعد ثالث توحي به هذه الأدعية: وهو الخوف من التحول عن طريق الهداية إلى طريق الغواية، وما أجمل إيقاع الكلمات! وما أعظم التأثير الذي يحدثه الجناس والمشاكلة بين الألفاظ! والصيغ اللغوية، مع ضبط الكلمات يحدث تغيراً في المعنى، وتأثيراً في النفس، وشمولاً في الرؤية والموقف؛ فالمصطفى يدعو ربه أن يحميه من الضلال والإضلال، وما أحوج كل مسلم إلى هذا الدعاء! وما أحوجه إلى عون ربه وتأييده! فلا يَزل ولا يُزل، ولا يَظلم ولا يُظلم، ولا يَجهل ولا يُجهل عليه، ونسأل الله إجابة الدعاء في كل صباح ومساء.

المضامين الدعوية (١)

أولاً: من موضوعات الدعوة: أهمية المحافظة على الأذكار.

ثانياً: من صفات الداعية: ملازمة الصلة بالله تعالى.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: فضل التوكل على الله والاستعاذة به من كافة الشرور.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: أثر التوكل على الله.

أولاً- من موضوعات الدعوة: أهمية المحافظة على الأذكار:

يظهر ذلك من فعله ﷺ الذي أخبرت به أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها من أنه كان إذا خرج من بيته قال: "بسم الله توكلت على الله..." الحديث، وكذلك حديث أنس رضي الله عنه في قوله ﷺ: "من قال يعني إذا خرج من بيته: بسم الله توكلت على الله.. الحديث".

فهذان الحديثان يدلان على أهمية المحافظة على الأذكار وذلك لأن الأذكار من

(١) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث - ٨٢ - مع المضامين الدعوية للحديث رقم (٨٣).

الأشياء التي يرغب فيها الإسلام، والله يثني على الذاكرين والذاكرات، قال تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾(١)، ولا شيء يزيل الغفلة عن القلب ويحيى فيه اليقظة الدائمة مثل دوام ذكر الله تعالى حيث تحلّ بالذكر خشية الله ومخافته في قلب الإنسان فإذا همّ بظلم أحد أو بمعصية، فذكر الله ترك ما هم به، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾(٢)، وقد وعد الله هؤلاء الوجلين الخائفين الجنة فقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾(٣).

كما أنّ ذكر الله يلين القلب ويمنع قسوته ويملؤه بالتواضع والسكون والطمأنينة والخشوع قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾(٤)، والذكر يصل الإنسان بخالقه ويعمل على دوام الصلة القلبية بالله عز وجل، ويمنع قسوة القلب، ويزيل ما يعتريه من الغفلة، ويغسل عنه الران، ويملؤه بحب الله ورسوله وحب الإيمان، ويرغّبه في التقرب إلى الله بشتى الطاعات.

ودوام الأذكار من الأشياء التي كان يحرص عليها رسول الله ﷺ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: ((كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَذْكُرُ الله عَلَى كُلِّ أَحْيَانِهِ))(٥).

أي في حال قيامه ومشيه وقعوده واضطجاعه، وسواء كان على طهارة أو لم يكن(٦).

ولفضل الأذكار وأهميتها شبه رسول الله ﷺ من يذكر ربه بالحي أما من لا يذكره فهو ميت، فقال ﷺ: ((مَثَلَ الذي يَذكرُ ربَّه والذي لا يَذْكرُ ربه مَثَلُ الحي والميِّت))(٧).

---

(١) سورة الاحزاب، آية: ٣٥.

(٢) سورة الأنفال، آية: ٢.

(٣) سورة النازعات، الآيتان: ٤٠ - ٤١.

(٤) سورة الرعد، آية: ٢٨.

(٥) أخرجه مسلم ٣٧٣.

(٦) انظر: التربية الروحية، د. أكرم ضياء العمري ص ٨٧ - ٨٨.

(٧) أخرجه البخاري ٦٤٠٧.

فالذكر له فضائل كثيرة منها ما ذكره رسول الله ﷺ في قوله: ((لاَ يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللّهَ عَزَّ وَجَلَّ إلاَّ حَفَّتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ))[١].

فينبغي على الداعية بيان أهمية المحافظة على الأذكار وفضل ذلك.

ثانياً- من صفات الداعية: ملازمة الصلة بالله تعالى:

من صفات الداعية التي تظهر من هذين الحديثين: ملازمة الصلة بالله تعالى وهذا يظهر من فعله ﷺ في المحافظة على الأذكار إذا خرج من بيته وأمره بها.

فالداعية مرشد إلى الخير وموجه نحو الهدى، وكل هدفه: تعريف الناس بخالقهم، ليفوزوا بسعادة الدارين، وعليه أن يُمتّن صلته بالله، لتكون دعوته نابعة من قوله وفعله[٢].

وقد كان إمام الدعاة -قدوتنا محمد ﷺ- شديد الصلة بالله، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تفطّر رجلاه، قالت عائشة رضي الله عنها: يَا رَسُولَ اللّهِ أَتَصْنَعُ هذَا، وَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ فَقَالَ: ((يَا عَائِشَةُ أَفَلاَ أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً؟))[٣]، فعلى الدعاة ملازمة الصلة بالله والاجتهاد في الطاعات حتى يكونوا أهلاً للدعوة ومحلاً للاقتداء بهم.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: فضل التوكل على الله والاستعاذة به من كافة الشرور:

من موضوعات الدعوة التي تظهر من هذين الحديثين فضل التوكل على الله والاستعاذة به من كافة الشرور؛ وذلك لأن من توكل على الله كفاه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[٤].

---

(١) أخرجه مسلم ٢٧٠٠.

(٢) صفات الداعية، د. حمد بن ناصر العمار، ص ٢٧.

(٣) أخرجه البخاري ٤٧٣٧، ومسلم ٢٨٢٠.

(٤) سورة الطلاق، آية: ٦٥.

ومن استعاذ بالله من الشيطان كفه عنه ورد كيده عنه، قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾(١).

فينبغي على المسلم التوكل على الله في أمره كله والاستعاذة به من الشر كله، فقد كان رسول الله ﷺ يستعيذ كثيراً من عذاب النار ومن عذاب القبر(٢)، وأمر المسلمين أن يستعيذوا في تشهدهم من: ((عَذَابِ الْقَبْرِ. وَعَذَابِ النَّارِ. وَفِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، ومن شَرِّ فتنة الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ))(٣).

رابعاً- من موضوعات الدعوة: أثر التوكل على الله:

يظهر هذا في حديث أنس رضي الله عنه قوله ﷺ: (من قال ... بسم الله توكلت على الله.. يقال له: هُديت وكُفيت وتنحّى عنه الشيطان)، أي: يناديه ملك فيقول له: هُديت إلى طريق الحق، وكُفيت ما أهمك، ووقيت أي حُفظت من السوء وابتعد عنك الشيطان(٤)، وهذا من آثار التوكل على الله، فينبغي على الداعية أن يدعو المدعوين إلى التوكل على الله تعالى ويبين لهم أثر هذا التوكل في حياتهم.

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾(٥).

قال ابن كثير رحمه الله ("وعلى ربهم يتوكلون"، أي: لا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، ولا يلوذون إلا بجنابه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في الملك، وحده لا

---

(١) سورة فصلت، آية: ٣٦.

(٢) أخرجه البخاري ٨٣٢.

(٣) أخرجه مسلم ٥٨٨.

(٤) انظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ٢١٧٧، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٢٤٤٨/٢.

(٥) سورة الأنفال، آية: ٢.

شريك له، ولا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب، ولهذا قال سعيد بن جبير: التوكل على الله جماع الإيمان)[١].

وقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾[٣].

قال السعدي: ("الله لا إله إلا هو"، أي: هو المستحق للعبادة والألوهية فكل معبود سواه باطل، (وعلى الله فليتوكل المؤمنون)، أي: فليعتمدوا عليه في كل أمر نابهم وفيما يريدون القيام به، فإنه لا يتيسر أمر من الأمور إلا بالله، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالاعتماد على الله، ولا يتم الاعتماد على الله، حتى يحسن العبد ظنه بربه، ويثق به في كفايته الأمر الذي يعتمد عليه به، وبحسب إيمان العبد يكون توكله، قوة وضعفاً)[٤].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ("حسبنا الله ونعم الوكيل"، قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل)[٥].

إنه التوحيد الراسخ رسوخ الجبال، فالأول إبراهيم عليه السلام عرض على النار ورأى هولها، ونظر إليها وهي مشتعلة عالية، وأجلسوه في المنجنيق الذي من خلاله يقذفونه في النار، فما كان منه إلا أن قال: حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلب بنعمة من الله وفضل لم يمسه سوء جزاء توحيده الذي جعله يثق بربه كل هذه الثقة ووطد نفسه على ذلك، علم أن الله معه ولن يضيعه فأوكل أمره إليه، فكان جلّ وعلا نعم الوكيل فأمر ناره

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١٢/٤.

(٢) سورة المائدة، آية: ٢٣.

(٣) سورة التغابن، آية: ١٣.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٨٠٤.

(٥) أخرجه البخاري ٤٥٦٣.

أن تكون على عبده برداً وسلاماً حتى لا يؤذيه بردها وهل الجزاء إلا من جنس العمل فقوة التوكل أثمرت هذه المعجزة.

والثاني رسول الله ﷺ حين علم بتوعد الناس له بالجمع وتكثير الأعداء لإرهابه وتخويفه وصده عن نشر دينه، فما اكترث لذلك، وما تزعزعت ثقه وتوكله على الله قيد أنملة، كيف ذلك وهو الذي علَّم أصحابه الشجاعة والإقدام وشدة البأس عند ملاقاة أعداء الله، وعلمهم أن النصرة على الأعداء إنما تكون بقوة الإيمان، وحسن التوكل عليه، وأن العدد والعدة لا تفعل شيئاً بدون تجريد التوحيد له عز جل، والتوكل على الله من أهم لوازم التوحيد، فما أجمل مقولة الصديق رضي الله عنه: (أحرصوا على الموت توهب لكم الحياة).

وفي هذا الحديث درس للدعاة إلى الله تعالى، بأن جميع العقبات التي تواجههم في الدعوة إلى الله تعالى لا يملك إزاحتها من طريقهم إلا هو سبحانه، وكفّ هذه العوائق عنا يستلزم تحقيق التوحيد، وصدق اللجوء والتوكل على الله تبارك وتعالى، حتى يقينا شر هذه العوائق والمضايقات وإن لم تزل، يرزقنا الثبات، وأن لا تزيدنا إلا إصراراً في المضي قُدما في هذا الطريق الذي اصطفانا لأجله[1].

---

(١) التوحيد وأثره على العبيد، خميس السعيد محمد ص ١١٨ - ١١٩.

الحديث رقم (٨٣)

٨٣- **الْعَاشِرُ**: عنْ أنسٍ رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَنْ قَالَ يعنِي إذا خَرَج مِنْ بيْتِهِ: بِسْمِ اللَّهِ توكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، ولا حوْلَ ولا قُوةَ إلاَّ باللَّهِ، يقالُ لهُ هُديتَ وَكُفِيتَ ووُقِيتَ، وتنحَّى عنه الشَّيْطَانُ**» رواه أبو داودَ والترمذيُّ، والنَّسائِيُّ وغيرُهم: وقال الترمذيُّ: حديثٌ حسنٌ[(١)].

زاد أبو داود[(٢)]: «**فيقول: يعْنِي الشَّيْطَانَ لِشَيْطانٍ آخر: كيْفَ لك برجُلٍ قَدْ هُدِيَ وَكُفي وَوُقِي**»؟.

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

الحوْل: الحركة، يقال: حال الشخص يحول إذا تحرك[(٣)].

الشرح الأدبي

تتماوج أصداء الحديث السابق في محيط هذا الحديث العذب، إن بداية الحديثين صيغة واحدة وهى: "بسم الله توكلت على الله"، والمكان الذي يستحب فيه هذا الدعاء هو "باب البيت" وقت الخروج لسفر أو قضاء مصلحة، والصيغ في الحديث السابق متعددة وشاملة، ولكن هذا الحديث يتضمن بارقة من بوارق البيان النبوي وهي "ثمرة الدعاء"، فإذا أخلص المسلم في الدعاء، وصدق في مناجاة ربه "يقال: له هُديت، وكُفيت، ووقيت، وتنحى عنه الشيطان". وبناء الفعل "يقال له" للمجهول، ليس للجهل بالقائل، ولكن لتكريم ذلك الداعي المبتهل الذي حدده رسول الله بأحد أنواع المعرفة

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٩٥)، والترمذي (٣٤٢٦) واللفظ له، والنسائي في الكبرى (عمل اليوم والليلة ٩٨٣٧) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب. وصحّحه ابن حبان (الإحسان ٨٢٢)، وقال الحافظ ابن حجر في نتائج الأفكار (١٦٤/١): هذا حديثٌ حسنٌ اهـ. أورده المنذري في ترغيبه (٢٣٨٩).

(٢) في الحديث نفسه في آخره (٥٠٩٥).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ح و ل).

وهو اسم الموصول مَنْ "من قال" وذلك لتميزه ولأجل أن تكون قاعدة تطبق على ملايين القائلين من المسلمين هذا الدعاء في كل زمان وفي كل مكان، وصيغة البناء للمجهول في "يقال له" توحي بشمول الجزاء واستمراره ودوامه، ولم يقل: "قيل له"، وكأنه كلما تكرر القول تكرر الجزاء، وضوعف الثواب، والله يضاعف لمن يشاء.

وصيغة "لا حول ولا قوة إلا بالله" تنطوي على أسرار بلاغية كثيرة، ومنها أسلوب القصر الذي يفيد تسليم المؤمن بأن الحركة وتغير الأحوال، ومصدر القوة من الله سبحانه وتعالى وليست من مصدر آخر، فالحول في اللغة: "من حال الرجل يحول حولاً" إذا احتال، والحول هو التحرك، وحال الشيء واستحال أى تغير لونه"[1]، فالمؤمن عندما يقر بهذه الصيغة فهو يؤمن بأن أي حركة في حياته، وأى تغير في مصيره وأي قوة تأتيه من أي جهة ولأي سبب، لابد أن يكون كل ذلك بأمر الله وإرادته ومشيئته.

وتأتي الأفعال التي تعد من ثمرات الدعاء في صيغة المبني للمجهول، وهي: "هديت وكفيت ووقيت" لترشد إلى أن الجزاء من جنس العمل: فالمؤمن أسلم أمره لله فجزاؤه الهداية والكفاية والوقاية من الشيطان لأنه تحصن باسم الله.

وهداه في اللغة معناه: تقدمه كما يتقدم الهادي المهدي، فعناية الله تسبق خطا المؤمن وتهديه إلى السبيل القويم، ويقال له: كفيت كل همم دنيوي وأخروي: وهذا المعنى يتلاقى مع قول إبراهيم عليه السلام: "حسبنا الله ونعم الوكيل"، ونتيجة الهداية والكفاية تكون الوقاية من حبائل الغواية. وهمزات الشياطين. ويختم الحديث بأعظم الثواب، وأطيب الثمار في قوله ﷺ: "وتنحى عنه الشيطان" والتعبير بالماضي يوحي بأن المؤمن حريص على مقاومة الشياطين، وأن الشيطان لا يستطيع التغلب عليه؛ لأن التحصن باسم الله من أسباب الفوز والنجاة.

المضامين الدعوية[2]

---

(١) انظر: أساس البلاغة للزمخشري ٢/ ٢٠٨.

(٢) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (٨٤)

٨٤- وَعنْ أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كَان أخوانِ عَلَى عهْدِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكَانَ أَحدُهُما يأْتِي النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والآخَرُ يحتَرِفُ، فَشَكَا الْمُحْتَرِفُ أخَاهُ للنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**لَعلَّكَ تُرْزَقُ بِهِ**» رواه التِّرْمذيُّ[1] بإسناد صحيح على شرط مسلمٍ.

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

يحترف: يكتسب ويتسبب[2].

الشرح الأدبي

يرصد هذا الحديث قضية من أخطر قضايا الحياة، وهى العلاقة بين العبادة والعمل، ويظن بعض الجاهلين أن العمل الدنيوي يتنافى مع العبادة وأداء الشعائر على الوجه الأكمل، وهذا وَهْمٌ وسوءُ فَهمٍ للعبادة الصحيحة، والعمل الصالح، فالعبادة عمل تكليفي تشريعي، والعمل الدنيوي ينبغي على كل مسلم في إطار السعي على الرزق والكسب الحلال، والعمل في نظر الإسلام هو الذي ينتج ويأتي بالخير الوافر، ولذا تتجه الوصايا النبوية الكثيرة إلى الحض على العمل، ويتحدث القرآن الكريم عن العمل في آيات كثيرة بلغ عددها ٣٦٠ "ثلاثمائة وستين آية"، ومِنْ أحبِّ ما يقرِّبُ العبدَ إلى ربه أن يتقن العمل الذي يؤديه مهما كان نوعه ((إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه))[3][4].

---

(١) برقم (٢٣٤٥) وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ. قال الحاكم (٩٤/١): هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ورواته عن آخرهم أثبات ثقات، ولم يخرجاه.

(٢) رياض الصالحين ٨٣.

(٣) أخرجه أبو يعلى ٤٣٨٦، وقال الهيثمي في المجمع ٩٨/٤: فيه مصعب بن ثابت وثقه ابن حبان وضعفه جماعة أهـ. وقد صححه الألباني في الصحيحية ١١١٣، فلينظر تصحيحه.

(٤) انظر: التكافل الاجتماعي في الإسلام، د. عبدالعال أحمد عبدالعال، ص ٢٠٨، ٢٠٩، الشركة العربية للنشر والتوزيع: القاهرة، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

ولا تعارض في الحقيقة بين العبادة والعمل الدنيوي؛ لأن العبادة عمل، وإتقانها طريق إلى إتقان العمل الدنيوي، والسَّعي على الرزق سعياً متسلحاً باليقين والتوكل والعلم والخبرة والمعرفة.

- وقصة هذا الحديث تصور نموذجين بشريين وأخوين، لكل منهما طبيعته واهتماماته، أما أحدهما فكان متفقهاً في دينه، يحب أن يستمع إلى رسول الله ﷺ، وهذا الاستماع يعد عَمَلاً عِلْمياً ودينياً لأنه سَيَفْقِه دينَه، وسيفقه أحاديث رسول الله ﷺ، وربما يكون من المحدثين والرواة، وقد قال رسول الله ﷺ: ((رحم الله من سمع مني حديثاً، فبلغه، كما سمعه، فرب مبلِّغ أوعى له من سامع))[1].
- ولذلك نجد موقف المصطفى ﷺ موقفاً حكيماً يعطي للمعرفة قيمتها، وللعمل الدنيوي واليدوي قيمته، وحينما شكا المحترف أى صاحب الحرفة: وهى الصناعة وجهة الكسب، أخاه الذي يأتي النبي ويستمع إلى أحاديثه، ويغشى مجالسه، ولا يشارك أخاه الحرفة، قال له النبي ﷺ قولةً فيها إيناس وترضية وتسلية، وتأييد لهذا المنقطع إلى مجالس النبي ﷺ، قال: "لعلك ترزق به" وهذا رجاء من رسول الله ﷺ أن يرزق الله الأخ صاحب الحرفة بسبب جدّه وإخلاصه، وبسبب معاونته لأخيه الذي تفرغ لتحصيل الهداية والمعرفة، وربما لم تكن لديه الخبرة العملية، أو ربما كانت قواه الجسمية لا تساعده، أو ربما كان انقطاعه لمجالس الرسول عليه الصلاة والسلام، فيه فائدة لغيره من المسلمين، وذلك من صالح الأعمال، وما أشبه ذلك الموقف: بمن يرصد الأموال الضخمة للإنفاق على طلاب العلم، وفي حديث آخر إشارة إلى ذلك التوجه الحضاري في الإسلام حيث يقول: "وهل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم"[2].

---

(١) أخرجه الترمذي ٢٦٥٧، وابن حبان ٦٦-٦٩ وهذا لفظه، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه البخاري ٢٨٩٦ مرسلاً، ورواه النسائي موصولاً، انظر: فتح الباري، ابن حجر ١٤٢٠/١.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: القصة.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل تعلم العلم.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: فضل العمل والاحتراف.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: فضل إعانة الغير وكفالة طلاب العلم.

خامساً: من واجبات المدعو: سؤال أهل العلم عن الحلول لبعض المشكلات.

سادساً: من صفات الداعية: التبشير وتقديم حلول للمشكلات.

أولاً- من أساليب الدعوة: القصة:

في الحديث نقل لنا أنس بن مالك ﷺ قصة ذينك الأخوين الذين كان يحترف أحدهما ويأتي الآخر النبي ﷺ: (كان أخوان على عهد النبي ﷺ وكان أحدهما يأتي النبي ﷺ والآخر يحترف، فشكا المحترف أخاه للنبي ﷺ فقال: لعلك ترزق به) والقصة سواء في القرآن أو السنة لا يقصد بها سرد الوقائع وإنما المراد بها الاعتبار والعظة، لذا كانت القصة من أهم الأساليب الدعوية الناجحة، لذا ينبغي على الداعية ألا يهمل أسلوب القصة في دعوته لما يملكه هذا الأسلوب دائماً من الإثارة والجاذبية ما يأخذ بمجامع القلوب ويحرك الفكر إلى النظر تحريكاً ويهز النفس للاعتبار هزاً[1].

ولقد حفل القرآن الكريم بالكثير من قصص السابقين، كقصة ذي القرنين وأصحاب الكهف وقصة ابني آدم عليه السلام، وكثير من قصص الأنبياء عليهم السلام، وغير ذلك من القصص[2].

قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ﴾[3].

وذكر القرآن أنّ من أهداف القصة العظة، قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ

---

(١) انظر: الدعوة الإسلامية "أصولها ووسائلها"، د. أحمد أحمد غلوش ص ٢٩٣، ٣١٤.

(٢) انظر: القصة في القرآن الكريم، د. مريم عبدالقادر السباعي ص ٣٥.

(٣) سورة يوسف، آية: ٣.

ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل تعلم العلم:

لقد أكد متن الحديث ونصه على عِظم وشرف طلب العلم، وضرورة التفاني في تحصيله، فبعد أن اشتكى "المحترف" إلى النبي ﷺ في عدم مساعدة أخيه إياه في حرفته وفي كسب آخر لمعيشته[2]، نظرًا لطلبه للعلم والمعرفة، وذلك في قول أنس رضي الله عنه "كان أخوان على عهد رسول الله ﷺ فكان أحدهما يأتي النبي ﷺ والآخر يحترف، فشكا المحترف أخاه إلى النبي ﷺ" قال له ﷺ: "لعلك ترزق به".

قال المباركفوري: (أي: أرجو وأخاف أنك مرزوق ببركته)[3].

ويكفي بهذا بيان لأهمية طلب العلم وتعلمه، وكيف لا!!! وهو قمة العبادة؛ لأن نفع العلم يتعدى إلى الناس كافة، والعبادة مقصورة على صاحبها، والبون شاسع واسع.

وقد تداول هذا المفهوم في عقول سلف الأمة الصالح، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: تذاكر العلم بعض ليلة أحب إلى من إحيائها، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: الدراسة صلاة، وعن أبي هريرة رضي الله عنه: لأن أجلس ساعة فأفقه في ديني أحب إلي من أن أحيي ليلة إلى الصباح، وعن الحسن البصري قال: العالم خير من الزاهد في الدنيا، المجتهد في العبادة، وقال كذلك، من طلب العلم يريد به ما عند الله كان خيرًا له مما طلعت عليه الشمس[4]؛ فالعلم أشرف ما رغب فيه الراغب، وأفضل ما طلب وجد فيه الطالب، وأنفع ما كسبه واقتناه الكاسب[5].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: فضل العمل والاحتراف:

ورد ذلك في الحديث من خلال بيان أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: "كان أخوان على

---

(١) سورة هود، آية: ١٢٠.

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٢/١٨٦٣.

(٣) المرجع السابق ٢/١٨٦٣.

(٤) أسس العلم وضوابطه في السنة النبوية، د. فاروق حمادة، ١١١-١١٢.

(٥) أدب الدنيا والدين، الماوردي، ٤٠.

عهد رسول الله ﷺ فكان أحدهما يأتي النبي ﷺ والآخر يحترف"، أي: يكتسب أسباب المعيشة [١].

وقد حثّ الإسلام أتباعه على الكسب والعمل، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [٢]، فهو سبحانه جعل الأرض ذلولاً، والذلول: المنقاد من كل شيء والمعنى جعلها لكم سهلة لا يمتنع المشي فيها لحزونتها وغلظها فامشوا في مناكبها: جوانبها وطرقها وأطرافها ونواحيها فهو سبحانه سهل لكم السلوك فيها وكلوا مما خلقه الله لكم [٣].

وبيّن رسول الله ﷺ أن العمل والكسب عن طريق أي عمل مباح وحتى ولو كان ممتهناً عند بعض الناس خير للإنسان من أن يتكفف الناس، فعن الزبير بن العوام رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((لأنْ يأخُذَ أحدكم حبلَهُ فيأتيَ بحُزْمةِ الحطبِ على ظهرِهِ فيبيعَها فيَكفَّ اللّهُ بها وجهَهُ، خيرٌ لهُ من أنْ يسألَ الناسَ أعْطوْهُ أو منَعُوه)) [٤].

قال النووي: (فيه الحث على الصدقة والأكل من عمل يده والاكتساب بالمباحات)[٥].

وعاب القرآن الكريم على من ضاقت عليهم السبل وقترت الأرزاق فاستكانوا لتلك الحال ولم يتحركوا، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾ [٦].

إن الإسلام دين العمل والإنتاج، ودين السعي والكسب، والمؤمن مأمور أن يمشي

---

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٨٦٣/٢.

(٢) سورة الملك، آية: ١٥.

(٣) انظر: تفسير الخازن المسمى التأويل في معاني التنزيل، علاء الدين الخازن ٢٩١/٤.

(٤) أخرجه البخاري ٣٩٣.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٣١.

(٦) سورة النساء، آية: ٩٧.

في مناكب الأرض، ويبحث عن سبل العمل،وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾[1].

والمراد بالعمل بذل المجهود والأخذ بأسباب الإنتاج ووسائله. وقد اقتضت سنة الله في الخلق أن لا ينال الإنسان شيئاً مما على الأرض، أو مما في باطنها من نعم وأرزاق وأقوات إلا بجهد يُبذل، وعمل يؤدى.

والعمل نوع من العبادة بمعناها العام، وقد خلق الله الإنسان ليعمر هذه الأرض كما جاء في قوله تعالى: ﴿ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾[2].

ولكن اقتضت حكمة الله في الخلق أن هذه الأرزاق التي ضمنها والمعايش التي ينشرها لا تناسب إلا بعد أداء الشعائر التعبدية، وبعد مراعاة الأولوية كما في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[3].

هذا هو الترتيب والتوازن الذي يتسم به المنهج الإسلامي، التوازن بين مقتضيات الحياة في الأرض من عمل وكد ونشاط وكسب، وعزلة الروح فترة عن هذا الجو وانقطاع القلب وتجرده للذكر، وهي ضرورة لحياة القلب، لا يصلح بدونها للاتصال والتلقي والنهوض بتكاليف الإمامة الكبرى، وذكر الله لا بد منه في أثناء ابتغاء المعاش، والشعور بالله هو الذي يحول نشاط المعاش إلى عبادة، وإذا اختل التوازن وطغت المادة على الروح يجب محاسبة النفس، وإعادة أمور الترتيب والتوازن إلى ميزان الشرع.

ويشير القرآن الكريم إلى ذلك: وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا

---

(١) سورة الملك، آية: ١٥.

(٢) سورة هود، آية: ٦١.

(٣) سورة الجمعة، آية: ١٠.

عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾(١).

وفي الآية تلميح لهم بما عند الله، وأنه خير من اللهو ومن التجارة، وتذكير لهم بأن الرزق من عند الله، فلا بد من مراعاة الأولوية في العبادة، ولا بد من مراعاة معاني الاعتدال والتوازن في الأمور كلها، وقد يختل هذا التوازن حتى في أحسن الأحوال وأبرك زمان، فعن جابر رضي الله عنه قال: (أقبلت عير ونحن نصلي مع النبي ﷺ الجمعة فانفض الناس إلا اثني عشر رجلاً فنزلت هذه آية: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗا ...﴾(٢)، وهذا الحادث يكشف عن مدى الجهد الذي بذل في التربية وبناء النفوس حتى تجلت معاني الاعتدال، وحتى انتهت إلى إنشاء الجماعة المباركة التي تشبعت بروح الإسلام، وأدركت معاني التشريع وأسراره والمفاهيم الأولية وترتيبها في العبادات والمعاملات، فسادت وانقاد لها الجميع وتحقق بها الرقي للبشرية جمعاء.

والحادث يصور النفس البشرية بخيرها وشرها ويكشف عن مدى صلاحيتها للفلاح والتزكي بلا حدود مع الصبر والفهم والإدراك والثبات، وهي قابلة بأن تتخلى عن عاداتها البيئية، وتتقبل أحكام وتوجيهات الشريعة عندما تجد الموجه المخلص المتأسي برسول الله ﷺ.

ومن الناس من يحقر بعض الحرف ويستهين بها كما كان الحال عند كثير من العرب الذين يحتقرون الحرف والعمل اليدوي، فلما جاء الإسلام بدل هذه المفاهيم المغلوطة، ورفع من قيمة العمل أياً كان نوعه، وحقر من شأن البطالة والاتكال على الآخرين"(٣).

ومن أبرز الأحاديث في ذلك المقام ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((لأنْ يَحتَطِبَ أحدُكم حُزمةً على ظَهرِهِ خَيرٌ مِن أن يَسألَ أحداً فيُعطِيَهُ أو

(١) سورة الجمعة، آية: ١١.

(٢) سورة الجمعة، آية: ١١.

(٣) دراسات تربوية في الأحاديث النبوية، د. محمد الأعظمي، ص ٢٥٩ - ٢٦١.

يَمنعَه))[1]. وبعد هذا الحديث الموجز عن فضل العمل والاحتراف المستنبط من الحديث الذي نحن بصدد بيان مضامينه الدعوية، حيث أقر النبي ﷺ هذا "المحترف" الذي جاء يشكو أخاه الذي لا يعمل، وقال ﷺ مواسيًا له "لعلك تُرزق به" وفي هذا إقرار وتشجيع وبيان لفضل العمل والاحتراف الذي يُعد من أبرز و أهم أسباب صيانة كرامة المؤمن وتعففه عن مسألة الناس، وبيان لمكانة العمل والاحتراف التي لا تقل شأنًا في بعض الأحيان عن طلب العلم، لأن صيانة كرامة المؤمن، مسألة عظيمة يجب الحفاظ عليها واليد العليا خير من اليد السفلى.

رابعاً- من موضوعات الدعوة: فضل إعانة الغير وكفالة طلاب العلم:

في الحديث بيّن رسول الله ﷺ أنّ أصحاب الأموال والأعمال يرزقون بالضعفاء وذوي الحاجة، ومن لهم شاغل عن الاكتساب كطلب علم وغيره، وكما جاء في الحديث: (كان أخوان على عهد النبي ﷺ وكان أحدهما يأتي النبي ﷺ - أي لطلب العلم والمعرفة [2] - الآخر يحترف، فشكا المحترف أخاه إلى النبي ﷺ فقال: لعلك تُرزق به) أي: أرجو أنك مرزوق ببركته لأنه مرزوق بحرفتك فلا تمنن عليه بصنعتك[3].

وبيّن النبي ﷺ أن إعانة الغير سبب الرزق والنصر، خاصة إذا كانوا من العاجزين عن الكسب، ويلحق بهم من اشتغل عن الكسب بعلم نافع وغيره، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((ابْغُونِي فِي الضُّعَفَاءَ ؛ فَإِنَّمَا تُنْصَرُونَ، وَتُرْزَقُونَ بِضُعَفَائِكُمْ))[4].

وفي ذلك توجيه للمسلمين بتحمل القادرين منهم مسؤولية العاجزين، وتدعيم الأخوة

---

(١) أخرجه البخاري ٢٠٧٤.

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٢/١٨٦٣.

(٣) المرجع السابق ٢/١٨٦٣.

(٤) أخرجه أبو داود ٢٢٦٠، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢٥٩٤).

في الإسلام، وتقرير للمسؤولية الاجتماعية، ورفع لمكانة المسلمين[١].

خامساً- من واجبات المدعو: سؤال أهل العلم عن الحلول لبعض المشكلات:

يظهر ذلك في سؤال وشكاية الأخ المحترف أخاه إلى رسول الله ﷺ ليفصل بينهما أو يحث الآخر على العمل أو غير ذلك، مما دار في خلد ذلك المحترف، (فشكا المحترف أخاه للنبي ﷺ)، وقد أمرنا الله بالرجوع لأهل العلم إذا جهل الإنسان شيئاً أو استغلق عليه فهمه أو ما شاكل ذلك، فقال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٢]، قال القاسمي: "وفي الآية دليل على وجوب الرجوع إلى العلماء فيما لا يُعلم"[٣]، فإن العبد محتاج إلى معرفة الحق الذي يرضي الله في كل حركة ظاهرة وباطنة، فإذا عرفها فهو محتاج إلى من يلهمه قصد الحق، فيجعل إرادته في قلبه، ثم إلى من يُقدِّره على فعله، ومعلوم أن ما يجهله العبد أضعاف أضعاف ما يعلم، فهو مضطر كل وقت إلى هداية تتعلق بالماضي وبالحال والمستقبل[٤].

سادساً- من صفات الداعية: التبشير وتقديم حلول للمشكلات:

يتضح ذلك من خلال إجابة النبي ﷺ ذلك الأخ المحترف بما يبشره أن إعالته لأخيه طالب العلم سبب للرزق وجلب له، وفي ذلك الجواب من رسول الله ﷺ حل لمشكلة كان من الممكن أن تقع بين الأخوين، وقد ظهر من بوادرها ما جال في صدر الأخ المحترف وإقدامه على سؤال النبي ﷺ.

وفي رجوع الصحابة رضي الله عنهم إلى رسول الله ﷺ وإجابته لهم عما يسألون، حث للداعية على التواصل مع المدعوين، ومساعدتهم في حلّ مشكلاتهم وتقديم البُشرى لهم مما يضاعف هممهم في عمل الخير والتعاون على البر والتقوى.

---

(١) انظر: شرح رياض الصالحين، د. الحسيني عبدالمجيد هاشم، ص ٢١٨ - ٢١٩.

(٢) سورة النحل، آية: ٤٣.

(٣) محاسن التأويل، القاسمي مج٦/١٠/١١٢.

(٤) فضل العلم والعلماء، ابن قيم الجوزية ص ٢٥٧ - ٢٥٨.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: تربية النفس على اليقين والتوكل على الله:

إن الإسلام يهدف إلى تهذيب النفس الإنسانية وتربيتها على الإيمان الراسخ والثقة في الله تعالى والاطمئنان إلى رحمة الله تعالى من خلال ما يترسخ في النفس من معالم إيمانية تعمل على تنمية ملكات الخير لدى الإنسان من خلال استعراض بعض النماذج البشرية التي سمت على أنفسها من خلال تلك التربية الروحية التي عملت على ترسيخ اليقين والتوكل على الله وعدم التشكك، أو الاستسلام للقلق النفسي الذي يكون نتيجة لضعف الإيمان، مما يعمل على تسرب اليأس والوساوس إلى النفوس.

ولذا فإن النبي ﷺ يذكر في الحديث: الأمم التي عُرضت عليه فكان النبي من الأنبياء السابقين معه الرهيط، والنبي معه الرجل والرجلان...

ثم بين النبي ﷺ كثرة سواد أمته وهذا الصنف الذي أخبر ﷺ عنه أنه يدخل الجنة بغير حساب، وبيّن ﷺ حيثيات دخولهم الجنة بهذه الحالة -بغير حساب- لأن هؤلاء الذين تربّت أنفسهم على اليقين والتوكل على الله مما رسخ في نفوسهم الإيمان القوي، وقد أثار ذلك روح التنافس لدى الصحابة رضي الله عنهم فقام عكاشة بن محصن فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: "أنت منهم".

ثانياً: التربية بالتوجيه غير المباشر:

إن التوجيه غير المباشر هو دفع المربي أتباعه لعمل ما دون التصريح به، ولقد كان هذا الأسلوب من أكثر الأساليب التي اعتمدها الرسول ﷺ في تربيته لأصحابه رضي الله عنهم، بل لا تكاد تخلو أحاديثه وتوجيهاته وأقواله من هذا الأسلوب لما له من فوائد جمّة قد لا تتوفر في غيره، ومن فوائده:

١- أن الرسول ﷺ أراد أن يكون الدافع للعمل ذاتياً خالياً من ضغط العوامل الأخرى كالحياء والرياء والعاطفة والمجاملة.

٢- أن ينمّي عند الفرد المسلم القدرة على التصرف السليم واتخاذ القرار الصحيح المناسب.

٣- أن ينشئ الفرد على الثقة بالنفس واستقلال الشخصية حتى إذا فُقد المربي، استطاع المسلم الاستمرار بالعمل الصالح، وأن يشقَّ طريقه بنفسه.

٤- ربما توجد بعض النفوس التي تتثاقل من قبول النصيحة المباشرة، ويصيبها الخجل والإحباط إذا حصل التصريح بالتوجيه والإرشاد، فكان التوجيه غير المباشر دافعاً لما قد يحصل من ذلك.

٥-وقد يكون هناك من الأفراد من يستعظم عدم رضا مربيه، لاسيما إذا كان له مكانة في قلبه مثل رسول الله ﷺ، فيكون التوجيه المباشر ذا أثر سلبي على نفسيته قد يوقعه في القنوط[1].

إن النبي ﷺ كان يحرص دائماً على تربية أصحابه رضي الله عنهم وأمته على اليقين والتوكل على الله تعالى، وذلك من خلال عدد من الوسائط التربوية المناسبة لكل فئة من الناس. فقد كان ﷺ يحرص على الذكر والدعاء بقوله: ((....اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ. وَبِكَ آمَنْتُ. وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ. وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ...)).

وكان يعلم أصحابه ما يقولونه عند مواجهة الشدائد، مما يقوي عزيمتهم، ويعمق اليقين والتوكل في نفوسهم.

إن التربية الإسلامية تعمل على إشباع حاجة الإنسان إلى معرفته الحقيقية بالله تعالى وتنمية قيم اليقين والتوكل والاستعانة بالله تعالى في كل الأحوال.

لقد حرص النبي ﷺ على توجيه أصحابه رضي الله عنهم إلى أهمية الاعتماد على الله تعالى، وذلك من خلال موافقة العملية وأقواله المباشرة وغير المباشرة، ففي حرصه ﷺ على ملازمة الدعاء والاستسلام والتوكل على الله نوع من التوجيه التربوي غير المباشر لأهمية هذا الأمر وملازمته والحرص عليه، لما له من آثار طيبة في حياة المسلم، لأنه بحاجة إلى تأييد الله ونصرته، وهذا مما يقوي العزيمة، ويدفع إلى الجد والاجتهاد وعدم الخوف وعدم التخاذل، فما أكثر ما يواجهه الإنسان في حياته، ويحتاج إلى اليقين والتوكل.

---

(١) أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد محمود العاني، ٢٨٩.

ثالثاً- من أهداف التربية الإسلامية: تعميق معاني التوكل في النفوس:

إن تعميق معاني التوكل على الله في النفوس من الأهداف الرئيسة للتربية الإسلامية حيث يؤدي ذلك إلى علاج كثير من المشكلات التي يعانيها الإنسان في حياته، لأنه يبدد القلق ويبعث على الجد والاجتهاد في سائر الأمور، خاصة فيما يتعلق بأمور المعاش في الدنيا، والنبي ﷺ في الحديث يعمق معنى التوكل على الله في أمور الرزق، ويضرب مثالاً بالطير التي تصدق في توكلها فيرزقها من واسع فضله، تغدو خماصاً وتروح بطاناً.

وحديث ((لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ)) يدل على أن الناس إنما يؤتون من قلة تحقيق التوكل ووقوفهم على الأسباب الظاهرة بقلوبهم، فلذلك يُتعبون أنفسهم في الأسباب، ويجتهدون فيها غاية الاجتهاد، ولا يأتيهم إلا ما قدر لهم، فلو حققوا التوكل على الله بقولهم لساق الله تعالى إليهم أرزاقهم؛ بأدنى سبب، كما يسوق الطير إلى أرزاقها بمجرد الغدو والرواح، وهو نوع من الطلب أو السعي، لكنه سعي يسير.

والحديث لفتة عجيبة ولمحة نبوية لحقيقة التوكل وبيان لأثره. ومعنى قوله: ((لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ)) أي تعلموا يقيناً أن لا فاعل إلا الله، وأن لا معطي ولا مانع إلا هو، ثم يأتي بعد ذلك سعيكم تجاه سبل العيش، من باب اتخاذ الأسباب لا من باب أن الأسباب هي التي تنشئ النتائج فيُتّكل عليها.

فاتخاذ الأسباب عبادة وطاعة وتحقيق النتيجة قدر من الله، وبذلك يتحرر شعور المؤمن من التعبد للأسباب والتعلق بها، حينئذ يُرزق كما يرزق الطير، والمؤمن يدرك جيداً أن المقصود بها ليس إهمال الأرض وأسبابها؛ لأنه مكلّف بإحيائها وتعميرها، وإنما المقصود أن لا يعلّق نفسه بها، وأن لا يغفل عن الله في عمارتها ليعمل في الأرض وهو يتطلّع إلى السماء وليأخذ بالأسباب وهو يستيقن أنها ليست هي التي ترزقه، فرزقه مقدّر في السماء ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾[1].

---

(١) سورة الذاريات، آيتان: ٢٢، ٢٣.

والمسلم الحق هو الذي يفهم حقيقة التوكل الذي هو جزء من إيمانه وعقيدته، وعليه أن يتخذ من كافة الأسباب طريقاً لتحقيق هذه الغاية.

فالتوكل عند المسلم إذن هو تفويض وعمل مع هدوء قلب وطمأنينة نفس، واعتقاد جازم بأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

فالمؤمن يعيش آمناً على رزقه؛ لأن الأرزاق في ضمان الله الذي لا يخلف وعده ولا يضيع عبده، وقد خلق الأرض مهاداً وفراشاً وبساطاً، وبارك فيها وقدر فيها أقواتها، وجعل فيها معايش، ووعد عباده فيها بكفالة الأرزاق، وكرر وأكد وأقسم عليه ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾[1]، ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[2].

بهذه الضمانات يعيش المؤمن حياته آمنًا على رزقه، مطمئناً إلى أن الله لن يهلكه جوعاً.

هكذا كان ﷺ يربي أمته على مفاهيم التوكل المطلوب، ثم يختار لذلك مثالاً بديعاً من حياة الطيور وتحركاتها نحو مجالات الحياة، فهي تستيقظ في الصباح الباكر تسبح وتغرد ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾[3].

وبعد هذه العبادة المحببة تنطلق الطيور من أوكارها إلى ساحات الرزق من المزارع والبساتين، وإلى أماكن الحبوب والغلات، تنشط في البحث عن قوتها طوال النهار، وعندما تبدأ الشمس تميل إلى الغروب تعود إلى أعشاشها في أسراب وصفوف ممتلئة البطون ومنفذة لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾[4]، فحياة

---

(١) سورة هود، آية: ٦.

(٢) سورة العنكبوت، آية: ٦٠.

(٣) سورة الإسراء، آية: ٤٤.

(٤) سورة النبأ، آيتان: ١٠، ١١.

الطيور تمتاز بالانتظام في معاني التوكل، وباتخاذ الأسباب، وبالنشاط الدائب. هكذا المؤمن إذا اتخذ الأسباب وأدى الأمانة المطلوبة من العبادات والواجبات وانطلق نشيطاً دؤوباً مؤمناً بربه متوكلاً عليه واثقاً بوعده فيرزق كما يرزق الطير التي تغدو خماصاً وتروح بطاناً[(١)].

رابعاً: التربية بالترغيب:

ما أكثر أنواع التربية الإسلامية -التي تسهم في صياغة وبناء شخصية المسلم- ومن تلك الأنواع: التربية الترغيبية التي من خلالها تتم عملية تربية الإنسان بالترغيب في ثمرة العمل، مما يقوي الدافعية للعمل المُرغّب فيه، والنبي ﷺ رغّب الصحابة رضي الله عنهم والأمة من بعدهم في اليقين والتوكل وقد ورد ذلك في عدد من أحاديث باب اليقين والتوكل مثل قوله ﷺ: ((لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ)).

وقوله ﷺ: ((يَا فُلاَنُ إِذَا أَوَيْتَ إِلى فِرَاشِكَ فَقُلْ: اللَّهُمَّ أَسلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ....)).

إنه لمّا كان الإسلام هداية للناس جميعاً وواقعياً في جوانبه العملية كانت الواقعية فيه تتطلب إيجاد عُنصر الترغيب في وسائله التربوية للناس، وذلك في كل ما يهديهم إليه من خير، ويدعوهم إليه من فضيلة، وما ذاك إلا لكي يكفل استقامة النشء على طريق الإيمان ودلهم على ما يجب عليهم في هذا السبيل، فهنا يبدو جُهْدُ الآباء والموجّهين في الأسرة في تبصير ذرياتهم بطريق الإيمان وتزيينه أمامهم، ثم يأتي دور الأبناء في الاتباع عن يقين والاستقامة عن بيِّنه، لا تقليداً ومحاكاة، بل إقناعاً واعتقاداً، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾[(٢)].

وليس بغريب - الأمر كذلك- أن تكون التربية الترغيبية هي الأساس والعنصر

(١) انظر: دراسات تربوية في الأحاديث النبوية، د.محمد لقمان الأعظمي، ٩٤-٩٦.

(٢) سورة الطور، آية: ٢١.

الذي يقوم عليه الإصلاح الإسلامي في الأسرة، وفي المدرسة، وفي المجتمع الكبير مجتمع الأمة الإسلامية، فهي تعتبر أساساً محدداً لبناء شخصية الفرد، تلك الشخصية التي تهب نفسها لله تعالى في قيامها وجلوسها، في نومها ويقظتها، في غضبها ورضاها، في صداقتها وعداوتها، في بيعها وشرائها، في عملها وراحتها، في أفكارها وآرائها، في توجيهها وإرشاداتها، في نصائحها وتحذيراتها، في كل نفس تتنفسه أو طرفة عين تطرفها.

وتبرز أهمية التربية الترغيبية من كونها أسلوب رائع يساعد على نشر مكارم الأخلاق[1].

❁ ❁ ❁

(١) تربية الأبناء والبنات في ضوء الكتاب والسنة، خالد عبدالرحمن العك، ١٨٧.

٨- باب في الاستقامة

قَالَ اللهِ تَعَالَى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾[هود: ١١٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾[فصلت: ٣٠-٣٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[الأحقاف: ١٣-١٤].

الحديث رقم (٨٥)

٨٥- وَعَنْ أبي عمرو، وقيل أبي عمْرة سُفْيانَ بنِ عبد اللّه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قُلْتُ: يا رسول اللّهِ قُلْ لِي فِي الإسلامِ قَولاً لا أَسْأَلُ عنه أَحداً غيْركَ[١]. قال: «**قُلْ: آمَنْتُ باللّهِ: ثُمَّ اسْتَقِمْ**» رواه مسلم[٢].

ترجمة الراوي:

سفيان بن عبدالله الثقفي: وهو سفيان بن عبدالله بن أبي ربيعة بن الحارث الثقفي الطائفي، ويكنى بأبي عمرو، أو بأبي عَمْرَة.

حارب مع قومه في غزوة حنين ضد المسلمين إلا أن الله نجاه من القتل ثم مَنَّ عليه بالإسلام بعدها حيث أسلم مع ممن أسلم في وفد ثقيف.

روى عن النبي ﷺ وكان حريصًا على السؤال عما ينفعه، فسأل النبي ﷺ عن جامع أوصاف الإسلام فأجاب عليه النبي ﷺ بإجابة هي من جوامع كلمه ﷺ كما ورد في نص حديث الباب؛ ففي صحيح مسلم عن سفيان بن عبدالله الثقفي، قال: قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدًا بعدك، وفي حديث أبي

---

(١) زاد مسلم: (وفي حديث أبي أسامة: غيرك).

(٢) برقم (٦٢/٣٨).

أسامة "غيرك" قال: ((قل آمنت بالله ثم استقم))[(١)].

وكان ممن وهبه الله حكمة وحنكة في سياسة الأمور وإدارة الأعمال فولاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه على الطائف[(٢)].

غريب الألفاظ:

استقم: قال العلماء: معنى الاستقامة لزوم طاعة الله تعالى[(٣)].

الشرح الأدبي

هذا الحديث من جوامع كلمه ﷺ، وقال العلماء في بيان قيمة هذا الحديث ومعرفة فضله وأثره الحميد في تهذيب السلوك، وصحة العقيدة، مع الإيجاز الشديد، يقولون: هذا أحد الأحاديث التي عليها مدار الإسلام.

وذلك لأن هذه الحديث مع إيجازه الشديد أرشد إلى كل ما في الإسلام من عقائد وعبادات ومعاملات؛ لأن الإيمان والاستقامة ينطويان ويومضان بكل هذه الأبعاد.

- ويقدِّم الجاحظ معالم فنية دقيقة للبيان النبوي، وهذا الحديث يعد شاهدًا تطبيقيًا على هذه المعالم، حيث يقول الجاحظ محددًا سمات البيان النبوي: "هو الكلام الذي قل عدد حروفه، وكثر عدد معانيه، وجل عن الصنعة، ونزه عن التكلف وألقى الله المحبة عليه، وغشاه بالقبول، وجمع بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام"[(٤)].
- وحين نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في ضوء الحديث ندرك أن وصف الجاحظ دقيق وعميق، وصادق وشائق، فالحديث سؤال وجواب، والسؤال

---

(١) أخرجه مسلم ٣٨.

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر (٢٩٥)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير (٤٩٦/٢، ٤٩٧)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني (٥١٤)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي (٢٢١/٣)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٥٨/٢، ٥٩).

(٣) رياض الصالحين ٨٤ الباب (٨).

(٤) البيان والتبيين.

يبدو في ظاهرة أنه يحتاج إلى إجابة مطوَّلة، وإلى كلام كثير، ولكن المصطفى ﷺ الذي أُعطي جوامع الكلم أعطى الجواب المقنع، والدواء الشافي في جملتين قصيرتين لكنهما تحتاجان إلى شروح مطوَّلة، وإلى مجاهدة ومقاومة لكل المغريات والمثبطات.

- وأسلوب الحوار هو الصيغة المقنعة في كثير من الأحاديث النبوية، والحوار بين أبي عمرو سفيان بن عبدالله ورسول الله ﷺ، ويبدأ الحوار بهذا النداء الجميل الذي يفصح عن رغبة السائل وطالب النصيحة في المعرفة، والوصول إلى الحقيقة الساطعة التي لا تحجبها غيوم الحيرة والشك، وهذا النداء "يا رسول الله" يؤكد محبة هذا السائل للرسول ﷺ، بصفته رسولاً ونبيًا وكذلك محبته لشخصه وذاته، والشاهد أنه قال: "قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدًا بعدك"، وفعل الأمر "قل" ليس على حقيقة الأمر النحوي ولكنه التماس ورغبة في المعرفة والهداية، ولذلك قال: "قل لي" وتحديد القول بأنه يؤكد حاجته الشديدة إلى فهم الإسلام فهمًا صحيحًا. والإيجاز البلاغي يفصح عنه قوله "في الإسلام"، أي: في دينه وشريعته، و"في" تفيد الرغبة في التعمق والفهم، ولذلك لم يقل "عن الإسلام"، وتنكير قولاً يعطي الأهمية لهذا القول: لأنه قول جامع لكل معاني الإسلام في العقائد والعبادات والمعاملات، ويؤيد هذا التفسير: قوله: لا أسأل عنه أحدًا غيرك، أى: لا أحتاج إلى توضيح ولا إلى مزيد من التصريح بعد التلميح، ويجئ الجواب في صيغة الأمر "قل" والأمر يفصح عن الوجوب، وقوله "آمنت بالله" مقول القول، وهو الإقرار بكل متعلقات الإيمان وشروطه التي لابد أن تتحقق، فالإيمان هو التصديق بالجنان، والإقرار باللسان، والعمل والأركان، والاستقامة تترجم الإيمان إلى سلوك يتضمن كل ألوان النشاط العملي. ولذلك جاءت الصيغة اللغوية في أسلوب الأمر "ثم استقم". والعطف بـ"ثم" وراءه سر من أسرار النظم في البيان النبوي، وهو أن ترجمة الأقوال

والمعتقدات القلبية إلى سلوك عملي في كل مناحى الحياة تحتاج إلى تأنٍ ومجاهدة وتفكر وتدبر وصبر واحتساب؛ ولذلك جاء العطف بـ"ثم" لتربط بين الجملتين الجامعتين المانعتين، ولم يقل "واستقم" أو "فاستقم"؛ لأن آفاق المعنى في الحديث تتسع وتمتد إلى ما لا نهاية، ولا بد من الإيمان أولاً ثم تطبيق هذا الإيمان وترجمته إلى سلوك إسلامي رشيد.

- وأصل الاستقامة استقامة القلب على التوحيد، كما فسر أبو بكر الصديق وغيره قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾[(١)]. بأنهم لم يلتفتوا إلى غيره[(٢)]، فمتى استقام القلب على معرفة الله وعلى خشيته وإجلاله ومهابته ومحبته وإرادته ورجائه ودعائه، والتوكل عليه والإعراض عما سواه، استقامت الجوارح كلها على طاعته ...، وأعظم ما يراعى استقامته بعد القلب من الجوارح اللسان، فإنه ترجمان القلب والمعبر عنه، ولهذا لما أمر النبي ﷺ بالاستقامة -في بعض الروايات[(٣)]- وصاه بعد ذلك بحفظ لسانه[(٤)]، وفي مسند الإمام أحمد: عن أنس عن النبي ﷺ قال: «لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه»[(٥)(٦)].

---

(١) سورة فصلت، آية: ٣٠ .

(٢) انظر: تفسير الطبري: "جامع البيان" ٤٢٣/٢٠.

(٣) وهذه الروايات ذكرها ابن رجب في جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٥٠٦/١ وعزاه لمن أخرجها من المحدثين أصحاب الكتب.

(٤) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ص ١٧٩.

(٥) أخرجه أحمد ١٩٨/٣، وابن أبي الدنيا في الصمت ٩، وضعّفه محققو المسند: ٣٤٣/٢٠، ١٣٠٤٨.

(٦) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٥١٢/١ بتصرف يسير.

المضامين الدعوية

أولاً: من واجبات المدعو: الاستفسار والسؤال عما يعنيه.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: أهمية التعرف على القضايا الأساسية في الدين.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل الإيمان بالله.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل الاستقامة.

خامسًا: من أساليب الدعوة: الأمر.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: مراعاة الأولويات.

أولاً- من صفات المدعو: الاستفسار والسؤال عما يعنيه:

إن من أهم ما يجب أن يقوم به المؤمن الاستفسار والسؤال عما يعنيه، وقد ظهر ذلك في سؤال سفيان بن عبد الله رضي الله عنه في سؤاله وطلبه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول له في دين الله وشريعته قولاً جامعًا لمعاني الدين، واضحًا في نفسه لا يحتاج إلى تفسير غيره[1]، قائلاً: (قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدًا غيرك)، وحتى يتسنى له عبادة الله والدعوة إليه على علم وبصيرة: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾[2]، أي: قل يا محمد هذه الدعوة التي أدعو إليها، والطريقة والسنة والمنهاج الذي أنا عليه، على بصيرة ويقين منه أنا ومن اتبعني[3].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: أهمية التعرف على القضايا الأساسية في الدين:

إن أول ما ينبغي التعرف عليه في الدين قضاياه الكلية والأساسية التي لا يقوم الدين بدونها، ونرى ذلك في الحديث في سؤال سفيان بن عبد الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإسلام ككل: قل لي في الإسلام قولاً، وإجابة الرسول صلى الله عليه وسلم له مركزًا له على الإيمان والاستقامة عليه: "قل آمنت بالله ثم استقم"، فإن أول ما ينبغي على المسلم أن

---

(١) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٢٠٩.

(٢) سورة يوسف، آية: ١٠٨.

(٣) انظر: زاد المسير في علم التفسير، أبو الفرج بن الجوزي ٤/٢٩٥.

يتعرف على الإسلام، مصادره وأصوله وأركانه، وأن تكون معرفته به معرفة يقينية عميقة، لا سطحية مضطربة[1]. حتى يتسنى للمؤمن معرفة أصول الدين التي تتبني عليها الفروع ولا شك أن أصول الدين وأسسه إذا كانت صحيحة وواضحة ومستقرة وراسخة في العقل والقلب فإنها تثمر ثمارًا طيبة في مجال السلوك والأعمال مما يؤدي إلى استقامة حياة المؤمن.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل الإيمان بالله:

مما يدل على فضل الإيمان ما جاء في الحديث من أمر رسول الله ﷺ به، وتقديمه على غيره: "قل آمنت بالله ثم استقم" وفي ذلك دليل على أن من شرط صحة الأعمال الصالحة وقبولها أن تكون مبنية على الإيمان، فلو أن الإنسان عمل بظاهره على ما ينبغي ولكن باطنه خراب، وفي شك واضطراب، أو في إنكار وتكذيب فإن ذلك لا ينفعه[2].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل الاستقامة:

أشار الرسول ﷺ إلى فضل الاستقامة في الحديث بذكرها والأمر بها بعد الإيمان: (قل آمنت بالله ثم استقم)، فالاستقامة كلمة جامعة، آخذة بمجامع الدين، وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق والوفاء بالعهد[3]، وقد أمرنا الله بالاستقامة في كثير من الآيات منها قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾[4]، وهي سلوك المستقيم وهو الدين القيم من غير تعريج عن يمنة ولا يسرة ويشمل ذلك فعل الطاعات كلها، الظاهرة والباطنة وترك المنهيات كلها كذلك، فصارت الوصية بالاستقامة جامعة لخصال الدين كلها[5].

---

(١) انظر: ثقافة الداعية، د. يوسف القرضاوي ص ٩.

(٢) شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين ١/ ٢٧٣.

(٣) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١/ ٥١٠.

(٤) سورة فصلت، آية: ٦.

(٥) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١/ ٥١٠.

وأصل الاستقامة: استقامة القلب على التوحيد، كما فسر أبو بكر الصديق ﵁ وغيره قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾[١]، بأنهم لم يلتفتوا إلى غيره، فمتى استقام القلب استقامت الجوارح كلها على طاعة الله، فإن القلب هو ملك الأعضاء وهي جنوده فإذا استقام الملك استقامت جنوده ورعاياه[٢].

قال القرطبي في شرحه لهذا الحديث: (قوله: "قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدًا بعدك" أي: علمني قولاً جامعًا لمعاني الإسلام، واضحًا في نفسه؛ بحيث لا يحتاج إلى تفسير غيرك، أعمل عليه وأكتفي به، وهذا نحو مما قاله له الآخر: علمني شيئًا أعيش به في الناس ولا تكثر علي فأنسى، فقال: ((لا تغضب))[٣]، وهذا الجواب، وجوابه بقوله: "قل آمنت بالله ثم استقم"، دليل على أن النبي ﷺ أوتي جوامع الكلم، واختصر له القول اختصارًا كما قال النبي ﷺ مخبرًا بذلك عن نفسه.

فروي عن أبي هريرة ﵁ عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((أُوتيتُ جَوامِعَ الكَلِم...))[٤]. فإنه عليه الصلاة والسلام جمع لهذا السائل في هاتين الكلمتين معاني الإسلام والإيمان كلها. فإنه أمره أن يجدد إيمانه متذكرًا بقلبه وذاكرًا بلسانه. ويقتضي هذا استحضار تفصيل معاني الإيمان الشرعي بقلبه، وأمره بالاستقامة على أعمال الطاعات، والانتهاء عن جميع المخالفات؛ إذ لا تتأتى الاستقامة مع شيء من الاعوجاج فإنها ضده. وكأن هذا القول منتزع من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾[٥]، أي: آمنوا بالله ووحدوه، ثم استقاموا على ذلك وعلى طاعته إلى أن توفوا عليها، كما قال عمر بن الخطاب ﵁: استقاموا والله على طاعته، ولم يروغوا

---

(١) سورة الأحقاف، آية: ١٣.

(٢) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١/ ٥١٠.

(٣) أخرجه البخاري ٦١١٦.

(٤) أخرجه مسلم ٥٢٣.

(٥) سورة فصلت، آية: ٣٠.

روغان الثعالب. وملخصه: اعتدلوا على طاعة الله تعالى عقدًا وقولاً وفعلاً، وداموا على ذلك)[١].

خامسًا- من أساليب الدعوة: الأمر:

ورد هذا الأسلوب في الحديث في أمر رسول الله ﷺ بالإيمان والاستقامة: "قل آمنت بالله ثم استقم"، وأسلوب الأمر من الأساليب الدعوية المفيدة لما فيه من حمل المدعو على الاستجابة لما دُعي إليه، خاصة إذا كان المدعو يكنّ احترامًا للداعي وقبولاً لدعوته.

سادسًا- من موضوعات الدعوة: مراعاة الأولويات:

يتضح ذلك من خلال أمر رسول الله ﷺ بالإيمان الذي هو أس الدين ودعامته ثم الأمر بالاستقامة: "قل آمنت بالله ثم استقم"، لذا ينبغي على الدعاة والمسلمين عامة أن يراعوا الأولويات في دعوتهم وحياتهم، فعلى الداعية أن يبدأ بالأهم ثم المهم، أن يبدأ بالعقيدة قبل العبادة، وبالعبادة قبل مناهج الحياة، وبالكليات قبل الجزئيات، ومما يؤكد هذه الأهمية دعوة النبي ﷺ إلى ما هو أهم عما هو مهم في الفترة المكية، ففي هذه الفترة ركز على الإيمان والوحدانية، والتعرف على الله، والرد على مزاعم الدهريين ومنكري البعث وإقامة الحجة عليهم ودحض مفترياتهم حتى إذا دخل القوم حظيرة الإسلام، وخالط الإيمان بشاشة قلوبهم، جاءت مرحلة المهم، ألا وهي التزام القوم الإسلام على أنه أصول المعاملة، ومبادئ حكم، ومناهج حياة وغير ذلك، وهذا ما ركز عليه في الفترة المدنية[٢].

---

(١) انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ١/٢٢١ - ٢٢٢.

(٢) انظر: كيف يدعو الداعية، د. عبدالله ناصح علوان، ص ٤٦ - ٤٩.

الحديث رقم (٨٦)

٨٦- وعنْ أبي هُرِيْرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : قال قال رسول اللّه ﷺ : «قَارِبُوا وسدِّدُوا، واعْلَمُوا أنَّه لَنْ ينْجُو أحدٌ منْكُمْ بعمله» قَالوا : ولا أنْت يَا رسُولَ اللّه؟ قال: «ولا أنَا إلا أنْ يتَغَمَّدني اللّه برَحْمةٍ منْه وَفضْلٍ» رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

قاربوا : المقاربة: القصد الذي لا غُلُوَّ فيه ولا تقصير[٢].

سدِّدوا : السداد : الاستقامة والإصابة[٣].

يتغمدني: يلبسنيها ويسترني بها ، مأخوذ من غِمْدِ السَّيف وهو غلافه، يُقال: غمدتُ السَّيف وأغمدتُه[٤].

الشرح الأدبي

من إشراقات هذا الحديث الشريف نقتبس بعض الإشعاعات التي تنير لنا طريق الهداية وتأخذ بيدنا إلى واحة النجاة والفوز في الدارين: الدنيا والآخرة.

والحديث يثير تساؤلات كثيرة حول حقيقة العمل الصالح الذي به ينجو الإنسان من مزالق الفتن.

- والإنسان مهما بالغ في أداء الواجبات فإنه لن يصل إلى درجة الكمال، ولن

---

(١) برقم (٢٨١٦/٧٦). وأخرجه أيضًا البخاري (٦٤٦٣). انظر: الجمع للحميدي (١٠٢/٣، رقم ٢٢٩٤). تنبيه: لعل الحديث اشتبه على المؤلف بحديث آخر لأبي هريرة ولفظه: (قاربوا وسددوا، ففي كل ما يصاب به المسلم كفارة حتّى النكبة ينكبها، والشوكة يشاكها) رواه مسلم (٢٥٧٤) وأورده المنذري في ترغيبه (٥٠٢٤).

(٢) رياض الصالحين ٨٤، والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ق ر ب).

(٣) رياض الصالحين ٨٤، والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (س د د).

(٤) رياض الصالحين ٨٤، والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (غ م د).

يستطيع بهذه الأعمال شكر الله عز وجل على نعمه التي لا تُحصى. وفي هذا الحوار بين النبي وصحابته، يعلم المصطفى ﷺ المنهج السديد في أداء العبادة والقيام بالتكاليف فيقول في صيغة الأمر الواجب تنفيذه: "قاربوا وسددوا"، والمقاربة تكون في العبادة والسلوكيات العملية في ضوء المنهج الإسلامي، وهو منهج وسط لا غلو فيه ولا تقصير، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، والسداد: "الإصابة في جميع الأقوال والأعمال والمقاصد" وهذا التعبير "سددوا" فيه تصوير بلاغي، ونزوع إلى التشبيه فالمسلم في عمله مثل الذي يرمي إلى غرض فيصيبه، والمادة اللغوية لهذا الفعل تؤكد هذه الدلالة التي توجه إلى إصابة الغرض، ومن معاني المقاربة التي يرشد إليها الحديث في منهج المسلم (أن يصيب ما قرب من الغرض إذا لم يصب الغرض نفسه، ولكن بشرط أن يكون مصممًا على قصد السداد، وإصابة الغرض، فتكون مقاربته عن غير عمد)[1]، ويدل عليه قول النبي ﷺ في حديث الحكم بن حزن الكُلَفي: ((أيها الناس إنكم لن تطيقوا -أو لن تفعلوا- كل ما أمرتكم به ولكن سددوا وأبشروا))[2].

- والإيجاز في الحديث يحتاج إلى تأمل وتفكر وتدبر، فالمقاربة والسداد في كل ما أمرنا به الله ورسوله يحتاج الكلام فيهما إلى بسط القول وشرح آراء العلماء كلٌ حسب مذهبه ومنهجه، ولكن البيان النبوي واضح كالشمس، سائغ كالماء العذب الفرات، ولذلك لم يسأل الصحابةُ عن كيفية المقاربة وكيفية السداد، ولم يسألوا عن حدود ومجالات كل منهما، ويكفي أن المقاربة هي القصد الذي لا غلو فيه ولا تقصير، وأن السداد هو الاستقامة والإصابة، ولذلك استفهم الصحابة وقالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ وهنا إيجاز ورغبة في المعرفة، أي: ولا أنت ناج بعملك يا رسول

---

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي ٥١١/١.

(٢) أخرجه أبو داود ١٠٩٦، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود، ٩٧١).

الله، أو لا تنجو أنت، والاستفهام هنا حقيقي لكنه يفصح عن الدهشة والحيرة، ويجيب المصطفى في صدق ومحبة وإخلاص قائلاً: "ولا أنا"، والتعبير بقوله: "يتغمدني" فيه تصوير أدبي يفصح عن المعنى ويجعل الرحمة كأنها غمد، وتوحي برحمة الله الواسعة وعفوه الكريم فيغمر الله عباده، وأولهم المصطفى ﷺ برحمته وعفوه وجوده.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الأمر.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل المقاربة والتسديد.

ثالثًا: من مهام الداعية: إعلام المدعوين بالحقائق.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: حاجة الإنسان إلى فضل الله تعالى.

خامسًا: من أساليب الدعوة: الحوار.

سادسًا: من واجبات المدعو: الاستفسار والسؤال عما يعنيه.

أولاً- من أساليب الدعوة: الأمر:

إن الأمر من الأساليب الدعوية التي تستخدم لحمل المدعوين على الاستجابة لأمر من الأمور التي ينتفعون بها في دنياهم وأخراهم، وقد ورد هذا الأسلوب في الحديث في قوله ﷺ: "قاربوا وسددوا واعلموا"، وأسلوب الأمر من الأساليب الدعوية الناجحة لما فيه من توجيه المدعوين إلى ما فيه الخير وحملهم عليه وترغيبهم فيه.

وقد ورد تكرار أسلوب الأمر كثيرًا في الآيات القرآنية والسنة النبوية المطهرة، كقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1]، (وأسلوب الأمر أسلوب يتسابق المؤمنون لتحقيقه والوفاء بالمراد

---

(١) سورة الحج، آية: ٧٧.

منه، فلا تأخر ولا تلكؤ ولا تراجع، وهذا هو مقتضى الإيمان، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه، والاستجابة لأوامر الله تحقيقًا لعبودية الله وطاعته"[١].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل المقاربة والتسديد:

من مميزات الإسلام أنه راعى في تشريعاته طبيعة الإنسان، وراعى الطاقة المحدودة له، وطبيعة الملل في الإنسان[٢]، فلم يأمره بعبادة لا يطيقها، ولم يأمره بالإكثار منها كثرة تمل منها النفوس وإنما أمر بالمقاربة والتسديد، وكما في الحديث قوله ﷺ: (قاربوا وسددوا)، أي: سددوا في الأعمال؛ أي: اعملوها مسددة لا غلو فيها ولا تقصير، وقاربوا في أزمانها بحيث لا يكون فيها تقصير، ولا تطويل، وأبشروا على ذلك بالثواب الكثير والخير الجزيل[٣]، فالسداد هو الصواب وهو بين الإفراط والتفريط، وقوله (قاربوا) معناه: اطلبوا السداد والصواب واعملوا به، وإن عجزتم عنه فقاربوه أي اقربوا منه[٤]، فإن الإنسان مهما بلغ من التقوى، فإنه لا بد أن يخطئ وتلك طبيعته، فعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: ((كلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاء، وَخيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ))[٥]، فالإنسان ليس مطالبًا بمثالية مطلقة، وإنما هو مأمور أن يقارب ويسدد بقدر ما يستطيع[٦].

وقال تعالى: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾[٧]، إشارة إلى أنه لا بد من تقصير في الاستقامة المأمور بها، فيجبر ذلك بالاستغفار المقتضي للتوبة والرجوع إلى الاستقامة[٨]، والمقاربة والتسديد.

---

(١) العهد والميثاق في القرآن الكريم، د. ناصر بن سليمان العمر، ص ٥٠ - ٥١.

(٢) انظر: الخصائص العامة للإسلام، د. يوسف القرضاوي، ص ١٦٣ - ١٦٥.

(٣) المفهم، القرطبي ١٣٩/٧.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٦٥٠.

(٥) أخرجه الترمذي ٢٤٩٩، وحسنه الألباني، (صحيح سنن الترمذي ٢٠٢٩).

(٦) انظر: شرح رياض الصالحين ٢٧٤/١.

(٧) سورة فصلت، آية: ٦.

(٨) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٥١٠/١.

ثالثًا- من مهام الداعية: إعلام المدعوين بالحقائق:

إن مما يضطلع به الداعية من مهام إعلام المدعوين بحقائق دينهم، حتى يعبدوا الله على بصيرة وبينة مثلما أمر النبي ﷺ معاذ بن جبل رضي الله عنه لما بعثه إلى اليمن بقوله: ((فادعهم... فأعلمهم... الحديث))[١]، وفي هذا الحديث بيّن الرسول ﷺ أهمية المقاربة والتسديد في العمل، والاجتهاد قدر الطاقة والوسع، وبيّن ﷺ الحقيقة الساطعة: أنه لن ينجو أحدٌ بعمله، حتى النبي ﷺ؛ إلا أن يتغمده الله برحمته، وهذا يُعد من أمانة الدعوة والداعية في كشف الحقائق وبيانها حتى لا يغتر الإنسان بعمله.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: حاجة الإنسان إلى فضل الله تعالى:

إن الاعتماد على الله وحده والتسليم إليه في كل الأمور من سمات المتقين، وعلامات الصابرين، وهو سبيل النجاة والفوز بالسعادة، إذا صاحبه العمل بما أمر الله، والنهي عما نهى عنه، فمهما بلغ مقدار العمل، ومهما عظمت قيمة المجاهدة، فإنها لا تؤهل صاحبها لدخول الجنة، أو النجاة من النار، إذا غفل العبد عن الله في عمله، أو ادعى أن له استحقاقًا بهذا العمل، فالنعم كلها من الله، ومنها نعمة التوفيق إلى عمل الخير والمعاونة على إتمامه وإكماله. فلا يرهقن العبد نفسه فوق طاقتها، ولا يبالغ في كمية العبادة وحسابها دون اعتبار بكيفيتها وروحها، وليخلص لله عمله، ولا يعتمد على مجرد العمل في الوصول إلى غايته المقصودة وأمله المرجو. ورحمة الله هي المقصود الأعظم من العمل ليعطي ثمرته، وفضل الله الواسع سبيل النجاة، وبدونه لا نجاة. فليطلبها العبد من ربه وليعمل قدر جهده[٢].

وقد بيّن النبي ﷺ في الحديث حاجة الإنسان إلى فضل الله ورحمته فقال: (واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله، قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل)، أي: إن أعمال العباد الصالحة ليست مما تقتضي دخول الجنة؛ إذ ليست في أنفسها على صفاتٍ تقتضي ذلك، ولا يستحق المكلّف على

---

(١) أخرجه البخاري ١٤٥٨.

(٢) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم، ص ٩٢ - ٩٣.

الله تعالى بسببها شيئًا؛ إذ لا منفعة له فيها ولا غرض؛ فإنه الغني بذاته؛ الذي لا يستغنى عنه. وكأن هذا نص في الرد على أهل البدع، والمعتزلة في قولهم في قاعدتي التحسين والتقبيح، والاستحقاق العقليين.

وقولهم: "ولا أنت؟" كأنهم وقع لهم: أن النبي ﷺ لعظيم معرفته بالله، وكثرة عباداته؛ أنه يُنجيه عمله، فردّ النبي ﷺ ذلك بأن قال: "ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة وفضل"، فسوى بينه وبينهم في ذلك المعنى، وأخبر أنه عن فضله ورحمته لا يُستغنى)[1].

فهو سبحانه يكرم المطيعين والصالحين من عباده ويدخلهم الجنة، فضلاً منه ومنّة، فهو الذي فرض الأعمال ويوفقه إليها ويهدي للإخلاص فيها، ويقبلها برحمة منه وفضل[2]، فالعمل وحده لا يبلغ ما يجب لله عز وجل من الشكر وما يجب على عباده من الحقوق، والإنسان مهما بلغ من المرتبة والولاية فإنه لن ينجو بعمله ولكن يتغمده الله سبحانه العبد برحمته فيغفر له[3].

خامسًا- من أساليب الدعوة: الحوار:

يُعد الحوار من الأساليب الدعوية النافعة التي تعمل على إثراء العملية الدعوية، وتفتح الطريق أمام الداعية والمدعو لتقليب الرأي والتعرف على الأدلة في الموضوع الذي يتناوله الحوار، وقد أتاح النبي ﷺ الحوار لأصحابه رضي الله عنهم، في مسألة "كون العمل منفردًا لا يؤهل صاحبه لدخول الجنة" حيث ورد في الحديث: "واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل"، والحوار: مناقشة بين طرفين أو أطراف، بقصد تصحيح كلام، وإظهار حجة، وإثبات حق، ودفع شبهة، والغاية منه إقامة الحجة، ودفع الشبهة، فهو تعاون على معرفة الحقيقة والتوصل إليها ليكشف كل طرف ما خفي على صاحبه منها، والسير بطرق

---

(١) المفهم، القرطبي ١٣٩/٧ - ١٤٠.

(٢) انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٤٩.

(٣) انظر: شرح رياض الصالحين ٢٧٤.

الاستدلال الصحيح للوصول إلى الحق[١].

سادسًا: من واجبات المدعو: الاستفسار والسؤال عما يعنيه:

إنه مما ينبغي على المدعو الاستفسار والسؤال عما يعنيه، طلبًا لزيادة في العلم وفقه في الدين، فإن لسان حال ومقال المسلم دائمًا طلب العلم، قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[٢]، دعاءً وطلبًا للتفقه في الدين وتعلمه وتعليمه، بل إن الله ليعدل طلب العلم بالجهاد بأن أمر المسلمين أن تنفر طائفة منهم للجهاد وأخرى للعلم، فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[٣][٤]، ولهذا وغيره وجدنا حرص الصحابة على سؤال النبي ﷺ كما في الحديث الذي معنا: (واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل).

ولا شك أن استفسار المدعو وسؤاله عما يعنيه، يؤدي إلى نوع من القناعة وتصحيح المفاهيم السائدة والمستقرة في ذهنه والتي قد يشوبها بعض الخطأ، ومن ثم فإن المدعو ينتفع انتفاعًا كبيرًا من خلال تلك الاستفسارات والأسئلة التي تجعله على بينة من أمره.

---

(١) معالم في منهج الدعوة، صالح بن عبد الله بن حميد ص ٢١٢ - ٢١٣.

(٢) سورة طه، آية: ١١٤.

(٣) سورة التوبة، آية: ١٢٢.

(٤) انظر: فضل العلم والعلماء، ابن قيم الجوزية ص ١١٣ - ١١٤.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- من أهداف التربية الإسلامية: الربط بين القول والعمل:

إن من أبرز الأهداف الرئيسة للتربية الإسلامية الربط بين القول والعمل، لأن المؤمن حينما يتربى على هذا الأمر، يتحلى بالمصداقية والشفافية في التعامل، حتى يُعوِّل في حياته على العمل المطابق لما يعتقده ويؤمن به، ولا يكترث بالشعارات الرنانة، ومن هنا جاءت التربية الإسلامية لتؤكد على أهمية الترابط بين القول والعمل، ولذا لما سُئل النبي ﷺ من أحد الصحابة رضي الله عنهم حيث قال للنبي ﷺ: "قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدًا غيرك، قال: قل آمنت بالله ثم استقم".

لقد أكد النبي ﷺ في تربيته لأصحابه رضي الله عنهم على أهمية الترابط بين القول والعمل حتى يتحول الإيمان إلى سلوك وواقع يعيشه المؤمن ويتربى عليه المجتمع.

ثانيًا- التربية على ملازمة الطاعات والطمع في رحمة الله وفضله:

إن التربية الإسلام تتميز بالواقعية والصدق، حيث تحث المسلم على المقاربة في الأعمال وعدم الغلو والتنطع، وتنأى بالمسلم عن المشقة التي تؤدي إلى الانصراف عن العمل، والزهد فيه، ولذا فإن التربية الإسلامية تُعَمِّق في النفوس معاني الاستقامة على المنهج الإسلامي الصحيح، وفي الوقت ذاته تطالب بالوسطية وعدم الغلو، وتربي المسلم على ملازمة الأعمال الصالحة والاستمرار عليها، وعدم التقصير فيها.

وإن من أبرز ما تُعنى به التربية الإسلامية: عدم التعويل المحض على الأعمال وحدها، بل لابد أن يكون واضحًا في نفس المسلم أنه مع قيامه وملازمته للأعمال الصالحة، فإن الأمل في رحمة الله والطمع في فضله هو الأساس في القبول والنجاة والفوز في الدنيا والآخرة، ولذا فقد ربّى النبي ﷺ أصحابه رضي الله عنهم على ذلك حيث قال: "قاربوا وسددوا، واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل" كل ذلك ليؤكد ﷺ على الحقائق التي يجب أن يتربى عليها المسلم وتتربى عليها الأمة الإسلامية، حتى تكون المعالم واضحة في الأذهان.

٩- باب في التفكر في عظيم مخلوقات الله

وفناء الدنيا وأهوال الآخرة وسائر أمورهما وتقصير النفس وتهذيبها وحملها على الاستقامة

قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تقومُوا للّهِ مَثْنَى وفُرادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾[سبأ: ٤٦] وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّموات والأَرْضِ واخْتلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرونَ اللَّه قِياماً وَقُعُوداً وعَلَى جُنُوبِهِمْ ويَتَفَكَّرُون فِي خَلْقِ السَّمواتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطلاً سُبْحَانَك﴾ الآيــات [آل عمران ١٩٠، ١٩١]. وقال تعالى: ﴿أفلا يَنْظُرونَ إِلَى الإِبلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعتْ وإِلَى الْجبالِ كَيْفَ نُصِبتْ وَإِلى الأَرضِ كيفَ سُطِحتْ فَذَكِّرْ إنما أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ١٧، ٢١]. وقال تعالى: ﴿أفلَمْ يَسيروا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُروا﴾[محمد: ١٠]. الآية والآيات في الباب كثيرةٌ. ومِنْ الأحَاديث الحديث السَّابق:

«الْكَيِّس مَنْ دَانَ نَفْسَه»[1].

(١) تقدم تخريجه برقم (٦٦).

١٠- باب في المبادرة إلى الخيرات

وحثّ من توجّه لخير على الإقبال عليه بالجدّ من غير تردّد

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾[البقرة: ١٤٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[آل عمران: ١٣٣].

وأما الأحاديث:

الحديث رقم (٨٧)

٨٧- **فالأوَّل:** عَنْ أبي هريرة ﷺ أن رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**بادِروا بالأعْمالِ الصَّالِحةِ، فستكونُ[١] فِتَنٌ كقطعِ اللَّيلِ المُظْلمِ يُصبحُ الرجُلُ[٢] مُؤمناً ويُمْسِي كافراً، و[٣] يُمسِي مُؤْمناً ويُصبحُ كافراً، يبيع دينه بعَرَضٍ من الدُّنْيا**» رواه مسلم[٤].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

بادروا بالأعمال: سابقوا وسارعوا[٥].

كقطع الليل المظلم: قطع الليل: طائفة منه وجزء، أراد فتناً مظلمة سوداء؛ تعظيماً لشأنها[٦].

عَرَض من الدنيا: العَرَض: متاع الدنيا وحُطامها قلّ أو كثر[٧].

---

(١) قوله: (الصالحة، فستكون) لا يوجد عند مسلم، ولفظه: (بادروا بالأعمال فتنًا).

(٢) عند مسلم زيادة: (فيها).

(٣) لفظ مسلم: (أو) بدل الواو.

(٤) برقم (١١٨/١٨٦). أورده المنذري في ترغيبه (٤٩١١).

(٥) المفصح المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٥١.

(٦) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ق ط ع).

(٧) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير والوسيط في (ع ر ض).

الشرح الأدبي

تتصاعد من كلمات هذا الحديث أشعة كالشظايا تتناثر في فضاءات النفس، وتنذر بالكثير من الشهب التي ستصيب الذين لم يأخذوا حذرهم، ولم يبادروا بفعل الصالحات المنجّيات من الأعمال، ويتصدر هذا الحديث باب المبادرة إلى الخيرات، والإقبال على الخير بجد من غير تردد.

ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث المنذر الذي ينبه الناس إلى عدم الاستكانة، وعدم الغفلة.

ويبدأ الحديث بفعل الأمر الجماعي "بادروا بالأعمال الصالحة" وهذا الأمر كلمة واحدة، ولكنها تتوجه إلى الملايين من أمة الإسلام في كل زمان ومكان، والأمر للوجوب، والمبادرة هي الإسراع والتنفيذ، والأعمال الصالحة، ما مقياسها، وما حدودها، وما شروطها؟ إنها كلمة موجزة، ولكنها كالشمس تصدر أشعتها في كل مكان، وتشمل بآثارها كل المنجزات في أي زمان، فالأعمال الصالحة تتسع لتشمل كل ما يقوم به المؤمن من إنجاز دنيوي يكسبه قوة علمية واقتصادية وحضارية، وكل ما يلتزم من أداء العبادات وجميع التكاليف الشرعية: في ظل إخلاص النية، وسلامة القصد، وقوة الإرادة.

والقسم الثاني من الحديث تشخيص وتوصيف لما سيحدث من فتن تذر الحليم حيران، ولذلك جاء التعبير بالفعل المضارع المقترن بالسين "ستكون" ليدل على ما سيحدث في المستقبل من مفاجآت وأهوال. واختيار المادة اللغوية "تكون" له أثر في تأكيد وقوع هذه الفتن، فهي كائنة وثابتة وليست توقعاً أو ظناً، وإنما هي حقيقة كائنة، وعلى الأمة جميعها اليقظة، والمبادرة بالأعمال الصالحة، وتنكير كلمة، "فتن" دلالة على عدم تحديد نوع هذه الفتن أو مكانها، وإنما هي عامة شائعة: لاندري من أين تأتي، ولا كيف تقع، والمادة اللغوية "فتن" تؤكد الخطر الذي تحدثه "الفتن".

ويصور المصطفى ﷺ الفتن كأنها قطع الليل المظلم، وما أروع هذا التشبيه، وما أصدقه، لأنه ينبئ عن توالي الفتن وتجددها: فتن السراء، وفتن الضراء، وهي تحجب

الرؤية الصحيحة، وتعطل الفكر الصائب وتقود الإنسان إلى القلق والاضطراب، ومن أقسى مظاهر هذه الفتن التحول من الإيمان إلى الكفر وهو يحدث للذين لم يبادروا بالأعمال الصالحة؛ فالشيطان يفتنهم في دينهم، ويزين لهم الشهوات؛ فيبيعون دينهم بمتاع الدنيا القليل. والطباق بين الزمنين "يصبح ويمسي" وبين الصفتين "المؤمن والكافر" يحدث مقابلة في الموقف تدعو للتأمل واليقظة والحذر والحرص على النجاة.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الأمر.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: أهمية المبادرة إلى الأعمال الصالحة.

ثالثاً: من أساليب الدعوة: الترهيب.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: الحذر والاحتراز من الفتن.

خامساً: من أساليب الدعوة: التشبيه.

سادساً: من تاريخ الدعوة: وقوع الفتن.

سابعاً: من واجبات الداعية: تحذير المدعوين من الفتن.

أولاً- من أساليب الدعوة: الأمر:

من أساليب الدعوة الناجحة أسلوب الأمر، وقد جاء في الحديث حيث أمر النبي ﷺ وحث على اغتنام الأعمال الصالحة قبل ظهور ما يمنعها[1] قائلاً: (بادروا بالأعمال)، منتهجاً في إرشاده أسلوب الأمر لما فيه من لفت نظر المدعو إلى أهمية المأمور به، وعدم التفريط به.

ويأتي الأمر في القرآن والسنة لتعظيم شأن المأمور به، وتنبيهاً على وجوب الوفاء به وعدم الإخلال بمقتضاه تحقيقاً لعبودية الله وطاعته[2]، ومن أوامر القرآن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[3].

---

(١) تطريز رياض الصالحين، فيصل بن عبد العزيز آل مبارك ص ٨٣.

(٢) العهد والميثاق، د. ناصر بن سليمان العمر ص ٥١.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢١.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: أهمية المبادرة إلى الأعمال الصالحة:

لقد أرشد النبي ﷺ المؤمنين وحثهم على المبادرة إلى الأعمال الصالحة فقال: (بادروا بالأعمال، فستكون فتن كقطع الليل المظلم) أي قبل تعذرها والاشتغال عنها بما يحدث من الفتن الشاغلة المتكاثرة[١]، وفائدة المبادرة بالعمل إمكانه قبل شغل البال والحشد بالفتن، وقطعها عن العمل[٢].

وقد ورد الأمر بالمسارعة والمسابقة في كثير من آيات القرآن منها قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[٣]، وقوله: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[٤]، ففي هذه الآية ندب الله عباده إلى المسابقة إلى ما يوجب المغفرة من التوبة والعمل الصالح فإن ذلك سبب الجنة، فقال "سابقوا" أي: سارعوا مسارعة السابقين بالأعمال الصالحة[٥]، وقد طبق السلف الصالح ما جاء في الآية من المسابقة تطبيقاً عملياً في كل شيء.

قال ابن رجب الحنبلي: (وفي قوله: "سابقوا إلى مغفرة من ربكم"، قال مكحول: التكبيرة الأولى مع الإمام، وقال غيره: التكبيرة الأولى والصف الأول[٦]، قال الشوكاني: وهذا من جملة ما تصدق عليه الآية صدقاً شمولياً أو بدلياً)[٧].

ثالثاً- من أساليب الدعوة: الترهيب:

جاء هذا الأسلوب ضمنياً في الحديث حيث أمر النبي ﷺ بمبادرة الأعمال الصالحة ويحمل الأمر في مضمونه ترهيباً من تأخير العمل الصالح خشية أن يحول بينه

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٦٨، شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٥٢/١٠.

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٤٠٥/١.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٣٣.

(٤) سورة الحديد، آية: ٢١.

(٥) فتح القدير، الشوكاني ١٧٥/٥.

(٦) تفسير ابن رجب الحنبلي ٣٨٦/٢.

(٧) فتح القدير، الشوكاني١٧٥/٥.

وبينه بما يحدث من الفتن، والترهيب من أساليب الدعوة المؤثرة في المدعوين، فكما تقاد النفس عن طريق الرغبة تقاد عن طريق الرهبة[١].

وقد وصف الله عباده بالخوف والرهبة منه وأنهم في عباداتهم وتوجههم إلى ربهم يجمعون بين الخوف والرجاء، قال تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[٢]، وقد أمر سبحانه باستحضار جانب الخوف من الله خاصة في العبادة، قال تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾[٣]، قال مجاهد: (من القنوت: الركوع والخشوع وغض البصر، وخفض الجناح من رهبة الله، وبين الله تبارك وتعالى أن الرهبة من الله وخشية جانبه إنما يكون نتاجاً للعلم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[٤]، قال قتادة: كفى بالرهبة علماً)[٥].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: الحذر والاحتراز من الفتن:

لقد حذر النبي ﷺ من الفتن، وأمر بالتسلح لها والاعتضاد بالعمل الصالح، خشية فوات العمل الصالح على الإنسان، ومن ناحية أخرى لا تتقلب عليه الفتن كهذا الإنسان الذي إذا ما نزلت الفتن به يصبح مؤمناً ويمسي كافراً أو عكسه، فقال ﷺ: "بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً يبيع دينه بعرض من الدنيا"، أي: سابقوا بالأعمال الصالحة هجوم المحن المانعة منها، السالبة لشرطها، المصحح لها الإيمان، كما قال: "يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً"، ولا إحالة ولا بُعد في حمل هذا الحديث على ظاهره؛ لأن المحن والشدائد إذا توالت على القلوب أفسدتها بغلبتها عليها، وبما تؤثر فيها من

---

(١) مع الله "دراسات في الدعوة والدعاة"، محمد الغزالي ص ٣١٦.

(٢) سورة السجدة، آية: ١٦.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٣٨.

(٤) سورة فاطر، آية: ٢٨.

(٥) جامع البيان، الطبري ١/١٩٩.

القسوة، ومقصودُ هذا الحديث الحض على اغتنام الفرصة، والاجتهاد في أعمال الخير والبر عند التمكن منها قبل هجوم الموانع.

وقوله: "يبيع دينه بعرض من الدنيا"، عرض الدنيا بفتح العين والراء: هو طمعها وما يعرض منها، ويدخل فيه جميع المال. قاله الهروي. فأما العرض بإسكان الراء: فهو خلاف الطول، ويقال على أمور كثيرة، والعرض بكسر العين وسكون الراء: هو نسب الرجل وجسمه وذاته. ومقصود هذا الحديث الأمر بالتمسك بالدين، والتشدد فيه عند الفتن، والتحذير من الفتن، ومن الإقبال على الدنيا وعلى مطامعها"[1].

وقال النووي في شرح الحديث: (وصف النبي ﷺ نوعاً من شداد تلك الفتن وهو أن يمسي مؤمناً ثم يصبح كافراً أو عكسه، وهذا لعظم الفتن ينقلب الإنسان في اليوم الواحد هذا الانقلاب)[2].

"فلا تتباطأ في العبادة ولا تتغافل عن الأعمال الصالحة ولا تُفرط في ساعات الفراغ، بل استغلها فيما يقرب إلى الله من ذكر أو عبادة، فإنك لا تدري ما يحدث في المستقبل، إن الأيام قد تتغير والظروف قد تتبدل، والفتن قد تزداد حلكتها، ويشتد سوادها، فلا يتبين فيها الإنسان وجه الحق، أو لا يستطيع الصبر فيها على الحق، بل قد ينحرف عن دينه، ويكفر بعد إيمانه انسياقاً مع المغريات، وخوفاً من تحمل التبعات والمشقات، وقد يبيع الإنسان بعض أمور الدين في سبيل الكسب المادي، فيغش أو يخون أو يغدر أو يستغل، ليجمع الدنيا ويخسر دينه وليحقق أسباب الهناء المادي الجسدي على حساب روحه ونفسه ودينه وآخرته. فلنحذر الفتن ولنستغل أوقات الأمان"[3].

خامساً- من أساليب الدعوة: التشبيه:

استعمل النبي ﷺ هذا الأسلوب حيث شبه الفتن بقطع الليل المظلم، فقال: "بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم" فأخبر أنه ستوجد فتن كقطع الليل المظلم،

---

(١) المفهم، القرطبي ٣٢٦/١.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٨.

(٣) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم، ص ٩٤.

يعني أنها مدلهمة مظلمة لا يرى فيها النور -والعياذ بالله- ولا يدري الإنسان أين يذهب؟ يكون حائراً ما يدري أين المخرج؟)[١]، فالتشبيه يقرب المعاني ويضع صورتها مثيرة لدى المستمع[٢]، ويشبه الأمور المعنوية الخفية بأمور محسوسة تقربها للأذهان بل تكاد تظهرها للعيان[٣].

فضرب الأمثال من وسائل التربية التي اعتبرها الشرع الحنيف وأكثر القرآن من ذكرها، كما قال تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾[٥]، (فمن تدبير الله لعباده أن ضرب لهم الأمثال من أنفسهم لحاجتهم إليها ليعقلوا بها فيدركوا ما غاب عن أبصارهم وأسماعهم الظاهرة فمن عقل الأمثال سماه الله تعالى في كتابه عالماً)[٦]، قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾[٧].

سادساً- من تاريخ الدعوة: وقوع الفتن:

إن العلم بتاريخ الدعوة يظهر للإنسان ثقل وحجم الشيء الذي يخبر به، ترغيباً أو ترهيباً، فيكون أدعى ما يكون إلى الاستجابة، ومما ورد الإشارة إليه في الحديث وقوع الفتن، قال ابن عثيمين: (والفتن منها ما يكون في الشبهات وهي كل فتنة تبنى على جهل ومن ذلك ما حصل من أهل البدع، ومنها ما يكون من الشهوات بمعنى أن الإنسان يعرف أن هذا حرام ولكن يفعله استجابة واتباعاً لهوى نفسه)[٨]، بل يصل

---

(١) شرح رياض الصالحين ٢٨٩/١.

(٢) انظر: الدعوة الإسلامية "أصولها ووسائلها"، د. أحمد أحمد غلوش، ص ٣٥٥.

(٣) انظر: تذكرة الدعاة، البهي الخولي، ص ٩٣.

(٤) سورة النور، آية: ٣٥.

(٥) سورة إبراهيم، آية: ٤٥.

(٦) الأمثال من الكتاب والسنة، أبي عبدالله محمد بن علي الحكيم الترمذي ص ١٦ - ١٧.

(٧) سورة العنكبوت، آية: ٤٣.

(٨) انظر: شرح رياض الصالحين ٢٨٧/١ - ٢٨٨.

الحال بالبعض إلى أن يتنازل عن دينه أو شيء منه مقابل عرض من أعراض الدنيا كما في الحديث: (يبيع دينه بعرض من الدنيا).

سابعاً- من واجبات الداعية: تحذير المدعوين من الفتن:

إنه مما يجب على الداعية تجاه المدعوين أن يحذرهم من الفتن، وأن يبين لهم ماهيتها، وسبل البعد عنها واجتنابها، وأن يدعوهم إلى عدم التلبس بأسبابها ووسائلها، حتى يكون المدعوون على بينة منها فيأخذوا حذرهم نتيجة تحذير الداعية لهم تنفيذاً لأمر الله عز وجل: ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[1]، واقتداءً برسول الله ﷺ الذي كثيراً ما حذر من الفتن، وبيّن كيفية التعامل معها إذا وقعت، ومن ذلك ما جاء في الحديث الذي معنا: "بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم"، ومن ذلك أيضاً ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((ستكونُ فِتَنٌ القاعدُ فيها خيرٌ من القائم، والقائم خيرٌ منَ الماشي، والماشي فيها خيرٌ من الساعي، مَن تَشَرَّفَ لها تَستشرِفْه، فَمن وَجَدَ ملجأً أو معاذاً فَليَعُذْ بِهِ))[2]، "أي: من وجد ملجأ يلتجئ إليه من شرها أو معاذاً فليعتزل فيه ليسلم من شر الفتن"[3].

---

(١) سورة التوبة، آية: ١٢٢.

(٢) أخرجه البخاري ٧٠٨٢.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ٣٤/١٣.

الحديث رقم (٨٨)

٨٨- **الثَّاني:** عنْ أبي سِرْوَعَةَ بكسرِ السين المهملةِ وفتحها عُقبةَ بنِ الْحارِثِ ﵁ قال: صليت وراءَ النَبيِّ ﷺ بالمدينةِ الْعصْرَ، فسلَّم ثُمَّ قَامَ مُسْرِعاً، فَتَخَطَّى رِقَابَ النَّاسِ إلى بعض حُجَرِ نسائِهِ، فَفَزِعَ النَّاس من سرعَتِهِ، فخرج عَليهمْ، فرأى أنَّهُمْ قدْ عَجِبوا منْ سُرْعتِه، قالَ: «**ذكرتُ شيئاً من تبْرٍ عندَنا، فكرِهْتُ أن يحبسَنِي، فأمرْتُ بقسْمتِه**» رواه البخاري[1].

وفي رواية له[2]: «**كنْتُ خلَّفْتُ في الْبيتِ تِبراً من الصَّدقةِ، فكرِهْتُ أنْ أُبَيِّتَه**».

ترجمة الراوي:

أبو سروعة النوفلي: وهو الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف القرشي المكنى بأبي سروعة النوفلي، وسروعة ضبطها بفتح السين وإسكان الراء عند الأكثر، وقيل بكسر السين مع إسكان الراء. وهو من عداد أهل الحجاز.

وقد اختلط نسبه على البعض فظنوه عقبة بن عامر، وهذا ليس بصحيح كما جزم الكثير، فهو ليس هو وإنما هو أخو عقبة بن عامر لأمه.

وهو الذي قتل خبيباً بن عديّ، ثم شاء الله له بعد ذلك الهداية فأسلم عام الفتح، مات في خلافة الزبير[3].

غريب الألفاظ:

تَخَطَّى رقاب الناسِ: مشى خُطْوَةً[4] قاطعًا صفوف المسلمين بعد صلاتهم.

---

(١) برقم (٨٥١).

(٢) رواها البخاري (١٤٣٠) وزاد في آخرها: (فقسمته).

(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر (٨١٨)، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير (١٣١/٦، ١٣٢)، الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني (٩١٩)، (١٤٨١)، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي (٣١٧/٨)، تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (١٢١/٣، ١٢٢)، (٥٢٦/٤).

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (خ ط و).

التبر: الذهب والفضة قبل أن يُضربا دنانير ودراهم، وقد يُطلق على غيرهما من المعدنيات كالنحاس والحديد والرصاص، وأكثر اختصاصه بالذهب[١].

يحبسني: أي يشغلني التفكر فيه عن التوجه والإقبال على الله تعالى[٢].

الشرح الأدبي

هذا موقف عظيم من مواقف النبوة، ومشهد جليل من مشاهد الرسالة، لا ينسب في مقام العظمة والورع إلا لنبي، ولا يشار إليه في سياق التفرد والقدوة إلا لرسول يبلغ عن ربه.

ومحمد ﷺ، هو المثل الأعلى في كل شيء، في الأخلاق، ونقاء الأصول، والشجاعة، والصدق، والفطانة، والبيان المشرق، والسلوك الأمثل، والعطاء والجود والكرم. وقد خلق محمد بن عبدالله -كما يقول العقاد- ليكون رسولاً مبشراً بدين، وإلا فلأي شيء خلق؟ ولأي عمل من أعمال الحياة ترشحه كل هاتيك الصفات والتوفيقات، وكل هاتيك المناقب والصفات؟ وما من أحد قد أعد في هذه الدنيا لرسالة دينية إن لم يكن محمد قد أعد لها أكمل إعداد[٣].

وهذا الحديث يصور موقفاً عملياً من مواقف الأسوة الحسنة التي يضيء بها رسول الله ﷺ حياة كل مسلم، ويضع أمامه النموذج الأمثل للسلوك الإسلامي القويم.

فالصلاة مناجاة بين العبد وربه، ولكن آثارها تضبط السلوك، وتنهي عن الفحشاء والمنكر، وهذا الأثر الإيماني في تقويم السلوك: هو الدرس الذي نتعلمه من هذا الموقف العظيم، ويروي عقبة بن الحارث وتأتي روايته لهذا الموقف في صيغة الأفعال الماضية، لأنه يسرد حدثاً من الأحداث المؤثرة التي لا تنساها الذاكرة الإسلامية، فالرسول من صفاته التريث والسكينة والهدوء، فلماذا اليوم يصلي ثم يقوم مسرعاً ويتخطى رقاب الناس؟ أمر يدعو للعجب، فأي أمر حدث؟ ولنتأمل هذه الأفعال: "صليت، فسلم، ثم قام

---

(١) رياض الصالحين ٨٦، والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ت ب ر).

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٢/٣٩٣.

(٣) عبقرية محمد للعقاد، وانظر: مطلع النور للعقاد، المجلد السابع الأعمال الكاملة، ص ٢١٥-٢١٦.

أو فقام، فتخطى رقاب الناس ففزع الناس، فخرج، فرأى، فقال، فكرهت فأمرت إن الأفعال الماضية المتوالية وحرف العطف، الفاء، يدلان على سرعة الحركة، وعلى المبادرة المصحوبة بالنية الخالصة، والعمل الصالح. ولنتأمل هذه العبارة "فتخطى رقاب الناس" وهو رسول الله ﷺ و"تخطى" تعبير يحدد أن الناس ما زالوا جالسين، بعد انتهاء الصلاة للدعاء وللذكر، أما إذا كانوا واقفين فيقال خرق الصفوف، لكل من يمشي بين الناس.

وكان إسراع النبي ﷺ ليعلم الأمة الإسراع في فعل الخير، ويفسر الرسول ﷺ هذا الموقف الذي أفزع الناس بأنه ذكر بعض أموال الصدقة لم يقسم، فخاف أن يشغله ذلك عن التوجه والإقبال على الله سبحانه وتعالى، والعطف بالفاء في كل جمل الحديث يومئ إلى سرعة الحركة، وحرص الرسول ﷺ على تقسيم الصدقة، يقول: "فكرهت أن أبيته" أي: أتركه في البيت ولا أعطيه لمستحقيه، إنه درس في القيادة والمسؤولية والورع والتقوى، فهل يتعلم ولاة أمور الإسلام؟ وهل يستيقظون؟.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى أكثر من حكم فقهي:

الأول: حكم المكث في المسجد بعد الصلاة، وقد ذكر الفقهاء(1) أن المكث بعد الصلاة ليس بواجب، وإن كان مستحباً المكث فيه قليلاً بعد الفرائض.

الثاني: حكم تخطي الناس في المسجد، وقد ذكر الفقهاء(2) أن التخطي يختلف حكمه باختلاف الأحوال فهو في يوم الجمعة جائز للإمام، إن لم يكن له طريق غيره،

---

(1) فتح الباري، ابن حجر ٣٣٧/٢، والتاج والإكليل ٤٣٧/٢، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين عبدالرحيم بن الحسن ٣٦٥/٢، وتحفة المحتاج ١٠٧/٢.

(2) فتح الباري، ابن حجر ٣٣٧/٢، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد الباجي ٢٠٣/١، والأم، الإمام الشافعي ٢٢٨/١، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٤١٨/٤ وما بعدها، والمغني، ابن قدامة ١٠٠/٢، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين أبو الحسن علي بن سليمان المرداوي ٤١٠/٢، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٤٧/١١.

وأما غير الإمام فقد ذكر الحنفية والمالكية: أنه يجوز لمن رأى فرجة أن يتخطى إليها ما لم يؤذ أحداً، ويجوز تخطي رقاب من يجلسون على باب المسجد، أما التخطي للحاجة كأن جلس في مكان، أو بدت له حاجة وأراد التخطي لها فهو مباح في الجمعة وغيرها من الصلوات.

الثالث: حكم التفكير في الصلاة في أمر لا يتعلق بها، وقد ذكر الفقهاء(١) أن التفكير في الصلاة في أمر لا يتعلق بها لا يفسدها ولا ينقص من كمالها وإن كان ذلك مكروهاً.

الرابع: إنشاء العزم في أثناء الصلاة على الأمور الجائزة لا يضر(٢).

الخامس: حكم الاستنابة مع القدرة على المباشرة، وقد ذكر الفقهاء(٣) أن العبادات المالية المحضة، كالزكاة، والصدقات، والكفارات تجوز فيها الاستنابة سواء مع القدرة على المباشرة أو العجز عنها، أما العبادات البدنية المحضة، كالصلاة، والصيام فلا تجوز فيها الاستنابة حال الحياة.

المضامين الدعوية

أولاً: من واجبات الداعية: المسارعة في التحلل من المسؤوليات وأداء الأمانات.

ثانياً: من صفات الداعية: التفرس في أحوال المدعوين.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: أهمية إبراء الذمة.

أولاً- من واجبات الداعية: المسارعة في التحلل من المسؤوليات وأداء الأمانات:

إن المسارعة في التحلل من المسؤوليات وأداء الأمانات أمر بالغ الأهمية ويستوجب المسارعة

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٣٣٧/٢، وشرح الخرشي ٢٩٣/١.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٣٣٧/٢.

(٣) تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، الزيلعي ٨٥/٢، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن المغربي ٥٤٣/٢، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد الباجي ٦٣/٢، ٩٤، وأنوار البروق ٢٠٥/٢، وفتح الباري، ابن حجر ٣٣٧/٢، وقواعد الأحكام ١٧٢/٢، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين أبو الحسن علي بن سليمان المرداوي ٣٦٠/٥، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٣٣٤/٢.

إليه، وهذا واضح في الحديث من خلال مسارعته ﷺ لدرجة فزع منها الناس، فكما روي عن عقبة: (صليت وراء النبي ﷺ بالمدينة العصر، فسلم ثم قام مسرعاً فتخطى رقاب الناس إلى بعض حجر نسائه، ففزع الناس من سرعته فخرج عليهم، فرأى أنهم عجبوا من سرعته فقال: "ذكرت شيئاً من تبر عندنا فكرهت أن يحبسني فأمرت بقسمته"، وهذا الذي وقع للنبي ﷺ من جنس ما كان يقع لعمرَ؛ فإن مال الصدقة تشرعُ المبادرة بقسمته بين أهله ومستحقيه، فكان من شدة اهتمام النبي ﷺ بذلك يتذكره في صلاته، فيقوم عقب ذلك مسرعًا حتى يقسمه بين أهله. وهذا كله من اجتماع العبادات وتداخلها، وليس هو من باب حديث النفس المذموم[1]، وقد أمر الله سبحانه وتعالى بأداء الأمانات إلى أهلها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾[2].

يقول ابن كثير رحمه الله ي هذه آية: (يخبر الله تعالى أنه يأمر بأداء الأمانات إلى أهلها، وهذا يعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان، من حقوق الله عز وجل على عباده، من الصلوات والزكوات وغيرها، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض كالودائع وغير ذلك مما يأتمنون به، فمن لم يفعل ذلك في الدنيا أُخذ منه ذلك يوم القيامة)[3]، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقُ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ. حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ))[4].

إن الأمانة من علامات استقامة الفطرة وسلامتها من اتباع الهوى، والأمانة لا تقتصر عند مجرد الحفاظ على الودائع وردّها إلى أصحابها وإنما يتسع معناها لأكثر من ذلك فتشمل جميع وظائف الدين والحياة قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٤٣٤/٦.

(٢) سورة النساء، آية: ٥٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣٣٨/٢ - ٣٣٩.

(٤) أخرجه مسلم ٢٥٨٢. هذا والشاة الجلحاء هي التي انحسر شعرها من جانبي رأسها، الوجيز في (ج ل ح)، والقرناء هي التي التقى طرفا حاجبيها، الوجيز في (ق ر ن).

وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾[١].

قال القرطبي رحمه الله (والأمانة تعم جميع وظائف الدين على الصحيح من الأقوال)[٢]، كما يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾[٣]، (والأمانة والعهد: يجمع كل ما يحمله الإنسان من أمر دينه ودنياه قولاً وفعلاً، وهذا يعم معاشرة الناس، والمواعيد، وغير ذلك. وغاية ذلك حفظه والقيام به)[٤].

وحين يعم التعامل بالأمانة يؤدي الذي اؤتمن أمانته، سواء اؤتمن على قنطار أو دينار، لأن الله أمر بأداء الأمانات إلى أهلها، ونهى عن خيانة الله والرسول، وخيانة الأمانات، وجعل من صفات المفلحين أنهم يرعون عهودهم وأماناتهم. والنفوس البشرية بفطرتها تميل إلى الناصح الأمين، وتثق بالقوي الأمين، حتى غير المسلمين يؤثرون الأمين، فقد روي في قصة أهل نجران لما وافقوا على دفع الجزية أنهم قالوا: (إنّا نعطيكَ ما سألتَنا، وابعَثْ معنا رجُلاً أميناً، ولا تبعَثْ معنا إلاّ أميناً. فقال: لأبعثنَّ معكم رجلاً أميناً حقَّ أمين)[٥]، وأرسل معهم أبا عبيدة.

إن من أغلى ما يرزقه الله للعبد، ولا يحزن بعده على أي عرض من الدنيا، ما جاء في الحديث: ((أَرْبَعٌ إِذَا كُنَّ فِيكَ فَلاَ عَلَيْكَ مَا فَاتَكَ مِنَ الدُّنْيَا: صِدْقُ الْحَدِيثِ، وَحِفْظُ الأَمَانَةِ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ، وَعِفَّةُ مَطْعَمٍ))[٦]، فالأمانة ركن من هذه الأركان الأخلاقية الأربعة، التي لا يعدلها شيء في الدنيا، بل قد تكون سبباً في إقبال الدنيا على العبد لما يجده الناس فيه.

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٧٢.

(٢) فتح القدير، الشوكاني ٣٠٨/٤.

(٣) سورة المؤمنون، آية: ٨.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي مج ٧٣/١٢/٦.

(٥) أخرجه البخاري ٤٣٨٠.

(٦) أخرجه أحمد ١٧٧/٢ رقم ٦٦٥٢، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٧٣٣، وصحيح الجامع ٨٨٦.

والأمانة صفة مميزة لأصحاب الرسالات، فقد كان كل منهم يقول لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾[١].

وكانت تلك شهادة أعدائهم فيهم، كما جاء في حوار أبي سفيان وهرقل، حيث قال هرقل: (سألتُك ماذا يأمُرُكم ؟ فزعمتَ أنهُ يأمرُ بالصلاةِ والصِّدق والعفاف والوفاءِ بالعَهدِ وأداءِ الأمانة، قال: وهذه صِفَةُ نبيّ)[٢]، وفي موضع آخر في صحيح البخاري: (...وسألتُكَ هل يَغدِرُ؟ فزَعمتَ أن لا، وكذلكَ الرُّسُلُ لا يغدرون...)[٣].

ولئن كانت هذه صفة أصحاب الدعوات فإن أتباعهم كذلك متميزون ولذلك اقترن تعريف المؤمن بسلوكه المميز، حيث قال ﷺ: ((وَالْمُؤْمِنُ مَنْ أَمنهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ))[٤].

وإذا تمكنت صفة الأمانة من صاحبها تعامل بها مع القريب والبعيد، والمسلم، والكافر. يقول ابن حجر: (الغدر حرام باتفاق، سواء كان في حق المسلم أو الذمي)[٥]، وكذلك حال المؤمن حتى مع من عُرف بالخيانة، واشتهر بالغدر كما في الحديث: ((أَدِّ الأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ، وَلاَ تَخُنْ مَنْ خَانَكَ))[٦]، وذلك لأن خطورة السقوط في الخيانة، وفساد الفطرة بنقض العهد، أشد من مجرد مقابلة الخائن بمثل فعله، ولأن السقوط مرة قد تستمرئه النفس وتواصل في منحدر الخيانة.

ثانياً- من صفات الداعية: التفرس في أحوال المدعوين:

إن من الصفات العقلية التي ينبغي أن تتوفر في الداعية الكياسة والفطنة والفراسة وغيرها، وفي الحديث: (فخرج عليهم فرأى أنهم قد عجبوا من سرعته)، ففطنته ﷺ

---

(١) سورة الشعراء، آية: ١٦٢.

(٢) أخرجه البخاري ٢٦٨١.

(٣) أخرجه البخاري ٢٩٤١.

(٤) أخرجه الترمذي ٢٧٧٥، والحديث حسن صحيح انظر: (صحيح سنن الترمذي ٢١١٨).

(٥) فتح الباري، ابن حجر ٧/٢١٢.

(٦) أخرجه أبو داود ٣٥٣٥، والحديث حس صحيح، انظر: (صحيح سنن أبي داود ٣٠١٩).

لذلك الأمر: جعلته يزيل هذا العجب في حينه، بقوله ﷺ: "ذكرت شيئًا من تبر عندنا فكرهت أن يحبسني، فأمرت بقسمته" والصفات العقلية والنفسية تجعل الداعية أهلاً لدعوته، واطمئنان الناس إليه، قال الأبشيهي: (قد يخص الله تعالى بالطاقة الخفية من يشاء من عباده فيفيض عليه من خزائن مواهبه ورزانة عقله وزيادة معرفة)[١]، وذلك مما يرفه حسه ويدقق نظره، فالفراسة منحة ربانية يمنحها الله من يشاء من عباده، وهي من صفات الكمال البشرى للإنسان.

وبالفطنة والفراسة تتميز القدرات الفردية، وتتجلى القدرات العقلية عند الداعية ويتميز به على غيره، وسلفنا الصالح امتلأ تاريخهم بالنماذج التي حباها الله الفطنة وأتحفها بالفهم والفقه، ومن الأمثلة على ذلك ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (كان عمرُ بن الخطابِ رضي الله عنه يُدني ابنَ عبّاسٍ، فقال له عبدُ الرحمنِ بنُ عوفٍ: إنَّ لنا أبناءً مثلَهُ، فقال : إنهُ من حيث تعلم، فسأل عمرُ ابنَ عبّاسٍ عن هذه آية: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾[٢] فقال: أجلُ رسولِ اللهِ ﷺ أعلَمهُ إياه، قال: ما أعلم منها إلا ما تعلم)[٣].

إن إيضاح الحقائق وإزالة اللبس الذي يلحق بعض المدعوين في بعض المواقف له كبير الأثر في نجاح الدعوة، لما في الغموض واختلاط الأفهام من أثر سلبي للدعوة وفي الحديث تطبيق عملي لهذا: (فخرج عليهم فرأى أنهم عجبوا من سرعته، فقال: ذكرت شيئاً من تبر عندنا فكرهت أن يحبسني فأمرت بقسمته)، لذا ينبغي على الداعية أن يكون متهيئاً لأي موقف في كل لحظة [٤]، ويكون عنده من القدرة ما يزيل به اللبس ويكشف الغموض، ويصحح الأفهام.

(١) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد ٣١٢٥/٨.

(٢) سورة النصر، آية: ١.

(٣) أخرجه البخاري ٤٤٣٠.

(٤) مواقف الدعوة التعبيرية، د. عبدالله ناصح علوان، ص ١٣٤.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: أهمية إبراء الذمة:

إن إبراء الذمة أمام الله تعالى من أهم الأولويات التي يجعلها الإنسان نصب عينيه، ومن الأمور التي ينبغي المسارعة فيها، وكما نجد ذلك في الحديث: (فسلم ﷺ ثم قام مسرعاً فتخطى رقاب الناس إلى بعض حجر نسائه، ففزع الناس من سرعته فخرج عليهم فرأى أنهم قد عجبوا من سرعته، قال: ذكرت شيئاً من تبر عندنا فكرهت أن يحبسني فأمرت بقسمته)، قال ابن عثيمين: (وفي هذا الحديث المبادرة إلى فعل الخير وإبراء الذمة، فالإنسان لا يدري متى يفاجئه الموت فيفوته الخير)[1]، والإنسان ينبغي أن يكون كيساً فلا يجعل رقبته رهينة لأحد.

---

(١) شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين ٢٩١/١ - ٢٩٢.

الحديث رقم (٨٩)

٨٩- **الثَّالث:** عن جابر رضي الله عنه قال: قال رجلٌ[1] للنبيِّ ﷺ يومَ أُحُدٍ: أرأيتَ إنْ قُتلتُ فأينَ أنَا؟ قال: «**فِي الْجنَّةِ**» فألْقى تَمراتٍ كنَّ فِي يَدِهِ، ثُمَّ قاتل حتَّى قُتلَ. متفقٌ عليه[2].

ترجمة الراوي:

جابر بن عبدالله الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

يوم أحد: أي غزوة أحد، وأحد: الجبل الذي كانت عنده الغزوة التي وقعت ٣هـ، وهو جبل أحمر بينه وبين المدينة المنورة قرابة ميل في شماليها، والميل يساوي ١٦٠٩م[3].

الشرح الأدبي

إن المبادرة في الخيرات من صفات المؤمن ومن سمات سلوكه في الحياة، ورسول الله ﷺ هو الأسوة الحسنة في هذا الميدان الذي يتسع ليشمل كل محاور الحياة وصولاً إلى الفوز بسعادة الدارين، العطاء الدنيوي، والنعيم الأخروي، والمبادرة إلى فعل الخيرات لا تُحْصر في العطاء المادي فقط، ولكنها تظل تتسامى، وتتسع في مجالاتها حتى تصل إلى ذروة العطاء، وهو الجود بالنفس، والإقبال على ميدان الجهاد، والقتال في سبيل الله من أجل إعلاء كلمة التوحيد، وحماية العقيدة، وصيانة الأعراض والأموال والأنفس.

---

(١) المعلوم أن عمير بن الحمام قتل يوم بدر وحديث مسلم ينص على ذلك "باب ثبوت الجنة للشهيد" وممن نص على ذلك الذهبي في تاريخه ص ٦٥ "المغازي" وقد أزال الحافظ ابن حجر هذا الإشكال فقال: "لم أقف على اسمه وزعم ابن بشكوال أنه عمير بن الحمام وسبق إلى ذلك الخطيب، ... لكن وقع التصريح في حديث أنس أن ذلك كان يوم بدر والقصة التي في الباب وقع التصريح في حديث جابر أنها كانت يوم أحد فالذي يظهر أنهما قصتان وقعتا لرجلين، فتح الباري، ابن حجر ٤٠٤٧.

(٢) أخرجه البخاري (٤٠٤٦) واللفظ له، ومسلم (١٨٩٩/١٤٣). وسيكرره المؤلف برقم (١٣٢٣).

(٣) انظر: أطلس الحديث النبوي، د. شوقي أبو خليل ٢٣، وأطلس السيرة النبوية، د. شوقي أبو خليل ١١٩، والوسيط ٨٩٤.

والذين يقتلون في سبيل الله أحياء عند ربهم يرزقون، فرحين بما آتاهم الله من فضله.

ويشع هذا الحديث بأنوار الشهادة، وفيوضات العطاء، ونسائم التضحية في سبيل الله عز وجل من خلال ذلك الحوار القصير في معركة أحد، ورحى الحرب دائرة، والشهداء يشتاقون إلى الفردوس الأعلى، والمجاهدون المقاتلون يتشوقون إلى إحدى الحسنيين إما النصر، وإما الشهادة. ويوم أحد، كان يوم بلاء ومصيبة وتمحيص اختبر الله به المؤمنين ومحق به المنافقين، ممن كان يظهر الإيمان بلسانه، وهو مستخف بالكفر في قلبه، وكان يوماً أكرم الله فيه من أراد كرامته بالشهادة من أهل ولايته[1]، ومنهم حمزة بن عبدالمطلب، وعمرو بن الجموح وغيرهما.

ومن هؤلاء الذي أكرمهم الله بهذه الشهادة أيضاً ذلك الرجل الذي يقال إنه: عمير بن الحُمام بن الجموح بن حرام الأنصاري، وقيل: غيره.

هذا المسلم الشهيد يحاور المصطفى ﷺ ويسأله: أرأيت إن قتلت فأين أنا؟ فالسؤال عن المصير، وليس عن النجاة: فأي شجاعة هذه ؟ وأي إيمان بالله ورسوله يفوق ذلك؟، فيبشره المصطفى ﷺ بأنَّ مصيره "الجنة" ونعم المصير، ونعم الدار دار القرار.

ويبادر الرجل إلى الخير الحقيقي ولا ينتظر حتى ينتهي من أكل تمرات كن في يده، بل يسرع ويقاتل أعداء الإسلام يوم أحد وأصاب الكثيرين، وقاتل وقتل، ثم قُتِل، والتعبير بقوله: "حتى قُتل" يرشد إلى أنه ظل يقاتل وقتاً طويلاً، ويبلي بلاء حسناً في سبيل الله حتى مَنَّ الله عليه بالشهادة والفوز العظيم وأصبح مع الذين أنعم الله عليهم، ومن الذين شهد لهم رسول الله وبشرَّهم، حيث يروى أن رسول الله ﷺ لما أشرف على القتلى يوم أحد، قال: "أنا شهيد على هؤلاء، إنه ما من جريح في الله، إلا والله يبعثه يوم القيامة يدمي جرحه، اللون لون دم، والريح ريح مسك، وانظروا أكثر هؤلاء جمعاً للقرآن، فاجعلوه أمام أصحابه في القبر"[2]، وعلى الرغم من هزيمة المسلمين في أحد فإن

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام ٣٤/٢.

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام، ١٠٣/٣-١٠٤، وانظر: البداية والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٤٣٣/٥-٤٣٤ فقد جمع المؤلف بين الحديثين فليرجع بتوسع.

الحق سبحانه وتعالى بشرهم بالنصر، وعدهم بالفوز والتأييد وصدق وعده، وهزم الأحزاب وحده، وكان مما أنزل الله تبارك وتعالى في يوم أحد من القرآن ستون آية من آل عمران، وفيها مواساة للمسلمين، وإرشاد إلى المنهج الصحيح، ومنها قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الاستفهام.

ثانياً: من آداب المدعو: السؤال والعناية بمصيره.

ثالثاً: من صفات المدعو: الحرص على المسارعة إلى بلوغ الجنة.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: فضل الجهاد في سبيل الله.

خامساً: من موضوعات الدعوة: فضل الصدق مع الله.

أولاً- من أساليب الدعوة: الاستفهام:

الاستفهام والبحث وراء المعلومة من الأساليب الدعوية الناجحة، وقد ورد هذا الأسلوب في الحديث في استفهام رجل للنبي ﷺ يوم أحد: (أرأيت إن قُتِلتُ فأين أنا؟) ففي أسلوب الاستفهام حرص على طلب العلم إضافة إلى ما يدل على الاستجابة للداعية وقبول دعوته.

ثانياً- من آداب المدعو: السؤال والعناية بمصيره:

إن من أهم ما ينبغي أن يتحلى به المؤمن من آداب الحرص على السؤال عما يعنيه في مصيره، وقد أعطانا هذا الرجل صورة حية لما ينبغي أن يكون عليه الإنسان من معرفة بأموره وعناية بمصيره: (أرأيت إن قُتِلتُ فأين أنا؟)، وهذا دليل على حرص الصحابة

(١) سورة آل عمران: ١٣٩-١٤١.

رضي الله عنهم على معرفة مصيرهم والعناية بمآلهم، وليس أدل على ذلك من حديث عائشة رضي الله عنها: أنه جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إنك لأحب إلي من نفسي، وأحب إلي من أهلي، وأحب إلي من ولدي، وإني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وإن دخلت الجنة خشيت ألا أراك. فلم يرد عليه النبي صلى الله عليه وسلم حتى نزلت الآية: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾[1])[2]؛ فالصحابة رضي الله عنهم كان من عاداتهم أنهم لا يفوتون الفرصة حتى يسألون النبي صلى الله عليه وسلم، لأنهم يستفيدون من هذا علماً وعملاً، فإن العالم بالشريعة قد مَنَّ الله عليه بالعلم، ثم إذا عمل به فهذه مِنّة أخرى[3].

ثالثاً- من صفات المدعو: الحرص على المسارعة إلى بلوغ الجنة:

وردت الإشارة إلى ذلك في الحديث من خلال فعل ذلك الرجل: "فألقى تمرات في يده ثم قاتل حتى قتل"، دلالة على ما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم من حب نصر الإسلام والرغبة في الشهادة ابتغاء مرضاة الله[4]، وفي الحديث أيضاً الإرشاد إلى المبادرة بالخير، وألا يشغل عنه بحظوظ النفس[5]، وفي الحديث تطبيق عملي من هذا الصحابي الجليل لمثل قوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[6]، وقوله: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[7]،أي: بادروا وسارعوا إلى ما يوجب المغفرة وهي الطاعة[8]، وقال:

---

(١) سورة النساء، آية: ٦٩.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط ٣٣٠٨، وقال الهيثمي في المجمع ٧/٧: "رجاله رجال الصحيح غير عبدالله بن عمران وهو ثقة".

(٣) شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين، ٢٩٣/١ - ٢٩٤.

(٤) فتح الباري، ابن حجر ٤١١/٧.

(٥) انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢١٧.

(٦) سورة الحديد، آية: ٢١.

(٧) سورة آل عمران، آية: ١٣٣.

(٨) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢٠٢/٤/٢.

﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾[١]، بادروها[٢]، حرصاً على مصادفة الخير والإكثار منه[٣].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: فضل الجهاد في سبيل الله:

لقد أدرك الصحابة رضي الله عنهم فضل الجهاد، فحرصوا عليه، وسارعوا إلى ميادينه، وقد ورد في هذا الحديث ما يؤكد ذلك: (قال رجل للنبي ﷺ يوم أحد أرأيتَ إن قُتلتُ فأين أنا؟ قال: في الجنة، فألقى تمرات كنّ في يده، ثم قاتل حتى قتل)، فالجهاد ذروة الإسلام وقبته، ومنازل أهله أعلى المنازل في الجنة، كما لهم الرفعة في الدنيا فهم الأعلون في الدنيا والآخرة[٤]، ولبيان أهمية الجهاد ذكر القرآن أن الجهاد سبب للبقاء والعزة[٥]، فوصف المؤمنين بقوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾[٦]، ودليل صدق الإيمان: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾[٧]، والجهاد أجلّ القُرَب وأقدس العبادات لما فيه من الحفاظ على حق الله والتمكين لدينه.

خامساً- من موضوعات الدعوة: فضل الصدق مع الله:

إن الصدق مع الله من أرفع الدرجات وأعلى المراتب، فمن صدق الله صدقه الله، وفي الحديث ما يدلُ على صدق الرجل في طلب الشهادة حيث صدقه الله فأعطاه إياها، قال رجل للنبي ﷺ يوم أحد: "أرأيت إن قتلت فأين أنا؟ قال: في الجنة، فألقى تمرات كن في يده، ثم قاتل حتى قتل"، فإن صدق النية مع الله يبلّغ بالإنسان ثواب العمل حتى

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٤٨.

(٢) زاد المسير، أبو الفرج بن الجوزي ١/١٥٩.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/٢/٤٤.

(٤) زاد المعاد، ابن قيم الجوزية ٣/٥.

(٥) موسوعة نضر النعيم ٤/١٤٨٨.

(٦) سورة المائدة، آية: ٥٤.

(٧) سورة الحجرات، آية: ١٥.

وإن لم يدرك العمل، كما روى عن سهل بن حنيف عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ قال: ((مَنْ سَأَلَ اللّهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ، بَلَّغَهُ اللّهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ، وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ))[١][٢]. قال النووي: (والمعنى: إذا سأل الشهادة بصدق أعطي ثواب الشهداء وإن كان على فراشه، وفيه استحباب سؤال الشهادة واستحباب نية الخير)[٣].

وأخبر تعالى أن من صدقه فهو خير له فقال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾[٤] أي: فلو أخلصوا النية وصدقوا الله فيها لكان خيرًا لهم[٥].

وقد تكفل الله وأوجب على نفسه مِنَّةً وتفضلاً أن من خرج مجاهداً في سبيله صادقاً النية في ذلك أن يؤتيه إحدى الحسنيين إما دخولاً الجنة أو رجوعاً إلى أهله سالماً غانماً بما نال من أجر وغنيمة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((تَضَمَّنَ اللّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ، لاَ يُخْرِجُهُ إِلاَّ جِهَاداً فِي سَبِيلي، وَإِيمَاناً بِي، وَتَصْدِيقاً بِرُسُلِي. فَهُوَ عَلَيَّ ضَامِنٌ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ. أَوْ أَرْجِعَهُ إِلَىٰ مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ. نَائِلاً مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ. وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا مِنْ كَلْمٍ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِ اللّهِ، إِلاَّ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ حِينَ كُلِمَ، لَوْنُهُ لَوْنُ دَمٍ وَرِيحُهُ مِسْكٌ. وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلاَ أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، مَا قَعَدْتُ خِلاَفَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللّهِ أَبَداً. وَلٰكِنْ لاَ أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلَهُمْ. وَلاَ يَجِدُونَ سَعَةً. وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي. وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أَغْزُو فِي سَبِيلِ اللّهِ فَأُقْتَلُ. ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ. ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ))[٦].

بهذه الصورة الرائعة يصور الرسول الكريم ﷺ أجر الغازي والمجاهد في سبيل الله، ذلك الإنسان الذي ضحى بنفسه وماله في سبيل رفعة شأن الدين، وإعزاز كلمة الله، وأي أجر أعظم بل أية منزلة أسمى من تلك المنزلة الرفيعة التي خص الله عز وجل

---

(١) أخرجه مسلم ١٩٠٩.

(٢) فقه السيرة، محمد الغزالي، ص ٢٠٩.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢٢١.

(٤) سورة محمد، آية: ٢١.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣١٧/٧.

(٦) أخرجه البخاري ٣٦، ومسلم ١٨٧٦ واللفظ له.

بها المجاهدين في سبيله؟ حين قال عنهم: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1].

إنها الحياة الأبدية السرمدية في جنان الخلد ودار النعيم، هي بعض ما أكرمهم الله عز وجل به، عدا ما أعد لهم من الذكر الحسن في الدنيا، حيث تخلّد أسماؤهم في سجل الخالدين، فهم أحياء حتى بعد مماتهم، ذكرهم على كل لسان، وحبهم في كل قلب، وهذا هو السر في نهينا عن القول في الشهداء بأنهم أموات، لأن الله عز وجل خلّد ذكرهم، ويكفي ذلك شرفاً وفخراً لهم.. وقد بيّن هذا الحديث النبوي الشريف أن الله عز وجل قد تكفل بالجنة لمن جاهد في سبيل الله، مخلصاً عمله لله، مؤمناً برسله، مصدقاً بوعد الله تبارك وتعالى، وليس هذا الجزاء العظيم إلا للمجاهد الذي يبتغي من وراء جهاده إعلاء كلمة الله، وإعزاز شأن الدين، ولقد سئل الرسول ﷺ عن الرجل الذي يقاتل للشهرة ليعرف أنه شجاع، أو يقاتل للمغنم، أو يقاتل حمية لعشيرته فقال كلمته الرائعة المأثورة: (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله...)[2].

وقد ختم عليه الصلاة والسلام حديثه بالقسم بأنه لولا أن يقع المسلمون في ضيق وحرج، ولولا المشقة التي ستلحق بالمؤمنين لما تخلّف عن الخروج في غزوة من الغزوات أبداً، ولكنه لشفقته ﷺ على أمته ترك الخروج في بعض الغزوات.

ولقد تمنى صلوات الله وسلامه عليه أن يقتل في سبيل الله، ثم تعود إليه الحياة فيجاهد، ثم يقتل، وهكذا لما يعرف من ثواب الشهادة في سبيل الله؛ فأكرم به من قائد وزعيم.

اللهم اجعلنا ممن جاهد في سبيلك ابتغاء مرضاتك[3].

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ١٦٩ - ١٧٠.

(٢) أخرجه البخاري ١٢٣، ومسلم ١٩٠٤.

(٣) من كنوز السنة، محمد علي الصابوني، ص ١٧٥ - ١٧٦.

الحديث رقم (٩٠)

٩٠- **الرابع:** عن أبي هُريرةَ رضي الله عنه قال: جاءَ رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ، فقال: يا رسولَ اللَّهِ، أيُّ الصَّدقةِ أعْظمُ أجْراً؟ قال: **«أنْ تَصَدَّقَ وأنْت صحيحٌ شَحيحٌ تَخْشى الْفقرَ، وتأْمُلُ الْغنى، ولا تُمْهِلْ حتَّى إذا بلَغتِ الْحلُقومَ. قُلت: لفُلانٍ كذا ولفلانٍ كَذَا، وقَدْ كان لفُلان»** متفقٌ عليه(١).

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

شحيح: بخيل(٢).

تمهل: تؤخر(٣).

الحلقوم: مجرى النفس، أي: إذا بلغت الروح الحلقوم حال الموت(٤).

الشرح الأدبي

إن المسلمين في تعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى، والمؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً.

وفي ظلال هذه المعاني تتضوأ كلمات هذا الحديث الشريف، ومن ألق البيان النبوي نقتبس بعض الأضواء الهادية الراشدة التي تتوهج بمعاني التكافل الاجتماعي.

ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث النبوي الكريم: وأول ما يدعو إلى التأمل في أسلوب هذا الحديث هو صيغة الحوار عن طريق السؤال والجواب، وهذه

---

(١) أخرجه البخاري (١٤١٩)، ومسلم (١٠٣٢/٩٣) ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه (٥١١٤).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ش ح ح).

(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير والوسيط في (م هـ ل).

(٤) رياض الصالحين ٨٧.

الصيغة تموج بها كثير من أحاديث المصطفى ﷺ؛ لأن طبيعة الحديث أن يتكون من متحدث ومستمع، ومن أدوات تأثيره والتلاحم بين الطرفين الحوار والمناقشة، وكل حديث يعد رسالة توجيهية إرشادية لها أركانها التي تشارك في إقامة بنيانها اللغوي والدلالي والتأثيري، وهذه الأركان تمثل مقومات الخطاب الشرعي والأدبي حيث يتكون من: مُرْسِلٍ، ومرسل إليه، وسياق، ورسالة، وهذه العناصر الأربعة يتضمنها كل حديث من أحاديثه ﷺ.

وهذا الحديث يبدأ بنداء صادق من أحد الصحابة، وقيل هو أبو ذر الغفاري رضي الله عنه، والنداء بحرف الياء وكأنه نداء للبعيد، ورسول الله ليس بعيداً عنه ولكن ذلك للمهابة والتوقير والتعظيم "يا رسول الله"، ثم بعد النداء يأتي الاستفهام الحقيقي عن المبادرة إلى الخير: وعن الصدقة التي تكون أعظم أجراً؟ وهذا السؤال ألا ينبئ عن البحث عن الأفضل؟ فليس كل من يتصدق يأخذ الثواب الكامل، ولذلك جاء أفعل التفصيل في تحديد نوع الصدقة الأكمل: "أعظم أجراً" فماذا قال النبي ﷺ؟ قال: "أن تصدق وأنت صحيح شحيح" والتضعيف في الفعل "تصدَّق" يوحي بثقل الأمر لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، والعرب يجعلون من الألفاظ صورة للأحداث، والطباق بين صحيح وشحيح، يوحي مع السجع بتآلف اللفظين، في تشخيص حالة المتصدق، لأن الشح غالب في حال الصحة، فإذا سمح فيها وتصدق كان أصدق في نيته وأعظم لأجره، بخلاف من أيس من الصحة ورأى مصير المال إلى غيره، فإن صدقته ناقصة بالنسبة إلى حالة الصحة[1].

والشح أعم من البخل، وقيل الشح بخل مع حرص، والطباق بين "الفقر والغنى" وبين "تخشى وتأمل" يصور موقفين يتحدان في حالة التصدق وهو الانتصار، على هاجس الفقر، ووهم الغنى، فما نقص مال من صدقة.

---

(١) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٢٥٤/١.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم تصرفات المريض في المرض المخوف، وقد اتفق الفقهاء[1] على أن الشخص له حرية التصرف في ماله بالبيع والهبة والوصية وما يشاء في حال صحته، فإذا كان مريضاً مرضاً مخوفاً تعلقت حقوق الورثة بهذا المال، ومن ثم ينفذ من تصرفات المريض مايحتاج إليه في معيشته من مأكل ومشرب ودواء وغير ذلك، أما التصرفات الضارة بالورثة كالصدقات والعطايا فإنها تأخذ حكم الوصية، لا ينفذ منها ما يزيد عن الثلث، فإن تصرف تصرفاً نافعاً لأحد الورثة لم ينفذ منه شيء، لأنه يكون محاباة له ولا يصح احتسابه من الثلث لأن الوارث لا وصية له.

وفي هذا الحديث دليل على أن الصدقة في الصحة أفضل من الصدقة في المرض وإن كان لصدقة المرض ثوابها أيضاً.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب، والنهي.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: فضل الصدقة مع الصحة والشح.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: أهمية المبادرة إلى فعل الخيرات.

رابعاً: من واجبات الداعية: حث المدعوين على فعل الخير.

خامساً: من واجبات المدعو: السؤال عما ينفعه.

أولاً- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب، والنهي:

١- **السؤال والجواب:** حيث جاء في الحديث "أيُّ الصدقة أفضل" فأجاب ﷺ بـ"أن تصدق

---

(١) المبسوط، السرخسي ٢٧/٤، ٢٧/١٢، ٩٧، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني ١٣٣/٤، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، الزيلعي ١٥٥/٢، وحاشية الدسوقي ٤١٢/٤، وبلغة السالك للصاوي ٥٦٧/٤، ط دار المعارف، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري ١٧٧/٢، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين عبدالرحيم بن الحسن ٢٠٨/٦، وإحكام الإحكام ٣٢١/٢، والمغني، ابن قدامة ١٠٠/٦، ٣٠٤/١٠، ٣٠٦، وشرح منتهى الإرادات ٥٩١/٢، وإعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم ٢٢٩/٣، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢٣/٧.

وأنت صحيح شحيح" ومما لاشك فيه أن أسلوب السؤال والجواب من الأساليب الدعوية المهمة، لأنه يفتح قناة حوار بين الداعية والمدعو، ويصل فيه المدعو إلى الإجابة عن سؤاله مباشرة، ومن أمثلة هذا الأسلوب في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [1] وقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى﴾ [2] ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ [3].

٢- **النهي**: حيث جاء في الحديث "ولا تمهل" أي الصدقة، وقد أفاد النهي في هذا الحديث خطورة تأخير التصدق والتسويف حتى فوات الأوان وهناك لا ينفع الندم.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: فضل الصدقة مع الصحة والشح:

حيث جاء في الحديث "أن تصدق وأنت صحيح شحيح" قال النووي: (ومعنى الحديث أن الشح غالب في حال الصحة، فإذا سمح فيها وتصدق كان أصدق في نيته، وأعظم لأجره، بخلاف من أشرف على الموت وآيس من الحياة، ورأى مصير المال لغيره فإن صدقته حينئذ ناقصة بالنسبة إلى حال الصحة والشح رجاء البقاء وخوف الفقر)[4].

وقال ابن حجر: (لما كانت مجاهدة النفس على إخراج المال مع قيام مانع الشح دالاً على صحة القصد، وقوة الرغبة في القربة، كان ذلك أفضل من غيره)[5].

ولقد جاءت النصوص الشرعية لتحث على الإنفاق والصدقة ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [6] وقوله سبحانه: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ

(١) سورة البقرة، آية: ٢١٩.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٢٢.

(٣) سورة الكهف، آية: ٨٣.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦٥٤.

(٥) فتح الباري، ابن حجر ٣/٣٣٥.

(٦) سورة البقرة، آية: ٢٦١.

وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾(١) وقوله سبحانه: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾(٢) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾(٣).

وقد جعل الرسول ﷺ من يتصدق من السبعة الذين يظلهم الله في ظله ففي الحديث ((سَبعةٌ يُظِلُّهم اللهُ في ظِلِّهِ يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ: ...، ورجلُ تَصدَّقَ بصدقة أخفاها حتى لا تَعلمَ شِمالُه ما تُنفِقُ يمينُه))(٤).

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: أهمية المبادرة إلى فعل الخيرات:

حيث جاء في الحديث "حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان" ولا يخفى أن المسلم يجب عليه أن يبادر إلى الخيرات والعمل الصالح والصدقة فإنه لا يعرف أجله قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾(٥) قال ابن كثير: (يحث الله عباده المؤمنين على الإنفاق في طاعته فكل مفرط يندم عند الاحتضار، ويسأل طول المدة ولو شيئاً يسيراً، يستعتب ويستدرك ما فاته، وهيهات! كان ماكان، وأتى ما هو آت، وكل بحسب تفريطه، والله عز وجل لا ينظر أحداً بعد حلول أجله وهو أعلم وأخبر بمن يكون صادقاً في قوله وسؤاله ممن لو رد لعاد إلى شر مما كان عليه)(٦).

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٢٦.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٧٧.

(٣) سورة الحديد، آية: ١٨.

(٤) أخرجه البخاري ٦٦٠، ومسلم ١٠٣١.

(٥) سورة المنافقون، آية: ١٠، ١١.

(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١٣٣/٨.

والإنسان الحصيف يقدم لآخرته من العمل الصالح: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ﴾[1].

رابعاً- من واجبات الداعية: حث المدعوين على فعل الخير:

حيث وجه النبي ﷺ في الحديث إلى فضل الصدقة حال الصحة والشح "وهذا من الواجبات الملقاة على عاتق الداعية وهي: دلالة المدعوين على أبواب الخير وحثهم على فعله، وقد أمر الله أن يكون في الجماعة المؤمنة من يدعو إلى الخير قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾[2].

قال القرطبي: (والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كان واجباً في الأمم المتقدمة وهو فائدة الرسالة وخلافة النبوة، وهو الفارق بين المؤمنين والمنافقين، وأخص أوصاف المؤمن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ورأسها الدعاء إلى الإسلام والقتال عليه)[3]، ولا شك أن حث المدعوين على فعل الخير من أولويات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد قال ﷺ ((مَنْ دَلَّ على خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ))[4].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ مِنَ النَّاسِ مَفَاتِيحُ لِلْخَيْرِ مَغَالِيقُ لِلشَّرِّ، وَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَفَاتِيحُ لِلشَّرِّ مَغَالِيقُ لِلْخَيْرِ، فَطُوبَى لِمَنْ جَعَلَ اللَّهُ مفَاتِيحَ الْخَيْرِ عَلَى يَدَيْهِ، وَوَيْلٌ لِمَنْ جَعَلَ اللَّهُ مَفَاتِيحَ الشَّرِّ عَلَى يَدَيْهِ»[5]. وعن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه أن النبي ﷺ قال: «مَنْ عَلَّمَ عِلْماً فَلَهُ أَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهِ لاَ يَنْقُصُ مِنْ أَجْرِ الْعَامِلِ»[6].

قال السيد سابق: (والخير الذي ندب الله إليه ينتظم كل بر، ويشمل كل عمل

---

(١) سورة المزمل، آية: ٢٠.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٠٤.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٤/٤٧.

(٤) أخرجه مسلم ١٨٩٣.

(٥) أخرجه ابن ماجه ٢٣٧، وحسنه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ١٩٤).

(٦) أخرجه ابن ماجه ٢٤٠، وحسنه الألباني (صحيح سنن ابن ماجة ١٩٦).

صالح فطاعة الله خير، وممارسة الفضائل خير، والإحسان إلى الناس خير وكل عمل ينهض بالفرد، ويرقى بالجماعة فهو خير، والفطر السليمة تهتدي إلى الخير وتشعر به وتنجذب إليه، فالخير هو الكمال الذي تنشده وتسعد به، والدلالة على الخير، وإرشاد الإنسان غيره إلى الحق، لا يقل أهمية عن ممارسة الخير والنهوض به)[١].

خامساً- من واجبات المدعو: السؤال عما ينفعه:

حيث جاء في الحديث "جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله: أي الصدقة أعظم أجراً" وهذا بلا شك من أهم واجبات المدعو، وبهذا أمر الله في القرآن، قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٢] وعلى المدعو أن يتجنب السؤال عما لا يفيد ولا ينفع ففي الحديث ((إنَّ اللّهَ كَرِهَ لَكُمْ ثَلاَثاً: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ))[٣].

---

(١) إسلامنا، ١٣٤-١٣٥.

(٢) سورة النحل، آية: ٤٣.

(٣) أخرجه البخاري ١٤٧٧، ومسلم ٥٩٣.

الحديث رقم (٩١)

٩١- **الخامس:** عن أنس ﷺ ، أَنَّ رسول اللَّه ﷺ أَخذَ سيْفاً يوم أُحدٍ، فقَالَ: «**مَنْ يأْخُذُ منِّي هَذا؟**» فبسطُوا أَيديهُم، كُلُّ إنْسانٍ منهمْ يقُول: أَنا أَنا. قَالَ: «**فمنْ يأَخُذُهُ بحقِهِ؟**» فَأَحْجمِ الْقومُ، فقال أَبُو دجانة ﷺ : أَنا آخُذه بحقِّهِ، فأَخَذهُ ففلَقَ بِهِ هَامَ الْمُشْرِكينَ». رواه مسلم[1].

اسم أبي دجانة: سماكُ بْنُ خرشة[2].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

أحجم القوم: أي توقفوا[3].

فلق به: أي شق[4].

هام المشركين: أي رؤوسهم[5].

الشرح الأدبي

يصور هذا الحديث مشهداً من مشاهد البطولة في الإسلام، وينقل للأجيال المعاصرة موقفاً جليلاً مهيباً من مواقف الفداء والمبادرة إلى التضحية بالنفس في سبيل الله، وما أعظمها من تضحية! وما أكرمه من فداء!

ورسول الله يأخذ سيفاً ويقول لأصحابه: "من يأخذ مني هذا؟" والاستفهام هنا لإثارة الحمية والتحدي، وإشعال وهج التنافس والمبادرة إلى نيل هذا الشرف، وأي شرف بعد

---

(١) برقم (٢٤٧٠/١٢٨).

(٢) ورد اسمه هكذا في رواية مسلم.

(٣) رياض الصالحين ٨٧.

(٤) رياض الصالحين ٨٧.

(٥) رياض الصالحين ٨٧.

أن يأخذ مجاهد السيف من رسول الله ﷺ؟ وقوله: "مني" لزيادة عنصر المنافسة: فليس السيف من شخص عادي. واسم الإشارة "هذا" يفيد التحديد والتمييز وتعظيم أمر السيف وما يتعلق بكل هذا الموقف.

وما أجمل هذا التصوير الحركي الذي ينقل إلينا المشهد! وكأننا نراه رأى العين، والصحابة يتنافسون في فعل الخير، ويبادرون إلى أخذ السيف للقتال يوم أحد "فبسطوا أيديهم، كل إنسان منهم يقول أنا أنا" ولكن السيف لن يأخذه إلا واحد، فمن هو؟ ويضع الرسول شرطاً وقيداً حين أعاد السؤال مرة أخرى: "فمن يأخذه بحقه" ويعني بهذا الحق أن يقاتل بالسيف، إلى أن يفتح الله على المسلمين أو يموت الذي يقاتل به شهيداً[(١)]؛ وعندما عرف الذين بسطو أيديهم ذلك "أحجم بعضهم". رهبة وخشية وخوفاً، كل حسب طبيعة نفسه، وقوة إيمانه. وأما أبو دجانة فبادر وقال: "أنا آخذه بحقه" وهو يعلم مصيره، ولكن هذا المصير تكريم له، وقبول ما بعده قبول، عند الله عز وجل.

وكان أبو دجانة رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب إذا كانت، وكان إذا أعلم بعصابة له حمراء فاعتصب بها، علم الناس أنه سيقاتل، فلما أخذ السيف من يد رسول الله ﷺ أخرج عصابته تلك فعصب بها رأسه، وجعل يتبختر بين الصفين، ويروى أن رسول الله ﷺ حين رأى أباً دجانة يتبختر قال: ((إنها لمشية يبغضها الله، إلا في مثل هذا الموطن))[(٢)].

وكان أبو دجانة يحمي الرسول بنفسه، وكان النبل يقع في ظهره، وهو منحنٍ عليه، حتى كثر فيه النبل.

ويروى أن الزبير ابن العوام وجد في نفسه حين سأل الرسول السيف، فمنعه إياه وأعطاه أبا دجانة، وهو ابن عمته صفية، ومن قريش، وقال والله لأنظرن ما يصنع أبو دجانة، قال: "فاتبعته، فأخرج عصابة له حمراء فعصب بها رأسه، فقالت الأنصار:

(١) انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٣٨٥/٦.

(٢) أخرجه ابن إسحاق بدون إسناد كما في سيرة ابن هشام ٧١/٣ بتحقيق: السقا والإبياري وشلبي.

أخرج أبو دجانة عصابة الموت" وقيل: "إن أبا دجانة جعل لا يلقى أحداً إلا قتله"[(١)]، وقد روى عنه ابن هشام هذه الأبيات في السيرة النبوية بعد أن أخذ السيف وأخرج عصابة الموت:

أنا الذي عاهدني خليلي ونحن بالسفح لدى النخيل

ألا أقوم الدهر في الكيُّول[(٢)] اضرب بسيف الله والرسول[(٣)]

ويوجز الحديث هذه المواقف في عبارة موجزة حيث يقول: الراوي: "فأخذه ففلق به هام المشركين، وهكذا تكون البطولة في الإسلام شجاعة وحباً وفداءً ودفاعاً عن رسول الله وعن عقيدة التوحيد رغبة في الفوز بدار الخلود.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: إثارة اهتمام المدعوين.

ثانياً: من تاريخ الدعوة: غزوة أحد.

ثالثاً: من مهام الداعية: ضبط الأمور وتحديد المسؤوليات.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: فضل أبو دجانة رضي الله عنه بين الصحابة رضي الله عنهم.

أولاً- من أساليب الدعوة: إثارة اهتمام المدعوين:

لقد أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يشحذ همم أصحابه رضي الله عنهم وأن يثير اهتمامهم، فأخذ سيفاً ثم قال "من يأخذ مني هذا؟" ولاشك أن حمل السيف وتوجيه السؤال إليهم مما يثير انتباه المدعو، ويعد هذا من الأساليب الدعوية المهمة (وعلى الداعية أن يتبع أفضل الطرق في الدعوة وينتهج أحسن الأساليب التي تثير في المدعوين انتباههم وتجدد لهم نشاطهم ليتوجهوا إلى فكرته، ويتقبلوا مبادئ دعوته)[(٤)].

(١) انظر البداية والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٥/٢٥٦-٢٥٧.

(٢) الكيُّول: مؤخر الصفوف، البداية والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٥/٢٥٦-٢٥٧.

(٣) السيرة النبوية، ابن هشام ٣/٣٢.

(٤) مواقف الداعية التعبيرية، عبدالله ناصح علون، ص ٧١.

ومما يعكس اهتمام المدعوين أن الموطن الذي وجه الرسول فيه السؤال هو مكان للقتال في غزوة أحد مما يجعل المدعوين أشد انتباهاً وتأثراً (فلاشك أن للمكان أثراً على المتلقين مما ينعكس على عملية التلقي والاستيعاب سواء أكان ذلك سلباً أو إيجاباً فعلى الداعية الانتباه لهذا الأمر)(١).

ثانياً- من تاريخ الدعوة: غزوة أحد:

ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ أخذ سيفًا يوم أُحد، ولاشك أن غزوة أحد تمثل معلماً بارزاً في تاريخ الدعوة (وقد كانت وقعة أحد في شوال سنة ثلاث من الهجرة، وكان سببها أن المشركين حين قتل من قتل من أشرافهم يوم بدر، ورجع قَفلُهُم إلى مكة قال أبناء من قتل، ورؤساء من بقي: يا معشر قريش، إن محمدًا قد وتركم، وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه، فلعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا، ففعلوا، وخرجت قريش بحدها وحديدها وأحابيشها في قريب من ثلاثة آلاف، حتى نزلوا قريبًا من أحد تلقاء المدينة)(٢)، (واستشار رسول الله ﷺ الناس: أيخرج إليهم أم يمكث بالمدينة؟ فأشار عبدالله بن أُبي بالمقام بالمدينة، وأشار آخرون من الصحابة رضي الله عنهم ممن لم يشهد بدرًا بالخروج إليهم فنزل رسول الله ﷺ على رأيهم، وسار ﷺ في ألف من أصحابه، فلما كان "بالشوط"(٣) رجع عبدالله بن أُبي في ثلث الجيش مغضبًا لكونه ﷺ لم يرجع إلى قوله، وتهيأ رسول الله ﷺ للقتال وهو في سبعمائة من أصحابه، والرماة يومئذ خمسون رجلاً)(٤) فقال لهم: ((انضحوا الخيل عنا، ولا نؤتين من قبلكم. والزموا مكانكم إن كانت النوبة لنا أو علينا، وإن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم))(٥) فلاح النصر للمسلمين، وتخلف الرماة عن أمر النبي ﷺ،

---

(١) عدة الداعية المسلم، د. حمدان الهجاري، ص ٣٠.

(٢) السيرة النبوية، ابن هشام، ٣/٢٣، ٢٤.

(٣) وهو اسم حائط من بساتين المدينة، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٤٩٥.

(٤) البداية والنهاية، ابن كثير، ٥/٣٣٨.

(٥) أخرجه ابن إسحاق في سيرة ابن هشام ٣/٢٩.

فانتهز خالد بن الوليد - قبل إسلامه- الموقف، وحقق التفافًا جعل المسلمين في موقف حرج، واستشهد حمزة، ومصعب بن عمير رضي الله عنهما "وبلغ من استشهد من المسلمين يوم أحد سبعين" وعلى الرغم من الانتصار العسكري لقريش، إلا أنها لم تستطع استئصال المسلمين. وقد كسرت فيها رباعية النبي ﷺ وشُجَّ في وجهه)[1] لأجل هذا كانت غزوة أحد علامة بارزة في تاريخ الدعوة الإسلامية.

ثالثاً- من مهام الداعية: ضبط الأمور وتحديد المسؤوليات:

يتضح هذا في اشتراط النبي ﷺ على من يأخذ السيف أن يأخذه بحقه: (قال القرطبي: يعني بهذا الحق أن يقاتل بذلك السيف إلى أن يفتح الله على المسلمين أو يموت، ولذلك أحجم القوم لما فهموا ذلك فأما أبو دجانة رضي الله عنه: أخذ السيف، وقام بشرطه، ووفى بحقه، وهو يقول:

نضربُ بالسُّيوفِ رؤوسَ قومٍ ... أَزَلْنا هامَهُنَّ عن المقيل

والمقيل: أصول الأعناق)[2]. قال ابن هبيرة: (في هذا الحديث من الفقه استحباب توصل الإمام إلى كل ما يشد به عزائم المجاهدين، ويحمي به أنوفهم للحق...، وفيه أيضًا أن المستحب للإمام أن يختار أجود السلاح لأجود الرجال، ولا يترك السلاح الأجود مع الرجل الأدون حتى إن كان ملكًا للرجل، فرأى الإمام أنه لا يغني به صاحبه شيئًا، وغيره يغني به الغناء الواسع وليس ذا سلاح، أمر صاحب السلاح أن يدفع سلاحه إلى هذا الأعزل قصدًا بذلك مصلحة الجميع متوصلاً إلى طيب نفس صاحبه في ذلك، فإنه الأولى كما كان يقول لمن مرّ به انشر كنانتك لأبي طلحة)[3] إن النبي ﷺ بعد أن جعل الأمور لعموم الناس: حدد مسؤولية من يأخذ هذا السيف، حتى لا يقدم عليه أي أحد. وهذا مما يحتاجه الدعاة في العصر الحاضر مما تتطلبه القيادة الناجحة.

---

(١) انظر: البداية والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٣٣٧/٥.

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٢١٨.

(٣) الإفصاح ٣٧٦/٥.

رابعاً- من موضوعات الدعوة: فضل أبي دجانة رضي الله عنه بين الصحابة رضي الله عنهم:

وهذا الحديث يدل على فضل أبي دجانة قال ابن سعد في الطبقات: (وأبو دجانة اسمه سماك بن خرشة، وآخى رسول الله بين أبي دجانة وعتبة بن غزوان وشهد بدراً، وكانت عليه يوم بدر عصابة حمراء، وهو الذي أخذ سيف رسول الله يوم أحد، وارتجز يقول:

أنـــا الـــذي عاهـــدني خليلـــي ... بالـــشعب ذي الـــسفح لـــدى النخيـــل

ألا أكـــون آخـــر الأفـــول ... اضـــرب بـــسيف الله والرســـول

وعادوه يومًا وهو مريض، وكان وجهه يتهلل، فقيل له ما لوجهك يتهلل، قال ما من عمل شيء أوثق عندي من اثنتين: أما إحداهما فكنت لا أتكلم فيما لا يعنيني، وأما الأخرى فكان قلبي للمسلمين سليماً. وقتل أبو دجانة شهيداً في سنة ١٢هـ في خلافة أبي بكر الصديق)[١].

وقال ابن حجر: (وأبو دجانة الأنصاري سماك بن خرشة متفق على شهوده بدراً، ولما التحم القتال في أُحد ذبّ عنه مصعب بن عمير حتى قتل مصعب، وأبو دجانة كثرت فيه الجراحة وهو ممن شارك في قتل مسيلمة الكذاب، وثبت ذكره في صحيح مسلم ولما سأل النبي عن حق السيف قال له: لا تقتل به مسلماً ولا تفر به من كافر)[٢].

---

(١) انظر: الطبقات، ابن سعد الكبرى ٥٥٦/٣.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ١٤٦٣.

الحديث رقم (٩٢)

٩٢- **السَّادس:** عن الزُّبيْرِ بنِ عديٍّ قال: أَتَيْنَا أَنس بن مالكٍ رضي الله عنه فشَكوْنا إليهِ ما نلْقى من الْحَجَّاجِ. فقال: «**اصبْروا فإنه لا يأْتي زمانٌ إلاَّ والَّذي بعْده شرٌّ منه حتَّى تلقَوا ربَّكُمْ**» سمعتُه منْ نبيِّكُمْ ﷺ. رواه البخاري(١).

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

الشرح الأدبي

إن بناء هذا الحديث، وطريقة ترتيب روايته غير مألوف، فالحوار الذي دار بين الزبير بن عدي، ومن معه وبين أنس بن مالك، لم يكن في حضرة الرسول ﷺ، ولم يكن في المدينة، وإنما كان بعد وفاة رسول الله ﷺ وفي البصرة حيث مات أنس بن مالك، سنة اثنتين وقيل ثلاث وتسعين، وقد جاوز المائة، والشكوى من الحجاج بسبب ظلمه وتعسفه فقد كان والياً على العراق في عهد، الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان، والحديث لم يبدأ بـ "قال" رسول الله ﷺ، وإنما بدأ بشكوى الزبيريين وأصحابه إلى أنس بن مالك من بطش الحجاج، وقوته وعنفه، وقد كان الحجاج على أشد ما تكون القوة في مواجهة الأحزاب المناوئة لبنى أمية مثل: الزبيريين، والشيعة، والخوارج وغيرهم.

ولم يرع حرمة بعض الصحابة أو التابعين، ولم يحفظ لهم سابقتهم في الإسلام، وتشرفهم بصحبة رسول الله ﷺ.

وقد اقتدى الحجاج في قوته وعنفه بزياد بن أبيه الذي كان والياً على البصرة في عهد معاوية ويزيد، وهو صاحب خطبة "البتراء"، وهي التي احتذاها الحجاج وواجه أهل الكوفة بمثلها وأعنف منها، وقال، وهو متقلد سيفه، ومتنكب قوسه، ويضع اللثام على وجهه، وبعد صمت طويل قال:

---

(١) برقم (٧٠٦٨).

أنـا ابـن جـلا وطـلاع الثنايـا متـى أضـع العمامـة تعرفـوني

ثم قال: "يأهل الكوفة إني لأرى رءوساً قد أينعت وحان قطافها، وإني لصاحبها، وكأني أنظر إلى الدماء ترقرق بين العمائم واللحي، أما والله لألحونكم[١] لحو العصا، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل، أما والله لتستقيمن على طريق الحق، أو لأدعن لكل منكم، شغلاً في جسده".

وقال أبو الحسن المدائني: (قال الحسن: أوعد عمر فعفا، وأوعد زياد فابتلى، وقال الحسن أيضاً: تشبه زياد بعمر فأفرط، وتشبه الحجاج بزياد فأهلك الناس)[٢].

ويقول أنس بن مالك ناصحاً الأمة وكل من يذوق الهول من جور الطغاة والمستبدين أمثال الحجاج: "أصبروا" أي اثبتوا وقاوموا ولا تيأسوا وتواصو بالحق وتواصوا بالصبر، فالنصر مع الصبر، والفرج مع الكرب، فالصبر هنا ليس استسلاماً ولكنه صمود وثبات ومقاومة وقوة ومواجهة متسلحة بالإيمان والتقوى والصبر، ويعلل أنس بن مالك ما يلاقيه الناس من عنت الولاة والحكام، وبطشتهم بأن هذا ما أنبأ عنه رسول الله ﷺ، وأتى بهذه النبوءة في صيغة القصر والتأكيد "فإنه لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه" حتى يوم القيامة. ثم حدد مصدر هذا التعليل بأنه سمعه من النبي ﷺ، وهذا الواقع لا يدعو إلى التشاؤم واليأس، ولكن يحتاج إلى صبر؛ لأنه لا يمضي زمن فيه نقص لشيء من السنة أو ابتلاء بشيء من المحن إلا والذي بعده أَشرُّ منه، في ذلك، وهذا واقع دائم، ويحتاج إلى صبر وثبات وتمسك بالعقيدة الصحيحة.

---

(١) لحاه يلحوه شتمه ولحا الشجرة: قشّرها. القاموس المحيط، مجد الدين بن يعقوب الفيروز آبادي في (ل ح و).

(٢) انظر: البيان والتبيين للجاحظ.

المضامين الدعوية

أولاً: من واجبات الداعية: تسلية ومواساة المدعوين.

ثانياً: من أساليب الدعوة: الأمر.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: تقلب الأيام والأحوال.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: أهمية الصبر على الأذى والفتن.

خامساً: من موضوعات الدعوة: إخباره ﷺ بفساد الأحوال.

سادسًا: من مهام الداعية: فقه أحاديث النبي ﷺ.

أولاً- من واجبات الداعية: تسلية ومواساة المدعوين:

يظهر هذا من الحديث لما أتوا أنس بن مالك رضي الله عنه فشكوا إليه ما يلقون من الحجاج فقال: "اصبروا" وهذا واجب الداعية أن يشارك الناس في أفراحهم وأتراحهم ويكون كرجل منهم يتألم لألمهم، ويفرح لفرحهم، ولقد كان هذا من هدى رسول الله ﷺ فعن عثمان بن عفان في خطبة له قال: (إنا والله قد صحبنا رسول الله ﷺ في السفر والحضر فكان يعود مرضانا، ويتبع جنائزنا، ويغزو معنا، ويواسينا بالقليل والكثير)[1].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (إن النبي ﷺ ليخالطنا حتى يقول لأخ لي صغير "يا أبا عُمير ما فعل النغير)[2].

وفي هذا الحديث الذي معنا تتضح أهمية تسلية ومواساة المدعوين، ليشعروا بقرب الداعية منهم قال السيد سابق: (جاء الإسلام ليجمع القلب إلى القلب، ويضم الصف إلى الصف مستهدفاً إقامة كيان موحد ومتقياً عوامل الفرقة والضعف، وليكون لهذا الكيان الموحد القدرة على تحقيق الغايات السامية والمقاصد النبيلة، والأهداف الصالحة فلا بد من تكوين روابط وصلات بين أفراد المجتمع)[3].

---

(١) أخرجه أحمد ١/٧٠، رقم ٥٠٤، وقال محققو المسند: إسناده حسن ١/٥٣٢.

(٢) أخرجه البخاري ٦١٢٩، ومسلم ٢١٥٠.

(٣) عناصر القوة في الإسلام، السيد سابق ص ١٨١.

ثانياً- من أساليب الدعوة: الأمر:

حيث جاء في الحديث "اصبروا" ولاشك أن أسلوب الأمر يشعر المدعو بأهمية المأمور به، ويحفز المدعوين على الاستجابة، خاصة وأن الداعاة من أبرز ما يناط بهم الأمر بالخير والمعروف والنهي عن الشر والمنكر، وأسلوب الأمر من أساليب القرآن ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾[(١)] وقوله: ﴿ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾[(٢)].

ثالثا- من موضوعات الدعوة: تقلب الأيام والأحوال:

يظهر هذا من الحديث "فإنه لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه" والمؤمن يجب أن يوطن نفسه على أن دوام الحال من المحال قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[(٣)] وقال سبحانه: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾[(٤)] قال السعدي: (ومن حكمة الله سبحانه أن هذه الدار يعطي الله منها المؤمن والكافر، والبر والفاجر فيداول الله الأيام بين الناس، يوم لهذه الطائفة ويوم للطائفة الأخرى، لأن هذه الدار الدنيا منقضية فانية، وهذا بخلاف الدار الآخرة، فإنها خالصة للذين آمنوا)[(٥)] والمسلم عند تقلب الدنيا وظهور الفتن فيها الواجب عليه أن يكثر من العبادة ففي الحديث ((الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ، كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ))[(٦)].

قال النووي: "والمراد بالهرج: الفتنة واختلاط أمور الناس، وسبب كثرة فضل العبادة فيه أن الناس يغفلون عنها ويشتغلون عنها، ولا يتفرغ لها إلا أفراد"[(٧)].

---

(١) سورة البقرة، آية: ٤٣.

(٢) سورة الحجرات، آية: ١٢.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٤٠.

(٤) سورة النور، آية: ٤٤.

(٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن اللويحق ص ١١٧.

(٦) أخرجه مسلم ٢٩٤٨.

(٧) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٧٠٥.

رابعاً- من موضوعات الدعوة: أهمية الصبر على الأذى والفتن:

حيث جاء في الحديث "اصبروا" ومما لاشك فيه أن الصبر مطلب للمسلم في حياته وقد أمر الله به نبيه محمداً ﷺ، قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾[2] وقوله سبحانه: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾[3] وبيّن جزاء الصابرين فقال جلّ شأنه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[4] وبيّن أنه يحبهم إذا صبروا على البلاء والأذى فقال سبحانه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[5] وبيّن سبحانه أنه معهم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[6].

قال ابن عثيمين: (وفي هذا الحديث وجوب الصبر على ولاة الأمور فمع الصبر يحصل اطمئنان النفس والثبات، وانتظار الفرج عبادة تتعبد لله به)[7]. وقد أمر الله المؤمنين بالصبر فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[8] وقد أمر النبي ﷺ بالصبر فقال في الحديث ((اصبروا حتى تلقَوْني على الحَوْضِ))[9] قال ابن القيم: (الصبر حبس النفس عن الجزع والتسخط، وحبس

---

(١) سورة النحل، آية: ١٢٧.

(٢) سورة الروم، آية: ٦٠.

(٣) سورة الأحقاف، آية: ٣٥.

(٤) سورة الزمر، آية: ١٠.

(٥) سورة آل عمران، ١٤٦.

(٦) سورة البقرة، آية: ١٥٣.

(٧) شرح رياض الصالحين ٢٩٩/١.

(٨) سورة آل عمران، آية: ٢٠٠.

(٩) أخرجه البخاري ٣٧٩٢، ومسلم ١٨٤٥.

اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن التشويش، وهو صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على امتحان الله)[١].

خامساً- من موضوعات الدعوة: إخباره ﷺ بفساد الأحوال:

حيث جاء في الحديث "إنه لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه" قال الإمام ابن حجر: (قال ابن بطال: هذا الخبر من أعلام النبوة لإخباره ﷺ بفساد الأحوال، وذلك من الغيب الذي لا يُعلمَ بالرأي، وإنما يُعلَم بالوحي)[٢]، ولا شك إن إخبار أنس رضي الله عنه بما سمعه من النبي ﷺ من فساد الأحوال وتدنّي الأمور، نتيجة الفتن والاستبداد وضعف الإيمان في النفوس وغير ذلك مما أخبر به ﷺ في هذا المضمار، إن معرفة مثل هذه الأحوال والتغيرات تستوجب التمسك بالمنهج الصحيح المستمد من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والبعد عن كافة مظاهر الغلو والتطرف والتنطع وكل ما من شأنه أن يؤدي إلى انفراط عقد المسلمين، وانتشار الفتن وكثرة الهرج، فما أحوج المسلم إلى البعد عن سبل الضلال، والحذر من الانزلاق في التيارات المنحرفة.

سادسًا- من مهام الداعية: فقه أحاديث النبي ﷺ:

إن أحاديث "الفتن" وما يتعلق بما يسمى "آخر الزمان" أو "أشراط الساعة" يكثر فيها سوء الفهم، ولذا ينبغي التأمل الطويل في معانيها، حتى لا يتخذها الناس وسيلة لقتل كل بذرة للأمل، ووأد كل محاولة للإصلاح والتغيير. وحديث الباب من جنس هذه الأحاديث التي وردت فيه أفهام خاطئة، مما يستدعي أهمية تصحيح هذا الفهم.

فبعض الناس يتخذ من حديث أنس رضي الله عنه "... فإنه لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم ..." إلخ تُكَأة للقعود عن العمل ومحاولةِ الإصلاح والإنقاذ، مُدَّعيًا أن الحديث يدل على أن الأمور في تدهور دائم، وسقوط مستمر وهوى متتابع، من دَرْك إلى درك أسفل منه، ومن سوء إلى ما هو أسوأ منه. حتى تقوم الساعة على شرار الناس ويلقى الناس ربهم.

---

(١) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٤٢٦/٢.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٢٣/١٣.

وآخرون توقفوا في قبول الحديث - بالرغم من صحته-، وربما تعجل بعضهم فردَّه، لأنه في ظنه يدعو:

أولاً: إلى اليأس والقنوط.

ثانياً: إلى السلبية في مواجهة الطغاة من الحكام المنحرفين.

ثالثًا: يعارض فكرة التطور التي قام عليها نظام الكون والحياة.

رابعًا: ينافي الواقع التاريخي للمسلمين.

وخامسًا: يعارض الأحاديث التي جاءت في ظهور خليفة يملأ الأرض عدلاً "وهو الذي عرف باسم المهدي" وفي نزول عيسى بن مريم عليه السلام، وإقامته لدولة الإسلام وإعلاء كلمته في الأرض كلها[1].

وقد بين ابن حجر ما كان عليه السابقون من استشكال لهذا الحديث فبدء بذكر قول ابن بطال: إن هذا الخبر من أعلام النبوة لإخباره ﷺ بفساد الأحوال، وذلك من الغيب الذي لا يعلم بالرأي وإنما يعلم بالوحي انتهى.

ثم بين استشكال الإطلاق في فهم عموم الحديث بأن كل زمن شر من الذي قبله، وذلك لأن بعض الأزمنة تكون في الشر دون التي قبلها، ولو لم يكن في ذلك إلا زمن عمر بن عبدالعزيز وهو بعد زمن الحجاج بيسير، وقد اشتهر الخبر الذي كان في زمن عمر بن عبدالعزيز، بل لو قيل أن الشر اضمحل في زمانه لما كان بعيدًا فضلاً عن أن يكون شرًا من الزمن الذي قبله.

وقد أجابوا عن هذا بعدة أجوبة:

أ- فالحسن البصري حمل الحديث على الأكثر الأغلب، فقد سئل عن عمر بن عبدالعزيز بعد الحجاج، فقال: لابد للناس من تنفيس.

ب- وقد ذهب البعض إلى تفضيل مجموع عصر الحجاج على مجموع عصر عمر بن العزيز، لكثرة الصحابة في عصر الحجاج، لأن الزمان الذي فيه الصحابة رضي الله عنهم أفضل من الزمن الذي بعده.

---

(١) المبشرات بانتصار الإسلام، د. يوسف القرضاوي، ١٣١.

ج- ثم صحح ابن حجر الرأي الثالث بقول: ثم وجدت عن عبدالله بن مسعود التصريح بالمراد وهو أولى بالاتباع، والذي ذكر فيه "لا يأتي عليكم يوم إلا وهو شر من اليوم الذي كان قبله حتى تقوم الساعة، لست أعني رخاء من العيش يصيبه ولا مالاً يفيده ولكن لا يأتي عليكم يوم وإلا وهو أقل علمًا من اليوم الذي مضى قبله، فإذا ذهب العلماء استوى الناس فلا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر فعند ذلك يهلكون" وفي لفظ عنه من هذا الوجه وما ذاك بكثرة الأمطار وقلتها ولكن بذهاب العلماء، ثم يحدث قوم يفتون في الأمور برأيهم فيُثْلمون الإسلام ويهدمونه[(١)].

وذهب د. القرضاوي إلى أن ذلك لا ينفي الاستشكال من أساسه، فالنصوص تدل على أن في الغيب أدوارًا للإسلام ترتفع فيها رايته وتعلو كلمته، ولو لم يكن إلا زمن المهدي والمسيح في آخر الزمان لكفى.

والتاريخ يثبت أنه قد جاءت فترات ركود وجمود في العالم أعقبتها أزمنة حركة وتجديد، ويكفي أن نذكر مثلاً مَنْ ظهر في القرن الثامن من العلماء والمجدِّدين -بعد سقوط الخلافة الإسلامية في بغدد، وتدهور الأوضاع في القرن السابع- مثل ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وسائر تلاميذه في الشام، والشاطبي في الأندلس، وابن خلدون في المغرب، وغيرهم ممن ترجم لهم ابن حجر في كتابه "الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة".

وفي العصور التي تلت ذلك نجد مثل ابن حجر، والسيوطي في مصر، وابن الوزير في اليمن، والدهلوي في الهند، والشوكاني والصنعاني في اليمن، وابن عبدالوهاب في نجد، وغيرهم من العلماء الأجلاء المجتهدين والأئمة المجدِّدين[(٢)].

وهذا ما جعل ابن حبان في صحيحه يرى أن حديث أنس رضي الله عنه ليس على عمومه، مستدلاً بالأحاديث الواردة في المهدي، وأنه يملأ الأرض عدلاً، بعد أن ملئت جورًا[(٣)].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ١٣/٢٣-٢٤.

(٢) المبشرات بانتصار الإسلام، د. يوسف القرضاوي، ١٣١-١٣٢.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ١٣/٢٤.

قال د. يوسف القرضاوي: ولهذا أرى أن أرجح التفسيرات لهذا الحديث ما ذكره الحافظ في "الفتح" بقوله: (ويحتمل أن يكون المراد بالأزمنة المذكورة أزمنة الصحابة، بناء على أنهم هم المخاطبون بذلك، فيختص بهم، فأما مَنْ بعدهم فلم يُقصد في الخبر المذكور، لكن الصحابي فَهِمَ التعميم؛ فلذلك أجاب من شكا إليه الحجاج بذلك وأمرهم بالصبر، وهم -أو جلهم- من التابعين)[1].

---

(١) المبشرات بانتصار الإسلام، د. يوسف القرضاوي، وفتح الباري، ابن حجر ٢٤/١٣.

الحديث رقم (٩٣)

٩٣- **السَّابع:** عن أبي هريرة رضي الله عنه أَن رسول اللَّه ﷺ قال: «**بادروا بالأَعْمال سبعاً، هل تَنتَظرونَ إلاَّ فقراً مُنسياً، أَوْ غنيٍّ مُطْغياً، أَوْ مرضاً مُفسداً، أَو هرماً مُفْنداً أَو موتاً مُجهزاً أَوِ الدَّجَّال فشرُّ غَائب يُنتَظر، أَوِ السَّاعة فالسَّاعةُ أَدْهى وأَمر**» رواه الترمذي وقال: حديثٌ حسن[١].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

بادروا بالأعمال: سابقوا وسارعوا[٢].

هَرَماً مفنداً: الهَرَمُ: الكبَر. والفَنَد: الخَرَفُ وإنكار العقل لهرم أو مرض والخطأ في القول والرأي وهَرِمَ الرجل هَرَمًا بلغ أقصى الكبر وضعف فهو هَرِمٌ[٣].

مجهزاً: يأتي بغتة من غير أن يُقدر معه على توبة ووصية[٤].

أمرّ: أكثر مرارة من جميع ما يكابده الإنسان في الدنيا من الشدائد[٥].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٠٦) وقال: هذا حديث حسن غريب. قال المنذري في ترغيبه (١٤٥/٤): فيه محرر، ويقال محرز بالزاي، وهو واهٍ. أورده المنذري في ترغيبه (٤٩١٣). وسيتكرر برقم (٥٨٣).

(٢) المفصح المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٥١.

(٣) انظر: النهاية: في (ج هـ ز)، والقاموس المحيط، مجد الدين بن يعقوب الفيروز آبادي في (ف ن د). والوجيز في (هـ ر م).

(٤) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ١٧٦، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٨٤٤.

(٥) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٨٤٤.

الشرح الأدبي

إن البيان النبوي يتسم ببراعة اللفظ وجودة العبارة، وجمال المعنى، وفخامة المبنى، ويقول القاضي عياض: في كتابه "الشفا" في معرض إشادته بفصاحة المصطفى ﷺ: "فجمع له بذلك ﷺ قوة عارضة البادية وجزالتها، ونصاعة الحاضرة، ورونق كلامها، إلى التأييد الإلهي الذي مدده الوحي الذي لا يحيط بعلمه بشر، وقالت أم معبد[١] في وصفها لرسول الله ﷺ: (حلو المنطق، فصل لا نزر ولا هذر، كأن منطقه خرزات نظمن، وكان جهير الصوت، حسن النغمة ﷺ)[٢]".

وفي ضوء هذه المعالم للبيان النبوي نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الذي يحض على المبادرة إلى الأعمال الصالحة.

وفي قوله ﷺ: "بادروا بالأعمال سبعاً"، فيه توجيه إلى أن الأمر سباق بين الخير والشر، وبين الصلاح والفساد، والحديث السابق يصور ذلك الصراع بين الأعمال الصالحة، والفتن التي ستكون كقطع الليل المظلم[٣]، وهذا الحديث يعدد مظاهر هذه الفتن المتراكمة كظلمات بعضها فوق بعض، ويبدأ الحديث بفعل الأمر "بادروا بالأعمال سبعاً" والأمر للوجوب، والمؤمن لا يجب عليه إلا فعل العمل الصالح، ولذلك عرف الأعمال بأل، وهى للعهد، ويقصد بها الأعمال الصالحة، كما ورد في الحديث السابق، وكأن الأفعال غير الصالحة لا تستحق هذه الصفة، صفة العمل، لأنها لا تثمر شيئاً ذا بال، ولا تقدم نفعاً لأي إنسان بل إنها تضر وتفسد وتظلم الحياة وتنزع منها النور والضياء.

والاستفهام الذي يتصدر بيان هذه المظاهر: "يثير الانتباه واليقظة، وينعى هؤلاء المقصرين الذين لا ينتظرون إلا ما يضرهم، "هل تنتظرون إلا ...". والتعبير بالفعل المضارع

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة.

(٢) الشاف ١/١٦٤ ط/ دار الفكر، بيروت.

(٣) هو الحديث رقم ٨٧ وهو أول حديث في هذا الباب.

في صيغة الجمع يعلن عن استمرار هذا الانتظار الذي لا يجنون من ورائه ثمرة نافعة. وتأتي صيغة المضارع: تجئ صيغة: "القصر" لتعلن أنه لا فائدة ولا ثمرة من هذا الانتظار إلا الوقوع في براثن الفتن.

وهذه المظاهر السبعة للفتن تتسم صياغتها بالتوازي الأسلوبي ومراعاة النظير في حسن تقسيم العبارات في المظاهر الخمسة الأولى، وتنكير الألفاظ الدالة على مظاهر الفتن يدل على عدم التقليل من شأنها، أو التهوين من قيمتها (فقرًا – غنى –مرضاً – هرماً– موتاً" ولفظ "الدجال" و"الساعة" جاءا مُعرفين لأنهما لن يتعددا، وأما المظاهر السابقة فتتعدد حالات كل منها، بتعدد الأشخاص، وتغير المواقف، وإتحاد صيغة الوصف مع الإيقاع الصوتي الذي يحدثه الترنم في التنوين يضاعف من التأثير في نفس السامع، ويحدث الخشية المطلوبة، فالأوصاف كلها جاءت في صيغة اسم الفاعل: الفقر المنسي والغنى المطغي، والمرض المفسد، والهرم المفند أي الذي يؤدي إلى الكذب والخرف والموت الذي أتي بغتةً سريعًا.

وفي ذلك إسناد الفعل إلى المعاني والأحوال المقصودة على سبيل المجاز المرسل× لأنها من أسباب وقوعها، فالفقر بلا إيمان ورضا، يؤدي إلى الجحود والنسيان، والغنى بلا تقوى وشكر، يؤدي إلى الطغيان وجحود النعمة، وإنكار فضل الله عز وجل، والمرض الذي لا يصاحبه صبر واحتساب واستسلام لأمر الله يفسد حياة الإنسان وعقله وبدنه ويمنعه من أداء العبادة على الوجه الأكمل، والهرم وهو كبر السن، يُسلم الإنسان إلى الخرف، والتيه والأوهام والكذب. والموت يقضي على آمال الإنسان وطموحاته، ويخسر كل شيء إن لم يبادر بالأعمال الصالحة.

وكل مظهر من هذه المظاهر السابقة يحتاج إلى عرض أبعاده، وسبر أغواره، وتحليل أسبابه، ورصد نتائجه، ومن هنا ندرك أسرار الإيجاز وبلاغته في هذا الحديث وفي البيان النبوي عامة.

ومن أسرار الجمال التعبيري في هذا الحديث ترتيب أحوال ومظاهر الفتن وكأن بعضها يؤدي إلى البعض الآخر.

والعبارتان الأخيرتان تنفردان بإيقاع خاص، حيث يتغير السجع (غائب ينتظر، أدهى وأمرّ يجئ لفظا الدجال، والساعة معرفين غير منكرين مثل الظواهر الخمسة الأولى، لأنهما - كما قلت سابقاً- لا يتكرران، فالدجال أمره معروف، وهو من علامات اقتراب الساعة، والساعة أماراتها معروفة، وفصلتها السنة النبوية. وأوجز الحديث بعض آثارها: فجاء بفعلي التفصيل: "أدهى وأمر"، أي أنها أدهى وأمر من أمر الدجال، ومن كل المظاهر السابقة: فهي أشد مرارة من عذاب الدنيا وأهوالها، وفي وبداية سورة الحج تحديد لبعض مظاهر هذا الهول، حيث يقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الأمر، والترهيب.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: أهمية المبادرة إلى الأعمال الصالحة.

ثالثاً: من واجبات الداعية: تحذير المدعوين مما يمنعهم من الطاعة وتخويفهم من الغفلة.

أولاً- من أساليب الدعوة: الأمر، والترهيب:

١- **الأمر**: حيث جاء في الحديث "بادروا" ومما هو معلوم أن أسلوب الأمر يشعر المدعو بأهمية المأمور به، ووجوب تنفيذه خاصةً إذا صدر من الرسول الكريم ﷺ فإنه لا ينطق عن الهوى، وقد كثر في القرآن استخدام أسلوب الأمر لحث المدعوين على الطاعة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾[2] وقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾[3] وقوله جل شأنه: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ

---

(١) سورة الحج: ١-٢.

(٢) سورة الحديد، آية: ٢١.

(٣) سورة الأحزاب، آية: ٧٠.

يَأْتُوكَ رِجَالاً ﴾[(١)] إلى غير ذلك من الآيات القرآنية التي جاء بها أسلوب الأمر.

٢- **الترهيب:** لقد ورد الترهيب من عدد من الأمور التي قد تحول بين الإنسان وقيامه بالأعمال الصالحة، ومن تلك الأمور التي ورد الترهيب منها: الفقر، أو الغنى، أو المرض، أو الهرم، أو الموت أو الدجال. "فشر غائب ينتظر أو الساعة فالساعة أدهى وأمر" وأسلوب الترهيب من أساليب الدعوة الناجعة التي تخوف النفس البشرية من الوقوع في المحاذير الشرعية (والترهيب هو كل ما يخيف المدعو ويحذره من عدم الاستجابة أو رفض الحق أو عدم الثبات عليه بعد قبوله، وكما يكون الترغيب بنيل رضى الله ورحمته فإن الترهيب يكون بالتخويف من غضب الله وعذابه في الآخرة)[(٢)] أما عن هدف الترهيب فإن (الترهيب القولي يهدف إلى إنشاء الخوف في قلوب الناس ويستطيع الداعية من خلال الترهيب أن يجعل القلوب ترق وتذوق طعم الإيمان وترى السعادة في عبادة مولاها وطاعته وترى الحرمان في البعد عنه سبحانه)[(٣)].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: أهمية المبادرة إلى الأعمال الصالحة:

حيث جاء في الحديث "بادروا بالأعمال سبعاً" قال المباركفوري: (أي سابقوا وقوع الفتن بالاشتغال بالأعمال الصالحة، واهتموا بها قبل حلولها، قال القاري: خرج هذا مخرج التوبيخ على تقصير المكلفين في أمر دينهم، أي متى تعبدون ربكم، فإنكم إن لم تعبدوه مع قلة الشواغل، وقوة البدن فكيف تعبدونه مع كثرة الشواغل وضعف القوى؟ لعل أحدكم ما ينتظر إلا غنى مطغياً. والقصد من الحديث الحث على البدار بالعمل الصالح قبل حلول شيء من ذلك)[(٤)].

هذا وقد دلت النصوص الشرعية على فضل المبادرة إلى الأعمال الصالحة، قال الله

---

(١) سورة الحج، آية: ٢٧.

(٢) أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان، ٤٣٧.

(٣) الترهيب في الدعوة، د. رقية بنت نصر الله بن محمد نياز، ٨٩.

(٤) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٨٤٤/٢.

تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[(١)] وقال جل شأنه: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾[(٢)] وقال سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾[(٣)] ووصف الله من أنبياءه زكريا ويحيى عليهما السلام بقوله: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾[(٤)] وبعد أن بين الله نعيم الجنة وما أعده للذين يعملون الصالحات قال: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾[(٥)] وحث الله سبحانه على الإنفاق والطاعة قبل حلول الموت فقال: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾[(٦)] وفي نفس المعنى جاء قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[(٧)].

ثالثاً- من واجبات الداعي: تحذير المدعوين مما يمنعهم من الطاعة وتخويفهم من الغفلة:

حيث جاء في الحديث "هل تنتظرون إلا فقراً منسياً أو غنى مطغياً..." ولاشك أن الداعي من أهم واجباته أن يحذر المدعوين من المخالفات الشرعية، ومما يحول بينهم وبين الطاعة وقد وصف الله رسوله في القرآن بقوله: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٣٣.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٤٨.

(٣) سورة المؤمنون، آية: ٦١.

(٤) سورة الأنبياء، آية: ٩٠.

(٥) سورة المطففين، آية: ٢٦.

(٦) سورة المنافقون، آية: ١٠، ١١.

(٧) سورة البقرة، آية: ٢٥٤.

أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾[١] وقد بين النبي ﷺ أن الإنسان مسؤول أمام الله إن تكاسل ففي الحديث ((لاَ تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمْرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ، وَعن عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وعن مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفيمَ أَنْفَقَهُ، وعن جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلاَهُ))[٢].

---

(١) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

(٢) أخرجه الترمذي، ٢٤١٧، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي، ١٩٦٩).

الحديث رقم (٩٤)

٩٤- **الثامن:** عنه أن رسولَ اللَّه ﷺ قال يوم خيْبر: «**لأعطِينَّ هذِهِ الراية رجُلا يُحبُّ اللّـه ورسُوله، يفـتَح اللّـه عَلَى يديـهِ**» قـال عمـر ﷺ: مـا أَحببْـت الإمـارة إلاَّ يومئـذٍ، فتساورْتُ لهَا رجَاءَ أَنْ أُدْعى لهَا، فدعا رسول اللّه ﷺ عليَ بن أبي طالب ﷺ، فأَعْطَاه إيَّاهـا، وقـالَ: «**امش ولا تلْتَفتْ حتَّى يَفتح اللّه عليكَ**» فَسار عليٌّ شيئاً، ثُمَّ وقف ولم يلْتفتْ، فصرخ: يا رسول اللّه، على ماذَا أُقاتل النَّاس؟ قال: «**قاتلْهُمْ حتَّى يشْهدوا أَنْ لا إلـه إلاَّ اللّـه، وأَنَّ مُحمَّداً رسول اللّـه، فَإذا فعلوا ذلك فقدْ منعوا منْك دماءَهُمْ وأَموالهُمْ إلاَّ بحَقِّها، وحِسابُهُمْ على اللَّهِ**» رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

فتساورت: هو بالسين المهملة: أي وثبت متطلعاً[٢].

الشرح الأدبي

هذا المشهد الواقعي من مشاهد الصراع بين المسلمين واليهود، يرويه أبو هريرة في أمانة وصدق؛ ليظل نبراساً ومنهاجاً للبطولة الإسلامية، وليقدم درساً عملياً في التنافس والمبادرة إلى فعل الخيرات في كل ميادين الحياة، وميدان الجهاد هو الأولى بالتضحية والشجاعة والفداء.

وغزوة خيبر إحدى حلقات الصراع المستمر إلى يومنا هذا بين المسلمين واليهود الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، والذين قالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟﴾[٣].

وفي خيبر تحدث معجزات كثيرة، ويستجيب الله لحبيبه محمد ﷺ في مواقف متعددة.

---

(١) برقم (٣٣/٢٤٠٥).

(٢) رياض الصالحين ٨٨.

(٣) سورة المائدة، آية: ٦٤.

وأحداث هذه الغزوة وقعت بعد صلح الحديبية، حيث رجع الرسول ﷺ من الحديبية في ذي الحجة وخرج في بقية المحرم إلى خيبر، كما يروي ابن إسحاق[١]، ومن مظاهر التأييد والبشارة في هذه الغزوة أن بني سهم من أسلم أتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: والله يا رسول الله، لقد جهدنا وما بأيدينا من شيء، فلم يجدوا عند رسول الله شيئاً يعطيهم إياه، فقال: "اللهم قد عرفت حالهم، وأن ليست بهم قوة، وأن ليس بيدي شيء أعطيهم إياه، فافتح عليهم أعظم حصونها عنهم غناء وأكثرها طعاماً وودَكا، فغدا الناس ففتح الله عز وجل حصن الصعب بن معاذ، وما بخيبر حصن كان أكثر طعاماً وودكاً منه[٢].

وحين امتنعت بعض الحصون على بعض القواد من الصحابة: قال رسول الله ﷺ: "لأعطين هذه الراية رجلاً يحب الله ورسوله، يفتح الله على يديه"، وهذا الوعد يتحصن بالقسم والتأكيد فالتقدير: "والله لأعطين" واسم الإشارة "هذه" فيه تعظيم للراية، وتحديد لها، فهي سواها؛ لأنها راية الإسلام التي يحب أن تظل خفاقة نابضة بالتوحيد، والقوة. ولفظ "رجلاً" جاء في ثوب النكرة للتعميم والتشويق ولفظ "رجلاً" يوحي بالقوة وتحمل المسؤولية والإيمان القوي؛ ولذلك وصف هذا الرجل بأنه يحب الله ورسوله، والله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وهذه الصفة يشترك فيها كثير من الصحابة، ولكن العبارة الثانية وهي: "يفتح الله على يديه" تمثل خصوصية لحال ذلك الرجل الذي يحب الله ورسوله، وقد تنبأ الرسول بأنه يفتح الله على يديه عض حصون خيبر. وقد تحقق هذه الوعد، ونصر الله عبده، وأعز جنده، ويروى أن رسول الله ﷺ: بعث أبا بكر الصديق رضي الله عنه برايته وكانت بيضاء، إلى بعض حصونَ خيبر فقاتل، فرجع ولم يكن فتح، وقد جهد، ثم بعث الغد عمر بن الخطاب فقاتل، فرجع ولم يكن فتح، وقد جهد، ثم قال رسول الله ﷺ: لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله[٣].

---

(١) أخرجه ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام ٣/٣٤٦ وفي سنده مجهول.

(٢) السيرة النبوية، ابن هشام ٣/٢٨٢ بتحقيق: السقا والإيباري وشلبي.

(٣) أخرجه ابن إسحاق كما في السيرة النبوية ٣/٣٤٩.

وما أصدق التنافس في الخير بين الصحابة! وعمر رضي الله عنه يتمنى أن يكون هو ذلك الرجل، ويحاول أن يظهر نفسه لرسول الله حيث وثب متطلعاً حباً في التضحية والدفاع عن الإسلام، فيقول: "ما أحببت الإمارة إلا يومئذ" وهو الذي رفض أن يكون ابنه خليفة من بعده، ويختار رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب، ولا يغضب عمر، ولا يغضب غيره من كبار الصحابة، ويحدد الرسول لعلي المنهج ويصدر أمره الصارم، حيث يقول له: "امش ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك"، أي لا يشغلك أي شاغل عن الجهاد[1]، ويشير الرسول إلى الفتح من عند الله. في قوله: "حتى يفتح الله عليك".

ولنتأمل هذا المشهد الإيماني المنهجي، ويصرخ علي متسائلاً ولم يلتفت: "على ماذا أقاتل الناس؟" وهذا السؤال يرشد إلى ضرورة اقتناع الجندي بما يفعل، وإلى ضرورة أن تكون هناك قضية يدافع عنها، ويوضح له الرسول المنهج وهو أن الجهاد يكون من أجل الإقرار بالتوحيد وإعلاء راية الإسلام، وتحقق النصر المبين.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم عصمة الأنفس والأموال بنطق كلمة التوحيد، وقد اتفق الفقهاء[2] على أن الكافر إذا قال لا إله إلا الله فقد عصمت نفسه وماله إلا بحقه، وقد نقل ابن المنذر الإجماع على ذلك فقال: أجمع كل من نحفظ عنه من أهل العلم على أنه إذا قال الكافر أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله

---

(١) انظر: دليل الفالحين، ص ٢٢١-٢٢٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٣٢١/٧ وما بعدها، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٥٠/١، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، الزيلعي ٢٤٣/٣، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني ١٠٠/٧، وشرح منح الجليل على مختصر خليل، الشيخ محمد بن أحمد بن محمد عليش ١٤٤/٣ وما بعدها، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، شمس الدين الرملي ٦٤/٨، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، الشربيني ٣١/٦، وشرح منتهى الإرادات ٦٢٦/١، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي ٤٠/٣، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٣٨/٣٠ وما بعدها.

وأن كل ما جاء به محمد حق وأبرأ من كل دين يخالف دين الإسلام وهو صحيح العقل أنه مسلم، فهو محمول على حكم الظاهر دون الباطن.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التشويق، الأمر والنهي.

ثانياً: من واجبات المدعو: التطلع لإدراك الفضل.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: فضل ومنزلة علي بن أبي طالب >.

رابعاً: من واجبات المدعو: الاستفسار والسؤال عن الأمور المهمة.

خامساً: من موضوعات الدعوة: الجهاد لإعلاء كلمة الله.

سادساً: من موضوعات الدعوة: حرمة الدماء في الإسلام.

سابعاً: من تاريخ الدعوة: فتح خيبر.

أولاً- من أساليب الدعوة: التشويق، الأمر والنهي:

١- **التشويق:** ويظهر هذا من قول النبي ﷺ: (لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله يفتح الله على يديه)، وفي هذا الإبهام للرجل، وبيان أنه يحب الله ورسوله تشويق للمدعو للفت انتباهه، "وعلى الداعية أن يكون حسن الأداء، ومن حسن الأداء التشويق، ونعني به قدرة الداعية على جعل الحديث مشوقا بحيث يستمر المدعو في متابعته للداعية لما يرى ويجد فيه من جودة تجذبه إليه فمتى استطاع الداعية أن يستثير اهتمام المدعوين فإنه قد استحوذ على مشاعرهم وتمكن من جذبهم إليه"[(١)].

٢- **الأمر والنهي:** حيث جاء في الحديث: (امش)، و(لا تلتفت)، ومما لا شك فيه أن الأمر والنهي أسلوب من أساليب الدعوة، وهو أسلوب له دوره الرئيس في شد انتباه المدعوين وإشعارهم بأهمية المأمور به أو المنهي عنه، ومن أساليب الأمر في القرآن الكريم ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾[(٢)]، وقوله جل شأنه: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗا﴾[(٣)]،

---

(١) انظر: عدة الداعية المسلم، د. حمدان الهجاري، ص ٣٢ - ٣٣.

(٢) سورة البقرة، آية: ٤٥.

(٣) سورة سبأ، آية: ١٣.

ومن أساليب النهي في القرآن قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾[2].

ثانياً- من واجبات المدعو: التطلع لإدراك الفضل:

يظهر هذا من قول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (ما أحببت الإمارة إلا يومئذٍ فتساورت لها رجاء أن أدعى لها)، قال الإمام النووي: (إنما كانت محبته لها لما دلت عليه الإمارة من محبته لله ورسوله ﷺ ومحبتهما له والفتح على يديه، وقوله: فتساورت لها، أي: تطاولت لها، أي: أظهرت وجهي وتصديت لذلك ليتذكرني)[3]، والمدعو يجب أن تكون همته عالية لإدراك معالي الأمور، وشرف الأحوال، وهذا تعليم نبوي حميد فقد جاء في الحديث: ((فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَسَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ))[4].

ومما هو معلوم أن (علو الهمة خلق رفيع وغاية نبيلة، تتعشقه النفوس الكريمة، وتهفو إليه الفطر القويمة، وعلو الهمة من الأسس الأخلاقية الفاضلة ومن ظواهره الجد في الأمور، والترفع عن الصغائر والدنايا، والطموح إلى المعالي، وإنما تعلو قيمة المرء، وتسمو مكانته بقدر نصيبه من علو الهمة؛ ذلك أن علو الهمة يستلزم الجد والإباء، ونشدان المعالي وتطلاب الكمال، والهمة العالية لا تزال بصاحبها ترفعه من أدنى دركات الحضيض إلى أعلى مقامات المجد والسؤدد، وعظيم الهمة يشتد حرصه على الشرف، حتى لا يكاد يشعر بما يلاقيه في سبيله من أنكاد وأكدار، وعظيم الهمة لا يشغل باله أمر صغير، ولا يقلق فكره عمل يسير، بل يقوم بجلائل الأعمال التي تتعصى على أولي القوة من الرجال:

---

(١) سورة النور، آية: ٦٣.

(٢) سورة الإسراء، آية: ٣٢.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٤٧٠.

(٤) أخرجه البخاري ٧٤٢٣.

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

وتكبر في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم

فلقد جرت سنة الله في خلقه ألا ينهض بالمقاصد الجليلة، والغايات البعيدة غير النفوس التي عظم حجمها، وكبرت هممها)[١].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: فضل ومنزلة علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

حيث جاء في الحديث: "فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب رضي الله عنه فأعطاه إياها"، ولا شك أن هذا يدل على فضل ومنزلة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال الإمام ابن حجر: (هو أول الناس إسلامًا في قول كثير من أهل العلم ولد قبل البعثة بعشر سنين فرُبي في حجر النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يفارقه، وشهد معه المشاهد إلا غزوة تبوك، وكان اللواء بيده في أكثر المشاهد ولما آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين أصحابه قال له أنت أخي ومناقبه كثيرة حتى قال أحمد لم ينقل لأحد من الصحابة ما نقل لعلي رضي الله عنه)[٢].

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلي رضي الله عنه: ((أَمَا تَرْضَىٰ أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هارُونَ مِنْ مُوسَىٰ؟))[٣]، وقد دلت الكثير من الأحاديث والآثار على فضل علي رضي الله عنه.

ومن ذلك ما جاء في الحديث أن علياً رضي الله عنه كان يقول: (والله إِنَّهُ لَعَهْدُ النبي الأمي إِلَيَّ أَنْ لاَ يُحِبَّنِي إِلاَّ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يُبْغِضَنِي إِلاَّ مُنَافِقٌ)[٤]، ولما بعثه النبي صلى الله عليه وسلم إلى اليمن وهو شاب ليقضي بينهم قال: يَا رَسُولَ اللهِ لاَ أَدْرِي مَا الْقَضَاءُ فَضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم صَدْرَهُ وَقَالَ: ((اللَّهُمَّ اهْدِ قَلْبَهُ وَسَدِّدْ لِسَانَهُ)) فَقَالَ عَلِيٌّ رضي الله عنه: فَوَاللَّهِ مَا شَكَكْتُ بَعْدُ فِي قَضَاءٍ بَيْنَ اثْنَيْنِ)[٥]، وعن زاذان قال: سمعت عليا في الرحبة وهو ينشد الناس: مَنْ

(١) الهمة العالية "معوقاتها ومقوماتها"، محمد بن إبراهيم الحمد ص ١٠٧ - ١٠٩ بتصرف.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني في تمييز الصحابة ٦٣٩.

(٣) أخرجه البخاري ٢٧٠٦، ومسلم ٢٤٠٤.

(٤) أخرجه مسلم ٧٨.

(٥) أخرجه ابن ماجه ٢٣١٠، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ١٨٦٩).

شَهِدَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَوْمَ غَدِيرِ خُمٍّ، وَهُوَ يَقُولُ مَا قَالَ؟ فَقَامَ ثَلاَثَةَ عَشَرَ رَجُلاً، فَشَهِدُوا أَنَّهُمْ سَمِعُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: ((مَنْ كُنْتُ مَوْلاَهُ فَعَلِيٌّ مَوْلاَهُ)) [١].

وعن عمرو بن حبش قال: خطبنا الحسن بن علي بعد قتل علي رضي الله عنه فقال: (لَقَدْ فَارَقَكُمْ رَجُلٌ بِالأَمْسِ، مَا سَبَقَهُ الأَوَّلُونَ بِعِلْمٍ، وَلاَ أَدْرَكَهُ الآخِرُونَ، إِنْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَيَبْعَثُهُ وَيُعْطِيهِ الرَّايَةَ، فَلاَ يَنْصَرِفُ حَتَّى يُفْتَحَ لَهُ، وَمَا تَرَكَ مِنْ صَفْرَاءَ، وَلاَ بَيْضَاءَ، إِلاَّ سَبْعَمِئَةِ دِرْهَمٍ مِنْ عَطَائِهِ، كَانَ يَرْصُدُهَا لِخَادِمٍ لأَهْلِهِ)[٢].

رابعاً- من واجبات المدعو: الاستفسار والسؤال عن الأمور المهمة:

يتضح هذا من موقف علي رضي الله عنه عندما صرخ وقال: (يا رسول الله على ماذا أقاتل الناس؟) ومما لا شك فيه أن الاستفسار والسؤال مطلب قرآني، قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٣]، قال السعدي: (ويجب السؤال في كل مسألة من مسائل الدين، أصوله وفروعه إذا لم يكن عند الإنسان علم منها، أن يسأل من يعلمها ففيه الأمر بالتعلم والسؤال لأهل العلم، ولم يؤمر بسؤالهم إلا لأنه يجب عليهم التعليم والإجابة عما علموه، وفي تخصيص السؤال بأهل الذكر والعلم نهي عن سؤال المعروف بالجهل وعدم العلم، ونهي له أن يتصدى لذلك)[٤]، قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾[٥]، وبناء على هذا كان من أهم واجبات المدعو أن يستفسر عن الأمور المهمة، وواجب الداعية أن يوجهه إلى الصواب، ويجيبه على ما سأل.

---

(١) أخرجه أحمد ٨٤/١، رقم ٦٤١، وقال محققو المسند: صحيح لغيره، ٧١/٢.

(٢) أخرجه أحمد ٢٠٠/١، رقم ١٧٢٠، وقال محققو المسند: حديث حسن، ٢٤٧/٣.

(٣) سورة الأنبياء، آية: ٧.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٤٦٨.

(٥) سورة الفرقان، آية: ٥٩.

خامساً- من موضوعات الدعوة: الجهاد لإعلاء كلمة الله:

يتضح هذا من قول النبي ﷺ: "قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله"، والجهاد له فضل عظيم وشرف كبير، وهذا ما دلت عليه النصوص الشرعية ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾[1]، وقال سبحانه وتعالى آمراً بالجهاد: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾[2]، وبيّن ثواب المجاهدين فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾[3].

وبيّن أن الجهاد في سبيل الله هو التجارة الرابحة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[4]، وجعل الرسول الكريم ﷺ الجهاد في سبيل الله من أفضل الأعمال، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ: أَيُّ العَمَلِ أَفْضَلُ؟ فقال: ((إِيمانٌ باللهِ ورَسولهِ)). قيل: ثم ماذا؟ قال: ((الجهاد في سبيل الله)). قيل: ثُمَّ ماذا؟ قال: ((حَجٌّ مَبْرور))[5].

وهذه النصوص السابقة تبين فضل الجهاد في سبيل الله، (ولما كان الجهاد هو الحجة والبرهان على صدق الإيمان كانت منازل الناس عند ربهم في الدنيا والآخرة حسب ما يقومون به من جهاد، وما يقدمونه من تضحيات، فمن حاز قصب السبق منه

(١) سورة التوبة، آية: ١١١.

(٢) سورة الحج، آية: ٧٨.

(٣) سورة التوبة، آية: ٢٠.

(٤) سورة الصف، الآيتان: ١٠ - ١١.

(٥) أخرجه البخاري ٢٦، ومسلم ٨٣.

وجب على المجتمع المسلم أن يرفعه ويكرمه، ومن فترت همته عنه، لم يجز تسويته بالمجاهدين، فالجهاد قيمة عليا من القيم التي يتعامل بها المجتمع المسلم، ولقد جاهد النبي ﷺ في الله حق جهاده من حين بعث إلى أن توفاه الله، وجاهد بقلبه، وجنانه، ودعوته وبيانه، وسيفه وسنانه، وكانت ساعاته وأيامه وعمره موقوفة جميعها على الجهاد، وينبغي على المسلم أن يجاهد في الله حق جهاده بأن يستعمل جميع ما أوتي من طاقة في جهاد نفسه وشيطانه وأهل الكفر والنفاق والمنكر في الأرض)[١].

سادساً- من موضوعات الدعوة: حرمة الدماء في الإسلام:

حيث جاء في الحديث: "فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها"، ويدل هذا على حرمة دم المسلم وبهذا جاءت النصوص الشرعية وتوعدت من يقتل مؤمناً متعمداً بالعذاب الأليم، قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[٢]، وجعل من يقتل نفساً فكأنما قتل الناس جميعاً: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[٣].

وبيّن الرسول ﷺ أن الدماء أول ما يقضى فيها، ففي الحديث: ((أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فِي الدِّمَاءِ))[٤]، وفي الحديث أيضاً: ((إنَّ الله تعالى حَرَّمَ دِمَاءَكُمْ وأموالَكُمْ وأَعْرَاضَكُمْ إلاَّ بِحَقِّهَا كَحُرْمَةِ يَوْمِي هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، في شَهرِكمْ هذا..))[٥].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: ((أَكْبَرُ الكبائرِ الإشراكُ بالله،

---

(١) الجهاد ميادينه وأساليبه، د. محمد نعيم ياسين ص ٢٤٤ - ٢٤٥.

(٢) سورة النساء، آية: ٩٣.

(٣) سورة المائدة، آية: ٣٢.

(٤) أخرجه البخاري ٦٥٣٣، واللفظ له، ومسلم ١٦٧٨.

(٥) أخرجه البخاري ٦٧٨٥.

وقتلُ النفسِ، وعقوقُ الوالدينِ، وقولُ الزورِ))، أَوْ قالَ: ((شَهَادَةُ الزورِ))[١]، وعن الأحنف بن قيس قال: ذَهبتُ لأنْصُرَ هذا الرَّجُلَ، فلَقِيَني أبو بَكرةَ فقال: أينَ تُريدُ؟ قلتُ: أنصُرُ هذا الرَّجُلَ: قال: ارْجِعْ، فإنّي سَمِعْتُ رسولَ اللّهِ ﷺ يقول: ((إذا الْتقَى المُسْلِمان بسَيْفَيْهما فالْقاتِلُ والمقتولُ في النار)). فقلتُ: يا رسولَ اللّهِ هذا القاتِلُ، فما بالُ المقتول؟ قال: ((إنه كان حَريصاً على قتلِ صاحبِه))[٢].

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ. وَقِتَالُهُ كُفْرٌ))[٣]، وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((كُلُّ ذَنْبٍ عَسَى اللهُ أنْ يَغْفِرَهُ إلاَّ مَنْ مَاتَ مُشْرِكاً أوْ مُؤْمِنٌ قَتَلَ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً))[٤]، وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: ((لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عِنْدَ اللّهِ مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ))[٥]، ومن خلال هذه النصوص القرآنية والنبوية الكريمة يتبين حرمة الدماء في الإسلام، فيجب على الداعية الحصيف أن يسوق هذه النصوص للمدعوين ويذكرهم لإظهار رعاية الإسلام لحرمة دم المسلم.

سابعاً- من تاريخ الدعوة: فتح خيبر:

حيث جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: (يوم خيبر)، ويعتبر فتح خيبر من المعالم البارزة في تاريخ الدعوة إلى الله، "وكانت غزوة خيبر في المحرم سنة (٧ هـ) وهي مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع على بعد ستين أو ثمانين ميلاً من المدينة المنورة في جهة الشمال، وكانت خيبر لها ثمانية حصون، وكان الفتح فيها على يدي علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغنم المسلمون منها مغانم كثيرة"[٦].

---

(١) أخرجه البخاري ٦٨٧١ واللفظ له، ومسلم ٨٨.

(٢) أخرجه البخاري ٦٨٧٥ واللفظ له، ومسلم ١٨٨٨.

(٣) أخرجه البخاري ٧٠٧٦، ومسلم ٦٤.

(٤) أخرجه أبو داود ٤٢٧٠، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٥٨٨).

(٥) أخرجه النسائي ٣٩٨٧، وصححه الألباني (صحيح سنن النسائي ٣٧٢٢).

(٦) انظر: الرحيق المختوم، للمباركفوري ٣٦٤.

قال ابن عبدالبر: (وكان الفتح في خيبر على يد عليّ رضي الله عنه، قال ابن إسحاق: وآخر ما افتتح رسول الله ﷺ من حصونهم الوطيح والسّلالم، وقال موسى بن عقبة: حاصر رسول الله ﷺ حصون خيبر بضع عشرة ليلة، وكان بعضها صلحاً وأكثرها عنوة، وقال ابن إسحاق: وقسم رسول الله ﷺ أرض خيبر كلها لأنه غلب على جميعها عنوة. وحاصر رسول الله ﷺ أهل خيبر في حصنهم الوطيح حتى إذا أيقنوا بالهلكة سألوه أن يسيرهم وأن يحقن لهم دماءهم ففعل)[1].

وقال محمد الغزالي معقباً على فتح خيبر: (ولا ريب أن الهزيمة التي أصابت بني إسرائيل في خيبر قضت على كيانهم العسكري في الجزيرة قضاءً تاماً، ومدَّ الإسلام رواقه على هذه الأرض، بعد أن ظلت حيناً من الدهر في أيدي اليهود، يعيشون عليها كما يشتهون، والعظة التي نستخلصها من هذه المعارك وما أعقبها من جلاء أن الأرض لله يورثها من يشاء، وهو لا ينتزعها من قوم، ويعطيها آخرين محاباة، كلا، ولكن الأمة التي تفسد على النعمة تسلبها، ثم تساق النعمة إلى من يقدرها ويشكر الله عليها، والأمة التي تتكبر مع الحرية، وتتبطر، تفقد امتلاكها لنفسها وحقها وأمرها، لتقع في إسار الآخرين فيصرفون شؤونها كما يشتهون، وقد طبق هذا القانون بقسوة على بني إسرائيل عندما أهدروا أحكام التوراة وتبعوا الهوى، وطبق بعد ذلك على المسلمين يوم سدروا في الغواية وجحدوا ما لديهم من هداية)[2].

---

(١) الدرر في اختصار المغازي والسير ٢٠٠.

(٢) فقه السيرة ٣٤٨ - ٣٤٩.

المضامين التربوية في أحاديث الباب[1]

مدخل:

إرادة السبق فطرة بين الناس، وما من إنسان إلا وهو حريص على أن يسبق غيره في ميادين شتى، ومن هذه الميادين ما لا خير فيه ولا نفع، وقد غلب - في زمن العولمة الثقافية - اللهو على غيره من وسائل السبق.

والإسلام حريص على أن يكون السبق في ميدان الخير الذي يعود على الفرد والمجتمع بالخير ووردت الكلمة بصيغة العموم لتذهب النفس فيها كل مذهب فاستبقوا الخيرات ولهذا رأينا منهج الإسلام في الآتي:

أولاً- غرس قيمة المبادرة إلى فعل الخيرات:

إن الآجال قدرها الله تعالى، فهي مجهول للناس، ولذا فإن أجل الإنسان ليس معلومًا، وكذلك فإن الصحة والمال وكل أعراض الدنيا ربما تزول سريعاً، ولهذا فقد حرص النبي ﷺ على تربية صحابته على اغتنام الفرصة لعمل الخير والمسارعة إليه، ولهذا فقد جسَّد النبي ﷺ هذه القيمة قولاً وفعلاً، يقول ﷺ: «بادروا بالأعمال....»، ويقول في الصدقة: «وَلاَ تُمْهِلَ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ».

ويقول محذرًا من ضياع الفرصة، وانتهاء الأجل وقيام الساعة: "بادروا بالأعمال سبعًا...."، وأما أفعاله فمنها أنه ﷺ: «صلى العصر ثم انطلق إلى إحدى زوجاته ثم خرج مسرعاً، وعندما سُئل عن ذلك قال: "كنتُ خَلّفتُ في البيتِ تِبراً منَ الصَّدَقةِ، فكرِهتُ أنْ أُبيِّتَه".

تلك هي روح الإسلام وتنشئته لأبنائه؛ إنها تنشئة على اغتنام فرصة الغني قبل الفقر، والصحة قبل المرض، والفراغ قبل الشغل، والحياة قبل الموت، وإن من يستشعر هذه الروح فإنه سيكون مقداماً إلى الخيرات، ومتولياً عن الآثام، وسرعان ما يتراجع الظالم عن ظلمه؛ إذا علم أن الحياة قد تنتهي وهو على ظلمه، وكذلك فإن العابد

---

(١) رقم (٩، ١٠).

الشاكر يزداد في عبادته وشكره؛ لأنه على يقين بأن كل شيء قد ينتهي في لحظة واحدة، بالمرض أو الفقر أو الموت أو الساعة.

فالشخصية الإسلامية لتيقّنها أن الدنيا دار سعي وعمل، ومدتها محدودة قليلة، والآخرة دار حساب وجزاء، وهي حياة أبدية، فإننا نجدها تسارع في هذه الدنيا إلى كل عمل طيب، سبّاقة إلى كل فعل خير، وما ذلك إلا ليكون لها زاداً تتزود بها إلي يوم القيامة، وتحصل به على الثواب العظيم من الله عز وجل(١).

ثانياً- التربية بالمواقف والأحداث:

ويبدو ذلك جلياً من خلال موقفه ﷺ حين خرج مسرعاً يتخطى رقاب الناس إلى بعض حجر نسائه، حتى إن الناس قد فزعوا من سرعته ﷺ، فلمّا عاد سُئل عن ذلك، فقال: "ذَكَرْتُ شيئاً مِنْ تِبرٍ عندنا فكرهتُ أنْ يحبِسَني ..."، وذلك تربية لصحابته بالموقف وليس بمجرد الكلام المباشر فحسب.

ولهذه الطريقة فائدة كبيرة في العملية التربوية؛ فإن المتلقي حين يرى هذا الموقف من أستاذه، وكيف أسرع بعد الصلاة مباشرة، وكيف تركهم ولم يفسِّر لهم الموقف إلا بعد عودته، كل ذلك فيه غرس للمبدأ أو القيمة المراد غرسها بكفاءة تفوق مجرد الوعظ، فإن المرء قد يتذكر الموقف العملي أكثرمن تذكره للكلام المجرد؛ ويكون التقويم أقرب إلى النفع للمتربي إذا اقترن الموقف بالتوجيه والتفسير، مثلما رأينا في هذا الحديث.

إن الناشئ "يتأثر بالمربي من خلال قيامه بأداء العبادات وحرصه عليها واهتمامه بها بطريقة غير مباشرة، بحيث يكون ذلك حافزًا وحاثًا له على أن يختار هذا السلوك لنفسه، ما دام مربيه الذي يحبُّه ويكبره يفعل ذلك ويحرص عليه"(٢).

---

(١) الشخصية ومنهج الإسلام في بنائها ورعايتها، د. ناصر التركي، ص٣٦٢.

(٢) أصول التربية الإسلامية، د. أمين أبو لاوي، ص٧٦.

ثالثاً- التربية على خلق الكرم والعطاء:

لقد دعا الإسلام مراراً إلى تغلب الإنسان على حرصه وشُحِّه ببذل ما يستطيع بذله للمحتاجين، متصدِّقاً عليهم، ورافعاً من حالهم من الفقر إلى سدِّ الحاجات الضرورية لهم، ولهذا فقد ربَّى النبي ﷺ صحابته الكرام على البَذْل والعطاء، حتى في حال الفقر، يقول ﷺ: "أن تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ تَخْشَىٰ الْفَقْرَ وَتَأْمُلُ الْغِنَى".

تلك من سمات المسلم الحق، والجود والكرم من أساسيات التربية الإسلامية؛ لأن الإنسان "إذا ما اتصف بالسَّخاء زكت نفسه، ولانت عريكتُه، وقاده ذلك إلى أن يترقى في مكارم الأخلاق، ومدارج الفضيلة، فالكريم قريب من كل خير وبر، ولهذا فقد كان الأكابر يبادرون إلى تلك الخصلة، ويحرصون كل الحرص على اكتسابها، ويوصون غيرهم بأن يتحلى بها"[(١)].

رابعاً- التربية على عُلُوِّ الهمَّة:

إن النبي ﷺ حرص على تربية أصحابه رضي الله عنهم وتنشئتهم على علوّ الهمة، وسمو أنفسهم لبلوغ معالي الأمور، فليس يكفي المسلم إلا أعلى الدرجات، وليس يقنعه الفتات، إنما تراه دائماً سامقاً إلى العلا، طالباً بجده واجتهاده وهمته العالية الثريا، وهذا رسول الله ﷺ في إحدى غزواته يأخذ سيفه ويقول: «من يأخذ هذا مني؟»، فيتبادر الصحابة إلى تناوله، ولكنه قال: «فمن يأخذه بحقه؟»، فأحجم الجميع، ولكن أبا دجانة رضي الله عنه بعلو همته أبى إلا أن يكون صاحب هذا السيف، فأخذه وقاتل وقتل المشركين.

وفي فتح خيبر عندما أخبر ﷺ أنه معط الراية لرجل «يُحِبُّ اللّهَ وَرَسُولَهُ...» يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «مَا أَحْبَبْتُ الإِمَارَةَ إِلاَّ يَوْمَئِذٍ . قَالَ: فَتَسَاوَرْتُ لَهَا رَجَاءَ أَنْ أُدْعَىٰ لَهَا»، حرصاً منه على أن يبلغ أعلى الدرجات في الدنيا والآخرة.

وإنما تعلو قيمة المرء وتسمو مكانته بقدر نصيبه من علو الهمة، ذلك أن علو الهمة

---

(١) رسائل في التربية والأخلاق والسلوك، محمد إبراهيم الحمد، ص٥٢٥.

يستلزم الجد والإباء، ونشدان المعالي، والترفع عن الدنايا والصغائر ومحقرات الأمور[١].

خامساً: غرس خلق الصبر في نفوس المتربين:

إن غرس الصبر في النفوس من المبادئ التربوية التي أمر بها الإسلام؛ فعندما يُصاب الإنسان بمكروه فإنه يحتاج إلى الصبر، وعندما يحرم خيراً فإنه كذلك يحتاج إلى الصبر، إن العبادات أيضاً تحتاج إلى الصبر، يقول النبي ﷺ: «اصبروا، لاَ يَأْتِي زَمَانٌ إِلاَّ وَالَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ، حتى تلقوا ربكم». وليس في ذلك دعوة للتشاؤم بالأيام المقبلة؛ بل هو توطين للنفوس على تحمل المكاره، والصبر عليها، وذلك من واقعية التربية الإسلامية.

إن النبي ﷺ أخبر بأن الشر يتفاقم وينمو كلما مرَّت الأيام، وأمر صحابته الكرام بالتحلي بخلق الصبر، الذي يستطيعون به العبور عبر لجج الابتلاءات، وحمأة المكاره في أيام الظلمات.

قال أبو حامد الغزالي في الصبر وضرورته في جميع الأحوال: "اعلم أن جميع ما يلقى العبد في هذه الحياة لا يخلو من نوعين: أحدهما: هو الذي يوافق هواه، والآخر: هو الذي لا يوافقه بل يكرهه، وهو محتاج إلى الصبر في كل واحد منهما، وهو في جميع الأحوال لا يخلو عن أحد هذين النوعين أو عن كليهما، فهو إذن لا يستغنى قط عن الصبر"[٢].

سادساً: نشر روح هدي النبي ﷺ في التربية والتعليم، إخبار الإنسان من يحبه بأنه يحبه:

وفي هذا سبيل لتقوية الروابط بين المسلمين وإعلاء قدر أهل الخير "لأعطين الراية غداً لرجل يحب الله ورسول ويحبه الله ورسوله.

سابعاً: من الأسس العلمية التعليمية ما يلي:

١- توجيه المنهج من المعلم إلى المتعلم.

---

(١) الهمة العالية، محمد إبراهيم الحمد، ص١٠٧.

(٢) تزكية الأنفس، سعيد حوى، ص٢١٠.

٢- قبول المتعلم نصح معلمه وموجهه.

٣- سؤال المتعلم عما أشكل عليه، فعليّ رضي الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم على ماذا أقاتل الناس؟

٤- من حق كل إنسان أن ينال شرف الذكر بالخير، وأن يكون صاحب الفضل في موطن الفضل، ولا يعد هذا أثرةً، بل هو من باب قول الحق: "وفي ذلك فليتنافس المتنافسون".

۞ ۞ ۞

١١- باب المجاهدة

قَـالَ اللَّه تَعَـالَى: ﴿وَالَّـذِينَ جَاهَـدُوا فِينَـا لَنَهْـدِيَنَّهُمْ سُـبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَـعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[العنكبوت: ٦٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾[الحجر: ٩٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾[المزمل: ٨]: أي انْقَطِعْ إِلَيْه، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾[الزلزلة: ٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾[المزمل: ٢٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٧٣] والآيات في الباب كثيرة معلومة.

وأما الأحاديث:

الحديث رقم (٩٥)

٩٥- **فالأول:** عن أبي هريرة رضي الله عنه. قال: قال رسول اللّه ﷺ: **«إنَّ اللّه تعالى قال: منْ عادى لي وليًّا. فقدْ آذنتهُ بالْحرْب. وما تقرَّبَ إليَ عبْدِي بِشْيءٍ أحبَّ إلَيَ مِمَّا افْتَرَضْت عليْهِ: وما يَزالُ عبدي يتقرَّبُ إلى بالنَّوافِل حَتَّى أُحِبَّه، فَإِذا أَحبَبْتُه: كُنْتُ سمعهُ الَّذي يسْمعُ به، وبَصره الذي يُبصِرُ بِهِ، ويدَهُ التي يَبْطِش بهَا، ورِجلَهُ التي يمْشِي بها، وَإِنْ سأَلنِي أَعْطيْتَه[١]، ولَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعيذَّنه»** رواه البخاري[٢].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

آذنته: أعلمته بأني محارب له[٣].

افترضت: أوجبت[٤].

---

(١) لفظ البخاري: (لأعطينه).

(٢) برقم (٦٥٠٢).

(٣) رياض الصالحين ٨٩.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (و ج ب).

النوافل: المفرد: النفل: وهو ما كان زائدًا عن الواجب صدقة كان أم صلاة أم صيامًا أم غير ذلك[١].

استعاذني: روي بالنون والباء[٢]، أي لجأ إلي واعتصم بي[٣].

الشرح الأدبي

من إشراقات هذا الحديث القدسي تنبعث أشعة الهداية وأنوار الولاية، وفيوضات القرب من الله عز وجل، ويعلن الحق سبحانه وتعالى حمايته لأوليائه. والحديث يحدد علامات الولي الذي يستحق دفاع ربه عنه، فمحصلات الولاية أنه لا يُقَرِّب من الله إلا أداء الفرائض الظاهرة، كالصلاة، والزكاة، وترك الفواحش، وأكل أموال الناس بالباطل، والفرائض الخفية: الباطنة كالعلم بالله والتوكل عليه.

ونقتبس من الحديث مظاهر الولاية وعلامة صاحبها، فالولي هو الذي يتعلق بالخالق لا بالمخلوق، وهو الذي يطلب الفضل من الله لا من الناس، وهو الذي يملأ سمعه بذكر الله، وبصره بما يرضى الله، ويبطش بيده في سبيل الله، ويمشي إلى بيوت يذكر فيها اسم الله[٤]، ولا يرتاد أماكن الخنا واللهو والفجور، ولا يسعى في حرام ولا إلى حرام، وهو مستجاب الدعاء، متحقق الرجاء، ينعم بحماية العزيز الجبار، الكبير المتعال.

ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث القدسي الشريف؛ والحديث تسمو كلماته، وتشرف معانيه، وتسمق مبانيه، وتشع أصداؤه بالهدى الإلهي لأنه صادر عن الله عز وجل، وكل ألفاظ الحديث يتكلم بها الله سبحانه، وشاهد ذلك أن في الحديث أربعة عشر موضعًا فيها ضمائر: ضمير ياء المتكلم أو ضمير هاء الغيبة أو تاء

---

(١) معجم لغة الفقهاء ٤٥٦.

(٢) رياض الصالحين ٨٩.

(٣) الوسيط في (ع و ذ).

(٤) انظر: المنهل العذب الفرات من الأحاديث الأمهات، د. عبد العال أحمد عبد العال ٦/٢٣.

المتكلم، وهي تمثل شرايين الحديث، وأنفاسه ونبضه الحي، الذي يشد السامع، ويؤثر في النفوس المؤمنة. وتكرّر لفظ عبدي مرتين، تكريمًا للمؤمن الذي حظي بمرتبة الولاية والحماية من الله عز وجل. ولفظ "ولي" يمكن تفسيره حسب دلالته اللغوية: فهو إمّا على وزن فعيل بمعنى مفعول، وهو من تولى الله أمره، فلم يكله إلى نفسه كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[1]. وإما على وزن فاعل وهو من تولى عبادة الله وطاعته، وكلا الوصفين واجب، حتى يكون الولي وليًا، فمن شرط الولي أن يكون محفوظًا وأن يكون قائمًا بحقوق الله على وجه الاستقصاء والاستيفاء، والجار والمجرور لي متعلق بمحذوف حال من "وليا" أي حالة كونه وليًا لي: أي الله، وأصله صفة للولي قدمت عليه[2].

وهذه الجملة المشعة بحماية الله عز وجل لأوليائه صيغت في قالب الشرط والجزاء، ويوحي ذلك بتحقيق الجواب، وهو إعلان الحرب على من يعادي أولياء الله، ومن حاربه الله أهلكه، لأنه لا يغلبه غالب، وأطلق الإيذان بالحرب، وأكد ذلك بقد، ولكن أريد لازمة من باب الكناية بوسائط، لأن من كره حبيب الله خالف الله، ومن خالف الله عانده، ومن عانده أهلكه، وإذا ثبت هذا في جانب المعاداة، ثبت في جانب الموالاة، فمن والى أولياء الله أكرمه الله، وفي ذلك تهديد شديد للمعادي، وإكرام بالغ للموالي.

والتعبير بالفعل "عادى لي وليًا" وهو يفيد المفاعلة، أي المعاداة من الجانبين، ويوحي بأن الولي يعادي مع أن شأنه الحلم والصفح عمن يجهل عليه، وهذا الإيحاء ليس على إطلاقه، لأن المعادلة لا تنحصر في الخصومة الدنيوية التي تتسم بها معاداة من يعادي الأولياء، فالمعاداة من الولي تكون لله تعالى، وفي الله أي من أجل حماية الدين، والدفاع عن القيم والأخلاق الإيمانية، أما الجانب الآخر فهو غير ذلك، وقيل إن "فاعل" هنا وهي

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٩٦ .

(٢) انظر: المنهل العذب الفرات من الأحاديث الأمهات، د. عبد العال أحمد عبد العال ٢١/٦.

وزن الفعل "عادى" بمعنى فعل: كراقب وآخذ، فتكون العداوة من جانب واحد، كما تكون المراقبة والمؤاخذة من جانب واحد.

وتكرار لفظ "إليَّ" ثلاث مرات في الجملتين الثانية والثالثة يرشد إلى عظم هذه القربات، وقد تكررت مرتين في الجملة الخاصة بالفرائض، ومرة واحدة في الجملة الخاصة بالنوافل، وفي ذلك إرشاد وإفادة بأن الفرائض أحب الأعمال إلى الله، والفرض كالأصل والأساس، والنفل كالفرع والبناء، وفي الإتيان بالفرائض على الوجه المأمور به امتثال للأمر، وتبجيل لأمر الله وتعظيم له، وانقياد إليه، فكان التقرب بذلك أعظم العمل، فالفرائض تنتج القرب، والنوافل تكمله، ولذلك قيل: من شغله الفرض عن النفل فهو معذور، ومن شغله النفل عن الفرض فهو مغرور، وروي "أن ثواب الفرض يفضل ثواب النفل بسبعين درجة"(١).

ولأن التقرب إلى الله يحتاج إلى مجاهدة ومكابدة فقد جاءت لغة الحديث موافقة لذلك وموحية به، في قوله: "وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه" فالفعل "ما يزال" يفيد الاستمرار ولذلك لا بد من المداومة على النوافل وهي التطوعات من جميع أصناف العبادات الظاهرة: كقراءة القرآن، والصلوات، والذكر الدائم، والباطنة كالزهد والورع والتوكل والرضا، ولذلك أضاف الله لفظ عبد إلى نفسه "عبدي" تشريفًا وتكريمًا، ويزداد الشرف بما يوحيه لفظ إليّ، حيث يرشد إلى إخلاص النية والصبر والمجاهدة في سبيل ذلك، ولفظ "حتى" يدل على الغاية، ويرشد إلى أن حب الله للعبد لا يأتي إلا بعد مجاهدة وتقرب وإخلاص والتزام بأداء الفرائض، وإكثار من النوافل الظاهرة والباطنة، ولفظ "حتى" يتوهج بكل هذه المعاني والإيحاءات.

وعندما يفوز العبد بمحبة خالقه يحصل على أعظم الجزاء، وقد صيغ هذا المعنى في قالب الشرط والجواب، وما أعظم ذلك الثواب الذي لا يعدله ثواب آخر! ولنتأمل جمال الأداء الأسلوبي المشع بكثير من المعاني والفيوضات: "كنت سمعه الذي يسمع به،

---

(١) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١ /٢٦٢.

وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها".

وتتعدد الدلالات في تفسير المراد من هذه العبارات المشرقات بمحبة الله لعباده المقربين، فالسمع في الحديث بمعنى المسموع، والبصر بمعنى المبصر، فحواس الإنسان الظاهرة بفضل محبة الله تراقب الله عند السمع، وتذكره عند البصر، وتخشاه عند البطش، وتتقيه عند المشي كأنها تراه. وقيل: في الكلام مضاف محذوف والأصل: "كنت حافظ سمعه، وحافظ بصره، وحافظ يده ورجله: فلا يسمع، ولا يرى، ولا يعمل، ولا يسعى إلا فيما أحله الله وشرعه" وما أجمل ختام الحديث بهاتين الجملتين المتناسقتين بناء نحويًا، وإيقاعًا صوتيًا، وتأكيدًا على إكرام أولياء الله وعباده المقربين! فالله يعطيهم إذا سألوا ويعينهم ويجيرهم إذا استجاروا به.

والحديث كله في صيغة الإفراد إرشاد إلى أن كل إنسان مسؤول عن نفسه، فكل نفس بما كسبت رهينة، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى. فاللهم اجعلنا من عبادك المقربين وأوليائك المحبين، آمين.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم فعل الفرائض والنوافل، وقد ذكر الفقهاء[1] أن الأصل المطرد أن الفرض أفضل من النفل، واستثنوا من ذلك صورًا كان النفل فيها أفضل، عدّها بعضهم ستًا ومنها: إبراء المعسر، فهو نفل، ولكنه أفضل من إنظاره الذي هو فرض، ورد بأن الإبراء يشمل الإنظار وزيادة، فلم يفضل فيه النفل الفرض، ومنه أيضًا ابتداء السلام فهو سنة، ورده فرض، ومع ذلك كان الابتداء أفضل، وكذا الأذان سنة، وهو أفضل من الإمامة التي هي فرض كفاية أو فرض عين على ما رجحه النووي في هذا الشأن، والوضوء قبل الوقت سنة، وفي الوقت فرض، وهو قبل الوقت أفضل منه في الوقت وغير ذلك.

---

(١) الأشباه والنظائر للسيوطي ص ١٤٥ وما بعدها، غمز العيون والبصائر ٤٤٨/٤، أنوار البروق ١٢٢/٢ وما بعدها، غذاء الألباب شرح منظومة الآداب، الإسفراييني ٢٨٦/١، تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، الزيلعي ١٢٥/١.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: حب الله تعالى لأوليائه.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: الترغيب.

ثالثا: من موضوعات الدعوة: فضل التقرب إلى الله بالنوافل.

رابعًا: من مهام الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم.

أولاً- من موضوعات الدعوة: حب الله تعالى لأوليائه:

يظهر هذا من قوله ﷺ في الحديث: "من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب"، قال ابن حجر: (المراد بولي الله: العالم بالله المواظب على طاعته المخلص في عبادته، قال الفاكهاني: وفي الحديث تهديد شديد، لأن من حاربه الله أهلكه، وهو من المجاز البليغ، لأن من كره من أحب الله خالف الله ومن خالف الله عانده ومن عانده أهلكه، وإذا ثبت هذا في جانب المعاداة ثبت في جانب الموالاة، فمن والى أولياء الله أكرمه الله، وقال الطوفي: لما كان ولي الله من تولى الله بالطاعة والتقوى، تولاه الله بالحفظ والنصرة)[1].

هذا وقد دلت النصوص الشرعية على حب الله تعالى لأوليائه، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2]، وبيّن سبحانه وتعالى أنه خص المؤمنين بولايته: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾[3]، وأخبر سبحانه أنه يدافع عن المؤمنين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾[4]، وبيّن محبته وولايته للصالحين: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[5]، وطمأن المؤمنين بقوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[6]، ولحب

(١) فتح الباري، ابن حجر ١١/٣٥٠.

(٢) سورة يونس، آية: ٦٢.

(٣) سورة محمد، آية: ١١.

(٤) سورة الحج، آية: ٣٨.

(٥) سورة الأعراف، آية: ١٩٦.

(٦) سورة المائدة، آية: ٥٥.

الله لأوليائه بشر المؤمنين المطيعين بأن الملائكة تنزل لبشارتهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾[1].

وفي بيان معنى المولى الذي يستحق هذا الثواب والفضل من الله، قال ابن القيم: (ومن فناء خواص الأولياء والمقربين أن الولي لا يحب إلا في الله، ولا يبغض إلا فيه، ولا يوالي إلا فيه، ولا يعادي إلا فيه، ولا يعطي إلا له ولا يمنع إلا له، ولا يرجو إلا إياه، ولا يستعين إلا به، فيكون دينه كله ظاهرًا وباطنًا له، ويكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما، فلا يُوادُّ من حادّ الله ورسوله، ولو كان أقرب الخلق إليه بل:

يعادي الذي عادى من الناس كلهم ... جميعًا ولو كان الحبيب

وحقيقة ذلك: فناؤه عن هوى نفسه وحظوظها بمراضي ربه وحقوقه، والجامع لهذا كله: تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، علمًا، ومعرفة، وعملاً، وحالاً، وقصدا"[2].

ومن خلال ما سبق يتضح حب الله تعالى لأوليائه المطيعين له المستجيبين لأمره، الواقفين عند حدوده، الملتزمين بالفرائض والنوافل.

ثانيًا- من أساليب الدعوة: الترغيب:

حيث جاء في الحديث: "فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به..."، وهذا مما يرغب الإنسان في طاعة الله ومرضاته، لينال حب الله، ومما لا شك فيه أن أسلوب الترغيب من الأساليب الدعوية المهمة؛ لأن النفس البشرية بطبيعتها تميل إلى المنفعة والثواب، وأسلوب الترغيب يشجع الإنسان على الطاعة أملاً في ثواب الله، "والمقصود بالترغيب في الشرع: كل ما يشوق المدعو إلى الاستجابة وقبول الحق والثبات عليه، وهو يأتي حسب الأحوال، والنفوس، والمواقف، فمن النفوس من ترغب في الخير، وتهفو إلى الهدى وتشتاق إلى النور ذكر

(١) سورة فصلت، الآيتان: ٣٠ - ٣١.

(٢) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ١/٣١٤ - ٣١٥.

الخير يرغبها، ودعوة الإحسان تدفعها ونور الحق يدفئها"[١]، ولذا فعلى الدعاة استخدام هذا الأسلوب في الدعوة والموازنة بينه وبين أسلوب الترهيب.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل التقرب إلى الله بالنوافل:

حيث جاء في الحديث: "وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه"، قال ابن حجر: (وفي هذا الحديث أن من أتى بما وجب عليه وتقرب بالنوافل، لم يُردّ دعاؤه لوجود هذا الوعد الصادق المؤكد بالقسم، وأن العبد ولو بلغ أعلى الدرجات حتى يكون محبوبًا لله، لا ينقطع عن الطلب من الله لما فيه من الخضوع له وإظهار العبودية)[٢]، وما من شك في أن هذا الحديث يشير إلى أن كثرة نوافل العبادات بعد الفرائض كالصلاة النافلة ونحوها، وصوم التطوع والصدقات المستحبة ونموها من نوافل العبادات، تؤدي إلى إجابة دعاء هذا المتقرب إلى ربه بالنوافل بعد الفرائض.

"لقد شرع رسول الله ﷺ سنن الصلوات الرواتب، ورغّب المصلين فيها، وحثهم على المواظبة عليها بقوله وفعله، والحقيقة أن العناية بها، والحرص عليها لدليل على الاهتمام الكبير بشأن الفروض الخمسة التي جعلها الله على المؤمنين كتابًا موقوتًا، والعكس بالعكس فإن التهاون بها، والتفريط فيها وسيلة إلى التقصير في الفرائض، أو الإضاعة لها لأن دعوة الشيطان مرحلية، ذلك بأن يأتي إلى المصلي، ويزهده في السنن الرواتب بحجة أنها لا يترتب على تركها عقاب، حتى إذا أقنعه بذلك واقتنع، انتقل به قطعًا إلى تأخير الفرائض عن أوقاتها المحددة، وصلاتها في البيوت، ولا يزال به حتى يقطع الصلة التي بينه وبين الله"[٣].

رابعًا- من مهام الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم:

حيث جاء في الحديث فضل النوافل، وأنها توصل إلى محبة الله، ويعتبر من أولى مهام الداعية إرشاد المدعوين إلى ما فيه نفعهم ومصلحتهم، وقد قال النبي ﷺ في

---

(١) الدعوة إلى الله "الرسالة - الوسيلة - الهدف"، د. توفيق الواعي ص ١٩٩.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٣٥٣/١١.

(٣) المنهج القويم في التأسي بالرسول الكريم، زيد محمد هادي مدخلي، ص ١٨٨.

الحديث: ((مَنْ دَلَّ على خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ))[١].

ولقد بيّن النبي ﷺ في الحديث الذي معنا ما فيه نفع المدعوين من خلال بيان فضل التقرب بالنوافل والمداومة عليها، "ومن الفوائد الجليلة والمقاصد الحسنة الدنيوية والأخروية للمحافظة على الفرائض والنوافل أن فاعلها ينال رعاية الله حفظه، ومعيته ومحبته، وفاعلها ينال الرضا من الله، ودخول جنته في تلك الرياض الناضرة والأنهار الجارية، وفوق ذلك كله النظر إلى وجه الكريم الرحمن فإن نوافل الصلاة من القربات التي ترفع العبد درجات، وتكفر عنه السيئات والخطيئات"[٢].

والواجب على الدعاة الهداة إلى الله: الاقتداء بالنبي ﷺ في الحرص على نفع المدعوين وإرشادهم إلى ما فيه الخير لهم في الدنيا والآخرة، فإن من طبيعة الداعي أنه حريص على قومه وعلى منفعتهم، قال الله تعالى عن إمام الدعاة ﷺ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٣].

---

(١) أخرجه مسلم ١٨٩٣.

(٢) المنهج القويم في التأسي بالرسول الكريم، زيد محمد هادي مدخلي، ص ١٩٠.

(٣) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

الحديث رقم (٩٦)

٩٦- **الثاني**: عن أَنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيمَا يرْوِيهِ عنْ ربهِ عزَّ وجَلَّ قال: «**إِذَا تقرب الْعبْدُ إِليَّ شِبْرًا تَقرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِراعًا، وإِذَا تقرَّب إِلَيَّ ذراعًا تقرَّبْتُ منه باعًا، وإِذا أَتانِي يَمْشِي أَتيْتُهُ هرْوَلَة**» رواه البخاري[1].

ترجمة الراوي:

انس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

باعًا: الباع في اللغة: مسافة ما بين الكفين إذا انبسطت الذراعان يمينًا وشمالاً[2].

هرولة: يقال في اللغة: هرول: أي أسرع: بين العدو (الجري) والمشي[3].

الشرح الأدبي

إن من أمارات صحة الإيمان وصدقه أن يكون الله ورسوله أحب للمؤمن مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله. وحين نتأمل هذا الحديث القدسي، ونسبح في أنواره، ندرك أنه ثمرة إيمانية نقتطفها من حديقة الحديث السابق الذي حدد الطريق إلى محبة الله عز وجل، وهو أداء الفرائض والنوافل على الوجه الأكمل، والمؤمن بذلك يسلك الطريق المستقيم حيث يستحق موالاة الله عز وجل ويكون من أوليائه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

والحديث في بنائه اللغوي يتكون من ثلاث جمل، يجمع بينها التناسق العجيب، والبناء المحكم. وهذا الاستواء في الشكل اللغوي يؤازره المعنى المبشر، والوعد الصادق بمضاعفة الثواب، وازدياد القرب من المعطي الوهاب. وهذه الجمل الثلاث وعود ربانية،

---

(١) برقم (٧٥٣٦).

(٢) الوسيط في (ب و ع).

(٣) وانظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير والوسيط في (هـ ر و ل)، وفتح الباري، ابن حجر ٥٢٢/١٣.

وبشارات إلهية، يعد الله عباده الصالحين بتحققها، ومما يدل على هذا التحقق صياغتها اللغوية، حيث جاءت كلها في قالب الشرط والجواب، وهي في مضمونها تقدم الجزاء المضاعف على العمل المتقن الخالص لوجه الله عز وجل، وأداة الشرط "إذا" تشارك، باختيارها لتكون أداة للشرط، في تحقق الوعد لأنها تفيد ذلك، والسياق الذي ترد فيه يكون محاطًا بالتحقق، والشواهد اللغوية والقرآنية والحديثية تنهض بذلك، واختيار لفظ "العبد" وتكراره في هذا السياق الذي يشع بهالات القرب من الله عز وجل يرشد إلى أن الطريق إلى محبة الله عز وجل هو الإقرار بالعبودية، والقيام بكل متعلقاتها.

وفي الحديث إشارات لغوية تنبض بأمارات الحب الإلهي، وبعظمة الإحساس لدى العبد برعاية الله له ويتجلى ذلك في تكرار هذه الألفاظ (إليَّ، إليه، إليّ، منه، أتاني، أتيته).

ومما يؤكد رعاية الله سبحانه لعباده المؤمنين المقربين تكرار مادة التقرب أربع مرات، للترغيب في محبة الله والعمل على التقرب الدائم إلى الله عز وجل، وما أعظم كرم الخالق في إثابة المخلوق! فالثواب مضاعف.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: بيان فضل الله تعالى على عبده المؤمن.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: قرب الله من عباده.

ثالثًا: من مهام الداعية: بيان الحقائق للمدعوين.

رابعًا: من أساليب الدعوة: الشرط والترغيب والتشويق.

أولاً- من موضوعات الدعوة: بيان فضل الله تعالى على عبده المؤمن:

إن من أبرز موضوعات الدعوة في هذا الحديث، بيان فضل الله تعالى على عبده المؤمن، فقد أخبر النبي ﷺ عن ربه عز وجلّ أنّه يعامل عبده بما هو أهله من الفضل والكرم (فدليل مبلغ كرامته سبحانه وتعالى لمن أدمن على طاعته أن ثوابه على عمل

العبد الضعف، وأن الكرامة مجاوزة حده إلى ما يثيبه الله تعالى)[١].

وقال ابن تيمية: (وهو سبحانه يحب من يحبه، لا يمكن أن يكون العبد محبًّا لله، والله تعالى غير محب له، بل بقدر محبة العبد لربه يكون حب الله له. وإن كان جزاء الله لعبده أعظم، كما في الحديث الصحيح الإلهي عن الله تعالى أنه قال: "من تقرب إلي شبرًا تقربت إليه ذراعًا، ومن تقرب إلي ذراعًا تقربت إليه باعًا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة")[٢].

وقد جاءت آيات كثيرة وأحاديث عديدة توضح فضل الله تعالى على عبده المؤمن، ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[٣] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾[٤] ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[٥].

وقال الله تعالى مخاطبًا المؤمنين ومذكرًا بحالهم يوم بدر وتفضله عليهم بالنصر والعزة بعد أن كانوا في ذلة وهوان قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٢٣ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ۝١٢٤ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ۝١٢٥ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾[٦].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه عز وجل قال: ((إنَّ الله

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٥٢٢/١٣ بتصرف يسير.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٢٩١/٥.

(٣) سورة الحديد، آية: ٢٩، الجمعة، آية: ٤.

(٤) سورة البقرة، آية: ٢٤٣، غافر، آية: ٦١.

(٥) سورة النساء، آية: ١١٣.

(٦) سورة آل عمران، الآيات: ١٢٣-١٢٦.

كتبَ الحسناتِ والسيِّئات ثم بينَ ذلك، فمن همَّ بحسنةٍ فلم يَعملْها كتبها اللّهُ له عندَهُ حسنَةً كاملة، فإن هوَ هم بها فعَمِلها كتبها اللّه له عنده عشرَ حسنات إلى سبعمائةِ ضعف إلى أَضعافٍ كثيرة ومن هم بسيِّئةٍ فلم يعملها كتبها اللّهُ له عِنْدَهُ حسنة كاملة، فإن هو هَمَّ بها فعملَها كتبها اللّه له سيئة واحدة))(١).

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: (قال ابن بطال: في هذا الحديث بيان فضل الله العظيم على هذه الأمة، لأنه لولا ذلك كاد لا يدخل أحد الجنة؛ لأن عمل العباد للسيئات أكثر من عملهم الحسنات)(٢).

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: قرب الله من عباده:

وهذا واضحٌ من الحديث. قال ابن تيمية: (وهذه الزيادة تكون على الوجه المتفق عليه، بزيادة تقريبه للعبد إليه جزاء على تقربه باختياره. فكلما تقرب العبد باختياره، قدر شبر زاده الله قربًا إليه حتى يكون كالمتقرب بذراع، فكذلك قرب الرب من قلب العابد، وهو ما يحصل في قلب العبد من معرفة الرب والإيمان به. وهو المثل الأعلى، وهذا -أيضًا- لا نزاع فيه، وذلك أن العبد يصير محبًا لما أحب الرب، مبغضًا لما أبغض مواليًا لمن يوالي، معاديًا لمن يعادي، فيتحد مراده مع المراد المأمور به الذي يحبه الله ويرضاه. وهذا مما يدخل في موالاة العبد لربه، وموالاة الرب لعبده. فإن الولاية ضد العداوة، والولاية تتضمن المحبة والموافقة، والعداوة تتضمن البغض والمخالفة)(٣).

وقال كذلك: (ثم قرب الرب من عبده، هل هو من لوازم هذا القرب؟ كما أن المتقرب إلى الشيء الساكن كالبيت المحجوج والجدار والجبل، كلما قربت منه قرب منك. أو هو قرب آخر يفعله الرب، كما أنك إذا قربت إلى الشيء المتحرك إليك تحرك أيضًا إليك، فمنك فعل ومنه فعل آخر، هذا فيه قولان لأهل السنة)(٤).

---

(١) أخرجه البخاري ٦٤٩١، ومسلم ١٣١.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ١١/٣٣٦.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٣/٣٠٤.

(٤) المرجع السابق ٣/٣٥٠.

وقال أيضًا: (وقوله: "من تقرب إليّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا ومن تقرب إليّ ذراعًا تقربت إليه باعًا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة" فقرب الشيء من الشيء مستلزم لقرب الآخر منه، لكن قد يكون قرب الثاني هو اللازم من قرب الأول، ويكون منه أيضًا قرب بنفسه، فالأول: كمن تقرب إلى مكة أو حائط الكعبة، فكلما قرب منه قرب الآخر منه، من غير أن يكون منه فعل، والثاني: كقرب الإنسان إلى من يتقرب هو إليه كما تقدم في هذا الأثر الإلهي، فتقرب العبد إلى الله، وتقريبه له نطقت به نصوص متعددة مثل قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾[1] ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾﴾[2] ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾[3] ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾[4].

((وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيءٍ أحب إلي مما افترَضْته عليه))[5] الحديث. وفي الحديث ((أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنَ العَبْدِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ الآخِرِ))[6].

وفي الحديث الصحيح: ((إن الله يدنو عشية عرفة))[7] الحديث. فهذا القرب كله خاص، وليس في الكتاب والسنة قط قرب ذاته من جميع المخلوقات في كل حال، فإذا تبين ذلك، فالداعي والساجد يوجه روحه إلى الله، والروح لها عروج يناسبها، فتقرب من الله تعالى بلا ريب بحسب تخلصها من الشوائب، فيكون الله عز وجل منها قريبًا قربًا يلزم من قربها، ويكون منه قرب آخر كقربه عشية عرفة وفي جوف الليل وإلى من تقرب منه شبرًا تقرب منه ذراعًا[8].

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٥٧.

(٢) سورة الواقعة، آية: ٨٨.

(٣) سورة المطففين، آية: ٢٨.

(٤) سورة النساء، آية: ١٧٢.

(٥) أخرجه البخاري ٦٥٠٢.

(٦) أخرجه الترمذي ٣٥٧٩، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٨٣٣).

(٧) أخرجه مسلم ١٣٤٨.

(٨) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٣/١٤٨-١٤٩.

ثالثًا- من مهام الداعية: بيان الحقائق للمدعوين:

لقد بيّن النبي ﷺ في الحديث فضل الله العظيم على عباده المؤمنين، فإنه سبحانه يجازي على العمل القليل بالثواب العظيم، وأن العمل الصالح يقرب العبد من ربه فيرضى عنه سبحانه ويجتبيه. ومن هذا القبيل حديث التبكير إلى صلاة الجمعة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((مَن اغتسَلَ يومَ الجمعةِ غُسلَ الْجنابةِ ثم راحَ فكأنَّما قرَّب بَدَنَةً، وَمَن راح في الساعةِ الثانيةِ فكأنما قرَّبَ بقرةً، ومن راح في الساعةِ الثالثةِ فكأنما قرَّب كَبشًا أَقْرَنَ، ومن راح في الساعةِ الرابعةِ فكأنما قرَّب دَجاجةً، ومن راح في الساعةِ الخامسةِ فكأنما قرَّبَ بيضةً. فإذا خرجَ الإمامُ حَضَرَتِ الملائكةُ يَسْتَمِعُونَ الذِّكر))[1].

ومن ذلك قوله ﷺ في وصف المسيح الدجال: ((إن ربكم ليسَ بأعور، وإنه أعورُ العينِ اليمنى كأنَّ عينَهُ عنبةٌ طافية))[2].

كما من قبيل بيان الحقائق قول النبي ﷺ عن دم الحيض الذي يصيب النساء: ((هَذَا أَمْرٌ كَتَبَهُ اللّهُ عَلَى بَنَاتِ آدَمَ))[3]، قال ابن عثيمين: (الحيض دم طبيعة، ليس دمًا طارئًا أو عارضًا، بل هو من طبيعة النساء، لقول النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها: (إن هذا أمر كتبه الله على بنات آدم) أي كتبه قدرًا، بخلاف الاستحاضة فهي دم طارئ عارض كما قال النبي ﷺ في الاستحاضة: ((إنَّهَا دَمُ عِرْقٍ))[4]، فإذا عرف الإنسان مكتوب عليه وعلى غيره، فإنه يهون عليه"[5].

---

(١) أخرجه البخاري ٨٨١ واللفظ له، ومسلم ٨٥٠.

(٢) أخرجه البخاري ٤٤٠٢، ومسلم.

(٣) أخرجه البخاري ٢٩٤، ومسلم ١٢١١.

(٤) أخرجه البخاري ٣٢٧، ومسلم ٣٣٣.

(٥) الشرح الممتع على زاد المستقنع، محمد بن صالح العثيمين، اعتنى به وخرّج أحاديثه: عمر بن سليمان الحفيان ١/٥٥٤.

رابعًا- من أساليب الدعوة: الشرط والترغيب والتشويق:

لقد ورد الشرط في الحديث في لفظة "إذا" وذلك ليبين الجزاء المترتب على فعل الشرط، ومن ثمَّ يجعل المدعو منتبهًا مشدودًا إلى معرفة جواب الشرط، فإذا عرفه ازداد إقبالاً على إقبال، ومسارعة على مسارعة، لأن الجزاء يكون تقرب الله سبحانه وتعالى إليه، وفي هذا ترغيب ما بعده ترغيب، وتشويق ما بعده تشويق للامتثال، فالجزاء ليس ملذات حسية ونعمًا مادية، وإنما هو قرب الله سبحانه وتعالى، وهذا جزاء ما أعظمه وما أجمله وما أحلاه.

الحديث رقم (٩٧)

٩٧- **الثالث:** عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**نِعْمَتانِ مغبونٌ فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ**» رواه البُخَارِيُّ[1].

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١).

غريب الألفاظ:

مغبون: الغبن: أن تبخس صاحبك في معاملة بينك وبينه بضرب من الإخفاء[2]، والمراد: أن من لا يستعملها فيما ينبغي فقد غُبن لكونه باعهما ببخسٍ.

الشرح الأدبي

هذا الحديث من جوامع كلمه ﷺ، فهو قليل المبنى، كثير المعنى. والإيجاز هو: تأدية المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة - كما يقول الأديب أحمد حسن الزيات- ثم يقول: "والإيجاز غالب على أسلوب الرسول؛ لأن الإيجاز قوة في التعبير، وامتلاء في اللفظ، وشدة في التماسك، وهذه صفات تلازم قوة العقل، وقوة الروح، وقوة الشعور، وهذه القوى كلها على أكمل ما تكون في الرسول ﷺ، ومن هنا شاعت جوامع الكلم في خطبه[3] وفي أحاديثه.

وفي ضوء هذه القيمة البلاغية والأدبية للإيجاز في الحديث النبوي نتأمل بعض أسرار الجمال التعبيري في هذا الحديث النبوي الشريف، والحديث متماسك البناء، فهو في رأي بعض العلماء جملة واحدة، مكونة من مبتدأ وخبر، وبدل ومبدل منه، فالمبتدأ "نعمتان"، والنطق بهذه الكلمة يحتاج إلى تكملة المعنى، وتوضيحه وإضاءته،

---

(١) برقم (٦٤١٢).

(٢) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني ٣٥٧، وشرح الطيبي ٢٨٣/٩.

(٣) انظر: وحى الرسالة: أحمد حسن الزيات ١٩/٣: وانظر البيان النبوي د. محمد رجب البيومي، ص ٧٥.

فما هاتان النعمتان؟ وقبل أن تأتي الإجابة على السؤال يضع المصطفى ﷺ توصيفًا لهاتين النعمتين بأنهما "مغبون فيهما كثير من الناس".

والأمر يحتاج إلى توضيح وجلاء فكيف يتفق وصف النعمة مع الغبن؟ والنعمتان هما الصحة والفراغ. إن جملة "مغبون فيهما كثير من الناس" جملة جزئية تدور أشعتها داخل دائرة الجملة الكبرى: فـ"مغبون" خبر مقدم، وكثير مبتدأ مؤخر، وهذه الجملة المكملة، هي المعنى المشع بتمام فائدة الكلام، و"الصحة والفراغ" بدلان من قوله "نعمتان" وهما تفصيل بعد الإجمال. وقيل هي: جملة مستقلة، ولكنها تدور في دائرة الجملة الكبرى؛ لأن المعنى لا يتم إلا بدونها، والتقدير "هما الصحة والفراغ"، فالجملة -هنا وفق هذا الرأي- استئناف لبيان النعمتين، ففيه كذلك التفصيل بعد الإجمال.

وفي ضوء هذا التحليل للتركيب اللغوي ندرك أن البيان النبوي متين السبك، ولا يجور فيه المبنى على المعنى، ويتسم بالوحدة الموضوعية والعضوية في كثير من شواهده، وللنعمة دلالات كثيرة، فهي تشع بالمعاني التي تغمر الناس بنعم الله عز وجل، وقيل: النعمة عبارة عن المنفعة المفعولة على وجه الإحسان إلى الغير.

ودلالة كلمة "مغبون" - تتسع حسب اشتقاقها اللغوي- لتشمل الدلالة الحسية المحدودة، والدلالة المعنوية التي تتسع لكثير من التفسيرات: فمغبون إما مشتق من الغبْن بسكون الباء، وهو النقص في البيع، وإما من الغبَن بفتح الباء، وهو النقص في الرأي، فكأنه قال: هذان الأمران "الصحة والفراغ"، إذا لم يستعملا فيما ينبغي، فقد غبن صاحبهما فيهما: أي باعهما ببخس لا تحمد عاقبته، فإن الإنسان إذا لم يعمل الطاعة في زمن صحته ففي زمن المرض من باب أولى، وكذلك شأنه في الفراغ[1] واستثمار الوقت.

وما أدق الصورة الأدبية في الحديث الشريف! وهذه الصورة تتشكل من دلالة كلمة "مغبون"، وكأن الدنيا سوق: فمن باع دينه بعرض من الدنيا فهو الخاسر والمغبون، ومن بادر إلى الأعمال الصالحة، واستثمر صحته ووقته في إنجاز كل مفيد لنفسه ولغيره مع الإيمان الصادق، فهو الرابح، وهو الفائز في دنياه وآخرته.

---

(١) انظر: المنهل العذب الفرات، د. عبدالعال أحمد عبدالعال، ٦/٤.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: أهمية استشعار نعمة الصحة والفراغ.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: مسؤولية الإنسان عن صحته وفراغه.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الإخبار.

أولاً- من موضوعات الدعوة: أهمية استشعار نعمة الصحة والفراغ:

هذا ما أكده نص الحديث، وفي بيان ذلك قال ابن حجر: (وقوله "نعمتان" تثنية نعمة وهي الحالة الحسنة، وقيل هي: المنفعة المفعولة على جهة الإحسان للغير "والغبن"[(1)] بالسكون وبالتحريك، وقال الجوهري: هو في البيع بالسكون وفي الرأي بالتحريك، وعلى هذا فيصح كل منهما في هذا الخبر فإن من لا يستعملهما فيما ينبغي فقد غبن لكونه باعهما ببخس ولم يحمد رأيه في ذلك.

قال ابن بطال: معنى الحديث أن المرء لا يكون فارغًا حتى يكون مكفيًا صحيح البدن فمن حصل له ذلك، فليحرص على أن لا يغبن، بأن يترك شكر الله على ما أنعم به عليه، ومن شكره: امتثال أوامره واجتناب نواهيه، فمن فرط في ذلك فهو المغبون. وأشار بقوله "كثير من الناس" إلى أن الذي يوفق لذلك قليل. وقال ابن الجوزي: قد يكون الإنسان صحيحًا ولا يكون متفرغًا لشغله بالمعاش، وقد يكون مستغنيًا ولا يكون صحيحًا، فإذا اجتمعا فغلب عليه الكسل عن الطاعة فهو المغبون، وتمام ذلك أن الدنيا مزرعة الآخرة، وفيها التجارة التي يظهر ربحها في الآخرة، فمن استعمل فراغه وصحته في طاعة الله فهو المغبوط، ومن استعملهما في معصية الله فهو المغبون، لأن الفراغ يعقبه الشغل والصحة يعقبها السقم، ولو لم يكن إلا الهرم كما قيل:

يسر الفتى طولُ السَّلامةِ والبقا ... فكيف ترى طولُ السلامة يفعلُ؟

يرد الفتى بعد اعتدالِ وصحّةٍ ... يَنُوءُ إذا رَامَ القيامَ ويحْمَلُ[(2)]

---

(1) والغبن في اللغة: الغلب الخدع والنقص، وفي الاصطلاح: عبارة عن بيع السلعة بأكثر مما جرت العادة أن الناس لا يتغابنون بمثله إذا اشتراها كذلك. انظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٣٨/٣١، ومصادرها.

(2) فتح الباري، ابن حجر ٢٣٤/١١.

وفي هذا المعنى قال ابن هبيرة: (أراد ﷺ أن من أصح الله جسمه، وفرغه من شواغل هذه الدنيا، فلم ينفق صحته الواقعة في طرف من الزمان فارغ عن شاغل له في أربح التجائر، وأعلى المكاسب من معاملة الله سبحانه وتعالى في أعلى المقامات التي وعد عليها سبحانه بأنه يحب أهلها، ويكرمهم، ويقدمهم منه، فإنه مغبون. وفيه دليل على أن الصحة نعمة فلا ينبغي أن يختار عليها البلاء.

وفيه أيضًا دليل على أن الفراغ نعمة، فإذا فتح به فلا ينبغي أن يختار عليه عمل دنيا، فإذا أنعم الله تعالى على عبد من عباده بصحة في بدنه، وفراغ في وقته، فلم ينفق هذه الصحة في هذا الفراغ لله سبحانه فقد غبن، ومن ذلك أنه إذا خلا في وقت دون وقت، فينبغي له أن ينفق ذلك الوقت الفارغ من شغل الدنيا في شغل الآخرة، ولا ينتظر بعمل الآخرة أن يتفرغ له في كل أوقاته، ولذلك فإن أعوزته الصحة التامة فلينفق مما آتاه الله منها، ولا يقفل بقية النعمة عنده[1].

قال ابن حجر: (وقال الطيبي[2]: ضرب النبي ﷺ للمكلف مثلاً بالتاجر الذي له رأس مال، فهو يبتغي الربح مع سلامة رأس المال، فطريقه في ذلك أن يتحرى فيمن يعامله ويلزم الصدق والحذق لئلا يغبن، فالصحة والفراغ رأس المال، وينبغي له أن يعامل الله بالإيمان، ومجاهدة النفس وعدو الدين، ليربح خيري الدنيا والآخرة وقريب منه قول الله تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[3] الآيات. وعليه أن يجتنب مطاوعة النفس، ومعاملة الشيطان لئلا يضيع رأس ماله مع الربح. وقوله في الحديث "مغبون فيهما كثير من الناس" كقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[4] فالكثير في الحديث في مقابلة القليل في الآية.

---

(١) الإفصاح، عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٣/٢١٣.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٩/٢٨٤.

(٣) سورة الصف، آية: ١٠.

(٤) سورة سبأ، آية: ١٣.

وقال القاضي أبو بكر بن العربي: اختلف في أول نعمة الله على العبد فقيل: الإيمان، وقيل: الحياة، وقيل: الصحة، والأول: أولى، فإنه نعمة مطلقة، وأما الحياة والصحة: فإنهما نعمة دنيوية، ولا تكون نعمة حقيقة إلا إذا صاحبت الإيمان وحينئذ يغبن فيها كثير من الناس أي يذهب ربحهم أو ينقص، فمن استرسل مع نفسه الأمارة بالسوء الخالدة إلى الراحة فترك المحافظة على الحدود والمواظبة على الطاعة فقد غبن، وكذلك إذا كان فارغًا فإن المشغول قد يكون له معذرة بخلاف الفارغ فإنه يرتفع عنه المعذرة وتقوم عليه الحجة)[1].

وإذا كان الغبن في المعاملات المادية (يمكن تداركه وتعويضه)[2]، إلا أن الغبن في الصحة والفراغ لا يمكن تداركه البتة، مما يدفع ذلك إلى الغيرة على الوقت والتمسك بكل دقيقة ممكنة وإنفاقها فيما ينفع الإنسان في دنياه وأخراه، بحيث يكون الوقت نافعًا له لا ضارًا، قال ابن القيم: (إن الغيرة على وقت فات هي غيرة قاتلة، فإن الوقت وحيُّ التقضي -أي سريع الانقضاء- أبيُّ الجانب، بطيء الرجوع، والوقت عند العابد هو وقت الأوراد، وعند المريد هو وقت الإقبال على الله، والجمعية عليه، والعكوف عليه بالقلب كله، والوقت أعز شيء عليه، يغار عليه أن ينقضي بدون ذلك، فإذا فاته الوقت لا يمكنه استدراكه البتة، لأن الوقت الثاني قد استحق واجبه الخاص، فإذا فاته وقت فلا سبيل له إلى تداركه)[3]، ومن أجل ذلك حرص السلف على حفظ الزمان واتقاء إضاعته فيما لا فائدة فيه من الزيارات ونحوها.

قال ابن مفلح: (قال ابن الجوزي: رأيت العادات قد غلبت على الناس في تضييع الزمان، فهم يتزاورون فلا ينفكون عن كلام لا ينفعُ وغيبة، وأقله ضياع الزمان. وقد كان القدماء يحذرون من ذلك، قال الفضيل: أعرف من يعد كلامه من الجمعة إلى الجمعة.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ١١/٢٣٤-٢٣٥.

(٢) انظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٣١/١٤١.

(٣) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٣/٤٩.

ودخلوا على رجل من السلف، فقالوا: لعلنا شغلناك، فقال: أصدقكم، كنت أقرأ فتركت القراءة لأجلكم.

وأوصى بعض السلف أصحابه فقال: إذا خرجتم من عندي فتفرقوا؛ لعل أحدكم يقرأ القرآن في طريقه، ومتى اجتمعتم تحدثتم[1].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: مسؤولية الإنسان عن صحته وفراغه:

هذا ما يستفاد من سياق الحديث الشريف، وقد بين الحق تبارك وتعالى إن الإنسان سيسأل يوم القيامة عن النعم التي أنعم الله بها عليه، فقال: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾[2] (أي: لتسئلن يومئذ عن شكر ما أنعم الله به عليكم، من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك)[3]، وفي ذلك قال النبي ﷺ ((إِنَّ أَوَّلَ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ يَوْمَ القيامَةِ - يَعْنِي العَبْد مِنَ النَّعِيمِ- أَنْ يُقَالَ له أَلَمْ نُصِحَّ لَكَ جِسْمَكَ ونُرْوِيكَ مِنَ المَاءِ البَارِدِ))[4]، وقال ﷺ: ((لاَ تَزُولُ قَدَمَا عبد يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عن عُمْرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وعن علمه فيما فعل وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه وعن جسمه فيما أبلاه))[5]، وفي ذلك بيان على قيام مسؤولية الإنسان عن صحته وفراغه.

ثالثًا- من أساليب الدعوة: الإخبار:

جاء الحديث بصيغة الإخبار ليبين للمدعوين حقيقة معروفة ومشهورة بينهم لا يكادون يختلفون عليها، وهي أن كثيرًا من الناس يضيعون أوقاتهم ويفرطون في استخدام ما وهبهم الله من صحة وقوة، فتجدهم ما بين وقت ضائع، وجسم كسلان لا يكاد يتحرك إلا إلى الشهوات الحيوانية، كالطعام والشراب ونحو ذلك، ومن بلاغة

---

(١) الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ٣/٤٥٦-٤٥٧.

(٢) سورة التكاثر، آية: ٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٨/٤٧٤.

(٤) أخرجه الترمذي ٣٣٥٨، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٦٧٤).

(٥) أخرجه الترمذي ٢٤١٧، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٩٧٠).

الرسول ﷺ أن صاغ هذه المعاني بصيغة الإخبار، ويستفاد من ذلك حث المدعوين أصحاب القلوب الحية والضمائر اليقظة على عدم التفريط في نعم الله العظيمة، وآلائه الجليلة، واستخدامها في إرضاء الرب سبحانه وتعالى وفيما يعود عليهم بالنفع والفائدة في أخراهم ودنياهم.

لوم أصحاب القلوب البليدة والضمائر الغافلة على تفريطهم في نعمتي الوقت والفراغ، كما يلزم عن هذا إنذارهم بما يترتب على هذا التفريط من خسران وهلاك، وندم وقت لا ينفع الندم، ولا يفيد التحسر.

الحديث رقم (٩٨)

٩٨- **الرابع**: عن عائشة رضي الله عنها أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَان يقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حتَّى تتفطَرَ قَدمَاهُ، فَقُلْتُ لَهُ، لِمْ تصنعُ هذا يا رسولَ اللَّهِ، وقدْ غفرَ اللَّه لَكَ مَا تقدَّمَ مِنْ ذَنبِكَ وما تأخَّرَ؟ قال: **«أَفَلاَ أُحِبُّ أَنْ أكُونَ عبْدًا شكُورًا؟»** متفقٌ عليه[١]. هذا لفظ البخاري.

ونحوه في الصحيحين من رواية المُغيرة بن شُعْبَةَ[٢].

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

المغيرة بن شعبة: هو المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود الثقفي، ولد في الطائف، وأسلم قبل عمرة الحديبية وشهدها، وبيعة الرضوان، كنّاه النبي بأبي عيسى[٣].

اشتهر بالدهاء والرأي، كان يقال له: مغيرة الرأي. وقال الشعبي والزهري: كان من دهاة العرب. وقال الطبري: كان لا يقع في أمر إلا وجد له مخرجًا.

ووقف في عمرة الحديبية يحمي النبي ﷺ، ويراقب من حوله من الوافدين، فجاء عروة بن مسعود الثقفي، وكلم النبي ﷺ، فكلما تكلم كلمة أخذ بلحيته، والمغيرة معه السيف، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي ﷺ ضرب يده بنعل السيف، وقال له: أخّرْ يدك عن لحية رسول الله ﷺ[٤].

وكان يحمل الإناء الذي فيه وضوء النبي ﷺ، فكان يصب الماء للنبي ﷺ وهو يتوضأ[٥].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٣٧)، واللفظ له، ومسلم (٨١/٢٨٢٠). أورده المنذري في ترغيبه (٩٠٤).

(٢) أخرجه البخاري (١١٣٠)، ومسلم (٧٩/٢٨١٩).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٩٦٣) وقال الألباني حديث حسن صحيح (صحيح سنن أبي داود ٤١٥٢).

(٤) أخرجه البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢).

(٥) أخرجه البخاري ١٨٢، ومسلم (٧٥-٢٧٤).

شارك في الفتوحات، وشهد فتوح الشام والعراق، وذهبت عينه في معركة اليرموك.

ونظرًا لكفاءته التفاوضية والإدارية والقيادية: كان رسولاً للخلفاء، والقواد، وسفيرًا لهم، أو واليًا.

ولاه عمر بن الخطاب على البصرة، ففتح عدة بلاد حولها وعزله ثم ولاه الكوفة وأقره عثمان على الكوفة.

وهو أول من وضع ديوان البصرة، فكتب أسماء أهلها من أجل العطاء. كما كان أول من سلّم عليه بلقب الأمير في الإسلام.

ولما حدثت الفتنة بين علي ومعاوية اعتزلها، وحضر مع الحكمين أبي موسى الأشعري، وعمرو بن العاص، وبعد أن اجتمع الناس على معاوية بايعه فولاه الكوفة، فلم يزل بها حتى مات سنة ٥٠هـ. يبلغ مسنده ١٣٦ حديثًا[(١)].

غريب الألفاظ:

تتفطر قدماه: أي تتشقق[(٢)].

الشرح الأدبي

ما أعظم هذا الحوار الإيماني العميق بين أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ورسول الله ﷺ! وما أجل الدروس التي يتعلمها المسلمون من ذلك الحوار المشحون بكل طاقات الصدق والصبر، والمجاهدة والشكر! فالمؤمن في ضوء إيمانه بخالقه، سائر دائمًا في طريق الخير والرشاد بين منارتي الشكر والصبر.

وبداية الحديث تصوير لمشهد واقعي من حياة الرسول ﷺ وهو "التهجد"، حيث كان يقوم ﷺ من الليل في صلاة التهجد حتى تتشق قدماه، وتتورم، وذلك ليس في

---

(١) الطبقات، ابن سعد (٢٨٤/٤) والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر ٦٦٥ وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير (٢٣٨/٥) والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ١٢٨٠ والسير (٢١/٣) وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي (١٩٥/٧) وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (١٣٤/٤)، والأعلام، خير الدين الزركلي (٢٧٧/٧)، وموسوعة عظماء حول الرسول ﷺ (١٨٢٤/٣).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ف ط ر).

ليلة واحدة ولكن التعبير يدل على مداومة الرسول ﷺ على هذا القيام، وعلى هذه المجاهدة في العبادة، فالفعل "يقوم" يدل على الاستمرار، والتعبير "بحتى" يرشد إلى بلوغ الغاية، وكأنه كان لا يكف عن التهجد إلا بعد أن يشعر بالألم، ويظهر ذلك في بدنه من خلال تشقق القدمين، وتتعجب عائشة رضي الله عنها، وتسأله في أدب ووقار ورغبة في معرفة المزيد من الأمر وتقول: لم تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ لأن النبي ﷺ معصوم، وكل الأنبياء معصومون كذلك، ويقول القاضي عياض، فيما يختص بالأمور الدينية، والكلام في عصمة نبينا وسائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، اعلم أن الطوارئ من التغيرات والآفات على آحاد البشر لا يخلو أن تطرأ على جسمه أو على حواسه بغير قصد واختيار أو بقصد واختيار: كالأمراض والأسقام أو تطرأ بقصد واختيار، وكله في الحقيقة عمل وفعل، ولكن جرى رسم المشايخ أي العلماء بتفصيله إلى ثلاث أنواع، عقد بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالجوارح، وجميع البشر تطرأ عليهم الآفات والتغيرات، بالاختيار وبغير الاختيار في هذه الوجوه كلها، والنبي ﷺ، وإن كان من البشر يجوز على جبلته، ما يجوز على البشر، فقد قامت البراهين القطعية، وتمت كلمة الإجماع على خروجه عنهم وتنزيهه عن كثير من الآفات التي تقع على الاختيار أي لعصمة الله تعالى له ولجميع الأنبياء منها، وعلى غير الاختيار: أي لكرامتهم على الله سبحانه فيها[1].

وإجابة النبي ﷺ وقد تضمنت والاستفهام وفاء السببية، والتعبير بالفعل "أحب" وتحديد العبودية في لفظ "عبْد" وصيغة المبالغة في "شكور"، والمصدر الصريح "أن أكون"، وكل هذه الظواهر أسلوبية أشرقت بها إجابة المصطفى ﷺ. لتؤكد محبة النبي لربه وشكره له ولتعلم المسلمين درسًا عميقًا في استقبال النعم التي أنعم الله بها عليهم وهي لا تعد ولا تحصى، فاللهم اجعلنا من الشاكرين.

---

(١) انظر: شرح الشفا للقاضي عياض، الملا علي القاري ٢/١٧٤.

فقه الحديث

يتعرض هذا الحديث إلى حكم صلاة التطوع في الليل، وأنها لا حد لها، وإنما تترك لمقدرة كل شخص، ولما كان النبي ﷺ أعبد الناس فقد اختلف الفقهاء في فرض قيام الليل عليه، فقيل: إنه كان فرضًا عليه دون أمته وهو ما عليه أكثر أهل العلم، ومنهم الشافعي في قول، وكثير من المالكية، والطبري، وذهب بعض العلماء ومنهم مجاهد بن جبر والشافعي في قول إلى أن قيام الليل لم يكن فرضًا عليه ﷺ[1].

أما باقي المسلمين فقد اتفق الفقهاء على مشروعية صلاة الليل، وأنها ليست فرضًا عليهم، بل هي: سنة عند الحنفية والحنابلة، ومندوب عند المالكية، ومستحب عند الشافعية، والتطوع في صلاة الليل غير محدد بوقت ولا عدد ركعات معين، ولذا اختلف الفقهاء في عدد ركعاته، فذهب الحنفية إلى أن منتهى ركعاته ثمان ركعات، وذهب المالكية: إلى أنها عشر ركعات وقيل اثنتا عشرة، وقال الشافعية: لا حصر لعدد ركعاته، وقيل: غير ذلك[2].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٢٩٠/٤ وما بعدها، ٣٥٥/٤، الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٥٧/٢ وما بعدها.

(٢) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم لابن نجيم ٤١/٢، وما بعدها، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني للكاساني ٢٩٠/١ وما بعدها، مواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن المغربي ٦٦/٢ وما بعدها، شرح منح الجليل على مختصر خليل، الشيخ محمد بن أحمد بن محمد عليش ٣٣٩/١ وما بعدها، المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٥٣٥/٣، نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، شمس الدين الرملي للرملي ١٠٥/٢ وما بعدها، مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، الشربيني ٤٥٨/١ وما بعدها، شرح منتهى الإرادات للبهوتي ٢٤٧/١ وما بعدها، المغني، ابن قدامة ٤٤٠/١ وما بعدها، كشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي ٤٣٥/١ وما بعدها.

المضامين الدعوية

أولاً: من صفات الداعية: الحرص على أداء النوافل.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: حرص النبي ﷺ على قيام الليل وشكره لله.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: حرص عائشة رضي الله عنها على سؤال النبي ﷺ عن اجتهاده في قيام الليل.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: حقيقة الشكر.

أولاً- من صفات الداعية: قيام الليل وشكر الله تعالى:

إن من أبرز الصفات التي ينبغي أن يتصف بها الداعية: حرصه على أداء النوافل والتي من جملتها قيام الليل والتقرب إلى الله تعالى بأنواع القُرب. وفي هذا الحديث تطبيق عملي للحرص على التقرب إلى الله تعالى بالنوافل، وبيان أن شكر الله لا يتوقف عند مجرد التلفظ به وإنما لا بد أن يتجسد عمليًا كما قال تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾[1]، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان النبي ﷺ يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقلت له: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبدًا شكورا)، إن قيام الليل الوقود الأساسي في موكب الدعوة إلى الله، فصلاة الليل لا يعدلها زاد ولا مدد، فهي تمد الدعاة وترفدهم وتزودهم بطاقات وإمكانات فوق مستوى التصور والتقدير، فصلاة الليل تعد الداعية ليكون عبدًا ربانيًا، موصولاً بالله، مشرق النفس، نيِّر القلب، حاضر الذهن، متقد الفكر[2].

إضافة إلى ما في قيام الليل من استجلاب محبة الله تعالى، وقد جاء ذلك في الحديث القدسي: ((وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدٌ بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ))[3].

---

(١) سورة سبأ، آية: ١٣.

(٢) قوارب النجاة في حياة الدعاة، فتحي يكن ص ١٨٠، وص ١٠١.

(٣) أخرجه البخاري ٦٥٠٢.

فالفرائض هي رأس المال، فإذا استكمل العبد فرائضه، وأراد أن يترقى في درجات الإيمان وولاية الرحمن عز وجل يفتح على نفسه أبواب النوافل، والنوافل هي ما عدا الفرائض من أجناس الطاعات.

إن أداء النوافل من دلائل إخلاص العبد لله تعالى، فالنوافل لا عقوبة في تركها، فإذا ما فعلها العبد، فإنه يفعلها بإخلاص نية التقرب والتحبب إلى الله عز وجل، (فلما خلصت النية في النوافل كانت هي السبب الموصل إلى محبة الله عز وجل دون الفرائض. فينبغي على المربي أن يهتم بتحبيب العبادات إلى الشباب، بترغيبهم في قيام الليل، وتلاوة القرآن، والأذكار الموظفة، وغير الموظفة والصيام، وقضاء حوائج الناس، وطلب العلم النافع حتى يكون ذلك شغلهم الشاغل. والنفس إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل؛ فاللسان إذا لم يتحرك بذكر الله عز وجل، تحرك بالغيبة والنميمة، والبذاءة واللغو وغير ذلك، وإذا لم تشغل الجوارح والأوقات بالطاعات شغلت بالمعاصي والعثرات، فلا شك في أن شجرة الإيمان في قلب العبد تروى بالصيام والقيام وتلاوة القرآن، تتفرع فروعها في أرجاء قلبه، وتثمر الثمرات اليانعة الطيبة، فيجد العبد حلاوة الإيمان ومحبة الرحمن)(١).

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: حرص النبي ﷺ على قيام الليل وشكره لله:

لقد تضافرت الأخبار في بلوغه ﷺ في عبادة ربه ما لم يبلغه غيره، فكانت طاعته لربه وشدة عبادته على قدر علمه بربه عز وجل(٢)، وفي الحديث دليلُ مدى مبالغته ﷺ في عبادته لربه: (كان النبي ﷺ يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه)، أي: حتى تتشقق قدماه"(٣).

وعندما سألته عائشة رضي الله عنها عن مبالغته في العبادة مع ما قد غفر له من ذنبه، أجابها بقوله: (أفلا أكون عبدًا شكورًا؟)، فلقد تصورت عائشة رضي الله عنها أن المغفرة سبب لتخفيف

---

(١) التربية على منهج أهل السنة والجماعة، أحمد فريد، ص ١٥٦ - ١٥٧.

(٢) نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، محمد الخضري، ص ١٨٠.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ١٩/٣.

العبادة، فبين لها ﷺ أن المغفرة لا ينبغي أن تكون سببًا للتقليل من العبادة بل هي السبب في الإكثار منها، قال ابن حجر: (في قوله: "أفلا أكون عبدًا شكورًا، الفاء في قوله: أفلا أكون للسببية، وهي محذوف تقديره أأترك تهجدي فلا أكون عبدًا شكورًا، والمعنى أن المغفرة سبب لكون التهجد شكرًا فكيف أتركه؟ ففي الحديث ما كان عليه النبي ﷺ من الاجتهاد في العبادة لربه والخشية منه والشكر له)[١].

إن شكر الله سبحانه لا يقتصر على مجرد التلفظ باللسان، بل لا بد أن تظهر آثاره على جوارح الإنسان وأركانه ولذا كان أمر الله لداود وآله بقوله: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾[٢].

قال ابن قدامة: (الشكر يكون بالقلب واللسان والجوارح. أما بالقلب فهو أن يقصد الخير ويضمره للخلق كافة. وأما باللسان: فهو إظهار الشكر لله بالتحميد، وإظهار الرضى عن الله تعالى. وأما الجوارح: فهو استعمال نعم الله في طاعته، والتوقي من الاستعانة بها على معصيته فمن شكر العينين أن تستر كل عيب تراه للمسلم، ومن شكر الأذنين أن تستر كل عيب تسمعه)[٣].

وقال ابن القيم: (والشكر على ثلاثة أضرب:

أ- شكر القلب وهو تصور النعمة.

ب- وشكر اللسان وهو الثناء على المنعم.

ج- وشكر الجوارح وهو مكافأة النعمة بقدر استحقاقه، وقوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾[٤]، معناه: اعملوا ما تعملونه شكرًا لله، وقيل: شكرًا مفعول لقوله: "اعملوا" وذكر اعملوا ولم يذكر اشكروا لينبه على التزام الأنواع الثلاثة من الشكر

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٢/٢٠.

(٢) سورة سبأ، آية: ١٣.

(٣) مختصر منهاج القاصدين ٢٧٧.

(٤) سورة سبأ آية: ١٣.

بالقلب واللسان وسائر الجوارح)[١].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: حرص عائشة رضي الله عنها على سؤال النبي ﷺ عن اجتهاده في قيام الليل:

لقد كان صحابة رسول الله ﷺ خاصة أزواجه والمقربين إليه أحرص ما يكونون على سؤال النبي ﷺ عن كل ما يعن لهم، ويرونه من أحواله ﷺ، وفي سؤال عائشة رضي الله عنها عن سر اجتهاده في العبادة مثال لذلك، فقالت له: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟

فلقد كانت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها مجبولة على حب العلم، شغوفة بسؤال رسول الله ﷺ عن كل ما لا تعلمه، ومن دلائل ذلك ما روي عن ابن أبي مليكة أن عائشة زوج النبي ﷺ كانت لا تسمع شيئًا لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه، وأن النبي ﷺ قال: ((مَنْ حُوسِبَ عُذِّبَ)) قالتْ عائشةُ فقلتُ: أوَليسَ يَقولُ اللهُ تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾[٢] فقال: ((إنَّما ذلك العَرضُ، ولكنْ مَنْ نُوقِشَ الحِسابَ يَهلِكْ))[٣]، وفي ذلك تعليم وبيان أن الأصل في المسلم أن يسأل عما لا يعلم، فلقد كان الصحابة رضي الله عنهم يسألون رسول الله ﷺ عن كل ما يعنُّ لهم في شؤون الدين، بل في الكثير من أمور الدنيا وذلك مما غرسه الإسلام في أتباعه، قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٤]. وذلك إيجاب على طلاب العلم والمعرفة أن يسألوا ويستوضحوا حتى يكونوا على بينة من أمر دينهم[٥].

---

(١) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني ، الراغب الأصفهاني، ص ٢٦٥ - ٢٦٦.

(٢) سورة الانشقاق آية: ٨.

(٣) أخرجه البخاري ١٠٣، ومسلم ١٨.

(٤) سورة الأنبياء، آية: ٧.

(٥) أصناف المدعوين وكيفية دعوتهم، د. حمود بن أحمد الرحيلي، ص ١٨.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: حقيقة الشكر:

جاء في الحديث البيان العملي لرسول الله ﷺ لمعنى الشكر وذلك باجتهاده في عبادة ربه، وعندما سألته عائشة رضي الله عنها عن ذلك قائلة: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبدًا شكورًا؟، قال ابن حجر: (وفيه أن الشكر يكون بالعمل كما يكون باللسان)[1].

وقال القرطبي رحمه الله: (ظن من سأله عن سبب تحمله المشقة في العبادة أنه إنما يعبد الله خوفًا من الذنوب وطلب للمغفرة والرحمة فمن تحققه أنه غفر له لا يحتاج إلى ذلك، فأفادهم أن هناك طريقًا آخر للعبادة وهو الشكر على المغفرة وإيصال النعمة لمن لا يستحق عليه فيها شيئًا فيتعين كثرة الشكر على ذلك، والشكر الاعتراف بالنعمة والقيام بالخدمة، فمن كثر ذلك منه سمي شكورًا، ومن ثم قال الله عز وجل: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾[2]، أي: قلنا لهم اعملوا شكرًا على ما أنعم به عليكم في الدنيا والدين وفي ذلك دليل على أن الشكر يكون بالفعل كما يكون بالقول وبالنية)[3].

ولقد كانت حياة رسول الله ﷺ وعباداته مثلاً تطبيقيًا لحقيقة الشكر، الذي يجمع بين شكر الجنان والأركان والأقوال، ومن ذلك ما جاء في الحديث: (إن كان النبي ﷺ ليقوم أو ليصلي حتى ترم قدماه أو ساقاه فيقال له فيقول: أفلا أكون عبدًا شكورًا)، وما روي عن أبي بكرة نفيع بن الحارث رضي الله عنه قال: ((كَانَ رسول الله ﷺ إذَا جَاءَهُ أمْرُ سُرُورٍ أوْ بُشّرَ بِهِ خَرّ سَاجِدًا شاكِرًا لله))[4].

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ يدعو يقول: ((رَبِّ أَعِنِّي وَلاَ تُعِنْ عَلَيَّ، وَانْصُرْنِي وَلاَ تَنْصُرْ عَلَيَّ وَامْكُرْ لِي وَلاَ تَمْكُرْ عَلَيَّ، وَاهْدِنِي وَيَسِّرْ هُدَايَ إِلَيَّ،

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٣/٢٠.

(٢) سورة سبأ، آية: ١٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٦/٥٠٠.

(٤) أخرجه أبو داود ٢٧٧٤، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢٥١٦).

وَانْصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ. اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي لَكَ شَاكِرًا، لَكَ ذَاكِرًا، لَكَ رَاهِبًا، لَكَ مِطْوَاعًا، إِلَيْكَ مُخْبِتًا أَوْ مُنِيبًا. رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي، وَاغْسِلْ حَوْبَتِي، وَأَجِبْ دَعْوَتِي، وَثَبِّتْ حُجَّتِي، وَاهْدِ قَلْبِي، وَسَدِّدْ لِسَانِي، وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ قَلْبِي))(١).

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: فَقَدْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَيْلَةً مِنَ الْفِرَاشِ، فَالْتَمَسْتُهُ، فَوَقَعَتْ يَدِي عَلَى بَطْنِ قَدَمَيْهِ، وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ، وَهُمَا مَنْصُوبَتَانِ، وَهُوَ يَقُولُ: ((اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ. وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ. وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ. لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ. أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ))(٢).

---

(١) أخرجه أبو داود ١٥١٠، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ١٤٥٢).

(٢) أخرجه مسلم ٤٨٦.

الحديث رقم (٩٩)

٩٩- **الخامس**: عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «كان رسولُ اللَّه ﷺ إذا دَخَلَ الْعشْرُ أحيا اللَّيْلَ، وأيقظ أهْلَهْ وجدَّ، وشَدَّ المِئْزَرَ» متفقٌ عليه[1].

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

غريب الألفاظ:

العشر: المراد: العشر الأواخر من شهر رمضان[2].

شدّ المئزر: المئزر: الإزار وهو كناية عن اعتزال النساء، وقيل: المراد تشميره للعبادة يقال: شددت لهذا الأمر مئزري: أي تشمرت وتفرغت له[3].

الشرح الأدبي

وفي ظلال هذا الحديث يضوع عبير النبوة، وتهب نسائم المجاهدة وبشائر القوة، وقوة الإيمان هي ما يطمح، إليه المسلم، وهى الغاية المنشودة، والمنارة المرجوة.

إن أم المؤمنين عائشة: الصديقة بنت الصديق تروي مشهدًا مضيئًا من مشاهد السيرة النبوية العطرة، وهذا المشهد نموذج واقعي من نماذج السنة العملية، فهاهو ذا رسول الله ﷺ - وهو الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر- يقابل هذا الإكرام الإلهي الجليل بالشكر الجميل والجزيل، والشكر ليس كلمات تقال، لكنه أفعال تؤكد وتجمل الأقوال.

وللعشر الأواخر فضل عظيم، فهي ختام شهر الصوم، ورمضان توّجه الله بالفضل والإحسان فقال عز وجل: ﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ ﴾[4]. وأي فضل أعظم من

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٢٤)، ومسلم (١١٧٤/٧) واللفظ له. وسيكرره المؤلف برقم (١٢٢٥).

(٢) رياض الصالحين ٩٠.

(٣) المرجع السابق ٩٠.

(٤) سورة البقرة، آية: ١٨٥.

هذا؟ ومَنْ غير رسول الله ﷺ يدرك أسرار وفضائل الصوم؟ ومن غيره ﷺ يحرص على إحياء ليالي العشر الأواخر من رمضان؟ ولا غرو فقد (جعل الله الصوم حصنًا لأوليائه وجُنَّة، وفتح لهم به أبواب الجنة، وعرفهم أن وسيلة الشيطان إلى قلوبهم الشهوات المستكنة، وأن بقمعها تصبح النفس المطمئنة ظاهرة الشوكة في قصم خصمها، قوية المنَّة)(١).

والأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف يصور حرص المصطفى ﷺ على العبادة وإحياء الليل، ومداومة الذكر، والاعتكاف، واجتناب كل ما يصرف الإنسان عن العبادة والاستعداد لها في هذه الليالي التي شرفت بليلة القدر، وهي خير من ألف شهر، والتعبير بأداة الشرط "إذا" يفيد التكرار والمداومة والمواظبة، وأنه لا يدع العشر الأواخر دون أ، يجدّ في العبادة ويجتهد.

والأفعال المتوالية في تتابع وتجمع بينها حروف العطف، ترشد إلى الحركة والنشاط في العبادة. وعبارة إحياء الليل، فيها تصوير أدبي يومئ إلى أن الليل بدون العبادة كأنه كائن ميت منقطع الأثر، فالليل بالعبادة تدب فيه الحياة، ومن سمات هذه الحياة: إيقاظ الأهل، والجد، وشد المئزر، والتعبيرات توحي بمعان كثيرة، وترشد إلى أمور عدة. ومنها: التفرغ للعبادة في العشر الأواخر، وعدم التكاسل والتهاون، وعبارة وشد المئزر، قالوا: هي كناية عن اعتزال النساء في هذه الأيام المباركة، وقيل المراد: التشمير للعبادة، والتفرغ لها، والمصطفى ﷺ هو القدوة الحسنة، وعلى كل مسلم أن يقتدي بهذا السلوك النبوي الرشيد؛ لأن الصوم من العبادات التي اختصها الله بالفضل، ونسبها لنفسه، وهذا الفضل يرجع إلى أمرين - كما يقول صاحب الإحياء- أحدهما: أن الصوم كف وترك، وهو في نفسه سر ليس فيه عمل يشاهد، وجميع أعمال الطاعات بمشهد من الخلق ومرأى، والصوم لا يراه إلا الله عز وجل، والثاني: أنه قهر لعدو الله عز وجل، فإن وسيلة الشيطان، لعنه الله الشهوات وإنما تقوى الشهوات بالأكل، ولما كان الصوم على الخصوص قمعًا للشيطان استحق التخصيص بالنسبة

---

(١) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي ٤٢٢/١.

إلى الله عز وجل[(١)]. وهذه قمة المجاهدة، ومحمد ﷺ هو المثل الأعلى في كل شيء.

فقه الحديث

أشار الحديث إلى فضل العشر الأواخر من شهر رمضان وأنها من أفضل أيام العبادة، ولذا كان رسول الله ﷺ يجتهد في العبادة فيها فيقوم الليل ويكثر من الصدقات وقراءة القرآن والتهجد ويوقظ أهله ليتهجدوا.

وقد اتفق الفقهاء[(٢)] على أنه يستحب زيادة الاجتهاد في العبادة والطاعات في العشر الأواخر من رمضان، بالإكثار من الصلاة والصدقات وقراءة القرآن تأسيًا بالنبي ﷺ فقد كان يجتهد فيها ويحث على ذلك، ولأنها في قرب خروج العبادة، والأعمال بخواتيمها.

المضامين الدعوية

أولاً: من وسائل الدعوة: القدوة الحسنة.

ثانيًا: من واجبات الداعية: العمل على تعهد أهله بفعل الطاعات.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: اغتنام الأوقات المباركة.

أولاً- من وسائل الدعوة: القدوة الحسنة:

إن القدوة الحسنة تعد من أبلغ وسائل الدعوة، وأشدها تأثيرًا في النفوس، وقد كان النبي ﷺ قدوة حسنة لكافة المؤمنين، ومن الشواهد على ذلك في ذلك الحديث قول عائشة رضي الله عنها: "كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر أحيا الليل وأيقظ أهله، وجدّ وشد المئزر".

---

(١) إحياء علوم الدين ٤٢٤/١.

(٢) المدخل لابن الحاج ٢٩٤/٢، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي للنووي ٤٢٣/٦، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري للأنصاري ٤٢٠/١، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، شمس الدين الرملي للرملي ١٨٤/٣، وسبل السلام للصنعاني ٥٩٣/١، ونيل الأوطار، الشوكاني ٣٢٠/٤، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١١٦/٣٠ وما بعدها.

فالنبي ﷺ قدوة للمسلمين ومثل للسائرين إلى رب العالمين، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[1] والنبي ﷺ حث المسلمين ورغبهم في قيام رمضان فقال لهم: ((مَنْ قامَ رَمَضانَ إيمانًا واحْتِسابًا، غُفِرَ له ما تَقدَّم مِنْ ذَنْبِه))[2].

فكان ﷺ أول القائمين المحتسبين، ولم يكتفِ بذلك فحسب، بل إنه ﷺ أيضًا اجتهد اجتهادًا كبيرًا وجدّ في العمل واشتدّ فيه. فأحيا ليله –وهو وقت النوم والخلود إلى الراحة– بالطاعة من صلاة وذكر ونحو ذلك. فكان ذلك أبلغ في إنجاح دعوته.

وهكذا حال الداعية فالناس معلقة أبصارهم به، فإن صدّق عملُه قوله استجابوا له وأذعنوا، وإن خالف لم يلتفتوا إلى قوله، بل كان من دعاة السوء الذين قال فيهم ابن القيم: (جلسوا على باب الجنة يدعون إليها الناس بأقوالهم، ويدعونهم إلى النار بأفعالهم فكلما قالت أقوالهم للناس هلمُّوا قالت أفعالهم: لا تسمعوا منهم؛ فلو كان ما دعوا إليه حقًا كانوا أول المستجيبين له، فهم في الصورة أدلاء وفي الحقيقة قطاع الطرق)[3].

أما النبي ﷺ فقد ضرب لنا القدوة والمثل الأعلى في موافقة العمل القول، وذلك في شأنه كله، وسنكتفي بضرب مثال واحد يدل على المقصود، فقد حث أصحابه على قتال الأعداء وجهادهم، فكان وهو القائد أول المقاتلين وأقربهم إلى العدو، وأثبتهم في لقائه، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ((كُنَّا إذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ، وَلَقِيَ الْقَوْمُ الْقَوْمَ، اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَمَا يَكُونُ مِنَّا أَحَدٌ أَدْنَى إِلَى الْقَوْمِ مِنْهُ))[4].

ويوم حنين ثبت وتقدم نحو الأعداء وقت أن ولى المسلمون هاربين. قال العباس بن عبد المطلب: شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين... فلما التقى المسلمون والكفار ولّى

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

(٢) أخرجه البخاري ٣٧، ومسلم ٧٥٩.

(٣) الفوائد المشوقة إلى علم القرآن وعلم البيان، ابن القيم، تحقيق: محمد عثمان الخشت ص ٩٤.

(٤) أخرجه أحمد ١٥٦/١ رقم ١٣٤٧، وأبو يعلى ٣٠٢، وقال محققو المسند: إسناده صحيح ٤٥٤/٢.

المسلمون مُدبرين فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته قِبَلَ الكفار(١).

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وكان أجود الناس وكان أشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة، فانطلق ناس قبل الصوت، فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعًا، وقد سبقهم إلى الصوت، وهو على فرس لأبي طلحة عُرْي، في عنقه السيف وهو يقول: لم تراعوا"(٢).

يتجلي ذلك في قول عائشة رضي الله عنها: "وأيقظ أهله" (أي: للصلاة والعبادة لئلا تفوتهم فضيلة هذه المواسم المباركات، وهذا من كمال نصحه لهم، فينبغي لقيّم البيت أن ينشّط أهله ويرغبهم في العبادة لا سيما في المواسم الفاضلة)(٣). فإذا كان النبي ﷺ يرغب أصحابه رضي الله عنهم في قيام رمضان من غير أن يأمرهم فيه بعزيمة(٤)، إلا أنه كان مع أهله يوقظهم، ولا يترك أحدًا منهم قَدَرَ على القيام إلا أيقظه، قالت زينب بنت أبي سلمة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ إذا بقي من الشهر عشرة أيام لم يذر أحدًا من أهله يطيق القيام إلا أقامه(٥).

وذلك لأن الناس تنظر إلى أهل الداعية كما ينظرون إليه، لأنهم ألصق الناس به، وأولاهم وأجدرهم بأن يعملوا مثل ما يعمل، فكانوا هم الاختبار الأول لنجاح الداعية، كما أن الداعية يتحمل المسؤولية عنهم فيجب أن يقوم بها ((كُلّكم راعٍ وكلكم مَسؤولٌ عن رَعيّتِهِ))(٦). وعلى هذا النحو نزلت بعض آيات القرآن، قال تعالى مخاطبًا النبي: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَا﴾(٧) قال القرطبي: (أمره تعالى بأن يأمر أهله

---

(١) أخرجه مسلم ١٧٧٥.

(٢) أخرجه البخاري ٢٩٠٨، ومسلم ٢٣٠٧.

(٣) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٣/٢٢١.

(٤) أخرجه مسلم (٧٥٩).

(٥) أخرجه محمد بن نصر المروزي: مختصر قيام الليل ص ٢٤٧ وفي إسناده ابن لهيعة وهو ضعيف. وقد ذكره ابن حجر في الفتح ٤/٣١٦ وعزاه له وللترمذي.

(٦) أخرجه البخاري ٨٩٣ ومسلم ١٨٢٩.

(٧) سورة طه، آية: ١٣٢.

بالصلاة ويمتثلها معهم، ويصطبر عليها ويلازمها، وهذا الخطاب للنبي ﷺ ويدخل في عمومه جميع أمته وأهل بيته على التخصيص)[1]، وخاطبه الله تعالى فقال: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[2] فقام ﷺ فدعا قريشًا فاجتمعوا فعمّ وخصّ فقال: ((يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيّ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ. يَا بَنِي مُرَّةَ بْنِ كَعْبٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ. يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ. يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ. يَا بَنِي هَاشِمٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ. يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ. يَا فَاطِمَةُ أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنَ النَّارِ...))[3].

كما خاطب الله تعالى المؤمنين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾[4].

ولهذا استحق التعاون بين الأهل على العمل الصالح، استحق الثناء من النبي ﷺ والدعاء، فقال ﷺ: ((رَحِمَ الله رَجُلاً قَامَ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّى وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ، فَإِنْ أَبَتْ نَضَحَ فِي وَجْهِهَا الْمَاءَ. وَرَحِمَ الله امْرَأَةً قَامَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّتْ وَأَيْقَظَتْ زَوْجَهَا، فَإِنْ أَبَى نَضَحَتْ فِي وَجْهِهِ الْمَاءَ))[5].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: اغتنام الأوقات المباركة:

يستنبط ذلك من قول عائشة رضي الله عنها: "كان رسول الله إذا دخل العشر أحيا الليل..." فشهر رمضان من الأوقات المباركة، ففيه نزل القرآن، ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾[6]، كما أن النبي ﷺ أخبر - كما مر قريبًا- أن من قامه إيمانًا واحتسابًا

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، مج٦/١١/٢٦٣.

(٢) سورة الشعراء، آية: ٢١٤.

(٣) أخرجه مسلم (٢٠٤).

(٤) سورة التحريم، آية: ٦.

(٥) أخرجه أبو داود ١٣٠٨، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ١١٦٠).

(٦) سورة البقرة، آية: ١٨٥.

غفر له ما تقدم من ذنبه، فضلاً عن أن فيه ليلة القدر التي نزل فيها القرآن ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾[1] التي هي ﴿خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾[2].

كما أن النبي ﷺ أخبر أن ((من قامَ ليلةَ القَدْرِ إيمانًا واحْتِسابًا غُفِرَ لهُ ما تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِهِ))[3]، ولهذا كان النبي ﷺ يغتنم هذه الأوقات لفضلها وبركتها، فكان يعتكف ابتغاء ليلة القدر، قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: ((اعتَكفَ رسولُ اللهِ ﷺ عَشْرَ الأُوَلِ من رَمضانَ واعتَكَفْنا معَهُ، فأتاهُ جبريلُ فقال: إنَّ الذي تَطلُبُ أَمامَكَ. فاعتَكَفَ العَشرَ الأوسَطَ فاعتَكفْنا معَهُ، فأَتاهُ جبريلُ فقال: إنَّ الذي تَطلُبُ أمامَك. قام النبيُّ ﷺ خطيبًا صَبيحةَ عِشرينَ مِن رمضانَ فقال: مَن كان اعتكَف معَ النبيِّ ﷺ فلْيَرجِعْ فإنِّي أُريتُ ليلةَ القَدْرِ، وإني نُسِّيتُها، وإنها في العَشْرِ الأواخِرِ في وِترٍ))[4].

لذا كان رسول الله ﷺ يجتهد في العشر الأواخر مالا يجتهد في غيره[5]، ومن مظاهر هذا الاجتهاد الاعتكاف، فكان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان[6]، وفي حديث عائشة رضي الله عنها: ((أن النبي ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى، ثُمَّ اعْتَكَفَ أَزْوَاجُهُ بَعْدَهُ))[7] وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه ((فلما كان العامُ الذي قُبِضَ فيه اعتكَفَ عشرينَ يومًا))[8].

قال عبدالله البسام: (نلخص خصائص هذه العشر المباركات [أي العشر الأواخر من رمضان] بهذه الفقرات بدون أدلتها فهي معروفة وقريبة ولله الحمد:

(١) سورة الدخان، آية: ٣.

(٢) سورة القدر، آية: ٣.

(٣) أخرجه البخاري ١٩٠١، ومسلم ٧٦٠.

(٤) أخرجه البخاري ٨١٣، ومسلم ١١٦٧.

(٥) أخرجه مسلم ١١٧٥.

(٦) أخرجه البخاري (٢٠٢٥) ومسلم ١١٧١.

(٧) أخرجه البخاري ٢٠٢٦، ومسلم ١١٧٢.

(٨) أخرجه البخاري ٢٠٤٤.

أولاً: كان ﷺ يجتهد فيها بالعمل أكثر من غيرها، والاجتهاد فيها لا يختص بعبادة خاصة، بل يشمل الاجتهاد في جميع أنواع العبادة من صلاة وتلاوة وذكر وصدقة وغيرها.

ثانيًا: كان ﷺ يوقظ فيها أهله للصلاة والذكر، حرصًا على اغتنام هذه المواسم الطيبات، فإنها غنيمة لا ينبغي للمؤمن العاقل أن يفوتها ويهملها فتذهب عليه سدى.

ثالثًا: كان يعتكف في هذه العشر، ليتمتع بهذه الخلوة لله تعالى، ويسعد بلذيذ مناجاته، ويبتعد عن كل ما يشغله ويقطعه عن هذهالخلوة بربه تعالى.

رابعًا: أرجى ما تكون ليلة القدر في هذه العشر المباركات، لذا كان ليلها أفضل ليالي العام، فينبغي تلمسها في هذه الليالي عسى أن يوفَّق لها المؤمن، فيحصل له الخير الوفير، فهي "ليلة مباركة" وهي "خير من ألف شهر".

والقصد أن هذه الليالي المباركات التي هي الختام المسكي لصوم الشهر ليال عظيمة، وفوائدها وعوائدها جسيمة، ولا يفرط فيها إلا المحروم من الخير، ممن سفه نفسه، وأكبر من ذلك أن يقضيها بالمجالس المحرمة والاجتماعات الآثمة، نسأل الله تعالى السلامة)[1].

---

(١) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله البسام ٣/٢٢١ - ٢٢٢.

الحديث رقم (١٠٠)

١٠٠- السادس: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ: «**المُؤمِن القَوِيُّ خيرٌ وَأَحبُّ إلى اللَّهِ مِنَ المُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وفي كُلٍّ خيْرٌ. احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، واسْتَعِنْ باللَّهِ وَلاَ تَعْجَزْ. وإنْ أصابَكَ شيءٌ فلاَ تقلْ: لَوْ أنِّي فَعلْتُ كانَ كَذَا وَكذَا، وَلَكِنْ قلْ: قدَّرَ اللَّهُ، ومَا شَاءَ فَعَلَ، فَإنَّ: (لَوْ) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**» رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

تكمن قيمة الإنسان المسلم في قوة إيمانه، وثبات جنانه، وعفة لسانه. والمصطفى عليه الصلاة والسلام يرسى قاعدة إسلامية في الجملة الأولى من هذا الحديث، وهذه القاعدة تتمثل في معيار القوة في الإسلام، وهى: قوة الإيمان، والتي بها يشتد عزم المؤمن، وتقوى إرادته، ومما يرشد إلى ثبات هذه القاعدة أنها صيغت في أسلوب خبري، والجملة اسمية، وهى غير مرتبطة بزمن ينتهي، ولكنها توحي بأن المؤمن القوي في كل شيء قوله وعمله، وإرادته، وبنيانه، وتفكيره وتخطيطه لمعالم حياته واقعًا ومستقبلاً، هذا المؤمن القوي معالمه واضحة وثابتة في كل زمان ومكان، وهو يستحق التكريم من الله عز وجل فهو خير عند الله من المؤمن الضعيف، وهو كذلك أحب وأقرب إلى الله من المؤمن.

وفي القسم الثاني من هذا الحديث الشريف يتحول نوع الأسلوب من الخبر إلى الإنشاء، والشرط والجواب.

وكأن سائلاً سأل: وكيف تتحقق القوة في حياة المؤمن؟ وتأتي الإجابة من المصطفى ﷺ مشعة بالمنهج الإسلامي السديد، حيث يقدم لنا عدة قواعد تشريعية تصلح من أمر دنيا المسلم، وتقوده إلى النجاة والفوز في الآخرة، وهذه القواعد الأربعة،

---

(١) برقم (٢٦٦٤/٣٤).

تصدر في صيغة فعل الأمر في ثلاثة منها، والقاعدة الرابعة تصاغ في أسلوب الشرط والجواب، ثم تصاغ متعلقاتها في صيغة تجمع بين الخبر والإنشاء، لتوحي بتكامل منهج المؤمن وشموليته.

والقاعدة الأولى تتوهج دلالتها وتنبثق من كلمات هذه الجملة "احرص على ما ينفعك" وهي جملة موجزة ولكنها تشمل منابع القوة ومصادرها فالحرص أي بالطلب بوعى وخبرة وعلم، واتخاذ كل الوسائل الشرعية والعلمية لتحقيق النفع العام، واستحضار كل ما يقوى الإنسان في مجال دينه ودنياه، ويجب أن لا يفرط في ذلك. والقاعدة الثانية توثق علاقة المؤمن بربه وهو يحصل ما ينفعه في دنياه وآخرته "استعن بالله ولا تعجز" فالاستعانة بالله تصاغ في قالب فعل الأمر، فهي أمر واجب التنفيذ. وحتى لا يقع المسلم فريسة للتواكل والكسل ينهاه الرسول ﷺ عن العجز والضعف، وترك الأمور تسير هكذا بدون عمل، لأن العمل والسعي من مصادر القوة، والتوكل على الله يضع العمل في دائرة المنهج الإيماني السديد، وتأكيدًا لهذا المنهج الرباني في تقوية المؤمن وإعداده لمجابهة الحياة ومتقلباتها، ينهى المصطفى ﷺ المؤمن من تسرب الشك والقلق والوهم إلى نفسه، ولكن عليه أن يقابل الأحداث بالرضا والإيمان بالقضاء والقدر، وعليه أن يفكر في استعادة الثقة بنفسه، وتجديد قدراته، وإغلاق جميع المنافذ التي يتسرب منها الشيطان إلى نفسه، ولفظ "لو" وما يتعلق به شرطه وجوابه يفتح للشيطان الطريق إلى نفس المؤمن، ويتسرب الضعف إلى كيانه، كله، فإن لو تفتح عمل الشيطان، أعاذنا الله منه ومن شره.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل قوة الإيمان.

ثانيًا: من مهام الداعية: بذل النصح للمدعوين.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: التسليم بقضاء الله وقدره.

رابعًا: من مهام الداعية: سد الذرائع المؤدية إلى الشر.

خامسًا: من أساليب الدعوة: الترغيب والأمر والنهي والتعليل.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل قوة الإيمان:

إن من موضوعات الدعوة المستنبطة من هذا الحديث، فضل قوة الإيمان التي ينبغي أن تتوافر في المؤمن فتمده بالزاد الروحي العظيم الذي يستطيع من خلاله أن يستعلي على الأمور الدنيوية ويتزود لآخرته، ومن الشواهد على ذلك ما ورد في هذا الحديث في قوله ﷺ "المؤمن القوى خير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف" والمراد بالقوة هنا قوة الإيمان التي تؤدي إلى فضائل الأعمال وأحسنها وأعلاها، قال النووي: (المراد بالقوة هنا عزيمة النفس والعزيمة في أمور الآخرة فيكون صاحب هذا الوصف أكثر إقدامًا على العدو في الجهاد، وأسرع خروجًا إليه وذهابًا في طلبه وأشد عزيمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر على الأذى في كل ذلك واحتمال المشاق في ذات الله تعالى وأرغب في الصلاة والصوم والأذكار وسائر العبادات وأنشط طلبًا لها ومحافظة عليها ونحو ذلك)[1].

قال ابن هبيرة: (في هذا الحديث ما يدل على أن من المؤمنين القوي والضعيف؛ فإن في كلٍ خير؛ إلا أن المؤمن القوي أحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وذلك لأن المؤمن القوي ينفع نفسه وينفع غيره؛ وربما تعدَّت منفعته إلى أهله وقومه وأمته). والمؤمن الضعيف قد يقتصر على نفسه، وأخاف على ضعفه أيضًا أن يضعف عن حفظ نفسه؛ ولأن المؤمن القوي يعرض له أن يكسر حزب الشيطان بقوله إذا قال، وبفعله إذا فعل.

والمؤمن الضعيف أخاف عليه في مواطن يضعف فيها، فيكون كاسرًا لحزب الحق، والقوة في الإيمان أن يعمل المؤمن بعزائم الشرع في مواطنها، وأن لا يجبن عن الأخذ برخص الشرع في مواطنها، وأن لا يترك المسلمين من يده، حافظًا لدينهم، ومهتمًا بهم، ذَكَرهم وأنثاهم، عالمهم وجاهلهم، مهتمًا بتدبير العامة، عالمًا بأسرار الخاصة، إن كان ذا أمرٍ، وإلا قال لكل ذي لبٍّ إنه يصلح أن يكون ذا إمرة. وأما المؤمن الضعيف فعلى ضدّ ذلك قانعًا بأن يسلم بنفسه)[2].

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٧٧.

(٢) انظر: الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٨/٤٤.

ولذلك تجد المؤمن القوي عالي الهمة صلب العزيمة شديد المسارعة إلى فعل الخيرات فيكون له في المواقف الخطيرة اليد العليا والقدح المعلى وقصب السبق، مثال ذلك ما فعله بلال بن رباح ﷺ، قال ابن مسعود ﷺ: ((أوَّل مَنْ أظهرَ إسلامَهُ سَبْعَةٌ: رسولُ الله، وأبو بكرٍ، وعمارٌ، وأمُّهُ سُميةُ، وصُهَيْبٌ، وبلالٌ، والمِقْدادُ، فأما رسولُ الله فمنَعَهُ الله بعمِّهِ أبي طالب، وأما أبو بكرٍ فمنَعَهُ الله بقومِهِ، وأما سائرُهُمْ فأخذهُم المشركونَ، وأُلبِسوا أدراعَ الحَديدِ، وصَهَرُوهُمْ في الشَّمْسِ، فما مِنهمْ أحدٌ إلا وَاتاهُمْ على ما أَرادُوا إلا بلال، فإنَّه هَانَتْ عليهِ نفسُهُ في الله، وهانَ على قومِهِ، فأخذُوهُ، فَأعطَوْهُ الوِلْدانَ، فجَعَلُوا يَطُوفونَ بهِ في شِعَابِ مكةَ، وهو يقولُ: أَحَدٌ أَحَدٌ))[1].

ومثال ذلك أيضًا أبوبكر ﷺ، قال عمر بن الخطاب ﷺ: أمرنا رسول الله ﷺ يومًا أن نتصدق، فوافق ذلك مالاً عندي، فقلت: اليوم أسبقُ أبابكر إن [أي ما] سبقته يومًا. فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: ما أبقيت لأهلك؟ قلت: مثله. وأتى أبوبكر ﷺ بكل ما عنده، فقال له رسول الله ﷺ: ما أبقيت لأهلك؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله. قلت: لا أسابقك إلى شيء أبدًا[2].

ثانيًا- من مهام الداعية: بذل النصح للمدعوين:

يستنبط ذلك من قوله ﷺ: "احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز" فالنبي ﷺ نصح المسلم -والدين النصيحة- بأن يكون شديد الحرص على ما ينفعه في الدنيا والآخرة مع طلب العون والإعانة من الله، وألا يكون عاجزًا عن فعل الطاعة، قال النووي: (معناه: احرص على طاعة الله تعالى، والرغبة فيما عنده وطلب الإعانة من الله تعالى على ذلك ولا تعجز ولا تكسل عن طلب الطاعة ولا عن طلب الإعانة)[3].

قال ابن هبيرة: (أما قوله: (ولا تعجز) فإنه لا يحسن بالمؤمن أن يعجز؛ وقد بقى في الأمر مطلع لاحتيال)[4].

---

(١) أخرجه أحمد ٣٨٣٢/٦، وابن ماجه ١٥٠، وابن حبان ٧٠٨٣ وحسنه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ١٢٢).

(٢) أخرجه أبو داود ١٦٧٨، والترمذي ٣٦٧٥، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ١٤٧٢).

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٧٧.

(٤) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٤٤/٨.

ولذلك كان النبي ﷺ يستعيذ من العجز لضرره الشديد على المسلم وإسلامه، قال أنس بن مالك رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ يقول: ((اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ وَالْهَرَمِ، وَالْبُخْلِ))[1] قال النووي مبينًا ضرر العجز والكسل: (أما العجز فقيل: هو ترك ما يجب فعله والتسويف، وأما الكسل فهو عدم انبعاث النفس للخير وقلة الرغبة مع إمكانه.. واستعاذته ﷺ من هذه الأشياء لتكمل صفاته في كل أحواله، وشَرَعَه أيضًا تعليمًا)[2].

ولهذا روي عن النبي ﷺ وصف العاجز بأنه من اتبع هوى نفسه وأطلق لها العنان تفعل ما تفعل من الشهوات والملذات ومع ذلك هو يتمنى أن يعفو الله عنه ويدخله الجنة فقال: ((الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمنَّى عَلَى اللهِ))[3] كما حث على أن يكون المسلم متصدقًا ولا يعجز عن ذلك إن هو استطاع، فقال: ((الأَيْدِي ثَلاثَةٌ: فَيَدُ اللهِ العُلْيَا، وَيَدُ المُعْطِي التي تَلِيها، وَيَدُ السَّائِلِ السُّفْلَى، فَأَعْطِ الفَضْلَ وَلا تَعْجِزْ عَنْ نَفْسِكَ))[4].

وقال ابن القيم رحمه الله: (طالبُ الله والدار الآخرة لا يستقيم له سيره وطلبه إلا بحبسين: حبس قلبه في طلبه ومطلوبه، وحبسه عن الالتفات إلى غيره. وحبس لسانه عما لا يفيد، وحبسه على ذكر الله وما يزيد في إيمانه ومعرفته. وحبس جوارحه عن المعاصي والشهوات، وحبسها على الواجبات والمندوبات.

فلا يفارق الحبس حتى يلقى ربه، فيخلصه من السجن إلى أوسع فضاء وأطيبه. ومتى لم يصبر على هذين الحبسين، وفرّ منهما إلى فضاء الشهوات، أعقبه ذلك الحبس الفظيع عند خروجه من الدنيا؛ فكل خارج من الدنيا إما متخلص من الحبس، وإما ذاهب إلى الحبس")[5].

---

(١) أخرجه البخاري ٢٨٢٣، ومسلم ٢٧٠٦.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٩٤.

(٣) أخرجه الترمذي ٢٤٥٩، وابن ماجه ٤٢٦٠، وضعفه الألباني (ضعيف سنن ابن ماجه ٩٣٠).

(٤) أخرجه أبو داود ١٦٤٩ صححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ١٤٥١).

(٥) الفوائد المشوقة إلى علم القرآن وعلم البيان، ابن القيم، تحقيق: محمد عثمان الخشت ص ٨٣.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: التسليم بقضاء الله وقدره:

إن مما يبعث على السكينة والراحة النفسية التسليم بقضاء الله وقدره، وتفويض الأمر لله تعالى ومن الشواهد على ذلك من الحديث قوله ﷺ: ((وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا ولكن قل: قدّر الله وما شاء فعل) فقدر الله نافذ لا رادّ له، وواقع بالعباد لا محالة (رفعت الأقلام وجفت الصحف)[1]، فكان من خلق المؤمن الصالح التسليم بقضاء الله وقدره (وهو إرادة الله إيجاد الأشياء على وجه مخصوص ثم إيجادها فعلاً على وفق المراد)[2] فهو يستحضر دائمًا قول النبي ﷺ: ((وَلَوْ كَانَ لَكَ مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَبًا أَوْ مِثْلُ جَبَلِ أُحُدٍ ذَهَبًا تُنْفِقُهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا قَبِلَهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ كُلِّهِ. فَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ. وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ. وَأَنَّكَ إِنْ مُتَّ عَلَى غَيْرِ هذَا دَخَلْتَ النَّارَ))[3].

وإنما طولب المسلم بالإيمان بالقضاء والقدر لما في ذلك من المنافع الجمة التي تعود عليه، يوضح ذلك ابن رجب الحنبلي فيقول: (إن العبد إذا علم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له من خير وشر ونفع وضر وأن اجتهاد الخلق كلهم على خلاف المقدور غير مفيد البتة، علم حينئذٍ أن الله وحده هو الضار النافع المعطي المانع، فأوجب ذلك للعبد توحيد ربه عز وجل وإفراده بالطاعة وحفظ حدوده، فإن المعبود إنما يقصد بعبادته جلب المنافع ودفع المضار، ولهذا ذمّ الله من يعبد من لا ينفع ولا يضر ولا يغني عن عابده شيئًا، فمن علم أنه لا ينفع ولا يضر، ولا يعطي ولا يمنع غير الله، أوجب له ذلك إفراده بالخوف والرجاء والمحبة والسؤال والتضرع والدعاء، وتقديم طاعته على طاعة الخلق جميعًا، وأن يتقي سخطه ولو كان فيه سخط الخلق جميعًا وإفراده بالاستعانة والسؤال له وإخلاص الدعاء في حال الشدة والرخاء)[4].

---

(١) أخرجه الترمذي ٢٥١٦، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٠٤٣).

(٢) العقيدة الإسلامية وأسسها، عبدالرحمن حسن حبنكة، ط/٢، دار القلم، بيروت: ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ٧٣٠.

(٣) أخرجه أبو داود ٤٦٩٩، وابن ماجه ٧٧، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٦٢).

(٤) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١/٤٨٤-٤٨٥.

لذا كان الرضا بالقضاء والقدر طريقًا إلى رضا الله عز وجل، أما السخط فلا يؤدي إلا إلى غضبه سبحانه وتعالى: ((فَمَنْ رَضِيَ، فَلَهُ الرِّضَا. وَمَنْ سَخِطَ، فَلَهُ السُّخْطُ))[1]، وقد ورد عن علي بن أبي طالب قوله: ((مَنْ رَضِيَ بِقَضَاءِ اللَّهِ جَرَىٰ عَلَيْهِ، وَكَانَ لَهُ أَجْرٌ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ بِقَضَاءِ اللَّهِ جَرَىٰ عَلَيْهِ، وَحَبِطَ عَمَلِهِ))[2].

لذا كان الإيمان؛ بالقضاء والقدر له من الثمار الطيبة الكثير، من ذلك:

١- الاعتماد على الله تعالى عند فعل الأسباب لأنه مقدر الأسباب والمسببات.

٢- راحة النفس وطمأنينة القلب إذا أدرك العبد أن كل شيء بقضاء الله وقدره.

٣- طرد الإعجاب بالنفس عند حصول المراد لأن حصول ذلك نعمة من الله بما قدّره من أسباب ذلك الخير والنجاح، فيشكر الله ويدع الإعجاب.

٤- طرد القلق والضجر عند فوات المراد أو حصول المكروه، لأن ذلك بقضاء الله وقدره، فسيصبر على ذلك ويحتسب"[3].

ولذا كان هذا الموضوع من الموضوعات المهمة التي يجب أن يعالجها الداعية ويوضحها للمدعوين، لما في ذلك من سعادة لهم في الدنيا والآخرة.

رابعًا- من مهام الداعية: سد الذرائع المؤدية إلى الشر:

إن من أبرز المهام التي ينبغي أن يضطلع بها الداعية سد الذرائع المؤدية إلى الشر ويستنبط ذلك من قوله ﷺ "فإنّ لو تفتح عمل الشيطان"، فالإنسان عندما يقع له ما يكره فإنه في الغالب يسترجع الأحداث ويفكر في الوقائع، ومن ثم يحدّث نفسه بأنه لو فعل كذا لوقع الأمر على خلاف ما حدث، وهذا باب واسع يأتي من قبله الشيطان للإنسان، فيوسوس له، ومن ثم قد يحمله على عدم التسليم بالمقدور، فضلاً عن كونه ينشغل بالماضي فلا يستطيع الخروج من أسره. فجاء الشرع فسدّ هذا الباب.

---

(١) أخرجه الترمذي ٢٣٩٦، وابن ماجه ٤٠٣١، حسنه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٣٢٥٦).

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق كما في كنز العمال ٨٥٣٩.

(٣) أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، نخبة من العلماء ٢٤٨ - ٢٤٩.

أما من سلّم بالقدر وفكّر فيما وقع ليأخذ العبرة والعظة، ويستدرك ما فاته ويجتهد في فعل الطاعات واجتناب المعاصي، ويتزود بتقوى الله تعالى، فهذا لا بأس به ولا يدخل في النهي.

قال السبكي: (وقد تأملت اقتران قوله ﷺ "احرص على ما ينفعك" بقوله: ((إِيَّاكَ وَاللَّوْ))[١] فوجدت الإشارة إلى محل "لو" المذمومة وهي نوعان: أحدهما في الحال ما دام فعل الخير ممكنًا فلا يترك لأجل شيء آخر، فلا تقول "لو أن كذا كان موجودًا لفعلت" مع قدرته على فعله ولو لم يوجد ذاك، بل يفعل الخير ويحرص على عدم فواته. والثاني: من فاته أمر من أمور الدنيا فلا يشغل نفسه بالتلهف عليه، لما في ذلك من الاعتراض على المقادير وتعجيل تحسر لا يغني شيئًا، ويشتغل به عن استدراك ما لعله يجدي، فالذم راجع فيما يئول في الحال إلى التفريط وفيما يئول في الماضي إلى الاعتراض على القدر وهو أقبح من الأول)[٢].

ومن هذا القبيل نهى الشرع عن بيع الغرر[٣]، لأن ذلك قد يئول إلى المنازعة والتخاصم والاختلاف بين المتبايعين، فالغرر ما يحتمل الوجود أو عدمه[٤]. مثل بيع الثمار قبل بدو صلاحها، وذلك لأنه قد يحتمل أن تهلك الثمرة قبل ذلك فيقع التنازع بين البائع والمشتري، فالبائع يقول قد بعت ثمرتي وقد كانت على الشجر. والمشتري يقول: دفعت مالاً دون أن أقبض السلعة، فسدًا لهذا الباب نهى النبي ﷺ عن بيع الثمرة قبل بدو صلاحها[٥].

خامسًا- من أساليب الدعوة: الترغيب والأمر والنهي والتعليل:

فأما الترغيب ففي قوله ﷺ "المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف"

---

(١) أخرجه ابن ماجه ٤١٦٨، صححه الألباني (صحيح ابن ماجه ٣٣٦١).

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٢٤٣/١٣ ونقله ابن حجر ملخصًا.

(٣) أخرجه مسلم ١٥١٣ عن أبي هريرة رضي الله عنه: (نهى رسول الله ﷺ عن بيع الحصاة عن بيع الغرر).

(٤) انظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٤٩/٣١.

(٥) أخرجه البخاري ٢١٩٤، ومسلم ١٥٣٤.

فهذا إخبار عن أن القوة في الإيمان يحبها الله، ومن معايير التفاضل بين المؤمنين عند الله تعالى، وهذا دافع لكل مؤمن أن يكون قويًا في إيمانه حتى ينال الدرجات العليا من حب الله تعالى.

وأما الأمر: فقوله ﷺ "احرص، واستعن بالله، قل" لينبه المسلم على أهمية ما يؤمر به من الحرص على ما ينتفع به في الدنيا والآخرة، والاستعانة بالله تعالى في كل الأحوال والأفعال والأوقات والتسليم بقضاء الله وقدره. وأما النهي فقد ورد في قوله ﷺ: "ولا تعجز" لينبه المخاطب إلى أن يحذر من هذا الأمر لما في ذلك من الضرر الذي يلحق به من العجز والقعود والكسل.

وأما التعليل فقوله ﷺ "فإن لو تفتح عمل الشيطان" وذلك ليقنع المخاطب بفائدة ما أمره به أو نهى عنه، فيزداد حرصًا على حرص على الامتثال والطاعة.

الحديث رقم (١٠١)

١٠١- **السابع**: عنه أَنَّ رسول اللَّه ﷺ قال: «**حُجِبتِ النَّارُ بِالشَّهَواتِ، وحُجِبتْ الْجَنَّةُ بَالمكَارِهِ**» متفقٌ عليه[١].

وفي رواية لمسلم[٢]: «**حُفَّت**» بَدلَ «**حُجِبتْ**» وهو بمعناهُ: أيْ: بينهُ وبينَهَا هَذا الحجابُ، فإذا فعلَهُ دخَلها.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

حجبت: بمعنى حفت: أي بينه وبينها هذا الحجاب فإذا فعله دخلها[٣].

حُفَّت: أحيطت[٤].

الشرح الأدبي

تموج كلمات هذه الحديث الشريف بإشعاعات لا متناهية من الإرشادات، والتوجيهات، ولكنها كامنة في جملتي الحديث كما تكمن الأنوار في "أسلاك الكهرباء" فالناظر يراها مصمتة جامدة، ولكنها تمور بشحنات من الطاقة لا يطيقها أي إنسان، فهذا الحديث يتكون من ست كلمات، ولكنها تفتح أمام المسلم جميع المجالات، وتضعه أمام طريقين لا ثالث لهما: إما النار فيكون الخسران والبوار، وإما الجنة فيكون الفوز ونعم الفوز بدار القرار، ويرى القرطبي أن هذا الحديث، من الكلام البليغ الذي انتهى في البلاغ نهايته، وذلك أنه مَثَّل المكاره بالحفاف في رواية

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٨٧)، واللفظ له، ومسلم (١/١٨٢٢).

(٢) تنبيه: أورد مسلم الحديث بإسنادين، ساق لفظ الأول وفيه: (حفت) بدل: (حجبت) في الموضعين، وفي الموضع الثاني لم يسق اللفظ بل قال: بمثله.

(٣) رياض الصالحين ٩١.

(٤) الوسيط في (ح ف ف).

مسلم، وبمعناها هنا "الحجاب" وهو الدائر بالشيء المحيط به الذي لا يتوصل إلى ذلك الشيء إلا بعد أن يُتَخَطَّى، ثم يقول موضحًا قيمة الصورة الأدبية التي تتسع مدلولاتها، وتتكاثف أشعتها في هذا الحديث الموجز: وفائدة هذا التمثيل، أي التشبيه التمثيلي: أن الجنة لا تُنال إلا بقطع مفاوز المكاره وبالصبر عليها، وأن النار لا يُنَجِّي منها إلا بترك الشهوات وفطام النفس عنها[١].

وتتسم لغة الحديث بالمفارقة التي تثير الحس، وتلفت الانتباه، وتدعو للتأمل والتفكر والتدبر.

فالنار مرتبطة بالعذاب والهلاك، ولكنها في الحديث تُصوَّر بأنها محاطة بسياج من الرغبات والأهواء والمتع التي يحبها الإنسان؛ وذلك يدعو إلى التعجب والحذر واليقظة، والجنة أمل كل إنسان طائع ملتزم بما أمر الله تعالى ولكنها في الحديث يحوطها ويحف بها سياج من المكاره. وهي المعاناة والمجاهدة والمشقة والصبر على أداء الطاعات، وذلك أمر يدعو إلى قوة التحمل والاستعداد لمواجهة كل العقبات والتحديات والإغراءات، ولنتأمل هذه الإشعاعات التي تصدر من هذه الكلمة "الشهوات" إنها الأشياء المشتهيات، وما أكثر ما يشتهيه الإنسان في حياته، وسميت بذلك على الاستعارة للتعلق والاتصال، كما يقال للمقدور قدر، وللمرجو رجاء، وللمعلوم علم، وفي تسميتها بهذا الاسم فائدتان: أنه جعل الأعيان التي ذكرت في آية ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ﴾[٢] شهوات: مبالغة في كونها مشتهاة محروصًا على الاستمتاع بها، وثانيتهما، أن الشهوة صفة مسترذلة مذمومة، والمكاره التي حُفَّت بها الجنة ليست مذمومة، ولكنها أمور تحتاج إلى المجاهدة والمعاناة والصبر والالتزام، وقد وعد الله تعالى المتقين بالفوز بنعيم الجنة، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾[٣].

---

(١) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان، ٢٦٩.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٤.

(٣) سورة النبأ، الآيات: ٣١ - ٣٦.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: من خصائص النبي ﷺ: جوامع الكلم.

ثانيًا: من صفات الداعية: بذل النصح للمدعوين.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: حبس النفس عن الشهوات.

رابعًا: من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: من خصائص النبي ﷺ: جوامع الكلم:

يستنبط هذا من قوله ﷺ: "حجبت النار بالشهوات وحجبت الجنة بالمكاره". قال ابن حجر: (وهو من جوامع كلمه ﷺ وبديع بلاغته في ذم الشهوات وإن مالت إليها النفوس والحض على الطاعات وإن كرهتها النفوس وشق عليها)(١). وقد فضل الله عز وجل رسوله ﷺ بجوامع الكلم، فقال ﷺ: ((فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِسِتٍ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ...))(٢) ومعنى جوامع الكلم: (أنه ﷺ كان يتكلم بالقول الموجز القليل اللفظ الكثير المعاني)(٣). قال الزهري: (جوامع الكلم -فيما بلغنا- أن الله يجمع له الأمور الكثيرة التي كانت تكتب في الكتب قبله، في الأمر الواحد والأمرين ونحو ذلك)(٤).

وقال القاضي عياض: (وأما كلامه المعتاد وفصاحته المعلومة وجوامع كلمه وحكمه المأثورة فقد ألّف الناس فيها الدواوين، وجمعت في ألفاظها ومعانيها الكتبُ ومنها ما لا يُوازى فصاحةً ولا يبارى بلاغةً)(٥).

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٣٢٧/١١، وانظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٥٢.

(٢) أخرجه مسلم (٥٢٣).

(٣) فتح الباري، ابن حجر ٢٦١/١٣.

(٤) ذكره البخاري في صحيحه إثر الحديث ٧٠١٣. وانظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٥٣/١.

(٥) الشفا بتعريف حقوق المصطفى: القاضي عياض بن موسى اليحصبي ٥٤٤هـ ١٦٣/١. وانظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد ٤٥٩/١-٤٦١.

وقال ابن رجب الحنبلي: "فجوامع الكلم التي خص بها النبي ﷺ نوعان:

أحدهما: ما هو في القرآن: كقوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِ﴾[١]. قال الحسن: (لم تترك هذه الآية خيرًا إلا أمرت به ولا شرًا إلا نهت عنه)[٢].

والثاني: ما هو في كلامه ﷺ وهو منتشر موجود في السنن المأثورة عنه)[٣].

ثانيًا: من مهام الداعية: بذل النصح للمدعوين

إن من مهام الداعية المستنبطة من هذا الحديث: بذل النصح للمدعوين، ففي قوله ﷺ "حجبت" نصحٌ، فهذا إخبار عن حقيقة، أو يحتمل أن يكون خبرًا قصد به النهي[٤]. وعلى كلا التقديرين فإن المقصود بذل النصيحة للمدعوين، بأن يحذروا من اتباع الشهوات وارتكابها، بالرغم من ميل النفس إليها وتمتعها بذلك، لأن من فعل ذلك فهو آخذ بطريقه إلى النار. وأما من أراد الجنّة فعليه فعل المكاره والصبر عليها وإن كانت شاقة على النفوس صعبة عليها، ولما كان هذا الأمر يلتبس على بعض الناس نبّه ﷺ عليه ونصح به، وعلى ذلك يحمل قوله ﷺ: ((مَنْ خَافَ أَدْلَجَ وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ أَلاَ إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ غَالِيَةٌ أَلاَ إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ الْجَنَّةُ))[٥].

قال ابن حجر: (فكأنه ﷺ قال: لا يوصل إلى الجنة إلا بارتكاب المشقات المعبر عنها بالمكروهات ولا إلى النار إلا بتعاطي الشهوات، وهما محجوبتان فمن هتك الحجاب اقتحم)[٦].

---

(١) سورة النحل، آية: ٩٠.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ١٤٠، وانظر: الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي ١٠٣/٩.

(٣) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٥٥/١.

(٤) انظر: فتح الباري، ابن حجر ٣٢٨/١١.

(٥) أخرجه الترمذي ٢٤٥٠، صححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٩٩٣).

(٦) فتح الباري، ابن حجر ٣٢٨/١١.

فكان ﷺ - وهو إمام الدعاة- مبصِّرًا للمدعوين بما ينفعهم وبما يضرهم، فمثله ﷺ كمثل الوالد الشفيق مع ولده. فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((إنما أنا لَكُمْ مِثْلُ الوالِدِ، أُعَلِّمُكُمْ))[1].

وصدق الله تعالى إذ وصف حال النبي ﷺ -وهو سيد الدعاة- مع المدعوين فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[2].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: حبس النفس عن الشهوات:

إن النفس البشرية كما وصفها الله سبحانه وتعالى على لسان امرأة العزيز: ﴿لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾[3]، لذا فهي تنزع وتميل إلى الشهوات والملذات مع أن مآلها الهلاك والبوار والخسران. أما المرء العاقل فهو من حبس نفسه عن اقتراف الشهوات وتجنبها وتجنب الطرق المؤدية إليها، وسارع إلى الخيرات وصبر عليها وجاهد نفسه على فعلها.

لذا كان طريق الجنة -كما أخبر النبي ﷺ- الصبر على المكاره، وطريق النار الوقوع في الشهوات والانغماس فيها.

قال ابن هبيرة: (قوله: "حفت الجنة" أي: أحيطت بالمكاره، وذلك أن المكاره هي ما يكرهه الآدمي من خروج مال عن يده في صدقه، أو فجعة بحميم له، أو خروج نفسه بالجهاد في سبيل الله أو ذهاب عِرضه مع من يعضُه[4]، أو صبر على لذة محرمة لأجل الله، أو احتساب طعام وشراب وفراق زوجة في صيام لأجل الله تعالى، أو رغبة عن وطء

---

(١) أخرجه أبو داود ٨، والنسائي ٤٠، وابن ماجه ٣١٣، صححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٢٥٢).

(٢) سورة الأعراف، آية: ١٥٧.

(٣) سورة يوسف، آية: ٥٣.

(٤) يعضه: يقذفه بالباطل، الوسيط في (ع ض هـ).

أهل بقصد إلى الحج، أو صبر على برد ماء في إسباغ وضوء في شدة برد لأجل الله تعالى، إلى غير ذلك.

كما (حفت النار) أي أحيط بها (بالشهوات)، فجعل جانب منها يدخل إليه من شهوة الزنا، وجانب يدخل إليها بأكل الربا، وجانب منها بشرب الخمر، وجانب منها بالغدر، وجانب بالنميمة، وجانب بالغيبة إلى غير ذلك"[١].

وفي المقابل فإن من اتبع الشهوات استحق أن يطلق عليه العاجز، كما روي عن النبي ﷺ: ((والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني))[٢].

لذا فإنه يحرم من النعمة في الآخرة إذا عجل باقتراف المحرم في الدنيا، قال ﷺ: ((مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَشْرَبْهَا فِي الآخِرَةِ. إلاَّ أَنْ يَتُوبَ))[٣] وفي رواية عند مسلم "حُرمها في الآخرة فلم يسقها" وقال ﷺ: ((لاَ تَلْبَسُوا الْحَرِيرَ. فَإِنَّهُ مَنْ لَبِسَهُ فِي الدُّنْيَا، لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الآخِرَةِ))[٤]، وقال ﷺ كذلك: ((من لبس الذهب من أمتي فمات وهو يلبسه حرم الله عليه ذهب الجنة))[٥].

أما من أمسك نفسه عن الشهوات وجاهدها -مع شدة هذه المجاهدة- فإنه يكون من الصادقين في إيمانهم، ومن أصحاب الدرجات العليا، فهذا النبي يوسف عليه السلام، يمتنع على امرأة العزيز، وقد دعته إلى نفسها فاستحق ثناء الله عليه، بقوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[٦]. وهذا هو الرجل الذي يكرمه الله يوم القيامة، فيظله الله في ظلّه يوم لا ظل إلا ظله. وذلك لأنه كفَّ نفسه عن الحرام، خوفًا من الله، قال ﷺ:

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٣٨٨/٥.

(٢) أخرجه الترمذي ٢٤٥٩، وابن ماجه ٤٢٦٠، ضعفه الألباني، (ضعيف سنن ابن ماجه ٩٣٠).

(٣) أخرجه البخاري ٥٥٧٥ ومسلم ٢٠٠٣ واللفظ له.

(٤) أخرجه البخاري ٥٨٣٤ ومسلم ٢٠٦٩.

(٥) أخرجه أحمد ١٦٦/٢، ٦٥٥٦، وقال محققو المسند: إسناده صحيح.

(٦) سورة يوسف، آية: ٢٤.

"سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظلّ إلا ظلّه" فذكر منهم ((ورجُلٌ دَعَتْهُ امرأةٌ ذاتُ مَنصِبٍ وجَمالٍ فقال: إني أخافُ اللّهَ))(١).

قال ابن القيم: (قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾(٢) علّق سبحانه الهداية بالجهاد؛ فأكملُ الناس هدايةً أعظمهم جهادًا.

وأفرض الجهاد: جهاد النفس، وجهاد الهوى، وجهاد الشيطان، وجهاد الدنيا. فمن جاهد هذه الأربعة في الله هداه الله سُبُل رضاه الموصلة إلى جنته. ومن ترك الجهاد فاته من الهدى بحسب ما عطل من الجهاد.

قال الجنيد: والذين جاهدوا أهواءهم فينا بالتوبة لنهدينهم سُبُل الإخلاص، ولا يتمكن من جهاد عدوه في الظاهر إلا من جاهد هذه الأعداء باطنًا، فمن نُصر عليها نُصر على عدوه، ومن نُصرت عليه نُصر عليه عدوه)(٣).

رابعًا- من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب:

وذلك بذكر الجنة والنار، فحذر ﷺ من الشهوات المحرمة التي تؤدي إلى النار، ورغب ﷺ في فعل المأمورات التي يشق فعلها على النفس فذكر أنها تؤدي إلى الجنة وتوصّل إليها. وذلك ليهون على النفوس احتمال المشقة في إتيانها، ويعظم من أمر المحرمات وإن سهل على النفس اقترافها.

ولا شك أن أسلوب الترغيب والترهيب من الأساليب الدعوية المهمة التي يحسن بالداعية أن يفيد منها في دعوته، لما في ذلك من آثار إيجابية محمودة تؤثر في نفوس المدعوين.

إن الترهيب والترهيب من الأساليب الدعوية المجدية والتي لها أكبر الأثر في قبول الدعوة والامتثال بها، لماله من فوائد دعوية عدة منها:

(١) أخرجه البخاري ٦٦٠، ومسلم ١٠٣١.

(٢) سورة العنكبوت، آية: ٦٩.

(٣) الفوائد المشوقة إلى علم القرآن وعلم البيان، ابن القيم ٩١.

١- أن الترغيب (يجعل العبد يتوق إلى ما أعده الله للطائعين فيزداد طاعة وتقوى، كما أن الترهيب يورث الخوف من عذاب الله عز وجل، ويولد الرهبة حتى تصير طبعًا في الإنسان توصله إلى تقوى الله عز وجل.

٢- أن الترغيب يولد الأمل ويبعث على النشاط والعمل للآخرة، والترهيب يعجل بتوبة التائبين حتى لا يدركهم الموت وهم عصاة.

٣- الترغيب يحبب إلى المسلم الطاعات وينأى به عن المعاصي، ويدفع به إلى مقاومة الشيطان، والترهيب يزود المؤمن بما يدفع به إغواء الشيطان فيقلع عن المعاصي)[١].

(١) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد ٢١٥٦/٦، ٢١٩٥.

الحديث رقم (١٠٢)

١٠٢- **الثامن:** عن أبي عبد اللَّه حُذَيْفَةَ بن اليمانِ ﵁ ، قال: صَلَّيْتُ مع النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ ليْلَةٍ، فَافْتَتَحَ الْبقرة، فقلْت يركَعُ عِندَ المائة، ثُمَّ مضى، فَقُلْت يُصلِّي بِهَا في رَكْعةٍ، فَمَضَى. فَقُلْت يَرْكَع بها، ثمَّ افْتَتَح النِّسَاءَ، فَقَرأَهَا، ثمَّ افْتَتح آلَ عِمْرانَ فَقَرَأَهَا، يَقْرأُ مُتَرَسِّلاً، إذا مرَّ بآيَةٍ فِيها تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وإذا مَرَّ بِسؤالٍ سَأل، وإذا مَرَّ بتَعَوذٍ تَعَوَّذَ، ثم ركع فَجعل يقُول: «**سُبحانَ رَبِّيَ الْعظِيمِ**» فَكَانَ ركُوعُه نحْوا مِنْ قِيامِهِ ثُمَّ قَالَ: «**سمِع اللَّهُ لِمن حمِدَه، ربَّنا لك الْحمدُ**» ثُم قَام قِيامًا[1] طوِيلاً قَرِيبًا مِمَّا ركَع، ثُمَّ سَجَدَ فَقَالَ: «**سبحان رَبِّيَ الأعلَى**» فَكَانَ سُجُوده قَرِيبًا مِنْ قِيامِهِ» رواه مسلم[2].

ترجمة الراوي:

حذيفة بن اليمان: هو حذيفة بن حُسَيْل العبسي.

من نُجبَاء أصحاب النبي ﷺ ، وهو صاحبُ سِرّ رسول الله ﷺ ، وقد أسلم ﵁ مع أبيه، وأراد شهود بدرٍ، فصدّهما المشركون، وقالوا: إنكم تريدون محمدًا ﷺ ، فقالا: ما نُريدُ إلا المدينة، فأخذوا العهد عليهما: على أن ينصرفا إلى المدينة ولا يقاتلا مع النبي ﷺ ، فأخبرا النبي ﷺ ، فقال: ((نَفي بعهدهم، ونستعين الله عليهم)) ﷺ[3].

وشهد أُحدًا وما بعد ذلك من المشاهد، ولقد قُتِل أبوه يوم أحد بعد أن أخطأ به المسلمون، فجعل حذيفة ﵁ يقول لهم: أبي، أبي، فلم يفهموا حتى قتلوه، فقال حذيفة ﵁ : يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، فزادت حذيفة عند رسول الله ﷺ خيرًا، وتصدق حذيفةُ عليهم بديتهِ.

---

(١) (قيامًا) لا توجد عند مسلم.

(٢) برقم (٢٠٣/٧٧٢). وسيكرره المؤلف برقم (١١٨٢).

(٣) أخرجه مسلم، رقم (١٧٧٨).

وقد آخى رسول الله ﷺ بين حذيفة وعمَّار رضي الله عنهما، وكان رضي الله عنه يسأل رسول الله ﷺ عن الشر مخافة أن يدركه، وقد أسرَّ النبي ﷺ إليه أسماء المنافقين، وضبط عنه ﷺ الفتن الكائنة في الأمة، وقد ناشده عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال له: أأنا من المنافقين؟ فقال حذيفة رضي الله عنه: لا، ولا أُزكي أحدًا بعدك[1].

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا مات ميّت، يسأل عن حذيفة رضي الله عنه، فإن حضر الصلاة عليه، صلى عليه عمر، وإن لم يحضر حذيفة الصلاة عليه لم يحضر عمر.

وقد ولاه عمر رضي الله عنه على المدائن "بفارس" وكانت عادته إذا استعمل عاملاً كتب في عهده (وقد بعثتُ فلانًا وأمرته بكذا) فلما استعمل حذيفة كتب في عهده (اسمعوا له وأطيعوا).

وكان رضي الله عنه من الشجعان الفاتحين، شهد الحرب بنهاوند، فلما قُتِلَ النعمان بن مقرن أمير ذلك الجيش أخذ الراية، وكان فتح همذان والريّ والدينور على يده، وشهد فتح الجزيرة وقال فيه علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ذاك امرؤ عَلِمَ المعضلات والمفصّلات وعلم أسماء المنافقين، إن تسألوه عنها تجدوه بها عالمًا.

بلغت أحاديثه عن النبي ﷺ ٢٥٥ حديثًا.

وفي وفاته قال: اللهم إني لم أحب الدنيا لحفر الأنهار ولا لغرس الأشجار؛ ولكن لسهر الليل وظمأ الهواجر، وكثرة الركوع والسجود، والذكر لله عز وجل كثيرًا، والجهاد في سبيله، ومزاحمة العلماء بالركب.

وتوفي سنة ٣٦هـ بالمدائن[2].

---

(١) أخرجه مسلم ١٧٨٨.

(٢) الطبقات، ابن سعد (٣١٧/٧)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر (١٣٨)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير (٧٠٦/١)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني (٢٦٢)، وسير أعلام النبلاء، الذهبي (٣٦١/٢)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي (٧٣/٢)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٣٦٧/١)، والأعلام، الزركلي (١٧١/٢)، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك (٦٢٥/١-٦٣٢).

غريب الألفاظ:

مترسلاً: يقال ترسل الرجل في كلامه ومشيه: إذا لم يعجل[١].

نحوًا: مِثْلاً[٢].

الشرح الأدبي

إن الصلاة عماد الدين: من أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين، وهى الركن العملي الأول بعد شهادة "أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله"، ويقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا﴾[٣]. ونقتبس من هذا الحديث الشريف ومضات من سنة المصطفى ﷺ ونتعلم كيف كان يصلي صلاة التهجد، وكيف كان دائم الابتهال والتضرع إلى الله عز وجل.

والمشهد الذي يرويه حذيفة بن اليمان في هذا الحديث مشهد واقعي، وليس موعظة قولية، وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تروي في حديث سابق أن النبي ﷺ: كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، وراوي الحديث مشهود له بالصدق والورع، فهو أحد الرقباء النجباء، وأحد الفقهاء أهل الفتوى، وصاحب سر رسول الله ﷺ، وفي الحديث إشارة إلى أن الصلاة هنا صلاة التهجد، لأنه قال: "ذات ليلة"، ولم يحدد فرضًا محددًا، وما أعظم هذه القدوة التي يقدمها رسول الله ﷺ في طاعته لربه، وفي مناجاته لخالقه، وفي التقرب إلى الله تعالى بالفرائض والنوافل، ويقول القاضي عياض في معرض الإشادة برسول الله ﷺ، وخوفه من ربه، وطمعه في ثوابه: وأما خوفه من ربه، وطاعته له، وشدة عبادته فعلى قدر علمه بربه: أي بمقدار معرفته بعظمته، ومَن مِن الخلق، أجمعين أعظم معرفة بالله وأكثر وأشمل محبة لله تعالى من حبيبه ومصطفاه محمد بن عبدالله.

---

(١) حاشية السيوطي على سنن النسائي ٣/ ٢٥٠ وانظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ر س ل)، ومعجم لغة الفقهاء ١٠٧، والوسيط في (ر س ل).

(٢) انظر: الوسيط ٩٠٨.

(٣) سورة النساء: ١٠٣.

ﷺ ، ويروي أبو ذر عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون))(١)، أي أبصر ما لا تبصرون من عجائب الملكوت، وأسمع ما لا تسمعون من غرائب أخبار عالم الجبروت(٢).

وفيوضات هذا الحديث تتجلى وتموج بالزهد والورع والتقوى والخشية والرهبة والأسوة الحسنة.

وحذيفة بن اليمان، يُصوِّر صلاة رسول الله ﷺ تصويرًا واقعيًا ممتزجًا بالمحبة والدهشة والتأمل، والصياغة تعتمد على التشويق، وتنبئ عن محبة حذيفة بن اليمان لرسول الله ﷺ ، فهو يصغى في خشوع إلى تلاوة رسول الله ﷺ حين افتتح بسورة البقرة، وكان الراوي صادقًا مع نفسه وشعوره حين قال، فقلت: يركع عند المائة، أي الآية المائة، لأن هذا الحد من القراءة يناسب طاقة المسلم المتهجد ذي الطاقة الإيمانية المألوفة، ولكن إيمان رسول الله ﷺ ، ومحبته لربه. لا يعلمها إلا خالقه، ولا يكافئها إلا رازقه.

ويظل: حذيفة بن اليمان، يحدث نفسه، قائلاً: ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها.

ويصف القراءة قائلاً: "يقرأ مترسلاً، أي مرتلاً بتبيين الحروف وأداء حقها، وهذه الخاصية من خصائص البيان النبوي، ومن سمات النطق عند رسول الله ﷺ ، فمن صفاته أنه كان ضليع الفم، يفتح الكلام ويختمه بأشداقه، وكان يستعمل جميع فمه إذا تكلم، ولقد كانت العرب تتمادح بسعة الفم وتذم بصغره، لأن السعة أدل على امتلاء الكلام، وتحقيق الحروف، وجهارة الأداء، وهذه الخصائص كلها تنبعث أشعتها من قوله "يقرأ مترسلاً"، ويسهب حذيفة في وصف طريقة الأداء عملاً وقولاً في صلاة رسول الله ﷺ وطريقة قراءة القرآن، فهو يسبح ويتعوذ، ويسأل: كلما قرأ آية تشع بالتسبيح والتعوذ والسؤال: وهذا يرشد إلى التفكر في آيات الله تعالى وتدبر

(١) أخرجه الترمذي ٢٣١٢، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٨٨٢).

(٢) انظر: شرح الشفا للقاضي عياض، شرح: الملا على القاري، ٣١٢/١ – ٣١٣.

معانيها، ويصف طريقة الركوع والسجود مع ما فيهما من أقوال، وهذا الحديث نموذج لمحبة النبي لربه وطاعته لخالقه، والمجاهدة الخالصة في العبادة والتقرب إلى الله تعالى.

فقه الحديث

أ- الترتيب بين السور في القراءة في الصلاة وغيرها:

قال النووي: (وقوله "ثم افتتح النساء فقرأها ثم افتتح آل عمران" قال القاضي عياض: (فيه دليل لمن يقول: إن ترتيب السور اجتهاد من المسلمين حين كتبوا المصحف وأنه لم يكن ذلك من ترتيب النبي ﷺ بل وكّله إلى أمته بعده، قال: وهذا قول مالك وجمهور العلماء واختاره القاضي أبو بكر الباقلاني، قال ابن الباقلاني: هو أصح القولين مع احتمالهما. قال: والذي نقوله: إن ترتيب السور ليس بواجب في الكتاب ولا الصلاة وفي الدرس ولا في التلقين والتعليم. وإنه لم يكن من النبي ﷺ ذلك نص ولا حدٌّ تحرم مخالفته، ولذلك اختلف ترتيب المصاحف مصحف عثمان. قال: واستجاز النبي ﷺ والأمة بعده في جميع الأعصار ترك ترتيب السور في الصلاة والدرس والتلقين قال: وأما على قول من يقول من أهل العلم أن ذلك بتوقيف من النبي ﷺ حدوه لهم كما استقر في مصحف عثمان، وإنما اختلفت المصاحف قبل أن يبلغهم التوقيف والعرض الأخير، فيتأول قراءته ﷺ النساء أولاً ثم آل عمران هنا على أنه كان قبل التوقيف والترتيب. وكانت هاتان السورتان هكذا في مصحف أبي. قال: ولا خلاف أنه يجوز للمصلي أن يقرأ في الركعة الثانية سورة قبل التي قرأها في الأولى، وإنما يكره ذلك في ركعة ولم يتلو في غير صلاة. قال: وقد أباحه بعضهم وتأول نهي السلف عن قراءة القرآن على من يقرأ من آخر السورة إلى أولها. قال:ولا خلاف أن ترتيب آيات كل سورة بتوقيف من الله تعالى على ماهي عليه الآن في المصحف، وهكذا نقلته الأمة عن نبيها ﷺ هذا آخر كلام القاضي عياض، والله أعلم)[1].

ب- الترسل في القراءة والتسبيح إذا قرأ آية فيها تسبيح سبح، والسؤال إذا مر بآية

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٢٦-٥٢٧.

فيها سؤال والتعوذ إذا مرّ بآية فيها تعوذ.

قال النووي: (وقوله "يقرأ مترسلاً إذا مر بآية فيها تسبيح سبّح، وإذا مرّ بسؤال سأل، وإذا مرّ بتعوذ تعوذ" فيه استحباب هذه الأمور لكل قارئ في الصلاة وغيرها ومذهبنا استحبابه للإمام والمأموم والمنفرد)[١].

ج- قول سبحان ربي العظيم في الركوع: وقول سبحان ربي الأعلى في السجود.

قال النووي: (قوله "ثم ركع فجعل يقول سبحان ربي العظيم وقال في السجود سبحان ربي الأعلى" فيه استحباب تكرير سبحان ربي العظيم في الركوع وسبحان ربي الأعلى في السجود، وهو مذهبنا ومذهب الأوزاعي وأبي حنيفة والكوفيين وأحمد والجمهور. وقال مالك لا يتعين ذكر الاستحباب)[٢].

د- تطويل الاعتدال عن الركوع: قال النووي: (قوله "ثم قال سمع الله لمن حمده" ثم قام طويلاً قريبًا مما ركع ثم سجد" فيه دليل لجواز التطويل عن الركوع وأصحابنا يقولون لا يجوز ويبطلون الصلاة)[٣].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على تتبع أحوال النبي ﷺ، والاقتداء به.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: آداب تلاوة القرآن الكريم.

ثالثًا: من صفات الداعية: الخشوع والخضوع لله وحمده والثناء عليه.

رابعًا: من وسائل الدعوة: التعليم.

---

(١) المرجع السابق ٥٢٧.

(٢) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٣) المرجع السابق، الصفحة نفسها، وانظر لمزيد من التفصيل: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٣٢/٢٣، ٢١٠/٢٤، ومراجعها الإكليل ٥١/١، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد النفراوي المالكي ٢٠٩/١، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، الشربيني ١٦٤/١، ١٦٥، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٤١١/٣-٤١٢.

أولاً- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة على تتبع أحوال النبي ﷺ والاقتداء به:

وذلك في قول حذيفة رضي الله عنه: "صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة..." فالنبي ﷺ قدوة وأسوة ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[1] وطاعته من طاعة الله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[2].

ومن ثم حرص الصحابة رضي الله عنهم على تتبع أحوال النبي ﷺ للاقتداء به، فعن أنس ابن مالك رضي الله عنه قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ[3].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد وهي من عوالي المدينة وكنا نتناوب النزول على رسول الله ﷺ: ينزل يومًا وأنزل يومًا، فإذا نزلتُ جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك[4].

قال ابن حجر: (وفيه أن الطالب لا يغفل عن النظر في أمر معاشه ليستعين على طلب العلم وغيره، مع أخذه بالحزم في السؤال عما يفوته يوم غيبته)[5].

وقال ابن هبيرة: (وإنما فعل ذلك لأنهما كانا يقضيان من الكسب فرضًا واجبًا، ويتعلمان من العلم فروضًا لازمة، ففعلا بحسن تدبيرهما أن يقضي هذا وقتًا في كسبه، ويخلفه هذا في تعلم العلم والإتيان بخبر الوحي، ويفعل الآخر مثل فعل صاحبه، فيقضيان الفرضين ويدركان الأمرين)[6].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: رقدت في بيت ميمونة ليلة كان النبي ﷺ عندها؛

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

(٢) سورة النساء، آية: ٨٠.

(٣) أخرجه البخاري ٥٠٦٣، ومسلم ١٤٠١.

(٤) أخرجه البخاري ٨٩، ومسلم ١٤٧٩.

(٥) فتح الباري، ابن حجر ٢٢٤/١، وانظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٩٣٣.

(٦) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ١٢٨/١.

لأنظر كيف صلاة النبي ﷺ بالليل[1].

ذكر ابن حجر من فوائد هذا الحديث أن فيه (بيان فضل ابن عباس رضي الله عنهما وقوة فهمه وحرصه على تعلم أمر الدين، وحسن تأتِّيه في ذلك)[2].

وقالت عائشة رضي الله عنها: ((أنَّ رسولَ اللَّهِ خَرَجَ في جَوْفِ الليلِ، فصلَّى في المسجدِ، فصلَّى رِجَالٌ بصلاتِهِ، فأصبحَ الناسُ يتحدَّثُونَ بذلكَ، فاجتَمعَ أَكثرُ منهمْ، فخرجَ رسولُ اللَّهِ في الليلَةِ الثَّانيةِ فصلَّى، فَصلَّوْا بصلاتِهِ، فَأَصْبَحَ الناسُ يَتذاكَرُونَ ذلكَ، فَكَثُرَ أهلُ المَسْجِدِ في الليلةِ الثالثةِ، فَخَرَجَ فَصلَّى بهِمْ، فَصلَّوْا بصلاتِهِ، فلمّا كانتِ الليلةُ الرّابعةُ عَجَزَ المسجدُ عن أهلِهِ...))[3].

أما ابن عمر رضي الله عنهما فقال عنه الزبير بن بكار: كان يحفظ ما سمع من رسول الله ﷺ ويسأل من حضر إذا غاب عن قوله وفعله، وكان يتبع آثاره في كل مسجد صلّى فيه، وكان يعترض براحلته في طريق رأى رسول الله ﷺ عرض ناقته، وكان لا يترك الحج، وكان إذا وقف بعرفة يقف في الموقف الذي وقف فيه رسول الله ﷺ[4].

فعلى المسلم أن يحرص أشد الحرص على تتبع أحوال النبي ﷺ؛ ليقتدي به في حياته وأمره كله، كما كان الصحابة رضي الله عنهم يفعلون، وهم خير القرون.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: آداب تلاوة القرآن الكريم:

وذلك في قول حذيفة: "يقرأ مترسلاً، إذا مرّ بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مرّ بسؤال سأل وإذا مرّ بتعوذ تعوذ".

فالقرآن كلام الله عز وجل، لذا كان على قارئه أن يتحلى بآداب تلاوته، التي شرعت من أجل تعظيمه وإجلاله[5]، ومن أهم هذه الآداب التدبر والتفهم، قال

---

(١) أخرجه البخاري ٧٤٥٢، ومسلم ٧٦٣.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٥٦٣/٢.

(٣) أخرجه البخاري ٩٢٤ واللفظ له، ومسلم ٧٦١.

(٤) الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني في تمييز الصحابة، ابن حجر ٨١٠.

(٥) انظر: الأذكار، يحيى بن شرف النووي١٢٧-١٣٤، والتبيان في آداب حملة القرآن، له كذلك، والبرهان في علوم القرآن: محمد بن عبدالله الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ٤٤٩/١/١-٤٦٧، والإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبدالرحمن السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم٢٩٢/١-٣١٣، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٥٠/١٣-٢٦٠.

السيوطي: (وتسن القراءة بالتدبر والتفهم، فهو المقصود الأعظم، والمطلوب الأهم، وبه تنشرح الصدور، وتستنير القلوب، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾[1] وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾[2]، وصفة ذلك أن يشغل قلبه بالتفكر في معنى ما يَلْفِظُ به، فيعرف معنى كل آية، ويتأمل الأوامر والنواهي، ويعتقد قبول ذلك، فإن كان مما قصر عنه فيما مضى اعتذر واستغفر، وإذا مرّ بآية رحمة استبشر وسأل، أو عذاب أشفق وتعوذ، أو تنزيه نزه وعظم، أو دعاء تضرع وطلب)[3].

ثالثًا- من صفات الداعية: الخشوع والخضوع لله وحمده والثناء عليه:

يستنبط ذلك من قول حذيفة رضي الله عنه: "فافتتح البقرة... إذا مرّ بآية فيها تسبيح سبّح..." ثم ركع فجعل يقول سبحان ربي العظيم... ثم قال: سمع الله لمن حمده..." فإن ذكر الله من صفات أولي الألباب: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾[4].

قال ابن هبيرة: (وفيه أيضًا من الفقه أنه إذا كان في صلاة فمرت به آية رحمة فشاء أن يسألها الله تعالى مغتنمًا ما في القرآن من مناسبة الطلب سألها، فإن القرآن وحي مجدد، وإذا مرّ به بآية فيها تسبيح الله تعالى فإنه يسبح الله بما روي في الأخبار، وليعلم أنه في مقام كريم لا يلائمه المطالب الدنيا، وإذا مرّ بآية عذاب للكافرين استعاذ بالله تعالى من مثل أن يقرأ قوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾[5]، فيقول الحديث المروي[6] وهو: ((اللّهمَّ إني ظَلَمتُ نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يَغفِرُ الذُّنوبَ إلاّ أنتَ، فاغفِرْ

(١) سورة ص، آية: ٢٩.

(٢) سورة محمد، آية: ٢٤.

(٣) الإتقان ١/٢٩٩-٣٠٠، وانظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد ٣/٩٠٩-٩١٥.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٩١.

(٥) سورة غافر، آية: ٥٥.

(٦) هكذا في المطبوع من الإفصاح، والغالب على الظن أن هناك سقطًا، ويحتمل أن يكون: "وإذا مرّ بآية عذاب استعاذ بالله تعالى من العذاب، ومثل أن يقرأ قوله عز وجل "واستغفر لذنبك" فيقول الحديث المروي ... ".

لي مَغفِرةً من عِندكَ، وارحمني إنك أنتَ الغفور الرَّحيم))[١]، ومثل أن يأتي قوله عز وجل: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾[٢]، فيقول ههنا: "اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك"، وفي مثل قوله سبحانه في ذكر تسبيحه -سبحانه وتعالى-: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾[٣]، وقد سبق أن معنى قولنا: "سبحان الله" أنه تنزيه له عز وجل عن كل ما لا يجوز عليه، ثم يقول: "وبحمده" أي وبحمده سبحتُه، ولذلك يقول: "سبحان الله العظيم". وهذا فلا أراه إلا في النافلة.

فأما الفريضة فيقصرها على أذكارها مع التفكر في كل ذكر من أذكارها، فإنها حاوية شاملة جامعة، وليكن في إنجازه بها مبادرًا الوسواس.

وفي هذا الحديث من الفقه جواز تطويل الركوع والسجود، وهذا فإنما يستحب مع أمن الضرر فيه، فإن خاف ضررًا يؤول إلى أذًى في سمعه أو بصره أو رأسه أو بدنه فلا يستحب له ذلك"[٤].

وكان ﷺ خاشعًا خاضعًا لله حامدًا إياه مثنيًا عليه حق الثناء، ومن الشواهد على ذلك ما روى عبدالله الشخير رضي الله عنه قال: "رأيت رسول الله ﷺ يصلي وفي صدره أزيز كأزيز الرحى من البكاء"[٥].

وقال ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه: كنت أبيت عند باب النبي ﷺ فأعطيه وضوءه فأسمعه الهَوِي من الليل[٦] يقول: سمع الله لمن حمده، وأسمعه الهوى من الليل يقول: الحمد لله رب العالمين[٧].

---

(١) أخرجه البخاري ٨٣٤، ومسلم ٢٧٠٥.

(٢) سورة نوح، آية: ١٢.

(٣) سورة الأنبياء، آية: ٢٠.

(٤) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٢/٢٣٧.

(٥) أخرجه أبو داود ٩٠٤ وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٧٩٩).

(٦) الهوى: الحين الطويل من الزمان، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (هـ و ا).

(٧) أخرجه الترمذي ٣٤١٦، وابن ماجه ٣٨٧٩ وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٣١٢٩).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما واصفًا صلاة النبي ﷺ في الاستسقاء: إن رسول الله ﷺ خرج متبذلاً متواضعًا متضرعًا حتى أتى المصلّى فلم يخطب خطبتكم هذه، ولكن لم يزل في الدعاء والتضرع والتكبير[(١)].

فما أجدر أن يتحلى الداعية بالخشوع والخضوع لله رب العالمين، فهذا من علامات صدق الإيمان ومن طرق النجاح في دعوته[(٢)].

رابعًا- من وسائل الدعوة: التعليم:

ويمكن أن نلحظ ذلك في قول حذيفة "يقرأ مترسلاً، إذا مرّ بآية فيها تسبيح سبح..." فقد تعلّم حذيفة هذه الآداب عن طريق فعل النبي ﷺ إياها في الصلاة.

فرأينا حذيفة رضي الله عنه يضرب لنا المثل الحي وفيما يجب أن يمتثل به التلميذ وطالب العلم من حسن استماع وتتبع لما يقوله أستاذه وما يسوقه إليه من معلومات سواء أكان ذلك بأسلوب مباشر كالتلقين أو بأسلوب غير مباشر عن طريق الممارسة العلمية، كما نجد ذلك في الحديث حيث صلى النبي ﷺ وقراءته القرآن وعمله بمقتضى الآيات من تسبيح وتحميد واستغفار ونحو ذلك.

لقد اهتم الإسلام بالعلم وتعليمه اهتمامًا لا نظير له، لذا كان التعليم أهم الأسس الفعلية التي تقوم عليها الدعوة الإسلامية.

(إن الأمة الإسلامية: إذا جاز أن تسمى بأسماء معينة توضح جوانبها وتفسر حقيقتها وتبين أهدافها، فإن من أهم الأسماء التي تبرز وتعلو وترتفع أمام الإنسان، إنها أمة العلم وأمة التربية القويمة، بل أمة الأستاذية في هذا المجال، وصدق الله العظيم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[(٣)].

وليس عجيبًا بعد ذلك، أن يعرف الإنسان، أن الإسلام قد أعلن دعوته منذ اليوم

---

(١) أخرجه الترمذي ٥٥٨، وابن ماجه ١٢٦٦ وحسنه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ١٠٤٦).

(٢) انظر: نضرة النعيم ٣/١٧٥٣-١٧٨١، ١٨٢٤-١٨٣٧، ١٩٦١-٢٠١٣.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١١٠.

الأول بل منذ اللحظة الأولى، بقوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾[(١)])[(٢)].

---

(١) سورة العلق، الآيات: ١-٥.

(٢) انظر: الدعوة إلى الله، الرسالة، الوسيلة، الهدف، د. توفيق الواعي، ص ٢١٥.

الحديث رقم (١٠٣)

١٠٣- **التاسع:** عن ابن مسعودٍ ﷺ قال: صلَّيْت مع النَبيِّ ﷺ لَيلَةً، فَأَطَالَ الْقِيامَ حتَّى[1] هَمَمْتُ أَنْ أجْلِسَ وَأدعَهُ. متفقٌ عليه[2].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

الشرح الأدبي

هذا الحديث الشريف، درس نبوي جديد في الخشوع والخضوع، ومنارة إيمانية من منارات الهدى والرشاد.. التي أضاءها بخُلُقه وعبادته المبعوث رحمة للعالمين، وراوي الدرس من الصحابة الأخيار، والكرام الأبرار، عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، صاحب المآثر الجليلة في تاريخ الدعوة الإسلامية، وهذا الدرس يعيد ذاكرتنا إلى الحديث السابق الذي يرويه، حذيفة بن اليمان رضي الله عنه؛ حيث فصل وأوضح سر التطويل في صلاة التهجد التي كان يصليها رسول الله ﷺ، حيث قرأ سورة البقرة، ثم سورة النساء، ثم سورة آل عمران، وإذا كان القرآن يفسر بعضه بعضًا، كما قال العلماء، فإن الحديث النبوي الشريف يوضح بعضه بعضًا، ويجب على المسلم أن يتأمل النصوص الحديثية المتشابهة.. والتي تدور أشعتها الهادية في فلك واحد، وقضية واحدة، فإن الأحاديث يكمل بعضها بعضا، والروايات المتعددة للحديث: من شأنها أن تزيل اللبس أحيانًا وتوضح الغموض أو التناقض الظاهري الذي ينشأ من اختلاف بعض الروايات في الألفاظ والعبارات والموازنة بين الروايات في تأنٍ ورويَّة تؤدي إلى نتائج علمية وشرعية دقيقة.

ولنتأمل ما وراء كلمات ابن سعود من معان وأدب مع رسول الله ﷺ، إنه يصف صلاة رسول الله ﷺ بقوله: فأطال القيام، والوصف ليس ناشئًا عن حكاية أو رواية، ولكنه كان مشاركًا في الصلاة: حيث يقول: "صليت مع النبي ﷺ ليلة"، وفي هذا

---

(١) عند البخاري ومسلم زيادة: (هممتُ بأمر سوء، قلنا: وما هممت؟ قال).

(٢) أخرجه البخاري (١١٣٥)، ومسلم (٢٠٤/٧٧٣). وسيكرره المؤلف برقم (١١٧٦).

إشارة وتنبيه إلى أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يشاركون رسول الله ﷺ صلاة التهجد، أحيانًا مثل حذيفة بن اليمان، وعبدالله بن مسعود، وعائشة رضي الله عنها بدليل قولها: "أحيا الليل وأيقظ أهله".

وحين يثقل القيام على ابن مسعود لطول الوقت يهم بالجلوس نظرًا لتعبه، ولكنه لا يفعل، ويظل قائمًا متحملاً المشقة، ويصف تفكيره في الجلوس بأنه أمر سوء أي فعل سيئ، أي فاسد، وقيل: كان ابن مسعود قويًا محافظًا على الاقتداء بالنبي ﷺ، وما همَّ بالقعود إلا بعد طول كثير ما اعتاده، ولم يقعد تأدبًا مع رسول الله ﷺ.

وهذه الإطالة في الصلاة قد تكون خصوصية لرسول الله ﷺ ولا يطيقها غيره، ولكنها تشير وترشد إلى ضرورة الخشوع في الصلاة، وأمارات ودلائل الخشوع متعددة وبغيرها لا تؤتى الصلاة فائدتها، ولا يجني المصلي ثمرتها، ومن هذه الدلائل -كما يقول صاحب كتاب إحياء علوم الدين- حضور القلب، والتفهم، والتعظيم والهيبة والرجاء والحياء، وحضور القلب في الصلاة المراد منه: أن يفرغ القلب عن غير ما هو ملابس له، ومتكلم به، فيكون العلم بالفعل والقول مقرونًا بهما، ولا يكون الفكر جائلاً في غيرهما، والتفهم هو اشتمال القلب على العلم بمعنى اللفظ، فالمصلى عليه استحضار بعض ما توحي به المعاني في الصلاة. لأن ذلك هو السبيل إلى التعظيم والهيبة والرجاء والحياء، وهكذا كانت صلاة رسول الله ﷺ: فهو يقرأ مترسلاً: ويسبح ويسأل ويتعوذ: ويطيل الركوع والسجود، رزقنا الله محبته ومحبة سنته.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى أكثر من حكم فقهي:

الأول: مخالفة المأموم للإمام في فعله، وأنها معدودة في الأمور السيئة، كما ذكر ابن حجر[1]، ولكن إذا شق على المقتدي القيام في فريضة أو نافلة وعجز عنه جاز له

(١) فتح الباري، ابن حجر ١٩/٣.

باتفاق العلماء القعود في الصلاة، لأن التكليف بقدر الطاقة ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها[١].

الثاني: أنه ينبغي الأدب مع الأئمة والكبار وألا يخالفوا بقول أو فعل ما لم يكن حرامًا[٢].

الثالث: تطويل صلاة الليل، ففي الحديث دليل على استحباب تطويل صلاة الليل[٣].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل قيام الليل.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: إجلال الصحابة رضي الله عنهم للنبي ﷺ.

ثالثًا: من واجبات المدعو: السؤال عما خفي عليه.

رابعًا: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل قيام الليل:

يستنبط ذلك من قول ابن مسعود رضي الله عنه: "صليت مع النبي ﷺ ليلةً...". وقد تضافرت الآيات والأحاديث على الترغيب في قيام الليل وبيان فضله؛ فمن الآيات قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾[٤] وقال تعالى في وصف المتقين: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾[٥] (أي كانوا يهجعون زمانًا قليلاً من

---

(١) المبسوط، السرخسي ٢١٨/١، والعناية للبابرتي ٣/٢، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن المغربي ٣/٢، والتاج والإكليل ٦٨/٢، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢٠١/٤، ٢٠٧، والغرر البهية ٣٠٤/١، والفروع ٤٥/٢، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين أبو الحسن علي بن سليمان المرداوي ٣٠٥/٢، والمحلى ٩٠/٣، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦١/٦.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦٣/٦، وإحكام الأحكام ٦٠/٢، والآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح والمنح المرعية ٢٥٦/٣ وما بعدها.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ١٩/٣، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦٣/٦.

(٤) سورة الإسراء، آية: ٧٩.

(٥) سورة الذاريات، آية: ١٧.

الليل، ولاشك أن هذا وصف للمتقين بأنهم عاملون مخلصون؛ فالليل وإن كان وقت راحة ونوم، فهم لا يهجعون فيه إلا قليلا، ويكابدون العبادة في أوقات الراحة والبعد عن الناس، وعند سكون النفس، وعدم اشتغالها بالدنيا)[١].

أما الأحاديث فهي كثيرة، من ذلك قول النبي ﷺ: ((أَفْضَلُ الصَّلاَةِ، بَعْدَ الْفَرِيضَةِ، صَلاَةُ اللَّيْلِ))[٢]. وقد ورد في السيرة النبوية ما يدل على حب الصحابة لقيام الليل، قال جابر بن عبدالله الأنصاري رضي الله عنهما خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة ذات الرقاع، فأصيبت امرأة من المشركين، فلما انصرف رسول الله ﷺ قافلاً، وجاء زوجها وكان غائبًا، فحلف ألا ينتهي حتى يهريق دمًا في أصحاب محمد ﷺ، فخرج يتبع أثر النبي ﷺ، فنزل النبي ﷺ منزلاً فقال: "من رجل يكلؤنا ليلتنا هذه؟" فانتدب رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار، فقالا: نحن يا رسول الله. قال: فكونوا بفم الشِّعْب قال: وكانوا نزلوا إلى شعب من الوادي.

فلما خرج الرجلان إلى فم الشعب قال الأنصاري للمهاجري: أي الليل أحب إليك أن أكفيكه: أوله أو آخره؟ قال: اكفني أوَّله. فاضطجع المهاجري، فنام وقام الأنصاري يصلي وأتى الرجل فلما رأى شخص الرجل عرف أنه ربيئة القوم[٣] فرماه بسهم فوضعه فيه فنزعه فوضعه وثبت قائمًا. ثم رماه بسهم آخر فوضعه فيه، فنزعه فوضعه، وثبت قائمًا. ثم عاد له بثالث فوضعه فيه فنزعه فوضعه ثم ركع وسجد ثم أهبَّ صاحبه[٤] فقال: اجلس فقد أُتيتُ، فوثب. فلما رآهما الرجل عرف أن قد نذروا به[٥] فهرب، فلما رأى المهاجري ما بالأنصاري من الدماء قال: سبحان الله ألا أهببتني قال: كنت في سورة أقرؤها فلم أحب أن أقطعها حتى

---

(١) التفسير الواضح، مج٣/٢٧/٨٦-٨٧.

(٢) أخرجه مسلم ١١٦٣.

(٣) الربيئة: العين والطليعة الذي ينظر للقوم، لئلا يدهمهم عدو. النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٣٣٨.

(٤) أي: أيقظه. حاشية السندي على مسند أحمد بن حنبل ٥٣/٢٣.

(٥) أي: علموا وأحسوا بمكانه. النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٩٠٩.

أنفذها، فلما تابع الرمي ركعت فأريْتُك، وايم الله لولا أن أضيِّع ثغرًا أمرني رسول الله ﷺ بحفظه، لقطع نفسي قبل أن أقطعها أو أنفذها[(١)].

قال العز بن عبدالسلام: (أسباب قيام الليل مخافة أو رجاء أو محبة أو مهابة مانعة من النوم، وكذلك تتجافى جنوبهم عن المضاجع، فمن لم يكن عنده شيء من ذلك ثقل عليه قيام الليل)[(٢)].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: إجلال الصحابة للنبي ﷺ:

يستنبط ذلك من قول عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: "حتى هممت بأمر سوء" قال النووي: (فيه أنه ينبغي الأدب مع الأئمة والكبار، وأن لا يخالفوا بفعل وقول ما لم يكن حرامًا، واتفق العلماء على أنه إذا شق على المقتدي في فريضةٍ أو نافلةٍ القيامُ وعجز عنه جاز له القعود وإنما لم يقعد ابن مسعود للتأدب مع النبي ﷺ)[(٣)].

وقد ورد في القرآن الأمر لأصحاب النبي ﷺ بتبجيله وإجلاله، من ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾[(٤)] فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا حدّث النبي ﷺ حدّثه كأخي السرار لم يُسمعه حتى يستفهمه[(٥)].

وقال عمرو بن العاص رضي الله عنه: ((وَمَا كَانَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَا أَجَلَّ فِي عَيْنِي مِنْهُ، وَمَا كُنْتُ أُطِيقُ أَنْ أَمْلأَ عَيْنَيَّ مِنْهُ، إِجْلَالاً لَهُ، وَلَوْ سُئِلْتُ أَنْ أَصِفَهُ مَا أَطَقْتُ، لأَنِّي لَمْ أَكُنْ أَمْلأُ عَيْنَيَّ مِنْهُ))[(٦)].

---

(١) أخرجه ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام ٢١٨/٣-٢١٩ ومن طريقه أبو داود ١٩٨، وأحمد في المسند ١٤٧٠٤/٢٣، وابن خزيمة ٣٦ والدارقطني ٢٢٣/١-٢٢٤ والحاكم ١٥١/١-١٥٧، والبيهقي في السنن ١٤٠/١، ١٥٠/٩، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ١٨٢).

(٢) شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال، ٣١٥.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٢٧.

(٤) سورة الحجرات، آية: ٢.

(٥) أخرجه البخاري ٤٨٤٥، ٧٣٠٢.

(٦) أخرجه مسلم (١٢١).

فالصحابة رضوان الله عليهم كانوا محبين للنبي ﷺ مجلّين له، وهم خير القرون والقدوة لغيرهم(١).

قال القاضي عياض: "واعلم أن حرمة النبي ﷺ بعد موته وتوقيره وتعظيمه لازم كما كان حال حياته، وذلك عند ذكره ﷺ وذكر حديثه وسنته، وسماع اسمه وسيرته ومعاملة آله وعترته، وتعظيم أهل بيته وصحابته"(٢).

ثالثًا- من واجبات المدعو: السؤال عما خفي عليه:

وذلك في سؤال أصحاب ابن مسعود رضي الله عنه: "وما هممت به؟" قال ابن حجر: (وفيه تنبيه على فائدة معرفة ما بينهم من الأحوال وغيرها، لأن أصحاب ابن مسعود ما عرفوا مراده من قوله: "هممت بأمر سوء" حتى استفهموه عنه، ولم ينكر عليهم استفهامهم عن ذلك)(٣).

ومن مواقف السيرة التي تدل على ذلك: سؤال الحباب بن المنذر رضي الله عنه رسول الله ﷺ يوم بدر عن منزله الذي نزله فقال: ((يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل أمنزلاً أنزلكه الله، ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال، بل هو الرأي والحرب والمكيدة))(٤).

إن من أكبر أبواب العلم، وأعظم أسبابه: السؤال عما يخفى على الإنسان، وقد أمر الله تعالى من وقف عليه شيء أو لم يكن له سابق علم بالسؤال عما يجهل والاستيضاح عما يشكل، قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(٥).

قال السعدي: (وهذه الآية وإن كان سببها خاصًا بالسؤال عن حالة الرسل

---

(١) انظر: حياة الصحابة: محمد يوسف الكاندهلوي ١٣٨٤هـ ص ٤٥٠ وما بعدها.

(٢) الشفا ٢/٤٠٢، وانظر: أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، نخبة من العلماء ص ١٧٦.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ٣/٢٤.

(٤) أخرجه ابن إسحاق في السيرة ٢/٢٧٢ بإسناد منقطع، وانظر: الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ٢٤٤ ترجمة الحباب رضي الله عنه.

(٥) سورة الأنبياء، آية: ٧.

المتقدمين من أهل الذكر، وهم أهل العلم، فإنها عامة في كل مسألة من مسائل الدين، أصوله وفروعه، إذا لم يكن عند الإنسان علم منها، أن يسأل من يعلمها، ففيه الأمر بالتعلم والسؤال لأهل العلم، ولم يُؤمر بسؤالهم، إلا لأنه يجب عليهم التعليم والإجابة عما علموه.

وفي تخصيص السؤال بأهل الذكر والعلم، نهيٌ عن سؤال المعروف بالجهل وعدم العلم، ونهيٌ له أن يتصدى لذلك)[1].

رابعًا- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

من الأساليب الدعوية المفيدة التي تثري العملية الدعوية، وتعمل على تجلية موضوعات الدعوة، أسلوب السؤال والجواب، حيث تكون الفرصة مواتية للمدعو أن يسأل عما خفي عليه، أو ما احتاج إلى مزيد بيان وإيضاح فيه، فيتمكن الداعية من الإجابة التي تلبي حاجة نفس المدعو.

وفي هذا الحديث الذي نحن بصدده ورد السؤال لابن مسعود رضي الله عنه حيث قيل له: "وما هممت به؟". فأجاب رضي الله عنه: "هممت أن أجلس وأدعه".

إن أسلوب السؤال والجواب من الأساليب الرئيسة في تبليغ الدعوة إلى الناس وتأثيرها فيهم، (وما أكثر الأساليب الحوارية والاستجوابية التي انتهجها الرسول صلى الله عليه وسلم مع أصحابه رضي الله عنهم حين كان يدعوهم إلى الله ويربيهم التربية المثلى، ومن ذلك: ما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أتدرون من المفلس؟ قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا، فيعطي هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه، أخذ من خطاياهم، فطرحت عليه ثم طرح في النار)[2].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٤٦٨.

(٢) أخرجه مسلم ٢٥٨١.

وما هذا الأسلوب الحواري الذي انتهجه نبينا محمد ﷺ مع من يلتقي بهم ويدعوهم إلا ليثير انتباههم ويحرك فطنتهم وذكائهم، ويذهب مللهم وسآمتهم، ويصب في مشاعر أحاسيسهم معين المعرفة وسلسبيل الهدى[1].

(١) صفات الداعية، د. حمد بن ناصر العمار، ص ٩٧.

الحديث رقم (١٠٤)

١٠٤- العاشر: عن أنس رضي الله عنه عن رسول اللهِ ﷺ قال: «**يتْبعُ الميْتَ ثلاثَةٌ: أهلُهُ ومالُه وعملُه، فيرْجِع اثنانِ ويبْقى واحِدٌ:** [(١)] **يرجعُ أهلُهُ ومالُهُ، ويبقَى عملُهُ**» متفقٌ عليه[(٢)].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

الشرح الأدبي

إن رحلة الإنسان في هذه الحياة تظل متوزعة بين ثلاثة دوائر، حيث تتحرك اهتمامات الإنسان، وحيث تتجه مناشطه وأهواؤه ومنازعه، وهذه الدوائر أجملها البيان النبوي في الأهل والمال والعمل، وكل دائرة من هذه الدوائر الحياتية تتضمن ضروبًا من التفكير.. والنشاط... والتخطيط والإعداد: تفني عمر الإنسان، وتحصد أيامه.

وبمقدار ما أرشد القرآن الكريم والرسول ﷺ إلى العناية بالأهل.. وحسن رعايتهم، بما فيهم الزوجة والأبناء .. وكل من يعولهم المسلم، وكذلك أولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض، بمقدار ما حذر من فتنة الأولاد، لأنهم يكونون أحيانًا من أسباب الغفلة واللهو ونسيان العبادة، كما قال الله عز وجل عن المنافقين: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾[(٣)]، وقال الله سبحانه: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾[(٤)]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[(٥)].

---

(١) لفظ البخاري ويبقى معه واحد، وعنده وعند مسلم زيادة بعد ذلك: "يتبعه أهله وماله وعمله".

(٢) أخرجه البخاري (٦٥١٤)، ومسلم (٥/٢٩٦٠) ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه (٤٧٢٧).

(٣) سورة الفتح، آية: ١١.

(٤) سورة التغابن، آية: ١٤.

(٥) سورة التغابن، آية: ١٥.

والمال من أعظم مظاهر الافتتان بعرض الدنيا، ومن أخطر الأبواب التي تغري الإنسان بالولوج إلى عوالم الغرور والإغراء. والجحود، والمسلم يطهر ماله بالصدقة، ويحصنه بالزكاة وفي أموالهم حق معلوم: للسائل والمحروم.

والعمل الصالح هو الميزان الحقيقي الذي يضبط حركة الحياة، وهو المقياس الصحيح في رعاية الأهل وحسن تنشئة الأبناء، والمداومة على صلة الرحم وذوي القربى.

وفي ظل هذه المعاني المشرقات تتحرك كلمات هذا الحديث الشريف، وتسبح أطياف معانيه الباهرات، وتنطلق أصداء إشعاعاته الراشدات الهاديات.

ولنتأمل المشهد الأخير في كتاب الحياة: حيث يصوره الحديث الشريف وكأنه مشاهد أمامنا.

وهو مشهد يتكرر ملايين المرات بقدر عدد الموتى إلى يوم الدين، وما أجمل هذا التشخيص الذي لجأ إليه المصطفى ﷺ، فالأهل والمال والعمل، كلهم متساوون في الحركة والتبعية، وهم يشاركون في جنازة الميت، وهم يشاهدون جميعًا ساعة الدفن، والميت يوارى في ظلام القبر، وكأن المال كائن حي يتحرك ويسمع ويعي، ويستحضر: كيف جمعه صاحبه؟، وفيم أنفقه؟، وأين ركزه؟ ولماذا كنزه؟ والمفارقة التي تتشكل من عناصرها حياة الإنسان تتجسد في هذا المشهد الأخير، فالأهل الذين ضيَّع الميت حياته من أجلهم، وخاض غمار الحياة، وخلط العمل الصالح بالآخر السيئ ويتمتعون بما تركه من إرث ويتركون الميت وحيدًا في ظلام القبور! والمال كذلك لا يدفن مع صاحبه ولكن يرجع ليستقر في أيدي الآخرين من الورثة وغيرهم، والتعبير بالفعل "يرجع" له دلالته التي تنبه كل إنسان، وترشده إلى مصيره، وبأن المال عرض زائل يصاحب الأحياء ولا يصحبهم إلى قبورهم بعد الموت، وقد تكرر الفعل "يرجع" مرتين لتأكيد معنى زواله عن صاحبه، وتكرر الفعل "يبقى" مرتين لتأكيد بقاء العمل: وهو ما يقدمه الإنسان في حياته من سلوك طيب وفعل حسن، وحرص على اكتساب المال من مصدر حلال، واتقاء الله تعالى في رعاية الأهل، فبالعمل الصالح ينجو الإنسان ويفوز بالجنة.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار، والتفصيل بعد الإجمال.

ثانيًا: من واجبات الداعية: بيان الحقائق للمدعوين.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الحث على تحسين العمل.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: مجاهدة النفس.

أولاً- من أساليب الدعوة: الأخبار، والتفصيل بعد الإجمال:

أ- **الإخبار:** ويتبين ذلك في الحديث من خلال إخبار النبي ﷺ بما سيحدث للميت من اتباع أهله وماله وعمله له، ويرجع الكل باستثناء عمله، وذلك الإخبار يجعل المدعو على بينة من أمره، وبصيرة من أحواله، فيصحح أوضاعه ويحاسب نفسه ويعقد مصالحة مع ربه، ويتزود بالعمل الصالح، ويستعد لهذا الأجل المحتوم واليوم الذي سيلقى فيه ربه.

ب- **التفصيل بعد الإجمال:** فالرسول ﷺ أجمل في الحديث ما يتبع الميت بقوله "يتبع الميت ثلاثة"، ثم فصل بقوله: "أهله وماله وعمله"، أجمل في قوله "فيرجع اثنان ويبقى واحد" ثم فصل ذلك على سبيل الاستئناف البياني ((يرجع أهله وماله ويبقى عمله)) ليكون أقر في النفس وأمكن لأنها يجيئها التفصيل وقد اشتاقت إليه)[1].

ثانيًا: من واجبات الداعية: بيان الحقائق للمدعوين:

إن من أهم واجبات الداعي أن يُبيّن الحقائق للمدعوين؛ حتى تكون الفرصة سانحة لهم لاستدراك ما فاتهم، والاستعداد لهذا اليوم، ففي الحديث بيّن الرسول ﷺ ما يحدث للميت بعد موته من انصراف كل شيء عنه إلا عمله وما قدمت يداه (فالإنسان إذا مات تبعه المشيعون له من أهل وولد، وما أعجب الدنيا وأخسها وما أدناها، يتولى دفن الإنسان مَنْ هو أحب الناس إليه، ثم ما يلبث ويرجع تاركًا له بلا أنس، ولا يبقى معه إلا عمله ينفرد به إلى يوم القيامة)[2].

---

(١) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان، ص ٢٣٣.

(٢) انظر: شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين، ٣٢٨/١.

وفي هذا الحديث دليل على أن الدنيا - كل زينة الحياة الدنيا ترجع، ولا تبقى معك في قبرك، المال والبنون زينة الحياة الدنيا ترجع، من الذي يبقى؟ فقط العمل، فعليك يا أخي أن تحرص على الصاحب الذي يبقى ولا ينصرف مع من ينصرف، وعليك أن تجتهد حتى يكون عملك عملاً صالحًا يؤنسك في قبرك إذا انفردت به عن الأحباب والأهل والأولاد.

كما أن فيه حث على تحسين الإنسان العمل؛ ليكون أنيسًا له بعد الموت، وأن العاقل يُعِدُّ للآخرة، ويُؤثر أمورها على الدنيا، كما يحمل الحديث في طياته الدعوة إلى عدم التعلق الشديد بالدنيا[(١)].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: الحث على تحسين العمل:

يستنبط من هذا الحديث الدعوة إلى تحسين العمل ليكون أنيس الإنسان في قبره، فإن كان صالحًا فنعم الأنيس، وإن كان غير ذلك فبئس الجليس، وقد جاء هذا المعنى في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه الطويل في صفة المسألة في القبر، وفيه "إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة... ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح، فيقول أبشر بالذي يسرك هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير فيقول أنا عملك الصالح".

وقال في حق غير المؤمن ((وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ (الْوُجُوهِ) مَعَهُمُ الْمُسُوحُ حتى يَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ» «ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولَ: يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ أُخْرُجِي إِلَى سَخَطِ اللَّهِ وَغَضَبِهِ، قَالَ: فَتَفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ، قَالَ: فَتَخْرُجُ فَيَنْقَطِعُ مَعَهَا الْعُرُوقُ وَالْعَصَبُ، كَمَا تُنْزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَيَأْخُذُوهَا فَإِذَا أَخَذُوهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حتى يَأْخُذُوهَا، فَيَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ، فَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا فَلاَ يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلإٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلاَّ قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ ابْنُ فُلَانٍ، بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي

---

(١) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم، ص ١٠٢.

كَانَ يُسَمَّىٰ بهَا فِي الدُّنْيَا حتى ينْتَهَي بهَا إلى سَمَاءِ الدُّنْيَا فَيَسْتَفْتِحُونَ فَلاَ يُفْتَحُ لَهُ»؛ثم قرأ رسول الله ﷺ: «﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾[1]» قال: «فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي سِجِّين فِي الأَرْضِ السُّفْلَى وَأَعِيدُوهُ إِلَى الأَرْضِ فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا» قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ «﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[2]» قال: «فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ وَيَأْتِيهِ الْمَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولاَنِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هاها، لاَ أَدْرِي، فَيَقُولاَنِ لَهُ: وَمَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هاها لاَ أَدْرِي، قَالَ: فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: افْرُشُوا لَهُ مِنَ النَّارِ وَأَلْبِسُوهُ مِنَ النَّارِ وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ، قَالَ: فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ عَلَيْهِ أَضْلاَعَهُ وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ وَقَبِيحُ الثِّيَابِ مُنْتِنُ الرِّيحِ فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ الَّذِي يَجِيءُ بِالشَّرِّ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ))[3].

فالأهل والمال نفعهم قاصر على الحياة الدنيا، وفي الآخرة وعقب الموت يجد الإنسان نفسه وحيدًا فريدًا لا أنيس يؤنسه ولا صاحب يواسيه ويسليه إلا عمله وما قدمت يداه، فليحرص على تحسين عمله، والتزود بصالح الأعمال.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: مجاهدة النفس:

ففي الحديث إشارة من النبي ﷺ أن عمل الإنسان هو الباقي له، وذلك في قوله ﷺ: (يتبع الميت ثلاثة: أهله وماله وعمله، فيرجع اثنان، ويبقى واحد، يرجع أهله وماله ويبقى عمله)، وذلك دعوة إلى طلب العمل الصالح وهذا يوجب مجاهدة النفس، بأن يشتغل المرء بامتثال الأوامر واجتناب المنهيات، فإذا أمر بأمر، أو نهي عنه فيتعين عليه

---

(١) سورة الأعراف، آية: ٤٠.

(٢) سورة الحج، آية: ٣١.

(٣) أخرجه أحمد ٢٨٧/٤، ٢٨٨، رقم ١٨٥٣٤، وقال محققو المسند: إسناده صحيح ٥٠٣/٣٠.

الاعتناء به والاهتمام في فهمه والوقوف على معانيه يعبد ربه على بينة من أمره، وأن يبذل قصارى جهده في الاجتهاد في فعل ما يستطيعه من الأوامر واجتناب ما ينهى عنه، ويصرف همته إلى ذلك لا يدع لنفسه ثغرة أو مدخلاً يتسرب إليه منها السآمة أو الملل.

ويتذكر أنه لن يأخذ من الدنيا شيئًا، ولا يخرج منها بشيء إلا بعمله، فإذا نسيت أيها الإنسان الموت وشناعته والفراق وصعوبته، وغرتك الحياة الدنيا ونعيمها، فتذكر من سبقك بها، وتلذذ بها، وغره نعيمها، وخدعه حسنها. هل خلد فيها، هل دامت له؟ هل ذهب بشيء؟ تذكر موتهم ومصارعهم تحت التراب، تذكر صورهم وكيف أخذهم الموت من مناصبهم وأحوالهم، وكيف محا التراب محاسن صورهم، وكيف تبددت أجزاؤهم في قبورهم، وكيف رملوا نساءهم، ويتموا أولادهم، وضيعوا أموالهم، وخلت منهم مساجدهم ومجالسهم، وانقطعت آثارهم، وقد كانوا يؤملون في طول العيش والبقاء، ونسوا أنهم زرع الفناء.

ركنوا إلى قوة الشباب، ومالوا إلى الضحك واللهو، وغفلوا عن الموت وأهواله، والقبر وأحواله، فإذا هم بعد القوة تهدمت أرجلهم، وبعد النطق أكل الدود ألسنتهم، وبعد الضحك أكل التراب أسنانهم، تذكر الموت قبل أن تندم فلا يفيدك ندمك، وقبل أن تزل قدمك، ويسلمك أهله وخدمك، ويفارقك حبيبك وقريبك، ويتخلى عنك ولدك ونسيبك، فلا أنت للدنيا عائد، ولا في حسناتك زائد، فاعمل ليوم القيامة قبل الحسرة والندامة[1].

إن هذه المعاني تجعل المؤمن يحرص أشد الحرص على مجاهدة نفسه والاستعداد للقاء الله بالعمل الصالح، والإيمان الصادق والتوبة النصوح.

إن جهاد النفس مقدَّم على غيره، وأصل له، فإذا لم يجاهد الإنسان نفسه أولاً لتفعل ما أُمرت به وتترك ما نهيت عنه ويحاربها في الله، لم يمكنه جهاد عدوه في الخارج، فكيف يمكنه جهاد عدوه والانتصاف منه، وعدوه الذي بين جنبيه قاهر له، متسلط عليه، لم يجاهده ولم يحاربه في الله، بل لا يمكنه الخروج إلى عدوه حتى

(١) كتاب "الله" أهل الثناء والمجد، د. ناصر بن مسفر الزهراني، ص ٥٩٥.

يجاهد نفسه على الخروج.

وجهاد النفس أربع مراتب:

إحداها: أن يجاهدها على تعلم الهدى، ودين الحق الذي لا فلاح لها، ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به، ومتى فاتها علمه، شقيت في الدارين.

الثانية: أن يجاهدها على العمل به بعد علمه، وإلا فمجرد العلم بلا علم إن لم يضرها لم ينفعها.

الثالثة: أن يجاهدها على الدعوة إليه، وتعليمه من لا يعلمه وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبينات، ولا ينفعه علمه، ولا ينجيه من عذاب الله.

الرابعة: أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله، وأذى الخلق، ويتحمل ذلك كله لله، فإذا استكمل هذه المراتب الأربع، صار من الربانيين، فإن السلف مجمعون على أن العالِمَ لا يستحق أن يُسمى ربانيًا حتى يعرف الحق، ويعمل به، ويعلمه، فمن علم وعمل وعلَّم فذاك يُدعى عظيمًا في ملكوت السماوات[1].

(١) انظر: زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية، ٣/٥-١٠.

الحديث رقم (١٠٥)

١٠٥- **الحادي عشر**: عن ابن مسعودٍ رضي الله عنه قال: قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**الجنة أقَربُ إلى أَحدِكُم مِنْ شِراكِ نَعْلِهِ، والنَّارُ مِثْلُ ذلِكَ**» رواه البخاري[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

غريب الألفاظ:

شراك نعله: سير النعل على ظهر القدم[2].

الشرح الأدبي

إن المصطفى صلى الله عليه وسلم في خطابه لأمته حريص عليها، وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم.

ومن دلائل هذه الحرص على مصلحة كل فرد في هذه الأمة إرشادهم إلى صلاح دينهم ودنياهم، وإلى طرق النجاة من مزالق الدنيا وأبواب جهنم، والفوز بالحسنى في الآخرة وبجنة عرضها السموات والأرض: أعدت للمتقين.

ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث النبوي الموجز، إنه قليل الكلمات كثير المعاني، ليس في ألفاظه غموض، ولكنه عميق الدلالة، دقيق الإشارة، فائق العبارة.

فأي ترغيب للمؤمن أجمل من هذا التشويق إلى الجنة؟ وإلى تلمس الطريق إلى الفوز بها، وأي وضوح أكثر إشراقًا من هذا التعبير "الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله".

وهذا التعبير من قبيل الكناية: وهو كناية عن القرب واليسر، ووجه الأقربية أن يسيرًا من الطاعة قد يكون سببًا في دخول الجنة، ومثله من المعصية يكون سببًا في،

---

(١) برقم (٦٤٨٨). أورده المنذري في ترغيبه (٤٩٠٦).

(٢) الوسيط في (ش ر ك).

والكناية من أبدع المسالك البيانية، والطرق الأسلوبية التي يعبر بها المنشئ عن المعنى تعبيرًا هادفًا موجزًا يخفي تحت ظلاله لطائف مراده[١].

وربما يتساءل البعض: ما سر إدراج هذا الحديث في باب المجاهدة؟، وإجابة السؤال تكشف عن الأسرار الكامنة في قلب كلمات هذا الحديث الشريف: لأن المجاهدة لا تكون بالمبالغة في العبادة فقط، ولكنها تكون أكثر ما تكون في مجاهدة النفس، ومجاهدة الوساوس، ومجاهدة الإحساس بعدم جدوى بعض الأعمال، ومجاهدة الخواطر التي تنأى بالإنسان عن طريق العمل الصالح، ونحن نقتبس من الحديث كثيرًا من الومضات الراشدة، وفي مقدمتها أنه لا ينبغي للمرء ألا يزهد في قليل من الخير أن يأتيه، ولا في قليل من الشر أن يجتنبه، فإنه لا يعلم الحسنة التي يرحمه الله تعالى بها، ولا السيئة التي يسخط عليه بها، وأشار بعض العلماء إلى سر آخر من أسرار هذا التعبير المجازى لقرب الجنة، وقرب النار فقال: أراد قرب الجنة لمن كان كافرًا فأسلم، وقرب النار لمن عكس ذلك[٢]. وهذا التفسير ليس هو المراد فقط من بلاغة الرسول ﷺ في الحديث، وإنما هو من المعاني والدروس المستفادة من هذا البيان النبوي البليغ.

والمعجم اللغوي هنا مشتق من البيئة، وقريب من الفهم، وهو لا يستعصى على فهم الآخرين، وإنما يفهمه كل من يسمعه، ولذلك جاء الخطاب عامًا غير محدد بفئة في قوله: "الجنة أقرب إلى أحدكم"، وما أروع الإيجاز في هذا البيان النبوي البليغ، فالناس جميعًا في كل زمان وفي كل مكان لا يخرجون عن أحد الطريقين، إما طريق الجنة، أو طريق النار، فتأمل كيف أوجز المصطفى ﷺ مصير كل هذه الملايين من الأمم المتعاقبة في هذه الكلمات القليلة المشعة بالدلالات العظيمة والجميلة، وتأمل هذا التبشير الفياض بالترغيب في جنة عرضها السموات والأرض، والترهيب من نار لا تبقي لا تذر، ولم يصرح بلفظ القرب في سياق الحديث عن النار للإيحاء بالتنفير والكراهة والترهيب.

---

(١) انظر: الحديث النبوي: من الوجهة البلاغية، د. عز الدين السيد، ص ١٦٦

(٢) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان، ١/٢٧٢ - ٢٧٣.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الطاعة موصلة إلى الجنة، والمعصية مقربة إلى النار.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: عدم احتقار القليل من الخير أو احتقار القليل من الشر.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: الجزاء من جنس العمل.

سادسًا: من مهام الداعي: حسن العرض للدعوة.

أولاً- من أساليب الدعوة الإخبار:

يتضح ذلك في الحديث من إخبار النبي ﷺ بقرب الجنة والنار، وسهولة الوصول إليهما، وأن أقل العمل الصالح موصل إلى الجنة، وأن القليل من العمل السيئ قد يكون سببًا في تردي صاحبه في النار، فقال ﷺ: "الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك؛ حيث أخبر النبي ﷺ أن الجنة والنار قريبتان من الإنسان، وأنهما أقرب إليه من شراك نعله، وأسلوب الإخبار هنا جاء مناسبًا جدًا، وذلك لأن النبي ﷺ يقرر حقائق ثابتة ليس المجال هنا مجال إثبات وتدليل لأن هذا مقرر مسلم به، وإنما المقام هنا ترغيب وتحذير، أي مقام عمل وامتثال لا تدليل وبرهان، كل هذا ليرغب في عمل الجنة، ويحذر من عمل أهل النار؛ لأن من مهام الداعي بيان الحقائق للمدعوين وإخبارهم بها، وتصحيح المفاهيم الخاطئة، ويُثمر عن ذلك تحفيز الهمم وشد الأرز، والدفع إلى طاعة الله واجتناب معاصيه". وذلك من أهم الأمور الواجبة المنوطة بالداعية ومهمته؛ إذ أن الإعلام بدين الله تعالى وإخبار الناس به ودعوتهم إليه فريضة مستمرة ينهض بها العلماء، ويضطلع بأعبائها المسلمون في تكاتف وتعاون يجعل من عملهم استمرارًا لعمل رسول الله ﷺ وجهاده في سبيل الدعوة[1]، التي أذن الله باكتمالها

(١) مشكلات الدعوة والدعاة، د. محمد حسين الذهبي، مطابع دار الشعب، بدون ذكر رقم الطبعة وتاريخها، القاهرة، ص ٩.

وأوجب إبلاغها للناس، قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[(١)].

إن الإسلام ليس ملكًا لنا، وإنما هو أمانة الله في أعناقنا، ومن الوفاء بالأمانة تبليغها وإعلام الناس بها، فالإعلام بشرع الله ودينه إلى الناس كافة أمانة عظيمة، والمسلمون جميعًا -خاصة الدعاة إلى الله- مطالبون بالوفاء بهذه الأمانة وتأديتها على الوجه الذي يرضي الله سبحانه وتعالى)[(٢)].

ثانيًا- من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب:

حيث ورد ذلك في قوله ﷺ: "الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله" فشراك النعل قريب جدًا من الإنسان، ويضرب به المثل في القرب، وترهيبًا في الجملة الثانية "والنار مثل ذلك" وذلك أن الإنسان ربما يتكلم الكلمة الواحدة من رضوان الله تعالى فتكون سببًا في دخول الجنة، وربما يتكلم الكلمة لا يلقي لها بالاً وهي من سخط الله، فتكون سبب في أن يهوى في نار جهنم[(٣)]. وكما جاء في صريح قوله ﷺ: ((إنَّ العبدَ ليتكلمُ بالكلمة من رِضوانِ اللهِ لا يُلقي لها بالاً يرفعُه اللهُ بها درجات، وإن العبدَ ليتكلمَ بالكلمة من سَخَط الله لا يُلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم))[(٤)].

ولما كان للترغيب والترهيب من أثر بالغ في استجابة النفوس واستقامتها كان أهم وأعظم أساليب الدعوة إلى الله تعالى، إذ أن (النفس لا ترغب إلا فيما فيه سعادتها وصلاح أمرها، وما جاء به الشرع الحنيف كله - بعد الإقرار بالوحدانية وصدق الرسول ﷺ- لا يعدو أن يكون ترغيبًا في الخيرات وترهيبًا من المعاصي والموبقات، وثمرة ذلك حثُّ المؤمن على الرغبة فيما عند الله تعالى والرهبة من عقابه)[(٥)].

---

(١) سورة المائدة، آية: ٣.

(٢) انظر: وظيفة الإخبار في سورة الأنعام، د. سيد محمد ساداتي الشنقيطي، ص ١٠١-١٠٦.

(٣) شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين، ٣٢٩/١.

(٤) أخرجه البخاري ٦٤٧٨، ومسلم ٢٩٨٨.

(٥) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ، د. صالح بن عبدالله بن حميدة وآخرون، ٢١٢٧/٦.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: الطاعة موصلة إلى الجنة والمعصية مقربة إلى النار:

وشبه ﷺ قربهما بقرب شراك النعل من الإنسان، فقال "الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله وكذلك النار" فطلبهما ليس صعب المنال، وليس هناك من المشقة ما يحول بين الإنسان وبين مصيره، قال ابن مالك: ووجه الأقربية أن يسير الطاعة قد يكون سببًا لدخول الجنة ومثله من المعصية في النار، وقال السعد الكازوروني في شرح المشارق: أراد قرب الجنة لمن كان كافرًا فأسلم، وقرب النار لمن عكس، وكذا لمن أتى الكبائر[1].

وقال ابن بطال: وفي الحديث أن الطاعة موصلة إلى الجنة وأن المعصية مقربة إلى النار، وأن الطاعة و المعصية قد تكون في أيسر الأشياء، فينبغي للمرء أن لا يزهد في قليل من الخير أن يأتيه ولا في قليل من الشر أن يجتنبه؛ فإنه لا يعلم الحسنة التي يرحمه الله بها، ولا السيئة التي يسخط عليه بها، وقال ابن الجوزي: معنى الحديث أن تحصيل الجنة سهل بتصحيح القصد وفعل الطاعة، والنار كذلك بموافقة الهوى وفعل المعصية[2].

فهذا الحديث يتضمن ترغيبًا وترهيبًا، يتضمن ترغيبًا في الجملة الأولى، وهو قوله: "الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله"، وشراك النعل هو السير الذي يكون على ظهر القدم، وهو قريب من الإنسان جدًا ويضرب به المثل في القرب، وذلك لأنه قد تكون الكلمة الوحدة سببًا في دخول الجنة، فقد يتكلم الإنسان بالكلمة الواحدة من رضوان الله عز وجل لا يظن أنها تبلغ ما بلغت، فإذا هي توصله إلى جنة النعيم.

ومع ذلك فإن الحديث أعم من هذا، فإن كثرة الطاعات واجتناب المحرمات من أسباب دخول الجنة، وهو يسير على من يسره الله عليه، فأنت تجد المؤمن الذي شرح الله تعالى صدره للإسلام يصلي براحة وطمأنينة وانشراح صدر ومحبة للصلاة، ويزكي كذلك، ويصوم كذلك، ويحج كذلك، ويفعل الخير كذلك، فهو يسير عليه سهل

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان، ص ٢٣٣.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ٣٢٩/١١.

قريب منه، وتجده يتجنب ما حرمه الله تعالى عليه من الأقوال والأفعال وهو يسير عليه.

وأما -والعياذ بالله- من قد ضاق بالإسلام ذرعًا، وصار الإسلام ثقيلاً عليه، فإنه يستثقل الطاعات، ويستثقل اجتناب المحرمات، ولا تصير الجنة أقرب إليه من شراك نعله.

وكذلك النار، وهي الجملة الثانية في الحديث وهي التي فيها التحذير، يقول النبي ﷺ: (والنار مثل ذلك)، أي أقرب إلى أحدنا من شراك نعله، فإن الإنسان ربما يتكلم بالكلمة لا يلقى لها بالاً وهي من سخط الله فيهوي بها في النار كذا وكذا من السنين، وهو لا يدري وما أكثر الكلمات التي يتكلم بها الإنسان غير مبال بها، وغير مهتم بمدلولها، فترديه في نار جهنم، نسأل الله العافية[1].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: عدم احتقار القليل من الخير أو احتقار القليل من الشر:

إن فعل الطاعات من أسباب دخول الجنة كما أنّ فعل المعاصي واقتراف الذنوب يكون سبباً في دخول النار، ومن ثم كان على المدعو ألا يزهد في قليل الطاعة، ولا يستهين بالقليل من الشر، وهذا ما يبيّنه الحديث. قال ابن حجر: (قال ابن بطال: فيه أن الطاعة موصلة إلى الجنة وأن المعصية مقربة إلى النار، وأن الطاعة والمعصية قد تكون في أيسر الأشياء... فينبغي للمرء ألا يزهد في قليل من الخير أن يأتيه ولا في قليل من الشر أن يجتنبه، فإنه لا يعلم الحسنة التي يرحمه الله بها ولا السيئة التي يسخط عليه بها)[2].

وجاء هذا الحديث في صحيح ابن حبان تحت عنوان: "ذكر الإخبار عما يجب على المرء من ترك استحقاره اليسير من الطاعات والقليل من الجنايات"[3].

قال المناوي: (قيل: وجه الأقربية أن يسيراً من الخير قد يكون سبباً لدخول الجنة وقليلاً من المنكر قد يكون سبباً للنار. فينبغي الرغبة في كل أسباب الجنة وتجنب

---

(١) شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين ١/٣٢٩.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ١١/٣٢٩.

(٣) صحيح ابن حبان ٦٦١.

جميع أسباب النار، وعلى هذا فالقرب معنوي وإلا فالجنة فوق السماوات السبع قال تعالى: ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ (١) وثبت أن سدرة المنتهى فوق السماء)(٢).

ويمكن الاستئناس في هذا الموضع بحديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن العبد ليتكلم بكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم"(٣).

قال ابن حجر: قال ابن عبدالبر(٤): (الكلمة التي يهوى صاحبها بسببها في النار هي التي يقولها عند السلطان الجائر وزاد ابن بطال: بالبغي أو بالسعي على المسلم فتكون سبباً لهلاكه وإن لم يرد القائل ذلك لكنها ربما أدت إلى ذلك فيكتب على القائل إثمها. والكلمة التي ترفع بها الدرجات ويكتب بها الرضوان هي التي يدفع بها عن المسلم مظلمة أو يفرج بها عنه كربة أو ينصر بها مظلومًا)(٥).

خامسًا- من موضوعات الدعوة: الجزاء من جنس العمل:

إن من حكمة الشرع أن جعل الجزاء من جنس العمل، فمن عمل خيراً وجد الخير، ومن عمل الشر وجده، وهذا واضح من الحديث. قال ابن هبيرة: (في هذا الحديث من الفقه تمكين الله عز وجل عبده من العمل للجنة والنار، وأنه في حالة قرب من الدارين،

---

(١) سورة النجم، الآيتان: ١٤، ١٥.

(٢) فيض القدير ٣٦٠/٣.

(٣) أخرجه البخاري، ٦٤٧٨، واللفظ له ومسلم، ٢٩٨٨، مختصراً.

(٤) التمهيد ٣٩٧/٢٣ موسوعة شروح الموطأ، ونص كلامه: "أنها الكلمة عند السلطان الجائر الظالم ليرضيه بها فيما يُسخط الله عز وجل، ويزين له باطلاً يريده من إراقة دم أو ظلم مسلم ونحو ذلك مما ينحط به في حبل هواه، فيبعد من الله وينال سخطه؛ وكذلك الكلمة التي يرضى بها الله عز وجل عند السلطان الجائر، ليصرفه عن هواه ويكفه عن معصية يريدها، يبلغ بها أيضاً من الله رضواناً لا يحسبه".

(٥) فتح الباري، ٣١٧/١١، وقد ذكر ابن حجر أقوالاً أخرى لعلماء آخرين فلتنظر وينظر كذلك شرح مسلم، ٧١٧.

فإن أطاع الله فالجنة أقرب إليه من شراك نعله، وإن عصى الله تعالى فالنار أقرب إليه من شراك نعله)[١].

قال ابن حجر: (قال ابن الجوزي: معنى الحديث أن تحصيل الجنة سهل بتصحيح القصد وفعل الطاعة والنار كذلك بموافقة الهوى وفعل المعصية)[٢].

وقال الطيبي: (ضرب العرب مثلاً بالشراك[٣]، لأن سبب حصول الثواب والعقاب، إنما هو بسعي العبد ويجري السعي بالأقدام، وكل من عمل خيراً استحق الجنة بوعده، ومن عمل شراً استحق النار بوعيده، وما وعد وأوعد منجزان فكأنهما حاصلان)[٤].

وقال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾[٥].

قال القرطبي: (المعنى إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ليجزي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته. وقيل: هي لام العاقبة "أي في ليجزي": أي ولله ما في السموات وما في الأرض. أي وعاقبة أمر الخلق أن يكون منهم مسيء ومحسن، فللمسيء السوءى وهي جهنم، وللمحسن الحسنى وهي الجنة")[٦].

وقال النبي ﷺ: ((حُفَّتِ النَّارُ بالشَّهَوَاتِ، وَحُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ))[٧].

قال ابن حجر: (وقوله "حفت" من الحفاف وهو ما يحيط بالشيء حتى لا يتوصل إليه

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٨٩/٢.

(٢) فتح الباري، ٣٢٩/١١.

(٣) وقد نقل الطيبي قول ابن الأثير في النهاية: الشراك أحد سيور النعل التي تكون على وجهها. النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٤٧٧.

(٤) شرح الطيبي على المشكاة ١٢٣/٥-١٢٤.

(٥) سورة النجم، آية: ٣١.

(٦) الجامع لأحكام القرآن، ١٧/٩/ ١٠٥-١٠٦، بتصرف يسير. وانظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٢٠/٢٧.

(٧) أخرجه البخاري ٦٤٨٧، ومسلم ٢٨٢٢ واللفظ له.

إلا بتخطيه، فالجنة لا يتوصل إليها إلا بقطع مفاوز المكاره والنار لا ينجي منها إلا بترك الشهوات)[(١)].

سادسًا- من مهام الداعية: حسن العرض للدعوة:

ففي الحديث نجد أن الرسول ﷺ قدم ما يتعلق بالجنة على ذكر ما يتعلق بالنار، جذبًا للنفوس وتأليفًا للقلوب، وهذا المنهج واضح أيضًا في غالب آيات القرآن، يقدم الجنة على النار ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُۥ ۝ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُۥ ۝ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾[(٢)] يقدم المغفرة على العقوبة ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾[(٣)]، يقدم الخير على الشر ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[(٤)] فينبغي على الداعي أن ينحو هذا المنحى تأليفًا للقلوب ورغبة في نشر الدعوة، فإن الحديث إذا بدأ بالخير سكن إليه القلب وأقبلت عليه النفس ويُعد ذلك لونًا من ألوان حسن عرض الدعوة وترغيب المدعوين.

إن حسن العرض يجعل ما يقوله الداعية يستقر في نفوسهم، ويتغلغل في سلوكهم وحياتهم اليومية، دون شعور بالكلفة أو العناء.

إن القيم الخيرة -عامة- لا تُفرض على الناس فرضًا، لكنها تجذبهم إليها جذبًا، فيتمثلونها، ويضحون في سبيلها عن طيب خاطر وخضوع تام، وجاذبية الداعية تكمن في التكامل بين جوانب شخصيته وأسلوبه وموضوعه، والظرف الذي يتحدث فيه وشعور الناس بالحاجة والارتياح لما يقال[(٥)].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٣٢٨/١١.

(٢) سورة القارعة، الآيات: ٦-١١.

(٣) سورة غافر، آية: ٣.

(٤) سورة الزلزلة، الآيتان: ٧، ٨.

(٥) انظر: مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي، د. عبدالكريم بكار، د. عبد الكريم بكار، ص ١٥٧.

الحديث رقم (١٠٦)

١٠٦- **الثاني عشر:** عن أبي فِراس رَبيعةَ بنِ كَعْبٍ الأسْلَمِيِّ خادِمِ رسولِ اللَّهِ ﷺ، ومِنْ أَهْلِ الصُّفَّةِ رضي الله عنه قال: كُنْتُ أبيتُ مع رسول اللَّه ﷺ، فآتيهِ بوَضوئِهِ، وحاجتِهِ فقال: «**سلْني**»[١] فقلْتُ: أسْألُكَ مُرافقتَكَ في الجنَّةِ. فقالَ: «**أوَ غيْرَ ذلِكَ؟**» قُلْتُ: أسْألُكَ مُرافقتَكَ في الجنَّةِ. فقالَ: «أوَ غيْرَ ذلِكَ[٢]؟» قُلْتُ: هو ذاك. قال: «**فأَعِنِّي على نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السجُودِ**» رواه مسلم[٣].

ترجمة الراوي:

ربيعة بن كعب الأسلمي: وهو أبي فراس بن كعب الأسلمي.

كان من أهل الصُفّة، خدم النبي ﷺ، وكان يلزم رسول الله ﷺ في السفر والحضر، وصَحِبه قديمًا، وعُمِّر بعده، ونزل بعد موته في بلاد أسلم على بريدٍ من المدينة، وبقي إلى أيام الحرة.

وله في الكتب حديثًا واحدًا، يسأل فيه النبي ﷺ مرافقته في الجنة، وتوفي بالحرة، سنة ٦٣هـ من ذي الحجة[٤].

غريب الألفاظ:

أهل الصفة: الصفة مكان مُظلل في مسجد رسول الله ﷺ في المدينة المنورة، إبان العصر النبوي بعد الهجرة يأوى إليه فقراء المهاجرين ينامون فيه[٥].

---

(١) لفظ مسلم: (سَلْ).

(٢) عند مسلم مرّة واحدة فقط، وقد ورد مكررًا عند البيهقي في السنن الكبرى (٤٨٦/٢).

(٣) برقم (٤٨٩/٢٢٦). أورده المنذري في ترغيبه (٥٥٢).

(٤) الطبقات، ابن سعد ٣٧٦/٢، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر ٢٣٢، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير ٢٦٨/٢-٢٦٩، الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ٤٠٤، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي ٤٧٣/٢، تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٦٠٠/١.

(٥) أطلس الحديث النبوي، د. شوقي أبو خليل ٢٣٧.

وضوئه: الماء الذي يتوضأ به [١].

الشرح الأدبي

ما أجمل ذلك الحوار الإنساني بين الرسول ﷺ وخادمه، ربيعة بن كعب الأسلمي، إنه حوار توجيهي إرشادي، يتعلم منه المسلمون وغيرهم كيفية معاملة العامل والأجير والخادم، وهذا سلوك حضاري يرسى قاعدته رسول الله ﷺ ولقد وضع عليه الصلاة والسلام دستورًا كريمًا في معاملة العمال، ورعايتهم والسهر على مصالحهم، والتكافل معهم بكل الطرق التي تدفعهم إلى العمل بإخلاص ودقة، وطلب مساعدتهم فيما يشق عليهم بقدر المستطاع أيا كانت منزلتهم في مختلف طبقاتهم دون استعلاء عليهم ولا تعاظم: إذ يقول: "إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يطعم، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم"[٢].

والحوار هنا يتسم بالعطف والرعاية من جانب الرسول ﷺ لخادمه، ويتسم كذلك بالصدق والسمو في طلب المكافأة والأجر من جانب ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه.

والعطف بالفاء في جمل الحديث المتتابعة يوحي بحرص كل من المتحاورين على إرضاء الآخر حبًا ومودة واحترامًا : ويبدأ الحوار من جانب رسول الله ﷺ ليكافئ خادمه على إخلاصه وصدقه فيقول له: "سلني" وفعل الأمر هنا ليس على حقيقته : لأن الرسول ﷺ، يريد أن يكافئه فطلب منه أن يحدد ما يريد من أجر أو عطاء، وتأتي إجابة ربيعة على غير ما يتوقع السامع، فهو لم يطلب درهمًا ولا دينارًا، وإنما تسامى في طلبه، واتسعت أمنياته، وتجاوزت أفق الأجر المادي إلى أفق أعلى من الرغبات، وهو أفق صحبة رسول الله ﷺ ومرافقته في الجنة مثلما كان يرافقه في الدنيا، وتحديد لفظ

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (و ض أ).

(٢) أخرجه البخاري ٣٠، ومسلم ١٦٦١.

المرافقة فيه إيحاء بالقرب فهو كناية عن الاقتراب من رسول الله ﷺ في الجنة، ولذلك لم يقل أكون معك، وزيادة في الأنس والاطمئنان والحرص على تلبية رغبة ربيعة ابن كعب يعاود الرسول ﷺ الحوار فيقول: "أو غير ذلك" وهذا ليس ضنًا بالمطلب السابق، ولكنه الحرص على ذلك الخادم المحب: لأن مرافقة رسول الله ﷺ تحتاج إلى مجاهدة ومشقة... وعبادة متواصلة.

وفي التعبير إيجاز بالحذف والتقدير أترجع عن سؤالك هذا لأنه مُشقٌ لا تطيقه وتسأل غيره.

والتعبير باسم الإشارة ذلك يوحي بأن هذا المطلب عزيز وبعيد المنال ... ولا ينال بالعمل اليسير.

ويدرك: ربيعة مغزى محاورة الرسول ﷺ له، ويصر على مطلبه الأسمى، ورجائه الأعلى، ولا يغير منه شيئًا، ويقول: هو ذاك، واسم الإشارة هنا للقريب: وفيه إيحاء بأن الأمر يسير وأن ربيعة سيتحمل كل التبعات والتكاليف حبًا في مرافقة رسول الله ﷺ، ويستجيب الرسول له، ولا يعده وعدًا مجردًا من العمل: ولكن يفتح أمامه سبيل الوصول لهذه المرتبة فيقول في بلاغة ومحبة وصدق "أعني على نفسك بكثرة السجود".

فقه الحديث

فيه دليل على أن السجود أفضل من القيام[1] وسيأتي تفصيل المسألة في الحديث التالي (١٠٧).

(١) نيل الأوطار ٩٢/٣.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم وتفانيهم في خدمة الرسول ﷺ.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: كرم وسخاء الرسول ﷺ.

ثالثًا: من صفات المدعو: التطلع إلى معالي الأمور.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: جهاد النفس.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: الحث على التقرب إلى الله تعالى بالأعمال الصالحة.

أولاً- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم وتفانيهم في خدمة الرسول ﷺ

يتضح ذلك من خلال قول خادم رسول الله ﷺ، وهو: أبو فراس ربيعة بن كعب الأسلمي: "كنت أبيت مع رسول الله ﷺ" أي: "على باب بيته لأداء خدمته"[1]، ومن قوله "فآتيه بوضوئه وحاجته" إذ أنه لم يوجد على وجه البسيطة مَنْ أحبه أصحابهُ مثل ما أحب الصحابةُ رسول الله ﷺ، هذا الحب دفعهم دفعًا إلى أن يحرصوا على خدمته متفانين فيها، ومنهم راوي هذا الحديث أبو فراس ربيعة بن كعب الأسلمي، فكان من الملازمين لخدمة رسول الله ﷺ.

وإذا كان الله تعالى قد أراد بأصحاب رسول الله ﷺ خيرًا، بأن يسّر لهم صحبته وخدمته ورعاية حقوقه، فإن ذلك لا ينقطع بوفاته ﷺ، فالقيام بحقه والتأدب معه قائم إلى قيام الساعة من محبته ودفاع عن سنته ونشر لدعوته، (فمن الأدب معه ﷺ محبته وتقديم ذلك على محبة الناس أجمعين حتى النفس والولد والوالد، ومن الأدب معه تعظيمه بغير غلو، وتعظيم سنته وامتثال أمره وخفض الصوت عند قبره ﷺ وسماع سنته، وتصديق فيما أخبر واجتناب ما نهى عنه وزجر، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع، والاعتقاد الكامل بأن هديه أكمل الهدي، وأن الشرع الحنيف أكمل الشرائع، والاعتقاد بأنه بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده حتى

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان، ص ٢٣٤.

أتاه اليقين، والدفاع عن شريعة الإسلام، وعن هديه ﷺ بكل القوى الممكنة من الحجج والبراهين والأدلة والمال والعلم والمال وغير ذلك، وعدم السكوت عمن انتقص شخصيته الكريمة أو سلوكه القويم أو شريعته السمحة وعدم تقديم قول أحد من المخلوقين أو فعله على قوله ﷺ)[١].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: كرم وسخاء الرسول ﷺ:

ويتجلى ذلك في قوله ﷺ لأبي فراس ربيعة بن كعب: "سلني" على إطلاقها بما تحتويه الكلمة من إطلاق وعموم لجميع مطالب الدنيا والآخرة، الحسية والمعنوية، وذلك إرادة منه ﷺ في مكافئته على خدمته، فهو ﷺ أكرم الخلق وأجودهم القائل: ((مَن صَنَعَ إِلَيْكُم مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فإِنْ لَم تَجِدُوا ما تُكَافِئُوا بِهِ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُم قَدْ كَافَأْتُمُوهُ))[٢] فدل ذلك على أفضلية الكرم والجود والاعتراف بالجميل والثناء عليه، كل ذلك وغيره من الصفات الحسنة التي ينبغي للداعية أن يتجمل بها، وأن تكون سجية له مما يكون له بالغ الأثر في تأليف قلوب المدعوين وقبولهم لدعوته، وأن يتأسى في ذلك برسول الله ﷺ.

لقد كان ﷺ قدوة في الجود والكرم والسخاء وغير ذلك من الأخلاق الحميدة لا يُوازى ولا يُبارى، وصفه بهذا كل من عرفه، روي عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أنه قال: ((مَا سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا قَطُّ فَقَالَ: لاَ))[٣].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ بِالْخَيْرِ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ. وكان إذا لقيه جبريلُ عليه السلام أَجْوَدَ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ))[٤].

---

(١) انظر: موسوعة الآداب الإسلامية، عبدالله بن محمد المعتاز، ص ١٨، ١٩.

(٢) أخرجه أبو داود ١٦٧٢، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ١٤٦٨).

(٣) أخرجه البخاري ٦٠٣٤، ومسلم ٢٣١١.

(٤) أخرجه البخاري ٥، ومسلم ٢٣٠٨.

وقالت خديجة رضي الله عنها في صفته ﷺ مخاطبة له: ((وتحملُ الكَلَّ، وتَكْسِبُ المَعْدومَ))(١).

لقد أوتي نبينا ﷺ خزائن الأرض، ومفاتيح البلاد، وأُحلت له الغنائم، وفتح عليه في حياته بلاد الحجاز واليمن وجميع جزيرة العرب، وما دانى ذلك من الشام والعراق، وجُلب إليه كثير من أخماسها وجزيتها وصدقاتها، وأهدى إليه، فما استأثر بشيء منه، ولا أمسك منه درهمًا، بل صرفه مصارفه، وأغنى به غيره، وقوى به المسلمين، وقال: ((مَا يَسُرُّنِي أَنَّ لِي أُحُدًا ذَهَبًا. تَأْتِي عَلَيَّ ثَالِثَةٌ وَعِنْدِي مِنْهُ دِينَارٌ. إِلاَّ دِينَارٌ أُرْصِدُهُ لِدَيْنٍ عَلَيَّ))(٢).

وأتته دنانير فقسّمها، وبقيت منها بقية فدفعها لبعض نسائه، فلم يأخذه نوم حتى قام فقسمها، ومات ودرعه مرهونة في نفقة عياله(٣)، واقتصر في نفقته وملبسه ومسكنه على ما تدعوه ضرورته إليه، وزهد فيما سواه، فكان يلبس ما وجده، فيلبس في الغالب الشملة والكساء الخشن، والبُرد الغليظ، ويقسم على من حضره أقبية الديباج المخوصة بالذهب، ويرفع لمن لم يحضره، فأنت ترى رسول الله ﷺ حاز فضيلة المال بالزهد فيه وإنفاقه على مستحقيه(٤).

ثالثًا- من المدعو: التطلع إلى معالي الأمور:

ونرى ذلك ونلمسه في قول أبي فراس لرسول الله ﷺ "أسألك مرافقتك في الجنة" فمع أن النبي ﷺ حباه بقوله "سلني" على إطلاقها الذي يشمل حوائج الدنيا والآخرة إلا أنه لم يُلقِ لحوائج الدنيا بالاً، وتطلع إلى الآخرة، وأنه لم يكتف بمجرد طلب دخول الجنة وإنما طلب أجمل ما فيها، وهو مرافقة رسول الله ﷺ، دفعه إلى ذلك ما غرسه النبي ﷺ في نفوس الصحابة من توجيه أنظارهم وأفئدهم إلى معالي الأمور، من هذه

---

(١) أخرجه البخاري ٣، ومسلم ١٦٠.

(٢) أخرجه البخاري ٦٤٤٤ ومسلم ٩٤.

(٣) أخرجه البخاري ٢٩١٦.

(٤) انظر: نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، محمد الخضري، ص ٢٧٢ – ٢٧٥.

التوجيهات قوله ﷺ ((في الجنةِ مائةَ درجةٍ أعدَّها الله للمجاهدينَ في سَبيلِ الله ما بينَ الدرجتين كما بينَ السماء والأرض فإذا سألتمُ اللهَ فاسألوهُ الفِردَوسَ فإنهُ أوْسَطُ الجنة وأعلى الجنة))[1].

إن التطلع إلى الأفضل ومعالي الأمور وعلو الهمة من الأخلاق الرفيعة والغايات النبيلة، قال ابن الجوزي: (فينبغي للعاقل أن ينتهي إلى غاية ما يمكنه، فلو كان يتصور للآدمي صعود السماوات لرأيت من أقبح النقص رضاه بالأرض، ولو كانت النبوة تحصل بالاجتهاد رأيت المقصر في تحصيلها في حضيض، غير إنه إذا لم يمكن ذلك فينبغي أن يطلب الممكن. والسيرة الجميلة عند الحكماء خروج النفس إلى غاية كمالها الممكن لها في العلم والعمل)[2].

(إن الإسلام دين العزة والكرامة، ودين السمو والارتفاع، ودين الجد والاجتهاد، فليس دين ذلة ومسكنة، ولا دين كسل وخمول ودعة.

ولذلك فالإسلام يحض على علو الهمة، ويحث المسلمين على التحلي بهذا الخلق، ويوجههم إلى طرق اكتسابه، ويحرص على تربيتهم عليه، ويبين لهم جميع الطرق الموصلة إليه)[3].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: جهاد النفس:

يستنبط ذلك من قول الرسول ﷺ "أعني على نفسك" إذ أن النفس البشرية ليست سهلة الطاعة والانقياد، وإنما تحتاج إلى جهاد هو من أعلى مراتب الجهاد وأشار إلى ذلك ابن القيم ذاكرًا مراتب جهاد النفس بأنها أربع:

إحداها: أن يجاهدها على التعلم، ثانيها: أن يجاهدها على العمل به، ثالثها: أن يجاهدها على الدعوة إليه، رابعها: أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله،

---

(١) أخرجه البخاري ٧٤٢٣.

(٢) صيد الخاطر، ابن الجوزي، تحقيق: عبدالقادر عطا ٣٣٥.

(٣) الهمة العالية: معوقاتها ومقوماتها، محمد بن إبراهيم الحمد، ص ١١٩.

فإن استكملها صار من الربانيين)[(١)].

إن من كياسة الإنسان وفطنته أن يجاهد نفسه، وأن يحاسبها، ولا يترك لها الحبل على الغارب فتورده موارد التهلكة ومواطن الشرور، والإسلام عندما يأمر بمجاهدة النفس إنما يريد تكوينًا صالحًا للفرد وبناء فاضلاً للمجتمع وتغتمر السعادة وتنتظم أفراده المحبة والأخوة والوئام.

إنها تربية الإسلام المجيدة، التي تعتني بالفرد، تعتني بسلوكه وأخلاقه، تعتني بنزعاته ورغباته، بميوله واتجاهاته، فتوجهه الوجهة الصالحة، التي تكفل له السعادة في الدنيا، والراحة في الآخرة، وتجعل منه عضوًا نافعًا في المجتمع، وإنسانًا مثاليًا يعيش بين إخوانه وأقرانه عيشة الشرفاء، الذين يعرفون ما لهم وما عليهم، فلا يظلمون ولا يعتدون... ولا يحاولون أن يسلكوا الطريق الملتوية التي يزينها لهم الشيطان!!

والناس في تعاملهم مع نفوسهم ينقسمون إلى صنفين اثنين:

أولهما: صنف عرف غاية وجوده في هذه الحياة، فجدّ واجتهد وكافح وناضل، وحاسب نفسه على ما قدمت من أعمال، فزجرها عن الشر ودفع بها نحو الخير وسما بها إلى درجات الكمال.. وهذا الصنف من البشر هم الصفوة، هم الأخيار الأطهار، هم "العقلاء" الذي أدركوا سر هذه الحياة، فتزودوا من دنياهم لآخرتهم، ووقفوا عند حدود الله، فكفوا جوارحهم عن الآثام والموبقات، وابتعدوا عن المحرمات والشهوات، ونظروا إلى الدنيا نظرة البصير العاقل، الواعي المتدبر، الذي لم تؤثر فيه عواصف المدنية الهوجاء، ولا أساليبها الماكرة الخادعة. وهناك مَنْ أدركوا حقارة الدنيا الفانية، فأقبلوا على الآخرة بصدق إخلاص، وإيمان ويقين، وأجهدوا أنفسهم في طاعة الله تعالى، فكانوا من السعداء الأبرار!

والصنف الآخر هم الذين أخطأوا الفهم الصحيح للحياة... ولم يدركوا سر وجودهم فيها فساروا مع أهوائهم، وعاشوا لشهواتهم، وظنوا الحياة خالدة لهم، فلم يعرفوا من الدنيا إلى التمتع باللذائذ والشهوات، ولم يدركوا منها إلا كما يدرك الحيوان الأعجم

---

(١) انظر: زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية ٣/١٠.

من العيش في سبيل الطعام، والشراب، والشهوة ولسان حالهم يقول:

إنما الدنيا طعام وشراب ومنام

فإذا ما فات هذا فعلى الدنيا السلام

إنهم (عبيد) البطون، و(عبيد) الشهوات، الذين أصبح لهم نسب عريق مع البهائم والحيوانات ﴿ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾(١)... وصدق الله: ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾(٢).

هؤلاء هم الذين يسيرون مع أهوائهم، لا يفكرون في حساب ولا عقاب، ثم يطمعون في رحمة الله تعالى مع أنهم لم يقدموا لآخرتهم شيئًا. لقد عاشوا لشهواتهم، وعاشوا لبطونهم، لا يعرفون سرًا للحياة إلا التمتع بشهواتها الفانية غير مفكرين بمستقبل أو مصير. وهؤلاء -لعمر الحق- هم الخاسرون النادمون، الذين فرطوا في جنب الله، فأساءوا إلى أنفسهم وأوردوها موارد الهلكة... فيا لهم من بلهاء، ويا لهم من أناس مغفلين!!(٣).

خامسًا- من موضوعات الدعوة: الحث على التقرب إلى الله تعالى بالأعمال الصالحة:

إن الإكثار من التقرب إلى الله تعالى بالأعمال الصالحة مطلب عظيم، وقد أمر به النبيُّ ﷺ في قوله: "أعني على نفسك بكثرة السجود" أي الصلاة ليزداد من القرب ورفعة الدرجات حتى يقرب من منزلته وإن لم يساوه فيها، ولا يُعترض هذا بقول النبي ﷺ فيما رواه حذيفة ليلة الأحزاب ((ألا رجل يأتيني بخبر القوم الله معي يوم القيامة))(٤) لأن هذا مثل قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾(٥) لأن هذه المعية

---

(١) سورة محمد، آية: ١٢.

(٢) سورة الفرقان، آية: ٤٤.

(٣) من كنوز السنة، محمد علي الصابوني، ص ١٤١ - ١٤٢.

(٤) أخرجه مسلم ١٧٨٨.

(٥) سورة النساء، آية: ٦٩.

هي النجاة من النار، والفوز بالجنة، إلا أن أهل الجنة على مراتبهم ومنازلهم بحسب أعمالهم وأحوالهم)[١].

وإنما كان السجود والإكثار منه يرتفع بصاحبه إلى تلك الدرجات العلا، لأن (السجود غاية التواضع والعبودية لله تعالى وفيه تمكين أعز أعضاء الإنسان وأعلاها، وهو: وجهه من التراب الذي يداس ويمتهن) [٢].

والأمر بكثرة السجود في الحديث موافق لمثل قول الله عز وجل ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ أي صَلِّ لله، فالسجود يُعبِّر به عن الصلاة، واقترب أي تقرب إلى الله جل ثناؤه بالطاعة والعبادة، وإذا سجدت فاقترب من الله بالدعاء، إذ أن أقرب ما يكون الإنسان لربه وهو ساجد قال العلماء: وإنما كان ذلك لأنها نهاية العبودية والذلة، ولله غاية العزة وله العزة التي لا مقدار لها فكلما بَعُدتَ من صفته قربت من جنته ودنوت من جواره في داره لله در القائل:

وإذا تـــذللت الرقـــاب تواضـــعًا منـــا إليـــك فعزهـــا في ذلهـــا[٣]

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، ٢/٩٤.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٣٨٨.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢٨/٢٠/١٠.

الحديث رقم (١٠٧)

١٠٧- **الثالث عشر:** عن أبي عبد الله ويُقَالُ: أبُو عبْدِ الرَّحمنِ ثَوْبانَ موْلى رسولِ اللَّهِ ﷺ قال: سمِعْتُ رسولَ اللَّه ﷺ يقول: «**عليكَ بكَثْرةِ السُّجُودِ**[١]، **فإنَّكَ لَنْ**[٢] **تَسْجُدُ للَّهِ سجْدَةً إلاَّ رفَعكَ اللَّهُ بِهَا درجةً، وحطَّ عنْكَ بِهَا خَطِيئَةً**» رواه مسلم[٣].

ترجمة الراوي:

ثوبان بن بُجْدُدٍ: هو أبو عبدالله، مولى رسول الله ﷺ، سُبِيَ من أرض الحجاز فاشتراهُ النبي ﷺ وأعتقه، فلزم النبي ﷺ، وصَحِبَه وحفظ عنهُ كثيرًا من العلم، وطال عُمره، واشتهر ذِكْرُه.

وأصله من أهل السَّراة، وهي: موضع بين مكة واليمن، وقيل من حمير من اليمن.

وكان لا يسألُ أحدًا شيئًا، بعد أن سمع النبي ﷺ يقول: ((من تكفلَ أنْ لا يسأل أحدًا شيئًا فأتكفل لهُ بالجنة)) فقال له أنا يا رسول الله[٤] وقد روى عن النبي ﷺ جُلَّة أحاديث بلغت ١٢٨ حديثًا.

وبعد أن توفي النبي ﷺ خرج ثوبان رضي الله عنه إلى الشام، فنزل الرّملة (في فلسطين) وابتنى بها دارًا، ثم انتقل إلى حمص فابتنى فيها دارًا وتوفي بها سنة ٥٤هـ[٥].

---

(١) عند مسلم زيادة: (لله).

(٢) لفظ مسلم: (لا).

(٣) برقم (٤٨٨/٢٢٥). أورده المنذري في ترغيبه (٥٤٩).

(٤) أخرجه أحمد ٢٧٥/٥ رقم ٢٢٣٦٦، وقال محققو المسند: حديث صحيح ٥٠/٣٧.

(٥) الطبقات، ابن سعد (٤٠٠/٧)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر (١٠٨)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ١٦٢، وسير أعلام النبلاء، الذهبي (١٥/٣-١٨)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير (٤٨٠/١-٤٨١)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي (٤١٨/١)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٢٧٦/١)، والأعلام، الزركلي (١٠٢/٢)، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك (٥٤٧/١-٥٤٨).

غريب الألفاظ:

الدرجة: المنزلة[١].

حَطَّ عنك خطيئة: وضعها وأنزلها[٢].

الشرح الأدبي

إن الصلاة لوقتها من أحب الأعمال إلى الله عز وجل، وإن السجود من علامات الخشوع والخضوع، فهو مظهر من مظاهر الانقياد والتسليم، والمحبة والتعظيم.

والحديث الشريف هنا يضع علامات الهدى والرشاد أمام المؤمن وهو سائر في طريق الطاعة والمجاهدة، وثوبان مولى رسول الله ﷺ يروي ما سمعه، وهو مثل أنس بن مالك وربيعة الأسلمي... وغيرهم من الذين كانوا يَشْرُفُون بخدمة النبي ﷺ يقدمون القدوة الحسنة: حيث لا يقتصر عملهم على أداء واجباتهم المنوطة بهم تجاه رسول الله ﷺ ولكنهم من الصحابة، ويقومون بدورهم في رواية أحاديث رسول الله ﷺ، خدمة للدعوة.

وكان ثوبان رضي الله عنه يوضح بعض المسائل للناس حين يسأل عن مسألة أو أمر ما، ومن خلال ما سمعه من رسول الله ﷺ كان يجيب ويوضح، وهذا الحديث شاهد على ذلك، فقد روى: أن معدان بن طلحة قال: أتيت ثوبان: فقلت: أخبرني بعمل أعمل به يدخلني الله به الجنة، أو قال: بأحب الأعمال إلى الله، فسكت، ثم سأله فسكت، ثم سأله الثالثة، فقال: سألت عن ذلك رسول الله ﷺ فقال عليك بكثرة السجود...[٣] الحديث.

والحديث يبدأ: بقوله: "عليك" وهو اسم فعل بمعنى خذ وهو يفيد الوجوب والإلزام، وكاف الخطاب تفيد التحديد والمسؤولية الشخصية عن العمل المؤدي، والتعبير بـ"على"

---

(١) اللسان والوسيط في (د ر ج).

(٢) اللسان والوسيط في (ح ط ط).

(٣) أخرجه مسلم ٤٨٨.

يرشد إلى تحمل المسؤولية كذلك، ودلالة اللفظ ووظيفته يرشدان أن الأمر والوجوب، و"كثرة السجود" تعبير يوحي بأن الكثرة في السجود مع الإخلاص والإتقان ضرورة للمؤمن، وطريق لخلاصه من الأوضار والذنوب، وقوله بكثرة السجود: أبلغ وأدل على المراد من التعبير بقوله: بالسجود الكثير، وثمرة كثرة السجود تصاغ في أسلوب القصر.، ويتصدر الجملة التأكيد المصحوب بكاف الخطاب، إنك، والقصر هنا أداته: النفي والاستثناء، وتتوهج هذه الجملة بكثير من البشارات والثواب المضاعف، فإنك لن تسجد لله: سجدة إلا رفعك الله بها درجة، وحط عنك بها خطيئة.

وقوله: "لله" فيه توجيه وإرشاد إلى أن السجود لا يكون لا لله عز وجل، خالصًا متقنًا، لا يشوبه نفاق أو رياء أو شرك، وقوله سجدة بالإفراد يرشد إلى مضاعفة الثواب، لأنه أمر بكثرة السجود ومع كل سجدة واحدة يرفع الله المؤمن درجة، ويحط عنه خطيئة، وترغيبًا في الثواب والأجر، وضمانًا له يحدد الرسول ﷺ مانح الدرجة وهو الله عز وجل، والممنوح له وهو الساجد حيث قال: "رفعك" محددًا كاف الخطاب، وحدد مصدر وسبب المنح، وهو السجدة في قوله: بها: أي بسببها: والبديع في الأسلوب يضفي عليه بهاءً وزينة وزخرفًا وجلاء للمعنى من خلال المقابلة بين الموقفين والمقامين: مقام الإكرام والإثابة: ورفع الدرجة، ومقام الغفران والصفح حيث يحط عنه خطيئة مع كل سجدة، وللسجود فضائل لا تحصى، ويرى أن عليًا بن عبدالله بن عباس كان يسجد في كل يوم ألف سجدة، وكان عمر بن عبدالعزيز لا يسجد إلا على التراب، وقال سعيد بن جبير رضي الله عنه: "ما آسى على شيء في الدنيا إلا على السجود".

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم السجود، وأنه من أعظم القربات إلى الله تعالى، ولذا فقد اختلف الفقهاء هل التطويل في القراءة في النفل أفضل أم كثرة السجود أفضل على ثلاثة أقوال:

القول الأول: ذهب جمهور الفقهاء من الحنفية[١] والمالكية في قول[٢]، والشافعية في الأصح[٣] والحنابلة في وجه[٤] إلى أن التطويل في القراءة والقيام أفضل من كثرة الركوع والسجود في صلاة النفل لفعله ﷺ.

القول الثاني: ذهب محمد بن الحسن في رواية نقلت عنه[٥] والمالكية في قول هو الأظهر[٦] والحنابلة[٧] والشافعية في وجه[٨] إلى أن كثرة السجود أفضل مستدلين بهذا الحديث.

القول الثالث: هما سواء، وروي هذا عن جماعة.

وتوقف الإمام أحمد في المسألة ولم يقض فيها بشيء[٩].

قال ابن حجر[١٠]: والذي يظهر أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص والأحوال.

---

(١) المبسوط، السرخسي ١/١٥٨، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني ١/٢٩٥، وأحكام القرآن للجصاص ١/٢٦، ٣/٣١١، وشرح معاني الآثار ١/٢٨٣.

(٢) شرح الخرشي ٢/١٦، وحاشية الدسوقي ١/٣١٩، وبلغة السالك ١/٤١٤.

(٣) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٣/٢٤٠، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري ١/١٥٦، ٢٠٠.

(٤) كشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي ١/٤٤٠، وشرح منتهى الإرادات ١/٢٤٧.

(٥) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٢/٥٩، ودرر الحكام شرح غرر الأحكام، محمد بن فراموز الحنفي منلا خسرو ١/١١٦.

(٦) شرح الخرشي ٢/١٦، وحاشية الدسوقي ١/٣١٩، وبلغة السالك ١/٤١٤.

(٧) كشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي ١/٤٤٠، وشرح منتهى الإرادات ١/٢٤٧.

(٨) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٣/٢٤٠.

(٩) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٤/٢٠٠، و نيل الأوطار٣/٩١.

(١٠) انظر: فتح الباري، ابن حجر ٣/١٩.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الأمر، والحصر والقصر، والتوكيد.

ثانيًا: من واجبات الداعية: تعهّد الأهل والأقربين بالموعظة.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الحث على التقرب إلى الله عز وجل.

أولاً- من أساليب الدعوة: الأمر، والحصر والقصر، والتوكيد:

لقد تضمن هذا الحديث عددًا من الأساليب الدعوية مثل: الأمر في قوله: "عليك بكثرة السجود" والحصر والقصر في استخدامه للفظتي "لن" و"إلا" في قوله: "لن تسجد لله سجدة إلا" إضافة إلى ذلك تأكيده بإنَّ التي تفيد التوكيد، ولاشك أن هذه الأساليب الدعوية تدل على حب الخير للمدعو، وأهمية ما أمر به الرسول ﷺ من كثرة السجود، لبيان فضل السجود في رفع الدرجات وحطّ الخطايا.

ثانيًا- من واجبات الداعية: تعهّد الأهل والأقربين بالموعظة:

يتضح ذلك من توجيه النبي ﷺ هذه النصيحة لثوبان مولاه، ومن النص السابق لأبي فراس ربيعة بن كعب الأسلمي خادمه، فإذا كان الداعي مكلفًا بأن يدعو الناس جميعًا فالأجدر به أن يبدأ بدعوة أهله وذويه إلى الله تعالى ويحثهم على الاستجابة لأوامر الله تعالى، والانتهاء عما نهى عنه سبحانه، وانطلاقًا من قول الله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[1] وقوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[2].

(أي: حث أهلك على الصلاة وأزعجهم إليها من فرض ونفل، والأمر بالشيء، أمر بجميع ما لا يتم إلا به فيكون أمرًا بتعليمهم ما يصلح الصلاة، ويفسدها، ويكملها.

"واصطبر عليها" أي: على الصلاة بإقامتها، بحدودها، وأركانها، وخشوعها، فإن

---

(١) سورة الشعراء، آية: ٢١٤.

(٢) سورة طه، آية: ١٣٢.

ذلك مشق على النفس، ولكن ينبغي إكراهها وجهادها على ذلك، والصبر معها دائمًا، فإن العبد إذا أقام صلاته على الوجه المأمور به، كان لما سواها من دينه أحفظ وأقوم، وإذا ضيعها كان لما سواها أضيع، ثم ضمن تعالى لرسوله الرزق، وأن لا يشغله الاهتمام به عن إقامة دينه فقال: "نحن نرزقك" أي: رزقك علينا، قد تكفلنا به، كما تكفلنا بأرزاق الخلائق كلهم، فكيف بمن قام بأمرنا، واشتغل بذكرنا؟! ورزق الله عام للمتقي وغيره. فينبغي الاهتمام، بما يجلب السعادة الأبدية، وهو: التقوى، ولهذا قال: (والعاقبة) في الدنيا والآخرة (للتقوى) فمن قام بها، كان له العاقبة)[1].

إن تعهد الأهل والأقربين بالموعظة وحثهم على طاعة الله عز وجل من مظاهر قيام المؤمن بتلك المسؤولية الملقاة على عاتقه تجاه أهله وأسرته، كما جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: ((كلكم راعٍ، وكلكم مسؤول عن رعيته، الإمام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عنه رعيته، قال: وحسبت أن قد قال "والرجل راع في مال أبيه ومسؤول عن رعيته، وكلكم راعٍ ومسؤول عن رعيته"))[2].

إن أهم ما يواجه الآباء بالنسبة للأبناء مسؤوليتهم عن تنشئتهم على العقيدة الصحيحة، والالتزام بأحكام الدين والخلق الكريم وأداء العبادة، ويأتي بعد ذلك تعليمهم العلوم التي يحتاجون إليها في شؤون دينهم ودنياهم، وسبب فساد الولد يعود إلى عاملين هما:

- إهمال تربيته وتركه للعوامل الخارجية.
- أو فساده بتلقينه مبادئ الهدم وتنشئته عليها.

إن الطفل عجينةً بيد والده، يشكلها كيفما شاء. إن المعارف التي يمكن أن

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٤٦٦.

(٢) أخرجه البخاري ٨٩٣، ومسلم ١٨٢٩.

يتعلمها الإنسان لا يحصرها حدٌّ، فعلى الوالدين أن يختاروا لأولادهما أهمها وأنفعها في الدنيا والآخرة، وليس هذا الكلام مقصورًا على الأولاد، بل إنه يشمل كل من يكون في ولاية الرجل من زوجة وإخوة وأم وتلاميذ ومرؤوسين[١].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: الحث على التقرب إلى الله عز وجل:

الحث على التقرب إلى الله تعالى، من الموضوعات التي يجب أن يُركز عليها في الدعوة إلى الله تعالى ومن شواهد ذلك قوله ﷺ "فإنك لن تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة، وحط عنك بها خطيئة".

قال القاضي عياض: (وقوله لثوبان: "سل" فسأله مرافقته في الجنة فقال له: "أو غير ذلك؟": قيل: لعله عليه السلام فَهِم من المساواة معه في درجته وذلك ما لا ينبغي لغيره، فلذلك قال له: "أو غير ذلك" أي سل غير هذا، فلما قال له الرجل: هو ذاك، قال له: "أعني على ذلك بكثرة السجود" ليزداد من القرب ورفعة الدرجات حتى يقرب من منزلته وإن لم يساوه فيها فإن السجود معارج القرب، ومدارج رفعة الدرجات، قال تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾[٢]، وقال ﷺ: (لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة) ولأن السجود غايته التواضع لله، والعبودية له، وتمكين أعز عضو في الإنسان وأرفعه وهو وجهه من أدنى الأشياء وأخسها وهو التراب، والأرض المدوسة بالأرجل والنعال[٣].

والحديث فيه دليل على أن كثرة السجود أفضل من طول القيام وهي مسألة اختلف العلماء فيها: فذهبت طائفة إلى ظاهر هذا الحديث، وذهبت طائفة أخرى إلى أن طول القيام أفضل؛ متمسكين بقوله ﷺ: ((أَفْضَلُ الصَّلاَةِ طُولُ الْقُنُوتِ))[٤]، وفسروا

---

(١) انظر: من هدي النبوة، تأملات في عدد من جواع الكلم، د. محمد بن لطفي الصباغ ص ٣٨٨-٣٩٠.

(٢) سورة العلق، آية: ١٩.

(٣) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٢/٤٠٣.

(٤) أخرجه مسلم ٧٥٦.

القنوت بالقيام كما قال تعالى: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾[(١)]، ذكر هذه المسألة والخلاف فيها الترمذي، والصحيح من فعل النبي ﷺ: أنه كان يطول في قيام صلاة الليل، وداوم على ذلك إلى حين موته، فدلّ: على أن طول القيام أفضل. ويحتمل أن يقال: إن ذلك يرجع إلى حال المصلي. فربّ مصل يحصل له في حال القيام من الحضور والتدبر والخشوع ما لا يحصل له في السجود، ورب مصل يحصل له في السجود من ذلك ما لا يحصل له في القيام، فيكون الأفضل في هذه الحال التي حصل له فيها ذلك المعنى الذي هو روح الصلاة[(٢)].

لقد وضع النبي ﷺ في الحديث الجزاء والثواب نصب عين المخاطب وأودعه في ذهنه ليكون دافعًا له على المسارعة إلى الخيرات، فأرشده إلى التقرب إلى الله بكثرة السجود، وهو موافق لقول الله تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾[(٣)] أي اسجد لربك واقترب منه في السجود وغيره من أنواع الطاعات والقربات فإنها كلها تدني من رضاه وتقرب منه[(٤)] وبين ﷺ ماذا يحدث للإنسان من الأجر فيما إذا سجد وهو أن يحصل له فائدتان عظيمتان:

الفائدة الأولى: أن الله يرفعه بها درجة، يعني منزلة عنده وفي قلوب الناس، ويزيده في الثواب.

والفائدة الثانية: أن الله يحط بها ويكفر الخطايا.

والإنسان يحصل له الكمال بزوال ما يكره، وحصول ما يحب، فرفع الدرجات مما يحبه الإنسان، والخطايا مما يكره الإنسان، فإذا رفع له درجة وحط عنه بها خطيئة فقد حصل على مطلوبه، ونجا من مرهوبه[(٥)].

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٣٨.

(٢) المفهم، القرطبي ٢/٩٢ - ٩٣.

(٣) سورة العلق، آية: ١٩.

(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٨٦٠.

(٥) انظر: شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين ١/٣٣٢.

الحديث رقم (١٠٨)

١٠٨- **الرابع عشر:** عن أبي صَفْوانَ عبدِ الله بن بُسْرٍ الأسلَمِيِّ ﵁، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**خَيْرُ النَّاسِ مَن طالَ عمُرُه وَحَسُنَ عملُه**» رواه الترمذي، وقال حديثٌ حسنٌ[١].

«بُسْر»: بضم الباءِ وبالسين المهملة.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن بُسْر: وهو عبدالله بن بُسْر المازِنيّ من مازن بن منصور بن عكرمة، الأنصاري، يكنى أبا بُسْر، ويقال أبو صفوان له صحبة ورواية، له في كتب الحديث (٥٠) حديثًا، صلى إلى القبلتين، وضع النبي ﷺ يده على رأسه ودعا له، صحب النبي ﷺ هو وأبوه وأمه وأخوه عطية، وأخته الصمَّاء، زارهم النبي ﷺ وأكل عندهم، ودعا لهم، فعن عبدالله بن بُسر المازني ﵁ قال: بعثني أبي إلى رسول الله ﷺ أَدْعوه إلى طعام، فجاء معي، فلما دنوت من المنزل أسرعت، فأعلمت أبويَّ فخرجا فتلَقَّيا رسولَ الله ﷺ ورحبا به، ووضعنا له قطيفة كانت عندنا زِئْبُريَّة فقعد عليها، ثم قال أبي لأمي: هات طعامك، فجاءت بقصعة فيها دقيق قد عَصَدَته بماء وملح، فوضعته بين يدي رسول الله ﷺ فقال: ((خذوا باسم الله من حواليها وذروا ذروتها، فإن البركة فيها، فأكل رسول الله ﷺ وأكلنا معه، وفضل منا فضلة، ثم قال رسول الله ﷺ اللهم اغفر لهم وارحمهم، وبارك عليهم، ووسع عليهم في أرزاقهم[٢].

ويشره النبي ﷺ بطول العمر حتى مائة سنة، فعن أبي عبدالله الحسن بن أيوب الحضرمي قال أراني عبدالله بن بُسر شامة في قرنه، فوضعت إصبعي عليها، فقال: وضع رسول الله ﷺ إصبعه عليها، ثم قال: لتَبْلُغَنَّ قَرْنًا" قال أبو عبدالله: وكان

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٣٠) وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

تنبيه: الحديث اختصره المؤلف. أورده المنذري في ترغيبه (٤٩٢٥).

(٢) أخرجه أحمد ١٨٨/٤ رقم ١٧٦٧٨، وقال محققو المسند: إسناده صحيح على شرط مسلم.

ذا جُمَّة))[١].

وكان يصفر رأسه، ولحيته، وهو حاسر عن رأسه، ولم يُر عليه عمامة ولا قلنسوة شتاءً ولا صيفًا، قال جرير بن عثمان: رأيت ثياب عبدالله بن بسر مشمَّرة، ورداءه فوق القميص، وكان إذا مرَّ بحجرٍ على الطريق نحَّاه.

نزل الشام وسكن حمص، وكان أميرًا عليها، ختم الله له بخاتمة حسنة فمات وهو يتوضأ، فعن أم هاشم الطائية قالت: رأيت عبدالله بن بُسْر جالسًا يتوضأ، فبينا هو يتوضأ إذ خرجت نفسه[٢].

مات بحمص سنة (٩٦) أيام سليمان بن عبدالملك وعمره مائة سنة، وقيل مات سنة (٨٨)، وهو ابن (٩٤) سنة، وهو آخر من مات بالشام من الصحابة[٣].

الشرح الأدبي

إن الناس في هذه الحياة مجـزيون بأعمالهم، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، والإيمان دائمًا مقرون بالعمل الصالح، ولا إيمان بدون عمل، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾[٤].

---

(١) أخرجه أحمد ١٨٩/٤ رقم ١٧٦٨٩، وقال محققو المسند: إسناده حسن، ٢٣٥/٢٩.

(٢) مختصر تاريخ ابن عساكر (٥٠/١٢)؟

(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر (٣٨٤)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير (١٨٥/٣، ١٨٦)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني (٧٤٦)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي (٩٤/٤)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٣٠٨/٢) والسندي (٢٢٠/٢٩)، والأعلام، خير الدين الزركلي (٧٤/٤)، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك (١١٦٤/٢-١١١٦).

(٤) سورة الكهف: ١٠٣-١٠٥.

ويقول عز وجل في السورة نفسها بعد ذلك ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾[1].

وفي ضوء هذه المفاهيم القرآنية تتموج دلالات هذه الحديث الشريف، وهو من جوامع كلمه ﷺ: فهو يتكون في بنائه اللغوي من جملة اسمية واحدة ركناها المبتدأ: خير الناس.

والخبر: "من طال عمره وحسن عمله" وللألفاظ إشعاعات دلالية، وموحيات معنوية توجيهية.

فقوله: "خير الناس" أي: أفضل الناس وأخيرهم عملاً وسلوكًا ومعتقدًا، وأكرمهم عند الله تعالى.

ولفظ الناس يفتح آفاقًا رحبة أمام البشر جميعًا ليسبحوا في أجواء هذه الخيرية، وينعموا بالإسلام والإيمان والإحسان ليكونوا في منظومة "خير أمة أخرجت للناس"، فالحديث يخاطب البشرية جمعاء، ويدعوهم من خلال هذه الموعظة الحسنة، والحكمة البليغة، والقول المقتصد الجامع المانع، من طال عمره وحسن عمله، وقوله ﷺ: وحسن عمله بعد قوله: طال عمره يفيد: حسن العمل... مع كثرته: لأن العمل الحسن... مقترن في الحديث بطول العمر، والحسن، والإحسان: في العمل إيجاز ينطوي على كثير من الدلالات والتفسيرات، فالأعمال تدخل في مُسمَّى الإسلام، ومسمى الإيمان، كما يقول العلماء، وكذلك أعمال الجوارح الظاهرة، وأعمال الجوارح الباطنة: فيدخل في أعمال الإسلام، وفي حسن العمل، إخلاص الدين لله تعالى، والنصح له ولعباده، وسلامة القلب لهم من الغش والحسد والحقد، وتوابع ذلك من أنواع الأذى.

ومن مظاهر حسن العمل: الحب في الله والبغض فيه، والعطاء له والمنع له، وأن يكون جميع الحركات والسكنات له، وسماحة النفوس بالطاعة المالية والبدنية، والاستبشار بعمل الحسنات والفرح بها، والمساءة بعمل السيئات والحزن عليها، وقال ابن

(١) سورة الكهف، آية: ١٠٧.

عجلان: لا يصلح العمل إلا بثلاث: التقوى لله، والنية الحسنة، والإصابة.

وإن الدين كله يرجع إلى فعل المأمورات، وترك المحظورات، والتوقف على الشبهات[١].

إن بلاغة الحديث النبوي هنا تكمن في هذا الإيجاز المشع بالمفاهيم والدلالات المفتوحة على كثير من آفاق الحياة والسلوك والمعتقدات، وأعمال القلوب وأعمال الجوارح، والعمل الحسي اليدوي، والعمل العقلي، والشعوري، وقد رفع القرآن العمل إلى ذروة شامخة تشرف من فوق رُبَاها على ما عداها من القيم الإنسانية وذلك أنه جعلها في هذه القواعد الثلاث:

الأولى: العمل هو: الأساس والسبب الظاهر للوجود الإنساني، ذاته.

الثانية: العمل هو: الميزان الذي تقيم الذات الإنسانية نفسها على أساسه.

الثالثة: العمل هو: القانون الكلي الذي يدفع الإنسانية نحو التطور والارتقاء فيكفل بهاءها، ويحفظ عليها وجودها[٢].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار بفضل طول العمر مع طاعة الله تعالى.

ثانيًا: من واجبات الداعي: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل العمل الصالح.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: أهمية استثمار العمر في طاعة الله تعالى.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار بفضل طول العمر مع طاعة الله تعالى:

ويتضح ذلك في مجمل الحديث وهو إخبار الرسول ﷺ بأن قيمة العمر بما فيه من عمل صالح، وذلك ليزداد الإنسان من العمل والإحسان، ويستدرك ما فاته من تقصير، ليكون العُمر حافلاً بطاعة الله تعالى.

---

(١) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ص ١-٢٧.

(٢) انظر: التكافل الاجتماعي في الإسلام، د. عبدالعال أحمد عبدالعال، ص ٢١٠.

ثانيًا- من مهام الداعي: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم:

إن من واجبات الداعي بيان مسالك الخير وما ينتفع به، المدعو حتى يكون على بصيرة من أمره، ويستثمر عمره في طاعة الله، والتقرب منه سبحانه، من هنا أرشدنا النبي ﷺ في عموم الحديث بقوله: "خير الناس من طال عمره وحسن عمله" حتى يحرص المسلم على اغتنام عمره في طاعة الله ومرضاته.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل حسن العمل:

وقد نبهنا الله تبارك وتعالى إلى إحسان العمل وأمرنا به، فقال: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟﴾(١) بل إن الله ليجعل الغاية من خلق الكون، إماتةً وإحياءً: إحسانَ العمل فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾(٢) أي أحكم وأتقن وأحسن عملاً وأكثر إخلاصًا وأبعد عن محارم الله، وأسرع في طاعة الله، وكأن المفروض أن يكون عمل الإنسان دائرًا بين الحسن والأحسن، لا بين الخير والشر(٣).

وقد ضمن الله لمن أحسن عمله أن يحفظ له أجره ولا يضيع عليه ثوابه فقال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾(٤).

(وإحسان العمل أن يريد العبد بعمله وجه الله تعالى متبعًا في ذلك شرع الله، فهذا العمل لا يضيعه الله، بل يحفظه للعاملين، ويوفيهم من الأجر بحسب أعمالهم)(٥).

إن مما ينبغي غرسه في نفوس الناس الشعور بقيمة الوقت، (والمؤمن هو أعمق الناس إحساسًا بقيمة الوقت، فالله سبحانه سائله يوم الجزاء عن عمره فيم أفناه وعن

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٩٥.

(٢) سورة الملك، آية: ٢.

(٣) التفسير الواضح، د. محمد محمود حجازي٣/٢٩/٧٠.

(٤) سورة الكهف، آية: ٣٠.

(٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٤٢٦.

شبابه فيما أبلاه، فهو لهذا يضن بوقته أن يضيع في عبث، أو يبعثر في مهب الرياح الهوجاء، إنه رأس ماله الوحيد فكيف يضيعه ويبقى صفر اليدين؟ إن الوقت نعمة يجب أن تشكر بالانتفاع بها، ولا تكفر بالتفريط فيها، وقد قال عمر بن عبدالعزيز: إن الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما)[1] لذا كان من الواجب على العاقل أن يحسن استثمار عمره، إذ (أن مجرد طول العمر ليس خيرًا للإنسان إلا إذا حسن عمله، ومن ثم كره بعض العلماء أن يُدعى للإنسان بطول البقاء، قال: لا تقل أطال الله بقاءك إلا مقيدًا، قل أطال الله بقاءك على طاعته، لأن طول البقاء قد يكون شرًا للإنسان)[2] إذا عايشه الإنسان مجرد قضاء وقت وتمتع كتمتع الأنعام.

إن عمر الإنسان فرصة له، إن لم يستغله في العمل الصالح كان وبالاً عليه يحاسب على أساسه، ويُسأل عنه، فالعبرة ليست بطول العمر، بل بحسب العمل، فعمر قصير مع عمل صالح خير من عمر طويل مع عمل فاسد، وأفضل الناس من أطال الله له المهلة ومَدَّ له في الاختبار فاستغل ذلك في صالح الأعمال فجعل من عمره ذخيرة وغنيمة ولم يجعله حملاً وإصرًا[3].

إن عمر الإنسان ووقته هو رأس ماله، وإن ساعات العمر هي أنفس ما عني بحفظه، فنحن نعيش في زمن محدود، ليل ونهار يتعاقبان بانتظام، ليس يطغى أحدهما على الآخر، وحياة مقسمة تقسيمًا محدوداً، صبًا، فشباب فكهولة فشيخوخة، ثم إن هذه الحياة محدودة، فإذا جاء الأجل فلا مفر من الموت.

وما فات من الزمن لا يعود، فالصبا إذا فات فات أبدًا، والشباب إذا مرَّ مرَّ أبدًا والزمن المفقود لا يعود أبدًا[4].

---

(١) الإيمان والحياة، د. يوسف القرضاوي ص ٣٠٥.

(٢) شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين ٣٢٢/١، ٣٢٣.

(٣) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم ص ١٤٠.

(٤) انظر: الهمة العالية، معوقاتها ومقوماتها، محمد بن إبراهيم الحمد، ص ٢٤١، ٢٤٢.

ثم إن العبرة ليست بطول العمر، إنما باستثماره وملئه بالأعمال الصالحة النافعة، (فقيمة الوقت تكمن فيما يملأ به، وبالحدث الذي يحصل خلاله، لا بشيء آخر، لذلك فالاستخدام الأمثل، فالوقت وطريقة صرفه هما عنوان النجاح وشرط أساس لحصوله.

إن المسلم مسؤول أمام خالقه عن أوقاته وخاصة عن أوقات شبابه، وجعل الله سبب الفوز بالجنان ما أسلف الإنسان في أيامه الخالية في الدنيا، كما أن الوقت في حياة المسلمين قيمته التي تتباين بحسب الأحداث الحاصلة أو الشعائر التعبدية المفروضة خلاله، فقيمة الوقت في المنظور الإسلامي لا تقاس بمجرد الكم المادي فحسب، بل بمدى الفاعلية الذي يخلف استثماره نفعًا للناس[(١)].

---

(١) انظر: إدارة الوقت بين التراث والمعاصرة، د. محمد أمين شحادة، ص ١٠٢-١٢٠.

الحديث رقم (١٠٩)

١٠٩- **الخامس عشر:** عن أنسٍ ﷺ، قال: غَاب عمِّي أَنَسُ بنُ النَّضْرِ ﷺ، عن قِتالِ بدرٍ، فقال: يا رسولَ الله غِبْتُ عن أوَّلِ قِتالٍ قَاتلْتَ المُشرِكِينَ، لَئِنِ اللَّهُ أشْهَدَنِي قتالَ المشركين ليُرِيَنَّ اللَّهُ ما أصنعُ، فلما كانَ يومُ أُحدٍ انْكشَفَ المُسلِمُون فقال: اللَّهُمَّ[١] أعْتَذِرُ إليْكَ مِمَّا صنَع هَؤُلاءِ يَعْني أصْحَابَه وأبرأُ إلَيْكَ مِمَّا صنعَ هَؤُلاءِ يعني المُشْرِكِينَ ثُمَّ تَقَدَّمَ فَاسْتَقْبَلَهُ سعْدُ بْنُ مُعاذٍ، فَقالَ: يا سعْدُ بْنَ معُاذٍ الْجنَّةُ وربِّ الكعْبة[٢]، إنِي أجِدُ رِيحَهَا مِنْ دُونِ أُحُدٍ. قال سعْدٌ: فَمَا اسْتَطعْتُ يا رسول الله ما صنَعَ.

قالَ أنسٌ: فَوجدْنَا بِهِ بِضْعًا وثمانِينَ ضَرْبَةً بالسَّيفِ، أوْ طَعْنَةً بِرُمْحٍ، أو رمْيةً بِسهْمٍ، ووجدْناهُ قَد قُتِلَ وَمثَّلَ بِهِ المُشرِكُونَ فَما عرفَهُ أَحدٌ إلاَّ أُخْتُهُ بِبنَانِهِ.

قال أنسٌ: كُنَّا نَرى أوْ نَظُنُّ أنَّ هَذهِ الآيَة نزلَتْ فيهِ وَفِي أشْباهِهِ: [مِنَ المُؤْمِنِينَ رِجالٌ صدقُوا ما عَاهَدُوا اللَّه علَيهِ] [الأحزاب: ٢٣] إلى آخرها. متفقٌ عليه[٣].

قوله: «**لَيُرِيَنَّ اللَّهُ**» رُوِي بضم الياء وكسر الراء، أي لَيُظْهِرنَّ اللَّهُ ذَلِكَ لِلنَّاسِ، ورُوِي بفتحهما، ومعناه ظاهر، والله أعلم.

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

قتال بدر: أي غزوة بدر وهي الغزوة التي كانت بين المسلمين وقريش في رمضان ٢هـ وانتصر فيها المسلمون، وسميت بذلك لأنها وقعت عند ماء بدر بين مكة والمدينة، وبينه وبين المدينة ١٥٠كم[٤].

---

(١) عند البخاري زيادة: (إنِّي).

(٢) لفظ البخاري: (النضر) بدل: (الكعبة).

(٣) أخرجه البخاري (٢٨٠٥) واللفظ له، ومسلم (١٤٨/١٩٠٣). أورده المنذري في ترغيبه (٢٠٢٩). وسيكرره المؤلف برقم (١٣١٩).

(٤) أطلس الحديث النبوي، د. شوقي أبو خليل ٦٥.

ليريــن الله: روى بـضم اليــاء وكـسر الـراء: أي ليظهـرن الله ذلـك للنــاس، وروى بفتحهما، ومعناه ظاهر والله أعلم[١].

يوم أحد: أي غزوة أحد، وأحد الجبل الذي كانت عنده الغزوة التي وقعت ٣هـ، وهو جبل أحمر بينه وبين المدينة المنورة قرابة ميل في شماليها والميل يساوي ١٦٠٩م[٢].

أبرأ: أي أتخلّى وأتخلص[٣].

ريحها: رائحتها[٤].

دون أحد: دون ظرف مكان منصوب وهو بحسب ما يضاف إليه فيكون بمعنى تحت وفوق وخلف وأمام وقبل[٥].

بضعًا: البضع -بكسر الباء وفتحها- ما بين الثلاثة والعشرة[٦].

مَثَّل به: مثّل بفلان: نكل به بجدْع أنفه أو قطع أذنه أو غيرهما من الأعضاء[٧].

بنانه: البنان: أطراف الأصابع، واحدته: بنانة[٨].

أشباهه: الأشباه: المفرد: الشبه وهو المثل[٩].

---

(١) رياض الصالحين ٩٣.

(٢) انظر: أطلس الحديث النبوي، د. شوقي أبو خليل ٢٣، وأطلس السيرة النبوية، د. شوقي أبو خليل ١١٩، والوسيط ٨٩٤.

(٣) الوسيط ٤٦، وانظر: المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني ٤٥.

(٤) الوسيط ٣٨١.

(٥) الوسيط ٣٠٥.

(٦) معجم لغة الفقهاء ٨٨.

(٧) الوسيط ٨٥٣، وانظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٨٥٥.

(٨) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ب ن ن).

(٩) الوسيط ٤٧١.

الشرح الأدبي

ينقل إلينا هذا الحديث مشهدًا جليلاً من مشاهد الجهاد والمجاهدة في حماية الدعوة الإسلامية، وهو مشهد حقيقي يصور حرص الصحابة ﷺ على حماية رسول الله ﷺ وحماية الإسلام والتصدي للمشركين دفاعًا عن العقيدة، وإعلاء لراية الإسلام.

ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحوار الصادق بين رسول الله ﷺ وأنس بن النضر عم أنس بن مالك بن النضر، خادم رسول الله ﷺ، ويبدأ الحديث بجملة خبرية تحكي واقعًا وهو غياب أنس بن النضر عن قتال بدر.

وهذا الغياب ربما كان لعذر أو لظرفٍ خارج عن إرادة أنس بن النضر، فأراد أن يعوض هذا الغياب، بحضور صادق، وتضحية في سبيل الله تعالى، حيث يكون من المؤمنين الذين يقاتلون في سبيل الله تعالى فيقتلون ويُقْتلون دفاعًا عن دين الله تعالى واستشهادًا في سبيله، وهذا الطريق هو أشمل طرق المجاهدة.

وتوجه أنس بن النضر ﷺ إلى رسول الله ﷺ، وناداه في صدق ومحبة "يا رسول الله"، وبعد هذا النداء الذي يفيض بالمحبة والرغبة في تعويض ما فاته من شرف المشاركة في القتال يوم بدر.

نشهده يُقرّ ويتعهد أمام رسول الله ﷺ بأنه سيجاهد، ويقاتل.. ويبلى بلاءً حسنًا، ولم يُفصِّل القول، ولكن لجأ إلى الإيجاز والإجمال، وما أدق ذلك الإيجاز، وما أعظمه لأنه أشهد الله عليه أمام خاتم الأنبياء والمرسلين، وتشع هذه العبارة المشرقة بكثير من الإيحاءات والتفسيرات، "ليرين الله ما أصنع"، فأي صدق بعد هذا القول، وأي نية خالصة بعد هذا العهد، وأي عزيمة أمضى من ذلك بعد هذا الوعد؟

وبلاغة الحذف تضيء قسمات العبارات والجمل، وتأخذنا إلى مجالات وأسرار يفيض بها الحديث النبوي الشريف، لأن الكلمة التي يستدعيها السياق، ويوحي بها الموقف لا يجمل الكلام بذكرها ، فقول الراوي: "غاب عمي... عن قتال بدر"، أي قتال المشركين في بدر... وذلك إشارة إلى غزوة بدر الكبرى، وما حدث فيها من معجزات وتأييد إلهي، ونصر مؤزر، ولم يحدد أنس بن النضر ﷺ اسم الغزوة: فقال: "غبت عن

أول قتال قاتلت المشركين"، وذلك تجنبًا للإقرار بالغياب في يوم بدر، وهذا واقع لا يحبه أنس بن النضر رضي الله عنه فكم كان يتمنى أن يشارك في هذه الغزوة الكبرى، وكلمة "أول" توحي بأن هناك قتالاً سيدور بعد ذلك بين المسلمين والمشركين، وهذا رجاء يطمح إليه هذا الصحابي الجليل، الفارس الصادق، والمجاهد الصابر ، وحذف الجار والمجرور بعد ، قاتلت المشركين، أي فيه، وهذا الحذف يمكن أن يكون لمنع التقييد بالمكان أو الزمان، وكأن هذا الصحابي يتمنى أن يظل المسلمون في رباط إلى يوم القيامة – كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يشأ أن يقيد قتال المشركين ويحدده من خلال الزمان والمكان أو الاسم، وفي قوله: "لئن الله أشهدني قتال المشركين ليرين الله ما أصنع"، مظاهر بلاغية كثيرة تضيء المعنى، وتعمق الدلالة، وتوحي بكثير من المقاصد، فاللام هنا موطئه للقسم: والتقدير والله لئن، والقسم يدل على التأكيد والصدق.

والجملة يمتزج فيها القسم بأسلوب الشرط والجواب، ولكن القسم له الصدارة لأنه الدليل، الذي يقودنا إلى صدق النية، وشدة المجاهدة، والرغبة القوية في الدفاع عن الإسلام.

ولذلك حذف الشرط، وحذف جواب الشرط لدلالة جواب القسم عليه، وتزاحم الأساليب وتداخلها يصور ما عليه أنس بن النضر من شوق للقتال، ومن دوافع تحفزه إلى ذلك.

وتكرار لفظ الجلالة يؤكد صدق النية، وقوة الإرادة، وصدق التوجه، واللفظ تكرر في هذه الجملة التي تداخل فيها القسم مع الشرط (لئن الله، ليرين الله ما أصنع)، واسم الموصول "ما" مع جملة الصلة "أصنع" يموجان بكثير من المعاني والمقاصد والله هو الأعلم بذلك، وأنس نراه بهذا التعبير قد أجمل وأوجز...، ولم يشأ أن يفصل .. لأن التفصيل غير مناسب للمقام ولا السياق، ويمكن أن يندرج في باب الرياء، والادعاء، وأنس بن النضر من الصحابة الأخيار الصادقين الأبرار ويظل أنس ينتظر اليوم الذي سيشارك فيه ويقاتل المشركين ويُطل الإيجاز الأسلوبي.

وتحذف تفصيلات كثيرة عن غزوة أحد ومقدماتها وملابساتها، وقصة الرماة، ومخالفتهم لأمر رسول الله ﷺ. عن غير قصد -وإنما كان فرحًا بالنصر واستبشارًا بأخذ الغنائم- ثم حدثت الهزيمة حين احتل المشركون الجبل الذي كان عليه الرماة بعد أن تركوه، وشغلوا بجمع الغنائم.

هذه الأحداث كلها يوحي بها ذلك التعبير البليغ، "فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون" وهو تعبير موجز إيحائي نقتبس منه إشعاعات كثيرة تضيء المواقف، وتفسر الأحداث.

ويتوجه أنس بن النضر إلى ربه مناجيًا ومتضرعًا ... وفرحًا مستبشرًا لأن الوعد قد صدق، والعهد الذي أخذه على نفسه أمام رسول الله ﷺ سيتحقق، وفي هذه المناجاة يعتذر، ويبرأ ولنتأمل هذه الأسرار اللغوية، وهذه الحاسة الأدبية البلاغية، فلكل مقام مقال، إنه جاء بفعل "أعتذر" في مقام اعتراضه على ما صنع المسلمون من تخلٍ عن مكانهم الذي حدده رسول الله ﷺ، وذلك لأنهم لم يتعمدوا الإضرار، ولم يخونوا الرسول ﷺ، وإنما كان اجتهادًا منهم، وقد أخطئوا في ذلك، فهو يقدم العذر ويطلب الصفح عن أصحابه، ولكنه يبرأ مما صنع المشركون من اعتداء وقتال لرسول الله ﷺ، وبعد هذه المناجاة وذلك التضرع، تحين ساعة اللقاء ويتحول العذر الكلامي إلي فعل ناجز، وعمل بطولي فائق، وتحقيق لقوله: "ليرين الله ما أصنع"، ويشرق هذا الحوار، القصير بين سعد بن معاذ وأنس بن النضر، فيقول أنس وهو في غاية القوة والاستعداد للقتال، والفرح بالاستشهاد: مخاطبًا سعد وكأنه يحثه ويحث كل مسلم على أن يحذو حذوه طلبًا للنصر أو الشهادة "يا سعد بن معاذ، الجنة ورب النضر.. إني أجد ريحها من دون أحد" وبلاغة الحذف هنا تضاء بها المعاني وتشرق بها الدلالات والتقدير، أريد الجنة، أو مطلوبي الجنة، وحسب تقدير المحذوف يكون ضبط "الجنة".

"وأجد ريحها من دون أحد" كناية عن قرب الجنة وقرب الاستشهاد: والفوز وتحقيق الوعد، فرحًا بأن الله سَيُرِي المشركين ما صنع، وقد وعد أنس فأوفى، ويقاتل ويعلم الله وحده ما بذله من قتال، وما تحمله من أذى، وهو يقابل كل هذا بالمجالدة

والمجاهدة، ويصرع كثيرًا من المشركين، ويُقْتل فرحًا مستبشرًا.

ويُمثل به المشركون، ويتمزق جسده وهو به بضعة وثمانون ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رميه بسهم، وتغيب ملامحه، ولا تعرفه إلا أخته حيث عرفته بأطراف أصابعه، وذلك شاهد على اهتراء الجسد وتمزقه، ولكنه فاز بالرضوان والفردوس الأعلى من الجنة، وهو من المؤمنين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وقد أظهر الله تعالى صنيعه للناس، وكافأه بالجزاء الأوفى.

المضامين الدعوية

أولاً: من تاريخ الدعوة: غزوة بدر.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: بذل النفس في سبيل الله وإشهاد الله على ذلك.

ثالثًا: من تاريخ الدعوة: غزوة أحد.

رابعًا: من أساليب الدعوة: النداء والتشويق والتوكيد.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: تضحيات الصحابة رضي الله عنهم وجهادهم لنشر الدعوة.

سادسًا: من ميادين الدعوة: ساحات القتال.

أولاً- من تاريخ الدعوة: غزوة بدر:

لقد كانت غزوة بدر معلمًا واضحًا في تاريخ الدعوة، حيث أيّد الله تعالى المؤمنين بالنصر العظيم على المشركين، وثبّت الذين آمنوا، وألقى في قلوب الذين كفروا الرعب، وهُزم المشركون، فكان ذلك فتحًا جديدًا في تاريخ الدعوة، حيث تغيّرت موازين القوى، وقويت شوكة المسلمين، وتاقت نفوسهم للجهاد في سبيل الله عز وجل.

(وغزوة بدر هي الغزوة والمعركة الفاصلة الأولى في تاريخ الإسلام، وهي أول مراحل الكفاح الجدي الدامي الذي خاضه الإسلام ضد الشرك)[1]، (فأعز الله فيه الإسلام وأهله، ودفع فيه الشرك، وخرب محله، مع قلة عدد المسلمين يومئذ، فإنهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، فيهم فَرَسان وسبعون بعيرًا، والباقون مُشاة، ليس

---

(١) موسوعة الغزوات الكبرى، محمد أحمد باشميل، ٧٧/١.

معهم من العدد ما يحتاجون إليه، وكان العدو يومئذ مابين التسعمائة إلى الألف في سوابغ الحديد والبيض، والعدة الكاملة والخيول المسومة والحلي الزائدة، فأعز الله رسوله ﷺ، وأظهر وحيه وتنزيله، وبيَّض وجه النبي وقبيله، وأخزى الشيطان وجيله، وكان ذلك في السابع عشر من رمضان، من سنة سنتين من الهجرة، ولهذا قال تعالى ممتنًا على عباده المؤمنين وحزبه المتقين: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾[1]، أي قليل عددكم ليعلموا أن النصر إنما هو من عند الله، لا بكثرة العدد والعُدد)[2].

ولم يقصد النبي ﷺ في خروجه بادئ الأمر بجيش المسلمين إلا عير قريش، قال ابن إسحاق: (لما سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان مقبلاً من الشام، ندب المسلمين إليهم وقال (هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها؛ لعل الله ينفلكموها)[3] وذلك لقاء ما تركوا من أموالهم في مكة، فخف بعضهم لذلك، وتثاقل آخرون، فعن عبدالله بن كعب قال: ((سمعت كعب بن مالك رضي الله عنه يقول: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها، إلا في غزوة تبوك، غير أني تخلفت عن غزوة بدر، ولم يعاتب الله أحدًا تخلف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد))[4].

(فالتقى الظلام بالنور، والكفر بالإيمان، والباطل بالحق، والتقت الجاهلية بالإسلام، فجاء الحق، وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقا)[5].

قال د. محمود شيت خطاب: (ولست أعرف معركة حاسمة من معارك الحرب الحاسمة، كيوم بدر، انتصرت فيه العقيدة السليمة على العقيدة الفاسدة، بعد أن بدّل الإسلامُ العقولَ والنفوس من حال إلى حال، وكيف لا!! وقد كان النبي ﷺ هو

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٢٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢/١١١.

(٣) البداية والنهاية، ابن كثير، ٥/٥٦.

(٤) أخرجه البخاري ٣٩٥١، ومسلم ٢٧٦٩.

(٥) مقدمة موسوعة الغزوات الكبرى، محمد أحمد باشميل، بقلم محمود شيت خطاب.

القدوة والأسوة لأصحابه بالأعمال لا بمجرد الأقوال، فكان ﷺ مثالاً شخصيًا رائعًا لأصحابه في التضحية والفداء)[1].

وفي المعركة التقى الآباء بالأبناء، والإخوة بالإخوة! خالفت بينهم المبادئ، ففصلت بينهم السيوف! وفي يوم بدر تسابق المسلمون إلى الشهادة، وكان كل واحد منهم يتمنى أن يموت قبل صاحبه، وكان كل واحد من المشركين يتمنى أن يموت صاحبه قبله، وكان الشهيد يردد، وهو يحتضر: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾[2].

هكذا كان جنود الرسول ﷺ يؤثرون على أنفسهم مع ما كان بهم من خصاصة، ويؤثرون عقيدتهم على آبائهم وأبنائهم وإخوانهم وعشيرتهم وأموالهم، بل يؤثرون عقيدتهم على أنفسهم، فيتسابقون إلى الشهادة، فيقول أحدهم للآخر: "هنيئًا لك الشهادة"، وتقول الأمهات والأخوات والزوجات حين يعلمن باستشهاد ذويهن: "الحمد لله الذي أكرمهم بالشهادة".

وهؤلاء قادةً وجنودًا، يبنون للمستقبل، فيعتبرون العلم فريضة لا نافلة، ويعتبرونه عبادة لا تجارة، ويعتبرونه غاية لا وسيلة!

كانوا إخوة في الله، يحب أحدهم لأخيه ما يحبه لنفسه، وكانوا كالبنيان المرصوص، يشد بعضه بعضًا، وكانوا كالجسد السليم المعافى إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى!

كان انتصار المسلمين في بدر، إيذانًا بمولد دولة الإسلام عمليًا، فقاد المسلمون بعدها العالم إلى الخير والصلاح والمدنية والنور قرونًا طويلة.

وكانت انتصارهم بالإسلام، ولن ينتصروا بغيره، وتاريخ المسلمين خير دليل على ذلك.

كان العرب في الجاهلية متفرقين فتوحدوا بالإسلام، وكانوا أعداءً فألف الإسلام بين قلوبهم، وكانوا على شفا حفرة من النار فأنقذهم الإسلام منها، فأصبح العرب

---

(١) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام ٦١٣/١، البداية والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٦٦/١.

(٢) سورة طه، آية: ٨٤.

بالإسلام "وحدة" رصينة، و"دولة" عظيمة و"أمة" متماسكة "وقوة" ضاربة وجدت لها متنفسًا بالفتح الإسلامي العظيم، فسارت رايات العرب المسلمين تهدي الدنيا، وتحضر العالم، وتمدن الناس، فامتدت دولة الإسلام من سيبريا شمالاً إلى فرنسا غربًا إلى الصين شرقًا إلى المحيط جنوبًا.

كانوا ضعفاء، فأصبحوا أقوياء، وكانوا أعداء، فأصبحوا إخوة، وكانوا مستعبدين، فأصبحوا فاتحين!)[١].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: بذل النفس في سبيل الله وإشهاد الله على ذلك:

لقد حرص الصحابة رضي الله عنهم على الجهاد وبذل نفوسهم وأموالهم في سبيل الله تعالى، وكانوا حريصين على الشهادة أشد من حرصهم على الحياة، وهذا ما جعل أنس بن النضر رضي الله عنه يعتذر إلى رسول الله ﷺ بقوله: "يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت فيه المشركين، لئن الله أشهدني قتال المشركين، ليرين الله ما أصنع".

قال ابن هبيرة: (وفي هذا الحديث بيان وذكر بلاء أنس بن النضر رضي الله عنه، وعلو مقامه في جهاد الأعداء، وأنه لما غاب عن بدر، وهي أول المشاهد استدرك أي استدراك بفعلته هذه حتى قال سعد بن معاذ -الذي اهتز العرش عند موته- الذي قال: إني ما استطعت ما صنع، وحتى توجد فيه بضع وثمانون بين رمية وضربة وطعنة)[٢].

وما ذلك إلا لعظم أجر الشهادة في سبيل الله، وقد بين الحق تبارك وتعالى ذلك فقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٣] (فقد أخبر الله تعالى فيها عن الشهداء أنهم أحياء في الجنة يرزقون، ولا محالة أنهم ماتوا وأن أجسادهم في التراب، وأرواحهم حية كأرواح سائر المؤمنين،

---

(١) مقدمة موسوعة الغزوات الكبرى، محمد أحمد باشميل، بقلم محمود شيت، بتصرف يسير.

(٢) الإفصاح، عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٥/٢٥٦.

(٣) سورة آل عمران، الآيتان: ١٦٩-١٧٠.

وفضلوا بالرزق في الجنة من وقت القتل حتى كأن حياة الدنيا دائمة لهم، وقد اختلف العلماء في هذا المعنى، فالذي عليه المعظم ما ذكرناه...، وأن أرواحهم في أجواف طير خضر، وأنهم يرزقون في الجنة، ويأكلون، ويتنعمون، وهذا ما صح به النقل)(١) فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ((لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُم بِأُحُدٍ جَعَلَ اللهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ تَرِدُ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ تَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مِنْ ذَهَبٍ مُعَلَّقَةٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ فَلَمَّا وَجَدُوا طِيبَ مَأْكَلِهِمْ وَمَشْرَبِهِمْ وَمَقِيلِهِمْ قَالُوا مَنْ يُبَلِّغُ إِخْوَانَنَا عَنَّا أَنَّا أَحْيَاءٌ فِي الْجَنَّةِ نُرْزَقُ لِئَلاَّ يَزْهَدُوا فِي الْجِهَادِ وَلاَ يَنْكُلُوا عِنْدَ الْحَرْبِ؟ فَقَالَ اللهُ تَعَالَى: أَنَا أُبَلِّغُهُمْ عَنْكُم، قالَ: وَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا﴾ إلى آخِرِ الآيَةِ))(٢) حيث ذكر الله عز وجل توفيق للشهداء في شهادتهم وما ساقه إليهم من الكرامة والتفضيل على غيرهم من كونهم أحياءً مقربين معجلاً لهم رزق الجنة ونعيمها، ويستبشرون بما تبين لهم من حال من تركوا خلفهم من المؤمنين وهو أنهم يبعثون آمنين يوم القيامة، بشرهم الله بذلك فهم مستبشرون به، وفي ذكر حال الشهداء واستبشارهم بمن خلفهم بعث للباقين بعدهم على الجد في الجهاد والرغبة في نيل منازل الشهداء(٣) فقد جمع الله للشهداء بين نعيم البدن بالرزق ونعيم القلب والروح بالفرح بما آتاهم الله من فضله فتم لهم النعيم والسرور، ومما سبق أن بذل النفس في سبيل الله من أسمى الطاعات وأعظمها أجرًا(٤).

ثالثًا- من تاريخ الدعوة: غزوة أحد:

قد أشار الحديث إلى ذلك من قول الراوي "فلما كان يوم أحد" (وقد كانت وقعة أحد في شوال سنة ثلاث من الهجرة، وكان سببها أن المشركين حين قتل من قتل من

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي٣/٥/٤٠٨-٤٠٩.

(٢) أخرجه أبو داود ٢٥٢٠، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢١٩٩).

(٣) مدارك التنزيل وحقائق التأويل، النسفي، ص ١٩٦، ١٩٧.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ١٢٤.

أشرافهم يوم بدر، ورجع قَفَلُهُم إلى مكة، قال أبناء من قتل، ورؤساء من بقي: يا معشر قريش، إن محمدًا قد وتركم، وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه، فلعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا، ففعلوا، وخرجت قريش بحدّها وحديدها وأحابيشها في قريب من ثلاثة آلاف، حتى نزلوا قريبًا من أحد تلقاء المدينة)[1]، (واستشار رسول الله ﷺ الناس: أيخرج إليهم أم يمكث بالمدينة؟ فأشار عبدالله بن أُبي بالمقام بالمدينة، وأشار آخرون من الصحابة رضي الله عنهم ممن لم يشهد بدرًا بالخروج إليهم، فنزل رسول الله ﷺ على رأيهم، وسار ﷺ في ألف من أصحابه، فلما كان "بالشوط"[2] رجع عبدالله بن أبي في ثلث الجيش مغضبًا لكونه ﷺ لم يرجع إلى قوله، وتهيأ رسول الله ﷺ للقتال، وهو في سبعمائة من أصحابه، والرماة يومئذ خمسون رجلاً)[3] فقال لهم ((انضحوا الخيل عنا، ولا نؤتين من قبلكم. والزموا مكانكم، إن كانت النوبة لنا أو علينا، وإن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم))[4] فلاح النصر للمسلمين، وتخلف الرماة عن أمر النبي ﷺ، فانتهز خالد بن الوليد -قبل إسلامه- الموقف، وحقق التفافًا جعل المسلمين في موقف حرج، واستشهد حمزة، ومصعب بن عمير رضي الله عنهما "وبلغ من استشهد من المسلمين يوم أحد سبعون" وعلى الرغم من الانتصار العسكري لقريش، إلا أنها لم تستطع استئصال المسلمين.

رابعًا- من أساليب الدعوة: النداء والتشويق والتوكيد:

لقد اشتمل هذا الحديث على عدد من أساليب الدعوة مثل النداء والتشويق والتوكيد، فالنداء من أساليب الدعوة التي يحصل بها لفت الانتباه، وحث المدعو على أهمية ما يُدعى إليه، ويظهر ذلك في الحديث من قول أنس رضي الله عنه "يا سعد"، ومن أساليب الدعوة الهامة أسلوب التشويق لما فيه من حمل النفس على فعل الأمر المدعو إليه،

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام، ٢٣/٣، ٢٤.

(٢) وهو اسم حائط من بساتين المدينة، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ش و ط).

(٣) البداية والنهاية، ابن كثير، ٣٣٨/٥.

(٤) أخرجه ابن إسحاق في سيرة ابن هشام ٢٩/٣.

وسرعة الاستجابة لذلك، ويظهر ذلك في الحديث من قول أنس ﷺ: "الجنة ورب الكعبة"، ومن أساليب الدعوة التي تضمنها الحديث: أسلوب التوكيد لما فيه من إثبات المعنى في نفوس المدعوين وأذهانهم، والتأكيد على أهميته. وذلك في الحديث من قول أنس ﷺ "إني أجد ريحها من دون أحد"، ويمكن للداعية أن يفيد من هذه الأساليب حسب مناسبتها لموضوعاته الدعوية.

خامسًا- من موضوعات الدعوة: تضحيات الصحابة ﷺ وجهادهم لنشر الدعوة:

لقد أبلى الصحابة ﷺ بلاءً حسنًا في سبيل نشر الدعوة، وهانت عليهم نفوسهم وأموالهم وديارهم، وتركوا الديار والأوطان، وسارعوا إلى ساحات الجهاد، ونصرة الإسلام، لأن طريق الدعوة ليس طريقًا ممهدًا وإنما تكثر فيه الابتلاءات، وقد يقتضي ذلك تقديم تضحيات، فمن أجل ذلك شرَّع الحق تبارك وتعالى الجهاد وحث عليه، فقال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1] ومن الشواهد التي تؤكد تضحيات الصحابة ﷺ في هذا الحديث ما أبلى به أنس بن النضر ﷺ في غزوة أحد. ويظهر ذلك في الحديث من قول أنس ﷺ: "فوجدنا به بضعًا وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم، ووجدناه قد قتل، ومثل به المشركون، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه.

ومما يؤكد تضحيات الصحابة ﷺ وجهادهم في نشر الدعوة، قول أنس ﷺ: ((بَعَثَ النبيُّ ﷺ أقوامًا مِن بني سُلَيم إلى بني عامرٍ في سَبعينَ، فلمّا قدِموا: قال لهم خالي: أتقدَّمُكم، فإن أمَّنوني حتّى أُبلِّغهم عن رسولِ الله ﷺ، وإلا كنتم مني قَريبًا، فتقدَّمَ فأمَّنوهُ، فبينما يُحدِّثُهم عن النبيِّ ﷺ إذ أوْمَؤوا إلى رجُلٍ منهم فطعنَهُ فأنفَذَهُ، فقال: اللهُ أكبرُ، فُزْتُ وربِّ الكعبة، ثمَّ مالوا على بقيَّةِ أصحابهِ فقتلوهم إلا رجلٌ أعرجُ صَعِدَ الجبلَ، قال همام: وأراهُ آخرَ معه، فأخبرَ جبريلُ ﷺ النبيَّ ﷺ أنهم قد لَقوا ربَّهم، فرَضِيَ عنهم وأرضاهم، فكنّا نقرأ: أن بَلِّغوا قومَنا، أنْ قد لَقينا ربَّنا، فرَضِيَ عنّا وأرضانا. ثمَّ نُسِخَ بعدُ، فدَعا عليهم أربعينَ صَباحًا، على رِعلٍ وذَكْوانَ،

(١) سورة البقرة، آية: ٢١٦.

وبني لِحيانَ وبَني عُصَيَّةَ، الذينَ عَصَوُا الله ورسولَه ﷺ))[1]، ومما لاشك فيه أن الصحابة رضي الله عنهم هم الرعيل الأول والسلف الصالح والقدوة الحسنة للأمة في نشر دين الله والقيام بدعوته، مما يوجب على الدعاة اتباع نهجهم والسير على خطاهم في بذل النفس والمال لنشر دين الله تعالى ودعوته.

سادسًا- من الميادين الدعوية: ساحات القتال:

هذا ما أشار إليه نص الحديث في بيان ما دار في ساحات القتال بين المسلمين والمشركين في غزوة أحد، وساحات القتال هي التي فيها تتم الدعوة بالفعل، وفي ذلك عظيم الأثر في بيان القدوة الصادقة مما يؤثر في نفس المدعو، ويبرز جهود أصحاب رسول الله ﷺ، في سبيل نشر الدعوة، وكيف كانوا ينافحون عن هذا الدين ويضحون بكل نفيس في حياتهم.

ولم يكن هدف الجهاد الأوحد هو القتال وإنما كان يصاحب ذلك الدعوة إلى الله سواء دعوة غير المسلمين إلى الإسلام قبل القتال أو وعظ المجاهدين بعضهم بعضا بالصبر على لقاء العدو.

ومن شواهد ذلك ما قام به عمرو بن العاص رضي الله عنه في دعوة راهب مصر قبل فتح مصر، ذكر الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية أنه لما استكمل عمر رضي الله عنه والمسلمون فتح الشام بعث عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى مصر، وأردفه بالزبير بن العوام رضي الله عنه، فاجتمعا على باب مصر، فلقيهم أبو مريم جاثليق مصر، الأسقف أبو مريام في أهل الثبات، بعثة المقوقس صاحب اسكندرية لمنع بلادهم.

فلما تصافوا، قال عمرو بن العاص رضي الله عنه: "لا تعجلوا حتى نعذر إليكم" ليبرز إلى أبو مريم وأبو مريام راهبا هذه البلاد؛ فبرز إليه، فقال لهما عمرو بن العاص رضي الله عنه: أنتما راهبا هذه البلاد، فاسمعا إن الله بعث محمدًا ﷺ بالحق وأمره به، وأمرنا به محمد ﷺ، وأدى إلينا كل الذي أمر به، ثم مضى وتركنا على الواضحة، وكان مما أرمنا ب الإعذار إلى الناس، فنحن ندعوكم إلى الإسلام، فمن أجابنا إليه فمثلنا، ومن لم يجبنا عرضنا عليه الجزية، وبذلنا له المنعة وقد أعلمنا أنا مُفْتحوكم، وأوصانا

---

(١) أخرجه البخاري ٢٨٠١، ومسلم مختصرًا ٦٧٧.

بكم، حفظًا لرحمنا بينكم، وأن لكم إن أحبتمونا بذلك ذمة إلى ذمة ومما عهد إلينا أميرنا "استوصوا بالقبطيين خيرًا فإن رسول الله ﷺ أوصانا بالقبطيين خيرًا لأن لهم رحمًا وذمة. فقالوا: قرابة بعيدة لا يصل مثلها إلا الأنبياء، معرفة شريفة"[1].

فيتضح لنا من ذلك المثل العملي الذي احتفظ به التاريخ ونقله إلينا ما كان عليه السلف الصالح من (الاهتمام دعوة غير المسلمين إلى الإسلام قبل بدء القتال معهم، كما كانوا يعتنون آنذاك بالتناصح فيما بينهم والتواصي بالصبر والثبات والترغيب في الجهاد والزهد في الدنيا والمسارعة إلى الجنة ونعيمها)[2] ومن تلك الأمثلة ما قام به المسلمون في غزوة اليرموك بالتواصي فيما بينهم بالصبر والثبات، فذلك معاذ بن جبل يجعل يذكر الناس ويقول: يا أهل القرآن ومستحفظي الكتاب وأنصار الهدى والحق، إن رحمة الله لا تنال، وجنته لا تُدخل بالأماني، ولا يؤتى الله المغفرة والرحمة الواسعة إلا الصادق المصدِّق، ألم تسمعوا لقول الله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[3] فاستحيوا رحمكم الله من ربكم أن يراكم فرارًا من عدوكم وأنتم في قبضته، وليس لكم ملتحد من دونه ولا عز بغيره.

وقال عمرو بن العاص رضي الله عنه: أيها المسلمون غضوا الأبصار، واجثوا على الركب وأسرعوا الرماح فإذا حملوا عليكم فأمهلوهم، حتى إذا ركبوا أطراف الأسنة فوثبوا إليهم وثبة الأسد...[4].

(١) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير، ٨٩/١٠، ٩٠.

(٢) انظر: ركائز الدعوة إلى الله تعالى، د. فضل إلهي، ص ٣٣٨.

(٣) سورة النور، آية: ٥٥.

(٤) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير، ٥٥٥/٩.

الحديث رقم (١١٠)

١١٠- **السادس عشر:** عن أبي مسعود عُقْبَةَ بن عمروٍ الأنصاريِّ البدريِّ ﷺ قال: لمَّا نَزَلَتْ آيةُ الصَّدقةِ كُنَّا نُحامِلُ (عَلَى ظُهُورِنا)[١]. فَجَاءَ رَجُلٌ فَتَصَدَّقَ بِشَيْءٍ كَثِيرٍ فَقَالُوا: مُراءٍ، وجاءَ رَجُلٌ آخَرُ فَتَصَدَّقَ بِصَاعٍ فقالُوا: إنَّ اللَّه لَغَنِيٌّ عَنْ صاعِ هَذَا، فَنَزَلَتْ ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إلاَّ جُهْدَهُمْ﴾[التوبة ٧٩] الآية. متفقٌ عليه[٢].

«**ونُحَامِلُ**» بضم النون، وبالحاءِ المهملة: أَيْ يَحْمِلُ أَحَدُنَا على ظَهْرِهِ بالأجْرَةِ، وَيَتَصَدَّقُ بها.

ترجمة الراوي:

أبو مسعود البدري الأنصاري: هو عقبة بن عمرو بن ثعلبة الأنصاري أبو مسعود البدري مشهور بكنيته، وقد شهد العقبة مع السبعين من الأنصار شابًا وكان أصغرهم.

أُخْتُلِفَ في نسبته: البدري: فأكثر أهل السير على أنه لم يشهد بدرًا، وإنما سكنها أو نزل ماءها فنسب إليها، لكن البخاري جزم في صحيحه أنه شهدها[٣].

وما عدا ذلك فقد شهد أُحدًا، والمشاهد، والمغازي كلها.

وكان معدودًا من علماء الصحابة، وكان يُفتي أيام عمر بن الخطاب ﷺ.

عُرِف بعزة النفس والمنعة قال عن نفسه: كنت رجلاً عزيز النفس حمي الأنف لا يستقلّ مني أحد شيئًا: سلطان ولا غيره.

قاتل مع علي بن أبي طالب عندما وقع الخلاف بينه وبين معاوية، واستعمله على

---

(١) الزيادة عند مسلم عقب الحديث رقم (١٠١٨/٧٢، بدون رقم) قال: وفي حديث سعيد بن الربيع، قال: (كنا نحامل على ظهورنا).

(٢) أخرجه البخاري (١٤١٦) واللفظ له، ومسلم (١٠١٨/٧٢). أورده المنذري في ترغيبه (٢٤١٩).

(٣) صحيح البخاري (٤٠٠٧).

الكوفة، وكان يود أن يصطلح الفريقان وكان يقول: عليكم بالجماعة فإن الله لن يجمع الأمة على ضلالة حتى يستريح برٌّ أو يُستراح من فاجر.

مات بعد سنة أربعين، وقيل مات بالكوفة وقيل مات بالمدينة[(١)].

غريب الألفاظ:

نحامل: بضم النون وبالحاء المهملة: أي يحمل أحدُنا على ظهره بالأجرة ويتصدق بها[(٢)].

مراء: من الرياء، وهو أن يظهر الإنسان من نفسه خلاف ما هو عليه ليراه الناس؛ وذلك من أجل السمعة والشهرة بينهم[(٣)].

صاع: الصاع: وحدة من وحدات المكاييل وهو عند جمهور العلماء يساوي ٢١٧٢ جرامًا، أي ما يقل قليلاً عن الكيلوجرامين والربع[(٤)].

الشرح الأدبي

إن المنهج الإسلامي يفتح أمام كل صاحب جهد آفاق الإبداع والإتقان لتقديم المزيد من المجال الذي يتقنه المسلم، وكل ما يقدمه المسلم مهما قل شأنه ووزنه المادي: مقبول عند الله تعالى إذا كانت النية خالصة، وكان في العمل نفع للإسلام والمسلمين، وفيه نفع كذلك للناس جميعًا.

وفي ضوء هذا المنهج السوي نقرأ ونتدبر ونستجلي ما وراء الكلمات والأحداث في

---

(١) الطبقات، ابن سعد (١٦/٦) والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر ٥٦١ وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير (٢٨٠/٦) والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ٩٢١ والسير (٤٩٣/٢) وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي (١٩٩/٥)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (١٢٦/٣) والأعلام، خير الدين الزركلي (٢٤٠/٤).

(٢) رياض الصالحين ٩٤.

(٣) انظر: القاموس المحيط، مجد الدين بن يعقوب الفيروز آبادي ، ومختار الصحاح في (ر أ ى)، ومعجم لغة الفقهاء ٢٠٤.

(٤) انظر: معجم لغة الفقهاء ٢٤١ ، ٤١٩.

هذا الحديث الشريف.. حيث يعرض الراوي لنموذجين من المسلمين استجابا لدعوة القرآن الكريم إلى التصدق، وأقدما على التنفيذ بعد حث المصطفى ﷺ على ذلك في قوله ﷺ: "ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم".

وهذه الاستجابة لإخراج الصدقة اتخذت طريقين: أحدهما كان يتسم بالمشقة والقلة.. ومن الذين اتبعوا هذا النهج راوي الحديث، أبو مسعود عقبة بن عمرو الأنصاري وغيره من فقراء الصحابة، حيث كانوا يحملون على ظهورهم بالأجرة ليكتسبوا ما يتصدقون به، وهو تطوع منهم وليس واجبًا، والتعبير بقوله: "نحامل" يومئ بالمشقة والتعب، ومن هؤلاء من تصدق بصاع: وهو نصف ما اكتسبه من عمل يده، فاستقل بعض الناس: وهم: اللامزون، ما تصدق به وقالوا: إن الله لغني عن صاع هذا، وهؤلاء لا يحبهم الله ولا رسوله لأنهم يسخرون من فقراء المسلمين، وجزاؤهم أن الله سخر منهم ولهم عذاب أليم.

ومما يؤكد خطأ منهجهم، وبأنهم غير صادقين في اعتراضهم على قلة الصدقة اتهامهم لمن اتبع الطريق الثاني الذين أكثروا من الصدقات بأنهم مراءون، وعبدالرحمن بن عوف هو الذي تصدق – كما قيل – بأربعين أوقية من الذهب، فاتهمه هؤلاء المنافقون اللامزون بأنه مراء، وهذا اتهام باطل.

وقد كشف الحق سبحانه وتعالى زيف هؤلاء اللمَّازين، وفضح أمرهم، حتى يكونوا عبرة وعظة لغيرهم، في قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾(١)، وقول الله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٢)، والصدقة في هذا الحديث: ليس المقصود بها، الزكاة، لأن الزكاة واجبة، وهي ركن من أركان الإسلام: والمراد هنا: الصدقات

---

(١) سورة التوبة، آية: ٧٨.

(٢) سورة التوبة، آية: ٧٩.

المنثورة، فقد دعا الإسلام إلى الإنفاق عامة، وأعد النفوس للبذل والعطاء: قيامًا بحق الله وحق العباد، وخص ذوي الحاجة في الجماعة الإسلامية بالذكر والحض على البر بها في آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ وتصرفاته وذلك ما يسمى الصدقات المنثورة: أي أنها تكون من غير تحديد لمقدارها المعطي، ولا تعيين للمعطى له، ولا إلزام للمعطي فيها مطلقًا، بل الدافع إليها قوة الإيمان، وكمال اليقين، فيما عند الله تعالى وهو خير وأبقى[١]، وفي ذلك تماسك وتعاطف بين أبناء الأمة الإسلامية، وقوة لها وهيبة لها أمام أعدائها المتربصين بها.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: المسارعة في الامتثال لأوامر الله تعالى ورسوله ﷺ.

ثانيًا: من أهداف الدعوة: الحث على التنافس في البذل.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: بيان عداوة المنافقين للمؤمنين وخطرهم على الدعوة.

أولاً- من موضوعات الدعوة: المسارعة في الامتثال لأوامر الله تعالى ورسوله ﷺ:

إن مما يستنبط من الحديث المسارعة في الامتثال لأمر الله ورسوله، حيث كان الصحابة رضي الله عنهم سبّاقين في هذا المجال، خاصة عند نزول آية الصدقة، فقد ورد في هذا الحديث ما يؤكد ذلك من قول الراوي: "كنا نحامل على ظهورنا" وقد كان ذلك طبعًا وعادة في حياة الصحابة رضي الله عنهم امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[٢] وامتثالاً لقوله تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾[٣] وقد حث النبي ﷺ على ذلك، فقال: ((بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ. يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا. أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا. يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا))[٤].

---

(١) انظر: التكافل الاجتماعي في الإسلام، د. عبدالعال أحمد عبدالعال، ص ١٤٧.

(٢) سورة الأنفال، آية:٢٤.

(٣) سورة الشورى، آية: ٤٧.

(٤) أخرجه مسلم ١١٨.

قال النووي: (معنى الحديث الحث على المبادرة إلى الأعمال الصالحة قبل تعذرها والاشتغال عنها بما يحدث من الفتن الشاغلة المتكاثرة المتراكمة، كتراكم ظلام الليل المظلم لا المقمر، ووصف ﷺ نوعًا من شدائد تلك الفتن وهو أن يمس مؤمنًا ثم يصبح كافرًا أو عكسه، وهذا لعظم الفتن ينقلب الإنسان في اليوم الواحد هذا الانقلاب)[١]. فالمبادرة إلى الأعمال والمسارعة في الامتثال لأمر الله تعالى ورسوله ﷺ واجب على كل مؤمن امتثالاً لقول الحق: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ﴾[٢].

ثانيًا- من أهداف الدعوة: الحث على التنافس في البذل:

إن من أهم ما ترمي إليه الدعوة استثارة همم المدعوين للتنافس في البذل والعطاء، وقد كان الصحابة رضي الله عنهم قدوة في ذلك، ومن الشواهد على تنافسهم ما ورد في هذا الحديث من قول الراوي: "فجاء رجل فتصدق بشيء كثير... وجاء رجل آخر فتصدق بصاع" وذلك طمعًا فيما عند الله من الثواب وعظيم الأجر، وقد بين الحق تبارك وتعالى ذلك فقال: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ﴾[٣] وقال تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾[٤] وقد حث النبي ﷺ على ذلك فقال: ((اتَّقوا النارَ ولو بشِقِّ تمرةٍ))[٥] وقال: ((الصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ، كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ))[٦] فكان ذلك دافعًا للصحابة رضي الله عنهم في الحرص على بذل الصدقات امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾[٧].

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٨.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٤٨.

(٣) سورة سبأ، آية: ٢٩.

(٤) سورة البقرة، آية: ٢٧٢.

(٥) البخاري ١٤١٣، ومسلم ١٠١٦.

(٦) أخرجه الترمذي ٦٦٤، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٩٠٨).

(٧) سورة المطففين، آية: ٢٦.

وكما أن الصدقة إنما شرعت لسدّ حاجة المعوزين، فهي كذلك من أعظم الأسباب للتمهيد للدعوة وقبولها عند من تعرض عليه تأليفًا لقلبه، أو مواساة أو ما شاكل ذلك، وقد جعل الله تعالى للمؤلفة قلوبهم قسمًا من مصارف الزكوات، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[1].

ومن يقرأ السيرة النبوية يجد أن النبي ﷺ كان يعطي عطاءً جزيلاً عما كان له أكبر الأثر في قبول دعوته ومن ذلك ما جاء في الصحيحين عن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أعطى رهطًا وسعد جالس فيهم، قال سعد رضي الله عنه "فترك رسول الله ﷺ منهم من لم يعطه وهو أعجبهم إلي، فقلت: يا رسول الله مالك عن فلان؟ والله إني لأراه مؤمنًا، فقال رسول الله ﷺ "أو مسلمًا" قال فسكت قليلاً، ثم غلبني ما أعلم منه، فقلت: يا رسول الله مالك عن فلان؟ فوالله إني لأراه مؤمنًا"، فقال رسول الله ﷺ "أو مسلمًا" قال: فسكت قليلاً ثم غلبني ما أعلم منه فقلت: يا رسول الله مالك عن فلان؟ فوالله إني لأراه مؤمنًا، فقال رسول الله ﷺ "أو مسلمًا" إني لأعطي الرجل غيره أحب إلي منه خشية أن يكبه الله في النار على وجهه"[2].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلاً سأل النبي ﷺ غنمًا بين جبلين فأعطاه إياه، فأتى قومه، فقال أي قوم أسلموا، فوالله إن محمدًا ليعطي عطاء ما يخاف الفقر[3].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: بيان عداوة المنافقين للمؤمنين وخطرهم على الدعوة:

إن من شواهد عداوة المنافقين للمؤمنين ما ورد في الحديث على لسان بعض الناس "... فقالوا مراء، وجاء رجل آخر فتصدق بصاع فقالوا: إن الله لغني عن صاع هذا" وذلك للتشكيك في إخلاص المنفقين والباذلين للمال فقاموا بلمزهم، إنه عندما (جاء رسول

---

(١) سورة النور، آية: ٦٠.

(٢) أخرجه البخاري ١٢٧، ومسلم ٢٣٧ واللفظ له.

(٣) أخرجه مسلم ٢٣١٢.

الله ﷺ إلى المدينة المنورة، كان أهلها على أهبة المناداة بعبدالله بن أُبَيٍّ مَلِكًا عليهم، فتغير مجرى الحوادث على غير ما يهوى هذا الرجل، فأقام مدة وحوله جماعة من أنصاره وأصدقائه، يقلبون الأمور ويبتغون الفتن لرسول الله ﷺ، ولكن الله أعز جنده، وأيد دينه، فأقبل بعضهم على بعض منذ يوم بدر، وقالوا: هذا أمر قد توجّه... ورأوا الناس يدخلون في دين الله، ويقبلون على رسوله بالسمع والطاعة والمحبة، فكرهوا أن يظلوا وحدهم، فدخلوا في الإسلام ظاهرًا، وبقيت قلوبهم على جحودها وغيظها... فكانوا يقومون بمهمة "الطابور الخامس" لليهود ولغير اليهود من أعداء رسول الله ﷺ؛ فأعلم الله رسوله بنبأ هؤلاء المنافقين، بصفة عامة لا خاصة، ليأخذ حذره، فقال: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَـٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ﴾(١) ثم زاده معرفة بهم فقال: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَـٰنَهُمْ ۝٢٩ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَـٰلَكُمْ﴾(٢).

وقد كان موقف المنافقين من المسلمين، أحقر موقفًا وأخس نفسًا من المشركين واليهود، فليس كالنفاق آفة تحلق المروءة والرجولة، ولهذا يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾(٣).

وتتلخص أساليب هذه الحرب السرية في الأنواع الآتية:

أ- استهزائهم بالمطوعين من المؤمنين في الصدقات، فمن أعطى جزيلاً رموه بالرياء؛ ومن أعطى قليلاً؛ لأنه لا يجد إلا جهده، سخروا منه، وهذا ما أشار إليه نص الحديث من قول الراوي لما نزلت آية الصدقة: كنا نحامل على ظهورها، فجاء رجل فتصدق بشيء

---

(١) سورة التوبة، آية: ١٠١.

(٢) سورة محمد، آية: ٢٩.

(٣) سورة النساء، آية: ٤٥.

كثير فقالوا: مراء .... إلخ.

ب- إضعاف شأن المسلمين في الحروب، وهؤلاء المنافقون أقدر من غيرهم على القيام بهذه المهمة، فقد دخلوا في الإسلام، وأظهروا الإخلاص لنبيه، وأتقنوا دورهم، حتى إن عمر رضي الله عنه نفسه لم يكن يعرف عن أكثرهم إلا الصلاح والورع. فكان هؤلاء "الصلحاء الأكابر" يقعدون عن الخروج للقتال، أو يستأذنون في القعود. فإذا رآهم من هو أقل منهم من العامة، اقتدى بهم وأدركه شيء من الفتور والتثاقل. وكانوا كذلك يشيرون على غيرهم بالقعود معهم، فيقعد من يقعد، ويخرج إلى القتال من يخرج مخالفًا مشورتهم، فإذا قتل قالوا: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1].

وكان بعض هؤلاء المنافقين يخرج ولكنه يعود من الطريق. ويقول: والله ما ندري علام نقتل أنفسنا؟ فإذا رجع، رجع معه طائفة كبيرة من الجيش (كما حصل يوم أحد)[2]... فإذا خرجوا ولم يرجعوا من الطريق سعوا بالفتنة. وبثوا روح التخاذل في الجيش؛ كما حصل في غزوة تبوك، إذ قال بعضهم (يظن هذا "يعني رسول الله" أنه يفتح قصور الروم وحصونها، هيهات هيهات. ويقول آخر: أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضًا؟ والله لكأنا بكم غدًا مقرنين في الحبال)[3]، وصدق الله العظيم: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾[4].

ج- كانوا ينتهزون كل فرصة سانحة للوقيعة بين المسلمين، وإثارة الفتن في صفوفهم.

في غزوة بني المصطلق (تدافع غلامان على الماء أحدهما لرجل من المهاجرين والآخر لرجل من الأنصار ... فصاح المهاجري: يا للمهاجرين، وصاح الأنصاري: يا للأنصار ... وسمعهما عبدالله بن أبيٍّ رأس المنافقين، فلم يتركها تمر دون أن يستغلها في الوقيعة التي

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٦٨.

(٢) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام، ٣/٢٥-٢٦.

(٣) المرجع السابق ٤/١٦٥.

(٤) سورة التوبة، آية: ٤٧.

يريد، فقال: قد ثاورونا في بلادنا، والله ما مثلنا وجلابيب قريش هذه، إلا كما قال القائل: (سمن كلبك يأكلْك) ... ثم أقبل على من في مجلسه، وقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم - أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو كففتم عنهم لتحولوا عنكم من بلادكم إلى غيرها ... والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ...)[1].

وأرادها الرجل فتنة بين المهاجرين والأنصار، ولكن الله أحبط كيده، وحفظ جنده من التفرقة، بتصرف حكيم بارع لرسول الله ﷺ (فصلته كتب السيرة)[2].

د- محاولة الغض من جلال الرسالة بالاستهزاء برجالها، واختراع الأراجيف في حقهم، فهذا عبدالله بن أُبي يخترع حديث الإفك، ويتولى كبره؛ وهو ضربة موجهة للإسلام بطريق غير مباشر ... فإن شكّ الناس في عرض عائشة رضي الله عنها[3].

وقالوا عن النبي ﷺ: إنه أُذُن، كلما قال له أحد شيئًا صدقه، فإذا قيل له ضده صدقه أيضًا.

كل هذا، وهم معدودون من المسلمين، لا يستطيع أحد أن ينكر عليهم إسلامهم، لأنهم يقولون بألسنتهم "لا إله إلا الله محمد رسول الله"، وتحت ستار هذه الشهادة يأتون ما يأتون من الجرائم، فإذا سئلوا اعتذروا، أو أنكروا وأقسموا.

أما موقف النبي ﷺ من هذه الفئة فقد كان يترك إلى الله سرائرهم، ويعاملهم بما يبدو من ظواهرهم. جاءه منافق ليتوب من نفاقه، فقال: ((يا رسول الله، الإيمان على لساني، والنفاق في قلبي ولا أذكر الله إلا قليلا، فقال عليه السلام: اللهم اجعل له لسانًا

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام، ٣/٢٣٦-٢٣٧، البداية والنهاية، ابن كثير، ٦/١٨٤-١٨٥.

(٢) وهو ما بينه ابن إسحاق في قوله: ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدْر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مسّ الأرض فوقعوا نيامًا، وإنما فعل ذلك رسول الله ﷺ يشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس، من حديث عبدالله ابن أبيّ". السيرة النبوية، ابن هشام، ٣/٢٣٨.

(٣) السيرة النبوية، ابن هشام، ٣/٢٤٦.

ذاكرًا، وقلبًا شاكرًا، وارزقه حبي وحب من يحبني، وصير أمره إلى خير. فقال الرجل: يا رسول الله إنه كان لي أصحاب من المنافقين، وكنت رأسًا فيهم، أفلا آتيك بهم؟ فقال عليه السلام: من أتانا استغفرنا له، ومن أصر فالله أولى به، ولا تخرقن على أحد سترًا))(١).

وقد بين النووي: (أن حلم النبي ﷺ وتركه لبعض الأمور المختارة، وصبره في ذلك على بعض المفاسد؛ إنما كان لغاية عظيمة وحكمة جليلة؛ هي ألا يترتب على ذلك مفسدة أعظم، وقد كان ﷺ يتألف الناس، ويصبر على جفاء الأعراب والمنافقين وغيرهم؛ لتقوى شوكة المسلمين، وتتم دعوة الإسلام، ولم يقتل المنافقين لهذا المعنى ولإظهارهم الإسلام، وقد أمر بالحكم بالظاهر والله يتولى السرائر)(٢).

ولعل في هذا التلخيص، ما يعين المدعو على فهم ما ورد في نص الحديث من عداوة المنافقين للمؤمنين.

---

(١) أخرجه الطبراني ٣٤٧٥، وقال الهيثمي في المجمع رجاله رجال الصحيح، وقال الحافظ في الإصابة، إسناد لا بأس به.

(٢) انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٤٥.

الحديث رقم (١١١)

١١١- السابَع عشر: عن سعيدِ بنِ عبدِ العزيزِ، عن رَبيعةَ بنِ يزيدَ، عن أَبي إدريس الخَوْلاَنيِّ، عن أَبي ذَرٍّ جُنْدُبِ بنِ جُنَادَةَ ﷺ، عن النَّبيِّ ﷺ فيما يَرْوِي عَنِ اللهِ تبارك وتعالى أنه قال: «يا عِبَادِي إنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلاَ تَظالَمُوا، يَا عِبَادِي كُلُّكُم ضَالٌّ إلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُوني أَهْدكُمْ، يَا عِبَادي كُلُّكُمْ جائعٌ إلاَّ منْ أطعمتُه، فاستطعموني أطعمْكم، يا عبادي كلكم عارٍ إلاَّ مِنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُوني أكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي إنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُوني أغفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي إنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّوني، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُوني، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ، وَإنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أتقَى قلبِ رجلٍ واحدٍ منكم ما زادَ ذلكَ فِي مُلكي شيئًا، يا عِبَادِي لو أنَّ أوَّلكم وآخركُم وإنسكُم وجنكُمْ كَانوا عَلَى أفجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسأَلُوني فَأعْطَيْتُ كُلَّ إنْسانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إلاَّ كَمَا يَنْقُصُ المِخْيَطُ إذَا أُدْخِلَ البَحْرَ، يَا عِبَادِي إنَّما هِيَ أعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ الله، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إلاَّ نَفْسَهُ».

قَالَ سعيدٌ: كان أبو إدريس إذا حدَّثَ بهذا الحديث جَثَا عَلَى رُكبتيه. رواه مسلم[1].

وروينا عن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله قال: ليس لأهل الشام حديث أشرف من هذا الحديث.

ترجمة الراوي:

أبو ذر الغفاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٦١).

---

(١) برقم (٢٥٧٧/٥٥).

غريب الألفاظ:

تظالموا: أي لا تتظالموا والمراد: لا يظلم بعضكم بعضًا[١].

صعيد واحد: الصعيد: وجه الأرض والمرتفع من الأرض والموضع الواسع[٢].

المخيط: الإبرة[٣].

جثا على ركبتيه: جلس على ركبتيه[٤].

الشرح الأدبي

إن هذا الحديث القدسي الجليل يضيء آفاق الحياة، ويرشد الناس إلى سبل النجاة، ويغرس الأمل في قلوب الحيارى الذين أنساهم الشيطان أنفسهم، وأنساهم استحضار الشكر على نعم الله تعالى التي لا تعد ولا تحصى.

والمنارات الإرشادية الهادية تتوهج أضواؤها في آفاق هذا الحديث الجامع لكثير من أبواب الهداية والمعرفة، وأول ما يصلح ذات البين بين العباد هو القضاء على الظلم.. ولذلك جاء النهى الإلهي عن ذلك في قوله: "فلا تظالموا"، وهذا النهى جاء مقنعًا مسببًا لأن الله تعالى حرم الظلم على نفسه فقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾[٥]، وحرم الظلم على عباده، ونهاهم أن يتظالموا فيما بينهم، فحرام على كل عبد أن يظلم غيره، مع أن الظلم في نفسه محرم مطلقًا: هو نوعان إحداهما: ظلم النفس وأعظمه الشرك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾[٦]، والثاني ظلم العبد لغيره، وهو المذكور في هذا الحديث[٧]، وقوله: "فلا تظالموا"،

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٤٢.

(٢) الوسيط في (ص ع د).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (خ ي ط).

(٤) النهاية، والوسيط في (ج ث و).

(٥) سورة فصلت، آية: ٤٦ .

(٦) سورة لقمان، آية: ١٣ .

(٧) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ص ١٦٦.

نهى عن رد الظلم بالظلم، ونهى عن الحرص على دفع الظلم بظلم أقسى وأشد منه، وفي ذلك إيحاء بالعفو والتسامح كما في الدعاء، اللهم اعف عمن ظلمني وأعط من حرمني، والأفق الثاني من آفاق الهداية والنجاة في هذا الحديث هو حرص الله عز وجل على هداية عباده، وحتى ينجيهم من الضلال ناداهم في رفق ومحبة ورحمة بعد أن بيّن لهم واقعهم: فهم كلهم معرضون للضلال إلا من هداه الله، وأمر الحق سبحانه وتعالى عباده بطلب الهداية، وعبر عنه بالاستهداء إشارة إلى ضرورة مقاومة النفس، ومجاهدة الشيطان، وهذا الحديث هو ختام باب المجاهدة، ويوحي ذلك بأنه جامع لسبل المجاهدة والمقاومة. وأي مجاهدة أعظم وأقوى من الاستعانة بالله تعالى والتحصن بقوته وعزته من سبل الغواية والضلال، وقيل: إن في طلب الهداية من الله: اعترافاً من العبد على نفسه بالعبودية ولمولاه بالربوبية، وهذا مقام شريف لا يتفطن له إلا الموفقون.

والأفق الثالث من آفاق النجاة والمجاهدة والصلة بالله عز وجل هو التوكل على الله، وطلب الرزق منه سبحانه وتعالى: فخزائنه لا تنفد، وعطاياه لا تنضب، وكرمه لا ينتهي، "وكلكم جائع"، واقع حقيقي لأن الإنسان في الحياة لا يستطيع إشباع نفسه إلا بالعمل.. والتحصيل والكسب، وهذا العمل لابد أن يكون مصحوبًا بشعور ويقين العبودية لله تعالى، لأنه مالك السموات والأرض، وهو يسخر كل ما في هذا الكون للإنسان من نبات وحيوان، وطير، وجبال، وبحار، وأجرام وكواكب، وكلها من مصادر رزق الإنسان، كما قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُ﴾(٣)، والتعبير بصيغة التفعيل، فاستطعموني: أطعمكم، يرشد إلى حتمية الكد والتعب، والسعي، واستغلال الطاقات الكامنة في الأرض.. وما عليها، وفي

(١) سورة الذاريات، آية: ٢٢.

(٢) سورة الواقعة، آية: ٦٤.

(٣) سورة إبراهيم، آية: ٣٤.

السموات وما فيها، كما قال تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[(١)].

والأفق الثالث من آفاق النجاة والصلة بين العبد وربه: هو طلب الستر والإيواء، لأن الإنسان الذي يفقد مسكنه وملبسه وطعامه.. يفقد مقومات الحياة الأساسية.

وطلب الكسوة من الله... من سبل المجاهدة والمكابدة في الحياة، لأن الإنسان مهما سعى وحصَّل في الحياة المادية وهو يفتقد الشعور الإيماني.. فإنه سيظل عاريًا لا يجد ما يستره في حياته إذا فقد المقومات المادية التي زين للناس حبها وعبر عنها القرآن الكريم بالشهوات.

ويفتح الله تعالى باب التوبة لعباده، وهذا هو الأفق الأعلى من آفاق النجاة..والطريق إليه: الاستغفار وهو مفتاح الخير في الدنيا والآخرة، ويقول الله عز وجل: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾[(٢)].

وحتى لا يظن الواهمون بأن نداء الله لعباده في كل الأمور السابقة فيها إنقاص لعزة الله، وملكوته أكد الحق سبحانه وتعالى: بأنه لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية، وإنما كل النداءات السابقة من أجل إنقاذ الإنسان من الضلال والهلاك والغواية والجحود والعصيان، ويطمئن الحق سبحانه ملايين العباد في كل زمان ومكان بأن مُلْكه لا يزول، وأن عطاءه لا ينفد، وأن المتقين هم الفائزون بخيري الدنيا والآخرة، وأن الفجار هم الخاسرون، وإن وهموا أنهم أحسنوا الأعمال، وزينوا الأقوال.

ويختم الحديث ختامًا جميلاً كريمًا حيث يفيض الله تعالى بعطاياه على جميع عباده المخلصين الداعين والسائلين، بالإجابة والعطاء كل حسب مسألته وحاجته، وملكه هو هو في عطائه لا ينقص منه شيء.

---

(١) سورة النجم، آية: ٣٩.

(٢) سورة نوح، الآيات: ١٠-١٢.

ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف وهي تمتزج بالمعنى، وتساعد على الفهم، وتقوي التأثير وهي:

أ- النداء والتكرار: في قوله: يا عبادي: وقد تكرر هذا النداء عشر مرات، وفي كل مرة تتجلى قدرة الله تعالى ورحمته بعباده الطائعين المجاهدين، والتعبير بقوله: "يا عبادي" فيه إشعار بحتمية العبادة، وبأن الله تعالى هو الخالق وهو يحفظ عباده الذين لا يعبدون من دون الله شيئًا، والتكرار لمزيد من التأكيد، وكذلك إضافة العباد إلى ياء المتكلم وهو الله عز وجل فيه تشريف لهم، ووعد بالرعاية والحفظ لأنهم عباده، عباد الرحمن.

ب- الاستثناء والمقابلة بين الألفاظ والمواقف والمعاني، وقد تكرر هذا الاستثناء ثلاث مرات، والمستثنى هو مَنْ شملته رحمة الله عز وجل، والمستثنى منه يمثل قاعدة عامة للسلوك البشري الذي ضل طريق الفطرة، وزين له الشيطان طريق الغواية، كما قال تعالى على لسان إبليس: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[1]، فالعباد كلهم ضالون إلا من هداه الله، وكلهم جائعون إلا من أطعمه الله، وكلهن عارون إلا من كساه الله.

ج- الأمر وجوابه: وقد تكرر ثلاث مرات بعد جملة الاستثناء، وفي ذلك إلزام بوجوب الفعل المطلوب وليس الأمر اختيارًا (فاستهدوني أهدكم، فاستطعموني أطعمكم، فاستكسوني أكسكم، وتكرر مرة بعد ذلك.

د- المشاكلة الأسلوبية وتناسق البناء التعبيري، فالجمل الثلاث التي ورد فيها الاستثناء فيها تناسق تعبيري ومشابهة في بناء الجمل مع تكرار "كلكم" لتأكيد شمول القاعدة، ولكن عند التنبيه إلى الأخطاء تغير ذلك النسق الأسلوبي، فلم يقل: كلكم تخطئون لأن من البشر مَنْ هم معصومون ولا يخطئون وهم الأنبياء، وجاء التعبير يقول: "إنكم تخطئون"، مصحوبًا بالتأكيد والزمن المضارع ليرشد إلى وجود الخطأ واستمراره، ولكن الاستغفار والمجاهدة تزيل ذلك الخطأ فالله يغفر الذنوب جميعًا.

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٦ .

هـ- أسلوب الجواب والشرط: وأداته "لو" وهي أداة امتناع لامتناع، وجاءت صيغ الشرط في سياق تفرد الله تعالى بعزته وجبروته، وتكررت ثلاث مرات مع التأكيد وتكرار كلمات: أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، إشارة إلى عموم الخلق وجميع الكائنات.

و- أسلوب القصر: وقد ورد في سياق تصوير ثبات ملك الله عز وجل وأنه لا ينقص بالسؤال، والتشبيه هنا للتمثيل وتقريب المعنى وتوضيحه.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النداء.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: حرمة الظلم.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الحث على الدعاء وبيان فضله.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: الحث على الاستغفار وبيان فضله.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: بيان غنى الله تعالى عن عباده.

سادسًا: من أساليب الدعوة: التمثيل لتقريب الأفهام.

سابعًا: من موضوعات الدعوة: مراقبة الله في الأعمال.

ثامنًا: من أهداف الدعوة: بيان رحمة الله تعالى بعباده المؤمنين.

أولاً- من أساليب الدعوة: النداء:

النداء من الأساليب الدعوية التي يكون بها لفت انتباه المدعوين، فضلاً عن استحضار أذهانهم؛ لبيان أهمية الأمر المدعو إليه، وقد ورد هذا الأسلوب الدعوي في الحديث القدسي من قوله تعالى "يا عبادي".

ففي هذا الحديث العظيم الشريف يتجلى اللطف الرباني، والعناية الإلهية بالخلق، ويبدو هذا من أمور عدة وردت في الحديث، منها تكرار هذا النداء الندي الرائع الحنون الرؤوف: يا عبادي يا عبادي، فقد تكرر عشر مرات، ولهذا النداء وقع كبير عند أصحاب القلوب الشفافة والأرواح النامية، يتيهون لسماعه ويطربون له وتهتز أوتار

قلوبهم وأعماق مشاعرهم حين يلامس هذا النداء مسامعهم[(١)].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: حرمة الظلم:

إن الظلم من موجبات غضب الجبار، وتخريب الديار، به يكون فساد الأمم وانهيار الدول (فالله ينصر الدولة العادلة، وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة، وإن كانت مؤمنة)[(٢)]، وقد كان الظلم سببًا لهلاك الأولين (بعد أن منعوا الحق حتى اشتُرِيَ، وبسطوا الجور حتى افتُدِيَ)[(٣)]، ومن أجل ذلك حرمه الحق على نفسه، وجعله بين عباده محرمًا، وهذا ما ورد في نص الحديث، من قوله تعالى: "يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا" (والظلم وضع الشيء في غير موضعه، والتصرف في حق الغير، ومجاوزة حد الشارع)[(٤)].

وهو كما قال الراغب على ثلاثة أنواع: (الأول: ظلمٌ بين الإنسان وبين الله تعالى، وأعظمه الكفر والشرك والنفاق، ولذلك قال: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[(٥)] وإياه قَصَد بقوله ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[(٦)] والثاني: ظلم بينه وبين الناس، وإياه قصد بقوله ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[(٧)] وبقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾[(٨)] والثالث: ظلم بينه وبين نفسه، وإياه قصد بقوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾[(٩)] وقوله: ﴿ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾[(١٠)] وكل هذه الثلاثة في الحقيقة ظلم

(١) من هدي النبوية، د. محمد بن لطفي الصباغ، ص ٨٣.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم، ٦٢/٢٨-٦٣.

(٣) الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعمر القيام ١٧٩/١.

(٤) الكليات معجم المصطلحات والفروق الفردية، أبو البقاء الكفوي، الكفوي، ٥٩٤.

(٥) سورة لقمان، آية: ١٣.

(٦) سورة هود، آية: ١٨.

(٧) سورة الشورى، آية: ٤٠.

(٨) سورة الشورى، آية: ٤٢.

(٩) سورة فاطر، آية: ٣٢.

(١٠) سورة القصص، آية: ١٦.

للنفس، فإن الإنسان في أول ما يهم بالظلم فقد ظلم نفسه)[١].

وقد توعد الحق تعالى الظالمين فقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾[٢] (وفي ذلك وعيد للظالم وتعزية للمظلوم)[٣]، وقال تعالى في بيان عاقبة الظالمين ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[٤] وقال تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٥] وقال النبي ﷺ مؤكدًا ومرهبًا من الظلم ((اتَّقِ دَعوةَ المظلومِ، فإنها ليسَ بينَها وبينَ اللهِ حِجاب))[٦].

وقد بين ابن القيم: (أن الظلم عند الله عز وجل يوم القيامة له دواوين ثلاثة: ديوان لا يغفر الله منه شيئًا، وهو الشرك به، فإن الله لا يغفر أن يشرك به. وديوان لا يترك الله تعالى منه شيئًا، وهو ظلم العباد بعضهم بعضًا، فإن الله تعالى يستوفيه كله. وديوان لا يعبأ الله به شيئًا، وهو ظلم العبد نفسه بينه وبين ربه عز وجل، فإن هذا الديوان أخف الدواوين وأسرعها محوًا، فإنه يمحى بالتوبة والاستغفار، والحسنات الماحية، والمصائب المكفرة، ونحو ذلك، بخلاف ديوان الشرك فإنه لا يمحى إلا بالتوحيد، وديوان المظالم لا يمحى إلا بالخروج منها إلى أربابها واستحلالهم منها)[٧].

فعلى المرء أن يجتنب الظلم جهده.

---

(١) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ٣١٧.

(٢) سورة إبراهيم، آية: ٤٢.

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، ٧٠٤/١٣.

(٤) سورة يونس، آية: ١٣.

(٥) سورة الأعراف، آية: ٤١.

(٦) أخرجه البخاري ١٤٩٦.

(٧) الوابل الصيب من الكلم الطيب، ابن القيم، تحقيق: محمد عبدالرحمن عوض ٢٧١.

ولله دَرُّ القائل:

لا تَظْلِمَنَّ إذا ما كُنْتَ مُقْتَدِرًا	فالظُّلمُ آخِرُهُ ياتِيكَ بالنَّدَمِ
نَامَتْ عُيُونُكَ والمظلُومُ مُنتبهٌ	يَدْعُو عَلَيْكَ، وَعَيْنُ اللهِ لم تَنَمِ

وقيل:

يا أيها الظَّالمُ في فعلِهِ	فالظُّلمُ مردودٌ على من ظَلَمْ
إلَى مَتَى أنتَ وحتَّى متى	تَسْلُو المُصيباتِ وتنسى النِّقَمْ

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: الحث على الدعاء وبيان فضله:

مما لا شك فيه أن الدعاء من أجلّ أنواع العبادات لما فيه من إلقاء الهمّ على الرب لحسن الظن بالقرب (وهو إظهار غاية التذلل والافتقار إلى الله، والاستكانة له، وما شرعت العبادات إلا للخضوع للباري وإظهار الافتقار إليه)[١]، ومن أجل ذلك حث الحق -تبارك وتعالى- عليه، وأمر به في نص الحديث فقال "فاستهدوني أهدكم..." وقال: فاستطعموني أطعمكم. وقال: فاستكسوني أكسكم، وقد أكد الحق تبارك وتعالى على الدعاء وأهميته، فقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[٣] (وهذا من فضله تبارك وتعالى وكرمه؛ أنه ندب عباده إلى دعائه، وتكفل لهم بالإجابة، وفي هذا المعنى يقول الشاعر:

الله يغضب إن تركت سؤاله	وبُنَيُّ آدم حين يُسألُ يغضب)[٤]

وقد أكد النبي ﷺ على أهمية الدعاء ووجوب القيام به فقال: ((الدُّعَاءُ هُوَ

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٩٨/١١.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٨٦.

(٣) سورة غافر، آية: ٦٠.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١٥٣/٧.

العِبَادَةُ))[1] وقال: ((لاَ يَرُدُّ القَضَاءَ إِلاَّ الدُّعَاءُ))[2] وقد رغب النبي ﷺ في القيام به فقال: ((لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى الله تَعَالَى مِنَ الدُّعَاءِ))[3] وقال ((مَا عَلَى الأَرْضِ مُسْلِمٌ يَدْعُو الله تَعَالَى بِدَعْوَةٍ إِلاَّ آتَاهُ الله إِيَّاهَا أَوْ صَرَفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا مَا لَمْ يَدْعُ بِمَأْثَمٍ أَوْ قَطِيعةِ رَحِمٍ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ: إِذًا نُكْثِرُ. قَالَ: الله أَكْثَرُ))[4] (فالدعاء إن صادف خشوعًا في القلب، وانكسارًا بين يدي الرب، وذلاً له وتضرعًا ورقة، واستقبل الداعي القبلة وكان على طهارة، ورفع يديه إلى الله، وبدأ بحمد الله والثناء عليه، ثم ثنى بالصلاة على محمد عبده ورسوله ﷺ، ثم قدم بين حاجته التوبة والاستغفار، ثم دخل على الله، وألح عليه المسألة، وتملّقه ودعاه رغبة ورهبة وتوسل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده، وقدَّم بين يديْ دعائه صدقة، فإن الدعاء لا يكاد يُرد أبدًا)[5].

فالدعاء أفضل العبادات لأن من خلاله تظهر عبودية الإنسان وانكساره أمام خالقه سبحانه، ويضرع المؤمن إلى ربه يرجو رحمته ويخاف عذابه، ويسأله من فضله سبحانه، ولاشك أن فضل الدعاء واسع، لا يمكن أن نستقصيه في هذا المجال، ولكن حسبنا في ذلك أن الله تعالى أمر عباده المؤمنين بالدعاء ووعدهم بالاستجابة فينبغي إخلاص الدعاء لله تعالى وحضور القلب.

إن الدعاء هو سبيل القوة الحقة، فلا يقضي على النفس ويوردها موارد التهلكة كإحساسها بالضياع وفقدان السند المعين واليد الحانية، إنه إحساس يأتي على كل ما فيها من قوة وثقة وعزيمة على السير إلى نهاية الطريق، وهو سر ما تعانيه المجتمعات الملحدة من كثرة حوادث الانتحار وضحايا القلعة والصرع والجنون، رغم ما تنعم به من متعة وراحة مادية في الحياة، وفي إحساس المؤمن بحفظ الله ورعايته، وأنه يستمع إليه

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، ٧١٤ وصححه الألباني (صحيح الأدب المفرد ٥٥٠).

(٢) أخرجه الترمذي ٢١٣٩، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٧٣٨).

(٣) أخرجه الترمذي ٣٣٧٠، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٦٨٤).

(٤) أخرجه الترمذي ٣٥٧٣، قال الألباني: حديث حسن صحيح (صحيح سنن الترمذي ٢٨٢٧).

(٥) الداء والدواء، ابن القيم، ٢٧-٢٨.

إذا شكا، ويجيبه إذا دعا ويأخذ بيده إذا كبا ويمده إذا ضعف ويعنيه إذا احتاج؛ إحساس يملأ النفس سكينة وراحة، ويخلق فيها القوة الحقة، والعزم والثقة والرضا[1].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: الحث على الاستغفار وبيان فضله:

للاستغفار فضل عظمي، وأثر كبير في مغفرة الذنوب، وتفريج الكروب، وجلب الأرزاق، وقد أمر به تعالى في نص الحديث فقال "فاستغفروني أغفر لكم" وفي ذلك تأميل الراجين، وتأنيس المذنبين، بمغفرة الغفور الرحيم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2] وقال: ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[3] وقال: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[4] ومن أجل ذلك أمر تعالى عباده بالاستغفار فقال: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[5] وقال: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[6] وهو سبب رفع العذاب لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[7].

وبالاستغفار تكون الرحمة من الله تعالى، والإمداد بالأموال والأولاد، قال تعالى حكاية عن نبيه نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾[8].

---

(١) منهج القرآن في التربية، محمد شديد، ص ٢٢٤، ٢٢٥.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٧٣.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٦٨.

(٤) سورة الحجر، آية: ٤٩.

(٥) سورة البقرة، آية: ١٩٩.

(٦) سورة آل عمران، آية: ١٣٣.

(٧) سورة الأنفال، آية: ٣٣.

(٨) سورة نوح، الآيات: ١٠-١٢.

وقد حث النبي ﷺ على الاستغفار وأهمية لزومه، فقال: ((إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَىٰ قَلْبِي. وَإِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللّهَ، فِي الْيَوْمِ، مِائَةَ مَرَّةٍ))[١] وقال ﷺ: ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَىٰ اللّهِ. فَإِنِّي أَتُوبُ، فِي الْيَوْمِ، إِلَيْهِ مِائَةَ مَرَّةٍ))[٢] وقال ﷺ: ((واللّهِ إني لأستغفرُ اللّهَ وأتوبُ إليه في اليوم أكثرَ من سبعينَ مرَّة))[٣] (واستغفاره ﷺ تشريع لأمته)[٤]، وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: ((إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّ لِرَسُولِ الله ﷺ في المَجْلِسِ الْوَاحِدِ مَائَةَ مَرَّةٍ: رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ))[٥] قال النووي: (ونحن إلى الاستغفار والتوبة أحوج، وللتوبة ثلاثة شروط: أن يقلع عن المعصية، وأن يندم على فعلها، وأن يعزم عزمًا جازمًا أن لا يعود إلى مثلها أبدًا، فإن كانت المعصية تتعلق بآدمي فلها شرط رابع وهو: رد الظلامة إلى صاحبها أو تحصيل البراء منه)[٦]، وفي ذلك بيانٌ على أهمية الاستغفار وضرورة الحث عليه، (فعن بعض الأعراب أنه تعلق بأستار الكعبة وهو يقول: اللهم إن استغفاري مع إصراري لؤم، وإن تركي الاستغفار مع علمي بسعة عفوك لعجز، فكم تتحبب إلي بالنعم مع غناك عني، وأتبغض إليك بالمعاصي مع فقري إليك، يا من إذا وعد وفى، وإذا توعد تجاوز وعفا، أدخل عظيم جرمي في عظيم عفوك يا أرحم الراحمين)[٧].

خامسًا- من موضوعات الدعوة: بيان غنى الله تعالى عن عباده:

(فالله هو الكامل بما له وعنده فلا يحتاج معه إلى غيره، وربنا جل ثناؤه بهذه الصفة -أي الغنى- لأن الحاجة نقص، والمحتاج عاجز عن ما يحتاج إليه إلى أن يبلغه

---

(١) أخرجه مسلم ٢٧٠٢.

(٢) أخرجه مسلم ٢٧٠٢.

(٣) أخرجه البخاري ١٣٠٧.

(٤) فتح الباري، ابن حجر ١٠٥/١١.

(٥) أخرجه أبو داود ١٥١٦، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ١٣٤٢).

(٦) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٩٢.

(٧) الأذكار، النووي، ٤٥٢.

ويدركه، وللمحتاج إليه فضل بوجود ما ليس عند المحتاج، فالنقص منفي عن القديم بكل حال، والعجز غير جائز عليه ولا يمكن أن يكون لأحد عليه فضل إذ كل شيء سواه خلق له وبدع أبدعه لا يملك من أمره شيئًا، وإنما يكون كما يريد الله عز وجل، ويدبره عليه، فلا يتوهم أن يكون له مع هذا اتساع لفضل عليه)[١]، وهذا ما أشار إليه نص الحديث في قوله تعالى: "لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا..." فالله غني عن عباده لقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[٢] أي: (إن ملكه جميع الأشياء وهو الغني عما سواه، وكل شيء فقير إليه، وعبد لديه)[٣]، (فالله عز وجل لا ينتفع بأحد ولا يتضرر بأحد لأنه غني عن الخلق جل وعلا، وإنما خلق الخلق لحكمة أرادها تبارك وتعالى؛ خلقهم لعبادته)[٤].

سادسًا- من أساليب الدعوة: التمثيل لتقريب الأفهام:

قد ورد هذا الأسلوب الدعوي المهم في تقريب الأفهام من الحديث في قوله تعالى في الحديث القدسي: "ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر" قال النووي: (إن المقصود من ضرب المثل بالمخيط في البحر هو تقريب الأفهام بما شاهدوه في البحر من عِظَم، وفي الإبرة من صغر)[٥].

ومما لاشك فيه أن التمثيل لتقريب الأفهام من أساليب الدعوة المهمة التي اعتبرها الشرع الحنيف، وأكثر القرآن من ذكرها، كما قال تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[٦] وقال جل ذكره: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾[٧].

---

(١) كتاب الأسماء والصفات، أحمد بن حسين البيهقي ٧٥/١، وقد نقله عن الحليمي.

(٢) سورة لقمان، آية: ٢٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٩٣/١٠.

(٤) شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين، ٣٤٦/١.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٤٣.

(٦) سورة النور، آية: ٣٥.

(٧) سورة إبراهيم، آية: ٤٥.

فعلى الداعية أن يضرب الأمثال لبيان المعاني، وتوضيحها في الأذهان، حتى يكون المدعو على بينة من أمره، وهذا مما يسهم في نجاح الداعية في دعوته، ويعمل على إزالة اللبس والغموض.

سابعًا- من موضوعات الدعوة: مراقبة الله في الأعمال:

من أسماء الله تعالى الرقيب، قال الحليمي: (هو الذي لا يغفل عما خلق فيلحقه نقص أو يدخل عليه خلل من قبل غفلته عنه، وقال الزجاج: الرقيب الحافظ الذي لا يغيب عنه شيء، ومنه قوله سبحانه وتعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[1])[2]، وقد ورد ذلك في الحديث من قوله تعالى: "إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها" قال السعدي: (فالله هو الرقيب المطلع على العباد في حركاتهم وسكونهم وسرهم وعلنهم وجميع الأحوال مراقبًا لهم فيها، مما يوجب على العباد مراقبته، وشدة الحياء منه بلزوم تقواه. وفي ذلك قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[3])[4]. أي حافظًا عليما[5].

ثامنًا- من أهداف الدعوة: بيان رحمة الله تعالى بعباده المؤمنين:

إن مما يستفاد من عموم هذا الحديث القدسي بيان رحمة الله تعالى بعباده المؤمنين، أن حرّم الظلم على نفسه، وجعله محرمًا بينهم، وهداهم إلى الطريق المستقيم، وأنعم عليهم بنعمه التي لا تعد ولا تحصى، ومن تلك النعم أن منّ عليهم

---

(١) سورة ق، آية: ١٨.

(٢) الأسماء والصفات، البيهقي ١/١٣٨.

(٣) سورة النساء، آية: ١.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ١٢٩.

(٥) انظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل، النسفي، ص ٢٠٨.

بالطعام والشراب، وكسا عريهم، وتفضل عليهم بالعفو والمغفرة والتجاوز عن الهفوات والزلات، فالله تعالى واسع الفضل، يغفر الذنوب ويستر العيوب، وهو الغني عن عباده، وهو المطلع عليهم المُحصي لأعمالهم وإن من أوجب الواجبات شكر المنعم سبحانه على تفضله وإنعامه ولزوم التوبة والاستغفار ومحاسبة الإنسان لنفسه قبل أن يحاسب ومراقبة الله في السر والعلن ورجاء رحمته سبحانه.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

تأخذ التربية في الإسلام مظاهر شتى منها:

أولاً- التربية بالترهيب:

يظهر هذا الأسلوب في الحديث القدسي الذي رواه النبي عن ربه عز وجل، يقول الله تعالى: «مَنْ عَادَىٰ لِي وَلِيّاً فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ»، وفي هذا الحديث ترهيب من الله تعالى لعباده أن يعادوا أولياءه ويؤذوهم، وأعظم بها من رهبة تقع في نفوس المتلقين، والمقدمين على إيذاء عباد الله الصالحين، حين يعلمون أنهم بذلك يحاربون الله تعالى! وأي قوة لهم تعصمهم من الله؟ وأي عدة وأي عتاد ذلك الذي يقف أمام الجبار المنتقم سبحانه؟

واحترام أولياء الله الصالحين، من قضى منهم ومن بقي حياً أمر واجب على كل مسلم، فإن هؤلاء عظموا الصلة بالله تعالى، وقد لا تكون لهم قوة ظاهرة، بل إن مظهرهم قد يكون الضعف والاستسلام، مما يجرئ السفهاء عليهم، فما جزاء هؤلاء السفهاء إلا أن يفاجئوا بقوة خارقة لهؤلاء، تردعهم وتوقفهم عند حدودهم، إنما قوة الله تعالى، الذي يوعد من اجترأ على هؤلاء بالحرب والنكال.

ولقد أكد التربويون على أن من عوامل نجاح الترهيب مصدر هذا الترهيب، فكلما كان المصدر قوياً كان للترهيب أثره عند الإنسان[1]، وأي مصدر أقوى وأكثر تخويفاً للإنسان من ربه عز وجل؟

ثانياً- التربية بالترغيب:

لقد استخدم النبي ﷺ هذا الأسلوب التربوي، من أجل حث المسلمين على عبادة الله وطاعته، ففي الحديث: يبين جزاء التقرب إلى الله تعالى بالنوافل يقول ﷺ فيما يرويه عن ربه تعالى: «وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ»، ويقول عليه السلام فيما يرويه عن رب العزة سبحانه وتعالى: «إِذَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي شِبْراً، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعاً ....»،

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي، ص٢٩٥.

ويقول: "عَلَيْكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ لله، فَإِنَّكَ لَنْ تَسْجُدُ لله سَجْدَةً إِلاَّ رَفَعَكَ الله بِهَا دَرَجَةً....".

ولا يخفى على ذي بصيرة أن طاعة العبد فيما يؤمر تكون آكد وأقرب إلى قلبه إذا علم جزاءها عند الله، ولهذا استخدم النبي ﷺ أسلوب الترغيب، فما أعز على قلب المؤمن إذا علم أن الله يحبه! وما أسماها غاية يتطلبها أن يتقرب إليه الله كما يتقرب هو إلى الله تعالى! وما أحب إلى نفسه أن تُغفر له خطيئته ! ولهذا تراه يرغب في العمل من أجل ما سيلقاه من الجزاء عند الله تعالى، ويسعى لينفذ أوامر الله ويتقرب إليه بالنوافل الزائدة على الفرائض المكتوبة.

(ولما كان الإسلام هداية للناس أجمعين، وواقعياً في جوانبه العملية، كانت الواقعية فيه تتطلب إيجاد عنصر الترغيب في وسائله التربوية للناس، وذلك في كل ما يهديهم إلى الخير ويدعوهم إلى الفضيلة.... وليس بغريب أن تكون التربية الترغيبية هي الأساس والعنصر الذي يقوم عليه الإصلاح الإسلامي.... فهي تعتبر أساساً محدداً لبناء شخصية الفرد، تلك الشخصية التي تهب نفسها لله تعالى في قيامها وجلوسها..)[1].

ثالثاً- التربية بالقدوة:

الرسول ﷺ قدَّم للمتربين قدوة في سلوكه وأعماله وعبادته، ولم يكتفِ بالتوجيه والوعظ فقط؛ فكان يُرِي الصحابةَ الكرام منه المثل الأعلى الذي يتأسون به، فإنه -فيما ترويه عائشة[2] يروي أنه صلى ﷺ صلى بهم صلاة فقرأ البقرة والنساء وآل عمران، وأطال الركوع والسجود، وكذلك فإن هذا المثل قدَّمه لعبدالله ابن مسعود رضي الله عنه، حين طالت الصلاة، فهمَّ عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أن يترك الصلاة لطولها.

لقد أراد النبي أن يربي صحابته بالقدوة؛ حتى يكون مثلاً أعلى لهم يتأسون به

---

(١) تربية الأبناء والبنات، خالد العك، ص١٨٧.

(٢) كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، وعندما سألته عن ذلك الاجتهاد، وقد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال: "أَفَلاَ أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً؟".

وقد ثبت أنه ﷺ كان في العشر الأواخر من رمضان يزداد عملاً واجتهاداً.

ويقتدون؛ ورغم أن ذنوبه مغفورة، إلا أنه ظل على عبادته وتقواه؛ ليكون ذلك نبراساً للمسلمين جميعاً: أن يجتهدوا في العبادة والطاعة.

إن القدوة الطيبة "هي أعظم المعينات على تكوين العادات الطيبة، حتى إنها لتيسر معظم الجهد في كثير من الحالات؛ ذلك أن المرء يحب المحاكاة من تلقاء نفسه.... إن المناهج التربوية تظل حبراً على الورق، حتى تتحول إلى حقيقة واقعة تتحرك في واقع الأرض، وما لم تتحول إلى بشرٍ يترجم بسلوكه وتصرفاته مبادئ المنهج ومعانيه فإنها تبقى نظريات"(١).

رابعاً- التربية بالتوجيه المباشر:

وقد استخدم النبي ﷺ هذا الأسلوب في عدة أحاديث في هذا الباب، وذلك يجسد الأساس التربوي الأول للنبوة، ألا وهو التبليغ عن الله عزوجل، وفي هذا الأسلوب يوجه النبي ﷺ الأمر أو النهي أو غير ذلك إلى المتربين مباشرة، يقول ﷺ: "احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ. وَلاَ تَعْجِزْ ..."، ويقول: "يتبع الميت ثلاثة ..." ويقول ﷺ: "خَيْرُ النَّاسِ: مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ".

وبهذه الطريقة يصل المطلوب إيصاله إلى عقول المتلقين بأيسر السبل وأقصرها، وهذه الأمثلة للتربية بالتوجيه المباشر، يحاول فيها "تصحيح الأخطاء، والحث على صالح العمل، وتحويل طاقات الإنسان نحو الفضائل، واستثمار قدراته بجوانب الخير، وجعل ذلك عادة مستديمة له"(٢).

خامساً: التربية العقدية:

من أساسيات التربية الأساسية الاهتمام بالجانب العقدي للمسلم، ومن الجوانب العقدية في أحاديث هذا الباب: الإيمان بالقضاء والقدر، يقول ﷺ: "إِنْ أَصَابَكَ شَيءٌ فلا تَقُلْ لو أَنِّي فعلتُ كذا وكذا. ولكن قل: قَدَّرَ اللَّهُ ..."، تلك هي عقيدة المؤمن في قضاء الله وقدره، أن يؤمن بأن كل شيء بيد الله، وما أشد ارتياحه وسكينته إذا

---

(١) تربية الطفل في الإسلام، د. أحمد محمود الحمد، ص١٨٥ بتصرف.

(٢) أساليب الدعوة والتربية، زياد العاني، ص ٢٨٨.

تحلّى بالإيمان بقدر الله، وأنه متصرف في كل شيء، وأنه ما مُنِع الإنسان الخير إلا لحكمة يعلمها الله، وأنه ربما ابتلي بشيء يحسبه شراً، وفي أعطافه الخير الجزيل في الدنيا والآخرة!

والإيمان بالقدر يقوي عزم الإنسان؛ فالمؤمن إذا ناقش الأمور ورجَّح بينها واستشار غيره، واستخار ربه، يمضي فيما عزم عليه دون تردد أو خوف، فهو يدرك يقيناً بأن جميع الأحداث الواقعة تكون في علم الله وبقدره... ولن يندم أو يتحسر على ما فات[1].

سادساً: التربية بذكر القصة:

إن لهذا الأسلوب التربوي فائدة كبيرة، فإنه ينقل إلينا كثيراً من صور الحياة عند الصحابة، وكيف كانوا يتصرفون في أمورهم وحياتهم، وفي هذا الباب وردت قصة أنس بن النضر رضي الله عنه وغيابه عن غزوة بدر، ومشاركته في غزوة أحد، وكيف كانت نهاية جهاده في سبيل الله وصدقه: أن نال الشهادة في سبيل الله تعالى.

ومن خلال هذا الباب أيضاً ترد قصة أخرى للرجل الذي تصدق بصدقة كبيرة، فقال المنافقون: مُراءٍ، وجاء غيره فتصدق بالقليل، فقالوا: الله غني عن ذلك، فنزل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ﴾ الآية[2].

إن هاتين القصتين تحملان صورتين من صور صحابة رسول الله ﷺ؛ أولاهما: تجسد روح المجاهدة في سبيل الله، وترسم قدوة حسنة لجهاد الصحابة وإخلاصهم في الحرب ضد المشركين، وتعكس ثواب الله تعالى للمجاهدين، أما الثانية: فإنها تمثل كيف كان الصحابة الكرام يسارعون في الإنفاق في سبيل الله ويجودون بما في أيديهم قليلاً كان أو كثيرًا. ففي القصتين تربية للمؤمنين وأي تربية؟

ولهذا الأسلوب التربوي أثر في النفس، كما لو كان يقع للقارئ أو المستمع ذاته، وهذا التأثير للقصة يقع عن طريقين اثنين: أولهما: المشاركة الوجدانية، فالمستمع يتابع

---

(١) التربية الإسلامية، "مصادرها وتطبيقاتها"، د. عماد محمد عطية، ص٧٥، ٧٦ بتصرف.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٧٩.

الأشخاص ويتفاعل معهم، والطريق الثاني: أن يضع المتلقي نفسه مكان الأشخاص، فإن كانوا في موضع الرفعة والتميز، تمنى لو كان في موقفهم، وإن كانوا في موقف يثير الازدراء والكراهية حمد لنفسه أنه ليس كذلك، وبهذا تؤثر القصة تأثيراً توجيهياً، يرتفع بقدر ما تكون القصة بليغة ومؤثرة"(١).

سابعاً- التربية الإيمانية:

من جوانب التربية الرئيسة في هذا الباب التربية الإيمانية، وفيها تقوية للإيمان بالله تعالى، واليقين بقدرته، وغناه، ويقول ﷺ فيما يرويه عن رب العزة تبارك وتعالى: «يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ . فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ. يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلاَّ مَنْ أَطْعَمْتُهُ ... يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلاَّ مَنْ كَسَوْتُهُ. ... لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي ... لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، ... كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ ... مَا زَادَ ذٰلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً ... لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ. وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ ... فَسَأَلُونِي. فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ. مَا نَقَصَ ذٰلِكَ مِمَّا عِنْدِي».

ذلك الحديث يجسد عظمة الله تبارك وتعالى، وقدرته المطلقة على كل شيء، فهو يعطي ويمنع، ولا يفقره رزقه لنا، ولن تزيد ملكه عبادتُنا، ولن ينقصها معصيتنا، إنها قدرته تعالى، واستغناؤه التام عن عباده، بل هم المحتاجون إليه في كل وقت وحين، هو صاحب الفضل عليهم، وهم عباده الأذلاء المحتاجون.

وتعظيم الله تعالى ومعرفة قدره "هو الأساس الذي تتفرع منه سائر فروع الاعتقاد ... وحين يستقر تعظيم الله تبارك وتعالى في النفس، ويملك صاحبه العلم الصحيح فإنه يسلم له اعتقاده، فلا يتردد في تصديق كتابه وسنة نبيه، والتزام الأوامر وترك المنهيات، ولا يتعلق قلبه بغير الله، ولا يتجه لمخلوق، فيصفو اعتقاده، ويستقيم عمله، ويجعل للمخلوقين منزلتهم التي يستحقونها"(٢).

---

(١) منهج التربية في التصور الإسلامي، د. علي أحمد مدكور، ص٤٤١، ٤٤٢ بتصرف.

(٢) تربية الشباب، محمد الدويش، ص٥٤ بتصرف يسير.

ثامناً: تصحيح مفهوم الولاية في الإسلام وفتح هذا الباب لكل مجتهد، وإبطال كون الولاية نسباً أو مصاهرة بل هي عمل ومجاهدة، فكل من يتولى أوامر الله ونواهيه بمعانيها الواسعة، فهو ولي الله، فإن لازم على ذلك فالله يتولى أمره.

والسبيل إلى ولاية الله تكون بما شرعه الله لا بما ابتدعه الناس، وذلك بالقيام بالتكاليف الشرعية، وإتباع ذلك بالسنة والتي تجبر القصور في الفرائض.

تاسعاً: مما ينبغي تربية أولادنا عليه فضلاً عن إلزام انفسنا به:

القوة واستشعار العزة ورفض الدونية، وقد صرح الرسول ﷺ بقوله: (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف)، وجاء النص مطلقاً لتذهب النفس فيه كل مذهب في حدود المشروع، فقوة الفكر والعلم والبدن والتملك والحجة والجدل كل ذلك من القوة المحمودة التي توظف لخدمة الإسلام.

والمسلم مطالب بترك الشك واللجوء إلى اليقين، لأن فتح باب الشك لن يفضي إلى خير، وسيجعل صاحبه محل تردد وعدم استقرار.

إن رسول الله ﷺ كان يستخدم "لو" في بعض الأحاديث لا على سبيل الشك والتردد، بل على سبيل الاسترجاع أو الإخبار، وكم ورد عنه "لو أن قومك حديثوا عهد بالجاهلية..."، وعندما ذكر حِلف الفضول قال: "ولو دعيت به في الإسلام لأجبت".

إن من منهج الإسلام تعليم أبنائه على مراجعة النفس فيما مضى، والنظر في نتائج المراجعة، بشرط أن لا يقف الإنسان إلى جواره يبكي حاله ويشكو أمره، لأن عجلة الحياة تدور، والوقوف عند حد الماضي يجعل القاطرة تدوس من يقف في طريقها، وهذا من عمل الشيطان الذي يجعل الإنسان يضيع وقته وعمره في علة السببية.

١٢- باب الحث على الازدياد من الخير في أواخر العمر

قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءكُمُ النَّذِيرُ﴾[فاطر: ٣٧] قَالَ ابن عباس والمُحَقِّقُونَ: معناه أَو لَمْ نُعَمِّرْكُمْ سِتِّينَ سَنَةً؟ وَيُؤَيِّدُهُ الحديث الَّذِي سنذْكُرُهُ إنْ شاء اللّه تَعَالَى، وقيل: معناه ثماني عَشْرَة سَنَةً، وقيل: أَرْبَعِينَ سَنَةً، قاله الحسن والكلبي ومسروق ونُقِلَ عن ابن عباس أيضًا. وَنَقَلُوا أنَّ أَهْلَ المدينَةِ كانوا إِذَا بَلَغَ أَحَدُهُمْ أربْعِينَ سَنَةً تَفَرَّغَ للعِبادَةِ، وقيل: هُوَ البُلُوغُ. وقوله تَعَالَى: ﴿وجَاءكُمُ النَّذِيرُ﴾ قَالَ ابن عباس والجمهور: هُوَ النَّبيّ ﷺ، وقيل: الشَّيبُ، قاله عِكْرِمَةُ وابن عُيَيْنَة وغيرهما. والله أعلم.

وأمَّا الأحاديث:

الحديث رقم (١١٢)

١١٢- **فالأوَّل:** عن أَبي هريرة رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**أعْذَرَ اللَّهُ إلى امْرِئٍ أخَّرَ أجلَه حتى بلَغَ سِتِّينَ سنةً**» رواه البخاري[١].

قال العلماءُ معناه: لَمْ يتْركْ لَه عُذْرًا إذ أمْهَلَهُ هذِهِ المُدَّةَ. يُقال: أعْذَرَ الرَّجُلُ إذا بلغَ الغاية في العُذْرِ.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

أعذر الله إلى امرىء: فسّره النووي، وفي النهاية: حيث أمهله هذه المدة ولم يعتذر[٢].

---

(١) برقم(٦٤١٩). أورده المنذري في ترغيبه (٤٩٢١).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ع ذ ر).

الشرح الأدبي

إن البيان النبوي في إيجازه تتسع مسافات الرؤى والأفكار، وفي إطنابه تتجمع آفاق الحياة وتتلاقى أرجاء الأقطار، ولا يعرف التاريخ غير محمد ﷺ -كما يقول الرافعي- رجلاً أفرغ الله وجوده في الوجود الإنساني كله، كما تنصب المادة في المادة، لتمتزج بها، فتحولها، فتحدث منها الجديد، فإذا الإنسانية تتحول به وتنمو بهديه وتعاليمه، والإنسانية قطعت دهرها بين اثنين: أحدهما: فتح لها طريق المجيء من الجنة، والثاني: فتح لها طريق العودة إليها مع الذين سبقوه من الأنبياء والرسل عليهم السلام.

كان في آدم سر وجود الإنسانية، وكان في محمد سر كمالها[1].

في ظلال هذه المعاني نستروح نسمات الرشاد والهدى التي تهب علينا من أجواء هذا الحديث الشريف الموجز، لأن الإنسان في حياته لا يشعر بكَرِّ الليالي وتعاقب الأيام.

والمصطفى ﷺ ينبه كل الغافلين الذين استهوتهم مغريات الحياة، حتى هزمهم الشيب، ولم يأخذوا من شبابهم لهرمهم، ولا من صحتهم لسقمهم، ولم يتأملوا قول المصطفى ﷺ: ((نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ))[2].

هؤلاء الغافلون ينبههم النبي ﷺ في هذا الحديث الذي يفتتح به صاحب رياض الصالحين باب في الحث على الازدياد من الخير في أواخر العمر، ويأتي هذا التنبيه في صورة إنذار موجز حيث يقول في بلاغة وإيحاء: "أعذر الله إلى امرئ أخر أجله حتى بلغ ستين سنة".

والمعنى الذي نقتبسه من هذا الحديث الشريف هو أن الله لم يترك لهذا الصنف من الناس عذرًا للندم وهو لا يندم ولا يتوب، حيث أمهله هذه المدة وأطال عمره وعاش الرجل ستين سنة، وهو لم يبادر بالأعمال الصالحة، ولم يدرك أنه لا ينتظر بعد ذلك أو قبل ذلك، إلا فقرًا منسيًا أو غنى مطغيًا، أو مرضًا مفسدا، أو هرمًا مفندا، أو موتًا

---

(١) انظر: الرافعي، وحي القلم، ج٢.

(٢) أخرجه البخاري ٦٤١٢.

مجهزا، أو الدجال أو الساعة.

وقيل إن هذا التعبير في قوله: "أعذر الله إلى امرئ..." الحديث، فيه حث على إدراك ما فات من الطاعة والمبادرة بالأعمال الصالحة، والتوبة النصوح قبل فوات الأوان، فلم يعد أمام الإنسان عذر بعد الستين يبعده عن دائرة الطاعة: فقد حل به النذيران: الشيب والهرم، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾(١)، وقال بعض العلماء: طول العمر حجة، فنعوذ بالله أن نغتر بطول العمر، وكل ما أتى به الإسلام من عقائد وعبادات ومعاملات يملأ الفراغ في حياة المسلم فالصلاة ميزان إيماني لكل مواقيت الحياة، وهي تنهي عن الفحشاء والمنكر، والصوم سر بين العبد وربه، وهو إحساس بالزمن الذي خلقه الله، وامتثال لأمر الله تعالى في تنظيم ذلك الزمن بما يعود بالنفع على الإنسان: صحيًا واجتماعيًا وروحيًا، والزكاة مظهر من مظاهر الشكر على نعم الله تعالى، وتعاطف بين أفراد الأمة، والحج تاج المسلم، ومعرفته ببينة الإسلام الأولى، معرفة إيمانية يقينية. وهل لإنسان عذر إذا بلغ الستين ولم يذق حلاوة هذه العبادات...!!!؟.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: إقامة الحجة من الله تعالى على العباد.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: اغتنام الأجل في طاعة الله تعالى.

رابعًا: من مهام الداعية: بيان الحقائق للناس.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار:

قد جاء الحديث بصيغة الإخبار ليقرر حقيقة تكون حجة على المدعوين، ويثبت في أفئدتهم هذه الحقيقة، بحيث لا يكون أدنى شك عندهم في ثبوتها والجزاء عليها، وهذا الإخبار أبلغ في إيصال الرسالة الدعوية إلى المدعوين من أي أسلوب آخر، فهو

---

(١) سورة فاطر، آية: ٣٧.

إخبار بمعنى الترهيب والتحذير لكي ينتبه المدعوون إلى نعمة الله تعالى عليهم في أعمارهم وأوقاتهم وأنهم مسؤولون عن ذلك ومحاسبون عليه وخاصة من امتد به العمر إلى الستين عامًا.

إن أسلوب الإخبار وإعلام الناس بالحقائق خاصة الدينية منهامن أهم وظائف الداعية ومهامه، فما أحرى بالدعاة بتوطين النفس على مواجهة المصاعب والمتاعب في سبيل قيامهم مقام الرسل في تبليغ الدعوة، فعلينا معاشر المسلمين -خاصة الدعاة منا- أن نبلغ بديننا مشارق الأرض ومغاربها، وعندئذ فقط يحق لنا أن نردد باطمئنان قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾[1] وسبيلنا في ذلك هو سبيل المصطفى ﷺ إعلام وإخبار ينطلق من القرآن يلتزم الصدق ويرتبط بالحق لا خضوع فيه لغير الله، يعتمد على المكاشفة والمصارحة في العرض والإنصاف في المجادلة[2].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: إقامة الحجة من الله تعالى على العباد:

إن من لطف الله تعالى بالخلق، أن أعذرهم وأنذرهم ببلوغ الستين من الأجل، (فطول العمر حجة من الله على العباد)[3]، وهذا ما أكده نص الحديث في قوله ﷺ أعذر الله إلى امرئ أخر أجله حتى بلغ ستين سنة.

قال ابن حجر: (قوله "أعذر الله" الإعذار إزالة العذر، والمعنى أنه لم يبق له اعتذار كأن يقول لو مد لي في الأجل لفعلت ما أمرت به، يقال أعذر إليه إذا بلغه أقصى الغاية في العذر ومكنه منه. وإذا لم يكن له عذر في ترك الطاعة مع تمكنه منها بالعمر الذي حصل له فلا ينبغي له حينئذ إلا الاستغفار والطاعة والإقبال على الآخرة بالكلية، ونسبة الإعذار إلى الله مجازية، والمعنى: أن الله لم يترك للعبد سببًا في الاعتذار يتمسك به. والحاصل أنه لا يعاقب إلا بعد حجة...، وقال ابن بطال: إنما كانت الستون حدًا لهذا

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ١٠٩.

(٢) وظيفة الإخبار في سورة الأنعام، د. سيد محمد ساداتي الشنقيطي، ص ١٠٧-١٠٨.

(٣) ذكره ابن كثير عن قتادة في تفسير القرآن العظيم، ابن كثير تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٦/٥٥٥.

لأنها قريبة من المعترك، وهي سن الإنابة والخشوع، وترقب المنية فهذا إعذار بعد إعذار لطفًا من الله بعباده حتى نقلهم من حالة الجهل إلى حالة العلم، ثم أعذر إليهم فلم يعاقبهم إلا بعد الحجج الواضحة، وإن كانوا فطروا على حب الدنيا وطول الأمل لكنهم أُمروا بمجاهدة النفس في ذلك ليتمثلوا ما أمروا به من الطاعة وينزجروا عما نهوا عنه من المعصية)[١].

وقد بين ابن هبيرة: (أن في هذا الحديث من الفقه: أن العمر القصد الذي يتجاوز عن أم الشبيبة، ويسلم من توهين الهم، هو سن الكهول، ما بين الأربعين إلى الستين، فإذا أمهل الله عبده حتى جاوز زمن الصبى والحداثة، وسن الشبيبة، ودخل في الكهولة، فقد أعذر إليه؛ لأنه لا يبقى بعد هذا من العمر إلا ما لا يؤثر فيه النقص، ويستولي عليه الضعف، فلا يكون تركه ما يترك عن قدرة عليه، بل عن عجز عنه، ولا يأخذ ما يأخذ إلا (اضطرارًا به)[٢].

وفي ذلك بيان على إقامة الحجة الكاملة من الله تعالى على عباده، وكيف لا وهو القائل: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾[٣] (أي الحجة التي تقطع عذر المحجوج وتزيل الشك عما نظر فيها)[٤].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: اغتنام الأجل في طاعة الله تعالى:

يستنبط ذلك من عموم الحديث، قال ابن حجر: (وفي الحديث إشارة إلى أن استكمال الستين مظنة لانقضاء الأجل. وأصرح من ذلك ما أخرجه الترمذي بسند حسن إلى أبي سلمة بن عبدالرحمن عن أبي هريرة رضي الله عنه رفعه ((أعمار أمتي ما بين الستين إلى

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٢٤٤/١١.

(٢) وقد ورد في المطبوع من الإفصاح بلفظ "إضرارًا"، وما أثبتناه هو الأنسب في رأينا. والله أعلم. الإفصاح ٣٢٧/٧-٣٢٨.

(٣) سورة الأنعام، آية: ١٤٩.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢٨/٧/٤.

السبعين، وأقلهم من يجوز ذلك))[١] قال بعض الحكماء الأسنان أربعة سن الطفولية، ثم الشباب، ثم الكهولة، ثم الشيخوخة وهي آخر الأسنان، وغالب ما يكون ما بين الستين والسبعين فحينئذ يظهر ضعف القوة بالنقص والانحطاط، فينبغي له الإقبال على الآخرة بالكلية لاستحالة أن يرجع إلى الحالة الأولى من النشاط والقوة)[٢].

وهذا ما أمر به الحق تبارك وتعالى في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[٣].

ولقد حث النبي ﷺ على اغتنام الأجل في طاعة الله لما في ذلك من ربح وفلاح فقال: ((اغتَنِمْ خمسًا قبل خمس: شبابَك قبل هَرَمِكْ، وصحتَك قبل سَقَمِك، وغِناك قبل فقرِك، وفراغَك قبل شغلِك، وحياتَك قبل موتِك))[٤]. وقال ((بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ. يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِنا وَيُمْسِي كَافِرا. أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنا وَيُصْبِحُ كَافِرا. يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا))[٥]، (وفي ذلك حثٌّ منه ﷺ على العبادة في الأعمال، وضرورة اغتنام الأجل في طاعة الله تعالى)[٦].

(فالزمن نعمة جُلَّى ومنحة كبرى، لايدريها ويستفيد منها كل الفائدة إلا الموفقون الأفذاذ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ((نعمتان مغبون فيهما كثير

---

(١) أخرجه الترمذي ٣٥٥٠، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٨١٥).

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٢٤٤/١١.

(٣) سورة المنافقون، الآيتان: ٩-١٠.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك ٩٧١٦، وقال حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٥) أخرجه مسلم ١١٨.

(٦) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٦٨.

من الناس: الصحة والفراغ)[(١)] فأفاد الحديث أن المستفيدين من ذلك قِلَّة، وأن الكثير مفرط مغبون.

وقد كان السلف الصالح ومن سار على نهجهم من الخلف أحرص الناس على كسب الوقت وملئه بالخير، سواءٌ في ذلك عالمهم وعابدهم، فقد كانوا يسابقون الساعات، ويبادرون اللحظات، ضنًا منهم بالوقت، وحرصًا على أن لا يذهب منهم هدرًا.

نُقل عن عامر بن عبد قيس أحد التابعين الزهاد: أن رجلاً قال له: كلمني، فقال له: عامر بن عبد قيس: أمسك الشمس. يعني أوقف لي الشمس واحبسها عن المسير حتى أكلمك، فإن الزمن متحركٌ دائب المضي، لا يعود بعد مروره، فخسارته خسارة لا يُمكن تعويضها واستدراكها، لأن لكل وقتٍ ما يملأه من العمل.

قال الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: ما ندمت على شيء ندمي على يوم غربت شمسه، نقص فيه أجلي، ولم يزد فيه عملي. وقال الخليفة الصالح عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه: إن الليل والنهار يعملان فيك، فاعمل فيهما. وقال الحسن البصري رضي الله عنه: يا ابن آدم، إنما أنت أيام، فإذا ذهب يومٌ ذهب بعضك. وقال أيضًا: أدركتُ أقوامًا كانوا على أوقاتهم أشدَّ منكم حرصًا على دراهمكم ودنانيركم)[(٢)].

وقال الذهبي: (قال عبدالرحمن بن مهدي: لو قيل لحماد بن سلمة: إنك تموت غدًا ما قدر أن يزيد في العمل شيئًا ... وقال موسى بن إسماعيل التبوذكي: لو قلت لكم: إني ما رأيت حماد بن سلمة ضاحكًا لصدقت، كان مشغولاً: إما أن يحدث، أو يقرأ، أو يسبِّح، أو يصلي، وقد قسَّم النهار على ذلك...، قال يونس المؤدب: مات حماد بن سلمة وهو في الصلاة، رحمةُ الله تعالى عليه.

وقال عفّان: قد رأيت من هو أعبد من حماد بن سلمة، لكن ما رأيت أشد مواظبة على الخير، وقراءة القرآن، والعمل لله تعالى منه)[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري ٦٤١٢.

(٢) قيمة الزمن عند العلماء، عبدالفتاح أبو غدة، ١٧.

(٣) سير أعلام النبلاء، الذهبي ٤/٤٤٧-٤٤٨.

(فعلى المرء أن يغتنم أجله في طاعة الله ولا يخيل له أن الأيام ستفرغ له في المستقبل من الشواغل، وتصفو له من المكدِّرات والعوائق، وأنه سيكون فيها أفرغ منه في الماضي أيام الشباب، ولكن الواقع المشاهد على العكس من هذا أيها الأخ العزيز: كلما كبرت سنك، كبرت مسؤولياتك، وزادت علاقاتك، وضاقت أوقاتك، ونقصت طاقاتك، فالوقت في الكبر أضيق، والجسم فيه أضعف، والصحة فيه أقل، والنشاط فيه أدنى، والواجبات والشواغل فيه أكثر وأشد! فبادر ساعات العمر وهي سانحة، ولا تتعلق بالغائب المجهول، فكلُّ ظرفٍ مملوءٌ بشواغله وأعماله ومفاجآته.

ولما أدركت الشيخوخة وأمراضُها أبا عثمان الجاحظ الأديب المشهور، كان ينشد هذين البيتين متحسرًا متألمًا من تقاعد الضعف والكبر والمرض به:

أترجو أن تكون وأنت شيخٌ ... كما قد كنتَ أيامَ الشبابِ

لقد كذَبَتْك نفسُكَ ليس ثَوْبٌ ... دَرِيسٌ كالجديدِ من الثيابِ

فالعاقل الموفق من يملأ كل لحظة وثانية من حاضر عمره ووقته بفائدة أو عمل صالح، وقد كره عمر بن الخطاب رضي الله عنه التعطل والبطالة وإضاعة الزمن سدى! فقال: إن لأكره أن أرى أحدكم سبهللاً - أي فارغًا - لا في عمل دنيا ولا في عمل آخرة!

ورحم الله الوزير الصالح والعلامة الفقيه الأديب الأريب: يحيى بن هبيرة، البغدادي الحنبلي، المولود سنة ٤٤٩، والمتوفى سنة ٥٦٠، شيخ الإمام ابن الجوزي، إذ يقول:

والوقتُ أنفَسُ ما عُنِيتَ بحِفظِهِ ... وأراهُ أَسهَلَ ما عليك يَضيعُ!)[١]

رابعًا- من مهام الداعية: بيان الحقائق للناس:

هذا ما ورد في الحديث من بيانه صلى الله عليه وسلم على إقامة الحجة الكاملة من الله على العباد وعدم إبقاء عذر لمعتذر، فعلى الداعية أن يقتدي بالنبي صلى الله عليه وسلم في بيان الحقائق للناس ممتثلاً في ذلك لقوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾[٢].

---

(١) قيمة الزمن عند العلماء، عبدالفتاح أبو غدة، ٧٩-٨٠.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

وفي الاقتداء بالنبي ﷺ الفائدة وكمال الأجر في إفادة المدعوين فيما غاب وخفي عنهم، خاصة وأن الإنسان قد ينخرط في مجالات الحياة وهو يركض وراء جمع المال، وتستهلكه رغباته الدنيوية التي لا تنقضي وقد يدركه الموت وهو على هذه الحالة، لذا فإنه من الأهمية بمكان أن يقوم الداعية ببيان الحقائق للمدعوين، ويستحثهم على المسارعة إلى اغتنام العمر في طاعة الله تعالى ومرضاته.

الحديث رقم (١١٣)

١١٣- **الثاني:** عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: كان عمر رضي الله عنه يُدْخِلُني مَع أشْياخ بْدرٍ، فَكأنَّ بعْضَهُمْ وجدَ فِي نفسه فقال: لِمَ تُدْخِلُ هَذا معنا ولنَا أبْنَاء مِثْلُه؟ فقال عمرُ: إنَّهُ من حيْثُ عِلمْتُمْ، فدَعَاني ذاتَ يَوْمٍ فَأدْخلَني معهُمْ، فما رأَيْتُ أنَّه دعاني يوْمئِذٍ إلاَّ لِيُرِيهُمْ قال: ما تقولون في قول الله تعالى: ﴿إذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ والْفَتْحُ﴾[الفتح: ١] فقال بَعضُهُمْ: أمِرْنَا نَحْمَدُ اللَّهَ ونَسْتَغْفِره إذَا نُصِرنَا وفُتِحَ علَيْنَا. وسكَتَ بعضهُمْ فلم يقُلْ شيئًا فقال لي: أكَذلك تقول يا ابنَ عباس؟ فقلت: لا. قال فما تقول؟ قلت: هُو أجلُ رسولِ اللَّه ﷺ، أعْلمَه له قال: ﴿إذا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ والْفتحُ﴾ وذلك علامة أجلِك ﴿فَسَبِّحْ بِحمْدِ رَبِّكَ واسْتَغْفِرْهُ إنَّه كانَ تَوَّابًا﴾[الفتح: ٣] فقال عمر رضي الله عنه: ما أعْلَم منها إلاَّ ما تَقُول. رواه البخاري[١].

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١).

غريب الألفاظ:

أشياخ بدر: الأشياخ المفرد: الشيخ، وهو من أدرك الشيخوخة وهي غالبًا عند الخمسين أو هو ذو المكانة من علم أو فضل أو رياسة. وأشياخ بدر: أي من شهد بدرًا من المهاجرين والأنصار وكانت في رمضان وكانوا قد شاخوا وكبرت سنهم أيام عمر رضي الله عنهم[٢].

وجد في نفسه: غضب[٣].

---

(١) برقم (٤٩٧٠).

(٢) انظر: الوسيط ٥٠٢، وفتح الباري، ابن حجر ٦٠٧/٨.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٩٦٠، والوسيط ١٠١٣.

الشرح الأدبي

تتعدد وتتجلى في البيان النبوي فنون أدبية كثيرة تنبئ عن مطابقة هذا البيان لمقتضى الحال، وبأن لكل مقام مقالاً يناسب السياق، ومن هذه الفنون: فن الخطابة، وفن الرسائل، والقصة والأقصوصة، والمكاتبات والمعاهدات، والمحاورات، وهذا الحديث الشريف يقدم لونًا طريفًا من ألوان البيان النبوي العام الشامل الذي يتضمن القول والفعل والإقرار والهيئة والصفة، وهذا اللون هو: فن المناظرة والاحتجاج، وهو فن أدبي اشتهر به العرب، واتسمت به البيئات العلمية والدينية في عصور ازدهار الثقافة الإسلامية، في عصر النبوة، وعصر الخلافة الراشدة، والعصر الأموي والعباسي، وللمناظرة في الحديث النبوي سمة تنفرد بها، وهي أنها لا تلجأ إلى المحاجة الباطلة، ولا إلى تزييف الحقائق، لأن النبي ﷺ لا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتج إلا بالصدق، ولا يطلب الفَلْج أي الفوز إلا بالحق، ولا يستعين بالخلابة، ولا يستعمل المواربة، وقد انتهج هذا النهج أصحابه الأخيار وفي مقدمتهم أشياخ بدر، والفاروق عمر، وعبدالله بن عباس الذي يروي قصة هذا الحديث الذي يرسي قاعدة شرعية من قواعد المنهج الإسلامي، وهي معيار الأفضلية والتقديم، وهذا المعيار يقتضي أنه بمقدار فقه الرجل في دينه تكون أفضليته بين القوم.

وعمر بن الخطاب يعرف قدر عبدالله بن عباس، ولذلك كان يدخله مع كبار الصحابة وهم أشياخ بدر في المشورة والمهمات، وذلك لعظيم قدره بما تحلى به من فقه في الدين، وعلم بكتاب الله تعالى.

وقد كان مُسمًّى البحر لسعة علمه، واعترض بعض الصحابة وقيل الذي اعترض عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه وهو من أشياخ بدر، واعتراضه ليس قدحًا في شخصية ابن عباس رضي الله عنهما وإيمانه، وإنما كان لصغر سنه، ولكن عمر: يطبق النهج الإسلامي، ويقتدي برسول الله ﷺ فيقول: "إنه من حيث علمتم".

ولم يفصِّل عمر رضي الله عنه القول: لأن الصحابة يعرفون مكانة ابن عباس، ويعلمون أنه من بيت النبوة، ومنبع العلوم ومصدر الآراء السديدة، وأراد عمر أن يقنع القوم بما قال،

فعقد هذه المناظرة الموجزة حول المراد من سورة النصر، أو السبب القريب لنزولها، فأجاب بعض الصحابة إجابة صحيحة في عمومها لكن خصوص السبب لم يفطنوا له، وبعضهم سكت، والذين أجابوا قالوا: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وهذا رأي صائب لأنه لا يتصادم مع النص القرآني، ولكن عمر ﷺ يسأل عن إيحاء السورة ، والمقصد الأكبر والمباشر المرتبط بأحداث الدعوة، وشخصية الرسول ﷺ وسأل ابن عباس عن فهمه للمراد من هذه السورة في ذلك الوقت، فأجاب ابن عباس قائلاً: هو أجلُ رسول الله ﷺ أعلمه الله له، فأيد عمر كلامه، وقال: ما أعلم منها إلا ما تقول، ولم يعترض أشياخ بدر، ولم يتعصبوا لرأيهم، ولم يجادلوا إلا بالتي هي أحسن، وهذا من أدب المناظرات في المنهج الإسلامي، والحوار البليغ الهادف، والمجادلة بالتي هي أحسن، والإقناع بالحسنى، وبالدليل؛ هو ما يميز هذه المناظرة التي تعلمنا درسًا في أدب الحوار في الإسلام، وترشدنا إلى منهج الإسلام في تفضيل الرجال، وتقديمهم، والاستئناس بمشورتهم، والعمل بكلامهم.

وقيل إن عمر ﷺ بعد أن سمع إجابة ابن عباس قال: كيف تلومونني عليه بعد ما ترون؟ وقيل إن ابن عباس قد شهد له النبي ﷺ بعد أن أدرك المقصود من هذه السورة وقت نزولها، وفهم أنها نَعْيٌ لرسول الله ﷺ فقال: لقد أوتى هذا الغلام علمًا كثيرًا.

وروى أنه لما نزلت هذه السورة خطب النبي ﷺ وقال: إن عبدًا خيره الله بين الدنيا والآخرة، فاختار لقاء الله تعالى.

ويؤكد صاحب مفاتيح الغيب، على أن رأي ابن عباس ﷺ دقيق وصائب ويدلل على ذلك بعدة وجوه وهي:

أ- قال بعضهم إنما عرفوا ذلك ، لما رُوي أن الرسول ﷺ خطب عقيب السورة وذكر التخيير.

ب- أنه لما ذكر النصر والفتح ودخول الناس في الدين أفواجًا دل ذلك على حصول الكمال والتمام، وذلك يعقبه الزوال، كما قيل:

إذ تم شيء دنا نقصه توقع زوالا إذا قيل تمّ

ج- أنه أمره بالتسبيح والحمد والاستغفار مطلقًا، واشتغاله به يمنعه عن الاشتغال بأمر الأمة، فكان هذا كالتنبيه على أن أمر التبليغ قد تم وكمل، وذلك يوجب الموت وكما قال ابن عباس رضي الله عنهما: السورة نعي لرسول الله ﷺ، وقال نُعِيت إليه نفسه.

د- قوله تعالى: "واستغفره" تنبيه على قرب الأجل، كأنه يقول: قرب الوقت ودنا الرحيل فتأهب للأمر، ونبهه به على أن سبيل العاقل إذا قرب أجله أن يستكثر من التوبة.

هـ- كأنه قيل له، كان منتهى مطلوبك في الدنيا هذا الذي وجدته، وهو النصر والفتح والاستيلاء، والله تعالى وعدك بقوله: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾[1]، فلما وجدت أقصى مرادك في الدنيا، فانتقل في الآخرة لتفوز بتلك السعادة الأبدية[2].

وثبت أن رسول الله ﷺ بعد نزول هذه السورة كان يكثر من قوله: (سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي)[3]، وفي رواية: (أستغفرك وأتوب إليك)[4].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: مكانة ابن عباس رضي الله عنهما.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: مشاورة أهل العلم.

ثالثًا: من مهام الداعية: تصحيح المفاهيم والأعراف الخاطئة عند الناس.

رابعًا: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

خامسًا: من وسائل الدعوة: البرهان والاستدلال.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: أدب الخلاف.

---

(١) سورة الضحى، آية: ٤.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، تفسير سورة النصر.

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري ٤٩٦٧، ومسلم ٤٨٤.

(٤) أخرجه مسلم ٤٨٤، ٢١٨.

أولاً- من موضوعات الدعوة: مكانة ابن عباس رضي الله عنهما:

لقد تميز ابن عباس رضي الله عنهما بمكانة عظيمة بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا لكونه ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقط، وإنما أيضًا لعلمه وفقهه ودقته في الاستنباط، وما أكثر الشواهد على ذلك، ومنها استنباطه في هذا الحديث أن أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم قد دنا، وذلك من قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾ فقال: هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه له، قال: "إذا جاء نصر الله والفتح" "وذلك علامة أجلك..." قال الإمام الذهبي: ابن عباس هو حبر الأمة، وفقيه العصر، وإمام التفسير)[1].

وقد دل هذا الحديث على مكانته رضي الله عنه في فهم وتفسير كتاب الله تعالى فهو الذي ضمه النبي صلى الله عليه وسلم إلى صدره وقال ((اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الكِتابَ))[2] وقد دعا له النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ((اللهم فقِّهه في الدين وعلِّمْه التأويل))[3].

(وقد عرف عمر بن الخطاب مكانة ابن عباس رضي الله عنهما في عالم الصحابة العلماء الفتيان، فكان - كما نرى في الحديث- يؤثره ويقرب مجلسه، وعمر كما نعلم من أكابر الصحابة العلماء، ومن أخيارهم، وحسبك بعمر شاهدًا على فضله وجلال قدره، كما كان يحضره مشاهِدَه مع الأكابر من ذوي شورا من أجلّة الصحابة وأعيانهم.

لقد كان ابن عباس رضي الله عنهما من السابقين في العلم، والمُجلّين في الفهم، حتى بلغ به منزلة عليا شهد بمكانتها القاصي والداني والحاضر والبادي، بل ألقوا رحال علمهم امامه، وسلموا إليه زمام المسائل. قال عبد الله بن أبي الهذيل: أردن الخروج، فعلم بي أهل الكوفي، فجمعوا مسائل، ثم أتوني بها في صحيفة، فلما قدمت على ابن عباس رضي الله عنهما: خرج فقعد الناس فما زال يسألونه حتى ما بقي في صحيفتي شيء إلا سألوه عنه)[4].

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي ٣٣٤/٣.

(٢) أخرجه البخاري ٣٧٥٦.

(٣) أخرجه أحمد ٣١٤/١ رقم ٢٨٧٩، وقال محققو الإسناد: إسناده قوي على شرط مسلم ٦٥/٥.

(٤) انظر: علماء الصحابة رضي الله عنهما، د. أحمد خليل جمعة، ص ٣٠، ٥٧.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: مشاورة أهل العلم:

يظهر ذلك في الحديث من مشاورة عمر رضي الله عنه لذوي الرأي من الصحابة رضي الله عنهم فيما أشكل عليه، وقد أمر الله تعالى نبيه بالشورى لتكون شرعة ملزمة لمن بعده، وقد جعلها الله ثمة صفة للمؤمنين فقال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[1][2] وقال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ﴾[3].

(فكان صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه في الأمر إذا حدث، تطبيبًا لقلوبهم؛ ليكونوا فيما يفعلونه أنشط لهم، ومن ذلك مشاورته صلى الله عليه وسلم لأصحابه يوم بدر في قوله: "أشيروا عليّ أيها الناس" فقالوا: (يا رسول الله لو استعرضت بنا عُرض البحر لقطعناه معك، ولو سرت بنا إلى برك الغماد لسرنا معك، ولا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكن نقول: اذهب فنحن معك وبين يديك مقاتلون، وشاورهم - أيضًا- أين يكون المنزل؟ حتى أشار المنذر بن عمرو المعتق ليموت -بالتقدم إلى أمام القوم، وشاورهم في أحد في أن يقعد في المدينة أو يخرج إلى العدو، فأشار جمهورهم بالخروج إليهم، فخرج إليهم.

وشاورهم يوم الخندق في مصالحة الأحزاب بثلث ثمار المدينة عامئذ، فأبى عليه ذلك السَعْدَان: سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، فترك ذلك.

وشاورهم يوم الحديبية في أن يميل على ذراري المشركين، فقال له الصديق: إنا لم نجيء لقتال أحد، وإنما جئنا معتمرين، فأجابه إلى ما قال.

---

(١) سورة الشورى، الآيات: ٣٦-٣٨.

(٢) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، ابن تيمية ص ١٣٥.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

وقال ﷺ في قصة الإفك: "أشيروا عليَّ معشر المسلمين في قوم أبنُوا أهلي ورموهم، وايم الله ما علمت على أهلي من سوء، وأبَنُوهُمْ بمن -والله- ما علمت عليه إلا خيرًا")[1].

ومن عظيم مكانة الشورى في الإسلام أنه سميت سورة باسمها وفي ذلك بيان على أهمية هذا الأمر وعِظمه.

ثالثًا- من مهام الداعية: تصحيح المفاهيم والأعراف الخاطئة عند الناس:

هذا ما فعله الفاروق عمر رضي الله عنه في بيان أن العلم لا يكون مرتبطًا بالسن، بل هو فضل الله يؤتيه من يشاء (وذلك عندما كان يدخل ابن عباس رضي الله عنهما على صغر سنه مع أشياخ بدر لمشاورتهم فوجد منهم الغضب على ذلك)[2]، قال ابن هبيرة: (هذا الحديث يدل على أن فهم الرجل يلحقه بذوي الأسنان، وإن كان حدثًا وقد يبرز عليهم)[3]. فحري بالداعية أن يصحح المفاهيم الخاطئة مقتديًا في ذلك بالنبي ﷺ، فقد كان ﷺ مصححًا للمفاهيم الخاطئة لدى أصحابه رضي الله عنهم ومن ذلك قوله ﷺ للصحابة: ((أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ. فَقَالَ: إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي، يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَـٰذَا، وَقَذَفَ هَـٰذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَـٰذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَـٰذَا، وَضَرَبَ هَـٰذَا. فَيُعْطَىٰ هَـٰذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَـٰذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ. فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ، قَبْلَ أَنْ يُقْضَىٰ مَا عَلَيْهِ. أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ. ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ))[4].

وقوله ﷺ: ((ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب))[5] وقوله ﷺ: ((ليس الغنى، عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس))[6]، وقد استفاضت الأدلة في ذلك، بما يؤكد أهمية قيام الداعية بتصحيح ما

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١٤٩/٢.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٦٠٧/٨.

(٣) الإفصاح، عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ١٥١/٣.

(٤) أخرجه مسلم ٢٥٨١.

(٥) أخرجه البخاري ٦١١٤، ومسلم ٢٦٠٩.

(٦) أخرجه البخاري ٦٤٤٦، ومسلم ١٠٥١.

كان من أفهام وأعراف خاطئة؛ حتى يكون المدعو على بصيرة من دينه.

رابعًا- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

إن السؤال والجواب من الأساليب الدعوية الهامة في استحضار أذهان المدعوين ولفت انتباههم، فضلاً عن وضعهم في حالة استعداد فكريّ ونفسيٍّ لمعرفة ما يكون من إجابة، وهذا الاستعداد أمر مهم جدًا لتلقف المعرفة واختزانها في الذاكرة، ثم لتطبيق إرشاداتها في السلوك، فعلى الداعية أن يستثمر هذا الاستعداد إلى أقصى حدٍّ ممكن[1]، وهذا ما سلكه عمر رضي الله عنه في سؤال أشياخ بدر، وإجابتهم، وإجابة ابن عباس رضي الله عنهما.

خامسًا- من أساليب الدعوة: البرهان والاستدلال:

إن البرهان والاستدلال من الأساليب الدعوية التي يحتاجها الداعية في دعوته، وإن القرآن الكريم بيَّن تلك المنهجية العلمية التي ينبغي للداعية أن يسلكها، وذلك حينما طالب القرآن اليهود والنصارى أن يأتوا ببرهان على ادعائهم بأنه لا يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصارى فقال: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾[2] ومن ثم فإن الداعية بحاجة إلى الإفادة من أسلوب البرهان والاستدلال، لأنه يساعد على تبليغ دعوته وإثباتها بما يؤكد وصولها إلى المدعو وهذا ما سلكه عمر رضي الله عنه وظهر من قول ابن عباس رضي الله عنهما "فما رأيت أنه دعاني يومئذٍ إلا ليُرِيَهُمْ".

سادسًا- من موضوعات الدعوة: أدب الخلاف:

(إن الخلاف أمر وارد نظرًا لاختلاف العقول والأفهام، فهو من طبيعة البشر أو من لوازم طبيعتهم)[3] وهذا ما ظهر من الحديث في اختلاف فهم الصحابة رضي الله عنهم لقوله

---

(١) انظر: فقه الدعوة إلى الله، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، ٢/٥٩.

(٢) سورة البقرة، آية: ١١١.

(٣) فقه الائتلاف قواعد التعامل مع المخالفين بالإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين أبو الحسن علي بن سليمان المرداوي ، محمد محمد الخزندار ص ٢١.

تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ ولكن هذا الخلاف تم في أدب جمّ من الصحابة رضي الله عنهم، فلم يؤد إلى شقاق أو خصام، بل تم في جو من الحب والود. وهذا من خلق الصحابة رضي الله عنهم وفقههم (لأنه قد يترتب على الخلاف فرقة وتناحر، ومتى تفرقت الأمة سهل على أي عدو أن يتحكم بالمسلمين ويذلهم، فالجماعة رحمة، والفرقة عذاب)[١]. وإذا تفرق القوم فسدوا وهلكوا، فإن في الفرقة التناحر، وعندئذ يسهل على أي عدو أن يتحكم بالمسلمين ويذلهم[٢]، يقول ابن تيمية عن تجربة أهل زمانة: وبلاد الشرق من أسباب تسليط الله التتر عليها كثرة التفرق والفتن بينهم في المذاهب وغيرها، وهذا التفريق الذي حصل من الأمة علمائها ومشائخها وأمرائها وكبرائها، هو الذي أوجب تسلط الأعداء عليها، وذلك بتركهم العمل بطاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فمتى ترك الناس بعض ما أمرهم الله به وقعت بينهم العداوة والبغضاء، وإذا تفرقوا فسدوا وهلكوا، وإذا اجتمعوا صلحوا وملكوا)[٣].

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب: عبدالرحمن بن قاسم، ١٤/١٥٠-١٥١.

(٢) نظر: فقه الائتلاف، محمد محمود محمد الخزندار، ص ٢٥.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٣/٤٢١.

الحديث رقم (١١٤)

١١٤- **الثالث**: عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما صلَّى رسولُ اللَّه ﷺ صلاةً بعْد أَنْ نزَلَتْ علَيْهِ ﴿إِذَا جَاءَ نصْرُ اللَّهِ والْفَتْحُ﴾ إلاَّ يقول فيها: «**سُبْحانك ربَّنا وبحمْدِك، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي**» متفقٌ عليه[١].

وفي رواية الصحيحين عنها: كان رسول اللَّه ﷺ يُكثِر أنْ يَقُول فِي رُكُوعِه وسُجُودِهِ: «**سُبْحانَكَ اللَّهُمَّ ربَّنَا وَبحمْدِك، اللَّهمَّ اغفِرْ لي**» يتأوَّل الْقُرْآن[٢].

معنى: «يتأوَّل الْقُرْآنَ» أيْ: يعْمل مَا أُمِرَ بِهِ في الْقُرآنِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَسبِّحْ بِحمْدِ ربِّكَ واسْتَغْفِرْهُ﴾.

وفي رواية لمسلم: كان رسولُ اللَّه ﷺ يُكْثِرُ أنْ يَقولَ قبْلَ أَنْ يَمُوتَ: «سُبْحانَكَ اللَّهُمَّ وبِحمْدِكَ، أَسْتَغْفِرُكَ وأَتُوبُ إِلَيْكَ».

قالت عائشةُ: قلت يا رسولَ اللَّه! ما هذِهِ الكلِمَاتُ الَّتي أراكَ أحْدثْتَها تَقولها؟ قال: «جُعِلَتْ لِي علامةٌ في أمَّتي إذا رَأيتُها قُلْتُها ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ والْفَتْحُ﴾ إلى آخر السورة»[٣].

وفي رواية له: كان رسولُ اللَّه ﷺ يُكْثِرُ مِنْ قَوْلِ: «**سُبْحانَ اللَّهِ وبِحَمْدِهِ. أَسْتَغْفِرُ اللَّه وَأَتُوبُ إِلَيْه**». قالت: قلت: يا رسولَ اللَّه، أَرَاكَ تُكْثِرُ مِنْ قَوْلِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وبحمْدِهِ، أَسْتَغْفِر اللَّه وأتُوبُ إليْهِ؟ فقال: «**أخْبرني ربِّي أنِّي سَأرَى علامَةً فِي أُمَّتي فإذَا رأيْتُها أكْثَرْتُ مِن قَوْلِ: سُبْحانَ اللَّهِ وبِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللَّه وَأَتُوبُ إِلَيْهِ: فَقَدْ رَأَيْتُها: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ والْفَتْحُ﴾ فَتْحُ مكَّةَ، ﴿ورأيْتَ النَّاس يدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أفْوَاجًا، فَسبحْ بحمْدِ ربِّكَ واسْتَغفِرْهُ إنَّهُ كانَ توَّابًا﴾**»[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٦٧) واللفظ له، ومسلم (٤٨٤/٢١٩).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٦٨)، ومسلم (٤٨٤/٢١٧) ولفظهما سواء.

(٣) أخرجه مسلم (٤٨٤/٢١٨).

(٤) أخرجه مسلم (٤٨٤/٢٢٠).

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

غريب الألفاظ:

يتأول القرآن: معنى "يتأول القرآن": أي يعمل ما أمر به في القرآن في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾[1].

الشرح الأدبي

إن البنيان النبوي كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا، ويأخذ بعضًا بحجز بعض. وبين هذا الحديث والحديث السابق ترابط عضوي، واتفاق دلالي، وهما يندرجان في باب واحد وهو، في الحث على الازدياد من الخير، والخير في هذا الحديث نقتبسه من سنة المصطفى ﷺ القولية والعملية، حيث يستجيب النبي محمد ﷺ لأمر خالقه بالتسبيح والتحميد والاستغفار، شكرًا لله عز وجل على نعمة النصر والفتح المبين.

وتقدم أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ثمرة هذا الشكر على لسان المصطفى ﷺ في صيغة القصر التي تفيد الاستقصاء.. وطريق القصر هنا، النفي، في قولها: "ما صلى،... والاستثناء في قولها، إلا يقول...".

وأسلوب القصر هنا تؤازره بلاغة الحذف.. لأن الكلمة التي يشع بها المفهوم ليس لها قيمة جمالية أو تأثيرية في المنطوق، والبيان النبوي يتسم بالإيجاز والإيحاء وعدم الحشو، والبعد عن التطويل، فقد حذف المفعول من قول عائشة رضي الله عنها: "ما صلى رسول الله ﷺ"، والتقدير صلاة، ولكن الحذف أكثر بلاغة وإيحاء... لأن فعل الصلاة يتضمن المعقول، والحدث يتضمن المحدث، وفي بعض الروايات وردت كلمة صلاة وقد تكون للتوضيح فهي مفعول مطلق يفيد التأكيد على الحدث، والتعبير بقولها "إلا يقول فيها" يفيد استمرار القول مع تكرار الحدث وهو الصلاة، لأن صيغة المضارع في "يقول" توحي

---

(١) رياض الصالحين ٩٦.

بذلك، ولفظ "فيها" يدل على أن هذا القول في داخل الصلاة، وليس قبلها أو بعدها، حيث كان النبي ﷺ، يقول ذلك في ركوعه وسجوده: "سبحانك ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي".

وكلمة سبحانك تتضمن إيجازًا لأن تقدير الكلام، سبّحت سبحانك، ومادة السَّبح فيها معنى البعد، أي: أن العبد ينزه ربه ويبتعد به عما لا يليق به من كل نقص، وإضافة سبحان إلى كاف الخطاب الموجه لله عز وجل تدل على شرف العبودية، والاحتماء بعزة الله عز وجل.

والنداء في قوله: "ربنا" حذف منه حرف النداء للإحساس بالقرب من الله عز وجل، وصيغة الجملة في هذا النداء "ربنا"، ترشد إلى أن هذه الصيغة من خصائص الدعاء لدى الأمة كلها، وأن هذه الصيغة يجب اتباعها اقتداء بسنة المصطفى ﷺ وقوله "وبحمدك"، فيه إيجاز كذلك لأن الواو للحال، أو للعطف، أو زائدة، وفي كل نوع للواو يكون توجيه المعنى، وكله صحيح ودال على المراد.

وقيل: قُدِّم التسبيح على التحميد؛ لأن التسبيح تنزيه عن النقائص، التحميد ثناء بصفات الكمال، والمغفرة ثمرتها المرجوة.

فقه الحديث

١- الدعاء في السجود: الحديث دليل على جواز الدعاء في الركوع كان ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده "سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي" يتأول القرآن وقد ترجم البخاري على هذا الحديث في صحيحه باب الدعاء في الركوع[1]. قال ابن حجر: (قيل: الحكمة في تخصيص الركوع بالدعاء دون التسبيح أن الحديث واحد أنه قصد الإشارة إلى الرد من كره الدعاء في الركوع كمالكٍ، وأما التسبيح فلا خلاف فيه، فاهتم هنا بذكر الدعاء لذلك، وحجة المخالف الحديث الذي أخرجه مسلم من رواية ابن عباس مرفوعًا، وفيه ((فأما الركوع فعظموا فيه الرب، وأما

---

(١) الحديث ٧٩٤ الباب ١٢٣.

السجود فاجتهدوا في الدعاء، فقمن أن يستجاب لكم))[1] لكنه لا مفهوم له، فلا يمتنع الدعاء كما لا يمتنع التعظيم في السجود، وظاهر حديث عائشة رضي الله عنها أنه كان يقول هذا الذكر كله في الركوع وكذا السجود)[2].

٢- ما يقال في الركوع والسجود: قال النووي: (مذهبنا [أي المذهب الشافعي] ومذهب الأوزاعي وأبي حنيفة والكوفيين وأحمد والجمهور: استحباب تكرير سبحانه ربي العظيم في الركوع وسبحان ربي الأعلى في السجود، وقال مالك: لا يتعين ذكر الاستحباب)[3].

٣-التسبيح في الركوع والسجود: قال النووي: (اعلم أن التسبيح في الركوع والسجود سنة غير واجبه، هذا مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي والجمهور، وأوجبه أحمد وطائفة من أئمة الحديث لقوله ﷺ: ((فأما الركوع فعظموا فيه الرب عز وجل))[4] ولقوله ﷺ: ((صلوا كما رأيتموني أصلي))[5] وأجاب الجمهور بأنه محمول

---

(١) أخرجه مسلم ٤٧٩.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٦٢٩/١ ط/ بيت الأفكار، وجاء في الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٣٣/٢٣: ذهب المالكية إلى كراهة الدعاء في الركوع، وذهب الشافعية إلى استحباب الدعاء في الركوع، وانظر: المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٤١١/٣، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، الشربيني ١٦٥/١.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٢٧ ، وجاء في الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٣٢/٢٣: وذهب المالكية إلى أن التسبيح في الركوع مندوب بأي لفظ كان. والأولى سبحان ربي العظيم وبحمده أهـ، وانظر: مراجع الموسوعة، الدر المختار ٣٣٢/١، ومراقي الفلاح، وحاشية الطحطاوي عليه ١٤٤، ١٤٥، وجواهر الإكليل ٥١/١، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد النفراوي المالكي ٢٠٩/١، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، الشربيني ١٦٤/١، ١٦٥، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٤١١/٣، ٤١٢، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي ٣٤٧/١، والمغني، ابن قدامة ٥٠١/١، ٥٠٣.

(٤) أخرجه مسلم ٤٧٩.

(٥) أخرجه البخاري ٦٣١.

على الاستحباب، واحتجوا بحديث المسيء صلاته فإن النبي ﷺ لم يأمر به ولو وجب لأمره به)[١].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: القصر.

ثانيًا: من صفات الداعية: الامتثال لأمر الله.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل التسبيح والتحميد والاستغفار.

رابعًا: من واجبات المدعو: الاستفسار عما أشكل عليه.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: علم النبي ﷺ بدنو أجله.

سادسًا: من صفات الداعية: القدوة الحسنة.

أولاً- من أساليب الدعوة: أسلوب القصر:

من أساليب الدعوة أسلوب القصر، ويظهر هذا الأسلوب في استخدام أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لفظ (ما) ثم لفظ (إلا) وقد دل هذا الأسلوب على أن رسول الله ﷺ بعد نزول ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾[٢] ما صلى صلاة إلا قال فيها: "سبحانك ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي"، حيث امتثل لأمر ربه وكان مداومًا على ذلك لا يتركها في صلاة من صلواته.

ثانيًا- من صفات الداعية: الامتثال لأمر الله:

من صفات الداعية الحق الامتثال لأمر الله أولاً، ثم دعوة الناس إلى ذلك، لأن من أهم ما يؤثر في المدعو استشعاره للقدوة في الداعية؛ لأن الناس من شأنهم النظر في

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٣٨٥ ، وانظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢١٠/٢٤ ومراجعها، المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٤١٠/٣، والبدائع ١٦٢/١، وحاشية ابن عابدين ٣١٢/١، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، الشربيني ١٦٩/١، وحاشية العدوي ٢٣٧/١، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد النفراوي المالكي ٢١٠/١، والمغني، ابن قدامة ٢١٠/١.

(٢) سورة النصر، آية: ١.

أعمال وسلوكيات من يدعوهم إلى الخير، فإن وجدوا فيها وقوفًا عند حدود الله وما يدعون إليه فإن ذلك يكون باعثًا على الاتباع، أما الأخرى فيهم لا يلقون للأقوال بالاً، ولا يعيرون أي اهتمام[١]، لذا فإنه على الداعية أن يمتثل لأمر الله ويلتزم بتعاليمه ويستقيم على منهجه، ويظهر الامتثال لأمر الله في هذا الحديث في حرص النبي ﷺ بعد نزول سورة (النصر) والأمر الذي ورد فيها بالتسبيح والتحميد على مداومة التسبيح والتحميد والاستغفار.

فإن في الامتثال لأمر الله تعالى والاستجابة له الحياة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾[٢] والمراد بالاستجابة: الطاعة والامتثال، "لما يحييكم" من علوم الديانات والشرائع، لأن العلم حياة، كما أن الجهل موت، قال الشاعر:

لا تعجبن الجهول حلته فذاك ميت وثوبه كفن[٣]

وقال السعدي: (في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان منهم، وهو الاستجابة لله وللرسول ﷺ أي الانقياد لما أمرا به والمبادرة إلى ذلك والدعوة إليه والاجتناب لما نهيا عنه، والانكفاف عنه والنهي عنه)[٤].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل التسبيح والتحميد والاستغفار:

حرص النبي ﷺ على مداومة التسبيح والتحميد والاستغفار، وكذلك حثه عليهم يدل على فضلهم، فعن سعد بن وقاص قال جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال:

---

(١) انظر: قواعد الدعوة الإسلامية، د. الشريف حمدان رأجح المهدي الهجاري، ص ٢٦٠.

(٢) سورة الأنفال، آية: ٢٤.

(٣) مدارك التنزيل، النسفي، ص ٤٠٩.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٣١٨.

علمني كلامًا أقوله. قال: "قل: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الله أكبر، الله أكبر كبيرًا، والحمد لله كثيرًا، سبحانه الله رب العالمين، لا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم" قال: فهؤلاء لربي، فما لي. قال: ((قُلِ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي وَاهْدِنِي وَارْزُقْنِي))(١) وقال ﷺ "استكثروا من الباقيات الصالحات" قيل وما هن يا رسول الله؟ قال: ((التكبير، والتهليل، والتسبيح، والتحميد، ولا حول ولا قوّة إلا بالله))(٢).

وقال ﷺ: ((الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ. وَالْحَمْدُ لله تَمْلأُ الْمِيزَانَ وَسُبْحَانَ الله وَالْحَمْدُ لله تَمْلآنِ (أَوْ تَمْلأُ) مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ...))(٣).

والاستغفار سبب لحصول الخيرات ونزول البركات، قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾(٤).

خامسًا- من واجبات المدعو: الاستفسار عما أشكل عليه:

إن من واجبات المدعو الاستفسار عن الشيء الذي أشكل عليه ولم يدر سبب استحداثه، أو لما فعله الداعية، وهذا ما فعلته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها مع رسول الله ﷺ عندما قالت: (قلت: يا رسول الله ما هذه الكلمات التي أراك أحدثتها تقولها؟) لأن استفسار المدعو عما أشكل عليه يعمل على إثراء العملية الدعوية، ويُجد نوعًا من التواصل بين الداعية والمدعو، ويعطي برهانًا على اهتمام المدعو بما يسمعه، ويؤكد على حرصه على فهم أمور دينه.

خامسًا- من موضوعات الدعوة: علم النبي ﷺ بدنو أجله:

من الأمور التي دلت على دنو أجل الرسول ﷺ نزول سورة (النصر) وعرف الرسول

---

(١) أخرجه مسلم ٢٦٩٦.

(٢) أخرجه أحمد ٧٥/٣ رقم ١١٧١٣ وقال محققو المسند حسن لغيره ٢٤١/١٨.

(٣) أخرجه مسلم ٢٢٣.

(٤) سورة نوح، الآيات: ١٠، ١١، ١٢.

ﷺ ذلك فكان يكثر من التسبيح والتحميد والاستغفار، وعندما سئل عن ذلك قال ((جعلت لي علامة في أمتي إذا رأيتها قلتها ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ إلى آخر السورة،

وعن ابن عباس رضي الله عنهما (أن عمر سألهم في قوله تعالى ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ قالوا: فتح المدائن والقصور، قال: ما تقول يا ابن عباس؟ قال: أجل: أو مثل ضُرِب لمحمد ﷺ نعيت له نفسه)[1].

وعن سعيد بن جبير (عن ابن عباس قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر.... قال: ما تقولون في قوله الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ فقال بعضهم: أمرنا نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئًا فقال لي: أكذاك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا: قال فما تقول؟ قلت هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له، قال: إذا جاء نصر الله والفتح -وذلك علامة أجلك- فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابًا...)[2].

نزلت سورة النصر في أوسط أيام التشريق في حجة الوداع فعرف رسول الله ﷺ أنه الوداع[3]. فكان ذلك مما أعلمه بدنو أجله ﷺ.

وقال ابن رجب: (أول ما أعلم النبي ﷺ من انقضاء عمره باقتراب أجله بنزول سورة "إذا جاء نصر الله والفتح". وقيل لابن عباس رضي الله عنهما: هل كان يعلم رسول الله ﷺ متى يموت؟ قال: نعم. قيل: ومن أين؟ قال: إن الله تعالى جعل علامة موته في هذه السورة: "إذا جاء نصر الله والفتح"، يعني فتح مكة "ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا"، ذلك علامة موته، وقد كان نعى نفسه إلى فاطمة رضي الله عنها.

فإن المراد من هذه السورة أنك يا محمد، إذا فتح الله عليك البلاد، ودخل الناس في دينك الذي دعوتهم إليه أفواجًا فقد اقترب أجلك، فتهيأ للقائنا بالتحميد والاستغفار،

---

(١) أخرجه البخاري ٤٩٦٩.

(٢) أخرجه البخاري ٤٩٧٠.

(٣) ذكره الحافظ ابن حجر العسقلاني، في فتح الباري، ابن حجر ٦٠٨/٨ وعزاه لأبي يعلى.

فإنه قد حصل منك مقصود ما أمرت به من أداء الرسالة والتبليغ، وما عندنا خير لك من الدنيا، فاستعد للنقلة إلينا.

قال ابن عباس: لما نزلت هذه السورة نعيت لرسول الله ﷺ نفسه، فأخذ في أشد ما كان اجتهادًا في أمر الآخرة)[١].

وكان يعرض القرآن على جبريل مرة، فعرضه ذلك العام مرتين، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: ((إنا كنا أزواجَ النبيِّ ﷺ عندَهُ جميعاً لم تُغادِر منا واحدة، فأقبلَتْ فاطمة عليها السلام تمشي، لا واللّهِ ما تخفى مِشيتها من مِشيةِ رسول الله ﷺ. فلما رآها رحَّبَ قال: مرحباً بابنتي، ثم أجلَسَها عن يمينه - أو عن شمالهِ- ثمَّ سارَّها، فبكت بكاءً شديداً، فلما رأى حُزنها سارَّها الثانية. فإذا هي تضحك. فقلت لها -أنا من بين نسائه- خَصَّك رسولُ الله ﷺ بالسرِّ مِن بيننا ثم أنتِ تَبكين. فلما قام رسولُ الله ﷺ سألتها عما سارَّكِ؟ قالت: ماكنتُ لأفشِيَ على رسول الله ﷺ سرَّه، فلما تُوُفيَ قلت لها: عزَمتُ عليكِ- بما لي عليكِ منَ الحقّ- لما أخبرْتني. قالت: أما الآن فنعم، فأخبرَتْني قالت: أما حينَ سارَّني في الأمر الأول فإنه أخبرني أنَّ جبريلَ كان يعارضه بالقرآن كلَّ سنةٍ مرَّة، وإنه قد عارَضني به العامَ مرَّتين، ولاأرى الأجلَ إلا قد اقترب، فاتقي اللّهَ واصبري، فإني نعمَ السلَفُ أنا لكِ. قالت: فبكيتُ بكائي الذي رأيت. فلما رأى جَزَعي سارَّني الثانيةَ قال: يا فاطمة ألا ترضَينَ أن تكوني سيدةَ نساءِ المؤمنين؟ أو سيدة نساء هذه الأمة))[٢].

وكان ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان كل عام، فاعتكف في ذلك العام عشرين؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ ((أنه كان يعتكف العشر الأواخر من شهر رمضان، فلما كان العام الذي قبض فيه اعتكف عشرين))[٣].

---

(١) انظر: لطائف المعارف، ابن رجب الحنبلي، ص ١٩٨.

(٢) أخرجه البخاري ٦٢٨٥، ومسلم ٢٤٥٠.

(٣) أخرجه أحمد ٢/٣٣٦ رقم ٨٤٣٦، وقال محققو المسند: إسناده صحيح على شرط البخاري ١٤/١٥٥.

سابعًا- من صفات الداعية: القدوة الحسنة:

القدوة الحسنة من أهم وسائل الدعوة إلى الله وأكثرها فاعلية؛ يقول الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[1].

قال السعدي: الأسوة نوعان أسوة حسنة، وأسوة سيئة.

فالأسوة الحسنة، في الرسول ﷺ فإن المتأسي به، مالك الطريق الموصل إلى كرامة الله وهو الصراط المستقيم.

وأما الأسوة بغيره، إذا خالفه، فهو الأسوة السيئة كقول المشركين: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾[2]. وإن الأسوة الحسنة، إنما يسلكها ويوفق لها من كان يرجو الله واليوم الآخر. فإن ما معه من الإيمان، وخوف الله، ورجاء ثوابه، وخوف عقابه، يحثه على التأسي بالرسول ﷺ[3].

فالقدوة الحسنة تنطبق على من يتبع ما جاء به محمد ﷺ. وطبقًا لذلك يكون متبوعًا في كلامه وأفعاله، ويكون متبوعًا إما لسبب تفوق بعلم أو بعبادة أو لقدمه في طريق الحق، وكلها تندرج تحت إتباع الرسول ﷺ وعلى مقدار الأتباع تزداد نسبة الإتباع أو تنقص[4].

وتظهر أهمية القدوة للداعية في الاقتداء بالنبي ﷺ الذي عندما علم بدنو أجله ونزلت سورة "النصر" وأُمر بالتسبيح والتحميد والاستغفار كان أول من لبى الأمر وداوم على التسبيح والتحميد والاستغفار فكان قدوة للأمة عامة وللدعاة خاصة.

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

(٢) سورة الزخرف، آية: ٢٢.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ١٠٩.

(٤) المصفى من صفات الدعاة، عبدالحميد البلالي ١/ ٢٠، ٢١.

الحديث رقم (١١٥)

١١٥- الرابع: عن أنسٍ رضي الله عنه قال: إنَّ اللَّه عزَّ وجلَّ تَابعَ الوحْيَ على رسول اللَّه ﷺ قَبْلَ وَفَاتِهِ، حتَّى تُوُفِّي أَكْثَرَ مَا كَانَ الْوَحْيُ. متفقٌ عليه[١].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

تابع الوحي: أي أكثر إنزاله[٢].

الشرح الأدبي

يروي هذا الحديث، أنس بن مالك رضي الله عنه وهو من أكثر الصحابة قربًا من النبي ﷺ، وهو لا يقدِّم موعظة، ولا يحدد قواعد شرعية، ولكن الحديث يوضح حقيقة أصولية لها في تاريخ الإسلام تأثير قوي.. وهي اكتمال عقد الدعوة الإسلامية وعدم انقطاع الوحى إلا بعد أن أكملت جوانب الشريعة، وتمت معالم العقيدة، ويتضح ذلك في قوله عز وجل: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[٣]، وقيل إن معنى إكمال الدين في هذه الآية التي لم تكن آخر آية أنزلت، أي إكمال أحكامه، وحلاله وحرامه، فلم ينزل بعدها شيء من الفرائض والتحليل والتحريم، وقيل: إن ما نزل بعدها: إنما هو من آيات الوعظ والتقدير لما سبق من الأحكام، لا لإنشاء أحكام جديدة[٤].

والحديث موجز ويصاغ في جملة واحدة تبدأ بالتأكيد دلالة على صدق الحدث وهو

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٨٢)، ومسلم واللفظ له (٣٠١٦/٢).

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٦٢٤/٨.

(٣) سورة المائدة، آية: ٣ .

(٤) انظر: المختار من كنوز السنة المحمدية، د. محمد عبدالله دراز، ص ١، ٣.

تتابع الوحى وكثرته قبيل وفاته ﷺ، وذلك حتى لا يبقى شيء من التعاليم الإلهية لم يبلّغ به النبي ﷺ، ولم يبلغها إلى أمته، وإلى الناس كافة.

وفي الحديث ألفاظ مشعة تنسق إشعاعاتها مع جو الحديث وفضائه المفعم بالجلال والجمال، ومن هذه الكلمات المشعة بالجلال، لفظ الجلالة "الله" وبعده فعلان هما "عز وجل"، وهما مناسبان: لأنه لا يوحي إلا الله عز وجل، فالفعل "عز" معناه غلب فلا يغالب على مراده، ومن أقدر من الله! ومن أعز من الله! يقدر على إنزال جبريل، وإرسال الرسل، وتكليف الرسل بالرسالات، والفعل، "جل" يرشد إلى أننا لا ننسب إلى الله تعالى ما لا يليق بشأنه، ولا نكذب بالرسل، ولا ندعي عليهم، ولا نتشكك في الوحى؛ وللوحى دلالة في اللغة ودلالة في الشرع.

فالوحى: اسم مصدر بمعنى الإيحاء أو الشيء الموحى به، والإيحاء لغة هو: الإعلام بالشيء سرًا، ولذلك كانت الكناية والإشارة والرمز والكلام الخفي كل ذلك يسمى وحيًا.

وإذا أطلق الوحى في لسان أهل الشرع انصرف ذلك إلى الوحى الصادر من الله تعالى، الوارد إلى الأنبياء، فهو أخص من المعنى اللغوي، بخصوص مصدره ومورده.

والوحى الشرعي بكل أنواعه يصاحبه علم من الموحى إليه بأن ما ألقى إليه حق معصوم من عند الله تعالى، ليس من خطرات الأوهام، ولا من نزغات الشيطان، وهذا العلم يقيني ضروري، لا يخالجه شك ولا يتولد من مقدمات[1]. ولنتأمل هذا الجلال الذي يغمر هذا الحديث الشريف الذي يرويه الفاروق عمر واصفًا صورة من صور الوحي، وهو ما يحصل بمحادثة الملك للرسول ﷺ غير متمثل في صورة بشرية، يقول عمر رضي الله عنه: (كان رسول الله ﷺ إذا نزل الوحي مجمع عند وجه كدوي النحل، فأنزل عليه يومًا، فمكثنا ساعة فسرى عنه، فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال: اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا وأرضنا وأرض عنا ..."

---

(١) انظر: المرجع السابق ١، ٣.

الحديث[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد والإخبار.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: تتابع نزول الوحي على رسول الله ﷺ قبل وفاته.

ثالثًا: من تاريخ الدعوة: كثرة نزول الوحي قبل وفاة الرسول ﷺ.

أولاً- من أساليب الدعوة: التوكيد والإخبار:

من أساليب الدعوة في هذا الحديث أسلوب التوكيد حيث أكد أنس رضي الله عنه بقوله (إن الله) ثم أخبر بعد ذلك بتتابع نزول الوحي على رسول الله ﷺ، وهذا يدل على حرص أنس بن مالك رضي الله عنه على التوكيد والإخبار عن ذلك. وأسلوب التوكيد والإخبار من الأساليب المهمة في الدعوة إلى الله تعالى، حيث يستعمل أسلوب التوكيد في الأمر الذي يريد الداعية أن يخبر به المدعوين، وفي هذا الحديث أراد أنس رضي الله عنه أن يؤكد ويخبر بتتابع الوحي على النبي ﷺ قبل وفاته.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: تتابع نزول الوحي على رسول الله ﷺ قبل وفاته:

إن الله عز وجل اصطفى من خلقه أنبيائه وأنزل عليهم كتبه وشرائعه بواسطة وحيه، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[2] إلا أن الله عز وجل شاء أن يميز نبينا محمدًا ﷺ على الأنبياء جميعهم فختمهم به، قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾[3].

وكان الله عز وجل ينزل الكتب على الأنبياء جملة وأنزل القرآن على نبيه ﷺ

---

(١) أخرجه الترمذي.

(٢) سورة الشورى، آية: ٥١.

(٣) سورة الأحزاب، آية: ٤٠.

منجمًا، قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾[1] أي أنزلناه شيئًا بعد شيء لا جملة واحدة، إذ أنزله الله "على مكث" أي تطاول في المدة شيئًا بعد شيء، "ونزلناه تنزيلا" مبالغة وتأكيد بالمصدر المتقدم أي أنزلناه نجمًا بعد نجم[2].

والحديث الشريف الذي معنا ويؤكد أن القرآن الكريم لم ينزل جملة واحدة وإنما نزل متتابعًا، "إن الله عز وجل تابع الوحي على رسول الله ﷺ..." أي والي، أي الشيء بعد الشيء، وقال ابن حجر: (إن الله تابع على رسوله ﷺ الوحي قبل وفاته: أي أكثر إنزاله قرب وفاته ﷺ، والسر في ذلك أن الوفود بعد فتح مكة قد كثرت وكثُر سؤالهم عن الأحكام فكثر النزول بسبب ذلك)[3].

وكذلك كثر نزول الوحي قبل وفاة النبي ﷺ ليتم الله دينه ويكمل نعمته ويبلغ كامل شريعته للمسلمين قبل أن يقبض رسول الله ﷺ. قال تعالى بعد أن أتم ما أراد من تبليغ الرسالة ونصره الإسلام ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[4].

ثالثًا- من تاريخ الدعوة: كثرة نزول الوحي قبل وفاة الرسول ﷺ:

إن من تاريخ الدعوة إلى الله: كثرة نزول الوحي قبل وفاة الرسول ﷺ، لقد كان نزول الوحي في مدة بعثته ﷺ التي استغرقت ثلاثة وعشرون عامًا متتابعًا كما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ((بُعثَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم لأربعينَ سنةً، فمكثَ بمكةَ ثلاثَ عشرةَ سنةً يُوحى إليه، ثم أُمِرَ بالهجرة فهاجرَ عَشرَ سنينَ، وماتَ وهو ابنُ ثلاثٍ وستين))[5] ولكن قبل وفاة النبي ﷺ تتابع نزول الوحي على رسول الله ﷺ

---

(١) سورة الإسراء، آية: ١٠٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٣/١٨٧، ١٨٨.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ٨/٦٢٤.

(٤) سورة المائدة، آية: ٣.

(٥) أخرجه البخاري ٣٩٠٢.

أكثر ما كان عليه الوحي كما أخبر أنس بن مالك في الحديث الذي معنا.

وما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ((كان يَعرِضُ على النبيِّ ﷺ القرآنُ كلَّ عام مرَّةً، فعرض عليه مرَّتَين في العام الذي قُبِضَ فيه، وكان يعتكِفُ في كلِّ عامٍ عشرًا، فاعتكَف عِشرين في العام الذي قُبض فيه))[1].

ولقد كان نزول الوحي وتتابعه من المسائل المؤثرة في تاريخ الدعوة الإسلامية؛ إذ أن الرسالة لما أوشكت على التمام وكملت الرسالات وتم الدين كثر نزول الوحي وتتابع على رسولنا ﷺ تأنيسًا له وتكريمًا وإعلاء لشأنه وتعظيمًا ورحمة للأمة وللخلق أجمعين، حيث تكاثرت البركات الإلهية والتوجيهات الربانية، وكأنما كان الوحي يودع الدنيا ويواسيها في مصابها الأليم، حتى توفي الرسول ﷺ فانقطع الخير وذهب الهناء ولم يبق من ضياء إلا ما تركه من سنته الشريفة القائمة مقامه والمبلغة رسالته، من استنار بها نجا ومن تنسم عبيرها حظي ببركته ﷺ[2].

---

(١) أخرجه البخاري ٤٩٩٨.

(٢) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم، ص ١١٠.

الحديث رقم (١١٦)

١١٦- الخامس: عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يُبْعثُ كُلُّ عبْدٍ على ما مَاتَ علَيْهِ»** رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

جابر بن عبدالله الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

الشرح الأدبي

إن هذا الحديث النبوي الشريف يُدرجه صاحب رياض الصالحين في ختام باب، "في كثرة طرق الخير والحث على الازدياد من الخير في أواخر العمر".

وهو يتضمن بشارة وتحذيرًا، فالبشارة لكل عبد مؤمن مات وهو متلبس بطاعة الله عز وجل عبادة وقولاً وسلوكًا ونية صالحة ، والتحذير لكل عبد عاصٍ غافل عن طرق الخير لاهٍ، ومنصرف إلى شواغل الحياة. ولا يدري بأى أرض يموت ولا في أى ساعة يأتيه الأجل، والحديث قليل في مبناه كثير في معناه، فهو جملة لغوية واحدة، ولكنها تموج وتشع بجماليات الأداء الأسلوبي في الحديث النبوي ، فبناء الفعل لمجهول في قوله: "يُبْعث" إرشاد إلى أن البعث بيد الله عز وجل فهو معلوم عند أولي الألباب، ولا يجهل ذلك إلا من لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها، فهم في جهلهم كالأنعام بل هم أضل، وأولئك هم الغافلون.

وقوله "كل عبد" فيه إيجاز وتكثيف: لأن هذا القول يشمل كل من خلقهم الله من الناس أجمعين فهم عبيد الله، وهم جميعًا ذكورًا وإناثًا مسؤولون عما كلفهم الله به، ولنتأمل هذه الصورة المتماوجة بالملايين من أنواع البشر الذين يموتون، كل على وضع وحال يخالف وضع الآخر، وكل بقدرة الله عز وجل، يبعث على ما مات عليه، ففي الحديث، كما يقول العلماء، تحريض للإنسان على حسن العمل، وملازمة السنة

---

(١) برقم (٢٨٧٩/٨٤).

المحمدية في سائر الأحوال، والإخلاص لله تعالى في الأقوال والأعمال ليموت على تلك الحالة الحميدة فيبعث كذلك[١].

فلينظر كل عبد إلى نفسه أنه إلى الظالمين أقرب أم إلى المتقين؟ وانظر إلى نفسك -كما قال صاحب إحياء علوم الدين- بعد أن تنظر إلى سيرة السلف الصالحين، فلقد كانوا مع ما وفقوا له من الخائفين، ولما حضرت معاذًا الوفاة قال: "اللهم إني قد كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك، اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لجْري الأنهار، ولا لغرس الأشجار ولكن لظمأ الهواجر، ومكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء بالركب عند حِلَق الذِّكر.

ولما حضرت بلالاً الوفاة قالت امرأته : واحزناه، فقال: بل: واطرباه! غدًا نلقى الأحبة: محمدًا وحزبه.

وقال أبو بكر وهو يحتضر حينما دخل عليه سلمان الفارسي وقال ياأبا بكر، أوصنا فقال: إنا الله فاتح عليكم الدنيا فلا تأخذن منها إلا بلاغك.

وقال ﷺ مؤكدًا المراد من هذا الحديث الذي نحن بصدده، "إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده غدوة وعشية، إن كان من أهل الجنة فمن الجنة، وإن كان من أهل النار فمن النار، ويقال: هذا مقعدك، حتى تبعث إليه يوم القيامة"[٢]، فاللهم ابعثنا على الإسلام والإيمان والإحسان، واجعلنا من أهل الجنة والغفران.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: المداومة على فعل الطاعة.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: من خصائص النبي ﷺ: جوامع الكلم.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: تقرير حقيقة البعث.

رابعًا: من أهداف الدعوة: حث المسلم على ملازمة الطاعة والحذر من المعاصي.

---

(١) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان.

(٢) أخرجه البخاري ١٣٧٩، ومسلم ٢٨٦٦.

أولاً- موضوعات الدعوة: المداومة على فعل الطاعة:

إن المسلم بحاجة إلى المداومة على الطاعات، ومراقبة الله تعالى في السر والعلن لأنه لا يدري متى يدركه الموت، ومن ثم فإن الإنسان بحاجة إلى استشعار مراقبة الله تعالى له. قال ﷺ ((اعْبُدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ))[١] وعلى المسلم ذكر الموت، وذكر لقاء ربه، وقد أوصى النبي ﷺ بكثرة ذكر الموت فقال: ((أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ يَعْنِي الْمَوْتَ))[٢].

وأمر بعدم التأني في طاعة الله فقال ﷺ ((التُّؤَدَةُ فِي كُلِّ شَيْءٍ خَيْرٌ، إِلاَّ فِي عَمَلِ الآخِرَةِ))[٣] أي أن التأني في كل شيء إلا في عمل الآخرة ففي تأخير الخيرات آفات[٤].

وقد حثّ النبي ﷺ على المداومة على الطاعات فقال: ((... وَإِنَّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إِلَى اللهِ مَا دُووِمَ عَلَيْهِ وَإِنْ قَلَّ))[٥].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: من خصائص النبي ﷺ جوامع الكلم:

إن من الأشياء التي خص الله بها رسوله ﷺ جوامع الكلم، قال ﷺ ((فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ...))[٦].

أي: أن كلامه ﷺ قليل اللفظ كثير المعاني[٧].

وسياق هذا الحديث يدل على أن الرسول استخدم فيه جوامع الكلم حيث استخدم القليل من الألفاظ للدلالة على الكثير من المعاني التي تحتاج إلى تفصيل فذكر أن

---

(١) أخرجه مسلم ٨.

(٢) أخرجه الترمذي ٢٣٠٧، وقال الألباني: حسن صحيح (صحيح سنن الترمذي ١٨٧٧).

(٣) أخرجه أبو داود ٤٨١٠، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤٠٢٥).

(٤) انظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ٢٠٨٦.

(٥) أخرجه مسلم ٧٨٢.

(٦) أخرجه مسلم ٥٢٣.

(٧) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٤٠٣.

العبد يبعث على ما يموت عليه، لذا ينبغي للداعية أن يفيد في دعوته من منهج النبي ﷺ من خلال الإيجاز والتركيز وعدم الإطناب، حتى يستطيع المدعو تكوين صورة ذهنية عن الموضوع الذي يتناوله الداعية.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: تقرير حقيقة البعث:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "يبعث كل عبد على ما مات عليه".

والبعث للدار الآخرة في يوم الجزاء حقيقة مقررة، وستوضع موضع التنفيذ إذا جاء أجلها المحدد في علم الله، فالبعث أمر واقع لا محالة، ستعود فيه الحياة التي بليت ورَمَّت، وليس ذلك ببعيد ولا مستغرب على قدرة الله الذي خلق السماوات والأرض؛ وخلقهن أكبر من خلق الناس!!

أو ليس الذي ابتدع خلق الإنسان على غير مثال سبق، بقادر على إعادة كل فرد من أفراد نوعه، بعد موته وفناء جسده؟! بلى إنه لقادر[(١)].

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ﴾[(٢)].

إن الإيمان باليوم الآخر ركن من أركان الإيمان، ولذا فإن قضية البعث والإيمان بها من أهم أركان الإيمان التي يقوم عليها بناء العقيدة بعد قضية وحدانية الله تعالى، والإيمان بما في اليوم الآخر وعلاماته من الإيمان بالغيب، الذي لا يدركه العقل، ولا سبيل إلى معرفته إلا بالنص عن طريق الوحي، وقلَّ أن تمر على صفحة من القرآن، إلا وتجد فيها حديثًا عن اليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب[(٣)].

رابعًا- من أهداف الدعوة: حث المسلم على ملازمة الطاعة والحذر من المعاصي:

إن حسن خاتمة العبد فضل عظيم ينعم الله عز وجل به على من رضي من عباده، ومن أراد له السعادة في الآخرة، وذلك لأن بعض الناس قد يحرصون على الطاعة، ثم

---

(١) العقيدة الإسلامية وأسسها، عبدالرحمن حسن حبنكة ص ٦٥١.

(٢) سورة الحج، آية: ٧.

(٣) أشراط الساعة، د. يوسف عبدالله يوسف الوابل ص ٢٧.

يعتريهم التقصير فينغمسون في المعاصي، ولا يدرون كيف تكون النهاية، وقد بيّن النبي ﷺ أهمية ملازمة الطاعة والحذر من المعاصي، لأن الإنسان يبعث على ما مات عليه وقلوب العباد بين أصبعي الرحمن يقلبها كيف يشاء؛ فعن أنس رضي الله عنه قال: ((كان رَسولُ الله ﷺ يُكثِرُ أنْ يقولَ: يا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي على دِينكَ، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ الله آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا؟ قَالَ: نَعْم، إِنَّ القُلُوبَ بَيْنَ أَصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الله يُقَلِّبُهَا كَيْفَ شَاءَ))[1]. ومما يبعث على الحذر من المعاصي ما ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((... إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلاَّ ذِرَاعٌ. فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ. فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ. فَيَدْخُلُهَا. وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ. حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلاَّ ذِرَاعٌ. فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ. فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ. فَيَدْخُلُهَا))[2]. وهذا الحديث تصريح بأن التوبة تهدم الذنوب قبلها، وأن من مات على شيء حكم له به من خير أو شر، إلا أن أصحاب المعاصي غير الكفر في المشيئة[3].

---

(١) أخرجه الترمذي ٢١٤٠، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٧٩٢).

(٢) أخرجه البخاري ٣٢٠٨، ومسلم ٢٦٤٣.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٦٨.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

التجارب خير زاد للإنسان في هذه الحياة، وكلما طال العمر كلما كثرت التجارب والمشاهدة، والعاقل من يعتبر بغيره، ومن بلغ الأربعين فقد بلغ أشده، ومن أدرك الستين فقد انتفى عذره، ومن جاوزها إلى الثمانين فقد تجاوز الاعتذار. لهذا بيّن الرسول ﷺ حال الناس إذا طالت بهم الحياة ونص على أن خيرهم من يوظف عمره في طاعة ربه ويحسن عمله، وقد جعل الرسول ﷺ من نفسه قدوة، حين أكثر من الاستغفار والتوبة، وأخذ من القرآن ما أمر أن يأخذ به "فسبح بحمد ربك واستغفره". ولا يكتفي في هذه الفترة أو غيرها بالعمل، بل لا بد من حسن الظن والاعتقاد، فالمرء يبعث على ما مات عليه، ويمكن توظيف ذلك تربوياً فيما يلي:

أولاً- التربية على الازدياد من الخير، وخاصّة في أواخر العمر:

إن أحاديث الباب التي ساقها النووي ترشد إلى أنه ينبغي على الإنسان أن يزداد من الخير والعمل الصالح في حياته، وبخاصة في أواخر حياته وعمره، فإذا كان الإنسان عليه أن يجعل يومه خيرًا من أمسه وغده خيرًا من يومه، فإنه أحوج ما يكون إلى ذلك في أواخر عمره: وقت الخاتمة والنهاية، لأن الأعمال بالخواتيم والاعتبار بها. فإذا حسنت الخاتمة كان هذا رجاء في صلاح ما قبل الخاتمة، ونحن نرى في التربية على الازدياد من الخير وبخاصة في أواخر العمر من الفوائد ما لا يخفى، من ذلك:

أ- جعل الحياة حلقاتٍ متواصلة من العمل النافع والفعل الصالح، فإذا كان الصِّبا للتعلم والتدرُّب واكتساب المهارات والخبرات، وإذا كان الشباب وقت العمل والاجتهاد والكدّ والسعي وإثبات الذات، فإن كبر السنّ لا يكون منفصلاً عما سبقاه ولا منقطعًا بل وثيق الصلة بهما متين العلاقة، فهو مرحلة أيضًا للعمل والاجتهاد، وليس هذا فحسب بل إنه أيضًا يكون مميزًا بشدة السعيّ وقوة العزم وصدق الاجتهاد والجدّ، لا يمنعه عن ذلك مرض أو كبر أو غير ذلك من العوائق، وهكذا تكون حياة الإنسان حلقات متواصلة من التميز والمثابرة والاجتهاد، وحياة بهذه الصفة حياة نافعة مثمرة طيبة

يزداد بها الخير، ويقلّ بها الشرّ.

ب- الشيوخ هم من عركتهم الحياة وعركوها وخبروا الحياة وخبروها، واجتازوا مراحلها المختلفة واكتسبوا من الخبرات أثمنها ومن المهارات أفضلها ومن القدرات أحسنها، لذا كان لهم من المكانة عند الشباب والفتيان ما لهم، فعيونهم معلّقة بهم يراقبونهم ويتطلعون إلى أفعالهم، وتأخذهم الرغبة العارمة في الاقتداء بهم. فإذا رأوهم على صلاح حاولوا أن يكونوا مثلهم، وإذا رأوهم على غير ذلك تأثروا بهم وفعلوا أفعالهم.

ومن هنا كان حرص الشيوخ على الازدياد من العمل الصالح لا يعود عليهم بالنفع فحسب، بل يتعدّى أيضًا إلى غيرهم من الشباب والفتيان الذين يرغبون في أن يجعلوهم قدوة لهم، يسيرون على منوالهم ويخطون على طريقهم.

ثانيًا- من مهام المربي: إفساح المجال أمام الشباب الواعد:

قال ابن عباس رضي الله عنهما: "كان عمر رضي الله عنه يُدْخلني مع أشياخ بدر فكأن بعضهم وَجَد [أي غضب] في نفسه، فقال: لِم يدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال: إنه من حيث علمتم". وفي هذا دلالة واضحة جلية على إفساح عمر بن الخطاب رضي الله عنه المجال لابن عباس رضي الله عنهما ذلك الشاب النابه، أن يحضر مجلس مشورته حيث أكابر الصحابة رضي الله عنهم، ويدلي برأيه مع رأيهم، ويُشير كما يشيرون، ويبدي وجهة نظره كما يبدون، ونحو ذلك.

وفي هذا حثٌّ لأهل التربية وغيرهم أن يهتموا بالشباب، وخاصة النابغ والنابه منهم، حتى يكونوا على أتمّ الاستعداد لأن يتسلموا الراية من آبائهم، فيقوموا بها خير قيام ويضطلعوا بها خير اضطلاع، فيزيدوا إنجازات السابقين عليهم ويضيفوا إليها، لا أن يكونوا عبئًا وكلاً عليها.

ولعل ما يؤكد ذلك أن الأمم المتقدمة هي التي تحرص أشد الحرص على إعداد الشباب للمهام الجسام والحرص على تولية النابهين منهم ما يناسبهم من مسؤوليات ومهام، ولا يكون ذلك حكرًا على الشيوخ وكبار السنّ الذين رضوا بما هم فيه بل

وحاربوا كل محاولة للتغيير نحو الأصلح والأنفع، فتجد لهذا الأمم المتقدمة حيّة تتواصل فيها الأجيال تواصلاً مفيدًا، فتجد الكبار يعطون خبراتهم الثمينة إلى هؤلاء الشباب، الذين بدورهم يكونون حريصين أشد الحرص على أن يكونوا سواعدهم اليمنى في تنفيذ خططهم وبرامجهم، تجد الراية تنتقل من جيل إلى جيل بسلاسة ويسر، وكل جيل يبني إلى ما سبق من بناء. وبهذا تتقدم الأمم وتتكون القيادات المؤثرة والقدوات الصالحة والنماذج المبهرة.

والخلاصة أنّه على أهل التربية أن يتعهدوا الشباب النابهين النابغين، ويفسحوا المجال لهم لإبراز قدراتهم ويحققوا إنجازاتهم.

ثالثاً- التربية على الامتثال لأوامر القرآن الكريم:

قالت عائشة رضي الله عنها: "كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: "سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي" يتأول القرآن.

ومعنى: يتأول القرآن أي يعمل ما أمر به في القرآن في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾[1].

وفي رواية لمسلم: "كان رسول الله ﷺ يكثر من قول: سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه" قالت: قلت: يا رسول الله أراك تكثر من قول سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه. فقال: أخبرني ربي أني سأرى علامة في أمتي فإذا رأيتها أكثرت من قول: سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب، فقد رأيتها: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾.

أي أن النبي ﷺ كان يعمل بما أمره الله به في القرآن الكريم فيقف عند حدوده، فما كان من أمر عمله وما كان من نهي انتهى عنه وتركه.

---

(١) سورة النصر، آية: ٣.

وفي هذا حثّ لأهل التربية والمربين أن يربوا أتباعهم على ذلك، فيقفوا عند كتاب الله تعالى، وأن يتصفوا كما اتصف السلف الصالح بأنّهم وقّافون عند كتاب الله، كما ثبت في وصف عمر بن الخطاب رضي الله عنه ((كَانَ وقّافًا عند كتاب الله تعالى))(١). ولو نجح أهل التربية في ذلك وجعلوا من يقومون بتربيتهم وقّافين عند كتاب الله سبحانه وتعالى، لكان في ذلك كل الخير لهم ولغيرهم، وذلك أن كتاب الله إنما نَزَلَ ليطبق في دنيا الناس ويحكم عليهم وعلى أفعالهم، قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾(٢).

رابعاً: ومن حديث ابن عباس رضي الله عنهما مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه ندرك تربوياً وتعليمياً ما يلي:

جواز جلوس الصغير مع الكبير في مجلس العلم.

جواز إظهار السبب الذي دعا ولي الأمر إلى اتخاذ القرار الذي لم يعتده الناس.

الإسلام لا يعرف الطبقية الاجتماعية، وقضى على تقاليد الجاهلية، فلم تكن تأذن بجلوس الصغير مع الكبير فضلاً عن أن يتكلم حضورهم.

ليس بلازم أن يجيب الإنسان عن كل سؤال طرح أمامه، فمن توفر عنده علم أجاب، ومن لم يتوفر عنده علم يمسك وينتظر الإجابة.

التدافع في الإجابة غير محبب، وذلك لإعطاء الفرصة للآخرين ليتكلموا بما ظهر لهم، ثم يكون التعقيب على الإجابة.

على المعلم أن يكون على الإجابة الصحيحة من بين الإجابات المطروحة، وذلك في قول عمر رضي الله عنه: ما أعلم منها إلا ما تقول.

(١) أخرجه البخاري ٤٦٤٢، ٧٢٨٦.

(٢) سورة المائدة، آية: ٤٩.

١٣- باب في بيان كثرة طرق الخير

قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾[البقرة:٢١٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ [البقرة:١٩٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾[الزلزلة: ٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾[الجاثية: ١٥] والآيات في الباب كثيرة.

وأما الأحاديث فكثيرة جدًا وهي غيرُ منحصرةٍ فنذكرُ طرفًا مِنْهَا:

الحديث رقم (١١٧)

١١٧- **الأوَّل:** عن أَبي ذرٍّ جُنْدَبِ بنِ جُنَادَةَ رضي الله عنه قال: قلت يا رسولَ اللّه، أيُّ الأعْمالِ أفْضَلُ؟ قال: «**الإيمانُ باللَّهِ، وَالجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ**». قُلْتُ: أيُّ الرِّقَابِ أفْضَلُ؟ قال: «**أنْفَسُهَا عِنْدَ أهْلِهَا، وأكثَرُهَا ثَمَنًا**». قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ أفْعلْ؟ قال: «**تُعينُ صَانِعًا أوْ تَصْنَعُ لأخْرَقَ**» قُلْتُ: يا رسول اللّه أرَأَيتَ إنْ ضَعُفْتُ عَنْ بَعْضِ الْعملِ؟ قال: «**تَكُفُّ شَرَّكَ عَنِ النَّاسِ فَإنَّها صدقةٌ مِنْكَ على نَفسِكَ**» متفقٌ عليه[1].

«**الصانِعُ**» بالصَّاد المهملة هذا هو المشهور، ورُوِي «ضَائعًا» بالمعجمة: أيْ ذَا ضَيَاعٍ مِنْ فقْرٍ أوْ عِيالٍ، ونْحو ذلكَ «والأخْرَقُ»: الَّذي لا يُتقنُ ما يُحاولُ فِعْلَهُ.

ترجمة الراوي:

أبو ذر الغفاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٦١).

غريب الألفاظ:

أَنْفَسُهَا: الأنفس: الأعظم قيمة[2].

صانعًا: بالصاد المهملة هذا هو المشهور وروي ضائعًا بالمعجمة: أي ذا ضياع من فقر أو عيال ونحو ذلك[3].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥١٨)، ومسلم (٨٤/١٣٦) واللفظ له. وسيكرره المؤلف برقم (١٢٨٩).

(٢) الوسيط ٩٤٠، وانظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٧٧/٥.

(٣) رياض الصالحين ٩٨.

الأخرق: الذي لا يتقن ما يحاول فعله[١].

الشرح الأدبي

إن منهج الحوار والجدال بالتي هي أحسن: هو المنهج الإسلامي السديد، وهو منهج تربوي رشيد؛ والمسلم من واجباته الشرعية طلب العلم، والتفقه في الدين، والقاعدة الإسلامية التي تحكم هذا المنهج تتمثل في قوله ﷺ "خيركم من تعلم العلم وعلمه"[٢].

ونقتبس من هذا الحديث ومضاتٍ إيمانية، وقضايا حياتية حَرَصَ أبو ذر رضي الله عنه على تعلمها من رسول الله ﷺ وهو خير معلم لأنه لا ينطق عن الهوى.

وهذا الدرس التعليمي جاء في قَالَبٍ حواري واقعي بين المصطفى ﷺ وأبي ذر رضي الله عنه، وهو يطرح عدة قضايا ترتبط بعقيدة المسلم وحياته العملية وطبيعة حركته في المجتمع، ويبدأ الحوار بسؤال عقب نداء حميم يفيض بأدب الصحابة رضي الله عنهم مع الحبيب المصطفى ﷺ حيث يتوجه أبو ذر إلى الرسول ﷺ قائلاً: "يا رسول الله"، ثم يسأل عن أفضل الأعمال، وصيغة السؤال تفصح عن أهمية العمل في الإسلام، وجاءت الأعمال جَمْعًا دلالة على تنويع العمل والإكثار منه، وتجيء إجابة المصطفى ﷺ، جامعة بين قمتين من قمم المنهج الإسلامي، قمة يعلو ذُرَاها الإيمان، وهو العقيدة الصحيحة النابعة من القلب التي لا يشوبها رياء ولا تصنّع ولا غلو ولا شطط، وقمة تعْلو بالحياة إلى آفاق العزة والشموخ والإباء، وهى قمة الجهاد في سبيل الله تعالى، والجهاد بالأنفس، والأموال، وإعداد العدة التي ترهب أعداء الله تعالى وأعداء الأمة والمنافقين والمتآمرين، والمشككين في ثوابت العقيدة ومعالمها.

وأداة العطف "الواو" وهي لمطلق الجمع ترشد إلى أن الإيمان والجهاد متلازمان، كل منهما يُقَوَّى بالآخر، فلا جهاد يُقبل وهو بمنأى عن دائرة الإيمان، ولا إيمان يُعز أصحابه

---

(١) رياض الصالحين ٩٨.

(٢) أخرجه البخاري ٥٠٢٧ بلفظ "خيركم من تعلم القرآن وعلمه".

ويجعلهم في منعة من غير دفاع عن العقيدة، وجهاد في سبيل الله تعالى لتقوية شوكة الإسلام.

والسؤال الثاني: يأتي متناسقًا مع الأول في صياغته وموازيًا له: حيث قال أبو ذر رضي الله عنه: أي الرقاب أفضل؟ وهذا السؤال يثير قضية: العتق وتحرير الرقيق في الإسلام.

والإسلام دين الحرية والمساواة، وكثير من تعاليمه شرعت لتحرير الرقاب، وإعطاء الحرية لكل إنسان، وجاءت إجابة المصطفى ﷺ لترسي قاعدة من قواعد المنهج الإسلامي في الإنفاق، وهى تتبع من قول الله عز وجل: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾[1].

فالمؤمن لا ينفق إلا أحسن ما عنده؛ ولذلك صيغت هذه الأفضلية في قالب أفعل التفضيل؛ فقال: "أنفسها عند أهلها، وأكثرها ثمنًا" وقد حذف صدر الجواب اكتفاءً بمجيئه في السؤال، والتقدير: أفضل الرقاب، ولذلك جاء بثلاثة ضمائر تعود على الرقاب، لتذكير السامع والقارئ مع كل ضمير عائد بهذا النفيس المعتق، والتعبير بقوله: أنفسها، يدل على دقة الاختيار والحرص على عتق الأرفع قدرًا وثمنًا والأجود في الطبيعة والهيئة والقدرات والخبرات، والمال النفيس هو: المرغوب فيه.

ويستمر هذا الحوار التعليمي الإيماني لأنه ليس حوارًا خاصًا.. بل هو حوار يضيء لكل مسلم طريق الحياة، ويرشده إلى أفضل الأعمال وإلى كيفية تقديم الأجود والأعلى، ويأتي السؤال الثالث في صورة الشرط الذي حذف جوابه؛ اكتفاء بمنطوق الشرط، حيث قال: فإن لم أفعل...؟ وبلاغة الحذف هنا تتضح في عدم تصريح أبي ذر رضي الله عنه بأنه لا يعتق الرقاب، حيث عدل عن قوله: فإن لم أعتق... إلى قوله: فإن لم أفعل؟ حتى لا يظن أن يعزف عن عتق الرقاب.

والمراد إذا لم يكن لديَّ قدرة على العتق، أو لم يكن عندي رقاب، فما الطريق إلى تحصيل الثواب ومضاعفة الأجر، وتأتي إجابة المصطفى ﷺ، لتفتح الطريق أمام

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٩٢.

كل من يعقد النية لإنجاز العمل الصالح؛ فالأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى، وأرشد الرسول ﷺ أبا ذر رضي الله عنه إلى أحد طريقين... نافع في الحياة، ومن شأنه تقوية الصلات بين أفراد الأمة، والعمل على تماسك بنية المجتمع الإسلامي، قال له: تعين صانعًا أو تصنع لأخرق، وهذا منهج اجتماعي يقوم على التعاون على البر والتقوى، ويُقَوِّي دعائم الكيان الإسلامي، ويجعل المجتمع كالبنيان المرصوص، يشد بعضه بعضًا.

والصناعة: هي العمل المتقن الذي يستثمر من خلاله أفراد الأمة الطاقات الكامنة في الأرض وخيراتها، واستغلال كنوز الجبال، وثروات البحار، والطاقات الهائلة الكامنة، في طبقات الفضاء والأفلاك والأجرام السماوية، وهي من مصادر الرزق؛ كما قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[(١)].

"أو تصنع لأخرق" أي: تُعلِّم قليل الخبرة الذي يجهل كيفية إتقان صناعته، تعلمه وتصنع له حتى يتعلم، وذلك مبدأ اجتماعي حضاري يرقى بالمجتمع الإسلامي إلى قمة الحضارة والتقدم.

والتعبير بصيغة المضارع في قوله: "تعين صانعًا أو تصنع لأخرق"، يرشد إلى ضرورة الاستمرار وتكرار المساعدة والتعليم، ولا يكتفي الإنسان بحالة واحدة، ولكن يظل هذا الصنيع منهجًا مستقرًا دائمًا وثابتًا يقوم به كل مسلم قادر ولديه خبرة في مجاله الذي يتقنه قولاً وعملاً.

والحوار يتسم بالتدرج المنطقي حيث يبدأ بالأهم والأشمل وهو: الإيمان والجهاد، ثم يجيء السؤال عن العتق الذي يكفل للإنسان الحرية، ثم السؤال عن البديل أو الطريق إلى تحصيل الثواب إذا انتهى الرق، أو إذا لم يمتلك الإنسان ما يعتقه، وهنا يأتي التكافل والتعاون بين أفراد الأمة، ثم يكون السؤال وهو في حالة الضعف عن العمل في قوله: "أرأيت إن ضعفت عن بعض العمل"، وكرر هنا النداء: "يارسول الله" ثم يأتي

---

(١) سورة الذاريات، آية: ٢٢.

الاستفهام تأدبًا مع رسول الله ﷺ، ويقترن السؤال بصيغة الشرط.. مع حذف الجواب: أو فماذا أفعل: إن ضعفت عن بعض العمل.

والدقة الأسلوبية تكمن في قوله: "بعض العمل"، إشارة إلى أهمية العمل، فالعمل الخيري تتسع مجالاته، وتتعدد آفاقه، ويؤكد الرسول ﷺ ذلك حين يرشده إلى أفق جديد فسيح من آفاق العمل الإيماني: وهو كف الشر عن الناس، ومعاملتهم بالحسنى، ونشر ثقافة المحبة والأخوة والتراحم، وهذا السلوك يعود بالنفع على الشخص نفسه أولاً: ثم على غيره ثانيًا: حيث قال رسول الله ﷺ: "فإنها صدقة منك على نفسك".

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكمين فقهيين:

الأول: مشروعية الجهاد: ذهب جمهور الفقهاء[1] إلى أن الجهاد فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين وأنه أفضل الأعمال إلى الله عز وجل، ولا يتعين الجهاد إلا في حالات معينة كأن يعينه الإمام أو يهاجم العدو أرض قوم كما سبق القول.

والثاني: العتق، فالإسلام دين يحض على الحرية ويعمل من أجلها، ولذا جعل عتق الرقاب من أفضل الأعمال، وجعله كفارة لكثير من الأعمال كحنث اليمين والقتل والفطر في رمضان والظهار وغير ذلك، وأوجب على المولى أن يطعم العبد مما يطعم

---

(١) شرح فتح القدير، ابن الهمام ٤٣٤/٥، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود ٩٧/٧، ٩٨، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٣٤٧/٣، وشرح منح الجليل على مختصر خليل، الشيخ عليش ١٣٥/٣، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٦/٦، ٧، نهاية المحتاج، الرملي ٤٥/٨، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ١٦٢/٩، والفروع، ابن مفلح ١٦٠/٦.

ويكسوه مما يكتسي وألا يكلفه ما لا يطيق[(١)].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

ثانيًا: من واجبات المدعو: السؤال عما يعنيه.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل الإيمان بالله.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل الجهاد في سبيل الله.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: فضل عتق الرقاب.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: فضل التعاون على البر والتقوى.

سابعًا: من موضوعات الدعوة: تعدد طرق الخير.

ثامنًا: من صفات الداعية: الصبر والصدق في النصح والإرشاد.

أولاً- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

إن من أساليب الدعوة المهمة أسلوب السؤال والجواب حيث إنه يعطي الفرصة للمدعو أن يسأل ليجيبه الداعية، ويدل على أهمية السؤال والجواب حرص صحابة رسول الله ﷺ على السؤال، وحرص الرسول ﷺ على الإجابة، وهو أسلوب مفيد للداعية حيث يشعر بقرب المدعو منه، والاستفادة من علمه فيما خفي من أمور تَهمُ المسلم في حياته.

---

(١) انظر في تفصيل ذلك: بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود ٤٥/٤ وما بعدها، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٢٣٨/٤ وما بعدها، وشرح منح الجليل على مختصر خليل، الشيخ عليش ٣٧١/٩ وما بعدها، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٣٢٥/٦ وما بعدها، ونهاية المحتاج، الرملي ٣٧٧/٨ وما بعدها، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٤٤٥/٦ وما بعدها، وكشاف القناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٥٠٩/٤ وما بعدها، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ، البهوتي ٥٧٧/٢ وما بعدها.

ثانيًا- من واجبات المدعو: السؤال عما يعنيه:

يظهر ذلك في قول أبي ذر جندب بن جنادة ﷺ: "قلت: يا رسول الله أي الأعمال أفضل؟...).

حيث ينبغي للمدعو أن يحرص على السؤال عما يعنيه، وأن يأخذ الإجابة من أهل العلم، وقد أمر القرآن بسؤال أهل العلم والتخصص قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]. قال السعدي: (هذه الآية وإن كان سببها خاصًا بالسؤال عن الرسل المتقدمين من أهل الذكر، وهم أهل العلم، فإنها عامة في كل مسألة من مسائل الدين، أصوله وفروعه، إذا لم يكن عند الإنسان علم منها، أن يسأل من يعلمها. ففيه الأمر بالتعلم والسؤال لأهل العلم، ولم يؤمر بسؤالهم إلا لأنه يجب عليهم التعليم والإجابة عما علموه)[2].

وهذا كان شأن صحابة رسول الله ﷺ إذ كانوا حريصين على سؤاله وأخذ العلم منه في جميع أمور الدين.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل الإيمان بالله:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "الإيمان بالله...".

إن الإيمان بالله فضله عظيم على الإنسان، وذلك لأنه يحقق وجل القلوب من ذكر الله، وخشوعها عند سماع ذكره، ويعمل على تحقيق التوكل على الله، والخوف منه في السر والعلن، والرضا بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولاً، واستشعار قرب الله من العبد، ودوام استحضاره، وإيثار محبة الله ورسوله ﷺ على محبة ما سواهما، والمحبة في الله والبغض في الله والعطاء له، والمنع له، وأن يكون جميع الحركات والسكنات له، وسماحة النفوس بالطاعة المالية والبدنية، والاستبشار بعمل

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٤٦٨.

الحسنات والفرح بها، والمساءة بعمل السيئات والحزن عليها، وإيثار المؤمنين لرسول الله ﷺ على أنفسهم وأموالهم، وكثرة الحياء، وحسن الخلق، ومحبة ما يحبُّه لنفسه لإخوانه المؤمنين، ومواساة المؤمنين، خصوصًا الجيران، ومعاضدة المؤمنين ومناصرتهم، والحزن بما يحزنهم[١]. فكل ذلك وغيره يدل على فضل الإيمان بالله.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل الجهاد في سبيل الله:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "... والجهاد في سبيله".

وللجهاد في سبيل الله فضل عظيم على الأمة الإسلامية وعلى المجاهدين في سبيله قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[٢] فالفساد قائم لو لم يشرع الجهاد.

قال السعدي: (من جملة الأدلة على رسالته، هذه القصة، حيث أخبر بها وحيا من الله، مطابقًا للواقع، وفي هذه القصة عبر كثيرة: منها: فضيلة الجهاد في سبيله، وفوائده، وثمراته، وأنه السبب الوحيد في حفظ الدين، وحفظ الأوطان، وحفظ الأبدان والأموال)[٣].

وقال ﷺ في فضل الجهاد والمجاهدين: ((لَرَوحةٌ في سبيلِ الله أو غَدوةٌ خيرٌ منَ الدُّنيا وما فيها، ولَقابُ قَوسِ أحدِكم منَ الجنةَ أو مَوضعُ قِيدٍ - يعني سَوطَهُ - خيرٌ منَ الدُّنيا وما فيها. ولو أنَّ امرأةً من أهلِ الجنةِ اطَّلَعَت إلى أهل الأرض لأضاءَت ما بينهما ولَمَلأَتْهُ رِيحًا، ولَنَصيفُها[٤] على رأسِها خيرٌ منَ الدنيا وما فيها))[٥]. وقال ﷺ ((ما

---

(١) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١١٦/١.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٥١، ٢٥٢.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٩٠.

(٤) النصيف: الخمار، لسان العرب في (ن ص ف).

(٥) أخرجه البخاري ٢٧٩٦، ومسلم ١٨٨٠.

اغبرَّتا قدَما عبدٍ في سبيلِ اللهِ فتمسَّهُ النار))[١].

وقد نقل عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: "لأن أقف موقفًا في سبيل الله مواجهًا للعدو ولا أضرب بسيف ولا أطعن برمح ولا أرمي بسهم أفضل من أعبد الله ستين سنة لا أعصيه".

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: "لحرس ليلة أحب إلي من صيام ألف يوم أصومها وأقوم ليلها في المسجد الحرام وعند قبر النبي عليه السلام"[٢].

خامسًا: من موضوعات الدعوة: فضل عتق الرقاب

يظهر ذلك في قول أبي ذر: "أي الرقاب أفضل؟" وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أنفسها عند أهلها...".

فالعتق أفضل القرب إلى الله تعالى، فقد جعله كفارة لجنايات كثيرة، وجعله رسول الله صلى الله عليه وسلم فكاكًا لمعتقه من النار فقال: ((مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً أَعْتَقَ اللّهُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهَا عُضْوًا مِنْ أَعْضَائِهِ مِنْ النَّارِ حَتَّى فَرْجَهُ بِفَرْجِهَا))[٣]. وذلك لأنه تخليص للآدمي المعصوم من ضرر الرق وملك نفسه ومنافعه وتكميل أحكامه وتمكنه من التصرف في نفسه على حسب إرادته واختياره[٤].

سادسًا- من موضوعات الدعوة: فضل التعاون على البر والتقوى:

يظهر ذلك في قوله صلى الله عليه وسلم: "تعين صانعًا أو تصنع لأخرق".

والأصل في مجتمع المسلمين أنه مجتمع تعاون وتكاتف وتعاضد، ولكن باتجاه الخير والبر والتقوى، وبعيد عن الشر والإثم والعدوان[٥].

وفي الحديث إشارة إلى أن إعانة الصانع أفضل من إعانة غير الصانع، لأن غير الصانع مظنة الإعانة فكل أحد يعينه غالبًا. بخلاف الصانع فإنه لشهرته بصنعته يُغفل

---

(١) أخرجه البخاري ٢٨١١.

(٢) مواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٥٣٥/٤.

(٣) أخرجه البخاري ٦٧١٥، ومسلم ١٥٠٩.

(٤) انظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٦٦/٢٩.

(٥) هذه اخلاقنا، محمد محمد الخزندار ص ٢١٤.

عن إعانته. فهو من جنس الصدقة على المستور[١]. وفي إعانة الصانع قد تعود الفائدة على المسلمين باستمراره في مهنته أو تطويرها، وتقوية اقتصاد الأمة.

سابعًا- من موضوعات الدعوة: تعدد طرق الخير:

إن من موضوعات الدعوة المستنبطة من هذا الحديث: تعدد طرق الخير، لأن سياق الحديث يرشد إلى كثرة طرق الخير حيث ذكر رسول الله ﷺ أفضل الأعمال ولم يقصرها على عمل معين، بل عدد الأعمال ونوّعها بحيث يتأتى لكل مسلم عمل ما يستطيعه فمن لم يستطع أعلاها استطاع دونها، أو أن يكف شره عن الناس وهذا إن دل فإنما يدل على يسر الشريعة ورحمتها بالمسلمين، وإشارة أيضًا إلى أهمية كف الأذى عن المسلمين.

ثامنًا- من صفات الداعية: الصبر وسعة الصدر والصدق في النصح والإرشاد:

الصبر من الصفات المهمة التي ينبغي للداعية التحلي بها. فالصبر من أعظم الأسباب التي يستطيع بها الداعية، تخطي العقبات والصعاب والسير في طريق الدعوة، لأن الدعوة إلى الله عز وجل تحتاج إلى مزيد من الصبر والمصابرة نظرًا للعقبات التي تعترض مسيرة الداعية؛ ولذا قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ...﴾[٢]. والحديث يدل على صبر النبي ﷺ وسعة صدره فقد سأله أبو ذر أكثر من مرة وراجعه، ومع ذلك لم يغضب بل صبر وأجاب عليه.

وأرشده إلى أفضل الأعمال وتعددها وأنها مُيسّرة، وفي استطاعة كل مسلم يريد الخير من الله عز وجل.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٧٨/٥.

(٢) سورة الأحقاف، آية: ٣٥.

الحديث رقم (١١٨)

١١٨- الثاني: عن أَبي ذرٍّ ﵁ أيضًا أنَّ رسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «يُصبِحُ على كلِّ سُلامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صدقةٌ، فَكُلّ تَسبيحةٍ صَدقةٌ، وكُلُّ تحْمِيدَةٍ صدقةٌ، وكُلُّ تهْليلَةٍ صَدَقةٌ، وكلُّ تَكْبيرةٍ صَدَقَةٌ، وأمْرٌ بالمعْرُوفِ صدقةٌ، ونَهْيٌ عَنِ المُنْكَرِ صدقةٌ. ويُجْزِئُ مِنْ ذَلكَ رَكعَتَانِ يرْكَعُهُما مِنَ الضُّحى» رواه مسلم[١].

«السُّلامَى» بضم السين المهملة وتخفيف اللام وفتح الميم: المَفْصِلُ.

ترجمة الراوي:

أبو ذر الغفاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٦١).

غريب الألفاظ:

سلامي: بضم السين المهملة وتخفيف اللام وفتح الميم: المفصل[٢].

تهليلة: هلّل الرجل قال: لا إله إلا الله[٣].

يجزئ: يكفي[٤].

الشرح الأدبي

هذا الحديث صلته بالحديث السابق تتعلق بالمعنى والمبنى، فالراوية هو أبو ذر ﵁، والحديث السابق ينتهي بقوله: "فإنها صدقة منك عن نفسك"، ويفصل هذا الحديث القول في كيفية التصدق على النفس، والنفس هي الذات بكل ما تتكون منه من مكونات مادية ومعنوية، وقراءة الحديث يجب أن تكون عبر منظور كلي شمولي فكلها تنبع من مشكاة النبوة، وأفق اليقين، ولنتأمل كيف أرشد النبي ﷺ الناس إلى تأمل ذواتهم، والنظر في أنفسهم، وكيف يؤدون الشكر والحمد على هذه النعم

---

(١) برقم (٨٤/٧٢٠). أورده المنذري في ترغيبه (٩٨٤)، وسيكرره المؤلف برقم (١١٤٢)، و (١٤٣٤).

(٢) رياض الصالحين ٩٨.

(٣) الوسيط في (هـ ل ل).

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير والوسيط في (ج ز ى).

التي أنعم الله تعالى بها علينا، مصداقًا لقول الله عز وجل: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾[(١)].

ويبدأ الحديث بإرشاد الناس، وإرشاد المسلم بصفة خاصة إلى ضرورة التعاون والتآزر في الحياة، وإلى الحمد والشكر في مقابل النعم التي أنعم بها الله على عباده، ومن هذه النعم، نعمة الخلق والإيجاد، فكل جزء في الإنسان له دوره في الحياة، ولذلك يجب أداء الشكر والحمد حتى مفاصل الإنسان التي لا يتحرك إلا بها يجب على الإنسان أن يتصدق شكرًا لله تعالى عليها، والصدقة تكون كل يوم... لأن التعبير بقوله: "يصبح" يفيد ذلك، وصيغة المضارع تومئ إلى التكرار والاستمرار، والتعبير بقوله: "على كل سلامى من أحدكم صدقة"، يفيد الوجوب، ويرشد إلى ضرورة القيام بهذه الصدقات، التعبدية، التي فصلها رسول الله ﷺ بعد ذلك، ولنتساءل: ما معنى السلامى؟ ولماذا هذا اللفظ: دون غيره، إن السلامى في الأصل عظم يكون في فِرْسِن[(٢)] البعير، والحديث يشير إلى أن على كل عظم من عظام ابن آدم صدقة، وقيل: السلامى: عظم في طرف اليد والرجل، وكنى بذلك عن جميع عظام الجسد، والسلامى جمع، وقيل: هو مفرد.

وقد ذكر علماء الطب أن جميع عظام البدن مائتان وثمانية وأربعون عظمًا تسمى السمسمانيات، وبعضهم يقول: هي ثلاث مائة وستون عظمًا: يظهر منها للجسد مائتان وخمسة وستون عظمًا، والباقية صغار لا تظهر وتسمى، السمسمانية.

ومعنى الحديث: أن تركُّب هذه العظام وسلامتها من أعظم نعم الله تعالى على عبده، فيحتاج كل عظم منها إلى صدقة يتصدق ابن آدم عنه ليكون ذلك شكرًا لهذه النعمة، قال الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ

---

(١) سورة الذاريات، آية: ٢١.

(٢) فرسن: طرف خف البعير، لسان العرب في (ف ر س ن).

فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾[١]. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾[٢]، قال: (النعيم: صحة الأبدان والأسماع والأبصار: يسأل الله تعالى العباد فيما استعملوها وهو أعلم بذلك منهم)[٣].

ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف، وكيف رغب رسول الله ﷺ الناس في الإكثار من الشكر والحمد والذكر، وذلك حين أفصح عن المراد من هذه الصدقات، فهي ليست دراهم ولا دنانير... ولكنها تسبيح وتهليل وتحميد وتكبير وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر، وصلاة يتطوع بها الإنسان في وقت الضحى.

وهذا النهج لكل مسلم فقيرًا كان أم غنيًا، وإذا كان لدى الإنسان ما يتصدق به من المال أو الأنعام أو الزروع والثمار... فالله تعالى يقبل منه ذلك. ولكن الشكر يبدأ بإتقان العبادة وأداء الفرائض والنوافل والقيام بهذه الصدقات التعبدية، التي تزيد القلب خشوعًا وتزيد النفس خضوعًا، وتزيد الروح إشراقًا وسطوعًا.

وعن بريدة رضي الله عنه: قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((في الإنسان ثلاثمائة وستون مفصل، فعليه أن يتصدق عن كل مفصل منه صدقة، قال: ومن يطيق ذلك يانبي الله؟ قال: النخاعة في المسجد تدفنها صدقة، والشيء تنحيه عن الطريق صدقة، فإن لم تجد فركعتا الضحى تجزيك))[٤].

ومن سمات الترغيب في هذا السلوك الإيماني: جمال الصياغة في هذا الحديث، وتكرار لفظ الصدقة، حيث كررت هذه الكلمة سبع مرات: تذكيرًا للمؤمن وترغيبًا له، وحثًا على مزيد من العبادة والتصدق المعنوي والمادي شكرًا لله تعالى وحمدًا له على نعمه.

---

(١) سورة الانفطار، الآيات: ٦-٨.

(٢) سورة التكاثر، آية: ٨.

(٣) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ص ٢١٢.

(٤) أخرجه أبو داود، ٥٢٤٢، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود، ٤٣٦٥).

والتناسق في بناء الجمل من سمات ذلك الترغيب، فالجمل الست التي تعقب الجملة الأولى: كلها تتكون من مبتدأ وخبر، وتتسقان في بنائهما اتساقًا كاملاً، فالمبتدأ هو لفظ "كل" في الجمل الأربع، والخبر هو لفظ "صدقة" والمضاف إلى لفظ كل: هو الثمرة المطلوبة، وهو: المقصود من التعبير عن الشكر والحمد، وهذه الألفاظ تتحد في صيغتها اللغوية فكلها مصادر رباعية في صيغة "التأنيث" ذات إيقاع صوتي موحد، حيث تناسقت لغويًا، واشتقاقيًا وإيقاعيًا... ونحويًا (تسبيحة – تهليلة – تحميدة – تكبيرة) وهذه الصيغ كلها تتضمن لفظ الجلالة.. وتموج بمعانٍ عديدة، وتفصح عن داخل الإنسان المُفْعَم بنور الإيمان، فما أسمى وما أجلَّ المشاعر والقلوب والألسنة التي تلهج وتجأر بهذه الصيغ الجليلة صباح مساء (سبحان الله، ولا إله إلا الله، والحمد لله، والله أكبر).

والتنكير في قوله: "وأمر بالمعروف صدقة"، يدل على كل موقف يؤمر فيه بالمعروف هو صدقة، وتتكاثر الصدقات بتعدد المواقف، وكذلك "ونهى عن المنكر" صدقة، حيث يدل التنكير في "نهى" على تكاثر الصدقات بتعدد مواقف النهى، والتعريف في قوله: "المعروف، والمنكر" للدلالة على أن كلاً منهما واضح بيِّن، ولا لبس في أي منهما، فالمعروف: ما أمر به الشرع، والمنكر: ما أنكره الشرع، وخاتمة الحديث تشير إلى فضل صلاة الضحى لأنها تؤكد صلة العبد بربه، ووقتها ظاهر للناس، وهو مَظِنَّةُ الاشتغال بأمور الدنيا، وهى مع ما تقدم من تسبيح وتحميد وتهليل وتكبير تعبر عن موقف الشكر الأكمل، وموقف الحمد الأفضل.

والحديث في مبناه ومعناه يفصح عن جمال السلوك الإيماني حيث يتسم بالتناسب والتوازن والتجانس وهذه المقاييس انعكاس لجمال فكر المؤمن، وجمال علاقته بربه، وجمال التعبير عن ذلك الشكر.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى أكثر من حكم فقهي:

الأول: حكم الذكر: وقد بين الفقهاء[1] أن الذكر مستحب من كل أحد ومرغب فيه في جميع الأحوال إلا في الأحوال التي ورد النهي عنه فيها كما في حال قضاء الحاجة ووقت الخطبة من صلاة الجمعة، وقد يكون الذكر واجبًا كما في تكبيرة الإحرام وقراءة القرآن، وكما في التسمية عند الأضحية، وفي رد السلام عند من يقول بوجوبه، وقد يكون الذكر حرامًا إذا تضمن شركًا بالله تعالى كما كان في أذكار الجاهلية.

الثاني: حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: وقد اتفق الفقهاء[2] على مشروعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإن اختلفوا في حكمه على أقوال عدة، فذهب جمهور الفقهاء إلى أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفاية لا

---

(١) شرح معاني الآثار، الطحاوي ٨٥/١، والمدونة الكبرى رواية سحسنون عن ابن القاسم، الإمام الأصبحي ٢٣٠/١، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ٣٥٤/١ وما بعدها، والأم، الإمام الشافعي، تحقيق: علي محمد وعادل أحمد، وغيره ٦٨/١، وقواعد الأحكام في مصالح الأنام، العز بن عبدالسلام في مصالح الأنام، العز بن عبدالسلام ٢٠١/٢ وما بعدها، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٨٧/٢، ٤٦٥/٣، ٤٧٠، ٤٧٩/٤ وما بعدها، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ١٠٩/١، ٣٢٧، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ١٦/٣، ٢١٠/٥، والفروع، ابن مفلح ٥٥٤/١.

(٢) أحكام القرآن، الجصاص ٣٦١/١، ٤٤/٢ وما بعدها، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ١٢٩/١، وأنوار البروق، القرافي ٢٥٧/٤، والتاج والإكليل شرح مختصر خليل، وهو مطبوع بهامش مواهب الجليل شرح مختصر خليل، المواق ٥٣٨/٤، وأحكام القرآن، ابن العربي ٢٠٤/١، ٣٤٩، ٣٨٣، وتحفة المحتاج في شرح المنهاج، ابن حجر ٢١٧/٩، والأحكام السلطانية، الماوردي، تحقيق: خالد عبداللطيف علي ص ٣٠٣، ٣٠٨ وما بعدها، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ١٨٠/٤، وأدب الدنيا والدين، الماوردي ص ٩٥ وما بعدها، وقواعد الأحكام في مصالح الأنام، العز بن عبدالسلام ٥٥/١، والآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ١٥٥/١، والطرق الحكمية في السياسة الشرعية، ابن القيم ص ٢٠١، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية٢٤٨/٦ وما بعدها.

الأعيان فمتى قام به البعض سقط عن الباقين.

وذهب البعض إلى أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض عين في بعض المواضع، وهي إذا كان المنكر في موضع لا يعلم به إلا هو وكان متمكنًا من إزالته، وكذا من يرى المنكر من زوجته أو أحد أولاده، وكذا والي الحسبة لاختصاصه بذلك.

وذهب ابن شبرمة والحسن البصري إلى أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نافلة لا فريضة.

وذهب بعض الشافعية إلى أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يأخذ حكم الفعل ذاته، فهو واجب في الواجب فعله أو تركه، ومندوب في المندوب فعله أو تركه وهكذا.

وذهب ابن تيمية وابن القيم إلى أن النهي عن المنكر يكون مشروعًا متى كان يزول ويخلفه ضده أو يقل وإن لم يزل كلية، ويكون موضع اجتهاد ممن يقوم به إن كان يخلفه ما هو مثله، أما إن كان يخلفه ما هو شر منه فإنه يكون حرامًا.

وذهب أبو علي الجبائي من المعتزلة إلى أن المنكر يجب النهي عنه، أما الأمر بالمعروف فهو يأخذ حكم ما يأمر به، فهو واجب في الواجب ومندوب في المندوب.

والراجح ما ذهب إليه جمهور الفقهاء.

الثالث: حكم صلاة الضحى، وقد ذهب جمهور الفقهاء[1] إلى أن صلاة الضحى

---

(١) المبسوط، السرخسي ١٥٩/١، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود ٢٩٤/١، وأحكام القرآن، الجصاص ٤٧٧/٣، ٥٥٩، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٦٧/٢، والتاج والإكليل شرح مختصر خليل، وهو مطبوع بهامش مواهب الجليل شرح مختصر خليل، المواق ٣٧١/٢ وما بعدها، وأحكام القرآن، ابن العربي ٣٣/٤، وقواعد الأحكام في مصالح الأنام، العز بن عبدالسلام ٢٤٢/١، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٥٢٨/٣، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٤٣٧/١، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٣٤٣/٥، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ١٩٠/٢.

من النوافل المستحبة التي حض عليها رسول الله ﷺ، وقال بعض المالكية وأكثر الشافعية إنها سنة مؤكدة، ووقت صلاة الضحى حين ترتفع الشمس، وليس لها عدد معين من الركعات، وأكثر الفقهاء على أن أقلها ركعتان وأكثرها ثماني ركعات، وقال الإمام مالك في رواية، وبعض الشافعية، والإمام أحمد في رواية أكثرها اثنتا عشرة ركعة.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: الحرص على شكر النعم.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: التفصيل بعد الإجمال.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل ذكر الله.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل ركعتي الضحى.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الحرص على شكر النعم:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "يصبح على كل سُلامي صدقة...".

ولقد أنعم الله تعالى على الإنسان بالنعم الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾[1].

وأمر سبحانه عباده المؤمنين بشكر هذه النعم ووعد بالزيادة قال تعالى: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[2]. أي: لئن شكرتم إنعامي لأزيدنكم من فضلي. فحقيقة الشكر الاعتراف بالنعمة للمنعم[3].

وكان رسول الله ﷺ أحرص الناس على شكر نعم الله عليه. فعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان رسول الله ﷺ يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه فقلت له: لِمَ تصنع

---

(١) سورة إبراهيم، آية: ٣٤.

(٢) سورة إبراهيم، آية: ٧.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٤٤٣/٩/٥.

هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: ((أفلا أكونُ عبدًا شكورًا))[١].

وقال الطيبي: (إن كل عظم من عظام ابن آدم يصبح سليمًا من الآفات باقيًا على الهيئة التي يتم بها منافعه وأفعاله، فعليه صدقة شكرًا لمن صوره، ووقاه عما يغيره ويؤذيه)[٢]. فينبغي على المسلم الحرص على شكر نعم الأعضاء وغيرها من النعم.

ثانيًا- من أساليب الدعوة: التفصيل بعد الإجمال:

إن هذا الأسلوب من الأساليب الدعوية البليغة التي تعمل على جذب انتباه المدعو وتشويقه إلى سماع ما يقوله الداعية من تفصيل لما أجمله، وقد ذكر النبي ﷺ الصدقة ثم فصَّل في نوعها والشاهد على ذلك قوله (يصبح على كل سلامي صدقة فكل تسبيحة صدقة وكل تحميدة صدقة.. إلخ الحديث) وهو أسلوب من الأساليب الدعوية التي تعمل على شد انتباه المدعوين.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل ذكر الله:

بعد أن ذكر رسول الله ﷺ ما ينبغي للمؤمن من شكر الله على نعمه وآلائه، بيّن أن المسلم يستطيع أداء هذه الصدقات والشكر على هذه النعم بذكر الله عز وجل وجعل وسيلة ذلك التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

وفضل ذكر الله عظيم على المسلم، فهو يوصله إلى أعلى الدرجات وأسمى الغايات قال تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[٣] قال السعدي: ("الذاكرين الله كثيرًا" أي: في أكثر الأوقات، خاصة الأوراد المقيدة، كالصباح والمساء، أو بالصلوات المكتوبات)[٤].

---

(١) أخرجه البخاري ١١٣٠، ومسلم ٢٨١٩ و ٢٨٢٠.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بـ "الكاشف عن حقائق السنن"، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار، وغيره٣/١٧١.

(٣) سورة الأحزاب، آية: ٣٥.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٦١٢.

وقال رسول الله ﷺ ((مَثَلَ الذي يَذكرُ ربَّه والذي لايَذْكرُ ربه مَثَلُ الحي والميِّت))[١].

وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو من الأشياء التي تميزت بها الأمة الإسلامية وسبقت بها الأمم، وكانت خير أمة الناس أخرجت للناس، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[٢].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل ركعتي الضحى:

أشار الحديث إلى فضل ركعتي الضحى وأنهما تكفيان عن غيرهما من الأشياء التي ذكرت، وذلك لأن في الصلاة استعمالاً للأعضاء كلها في الطاعة والعبادة، فتكون كافية في شكر نعمة سلامة هذه الأعضاء[٣]. وفي ذلك دليل على عظم فضل صلاة الضحى وكبير موقعها[٤].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ((أَوْصَانِي خَلِيلي بِثَلاَثٍ: بِصِيَامِ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ. وَرَكْعَتَيِ الضُّحَىٰ. وَأَنْ أُوتِرَ قَبْلَ أَنْ أَرْقُدَ))[٥]. وفي هذا حث على ركعتي الضحى لتحصيل فضلها.

---

(١) أخرجه البخاري ٦٤٠٧، ومسلم ٧٧٩.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١١٠.

(٣) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٨٦/٢.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٥٠٠.

(٥) أخرجه البخاري ١١٨٧، ومسلم ٧٢١.

الحديث رقم (١١٩)

١١٩- الثَّالثُ عنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ أعْمالُ أُمَّتي حسَنُهَا وسيِّئُهَا، فوجَدْتُ في مَحاسِنِ أعْمالِهَا الأذَى يُماطُ عن الطَّرِيقِ، وَوجَدْتُ في مَساوِئ أعْمالِهَا النُّخَاعَةُ تَكُونُ فِي المَسْجِدِ لاَ تُدْفَنُ» رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو ذر الغفاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٦١).

غريب الألفاظ:

يماط: يُنَحَّى ويُبْعد[2].

النخاعة: ما يخرجه الإنسان من حلقه من البلغم[3].

الشرح الأدبي

إن مصدر الجمال في هذا الحديث الشريف ينبع من حرص النبي ﷺ على أمته، وبمقدار صلاح الأعمال تسمو قيمة ذلك الجمال، والقرآن الكريم يرشد المسلمين إلى هذا المصدر التشريعي الذي يضئ جوانب العلاقة المكتملة بين النبي محمد ﷺ وأمته... وهى خير أمة أخرجت للناس، حيث يقول الله عز وجل: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[4].

ومن كمال حرصه ﷺ، وجمال ارتباطه بأمته أنه يشرع لأفرادها، ويفصل لهم القول في تبيان أحسن الأعمال ويأمرهم بها، وتبيان أسوأ الأعمال، وينهاهم عنها.

---

(١) رقم (٥٥٣/٥٧). أورده المنذري في ترغيبه (٤٢٧٢).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير والوسيط في (م ي ط).

(٣) الوسيط في (ن خ ع).

(٤) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

ولنتأمل صيغة هذا الحديث الشريف... وهى صيغة مستقبلية في ثوب الماضي، فكيف تعرض الأعمال وهى لم تقع بعد؟!!! إن هذه الصيغة تنبئ عن تكريم الله عز وجل لنبيه محمد ﷺ، لأنه يخبره بمعايير الأعمال الحسنة، ومعايير الأعمال السيئة، وجاء الفعل مبينًا للمفعول: لأن الفاعل معلوم وهو الحق سبحانه وتعالى إما مباشرة أو عن طريق الوحى، وللوحى أنواع متعددة ويقول الله عز وجل: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾[1].

وإضافة لفظ "أمة" إلى ياء المتكلم وهو رسول الله ﷺ فيه تشريف لهذه الأمة التي أكرمها الله تعالى برسالة الإسلام، ونبوة المصطفى عليه الصلاة والسلام.

والطباق بين "حسنها وسيئها"، فيه إرشاد إلى ضرورة الموازنة بين النوعين، والعاقل هو الذي يختار الأحسن، ولذلك قدم: الأحسن من الأعمال على غيره.

وتكرار الفعل "وجدت" يفصح عن صحة الحكم، وصدق القول، والتعبير بالفعل "وجدت" يعطي دلالة، رأيت، ولكن "وجدت" أدق في التعبير، فالأعمال كأنها كائنة وشاخصة أمامه ﷺ والتعبير "بفي" في قوله: "في محاسن أعمالها" يفيد البعضية والجزئية وعدم الانفصال عن بقية الأعمال؛ لأن محاسن الأعمال كثيرة وفي قلب هذه الأعمال ما يظنه الناس يسيرًا سهلاً لا يهتم به أحد وهو "إماطة الأذى عن الطريق"، وهذا سلوك اجتماعي وحضاري يمثل مَعْلَمًا من معالم المنهج الإسلامي وارتباطه بحياة الناس، وكذلك نظافة المسجد تعادلها في قيمتها نظافة الطريق، فالنخاعة في المسجد ربما يغفل عنها الناس، ولكن دفنها والحرص على نظافة المسجد وتجميله من جلائل الأعمال، فليتأمل كل مسلم حياته وسلوكه في ضوء هذا البيان النبوي الجميل، فالإيمان جمال... وجلال وكمال، وطاعة للكبير المتعال.

---

(١) سورة النساء، الآيتان: ٤١، ٤٢.

فقه الحديث

يتعرض هذا الحديث إلى حكمين فقهيين:

الأول: حكم إماطة الأذى عن الطريق: وقد ذكر الفقهاء[١] أنه يندب إزالة الأشياء المؤذية عن المسلمين، ومن ذلك إماطة الأذى عن الطريق، فمن وجد شيئًا في طريق المسلمين يضرهم فإنه يندب له أن يميطه، وذكروا أنه لا يجوز لأحد أن يضر المسلمين في طريقهم بأي وجه وإلا ضمن ما تسبب فيه بفعله.

الثاني: حكم التنخم في المسجد: وقد ذكر الفقهاء[٢] أنه ينبغي للمسلمين تنزيه المساجد عن كل ما يشوبها من سوء أو ما يؤذي المصلين أو ينفرهم كالرائحة الكريهة أو النخامة في المسجد، واختلفوا في حكم التنخم في المسجد على آراء ثلاثة، فذهب الحنفية[٣] إلى أنه يكره أن يبزق على حيطان المسجد أو بين يديه على الحصى أو أن يتمخط، وإن فعل كان عليه أن يزيلها أو يدفنها، وذهب المالكية والحنابلة[٤] إلى أنه لا

(١) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٣٩٩/٨، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، الزيلعي١٤٤/٦ وما بعدها، والمدونة الكبرى رواية سحسنون عن ابن القاسم، الإمام الأصبحي ٤٧٤/٤، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ٤٣/٦، وقواعد الأحكام في مصالح الأنام، العز بن عبدالسلام ٣٢/١، ١٢٤، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين بن الحسن ٣٠٤/٢، و مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، السيوطي ٣٥٤/٣، والقواعد الفقهية، ابن رجب الحنبلي ص ٢٠٣ وما بعدها، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية٣٥٦/٢، وما بعدها.

(٢) تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، الزيلعي١٦٨/١، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود٢١٦/١، والمدونة الكبرى رواية سحسنون عن ابن القاسم، الإمام الأصبحي ١٩١/١، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ٣٣٨/١، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ١١٥/٢، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٣٣/٤، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين بن الحسن ١٤٠/٢، ٦٩/٣، والآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ٣٩٧/٣، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٣٧١/١، والفروع ٤٨٢/١.

(٣) تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، الزيلعي١٦٨/١، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود٢١٦/١.

(٤) المدونة الكبرى رواية سحسنون عن ابن القاسم، الإمام الأصبحي ١٩١/١، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ٣٣٨/١، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ١١٥/٢، والآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ٣٩٧/٣، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٣٧١/١، والفروع، ابن مفلح ٤٨٢/١.

يجوز البصاق في المسجد على الحصير وله أن يبصق تحته، أو يبصق في طرف ثوبه، فإن كان المسجد محصبًا فله أن يبصق فيه ويدفنها، ولكن لا يبصق عن يمينه ولا عن يساره إن كان هناك أحد، وإنما يبصق أمامه ويدفنها.

وذهب الشافعية[1] إلى أنه يحرم التنخم في المسجد، وإن فعل فعليه أن يدفنها.

وكذا ذكر الفقهاء أن من السنة لمن رأى نخامة في المسجد أن يزيلها اقتداء بفعله ﷺ في هذا الشأن وتنزيهًا للمساجد عما ينفر من الأشياء.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار، والترغيب والترهيب، والتنبيه بالأدنى على الأعلى.

ثانيًا: من مهام الداعية: تنبيه الناس إلى وجوه الخير.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل إماطة الأذى عن الطريق.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: المحافظة على نظافة المسجد.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: الحفاظ على البيئة.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار، الترغيب والترهيب، والتنبيه بالأدنى على الأعلى:

أ- الإخبار: أسلوب مهم من أساليب الدعوة حيث يخبر الداعية المدعوين بالحقائق التي يعلمها، ويتحرى فيها الصدق، وأما أخبار الأنبياء فكلها صادقة لأن من صفاتهم الصدق، وهم يبلغون الوحي عن الله عز وجل، وفي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ عن أعمال أمته التي عرضت عليه.

ب- الترغيب والترهيب: إن الترغيب يشجع على الإقبال على العمل، والترهيب يخوف من الإقدام على الأعمال المنهي عنها، وفي الحديث جعل النبي ﷺ إماطة الأذى من محاسن الأعمال وهذا ترغيب، وجعل عدم دفن النخاعة من مساوئ الأعمال وهذا ترهيب، وبين الترغيب والترهيب تكون أعمال الخير قال الله تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[2].

---

(١) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٣٣/٤، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين بن الحسن ١٤٠/٢، ٦٩/٣.

(٢) سورة السجدة، آية: ١٦.

ج- التنبيه بالأدنى على الأعلى: حيث نبه النبي ﷺ في محاسن الأعمال على أقلها ليدخل فيه ما فوقها، من باب أولى، ونبه في مساوئ الأعمال على أدناها ليدخل فيه أيضًا ما فوقها، وهذا أسلوب من أساليب الدعوة يتخذه الداعية في عرض دعوته حيث ينبه بالأدنى على الأعلى من غير تصريح.

ثانيًا- من مهام الداعية: تنبيه الناس إلى وجوه الخير:

إن المهام الأساسية للدعاة إلى الله أن يرشدوا الناس إلى طرق ووجوه الخير ليتعرفوا عليها، لأن الإنسان قد يعرض عن الخير لجهله به، وبالأجر الذي عليه، ومن هنا يتوجب على الداعية تنبيه الناس إلى وجوه الخير ليقدموا عليه، كما أرشد النبي ﷺ في الحديث إلى فضل إماطة الأذى من الطريق، وحذر من ترك النخاعة في المسجد وكما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: ((مَنْ دَلَّ علىٰ خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ))[١]. قال النووي: (والحديث فيه فضيلة الدلالة على الخير والتنبيه عليه والمساعدة لفاعله، والمراد بمثل أجر فاعله أن له ثوابًا بذلك الفعل كما أن لفاعله ثوابًا، ولا يلزم أن يكون قدر ثوابهما سواء)[٢].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل إماطة الأذى عن الطريق:

لقد رغّب الإسلام في إماطة الأذى عن الطريق؛ حيث جعل النبي ﷺ في الحديث إماطة الأذى عن الطريق من محاسن الأعمال، وسبب لمغفرة الله عز وجل فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((بَينما رجلٌ يَمشي بطريق وَجَدَ غُصنَ شَوكٍ على الطريقِ، فأَخَّرَهُ، فشكرَ اللّهُ لهُ، فغفَرَ له))[٣]. وجعل النبي ﷺ إماطة الأذى إحدى شعب الإيمان قال رسول الله ﷺ: ((الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ، أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لاَ إِلهَ إِلاَّ الله، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ))[٤].

---

(١) أخرجه مسلم ١٨٩٣.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢١٥.

(٣) أخرجه مسلم ١٩١٤.

(٤) أخرجه البخاري ٩، ومسلم ٣٥.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: (والمراد بالأذى كل ما يؤذي من حجر أو مدر أو شوك أو غيره، والمقصود تنحيته وإبعاده)[١]. وهناك الكثير من الأدلة الشرعية التي تبين فضل إماطة الأذى عن طريق المسلمين، فيجب على الداعية بيانها للناس، وتذكير الناس بها.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: المحافظة على نظافة المسجد:

المساجد في الإسلام لها قدسيتها واحترامها ومكانتها، ومن هنا وجه الشارع الحكيم إلى ضرورة المحافظة على نظافة المسجد، وإبعاد القاذورات عنه، ولذا جعل النبي ﷺ من مساوئ الأعمال أن تكون النخاعة في المسجد ولا تدفن.

قال النووي: (وهذا ظاهره أن هذا القبح والذم لا يختص بصاحب النخاعة بل يدخل فيه هو وكل من رآها ولا يزيلها بدفن أو حك ونحوه)[٢] وبين النبي ﷺ أن البصاق في المسجد خطيئة فقال: ((الْبُصَاقُ فِي الْمَسْجِدِ خَطِيئَةٌ، وَكَفَّارَتُهَا دَفْنُهَا))[٣] وأرشد إلى المحافظة على نظافة المسجد فقال: ((إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لاَ تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ وَالْقَذَرِ. إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالصَّلاَةِ، وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ))[٤] وبناء على ذلك فإنه يجب على الداعية إرشاد المدعوين إلى ضرورة المحافظة على نظافة المسجد وعدم إلقاء القاذورات فيه.

خامسًا- الحفاظ على البيئة:

إن حث النبي ﷺ على إماطة الأذى عن الطريق، وتنفيره من ترك القاذورات أو مظاهر التلوث يعد من أهم أسباب الحفاظ على سلامة البيئة، ويتضح حرص الإسلام على المحافظة على البيئة من خلال دعوة الإسلام لإماطة الأذى من الطريق العام، ومن خلال الدعوة أيضًا للمحافظة على دور العبادة من القاذروات، حيث يدعو الإسلام بتعاليمه إلى الحفاظ على البيئة من التلوث، ويكفي في ذلك النهي عن التغوط في طريق

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٧.

(٢) المرجع السابق نفسه ٤١٧.

(٣) أخرجه البخاري ٤١٧، ومسلم ٥٥٢.

(٤) أخرجه مسلم ٢٨٥.

الناس وظلهم وموارد الماء ففي الحديث أن رسول الله قال: ((اتَّقُوا الَّلاعِنَيْنِ. قالُوا: وَما الَّلاعِنَانِ يارَسُولَ الله؟ قال: الَّذي يَتَخَلَّى في طَرِيقِ النَّاسِ أوْ ظِلِّهِمْ))[1] فعلى الداعية أن يستحضر هذه المعاني، ويبرز سبق الإسلام وتفرده في أمور النظافة والطهارة والحفاظ على البيئة والمجتمع.

---

(١) أخرجه مسلم ٢٦٩.

الحديث رقم (١٢٠)

١٢٠- **الرابع** عنه: أنَّ ناسًا[١] قالوا: يا رسُولَ اللَّهِ، ذَهَبَ أهْلُ الدُّثُور بالأجُورِ، يُصلُّونَ كَمَا نُصلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ بَفُضُولِ أمْوَالِهِمْ قال: «**أوَ لَيْسَ قَدْ جَعَلَ[٢] لَكُمْ مَا تَصَدَّقُونَ بهِ[٣]: إنَّ بِكُلِّ تَسْبيحَةٍ صَدَقَةً، وكُلِّ تَكبيرةٍ صدقة، وكُلِّ تَحْمِيدةٍ صدقةً، وكلِّ تِهْلِيلَةٍ صَدَقَةً، وأمرٌ بالمعْرُوفِ صدقةٌ، ونَهْيٌ عن المُنْكر صدقةٌ وفي بُضْعِ أحدِكُمْ صدقةٌ**» قالوا: يا رسولَ اللَّهِ أيأتي أحدُنَا شَهْوَتَه، ويكُونُ لَه فيها أجْرٌ؟، قال: «**أرأيْتُمْ لو وضَعَهَا في حرامٍ أكَانَ عليهِ[٤] وِزْرٌ؟ فكذلكَ إذا وضَعَهَا في الحلالِ كانَ لَهُ أجْرٌ**» رواه مسلم[٥].

«**الدُّثُورُ**»: بالثاءِ المثلثة: الأموالُ، واحِدُها: دَثْرٌ.

ترجمة الراوي:

أبو ذر الغفاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٦١).

غريب الألفاظ:

الدثور: فسرها النووي، وفي النهاية: المالُ الكثير[٦].

فضول أموالهم: الفضول جمع، مفرده: الفضل: وهو ما زاد عن الحاجة[٧].

التهليلةُ: قول: "لا إله إلا الله" مرةً واحدةً.

البُضْع: يطلق على الجماع ويطلق على الفرج نفسه وكلاهما تصح إرادته هنا[٨].

---

(١) عند مسلم زيادة: (من أصحاب النبي ﷺ).

(٢) عند مسلم زيادة لفظ الجلالة.

(٣) (به) لا توجد عند مسلم.

(٤) عند مسلم زيادة: (فيها).

(٥) برقم (١٠٠٦/٥٣). أورده المنذري في ترغيبه (٢٣٠٢).

(٦) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (د ث ر).

(٧) انظر: المفصح المفهم لمعاني صحيح مسلم، ابن هبيرة ٣٤١، والمصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الفيومي ٥٧١، والكليات معجم المصطلحات والفروق الفردية، أبو البقاء الكفوي ٦٨٣.

(٨) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦٤١.

وزر: الوزر: الحمل والثقل، وأكثر ما يطلق على الذنب والإثم[١].

الشرح الأدبي

إن التنافس في المبادرة إلى فعل الخيرات من أهم خصائص الشخصية المسلمة التي تتسم معالمها بالثبات والتوازن والإيجابية والشمولية والواقعية والربانية والتوحيد.

وهذه السمات التي تميز طبيعة التفكير في شخصية المسلم تقود المسلم إلى التنافس بمنأى عن المَوْجِدة والحقد، وإلى المبادرة إلى فعل الخيرات والتأسي بالغير في إنجاز الأعمال الصالحات، ونقتبس من هذا الحوار الصادق بين النبي ﷺ وبعض الصحابة وَمَضَات من التنافس الكريم الجميل في تبيان طرق الخير المتعددة.

ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف: فهو يبدأ بالتأكيد على هذا المشهد الواقعي حيث يقول: "إن ناسًا"، وفي رواية أخرى: "إن ناسًا من أصحاب النبي ﷺ": حيث تحدد هذه الرواية: هوية هؤلاء الناس وهم من فقراء الصحابة، والتعبير بقوله: "ناس"، يشير إلى دلالة هذه الكلمة وأثرها الاجتماعي والنفسي: وهي أصلها: أناس، وهي مأخوذة من أنس، لأنهم يأنسون بأمثالهم، واختيار هذا اللفظ دون غيره في هذا السياق يوحي بأن هؤلاء الذين يبحثون عن طرق الخير، ويرغبون في مضاعفة الأجر، يغبطون غيرهم، ولا يحقدون عليهم: لأنهم يتسمون بالأنس والرضا.

وهم من الصحابة الفقراء الذين كانوا يحزنون على ما يتعذر عليهم فعله من الخير مما يقدر عليه غيرهم، وكان حزنهم يتضاعف على فوات الصدقة بالأموال التي يقدر عليها الأغنياء ويحزنون على التخلف عن الخروج في الجهاد لعدم القدرة على آلته[٢].

ولذلك توجه هؤلاء بهذا النداء الصادق الحميم: "يا رسول الله: ذهب أهل الدثور بالأجور".

والدثور: هي الأموال التي تحصل لهم من أجر الصدقة بأموالهم، وفي اللغة: الدثور:

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (وزر).

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ص ٢٠٤-٢٠٥.

الأموال، واحدها، دَثْر، ووجه الموازنة والمنافسة: أن الفقراء والأغنياء يتساوون في العبادة لأنهم جميعًا من الصحابة الطائعين المصلين والصائمين، ولكن الأغنياء، يتصدقون بفضول أموالهم، ولم يتركهم الرسول ﷺ في حيرتهم، ولكنه دلهم على طرق جديدة للخير، وفتح لهم أبوابًا متعددة للتصدق، لأن بعضهم ظن أن لا صدقة إلا بالمال وهم عاجزون عن ذلك، فأخبرهم النبي ﷺ أن جميع أنواع فعل المعروف والإحسان صدقة[1].

ويتساءل رسول الله ﷺ مجيبًا عن سؤالهم الضمني، وكأنهم قالوا ماذا نفعل حتى نلحق بأهل الدثور في الفضل. وفي التنعم بأجر الصدقة، فقال لهم رسول الله ﷺ مؤكدًا لهم أن الله تعالى فتح لهم منافذ كثيرة للتصدق المعنوي، وهو لا تشوبه شائبة وأتى ذلك التأكيد في أسلوب استفهامي: وحذفت إجابتهم: حيث خاطبهم متسائلاً أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون به؟... وكأنهم: أجابوا قائلين: بلى، فيطمئنهم رسول الله ﷺ على أن الله تعالى جعل لهم ما يتصدقون به، وهو عطاء دائم وفي متناولهم.

وحدد الرسول ﷺ لهم سبعة طرق للتصدق: وهى تجمع بين العبادة والمتعة الشخصية، والتعاون مع أفراد المجتمع، فأما العبادة ففي التسبيح والتكبير والتحميد والتهليل، وهى صيغ ترتبط بحياة المسلم في إصباحه وإمسائه، وفي غدوه ورواحه، وفي تلبيته ودعائه، وفي خَشْيته ورجائه، ولها في حياة المسلم دور مؤثر حيث تربطه دائمًا بالخالق جل وعلا. وأما التعاون على البر والتقوى والنزعة الإصلاحية. فتتمثل في حرص المسلم على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهو سلوك إيماني اجتماعي يربط المسلم بحركة الحياة، ويجعله مؤثرًا وفاعلاً في بيئته، وللأمر بالمعروف طرق كثيرة، وكذلك النهى عن المنكر له طرقه المتعددة، وهى إما باليد أو باللسان أو بالقلب، وتكرار مادة التصدق تسع مرات يرشد إلى قيمة هذا السلوك، وجاء لفظ "الصدقة"

(١) انظر: المرجع السابق ٢٠٤-٢٠٥.

سبع مرات للدلالة على تعدد طرق الخير... وليس للإحصاء، وقد تعجب هؤلاء الصحابة من قوله: "وفي بُضع أحدكم صدقة"، لأن هذا العمل متعة شخصية، فكيف يكون صدقة، والصدقة تؤول إلى إنسان آخر، ويقنعهم الرسول ﷺ؛ حيث يواجههم بسؤال يقنعهم ويذهب دهشتهم حيث قالوا: "أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر"، فيسألهم رسول الله ﷺ مجيبًا وموضحًا: "أرأيتم لو وضعها في حرام كان عليه وزر؟" وحذفت إجابتهم لأنها واضحة ومعروفة، وحذفها يوحي بكراهة الألفاظ التي تنوء بعبء وجرم ذلك الفعل القبيح، ويوحي ويقرر حرمة هذا العمل، وفي ختام الحديث يزف الرسول ﷺ المكافأة الخالصة من الله عز وجل لهؤلاء الذين عفوا أنفسهم وصانوا شرفهم، وقاوموا إغراءات النفس، وإغواء الشياطين ولم يلوثوا أنفسهم بارتكاب هذه المعصية التي تنشر الفاحشة في المجتمع، وتُقوِّض صَرْح الأخلاق، وتهدم بنيان الفضيلة، وتعلي من شأن الرذيلة.

وكثرة الصيغ الاستفهامية في الحديث تفصح عن الطبيعة الحوارية التعليمية التي كان يلجأ إليها المصطفى ﷺ في تعليم أصحابه، وإرشادهم إلى الطريق الصحيح.

وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: ((ما من مسلم يغرس غرسًا إلا كان ما أكل منه له صدقة، وما سُرق له منه صدقة، وما أكل السبع منه فهو له صدقة، وما أكلت الطير فهو له صدقة، ولا ينقصه أحد إلا كان له صدقة))، وفي رواية له أيضًا: ((فلا يأكل منه إنسان ولا دابة ولا طائر إلا كان له صدقة إلى يوم القيامة))[1].

---

(١) أخرجه مسلم ١٥٥٢.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الحوار، والتوكيد، والاستفهام، والتقرير.

ثانيًا: من مهام الداعية: مراعاة أحوال المدعوين.

ثالثًا: من واجبات المدعو: السؤال عما خفي عليه.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل التنافس في الخير والعمل الصالح.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: فضل الله على عباده.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: فضل التسبيح وسائر الأذكار.

أولاً- من أساليب الدعوة: الحوار، والتوكيد، والاستفهام، والتقرير:

١- **الحوار:** إن الحوار يعد من أهم الأساليب الدعوية التي يمكن أن تثري العملية الدعوية، حيث يؤدي إلى فتح آفاق التفاعل بين الداعية والمدعو، وقد اشتمل هذا الحديث على الحوار الذي جرى بين النبي ﷺ والسائلين، وهو أسلوب جيد من أساليب الدعوة يربط المدعوين بالداعية، ويشجعهم على عرض ما لديهم من أفكار وتقويمها وتصويبها من قبل الداعية.

٢- **التوكيد:** ويظهر في قول النبي ﷺ "إن بكل" ولاشك أن التوكيد له أثر في إقناع المدعو، ويجعل الداعية متمكنًا من مقولته، واثقًا مما يقول مما يعطي انطباعًا إيجابيًا لدى المدعو.

٣- **الاستفهام:** ويؤخذ من سؤال النبي لهم "أو ليس قد جعل الله لكم" وسؤال الصحابة رضي الله عنهم: "أيأتي أحدنا شهوته" والاستفهام من الأساليب المهمة في الدعوة حيث تعرض مضامين الدعوة في صورة سؤال وجواب، والداعية الموفق يستطيع أن يفيد من هذا الأسلوب في بيان الأحكام الشرعية وغيرها.

٤- **التقرير:** إن من الأساليب الدعوية التي يمكن للداعية أن يفيد منها أسلوب التقرير، وذلك بأن يقرر الداعية بعض المفاهيم التي لا يختلف عليها العقلاء ويقرها الشرع حتى يصل إلى حكم يريد بيانه للمدعوين، ويظهر هذا من قول النبي ﷺ "أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟" وهذا أسلوب شائق من أساليب الدعوة حبذا

لو استخدمه الداعية ليطمئن إلى قناعة المدعوين بما يقول.

ثانيًا– من مهام الداعية: مراعاة أحوال المدعوين:

إن من مهام الداعية التي تدل على فهمه للمدعوين، مراعاة ظروفهم وأحوالهم في خطابه الدعوي الموجه لهم والذي يجب أن يتناسب معهم، وفي الحديث الذي معنا الآن نجد أن السائلين لرسول الله ﷺ كانوا فقراء، ويرغبون في الصدقة؛ ولذا أرشدهم النبي إلى بعض أبواب الصدقة التي لا تكلف مالاً وهي التكبير والتحميد وسائر الأذكار، وهذا يتناسب مع حال المدعوين وظروفهم، ومن هنا وجب على الداعية الحصيف أن يكون جوابه على حسب حال السائل، فمن فاتته الصدقة بالمال فليرشده إلى الصدقة بالأعمال الصالحة.

ثالثًا– من واجبات المدعو: السؤال عما خفي عليه:

إن سؤال المدعو عما خفي عليه يعد برهانًا على حرصه على فهم أمور دينه، ومعرفة بعض المسائل حتى يكون مقتنعًا بما سمع، عارفًا بالعلة والحكم الشرعي فيما استشكل وخفي عليه، وفي الحديث لما قال رسول الله ﷺ "وفي بضع أحدكم صدقة" ورغم أن القائل هو رسول الله ﷺ ولكن هذا لم يمنعهم عن السؤال "أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر" قال الإمام النووي: (وفي الحديث جواز سؤال المستفتى عن بعض ما يخفى من الدليل إذا علم من حال المسئول أنه لا يكره ذلك ولم يكن فيه سوء أدب)[1].

رابعًا– من موضوعات الدعوة: فضل التنافس في الخير والعمل الصالح:

لقد كان التنافس في الخير والعمل الصالح ديدن الصحابة رضي الله عنهم، فلم تمنعهم قلة المال أن يغبطوا إخوانهم الأغنياء، ويبحثوا عن سبل وطرق توصلهم إلى درجات إخوانهم المتصدقين المنفقين، وفي هذا يكون السباق والتنافس، وقد أمر الله بهذا في القرآن فقال: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾[2] وجعل ذلك من صفات أهل الخشية والإيمان ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦٤١.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٤٨.

يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾(١).

قال القرطبي: (﴿يسارعون في الخيرات﴾ أي في الطاعات كي ينالوا بذلك أعلى الدرجات والغرفات، وكل من تقدم في شيء فهو سابقه إليه، وكل من تأخر عنه فقد سبقه وفاته وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (سبقت لهم من الله السعادة؛ فلذلك سارعوا في الخيرات، وقيل المعنى: وهم من أجل الخيرات سابقون)(٢) وعلى الداعية أن يثير الحماس في نفوس المدعوين، ويحثهم على التنافس في الخير والأعمال الصالحة.

خامسًا- من موضوعات الدعوة: فضل الله على عباده:

من فضل الله تعالى على عباده المؤمنين أن يسّر لهم سبل تحصيل المثوبة، فحثهم على التسبيح والذكر والتحميد، وأعطى الأجر على فعل المباحات إذا صحت النية، ولهذا تعجب الصحابة رضي الله عنهم "أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر" وهذا من فضل الله على عباده قال النووي: (وفي هذا دليل على أن المباحات تصير طاعات بالنيات الصادقات، فالجماع يكون عبادة إذا نوى به قضاء حق الزوجة، ومعاشرتها بالمعروف الذي أمر الله تعالى به، أو طلب ولد صالح، أو إعفاف نفسه، أو إعفاف الزوجة، ومنعهما جميعًا من النظر إلى حرام أو الفكر فيه أو الهم به، أو غير ذلك من المقاصد الصالحة)(٣) قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾(٤).

سادسًا- من موضوعات الدعوة: فضل التسبيح وسائر الأذكار:

لقد أخبر النبي ﷺ بفضل التسبيح والذكر، وأن الإنسان يُثاب على ذلك لأن له بكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وقد أمر الله بذكره فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾(٥) قال السعدي (يأمر الله تعالى المؤمنين

---

(١) سورة المؤمنون، آية: ٦١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٣٣/٦.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦٤١.

(٤) سورة الشورى، آية: ١٩.

(٥) سورة الأحزاب، آية: ٤١.

بذكره ذكرًا كثيرًا من تهليل، وتحميد، وتسبيح، وتكبير، وغير ذلك من كل قول فيه قربة إلى الله، وأقل ذلك أن يُلازمَ الإنسان أوراد الصباح والمساء، وأدبار الصلوات الخمس، وعند العوارض والأسباب، وينبغي مداومة ذلك في كل الأحوال وجميع الأوقات، فإن ذلك عبادة يسبق بها العامل، وهو مستريح، وداع إلى محبة الله ومعرفته، وعون على الخير، وكف اللسان عن الكلام القبيح)[1].

وقد بين النبي ﷺ فضل ذكر الله في أحاديث كثيرة منها ما جاء عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ. وَالْحَمْدُ لله تَمْلأُ الْمِيزَانَ وَسُبْحَانَ الله وَالْحَمْدُ لله تَمْلآنِ (أَوْ تَمْلأُ) مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ. وَالصَّلاَةُ نُورٌ. والصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ. وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ))[2] وقال ﷺ: ((سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ» قَالُوا: وَمَا الْمُفَرِّدُونَ؟ يَا رَسُولَ اللّهِ قَالَ: ((الذَّاكِرُونَ اللّهَ كَثِيرًا، وَالذَّاكِرَاتُ))[3].

ومن ثمّ فإنه ينبغي للداعية أن يبين للمدعوين على فضل الذكر والتسبيح.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٦١٤.

(٢) أخرجه مسلم ٢٢٣.

(٣) أخرجه مسلم ٢٦٧٦.

الحديث رقم (١٢١)

١٢١- **الخامس:** عنه قال: قال لي النبيُّ ﷺ: «**لاَ تَحقِرنَّ مِن المعْرُوفِ شَيْئًا، ولَوْ أنْ تلْقَى أخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ**» رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

أبو ذر الغفاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٦١).

غريب الألفاظ:

لا تحقرنَّ: لا تستصغرنَّ[٢].

وجه طلق: منطلق ضاحك منبسط[٣].

الشرح الأدبي

إن طرق الخير تتعدد، ومنافذه تتفتح لكل مؤمن تَخْلُص نيته، وتصفو سريرته، اتباعا لقول الله عز وجل: ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾[٤] وقوله سبحانه: ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾[٥].

وإن العلاقات بين أفراد الأمة الإسلامية تقوم على التواصي بالحق، والتواصي بالصبر، وتَلَمُّسِ الأسباب والوسائل التي تقرب ما بين النفوس، وتزيل الشبهات، وتقضي على كل مثيرات النزاع، وأسباب الخصام، رغبة في نشر أريج المحبة والوئام.

وحين نتأمل أفق الدلالة في هذا الحديث الشريف نجده يؤكد هذا المنحى، ويرشد إلى ضرورة التعرف على مسالك الخير التي تصلح ذات البين، وتجعل من أفراد الأمة كيانا متماسكًا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا.

---

(١) برقم (٢٦٢٦/١٤٤). أورده المنذري في ترغيبه (٣٩٦٧). وسيكرره المؤلف برقمي (٦٩٥)، و (٨٩٣).

(٢) اللسان والوسيط في (ح ق ر).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير والوسيط في (ط ل ق).

(٤) سورة البقرة، آية: ٢١٥.

(٥) سورة البقرة، آية: ١٩٧.

ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الذي يتسم بالإيجاز والدقة والإيحاء، إن الذي يرويه أبو ذر رضي الله عنه حيث يقول: "قال لي النبي صلى الله عليه وسلم"، ولو تأملنا منهج الإمام النووي في ترتيب الأحاديث لوجدنا أنه يأتي بعدة أحاديث للراوي الواحد في باب واحد في كثير من أبواب الكتاب... وفي هذا الباب وهو بيان كثرة طرق الخير يأتي بخمسة أحاديث من رواية أبي ذر رضي الله عنه... وكلها ترشد إلى كثرة طرق الخير.

وتهدي إلى الوسائل والأسباب التي تؤدي إلى ارتياد هذه الطرق، وهذا الحديث يقودنا إلى طريق من طرق الخير، ربما يغفل عنه الناس، أو يجهلونه، أو يستقلونه، وهو: البشاشة، وحسن المقابلة، ومراعاة الذوق الاجتماعي، في ظل التعاليم الإسلامية، ويبدأ الحديث بأسلوب النهى، والفعل المضارع المؤكد حيث يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: "لا تحقرن من المعروف شيئًا"، والنهى هنا موجه إلى أبي ذر رضي الله عنه في سياق خصوصية الخطاب، ومحدودية الواقعية، ولكن هذا النهى عن احتقار القليل من المعروف موجه إلى كل مسلم يؤمن بالله تعالى ورسوله رضي الله عنه، ويؤمن بقول الله عز وجل: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾[1].

والتأكيد في هذا السياق يرشد إلى حتمية العدول عن هذا النهى... والإقدام على فعل الخير والمعروف مهما قل، و"المعروف" كلمة تتسع دلالتها، وتحمل في جذرها اللغوي كل إرهاصات معانيها، فهي تشمل كل أنواع الخير، وكل الطرق الموصلة إليه، وجاء لفظ "المعروف" معرّفًا إشارة إلى تقريره وثبوته وأنه مألوف، كما قال العلماء.

وفي الحديث السابق صُوِّر الأمر بالمعروف بأنه صدقة... وهذا مجاز لمشابهة الصدقة له: أي أن للمعروف أجرًا كأجر الصدقة في الجنس لأن الجميع صادر عن رضا الله تعالى مكافأة على طاعته إما في القدر أو الصفة -كما يقول صاحب كتاب دليل الفالحين- وكلمة "شيئًا" توحي بضرورة تلمس أي طريق وأي فعل لإنجاز الخير، وتحصيل المعروف مهما قل؛ حتى الكلمة الطيبة، وحتى التبسم في وجه الصديق -

(١) سورة الحشر، آية: ٧.

وعدم العبوس في وجهه، والبشاشة والتراحم والمودة- كلها من وسائل الخير، ومن المصابيح التي تضئ سبيل المؤمن في حياته الواقعية، وفي علاقاته الاجتماعية، وفي معاملاته الأسرية، والتعبير بالمصدر المؤول: "أن تلقى" يوحى بضرورة استمرار هذا الفعل البشوش، واختيار مادة "لقى"، للشعور بالإيناس واللقيا... وعدم الهجر والفرقة.

وكلمة "أخاك" تحمل كل ما يمكن في لفظ الأخوة من قيم ومشاعر لا تبددها الأحداث، وذلك مصداقًا لقوله الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[1]، وقول رسول الله ﷺ: ((المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله، ولا يحقره))[2].

وما أروع هذا التعبير النبوي: بوجه طلق أو طليق، أى ضاحك مستبشر، وقل ما تشاء في تفسير الأثر الطيب الذي تحدثه طلاقة الوجه، وبشاشة المؤمن، وتبسمه في وجه أخيه: إنها مفاتيح القلوب، ومصابيح المحبة والمودة بين المؤمنين.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النهي.

ثانيًا: من مهام الداعية: إرشاد المدعوين إلى أعمال الخير.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الحث على فعل المعروف ولو كان قليلاً.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: استحباب إدخال السرور على المسلم.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: رحمة الله بعباده بتيسير طرق الخير.

أولاً- من أساليب الدعوة: النهي:

لقد ورد أسلوب النهي في قول النبي ﷺ "لا تحقرن" ولاشك أن النهي له أثر على المدعو في أهمية ترك المنهي عنه، وأدعى إلى اجتنابه، ذلك لأن النهي يشعر بالترهيب، وفي النهي: جذب لانتباه السامع ليتطلع إلى معرفة المنهي عنه.

---

(١) أخرجه البخاري ٢٤٤٢.

(٢) رياض الصالحين ٩٨.

ثانيًا- من مهام الداعية: إرشاد المدعوين إلى أعمال الخير:

يجب على الداعية أن يتفقد المدعوين، ويراعي ظروفهم وأحوالهم، ويتعهدهم بالنصح والإرشاد لأعمال الخير، فمن كان فقيرًا لا يستطيع الصدقة والإنفاق يرشده ويدله إلى أمور من أبواب الخير التي لا تكلفه مالاً، ويؤجر عليها ويثاب، وفي هذا الحديث يرشد النبي ﷺ أبا ذر رضي الله عنه إلى أن لا يحقر من المعروف شيئًا ولو كان يسيرًا، ولو كان مجرد طلاقة الوجه، وهذا من مهام الداعية أن يرشد الناس ويدلهم على أعمال الخير.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: الحث على فعل المعروف ولو كان قليلاً:

إن من توجيهات الإسلام أن يحرص المرء على فعل المعروف سواء أكان قليلاً أم كثيرًا، وذلك حتى يفوز برضوان الله، ويجب ألا يحقر المعروف لصغره أو قلته فقد يكون هو المتقبل عند الله فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((سَبَقَ دِرْهَمٌ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ » قَالُوا: وَكَيْفَ؟ قَالَ: كَانَ لِرَجُلٍ دِرْهَمَانِ تَصَدَّقَ بِأَحَدِهِمَا وَانْطَلَقَ رَجُلٌ إِلَى عُرْضِ مَالِهِ فَأَخَذَ مِنْهُ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ فَتَصَدَّقَ بِهَا))(١).

قال السندي: (وظاهر الحديث يدل على أن الأجر على قدر حال المعطي لا على قدر المال المعطى، فصاحب الدرهمين حيث أعطى نصف ماله في حال لا يعطي فيها إلا الأقوياء يكون أجره على قدر همته، بخلاف الغني فإنه ما أعطى نصف ماله، ولا في حال لا يعطي فيها عادة)(٢). ولقد جعل الله عز وجل في فعل الخير الفلاح للمؤمن فقال في كتابه ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾(٣) والمدار في الأعمال على القبول عند الله تعالى.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: استحباب إدخال السرور على المسلم:

إن من الموضوعات الدعوية المستنبطة من هذا الحديث: إدخال السرور على المسلم، ومن أقل صوره: أن تلقاه بوجه طلق مسرور، لا أن تلقاه بوجه عابس مكفهر، وكان هذا هو إرشاد النبي ﷺ في الحديث "ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق" وهذا فيه من

---

(١) أخرجه النسائي ٢٥٢٧، وحسنه الألباني (صحيح سنن النسائي ٢٣٦٧).

(٢) حاشية السندي على سنن النسائي (الجامع الصغير)، السندي، تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة ٦٢/٥.

(٣) سورة الحج، آية: ٧٧.

السرور والإسعاد للمسلم ما فيه، ومن أجل هذا منع الشرع الحنيف أي تصرف يؤدي إلى ترويع المسلم وتخويفه وإفجاعه، ففي الحديث أن رسول الله ﷺ ((لا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُرَوِّعَ مُسْلِمًا))[١] وبلغ الترهيب من ترويع المسلم أن منع الرسول ﷺ ذلك ولو على سبيل اللعب فقد جاء في الحديث ((لاَ يأْخُذْ أَحَدُكُمْ عَصَا أَخِيهِ لاَعِبًا أو جَادًّا، فَمَنْ أَخَذَ عَصَا أَخِيهِ فَلْيَرُدَّهَا إِلَيْهِ))[٢]. وهذه النصوص تفيد أهمية إدخال السرور على المسلم، والترهيب من ترويعه.

قد يظن المرء أن هذا التصرف يسير لا يثاب عليه، ولكن من توجيهات الشرع الحنيف نلمس أن طلاقة الوجه من صنائع المعروف، وأن طلاقة الوجه من الصدقة فقد قال رسول الله ﷺ ((كلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ وإنَّ مِنَ المعروفِ أنْ تَلْقَى أخاكَ بوَجْهٍ طَلْقٍ))[٣].

قال المباركفوري: والمراد بالصدقة الثواب، فإن قارنته النية أجر صاحبه جزمًا، وإلا ففيه احتمال، وفي الحديث إشارة إلى أن الصدقة لا تنحصر في الأمر المحسوس منه، فلا تختص بأهل اليسار مثلاً، بل كل واحد قادر على أن يفعلها في أكثر الأحوال بغير مشقة، ومن جملة أفراد المعروف أن تلقى أخاك المسلم بوجه طلق منبسط متهلل)[٤].

هذا وقد جعل الله من صفات أهل الجنة يوم القيامة أن وجوههم منبسطة متهللة، قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾[٥] وعلى الداعي أن يستحضر هذه المعاني وهذه النصوص الشرعية ليبين للمدعوين فضل طلاقة الوجه والأجر عليها.

خامسًا- من موضوعات الدعوة: رحمة الله بعباده بتيسير طرق الخير:

من رحمة الله بخلقه أنه لم يجعل الخير في عمل واحد، أو قول واحد، ولكنه

---

(١) أخرجه أبو داود ٥٠٠٤، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤١٨٤).

(٢) أخرجه الترمذي ٢١٦٠، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٧٥٤).

(٣) أخرجه الترمذي ١٩٧٠، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٦٠٥).

(٤) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٦٤٧/٢.

(٥) سورة عبس، الآيتان: ٣٨، ٣٩.

سبحانه يسَّر طرق الخير وجعلها متعددة، وكل إنسان يفعل منها ما يتوافق مع حاله ومقدرته، وهذا من فضل الله عز وجل ورحمته، قال الله عز وجل ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[1] ومن صور الرحمة إعطاء الأجر والثواب على العمل اليسير، فمجرد أن يلقى المسلم أخاه بوجه طلق يؤجر، ويكون أتى بابًا من أبواب المعروف طالما أنه صادق النية في عمله هذا وتصرفه، وواجب الداعية إبراز هذا الجانب للمدعوين ليطلعوا على عظيم فضل الله ورحمته، وليتسابقوا إلى أبواب الخير حتى ينالوا رضا الله سبحانه وتعالى.

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٥٦.

الحديث رقم (١٢٢)

١٢٢- السادس: عن أَبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسُولُ اللَّه ﷺ: «كُلُّ سُلامَى مِنَ النَّاسِ علَيْهِ صدَقةٌ، كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فيه الشَّمْسُ: تعدِلُ بيْن الاثْنَيْنِ صدَقَةٌ، وتُعِينُ الرَّجُلَ في دابَّتِهِ، فَتحْمِلُهُ عَلَيْهَا، أوْ ترْفَعُ لَهُ علَيْهَا متَاعَهُ صدقةٌ، والكلمةُ الطَّيِّبةُ صدَقةٌ، وبِكُلِّ خَطْوَةٍ تمْشِيها إلى الصَّلاَةِ صدقَةٌ، وَتُميطُ الأذَى عَن الطرِيق صَدَقةٌ» متفق عليه(١).

ورواه مسلم أيضًا من رواية عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسُول اللَّه ﷺ: «إنَّهُ خُلِقَ كُلُّ إنْسانٍ مِنْ بني آدم علَى سِتِّينَ وثلاثمائَةِ مَفْصِلٍ، فَمنْ كَبَّر اللَّه، وحمِدَ اللَّه، وَهَلَّلَ اللَّه، وسبَّحَ اللَّه واستَغْفَر اللَّه، وعَزلَ حَجرًا عنْ طَرِيقِ النَّاسِ أوْ شَوْكَةً أوْ عظْمًا عن طَرِيقِ النَّاسِ، أوْ أمر بمعرُوفٍ أوْ نهى عنْ مُنْكَرٍ، عَددَ(٢) السِّتِّينَ والثَّلاثمائة(٣)، فَإنَّهُ يُمْسِي(٤) يَوْمئِذٍ وَقَد زَحزحَ نفْسَهُ عنِ النَّارِ»(٥).

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

غريب الألفاظ:

سلامى: السلامى بضم السين المهملة وتخفيف اللام وفتح الميم: المفصل(٦).

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٨٩)، ومسلم (١٠٠٩/٥٦) واللفظ له. أورده المنذري في ترغيبه (٤٦٥). وسيكرره المؤلف برقم (٢٤٨).

(٢) عند مسلم زيادة: (تلك).

(٣) عند مسلم زيادة: (السلامى). وهي لا توجد عند المنذري في ترغيبه، فتبعه عليه المؤلف.

(٤) قال مسلم: قال أبو توبة: وربّما قال: (يُمْسِي)، فالأول: (يمشي)، والثانية: (يمسي). قال النووي في المنهاج (٩٣/٧): ووقع لأكثر رواة كتاب مسلم، الأول: (يمشي) بفتح الياء وبالشين المعجمة، والثاني: بضمها وبالسين المهملة، ولبعضهم عكسه، وكلاهما: صحيحٌ.

(٥) أخرجه مسلم (١٠٠٧/٥٤). أورده المنذري في ترغيبه (٢٣٠٤).

(٦) رياض الصالحين ٩٨.

تعدل بينهما: تصلح بينهما بالعدل[1].

متاعه: المتاع: كل ما ينتفع به ويرغب في اقتنائه كالطعام وأثاث البيت والسلعة والأداة والمال[2].

تميط: تُنحى وتُبعد[3].

هلّل: أي قال: لا إله إلا الله[4].

زَحْزَح نفسه: أبعدها ونحّاها[5].

الشرح الأدبي

إن شكر المنعم على نعمه التي لا تحصى من سمات الشخصية الإسلامية، ومن علامات الإيمان الصحيح.

والفكرة التي نقتبسها من هذا الحديث الشريف تشع بهذه الخاصية من خصائص المسلم في علاقته بربه وفي بصره بنفسه وتأمله في أحوال الخلق، والأفكار البليغة تتصف عادة، بالقوة والجدة، والتحديد والتسلسل، فإذا عرضت هذه الأوصاف الجيدة على بيان محمد ﷺ... فماذا أنت واجد؟ يقول د. محمد رجب البيومي موضحًا هذا التساؤل أجل كان محمد ﷺ صاحب فكر قوي متسع شامل في وقت كان فيه بلغاء المنابر بالجزيرة العربية، لا يكادون يخرجون عن واقعهم القبلي المحدود، ومحمد ﷺ منذ تسنم منبر الدعوة وهو يحلق بأمته في أفق لا انتهاء له، وإن سامعيه لينظرون إليه مرتفعًا في أجوائه العالية، وكلهم راغب أن يرتفع معه حيث يحلق، وما كان هذا الارتفاع الشاهق إلا هتافًا بالمثل الإسلامية التي دعا إليها، ليعيد إلى الإنسانية كرامتها، وينأى بها عن حضيض الخرافة، والفسق، والوأد، وعبادة الأوثان.

---

(١) رياض الصالحين ١٤٧.

(٢) الوسيط ٨٥٢.

(٣)النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، والوسيط في (ن ح و).

(٤) الوسيط في (هـ ل ل).

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ز ح ز ح).

نطالع أفكار محمد ﷺ التشريعية، وأهدافه الخلقية، وأحاديثه الإنسانية، وأخباره الغيبية، فنجد ما لا يؤلف في عصره، ولا يعهد في قومه[(١)].

وحين نتأمل بداية هذا الحديث الشريف ندرك أن الفكرة المشرقة التي تتألق في أفق هذا البيان النبوي لا عهد للعرب بمثلها، ولم يُسبق إليها رسولُ الله ﷺ، فهل سمع العرب قبل هذا في خطبهم أو رسائلهم أو وصاياهم أو أشعارهم بمثل هذا التعبير البليغ الإيماني السديد، كل سلامى من الناس عليه صدقة، أى على كل عظم من عظام ابن آدم صدقة، والسلامى اسم لأصغر ما في البعير من عظام.

وفي الرواية الأخرى : حددت السلامى بالمفاصل: وهى: ستون وثلاثمائة مفصل. ولنتأمل هذا التحديد في قوله ﷺ: "من الناس" ولم يقل من كل مسلم: لأن الناس جميعًا تغمرهم هذه النعم، وبها يتحركون، وبواسطتها يعيشون، ولكن كثيرًا منهم لا يشكرون.

فهذا التعبير دعوة إلى جميع الناس للشكر.. وتأمل خلق النفس، ومكونات الجسد، فكلها آيات بينات: كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[(٢)]، فأي بلاغة هذه؟ وأي سموق في المعنى، وبهاء في اللفظ، ودقة في الدلالة، واتساع في الرؤية، وهى ليست ترفًا أسلوبيًا ولا صنعة بديعية، ولا صورة فنية محلقة، ولكنها بيان نبوي رشيد، وبلاغ إلى الناس سديد، وإرشاد إلى طرق للخير جديدة، تلم شعث المسلمين، وتصلح ذات بينهم.

وبعد هذا الإجمال يأتي التفصيل ليفتح الآفاق أمام شكر المنعم على نعمه التي لا تعد ولا تحصى، وكأن العبد مطالب كل يوم بأن يؤدي صدقات معنوية وحسية شكرًا لله تعالى على كل مفصل من مفاصله.

والعظام هى المرحلة قبل النهائية في خلق الإنسان حيث تتحول المضغة إلى عظام، ثم

---

(١) انظر: البيان النبوي، د. محمد رجب البيومي ص ٢١٦-٢١٧.

(٢) سورة فصلت، آية: ٥٣.

يقول الله سبحانه: ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[1].

وفي رواية أخرى تربط بين نعمة الخلق، وفضيلة الشكر والتصدق: يقول الرسول ﷺ: "على كل مَيْسم من الإنسان صدقة أو صلاة"، في رواية البزار، وقال بعضهم يريد بالميْسم، كل عضو على حدة، مأخوذ من الوسم وهو العلامة، إذ ما من عظم ولا عرق ولا عصب إلا وعليه أثر صنع الله عز وجل، فسبحان الله والحمد لله، والتعبير بقوله: "عليه" يوحي بأن هذا الأمر واجب على كل مسلم. وقال بعض العلماء: إن الشكر على درجتين: إحداهما واجب وهو أن يأتي بالواجبات ويتجنب المحرمات فهذا لابد منه، ويكفي في شكر هذه النعم. وقال أبو حازم الزاهد: ((شكر الجوارح كلها أن تكف عن المعاصي، وتُسْتَعمل في الطاعات)).

والدرجة الثانية من الشكر: الشكر المستحب: وهو أن يعمل العبد بعد أداء الفرائض واجتناب المحارم بنوافل الطاعات: وهذه درجة السابقين المقربين[2]. وهي التي أرشد إليها النبي ﷺ في الأحاديث التي وردت في باب: كثرة طرق الخير.

وبيان المصطفى ﷺ مشحون بطاقات الصدق والتفاعل والتعاون على البر والتقوى.

وذلك طابع المسلم.. ويجب أن يكون الطابع العام للبشرية كلها.. لأن الرسول ﷺ أرسل للناس كافة، وأرسل رحمة للعالمين، وهذا الطابع يتجدد كل يوم... مع شروق الشمس في كل صباح جديد، فالمسلم يتذكر نعمة الله تعالى عليه... وقوله: "كل يوم..." يرشد إلى المسؤولية المتجددة المتكررة، وحين نتأمل نوعية هذه الصدقات التي تمثل طرق الخير المتعددة نرى أنها من عوامل إصلاح المجتمع المسلم، ومن عوامل تقدمه ونظافته وتجميله، وأول طريق من طرق الخير هو الإصلاح بين المتخاصمين، وعبر الرسول ﷺ، بالمقصد والهدف والثمرة من الإصلاح حيث قال: "أن تعدل بين الاثنين"،

---

(١) سورة المؤمنون: ١٤.

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ص ٢١٥ - ٢١٦.

فتأمل... المعاني الكامنة في قلب هذا التعبير النبوي الكريم وهو العدل، والتعبير بصيغة المضارع. يومئ إلى استمرار هذه الفضيلة في كل صباح جديد، وهذا الشكر العملي لابد أن يؤازره الشكر القولي، والنصح والإرشاد، فالكلمة الطيبة صدقة، ولنتأمل الدلالة الفسيحة والشاملة لهذه الكلمة التي تحمل كل وجوه الخير الكلمة الطيبة حيث تكمن في كيانها المشع كثير من الصفات الحسنة، ومنها الصادقة - الأمينة -الراشدة -العادلة -الواضحة -المحايدة -الحانية -المخلصة... الخ. كل هذه الإشعاعات الدلالية نقتبسها من شمس هذه الكلمة المتوهجة (الطيبة)، والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهى تصلح ما اعوج من سلوك الإنسان، وتؤلف بين القلوب، ولذلك رغب رسول الله ﷺ في المشى إلى الصلاة، والصلاة في المساجد، حيث يتلاقى المؤمنون، ويقفون صفًا كالبنيان المرصوص، يناجون ربهم، ويؤدون ما افترضه عليهم ويدعونه خوفًا وطمعًا، ويتكرر هذا اللقاء كل يوم خمس مرات، فهل يجد الشيطان سبيلاً إلى قلوبهم؟؟!!!

وهل يجد الخلاف له مكانًا بين صنوفهم؟ وهذا التردد ذهابًا وإيابا إلى المساجد.. يغرس في نفس المسلم ملكة التطهر والنظافة لأن الوضوء شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السموات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك؛ هذه الطاعة تقود الإنسان إلى فعل سلوكي اجتماعي حضاري وهو الحفاظ على البيئة من الأذى والتلوث والطريق أحد معالم البيئة، وإماطة الأذى عنه فيه مصلحة الإسلام والمسلمين، وإماطة الأذى تعبير شامل موجز يشمل كل ما يعوق حركة الإنسان في الشارع من زحام وفوضى، وفضلات، وعدم التزام بقواعد المرور، وآداب السلوك، والأعراف والتقاليد العامة.

إن الصدقات التي وعدنا بها رسول الله ﷺ هى قمة الترغيب في إصلاح أحوال الأمة فهل نستجيب؟

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى أكثر من حكم فقهي ومن ذلك:

الأول: الإصلاح بين الناس، وقد اتفق الفقهاء[1] على أن الصلح بين الناس مشروع في الجملة وقد ثبتت مشروعيته بالكتاب والسنة والإجماع، وذكر ابن عرفة[2] أن الصلح في الجملة مندوب، ولكن قد يكون واجبًا عند تعين مصلحته، ومكروهًا أو حرامًا لاستلزامه مفسدة واجبة الدرء أو كان صلحًا يحل حرامًا أو يحرم حلالاً.

الثاني: حكم إماطة الأذى عن الطريق، وقد سبق الكلام عنه في الحديث رقم (١١٩).

الثالث: حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد سبق الكلام عنه في الحديث رقم (١١٨).

الرابع: حكم الصدقة، والصدقة أنواع فمنها ما هو واجب وهو الزكاة حيث يطلق عليها صدقة، ومنها ما هو واجب على البدن وهو زكاة الفطر، ومنها الصدقة المفروضة من الشخص على نفسه وهو النذور، ومنها الصدقة المفروضة حقًا لله تعالى وهي الفدية والكفارة، ومنها ما هو تطوع وهذا هو المصطلح الأشهر عند ذكر الصدقة[3].

---

(١) المبسوط، السرخسي ١٣٣/٢٠، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود٦/٤٠، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٥/٨٠، والتاج والإكليل شرح مختصر خليل، وهو مطبوع بهامش مواهب الجليل شرح مختصر خليل، المواق ٥/٧ وما بعدها، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٢/٢١٤، والغرر البهية في شرح البهجة الوردية، الأنصاري ٣/١٣٠، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٣/١٦٢، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٤/٣٠٨، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٢/١٣٩.

(٢) مواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٥/٨٠، والتاج والإكليل شرح مختصر خليل، وهو مطبوع بهامش مواهب الجليل شرح مختصر خليل، المواق ٥/٧ وما بعدها.

(٣) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية٢٦/٣٢٥.

وقد ذكر الفقهاء[1] أن صدقة التطوع سنة ورد بفضلها الكتاب والسنة، وهي مستحبة في جميع الأوقات، وصدقة السر فيها أفضل من صدقة العلانية وفي كلِ خير، وهي أفضل في وقت الصحة، وفي رمضان، وأوقات الحاجة، وفي كل زمان ومكان فاضل.

الخامس: حكم ذكر الله تعالى، وقد سبق الكلام عنه في الحديث رقم (١١٨).

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار، والتوكيد، والترغيب.

ثانيًا: من مهام الداعية: إرشاد المدعوين إلى الخير.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: وجوب شكر النعم.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: الحث على الإصلاح والعدل بين الناس.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: فضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: فضيلة التسبيح وسائر الأذكار.

سابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل التعاون بين الناس.

ثامنًا: من موضوعات الدعوة: الإعجاز العلمي في الإخبار عن عدد مفاصل الإنسان.

أولاً- من أساليب الدعوة: الخبر، والتوكيد، والترغيب:

١- الخبر: حيث أخبر الرسول ﷺ أن كل سلامي من الناس عليه صدقة، والخبر فيه دلالة على ما ينبغي فعله، أو إخبار عن أمر واجب على المدعو، وأخبار الأنبياء كلها صادقة، وهكذا يجب أن تكون أخبار الدعاة إلى الله، وعندئذٍ يتقبلها الناس بقبول حسن.

٢- التوكيد: حيث ورد في قوله ﷺ في الحديث: "إنه خلق كل إنسان"

---

(١) أحكام القرآن، الجصاص ٦٢٨/١، وأحكام القرآن، ابن العربي ٢٠٤/١، ٣١٤، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢٣٥/٦ وما بعدها، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٤٠٥/١، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٣٦٨/٢، والفروع، ابن مفلح ٦٤٩/٢، وسبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، إسماعيل الصنعاني ٥٤١/١، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٨٩/٢٤، ٣٢٥/٢٦.

والتوكيد من الأساليب الدعوية المهمة، حيث يشعر المدعو بأن الداعية على ثقة بما يقول، وبما يدعو إليه، والتوكيد يدلل على أهمية الموضوع الذي يتناوله الداعية.

٣- الترغيب: حيث جاء في الحديث "فإنه يمسي يومئذٍ وقد زحزح نفسه عن النار" ولاشك أن الترغيب يعطي المدعو حافزًا وباعثًا على فعل الخير حيث يدرك مدى الثواب والأجر الذي يحصّله على فعله وعمله، لأن النفس البشرية تحب الخير وتميل إليه، وترغب في معرفة المنافع والفوائد التي تعود عليها، والداعية عندما يستخدم أسلوب الترغيب لاشك أنه يحبب المدعوين، ويعمل على استقطابهم واستمالة قلوبهم.

ثانيًا- من مهام الداعية: إرشاد المدعوين إلى الخير:

إن من مهام الداعية إلى الله أن يعرف الناس طرق الخير ويرشدهم إليها، ذلك أنه قد توجد أبواب من الخير يجهلها بعض الناس، ولذا فقد جاء في القرآن على لسان رسل الله أنهم نصحوا لأقوامهم وأرشدوهم إلى الخير، والعاقبة تقع على المقصرين ومن ذلك ما جاء على لسان نوح عليه السلام ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾(١) وعلى لسان صالح عليه السلام: ﴿يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾(٢) وخاطب الله نبيه ﷺ وقال له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾(٣) وبناء على هذا كان واجب الدعاة الأول الإرشاد والبيان والبلاغ. وفي هذا الحديث يرشد النبي ﷺ المدعوين إلى طريق الخير من خلال وسائط متعددة منها: العدل بين اثنين، وإعانة الآخرين، والكلام الطيب، والمشي إلى الصلاة وغير ذلك.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: وجوب شكر النعم:

لقد وجه النبي ﷺ المؤمن إلى شكر نعم الله تعالى عليه، وأن كل سلامي من

---

(١) سورة الأعراف، آية: ٦٢.

(٢) سورة الأعراف، آية: ٧٩.

(٣) سورة المائدة، آية: ٦٧.

الناس عليه صدقة، وهذا من قبيل الشكر لنعمة الله عز وجل قال الله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[١] ووعد عباده الشاكرين بالزيادة فقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[٢] وأخبر بأن الشاكرين قليلون قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[٣].

قال ابن علان: وعلى الإنسان المكلف حق مؤكد في أداء شكر سلامة أعضائه وأتى بقوله "كل يوم تطلع فيه الشمس" دفعًا لتوهم الاكتفاء في أداء شكر نعم هذه الأعضاء بالإتيان بما في الحديث مرة، فنبه على أن ذلك مطلوب من الإنسان كل يوم شكرًا لسلامتها فيه[٤]، وقد أرشد النبي ﷺ في الحديث إلى أن شكر سلامة الأعضاء لا يكون باللسان فحسب، وإنما لا بد من بذل المعروف، وإعانة الناس، وفعل الخير فهذا هو الشكر الحقيقي. فشكر العبد لله: "نطق باللسان وإقرار بالقلب بإنعام الرب مع الطاعات)[٥].

قال المناوي: (الشكر شكران:

الأول: شكر باللسان وهو الثناء على المنعم.

والآخر: شكر بجميع الجوارح، وهو مكافأة النعمة بقدر الاستحقاق، والشكور الباذل وسعه في أداء الشكر بقلبه ولسانه وجوارحه اعتقادًا واعترافًا)[٦].

وقد قرن الله سبحانه عبادته بالشكر في كثير من الآيات، قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾.

---

(١) سورة إبراهيم، آية: ٣٤.

(٢) سورةإبراهيم، آية: ٧.

(٣) سورة سبأ، آية: ١٣.

(٤) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٢٥٩.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٧٢/٢/١.

(٦) التوقيف على مهمات التعاريف، محمد عبدالرؤوف المناوي، تحقيق: عبدالحميد صالح حمدان ص ٢٠٦، ٢٠٧.

(٧) سورة العنكبوت، آية: ١٧.

قال السعدي: (قوله: "واشكرو لي" أي على ما أنعمت عليكم بهذه النعم، ودفعت عنكم صنوف النقم، والشكر يكون بالقلب إقرارًا بالنعم واعترافًا، وباللسان ذكرًا وثناء، وبالجوارح طاعة لله وانقيادًا لأمره، واجتنابًا لنهيه، فالشكر فيه بقاء النعمة الموجودة، وزيادتها، قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[1]) [2].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: الحث على الإصلاح والعدل بين الناس:

ذكر النبي ﷺ أن من أوجه الصدقات المطلوبة من المسلم كل يوم أن يعدل بين اثنين ويصلح بينهم، وقد جاء الأمر بهذا في القرآن قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠﴾[3] "وفي هذه الآية تقرير لما أمر الله به من الإصلاح إذ لحمة الإيمان وقرابته أقوى من لحمة النسب وقرابته، والأخوة في الإسلام قوية الأواصر متينة الصلة، والناس حينما يرون أخوين في النسب اقتتلا أسرعوا في فض النزاع. ويبين الله هنا أن صلة الإيمان أقوى من صلة النسب. وتقوى الله هي العلاج العام الذي يمنع النزاع، ويفك الخصام وهي سبيل الرحمة وطريق النجاة"[4].

قال الطيبي: (إن إصلاح ذات البين سبب للاعتصام بحبل الله، وعدم التفرق بين المسلمين. وفساد ذات البين ثلمة في الدين، فمن تعاطى إصلاحها ورفع فسادها نال درجة عند الله -سبحانه- فوق ما ينالها الصائم القائم المشتغل بخويصة نفسه)[5]. فواجب الدعاة تنبيه الناس إلى أهمية الإصلاح بين الناس بالعدل.

---

(١) سورة إبراهيم، آية: ٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٥٧.

(٣) سورة الحجرات، آية: ١٠.

(٤) التفسير الواضح، د. محمد محمود حجازي٣/٢٦/٦١.

(٥) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٩/٢١٣.

خامسًا- من موضوعات الدعوة: فضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

حيث جاء في الحديث أن من أبواب الخير "أمر بمعروف أو نهي عن منكر" وهذا من أسباب خيرية الأمة الإسلامية قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾(١) قال الإمام ابن كثير: (يخبر سبحانه وتعالى عن هذه الأمة المحمدية بأنهم خير الأمم، وخير الناس للناس، وأنفع الناس للناس، وإنما حازت هذه الأمة قصب السبق إلى الخيرات بنبيها محمد ﷺ فالعمل على منهاجه وسبيله، يقوم القليل منه ما لا يقوم العمل الكثير من أعمال غيرهم مقامه)(٢).

ومن أعظم الأمور الصالحة التي يقوم بها المسلم هو التواصي بالحق كما قال الله ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾(٣) وتغيير المنكر يكون على قدر الوسع والطاقة ففي الحديث ((مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ. فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ. فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ. وَذَٰلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ))(٤).

سادسًا- من موضوعات الدعوة: فضل التسبيح وسائر الأذكار:

حيث جعل النبي ﷺ التكبير والتحميد والتهليل والتسبيح والاستغفار من الأذكار التي تزحزح الإنسان عن النار، ولقد كان من هدي النبي ﷺ أن يذكر الله في كل أحواله ومدح الله أهل ذكره فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾(٥) والاستغفار سبب لزيادة الرزق والقوة قال تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً﴾(٦) وقال ﷺ للرجل الذي قال: يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت عليَّ

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١١٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/٩٤.

(٣) سورة العصر، آية: ٣.

(٤) أخرجه مسلم ٤٩.

(٥) سورة آل عمران، آية: ١٩١.

(٦) سورة هود، آية: ٥٢.

فأخبرني بشيء أتشبث به؟ قال: ((لا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ الله))[١].

سابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل التعاون بين الناس:

إن من موضوعات الدعوة المستنبطة من الحديث فضل التعاون بين الناس، لأن التعاون سمة من سمات المجتمع المسلم، ويظهر هذا في قول النبي ﷺ "وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها، أو ترفع له عليها متاعه صدقة". وهذا من آداب الإسلام حيث إن القوي يساعد الضعيف، والغني يعين الفقير، والصحيح يحنو على المريض، وقد حث الله على التعاون فقال: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾[٢].

قال القرطبي: (وهو أمر لجميع الخلق بالتعاون على البر والتقوى، أي ليُعن بعضكم بعضًا، وتحاثوا على ما أمر الله تعالى واعملوا به، وانتهوا عما نهى الله عنه، وامتنعوا منه، قال الماوردي: ندب الله سبحانه إلى التعاون بالبر وقرنه بالتقوى له، لأن في التقوى رضا الله، وفي البر رضا الناس، ومن جمع بين رضا الله تعالى ورضا الناس فقد تمت سعادته وعمت نعمته. والتعاون يكون بوجوه: العالم بعلمه فيعلمهم، والغنى بماله، والشجاع بشجاعته في سبيل الله، وأن يكون المسلمون متظاهرين كاليد الواحدة)[٣].

وفي الحث على التعاون قال ﷺ: ((إن المـؤْمِنَ للمـؤْمِنِ كالبنيانِ يَشُدُّ بَعضُهُ بَعضًا))[٤]. فيجب على الدعاة إحياء هذه المعاني في نفوس المدعوين.

ثامنًا- من موضوعات الدعوة: الإعجاز العلمي في الإخبار عن عدد مفاصل الإنسان:

أشار الحديث إلى صورة من صور الإعجاز العلمي في السنة النبوية، حيث جاء في الحديث أن في جسم الإنسان ثلاثمائة وستين مفصلاً، وهو ما قرره العلم الحديث: (إن هذا الحديث ينقلنا إلى علم التشريح الوصفي المبني على المشاهدة والحساب والدقة فيها فجسم الإنسان مكون من الهيكل العظمي الذي يكون أساس هذا الجسم، وحركة

---

(١) أخرجه الترمذي ٣٣٧٥، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٦٨٧).

(٢) سورة المائدة، آية: ٢.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٤٦/٦/٣.

(٤) أخرجه مسلم ٢٥٨٥.

الإنسان ترجع في حد ذاتها إلى المفاصل التي تجعلها سهلة ميسرة، ولقد جاء هذا الحديث ليبين أن في جسم الإنسان ثلاثمائة وستين مفصلاً، وجاءت العلوم الحديثة لتقرر ما سبق أن قرره وأخبر به ﷺ فبذلك كان الإعجاز العلمي لرسول الله ﷺ واضحًا حين أعلمنا بمقدار المفاصل الموجودة في جسم الإنسان حين كان من المتعذر على أي إنسان أن يخبر بمثل ذلك)[1].

قال د. زغلول النجار: "واضح من حديث رسول ﷺ أن المقصود بالسلامى هي المفاصل التي يمكن للعظام أن تتحرك عبرها. ومن معاني الحديث الشريف أن على المسلم أن يقدم الشكر لله تعالى على ما وهبه من هيكل عظمى منتصب القامة مستقيم، ميزه الله تعالى به عن جميع الخلائق، وكونه من عدد هائل من العظام الكبيرة والدقيقة والغضاريف،وجعل بين كل عظمتين منها مفصلاً يتيح لهذا العدد الهائل من العظام حماية الأجزاء اللينة من جسم الإنسان ودعمها، وأعطاه في نفس الوقت قدرًا من مرونة الحركة تسمح للإنسان بالوقوف، والجلوس، والاضطجاع، والانحناء والتثني، والبسط والقبض وغير ذلك من الحركات التي مكنت الإنسان من العديد من المهارات، ومن قبيل الشكر لله تعالى الخالق البارئ المصور فإن على كل مسلم عابد لله وشاكر لأنعمه أن يقدم عن كل مفصل من تلك المفاصل صدقة في كل يوم يصبح فيه، تقديرًا لهذه النعمة الكبرى، وتعبيرًا عن شكر الله سبحانه وتعالى عليها، والتي بدونها ما كان من الممكن للإنسان أن يستمتع بوجوده في هذه الحياة،وتعظيمًا لروعة الخلق في تصميم تلك العظام ومفاصلها بهذه الدقة الفائقة التي تشهد لله الخالق بطلاقة القدرة وبديع الصنعة، وإحكام الخلق.

والأمر المعجز في هذا الحديث أن يذكر فيه المصطفى ﷺ عدد مفاصل جسم الإنسان بهذا التحديد الدقيق (ثلاثمائة وستون مفصلاً) في زمن لم يكن متوفرًا فيه للإنسان أدنى علم بتشريح جسم الإنسان، أو أدنى معرفة بعدد عظام هيكله، وعدد

---

(١) الإعجاز العلمي في السنة النبوية، د. زغلول النجار ١/ ٧٠، ٧١.

المفاصل فيه، وذلك من قبل ألف وأربعمائة سنة، وفي بيئة بدوية لا تعرف العلم ولا التحقيق ولا التدوين!! حدث هذا في أوائل القرن السابع الميلادي، ونحن الآن في أوائل القرن الحادي والعشرين، والغالبية الساحقة من الناس لا تعرف عدد المفاصل في جسد كل منهم، بل إن عددًا كبيرًا من أساتذة طب وجراحة العظام في مطلع القرن الحادي والعشرين لا تعرف بالضبط عدد العظام أو عدد المفاصل في جسم الإنسان، وقد سألت عددًا منهم فتراوحت إجاباتهم بين المائتين والثلاثمائة عظمة، وبين المائة والثلاثمائة مفصل.

ولكن د. حامد أحمد حامد ذكر في كتابه المعنون بالعنوان الجميل: (رحلة الإيمان في جسم الإنسان) أن عدد المجموع الكلي للمفاصل في جسم الإنسان هو بالضبط ثلاثمائة وستون مفصلاً كما قرره رسول الله ﷺ من قبل ألف وأربعمائة سنة، وأوضح د. حامد تفصيل هذا العدد على النحو التالي:

(أولاً: بالعمود الفقري ١٤٧ مفصلاً كما يلي:

٢٥ مفصلاً بين الفقرات.

٧٢ مفصلاً بين الفقرات والأضلاع.

٥٠ مفصلاً بين الفقرات عن طريق اللقيمات الجانبية.

ثانيًا: بالصدر ٢٤ مفصلاً كما يلي:

٢ مفصل بين عظمتي القص والقفص الصدري.

١٨ مفصلاً بين القص والضلوع.

٢ مفصل بين الترقوة ولوحي الكتف.

٢ مفصل بين لوحي الكتف والصدر.

ثالثًا: بالطرف العلوي ٨٦ مفصلاً كما يلي:

٢ مفصل بين عظام الكتفين.

٦ مفاصل بين عظام الكوعين.

٨ مفاصل بين عظام الرسغين.

٧٠ مفصلاً بين عظام اليدين.

رابعًا: بالطرف السفلي ٩٢ مفصلاً كما يلي:

٢ مفصل للفخذين.

٦ مفاصل بين عظم الركبتين.

٦ مفاصل بين عظام الكاحلين.

٧٤ مفصلاً بين عظام القدمين.

٤ مفاصل بين عظام الركبة.

خامسًا: بالحوض ١١ مفصلاً كما يلي:

٤ مفاصل بين فقرات العصعص.

٦ مفاصل بين عظام الحُقّ.

١مفصل الارتفاق العاني.

المجموع: ١٤٧ + ٢٤ + ٨٦ + ٩٢ + ١١ = ٣٦٠ مفصلاً.

وهذه المفاصل المتحركة في جسم الإنسان والتي تعطي لهيكله العظمي ومن ثم للجسم كله القدرة على الحركة بمرونة عالية هي المقصودة بتعبير السلامى، أما الفواصل الثابتة كتلك الموجودة بين عظام الجمجمة فلا تدخل في عداد السلامى التي هي المفاصل التي تتم عبرها حركة العظام.

ولولا الفواصل التي هيأها ربنا تبارك وتعالى لتتحرك غالبية عظام الهيكل الصلب لإنسان عبرها؛ ما استطاع الإنسان مجرد الحركة، ولو تعطل مفصل واحد لعانى للإنسان من عطله آلامًا عديدة وواجه مشاكل ومصاعب جمة.

من هنا كانت وصية رسول الله ﷺ للإنسان بضرورة شكر الله تعالى في كل يوم تطلع فيه الشمس عليه بعدد هذه السلامى في جسده على الأقل، إن لم يكن أكثر من ذلك، فمهما قدم الإنسان من ذكر وشكر وصدقات، فإنه لا يمكن أن يوفي شكر الله تعالى ولو على سلامى واحدة من الثلاثمائة والستين التي خلقها ربنا تبارك وتعالى في جسده.

والسؤال الذي يفرض نفسه: من غير الله الخالق يمكن أن يكون قد علم رسولنا محمدًا ﷺ أن كل إنسان قد خلق على ستين وثلاثمائة مفصل؟ ومن الذي كان يمكن أن يضطره للخوض في أمر غيبي كهذا؟ لولا أن الله تعالى قد أيده بعلم من عنده سابق لعلوم كل البشر، ليبقى هذا العلم الذي أنزله ربنا تبارك وتعالى في محكم كتابه، أو ألهمه خاتم أنبيائه ورسله ﷺ فذكره في حديث صحيح منسوب إليه كهذا الحديث الشريف الذي نحن بصدده شاهدًا له بالنبوة والرسالة إلى يوم الدين)[1].

وعلى الدعاة إلى الله استخراج هذه المعاني، وهذه الصور من الإعجاز ليزداد الذين آمنوا إيمانًا من جانب، وليقف المخالفون على لون من ألوان الإعجاز العلمي الذي حفلت به السنة النبوية المطهرة، لأن هناك فريقًا من الناس، لا يسلمون بالأدلة النقلية، ولا يعترفون إلا بالحقائق العلمية المحسوسة، وهذا ما يجعل الحاجة إلى توظيف الإعجاز العلمي في الدعوة إلى الله ضرورة ملحة، ينبغي الاهتمام بها في هذا العصر الذي نعيشه، خاصة مع غير المسلمين.

(١) الإعجاز العلمي في السنة النبوية، د. زغلول النجار ١٣٨/٢ - ١٤٣ بتصرف.

الحديث رقم (١٢٣)

١٢٣- السابع: عنه عن النَبيِّ ﷺ قال: «منْ غدَا إلى المَسْجِدِ أو رَاحَ، أعدَّ اللّهُ لَهُ في الجنَّةِ نُزُلاً كُلّمَا غَدا أوْ رَاحَ» متفقٌ عليه[1].

«النُّزُل»: القُوتُ والرِّزْقُ ومَا يُهَيَّأ للضَّيفِ.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

نُزُلاً: فسرها النووي[2]، وفي النهاية: "ما عند الله من الأجر والثواب"[3].

الشرح الأدبي

إن المسجد في الإسلام له مكانته السامية، ووظيفته الهادية، وهو ملتقى الأفئدة المؤمنة، والمساجد بيوت أذن الله تعالى أن ترفع، وأن يذكر فيها اسمه ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾[4].

والمسجد مرتبط بأداء فريضة الصلاة، وبالاعتكاف، وبقراءة العلم وتلقي دروسه، فهو مدرسة المسلمين الأولى، والمسجد الحرام، والمسجد النبوي شاهدان على هذه المكانة التي أعطاها الإسلام للمسجد، وهما لهما أفضليتهما مع المسجد الأقصى، حيث لا تُشدُّ الرحال إلا إلى هذه المساجد الثلاثة.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٢)، ومسلم (٢٨٥/٦٦٩) واللفظ له. أورده المنذري في ترغيبه (٤٧٠). وسيكرره المؤلف برقم (١٠٥٤).

(٢) رياض الصالحين ٩٩.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ن ز ل).

(٤) سورة النور، الآيتان: ٣٦، ٣٧.

ويشع هذا الحديث بأنوار الترغيب، وأطياف التقريب، ويتصل بما قبله في الحديث السابق حيث ينص الحديث الذي سبق شرحه على أن بكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة.

والحديث الذي روته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها يتضمن فضل الصلاة وفضل المسجد ولكن عن طريق الإيحاء والتلميح وليس عن طريق الإنباء والتصريح: حيث يرشد الحديث إلى التكبير والتحميد والتهليل والتسبيح والاستغفار، وكلها تتضمنها الصلاة، وهي من الصدقات -وقيل من الصلوات- التي يؤجر عليها الإنسان حين يشكر من خلال أدائها نعمة الله تعالى على أن خلقه وسواه.

وفي هذا الحديث الموجز يبشر المصطفى صلى الله عليه وسلم كل مؤمن يرتاد المساجد، والناس يشهدون له بالإيمان لإخلاصه في مسعاه، وغدوه ورواحه، ولذلك نقتبس من الحديث بعض ملامح الجمال الأسلوبي الذي يزيد المعنى جلاء وبهاء، وسمات ذلك البهاء، وآية ذلك الجمال: الإيجاز، والبعد عن الغموض والإلغاز، فالحديث تنظمه جملة واحدة، لكنها مبشرة واعدة، والجملة في بنائها اللغوي تتكون من الشرط والجواب، وأداة الشرط، "من" وهي أداة غير خاصة بفرد واحد وإنما تمثل قاعدة تصلح لكل من يقوم بهذه الحركة الإيمانية إلى يوم الدين، ومن هنا تبرز لنا بجلاء خاصية العموم والشمول في خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم لأمته، والتعبير بالفعل "غدا" يصور حركة الذهاب والمشي إلى المسجد، والمراد به السير أول النهار، ويراد به في الحديث من صلاة الفجر، وإطلاق لفظ المسجد بدون تخصيص أو إضافة يرشد إلى أن المراد عموم المسجد أي مكان الصلاة المهيأ والمعد لذلك، وقوله: "أو راح" فيه إشارة إلى تعدد الغدو والرواح. لأن المسلم لن يظل قابعًا في المسجد طيلة يومه، وإنما يغدو لأداء الفروض أو الاعتكاف أو القراءة أو تدريس العلم أو طلبه في المسجد، ثم يذهب الإنسان إلى السعي على رزقه واكتساب عيشة، ولنتأمل هذا الطباق بين غدا وراح، وقد كرر مرتين للتأكيد على ثبوت الجزاء الذي بشر به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا الطباق يوحي كذلك بضرورة انشغال المسلم صباحًا ومساءً بالمسجد، تمسكًا بأداء الفروض الخمس، والتعبير بقوله، "كلما غدا أو راح"،

يوحي بتكرار السعي والمشي إلى المساجد ذهابًا وإيابًا، والثواب جزيل والأجر مضاعف؛ وكيف لا وهو من إعداد الله عز وجل، وماذا بعد هذا التكريم الإلهي وقد أعد لعبده الغدَّاء الرَّوَّاح نزلاً في الجنة: وهو القوت والرزق وما يُهيأ للضيف، وأَكْرِمْ بضَيْف يتولى الله تعالى ضيافته وأكرم بنُزل يمنحه الله تعالى لمن يحب ويهبهم رضوانه وجنته.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الترغيب.

ثانيًا: من مهام الداعية: إرشاد الناس إلى الخير.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل الذهاب إلى المسجد للعبادة.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل الله ورحمته بعباده.

أولاً- من أساليب الدعوة: الترغيب:

لقد جاء الترغيب في قوله ﷺ: "أعد الله له في الجنة نزلاً" وذلك لمن يغدو إلى المسجد أو يروح، ولاشك أن النفس تقبل على العمل إذا وجدت الأجر والثواب كبيرًا، ويجب على الدعاة أن يستخدموا أسلوب الترغيب في تحبيب الناس إلى الخير، وحثهم عليه ببيان الجزاء على الأعمال، ليكون ذلك باعثًا للنفس على الإقبال على الطاعات، وللأعضاء أن تنشط في عمل الصالحات. لهذا كان أسلوب الترغيب (من الأساليب الضرورية بالنسبة للداعية، لأن النفس البشرية قد فطرت على حب الكسب المترتب على فعل شيء ما دنيويًا كان الكسب أو أخرويًا)[1].

ثانيًا- من مهام الداعية: إرشاد الناس إلى الخير:

لا يفتأ الداعية أن يرشد الناس إلى الخير، ويحثهم عليه، ويذكرهم بثواب الله، وهذه من المهام الأساسية للدعاة إلى الله، أن يعملوا على إرشاد الناس إلى الخير قال الله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2] وقال ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾[3] وقال

(١) دعوة الرسل، د. بكر زكي عوض ص ١٤٠.

(٢) سورة الذاريات، آية: ٥٥.

(٣) سورة الأعلى، آية: ٩.

سبحانه ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ﴾[١].

وفي هذا الحديث أرشد رسول الله ﷺ إلى فضيلة الذهاب إلى المسجد والتردد عليه كما جاء في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ((... ورجلٌ قلبُه مُعَلَّقٌ في المساجد))[٢].

وهكذا حال الداعية دائمًا يفتح أبواب الخير للناس، ويبرز ثواب الله للطائعين.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل الذهاب إلى المسجد للعبادة:

لقد بيّن النبي ﷺ فضل الغدو والرواح إلى المسجد بالنُزل في الجنة مما يستحث الهمم، ويقوي العزائم على إدراك هذا الفضل.

قال ابن حجر (وظاهر الحديث حصول الفضل لمن أتى المسجد مطلقًا، لكن المقصود منه اختصاصه بمن يأتيه للعبادة، والصلاة رأسها، والثواب حاصل بكل غدوة وروحة أي ذهاب ورجوع)[٣] ولقد كان الذهاب إلى المسجد له هذا الفضل لأنه أحب البلاد إلى الله ففي الحديث ((أَحَبُّ الْبِلاَدِ إِلَىٰ الله مَسَاجِدُهَا. وَأَبْغَضُ الْبِلاَدِ إِلَى اللهِ أَسْوَاقُهَا))[٤] قال الإمام النووي: (وأحب البلاد إلى الله مساجدها لأنها بيوت الطاعات وأساسها على التقوى، وأبغض البلاد إلى الله أسواقها لأنها محل الغش والخداع والربا والأيمان الكاذبة والإعراض عن ذكر الله وغير ذلك. والمساجد محل نزول الرحمة والأسواق ضدها)[٥]، وفي فضل الذهاب إلى المسجد قال رسول الله ﷺ ((بَشِّرِ الْمَشَّائِينَ فِي الظُّلَم إِلَى الْمَسَاجِدِ بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))[٦] وخص الله أهل الإيمان بعمارة بيته فقال سبحانه ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ

---

(١) سورة الغاشية، آية: ٢١.

(٢) أخرجه البخاري ٦٦٠، ومسلم ١٠٣١.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٧٤/٢.

(٤) أخرجه مسلم ٦٧١.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٤٧٢.

(٦) أخرجه أبو داود ٥٦١، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٥٢٥).

وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾(١). فواجب الدعاة استحضار هذه النصوص وتذكير الناس بها.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل الله ورحمته بعباده:

يتضح هذا مما أعده الله تعالى لعباده المؤمنين من الأجر الكبير على الغدو والرواح إلى المسجد، وهذا من فضل الله ورحمته بالعباد فإنه يضاعف الحسنة إلى عشر أمثالها قال سبحانه: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾(٢)، ومن رحمة الله عز وجل أن جعل من كفارة الخطايا ورفع الدرجات مجرد الذهاب إلى المسجد ففي الحديث ((أَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللّه بِهِ الْخَطَايَا وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟» قَالُوا: بَلَىٰ. يَا رَسُولَ اللّهِ! قَالَ: «إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ. وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ. وَانْتِظَارُ الصَّلاَةِ بَعْدَ الصَّلاَةِ. فَذٰلِكُمُ الرِّبَاطُ))(٣). فمن الموضوعات الدعوية المهمة تذكير الناس بفضل الله ورحمته على عباده ليكون ذلك أدعى في الإقبال على العبادة.

(١) سورة التوبة، آية: ١٨.

(٢) سورة الأنعام، آية: ١٦٠.

(٣) أخرجه مسلم ٢٥١.

الحديث رقم (١٢٤)

١٢٤- الثامن: عنه قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ: «**يا نِسَاء المُسْلِماتِ لاَ تَحْقِرنَّ جارَةٌ لِجارتِهَا ولَوْ فِرْسِنَ شاةٍ**» متفقٌ عليه[١].

قال الجوهريُّ[٢]: الفِرْسِنُ مِنَ الْبعِيرِ: كالحافِرِ مِنَ الدَّابَّةِ، قال: ورُبَّمَا اسْتُعِير في الشَّاةِ.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

فِرسِن: قال الجوهري: الفِرْسِن من البعير كالحافر من الدابة. قال: وربّما اسْتُعير في الشاة[٣].

الشرح الأدبي

تتوهج كلمات هذا الحديث الشريف بإثارة قضية اجتماعية جادة لها أثرها في إذكاء روح التعاطف والتحاب والتسامح والمودة والرحمة بين أفراد المجتمع المسلم. وهذه القضية هي مراعاة حق الجار، وإشاعة ظاهرة التهادي بين الجيران؛ لأن هذا السلوك يقرب ما بين النفوس، ويَسْتلُّ السخائم من القلوب، وينزع الأحقاد من الصدور، وصلةُ الجارِ بالجارِ، قد أرساها الإسلام على قاعدة المودة فيما شرع للجوار من حقوق: فأوصى القرآن الكريم بالجار في أكثر من آية، وقرن وجوب الإحسان بالجار قريبًا أم بعيدًا بوجوب عبادته وعدم الشرك به ووجوب الإحسان للوالدين.

وكذلك أوصى رسول الله ﷺ بالجار في عدة أحاديث، فمرة ينفي الإيمان عن الذي لا يأمن جاره بوائقه، ومرة يعدّ إكرام الجار من علامات الإيمان بالله تعالى واليوم

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥٦٦)، ومسلم (٩٠/١٠٣٠) ولفظهما سواء.

(٢) الصحاح (٢١٧٧/٦، باب النون، فصل الفاء).

(٣) رياض الصالحين ١٠٠.

الآخر، ومرة يصف من يؤذي جاره بالخيبة والخسران، ومرة يعظم ويؤكد ما للجار من حرمة وحقوق فيقول: "ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه"[(١) (٢)].

والوصية بالجار في هذا الحديث الشريف يتوجه بها رسول الله ﷺ إلى النساء، وهذا التوجه له دلالته وإيحاؤه؛ لأن كثيرًا من الخلافات تطرأ بين النساء لأوهى الأسباب، ومعظم النار من مستصغر الشرر كما قال الشاعر العربي، وترغيبًا للنساء في التراحم والتواد يوصيهم الرسول بهذه الوصية التي تفتح طريقًا من طرق الخير يغفل عنه الناس، وهو قبول الهدية القليلة في مظهرها وثمنها، لأن العبرة بالنية المصاحبة للهدية، ولو كانت الهدية فِرْسِن شاة: أي أقل شيء، وهذا التعبير كناية عن القلة: وقال الجوهري -وهو من علماء اللغة الكبار- الفِرْسِن من البعير كالحافر من الدابة، وربما استعير في الشاة، وتتنوع الهدايا، وتختلف قيمتها باختلاف العصر، وتطور العادات والتقاليد التي تحكمها طبيعة البيئة ويظل التوجيه النبوي رمزًا لحسن استقبال الهدية والصدقة والعطية مهما قل شأنها، ولنتأمل بعض أسرار البيان النبوي التي يشع بها هذا الحديث الشريف في ضوء البناء اللغوي، ومن هذه الأسرار: أن الحديث يبدأ بالنداء، وحرف النداء الياء، ويرشد ذلك الأسلوب إلى أهمية القضية، وإلى تواصل دورها في نشر ثقافة المحبة والتراحم، وإلى ضرورة الإصغاء إلى ما بعد النداء، والمنادَى: النساء المسلمات... وهذا التعبير تعددت توجيهاته الإعرابية، وكذلك تعددت دلالاته حسب تقدير البنية اللغوية، فلفظ "نساء"، منصوب لأنه منادى مضاف: من إضافة الصفة إلى الموصوف: فالرسول لم يناد أيَّ نساء، ولكنه خص النساء المسلمات بهذا النداء وهى إضافة، وهى إشارة إلى أن الجارة المسلمة لها ثلاثة حقوق إذا كانت ذات رحم، ولها حقان إذا كانت غير قريبة، وقيل في الحديث بلاغة الحذف، والتقدير، يا نساء الأنفس المسلمات، ووجه بعض العلماء الحديث توجيهًا آخر، وقال المراد بالأنفس هنا الرجال: فالنساء هنا زوجات المسلمين، والدلالات كلها متقاربة، وبنية الحديث اللغوية تفصح عن

---

(١) أخرجه البخاري ٦٠١٥، ومسلم ٢٦٢٥.

(٢) انظر: التكافل الاجتماعي في الإسلام، د. عبدالعال أحمد عبدالعال ص ٦٤ - ٦٥.

تعدد هذه الدلالات التي تثرى المعنى، وتعمق الهدف، وتأتي الجملة الثانية في الحديث: في صيغة النهى.. مع التأكيد، ويجمعهما الفعل المضارع، إشارة إلى استمرار هذا السلوك، وهو عدم استقلال الهدية أو الصدقة، والنهى في الحديث موجه إلى التي تُعطِي فلا تحرم نفسها من لذة العطاء بسبب قلة المُعْطَى، فربما يكون أثره كبيرًا وجميلاً ونافعًا، وكذلك الصيغة يمكن أن تتوجه إلى من تأخذ الهدية: فلا تحقرن شيئًا يُعطى لها؛ لأن العطاء والتهادي والتصدق من سمة المؤمن، ورفض العطية ربما يؤدي إلى القطيعة، والإسلام دائمًا يحرص على تماسك بنية المجتمع الإسلامي في ضوء المودة والتراحم.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: استحباب الهدية.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: عدم احتقار شيء من المعروف.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: التوادد والتحابب بين المسلمين.

رابعًا: من أساليب الدعوة: النداء والنهي والتوكيد.

أولاً- من موضوعات الدعوة: استحباب الهدية:

للهدية تأثير إيجابي عظيم على أنماط التعامل بين الناس، خاصة إذا كانت خالصة ومجردة من الرغبة في تحصيل المنافع المادية، ولذا فإن النبي أهاب بعدم احتقار الهدية في قوله ﷺ: "لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرس شاة".

قال ابن حجر: (وفي الحديث الحض على التهادي ولو باليسير، لأن الكثير قد لا يتيسر كل وقت)[1].

وقال عبدالله البسام: (في الحديث الترغيب في فعل الخير والحث عليه وأن هذا من خلق المسلمين والمسلمات، فهم الذين ينبغي أن يتصفوا بهذه الصفة الكريمة، وفي الحديث فضل الهدية لما تحدثه في نفوس المتهادين من سلّ السخائم والعداوات وجلب المودة والمحبة)[2].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٣٥/٥، وانظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦٥٢-٦٥٣.

(٢) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله البسام ٢٧٨/٤.

وقد بيّن النبي ﷺ الحكمة من الهدية فقد روى الترمذي هذا الحديث بلفظ: ((تَهَادَوْا فَإِنَّ الْهَدِيَّةَ تُذْهِبُ وَحَرَ الصَّدْرِ، ولا تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِهَا وَلَوْ شِقَّ فِرْسِنَ شَاةٍ))[١].

وقال النبي ﷺ: ((تَهَادَوْا تَحَابُّوا))[٢].

وذلك لأن الهدية تزيل ((الحقد والضِّغن والعداوة والتوقد من الغيظ، أي: أنها تزيل العداوة وتزيد المحبة))[٣].

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يهدون إلى النبي ﷺ، قالت عائشة رضي الله عنها: إن الناس كان يتحرون بهداياهم يوم عائشة؛ يبتغون بها أو يبتغون بذلك مرضاة رسول الله ﷺ[٤].

وكان رسول الله ﷺ يقبل الهدية ويثيب عليها[٥]. قال ابن حجر: (أي يعطي الذي يهدي له بدلها، والمراد بالثواب: المجازاة وأقله ما يساوي قيمة الهدية)[٦].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: عدم احتقار شيء من المعروف:

إن الإسلام يؤكد على أهمية تعميق أواصر المودة والمحبة بين الناس، ومن مظاهر ذلك عدم احتقار شيء من المعروف كما يتضح في قوله ﷺ "ولو فرسن شاة" قال النووي: (وهذا النهي عن الاحتقار معناه: لا تمتنع جارة من الصدقة والهدية لجارتها لاستقلالها واحتقارها الموجودَ عندها، بل تجود بما تيسر وإن كان قليلاً -كفرسن شاة- وهو خير من العدم)[٧].

---

(١) أخرجه الترمذي ٢١٣٠، وضعف الألباني الزيادة التي في أوله (ضعيف سنن الترمذي ٣٧٨)، لكن قال محققو المسند: ١٤٢/١٥ بعد أن أوردوا عدة شواهد له وحكموا على هذا الحديث بهذه الزيادة بأنه حديث حسن-قالوا: ولا يخلو إسناد واحد من هذه الشواهد من ضعف.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٥٩٤ من حديث أبي هريرة وحسنه الألباني (صحيح الأدب المفرد ٤٦٢).

(٣) حاشية السندي على مسند أحمد ١٤٢/١٥.

(٤) أخرجه البخاري ٢٥٧٤، ومسلم ٢٤٤١.

(٥) أخرجه البخاري ٢٥٨٥.

(٦) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٤٩/٥.

(٧) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦٥٢ - ٦٥٣، وانظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٣٤/٥ - ٢٣٥.

وقال ابن هبيرة: (في هذا الحديث من الفقه ألا يحقر قليل المعروف، فإنه لا يحقره إلا قليل العلم، فإنه إذا نظر إلى ما يتقبل الله تعالى منه لم يسغ له احتقار شيء يتقبله الله تعالى)[١].

قال عبدالله البسام: (في الحديث أن المُهدي لا يستحقر تقديم الهدية، وإن كانت قليلة حقيرة، فالمدار على معناها، والمقصود منها أثرها المعنوي لا ذاتها ونفعها المادي فقط، لأنها مهما قلّت وتضاءلت فإنها تشعر بالمودة والإخاء، وفيه دليل على أن المعروف والعمل الصالح إذا قصد به وجه الله تعالى وقصد منه معانيه الكريمة، فإن أثره عند الله عظيم... وإذا كانت صدقة على فقر فإنها تنفع الفقير وإن قلت، وتزيد حسنات المحسن بحسب ما يصحبها من نية صالحة قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾[٢]، وجاء في الحديث أن النبي ﷺ قال: ((اتَّقوا النارَ ولو بِشقِّ تَمرةٍ))[٣])[٤].

ونستطيع أن نستخرج من القرآن الكريم الآيات، ومن السنة الأحاديث التي تحض على عدم احتقار شيء من المعروف:

فمن القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[٥].

وجاء في أسباب نزول هذه الآية ما رواه سعيد بن جبير مرسلاً قال: لما نزلت: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾[٦] كان المسلمون يرون أنهم لا يؤجرون على الشيء القليل إذا أعطوه، فيجيء المسكين إلى أبوابهم فيستقلون أن

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم ٢٧١/٦.

(٢) سورة التوبة، آية: ٧٩.

(٣) أخرجه البخاري ١٤١٧، ومسلم ١٠١٦.

(٤) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله البسام ٢٧٨/٤.

(٥) سورة الزلزلة الآيتان: ٧ - ٨.

(٦) سورة الإنسان، آية: ٨.

يعطوه التمرة والكِسرة فيردونه ويقولون: ما هذا بشيء، إنما نؤجر على ما نعطي ونحن نحبه. وكان آخرون يرون أنهم لا يلامون على الذنب اليسير: الكذبة والنظرة والغيبة وأشباه ذلك... فرغبهم في القليل من الخير أن يعملوه، فإنه يوشك أن يكثر، وحذرهم اليسير من الشر، فإنه يوشك أن يكثر(١).

أما في السنة فقد جاءت الأحاديث الكثيرة التي تحض على عدم احتقار شيء من المعروف، من ذلك قوله ﷺ: ((اتقوا النارَ ولو بشِقِّ تمرة، فإن لم يكن فبكلمةٍ طيِّبة))(٢). قال ابن حجر: (وفيه إشارة إلى ترك احتقار القليل من الصدقة وغيرها)(٣).

وقال النبي ﷺ لأبي ذر: ((لاَ تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَىٰ أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ))(٤).

قال النووي: (فيه الحث على فضل المعروف وما تيسر منه وإن قل حتى طلاقة الوجه عند اللقاء)(٥).

ومن المواقف الجلية المذكورة في السيرة التي تبين ما يفعله القليل من المعروف في النفوس ما كان من شأن كعب بن مالك رضي الله عنه عندما أُخبر بتوبة الله عليه بعد غزوة تبوك، فعندما ذهب إلى النبي ﷺ في المسجد وحوله الصحابة رضي الله عنهم قام طلحة بن عبيدالله رضي الله عنه وصافحه وهنأه فكان كعب يقول: لا أنساها لطلحة(٦).

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره كما في تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٤٦٤/٨، والدر المنثور للسيوطي ٥٨٨/١٥، وقد ساق ابن كثير إسناده وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف.

(٢) أخرجه البخاري ٦٥٤٠، ومسلم ١٠١٦.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤١٣/١١.

(٤) أخرجه مسلم ٢٦٢٦.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٦١.

(٦) أخرجه البخاري ٤٤١٨، ومسلم ٢٧٦٩.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: التوادد والتحابب بين المسلمين:

هذا يحتمله النهي في قوله ﷺ "لا تحقرن..." قال ابن حجر: (ويحتمل أن يكون من باب النهي عن الشيء أمرٌ بضده، وهو كناية عن التحابب والتوادد، فكأنه قال: لتوادد الجارة جارتها بهدية ولو حقرت، فيتساوى في ذلك الغني والفقير)(١).

كما يحتمل أن يكون النهي للمهدِية ويحتمل أن يكون للمُهدَى إليها، فلا تحتقر ما يُهْدَى إليها، قال ابن حجر: (ولا يمتنع حمله على المعنيين)(٢).

قال عبدالله البسام: "إن الهدية تذهب الحقد والعداوة بين المتعادين، وتجلب السرور والمودة في نفس المهدى إليه، فصار من فوائدها جلب المودة ورفع العداوة، وكفى بهذا فائدة، فإن هذا هو هدف الإسلام في نهجه إلى جلب الخير ومنع الشر، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾(٣)، ومحاولة سلّ السخائم والعداوات بين الناس لا سيما بين الأصدقاء والأقرباء هذا خلق سام كريم، وهو صعب على النفوس، لا يوفق له إلا أصحاب النفوس العالية، والقلوب الكريمة الطيبة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾(٤)(٥).

فالحديث يحضّ على التوادد والتحابب بين المسلمين عن طريق الهدية ولو كانت يسيرة، وقد جاءت آيات وأحاديث تحث على نشر هذه الصفة بين المسلمين، من ذلك قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾(٦) قال البغوي:

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٥٩/١٠.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٥٩/١٠ وانظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦٥٢-٦٥٣، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٣٥/٥.

(٣) سورة الحجرات، آية: ١٠.

(٤) سورة فصلت، الآيتان: ٣٤ - ٣٤.

(٥) توضح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله البسام ٢٧٦/٤ - ٢٧٧.

(٦) سورة الفتح، آية: ٢٩.

(متعاطفون متوادون بعضهم لبعض، كالولد مع الوالد)[1].

ومن الأحاديث: قال النبي ﷺ: ((تَرى المؤمنينَ في تراحُمِهم وتوادِّهم وتَعاطفِهم كمثَل الجسَدِ إذا اشتكى عُضو تَداعى له سائرُ جسَدِه بالسّهَرِ والحُمّى))[2] قال ابن حجر: (التوادد تفاعل من المودة، والود والوداد بمعنًى، وهو تقرب شخص من آخر بما يحب)[3] (كالتزاور والتهادي)[4]. لذا كان من أولى الصفات التي يحاول الداعية أن يغرسها في نفوس المدعوين التوادد والتعاطف والتحابب بينهم[5].

رابعًا- من أساليب الدعوة: النداء والنهي والتوكيد:

لقد استخدم النبي ﷺ أسلوب النداء "يا نساء المسلمات" لينبه على أهمية ما يكون بعد هذا النداء، ثم استخدم ﷺ النهي "لا تحقرن..." مع توكيده بالنون، ليدل على خطورة هذا النهي، ومن ثمّ يسارع المخاطبون بتجنبه والابتعاد عنه والعمل بضدّه.

---

(١) معالم التنزيل "تفسير البغوي" ٧/٣٢٣-٣٢٤، وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٨/١٦/٢٩٢-٢٩٣.

(٢) أخرجه البخاري ٦٠١١، ومسلم ٢٥٨٦.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠/٤٥٣.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠/٤٥٤ وانظر بهجة النفوس "شرح مختصر البخاري"، عبدالله بن أبي جمرة الأندلسي٢/٤/١٥٧-١٥٨.

(٥) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن ملوح ٤/١٣٤٣-١٣٥١.

الحديث رقم (١٢٥)

١٢٥- التاسع: عنه عن النبي ﷺ قال: «**الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسبْعُونَ، أوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شعْبَةً: فَأفْضلُهَا قوْلُ لاَ إلَهَ إلاَّ اللَّهُ، وَأدْنَاهَا إمَاطَةُ الأذَى عنِ الطَّرِيقِ، وَالحيَاءُ شُعْبةٌ مِنَ الإِيمانِ**» متفقٌ عليه[١].

«البضْعُ» من ثلاثة إلى تسعةٍ، بكسر الباءِ وقد تفْتَحُ. «والشُّعْبةُ»: القطْعة.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

بضع: البضع من ثلاثة إلى تسعة بكسر الباء وقد تفتح[٢].

الشعبة: القطعة[٣].

إماطة الأذى: أي تنحيته وإبعاده وإزالته[٤].

الشرح الأدبي

إن خُلق الحياء في الإسلام من أرقى الصفات التي ينطوي عليها سلوك المسلم في أقواله وأعماله، والمصطفى ﷺ في هذا الحديث الشريف يرغب المسلمين في التمسك بخلق الحياء، وهذا الترغيب يبزغ في التصوير البياني الجميل الذي يشدنا إلى تأمل دلالات هذا الحديث الشريف، حيث: يشبه الرسول ﷺ الإيمان الكامل بشجرة ذات أغصان وثمار، والتصديق يمثل جذرها الثابت وجذعها الراسخ، ولما كانت الشجرة لا

---

(١) أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥/٥٨) واللفظ له. أورده المنذري في ترغيبه (٤٣٧١). وسيكرره المؤلف برقم (٦٨٨).

(٢) رياض الصالحين ١٠٠. وفيه أقوال أخرى ينظر المفصح المفهم لمعاني صحيح مسلم، ابن هبيرة ص ٥٠.

(٣) رياض الصالحين ١٠٠.

(٤) ينظر المفصح المفهم لمعاني صحيح مسلم، ابن هبيرة ٢٢٨، ٢٢٩ وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٣٦/٥.

قيمة لها ولا ثمرة إلا بفروعها، فالإيمان كذلك لا يؤتي ثماره ولا ينجي من النار إلا إذا اتبعت الأوامر، واجتنبت النواهي، ويرغبنا الرسول ﷺ بصفة خاصة في شعبة من شعب الإيمان قد نغفل عنها أو تدفعنا الطبيعة البشرية إلى إهمالها، وهى الحياء أصل الفضيلة والباعث عليها، ولذا قال النبي ﷺ: "الحياء لا يأتي إلا بخير"، وأفضل شعب الإيمان قول لا إله إلا الله، وهى شهادة التوحيد لأنها القاعدة الأساسية للإيمان.

ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف وأول ما يلفت قارئ هذا الحديث عُنْصر التصوير في هذا الحديث؛ حيث يشبه الرسول ﷺ الإيمان بالشجرة الطيبة ذات الشُّعَب والأغصان المتعددة وهي شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء: تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

وحين نتأمل دلالات الألفاظ في الحديث الشريف ندرك أنها قليلة في مبناها كثيرة في معناها، وأنها تدرج هذا الحديث الشريف في جوامع كلمه ﷺ.

فتحديد العدد بقوله: "بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة"، المراد به التكثير والمبالغة، لأن المراد هو تكميل النفس بصلاح المعاش المؤدي إلى تحسين المعاد كما قال صاحب دليل الفالحين.

ومما يدل على عدم التحديد لفظ "البضع" لأنه غير محدد في ضوء تعريف العلماء له: فالبِضْع كما قال الزجاج: بكسر الباء، وقيل: بفتحها هو: القطعة من العدد المبهم المقيد بما بين الثلاث إلى التسع، وقال الفراء: هو خاص بالعشرة إلى التسعين، وكلمة "شعبة" تشع بأضواء الدلالات المتعددة، وفي ضوء تفسير العلماء وتأويلهم ومحاولة حصرهم لشعب الإيمان تكمن قيمة الإيجاز في الحديث النبوي.

وقال ابن حبان: عددت كل طاعة عدها الله تعالى في كتابه والنبي ﷺ في سنته: فإذا هي تسع وسبعون لا تزيد ولا تنقص، وهذا التحديد بعيد عن الواقع، لأن شعب الإيمان لا تتناهى في تفاصيلها وفروعها فالشعبة ليست خصلة واحدة ولكنها تضم خلالاً وخصالاً كثيرة.

وبعض العلماء حاول تحديدها تفصيلاً فقال وهو يُؤوِّل الشعبة بالخصلة، قال: وقد

رأيتها - أي هذه الشعب- تتفرع عن أعمال القلب وأعمال اللسان وأعمال البدن، فأعمال القلب: المعتقدات والنيات تشتمل على أربعة وعشرين خصلة، وأعمال اللسان تشتمل على سبع خصال، وأعمال البدن تشتمل على ثمان وثلاثين خصلة، منها ما يختص بالأعيان وهي خمس عشرة[1]، ومنها ما يتعلق بالاتباع وهي ست خصال، ومنها ما يتعلق بالعامة وهي سبع عشرة، وهذا الإحصاء ليس هو المراد الحقيقي ولكنه اجتهاد، والأولى عدم التحديد لأن الحديث جاء التعبير فيه بلفظ الشعبة.

والحياء: شعبة من الإيمان، ولنتساءل لم خص الرسول ﷺ الحياء بالذكر بعد أن حدد أفضل الشعب وهي : قول: لا إله إلا الله، ثم حدد أدناها أي أقربها إلى سلوك الناس إماطة الأذى عن الطريق؟

إن التحديد هنا ينبئ عن أهمية الحياء في استكمال معالم شخصية المسلم، فهو خلق يلازمه في كل حركاته وسكناته، والدلالة اللغوية والشرعية للحياء تضيئان هذه القيمة، وتجليان هذا السلوك القويم، فالحياء في اللغة: تَغَيُّر وانكسار يعتري الإنسان من خوف ما يعاب به ويذم عليه، أو انحصار النفس من خوف ارتكاب القبائح، وخلق المسلم يأبى التبجح والمجاهرة بالمعاصي، وتعمد إيذاء الآخرين، وهذا المدلول اللغوي الذي يتطابق مع السلوك الإنساني والإسلامي تعضده الدلالة الشرعية، فالحياء في منظور الشرع، خلق يبعث على اجتناب القبيح ويمنع من التقصير في حق ذوي الحقوق.

وأهمية الحياء تكمن في دوره المؤثر في توجيه سلوك الجماعة المؤمنة: حيث يؤدي إلى المحاسبة الذاتية، واحترام مشاعر الغير، في ظل خشية الله تعالى، ومراقبته في السر والعلن.

وحتى لا يختلط الحياء بالضعف والسكوت عن الحق، قسم العلماء الحياء إلى نوعين: **أحدهما**: ما كان خلقًا وجبلة غير مكتسب وهو من أَجَلِّ الأخلاق التي يمنحها الله تعالى العبد ويجبله عليها، ولهذا قال ﷺ: ((الحياء لا يأتي إلا بخير))[2].

---

(١) انظر: تفصيل ذلك في كتاب دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٣٠٨/١.

(٢) أخرجه مسلم ٣٧.

والنوع الثاني: ما كان مكتسبًا من معرفة الله تعالى ومعرفة عظمته وقربه من عباده واطلاعه عليهم، وعلمه بخائنة الأعين وما تخفي الصدور، -وهذا كما قال العلماء- من أعلى خصال الإيمان، بل هو من أعلى درجات الإحسان، وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه الاستحياء من الله أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، وأن تذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله[1].

وفي ضوء هذا المفهوم المتسع الدلالة للحياء في ضوء الشرع، وفي ضوء صحيح الأحاديث: يزول كل لبس في تصرف بعض الناس حيث لا يقدمون على قول الحق، ولا يعترضون على المنكر، ولا يغضبون لانتهاك حرمات الله تعالى، ولا يَهِبّون للدفاع عن كرامتهم إذا ما استبيحت أموالهم أو أعراضهم.

فهذا كله ليس من الحياء في شيء، فالحياء في مفهومه الشرعي: خلق يبعث على اجتناب القبيح، ويمنع من التقصير في حق ذوي الحقوق، أما الحياء الذي يمنع من قول الحق، أو الذي يؤدي إلى التقصير في حق ذوي الحقوق، أو إلى ضياع المستحقات والتفريط في ثوابت الأمة، ومعالم عقيدتها: فذلك عجز ومهانة، وضعف واستكانة، والمؤمن ليس عاجزًا، ولا مهينًا، ولا ضعيفًا ولا مستكينًا، ولكنه يتباهى بعزته، ويسمو بكرامته، ويحتمي بعقيدته، ويعلن في ثبات ويقين عن قوته، والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف.

وقيل: إن الحياء الممدوح في كلام النبي صلى الله عليه وسلم إنما يريد به الخلق الذي يحث على فعل الجميل، وترك القبيح، فأما الضعف والعجز الذي يوجب التقصير في شيء من حقوق الله تعالى أو حقوق عباده: فليس هو من الحياء، وإنما هو ضعف وخور وعجز، وأرفع الحياء من الله تعالى - كما قال بعض العلماء- هو: أن لا يراك حيث نهاك، فاللهم هب لنا حياء الصالحين الأقوياء، وانفعنا بما علمتنا، وعلمنا بما ينفعنا، وزدنا علمًا.

---

(١) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١٧٥.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: تعدد شعب الإيمان.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل الحياء.

ثالثًا: من أهداف الدعوة الإسلامية: تعبيد العباد لله رب العالمين.

رابعًا: من أساليب الدعوة: التفصيل بعد الإجمال.

أولاً- من موضوعات الدعوة: تعدد شعب الإيمان:

الإيمان اعتقاد بالقلب ونطق باللسان وعمل بالأركان[(١)]، وشعب الإيمان خصاله وأجزاؤه[(٢)]. قال النووي: (وقد نبّه ﷺ على أن أفضلها التوحيد المتعين على كل أحد، والذي لا يصح شيء من الشعب إلا بعد صحته وأدناها ما يتوقع ضرره من إماطة الأذى عن طريقهم)[(٣)] وقال ابن حجر: (هذه الشعب تتفرع عن أعمال القلب وأعمال اللسان وأعمال البدن: فأعمال القلب فهي المعتقدات والنيات، وتشتمل على أربع وعشرين خصلة: الإيمان بالله، ويدخل فيه الإيمان بذاته وصفاته وتوحيده، بأنه ليس كمثله شيء، واعتقاد حدوث ما دونه، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشره والإيمان باليوم الآخر... وأعمال اللسان وتشتمل على سبع خصال: التلفظ بالتوحيد وتلاوة القرآن وتعلم العلم... وأعمال البدن وتشتمل على ثمان وثلاثين خصلة، ومنها ما يختص بالأعيان، وهي خمس عشرة خصلة: التطهير حسًا وحكمًا... ومنها ما يتعلق بالاتباع وهي ست خصال: التعفف بالنكاح والقيام بحقوق العيال وبرّ الوالدين... ومنها ما يتعلق بالعامة وهي سبع عشرة خصلة: القيام بالإمرة مع العدل...).

ثم قال: (فهذه تسعٌ وستون خصلة ويمكن عدُّها تسعًا وسبعين خصلة باعتبار أفراد ما ضم بعضه إلى بعض مما ذكر)[(٤)].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦٨/١.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٦، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦٧/١.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٧.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦٨/١-٦٩، وانظر: صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ٣٨٥/١-٣٨٩ وما بعدها. والإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم ٢٥٣/٦ - ٢٦٤.

وقال ابن هبيرة عن خصال الإيمان: "إنها جميعها إنما تتشعب عن الإيمان الذي هو التصديق، فهو على نحو عين تتشعب عنها شعب، يكون انبعاث كل شعبة عنها، فهي تمده وتبعثه وهو يدل عليها ويفصح عنها، وذلك كله دليل قاطع على أن الإيمان قول وعمل ونية"[(١)].

ثم ذكرها ثم قال: "ذكر رسول الله ﷺ هذه الخصال كلها ليحرض المؤمن على جمعها، إلا أنه بحمد الله ليس فيها شيء من الترهبن ولا الابتداع في الأقوال والأحوال، فمن أراد الله به خيرًا جمعها له، أو جمع له منها حسب حاله"[(٢)].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل الحياء:

إن الحياء والإيمان قرناء لا ينفك أحدهما عن الآخر، قال ﷺ ((الإيمان والحياء قرناء فإذا رفع أحدهما رفع الآخر))[(٣)] والحياء لا يأتي إلا بخير ولا يستغني المؤمن عن الحياء في كافة أحواله، وما يدل على فضل الحياء أنه شعبة من شعب الإيمان، كما في قوله ﷺ: "والحياء شعبة من الإيمان".

وقد خاطب النبي ﷺ أصحابه فقال: ((اسْتَحْيُوا مِنْ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ ». قال: قُلْنَا: يَا نَبِيَّ لله إنَّا لَنَسْتَحْيِي وَالحمدُ لله، قَالَ: «لَيْسَ ذَاكَ وَلَكِنْ الاسْتِحْيَاءَ مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى وَتَحْفَظَ البَطْنَ وَمَا حَوَى، وَتَتَذَكَّرَ الْمَوْتَ وَالبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيَى يَعْنِي مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ))[(٤)].

قال النووي: (حقيقة الحياء خلق يبعث على ترك القبيح ويمنع من التقصير في حق ذي الحق ونحو هذا)[(٥)].

ولذا قال النبي ﷺ: ((الْحَيَاءُ لاَ يَأْتِي إِلاَّ بِخَيْرٍ))[(٦)] وفي رواية لمسلم: "الحياء خير

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم ٣٥٤/٦.

(٢) المرجع السابق ٤٠٦/٦.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢٢/١ وصححه كما صحّحه الألباني في صحيح الترغيب ٢٦٣٦.

(٤) أخرجه الترمذي ٢٤٥٨، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٠٠٠).

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٧ وانظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٩٤/١، ٥٣٩/١٠.

(٦) أخرجه البخاري ٦١١٧، ومسلم ٣٧.

كله" أو قال ((الْحَيَاءُ كُلُّهُ خَيْرٌ))[١].

كما أن الحياء خصلة تزين صاحبها وتجمل عمله، قال النبي ﷺ ((ما كَانَ الفُحْشُ فِي شَيْءٍ إِلاَّ شَانَهُ، وَمَا كَانَ الْحَيَاءُ فِي شَيْءٍ إلا زَانَهُ))[٢].

قال ابن هبيرة: (لما كان الحياءُ ناشئًا عن عقل، عرف قبح القبيح الذي قبحه الشرع، فاستحيا من إتيانه، وكان المؤمن قد جبله الله على الحياء من حيث إنه سبحانه وتعالى استنفد وسع العبد بالحياء من تواتر فضل الله في الطاعة، أضعاف ما يستنفد به وسع أهل القحة[٣]، بالسياط، فجبلهم على الحياء لأنه سبحانه وتعالى ترك[٤] سياط سوق عباده إليه استحياءهم منه، فكان هذا من أركان الإيمان)[٥].

ومن المواقف التي تدل على الحياء ما وقع من أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما، قالت: ((وكنتُ أنقل النَّوَى من أرض الزُّبير التي أقطَعَهُ رسولُ الله ﷺ -على رأسي- وهي مني على ثُلثَي فَرسَخ[٦]: فجِئتُ يومًا والنَّوَى على رأسي، فلقيتُ رسولَ الله ﷺ ومعهُ نَفَرٌ من الأنصار، فدَعاني، ثم قال: إخْ إخ[٧]، ليحمِلَني خَلفَه، فاستحيَيتُ أن أسيرَ مَعَ الرِّجال، وذكرتُ الزُّبيرَ وغَيرَتَه. وكان أغيَرَ الناس. فَعَرَفَ رسولُ اللّهِ ﷺ أني قد استحييتُ، فمضى))[٨].

(١) أخرجه مسلم ٦١.

(٢) أخرجه الترمذي ١٩٧٤ وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٦٠٧).

(٣) جاء في القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ٢٣٥: القح: الخالص من اللؤم والكرم، والجافي من الناس وغيرهم، والمقصود: أهل الجفاء المبارزين بالمعاصي الذين لا حياء عندهم.

(٤) هكذا في المطبوع والغالب على الظنّ أن هناك سقطًا أو تحريفًا، ويمكن أن تستقيم العبارة بأن نضع مكان كلمة "ترك" كلمة "جعل"، والله أعلم.

(٥) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم ٣٩٥/٦.

(٦) الفرسخ مقياس من مقاييس المسافات مقداره ثلاثة أميال، ويساوي نحو خمسة كيلومترات ونصف. انظر: معجم لغة الفقهاء ٣١١، والوسيط ٦٨١.

(٧) إخ إخ: بكسر الهمزة وسكون الخاء كلمة تقال للبعير لمن أراد أن ينيخه، فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٣٤/٩.

(٨) أخرجه البخاري ٥٢٢٤، ومسلم ٢١٨٢.

ولفضل الحياء كان من الموضوعات الجديرة بمعالجة الداعية وتوجيه المدعوين إلى التحلي بها[١].

ثالثًا- من أهداف الدعوة: تعبيد العباد لله رب العالمين:

من الأهداف الأصلية للدعوة الإسلامية: تعبيد العباد لرب العالمين، وجعل تلك العبودية خالصة لله تعالى، ومن الشواهد على ذلك في الحديث قوله ﷺ: "الإيمان بضع وسبعون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله..." قال النووي: (وقد نبّه ﷺ على أن أفضلها التوحيد المتعين على كل أحد، والذي لا يصح شيء من الشعب إلا بعد صحته)[٢].

"لذا فإن الإيمان بالله عز وجل هو أهم أصول الإيمان، وأعظمها شأنًا، وأعلاها قدرًا، بل هو أصل أصول الإيمان، وأساس بنائه، وقوام أمره، وبقية الأصول متفرعة منه، راجعة إليه، مبنية عليه، والإيمان بالله عز وجل هو الإيمان بوحدانيته سبحانه في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، فهذه أصول ثلاثة يقوم عليها الإيمان بالله، بل إن الدين الإسلامي الحنيف إنما سمي توحيدًا، لأن مبناه على أن الله واحد في ملكه وأفعاله لا شريك له، وواحد في ذاته وأسمائه وصفاته لا نظير له، وواحد في ألوهيته وعبادته لا ندّ له"[٣].

وقد جاءت نصوص كثيرة من القرآن والسنة تدل على أن الهدف الأول للدعوة الإسلامية هو تعبيد العباد لله رب العالمين وإفرادهم إياه بالعبادة.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٤] فهذه هي (الغاية التي خلق الله الجن والإنس لها وبعث جميع الرسل يدعون إليها، وهي عبادته المتضمنة لمعرفته ومحبته والإنابة إليه والإقبال عليه، والإعراض عما سواه)[٥].

---

(١) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن ملوح ١٧٩٥/٥ - ١٨١٤.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٦.

(٣) أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، إعداد نخبة من العلماء ٩.

(٤) سورة الذاريات، آية: ٥٦.

(٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٧٥٥.

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾[١]. وبعث رسول الله ﷺ إلى هرقل ملك الروم كتابًا فيه ((أمّا بعدُ فإنّي أدْعُوكَ بدِعايةِ الإسْلام، أسْلِمْ تَسْلَمْ، يُؤتِكَ اللّهُ أَجْرَكَ مَرَّتين. فإنْ تَوَلَّيْتَ فإنَّ عليكَ إثمَ الأرِيسيِّين ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾[٢]... الحديث بطوله[٣] وفيه قول أبي سفيان جوابًا عن سؤال هرقل: ماذا يأمركم؟ قال: يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئًا واتركوا ما يقول آباؤكم...)).

وقد تمثل الصحابي رِبْعي بن عامر هذا الهدف خير تمثيل عندما أجاب رستم قائد الفرس في موقعة القادسية (١٤هـ) عندما سأله: ما جاء بكم؟ فأجابه ربعي فقال له: (الله ابتعثنا والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام)[٤].

رابعًا- من أساليب الدعوة: التفصيل بعد الإجمال:

لقد أجمل النبي ﷺ شعب الإيمان "بضع وسبعون شعبة" ثم فصل بعضها، فذكر أفضلها وأدناها وما هو منها "الحياء". ولا شك أن هذا الإجمال يشدّ المدعو ويجذب انتباهه لذكر التفصيل، فيعي ما يقال ويفهمه ويُدْركه.

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ٢٥.

(٢) سورة آل عمران، آية: ٦٤.

(٣) أخرجه البخاري ٧، ومسلم ١٧٧٣.

(٤) تاريخ الأمم والملوك، محمد بن جرير الطبري، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم ٣/٥٢٠، والبداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٩/٦٢٢، وانظر: حياة الصحابة، محمد يوسف الكاندهلوي، تحقيق: نايف العباس، ود. محمد علي دولة ٣١ - ١٢٦.

الحديث رقم (١٢٦)

١٢٦- العاشر: عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بطَريقٍ، اشْتَدَّ علَيْهِ الْعَطَشُ، فَوجد بِئرًا فَنَزَلَ فيها فَشَرِبَ، ثُمَّ خرج فإذا كلْبٌ يلهثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ، فقال الرَّجُلُ: لَقَدْ بلَغَ هَذَا الْكَلْبُ مِنَ العطش مِثْلَ الَّذِي كَانَ قَدْ[1] بَلَغَ مِنِّي، فَنَزَلَ الْبِئْرَ فملأَ خُفَّه مَاءً ثُمَّ أَمْسَكه بِفيهِ، حتَّى رقِيَ فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ له فَغَفَرَ لَه». قَالُوا: يا رسولَ اللَّه إِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِم أَجْرًا[2]؟ فَقَالَ: «فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ» متفقٌ عليه[3].

وفي رواية للبخاري[4]: «فَشَكَر اللَّه لهُ فَغَفَرَ لَه، فَأَدْخَلَه الْجنَّةَ».

وفي رواية لَهُما[5]: «بَيْنَما كَلْبٌ يُطيف بركِيَّةٍ قَدْ كَادَ يقْتُلُه الْعطَشُ إِذْ رَأَتْه بغِيٌّ مِنْ بَغَايا بَنِي إِسْرَائيلَ، فَنَزَعَتْ مُوقَهَا فاسْتَقت لَهُ بِهِ، فَسَقَتْهُ فَغُفِر لَهَا بِهِ».

«الْمُوقُ»: الْخُفُّ. «وَيُطِيفُ»: يَدُورُ حَوْلَ «رَكِيَّةٍ» وَهِيَ الْبِئْرُ.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

كلب يلهث: أي أخرج لسانه من حرٍّ أو عطش[6].

الثرى: التراب الندي[7].

---

(١) (قد) لا توجد عند مسلم.

(٢) لفظ مسلم: (هذه البهائم لأجرًا).

(٣) أخرجه البخاري (٢٣٦٣)، ومسلم (٢٢٤٤/١٥٣) واللفظ له. أورده المنذري في ترغيبه (١٤٠٧).

(٤) برقم (١٧٣).

(٥) أخرجه البخاري (٣٤٦٧)، ومسلم (٢٢٤٥/١٥٥) ولفظهما سواء.

(٦) الوسيط ٨٤١.

(٧) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ث ر ى).

فيه: فمه[١].

رقى: صعد. يقال رقى في السُّلم: صعد فيه[٢].

كبد رطبة: أي كل كبد حيَّة والمراد: رطوبة الحياة، أو لأن الرطوبة لازمة للحياة فهو كناية[٣].

يطيف بركية: يُطيفُ: يَدُورُ حَوْلَ "رَكيَّة" وهي البئر[٤].

بغي: البغي: الفاجرة تتكسب بفجورها[٥].

مُوقها: الموق: الخف[٦].

الشرح الأدبي

إن طرق الخير تتعدد المسالك إليها، وتتجاوز الاهتمام بالإنسان إلى الرأفة بالحيوان، والمحافظة على النبات، وحسن إقامة البنيان، والحفاظ على جمال العمران.

ونقتبس من هذا النص النبوي الكريم مشهدًا من مشاهد العطف والرحمة التي يتسم بها الخلق الإسلامي في تعامله مع الكائنات الأخرى، وكائنات الطبيعة بصفة عامة لأنها من مظاهر قدرة الله عز وجل، والطبيعة كتاب مفتوح نقرأ فيه أسرار الكون، ونستشف منه جمال الحياة، وهي في منظور التصور الإسلامي مسرح التأملات، ومصدر الجمال الكوني، وترجمان القدرة الإلهية، ومنبع السعادة الإنسانية، وللطبيعة الكونية والحية حظ كبير من التقدير والتوجيه الإلهي في سر جمال هذا الكون[٧].

---

(١) القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ١٢٥١.

(٢) الوسيط في (ر ق ي).

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني (٥/٥١).

(٤) رياض الصالحين ١٠١.

(٥) الوسيط في (ب غ ي).

(٦) رياض الصالحين ١٠٠-١٠١.

(٧) انظر: الأدب الإسلامي بين النظرية والتطبيق، د. صابر عبدالدايم.

وحين نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف. نجد أنه صيغ في قالب القصة الواقعية.

ويعرضها المصطفى ﷺ في صورة حكاية قصيرة هادفة تدعو للدهشة والتأمل والموعظة، والرحمة، وفي هذا الحديث -كما قال العلماء- الحض على الإحسان إلى الحيوان المحترم، وهو مالا يؤمر بقتله فيحصل بسقيه والإحسان إليه الأجر سواء كان حرًا أو مملوكًا له أو لغيره، وقيل إن أصل الحديث مبني على إظهار الشفقة لمخلوقات الله تعالى من الحيوانات، وإظهار الشفقة لا ينافي إباحة قتل المؤذي فيسقى ثم يُقْتل، وذلك في ضوء الرأي القائل بأن الإسلام أمر بقتل الكلاب، وكيف تقدم هذه القصة نموذجًا للشفقة بالحيوان، والحيوان فيها هو الكلب؟ وقيل: إن الرجل كان من بني إسرائيل، فهي قصة من وقائع تاريخ الأمم السابقة، ولم يحدد اسم الرجل، ولا مكانه، ولا زمانه، لأن العبرة بالدرس المستفاد من هذه القصة وهو ترسيخ جانب الرحمة والعطف على الحيوان، وكل ما في الكون من كائنات، لأنهم أمم أمثالنا، كما يقول الله عز وجل: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾[1].

وتتكون هذه القصة من ثلاثة مشاهد متناسقة ومتكاملة: المشهد الأول يصور حالة ذلك الرجل ماشيًا في الطريق، ولم يحدد الطريق ولكنه جاء نكرة، بطريق حتى يظل رمزًا لكل حالة مماثلة، ويشتد على الرجل العطش، ويكاد يقتله الظمأ، ولكن الله سبحانه وتعالى يأتيه بالفرج حيث يجد بئرًا، فينزل يشرب منها، ثم يخرج.

وفي توالي العطف بالفاء في هذا الحديث دلالة على سرعة الحركة، وعلى شدة اللهفة، وعلى سرعة توالي الأحداث، والمشهد الثاني يأتي مفاجئًا، وإذا الفجائية، تقدم هذه المفاجأة المذهلة التي تدعو للموازنة والمقارنة لدى النفس المؤمنة الرحيمة، والمفاجأة تبدو في مشاهدة هذا الرجل لكلب يلهث يأكل الثرى من العطش، وعدم العطف بين

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٣٨.

الفعلين يلهث ويأكل، لأنهما وصفان للكلب، واللهاث وأكل الثرى المبلل إطفاءً للظمأ كانا في وقت واحد، فإلغاء العطف يصور حالة الكلب في لهاثه وأكله الثرى، ودلالة الفعل، "يلهث" تصور حالة الكلب وحركته التي تدل على شدة معاناته من الظمأ، فالفعل "يلهث" يفيد في بعض معانيه، أن الكلب يرتفع نَفَسُه وينخفض بين أضلاعه أو يخرج لسانه، وله دلالة حركية أخرى وهى أنه مع هذا اللهاث يبحث بيديه ورجليه في الأرض، وجملة يأكل الثرى، تؤكد مدى المعاناة التي يشعر به ذلك الحيوان، فالجملة إما وصف ثانٍ للكلب، أو حال من ضميره العائد عليه، فاعل يلهث، أو الجملة تصور حال الكلب: لأنه رغم أنه نكرة، ولكنه تخصص بالوصف، وهذه التأويلات الدلالية تنبع من ثراء لغة الحديث، وهى لغة صاحب البلاغة الإنسانية التي سجدت الأفكار لآيتها، وحسرت العقول دون غايتها.

وتكملة المشهد الثاني تتم في صورة حوار داخلي، وحديث نفسي حيث يوازن الرجل بين حالته السابقة وحال ذلك الكلب، فيقول مؤكدًا مِثْلية الحالة، وفي الوقت نفسه يؤكد استحضار الشعور بالشفقة والرحمة "لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان قد بلغ مني"، والعبارة محصنة بالظواهر الأسلوبية التي تستدعي الرحمة والشفقة، ومنها التأكيد باللام وقد، واللام تشعر بالقسم، واسم الإشارة هذا يفيد التحديد، واهتمام الرجل بهذا الحيوان، والتصريح بلفظ الكلب في هذه الرواية مع اسم الإشارة يزيد الأمر تحديدًا، وفي رواية أخرى يحذف لفظ الكلب اكتفاء باسم الإشارة، لأنه يحدد المراد حيث لا لبس ولا غموض، لأن اسم الإشارة كالضمير يعود على أقرب مذكور، والتعبير بهذا وهو للقريب، ولم يعبر بذلك، إيحاء بالقرب والاهتمام، وأن حالة الكلب قريبة من حال ذلك الرجل وقت عطشه، والتصريح باسم الموصول "الذي" ينبئ عن تماثل الحالة، وذلك يستدعي شدة الإحساس بما يمر به ذلك الحيوان الأعجم وهو الكلب، ويكتمل المشهد اكتمالاً حركيًا عمليًا، وتحذف بعض تفاصيل المشهد حيث لم يذكر الحديث أن الرجل بعد ما خرج نزل مرة أخرى، ولكنه قال: "فملأ خفه ثم أمسكه بفيه ثم رقى فسقى الكلب".

والفاء في قوله: "فملأ" تنبئ عن سرعة الرجل ولهفته لإنقاذ ذلك الحيوان، ولكن بعد أن ملأ خفه.. يحتاج إلى الصعود من البئر.. مع الحفاظ على الخف وبداخله الماء، والأمر يحتاج إلى جهد، ولذلك جاء التعبير "بثم" في قوله: "ثم أمسكه بفيه... ثم رقى"، ودلالة "ثم" وهى تفصح عن حالة البطء قليلاً والتراخي حسب السياق، ومطابقة لمقتضى الحال ولنتصور الرجل صاعدًا من البئر، وهو يتسلق الحجارة، ويخاف أن يسقط منه خفه، ويداه مشغولتان بالإمساك بالصخور في حالة الصعود، ولذلك قال المصطفى ﷺ: "ثم رقى" بفتح الراء وكسر القاف أي صعد: فأي جهد بذله الرجل، وأي مشقة تحمل! وأي شعور قاده إلى ذلك المسلك! إنه الشعور الإيماني الذي يعمقه رسول الله ﷺ في نفوس أصحابه، وفي نفوس المسلمين جميعًا تجاه الحيوان رفقًا ورحمة ورأفة، وعقب الصعود مباشرة: تأتي الفاء عاطفة في قوله: "فسقى الكلب" حيث لم يتوان، ولم يتأخر، والجزاء من الحق سبحانه وتعالى كان سريعًا ومضاعفًا: ويتضوأ ذلك الثواب في أجمل مكافأة من الحق سبحانه وتعالى، وهى الشكر والغفران، حيث يقول الحبيب المصطفى ﷺ: "فشكر الله له"، فغفر له، فأدخله الله الجنة، ولنتأمل توالي الجمل في إيقاع سريع، وترتيب بديع، والعطف بالفاء. يفصح عن هذه السرعة، والأفعال الماضية في صيغتها، المستقبلية في حكمها مع ذلك الترتيب يفصحان عن خاصية التنسيق والتنظيم، وتكاتف المبني مع المعنى في أسلوب الحديث النبوي الشريف، فشكر الله للعبد ثمرته والمغفرة ثمرتها الجنة.

والمشهد من القصة يفصح عن الدرس الذي نتعلمه من هذا الحديث الشريف، وهو محاورة بين النبي ﷺ وأصحابه، ولم يحدد الحديث هؤلاء الذين سألوه، لأن القضية عامة شاملة، والدرس موجه إلى كل مسلم يحرص على المنهج الإسلامي، ويتساءل هؤلاء الذين سمعوا القصة ابتغاء التعلم والإفادة: "وإن لنا في البهائم أجرًا"، والاستفهام محذوف، ويعلن عنه السياق والنطق، ولم يأت السؤال عن الكلب وإنما عن البهائم، إشارة إلى العطف والرأفة بالحيوان بصفة عامة، وتجئ إجابة المصطفى ﷺ أكثر عمومًا وشمولاً فيقول: "في كل كبد رطبه أجر" وذلك كناية عن الحياة، وعن ضرورة العطف على كل أنواع الكائنات لأنها من خلق الله تعالى، وهو الخلاق العليم.

المضامين الدعوية

أولاً: من فقه المدعو: الاتعاظ وأخذ الحكمة مما يمرّ به من شدائد.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل الرفق بالحيوان.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل الله على عباده الرحماء.

رابعًا: من واجبات المدعو: السؤال عما خفي.

خامسًا: من وسائل الدعوة: القصة.

سادسًا: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

أولاً- من فقه المدعو: الاتعاظ وأخذ الحكمة مما يمرّ به من شدائد:

لقد أحس الرجل بالعطش وشدته فسعى في إزالته بأن شرب من البئر، ولما رأى كلبًا قد أصابه الجهد والتعب من شدة العطش، وظهر ذلك عليه واضحًا وذلك بأن أخرج لسانه وأصبح يأكل التراب الذي أصابه الندى، لما رأى ذلك عرف مقدار ما أصاب الكلب من شدةٍ، لأنه قد أصيب بمثلها، فسعى بكل جهده أن يزيل عطش الكلب فنزل البئر وملأ خفه ماءً ثم صعد وقدمه إلى الكلب. وهكذا اتعظ هذا الرجل بما أصابه وأثمر ذلك في تصرفاته وأفعاله، فأفاد نفسه وأفاد غيره ورضي عنه ربُّه.

قال ابن هبيرة: (في هذا الحديث من الفقه: اعتراض الشدائد للإنسان في أوقاته، وهي وإن كانت شدة في وقتها، فإنها سيقلبها الله نعمة في وقت آخر، فإن ذلك الإنسان لما اشتد به العطش ذكر به غيره، فعرفه مبلغ الظمأ من الظمآن، فأوى إلى ذلك الكلب حين رآه في مثل حاله، فكان ذلك سببًا لرحمته الكلب، ورحمة الله به، من حيث إنه ابتلاه أولاً حتى راضه وأدبه، فجعل رياضته تلك سببًا لرحمته خلقه، فرحمه الله سبحانه وتعالى)[1].

وهكذا حال المدعو دائمًا يستفيد مما يمر به ويأخذ العظة والعبرة من ذلك، حتى يحقق النفع لنفسه في دنياه وآخرته.

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم ٦/٤١١ - ٤١٢.

ولذا قالوا: إن من حكمة صيام رمضان أن يشعر الصائمون بجوع الجياع واحتياج المحتاجين، فيسارعوا إلى إشباعهم، وسد خلتهم.

لكن بعض المدعوين قد ينسى ما أصابه من شدة عند أول فرج يصيبه، فتجد أحدهم يشكو من الظلم وضياع حقه وعدم قدرته على استرداده، فإذا منّ الله عليه بأن أرجع الله إليه حقه، وأصبح له سلطة على الناس أذاقهم الظلم والجور وأكل حقوقهم وسلبهم ما يملكون، ونسي ما كان فيه من شدة وفاقة وذل، وأصبح الناس بلسان حالهم ومقالهم يقولون: رب يوم بكيت منه فلما ذهب بكيت عليه.

ولا شك أن من حاله كذلك فإنه لم يستفد شيئًا مما مرّ به من شدائد وكروب، بل إنه صدر للناس شدائده وكروبه، وعاملهم بما كان يُعامل ويشكو منه، فهذا قلبه قاس يُخشى عليه إن لم يتب.

لذا فإن على المدعو ذي الفطنة والذكاء أن يأخذ العبرة والعظة من مواقف حياته.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل الرفق بالحيوان:

لقد اهتم الإسلام اهتمامًا كبيرًا بالرفق والرحمة بالناس وبالحيوان؛ لأن الإسلام دين الرحمة والرفق، ومن ثم فإن الله تعالى يجزل عطاءه لمن يتعامل بالرفق والشفقة ومما يؤكد ذلك ما ورد في الحديث في قوله ﷺ: "فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له فأدخله الجنة" و"في كل كبد رطبة أجر" قال ابن حجر: (أي الأجر ثابت في إرواء كل كبد حية، قال الداودي: المعنى في كل كبد حي أجر وهو عام في جميع الحيوان)[١]. وقال النووي: (فيحصل الثواب بسقيه والإحسان إليه أيضًا بإطعامه وغيره سواء كان مملوكًا أو مباحًا وسواء كان مملوكًا له أو لغيره)[٢].

قال ابن هبيرة: (في هذا الحديث من الفقه أن الرحمة في القلوب حتى للبهائم سبب خير وأجر واستعطاف لرب السماء والأرض، فإنه يرحم من عباده الرحماء. وفيه أن رحمة الدواب -حتى الكلاب التي لا أجر في اقتنائها بل وزر- فيها أجرٌ، فدل على أن

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥/٥١ - ٥٢.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٣٩٨، وقد خصصه النووي بالحيوان المحترم وهو ما لا يؤمر بقتله.

رحمة ما هو أكرم منها من الدواب كالشاة، وغيرها فيها أجر، فذكر ذلك على عادته في الإتيان بجوامع الكلم، فقال: "في كل كبد رطب أجر")[١].

ومن ناحية أخرى فإن من عذب حيوانًا بحبسه حتى مات فإنه يعذب في النار، لقول النبي ﷺ: ((عُذِّبَتِ امرأةٌ في هِرَّةٍ ربَطَتْها حتى ماتَت فدخَلَتْ فيها النارَ، لا هي أطعَمَتْها ولا سقَتْها إذ حبَسَتها ولا هيَ ترَكتها تأكلُ من خَشاش الأرض))[٢].

قال النووي عن المرأة: (الصواب أنها كانت مسلمة وأنها دخلت النار بسببها)[٣].

(ولا خلاف بين الفقهاء في أنه يجب على المالك إطعام بهائمه وسقيها وريها ولو كانت مريضة لا ينتفع بها؛ لحديث ابن عمر مرفوعًا: "عذبت امرأة في هرة..." كما يحرم أن يحمله ما لا يُطيق، لأن فيه تعذيبًا له)[٤].

(ومما ورد في الرفق بالحيوانات النهي عن صبرها وتعذيبها، وبيان فضل ساقيها والإنفاق عليها، سواء أكانت من الأنعام أم من غيرها... ومعنى صبر البهائم كما قال العلماء أن تحبس وهي حية لتقتل بالرمي ونحوه وهو معنى (لا تتخذوا شيئًا فيه الروح غرضًا)[٥]، أي لا تتخذوا الحيوان غرضًا ترمون إليه كالغرض "أي الهدف" من الجلود وغيرها...

وأما النفقة على الحيوان رفقًا ورحمة به، فقد اتفق الفقهاء على وجوب الإنفاق على المملوك منه ديانةً، واختلفوا في الإجبار عليها والقضاء بها على من عنده بهيمة لا ينفق عليها، مع اتفاقهم جميعًا على وجوبها ولزومها عليه... وتذكر كتب الحنابلة أيضًا أنه يحرم على مالك الدابة أن يحملها ما لا تطيق حمله، لأن الشارع منع تكليف الإنسان والحيوان ما لا يطيق، ولأن فيه تعذيبًا للحيوان الذي له حرمة في نفسه وإضرارًا به.

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم ٤١٢/٦.

(٢) أخرجه البخاري ٣٤٨٢، ومسلم ٢٢٤٢.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٣٩٧، وانظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤١٢/٦.

(٤) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية٢٣٧/١٨.

(٥) أخرجه مسلم ١٥٩٧.

ويحرم أن يحلب من لبنها ما يضر بولدها، لأن كفايته واجبة على مالكه، ويسن للحالب أن يقصّ أظفاره لئلا يجرح الضرع إلى غير ذلك مما ذكروه في هذا الباب)[١].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل الله على عباده الرحماء:

إن رحمة الله واسعة يجزلها لعباده الرحماء الذين يستمطرون رحمة الله برحمة مخلوقاته، فلقد رحم الله هذا الرجل الذي سقى الكلب، وأجزل له المثوبة بإدخاله الجنة مع أنه عمل عملاً يسيرًا، فهذا دليل على عظم ثواب الله، وأنه يكافئ على العمل اليسير بالثواب العظيم؛ مِنَّةً منه وفضلاً. قال ابن هبيرة: "في هذا الحديث من الفقه: أن لطف الله عز وجلّ ورحمته عباده، أن بغيًا من البغايا المسرفات على نفوسهنّ بفجورهن مدة عمرها، رحمت في وقت واحد كبدًا رطبة، جعل مكان ذلك لها وسيلة إلى الله عز وجل، فأسقط عنها ما كان منها في عمرها، لإنابة لحظة في رحمة دابة غير كريمة، فكيف رحمة الآدميين المسلمين؟ فجعل الله عز وجل هذا حيث قدره وقضاه منبهة لعباده إلى يوم القيامة"[٢].

وقد ورد كثير من الآيات والأحاديث تدل على هذا المعنى. من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[٣]. وقد نقل القرطبي عن ابن عباس وابن مسعود قولهما: (إن هذه الآية إحدى الآيات التي هي خير مما طلعت عليه الشمس)[٤].

وقال الرسول ﷺ: ((إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً. يُعْطَى بِهَا فِي الدُّنْيَا وَيُجْزَى بِهَا فِي الآخِرَةِ. وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِ مَا عَمِلَ بِهَا لِلّهِ فِي الدُّنْيَا. حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلَى الآخِرَةِ. لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَى بِهَا))[٥].

---

(١) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية٢٢/٢٩٥ - ٢٩٧.

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم ٦/٤١٢.

(٣) سورة النساء، آية: ٤٠.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٣/٥١٩٧.

(٥) أخرجه مسلم ٢٨٠٨.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه عز وجل قال: ((إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ. ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ. وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً... وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا، كَتَبَهَا اللهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً))(١).

قال ابن حجر: (قال ابن بطال: في هذا الحديث بيان فضل الله العظيم على هذه الأمة، لأنه لولا ذلك كاد لا يدخل أحد الجنة، لأن عمل العباد للسيئات أكثر من عملهم الحسنات)(٢).

و"مما يفرح العبد المسلم ما في الشريعة من الثواب الجزيل والعطاء الضخم، يتجلّى ذلك في المكفرات العشر، كالتوحيد وما يكفره من الذنوب. والحسنات الماحية كالصلاة والجمعة إلى الجمعة والعمرة إلى العمرة والحج والصوم، ونحو ذلك من الأعمال الصالحة. وما هناك من مضاعفة الأعمال الصالحة كالحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. ومنها التوبة تجب ما قبلها من الذنوب والخطايا. ومنها المصائب المكفرة فلا يصيب المؤمن من أذىً إلا كفّر الله به من خطاياه. ومنها دعوات المسلمين له بظهر الغيب، ومنها ما يصيبه من الكرب وقْت الموت. ومنها شفاعة المسلمين له وقت الصلاة عليه، ومنها شفاعة سيد الخلق ﷺ ورحمة أرحم الراحمين تبارك وتعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾(٣) ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾(٤)"(٥).

---

(١) أخرجه البخاري ٦٤٩١، ومسلم ١٣١.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٣٦/١١، وانظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣٠٤/٢ - ٣٠٦.

(٣) سورة النحل، آية: ١٨.

(٤) سورة لقمان، آية: ٢٠.

(٥) لا تحزن، عائض القرني ص ٢٨٤.

رابعًا- من واجبات المدعو: السؤال عما خفي عليه:

يتضح هذا في قول الصحابة للنبي ﷺ "يا رسول الله إن لنا في البهائم أجرًا؟" فقد سألوا النبي ﷺ حتى يعلموا ما جهلوا ويتضح لهم ما خفي عنهم ويزول عنهم ما عجبوا منه ومن ثم يعملون بما أرشدهم إليه النبي ﷺ.

ومثال ذلك ما وقع من عمير بن الحُمام في غزوة بدر، فقد سمع رسول الله ﷺ يقول: قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض. فقال: يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض؟ قال: نعم. قال: بخ بخ[(١)]. فقال رسول الله ﷺ: ما يحملك على قولك بخ بخ. قال: لا والله يا رسول الله، إلا رجاء أن أكون من أهلها. قال: فإنك من أهلها. فأخرج تمرات من قَرَنه[(٢)]، فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل ثمراتي هذه إنها لحياة طويلة. فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قُتل[(٣)].

خامسًا- من وسائل الدعوة: القصة:

لقد استخدم النبي ﷺ هنا القصة لتبليغ الدعوة، والقصة لها تأثير لا ينكر في نفوس المدعوين، (حيث تمتاز القصة بأنها تصور نواحي الحياة فتعرض لك الأشخاص وحركاتهم وأخلاقهم وأفكارهم... حتى لكأنك تراهم رأي العين وتسمع منهم سمع الأذن وتعاشرهم وتحيا بينهم. وتمتاز القصة كذلك بأن النفس تميل إليها... والقصة بهاتين الميزتين من خير الوسائل التي يتوسل بها الداعية لإبلاغ تعاليمه إلى أعمال القلوب، فهي بالميزة الأولى تعرض هذه التعاليم في صورة عملية حية تحرك الوجدان وترفع نبض المشاعر، وهي بالميزة الثانية تجعل النفوس أوعية مفتوحة يصب فيها الداعية ما يشاء، فيبلغ القرار)[(٤)].

---

(١) قال النووي: فيه لغتان: إسكان الخاء وكسرها منونًا، وهي كلمة تطلق لتفخيم الأمر وتعظيمه في الخير، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢١٨.

(٢) القرن - بالتحريك: جعبة من جلود تشق ويجعل فيها النُّشاب وهي النبل. النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٧٤٩، والوسيط في (ق ر ن).

(٣) أخرجه مسلم ١٩٠١.

(٤) تذكرة الدعاة، البهي الخولي ص ٤٤ - ٤٥.

لقد جاءت القصة في هذا الحديث لتوضح أهمية الرفق في التعامل مع الحيوان فضلاً عن الإنسان حتى إن ذنوب البغايا تغفر برحمة الحيوان فما بالنا برحمة الإنسان؟

سادسًا- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

لقد سأل الصحابة رضي الله عنهم وأجابهم النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا الأسلوب المباشر يؤتي ثماره المرجوة في المواقف التي تلائمه وتناسبه. وقد استخدمه النبي صلى الله عليه وسلم كثيرًا جدًا، لأن السؤال والجواب يعمل على إيجاد نوع من الحوار المثمر والبنّاء بين الداعية والمدعو، ويعمل على حثّ المدعو وحمله على السؤال عن كل ما يعنّ له في الموضوع الدعوي المطروح، ويمكنه من الحصول على الإجابة المباشرة من الداعية، ويعطيه فرصة لمراجعة الداعية والاستفسار عن الجزئيات التي قد تغيب عنه، ويحتاج فيها إلى مزيد بيان وإيضاح.

الحديث رقم (١٢٧)

١٢٧- **الْحادي عشَرَ**: عنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**لَقَد رأَيْتُ رَجُلاً يَتَقَلَّبُ فِي الْجنَّةِ فِي شَجرةٍ قطَعها مِنْ ظَهْرِ الطَّرِيقِ كَانَتْ تُؤْذِي الْمُسلِمِينَ**» رواه مسلم[1].

وفي رواية[2]: «**مرَّ رجُلٌ بِغُصْنِ شَجرةٍ علَى ظَهْرِ طرِيقٍ فَقَالَ: واللَّهِ لأُنَحِّيَنَّ هذا عنِ الْمسلِمِينَ لا يُؤْذِيهُمْ، فأُدْخِلَ الْجَنَّةَ**».

وفي رواية لهما[3]: «**بيْنَما رجُلٌ يمْشِي بِطرِيقٍ وجد غُصْنَ شَوْكٍ علَى الطَّرِيقِ، فأخَّرُه فشَكَر اللَّهُ لَهُ، فغَفر لَهُ**».

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

ظهر الطريق: الظهر من معانيه: طريق البرّ وما غلظ من الأرض وارتفع[4].

الشرح الأدبي

ما أجمل تعاليم الإسلام؟ وما أجمل وصايا الرسول ﷺ في الحفاظ على البيئة، والحفاظ على جمال الطرق التي يسلكها الناس، وطرق الخير لا تتناهي ولكنها تتجدد بتجدد الزمان والإنسان.

وربما يظن بعض الناس أن العطاء والبذل هما الأفق الوحيد للخير، والحديث الذي معنا يبدد هذا الظن، لأن من الخير أن تَجْتَثَّ الفساد، وأن تزيل الأدران، وأن تقضي على كل ضار خبيث.

---

(١) برقم (١٩١٤/١٢٩) بعد حديث: (٢٦١٧، كتاب البر والصلة). أورده المنذري في ترغيبه (٤٣٨٢).

(٢) برقم (١٩١٤/١٢٨). أوردها المنذري في ترغيبه (٤٣٨٣).

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٢)، ومسلم (١٩١٤/١٢٧)، و (١٩١٤/١٦٤، كتاب الإمارة). أوردها المنذري في ترغيبه (٤٣٨٣).

(٤) القاموس، والوسيط في (ظ هـ ر).

والحديث الشريف تستضيء حروفه بتعاليم النبي ﷺ، وهذه التعليمات لم تصدر في صورة أمر نبوي، أو نهى تشريعي، ولكنها قدمت في صيغة خبر يتضمن فعلاً خبريًا ثم جزاء هذا الفعل وهو الجنة؟ هذا الفعل هو إماطة الأذى عن الطريق، ولكن الأذى هنا ليس فعلاً قبيحًا وليس قاذورات: وإنما هو عائق يعطل السير، ويؤذي المارة، ويربك حركة المرور في لغة العصر وهو: شجرة: في وسط الطريق.

إن التوجيه النبوي الكريم يدعو إلى ضرورة: إماطة الأذى عن الطريق، والشجرة التي قطعت: قطعها الرجل من ظهر الطريق، وفي رواية أخرى ورد أنه غصن شجرة على ظهر طريق، أو غصن شوك على الطريق في رواية ثالثة، فالفعل هنا ليس إزالة للخير، ولا قطعا للشجر وهو في مكانه المعد على جانبى الطريق، وإنما الشجرة في هذا السياق تمثل أذى يجب إماطته عن طريق الناس حتى لا يكون مصدر إزعاج أو إيلام أو يكون عائقًا عن السير، وقضاء المصالح.

ولنتأمل بداية هذا الحديث الشريف: وهى بداية يغلفها التأكيد والإشعار بالقسم عن طريق "اللام وقد" في قول الحبيب المصطفى ﷺ: "لقد رأيت رجلاً يتقلب في الجنة"، والفعل رأى يتضمن المشاهدة والعلم، وهما كذلك لأن هذا الخبر من رسول الله ﷺ يفيد دخول الرجل الجنة بمجرد نيته للفعل الجميل، وعدم تحديد الرجل ومجيئه نكرة يفيد العموم: حتى لا يتوهم أحد أنها حالة خاصة: بل هي قاعدة عامة: فأي رجل يقدم على مثل هذا الفعل الجميل فهو يفوز بجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، والتعبير بقوله: "يتقلب" كناية عن النعيم المقيم، وإيحاء بدوام ذلك الثواب لأن صيغة المضارع تفصح عن ذلك فالجنة: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾[1].

والحديث في صياغته يحمل البشرى بالجنة لكل مسلم يميط الأذى عن الطريق، لأن الرسول ﷺ قدم المكافأة والجزاء الأوفى على الفعل الحسن وذلك للترغيب

---

(١) سورة الرعد، آية: ٣٥.

والتبشير بأن الله تعالى لا يضيع أجر من أحسن عملا، وختام الحديث دعوة إلى القضاء على كل الظواهر والعوائق التي تؤذي المسلمين: حتى يعيش الناس سعداء آمنين.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم فقهي، وهو حكم إزالة الأذى عن الطريق: يندب إزالة الأشياء المؤذية للمسلمين أينما وجدت، فقد اعتبر الرسول ﷺ إماطة الأذى عن الطريق من الإيمان بقوله: ((الإيمان بضع وسبعون شعبة أفضلها لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق))[1][2].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل إماطة الأذى.

ثانيًا: من وسائل الدعوة: القصة.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل إماطة الأذى:

إن المدعو يحرص أشد الحرص على نفع نفسه ونفع أهله ومجتمعه، لأن في ذلك إرضاء لرب العالمين كما أن في ذلك الثواب الجزيل الذي أعدّه الله لمن فعل ذلك، وهذا الحديث خير دليل على ذلك كما في قوله ﷺ: "يتقلب في الجنة في شجرة قطعها كانت تؤذي المسلمين" وقوله "فأدخل الجنة". فقد أدخل الله سبحانه وتعالى الرجل الجنّة، لإبعاده الأذى وإماطته عن الطريق. وقد روى هذا الحديث أنس بن مالك رضي الله عنه بلفظ: كانت شجرة في طريق الناس تؤذي الناس فأتاها رجل فعزلها عن طريق الناس قال: قال النبي ﷺ: ((فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَتَقَلَّبُ فِي ظِلِّهَا فِي الجَنَّةِ))[3].

---

(١) أخرجه مسلم ٣٥.

(٢) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية٢/٣٥٦.

(٣) أخرجه أحمد ٣/١٥٤ رقم ١٢٥٧١ وقال محققو المسند: صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن في الشواهد ٢٠/٣٤.

قال ابن هبيرة: (وقوله: "يتقلب في الجنة" يعني: يذهب منها حيث شاء، كما يقال: يقلب المسافر في الأرض)(١).

وقال النووي: (فيه فضيلة إماطة الأذى عن الطريق وهو كل مؤذٍ، وهذه الإماطة أدنى شعب الإيمان)(٢)؛ لأن الطريق -كما قال ابن هبيرة-: (لما كانت يمرّ فيها المسلم والكافر، والعاصي والطائع، فرأى المؤمن أن إماطته الأذى عنها يثيره إيمانه، ليسهل سبيل المؤمنين، فإن مرّ بها غيرهم كان ذلك على حكم التبع لهم، فكان ذلك من خصال الإيمان)(٣).

وقد ذكر النبي ﷺ أن إماطة الأذى من محاسن أعمال أمته، قال ﷺ: ((عُرِضَتْ عَلَيَّ أَعْمَالُ أُمَّتِي، حَسَنُهَا وَسَيِّئُهَا، فَوَجَدْتُ فِي مَحَاسِنِ أَعْمَالِهَا الأَذَى يُمَاطُ عَنِ الطَّرِيقِ. وَوَجَدْتُ فِي مَسَاوِيءِ أَعْمَالِهَا النُّخَاعَةَ تَكُونُ فِي الْمَسْجِدِ لاَ تُدْفَنُ))(٤).

قال ابن هبيرة: (وذلك أن المسلم يمرّ بالطريق وفيها حجر ربما يتأذى به الرجل الضرير أو غيره، فيرفعه من مكانه فيعتد الله تعالى له به، حتى إنه أرى نبيه ﷺ ذلك، وكذلك السيئات حتى النخامة في المسجد التي لا تدفن، ويشير بهذا إلى أنه إذا انتخم الرجل في المسجد كان هذا منه سيئة إلا أنه لو دفنها كفرها، فكأنه لم يكتب عليه سيئة في الأول حتى أخلّ بتداركها في الثاني، فكتبت، وفي هذا الحديث ما يدلّ على أنه لا يجوز أن يحتقر من البر شيء، ولا يستصغر من الإثم شيء، وإن قلّ)(٥).

كما جعل ﷺ إماطة الأذى من الصدقة فقال: ((وَتُمِيطُ الأَذَىٰ عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ))(٦).

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم ٥٩/٨.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢٢٤، وانظر فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٦٢/٢.

(٣) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم ٤٠٦/٦.

(٤) أخرجه مسلم ٥٥٣.

(٥) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم ١٨١/٢.

(٦) أخرجه البخاري ٢٩٨٩، ومسلم ١٠٠٩.

قال العز بن عبدالسلام: (إماطة الأذى إحسان إلى كل من يمر بالطريق، ويعمُّ ما تتأذى المارة به من الشوك والأحجار والجيف والأقذار)[١].

وقال ابن حجر: (ومعنى كون الإماطة صدقة أنه تسبب إلى سلامة من يمر به من الأذى، فكأنه تصدق عليه بذلك فجعل له أجر الصدقة)[٢].

قال الدكتور الحسيني هاشم: (إزالة الأذى من طريق المسلمين بردم حفرة صغيرة قد تقلب سيارة أو مستنقعًا قد يجلب أمراضًا أو حجرًا قد يصيب السائرين أو شوكًا أو مسمارًا قد يمزق الجلد. كل ذلك سبيل إلى الثواب والنعيم المقيم ذلك لأنه فوق قيمته البسيطة يعبر عن حرص على المسلمين وحب لهم ورغبة في نفعهم وإزالة الشر عنهم. وإذا كان الثواب في إزالة ما يؤذي فمن البديهي أن يكون العقاب في أقل أذى يتسبب الإنسان في حدوثه لأي من المسلمين)[٣].

فإن من آذى الناس بأن قطع شجرة بغير حق من طريقهم وهم ينتفعون بها أدخله الله النار، قال النبي ﷺ: ((مَنْ قَطَعَ سِدْرَةً[٤] صَوَّبَ الله رَأْسَهُ فِي النَّارِ))[٥] قال أبو داود: هذا الحديث مختصر، يعني: ((مَنْ قَطَعَ سِدْرَةً فِي فَلَاةٍ يَسْتَظِلُّ بها ابنُ السَّبِيلِ وَالْبَهَائِمُ عَبَثًا وَظُلْمًا بِغَيْرِ حَقٍ يَكُونُ لَهُ فيهَا صَوَّبَ الله رَأْسَهُ فِي النَّارِ))[٦].

ثانيًا- من وسائل الدعوة: القصة:

لقد ذكر النبي ﷺ قصة هذا الرجل وما فعله وما الجزاء الذي كافأه الله به، ولاشك أن المدعو إذا سمع هذا بادر إلى امتثال مضمون القصة، فأماط الأذى عن طريق المسلمين، لينال مثل الثواب الذي ناله هذا الرجل.

---

(١) شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال: العز بن عبدالسلام ص ٢٠٦.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٣٦/٥.

(٣) شرح رياض الصالحين ١١٨.

(٤) السدر: شجرة النَّبق واحدته سِدْرة، الوسيط في (س د ر).

(٥) أخرجه أبو داود ٥٢٣٩، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤٣٦٤).

(٦) أخرجه أبو داود ص ٧٨٤.

الحديث رقم (١٢٨)

١٢٨- **الثَّاني عشَر**: عنْه قالَ: قَال رسولُ اللَّه ﷺ: «**منْ توضَّأ فأحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ أتَى الْجُمعةَ، فَاستمع وانْصتَ، غُفِر لَهُ ما بيْنَهُ وبيْنَ الْجُمعةِ وزِيادةُ ثَلاثَةِ أيَّامٍ، ومَنْ مسَّ الْحصا فَقد لَغَا**» رواه مسلم[(١)].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

لغا: أي قال اللغو، وهو الكلام الملغي الساقط الباطل المردود[(٢)].

الشرح الأدبي

تموج ألفاظ هذا الحديث النبوي، وتتوهج حروفه بأسرار الصلاة، وفضل صلاة الجمعة، فالصلاة ميزان حركة المؤمن في حياته، بالمحافظة عليها يضبط أوقاته، وينتظم إيقاع حياته، ويكتسب الدقة في أعماله، فالصلاة أعظم العبادات شأنًا وأوضحها برهانًا وأكبرها أثرًا في تطهير القلوب وتصفية النفوس، ولذلك جعلها الشارع أعظم الشعائر وعماد الدين، فأوصى بها الصغار والكبار، وحذر غاية التحذير من التفريط والتهاون فيها لتكون ملكة راسخة في النفوس، وصبغة متمكنة منها، مسيطرة عليها، حتى تمنعها من اقتراف الذنوب بسلطانها القاهر وبما تورثه وتتركه في النفوس، من الخشية والمراقبة لله تعالى[(٣)].

والحديث الشريف يحث على التهيئة الكاملة لأداء صلاة الجمعة. وهى منارة المسلم في كل أسبوع حيث يلتقي المسلمون في المسجد الجامع، ويستمعون لخطبة الجمعة، ويعودون بعد صلاتهم، وقد غفر لهم ما بين الجمعتين، ويزيدهم الله تعالى فضلاً من

---

(١) برقم (٨٥٧/٢٧). أورده المنذري في ترغيبه (١٠١٥).

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٥٩، ٥٦٢، النهاية، والوسيط في (ل غ و).

(٣) انظر: المنهل العذب الفرات في شرح الأحاديث الأمهات ج١، د. عبدالعال أحمد عبدالعال.

عنده يوضحه رسول الله ﷺ في قوله: "وزيادة ثلاثة أيام".

ويفسر العلماء سر هذه الزيادة فيقولون: (معنى المغفرة له ما بين الجمعتين وثلاثة أيام أن الحسنة بعشر أمثالها، وصار يوم الجمعة الذي فيه هذه الأفعال الجميلة من وضوء أو غسل وتطهر وتطيب واستماع وإنصات في معنى الحسنة التي تجعل بعشر أمثالها. ودلالة ذلك أن العبد الذي أحسن عمله في يوم واحد يكافأ بعشرة أيام من ربه مغفرة ورضوانًا. وربما يقفز إلى الذهن سؤال: لماذا سمى هذا اليوم الذي يقع بين الخميس والسبت بيوم الجمعة. (وقد كان يسمى في الجاهلية: يوم العَروبة: بفتح العين، وقيل في ذلك عدة أقوال يجمعها، الجذر اللغوي لمادة "جمع"، فقيل: لأن خلق آدم جمع فيه: وهذا أصح الأقوال -كما قال العلماء- وقيل: لأن أسعد بن زرارة جمع الأنصار بالمدينة قبل مقدم النبي ﷺ إليها في ذلك اليوم وصلى بهم وذكرهم فسموه الجمعة حين اجتمعوا إليه، وقيل: سمى بذلك لاجتماع الناس للصلاة فيه، وقيل لأن كمال الخلائق جمع فيه)[1].

ولنتأمل بعض أسرار البيان النبوي في هذا الحديث الشريف.. وفي مقدمة هذه الأسرار: كلمة: الجمعة، ولم يقل يوم الجمعة أو صلاة الجمعة، وإنما صرح بهذا اللفظ دون غيره للترغيب في الإسراع إلى هذه الفريضة التي تنفرد بهذه الميزة وهى اجتماع الناس في المسجد الجامع، والحديث في بنائه اللغوي يتكون من جملتين شرطيتين: الأولى توضح كيفية التهيؤ لصلاة الجمعة وكيفية الاستماع والأداء، والثانية توضح الوجه الآخر.. وهو تحذير لمن يخالف آداب الصلاة والاستماع والإنصات، والجملة الأولى الشرطية تعم ستة أفعال ماضية: منها خمسة في جملة فعل الشرط، وفعل واحد في جواب الشرط: وهو "غُفر"، وقد بني للمفعول: لأن الفاعل معلوم وهو الله الغفور الرحيم، وأفعال جملة فعل الشرط: تتوالى في ترتيب دقيق، وتناسق عميق على هذا النحو: "من توضأ فأحسن الوضوء"، والعطف هنا بالفاء لأنه لا فاصل بين الوضوء وإحسان ذلك الوضوء فهما متلازمان، والفعل الثالث يعطف بثمّ، ليعطي مساحة زمنية للمشى إلى

---

(١) المرجع السابق، ج٢، وانظر: لسان العرب، لابن منظور في (ج م ع).

المسجد في قوله: "ثم أتى الجمعة" أي في المسجد، والعطف بالفاء في قوله: "فاستمع" يرشد إلى سرعة الإصغاء وعدم الانشغال بأمور الدنيا، والعطف بالواو في قوله: "وأنصت" يرشد إلى أن الإنصات من آداب الاستماع فهما يكملان بعضهما ولا مجال للترتيب بينهما، والجملة الشرطية الثانية: "ومن مس الحصا فقد لغا"، تُنَبِّه: كل من حضر واستمع وأنصت إلى عدم الانشغال بأمور الحياة واللهو والعبث بما حوله من أشياء أو التحدث مع غيره، والتعبير بقوله: "مس الحصا"، في غاية الدقة. فأي انشغال مهما قل شأنه يُضَيِّع الثواب: حيث يرتكب صاحبه اللغو، وهو العمل الباطل المذموم المردود.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكمين فقهيين:

الأول: حكم صلاة الجمعة، وقد ذهب جمهور الفقهاء[1] إلى أن صلاة الجمعة فرض عين على كل مسلم ذكر بالغ عاقل حاضر صحيح، فلا يجوز لمن لا عذر له أن يتخلف عنها وإلا كان آثمًا لتركه فرض عين، وحكى الخطابي عن بعض العلماء قولاً أن صلاة الجمعة فرض على الكفاية.

الثاني: حكم الإنصات لسماع الخطبة، وقد اختلف الفقهاء في ذلك على رأيين، فذهب المالكية[2] والحنابلة[3] والشافعي في القديم[4] إلى أن من حضر الجمعة من

---

(١) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود ٢٥٦/١، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ١٦٣/٢، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ١٦٦/٢، وشرح منح الجليل ٤٣٤/١، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٥٣٦/١، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي ٢٨٣/٢، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٣٠٩/١، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٢١/٢.

(٢) مواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ١٧٨/٢، وشرح منح الجليل ٤٤٧/١.

(٣) شرح منتهى الإرادات، البهوتي ٣٢٣/١، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٤٧/٢.

(٤) نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي ٣١٩/٢، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٥٥٣/١.

المسلمين يجب عليه الإنصات للخطيب حين خطبته ولا يتحدث مع غيره، فلو تكلم بأي كلمة فقد لغا ومن لغا فلا جمعة له.

وذهب الحنفية إلى أن الكلام أثناء الخطبة مكروه[١] وكذا عند الشافعي في الجديد يسن عدم الكلام ولا يحرم[٢].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل تحسين الوضوء.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: آداب صلاة الجمعة.

ثالثًا: من أهداف الدعوة: نشر العلم الشرعي.

رابعًا: من أساليب الدعوة: الترغيب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل تحسين الوضوء:

الوضوء مفتاح الصلاة، فقال رسول الله ﷺ: "لا تقبل صلاة من أحدث حتى يتوضأ"[٣] ومن هنا حث الإسلام على تحسينه والإتيان به تامًا، وذلك ببيان فضل ذلك، كما هو واضح في هذا الحديث. فقد بيّن ﷺ فضل تحسين الوضوء بقوله: "من توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى الجمعة فاستمع وأنصت غفر له ما بينه وبين الجمعة وزيادة ثلاثة أيام".

قال ابن هبيرة: (لأن الحسنة بعشر أمثالها، فكانت الأيام الثلاثة متممة للعشر)[٤].

قال النووي عن تحسين الوضوء: (أي يأتي له تامًا بكمال صفته وآدابه)[٥]. وقال كذلك: (وفيه استحباب تحسين الوضوء ومعنى إحسانه: الإتيان به ثلاثًا ثلاثًا ودَلْك

---

(١) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٢/١٦٧، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود ١/٢٦٣ وما بعدها.

(٢) نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي ٢/٣١٩، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ١/٥٥٣.

(٣) أخرجه البخاري ١٣٥، ومسلم ٢٢٥.

(٤) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم ٨/٦٣.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٢٥٤.

الأعضاء وإطالة الغرة والتحجيل وتقديم الميامن والإتيان بسننه المشهورة)[١].

وقد وردت أحاديث عن النبي ﷺ في فضل تحسين الوضوء كذلك، منها:

قال النبي ﷺ: ((مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِنْ جَسَدِهِ. حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ تَحْتِ أَظْفَارِهِ))[٢].

كما أخبر ﷺ أن أمته تعرف يوم القيامة بآثار الوضوء بسبب الغرة والتحجيل، فقال ﷺ: ((إِنَّ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ أَثَرِ الْوُضُوءِ))[٣]. وبهذا يعرف النبي ﷺ أمته، فقال له الصحابة: أتعرفنا يومئذ؟ قال: ((نَعَمْ، لَكُمْ سِيمَا[٤] لَيْسَتْ لأَحَدٍ مِنَ الأُمَمِ، تَرِدُونَ عَلَيَّ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ أَثَرِ الْوُضُوءِ))[٥].

جاء في الموسوعة الفقهية: (إطالة الغرة والتحجيل أن يتجاوز المتوضيء موضع الفرض في غسل الوجه واليدين والرجلين... ومعنى غرًا محجلين: بيض الوجوه واليدين والرجلين كالفرس الأغر: وهو الذي في وجهه بياض، والمحجل وهو الذي قوائمه بيض)[٦].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: آداب صلاة الجمعة:

صلاة الجمعة لها أهمية كبيرة في الإسلام، ومن دلائل هذه الأهمية كثرة الآداب التي يطلب فعلها استعدادًا لها وفي أثنائها من ذلك قوله ﷺ: "ثم أتى الجمعة فاستمع وأنصت... ومن مس الحصا فقد لغا"، فقد بيّن ﷺ بعض ما يجب على المصلين. فقد ذكر النووي أن في ذلك دليلاً (على وجوب الإنصات والنهي عن الكلام في حال الخطبة)[٧] وقال: (قوله ﷺ "من مس الحصا فقد لغا" فيه النهي عن مس الحصا

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٦٣.

(٢) أخرجه مسلم ٢٤٥.

(٣) أخرجه البخاري ١٣٦، ومسلم ٢٤٦.

(٤) قال النووي: السيما هي العلامة وهي مقصورة وممدودة لغتان. ويقال: السيميا، بياء بعد الميم مع المد.

(٥) أخرجه مسلم ٢٤٧.

(٦) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية٤٢/٣٦٩، وانظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٢٦٤.

(٧) انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٥٩.

وغيره من أنواع العبث في حال الخطبة، وفيه إشارة إلى إقبال القلب والجوارح في الخطبة)[١].

قال ابن هبيرة: (هذا الحديث يتضمن استعمال أدب الجمعة، ويدل على أن الغسل لها ليس بواجب، ويأمر بالاستماع للخطبة، ويحث على القرب من الخطيب ويحرض على الإنصات. فأما مس الحصا فإنه يحدث صوتًا يلفت الحاضرين عن سماع الخطبة، فكأن فاعل ذلك قد تكلم)[٢].

وقد جاءت آيات وأحاديث تبين واجبات صلاة الجمعة وشروطها وآدابها من ذلك: قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾[٣] أي: (إذا نادى المؤذن للصلاة من يوم الجمعة فامضوا إلى سماع الخطبة وأداء الصلاة واتركوا البيع وكذلك الشراء وجميع ما يشغلكم عنها... وفي الآية دليل على وجوب حضور الجمعة واستماع الخطبة)[٤].

كما بيّن النبي ﷺ بعض سننها فقال: ((لا يَغتَسِلُ رجلٌ يومَ الجُمعةِ ويتطهَّرُ ما استطاعَ مِن طُهرٍ ويَدَّهِنُ من دُهنهِ أو يَمسُّ من طِيبِ بيتهِ، ثمَّ يخرُجُ فلا يُفرِّقُ بينَ اثنينِ، ثمَّ يصلِّي ما كُتِبَ له، ثمَّ يُنصِتُ إذا تكلَّمَ الإمامُ، إلاّ غُفِرَ له ما بينَهُ وبينَ الجُمعةِ الأُخرى))[٥].

ثالثًا- من أهداف الدعوة: نشر العلم الشرعي:

لقد حضّ الإسلام على تعلّم العِلْم وتعليمه ونشره بيْن الناس، وكان من وسائل ذلك:

---

(١) المرجع السابق ٥٦٣.

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم ٨/٦٣.

(٣) سورة الجمعة، آية: ٩.

(٤) التفسير الميسر: إعداد نخبة من العلماء ص ٥٥٤.

(٥) أخرجه البخاري ٨٨٣ من حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه، وانظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٨/١١٩-١٢٤ والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٧/١٩٢-٢١٠.

خطبة الجمعة، وهذا واضح في قوله ﷺ: "فاستمع وأنصت" وذلك أثناء الخطبة، قال القرطبي: (في هذا الحديث ما يدل على وجوب الإقبال على استماع الخطبة والتجرد لذلك، والإعراض عن كل ما يشغل عنها)[١]، وقد قال تعالى: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[٢] قال ابن العربي: (والمراد بالذكر مجموع الصلاة والخطبة)[٣]، وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: ((كانت للنبي ﷺ خطبتان يجلس بينهما يقرأ القرآن ويذكر الناس))[٤].

قال النووي: (فيه دليل للشافعي في أنه يشترط في الخطبة الوعظ والقرآن)[٥]، فلما كان حضور الجمعة والاستماع إلى الخطبة واجبًا، كان في ذلك دلالة على أن من أهداف هذا الاجتماع للخطبة والصلاة: نشر العلم الشرعي الذي يلقيه الخطيب على آذان المصلين. قال ابن القيم عن خطبة الجمعة: (يقصد بها الثناء على الله وتمجيده والشهادة له بالوحدانية ولرسوله ﷺ بالرسالة، وتذكير العباد بأيامه، وتحذيرهم من بأسه ونقمته ووصيتهم بما يقربهم إليه وإلى جنابه، ونهيهم عما يقربهم من سخطه وناره، فهذا هو مقصود الخطبة والاجتماع لها)[٦].

وقد جاءت آيات وأحاديث تبين أهمية نشر العلم الشرعي بين المسلمين، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[٧] قال الطاهر بن عاشور: (كانت هذه الآية أصلاً في وجوب طلب العلم على طائفة عظيمة من المسلمين وجوبًا على الكفاية)[٨] وقال السعدي: (وهذه الآية

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، تحقيق: محيى الدين مستو وآخرين ٤٨٧/٢.

(٢) سورة الجمعة، آية: ٩٠.

(٣) أحكام القرآن، ابن العربي، محمد بن عبدالله ٥٤٣هـ، تحقيق علي محمد البجاوي، ١٨٠٥/٤.

(٤) أخرجه مسلم ٨٦٢.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٦٤.

(٦) زاد المعاد ٣٩٨/١.

(٧) سورة التوبة، آية: ١٢٢.

(٨) التحرير والتنوير مج٥/١١/٦١.

توضح فضيلة العلم خصوصًا الفقه في الدين وأنه أهم الأمور وأن من تعلم علمًا فعليه نشره وبثه في العباد ونصيحتهم فيه فإن انتشار العلم عن العالم من بركته وأجره الذي ينمى)[١].

ومن الأحاديث قول النبي ﷺ: ((إِنَّ مِمَّا يَلْحَقُ الْمُؤْمِنَ مِنْ عَمَلِهِ وَحَسَنَاتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ، عِلْمًا عَلَّمَهُ وَنَشَرَهُ...))[٢].

ومن مواقف السيرة التي تدل على نشر العلم الشرعي، بعث النبي ﷺ مصعب بن عمير رضي الله عنه مع الاثني عشر الذين بايعوه في العقبة الأولى إلى المدينة يفقه أهلها ويُقرئهم القرآن[٣].

وأخرج البخاري عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: ((أوَّلُ مَنْ قَدِمَ علينا مُصعَبُ بن عُمير وابنُ أمِّ مكتومٍ وكانوا يُقرِئونَ الناسَ...))[٤].

رابعًا- من أساليب الدعوة: الترغيب:

ورد الترغيب في قوله ﷺ "غفر له ما بينه وبين الجمعة وزيادة ثلاثة أيام" وذلك ليرغب في إحسان الوضوء والإنصات إلى خطبة الجمعة وعدم اللغو، وللترغيب أثر بعيد في الدعوة، لأنه (لما كان الإنسان مجبولاً على حب ما ينفعه وتقر به عينه وتطمئن به نفسه كان لأسلوب الترغيب أهمية قصوى في الدعوة إلى الله)[٥].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٣١٢.

(٢) أخرجه ابن ماجه ٢٤٢ وحسنه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ١٩٨).

(٣) أخرجه ابن إسحاق كما في دلائل النبوة للبيهقي ٤٣٨/٢ بإسناد معضل.

(٤) أخرجه البخاري ٣٩٢٤.

(٥) وسائل الدعوة، د. عبدالرحيم بن محمد المغذوي ص ١٩٣.

الحديث رقم (١٢٩)

١٢٩- الثَّالثَ عَشر: عنْه أن رسولَ اللَّه ﷺ قال: «إذَا تَوضَّأَ العبْدُ الْمُسْلِم (أو الْمُؤْمِنُ) فغَسلَ وجْههُ، خرج مِنْ وَجْهِهِ كُلُّ خطيئةٍ نظر إلَيْهَا بعينهِ مَعَ الْماءِ (أوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْماءِ) فإذَا غَسَل يديهِ خرج مِنْ يديْهِ كُلُّ خَطِيْئَةٍ كانَ بطشتْهَا يداهُ مع الْمَاءِ (أو مع آخِرِ قَطرِ الْماءِ) فإذَا غسلَ رِجليْهِ خَرجَتْ كُلُّ خَطِيْئَةٍ مشَتْها رِجْلاه مع الْماءِ (أَوْ مع آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ) حَتَّى يخْرُج نقِيًا من الذُّنُوبِ» رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

بطشتها يداه: البطش: الأخذ الشديد من كل شيء والمعنى: اكتسبتها يداه[2].

الشرح الأدبي

إن عنصر الترغيب من أهم ميزات الدعوة إلى الإسلام اتباعًا لقول الله عز وجل: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾[3]. والمصطفى ﷺ يمهد الطريق أمام كل مسلم للتمسك بدينه، والمحافظة على عقيدته، والتخلص من صغائر الذنوب، والحرص على اجتناب الكبائر، والوضوء نور يسعى به المؤمن في حياته ليزداد وضاءة وإشراقًا، وطاعة وإيمانًا، ويروي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: ((إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أمتي يدعون يوم القيامة غرًا محجلين من آثار الوضوء، فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل))[4].

(١) برقم (٣٢/٢٤٤). أورده المنذري في ترغيبه (٢٩١). وسيكرره المؤلف برقم (١٠٢٩).

(٢) النهاية، والقاموس في (ب ط ش)، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٢٦٣.

(٣) سورة النحل، آية: ١٢٥.

(٤) أخرجه البخاري ١٣٦، ومسلم ٢٤٦.

وحين نتأمل هذا الحديث نجده يتفق مع الحديث الذي نحن بصدده حيث يرغب الرسول ﷺ في إسباغ الوضوء والمداومة عليه، والمحافظة على سننه وآدابه، إذ جعله الله تعالى سببا في نور ينبعث من أعضائه وبخاصة من مواضع الغرة والحجال إذ تشع بالنور يوم القيامة ويسعى مع أصحابه كما ورد في القرآن الكريم: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ﴾[1]. فمن رغب في وفرة نوره وانتشار ضوئه ومضاعفة القوة المشعة عنده فليسبغ وضوءه، وليوسع من دائرة غسله في الرأس والرجلين، كما قال صاحب المنهل العذب الفرات.

ولنتأمل في ضوء هذا التكريم الإلهي والتقدير النبوي لهؤلاء الغر المحجلين، من آثار الوضوء، بعض أسرار البيان النبوي في هذا الحديث الشريف، والحديث ثمرته المغفرة وخروج العبد المسلم نقيًا من الذنوب والخطايا.

والحديث في بنائه اللغوي يتكون من ثلاث جمل شرطية تتكامل في ترتيبها اللغوي وتتناسق مع ترتيب أركان الوضوء، ومع الترتيب القرآني لها: ﴿فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾[2]. والجملة الأولى ترشد إلى غسل الوجه بكل مكوناته، والثانية ترشد إلى غسل اليدين "الذراعين" إلى المرفقين، والثالثة ترشد إلى غسل الرجلين، وغسل الرأس ربما يتضمنه غسل الوجه، ويوضح ذلك الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه أيضًا وذكر فيه الغر المحجلين.

وظاهرة التكرار تسيطر على الحديث الشريف: وهو ينبئ عن الترغيب والتعليم... والتفصيل الدقيق، وهذا الترغيب ممتزج بكثير من الوسائل التي تدفع إلى المزيد من الوضوء لأن الخطايا تخرج من أعضاء الإنسان، ويبقى بعد ذلك نقيًا من الذنوب، وأداة الشرط: "إذا" وهي تفيد التحقق، فالثواب متحقق لأنه وعد من الله عز وجل، وقد

---

(١) سورة التحريم، آية: ٨.

(٢) سورة المائدة، آية: ٦.

تكررت "إذا" مع كل جملة شرطية حيث وردت ثلاث مرات، وجملة الشرط تتكرر بألفاظها حتى تتبه المسلم إلى حتمية هذه الأركان، ووجوب القيام بها، ولذلك وردت على هذا النحو، إذا توضأ... فغسل وجهه، و، فإذا غسل يديه، و، فإذا غسل رجليه.

وجملة جواب الشرط تتكرر بالصياغة نفسها وبالفعل نفسه: مع تغيير اسم عضو الوضوء، وفعل الجواب: هو "خرج" ويتوالى الجواب على هذا النسق التعليمي المبشر، "خرج من وجهه كل خطيئة"، و"خرج من يديه كل خطيئة"، و"خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه"، ولنتأمل تكرار عبارة كل خطيئة، وذلك لغرس الطمأنينة في نفس المسلم الذي أسبغ الوضوء وصلى وأحسن أداء الصلاة، والتعبير بلفظ: "خرج" فيه تجسيد للخطايا وكأنها خالطت العين، وامتزجت باليد، وصاحبت الرجل، وأصبحت ممتزجة بشرايين كل من اقترفها، ولكنها تخرج مرغمة مهزومة من جوارح المسلم، لأن قلبه يرفضها، ودينه يأباها، والوضوء مع الصلاة يقضي عليها، ويرى القرطبي: أن العبارة مستعارة المقصود بها الإعلام بتكفير الخطايا ومحوها، ويرى بعض العلماء أن الظاهر حمل التعبير على الحقيقة: لأن الخطايا تؤثر في الباطن والظاهر سوادًا يطلع عليه أرباب الأحوال والمكاشفات، والطهارة تزيله.

فقه الحديث

يتعرض هذا الحديث إلى الوضوء الذي هو مقدمة لابد منها للصلاة ولا تصح الصلاة بدون طهور من وضوء أو تيمم عند فقد الماء أو عدم القدرة على استعماله.

وقد اتفق الفقهاء[1] على أن الوضوء له فرائض لا يصح إلا بها واتفقوا على أن من

---

(١) انظر في تفصيل ذلك: بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود ٣/١ وما بعدها، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، الزيلعي ٢/١ وما بعدها، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ١٧٩/١ وما بعدها، وحاشية الدسوقي ٨٥/١ وما بعدها، وتحفة المحتاج ١٨٩/١ وما بعدها، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٣٠/١ وما بعدها، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٥٠/١ وما بعدها، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٨٣/١ وما بعدها، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٣٣٢/٤٣ وما بعدها.

فرائض الوضوء غسل الوجه، وغسل اليدين إلى المرفقين، ومسح الرأس، وغسل الرجلين إلى الكعبين، واختلفوا بعد ذلك في بقية الفرائض فمنهم من زاد فرائض أخرى كالنية والتدليك والترتيب والموالاة وغيرها، ومنهم من قال ببعضها فقط.

وفي الاستدلال بهذا الحديث: اختلف الفقهاء في الوضوء بالماء المستعمل وهو الذي قد تُوضئ به مرة فقال أبو حنيفة والشافعي وأصحابهما(١): لا يتوضأ به، ومن توضأ أعاد، ليس بماء مطلق، وعلى من لم يجد غيره التيمم، لأنه ليس بواجد ماءً. وورد عن المالكية روايتان(٢)، الأولى: لا يتوضأ به إذا وجد غيره من الماء، ولا خير فيه فإذا لم يجد غيره توضأ به ولم يتيمم لأنه ماء طاهر ولم يغيره شيء، الثانية: أنه يجوز التيمم لمن وجد الماء المستعمل(٣).

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل الوضوء.

ثانيًا: من واجبات الداعية: الحرص على بيان ما ينتفع به المدعو.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: بيان أن الأعضاء تكون سببًا في فعل الخطايا.

رابعًا: من أساليب الدعوة: الترغيب.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: بيان فضل الله على عباده.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل الوضوء:

للوضوء فضل عظيم بيّنه رسول الله ﷺ في قوله: "إذا توضأ المسلم -أو المؤمن- فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها ..." إلخ الحديث.

قال الطيبي: (قوله: "خرج" جواب الشرط والفاء في "فغسل" مرتبة له على الشرط،

---

(١) انظر في تفصيل ذلك: حاشية ابن عابدين ١/٣٤٨-٣٥٣، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي شرح المهذب ١/٦٤-٧٦.

(٢) انظر: مواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ١/٩٢-١٠٠.

(٣) انظر: الاستذكار ٢/١٩٩.

أي إذا أراد الوضوء فغسل خرج من وجهه كل خطيئة وقوله: "كل خطيئة نظر إليها" أي نظر إلى سببها، إطلاقًا لاسم المسبب على السبب مبالغة، وكذا في البواقي، فإن قلت ذكر لكل عضو ما يختص به من الذنوب، وما يزيلها عن ذلك العضو، والوجه مشتمل على العين، والفم، والأنف، والأذن، فلم خصت بالذكر دونها؟ قلت: العين طليعة القلب ورائده، فإذا ذكرت أغنت عن سائرها. وقوله "يداه" و"رجلاه" كلها تأكيدات تفيد مبالغة في الإزالة)[1].

قال ابن عثيمين: (والوضوء أمر الله به في كتابه في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ﴾. هذا الوضوء تُطَهَّر فيه هذه الأعضاء الأربعة؛ الوجه، واليدان، والرأس، والرجلان، وهذا التطهير يكون تطهيرًا معنويًا. أماكونه تطهيرًا حسيًا فظاهر؛ لأن الإنسان يغسل وجهه، ويديه ورجليه، ويمسح الرأس، وكان الرأس بصدد أن يُغسل كما تُغسل بقية الأعضاء، ولكن الله خفف في الرأس، لأن الرأس يكون فيه الشعر، والرأس هو أعلى البدن، فلو غسل الرأس ولا سيما إذا كان فيه الشعر، لكان في هذا مشقة على الناس، ولا سيما في أيام الشتاء، ولكن من رحمة الله عز وجل أن جعل فرض الرأس المسح فقط، فإذا توضأ الإنسان لا شك أنه يطهر أعضاء الوضوء تطهيرًا حسيًا، وهو يدل على كمال الإسلام حيث فرض على معتنقيه أن يطهروا هذه الأعضاء التي هي غالبًا ظاهرة بارزة. أما الطهارة المعنوية وهي التي ينبغي أن يقصدها المسلم: فهي تطهيره من الذنوب، فإذا غسل وجهه؛ خرجت كل خطايا نظر إليها بعينيه. وذكر العين -والله أعلم- إنما هو على سبيل التمثيل، وإلا فالأنف قد يخطئ، والفم قد يخطئ؛ فقد يتكلم الإنسان بكلام حرام، وقد يشم أشياء ليس له حق أن يشمها، ولكن ذَكرَ العين؛ لأن أكثر ما يكون الخطأ في النظر؛ فلذلك إذا

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٢/ ١١.

غسل الإنسان وجهه بالوضوء خرجت خطايا عينيه، فإذا غسل يديه خرجت خطايا يديه، فإذا غسل رجليه خرجت خطايا رجليه، حتى يكون نقيًا من الذنوب. ولهذا قال الله تعالى حين ذكر الوضوء والغسل والتيمم: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ يعني ظاهرًا وباطنًا، حسًا ومعنًى: ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[١] فينبغي للإنسان إذا توضأ أن يستشعر بهذا المعنى أن وضوءه يكون تكفيرًا لخطيئاته، حتى يكون بهذا الوضوء محتسبًا الأجر على الله عز وجل[٢].

وقد وردت في السنة النبوية أحاديث كثيرة تبين فضل الوضوء، منها: ما ورد عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ ((الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ))[٣].

وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه توضأ ثم قال: إني رأيت رسول الله ﷺ توضأ مثل وضوئي هذا ثم قال ((مَنْ تَوَضَّأَ هكَذَا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ))[٤] فقد جعل رسول الله ﷺ الوضوء سببًا في غفران ما تقدم من ذنب المؤمن المتوضئ وكذلك جعل الوضوء علامة لأمته يوم القيامة.

يظهر مما سبق فضل الوضوء وأهميته للمسلم في الدنيا والآخرة.

ثانيًا- من واجبات الداعية: الحرص على بيان ما ينتفع به المدعو:

وهذا واضح في بيان رسول الله ﷺ لفضل الوضوء فقال: "إذا توضأ العبد المسلم -أو المؤمن- فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة..." ولا شك أن بيان ما يكفر الله به الذنب مما ينتفع به المدعو. وقد بين النبي ﷺ أثر الوضوء في مغفرة الذنوب، ولذا يجب على الداعية أن يحرص على ما يحقق النفع للمدعو، ومن ثم فقد حرص النبي ﷺ على بيان فضل الوضوء لأمته، وأثره في مغفرة الذنوب، ولا غرو في ذلك لأنه

---

(١) سورة المائدة، آية: ٦.

(٢) شرح رياض الصالحين ١/٣٧١.

(٣) أخرجه مسلم ٢٢٣.

(٤) أخرجه مسلم ٢٢٩.

ﷺ رؤوف رحيم بأمته، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[١].

قال ابن كثير: ("حريص عليكم" أي: على هدايتكم ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم)[٢]. وقال تعالى حكاية عن عبده ورسوله نوح عليه السلام: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[٣] وعن نبيه هود عليه السلام: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾[٤] فرسل الله جميعًا ومن يقتدي بهم من الدعاة حريصون على بيان ما ينتفع به المدعوون وعلى هدايتهم إلى الخير.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: بيان أن الأعضاء تكون سببًا في فعل الخطايا:

إن من موضوعات الدعوة المستنبطة من هذا الحديث: فعل الخطايا من خلال أعضاء الجسد، حيث بين رسول الله ﷺ خروج الخطايا من أعضاء الإنسان بالوضوء وهنا يبين أن أعضاء الإنسان هي التي يرتكب بها الذنوب، فإن لم يحفظها ويعمل ويتوب إلى الله كانت شاهدة عليه. وهذا ما قرره القرآن الكريم وبين أن هذه الأعضاء تشهد على الإنسان يوم القيامة بما اقترفت من آثام وذنوب.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[٥] قال القرطبي: (والمعنى: يوم تشهد ألسنة بعضهم على بعض بما كانوا يعملون من القذف والبهتان. وقيل: تشهد عليهم ألسنتهم ذلك اليوم بما تكلموا به "وأيديهم وأرجلهم" أي: وتتكلم الجوارح بما عملوا في الدنيا)[٦]. وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ

(١) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢٤١/٤.

(٣) سورة الأعراف، آية: ٦٢.

(٤) سورة الأعراف، آية: ٦٨.

(٥) سورة النور، آية: ٢٤.

(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢١٠/١٢/٦.

أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[١] وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَـٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[٢].

وكذلك بين رسول الله ﷺ أن الأعضاء تكون سببًا في وقوع الذنوب حيث قال: ((كُتِبَ عَلَىٰ ابْنِ آدَمَ نَصِيبُهُ مِنَ الزِّنَى. مُدْرِكٌ ذٰلِكَ لاَ مَحَالَةَ. فَالْعَيْنَانِ زِنَاهُمَا النَّظَرُ. وَالأُذُنَانِ زِنَاهُمَا الاِسْتِمَاعُ. وَاللِّسَانُ زِنَاهُ الْكَلاَمُ. وَالْيَدُ زِنَاهَا الْبَطْشُ. وَالرِّجْلُ زِنَاهَا الْخُطَا. وَالْقَلْبُ يَهْوَىٰ وَيَتَمَنَّىٰ. وَيُصَدِّقُ ذٰلِكَ الْفَرْجُ وَيُكَذِّبُهُ))[٣].

قال القرطبي: (قوله: "فالعينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام واليد زناها البطش، والرجل زناها الخطا، والقلب يهوى ويتمنى" يعني أن هواه وتمنيه: هو زناه. وإنما أطلق على هذه الأمور كلها: زنا؟ لأنها مقدماته، إذ لا يحل الزنا الحقيقي في الغالب إلا بعد استعمال هذه الأعضاء في تحصيله)[٤].

رابعًا- من أساليب الدعوة: الترغيب:

حيث رغّب رسول الله ﷺ في الوضوء وبيّن أنه سببٌ في رفع الخطايا عن المسلم، ويُعد الترغيب فيما يكفر الذنوب من الأمور المحببة للنفوس خاصة مع كثرة ذنوب الإنسان. ومن أجل ذلك رغّب الله تعالى عباده في عمل الطاعات ورغب في التوبة من الذنوب من أجل غفرانها قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾[٥] ورغب رسول الله ﷺ في كثير مما يكفر الذنوب، منها الصلاة والجمعة وغيرها قال ﷺ ((الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ. وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ. وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ. مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ. إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ))[٦].

---

(١) سورة يس، آية: ٦٥.

(٢) سورة فصلت، آية: ٢٠.

(٣) أخرجه مسلم ٢٦٥٧.

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، تحقيق: محيى الدين مستو وآخرين ٦٧٤/٦.

(٥) سورة التحريم، آية: ٨.

(٦) أخرجه مسلم ٢٣٣.

فينبغي للداعية استخدام أسلوب الترغيب في الأعمال التي تكون سببًا في تكفير الذنوب، فإنه يفتح باب الأمل في رحمة الله ورضوانه والفوز بجناته، وهذا له تأثير كبير في إقبال المدعوين على الله وطلب مرضاته والبعد عن معاصيه.

خامسًا- من موضوعات الدعوة: بيان فضل الله على عباده:

إن فضل الله عظيم على عباده المؤمنين؛ حيث إنه سبحانه بيّن سبل التخلص من الذنوب، فقد جعل الوضوء سببًا في تكفير ذنوب المسلم، فقال رسول الله ﷺ: "إذا توضأ العبد المسلم -أو المؤمن- فغسل وجهه، خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينه ..." إلخ الحديث؛ فرحمته سبحانه وتعالى وسعت كل شيء، قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[1] فالله سبحانه يغفر ذنوب عباده ويتجاوز عنها قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[2] فالله لا يعجزه أن يغفر جميع الذنوب ما بلغ جميعهامن الكثرة لأنه شديد الغفران شديد الرحمة[3]. وفضل الله على عباده عظيم حيث بيّن لهم ما يغفر ذنوبهم ويزيد حسناتهم، ومن رحمته بعباده أنه تعالى يقبل توبتهم واستغفارهم.

فعن أبي هريرة عن النبي ﷺ، فيما يحكي عن ربه عز وجل قال: ((أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فقال: اللهم اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذَ بِالذَّنْبِ. ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ. فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي. فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا. فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ. ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي. فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا. فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ. اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ))[4].

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٥٦.

(٢) سورة الزمر، آية: ٥٣.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤٢/٢٤/٩.

(٤) أخرجه مسلم ٢٧٥٨.

يدل هذا الحديث على رحمة الله بعباده، وفضله عليهم، وذلك بغفران ذنوبهم عندما يتوبون منها، ويرجعون إليه بالتوبة والاستغفار.

الحديث رقم (١٣٠)

١٣٠- الرَّابعَ عشرَ: عنه عن رسول الله ﷺ قال: «الصَّلواتُ الْخَمْسُ، والْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعةِ، ورمضانُ إِلَى رمضانَ مُكفِّرَاتٌ لِمَا بينَهُنَّ إِذَا اجْتَنِبَت الْكَبائِرُ» رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

ما أعظم البشارات التي يقدمها النبي محمد ﷺ إلى أمته، وما أكثر طرق الخير التي يرشد إليها كل مَنْ يتطلع إلى الاستكثار من العمل الصالح، وكل من يقهر وساوس الشيطان ومسالكه، ويطمح إلى طَرْق أبواب التوبة، والدخول في طاعة الله تعالى، والسير في حماه، والاستجابة لهداه، وهذا الحديث الشريف الذي يرويه أبو هريرة رضي الله عنه مع تسعة أحاديث أخرى في باب بيان كثرة طرق الخير، يفتح أمام المسلم طرقًا عديدة للتطهر من أدران الذنوب، وهذه الطرق تضيئها مصابيح الصلاة، ومنارات الصوم...، وحين نتأمل صياغة الحديث الشريف ونحدق في مفرداته وتراكيبه ندرك أن المسلم أمامه متسع زماني يمتد عبر العام كله ليتراجع عن خطاياه، ويلتزم بما أقره به الله تعالى، وأرشده إليه رسول الله ﷺ وأول منارة من منارات الطاعة هي المحافظة على الصلوات الخمس، وهي تغسل قلب المؤمن، وتطهره من دنس المعاصي، وقد جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمسًا، ما تقول ذلك يُبْقي من درنه؟ قالوا: لا يُبْقي من درنه شيئًا، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا[2].

ووجه التمثيل في هذا الحديث يتفق مع ثمرة الحديث الذي نحن بصدده، حيث يقول ابن العربي، إن المرء كما يتدنس بالأقذار المحسوسة في بدنه وثيابه ويطهره الماء

---

(١) برقم (٢٣٣/١٦). أورده المنذري في ترغيبه (٥١٥). وسيكرره المؤلف برقم (١٠٤٦)، و (١١٥١).

(٢) أخرجه البخاري ٥٢٨، ومسلم ٦٦٧.

الكثير، فكذلك الصلوات تطهر العبد من أقذار الذنوب حتى لا تبقى له ذنبًا إلا أسقطته، وقال ابن حجر: إنه لا يتم اجتناب الكبائر إلا بفعل الصلوات الخمس فمن لم يفعلها لم يعد مجتنبًا للكبائر لأن تركها من الكبائر فتوقف التكفير على فعلها، وبذلك تكون هى المكفرة للخطايا التي تقع فيما بينها[١].

وإذا كانت الصلوات الخمس مكفرات ما بينهن، كما أخبر الصادق المصدوق، وهذا التكفير اليومي يجعل المسلم يقابل يومه الجديد طاهرًا مستبشرًا مستغفرًا، فإن الجمعة أى صلاة الجمعة إلى الجمعة، تَجْتثُّ الصغائر التي اقتحمت حياة المسلم وهو في غمرة انشغاله بأمور الحياة... وهَوْشات الأسواق.

وهذه النعمة الإلهية والبشارة المحمدية تتضوأ في حديث آخر يرويه سلمان الفارسي رضي الله عنه حيث يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((من اغتسل يوم الجمعة وتطهر بما استطاع من طُهر ثم ادَّهن أو مس من طيب، ثم راح فلم يُفرِّق بين اثنين فصلى ما كُتب له، ثم إذا خرج الإمام أنصت، غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى))[٢].

وتتسع مساحة الزمن، وتتعدد أبواب الرجوع والتوبة والعمل الصالح، ولا تظل أسيرة اليوم الواحد، ولا الأسبوع الواحد، وإنما تظلل العام كله، وتتجدد هذه الحالة الإيمانية كل يوم، وكل أسبوع، وكل شهر، وكل سنة، وتتوهج هذه البشارة في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ورمضان إلى رمضان، أي وصوم رمضان إلى صوم رمضان في العام التالي: كل هذه البشارات والأبواب التي سبقت تظل بدايات بلا ثمرات في البناء اللغوي، وتجئ الثمرة في قوله، "مكفرات ما بينهن"، وهذه الجملة تتم بها فائدة الكلام فهي الخير المنتظر، وهى الثمرة المرجوة، ولكن هذه الثمرة محاصرة بشرط يقيدها ويمنع التمتع بها وهو اجتناب الكبائر، فالغفران مشروط باجتناب الكبائر، والمسلم الذي يداوم على الصلوات الخمس، ويحرص على أداء صلاة الجمعة وهو متوج بتاج الطاعة طيلة أيام الأسبوع، ثم يظل متسلحًا باليقين وهو يخوض غمار الحياة، حتى يجئ رمضان فيصومه

(١) انظر: المنهل العذب الفرات في شرح الأحاديث الأمهات ١/٢٧٨.

(٢) أخرجه البخاري ٩١٠.

إيمانًا واحتسابًا، ويفوز بمغفرة الله تعالى ورضوانه، ويبدأ مرحلة جديدة، وعامًا جديدًا وهو في نعمة الطاعة، ولذة التقوى، وصمود المؤمن في مواجهة نزغات الشياطين.

هذا المسلم المحفوف بهذه الهالات الإيمانية لن تجد الكبائر لنفسه طريقًا، ولن تقوى على اقتحام عالمه المحصن بأركان الإسلام الثابتة الراسخة.

ولذلك يشرق في هذا الحديث سر من أسرار التعبير النبوي، وهذا السر يكمن في قوله ﷺ: "إذا اجتنبت الكبائر"، ولم يقل إن اجتنبت أو لو اجتنبت، لأن إذا تفيد التحقق، فالكبائر تجتنب ولا وجود لها في سلوك كل مسلم يؤدي الصلوات الخمس، وتقوده هذه الصلوات إلى أداء صلاة الجمعة، وكلها لا تبقى من درنه شيئًا، ويمحو الله تعالى بهن الخطايا، وتقوده هذه الرحلة التطهيرية الإيمانية مع الصلوات إلى رمضان وإلى الصيام: وهو سرّ بين العبد وربّه.

وتأخير جملة الشرط "إذا اجتنبت الكبائر"، من أسرار البيان النبوي، لأن هذا التأخير يوحي ويرشد إلى أن ما سبق من طاعات هو الطريق إلى اجتناب الكبائر.

وأما الذي لا يجتنب الكبائر... مع هذه الطاعات... فإنه لا يكون صادقًا مخلصًا في طاعته، وإنما هو مراءٍ في أفعاله، وغير صادق في أقواله، ومن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له.

وربّ صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش، ورب قائم أى مصل، ليس له من قيامه إلا التعب والسهر.

وبعض العلماء فصّل القول في قوله ﷺ: "مكفرات ما بينهن" حيث أشار البلقيني أن الناس أقسام:

من لا ذنب له مطلقًا وهذا له رفع الدرجات، ومن له صغائر بلا إصرار فهى المكفرة باجتنابه الكبائر، إلى موافاة الموت على الإيمان، ومَنْ له صغائر مع الإصرار فهي التي تكفر بصالح الأعمال، ومن له كبائر وصغائر، فالمكفر بصالح العمل الصغائر فقط، ومن له كبائر فقط فيكفر منها على قدر ما كان يكفر من الصغائر.

ونص الحديث واضح... ويضئ الطريق أمام كل مسلم، والتقسيم السابق من باب

التفصيل والخلاف بين العلماء، ولكن الحديث النبوي واضح وصريح، ولا مجال للتأويل أمام هذا القول الفَصْل، وفي ختام الحديث الشريف، (مكفرات ما بينهن إذا اجتنبت الكبائر).

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل الصلاة.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضيلة يوم الجمعة.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضيلة شهر رمضان.

رابعًا: من واجبات الداعية: بيان ما يكفر الذنوب.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: تفضيل بعض الأوقات.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: أهمية اجتناب الكبائر.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل الصلاة:

إن الصلاة ركن من أركان الإسلام وقد فرضها الله تعالى على عباده المؤمنين وأمرهم بإقامتها والمحافظة عليها وعدم التفريط فيها وبيّن فضلها وقام رسول الله ﷺ ببيان فضل الصلاة في قوله: "الصلوات الخمس..."؛ فالصلاة أفضل العبادات بعد الإيمان بالله عز وجل، وقد ورد في فضلها الكثير من الآيات والأحاديث التي تبين فضلها؛ فهي سبب من أسباب الهداية والإعانة على مواجهة الصعاب.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[(١)] لقد أمر الله تعالى المؤمنين بالاستعانة على أمورهم الدنيوية بالصلاة، لأن الصلاة هي عماد الدين، ونور المؤمنين، وهي الصلة بين العبد وبين ربه، فالصلاة من أكبر المعونة على جميع الأمور، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر[(٢)].

إن الصلاة لها فضائل لا يمكن حصرها فهي تكون سببًا في البعد عن المنكر

(١) سورة البقرة، آية: ١٥٣.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، عبدالرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٥٧.

والفواحش، وسببًا في تكفير الذنوب، وبابًا عظيمًا من أبواب الخير ورضا الله عز وجل.

وقال رسول الله ﷺ ((رَأْسُ الأَمْرِ الأسْلاَمُ، وَعُمودُهُ الصَّلاَةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الجِهَادُ))(١).

ولفضل الصلاة ومكانتها كانت آخر ما أوصى به النبي ﷺ قبل مفارقته الدنيا فقال: ((الصَّلاَةَ. وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ))(٢) فالصلاة لا يساويها عمل ولا يصل إلى منزلتها أي أمر آخر لأنها ركن من أركان الدين الثابتة على المسلم فلا تسقط عنه بحال من الأحوال. فهي فريضة الله على عباده، وهي عماد الدين، والفارق بين الكفار والمسلمين، وشرط النجاة، وحارسة الإيمان(٣).

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضيلة يوم الجمعة:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "والجمعة إلى الجمعة...". إن يوم الجمعة يوم عظيم في اجتماع المسلمين في بيت من بيوت الله، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾(٤).

وحكمة الله عظيمة في جعل هذا الاجتماع على الطاعة في أفضل أيام الأسبوع الذي قال فيه رسول الله ﷺ ((يوم دعيت إليه الأمم قبلنا فضلت عنه وهدانا الله له))(٥).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ، يَوْمُ الْجُمُعَةِ. فِيهِ خُلِقَ آدَمُ وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ. وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا. وَلاَ تَقُومُ السَّاعَةُ إِلاَّ فِي يَوْمِ الْجُمعَةِ))(٦).

---

(١) أخرجه الترمذي ٢٦١٦ وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢١١٠).

(٢) أخرجه ابن ماجه رقم ٢٦٩٧ وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٢١٨٢).

(٣) الأركان الأربعة، أبو الحسن الندوي ص ٢٥.

(٤) سورة الجمعة، آية: ٩.

(٥) أخرجه البخاري رقم ٨٧٦ ومسلم ٨٥٥.

(٦) أخرجه مسلم ٨٥٤.

ومنَّ الله فيه على عباده المؤمنين بساعة إجابة للدعاء كما ورد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ ذكر يوم الجمعة فقال: ((فيه ساعةٌ لا يُوافِقُها عبدٌ مُسلمٌ وَهوَ قائمٌ يُصلِّي يَسألُ اللهَ تعالى شيئًا إلا أعطاهُ إيّاهُ))[١]. وصلاة الجمعة والمحافظة عليها تغفر الذنوب كما أخبر رسول الله ﷺ بقوله: ((لا يَغتَسِلُ رجلٌ يومَ الجُمعةِ ويتطهَّرُ ما استطاعَ مِن طُهرٍ ويَدَّهِنُ من دُهنهِ أَو يَمسُّ من طِيبِ بيتهِ، ثمَّ يخرُجُ فلا يُفرِّقُ بينَ اثنينِ، ثمَّ يصلِّي ما كُتِبَ له، ثمَّ يُنصِتُ إذا تكلَّمَ الإمامُ، إلاَّ غُفِرَ له ما بينَهُ وبينَ الجُمعةِ الأُخرى))[٢]. قال ابن القيم: (إنه اليوم -أي يوم الجمعة- الذي يستحب أن يتفرغ فيه للعبادة، وله على سائر الأيام مزية بأنواع من العبادات واجبة ومستحبة، فالله سبحانه جعل لأهل كل ملة يومًا يتفرغون فيه للعبادة، ويتخلون فيه عن أشغال الدنيا، فيوم الجمعة يوم عبادة، وهو في الأيام كشهر رمضان، ولهذا من صح له يوم جمعته وسلم، سلمت له سائر جمعته، ومن صح له رمضان وسلم، سلمت له سائر سنته، ومن صحت له حجته وسلمت له، صح له سائر عمره، فيوم الجمعة ميزان الأسبوع، ورمضان ميزان العام، والحج ميزان العمر)[٣].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضيلة شهر رمضان:

من موضوعات الدعوة في هذا الحديث فضيلة شهر رمضان وذلك في قوله ﷺ: "ورمضان إلى رمضان..." والذي قال فيه الله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾[٤]. قال ابن كثير: (يمدح تعالى شهر الصيام من بين سائر الشهور بأن اختاره من بينهن لإنزال القرآن الكريم فيه وكما اختصه بذلك)[٥]. قال الشيخ السعدي: (أي:

---

(١) أخرجه مسلم ٥٨٢.

(٢) أخرجه البخاري ٨٨٣.

(٣) زاد المعاد ١/٣٩٨.

(٤) سورة البقرة، من آية: ١٨٥.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١/٥٠١.

الصوم المفروض عليكم، هو شهر رمضان، الشهر العظيم، الذي حصل لكم فيه من الله الفضل العظيم، وهو القرآن الكريم، المشتمل على الهداية لمصالحكم الدينية والدنيوية، وتبيين الحق بأوضح بيان، والفرقان بين الحق والباطل، والهدى والضلال، وأهل السعادة، وأهل الشقاوة.

فحقيق بشهر هذا فضله، وهذا إحسان الله عليكم فيه، أن يكون موسمًا للعبادة، ومفروضًا فيه الصيام، ولذلك قرره وبيَّن فضيلته[1].

وهذا الشهر الكريم له فضائل وخصائص عظيمة يختص بها عن بقية شهور العام. من هذه الفضائل أن الله اختصه بفريضة الصيام الذي هو من أفضل الأعمال المقربة إلى الله سبحانه وتعالى وأجلها. فهو سبب لمغفرة ما تقدم من الذنوب قال رسول الله ﷺ ((مَنْ صامَ رَمَضانَ إيمانًا، واحْتِسابًا، غُفِرَ لهُ ما تَقدَّم مِنْ ذَنْبه))[2] ومن مزايا الصيام ما جاء في قول رسول الله ﷺ: ((كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضاعَفُ. الحَسَنَةُ بعَشْرُ أَمْثَالِهَا إِلَىٰ سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ. قَالَ اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِلاَّ الصَّوْمَ. فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ...))[3] فشهر رمضان شهر عظيم تكثر فيه البركات والخيرات وفيه تفتح أبواب الجنة، وتغلق أبواب النار وتكثر طاعات المسلمين وتقل ذنوبهم.

رابعًا- من واجبات الداعية: بيان ما يكفر الذنوب:

ينبغي للداعية إلى الله أن يبيَّن للمدعوين الأشياء التي يتحقق الخير بفعلها، وتكون سببًا في تكفير ذنوبهم. فقد حرص رسول الله ﷺ على بيان فضل المحافظة على الصلوات الخمس، وصلاة الجمعة، وكذلك فضل رمضان وما أعطى الله فيه عباده من الخيرات، وذلك من أجل أن يعلم المسلمون مدى رحمة الله بهم، وأنه تعالى يغفر ذنوب عباده إذا لجئوا إليه، وطلبوا مغفرته، وتحيّنوا الأوقات التي خصها الله بقبول الدعاء

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٦٩.

(٢) أخرجه البخاري ٢٠١٤.

(٣) أخرجه البخاري ١٩٠٤، ومسلم ١١٥١.

وفضلها على غيرها من الأوقات، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[(١)]. قال السعدي: (الذنوب التي دون الشرك، قد جعل الله لمغفرتها أسبابًا كثيرة كالحسنات الماحية، والمصائب المكفرة في الدنيا والبرزخ ويوم القيامة. وكدعاء المؤمنين بعضهم لبعض، وبشفاعة الشافعين، ومن دون ذلك كله رحمته التي أحق بها أهل الإيمان والتوحيد)[(٢)].

خامسًا- من موضوعات الدعوة: تفضيل بعض الأوقات:

يستنبط ذلك من عموم الحديث، فقد ميّز الله سبحانه بعض الأوقات بخصائص روحية معينة، فضلها بها على غيرها، فقد جعل الله لبعض الشهور فضلاً على بعض قال تعالى: ﴿ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾[(٣)] وقال تعالى: ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ﴾[(٤)] وقال تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾[(٥)].

كما جعل بعض الأيام والليالي أفضل من بعض، وجعل ليلة القدر خيرًا من ألف شهر قال تعالى: ﴿ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾[(٦)] وأقسم بالعشر، وهي عشر ذي الحجة على الصحيح. وكذلك تفضيل يوم الجمعة على باقي أيام الأسبوع وجعله عيد الأسبوع وكذلك تفضيل الثلث الأخير من الليل.

فالسعيد من اغتنم مواسم الشهور والأيام والساعات، وتقرب فيها إلى مولاه بالطاعات، عسى أن تصيبه نفحة من تلك النفحات، فيسعد بها سعادة يأمن بعدها من

---

(١) سورة النساء، آية: ٤٨.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ١٤٦.

(٣) سورة التوبة، آية: ٣٦.

(٤) سورة البقرة، آية: ١٩٧.

(٥) سورة البقرة، آية: ١٨٥.

(٦) سورة القدر، آية: ٣.

النار وما فيها من اللفحات[(١)].

سادسًا-من موضوعات الدعوة: أهمية اجتناب الكبائر:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "الصلوات الخمس، ... مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر".

قال ابن عثيمين: (يعني أن الصلوات الخمس تكفر الخطايا من بين صلاة الفجر إلى الظهر، ومن الظهر إلى العصر، ومن العصر إلى المغرب، ومن المغرب إلى العشاء، ومن العشاء إلى الفجر. فإذا عمل الإنسان سيئة وأتقن هذه الصلوات الخمس، فإنها تمحو الخطايا، لكن قال: "إذا اجتنبت الكبائر" يعني اجتنبت كبائر الذنوب.

وكبائر الذنوب هي: كل ذنب رتب عليه الشارع عقوبة خاصة، فكل ذنب لعن النبي ﷺ فاعله فهو من كبائر الذنوب، وكل شيء فيه حدٌّ في الدنيا كالزنا، أو وعيد في الآخرة كأكل الربا، أو فيه نفي إيمان مثل: ((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه))[(٢)] أو فيه براءة منه مثل: ((من غشنا فليس منا))[(٣)] أو ما أشبه ذلك فهو من كبائر الذنوب.

واختلف العلماء في قوله ﷺ: "إذا اجتنبت الكبائر" هل معنى الحديث أن الصغائر تكفر إذا اجتنبت الكبائر، إنها لا تكفر إلا بشرطين وهما: الصلوات الخمس، و اجتناب الكبائر، أو أن معنى الحديث أنها كفارة لما بينهن إلا الكبائر لا تكفرها، وعلى هذا فيكون لتكفير السيئات الصغائر شرط واحد هو إقامة هذه الصلوات الخمس، أو الجمعة إلى الجمعة، أو رمضان إلى رمضان، وهذا هو المتبادر، والله أعلم، أن المعنى: أن الصلوات الخمس تكفر ما بينها إلا الكبائر فلا تكفرها، وكذلك الجمعة إلى الجمعة، وكذلك رمضان إلى رمضان، وذلك لأن الكبائر لا بد لها من توبة خاصة، فإذا لم يتب توبة خاصة، فإن الأعمال الصالحة لا تكفرها، بل

---

(١) لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، رجب الحنبلي ص ٤٠.

(٢) أخرجه البخاري ١٣، ومسلم ٤٥.

(٣) أخرجه مسلم ١٠١.

لابد من توبة خاصة[١].

وقد بيّن المولى تبارك وتعالى أهمية اجتناب المسلمين للكبائر فقال: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾[٢].

قال ابن كثير: (أي: إذا اجتنبتم كبائر الآثام التي نهيتم عنها كفرنا عنكم صغائر الذنوب، وأدخلناكم الجنة، ولهذا قال: ﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾)[٣].

وقال السعدي: (وهذا من فضل الله وإحسانه على عباده المؤمنين، وعدهم أنهم إذا اجتنبوا كبائر المنهيات غفر لهم جميع الذنوب والسيئات، وأدخلهم مدخلاً كريمًا، كثير الخير وهو الجنة، المشتملة على ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ويدخل في اجتناب الكبائر فعل الفرائض التي يكون تاركها مرتكبًا كبيرة، كالصلوات الخمس، والجمعة وصوم رمضان، كما قال النبي ﷺ: "الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر".

وأحسن ما حُدَّت به الكبائر، أن الكبيرة ما فيه حدٌّ في الدنيا، أو وعيد في الآخرة، أو نفي إيمان، أو ترتيب لعنة، أو غضب عليه)[٤].

---

(١) شرح رياض الصالحين ٣٧٢/١.

(٢) سورة النساء، آية: ٣١.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢٧١/٢.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: عبدالرحمن بن معلا اللويحق ١٧٦.

الحديث رقم (١٣١)

١٣١- **الْخَامسَ عشر**: عنه قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ: «**ألا أدلُّكم على ما يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطايا، ويرْفَعُ بِهِ الدَّرجاتِ؟**» قالوا: بلى يا رسُولَ اللَّهِ، قال: «**إسباغ الْوُضوءِ على الْمَكَارِهِ وكَثْرةُ الْخُطَا إِلَى الْمسَاجِدِ، وانْتِظَارُ الصَّلاةِ بعْدِ الصَّلاةِ، فَذلِكُمُ الرِّبَاطُ**» رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

إسباغ الوضوء: أسبغ وضوءه: وفَّى كلّ عضو حقه في الغَسْل[٢].

المكاره: جمع مَكْرَه وهو ما يكرهه الإنسان ويشق عليه كشدة البرد وألم الجسم ونحو ذلك[٣].

الرباط: الرباط في الأصل: الإقامة على جهاد العدو بالحرب وارتباط الخيل وإعدادها. أي أن المواظبة على الطهارة والصلاة والعبادة كالجهاد في سبيل الله. ويكون الرباط مصدر رابطتُ: أي لازمتُ. وقيل: الرباط ههنا اسم لما يُربط به الشيء. أي: يشد، ويعنى أن هذه الخلال تربط صاحبها عن المعاصي وتكفه عن المحارم[٤].

الشرح الأدبي

إن التوبة منهج إسلامي، وسلوك إيماني، فالمسلم يراجع نفسه، ويلومها على ما اقترفت من خطايا، وما أقدمت عليه من ذنوب، ولكن التوبة ليست قولاً لا يصحبه عمل، وإنما هى في واقع المسلم سلوك وأمل، وندم على ما فَرَّطَ في جنب الله تعالى،

---

(١) برقم (٢٥١/٤١). أورده المنذري في ترغيبه (٣٠٤). وسيكرره المؤلف برقم (١٠٣١)، و (١٠٦٠).

(٢) الوسيط في (س ب غ).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير والوسيط في (ك ر هـ)، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٢٦٧.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ر ب ط)، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٢٦٧.

وأَوْبةٌ إلى طريق الطاعة حتى منتهاه، وإقامة للصلاة، وإيتاء للزكاة، وصوم رمضان إيمانًا واحتسابًا وخشية لله تعالى، وأداء لكل أركان الإسلام أداءً يرضي عنه رب العالمين، ورسوله الذي اجتباه واصطفاه.

ومحو الخطايا، ورفع الدرجات، ليس بالتأوهات والكلمات، ولكن المصطفى ﷺ يضع أمام كل مسلم. هذه المنارات التي يستضئ بها المؤمن.. ومنها الصلاة، فهى كما جاء في حديث آخر نور ينتشر في أرجاء حياة المؤمن، وفي أقطار نفسه، وآفاق قلبه وفكره، "والصلاة نور والصدقة برهان، والصبر ضياء".

ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث النبوي الشريف.

وأول ظاهرة أسلوبية: هى ظاهرة الحوار: حيث يتوجه النبي ﷺ إلى أصحابه مبشرًا بالمغفرة، ومحو الخطايا ورفع الدرجات، ويبدأ الحوار باستفتاح مُشوِّق ومُرغِّب، واستفهام يحث على الاستجابة وعلى المزيد من الفائدة، ومع الاستفتاح المبشر، والاستفهام المرغب، يتوهج الخطاب الجمعي، لأنه للأمة كلها، في كل زمان وكل مكان، واختيار الفعل "أدلكم"، ينبئ عن وجود المدلول، مع وجود الدال، وكذلك الدليل، وفي ذلك إيحاء بالتيسير، وحرص المصطفى ﷺ على محو الخطايا ورفع الدرجات، وقَدَّمَ محو الخطايا، لأنه هو الطريق إلى رفع الدرجات، والفعل "يمحو": يحتمل معنيين أو يوحي بدلالتين: وهما: إما أن يكون محو الخطايا: من ديوان الحفظة، كما قال بعض العلماء، أو أن يمحو بمعنى، يغفر، والدرجات: كلمة يَتَّسع معناها، وتعظم دلالتها، وهى تنبئ عن كرم الله سبحانه وتعالى للعبد الذي التزم بطاعة ربه، فالله يجعله في الدرجات العلى من الجنة، ويرزقه في الدنيا وضاءة الإيمان وهيبة الطاعة، ومحبة عباده المؤمنين، ولنتأمل تلهف الصحابة إلى معرفة الإجابة، وإدراك الدليل، حيث قالوا: بلى يارسول الله، والمراد: دلنا على ذلك يارسول الله، "وبلى" تأتي إجابة للاستفهام الذي تعقبه أداة نفى "ألا"، فهي لإيجاب النفي المذكور في السؤال.

والإجابة تَفْصِحُ عن ثلاثة منارات كلها تتوهج في طريق واحد: هو: إقامة الصلاة، ويبدأ المصطفى ﷺ بالوضوء، ثم الذهاب إلى المسجد، ثم أداء الصلاة... وانتظار

الصلاة التي بعدها.

ولم يأت الأسلوب مباشرًا أو آمرًا أو إحصائيًا، ولكنه جاء مرغبًا وواعدًا بالمزيد، وشارحًا كيفية الأداء المصحوب بالنية الخالصة، فقوله: "إسباغ الوضوء على المكاره"، ينبئ عن ضرورة استيعاب كل أعضاء الوضوء بالغسل والمسح واستيفاء آدابه ومكملاتها، وتحمل المشاق في سبيل ذلك، ولا يترك الوضوء الكامل لأدنى ملابسة وأقل عذر، وقوله "على المكاره"، يفصح عن ذلك تمام الإفصاح، وتأمل هذه الموجبات الكثيرة، والمعاني الغزيرة، التي أوحى بها اختيار لفظ إسباغ الوضوء، إنها تتضمن فرائض الوضوء، وسننه وآدابه، وذلك أسرار البيان النبوي البليغ.

ولفظ "إسباغ"، يرشد إلى الماء، الذي يتطهر به الإنسان، وهو عنصر أساسي في الطهارة لا يقوم عنصر آخر مقامه، فبه يطهر المؤمن من الحدث الأصغر، والحدث الأكبر، والماء طهور لا ينجسه شيء كما ورد في حديث رسول الله ﷺ الذي رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه، وهو حديث صحيح، وقال ابن حجر إسناده حسن، وفي حديث آخر يقول: ((إذا كان الماء قلتين لم يحمل الخبث))[١]، وفي رواية: لم ينجسه شيء[٢].

وخصوصية التطهر بالماء من أسرار البيان النبوي، والإعجاز العلمي في السنة النبوية الشريفة، حيث يقول العلماء المحدثون، يتصف الماء بالطهورية، أى جمعه بين الطهارة والتطهر، لأنه أى الماء الجاري، غير صالح لنمو العوامل المرضية، وتكاثرها فيه، وهو عامل مهم في تلفها وإبادتها، وتخليص الناس منها بعد فترة وجيزة من الزمن، وذلك بآليات متعددة، ووظائف حددها العلم الحديث ومنها:

إنه لا يحوي العناصر الغذائية اللازمة لنمو العوامل المرضية، ومن ثمَّ يحد من نشاطها، ويسبب ضمورها وموتها.

إن درجة حرارة الماء لا تناسب عادة ما تريده هذه العوامل وتتطلبه من أجل نموها،

---

(١) أخرجه أبو داود ٦٣، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود، ٥٦).

(٢) أخرجه أبو داود، ٦٥، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود، ٥٨).

فهي تفضل حرارة تعادل حرارة الجسم أو ما يقاربها، وهي = ٣٧° درجة مئوية.[١]

والمنارة الثانية، في طريق المغفرة ورفع الدرجات.. تجيء بعد إسباغ الوضوء: وتتمثل في حركة المؤمن والسعي إلى الصلاة، دائمًا في كل يوم، ولذلك جاء التعبير النبوي موحيًا بذلك حيث قال: "وكثرة الخطا إلى المساجد"، وفي أحاديث كثيرة تفصيل لذلك، وتوضيح هذا الأمر، وجلاء له.

والمنارة الثالثة، في طريق النجاة والمغفرة ورفع الدرجات: هي: الصلاة... وهي ثمرة الوضوء، وكثرة الخطا، وما أعظم فوائد هذه الثمرة، وما أجلَّ مقاصدها، وتأمل البلاغة النبوية الكامنة في قلب ذلك التعبير السهل الممتنع، "وانتظار الصلاة بعد الصلاة"، فهل يصلي الإنسان الفريضة ثم ينقطع عن عالم الصلاة وجَوِّها الروحي التأملي؟؟ أم يظل كما قال المصطفى ﷺ قلبه معلقًا في المساجد ؟ إن الواقع الإيماني والسلوك الإسلامي يستجيب لما أمر له رسول الله ﷺ أمرًا ضمنيًا، حيث يظل قلب الإنسان متعلقًا بالصلاة، ومنشغلاً بها، وهو في المسجد إذا كان لديه الوقت الكافي، أو كان في بيته أو في السوق، أو في أي مكان آخر، إنه لا ينقطع عن الصلاة، والاستعداد لها، والعمل بما تتطلبه من التزام بالطاعات، وانتظار للوقت اللاحق، أيا كان صباحًا أو مساءً.

ولنتأمل قول رسول الله ﷺ: فذلكم الرباط... والخطاب هنا للصحابة، ولكل الأمة الإسلامية، ولم يقل فذلك الرباط، لأن المخاطب هنا، وهو مجموع الأمة: هو المقصود: لأن الحديث بدأ بخطاب جميع أفراد الأمة كلها "ألا أدلكم" واسم الإشارة: يحدد المقصود وهو القيام بتنفيذ ما سبق التنبيه إليه والتدليل عليه، وكلمة "الرباط"، تعلن وتفصح عن المجاهدة في هذا الطريق، لأن الرباط هو: ملازمة الثغور لحماية ديار الإسلام من هجمات الأعداء، وقال العلماء: إن الالتزام بهذه الأمور الثلاثة هو الرباط الذي عناه رسول الله ﷺ، لأنه: من أعظم القهر لأعدى عدو الإنسان وهي نفسه

(١) انظر: تفصيل ذلك في كتاب: الإعجاز العلمي في السنة النبوي، د. صالح ابن أحمد رضا، ١/٤٧٤-٤٧٧.

الأمارة بالسوء، وقمع شهوتها، وقلع مكائد الشيطان من جميع أجزائها، فإن هذه الأعمال -المذكورة في الحديث- تسد طرق الشيطان والهوى عن النفس وتقهرها، وتمنعها من قبول الوساوس والشهوات فكانت هي الرباط الحقيقي وهو الجهاد[(١)].

والمعاني السابقة كلها من موحيات الأسلوب النبوي، البليغ الفريد، المشع بالمعاني المتعددة والتي نستوحيها من قوله ﷺ: "فذلكم الرباط".

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى أكثر من حكم فقهي:

الأول: حكم إسباغ الوضوء، وقد اتفق الفقهاء[(٢)] على أنه إن أريد بالإسباغ تعميم الأعضاء الواجب غسلها فهو واجب، وإن أريد به الزيادة والتوفية فهو مندوب.

الثاني: حكم صلاة الجماعة، وقد سبق الكلام عنها في الحديث رقم (١٠).

الثالث: كثرة الخطا إلى المساجد، وقد ذكر الفقهاء[(٣)] أن من الأعمال المستحبة التي يحصل بها للمكلف فضيلة كثرة الخطا إلى المساجد، وكثرة الخطا يكون ببعد الدار عن المسجد ويكون بكثرة التكرار عليه.

---

(١) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٣١٦/١.

(٢) شرح فتح القدير ٢٦/١، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ٢٨٤/١، وشرح الخرشي ١٣١/١، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٢٦٠/١، وحاشية الجمل على شرح المنهج ١٣٠/١، وحاشية البيجرمي ١٤٧/١، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ١٤١/١، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ١٥٦/١، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٥١/١، وسبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، إسماعيل الصنعاني ٦٦/١، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، الإمام الشوكاني ١٨٥/١، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٤٣/٣، ١٤٤/٤ وما بعدها.

(٣) المنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ٢٨٥/١، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٩٠/٤، وغذاء الألباب شرح منظومة الآداب، الإسفراييني الحنبلي ٣٢٥/٢.

الرابع: حكم انتظار الصلاة بعد الصلاة، وقد ذكر الفقهاء[1] أن من الأعمال المستحبة للمكلف انتظار الصلاة في المسجد بعد الصلاة كما في الظهر والعصر والمغرب والعشاء، ويطلق على الجلوس في المسجد انتظارًا للصلاة اسم الرباط أخذًا من هذا الحديث[2].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التشويق.

ثانيًا: من واجبات الداعية: إرشاد الناس إلى الخير.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الحث على إحسان الوضوء.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل كثرة الخُطا إلى المساجد.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: فضل المحافظة على الصلاة لوقتها.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: فضل مجاهدة النفس.

سابعًا: من وسائل الدعوة: التعليم.

أولاً- من أساليب الدعوة: التشويق:

أسلوب التشويق من الأساليب الدعوية المفيدة التي تدل على قدرة الداعية على جذب انتباه المدعوين. ويظهر أسلوب التشويق في هذا الحديث عندما بدأ النبي ﷺ قوله (بألا...) وهي للتنبيه حيث لفت انتباه المدعوين ثم قال ﷺ (على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع الدرجات) فشوّق ﷺ إلى سماع حديثه وكذلك رغبهم في إتيان هذا العمل الذي سوف يذكره، وهذا يدل على إجادة استخدام الألفاظ في التشويق، وكذلك براعة الاستهلال فتكون هذه الكلمات القليلة مشتملة على عدة أساليب من

---

(١) المنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ٢٨٥/١، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٩٠/٤، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين بن الحسن ٣٦٥/٢، والفروع، ابن مفلح ١٣٤/٢، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٤٩/٢.

(٢) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية٧٦/٢٢.

أساليب الدعوة فاشتملت على أسلوب (لفت الانتباه وأسلوب التشويق وأسلوب الترغيب) وهذا يدل على بلاغة الرسول ﷺ وقوة بيانه وإجادة توظيفه للكلمات وهذا ما ينبغي أن يتعلمه الداعية ويعمل به، مقتديًا في ذلك برسول الله ﷺ.

ثانيًا: من واجبات الداعية: إرشاد الناس إلى الخير:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع الدرجات"... إلخ الحديث.

إن من واجبات الداعية إرشاد الناس إلى الخير، لأن دعوته إذا لم تتضمن الخير للمدعوين لا تكون في مصلحتهم، ومن هنا ينفر منها الناس ويعتبرونها خصمًا لهم فيقفون لها بالمرصاد، ويحرضون على خصومتها ويحضون على محاربتها[1].

وإرشاد المدعوين إلى الخير هو شأن الرسل عليهم السلام وشأن الدعاة إلى الله. قال تعالى حكاية عن مؤمن آل فرعون: ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ۝٤١ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ۝٤٢﴾[2] ودعاء الصالحين دائمًا أن يكونوا أئمة في الخير قال تعالى عنهم: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ۝٧٤﴾[3] أي: أئمة يقتدون في الخير بنا[4].

ويظهر إرشاد المدعوين إلى الخير في الحديث في دعوته ﷺ لأمته إلى ما يمحو خطاياهم ويرفع درجاتهم.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: الحث على إحسان الوضوء:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا... إسباغ الوضوء على المكاره" قال القرطبي: (قوله: "إسباغ الوضوء على المكاره" أي: تكميله

(١) انظر: مستلزمات الدعوة في العصر الحاضر، علي بن صالح المرشد ص ٢٤١.

(٢) سورة غافر، الآيتان: ٤١، ٤٢.

(٣) سورة الفرقان، آية: ٧٤.

(٤) تفسير البغوي، ٦/٩٩.

وإيعابه مع شدة البرد وألم الجسم ونحوه)[١]. وقال ابن عثيمين: (إسباغ الوضوء على المكاره، يعني إتمام الوضوء في أيام الشتاء، لأن أيام الشتاء يكون الماء فيها باردًا، وإتمام الوضوء يعني إسباغه فيحصل بذلك مشقة على النفس، فإذا أسبغ الإنسان وضوءه مع هذه المشقة، دل ذلك على كمال الإيمان فيرفع الله بذلك درجات العبد، ويحط عنه خطيئة)[٢].

وقد ورد حث رسول الله ﷺ على إحسان الوضوء وبيّن فضل ذلك فقال: ((لاَ يَتَوَضَّأُ رَجُلٌ مُسْلِمٌ فَيُحْسِنُ الْوُضُوءَ. فَيُصَلِّي صَلاَةً. إِلاَّ غَفَرَ اللهُ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الصَّلاَةِ الَّتِي تَلِيهَا))[٣].

وقال أيضًا ﷺ: ((مَا مِنِ امْرِىءٍ مُسْلِمٍ تَحْضُرُهُ صَلاَةٌ مَكْتُوبَةٌ. فَيُحْسِنُ وُضُوءَهَا وَخُشُوعَهَا وَرُكُوعَهَا. إِلاَّ كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا قَبْلَهَا مِنَ الذُّنُوبِ. مَا لَمْ تُؤْتَ كَبِيرَةٌ. وَذٰلِكَ الدَّهْرَ كُلَّهُ))[٤].

فالحث على إحسان الوضوء وإسباغه أمر ضروري للمسلم حتى يحصل له الثواب والفضل الذي وعد به النبي ﷺ.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل كثرة الخُطا إلى المساجد:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "وكثرة الخُطا إلى المساجد...".

قال القاضي عياض: (كثرة الخطا تكون ببُعْد الدار وكثرة التكرار)[٥].

وقال ابن عثيمين: (كثرة الخطا إلى المساجد، يعني أن يقصد الإنسان المساجد، وذلك في الصلوات الخمس، ولو بَعُد المسجد، فإنه كلمًا بَعُد المسجد عن البيت ازدادت حسنات الإنسان، فإن الإنسان إذا توضأ في بيته، ثم خرج منه إلى المسجد لا يخرجه إلا

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، تحقيق: محيى الدين مستو وآخرين ٥٠٧/١.

(٢) شرح رياض الصالحين ٣٧٢/١.

(٣) أخرجه مسلم ٢٢٧.

(٤) أخرجه مسلم ٢٢٨.

(٥) إكمال المعلم ٢٧٠.

الصلاة، لم يخط خطوة واحدة إلا رفع الله له بها درجة، وحط عنه بها خطيئة)[١].

فقد جعل الله سبحانه المساجد بيوته وأنعم على عباده بأن جعل المشي إليها سببًا في محو الخطايا ورفع الدرجات، قال تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾[٢] أي: خطاهم إلى المساجد[٣].

وقال رسول الله ﷺ ((إِنَّ أَعْظَمَ النَّاسِ أَجْرًا فِي الصَّلَاةِ أَبْعَدُهُمْ إِلَيْهَا مَمْشىً، فَأَبْعَدُهُمْ))[٤] وبين ﷺ أن الخُطا إلى المساجد ترفع الدرجات وتمحو الخطايا فقال: ((...إذا تَوضَّأَ فأَحسَنَ الوُضوءَ، ثمَّ خرَجَ إلى المسجدِ لا يُخرِجهُ إلاّ الصلاةُ، لم يَخْطُ خُطوة إلا رُفِعَتْ له بها درجةٌ وَحُطَّ عنه بها خَطيئةٌ...))[٥].

خامسًا- من موضوعات الدعوة: فضل المحافظة على الصلاة لوقتها:

لاشك أن المحافظة على الصلاة لوقتها تدل على مدى التزام المسلم وحرصه على مرضاة الله تعالى، ورغبته في حصول المثوبة والفضل، وقد حثّ النبي ﷺ على أهمية ذلك فقال في الحديث: "وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط".

قال ابن علان: ("وانتظار الصلاة" أي: وقتها أو جماعتها. "بعد الصلاة" منفردًا أو في جماعة، وذلك بأن يجلس في المسجد، أو في بيته، أو سوقه، أو شغله لانتظارها، وذلك لتعلق فكره وقلبه بها، فهو دائم الحضور والمراقبة غير ملْتَهٍ عن أفضل العبادات البدنية بشيء)[٦].

وقد مدح الله تعالى الذين يحافظون على الصلاة فقال سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ الآيات ثم قال ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[٧] أي يواظبون عليها في

(١) شرح رياض الصالحين ١/٢٧٣.

(٢) سورة يس، آية: ١٢.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٦/٥٦٦.

(٤) أخرجه البخاري ٦٥١، ومسلم ٦٦٢.

(٥) أخرجه البخاري ٦٤٧، ومسلم ٣٦٢.

(٦) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٢٧٠.

(٧) سورة المؤمنون، الآيتان: ١، ٩.

مواقيتها[١].

وعن ابن مسعود ﷺ قال: سألت النبي ﷺ فقلت يا رسول الله، أيّ العمل أحب إلى الله؟ قال: ((الصلاةُ عَلَى وَقتِها))[٢].

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال أشهد أني سمعت رسول الله ﷺ يقول ((خَمْسُ صَلَوَاتٍ افْتَرَضَهُنَّ الله عَزَّوَجَلَّ، مَنْ أَحْسَنَ وُضُوءَهُنَّ وَصَلاَّهُنَّ لِوَقْتِهِنَّ وَأَتَمَّ رُكُوعَهُنَّ وَخُشُوعَهُنَّ، كَانَ لَهُ عَلَى الله عَهْدٌ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ، وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ فَلَيْسَ لَهُ عَلَى الله عَهْدٌ، إِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ، وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ))[٣].

فالمحافظة على الصلاة في وقتها من أسباب مغفرة الله تعالى لذنوب العبد، وهي من أحب الأعمال إلى الله فينبغي للمسلم أن يحافظ على الصلاة في وقتها.

سادسًا- من موضوعات الدعوة: فضل مجاهدة النفس:

يستنبط ذلك من قوله ﷺ "فذلكم الرباط" قال شبير العثماني: (في قوله: "فذلكم الرباط" إلخ بكسر الراء، يقال رابطت أي: لازمت الثغر، وهو أيضًا لما يربط به، وسمي مكان المرابطة رباطًا. قال القاضي: إن هذه الأعمال هي المرابطة الحقيقية، لأنها تسدّ طرق الشيطان على النفس، وتقهر الهوى، وتمنعها من قبول الوساوس، فيغلب بها حزب الله جنود الشيطان، وذلك هو الجهاد الأكبر، وذلكم إشارة إلى أن ما ذكر من الطاعات والخصال المذكورة هو الرباط المذكور في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾[٤] والرباط الجهاد أي: ثواب هذه كثواب الجهاد، إذ فيه مجاهدة النفس بإذاقتها المكاره والشدائد، كما في الجهاد)[٥].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٤٦٣/٥.

(٢) أخرجه البخاري ٥٩٧٠، ومسلم ٨٥.

(٣) أخرجه أبو داود ١٤٢٠، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ١٢٥٨).

(٤) سورة آل عمران، آية: ٢٠٠.

(٥) موسوعة فتح الملهم ٤٩١/٢.

إن مجاهدة النفس وإخضاعها لطاعة الله وبعدها عن هواها وصدها لوساوس الشيطان وتعويدها الصبر عند الشدائد أمر مطلوب، وله أثر عظيم على المسلم قال ابن بطال: جهاد المرء نفسه هو الجهاد الأكمل[1]. قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[2].

ولنا في رسل الله المثل الأعلى والقدوة الحسنة في مجاهدة النفس، قال تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[3]. وهذا نبينا محمد ﷺ الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ولم يركن إلى نفسه، فكان كما أخبرت به أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: كان إذا صلى، قام حتى تفطر رجلاه فقالت عائشة: يا رسول الله أتصنع هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: ((يَا عَائِشَةُ أَفَلاَ أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟))[4].

سابعًا- من وسائل الدعوة: التعليم:

إن وسيلة التعليم من الوسائل المهمة في مجال الدعوة إلى الله تعالى بالنسبة للداعية والمدعو أيضًا، لأنه من خلال التعليم يستطيع الداعية بيان الأمور للمدعوين، ويستطيع المدعو أيضًا أن يستوعب ويفهم ما خفي عليه من أمور الدين أو ما جهله، وتتضح أهمية هذه الوسيلة في الحديث الذي معنا من خلال قيام تعليم النبي ﷺ أصحابه فضل إسباغ الوضوء، وكثرة الخُطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة والمحافظة عليها وكذلك فضل مجاهدة النفس، وبيان أن ذلك يمحو خطاياهم ويرفع درجاتهم.

وهذا كان دأب النبي ﷺ دائمًا مع أصحابه، حيث إنه كان حريصًا على

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٣٤٥/١١.

(٢) سورة النازعات، الآيتان: ٤٠، ٤١.

(٣) سورة يوسف، آية: ٢٣.

(٤) أخرجه البخاري ٤٨٧٣، ومسلم ٢٨٢٠ واللفظ له.

تعليمهم أمور دينهم، ويدل على ذلك ما رواه أبو رفاعة تميم بن أسيد ﵁ قال: ((انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يخطب، فقلت: يا رسول الله رجل غريب جاء يسأل عن دينه لا يدري ما دينه، فأقبل عليّ رسول الله ﷺ وترك خطبته حتى انتهى إلي فأتى بكرسي فقعد عليه وجعل يعلمني مما علمه الله ثم أتى خطبته فأتمها))[١].

فلولا أن تعليم الناس أمور الإسلام أمر ضروري ولا يحتمل التأخير لما ترك رسول الله ﷺ خطبته ونزل لتعليم السائل.

فعلى الدعاة إلى الله أن يعلموا الناس أحكام الإسلام، ويعرفونهم بحدود الله وبيان تفاصيل الدين[٢].

---

(١) أخرجه مسلم ٨٧٦.

(٢) أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان ص ٤٤٣.

الحديث رقم (١٣٢)

١٣٢- السَّادسَ عشرَ: عن أَبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: «مَنْ صلَّى الْبَرْدَيْنِ دَخَلَ الْجنَّةَ» متفقٌ عليه[1].

ترجمة الراوي:

أبو موسى الأشعري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨).

غريب الألفاظ:

«البرْدَانِ»: الصُّبْحُ والْعَصْرُ[2].

الشرح الأدبي

إن من أفضل الأعمال: الصلاة لوقتها، وهذه الأفضلية مردودها وخيرها يعود بالنفع على المسلم في جميع أوقاته، صباحًا ومساءً، فالصلاة صلة بين العبد وربه، وهذه الصلة فيها أقوال، وأفعال، وقراءة وركوع وسجود، ومناجاة صادقة في كل حركة من أركان الصلاة القولية والعملية.

ونقتبس من هذا الحديث الموجز قبسات من الوعود النبوية الصادقة، وأشعة من فيوضات الجزاء الأوفى، والنعيم الأكبر في جنة أعدت للمتقين، ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًا﴾[3].

والحديث يتكون من جملة لغوية واحدة، وهي جملة شرطية، تتكون من خمسة ألفاظ، وفعل الشرط، "صلى البردين"، الجواب: "دخل الجنة"، والصلاة هنا ليست مطلقة ولكنها مقيدة بزمنين: ينشغل الناس فيهما، ويصيبها الكسل أحيانًا: وهما:

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٤)، ومسلم (٦٣٥/٢١٥) ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه (٦٤١). وسيكرره المؤلف برقم (١٠٤٨).

(٢) رياض الصالحين ١٠٢، ٤٠٠.

(٣) سورة الزمر، آية: ٧٣.

وقت الصبح ووقت العصر.

وبراعة الأسلوب النبوي تتجلى في إطلاق هذا المسمّى على هذين الوقتين: ولكن ما العلاقة بين هذه الصفة، وبين طبيعة هذين الوقتين، قيل: هذان الوقتان سميا بردين لأنهما يصليان في بَرْدى النهار وهما طرفاه حين يطيب الهواء وتذهب شدة الحر.

وربما يرجع السرّ في تفضيل هذين الوقتين إلى أنهما تتلاقى فيهما الملائكة، ويشهدون المصلين، ويشهدون لهم عند ربهم؛ كما جاء في الحديث الشريف الذي يرويه ((أبو هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون))[١].

والحكمة في اختيار هَذَيْن الوقتين أن العبد إذا حافظ عليهما، وأحدُهما في وقت شغله وهو العصر، والصلاة الأخرى في وقت يغلب فيه النوم كان أهلاً لأن يفاخر به أمام الملائكة، ولأنه يكون على غيرهما أشد محافظة، ولذلك تشهد لهم الملائكة بالمحافظة على الصلاة لوقتها وخاصة في البردين. فتقول الملائكة حينما يسألهم الحق سبحانه وتعالى وهو أعلم بهم، "كيف تركتم عبادي؟ فيقولون تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون".

والتفسير اللغوي للحديث يفتح دلالة أخرى لها صلة بكيفية الصلاة وعدد فروضها في بعض مراحل التشريع حيث يرى بعض العلماء أن "من" اسم موصول وليست شرطية، والمراد: أن من صلى الفرضين في هذين الوقتين دخل الجنة؛ لأن الصلاة كما يقول العلماء: فرضت أولاً ركعتين بالغداة وركعتين بالعشي، ويروى عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: فرض الله الصلاة حين فرضها ركعتين ركعتين في الحضر والسفر، فأقرت صلاة السفر، وزيد في صلاة الحضر[٢].

---

(١) أخرجه البخاري ٥٥٥، ومسلم ٦٣٢.

(٢) أخرجه البخاري ٣٥٠، ومسلم ٦٨٥.

ويرى بعض العلماء أن المراد بالبردين، الصبح والعشاء، لأنهما يكونان في طقس معتدل، وهواء بارد بمعزل عن شدة الحرارة، وفي وقت العشاء يكثر النعاس فيثقل البدن بواسطته مع الامتلاء بالعشاء فتشق الصلاة، فمن صلاها مع ذلك استحق دخول الجنة، وكذلك صلاة الفجر تكون عند النوم ولذته والاستغراق فيه، فمن قاوم ذلك الكسل، وانتصر على الشيطان الذي قال له عند النوم، عليك ليل طويل فارقد، وذكر الله تعالى، وتوضأ وصلى دخل الجنة، وأصبح نشيطًا طيب النفس، والبشارة النبوية نلمح تحققها في التعبير بصيغة الماضي عن المستقبل مما يدل على التحقق، لأن الله تعالى وعد بذلك وهو سبحانه لا يخلف الميعاد، فدخول الجنة متحقق -إن شاء الله- بعونه وفضله وإرادته.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى وقتين من أوقات الصلاة وهما صلاة الصبح وصلاة العصر كما ذكر الفقهاء[1] وبردا النهار هما طرفاه حين يطيب الهواء وتذهب فورة الحر وشدته، ولأداء هذين الفرضين في وقتهما عظيم الأجر عند الله تعالى.

ولا خلاف بين الفقهاء[2] على أن صلاة الصبح يبدأ وقتها عند طلوع الفجر الصادق وآخره عند جمهور الفقهاء طلوع الشمس، أما صلاة العصر فيبدأ وقتها عند جمهور

---

(١) أحكام القرآن، ابن العربي ٣/٢٩، ٤/٣٠٧، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ١/٣٨٩، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٣/٤٩٨، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين بن الحسن ٢/٣٠٥، المغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ١/٢٢٩.

(٢) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود ١/٨٩ وما بعدها، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، الزيلعي١/٧٩ وما بعدها، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم المصري ١/١٦٤ وما بعدها، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ١/٣٨١ وما بعدها، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ١/١١٥ وما بعدها، وتحفة المحتاج ١/٤١٧ وما بعدها، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ١/١٤٢ وما بعدها، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ١/٢٤٩ وما بعدها، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية٧/١٧١ وما بعدها.

الفقهاء من حين الزيادة على المثل، وعند أبي حنيفة من عند الزيادة على المثلين، وذهب أكثر المالكية إلى تداخل وقتي الظهر والعصر، فلو أن شخصًا صلى الظهر عند صيرورة ظل كل شيء مثله، وآخر صلى العصر في هذا الوقت، كانت صلاتهما أداء، وخالف في ذلك ابن حبيب وابن العربي.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل صلاتي الفجر والعصر.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: الترغيب.

ثالثًا: من واجبات الداعية: بيان الأفضل من الأعمال.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل صلاتي الفجر والعصر:

إن مما يظهر من هذا الحديث فضل صلاتي الفجر والعصر، وذلك في قوله ﷺ: "من صلى البردين دخل الجنة"، قال ابن حجر: (قوله: "من صلى البردين" بفتح الموحدة وسكون الراء تثنية بَرْد، والمراد: صلاة الفجر والعصر. وقال الخطابي: سميتا بردين لأنهما تصليان في بردي النهار وهما طرفاه حين يطيب الهواء تذهب فورة الحر)[(١)]. وقال ابن علان: (ووجه تخصيصهما بالذكر أن وقت الصبح يكون عند النوم ولذته، ووقت العصر يكون عند الانشغال بتتمات أعمال النهار وتجارته وتهيئة العشاء، ففي صلاته لهما لم يمنع ذلك من إتيانه بجميع الصلاة الأخرى، وإنه إذا حافظ عليها كان أشد محافظة على غيرهما، فالاقتصار عليها لما ذكر، لا لإفادة أن من اقتصر عليهما بأن أتى بهما دون باقي الخمس يحصل له ذلك، لأنه خلاف النصوص)[(٢)]. ويؤيد ذلك قول الله تعالى: ﴿ حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾[(٣)].

وقال رسول الله ﷺ: ((لَنْ يَلِجَ النَّارَ أَحَدٌ صَلَّى قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١/٥٣٧.

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٢٧١.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٣٨.

غُرُوبِهَا))[(١)]، يعني الفجر والعصر. "أي: لن يدخل النار من عاهد وحافظ على هاتين الصلاتين ببركة المداومة عليهما"[(٢)].

وعن جرير قال: "كنا مع النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة - ليلة البدر - فقال: ((إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هذَا الْقَمَرَ. لاَ تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ. فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لاَ تُغْلَبُوا عَلَى صَلاَةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْل غُرُوبِهَا)) ثُمَّ قَرَأَ جَرِيرٌ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾[(٣)]، وقبل طلوع الشمس، أي: صلاة الفجر، وقبل غروبها، أي: صلاة العصر[(٤)]. وخص هذين الوقتين لاجتماع الملائكة فيهما ورفعهم أعمال العباد ولئلا يفوتهم هذا الفضل العظيم[(٥)].

ثانيًا- من أساليب الدعوة: الترغيب:

من أساليب الدعوة المهمة: الترغيب، ويظهر أسلوب الترغيب في هذا الحديث في الترغيب في صلاتي الفجر والعصر، ببيان أن ذلك يدخل من حافظ عليها الجنة، فينبغي للداعية أن يفيد من هذا الأسلوب في دعوته، لأنه يعمل على ترغيب المدعو في تحصيل الثواب والفضل ومسارعته إلى فعل الطاعات؛ (لأن الأصل في الترغيب أن يكون بنيل رضى الله ورحمته، وجزيل ثوابه في الآخرة، وهذا نهج الرسل الكرام كما بينه القرآن وجاءت به السنة النبوية المطهرة)[(٦)].

ثالثًا- من واجبات الداعية: بيان الأفضل من الأعمال:

إن من واجبات الداعية في الدعوة إلى الله بيان الأفضل من الأعمال، وهذا ما كان

---

(١) أخرجه مسلم ٦٣٤.

(٢) المفهم، القرطبي ٢/٢٦٢.

(٣) سورة طه، آية: ١٣٠.

(٤) أخرجه البخاري ٥٥٤، ومسلم ٦٣٣.

(٥) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢/٤١.

(٦) انظر: مستلزمات الدعوة في العصر الحاضر، علي بن صالح المرشد ص ١٦٠.

يعلمه رسول الله ﷺ لأمته، فقد ثبت أن رسول الله ﷺ قال: ((فإذا سألتمُ اللهَ فاسألوهُ الفِردَوسَ فإنهُ أوْسَطُ الجنة وأعلى الجنة وفوقَهُ عرشُ الرحمنِ - ومنهُ تَفَجَّر أنهارُ الجنة))(١)، فإن أنواع الجنة كلها سعادة ونعيم ولكن رسول الله ﷺ بين الأفضل لأمته وحثهم على طلبه، وقد بين الأفضل من الصلوات في هذا الحديث (صلاتي الفجر والعصر)، وعلة التفضيل تعاقب الملائكة، قال رسول الله ﷺ: ((يَتعاقَبونَ فِيكمْ مَلائِكَةٌ بالليلِ ومَلاَئِكةٌ بالنَّهَارِ، ويجتمعونَ في صلاةِ الفَجرِ وصلاةِ العصر، ثمَّ يَعرُجُ الذينَ باتوا فِيكمْ، فيَسْأَلُهُمْ -وهوَ أَعلمُ بهم-: كيفَ تَركتُمْ عِبادي؟ فيَقُولونَ: تَركْنَاهمْ وهم يُصلُّونَ، وأَتيناهُمْ وهم يُصلُّون))(٢).

فالصلاة كلها خير وعظيمة الأجر، ولكن الأفضل منها ما ذكر. فعلى الداعية إلى الله أن يبين الأفضل من الأعمال ويحث المدعوين على القيام به، وهذا لا يمنع الإتيان بالمفضول أيضًا، لأن الإتيان به لا بديل عنه، فإذا كانت الدعوة في هذا الحديث بإتيان صلاتي الفجر والعصر والمحافظة عليهما، فهذا لا يمنع من الدعوة إلى باقي الصلوات والمحافظة عليها، لأن الصلاة لا تسقط عن المسلم المكلف بحال من الأحوال، ولكن المراد بيان فضل هذين الوقتين.

---

(١) أخرجه البخاري ٢٧٩٠، ٧٤٢٣.

(٢) أخرجه البخاري ٥٥٥، ٣٢٢٣، ٧٤٢٩، ٧٤٨٦، ومسلم ٦٣٢.

الحديث رقم (١٣٣)

١٣٣- **السَّابِعَ عشَر**: عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**إذَا مرِضَ الْعبْدُ أَوْ سافَر كُتِب لَهُ مِثْلُ ما كانَ يعْملُ مُقِيمًا صحيحًا**» رواه البخاري[1].

ترجمة الراوي:

أبو موسى الأشعري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨).

الشرح الأدبي

إن ميزان صحة العمل يقاس بالنية الصالحة، والعمل الذي لا تصحبه نية وإرادة لا قيمة له في المنهج الإسلامي؛ لأن النية في اللغة نوع من القصد والإرادة، وفي اصطلاح العلماء تأخذ دلالة النية ظلالاً من الدلالة اللغوية، ولكن القصد يرتبط بالله عز وجل: فالنية الخالصة معناها، تميز المقصود بالعمل: وهل هو لله وحده لا شريك له، أم لله وغيره؟.

وهذا الحديث الشريف يوضح الكرم الإلهي، والثواب الرباني لكل عبد أخلص نيته، وقام بالعمل الصالح عملاً بقول الله عز وجل: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾[2].

وما أعظم فضل الله تعالى، وما أكرمه وهو يفتح طرق الخير أمام الصالحين الأبرار الأخيار، وهذا الفضل الإلهي يقدمه رسول الله ﷺ تقديمًا فيه ترغيب، وفيه حَفْزٌ لأصحاب الهمم وإن كانوا من ذوي الحاجات، أو كانوا من الذين يكابدون عناء السفر، وقد صيغ هذا الحديثُ في قالب الشرط والجواب، دلالة على تحقق الثواب ومضاعفته؛ حيث يعرض المصطفى ﷺ حالتين يمر بهما بعض المؤمنين، إحداهما: حالة المرض، والأخرى حالة السفر، وفي الحديث إيجاز.. لأن حالة المرض تستدعي عدم

---

(١) برقم (٢٩٩٦). أورده المنذري في ترغيبه (٥٠١٣).

(٢) سورة العصر: ١-٣.

القيام بالعبادة على الوجه الأمثل، فالمرض: هو حالة من العجز عن أداء العبادات على الوجه الأكمل، فكم من مريض يشتاق إلى الذهاب للمسجد، ولكن لا يستطيع، وكم من مريض يتمنى أن يصوم رمضان، ويَنْعم بطاعة الله تعالى، وهو يؤدي هذه الفريضة التي تمثل سرًا بين العبد وربه، ولكن لا يقدر، وكم من مريض يتحرق شوقًا إلى شد الرحال إلى المسجد الحرام، للحج أو العمرة، وإلى شد الرحال للمسجد النبوي.

والمريض في كل هذه المواقف بنية خالصة لله تعالى وحده لا شريك له.

وكذلك العبد المسافر سفرًا يبتعد به عن أداء الصلوات مع الجماعة في المسجد، ويمنعه أحيانًا من أداء الصوم على الوجه الأكمل، وقد شرع الإسلام لكل من أَلَمَّ به مرض، ولكل من أرهقه السفر، الرخص المشروعة مثل قصر الصلاة، والجمع بين الفروض، والإفطار في رمضان ثم القضاء بعد ذلك حسب آراء الفقهاء في هذه الحالات.

ولذلك يأتي، جواب الشرط، مطمئنًا كل مسلم يحول المرض بينه وبين أداء العبادات على الوجه الأكمل، وكل مسافر تحول ظروف السفر بينه وبين ممارسة العبادة وأدائها أداءً كاملاً مثل المقيم، وهذا الاطمئنان يأتي جازمًا حاسمًا في قوله ﷺ: "كتب له مثل ما كان يعمل مقيمًا صحيحًا"، والتعبير بلفظ "كتب" أي: كتب الله تعالى له، وهذا وعد صادق، وثواب حاسم مضاعف من الله عز وجل، ولم يقل: كتب له مثل المقيم، وإنما يكتب له مثل الأجر والبر الذي يكتب له وهو يعمل مقيمًا صحيحًا، وفي ذلك إشارة إلى أن العبد لابد أن يقوم بالأعمال الصالحة، وأداء العبادات على الوجه الأكمل وهو يتمتع بالصحة والقوة، ويتمتع بنعمة الاستقرار والإقامة.

ومنطوق الحديث يوضح الوجه الإيجابي للمسلم في حِلّه وسفره، وفي صحته ومرضه، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، وهذا المنطوق يشع بمفهوم يجب التنبه له وهو أن الذي لا يعمل صالحًا وهو مقيم صحيح، لا يستحق أي ثواب وهو مريض أو مسافر، لأنه لم يُقدِّمُ الخير، ولم يتعرف إلى الله تعالى في الرخاء، فلا يستحق أي ثواب أو جزاء من الكبير المتعال.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: رحمة الله ولطفه بعباده.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: الترغيب.

ثالثًا: من واجبات المدعو: الحرص على الأعمال الصالحة.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل النية.

أولاً- من موضوعات الدعوة: رحمة الله ولطفه بعباده:

إن من الشواهد التي تؤكد رحمة الله بعباده في هذا الحديث قوله ﷺ: ((إذا مرض العبد أو سافر كُتب له مثل ما كان يعمل مقيمًا صحيحًا)) قال ابن عثيمين: (يعني أن الإنسان إذ كان من عادته أن يعمل عملاً صالحًا، ثم مرض فلم يقدر عليه فإنه يكتب له الأجر كاملاً والحمد لله على نعمه)[١]؛ لأن الله عز وجل أرحم الراحمين بعباده، لطيف رحيم يضاعف لهم الحسنات ويمحو عنهم السيئات، ويثيب على نية الخير وإن لم يعمل، ولا يعاقب على نية الشر إلا إذا عمل، قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[٢].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى، قال: ((إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة وإن هم بها فعملها كتبها الله عز وجل عنده عشر حسنات إلى سبع مائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة))[٣].

وتظهر رحمة الله ولطفه بعباده في حق من كان يعمل طاعة فمنع منها بسبب مرض أو سفر بأن جعل له أجر الطاعة كأصلح ما كان يعمل وهو صحيح مقيم[٤].

---

(١) شرح رياض الصالحين ٣٧٤/١.

(٢) سورة الأنعام، آية: ١٦٠.

(٣) أخرجه البخاري ٦٤٩١، ومسلم ١٣١.

(٤) انظر فتح الباري، ابن حجر ١٥٩/٦.

ثانيًا- من أساليب الدعوة: الترغيب:

من أساليب الدعوة المهمة أسلوب الترغيب، ويظهر الترغيب في حثّ النبي ﷺ المسلمين على ثبات النية على طاعة الله عز وجل، حتى إذا عرض له عارض من مرض أو سفر يكون له ثواب الطاعة حالة القيام بها، وأسلوب الترغيب يرغّب المدعو في الإقبال على طاعة الله والمحافظة عليها، لينال ثواب ذلك دائمًا. فينبغي للداعية أن يحرص على ترغيب المدعوين في إخلاص النية في استمرار طاعة الله حتى يحصل لهم استمرار الثواب عليها.

ثالثًا- من واجبات المدعو: الحرص على الأعمال الصالحة:

يستنبط ذلك من عموم الحديث، قال ابن عثيمين: (وفي هذا تنبيه على أنه ينبغي للعاقل ما دام في حال الصحة والفراغ أن يحرص على الأعمال الصالحة، حتى إذا عجز عنها لمرض أو شغل؛ كتبت له كاملة، فينبغي على المسلم أن يغتنم صحته، ويغتنم فراغه في العمل الصالح حتى إذا شُغل عنه بمرض أو غيره، كتب له كاملاً ولله الحمد، ولهذا قال النبي ﷺ: ((نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ))[١] وقال ابن عمر: (وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك)[٢] فإن الإنسان ينبغي له في حال الصحة أن يغتنم الفرصة، حتى إذا مرض كتب له عمله في الصحة، وأن يحرص ما دام مقيمًا على كثرة الأعمال الصالحة، حتى إذا سافر كتب له ما كان يعمل في الإقامة)[٣]. لذا يجب على المدعو أن يكون حريصًا على الأعمال الصالحة. قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾[٤] والأعمال الصالحة كثيرة من عبادات ومعاملات فإذا قام بها المدعو ملاحظًا الطاعة

---

(١) أخرجه البخاري ٦٤١٢.

(٢) أخرجه البخاري ٦٤١٦.

(٣) انظر: شرح رياض الصالحين ١/٣٧٤-٣٧٥.

(٤) سورة المائدة، آية: ٩.

لربه والانقياد لشرعه مبتغيًا بها وجه الله، كان من أصحاب الأعمال الصالحة[١].

وقد حث النبي ﷺ على الحرص على الأعمال الصالحة فقال: ((احرص على ما ينفعك))[٢].

وحرص المدعو على العمل الصالح يجعله يستمر في طاعة الله، ويجعل الله عز وجل يكثر من نعمه على عبده، فإذا تخلف عن العمل الصالح لعذر أنعم الله عليه بثواب هذا العمل كما كان يعمله في حالته الأولى، وهذا أدعى للمسلم أن يحرص على دوام العمل الصالح.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل النية:

وهذا ما يظهر من قوله ﷺ ((إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثل ما كان يعمل مقيمًا صحيحًا)) فنيّة العبد أن يداوم على عمل الطاعة لولا المانع الذي منعه[٣] فيكون ثوابه مستمرًا استمرارًا لنيته على طاعة الله.

وقال ابن تيمية: (إن هذا الحديث دليل على أن يكتب له مثل الثواب الذي كان يكتب له في حال الصحة والإقامة، لأجل نيته له، وعجزه عنه بالعذر.

وهذه قاعدة الشريعة: أن من كان عازمًا على الفعل عزمًا جازمًا وفعل ما يقدر عليه منه، كان بمنزلة الفاعل. فهذا الذي كان له عمل في صحته وإقامته عزمه أن يفعله، وقد فعل في المرض والسفر ما أمكنه، فكان بمنزلة الفاعل كما جاء في السنن (من توضأ فأحسن وضوءه ثم راح -أي ذهب إلى المسجد- فوجد الناس قد صلوا، أعطاه الله عز وجل مثل أجر من صلاها، لا ينقص ذلك من أجرهم "أجورهم" شيئًا)[٤].

---

(١) انظر: أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان ص ٤١.

(٢) أخرجه مسلم ٢٦٦٤.

(٣) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٥٩/٦.

(٤) أخرجه أبو داود ٥٦٤، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٥٢٨).

وكما ثبت في الصحيح من قوله ﷺ: ((إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيرًا ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم)) قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: ((وهم بالمدينة، حبسهم العذر))[١].

وقد قال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾[٢] فهذا ومثله يبين أن المعذور يكتب له مثل ثواب الصحيح، إذا كانت نيته أن يفعل، وقد عمل ما يقدر عليه[٣].

فالنية لها فضل عظيم على المسلم لحصول الثواب واستمراره، قال رسول الله ﷺ ((إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى...))[٤] فنية العبد إذا كانت خير أثابه الله عليها وإن لم يعمل العمل الذي ينويه.

---

(١) أخرجه البخاري ٤٤٢٣.

(٢) سورة النساء، آية: ٩٥.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٢٣/٢٣٦، ٢٣٧.

(٤) أخرجه البخاري ١، ٢٤٠١، ٢٥٢٩، ومسلم ١٩٠٧.

الحديث رقم (١٣٤)

١٣٤- الثَّامنَ عشَرَ: عنْ جابرٍ رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللّه صلى الله عليه وسلم: «**كُلُّ معرُوفٍ صدقَةٌ**» رواه البخاري[١].

ورواه مسلم[٢] مِن رواية حذَيفَةَ رضي الله عنه.

ترجمة الراوي:

جابر بن عبدالله الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

الشرح الأدبي

إن البيان النبوي يتسم بالإيجاز مع الإقناع والإمتاع، وكل كلمة تموج بدلالات لها في النفس بريق وإشعاع، ولها في تقويم السلوك إرشادات وبراهين، وحجج وأدلة تأخذنا إلى حق اليقين.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم في بيانه كأنما تكاشفه اللغة بأسرارها، وتبادره بحقائقها، فيخاطب كل قوم بلحنهم وعلى مذهبهم، ثم لا يكون إلا أفصحهم خطابًا، وأَسَدَّهم لفظًا، وأبينهم عبارة، ولم يعرف ذلك لغيره من العرب، ولو عرف لكانوا نقلوه وتحدثوا به واستفاض فيهم.

والحديث الذي نتأمل أسراره البيانية، ونقتبس أشعته الدلالية، يبدو واضحًا كالشمس في معناه، سهلاً كالماء العذب الجاري في مبناه "كل معروف صدقة" إنها ثلاث كلمات لا خفاء فيها، ولا غرابة تحجب معناها، ولا تعقيد في مبناها، ولكن: القيمة البيانية تكمن في هذه الإشعاعات التي تتوهج بها كلمة "معروف" فما دلالة هذه الكلمة، وما آفاقها وما معالمها، وما مظاهرها، وما آثار المعروف الاجتماعية، والنفسية؟

---

(١) برقم (٦٠٢١). أورده المنذري في ترغيبه (٢٧٩٨، و ٢٩٢٥، و ٣٩٦٩) من حديث جابر من غير طريق البخاري.

(٢) برقم (١٠٠٥/٥٢).

والمعروف في دلالته العامة الشاملة هو: كل ما يفعل من أعمال البر والخير، وليس لذلك نهاية، لأن أعمال البر لا تتناهى، وهي تتجدد بتجدد الأزمان والشخصيات والمواقف، وحين نتأمل أبعاد الدلالة اللغوية لهذه الكلمة "معروف" نجد أن المعروف في اللغة ضد المنكر. وكل عمل مشروع وصالح، ونابع من الحس الإيماني، والتصور الإسلامي يُسمى معروفًا، وكأن العمل الصالح، لا يحتاج إلى تحديد لأنه معروف للجميع، والبر كما قال رسول الله ﷺ: ما اطمأنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، ففي الحديث عن أبي ثعلبة الخشني أن رسول الله ﷺ قال: "البر ما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب..."[١]، وفي رواية أخرى عند مسلم، "البر حسن الخلق"[٢].

فالمعروف وهو "البر" أفق فسيح من الإيمان يتضمن جميع الطاعات الباطنة كالإيمان بالله وملائكته، وكتبه ورسله، والطاعات الظاهرة كإنفاق الأموال فيما يحبه الله تعالى وإقامة الصلاة و إيتاء الزكاة، والوفاء بالعهد، والصبر على الأقدار كالمرض والفقر، وعلى الطاعات كالصبر على لقاء العدو[٣].

والجذر اللغوي للمعروف هو مادة "عرف" وهي في بعض دلالاتها تعني الرائحة الطيبة، فالعرف: هو الشذا والرائحة الطيبة، والمعروف: في ظل هذه الدلالة: ينتشر أثره في الناس، وكأنه المسك الذي يُعطِّر ألسنة الناس بالثناء على كل من يقدم على فعل الخير. والعُرْف هو الجود والكرم، وكل أعمال البر تتضمن الجود والكرم.

والعُرْف: اسم لموج البحر، وكأن هذه الدلالة اللغوية تضفى على المعروف شبها بينه وبين موج البحر، لأن في البحر غزارة وسعة وهو رمز للكرم والعطاء، وكذلك المعروف، لا تتناهى آثاره، ولا تطفأ أنواره، ولا تدرك أسراره، وأعظم سر يقودنا إلى التأمل والتفكر في الحديث الشريف الموجز أنه يجعل المعروف صدقة: قال: "كل معروف صدقة"، والصدقة في اللغة ما أعطيته في ذات الله تعالى، وهي في الحديث تعني الثواب والجزاء الحسن الذي يغمر صاحب العطاء، لأنه أحسن العمل وقَدَّم المعروف.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ١٩٤/٤، رقم ١٧٧٤٢، وقال محققو المسند: إسناده صحيح ص ٢٧٩/٢٩.

(٢) أخرجه مسلم ٢٥٥٣.

(٣) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٩٩/٢.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار، والعموم والشمول.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: من خصائص النبي ﷺ: جوامع الكلم.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: كثرة وتعدد أبواب الخير.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: عدم احتقار شيء من المعروف.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار، والعموم والشمول:

١- الإخبار: حيث أخبر النبي ﷺ أن كل عمل يستحسنه الشرع هو من قبيل الأعمال الصالحة المتقبلة، فأسلوب الإخبار فيه جلاء للحقائق وتحفيز للهمم، وتذكير لمن نسي، وتنبيه للغافل.

٢- العموم والشمول: يتضح ذلك في كلمة: "كل" التي تفيد الشمول والإحاطة والعموم.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: من خصائص النبي ﷺ: جوامع الكلم:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "كل معروف صدقة" حيث عبر رسول الله ﷺ باللفظ القليل عن المعنى الكثير، فالمعروف يشمل كل الطاعات والقربات التي يتقرب به العبد إلى الله تعالى، وهذا من خصائصه ﷺ التي اختصه الله بها، فإن مما اختص الله تعالى به نبيه ﷺ: جوامع الكلم، ومن شواهد ذلك ما ورد في صريح قوله ﷺ ((بعثت بجوامع الكلم...))(١) وجوامع الكلم (أن تقع المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة)(٢) بمعنى (إيجاز الكلام في إشباعٍ من المعنى فالكلمة القليلة منها تتضمن كثيرًا من المعاني وأنواعًا من الكلام)(٣) فنجده ﷺ في كلمات معدودة ذكر جميع أنواع الخير وثوابها لذا ينبغي على الداعي مراعاة الإيجاز وعدم الإطناب في الكلام، حتى لا يشرد

---

(١) أخرجه البخاري ٢٩٧٧، ومسلم ٥٢٣.

(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ١٤٩/٦.

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٢٤٣/١٠.

بأذهان المدعوين، فكثير الكلام ينسى بعضه بعضًا، وإنما الكلمة البسيطة ذات المعاني الجمة التي تجد طريقًا إلى القلب وثباتًا في الذهن.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: كثرة وتعدد أبواب الخير:

من فضل الله عز وجل أن عدَّد أبواب الخير حتى يتيسّر للمسلم تحصيل الثواب والتقرب إلى الله تعالى، فأبواب الخير لا تقتصر على ذوي اليسر وإنما يستوي فيها الغني والفقير، أي: يستطيع تحصيل ثوابها أهل اليسار ومن هم من مستوري الحال والفقراء، لذلك قال ﷺ: "كل معروف صدقة".

قال ابن حجر: (قال ابن بطال: دل هذا الحديث على أن كل شيء يفعله المرء أو يقوله من الخير يكتب له به صدقة، وقال ابن أبي جمرة: يطلق اسم المعروف على ما عرف بأدلة الشرع أنه من أعمال البر سواء جرت به العادة أم لا، قال ابن حجر: وفي هذا الكلام إشارة إلى أن الصدقة لا تنحصر في الأمر المحسوس منه، فلا تختص بأهل اليسار مثلاً، بل كل واحد قادر على أن يفعلها في أكثر الأحوال بلا مشقة)(١).

وبيّن النبي ﷺ في الحديث أن الثواب والخير لا يقتصر على ميسوري الحال وإنما يمتد ليشمل الجميع ويحوي كل عمل، فقال ﷺ: (كل معروف صدقة) أي: كل ما يُفعل من أعمال البر والخير كان ثوابه كثواب من تصدق بالمال(٢).

وقال ابن عثيمين: (المعروف ما يتعارف الناس على حسنه، أو ما عرف في الشرع حسنه إن كان مما يتعبد به لله، فهو ما عرف في الشرع حسنه، وإن كان مما يتعامل به الناس؛ فهو مما تعارف الناس على حسنه، وفي هذا الحديث: "كل معروف" يشمل هذا وهذا، فكل عمل تتعبد به إلى الله فإنه صدقة، كما ورد في حديث ((كلُّ تسبيحة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وكل تحميد صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونه يعن المنكر صدقة))(٣).

---

(١) انظر: فتح الباري، ابن حجر ٤٦٢/١٠.

(٢) المفهم، القرطبي ٤٨/٣.

(٣) أخرجه مسلم ١٠٠٦.

وأما ما يتعارف الناس على حسنه: فهو أيضًا ما يتعلق بالمعاملة بين الناس، فكل ما تعارف الناس على حسنه فهو معروف، مثل: الإحسان إلى الخلق بالمال، أو بالجاه، أو بغير ذلك من أنواع الإحسان. ومن ذلك: أن تلقى أخاك بوجه طلق لا بوجه عبوس، وأن تلين له القول، وأن تدخل عليه السرور(١).

رابعًا- من موضوعات الدعوة: عدم احتقار شيء من المعروف:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "كل معروف صدقة" قال: شبير العثماني: وفيه أنه لا يحتقر شيئًا من المعروف، وأنه ينبغي أن لا يبخل به، بل ينبغي أن يحضره(٢). إن مما ينبغي أن يكون واضحًا في ذهن المسلم عدم احتقار شيء من المعروف، لأن فضل الله واسع وكرمه على عباده كبير، فهو سبحانه الذي ينمّي الصدقات ويضاعف الحسنات ويُجزل المثوبة قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(٣) وقال ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾(٤).

---

(١) شرح رياض الصالحين ٣٧٥/١.

(٢) موسوعة فتح الملهم، محمد تقي الدين العثماني ٩٤/٦.

(٣) سورة النساء، آية: ٤٠.

(٤) سورة الزلزلة، الآيات: ٦-٨.

الحديث رقم (١٣٥)

١٣٥- التَّاسع عشر: عنهُ قال: قال رسول اللّه ﷺ: «ما مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا إلاَّ كانَ ما أُكِلَ مِنْهُ لهُ صدقةً[1]، وما سُرِقَ مِنْه لَه صدقَةً، ولا يرْزؤه أحَدٌ إلاَّ كانَ له صدقةً» رواه مسلم[2].

وفي رواية له[3]: «فَلا يغرِس الْمُسْلِم غرسًا، فَيَأْكُلَ مِنْهُ إنسانٌ ولا دابةٌ ولا طَيرٌ، إلاَّ كانَ له صدقةً إلَى يَوْمِ الْقِيَامة».

وفي رواية له[4]: «لا يغرِس مُسلِم غرسًا، ولا يزْرعُ زرْعًا، فيأْكُل مِنه إنْسانٌ وَلا دابَّةٌ ولا شَيْءٌ إلاَّ كَانَتْ لَه صدقةً».

ورويَاه جميعًا مِنْ رواية أَنَسٍ رضي الله عنه[5].

قولُهُ: «يرْزَؤُهُ» أي: يَنْقُصهُ.

ترجمة الراوي:

جابر بن عبدالله الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

يرزؤه: أي ينقصه[6].

دابة: الدابة: كل ما يدب على الأرض وقد غلب على ما يركب من الحيوان[7].

---

(١) عند مسلم زيادة: (وما أكل السبع منه فهو له منه صدقة، وما أكلت الطيرُ فهو له صدقة)، وهذه الزيادة لا توجد عند المنذري في ترغيبه، فتبعه عليه المؤلف.

(٢) برقم (١٥٥٢/٧). أورده المنذري في ترغيبه (٣٨٢١).

(٣) برقم (١٥٥٢/١٠). أورده المنذري في ترغيبه (٣٨٢١).

(٤) برقم (١٥٥٢/٨). أورده المنذري في ترغيبه (٣٨٢١).

(٥) أخرجه البخاري (٢٣٢٠)، ومسلم (١٥٥٣/١٢). أورده المنذري في ترغيبه (٣٨٢٢) وساق لفظه.

(٦) رياض الصالحين ١٠٢.

(٧) الوسيط ٢٦٨.

الشرح الأدبي

يتضوأ هذا الحديث النبوي بأبعاد التكافل الاجتماعي، ويتوهج بتحديد وترسيخ العلاقة بين الإنسان والطبيعة الحافلة بالكائنات التي خلقها الله لتيسير الحياة للإنسان على وجه الأرض من نبات وحيوان وطير.. وكل ما خلقه وأودعه أسرارًا وعجائب لا تنتهي.

والحديث في مقصده الأَسْنى ينضح بالتفاعل الإيماني بين الإنسان والكائنات الأخرى، لأنها من خلق الله تعالى، وهذا التفاعل ليس طاقات من المشاعر مشحونة بالشجن أو الفرح أو غير ذلك، ولكنه تفاعل عملي، يشكله التصور الإيماني، والحس الإسلامي، والتنفيذ الواقعي، وهو عمارة الأرض وتشجيرها وزراعة الأشجار التي تصلح غذاء للإنسان والحيوان والطير، وكل ما يدب على وجه الأرض، وهذا الغرس النافع لا يظل قاصرًا على المنفعة الخاصة لغارسه بدافع التملك وغريزة التمسك بثمرة الجهد الذاتي.

ولكن الحديث يحث على أن كل ما أكل من هذا الغرس فهو صدقة يُثاب عليها صاحب هذا الزرع أضعافًا مضاعفة إلى سبعمائة ضعف، والله يضاعف لمن يشاء، وذلك في حالة ما إذا كان صاحب هذا الغراس مختارًا متطوعًا، وحتى في حالة عدم معرفته أو عدم رضاه حين يُسرق من هذا الزرع، وهو يحتسب ذلك عند الله تعالى، فإن المسروق يحسب صدقة، وعلى السارق إثم عمله، ولصاحب الزرع ثواب جزيل، إذا احتسب ذلك عند الله تعالى، والثواب مضاعف كذلك إذا تعرض الثمر للنقص بأى وسيلة على وجه التصدق أو الإكرام، أو بطريق الغصب أو غير ذلك، ويقابل صاحب هذا الثمر هذه المواقف بالرضا والاحتساب، فالجزاء مضاعف، والثواب جزيل.

وسر هذا التقدير الإلهي لصاحب العطاء الذي تتعدد صوره هو أن ذلك المسلم يدرك أن هذا الغرس وثماره ومنافعه ونتائجه من آيات الله عز وجل، وما أعظم هذه الآيات التي يرشدنا إليها الحق سبحانه في سورة يس حيث يقول: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ

أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [1].

وفي سورة الواقعة يرشدنا الحق عز وجل إلى حقيقة ساطعة، وهى أن ثمرة الغرس من فضل الله تعالى، وقدرته وحكمته، والمسلم الواعي والمدرك لأبعاد المنهج الإسلامي يتفهم هذا البعد الإيماني في تعامله مع آيات الله تعالى ونعمه التي لا تُحصى بقول الله عز وجل: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ [2].

ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي والأدبي في هذا الحديث النبوي الشريف، وهو ينطوي على عدة ظواهر أسلوبية وفنية متعددة من خلال طريقة نظمه وتشكيل تراكيبه واختيار كلماته ومنها:

أ-يتكون الحديث الشريف من ثلاث جمل تتناسق في تركيبها -وفي طريقة صياغتها، ويكمن في هذا التناسق سر جمالها وتأثيرها: فالجملة الأولى صيغت في أسلوب القصر، وكذلك الجملة الثالثة: والقصر في الجملتين طريقه واحد وهو: النفى والاستثناء: ودلالة هذه الصيغة هو تأكيد الثواب الذي وعد به رسول الله ﷺ وكذلك تشجيع كل صاحب زرع على إعطاء كل محتاج، وعلى التسامح والعفو إذا وجد محصول زرْعه ناقصًا، والجملة الثانية لم تأت في هذه الصيغة البلاغية وهى: صيغة القصر. وعدل بها عن الشكل الأسلوبي فيما قبلها وما بعدها: لأن الفعل فيها مرفوض.. لأنه سرقه، وهو مسلك غير شرعي، والسارق يُقام عليه الحد، ولذلك لم يؤكد المصطفى ﷺ هذا السلوك ولم يجمله عن طريق القصر... وإنما أتى بالجملة

---

(١) سورة يس، الآيات: ٣٣-٣٦.

(٢) سورة الواقعة، الآيات: ٦٣-٦٥.

مجردة حتى من الفاعل، "وما سُرق منه له صدقه"، فالفاعل مجهول لأنه مرفوض، وقد حذف احتقارًا له ورفضًا لمسلكه، وفي الوقت ذاته يقدّر صاحب هذا الغرس الذي آتي أكله طيبًا ويثاب، ويحسب له هذا المال المسروق صدقة فهل بعد هذا تكريم، وهل بعد ذلك تشجيع على البذل والعطاء: وما أصدق وما أجمل دعاء المصطفى ﷺ اللهم أعط منفقًا خلفًا، وأعط ممسكًا تلفًا..

ب- التعبير بالفعل الماضي، المبني للمجهول في قوله: "وما سرق منه" يوحي بأن هذا السلوك لن يتكرر، وبأنه حدث انتهى، وفاعله مجهول، وليس هذا من سمات المسلم، وتأمَّل ووازِن بين صيغة هذا الفعل الماضية المبنية للمجهول، وصيغة الفعلين في الجملتين: الأولى والثانية (يغرس) "ولا يرزؤه أحد". ستجد سرًا من أسرار البيان النبوي وهو أن الصياغة اللغوية تفصح عن المقاصد والتوجيهات النبوية، ففي الجملة الأولى الفعل، محبب، والسلوك جميل، ولذلك قال: "ما من مسلم يغرس غرسًا"، وتحديد لفظ المسلم له جماله وبهاؤه وأسراره، لأن العمل الصالح ينبع من العقيدة الصحيحة، وجاءت صياغة الفعل في قالب الفعل المضارع، إرشادًا إلى استمرار هذا الصنيع وتكاثره، وزيادة "مَنْ" للاستقصاء والتعميم، فهي زائدة ولكنها تتضمن ألف فائدة، وفي الجملة الثالثة: جاء التعبير بالفعل المضارع المنفي "لا يرزؤه"، دلالة على تكرر مثل هذا الموقف، ومنه ما هو محمود فقد يكون نقص المال عن طريق الإعانة أو المساعدة في العلاج أو نفقات البيت أو المساهمة في العُرس أو كفالة اليتيم، والقاعدة الشرعية تقول: "ما نقص مال من صدقة". والفاعل هنا عام وهو كلمة "أحد" ولم يقل من المسلمين، وذلك لأن هذا الرزء في المال قد يكون نتيجة سلوك غير إسلامي وهو غصب المال، أو إلحاق الضرر به من إحراق أو تلف أو فساد أو غير ذلك من وجوه الضرر، فتأمل أيها القارئ دقة التعبير النبوي، وعمق الإحساس بوظيفة الكلمة، واتساع آفاق الدلالة وموحياتها، وقد يكون المستفيد الذي نقص المال بسببه غير مسلم من أهل الذمة يعيش في كنف المسلمين.

ج- وتأمل السر الكامن في بناء الفعل "أُكِل" للمجهول، فإشاعات التعبير هنا غيرها في (سُرِق) فبناء الفعل للمجهول، في هذا السياق فيه إيحاء بعموم التصدق، وعدم

المن، ويمكن أن يكون الأكل الحلال بدون علم صاحب الغرس، وقد يكون الآكل إنسانًا محتاجا وليس سارقا أو يكون حيوانًا أو طيرًا أو أي كائن يتضور من الجوع أو العطش، وقد ورد في الروايات الأخرى ما يشير إلى ذلك، "لا يغرس أحدٌ من المسلمين غرسًا فيأكل منه إنسان ولا دابة ولا طير"(١).... الحديث.

د- التكرار في الحديث: وهو من أسرار البيان النبوي، فهو ليس إطنابًا، وليس ألفاظا زائدة، ولكن له وظيفته البلاغية، والدلالية: ولنتأمل تكرار كلمة: "صدقة" ثلاث مرات: وتأتي في ختام كل جملة، وذلك لترغيب كل مسلم في خلق العطاء، والتسامح وإعانة المحتاجين، ومع الترغيب يأتي التكرار لتأكيد الثواب، ومضاعفة الأجر، وتكرار لفظ "منه" مرتين، ولفظ "له" ثلاث مرات: تكريم لصاحب العطاء، وتأكيد لثوابه، وتحديد له عن طريق الضمير وهو أعرف المعارف، فما أعظم فضل الله تعالى، وما أبلغ كلام رسول الله ﷺ.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى فضل الزرع والغرس وأنه من أفضل الأعمال الدنيوية وأكثرها أجرًا لما يقوم عليها من أمر ابن آدم وغيره من الطير والحيوان وأن كل ذلك له صدقة.

وقد ذهب جمهور الفقهاء(٢) إلى أن الزراعة من أفضل أنواع الكسب، وأنه

---

(١) أخرجه مسلم ١٥٥٢.

(٢) انظر في ذلك: بريقة محمودية في طريقة محمدية وشريعة نبوية في سرية أحمدية، محمد بن مصطفى الخادمي ١٤١/١، وشرح الخرشي على مختصر خليل، أبو عبدالله الخرشي ٤١٧/٧، والمدخل إلى الشرح الشريف، ابن الحاج العبدلي ٣/٤، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم المصري ١٢٧/٢، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢٤٧/٦، ٦٤/٩، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين بن الحسن ١٧١/٦، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٥٦٩/١، والآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ٢٩١/٣، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٢١٣/٦، و مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، السيوطي ١٦٧/٢، والمحلى، ابن حزم ٤٢/٧.

يستحب الإكثار من الزرع والزراعة ما لم تشغل عن الجهاد، وذلك لما في الزراعة من الصدقات فلا يأكل منها طير أو إنسان أو حيوان إلا كانت له صدقة، وإن كانوا متفقين على أن أفضل الكسب ما كان عن طريق الجهاد، ثم ما كان بعمل اليد ومنها الزراعة والغرس.

وقال القرطبي: الزراعة من فروض الكفاية، فيجب على الإمام أن يجبر الناس عليها وما كان في معناها من غرس الأشجار[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار، والتنويع، والتنكير.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الإسلام أساس صحة وقبول الأعمال.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: كثرة طرق الخير وتعدد روافد الثواب.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: الحث على عمارة الأرض.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار، والتنويع، والتنكير:

١- الإخبار: حيث أخبر النبي ﷺ بثواب الزرع وعمارة الأرض وثواب الانتفاع بهذا النتاج سواء نوى الزارع أم لم ينو، وأن فضل الله تعالى على الإنسان واسع، حيث تعددت روافد الأجر والمثوبة له.

٢- التنويع: ويظهر ذلك في استعماله ﷺ لفظة "أو" ونوّع بين ما يخرج من الأرض وفرّق بينه من كونه زرعًا أو غرسًا، إذ أن الزرع غير الغرس.

٣- التنكير: فنكر كلمة "مسلم" وأوقعها في سياق النفي "ما" وزاد كلمة "من" التي تفيد الاستغراق، واستعمل أسلوب الحصر والقصر باستخدامه "ما" النافية و"إلا"، وخص الغرس والزرع وعم الحيوان، ليدل على سبيل الكناية على أن أي مسلم كان حرًا أو عبدًا مطيعًا أو عاصيًا يعمل أي عمل من المباح، ينتفع بما عمله أي حيوان كان، يرجع نفعه إليه ويثاب عليه[2].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٣/٣٠٦.

(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني لابن حجر ٥/٦، شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٤/١٠٤.

ثانيًا- الإسلام أساس صحة وقبول الأعمال:

إن النبي ﷺ بيّن في الحديث أن الإسلام شرط قبول الأعمال واستحقاق ثوابها، فقال ﷺ: "ما من مسلم يغرس غرسًا إلا كان ما أكل منه صدقة..."، وإنما خصّ المسلم بالذكر لأنه ينوي عند الغرس غالبًا أن يتقوى بثمرة ذلك الغرس المسلمون على عبادة الله تعالى، ولأن المسلم هو الذي يحصل له ثواب، وأما الكافر فلا يحصل له بما يفعله من الخيرات ثواب، وغايته أن يُخفف العذاب عنه، وقد يطعم في الدنيا ويُعطى بذلك[1]. قال ابن حجر: (قوله: "ما من مسلم" أخرج الكافر لأنه رتب على ذلك كون ما أكل منه يكون له صدقة، والمراد بالصدقة الثواب في الآخرة، وذلك يختص بالمسلم، نعم ما أكل من زرع الكافر يثاب عليه في الدنيا كما ثبت من حديث أنس عند مسلم، وأما من يقول يخفف عنه بذلك من عذاب الآخرة فيحتاج إلى دليل، ولا يبعد أن يقع ذلك لمن لم يرزق في الدنيا وفقد العافية)[2].

ويؤيد ذلك أن النبي ﷺ في هذا الحديث خصص الثواب بالمسلم، في قوله: (ما من مسلم)، بل إنه في بعض الروايات من حديث أنس أنه رأى غرسًا فسأل عن دين من غرسه ثم ساق الحديث ((فعن أنس بن مالك أن نبي الله دخل نخلاً لأم مبشر امرأةٍ من الأنصار فقال رسول الله ﷺ من غرس هذا النخل أمسلم أم كافر...))[3] أما غير المسلم لو أُكِل من زرعه فيثاب عليه في الدنيا، أما في الآخرة فلا أثر لعمله كما صرح بذلك القرآن ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾[4] وقال ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ

---

(١) المفهم، القرطبي ٤٢١/٤.

(٢) يقصد به قوله ﷺ: "إن الله لا يظلم مؤمنًا حسنة" يعطى بها في الدنيا ويجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة، لم تكن له حسنة يجزي بها. أخرجه مسلم ٢٨٠٨.

(٣) أخرجه مسلم ١٥٥٣.

(٤) سورة إبراهيم، آية: ١٨.

مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾[١].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: كثرة طرق الخير وتعدد روافد الثواب:

لقد جاء في الحديث الحض على الغرس، وبيان اختصاص الثواب على الأعمال بالمسلمين دون غيرهم، وبيان أن المسبب للخير له أجرٌ بما نُفع به، سواء أكان من أعمال البر أو مصالح الدين[٢]، فقال ﷺ: (ما من مسلم يغرس غرسًا إلا كان ما أكل منه له صدقة وما سرق منه له صدقة وما أكل السبع منه فهو له صدقة وما أكلت الطير فهو له صدقة ولا يرزؤه أحد إلا كان له صدقة).

كما أن الحديث فيه دليل على تنوّع أسباب الثواب، وكثرة طرق الخير، وأن ما انتفع به الناس من الخير فإن لصاحبه أجرًا وله فيه الخير سواء نوى أو لم ينو، وهذا كقوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[٣] فذكر الله تعالى أن هذه الأشياء فيها خير سواء نوى أم لم ينو، فإن نوى بذلك ابتغاء وجه الله فإن الله يقول فسوف نؤتيه أجرًا عظيمًا) وفي هذا دليل على أن المصالح والمنافع إذا انتفع الناس بها كانت خيرًا لصاحبها وإن لم ينو، فإن نوى زاده خيرًا على خير وآتاه الله تعالى من فضله أجرًا عظيمًا)[٤].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: الحث على عمارة الأرض:

يتجلى ذلك من خلال بيان النبي ﷺ لثواب الغرس والزرع، وفيه دليل على دعوة الإسلام إلى عمارة الأرض، إذ أن ذلك أحد المقاصد الثلاثة التي من أجلها خلق الإنسان وهي:

---

(١) سورة الفرقان، آية: ٢٣.

(٢) إكمال المعلم، القاضي عياض ٥/٢١٤.

(٣) سورة النساء، آية: ١١٤.

(٤) شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين، ١/٣٧٨.

أ- عبادة الله ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[١].

ب- الخلافة ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[٢].

ج- عمارة الكون ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[٣] أي طلب منكم عمارتها، وكما في سورة الملك الدعوة إلى الضرب في مناكب الأرض ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾[٤].

وفي ذلك بيان لشخصية المؤمن الجامعة بين خيري الدنيا والآخرة (فقد يغرق بعض الناس في الخيال فيتصورون المؤمن متواكلاً متكاسلاً أو راهبًا في "ديره" متبتلاً للعبادة منقطعًا عن الحياة، وهذه كارثة على العمل والإنتاج. إن المؤمن يتخذ الدنيا مزرعة للآخرة، والمزرعة تحتاج إلى عمل وسعي، ولكن الثمرة إنما تقطف كاملة في الآخرة وإن أدرك بعضها في الدنيا ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[٥]. لقد كان أصحاب رسول الله ﷺ زُرّاعًا وتُجارًا وصُناعًا متقنين، ولم يقعد بهم إيمانهم بالآخرة عن العمل للدنيا، كيف لا وقد قال رسولهم ﷺ ((إنْ قامَتِ السّاعةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ فإنِ اسْتَطاعَ أنْ لا يَقُومَ حَتّى يَغْرِسَها فَلْيَفْعَلْ))[٦]. ولماذا سيغرسها والساعة ستقوم، ولا أمل في انتفاع أحد من الخلق بها؟ إنه تكريم العمل لذات العمل، ولو لم يكن من ورائه نفع وانتفاع[٧] للشخص نفسه الذي يقوم بذلك، وإنما النفع يمتد إلى من بعده من الأجيال، إنها دعوة الإسلام إلى عمارة الأرض، دعوة إلى

---

(١) سورة الذاريات، آية: ٥٦.

(٢) سورة البقرة، آية: ٣٠.

(٣) سورة هود، آية: ٦١.

(٤) سورة الملك، آية: ١٥.

(٥) سورة الأعراف، آية: ٣٢.

(٦) أخرجه أحمد ١٩١/٣ رقم ١٢٩٨١، وقال محققو المسند: إسناده صحيح على شرط مسلم ٢٩٦/٢٠.

(٧) الإيمان والحياة، د. يوسف القرضاوي ص ٣٠٩، ٣١٠.

العمل والسعي، دعوة إلى الاعتماد على النفس والاكتفاء الذاتي، ولو أن المسلمين طبقوا ما جاء في كتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ حق التطبيق، ما هانوا ولا ذلوا في يوم من الأيام، ولا مدوا أيديهم إلى الغرب يتسولون منه كل شيء، ويعيشون كالأيتام على موائد اللئام.

الحديث رقم (١٣٦)

١٣٦- **العِشْرُونَ:** عنْهُ قالَ: أَراد بنُو سَلِمَة أَن ينْتَقِلوا قُرْبَ المَسْجِدِ فبلَغَ ذلك رسولَ اللَّه ﷺ ، فقَالَ لَهُمْ: «**إنَّه قدْ[1] بلَغَنِي أَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَنْتَقِلُوا قُربَ الْمَسْجِدِ؟**» فقَالُوا: نَعَمْ يا رسولَ اللَّهِ قَدْ أَرَدْنَا ذلكَ، فقَالَ: «**بَنِي[2] سَلِمةَ دِيَارَكُمْ، تكْتُبْ آثَارُكُمْ، دِيارَكُم تُكْتَبْ آثَارُكُمْ**» رواه مسلم[3].

وفي روايةٍ[4]: «**إِنَّ[5] بِكُلِّ خَطْوةٍ درجةً**» رواه مسلم.

ورواه البخاريُّ[6] أيضًا بمعنَاهُ مِنْ روايةِ أَنَسٍ رضي اللَّه عنه.

و«**بنُو سَلِمَةَ**» بكسر اللام: قبيلة معروفة من الأَنصار رضي اللَّه عنهم، و «**آثَارُهُمْ**» خُطاهُمْ.

ترجمة الراوي:

جابر بن عبدالله الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

الشرح الأدبي

يصور هذا الحديث مشهدًا جليلاً من مشاهد الحوار بين النبي ﷺ وأصحابه الأخيار الأبرار، والحوار المقنع الهادئ من أساليب الدعوة إلى الله تعالى ومن أساليب المصطفى ﷺ في تبليغ الرسالة اتباعًا لقول الله عز وجل، ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾[7]، وهذا المشهد الحواري

---

(١) (قد) لا توجد عند مسلم.

(٢) عند مسلم: (يا بني سلمة)، والمثبت لفظ المنذري في ترغيبه.

(٣) برقم (٢٨٠/٦٦٥). أورده المنذري في ترغيبه (٤٥٩). وسيكرره المؤلف برقم (١٠٥٧).

(٤) برقم (٢٧٩/٦٦٤). أوردها المنذري في ترغيبه (٤٥٩).

(٥) عند مسلم زيادة: (لكم).

(٦) برقم (٦٥٦).

(٧) سورة النحل، آية: ١٢٥.

الواقعي نموذج للحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن وهي سمات جليلة تحلى بها المصطفى ﷺ؛ في كل موقف من مواقفه الرشيدة المقنعة في إقناع أصحابه، وفي مواجهة خصومه، وموضوع الحوار: هو الرغبة في الاقتراب من مسجد رسول الله ﷺ: حيث أراد بنو سلمة ذلك حبًا في كثرة الصلاة بالمسجد النبوي، وهم يدركون أفضلية المسجد بالمدينة؛ فالصلاة فيه خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام، كما جاء في الحديث الصحيح.

ولنتأمل وقائع هذا الحوار الإيماني البليغ، ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي، والظواهر الفنية.

وأول ظاهرة أسلوبية في الحديث هي الصيغة الإخبارية التي صيغ في إطارها الحديث وهي صيغة الحَكْي، حيث يروي جابر بداية الحديث موضحًا رغبة بني سلمة في انتقالهم من منازلهم إلى قرب المسجد، إذا كان المكان خاليًا: فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ولم يحدد الراوي مَنْ الذي أبلغه، لأن الأمر ليس مرفوضًا ولا فتنة، وإنما هو أمر مباح، وكذلك لعدم إثارة شبهة الخلاف، أو أن الرسول ﷺ عرف ذلك عن طريق الوحي -والله أعلم- لأن القضية تتعلق بالقرب أو البعد عن المسجد، وليس بالشخص الذي بَلّغ.

ويدور حوار جميل هادئ مقنع حيث يبدأ رسول الله ﷺ بتأكيد الخبر الذي وصله إذ قال: "إنه قد بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا، قرب المسجد"، وهل أرسل لهم رسول الله فجاءوا إليه، وحدثهم بذلك، أم ذهب هو إليهم وخاطبهم بهذا الخطاب المشرق الحاني الكريم، إن هذا التفصيل لا ضرورة له في إدراك المقصد الأسنى من هذا الحوار البليغ، وفي أسلوب جَمْعي أجاب بنو سلمة قائلين في أدب وصدق وحسن خطاب لصاحب الرسالة: "نعم يا رسول الله" قد أردنا ذلك، والإجابة تتضمن اعترافًا بالرسالة وحبًا للرسول ﷺ في قولهم: "يا رسول الله قد أردنا ذلك"، ولم يقولوا نعم أردنا ذلك، فهل يمنع الرسول ﷺ إرادتهم؟ إنه ناداهم نداءً إيمانيًا فيه إخوة، وحرصٌ على مضاعفة الثواب لهم، ووعد بالجزاء الأوفى، وجاء هذا الترغيب متضمنًا أسرارًا

تعبيرية تكشف عن جمال البيان النبوي، وعن تأثيره في النفوس، في لفظ واضح، وعبارة مضيئة بالمعاني، حافلة بالدلالات: فبعد النداء الجميل في قوله: "بني سلمة" أي يا بني سلمة: وحَذْف حرف النداء يشعر بشدة حرص الرسول ﷺ على إخبارهم بمراده وهو خير لهم، ولم يُفصِّل القول في رفضه لإرادتهم، ولم يصرح بأن إرادتهم تقلل من ثوابهم المضاعف المنتظر، وإنما صاغ توجيهه النبوي في أسلوب الإغراء وهو مناسب للسياق والمقام، وفي أسلوب: الجواب والشرط، وأسلوب الإغراء مع أسلوب الشرط، تجمَّلا ببلاغة الحذف: فقوله: "دياركم" تقديره: التزموا دياركم: وهو أسلوب إغراء في مصطلح النحويين، وهو ليس أمرًا ملزمًا، وجملة: "تكتب آثاركم" كررت مرتين: لمزيد من الترغيب والإغراء: حيث يفوزون بثواب مَنْ تكثر خطاه إلى المساجد، وبلاغة الحذف تتجلى في هذه الجملة المتكررة "تكتب آثاركم" فالتقدير: إن لزمتم دياركم تكتب آثاركم، أي تكثر خطاكم إلى المسجد وتكتب لكم الحسنات: فمن غدا أو راح إلى المسجد، أعد الله تعالى له نزلاً في الجنة كلما غدا أو راح.

المضامين الدعوية

أولاً: من واجبات الداعي: التثبت قبل إصدار الأحكام والتوجيهات.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: النداء، والأمر.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل الخطا إلى المساجد.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: امتداد ثواب العمل الصالح.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: أهمية الصلاة في المساجد وحضور الجماعات.

أولاً- من واجبات الداعي: التثبت قبل إصدار الأحكام والتوجيهات:

إن من منهج القرآن الكريم في التلقي والتوجيه التريث والتثبت، ومما ورد في ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾(١) وينبغي للداعية أن يطبق ذلك عمليًا في دعوته، خاصة وأن

(١) سورة الحجرات، آية: ٦.

الدعوة لابد وأن تكون على بيّنة وبصيرة، كما بيّن سبحانه على لسان نبيه ﷺ في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾(١) وهذا المعنى نجده واضحًا جليًا في سؤال النبي ﷺ لبني سلمة في صحة ما نما إلى علمه من إرادتهم التحول عن مساكنهم إلى قرب المسجد فقال لهم ((إنه قد بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد؟ فقالوا: نعم يا رسول الله قد أردنا ذلك)).

ثانيًا- من أساليب الدعوة: النداء، والأمر:

فالنداء في قوله "بني سلمة" أي يا بني سلمة (ناداهم استرضاءً عن قصدهم، وإظهارًا لهم عن نياتهم، ولذلك أتبعه بقوله: دياركم) أي الزموا دياركم.

والأمر من الإمام المشفق على رعيته، المشفع بأساليب التطلف واللين، له أكبر الأثر في القبول والاستجابة.

وقد وصف الله عز وجل مبالغة الرسول ﷺ في حرصه على إيصال الخير لأمته، ودفع الأذى عنهم فقال ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(٢) (عزيز عليه ما عنتم أي عزيز عليه الشيء الذي يعنت أمته ويشق عليها، حريص عليكم أي على هدايتكم ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم)(٣) وهذه الأخلاق النبوية مما ينبغي أن يتخلق بها الدعاة إلى الله تعالى، وأصحاب القرار والتوجيه في المجتمع الإسلامي.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل الخطا إلى المساجد:

يظهر ذلك فيما نقله جابر بن عبدالله رضي الله عنهما، إذ قال: "أراد بنو سلمة أن يقربوا من المسجد، ينتقلوا من ديارهم ومحلاتهم حتى يكونوا قرب مسجد النبي ﷺ، من أجل

---

(١) سورة يوسف، آية: ١٠٨.

(٢) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢٤١/٤.

أن يدركوا الصلوات معه ويتلقوا من علمه، فبلغ ذلك النبي ﷺ فسألهم، قال: "إنه بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد؟" قالوا: نعم يا رسول الله قد أردنا ذلك فقال رسول الله ﷺ: "دياركم تكتب آثاركم" قالها مرتين وبين لهم أن لهم بكل خطوة حسنة أو درجة[١]. وفي هذا الحديث دليل على أن المسلم إذا خرج من بيته قاصدًا أداء صلاة في بيت من بيوت الله فإنه لا يخطو خطوة إلا رفع له بها درجة وحط بها عنه خطيئة، ومن النصوص الدالة على ذلك ما روى عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: ((صلاة الجميع تزيد على صلاته في بيته، وصلاته في سوقه، خمسًا وعشرين درجة، فإن أحدكم إذا توضأ فأحسن، وأتى المسجد لا يريد إلا الصلاة، لم يخط خطوة إلا رفعه الله بها درجة وحط عنه خطيئة حتى يدخل المسجد، وإذا دخل المسجد كان في صلاة ما كانت تحبسه، وتصلي -يعني- عليه الملائكة، ما دام في مجلسه الذي يصلي فيه: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه، ما لم يحدث فيه))[٢].

وفي سنن أبي داود ((إذا توضأ أحدكم فأحسن الوضوء ثم خرج إلى الصلاة لم يرفع قدمه اليمنى إلا كتب الله عز وجل له حسنة ولم يضع قدمه اليسرى إلا حط الله عز وجل عنه سيئة فليُقرِّب أحدكم أو ليبعِّد...))[٣] وبصفة أعم بين النبي ﷺ أن أعظم الناس أجرًا أبعدهم ممشى فعن أبي موسى رضي الله عنه قال قال النبي ﷺ: ((أعظم الناس أجرًا في الصلاة أبعدهم فأبعدهم ممشى...))[٤].

كما أن أمر النبي ﷺ لبني سلمة بلزوم ديارهم على أخرى تحملهم على مقامهم بمواضعهم، وهو أنه كره أن تترك جهات المدينة عراء، أي: فضاء خالية فيؤتون منها، ومن هذا قوله تعالى: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ﴾[٥]، اي بموضع خال[٦]، وهذا المعنى أشير إليه

---

(١) انظر: شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين، ٣٧٨/١.

(٢) أخرجه البخاري ٤٧٧.

(٣) أخرجه أبو داود ٥٦٣، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٥٦٢).

(٤) أخرجه البخاري ٦٥١.

(٥) سورة الصافات، آية: ١٤٥.

(٦) المفهم، القرطبي ٢٩٢/٢.

في بعض روايات الحديث عند الإمام البخاري، فعن أنس ﷺ: ((أَنَّ بني سَلِمةَ أَرادوا أن يتحوَّلوا عن مَنازِلِهم فينزلوا قريبًا منَ النبيِّ ﷺ، قال فكَرِهَ رسولُ اللهِ ﷺ أن يُعْروا المدينة فقال: أَلا تَحتَسبونَ آثارَكم))[١].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: امتداد ثواب العمل الصالح:

إن العمل الصالح لا يعود نفعه على صاحبه فحسب بل يمتد ليشمل غيره، وهذا المعنى يظهر من قوله ﷺ ((تكتب آثاركم)) (فالمراد بالكتابة: إما كتب صحائف الأعمال وبالآثار والخطا، فالمعنى: أن كثرة الخطى إلى المساجد سبب لزيادة الأجر. وإما كتب ما في السير، والمراد بالآثار ما يؤثر في الكتب المدونة من سير الصالحين، فالمعنى: لزومكم دياركم بعد ممشاكم يكتب في سير السلف وآثار الصالحين، فيكون سببًا لحرص الناس وجدهم واجتهادهم في حضور الجماعات فمن سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها)[٢].

خامسًا- من موضوعات الدعوة: أهمية الصلاة في المسجد وحضور الجماعات:

لقد علم الرسول ﷺ الدافع الذي من أجله همَّ بنو سلمة أن يتحولوا قرب المسجد لحصول الأجر والفضل والاستباق إلى الصلاة، فلم يوافقهم، وفي نفس الوقت لم يرخص لهم في عدم حضور الجماعات أو التأخر عنها مع ما يجدون من طول في المسافة وعنت في السير ومشقة في الطريق، وهذا دليل على أهمية حضور الجماعات بالنسبة للمجتمع الإسلامي، وإنَّ من يقرأ سنة النبي ﷺ ليجد تأكيده وترغيبه في حضور الجماعات في المسجد ويرهب من تركها بل إنه لم يأذن لضرير بعيد المنزل في تركها والصلاة في بيته فعن أبي هريرة ﷺ قال: ((أتى النبي ﷺ رجل أعمى فقال: يا رسول الله إنه ليس لي قائد يقودني إلى المسجد فسأل رسول الله ﷺ أن يُرَخص له فيصلي في بيته فرخص له، فلما ولى دعاه فقال: هل تسمع النداء بالصلاة؟ قال نعم قال فأجب))[٣].

---

(١) أخرجه البخاري ٦٥٦.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٢/٢٢٩.

(٣) أخرجه مسلم ٦٥٣.

لذا وجب الاهتمام بصلاة الجماعة وحضورها لما فيها من إظهار شعائر الإسلام، ورمز لتوحد المسلمين في عباداتهم ووجهتهم، إلى غير ذلك من فضائل الجماعة.

الحديث رقم (١٣٧)

١٣٧- **الْحَادي والْعِشْرُونَ:** عنْ أَبِي الْمُنْذِر أُبيِّ بنِ كَعبٍ ﵁ قال: كَان رجُلٌ لا أَعْلَمُ رجُلا أَبْعَدَ مِنَ الْمَسْجِدِ مِنْهُ، وكَانَ لا تُخْطِئُهُ صلاةٌ. فَقِيل لَه (أَوْ فقُلْتُ لهُ): لَوْ اشْتَريْتَ حِمارًا ترْكَبُهُ في الظَّلْماءِ، وفي الرَّمْضَاءِ. فَقَالَ: ما يسُرُّنِي أَن منْزِلِي إِلَى جنْب الْمسْجِدِ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ يُكْتَب لِي ممْشَايَ إِلَى الْمَسْجد، ورُجُوعِي إِذَا رجعْتُ إِلَى أَهْلِي، فقالَ رسول اللَّه ﷺ: «**قَدْ جمع اللَّهُ لك ذلِك كُلَّهُ**» رواه مسلم[١].

وفي روايةٍ[٢]: «**إِنَّ لَكَ مَا احتسَبْت**».

«**الرمْضَاءُ**» الأَرْضُ الَّتِي أَصابهَا الْحرُّ الشَّديدُ.

ترجمة الراوي:

أبي بن كعب: هو ابن قيس بن عبيد بن زيد بن النجار.

سيد القراء، ومن كتاب الوحي، ومن أصحاب العقبة الثانية، شهد بدرًا وأحد والخندق والمشاهد كلها، جمع القرآن في حياة النبي ﷺ، وكان يفتي على عهده ﷺ، وحفظ عنه علمًا مباركًا، وكان رأسًا في العلم والعمل، شهد مع عمر بن الخطاب ﵁ وقعة الجابية، وكان يسميه سيد المسلمين ويقول: اقرأ يا أبي، وكان قد كتب الصلح لأهل بيت المقدس، وأمره عثمان ﵁ بجمع القرآن فاشترك في جمعه.

وقال له النبي ﷺ ((إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن))[٣] وكان النبي ﷺ يُكنّيه بأبي المنذر وذلك بعد أن سأله ﷺ عن أي آية في القرآن أعظم، فقال أُبي ﵁ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾[٤] فضرب النبي ﷺ في صدره وقال ((لِيَهْنِكَ العلم أبا المنذر))[٥].

---

(١) برقم (٢٧٨/٦٦٣). أورده المنذري في ترغيبه (٤٦٢). وسيكرره المؤلف برقم (١٠٥٦).

(٢) ثاني حديث بعد حديث (٢٧٨/٦٦٣) بدون رقم. أوردها المنذري في ترغيبه (٤٦٢).

(٣) أخرجه البخاري ٤٩٥٩، ٤٩٦٠، ٤٩٦١.

(٤) سورة البقرة، آية: ٢٥٥.

(٥) أخرجه مسلم ٨١٠.

وكان نحيفًا قصيرًا أبيض الرأس واللحية.

وقد أخرج الأئمة أحاديثه في كتبهم وبلغ مجموعها في الصحيحين وغيرهما (١٦٤) حديثًا، وعده مسروق في الستة من أصحاب الفتيا وكان رضي الله عنه يختم القرآن في ثماني ليالٍ.

وتوفي في خلافة عمر سنة ٢٢هـ بالمدينة، وقيل في خلافة عثمان سنة ٣٠هـ[(١)].

غريب الألفاظ:

لا تخطئه صلاة: أي لا تفوته[(٢)] ووقع في مسند أحمد (٢١٢١٦): فكان يحضر الصلوات كلهن مع النبي صلى الله عليه وسلم.

الظلماء: الظُّلْمة: يقال ليلة ظلماء: مظلمة وفي سنن أبي داود (٥٥٧): الظلمة[(٣)].

الرمضاء: الأرض التي أصابها الحرُّ الشديد[(٤)].

احتسبت: أي طلبت فيه وجه الله وثوابه[(٥)].

الشرح الأدبي

إن هذا الحديث الشريف متصل بالحديث السابق اتصالاً وثيقًا، حيث يتجلى ثواب كثرة الخطا إلى المساجد، والحوار في الحديث السابق كان بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبني سلمة، وأوصاهم المصطفى صلى الله عليه وسلم بالبقاء في أماكنهم البعيدة عن المسجد رغبة في مزيد

---

(١) الطبقات الكبرى، ابن سعد (٥٩/٣)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر ٤٢، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (١٦٨/١-١٧١)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ص ٢١، وسير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط (٣٨٩/١-٤٠٠)، وتهذيب الكمال في أسماء لرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس، ومجدي السيد أمين (١٥١/١-١٥٢)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٩٧/١-٩٨)، والأعلام للزركلي (٨٢/١)، وموسوعة عظماء حول الرسول (٤٢٠-٤٢٧).

(٢) عون المعبود على سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم آبادي ٢٨٤.

(٣) انظر: الوسيط ٥٧٧.

(٤) رياض الصالحين ١٠٣.

(٥) عون المعبود على سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم آبادي ٢٨٤، وانظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ح س ب).

من تحصيل الثواب لهم.

وهذا الحديث الذي تتوهج آخر جملة منه ببشارة المصطفى ﷺ لذلك الصحابي الذي آثر البقاء في مكانه بعيدًا عن المسجد، ولم يستعن على الذهاب للمسجد بدابة تيسِّرُ له الطريق، وإنما آثر المشى حتى يتحصل على أجر ممشاه ذهابًا وإيابًا، ويقول له البشير النذير، والسراج المنير، مؤكدًا تحقيق رغبته، ومضاعفة أجره "قد جمع الله لك ذلك كله".

وهذه العبارة المضيئة بالبشرى النبوية، تأتي تتويجاً للنية الخالصة التي انطوى عليها قلب ذلك الصحابي، والحديث في بدايته إلى ما قبل الجملة الأخيرة يعد مقدمة تمهيدية لهذه البشارة المحمدية، ولكن النص كله يُعد سُنَّة لأن النبي ﷺ أقر ذلك، ووعد الرجل بتحقيق ما أراد وتمنى، ولكن ما اسم ذلك الرجل؟ ولماذا أغفل اسمَه الراوي، ولم يسمه أحد من شرّاح الحديث، والأمر لا يتعلق بشخص واحد، ولكن بأمر شرعي، وموقف تعبدي، وسلوك إيماني عام، فكل مسلم يجب عليه ذلك: ترغيباً في تحصيل الأجر، وكثرة الخطا إلى المساجد حتى يتعود المجتمع على ذلك، ويشهد الأطفال آباءهم وهم يتحركون في كل وقت للصلاة إلى المسجد لأن من أفضل الأعمال: انتظار الصلاة إلى الصلاة، والصلاة لوقتها، وكثرة الخطا إلى المساجد، وأسلوب الحديث يشير إلى بُعْد دار هذا الرجل عن مسجد رسول الله ﷺ، حيث قال الراوي: "لا أعلم رجلاً أبعد من المسجد منه" أي: في المدينة وقوله: "لا أعلم" احتراس. فربما يوجد شخص آخر يعلم ويعرف مَنْ هو أبعد من ذلك الرجل عن المسجد، ويدور حوار بين أبي بن كعب رضي الله عنه وهذا الرجل، حيث يرشده إلى وسيلة تيسر له الذهاب إلى الصلاة، وأشار عليه بشراء حمار يركبه في الظلماء، حيث صلاة العشاء والفجر والمغرب، وفي الرمضاء حيث صلاة الظهر والعصر، والتعبير بالأداة "لو" وهى للتمني في بعض الآراء يبوح بصدق نية أبي بن كعب رضي الله عنه أو الذي حاور الرجل، وحرصه على راحته، وقيل "لو" شرطية وجوابها محذوف والتقدير لو اشتريت حمارًا تركبه في الظلماء وفي الرمضاء لكان أجدى وأحسن وأيسر.

وهذا الحذف من سمة البيان النبوي حتى في العبارات التي لم يتحدث بها رسول الله ﷺ، لأن البلاغة: الإيجاز، والحذف أحد مظاهر الإيجاز، وتأتي إجابة ذلك الرجل مشحونة بالمفارقة أي بما لا يتوقع السامع: فيقول: "ما يسرني أن منزلي إلى جنب المسجد"، وربما يتوهم القارئ أو المتلقي أن الرجل لا يحب مجاورة المسجد، وهذا وهم خاطئ: لأن مسجد رسول الله ﷺ يأتي في الأفضلية بعد المسجد الحرام، وأكرم الله نبيه بذلك، وشّرف المدينة بهذا التفضيل، والرجل أكد مراده وأمنيته: ورغب في المزيد من الثواب وأن يكتب الله له أجر ممشاه إلى المسجد ورجوعه منه، ويبشره رسول الله رضي الله عنه مؤكدًا له تحقيق أمنيته جزاء مسعاه. وأتى بحرف "قد".. وهى للتحقيق، ثم الفعل "جمع" الدال على المزيد من الثواب، ولفظ الجلالة للتشريف، وكاف الخطاب للتحديد، ولفظ "كل" للتأكيد.

المضامين الدعوية

أولاً: من وسائل الدعوة: القصة.

ثانيًا: من واجبات الداعية: إسداء النصح إلى الآخرين.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: شدة حرص الصحابة رضي الله عنهم على فعل الخير.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل كثرة الخطا إلى المساجد.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: فضل الله تعالى على عباده.

أولاً- من وسائل الدعوة: القصة:

تُعد القصة من أهم وسائل الدعوة، نظرًا لما تحويه من أحداث، وتشتمل عليه من عوامل تأثير يمكن للداعية أن يفيد منها في دعوته، ففي هذا الحديث حكى راوي الحديث قصة رجل لا يعلم رجلاً أبعد من المسجد منه، ولا تخطئه صلاة...، ولا شك أن القصة من وسائل الدعوة التي تساعد على إقناع المدعوين بما يقول الداعية، وتعطي لهم نموذجًا عمليًا من الأحداث والوقائع التي لها أثر بالغ في مجال الدعوة إلى الله تعالى.

ثانيًا- من واجبات الداعية: إسداء النصح إلى الآخرين:

إن من صميم عمل الداعية معايشة الناس ومخالطتهم، والحرص على نفعهم، وإسداء النصح لهم، ويتضح هذا من الحديث: (فقيل له أو فقلت له: لو اشتريت حمارًا تركبه في الظلماء وفي الرمضاء)، وهذا يشعر بقرب الداعية من المدعو وحرصه عليه، ونصحه له، وقد قال رسول الله ﷺ ((الدين النصيحة قلنا لمن يا رسول الله قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم))[١] قال الإمام النووي: (والنصيحة لعامة المسلمين فإرشادهم إلى مصالحهم في الدنيا والآخرة وكف الأذى عنهم، فيعلمهم ما يجهلونه من أمور دينهم، ويعينهم عليه بالقول والفعل، وستر عوراتهم، وسد خلاتهم، ودفع المضار عنهم وجلب المنافع لهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر...)[٢].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: شدة حرص الصحابة رضي الله عنهم على فعل الخير:

يتضح هذا من الحديث في قول الرجل "ما يسرني أن منزلي إلى جنب المسجد، إني أريد أن يكتب لي ممشاي إلى المسجد ورجوعي إذا رجعت إلى أهلي" فبالرغم أن في ذهابه ورجوعه مشقة عليه من الظلام بالليل، والحر الشديد بالنهار، إلا إنه أبى إلا أن يتحمل هذه المشقة في سبيل الله، وابتغاء الأجر والثواب من الله عز وجل وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾[٣] ووعد الله بإيتاء الأجر على العمل الذي يحتسبه الإنسان عند الله ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[٤] وفي حرص الصحابة على الخير إنما يستجيبون لقوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ﴾[٥] وقوله: ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ﴾[٦].

---

(١) أخرجه مسلم ٥٥.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٣١.

(٣) سورة المزمل، آية: ٢٠.

(٤) سورة الزلزلة، آية: ٧، ٨.

(٥) سورة البقرة، آية: ١٤٨.

(٦) سورة المائدة، آية: ٤٨.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل كثرة الخطا إلى المساجد:

إن من الموضوعات التي يشير إليها الحديث فضل تكثير الخُطا إلى المسجد حيث قال الرسول ﷺ للصحابي: "قد جمع الله لك ذلك كله" قال ابن عثيمين: (ففي هذا دليل على أن كثرة الخطا إلى المساجد من طرق الخير، وأن الإنسان إذا احتسب الأجر على الله كتب له الأجر حال مجيئه إلى المسجد وحال رجوعه منه)(١). وقد بين النبي ﷺ أن الأجر في الصلاة حسب البعد من المسجد ففي الحديث ((أعظمُ الناسِ أجرًا في الصلاةِ أَبعَدُهم فأبعدُهم مَمشىً، والذي يَنتظِرُ الصلاةَ حتى يصلّيَها مع الإمامِ أعظمُ أجرًا من الذي يُصلّي ثمَّ يَنامُ))(٢) ولما خلت البقاع حول المسجد فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال لهم: ((بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد قالوا: نعم يا رسول الله قد أردنا ذلك فقال: يا بني سلمة ديارَكم تكتب آثارُكم ديارَكم تكتب آثارُكم))(٣).

قال الطيبي: (وكانت ديارهم على بعد من المسجد، وكانت المسافة تجهدهم في سواد الليل، وعند وقوع الأمطار واشتداد البرد، فأرادوا أن يتحولوا إلى قرب المسجد فكره النبي ﷺ ذلك، فرغبهم فيما عند الله من الأجر على نقل الخطى إلى المسجد والمعنى: لزومكم دياركم وبعد ممشاكم يكتب في سير السلف وآثار الصالحين فيكون سببًا لحرص الناس وجدهم واجتهادهم في حضور الجماعات)(٤).

خامسًا- من موضوعات الدعوة: فضل الله على عباده:

يظهر هذا في إخبار النبي ﷺ "أن الله جمع له ذلك كله" أي: أجر الذهاب وأجر الرجوع وهذا من عظيم رحمته وكرمه بعباده وفضله عليهم: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن

---

(١) شرح رياض الصالحين ١/٣٨٠.

(٢) أخرجه البخاري ٦٥١، ومسلم ٦٦٢.

(٣) أخرجه مسلم ٦٦٢.

(٤) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٢/٢٢٨.

يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾[1]. لأن الله تعالى يجزل عطاءه لعباده المؤمنين الطائعين الذين يحرصون على طاعته ومرضاته، وإن ذلك مما ينبغي للداعية أن يوضحه للمدعوين ويستثير هممهم لتحصيله وإدراكه.

(١) سورة الجمعة، آية: ٤.

الحديث رقم (١٣٨)

١٣٨- **الثَّاني والْعشْرُونَ:** عنْ أَبِي محمدٍ عبدِ اللَّهِ بنِ عمرو بن العاص ﵄ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«أَرْبعُونَ خَصْلَةً أَعلاها[1] منِيحةُ الْعَنْزِ، ما مِنْ عامَلٍ يعملُ بِخَصْلَةٍ مِنْها رجاءَ ثَوَابِهَا وتَصْدِيقَ موْعُودِهَا إِلاَّ أَدْخلَهُ اللَّهُ بِهَا الْجنَّةَ»** رواه البخاريُّ[2].

«الْمنِيحةُ»: أَنْ يُعْطِيَهُ إِيَّاهَا ليأْكُل لبنَهَا ثُمَّ يَردَّهَا إِليْهِ.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمرو بن العاص: عَلَمٌ من أعلام الصحابة، صحابيٌّ بن صحابيٍّ، وهو: عبدالله بن عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم، السهميُّ، الهاشميُّ، القرشيُّ، يقال: كان اسمه العاص، فغيَّر النبيُّ ﷺ اسمه، وسماه عبدالله، كان يكنى بأبي محمد، وذلك هو الأشهر، ويقال أبو عبدالرحمن، ويقال: أبو نصير، ولم يكن بينه وبين أبيه في السن إلا إحدى عشرة سنة، وقيل اثنتا عشرة سنة، وقيل عشرين، أسلم قبل أبيه، وهاجر بعد سنة (٧هـ)، شهد بعض المغازي مع رسول الله ﷺ، وشهد مع أبيه عمرو بن العاص فتوحَ الشام، وكانت معه راية أبيه يوم اليرموك، ويوم صفين كان على ميمنة جيش معاوية، واعتذر ﵁ من شهوده صفين، وأقسم أنه لم يرم فيها برمح ولا سهم وأنه إنما شهدها لعزمة أبيه عليه في ذلك.

وكان عبدالله غزير العلم مجتهدًا في العبادة، ذا مقام راسخ فيهما، حَمل عن النبي ﷺ علمًا جمًا، يبلغ ما أسند إليه (٧٠٠) حديثًا اتفق البخاري ومسلم على (٧) وانفرد البخاري بـ (٨) ومسلم (٢٠) حديثًا وكان من الذين أذن ورخص لهم رسول الله ﷺ أن يكتبوا عنه بعد ما كره للصحابة أن يكتبوا عنه سوى القرآن في حياته ﷺ فعن أبي هريرة أنه قال: ما كان أحد أعلمَ بحديث رسول الله ﷺ مني، إلا ما كان من عبدالله بن عمرو، فإنه كان يكتبُ بيده ويعيه بقلبه، وكنت أعيه بقلبي، ولا أكتب

---

(١) لفظ البخاري: (أعلاهنَّ).

(٢) برقم (٢٦٣١). أورده المنذري في ترغيبه (٣٩٩٨).

بيدي، واستأذن رسول الله ﷺ في الكتاب عنه فأذن له[(١)].

كما قرأ لأهل الكتاب كتبهم، وأدمن النظر فيها، وعدَّه ابن سعد في الطبقات من أهل العلم والفتوى من أصحاب رسول الله ﷺ.

وكان يسرد الصيام ويكثر من قراءة القرآن الكريم، فعنه أنه قال: كنت أصوم الدهر وأقرأ القرآن كل ليلة قال: فإما ذُكِرْتُ للنبي ﷺ وإما أرْسَلَ إليّ فأتيته، فقال لي: "ألم أُخبر أنك تصوم الدهر وتقرأ القرآن كل ليلة؟" فقلت: بلى يا نبي الله ولم أُرِدْ بذلك إلا الخير، قال: "فإن بحسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام" قلت: يا نبي الله إني أطيق أفضل من ذلك قال: "فإن لزوجك عليك حقًا ولزَوْرِك عليك حقًا ولجسدك عليك حقًا"، قال: "فصم صوم داود نبي الله فإنه كان أعبد الناس"، قال: قلت: يا نبي الله وما صوم داود؟ قال: "كان يصوم يومًا ويفطر يومًا"، قال: "واقرأ القرآن في كل شهر" قال: قُلْتُ: يا نبي الله: إني أُطيق أفضل من ذلك، قال: "فاقرأه في كل عشرين" قال: قلت: يا نبي الله: إني أطيق أفضل من ذلك قال: "فاقرأ في كل عشر"، قال: قلت: يا نبي الله إني أطيق أفضل من ذلك، قال: ((فاقرأ في كل سبع ولا تزد على ذلك فإن لزوجك عليك حقًا ولزَوْرِك عليك حقًا ولجسدك عليك حقًا))[(٢)]، قال فشدّدت فشُدِّد عليَّ، قال: وقال لي النبي ﷺ: "إنك لا تدري لعلك يطول بك عُمْر"، قال: فصرت إلى الذي قال لي النبي ﷺ: ((فلما كَبِرتُ وَدِدت أني كنت قبلت رُخصة نبي الله ﷺ))[(٣)].

وكان ممن لهم باع في سياسة الأحوال وإدارة الأعمال، فولاه معاوية الكوفة ثم عزله وولى المغيرة بن شعبة.

أما عن صفاته الخَلْقية، فكان رجلاً طُوالاً، سمينًا، عظيم البطن والساقين،

---

(١) أخرجه أحمد ٢/٤٠٣ رقم ٩٢٣١، وقال محققو المسند: حديث صحيح ١٢٧/١٥.

(٢) وعند أبي داود قال لا يفقه من قرأه في أقل من ثلاث "باب في كم يقرأ القرآن، رقم ١٣٩٠ وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ١٢٣٩).

(٣) أخرجه مسلم ١١٥٩.

أحمر، أبيض الرأس واللحية، وعمي في آخر عمره.

مات في ليالي الحرة في ولاية يزيد بن معاوية وكانت لليلتين بقيتا من شهر جمادى الآخرة سنة (٦٣)، وقيل مات بالطائف سنة (٥٥) وقيل بمكة سنة (٦٧) وعمره (٧٢) وقيل بأرضه بالسَّبع من فلسطين سنة (٦٥) وقيل توفي في مصر في النصف من جمادى الآخرة سنة (٦٥) وهو ابن (٧٢)، ودفن بداره إذ لم يستطع أن يخرج بجنازته لشغب الجند على مروان بسبب مقتل الأكدر بن حمامه[١].

غريب الألفاظ:

خصلة: الخصلة: الشعبة والجزء[٢].

المنيحة: فسّرها النووي[٣]، وفي النهاية: أن يُعطيه ناقة أو شاةً ينتفع بلبنها ويُعيدُها، وكذلك إذا أعطاه لينتفع بوبرها وصوفها زمانًا ثم يردُّها[٤].

الشرح الأدبي

إن أبواب الخير لا توصد في أوجه الراغبين في إنجاز المشروعات الخيرية، وإن المصطفى ﷺ يعطي مفاتيح الخير للذين أنعم الله عليهم بالرزق الوفير، والعطاء لا يظل قاصرًا على أرباب المال، ورجال الأعمال، ومَنْ يملكون النصاب وتكتظ جيوبهم بالأموال، ولكن أبواب الخير مُشْرَعة أمام كل صاحب نية خالصة، وصاحب رغبة في

---

(١) الطبقات الكبرى، ابن سعد (٣٧٣/٢)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر (٤٢١، ٤٢٢)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٣٤٥/٣-٣٤٨)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: د. طه محمد الزيتي (٨١٢، ٨١٣)، وسير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط (٧٩/٣-٩٤)، وتهذيب الكمال في أسماء لرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم غباس، ومجدي السيد أمين (٢٢٢/٤-٢٢٤)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٣٩٣/٢، ٣٩٤)، وموسوعة عظماء حول الرسول (١٢٥١/٢-١٢٥٦).

(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢٦٧.

(٣) رياض الصالحين ١٠٣.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (م ن ح).

العطاء ولو بفِرْسِن شاة، أو إماطة الأذى عن طريق المشاة، فالعطاء ليس مقياسه الكم الوفير، ولكن يقاس بإخلاص النية، وسلامة القصد، وصلاح الضمير، وهذا هو الطريق إلى إصلاح الأمة، والتعاون على البر والتقوى وكشف الغمة.

وهذه الدعوة المتوهجة بمفاتيح أبواب الخير تموج بكثير من جماليات الأداء الأسلوبي في الحديث النبوي.

ولنتأمل الظواهر الفنية والأسلوبية التي تشع بها تراكيب الحديث الشريف، وكلماته النيرة المشرقة.

أ- يبتدئ الحديث الشريف بقوله ﷺ: "أربعون خصلة"، والعدد هنا ليس للتحديد، ولكنه يرمز للكثرة.. واكتمال المراد من فعل الخير، لأن العدد : الأربعين، في الإسلام يراد به الاكتمال والقوة والنضج. ومن هنا: قال بعض العلماء: إن الأولى: ألا يُعتنَى بعدِّها، ومعلوم أنه ﷺ كان عَالمًا بالأربعين المذكورة، وإنما لم يذكرها لمعنى هو أنفع لنا من ذكرها، وذلك خشية أن يكون التعيين لها مزهدًا في غيرها من أنواع البر، وعدم تحديد هذه الخصال الأربعين من سمات بلاغة الرسول ﷺ، لأن كلامه كما قال الجاحظ: هو الكلام الذي قل عدد حروفه، وكثر عدد معانيه، يَبزُّ الخطبَ الطوال بالكلام القصير.

ب- أعلاها منيحة العنز: والعطية هنا تأخذ صورة الاكتمال في العطاء وليس في الكم، لأن الدلالة اللغوية لكلمة "منيحة" تفيد ذلك: فهي: أن يعطي المانح العنز للمحتاج ليأكل لبنها ثم يردّها إليه، وتأمل التعبير بالفعل، "يأكل" ولم يقل يشرب، لأن المعطَي هنا بلغ إملاقُه حد العوز، ولم يعد لديه ما يقتات به إلا لبن هذه العنز، ومظهر اكتمال العطية وعلوها: أن صاحبها يسلمها كلها إلى المحتاج ليأخذ منها حاجته حتى يكتفي ثم يردّها إليه، وهي صورة للعطاء الأعلى سموًا ونية وحبًا وتكافلاً، ويقاس على ذلك ما لدى المسلم في العصر الحديث من متاع أو سيارة أو أي آلة ينتفع بها الإنسان، ويعطيها لجاره حتى يقضي حاجته، ويفرِّج أزمته وفي ذلك حث على حتمية التكافل الاجتماعي بين طوائف الأمة، وفي آثار هذا البعد السامي للعطاء يكمن سر الجمال التعبيري في اختيار كلمة "أعلاها" لأن الأعمال بالنيات، وليس بالأرقام والإحصاءات.

وتأمل سر صياغة المصطفى ﷺ بشراه لصاحب هذا العطاء في أسلوب القصر: "ما من عامل يعمل... إلا أدخله الله الجنة" والقصر هنا يطمئن صاحب هذه المنيحة وذلك العطاء إلى فوزه بالجزاء الأوفى والتصريح بلفظ الجلالة "الله": يؤكد ذلك حيث قال: "إلا أدخله الله الجنة"، ولم يقل إلا دخل الجنة، ففضل الله وكرمه يتوجان هذا العمل الجليل الجميل، والتعبير بقوله "ما من عامل" حيث جاءت، "من"، وهي في عرف النحويين زائدة، ولكنها زيادة في الخبر مؤكدة، لتأكيد العموم واستغراقه -كما قال العلماء- والله جل وعلا لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وتنكير لفظ "عامل" للتعميم والشمول، وإيحاء بضرورة العمل الجاد الشريف، وقد حذف النعت والتقدير "ما من عامل مسلم"، لأن ذلك معروف بداهة، والتعبير بالمضارع في قوله "يعمل"، يوحي بضرورة استمرار الأعمال الخيرية النافعة.

وقوله: "بخصلة منها" تبشير بالتيسير، فالخصلة الواحدة تكفي لدخول الجنة إذا كانت مصحوبة بالنية الصالحة رجاء الثواب، وتصديق وعد الملك الوهاب.

فقه الحديث

قال النووي: (تستحب المنيحة، وهي أن تكون له ناقة أو بقرة ذات لبن فيدفعها إلى من يشرب لبنها ثم يردها إليه، لحديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما مرفوعًا: (أربعون خصلة أعلاها منيحة العنز...)[(١)].

وجاء في الموسوعة الفقهية: (الهبة تمليك العين بلا عوض، والعارية: تمليك المنفعة بلا عوض، والمنيحة الشاة أو الناقة يعطيها صاحبها رجلاً ليشرب لبنها ثم يردها إذا انقطع اللبن)[(٢)].

---

(١) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٥٦/٦، وانظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي مج٤/٧/٩٤، ط دار الكتب العلمية، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٤٣/٥ وما بعدها ط السلفية.

(٢) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية٢٣/٩.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار، والترغيب.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الحض على أبواب الخير.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل حسن الظن بالله.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: سعة فضل الله ورحمته.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار، والترغيب:

١- الإخبار: حيث أخبر النبي ﷺ عن أربعين خصلة من أبواب الخير من يعمل بها يدخله الله الجنة، وهذا الإخبار من أساليب الدعوة التي ينبغي للداعية اتباعها في دعوته.

٢- الترغيب: من أساليب الدعوة المحببة إلى النفوس أسلوب الترغيب لأنه يحبب النفس في فعل الخير والطاعة وقد جاء في الحديث: ((إلا أدخله الله بها الجنة) وهذا يعطي حافزًا وباعثًا على الإقدام على خصال الخير، وهذا منهج قرآني عظيم قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلًا﴾[1].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: الحض على أبواب الخير:

حيث أشار النبي ﷺ إلى أربعين خصلة من أبواب الخير أعلاهن منيحة العنز، وذلك ليفتح الباب أمام المدعوين في تلمس أبواب الخير وطرقها. قال ابن حجر: (قال ابن بطال: وقد حض النبي ﷺ على أبواب من أبواب الخير والبر لا تحصى كثيرة، ومعلوم أنه ﷺ كان عالمًا بالأربعين المذكورة، وإنما لم يذكرها لمعنى هو أنفع لنا من ذكرها، وذلك خشية أن يكون التعيين لها مزهدًا في غيرها من أبواب البر قال: وقد بلغني أن بعضهم تطلبها فوجدها تزيد على الأربعين فمما زاده: (إعانة الصانع، والصنعة للأخرق، والستر على المسلم، والذب عن عرضه، وإدخال السرور عليه، والتفسح في المجلس، والدلالة على الخير، والكلام الطيب، والغرس والزرع والشفاعة، وعيادة

---

(١) سورة الكهف، الآيتان: ١٠٧، ١٠٨.

المريض، والمصافحة والتزاور، والنصح، والرحمة)[١]. فأبواب الخير وطرقه متنوعة وأعماله متعددة، حتى إن من ألوان الخير أربعين عملاً أعلاها مرتبة وأكثرها ثوابًا إعطاء لبن العنز وصوفها وما إلى ذلك، وما من امرئ يعمل بخصلة خير منها رجاء ثوابها من الله وتصديقًا بما وعد من الأجر إلا أدخله الله بها الجنة فما بالك بمن عمل بها جميعًا؟ وما بالك بمن عمل بما هو أعظم منها رتبة وأكثر نفعًا؟[٢].

وهكذا يجب أن يفتح الداعية أبواب الخير أمام المدعوين ليختار كل واحد منهم ما يقدر عليه ومثال هذا في القرآن قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟﴾[٣]. فذكرت الآية أركان الإيمان الواجبة، ثم بينت وعددت مصارف إنفاق المال في سبيل الله، ثم ذكّرت بفرائض الإسلام الواجبة.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل حسن الظن بالله:

يتضح هذا من قول النبي ﷺ "ما من عامل يعمل بخصلة منها رجاء ثوابها وتصديق موعودها" وهذا حسن ظن بالله وتكون النتيجة "إلا أدخله الله الجنة" وهذا يؤكد ويبين فضل حسن الظن بالله، لأن المؤمن الحق يثق في ثواب الله ووعده ولقد كان من دعاء أهل الإيمان ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾[٤] وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((قال الله عز وجل:

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥/٢٩٠.

(٢) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم ص ١٢٤.

(٣) سورة البقرة، آية: ١٧٧.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٩٤.

أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حيث يذكرني))[١].

قال ابن حجر: (أي قادر على أن أعمل به ما ظن أني عامل به. وقال القرطبي: معنى ظن عبدي بي الإجابة عند الدعاء، وظن القبول عند التوبة، وظن المغفرة عند الاستغفار، وظن المجازاة عند فعل العبادة بشروطها تمسكًا بصادق وعده)[٢] وفي حسن الظن أيضًا قال النبي ﷺ: ((لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن بالله الظن))[٣] قال النووي: (قال العلماء: معنى حسن الظن بالله تعالى أن يظن أنه يرحمه ويعفو عنه، وفي حالة الصحة يكون خائفًا راجيًا ويكونان سواء، وفي هذا الحديث تحذير من القنوط وحث على الرجاء عند الخاتمة)[٤].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: سعة فضل الله ورحمته:

هذا واضح في بيان النبي ﷺ بيان للثواب العظيم الذي أجزله الله لعباده المؤمنين على الأعمال الصغيرة كما ورد في في الحديث "أربعون خصلة..." فهذا من باب رحمة الله سبحانه بالعباد، وتيسيره عليهم وفتح منافذ الخيرات التي بسببها يدخلون الجنة، وواجب الداعية أن لا يقنط الناس من رحمة الله، بل يفتح لهم أبواب الطاعات. وأبواب الرحمة، والعطاء الجزيل من الله تعالى لعباده المؤمنين.

"إن رحمة الله تفيض على عباده جميعًا، وتسعهم جميعًا وبها يقوم وجودهم، وتقوم حياتهم. وهي تتجلى في كل لحظة من لحظات الوجود أو لحظات الحياة للكائنات.

إن الشعور بهذه الحقيقة على هذا النحو ليسكب في قلب المؤمن الطمأنينة إلى ربه -حتى وهو يمر بفترات الابتلاء بالضراء، التي تزيغ فيها القلوب والأبصار- فهو يستيقن أن الرحمة وراء كل لمحة، وكل حالة، وكل وضع؛ وأن ربه لا يعرضه للابتلاء لأنه تخلى عنه، أو طرده من رحمته. فإن الله لا يطرد من رحمته أحدًا يرجوها. إنما يطرد

---

(١) أخرجه البخاري ٧٤٠٥. ومسلم ٢٦٧٥.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٣/ ٣٩٧.

(٣) أخرجه مسلم ٢٨٧٧.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٧٠.

الناس أنفسهم من هذه الرحمة حين يكفرون بالله ويرفضون رحمته ويبعدون عنها!

وهـذه الطمأنينـة إلى رحمـة الله تمـلأ القلـب بالثبـات والـصبر، وبالرجـاء والأمـل، وبالهدوء والراحة، فهو في كنف ودود، يستروح ظلاله ما دام لا يُبعد عنه في الشرود!

والشعور بهذه الحقيقة على هذا النحو يستجيش في حس المؤمن الحياء من الله. فإن الطمع في المغفرة والرحمة لا يجزئ على المعصية - كما يتوهم البعض- إنما يستجيش الحياء من الله الغفور الرحيم. والقلب الذي تجزئه الرحمة على المعصية هو قلب لم يتذوق حلاوة الإيمان الحقيقية!

كذلك فإن الشعور بهذه الحقيقة على هذا النحو يؤثر تأثيرًا قويًا في خلق المؤمن، وهو يعلم أنه مأمور أن يتخلق بأخلاق الله سبحانه وهو يرى نفسه مغمورًا برحمة الله مع تقصيره وذنبه وخطئه، فيعلمه ذلك كله كيف يرحم، وكيف يعفو، وكيف يغفر، كما رأينا في تعليم الرسول ﷺ لأصحابه رضي الله عنهم؛ مستمدًا تعليمه لهم من هذه الحقيقة الكبيرة"[1].

---

(١) انظر: الله أهل الثناء والمجد، د. ناصر بن مسفر الزهراني ص ٣٢٢.

الحديث رقم (١٣٩)

١٣٩- الثَّالثُ والْعشْرونَ: عَنْ عديٍّ بنِ حاتِمٍ رضي الله عنه قال: سمِعْتُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم يقول: «اتَّقُوا النار وَلوْ بِشقِّ تَمْرةٍ» متفقٌ عليه[١].

وفي رواية لهما عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إلاَّ سيُكَلِّمُه ربُّه لَيْس بَيْنَهُ وبَينَهُ تَرْجُمَان، فَينْظُرُ أيْمنَ مِنْهُ فَلا يَرى إلاَّ مَا قَدَّم[٢]، وينْظُر أشأمَ مِنْهُ فلا يَرَى إلاَّ ما قَدَّمَ، وَينْظُر بَيْنَ يديْهِ فَلا يَرى إلاَّ النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فاتَّقُوا النَّارَ ولوْ بِشِقِّ تَمْرةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجدْ، فَبِكَلِمَة طيِّبَةٍ»[٣].

ترجمة الراوي:

عدي بن حاتم: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧٢).

غريب الألفاظ:

شِقّ: شِقُّ الشيء: نِصْفُه[٤].

الترجمان: بضم التاء وفتحها. هو الذي يترجم الكلام، أي ينقله من لغة إلى لغة أخرى[٥].

أيمن منه: أي يمينه[٦] ووقع في رواية عند البخاري (١٤١٣): فينظر عن يمينه.

---

(١) أخرجه البخاري (١٤١٧)، ومسلم (١٠١٦/٦٨) ولفظهما سواء، وزاد مسلم: (فمن لم يجد فبكلمة طيبة). أورده المنذري في ترغيبه (٣٩٧٤) بلفظ مسلم بتمامه. وسيكرره المؤلف برقم (٦٩٣).

(٢) زاد البخاري: (من عمله).

(٣) أخرجه البخاري (٧٥١٢)، ومسلم (١٠١٦/٦٧) ولفظهما سواء، إلا قوله: (فمن لم يجد فبكلمة طيبة) قال البخاري: قال الأعمش: وحدّثني عمرو بن مرّة، عن خيثمة مثله، وزاد فيه: (ولو بكلمة طيبة)، وقال مسلم: زاد ابن حُجر: قال الأعمش: عن عمرو بن مرّة، عن خيثمة، مثله، وزاد فيه: (ولو بكلمة طيبة) جمعها المؤلف في لفظ واحد. أورده المنذري في ترغيبه (١٢٦٤) بدون قوله: (فمن لم يجد فبكلمة طيبة).

(٤) الصحاح في (ش ق ق).

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ت ر ج م).

(٦) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني (٤١٢/١١).

أشأم منه: أي شماله[١] ووقع في رواية عند البخاري (١٤١٣): ثم ينظر عن شماله.

تلقاء وجهه: تلقاء: ظرف مكان بمعنى جهة اللقاء والمقابلة. والمعنى: مقابلة وجهه[٢]. ووقع في رواية عند البخاري (٦٥٣٩): "ثم ينظر بين يديه فتستقبله النار".

الشرح الأدبي

ما أكثر طرق الخير، وما أكثر الأبواب المفتوحة للمسلم لكي يفوز بالجنة، وينجو من النار، قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[٣].

والرواية الأولى في هذا الحديث الشريف تدعو المسلمين إلى أن يتقوا عذاب النار، ولو بشق تمرة.

ودلالة التعبير بقوله: "اتقوا النار"، أقوى من الدلالة بأي تعبير آخر، لأن التقوى: من الوقاية والحذر والوقاية في اللغة، الكلاءة والحفظ[٤]، والمصطفى ﷺ يحذر المسلمين جميعًا في صورة أمر والأمر للوجوب، وصيغة الجمع في "اتقوا"، تفيد بأن الأمر والتحذير للأمة كلها بأن يتخذوا ما يقيهم من عذاب النار من صالح العمل والصدقة وأعمال البر.. وهى كثيرة ولا تُحْصَى، والقليل يُجْدي وينجِّى إذا كان مصحوبًا بالنية الخالصة: وذلك يتجلى في قوله، "ولو بشق تمرة" كناية عن القلة التي تُنجِّي.

والإيجاز هنا في المعنى والمبني، واتقاء النار يكون بوجوه كثيرة متعددة متنوعة، وذلك هو الإيجاز في المعنى، أما المبني: ففي قوله ﷺ: "ولو بشق تمرة" حذف تقديره، ولو كان التصدق بشق تمرة فتصدقوا واتقوا النار بها، فالحذف هنا للإيجاز وللترغيب

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني (٤١٢/١١).

(٢) الوسيط في (ل ق ي).

(٣) سورة آل عمران : ١٨٥.

(٤) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي في (و ق ي).

في التصدق، والعمل الصالح الذي يسوق صاحبه إلى الجنة بفضل الله تعالى ورحمته.

ولنتأمل أسرار البيان النبوي في الرواية الثانية: وهي تفصيل لما أُجْمل في الرواية الأولى، وإخبار يقيني للمسلمين بما سيحدث لكل واحد منهم يوم القيامة: يوم تجزى كل نفس بما كسبت، ويأتي هذا الإخبار في أسلوب القصر دلالة على صدق وقوع الخبر، وتأكيد حصوله لكل واحد من الأمة، بل لكل واحد من الخلق أجمعين، ولذلك قال: "ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه"، والتعبير بقوله: "من أحد" يفيد الاستغراق والتعميم، ولن يفرَّ أحد من ذلك، والتعبير بقوله: "ليس بينه وبينه ترجمان" يحدد الموقف ويرشد إلى أن الكلام سيكون بدون واسطة ليس عن طريق الرسل أو الملائكة... ولكنه سيكون من الله تعالى لعباده واحدًا واحدًا، ويسمعه كما يريد الله كما سمعه الكليم[1].

وتكملة لهذا المشهد من مشاهد يوم القيامة يصوغ الرسول ﷺ موقف العبد في أسلوب القصر: حيث ترد ثلاث عبارات تُصوِّر حالة العبد وهو يبحث عن دليل للنجاة في موقف الحساب والجزاء، ومع أسلوب القصر نجد المقابلة في تصوير موقف العبد، وهي تجسيد للحيرة والبحث عن أبواب النجاة، وهذه الحيرة تتجلى في هذا البيان النبوي الدال الهادف "فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أشام منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه"، وتكررا جملة: "فلا يرى إلا" ثلاث مرات، وذلك لترسيخ الاهتمام بالعمل الصالح في نفس المسلم لأنه هو الذي سيُنجِّي صاحبه، وإلا فالنار مصيره، ولذلك ختم هذا الحديث، بالجملة التي وردت في الرواية الأولى ترغيبًا للمسلم في المبادرة إلى فعل الخيرات، وتقديم العمل الصالح حتى إذا كان قليلاً فهو ينجي من النار ولو كان نصف تمرة، وزيادة في الترغيب يفتح المصطفى ﷺ منافذ النجاة أمام العبد الصالح الذي لا يجد نصف تمرة فيقول : "فمن لم يجد فبكلمة طيبة" فأي بشرى أندى من هذا، وأي رحمة إلهية أعم من ذلك، وأي محبة للعبد الصالح

---

(١) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١/ ٣٢٤.

أعظم من هذه المحبة من الله عز وجل: والكلمة الطيبة توحد المشاعر، وتجمع القلوب وتجعل الأمة كالبنيان المرصوص.

فقه الحديث

قد اتفق الفقهاء[١] على أن الزكاة فرض عين على كل مسلم يملك النصاب وحال عليه الحول أو عند الحصاد في زكاة الزروع والثمار.

أما الصدقة فلا تتوقف على ملك النصاب ولا حولان الحول، بل تقبل في أي وقت، ولها عند الله أجر عظيم، لأنها تبرع محض وليست فرضًا، ولم تتحدد بقدر معين، بل يقبل من كل مسلم ما يستطيع إخراجه من مال، سواء كان نقودًا أو شيئًا عينيًا، ولو كان شق تمرة كما في الحديث الشريف.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الأمر، والترهيب، والقصر والحصر.

ثانيًا: من واجبات الداعية: تبيين الحقائق للناس.

ثالثًا: من واجبات الداعية: مراعاة أحوال المدعوين.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل الصدقة والإحسان.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: فضل الكلمة الطيبة.

أولاً- من أساليب الدعوة: الأمر، الترهيب، القصر والحصر:

١- الأمر: ورد أسلوب الأمر في الحديث في قوله ﷺ "اتقوا النار ولو بشق تمرة" والأمر من الأساليب الدعوية المؤثرة لما فيه من بيان الحقائق للمدعو وحمله على اتباعها والعمل بها.

---

(١) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود٢/٧٥، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٢/٢٧٦، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٢/٢٧٨، وشرح منح الجليل ٢/١٠٨، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٢/١٤٠، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي ٣/١٤٨، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ١/٤٩٦، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٢/٣٠٨.

وقد ورد استخدام الأمر كثيرًا في القرآن الكريم بصيغ متعددة منها الصريح ومنها غير الصريح، الصريح مثل قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[1] وقوله: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾[2] وغير الصريح كأن يأتي الأمر مجيء الإخبار عن تقرير الحكم نحو قوله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾[3] أو يأتي في صورة مدح الفعل أو مدح صاحبه، نحو: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[4] وغير ذلك[5].

٢- الترهيب: ورد الترهيب في قوله ﷺ: "فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه". والترهيب من أساليب الدعوة، وفيه معنى التخويف، وهو باعث للنفس على الإقدام على الطاعات، ومجانبة المنكرات اتقاءً للنار والعذاب، والترهيب من أساليب القرآن الكريم قال الله عز وجل: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾[6] وعلى الداعية أن يفيد من هذا الأسلوب في الدعوة ويجمع بين الترغيب والترهيب.

٣- القصر والحصر: لقد ورد ذلك في قوله ﷺ: "ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه" ولا شك أن القصر والحصر يفيد الاستغراق، أي لن يفلت أحد من هذا الموقف، ويعتبر القصر من أساليب الدعوة التي يستخدمها الداعية لإقناع المدعوين، لأنه يحمل في طياته معنى التوكيد والتحديد.

---

(١) سورة البقرة، آيةك ٤٣.

(٢) سورة الطلاق، آية: ٧.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٣٣.

(٤) سورة الفتح، آية: ١٧.

(٥) انظر: الموافقات، للإمام الشاطبي، ٣/١٤٤.

(٦) سورة آل عمران، آية: ١٢.

ثانيًا- من واجبات الداعية: تبيين الحقائق للناس:

يستنبط ذلك من إخبار النبي ﷺ بأنه ((ما من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان)) فقد بيّن ﷺ أن الله سيحاسب المؤمنين بلا واسطة، وواجب الداعية عرض الحقائق للمدعوين وإخبارهم بها لأن هذا من أمانة التبليغ، قال الله عز وجل: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ ﴾[1] وعندما يعلم المدعو بهذه الحقائق يستعد لها، ويعمل على مرضاة الله عز وجل، ويتزود بتقوى الله تعالى، ويحمل نفسه على البعد عن المعاصي، ويحاسب نفسه قبل أن يحاسب. فإن عذاب النار مؤلم، والخوف منها يجب أن يستمر ما دام الإنسان في الحياة. ولما كان دأب العاقلين التأهب للأخطار ومحاولة اجتنابها، فإن على المؤمن أن يحترز من النار ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ ﴾ ولقد بين رسول الله ﷺ هول الموقف وأن الله تعالى سيحاسب المؤمنين بلا واسطة. فلا ينفع يؤمئذ إلا العمل ومن أعظم العمل التصدق بما يستطيع الإنسان ولو بنصف تمرة، فإن كان من العاجزين على الإنفاق فلا أقل من الكلم الطيب، والمعاملة الحسنة، ومواساة المساكين وعدم السخرية منهم أو الازدراء بهم[2].

ثالثًا- من واجبات الداعية: مراعاة أحوال المدعوين:

من الأهمية بمكان أن يراعي الداعية أحوال المدعوين، وعدم تكليفهم ما لا يطيقونه، ويتضح هذا من قول النبي ﷺ: "فاتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة" ورغم أن شق التمرة أمر ميسور لكل أحد أن يتصدق به، ولكن النبي ﷺ راعى أنه قد يوجد من لا يملك شق تمرة، فوجهه إلى أمر آخر لا يكلف مالاً وهو الكلمة الطيبة، وهكذا يجب أن يراعي الداعية حال المدعوين، وينوع لهم في بيان طرق الخير ليفعل كل واحد ما يتناسب مع حاله.

---

(١) سورة المائدة، آية: ٦٧.

(٢) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم ص ١٢٥.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل الصدقة:

يظهر هذا من قول النبي ﷺ "فاتقوا النار ولو بشق تمرة" وهذا يعني أن التصدق ولو بالقليل يقي الإنسان من النار. هذا وقد جاء الأمر بالصدقة في مواضع عدة من القرآن الكريم قال الله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾[١] وبين الله سبحانه فضل الصدقة والإنفاق في سبيله فقال جلّ شأنه: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[٢].

قال ابن كثير: (هذا مثل ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته، وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف. وهذا المثل أبلغ في النفوس من ذكر عدد السبعمائة، فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله عز وجل لأصحابها، كما ينمي الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة، والله يضاعف لمن يشاء بحسب إخلاصه في عمله، والله واسع عليم أي: أن فضله واسع كثير، أكثر من خلقه، عليم بمن يستحق ومن لا يستحق)[٣].

وفي ثواب الصدقة والحث عليها قال ﷺ: ((من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا الطيب فإن الله يقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فَلُوَّه[٤] حتى تكون مثل الجبل))[٥] قال ابن حجر: (وضرب المثل بالمهر لأنه يزيد زيادة بينة، ولأن الصدقة نتاج العمل، وأحوج ما يكون النتاج إلى التربية إذا كان فطيمًا، فإذا أحسن العناية به انتهى إلى حد الكمال، وكذلك عمل ابن آدم - لاسيما

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٢٦.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٦١.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٦٩١/١.

(٤) الفلو: المهر وقيل هو كل فطيم من ذات حافر. فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٢٨/٣.

(٥) أخرجه البخاري ١٤١٠، ومسلم ١٠١٤.

الصدقة- فإن العبد إذا تصدق من كسب طيب لا يزال نظر الله إليها يكسبها نعت الكمال، حتى تنتهي بالتضعيف إلى نصاب تقع المناسبة بينه وبين ما قدم نسبة ما بين التمرة إلى الجبل)[١]. وباب فضل الصدقة والثواب عليها باب واسع يجب على الداعية تذكير المدعوين به.

خامسًا- من موضوعات الدعوة: فضل الكلمة الطيبة:

لقد أرشد النبي ﷺ إلى أن من لم يجد شق تمرة يتقي به النار فبكلمة طيبة قال النووي: (وفي الحديث أن الكلمة الطيبة سبب للنجاة من النار، وهي الكلمة التي فيها تطييب قلب إنسان إذا كانت مباحة أو طاعة)[٢]. قال ابن عثيمين: (والكلمة الطيبة تشمل قراءة القرآن، فإن أطيب الكلمات القرآن الكريم. وكذلك تشمل التسبيح، وكذلك تشمل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتشمل تعليم العلم وتعلم العلم، وتشمل كذلك كل ما يتقرب به الإنسان إلى ربه من القول، يعني إذا لم تجد شق تمرة؛ فإنك تتقي النار ولو بكلمة طيبة. فهذا من طرق الخير وبيان كثرتها ويسرها، فالحمد لله أن شق التمرة تنجي من النار، وأن الكلمة الطيبة تنجي من النار)[٣]. هذا وقد جعل الله الكلمة الطيبة أفضل من الصدقة التي يتبعها أذى قال الله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ﴾[٤] وقد جعل النبي ﷺ الكلمة الطيبة صدقة ففي الحديث ((الكلمة الطيبة صدقة))[٥] ولاشك أن طيب الكلام، ولين المقال له أثر طيب في نفوس الناس، ويداوي أمراض القلوب، وينزع الشحناء والبغضاء من الصدور ومن أجل هذا استحقت الكلمة الطيبة أن تكون سببًا من أسباب النجاة من النار.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣/٣٢٨.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦٤٥.

(٣) شرح رياض الصالحين ١/٣٨١.

(٤) سورة البقرة، آية: ٢٦٣.

(٥) أخرجه البخاري ٢٩٨٩، ومسلم ١٠٠٩.

الحديث رقم (١٤٠)

١٤٠- **الرَّابِع والْعشرونَ:** عنْ أَنَسٍ ﷺ قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**إِنَّ اللّه لَيرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الأَكْلَةَ فيحْمَدَهُ عليْهَا، أَوْ يشْربَ الشَّرْبَةَ فيحْمَدَهُ عليْهَا**» رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

الأكْلة: بفتح الهمزة، وهي: المرة الواحدة من الأكل كالغدوة أو العشوة[2].

الشرح الأدبي

إن استقبال نعمة الله في المنهج الإسلامي يكون بالحمد والشكر والاعتراف بفضل المنعم: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾[3].

وهذا الاستقبال الإيماني المصحوب بالحمد والشكر يعد من طرق الخير التي يضاعف بها المسلم حسناته، ويرفع بها درجاته، فهي خير قادم إليه، ونافع له، وفي الوقت ذاته ميدان للشكر والحمد، وطريق من طرق الطاعة التي تجعل العبد يفوز برضا خالقه ومانحه العطايا، وواهبه كل ما يملك.

ونقتبس من الحديث النبوي الشريف أصداء هذه المعاني، ونُبْصر في كلماته أطياف الرضا الرباني، وأول شعاع من أشعة هذا الرضا الإلهي يبرق ويسطع في بداية الحديث حيث يبدأ بالتأكيد "بإن"، ثم اقتران الفعل "يرضى" باللام، وهي تزيد الخير تأكيدًا، وهل هناك تأكيد أبلغ من هذا البلاغ النبوي، "إن الله ليرضى عن العبد"،

---

(١) برقم (٢٧٣٤/٨٩). أورده المنذري في ترغيبه (٣١٩٥). وسيكرره المؤلف برقم (١٣٩٨).

(٢) رياض الصالحين ١٠٤، ٢١٢.

(٣) سورة الأعلى: ٢-٤.

وتقديم التأكيد مع لفظ الجلالة يزيد النفوس اطمئنانًا، والقلوب إيمانًا، فما أعظم أن يرضى اللهُ عن عبده، وما أجلَّ أن يسلك العبدُ المسلك الحميد الذي يجعله أهلاً لهذا الرضا الإلهي العظيم.

ولنتأمل ما يشعُّ به لفظ "العبد" من معان ورُؤًى وأسرار في سياق الرِّضا الرباني، ولم يقل ﷺ: المرء أو الإنسان أو المسلم، لأن هذه الألفاظ تؤدي الدلالات المرادة في هذا السياق، فلفظ: "العبد"، جيئ به للإشعار بأن الكل ينتمي بالعبودية لله عز وجل، وما ربك بظلام للعبيد.

والعبودية تقتضي الحمد والشكر لأن الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز. يقول الله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1].

ولنتساءل: ما سر الجمال التعبيري في اختيار اسم المرة في قوله: "يأكل الأكلة: أو يشرب الشربة"، إن هذه الصيغة تفصح عن أن الله سبحانه يستحق الحمد على النعمة وإن قلّت، وكذلك: توحي هذه الصيغة بدوام الحمد في كل يوم عدة مرات: لأن الإنسان لا يمتنع عن الطعام والشراب، فالحمد دائم بدوام الحياة، ودوام الرزق، ودوام الإيمان: ومن هنا يتوهج ويشرق في نفوسنا معنى قول رسول الله ﷺ "الحمد لله تملأ الميزان،وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السموات والأرض"[2].

ويستمر الإشعاع الأسلوبي الذي تتوهج به الصياغة الناطقة بالدلالة والعِبْرة، فمجيء الأكل والشرب والحمد في صيغة الفعل المضارع: إشارة إلى استمرار هذا الفعل الذي لا ينقطع ولا يمتنع لأنه من مكونات استمرار الحياة: فالحياة لا تستمر بدون الطعام والشراب، والمؤمن يحمد الله شاربًا وآكلاً، ولذلك كرر الحمد مع الأكل ومع الشرب، والعبد يستشعر نعمة الله، ويستحضر عظمة الله فيحمده في كل وقت: لأن الله سبحانه بمشيئته نما الزرع، ودرّ الضرع، وتكاثر الغذاء، وتفجر الماء، وهو بقدرته

---

(١) سورة الذاريات، آية: ٥٦.

(٢) أخرجه مسلم ٢٢٣.

سلك الماءَ ينابيعَ في الأرض، وأنزله من السماء فأصبحت الأرض مخضرّة، وتفجرت الينابيع بالماء العذب الزلال، وفاضت الأنهار بموجات السلسبيل السائغ العذب الطهور، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّـٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1]، فاللهم هبنا رضاك، وامنحنا الحمد والشكر على نُعْماك.

فقه الحديث

هذا الحديث يشير إلى الأحكام التالية:

١- يستحب لمن أكل أو شرب أن يحمد الله تعالى.

وقد وردت أحاديث كثيرة في فضل الحمد منها ما روى مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: ((الطُّهُورُ شَطْرُ الإيمَانِ والحَمْدُ للهِ تملأُ الميزَانَ وسُبْحَانَ اللهِ والحمدُ لله تملآن أو تمْلأُ ما بيْنَ السَّماواتِ والأَرْضِ))[2].

وأحسن عبارات الحمد: الحمد لله رب العالمين، إذ هي فاتحة الكتاب العزيز ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[3]، وآخر دعوى أهل الجنة: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[4].

وما روى أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه حيث قال: (كان رسول الله ﷺ إذا أكل أو شرب قال الحمد لله الذي أطعم وسقى وسوّغه وجعل له مخرجا)[5].

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٩٦.

(٢) أخرجه مسلم ٢٢٣.

(٣) سورة الفاتحة، آية: ١.

(٤) سورة يونس، آية: ١٠.

(٥) أخرجه أبو داود ٣٨٥١، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٢٦١).

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد.

ثانيًا: من مهام الداعية: بيان الحقائق للمدعوين.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: بيان بعض آداب الطعام والشراب.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: بيان كرم الله تعالى على عباده.

أولاً- من أساليب الدعوة: التوكيد:

لقد جاء في الحديث قوله ﷺ "إن الله" وهذا توكيد على رضا الله تعالى عن العبد الذي يأكل الأكلة ويحمد الله عليها، أو يشرب فيحمده سبحانه، وهو من أساليب الدعوة التي تبين مدى وثوق الداعية مما يقول، وهذا يفيد في إقناع المدعوين، والدلالة على صدق الداعية فيما يخبرهم به.

ثانيًا- من مهام الداعية: بيان الحقائق للمدعوين:

إن مما ينبغي للداعية أن يوليه اهتمامه بيان رضا الله تعالى عن المؤمن الذي يحمد الله تعالى على نعمه التي منّ بها عليه، وفي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ عن رضا الله سبحانه عن العبد إذا ما حمده عند الطعام والشراب، ولاشك أن معرفة المدعو بهذه الحقيقة تجعله شديد الحرص على التزام الحمد في المواطن كلها لينال رضا الله عز وجل، فيجب على الدعاة ألا يتخلوا عن مهمتهم ووظيفتهم، وهي عرض وبيان الحقائق للمدعوين.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: بيان بعض آداب الطعام والشراب:

إن من موضوعات الدعوة في هذا الحديث بيان بعض آداب الطعام، والتي منها حمد الله سبحانه على نعمة الطعام والشراب، لأن الله يرضى عن العبد الذي يفعل هذا؛ حيث قال رسول الله ﷺ: "إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الاكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها" قال النووي: فيه استحباب حمد الله تعالى عقب الأكل والشرب، وقد جاء في البخاري صفة التحميد؛ فعن أبي أمامة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا رفع مائدته قال: ((الحمدُ لله كثيرًا طيِّبًا مُباركًا فيه، غير مَكفِيّ ولا مُودَّع

ولا مُستَغنىً عنه ربّنا))[١]. ولو اقتصر على الحمد لله حصل أصل السنة[٢].

(وفائدة الحمد بعد الطعام أداء شكر المنعم وطلب زيادة النعمة لقوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[٣] وفيه استحباب تجديد حمد الله عند تجدد النعمة من حصول ما كان الإنسان يتوقع حصوله، واندفاع ما كان يخاف وقوعه، ثم لما كان الباعث هنا هو الطعام ذكره أولاً لزيادة الاهتمام به، وكان السقي من تتمته لكونه مقارنًا له في التحقيق غالبًا، ثم استطرد من ذكر النعمة الظاهرة إلى النعم الباطنة، فذكر ما هو أشرفها وختم به، لأن المدار على حسن الخاتمة، مع ما فيه من الإشارة إلى كمال الانقياد في الأكل والشرب وغيرهما، قدرًا ووصفًا ووقتًا، احتياجًا واستغناءً، بحسب ما قدره وقضاه)[٤] إن في تعليم الحمد بعد الطعام والشراب هو تعويد للنفس على شكر الله عز وجل على نعمه وفي الحديث ((الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر))[٥].

قال الطيبي: (إن الشكر نتيجة النعماء كما أن الصبر نتيجة البلاء، وقد ورد أن الإيمان نصفان، نصف صبر ونصف شكر، وربما يتوهم متوهم أن ثواب شكر الطاعم يقصر عن ثواب صبر الصائم، فأزيل توهمه به، يعني هما سيآن في الثواب، وفيه وجه آخر وهو أن الشاكر لما رأى النعمة من الله تعالى، وحبس نفسه على محبة المنعم بالقلب، وأظهرها باللسان نال درجة الصابر)[٦].

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة، فيحمده عليها" قال القرطبي: (والحمد هنا بمعنى الشكر ... والحمد

---

(١) أخرجه البخاري ٥٤٥٨.

(٢) انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٠٣.

(٣) سورة إبراهيم، آية: ٧.

(٤) تحفة الأحوذي، المباركفوري، ٢٤٦٢/٢.

(٥) أخرجه الترمذي ٢٤٨٦، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٠٢١).

(٦) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ١٥٦/٨.

يوضع موضع الشكر ولا يوضع الشكر موضع الحمد، وفيه دلالةٌ على أن شكر النعمة نيل رضا الله تعالى؛ الذي هو أشرف أحوال أهل الجنة، وسيأتي قول الله عز وجل لأهل الجنة حين يقولون: "أعطيتنا ما لم تُعْطِ أحدًا من خلقِك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ [فيقولون: ما هو؟ ألم تُبيض وجوهنا، وتدخلنا الجنة، وتزحزحنا عن النار؟]، فيقول: أحلُّ عليكم رضواني، فلا أسخطُ عليكم بعده أبدًا"[1]. وإنما كان الشكرُ سببًا لذلك الإكرام العظيم؛ لأنه يتضمَّن معرفة المنعم، وانفراده بخلق تلك النعمة، وبإيصالها إلى المنعَم عليه، تفضُّلاً من المنعم، وكرمًا، ومنَة، وإن المنعم عليه فقير محتاج إلى تلك النعم، ولا غِنى به عنها، فقد تضمَّن ذلك معرفة حق الله وفضله، وحق العبد وفاقته، وفقره، فجعل الله تعالى جزاء تلك المعرفة تلك الكرامة الشريفة)[2].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: بيان كرم الله تعالى على عباده:

وهذا يدل على أن رضا الله عز وجل يُنال بأدنى سبب، قد ينال بهذا السبب اليسير ولله الحمد يرضى الله عن الإنسان إذا انتهى من الأكل قال: الحمد لله، وإذا انتهى من الشرب قال الحمد لله، ويدل على فضل الله تعالى وكرمه لعباده. ومما يؤيد هذا الكرم ما أعده لعباده من النعيم والجنان نتيجة رضاه عنهم قال الله عز وجل: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾[3] وقال سبحانه: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾[4] قال السعدي: (إن الذين اتقوا سخط ربهم،

---

(١) أخرجه البخاري ٦٥٤٩، ٧٥١٨، ومسلم ٢٨٢٩ بلفظ: قال رسول الله ﷺ: (إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون لبيك ربنا وسعديك، فيقول هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك؟ فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك، قالوا: يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدًا) واللفظ للبخاري.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، تحقيق: محيى الدين مستو وآخرين ٧/٦١.

(٣) سورة الرعد، آية: ٣٥.

(٤) سورة النبأ، آية ٣١، ٣٢.

بالتمسك بطاعته، والانكفاف عن معصيته فلهم مفاز ومنجى، وبعد عن النار، وفي ذلك المفاز لهم بساتين جامعة لأصناف الأشجار الزاهية بالثمار، وأعنابًا تتفجر خلالها الأنهار)[1] وهذا كله من كرم الله سبحانه، وواجب الدعاة أن يبينوا للناس فضل الله تعالى وكرمه على عباده المؤمنين.

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق في تفسير كلام المنان ٨٣٩.

الحديث رقم (١٤١)

١٤١- **الْخَامِسُ والْعِشْرُونَ:** عن أَبِي موسى رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صدقةٌ**» قال[1]: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَجِدْ؟ قالَ: «**يعْمَل بِيَدِيهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَه وَيَتَصدَّقُ**»: قَال: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يستَطِعْ؟ قال: «**يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهوفَ**» قالَ: أَرأَيْت إِنْ لَمْ يسْتَطِعْ قالَ: «**يَأْمُرُ بِالمَعْرُوفِ أَوِ الْخَيْرِ**» قالَ: أَرأَيْتَ إِنْ لَمْ يفْعلْ؟ قالْ: «**يُمْسِكُ عَنِ الشَّرِّ، فَإِنَّهَا صدَقَةٌ**» متفقٌ عليه[2].

ترجمة الراوي:

أبو موسى الأشعري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨).

غريب الألفاظ:

الملهوف: المضطر يستغيث ويتحسر من ظلم أو عجز أو غيرهما[3].

الشرح الأدبي

هذا هو الحديث الأخير في باب: بيان كثرة طرق الخير، وهى طرق مُعَبَّدة بالنيات الصالحة يسلكها المتقون، وأورد النووي خمسة وعشرين حديثًا في هذا الباب، ويختمها بهذا الحديث الحواري الهادف، وهو يعطي نموذجًا للتيسير في الإسلام عملاً بقوله سبحانه: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[4].

ولكن أبواب الخير لا تُسدُّ، وطرقه لا تنتهي مهما ضاقت بالناس سبل الحياة، فالحديث ينير لكل أفراد الأمة الإسلامية سبل التكافل فيما بينهم، ويضئ آفاق

---

(١) لفظ مسلم: (قيل).

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٢٢)، ومسلم (٥٥/١٠٠٨) واللفظ له. أورده المنذري في ترغيبه (٣٨٧٣).

(٣) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٦١/٣ والنهاية، والوسيط في (ل هـ ف).

(٤) سورة البقرة، آية: ٢٨٦.

التراحم والمودة والعطف بين طوائفهم، وسبيل ذلك هو تكوين ملكة العطاء والتصدق في نفس المسلم بحيث يكون منهجه التعاون والعطاء والنصيحة والدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والإمساك عن الشر، وإشاعة عاطفة الخير بين الناس.

وأول ظاهرة أسلوبية في هذا الحديث الشريف: هي ظاهرة الحوار والتدرج المنطقي السديد في عرض وقائع هذا الحوار، وتفصيل قضاياه، ويبدأ الحديث بقاعدة عامة من قواعد المنهج الإسلامي، وقواعد السلوك في حياة المسلم، "على كل مسلم صدقة"، أي في كل يوم شكرًا لله على نعمة الخلق... ويفصِّلُ هذا الإجمال ما روى في حديث آخر، "على كل سلامي من الناس صدقة"، والجملة هنا تغلفها ظاهرة التقديم والتأخير، فكلمة "صدقة" مبتدأ مؤخر و"على كل مسلم"، خبر مقدم، والتقديم هنا يفيد التزام المسلم بذلك، وبأن الصدقة ليست هي الهدف فقط، ولكن لابد أن يكون المتصدق مسلمًا، فالصدقة في غياب العقيدة الصحيحة ليس لها ثمرة إلا المنفعة الدنيوية، ولا قيمة لها عند الله تعالى.

ولفظ: "كل" يفيد الحصر والاستقصاء، فلا يستثني مسلم من ذلك، وباقي الحديث يفصح عن هذا المنهج.

ويسأل الصحابي الذي يحاور رسول الله ﷺ "أرأيت إن لم يجد"، فيرشده نبي الرحمة ﷺ إلى سبيل عملي من سبل العطاء والتصدق وهو العمل باليد، وهو فيه نفع للنفس، وإعزاز لها، ومجال للتصدق مما اكتسب ثمنًا أو أجرة أو ثمرًا.

وتأمل جملة السؤال حيث جمعت عدة أساليب: الاستفهام والشرط، لطلب المزيد من المعرفة، واختيار الفعل، "أرأيت"، مقترنًا بالاستفهام من باب التأدب مع رسول الله ﷺ: وهذا أكثر بلاغة ومواءمة للسياق، ومراعاة لمقتضى الحال من قوله: "فإن لم يجد"، ويتدرج الحوار إلى سبيل آخر من سبل "الخير" في حالة العجز عن التصدق من عمل اليد، وهو التصدق المعنوي عن طريق إعانة ذي الحاجة الملهوف، فالتعاون معه، والوقوف معه في شدته، وقضاء حاجته من طرق الخير الدالة على التراحم والتعاطف بين

أبناء المجتمع الإسلامي، ويتكرر السؤال مرة ثالثة: "أرأيت إن لم يستطع"؟ ولا يغلق نبيُّ الرحمة البابَ بل يفتح مجالاً جديدًا من مجالات الخير والنفع وهو: الأمر بالمعروف بكل صوره، وفي ذلك تيسير على كل مسلم لا يملك المال الكثير ولا يقدر على التصدق من عمل يده، ولا يستطيع إعانة ذي الحاجة لأنه يفتقد مقومات ذلك وليست لديه القدرة على الأمر بالمعروف: فيفتح الرسول ﷺ مجالاً آخر من مجالات التصدق: وهو إصلاح الذات، وتهذيب السلوك الشخصي حيث يمسك الإنسان عن الشر، ويصلح من نفسه، ولا يؤذي غيره، وهذا تصدق وإحسان، ومن الشر ترك الفرائض، والالتزام بها واجب وصدقة أيضًا، ولنتأمل الفروق التعبيرية في جمل الاستفهام التي تخللت الحوار: ففي الجملة الأولى قال: "فإن لم يجد" فاختيار الفعل هنا وهو الإيجاد، مناسب للمقام: لأنه جاء عقب قوله ﷺ: "على كل مسلم صدقة"، وبعض المسلمين لا يجدون مالاً فائضًا عن حاجتهم يتصدقون به.

أما الجملتان: الثانية والثالثة: فعبر السائل بقوله: "أرأيت إن لم يستطع"، وقد عدل عن نفى الإيجاد إلى نفى الاستطاعة، لأن السياق والمقام يقتضيان ذلك: فالذي يعمل بيديه قد لا يستطيع بجهده أن يدخر ما يتصدق به، لأن جهده ضعيف أو صاحب مرض أو صاحب عيال، وينفق كل ما يكسب عليهم، وكذلك في الجملة الثالثة: يجئ التعبير بنفى الاستطاعة مناسبًا : لأن إعانة ذي الحاجة تتطلب القدرة البدنية والعقلية. وربما لا يمتلك بعض المسلمين هذه القدرة التي لا يستطيع بها قضاء حاجات الناس.

وأما في الجملة الرابعة فقال: "أرأيت إن لم يفعل"، فعبر بالفعل، يفعل... ولم يقل يستطيع أو يجد، لأن الأمر بالمعروف هو صدقة قولية لا تحتاج إلى رصيد من المال، ولا إلى قوة بدنية، ولكن تحتاج إلى إرادة، وملكة بيانية، واتجاه إلى النصيحة الخالصة، وبعض الناس لا يقوم بذلك لأنه لا يملك أدوات الإقناع، أو لا يعرف كيف يأمر بالمعروف ولا ينهي عن المنكر، فهو لم يقم بهذا الفعل المشروع.

وهنا نلمح سرًا من أسرار البيان النبوي، وهو اختياره للفعل "يمسك" في قوله "يمسك عن الشر" فالإمساك... والسكوت والصمت في الإسلام، خير من الفعل والكلام اللذين

يقودان الإنسان إلى الشرور وفي الحديث "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليسكت"[١].

وهذه الآفاق الخمسة من آفاق الخير والتصدق.. تمثل اتجاهات وطوائف في المجتمع الإسلامي، وكل طائفة تتجه إلى الطريق الذي تستطيع إنجاز الخير من خلاله، ولكن حسب الترتيب الذي قدمه رسول الله ﷺ.

وحين نتأمل ارتباط الأفعال بالزمن اللغوي في هذا الحديث الشريف نجدها كلها أفعالاً مضارعة في الجملة التي يصاغ فيها الجواب، ومجيئها كلها في صيغة المضارع الدال على الحال أو الاستقبال يشير إلى ضرورة عدم انقطاع هذه الأعمال الخيرة، وهذه الصدقات التي تتعدد طرقها حسب حال المتصدق ومقوماته، وهذه الأعمال تظل مرتبطة بحركة الحياة المستمرة، وليست قاصرة على موقف واحد أو جيل واحد، وإنما هي تتجدد مع كل شخص وفي كل زمن إلى قيام الساعة.

والجملة الأولى في الحديث تعد قاعدة ثابتة مستقرة مرتبطة بمنهج المسلم وعقيدته، ولذلك صيغت في قالِبِ الجملة الاسمية الدالة على الثبات وعدم التغير والتبدل، وقُدِّم فيها لفظ المسلم مع كل، على لفظ الصدقة للإشعار بأن الإسلام هو الطريق الصحيح لقبول الأعمال.

فمنهج الإسلام يقوم على تهذيب الوجدان، وتنمية الشخصية، والقيام بالواجبات الاجتماعية، وتربية الضمير الحي المستيقظ، وروح الألفة والتآخي، وملاحظة الحقوق بين الناس بعضهم مع بعض، وذلك من شأنه أن يحقق التكافل الاجتماعي السليم، إذ تتلاقى إرادات الآحاد بعضهم مع بعض، فيتكون الاجتماع على محبة الله تعالى وتقواه فيكون المجتمع قويًا مؤتلفًا، لأنه تكوّن من قلوب متآلفة، لا من جسوم متراصة[٢].

وكأن هذا الحديث الحواري الجميل يجمع طرق الخير السابقة في هذا الباب، بما قدمه رسول الله ﷺ من إجابات شافية كافية واضحة لا غموض فيها ولا تعقيد،

---

(١) أخرجه مسلم ٤٨.

(٢) انظر: التكافل الاجتماعي في الإسلام، د. عبدالعال أحمد عبدالعال ص ٢٣٩.

ولكنه وضوح وإيجاز وتسديد، وحوار منهجي مقنع رشيد.

ولا غرابة في ذلك: فإن أول صفات التعبير في البيان النبوي -كما قال د. محمد رجب البيومي- سهولة المأخذ، وقُرْب المتناول، فإذا تلقى السامع حديثه ﷺ ظن لسلامته ويسره أنه مما تسهل محاكاته، فإذا أراد أن يأتي بمثله طاش وحار، وليس اليسير السهل مما يُمَلُّ على التكرار، ولكنه يتردد ويظل محتفظًا بجدته الطريفة، إذ أن وراءه فكرًا دقيقًا يزن الرأي السديد ميزانًا تامًا ثم يعرضه في يسر قريب المتناول، وهكذا يكون البيان النبوي مشرقًا ومؤثرًا في نفوس سامعيه وقارئيه. كما تشرق الشمس فتوقظ النفوس، وتحيي القلوب وتضيء الآفاق.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار، والسؤال والجواب.

ثانيًا: من صفات الداعية: مراعاة ظروف المدعوين وسعة الصدر.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الحث على الصدقة.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل العمل والاجتهاد.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: الحث على التعاون.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: كف الأذى عن الناس.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار، والسؤال والجواب:

١- **الإخبار:** حيث أخبر الرسول ﷺ أن على كل مسلم صدقة، والإخبار أسلوب من أساليب الدعوة، وهو يعين الداعية على تبليغ دعوته، ويلفت انتباه المدعو إلى أن هناك أمرًا أو نهيًا، أو دلالة على الخير ينبغي التعرف عليها والانتباه إليها.

٢- **السؤال والجواب:** حيث تكرر في الحديث: ((أرأيت إن لم يجد؟ أرأيت إن لم يستطع؟ أرأيت إن لم يفعل؟)) وهو من أساليب الدعوة المهمة التي تؤدي إلى نوع من التفاعل والحوار بين الداعية والمدعو، ويتيح الفرصة للمدعوين للسؤال عما خفي عليهم ويتيح لهم معرفة الأدلة والأحكام، وهو كذلك يساعد على فهم المراد من الكلام، لأن الإجابة تنصب على مضمون السؤال، ولذا يجب على الدعاة تفعيل هذا الأسلوب،

حتى يفيدوا منه في مجال الدعوة إلى الله تعالى.

ثانيًا- من صفات الداعية: مراعاة ظروف المدعوين وسعة الصدر:

فليس كل مسلم قادرًا على إخراج الصدقة، ولذا لما سئل رسول الله ﷺ في هذا قدَّم البدائل التي يمكن من خلالها أخذ أجر الصدقة من غير دفع مال، فأرشد إلى إعانة الملهوف، والأمر بالمعروف، وكف الأذى إلى آخر هذه الأمور التي قد يُظَن أن لا يثاب فاعلها، وفي هذه البدائل التي قدمها رسول الله ﷺ مراعاة لظروف المدعوين وأحوالهم ومقدرتهم، وهذا من حصافة الداعية، أما بالنسبة لسعة صدر الداعية فتلك صفة ينبغي ألا ينفك عنها، خاصة وأن الإنسان قد يملُّ من كثرة الأسئلة الموجهة إليه، وقد يُشْعِر الآخر بتضجره، بيد أن الداعية من أهم صفاته أن يكون واسع الصدر، لا يبدي ضجرًا ولا ضيقًا حتى يشجع المدعوين على السؤال والاستفسار، وفي الحديث قال الرسول ﷺ جملة واحدة ((على كل مسلم صدقة)) وجهت له على أثرها أربعة أسئلة، وفي كل مرة يجيب ويوضح ويبين، ولو أنه ضاق صدره لما استمر المدعو في عرض أسئلته، ولضاعت الفائدة على الجميع، ولذا فعلى الداعية أن يتحلى بسعة الصدر والحلم واللين والرفق وقد قال الله لنبيه ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾(١).

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: الحث على الصدقة:

يتضح هذا من قول النبي ﷺ ((على كل مسلم صدقة))، وفي ذلك حث على الصدقة، فنعم الله على الإنسان لا تعد ولا تحصى، ومن أعظمها نعمة المال والصحة و العلم، من أجل ذلك حث النبي ﷺ على التصدق بالمال، فهو عصب الحياة وبه تُيسر وتقضى حاجات الأفراد والجماعات، فإن لم يجد المسلم المال، حثه على أن يعمل عملاً ينتفع به من الذي هو في حاجة إلى المساعدة وقضاء الحاجة، فإن لم يستطع، فتكون صدقته بأن يأمر بالمعروف أو الخير، وهذا باب عظيم فلو تآمر الناس بالمعروف وتناهوا

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

عن المنكر لعم الخير وانصلح الحال، فإن لم يفعل، كانت صدقته بمنع شره عن غيره، وفي ذلك حث على الصدقة لأهميتها وثوابها عند الله. وقد بين الله تعالى ثواب الصدقة من المال قال الله عز وجل: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾(١) وذكر الله سبحانه ثواب المنفق فقال: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٢).

قال السيوطي: (وعن قتادة في الآية قال: هؤلاء قوم أنفقوا في سبيل الله الذي افترض عليهم، في غير سرف ولا إملاق ولا تبذير ولا فساد)(٣). ووعد الله بأن يخلف على من يتصدق وينفق، قال سبحانه ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾(٤). قال القرطبي: (وما أنفقتم في طاعة الله فهو يخلفه عليكم ويعطيكم بدله إما في الدنيا وإما في الآخرة، والله تعالى يرزق من خزائن لا تفنى ولا تتناهى)(٥). هذا وقد جاء في الحديث أن الصدقة لا تنقص المال قال رسول الله ﷺ ((ما نقصت صدقة من مال))(٦) وأرشد إلي أن الصدقة تكفر الذنوب قال ﷺ ((والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار))(٧) (والمراد بالخطيئة أي التي تجر إلى النار ومعنى تطفئها أي: تذهبها وتمحو أثرها)(٨). فهذه النصوص وغيرها تدل على فضل وثواب الصدقة بالمال، وقد بين رسول الله ﷺ

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٧٢.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٧٤.

(٣) الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ٣٦٠/٣.

(٤) سورة سبأ، آية: ٣٩.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي مج١٤/٧/ ٢٠٧ - ٢٠٨.

(٦) أخرجه مسلم ٢٥٨٨.

(٧) أخرجه الترمذي ٦١٤، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٥٠١).

(٨) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٨٥٩/١.

أن ثوابها أيضًا يشمل من يعمل بيده فيتصدق، ومن يعين الملهوف ذا الحاجة ومن يأمر بالمعروف، ومن يكف أذاه عن الناس كما دل الحديث.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: الحث على العمل والاجتهاد:

جاءت الإشارة إلى هذا في الحديث ((يعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق)) وفي ذلك حث على العمل والاجتهاد، قال ابن حجر: (قال ابن بطال: فيه التنبيه على العمل والتكسب، ليجد المرء ما ينفق على نفسه ويتصدق به ويغنيه عن ذل السؤال)[1]. وهذا يدل على أن الذي يعمل ويجتهد يعود عليه النفع أولاً، وقد أرشد القرآن إلى أن حياة الإنسان كلها كد وتعب ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾[2] وقال سبحانه: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[3] وبين ﷺ أن العمل والاجتهاد أفضل من سؤال الناس ففي الحديث ((والذي نفسي بيده، لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتي رجلاً فيسأله، أعطاه أو منعه))[4].

قال ابن حجر: (وفي الحديث الحث على التعفف عن المسألة والتنزه عنها، ولو امتهن المرء نفسه في طلب الرزق وارتكب المشقة في ذلك، ولولا قبح المسألة في نظر الشرع، لم يفضل ذلك عليها، ولا خير في السؤال مع القدرة على الاكتساب)[5] وفي فضل العمل والاجتهاد جاء في الحديث أيضًا ((ما أكل أحد طعامًا خير من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده))[6] والنصوص في هذا كثيرة وواجب الداعية أن يوجه المدعوين إلى ضرورة العمل والاجتهاد، وترك المذلة والسؤال.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٦٥٠/٣.

(٢) سورة البلد، آية: ٤.

(٣) سورة التوبة، آية: ١٠٥.

(٤) أخرجه البخاري ١٤٧٠، ومسلم ١٠٤٢.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٩٤/٣.

(٦) أخرجه البخاري ٢٠٧٢.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: الحث على التعاون:

حيث جاء في الحديث "يعين ذا الحاجة الملهوف" وهذا يدل على أهمية التعاون في الإسلام، ومن أهم أسس التعاون في الإسلام العمل على إيجاد مجتمع فاضل يتجلى فيه الخير والصلاح، تأمر فيه الجماعة بالمعروف وتنهى عن المنكر لحماية المصالح المعتبرة في الشريعة، وأول مظهر لهذا المجتمع وجود رأي عام يتعاون على الخير ودفع الشر(١).

فالتعاون يوجب الذود عن الأخلاق والفضائل، ويوجب على الرشيد أن يهدي الضال وعلى العالم أن يعلم الجاهل فتكون الجماعة في فضيلة ظاهرة تتعاون على الخير ولا تتعاون على شر قط.

وتؤكد الشرائع والنظم أن المجتمع الصالح يجب أن يكون كل أفراده كالشخص الواحد في تعاونهم، إسهامًا في السراء والضراء، ومشاركة في الحال والمآل تتدرج في مراتبها. أولها: أن تقوم بحاجة أخيك من الفائض من مالك، وأعلى ذلك مرتبة أن تنزله منزلة نفسك في قضاء حاجاته عملاً بقول الرسول ﷺ: ((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه))(٢) ثم تأتي المرتبة العليا وهي أن تؤثره على نفسك فتقدم حاجته على حاجتك وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾(٣) ومن مظاهر التعاون في الإسلام كفالة اليتيم وإكرامه والعطف عليه، وإعانة كل الضعفاء والمحتاجين، فالضعفاء أحوج الناس إلى التعاضد والشفقة والرحمة(٤).

وهذا توجيه إسلامي فريد وقد أمر الله بالتعاون في القرآن فقال، ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى

---

(١) انظر: التكافل الاجتماعي في الإسلام، محمد أبو زهرة ص ٩.

(٢) أخرجه البخاري ١٣، ومسلم ٤٥.

(٣) سورة الحشر، آية: ٩.

(٤) انظر: موسوعة القيم والأخلاق العربية والإسلامية ١٣/٥٣-٥٤.

ﭐلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾[(١)]. ومن صور التعاون التي عرضها القرآن ما حدث من موسى عليه السلام عندما أعان الفتاتين على سقي الماء ﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ٢٣ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾[(٢)] والمعنى (لا نسقي مواشينا حتى يصدر[(٣)] الرعاء لأنا امرأتان لا نطيق أن نسقي، ولا نستطيع أن نزاحم الرجال، ولأن أبانا شيخ كبير لا يقدر أن يسقي مواشيه، فزاحم موسى عليه السلام القوم ونحاهم عن رأس البئر، فسقى غنم المرأتين)[(٤)].

ولقد بشر النبي من يكون في حاجة أخيه المسلم بأن الله يكون في حاجته، ففي الحديث ((من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته))[(٥)] وبين النبي ﷺ أن من يكون في عون أخيه المسلم يكون الله في عونه، ففي الحديث ((والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه))[(٦)] وواجب الداعية استحضار هذه النصوص، وتذكير المدعوين بها حتى يسود التعاون بين أفراد المجتمع.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: كف الأذى عن الناس:

حيث أخبر النبي ﷺ أن كف الأذى من الصدقات، فقال في الحديث الذي معنا ((يمسك عن الشر فإنها صدقة)) فإن لم يستطع المسلم فعل شيء من الصدقة، والإنفاق في سبيل الله، وقول الحق والأمر بالخير والنصيحة لكل مسلم، فعليه أن يكف شره عن الناس، ويصرف نفسه عن السوء، ولا يتعدى على غيره بيده أو لسانه، فإن ذلك له صدقة[(٧)]. وقد جاء في آيات القرآن ما يحذر من إيذاء المؤمنين فقال سبحانه ﴿وَٱلَّذِينَ

---

(١) سورة المائدة، آية: ٢.

(٢) سورة القصص، آية: ٢٣، ٢٤.

(٣) يصدر: أي ينصرف، لسان العرب في (ص د ر).

(٤) معالم التنزيل، الإمام البغوي، مرجع سابق، ٦/٢٠٠.

(٥) أخرجه البخاري ٢٤٤٢. ومسلم ٢٥٨٠.

(٦) أخرجه مسلم ٢٦٩٩.

(٧) انظر: إصلاح المجتمع، محمد بن سالم بن حسين الكدادي البيحاني ص ٢٣٨.

يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴾[1]. قال البغوي ، (معنى الأذى ، هو مخالفة أمر الله تعالى وارتكاب معاصيه، ذكره على ما يتعارفه الناس بينهم فالذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات من غير أن عملوا ما أوجب أذاهم فيقعون فيهم ويرمونهم بغير جرم فقد احتملوا بهتانًا وإثمًا مبينًا)[2] وقد جاء في الحديث النبوي ما يدل على فضل كف الأذى عن الآخرين فقد قال رسول الله ﷺ ، ((المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده))[3].

قال ابن حجر: (أراد أن يبين علامة المسلم التي يستدل بها على إسلامه، وهي سلامة المسلمين من لسانه ويده، كما ذكر مثله في علامة المنافق، وذكر المسلمين هنا خرج مخرج الغالب، لأن محافظة المسلم على كف الأذى عن أخيه المسلم أشد تأكيدًا)[4].

وما من شك في أن النصوص الشرعية في هذا الموضوع كثيرة، فواجب الداعية تذكير المدعوين بها.

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٥٨.

(٢) انظر: معالم التنزيل، ٢٧٦/٦.

(٣) أخرجه البخاري ١٠، ومسلم ٤١.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦٩/١.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أبواب الخير في الإسلام غير محصورة، والخير ليس قاصراً على باب بعينه، ولا صورة بعينها، وعلى المسلم أن يفيد من هذه الأبواب إن استطاع، فإن لم يستطع فليأت من هذه الأبواب ما استطاع. وقد حثّ الرسول ﷺ على حق الجاهل في السؤال وحقه على العالم في الإجابة، وضرب المثل من صبر المعلم على المتعلم ونوع الإجابة بحسب السؤال ولفت النظر إلى أبواب من الخير لم يألفها الناس. أو لم يروا أنها لون من الخير وذلك بكف شر النفس عن الآخرين. ومن الدروس التربوية نذكر ما يلي:

ويبدو ذلك من سؤالات أبي ذرجندب بن جنادة رضي الله عنه لرسول الله ﷺ وإجابات الرسول ﷺ عنها، حول أفضل الأعمال، واستفسار جندب عن كل ما يجهله من كلام رسول الله ﷺ، أو عما يريد الزيادة فيه، فقد سأل جندب رسول الله ﷺ: أيُّ العَمَل أفضلُ؟ فقال: «الإيمَانُ باللّهِ، والجهادُ في سبيلِهِ». قال: أَيُّ الرِّقابِ أفضلُ؟ فأجاب النبيَّ ﷺ: «أَنْفَسُها عِنْدَ أهلِها، وأكثرُها ثمناً» ...إلخ.

وقد بدا من خلال هذا الحوار حب جُندب رضي الله عنه للاستزادة من العلم وحرصه على ما ينفعه، كما أن النبي ﷺ أفسح له صدره، وأجاب عن أسئلته من غير تضجر ولا ملل.

وقد أيَّد علماء التربية هذا الأسلوب، بل أوجبوا على المعلم المسلم أن يُعود طلابه الحوار والمناقشة؛ ليشحذ أذهانهم، ويقوي الحجة لديهم، ويعودهم الارتجال والمواجهة والثقة بالنفس، كما أن عليه أن يكون واسع الصدر، فيرد على كل استفساراتهم وأسئلتهم بإجابات صحيحة ومناسبة لمستويات نموهم؛ حتى يكونوا على وعي واقتناع بما يلقيه عليهم، وحتى يفيدهم بذلك[1].

ثانياً- التربية بالترغيب:

إن سائر أحاديث هذا الباب تُرغب في فعل الخيرات، سائر الخيرات، فليس في أعمال الخير ما يحتقر حتى أن يلقى المرء أخاه بوجه طليق، يقول ﷺ: «كُلُّ تَسْبِيحَةٍ

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. سعيد القاضي ص ١٨٣.

صَدَقَةٌ، وَكلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ»، ويقول ﷺ: «وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ»، أي: الجماع في حلال، لأنه لو فعله في حرام لكان عليه وزر، فكذلك يكتب الله له الأجر إذا ترفَّع عن الحرام وأتى ما يرضي لله تعالى.

وفي حديث آخر يقول ﷺ: «لاَ تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئاً ...».

كل هذه الأحاديث ترغب في فعل الخيرات، مستخدمة أسلوباً تربوياً مجدياً ونافعاً لدى المتربين، فما أحرص المؤمن على ما يقربه من الله! وما أشوقه إلى كل عمل يقربه إلى الجنة! وعندما يعلم عاقبة العمل فإنه يزداد فيه، بل إن المرء ربما لا يقدم على عمل الخير إلا إذا رغب في ثوابه وجزائه عند الله تعالى، وقد اتضح لنا من خلال هذه الأحاديث كرم الله تعالى ورحمته بعباده، وكيف جعل لهم الثواب الجزيل في العمل القليل.

وأسلوب الترغيب من الأساليب التي لا يستغنى عنها المربي في أي زمان ومكان؛ لأنه يستند إلى ما فطر الله عليه الإنسان من الرغبة في اللذة والنعيم والرفاهية ... والترغيب وعد يصحبه إغراء بمصلحة أو متعة آجلة مؤكدة، وينادي المربون باستخدام أسلوب الترغيب؛ لما فيه من تحفيز للمتربي على أداء الأعمال وانتظار عواقبها الحميدة[1].

ثالثًا- غرس قيمة الشكر في نفوس المتربين:

وقد أمر النبي ﷺ بشكر الله على نعمه وآلائه التي لا تعد ولا تحصى، وحث على ذلك بقوله: «يُصبحُ على كلّ سلامي منْ أحدكم صدقةٌ»، والسلامي: المفصل، يعني أن المسلم ينبغي أن يستشعر نعمة الله تعالى في كل عضو من أعضاء جسمه، لأنه تعالى هو خالقها وحافظها من الأمراض والحوادث والآفات، فعندما يصبح المرء ممتعاً بها فقد وجب عليه الشكر والثناء على الله تعالى.

وليست الصدقة التي تبتغي على المؤمن مالاً ولا ذهباً ولا فضة فقط؛ إذن لاحتج الناس بأنهم فقراء،وأن ليس لديهم من المال ما يتجاوز حاجاتهم؛ فكيف يتصدقون عن

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. محمد شحات الخطيب وآخرون ص ٨٤، ٨٥ بتصرف.

أعضاء أجسامهم شكراً لله تعالى؟ وهنا يكون جواب رسول الله ﷺ بقوله: «كُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ ... إلخ»، بل يقول: «وَيَجْزِي مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ تَرْكَعُهُمَا مِنَ الضُّحى» ففيهما يكون المسلم قد شكر ربه على نعمة العافية في البدن.

يقول الحسن البصري: "إن الله يمتّع بالنعمة ما شاء، فإذا لم يشكر عليها قَلبها عذاباً، ولهذا كانوا يسمون الشكر: الحافظ؛ لأنه يحفظ النعمة الموجودة، والجالب؛ أنه يجلب النعم المفقودة"(١).

رابعاً- التربية بالتوجيه المباشر:

ومن الأحاديث التي استخدم فيها النبي ﷺ أسلوب التوجيه المباشر، قوله ﷺ: «لاَ تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئاً ...»، ففي هذا توجيه للمتربين على أن لا يستصغروا من الخيرات شيئاً، حتى إذا كان الخير مجرد تبسُّم في وجه المسلم.

وطلاقة الوجه "ضد العبوس، تعني الانبساط للإخوان ببشاشة الوجه، وهو مصدر للألفة والمحبة، وهي أحد مصادر الحسنات، كما أن طلاقة الوجه من وسائل كسب المحامد، كما قال محمد بن حازم:

وَما اِكتَسَبَ المَحامِدَ طالِبوها   بِمِثلِ البِشرِ وَالوَجهِ الطَليقِ(٢)

خامساً- التربية الاجتماعية:

لقد دعا النبي ﷺ صحابته الكرام إلى الترابط الاجتماعي، ظهر ذلك جلياً من قوله ﷺ: "لاَ تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئاً، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ"، ويقول ﷺ: "تَعْدِلُ بَيْنَ الاثنين صَدَقَةٌ. وَتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ ... وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ" كل هذه السلوكيات هي سمات المجتمع المسلم، الذي يتبادل كل شيء طيب فيما بين أفراده؛ فالبشاشة والوجه الطليق من العملات الرائجة بين أفراده، وكذلك معونة الناس بعضهم البعض في الأمور البسيطة العادية، كالمساعدة في حمل المتاع، أو مجرد الكلمة الطيبة.

---

(١) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن ملوح، ٢٤١٦/٦.

(٢) أصول التربية الإسلامية، خالد الحازمي ص ١٧٠.

كل هذه السلوكيات ربَّى النبي ﷺ عليها صحابته الكرام؛ لما لها من أثر فعّال في انتشار الرضا والسعادة بين الناس، وربما يكون هذا السلوك هو الفارق بين المجتمع المسلم والمجتمعات المادية الأخرى، التي تدَّعي الحضارة، وربما يُسمع فيها عن شخص يموت في قارعة الطريق فلا يجد من يحمله أو يدفنه، وذلك فارق طبيعي بين التربية الإسلامية الربانية، والتربية المادية الوضعية.

إن العقيدة الإسلامية تحقق التآخي والتآلف بين أفراد المجتمع، وكلما كان المجتمع صحيحاً... حصل بين سلوك أفراد انسجام؛ لأن المصدر واحد والباعث واحد والهدف واحد... وكلما قوي إيمان المسلمين ذابت الفوارق العرقية والمكانية بينهم...(1).

سادساً- التربية على الرفق بالحيوان:

لقد أمر الإسلام بالرفق والرحمة بسائر المخلوقات الحية، ليس الإنسان وحده، بل إن الحيوان هو الآخر نال نصيبه من الحث على رحمته والرفق به، يقول ﷺ: "بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشي بِطَرِيقٍ، اشْتَدَ عَلَيْهِ الْعَطَشُ..." ثم يروي النبي ﷺ كيف أن هذا الرجل لمّا خرج من البئر وجد كلباً يأكل التراب الندي من شدة العطش؛ فما كان منه إلا أن سقى الكلب بخفه، فأثابه الله بأن غفر له وأدخله الجنة.

بل إن القصة نفسها تتكرر ولكن الذي سقى الكلب بغي من بغايا بني إسرائيل، فكان جزاؤها رغم عظم ذنبها أن غفر لها الله وأدخلها الجنة. لأنه رفقت بالحيوان ورحمته، فاستحقت رحمة الله تعالى.

إن الإسلام شديد المؤاخذة لمن تقسو قلوبهم على الحيوان، ويستهينون بآلامه، وقد بيَّن أن الإنسان عظيم القدر يدخل النار في إساءة يرتكبها مع دابة عجماء... كما بيّن أن كبائر المعاصي تمحوها نزعة رحمة تغمر القلب، ولو بإزاء كلب!(2).

إن سلوك الرجل أو المرأة التي سقت الكلب لا تُرى نفس تبلغ منها الرحمة بالحيوان

---

(1) أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي ص ١١٦.

(2) خلق المسلم، محمد الغزالي ص ٢١١.

هذا المبلغ لا تكون رحمتها بالناس أشد، إن هذا العمل ليدل على شعور راق، ورحمة فياضة، سكنت تلك النفس العالية، فكانت لا ريب خليقة بهذا الجزاء، والراحمون يرحمهم الرحمن(١).

وقد ذكر الرسول ﷺ أن من بين المستحقين للجنة رجلاً أماط الأذى عن الطريق، حين قطع شجرة من ظهر الطريق كانت تؤذي المسلمين، وآخر وجد غصن شوك على الطريق فأخره فغفر له.

إن الوعي بهذه الأحاديث يدفع المسلمين إلى عدم رمي الزجاجات والمسامير والقاذورات في الشوارع والطرقات، بل يدعو في الوقت نفسه إلى حملها ووضعها في الأماكن المخصصة لها. وإذا كان الغرب قد أخذ بهذه المبادئ، فصارت طرقه مضرب المثل في الجمال وشوارعه مضرب المثل في النظافة، فما هذا بدين عندهم، بل عادات اجتماعية صارت ديناً بمضي الزمن.

وقد أهملنا هذه القيم الدينية فصارت طرقنا وشوارعنا وقرانا ومدننا إلى ما نراه الآن ولا سبيل لتجميل ديارنا إلا بإحياء سنة نبينا.

(١) الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي ص ٤٢.

١٤- باب الاقتصاد في الطاعة

قَالَ اللَّه تَعَالَى: ﴿طه مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾[طه: ١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[البقرة: ١٨٥].

الحديث رقم (١٤٢)

١٤٢- عن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ دخَلَ عليْها وعِنْدها امْرأَةٌ قال: منْ هَذِهِ؟ قالت: هَذِهِ[1] فُلانَة تَذْكُرُ مِنْ صَلاتِهَا قال: «مَهْ عليكُمْ بِما تُطِيقُون، فَوَاللَّه لا يَمَلُّ اللَّهُ حتَّى تَمَلُّوا، وكَانَ أَحَبُّ الدِّينِ إِلَيْهِ ما داوَمَ صَاحِبُهُ علَيْهِ» متفقٌ عليه[2].

وَ«مَهْ» كَلِمة نَهْي وزَجْرٍ. ومَعْنى «لا يملُّ اللَّهُ» أي: لا يَقْطَعُ ثَوابَهُ عنْكُمْ وَجَزَاءَ أَعْمَالِكُمْ، ويُعَامِلُكُمْ مُعاملَةَ الْمالِّ حَتَّى تَملُّوا فَتَتْرُكُوا، فَيَنْبَغِي لكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا ما تُطِيقُونَ الدَّوَامَ علَيْهِ لِيَدُومَ ثَوَابُهُ لَكُمْ وفَضْلُه علَيْكُمْ.

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

غريب الألفاظ:

مَهْ: فسرها النووي[3]. وفي الوسيط: اسم فعل أمرٍ معناه: اكفُفْ[4].

لا يمل الله: فسّرها النووي، وفي النهاية: أن الله لا يطّرحُكم حتى تتركوا العمل، فسَمَّى الفعلين مللاً، وكلاهما ليس بملل... على طريقة الازدواج في الكلام[5].

---

(١) (هذه) لا توجد عندهما. وفلانة هذه: هي الحولاء بنت تُويت بن حبيب بن أسد بن عبد العزّى، كما في رواية مسلم، و(امرأة من بني أسد) كما في رواية البخاري رقم (١١٥١).

(٢) أخرجه البخاري (٤٣)، ومسلم (٧٨٥/٢٢١) واللفظ له.

(٣) رياض الصالحين ١٠٥.

(٤) الوسيط في (م هـ هـ).

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (م ل ل).

الشرح الأدبي

هذا الحديث النبوي فاتحة لباب جديد في رياض الصالحين وهو باب "الاقتصاد في العبادة"، ويراد به الأحاديث التي تتجلى فيها مظاهر التوسط في أداء العبادة، فلا إفراط ولا تفريط، ولا غلو ولا تشدد، في إطار المأثور فعله عن رسول الله ﷺ، وعن الصحابة الأجلاء والتابعين من أهل السلف رضي الله عنهم، وقال الحسن منبهًا إلى يسر الإسلام: نفوسكم مطاياكم، فأصلحوا مطاياكم توصلكم إلى ربكم، فمن وفَّى النفس حقها من المباح بنية صالح العمل، ومَنَعها من شهواتها وحظها كان مأجورًا في ذلك.

والحديث الذي خُتم به الباب السابق يَعدُّ تمهيدًا لمظاهر التيسير في الإسلام: حيث تدرج المصطفى ﷺ في الحوار مع السائل، حتى وصل إلى أن الإمساك عن الشر صدقة، بعد أن نفدت استطاعة المسلم، ولم يجد ما يتصدق به، ولم يستطع أن يدخر من عمل يده، ولم يستطع أن يعين ذا الحاجة، ولم يقم بفعل الأمر بالمعروف، ففتح الرسول ﷺ طرقًا متعددة للبر حسب الاستطاعة، وكذلك العبادة في هذا الحديث الشريف الذي يبدأ به النووي بابه الجديد ليبين من خلاله حرص رسول الله ﷺ على أداء العبادة على الوجه الأكمل مع الابتعاد عن تعذيب النفس: وجلب المشقة لها، وفي قوله: "إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه"(١)، خير دليل على هذا المنهج المعتدل.

ولنتأمل جو الحديث... ومقاصده من خلال هذا المشهد الواقعي المضيء بكلمات المصطفى ﷺ وكلمات عائشة أم المؤمنين والصديقة بنت الصديق، والحديث يُرْوَى وكأننا نراه ونسمع ما دار بين النبي وعائشة رضي الله عنها، حيث دخل عليها النبي ﷺ وعندها امرأة، فقال متسائلاً من هذه؟ ولم يتوجه النبي ﷺ بالسؤال إلى المرأة نفسها، ولم يقل من أنت؟ وذلك من أدب النبوة، ومراعاة للمقام فالمرأة في ضيافة عائشة، وحسن الضيافة من حق صاحبتها، وتجيب عائشة رضي الله عنها: "هذه فلانة... وهي أعبد أهل المدينة"، وفي رواية أخرى: "لا تنام تصلي"، ولم يُذكر اسم المرأة في الحديث:

---

(١) أخرجه البخاري ٣٩.

لأن الأمر لا يتعلق بذات المرأة: ولكن يتعلق بأمر تشريعي: وهو التوسط في العبادة، وقيل هي: الحولاء بنت ثويب، وتقول: عائشة رضي الله عنها وهي تثني على هذه المرأة، هذه فلانة تذكر من صلاتها، وهذه الجملة تحتمل معنيين في قولها: "تذكر من صلاتها" فالسياق يقتضي أن تكون المرأة هى التي تذكر لعائشة وتخبرها عن صلاتها وطريقتها وكثرتها في ذلك: حيث تقول الرواية الأخرى في مسند أحمد، "لا تنام تصلي"، وهناك رأى يقول بأن فاعل تذكر، "هي"، يعود على عائشة: وهذا بعيد عن السياق لأن الجملة من أولها جواب عن سؤال الرسول صلى الله عليه وسلم: من هذه؟ فقالت: هذه فلانة تذكر من صلاتها.

لذلك جاء تعقيب المصطفى صلى الله عليه وسلم موضحًا المنهج الوسط الذي يقتضي الاقتصاد في العبادة: فقال: "مه عليكم بما تطيقون"، والخطاب موجه إلى المسلمين بصفة عامة، حيث لم يتوجه الخطاب إلى المرأة أو إلى عائشة ولم يضع الخطاب في صيغة نون النسوة حيث لم يقل "عليكن" ولكنه خاطب المسلمين بما فيهم الذكور والإناث "ومه" اسم فعل أمر مرتجل، كما قال النحاة: وهو ما لم يستعمل في شيء آخر قبل كونه اسم فعل و "مه" بمعنى اكفف، فالرسول صلى الله عليه وسلم بهذا اللفظ المختصر يأمر كل مسلم بالكف عن التشدد، في أداء العبادة تشددًا يقود الإنسان إلى الإجهاد والتعب والمنهج الصحيح يقتضي التسديد والمقاربة والقصد في العبادة، وقوله: "فو الله لا يمل الله حتى تملوا"، من باب المشاكلة في الأسلوب لأن الملال محال على الله تعالى، وجاء القسم في أول العبادة ليؤكد الأمر بالعدول عن المبالغة في أداء الفرائض والنوافل، وحتى للغاية والمعنى يزيل اللبس الذي أحدثته المشاكلة اللفظية فمعناه: لا يمل الله إذا مللتم، وقيل: حتى بمعنى الواو، والتقدير: لا يمل الله وتملون، والجملة الأخيرة توضح المنهج وهو الاعتدال في العبادة، والبعد عن التشدد والمغالاة.

فقه الحديث

إن الإنسان مهما كانت قوته، محدود القدرة والاستطاعة، ينتهي عند مكان معين لا يستطيع أن يبرحه، فهو مخلوق ضعيف تتوقف استطاعته عند حد معين، ولما كان التشريع من عند الله سبحانه خالق هذا الإنسان والذي يعلم ما يستطيعه ومدى قدرته فإنه لم يكلف الإنسان ما لا يطيق، بل جعل العبادات في مقدور كل إنسان، وجعل إتيانه لها متدرجًا مع حالته، فكلما كان ضعيفًا كلما كانت له الرخص.

ولذا فقد اتخذ الفقهاء قول الله عز وجل ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[١] أساسًا لقاعدة كلية يعملون بها في الأحكام ونصوا عليها في كثير من كتبهم وعبروا عنها بقولهم "التكليف بحسب الوسع"[٢] فالعبد مطالب بعبادة الله عز وجل على قدر طاقته وما يستطيعه، وليس مطالبًا بأن يأتي بما فوق قدرته وطاقته، ففي الصلاة مثلاً يصلي الإنسان قاعدًا إن لم يستطع الوقوف، ونائمًا إن لم يستطع القعود، وبيديه وبما يستطيعه من جسمه حسب حالته وقدرته في المرض والعجز، وفي صلاة النفل يتنفل بقدر استطاعته وما يطيقه، ولا يكلف نفسه فوق طاقته فيمل ويحصل الانقطاع، وقليل دائم خير من كثير منقطع[٣].

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٨٦.

(٢) المبسوط، السرخسي للسرخسي ١٨٢/١.

(٣) انظر في ذلك: البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٤١/٢ وما بعدها، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود ٢٩٠/١ وما بعدها، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٦٦/٢ وما بعدها، وشرح منح الجليل ٣٣٩/١ وما بعدها، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي ١٠٥/٢ وما بعدها، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٤٥٨/١ وما بعدها، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٢٤٧/١ وما بعدها، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٤٣٥/١ وما بعدها.

المضامين الدعوية

أولاً: من صفات الداعية: تفقد حال أهله.

ثانيًا: من الأساليب الدعوية: الأمر، والقسم.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الوسطية والاعتدال وعدم الغلو في الدين.

أولاً- من صفات الداعية: تفقد حال أهله:

إن الداعية إلى الله مطالب بتفقد أحوال المدعوين، والسؤال عنهم خاصة إذا افتقدهم، ومن أخص ما يُعنى به الداعية تفقد حال أهله وسؤاله عنهم وعن زوارهم وهذا ما فعله النبي ﷺ بعد دخوله على عائشة رضي الله عنها وكان عندها امرأة فقال لها: "من هذه" وقد بين ابن عثيمين (أنه ينبغي على الإنسان إذا رأى عند أهله أحدًا أن يسأل من هو، لأن من النساء من تأتي إلى أهل البيت تحدثهم بأحاديث يأثمون بها من الغيبة وغيرها)[١] وفي تفقد حال الأهل امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ﴾[٢] أي (اعملوا بطاعة الله واتقوا معاصي الله ومروا أهليكم بالذكر، ينجيكم الله من النار)[٣] وقد أكد النبي ﷺ على أهمية ذلك فقال ((كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، الإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومسئول عن رعيته))[٤].

ثانيًا- من الأساليب الدعوية: الأمر، والقسم:

إن من الأساليب الدعوية المهمة التي لها كامل الأثر في لفت انتباه المدعوين، وحثهم على الامتثال لما يُدعون إليه، فضلاً عن استحضار قلوبهم لما تم، من ذلك الأمر والقسم على أمر من الأمور. وقد أشار الحديث إلى هذه الأساليب حيث استعمل النبي ﷺ

---

(١) شرح رياض الصالحين ١/٣٧٦.

(٢) سورة التحريم، آية: ٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٨/١٦٧.

(٤) أخرجه البخاري ٨٩٣.

أسلوب الأمر في قوله "مه عليكم بما تطيقون" وقوله: "مه" تعني أمر بالكف، فهي اسم فعل بمعنى اكفف والمعنى أن النبي ﷺ أمر هذه المرأة أن تكف عن عملها الكثير، الذي قد يشق عليها وتعجز عنه في المستقبل فلا تديمه، ثم إن النبي ﷺ أمرنا أن نأخذ من العمل بما نطيق فقال: "عليكم بما تطيقون" يعني لا تكلفوا أنفسكم وتجهدوها، فإن الإنسان إذا أجهد نفسه وكلف نفسه ملت وكلت، ثم انحسرت وانقطعت[1].

فأسلوب الأمر أسلوب دعوي كثير الاستخدام، فينبغي على الداعية أن يوظفه فيما يفيد الدعوة فلا يأمر إلا بخير ولا ينهى إلا عن شر، وأسلوب القسم في قوله "فوالله"؛ حيث أقسم النبي ﷺ وهو الصادق المصدوق، الذي لا يحتاج إلى قسم، ولكنه أقسم ليؤكد على أهمية الأمر، فالقسم كأسلوب دعوي له دوره في أن يجعل المدعو يتعلق بالدعوة، ويؤمن بها، وذلك لإدراكه أن الكلام العظيم المستحق للاهتمام هو الذي يبدأ باليمين[2].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: الوسطية والاعتدال وعدم الغلو في الدين:

هذا ما أشار إليه الحديث من قوله ﷺ "عليكم بما تطيقون" أي أن أفضل ما يتعبد به المؤمن للتقرب من الله تعالى هو: التوسط في أمور العبادة، وترك المشقة وأخذ النفس بمنهج متشدد قد يكون بعد ذلك سببًا في الملل والفتور والتفريط؛ لذا أمر الحق تبارك وتعالى بالتوسط والاعتدال في العبادة وعدم الغلو، والغلو كلمة تدور الأحرف الأصلية لها على معنى واحد يدل على مجاوزة الحد والقدر. قال ابن فارس: (الغين واللام والحرف المعتل، أصل صحيح يدل على ارتفاع ومجاوزة قدر، يقال: غلا السعر يغلو غلاءً، وذلك ارتفاعه. وغلا الرجل في الأمر غلوًا، إذا جاوز حدَّه)[3].

قال ابن حجر: (قوله: "عليكم بما تطيقون" أي اشتغلوا من الأعمال بما تستطيعون المداومة عليه، فمنطوقه يقتضي الأمر بالاقتصار على ما يطاق من العبادة، ومفهومه

---

(١) شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين، ١/٣٨٦.

(٢) الدعوة الإسلامية، د. أحمد غلوش ص ٣٤٣.

(٣) معجم مقاييس اللغة ٤/٣٨٧-٣٨٨.

يقتضي النهي عن تكلف ما لا يطاق، وقال القاضي عياض: قلت: سبب وروده خاص بالصلاة، ولكن اللفظ عام، وهو المعتبر)[١].

وقد ورد النهي في القرآن الكريم عن الغلو، وجاء الخطاب في النهي موجهًا لأهل الكتاب على وجه الخصوص ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾[٢]، ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾[٣].

قال ابن كثير: (ينهى الله تعالى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء، وهذا كثير في النصارى، فإنهم تجاوزوا الحد في عيسى حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها، فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلهًا من دون الله يعبدونه كما يعبدونه، بل غلوا في أتباعه وأشياعه، ممن زعم أنه على دينه، فادعوا فيهم العصمة، واتبعوهم في كل ما قالوه سواء كان حقًا أو باطلاً، أو ضلالاً أو إرشادًا، أو صحيحًا أو كذبًا، ولهذا قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[٤])[٥].

(وهاتان الآيتان وإن تعلقتا بأهل الكتاب ابتداء، فإن المراد منها موعظة هذه الأمة؛ لتجتنب الأسباب التي أوجبت غضب الله على الأمم السابقة)[٦] وكان من أعظم هذه

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١/١٢٦.

(٢) سورة النساء، آية: ١٧١.

(٣) سورة المائدة، آية: ٧٧.

(٤) سورة التوبة، آية: ٣١.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢/١٧١.

(٦) انظر: مقاصد الشريعة الإسلامية، محمد الطاهر بن عاشور ص ٦٠.

الأسباب غلوهم في الدين.

وقد رهّب النبي ﷺ من ذلك فقال ((إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ))[١] وقال ﷺ ((هلك المتنطعون))[٢] قالها ثلاثًا، وبين النووي: (أن المتنطعين هم الغالون المجاوزون الحد في أقوالهم وأفعالهم)[٣] وأكد النبي ﷺ على أهمية التوسط والاعتدال في العبادة فقال: ((إن هذا الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وابشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدُلْجَة))[٤] أي: (لا يتعمق أحد في الأعمال الدينية ويترك الرفق إلا عجز وانقطع فيغلب، وألزموا السداد وهو الصواب من غير إفراط ولا تفريط)[٥].

قال ابن حجر: (قال ابن المنير: فقد رأينا ورأى الناس قبلنا أن كل متنطع في الدين ينقطع، وليس المراد منع طلب الأكمل في العبادة فإنه من الأمور المحمودة، بل منع الإفراط المؤدي إلى الملال، أو المبالغة في التطوع المفضي إلى ترك الأفضل، أو إخراج الفرض عن وقته كمن بات يصلي الليل كله ويغالب النوم إلى أن غلبته عيناه في آخر الليل فنام عن صلاة الصبح في الجماعة، أو إلى أن خرج الوقت المختار، أو إلى أن طلعت الشمس فخرج وقت الفريضة)[٦]. (وقد وردت أحاديث كثيرة في النهي عن الغلو في الدين والأمر بالتوسط والاعتدال، وفي ذلك بيان بأن الغلو خروج عن المنهج الصحيح في الدين، وتعد للحد، وعمل ما لم يأذن به الله ورسوله)[٧].

---

(١) أخرجه ابن ماجه ٣٠٢٩، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ١٢٨٣).

(٢) أخرجه مسلم ٢٦٧٠.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٨٠.

(٤) أخرجه البخاري ٣٩.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١٧/١.

(٦) المرجع السابق.

(٧) انظر: الوسطية في القرآن الكريم، د. علي محمد الصلابي ص ٤٨.

الحديث رقم (١٤٣)

١٤٣- وعن أَنسٍ ﷺ قال: جاءَ ثَلاثةُ رهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْواجِ النَّبِيِّ ﷺ يسْأَلُونَ عنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا أُخبِروا كأَنَّهُمْ تَقَالُّوْها وقالُوا: أَين نَحْنُ مِنْ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ غُفِر لَهُ ما تَقَدَّم مِنْ ذَنْبِهِ وما تَأَخَّرَ. قالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فأُصلِّي الليل أَبدًا، وقال الآخَرُ: وَأَنا أَصُومُ الدَّهْرَ أَبدًا ولا أُفْطِرُ، وقالَ الآخرُ: وأَنا اعْتَزِلُ النِّساءَ فلا أَتَزوَّجُ أَبدًا، فَجاءَ رسول اللَّه ﷺ إِلَيْهمْ فقال: «أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كذا وكذا؟، أَما واللَّهِ إِنِّي لأَخْشَاكُمْ للَّهِ وَأَتْقَاكُم له لكِني أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصلِّي وَأَرْقُد، وَأَتَزَوّجُ النِّسَاءَ، فمنْ رغِب عن سُنَّتِي فَلَيسَ مِنِّى» متفقٌ عليه[1].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

رهط: الرهط: الجماعة من ثلاثة أو سبعة إلى عشرة أو ما دون العشرة وهو اسم جمع لا واحد له من لفظه[2]، والمعنى: ثلاثة رجالٍ.

تقالُّوها: استقلُّوها أي: رأى كل منهم أنها قليلة[3].

رغب عن سنتي: أعرض عنها إلى غيرها[4].

سنتي: طريقتي[5].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٣) واللفظ له، ومسلم (١٤٠١/٥). أورده المنذري في ترغيبه (٢٨٦٩).

(٢) النهاية، والمصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الفيومي، والوسيط في (ر هـ ط).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ق ل ل).

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧/٩.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧/٩.

الشرح الأدبي

إن التوازن من أهم معالم الشخصية الإسلامية، ومن أهم ما يعطى لحركتها في الحياة خصوصية وتفردًا، والتوازن يكون في العبادة، وفي الإنفاق، وفي المعاملات والعلاقات الاجتماعية، وفي كل مناحي النشاط في الحياة، التوازن بين المنطق العقلي والشعور القلبي، والتوازن بين القيم الروحية ومتطلبات الحياة المادية

وذلك كله في إطار التمسك بالكتاب والسنة، والاقتداء بالنبي ﷺ في أفعاله وأقواله وسيرته الكريمة.

وهذا الحديث الشريف دعوة واقعية إلى منهج التوازن في حياة المسلم اقتداء بالنبي ﷺ.

وهو ليس دعوة قولية، ولكنه مشهد واقعي من مشاهد السيرة النبوية العطرة، وهذا المشهد جاء في قالبٍ سردي قصصي، ولكنه حقيقي وليس حكايةً للموعظة والاعتبار، فهؤلاء الثلاثة الذين جاءوا إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادته هم: علي بين أبي طالب، وعبدالله بن عمرو بن العاص، وعثمان بن مظعون رضي الله عنهم أجمعين، وهم من الصحابة الكرام الأخيار، وقد سألوا بعض زوجات النبي ﷺ أو الخدم، والحديث لم يحدد. وإنما يفهم من سياق الحديث أنهم سألوا مَنْ في بيوت أزواج النبي ﷺ ولذلك جاء الإخبار في صيغة، المبني للمفعول، "فلما أخبرو" أي فلما علموا وعرفوا، ولم يصرِّح الراوي بمَنْ أخبرهم لأن الأمر يتعلق بكيفية العبادة وكمِّها، ويقول النص "كأنهم تقالوها"، ولم يقل: تقالوها فقط، تأدبًا مع رسول الله ﷺ، لأنهم حسبوا أنها قليلة في تصورهم وفي فهمهم.

وقيل: إن الضمير في "تقالوها"، عائد إلى: عَملِ هؤلاء الثلاثة أنفسِهم لاستكثارهم عمل رسول الله ﷺ.

والاستفهام في قولهم: "وأين نحن من النبي ﷺ" يرجح الأول وهو إحساسهم بقلة عبادة رسول الله ﷺ، وهو غير صحيح، والاستفهام كذلك يفصح عن تقديرهم لرسول الله ﷺ، فهو معصوم وهم غير ذلك، ويجب أن يُجِدّوُا في العبادة حتى يكونوا في مأمن من سوء العاقبة، حسب تفكيرهم، والتعبير بقولهم: "وقد غفر له ما تقدم من

ذنبه وما تأخر" على سبيل التشريف وإكرام الله تعالى لرسوله ﷺ، لأنه معصوم، فكيف يرتكب إثمًا أو ذنبًا؟

ويُلزم الثلاثة أنفسَهم بما لا يَلْزمُ المسلمَ القيام به، ويكلفون أنفسهم ما لا يطيقون، ومن أسرار هذا البيان النبوي أن الحديث لم يحدّد الأسماء؛ لأن الأمر يتعلق بالمنهج وليس بالأشخاص، وحتى لا تكون لدى المتلقين وجمهور المسلمين بعد ذلك شبهة المخالفة التي تنسب إلى هؤلاء "الرهط" وهم من الصحابة الأجلاء، وما ألزم به هؤلاء الثلاثة أنفسهم يخرج عن منهج التوازن والاقتصاد في العبادة، فأحدهم ألزم نفسه بقيام الليل أبدًا وتلك مشقة ما بعدها مشقة، والحديث السابق يقول: "عليكم بما تطيقون"، والثاني ألزم نفسه بصيام الدهر أبدًا وهذا خارج عن حدود الاستطاعة والقدرة، والثالث ألزم نفسه بعدم التزوج واعتزال النساء أبدًا، وفي ذلك مخالفة للفطرة التي فطر الله تعالى الناس عليها، ولنتأمل أوجه تأكيد هذه الالتزامات الشاقة، فالتعبير بقولهم: "أنا" في كل عبارة، وختام العبارة بكلمة، "أبدًا" ومجيء الأفعال (أصوم - أصلي - أفطر - أعتزل - أتزوج) في صيغة المضارع المنفي، ما عدا "أعتزل"، فهو فعل مثبت؛ كل هذا يؤكد صدق هؤلاء ورغبتهم في القيام بما ألزموا به أنفسهم، ولكن رسول الله ﷺ حينما علم بذلك الأمر: أرشدهم إلى المنهج الصحيح بالحكمة والإقناع مستشهدًا بمنهجه في صلاته وصومه، وحياته الخاصة، وهو أخشاهم لله وأتقاهم له، ومع ذلك يصوم ويفطر، ويصلي ويرقد، ويتزوج النساء، ثم يضع قاعدة شرعية قائلاً: "فمن رغب عن سنتي فليس مني"، أي فليس من المقتدين بي والعاملين بسنتي، وهكذا يكون توازن المسلم في عبادته ومعاملاته وحياته أسوة بالحبيب المصطفى ﷺ، واتباعًا لسنته الحكيمة الراشدة.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى أكثر من حكم فقهي:

الأول: حكم صلاة الليل وقد سبق الكلام عنها في الحديث رقم (٩٨).

الثاني: حكم صيام التطوع وقد اتفق الفقهاء[١] على أن صيام التطوع متروك لقدرة الإنسان واستطاعته دون مغالاة تعطله عن ممارسة دوره في الحياة.

الثالث: حكم النكاح، وقد اتفق الفقهاء أيضًا[٢] على أن الزواج من سنة النبي ﷺ وأن حكمه الشرعي يختلف باختلاف مريد الزواج، فقد يكون واجبًا، وقد يكون مندوبًا، وقد يكون مباحًا، وقد يكون مكروهًا، وقد يكون حرامًا، أما ترك الزواج نهائيًا مع القدرة عليه فهو رهبنة، ولا رهبانية في الإسلام.

---

(١) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود٢/٧٨، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٢/٢٧٧، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٢/٤٤٣، وشرح منح الجليل ٢/١٤٩، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي ٣/٢١٠، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٢/١٨٥، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ١/٤٩٢، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٢/٣٣٧.

(٢) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود٢/٢٢٨ وما بعدها، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٣/٨٣ وما بعدها، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٣/٤٠٣ وما بعدها، وشرح منح الجليل ٣/٢٥٣ وما بعدها، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي ٦/١٧٧ وما بعدها، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٤/٢٠١ وما بعدها، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٥/٥ وما بعدها، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٢/٦٢١ وما بعدها.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على التعرف على أحوال النبي صلى الله عليه وسلم.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: التقرير والقسم والتوكيد والترهيب.

ثالثًا: من مهام الداعية: ترشيد فهم المدعوين للعبادة.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: القصد في العبادة وعدم الغلو.

خامسًا: من واجبات المدعو: الاقتداء بسنة النبي صلى الله عليه وسلم.

أولاً- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على التعرف على أحوال النبي صلى الله عليه وسلم في العبادة:

لقد كان الصحابة رضي الله عنهم يحرصون على معرفة أحوال النبي صلى الله عليه وسلم خاصة في مجال العبادة، حتى يقفوا على ما كان يفعله صلى الله عليه وسلم ليتأسوا به، وهذا دليل على شدة تمسكهم بدينهم وحرصهم على ذلك، ومن الشواهد في الحديث الذي معنا ما ورد في قول الراوي: "جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم" وهذا مسلك عظيم في حصول الفائدة واتخاذ القدوة وقد كان هذا نهجًا للصحابة رضي الله عنهم فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ((بتُّ عندَ خالتي مَيمونة، فقلتُ لأنظرنَّ إلى صلاةِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، فطرَحَت لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم وِسادةً، فنام رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم في طُولها، فجعلَ يمسحُ النومَ عن وجهه، ثم قرأ الآياتِ العَشْرَ الأواخرَ من آلِ عمرانَ حتى ختمَ. ثم أتى سقاءً مُعَلَّقًا فأخذَه فتوضأ، ثم قام يُصلّي فقمتُ فصنَعتُ مِثلما صَنَعَ. ثم جئتُ فقمتُ إلى جَنبه، فوضعَ يدَه على رأسي، ثم أخذَ بأُذني فجعلَ يَفتِلُها. ثم صلى رَكعتَين، ثم صلى رَكعتَين، ثم صلى رَكعتَين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم أوتَرَ))[1] وفي ذلك بيان على حرص الصحابة رضي الله عنهم على التعرف على أحوال النبي صلى الله عليه وسلم في العبادة للتأسي به صلى الله عليه وسلم.

---

(١) أخرجه البخاري ٤٥٧٠.

ثانيًا- من أساليب الدعوة: التقرير والقسم والتوكيد والترهيب:

فالأسلوب التقريري ورد في الحديث من قوله ﷺ "أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ وهو من الأساليب الدعوية التي يُبنى عليها استحضار الذهن ولفت انتباه المدعوين، أما أسلوب القسم فقد ورد في الحديث من قوله ﷺ "أما والله" والقسم من الأساليب الدعوية التي تسترعي اهتمام المدعوين لبيان عظم المُقسم عليه، وقد ورد أسلوب التوكيد في الحديث من قوله ﷺ "إني" وبه يتم تثبيت وتوكيد ما يُدْعى إليه في أذهان المدعوين، أما أسلوب الترهيب فقد ورد في قوله ﷺ "فليس مني" وبهذا الأسلوب يتم تحذير المدعو من مخالفة ما يُدْعى إليه، وفيه حمله على الامتثال للأمر المدعو إليه.

ثالثًا- من مهام الداعية: ترشيد فهم المدعوين للعبادة:

هذا ما ورد في الحديث من قوله ﷺ "أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟! أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له؛ لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء".

قال ابن عثيمين: (وقد أرشد النبي ﷺ فهم المدعوين في اعتقادهم أن المشقة في العبادة هي طريق الخشية، وبين ﷺ أن ذلك خلاف السنة، وأن المقياس ما جاء به الشرع ثم بين ﷺ أن الاقتصاد في الطاعة والتوسط بين الغلو والتفريط من سنته ﷺ)[١]، (لذا أنكر عليهم ﷺ هذا التشدد والتعنت، وبيّن لهم وسطية الإسلام وأن الفهم الصحيح للإسلام يقتضي أن يراوح الإنسان في أموره؛ لأن الشدة غير محببة في العبادة، لأنها أدعى للسآمة والملل والنفور، ولكن التوسط مطلوب، حتى يكون ذلك مدعاة للمواظبة والاستمرار، وقد احتسب عليهم النبي ﷺ فيما أرادوا أن يأخذوا به أنفسهم ليرشد فهمهم للعبادة)[٢].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: القصد في العبادة وعدم الغلو:

هذا ما أشار إليه الحديث في قوله ﷺ: "لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني"، وما كان الأمر بالقصد في العبادة

---

(١) انظر: شرح رياض الصالحين ١/٣٨٨.

(٢) انظر: دور الحسبة في حماية القيم الإسلامية، د. محيي الدين عفيفي أحمد ص ٣٦-٣٧.

وعدم الغلو إلا لحكمة عظيمة وفوائد جليلة. قال د. يوسف القرضاوي: (ما كان هذا التحذير من التطرف والغلو، إلا لأن فيه عيوبًا وآفات أساسية تصاحبه وتلازمه. منها: أنه منفر لا تحتمله طبيعة البشر العادية، ولا تصبر عليه، ولو صبر عليه قليل منهم لم يصبر عليه جمهورهم، والشرائع إنما تخاطب الناس كافة، لا فئة ذات مستوى خاص، ولهذا غضب النبي ﷺ على صاحبه الجليل "معاذ رضي الله عنه" حين صلى بالناس فأطال حتى شكاه أحدهم إلى النبي ﷺ، فقال له: ((أفتان أنت يا معاذ؟ وكررها ثلاثًا...))[١]، ومن الحكم العظيمة في ذلك أن الغلو وعدم القصد قصير العمر، والاستمرار عليه في العادة غير متيسر، فالإنسان ملول، وطاقته محدودة، فإن صبر يومًا على التشدد والتعسير، فسرعان ما تكل دابته أو تحرن عليه مطيته في السير. وأعني بهما جهده البدني والنفسي، فيسأم ويدع العمل حتى القليل منه. أو يأخذ طريقًا آخر، على عكس الطريق الذي كان عليه، أي ينتقل من الإفراط إلى التفريط، ومن التشدد إلى التسيب، ولا حول ولا قوة إلا بالله)[٢].

خامسًا- من واجبات المدعو: الاقتداء بسنة النبي ﷺ:

هذا ما أشار إليه الحديث في قوله ﷺ: "فمن رغب عن سنتي فليس مني". وقد أمر الحق تبارك وتعالى بذلك فقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[٤]. قال ابن كثير: (هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، كما ثبت في

---

(١) أخرجه البخاري ٦٧٣.

(٢) الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف، ط/٤، مؤسسة الرسالة، بيروت: ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص ٢٩-٣٠.

(٣) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

(٤) سورة آل عمران، آية:٣١.

الصحيح عن رسول الله ﷺ: ((من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد))[(١)]) [(٢)]. فعلى المدعو الاقتداء والامتثال لسنة النبي ﷺ لما في ذلك من عظيم الفلاح، وكمال الأجر في الدنيا والآخرة.

---

(١) أخرجه مسلم ١٧١٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢/٣٢.

الحديث رقم (١٤٤)

١٤٤- وعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ» قالَهَا ثلاثًا، رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٧).

غريب الألفاظ:

«الْمُتَنَطِّعُونَ»: الْمُتعمِّقونَ الْمُشَدِّدُون فِي غَيْرِ موْضَعِ التَّشْدِيدِ[2].

الشرح الأدبي

في ظلال هذا الحديث الشريف نستروح نسائم التيسير في المنهج الإسلامي من خلال هذا الوعيد الذي يتوعد به رسولُ الله ﷺ المتنطعين، فهو ينذرهم بالهلاك، وهو إخبار عن مصيرهم أو دعاء عليهم أن يؤولوا إلى هذا المصير.

وقال العلماء في بيان المراد من هذا الوصف الذي يستحق الهلاك وهو "المتنطعون"، في سياق الدلالة المنبثقة من جو الحديث الشريف ومناخ هذا الباب، وهو الاقتصاد في العبادة والاعتدال فيها، والتوازن في حياة المسلم، قال الخطابي: المتنطع: المتعمق في الشيء المتكلف البحث عنه، على مذاهب أهل الكلام، الداخلين فيما لا يعنيهم، الخائضين فيما لا تبلغه عقولهم[3].

وهذا التعمق المكروه نابع من التكلف، والخوض في مسائل لا يُجْدِي الخوض فيها ولا يفيد المسلم، وربما تؤدي بصاحبها وقارئها إلى الزيغ والضلال والبعد عن الصراط السويِّ ومدارج الكمال.

---

(١) برقم (٢٦٧٠/٧). وسيكرره المؤلف برقم (١٧٣٨).

(٢) رياض الصالحين ١٠٥.

(٣) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٣٣٠/١.

ولنتأمل جذر هذه الكلمة ومدلولها اللغوي، وارتباطها بلغة العرب صفةً ودلالةً وإيحاءً، فالتنطع في الكلام هو: رمى اللسان إلى نِطْع الفم أى الغار الأعلى؛ مبالغة من المتكلم في إظهار الكلام والتأثير في السامعين، والتَمَطُّق هو ضم الشفتين ورفع اللسان إلى الغار الأعلى بالفم، والتَفَيْهُق هو: الكلام من أقصى الفم، فالتنطع والتمطق والتفهيق من سمات التكلف والمغالاة.

والمغالون في الكلام المتكلمون بأقصى حلوقهم: هم مَنْ أصيبوا بآفة التنطع، ثم استعمل هذا الوصف، المعيب في كل تعمق قولاً وفِعْلاً، بحيث يكون تعمقًا شكليًا لا ثمرة له ولا فائدة تُرجى منه.

والحديث هنا يشمل النوعين اللذين تشملهما دلالة الوصف بالتنطع، الدلالة الحسية وهى الخاصة بالنطق والتكلف فيه، والدلالة المعنوية التي تتضمن الخوض في مسائل شائكة غامضة تحجب الحقيقة وتزلزل الثوابت في نفس المسلم، وتلقيه في جُبٍّ من الحيرة والشكوك والأوهام.

وقد بريء بيان المصطفى ﷺ ونطقه وفكره من هاتين الآفتين، بل من آفات النطق الحسية كلها، حيث بريء من عيوب النطق التي تصدر عن مبالغة وتكلف كسبًا لرضا المستمعين واستجلابًا لثنائهم مثل التنطع، والتمطق والتفهيق، وهذه العيوب التي تصيب حاسة النطق عند كثير من الخطباء والعلماء وعامة الناس، وبعض المفكرين الذين في خوضهم يلعبون، ويشككون عامة الناس وخاصتهم في ثوابت العقيدة، وحقائق التاريخ، هذا كله سَلِمَ منه حديث النبي ﷺ ومنطقه، ويقول مؤكدًا رفضه للتكلُّف في المنطق، وفي كل شيء، وللمبالغة الممقوتة في طريقة إخراج الحروف: ((وإن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني مجلسًا يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون))[1].

وفي ضوء ما سبق من الدلالات اللغوية وموحياتها، وإشعاعاتها تدرك سر هذا الرفض الكامل من رسول الله ﷺ لهذا النموذج الضار، ولا بد أن نتنبه إلى خطورته وأضراره

---

(١) أخرجه الترمذي، ٢٠١٨، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي، ١٦٤٢).

في المجتمع، وفي فكر الأمة، ومحاولة تشويه معالم الشخصية الإسلامية: عبادةً وفكرًا وأفعالاً وأقوالاً، ولا بد أن نحرص على الاقتداء بالنبي الكريم ﷺ، فمنطقه نابع من إنسانيته ووحى الله عز وجل له، وقبل الوحى كان منطقه جميلاً أمينًا صادقًا متزنًا، ومن وصاياه التي تعد من أسباب النجاة من المهالك: (أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك)) وقوله: ((من تكل فليقل خيرًا أو ليصمت)).

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار، والزجر، والتكرار.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: بيان أن الهلاك عاقبة الغالين.

ثالثًا: من خصوصية النبي ﷺ: أنه أُتي جوامع الكلم.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: الوسطية والتحذير من الغلو.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار، والزجر، والتكرار:

قد ورد الأسلوب الخبري في الحديث من قوله ﷺ: "هلك المتنطعون" (وفي ذلك إخبارٌ منه ﷺ بهلاك المتشددين في أمورهم الدينية والدنيوية)[1] فهو أسلوب خبري بمعنى الترهيب من الغلو ومجاوزة الحد. وقد ورد أسلوب الزجر في الحديث من قوله ﷺ "هلك" وبه يتم إخافة المدعو وحمله على الامتثال إلى ما يُدعى إليه بما يحقق عظيم الفائدة، أما أسلوب التكرار فقد ورد في الحديث من قول الراوي "قالها ثلاثًا" وفي التكرار لفت للانتباه وحث من الداعية إلى المدعوين على أهمية ما يدعو إليه.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: بيان أن الهلاك عاقبة الغالين:

يظهر ذلك من الحديث في قوله ﷺ "هلك المتنطعون" (والمتنطعون هم الغالون المجاوزون الحد في أقوالهم وأفعالهم)[2]. قال القاضي عياض: (ومعنى هلاكهم: يريد في الآخرة)[3] وقد بين الحق تبارك وتعالى سوء عاقبة المغالين. وذلك في قصة بني إسرائيل

---

(١) شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين، ١/٣٨٩.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٨٠.

(٣) إكمال المعلم ٨/١٦٤.

فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ۝٦٧ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ ۝٦٨ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ۝٦٩ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ ۝٧٠ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ﴾[(١)].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: (إن الله تعالى أخبر عن تعنت بني إسرائيل وكثرة سؤالهم لرسولهم، ولهذا لما ضيقوا على أنفسهم ضيَّق الله عليهم، ولو أنهم ذبحوا أي بقرة كانت، لوقعت الموقع عنهم، ولكنهم شددوا فشدد عليهم)[(٢)]. قال القرطبي: (وهذه الأوصاف في البقرة سببها أنهم شدّدوا فشدد الله عليهم، ودين الله يُسْرٌ، والتعمق في سؤال الأنبياء وغيرهم من العلماء مذموم، نسأل الله العافية. وروي في قصص هذه البقرة روايات تلخيصها: أن رجلاً من بني إسرائيل وُلد له ابن، وكانت له عجلة فأرسلها في غَيْضة. وقال: اللهم إني أستودعك هذه العجلة لهذا الصبي. ومات الرجل، فلما كبر الصبي قالت له أمه -وكان برًا بها-: إن أباك استودع الله عجلة لك فاذهب فخذها؛ فذهب فلما رأته البقرة جاءت إليه حتى أخذ بقرنيها - وكانت مستوحشة- فجعل يقودها نحو أمه؛ فلقيه بنو إسرائيل ووجدوا بقرته على الصفة التي أمِروا بها؛ فساموه فاشتط عليهم. وكان قيمتها على ما رُوي عن عكرمة ثلاثة دنانير، فأتوا به موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وقالوا: إن هذا اشتط علينا؛ فقال لهم: أرضوه في ملكه، فاشتروها منه بوزنها مرة؛ قاله عبيدة. السدي: بوزنها عشر مرات. وقيل: بملء مَسْكِها[(٣)] دنانير)[(٤)].

(١) سورة البقرة، آية: ٦٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢٩٨/١.

(٣) مَسْكِها: أي جلدها، لسان العرب في (م س ك).

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي مج١/١/٤٥٤-٤٥٥.

قال ابن عثيمين: (لو أنهم استسلموا وسلموا الأمر لله وذبحوا أيَّ بقرة كانت، لحصل مقصودهم، لكنهم تعنتوا فشدد عليهم فهلكوا)[١] وفي ذلك بيان أن الهلاك والخسران والتشدد هو عاقبة الغالين.

ثالثًا- من خصائص النبي ﷺ: أنه أتي جوامع الكلم:

هذا مما فضل الله عز وجل به نبيه ﷺ على غيره من الأنبياء (فقد كان ﷺ يتكلم بالقول الموجز القليل اللفظ الكثير المعاني)[٢]، وهذا ما ورد في الحديث من قوله "هلك المتنطعون"، (وهي كلمة تجمع كل من تعمق وغالى وجاز الحد في القول والفعل)[٣]، وقد أكد النبي ﷺ خصوصيته في ذلك بقوله: ((فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِسِتَ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ. وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ. وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ. وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا. وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً. وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ))[٤]، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: ((إنَّ رسولَ الله ﷺ عُلِّمَ فَوَاتِحَ الْخَيْرِ وجَوَامِعَهُ، أَوْ جوامع الخير وفواتحه))[٥]، وقال السندي: (قوله "فواتح الخير وجوامعه" وفي بعض الروايات "فواتح الخير وخواتمه" وهو كناية عن الخير كله، وأما جوامع الخير فهي الكلمات الجامعة للخيرات)[٦]، وما يؤكد ذلك قوله ﷺ: ((إنَّما الأعْمَالُ بالنِّيات، وإنَّمَا لِكُلِّ امْرِىءٍ ما نَوَى))[٧] قال الشافعي: (هذا الحديث ثلث العلم، ويدخل في سبعين بابًا من الفقه)[٨]. وذلك دليل على خصوصية النبي ﷺ بجوامع الكلم.

---

(١) انظر: شرح رياض الصالحين ٢٨٩/١.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، (٤١٨/١٢) و(٢٦١/١٣).

(٣) انظر: شرح صحيح مسلم، للنووي ١٥٨٠.

(٤) أخرجه مسلم ٥٢٣.

(٥) أخرجه أحمد ٤٠٨/١ رقم ٣٨٧٧، وقال محققو المسند إسناده صحيح ٤٢٢/٦.

(٦) مسند الإمام أحمد ٤٢٣/٦، هامش ١.

(٧) أخرجه البخاري ١، ٥٤، ومسلم ١٩٠٧.

(٨) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٥/١.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: التوسط والاعتدال:

(والوسطية هي مؤهل الأمة الإسلامية من العدالة، والخيرية للقيام بالشهادة على العالمين، وإقامة الحجة عليهم)[١]، وقد ميز الله تعالى بها أمته عن غيرها فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[٢] أي: (أن ذلك وصفٌ من الله تعالى بأنهم وسط، لتوسطهم في الدين، فلا هم أهل غلو، ولا أهل تقصير ولكنهم أهل توسط واعتدال، فوصفهم الله بذلك، إذ كان أحب الأمور إلى الله أوسطها)[٣]، (فالإسلام منهج وسط في كل شيء: في التصور والاعتقاد، والتعبد والتنسك، والأخلاق والسلوك، والمعاملة والتشريع وهذا المنهج هو الذي سماه الله "الصراط المستقيم" وهو منهج متميز عن طرق أصحاب الديانات والفلسفات الأخرى من "المغضوب عليهم" ومن "الضالين" الذين لا تخلو مناهجهم من غلو أو تفريط "فالوسطية" إحدى الخصائص العامة للإسلام، وهي إحدى المعالم الأساسية التي ميز بها أمته عن غيرها)[٤].

ومن استقراء نصوص الشريعة نجد أنها تدعو إلى الاعتدال، وتحذر من التطرف وهذا ما ورد في نص الحديث من قوله ﷺ "هلك المتنطعون" أي: (المتشددون في أمورهم الدينية والدنيوية والمتعمقون الغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم)[٥].

وقد حذر النبي ﷺ ونفر أشد النفور من هذا الغلو فقال: ((إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ))[٦] (وسبب ورود الحديث ينبهنا على أمر مهم، وهو أن الغلو قد يبدأ بشيء صغير، ثم تتسع دائرته، ويتطاير شرره، وذلك أن النبي ﷺ حين وصل إلى المزدلفة في حجة الوداع قال لابن عباس رضي الله عنهما: هلمَّ

---

(١) الوسطية في القرآن الكريم، د. علي محمد الصلابي ص ٣٨.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٤٣.

(٣) جامع البيان في تأويل آي القرآن، ابن جرير الطبري، ٦٢٧/٢.

(٤) الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف، د. يوسف القرضاوي ص ٢٤.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٨٠، وشرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين، ٣٨٩/١.

(٦) أخرجه ابن ماجه ٣٠٢٩، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٢٤٥٥).

القط لي - أي حصيات ليرمي بها في منى- قال: فلقطت له حصيات من حصى الخذف -يعني حصى صغارًا مما يخذف به - فلما وضعهن في يده، قال: نعم بأمثال هؤلاء، وإياكم والغلو في الدين... الحديث، يعني: لا ينبغي أن يتنطعوا فيقولوا الرمي بكبار الحصى أبلغ من الصغار، فيدخل عليهم الغلو شيئًا فشيئًا، فلهذا حذرهم)[(١)]، (وضابط الغلو هو الخروج عن المنهج وتعدي الحد، وعمل ما لم يأذن به الله ولا رسوله ﷺ...، ومن ذلك إلزام النفس أو الآخرين بما لم يوجبه الله تعالى عبادة وترهبًا...، وتحريم الطيبات التي أباحها الله على وجه التعبد، أو ترك الضرورات أو بعضها قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾[(٢)] وقال: ﴿لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾[(٣)].

ومن ذلك أيضًا الغلو الاعتقادي وهو أشد خطرًا وأعظم ضررًا لما يؤدي إلى الشقاق والانشقاق، وهو المظهر للفرق والجماعات الخارجة عن الصراط المستقيم وذلك كغلو الخوارج والشيعة، ومما لاشك فيه أن الحكم على العمل بأنه غلو، ... باب خطير لا يقدر عليه إلا العلماء الذين يدركون حدود هذا العمل، وتبحروا في علوم العقائد وفروعها لأن الحكم على الشيء فرع من تصوره، فقد يكون الأمر مشروعًا ويوصف صاحبه بالغلو، وها نحن نرى اليوم أن الملتزمين بشرع الله، المتمسكين بالكتاب والسنة يوصفون بالغلو والتطرف والتزمت ونحوها، ولذلك فإن المعيار في الحكم على الأعمال والأفراد والجماعات هو الكتاب والسنة، وليست الأهواء والتقاليد والأعراف والعقول وما تعارف عليه الناس، وقد ضل في هذا الباب أمم وأفراد وجماعات[(٤)].

---

(١) الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف، د. يوسف القرضاوي ص ٢٥-٢٦.

(٢) سورة الأعراف، آية: ٣٢.

(٣) سورة المائدة، آية: ٨٧-٨٨.

(٤) الوسطية في القرآن، د. علي محمد الصلابي ص ٤٨-٥٢.

الحديث رقم (١٤٥)

١٤٥-عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، ولنْ يشادَّ الدِّينَ أحدٌ إلاَّ غَلَبه، فسدِّدُوا وقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا، واسْتعِينُوا بالْغدْوةِ والرَّوْحةِ وشَيْءٍ مِن الدُّلْجةِ» رواه البخاري[١].

وفي رواية له[٢]: «سدِّدُوا وقَارِبُوا واغْدوا ورُوحُوا، وشَيْءٌ مِنَ الدُّلْجةِ، الْقَصْدَ[٣] الْقصْدَ تَبْلُغُوا».

قوله: «الدِّينُ» هُو مرْفُوعٌ عَلَى ما لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ. وروِي مَنْصُوبًا، ورويَ: «لَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ».. وقوله صلى الله عليه وسلم: «إلاَّ غَلَبَهُ»: أَيْ: غَلَبَه الدِّينُ وَعَجزَ ذلكَ الْمُشَادُّ عنْ مُقَاومَةِ الدِّينِ لِكَثْرةِ طُرقِهِ. «والْغَدْوةُ» سيْرُ أَوَّلِ النَّهَارِ. «وَالرَّوْحةُ»: آخِرُ النَّهَارِ «والدُّلْجَةُ»: آخِرُ اللَّيْلِ. وَهَذا استِعارةٌ، وتَمْثِيلٌ، ومعْناهُ: اسْتَعِينُوا عَلَى طَاعةِ اللَّهِ عز وجلَّ بالأَعْمالِ فِي وقْتِ نشاطِكُمْ، وفَراغِ قُلُوبِكُمْ بحيثُ تَسْتلذُّونَ الْعِبادَةَ ولا تسأَمُونَ مقْصُودَكُمْ، كَما أَنَّ الْمُسافِرَ الْحاذِقَ يَسيرُ في هَذهِ الأَوْقَاتِ وَيستَرِيحُ هُو ودابَّتُهُ فِي غَيْرِهَا، فيصِلُ الْمقْصُود بِغَيْرِ تَعبٍ، واللَّهُ أعلم.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

يشاد الدين: أي يقاويه ويقاومه ويكلف نفسه من العبادة فوق طاقته. والمشاددة: المغالبة[٤].

إلا غلبه: وقوله صلى الله عليه وسلم "إلا غلبه": أي غلبه الدين وعجز ذلك المشادُّ عن مقاومة الدين لكثرة طرقه[٥].

---

(١) برقم (٣٩).

(٢) برقم (٦٤٦٣).

(٣) لفظ البخاري: (والقصد) بزيادة الواو.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ش د د).

(٥) رياض الصالحين ١٠٦.

سددوا: أي اطلبوا بأعمالكم السداد والاستقامة وهو القصد في الأمر والعدل فيه[١].

قاربوا: أي اقتصدوا في الأمور كلها واتركوا الغلوّ فيها والتقصير. يقال: قارب فلان في أموره إذا اقتصد[٢].

الغدوة: سير أول النهار[٣].

الروْحة: سير آخر النهار[٤].

القصد القصد: أي عليكم بالقصد من الأمور في القول والفعل وهو الوسط بين الطرفين[٥].

الشرح الأدبي

إن التيسير في العبادات، وفي كل ما يقوم به الإنسان في حياته هو المنهج الإسلامي السديد، وهذا الحديث يرشد صراحةً إلى ذلك؛ حيث يحث النبي ﷺ المسلمين على الإكثار من الطاعات والمداومة عليها برفق ورأفة على النفس والجسم، ويبدأ الحديث بقوله ﷺ: "إن الدين يسر"، وهى جملة خبرية مؤكدة موجزة، والتأكيد هنا مبعثه الرد على منكري مظاهر التيسير في الإسلام، ومَنْ يشاكلهم من المتنطعين في الدين الذين أخبر عنهم في الحديث السابق بقوله "هلك المتنطعون"، بعد أن أجهدوا أنفسهم دون جدوى؛ فإن المنبتَّ لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى، وإذا كان المخاطب غير منكر فالتأكيد للاهتمام بالتيسير، ولمعرفة أن هذا الدين ليس فيه مشقة بخلاف غيره من الأديان السابقة، فإنه كان فيها ذلك كقتل النفس في التوبة، وقطع موضع النجاسة[٦].

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (س د د).

(٢) المرجع السابق في (ق ر ب).

(٣) رياض الصالحين ١٠٦.

(٤) المرجع السابق ١٠٦.

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ق ص د).

(٦) انظر: المنهل العذب، الفرات، د. عبدالعال أحمد عبدالعال، ٩/١.

ومن الأساليب التي تؤكد المعنى وتضيء الدلالة في الحديث: أسلوب القصر: في قوله ﷺ: "ولن يشاد الدين إلا غلبه"، وفي رواية: "ولن يشادّ الدينَ أحدٌ إلا غلبه"، وفي رواية لابن عساكر: ولن يشادّ إلا غلبه، والروايات كلها من خلال أسلوب القصر ترسخ المفهوم الإسلامي، ومنهج التيسير الذي يجب أن ينتهجه المسلم لأنه لن يستطيع أن يبلغ درجة الكمال إذا قام بأكثر مما هو مطلوب منه، وحديث الرهط الثلاثة: خير شاهد على ذلك، ومعنى ذلك أنه لا يتشدد ولا يتعمق أحد في الأعمال ويترك الرفق إلا عجز وانقطع فيصير مغلوبًا والدين غالبًا.

وصيغة المفاعلة في قوله: "يشادّ"، توحي بالثقل والمغالبة والمجاهدة، لأن المد والتضعيف في يشادّ يعطي للكلمة جرْسًا قويًا، ويشكل صورة للحدث القائم وهو المغالبة بين هذا المتشدد وبين الدين، والدين هو الغالب، وفي التعبير تصوير تمثيلي يجعل من الدين كائنًا محسوسًا قويًا لا سبيل إلى مغالبته، وإنما هو الغالب كما أخبر رسول الله ﷺ.

وحرصًا من المصطفى ﷺ على وجوب اتباع منهجه السوي المعتدل يوجه أربعة أوامر في صورة أفعال متتابعة تعد منافذ للخروج من دائرة التشدد والتنطع والملل فيقول: فسددوا، وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا، وفي الأمرين الأولين إيجاز عن طريق الحذف. وصياغة جديدة، حيث أسلوب الجواب والشرط، والمحذوف أداة الشرط وفعل الشرط، في الجملتين: فقوله: "فسددوا" اختصار مفاده حرص المسلم على السداد، وهو التوسط في العمل من غير إفراط ولا تفريط، والتقدير، إذا بينت لكم ما في المشادة من الوهن فسددوا، وكذلك قوله: "وقاربوا" فيه إيجاز بالحذف. والتقدير: إن لم تستطيعوا الأخذ بالأكمل فاعملوا بما يقرب منه، والسداد هو: الإصابة في الأقوال والأعمال والمقاصد، والمقاربة القصد الذي لا غلو فيه: أي مجاوزة المأمور به والزيادة فيه ولا تقصير، أي إخلال بشيء منه، وما أعظم البشارة التي يزفها الحبيب المصطفى ﷺ إلى أمة الإسلام حين تلتزم بالسداد والمقاربة، ثم يرشدهم إلى الاستعانة بالأوقات الملائمة للعبادة حيث النشاط والسكون والهدوء، ويقظة الوجدان، وصفاء القلب، فيقول: "واستعينوا بالغدوة والروحة

وشيء من الدلجة"، وفي هذه النصيحة النبوية إرشاد وتقريب للمعنى، عن طريق الاستعارة التمثيلية: حيث استعار الغدوة والروحة وشيئًا من الدلجة: أي: من الليل، لأوقات النشاط وفراغ القلب للطاعة، فإن هذه الأوقات أطيب أوقات المسافر، لأن المسافر إذا سافر الليل والنهار جميعًا عجز وانقطع، وإذا تحرى السير في هذه الأوقات المنشطة أمكنه المداومة من غير مشقة، وحسن هذه الاستعارة مبعثه أن الدنيا في الحقيقة دار نقلة إلى الآخرة، وأن هذه الأوقات بخصوصها أروح ما يكون فيها البدن للعبادة[1]، لأن الغدوة هي السير أول النهار، والروحة: السير آخر النهار، والدلجة آخر الليل، وقيل سير الليل كله، والحديث ينص على بعض الليل حيث يقول: "وشيء من الدلجة".

وفي الرواية الثانية وهي مكملة لهذه الرواية: يحبب الرسول ﷺ أصحابه وكل المسلمين في منهج الاعتدال والقصد في العبادة، فيأتي بأسلوب ترغيبي يتفق مع البشارة التي قدمها وهو أسلوب الإغراء.

ويتضمن إيجازًا بالحذف حيث يقول: القصدَ القصدَ تبلغوا، والتقدير الزموا القصد... الزموا القصد... تبلغوا ما تريدون، والتكرار هنا للتأكيد والحرص على اتباع المنهج الإسلامي الصحيح.

ومن جماليات الأداء التعبيري والفني في هذا الحديث، أن الصورة الأدبية فيه ليست معقدة ولا غامضة، ولا متكلفة، وإنما هي قريبة التناول، نابعة من مظاهر البيئة، غير غريبة على المسلم في بيئته العربية أو غيرها من البيئات، والصورة البيانية في الحديث النبوي من صلب المعنى، ولها فاعليتها الفنية، ولا يجد القارئ فيها فتورًا أو افتعالاً، واكتسبت الصورة الأدبية في الحديث النبوي جمالها المعنوي الروحي من كونها معبرة عن رسالة سماوية هي الأحق بالسمو، وهي كبرى الحقائق في الوجود.

ومن يقرأ الصور الحديثية، ويتأملها يجدُ العَفَوية في معالمها ومفاصلها السوية، ويجد الندى، ولا يجد الصخر المنحوت، ويلمح العَفَوية وفاعليتها في تسربها إلى النفس،

---

(١) انظر: المرجع السابق ٩/١.

فليس ثمَّة قسر بل انهمار ندي، إذ تخرج الصورة بداهة، وتتلقفها الأنفس بداهة وإن لم تستطع فهمها بدقة لأول وهلة في بعض الأحيان، فإنها شفافة طيِّعة، ليِّنةُ العِرَاك أمام من يفتش عن وجه جمالها[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من الأساليب الدعوية: التوكيد، والأمر، والتبشير.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: اليسر في الإسلام.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: القصد والتوسط في العبادة وعدم التشدد.

رابعًا: من أساليب الدعوة: ضرب المثل.

خامسًا: من مهام الداعية: حرصه على إفادة وتحصيل الخير للمدعوين.

أولاً- من الأساليب الدعوية: التوكيد، والأمر، والتبشير:

إن التوكيد من الأساليب الدعوية المهمة في تقوية الكلام وإقراره في أذهان المدعوين، وقد ورد هذا الأسلوب في الحديث من قوله ﷺ "إن الدين يسر"، أما الأمر كأسلوب دعوي فقد ورد في الحديث من قوله ﷺ "فسددوا وقاربوا..." وقوله "واستعينوا"، والأمر من الأساليب الدعوية التي تعين الداعية على حمل المدعو على فعل ما يؤمر به لأهميه وضرورة إذعان المدعو لذلك، وقد ورد التبشير كأسلوب دعوي في الحديث من قوله ﷺ "وابشروا" والتبشير والتشويق من الأساليب الدعوية التي تتفق وطبائع المدعوين وحبهم لمن يبشرهم بالخير، مما يساعد الداعية على ترغيب المدعوين وسرعة امتثالهم إلى ما يدعو إليه وفي ذلك عظيم الفائدة.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: اليسر في الإسلام:

إن من أهم السمات الظاهرة لهذا الدين الحنيف التيسير في العبادة (والتيسير عمل لا يجهد النفس ولا يثقل الجسم. والعسر ما يجهد النفس ويضر الجسم)[2]، (وقد جمع

---

(١) انظر: الصورة الفنية في الحديث النبوي، د. أحمد باسوف، الفصل الأول.

(٢) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٢/٣/١٨٥.

الله عز وجل في هذه الشريعة بين كونها حنيفية وكونها سمحة فهي حنيفية في التوحيد، سمحة في العمل)[١].

وهذا ما أشار إليه نص الحديث في قوله ﷺ "إن الدين يسر".

(والناظر في نصوص القرآن و السنة وهدي النبي ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم، يجدها تدعو إلى اليسر ورفع الحرج، والبعد عن التنطع والتعسير على عباد الله وحسبنا في القرآن قوله تعالى بعد آيات الصيام: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[٢] وفي آية الطهارة ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾[٣] وفي آية القصاص وإجازة العفو والصلح فيه: ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾[٤])[٥]، أي: (أن الله تعالى يريد أن ييسر عليكم الطرق الموصلة إلى رضوانه، أعظم تيسير، ويسهلها أبلغ تسهيل. ولهذا كان جميع ما أمر الله به عباده في غاية السهولة في أصله، وإذا حصلت بعض العوارض الموجبة لثقله، سهله تسهيلاً آخر، إما بإسقاطه، أو تخفيفه بأنواع التخفيفات)[٦].

قال د. القرضاوي: (إن كان التيسير مطلوبًا في كل زمن، فإنه في زماننا ألزم وأكثر تطلبًا، نظرًا لما نراه ونلمسه من رقة الدين، وضعف اليقين، وغلبة الحياة المادية على الناس، وعموم البلوى بكثير من المنكرات، حتى أصبحت كأنها القاعدة في الحياة، وما عداها هو الشاذ، وأصبح القابض على دينه كالقابض على الجمر، وكل هذا يقتضي التسهيل والتيسير...)[٧].

---

(١) إغاثة اللهفان، ابن القيم، ١/١٥٨.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٨٥.

(٣) سورة المائدة، آية: ٦.

(٤) سورة البقرة، ١٧٨.

(٥) الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف، د. يوسف القرضاوي ص ٢١٠.

(٦) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٦٩.

(٧) الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف ٢١٢.

وهذا ما يظهر جليًا في سيرة النبي ﷺ فعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ((ما خُيِّرَ رسولُ الله ﷺ بينَ أمرَين قطُّ إلاّ أخذَ أيسرَهما، ما لم يَكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعدَ الناس منه. وما انتقمَ رسولُ الله ﷺ لنفسِهِ في شيء قطُّ، إلا أن تُنتَهَكَ حُرمة الله، فيَنتقمُ بها لله))[1].

وعن أبي مسعود الأنصاري أنه قال: ((قالَ رجل: يا رسولَ الله إنّي لا أكادُ أُدْرِكُ الصلاةَ مِمَّا يُطَوِّلُ بنا فلانٌ، فما رأيتُ رسولَ الله ﷺ في مَوْعِظَةٍ كانَ أشدَّ غضبًا منهُ يومَئِذٍ، فقالَ: أيُّهَا الناسُ إنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِيْنَ، مَنْ صَلَّى بالناسِ فَلْيُخَفِّفْ، فإنَّ فِيْهِمُ المريضَ والضعيفَ وذَا الْحَاجَةِ))[2]، (فإذا جاز للإنسان أن يشدد على نفسه طلبًا للأكمل والأسلم، فلا يجوز أن يشدد على جمهور الناس فينفرهم من دين الله من حيث لا يشعر، ومن هنا كان النبي ﷺ أطول الناس صلاة إذا صلى لنفسه، وأخفهم صلاة إذا أمَّ غيره، وقال في ذلك ((إذا أمَّ أحدكم الناس فليخفف، فإن فيهم الصغير والكبير والضعيف والمريض، فإذا صلى وحده فليصل كيف شاء))[3])[4]. وفي ذلك بيان على أن اليسر هو منهج الإسلام في العبادة وغيرها من الأعمال.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: القصد والتوسط في العبادة وعدم التشدد:

مما لاشك فيه أن التوسط والاعتدال مدار الفضائل في كثير من الأمور (فهو القصد المصون عن الإفراط والتفريط)[5]، وهو صفة الأمة الإسلامية لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[6]، وهو أحد خصائص الإسلام، وبه يكون التأسي بالرسول ﷺ وبالأصحاب الكرام. وقد أشار الحديث

---

(١) أخرجه البخاري ٦١٢٦، ومسلم ٢٧٢٧.

(٢) أخرجه البخاري ٩٠، ومسلم ٤٦٦.

(٣) أخرجه البخاري ٧٠٣، ومسلم ٤٦٧.

(٤) الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف، د. يوسف القرضاوي ٢١١.

(٥) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ٥٢٣.

(٦) سورة البقرة، آية: ١٤٣.

إلى أهمية التوسط والاعتدال وذلك في قوله ﷺ "فسددوا وقاربوا وابشروا".

قال ابن حجر في قوله "فسددوا": (أي الزموا السداد وهو الصواب من غير إفراط ولا تفريط، قال أهل اللغة: السداد التوسط في العمل، وقوله "قاربوا" أي إن لم تستطيعوا الأخذ بالأكمل فاعملوا بما يقرب منه، وقوله "وأبشروا" أي بالثواب على العمل الدائم، وإن قل، والمراد تبشير من عجز عن العمل بالأكمل بأن العجز إذا لم يكن من صنيعه لا يستلزم نقص أجره، وأبهم المبشر به تعظيمًا له وتفخيمًا)[1]، (وقد كان النبي ﷺ حريصًا على توجيه أصحابه إلى التوازن المقسط بين دينهم ودنياهم، وبين حظ أنفسهم وحق ربهم، بين متعة البدن ونعيم الروح، فإذا رأى في بعضهم غلوًا في جانب، قوَّمه بالحكمة ورده إلى سواء الصراط، ولما رأى في بعض أصحابه إفراطًا في التعبد والصيام والقيام، على حساب جسمه وأهله ومجتمعه، قال له: ((فإنَّ لجسَدِكَ عليك حقًا وإن لِعَينكَ عليكَ حقًا، وإنَّ لزَوجكَ عليكَ حقًا، وإنَّ لزَورِك عليكَ حقًا))[2] وقال للجماعة الذين التزم أحدهم أن يصوم فلا يفطر، والتزم الثاني أن يقوم فلا ينام، والتزم الثالث أن يعتزل النساء فلا يتزوج أبدًا- قال لهم: ((أما واللهِ إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصومُ وأُفطر، وأصلِّي وأرقُد، وأتزوجُ النساء، فمن رغِبَ عن سُنَّتي فليسَ مني))[3]...، وهكذا تعلم الصحابة ﷺ أن يوازنوا بين مطالب دنياهم وآخرتهم، وأن يعملوا للدنيا كأحسن ما يعمل أهل الدنيا، ويعملوا للآخرة كأحسن ما يعمل أهل الآخرة. يقول القائد الفاتح عمرو بن العاص ﷺ: (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا). ولم يشعروا بتعارض قط بين عملهم لدينهم، وعملهم لدنياهم، بل شعروا بالوحدة والانسجام والامتزاج، كانت شعائرهم وواجباتهم الدينية، تعطيهم زادًا وشخصية قوية، يواصلون بها الكفاح لدنياهم. وكانت أعمالهم

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١/١١٧، ١١٨.

(٢) أخرجه البخاري ١٩٧٥، ومسلم ١١٥٩.

(٣) أخرجه البخاري ٥٠٦٣، ومسلم ١٤٠١.

الدنيوية، عونًا لهم على أداء فرائضهم الدينية. كانوا يعتقدون أنهم -في عبادتهم ومساجدهم- ليسوا مقطوعين عن الدنيا، كما أنهم - في مزارعهم ومتاجرهم وحرفهم- غير بعيدين عن الدين، فأعمالهم هذه عبادة إذا صحت فيها النية، والتزمت حدود الله)[١].

رابعًا- من أساليب الدعوة: ضرب المثل:

(لقد كان النبي ﷺ يستعين على توضيح توجيهاته الدعوية بضرب المثل مما يشاهده الناس بأم أعينهم، ومما يقع تحت حسّهم ومشاهدتهم، لينتقل بالناس في ضرب الأمثال من الصورة إلى الحقيقة)[٢]، (وضرب الأمثال ليس مجرد عمل فني يقصد من ورائه الرونق البلاغي فحسب، بل إن له غايات نفسية تربوية تحققت نتيجة لنبل المعنى، وسمو الغرض بالإضافة إلى الإعجاز البلاغي، وتأثير الاداء. ومن أهم هذه الأهداف التربوية: تقريب المعنى إلى الأفهام؛ فقد ألف الناس تشبيه الأمور المجردة بالأشياء الحسية، ليستطيعوا فهم تلك الأمور المعنوية، أو الغيبية)[٣].

وهذا ما ورد في الحديث من تقريبه ﷺ لمعنى القصد والاعتدال في العبادة (وذلك بضرب المثل في بيان حال المسافر الذي يسير في أول النهار وبعد الزوال وآخر الليل فيصل إلى مقصوده دون مشقة وتعب لتحريه السير في أوقات نشاطه، لأن المسافر إذا سافر الليل والنهار جميعًا عجز وانقطع، وإذا تحرى السير في هذه الأوقات المنشطة أمكنته المداومة من غير مشقة، وكذلك الأمر في العبادة، فالأولى للعامل بذلك أن لا يجهد نفسه بحيث يعجز وينقطع، بل يعمل بتلطف وتدريج ليدوم عمله ولا ينقطع)[٤].

وفي ذلك بيان على أهمية ضرب المثل كأسلوب دعوي في إيصال المعنى وبيانه في أذهان المدعوين.

---

(١) الخصائص العامة للإسلام، د. يوسف القرضاوي ١٤٤-١٤٥.

(٢) صفات الداعية، د. حمد العمار، ٩٨.

(٣) التربية على منهج أهل السنة والجماعة، أحمد فريد ٢٣١.

(٤) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١/١١٨.

خامسًا- من مهام الداعية: حرصه على إفادة وتحصيل الخير للمدعوين:

قد ورد في الحديث ما يؤكد حرصه ﷺ على إفادة وتحصيل الخير للمدعوين وذلك في قوله ﷺ "واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة" (ومما لاشك فيه أن الداعية المسلم متبع للنبي الكريم ﷺ وهو وارثه في مهمته الإرشادية، وعليه أن يتصف بما اتصف به ﷺ، كي يتمكن من أداء مهمته على الوجه المطلوب.

ومن صفاته الكريمة أنه كان شديد الحرص على هداية الناس وتعليمهم وتزكيتهم وتحصيل الخير لهم. وقد وردت آيات كريمة تصوّر لنا صفته هذه. ومن تلك الآيات: قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾[(1)].

وقوله عز من قائل: ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾[(2)].

وليس هذا فحسب، بل كان يتضايق من عدم استجابة الناس للحق حتى كاد يهلك نفسه غمًا وأسفًا عليهم. وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾[(3)].

ويقول سبحانه أيضًا: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾[(4)].

ويقول عز من قائل أيضًا: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ[(5)] نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾[(6)].

---

(١) سورة يوسف، آية: ١٠٣.

(٢) سورة النحل، آية: ٣٧.

(٣) سورة النحل، آية: ١٢٧.

(٤) سورة فاطر، آية: ٨.

(٥) باخع: يقول الراغب الأصفهاني: "البخع قتل النفس غمًا، قال تعالى: "فلعلك باخع نفسك" حث على ترك التأسف. المفردات في غريب القرآن ص ٣٨.

(٦) سورة الكهف، آية: ٦.

هذا، وقد بيّن رسول الله ﷺ أيضًا حرصه الشديد على إبعاد أمته عن كل ما يضرّهم بأمثلة رائعة جدًا. ومنها ما رواه مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد نارًا فجعل الجنادب(١) والفراش(٢) يقعن فيها، وهو يذبّهن عنها وأنا آخذ(٣) بحجزكم عن النار وأنت تفلّتون(٤) من يدي))(٥).

وحينما ننظر إلى سيرته المطهرة عليه الصلاة والسلام نجده يدعو في جميع الأماكن والأزمان والأحوال، ودعا جميع أصناف الناس، كما استخدم جميع الأساليب والوسائل المشروعة المتاحة له.

نجده ﷺ يدعو فوق الجبل، وفي المسجد، والطريق، والسوق، وفي منازل الناس في المواسم، وحتى في المقبرة. كما نراه يقوم بالدعوة في الحضر والسفر، وفي الأمن والقتال، وفي صحته ومرضه، وحينما كان يزور أو يُزار.

وكان يوجّه دعوته إلى من أحبوه، ومن أبغضوه، وآذوه، ومن استمعوا إلى دعوته، ومن أعرضوا عنها.

وبعث ﷺ الرسائل والرسل إلى الملوك والرؤساء ممن لم يتمكن من الذهاب إليهم بنفسه.

---

(١) الجنادب: جمع جندب، وهو الصرار الذي يشبه الجراد. وقال أبو حاتم: الجندب على خلقة الجراد له أربعة أجنحة كالجرادة وأصغر منها، يطير ويصر بالليل صرًا شديدًا. وقيل غيره. انظر شرح النووي على صحيح مسلم ١٤١٨.

(٢) الفراش هو الذي يطير كالبعوض. وقال غيره: ما تراه كصغار البق يتهافت في النار. انظر: المرجع السابق ١٤١٨.

(٣) آخذ: روي بوجهين: اسم فاعل بكسر الخاء وتنوين الذال. والثاني: فعل مضارع بضم الذال بلا تنوين وهما صحيحان. شرح النووي على صحيح مسلم ١٤١٨.

(٤) تفلتون: رُوي بوجهين: أحدهما بفتح التاء وتشديد اللام. والثاني: ضم التاء وإسكان الفاء وكسر اللام المخففة، وكلاهما صحيح. يقال: "أفلت مني" و"تفلت": إذا نازعك الغلبة والهرب ثم غلب وهرب. انظر: المرجع السابق ١٤١٨.

(٥) أخرجه مسلم ٢٢٨٥.

واستمرّ ﷺ في أداء هذه المهمة الجليلة مشمِّرًا عن ساعديه، باذلاً كل ما في وسعه مستخدمًا جميع الأساليب والوسائل المشروعة المتاحة له في سبيل ذلك بتوفيق الله تعالى حتى لحق بالرفيق الأعلى. صلوات ربي وسلامه عليه)[1].

فعلى الداعية أن يقتدي بالنبي ﷺ في إفادة الخير وتحصيله للمدعوين ممتثلاً في ذلك لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾[2] وفي ذلك عظيم الأجر والفلاح في الدنيا والآخرة.

---

(١) الحرص على هداية الناس في ضوء النصوص وسير الصالحين، د. فضل إلهي، ١٧-١٩.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

الحديث رقم (١٤٦)

١٤٦- وعن أَنسٍ رضي الله عنه قال: دَخَلَ النَّبيُّ ﷺ المسْجِدَ فَإِذَا حبلٌ مَمْدُودٌ بَيْنَ السَّارِيَتَيْنِ فقالَ: «ما هَذَا الحبْلُ؟» قالُوا: هَذا حبْلٌ لِزَيْنَبَ فَإِذَا فَتَرَتْ تَعَلَّقَتْ بهِ[١]. فقال النَّبيُّ ﷺ: «[٢] حُلُّوهُ، لِيُصَلِّ أَحدُكُمْ نَشَاطَهُ، فَإِذا فَترَ فَلْيَرْقُدْ» متفقٌ عليه[٣].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

الساريتين: السارية: الأسطوانة وهي العمود[٤].

فترت: أي كسلت عن القيام في الصلاة، ووقع عند مسلم بالشك ((فإذا فترت أو كسلت))[٥].

الشرح الأدبي

ما أشد حرص المصطفى ﷺ على أمته، وما أرفقه بها، وهو لا يترك مناسبة أو موقفاً إلا ويحدد للأمة مقصداً من مقاصد التشريع، وهذا التحديد يتجلى في سلوك عملي، أو توجيه قولي، أو إقرار لفعل سديد، أو رفض لأمر عن السداد بعيد، وهو في كل هذه المواقف يخط للأمة منهج الترغيب، وفي مواقف أخرى يتوجه إلى بعض المغالين بالترهيب، وهو في الحالين على أمته وبالمؤمنين رءوف رحيم.

ونقتبس من هذا الحديث الشريف صرامةَ موقف الرسول ﷺ وشدته في مواجهة بعض الظواهر التي تفصح عن التشدد في العبادة، مع سلامة القصد، وحسن النية ممن

---

(١) (به) لا توجد عند مسلم، وهو عند البخاري.

(٢) عند مسلم زيادة: (لا) وهي ليست عند البخاري.

(٣) أخرجه البخاري (١١٥٠)، ومسلم (٧٨٤/٢١٩).

(٤) النهاية، والمصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الفيومي ، والوسيط في (س ر ى).

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٤/٣.

كانوا يقومون بمثل هذا في عهد النبي ﷺ، ومع ذلك لم يتسامح رسول الله ﷺ مع مثل هذه الظواهر التي ربما تتحول بمرور الزمن إلى اعتقاد، وتؤول إلى بدعة، وإلحاق للدين بما ليس فيه.

والحديث يمثل مشهدًا واقعيًا من مشاهد السيرة النبوية، فأحداثها كلها مشاهد تشريعية، وخاصة بعد نزول الوحي وبدء الدعوة الإسلامية، وهذا المشهد يجمع بين السرد والحوار، ثم التوجيه النبوي الآمر والحاسم لتجلية الوجه الأمثل وهو: القصد في العبادة.

فأما السرد فهو ما يحكيه الراوي الأعلى أنس بن مالك رضي الله عنه: حيث يقول راصدًا المشهد الأول من هذه القصة: "دخل النبي المسجد فإذا حبل ممدود بين الساريتين"، وفي الجملة السردية هنا بعض الملامح الأسلوبية ومنها: التعبير بالفعل، "دخل"، وهو يدل على التمكن من الدخول، ورؤية مَنْ بالمسجد، ولم يقل جاء النبي، لأن المجيء لا يعني الدخول، ووقته غير محدد، وأل في المسجد للعهد: وهو المسجد النبوي بالمدينة، فالذهن لا ينصرف إلى غيره في ذلك الوقت، والآن كذلك: ولفظ "النبي" وهو مَنْ قام بفعل الدخول، يظل قرينة وشاهدًا على أن المسجد: هو المسجد النبوي بالمدينة المنورة.

والجملة: السردية الثانية: قوله، "فإذا حبل ممدود بين الساريتين"، والتعبير بإذا الفجائية يفصح عن حقيقة موقف الرسول ﷺ من هذا العمل: وصاحبه الذي قام به، وأل في "الساريتين" للعهد وكأنهما كانا معهودين بين المخاطبين، كما قال صاحب كتاب دليل الفالحين.

ولنتأمل موقف رسول الله ﷺ من هذا الأمر المفاجئ، إنه موقف الحكمة، والتوجيه السديد، حيث يبدأ الحوار الحكيم الهادئ، وهو الجزء الثاني من هذه القصة الواقعية، ويسأل رسول الله ﷺ عن الحبل نفسه، ولم يسأل عن صاحب الحبل، وفي ذلك نأيٌ عن إحراج صاحبه، وقوله: "ما هذا الحبل": استفهام يجمع بين الدهشة والاستنكار، فوجود الحبل في ذاته يثير التساؤل: كيف وجد؟ ولماذا وجد؟ وتأتي إجابة الحاضرين متسمة بالشمول: حيث أوضحوا لماذا مُدّ الحبل بين الساريتين، وبينوا

صاحبته وهى زينب، وقالوا: هذا حبل لزينب، وفي رواية مسلم "تصلى فإذا افترت تعلقت به"، ومما يدل على شدة استنكار الرسول ﷺ لهذا الصنيع، مجيئه باسم الإشارة في سؤاله مع لفظ الحبل، ولم يقل: لم هذا الحبل، ولكنه قال: ما هذا الحبل.

وكرر الحاضرون اللفظين فقالوا: "هذا حبل لزينب" لتحديد المسؤولية، ورفع الحرج عن الآخرين، وهو عمل في ظاهره مقبول وممدوح: لأنه يدل على التعلق بالعبادة والإكثار من صلاة التنفل والتطوع، ولكن رسول الله ﷺ يرشد أمته كلها ولا يختص زينب بالأمر، فيأمر بحل الحبل، والأمر جماعي "حُلّوه"، رغبة في التيسير، ثم يوضح أن الإنسان يصلى فإذا فتر فليرقد، وليسترح مغفورًا له.

فقه الحديث

في الحديث من الأحكام ما يلي:

١- التعلق بالحبل في الصلاة: قال ابن حجر: (واستدل به [أي الحديث] على كراهة التعلق في الحبل في الصلاة)[١] وقال في موضع آخر: (التعلق بالحبل عند التعب والاعتماد على العصا ونحوهما، قد رخص فيه بعض السلف) [٢].

٢- القعود عن القيام في الصلاة: قال ابن حجر: (قوله "فليقعد" يحتمل أن يكون أمرًا بالقعود عن الصلاة فيستدل به على جواز افتتاح الصلاة قائمًا والقعود في أثنائها)[٣].

٣- قطع النافلة: قال ابن حجر: (ويحتمل أن يكون أمرً بالقعود عن الصلاة، أي

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧٦٩/١ ط بيت الأفكار.

(٢) المرجع السابق ٧٨٤/١، وانظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية١٠٨/٣٤ ومراجعها ومصادرها: الدر المختار ٤١١/١، ٤١٤، ٤١٥، والكتاب القدوري وشرح اللباب ٦٩/١، وحاشية الصاوي على الشرح الصغير ٣١٢/١، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي ٣٤٧/١، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢٥٨/٣-٢٦٠، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٤٥٠/٤-٤٥١.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧٦٩/١.

يترك ما كان عزم عليه من التنفل، ويمكن أن يستدل به على جواز قطع النافلة بعد الدخول فيها)[١].

٤- التنفل في المسجد: قال النووي: (فيه جواز التنفل في المسجد فإنها كانت تصلّي النافلة فيه فلم ينكر عليها)[٢] وقال ابن حجر: (فيه جواز تنفل النساء في المسجد)[٣].

٥- إزالة المنكر باليد: قال النووي: (فيه إزالة المنكر باليد إذا تمكن منه)[٤] وقال ابن حجر: (وفيه إزالة المنكر باليد واللسان)[٥].

المضامين الدعوية

أولاً: من ميادين الدعوة: المساجد.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب، والأمر.

ثالثًا: من مهام الداعية: التيسير على المدعوين.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: القصد في العبادة وعدم الغلو.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: بيان رحمة الله بعباده.

أولاً- من ميادين الدعوة: المساجد:

يظهر ذلك في الحديث من قول الراوي "دخل النبي ﷺ المسجد".

(ومما لا شك أن المسجد يعد أهم مركز إعلامي بين المسلمين، فهو مركز اجتماعهم في صلواتهم خمس مرات في اليوم والليلة، وقد تربى وتعلّم أصحاب رسول الله ﷺ في المسجد، وانطلقت البعوث منه، وانطلق المد الإسلامي من المسجد ليعم الدنيا كلها شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا. لقد كان المسجد هو الجامعة، فقد انطلقت منه

---

(١) المرجع السابق، الموضع نفسه.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٣١.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧٦٩/١.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٣١.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧٦٩/١.

جيوش الإسلام للفتح الإسلامي ولإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وقد عظّم الله شأن المسجد ورفعه فقال: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۝ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ۝ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[١] ومن هنا يتحتم علينا كمسلمين أن نعمل على إعادة دور المسجد في المجتمع الإسلامي باعتباره من أهم الميادين الدعوية إلى الله)[٢].

ثانيًا- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب، والأمر:

قد ورد هذا الأسلوب الدعوي في الحديث في سؤال النبي ﷺ في قوله: "ما هذا الحبل؟ وإجابة الصحابة رضي الله عنهم لذلك في قولهم: هذا حبل، لزينب..." ومما لاشك فيه أن السؤال والجواب من الأساليب الدعوية المهمة التي تعمل على تجلية الأمور، وتفتح باب الحوار بين الداعية والمدعو، وتعمل على جذب انتباه المدعوين لمعرفة الإجابة وفي ذلك عظيم الفائدة، أما الأمر كأسلوب دعوي فقد ورد في الحديث من قوله ﷺ "حلّوه" والأمر من الأساليب الدعوية التي تعين الداعية على إرشاد المدعوين وتوجيههم إلى فعل المأمور به.

ثالثًا- من مهام الداعية: الرفق والتيسير على المدعوين:

(إن التيسير سمة ظاهرة في الدين تتجلى في عقائده وعباداته ومعاملاته وأخلاقه، وقد جمع الله عز وجل في هذه الشريعة بين كونها حنيفية وكونها سمحة؛ فهي حنيفية في التوحيد سمحة في العمل)[٣]، وهذا ما أكده نص الحديث في قوله ﷺ: "ليصل أحدكم نشاطه، فإذا فتر فليرقد" (أي: أن على المرء ألا يكلف نفسه ما لا يطيق بل

---

(١) سورة النور، آية: ٣٦-٣٧.

(٢) انظر: رسالة المسجد، عبدالمعطي بهجت ص ٤٢، ٤٥.

(٣) انظر: إغاثة اللهفان، ابن القيم، ١٥٨/١.

يعاملها بالرفق واللين دون إفراط أو تفريط)[١].

وقد بين د. يوسف القرضاوي مكانة "التيسير" في هذا الدين بقوله: (التيسير روح يسري في جسم الشريعة كلها، كما تسري العصارة في أغصان الشجرة الحية، وهذا التيسير مبني على رعاية ضعف الإنسان وكثرة أعبائه، وتعدد مشاغله، وضغط الحياة ومتطلباتها عليه. وشارع هذا الدين رؤوف رحيم، لا يريد بعباده عنتًا ولا رهقًا، إنما يريد لهم الخير والسعادة وصلاح الحال والمآل في المعاش والمعاد، كما أن هذا الدين لم يجيء لطبقة خاصة، أو لإقليم محدود، أو لعصر معين، بل جاء عامًا لكل الناس، في كل الأرض، وفي كل الأزمان والأجيال، وإن نظامًا يتسم بهذا التعميم وهذه السعة، لابد أن يتجه إلى التيسير والتخفيف، ليتسع لكل الناس، وإن اختلف بهم المكان والزمان والحال، وهذا ما يحسه ويلمسه كل من عرف هذا الدين، فالقرآن ميسر للذكر، والعقيدة ميسرة للفهم، كما أن الشريعة ميسرة للتنفيذ والتطبيق. ليس فيها تكليف واحد يتجاوز طاقة المكلفين، كيف وقد أعلن القرآن هذه الحقيقة في أكثر من آية فقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[٢]، ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾[٣] ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾[٤] كما علّم المؤمنين أن يدعوا ربهم قائلين: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾[٥] وقد نفى القرآن كل حرج عن هذه الشريعة، كما نفى عنها العنت والعسر، وأثبت لها التخفيف واليسر. قال تعالى وهو يحدثنا عن رخص الصيام، من الفطر للمريض والمسافر: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[٦].

---

(١) انظر: شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين، ٣٩٤/١.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٨٦.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٣٣.

(٤) سورة الطلاق، آية: ٧.

(٥) سورة البقرة، آية: ٢٨٦.

(٦) سورة البقرة، آية: ١٨٥.

وقد جاءت الأحاديث تؤكد هذا الاتجاه القرآني إلى التيسير نقرأ فيها قوله ﷺ: ((إني أرسلت بحنيفية سمحة))[١] وقوله: ((إنَّما بُعِثْتم مُيَسِّرِينَ، ولم تُبعثوا مُعَسِّرين))[٢] وقوله ﷺ لأبي موسى ومعاذ حين أرسلهما إلى اليمن: ((يَسِّرا ولا تُعَسِّرا، وبَشِّرا ولا تُنَفِّرا...))[٣]. وقد كانت سمة الرسول ﷺ المميزة له في كتب أهل الكتاب هي سمة الميسر، ورافع الآصار، والأغلال التي أرهقت أهل الأديان السابقة، كما قال تعالى: ﴿يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾[٤])[٥].

(ومن هنا أصبح من القواعد الفقهية الأساسية قاعدة "المشقة تجلب التيسير" وهناك أشياء عديدة اعتبرتها الشريعة من أسباب التيسير والتخفيف، منها السفر، والمرض، والإكراه، والنسيان، والجهل، والعسر، وعموم البلوى، والنقص. ولكل منها أحكام فصلتها كتب الشريعة)[٦]. فعلى الداعية إلى الله أن يسلك مسلك التيسير مقتديًا في ذلك برسول الله ﷺ ومتبعًا لمنهج الدين الذي أمر بالرفق واللين، والتيسير على جميع المسلمين.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: القصد في العبادة وعدم الغلو:

قد ورد في الحديث ما يؤيد ذلك من قوله ﷺ "ليصل أحدكم نشاطه، فإذا فتر فليرقد"، قال ابن حجر في شرح الحديث (وفيه الحث على الاقتصاد في العبادة، والنهي عن التعمق فيها، والأمر بالإقبال عليها بنشاط)[٧] (فالغلو لا يخلو من جور على حقوق

---

(١) أخرجه أحمد ١١٦/٦ رقم ٢٤٨٥٥، وقال محققو المسند: حديث قوي ٣٤٩/٤١.

(٢) أخرجه البخاري ٢٢٠.

(٣) أخرجه البخاري ٤٣٤١، ٤٣٤٢، ومسلم ١٧٣٢ واللفظ له.

(٤) سورة الأعراف، آية: ١٥٧.

(٥) الخصائص العامة للإسلام، ١٧٧-١٧٩.

(٦) انظر: شرح القواعد الفقهية، أحمد الزرقا، ١٥٧-١٦٢.

(٧) فتح الباري، ابن حجر ٤٥/٣.

أخرى يجب أن تراعى وواجبات يجب أن تؤدى، وما أصدق ما قاله الحكماء: ما رأيت إسرافًا إلا وبجانبه حق مضيع. وقال ﷺ لعبد الله بن عمرو حين بلغه إنهماكه في العبادة انهماكًا أنساه حق أهله عليه: ((ألم أُخْبَرْ أَنَّكَ تصومُ النهارَ وتقومُ الليلَ؟ قال عبدالله رضي الله عنه فقلتُ: بلى يا رسولَ الله. فقال ﷺ: لا تَفعلْ، صُمْ وأفطِرْ، وقُمْ ونَم، فإنَّ لجسدِكَ عليكَ حقًا، وإنَّ لعَينِكَ عليكَ حقًا، وإنَّ لزَوجِكِ عليكَ حقًا، وإنَّ لزَورِكَ "زوّارك" عليكَ حقًا))[1][2].

خامسًا- من موضوعات الدعوة: بيان رحمة الله بعباده:

يظهر ذلك في الحديث من قوله ﷺ: "فإذا تعب فليرقد" وفي ذلك بيان على عظيم رحمة الله بعباده فهو القائل: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ﴾[3] وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[4].

وفي بيان عظيم رحمة الله تعالى بعباده قال ﷺ: ((لَوْ تَعْلَمُونَ قَدْرَ رَحْمَةِ اللَّهِ لاتَّكَلْتُمْ، قال أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أحسبه قال: عليها))[5].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: ((قَدِمَ على النبيِّ ﷺ سَبيٌ، فإذا امرأةٌ من السبي تحلب ثَديَها تَسقي، إذا وَجدَت صَبيًّا في السبي أَخَذَته فألصَقَتْه ببَطنها وأرضَعَتْه. فقال

---

(١) أخرجه البخاري ١٨٧٤، ومسلم ١١٥٩.

(٢) الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف، د. يوسف القرضاوي ص ٣٢.

(٣) سورة الأنعام، آية: ٥٤.

(٤) سورة البقرة، آية: ١٤٣.

(٥) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ٢١٣/١٠، رواه البزار وإسناده حسن.

لنا النبيُّ ﷺ: أتُرَونَ هذهِ طارحةً وَلدَها في النار؟ قلنا: لا، وهي تَقدر على أن لا تَطرَحهُ. فقال: اللّهُ أرحمُ بعبادِه من هذهِ بولَدِها))[1].

وفي ذلك بيان على عظيم رحمة الله تعالى بعباده. فهو الرؤوف الرحيم، الذي لا يريد بعباده عنتًا ولا رهقًا، إنما يريد لهم الخير والسعادة في الدنيا والآخرة.

---

(١) أخرجه البخاري ٥٩٩٩، ومسلم ٢٧٥٤.

الحديث رقم (١٤٧)

١٤٧- وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا نَعَسَ أَحدُكُمْ وَهُوَ يُصَلِّي، فَلْيَرْقُدْ حَتَّى يَذْهَبَ عَنْهُ النَّوْمُ، فإِن أَحدَكم إِذَا صلَّى وهُو نَاعَسٌ لا يَدْرِي، لَعَلَّهُ يَذْهَبُ يَسْتَغْفِرُ، فيَسُبُّ نَفْسَهُ» متفقٌ عليه[1].

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

غريب الألفاظ:

يذهب يستغفر: يقصد أن يستغفر[2].

يسب نفسه: أي يدعو على نفسه[3].

الشرح الأدبي

تتقاطر من هذا الحديث أنداء الرحمة، وتشع بوارق الإشفاق، لأن الصلاة مناجاة بين العبد وربه، وهي في مدلولها اللغوي بمعنى: الدعاء والخشوع، وفي مدلولها الاصطلاحي تترجم هذا الخشوع إلى أداء عملي فهي في الشرع: أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير، ومختتمة بالتسليم، والمؤمن يقف خاشعًا، فارغ البال أمام الكبير المتعال، الذي يعلم السر وأخفى، فلابد أن يكون يقظًا، متنبهًا مدركًا أسرار أقواله، وواعيًا الحكمة من أفعاله. والأقوال قرآن يُتلى في القيام، وتشهُّد يقال في الركعتين الثانية والأخيرة، والتشهد خطاب صادق لله عز وجل ورسوله الكريم، وتحيات مباركات وصلوات طيبات لله عز وجل، واعتراف بربوبيته وألوهيته، وصلاة وتسليم على المبعوث رحمة للعالمين.

---

(١) أخرجه البخاري (٢١٢) واللفظ له، ومسلم (٧٨٥/٢٢٠). أورده المنذري في ترغيبه (٩٣٨). وسيكرره المؤلف برقم (١١٨٧).

(٢) انظر: الوسيط ٣١٦.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١/٣٧٦.

فهل في غمرة هذا الخشوع الجليل، وفي فيوضات هذه الأقوال والأفعال المأمور بها من رب العالمين، هل يجوز أن يكون الإنسان غافلاً، أو ناسيًا أو ذاهلاً، لا يعي ما يقول؟ ولا يدري في أي ميدان يصول؟ وهذا ما يرشدنا إليه هذا الحديث الشريف: الذي ترويه الصديقة بنت الصديق: أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وهو يوضّح ويفصِّل القضية التي أثارها الحديث السابق: حيث أمر رسول الله ﷺ بحلِّ الحبل الذي مدته زينب بنت جحش رضي الله عنها بين ساريتين بالمسجد لتتعلق به إذا تعبت من الصلاة، وهذه مشقة في أداء العبادة ينصح الرسول ﷺ بالابتعاد عنها. وفي هذا الحديث تأتي تعليماته وإرشاداته المضيئة بالتيسير والإشفاق، والحديث في بنائه اللغوي يتكون من جملتين: إحداهما شرطية، والثانية اسمية مؤكدة، فأما الأولى: فقوله: "إذا نعس أحدكم وهو يصلي فليرقد: حتى يذهب عنه النوم"، ولنتأمل مكونات هذه الجملة لأنها تجسد المعنى المراد، فأداة الشرط: "إذا" وهى ظرف لما يستقبل من الزمان خافض لشرطه منصوب بجوابه، وتفيد التحقيق، ودلالة ذلك أن رسول الله ﷺ ينبه إلى حالات قد تحصل في المستقبل، وقد وقع بعضها فعلاً، ويحدث لكثير من الناس أن يصيبه النعاس وهو يصلي من الإجهاد أو كثرة النوافل والقيام طول الليل، ولذلك جاء بالفاعل عامًا، وقال: "أحدكم"، لإفادة العموم وعدم التحديد الشخصي أو المكاني أو الزماني، وجملة: "وهو يصلي"، في موقع الحال، أي غلبه النعاس حالة كونه متلبسًا بالصلاة، وقال العلماء: يتم صلاته ثم يستريح ويرقد حتى يذهب عنه النوم، والبيان النبوي هنا يتسم بالدقة التعبيرية حيث قال: "إذا نعس"، ولم يقل "إذا نام" لأن النعاس ليس نومًا وإنما هو مقدمة النوم، وعلامته سماع كلام الحاضرين وإن لم يفهم معناه، فهو بين اليقظة والنوم، واللام في "فليرقد"، للأمر، فيجب على المسلم أن لا يصلي وهو فاتر الهمة يغلبه النعاس، ولا يعي ما يقول ولا ما يفعل... لأنه لا صلاة له في هذه الحالة.

وأما الجملة الثانية فهي تعليل للأمر الصادر في جواب الجملة الأولى، والجملة تتكون من إن واسمها وخبرها، فهي يغلفها التوكيد حيث تبدأ "بإن"، ولكن حين نتأمل مكونات جملة الخبر ومتعلقاته، نرى أنه تتداخل فيه عدة جمل وفي مقدمتها،

جملة الشرط، "إذا صلى" ثم الجملة الحالية، "وهو ناعس" ثم جملة الجواب المنفي، "لا يدري"، ثم جملة الإشفاق أو الترجي في قوله واصفًا حال هذا الناعس، "لعله يذهب يستغفر فيسب نفسه"، وهذا يدل على فقد الإدراك، فهو يرجو من الله تعالى المغفرة، ولكن في حال النعاس لا يدري ماذا يقول: فيدعو على نفسه أو يسبها: فيزيد العصيان على العصيان.

وتداخل الجمل في الجملة الثانية من الحديث يعد رصدًا وتجسيدًا لحال ذلك الغافل الناعس الذي تختلط عليه الأمور، ولا يدري ماذا يفعل ولا ماذا يقول!!؟.

فقه الحديث

١- نقض النوم للوضوء: قال ابن حجر: (قوله "فليرقد" وللنسائي من طريق أيوب عن هشام "فلينصرف" المراد به التسليم من الصلاة، وحمله المهلب على ظاهره فقال: إنما أمره بقطع الصلاة لغلبة النوم عليه، فدل على أنه إذا كان النعاس أقل من ذلك عفى عنه، قال: وقد أجمعوا على أن النوم القليل لا ينقض الوضوء، وخالف المزني فقال: ينقض قليله وكثيره، فخرق الإجماع، كذا قال المهلب، وتبعه ابن بطال وابن التين وغيرهما، وقد تحاملوا على المزني في هذه الدعوى، فقد نقل ابن المنذر وغيره عن بعض الصحابة والتابعين المصير إلى أن النوم حدث ينقض قليله وكثيره، وهو قول أبي عبيد وإسحاق بن راهويه، قال ابن المنذر: وبه أقول لعموم حديث صفوان بن عسّال يعني الذي صححه ابن خزيمة وغيره، ففيه ((إلا من غائط أو بول أو نوم))[1] فسوى بينهما في الحكم، والمراد بقليله وكثيره طول زمانه وقصره لا مباديه، والذين ذهبوا إلى أن النوم مظنة الحدث اختلفوا على أقوال:

أ-التفرقة بين قليله وكثيره، وهو قول الزهري ومالك.

---

(١) أخرجه أحمد ٢٤٠/٤، والنسائي ٨٣/١، ٨٤، والترمذي ٩٦، من حديث صفوان بن عسال > قال: كان رسول الله ﷺ يأمرنا إذا كنا سفرًا أن لا ننزع خفافنا ثلاثة أيام ولياليهن إلا من جنابة لكن من غائط وبول ونوم، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وقال محققو المسند: صحيح لغيره ١/٣٠، ١٨٠٩٣.

ب-وبين المضطجع وغيره، وهو قول الثوري.

ج-وبين المضطجع والمستند وغيرهما وهو قول أصحاب الرأي.

د-وبينهما والساجد بشرط قصده النوم وبين غيرهم وهو قول أبي يوسف.

هـ-وقيل: لا ينقض نوم غير القاعد مطلقًا وهو قول الشافعي في القديم، وعنه التفصيل بين خارج الصلاة فينقض أو داخلها فلا. وفَصَّل في الجديد بين القاعد المتمكن فلا ينقض وبين غيره فينقض.

و-وقد صح عن أبي موسى الأشعري وابن عمر وسعيد بن المسيب أن النوم لا ينقص مطلقًا، وفي صحيح مسلم وأبي داود: ((وكان أصحاب النبي ﷺ ينتظرون الصلاة مع النبي ﷺ فينامون ثم يصلون ولا يتوضؤون))(١) فحمل على أن ذلك كان وهم قعود، لكن في مسند البزار بإسناد صحيح في هذا الحديث "فيضعون جنوبهم، فمنهم من ينام، ثم يقومون إلى الصلاة"(٢).

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: أهمية النشاط وحضور القلب في العبادة.

ثانيًا: من صفات الداعية: الإشفاق على المدعوين.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: التيسير على المكلفين.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: الاحتياط في العبادة.

خامسًا: من أساليب الدعوة: التعليل.

---

(١) أخرجه مسلم ٣٧٦، وأبو داود ٢٠٠ واللفظ قريب من لفظ مسلم.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢١٣/١، وانظر لمزيد من التفصيل في: اختلاف الفقهاء في عدّ النوم ناقضًا للوضوء، انظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية٤٣/٢٨٧-٢٩٣ ومراجعها: تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، الزيلعي١/٩-١٠، ورد المحتار مع حاشية ابن عابدين ١/٩٥-٩٦، وحاشية الصاوي على الشرح الصغير ١٤١/١، وشرح الزرقاني ٨٦/١، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٣٤/١، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٢/٢-٢٣، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ١٧٣/١، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ١٢٥/١، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ١٩٩/١-٢٠٠.

أولاً- من موضوعات الدعوة: أهمية النشاط وحضور القلب في العبادة:

إن مما يستنبط من هذا الحديث أهمية النشاط وحضور القلب في العبادة، حيث يؤكد النبي ﷺ على أهمية النشاط في العبادة وما يترتب على ذلك من حضور القلب؛ لأن ذلك أدعى لاستشعار روح العبادة، ومن ثم الفوز بثمرتها، وهذا يتضح من قوله ﷺ: ((إذا نَعَسَ أَحَدُكم وهوَ يُصلّي فلْيَرْقُدْ حتى يَذهَبَ عنه النومُ))، قال النووي: "فيه الحث على الإقبال على الصلاة بخشوع وفراغ قلب ونشاط"[(١)].

وقد جاءت أحاديث كثيرة تحثُّ على حضور القلب والنشاط في العبادة، مثل قوله ﷺ: ((إذَا نَعَسَ احدُكم في الصلاةِ فلينَمْ حتى يَعلمَ ما يقرأُ))[(٢)].

قال ابن هبيرة: (في هذا الحديث من الفقه أنه لا ينبغي للإنسان أن يقرأ حتى يعلم ما يقرأ، لأن المراد من القراءة تدبرها، فإذا غلب النوم حال بين التالي [القارئ] وبين المقصود)[(٣)].

وقوله ﷺ: ((إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ مِنَ اللَّيْلِ، فَاسْتَعْجَمَ الْقُرْآنُ عَلَى لِسَانِهِ[(٤)]، فَلَمْ يَدْرِ مَا يَقُولُ، فَلْيَضْطَجِعْ))[(٥)].

وقوله ﷺ: ((لاَ صَلاَةَ بِحَضْرَةِ الطَّعَامِ، وَلاَ هُوَ يُدَافِعُهُ الأَخْبَثَانِ))[(٦)].

قال النووي: (في هذه الأحاديث كراهة الصلاة بحضرة الطعام الذي يريد أكله، لما فيه من اشتغال القلب به وذهاب كمال الخشوع، وكراهتها مع مدافعة الأخبثين وهما البول والغائط، ويلحق بهذا ما كان في معناه مما يشغل القلب ويذهب كمال الخشوع)[(٧)].

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٣١، وانظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٧٦/١.

(٢) أخرجه البخاري ٢١٣.

(٣) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم ٢٨٦/٥.

(٤) أي استغلق ولم ينطلق به لسانه لغلبة النعاس، شرح النووي ٥٣٢

(٥) أخرجه مسلم ٧٨٧.

(٦) أخرجه مسلم ٥٦٠.

(٧) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٤١٩.

وقال عبدالله البسام: (مثل مدافعة الأخبثين، كل ما يشغل باله من ريح في جوفه أو حرّ أو برد شديد أو جوع أو عطش مفرط أو غير ذلك مما يذهب عنه الخشوع وحضور القلب، فإن حضور القلب هو لبّ الصلاة، فإذا لم يوجد فهي صور وأشباح تجزي صاحبها ولكنه لم تُنِله مقام المؤمنين المفلحين الذين هم في صلاتهم خاشعون"[١].

ثانيًا- من صفات الداعية: الإشفاق على المدعو:

إن من الصفات المهمة التي يجب أن يتحلى بها الداعية أن يشفق على المدعو، وهذا يتبين بجلاء في قوله ﷺ: "فليرقد حتى يذهب عنه النوم"، فقد أشفق ﷺ على من يصلي حتى غلبه النعاس بأن أمره بأن يرقد حتى يذهب عنه النوم، كما علّل هذا الأمر بما هو آكد في الإشفاق على المدعو، وهو ألا يدعو على نفسه، وقد كان يريد الدعاء لها.

وقال الله تعالى عن محمد ﷺ -وهو إمام الدعاة إلى الله-: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٢].

قال السعدي عن قوله تعالى: "بالمؤمنين رءوف رحيم": (أي شديد الرأفة والرحمة بهم، أرحم بهم من والديهم)[٣].

وقال ﷺ: ((إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ مِثْلُ الْوَالِدِ لِوَلَدِهِ))[٤].

ومن الأمثلة التطبيقية لهذه الصفة ونجاح الداعية في استخدامها، ما قاله صفوان بن أمية عندما أعطاه النبي ﷺ مائة من النعم ثم مائة ثم مائة، فقال صفوان: "والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني وإنه لأبغض إليّ فما برح يُعطيني حتى إنه لأحب الناس إليّ"[٥].

---

(١) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله البسام ٥١٣/١.

(٢) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٣١٣.

(٤) أخرجه أبو داود ٨، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٦).

(٥) أخرجه مسلم ٢٣١٣، وانظر: الشفا ١٨٧/١.

قال أبو بكر الآجريُّ عن أخلاق الداعية العالم مع من يربيهم: (فأما أخلاقه مع مجالسيه فصبور على من كان ذهنه بطيئًا عن الفهم حتى يفهم عنه، صبور على من جهل عليه حتى يردّه بحلْم، يؤدب جلساءه بأحسن ما يكون من الأدب، لا يدعهم يخوضون فيما لا يعنيهم، ويأمرهم بالإنصات مع الاستماع إلى ما ينطق به من العلم، فإن تخطى أحدهم إلى خلق لا يحسن بأهل العلم لم يجبهه على جهة التبكيت له، ولكن يقول: لا يحسن بأهل العلم والأدب كذا وكذا، وينبغي لأهل العلم أن يتجافوا كذا وكذا، فيكون الفاعل لخلق لا يحسن قد علم أنه المراد بهذا فيبادر برفعه.. لا يعنف السائل بالتوبيخ فيخجله، ولا يزجره فيضيع من قدره ولكن يبسط في المسألة ليجبره فيها... ويحثه على طلب علم الواجبات مِنْ علم أداء فرائضه واجتناب محارمه، يقبل على من يعلم أنه محتاج إلى علم ما يسأل عنه، ويترك من يعلم أنه يريد الجدل والمراء، يقرب عليهم ما يخافون بعده بالحكمة والموعظة الحسنة، يسكت عن الجاهل حلمًا، وينشر الحكمة نصحًا، فهذه أخلاقه لأهل مجلسه)[1].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: التيسير على المكلفين:

إن من موضوعات الدعوة البارزة في هذا الحديث التيسير على المكلفين. وذلك واضح من أمر النبي ﷺ: "يرقد حتى يذهب عنه النوم".

وقد جاءت الآيات والأحاديث تنصُّ على تيسير الله على المكلفين، قال تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾[2]، أي: (يريد الله تعالى بكم اليسر والسهولة في شرائعه ولا يريد بكم العسر والمشقة)[3].

وقد ضرب النبي ﷺ لأصحابه مثالاً عمليًا في التيسير، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

---

(١) أخلاق العلماء، أبو بكر محمد بن الحسين بن عبدالله الآجري (٣٦٠هـ)، تحقيق: أمينة عمر الخراط ص ٥٢، وانظر: المصفى من صفات الدعاة، عبدالحميد البلالي ص ٦٥ وما بعدها.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٨٥.

(٣) التفسير الميسر، إعداد نخبة من العلماء ص ٢٨.

قام أعرابيٌّ فبالَ في المسجدِ، فتناوَلَهُ الناسُ، فقالَ لهمُ النبيُّ ﷺ: ((دَعوهُ، وهَريقوا على بَولِهِ سَجْلاً من ماءٍ -أو ذَنوبًا منْ ماءٍ- فإنَّما بُعِثْتم مُيَسِّرِينَ، ولم تُبعثوا مُعَسِّرين))(١).

قال ابن حجر: (إسناد البعث إليهم على طريق المجاز لأنه هو المبعوث ﷺ بما ذكر، لكنهم لما كانوا في مقام التبليغ عنه في حضوره وغيبته أطلق عليهم ذلك، إذ هم مبعوثون من قبله بذلك، أي مأمورون، وكان ذلك شأنه ﷺ في حق كل من بعثه إلى جهة من الجهات يقول: "يسروا ولا تعسروا")(٢).

قال ابن هبيرة: (كل شيء يكون فيه الأمر بين أمرين، فإن الأحسن بمن يريد توخي أوامر رسول الله ﷺ أن يختار أيسرهما على أعسرهما)(٣).

رابعًا- من موضوعات الدعوة: الاحتياط في العبادة:

إنّ الاحتياط في العبادة من الموضوعات التي يجدر بالداعية أن يهتم بها، وقد اتضح ذلك جليًا في قوله ﷺ: ((لعلّه يستغفر فيَسبّ نفسه))، قال النووي: (قال القاضي [عياض]: معنى يستغفر هنا: يدعو(٤))(٥)، وقال ابن حجر: (معنى يسب: يدعو على نفسه)(٦)، وصرّح بذلك النسائي في روايته: (لعله يدعو على نفسه، وهو لا يدري)(٧)، وقال ابن حجر: (وفيه الأخذ بالاحتياط؛ لأنه علّل بأمر محتمل)(٨).

---

(١) أخرجه البخاري ٢٢٠.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٨٧/١، والحديث (يسروا ولا تعسروا)، أخرجه البخاري ٦٩، ومسلم ١٧٣٤.

(٣) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم ٢٣٠/٥.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٧٦/١.

(٥) إكمال المعلم ١٥١/٣: ولفظه: ومعنى (يسب نفسه) عندي هنا: الدعاء عليها، لأنه إذا ذهب يستغفر ويدعو لنفسه وهو لا يعقل ربما قلب الدعاء فدعا على نفسه).

(٦) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٣١.

(٧) أخرجه النسائي ١٦٢، وصححه الألباني (صحيح سنن النسائي ١٥٦)

(٨) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٧٦/١.

وقد جاءت أحاديث ترشد إلى العمل بالاحتياط، خشية الوقوع فيما يضرّ وإن كان أمرًا محتملاً.

من ذلك قوله ﷺ: ((لاَ تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلاَ تَدْعُوا عَلَى أَوْلاَدِكُمْ، وَلاَ تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ، لاَ تُوَافِقُوا مِنَ اللهِ سَاعَةً يُسْأَلُ فِيهَا عَطَاءٌ، فَيَسْتَجِيبُ لَكُمْ))[١].

وقال النبي ﷺ: ((إِذَا مَرَّ أَحَدُكُمْ فِي مَسْجِدِنَا، أَوْ فِي سُوقِنَا، وَمَعَهُ نَبْلٌ، فَلْيُمْسِكْ عَلَى نِصَالِهَا [٢] بِكَفِّهِ. أَنْ يُصِيبَ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ))[٣].

خامسًا: من أساليب الدعوة: التعليل:

لقد ذكر ﷺ علة نهيه فقال: (لعله يذهب يستغفر فيسب نفسه)، ولا شك أن تعليل الحكم يثبته في سمع المدعو وقلبه، لأنه يزيده اقتناعًا على اقتناع، وقد سلك القرآن الكريم والسنة الشريفة هذا المسلك في الدعوة، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾[٤].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: "نهى رسول الله ﷺ أن تُزوج المرأةُ على العمة والخالة؛ قال: ((إِنَّكُنَّ إذا فَعَلْتُنَّ ذلِكَ قَطَعْتُنَّ أَرْحَامَكُنَّ))[٥].

لذا فإن أسلوب التعليل من الأساليب الدعوية التي يجدر بالداعية أن يفيد منها.

---

(١) أخرجه مسلم ٣٠٠٩.

(٢) النصل: حديدة الرمح والسهم والسكين، والجمع: نصال وأنصل ونصول، الوسيط في (ن ص ل).

(٣) أخرجه البخاري ٤٥٢، ومسلم ٢٦١٥ واللفظ له.

(٤) سورة الأنفال، آية: ٦٠.

(٥) أخرجه ابن حبان ٤١١٦، والطبراني في الكبير ١١٩٣١، وقال محقق صحيح ابن حبان: حديث حسن، وانظر: التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ١٦٧/٣.

الحديث رقم (١٤٨)

١٤٨- وعن أَبي عبد اللَّه جابر بن سمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كُنْتُ أُصَلِّي مَعَ النبيِّ ﷺ الصَّلَوَاتِ[(١)]، فَكَانَتْ صلاتُهُ قَصدًا وخُطْبَتُه قَصْدًا. رواه مسلم[(٢)].

قولُهُ: (قَصْدًا): أَيْ بَيْنَ الطُّولِ وَالْقِصَرِ.

ترجمة الراوي:

جابر بن سمرة: هو جابر بن سمرة بن جُنادة بن حُجَير العامري السُّوَائي، أمه أخت سعد بن أبي وقاص، له ولأبيه صحبة مشهورة.

كان من حملة العلم، روى عن النبي ﷺ وجماعة من الصحابة: منهم أبوه وخاله سعد وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب.

له مواقف جليلة ومشاهد عظيمة مع النبي ﷺ؛ فقد قال: صليت مع النبي ﷺ أكثر من ألفي صلاة[(٣)].

وقال كذلك: جالست النبي ﷺ أكثر من مائة مرة[(٤)].

وروى ابن سعد أن النبي ﷺ رآه في الشمس فقال له: تحول إلى الظلّ فإنه مبارك[(٥)].

وظلّ على جهاده بعد وفاة النبي ﷺ، فقد شهد فتح المدائن، وشهد عمر بن الخطاب وهو يخطب بالجابية [قرية من أعمال دمشق].

---

(١) عند مسلم: (النبي)، ولا توجد عنده (الصلوات).

(٢) برقم (٤٢/٨٦٦).

(٣) أخرجه مسلم (٣٥-٨٦٢).

(٤) أخرجه الترمذي ٢٨٥٠، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٢٨٦).

(٥) ذكره المزي في تهذيب الكمال في أسماء لرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس، ومجدي السيد أمين (٤٢٤/١) وعزاه لابن سعد، لكن لم أعثر عليه في المطبوع من ترجمته في الطبقات الكبرى، ابن سعد.

وقد نزل الكوفة وابتنى دارًا بها. وتوفي بها ٧٤هـ. وقيل: ٧٣هـ وقيل: ٧٦[١].

غريب الألفاظ:

قصدًا: أي بين الطول والقصر[٢].

الشرح الأدبي

إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، إن منهج التيسير في الإسلام من شأنه أن يحبب الإنسان في المداومة على الطاعة، حتى لا يتسرب الملل إلى النفس، كما أخبر المصطفى ﷺ، والحديث الذي يرويه جابر بن سمرة رضي الله عنه، شهادة مرئية ومسموعة من صحابي جليل شَرُف بالصلاة مع رسول الله ﷺ، ورَأَى رَأْيَ العين، وعلم علم اليقين، كيف كانت صلاة رسول الله ﷺ في معظمها، لأنه كان يطيل أحيانًا في صلاته، وكيف كانت خطبته، وهذا الحديث يعد درسًا للدعاة والخطباء المعاصرين الذين يطيلون في صلاتهم، وفي خطبهم، ولا يدركون حاجات الناس وظروفهم. والقصد في الصلاة: لا يعني الإخلال بها، ولكن معناه: أن يأتي المصلي بمكملاتها ومسنوناتها من غير طول ولا قصر: لأن القصد هو الاعتدال وهو بين الطول والقصر، والمصطفى ﷺ هو القدوة الحسنة، والمثل الأعلى في كل ما يتعلق بأمور الدين والدنيا، وكان يراعى حاجات الناس، وظروفهم الخاصة، فإن فيهم الضعيف وذا الحاجة، (وعن أبي قتادة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطول فيها فأسمع بكاء

---

(١) الطبقات الكبرى، ابن سعد (٢٤/٦) والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر ١١٦، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٤٨٨/١) والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: د. طه محمد الزيتي ص ١٦٤. والسير (١٨٦/٣) وتهذيب الكمال في أسماء لرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس، ومجدي السيد أمين (٤٢٤/١) وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٢٨٠/١) والأعلام (١٠٤/٢) وموسوعة عظماء حول الرسول (٥٥١/١).

(٢) رياض الصالحين ١٠٧.

الصبي، فأتجوز في صلاتي كراهية أن أشق على أمه)[(١)].

والتعبير بقوله "الصلوات" يفيد أن جابر بن سمرة رضي الله عنهما كان كثيرًا ما يصلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويؤيد ذلك ما رواه مسلم حيث يقول جابر بن سمرة رضي الله عنهما: والله لقد صليت مع رسول الله أكثر من ألفى صلاة[(٢)]، ولذلك جاءت "الصلاة" جمعًا ولم تأت مفردة، ولم يأت الفعل "أصلي"، مجردًا من المعمول، حتى لا يفهم أنها كانت صلاة قليلة، وكذلك لم يقل، "كنت أصلي الصلوات الخمس"، حتى لا يظن أنه كان مداومًا على ذلك في كل الأوقات وفي جميع الأيام، والواقع غير ذلك، فتأمل: دقة التعبير، وسر صيغة الجمع، ودلالة عدم تقييد الصلاة بنعت "الخَمْس"، وإضافة الصلاة إلى الضمير، العائد على رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله: "فكانت صلاته قصدًا": يفيد التخصيص... فإذا كانت الصلاة الخاصة برسول صلى الله عليه وسلم الله قصدًا- فهل نُغَالي نحن، وهل نطيل نحن؟

وللصلاة أسرار وفوائد جمة، ونشير إلى نَزْر يسير منها يعود على الإنسان بالنفع: حيث يقول جابر بن سمرة رضي الله عنهما "كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا صلى الفجر تربع حتى تطلع الشمس حسناء"[(٣)]، أي طلوعًا حسنًا، وجاء في حديث آخر عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لأن أقعد أذكر الله وأُكبِّره وأحمده وأُسبِّحه وأُهلِّله حتى تطلع الشمس أحب إلى من أن أعتق رقبتين أو أكثر من ولد إسماعيل، ومن بعد العصر حتى تغرب الشمس، أحب إليّ من أن أعتق أربع رقاب من ولد إسماعيل»[(٤)]، وهذان الوقتان لهما أثر ناجع في نشاط الإنسان ومزاجه وصحته، وهما الغدوة والرّوحة التي أشار إليهما في حديث سابق، وفيهما يمكن، كما قال العلماء أن نستفيد من أشعة الشمس بفعل تأثير الأشعة فوق البنفسجية حيث يتكون فيتامين (د) تحت الجلد، ولهذا الفيتامين

---

(١) أخرجه البخاري ٧٠٧.

(٢) أخرجه مسلم ٨٦٢.

(٣) أخرجه أبو داود ٤٨٥٠، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود، ٤٠٦٠).

(٤) أخرجه أحمد ٢٥٥/٥ رقم ٢٢١٩٤، وقال محققو المسند: حسن لغيره ص ٥٣٢/٣٦.

أدوار بيولوجية منها: تنظيم الأنسولين في البنكرياس، ونمو خلايا النخاع العظمي، ونمو خلايا البشرة في الجلد[١]، وغير ذلك الكثير، فتأمل واحْرص على الاقتداء بالنبي ﷺ في أقواله وأفعاله وأوقات صلاته... وكيفية ذكره لله سبحانه ومواقيت ذلك.

وأما خطابة المصطفى ﷺ للجمعة وغيرها: فكانت قصدًا، أي بين الطول والقصر، بحيث توفي بالغرض، وهو قد أوتي جوامع الكلم، وتتسم خطابته بالدقة والوضوح وعدم المبالغة، والبعد عن الانفعال الذي ينأى بالخطيب عن دائرة الصدق والحقيقة، فكل ما يتفوه به الرسول ﷺ في خطابته: صدق وجدّ، وترغيب وترهيب، وإرشاد وتشريع، وهداية وتبشير، فرسول الله ﷺ في بيانه وخطابته كما قال الجاحظ: لم تسقط له كلمة، ولا زلت له قدم، ولا بارت له حجة، ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب، بل يبزُّ الخطب الطوال بالكلام القصير، ولا يحتج في خطبه، ومواعظه إلا بالصدق، فسبحان مَنْ علّمه، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[٢].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة على الاقتداء بالنبي ﷺ.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: أهمية الاقتصاد في الطاعة.

ثالثًا: من صفات الداعية: الرفق بالمدعوين.

رابعًا: من فقه الداعية: القصد في الموعظة.

خامسًا: من وسائل الدعوة: الخطبة.

أولاً- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة على الاقتداء بالنبي ﷺ:

لقد تواتر حرص الصحابة ﷺ على الاقتداء بالنبي ﷺ والتأسي به. وقد ورد في هذا الحديث ما يؤكد هذا الحرص مما هو واضح في قول الصحابي: "كنت أصلي مع

(١) انظر: كتاب الإعجاز العلمي في السنة النبوية، د. زغلول النجار، د. صالح بن أحمد رضا، وكتاب: في رحلة الإيمان، د. حامد أحمد حامد.

(٢) سورة النجم: ٣-٤.

النبي ﷺ الصلوات..." فقد كان الصحابة رضي الله عنهم أحرص الناس على الاقتداء بالنبي ﷺ والعمل بمثل ما يعمل، وقد فاضت الأحاديث عنهم بذلك[١]. فمن هذا القبيل: ما ورد عن أمية بن عبدالله بن خالد أنه قال لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما: إنا نجد صلاة الحضر وصلاة الخوف في القرآن ولا نجد صلاة السفر في القرآن؟ فقال له ابن عمر: يا ابن أخي، إن الله عز و جل بعث إلينا محمدًا ﷺ ولا نعلم شيئًا، وإنما نفعل كما رأينا محمدًا ﷺ يفعل[٢].

وعن همام بن الحارث قال: رأيت جرير بن عبدالله [البجلي] رضي الله عنه بال ثم توضأ ومسح على خفيه ثم قام فصلّى، فسئل فقال: رأيت النبي ﷺ صنع مثل هذا[٣].

وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾[٤] كما قال سبحانه: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾[٥] قال محمد بن علي الترمذي: (الأسوة في الرسول الاقتداء به والاتباع لسنته وترك مخالفته في قول أو فعل)[٦].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: أهمية الاقتصاد في العبادة:

إن من موضوعات الدعوة الجلية في هذا الحديث: أهمية الاقتصاد في العبادة ويتبين ذلك من قول الصحابي: "فكانت صلاته قصدًا وخطبته قصدًا". وقال النووي: (قصدًا: أي بين الطول والقصر)[٧].

---

(١) انظر الشفا، ٢/٣٧١-٣٨٠.

(٢) أخرجه ابن ماجه ١٠٦٦، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٨٧٤).

(٣) أخرجه البخاري ٣٨٧، ومسلم ٢٧٢.

(٤) سورة الحشر، آية: ٧.

(٥) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

(٦) الشفا ٢/٣٧١.

(٧) رياض الصالحين ١٠٧.

وقد جاءت نصوص الشريعة الإسلامية تحثُّ على الاقتصاد في العبادة والتوسط فيها، فلا يصيبها التفريط المضيِّع أو الإفراط المضيِّق، وقال ابن عثيمين: (والقصد: معناه التوسط، الذي ليس فيه تخفيف مخل ولا تثقيل ممل، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: ((إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته، مِئِنَّة من فقهه))[1] أي: علامة على فقهه ودليل عليه، والذي يؤخذ من هذين الحديثين أنه لا ينبغي للإنسان أن يحمل نفسه ويشق عليها في العبادة، وإنما يأخذ ما يطيق)[2].

إن رسول الله ﷺ مر على رجل يصلي على صخرة فأتى ناحية مكة فمكث مليًّا ثم انصرف فوجد الرجل يصلي على حاله فقام فجمع يديه ثم قال: ((يا أيها الناس عليكم بالقصد ثلاثًا، فإن الله عز وجل لا يمل حتى تملوا))[3] قال ابن حجر: (القصد سلوك الطريق المعتدلة)[4].

وقال النبي ﷺ: ((إن الهدى الصالح والسمت الصالح والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءًا من النبوة))[5].

قال شرف الحق العظيم آبادي: (الاقتصاد: سلوك القصد في الأمور القولية والفعلية والدخول فيها برفق على سبيل يمكن الدوام عليه)[6].

ثالثًا- من صفات الداعية: الرفق بالمدعوين:

ما أجمل أن يكون الداعية رفيقًا بالمدعوين، ولقد كان النبي ﷺ أرفق الناس بالناس، وهذا ما يستنبط من قول الصحابي: "فكانت صلاته قصدًا وخطبته قصدًا"، فإن النبي ﷺ إذا كان فيما بينه وبين نفسه، أو في صلاة غير الفرض، يطيل

---

(١) أخرجه مسلم ٨٦٩.

(٢) شرح رياض الصالحين ١/٣٩٥.

(٣) أخرجه ابن ماجه ٤٢٤١، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٣٤١٩).

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١/٣٠٠.

(٥) أخرجه أبو داود ٤٧٧٦، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٩٩٦).

(٦) عون المعبود ٢٠٧٥.

الصلاة، ويتعمق فيها، أما في صلاة الفريضة فكان يقصر ويكتفي فيها بما يحقق المقصود منها من غير طول ولا قصر، ولا يطيل الخطبة بل يجمع المعاني الكثيرة في الكلمات القليلة، ويكتفي بالحديث عن موضوع واحد أو التوجيه لهدف واحد، حذرًا من المبالغة وتوجيهًا لعدم التشديد على الناس وتحذيرًا من تنفير المسلمين عن الدين[(١)].

لأن من الصفات الواجب توافرها في الداعية الرفق بالمدعوين، وقد تظاهرت على ذلك نصوص الكتاب والسنة، قال تعالى لموسى وهارون: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾[(٢)].

قال ابن كثير: (هذه الآية فيها عبرة عظيمة، وهو أن فرعون في غاية العتو والاستكبار، وموسى صفوة من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أُمر ألا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين)[(٣)].

(فإذا كان موسى أُمر – كما يقول القرطبي- بأن يقول لفرعون قولاً لينًا، فمن دونه أحرى بأن يقتدي بذلك في خطابه، وأمره بالمعروف في كلامه)[(٤)].

ومن المواقف التي تبيّن رفق الرسول ﷺ بالمدعوين وأثره في استجابتهم له وإقبالهم على ما يقول، ما رواه معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه: ((بينا أنا أصلّي مع رسول الله ﷺ إذا عطس رجل من القوم فقلت: يرحمك الله فرماني القوم بأبصارهم فقلت: واثُكْلَ أُمِّيَاه، ما شأنكم تنظرون إليّ؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم[(٥)] فلما رأيتهم يصمّتونني سكتُّ. فلما صلّى رسول الله ﷺ، فبأبي هو وأمي ما رأيت معلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه، فوالله ما كهرني[(٦)] ولا ضربني ولا شتمني، قال: إن

(١) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم ص ١٣١.

(٢) سورة طه، الآيتان: ٤٣-٤٤.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٤/٢٩٤.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي مج٦/١١/٢٠٠.

(٥) يعني فعلوا هذا ليسكتوه، شرح النووي ٤٠٩.

(٦) أي: ما انتهرني، شرح النووي ٤٠٩.

هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن أو كما قال رسول الله ﷺ قلت: يا رسول الله إني حديث عهد بجاهلية....))[١]

فأقبل يسأل النبي ﷺ ليعرف أمور دينه والنبي ﷺ يرشده ويهديه.

قال النووي: (فيه بيان ما كان عليه رسول الله ﷺ من عظيم الخلق الذي شهد الله تعالى له به ورفقه بالجاهل ورأفته بأمته وشفقته عليهم، وفيه التخلق بخلقه ﷺ في الرفق بالجاهل وحسن تعليمه واللطف به وتقريب الصواب إلى فهمه)[٢].

ويقول القاضي عبدالرحمن بن نصر الشيزري الشافعي أثناء حديثه عن آداب المحتسب: (وليكن من شيمته الرفق، ولين القول، وطلاقة الوجه، وسهولة الأخلاق عند أمره للناس ونهيه، فإن ذلك أبلغ في استمالة القلوب، وحصول المقصود. قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظًا غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾[٣]، ولأن الإفراط في الزجر ربما أغرى بالمعصية، والتعنيف بالموعظة تمجه الأسماع)[٤].

وهكذا، فإن النفوس مجبولة على حب من يحسن إليها، ويتلقاها بالرفق واللين، ويبسط لها في المحيا، ولا يضيق بعجزها وجهلها وتقصيرها. فهل وعى الدعاة الدرس؟

رابعًا- من فقه الداعية: القصد في الموعظة:

إن من فقه الداعية القصد في الموعظة، اقتداءً بالنبي ﷺ الذي وصف الصحابي خطبته فقال: "وخطبته قصدًا"، قال ابن حجر: (أي لا طويلة ولا قصيرة)[٥].

وقال ابن هبيرة: (أما قصر الخطبة فإنه يكون أدعى لحفظ ما يذكر فيها، ولئلا يقول كلامًا منشورًا لا يتيسر الاحتراز في حدوده، فإذ أقلّ منه كان قمينًا أن يسلم

---

(١) أخرجه مسلم ٥٣٧.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٤٠٩، وانظر: الشفا ١/١٨٧-١٨٩.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

(٤) نهاية الرتبة في طلب الحسبة ص ٩.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١/٢٠٣.

وينفع، وهذا فهو في الأكثر، فإن احتاج الخطيب إلى أن يطيل لذكر حادثة جرت أو نائبة، أو إبانة عن صورة لا بدّ من إبانتها، لم يكره ذلك إن شاء الله تعالى)[(١)].

وقد كان القصد في الموعظة من فعل النبي ﷺ وصحابته من بعده. قال شقيق بن سلمة الأسدي: ((كنا جلوسًا عند باب عبدالله [ابن مسعود] ننتظره فمرَّ بنا يزيد بن معاوية النخعي فقلنا: أعلمه بمكاننا، فدخل عليه فلم يلبث أن خرج علينا عبدالله فقال: إني أخبرُ بمكانكم فما يمنعني أن أخرج إليكم إلا كراهية أن أملّكم، إن رسول الله ﷺ كان يتخولنا بالموعظة في الأيام مخافة السآمة))[(٢)]. وفي رواية للبخاري: ((كان عبدالله يُذكّر الناس كل خميس فقال له رجل: يا أبا عبدالرحمن لوددت أنك ذكرتنا كل يوم؟))[(٣)].

قال النووي: (في هذا الحديث الاقتصاد في الموعظة لئلا تملها القلوب فيفوت مقصودها)[(٤)]، وقال ابن حجر: (قال الخطابي: المراد أنه كان يراعي الأوقات في تعليمهم ووعظهم ولا يفعله كل يوم خشية الملل)[(٥)].

وقال ابن حجر كذلك: (وفيه رفق النبي ﷺ بأصحابه وحسن التوصل إلى تعليمهم وتفهيمهم، ليأخذوا عنه بنشاط لا عن ضجر ولا ملل، ويقتدى به في ذلك، فإن التعليم بالتدرج أخف مؤنة وأدعى إلى الثبات من أخذه بالكد والمغالبة)[(٦)].

خامسًا- من وسائل الدعوة: الخطبة:

يظهر هذا من وصف الصحابي رضي الله عنه لخطبة النبي ﷺ "وخطبته قصدًا" (والخطبة وسيلة ممتازة للدعوة لتبليغ الرسالة أو إيضاح فكرة معينة، ومن مرامي الخطبة حمل

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم ١٣٨/٢.

(٢) أخرجه البخاري ٦٨، ٦٤١١، ومسلم ٢٨٢١ واللفظ له.

(٣) أخرجه البخاري ٧٠.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٥١.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٣١/١١.

(٦) المرجع السابق ٢٣٢/١١.

المخاطب على الإذعان والتسليم وإثارة العواطف الجياشة في فؤاده نحو الفكرة التي يحملها الخطيب ويدعو إليها، فيتحمس لها ويتقدم لفدائها بالنفس والنفيس عند الحاجة)[1].

وقد استخدم النبي ﷺ الخطبة - وسيلة دعوية - في بيان مبادئ الإسلام للصحابة رضي الله عنهم، حيث تُعد الخطبة وسيلة مؤثرة في مجال الدعوة، نظرًا لأن الداعية يخاطب من خلالها العقل والحس، ويراعي في ذلك الجوانب الفنية، والتي من أبرزها الإيجاز والقصد والوضوح، وعدم الإسهاب الذي يبعث على الملل والانصراف عن الداعية، ولقد رسم النبي ﷺ المنهج الصحيح للدعاة في القصد في الخطبة وتخول الناس بالموعظة، فما أجدر بالدعاة أن يتأسوا به ﷺ في هذا المجال.

(١) الدعوة إلى الله: الرسالة والوسيلة والهدف، الدكتور توفيق الواعي ص ٢٧١.

الحديث رقم (١٤٩)

١٤٩- وعن أَبي جُحَيْفَةَ وَهبِ بْنِ عبد اللّه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: آخَى النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بَيْن سَلْمَانَ وأبي الدَّرْدَاءِ، فَزَارَ سلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ، فَرَأَى أُمَّ الدَّرْدَاء مُتَبَذِّلَةً فقالَ: ما شَأْنُكِ؟ قالَتْ: أَخْوكَ أَبُو الدَّرداءِ ليْسَ له حَاجةٌ فِي الدُّنْيَا. فَجَاءَ أَبُو الدرْدَاءِ فَصنَعَ لَه طَعَامًا، فقالَ لَهُ: كُلْ. فَإِنِّي صَائِمٌ، قالَ: ما أَنا بآكلٍ حَتَّى تأْكلَ، فَأَكَلَ، فَلَّمَا كانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يقُوم. فقال لَه: نَمْ فَنَام، ثُمَّ ذَهَبَ يَقُوم فقالَ لَه: نَمْ، فَلَمَّا كان من آخرِ اللَّيْلِ. قالَ سلْمانُ: قُم الآنَ، فَصلَّيَا جَمِيعًا، فقالَ له سَلْمَانُ: إنَّ لرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لنَفْسِكَ عَلَيْكَ حقًّا، ولأهلِك عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذي حَقٍّ حَقَّه، فَأَتَى النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم فَذَكر ذلكَ لَه، فقالَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: «صَدَقَ سلْمَانُ» رواه البخاري[1].

ترجمة الراوي:

أبو جُحَيفة السُّوائي: وهو وهب بن عبدالله أبو جُحَيفة، من صغار الصحابة.

قدم على النبي صلى الله عليه وسلم في أواخر عمره، ولما توفي النبي صلى الله عليه وسلم كان أبو جحيفة لم يبلغ الحلُم، ولكنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وروى عنه.

وقد أكل ثريدة بلحم يومًا، وأتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يتجشأ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ((اكفُف عليك جُشاءَك أبا جُحيفة، فإن أكثرهم شبعًا في الدنيا أكثرهم جوعًا يوم القيامة)) فما أكل بعد ذلك ملء بطنه حتى فارق الدنيا، وكان إذا تعشى لا يتغدى، وإذا تغدى لا يتعشى[2] وقال: رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأيتُ هذه منه، وهي بيضاء، وأشار إلى عَنْفَقتِه[3]، فقيل له: مثل من كنت يومئذ؟ قال: أَبْري النَّبل وأريشها[4]، [5] وقال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان الحسن بن علي يُشبهه.

---

(١) برقم (١٩٦٨).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط ٨٩٢٤، والحاكم في المستدرك ١٦٧/٥ رقم ٧٢٢٢، وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه، واللفظ للطبراني.

(٣) والعَنفَقَة: هي الشعر الذي تحت الشفة السفلى، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ع ن ف ق).

(٤) وأريشها: أي أجعل للنبل ريشًا.

(٥) أخرجه البخاري ٣٥٤٥، ومسلم ٢٣٤٢.

وأحبَّهُ علي بن أبي طالب رضي الله عنه ووثق به، فولاه شرطة الكوفة لما ولي الخلافة وجعله على بيت المال، وشهد مع علي بن أبي طالب مشاهده كلها، وكان علي رضي الله عنه يسميه وهب الخير، وكان إذا خطب علي بن أبي طالب قام أبو جحيفة تحت منبره رضي الله عنهما.

وتوفي في ولاية بشر بن مروان بالكوفة، سنة ٧٤هـ وقيل ٧٢هـ[١].

غريب الألفاظ:

متبذِّلة: تاركة ثياب الزينة ولابسة ثياب المهنة[٢].

الشرح الأدبي

إن إشراقة هذا الحديث الشريف تتوهج في الجملة الأخيرة التي أيد بها رسول الله ﷺ موقف سلمان الفارسي حيث قال: "صدق سلمان" فمن سلمان؟ ولماذا صدق؟ وفيم صدق؟

إن سلمان الفارسي رضي الله عنه من الصحابة الأجلاء، وهو صاحب المشورة والرأي في غزوة الخندق، وقد شهد له النبي ﷺ فقال: "لقد اتسع من العلم"[٣].

وهذا الفقه في الدين وفي القضايا والشؤون الاجتماعية يتجلى في نصيحة سلمان لأبي الدرداء رضي الله عنهما، "إن لربك عليك حقا، وإن لنفسك عليك حقا، ولأهلك عليك حقا، فأعط كل ذي حق حقه".

---

(١) الطبقات الكبرى، ابن سعد (٦٣/٦)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر ٧٥٠، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٤٧/٦-٤٨)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: د. طه محمد الزيتي (١٣٨٧)، وسير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط (٢٠٢/٣-٢٠٣)، تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٣٣١/٤)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس، ومجدي السيد أمين (٤٩٧/٧)، والأعلام للزركلي (١٢٥/٨)، وموسوعة عظماء حول الرسول (١٩٨٣/٣).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ب ذ ل)، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٤٨/٤.

(٣) ذكره الهيثمي في المجمع ٣٤٣/٩، ٣٤٤ مطولاً، ونسبه إلى الطبراني في الأوسط وأخرجه ابن سعد ٦٠/١/٤، ٦١ عن طريق عبدالله بن نمير عن الأعمش به.

وهذه الوصايا الجامعة التي صدق فيها سلمان رضي الله عنه كما شهد بذلك المصطفى صلى الله عليه وسلم خطاب لأبي الدرداء رضي الله عنه ، ولكل مسلم يطمح إلى حياة ينعم فيها بالتوازن والاستقرار والثبات.

وتأتي هذه الوصايا في إطار الرؤية الاجتماعية التي تنطلق من تعاليم الدين الإسلامي، وفي سياق القضاء على ظاهرة التشدد في أداء الشعائر والعبادات، ولم تأت هذه الوصايا في صورة مواعظ مجردة، أو حكم وأمثال سائرة؛ وإنما نبعث من تجربة حياتية وحكاية واقعية، قام بسرد حوادثها أشخاص حقيقيون مُحدَّدُون، وهذه الحالة السردية يرتب أحداثها ومشاهدها أبو جحيفة وهب بن عبدالله رضي الله عنه ، وعناصر الحكْي، تتمثل في طريقة السَّرْد، وفي تتابع الأفعال الماضية المتتالية على النحو (آخى النبي – فزار سلمان – فرأى أم الدرداء، فقال: قالت، فجاء، فصنع، فقال له... إلخ، هذه الأفعال المتتابعة التي تتوالى أحداث هذه الحكاية الواقعية من خلالها.

وتبدأ أحداث هذه الحكاية بحقيقة اجتماعية وشرعية وهى المؤاخاة بين سلمان الفارسي وأبي الدرداء رضي الله عنه ، وهذه المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار من أعظم الإنجازات التي قدمها الإسلام في مجال النهوض بالمجتمع الإنساني، والمجتمع الإسلامي هو الأنموذج الأعلى في ذلك؟ وقيامًا بواجبات الأخوة يزور سلمان أخاه في الله أبا الدرداء، فيرى أم الدرداء وهى زوجة أبي الدرداء غير متهيئة لزوجها وتلبس ثياب المهنة التي تعمل بها في بيتها وأعمالها الأخرى، وكلمة "متبذلة" تفصح عن هذا المعنى، وتصور هذه الحالة، وتوحي بحقيقة العلاقة بين أبي الدرداء وزوجته، ويحاورها: سلمانُ قائلاً: ما شأنك، وهو سؤال فيه تأدب ولطف وإيحاء باستنكار ما عليه هذه الزوجة من إهمالها لنفسها، ويأتي الجواب في غاية السمو والإيحاء، وعدم التصريح بحقيقة المشكلة، وتأمل هذه الجملة التي تشع بكثير من الدلالات والمعاني تقول: "أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا"، ولم تقل زوجي، حتى لا تكون الشكوى صريحة، وقولها: "ليس له حاجة في الدنيا" أكثر تلميحًا وإيحاء من قولها ليس له رغبة في النساء، وقد آثرت التعبير بلفظ الدنيا، حتى تنأى عن مظنة الاتهام، أو كُرْه ما يقوم به من عبادة، لأن

مقابل هذه العبارة، أن تقول: "وله حاجة في الآخرة" وهذا مطلب محمود، وأمل معقود.

ولا يقف سلمان رضي الله عنه موقفًا سلبيًا، وإنما يراعي حق الأخوة، ويسعى لإصلاح ذات البين، وإقناع أبي الدرداء رضي الله عنه بالاقتصاد في العبادة، وإعطاء أهل بيته حقهم، ولم يتوجه بالنصيحة المباشرة الجافة، والأوامر التي تثقل على النفس، ولا تجد لها صدى عند الآخر، ولكنه تناول معه الطعام وأقنعه بالأكل، وكان صائمًا تطوعًا، وعندما أقبل الليل... وأراد أبو الدرداء رضي الله عنه أن يواصل ليله بنهاره، قال له سلمان: نم، فنام مرتين، رغبة في إراحة بدنه، واستعداده للقيام والتهجد آخر الليل، وقاما آخر الليل: وصليا جميعًا: وبعد هذا الحوار الأخوي، والتوجيه الصادر من قلب يحب أخاه، وبعد استجابة أبي الدرداء لكل ما قاله سلمان: قال سلمان، وأكد عباراته: وكرر كلمة "حقًا" للأهمية: "إن لربك عليك حقًا، وإن لنفسك عليك حقًا، ولأهلك عليك حقًا، فأعط كل ذي حق حقه".

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى أكثر من حكم فقهي:

الأول: صلاة التطوع وقيام الليل، وقد سبق الكلام عنها في الحديث رقم (٩٨).

الثاني: اتفق الفقهاء[1] على أن أحد أهم مقاصد النكاح الاستمتاع بين الزوجين فعلى الزوج أن يأتي زوجته ولا يهملها، وإذا كان الزوج عنينًا[2] أو مجبوبًا[3] ولا يستطيع

(١) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود ٣٢٢/٢، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ١٣٤/٤، وشرح منح الجليل على مختصر خليل، الشيخ عليش ٣٧٩/٣، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٣٠٩/٦، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي ٣٣٩/٤، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ١٠٥/٥، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي، البهوتي ٦٧٥/٢.

(٢) العُنَّة: عجز يصيب الرجل فلا يقدر على الجماع، المعجم الوسيط، باب العين.

(٣) المجبوب: المقطوع الذكر، المعجم الوسيط، باب الجيم.

إتيان زوجته وإعفافها، فإن لها أن تطلب الطلاق منه للضرر الواقع عليها لأن الزواج هنا لم يحقق الهدف منه، ولم يتم به مقصد رئيسي من مقاصده.

وكذلك الأمر بالنسبة للزوجة فقد اتفق الفقهاء[(١)] على أنه يجب على المرأة أن تمكن زوجها من نفسها متى طلبها، ولم يكن ثمة مانع شرعي عندها مهما كانت الظروف والأحوال، فإن امتنعت كانت ناشزًا وجاز له تأديبها بما يراه مصلحًا لها، فلا يحق للزوجة أن تمتنع عن المعاشرة لقيامها الليل متى طلبها زوجها، لأن هذا حق له عليها فلا يضيع الحق بالنفل.

الثالث: حكم من يفطر في صوم التطوع، وقد اختلف الفقهاء في لزوم صوم التطوع على رأيين، فذهب الحنفية[(٢)] والمالكية[(٣)] إلى لزوم صوم التطوع بالشروع فيه وأنه يحرم قطعه بدون عذر وإذا قطعه وجب عليه قضاؤه، وذهب الشافعية[(٤)] والحنابلة[(٥)] إلى أن صوم التطوع غير لازم، ويجوز لمن صام تطوعًا أن يفطر في أي وقت ولو بدون عذر، وإن كان من المستحب إتمامه والمكروه قطعه[(٦)]، ومتى قطعه يستحب قضاؤه ولا يجب.

---

(١) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٨٤/٣، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود٣٣١/٢، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ١١/٤، وشرح منح الجليل ٣٧٩/٣، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي ٣٣٩/٤، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٣٠٩/٦، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٦٧٥/٢، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ١٠٥/٥.

(٢) شرح معاني الآثر ١٠٧/٢، والمبسوط، السرخسي ٦٨/٣ وما بعدها.

(٣) مواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٤٤٥/٢، والتاج والإكليل شرح مختصر خليل، وهو مطبوع بهامش مواهب الجليل شرح مختصر خليل، المواق ٣٥٦/٣.

(٤) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٤٤٩/٦، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٤٣٠/١.

(٥) الفروع، ابن مفلح ١٣٢/٣، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ٣٥٣/٣.

(٦) وانظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية٩٦/٢٨ وما بعدها.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل الأخوة في الله.

ثانيًا: من واجبات المدعو: الاطمئنان على أحوال إخوانه.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: إكرام الضيف.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: إعطاء كل ذي حق حقه.

سادسًا: من آداب المدعو: سؤال أهل الذكر والعلم.

سابعًا: من مهام الداعية: تقويم تصرفات المدعوين.

ثامنًا: من موضوعات الدعوة: بيان يسر تعاليم الإسلام.

تاسعًا: من وسائل الدعوة: الزيارة.

عاشرًا: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل الأخوة في الله:

إنّ الأخوة في الله تعلُو على أخوة النسب وترتفع، لأنها مبنية على أسس أمتن وقواعد أثبت، لذا عمل النبي ﷺ على ترسيخها بين المسلمين وتفعيلها في الواقع كما يتضح في هذا الحديث من قول أبي جحيفة رضي الله عنه: ((آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء)). وذلك ليذهب عنهم وحشة الغربة، ويشد بعضهم ببعض، قال ابن حجر: (قال السهيلي: آخى ﷺ بين أصحابه رضي الله عنهم ليذهب عنهم وحشة الغربة ويتأنسوا من مفارقة الأهل والعشيرة ويشد بعضهم أزر بعض، فلما عز الإسلام واجتمع الشمل وذهبت الوحشة أبطل المواريث [بينهم] وجعل المؤمنين كلهم إخوة، وأنزل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[(١)] يعني في التوادد وشمول الدعوة)[(٢)].

---

(١) سورة الحجرات، آية: ١٥.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢١٧/٧.

وقال القرطبي: (قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ أي في الدين والحرمة لا في النسب)[1] فإن (الإيمان قد عَقَدَ بين أهله من السبب القريب والنسب اللاصق، ما إن لم يفضل الأخوة ولم يبرز عليها، لم ينقص عنها ولم يتقاصر عن غايتها)[2].

ولما آخى النبي ﷺ بين الصحابة رضي الله عنهم ضربوا أروع الأمثلة قيامًا بحقوق الأخوة ورعاية لها[3]. فعن عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: (لما قدمنا المدينة آخى رسول الله ﷺ بيني وبين سعد بن الربيع، فقال سعد بن الربيع: إني أكثر الأنصار مالاً، فأقسم لك نصف مالي. وانظر أي زوجتيّ هويت نزلت لك عنها فإذا حلّت تزوجتها)[4].

ثانيًا- من واجبات المدعو: الاطمئنان على أحوال إخوانه:

إنّ مما يثبت الأخوة بين المدعوين ويزيد الألفة بين قلوبهم والمحبة بين أرواحهم أن يطمئن كل واحدٍ منهم على أحوال إخوانه وأن يتفقد أخبارهم، وقد فعل ذلك سلمان رضي الله عنه عندما رأى أم الدرداء رضي الله عنها وقد تركت لبس ثياب الزينة[5] فسألها: "ما شأنك؟"، وذلك ليعرف حال أخيه وحالها، اطمئنانًا وتقديمًا للعون والنصح، قال ابن حجر: (في هذا الحديث... جواز مخاطبة الأجنبية، والسؤال عما يترتب عليه المصلحة وإن كان في الظاهر لا يتعلق بالسائل، وفيه النصح للمسلم)[6]. ويقتدي المدعو في ذلك بالنبي ﷺ. فقد كان ﷺ يطمئن على أحوال أصحابه رضي الله عنهم. فعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي مج٨/١٦/٣٢٢.

(٢) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: الزمخشري: محمود بن عمرص ١٠٣٧-١٠٣٨.

(٣) انظر الأحاديث الواردة في الأخوة وآدابها، في تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٧/٣٧٥، وموسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن محمد بن عبدالرحمن بن ملوح ٢/٩٢-١١٧.

(٤) أخرجه البخاري ٢٠٤٨.

(٥) انظر فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤/٢٤٨.

(٦) المرجع السابق ٤/٢٤٩.

قال: (خرجت مع رسول الله ﷺ في غزاة فأبطأ بي جملي، فأتى عليّ رسول الله فقال لي: ((يا جابر)). قلت: نعم. قال: ((ما شأنك؟)) قلت: أبطأ بي جملي وأَعْيَا فتخلفتُ. فنزل فحجنه بِمِحجنه[1] ثم قال: ((اركب)) فركبت فلقد رأيتني أكفُّه عن رسول الله ﷺ، فقال: ((أتزوجت؟)) فقلت: نعم. فقال: ((أبكرًا أم ثيبًا؟)) فقلت: بل ثيب. قال: ((فهلا جارية تلاعبها وتلاعبك؟)) قلت: إن لي أخوات فأحببت أن أتزوج امرأة تجمعهن وتمشطهن وتقوم عليهن)[2].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: إكرام الضيف:

إن من الصفات التي حث الإسلام على التحلي بها إكرام الضيف، وقد كان الصحابة رضي الله عنهم القدوة في ذلك، فقد أعد أبو الدرداء طعامًا لأخيه سلمان رضي الله عنهما وقال له: كل فإني صائم.

وهذا فيه إكرام لضيفه وعناية به وإعزاز له، ولاشك أن إكرام الضيف من محاسن الأخلاق، وقد جاء الإسلام بالحث عليها والأمر بها، فقد قال النبي ﷺ عن إكرام الضيف: ((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه))[3].

قال النووي: ((معنى الحديث أن من التزم شرائع الإسلام لزمه إكرام ضيفه وبرّه... والضيافة من آداب الإسلام وخلق النبيين والصالحين))[4].

وقال ابن هبيرة: "لما كان الضيف من حيث إنه يأوي إلى مضيفه في حالة يتعين على المضيف أن يقوم منها بمبلغ وسعه، إيمانًا بأن الله سبحانه وتعالى سيخلف عليه ما أنفق على ضيف قَصَدَه، لا قرابة بينه وبينه، ولا يرجوه ولا يخافه، بل من حيث إنه يأوي إليه، فكان ذلك من خصال الإيمان"[5].

---

(١) المحجن: عصا فيها تعقف يلتقط بها الراكب ما سقط منه. شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٩٢٠.

(٢) أخرجه البخاري ٢٠٩٧، ومسلم ٥٧-٧١٥ كتاب الرضاع.

(٣) أخرجه البخاري ٦٠١٨، ومسلم ٤٧.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢٣ بتصرف يسير.

(٥) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم ٣٩١/٦.

جاء في الموسوعة الفقهية: (تعتبر الضيافة من مكارم الأخلاق، وسنة الخليل عليه الصلاة والسلام والأنبياء بعده. وقد رغب فيها الإسلام، وعدّها من أمارات صدق الإيمان)[١].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

إن الأمر بالمعروف من الموضوعات التي اهتم بها الإسلام اهتمامًا كبيرًا جدًا، وحضّ أتباعه على القيام بها، وقد قام الصحابة بهذا خير قيام كما يتضح في هذا الحديث، فقد أمر سلمان أبا الدرداء بالمعروف فرفض الأكل الذي قدمه إليه حتى يأكل معه أبو الدرداء، ثم أمره بالنوم حين قام يصلي في أوله أو بعده، فلما كان آخر الليل أيقظه فصليا ثم أخبره بما يجب عليه وأنه يجب أن يُعطي كل صاحب حق حقه "فأعط كل ذي حق حقه". ويريد بذلك حق زوجته عليه، وذلك لأن إهمال حق الزوجة يؤدي إلى مفسدة أكبر من المصلحة العائدة من القيام بالنوافل من صلاة وصيام.

فقد قام سلمان بحق الأمر بالمعروف مع أخيه أبي الدرداء، وقد قال الله عن المؤمنين والمؤمنات: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٢] وجعله النبي ﷺ صدقة فقال: ((وأمر بالمعروف صدقة ونهي عن المنكر صدقة))[٣].

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم حريصين على القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وليس أدل على ذلك من قول أبي بكر الصديق في خطبته عندما ولي الخلافة (أيها الناس فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت

---

(١) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية٢٨/٣١٦ ومصادرها.

(٢) سورة التوبة، آية: ٧١.

(٣) أخرجه مسلم ٧٢٠.

فقوِّموني، الصدق أمانة والكذب خيانة)[١].

خامسًا- من موضوعات الدعوة: إعطاء كل ذي حق حقّه:

لقد حَرَص الإسلام على إعطاء كل ذي حق حقَّه، وإيصاله إليه دون نقصٍ أو اعتداء، لأنّ الإسلام دين العدل، وهذا يتضح من قول سلمان الفارسي لأبي الدرداء رضي الله عنهما: "فأعط كل ذي حق حقه" قال ابن حجر: (وفيه جواز النهي عن المستحبات إذا خشي أن ذلك يفضي إلى السآمة والملل، وتفويت الحقوق المطلوبة الواجبة أو المندوبة الراجح فعلها على المستحب المذكور)[٢].

وقد كان النبي ﷺ حريصًا أن يعطي كل صاحب حق حقَّه، لذا أمر عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه لما رآه مفرِّطًا في بعض الحقوق، بسبب صومه النهار وقيامه الليل، أمره بما يجعله قادرًا على القيام بحقوق أصحاب الحقوق، فقال له: ((لا تفعل، صم وأفطر وقم ونم، فإن لجسدك عليك حقًا، وإن لعينيك عليك حقًا، وإن لزوجك عليك حقًا وإن لزورك عليك حقًا))[٣].

وهكذا ينبغي أن يكون حال المسلم دومًا، يعطي كل ذي حق حقه، فلا يفرط في حقوق ولا يغالي في حقوق، بل هو وسط، إنه يوازن بين الحقوق فلا يضيع حقًا ولا يهمله، إنّه يعرف الحقوق التي عليه، فيجدُّ في أدائها على أحسن ما يكون دون إفراط ولا تفريط.

سادسًا- من آداب المدعو: سؤال أهل الذكر والعلم:

إن أهم طرق المعرفة سؤال أهل العلم، ولقد كان الصحابة رضي الله عنهم حريصين على سؤال النبي ﷺ، وهذا واضح من قول الراوي: ((فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له))، وفي رواية

---

(١) أخرجه ابن إسحاق كما في البداية والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٨٩/٨، ٤١٥/٩. وقال ابن كثير: وهذا إسناد صحيح. وانظر الكنز الأكبر من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. عبدالرحمن بن أبي بكر بن داود الحنبلي الدمشقي الصالحي ٨٥٦هـ، تحقيق: د. مصطفى عثمان صميدة، وانظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن محمد بن عبدالرحمن بن ملوح ٥٢٥/٣-٥٣٩.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٤٩/٤.

(٣) أخرجه البخاري ١٩٧٥، ومسلم ١٨٢-١١٥٩.

الترمذي: ((فأتيا النبي ﷺ فذكر ذلك))[١].

وقد أرشد القرآن إلى وجوب سؤال أهل العلم فقال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٢] (والآية عامة في كل مسألة من مسائل الدين، إذا لم يكن عند الإنسان علم منها أن يسأل من يعلمها من العلماء الراسخين)[٣].

وقد نعى النبي ﷺ على من أفتى بدون علم ولم يرجع إلى أهل العلم لسؤالهم، فقال في الرجل المجروح الذي سأل أصحابه عن التيمم فأفتوه بأن يغتسل، فاغتسل فمات- قال: قتلوه قتلهم الله، ألا سألوا إذا لم يعلموا، فإنما شفاء العي السؤال))[٤].

قال شرف الحق العظيم الآبادي: (إنما قاله زجرًا وتهديدًا والعي الجهل، والمعنى أن الجهل داء وشفاءها السؤال والتعلم)[٥].

سابعًا- من مهام الداعية: تقويم تصرفات المدعوين:

إن من مهام الداعية تقويم تصرفات المدعوين وأفعالهم حتى يبين لهم الصحيح من غيره، والحق مما سواه، وهذا يتضح من قول النبي ﷺ "صدق سلمان" فقد أثنى النبي ﷺ على قول سلمان، وهذا معناه أنه موافق للشرع، بخلاف ما إذا كان غير موافق فإن النبي ﷺ لن يقرّه.

وفي القرآن الكريم والسنة النبوية تقويم لتصرفات المدعوين، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أصابني الجهد، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئًا، فقال رسول الله ﷺ: (ألا رجل يُضيفه هذه الليلة يرحمه الله؟ فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله فذهب إلى أهله فقال لامرأته: ضيف

---

(١) أخرجه الترمذي ٢٤١٣.

(٢) سورة النحل، آية: ٤٣.

(٣) التفسير الميسر، إعداد نخبة من العلماء ٢٧٢.

(٤) أخرجه أبوداود ٣٣٦، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٢٥).

(٥) عون المعبود على سنن أبي داود، محمد أشرف الحق العظيم آبادي ١٨٥.

رسول الله لا تدَّخريه شيئًا قالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم وتعالي فأطفئي السراج ونطوي بطوننا الليلة ففعلت، ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ فقال: ضحك الله أو عجب من فعالكما، فأنزل الله ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1].

ومن ناحية أخرى فإن النبي ﷺ لم يرض عن بعض أفعال المدعوين فقومها، من ذلك ما رواه النعمان بن بشير رضي الله عنهما أن أباه أتى به إلى رسول الله ﷺ فقال: إني نحلت ابني هذا غلامًا. فقال: أكل ولدك نحلت مثله؟ قال: لا. قال: فارجعه[2]. وفي رواية: ((اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم)). قال: فرجع أبي فردّ تلك الصدقة[3].

قال الشيخ عبدالله البسام: "قال العلماء: يجب الإنكار على من خالف ففضّل أولاده على بعضهم في الهبة، لأنه حيف وظلم، والنبي ﷺ أنكر على بشير هذا ما لم يكن التخصيص أو التفضيل لمسوِّغ شرعي يدعو إلى ذلك، فإن كان ثم مسوِّغ فلا بأس"[4].

ثامنًا- من موضوعات الدعوة: بيان يسر تعاليم الإسلام:

إن من أهم خصائص شريعة الإسلام اليسر وبُعدَها عن التشدد تمام البعد، فلا حرج فيها ولا مشقة، يتضح ذلك من أمر سلمان رضي الله عنه أبا الدرداء رضي الله عنه بأن ينام عندما أراد القيام، وأن يُفطر وقت صيامه النفل، وذلك لكي يقوم بالحقوق الأخرى التي عليه وتصديق النبي ﷺ لما أمر به سلمان وثنائه عليه.

وقد تضافرت نصوص الكتاب والسنة على يسر الإسلام وتعاليمه، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾[5] أي: (يريد الله تعالى بما شرعه

---

(١) سورة الحشر، آية: ٩ والحديث أخرجه البخاري ٣٧٩٨، ٤٨٨٩، ومسلم ٢٠٥٤.

(٢) أخرجه البخاري ٢٥٨٦، ومسلم ٩-١٦٢٣.

(٣) أخرجه البخاري ٢٥٨٧، ومسلم ١٣-١٦٢٣.

(٤) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله البسام ٤/٢٦٤.

(٥) سورة النساء، آية: ٢٨.

لكم التيسير وعدم التشديد عليكم لأنكم خلقتم ضعفاء)[١].

وقالت عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ: ((ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه))[٢] قال النووي: (فيه استحبابه الأخذ بالأيسر والأرفق ما لم يكن حرامًا أو مكروهًا)[٣].

تاسعًا- من وسائل الدعوة: الزيارة:

يسلك الداعية كل وسيلة مشروعة لتبليغ دعوته، من ذلك الزيارة كما في الحديث، قول الراوي: "فزار سلمان أبا الدرداء" قال ابن حجر: (في هذا الحديث من الفوائد مشروعية المؤاخاة في الله وزيارة الإخوان والمبيت عندهم)[٤]. والزيارة وسيلة ناجحة يستخدمها الداعية لأنها تحمل قدرًا كبيرًا من التواد والقرب والخصوصية. وقد كان النبي ﷺ يزور أصحابه، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ زار أهل بيت من الأنصار فطعم عندهم طعامًا، فلما أراد أن يخرج أمر بمكان من البيت فنضح له على بساط، فصلّى عليه ودعا لهم[٥]. قال ابن حجر: (في الحديث استحباب الزيارة ودعاء الزائر لمن زاره وطعم عنده)[٦].

عاشرًا- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

ذلك في قول سلمان رضي الله عنه لامرأة أبي الدرداء رضي الله عنهما "ما شأنك" وجوابها "أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا" فعلم سلمان رضي الله عنه حال أبي الدرداء رضي الله عنه عن طريق السؤال والجواب ثم قدم نصحه لأبي الدرداء رضي الله عنه، وقد أثنى النبي ﷺ على هذا النصح.

---

(١) التفسير الميسر، إعداد نخبة من العلماء ٨٣.

(٢) أخرجه البخاري ٣٥٦٠، ومسلم ٢٣٢٧.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٤٣٢، وانظر: مظاهر التيسير في التشريع الإسلامي، د. عبدالعزيز محمد عزام.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤/٢٤٩.

(٥) أخرجه البخاري ٦٠٨٠.

(٦) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠/٥١٦.

الحديث رقم (١٥٠)

١٥٠- وعن أَبي محمد عبدِ اللَّهِ بن عمرو بنِ العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: أُخْبرَ النَّبِيُّ ﷺ أنِّي أَقُول: وَاللَّهِ لأَصومَنَّ النَّهَارَ، ولأَقُومنَّ اللَّيْلَ ما عشْتُ، فَقَالَ رسُول اللَّه ﷺ: «**أَنْتَ الَّذِي تَقُول ذلك؟**» فَقُلْت له: قَدْ قُلْتُه بأَبِي أَنْتَ وأُمِّي يا رسولَ اللَّه. قَالَ: «**فَإِنك لا تَسْتَطِيعُ ذلِكَ، فَصُمْ وأَفْطِرْ، ونَمْ وَقُمْ، وَصُمْ مِنَ الشَّهْرِ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ فَإِنَّ الْحسنَةَ بعَشْرِ أَمْثَالها، وذلكَ مثْلُ صِيامِ الدَّهْرِ**». قُلْت: فَإِنِّي أُطيق أفْضَلَ منْ ذلك. قَالَ: «**فَصمْ يَوْمًا وَأَفْطرْ يَوْمَيْنِ**»، قُلْت: فَإِنِّي أُطيق أفضَلَ مِنْ ذلكَ، قَالَ: «**فَصُم يَوْمًا وَأَفْطرْ يوْمًا، فَذلكَ صِيَام دَاود ﷺ، وَهُو أَعْدَل الصِّيَامِ**»[1].

وَفي رواية[2]: «**هوَ أَفْضَلُ الصِّيامِ**».

فَقُلْتُ فَإِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذلكَ، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**لا أَفْضَلَ منْ ذلك**»[3].

[4]وَلأنْ أَكُونَ قَبِلْتُ الثَّلاثَةَ الأَيَّامِ الَّتِي قال رسولُ اللَّه ﷺ أَحَبُّ إِلَيَّ منْ أَهْلِي وَمَالِي[5].

وفي روايةٍ[6]: «**أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَصومُ النَّهَارَ وتَقُومُ اللَّيْلَ؟**» قلت: بلَى يَا رسول اللَّهِ. قَال: «**فَلا تَفْعل: صُمْ وأَفْطرْ، ونَمْ وقُمْ فَإِنَّ لجَسَدك عليْكَ حقًّا، وإِنَّ لعيْنَيْكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَإِنَّ لزَوْجِكَ عليْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لـزَوْرك عَلَيْكَ حَقًّا، وإِنَّ بحَسْبكَ أَنْ تَصومَ فِي كُلِّ شَهْرٍ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ، فَإِنَّ لَكَ بِكُلِّ حَسَنَةٍ عشْرَ أَمْثَالِهَا، فَإِن ذلك صِيَامُ الدَّهْرِ**» فَشَدَّدْتُ فَشُدِّدَ عَلَيَّ، قُلْتُ: يا رسول اللَّه إِنِّي أَجِدُ قُوَّةً، قَال: «**صُمْ صِيَامَ نَبِيِّ اللَّهِ داوُدَ وَلا تَزدْ عَلَيْهِ**» قلت: وما كَان صِيَامُ داودَ؟ قال: «**نِصْفُ الدهْرِ**» فَكَان عَبْدُ اللَّهِ يقول بعْد مَا كَبِر: يا لَيْتَنِي قَبِلْتُ رُخْصةَ رسول اللَّه ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٧٦)، ومسلم (١٨١/١١٥٩) واللفظ له، من رواية سعيد، وأبي سلمة.

(٢) أخرجها البخاري (١٩٧٦) من رواية شعيب، عن الزهري.

(٣) أخرجها البخاري (١٩٧٦)، ومسلم (١٨١/١١٥٩) من رواية سعيد، وأبي سلمة.

(٤) قبلها عند مسلم زيادة: (قال عبد الله بن عمرو).

(٥) أخرجه مسلم (١٨١/١١٥٩) من رواية يونس عن الزهري، وهذه الزيادة ليست عند البخاري.

(٦) أخرجه البخاري (١٩٧٥) من رواية الأوزاعيّ، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة وحده.

وفي رواية[1]: «أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّك تصومُ الدَّهْرَ، وَتَقرأُ القُرآنَ كُلَّ لَيْلَةٍ؟» فَقُلْتُ: بَلَى يا رسولَ اللَّهِ، ولَمْ أُرِدْ بذلِكَ إلاَّ الْخيْرَ.

قَالَ[2]: «فَصُمْ صَوْمَ نَبِيِّ اللَّهِ داود، فَإِنَّه كَانَ أَعْبَدَ النَّاسِ».

[3]«وَاقْرأْ الْقُرآنَ في كُلِّ شَهْرٍ» قُلْت: يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنِّي أُطِيق أَفْضل مِنْ ذلِكَ؟ قَالَ: «فَاقْرَأه فِي كُلِّ عِشرِينَ» قُلْت: يَا نبيَّ اللَّهِ إِنِّي أُطِيق أَفْضَل مِنْ ذَلِكَ؟ قَالَ: «فَاقْرَأْهُ فِي كُلِّ عَشْر» قُلْت: يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنِّي أُطِيق أَفْضلَ مِنْ ذلِكَ؟ قَالَ: «فَاقْرَأْه في كُلِّ سَبْعٍ وَلاَ تَزِدْ عَلَى ذَلِكَ» فَشَدَّدْتُ فَشُدِّدَ عَلَيَّ، وقَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّكَ لاَ تَدْرِي لَعلَّكَ يَطُول بِكَ عُمُرٌ» قَالَ: فَصِرْت إِلَى الَّذِي قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ فَلَمَّا كَبِرْتُ وَدِدْتُ أَنِّي قَبِلْت رخْصَةَ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ.

وفي رواية[4]: «وَإِنَّ لوَلَدِك عليْكَ حَقًّا».

وفي روايةٍ[5]: «لا صَامَ من صَامَ الأَبَدَ» ثَلاثًا.

وفي روايةٍ[6]: «أَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللَّه تَعَالَى صِيَامُ دَاوُدَ، وَأَحَبُّ الصَّلاةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى صَلاةُ دَاوُدَ: كَانَ يَنَامُ نِصفَ اللَّيلِ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَكَانَ يَصُومُ يومًا ويُفطِرُ يَوْمًا، [وَلا يَفِرُّ إِذَا لاقَى]»[7].

---

(١) أخرجها مسلم (١١٥٩/١٨٢) من رواية عكرمة بن عمّار، عن يحيى بن أبي كثير.

(٢) هذا من الأحاديث التي نقلها المؤلف عن الحميدي في جمعه، وهو يورد الحديث كفقرات مستقلة بحذف بعض المكررات، والمؤلف يدرجه فيما قبله، فيوهم القارئ بتواصل الفقرات، وليس كذلك، ولأجل ذلك ننبه على كلّ فقرة مستقلة.

(٣) هذه الفقرة مستقلة، ذكر قبلها الحميدي، قوله: (وفيه).

(٤) أخرجها مسلم (١١٥٩/١٨٣) من رواية حسين المعلم، عن يحيى.

(٥) أخرجها البخاري (١٩٧٧)، ومسلم (١١٥٩/١٨٦) من رواية ابن جريج، عن عطاء.

تنبيه: تكررت في المطبوع من صحيح مسلم ثلاث مرات، وفي هامش الكتاب في نسخة مرَّتين، وكذا عند البخاري مرَّتين، وفصَّله الحميدي في جمعه (٤٢٨/٣) فقال: في حديث أبي عاصم، عن ابن جريج، وهو عند البخاري: مرَّتين. وفي رواية عبد الرزاق، عن ابن جريج، وهو عند مسلم: ثلاثا.

(٦) أخرجها البخاري (١١٣١)، ومسلم (١١٥٩/١٩٠) دون قوله: (ولا يفرُّ إذا لا قى) قال الحميدي في جمعه (٤٣٠/٣) وأخرجاه مختصرًا جامعًا من رواية عمرو بن أوس الثقفيّ.

(٧) ما بين المعكوفين لا يوجد عندهما.

وفي رواية[١] قَالَ: أَنْكَحَنِي أَبي امْرَأَةً ذَاتَ حسَبٍ، وكَانَ يَتَعَاهَدُ كَنَّتَهُ (أي: امْرَأَة ولَدِهِ) فَيسْأَلُهَا عَنْ بَعْلِهَا، فَتَقُولُ لَهُ[٢]: نِعْمَ الرَّجُلُ مِنْ رجُل لَمْ يَطَأْ لنَا فِرَاشًا ولَمْ يُفتِّشْ لنَا كَنَفًا مُنْذُ أَتَيْنَاهُ، فَلَمَّا طالَ ذَلِكَ عليه ذكَرَ ذلِكَ[٣] لِلنَّبِيِّ ﷺ. فقَالَ: «**الْقَنِي به**» فلَقيتُهُ بَعْدَ ذلكَ[٤]، فَقَالَ: «**كيفَ تَصُومُ؟**» قُلْتُ: كُلَّ يَوْم، قَالَ: «**وَكيْفَ تَخْتِم؟**» قلتُ: كُلَّ لَيلة.

وذَكَر نَحْوَ مَا سَبَق: وكَان يقْرأُ عَلَى بعْض أَهْلِه السُّبُعَ[٥] الَّذي يقْرؤهُ يعْرضُهُ مِن النَّهَارِ لِيكُون أَخفَّ علَيهِ بِاللَّيْل، وَإِذَا أَراد أَنْ يَتَقَوَّى أَفْطَر أَيَّامًا وأَحصَى، وصَام مِثْلَهُنَّ كَراهِيةَ أَن يتْرُك شيئًا فارقَ علَيهِ النَّبي ﷺ.

كُلُّ هذِهِ الرِّوَايات صحيحةٌ مُعْظَمُهَا فِي الصَّحيحيْنَ وقليلٌ منْهَا في أَحَدِهِما[٦].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمرو بن العاص: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٣٨).

غريب الألفاظ:

بأبي أنت وأمي: الباء متعلقة بمحذوف: اسم أو فعل، والتقدير: أنت مفدي أو أفديك[٧].

زورك: زائرك[٨].

---

(١) أخرجها البخاري (٥٠٥٢) من حديث أبي عوانة، عن مغيرة، عن مجاهد.

(٢) (له) لا توجد عند البخاري، وهي عند الحميدي.

(٣) (ذلك) لا توجد عند البخاري، وهي عند الحميدي.

(٤) (ذلك) لا توجد عند البخاري.

(٥) عند البخاري زيادة: (من القرآن بالنهار، و).

(٦) عزونا كلَّ فقرة مستقلة إلى من أخرجها، سواء اتّفقا على إخراجها أو انفرد أحدهما برواية بعضها، وكل هذه الروايات نقلها المؤلف من كتاب الجمع بين الصحيحين للحميدي (٤٢٨/٣-٤٣٠).

(٧) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٦٨/٢.

(٨) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ز و ر).

الأبد: الدهر[(١)].

بعلها: زوجها[(٢)].

لم يطأ لنا فراشًا: أي لم يضاجعنا حتى يطأ فراشنا[(٣)].

لم يفتش لنا كنفًا: أي لم يدخل يده معها كما يدخل الرجل يده مع زوجته في دواخل أمرها، وأرادت بذلك الكناية عن عدم جماعه لها[(٤)].

السُّبُع: جزء من سبعة، والمقصود سُبُع القرآن[(٥)].

الشرح الأدبي

تتعدد روايات هذا الحديث الشريف وهذا التعدد لا يعني التعارض، ولكنه يضيف بعض مظاهر التشدد التي يظنها البعض من وسائل التقرب، ومن معالم الورع والتقوى، ولكن رسول الله ﷺ حريص على أمته، وبالمؤمنين رءوف رحيم، وهو يعرف قدرات الناس، ولا يرضى أن تكون العبادة طريقًا للملل أو الضعف الجسماني، أو سببًا في تأزم العلاقة بين الزوج وزوجته، وبين الرجل وضيوفه وأبنائه، فالعبادة طاعة وتقرب إلى الله عز وجل، وهي شكر لله على ما أنعم به على عباده الحامدين الشاكرين، والروايات الخمس كلها ترشد إلى القصد في العبادة، وإلى أن التيسير في العبادات طريق إلى إتقانها والمداومة عليها، وهذا التيسير الذي أرشد إليه النبي كثيرًا، يجيء في هذا الحديث في قالب حواري مُشوِّق: فيه الإمتاع والإقناع، وفيه الترغيب والترهيب، وفيه التيسير والتبشير.

والحوار بين رسول الله ﷺ وعبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، وعبدالله بن

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (أ ب د).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ب ع ل).

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧١٤/٨.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ف ت ش)، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧١٤/٨.

(٥) انظر الوسيط ٤١٤.

عمرو أسلم قبل أبيه، وكان كثير العلم مجتهدًا في العبادة، تلاء للقرآن، وكان أكثر الناس أخذًا للحديث والعلم عن رسول الله ﷺ، وقد أقرّ أبو هريرة رضي الله عنه بذلك حيث قال: "ما كان أحد أكثر حديثًا عن رسول الله مني إلا عبدالله بن عمرو بن العاص، وكان يكتب ولا أكتب".

ولذلك حين نقرأ هذا الحوار البليغ الذي يُصر فيه عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما على أخذ نفسه بالمشقة في العبادة: ويقول: "إني أطيق أفضل من ذلك"، لا تتعجب ولا تستغرب حين نتعرف على صفاته وأحواله، فبعد موت رسول الله ﷺ، قال وهو يستكثر من عمل الخير ويزيد فيه، "الخير أعمله لله اليوم أحب إلي من مثليه مع رسول الله ﷺ، لأنا كنا مع رسول الله تهمنا الآخرة، ولا تهمنا الدنيا، وإنا اليوم مالت بنا الدنيا"[(١)].

وفي ضوء هذه السمات والخصائص التي كان يتسم بها: عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما: نستطيع أن ندرك أسرار كثير من الدلالات والمعاني التي تنبثق من هذا الحوار الكريم، انبثاق العطر من الأزهار، وانبثاق الضوء من الشموس والأقمار.

فالقسم والتأكيد في قوله: "والله لأصومن النهار ولأقومن الليل ما عشت"، يفصح بجلاء عن إخلاص النية وصدق التوجه، والتصميم على التنفيذ لأنه أقسم بالله عز وجل، وقوله "ما عشت" أي طيلة حياتي: وفي ذلك إلزام للنفس بالمشقة، وإجهاد للبدن، ولكنَّ عبدالله هل يستطيع الإبرار بالقسم، على الرغم من الضعف والمشقة؟؟؟!!!!

ويأتي توجيه الرسول ﷺ له في صورة استفهام حيث قال: "أنت الذي تقول ذلك"، وحذف أداة الاستفهام يدل على حرص الرسول ﷺ على توصيل المعنى في أسرع وقت، مع نبْرة التقرير والإشعار بعدم الموافقة على هذا النهج.

ولم ينكر عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما، لأنه لم يفعل منكرًا. ولكنه يبالغ في الطاعة ويشق على نفسه، ويظن أن ذلك هو النهج الأقوم والأمثل: فقال في أسلوب مرغب: وعاطفة صادقة، ومحبة لرسول الله ﷺ، وأتى بـ"قد" في أول القول، ومزج إجابته

(١) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٣٢٢/١.

بالدعاء للنبي ﷺ وذلك للإشعار بأنه مستعد لافتداء النبي ﷺ وكأنه يقول: إن هذه المشقة في الطاعة شيء يسير، وإنه يتمنى أن يفدى رسول الله ﷺ بنفسه، ولنتأمل هذا الجواب الذي يشرق بهذه المحبة الصادقة لرسول الله ﷺ: "قد قلته: بأبي أنت وأمي يا رسول الله"، ويستمر الحوار الأجمل والأحسن والأصدق، حيث لا يعنفه رسول الله ﷺ وكيف: وهو ينزع إلى الترقي في العبادة، وفداء رسول الله بنفسه دفاعًا عن العقيدة الإسلامية، ولكن يقول له في صيغة مؤكدة "إنك لا تستطيع ذلك"، ثم يوجهه إلى المنهج المعتدل، وإلى القصد في العبادة: وهو توجيه عام وشامل للأمة كلها: وجاء في صيغة الأمر... حيث قال: "فصم وأفطر، ونم وقم، وصم من الشهر ثلاثة أيام، فإن الحسنة بعشر أمثالها، وذلك مثل صيام الدهر".

والعبارة الأخيرة ترشد إلى أن المسلم إذا صام ثلاثة أيام من الشهر تحسب له بثلاثين يومًا فكأنه صام الشهر كله.

وحين يداوم على صيام هذه الأيام الثلاثة؛ فكأنه صام الدهر كله أى حياته التي قضاها عابدًا متبتلاً قوامًا صوّامًا في رفق ويسر.

ولنتأمل هذا التدرج في الحوار، وقوة إرادة عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما، ورغبته في الإكثار من العبادة، حيث رغب في المزيد، وقال للنبي ﷺ: "إني أطيق أفضل من ذلك"، ويفتح له النبي ﷺ بعض أبواب الخير ولا يمنعه من الاستزادة، ولا يَضِيقُ صدره لعدم استجابته لما أبداه له في الحوار من مظاهر التيسير ومضاعفة الثواب، ويقول له: "فصم يومًا وأفطر يومين"، فيقول عبدالله: "فإني أطيق أفضل من ذلك"، فيفتح له الرسول ﷺ بابا جديدًا من أبوابِ الخير والترقي في العبادة بناء على رغبته، ولا يمنعه من الاستزاده: ويقول له: "فصم يومًا وأفطر يومًا"، ثم يرغبّه في هذا السبيل القويم ويقول حتى يقتنع عبدالله "فذلك صيام داود، وهو أعدل الصيام". وفي رواية للبخاري: وهو: "أفضل الصيام"، وذلك لأن النفس تكتسب في يوم الفطر من القوى ما يجبر به ما لحقها من وَهَنِ الصوم، فتدوم على العمل، فيقول عبدالله: بعد هذا الترغيب من النبي ﷺ، وبعد هذا التدرج في الإقناع، والصبر على هذه المحاورة بدافع من حب النبي له،

وخوفه عليه حيث قال له: "إنك لا تستطيع" يقول عبدالله في صيغة التأكيد: "إني أطيق أفضل من ذلك"، وهنا يُحْسم الحوار.. ويكون موقف النبي ﷺ جازمًا وصريحًا ومقنعًا حرصا على مصلحة الأمة حيث قال: "لا أفضل من ذلك"، والجواب فيه إيجاز حيث حذفت كلمات عديدة، والإيجاز هنا يعطي دلالة الحزْم والجزْم والحسْم والقوْل الفَصْل، وكأن النبي ﷺ يقول: من خلال هذه الإجابة الحاسمة لا مناقشة ولا حوار، فقد انتهى الأمر.

ونهاية الحديث تشرق بحقيقة وقيمة البيان النبوي، وترشد إلى ضرورة الأخذ بمنهج التيسير في الإسلام، في ضوء توجيهات النبي ﷺ، لأن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما بعد أن كبر، وضعفت همته لضعف جسده، أدرك أن الذي اختاره رسول الله ﷺ من البداية هو المنهج السديد، والقول الرشيد: وهو الاكتفاء بصيام ثلاثة أيام في كل شهر، وهي في ثوابها وأجرها تساوي ثلاثين يومًا: والله يضاعف لمن يشاء، والله واسع عليم.

ولذلك يدرك عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما حكمة رسول الله ﷺ، واتساع رؤيته، وثاقب نظره، وصدق قوله، حين قال له مؤكدًا وقوله الصدق: "إنك لا تستطيع ذلك، فصم وأفطر، ونم وقم... الخ"، ويقول عبدالله بعد ما طَعَن في السن: مقرًا بصواب منهج القصد في العبادة "ولأن أكون قبلتُ الثلاثة الأيام التي قال رسول الله ﷺ أحب إلى من أهلي ومالي"، فصلَّى اللهُ وسلم عليك يا رسولَ الله، وأنت القائل: "إن الدين يسر ولن يشاد الدينَ أحدٌ إلا غلبه"[1]، وعَبدُ اللهَ رضي الله عنه بعد أن خاض تجربة الحياة، وأقام على الطاعة والتزم بصوم يوم وإفطار يوم: أدرك في آخر العمر أن هذه مشقة وأخذ للنفس بالشدة، وتمنى أن يكون قد استجاب لما عرضه عليه المصطفى ﷺ من تخفيف وتيسير، وفي الروايات الأخرى لهذا الحديث تفصيل لأسباب التيسير والابتعاد عن المشقة في العبادة: ومنها: مراعاة حقوق الغير، وإيجاد بعض الوقت لقضاء متطلبات الحياة، ورعاية الزوجة والأولاد، وحسن استقبال الضيوف، لأن المؤمن لا يعيش معزولاً، بل يجب

---

(١) أخرجه البخاري ٣٩، واللفظ له، ومسلم ٢٨١٦.

أن تكون حركته في المجتمع إيجابية فاعلة: يألف ويؤلف، يزور ويُزار، يُعلّم ويتعلّم، يعمل للناس ويعملون له، يستثمر ماله وينفقه في مشاريع الخير، ويعين المحتاجين، والضعفاء.

وهذه المعاني والسلوكيات تتوهج بها هذه التوجيهات التي صيغت في أسلوب التوكيد، وتكرر فيها لفظ "حقًا"، لزيادة التأكيد على ضرورة أداء هذه الحقوق والواجبات: وما أصدق هذا التوجيه النبوي الكريم الذي يحض على القصد في العبادة "صم وأفطر، ونم وقم، فإن لجسدك عليك حقًا، وإن لعينك عليك حقًا، وإن لزوجك عليك حقًا، وإن لزورك عليك حقًا، وإن لولدك عليك حقًا"، وقال رسول الله ﷺ لعبدالله، "إنك لا تَدْري لعلك يطول بك عمر" يقول عبدالله فصرت إلى الذي قال؟ وقد مات وعمره اثنتان وسبعون سنة في عام ثمانية وستين من الهجرة، في مصر وقيل بالطائف، ومات وهو ضعيف كما أخبره رسول الله ﷺ ولذلك قال: فلما كبرتُ وددتُ أني كنت قبلت رخصة نبي الله ﷺ.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى أكثر من حكم فقهي:

الأول: أحكام قيام الليل، وقد سبق الكلام عنها في الحديث رقم (٩٨).

الثاني: حكم صوم التطوع، وقد سبق الكلام عنه في الحديث رقم (١٤٣).

الثالث: حكم صيام الدهر، وقد اختلف الفقهاء في حكمه، فذهب الجمهور من الحنفية[(١)] والمالكية[(٢)] والحنابلة[(٣)] وبعض الشافعية[(٤)] إلى أن صوم الدهر مكروه لما

---

(١) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود٢/٧٩، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، الزيلعي١/٣٣٢.

(٢) مواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٢/٤٤٣، والتاج والإكليل شرح مختصر خليل، وهو مطبوع بهامش مواهب الجليل شرح مختصر خليل، المواق ٢/٣٧٦.

(٣) المغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٣/٥٣، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٥/٣٧٨، والفروع، ابن مفلح ٣/١١٤.

(٤) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٦/٤٤١.

فيه من المشقة والضعف وشبه التبتل المنهي عنه، ولأنه يصير الصوم طبعًا له ومبنى العبادة على مخالفة العادة، وذهب الشافعية[١] إلى أن صوم الدهر جائز متى لم يخف ضررًا ولم يفوت حقًا، والمراد بصوم الدهر سرد الصوم في جميع الأيام إلا الأيام التي لا يصح صومها كالعيدين وأيام التشريق، وقال الغزالي هو مسنون[٢].

المضامين الدعوية

أولاً: من مهام الداعية: الاستفهام من المدعو عما بلغه عنه.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: حب الصحابة رضي الله عنهم للنبي صلى الله عليه وسلم.

ثالثًا: من صفات الداعية: الشفقة على المدعو.

رابعًا: من آداب المدعو: الاستجابة لتوجيهات النبي صلى الله عليه وسلم.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: الموازنة والاقتصاد في فعل الطاعات.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: الترغيب في التوسط والتنفير من التشدد والتعمق في العبادات.

سابعًا: من موضوعات الدعوة: تأدب الزوجة مع زوجها.

ثامنًا: من أساليب الدعوة: الحوار والتوكيد والأمر والنفي والتعليل.

أولاً- من مهام الداعية: الاستفهام من المدعو عما بلغه عنه:

على الداعية أن يستوضح من المدعو ما بلغه عنه، حتى يرشده إلى الطريق الصحيح، وهو في هذا يقتدي بالنبي صلى الله عليه وسلم في قوله لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: "أنت الذي تقول ذلك؟" بعد أن أخبره أبوه عمرو بن العاص رضي الله عنه[٣] وفي رواية "ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل؟" وفي رواية في الصحيحين "فإما أرسل إليّ وإما لقيته"[٤].

---

(١) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٦/٤٤١ وما بعدها، وإحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ابن دقيق العيد ٢/٢٩، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ١/٤٣٢.

(٢) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٦/٤٤١، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية٢٨/١٧.

(٣) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤/٢٦٠.

(٤) أخرجه البخاري ١٩٧٧، ومسلم ١٨٦-١١٥٩.

قال ابن حجر: (ويجمع بينهما بأن يكون عمرو توجه بابنه إلى النبي ﷺ فكلمه من غير أن يستوعب ما يريد من ذلك ثم أتاه إلى بيته زيادة في التأكيد)[١].

وقد فعل ذلك النبي ﷺ مع الثلاثة الذين سألوا عن عبادته، وعزموا على المبالغة في عبادتهم، قال أنس بن مالك رضي الله عنه: ((فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟))[٢].

فبادر ﷺ إلى علاج الخلل الذي وقعوا فيه، وبيّن لهم أن ما عزموا عليه خلاف سنته ﷺ، وأن طريقته ﷺ التوسط والبعد عن الإفراط والتفريط.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: حب الصحابة رضي الله عنهم للنبي ﷺ:

لقد تواتر واشتهر حب الصحابة رضي الله عنهم للنبي ﷺ، فقد كانوا على أتم الاستعداد لأن يضحوا من أجله بالغالي والنفيس، كما يتضح هنا في هذا الحديث من قول عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: "قد قلته بأبي أنت وأمي يا رسول الله" قال ابن حجر: (الباء متعلق بمحذوف اسم أو فعل، والتقدير أنت مفدى أو أفديك [بأبي وأمي]. واستدل به على جواز قول ذلك. وزعم بعضهم أنه من خصائصه ﷺ)[٣].

كما يدل على هذا الحب خير دلالة ويوضحه خير توضيح ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: ((كنا قعودًا حول رسول الله، معنا أبوبكر وعمر في نفر، فقام رسول الله ﷺ من بين أظهرنا فأبطأ علينا وخشينا أن يُقْتَطَعَ دوننا[٤] وفزعنا فقمنا فكنت أول من فزع فخرجت أبتغي رسول الله ﷺ حتى أتيت حائطًا[٥] للأنصار لبني النجار فدرت به هل أجد له بابًا فلم أجد، فإذا ربيع[٦] يدخل في جوف حائط بئر خارجة فاحتفرت[٧] كما

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٥٧/٤.

(٢) أخرجه البخاري ٥٠٦٣ واللفظ له، ومسلم ١٤٠١.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٢٩/٢.

(٤) أي يصاب بمكروه من عدو، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٢.

(٥) أي بستانًا وسمي بذلك لأنه حائط لا سقف له. شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٢.

(٦) الربيع: الجدول وهو النهر الصغير، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٣.

(٧) احْتَفَزْتُ: بالزاي وليس بالراء كما جاء في الأصل، واحتفزتُ: أي تضاممتِ ليسعني المدخل إلى الشرح الشريف، ابن الحاج العبدلي. شرح صحيح مسلم، الإمام النووي للنووي ٢٣٦/١.

يحتفر الثعلب فدخلت على رسول الله ﷺ فقال: أبو هريرة؟ قلت: نعم...))[١].

قال النووي: (وفيه بيان ما كانت الصحابة رضي الله عنهم عليه من القيام بحقوق رسول الله ﷺ وإكرامه والشفقة عليه والانزعاج البالغ لما يطرقه، وفيه اهتمام الأتباع بحقوق متبوعهم، والاعتناء بتحصيل مصالحه ودفع المفاسد عنه)[٢].

ثالثًا- من صفات الداعية: الشفقة على المدعو:

وذلك في قوله ﷺ: "فإنك لا تستطيع ذلك فصم وأفطر ونم وقم..." وقوله ﷺ: "فلا تفعل، صم وأفطر ونم وقم، فإن لجسدك عليك حقًا، وإن لعينك عليك حقًا..." وفي رواية "وإن لولدك عليك حقًا". قال النووي: (حديث عبدالله بن عمرو بن العاص قد جمع مسلم طرقه فأتقنها، وحاصل الحديث بيان رفق رسول الله ﷺ بأمته وشفقته عليهم وإرشادهم إلى مصالحهم، وحثهم على ما يطيقون الدوام عليه، ونهيهم عن التعمق والإكثار من العبادات التي يخاف عليهم الملل بسببها أو تركها أو ترك بعضها)[٣].

وقد قال القاضي عياض: (ومن شفقته على أمته تخفيفه وتسهيله عليهم وكراهته أشياء مخافة أن تفرض عليهم، كقوله ﷺ: ((لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك مع كل وضوء))[٤]...)[٥]. ففي هذا الحديث (بيان ما كان عليه النبي ﷺ من الرفق بأمته ﷺ)[٦].

رابعًا- من آداب المدعو: الاستجابة لتوجيهات النبي ﷺ:

لقد بعث الله محمدًا ﷺ رحمةً للعالمين، فكان يرشدهم إلى ما هو أنسب وأرفق بهم. فكان أعرف من أنفسهم بما يصلحهم ويناسبهم، لذا كان على المدعو ان

---

(١) أخرجه مسلم ٣١.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٤.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٧١٦، وانظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٦٥/٤.

(٤) أخرجه أحمد ٤٦٠/٢ رقم ٩٩٢٨، وقال محققو المسند: إسناده صحيح ٢٢/١٦.

(٥) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض١٨٨/١.

(٦) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٢٦٧ وانظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٣٧/٢.

يستجيب لما يرشده إليه ويدلّه عليه، ومما يؤكد ذلك قول عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: (فشددت فشدِّد عليَّ، قلت: يا رسول الله إني أجد قوة قال: صم صيام نبي الله داود ولا تزد عليه" قلت: وما كان صيام داود؟ قال: نصف الدهر. فكان عبدالله يقول بعدما كبر: يا ليتني قبلت رخصة رسول الله ﷺ. وفي رواية: إنك لا تدري لعلك يطول بك عمرٌ. قال: فصرت إلى الذي قال لي النبي ﷺ. فلما كبرت وددت أني كنت قبلت رخصة نبي الله ﷺ.

قال ابن حجر: (قال النووي: معناه أنه كبر وعجز عن المحافظة على ما التزمه ووظفه على نفسه عند رسول الله ﷺ فشق عليه فعله لعجزه، ولم يعجبه أن يتركه لالتزامه له، فتمنى أن لو قبل الرخصة فأخذ بالأخف)[١].

ولعل من هذا القبيل ما رواه سعيد بن المسيب عن أبيه أن أباه جاء إلى النبي ﷺ فقال: ما اسمك؟ قال: حَزْن[٢]. قال: أنت سهل. قال: لا أغيّر اسمًا سمّانيه أبي. قال ابن المسيب: فما زالت الحزونة فينا بعد[٣].

خامسًا- من موضوعات الدعوة: الموازنة والاقتصاد في فعل الطاعات:

الإسلام دين الوسطية، فهو وسط بين الإفراط والتفريط، سمته الموازنة بين فعل الواجبات والمندوبات، بحيث لا يطغى جانب على آخر، لذا حرص الإسلام أشد الحرص على الموازنة بين الأعمال، كما يتضح في قول النبي ﷺ: "فلا تفعل صم وأفطر ونم وقم فإن لجسدك عليك حقًا، وإن لعينيك عليك حقًا...". وفي رواية في الصحيحين: "إنك إن فعلت ذلك هجمت له العين ونفهت[٤] له النفس... فصم صوم داود كان يصوم يومًا ويفطر يومًا، ولا يفرّ إذا لاقى"[٥].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤/٢٥٨-٢٥٩، وانظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٧١٧.

(٢) الحَزْن: بفتح المهملة وسكون الزاي: ما غلظ من الأرض، وهو ضد السهل، فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠/٥٩٠.

(٣) أخرجه البخاري ٦١٩٠، ٦١٩٣.

(٤) بكسر الفاء أي تعبت وكلّت. فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤/٢٦٥.

(٥) أخرجه البخاري ١٩٧٩، ومسلم ١٨٧-١١٥٩.

قال الخطابي: (المؤمن لم يُتعبد بالصوم فقط وإنما تعبد بأنواع من العمل كالجهاد والحج ونحوهما، فإذا استفرغ جهده في الصوم فبلغ حد غور العين وكلال البدن انقطعت وبطلت سائر أبواب العبادة، فأمره ﷺ بالاقتصاد في الصوم ليستبقي بعض القوة لسائر الأعمال)[(١)].

سادسًا- من موضوعات الدعوة: الترغيب في التوسط والتنفير من التشدد والتعمق في العبادات:

إن دين الإسلام أبعد الأديان عن التشدد والتعمق في العبادات، لأنه دين يُراعي الإنسان في كل أحواله وشؤونه من نشاط وملل وإقبال وفتور ونحو ذلك. كما أنه يعرف أن التعمق في العبادات قد يؤدي إلى عكس المطلوب من نحو ترك واجب أو واجبات أو بعض الطاعات، لذا رغّب الإسلام في التوسط في فعل الطاعات، كما يتضح في قول النبي ﷺ: "لا تستطيع ذلك فصم وأفطر...".

وواضح كذلك في قول عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما "فشددت فشدِّد عليّ" فكان عبدالله يقول بعدما كبر: "يا ليتني قبلت رخصة رسول الله ﷺ". قال النووي: (حاصل الحديث بيان رفق رسول الله ﷺ بأمته وشفقته عليهم وإرشادهم إلى مصالحهم وحثهم على ما يطيقون عليه ونهيهم عن التعمق والإكثار من العبادات التي يخاف عليهم الملل بسببها أو ترك بعضها، وقد بيّن ذلك بقوله ﷺ: "عليكم من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا"[(٢)].

وفي الحديث الآخر: "أحب العمل إليه ما داوم صاحبه عليه"[(٣)] وقد ذم الله تعالى قومًا أكثروا العبادة ثم فرطوا فيها، فقال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾[(٤)])[(٥)].

---

(١) أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري: الخطابي حَمْد بن محمد، تحقيق د. محمد بن سعيد آل سعود، ٩٧٧/٢.

(٢) أخرجه البخاري ٥٨٦١، ومسلم ٧٨٢.

(٣) أخرجه البخاري ٦٤٦٢، ومسلم ٧٨٣.

(٤) سورة الحديد، آية: ٢٧.

(٥) شرح صحيح مسلم، ٧١٨.

سابعًا- من موضوعات الدعوة: تأدب الزوجة مع زوجها:

إن من الأخلاق الجديرة بأن تتحلى بها الزوجة -وخاصة المسلمة- أن تتأدب مع زوجها ليس في تعاملها معه فحسب، بل في الإخبار عن حاله أيضًا إذا اقتضى الأمر ذلك، وقد ضربت الصحابيات المثل الأعلى في هذا الخلق، وتلك الصفة، يوضح ذلك قول زوجة عبدالله: "نعم الرجل من رجل لم يطأ لنا فراشًا ولم يفتش لنا كنفًا منذ أتيناه"، فقد تأدبت في الإخبار عن زوجها مع أنه كان مقصرًا في حقها.

ومن هذا القبيل ما حدث لإبراهيم عليه السلام مع زوجتيْ ابنه إسماعيل عليه السلام ((فقد جاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل فلم يجد إسماعيل فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت: نحن بشَرٍّ نحن في ضيقٍ وشدة فشكت إليه. قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له يغير عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل أخبرته فقال لها: "ذاك أبي وقد أمرني أن أفارقك" فطلقها وتزوج أخرى فجاء إبراهيم بعد ذلك فلم يجده فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت: خرج يبتغي لنا قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت:نحن بخير وسعة. وأثنت على الله. فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء. قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء. فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومُريه يثبت عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل أخبرته فقال: ذلك أبي وأنت العتبة أمرني أن أمسكك))[1].

وتأدب الزوجة مع زوجها ينبع من ضمن ما ينبع من فضله عليها وإحسانه إليها، حتى أن النبي ﷺ قال: ((لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ، لأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا))[2] قال المباركفوري (لكثرة حقوقه عليها وعجزها عن القيام بشكرها، وفي هذا غاية المبالغة لوجوب إطاعة المرأة في حق زوجها، فإن السجدة لا تحلّ لغير الله)[3].

---

(١) أخرجه البخاري ٣٣٦٤.

(٢) أخرجه الترمذي ١١٥٩، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٩٢٦).

(٣ تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١١٨٣/١.

ثامنًا- من أساليب الدعوة: الحوار والتوكيد والأمر والنفي والتعليل:

أما الحوار فواضح من الحديث الذي دار بين النبي ﷺ وعبدالله بن عمرو رضي الله عنهما وأما التوكيد فقسم عبدالله رضي الله عنه: "والله لأصومن النهار ولأقومن الليل ماعشت" ليؤكد عزمه على ذلك وتصميمه عليه، وقول النبي ﷺ: "إنك لا تستطيع ذلك، فإن الحسنة بعشر أمثالها، وإنك لا تدري لعلك يطول بك عُمُرٌ".

وأما الأمر فأمر النبي ﷺ عبدالله: "صم وأفطر ونم وقم..." وأما النفي فقول النبي ﷺ: "لا أفضل من ذلك" و"لا صام من صام الأبد".

وأما التعليل فقوله ﷺ: "فلا تفعل فإن لجسدك عليك حقًا، وإن لعينيك عليك حقًا...". وقوله ﷺ عن داود عليه السلام: "كان يصوم يومًا ويفطر يومًا، ولا يفر إذا لاقى".

الحديث رقم (١٥١)

١٥١- وعن أَبِي رِبْعِيٍّ حنْظَلَةَ بنِ الرَّبيع الأُسيدِيِّ الْكَاتِبِ، أَحدِ كُتَّابِ رسول اللَّه ﷺ قال: لَقينَي أَبُو بَكْر رضي الله عنه فقال: كَيْفَ أَنْتَ يا حنْظلَةُ؟ قُلْتُ: نَافَقَ حنْظَلَةُ، قَالَ: سُبْحانَ اللَّه ما تقُولُ؟، قُلْتُ: نَكُونُ عِنْد رسول اللَّه ﷺ يُذكِّرُنا بالْجنَّةِ والنَّارِ كأَنَّا رأْيَ عين، فَإِذَا خَرجنَا مِنْ عِنْدِ رسولِ اللَّهِ ﷺ عافَسنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلادَ وَالضَّيْعاتِ نَسينَا كَثِيرًا. قال أَبُو بكْر رضي الله عنه: فَواللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا فانْطلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْر حتى دخَلْنَا عَلى رسول اللَّه ﷺ. فقُلْتُ نافَقَ حنْظَلَةُ يا رسول اللَّه، فقالَ رسولُ اللَّه ﷺ: **«ومَا ذَاكَ؟»** قلْتُ: يا رسولَ اللَّه نُكونُ عِنْدكَ تُذَكِّرُنا بالنَّارِ والْجنَةِ كَأَنَّا رأْيَ العَيْنِ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسنَا الأَزوَاج والأَوْلادَ والضَّيْعاتِ نَسِينَا كَثِيرًا. فقال رسولُ اللَّه ﷺ: **«وَالَّذِي نَفْسِي بِيدِهِ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لصَافَحتْكُمُ الملائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُم وفي طُرُقِكُم، وَلَكِنْ يا حنْظَلَةُ ساعةً وساعةً»** ثَلاثَ مرَّاتٍ، رواه مسلم(١).

قولُهُ: **(رِبْعِيٌّ)** بكسر الراء. وَ**(الأُسَيِّدِي)** بضم الهمزة وفتح السين وبعدها ياء مكسورة مشددة. وقوله: **(عَافَسْنَا)** هُوَ بالعينِ والسينِ المهملتين أي: عالجنا ولاعبنا. وَ**(الضَّيْعاتُ)**: المعايش.

ترجمة الراوي:

حنظلة بن الربيع الأسيدي: هو ابن الربيع بن صيفيّ التميمي، وهو ابن أخي أكثم بن صيفي حكيم العرب يقال له "حنظلة الكاتب" لأنه كان من كتاب النبي ﷺ، وكانت الكتابة في العرب قليلة، وقد أرسله النبي ﷺ إلى أهل الطائف: ليخيرهم بين الصلح والحرب؟ فلما توجه إليهم قال رسول الله ﷺ ((ائتمّوا بهذا وأشباهِهِ))(٢) وشهد

---

(١) برقم (٢٧٥٠/١٢).

(٢) فيما ذكره ابن إسحاق كما في الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: د. طه محمد الزيتي ص (٣٠٤).

مع خالد بن الوليد رضي الله عنه حُروبَه بالعراق، ثم قَدِمَ مَعَه دَوْمة الجَنْدل من كُور دمشق ثم أتى معه إلى سُوى -وهو ماء لبهراء من ناحية السماوة- ووجَّهَهُ خالدٌ بالأخماس إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

وشهد القادسية، وهو ممّن تخلف عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه في قتال أهل البصرة يوم الجمل، وجُلُّ حديثه عند أهل الكوفة، وقد ترك الكوفة وخرج منها إلى قرقيسيا -بين الخابور والفرات- وقال: لا أقيم ببلد يُشتم فيه عثمان رضي الله عنه، وكان معتزلاً للفتنة.

وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم، وجاء عنه حديثان، وتوفي بعد علي بن أبي طالب رضي الله عنه ولما توفي جزعت عليه امرأته، فنهتها جاراتها، وقالت: إن هذا يُحبطُ أجرك، فقالت:

تعجَّبْ دَعْدُ لمخزونةٍ ... تبكي على ذي شيبة شاحب
إن تسألينِي اليوم ما شفَّني ... أخبرك قولاً ليسَ بالكاذبِ
إنَّ سوادَ العينِ أودى به ... حُزْنُ على حنظلةَ الكاتب

وتوفي في إمارة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه[1].

غريب الألفاظ:

عافسنا: قوله "عافسنا": هو بالعين والسين المهملتين أي: عالجنا ولاعبنا[2].

الضيعات: المعايش[3]، وفي النهاية: مفردها ضَيْعَة، وضَيْعَةُ الرجل ما يكون منه معاشه؛ كالصَّنْعَةِ والتجارة والزراعة وغير ذلك[4].

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر (١٣٨-١٣٩)، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٨٤/٢-٨٥)، الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: د. طه محمد الزيتي (٣٠٤)، الأعلام للزركلي (٢٨٦/٢)، تهذيب الكمال في أسماء لرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس، ومجدي السيد أمين (٢١٨/٢-٢١٩)، تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٥٠٦/١).

(٢) رياض الصالحين ١١٠.

(٣) رياض الصالحين ١١٠.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ض ي ع).

الشرح الأدبي

إن الدرس الذي نتعلمه من هذا الحديث الشريف: هو الحرْص على الطاعة، ومحاسبة النفس وإخلاص النية لله، والاقتداء برسول الله ﷺ.. مع الابتعاد عن المغالاة والشدة في العبادة.

وهذه الرسالة التوجيهية نتلقاها عَبْر ذلك الحوار الصادق بين اثنين من كبار الصحابة، وهما أبو بكر الصديق، وحنظلة بن الربيع الأسيِّدي، "الكاتب"، وهو من كتاب الوحْي، وهذه منزلة عظيمة وأفضلية لحنظلة في الإسلام، والحوار لم يُعدّ إعدادًا مُسبَّقًا ولكن صنعه الحدث المتمثل في حرص حنظلة على إخلاص العمل، وصدق النية، وكمال المراقبة والفكر والإقبال على الآخرة.

والرواية هنا لم تُسْرد في صيغة الغائب، ولكن جاءت على لسان المتكلم: وهو حنظلة، الراوي الأعلى، ثم يتصاعد الحوار، وتتنوع الأساليب، وتتعدد الأسئلة، وتأتي الإجابات مثيرة للتساؤل والدهشة، لأن قضية الحوار هي: اتهام حنظلة لنفسه، ولمن على شاكلته بالنفاق وهو غير ذلك، وهذا الاتهام على غير المألوف، لأن المعهود أن الذي يحكم بالنفاق على شخص هو شخص آخر، بناء على سلوكيات تُلقي به في دائرة النفاق، وحينئذ يكون الاتهام صحيحًا، وأحيانًا يكون الاتهام تجنيًا حين يبني على رؤية غير صائبة، وشواهد وأدلة عن ساحة الصدق غائبة.

ويبدأ الحوارُ بمشهد أخوي إنساني، ومسلك يترجم معنى الأخوة في الإسلام، حيث يسأل أبو بكر حنظلة حين لقيه، "كيف أنت يا حنظلة"، والسؤال فيه إيجاز وعموم وشمول حيث يريد أبو بكر أن يطمئنَّ على أحوال حنظلة كلها، وجمع في هذا السؤال المشحون بطاقة المحبة والأخوة بين ضمير المخاطب المفرد، "أنت"، واسم صاحبه، "حنظلة"، "كيف أنت يا حنظلة"، والنداء كذلك في هذا الاستفسار عن أحوال حنظلة، هذه السمات الأسلوبية تُكوِّن وتُجمِّل الرسالة الأخوية التي بثها وأرسلها الصديق رضي الله عنه إلى صاحبه "حنظلة، وهي من معالم الأخوة في الإسلام، ولنتأمل: بماذا أجاب حنظلة، إن إجابته تجيء على غير المعهود، وفيها انزياح وعدول عن الجواب المتوقع، حيث تكلم عن نفسه، بصيغة الغائب، وهنا التفات من المتكلم إلى الغائب، فقال: نافق حنظلة،

وهذه الصيغة التي أجاب بها توحي بأن إنسانًا آخر يتكلم عن حنظلة: ويحكى خبره لأبي بكر، وهذا العدول عن الصيغة المتوقعة، قد يكون باعثها رفض حنظلة للتكلم بنفسه عن هذه الخصلة، أو هذه الحالة من النفاق التي ظن أنها تمكنت منه، فكره أن يقول: نافقْتُ أو وقعتُ في النفاق، أو أن هذه الصيغة لتحديد الإدانة، وتحديد اسم المدان مبالغة في التأنيب.

ويتصاعد الحوار... ويتساءل أبو بكر الصديق في تعجب واستغراب ودهشة، حيث يقول سبحان الله ما تقول؟ وتصدير الاستفهام هنا بقوله، سبحان الله، مناسب للسياق، وللمقام، لأن سبحان من معانيها التنزيه، والبُعْد وكأنه لمعرفته بحنظلة يقول إن الله سبحانه وتعالى المتصف بكل كمال، والمنزه عن كل نقص يجعل حنظلة في مأمن من النفاق: ويجعله في منعة منه وابتعاد عنه، فصيغة السؤال توحي بتبرئة أبي بكر لحنظلة.

ومن سمات إحكام الحوار تكرارُ: "قال"، "وقُلْتُ"، بين حنظلة وأبي بكر الصديق، ويشرح حنظلة لأبي بكر السبب الذي دفعه إلى اتهام نفسه بالنفاق، وهو نفاق بمنأى عن خصال النفاق المعهودة، حيث يوازن بين شعورهم وخوفهم ورهبتهم في مجلس رسول الله ﷺ حين يذكرهم بالجنة والنار، وكأنهم يشاهدون مظاهر النعيم في الجنة، وصور العذاب في النار ويرونهما رأى العين، وهذه، الدقة في الوصف، والأمانة في التبليغ تحدث الخشية والرهبة والخوف والتقوى.

وخوف حنظلة، واتهامه لنفسه بالنفاق ناشئ من زوال هذه الخشية، وتلك الرهبة حين يخرجون من عند رسول الله ﷺ حيث ينشغلون بالزوجات والأولاد والضيعات: فينسون كثيرًا من هذه الطاقات الشعورية التي غمرتهم وهم في حضرة المصطفى ﷺ.

ولنتأمل: كيف صاغ "حنظلة" شرحه للظروف والملابسات التي أدت به إلى هذا الموقف في مواجهة النفس، إنه عدل عن صيغة المتكلم المفرد إلى صيغة الجَمْع للإشارة إلى أن هذه حالة جماعية، وليست حالة خاصة بحنظلة وحده: والأفعال الآتية في صيغتها الجماعية تفصح عن ذلك التوجه، وكأنه يشير إلى أن كثيرًا من الصحابة على هذه الشاكلة، ولذلك نجد الأفعال ترد على هذا النحو. (نكون عند رسول الله، يذكرنا

بالجنة والنار، فإذا خرجنا من عند رسول الله، عافَسْنا الأزواج والأولاد، فنسينا كثيرًا).

ويؤيد أبو بكر ما قاله حنظلة وما ارتآه من تغير الحالة الشعورية بعد انتهاء مجلس رسول الله ﷺ وهذا التأييد ليس إقرارًا بالنفاق... ولكن هذا هو واقع النفس الإنسانية في مواجهتها للأعباء الحياتية.

ويُقْسم أبو بكر، ويؤكد أنه ينتابه الشعور نفسه، وقال مُطَمئنًا: حنظلة، "فو الله إنا لنلقى مثل هذا".

واكتمالاً للدرس، وتعميقًا للفائدة: لا يكتفي أبو بكر بهذا الإقرار... ومثله بمنأى عن النفاق بكل صوره، يذهب مع حنظلة إلى رسول الله ﷺ لمزيد من المعرفة، والاطمئنان: وهذا هو المنهج الإسلامي السديد؛ ومرة أخرى يكرر "حنظلة اتهامه لنفسه" أمام رسول الله ﷺ: حيث قال: "نافق حنظلة يا رسول الله"، ولنتأمَّل موقف رسول الله من هذا الاتهام... وهو غير معهود ولا مألوف من مثل حنظلة، "وهو من كُتَّاب الوحي"، وتأتي إجابة المصطفى ﷺ هادئة متزنة لا يشوبها انفعال أو تقريع لحنظلة الذي اعترف بالنفاق، حيث قال له، "وما ذاك"، أي ما الذي جَعَلَك ترْمي نفسك بالنفاق، أى ما الدليل على صحة كلامك: وفي هذا التساؤل إشارة إلى براءة حنظلة من هذه التهمة الذاتية!!، فأعاد عليه، "حنظلة"، ما قاله لأبي بكر في صيغة الجَمْع، وكذلك في صيغة الخطاب للنبي ﷺ وهذا التكرار لهذه الصيغة مع العدول عن صيغة الجمع وكذلك في صيغة الخطاب للنبي ﷺ وهذا التكرار لهذه الصيغة مع العدول عن صيغة الغائب إلى صيغة المخاطب، يوحي برغبة حنظلة في مخاطبة النبي ﷺ ومحادثته في زَمنٍ أطْول بدافع من المحبة والتقدير والتشرف بمخاطبة رسول الله ﷺ وقمة الإحساس والشعور الصادق تتجلى في ذلك التعبير وهو يصف حال الصحابة رضي الله عنهم وهم يستمعون لرسول الله ﷺ وهو يذكرهم بالجنة والنار: يقول: كأنا رأي العين أي كأننا نرى مشاهد النعيم في الجنة، وصور العذاب في النار مشاهدة حقيقية، فيحصل لنا من ذلك كمال الخوف والمراقبة والتفكير في المآل والإقبال، على الآخرة، ثم يقول ويصور تغير الحالة الشعورية التي تنسى كثيرًا من معالم خوفها ورهبتها ووجلها في غمرة انشغالها بالأموال والأولاد والزوجات... وأمور الحياة المتشابكة "فإذا خرجنا من

عندك، عافَسْنا الأزواج والأولاد والضيعات فنسينا كثيرًا"، عافسنا أي: عالجنا ولاعبنا.

ويُطمْئن المصطفى ﷺ: حنظلة وأبا بكر، وكل مسلم: أخلص النية، وعمل صالحًا، ولم يشرك بعبادة ربه أحدًا، فيقول: والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عليه عندي، وفي الذكر، لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، وفي هذا البلاغ النبوي الذي جاء في أسلوب القسم، بشارة من رسول الله للسابقين المقربين الذين تثبت قلوبهم، ولا تتغير أحوالهم، وهؤلاء السابقون المقربون تصافحهم الملائكة على فرشهم وفي طرقهم، ثم يبشر رسول الله حنظلة، ويناديه بعد البشارة السابقة التي جاءت في أسلوب الشرط؟ والأداة، "لو"، هي: أداة امتناع لامتناع، إشارة إلى أن هذا الصنف قليل ونادرٌ وأما الواقع -والذي يتفق مع جبله البشر، والفطرة التي فطر الله الناس عليها- فيتضح في قول رسول الله ﷺ لحنظلة، "ولكن ياحنظلة: ساعة وساعة" وكرّرها ثلاث مرات، أي ساعة لأداء العبودية، وساعة للقيام بما يحتاجه الإنسان: وفي هذا القول تبرئة لحنظلة من تهمة النفاق، وبشارة له بصواب موقفه، وسلامة عقيدته، وموافقتها لفطرته.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم الاشتغال بالأمور الدنيوية وأعمال الكسب، وقد اتفق الفقهاء[1] على أن أفضل الكسب ما كان عن طريق الجهاد ثم ما كان بعمل اليد ومنها التجارة والزراعة والغرس والصناعة ورعي الأغنام وما إلى ذلك، وإن كانوا قد اختلفوا في أفضلها بعد الجهاد في سبيل الله.

---

(١) انظر في ذلك: بريقة محمودية في طريقة محمدية وشريعة نبوية في سرية أحمدية، محمد بن مصطفى الخادمي ١٤١/١، وشرح الخرشي على مختصر خليل، أبو عبدالله الخرشي ٤١٧/٧، والمدخل إلى الشرح الشريف، ابن الحاج العبدلي ٣/٤، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم المصري ١٢٧/٢، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢٤٧/٦، ٦٤/٩، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين بن الحسن ١٧١/٦، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٥٦٩/١، والآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ٢٩١/٣، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٢١٣/٦، و مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، السيوطي ١٦٧/٢، والمحلى، ابن حزم ٤٢/٧.

المضامين الدعوية

أولاً: من مهام الداعية: تفقد أحوال المدعوين.

ثانيًا: من آداب المدعو: السؤال عما يخاف منه على نفسه.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: بلاغة النبي ﷺ.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل الخوف والرجاء.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: التيسير في تكاليف الإسلام.

سادسًا: من صفات الداعية: التيسير على المدعوين.

سابعًا: من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب والسؤال والجواب والقسم والنداء والتكرار.

أولاً- من مهام الداعية: تفقد أحوال المدعوين:

إن الداعية الناجح هو الذي يخصص جزءًا من وقته لتفقد أحوال المدعوين، حتى يطلع على أحوالهم ويعرف ما يشغلهم، فيصحّح مايحتاج إلى تصحيح ويصوّب ما هو صَوَاب وحق. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن ذلك أداة لتأليف قلوب المدعوين وكسب ودهم، مما يجعلها تقبل ما يقوله الداعية وتعمل على امتثاله وتطبيقه. فضلاً عن أن عددًا غير قليل من المدعوين يعرض له ما يقطعه عن التواصل مع الداعية وإخباره بما يشغله، فكان قيام الداعية بهذا التفقد سدًا لهذا الخلل ومراعاة لهذا الأمر، وقد كان الصحابة رضي الله عنهم -وهم خير القرون- يتفقدون حال بعضهم بعضًا، كما يتضح من قول أبي بكر رضي الله عنه "كيف حالك يا حنظلة؟". فقد سأل أبوبكر حنظلة رضي الله عنهما عن حاله، ليطمئن ويقوم بواجب الأخوة، فيقدم العون والنصح إن كان هناك مجال لذلك، فضلاً عن تقريب القلوب وتأليفها.

وقد كان النبي ﷺ يسأل عن أصحابه ويتفقد أحوالهم: من ذلك سؤاله وهو بتبوك عن كعب بن مالك رضي الله عنه فقال: ((ما فعل كعب بن مالك؟))[1].

---

(١) أخرجه البخاري ٤٤١٨، ومسلم ٢٧٦٩.

بل فعل النبي ﷺ ذلك مع الكفار حتى دخلوا الإسلام، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ((بعث النبي ﷺ خيلاً قبل نجد فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثال، فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبي ﷺ فقال: ما عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي خيرٌ يا محمد إن تقتلني تقتل ذا دم وإن تُنعم تُنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت فترك حتى كان بعد الغد، فقال: ما عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي ما قلت لك. فقال: أطلقوا ثمامة، فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، يا محمد والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلي من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلي...))(١).

قال ابن حجر: (وفيه الملاطفة بمن يرجى إسلامه من الأسارى إذا كان في ذلك مصلحة للإسلام، ولا سيما من يتبعه على إسلامه العدد الكثير من قومه)(٢).

ثانيًا- من آداب المدعو: السؤال عما يخاف منه على نفسه:

إن المدعو قد تعرض له في حياته من الأمور ما يخاف منه على دينه ونفسه، فإن هو سكت سكت على أمر عظيم قد يؤدي به إلى ما لا تحمد عقباه في دنياه وآخرته، ومن ثم كان الواجب عليه أن يسأل أهل العلم حتى يبيّنوا له حقيقة ما فيه. ومن ثم يعرف ما يجب عليه فعله إزاء هذا الأمر. وقد كان الصحابة رضي الله عنهم - وهم خير القرون- يسألون النبي ﷺ عما يخافون منه على دينهم، وهذا واضحٌ من قول حنظلة رضي الله عنه: فانطلقت أنا وأبوبكر رضي الله عنه حتى دخلنا على رسول الله ﷺ فقلت: "نافق حنظلة...": فحنظلة خاف على نفسه أن يكون وقع منه النفاق، لذا أخبر أبا بكر بما يجول في نفسه طالبًا النصح والتقويم، كما أنهما انطلقا إلى النبي ﷺ ليخبراه بما أهمَّهما وخافا على نفسيهما منه.

وقد كان هذا فعل الصحابة رضي الله عنهم، فهذا حذيفة بن اليمان رضي الله عنه يقول: ((كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشرِّ مخافة أن يدركني))(٣).

---

(١) أخرجه البخاري ٤٣٧٢، ومسلم ١٧٦٤.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧/٦٩٠.

(٣) أخرجه البخاري ٣٦٠٦، ومسلم ١٨٤٧.

قال ابن أبي جمرة عن هذا الحديث: (فيه النظر في حكمة الله تعالى في عباده كيف يُعطي لكل شخص ما شاء الله أن يقيمه فيه، يؤخذ ذلك من أنه عز وجل حبب للصحابة رضي الله عنهم سؤالهم له ﷺ عن وجوه الخير كي يقتبسوها ويكونوا بابًا لها، وحبب لهذا الصحابي رضي الله عنه سؤاله له ﷺ عن وجوه الشر؛ كي يحذرها ويكون سببًا في سدها عمن قدَّر الله تعالى له النجاة منها)(١).

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: بلاغة النبي ﷺ:

لقد كان النبي ﷺ المثال الأعلى في البلاغة والذروة السامقة في الفصاحة، به يقتدي أبلغ البلغاء، وينهج نهجه أفصح الفصحاء، وصدق أحمد شوقي إذ قال في وصفه:

يا أفصح الناطقين الضاد قاطبة ... حديثك الشهد عند الذائق الفهم(٢)

فكان ﷺ إذا تكلم وضّح الأمر خير توضيح مع البلاغة الناصعة والفصاحة المشرقة. وهذا ما شهد به المعاصرون له من العرب، وهم أهل البلاغة والفصاحة، كما يتضح هذا من قول حنظلة رضي الله عنه: ((نكون عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالجنة والنار كأنا رأي عين)) والمعنى: (أي نراهما رأي عين)(٣). فقد وصف النبي ﷺ الجنة والنار وصفًا دقيقًا آخذًا بالألباب حتى يخيل للسامع أنه يراهما بعينه، وهذا أدعى للترغيب في الجنة والتخويف من النار.

وقد حذا النبي ﷺ في ذلك حذو القرآن فقد قال ﷺ: ((من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾))(٤).

---

(١) بهجة النفوس وتحليها بمعرفة ما لها وما عليها "شرح مختصر البخاري"، عبدالله بن أبي جمرة الأندلسي ٤/٢٦١.

(٢) الشوقيات ١/١٩٧، المكتبة التجارية الكبرى.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦١١، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٩٤٥.

(٤) أخرجه الترمذي ٣٣٣٣، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٦٥٣).

قال المباركفوري: (جعلت الشيء رأي عينك وبمرأى منك: أي حذاءك ومقابلك بحيث تراه، أي كأنه يراه رأي العين)[١]. قال القاضي عياض: (وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول، فقد كان ﷺ من ذلك بالمحل الأفضل، والموضع الذي لا يجهل سلاسة طبع، وبداعة منزع، وإيجاز مقطع، ونصاعة لفظ، وجزالة قول، وصحة معانٍ، وقلة تكلف، أوتي جوامع الكلم وخص ببدائع الحكم)[٢].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل الخوف والرجاء:

أما الخوف فواضح من قول حنظلة رضي الله عنه "نافق حنظلة" وإخبار أبي بكر رضي الله عنه أنه يلقى مثل ما يلقى حنظلة، قال النووي: (قوله "نافق حنظلة" معناه: أنه خاف أنه منافق حيث كان يحصل له الخوف في مجلس النبي ﷺ ويظهر عليه ذلك مع المراقبة والفكر والإقبال على الآخرة، فإذا خرج اشتغل بالزوجة والأولاد ومعاش الدنيا. وأصل النفاق إظهار ما يكتم خلافه من الشر، فخاف أن يكون ذلك نفاقًا)[٣].

وقال القرطبي: "إنكار منه على نفسه لما وجد منها في خلوتها خلاف ما يظهر منها بحضرة النبي ﷺ فخاف أن يكون ذلك من أنواع النفاق، وأراد من نفسه أن يستديم تلك الحالة التي كان يجدها عند موعظة النبي ﷺ ولا يشتغل عنها بشيء"[٤].

أما الرجاء فمستنبط من قول النبي ﷺ ((ولكن يا حنظلة ساعة وساعة)) فإن العبد يرجو عفو الله ورحمته وقت غفلته ونسيانه وتقصيره. قال النووي: (فأعلمهم النبي ﷺ أنه ليس بنفاق وأنهم لا يكلفون الدوام على ذلك. "وساعة وساعة"، أي: ساعة كذا، وساعة كذا))[٥].

---

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٢/ ٢٤٠٠.

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ١٥٨/١.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦١١.

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، تحقيق: محيى الدين مستو وآخرين ٦٦/٧.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦١١.

وقد قال تعالى في صفة المؤمنين: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[١] (أي: ترتفع جنوب هؤلاء الذين يؤمنون بآيات الله عن فراش النوم يتهجدون لربهم في صلاة الليل، يدعون ربهم خوفًا من العذاب وطمعًا في الثواب)[٢].

خامسًا- من موضوعات الدعوة: التيسير في تكاليف الإسلام:

إن الإسلام دين يسر لا عسر، يراعي أحوال النفس ومتطلباتها وحاجاتها، فلا يرهقها من أمرها عسرًا وشدة، ولا يتركها في الوقت نفسه هملاً دون تكاليف وتوجيهات، بل كلّفها بما تطيق وتحتمل، فلا هو قطعها عن الدنيا وفرغها للآخرة، بل جمع لها أمر الدارين، الدنيا والآخرة، وذلك واضح في قوله النبي ﷺ: ((والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم لكن يا حنظلة ساعة وساعة)).

اتضح ذلك التيسير في جمع الإسلام بين العمل للآخرة والعمل للدنيا، وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾[٣] أي: (والتمس فيما أتاك الله من الأموال ثواب الدار الآخرة، بالعمل فيها بطاعة الله في الدنيا ولا تترك حظك في الدنيا، بأن تتمتع فيها بالحلال دون إسراف)[٤].

سادسًا- من صفات الداعية: التيسير على المدعوين:

النفس البشرية تأنس إلى من ييسر لها الأمر ويسهل لها الشأن بما لا يبلغ درجة التفريط والتضييع والتهوين، فقد جبلت على حب التيسير والنفرة من التعسير والتشديد، لذا كان من الصفات التي يجب أن يتحلى بها الداعية التيسير في مكان التيسير، وهو يفعل ذلك مقتديًا بالنبي ﷺ، كما يتضح من هذا الحديث، فهو ﷺ

---

(١) سورة السجدة، آية: ١٦.

(٢) التفسير الميسر، إعداد نخبة من العلماء ٤١٦.

(٣) سورة القصص، آية: ٧٧.

(٤) التفسير الميسر، إعداد نخبة من العلماء ٣٩٤.

لم يطلب من حنظلة أن يداوم على الحالة التي عليها معه عندما ينقلب إلى شؤون دنياه، بل أقرّه على حاله التي يشكو منها وهوّن عليه وقال له: "لكن ساعة وساعة".

قال القرطبي: "قول أبي بكر ﷺ: (والله إنا لنلقى مثل هذا) رد على غلاة الصوفية الذين يزعمون دوام مثل تلك الحال، ولا يعرِّجون بسببها على أهل ولا مال، ووجه الرد أن أبا بكر ﷺ أفضل الناس كلّهم بعد رسول الله ﷺ إلى يوم القيامة، ومع ذلك فلم يدَّع خروجًا عن جبلّة البشرية، ولا تعاطى من دوام الذِّكر وعدم الفترة ما هو خاصة الملائكة... وسر ذلك أن هذا العالم الإنساني متوسط بين عالمي الملائكة والشياطين، فمكّن الملائكة في الخير بحيث يفعلون ما يؤمرون، ويسبحون الليل والنهار لا يفترون. ومكن الشياطين في الشرِّ والإغواء بحيث لا يغفلون، وجعل العالم الإنساني متلونًا، فيمكنه ويلوّنه، ويفنيه ويبقيه، ويشهده ويفقده. وإليه أشار صاحب الشفاعة بقوله: (ولكن يا حنظلة ساعة وساعة)"[(١)].

والتيسير صفة إذا تحلّى بها الداعية أتى بثمار طيبة تضاف إلى رصيد الدعوة وإنجازاتها، فالله سبحانه وتعالى يخاطب المؤمنين ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[(٢)].

وهذا النبي ﷺ يسأله الناس في الحج فيسهِّل عليهم وييسِّر. فعن عبدالله بن عمرو ابن العاص ﷺ أن رسول الله ﷺ وقف في حجة الوداع بمنى للناس يسألونه فجاءه رجل فقال: لم أشعر فحلقت قبل أن أذبح. فقال: اذبح ولا حرج. فجاء آخر فقال: لم أشعر فنحرت قبل أن أرمي؟ قال: ارم ولا حرج. فما سئل النبي ﷺ عن شيء قُدم ولا أخر إلا قال: افعل ولا حرج[(٣)].

فهذا الحديث دليل على (سماحة الشريعة وسعتها في أحكامها وعباداتها فلا ضيق ولا عنت)[(٤)].

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، تحقيق: محيى الدين مستو وآخرين ٦٧/٧ - ٦٨.

(٢) البقرة، آية: ١٨٥.

(٣) أخرجه البخاري ٨٣، ومسلم ١٣٠٦.

(٤) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله البسام، عبدالله البسام ٣٧١/٣.

سابعًا: من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب والسؤال والجواب والقسم والنداء والتكرار

أما الترغيب والترهيب فبذكر الجنة و النار "رأي عين"، أما السؤال فقوله ﷺ "وما ذاك؟" ثم جوابه ﷺ عمّا أهمَّهم وشغلهم.

وأما القسم فقوله ﷺ "والذي نفسي بيده" لتأكيد المقسم عليه وشدة أهميته، والنداء "يا حنظلة" (تقرير على الحالة التي كان عليها حنظلة وأنكر عليها، ومن ثم ناداه باسمه تنبيهًا على أنه كان ثابتًا على الطريق المستقيم وما نافق قط)[1]. وأما التكرار فقول الراوي "ثلاث مرات" وذلك (تأكيدًا لتأثير القول حتى يزيل عنه ما اتهم به نفسه)[2].

ولا شك أن استخدام هذه الأساليب الدعوية المختلفة والمتنوعة يُؤتي ثماره المرجوة ويساعد على امتثال المدعوين واستجابتهم لما يرشدهم إليه الداعية. فما أجمل أن ينوّع الداعية في استخدام أساليبه الدعوية بحسب الأحوال والأشخاص والمواقف، لينجح في توصيل رسالته الدعوية إلى المدعوين.

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٣٣٤/٤.

(٢) المرجع السابق ٣٣٤/٤.

الحديث رقم (١٥٢)

١٥٢- وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بيْنما النَّبيُّ ﷺ يَخْطُبُ إِذَا هُوَ برجُلٍ قَائِمٍ، فسأَلَ عَنْهُ فَقَالُوا: أَبُو إِسْرائيلَ نَذَرَ أَنْ يَقُومَ فِي (الشَّمْس) [1] وَلا يقْعُدَ، ولا يستَظِلَّ ولا يتَكَلَّمَ، ويصومَ، فَقالَ النَّبيُّ ﷺ: **«مُرُوهُ فَلْيَتَكَلَّمْ ولْيَستَظِلَّ ولْيُتِمَّ صوْمَهُ»** رواه البخاري[2].

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١).

الشرح الأدبي

هذا الحديث الشريف يختم به النووي باب "في الاقتصاد في العبادة"، وقد أورد (١١) أحد عشر حديثًا في هذا الباب، وكل حديث يعد صورة من صور التيسير والاقتصاد في العبادة، ومن تجليات هذا التيسير أن النبي ﷺ كان يدعو إلى ذلك ويأمر الذين يشقون على أنفسهم في العبادة، بأن يرفقوا بأنفسهم، وأن يقْتصدوا: حتى يتذوقوا حلاوة الطاعة، وحتى يكونوا بمنجاة من الملل والسأم، والعنت والإرهاق، وعبدالله بن عمرو بن العاص اعترف بذلك بعد أن كبر... وكان قد اختار لنفسه بعد حوارٍ مع رسول الله أن يصوم يومًا ويفطر يومًا طيلة حياته، ولم يكتف بصيام ثلاثة أيام من كل شهر، وذلك ما أشار عليه به النبي ﷺ وبعد أن كبر، عرف أنه شق على نفسه، وقال، فلما كبرت وددت أني كنتُ قبلتُ رخصة نبي الله ﷺ.

وهذا الحديث يعرض مشهداً من مشاهد العنف والتشدد في العبادة، بل وإلزام النفس بما لا يلزم في الشرع، وهذا أمر مردود، والمشهد تتجلى ملامحه والنبي ﷺ يخطب، فإذا به يرى رجلاً قائمًا والناس جلوس يستمعون إلى الخطبة، وهذا مشهد

(١) هذه الزيادة ليست في البخاري، وإنما عند الحميدي في جمعه (١٠٨/٢، رقم ١١٦٠). وقال الحافظ في الفتح (٣٧٢/١٥) في رواية الخطيب في المبهمات: (ويقوم في الشمس).

(٢) برقم (٦٧٠٤).

غريب مفاجئ، والبداية الأسلوبية للحديث، توحي بهذه الغرابة، وتلك المفاجأة: حيث يقول ابن عباس: بينا النبي يخطب إذا هو برجل قائم. "وبينا" في اللغة أصله "بين" زيدت عليه الألف بإشباع فتحة النون، وقيل، بينما، في بعض الروايات، وهو من الظروف الزمانية الملازمة للإضافة، وهذا يفيد المفاجأة، لأن إذا جاءت بعد ذلك.

وتتجلى حكمة النبي ﷺ في عدم زَجْر الرجل، وعدم توجيه الخطاب المباشر إليه لأن المقام مقام تشريع وتعليم، وقد لا يدرك الرجل أن ما فعله غير صائب، وإنما يظن أن هذا يقربه إلى الله أكثر، ويجعله قريبًا من النبي أكثر.

ونلاحظ أن النبي ﷺ لم يسأل أحدًا بعينه، ولم تأته الإجابة من شخص محدد، وجاءت الإجابة في صيغة الجمع، "فقالوا" حيث كان يعلم الكثير بموقفه وحالته: وهو: من الأنصار واسمه "يُسَيْر"، وكنيته "أبو إسرائيل"، والسياق يقتضي أنه كان حديث عهد بالإسلام: لأن النبي لم يعرفه، والرجل "نذر" والنذر واجب الأداء، ولكن في هذه الحالة: لا يجب الوفاء بالنذر، لأنه ألزم نفسه بما ليس يلزم في العبادة التي يقوم بها، فقد نذر أن يقوم في الشمس ولا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم، وهذه مشقة لم يأمرنا الإسلام بها، فالصوم له واجباته وسننه وآدابه، وليس منها: تعذيب النفس والوقوف في الشمس، والصوم عن الكلام.

والتفصيل في الأسلوب هنا ليس إسهابًا ولا تزيدًا: في قوله: "ولا يقعد ولا يستظل"، فمجيء هذين الفعلين لتأكيد ما قام به الرجل، وإصراره على ذلك، حيث يضيف إلى مشقة الصيام، مشقات كثيرات لم ترد في الشرع مثل الوقوف في الشمس وعدم القعود، وعدم الكلام، وعدم اللجوء إلى ظل الشجر، والوقوف في لهيب الشمس فأي إرهاق هذا وأي غلو في أداء العبادة.

ولذلك جاء تعبير النبي ﷺ حاسمًا قال: "مروه" والأمر للوجوب، ثم جاء بأربعة أفعال مضارعة مجزومة بلام الأمر: لإفادة وجوب التنفيذ والعدول عن هذا النهج المتشدد حتى في العبادة أو محبة رسول الله، والوقوف لاستماع خطبته، ولنتأمل موجبات هذه الكلمات النبوية المشرقة بهالات التيسير، والتبشير، "مروه، فليتكلم، وليستظل،

وليقعد، وليتم صومه"، فالصوم هنا هو العبادة والقربة، وقيل: إن النذر بالسكوت ليس قربه في شريعتنا.

ويفصل ابن رجب الحنبلي القول في هذا الأمر فيقول: إن أعمال العاملين كلهم ينبغي أن تكون تحت أحكام الشريعة، فتكون أحكام الشريعة حاكمة عليها بأمرها أو نهيها، فمن كان عمله جاريًا تحت أحكام الشريعة موافقًا لها فهو مقبول، ومن كان خارجًا عن ذلك فهو مردود.

ثم يقول: وليس ما كان قربة في عبادة يكون قربة في غيرها مطلقًا؟ ويستشهد ابن رجب بموقف هذا الرجل ويقول: فأمره النبي عن طريق أصحابه، أو أمره، مباشرة أن يقعد ويستظل ويتكلم وأن يتم صومه.

فلم يجعل قيامه وبروزه في الشمس قربة يوفى بنذرهما، وقد روى أن ذلك كان في يوم جمعة عند سماع خطبة النبي ﷺ وهو على المنبر، فنذر الرجل أن يقوم ولا يقعد ولا يستظل ما دام النبي ﷺ يخطب، إعظامًا لسماع خطبة النبي ﷺ؟ ولم يجعل النبي ﷺ ذلك قربة يوفى بنذره(١).

فالقصد في العبادة، منهج إسلامي يقوم على الاعتدال والاتزان، والالتزام بالضوابط الشرعية، والأحكام الفقهية، مع الابتعاد عن المبالغة في العبادة، وإعطاء كل ذي حق حقه. كما ورد في الحديث الذي رواه أبو جحيفة وهب بن عبدالله، وقول سلمان لأبي الدرداء رضي الله عنهما: "فأعط كل ذي حق حقه"، وقال النبي ﷺ: "صدق سلمان".

وما أشبه، "أبو إسرائيل" في موقفه بموقف الذين سألوا عن عبادة النبي: وكأنهم تقالّوها، فلجأوا إلى التشدّد في العبادة ظنًا أن ذلك سيقربهم إلى الله أكثر، فلقنهم الرسول درسًا نبويًا كريمًا في الالتزام بالمنهج الإسلامي المعتدل الذي يعطي كلَّ ذي حق حقَّه، حتى تعمر الحياة، وينعم الناس بعطاء الله، ويهتدوا إلى معالم النجاة،

---

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١/١٧٧، ١٧٨ بتصرف.

ويبتعدوا عن التقليد، والمحاكاة، لأقوال المبتدعين والمتنطعين، والمتفيهقين الغواة.

ولنتأمل هذا السلوك النبوي الرشيد، والمنهج المحمدي السديد، حيث يقول: ((إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني))(١).

فقه الحديث

إن النذر أمرٌ يفرضه الإنسان على نفسه، أو هو التزامه لله تعالى شيئًا بقوله لا بنية مجردة(٢)، وهو فعل معلق على حدوث أمر معين، وقد يكون غير معلق، ولكن النذر في الإسلام لا يكون إلا بخير.

وقد اتفق الفقهاء(٣) على جواز نذر القربة وأن من نذر شيئًا فعليه أن يفعله ما لم يكن معصية، ففي هذه الحالة لا يجوز له أن يفعله، ومن نذر ما ليس بقربة لم يلزمه النذر، ولا يصير قربة بالنذر، كمن نذر أن يقوم في الشمس ولا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم، فهنا لا يجب عليه الوفاء بنذره بل عليه أن يعدل عن نذره، وإذا جمع في النذر قربة وغيرها صح النذر في القربة وبطل في غيرها كما ورد في هذا الحديث. وليس عليه كفارة؛ لأنه لا نذر إلا فيما ابتغي به وجه الله، ونقل الإجماع في ذلك ابن قدامة.

---

(١) أخرجه البخاري، ٥٠٦٣، ومسلم، ١٤٠١.

(٢) الفروع، ابن مفلح ٣٩٥/٦.

(٣) انظر في ذلك: المبسوط، السرخسي ١٢٨/٣ وما بعدها، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود٨٢/٥ وما بعدها، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، الزيلعي١٥٣/٣، وأحكام القرآن، الجصاص ٣٥٢/١، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٣١٨/٣، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ٢٤٠/٣ وما بعدها، وأحكام القرآن، ابن العربي ٢٧/٤ وما بعدها، الأم، الإمام الشافعي، تحقيق: علي محمد وعادل أحمد، وغيره ٢٧٨/٢، ٧٣/٧، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٤٣٨/٨ وما بعدها، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٦٩/١، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٤٧٥/٣، وإعلام الموقعين ٢٩٥/٤، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، الإمام الشوكاني ٢٨١/٨ وما بعدها، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية١٦٥/٦.

المضامين الدعوية

أولاً: من وسائل الدعوة: الخطبة.

ثانيًا: من مهام الداعية: الانتباه لأفعال المدعوين.

ثالثًا: من واجبات الداعية: التحري والتثبت قبل الإنكار.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: القصد والاعتدال في الطاعة.

خامسًا: من أساليب الدعوة: الأمر.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: رحمة ويسر الإسلام.

سابعًا: من صفات الداعية: الشفقة والرفق بالمدعوين.

أولاً- من وسائل الدعوة: الخطبة:

تعد الخطبة من وسائل الدعوة، وقد ورد ذلك في الحديث في قول ابن عباس رضي الله عنهما: بينما النبي ﷺ يخطب، وقد استعمل النبي ﷺ هذا النوع من الوسائل في نشر دعوته لكثرة فائدته، وعظيم جدواه. ذلك أن الخطابة تساعد على الاتصال الجماعي وكانت خطبة النبي ﷺ في مجال العقيدة والشريعة والأخلاق، وكان إذا خطب احمرت عيناه، وعلا صوته واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش.

وكان ﷺ يعلم أصحابه في خطبته قواعد الإسلام وشرائعه، ويعالج الموضوعات التي تحتاج إلى بيان وتوضيح وكانت خطبته ﷺ تتضمن كل ما هو مفيد من الأوامر والنواهي والترغيب والترهيب، وغير ذلك مما يعمل على ترسيخ مبادئ الإسلام في نفوس المسلمين، ومعالجة القضايا التي تحتاج إلى علاج.

وكان ﷺ بأخلاقه العظيمة لا يعيب ولا يشتم ولا يجابه فردًا بأمر خاص. وهكذا جمع النبي ﷺ مزايا الخطيب القدوة[1].

ثانيًا- من مهام الداعية: الانتباه لأفعال المدعوين:

من مهام الداعية الانتباه لأفعال المدعوين بأن يكون على بصيرة بأفعال المدعوين في

---

(١) انظر: الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها، د. أحمد أحمد غلوش ص ٤١٩-٤٢١.

دعوته قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾(١). والشاهد على ذلك من الحديث: بينما النبي ﷺ يخطب إذا هو برجل قائم فسأل عنه.... فعلى الداعية أن يتبصر أحوال المدعوين وأخلاقهم وعوائدهم وطباعهم وأعرافهم، وما يصلح لهم ما يقبلون عليه ويتقبلونه وما ينفرون عنه، فيعطي لكل حال ما يناسبه(٢). وينتبه إلى أفعالهم فإذا كانت صحيحة أقرها وإن كانت غير ذلك صححها، فالداعية يقوم بمتابعة أفعال المدعوين والانتباه إليها، وهذا كان شأن النبي ﷺ في دعوته لأصحابه منتبهًا لأفعالهم، ما رأى من خير أقره وما رأى من خطأ نهاهم عنه وهداهم إلى الصواب.

ثالثًا- من واجبات الداعية: التحري والتثبت قبل الإنكار:

يظهر ذلك في سؤاله ﷺ أولاً عن سبب وقوفه قبل نهيه عن الوقوف. وهذا الفعل يؤكد على أهمية التثبيت والتريث قبل الإنكار والتوجيه حتى تكون المعالجة مناسبة، وقد أمر الله تعالى بالتبّين فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟﴾(٣).

قال القرطبي: (أي تأملوا، وقرأ حمزة (فتثبتوا)(٤). وقال السعدي رحمه الله: "يأمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يتبينوا، ويتثبتوا في جميع أمورهم المشتبهة.

فإن الأمور قسمان: واضحة وغير واضحة.

فالواضحة البينة، لا تحتاج إلى تثبت وتبين، لأن ذلك تحصيل حاصل. وأما الأمور المشكلة غير الواضحة، فإن الإنسان يحتاج إلى التثبت فيها والتبين..

فإن التثبت في الأمور يحصل فيه من الفوائد الكثيرة، والكف عن شرور عظيمة،

---

(١) سورة يوسف، آية: ١٠٨.

(٢) انظر: صفات الدعاة، د. عبدالرب بن نواب الدين، ط/١، دار العاصمة، الرياض: ١٤١٣هـ ص ٩٨.

(٣) سورة النساء، من آية: ٩٤.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٣/٦/٢٣٧.

فإن به يعرف دين العبد، وعقله، ورزانته، بخلاف المستعجل للأمور في بدايتها، قبل أن يتبين له حكمها، فإن ذلك يؤدي إلى ما لا ينبغي...

وإن ذلك يدل على الأمر بالتبين والتثبت في كل الأحوال التي يقع فيها نوع اشتباه، فيتثبت فيها العبد، حتى يتضح له الأمر، ويتبين الرشد والصواب"[(١)].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾[(٢)]. يأمر تعالى بالتثبت في خبر الفاسق ليحتاط له، لئلا يحكم بقوله فيكون في نفس الأمر كاذبًا أو مخطئًا، فيكون الحاكم بقوله قد اقتفى وراءه، وقد نهى الله عز وجل عن اتباع سبيل المفسدين[(٣)]. فعلى الداعية أن يتثبت ويتحقق قبل إنكاره للمنكر، ثم بعد ذلك يقوم بواجبه حيال إنكار المنكر[(٤)].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: القصد والاعتدال في الطاعة:

الإسلام دين الوسطية يحب القصد والاعتدال في الطاعة وفي كافة الأمور قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[(٥)] ولا يظنن أحد أن القصد خلاف السنة، أو أن الغلو زيادة في التقوى، فإن رسول الله ﷺ استنكر على من عزم على الغلو في الصيام أو القيام أو الانقطاع عن الشهوة، وأفهمهم أن التوسط هو الأتقى: ((أما والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني))[(٦)].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ١٥٨.

(٢) سورة الحجرات، آية: ٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٧/ ٣٧٠.

(٤) انظر: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأثرهما في حفظ الأمة، د. عبدالعزيز بن أحمد المسعود، ط٢، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، ٣٠٨-٣١٠.

(٥) سورة البقرة، من آية: ١٤٣.

(٦) أخرجه البخاري ٥٠٦٣، ومسلم ١٤٠١.

فالقصد في العبادة يرغب فيها، أما الغلو فإنه ينفر عن الطاعة قال رسول الله ﷺ ((عليكم بما تطيقون فوالله لا يمل الله حتى تملوا))[١] قال ابن حجر: أي: اشتغلوا من الأعمال بما تستطيعون المداومة عليه، فمنطوقه يقتضي النهي عن تكلف ما لا يطاق[٢].

وقال النووي: بدوام القليل تدوم الطاعة والذكر والمراقبة والنية والإخلاص والإقبال على الخالق سبحانه وتعالى، ويثمر القليل الدائم بحيث يزيد على الكثير المنقطع[٣].

وهذا ما فعله رسول الله ﷺ مع ذلك الرجل حيث أمره بالاقتصاد في الطاعة وإتيان ما يستطيع وترك عدم الكلام وعدم التظلل.

خامسًا- من أساليب الدعوة: الأمر:

من الأساليب الدعوية المهمة أسلوب الأمر، ويظهر أسلوب الأمر في هذا الحديث في قوله ﷺ ((مره فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه)). وأسلوب الأمر من الأساليب المفيدة في الدعوة إلى الله تعالى، ولا يستغنى الداعية في دعوته عن استعمال هذا الأسلوب لبيان الأمور التي يجب على المدعوين القيام بها مما أمر الله تعالى ورسوله به، وأسلوب الأمر يشعر المدعو بأهمية ما أمر به لتنفيذه.

سادسًا- من موضوعات الدعوة: رحمة ويسر الإسلام:

الإسلام دين الرحمة واليسر، وهذا من سماته التي تميز بها على سائر الأديان، فاليسر والرحمة أقرتهما الشريعة الإسلامية ودعت إليهما، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[٤] أي مشقة وعسر، بل يسره غاية التيسير، وسهله بغاية السهولة فما أمر وألزم إلا بما هو سهل على النفوس لا يثقلها، ولا يؤودها[٥].

---

(١) أخرجه البخاري ٤٣، ومسلم ٧٨٥.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٢٦/١.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٣٠.

(٤) سورة الحج، آية: ٧٨.

(٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٤٩٦.

وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[١]. وقال رسول الله ﷺ ((إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه))[٢]. وحكمة هذا اليسر الذي جاءت به الشريعة أن الله جعل هذا الدين دين الفطرة، وأمور الفطرة مستقرة في النفوس سهل عليها قبولها، ومن الفطرة النفور من الشدة والعنف، وقد أراد الله عموم هذه الشريعة ودوامها فاقتضى ذلك أن يكون تنفيذها بين الأمة سهلاً، ولا يكون ذلك إلا إذا انتفى عنها الغلو والعنف[٣].

ويظهر يسر الشريعة ورحمتها في هذا الحديث عندما أمره رسول الله ﷺ بالتكلم والاستظلال مع أنه كان نذر عدم ذلك لأن الله لا يرضى تعب عباده أو عذابهم.

سابعًا- من صفات الداعية: الشفقة والرفق بالمدعوين:

إن اتصاف الداعية بالشفقة والرفق من أعظم أسباب النجاح في الدعوة، وقد بيّن رسول الله ﷺ فضل الرفق فعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ: ((إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه))[٤].

فينبغي على الداعية أن يكون مشفقًا على المدعوين رفيقًا في التعامل معهم، حتى يألفوه وتقوى صلته بهم، ولهذا نجد رسول الله ﷺ عندما علم بنذر هذا الرجل أمره بتركه شفقة عليه ورفقًا به.

ولا شك أن الشفقة والرفق وغيرهما من صفات الرحمة بالمدعوين تسهم في نجاح الداعية في دعوته.

يقول فتحي يكن: (ومن أسوأ ما ابتلي به الإسلام في هذا العصر، دعاة جبلوا على التعسير في كل شأن، وكأن اليسر ليس من الإسلام في شيء.

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٨٥.

(٢) أخرجه البخاري ٣٩.

(٣) انظر: الغلو في الدين في حياة المسلمين المعاصرة، عبدالرحمن بن معلا اللويحق، ط/١، مؤسسة الرسالة، بيروت: ١٤١٢هـ/١٩٩٢م ص ٣٥-٤٢.

(٤) أخرجه مسلم ٢٥٩٤.

فهم في الصلاة معسرون، وفي الوضوء معسرون، وفي اللباس معسرون، وفي بيوتهم معسرون، وفي المأكل معسرون، وفي البيع والشراء معسرون، وفي عمل الدعوة معسرون... وهم في كل ذلك مخالفون للنهج النبوي الصحيح.

ثم إن هؤلاء لا يتقيدون بمنطق الأولويات، ولا يفرقون في الموقف بين ما هو فرض أو واجب أو سنة، وبين ما هو حرام أو مكروه، ولا بين ما فيه نص أو اجتهاد ... فتراهم يكيلون للناس الاتهامات، فيكفرون هذا، ويفسقون ذاك، وكأن الله قد نصبهم حكامًا على الأمة، يقضون فيها بكل ما هو صعب وعسير، فيضيقون سعة الإسلام، ويحجرون مرونة الشريعة، وينفرون الناس من الدين)[1].

(١) الاستيعاب في حياة الدعوة والداعية، فتحي يكن ص ٣٩.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

الإسلام سهل ميسر، لا يفرض الرهبنة ولا يأذن بها، ولا يسمح في نفس الوقت بترك التكاليف الشرعية، بل نصوصه محكمة "فاتقوا الله ما استطعتم"، وندرك من أحاديث هذا الباب ما يلي:

أولاً- التربية على الاعتدال في العبادة:

إن أحاديث هذا الباب تدور جميعها حول هذا المضمون؛ لأن الإسلام جاء ديناً وسطاً، فلا هو بالمتشدد تشدد الرهبان والأحبار، ولا هو بالمفرط تفريط من حرَّفوا الدين وتركوا ما يشق عليهم أداؤه؛ إنما جاء الإسلام بالعبادة المعتدلة، التي لا يصعب على المرء المداومة عليها.

وبهذه الوسطية والاعتدال أوصى النبي ﷺ صحابته الكرام، ورباهم بشتى السبل لإرساء مبدأ الوسطية والاعتدال، يقول ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِمَا تُطِيقُونَ»، ولقد جاء للنبي ﷺ ثلاثة رهط؛ زعم أحدهم أنه يصلي ولا ينام، وزعم الآخر أنه يصوم ولا يفطر، والثالث أنه لا يقرب النساء، وأعلمهم أن سنته هي التوسط والاعتدال، وقال: «فمن رغِبَ عن سُنَّتي فليسَ مني»؛ لأن دين الله تعالى لن يشاده أحد إلا غلبه.

وعندما أوصى سلمان أخاه أبا الدرداء رضي الله عنهما، بحق ربه ونفسه وأهله، وأن العبادة ينبغي أن تكون معتدلة، أثنى النبي ﷺ على كلامه، وقال: «صدق سلمان».

ولقد كان التشدد سبباً لندم عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما حيث رخّص له النبي ﷺ في قراءة القرآن في عشرين يوماً، وعشرة أيام، فأظهر أنه يطيق أكثر من ذلك، فرخص له النبي في ختمه في سبعة أيام، فلما طال به العمر وضعفت قوته، ندم أنه لم يأخذ برخصة النبي ﷺ.

فقد شرع الإسلام من العبادات ما يزكي به نفس الفرد، ويرقى به روحياً ومادياً، ويقيمها على أساس من الأخوة والتكافل، دون أن يعطل مهمة الإنسان في عمارة الأرض؛ فالصلاة والزكاة والصيام والحج عبادات فردية واجتماعية في نفس الوقت.... ولا يقرّ الإسلام ما دعت إليه الديانات والفلسفات الأخرى من إهمال الحياة المادية لأجل الحياة الروحية[1].

---

(١) الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف، د. يوسف القرضاوي ص ٢٨ بتصرف يسير.

ثانياً- من سمات التربية الإسلامية: الواقعية:

إن أهم ما يميز المنهج النبوي في التربية، الواقعية؛ فلم يكلف النبي ﷺ صحابته بما لا يستطيعون، بل إنه كلفهم بالمستطاع؛ وأكثر من ذلك أنه أباح للمريض تخفيف بعض الأركان في العبادة، كالصلاة والصيام والحج، ... كذلك كان ﷺ في سائر حياته واقعياً، يجسد سمة رئيسة في الدين الإسلامي وهي الإنسانية والبشرية.

فالإنسان له رغبات يحترمها الإسلام ويقيم لها وزناً، ولهذا فإن النبي ﷺ عاتب الثلاثة الذين أعلنوا خروجهم على الفطرة الإنسانية وذهبوا مذهباً فيه التشدد والإفراط، فقال لهم ﷺ: «أَمَا وَاللَّهِ إني لأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لكني أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِني».

ويقول ﷺ: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، ولَنْ يُشادَّ الدّينَ أحَدٌ إلا غَلَبه»، وعندما تشدد أبو الدرداء في العبادة، وهجر زوجته من أجل القيام والصيام نصحه سلمان بأداء سائر الحقوق الإنسانية الفطرية الواقعية، دون مساس بحق الله وحق نفسه، فأقر النبي ﷺ هذا النصح، وقال: «صدق سلمان».

والتربية الإسلامية تربية واقعية تتعامل مع الإنسان كما هو: لحماً ودماً، وفكراً وشعوراً وانفعالاً ونزوعاً ... وعلى هذه الحياة الواقعية المتوازنة يربي الإسلام المسلم، فلا يدعه يغرق في اللهو إلى رأسه، فلا يبقى له شيء لربه، كما لا يدعه يغلو في التعبد فلا يبقى له شيء لقلبه[1].

ثالثاً- التربية بالتوجيه المباشر:

ويبدو ذلك في قوله ﷺ: «فسَدِّدُوا، وقارِبوا، وأبشِروا، واستَعِينُوا بالغُدْوَةِ والرَّوْحَةِ وشيءٍ منَ الدُّلْجة»، فقد وجّه النبي ﷺ الأمر مباشرة إلى صحابته، دون استخدام وسيطة تربوية أخرى، وقد اختار النبي ﷺ هذا الأسلوب ليكون كلامه محمولاً على جهة الأمر، وإصلاح المسلك، وليبين أهمية هذا التوجيه، و الأخذ به؛ لأن ذلك هو روح

(١) الخصائص العامة للإسلام، د. يوسف القرضاوي ص ١٦٨.

الإسلام ورسالته في الوسطية والاعتدال.

وقد كانت توجيهاته ﷺ يحاول من خلالها تصحيح الأخطاء والحث على صالح العمل، وتحويل طاقات الإنسان نحو فضائل الأعمال، واستثمار قدراته بجوانب الخير، وجعل ذلك عادة مستديمة له[1].

رابعاً- التربية على الموازنة بين الحقوق والواجبات:

لقد ربى النبي ﷺ صحابته رضي الله عنهم على الموازنة بين الحقوق والواجبات في حياتهم، فلا يطغى أداء واجب على نيل حق، ولا العكس، بل إن المسلم ينبغي أن يتسم سلوكه في الحياة بمراعاة سائر الحقوق والواجبات المكلفين بها.

ولهذا فقد نصح سلمان الفارسي أبا الدرداء بقوله: «إنَّ لِربِّك عليكَ حقاً، ولنفْسِكَ عليكَ حقاً ولأهلِكَ عليكَ حقاً فأعْطِ كلَّ ذي حَقّ حقَّه»، وقد قال النبي ﷺ: «صَدَقَ سَلمانُ»؛ وذلك ليؤدي المسلم سائر واجباته وينال حقوقه، بتوازن واعتدال.

إن التربية الإسلامية المتوازنة لاتقتصر على سائر العبادات وحدها؛ بل هي أعمق من ذلك؛ فهي منهج كامل للحياة في سائر جوانبها[2].

خامساً- التربية بالنصيحة:

لقد احتوى هذا الباب على حديث استخدم فيه سلمان الفارسي رضي الله عنه أسلوب النصيحة في توجيه أخيه أبي الدرداء رضي الله عنه إلى واجباته وحقوقه في الدنيا، فقال له: «إن لربك عليك حقاً...» وفي هذا الحديث مسلك تربوي يعتمد على حق من حقوق المسلم على أخيه المسلم، وهو النصيحة.

وعندما رأى سلمان رضي الله عنه سلوك أبي الدرداء من العزوف عن الدنيا والزهد في متاعها، والانصراف بكليته إلى العبادة والصيام والقيام، كان من الممكن أن يغضي عن ذلك طرفه، ويتركه وشأنه، ولكنَّ تعاليم الإسلام تقتضي إسداء النصح إلى من

---

(١) أساليب الدعوة والتربية، د. زياد العاني ص ٢٨٨.

(٢) التربية الإسلامية "مصادرها وتطبيقاتها"، د. عماد محمد عطية ص ٢٥ بتصرف.

يستحق، حتى يتحقق قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾[(١)].

إن النصيحة للمسلمين تتمثل في إرشادهم إلى مصالحهم في دنياهم وأخراهم، وكف الأذى عنهم، وتعليمهم ما جهلوه، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، ونحو ذلك، ونصيحة المسلمين فرض كفاية على من هو أهل لها، وهي واجبة قدر الطاقة البشرية، ما دام هناك أمل في قبولها، والمسلم لا ييأس، ولا يخشى في سبيلها أذى لا يحتمل، فإن خشيه فهو في سعة[(٢)].

سادساً- الدين اتباع وليس ابتداعاً:

ليس لمسلم حق في إضافة شيء إلى الدين ابتداءً من قبل نفسه، فما كن من الدين بالرأي ولا بالهوى، بل هو وحي يوحي.

وفرق كبير بين الإضافة إلى النص وبين الاجتهاد في فقه النص، فالإضافة إلى النص غير مأذون بها، والاجتهاد في فقه النص مدعو إليه، والذين رأوا أن يحملوا أنفسهم على الطاعة من غير طريق النص لم يقبل الرسول ﷺ منهم ذلك، ولم يأذن لهم بفعل هذا، وصرح أن الخروج عن النص خروج عن السنة، بل هو خروج عن مبادئ الإسلام.

إن هدي الرسول ﷺ في هذا الجانب قد حال دون الزيادة أو النقصان في الإضافة إلى التكاليف الشرعية أو الحذف منها، ولو فتح هذا الباب ما إغلق، وما علمنا إلى أي مدى تنتهي الأمور.

سابعاً: من وسائل التربية - الصحبة:

فقد صحب سلمان أبا الدرداء فلما أعد له طعاماً أبي أن يأكل، إلا أن يشاركه فأقام له الدليل العملي على حق الضيف وعلى أن المتطوع أمير نفسه.

ثم لفت نظره إلى حق جسده عليه، فهو من مادة وروح، ولكل حظه من الدنيا،

---

(١) سورة العصر، آية: ٣.

(٢) الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي ص ٢٢ بتصرف يسير.

"وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك".

ثم طبق معه حق الجسد في النوم وحق الروح في العبادة ولفت نظره إلى حق أهله، وبهذا يتبين لنا أثر الصحبة الطيبة على السلوك والمحاكاة، وإقرار النبي ﷺ لكل قول أو فعل لا يخالف نصاً، فضلاً عن أن يكون متفقاً معه.

١٥- باب في المحافظة على الأعمال

قَالَ اللَّه تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[الحديد: ١٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الأِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾[الحديد: ٢٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا﴾[النحل: ٩٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾[الحجر: ٩٩].

وَأَمَّا الأَحاديث فمنها:

حديث عائشة: وَكَانَ أَحَبُّ الدِّين إِلَيْهِ مَا دَاوَمَ صَاحِبُهُ عَلَيهِ. وَقَدْ سَبَقَ فِي البَاب قَبْلَهُ[١].

الحديث رقم (١٥٣)

١٥٣- وعن عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم: **«مَنْ نَامَ عَنْ حِزْبِهِ مِنَ اللَّيْل، أَو عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَقَرأه ما بينَ صلاةِ الْفَجرِ وَصلاةِ الظهرِ، كُتب لَهُ كأنما قرأهُ مِن اللَّيْلِ»** رواه مسلم[٢].

ترجمة الراوي:

عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١).

غريب الألفاظ:

حِزْبِه: الحزب: ما يجعله الرجل على نفسه من قراءة أو صلاة كالورد[٣].

---

(١) تقدم برقم (١٤٢).

(٢) برقم (٧٤٧/١٤٢). أورده المنذري في ترغيبه (٩٨٢).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ح ز ب).

الشرح الأدبي

يفتتح النووي بهذا الحديث بابًا جديدًا من أبواب رياض الصالحين: وهو "في المحافظة على الأعمال الصالحة وترك التهاون بها، والتساهل فيها"، ومجيء هذا الباب عقب الباب السابق.. وهو "الاقتصاد في العبادة" له دلالة وثمرة طيبة "لأن المحافظة على الأعمال الصالحة لن يتم إلا بإتقان العبادة والبعد عن التشدد والغلو والتطرف، والالتزام بالمنهج السوي المعتدل وهو الاقتصاد في العبادة لأن التشديد قد يؤدي إلى ترك العبادة المذموم"(١).

ويستشهد النووي بآيات عديدة فيها الحث على المحافظة على الأعمال الصالحة، وفي مقدمة الباب تتضوأ معاني ودلالات هذه الآية الكريمة حيث يقول الله عز وجل: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾(٢).

وتقول عائشة رضي الله عنها في سياق الحديث عن رسول الله ﷺ وكان أحب الدين إليه ما داوم صاحبه عليه.

وفي ظلال هذا الحديث الشريف نستروح نسمات الإيمان، ومن وهج كلماته المضيئة نقتبس قطعًا من نور الهداية، ونستشرف آفاق الرشاد، ونهتدي إلى الوسائل التعبدية التي تنجينا من سبل الغواية، ولنتأمل صفات الصالحين وسماتهم فهم: قوام الليل وفرسان النهار، لا تحجبهم العبادة عن إتقان وإنجاز أمورهم الحياتية، ولا تلهيهم الدنيا عن المداومة على أداء شعائرهم الدينية، وقراءة أورادهم وأحزابهم التعبدية، والقيام بصلاة الليل ومناجاة الخلاق العليم، والتضرع إليه في أوقات الرخاء، حتى يرفع عند الشدائد البلاء، ويكون معهم في السراء والضراء.

والحزب المراد في الحديث هو: ما يجعله الإنسان على نفسه من الصلاة وقراءة

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٢٩٨.

(٢) سورة الحديد، آية: ١٦.

القرآن وغيرهما من مظاهر التقرب إلى الله عز وجل، وفي القرآن حث على ذلك النهج في حياة المسلم: حتى يظل قلبه رطبًا بذكر الله عز وجل، ويظل قلبه معلقًا في المساجد، وتظل نفسه متسلحة بالإرادة الإيمانية القوية التي تقاوم نزغات الشياطين، ووسوسات الضالين، وشبهات الملحدين، وأكاذيب وافتراءات الكفار الجاحدين.

قال الله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾(1).

ويقول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾(2).

ويُرغب المصطفى ﷺ كل مسلم في هذا النهج القويم، ويفتح باب العفو والتسامح .. ومضاعفة الثواب لمن داوم على القيام بحزبه من الليل، ثم يبشر كل من ألم به عارض من نسيان أو نوم.. ونسي حزبه أو شيئًا منه بأنه إذا قرأه وأنجزه ما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر، كتب له وثبت له أجره، مثل إثباته عند قراءته له بالليل.

ولنتأمل صياغة هذا الحديث: فهو جملة واحدة شرطية: وأداة الشرط: "مَنْ"، وفعل الشرط "نام"، وجواب الشرط "كتب له".

وهذه الصياغة المنطقية توحي بأن كل مسلم عليه أن يجعل لنفسه حزبًا تعبديًا في جزء من الليل، من قراءة وصلاة ومناجاة، وإذا كان هذا الأمر ليس فرضًا فهو من صفات المسلم وخصائصه، وهو من الأمور التي تكمل بها معالم شخصية المسلم وهويته.

والفعل: "كتب"، مبني للمفعول، لأن المعطي موجود وهو العزيز الوهاب يضاعف

---

(1) سورة الإسراء، الآيات: ٧٨-٧٩.

(2) سورة السجدة، الآيات: ١٥-١٦.

لمن يشاء، وأولياؤه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، قال تعالى في مجال بيان ثواب المتقين: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾(١).

فقه الحديث

قال الشوكاني: (المراد هنا: الورد من القرآن، وقيل: المراد ما كان معتاده من صلاة الليل. والحديث يدلّ على مشروعية اتخاذ ورد في الليل وعلى مشروعية قضائه، إذا فات بسبب النوم أو عذر من الأعذار، وأن من فعله ما بين صلاة الفجر إلى صلاة الظهر كان كمن فعله في الليل)(٢).

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل التخفيف والتيسير على المدعوين.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل المحافظة على العبادة.

ثالثًا: من صفات الداعية: الرفق بالمدعوين ورفع الحرج عنهم.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: بيان فضل الله على عباده.

خامسًا: من أساليب الدعوة: التبشير بالثواب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل التخفيف والتيسير على المدعوين:

إن التخفيف والتيسير على الناس من أهم ما تميزت به الشريعة الإسلامية، وهذا ما يحبب الإسلام للناس لأنه يراعى أحوالهم، ومما يؤكد ذلك في هذا الحديث قوله ﷺ: ((من نام عن حزبه من الليل أو عن شيء...)) لأن للتخفيف والتيسير على المدعوين أثرًا كبيرًا في قبول الدعوة، نظرًا لكون النفس البشرية تميل إلى التخفيف واليسر وتكره كل صعب. والإسلام دين اليسر ورفع الحرج قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾(٣).

---

(١) سورة الذاريات: ١٧-١٨.

(٢) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، الإمام الشوكاني ٤٩٨.

(٣) سورة الحج، آية: ٧٨.

لذا ينبغي للداعية أن يبين للمدعوين فضل التخفيف والتيسير الذي جاء به الإسلام، وهذا ما فعله النبي ﷺ عندما أخبر أن من نام عن حزبه يستطيع تدارك ذلك قبل صلاة الظهر وله الأجر، وهذا تيسير على المسلم الذي نام عن حزبه وهذا التيسير إعانة على طاعة الله.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل المحافظة على العبادة:

إن المحافظة على العبادة والمداومة عليها لها أثر عظيم في حياة المسلم، لأنه يكون موصولاً بالله تعالى مقبلاً عليه ذاكرًا له، ولذا فإن رسول الله ﷺ أمر الناس أن يأتوا من الأعمال ما في طاقاتهم ووسعهم حتى يمكنهم الاستمرار على ذلك. وقد ورد عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت كان لرسول الله ﷺ حصير وكان يُحَجِّرُه[1] من الليل فيصلي فيه، فجعل الناس يصلون بصلاته، ويبسطه بالنهار، فثأبوا ذات ليلة، فقال: (يا أيها الناس! عليكم من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا، وإن أحب الأعمال إلى الله ما دُووِمَ عليه وإن قل) وكان آل محمد ﷺ إذا عملوا عملاً أثبتوه))[2].

قال النووي: (القليل الدائم خير من الكثير المنقطع، لأن بدوام القليل تدوم الطاعة والذكر، والمراقبة والنية والإخلاص والإقبال على الخالق سبحانه وتعالى، ويثمر القليل الدائم، وحيث يزيد على الكثير المنقطع أضعافًا كثيرة)[3].

وعن عائشة رضي الله عنها أيضًا أن رسول الله ﷺ سئل: أي العمل أحب إلى الله قال: ((أدومه وإن قل))[4]. ولهذا نجد أن رسول الله ﷺ جعل وقت إدراك الورد ما بين الفجر والظهر من أجل المحافظة على العبادة.

---

(١) يُحَجِّرُه: أي حوط موضعًا في المسجد بحصير ليسره، ليصلي فيه ولا يمر بين يديه مارّ، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦/٦٩.

(٢) أخرجه البخاري ٥٨٦١، ومسلم ٧٨٢ واللفظ له.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٣٠.

(٤) أخرجه البخاري ٦٤٦٥، ومسلم ٧٨٢.

ثالثًا- من صفات الداعية: الرفق بالمدعوين ورفع الحرج عنهم:

ويوضح ذلك قوله ﷺ: "من نام عن حزبه من الليل ..." إلخ الحديث.

إن رفق الداعية بالمدعوين ورفع الحرج عنهم من أسباب نجاح الداعية في دعوته إذ يجعل المدعو يقبل دعوته ويحبه وينجذب إليه في دعوته، يؤيد ذلك ما ورد عن مالك بن الحويرث قال: أتيت النبي ﷺ في نفر من قومي فأقمنا عنده عشرين ليلة، وكان رحيمًا رفيقًا فلما رأى شوقنا إلى أهالينا قال: ارجعوا فكونوا فيهم وعلموهم وصلوا، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم وليؤمكم أكبركم))[1] فالناس في حاجة لمن يرفق بهم ويعطف عليهم في آلامهم وعلى أخطائهم، وعلى حماقاتهم بشيء من سعة الصدر، فهذا كفيل بتحقيق نتائج عظيمة في قبول دعوة الداعية.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: بيان فضل الله على عباده:

بيّن هذا الحديث فضل الله على عباده بأن جعل الذي ينام عن حزبه أي ورده في العبادة، فلم يفعله أو فعل جزءً منه ولم يتمه، جعل الله له بدلاً عنه من وقت صلاة الفجر إلى صلاة الظهر وله الأجر كأنما قرأه من الليل. وهذا فضل من الله على عباده من أجل التوسعة عليهم في العبادة ومن أجل تدارك العبد لنسيانه وتقصيره. قال رسول الله ﷺ ((من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها))[2]. وقال ﷺ: ((إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثل ما كان يعمل مقيما صحيحًا))[3].

خامسًا- من أساليب الدعوة: التبشير بالثواب:

يعد التبشير بالثواب من أساليب الدعوة، ويوضح ذلك قوله ﷺ ((... كتب له كأنما قرأه من الليل)) والتبشير بالثواب يعد من أساليب الدعوة الناجحة، لفرحه المدعو بما بشر به وإقباله، ولهذا بشر النبي ﷺ أهل بدر برضوان الله عنهم وغفران ذنوبهم

---

(١) أخرجه البخاري ٦٢٨.

(٢) أخرجه مسلم ٦٨٠.

(٣) أخرجه البخاري ٢٩٩٦.

وأنهم من أهل الجنة، وبشر ﷺ أصحابه بعدما أصابهم الضنك والشدة من تجمع الأحزاب للقضاء عليهم ورجوعهم خائبين منهزمين، بأنهم لن يستطيعوا أن يغزوهم مرة أخرى، وأن الكثرة ستكون للمؤمنين: فعلى الداعية استخدام أسلوب التبشير بالثواب لما له من أثر في الاستجابة، لأن المدعو إذا بشر بالثواب كان ذلك مرغبًا له في المواظبة على العبادة والاجتهاد فيها.

الحديث رقم (١٥٤)

١٥٤- وعن عبدِ اللَّه بنِ عمرو بنِ العاص رضي الله عنهما قال: قال لي رسولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم: «يَا عبْدَ اللَّه لا تَكُنْ مِثْلَ فُلانٍ، كَانَ يقُومُ اللَّيْلَ فَتَركَ قِيامَ اللَّيْل» متفقٌ عليه[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمرو بن العاص: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٣٨).

الشرح الأدبي

إن قيام الليل من سمات التقوى التي يحرص عليها المسلم، ابتغاء مرضاة الله، وطمعاً في ثوابه، وخوفاً من عقابه، وقيام الليل تدريب للعبد على مداومة الذكر والطاعة والتأمل. واستجلاء معالم القدرة الإلهية في خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وكل مظاهر الجمال في الكون من سماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، وقطع متجاورات، وجنات من أعناب وزرع ونخيل: صنوان وغير صنوان.

كل هذه المشاهد الكونية يتأملها المؤمن، وفي صلاته يسجد لله شكراً واعترافاً بهذه النعم التي لا تعد ولا تحصى، وهي مسخرة للإنسان، يستمد منها الخيرات، ويتقوى بأسبابها على مواجهة الأخطار والمسؤوليات؛ وفي سورة طه تشرق هذه المعاني النيِّرات، حيث يقول الله عز وجل: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾[2].

وروى عن علي بن أبي طالب، أنه قال: الخير كله مجموع في أربعة، الصمت والنطق والنظر والحركة، فكل نطق لا يكون في ذكر الله فهو لغو، وكل صمت لا يكون

---

(١) أخرجه البخاري (١١٥٢)، ومسلم (١١٥٩/١٨٥) ولفظهما سواء. قال ابن حجر في الفتح (٣٨/٣): لم أقف على تسميته في شيء من الطُّرق، وكأن إبهام مثل هذا لقصد الستره عليه، ويحتملُ أن يكونَ النبي @ لم يقصد شخصًا معيَّنًا، وإنما أرادَ تنفير عبد الله بن عمرو من الصنيع المذكور أهـ. أورده المنذري في ترغيبه (٩٤٣). وسيكرره المؤلف برقم (٦٩٢)، و (١١٦٥).

(٢) سورة طه، آية: ١٣٠.

في فكر الله فهوُ سَهْو، وكل نظر لا يكون في عبرة فهو غفلة، وكل حركة لا تكون في تعبد الله فهي فترة[١]، فرحم الله عبداً جعل نُطقه ذكراً، وصمته فكراً، ونظره عبراً، وحركته تعبّداً، ويسلم الناس من لسانه ويده.

وحين نتأمل هذا التوجيه النبوي الحكيم للصحابي التواب القوام "عبدالله بن عمرو بن العاص"، نجده درساً كريماً في ضرورة المحافظة على قيام الليل.. لأنه يقود المؤمن إلى طريق العبادة الصحيح، حيث المناجاة والضراعة والتأمل.

والمؤمن الذي يستجيب لنداء الرسول ﷺ ولا يترك قيام الليل ابتغاء مرضاة الله، واعترافاً بفضله، وشكراً لآلائه، لن يكون نطقه إلا ذكراً، ولا صمته إلا فكراً، ولا نظره إلا عبراً، ولا حركته إلا تعبداً.

ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف: إنه وصية يقدمها رسول الله ﷺ، وتبدأ الوصية بالنداء مع تحديد اسم المنادى وهو عبدالله بن عمرو بن العاص: حيث يقول: ياعبدالله، والنداء يلقي بمزيد من الاهتمام والمسؤولية على المنادى، ويرشد إلى أهمية الأمر وقيمته في الإسلام وهو "قيام الليل"، ثم يعقب أسلوب النداء أسلوب النهى في قوله ﷺ "لاتكن مثل فلان".

والمثلية هنا ليست مطلقة ولكنها في أمر محدد: وهو ترك قيام الليل، وهذا الأسلوب فيه الترغيب والبعد عن مواجهة "عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما"، بالأمر مباشرة: فلم يقل: لا تترك قيام الليل حتى لا يفهم منه أن قيام الليل واجب.

وكذلك نجد عدم تصريح الرسول ﷺ باسم الرجل الذي كان يقوم الليل: فيتركه: وقال الحافظ العسقلاني: وكأن إيهام مثل هذا القصد الستر عليه، ثم قال: ولا ينبغي أن يبالغ في الفحْص عن تسمية من وقع في حقه ما يذم به[٢]، وهذا من آداب الإسلام، ومن كريم شمائل المصطفى ﷺ ومن سبل الحكمة والموعظة الحسنة في

---

(١) الفَتْرة: الانكسار والضعف، لسان العرب في (ف ت ر).

(٢) فتح الباري، ابن حجسر العسقلاني ٤٦/٣.

الدعوة إلى الله، والجملة الثالثة في الحديث: تتضمن فعلين، أحدهما ماضي "كان"، والثاني مضارع "يقوم" الليل، والماضي يرشد إلى زمن القيام ويوحي بعدم وقوعه في الحاضر، والفعل "يقوم" يوحي بأن هذا الرجل كان يداوم على قيام الليل ثم انقطع، وتكرار لفظ "الليل" مقترناً بالقيام، إرشاد وتأكيد لأهمية هذه العبادة واستحباب الدوام عليها، لأنها تقرب العبد من ربه، وتفتح له آفاق المناجاة والتضرع والدعاء، والتأمل الإيماني في ملكوت الأرض والسماء.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكمين فقهيين:

الأول: حكم قيام الليل وقد سبق الكلام عنه في الحديث رقم (٩٨).

الثاني: حكم المداومة على الطاعات، وقد ذكر الفقهاء[1] أنه يستحب أن يكون للإنسان طاعات يداوم عليها، فإن نشط طولها وإن لم ينشط خففها، ويستحب لمن أراد قيام الليل أن يعتاد منه قدراً يغلب على ظنه بقرائن الحال أنه يداوم عليه، ويكره بعد ذلك تركه أو النقص منه لغير ضرورة، كما يكره لمن اعتاد التهجد تركه لغير عذر.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النداء والنهي.

ثانياً: من آداب الداعية: الحرص على شعور الآخرين.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: الحث على مداومة الأعمال الصالحة.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: فضيلة قيام الليل.

خامساً: من مهام الداعية: استثارة همم المدعوين.

---

(١) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٥٣٧/٣، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٤٤٢/١، وسبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، إسماعيل الصنعاني ٣٥٠/١، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية٨٩/١٤ وما بعدها، ١٢١/٣٤ وما بعدها.

أولاً- من أساليب الدعوة: النداء والنهي:

إن من الأساليب الدعوية المهمة التي يحسن بالداعية الإفادة منها أسلوب النداء، الذي يُشعر المُنادَى بنوع من الخصوصية والاهتمام، مما يدفعه إلى التفاعل والاستجابة والاهتمام، وقد استعمل النبي ﷺ هذا الأسلوب في الحديث الذي معنا في قوله: (يا عبدالله)، وكذلك أسلوب النهي ويظهر من قوله (لا تكن..) وهما من الأساليب الدعوية المفيدة.

والنهي من الأساليب الدعوية التي يستخدمها الداعية لحمل المدعو على الانتهاء عن الأمور التي نهى الشرع عنها وأسلوب النهي من الأساليب الدعوية التي وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وحريٌ بالداعية أن يوظف هذا الأسلوب في دعوته

ثانياً- من آداب الداعية: الحرص على شعور الآخرين:

إن من أهم ما يجب أن يتنبه إليه الداعية مسألة مراعاة شعور الآخرين وعدم إحراجهم أو خدش كرامتهم خاصة أمام الناس، وكان النبي ﷺ قدوة للمسلمين عامة، والدعاة خاصة في مراعاة شعور الآخرين، والشاهد على ذلك في هذا الحديث في قوله ﷺ: (... مثل فلان)، فلم يذكر اسمه حرصاً على مشاعره ورغبة في عدم التشهير به.

وهذا كان شأنه ﷺ في الحرص على مشاعر الآخرين ويؤيد ذلك أمثلة كثيرة من أحاديث النبي ﷺ منها ما ورد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَرْفَعُونَ أَبْصَارَهُمْ فِي صَلَاتِهِمْ، فَاشْتَدَّ قَوْلُهُ فِي ذَلِكَ فقال: لَيَنْتَهِيَنَّ[1] عن ذَلِكَ أَوْ لَتُخْطَفَنَّ أَبْصَارُهُمْ))[2].

ومثاله قصة العامل الذي استعمله على الصدقة فجاء حين فرغ من عمله فقال: هذا لكم وهذا أُهديَ لي. فصعِدَ المنبر، ثم قال: ((ما بالُ العاملِ نبعثُهُ فيأتي فيقول: هذا لكَ وهذا لي..))[3]، ولم يذكر اسمه حرصاً على مشاعره في عدم التشهير به وهذا ما ينبغي

(١) في الأصل: لَيُنْتَهَيَنَّ.

(٢) أخرجه البخاري ٧٥٠.

(٣) أخرجه البخاري ٧١٧٤.

أن يكون عليه الداعية في دعوته.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: الحث على مداومة الأعمال الصالحة

ويظهر ذلك من عموم الحديث (يا عبدالله لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل فتركه).

قال ابن حجر: (فيه استحباب الدوام على ما اعتاده المرء من الخير من غير تفريط، ويستنبط منه كراهة قطع العبادة وإن لم تكن واجبة)[1].

ومداومة الأعمال الصالحة من الأشياء التي حث عليها النبي ﷺ ويؤيد ذلك.

ما ورد عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ سئل: أي العمل أحب إلى الله؟ قال: ((أَدْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ))[2].

وعن علقمة قال: ((سَأَلْتُ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ، قَالَ قُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ كَيْفَ كَانَ عَمَلُ رَسُولِ اللّهِ ؟ هَلْ كَانَ يَخصُّ شَيْئاً مِنَ الأَيَّامِ؟ قَالَتْ: لاَ. كَانَ عَمَلُهُ دِيمَةً. وَأَيُّكُمْ يَسْتَطِيعُ مَا كَانَ رَسُولُ اللّهِ يَسْتَطِيعُ؟))[3].

قال النووي: (العمل القليل الدائم خيرٌ من الكثير المنقطع، لأن بدوام القليل تدوم الطاعة، والذكر والمراقبة والنية والإخلاص والإقبال على الخالق سبحانه وتعالى، ويثمر القليل الدائم بحيث يزيد على الكثير المنقطع أضعافاً كثيراً)[4].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: فضيلة قيام الليل:

قيام الليل ومجافاة المضاجع دأب الصالحين، وقد كان النبي ﷺ يقوم الليل حتى تورمت قدماه، وكان غاية في الشكر لأنعم الله تعالى عليه، ولذا فإن لقيام الليل فضلاً عظيمًا في حياة المسلم، وإن هذا الحديث يفيد في عمومه فضل قيام الليل، قال

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٦/٣.

(٢) أخرجه مسلم ٧٨٢.

(٣) أخرجه مسلم ٧٨٣.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٣٠.

تعالى في وصف المؤمنين: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[(١)].

قال السعدي: (أي ترتفع جنوبهم، وتنزعج عن مضاجعها اللذيذة إلى ما هو ألذ عندهم منه وأحب إليهم وهو: الصلاة في الليل ومناجاة الله تعالى)[(٢)].

وقال تعالى في وصف المتقين: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[(٣)]، أي: كابدوا قيام الليل، فلا ينامون إلا أقله، ونشطوا فمدوا إلى السحر، حتى كان الاستغفار بسحر[(٤)].

وأما الأحاديث فمنها:

قوله ﷺ: ((أَفْضَلُ الصِّيَامِ، بَعْدَ رَمَضَانَ، شَهْرُ اللهِ الْمُحَرَّمُ. وَأَفْضَلُ الصَّلاَةِ، بَعْدَ الْفَرِيضَةِ، صَلاَةُ اللَّيْلِ))[(٥)].

وقال ﷺ: ((عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ فإِنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ، وَهُوَ قُرْبَةٌ إِلى رَبِّكُمْ وَمَكْفَرَةٌ لِلسَّيِّئَاتِ وَمَنْهَاةٌ لِلإِثْمِ))[(٦)].

ومما يدل على فضيلة قيام الليل حرص النبي ﷺ عليه، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: إنَّ نبيَّ اللهِ ﷺ كان يقومُ من الليل حتى تَتفطَّرَ قَدَماه، فقالت عائشة: لِمَ تصنعُ هذا يا رسولَ الله وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذَنْبك وما تأخَّر؟ قال: ((أَفَلا أحبُّ أن أكونَ

---

(١) سورة السجدة آية: ١٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق في تفسير كلام المنان ٦٠٣.

(٣) سورة الذاريات، الآيتان: ١٧ - ١٨.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٤١٧/٧.

(٥) أخرجه مسلم ١١٦٣.

(٦) أخرجه الترمذي ٣٥٤٩، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٨١٤)، والحاكم في المستدرك ٣٠٨/١، وقال: صحيح على شرط البخاري.

عبداً شكوراً))[١].

فحري علي الداعية أن يبين للمدعوين فضيلة قيام الليل ويحثهم عليه، ويكون قدوة في نفسه متأسياً في ذلك برسول الله ﷺ.

خامساً- من مهام الداعية: استثارة همم المدعوين:

لا شك أن استثارة همم المدعوين، ودفعهم إلى التنافس في الخيرات من المهام الأساسية في حياة الداعية، ويتضح ذلك من قول النبي ﷺ لعبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: ((يَا عَبْدَ اللّهِ لاَ تَكُنْ مِثْلَ فُلاَنٍ. كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ فَتَرَكَهُ)).

واستثارة همم المدعوين للطاعة والعبادة من المهام التي ينبغي للداعية أن يوليها اهتمامه، حيث كان رسول الله ﷺ يستثير همة أصحابه رضي الله عنهم لعبادة الله تعالى يؤيد ذلك ما رواه سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم، عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: ((نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللّهِ لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ))، قَالَ سَالِمٌ: فَكَانَ عَبْدُ اللّهِ، بَعْدَ ذَلِكَ، لاَ يَنَامُ مِنَ اللَّيْلِ إِلاَّ قَلِيلاً[٢].

---

(١) أخرجه البخاري ١١٣٠، ومسلم ١٨١٩، ١٨٢٠.

(٢) أخرجه البخاري ١١٢١، ومسلم ٢٤٧٩.

الحديث رقم (١٥٥)

١٥٥- وعن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان رسولُ اللَّه ﷺ إذَا فَاتَتْهُ الصَّلاةُ مِنْ اللَّيْلِ مِنْ وجعٍ أَوْ غيْرِهِ، صلَّى مِنَ النَّهَارِ ثِنْتَى عشْرَةَ ركعةً. رواه مسلم(١).

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

الشرح الأدبي

إن الصلاة نور يتوهج في حياة المسلم، ويشرق هذا النور في قلبه فلا تتسرب إليه دياجير المعاصي، ويتألق هذا النور في وجهه فإذا به يقطر بشراً ووضاءة، وترى الناس يقبلون عليه في صدق ومحبة يتنسمون أشذاءه، ويستروحون أفياءه.

وهذا النور يجعل للمؤمن في النفوس قبولاً، فهو بنور الصلاة يَخْطر في دائرة الذين قال الله فيهم: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾(٢).

ومحمد ﷺ: نبي الرحمة، وصاحب الشفاعة، وهو الأسوة الحسنة، في أقواله وأفعاله، وهيئته، وصفاته، تروي السيدة عائشة: وهى الصديقة بنت الصديق، خبراً عن كيفية قضاء صلاة الليل إذا فاتته عليه الصلاة والسلام، فتقول: في صيغة الحكاية، والأسلوب الخبري، كان رسول الله ﷺ إذا فاتته الصلاة من الليل: "من وجع أو غيره، صلى من النهار ثنتي عشرة ركعة" والحديث في بنائه اللغوي جملة واحدة كبرى، تتضمن خبراً عن رسول الله، وهذا الخبر يعد حكماً شرعياً، ولكن كيف صيغ هذا الخبر الموجز: إنه يتكون من كان واسمها وخبرها وهذه الصياغة توحي بأن هذا كان قليلاً ما يحدث، والتعبير بالفعل كان: وهو فعل ماضٍ ناقص - يومئ إلى ذلك، وخبر كان هو جملة شرطية... فهو خبر جملة، وهذه الجملة تتكون من أداة الشرط "إذا"، ثم

---

(١) برقم (٧٤٦/١٤٠). وسيكرره المؤلف برقم (١١٨٣).

(٢) سورة الفتح: ٢٩.

فعل الشرط "فاتته"، ثم جواب الشرط وهو، "صلى من النهار... إلخ"، واختيار أداة الشرط "إذا" يفيد وقوع هذا الأمر وهو: "فَوْت صلاة القيام" ولكن التعبير يوحي بأن هذا كان ليس عن عمد، ولكن بسبب وجع أو عذر أهم من الوجع، والتعبير بقولها، "فاتته"، يفصح عن أن الرسول ﷺ، لم يترك صلاة القيام كما جاء في الحديث السابق: فترك صلاة القيام، وفرق بين التعبيرين، فالصلاة الفائتة تكون على غير تعمد، ولذلك أسند الفوت إليها، وكأنها هى التي تركته على سبيل المجاز اللغوي، أما الترك ففيه القصدية والتعمد.

وقيل إن صلاة رسول الله ﷺ في النهار هي: جبر لفضيلة قيام الليل وليست قضاء، لأن صلاة رسول الله من الليل أكثر من هذا العدد، ومما يؤيد ذلك رواية السيدة عائشة في صفة صلاة رسول الله في قيام الليل، فتقول: "كان يقوم من الليل حتى تفطر قدماه، فقلت له: لم تصنع هذا يارسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك، وما تأخر، قال: أفلا أحب أن أكون عبداً شكورا"[١]، وكان رسول الله ﷺ لا يمل من عبادة ربه وإن أضرّ بدنه، ولكنه كان في بعض الأوقات لا يستطيع الصلاة من الليل: بسبب عذر مرضي أو غيره من الأعذار التي لا يستطيع لها دفعاً، وتعويضاً لذلك وجبراً: كان يصلي من النهار ثنتي عشرة ركعة، حتى يُعلِّمَ أمته كيف يتقربون إلى الله بالنوافل، وكيف يشكرون الله على نعمه، وكيف تكون قلوبهم معلقة في المساجد؛ وفي هذا الدعاء الذي ترويه عائشة عن رسول الله خير دليل على هذه الأسوة الحسنة، فقد كان رسول الله يدعو في صلاته، وما أجدر بكل مسلم أن يداوم على هذا الدعاء. «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ. وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ. وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ. اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْمَأْثَمِ وَالْمَغْرَمِ»، فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ: مَا أَكْثَرَ مَا تَسْتَعِيذُ مِنَ الْمَغْرَمِ، فَقَالَ: ((إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَرِمَ، حَدَّثَ فَكَذَبَ. وَوَعَدَ فَأَخْلَفَ))[٢].

(١) أخرجه البخاري ٢٨٢٠، واللفظ له، ومسلم ٧٣١.

(٢) أخرجه البخاري ٨٣٢، ومسلم ٥٨٩.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم قضاء صلاة الليل، وقد اختلف الفقهاء في حكم قضاء التطوع من الصلوات في الليل أو غيره، فذهب جمهور الفقهاء من الحنفية والمالكية والحنابلة في قول إلى أن النوافل لا تقضى - فيما عدا سنة الفجر-، وذهب الشافعية في الأظهر أنه يقضي فائت الليل ما لم يطلع فجره، وقيل لا تقضى، وقيل تقضى ما لم يصل الفرض الذي بعده، وقال ابن حامد من الحنابلة تقضى جميع السنن الرواتب[(١)].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: بيان بعض أحوال النبي ﷺ.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: المحافظة على النوافل.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار:

يظهر أسلوب الإخبار في قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها "كان رسول الله إذا فاتته... إلخ".

حيث أخبرت عن فعل النبي ﷺ إذا فاته قيام الليل. وهو من الأساليب المفيدة في الدعوة، لبيان حال النبي ﷺ عندما كانت تفوته صلاة الليل لمرض أو غيره، حيث كان يصلي من النهار ثنتي عشرة ركعة، ولاشك أن هذا الأسلوب يفيد في بيان أحوال النبي ﷺ للاقتداء.

وقد حَرص الصحابة رضي الله عنهم على نقل أفعاله ﷺ لأنهم يعلمون أن رسول الله ﷺ القدوة. قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[(٢)].

---

(١) درر الحكام شرح غرر الأحكام ١٢٢/١، وشرح الخرشي ٢٦٧/١، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٥٣٣/٣، وحاشيتا قليوبي وعميرة ٢٤/١، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين بن الحسن ١٩١/٢، والأشباه والنظائر للسيوطي ص ٤٠١ وما بعدها، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية١٢/١٥٧ وما بعدها.

(٢) سورة الأحزاب، آية : ٢١ .

قال ابن كثير: (هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله، وأفعاله وأحواله)(١).

فصحابة رسول الله ﷺ كانوا حريصين على نقل أفعاله، وممن اهتم بذلك زوجاته رضي الله عنهن وذلك لأمر الله عز وجل لهن بذلك قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾(٢) فأمر الله سبحانه وتعالى أن يخبرن بما ينزل من القرآن في بيوتهن، وما يرين من أفعال النبي ﷺ، ويسمعن من أقواله، حتى يبلغن ذلك إلى الناس فيعملوا ويقتدوا به(٣).

ثانياً- من موضوعات الدعوة: بيان بعض أحوال النبي ﷺ:

يظهر من سياق الحديث بيان بعض أحوال النبي ﷺ وهي محافظته ﷺ على صلاة الليل، فلا يترك قيام الليل إلا لعذر، وقد أمره الله عز وجل بذلك فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾(٤).

قال ابن كثير: (يأمر تعالى رسوله ﷺ أن يترك التزمل وهو: التغطي من الليل، وينهض إلى القيام لربه عز وجل، كما قال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾(٥) وكذلك كان رسول الله ﷺ ممتثلاً ما أمره الله تعالى به من قيام الليل(٦).

فإذا فاته قيام الليل كان يصلي من النهار ثنتي عشرة ركعة وذلك لفضلهن، فكأنه إذا فاته ثواب شيء أدرك ذلك بثواب شيء آخر له ثواب عظيم، ويدل على

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٦/٣٩١.
(٢) سورة الأحزاب، من آية: ٣٤.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٧/١٤/١٨٤.
(٤) سورة المزمل، الآيتان: ١، ٢.
(٥) سورة السجدة، آية: ١٦.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ٨/٢٤٩.

فضلهن قوله ﷺ ((ما من عبد مسلم يصلي لله تعالى في كل يوم ثنتي عشرة ركعة تطوعاً غير فريضة إلا بنى الله تعالى له بيتاً في الجنة. أو إلا بُني له بيت في الجنة))[١].

فعلى الداعية بيان أحوال النبي ﷺ للمدعوين ليقتدوا به ويتعلموا منه.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: المحافظة على النوافل:

من موضوعات الدعوة التي تبرز من هذا الحديث المحافظة على النوافل، ويظهر ذلك من قول عائشة رضي الله عنها (كان رسول الله ﷺ إذا فاتته صلاة الليل من وجع أو غيره صلى من النهار ثنتي عشرة ركعة).

والمحافظة على النوافل لها فضل عظيم بالنسبة للمسلم في تحسين صلته بالله ومحبة الله له ورضاه عنه، ويؤيد ذلك ما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ ((إن الله تعالى قال...، وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أُحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأُعطينه، ولئن استعاذني لأُعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته))[٢].

فعلى الداعية أن يعمل على حث المدعوين للمحافظة على النوافل والتقرب بها إلى الله عز وجل.

---

(١) أخرجه مسلم ٧٢٨.

(٢) أخرجه البخاري ٦٥٠٢.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

النفس تمل العمل، وتميل إلى الكسل، حتى إن العبادات في بعض الأحيان يجري عليها ما يجري على غيرها من الأعمال، ولهذا حرص الرسول ﷺ على تربية المسلم على الآتي:

أولاً- التربية على تزكية النفس وتهذيب الروح:

تهذيب الروح وتزكية النفس من الغايات التي حرص النبي ﷺ على تحقيقها؛ ولا يكون تحقيق هذه الغاية السامية إلا من خلال أداء الفرائض والواجبات وحدها، بل إن الأمر يتطلب الاجتهاد والعبادة، وقيام الليل، ولهذا فقد كان ﷺ يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، وقد نصح عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما بقوله: «لاَ تَكُنْ مِثْلَ فُلاَنٍ. كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ». بل إنه كان إذا فاتته الصلاة من الليل، عوّض ذلك فصلّى في النهار اثنتي عشرة ركعة.

وقد اتخذت هذه النوافل أحياناً عند بعض الناس صفة المداومة عليها، حتى إن النبي ﷺ قال: "مَنْ نَامَ عَنْ حِزْبِهِ، ...، فَقَرَأَهُ فِيمَا بَيْنَ صَلاَةِ الْفَجْرِ وَصَلاَةِ الظُّهْرِ ..."؛ وذلك حتى يحتفظ المجتهدون باجتهادهم الدائم في العبادة وتزكية النفس، فلا عذر يمنعهم، ولا مانع يقلل عزيمتهم وهدفهم السامي في الإحسان وتصفية الروح.

والتزكية تتم من خلال عدة طاعات، منها: الصلاة "وهي وسيلة عظمى في تزكية النفس، وهي في الوقت نفسه علم وميزان على التزكية، فهي وسيلة وغاية في نفس الوقت، فهي تعمق معاني العبودية والتوحيد والشكر، وهي ذكر وقيام وركوع وسجود وقعود.."[1]. ومنها: تلاوة القرآن، وهي "مهذبة للنفس من جوانب شتى: فهي تعرف الإنسان على المطلوب منه، وتثير عنده كل المعاني المرادة من تزكية النفس، وهي تنور القلب، وتذكره.... وإنما يفعل القرآن فعله إذا رافقت تلاوته آداب الباطن في التأمل

---

(١) تزكية الأنفس، سعيد حوى ص ٣٣.

والخشوع والتدبر"[(١)].

ثانياً- التربية بالنصيحة:

لقد خص النبي ﷺ بعض صحابته الكرام بالنصيحة الفردية، التي تبدأ خاصة، تكتنفها خصوصية النصيحة، وما فيها من مودة وإخاء، ورفق من الناصح إلى المنصوح، و النصيحة النبوية سرعان ما تصل إلى الأمة جميعها مثلما وصلت إلى أول منصوح بها، فقد نصح النبي ﷺ عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قائلاً: «يَا عَبْدَ اللّهِ لاَ تَكُنْ مِثْلَ فُلاَنٍ. كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ».

وفي هذا النصح تأكيد على أهمية قيام الليل، والتحذير من دُنو الهمة مرة أخرى وتركه، وقد ذكر له النبي ﷺ مثالاً للذين يجب أن لا يكون مثلهم؛ لأنهم بدأوا بقيام الليل ثم تركوه، محرومين أجره ومثوبته، والتذكير والتواصي "من أساليب التربية الإسلامية، التي بدت خلال أحاديث المربي الرسول ﷺ، وفي طريقة النصيحة والتواصي دعوة كل مسلم إلى أن يكون مربياً يعلم أخاه المسلم"[(٢)].

ثالثاً- من سمات التربية الإسلامية: اليسر والمرونة:

لقد تميز الإسلام بمراعاة الإمكانيات البشرية، واعتبار نقاط الضعف التي تعتري الإنسان؛ من المرض، والضعف، والنوم، وغير ذلك، ولهذا فقد رخَّص النبي ﷺ لمن ترك نافلة كان قد داوم عليها، في أن يؤديها وقتما يتأتى له ذلك، فمن نام عن قراءة القرآن بالليل جاز له القراءة ما بين الفجر والظهر، وكذلك كان يفعل النبي ﷺ، تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: "كَانَ رَسُولَ اللّهِ ﷺ إِذَا فَاتَتْهُ الصَّلاَةُ مِنَ اللَّيْلِ مِنْ وَجَعٍ أَوْ غَيْرِهِ، صَلَّىٰ مِنَ النَّهَارِ ...".

وذلك تماشياً مع روح التربية الإسلامية، وتسهيلاً على المسلم أداء العبادات والنوافل والقربات، ولم يهدف الإسلام في تشريعه إلى إعنات الناس وتكليفهم ما يشق عليهم،

---

(١) المرجع السابق ٧٧.

(٢) فلسفة التربية في الحديث الشريف، د. عبدالجواد سيد بكر ص ٣٣٢ بتصرف يسير.

ولم يتخذ من وسائل علامات الخضوع والانقياد له أن يحملهم فوق ما يطيقون، ولكنه شرع من ذلك ما هو في حدود الطاقة البشرية متجنباً ما فيه كلفة ومشقة، ولو كان ذلك في دائرة قدرتها[1].

❁ ❁ ❁

(١) صور من سماحة الإسلام، د. عبدالعزيز الربيعة ص ٢٤.

١٦- باب الأمر بالمحافظة على السنة وآدابها

قَالَ اللَّه تَعَالَى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[الحشر: ٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى﴾[النجم:٣-٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[آل عمران: ٣١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرِ﴾[الأحزاب:٢١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[النساء: ٦٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾[النساء: ٥٩] قَالَ العلماء: معناه إِلَى الكتاب والسُنّة، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّه﴾[النساء:٨٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ﴾[الشورى: ٥٢-٥٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[النور: ٦٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾[الأحزاب: ٣٤]، والآيات في الباب كثيرة.

وَأَما الأحاديث:

الحديث رقم (١٥٦)

١٥٦- فالأَوَّلُ: عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «**دَعُونِي ما تَرَكْتُكُمْ: إِنَّما أَهْلَكَ من كَانَ قبْلَكُم (كَثْرةُ)**[1] **سُؤَالِهِمْ، وَاخْتِلافُهُمْ عَلَى أَنْبيائِهِمْ، فَإِذا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فاجْتَنِبُوهُ، وَإِذا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ ما اسْتَطَعْتُمْ**» متفقٌ عليه[2].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

---

(١) (كثرة) لا توجد عند البخاري، وإنما عند مسلم.

(٢) أخرجه البخاري (٧٢٨٨) واللفظ له، ومسلم (١٣٣٧/٤١٢).

الشرح الأدبي

إن الخطابة فن قولي وأدبي يقصد به إلى التأثير في نفوس المتلقين عن طريق استمالة قلوبهم، ومخاطبة عقولهم، وللخطيب أدوات تأثيرية في مقدمتها جذب انتباه السامعين، وإيقاظ ضمائرهم، وإثارة مشاعرهم، بما يلقيه الخطيب من عبارات لها إيقاعها المؤثر في صياغتها، وفي نسيج كلماتها وحروفها وفي إلقائها أيضًا، وفي تلوين الصوت جهرًا وهمسًا، وعلوًا، وانخفاضًا، وغير ذلك من وسائل تأثيرية متعددة؛ واتخذ الرسول ﷺ من الخطابة أداة للدعوة إلى الدين الحنيف طوال مقامه بمكة قبل الهجرة، ثم اتسعت ميادين الخطابة في المدينة المنورة حيث ظل رسول الله ﷺ يواصل دعوته ويرسي أسس المجتمع المسلم، حتى استقرت الأمور، ودخل الناس في دين الله أفواجا.

وهذا الحديث الشريف جزء من خطبة نبوية جليلة، ألقاها النبي ﷺ لتوضيح بعض أركان الإسلام ومنها الحج: حيث قال: "يا أيها الناس: قد فرض الله عليكم الحج فحجوا: فقال رجل: أكل عام يارسول الله؟ فسكت الرسول : حتى قالها الرجل مرارًا، فقال رسول الله: لو قلت نعم: لوجبت ولما استطعتم، ثم قال: دعوني ما تركتكم.." الخ الحديث.

فالحديث ورد في سياق موقف فيه لبس من جهة السائل، واستفسار فيه إلحاح من جانبه، وعدم الاستجابة المباشرة للأمر، والمصطفى ﷺ، لم يجعل الإجابة محددة، ولم يحصرها في الرد على شخص بعينه، لأن الأمر يتعلق بقاعدة شرعية، وليس حلًا لمسألة شخصية، وقد وضع الرسول قاعدة لاستقبال الأوامر والنواهي، وهى التسليم والعمل الصالح، وترك المحاجة والمجادلة وكثرة السؤال- اتباعًا لقول الله عز وجل: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾(١)، وقوله عز وجل: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾(٢).

---

(١) سورة النساء، آية: ٦٥.

(٢) سورة الحشر، آية: ٧.

والحديث تضمن في صياغته عدة جمل لغوية، وتشكل من عدة أساليب تآزرت كلها في توصيل المعنى، وإفهام الأمة، وتوضيح المنهج الصحيح في استقبال الأوامر والنواهي.

وقد بدأ الحديث بصيغة الأمر في قول الرسول ﷺ وهو يجيب السائل "دعوني ما تركتكم" وهو أمر موجه للأمة كلها في كل زمان وكل مكان، والأمر هنا يتضمن النهى عن كثرة السؤال والإلحاح في ذلك: حتى لا يثقل الأمر على الناس فلا يستطيعون القيام بما فرض عليهم، والجملة الثانية، جاءت خبرية في صيغة القصر، عن طريق "إنما"، وهى تَحْصُر المعنى وتؤكده، ويقيم الرسول دليلًا على أن كثرة السؤال وكثرة الاختلاف تؤدي إلى الهلاك، كما وقع لبني إسرائيل وغيرهم من الأمم مثل عاد وثمود، وقوم نوح؛ والتعبير بقوله: "من كان قبلكم"، يشع بالمعاني الكثيرة ولكنه يتسم بالإيجاز الشديد: حيث تتبئ هذه الجملة عن مصير كثير من الأمم السابقة: وهو الهلاك والدمار بسبب الجدال والاختلاف وعدم التسليم، وأما الجملتان الثالثة والرابعة فقد صيغتا في أسلوب الشرط والجواب، وهما قاعدتان من قواعد الإسلام الشرعية، وأداة الشرط فيهما، إذا، وهى تفيد التحقق: فالنهى في الجملة الأولى متحقق وكذلك الأمر في الثانية، وجواب الشرط في الأولى فعل أمر هو "اجتنبوه"، وهذه المادة اللغوية ترشد إلى وجوب الابتعاد عن كل ما نهى عنه رسول الله ﷺ، ولم يقل "انتهوا عنه"، حتى لا يظن أنهم كانوا يقترفون هذا الأمر المنهي عنه سابقًا.

والتعبير بقول "عن شيء" يفيد الاستقصاء، ويرشد إلى أن المؤمن لا يستهين بأى شيء فيه مخالفة كبيرًا كان أو صغيرًا، والتعبير عن المنهي عنه بلفظ "شيء" يوحي بالنُّفور وعدم احترام ذلك الشيء المحرم، وذلك لحقارته – ومن هنا ندرك سر التعبير بقوله: "فاجتنبوه"، ولم يقل "فانتهوا عنه".

والجملة الرابعة: فيها عدول عن طبيعة اللفظ إلى لفظ فيه تكريم وإيحاء بوجوب الالتزام والتنفيذ، حيث قال: "وإذا أمرتكم بأمر"، ولم يقل "بشيء" لأن المأمور به: أمر شرعي، وفيه صلاح للأمة والفرد، ولفظ "أمر" يوحي بضرورة القيام به لأن الأمر للوجوب في

الفرائض والواجبات، وجواب الشرط "فأتوا منه ما استطعتم" يفصح عن منهج التيسير في الإسلام، حيث لم يقل عليه الصلاة والسلام فالتزموا به أو فأتمروا به، وإنما جعل الاستجابة في حدود الاستطاعة. وقال العلماء في بيان فأتوا منه ما استطعتم أي أطقتم ، لأن فعله هو إخراجه من العدم إلى الوجود، وذلك متوقف على شروط وأسباب، كالقدرة على الفعل ونحوها، وبعضها يستطاع، وبعضها لا يستطاع، فكان التكليف بما يستطاع منه: وقد قال الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[1][2].

فتأمل هذا البيان النبوي البليغ، وتأمل كيف أفصحت الكلمات والأساليب والصياغة عن المعاني الجليلة، والمقاصد الكريمة التي تتألق في أفق هذا الحديث النبوي الشريف.

فقه الحديث

يندرج تحت هذا الحديث كثير من الأحكام الفقهية والأصولية، ويكفي قول النووي عن قوله ﷺ: "وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم"، قال النووي: (هذا من قواعد الإسلام المهمة ومن جوامع الكلم التي أعطيها ﷺ، ويدخل فيه ما لا يحصى من الأحكام)[3]، وفيما يلي بعض الأحكام الفقهية، ولمن أراد التوسع فليراجع فتح الباري[4] لابن حجر وجامع العلوم والحكم لابن رجب[5]:

١-قوله ﷺ: "دعوني ما تركتكم" يستدل به على أن جميع الأشياء على الإباحة حتى يثبت المنع من قبل الشارع[6]، وقال الدكتور علي أحمد الندوي عن القاعدة الفقهية: "الأصل في الأشياء الإباحة"، قال: (هذه قاعدة أصولية فقهية معروفة، يستند

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٨٦ .

(٢) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٣٥٤.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٨٣٧ .

(٤) ٣٢٥٦-٣٢٥٨.

(٥) ١/٢٣٨-٢٥٧ الحديث التاسع.

(٦) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣/٣٢٥٧.

إليها في تحقيق كثير من الأحكام، وبناها الفقهاء على نصوص شرعية كثيرة تدل على رسوخها وأثرها في الفقه الإسلامي وهي من الأصول القويمة الدالة على اليسر والسماحة في التشريع الإسلامي)[١].

٢-النهي عن كثرة المسائل والتعمق في ذلك: فقوله ﷺ "إنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم" قوله هذا استدل به -كما قال ابن حجر- على النهي عن كثرة المسائل والتعمق في ذلك. قال البغوي في شرح السنة: (المسائل على وجهين أحدهما: ما كان على وجه التعليم لما يحتاج إليه من أمر الدين فهو جائز بل مأمور به؛ لقوله تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾[٢]، وعلى ذلك تتنزل أسئلة الصحابة عن الأنفال والكلالة وغيرهما، ثانيهما: ما كان على وجه التعنت والتكلف، وهو المراد في هذا الحديث، والله أعلم. ويؤيده ورود الزجر في الحديث عن ذلك وذم السلف، فعند أحمد في حديث معاوية: ((أن النبي ﷺ نهى عن الأغلوطات))[٣] قال الأوزاعي: (هي شداد المسائل) وقال الأوزاعي أيضاً: (إن الله إذا أراد أن يحرم عبده بركة العلم ألقى على لسانه المغاليط؛ فلقد رأيتهم أقلّ الناس علمًا) وقال ابن وهب: سمعت مالكًا يقول: (المراء في العلم يذهب بنور العلم من قلب الرجل)[٤] وقال ابن العربي: (كان النهي عن السؤال في العهد النبوي خشية أن ينزل ما يشق عليهم، فأما بعد فقد أمن ذلك، لكن أكثر النقل عن السلف بكراهة الكلام في المسائل التي لم تقع)، قال: (وإنه لمكروه إن لم يكن حرامًا إلا للعماء فإنهم فرعوا ومهدوا فنفع الله من بعدهم بذلك، ولا سيما مع ذهاب العلماء ودروس العلم) انتهى ملخصًا. وينبغي أن يكون محل الكراهة للعالم إذا شغله ذلك عما هو أعم[٥] منه، وكان ينبغي تلخيص ما يكثر

---

(١) جمهرة القواعد الفقهية ٤٣٨/١ القاعدة ٤٨.

(٢) سورة النحل، آية: ٤٣.

(٣) أخرجه أحمد ٤٣٥/٤، وأبو داود ٣٦٥٦، وقال محققو المسند: إسناده ضعيف ٩٣/٣٩، ٢٣٦٨٨.

(٤) هذه الأقوال وغيرها ذكرها ابن رجب في جامع العلوم والحكم ٢٤٧/١-٢٤٨.

(٥) كذا في المطبوع من فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ولعل الأقرب إلى الصواب هو "أهم" والله أعلم.

وقوعه مجرداً عما يندر، ولا سيما في المختصرات ليسهل تناوله، والله المستعان)[1].

٣-الإكراه على المعصية: ففي قوله ﷺ: "فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه" نهي عام كما يقول ابن حجر في جميع المناهي، ويستثنى من ذلك ما يكره المكلف على فعله كشرب الخمر، وهذا على رأي الجمهور. وخالف قوم فتمسكوا بالعموم فقالوا: الإكراه على ارتكاب المعصية لا يبيحها، والصحيح عدم المؤاخذة إذا وجدت صورة الإكراه المعتبرة. واستثنى بعض الشافعية من ذلك الزنا، فقال: لا يتصور الإكراه عليه. وكأنه أراد التمادي فيه، إلا فلا مانع أن ينعظ[2] الرجل بغير سبب، فيكره على الإيلاج حينئذٍ فيولج في الأجنبية، فإن مثل ذلك ليس بمحال، ولو فعله مختارًا لكان زانيًا، فتصوَّر الإكراه على الزنا. واستدل به من قال لا يجوز التداوي بشيء محرم كالخمر ولا دفع العطش به وإساغة لقمة من غصّ به، والصحيح عند الشافعية جواز الثالث؛ حفظًا للنفس، فصار كأكل الميتة لمن اضطر، بخلاف التداوي فإنه ثبت النهي عنه نصًا، ففي [صحيح] مسلم عن وائل [بن حُجر] رفعه: ((إنه ليس بدواء ولكنه داء))[3] ولأبي داود عن أبي الدرداء رضي الله عنه رفعه: ((لا تتداووا بحرام))[4] وله عن أم سلمة مرفوعًا: ((إن الله لم يجعل شفاء أمتي فيما حرم عليها))[5]، وأما العطش فإنه لا ينقطع بشربها ولأنه في معنى التداوي، والله أعلم، والتحقيق أن الأمر باجتناب المنهي على عمومه ما لم يعارضه إذن في ارتكاب منهي كأكل الميتة للمضطر)[6].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٣٥٨/٣، وانظر أمثلة للأسئلة المنهي عنها في: جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢٤١/١-٢٤٤.

(٢) نعظ ذكره نَعْظًا ونعوظًا: قام. والناعوظ: الذي يهيِّج النعْظ، وأنعظ الرجل والمرأة: علاهما الشَّبَق. القاموس المحيط، الفيروزآبادي في (ن ع ظ).

(٣) أخره مسلم ١٩٨٤.

(٤) أخرجه أبو داود ٣٨٧٤.

(٥) أخرجه أبو يعلى ٨٩٦٦، وابن حبان ١٣٩١، والبيهقي ٥/١٠، وانظر تتمة تخريجه في صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان بتحقيق شعيب الأرنؤوط.

(٦) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٣٥٧/٣.

٤- العجز عن فعل المأمور به كله والقدرة على بعضه:

قال ابن رجب: (وفي قوله ﷺ: "وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم" دليل على أن من عجز عن فعل المأمور به كله وقدر على بعضه فإنه أتي بما أمكنه منه، وهذا مطرد في مسائل:

أ-منها الطهارة، فإذا قدر على بعضها وعجز عن الباقي، إما لعدم الماء أو لمرض في بعض أعضائه دون بعض، فإنه يأتي من ذلك بما قدر عليه، ويتيمم للباقي، وسواء في ذلك الوضوء والغسل على المشهور.

ب-ومنها الصلاة، فمن عجز عن فعل الفريضة قائمًا صلّى قاعدًا، فإن عجز صلى مضطجعًا، وفي صحيح البخاري عن عمران بن حصين أن النبي ﷺ قال: ((صلّ قائمًا، فإن لم تستطع فقاعدًا، فإن لم تستطع فعلى جنب)) ولو عجز عن ذلك كله أومأ بطرفه وصلّى بنيته، ولم تسقط عنه الصلاة على المشهور.

ج-ومنها زكاة الفطر، فإذا قدر على إخراج بعض صاع، لزمه ذلك على الصحيح فأما من قدر على صيام بعض النهار دون تكملته، فلا يلزمه ذلك بغير خلاف، لأن صيام بعض اليوم ليس بقربة في نفسه، وكذا لو قدر على عتق بعض رقبة في الكفارة فلا تلزمه، لأن تبعيض العتق غير محبوب للشارع بل يؤمر بتكميله بكل طريق[١]).

وقال ابن حجر: (وقال غيره [أي غير النووي]: فيه أن من عجز عن بعض الأمور لا يسقط عنه المقدور وعبّر عنه بعض الفقهاء بأن الميسور لا يسقط بالمعسور، كما لا يسقط ما قدر عليه من أركان الصلاة بالعجز عن غيره، وتصح توبة الأعمى عن النظر المحرم والمجبوب عن الزنا، لأن الأعمى والمجبوب قادران على النوم فلا يسقط عنهما بعجزهما عن العزم على عدم العود، إذ لا يتصور منهما العود عادة فلا معنى للعزم على عدمه، واستدل به على أن من أمر بشيء فعجز عن بعضه ففعل المقدور أنه يسقط عنه ما عجز عنه)[٢].

د-اجتناب المنهيات وفعل المأمورات:

---

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١/٢٥٦-٢٥٧.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣/٣٢٥٧.

قال ابن رجب: (وقوله ﷺ: "إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم" قال بعض العلماء: هذا يؤخذ منه أن النهي أشد من الأمر، لأن النهي لم يرخص في ارتكاب شيء منه، والأمر قيّد بحسب الاستطاعة، وروى هذا عن أحمد. ويشبه هذا قول بعضهم: أعمال البر يعملها البر والفاجر، وأما المعاصي فلا يتركها إلا صديق.

والظاهر أن ما ورد من تفضيل ترك المحرمات على فعل الطاعات، إنما أريد به على نوافل الطاعات، وإلا فجنس الأعمال الواجبات أفضل من جنس ترك المحرمات، لأن الأعمال مقصودة لذاتها، والمحارم المطلوب عدمها، ولذلك لا يحتاج إلى نية بخلاف الأعمال، ولذلك كان جنس ترك الأعمال قد يكون كفرًا كترك التوحيد، وكترك أركان الإسلام أو بعضها ... بخلاف ارتكاب المنهيات فإنه لا يقتضي الكفر بنفسه. ويشهد لذلك قول ابن عمر: لرد دانق[1] حرام أفضل من مائة في سبيل الله. وعن بعض السلف قال: ترك دانق مما يكره الله أحب إلي من خمسمائة حجة، وقال عمر بن عبدالعزيز: ليست التقوى قيام الليل، وصيام النهار والتخليط فيما بين ذلك، ولكن التقوى أداء ما افترض الله، وترك ما حرم الله، فإن كان مع ذلك عمل، فهو خير إلى خير، أو كما قال.

وقال أيضًا: وددت أني لا أصلي غير الصلوات الخمس سوى الوتر، وأن أؤدي الزكاة ولا أتصدق بعدها بدرهم، وأن أصوم رمضان ولا أصوم بعده يومًا أبدًا، وأن أحج حجة الإسلام ثم لا أحج بعدها أبدًا، ثم أعمد إلى فضل قوتي فأجعله فيما حرم الله عليّ فأمسك عنه.

وحاصل كلامهم يدل على أن اجتناب المحرمات -وإن قلت- أفضل من الإكثار من نوافل الطاعات، فإن ذاك فرض، وهذا نفل)[2].

---

(١) الدانق سدس الدرهم والساقط المهزول. المعجم الوسيط في (د ن ق).

(٢) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢٥٢/١-٢٥٤، وانظر: الفوائد لابن القيم ص ١٧٣-١٨٦، وقال: هذه مسألة عظيمة لها شأن، وهي أن ترك الأوامر عند الله من ارتكاب المناهي وذلك من وجوه عديدة، ثم ذكر ثلاثة وعشرين وجهًا للتدليل على ذلك.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الأمر.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: النهي عن كثرة السؤال.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: النهي عن الاختلاف.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: ضرورة الامتثال لأمر النبي ﷺ.

خامسًا: من أساليب الدعوة: الترهيب.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: من خصوصيات النبي ﷺ جوامع الكلم.

سابعًا: من موضوعات الدعوة: العمل قدر الطاقة والوسع.

أولاً- من أساليب الدعوة: الأمر:

يظهر أسلوب الأمر في هذا الحديث في أكثر من موضع هي: "دعوني... فاجتنبوه... فأتوا...".

إن استعمال النبي ﷺ لأسلوب الأمر في هذا الحديث يدل على أهمية المأمور به، من حيث ضرورة الامتثال لما أمر به النبي ﷺ، وما في ذلك من مصلحة متحققة للمدعوين في الاستجابة لما أمروا به.

دل حديث الباب على النهي عن السؤال عما لا يُحتاج إليه مما يسوء السائل جوابه وهذا ما تراه في قوله ﷺ: "دعوني ما تركتكم: إنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم ... إلخ"(١).

وقد تعددت الأحاديث النبوية في تأكيد هذا المعنى وترسيخه، وكان منها قول أبي هريرة رضي الله عنه: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: "أيها الناس! قد فرض الله عليكم الحج فحجوا"، فقال رجل: أكلَّ عام يا رسول الله! فسكت حتى قالها ثلاثًا. فقال رسول الله

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١/٢٤٠-٢٤١.

ﷺ: "لو قلت نعم لوجبت، ولما استطعتم"، ثم قال: "ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم ..." إلخ[(١)].

قال أبو العباس القرطبي: (وقوله: "ذروني ما تركتكم" يعني: لا تكثروا من الاستفصال عن المواضع التي تكون مقيَّدةً بوجهٍ ما ظاهرٍ وإن كانت صالحة لغيره. وبيان ذلك: أن قوله: "فحجوا" وإن كان صالحًا للتكرار، فينبغي أن يُكتفى بما يصدق عليه اللفظ، وهو المرةُ الواحدةُ، فإنها مدلولة للَّفظ قطعًا، وما زاد عليها يتغافل عنه، ولا يكثر السؤال فيه لإمكان أن يكثر الجواب المترتب عليه، فيضاهي ذلك قصة بقرة بني إسرائيل التي قيل لهم فيها: اذبحوا بقرة. فلو اقتصروا على ما يصدق عليه اللفظ، وبادروا إلى ذبح بقرة -أيٍّ بقرة كانت- لكانوا ممتثلين، لكن لما أكثروا السؤال كثر عليهم الجواب، فشددوا، فشدد عليهم، فذُمُّوا على ذلك، فخاف النبي ﷺ مثل هذا على أمته، ولذلك قال: "فإنما هلك من كان قلبكم بكثرة سؤالهم"، وعلى هذا يحمل قوله: "فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم" يعني: بشيءٍ مطلقٍ. كما إذا قال: صُمْ، أو صلِّ، أو تصدَّق. فيكفي من ذلك أقلُّ ما ينطلق عليه الاسم فيصوم يومًا، ويصلِّي ركعتين، ويتصدق بشيءٍ يُتصدَّق بمثله. فإن قيَّد شيئًا من ذلك بقيود، ووصفه بأوصاف لم يكن بدٌّ من امتثال أمره على ما فصَّل وقيَّد، وإن كان فيه أشدُّ المشقات، وأشق التكاليف. وهذا مما لا يختلف فيه إن شاء الله تعالى أنه هو المراد بالحديث[(٢)].

ومما يؤكد على ترسيخ هذا المعنى، قول أنس رضي الله عنه: "سئل رسول الله ﷺ حتى أحْفَوْهُ المسألة[(٣)] فغضب فصعد المنبر، فقال: "لا تسألوني اليوم عن شيء إلا بينته لكم"، فجعلت انظر يمينًا وشمالاً فإذا كل رجل لافًا رأسه في ثوبه يبكي، فإذا رجل

---

(١) أخرجه مسلم ١٣٣٧.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، تحقيق: محيى الدين مستو وآخرين ٤٤٧/٣-٤٤٨.

(٣) وأحفوه في المسألة: استقصوا عليه، الإفصاح، ابن هبيرة، ٣٣/٥.

كان إذا لا حى[١] الرجال يدعى لغير أبيه، فقال: يا رسول الله، من أبي؟ قال: "حذافة" ثم أنشأ عمر فقال: رضينا بالله ربًا، وبالإسلام دينًا وبمحمدٍ ﷺ رسولاً، نعوذ بالله من الفتن. فقال رسول الله ﷺ: "ما رأيت في الخير والشر كاليوم قط، إنه صُوِّرت لي الجنة والنار حتى رأيتهما وراء الحائط"[٢].

وكان قتادة يذكر عند هذا الحديث هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾[٣])[٤].

قال ابن هبيرة: (في هذا الحديث، أن غضب رسول الله ﷺ إنما كان لتكثيرهم الأسئلة عما لا يصلح، فظهر رسول الله ﷺ على المنبر ظهورًا قال فيه قولاً يستدل به كل عاقل على أنه لم يمسك عما كانوا يسألونه عنه إلا لمصلّحتهم فحسب، وقد نطق بهذا القرآن في قوله تعالى: ﴿لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾)[٥].

لذادلت هذه الأحاديث على النهي عن السؤال عما لا يُحتاج إليه مما يسوءُ السائل جوابه مثل سؤال السائل؛ هل هو في النار أو في الجنة، وهل أبوه من ينتسب إليه أو غيره، وعلى النهي عن السؤال على وجه التعنت والعبث والاستهزاء، كما كان يفعله كثير من المنافقين وغيرهم.

وقريب من ذلك سؤال الآيات واقتراحها على وجه التعنت لما كان يسأله المشركون وأهل الكتاب، وقد قال عكرمة وغيره: إن الآية نزلت في ذلك.

ويقرب من ذلك السؤال عما أخفاه الله عن عباده، ولم يُطلعهم عليه، كالسؤال عن وقت الساعة، وعن الروح.

---

(١) "كان إذا لاحى" الملاحاة المنازعة والخصومة، المرجع السابق.

(٢) أخرجه البخاري ٦٦٧٨.

(٣) سورة المائدة، آية: ١٠١.

(٤) أخرجه البخاري ٦٣٦٢.

(٥) الإفصاح ٣٢/٥.

وقد كان النبي ﷺ ينهى عن قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال[١].

ولم يكن النبي ﷺ يُرخِّصُ في المسائل إلا للأعراب ونحوهم من الوفود القادمين عليه، يتألفهم بذلك، فأمَّا المهاجرون والأنصار المقيمون بالمدينة الذين رسخ الإيمانُ في قلوبهم، فنهوا عن المسألة[٢].

فعن نواس بن سمعان رضي الله عنه قال: ((أقمت مع رسول الله ﷺ بالمدينة سنة، ما يمنعني من الهجرة إلا المسألة، كان أحدنا إذا هاجر لم يسأل رسول الله ﷺ عن شيء ...)) إلخ[٣].

قال النووي: (معناه: أنه أقام بالمدينة كالزائر من غير نقله إليها من وطنه لاستيطانها وما منعه من الهجرة وهي الانتقال من الوطن واستيطان المدينة إلا الرغبة في سؤال رسول الله ﷺ عن أمور الدين، فإنه كان سمح بذلك للطارئين دون المهاجرين وكان المهاجرون يفرحون بسؤال الغرباء الطارئين من الأعراب وغيرهم، لأنهم يحتملون في السؤال ويعذرون ويستفيد المهاجرون الجواب كما قال أنس رضي الله عنه في الحديث الذي ذكره مسلم في كتاب الإيمان. وكان عجبًا أن يجيء الرجل العاقل من أهل البادية فيسأل ونحن نسمع[٤])[٥].

وكان من أهم أسباب نهي النبي ﷺ عن كثرة السؤال عدم حصول التشديد لقوله ﷺ "إن أعظم المسلمين في المسلمين جرمًا من سأل عن شيء لم يحرم، فحرم من أجل مسألته" وقد زعم بعض الناس أن ذلك كان مختصًا بزمن النبي ﷺ[٦] لما يخشى حينئذ من تحريم ما لم يحرم، أو إيجاب ما يشق القيام به، وهذا قد أمن بعد وفاته ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري ١٤٧٧، ومسلم ٥٩٣.

(٢) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١/ ٢٤٠-٢٤٢.

(٣) أخرجه مسلم ٢٥٥٣.

(٤) أخرجه مسلم ١٢.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٣٣-١٥٣٤.

(٦) أخرجه البخاري ٧٢٨٩، ومسلم ٢٣٥٨.

قال ابن رجب: (إن هذا الزعم ليس وحده هو سبب كراهة المسائل، بل له سبب آخر، وهو الذي أشار إليه ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في قوله: ولكن انتظروا، فإذا نزل القرآن، فإنكم لا تسألون عن شيء إلا وجدتم تبيانه. ومعنى هذا: أن جميع ما يحتاج إليه المسلمون في دينهم لا بدَّ أن يبينه الله في كتابه العزيز، ويبلِّغ ذلك رسوله عنه، فلا حاجة بعد هذا لأحدٍ في السؤال[1] ولا سيما قبل وقوعه والحاجة إليه، وإنما الحاجةُ المهمة إلى فهم ما أخبر الله به ورسوله، ثم اتباع ذلك والعمل به، بل وبذل الوسع في الاجتهاد في فعل ما يستطيعه من الأوامر واجتناب ما يُنهى عنه، وتكون همته مصروفة بالكلية إلى ذلك، لا إلى غيره.

وهكذا كان حال أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والتابعين لهم بإحسان في طلب العلم النافع من الكتاب والسنة ولكن...

إذا كانت همة السامع مصروفة عند سماع الأمر والنهي إلى فرض أمور قد تقع،وقد لا تقع، فإن هذا مما يدخل في النهي، ويثبط عن الجد في متابعة الأمر. وقد سأل رجل ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عن استلام الحجر، فقال له: رأيت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستلمه ويقبله، فقال له الرجل: أرأيت إن غلبت عليه؟ أرأيت إن زُوحمت؟ فقال له ابن عمر: اجعل، "أرأيت"، باليمن، رأيت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستلمه ويقبله[2].

ومراد ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنه لا يكن لك هم إلا في الاقتداء بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا حاجة إلى فرض العجز عن ذلك أو تعسره قبل وقوعه؛ فإنه قد يفتر العزم عن التصميم على المتابعة، فإن التفقه في الدين، والسؤال عن العلم إنما يُحمد إذا كان للعمل، لا للمراء والجدال.

وقد روي عن عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه ذكر فتنًا تكون في آخر الزمان، فقال له عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: متى ذلك يا علي؟ قال: إذا تُفُقه لغير الدين، وتُعُلِّم لغير العمل، والتمست الدنيا بغير الآخرة.

---

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢٤٣/١.

(٢) أخرجه البخاري ١٦١٠.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: كيف بكم إذا لبستكم فتنة يربو فيها الصغير ويهرم فيها الكبير، وتتخذ سُنةً، فإن غيرت يومًا قيل: هذا منكر؟ قالوا: ومتى ذلك؟ قال: إذا قلت أمناؤكم، وكثرت أمراؤكم، وقلت فقهاؤكم، وكثر قراؤكم، وتفقه لغير الدين، والتمست الدنيا بعمل الآخرة.

ولهذا المعنى كان كثير من الصحابة والتابعين يكرهون السؤال عن الحوادث قبل وقوعها، ولا يجيبون عن ذلك، قال عمرو بن مرة: خرج عمر على الناس، فقال: أحرِّج عليكم أن تسألونا عن ما لم يكن، فإن لنا فيما كان شغلاً. وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: لا تسألوا عما لم يكن، فإني سمعت عمر رضي الله عنه لعن السائل عما لم يكن[(١)].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: النهي عن الاختلاف:

إن من موضوعات الدعوة التي تستنبط من عموم الحديث النهي عن الاختلاف حيث بيّن صلى الله عليه وسلم أن الاختلاف كان سببًا في هلاك الأمم السابقة، فعلى المسلمين البعد عنه حتى لا يكون سببًا في هلاكهم.

لذا أمر الله سبحانه المسلمين بالاجتماع وعدم التفرق والاختلاف، فقال: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[(٢)].

فأمر الله عز وجل بأن يكونوا جميعًا على الاعتصام بجامعة الإسلام، الذي كان سبب نجاتهم مما كانوا عليه قبله[(٣)].

---

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢٤٤/١-٢٤٥، باختصار.

(٢) سورة آل عمران، الآيات: ١٠٣-١٠٥.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٢/٤/٢.

ونهى عن التفرق والاختلاف اللذين كانا عليها الأمم السابقة، مما كان سببًا في هلاكهم. فحري بالداعية أن يبيّن للمدعوين خطورة الاختلاف، نظرًا لما يترتب عليه من نتائج سلبية من التفرقة والحزبية التي ينهى الإسلام عنها، لأنها تجلب العداوات التي تصل إلى حد الاقتتال والتناحر بين الأمة كما حدث في الأمم السابقة.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: ضرورة الامتثال لأمر النبي ﷺ:

من موضوعات الدعوة التي تبرز من هذا الحديث ضرورة الامتثال لأمر النبي ﷺ ويظهر ذلك من قوله: "فإذا نهيتكم عن شيء فانتهوا، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم".

والامتثال لأمر النبي ﷺ أمر واجب على المسلمين جميعًا، لقوله تعالى على لسان نبيه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[٢] أي: مهما أمركم به فافعلوه، ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه فإنه إنما يأمر بخير وإنما ينهى عن شر[٣].

فعلى الداعية أن يبيّن للمدعوين ضرورة الامتثال لأمر رسول الله ﷺ وأن أمره هو أمر من عند الله قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[٤].

خامسًا- من أساليب الدعوة: الترهيب:

يظهر أسلوب الترهيب في هذا الحديث في ترهيبه ﷺ من كثرة السؤال والاختلاف، وبيان أن ذلك كان سببًا في هلاك الأمم السابقة، فعلى المسلمين أن يحذروا من خطورة الوقوع فيه. والترهيب من الأساليب الدعوية المهمة والتي يمكن أن يفيد منها الداعية فيما يخدم موضوعات الدعوة.

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٣١.

(٢) سورة الحشر، آية: ٧.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٦٧/٨.

(٤) سورة النجم، الآيتان: ٣، ٤.

سادسًا- من موضوعات الدعوة: من خصائص النبي ﷺ جوامع الكلم:

إن مما يؤكد خصوصية النبي ﷺ في الإيجاز ما ورد في قوله ﷺ: ((فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم)) قال الإمام النووي: هذا من قواعد الإسلام المهمة ومن جوامع الكلم التي أعطيها ﷺ، ويدخل فيه ما لا يحصى من الأحكام كالصلاة بأنواعها، فإذا عجز عن بعض أركانها أو بعض شروطها أتى بالباقي، وإذا عجز عن بعض أعضاء الوضوء أو الغسل غسل الممكن، وإذا وجد بعض ما يكفيه من الماء لطهارته أو لغسل النجاسة فعل الممكن، وإذا وجبت إزالة منكرات أو فطرة جماعة من تلزمه نفقتهم أو نحو ذلك وأمكنه البعض فعل الممكن، وإذا وجد ما يستر بعض عورته أو حفظ بعض الفاتحة أتى بالممكن، وأشباه هذا غير منحصرة وهي مشهورة في كتب الفقه، والمقصود التنبيه على أصل ذلك[1].

وجوامع الكلم التي أعطيها رسول الله ﷺ من خصائصه التي خصه الله بها فكان كلامه قليل الألفاظ كثير المعاني والفوائد.

سابعًا- من موضوعات الدعوة: العمل قدر الطاقة والوسع:

من موضوعات الدعوة في هذا الحديث العمل قدر الطاقة والوسع، ويظهر ذلك في قوله ﷺ: "فأتوا منه ما استطعتم" أي: افعلوا قدر استطاعتكم[2]. وقال ابن رجب: (وفي ذلك دليل على أن من عَجَزَ عن فعل المأمور به كله، وقدر على بعضه فإنه يأتي بما أمكنه منه، وهذا مطرد في مسائل منها الطهارة، والصلاة، وزكاة الفطر، والحج)[3].

فالله سبحانه لا يأمر إلا بالمستطاع[4]. قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾[5] أي: لا يكلف أحدًا فوق طاقته، وهذا من لطفه تعالى بخلقه ورأفته بهم وإحسانه

---

(١) شرح صحيح مسلم ص ٨٣٧.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٣/ ٢٧٦.

(٣) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١/ ٢٥٦ باختصار.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٨٣٧.

(٥) سورة البقرة من آية: ٢٨٦.

إليهم[١]. قال تعالى: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[٢] أي مشقة وعسر، بل يسره غاية التيسير[٣].

وقال تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾[٤] يأمر تعالى بتقواه التي هي امتثال أوامره، واجتناب نواهيه، وقيد ذلك بالاستطاعة والقدرة[٥]. فعلى الداعية أن يبين للمدعوين يسر الدين وسعته ولطفه بهم.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٧٣٧/١.

(٢) سورة الحج، من آية: ٧٨.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٤٩٦.

(٤) سورة التغابن، من آية: ١٦.

(٥) المرجع الساب ص ٨٠٤.

الحديث رقم (١٥٧)

١٥٧- الثَّاني: عَنْ أَبِي نَجِيحِ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ ﷺ قال: وَعَظَنَا رسولُ اللَّه ﷺ مَوْعِظَةً بليغةً وَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُون، فقُلْنَا: يا رَسولَ اللّه كأَنَها موعِظةُ مُوَدِّعٍ فَأَوْصِنَا. قال: «**أُوصيكُمْ بِتَقْوى اللّه، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وإِنْ تَأَمَّر عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حبشيٌّ، وَأَنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرى اخْتِلافًا كثِيرا. فَعَلَيْكُمْ بسُنَّتي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عضُّوا عَلَيْهَا بالنَّواجِذِ، وإِيَّاكُمْ ومُحْدثَاتِ الأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ**» رواه أبو داود، والترمذي[١]، وقال حديث حسن صحيح.

«**النَّواجِذُ**» بالذال المعجمة: الأَنْيَابُ، وقيلَ: الأَضْرَاسُ[٢].

ترجمة الراوي:

العرياض بن سارية: هو العرباض بن سارية السُّلمي كنيته: أبو نَجيح. كان من السباقين إلى الإسلام، أسلم هو وسبعة من بني سليم هو أكبرهم فبايعوا النبي ﷺ.

كان فقيرًا، فعاش مع أهل الصفة بالمسجد، حتى إذا جاءت غزوة تبوك والمسلمون في شدة وحاجة. جاء هو وجماعة من الصحابة الفقراء إلى النبي ﷺ ليجهزهم للغزو، فاعتذر لهم النبي ﷺ عن عدم تمكنه من ذلك، فبكوا بكاءً شديدًا لأنهم سيحرمون من الجهاد في سبيل الله، فسمُّوا البكائين. وفيهم نزل قوله تعالى[٣] ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦). صحّحه ابن حبان (الإحسان ٥)، وقال الحاكم (٩٥/١): هذا حديث صحيحٌ ليس له علة. وقال ابن كثير في تحفة الطالب (٤٦): وصحّحه أيضًا أبو نعيم الإصبهاني، وقال الأنصاري في ذم الكلام (١٢٢/٣): هذا من أجود حديث في أهل الشام وأحسنه. ونقل أيضًا عن أبي العباس الداغولي أنه قال: حديث العرباض هذا صحيح. أورده المنذري في ترغيبه (٥٨). وسيكرره المؤلف برقم (٧٠٢).

(٢) بنصه في الترغيب والترهيب، المنذري (٩٥/١).

(٣) انظر: الدر المنثور (٤٨٧/٧) وفي خصوص العرباض بن سارية صحّ أنه نزل فيه ذلك وهذا في أول الحديث المذكور له في الرياض، وقد أورد النووي قول النبي ﷺ فقط.

ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴾[١].

وكان يخشى على نفسه الرياء فكان يقول: لولا أن يقول الناس فعل أبو نجيح فعل أبو نجيح يعني نفسه.

وكان مجاهرًا بالحق لا يخشى أحدًا، أعطى معاوية بن أبي سفيان المقداد حمارًا من المغانم فقال له العرياض: ما كان لك أن تأخذه، ولا أن يعطيك، كأني بك في النار تحمله. فرده المقداد، نزل الشام وسكن حمص وتوفي سنة ٧٥هـ وقيل قبل ذلك[٢].

غريب الألفاظ:

وجلت: الوجل: الفزع[٣].

ذرفت منها العيون: ذرفت العين تَذْرِف: إذا جرى دمعها[٤].

تأمَّر عليكم: أي صار أميرًا عليكم[٥].

النواجذ: بالذال المعجمة: الأنياب وقيل الأضراس[٦].

عضوا عليها بالنواجذ: هذا مثل في شدة الاستمساك بأمر الدين؛ لأن العض بالنواجذ عضٌّ بجميع الفمّ والأسنان[٧].

---

(١) سورة التوب، آية: ٩٢.

(٢) الطبقات الكبرى، ابن سعد (٢٧٦/٤) (٤١٢/٧) والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر ٥٩٠، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (١٩/٤)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ٩٠٢، والسير (٤١٩/٣)، وتهذيب الكمال في أسماء لرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس، ومجدي السيد أمين (١٥٠/٥)، والتهذيب (٨٩/٣) وموسوعة عظماء حول الرسول (١٣٣٨/٢).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (و ج ل).

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ذ ر ف).

(٥) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٢٠٣٥.

(٦) رياض الصالحين ١١٣.

(٧) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ع ض ض). وانظر: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٢٠٣٦.

الشرح الأدبي

إن البيان النبوي هو في القمة من البلاغة العربية، وهو الأنموذج المتكامل الفريد للبيان العربي الدال المفيد لأنه من توفيق الله وهدايته، وتوجيهه ورعايته، ويتصل سموق هذا البيان بأسباب تكوينه ونشأته ﷺ فقد نشأ وتقلب في أفصح القبائل وأخلصها منطقًا، وأعذبها بيانًا، فكان مولده في بني هاشم، وأخواله في بني زهرة، ورضاعه في بني سعد بن بكر، ومتزوجه في بني أسد، ومهاجرته إلى بني عمرو ، وهم الأوس والخرزج من الأنصار، وهذه النشأة الإنسانية الصحيحة التي صاحبت المصطفى ﷺ في جميع أطوار حياته بفضل توفيق الله ورعايته صبغت أحاديثه وبيانه الكريم بصفات كريمة، ودقائق نفيسة.

وفي ضوء هذه الخصائص الفنية والجماليات الأسلوبية التي يتسم بها البيان النبوي الكريم، يبدأ العرياض بن سارية هذا الحديث الشريف بالإشادة بموعظة رسول الله ﷺ: ويصفها بأنها موعظة بليغة، وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، ويقول ابن رجب الحنبلي: البلاغة في الموعظة مستحسنة، لأنها أقرب إلى قبول القلوب واستجلابها، والبلاغة هى: التوصل إلى إفهام المعاني المقصودة، واتصالها إلى قلوب السامعين بأحسن صورة من الألفاظ الدالة عليها وأفصحها وأحلاها لذي أسماع، وأوقعها في القلوب وكان النبي ﷺ يقصر الخطبة ولا يطيلها بل كان يبلغ ويوجز[(١)].

ومنبع البلاغة في هذا الحديث الشريف يتمثل في حسن اختيار الكلمات، ودقة انتقاء الأساليب وتنوعها، والحوار المفيد بين النبي وأصحابه، والصدق في النصيحة، والدعوة إلى العمل الصالح بالحكمة والموعظة الحسنة، وأول شعاع من أشعة هذه البلاغة النبوية هو "الأسلوب الجَمْعي" في الوعظ والخطاب بصفة عامة فلم يقل العرياض "وعظني رسول الله"، ولكنْ قال: "وعظنا"، لأن النبي ﷺ أرسل إلى الناس كافة.

والسياق هنا يقتضي الموعظة الجماعية: لأنه يوصي أصحابه وكل المسلمين بعد

---

(١) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١١١/٢.

ذلك في كل زمان وكل مكان.

والتنوين في "موعظة" مع مجيئها في صيغة النكرة، للتعْظيم والتعميم فهى موعظة جليلة عامة شاملة ووصفها بأنها بليغة لا يتعلق بالبلاغة الأسلوبية فقط، ولكنها بما تضمنته من إرشادات ونصائح وتوجيهات قد وصلت إلى القلوب والأسماع، وبلغت المراد، وأتت بالثمرة: لأن البلاغة من التبليغ والإبلاغ.

وبلاغة الأداء الصوتي، وتمثل المعنى، وقوة التأثير من خصائص بيانه الكريم في أحاديثه وخطبه ووصاياه ومواعظه، فقد كان النبي ﷺ يتغير حاله عند الموعظة كما قال جابر، كان النبي ﷺ إذا خطب وذكر الساعة اشتد غضبه، وعلا صوته، واحمّرت عيناه كأنه منذر جيش يقول: صبحكم ومساكم[1].

ومن مظاهر بلاغة الأسلوب "التقديم والتأخير" في قوله: "وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون"، لأن العيون لا تبكي ولا تذرف الدمع من خشية الله إلا إذا وجلت القلوب، واستشعرت ثقل الذنوب، واشتاقت إلى عفو ورحمة علام الغيوب.

وفي قوله: "كأنها موعظة مودّع فأوصنا، دلالة على أنه ﷺ قد أبلغ في تلك الموعظة ما لم يبلغ في غيرها، فلذلك فهموا أنها موعظة مودّع، فإن المودِّع يستقصي ما لم يستقص غيره في القول والفعل. والتشبيه هنا متماثل بين طرفي التشبيه فهو تشبيه المعنوي بالمعنوي، أو تشبيه حالة رسول الله في موعظته البليغة المستقصية بحال من يودع أبناءه، ويوصيهم بما ينفعهم، وبما يحفظ عليهم أنفسهم وأموالهم.

والأمر في قول الصحابة، "فأوصنا" ليس على حقيقته، ولكنه التماس، لأن الأمر الحقيقي يكون من الأعلى للأدنى، أما إذا كان من الأدنى للأعلى فهو دعاء، مثلما نقول في دعائنا: ربنا اغفر لنا ذنوبنا، وكفر عنا سيئاتنا.

وإذا كان بين متساويين فهو التماس ورجاء، ورسول الله مثلنا في البشرية ، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾[2] وجاءت وصيته ﷺ بمنأى عن أسلوب الأمر إلا

---

(١) أخرجه مسلم ٨٦٧.

(٢) سورة الكهف، آية: ١١٠.

في وصيته بضرورة التمسك بالسنة، فقال: "عضوا عليها بالنواجذ".

وأول بنود هذه الوصية هو "تقوى الله" وهي وصية جامعة مانعة ، تفصح عن قيمة الإيجاز في الحديث النبوي، فقد جمع النبي ﷺ ، في هذا كل ما يحتاج إليه من أمور الآخرة: لأن التقوى امتثال الأوامر واجتناب النواهي، وتكاليف الشرع لا تخرج عن ذلك.

والبنْد الثاني من هذه الوصية: هو "السمع والطاعة"، لولي الأمر حتى وإن كان عبْدًا حبشيًا؛ وقيل إن هذا من عطف الخاص على العام لأن من مظاهر التقوى: "السمع والطاعة"، وقيل يحتمل أنه من عطف المغاير من حيث إن أظهر مقاصد التقوى انتظام الأمور الأخروية، والإمامة التي تستوجب السمع والطاعة، أظهر مقاصدها انتظام الأمور الدنيوية، ويقول ابن رجب الحنبلي: (فهاتان الكلمتان تجمعان سعادة الدنيا والآخرة، أما التقوى فهي كافلة سعادة الدنيا والآخرة لمن تمسك بها، وأما السمع والطاعة لولاة أمور المسلمين ففيها سعادة الدنيا، وبها تنتظم مصالح العباد في معاشهم، وبها يستعينون على إظهار دينهم، وطاعة ربهم)[1].

ويُطلع الرسول أصحابه على حقائق ستقع في المستقبل، ومنها الاختلاف الكثير، وتشعبُ المذاهب والفرق، وكثرة التأويل وانتشار البدع والخرافات، ويقول العلماء في هذا التوجيه والتحذير أن من معجزاته ﷺ إخباره بما يقع بعده من كثرة الاختلاف وغلبة المنكر، وهذا الإنباء عن وقوع الاختلاف الكثير في جميع الأمور الدينية والدنيوية، قدّمه رسول الله ﷺ في صيغة التأكيد، وفي إيجاز شديد دالّ مفيد، وقوله: "فسيرى اختلافًا كثيرًا"، يشمل كل أوجه الاختلافات التي نشأت بين المسلمين في جميع المجالات السياسية والعقدية والاجتماعية، والعلمية، وغير ذلك.

وفي ختام الحديث: يقدِّم المصطفى ﷺ للمسلمين مفاتيح النجاة من فتن الخلافات، وظلمات الشبهات فيأمر المسلمين جميعًا بالتزام السنة النبوية، التي سار عليها الخلفاء الراشدون بعده؛ وهذا إعجاز آخر من معجزاته ﷺ لأنه أخبر عما

---

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١١٦/٢، ١١٧.

سيقع في المستقبل، وما أخبر به حدث، وسار الخلفاء الراشدون على نهجه وسنته، ثم انقلبت الأمور وصارت حكما عضوضًا، وفي قوله: "عضّوا عليها بالنواجذ"، فيه أمر بشدة التمسك بالسنة كما يحرص الإنسان على طعامه، ويعض عليه بالنواجذ حتى يستسيغه ويهضمه فينفعه، وفيه تشبيه المعقول بالمحسوس، وإشارة إلى الفهم الصحيح للسنة ومدارستها دراسة جيدة حتى تصبح مستساغة كالطعام المهضوم النافع، ويحذر الرسول من البدع والأهواء وتشويه المعالم الدينية المستمدة من الكتاب والسنة ووصف "البدعة بأنها ضلالة"، وهذا قول موجز يشمل كل أنواع البدع المذمومة التي ليس لها أصل في الشريعة، والله الموفق.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكمين فقهيين:

الأول: حكم طاعة الإمام، وقد سبق الكلام عنه في الحديث رقم (٥١).

الثاني: المقصود بالبدعة والسنة وحكمهما، وقد اختلف الفقهاء[١] في مفهومهم للبدعة، فمنهم من وسع في مدلولها حتى أطلقها على كل مستحدث من الأشياء لم يوجد في الكتاب والسنة سواء أكان محمودًا أم مذمومًا، وسواء أكان في العبادات ومن هؤلاء الشافعي والنووي والعز بن عبدالسلام، والقرافي والزرقاني من المالكية، وابن عابدين من الحنفية، وابن الجوزي من الحنابلة، وابن حزم الظاهري، وهي تنقسم عندهم إلى أقسام عدة، فمن البدع الواجبة الاشتغال بمثل علم النحو، ومن البدع المحرمة مذهب المرجئة والقدرية والجبرية والخوارج، ومن البدع المندوبة صلاة التراويح

---

(١) انظر في تفصيل ذلك: بريقة محمودية للخادمي ٨٧/١ وما بعدها، وأنوار البروق، القرافي ٢١٧/٤ وما بعدها، وحاشية العدوي على الخرشي ١٢٦/١، والمدخل ١٦٠/١، ٢٥٩/٤، ٢٧٧، والفروع، ابن مفلح ١٦١/٦ وما بعدها، ٥٦٧/٦، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ٣٢٣/١٠ وما بعدها، وقواعد الأحكام في مصالح الأنام، العز بن عبدالسلام ٢٠٤/٢ وما بعدها، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ١٤٢/٢، ٢٢/٣، وسبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، إسماعيل الصنعاني ٤٠٢/١ وما بعدها، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢١/٨ وما بعدها.

في المساجد، وبناء القناطر والمدارس وغيرها، ومن البدع المكروهة زخرفة المساجد وتزيين المصاحف، ومن البدع المباحة المصافحة عقب الصلاة والتوسع في المباح من المأكل والمشرب والملبس[(١)].

ومنهم من ذم البدعة مطلقًا سواء أكانت في العبادات أم العادات، وقرروا أن البدع كلها ضلالات، ومن هؤلاء مالك والشاطبي والطرطوشي، والإمام الشمني والعيني من الحنفية، والبيهقي وابن حجر العسقلاني وابن حجر الهيتمي من الشافعية، وابن رجب الحنبلي وابن تيمية من الحنابلة.

وقد اتفق الفقهاء على أن البدعة في العقيدة محرمة، وقد تصل إلى درجة الكفر متى خالفت معلومًا من الدين بالضرورة.

أما البدعة في العبادات فقد تكون محرمة، كبدعة الصيام في الشمس، والخصاء للانقطاع للعبادة، وقد تكون مكروهة كالاجتماع عشية عرفات للدعاء لغير الحجيج، وزخرفة المساجد[(٢)].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الوعظ، والوصية، والأمر، والتحذير، والتوكيد.

ثانيًا: من آداب المدعو: حضور الذهن وإعمال العقل والتفاعل مع الداعية.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل التقوى.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: أهمية السمع والطاعة.

خامسًا: من دلائل نبوته ﷺ: الإخبار بوقوع الاختلاف الكثير.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: أهمية التمسك بالكتاب والسنة وسنة الخلفاء الراشدين المهديين.

سابعًا: من موضوعات الدعوة: التحذير من محدثات الأمور والبدع.

ثامنًا: من صفات الداعية: الحرص على هداية الناس.

---

(١) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية٨/٢١ وما بعدها.

(٢) المراجع السابقة.

أولاً- من أساليب الدعوة: الوعظ، والوصية، والأمر، والتحذير، والتوكيد:

أ- الوعظ: ويؤخذ ذلك من قول العرباض بن سارية: "وعظنا رسول الله ﷺ موعظة"وقوله: "كأنها موعظة مودع"، والموعظة من أهم الوسائل الدعوية وقد أمر الله بها فقال: ﴿وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾[1]، وشرط أن تكون حسنة: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[2]، والموعظة الحسنة هي الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب[3].

ب- الوصية: ويؤخذ ذلك من قول الصحابة رضي الله عنهم "فأوصنا" وقوله ﷺ: ((أوصيكم)) فنجد أن الصحابة رضي الله عنهم حرصوا على وصية رسول الله ﷺ لهم وأجاب النبي ﷺ مطلبهم فأوصاهم بأن يستمسكوا بما ينفعهم ويعصمهم من الزلل والردى.

ج- الأمر: في قوله ﷺ: "عليكم بسنتي".

د- التحذير: في قوله ﷺ -محذرًا من الإحداث في الدين-: "وإياكم ومحدثات الأمور".

هـ- التوكيد: ويظهر ذلك في توكيد كلامه ﷺ ليأخذ مكانه في القلوب في قوله: "وأنه من يعش" و"فإن كل بدعة ضلالة". ولا شك أن هذا التوكيد يعمل على إقرار وترسيخ ما تم التوكيد عليه فيما يتعلق بالاختلاف الكثير الذي سيراه من يعش بعد النبي ﷺ، وما يتعلق بشأن البدع وأنها ضرب من ضروب الضلال والزيغ، مما يستلزم اجتنابها وعدم إتيانها.

ثانيًا- من آداب المدعو: حضور الذهن وإعمال العقل والتفاعل من الداعية:

يظهر ذلك في اندماج الصحابة رضي الله عنهم مع كلام رسول الله ﷺ وتأثيره فيهم في قوله: ((ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب))، وهذان الوصفان بهما مدح الله

---

(١) سورة النساء، آية: ٦٣.

(٢) سورة النحل، آية: ١٢٥.

(٣) بدائع التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن قيم الجوزية ٦٥/٣.

المؤمنين عند سماع الذكر[(١)]، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[(٢)].

أما حضور البديهة فيستنبط من قوله: "كأنها موعظة مودع فأوصنا"، يدل على أنه كان قد أبلغ في تلك الموعظة ما لم يبلغ في غيرها، فلذلك فهموا أنها موعظة مودع، ولربما كان قد وقع منه ﷺ - تعريض في تلك الخطبة بالتوديع[(٣)].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل التقوى:

لقد أمرنا الله بتقواه فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾[(٤)]، وبين المراد بهذه الآية بقوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾[(٥)]، فتقوى الله خشيته ظاهرًا وباطنًا والعمل بموجبها[(٦)].

ومن ثمرات التقوى ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[(٧)].

فعن ابن عباس رضي الله عنهما: "يجعل له مخرجًا": ينجيّه من كل كرب في الدينا والآخرة، وقال عمر بن عثمان الصدفي: "ومن يتق الله فيقف عند حدوده ويجتنب معاصيه، يخرجه من الحرام إلى الحلال، ومن الضيق إلى السعة، ومن النار إلى الجنة (ويرزقه من حيث لا يحتسب)، من حيث لا يرجو[(٨)]، ومن ثمرات التقوى أيضًا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

---

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١١٢/٢.

(٢) سورة الأنفال، آية: ٢.

(٣) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١١٤/٢.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٠٢.

(٥) سورة التغابن، آية: ١٦.

(٦) تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي ١٦٨/٤/٢.

(٧) سورة الطلاق، الآيتان: ٢ - ٣.

(٨) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٥٩/١٨/٩ - ١٦٠.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾[1]، مخرجًا في الدنيا والآخرة، ويكفر عنكم سيئاتكم: يمحوها، ويغفر لكم: يسترها عن الناس[2]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[3].

رابعًا: من موضوعات الدعوة: أهمية السمع والطاعة:

قد أمر النبي ﷺ بالسمع والطاعة في الحديث "أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد حبشي"، أي: وإن كان المؤمر عليكم عبدًا حبشيًا فلا تستنكفوا عن طاعته، فأطيعوه مخافة إثارة الفتن[4]، فالسمع والطاعة لولاة الأمر انتظام لمصالح العباد في الدنيا وإظهار لدين الله تبارك وتعالى.

خامسًا- من دلائل نبوته ﷺ: الإخبار بوقوع الاختلاف الكثير:

فقال ﷺ: "وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا"، قال ابن رجب الحنبلي: "وهذا إخبار منه ﷺ بما وقع في أمته بعده من كثرة الاختلاف في أصول الدين وفروعه وفي الأقوال والأعمال والاعتقادات". وذلك يعد من دلائل نبوته ﷺ[5].

سادسًا- من موضوعات الدعوة: أهمية التمسك بالكتاب وسنة الخلفاء الراشدين المهديين:

(لقد كان الرسول ﷺ يتخول أصحابه بالموعظة، وقبيل وفاته بعد صلاة الصبح وعظ أصحابه رضي الله عنهم موعظة بليغة مؤثرة اضطربت لها القلوب ودمعت من قوة تأثيرها العيون، وأحس الصحابة بأن الرسول ﷺ أطال فيها وعمم وأرشد إلى أكثر الأمور كأنه يودعهم ويوشك أن يفارقهم.. ولعلهم لمحوا ذلك من ثنايا كلامه فطلبوا وصية

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٢٩.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٤٢/٤ - ٤٣.

(٣) سورة الحديد، آية: ٢٨.

(٤) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، الفيروز آبادي، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٢٠٣٥/٢.

(٥) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١٢٠/٢.

جامعة، فأوصاهم بالتزام التقوى في كل قول وفعل، والسمع والطاعة للأمراء ما دام ذلك في طاعة الله تعالى، وحذرهم من التنافس على الإمارة، لئلا تضيع الأمة بين الفتن والدسائس والحروب زمن الاختلاف وكثرته في الآراء والمفاهيم وفي الأفعال والتصرفات، وبيّن لهم أن سبيل النجاة من ذلك كله اتباع السنة من أقواله وأفعاله وتقريراته وعزائمه وصفاته الخَلْقية والخُلقية وكذلك سنة الخلفاء الراشدين أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم - قيل: وعمر بن عبدالعزيز- حيث استمر عصر الصحابة أفضل العصور إلى آخر عهد علي رضي الله عنه. هذه السُنة هي طريق الخلاص الوحيد، على الإنسان أن يحافظ عليها بأقصى ما يستطيع كما يفعل من أمسك بنواجذه -أضراسه- شيئًا وعض عليه لئلا ينزع منه)[١].

ونهى عن الافتراق والاختلاف وأمر بالتمسك بسنته صلى الله عليه وسلم وأصحابه)[٢]، فقال: "فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين"، أي: التزموا بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين فإنهم لم يعملوا إلا بسنتي، فالإضافة إليهم إما لعملهم بها أو لاستنباطهم واختيارهم إياها[٣].

وحث على شدة التمسك بها بقوله: "عضوا عليها بالنواجذ"، والنواجذ جمع ناجذة أي الضرس، وقيل: هو مرادف السن، وهذا الأمر كناية عن شدة ملازمة السنة والتمسك بها، وقال الخطابي: (وقد يكون معناه أيضًا الأمر بالصبر على ما يصيبه من المضض في ذات الله كما يفعله المتألم بالوجع يصيبه)[٤].

سابعًا- من موضوعات الدعوة: التحذير من محدثات الأمور والبدع:

لقد أمرنا النبي صلى الله عليه وسلم بالالتزام بما جاء في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وحذرنا من محدثات الأمور والبدع، من ذلك ما جاء في الحديث: ((إياكم ومحدثات الأمور فإن كل

---

(١) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم ص ١٣٨.

(٢) انظر: المرجع السابق ٢/ ١٢٠.

(٣) انظر: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، الفيروز آبادي، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٢/ ٢٠٣٥.

(٤) انظر: عون المعبود، المباركفوري ص ٢٠٠٥ - ٢٠٠٦.

بدعة ضلالة))، والمحدثات جمع محدثة، والمراد بها البدع والضلالات من الأفعال والأقوال، يعني كل خصلة أتى بها جديدًا فهي مخالفة للسنة وكل مخالفة للسنة ضلالة[١]، وقال مالك: قال عمر بن عبدالعزيز: "سنّ رسول الله ﷺ وولاة الأمر من بعده سننًا، الأخذ بها اعتصام بكتاب الله، وقوة على دين الله، ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها ولا النظر في أمرٍ خالفها، من اهتدى بها فهو مهتد، ومن استنصر بها فهو منصور ومن تركها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى، وأصلاه جهنم وساءت مصيرًا"[٢].

ثامنًا- من صفات الداعية: الحرص على هداية الناس:

وصف الله عز وجل الداعي الأول رسول الله ﷺ بقوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾[٣]، ويظهر ذلك واضحًا جليًا في الحديث وكيف أن الرسول ﷺ رسم للأمة سبل النجاة انطلاقًا من حرصه عليهم فأمرهم باتباع السنة، "فعليكم بسنتي"، والبعد عن البدع "وإياكم ومحدثات الأمور"، وأمرهم بالسمع والطاعة "أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة" فينبغي على الداعي أن تتضاعف اهتماماته بالناس، وأن يواليهم بالنصح والإرشاد قاصدًا نجاتهم وسعادتهم، محاولاً دائمًا بيان مصلحتهم، فرسول الله ﷺ في موالاته النصح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ترك للمسلمين وللدعاة خاصة ثروة طائلة تمدهم بالدين كله[٤].

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ١/٢٩٦.

(٢) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢/١٢٣.

(٣) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

(٤) انظر: الدعوة الإسلامية "أصولها ووسائلها"، د. أحمد أحمد غلوش ص ٤٥٩ - ٤٦٠.

الحديث رقم (١٥٨)

١٥٨- الثَّالِثُ: عَنْ أَبِي هريرة ﷺ أَن رسول اللَّه ﷺ قالَ: «كُلُّ أُمَّتِي يدْخُلُونَ الْجنَّةَ إلاَّ مَنْ أَبي». قِيلَ: وَمَنْ يَأَبى يا رسول اللَّه؟ قالَ: «منْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجنَّةَ، ومنْ عصَانِي فَقَدْ أَبي» رواه البخاري(١).

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

إن ألفاظ النبوة منبعها القلب المتصل بجلال الخالق، فهى لا تصدر إلا عن صدق ويقين، لا يشوبها زيف، ولا يكدرها رياء، فهى صورة سوية لنفس صاحبها ﷺ.

والمعاني التي صورتها هذه الألفاظ مستمدة من البيان القرآني العظيم، فكل ما جاء به المصطفى ﷺ لا ينفصل عن الجو القرآني، ولا يتصادم معه لأن البيان النبوي إما أن يفصل ما أجمله القرآن أو يوضح مشكلاً، أو يخصص عامًا، أو يقيد مطلقًا.

فالبلاغة النبوية: إن لم تكن من الوحى ولكنها جاءت من سبيله، وإن لم يكن لها منه دليل فقد كانت هي من دليله، كما يقول الرافعي.

وحين نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف، نجد أن المبني يتوهج بالمعنى، وأن صياغة الأسلوب، ونظم التراكيب، والعلاقات بين الكلمات والجمل، كلها تشارك في تقديم المعنى وإفهامه للناس: مع الإيجاز... والإيحاء، والبعد عن الإسهاب والإطناب.

والحديث من مقاصده الأمر بالمحافظة على السنة وآدابها، والالتزام بما جاء به رسول الله من أفعال وأقوال، ولكن لم يأت التوجيه مباشرًا صريحًا مثلمًا جاء في أحاديث ووصايا سابقة، وجاء الحث على التمسك بالسنة في قالب حواري ترغيبي: حيث

---

(١) برقم (٧٢٨٠).

تضمنت الجملة الأولى وعدًا صادقًا من الرسول ﷺ، بأن كل أمته يدخلون الجنة، ولفظ "كل" يفيد العموم والشمول، وبه يبتدئ الكلام في هذا السياق، ولا يتم إلا بالخبر الذي يحدد مصير الأمة كلها وهو البشارة بدخول الجنة، "يدخلون الجنة".

وإضافة "أمة" إلى ياء المتكلم : أى إلى رسول الله ﷺ: تشريف لهذه الأمة بانتسابها إلى خاتم النبيين والمرسلين، وفيها إرشاد إلى أنه لا يستحق هذا التشريف إلا من يحافظ على السنة وآدابها: فأمته، خير أمة أخرجت للناس، والانتساب هنا في دائرة الطاعة، فهم بمقدار ما يطيعون الله ورسوله بمقدار ما يكون انتماؤهم إلى رسول الله ﷺ، ويأتي الاستثناء في قوله: "إلا من أبى" مُفصحًا عن هذه الحقيقة، حتى لا يتوهم المقصرون والعاصون أنهم من أصحاب هذا الوعد، فالانتماء لهذه الأمة ليس جغرافيًا، ولا زمنيًا، ولا عشائريًا، ولا قبليًا، وإنما الانتماء بالإيمان والطاعة.

والإيجاز هنا في قوله: إلا من أبى: أى امتنع: والتقدير، فهو يدخل النار، وأبي في اللغة يدل على الامتناع والكراهية، وينشأ حوار وتساؤل: عن معيار، "الإباء" في هذا السياق، "قيل: ومن يأبى يارسول الله"، وبناء الفعل للمجهول في قيل،يفصح عن أن المراد ليس تحديد السائل، ولكن تحديد معالم هذه القضية لأن الفعل "يأبى" متسع الدلالة متشعب المفهوم، والاستفهام هنا حقيقي "ومن يأبى"، والنداء فيه تأدب مع رسول الله وحرص على التعلم ومعرفة الحقيقة، وهنا في هذا الفعل "يأبى" وضع للسبب موضع المسبب ، لأنه أطلق لفظ الإباء وأراد استحقاقه للنار.

وجاءت إجابة الرسول جامعة مانعة موجزة، وصاغها في أسلوب الشرط والجزاء، "من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى"، فالصياغة اللغوية ملائمة للسياق، والموقف الشرعي من هذا المسلك الذي استحق صاحبه عليه الطرد من رحمة الله عز وجل، ومما يدل على ضرورة التمسك بالسنة إسناد الطاعة إلى ياء المتكلم وهو رسول الله ﷺ، وكذلك المعصية في قوله: من أطاعني، ومن عصاني، فطاعته هى الالتزام بالكتاب والسنة، وعصيانه عدم المحافظة على تعاليم الكتاب وتعاليم السنة النبوية.

ولم يصرّح الرسول بقوله: فقد دخل النار، نفورًا من ذكر النار، واحتراسًا من

تحديد المصير، وفتحًا لباب الأمل والتوبة أمام هؤلاء الذين فرّطوا في تعاليم الكتاب والسنة: فقد يتوبون، ويعودون إلى دوحة الإيمان، ويفوزون برضا الرحيم الرحمان.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التعميم والاستثناء.

ثانيًا: من واجبات الداعي: دلالة المدعوين إلى ما ينفعهم.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

رابعًا: من أساليب الدعوة: وضوح الألفاظ.

خامسًا: من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: بيان جزاء الطائعين وعاقبة المخالفين.

أولاً- من أساليب الدعوة: التعميم والاستثناء:

وذلك في قوله ﷺ: "كل أمتي يدخلون الجنة" وهذه الجملة تفيد العموم والشمول ثم استثنى منها العصاة والمعرضون عن طاعة الله ورسوله ﷺ فقال: "إلا من أبى" ثم وضح أسباب الجزاء والحرمان فقال: "من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى".

ثانيًا- من واجبات الداعي: دلالة المدعوين إلى ما ينفعهم:

إن من الواجبات التي يضطلع بها الداعي: دعوة الناس إلى الخير وإلى كل ما هو نافع لهم في حالهم ومآلهم، وقد أخبر الله نبيه ﷺ الداعي الأول بأنه يهدي ويدل الناس على صراط الله المستقيم: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ۝ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾[(٢)]، والداعي إنما يدل الناس إلى الخير لأنه أخ لهم استظهر عليهم بالنصح والتوجيه[(٣)].

---

(١) سورة الشورى، آية: ٥٢.

(٢) سورة المائدة، الآيتان: ١٥ - ١٦.

(٣) الدعوة الإسلامية "أصولها ووسائلها"، د. أحمد أحمد غلوش ص ٤٧٧.

ثالثًا- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

يتضح ذلك من خلال سؤال الصحابة لرسول الله ﷺ بقولهم: ومن يأبى يا رسول الله؟ وإجابته بقوله: ((من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى)) والسؤال والجواب من أساليب الدعوة الناجحة، وذلك لأنه يستدعي لفت انتباه السامعين وشد أذهانهم، وإن أسلوب السؤال ينمّ عن اهتمام المدعو بما يسمعه، ويدل على حرصه على الفهم والاستيعاب، وإن الجواب يؤدي إلى تعميق المعاني في الأذهان.

رابعًا- من أساليب الدعوة: وضوح الألفاظ:

إن وضوح الألفاظ مما يعين المدعو على الفهم، لأن الغموض في الألفاظ يؤدي إلى تعذر الفهم والمتابعة من المدعو للداعية؛ لذا كانت ألفاظه ﷺ واضحة لأنه ﷺ قد أوتي جوامع الكلم، كان ﷺ قوله فصلاً يفهمه كل من يسمعه، مختارًا لأعذب الألفاظ وأقلها غرابة وأسهلها فهمًا متجنبًا للتعقيد اللفظي والمعنوي متجافيًا عن التكلف والتقعر في كلامه[1]، فكان ﷺ يكره التشدق والثرثرة والتفيهق في الكلام، فعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ، قال: ((إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ، وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا، يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ، وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا، يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الثَّرْثَارُونَ، وَالْمُتَشَدِّقُونَ، وَالْمُتَفَيْهِقُونَ))، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ عَلِمْنَا الثَّرْثَارُونَ، وَالْمُتَشَدِّقُونَ، فَمَا الْمُتَفَيْهِقُونَ؟ قَالَ: ((الْمُتَكَبِّرُونَ))[2].

خامسًا- من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب:

لقد استخدم النبي ﷺ هذا الأسلوب في الحديث فرغّب في طاعته بدخول الجنة، ورهب من عصيانه بالحرمان من دخولها، (والترغيب والترهيب يكونان بما أعده الله لعباده في الدنيا والآخرة من الثواب والعقاب، ولا ريب أن أسلوب الترغيب والترهيب من أهم الأساليب الدعوية لأنه يخاطب النفس البشرية مباشرة فيدلف إلى داخلها، ويؤثر في

---

(١) دراسة دعوية لبعض خطب الرسول ﷺ، سيد محمد بن محمد الحسيني ص ١١٢ - ١١٣.

(٢) أخرجه الترمذي ٢٠١٨، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٧٩١).

مناحيها مرغبًا لها في فعل الخير محذرًا لها من فعل الشر مبينًا النتائج والآثار المترتبة على ذلك)[١].

(والترغيب ليس هو من أحلام اليقظة ولا من الوعود المعسولة وإنما هو تنشيط للهمم وتشجيع للطاعات وشحذ للعزائم، كما أن الترهيب ليس يأسًا أو قنوطًا أو رهبة تشل التفكير وإنما هو تحذير من الأخطاء ودلالة على الصواب)[٢].

سادسًا- من موضوعات الدعوة: بيان جزاء الطائعين وعاقبة المخالفين:

إن من أهم ما تتميز به الشريعة الإسلامية البيان والوضوح للأعمال والنتائج المترتبة عليها فمن أطاع الله فقد فاز ومن عصاه فقد خسر وعُرف مآله، ففي الحديث بيان جزاء الطاعة وهو دخول الجنة "كل أمتي يدخلون الجنة" وعقوبة المعرض "إلا من أبي" وبين الرسول ﷺ ذلك المعنى بقوله: "من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى".

ومن تصفح القرآن والسنة يجد هذا المنهج واضحًا من ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝١٣ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾[٣]، وقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبۡهُ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾[٤].

---

(١) انظر: الأصول العلمية للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، د. عبدالرحيم بن محمد المغذوي، ١٤٢١هـ، ص ٣٨٣-٣٨٤.

(٢) الدعوة إلى الله: "الرسالة، الوسيلة، الهدف"، د. توفيق الواعي ص ٢١٤.

(٣) سورة النساء، الآيتان: ١٣، ١٤.

(٤) سورة الفتح، آية: ١٧.

الحديث رقم (١٥٩)

١٥٩- الرَّابعُ: عن أَبي مسلمٍ، وقيلَ: أَبي إِيَاسٍ سلَمةَ بْنِ عَمْرو بن الأَكْوَعِ ﵁، أَنَّ رَجُلاً أَكَلَ عِنْدَ رسولِ اللَّه ﷺ بِشِمَالِهِ، فقالَ: «**كُلْ بِيمِينكَ**» قَالَ: لا أَسْتَطِيعُ. قالَ: «**لا استطعتَ**» ما منعَهُ إِلاَّ الْكِبْرُ، فَمَا رَفعَهَا إِلَى فِيهِ، رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

سلمة بن عمرو بن الأكوع: سلمة بن عمرو بن سنان بن عبدالله من بني عامر بن الأكوع يكنى بأبي مسلم، وقيل أبو إياس، وقيل أبو عامر.

كان من أشد الناس بأسًا وشجاعة وعدوًا فكان يسبق الفرس عَدْوًا، أول مشاهده الحديبية، وقيل إنه شهد مؤتة وغزا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات.

شهد بيعة الرضوان وبايع النبي ﷺ عند الشجرة على الموت ثلاث مرات في أول الناس وفي أوسطهم وفي آخرهم. وهو الذي أسر الثمانية الذين نزل فيهم قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾[٢] وهو ممن غزا إفريقية في أيام عثمان بن عفان ﵁.

كما كان ﵁ محسنًا خيِّرًا وحظي بالقرب من رسول الله ﷺ، فكان ﷺ يقربه ويستغفر له، قال: ((أردفني رسول الله ﷺ مرارًا ومسح على وجهي مرارًا واستغفر لي ولذريتي عدد ما بيديّ من الأصابع[٣]، وأصيب يوم خيبر في ساقه فنفث فيه رسول الله ﷺ ثلاث نفثات فما اشتكى منها بعدها))[٤].

وكان من الذين عهد إليهم بالفتيا والتحديث بالمدينة منذ وفاة عثمان وحتى توفي سلمه ﵁ أما عن مسكنه فقد نزل بالمدينة ثم تحول إلى الرَّبَذة بعد قتل عثمان،

---

(١) برقم (٢٠٢١/١٠٧). وسيكرره المؤلف برقم (٦١٣، و ٧٤٠).

(٢) سورة الفتح، آية: ٢٤.

(٣) مجمع الزوائد، الهيثمي (٣٦٣/٩).

(٤) انظر مختصر تاريخ ابن عساكر (٨٣/١٠، ٨٩).

وتزوج بها وولد له، إلا أن الله شاء له أن يموت بالمدينة ويقبر فيها، فقبل أن يموت بليال نزل إلى المدينة فمات بها وكان ذلك سنة أربع وسبعين على أرجح الأقوال، وكان قد ابتلاه الله بكف البصر قبل أن يموت، فصبر واحتسب ذلك عند الله تبارك وتعالى، وكان عمره لما مات أربعًا وتسعين سنة، وقيل أربعًا وثمانين، وقيل ثمانين سنة[1].

الشرح الأدبي

إن سلوك المسلم يجب أن يظل في إطار المحافظة على السنة وآدابها، وسنة المصطفى ﷺ ليست أقوالاً فقط، ولكنها أقوال وأفعال: وهي تمثل في مجموعها منهجًا إسلاميًا محدد المعالم، ويجب أن يُقْتدى به في كل أمور الحياة.

وفي ضوء هذا الحديث الشريف، نقتبس من السلوك النبوي الراشد درسًا في آداب الطعام والشراب وهو درس عملي واقعي، يرويه أبو إياس، سلمة بن عمرو بن الأكوع رضي الله عنه، حيث يحكى أن رجلاً أكل عند رسول الله بشماله، أى تناول طعامه بيده اليسرى وهذا مخالف لسنة الرسول وطريقته في تناول الطعام، وفي موقف آخر يعلمنا رسول الله ويعلم أبناءنا الطريقة الصحيحة في تناول الطعام، وذلك حين قال لعمر بن أبي سلمة حين كان غلامًا: وكانت يده تطيش في الصَّحْفة، قال في توجيه كريم، وأمر حليم: "يا غلام: سم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك"[2]، يقول: عمر بن أبي سلمة فما زالت تلك طعمتي بعد.

---

(١) الطبقات الكبرى، ابن سعد (٤/٣٠٥-٣٠٨)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر (٣٠٥)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٢/٥١٧، ٥١٨)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي (٥٢٥، ٥٢٦)، وسير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط (٣/٣٢٦-٣٣١)، وتهذيب الكمال في أسماء لرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس، ومجدي السيد أمين (٣/٢٥١)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٢/٧٤، ٧٥)، والسندي (٢٧/٢٠)، والأعلام (٣/١١٣)،و موسوعة عظماء حول الرسول (٢/٩٤٨-٩٥٢).

(٢) أخرجه البخاري ٥٣٧٦، ومسلم ٢٠٢٢.

فما أجمل هذا النصح النبوي السديد، وما أجمل هذه الاستجابة الفورية من ذلك الغلام الطائع الرشيد، ولا غرو فهو ربيب رسول الله بعد أن تزوج أم المؤمنين، أم سلمة رضي الله عنها.

ولنقارنْ بين هذا الموقف الجميل، وموقف ذلك الرجل الذي تأبى وتكبّر، ورفض الاستجابة إلى توجيه الرسول الكريم، حينما قال له: "كل بيمينك"، فقال في أنفة وعناد: لا أستطيع، وهو غير صادق في ذلك؛ ومن آداب الأكل: البدء بالتسمية، والأكل مما يلي الإنسان، وتناول الطعام باليمين.

وهذا الرجل قيل إنه: يسر ابن راعي العير الأشجعى، وهو لم يدرك سر التوجيه النبوي، ولم يعرف الحكمة من ذلك، فاليمين في الغالب أقوى من الشمال وأمكن منها، وقيل لأنها مشتقة من اليمن بمعنى البركة، فهى وما نسب إليها وما اشتق منها محمود لغة وشرعًا ودينًا، وأما اليسرى فقد نهى الرسول عن تناول الأكل بها، لأن النجاسات تعلق بها، وتعالج بها.

والحديث في صياغته الأسلوبية يتسم بالحوار القصير الذي يصور الحدث خير تصوير، وينقله إلى المتلقي كأنه مشهد يتحرك أمام كل مستمع وقارئ.

وكما يقول العلماء: لكل فعل رد فعل مساوٍ له في الحركة مضاد له في الاتجاه، جاء رَدُ الفعل من الرسول قويًا ومناسبًا لحالة هذا الرجل الذي عائدَ وتكبر، ولم يطع الأمر، وادّعى انه لا يستطيع أن يأكل بيمينه، ولأن الرسول ﷺ يدرك حقيقة موقفه، ويعرف أنه ليس لديه عذر يمنعه من الأكل باليمين، دعا عليه، قائلاً: لا استطعت، وهنا "مطابقة المقال لمقتضى الحال"، كما يقول علماء البلاغة حيث لا يجدي أي نصح مع هذا الرجل الذي تعمد مخالفة الحكم الشرعي بلا عُذر، وجُملة، "ما منعه إلا الكبر"، فيها تأييد لذلك الدعاء عليه: وقد صيغت في "أسلوب القصر" إيحاء بشدة تمسك الرجل بهذه الخصلة الذميمة، فلا يوجد مانع من عذْر أو قطع يد أو سَهْو أو جَهْل يمنع الرجل إلا كبره وعناده، ولذلك جاء دعاء الرسول عليه مناسبًا: وعبرة لغيْره: واستجاب الله لموقف نبيه ﷺ، وأيَّده بهذه المعجزة حيث أصيب الرجل بالعَجْز التام في يده اليُمْنى، وشُلّت، وما وصلت إلى فيه بعد ذلك، فسبحان الله وتبارك اسمه:

أعزّ نبيّه، وشرح صدره، ورفع ذكْره، وحبّب للناس سُنَّته، وقوى حجته، وأجاب دعوته، وبلغ للعالمين رسالته.

فقه الحديث

١- جواز الدعاء على من خالف الحكم الشرعي بلا عذر:

قال النووي: (فيه جواز الدعاء على من خالف الحكم الشرعي بلا عذر)(١).

٢- استحباب تعليم آداب الأكل:

قال النووي: (وفيه استحباب تعليم الآكل آداب الأكل إذا خالفه، كما في حديث عمر بن أبي سلمة رضي الله عنهما(٢))(٣).

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: بيان كرم الرسول صلى الله عليه وسلم.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: الأمر.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل التيمن في الأكل.

رابعًا: من واجبات المدعو: الاستجابة لتوجيهات النبي صلى الله عليه وسلم والعمل بسنته.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: ذم الكبر.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: استجابة دعوة النبي صلى الله عليه وسلم.

أولاً- من موضوعات الدعوة: بيان كرم الرسول صلى الله عليه وسلم:

يظهر ذلك جليًا في قول الراوي: "إن رجلاً أكل عند النبي صلى الله عليه وسلم"؛ فرسول الله صلى الله عليه وسلم قد بلغ الغاية في الجود والكرم، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ((كان رسولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم أَجْوَدَ الناسِ، وكانَ أَجودَ ما يكونُ في رَمَضانَ حِينَ يلْقاهُ جبرِيلُ، وكانَ يلقاهُ في

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي مج٧/١٣/١٦٣.

(٢) أخرجه البخاري ٥٣٧٦، ومسلم ٢٠٢٢، ١٠٨.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٧/١٣/١٦٣.

كلِّ ليلةٍ مِنْ رَمضانَ فَيُدارِسُه القُرآنَ. فلَرَسولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدُ بالخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ المُرْسَلَةِ))[١]، وقد أمر نبيه بقوله: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾[٢]، أي: أعط وتصدق وأكثر من ذلك ولا تمتن أي لا تعد ما أعطيته كثيرًا فتمسك عن الازدياد فيه أو تتطرق إليك ندامة على ما أعطيت، فقد كان رسول الله ﷺ أجود الناس وقد عرف بذلك حتى قبل الرسالة لأن الله قد هيأه لمكارم الأخلاق[٣].

والكرم لا يقتصر معناه عند مجرد الإنفاق بل لا بد من سخاوة نفس؛ فالكرم كما قال ابن مسكويه: "إنفاق المال الكثير بسهولة من النفس في الأمور الجليلة القدر الكثير النفع، وقيل هو إفادة ما ينبغي لا لغرض، فمن يهب المال لغرض جلبًا للنفع أو خلاصًا من الذم فليس بكريم فالكريم من يوصل النفع بلا عوض"[٤]، فالكرم من أهم صفات الداعية حيث يقرب القلوب النافرة ويمهد العقول للطاعة[٥]، لذا كان الكرم من أهم صفات الداعية -في حدود قدرته- لما له من عظيم الأثر على دعوته وتأليف القلوب وإقبالها عليه.

ثانيًا- من أساليب الدعوة: الأمر:

لقد استعمل النبي ﷺ أسلوب الأمر في قوله ﷺ لذلك الرجل الذي أكل بشماله: (كل بيمينك) ويعد هذا الأسلوب من الأساليب الدعوية المهمة التي تشعر المدعو بأهمية ما يؤمر به.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل التيمن في الأكل:

يظهر فضل التيمن وأهميته في أمر النبي ﷺ في أمره لذلك الرجل "كل بيمينك"،

---

(١) أخرجه البخاري ٦.

(٢) سورة المدثر، آية: ٦.

(٣) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ٢٩٨/٢٩/١٢.

(٤) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن محمد بن عبدالرحمن بن ملوح ٣٢١٤/٨.

(٥) مستلزمات الدعوة في العصر الحاضر، الشيخ علي بن صالح المرشد ص ١٢٤.

والرسول ﷺ لا يأمر إلا بما هو خير وأفضل، والتيمن بمعنى الابتداء باليمين في الملبس والمطعم وغير ذلك والتيمن كما قال النووي: (قاعدة مستمرة في الشرع، وهي إنما من باب التكريم والتشريف، كلبس الثوب والسراويل والخف ودخول المسجد والسواك والاكتحال وتقليم الأظفار وقص الشارب وترجيل الشعر، وغير ذلك مما هو في معناه يستحب التيامن فيه، وذلك كله بكرامة اليمين وشرفها)(١).

ومن هذه الأمور التي يستحب فيها التيمن الأكل، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ((إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَأْكُلْ بِيَمِينِهِ . وَإِذَا شَرِبَ فَلْيَشْرَبْ بِيَمِينِهِ. فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ وَيَشْرَبُ بِشِمَالِهِ))، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ((إِنْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ لَيُحِبُّ التَّيَمُّنَ فِي طُهُورِهِ إِذَا تَطَهَّرَ. وَفِي تَرَجُّلِهِ إِذَا تَرَجَّلَ. وَفِي انْتِعَالِهِ إِذَا انْتَعَلَ)) وفي رواية: ((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ يُحِبُّ التَّيَمُّنَ فِي شَأْنِهِ كُلِّهِ. فِي نَعْلَيْهِ، وَتَرَجُّلِهِ، وَطُهُورِهِ))(٢).

رابعًا- من واجبات المدعو: الاستجابة لتوجيهات النبي ﷺ والعمل بسنته:

إن من أوجب الواجبات التي تجب على المدعو السمع والطاعة لتوجيهات النبي ﷺ وقد أخطأ ذلك الرجل عندما تكبر على الاستجابة لأمر رسول الله ﷺ في الحديث (كل بيمينك) وقد أمر الله تعالى المؤمنين بالاستجابة له سبحانه ولرسوله ﷺ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾(٣)، أي: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول إذا دعاكم إلى ما يحيي دينكم ويعلمكم، وإلى ما يحيي به قلوبكم(٤)، وحذرنا الله من مخالفة رسول الله ﷺ فقال: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٥)، أي:

---

(١) انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٢٧٤، وانظر: موسوعة نضرة النعيم ١٤٢٢/٤.

(٢) أخرجه البخاري ٥٣٨٠، ومسلم ٢٦٨ واللفظ له.

(٣) سورة الأنفال، آية: ٢٤.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٣٨٩/٧/٤.

(٥) سورة النور، آية: ٦٣.

ليخش من خالف شريعة الرسول ﷺ باطنًا أو ظاهرًا أن تصيبهم فتنة في قلوبهم من كفر أو نفاق أو بدعة أو يصيبهم عذاب أليم أي في الدنيا بقتل أو حد أو حبس أو نحو ذلك[1].

خامسًا- من موضوعات الدعوة: ذم الكبر:

إن الكبر خلق مذموم ومآله غير محمود، وفي الحديث رأينا كيف أن الكبر منع الرجل من الأكل بيمينه استجابة لأمر رسول الله ﷺ فدعا عليه الرسول ﷺ واستجيبت دعوته، فما رفع يده إلى فمه مرة أخرى، إضافة إلى ما يئول الكبر بصاحبه إلى النار وبئس المصير، فعن حارث بن وهب أنه سمع النبي ﷺ يقول: ((أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ؟)) قَالُوا: بَلَى. قَالَ: ((كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ. لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللّهِ لأَبَرَّهُ)). ثُمَّ قَالَ: ((أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟)) قَالُوا: بَلَى. قَالَ: ((كُلُّ عُتُلٍ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ))[2]، قال الحافظ ابن حجر: (وأعظم الكبر أن يتكبر على ربه بأن يمتنع من قبول الحق والإذعان له بالتوحيد والطاعة)[3].

(والكبر إذا استولى على الإنسان يمنعه من الإصغاء لنصح أو القبول لتأديب، لذا كان من الواجب على الداعي والمدعو على السواء الابتعاد عن الكبر والاتصاف بصفات عباد الله من التواضع وخفض الجناح ولين الجانب، قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾[4])[5].

سادسًا- من موضوعات الدعوة: استجابة دعوة النبي ﷺ:

ففي الحديث أمر النبي ﷺ الرجل بأن يأكل بيمينه فامتنع تكبرًا وتعلل كذبًا

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٦/٩٠.

(٢) أخرجه البخاري ٦٠١٧، ومسلم ٢٨٥٣ واللفظ له.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠/٤٨٩.

(٤) سورة الفرقان، آية: ٦٣.

(٥) انظر: أدب الدنيا والدين، لأبي الحسن الماوردي ص ٢٣١.

بقوله: "لا استطيع" فدعا عليه النبي ﷺ بدعوة من جنس كلامه قائلاً: "لا استطعت"، فاستجيبت دعوته ﷺ، وذلك من دلائل نبوته ﷺ وإكرام الله له، وقد ذكر الإمام البيهقي في كتابه (دلائل النبوة) الكثير من النماذج التي دعا فيها الرسول ﷺ لأناس أو عليهم فاستجيبت دعوته ﷺ[1]، إذا علم ذلك فينبغي على الداعي والمدعو الالتزام المطلق بما ورد في سنة رسول الله ﷺ وليحذرا كل الحذر من التصرف في السنة بالزيادة أو النقصان، فقد دعا النبي ﷺ على من نحا هذا المنحى، ودعوته مستجابة كما رأينا في الحديث، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((مَنْ تَقَوَّلَ عَلَيَّ مَا لَمْ أَقُلْ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ))[2]، وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ((مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدا - أي قاصدًا الكذب عليَّ لغرض من الأغراض لا أنه وقع فيه خطأ أو سهوًا - فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ))[3]، أي: فليتخذ منزله منها.

---

(١) انظر: دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، لأبي بكر البيهقي ٦/٨٣ - ٢٥٦.

(٢) أخرجه ابن ماجه ٣٤، وقال عنه الألباني: حديث حسن صحيح، (صحيح سنن ابن ماجه ٣٢).

(٣) أخرجه ابن ماجه٣٠، وقال عنه الألباني: حديث صحيح، بل متواتر، انظر: (صحيح سنن ابن ماجه، الروض النضير ٧٠٧، ٨٨٥، الصحيحة ١٣٨٣).

الحديث رقم (١٦٠)

١٦٠- الْخامِسُ: عنْ أَبِي عبدِ اللَّه النُّعْمَانِ بْنِ بَشيرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: سمِعْتُ رسولَ اللَّه ﷺ يقولُ: «**لَتُسَوُّنَّ صُفُوفَكُمْ أَوْ لَيُخَالِفَنَّ اللَّه بَيْنَ وُجُوهِكمْ**» متفقٌ عليه[1].

وفي روايةٍ لِمُسلمٍ[2]: كان رسولُ اللَّه ﷺ يُسَوِّي صُفُوفَنَا، حَتَّى كأَنَّمَا يُسَوي بِهَا الْقِداحَ، حَتَّى (إِذَا)[3] رأَى أَنَّا قَدْ عَقَلْنَا عَنْهُ ثُمَّ خَرَجَ يَومًا، فقامَ حتَّى كَادَ أَنْ[4] يكبِّرَ، فَرأَى رجُلا باديًا صدْرُهُ[5]، فقالَ: «**عِبادَ اللَّه لَتُسوُّنَّ صُفوفَكُمْ أَوْ لَيُخَالِفَنَّ اللَّه بيْنَ وُجُوهِكُمْ**».

ترجمة الراوي:

النعمان بن بشير: هو النعمان بن بشير بن سعد بن ثعلبة الأنصاري الخزرجي. له ولأبيه صحبة، وخاله عبدالله بن رواحة.

وهو أول مولود ولد للأنصار بعد هجرة النبي ﷺ، ولد على رأس أربعة عشر شهرًا من قدوم رسول الله ﷺ المدينة، لذا كان من صغار الصحابة.

سكن العراق والشام. وكان من أمراء معاوية بن أبي سفيان فولاه الكوفة مدة ثم ولي قضاء دمشق ثم ولي إمرة حمص.

كان مشهورًا بالفصاحة والبلاغة والخطابة، قال سماك بن حرب: كان النعمان بن بشير -والله- من أخطب من سمعت من أهل الدنيا يتكلم.

---

(١) أخرجه البخاري (٧١٧)، ومسلم (١٢٧/٤٣٦) ولفظهما سواء. وسيكرره المصنف برقم ١٠٩١، أورده المنذري في ترغيبه (٧١٥).

(٢) برقم (١٢٨/٤٣٦). وسيكرره المصنف برقم ١٠٩١، أورده المنذري في ترغيبه (٧١٥).

(٣) (إذا) لا توجدُ عند مسلم.

(٤) (أن) لا توجدُ عند مسلم، وهي عند الحميدي في جمعه.

(٥) عند مسلم زيادة: (من الصف)، وهي لا توجد عند الحميدي (٥٠١/١، رقم ٨٠٨).

من كلامه: إن للشيطان مصالي وفخوخًا، وإن من مصالي الشيطان وفخوخه: البَطرَ بأنعم الله والفخر بعطاء الله والكبر على عباد الله واتباع الهوى في غير ذات الله.

قيل في مدحه:

فلم أر للحاجات عند انكماشها كنعمان -أعني ذا الندى- ابن بشير

يبلغ مسنده ١٢٤ حديثًا، ومات ٦٤هـ وقيل: ٦٥ وقيل: ٦٦.

وهو الذي تنسب إليه معرة النعمان بلد أبي العلاء الشاعر، كانت تعرف بالمعرة ومرّ بها النعمان فمات له ولد فدفنه فيها فنسبت إليه[1].

غريب الألفاظ:

كأنما يسوى بها القداح: القداح – بكسر القاف– هي خشب السهام حين تنحت وتبرى. واحدها: قدح بكسر القاف. معناه: يبالغ في تسويتها حتى تصير كأنما يقوّم بها السهام لشدة استوائها واعتدالها[2].

عقلنا: فهمنا[3].

باديًا: ظاهرًا[4].

---

(١) الطبقات الكبرى، ابن سعد (٥٣/٦) والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر ٧٢٣ وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٣١٠/٥) والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ١٣٢٨. والسير ٤١١/٣، وتهذيب الكمال في أسماء لرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس، ومجدي السيد أمين (٣٣٧/٧) والتهذيب (٢٢٨/٤) والأعلام (٣٦/٨)، وموسوعة عظماء حول الرسول (١٨٩٥/٣).

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٣٦٨، والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ق د ح)، والمفصح المفهم لمعاني صحيح مسلم، ابن هبيرة ٣٥٦.

(٣) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الفيومي في (ع ق ل).

(٤) الوسيط في (ب د و).

الشرح الأدبي

إن صلاة الجماعة مظهر من مظاهر وحدة الأمة وقوتها، وهي ترجمة حقيقية للمساواة بين أفراد الأمة، فالكل في موقف الخشوع والخضوع أمام الخالق عز وجل، قلوبهم تنبض بالإيمان، وألسنتهم تفيض بذكر الملك الديان، وجوارحهم تسكن في يقين واطمئنان. وهم في هذا الموقف الجليل متساوون، ومتراصّون: لا فرق بين صغير وكبير، ولا بين غني وفقير، ولا بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى والإخلاص في العبادة، والمتقون المخلصون لهم الحسنى وزيادة.

ونقتبس من هذا الحديث الشريف كثيرًا من فيوضات المنهج الإسلامي في تربية المسلمين، وتثبيت قواعد الانضباط في نفوسهم حتى يصير هذا الانضباط مقياسًا لحياتهم... في كل شؤونها.

والصلاة هي ميزان ذلك الانضباط السلوكي، والتوازن الاجتماعي، والتآلف الوجداني، بين طوائف الأمة وأجيالها، والمسْجد هو المدرسة الجامعة التي تستقبل هذه الوفود، وتهيئهم لاستقبال أحداث حياتهم استقبالاً إيمانيًا منضبطًا يؤكد أن هذه الأمة في ظلال هذا الالتئام والانضباط، هي خير أمة أخرجت للناس.

ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي والتصويري في لغة هذا الحديث الشريف.

ويبدأ الحديث بقول رسول الله "لتسون صفوفكم"، وهذه البداية توحي بالأهمية، وبأن الأمر جد ويجب التنبُّه لذلك: لأن هذا التعبير تضمَّن القسم والأمر والتأكيد، فاللام هنا تشعر بالقسم، والقسم مقدر وتقدير الكلام "والله لتسون صفوفكم"، وحين يقسم رسول الله ويأمر ويؤكد، ويسوق الكلام في إيجاز فإن التنفيذ لابد أن يكون واجبًا، ولم يكتف رسول الله بذلك. بل أردف هذه الجملة ذات الدلالة المؤكدة بجملة أخرى تضمنت الوعيد الشديد، والعقاب الأليم، إذا لم يوحد المسلمون صفوفهم، وإذا لم يلتزموا بما أمر به رسول الله ﷺ فقال: "أو ليخالفن الله بين وجوهكم"، وهذا التعبير البلاغي يفيض بأوجه كثيرة من وجوه البلاغة ومنها، التوكيد، والقسم، وتعدد الدلالة تبعًا لتعدد تفسير وتوضيح المعنى في ضوء ما توحي به الصياغة اللغوية.

وأول سمة بلاغية هى الإيجاز. ففي الحديث بعض العبارات المحذوفة التي تفهم من السياق، وتقدير الكلام بعد الجملة الأولى وقبل قوله، "أو" أي ليكونن منكم التسوية أو ليخالفن الله بين وجوهكم، وبعد ذلك كلام محذوف يتم به المعنى ويُفهم من السياق أي إن لم تُسَوّوا، والبلاغة الإيجاز، والبيان النبوي هو الأنموذج الأمثل للبلاغة بعد القرآن الكريم.

وتتعدد دلالات هذا التعبير النبوي، "ليخالفن الله بين وجوهكم"، وقال العلماء إن الوجه إذا حمل على العضو المخصوص فالمخالفة حسيَّة، وهى تكون إما بحسب الصورة الإنسانية، أو جعل المقدم وراء، وإن حمل لفظ الوجه على ذات الشخص فالمخالفة بحسب المقاصد، ويحتمل هذا الوعيد النبوي دلالة أخرى وهى "أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء واختلاف القلوب"، ويعضد هذا التفسير الدلالي رواية أخرى للحديث وهى: "ليخالفن الله بين قلوبكم"، وهناك دلالة أخرى حيث قال الحافظ: "ويحتمل أن يراد بالمخالفة في الجزاء، فيجازى المسوِّي بخير، ومن لا يسوِّي بشَرّ".

وتعدد الدلالات هنا ليس بينها تصادم، ولا تناقض.. وكلها تنبض بالمقصد الصحيح وتفصح عن قيمة البيان النبوي الذي يعد من خصوصية المصطفى ﷺ حيث يقول: "أعطيت جوامع الكلم"[1]، عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام.

---

(١) أخرجه مسلم ٥٢٣.

فقه الحديث

إن صلاة المرء في جماعة تفضل صلاته منفردًا بسبع وعشرين درجة، وذلك لما فيها من إظهار شريعة الإسلام، وإعلاء لكلمة الله عز وجل، ومن أحكام صلاة الجماعة تسوية الصفوف بالنظر يمينًا، وإكمال الصف الأول فالأول، فإن كان هناك نقص فليكن في الأخير.

وقد اتفق الفقهاء[1] على أنه إذا انعقدت صلاة الجماعة من عدد من الرجال والنساء، فالسنة أن يقف الإمام أمام المقتدين به، وأن ينبه الإمام على تسوية الصفوف قبل أداء الصلاة وبعد الإقامة، وأن يؤخر المتقدم من المصلين، وينبه الغافل عن التسوية، ويذكر بذلك بقوله أتموا الصفوف وساووا بينها وسدوا الفرج فإن تسوية الصفوف من إقامة الصلاة.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: القسم.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الحث على تسوية الصفوف في الصلاة.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الترهيب.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: أثر الالتزام بالتوجيهات النبوية.

---

(١) انظر في ذلك: بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود ١٥٨/١ وما بعدها، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٣٧٣/١ وما بعدها، والمدونة الكبرى رواية سحسنون عن ابن القاسم، الإمام الأصبحي ١٦٠/١، المنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ٢٧٩/١، والأم، الإمام الشافعي، تحقيق: علي محمد وعادل أحمد، وغيره للشافعي ٢٣٣/١، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٢٣/٤، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٢٢٨/١ وما بعدها، وإحكام الأحكام ٢١٨/١، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٢٧٥/١، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٣٣١/٥، والفروع، ابن مفلح ٤٠٨/١.

أولاً- من أساليب الدعوة: القسم:

جاء القسم في الحديث في قوله ﷺ "لتسونَّ صفوفكم" قال البيضاوي: (هذه اللام في "لتسون" هي التي يتلقى بها القسم، والقسم هنا مقدر ولهذا أكده بالنون المشددة)(١). (والقسم كأسلوب للدعوة يؤدي إلى التأثير النفسي والعاطفي بواسطة المقسم به والمقسم عليه وبهما معًا، الأمر الذي يجعل المدعو يتعلق بالدعوة ويؤمن بها)(٢). وقد أحس العرب بأهداف القسم ومراميه فاستعملوه في كلامهم وجعلوه دليلاً على إثبات الحق، يقول زهير:

فإن الحق مقطعه ثلاث ... يمين أو نفار أو جلاء(٣)

والنفار من معانيه: المحاكمة(٤)، والجلاء بمعنى وضوح البينة(٥).

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: الحث على تسوية الصفوف في الصلاة:

جاء الحث على تسوية الصفوف في الصلاة في نصوص كثيرة منها الحديث الذي معنا، ومنها ما رواه أبو داود بسنده أن رسول الله ﷺ قال ((أقيموا الصفوف -أي عدلوها وسووها وتراصوا فيها(٦)- وحاذوا بين المناكب وسدوا الخلل ولينوا بأيدي إخوانكم ولا تذروا فرجات للشيطان ومن وصل صفًا وصله الله ومن قطع صفًا قطعه الله))(٧) وبين ﷺ أن تسوية الصفوف في الصلاة موافقة لفعل الملائكة وتشبهًا بهم فجاء من حديث جابر بن سمرة أن رسول الله ﷺ قال: ((ألا تصفُّون كما تَصُفُّ الملائكة عند ربها؟ فقلنا: يا رسول الله وكيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال يتمون

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ابن حجر العسقلاني، ٢٤٢/٢.

(٢) الدعوة الإسلامية، أصولها ووسائلها، د. أحمد أحمد غلوش ص ٣٤٣.

(٣) مستلزمات الدعوة الإسلامية في العصر الحاضر، علي بن صالح المرشد ص ١٦٢.

(٤) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ص ٩٣١.

(٥) انظر: المرجع السابق ص ١٦٢.

(٦) عون المعبود، المباركفوري ص ٣٢١.

(٧) أخرجه أبي داود، ٦٦٦. وصححه الألباني، (صحيح سنن أبي داود، ٦٢٠).

الصفوف الأول ويتراصون في الصف))[١].

وقد حرص النبي ﷺ على تسوية الصفوف بنفسه – لما لذلك من أهمية-بقوله وفعله، بقوله مثل أمره بإقامة الصفوف بقوله في الحديث ((لتسون صفوفكم)) وفي قوله ((استووا ولا تختلفوا))[٢] إلى غير ذلك من النصوص وبفعله كما في رواية الحديث الذي معنا ((كان رسول الله ﷺ يسوي صفوفنا حتى كأنما يسوي بها القداح حتى إذا رأى أنا قد عقلنا عنه)) وما روى عن أبي مسعود قال: ((كان رسول الله ﷺ يمسح مناكبنا-أي يسوي مناكبنا في الصفوف ويعدلنا[٣]-في الصلاة))[٤] وذلك يحمل في طياته أهمية تسوية الصفوف، وعدم الاستهانة بها، ودعوة إلى عدم التفريط في شيء من الإسلام حتى ولو كان في أعين الناس هينًا.

ثالثًا- من أساليب الدعوة: الترهيب:

أسلوب الترهيب ظاهر في الحديث في قوله ﷺ "لتسون صفوفكم أو ليخالفن الله بين وجوهكم" قال ابن حجر: (واختلف في الوعيد المذكور فقيل هو على حقيقته والمراد تحويل خلق الوجه عن وضعه بجعله موضع القفا أو نحو ذلك)[٥] وقال النووي: (والأظهر والله أعلم أن معناه يوقع بينكم العداوة والبغضاء واختلاف القلوب كما يقال: تغير وجه فلان عليَّ أي: ظهر لي من وجهه كراهة لي، وتغير قلبه عليّ، لأن مخالفتهم في الصفوف مخالفة في ظواهرهم واختلاف الظواهر سبب لاختلاف البواطن)[٦]. قال ابن حجر: (وقال القرطبي: معناه تفترقون فيأخذ كل واحد وجهًا غير

---

(١) أخرجه مسلم، ٤٣٠.

(٢) أخرجه مسلم، ٤٣٢.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٣٦٦.

(٤) أخرجه مسلم، ٤٣٢.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٤٢/٢.

(٦) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٣٦٨.

الذي أخذ صاحبه، لأن تقدم الشخص على غيره مظنة الكبر المفسد للقلب الداعي إلى القطيعة. والحاصل أن المراد بالوجه إن حمل على العضو المخصوص فالمخالفة إما بحسب الصورة الإنسانية أو الصفة أو جعل القدام وراء، وإن حمل على ذات الشخص فالمخالفة بحسب المقاصد. أشار إلى ذلك الكرماني. ويحتمل أن يراد بالمخالفة في الجزاء فيجازى المسوي بخير ومن لا يسوى بشر)[١]. وذلك ترهيب من الاستهانة بالصفوف في الصلاة والاختلاف فيها، وذلك مما يدفع المصلين إلى مراعاة آداب الصلاة.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: أثر الالتزام بالتوجيهات النبوية:

إن الالتزام بالتوجيهات النبوية له فضل وثواب عظيم في الدنيا والآخرة، ذلك الاتحاد والبعد عن مظاهر الفرقة، إذ أن في تسوية الصفوف اتحاد وألفة وتواضع. قال ابن حجر: قال القرطبي: (لأن تقدم الشخص على غيره مظنة الكبر المفسد للقلب الداعي إلى القطيعة)[٢].

كذلك من الثمار تدريب وتعويد الإنسان على النظام في ميادين الحياة (وبناء الأمة وإعدادها للجهاد في سبيل الله فإن الذي يستوي في صفوف الصلاة من السهولة عليه بمكان التراص في صفوف الجهاد)[٣] قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾[٤] ملتصق بعض في بعض، وقال ابن عباس:مثبت لا يزول ملصق بعضه ببعض وقال قتادة: (ألم تر إلى صاحب البنيان كيف لا يحب أن يختلف بنيانه؟ فكذلك الله عز وجل يحب أن لا يختلف أمره، وإن الله صف المؤمنين في

(١) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢/٢٤٢.
(٢) فتح الباري، ابن حجسر العسقلاني ٢/٢٤٣.
(٣) انظر: بهجة الناظرين شرح رياض الصالحين، سليم الهلالي، ١/٢٤٢.
(٤) سورة الصف، آية: ٤.

قتالهم وصفهم في صلاتهم، فعليكم بأمر الله فإنه عصمة لمن أخذ به)[١]. لذا ينبغي على الداعي بيان تلك الآثار والثمار التي يجنيها الناس إذا التزموا بسنة رسول الله ﷺ، مما يكون له عظيم الأثر في الدعوة إلى الله عز وجل.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١٠٨/٨.

الحديث رقم (١٦١)

١٦١- السَّادِسُ: عن أَبِي موسى ﷺ قال: احْتَرق بيْتٌ بالْمدينَةِ علَى أَهلِهِ مِنَ اللَّيْل فَلَمَّا حُدِّث رسول اللَّه ﷺ بِشَأْنِهِمْ قال: «إِنَّ هَذِهِ النَّار[١] عَدُوٌّ لكُمْ، فَإِذَا نِمْتُمْ فَأَطْفِئُوهَا عَنْكُمْ» متَّفقٌ عليه[٢].

ترجمة الراوي:

أبو موسى الأشعري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨).

الشرح الأدبي

إن المسلم يجب عليه أن يحافظ على ما أنعم الله به عليه مِنْ نعم لا تُعد ولا تُحصى، فعليه واجب شرعي بالحفاظ على النفس والمال والعرض والدين والأرض، والوطن وكل ما يجسد ملامح هويته، وأبعاد شخصيته.

وربما يتساءل بعض الناس: لماذا أدرج هذا الحديث في باب الأمر بالمحافظة على السنة وآدابها، وذلك لأنه ربما يبدو .. بعيدًا عن ميدان السنة الذي ألفناه، ولكن حين نتأمل الموقف ندرك أن السنة النبوية تشمل كل ما يحفظ على المسلم حياته ودينه وعرضه.. وشخصيته، وكل ما يجعله عزيزًا في حياته، قويًا في وثباته، صارمًا في قراراته.

والحياة الاجتماعية في التصور الإسلامي حياة واقعية ولا تتصادم مع فطرة الإنسان الصحيحة التي فطر الله الناس عليها، ومن أهم المبادئ الإسلامية: عدم الإلقاء بالنفس إلى التهلكة، واتخاذ الوسائل إلى الحفاظ على النفس، والأبناء، والمتاع والمسكن، والبيئة.

وفي ضوء هذا المنظور الإسلامي نقرأ هذا الحديث الشريف، ونستجلي أسراره، ونقطف أثماره، وندرك سر إدراجه في باب المحافظة على السُنَّة وآدابها.

---

(١) عندهما زيادة: (إنما) وهي لا توجد عند الحميدي.

(٢) أخرجه البخاري (٦٢٩٤)، ومسلم (٢٠١٦/١٠١). وسيكرره المؤلف برقم (١٦٥٥).

والحديث ليس موعظة قولية، ولا حكمة إرشادية، ولكنه درس عملي، تمخضت عنه تجربة واقعية حيث أُخْبر رسول الله أن بيتًا احترق بالمدينة على أهله من الليل، ولم يحدد الراوي: من أهل البيت، ولم يحدد الشخص الذي أبلغ الرسول ﷺ؟ ولم يحدد: متى حدث هذا الاحتراق؟ وفي أي مكان؟.

وذلك لأن القضية ليست متعلقة بأشخاص، أو مكان محدَّد، أو أمر شرعي يتعلق بالحدود والفرائض، ولكن القضية تتعلق بالمحافظة على الأنفس جميعها، وهي قضية ذات ملامح سلوكية اجتماعية تتكرر في كل زمان وكل مكان، وتتكرر وتتعدد ويتعدد الأشخاص والبيوت: في أي بيئة، وأي زمن، ولذلك يأتي البيان النبوي عامًا وشاملاً: حيث يخاطب الأمة كلها، ولم يخاطب أهل البيت ولا ذويهم ولا جيرانهم، ولكن أرسى قاعدة حياتية مصيرية حين قال: "إن هذه النار عدو لكم"، والتحسينات الأسلوبية تؤكد هذه العداوة: فالعبارة تبدأ "بإن" المؤكدة، ثم يجيء اسم الإشارة "هذه" قبل النار، لمزيد من التأكيد والتحديد، ومزيد من الانتباه والاستعداد لمقاومة هذا العدو، واتخاذ الوسائل والأسباب للنجاة منه، ولم يقل، "إن النار عدو لكم"، ولكن قال: "إن هذه النار"، أي جنس النار.

والنار تتعدد ألوانها وتتجدد صفاتها، وعلى المسلم أن يتقي هذه النار بكل وسائل النجاة والمقاومة.

ويضع الرسول ﷺ قاعدة النجاة من هذه النار المحسوسة التي تسبب الإيذاء والهلاك والاحتراق فيقول: "فإذا نمتم فأطفئوها عنكم"، وأسلوب الشرط هنا يفصح عن حقيقة ثابتة، حيث ينام الناس ولا يستطيعون أن لا يناموا: ولذلك جاء التعبير بأداة الشرط "إذا"، والأمر هنا للوجوب إذا كان الضرر متوقعًا كما حدث الاحتراق في بيت هؤلاء الذين لم يأخذوا بأسباب الوقاية.

وتصوير النار بأنها عدو: فيه تنبيه للمسلم بضرورة الحذر من النار الدنيوية، واتقاء نار الآخرة، التي لا تبقى ولا تذر، والتي صورها القرآن أبلغ تصوير في كثير من سور القرآن الكريم: كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا

وَزَفِيرًا﴾[١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾[٢]، وقال سبحانه: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾[٣].

فاللهم إني أسألك الجنة، وأستجير بك من النار، اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.... آمين.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم ترك النار الموقدة في البيت، وقد ذكر الفقهاء أنه يسن لمن عنده نار موقدة في بيته أن يطفئها عند نومه لئلا يصيبه منها ضرر، فهذا الحديث يدل على شفقة النبي ﷺ ورحمته بأمته إذ يعلمهم ما ينفعهم ويبعد عنهم الضرر في معاشهم ومعادهم، ولذا فإن هذه السنة وهي إطفاء النار عند النوم من السنن التي ينبغي المحافظة عليها كما قال النووي، وهو عام يدخل فيه السراج وغيرها، وأما القناديل المعلقة فإن خيف بسببها حريق دخلت في ذلك، وإن حصل الأمن منها كما هو الغالب فلا بأس بها لانتفاء العلة، وقال القرطبي:جميع أوامر هذا الباب من باب الإرشاد إلى المصلحة، ويحتمل أن تكون للندب، ولا سيما في حق من يفعل ذلك بنية امتثال الأمر[٤].

وخالف ابن حزم[٥] في ذلك فجعل إطفاء النار عند النوم فرضًا أخذًا بظاهر الأمر أنه على الوجوب، والراجح ما ذهب إليه الجمهور، والله أعلم.

---

(١) سورة الفرقان، آية: ١٢.

(٢) سورة التوبة، آية: ٨١.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٤.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٥٦/٦، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي للنووي ١٢٧٩، وشرح الزرقاني على موطأ مالك ٣٨٢/٤، وعون المعبود، شمس الحق العظيم آبادي ١٠٨/١٤، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٤٣٤/٥.

(٥) المحلى، ابن حزم ٥١٨/٧.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد، والأمر.

ثانيًا: من واجبات الداعي: تحذير المدعوين مما يضرهم.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الحذر من النوم مع عدم إطفاء النار.

رابعًا: من أهداف الدعوة: الحفاظ على الأنفس والأموال.

أولاً- من أساليب الدعوة: التوكيد، والأمر:

استعمل النبي ﷺ أسلوب التوكيد في قوله "إن هذه النار عدو لكم" ليقع في نفس المدعو موقع القبول والاقتناع، والأمر في قوله "فإذا نمتم فأطفئوها" والأمر هنا للإرشاد وقد يكون للندب، وهذا الأمر فضلاً عن كونه إرشادًا لمصلحة دنيوية، فهو في نفس الوقت يفضي إلى مصلحة دينية، وهي حفظ النفس المحرم قتلها، والمال المحرم تبذيره[1]، وفي الحديث بيان من رسول الله ﷺ لسبب هذا الأمر بقوله: "إن هذه النار عدو لكم" وفي رواية أخرى: ((فإنَّ الفويسقةَ ربما جرَّتِ الفَتيلةَ فأحرقَتْ أهلَ البيت))[2]، وهذا مما ينبغي أن يحرص عليه الداعي من بيان للأسباب والملابسات والنتائج، مما يجعل المدعوين مقبلين على الدعوة.

ثانيًا- من واجبات الداعي: تحذير المدعوين مما يضرهم:

إن مما ينبغي أن يُعنى به الداعية تحذير المدعوين مما يضرهم، وله في رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة الذي بلغ الغاية في الحرص على مصلحة المؤمنين والخوف عليهم وتحذيرهم من المضار، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[3]، فقوله" عزيز عليه ما عنتم" أي يعز عليه الشيء الذي يَعْنَتُ أمته ويشق عليها، وقوله: "حريص عليكم" أي على هدايتكم

---

(١) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١/٨٩.

(٢) أخرجه البخاري ٦٢٩٥.

(٣) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم[1]، فهو يحب لكم الخير ويسعى جهده في إيصاله إليكم ويحرص على هدايتكم إلى الإيمان ويكره لكم الشر ويسعى جهده في تنفيركم عنه[2].

فإذا ما استشعر المدعوون حرص الداعي على مصلحتهم وخوفه عليهم مما يكره فإن ذلك يؤدي إلى اقبالهم بقلوبهم عليه وعلى الدعوة، ويكون باعثًا على استجابتهم له، مما يؤدي إلى النتائج الطيبة في مجال الدعوة إلى الله في نفوسهم، مما يكون له جميل الأثر على دعوته.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: الحذر من النوم مع عدم إطفاء النار:

لقد أمر الرسول ﷺ بإطفاء النار عند النوم فقال: "فإذا نمتم فأطفئوها عنكم"، واستجابة لأمر الله عز وجل بأخذ الحذر وتوقي سبل التهلكة قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾[3]، والحذر هو توقي المكروه[4]، وفي هذا دليل على أن الإنسان ينبغي له أن يتخذ الاحتياط في الأمور التي يخشى شرها، ومن ذلك الأمر بإطفاء النار عند النوم، فالنار كما قال ﷺ (عدو) وذلك إذا لم يحسن الإنسان ضبطها وقيدها، وإذا فرط فيها أو تعدى[5]، ويقاس على ذلك في عصرنا الحديث أخذ الحذر والاحتياط من مصادر الطاقة كالبنزين والغاز والكهرباء وغيرها، فيجب الاحتراز من كل ما يخشى ضرره، قال تعالى: ﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾[6].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢٤١/٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٣١٣.

(٣) سورة النساء، آية: ٧١.

(٤) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ١١٧/٥/٢.

(٥) شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين ٢٩٢/٢.

(٦) سورة البقرة، آية: ١٩٥.

رابعًا- من أهداف الدعوة: الحفاظ على الأنفس والأموال:

من أهم المقاصد التي من أجلها جاءت شريعة الإسلام الحفاظ على الكليات الخمس، ومنها: الحفاظ على الأنفس والأموال، فالأنفس "هبة من الله لا يجوز لأحد أن يسلبها غيره"[١]، ولا للإنسان أن يفرط فيها أو يتساهل في وسائل وقايتها والحفاظ عليها، ولا غرو أن نجد رسول الله ﷺ في الحديث يأمر بإطفاء النار، (فإن نمتم فأطفئوها عنكم)، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾[٢]، وفي نفس الوقت دعوة إلى حفظ الأموال من تطرق الهلاك والفساد إليها، ويؤخذ ذلك من الحديث: (احترق بيت بالمدينة على أهله من الليل)، فالمال عصب الحياة وزينة الدنيا، وهو من أجل نعم الله على عباده، يصلح دينهم ودنياهم[٣]، قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾[٤]، والمال من أهم الأسباب التي تعين الإنسان على إقامة شعائر الدين، وذلك من فضل الله، فعندما اشتكى فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ أن الأغنياء شاركوهم أعمالهم وزادوا عليهم بالعبادات المالية، فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله، فقال رسول الله ﷺ: ((ذٰلِكَ فَضْلُ اللّٰهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ))[٥].

---

(١) الخصائص العامة للإسلام، د. يوسف القرضاوي ص ٨٤.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٩٥.

(٣) الدعوة الإسلامية "أصولها ووسائلها"، د. أحمد أحمد غلوش ص ٦٣.

(٤) سورة الكهف، آية: ٤٦.

(٥) أخرجه مسلم ٥٩٥.

الحديث رقم (١٦٢)

١٦٢- السَّابِعُ: عَنْهُ قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إنَّ مَثَل مَا بعَثني اللّه بِهِ مِنَ الْهُدَى والْعلْمِ كَمَثَلَ غَيْثٍ أَصَاب أَرْضًا فكَانَتْ [(١)] طَائِفَةٌ طَيبَةٌ، قبِلَتِ الْمَاءَ فأَنْبَتتِ الْكلأَ والْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمسكَتِ الماءَ، فَنَفَعَ اللّه بها النَّاس، فَشَرِبُوا مِنْهَا وسَقَوْا وَزَرَعوا. وأَصَابَ [(٢)] طَائِفَةً أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعانٌ لا تُمْسِكُ ماءً وَلا تُنْبِتُ كَلأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينَ اللّه، وَنَفَعَه ما بعَثَنِي اللّه به، فَعَلِمَ وعَلَّمَ، وَمثلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللّهِ الذي أُرْسِلْتُ بِهِ» متفقٌ عليه [(٣)].

«فقُهَ» بِضم الْقَافِ عَلَى الْمَشْهُورِ، وقيلَ: بكَسْرِهَا، أَيْ: صارَ فَقِيهًا.

ترجمة الراوي:

أبو موسى الأشعري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨).

غريب الألفاظ:

غيث: الغيث: المطر [(٤)].

طائفة: الطائفة: القطعة من الشيء [(٥)].

الكلأ: العشب: رطبه ويابسه [(٦)].

العشب: الكلأ الرطب. ولا يقال له حشيش حتى يهيج [(٧)].

---

(١) عند مسلم زيادة: (منها).

(٢) عندهما زيادة: (منها).

(٣) أخرجه البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢/١٥) واللفظ له. أورده المنذري في ترغيبه (١٢٢). وسيكرره المؤلف برقم (١٣٨٠).

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٦٨٥.

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٥٧٤.

(٦) الوسيط ٧٩٤.

(٧) الوسيط ٦٠٢.

أجادب: مفردها: جَدَب وهو الأرض الصلبة التي لا ينضب منها الماء[١].

قيعان: مفردها قاع: وهو الأرض المستوية التي لا تنبت[٢].

فَقُه: بضم القاف على المشهور وقيل بكسرها: أي صار فقيهًا[٣].

من لم يرفع بذلك رأسًا: أي أعرض عنه فلم ينتفع به ولا نفع[٤].

الشرح الأدبي

إن التصوير الأدبي والفني في البيان النبوي يجمع بين الجمال والجلال، وبين المهابة والحلاوة، وبين الإقناع والإمتاع، يغذي العقول، ويمتع الأسماع.

ومفهوم الصورة في الحديث النبوي يلتقي مع النماذج العلا في الإبداع الأدبي الإنساني في كثير من جوانبه، ولكن يبقى تفرد الحديث النبوي بخصوصية العموم والشمول، وتميزه بالعاطفة الإنسانية المتزنة الثابتة التي تُقدَّم في صورة أدبية دالة موحية، موشاة بألفاظ رائقة، ومعانٍ فائقة، وآفاق شائقة.

وجماليات الأداء الفني والأسلوبي في هذا الحديث الشريف تتوهج في هذه الصورة الأدبية التي تتكئ على التمثيل والتشبيه، وتصور واقع الأمة في استجابتها للدعوة، واتباع تعاليم المصطفى ﷺ، والانتفاع المثمر بهذه التعاليم السماوية.

والحديث الشريف، عن طريق التشبيه التمثيلي، يوضح أن الذي يُنْتَفع بعلمه الواصل إليه قسمان من الناس:

القسم الأول: ينتفع بثمرات علمه ونتائجه كأهل الاجتهاد والاستخراج والاستنباط: وهؤلاء جاء تصويرهم من خلال توظيف الطبيعة المحيطة بالناس، حتى تكون الصورة مؤثرة وقريبة ومفهومة للجميع، وذلك في قوله ﷺ: "كمثل غيث أصاب أرضًا":

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني (٢١٢/١) والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ج د ب).

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني (٢١٢/١) والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ق ي ع).

(٣) رياض الصالحين ١١٤.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني (٢١٣/١).

فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، فَعِلْمُهُم مثل الأشجار المثمرة التي تؤتي أكلها كل حين، ويظل مصدر نفع للناس.

والقسم الثاني: يُنتفع بعين علمه كأهل الحفظ والرواية، والحاصل أنه ﷺ شبه ما أعطاه الله من أنواع العلوم بالوحى الجلي أو الخفي بالماء النازل من السماء في التطهر وكمال التنظيف، والنزول من العلو إلى السفل، ثم قسم الأرض بالنظر إلى ذلك الماء قسمين: قسم هو محل الانتفاع، وقسم لا انتفاع فيه، وكذا قسم الناس بالنظر إلى العلم قسمين على هذا الوجه[1]، قسم كالأرض الصلبة الثابتة التي تحتفظ بالماء، حيث ينتفع الناس، ويشربون ويسقون ويزرعون، وهؤلاء الذين ينتفعون بثمار العلم، والقسم الثاني: مثل القيعان التي لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، وهؤلاء هم الذين لم يستجيبوا للعلماء، ولم يعملوا بهدى السماء، وقد كنىً رسول الله عن هذا النوع بأنه "لم يرفع بذلك رأسًا"، وقيل هذا تصوير للعالم الذي لم يعمل بعلمه، والطائفة الثالثة هم الذين وصفهم الرسول وحدّد أنموذجهم وهو "لم يقبل هدى الله الذي أرسل به" وهو رجل فات عنه التعلّم والتعليم.

والتشبيه التمثيلي في هذا الحديث يوضح خاصية دقيقة من خصائص الجمال والبيان في الحديث النبوي، وهى توافق عناصر التشبيه، وعدم تنافرها أو تناقضها، فماء السماء طاهر ونظيف، وهو نازل من العلو، وهذه الصفات تتفق مع ما أراد المصطفى ﷺ توضيحه وبيان قيمة ما أرسل به، وما بعث به للناس من هداية، فهو من وحى السماء، وهو طاهر في جوهره، وفي غرضه، وهو نظيف المقصد، يحيي موات النفوس والقلوب، ويهدي الناس إلى طريق الخير، والرخاء والهداية، وإلى الصراط المستقيم، وينقذهم من حياة الجدب، والشقاء والظلام[2].

والحديث يفيض بأسرار تعبيرية تُقرِّب المعنى، وتزيد الأمر وضوحًا، وتؤثر في

---

(١) انظر: حاشية السندي على متن البخاري ص ٢٦، صحيح البخاري.

(٢) انظر: الحديث النبوي: رؤية فنية جمالية، د. صابر عبدالدايم.

المتلقي، ومن هذه الأسرار: بدءُ الحديث بالتأكيد.. وتوضيح المعاني عن طريق التشبيه القريب من واقع الناس، حيث يقول المصطفى ﷺ: إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، ولفظ مثل: يعني الحال أو الصفة.

وقدَّم الهدى على العلم، لأن الهدى هو طريق العلم النافع النابع من التصور الإسلامي، والتوجه الإيماني.

وجاء التعبير بلفظ الغيث، ولم يقل "كمثل مطر" لأن الغيث مطر محتاج إليه يغيث الناس عن قلة المياه، وقد كان الناس متحيرين قبل بعثته ﷺ حتى أغاثهم الله بوابل علومه[١].

وقد جمع عليه الصلاة والسلام بين الكلأ والعشب الكثير، وذلك لأن الكلأ - كما يقول العلماء- مختص بالرّطب إلا أنه ما يتأخر نباته ويقل، والعشب ما يتقدم نباته ويكثر، ولهذا وصف العشب بالكثير.

والأجادب: جمع أجدب أو جمع جَدَب: والمعنى من الجدْب ضد الخصب في بعض الآراء.

والصورة في هذا الحديث الشريف قدمت المعنى في أبهى معرض، وأجمل زينة، وقد اكتملت معالم الصورة كما يرى القاضي الجرجاني، حيث يذهب إلى أن من معالم الكمال في الصورة، أن تكون مهمة اللفظ فيها ليست للكشف عن المعنى فحسب، بل لابد أن يصير حلوًا رشيقًا، أحظى في القلب، وأوقع في النفس، ولا يرى اللفظ إلا ما أدى إليه المعنى، ولكنه أحلى وأرشق، وأحظى وأوقع، والكلام فيها لا يصور الغرض فقط ولكنه ينبغي أن يكون ذا واقع قوي يشنف الآذان، ويستولى على القلوب، كما تشد مناظر الطبيعة الفاتنة إليها النواظر فلا ترى غير الجمال فيها[٢].

---

(١) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان : محمد بن علان الصديق الشافعي، ٣٦١/١.

(٢) انظر: الوساطة للقاضي الجرجاني، والصورة الأدبية، د. علي علي صبح.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد، والتشبيه والتمثيل.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل العلم والعلماء.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل نشر العلم الشرعي.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: التحذير من الإعراض عن العلم والهدى.

أولاً- من أساليب الدعوة: التوكيد، والتشبيه والتمثيل:

أ- **التوكيد**: حيث جاء في الحديث "إن" وهي تفيد التوكيد، وما من شك في أن التوكيد من أساليب الدعوة المهمة حيث يقنع المدعوين بما يقوله الداعية، ويلفت انتباه المدعوين إلى أهميته.

ب- **التشبيه والتمثيل**: حيث جاء في الحديث: "إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث" فإن المعاني أحيانًا تكون غامضة، فيأتي التشبيه والتمثيل لتقريب المعنى إلى الأذهان، ولذا فإن أسلوب التشبيه والتمثيل من أساليب الدعوة التي لا يستغنى عنها الداعية في توضيح المعاني، وترسيخها في أذهان المدعوين، وقد شبه ما جاء به من العلم والهدى بالغيث الذي ينزل على الناس. قال الإمام ابن حجر: (قال القرطبي وغيره: ضرب النبي ﷺ لما جاء به من الدين مثلاً بالغيث العام الذي يأتي الناس في حال حاجتهم إليه، وكذا كان حال الناس قبل مبعثه. فكما أن الغيث يحي البلد الميت فكذا علوم الدين تحيي القلب الميت)(١)، وقد سمى الله عز وجل ما بعث به محمدًا ﷺ من الهدى والعلم نورًا فقال سبحانه: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٢) وجعل من يتبع هديه ورسالته له نور يمشي به في الناس،

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١/٢١٢.

(٢) سورة المائدة، آية: ١٥، ١٦.

قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[١] وامتن على المؤمنين ببعثته ﷺ ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[٢].

قال القاسمي: (لقد أنعم الله على المؤمنين ببعثة النبي ﷺ من جنسهم، عربي مثلهم ليتمكنوا من مخاطبته وسؤاله ومجالسته، والانتفاع به. ولما لم ينتفع بهذا الإنعام إلا أهل الإسلام خصوا بالذكر، وإلا فبعثته ﷺ إحسان إلى العالمين كما قال الله ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[٣] يتلو عليهم القرآن بعدما كانوا أهل جاهلية لم يطرق أسماعهم شيء من الوحي، ويطهرهم من الذنوب والشرك بدعوته، وإن كانوا قبل بعثته في ضلال ظاهر من عبادة الأوثان، وأكل الخبائث، فنقلوا ببعثته ﷺ من الظلمات إلى النور، وصاروا أفضل الأمم في العلم والزهد والعبادة فعظمت المنة لله تعالى عليهم بذلك)[٤] والنصوص في فضل بعثته ﷺ كثيرة، وعلى الدعاة تذكير الناس بها.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل العلم والعلماء:

لقد بين النبي ﷺ فضل العلم والعلماء، وحث على الانتفاع بالعلم، وبين فضل من تفقه في الدين حيث شبهه ﷺ بالأرض الطيبة التي قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير. قال الإمام النووي: (وفي الحديث فضل العلم والتعليم وشدة الحث عليهما، وذم الإعراض عن العلم)[٥] هذا وقد تواترت النصوص الشرعية في فضل العلم و العلماء قال

---

(١) سورة الأنعام، آية: ١٢٢.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٦٤.

(٣) سورة الأنبياء، آية: ١٠٧.

(٤) محاسن التأويل، القاسمي ٤/٢٨٤.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٤١٧.

الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ ﴾(١) وقال سبحانه: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٢) وقال جل شأنه: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ﴾(٣).

قال ابن الجوزي: (يرفع أهل الإيمان على من ليس بمنزلتهم من الإيمان، ويرفع الذين أوتوا العلم على من ليس بعالم، وهذا الرفع قد يكون في الآخرة فهو إخبار عن ارتفاع درجاتهم في الجنة، وقد يكون في الدنيا بارتفاع مجالسهم فيكون ترتيبهم فيها بحسب فضائلهم في الدين والعلم. وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: (أيها الناس افهموا هذه الآية لترغبكم في العلم، فإن الله يرفع المؤمن العالم فوق من لا يعلم درجات)(٤) وقال صلى الله عليه وسلم في فضل الفقه والعلم ((من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين))(٥) وقال أيضًا: ((من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له طريقًا إلى الجنة))(٦) وواجب الدعاة حث الناس على العلم والتعلم من خلال هذه النصوص الشرعية.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل نشر العلم الشرعي:

حث النبي صلى الله عليه وسلم على أهمية نشر العلم الشرعي، ونفع الناس بذلك، حتى يكون المسلم على بينة من أمور دينه، وفي هذا الحديث يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس)) قال النووي: (والنوع الثاني من الأرض ما لا تقبل الانتفاع في نفسها، لكن فيها فائدة وهي إمساك الماء لغيرها، فينتفع بها الناس والدواب، وكذا النوع الثاني من الناس لهم قلوب حافظة، لكن ليست لهم أفهام ثاقبة،

---

(١) سورة فاطر، آية: ٢٨.

(٢) سورة الزمر، آية: ٩.

(٣) سورة المجادلة، آية ١١.

(٤) زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي ٨/١٩٣-١٩٤.

(٥) أخرجه البخاري ٧١، مسلم ١٠٣٧.

(٦) أخرجه مسلم ٢٦٩٩.

ولا رسوخ لهم في العقل يستنبطون به المعاني والأحكام، وليس عندهم اجتهاد في الطاعة والعمل به، فهم يحفظونه حتى يأتي طالب محتاج متعطش لما عندهم من العلم، أهل للنفع والانتفاع، فيأخذه منهم فينفع به فهؤلاء نفعوا بما بلغهم)(١).

ولقد مدح الله الذين يستمعون العلم ويستجيبون له فقال جلّ شأنه: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾(٢) وقال ﷺ في الحديث: ((تسمعون ويسمع منكم، ويُسمع ممن يسمع منكم))(٣) ودعا ﷺ بالنضارة لمن يبلغ عنه فقال: ((نضر الله امرءًا سمع منا حديثًا فحفظه حتى يبلغه فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه))(٤). وبذلك يحصل ظهور العلم وانتشاره، ويحصل التبليغ وهو الميثاق المأخوذ على العلماء، ومعنى الحديث الدعاء بالنضارة وهي النعمة والبهجة، قال السيوطي: قال أبو عبدالله محمد بن أحمد بن جابر: (ألبسه الله نضرة وحسنًا وخلوص لون وزينة وجمالاً، أو أوصله الله لنضرة الجنة نعيمًا ونضارة، قال سفيان بن عيينة: ما من أحد يطلب حديثًا إلا وفي وجهه نضرة)(٥).

رابعًا- من موضوعات الدعوة: التحذير من الإعراض عن العلم والهدى:

يتضح ذلك من قول النبي ﷺ ((ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به)) قال ابن حجر: (ومنهم من يسمع العلم فلا يحفظه ولا يعمل به ولا ينقله لغيره فهو بمنزلة الأرض السبخة أو الملساء التي لا تقبل الماء أو تفسده على غيرها)(٦) وقال النووي: (والنوع الثالث من الأرض السباخ التي لا تنبت ونحوها فهي لا تنتفع بالماء

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٤١٧.

(٢) سورة الزمر، الآيتان: ١٧- ١٨.

(٣) أخرجه أبو داود ٣٦٥٩، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود، ٣١٠٧).

(٤) أخرجه أبو داود ٣٦٦٠، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود، ٣١٠٨).

(٥) عون المعبود على سنن أبي داود، محمد أشرف الحق العظيم آبادي ١٥٦٥.

(٦) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢١٢/١.

ولا تمسكه لينتفع بها غيرها، وكذا النوع الثالث من الناس ليست لهم قلوب حافظة ولا أفهام واعية فإذا سمعوا العلم لا ينتفعون به ولا يحفظونه لنفع غيرهم)[١].

ويظهر من هذا خطورة الإعراض عن العلم والهدى، حيث بين الله مصيرهم فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾[٢] وحكى عن حسرتهم يوم القيامة، فقال جلّ شأنه: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[٣] وتوعد الله من يعرض عن ذكره وهدي نبيه بالمعيشة الضنك فقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾[٤].

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٤١٧.

(٢) سورة الأعراف، آية: ١٧٩.

(٣) سورة الملك، آية: ١٠.

(٤) سورة طه، آية: ١٢٤.

الحديث رقم (١٦٣)

١٦٣- الثَّامِنُ: عن جابرٍ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مثَلِي ومثَلُكُمْ كَمَثَلِ رجُلٍ أَوْقَدَ نَارًا، فَجَعَلَ الْجَنَادِبُ وَالْفَراشُ يَقَعْنَ فيهَا، وهُوَ يذُبُّهُنَّ عَنهَا، وأَنَا آخذٌ بحُجَزِكُمْ عَنِ النارِ، وأَنْتُمْ تَفَلَّتُوْنَ مِنْ يَدِي**» رواه مسلمٌ[1].

«**الْجَنَادبُ**»: نَحْوُ الجَراد والْفرَاشِ، هَذَا هُوَ المَعْرُوفُ الَّذِي يَقَعُ في النَّار. «**والْحُجَزُ**»: جَمْعُ حُجْزَةٍ، وهِي معْقِدُ الإِزَار والسَّراويلِ[2].

ترجمة الراوي:

جابر بن عبدالله الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

الجنادب: نحو الجراد والفراش، هذا هو المعروف الذي يقع في النار[3].

الفراش: الطير الذي يلقى بنفسه في ضوء السراج واحدتها: فراشة[4].

يذبهن عنها: يمنعهن ويطردهن عنها[5].

الحجز: جمع حُجزة وهي: معقد الإزار والسراويل[6].

تفلتون: يقال أفلت مني وتفلت: إذا نازعك الغلبة والهرب ثم غلب وهرب[7].

---

(١) برقم (٢٢٨٥/١٩). أورده المنذري في ترغيبه (٥٣٥١).

(٢) بنصه في الترغيب والترهيب، المنذري (٣٥١/٤).

(٣) رياض الصالحين ١١٤.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٦٩٩.

(٥) المفصح المفهم لمعاني صحيح مسلم، ابن هبيرة ١٦٤.

(٦) رياض الصالحين ١١٤.

(٧) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٤١٨.

الشرح الأدبي

إن الصورة البيانية في هذا الحديث تتكئ على التشبيه التمثيلي مثل الحديث السابق، وذلك لتقريب المعنى، وقوة التأثير، فالصورة البيانية في الحديث النبوي، حين نطيل التأمل في استكشاف معالم الجمال والجلال فيها، ندرك أنها تلج بالمعنى إلى شعاب النفس فتزيده وضوحًا في الخاطر، وجلاء في الذهن، لتستحيل أفكاره الهادية دمًا خالصًا يترقرق في عروق المسلم، ونورًا يمتد في عقله وبصره، ونفسًا يتردد في رئتيه، وذلك بعض ما يفيض به البيان الساحر والأدب الرفيع[1].

والصورة الأدبية في هذا الحديث تجيء في صياغة أخرى مشابهة ولكنها أوضح وأشمل في حديث يرويه أبو هريرة رضي الله عنه حيث قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنما مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد نارًا، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش، وهذه الدواب التي في النار يقعن فيها، وجعل يَحْجُزُهُنَّ ويغلبنه فيتقحمن فيها، فأنا آخذٌ بحُجَزِكُمْ عن النار وأنتم تَقَحَّمون فيها"[2].

إن الروايتين تكملان هذه الصورة التي نتمثلها أمامنا في كل عصر مكتملة الجوانب، ساطعة المشاهد، أفعالاً وحركات سريعة متلاحقة، وصراعًا ومغالبة بين الهوى والهدى: الهوى المُرْدي الذي يغري الجنادب والفراش ويجذبهن إلى النار، والهُدَى الإلهي الذي يبلغه محمد إلى الناس. فينجيهم من الهلاك، ويقودهم إلى جنة عرضها السموات والأرض.

وهذا الصراع بين الهوى المرْدي، والهُدَى المنْجي، يكشف عن النوازع الخفية التي تدفع إلى الشر المرْدي، وبعضها يكون خيراً فينتصر على النزعات الشيطانية، وينجو ويفوز بالرحمة الإلهية وهذه النوازع التي جسَّدتها هذه الصورة الفنية تنتقل بإحساسنا إلى حالنا وحال النبي صلى الله عليه وسلم، فنرى أنفسنا في صراع الهوى الغالب للهدى الرحيم، ممثلاً

(١) انظر: البيان النبوي: د. محمد رجب البيومي ص ٢٥٣.

(٢) أخرجه مسلم ٢٢٨٤.

ومجسدًا في صورة ذلك الفراش الأحمق الذي يضحي بالحياة في اندفاع قاهر ثمنًا غاليًا للامح براق، فإذا اجتذبه مَنْ بالمؤمنين رءوف رحيم إليه حفاظًا على حياته، غلبه الهوى على نفسه فاقتحم المهالك، وهذا شأن العاصين والضالين.

وهنا نحاول أن نفهم هذه المفارقات، وأن نقيس حركاتنا وأنفاسنا مع هذا الساهر الحريص، فنرى كل كبيرة تغرينا بالبريق، يصرعنا فيها الهوى، ويجذبنا منها المصطفى ﷺ يأخذ بحجزنا مكررًا الزجر، مقررًا الحرمة مؤكدًا النداء، ونحن العاصين ما أشقانا وما أتعسنا حين نغلبه فنقتحم النار، ونتفلت من يده مهرولين مسرعين إلى ميدان الهلاك.

وقد عمَّقت جوانب الصورة الأدبية هنا وجَمَّلتها وسائل أسلوبية كثيرة تنبئ عن فصاحة المصطفى ﷺ فهنا كرر لفظ "مثل" مضافًا إلى نفسه الكريمة مرة في ياء المتكلم "مثلي" وإلى أمته مرة أخرى في ضمير الخطاب "ومثلكم" لأن الصورة تعرض حالين مختلفين: حال حكيم رءوف، وحال أحمق جامح. فليست حاله عليه السلام كحال أمته، إذا استهواها الشيطان فغلبها، ولهذا كان الكلام على اللف والنشر المرتب، والذي يلقب فيه التشبيه بالملفوف، وقد حصل الاكتفاء بالتكرار عن التفصيل في الآخر.

وليس لفظ "مثل" في البيان الكريم أداة تشبيه لأنه بمعنى الحال والصفة، وإنما الأداة الكاف والجمع بينهما وبين مثل للدلالة على تشبيه الهيئات، والأحوال تمثيلاً، إذ لو دخلت الكاف على رجل لتوهم بادئ الرأى مشبهًا به أفرادًا.

وارتباط جواب "لما" بشرطها في الرواية الثانية يشير إلى ارتباط السبب بالمسبب في الوجود، ووصف الدواب المشار إليها للتحقير، وارتباط إشارة القريب الداني المنزلة بالموصول وصلته في قوله، "وهذه الدواب التي تقع ... إلخ"، يشير إلى العادة والطبع الغالبين اللذين هما بحاجة كبيرة إلى التهذيب والمقاومة والكبح، وتكرار العبارة، "تقع في النار"، في الرواية الثانية، يجعلها جوابًا لفعل الشروع، تقع فيها، ويشير إلى الاستسلام وعدم التدبر لما هو معتاد، والنظر إلى ما يجري من الردى.

ومما يزيد الصورة في الرواية الثانية تأثيرًا مجيئها في أسلوب القصر في رواية أبي هريرة: حيث جاءت "إنما" في أول الحديث الشريف، لتصبح الصورة واقعية، ويظل الصراع دائرًا بين حرص المصطفى ﷺ، على نجاة أمته وبين تغلب الهوى على كثير من أفراد هذه الأمة، حتى يصل بهم هذا الهوى إلى النار التي يتقلبون فيها في حياتهم وآخرتهم، وعطف الجمل "بالفاء" يوحي بترتيب الأحداث وتعاقبها وسرعتها.

ومجيء الحديث في أسلوب القصة المتعاقبة أحداثها، والمكثفة في أهدافها وآثارها، يوحي بأنها قصة الأجيال كلها، ففيها تشخيص لأدواء النفوس، وتصوير لرحمة المصطفى ﷺ، وحرصه الشديد على مداواة هذه الأنفس المرضى، ولنتأمل هذا التعبير التصويري العميق: "وأنا آخذ بحجزكم عن النار، وأنتم تفلتون من يدي"، وفي الرواية الثانية: يقول: "فأنا آخذ بحجزكم، وأنتم تقتحمون فيها"، والتعبير بقوله: "تفلتون من يدي"، وقوله "يقتحمن"، يدل على الإصرار من الجانب الآخر على الوقوع في حمأة الباطل، وقوله: وأنا آخذ بحجزكم يصور مشهدًا من مشاهد الصراع الدائم، فالضالون يكثرون، ويعاندون، وبرغم إصرارهم على ما هم فيه يحرص الرسول ﷺ على صدهم عن الوقوع في ظلمات الإثم والتردي في أودية النيران.

وتمتد هذه الصورة عبر الأزمنة والأمكنة، وتَسْري في ضمير الأجيال، ويظل البيان النبوي يأخذ بحجز الجماعات التي يتملكها الهوى، ويغالبها الشيطان، فإذا بها تلمح ضوء النجاة يبرق في كلمات المصطفى ﷺ، وفي ما جاء به من الآيات البينات وحيًا وتبليغًا عن ربه عز وجل. وصدق رسول الله ﷺ وهو يرشد الأمة في كل زمان وكل مكان إلى ميراثهم الحقيقي وهو الكتاب والسنة ففيهما العصمة من الزيغ والضلال، حيث يقول ﷺ، إني تركت فيكم ما إن تمسكتم به فلن تضلوا بعدي أبدًا، كتاب الله وسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي اللهم إني أسألك إيمانًا لا يرتد ونعيمًا لا ينفد ومرافقة محمد ﷺ في أعلى جنة الخلد.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التمثيل والترهيب.

ثانيًا: من مهام الداعية: الحرص على المدعوين والشفقة عليهم.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: التشبيه.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل اتباع السنة.

أولاً- من أساليب الدعوة التمثيل والترهيب:

أ- **التمثيل:** يتضح من قول النبي ﷺ في الحديث: "مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ"، إن أسلوب التمثيل من الأساليب الدعوية التي يستخدمها الداعية لتقريب المعاني إلى الأذهان من خلال ضرب المثل، ومن صور استعمال القرآن لأسلوب التمثيل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾[1].

ب - **الترهيب:** ويستنبط من قول النبي ﷺ: ((وَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ))، وهو تخويف من النار ومن ورودها، ولا شك أن أسلوب الترهيب له دوره في كبح جماح النفس، وكفها عن الشهوات بتخويفها وترهيبها، وعلى الدعاة إلى الله الموازنة بين الترهيب والترغيب، ومن صور استعمال القرآن لأسلوب الترهيب قوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾[2].

ثانيًا- من مهام الداعية: الحرص على المدعوين والشفقة عليهم:

يظهر هذا في قول النبي ﷺ: "وَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ. وَأَنْتُمْ تَفَلَّتُونَ مِنْ يَدِي"، ولقد وصف الله نبيه في القرآن بقوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[3]، قال الطاهر بن عاشور:

---

(١) سورة الحج، آية: ٧٣.

(٢) سورة النبأ، الآيتان: ٢١ - ٢٢.

(٣) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

(جاءت هذه الآية من السورة تذكيرهم بالمنة ببعثة محمد ﷺ والتنويه بصفاته الجامعة للكمال. ومن أخصها حرصهُ على هداهم، ورغبته في إيمانهم ودخولهم في جامعة الإسلام ليكون رؤوفًا رحيمًا بهم ليعلموا أن ما لقيه المعرضون عن الإسلام من الإغلاظ عليهم بالقول والفعل، ما هو إلا استصلاح لحالهم. وهذا من مظاهر الرحمة التي جعلها الله تعالى مقارنة لبعثة رسوله ﷺ)(١)، وقد جاء في الحديث ما يدل على شفقته على أمته ورحمته بهم: ((وإني أنا النذيرُ العُريان، فالنَّجاء))(٢).

ثالثًا- من أساليب الدعوة: التشبيه:

يستنبط هذا من قوله ﷺ في الحديث: (وأنتم تفلتون من يدي)، قال النووي: (شبه ﷺ تساقط الجاهلين والمخالفين بمعاصيهم وشهواتهم في نار الآخرة، وحرصهم على الوقوع في ذلك مع منعه إياهم، وقبضه على مواضع المنع منهم، بتساقط الفراش في نار الدنيا لهواه وضعف تمييزه، وكلاهما حريص على هلاك نفسه ساع في ذلك لجهله)(٣).

وقال الطيبي: (واعلم أن تحقيق فهم الحديث متوقف على معرفة معنى حدود الله، ذلك أن حدود الله هي محارمه ونواهيه، ورأس المحارم حب الدنيا وزينتها، واستيفاء لذاتها وشهواتها، فيؤخذ منه أن الإنسان إلى النذير أحوج منه إلى البشير، وذلك أن جبلة الإنسان مائلة إلى الحظوظ العاجلة دون الآجلة، فأوجب قلعها أولاً ليتمكن من مجرى ما يزلفه إلى الله تعالى، ومن ثم قيل: التحلية بعد التخلية)(٤).

وقال ابن حجر: (شبه تهافت أصحاب الشهوات في المعاصي التي تكون سببًا في الوقوع في النار بتهافت الفراش بالوقوع في النار اتباعًا لشهواتها، وشبه ذبه العصاة عن المعاصي بما حذرهم به وأنذرهم بذب صاحب النار الفراش عنها، وقال القاضي عياض:

---

(١) التحرير والتنوير مج/٥/١١/٧٠.

(٢) أخرجه البخاري ٦٤٨٢، ومسلم ٢٢٨٣.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٤١٨.

(٤) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٣٠٨/١.

شبه تساقط أهل المعاصي في نار الآخرة بتساقط الفراش في نار الدنيا)[١]، هذا وقد دلت نصوص القرآن على خطورة المعصية واتباع الشهوات قال الله: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[٢].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل اتباع السنة:

يستنبط هذا من سياق الحديث، لأن في اتباع هدي النبي ﷺ نجاة من النار، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾[٣]، وقال أيضًا: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٤].

وحث الرسول الكريم ﷺ على اتباع سنته وحذر من الإعراض عنها فقال: ((مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتي فَلَيْسَ مِني))[٥]، وقال في الحديث أيضًا: ((... فَعَلَيْكُم بسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاء الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ))[٦]، ومن هذا يعلم فضل اتباع سنة رسول الله ﷺ، وأن فيها النجاة من النار، وعلى الدعاة أن يربطوا الناس بقدوتهم الأولى ﷺ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[٧].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١/٣٢٦.

(٢) سورة الجاثية، آية: ٢٣.

(٣) سورة النساء، آية: ٦٩.

(٤) سورة آل عمران، آية: ٣١.

(٥) أخرجه البخاري ٥٠٦٣، ومسلم ١٤٠١.

(٦) أخرجه أبو داود ٤٦٠٧، وصححه الألباني، (صحيح سنن أبي داود ٣٨٥١).

(٧) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

الحديث رقم (١٦٤)

١٦٤- التَّاسعُ: عَنْهُ أَنْ رسولَ اللَّه ﷺ أَمَر بِلَعْقِ الأَصابعِ وَالصحْفَةِ، وقال: «**إِنَّكُم لا تَدْرُونَ فِي أَيِّهَا** [1] **الْبَرَكَةَ**» رواه مسلم [2].

وفي رواية لَهُ [3]: «**إِذَا وَقَعتْ لُقْمةُ أَحدِكُمْ. فَلْيَأْخُذْهَا فَلْيُمِطْ مَا كَانَ بِهَا مِنْ أَذًى وَلْيأْكُلْهَا، وَلا يَدعْهَا لَلشَّيْطانِ، وَلا يَمْسَحْ يَدَهُ بِالْمَنْدِيلِ حَتَّى يَلْعَقَ أَصَابِعهُ، فَإِنَّهُ لا يدْرِي فِي أَيِّ طَعَامِهِ الْبَرَكَةَ**».

وفي رواية له [4]: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ يَحْضُرُ أَحَدكُمْ عِنْدَ كُلِّ شَيءٍ مِنْ شَأْنِهِ حَتَّى يَحْضُرَهُ عِنْدَ طَعَامِهِ، فَإِذَا سَقَطَتْ مِنْ أَحَدِكُمْ اللُّقْمَةُ، فَلْيُمِطْ مَا كَان بِهَا مِنْ أَذًى، فَلْيأْكُلْها، وَلا يَدَعْهَا لِلشَّيْطَانِ**».

ترجمة الراوي:

جابر بن عبدالله الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

الصَّحْفة: إناء من آنية الطعام [5].

فليمط: فليُبعد وينحِّ [6].

(١) لفظ مسلم: (أيّه).

(٢) برقم (٢٠٣٣/١٣٣). أورده المنذري في ترغيبه (٣١٨٩). وسيكرره المؤلف برقم (٧٥٠).

(٣) أخرجها مسلم (٢٠٣٣/١٣٤). أوردها المنذري في ترغيبه (٣١٩٠).

(٤) أخرجها مسلم (٢٠٣٣/١٣٥) وزاد في آخره: (فإذا فرغ فليلعق أصابعه، فإنَّه لا يدري في أيِّ طعامه تكون البركة). أوردها المنذري في ترغيبه (٣١٩١).

(٥) الوسيط ٥٠٨.

(٦) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (م ي ط).

الشرح الأدبي

ما أعظم هذا الدرس النبوي وما أجمله، وما أعظم آثاره الاجتماعية والصحية والاقتصادية، إنه درس واقعي في ضبط حياة المسلم، وتنظيم إيقاعها، وحركتها، وإن آداب الطعام هي أول ما يحرص عليه المسلم في حياته اقتداء برسول الله ﷺ، وكذلك وردت الروايات المتعددة التي ترشد المسلم إلى تجميل سلوكه، وكبح جماح غروره، ومقاومة شيطان الإسراف والغرور والشهوة الذي يتمكن من النفس البشرية حين تبتعد عن واحة السنه العطرة، فتحرم من قطف ثمارها النضرة؛ والحديث في رواياته الثلاث يوحي ببُعد المؤمن عن الإسراف في الطعام، وعدم الشبع، لأن الرسول يأمر بلعق الأصابع والصَّحْفة التماسًا للبركة، وهذا السلوك الإيماني لا يكون إلا في حالة قلة الطعام، حيث لا يضع المسلم أمامه ما يفيض عن حاجته ثم يرمي به بعد ذلك، في أكوام الفضلات، وهو صالح للغذاء، ألم يفكر المسلم في الذين يتضورون جوعًا، ولا يجدون ما يسد رمقهم، وكذلك الذين تنزل بهم الكوارث والزلازل، وتجرفهم الأعاصير والأوبئة والأمراض.

إن كل مسلم عليه واجب ومسؤولية تجاه أخيه المسلم، ومن آداب الطعام: ما ورد في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: "المؤمن يأكل في معى واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء"(1) والمراد أن المؤمن يأكل بآداب الشرع فيأكل في مِعًى واحد، بقدر حاجته، ولا يلقي شيئًا زائدًا في الفضلات، وكأنه يلقيها للشيطان، والمؤمن في اقتصاده وحرصه على آداب الطعام: لا يترك بقايا من طعام على يديه، أو في الإناء، ولكن تأسيًا برسول الله ﷺ، يلعق أصابعه والصَّحفة، وإذا وقعت منه لقمة: لا يتركها تأففًا وتكبرًا وإسرافًا ولكن يأخذها ويميط الأذى عنها وينظفها ثم يأكلها، لأنه إذا ألقى ببقايا الأكل الصالح في القمامة، فهو يلقي به للفساد والتعفن، وكل الطرق التي يرمز إليها، "الشيطان"، وأما الكافر فهو يأكل بمقتضى الشهوة والشدة، والنهم فيأكل

---

(1) أخرجه البخاري ٥٣٩٣، ومسلم ٢٠٦١.

في سبعة أمعاء، وذلك كناية عن الجشع والإسراف، والتبذير، وعدم الاقتصاد، وهو لم يأخذ بالمنهج الإسلامي الذي يقر بأن طعام الواحد يكفي الاثنين، وطعام الاثنين يكفي الثلاثة، وإن أحسن ما أكل المؤمن في ثلث بطنه، وشرب في ثلث، وترك للنفس ثلثًا، كما أرشد النبي ﷺ.

ومعالم الأسلوب في هذه الروايات تقدم هذه المعاني في بلاغة واضحة، وتراكيب بالمعاني بائحة، حتى تستجيب لها النفوس الرابحة، فالرواية الأولى تبدأ بجملة خبرية مؤكدة يسوقها الراوي ليؤكد أمر الرسول ﷺ بلعق الأصابع، والصحفة، وهو أمر للندب ولكنه يتضمن الفوائد الجليلة ، والجملة الثانية جاءت مؤكدة: وهى من كلام نبي الرحمة ﷺ حيث يوجه المسلمين إلى منابع البركة وهى غير محدودة ولكنها في هذا السياق، يراد بها: ما يحصل به التغذية، وتسلم عاقبته من أذى، ويقوي على طاعة الله تعالى، وممارسة الحياة حسب المنهج الإسلامي.

والرواية الثانية صيغت في قالب الجواب والشرط: والجواب تضمن ست جمل تُفصِّل آداب الطعام، وتحدد في إيجاز ما يجب على المسلم فعله حين تسقط لقمة من يده، وهذه الجمل الست اقترنت بأدوات كثيرة تحتم الالتزام بالسنة وآدابها في تناول الطعام.

ومن هذه الأدوات: أداة الشرط "إذا"، وهى للتحقق، وكل من يتناول طعامًا يتساقط منه الكثير على الأرض أو المائدة، وبعد الطعام تبقى بقايا صالحة، ولكن يلقى بها كثير من الناس في سلال المهملات.

فتصبح مرتعًا للأوبئة والحشرات، والروائح الكريهة، ولذلك جاءت صياغة هذه الجمل جازمة حاسمة فجواب الشرط مقترن بلام الأمر، "فليأخذها"، ثم يأتي أمر آخر للحفاظ على الصحة البدنية، والصحة النفسية في قوله عليه الصلاة والسلام، "فليمط ما كان بها من أذى"، ثم بعد ذلك أتي الأمر الثالث في قوله، "وليأكلها.."، ثم يأتي النهى عن الإسراف والتبذير والبطر والجحود. الذي يؤدي إلى مسالك الشيطان، وقوله: "ولا يدعها للشيطان" جملة موجزة تشع بكل أطياف التحذير من الانزلاق إلى مهاوى الفساد، والمشاركة في إشاعة جَوِّ الترف والفساد، ولعق الأصابع رُبَّما يبدو غير مألوف في المجتمع المعاصر، حيث يتناول الناس الطعام بالملاعق، ولا يأكلون بأيديهم، ولكنَّ

المحافظة على السنة وآدابها تتمثل في الاقتصاد في الطعام، وعدم إبقاء بقايا الأكل في الأواني والملاعق، وفوق المناضد والمفارش، وقد أرشد الرسول ﷺ إلى ذلك في أسلوبه البديع، ونظمه البليغ، حيث قال محذرًا "إن الشيطان يحضر أحدكم عند كل شيء من شأنه حتى يحضره عند طعامه".

وقد روى أن ابن أبي ماسويه قال: "لو استعمل الناس هذه التوجيهات لسلموا من الأمراض والأسقام ، لأن أصل كل داء التخم"، وقيل: إن قلة الغذاء يوجب رقة القلب، وقوة الفهم، وانكسار النفس، وضعف الهوى والغضب، وكثرة الغذاء يوجب ضد ذلك.

والحديث في رواياته الثلاث يوحي ويرشد إلى حتمية الاقتصاد في الغذاء، والبعد عن الإسراف، والحرص على عدم الإكثار من الطعام حتى لا يبقى منه شيء فيفسد، وهناك طوائف تتضور جوعًا، ولا تجد ما يسد رمقها.

يقول رسول الله ﷺ فيما يرويه المِقْدام بن مَعْد يكَرِب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((ما ملأ ابن آدم وعاءً شرًا من بطن بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه))[1].

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم لعق الأصابع والصحفة وإماطة الأذى عن اللقمة الساقطة وأكلها، وقد ذكر الفقهاء[2] أنه يسن أن لا يهمل المرء في الطعام ويلعق الصحفة فإنه لا يدري أين البركة، وإن وقعت من يده لقمة فليمط الأذى عنها

(١) أخرجه الترمذي ٢٣٨٠، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي، ١٩٣٩).

(٢) الفتاوى الهندية، الشيخ نظام وجماعة من علماء الهند ٣٣٧/٥، وبريقة محمودية في طريقة محمدية وشريعة نبوية في سرية أحمدية، محمد بن مصطفى الخادمي ٤٣/٣، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم المصري ٣١٦/٢، والمدخل إلى الشرح الشريف، ابن الحاج العبدلي ٢٢٢/١، وحاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني، الشيخ علي العدوي ٤٦٢/٢، والآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ١٧٥/٣، وغذاء الألباب شرح منظومة الآداب، الإسفراييني الحنبلي ١٢٥/٢، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، الإمام الشوكاني ١٨٦/٨، وسبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، إسماعيل الصنعاني ٦١٧/٢، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية١٢١/٦.

ويأكلها ولا يدعها للشيطان، وفي هذا محافظة على النعم من الزوال والضياع، وتقييد لها بالشكر، فإن لم يستطع أكلها أطعمها حيوانًا ولا يتركها للشيطان.

وقال ابن حزم وبعض الفقهاء(١) إن لعق الأصابع من الطعام وإماطة الأذى عن الساقط من الطعام وأكله وعدم إلقائه فرض اتباعًا لهديه ﷺ في هذا الحديث، وأخذًا بظاهر الأمر فيه.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد، الشرط، والأمر، والنهي، والتعليل.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: إثبات البركة في الطعام.

ثالثًا: من واجبات المدعو: الامتثال لأوامر النبي ﷺ.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل العمل بسنة النبي ﷺ.

أولاً- من أساليب الدعوة: التوكيد، والشرط، والأمر، والنهي، والتعليل:

١- **التوكيد**: حيث جاء في الحديث "إنكم لا تدرون" "إن الشيطان" ولا شك أن التوكيد أسلوب من أساليب الدعوة التي تساعد على إقناع المدعوين، وإشعارهم بأهمية ما يقوله الداعية.

٢- **الشرط**: جاء في روايات الحديث "إذا وقعت لقمة أحدكم" والشرط من أساليب الدعوة، وفيه لفت انتباه المدعوين إلى جواب الشرط لزيادة اهتمامهم به، وهو من قبيل التنويع في أساليب الدعوة، وبيان بعض المعاني التي يريد الداعية أن تكون واضحة في ذهن المدعو.

٣- **الأمر**: وقد ورد ذلك في أكثر من موضع في الحديث في قوله ﷺ: "فليأخذها" "فليمط" "فليأكلها" ومن المعلوم أن أسلوب الأمر يشعر المدعو بأهمية المأمور به، مما يستدعي مزيدًا من العناية والاهتمام بما أُمر به، والأمر أسلوب قرآني ومنه قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾(٢).

---

(١) المحلى، ابن حزم ٦/١١٧، وسبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، إسماعيل الصنعاني ٢/٦١٧.

(٢) سورة النحل، آية: ١٢٥.

٤- **النهي**: حيث جاء في الحديث في قوله ﷺ "ولا يدعها" "ولا يمسح" والنهي من أساليب الدعوة حيث يتطلع المدعو إلى معرفة المنهي عنه، ليعمل على اجتنابه وعدم إتيان ما نهى عنه، ولذا فإن النهي من الأساليب الدعوية التي لا يستغنى عنها الداعية.

٥- **التعليل**: وهو أسلوب مهم من أساليب الدعوة حيث يساعد على إقناع المدعو، وقد علل النبي ﷺ في الحديث الأمر بلعق الأصابع بقوله: "إنكم لا تدرون في أيها البركة" قال صاحب تحفة الأحوذي: (والمراد أنه لا يدري في أية أصابعه تكون البركة حاصلة)[١] وقد جاء في القرآن في علة الصيام ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٢] وفي النهي عن الزنا ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾[٣] وفي تحريم الخمر ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾[٤]. قال د. يوسف القرضاوي: (وينبغي على الداعية أن يقتدي بالقرآن والسنة في تعليل الأحكام، وبيان حكمها وثمراتها في الأنفس والحياة، وربطها بالفلسفة العامة للإسلام، حتى تقع في النفس موقع القبول.

وقد وجدنا القرآن الكريم يذكر الحكم والمنافع من وراء العبادات ذاتها، مع أن الأصل فيها التعبد والامتثال لأمر الله تعالى، كقوله في الصلاة: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ﴾[٥] وفي الزكاة: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[٦] وفي الصيام: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٧] وفي الحج: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾[٨].

---

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٢/١٥٦٤.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٨٣.

(٣) سورة الإسراء، آية: ٣٢.

(٤) سورة المائدة، آية: ٩٠.

(٥) سورة العنكبوت، آية: ٤٥.

(٦) سورة التوبة، آية: ١٠٣.

(٧) سورة البقرة، آية: ١٨٣.

(٨) سورة الحج، آية: ٢٨.

فإذا كان هذا في الأمور التعبدية، فكيف بغيرها من المعاملات وشؤون الحياة؟ فهذا مطلوب في كل حين، ولكن طلبه في عصرنا ألزم، والحاجة إليه أوكد، لأن كثيرًا من الناس لم يعد يغلب عليهم التسليم، وإنما يغلب عليهم البحث والتساؤل لمعرفة الأسرار والعلل، ورحم الله امرءًا عرف زمانه، وخاطب أهله بما يعرفون.

وهناك محذورات ينبغي التنبّه لها:

وأود أن أنبه هنا في مقام تعليل الأحكام إلى بعض المحذورات التي يتورط فيها بعض الدعاة ومنها:

١- المبالغة في تعليل العبادات:

المبالغة في تعليل العبادات بأمور دنيوية، وربطها بها ربطة العلة بالمعلول، مع الغفلة عن حقيقة كبيرة يجب التنبيه عليها، وهي أن العبادات مطلوبة طلب الغايات والمقاصد، لا طلب الأدوات والوسائل، فهي مرادة لذاتها بغض النظر عما وراءها من منافع وثمرات. بل هي الغاية من خلق المكلفين كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1] بل المقصود الأول من خلق هذا العالم كله علويه وسفليه: أن يعرف الناس ربهم بأسمائه الحسنى وصفاته العُلا. كما قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾[2].

والمبالغة في هذا الجانب قد تؤدي ببعض الناس إلى أن يقول: إذا كان هدف العبادات تربية الضمائر، وتزكية الأنفس، وتقويم الأخلاق، فعندنا وسائل أخرى توصلنا إلى هذا الهدف. وقد يقول بعض آخر ما قاله بعض الفلاسفة من قبل.

٢- التعليل بأمر غير جامع ولا مانع:

---

(١) سورة الذاريات، آية: ٥٦.

(٢) سورة الطلاق، آية: ١٢.

ومن المحذورات أن يعلل الحكم الشرعي بأمر غير جامع، بمعنى أنه لا ينطبق على كل الحالات، ولا مانع، بمعنى أنه ينطبق على غير المعلل مما لم يأخذ حكمه.

مثال ذلك: تعليل تحريم لحم الخنزير بأنه يأكل القاذورات، فقد يردّ رادّ بأن هذا لا ينطبق إلا على الخنازير السيئة التغذية، أما الخنازير التي تربى في حظائر خاصة، ويشرف عليها مختصون يعنون بأمرها، فلا يتفق معها هذا التعليل.

وكذلك إذا قال قائل: إنما حرم لحم الخنزير، لأن اعتياد اكله يورث فقدان الغيرة على النساء والحرمات، كما هو مشاهد لدى الأوربيين الذين يدينون بالمسيحية، فهذا التعليل قد ينقض بأن ذلك قد يكون مرده للبيئة والتربية أكثر من رده إلى لحم الخنزير، بدليل أن النصارى في صعيد مصر وفي البلاد الشرقية عامة لا تنقصهم الغيرة.

كما أن اليهود في الغرب، وهم يحرمون الخنزير، يسلكون في أمر الغيرة ما يسلكه مواطنوهم من المسيحيين.

ونحو ذلك: أن تجعل علة التحريم ما اكتشف من ديدان شديدة الخطر على صحة الإنسان كالدودة الشريطية أو الوحيدة. فقد قالوا: إن هذه الديدان توجد في لحوم الأبقار أيضًا، وقد أحل الشرع أكلها!

ولهذا لا يجوز للداعية المجازفة بالتعليل في مثل هذه الأمور ما لم يكن تعليلاً ثابتًا محكمًا مطردًا في كل الأحوال، تقوم عليه الأدلة العلمية الناصعة، التي لا مطعن فيها.

وإلا فحسب الداعية أن يقول: إن الله لم يحلّ إلا طيبًا، ولم يحرم إلا خبيثًا، ولم يشرع شيئًا إلا لحكمة، علمها من علمها، وجهلها من جهلها، وعدم العلم بها لا ينفي وجودها، فإن علمنا أعجز من أن يحيط بكل حكمة الله تعالى في شرعه أو في خلقه.

وإذا كان العلم البشري - بعد أكثر من ثلاثة عشر قرنًا من نزول القرآن- قد اكتشف في لحم الخنزير ديدانًا خطرة، لم يكن يعلم أحد بها يوم قال القرآن في لحم الخنزير: إنه رجس. فما يدرينا ماذا سيكشفه العلم في الغد القريب أو البعيد؟

على أن هناك حكمة جلية في إخفاء الله تعالى بعض حكمه وأسرار شرعه وخلقه عنا نحن المكلفين. وذلك ليتم الابتلاء، وتظهر حقيقة العبودية للخالق، ويعرف من يتبع

الرسول ممن ينقلب على عقبيه، ويتبين من يطيع ربه، ومن لا يطيع إلا عقله، فهنامفرق طريق بين المؤمن وغير المؤمن.

٣- الاقتصار على التعليلات المادية:

من المحذورات في ذكر الحكم والعلل: الاقتصار على التعليل بالأمور المادية الحسية. وخصوصًا فيما يتعلق بالعبادات الشعائرية، كالوضوء والصلاة والصيام والحج ونحوها.

فالوضوء في نظر بعض الذين يتحدثون عن الإسلام أو يكتبون حكمته: النظافة والصلاة في نظر هؤلاء حكمتها: تمرين الجسم على الرياضة والحركة واتباع النظام. والصيام في نظرهم إنما فرض لإراحة المعدة شهرًا في كل عام.

والحج في نظرهم ليس إلا رحلة كشفية، للتدريب على احتمال المشاق.

وجهل هؤلاء إن مثل هذه التعليلات تفتح عليهم أبوابًا لا يقدرون على إغلاقها، فقد يقول لهم قائل: إنني أستطيع أن أحقق النظافة بغير الوضوء.

وقد يقول ثان: أنا أستطيع أن أمرن جسمي رياضيًا بغير الصلاة، بالتمرينات المنظمة المدروسة، يشرف عليها مدربون فنيون.

ويقول ثالث: إنني قادر على إراحة المعدة بغير الصيام.

ويقول رابع: إنني أستطيع أن أقوم برحلات كشفية أتدرب فيها على المشقات، ولكن بغير الحج إلى بيت معلوم في زمن معلوم.

وهكذا، تكون هذه التعليلات -إذا لم تصغ صياغة دقيقة حكيمة موزونة- سلاحًا في أيدي الذين يريدون أن يتفلتوا من تكاليف الدين وشعائره)[١].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: إثبات البركة في الطعام:

يتضح هذا في قوله ﷺ: "إنكم لا تدرون في أيها البركة" قال النووي: (معناه والله أعلم: إن الطعام الذي يحضره الإنسان فيه بركة، ولا يدري أن تلك البركة فيما أكله أو فيما بقي على أصابعه أو في ما بقي في أسفل القصعة أو في اللقمة الساقطة،

---

(١) ثقافة الداعية ٨٣-٨٨ باختصار.

فينبغي أن يحافظ على هذا كله لتحصل البركة، وأصل البركة: الزيادة وثبوت الخير والإمتاع به. والمراد هنا والله أعلم: ما يحصل به التغذية، وتسلم عاقبته من أذى، ويقوي على طاعة الله تعالى وغير ذلك)[(١)].

وإذا ثبتت البركة في الطعام فيجب المحافظة عليها قال الطيبي: (من سنن الأكل لعق اليد محافظة على بركة الطعام وتنظيفاً لها)[(٢)]. والبركة لا تحصل إلا بالإيمان والتقوى قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[(٣)] وتحصل البركة أيضًا بالتسمية فعن عائشة رضي الله عنها قالت: ((كان النبي ﷺ يأكل طعامًا في ستة من أصحابه، فجاء أعرابي فأكله بلقمتين، فقال رسول الله: أما إنه لو سمى كفاكم))[(٤)] وتحصل البركة أيضًا بالإضافة للتسمية بالاجتماع على الطعام ففي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: ((اجتمعوا على طعامكم واذكروا اسم الله تعالى يبارك لكم فيه))[(٥)].

ثالثًا- من واجبات المدعو: الامتثال لأوامر النبي ﷺ:

إن الغاية التي يسعى إليها الداعية هي حمل المدعوين على الامتثال لأمر الله ورسوله ﷺ لذا كان من الواجب على المدعو أن يستجيب لما يسمعه من الأوامر التي ورد ذكرها في القرآن والسنة امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[(٦)] وقوله سبحانه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢٨٦.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ١٣٨/٨.

(٣) سورة الأعراف، آية: ٩٦.

(٤) أخرجه الترمذي ١٨٥٨، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٥١٤).

(٥) أخرجه أبو داود، ٣٧٦٤، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣١٩٩).

(٦) سورة الأنفال، آية: ٢٤.

﴿نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾(١).

قال ابن كثير: (مهما أمركم به فافعلوه، ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه، فإنه إنما يأمر بخير وإنما ينهى عن شر، واتقوا الله في امتثال أوامره وترك زواجره، فإنه شديد العقاب لمن عصاه وخالف أمره وأباه، وارتكب ما عنه زجره ونهاه)(٢).

وقد ثبت في الصحيحين أن الرسول ﷺ قال: ((إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه))(٣).

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل العمل بسنة النبي ﷺ:

يتضح من سياق الحديث فضل العمل بسنة النبي ﷺ ففيها الخير والرشد، ومن يلتزم هدي النبي ﷺ في الطعام فإنه ينال البركة، ولا يجعل للشيطان على طعامه من سبيل، وقد قال الله في فضل طاعة النبي ﷺ ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾(٤) وقال ﷺ: ((كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى، قالوا: يا رسول الله ومن يأبى؟ قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى))(٥). وقال ابن عون: (ثلاث أحبهن لنفسي ولإخواني: هذه السنة أن يتعلموها ويسألوا عنها، والقرآن أن يتفهموه ويسألوا الناس عنه، ويدعوا الناس إلا من خير))(٦).

قال ابن عثيمين: (ومن آداب الأكل التي جاءت في الحديث أن الإنسان إذا فرغ من أكله فإنه يلعق الصحفة ويلعق أصابعه، يعني يلحسها حتى لا يبقى فيها اثر الطعام،

---

(١) سورة الحشر، آية: ٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ٦٨/٨.

(٣) أخرجه البخاري ٧٢٨٨، مسلم ١٣٣٧.

(٤) سورة النور، آية: ٥٤.

(٥) أخرجه البخاري، ٧٢٨٠.

(٦) علقه البخاري قبل الحديث رقم ٧٢٧٥، قال ابن حجر: وصله محمد بن نصر المروزي في كتاب السنة، والجوزقي من طريقه، ووصله ابن القاسم اللالكائي في "كتاب السنة" من طريق القعنبي، انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٦٥/١٣.

فإنكم لا تدرون في أي طعامكم البركة، فهذان أدبان:

الأول: لعق الصحفة، والثاني: لعق الأصابع، والنبي ﷺ لا يأمر أمته بشيء إلا وفيه الخير والبركة.

ولهذا قال الأطباء: إنّ في لعق الأصابع من بعد الطعام فائدة وهو تيسير الهضم؛ لأن الأنامل هذه فيها مادة تفرزها عند اللعق بعد الطعام تيسر الهضم، ونحن نقول هذا من باب معرفة حكمة الشرع فيما يأمر به، وإلا فالأصل أننا نلعقها امتثالاً لأمر النبي ﷺ، وكثير من الناس لا يفهمون هذه السنة، تجده ينتهي من الطعام وحافته التي حوله كلها طعام، تجده أيضًا يذهب ويغسل دون أن يلعق أصابعه، والنبي ﷺ نهى أن يمسح الإنسان يديه بالمنديل حتى يلعق وينظفها من الطعام ثم بعد ذلك يمسح بالمنديل، ثم بعد ذلك يغسلها إذا شاء.

كذلك أيضًا من آداب الأكل: أن الإنسان إذا سقطت لقمته على الأرض فإنه لا يدعها؛ لأن الشيطان يحضر للإنسان في جميع شؤونه، كل شؤونك: من أكل، وشرب، وجماع، أي شيء يحضره الشيطان، فإذا لم تسمّ الله عند الأكل شاركك في الأكل، وصار يأكل معك، لهذا تنزع البركة من الطعام إذا لم يسم عليه، وإذا سميت الله على الطعام، ثم سقطت اللقمة، يعني طاحت من يدك؛ فإن الشيطان يأخذها، ولكن لا يأخذها ونحن ننظر؛ لأن هذا شيء غيبي لا نشاهده، ولكننا علمناه بخبر الصادق المصدوق ﷺ يأخذها الشيطان فيأكلها، وإن بقيت أمامنا حسًّا، لكنه يأكلها غيبًا، هذه من الأمور الغيبية التي يجب أن نصدق بها. ولكن رسول الله ﷺ دلنا على الخير فقال: (فيأخذها وليمط ما بها من أذى، وليأكلها، ولا يدعها للشيطان)، خذها وأمط ما بها من أذى من تراب أو عيدان أو غير ذلك ثم كلها ولا تدعها للشيطان. والإنسان إذا فعل هذا امتثالاً لأمر النبي ﷺ وتواضعًا لله عز وجل وحرمانًا للشيطان من أكلها، حصل على هذه الفوائد الثلاث: الامتثال لأمر النبي ﷺ، والتواضع، وحرمان الشيطان من أكلها. هذه فوائد ثلاث، ومع ذلك فإن أكثر الناس إذا سقطت اللقمة على السفرة أو على سماط نظيف تركها وهذا خلاف السنة.

وفي هذا الحديث من الفوائد: أنه لا ينبغي للإنسان أن يأكل طعامًا فيه أذى؛ لأن نفسك عندك أمانة، لا تأكل شيئًا فيه أذى، من عيدان أو شوك أو ما أشبه ذلك، وعليه فإننا نذكر الذين يأكلون السَّمك أن يحتاطوا لأنفسهم؛ لأن السمك لها عظام دقيقة مثل الإبر، إذا لم يحترز الإنسان منها، فربما تدخل إلى بطنه وتجرح معدته أو أمعاءه وهو لا يشعر"[١].

وعلى الدعاة إلى الله أن يبينوا للناس فضل العمل بسنة النبي ﷺ.

---

(١) شرح رياض الصالحين ٤٣١/١.

الحديث رقم (١٦٥)

١٦٥- الْعَاشِرُ: عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قَامَ فينَا رسولُ اللَّه ﷺ بمَوْعِظَةٍ فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ محشورونَ إِلَى اللَّه تَعَالَى حُفَاةَ عُرَاةً غُرْلاً ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾[الأنبياء: ١٠٣] أَلا وَإِنَّ أَوَّلَ الْخَلائِقِ يُكْسى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إبراهيم ﷺ، أَلا وإِنَّهُ سَيُجَاء بِرِجَالٍ مِنْ أُمَّتِي، فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشِّمال فأَقُولُ: يارَبِّ أَصْحَابِي، فيُقَالُ: إِنَّكَ لا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، فأَقُول كَما قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ: ﴿وكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ما دُمْتُ فِيهِمْ﴾ إِلَى قولِهِ: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[المائدة: ١١٧، ١١٨] فَيُقَالُ لِي: إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مرْتَدِّينَ عَلَى أَعقَابِهِمْ مُنذُ فارَقْتَهُمْ» متفقٌ عليه[١]. «غُرْلاً» أَيْ: غَيْرَ مَخْتُونِينَ.

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١).

غريب الألفاظ:

غرلا: فسَّرها النووي، ومفردها أَغْرَل، والمؤنثة غَرْلاء[٢].

ذات الشمال: أي إلى جهة النار[٣].

مرتدين على أعقابهم: راجعين إلى الكفر كأنهم رجعوا إلى ورائهم، والأعقابُ مفردها عقب، وهو عظم مؤخر القدم[٤].

الشرح الأدبي

يصور هذا الحديث الشريف بعض مشاهد يوم القيامة ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[٥]، وكثير من سور القرآن الكريم تموج بالمشاهد

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٢٥) واللفظ له، ومسلم (٥٨/٢٨٦٠) واللفظ له. أورده المنذري في ترغيبه (٥٢٤١).

(٢) رياض الصالحين ١١٥.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني (٣٩٢/١١).

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير والوسيط في (ع ق ب).

(٥) سورة الشعراء، الآيتان: ٨٨، ٨٩.

المتعددة التي تُعْنى بتصوير أحوال الناس يوم القيامة، وتتوالى عدة سور قرآنية لتعرض هذه المشاهد عرضًا يجمع بين الترغيب والترهيب، ويصور مشاهد الثواب، ومشاهد العقاب، ولنتأمل السور التالية تأملاً إيمانيًا وأسلوبيًا وبلاغيًا لندرك ماذا ينتظرنا في هذا اليوم الذي هو كما قال تعالى: ﴿كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾(١)، هذه السور هي الحاقة والمعارج ثم القيامة، والإنسان، والمرسلات، والنبأ، والنازعات، وعبس، والتكوير، والانفطار، والمطففين، والانشقاق، والبروج.

وفي هذا الحديث الشريف تتوهج ظاهرة أسلوبية لا تتكرر في كثير من الأحاديث، ولا ترد بمثل هذه الكثافة وهى ظاهرة، التناصُّ القرآني، فالحديث الشريف تزدان كلماته وجمله بالآيات القرآنية، وبعضها يأتي مكملاً لجمل الحديث الشريف، وشاهدًا على صدق كلام رسول الله ﷺ.

فالحديث موعظة بليغة كما يقول ابن عباس: وهذه الموعظة تبصر المسلمين بمصيرهم يوم القيامة، وينادي الرسول ﷺ الناس جميعًا في قوله: "يا أيها الناس: إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلا.

ثم أردف هذا التحذير الذي يتضمن الحقيقة التي يغفل عنها كثير من الخلق فيظلون سادرين في غيهِّم، ويوم القيامة يجدون أنفسهم وقد افتقدوا ملابسهم وأموالهم وسُلبَت منهم زينة الحياة الدنيا، ورد الله إليهم الجزء الذي قطع في الختان، فهم يحشرون كما خلقوا أوّل مرة، ويعادون كما كانوا في الابتداء لا يفقد منهم شيء حتى الغُرْلة : وهى ما يقطع ساعة الختان من الصبي.

وبَعْد هذا النداء يأتي النص القرآني ليؤكد هذا الوضع الذي يبعث عليه الناس جميعًا حيث يقول الله عز وجل: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾(٢).

---

(١) سورة الحج، آية: ٤٧.

(٢) سورة الأنبياء، آية: ١٠٤.

وفي ختام الحديث: يأتي النص القرآني شاهدًا على حرص الرسول على أمته، ونداءه لربه داعيًا ومستجيرًا: قائلاً: يارب أصحابي: فيقال له في أسلوب توكيدي: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، ورغم هذا يحرص الرسول ﷺ على مصلحة أمته، ويترك أمرهم إلى الله عز وجل راجيًا لهم المغفرة والعفو لأنه بالمؤمنين رءوف رحيم، قال تعالى: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1].

وفي الحديث يرد التوكيد "بإن" ست مرات: لأن الأمر جّد ولا رجوع فيه: فكل نفس بما كسبت رهينة، ولا تزر وازرة وزر أخرى.

ولنتأمل مواضع التأكيد في الحديث: "إنكم محشورون، "إنا كنا فاعلين"، "إن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم"؛ "ألا وإنه سيجاء برجال من أمتي"، فيقال: "إنك لا تدري"، فيقال لي: "إنهم لم يزالوا مرتدين".

وظاهرة التكرار تومض في الحديث لتثبيت الخبر، وإنذار الناس ليعودوا إلى رشدهم، فالنداء يتكرر مرتين: نداء للناس لليقظة والعمل الصالح، ونداء لله للعفو والتسامح، وتتكرر، "ألا" الاستفتاحية مرتين: للحث على التنبيه واليقظة، والاستعداد لليوم الآخر.

وظاهرة الحوار بين محمد وربّه من أجل أمته، تعطي الأمل في نفوس الكثيرين للفوز بشفاعة النبي المختار في ضوء عملهم الصالح وعقيدتهم الصحيحة.

---

(١) سورة المائدة، الآيتان: ١١٧، ١١٨.

المضامين الدعوية

أولاً: من وسائل الدعوة: الخطبة.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: الموعظة، والنداء، والتوكيد، والترهيب.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: تقرير حقيقة البعث والحشر.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: بيان هيئة الناس في الحشر.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: فضل نبي الله إبراهيم عليه السلام.

سادسًا: من صفات النبي ﷺ: الشفقة والرحمة بالأمة.

سابعًا: من خصوصيات النبي ﷺ: الإخبار ببعض المشاهد الواقعة يوم القيامة.

ثامنًا: من موضوعات الدعوة: أهمية التمسك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

أولاً- من وسائل الدعوة: الخطبة:

يستنبط هذا من قول ابن عباس رضي الله عنهما: "قام فينا" ولاشك أن الخطبة من وسائل الدعوة المهمة حيث تعتمد على مخاطبة شرائح متعددة من المدعوين، وتعتمد على مخاطبة الوجدان، وعلى الوعظ وتذكير الناس بالأسلوب الحسن، وتعتمد الخطبة أيضًا على الترغيب والترهيب كما "أن الخطبة وسيلة جيدة للتبليغ، وتكون عادة لجمع من الناس قد لا يعرفهم الداعي، أو يعرف بعضهم فقط، ويشترط للخطبة الناجحة أن يكون لدى الداعي معنى أو معاني معينة يريد بيانها ولفت الأنظار إليها"(١).

١- **الموعظة**: وتعتبر الموعظة من أساليب الدعوة المهمة وقد جاء في الحديث "قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة" حيث إن الموعظة ترقق القلب القاسي، وترد الفؤاد الجافي (ولابد أن يسخر الدعاة جميع وسائل التعليم والإيقاظ، كي ينصفوا الحق ويوصلوه إلى الخلق، وكم من مبتعد عن الجادة تكفيه في العودة إليها همسة ناصح أو صيحة زاجر فإذا هو راجع إلى رشاده مستقيم، وعمل الواعظين -في أغلب الأحيان- هو ذلك التذكير النافع. وهو تذكير لا يستغني عنه الناس يومًا)(٢).

---

(١) انظر: أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان ص ٤٧٤.

(٢) مع الله: دراسات في الدعوة والدعاة، محمد الغزالي ص ٣٠٣.

وعلى الداعية أن يراعي البلاغة في موعظته، قال ابن رجب (والبلاغة في الموعظة مستحسنة، لأنها أقرب إلى قبول القلوب واستجلابها والبلاغة هي التوصل إلى إفهام المعاني المقصودة، وإيصالها إلى قلوب السامعين بأحسن صورة من الألفاظ الدالة عليها وأفصحها وأحلاها للأسماع، وأوقعها في القلوب)[1].

٢- **النداء**: جاء في الحديث "يا أيها الناس" ولا شك أن النداء أسلوب محبب للنفوس، وهو أدعى لانتباه السامعين، ويشعرهم بالقرب من الداعية، ويهيئ الأذهان لمعرفة ما بعد النداء.

٣- **التوكيد**: حيث جاء في الحديث قوله ﷺ: "إنكم محشورون" وقد جاء هنا مع أحد الحقائق وهي قضية الحشر والبعث للتدليل على أنه واقع لا محالة، ولاشك أن التوكيد يعطي مصداقية للخبر، وله دوره الرئيس في إقناع المدعوين.

٤- **الترهيب**: وهو يعتبر من أساليب الدعوة التي تقود النفس إلى الخير، ويكفكف تطلعها إلى الشهوات وجاء في الحديث "ألا وإنه سيجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال" وفي هذا ترهيب من الردة في الدين، وتخويف من الابتعاد عن سنة النبي الأمين ﷺ والتخويف والترهيب بالنار يستغرق جزءًا كبيرًا من نصوص القرآن والسنة، فعلى الدعاة توظيف هذه النصوص والجمع بين الترغيب والترهيب في الدعوة.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: تقرير حقيقة البعث والحشر:

لقد أكد النبي ﷺ هذه الحقيقة بقوله: "إنكم محشورون إلى الله" وقد تكاثرت النصوص القرآنية في تقرير حقيقة البعث والحشر، منها قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ

---

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١١١/٢.

(٢) سورة الحج، آية: ٥.

وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾(١) وأمر الله نبيه أن يقسم على وقوع البعث، فقال جلّ شأنه: ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴾(٢).

قال ابن كثير: (يخبر تعالى عن المشركين والكفار والملحدين أنهم يزعمون أنهم لا يبعثون فقل لهم: لتخبرن بجميع أعمالكم، جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها وذلك على الله يسير أي: بعثكم ومجازاتكم)(٣). وأخبر سبحانه أن حكمته وقدرته تأبى أن يترك الإنسان مهملاً عن الأمر والنهي والثواب والعقاب فقال سبحانه: ﴿ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴾(٤) وقال سبحانه وتعالى: ﴿ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾(٥).

قال ابن أبي العز الحنفي: (إن من نقله من النطفة إلى العلقة، ثم إلى المضغة، ثم شق سمعه وبصره، وركب فيه الحواس، والقوى والعظام والمنافع وأحكم خلقه غاية الإحكام، وأخرجه على هذا الشكل والصورة، كيف يعجز عن إعادته وإنشائه مرة ثانية، أم كيف تقتضي حكمته وعنايته به أن يتركه سدى؟ فلا يليق ذلك بحكمته، ولا تعجز عنه قدرته)(٦).

---

(١) سورة طه، آية: ٥٥.

(٢) سورة التغابن، آية: ٧.

(٣) تفسير القرآن العظيم ١٣٦/٨.

(٤) سورة المؤمنون، آية: ١١٥.

(٥) سورة القيامة، آية: ٣٦-٤٠.

(٦) شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي الدمشقي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، شعيب الأرنؤوط ٥٩٦/٢.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: بيان هيئة الناس في الحشر:

لقد أخبر النبي ﷺ في الحديث أن الناس يحشرون "حفاةً عراة غرلاً" قال ابن حجر: (حفاة: أي بلا خف ولا نعل قال ابن عبدالبر: يحشر الآدمي عاريًا، ولكل من الأعضاء ما كان له يوم ولد. فمن قطع منه شيء يرد حتى الأقلف، وقال أبو الوفاء بن عقيل: حشفة الأقلف موقاة بالقلفة فتكون أرق، فلما أزالوا تلك القطعة في الدنيا أعادها الله تعالى ليذيقها من حلاوة فضله)(١). ومن الآيات التي تبين حقيقة وهيئة الناس في الحشر قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾(٢) (أي إعادتنا للخلق مثل ابتدائنا لخلقهم، فكما ابتدأنا خلقهم، ولم يكونوا شيئًا كذلك نعيدهم بعد موتهم)(٣).

وورد في الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ النِّسَاءُ وَالرِّجَالُ جَمِيعًا، يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالَ: يَا عَائِشَةُ الأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ؟ قال: الأمر أشد من أن يهمهم ذاك))(٤) قال النووي: (والمقصود أنهم يحشرون كما خلقوا لا شيء معهم ولا يفقد منهم شيء حتى الغرلة تكون معهم)(٥).

خامسًا- من موضوعات الدعوة: فضل نبي الله إبراهيم عليه السلام:

حيث جاء في الحديث بأنه أول الخلائق يكسى يوم القيامة. وهذا فيه من الفضل ما فيه، وقد جاء في القرآن بيان لفضل نبي الله إبراهيم عليه السلام قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾(٦) وقال الله عنه أيضًا: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾(٧).

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٩١/١١، ٣٩٢.

(٢) سورة الأنبياء، آية: ١٠٤.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٤٨١.

(٤) أخرجه البخاري ٦٥٢٧، ومسلم ٢٨٥٩.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٦٤.

(٦) سورة النساء، آية: ١٢٥.

(٧) سورة الأنبياء، آية: ٥١.

وخصه الله ببناء البيت فقال سبحانه: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾(١) وجعله الله أمة: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(٢).

وأمر نبينا ﷺ أن يتبع ملة إبراهيم عليه السلام فقال جلّ شأنه: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(٣) وجعل الله من يعرض عن ملة إبراهيم عليه السلام من السفهاء فقال سبحانه: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ۚ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾(٤) وآتى الله ذريته الكتاب والحكمة فقال سبحانه: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾(٥).

وشرع لنا الصلاة في مكان قيامه وهو يبني البيت فقال الله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ۖ﴾(٦) ووصفه الله بأنه صديق نبي فقال جلّ شأنه: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾(٧) وبأنه حليم منيب فقال سبحانه: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴾(٨) وهذا بالإضافة إلى كونه أول الخلائق يكسى.

---

(١) سورة الحج، آية: ٢٦.

(٢) سورة النحل، آية: ١٢٠.

(٣) سورة النحل، آية: ١٢٣.

(٤) سورة البقرة، آية: ١٣٠.

(٥) سورة النساء، آية: ٥٤.

(٦) سورة البقرة، آية: ١٢٥.

(٧) سورة مريم، آية: ٤١.

(٨) سورة هود، آية: ٧٥.

قال ابن حجر: (إن الحكمة في خصوصية إبراهيم عليه السلام بذلك لكونه ألقي في النار عريانًا، وقيل لأنه أول من لبس السراويل، ولا يلزم من خصوصيته بذلك تفضيله على نبينا محمد ﷺ لأن المفضول قد يمتاز بشيء يخص به، ولا يلزم منه الفضيلة المطلقة)(١). وعلى الدعاة إلى الله إبراز مكانة الأنبياء وفضلهم، ليجد الناس فيهم القدوة الصالحة فقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾(٢).

سادسًا- من صفات النبي ﷺ: الشفقة والرحمة بالأمة:

تتضح شفقة النبي ﷺ في قوله: "يارب أصحابي" ولاشك أن نبينا الكريم شفوق رحيم على أمته، كيف وقد وصفه الله بقوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(٣) ومما يؤكد على شفقته على أمته قوله ﷺ: ((لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة))(٤).

ومما جاء في الحديث أيضًا أن النبي رفع يديه وقال: ((اللهم أمتي أمتي وبكى فقال الله يا جبريل اذهب إلى محمد فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك))(٥) قال النووي: (هذا الحديث مشتمل على أنواع من الفوائد، منها بيان كمال شفقة النبي ﷺ على أمته، واعتنائه بمصالحهم واهتمامه بأمرهم، ومنها البشارة العظيمة لهذه الأمة، ومنها بيان عظيم منزلة النبي ﷺ عند الله تعالى وعظيم لطفه سبحانه به ﷺ)(٦).

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦/٤٤٩.

(٢) سورة الممتحنة، آية: ٦.

(٣) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

(٤) أخرجه البخاري ٨٨٧، و مسلم ٢٥٢.

(٥) أخرجه مسلم ٢٠٢.

(٦) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٢٤١.

سابعًا- من خصوصيات النبي ﷺ: الإخبار ببعض المشاهد الواقعة يوم القيامة:

إن من خصوصيات النبي ﷺ إخباره ببعض ما يقع يوم القيامة، حيث أخبره الله تعالى بما سيقع يوم القيامة من تلك المشاهد والأحداث، وهذا لا يكون إلا للنبي ﷺ ومن دلائل نبوته، والحكمة في ذلك الاستعداد ليوم القيامة، وما فيه من أهوال وشدائد، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((من كانت عندَه مَظلمةٌ لأخيهِ فلْيَتحللهُ منها، فإنه ليس ثمَّ دِينارٌ ولا درهم، من قبل أن يُؤخذ لأخيه من حسناتهِ، فإن لم يكن له حسَناتٌ أُخِذَ من سيِّئاتِ أخيهِ فطُرِحَتْ عليه))[1].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((يُخلَصُ المؤمنونَ من النارِ، فيُحبسونَ على قنطرة بينَ الجنة والنار، فيقتصُّ لبعضهم من بعضِ مظالمَ كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذِنَ لهم في دخول الجنةِ، فوالذي نفْسُ محمَّد بيدِهِ لأحدُهم أهْدى بمنزله في الجنةِ منه بمنزلهِ كان له في الدنيا))[2]

وقال ﷺ أيضًا: ((لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ))[3]، فكان في الإخبار عن هذه المشاهد منه ﷺ ليكون أدعى لدى الناس في الاستعداد والعمل الصالح.

ثامنًا- من موضوعات الدعوة: أهمية التمسك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ:

يظهر هذا في أن المخالفين التاركين للعمل بالكتاب والسنة يؤخذ بهم ذات الشمال كما جاء في الحديث، ولقد حذر الله من مخالفة أمر نبيه فقال: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[4] وجعل الله طاعة نبيه من طاعته فقال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾[5].

---

(١) أخرجه البخاري ٦٥٣٤.

(٢) أخرجه البخاري ٦٥٣٥.

(٣) أخرجه الترمذي ٢٤٢٠، وصححه الألباني، (صحيح سنن الترمذي ١٩٧٢).

(٤) سورة النور، آية: ٦٣.

(٥) سورة النساء، آية: ٨٠.

وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: ((إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومًا فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعيني وإني أنا النذير العريان فالنجاء فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم، فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق))[1].

(١) أخرجه البخاري ٧٢٨٣.

الحديث رقم (١٦٦)

١٦٦- الْحَادِي عَشَرَ: عَنْ أَبِي سعيدٍ عبدِ اللَّهِ بنِ مُغَفَّلٍ ﵁ ، قال: نَهَى رسولُ اللَّه ﷺ ، عَنِ الخَذْفِ وقال: «**إِنَّهُ لا يقْتُلُ الصَّيْدَ، ولا يَنْكَأُ الْعَدُوَّ، وَإِنَّهُ يَفْقَأُ الْعَيْنَ، ويَكْسِرُ السِّنَّ**» متفقٌ عليه (١).

وفي رواية (٢): أَنَّ قريبًا لابْنِ مُغَفَّلٍ خَذَفَ، فَنَهَاهُ وقال: إِنَّ رسولَ اللَّه ﷺ نَهَى عن الخَذْفِ وقَالَ: «**إِنَّهَا لا تَصِيدُ صَيْدًا**» (٣) ثُمَّ عادَ فقالَ: أُحَدِّثُكَ أَن رسولَ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلَّم، نَهَى عَنْهُ، ثُمَّ عُدْتَ(٤) تَخْذِفُ؟ لا أُكَلِّمُكَ أَبدًا.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مُغفّل المزني: هو عبدالله بن مُغفّل المزني كنيته أبو سعيد وقيل: أبو زياد وقيل غير ذلك.

له ولأبيه صحبة وقد مات أبوه في حياة النبي ﷺ قبل فتح مكة.

شارك في المغازي فشهد غزوة الحديبية وكان ممن بايع النبي ﷺ قال: إني لآخذ بغصن من أغصان الشجرة أظلّلُ به النبي ﷺ وهم يبايعونه(٥).

ولما أعلن النبي ﷺ أنه متوجه إلى تبوك لقتال الروم، ودعا المسلمين إلى التجهز للغزو، أتى عبدالله وجماعة من الصحابة الفقراء إلى النبي ﷺ ليجهزهم، فاعتذر لهم النبي بأنه لا يجد ما يحملهم عليه، فتولوا هو ومن معه ولهم بكاء شديد، حتى أطلق عليهم البكائون، ونزل قوله تعالى(٦) ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾(٧).

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٢٠) واللفظ له، ومسلم (٥٥/١٩٥٤).

(٢) أخرجها مسلم (٥٦/١٩٥٤) من رواية سعيد بن جبير.

(٣) عند مسلم زيادة: (ولا تنكأ عدوًّا، ولكنها تكسر السنَّ وتفقأ العين) واختصره المؤلف.

(٤) لفظ مسلم: (ثمّ تخذف) بدل: (ثمّ عدتَ تخذف) والمثبت لفظ الحميدي في جمعه (١/٣٦٠، رقم ٥٧٣).

(٥) أخرجه أحمد ٣٤/٥ رقم ٢٥٤٦، وقال محققو المسند: إسناده ضعيف ١٦٧/٣٤.

(٦) انظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد (١٦٥/٢)، وتفسير الطبري (٦٢٤/١١)، والدر المنثور (٤٨٥/٧).

(٧) سورة التوبة، آية: ٩٢.

وفي عهد الخلفاء الراشدين ظلَّ قابضًا على راية الجهاد ، فقد شارك في فتح مدينة تُسْتَر[(١)] ، وكان أول من دخلها من المجاهدين.

وكان من فقهاء الصحابة وعلمائهم، فكان أحد العشرة الذين بعثهم عمر بن الخطاب إلى البصرة ليفقهوا أهلها ، فنزلها واختط دارًا بها قرب المسجد الجامع وسكنها بعد أن كان يسكن المدينة.

روى عن النبي ﷺ أحاديث بلغت ٤٣ حديثًا ، ولما مات أوصى بأن يصلي عليه الصحابي أبو برزة الأسلمي. وسنة وفاته ٥٩هـ وقيل غير ذلك[(٢)] .

غريب الألفاظ:

الخذف: هو رَمْيك حصاة أو نواة تأخذها بين سبابتيك وترمي بها أو تتخذ مِخذفة من خشب ثم ترمي بها الحصاة بين إبهامك والسبابة[(٣)] .

ينكأ العدو: يكثر فيهم الجراح والقتل[(٤)] .

الشرح الأدبي

إن الأمر بالمحافظة على السنة وآدابها يعد من ألزم الواجبات التي يحرص عليها المسلم في منهجه الحياتي، وميزان حياة المؤمن هو التزامه بما أتى به محمد البشير النذير ﷺ ، وما نهى عنه من سلوكيات وأقوال تتصادم مع تعاليم السنة والقرآن الذي

(١) بلدة معروفة من بلاد الأهواز بفارس فتحت ٢٠هـ في خلافة عمر بن الخطاب. فتح الباري، ابن حجر العسقلاني (٢/٥٠٥).

(٢) الطبقات الكبرى، ابن سعد (٧/١٣-١٤)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر ٤١١ ، وأسد الغابة في معرفة الصحابة ، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٣/٣٩٥)، والإصابة في تمييز الصحابة ، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ٨٣٧، والسير (٢/٤٨٣)، وتهذيب الكمال في أسماء لرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس، ومجدي السيد أمين (٤/٢٩٥)، والتهذيب (٢/٤٣٨)، والأعلام (٤/١٣٩)، وموسوعة عظماء حول الرسول (٢/١٢٨١).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (خ ذ ف).

(٤) المرجع السابق في (ن ك أ).

أنزل من لدن حكيم خبير.

ونلمح في أفق هذا الحديث الشريف وميضًا من هدْي النبي ﷺ، وهو هدْي حكيم عميق، إذ يضع القدوة المثلى، ويحدد معالم الطريق، ويرشد إلى كيفية التعامل مع ظواهر الحياة، تعاملاً يتسامى فوق إلف العادة، وتحكم التقاليد، والحرص على سلامة إيقاع السلوك، وتوازن حركة الإنسان بين جموح العاطفة، ورزانة العقل، وصدق الشعور، ورقة الإحساس.

ويبدأ الحديث بجملة إخبارية من الراوي إذ يقول: نهى رسول الله ﷺ عن "الخذف"، والخذف كلمة غريبة ولكنها ليست ثقيلة على السمع، ولا ثقيلة في النطق، وليس بها تنافر حروف، فهي كلمة فصيحة دالة على الحدث، "فالخذف" كما يقول صاحب القاموس المحيط كالضَّرب وهو رميك بحصاة أو نواة أو نحوهما تأخذها بين سبابَتيْك: تخذف به أو بمخذفةٍ من خشب"[1].

ثم يوضح الراوي سبب نهْى الرسول عن هذا العمل لأنه عمل غير مُتقن، وهو ليس أداة من أدوات الصيد التي تستعمل حفاظًا على الصيد، وعملاً بقول رسول الله ﷺ: "إذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وإذا قتلتم فأحسنوا القتلة"[2].

وللصيد آداب وطرق.. يجب اتباعها حتى يظل الصيد بعيدًا عن إزهاق الروح، وإفساد الحياة ولذلك يأتي تعليل النهى عن الخذف في جملتين يأتيان في إطار التوكيد، حيث تبدأ كل منهما "بإن" المؤكدة مع اقترانها بالضمير العائد على الخذف، وعلى الرغم من اتفاق الجملتين في "التوكيد" فإنهما يتقابلان ويتضادان، فالجملة الأولى تأتي في أسلوب النفى وتتكون من جملتين فرعيتين، فعلهما مضارع "إنه لا يقتل الصيد، ولا ينكأ العدو"، أي لا يؤدي مهمة ناجحة، ولا يحقق الغرض المطلوب.

والجملة الثانية في بنائها وتكوينها اللغوي تتماثل مع الجملة الأولى، ولكنها مثبتة

---

(١) القاموس المحيط، الفيروزآبادي ٨٠٣.

(٢) أخرجه مسلم ١٩٥٥.

وليست منفيَّة.

والإثبات هنا ليس صيغة مُرْضية أو محبَّبة، لأنه إثبات لبعض أوجه الضّرر والتشويه والفساد وهذا ما ينهي عنه رسول الله ﷺ، فالخذف الذي ينهي عنه رسول الله يقول: إنه يفقأ العين، ويكسر السن، وهذا الأثران الضّاران من معالم التشوه الإنساني.

وهما في سياق التصدي للعدو، ومجالدة الخصوم، لا يقودان إلى النصر الكامل، ولا يقصمان ظهر العدو، وقد يلحق هذا الأذى بالأبرياء، والأطفال، والشيوخ، والنساء، ولا يصيب الأعداء، ولنتأمل: ولنفتش عن السر الكامن في تماثل وتناظر الأفعال في الجملتين: فالأفعال كلها مضارعة على هذه الصورة المتحركة: "لا يقتل الصيد، لا ينكأ العدو، يفقأ العين، يكسر السن".

وهذه الأفعال الحركية تفصح عن استمرارية هذه الحالة وتحركها، ولكنها حركة داخل إطار الثبات الذي أفصحت عنه الجملتان الاسميتان، وهو ثبات مرفوض، لأنه من ظواهر الضعف والفساد، والتخاذل والكساد، ولذلك نهى عنه رسول الله ﷺ.

فقه الحديث

١-الخذف: قال الأزهري: الرمي بالحصى الصغار بأطراف الأصابع، وقال مثله الجوهري. وقال المطرزي: وقيل: أن تضع طرف الإبهام على طرف السبابة. وخص بعضهم به الحصى، ويطلق على المقلاع أيضًا. ورمي الجمار يكون بمثل حصى الخذف، وهي صغار، وحصى الخذف الصغار مثل النوى[1].

وقد اختلف الفقهاء في حكم الخذف:

- فمنهم من ذهب إلى أن الخذف محرم على الإطلاق، قال القاضي عياض: (نهى

---

(١) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية١٩/٤٧ وانظر مراجعها: لسان العرب ومختار الصحاح والمصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الفيومي، وفتح القدير ٢/٣٨١، وحاشية الجمل ٢/٤٦٢، وحاشية الدسوقي ٢/٥٠، و فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣/٥٤٧٩ ص ٦٨.

عن الخذف؛ لأنه ليس من آلات الحرب التي يتحرز بها، ولا من آلات الصيد لأنها ترضّ[١] وقتيلها وقيذ[٢]، ولا مما يجوز اللهو به مع مافيه من فقء العين وكسر السن)[٣].

– ومنهم من نظر إلى ما يمكن أن يكون فيه من مصلحة، قال النووي: (في هذا الحديث النهي عن الخذف، لانه لا مصلحة فيه ويخاف مفسدته، ويلتحق به كل ما شاركه في هذا، ثم قال: وفيه أن ما كان فيه مصلحة أو حاجة في قتال العدو، وتحصيل الصيد فهو جائز، ومن ذلك رمي الطيور الكبار بالبندق إذا كان لا يقتلها غالبًا بل تدرك حية وتذكى فهو جائز)[٤].

وقال ابن حجر: ("صرح مجلي في الذخائر" بمنع الرمي بالبندقة[٥] وبه أفتى ابن عبدالسلام وجزم النووي بحلّه، لأنه طريق إلى الاصطياد. والتحقيق التفصيل: فإن كان الأغلب في حال الرمي ما ذكر في الحديث امتنع، وإن كان عكسه جاز، ولا سيما إن كان المرميّ مما لا يصل إليه الرمي إلا بذلك ثم لا يقتله غالبًا. وقال الحسن [البصري] بكراهة رمي البندقة في القرى والأمصار. ومفهومه أنه لا يكره في الفلاة، فجعل مدار النهي على خشية إدخال الضرر على أحد من الناس، والله أعلم)[٦].

وفي شرح منتهى الإرادات: (كره تقي الدين الرمي ببندق مطلقًا لنهي عثمان، قال ابن منصور وغيره: لا بأس ببيع البندق يرمى بها الصيد لا للعب)[٧].

---

(١) رضَّه: رضًّا: كسره فهو مرضوض ورضيض، المعجم الوسيط في (ر ض ض).

(٢) الموقوذ: الشديد المرض المشرف على الموت، والموقوذ من الشاء: التي وقذت بالعصا [أي ضربت] حتى ماتت، والوقيذ: الذي يغشى عليه لا يدري أميت هو أم حيّ. والشديد المرض المشرف على الموت. والوقيد من الشاء: الموقوذة. انظر: المعجم الوسيط في (و ق ذ)، و معجم لغة الفقهاء ٤٧٩.

(٣) إكمال المعلم ٣٩٣/٦ بتصرف.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢٤٢.

(٥) قال ابن حجر: "وأما البندقة فمعروفة تتخذ من طين وتيبس فيرمى بها"، فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٤٤٠/٣.

(٦) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٤٤٠/٣-٢٤٤١.

(٧) شرح منتهى الإرادات، البهوتي ٤١٨/٣.

هذا وقد ذكر الفقهاء ما يدل على جواز الرمي بالأحجار في حال القتال أو في حال التدريب، أو المسابقة بعوض[١].

٢-جواز هجران من خالف السنة:

قال النووي: (في الحديث هجران أهل البدع والفسوق منابذي السنة مع العلم وأنه يجوز هجرانه دائمًا، والنهي عن الهجران فوق ثلاثة أيام، إنما هو فيمن هجر لحظ نفسه ومعايش الدنيا)[٢].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النهي، والتوكيد، والتعليل.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: بيان حرمة الخَذْف.

ثالثًا: من واجبات المدعو: بيان هدي النبي ﷺ في الأمور.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أولاً- من أساليب الدعوة: النهي، والتوكيد، والتعليل:

١- **النهي**: حيث جاء في الحديث "نهى رسول الله" والنهي من أساليب الدعوة التي ترهب المدعو، وتحجزه عن الوقوع في الخطأ، وتعطي دلالة على أهمية عدم إتيان الأمر المنهي عنه.

٢- **التوكيد**: لقد جاء في قوله ﷺ "إنه لا يقتل" والتوكيد يفيد في إقناع المدعو، ويدلل على أهمية ما يقول الداعية.

٣- **التعليل**: يعد التعليل من أساليب الدعوة التي تجيب على التساؤلات التي يمكن أن تدور في نفس المدعو، كما يعمل التعليل على إزالة اللبس أو الغموض أو التردد الذي

---

(١) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية٩/٤٨ ومراجعها: الشرح الصغير ١/٣٥٦، والمهذب ١/٤٢١، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٢/٣٨٤.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢٤٢، وانظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣/٢٤٤٠.

قد يوجد لدى المدعو، وقد بيّن النبي ﷺ علة نهيه عن الخذف فقال: "إنه لا يقتل الصيد ولا ينكأ العدو..." وهذا البيان لعلة النهي حتى لا تبقى شبهة في ذهن السامع.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: بيان النهي عن الخَذْف:

ورد النهي عن الخذف في هذا الحديث، قال ابن حجر: (والخذف أن يرمي بحصاة أو نواة بين سبابتيه، أو بين الإبهام والسبابة، أو على ظاهر الوسطى وباطن الإبهام، وقيل في حصى الخذف أن يجعل الحصاة بين السبابة من اليمنى والإبهام من اليسرى ثم يقذفها بالسبابة من اليمين قال المهلب: أباح الله الصيد على صفة فقال: ﴿تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾[1] وليس المرمي بالبندقة ونحوها من ذلك، وإنما هو وقيذ، وأطلق الشارع أن الخذف لا يصاد به لأنه ليس من المجهزات، وقد اتفق العلماء -إلا من شذ منهم- على تحريم أكل ما قتلته البندقة والحجر. وإنما كان كذلك لأنه يقتل الصيد بقوة راميه لا بحده)[2].

ثالثًا- من واجبات المدعو: بيان هدي النبي ﷺ في الأمور:

يستنبط ذلك من قول ابن مغفل لقريبه لما رآه يخذف: إن رسول الله ﷺ نهى عن الخذف، وهذا من أهم واجبات المدعو أن ينتفع في نفسه وينفع غيره، ويذكره بهدي النبي ﷺ وقد قال النبي ﷺ ((بلغوا عني ولو آية))[3] وقال ﷺ أيضًا: ((الدين النصيحة قلنا لمن يا رسول الله قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم))[4].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هما صمام الأمان في أي مجتمع، وهما أساس فلاح الأمة الإسلامية، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ

---

(١) سورة المائدة، آية: ٩٤.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٢٢/٩.

(٣) أخرجه البخاري ٣٤٦١.

(٤) أخرجه مسلم ٥٥.

ﭐلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[(١)]، وجعل الله من صفات المؤمنين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾[(٢)]، وتطبيقاً لهذا المبدأ قام الصحابي بالنهي عن الخذف مذكراً بنهي النبي ﷺ عنه، وهذا ما يؤكد استجابة أصحاب رسول الله ﷺ وقيامهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد قال رسول الله ﷺ: ((من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان))[(٣)].

قال النووي: (واعلم أن هذا الباب أعني باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد ضيع أكثره من أزمان متطاولة، ولم يبق منه في هذه الأزمان إلا رسوم قليلة جداً، وهو باب عظيم به قوام الأمر وملاكه، وإذا كثر الخبث عم العقاب الصالح والطالح، وإذا لم يأخذوا على يد الظالم أو شك أن يعمهم الله تعالى بعقابه فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم، فينبغي لطالب الآخرة والساعي في تحصيل رضا الله عز وجل أن يعتني بهذا الباب فإن نفعه عظيم، لاسيما وقد ذهب معظمه ويخلص نيته، ولا يهابن من ينكر عليه لارتفاع مرتبته، فإن الله تعالى قال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾[(٤)]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[(٥)]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾[(٦)]، وقال تعالى: ﴿أَحَسِبَ

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٠٤.

(٢) سورة التوبة، آية: ١١٢.

(٣) أخرجه مسلم ٢٩.

(٤) سورة الحج، آية: ٤٠.

(٥) سورة آل عمران، آية: ١٠١.

(٦) سورة العنكبوت، آية: ٦٩.

ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[1].

واعلم أن الأجر على قدر النصب، ولا يتركه أيضًا لصداقته ومودته ومداهنته وطلب الوجاهة عنده ودوام المنزلة لديه، فإن صداقته ومودته توجب له حرمة وحقًا، ومن حقه أن ينصحه ويهديه إلى مصالح آخرته وينقذه من مضارها، وصديق الإنسان ومحبه هو من سعى في عمارة آخرته، وإن أدّى ذلك إلى نقص في دنياه، وعدوه من يسعى في ذهاب أو نقص آخرته، وإن حصل بسبب ذلك صورة نفع في دنياه، وإنما كان إبليس عدوًا لنا لهذا، وكانت الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين أولياء للمؤمنين لسعيهم في مصالح آخرتهم وهدايتهم إليها)[2].

لذا ينبغي لكل مسلم أن يعمل على إحياء هذه الشعيرة الإسلامية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والالتزام بالأوامر الشرعية والانتهاء عما نهى عنه الشرع، والاستجابة لذلك طمعًا في رضا الله تعالى.

---

(١) سورة العنكبوت، الآيتان: ٢ - ٣.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢٥.

الحديث رقم (١٦٧)

١٦٧- وعنْ عابسِ بن ربيعةَ قال: رَأَيْتُ عُمَرَ بنَ الخطاب رضي اللَّه عنه، يُقَبِّلُ الْحَجَرَ (يَعْنِي الأَسْوَدَ) [١] ويَقُولُ: إني أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ مَا تَنْفَعُ ولا تَضُرُّ، ولَوْلا أَنِّي رأَيْتُ رسولَ اللَّه ﷺ، يُقَبِّلُكَ ما قَبَّلْتُكَ، متفقٌ عليه [٢].

ترجمة الراوي:

عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١).

الشرح الأدبي

إن كل مظاهر هذا الكون الفسيح تشهد بعظمة الله وقدرته، وتنطق بجلاله وعظمته؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [٣]، وقال سبحانه: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [٤].

وفي ضوء هذا التوجيه القرآني نستجلي بعض أسرار هذا الحديث الذي يرويه عابس بن ربيعة ناقلاً موقف عمر بن الخطاب من تقبيل الحجر الأسود، وهو يُعدُّ من السنة الفعلية، حيث اقتدى عمر وتأسى برسول الله ﷺ في هذا الفعل الإيماني؛ والحجر في إدراكنا القريب جماد لا يسمع ولا يبصر، ولكن عمر رضي الله عنه يخاطبه، وكأنه يسمع كلمات عمر، ويعي ما يريد حيث يقول: إني أعلم أنك حجر ما تنفع ولا تضر، ولولا أني رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك.

وفي الأساليب العربية كثيرًا ما يخاطب البلغاء الظواهر الطبيعية الجامدة،

---

(١) هذا التفسير من المؤلف.

(٢) أخرجه البخاري (١٥٩٧)، ومسلم (١٢٧٠/٢٥١). أورده المنذري في ترغيبه (٦٨).

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٩٠.

(٤) سورة الإسراء، آية: ٤٤.

ويشخصونها وكأنها كائنات حية تبادلنا الود، وتصغى لكلماتنا، وتتفاعل مع نجوانا، ونبثها همومنا وشكوانا على سبيل الاستعارة، ومثل هذا كثير في الشعر والنثر، وهو دليل على الصحة النفسية والتذوق الجمالي، وبرهان على الوفاء الغامر لجميع المخلوقات، والبيان النبوي يقودنا إلى هذا الأفق من آفاق الجمال الأسلوبي في لغتنا العربية التي شرفها الله بنزول القرآن الكريم بلسان عربي مبين، وما أرق هذا التعبير، وما أعظمه، وما أجمله حيث يروي أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال: "إن أُحدًا جبل يحبنا ونحبه"(١).

فخطاب عمر للحجر الأسود ومضة من وهج البيان النبوي في استجلاء معالم القدرة الإلهية التي أبْدعَتْ هذا الكون بما فيه من آيات باهرات تأسر أولى الألباب، وتدفعهم إلى بيان منبع الحكمة وفصل الخطاب.

وبيانُ عمر يتضمن جملتين: أولاهما خبرية تبدأ بالتوكيد، ويتوسطها التوكيد للدلالة على يقين عمر من أنه لا ينفع ولا يضر إلا خالق الكون، وقدم: النفع على الضَّرر، لأن بعض الناس يعتقدون خطأ أن بعض المخلوقات تجلب لهم النفع، فيتوهمون كثيرًا من الأمور، ويقبلون على كثير من السلوكيات المرفوضة، وتتحول عاداتهم الواهمة المثلومة إلى عقائد مزعومة؛ وقال الطبراني: إنما فعل عمر ذلك لأن الناس كانوا حديثي عهد بعبادة الأصنام، فخشى عمر أن يظن الجهال أن استلام الحجر من باب تعظيم الأحجار كما كانت الجاهلية تعتقده في الأوثان، وقول عمر رضي الله عنه لا يقدح في أفضلية الحجر الأسود، ومكانته في التشريع الإسلامي، واحتفاء الرسول ﷺ به.

ولنتأمل صياغة الجملة الثانية حيث تعلن عن تسليم عمر للشارع في أمور الدين وحسن الاتباع فيما لم يكشف عن معانيه، وهى قاعدة عظيمة في اتباع النبي ﷺ فيما يفعله، ولو لم نعلم الحكمة فيه(٢).

---

(١) أخرجه البخاري ١٤٨١، ومسلم ١٣٩٢.

(٢) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٣١٦، ٣١٧.

والجملة صيغت في قالب الجواب والشرط، وتضمنت التوكيد "بأن" مثل الجملة الأولى: وأداة الشرط هي "لولا"، وهي أداة امتناع لوجود، فتقبيل الحجر موجود بفعل رسول الله ﷺ، ويضيف عمر إلى التأكيد "بإن" الرؤية التي تعضّد موقفه، حيث شاهد رسول الله ﷺ وهو يقبل الحجر، ولذلك يمتنع جواب الشرط: وهو عدم تقبيل عمر، وثمرة هذه الصياغة هو التقبيل اتباعًا لا ابتداعًا، وفي رواية: ولكن رأيت رسول الله بك حَفيًا، رضى الله عن عمر ورزقنا اتباع سنة رسول الله ﷺ.

فقه الحديث

إن الطاعة الكاملة لما أنزل الله عز وجل وما شرع على لسان نبيه ﷺ من أهم سمات المسلم، وهذا ما ظهر من عمر بن الخطاب رضي الله عنه فهو يعلم تمامًا أن الحجر لا يضر ولا ينفع ولكنه نفذ ما رأى رسول الله ﷺ يفعله.

وقد اتفق الفقهاء(1) على أنه يستحب للطائف تقبيل الحجر الأسود بدون صوت إن استطاع ودون مزاحمة لأحد، فإن كان في الطواف زحام وخشي الطائف إيذاء الناس فالأولى أن يترك تقبيل الحجر الأسود واستلامه، لأن استلام الحجر سنة وترك إيذاء الناس واجب فلا يهمل الواجب لأجل السنة، فمن لم يستطع استلام الحجر وتقبيله يشير إليه بيده دون تقبيل اتباعًا لسنة النبي ﷺ، ومن لم يفعل ذلك فلا شيء عليه ومناسكه صحيحة.

---

(1) المبسوط، السرخسي للسرخسي ٩/٤، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود١٣٠/٢، والمدونة الكبرى رواية سحسنون عن ابن القاسم، الإمام الأصبحي للإمام مالك بن أنس ٣٩٦/١، والتاج والإكليل شرح مختصر خليل، وهو مطبوع بهامش مواهب الجليل شرح مختصر خليل، المواق ١٥١/٤، وإحكام الأحكام ٧٠/٢، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي للنووي ٤٠/٨، والغرر البهية في شرح البهجة الوردية، الأنصاري ٣١٨/٢، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو١٨٢/٣، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ٥/٤، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦/٩، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية١٠٧/١٧.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: تقبيل الحجر الأسود.

ثالثًا: من مهام الداعي: بيان السنة والحث عليها بالطريقة العملية.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: بيان حرص عمر رضي الله عنه على الاقتداء بالنبي ﷺ.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: فضل التأسي بالنبي ﷺ.

أولاً- من أساليب الدعوة: التوكيد:

لقد استعمل عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذا الأسلوب، فأكد كلامه في قوله (إني أعلم أنك حجر) واستعمال الداعية لهذا الأسلوب يعطي دلالة على أهمية الأمر الذي يؤكد عليه، مما يجذب انتباه المدعو ويثير اهتمامه.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: تقبيل الحجر الأسود:

من السنة التي ندب الشرع إليها لمن زار البيت الحرام وطاف بالكعبة تقبيل الحجر الأسود، ومما يدل على ذلك استلام النبي ﷺ له وتقبيله وتأسي عمر بذلك ويظهر ذلك في الحديث "ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك"، وبين الرسول ﷺ أن استلام الحجر سواء باليد أو بعصا أو تقبيل، تكفير للخطايا فعن ابن عبيد بن عمير عن أبيه أن ابن عمر كان يزاحم على الركنين زحامًا ما رأيت أحدًا من أصحاب النبي ﷺ يفعله فقلت يا أبا عبد الرحمن، إنك تزاحم على الركنين زحامًا ما رأيت أحدًا من أصحاب النبي ﷺ يزاحم عليه، فقال إن أفعل؟ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إن مسحهما كفارة للخطايا))(١).

وفي فضله أيضًا روى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ في الحجر ((والله ليبعثنه الله يوم القيامة له عينان يبصر بهما ولسان ينطق به يشهد على من استلمه بحق))(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي ٩٥٩، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٧٦٦)

(٢) أخرجه الترمذي ٩٦١، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٧٦٨).

ثالثًا- من مهام الداعي: بيان السنة والحث عليها بالطريقة العملية:

إن البيان وإيصال الحقائق للمدعوين له طرق متعددة، من أهمها البيان بالطريقة العملية ليسهل على المخاطبين التأسي والاقتداء، وإنه لمن دقة ذكاء عمر وبالغ فقهه أن قرن قوله بالعمل فقال وقت تقبيله للحجر: "أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك" وهو بذلك يقتدي برسول الله ﷺ الذي بين للأمة تنفيذ الشرائع بالطريقة العملية فعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: رأيت رسول الله ﷺ يرمي على راحلته يوم النحر يقول لنا ((خذوا عني مناسككم فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه))[١].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: بيان حرص عمر رضي الله عنه على الاقتداء بالنبي ﷺ:

لقد ضرب عمر بن الخطاب والصحابة رضي الله عنهم المثل في الاقتداء برسول الله ﷺ ومن هذا المنطلق استلم عمر رضي الله عنه الحجر مبينًا للناس أن استلامه اتباعٌ لفعل رسول الله ﷺ، قال الطبري: إنما قال عمر ذلك لأن الناس كانوا حديثي عهد بعبادة الأصنام فخشي عمر أن يظن الجهال أن استلام الحجر من باب تعظيم بعض الأحجار كما كانت العرب تفعل في الجاهلية فأراد عمر أن يعلم الناس أن استلامه اتباعًا لفعل رسول الله ﷺ لا لأن الحجر ينفع ويضر بذاته كما كانت الجاهلية تعتقده في الأوثان[٢]. وبذلك رأينا من عمر حرصه على الاقتداء بسنة رسول الله ﷺ وذبه عنها، وتحذير الناس من المفاهيم الخاطئة التي يلقيها الشيطان في قلوبهم.

خامسًا- من موضوعات الدعوة: فضل التأسي بالنبي ﷺ:

لقد أمرنا الله سبحانه بالاقتداء بنبيه ﷺ ورغبنا في ذلك فقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[٣] (والأسوة القدوة،

(١) أخرجه أبو داود ٣٠٦٣ ص ٢٤٧٢، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود، ١٧٣٣).

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٤١/٣.

(٣) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

وما يتأسى به ويُتَعزّى به، فيقتدى به في جميع أفعاله ويُتَعَزّى به في جميع أحواله، لمن كان يرجو الله واليوم الآخر أي يرجو لقاء الله بإيمانه ويصدق بالبعث الذي فيه جزاء الأفعال)[١]. (فالواجب التأسي برسول الله ﷺ والاقتداء به في أعماله فالرسول الكريم مَثَلٌ في العبادة والشجاعة والإقدام والصبر والمثابرة على النوازل فهو المؤمن الواثق بالله المتوكل عليه، وفي ذلك إرشاد للناس حيث يجب عليهم أن يأتموا بالنبي ﷺ في كل شيء فهو المثل الأعلى المثل الكامل ﷺ)[٢].

لقد ضرب الصحابة رضي الله عنهم أرفع الأمثلة في الاقتداء المطلق برسول الله ﷺ مثل تقبيل عمر للحجر الأسود، والأمثلة في ذلك كثيرة – فعن سعيد بن جبير قال كنا مع ابن عمر حيث أفاض من عرفات إلى جمع فصلى بنا المغرب ومضى ثم قال الصلاة فصلى ركعتين ثم قال هكذا فعل رسول الله ﷺ[٣] وعن مجاهد قال: كنا مع ابن عمر في سفر فمر بمكان فحاد عنه فسئل لم فعلت؟ فقال رأيت رسول الله ﷺ فعل هذا ففعلت[٤].

لذا ينبغي على الناس دعاة ومدعوين أن يلتمسوا سنة رسول الله ﷺ ويقتفوا أثره، إحياءً لسنته ونقلها إلى من بعدهم. إضافة إلى محبة الله قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[٥] وعلو الدرجات ورفعة المنزلة يوم القيامة ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾[٦].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٥٦/١٤/٧.

(٢) انظر: التفسير الواضح، محمد محمود حجازي، ٨٠/٣.

(٣) أخرجه أحمد ٢/٢ رقم ٤٤٥٢، وقال محققو المسند إسناده صحيح ١٧/٨ – ١٨.

(٤) أخرجه أحمد ٣٢/٢ رقم ٤٨٧٠، وقال محققو المسند إسناده صحيح ٤٧٤/٨ – ٤٧٥.

(٥) سورة آل عمران، آية: ٣١.

(٦) سورة النساء، آية: ٦٩.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

السنة هي وديعة الرسول ﷺ لدى الأمة وهي خير مصدر للتربية، ومن هديها ما يلي:

أولاً- التربية بالعبرة:

لقد استخدم النبي ﷺ هذا الأسلوب التربوي لتزويد المتربين بخبرة السابقين عليهم، حتى لا يقعوا في أخطائهم، ولهذا الأسلوب فائدة جليلة، وهي أن يستقي المتربي التجربة دون شقاء، وكذلك من فوائدها: معرفة أحوال السابقين من الأمم، يقول ﷺ: «فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَثْرَةُ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ»، وفي هذا نهي عن كثرة السؤال والاختلاف على النبي ﷺ؛ لأن ذلك كان سبباً في هلاك الأمم السابقة، وأدى بهم إلى التغيير والتبديل في دينهم.

إن التربية بالعبرة "أسلوب تربوي، يقوم على انتقال الذهن من قصة أو واقعة مشهودة أو محكية إلى ما يقابلها أو يشابهها أو يناظرها من أحوال الناس أو المتعلمين، أو إلى ما يتوقع أن تؤول إليه أحوالهم، أو أحوال شعب ما أو مجتمع ما، أو أمة ما، قياساً على هذه القصة، لأن مقدمتها وأحوال أبطالها تشبه ما عليه هذا الفرد المعتبر أو هذا الشعب أو المجتمع، فيجب أن يكون المصير والمآل متشابهاً؛ كما تشابهت المقدمات"(١).

ثانياً- التربية بالوصية:

وقد ورد هذا الأسلوب في قوله ﷺ: «أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ....»، والمعهود في الوصية أنها تكون لمن قارب الموت، ولهذا فقد قال له الصحابة رضي الله عنهم: «كأنها مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ»، وقد كانت وصية ﷺ مرتكزة على الأمور الرئيسة التي عليها وحدة الأمة، فقد أوصى بتقوى الله تعالى، والسمع والطاعة لولي الأمر وإن كان الأمير عبداً حبشياً، وأوصى بالتمسك بكتاب الله وسنة نبيه والاعتصام بهما وترك المحدثات والبدع والضلالات.

---

(١) التربية بالعبرة، عبدالرحمن النحلاوي ص ١٧.

"والتذكير بالخير والحق والدعوة إليهما والتنبيه إلى الشر والضرر والنهي عنهما هو من صميم الأساليب التربوية الإسلامية للإنسان المسلم، والتي يحتاجها أي إنسان في كل زمان وفي كل مكان"[(١)].

ثالثًا- الترغيب والترهيب:

وقد ورد الترغيب والترهيب في قوله ﷺ: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَد أَبَى»، كما يبدو أسلوب الترهيب في قوله: «لَتُسَوُّنَّ صُفُوفَكُمْ أَوْ لَيُخَالِفَنَّ اللهُ بَيْنَ وُجُوهِكُمْ». وذلك الأسلوب التربوي يبين به النبي ﷺ جزاء من أطاعه ويرغب في الطاعة؛ لأن جزاءها الجنة، وكذلك يرهب من عصيانه؛ لأنه يُدخل النار.

وفي حديث آخر يُرهب النبي ﷺ من اعوجاج الصفوف في الصلاة، لأنها سبب في اختلاف القلوب والوجوه، أي: اختلاف المذاهب والميول فيما بينهم؛ لأن الإنسان "مفطور على الإحساس باللذة والألم، وهو بذلك يرغب أن ينال كل ما يحقق له اللذة، وعازف عن كل ما يسبب له الألم، ولهذا العامل تأثير كبير في تربية الإنسان وتوجيه سلوكه، من خلال الترغيب والترهيب"[(٢)].

رابعاً- التربية بالملاحظة:

من أهم وظائف المربي ملاحظة المتربين، والنظر إلى تصرفاتهم، فما وجد فيها من خير أثنى عليه طلباً للزيادة فيه، وتشجيعاً للمتربي، وما رآه سلوكاً خارجاً أو خاطئاً نهي عنه، ليرجع عما يفعل، ولذلك فقد اهتم بالرجل الذي أكل عنده بشماله، وعندما نهاه النبي ﷺ عن ذلك، وأمره أن يأكل بيمينه ادَّعى كبراً أنه لا يستطيع، فما كان منه إلا أن دعا عليه بأن لا يستطيع الأكل بها، وقد استجيبت الدعوة.

ولهذا الأسلوب دور كبير في توجيه المتربي إلى ما يفيده، ويعتبر "من أقوى الأساليب في نمو الإنسان المتوازن المتكامل الذي يؤدي حقه في الحياة، ويعرف ما له وما عليه.... وربما أتى المتربي أخلاقاً غير سوية، ولذلك فهو محتاج إلى مراقبة وملاحظة دائمة"[(٣)].

---

(١) فلسفة التربية في الحديث النبوي، د. عبدالجواد سيد بكر ص ٣٢٢، ٣٢٣.

(٢) أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي ص ٣٩٣.

(٣) تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان ٢/ ٧٢٧ بتصرف.

خامساً- التربية الوقائية:

لقد اهتم النبي ﷺ بكل صغيرة وكبيرة في حياة المسلم، ولهذا فإنه حرص على ما يفيده، ونهى عما يؤذيه، وما ذلك إلا لحبه الصادق للمسلمين، فقد أمر بإطفاء النار قبل النوم، وقال: «فَإِذَا نِمْتُمْ فَأَطْفِئُوهَا عَنْكُمْ»؛ وذلك لاحتمال اضطرامها ونشوب الحريق في البيت كله، وهذا ما يحذر النبي ﷺ صحابته الكرام منه.

وكذلك فقد نهى النبي ﷺ عن قذف الحصا بالإبهام، لأنه لا فائدة مجدية من ورائه، فهو يؤذي الإنسان لأنه كما قال ﷺ: «يَفْقَأُ الْعَيْنَ وَيَكْسِرُ السِّنَّ»، وإذا كان في التدريب على الرماية فائدة، فإنما تكون في حرب العدو أو الصيد، وهذا النوع من اللهو لا قيمة له، يقول ﷺ: «إنه لا يقتلُ الصيدَ ولا يَنكأ العدُوَّ»، ولوقاية المارَّة من الإصابة، فقد نهى النبي ﷺ عن قذف الحصا بهذه الطريقة.

إن الوقاية أصل من أصول التربية ، سواء في الأمور الجسدية أم الأخلاقية، وهي ليست إلا الحذر مما يؤدي إلى الضرر، وهذا المحصول نفسه ما تنتهي إليه في المجالات الفكرية والعقدية والأخلاقية والتشريعية"[1].

وهذه التحذيرات والتوجيهات، قدمها الرسول ﷺ على هيئة نصائح وإرشادات تحمل في طياتها الخوف، والإشفاق تجاه الفرد المسلم والمجتمع المسلم والدولة المسلم، وهي بمثابة جُرعة وقائية، إن أُخِذَت ستقي المجتمع من الأخطار المتوقعة لهلاك المحقق"[2].

سادساً- التربية بضرب المثل:

يضرب النبي ﷺ المثل في تشبيه أمر دعوته وتقريبها إلى عقول المتلقين، يقول ﷺ: «إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ...»، ثم يشبه الذين اهتدوا بهديه كالأرض الطيبة التي آتت أكلها، والذين ضلوا عن سبيله ولم يفيدوا بهديه، بالأرض القيعان، التي لا تنتفع بالمطر، ولا تمسك ماءً، ولا تفيد الناس

---

(١) انظر: موسوعة الفقه الإسلامي، د. عبدالحليم عويس ٣١٩/١ بتصرف يسير.

(٢) أساليب الدعوة والتربية، زياد العاني ص ٢٥٦.

ولا تشرب من آبارها البهائم.

وفي حديث آخر يشبه النبي ﷺ نفسه وصحابته بالرجل الذي أوقد ناراً فاجتمعت حولها الفراشات والجنادب، تريد أن تقع فيها، والرجل يذهبهن عنها، وهي تتفلت من يده.

والأمثال "تبرز المعقول في صورة المحسوس، الذي يلمسه الناس، فتقبله العقول؛ لأن المعاني المعقولة لا تستقر في الذهن، إلا إذا وضعت في صورة حية قريبة الفهم، وتكشف الأمثال عن الحقيقة وتعرض الغائب في معرض الحاضر"(١).

سابعاً- من الأساليب التربوية: التربية بالهجر والإعراض:

وقد استخدم هذا الأسلوب عبدالله بن مغفل مع قريبه الذي لم يمتثل لنهيه عن الخذف، فنهاه سرًا، مذكراً إياه بحديث النبي ﷺ، ولكنه عاد إليه مرة أخرى، فقال له: «أُحَدِّثُكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى عَنْهُ ثُمَّ عُدْت تخذف لا أكلمك أَبَدًا»، وربما كان هجره لقريبه موقوتاً بانتهائه من سلوكه، وقد استخدم الصحابي الجليل هذا الأسلوب؛ لعلمه بفائدته الكبيرة في تقويم السلوك الخاطئ، والقضاء على التصرفات السيئة.

"ولا شك أن هذا الأسلوب سيكون فاعلاً... إذا لم يجد معه استخدام الأساليب التربوية الأخرى... وأصر الناشئ على ممارسة السلوك غير المرغوب فيه، ولكن شريطة أن يكون الهجر والإعراض موقوتين... ولا تزيد عن ثلاثة أيام؛ لأن ذلك يدخل في عموم نهيه ﷺ عن الهجر فوق ثلاثة أيام"(٢).

وفي الباب عناية ورعاية النبي ﷺ لأجل سلامة الإنسان وسلامة الحيوان، حين نهى عليه السلام عن الرمي بالخذف، وهي حصاة ترمى بالسبابة والإبهام، إما لصيد حيوان أو طير أو لإيذاء وممازحة ولأن الضبط فيها غير متقن، ولأن جمعها من الصغر بما لا يصيد، ولكنه قد يفقأ العين أو يكسر السن أو يدمي الوجه كان النهي عنه.

---

(١) أساليب الدعوة والتربية، زياد العاني ص ٤٢٣.

(٢) أصول التربية الإسلامية، أمين أبو لاوي ص ٢٠٤، ٢٠٥ بتصرف يسير.

ويلحق بهذا في زمننا الرمي بالنبل ومسدسات الخردة وغير ذلك من الألعاب النارية التي من شأنها إحداث بعض الحروق أو غير ذلك، ورمي السهام، كل هذا لا يقتل ولكنه يضيب الإنسان، فضلاً عن الترويع للآخرين، وهو من المنهي عنه شرعاً.

إن بيان هذا النهي للناشئة مما ينبغي اعتباره وعلينا أن نقدم للأولاد من اللعب ما ينمي الذكاء ويحرك القدرات العقلية ولا يضر الآخرين في نفس الوقت.

كما أن مثل هذه الوسائل الترفيهية بحق الأطفال هي وسائل لتبديد رأس المال لأن المنتج غير عربي ولا إسلامي في كثير من الأحيان، وليس له أي مردود إيجابي سوى فرصة الناشئة والتي يمكن استبدالها بحكمة بغيرها من وسائل الترفيه النافعة.

١٧- باب في وجوب الانقياد لحكم الله
وما يقوله من دُعِيَ إلى ذلك وأمِرَ بمعروف أو نُهِيَ عن منكر

قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾[النساء: ٦٥]، وَقالَ تَعالَى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[النور: ٥١].

وفيه من الأحاديث: حديث أَبي هريرة المذكور[(١)] في أول الباب قبله، وغيره من الأحاديث فِيهِ:

الحديث رقم (١٦٨)

١٦٨- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه، قال: لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رسولِ اللّه صلى الله عليه وسلم: {للّهِ ما في السَّموات وَمَا فِي الأرض وإن تبدوا مافِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفوهُ يُحاسبْكُمْ بِهِ اللّه} الآية [البقرة ٢٨٣] اشْتَدَّ ذلكَ عَلَى أَصْحابِ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم، فأَتَوْا رسول اللّه صلى الله عليه وسلم، ثُمَّ برَكُوا عَلَى الرُّكَب فَقالُوا: أَيْ رسولَ اللّه كُلِّفْنَا مِنَ الأَعمالِ مَا نُطِيقُ: الصَّلاَةَ وَالْجِهادَ وَالصِّيام وَالصَّدقةَ، وَقَدْ أُنْزِلتْ عليْكَ هَذِهِ الآيَةُ وَلا نُطيقُهَا. قالَ رسولُ اللّه صلى الله عليه وسلم: **«أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ: سَمِعْنَا وَعصينَا؟ بَلْ قُولوا: سمِعْنا وَأَطَعْنَا غُفْرانَك رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمصِيرُ»**[(٢)] فَلَمَّا اقْتَرَأَهَا الْقَوْمُ وَذَلقَتْ[(٣)] بِهَا أَلْسِنتهُمْ، أَنْزلَ اللّه تَعَالَى في إِثْرِهَا: ﴿آمنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِليْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤمِنونَ كُلٌّ آمنَ باللّه وَملائِكَتِهِ وكُتُبه وَرُسُلهِ لا نُفرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلهِ وَقالوا سمعْنا وَأَطعْنا غُفْرَانكَ رَبَّنَا

---

(١) تقدم برقم (١٥٦).

(٢) عند مسلم زيادة: (قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير).

(٣) لفظ مسلم: (ذلت).

وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ فَلَمَّا فعلُوا ذلك نَسَخَهَا اللَّه تَعَالَى، فَأَنْزَلَ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّه نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ، رَبَّنَا لا تُؤاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَو أَخْطَأْنَا﴾ قَالَ: نَعَمْ ﴿رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حملْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ قَالَ: نعَمْ ﴿رَبَّنَا ولا تُحَمِّلْنَا مَالا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ قَالَ: نَعَمْ ﴿واعْفُ عَنَّا واغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْت مَوْلانَا فانْصُرنَا عَلَى الْقَوم الْكَافِرِينَ﴾ قَالَ: نعَمْ. رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

بركوا على الركب: جلسوا على ركبهم[2].

اقترأها: قرأها[3].

ذلقت بها ألسنتهم: سهلت وانقادت، والمعنى: أكثروا من قراءتها واعتادوا قراءتها[4].

إثرها: بعدها[5].

نسخها: نسخه: أي أزاله وغيره وأبطله وأقام شيئاً مقامه[6].

---

(١) برقم (١٩٩/١٢٥).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ب ر ك).

(٣) الوسيط في (ق ر أ).

(٤) الوسيط في (ذ ل ق).

(٥) القاموس المحيط، الفيروزآبادي ٣٤١.

(٦) القاموس المحيط، الفيروزآبادي في (ن س خ).

الشرح الأدبي

تتجلى في هذا الحديث الشريف الصلة العضوية والموضوعية بين القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، فالمصطفى ﷺ لا ينطق عن الهوى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[1]، وألفاظ النبوة منبعها القلب المتصل بجلال خالقه، ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه، كما يقول الرافعي، فالبلاغة النبوية ليست من الوحى.. ولكنها جاءت من سبيله، وإن لم يكن لها منه دليل فقد كانت هى من دليله.

والبيان النبوي لا ينفصل عن البيان القرآني: فهو يفصل مجملاً، أو يوضح مشكلاً، أو يخصص عاماً، أو يقيد مطلقاً، وهذه المعالم التي توضح جوانب الصلة بين القرآن والحديث النبوي الشريف... تتجلى وتسطع جوانبها في هذا الحديث النبوي الذي يعد نموذجاً لاندماج النص القرآني في سياق النص النبوي للإقناع والاستشهاد والاطمئنان، وهذا الحديثُ ينفرد بسمة بارزة في كتاب رياض الصالحين، حيث يتفرد وحده بباب من أبواب هذا الكتاب، وهو كما أورده الإمام النووي (باب في وجوب الانقياد لحكم الله تعالى ، وما يقوله: "مَنْ دعي إلى ذلك، وأُمر بمعروف أو نُهي عن منكر).

وتشرقُ في بداية الحديث ظاهرة ملفتة وهى: سرعة استجابة الصحابة رضوان الله عليهم لما تتنزل به الآيات من تعاليم وانقيادهم لحكم الله تعالى؛ ولذلك حينما نزلت عليهم هذه الآية: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾[2].

فزعوا وأصابهم القلق لحرصهم على الطاعة، وشعورهم بأن مضمون الآية فوق طاقتهم، فكيف يحاسبون على ما يضمرونه ؟ وكيف يتحكمون في خواطرهم ووساوسهم، وهذا الفزع أشار إليه الراوي في بلاغة موحية حيث قال: اشتد ذلك على أصحاب رسول

---

(١) سورة النجم، آية: ٤.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٨٤.

الله ﷺ، ثم تتحول هذه الشدة الشعورية، وهذا الإحساس بالخوف وعدم تحمل هذه المسؤولية لأنها فوق الطاقة، إلى حركة محسوسة تصور حجم هذا القلق، حيث "بركوا على الركب"، وهى عادة الخائف الوجل، ولنتأمل صورة هؤلاء الجاثين على ركبهم، وهم ينادون مستعطفين طالبين الرأفة.

والنداء تتصدره "أي" وهى حرف لنداء القريب، والقرب هنا حسي ومعنوي، يوحي بالاستعطاف، وقد صرّح الصحابة بما يفزعهم ويقودهم إلى الإحساس بالتقصير في الطاعة حيث قالوا: قد أُنْزلت عليك هذه الآية ونحن لا نطيقها، ويقول المازري، "اعتقدوا أنهم يؤاخذون بما لا قدرة لهم على دفْعه من الخواطر التي لا تكتسب، فلهذا رأوه من باب ما لا يطاق".

ولنتأمل كيف قابل رسول الله هذا الموقف بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هى أحسن، وبالإقناع الجميل، حيث واجههم باستفهام إنكاري، ولكنَّه مقنع ومرشد إلى الطريق السويّ، قال: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا، بل قولوا: سمعنا وأطعنا، والتعبير بقوله: أتريدون أن تقولوا، فيه إشعار بأنهم: لم يقولوا ذلك، وهذا التعبير أقرب إلى الحكمة في الخطاب من قوله: أتقولون: مباشرة، فتأمل دقة هذا الخطاب النبوي الذي يجمع بين الترغيب والترهيب؛ وبلاغة الحذف تتجلى في قوله: "سمعنا وعصينا"، والتقدير سمعنا قولك، وعصينا أمرك، وحَذْف متعلقات الأفعال يفسح المجال للتفسير المتعدد، والتأويل الدلالي، المتسع والمتنوع، والأمر كذلك في قوله: سمعنا وأطعنا، ولكن البون شاسع: بين السماع الرافض عند أهل الكتابين، والسماع الوامض من أهل النورين: الكتاب والسنة: أوثق مصدرين، وأطهر منبعين، لكل مكلف بالدعوة من الثقلين.

ويتحول الخوف من التقصير إلى يقين في ظل رحمة العلي القدير، حيث أعاد القوم قراءة الآية التي وجلت منها قلوبهم، فاطمأنوا وانقادت بالاستسلام بها ألسنتهم، وكافأهم الله بخواتيم سورة البقرة، وبذلك انكشفت الكُرْبة عن المسلمين في تأولهم أمر الخواطر. ويقول القرطبي في ختام تفسيره للآية الأخيرة في سورة البقرة: خرج هذا

مخرج التعليم للخلق كيف يدعون ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1].

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى قاعدة فقهية مهمة تعرض لها الفقهاء وهي قولهم: "التكليف على قدر الاستطاعة" ومثلوا لها بأمثلة عدة، فمثلاً اتفق الفقهاء[2] على مشروعية المسح على الخفين للمسافر وهو رخصة.

واتفقوا أيضًا[3] على جواز الفطر للمريض والشيخ الكبير والمسافر والحامل والمرضع التي تخشى على ولدها من التلف.

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٨٦ .

(٢) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود ٨/١ وما بعدها، وتبيين الحقاق ٤٥/١ وما بعدها، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٣١٨/١ وما بعدها، وشرح منح الجليل ١٣٤/١ وما بعدها، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ١٩٧/١ وما بعدها، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي ١٩٨/١ وما بعدها، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو١٧٤/١ وما بعدها، والفروع، ابن مفلح ١٥٨/١ وما بعدها.

(٣) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٣٠٢/٢ وما بعدها، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود٩٦/٢ وما بعدها، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٤٤٧/٢ وما بعدها، وشرح منح الجليل ١٢٠/٢ وما بعدها، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي ١٨٥/٣، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ١٦٨/٢ وما بعدها، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٤٧٥/١، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٣٠٩/٢.

وكذا قصر الصلاة في السفر[1]، والمسح على الجيرة للمصاب، وغير ذلك من أحكام ورخص امتلأ بها التشريع الإسلامي تيسيرًا على الناس ورحمة بهم، فمثل هذه الأحكام كانت مستندة على قاعدة التكليف على قدر الطاقة.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على الالتزام بما ورد في القرآن الكريم.

ثانياً: من أساليب الدعوة: الاستفهام، والتحذير، والدعاء.

ثالثاً: من تاريخ الدعوة: موقف أهل الكتاب مما جاء به الرسل عليهم السلام.

رابعاً: من واجبات المدعو: الاستجابة والانقياد لأوامر الله ورسوله.

خامساً: من موضوعات الدعوة: بيان فضل الله على عباده وتخفيفه عنهم.

سادساً: من موضوعات الدعوة: وقوع النسخ في القرآن.

سابعاً: من موضوعات الدعوة: يسر الشريعة الإسلامية، ورفع المشقة والحرج.

ثامناً: من خصائص الدعوة الإسلامية: الواقعية.

أولاً- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على الالتزام بما ورد في القرآن الكريم:

حرص الصحابة رضي الله عنهم كل الحرص على الالتزام بما جاء في كتاب الله تعالى وأشفقوا من عدم قيامهم بما أمرهم الله به أو الالتزام بما طلب منهم ((فأتوا رسول

---

(١) المبسوط، السرخسي للسرخسي ٢٣٥/١، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود ٩١/١، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ١٣٨/٢ وما بعدها، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ١٣٩/٢ وما بعدها، وشرح منح الجليل ٤٠١/١ وما بعدها، والأم، الإمام الشافعي، تحقيق: علي محمد وعادل أحمد، وغيره للشافعي ٩٦/١، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي للنووي ٢١٠/٤، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٣٤٩/٥، والفروع، ابن مفلح ٥٤/٢، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو٤٧/٢ وما بعدها.

الله ﷺ ثم بركوا على الركب فقالوا: أي رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطيق:الصلاة والجهاد والصيام والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها)) دفعهم إلى ذلك توجههم إلى ربهم رغباً ورهباً ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[١] واستجابة لأمر الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[٢].

ثانياً- من أساليب الدعوة: الاستفهام والتحذير والدعاء:

إن من أساليب الدعوة في هذا الحديث الاستفهام والتحذير، وقد ورد هذا في قوله ﷺ مخوفاً لهم من قطيعة العصيان وامتناع قبول الأوامر (أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم - أي اليهود والنصارى- سمعنا وعصينا)[٣].

الدعاء: وذلك في قوله: "غفرانك ربنا" وقوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[٤] الآية، فالدعاء من الأساليب الدعوية المهمة لما له من أثر عظيم في حصول المطلوب، وترقيق قلوب المدعوين واستجابتهم.

ثالثاً- من تاريخ الدعوة: موقف أهل الكتاب مما جاء به الرسل عليهم السلام:

في حديث القرآن عن أهل الكتاب نجد إنصافه للمؤمنين منهم فقال: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[٥] هؤلاء الأكثرون لسان حالهم في استقبالهم أوامر الله، سمعنا وعصينا قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾[٦].

---

(١) سورة السجدة، آية: ١٦.

(٢) سورة الأنفال، آية: ٢٤.

(٣) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٣١٩.

(٤) سورة البقرة، آية: ٢٨٦.

(٥) سورة آل عمران، آية: ١١٠.

(٦) سورة النساء، آية: ٤٦.

لقد لعب اليهود والنصارى أدواراً مهمة في التكذيب والتشكيك، وزعموا أنهم لن يؤمنوا برسالة محمد ﷺ حتى يأتيهم بمعجزات قد أتى بها الأنبياء السابقون، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾[1].

وقد نقض القرآن دعواهم وأبطلها... وأقام عليهم البراهين المتنوعة، كل واحد منها ملزم لهم بتصديق النبي محمد ﷺ في كل ما يقوله، قال تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلّٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٩٣ فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[2].

لقد تحداهم القرآن أن يثبتوا ذلك بطريق صحيح ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾ فلم يستطيعوا إخراج التوراة، لأن ما فيها سوف يفضحهم ويكشف كذبهم.

ولا شك أن في هذا التحدي البرهان القاطع بصدق النبي ﷺ، أما النصارى فالبراهين الملزمة لهم بتصديق النبي محمد ﷺ كثيرة جداً منها: حادثة المباهلة مع نصارى نجران في مسألة المسيح ابن مريم، وإن عدم دخول النصارى في المباهلة تسليم منهم واعتراف بنبوة محمد ﷺ[3].

وقد حذر الله المؤمنين أن يحذوا حذوهم، وبين أن من مقومات الإيمان السمع والطاعة ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٨٣.

(٢) سورة آل عمران، الآيتان: ٩٣-٩٤.

(٣) انظر: مناهج الجدل في القرآن الكريم، د. زاهر عواض الألمعي ص ٢٨٢-٢٩٣.

﴿وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[(١)]. ومع بيان القرآن لمواقف أهل الكتاب تجاه الدعوة أمر الله ألا تعدو مجادلتنا معهم، المجادلة الحسنة إلا من اعتدى منهم وظلم، قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾[(٢)].

ولقد اشتمل خطاب القرآن الكريم لغير المسلمين - من أهل الكتاب وغيرهم- على ألطف الأساليب في جداله مع المخالفين واختار العبارات الرقيقة، لأن ذلك أدعى إلى الأنس بالخطاب وعدم إثارة العصبية، لذا كان خطاب القرآن الكريم لغير المسلمين قائماً على الحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، والترغيب والترهيب، واحترام الآخرين، واللين والرفق، وغير ذلك مما يبعث على الهداية والاستجابة وعدم النفور[(٣)].

وذلك كله يندرج تحت المنهج العام للدعوة والذي أمر به القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[(٤)].

رابعاً- من واجبات المدعو: الاستجابة والانقياد لأوامر الله ورسوله:

يتضح ذلك في استجابة الصحابة رضي الله عنهم لأوامر الله وانقيادهم لها في قوله فلما اقترأها القوم وذلّت بها ألسنتهم - أي أقرت وانقادت - وقالوا سمعنا وأطعنا، إذ أنه من صفات المؤمنين التسليم المطلق لأوامر الشرع ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾[(٥)] (فلا يجدون في أنفسهم حرجاً من حكمه يصرفهم عن تحكيمه أو يسخطهم من حكمه بعد

---

(١) سورة النور، آية: ٥١.

(٢) سورة العنكبوت، آية : ٤٦ .

(٣) انظر: خطاب القرآن الكريم لغير المسلمين، د. محي الدين عفيفي أحمد ص ١١٢-١٢٦.

(٤) سورة النحل، آية: ١٢٥.

(٥) سورة النساء، آية: ٦٥.

تحكيمه)[١] إذ أن الإعراض من صفات المنافقين الذي وصمهم الله بالظلم والخروج عن طاعة الله قال تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ۝٤٨ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ۝٤٩ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[٢].

خامساً- من موضوعات الدعوة: بيان فضل الله على عباده وتخفيفه عنهم:

من فضل الله تعالى على الأمة الإسلامية، أن خفف عليها وأحل لهم ما حرم على غيرهم، ومن الأمثلة على ذلك تحريم طيبات على بني إسرائيل جزاء ما اقترفوه من آثام وتلبسوا به من ظلم قال تعالى: ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرٗا﴾[٣].

ومن أمثلة فضل الله قوله ﷺ ((أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي المغانم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة))[٤] وعطاء الله لرسوله عطاء للأمة جمعاء، إلى غير ذلك من التخفيف في مجالات الشريعة.

وبذلك استجاب الله دعاء المؤمنين ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ﴾[٥] أي (ولا تثقل علينا من العمل ما لا نطيق فتعذبنا)[٦] إضافة إلى تجاوزه عما صدر منهم بدون قصد أو نسيان استجابة

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور ١١١/٥/٢.

(٢) سورة النور، الآيات: ٤٨-٥٠.

(٣) سورة النساء، آية: ١٦٠.

(٤) أخرجه البخاري، ٣٣٥.

(٥) سورة البقرة، آية: ٢٨٦.

(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي مج٢/٣/٤٢٧.

لدعائهم ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ وقال رسول الله ﷺ ((إن الله قد تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه))[1].

سادساً- من موضوعات الدعوة: وقوع النسخ في القرآن:

الأصل في النسخ (أن يكون الشيء حلالاً إلى مدة ثم ينسخ فيجعل حراماً، أو حراماً فيجعل حلالاً، أو يكون محظوراً فيجعل مباحاً، أو مباحاً فيجعل محظوراً، والنسخ يكون في الأمر والنهي والحظر والإطلاق والإباحة والمنع، وهو على ضروب، منها ما جاء في الحديث وهو أن يزال الحكم ويبقى المنسوخ متلواً، كما روى مجاهد ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾[2] قال نزيل حكمها ونثبت خطها)[3] وفي الحديث نجد أن الله نسخ ما في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾[4]، بقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[5]، وذلك لون من ألوان رحمة الله عز وجل بالمؤمنين.

سابعاً- من موضوعات الدعوة: يسر الشريعة الإسلامية ورفع المشقة والحرج:

امتازت شريعة الإسلام باليسر والرفق بشهادة قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[6] وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[7] وقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[8] ولذلك كان من قواعد الفقه العامة (المشقة تجلب التيسير)،

---

(١) أخرجه ابن ماجه، ٢٠٤٣. وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجة، ١٦٦٢).

(٢) سورة البقرة، آية: ١٠٦.

(٣) انظر: الناسخ والمنسوخ في كتاب الله عز وجل واختلاف العلماء في ذلك، أبو جعفر النحاس ٤٢٨/١١.

(٤) سورة البقرة، آية: ٢٨٤.

(٥) سورة البقرة، آية: ٢٨٦.

(٦) سورة البقرة، آية: ٢٨٦.

(٧) سورة الحج، آية: ٧٨.

(٨) سورة البقرة، آية: ١٨٥.

و(المشقة مظنة الرخصة) و(ضبط المشاق المسقطة للعبادة مذكور في الأصول)[(١)].

ثامناً- من خصائص الدعوة الإسلامية: الواقعية:

وهذا واضح في الحديث حيث خفف الله عن الأمة وتجاوز لها عما جرى في نفسها بدون قصد وعزم، ووضع الإصر، والتكليف بما يطاق والتجاوز عما وقع من المكلف خطأً أو نسياناً أو تحت وطأة السيطرة والإكراه.

ويستدل من الحديث الذي معنا، أن الله عفا عن الأمة الإسلامية ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم فقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[(٢)] وعدم المؤاخذة عما يصدر من خطأ أو نسيان ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[(٣)] وتخفيف الأثقال والتكليف في حدود المقدور ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾[(٤)]. فشريعة الإسلام جاءت في نطاق القدرات البشرية إذ أنها من عند الله الذي يعلم ما يصلح للبشر، والذي يعلم السر والخافية[(٥)].

لقد راعى الإسلام الواقع في كل ما دعا إليه الناس من عقائد وعبادات وأخلاق وتشريعات.

ونشير إلى ما جاء في الحديث من الإشارة إلى مراعاة واقع الإنسان في العبادة والتشريع، فلقد جاء الإسلام بعبادات واقعية، لأنه عرف ظمأ الكائن الروحي في الإنسان إلى الاتصال بالله، ففرض عليه من العبادات ما يروي ظمأه، ويشبع نهمه، ويملأ فراغ نفسه، ولكنه راعى الطاقة المحدودة للإنسان، فلم يكلفه ما يعنته

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور ١٣٥/٣/٢.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٨٦.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٨٦.

(٤) سورة البقرة، آية: ٢٨٦.

(٥) انظر: أساليب الدعوة الإسلامية المعاصرة، د. حمد بن ناصر العمار.

ويحرجه، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[1].

ومن الشواهد على ذلك مراعاة الإسلام للظروف الطارئة للإنسان كالسفر والمرض ونحوهما، فشرع الرخص والتخفيفات التي يحبها الله، وذلك مثل صلاة المريض قاعداً أو مضطجعاً على جنب حسب استطاعته، وتيمم الجريح إذا كان استعمال الماء للغسل أو الوضوء يضره، وغير ذلك، وهذه الرخص وغيرها، كلها رعاية لواقع الناس، وتقدير لظروفهم المتغيرة، وتيسير من الله عليهم، كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[2]،[3].

---

(١) سورة الحج، آية: ٧٨.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٨٥.

(٣) انظر: الخصائص العامة للإسلام، د. يوسف القرضاوي ص ١٦٣-١٦٥.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

الأسئلة في كثير من الأحيان مفاتيح للخير، وكم من سؤال سأله الصحابة فكان الخير فيه للأمة، وقد دلت الأسئلة على وحدة تكوين الإنسان ووجود قاسم مشترك في الغرائز والانفعالات، وبخاصة إذا تعلق الأمر بالدين أو الخوف.

إن سؤال الخائف حق له، وإن الجهل بأمر ديني يوجب الاستفهام عنه، وإن إيضاح ما في السرائر خير من كتمها حتى لا تكون الضغائن وذلك فيما يلي:

أولاً- غرس روح الانقياد لله تعالى:

ويبدو ذلك جلياً من موقف صحابة رسول الله ﷺ، حين نزل قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾[1]، وذهبوا إلى رسول الله ﷺ يشتكون تكليفهم ما لا يطيقون، لأن المرء لا يمكن أن يتحكم في تفكيره وهواجسه، فكيف يحاسب عليه، إلا أن رسول الله ﷺ أمرهم أن يقولوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾[2]؛ حتى لا يكونوا مثل الهالكين السابقين من اليهود والنصارى، الذين قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾[3]، فما كان من الصحابة الكرام إلا أن ذلوا وخضعوا لأمر الله.

وبعد هذا النجاح في اختبار الله تعالى لهم في الخضوع له سبحانه عفا عنهم، وأنزل: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٨٤.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٨٥.

(٣) سورة البقرة، آية: ٩٣.

ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾[١].

إن هذا الانقياد يدل على مدى تعظيم صحابة رسول الله ﷺ لجلال الله وأمره سبحانه، وحين يستقر تعظيم الله تبارك وتعالى تستقيم حياة الإنسان بشرع الله تبارك وتعالى؛ فالذي يعظم الله تعالى لا يقدم بين يدي قوله وقول رسوله، ولا يتردَّد في تصديق الأخبار والتزام الأوامر، وترك المنهيات، ولا يتعلق قلبه بغير الله... فيصفو اعتقاده، ويستقيم علمه[٢].

ثانياً- التربية على الدعاء:

من سمات التربية الإسلامية ربطها المتربي بالله تعالى، وحث النبي ﷺ المسلمين على اللجوء إليه، والدعاء له في كل الأحوال، ولهذا فقد جاءت آيات القرآن الكريم التي وردت في حديث هذا الباب تعليماً للمسلمين بعض الدعاء، بقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا ﴾، وهذه دعوات تعلم المؤمن أن لا ملجأ من الله إلا إليه، وأن يؤوب إلى ربه ويسأله دائماً، لأن البلاء لا يرفعه إلا الدعاء.

والدعاء ثمرة المعرفة بالله والإيمان بمنهج القرآن وفكرته، وشعور عميق بالعبودية والفقر والحاجة إلى الله، وضمان للنفس من الغفلة والطغيان والاعتداء؛ ففي غفلة النفس عن حقيقة عبوديتها لله وحاجتها إليه سبيل إلى طغيانها واعتدائها... والدعاء هو سبيل القوة الحقة، فلا يقضى على النفس ويوردها موارد التهلكة كإحساسها بفقدان السند المعين... وفي إحساس المؤمن يحفظ الله ورعايته، وأنه يستمع إليه إذا شكا، ويجيبه إذا دعا، ويأخذ بيده إذا كبا، ويمده إذا ضعف، ويعينه إذا احتاج: إحساس يملأ النفس سكينة وراحة، ويخلق فيها القوة الحقة والعزم والثقة والرضا[٣].

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٨٦.

(٢) تربية الشباب، محمد عبدالله الدويش ص ٥٤ بتصرف.

(٣) منهج القرآن في التربية، محمد شديد ص ٣٢٢-٣٢٥.

ثالثًا- من سمات التربية الإسلامية: إيجابية المتربي:

لم يكن المربي الأول يغلق باب المراجعة والمناقشة على صحابته الكرام؛ لأن ذلك من شأنه عدم إقناع المتربي بالمبدأ أو القيمة التي يؤمر بها، وفي هذا الباب تظهر إيجابية الصحابة رضوان الله عليهم، عندما نزل قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾[(١)]، فذهبوا إلى النبي ﷺ وعبّروا له عن تخوفهم ووجدهم على أنفسهم بسبب هذه الآية؛ وذلك تأديب للمتعلمين المتربين على محاورة المعلم وسؤاله عما يريدون السؤال عنه، وأن لا يتقبل المتربي المعلومات دون تمحيص لها، وقد علم الصحابة بعد أن شكوا إلى رسول الله ﷺ أن هذه الآية إنما هي اختبار من الله تعالى وابتلاء؛ حتى لا يكونوا كاليهود والنصارى الذين قالوا سمعنا وعصينا، إنما كان جواب الصحابة رضي الله عنهم: سمعنا وأطعنا، حتى رفع الله عنهم هذا البلاء.

وفي الحديث دليل على أن من سمع شيئاً لا يعلمه فليراجع فيه حتى يعرفه ليتبين حقه من باطله، لأنه قد يكون فيه مصلحة لا يعرفها فيكون رده وجهله سبباً لحرمانه من تلك المنفعة، ولذلك قال العلماء: من جهل شيئاً عاداه، وكان رسول الله ﷺ يحض أصحابه على فهم أمور دينهم فيأمرهم أن يسألوا عما يجهلونه[(٢)].

رابعاً- من خصائص التربية الإسلامية: المرونة واليسر:

إن من مظاهر يسر التربية الإسلامية تسهيل التشريعات على المسلمين، ومراعاة طاقاتهم وقدراتهم، ولهذا فقد نسخ الله تعالى قوله: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾[(٣)]، ونزل قوله عز وجل: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[(٤)]؛

(١) سورة البقرة، آية: ٢٨٤.

(٢) المرشد النفيس، د. محمد صالح بن علي جان ص ٣٣٦.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٨٤.

(٤) سورة البقرة، آية: ٢٨٦.

وذلك لضعف البشر وعجزهم، يقول تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾[١]؛ وذلك حين خفف على المسلمين هذا الحكم، وذلك لأن الإسلام إنما راعى بشرية الإنسان وضعفه وكلفه من العمل ما يستطيع؛ حتى يمكنه المداومة عليه.

إن التيسير روح يسري في جسم الشريعة كلها، كما تسري العصارة في أغصان الشجرة الحية، وهذا التيسير مبني على رعاية ضعف الإنسان وكثرة أعبائه، وتعدد مشاغله، وضغط الحياة ومتطلباتها عليه، وشارع هذا رؤوف رحيم، لا يريد بعباده عنفاً ولا رهقا، إنما يريد لهم الخير والسعادة وصلاح الحال والمآل في المعاش والمعاد[٢].

لقد جاء الإسلام بالتيسير ورفع الحرج، (فليست العبادة فيه انقطاعاً عن الدنيا وأهلها، بل هي تفاعل مع الدنيا وأهلها، وفقاً لمنهج الله الذي أراده ديناً للناس كافة، ملائماً لكل الأزمان والأجيال والعصور، فالعبادة في الإسلام معتدلة ومقدورة لكل إنسان بكل سهولة ويسر)[٣].

خامساً- التربية على الانقياد لحكم الله:

إن الانقياد لحكم الله مانع من أي فراغ داخلي يسمح بغير حكم الله فمن لم يخضع لله خضع لغيره، ومن لم يرضى حكم الله رضي حكم غيره، وهذا يجلب على صاحب الشقاء والبلاء، ولهذا مدح الله المسلمين بأنهم: "قالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير".

(١) سورة البقرة، آية: ٢٨٦.

(٢) الخصائص العامة للإسلام، يوسف القرضاوي ص ١٧٧.

(٣) أساليب الدعوة والتربية، د. زياد العاني ص ٢٣٤.

١٨- باب في النهي عن البدع ومحدثات الأمور

قَالَ اللَّه تَعَالَى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلال﴾[يونس: ٣٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾[الأنعام: ٣٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾[النساء: ٥٩] أي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾[الأنعام: ١٥٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[آل عمران:٣١] وَالآياتُ في البَابِ كَثِيرةٌ مَعلُومَةٌ.

وَأَمَّا الأَحادِيثُ فَكَثِيرَةٌ جداً، وَهيَ مَشْهُورَةٌ فَنَقْتَصِرُ عَلَى طَرَفٍ مِنْهَا:

الحديث رقم (١٦٩)

١٦٩- عن عائشةَ رضي الله عنها، قالت قال رسولُ اللَّه ﷺ: «**مَنْ أَحْدَثَ في أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فهُو رَدٌّ**» متفقٌ عليه(١).

وفي رواية لمسلمٍ(٢): «**مَنْ عَمِلَ عملاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُو ردٌّ**».

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

غريب الألفاظ:

ردٌّ: أي مردود عليه يقال: أمر ردّ إذا كان مخالفاً لما عليه أهل السنة. وهو مصدر وصف به(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧/١٧١٨) ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه (٧٤). وسيكرره المؤلف برقم (١٦٤٩).

(٢) برقم (١٨/١٧١٨). أورده المنذري في ترغيبه (٧٤).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ر د د).

الشرح الأدبي

إن هذا الحديث من جوامع كلمه ﷺ لأنه قليل لفظه: كثير معناه، فالإيجاز سر بلاغته، والوضوح منبع حكمته، وسهولة الألفاظ مطلع إشراقته، وكيف لا؟ وهو كما يقول ابن رجب الحنبلي: "أصل عظيم من أصول الإسلام"، كما أن حديث "الأعمال بالنيات"، ميزان للأعمال في باطنها، وهو ميزان للأعمال في ظاهرها، فكما أن كل عمل لا يراد به وجه الله فهو مردود على عامله، وكذلك من أحدث في الدين ما لم يأذن به الله ورسوله فليس من الدين في شيء.

فهذا الحديث بمنطوقه يدل على أن كل عمل ليس عليه أمر الشارع فهو مردود، ويدل بمفهومه على أن كل عمل عليه أمره فهو غير مردود[1].

ومنطوق الحديث يموج بالدلالة الظاهرة، ومع ذلك تظل هذه الدلالة الظاهرة في حاجة للتأمل والكشف عن الدلالات الكامنة والمختبئة خلف الكلمات المشعة بكثير من المسائل والقضايا والاحتمالات.

فالحديث الذي وصف بأنه أصل عظيم من أصول الإسلام يتكون بناؤه اللغوي من جملة واحدة، وهذه الجملة أثارت كثيراً من خلافات وآراء الفقهاء حول المقبول والمردود من العبادات، وحول المقبول والمردود من المعاملات، وحول المقبول والمردود من مسائل العقيدة.

والجملة يفصح بناؤها اللغوي عن المنهج الإسلامي الصارم في ضبط المسائل العقدية والعبادية والمعاملاتية ، فالجملة الحديثية هنا صيغت في قالب: الشرط والجزاء، وهو قالب لغوي يجمع ثلاثة أطراف: أداة الشرط، وفعل الشرط، وجواب الشرط: والشرط في الإسلام معيار ومقياس لصحة كثير من الأمور، فكل مسألة وكل فريضة لها شروط أدائها ولها واجباتها، وفي ظل هذا المنهج نقرأ هذه الصياغة اللغوية قراءة مرتبطة بالمنهج، ومفصحة عن مبدأ الثواب والعقاب.

---

(١) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١/١٧٦، ١٧٧.

وأداة الشرط "مَنْ" وهى للعاقل وفي ضوء المنهج الصحيح هو العاقل البالغ المكلف المسؤول عن أعماله، وهو من يمتلك القدرة على الإحداث والإضافة، ولكنه في ظل المنهج: إحداث مبتور، وإضافة موؤدة.

ولنتأمل الفعل "أحدث" وهو لفظ جامع يشمل كل ما يحاوله المبتدعون، والمشككون، والمدعون من تشويه لمعالم هذا الدين، وهم كثيرون ويظهرون في كل عصر.. وما زالوا يطلون بسمومهم من كهوفهم كالأفاعي، ولكن الله يحمي دينه وأولياءه، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والتعبير بلفظ "أحدث" أبلغ وأكثر إشعاعًا ودلالة من أي لفظ أخر مثل: عمل أو أضاف أو ابتدع، والمصطفى ﷺ يقول: "وشر الأمور محدثاتها".

والتعبير "بفى" وهى تدل على الظرفية والتمكن يفيد بأن هذا المحدث المرفوض يمكن أن يتغلغل في كيان الشريعة ويقتحم معالمها، حتى يظن الواهمون أن هذا المُحْدث من الأصول التي يجب الحرص عليها، وهذا أمر بالغ الخطورة.

وتأمل ما يفيض به لفظ "أمرنا" من المعاني: فالأمر هو الدين، ولفظ "الأمر" يوحي بالخصوصية التي تحتم عدم التفريط، والإضافة إلى "نا" الدالة على الجمع، تؤكد هذه الخصوصية وتضيف بُعْداً جديداً، وهو وجوب مقاومة كل بدعة، وكل محاولات المارقين الذين يُشوهون معالم الدين في مقالاتهم، وخطبهم وكتبهم وخططهم ومؤامراتهم.

ولفظ الإشارة "هذا": يضفي دلالة جديدة وهى البعد الحسِّي لهذا الأمر فكأنه لخصوصيته وتميزه ومَنَعته أصبح كائناً يشار إليه: وهو ماثل بفيوضاته وينابيعه في الكتاب والسنة، وفي ما استقر عليه علماء الأمة الأخيار، من كبار الأئمة المجتهدين.

وتأمل هذا القول "ما ليس منه"، إنه يفيد العموم والاستقصاء، في العبادات بكل فروعها، والمعاملات بكل أنواعها.

فقه الحديث

يعد هذا الحديث أساساً لرد كل ما هو مخالف لشريعة الإسلام من الأمور المستحدثة، والأحكام الخارجة عن روح التشريع وقواعده، وهو أحد الأصول التي يقوم عليها التشريع الإسلامي كما يقول ابن تيمية[١].

وقد استند الفقهاء على هذا الحديث في كثير من الأحكام، ومن تلك الأحكام مثلاً إبطال جميع العقود الممنوعة[٢] وعدم جواز الطواف بقبره ﷺ أو الاتكاء عليه[٣]، وفسخ البيع الواقع وقت صلاة الجمعة عند من يقول بذلك[٤]، وعدم جواز بناء مسجد بمقبرة أو إضاءة المقبرة بسرج أو قناديل[٥] وأداء صلاة العيد بأذان أو إقامة حيث تصلى بدونهما[٦] والطلاق في الحيض أو الطهر الذي يجامعها فيه[٧] وغير ذلك من أحكام امتلأت بها كتب الفقه الإسلامي.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: التحذير من البدع ومحدثات الأمور.

ثانياً: من أساليب الدعوة: الترهيب.

ثالثاً: من مهام الداعي: بيان الحقائق للمدعوين.

رابعاً: من خصوصيات النبي ﷺ: جوامع الكلم.

خامساً: من واجبات المدعو: الالتزام بما ورد في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٢٠٦/١، إعلام الموقعين ٢٨٩/١.

(٢) إحكام الأحكام ٢٦٩/٢.

(٣) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢٥٧/٨.

(٤) أحكام القرآن، ابن العربي ٢١٤/٤.

(٥) الزواجر عن اقتراف الكبائر ٩٧/٢.

(٦) طرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين بن الحسن ٥٨/٣.

(٧) تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، الزيلعي ١٩١/٢، مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٢٦٤/٣.

أولاً- من موضوعات الدعوة: التحذير من البدع ومحدثات الأمور:

إن تحذير النبي ﷺ من البدع ومحدثات الأمور واضح في عموم الحديث: "مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ"، ففيه نهى عن البدع ومحدثات الأمور التي ليس لها أصل في الشرع، قال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾[1]، إذ هما ضدان وبترك أحدهما يقع الآخر، والحق ما جاء به الكتاب والسنة نصاً واستنباطاً قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾، أي الطرق المخالفة له ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[2]، أي عن دينه[3].

قال ابن حجر: (هذا الحديث معدود من أصول الإسلام وقاعدة من قواعده، فإن معناه: من اخترع في الدين ما لا يشهد له أصل من أصوله فلا يلتفت إليه"، وقال الطوفي: "هذا الحديث يصلح أن يسمى نصف أدلة الشرع)[4].

وقال ابن رجب الحنبلي: (وهذا الحديث أصل عظيم من أصول الإسلام وهو كالميزان للأعمال في ظاهرها كما أن حديث الأعمال بالنيات ميزان للأعمال في باطنها، فكما أن كل عمل لا يراد به وجه الله تعالى فليس لعامله فيه ثواب فكذلك كل عمل لا يكون عليه أمر الله فهو مردود على عامله وكل من أحدث في الدين ما لم يأذن الله ورسوله فليس من الدين في شيء")[5].

ففي هذا الحديث إشارة إلى أن أعمال العاملين كلهم ينبغي أن تكون تحت أحكام الشريعة، وتكون أحكام الشريعة حاكمة عليها بأمرها ونهيها، فمن كان عمله جارياً تحت أحكام الشرع موافقاً لها فهو مقبول، ومن كان خارجاً عن ذلك فهو

(١) سورة يونس، آية: ٣٢.

(٢) سورة الأنعام، آية: ١٥٣.

(٣) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ، ابن علان ص ٣٢١.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٥٧/٥.

(٥) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١٧٦/١.

مردود[١]، ولا قيمة لعمله، ويصدق فيه قول الله عز وجل: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾[٢]. فمن تقرَّب إلى الله بعمل، لم يجعله الله ورسوله قربة إلى الله، فعمله باطلٌ مردودٌ عليه، وهو شبيهٌ بحالِ الذين كانت صلاتهم عند البيت مُكاءً وتصدية، وهذا كمن تقرَّب إلى الله تعالى بسماع الملاهي، أو بالرقص، أو بكشف الرأس في غير الإحرام، وما أشبه ذلك من المحدثات التي لم يشرع الله ورسولُه التقرُّب بها بالكلية.

وليس ماكان قربة في عبادة يكون قربة في غيرها مطلقًا، فقد رأى النبي ﷺ رجلاً قائمًا في الشمس، فسأل عنه، فقيل: إنه نذر أن يقوم ولا يقعد ولا يستظل وأن يصوم، فأمره النبي ﷺ أن يقعد ويستظل، وأن يتم صومه[٣]، فلم يجعل قيامه وبروزه للشمس قربةً يُوفي بنذرهما. وقد روي أن ذلك كان في يوم جمعة عند سماع خطبة النبي ﷺ[٤] وهو على المنبر، فنذر أن يقوم ولا يقعد ولا يستظل ما دام النبي ﷺ يخطب، إعظامًا لسماع خطبة النبي ﷺ، ولم يجعل النبي ﷺ ذلك قربة توفي بنذره، مع أن القيام عبادةٌ في مواضع أخر، كالصلاة والأذان و الدعاء بعرفة، والبروز للشمس قربةً للمحرم، فدلَّ على أنه ليس كلُّ ما كان قربة في موطن يكون قربة في كل المواطن، وإنما يتبع في ذلك ما وردت به الشريعةُ في مواضعها.

وكذلك من تقرَّب بعبادة نُهي عنها بخصوصها، كمن صام يوم العيد، أو صلَّى في وقت النهي[٥].

---

(١) المرجع السابق ١/١٧٧.

(٢) سورة الفرقان، آية: ٢٣.

(٣) أخرجه البخاري ٦٧٠٤.

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير ١١٨٧١، والطحاوي في "مشكل الآثار" ٣/٤٤، والخطب البغدادي في الأسماء المبهمة ص ٢٧٤.

(٥) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١/١٧٨.

ثانياً- من أساليب الدعوة: الترهيب:

يستنبط هذا من عموم الحديث الذي يخبر عن إبطال جميع الأمور المنهية والتي لا أصل لها في الدين، وعدم حصول ثمرتها المترتبة عليها، إذ أنه ما بني على باطل فهو باطل، وما بني على غير أصل فلا بقاء له، وبهذا أشار النبي ﷺ أن أي شيء ليس له سند ظاهر أو خفي من الكتاب والسنة فهو عمل باطل مردود[(١)]، وبيان بطلان العمل وعدم وجود ثمرة له في حد ذاته ترهيب من التدخل في دين الله والاختراع فيه. وإن الترهيب والتخويف من عقاب الله وانتقامه ليس مقصوداً لذاته، وإنما هو سوط يساق به المتواني عن الطاعة إليها، فالمقصود الأصلي من الترغيب والترهيب هو طاعة الله عز وجل وفعل مراضيه ومحبوباته، وترك مناهيه ومكروهاته[(٢)].

ثالثاً- من مهام الداعي: بيان الحقائق للمدعوين:

إن رسول الله ﷺ هو الأسوة والقدوة الحسنة أرسله ربه هادياً إلى صراطه المستقيم ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[(٣)]، وفي هذا الحديث بيان منه ﷺ إلى المعتبر من الأعمال، وهو ما كان معتمداً على أصل ديني، أما من عمل، أو أحدث أو سن في الإسلام رأياً لم يكن له من الكتاب والسنة سند ظاهراً أو خفي ملفوظ أو مستنبط فهو مردود عليه[(٤)]. لذا ينبغي للداعية أن يجتهد في بيان الحقائق للمدعوين ولا يتوانى في ذلك متأسياً برسول الله ﷺ، لأن المدعو بحاجة إلى ذلك وتلك من المهام المنوطة بالداعية.

رابعاً- من خصوصيات النبي ﷺ جوامع الكلم:

إن الله تعالى حبا نبيه ﷺ بالنعم الكثيرة ومنها جوامع الكلم وخصه ببدائع

---

(١) انظر: عون المعبود، العظيم آبادي ص ٢٠٠٥.

(٢) التخويف من النار، ابن رجب الحنبلي ص ٤٠.

(٣) سورة الشورى، آية: ٥٢.

(٤) انظر: شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بـ "الكاشف عن حقائق السنن"، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار، وغيره ١/٢٩٤.

الحكم، وكما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ((بُعثتُ بجوامِع الكلم))[١]، قال الزهري: (جوامع الكلم أن الله يجمع له الأمور الكثيرة التي كانت تكتب في الكتب قبله في الأمر الواحد والأمرين ونحو ذلك، وجمع المعاني الكثيرة في الكليمات الجامعة الوجيزة، ومن هذه الجوامع حديث: "مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَـٰذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ"، ذلك الحديث والكلمات المعدودة، اعتبره العلماء أصلاً عظيماً من أصول الإسلام)[٢]، وقال النووي: (هذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الإسلام، وهو من جوامع كلمه ﷺ فإنه صريح في رد كل البدع والمخترعات)[٣]، إلى غير ذلك من النصوص التي تدلل على إعطاء النبي ﷺ (جوامع الكلم) وحاصله أنه ﷺ كان يتكلم بالقول الموجز القليل اللفظ الكثير المعنى[٤].

خامساً- من واجبات المدعو: الالتزام بما ورد في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ:

إن في مضمون ومفهوم هذا الحديث دعوة من النبي ﷺ إلى الالتزم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وقد أمرنا الله بذلك في مثل قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَـٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[٥]، أي ردوا ذلك الحكم إلى كتاب الله أو إلى رسوله بالسؤال في حياته، أو بالنظر في سنته بعد وفاته ﷺ، هذا قول مجاهد والأعمش وقتادة وهو الصحيح ومن لم ير هذا اختل إيمانه[٦]، إذ أن الاعتصام بالكتاب والسنة والالتزام بهما عاصم من الضلال والزلل فقال ﷺ: ((وإني قَدْ تَرَكْتُ فِيكُم ما لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ

---

(١) أخرجه البخاري ٢٩٧٧، ومسلم ٥٢٣.

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١/٥٥ - ٥٦.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١١٠٥.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٣/٥/٢٦٠.

(٥) سورة النساء، آية: ٥٩.

(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٣/٥/٢٦٠.

كِتَابَ الله))[١].

وفي هذا الحديث اقتصر على الكتاب لأنه مشتمل على العمل بالسنة لقوله تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾[٢]، وقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾[٣]، فيلزم من العمل بالكتاب العمل بالسنة [٤].

وفي حديث العرياض بن سارية يقول ﷺ: ((أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى الله وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْداً حَبَشِيًّا فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافاً كَثِيراً، فَعَلَيْكُم بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ))[٥]، قال مالك: قال عمر ابن عبدالعزيز: (سن رسول الله ﷺ وولاة الأمر من بعده سننا، الأخذ بها اعتصام بكتاب الله، وقوة على دين الله، وليس لأحد تبديلها، ولا تغييرها، ولا النظر في أمر خالفها من اهتدى بها فهو مهتد، ومن استنصر بها فهو منصور، ومن تركها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى، وأصلاه جهنم وساءت مصيرا)[٦].

---

(١) أخرجه مسلم ١٢١٨.

(٢) سورة آل عمران، آية: ٣٢.

(٣) سورة الحشر، آية: ٧.

(٤) عون المعبود، العظيم آبادي ص ٨٥٣.

(٥) أخرجه أبو داود ٤٦٠٧، والحديث صححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٨٥١).

(٦) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١٢٣/٢.

الحديث رقم (١٧٠)

١٧٠- وعن جابرٍ رضي الله عنه، قال: كان رسولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم، إذا خَطَب احمرَّتْ عيناه، وعَلا صوتُهُ، واشتدَّ غضبُهُ، حتَّى كأنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ يَقُولُ: «**صبَّحكُمْ ومسَّاكُمْ**» ويقُولُ: «**بُعِثْتُ أنَا والسَّاعةُ كهاتيْن**» ويَقْرنُ بين أُصْبُعَيْهِ السبابَةِ والْوُسْطَى، ويَقُولُ: «**أمَّا بَعْدُ، فإنَّ خيرَ الْحَديث كتابُ اللَّه، وخيْرَ الْهَدْى هدْيُ مُحمَّد صلى الله عليه وسلم، وشرَّ الأُمُورِ مُحْدثاتُها وكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ**» ثُمَّ يقُولُ: «**أنَا أوْلَى بُكُلِّ مُؤْمِنٍ منْ نَفْسِهِ. مَنْ تَرَك مالا فلأهْلِه، ومَنْ تَرَكَ دَيْناً أوْ ضَيَاعاً، فإليَّ وعَليَّ**» رواه مسلم[1].

وعنِ الْعِرْبَاض بن سَارِيَةَ رضي الله عنه، حَديثُهُ السَّابِقُ في بابِ الْمُحَافَظةِ عَلَى السُّنَّةِ[2].

ترجمة الراوي:

جابر بن عبدالله الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

العرياض بن سارية: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٥٧).

غريب الألفاظ:

منذر جيش: المنذر: المعلم الذي يعرف القوم بما يكون قد دهمهم من عدّو أو غيره وهو المخوف أيضاً[3].

أولى: أفعل تفضيل بمعنى الأحق والأجدر والأقرب[4].

ضياعاً: الضياع: العيال وأصله مصدر ضاع يضيع ضياعاً، فسمى العيال بالمصدر كما تقول: مات وترك فقراً: أي فقراء[5].

---

(١) برقم (٨٦٧/٤٣). أورده المنذري في ترغيبه (٧٥).

(٢) تقدم برقم ١٥٧.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ن ذ ر).

(٤) الوسيط ١٠٥٧.

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ض ي ع).

الشرح الأدبي

إن للخطابة أهمية قوية وتأثيرية في الإسلام، وهي فن أدبي يقصد به إلى التأثير في نفوس المتلقين عن طريق مخاطبة قلوبهم وعقولهم، وللخطيب أدوات تأثيرية: في مقدمتها جذب انتباه السامعين، وإيقاظ ضمائرهم، وإثارة مشاعرهم بما يلقيه الخطيب من عبارات لها إيقاعها المؤثر في صياغتها وفي نسيج كلماتها وحروفها، وفي طريقة إلقائها، وفي تلوين الصوت جهراً وهمساً، وعلواً وانخفاضاً وغير ذلك من وسائل تأثيرية متعددة، وتتسم خطابة المصطفى ﷺ، بالدقة والوضوح وعدم المبالغة، فالخطبة نسيج متلاحم من الفكر التشريعي الواضح على هدى التعاليم القرآنية.

وفي ضوء هذه الخصائص الأدائية لفن الخطابة نقرأ هذا النص النبوي البليغ وهو يصور شدة هول انتظار الساعة، فهي كما قال الله عز وجل: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُ﴾[1].

وبلاغة الحديث هنا ليست بلاغة قولية فقط.. ولكنها بلاغة توصيل، وبلاغة مراعاة مقتضى الحال، ومع بلاغة الكلمة تبهرنا بلاغة الإشارة، وبلاغة الهيئة وملامح الوجه التي تفصح عن الخطر، وتجسّد الإشفاق على الأمة من أهوال يوم القيامة، أنا والساعة كهاتين، ويقرن بين أصبعيه: السبابة والوسطى.

ولنتأمل بداية الحديث: حيث يبدأ بوصف الراوي: لحال الرسول ﷺ وهيئته وهو يخْطب في سياق تذكيره للناس بيوم القيامة، وهذا الوصف يركز على الصفات الحسّية، ثم يسوق صورة بيانية وهي في إطار التشبيه التمثيلي توضيحاً للموقف، وجلاءً للصورة، وتأكيداً للرهبة والخشية.

ويأتي وصف هيئة الرسول ﷺ في صيغة شرطية وأداة الشرط "إذا" وجواب الشرط يتضمن ثلاث جمل تتآزر في تشكيل ملامح الهيئة التي كان عليها رسول الله وقت

---

(١) سورة النحل، آية: ٧٧ .

الخطبة، وهذه الهيئة تجسد تأثره بالموقف وانفعاله به، وحرصه الشديد على نجاة أمته.

كان رسول الله ﷺ إذا خطب: احمرت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه، وقال العلماء في تعليل هذا التغير، لما يتجلى على رسول الله ﷺ من بوارق الجلال، ولوامع أضواء الأنظار، وشهود أحوال أمته، وتقصير أكثرهم في امتثال ما يصدر عنه.

وتأتي الصورة التشبيهية لتوضيح هذا الموقف، ولتقريبه إلى الأفهام، حيث يصور ويمثل حاله ﷺ -في إنذاره بمجيء القيامة وقرب وقوعها، وتهالك الناس فيما يؤذيهم- بحال من ينذر قومه عند غفلتهم بجيش قريب منه، وهو يحذرهم قائلاً صبحكم العدو مغيراً عليكم ومساكم كذلك.

فكما أن هذا لشدة اعتنائه بحال قومه يرفع صوته، وتحمّر عيناه، ويشتد غضبه من تغافلهم عما يستأصلهم ويهلكهم. كذلك حال رسول الله ﷺ لشدة حرصه على أمته، وعظم رأفته ورحمته بهم، وخوفه عليهم من الساعة وأهوالها[1].

وبعد هذه المقدمة التوضيحية التي أضاء بها "الراوي" جو الحديث ومهّد لكلام رسول الله ﷺ نجد المصطفى ﷺ، يجمع في حديثه بين خاصيتين بلاغيتين وهما: بلاغة القول، وبلاغة الإشارة، فيقول مشيراً إلى قرب قيام الساعة: "بعثت أنا والساعة كهاتين، ويقرن بين أصبعيه: السبابة والوسطى" ويقول: أما بعد: "والإشارة في الحديث فكر وفن، وقد أشار إلى ذلك، هند بن أبي هالة في سياق وصفه لمنطق رسول الله ﷺ حيث قال: إذا أشار.. أشار بكفه كلها، وإذا تعجب قلبها، وإذا تحدث اتصل بها، فضرب بإبهامه اليمنى راحته اليسرى، وإذا غضب أعرض وأشاح، وإذا فرح غض طرفه.

فالإشارة في الحديث النبوي كانت أحياناً بديلاً من اللغة، وليست وليدة اختناق الفكرة.

وللإشارات والحركات والأفعال دلالة عميقة في إيضاح المعاني، وترسيخها في النفس، ودارس الحديث النبوي يرى من ذلك الشيء الكثير الذي يدل على اهتمامه

---

(١) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٣٧٤-٣٧٥.

البالغ ﷺ بوسائل الإيضاح في تعليم أمته، وشغل الحاسّة مع العقل.

وبَعْد هذا التوضيح والتصريح مع الإشارة البليغة في قوله: بعثت أنا والساعة كهاتين (السبابة، والوسطى) يرشد النبي الكريم ﷺ أمته إلى طريق النجاة، ويدلهم على المعالم الصحيحة لهذا الطريق، وفي إشارته عَبْر هذه الصيغة، "ويقرن بين أصبعيه السّبابة والوسطى" تلميح وإيحاء: بأنه ليس هناك نبي بينه وبين الساعة، فهو خاتم الأنبياء، كما أن ليس هناك أصبع بين السبابة والوسطى -كما يقول القاضي عياض- وفي ذلك توجيه وإنذار إلى كل عاقل مكلف بضرورة الإيمان بالله ورسوله ﷺ، فهو خاتم النبيين وإمام المرسلين.

وهذه هي الإشارة الضوئية الكبرى على طريق النجاة، ثم يُفصِّل المصطفى ﷺ هذه المعالم والإشارات بَعْد الإبهام والإجمال. فيقدم خمس جمل مؤكدة، وكلها تشدد على ضرورة التمسك بالكتاب والسنة، والابتعاد عن مهاوي البدع، ومزالق الانحرافات، وتبدأ الجملة مؤكدة بإن، ثم تعطف عليها بقية الجمل مع حذف "إن"، ولكن يظل التوكيد سارياً في نسيج الكلمات، وترتيب الجمل يتسم بالتناسق ومراعاة البدء بالكتاب ثم السنة، ثم التنفير من كل ما يخالفهما، وفي مقدمة ذلك المحدثات في الدين، والبدع في المعتقدات والعبادات.

وبناء الجمل في هذا الجزء من الحديث فيه تناسق وجمال في الجملتين الأوليين، وكأن هذا التناسق اللغوي البديع صورة لتناسق العقل المؤمن، والقلب السليم: في استقبالهما لآيات الكتاب الكريم، والهدى النبوي الحكيم.

واختلف التناسق اللغوي في قوله: "وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة": لأن هيأة المعاني تغيرت، وملامح المضمون تبدلت، ولذلك لم تتماثل الصيغ اللغوية، ولم تتوافق إلا في التأكيد وبناء الهيكل اللغوي، المكون من "إن" المحذوفة واسمها وخبرها.

ومن أسرار التعبير وجمالياته: كلمة "الهدى"، حيث قال العلماء إنها ترد على وجهين في النطق حسب الضبط: فإن قلنا "إن الهَديْ هَدْيُ محمد" بفتح الهاء وسكون الدال، فالمعنى: أحسن الطرق طريقه، والهَدْي هنا معناه الطريق، وإذا قلنا "الهُدي" بضم

الهاء، فمعناه الدلالة والإرشاد، وهو الذي يضاف إلى الرسل والقرآن والعباد.

ثم يُتّوج الحديث بخاتمة حاسمة جازمة تتضمن ثلاث جمل مشعة ببوارق النجاة، وأضواء النبوة، ووجوب اتباع المصطفى الحبيب، وما أجمل هذا التكليف الذي نأى عن صيغة الأمر حيث يقول الرسول، "أنا أولى بكل مؤمن من نفسه".

وليس المراد شخص محمد ﷺ ولكن تعاليمه وسنته، والاقتداء به، وحبّه الذي يؤكد حرص المؤمن على طاعة الله وطاعة رسوله، ولنتأمل كرمه عليه السلام حين قال: "من ترك ديناً أو ضياعاً -أي عيالاً- فإليّ وعليّ"، أي يقضى الدين ويعول الأبناء، وأما من ترك مالاً فلأهله، فورثته أحق به، وليس بعد هذا حرص على مصلحة الأمة، ولا غرو فهو الرحمة المهداة.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى أكثر من حكم فقهي:

الأول: حكم قضاء دين الميت من بيت المال[1]، فقد اختلف الفقهاء في قضاء دين الميت من بيت المال إن لم يكن في ماله وفاء تبعاً لاختلافهم في قضاء رسول الله ﷺ لأموال المدين الميت، فقد قيل كان يقضيه من سهم المصالح، وقيل كان يقضيه من ماله الخاص، فمن قال بالأول قال يقضي من بيت المال، ومن قال بالثاني قال لا يقضي من بيت المال، وهل القضاء كان واجباً عليه؟ وجهان، قال ابن بطال: وهكذا يلزم المتولي لأمر المسلمين أن يفعله بمن مات وعليه دين، فإن لم يفعل فالإثم عليه إن كان حق الميت في بيت المال يفي بقدر ما عليه وإلا فبقسطه.

الثاني: حكم البدعة، وقد سبق الكلام عنها تفصيلاً في الحديث رقم (١٥٧).

---

(١) شرح الخرشي ١٥٩/٣، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٣٩٦/٣، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين بن الحسن ٢٢٨/٦، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٥/٦، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، الإمام الشوكاني ٢٨٤/٥، وسبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، إسماعيل الصنعاني ٨٩/٢.

الثالث: انتقال تركة الميت إلى أهله بعد قضاء الديون، وقد اتفق الفقهاء[(١)] على أن تركة الميت تنتقل إلى الورثة بوفاة المورث بما لها وما عليها من ديون، وأن أول ما يستخرج من التركة بعد تجهيز الميت ودفنه ديون الميت، ثم وصاياه، ثم يوزع الباقي على الورثة حسب الأنصبة المقررة شرعاً.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: اهتمام الصحابة ﷺ بتتبع أحوال النبي ﷺ.

ثانياً: من وسائل الدعوة: الخطبة.

ثالثاً: من صفات الداعي: التفاعل مع قضايا الدعوة.

رابعاً: من أساليب الدعوة: الإنذار.

خامساً: من وسائل الدعوة: الإشارة.

سادساً: من موضوعات الدعوة: قرب قيام الساعة.

سابعاً: من موضوعات الدعوة: وجوب التمسك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ثامناً: من موضوعات الدعوة: بيان خطر البدع والأمور المستحدثة.

تاسعاً: من خصائصه ﷺ: أنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم.

أولاً- من موضوعات الدعوة: اهتمام الصحابة ﷺ بتتبع أحوال النبي ﷺ:

اهتم الصحابة ﷺ بكل ما صدر عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو ما يظهر على ملامحه ﷺ من آثار الانفعالات النفسية وغيرها كاشتداد الغضب وغيره، وفي الحديث نجد أن الراوي سجل كل ما رآه من ذلك كاحمرار العين (واحمرت عيناه"، وكعلو الصوت "وعلا صوته" واشتداد الغضب "واشتد غضبه" ونبرة صوته

---

(١) تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، الزيلعي٦/٢٣٠، وتكملة البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٨/٥٥٦، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٦/٤٠٦ وما بعدها، وشرح منح الجليل ٩/٥٩٣، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي ٦/٣ وما بعدها، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٤/٧ وما بعدها، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٢/٥٠٠، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٤/٤٠٣ وما بعدها.

"كأنه منذر حرب"، وإشارته "أنا والساعة كهاتين" وحركة الأصابع المشار بها "ويقرن بين أصبعيه" إضافة إلى حفظه لكلماته ﷺ وذلك كله من بالغ اهتمام الصحابة رضي الله عنهم برسول الله ﷺ.

ثانياً- من وسائل الدعوة: الخطبة:

لقد استعمل النبي ﷺ الخطبة في نشر الدعوة لكثرة فائدتها وعظيم جدواها ذلك أن الخطابة علم من العلوم المهمة التي تساعد على الاتصال الجماعي، وكانت الخطبة من أبرز الوسائل التي استعملها النبي ﷺ بعد الجهر بالدعوة مباشرة حين صعد على الصفا[(١)]، دلالة على اهتمامه ﷺ بالخطبة، لأنها من وسائل الاتصال مع المدعوين أو المخاطبين؛ لأن الخطبة تتنوع بتنوع موضوعها، ومن أبرز مجالاتها: مجال الدعوة إلى الله تعالى.

ثالثاً- من صفات الداعي: التفاعل مع قضايا الدعوة:

يتضح ذلك من تفاعل النبي ﷺ مع خطبته، حيث ظهر أثر ذلك على ملامحه ﷺ، حيث احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه" لما يتجلى عليه من بوادر الجلال ولوامع أضواء الإنذار حتى يبدو "كأنه منذر جيش"، أي مخبر بجيش العدو الذي يخاف[(٢)]، لذا ينبغي على الداعي أن يتفاعل مع القضايا التي يعالجها لما لذلك من آثار إيجابية على المدعوين، مما يدل على حضور الداعية وتأثره بالموضوع الذي يتناوله.

رابعاً- من أساليب الدعوة: الإنذار:

إن لأسلوب الإنذار أثرًا فاعلاً في الدعوة إلى الله تعالى، وقد استعمل النبي ﷺ هذا الأسلوب في إنذاره بمجيء القيامة وقرب وقوعها وتهالك الناس فيها بحال من ينذر قومه عن غفلتهم بجيش قريب منه يقصد الإحاطة بهم بغتة "حتى كأنه منذر جيش، يقول في إنذاره صبحكم ومساكم العدو مغيراً عليكم"[(٣)].

---

(١) انظر: الدعوة الإسلامية "أصولها ووسائلها"، د. أحمد غلوش ص ٤١٩ - ٤٢٠.

(٢) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٣٢٢.

(٣) انظر المرجع السابق ص ٣٢٢.

خامساً- من وسائل الدعوة: الإشارة:

لا شك أن وسيلة الإشارة من الوسائل التي تعين على بيان المعاني وإيصالها للمدعو لذا كان النبي ﷺ يستعين بالإشارة والحركة فإذا أشار: أشار بيده، وإذا تعجب قَلَبَها وإذا تحدث اتصل بها فضرب بإبهامه اليمنى راحته اليسرى وإذا غضب أعرض وأشاح وإذا فرح غض طرفه[(١)].

سادساً- من موضوعات الدعوة: قرب قيام الساعة:

وقد أشار النبي ﷺ إلى ذلك في الحديث "بعثت أنا والساعة كهاتين"، قال القاضي عياض: "يحتمل أنه تمثيل لمقاربتهما وأنه ليس بينهما إصبع أخرى كما أنه لا نبي بينه وبين الساعة، ويحتمل أنه لتقريب ما بينهما من المدة وأن التفاوت بينهما كنسبة التفاوت بين الإصبعين تقريباً لا تحديداً"[(٢)].

سابعاً- من موضوعات الدعوة: وجوب التمسك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ:

لقد أمرنا الله تعالى بالتمسك بالكتاب والسنة في كثير من الآيات منها قوله: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾[(٣)]، وقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾[(٤)].

وبين النبي ﷺ في الحديث: أن خير ما يهتدى به هو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ "فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ، لأن في التمسك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ عصمة من الضلال والزلل، وفلاح ونجاح في الدنيا والآخرة؛ لأن الكتاب والسنة بيّنا المنهج الصحيح الذي يجب أن يتبعه المؤمنون، والذي من خلاله تتحقق طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ.

---

(١) الدعوة الإسلامية "أصولها ووسائلها"، د. أحمد أحمد غلوش ص ٤٢١.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٦٦.

(٣) سورة النور، آية: ٥٤.

(٤) سورة الحشر، آية: ٧.

ثامناً- من موضوعات الدعوة: بيان خطر البدع والأمور المستحدثة:

لقد بيّن النبي ﷺ خطورة الأمور المستحدثة والبدع في قوله "وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة" ومن ضروب خطورة البدع:

أ. الابتداع ضلالة، قال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ (١).

ب. الابتداع خروج عن اتباع النبي ﷺ وقد أمرنا باتباعه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ (٢).

جـ. الابتداع تفريق للأمة الإسلامية، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ (٣).

د. الابتداع طعن في الإسلام، فكأن الإسلام لم يكمل، وكمل بالبدع، كيف؟ وقد قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (٤).

هـ. الابتداع إعراض عن تحكيم الكتاب والسنة، واتباع الأهواء وتحكيم الأهواء لها، إذ أن الواجب كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ (٥)(٦).

تاسعاً- من خصائصه ﷺ: أنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم:

لقد صرح النبي ﷺ بذلك في الحديث "أنا أولى بكل مؤمن من نفسه" وقد علم الله تعالى شفقة رسوله ﷺ على أمته ونصحه لهم، فجعله أولى بهم من أنفسهم،

---

(١) سورة يونس، آية: ٣٢.

(٢) سورة آل عمران، آية: ٣١.

(٣) سورة الأنعام، آية: ١٥٩.

(٤) سورة المائدة، آية: ٣.

(٥) سورة النساء، آية: ٥٩.

(٦) انظر: شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين ١/٤٤٥ - ٤٤٧.

فحكمه فيهم مقدماً على اختيارهم لأنفسهم وجعله متكفلاً بفقرائهم وضياعهم، فقال ﷺ: "ما من من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة اقرءوا إن شئتم: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [1] فأيما مؤمن ترك مالاً فليرثه عصبته من كانوا فإن ترك ديناً أو ضياعاً فليأتني فأنا مولاه"[2][3]، قال الطاهر بن عاشور: "النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم، أي أولى بكل مؤمن من نفس ذلك المؤمن، أي هو أشد ولاية أي قرباً، وهو قرب معنوي يراد به آثار القرب من محبة ونصرة"[4]، فإذا كان الأمر كذلك فواجب على المؤمنين أن يكون رسول الله ﷺ أحب إليهم حتى من أنفسهم، وأن يكون حكمه أنفذ عليهم من حكم أنفسهم، وحقه أثبت لديهم من حقوق أنفسهم، وتكون أنفسهم فداء له، وأجسامهم وقاية له من كل شر"[5].

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٦.

(٢) أخرجه البخاري ٤٧٨١.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٦/ ٣٨٠.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ٨/٢١/ ٢٦٦.

(٥) انظر: التفسير الواضح، د. محمد محمود حجازي ٣/٢١/ ٧٢.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

من الآداب التربوية في هذا الباب:

أولاً: لم يلق رسول الله ﷺ ربه حتى نزل عليه قول الحق سبحانه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [سورة المائدة:٣]..

وقد أخذ الرسول ﷺ من الصحابة إقراراً وضحاً بيناً في حجة الوداع حين قال: (وإني مسؤول عنكم فماذا أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد إنك بلغت وأديت).

فنحن أمام دين كامل تام من حيث التلقي والكمال والبلاغ، كلمة اليوم ليست قاصرة على يوم التنزيل أو يوم التلاوة، بل كل يوم تتلى فيه هذه الآية هي مرادة في معناها، وكأن القرآن الكريم ينطق صباح مساء كل يوم بهذه الآية: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [سورة المائدة:٣].

وإذا كان الدين قد كمل، والنعمة قد تمت فما علينا بعد إلا الاتباع لا الابتداع، وكل من رأى شيئاً يضاف إلى الدين، فقد افترى على الله كذباً، وخرج من ربقة الإسلام، لأنه يصف الله بهذه الصورة أو بهذا المعتقد وهو الجهل فضلاً عن مصادمته لنص القرآن.

والرسول ﷺ قد جمع في أحاديث الباب بين التعليم بالقول وبين استخدام الإشارة كوسيلة إيضاح ولم تكن الوسيلة من العجائب أو الغرائب، بل فرق بين إصبعيه السبابة والأوسط.

ثانياً- مصادر التربية الإسلامية: الكتاب والسنة:

ويبدو ذلك من قوله ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا...»، وقوله: «فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّه. وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَىُ مُحَمَّدٍ ﷺ». وفي ذلك توجيه من النبي ﷺ بالتزام كتاب الله وسنته؛ لأن فيهما النجاة والهدي في الدنيا والآخرة، وينبغي أن يهتم المربون بغرس هذه القيمة الجليلة في نفوس المتربين؛ وهي الاهتداء بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ؛ حتى لا تتنازعهم السبل وما أكثرها؛ ذلك بأن المصدرين لم يتركا صغيرة

ولا كبيرة في حياة المؤمن إلا أوردها.

فالقرآن الكريم منبع هداية وإرشاد، ويحتوي على آيات تهدي للحق، وتعاليم تعمق الوعي الأخلاقي، وتدعم القيم والمسئولية الاجتماعية، وتزكي النفوس، وتحقق سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة...، وتعد السنة النبوية التطبيق العملي للقرآن الكريم في مجال التربية وفي غيرها من مجالات حياة المسلمين أفراداً وجماعات، لذا يرجع إليها المربون المسلمون عند تحديد أهداف التربية لصياغة الغايات النهائية والأهداف التربوية للتربية الإسلامية[١].

ثالثاً- التربية بالموعظة:

لقد كان ﷺ القدوة والمثل في أداء الخطبة، وقد روى جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا خَطَبَ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ، وَعَلاَ صَوْتُهُ، ... حَتَّىٰ كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ، ...»، وفي ذلك دليل على قوة تأثير خطابته على المتلقين، بل إنهم ليشعرون أنهم يكادون يلقون الجيش، أو أن الأمر عظيم يكاد يحدق بهم.

والموعظة الحسنة من الأساليب التربوية الناجحة ذات الدور الكبير في التربية والإعداد والتوجيه وتصويب السلوك شريطة أن تكون بالأسلوب المحبب والوجه المقبول، فيستعمل التبشير والوعد بالخير مع النفوس المقبلة، ويستعمل الإنذار والوعيد مع النفوس المعرضة المدبرة[٢].

إن الخطيب القدير يصف الليل وصف الظهيرة فتحس أنك تحت أما الدجى، وتحت أجنحة الدياجير، ويصف النهر فتلمس ثياباً وأن تبتل وأنت ناد عن النهر، ويصف جيش الأعداء البعيد فتنظر إلى مطالع الجبال كأن الطلائع أقبلت والكتائب دنت[٣].

تلك هي براعة النبي ﷺ في موعظته لصحابته الكرام، وتربيته إياهم بالموعظة، ولقد استخدم إلى جانب هذه الإشارات الجسدية «احمرار العين، وعلو الصوت،

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. محمد شحات الخطيب وآخرون ص ٥١، ٥٢.

(٢) أساليب الدعوة والتربية، زياد العاني ص ٣٨١.

(٣) هكذا حدثنا الزمان، عائض القرني ص ٢٣٣.

واشتداد الغضب»، استخدم الإشارة بيده أيضاً، فكان يقرن بين إصبعيه السبابة والوسطى، ويقول: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ»، وذلك استحضار للصورة أمام المتلقين، حتى يشعروا أن الساعة قد ألمت بهم، وتأكيداً على دنوها منهم، وبعثته في آخر الزمان.

إشارته بيده بهذا الشكل تعد وسيلة، تعليمية وتربوية، لها فائدة تتمثل في تقريب مستويات الخبرة للمتلقي، وتوفر الأساس المادي المحسوس للتفكير، وتقلل من أخطار التعلم اللفظي وتثير اهتمام المتربي، وتجعل الخبرات مترسخة[١].

وقد كان لحركته وإشاراته موضع كبير في إجادة الأداء، فحركته معبرة تلفت النظر، وتنبه الغافل، وتعين على الحفظ والتذكر، وعلى ذلك فاستخدام الرسول ﷺ للحركات المعبرة وسيلة تعليمية إنما لأنها أوقع في نفس السامع، وقد كان استخدام ﷺ للحركات المعبرة على عدة صور، من أهمها: تغير ملامح وجهه وتغير جلسته، والإشارة بالأصابع والإشارة باليد[٢].

رابعاً- من أهداف التربية الإسلامية: تحقيق التكافل الاجتماعي:

وقد أرسى النبي ﷺ هذا المبدأ، عندما قال: «مَنْ تَرَكَ مَالاً فَلأَهْلِهِ، وَمَنْ تَرَكَ دَيْناً أَوْ ضَيَاعاً فَإِلَيَّ وَعَلَيَّ»، وفي هذا الحديث يؤسس ﷺ لواجب من واجبات ولي الأمر، التي يجب عليه التزامها؛ لأنها من واجباته الأساسية؛ ذلك الواجب هو كفالة اليتامى، بتسديد ديونهم، ورعايتهم والقيام عليهم، وليست هذه الرعاية من أجل منفعة عاجلة أو آجلة؛ بل إن من ترك أبناءه أغنياء فليس على ولي الأمر إلا حماية أموالهم، حتى يتسلموها حال كبرهم تامة غير منقوصة.

وقد عد الماوردي حفظ حقوق العباد ورعاية أموالهم من الواجبات الأساسية، التي يلزم الخليفة أو الإمام القيام بها؛ "لِتُصَانَ مَحَارِمُ اللَّهِ عَنْ الانْتِهَاكِ، وَتُحْفَظَ حُقُوقُ عِبَادِهِ مِنْ الإِتْلافِ وَالاسْتِهْلاكِ"[٣].

---

(١) طرق تدريس التربية الإسلامية، د. هدى الشمري ص ١٣١ بتصرف.

(٢) الوسائل التعليمية في القرآن والسنة والآثار عن الصحابة، د. عبدالرحمن بن محمد بلعوص العدد ١٣ ص٤٦٣.

(٣) الأحكام السلطانية، أبو الحسن الماوردي ص ١٦.

خامساً- التربية بالانفعال والحركات المعبرة:

ليس بالكلام المباشر وحده يوصل المربي المبادئ والمعلومات إلى نفوس المتربين؛ بل إن هذا الخطاب يحتاج إلى مدعمات سياقية، ليست لفظية، ولكنها حالية، تتعلق بحالة المربي أثناء أداء المعلومات إلى المتربين، ومن ذلك ما رود عن النبي ﷺ أنه كان «إِذَا خَطَبَ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ، وَعَلاَ صَوْتُهُ، وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ. حَتَّىٰ كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ»، إن احمرار العين وعلو الصوت واشتداد الغضب، وظهور المربي على هذه الحال المنفعلة أثناء الأداء يصبغ الحديث بصبغة الجدية، ويجعل نفوس المتلقين تستعد لكل ما يقال، وتستبين أهميته، بل إن ذلك له أكبر الأثر في تركيز المتربين واستيعابهم كل ما يقال.

إن أداء الخطاب يحتاج إلى استخدام هذه الأدلة الجادة في التربية؛ لأن المربي إذا وقع انفصال بين خطابه وبين حالته الشعورية -كأن يرهب المتربين من عاقبة ترك الصلاة وهو يبتسم أو يضحك- يورث في نفوس طلابه عدم الاقتناع بما يقول، وبالتالي إهماله، وهذا مؤداه أن يذهب جهده سدى لا جدوى من ورائه.

وهذه الطريقة في الأداء تؤدي إلى نجاح العملية التربوية؛ لأن التفاعل التربوي يمثل عنصراً مهماً في العملية التعليمية؛ حيث يعكس العمق والحيوية التي تكتسبها المعلومات والخبرات المنقولة للمتعلم، ويعكس المدى البعيد لأثر المتربي استيعاباً وتطبيقاً، هذا إضافة إلى الإسراع في العملية التربوية، بدون التفاعل بفقد المعلم صفته التربوية الإنسانية ويتحول إلى موظف رسمي لا فرق بينه وبين الموظف الذي يتعامل مع الأوراق والمعاملات اليومية[1].

❁ ❁ ❁

(١) علم النفس الدعوي، د. عبدالعزيز طه النغيميشي ص ٢٥٣ بتصرف يسير.

١٩- باب فيمن سن سنة حسنة أو سيئة

قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[الفرقان: ٧٤]، وَقالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾[الأنبياء: ٧٣].

الحديث رقم (١٧١)

١٧١- عَنْ أَبَي عَمرٍو جَرير بنِ عبدِ اللّه رضي الله عنه، قال: كُنَّا فِي صَدْرِ النَّهارِ عِنْد رسولِ اللّه ﷺ فَجاءهُ قومٌ[(١)] عُراةٌ مُجْتابي النِّمار أَو الْعَباءِ. مُتَقلِّدي السُّيوفِ عامَّتُهمْ (بل كلهم)[(٢)] مِنْ مُضرَ، فَتمعَّر وجهُ رسولِ اللّه ﷺ، لِما رَأَى بِهِمْ مِنْ الْفَاقة، فدخلَ ثُمَّ خرج، فَأَمر بلالًا فَأَذَّن وأَقَامَ، فَصلَّى ثُمَّ خَطبَ، فَقالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الناسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الذي خلقكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدةٍ﴾ إِلَى آخرِ الآية: ﴿إِنَّ اللّه كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾، وَالآيةُ (الأُخْرَى)[(٣)] الَّتِي فِي آخرِ الْحشْرِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمنُوا اتَّقُوا اللّه ولْتنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمتْ لِغَدٍ﴾ تَصدَّق رَجُلٌ مِنْ دِينارِهِ مِنْ دِرْهَمهِ مِنْ ثَوْبِهِ مِنْ صَاع بُرِّه مِنْ صَاعِ تَمرِه حَتَّى قَالَ: وَلَوْ بِشقِّ تَمْرةٍ. فَجاءَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كادتْ كَفُّهُ تَعجزُ عَنْهَا، بَلْ قَدْ عَجزتْ، ثُمَّ تَتابَعَ النَّاسُ حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثيابٍ، حتَّى رَأَيْتُ وجْهَ رسولِ اللّه ﷺ، يَتهلَّلُ كَأَنَّهُ مذْهَبَةٌ، فقال رسولُ اللّه ﷺ: «**مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلام سُنةً حَسنةً فَلَهُ أَجْرُهَا، وأَجْرُ منْ عَملَ بِهَا مِنْ[(٤)] بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ ينْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيءٌ، ومَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً سيِّئةً كَانَ عَليه وِزْرها وَوِزرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بعْده، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزارِهمْ شَيْءٌ**» رواه مسلم[(٥)].

---

(١) عند مسلم زيادة (حفاة)، وليست عند الحميدي فلم يوردها المؤلف.

(٢) قوله: (بل كلهم) لا يوجد في الصحيحين، وهو عند الحميدي في جمعه (٣٢٧/١، رقم ٥٠٦)، وكذا عند المنذري في ترغيبه.

(٣) الزيادة لا توجد عن مسلم.

(٤) (من) لا توجد عند مسلم.

(٥) برقم (١٠١٧/٦٩). أورده المنذري في ترغيبه (٩٤).

قَوْلُهُ: «مُجْتَابي النِّمارِ» هُو بالجيمِ وبعد الألِفِ باء مُوَحَّدَةٌ. والنِّمَارُ: جمْعُ نَمِرَة، وَهِيَ: كِسَاءٌ مِنْ صُوفٍ مُخَطَّط. وَمَعْنَى «مُجْتابيها» أَي: لابِسِيهَا قَدْ خَرَقُوهَا فِي رؤوسهم. « والْجَوْبُ »: الْقَطْعُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ أَيْ: نَحَتُوهُ وَقَطَعُوهُ. وَقَوْلُهُ «تَمَعَّرَ» هو بالعين المهملة، أَيْ: تَغَيرَ. وَقَوْلُهُ: «رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ» بفتح الكاف وضمِّها، أَيْ: صَبْرتَيْنِ. وَقَوْلُهُ: «كَأَنَّه مَذْهَبَةٌ» هو بالذال المعجمةِ، وفتح الهاءِ والباءِ الموحدة[1]، قَالَهُ الْقَاضي عِيَاضٌ[2] وغَيْرُهُ. وصَحَّفَه بَعْضُهُمْ فقَالَ: «مُدْهُنَةٌ» بدَال مهملةٍ وضم الهاءِ وبالنون، وَكَذَا ضَبَطَهُ الْحُمَيْدِيُّ[3]، والصَّحيحُ الْمَشْهُورُ هُوَ الأَوَّلُ. وَالْمُرَادُ بِهِ عَلَى الْوَجْهَيْنِ: الصَّفَاءُ وَالاسْتِنَارَةُ.

ترجمة الراوي:

جرير بن عبدالله البجلي: هو الشَّليل بن مالك بن قسر اليماني.

وهو سيِّدُ قبليته، كان إسلامه قبل السنة العاشرة من الهجرة، وقد بايع النبي ﷺ على النصح لكل مسلم ((فما حجبه النبي ﷺ عن ذلك، ولا رآه ﷺ إلا تبسّم في وجهه))[4]، وقد بسط له النبي ﷺ عرض ردائه، وقال: "على هذا يا جرير فاقعد"، وقال النبي ﷺ عنه لأصحابه: ((إذا جاءكم كريم قوم فأكرموه))[5]، وقال ﷺ: ((يدخل عليكم من هذا الباب أو من هذا الفجّ، رجلٌ من خيرِ ذي يَمَن، على وجههِ مسحةُ ملك))[6] وقال له النبي ﷺ ((ألا تكفيني ذا الخلصة؟ -وهي الكعبة اليمانية التي كانت باليمن وقيل إنها اسم الصنم نفسه- فقال جرير: يا رسول الله إني رجل لا أثبتُ على الخيل، فصكَّ رسول الله ﷺ في صدره، وقال ((اللهم ثبِّته،

---

(١) الترغيب والترهيب، المنذري (١١٣/١).

(٢) مشارق الأنوار (٣٣٩/١).

(٣) الجمع بين الصحيحين (٣٢٧/١).

(٤) أخرجه البخاري ٣٨٢٢، ومسلم ٢٤٧٥.

(٥) مجمع الزوائد للهيثمي، ٣٧٢/٩.

(٦) أخرجه أحمد ٣٦٠/٤ رقم ١٩١٨٠، وقال محققو المسند: إسناده صحيح ٣١/٥١٦.

واجعله هاديًا مهديًا)) فقال جرير: فخرجت في خمسين من قومي فأتيناها، فأحرقناها[1].

وكان رضي الله عنه حسن الصورة، قال فيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه: جرير يوسف هذه الأمة، وقال له: يرحمك الله، نِعْمَ السيد كنتَ في الجاهلية، ونعم السيد أنت في الإسلام، وقدّمه عمر بن الخطاب في حروب العراق على جميع جيله وقد نهى علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن سب جرير رضي الله عنه وقال، جرير منّا أهل البيت وقد سكن الكوفة، وأرسله عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه إلى معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، فلما وقعت الفتنة بين الرجلين -عليهما الرضوان- خرج جرير إلى قرقيسيا، وسكن بها حتى مات.

وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث بلغت نحو مائة حديث. وتوفي سنة ٥٤هـ، وقيل ٥١هـ[2].

غريب الألفاظ:

صدر النهار: أوله[3].

مجتابي النمار: فسّرها النووي[4].

العباء: كساء مشقوق واسع بلا كمين يلبس فوق الثياب[5].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٢٠) ومسلم (٢٤٧٦).

(٢) الطبقات الكبرى، ابن سعد (٢٢/٦)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي (١٨٥-١٨٦)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر (١٢٠-١٢١)، وتهذيب الكمال في أسماء لرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس، ومجدي السيد أمين (٤٤٥/١-٤٤٧)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٢٩٦/١-٢٩٧)، وسير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط (١٢٨٩/١-١٢٩٠)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٥٢٩/١-٥٣٠)، وموسوعة عظماء حول الرسول (٥٦٢/١-٥٦٤).

(٣) القاموس المحيط، الفيروزآبادي في (ص د ر).

(٤) رياض الصالحين ١١٩.

(٥) الوسيط في (ع ب أ).

تمعَّر: فسَّرها النووي[١].

الفاقة: الحاجة والفقر[٢].

ديناره: الدينار: عملة نقدية من الذهب ووزنها ٤,٢٥ جرامًا[٣].

درهمه: الدرهم: قطعة نقدية من الفضة ووزنها ٢,٨١٢ جرامًا. أي ما يزيد قليلًا عن ثلاثة جرامات من الفضة إلا ربعًا[٤].

صاع: الصاع: وحدة من وحدات المكاييل وهو عند جمهور العلماء يساوي ٢١٧٢ جرامًا، أي ما يقل قليلًا عن الكيلو جرامين والربع[٥].

بره: البر -بالضم- القمح[٦].

صُرّة: ما يجمع فيه الشيء ويشد[٧].

كومين: فسَّرها النووي[٨].

كأنه مُذهبة: فسَّرها النووي[٩].

الشرح الأدبي

إن المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل البنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا؛ ومن أضواء هذا الحديث المشعة بالرحمة والبر والتعاون نقتبس كثيرًا من الدروس الحياتية، والخبرات العملية، والتعاونية في سبيل التعاون على البر والتقوى، وثمرة هذا الحديث المطوَّل

(١) رياض الصالحين ١١٩-١٢٠.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ف و ق).

(٣) معجم لغة الفقهاء ١٨٩.

(٤) انظر معجم لغة الفقهاء ١٨٥.

(٥) انظر معجم لغة الفقهاء ٢٤١، ٤١٩.

(٦) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الفيومي ٥٦.

(٧) الوسيط في (ص ر ر).

(٨) رياض الصالحين ١٢٠.

(٩) رياض الصالحين ١٢٠.

تُقَدمُ إلينا في خاتمته وكأنها القطوف الدانية، وهي الجزاء الأوفى لمن سنَّ سُنَّة حسنة في الإسلام، والعقاب الأشد لمنْ سن سنَّة سيئة في الإسلام، ولكن حين نتأمل متن الحديث نجده قد مهّد لهذه القضية بمهادٍ واقعي عملي، ثم بشاهدين من آيات القرآن الكريم يقيمان الدليل على أن الإنسان أخو الإنسان لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره.

ويجيء هذا التمهيد في صورة سرْديّة واقعية إذ يحكي الراوي هذا المشهد في حضرة رسول الله ﷺ، حيث كان بعض الصحابة في صدر النهار أى أوله، وهذا تعبير جميل المحيا. يتفق مع طبيعة هذا الجَمْع الذي حَضَر إلى رسول الله ﷺ كما قال بعض العلماء للتشرف برؤياه، واستمطار الفيوض الإلهية من سحب مُحيّاه، وبينما هم في هذا المجلس المنير بكلمات المصطفى المجتبى وسنته الشريفة، جاءه أي جاء إلى الرسول ﷺ ولم يقل جاءنا، أو جاءهم، وإنما المجيء كان لرسول الله، طلبًا للمعونة والهداية والبر، ولكن الذين جاءوا كانوا من الفقراء وصوّرهم الحديث تصويرًا واقعيًا فيه دقة الوصف، وبراعة اللفظ، وواقع هؤلاء القوم يغني فيه الحال عن المقال، فهم عراة، والعُرْى هنا كناية عن شدة الفاقة، فليس لديهم ما يسترهم في حياتهم من المال أو الجاه، أو القليل من متع الحياة، وليس على أجسادهم إلا "النّمار"، جمع نمرة. وهى كساء من صوف مخطط يلبسه الفقراء من الناس؛ وقوله مجتابى "النمار أو العباء" فيه رصد دقيق لهيئة هؤلاء القوم: لأن ما يلبسونه قطعة واحدة من الصوف الخشن، وقد قطعوها أو خرقوها لتدخل في رءوسهم، وهم على الرغم من هذه الفاقة الشديدة يتقلدون سيوفهم، إيحاءً بأن المسلم يجب أن يظل قويًا عزيزًا حتى في أشد حالات الفاقة.

وما أعظم موقف المصطفى ﷺ، وما أرق قلبه، وما أسمى عاطفته.. وهو يرى هؤلاء القوم وهم من مضر، والمضريون مشهورون بالقوة والمنعة؛ فكيف بهؤلاء القوم المضريين وقد تكالبت عليهم الأيام، وعضهم الفقر بنابه، ولذلك شعر الرسول ﷺ بالأسى لحالهم، والعطف عليهم لما حلّ بهم، وظهر هذا الشعور على وجهه حيث تغير، وحَسَب رواية الحديث، تمعَّر وجه رسول الله ﷺ.

ومادة الفعل اللغوية: "مَعَر"، تتفق وحالة هؤلاء الفقراء، فالفعل: "أمعر": معناه: افتقر

وفنى زاده، وحين نقول: "أمْعَرت الأرض": أى لم يكن فيها نبات أو قلّ نباتها، ويقولون: معَّر وجْهَهُ أي: غيره غيظًا فتمعَّر، ويقولون: به مُعْرة: أى اللون الذي يضرب الحُمْرة، والمعور: المُقَطَّب غضبًا"[١].

ويحكي الراوي ويصور ما قام به رسول الله ﷺ تجاه هؤلاء الناس حيث يقول: "فدخل ثم خرج فأمر بلالًا فأذن وأقام فصلى ثم خطب"، وهذه الجمل في صياغتها تنقل الحدث، وترصد الحركة، وتفصح عن شدة وسرعة اهتمام الرسول بأمر هؤلاء القوم، فالعبارة لا تتجاوز سطرًا واحدًا، ولكنها تتضمن سبعة أفعال ماضية، وهى في تواليها تضع مشهدًا متكاملًا لما قام به الرسول ﷺ لإنقاذ هؤلاء الناس ومن على شاكلتهم من طوائف الأمة في كل زمان وكل مكان، والأفعال تتوالى على هذا النمط، (فدخل، ثم خرج، فأمر، فأذّن، وأقام، فصلّى، ثم خطب، فقال).

وحروف العطف هنا تتصدرها: "الفاء"، وهى للترتيب والتعقيب، ولها هنا دلالة الإسراع لإنقاذ هؤلاء القوم من فاقتهم وعوزهم، وحرف العطف "ثم" يأتي في موقعه الملائم "فدخل أي بيته ثم خرج" وذلك يوحي بالأناة والتمهل والتفكير في أمر هؤلاء الناس، وبعد أن خرج أمر بلالًا فأذن بلال، وعطف فعل الإقامة على الأذان جاء بالواو، لتدل على الأناة بين الأذان والإقامة حسب الوقت الذي حددته السنة النبوية الشريفة.

وبدأ المصطفى ﷺ الخطبة بآيات من القرآن الكريم تقرر أن الناس جميعًا أبوهم واحد، وأمهم واحدة "آدم وحواء" قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[٣].

---

(١) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ، مادة: مَعَر. ص٤٧٧.

(٢) سورة النساء، آية: ١.

(٣) سورة الحشر، آية: ١٨.

وآية سورة النساء تختم بقوله سبحانه: "إن الله كان عليكم رقيبا" ووجه مناسبة هذه الآية للموقف الخاص بهؤلاء القوم أصحاب الفاقة، كما يقول صاحب دليل الفالحين: "إن فيها اتحاد الناس في خلقهم من نفس واحدة، ثم الأمر باتقاء الأرحام، وقرنه باتقاء الله الدال على أن صلتها من الله تعالى بمكان، وختمها بقوله تعالى:"رقيبا"، لتحمل هذه المراقبة كل غنى على سد خُلة المحتاج لا سيما الرحم، لأن من رأى شقيقه، ورحمه في غاية الحاجة ولم يصله، كان قاطعًا لرحمه وقرابته غير متق لله ولا مستحضر لكونه رقيبًا عليه.

والآية الثانية: في الخطبة اقتبسها الرسول ﷺ من سورة الحشر؛ فيها غاية الحث على ما في الآية التي قبلها وهى الأولى من سورة النساء.

وجاء الأمر بالتصدق في صياغة خبرية في قوله: تصدّق رجل، والخبر هنا أبلغ من الأمر، لدلالته على الوقوع، وكذلك للإيحاء بعدم الإجبار على التصدق، وجَعْل هذا الفعل الخيري في دائرة الاختيار، لمزيد من الصِّدق وحسن النية، وسلامة القصد، وتحديد منابع الصدقة، جاءت صياغته متآلفة مع الصدق الشعوري، والإسراع في إخراج الصدقة لإنقاذ أصحاب الفاقة، وجاء التنوع متواليًا متواصلاً، لا توقف تواصله حروف العطف، بل جاءت هذه المنابع المتنوعة متدفقة مسرعة على هذا النحو، تصدق رجل أي: ليتصدق رجل: من ديناره ، من درهمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره، حتى قال: ولو بشق تمرة،وجاء "رجل" في صيغة النكرة: لأنه وضع موضع الجمع لأن المراد كل الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه؛ ومَنْ في هذا الجزء من الحديث للجنس والتقدير، ببعض ما عنده من هذا الجنس، وفي هذا الجزء كذلك بلاغة الحذف، : فقيل كل نوع من هذه المصادر والمنابع يسبقه لفظ رجل: والتقدير: تصدق رجل من ديناره، ورجل من درهمه، ورجل من ثوبه... إلخ، أي: تصدق رجل مِنْ ... إلخ.

والإيجاز من سمات بلاغة النبوة، وهى البلاغة الإنسانية التي خضعت الأفكار لآيتها، وحسرت العقول دون غايتها، ولقيت دعوة الرسول الكريم الاستجابة الفورية من الصحابة رضي الله عنهم: وبدأ بالتصدق رجل من الأنصار، ولم يحدد اسم الرجل.. لأن العبرة هنا

تتمثل في الاستجابة لدعوة الرسول ﷺ والتعاون والتنافس من أجل إنقاذ ضعاف المسلمين، وذوي الحاجات، الذين وقعوا فريسة الفقر، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾[1]. وتهلل وجه رسول الله حتى صار كأنه "مذهبة" لما توهج به ملامحه من صفاء واستنارة.

والحديث خير درس في التكافل الاجتماعي، والرسول هو القدوة الحسنة، فقد كان أجود بالخير على الناس من الريح المرسلة، ويعطي عطاء من لا يخشى الفقر، حتى مات وليس عنده درهم ولا دينار، وقد أوقف كل أرض كانت قد صارت إليه من الغنائم على رعاياه الضعاف من هذه الأمة، لأن معونة هذه الطبقات المحتاجة حماية للأمة من الفتن، وحفظ لكيانها الاجتماعي من الانحلال، بل في ذلك إنشاء قوة عظيمة للأمة، فعسى أن يكون منهم نوابغ ورجال مؤمنون نافعون.

ولا عجب أن اهتم القرآن والرسول بتلك الطبقات المحتاجة، وجعل الصدقة عليها من سُبل الإيمان والحياة الطيبة، التي تكفل للفرد والجماعة سعادة الدنيا والآخرة.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكمين فقهيين:

الأول: حكم البدعة، وقد سبق الكلام عنها في الحديث رقم (١٥٧).

الثاني: حكم الصدقة وسؤال الصدقة بالنسبة للفقير المعدم، حيث اتفق الفقهاء[2] على أنه يجوز للفقير المعدم، والمدين المغرم، أن يسأل الصدقة للقيام بما عليه من واجب سداد الدين، والإنفاق على أهله ونفسه عند العجز عن الكسب لمرض

---

(١) سورة المعارج، آية: ٢٤.

(٢) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود٢/٤٨، بريقة محمودية في طريقة محمدية وشريعة نبوية في سرية أحمدية، محمد بن مصطفى الخادمي ٣/٢٢٧، الغرر البهية في شرح البهجة الوردية، الأنصاري للأنصاري ٤/٨٣، حاشيتا قليوبي وعميرة ٣/٢٠٠، كشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٢/٣٧٢، المغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٢/٢٧٨.

أو غيره، أو عند عدم كفايته، وإن كان الأفضل له أن يستعفف عن السؤال وأن يلجأ إلى الله ويستعين بالصبر حتى يفرج الله عنه، ويحرم سؤال الصدقة للغني القادر على الكسب والإنفاق على نفسه وأهله، وإذا سأل الصدقة لم يعط منها، وكره الحنابلة(١) سؤال الصدقة في المسجد والتصدق على السائل فيه.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على مجالسة النبي ﷺ.

ثانيًا: من صفات الداعية: الشفقة والتأثر لأحوال المدعوين.

ثالثًا: من مهام الداعية: حث المدعوين على بذل الصدقة وإعانة إخوانهم المحتاجين.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: امتثال الصحابة رضي الله عنهم لأوامر النبي ﷺ.

خامسًا: من صفات المدعوين: الاستجابة والمسارعة إلى بذل الخير.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: فضل السنة الحسنة في الإسلام.

سابعًا: من وسائل الدعوة: جمع الناس والخطبة.

ثامنًا: من أساليب الدعوة: الاستشهاد بالقرآن الكريم والترغيب والترهيب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على مجالسة النبي ﷺ:

لقد كان حرص الصحابة رضي الله عنهم على مجالسة النبي ﷺ من الأمور التي تواترت واشتهرت. فقد كانوا رضوان الله عليهم يهجرون الأوطان والأهل والأرض والمال من أجل لقائه والجلوس بين يديه، يتعلمون أمور دينهم ويقتدون به في سائر أحواله ويقتبسون من نوره ويتشرفون بصحبته وهو ينشر الإسلام ويقيم دولته. وهذا الأمر لا يحتاج إلى تدليل وبرهان حتى ندلل عليه ونبرهن، وإنما ذكرناه لكونه ورد في هذا الحديث كما هو واضح من قول جرير بن عبدالله رضي الله عنه: "كنا في صدر النهار عند رسول الله ﷺ".

وقد قال الله تعالى في صفة أصحاب النبي ﷺ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ

---

(١) كشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٣٧٢/٢.

أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ ﴾[١].

ولشدة حبهم وحرصهم على هذه المجالسة ذكّر النبي ﷺ الأنصار بها لما علم أنهم غضبوا من إعطائه ﷺ المؤلفة قلوبهم أموالاً كثيرة ولم يعطهم شيئًا، فقال لهم رسول الله ﷺ: ((أفلا ترضون أن يذهب الناس بالأموال وترجعون إلى رحالكم برسول الله؟ فوالله ما تنقلبون به خير مما ينقلبون به. فقالوا: بلى يا رسول الله قد رضينا))[٢].

ثانيًا- من صفات الداعية: الشفقة والتأثر لأحوال المدعوين:

إن الداعية لا يعيش لنفسه فقط، وإنما يعيش أيضًا في مجتمع إنساني تختلف فيه أحوال الناس غنىً وفقرًا وقوة وضعفًا ونحو ذلك. وهو إزاء هذا الاختلاف يتأثر بظروف أهل الحاجة والفقر والعوز، لأنهم أولى الناس بتأثره واهتمامه وعنايته. وهو بهذا الاهتمام وتلك العناية يدعو المدعوين -ولو بطريق غير مباشر- إلى سد حاجة المحتاجين وإغناء ذوي الفقر والعوز. وهو يفعل هذا اقتداء بإمام الدعاة محمد ﷺ الذي كان عونًا للفقراء والمساكين، كما يتضح في هذا الحديث من قول جرير رضي الله عنه: (فتمعر وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة. (وتمعر: أي تغير)[٣]. وقال القرطبي: (تغيّر لما شق عليه من فاقتهم)[٤].

وقد كان هذا شأن النبي ﷺ مع المحتاجين، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ((جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إني مجهود فأرسل إلى بعض نسائه فقالت: والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء ثم أرسل إلى أخرى فقالت مثل ذلك. حتى قلن كلهن مثل ذلك: لا والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء. فقال: من يضيف هذا الليلة رحمه الله))[٥].

---

(١) سورة النور، آية: ٦٢.

(٢) أخرجه البخاري ٣١٤٧، ومسلم ١٠٥٩.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦٤٦.

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، تحقيق: محيى الدين مستو وآخرين ٦٢/٣.

(٥) أخرجه البخاري ٣٧٩٨، ٤٨٨٩، ومسلم ٢٠٥٤.

ثالثًا- من مهام الداعية: حث المدعوين على بذل الصدقة وإعانة إخوانهم المحتاجين:

إن النفس البشرية تحتاج إلى التذكير دومًا بما عليها فعله والقيام به، فهي وإن كان الأمر ماثلاً أمام عينيها إلا أنها تكون أسرع في الاستجابة إذا ذكرت به ونبهت عليه. وهنا يأتي دور الداعية الذي عليه أن يسارع إلى تذكير المدعوين وحضهم على الإنفاق على المحتاجين وبذل العون لهم. وعندما يقوم الداعية بهذا فإنه يكون أدّى مايجب عليه وذكّر الأغنياء بأن يؤدوا ماعليهم تجاه الفقراء، كما أنه ساعد الفقراء في التوصل إلى سدّ خلتهم وحاجتهم، وكل هذا يعود على المجتمع بالأمن والسلام والمحبة والتوادّ. لذا حث النبي ﷺ، وهو إمام الدعاة، المدعوين وحضهم على بذل الصدقة، فقال: (تصدق رجل من ديناره): قال ابن علان: (خبر بمعنى الأمر وهو أبلغ لدلالته على الوقوع، أي ليتصدق)[(١)].

وقد كان النبي ﷺ يحث أصحابه على الإنفاق على الفقراء والمحتاجين، فعن ثمامة بن حَزْن القشيري قال: شهدت الدار يوم أصيب عثمان فاطَّلع عليهم اطِّلاعةً فقال: "ادعو صَاحِبَيْكم اللذين أَلَّباكم عليَّ، فدُعيا له فقال: نشدْتُكما الله أتعلمان أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة ضاق المسجد بأهله فقال: من يشتري هذه البقعة من خالص ماله، فيكون فيها كالمسلمين وله خير منها في الجنة؟ فاشتريتها من خالص مالي، فجعلتها بين المسلمين وأنتم تمنعوني أن أصلي فيه ركعتين ثم قال: أنشدكم الله أتعلمون أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة لم يكن فيها بئر يستعذب منه إلا رُومة، فقال رسول الله ﷺ من يشتريها من خالص ماله فيكون دلوه فيها كدُلِيِّ المسلمين وله خير منها في الجنة؟ فاشتريتها من خالص مالي، فأنتم تمنعوني أن أشرب منها. ثم قال: هل تعلمون أني صاحب جيش العسرة؟ قالوا: اللهم نعم[(٢)].

وفي رواية للترمذي: هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال في جيش العسرة: من ينفق

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٣٢٦.

(٢) أخرجه أحمد ٧٥/١ رقم ٥٥٥، وقال محققو المسند: إسناده حسن ٥٥٨/١-٥٥٩ واللفظ له، والترمذي ٣٧٠٣ وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٩٢١).

نفقة متقبلة؟ والناس مجهدون معسرون فجهزت ذلك الجيش قالوا: نعم. ثم قال: أذكركم بالله هل تعلمون أن رومة لم يكن يشرب منها أحد إلا بثمن فابتعتها فجعلتها للغني والفقير وابن السبيل؟ قالوا: اللهم نعم، وأشياء عددها[(١)].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: امتثال الصحابة لأوامر النبي ﷺ:

إن الله عز وجل اصطفى محمدًا ﷺ، واصطفى له أصحابه الذين كانوا خير القرون والأجيال، وإنما استحقوا ذلك لكونهم أشد الناس اتباعًا له، فكان إذا أمرهم ائتمروا وإذا نهاهم انتهوا. ومما يدل على ذلك هذا الحديث، فقد أمرهم النبي ﷺ بالصدقة "فجاء رجل من الأنصار بصرَّة كادت كفُّه تعجز عنها بل قد عجزت ثم تتابع الناس...".

وقد كان الصحابة أسرع الناس امتثالاً لأمر النبي ﷺ وقد فاضت الأحاديث بذلك، من ذلك ما رواه يحيى بن عباد بن عبدالله بن الزبير عن أبيه عن جده رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((وقد كان الناس انهزموا عن رسول الله ﷺ حتى انتهى بعضهم دون الأعراض إلى جبل بناحية المدينة، ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ وقد كان حنظلة بن أبي عامر الثقفي هو وأبو سفيان بن حرب، فلما استعلاه حنظلة رآه شداد بن الأسود فعلاه شداد بالسيف حتى قتله. وقد كاد يقتل أبا سفيان، فقال رسول الله ﷺ: إن صاحبكم حنظلة تغسله الملائكة فسلوا صاحبته. فقالت: خرج وهو جنب لما سمع الهائعة فقال رسول الله ﷺ فذاك قد غسلته الملائكة[(٢)].

خامسًا- من صفات المدعوين: الاستجابة والمسارعة إلى بذل الخير:

إن من الصفات الطيبة التي يجدر أن يتحلى بها المدعو، الاستجابة لدعوة الإنفاق والمسارعة إلى الإنفاق، وكذلك يكون شأنه في فعل الخير، لأن هذا يدل على حسن إسلامه وصدق إيمانه، ولذا كان الصحابة رضي الله عنهم أسرع الناس إلى فعل الخير وذلك واضح في قول الراوي: "فجاء رجل من الأنصار بصرَّة.... ثم تتابع الناس.. حتى رأيت وجه

---

(١) أخرجه الترمذي ٣٦٩٩ وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٩١٩).

(٢) أخرجه ابن حبان ٧٠٢٥ والحاكم ٣/٢٠٤-٢٠٥ والبيهقي ٤/١٥ وقال محقق صحيح ابن حبان: حديث صحيح.

رسول الله ﷺ يتهلل كأنه مذهبة".

قال القرطبي: (شبه صفاء وجهه بإشراق السرور بصفاء هذا الماء المستنقع في الحجر أو بصفاء الدهن، وسروره بذلك فرحٌ بما ظهر من فعل المسلمين ومن سهولة البذل عليهم ومبادرتهم لذلك، وبما كشف الله من فاقات أولئك المحاويج)(١).

والمسارعة إلى فعل الخير من صفات المؤمنين، قال تعالى عن المؤمنين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾(٢) ولما نزل قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾(٣) جاء أبو طلحة رضي الله عنه فقال: يا رسول الله إن الله يقول: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ وإن أحب أموالي إليّ بَيْرَحاء(٤) وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله. فقال رسول الله ﷺ: ((بخٍ ذلك مال رابح ذلك مال رابح...))(٥).

فإذا ما اتصف الناسُ بالتنافس في فعل الطاعات، فهذا يُحدث إقبالاً على الخير وإكثارًا منه ونشرًا للفضائل والصفات الطيبة، وسدًّا لحاجات الفقراء والمساكين، كمايتضح في هذا الحديث، فيتضح من قول الراوي: "ثم تتابع الناس...".

وقد قال الله عن الجنة وهي التي يتوصل إليها بالطاعات: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾(٦).

قال القاسمي: (أي فليرغب الراغبون بالاستباق إلى طاعة الله تعالى. قال ابن جرير: التنافس أن ينفس الرجل على الرجل بالشيء يكون له، ويتمنى أن يكون له دونه. وهو

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، تحقيق: محيى الدين مستو وآخرين ٦٣/٣.

(٢) المؤمنون، آية: ٦١.

(٣) آل عمران، آية: ٩٢.

(٤) بيرحاء: بئر من آبار المدينة أو أرض محببة إلى أبي طلحة.

(٥) أخرجه البخاري ١٤٦١، ومسلم ٩٩٨.

(٦) سورة المطففين، آية: ٢٦.

مأخوذ من الشيء النفيس، وهو الذي تحرص عليه نفوس الناس وتطلبه وتشتهيه. وكأن معناه في ذلك: فليجدّ الناس فيه وإليه. فليستبقوا في طلبه ولتحرص عليه نفوسهم[(١)]. وقال الرازي: إن مبالغته تعالى في الترغيب فيه تدل على علوّ شأنه، وفيه إشارة إلى أن التنافس يجب أن يكون في مثل ذلك النعيم العظيم الدائم، لا في النعيم الذي هو مكدّر سريع الفناء)[(٢)].

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يتنافسون في فعل الطاعات، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أمرنا رسول الله ﷺ يومًا أن نتصدق فوافق ذلك مالاً عندي فقلت: ((اليوم أسبق أبابكر إن سبقتُه يومًا، فجئت بنصف مالي فقال رسول الله ﷺ: ما أبقيت لأهلك؟ قلت: مثله قال: وأتى أبوبكر رضي الله عنه بكل ما عنده فقال له رسول الله ﷺ: ما أبقيت لأهلك؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله، قلت: لا أسابقك إلى شيء أبدًا))[(٣)].

سادسًا- من موضوعات الدعوة: فضل السنة الحسنة في الإسلام:

إن المبتدئ بالخيرات له فَضْلٌ كبير، فهو من ناحية قد حاز قصب السبق بفعله هذا، كما أنه في الغالب قد تغلّب بعد جُهدٍ على بعض المعوقات التي كان يمكن أن تعيقه عن المسابقة إلى هذا الفعل، كما أنه أصبح قدوة لغيره لأن يفعلوا مثله، لهذا كان له أجر عظيم، كما هو واضح في قول النبي ﷺ: ((من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء)).

قال النووي: (فيه الحث على الابتداء بالخيرات، وسن السنن الحسنات، والتحذير من اختراع الأباطيل والمستقبحات. وسبب هذا الكلام في هذا الحديث أنه قال في أوله "فجاء رجل بصرة كادت كفه تعجز عنها، فتتابع الناس" وكان الفضل العظيم للبادي بهذا الخير والفاتح لباب هذا الإحسان)[(٤)].

---

(١) جامع البيان، الطبري ٢٤/٢٢٠.

(٢) محاسن التأويل، القاسمي ١٧/٩٧.

(٣) أخرجه أبو داود ١٦٧٨، والترمذي ٣٦٧٥، وحسنه الألباني (صحيح أبي داود ١٤٧٢).

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦٤٦.

ومن هذا القبيل ما فعله الصحابي خبيب بن عدي رضي الله عنه حينما قدمته قريش بمكة للقتل فقال لهم: دعوني أصلي ركعتين ثم انصرف إليهم فقال: لولا أن تروا أن ما بي من جزع من الموت لزدت، فكان أول من سن الركعتين عند القتل هو[١].

وقال القرطبي مبينًا أوجه تفضيل الصحابة رضي الله عنهم على من جاء بعدهم: (ثامنها: أن كل خير وفضل وعلم وجهاد ومعروف فعل في الشريعة إلى يوم القيامة، فحظهم منه أكمل حظ وثوابهم فيه أجزل ثواب، لأنّهم سنُّوا سنن الخير، وافتتحوا أبوابه، وقد قال صلى الله عليه وسلم: "من سن في الإسلام سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة"، ولا شك في أنهم الذين سنُّوا جميع السنن وسابقوا إلى المكارم)[٢].

وقال ابن حجر عن بعض فضل خديجة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم: (ومما اختصت به سبقها نساء هذه الأمة إلى الإيمان، فسنت ذلك لكل من آمنت بعدها، فيكون لها مثل أجرهن، لما ثبت أن "من سنَّ سنة حسنة..." وقد شاركها في ذلك أبو بكر الصديق بالنسبة إلى الرجال، ولا يعرف قدر ما لكلٍّ منهما من الثواب بسبب ذلك إلا الله عز وجل)[٣].

وبالمقابل فإن من سنّ سنة سيئة وابتدأ بها فقد اقتحم باب شرٍّ بجرأته وسهله على غيره، وأزال جدار الهيبة الذي كان يحجز الناس عنه، ومن ثم كان المبتدئ بهذه السنة السيئة عليه وزره ووزر من عمل بها، لأنه مهدها لهم وعبّد طريق فعلها واقترافها.

سابعًا- من وسائل الدعوة: جمع الناس والخطبة:

أما جمع الناس فهذا واضح من قول الصحابي "فأمر بلالاً فأذن" ولاشك أن الأذان

---

(١) أخرجه البخاري ٤٠٨٦.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، تحقيق: محيى الدين مستو وآخرين ١/٥٠٢ - ٥٠٣.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٧١/٧، وقد ذكر ابن حجر هذا الكلام بعد قولٍ للقرطبي صاحب المفهم، لكن لا ندري هل هذا من كلام القرطبي أم من كلام ابن حجر؟ وهذا الكلام غير موجود في المطبوع من المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، تحقيق: محيى الدين مستو وآخرين ٣١٩/٦.

جمع للناس للصلاة، وهذا ما جاء في الحديث "ثم صلَّى" أما الخطبة "ثم خطب" فقد كانت وسيلة مباشرة تناسب الموقف الذي لا يناسبه إلا الإسراع إلى التصدق على هؤلاء المحتاجين والمبادرة إلى إغنائهم وسد خلتهم.

ثامنًا- من أساليب الدعوة: الاستشهاد بالقرآن الكريم والترغيب والترهيب:

فقد بدأ النبي ﷺ خطبته بذكر آيات من القرآن تذكر بالأخوة وتذكر بيوم القيامة وما أعده الإنسان لذلك اليوم، وقد كان هذا الاستشهاد في موضعه، والنبي ﷺ سيد البلغاء، وقد استجاب المدعوون لما ندبهم إليه رسول الله ﷺ.

أما الترغيب والترهيب فهو في آخر الحديث، فقد رغب النبي ﷺ في فعل السنن الحسنة والابتداء بالخيرات وبيّن أجر من فعل ذلك وثوابه العظيم، ومن ناحية أخرى رهّب من الابتداء بالأمور المستقبحة والمبتدعات لما في ذلك من العقاب الوخيم لمن فعل ذلك.

قال القرطبي: (يُفيد الترغيب في الخير المتكرر أجره بسبب الاقتداء، والتحذير من الشر المتكرر إثمه بسبب الاقتداء)[1]، وقال ابن الجوزي: (فليجتهد الإنسان في فعل خير يلحقه ثوابه بعد موته، وليحذر من فعل شر يدركه إثمه بعد تلفه)[2].

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، تحقيق: محيى الدين مستو وآخرين ٦٣/٢.

(٢) معاني الصحيحين ٢٥٤/١ [مخطوط] نقلا عن تعليق د. فؤاد عبدالمنعم أحمد على الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ١٧٨/٨.

الحديث رقم (١٧٢)

١٧٢- وعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «ليس مِنْ نفْسٍ تُقْتَلُ ظُلمًا إلاَّ كَانَ عَلَى ابنِ آدمَ الأوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دمِهَا، لأَنَّهُ كَان أَوَّل مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ» متفقٌ عليه[١].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٧).

غريب الألفاظ:

الكفل: النصيب[٢].

الشرح الأدبي

إن حياة الإنسان أمانة استودعها الله إياه، وهو مكلف بالحفاظ على هذه الحياة، وعدم ارتكاب ما يلقي بالنفس إلى التهلكة، وعدم الإقدام على قتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق، والجنايات في نظر الإسلام هي المحظورات الشرعية التي زجر الله عنها بحد أو تعزيز، وهى إما إتيان فعل منهي عنه، أو ترك فعل مأمور به، فإن ذلك في نظر الإسلام جريمة لما يترتب عليها من الضرر الكبير في نظام الجماعة، أو بعقائدها أو بحياة أفرادها، أو بأموالهم وأعراضهم ومشاعرهم، وقد شُرع العقاب على الجريمة لمنع الناس من اقترافها، ما دام النهى عن الفعل أو الأمر بإتيانه لا يكفي وحده لحمل الناس على إتيان الفعل أو الإقلاع عنه[٣].

وفي ضوء هذا المنظور الإسلامي للحفاظ على النفس الذاتية والغيرية نستجلي أسرار الحديث وجمالياته التعبيرية، لأن جريمة القتل العمد من أكبر المحرمات، وأخطر الجرائم، وأشدها إخلالاً بالأمن، وأكثرها تسببًا للاضطراب والفوضى في المجتمع،

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٢١) واللفظ له، ومسلم (١٦٧٧/٢٧). أورده المنذري في ترغيبه (٩٦).

(٢) الوسيط في (ك ف ل).

(٣) انظر: التكافل الاجتماعي في الإسلام، د. عبدالعال أحمد عبدالعال ص ٨٧-٨٨.

ولذا كانت من السبع الموبقات التي عدها النبي ﷺ في حديثه الشريف.

ومنطوق الحديث يضاعف من حجم جريمة القتل، ويضاعف من عقابها، لأن القاتل الأول وهو قابيل ابن آدم، يتحمل وزر كل دم أزهق بغير حق، فكل جرائم البشرية تعود إلى منبعها الأول، وهو الذي سن سنة سيئة في التاريخ الإنساني، ومن هنا يرتبط هذا الحديث بوشائج موضوعية ومصيرية بالحديث السابق، وهو يعد أنموذجًا تطبيقيًا للوجه المرفوض الذي يؤصل للسنن السيئة، وهو عليه وزْرها ووزْر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء، وابن آدم القاتل هو الذي استن سنة سيئة.

ولذلك يقول رسول الله في هذا الحديث: "ليس من نفس تقتل ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها".

ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث النبوي الجامع، وأول ظاهرة أسلوبية تتمثل في أسلوب القصر الذي غلّف صياغة هذا الحديث الشريف، وأسلوب القصر يؤكد أن المسؤولية تقع على من سن سنة سيئة وهو أول من سن القتل ظلمًا، وكل من ارتكب جناية أو ابتدع ذنبًا أو اقترف إثمًا، وقلده مَنْ بعده في ذلك فلابد أن يتحمّل وزْر ما جَنته يداه، وما أشاعته سلوكياته من آثام انقاد فيها لهواه، والحرف "من" في منظور النحاة: حرف زائد ولكن له وظيفة بلاغية أسلوبية: فهو لتأكيد استغراق النفس، ويدل على الاستقصاء: أي ليس هناك نفس آلت إلى هذا المصير إلا وابن آدم يتحمل وزر دمها ويلحق به العقاب الأليم.

وبناء الفعل للمجهول "يُقْتل" يوحي بأن القاتل يحاول التخفي، ويتستر دائمًا على جريمته، ولكن مهما فعل فإن دم القتيل لن يفارق سيرته ولا ظله، وسيظل يطارده حيًا وميتًا وكيف لا.. والقاتل الأول يتحمل ويحمل بعض دم هذا القتيل، وهي قصة تتكرر في كل جيل، وكل مكان. وقوله "ظلمًا" احتراس : لأن القتل يمكن أن يكون في ساحة المعركة فيفوز الإنسان بالشهادة، ويمكن أن يقتل الإنسان قصاصًا، وهناك القتل "الخطأ" وهناك القتل "شبه الخطأ".

وعدم التصريح باسم قابيل لأنه معروف لكل ذي لب، ولا يخفى على ذي عينين،

واسم القاتل ليست له ثمرة نافعة في هذا السياق، وقد يكون عدم التحديد للإيحاء بأنَّ كل مَنْ قام بمثل هذا العمل فهو يقتدي بقابيل، وعليه الوزْر الذي نشب بأظفاره في سيرة ابن آدم الأول، والحديث يدعو إلى المؤاخاة بين المسلمين، وإلى أن يحافظ المسلم على أخيه المسلم، فكل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه، والمسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، كما أوصى بذلك المبعوث رحمة للعالمين، محمد ﷺ الصادق الوعد الأمين.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: حرمة القتل بغير حق.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: التحذير من سن السنن السيئة.

ثالثًا: من أهداف الدعوة: المحافظة على النفس.

رابعًا: من أساليب الدعوة: القصر والترهيب والتعليل.

أولاً- من موضوعات الدعوة: حرمة القتل بغير حق :

لقد صان الإسلام النفس البشرية، وعمل على الحفاظ عليها بكل طريق ممكن، وحرم الاعتداء عليها ظلمًا وعدوانًا، يتضح ذلك من قول النبي ﷺ "ليس من نفس تقتل ظلما..".

وقد تضافرت النصوص من القرآن والسنة بتحريم القتل بغير حق ظُلمًا وعدوانًا، قال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَاءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾(١) أي: (بسبب جناية القتل هذه شرعنا لبني إسرائيل أنه من قتل نفسًا بغير سبب من قصاص، أو فساد في الأرض بمحاربة شرع الله، فكأنما قتل الناس جميعًا فيما استوجب من عظيم العقوبة من الله، وأنه من امتنع عن قتل نفس حرمها الله فكأنما أحيا الناس جميعًا، فالحفاظ على حرمة إنسان واحد حفاظ على حرمات الناس كلهم)(٢).

---

(١) سورة المائدة، آية: ٣٢.

(٢) التفسير الميسر، إعداد نخبة من العلماء ١١٣.

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: سئل رسول الله ﷺ عن الكبائر قال: ((الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس وشهادة الزور))[١].

قال عبدالله البسام: (حرص الشارع الحكيم الرحيم على بقاء النفوس وأمنها فجعل لها من شرعه حماية وصيانة، فجعل أعظم الذنوب بعد الشرك قتل النفس التي حرّم الله قتلها، وبهذا حفظها من الاعتداء عليها)[٢].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: التحذير من سنّ السنن السيئة:

إن الإقدام على فعل السنن السيئة والمسارعة إليها لأمر خطير جدًا، فهو يهوّن من شأن اقتراف المعصية والذنوب، فضلاً عن العمل على شيوعها وانتشارها في المجتمع، ومن ثم يستحق من فعل ذلك العقاب الشديد، ذلك واضح في عظم الذنب الذي ينال ابن آدم القاتل، حيث أخبر النبي ﷺ بأن ابن آدم الأول "كان أول من سن القتل".

قال القرطبي: (وقوله: "لأنه أول من سن القتل" نصٌّ على تعليل ذلك الأمر؛ لأنه لما كان أول من قتل، كان قتله ذلك تنبيهًا لمن أتى بعده، وتعليمًا له. فمن قتل كأنه اقتدى به في ذلك، فكان عليه من وزره. وهذا جار في الخير والشر؛ كما قد نصّ عليه النبي ﷺ في الحديث المتقدّم بقوله: ((مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً كَانَ لَهُ ثَوَابُهَا وَثَوَابُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ))[٣].

وبهذا الاعتبار يكون على إبليس كفلٌ من معصية كل من عصى بالسجود؛ لأنه أول من عصى به. وهذا - والله أعلم - ما لم يتب ذلك القاتل الأول من تلك المعصية؛ لأن آدم عليه السلام أول من خالف في أكل ما نُهي عنه، ولا يكون عليه شيء من أوزار من عصى بأكل ما نهي عنه، ولا شربه ممن بعده بالإجماع؛ لأن آدم عليه السلام تاب من ذلك، وتاب الله

(١) أخرجه البخاري ٢٦٥٣، ومسلم ٨٨.

(٢) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله البسام ١٦٦/٥ - ١٦٧.

(٣) أخرجه مسلم ١٠١٧، من حديث جرير بن عبدالله البجلي ﷺ.

عليه، فصار كأن لم يجن؛ فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له. والله تعالى أعلم.

وابن آدم المذكور هنا هو: قابيل، قتل أخاه هابيل لما تنازعا تزويج إقليمياء، فأمرهما آدم أن يقرّبا قربانًا، فمن تُقبل منه قربانه كانت له، فتُقبل قربان هابيل فحسده هابيل فقتله بغيًا وعدوانا. وهكذا حكاه أهل التفسير)[(١)] [(٢)].

قال ابن حجر: (قال المهلب: هذا الباب والذي قبله في معنى التحذير من الضلال واجتناب البدع ومحدثات الأمور في الدين، والنهي عن مخالفة سبيل المؤمنين انتهى. ووجه التحذير: أن الذي يحدث البدعة قد يتهاون بها لخفة أمرها في أول الأمر، ولا يشعر بما يترتب عليها من المفسدة، وهو أن يلحقه إثم من عمل بها من بعده، ولو لم يكن هو عمل بها، بل لكونه كان الأصل في إحداثها)[(٣)].

وقد جاءت نصوص من الكتاب والسنة تحذر من ابتداع السنن السيئة وإحداثها.

قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾[(٤)].

قال مجاهد: حملهم ذنوب أنفسهم وذنوب من أطاعهم، ولا يخفف ذلك عمن أطاعهم من العذاب شيئًا[(٥)].

وقال النبي ﷺ: ((من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا))[(٦)].

---

(١) عند الآيات ٢٧ - ٣١ من سورة المائدة.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، تحقيق: محيى الدين مستو وآخرين ٤١/٥.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣١٥/١٣، وانظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٨٣.

(٤) سورة النحل، آية: ٢٥.

(٥) أخرجه ابن جرير ٢٠٠/١٤ وابن أبي شيبة وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٤١/٩.

(٦) أخرجه مسلم ٢٦٧٤.

ثالثًا- من أهداف الدعوة: المحافظة على النفس:

إن المحافظة على النفس البشرية من القضايا التي أولتها الدعوة الإسلامية أهمية كبرى، ودعت إلى المحافظة عليها بسن التشريعات التي تكفل حمايتها وصيانتها من الاعتداء عليها، كما هو واضح في الحديث. فقد نصّ الحديث على حرمة القتل ظلمًا، لأنه رتب على ذلك الإثم والذنب، والمحافظة على النفس من الضرورات الخمس التي جاء الشرع بحفظها، وخاطبت الدعوة المدعوين ليحافظوا عليها[1].

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ﴾[2]، وقال رسول الله ﷺ في خطبة الوداع: ((إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ليبلغ الشاهد الغائب))[3]. (إن حفظ النفس هو المقصد الضروري الكلي الثاني، ومعناه: المحافظة على حق النفس البشرية في الحياة والسلامة والصحة والكرامة والحرمة الجسدية والعقلية والروحية، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾[4]، ويقول: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[5].

ولأجل حفظ النفس شرعت أحكام شرعية كثيرة منها: منع القتل بغير حق، وتشريع القصاص ومنع التمثيل والتشويه، ومعاقبة المحاربين وقطاع الطرق الذين يستخفون بحرمة النفس الإنسانية وكرامتها، ومنع حرق أجساد الموتى، ولزوم إكرامها بالغسل والتكفين والدفن، وكذلك منع الاستنساخ البشري والتلاعب بالجينات والمتاجرة بالأعضاء والخلايا البشرية، والنهي عن التشريح بلا مصلحة شرعية لازمة ومعتبرة، هذا وقد أمر الله عز وجل بأخذ ما تقوم به النفس وتحيا من لزوم تناول

---

(١) انظر: مستلزمات الدعوة في العصر الحاضر، علي بن صالح المرشد ٦٠.

(٢) سورة النساء، آية: ٢٩.

(٣) أخرجه البخاري ٦٧، ومسلم ١٦٧٩.

(٤) سورة الإسراء، آية: ٧٠.

(٥) سورة التين، آية: ٤.

الغذاء السليم والعلاج القويم، والشراب والكساء)[١].

رابعًا- من أساليب الدعوة: القصر والترهيب والتعليل:

أما القصر فأداته في الحديث "ليس وإلا" النفي ثم الاستثناء، وهذا يوضح خطورة ما فعله ابن آدم الأول الذي قتل وتجرأ على ذلك، ومن ثم استحق العقاب العظيم.

أما الترهيب فإنه يستنبط من مضمون الحديث، فإنه يرهب من خطورة القتل نصًّا، ويفهم منه خطورة سن الأمر السيئ الذي لا يقتصر على فاعله الأول فقط، بل يمتد ليشمل أيضًا من فعله بعده، وهذا بدوره يضيف ذنبًا إلى الفاعل الأول، لأنه كان البادئ بذلك.

وأما التعليل فواضح من قوله ﷺ "لأنه أول من سن القتل" وفائدة هذا التعليل الترهيب من ابتداع الأمور المستقبحة، والابتداء بها، والجرأة على اقتحامها.

---

(١) المقاصد الشرعية: تعريفها وأمثلتها وحجيتها، د. نور الدين بن مختار الخادمي ص ٩١.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

الإسلام يجعل الفقراء في ذمة الأغنياء، وأولى الناس بحل مشاكلهم ولي أمر المسلمين، فإن لم تحل مشكلة الفقراء في حدها الأدنى - المطعم والمشرب والملبس - أثم الجميع، ومن أسس التربية في هذا الباب:

أولاً- غرس خلق البذل والعطاء:

وذلك من خلال وقوفه ﷺ خطيباً في الناس، من أجل أن يتصدقوا من أموالهم لهؤلاء الفقراء الذين جاءوا من مضر، وعليهم علامات الفقر المدقع، فتمعر وجهه ﷺ وخطب في الناس: «تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ، مِنْ دِرْهَمِهِ، مِنْ ثَوْبِهِ، مِنْ صَاعِ بُرِّهِ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ»، حَتَّىٰ قَالَ: «وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»، وبهذا يبين النبي ﷺ أن العطاء ليس له حد أدنى؛ فكل إنسان يمكنه أن يتصدق مما معه، وإن كان ما يملك صاعاً من تمر أو بر، بل ولو لم يكن عند المرء إلا تمرة واحدة، فإنه يتصدق بنصفها.

وأصل العطاء في الإسلام أن المرء يثق بما عند الله تعالى، وأنه سوف يزيد المال إذا تصدق منه، وكذلك فإن سد حاجة المحتاج من المبادئ الإسلامية الأصيلة التي غرسها الإسلام في نفوس المسلمين، حتى لا يكون فقير ولا محتاج ولا جائع بين المسلمين إلا وعنده ضروريات الحياة الأساسية من الطعام والكساء.

إن من يقضي حوائج الآخرين ويفرج كربهم، إنما يدَّخر ذلك لنفسه ولعقبه من بعده، فالأيام دول، وخير ما يُدَّخر لتقلبات الزمان هو المعروف الذي يبذله الإنسان لأخيه الإنسان[1].

والبذل والمساعدة والمعونة من أفضل الأعمال وأكثرها نبلاً، وأجلها فائدة، وهذه السجايا الرفيعة يبعث عليها حب الخير للناس، وإيثار الصلاح لهم، وهذه الأفعال الحميدة تعود بنفعين: نفع على فاعلها في اكتساب الأجر، وجميل الذكر، وحسن

---

(١) موسوعة مكارم الأخلاق، ١٥/٢٦.

الثناء، ونفع على المُعَان بها، في التخفيف عنه، والمساعدة له، في تفريج كربته، وكشف غمته، وإدخال السرور إلى قلبه[١].

ثانياً- التربية بالممارسة العملية:

وذلك في موقف الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين من خطبته ﷺ وتذكيره بحاجة هؤلاء المحتاجين، فما كان إلا أن قام كل واحد منهم إلى ما يملك، وعلى قدر استطاعته، فأعطى مما لديه، فجاء رجل من الأنصار بصرة كبيرة تكاد يده تعجز عن حملها، ووضعها، ثم ما لبث الصحابة أن تصدقوا بالطعام والثياب، حتى اجتمع كومان من الطعام والثياب، وتلك ممارسة للفضيلة وليس مجرد إيمان قلبي بها.

إن الصحابة الكرام ضربوا بفعالهم المثل الأروع في البذل والعطاء وإغاثة الملهوف، فحق على كل مسلم أن يتأسى بهم، وبما صنعوه مع هؤلاء الفقراء، الذين قدموا من مضر، وعليهم علامات الفاقة والعوز.

ولا شك أن الممارسة العملية "من طرق التربية الفعّالة، وميزتها أن التغير في السلوك يجيء في أعقاب حدث يهز النفس كلها هزاً، فتكون أكثر قابلية للتأثير، ويكون التوجيه والتغير في السلوك أفعل وأعمق وأطول أمداً في التأثير من تلك التوجيهات والتغيرات العابرة التي تأتي على البارد بغير انفعال ولا حدث يهز المشاعر"[٢].

إن التعليم بالعمل والممارسة مبدأ تربوي هام في التربية الإسلامية؛ فالإيمان قول وعمل، وقد مارس الجيل الأول من المسلمين السنة الشريفة بغيرة وإيمان، وذلك لقربهم من ينبوع الوحي، وراح الجيل الثاني (التابعون) يحاكي الصحابة في ممارستهم السنة، وهكذا دواليك حتى يومنا هذا[٣].

---

(١) السابق، ١٥/٢٩.

(٢) منهج التربية في التصور الإسلامي، د. علي مدكور ص ٤٤٦، ٤٤٧.

(٣) فلسفة التربية في الحديث الشريف، د. عبدالجواد سيد بكر ص ٢٣٧.

ثالثاً- التربية على التكافل الاجتماعي:

إن موقف النبي ﷺ الذي سلكه مع فقراء مضر يدل دلالة قاطعة على منهج التربية الإسلامية في إرساء مبدأ التكافل الاجتماعي بين أفراده، فالغني يساعد الفقير، ولا يتركه يتكفّف الناس، لأن المسلم أخو المسلم ومن أعان أخاه المسلم في كربته فإن الله في عونه، ولهذا فقد علم الصحابة الكرام هذا المبدأ ودعوه، وترسخ في نفوسهم، فأخرجوا من مالهم لمساعدة الفقراء، حتى أن أحدهم جاء وهو يحمل صرة أعياه حملها ليقدمها إلى هؤلاء المساكين.

ولقد حث النبي ﷺ كل مسلم على هذا المبدأ، مهما كانت درجة غناه أو فقره، حتى الذي يملك ثمرة واحدة، فعليه أن يقسمها بينه وبين أخيه الجائع ليسد حاجته، ويشبع جوعه.

لقد جاء الإسلام بهدي ورحمة، وتعاليم تعالج مشكلات الفرد والمجتمع علاجاً يقتلع الداء من الجذور، لا مجرد علاج سطحي بمسكنات وقتية، تخفّف الألم ساعة من الزمن، ولا تستأصل جرثومة المرض... إن نظرة الإسلام إلى الفقر وعلاجه له، ووسائله في علاجه، ورعايته لحقوق الفقراء، وكفالته لحاجاتهم المادية والأدبية تجعله مذهباً متميزاً من كل مذهب آخر[(١)].

رابعاً- التربية بالترهيب:

لقد رهَّب النبي ﷺ من أن يكون المرء أسوة لغيره في عمل الشر، وذلك بمجاهرته به، وسنّه للناس، فقال ﷺ: «لَيْسَ مِنْ نَفْسٍ تُقْتَلُ ظُلْماً إلاَّ كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْها...»، وذلك أنه كان أول من شرع القتل وعلمه للناس، فاستحق أن ينال وزر القتلة جميعاً من بعده؛ دون أن ينقص من وزرهم شيء، وذلك الترهيب وجهه النبي ﷺ حتى لا يقع أحد في هذه الجريمة المنكرة، فيكون وزره مضاعفاً إذا اقتدى به أحد غيره.

---

(١) مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، د. يوسف القرضاوي ص ٦، ٧.

إن الترهيب "هو العنصر الذي يمثل القوة الصادّة عن الانحراف إلى سبيل الشر، التي ينهى عنها الإسلام؛ وذلك لأن إثارة المخاوف من سلوك سبيل ما أو القيام بعمل ما، من شأنها أن تقلل من اندفاع الإنسان نحو ذلك السبيل أو ذلك العمل، وأن تضعف من قوته، وتجعله قلقاً حذراً.... وعلى مقدار نمو الحذر من جهة من الجهات تخبو جذوة الأطماع والأهواء المتأججة نحوها، وبالتكرار والمعالجة المتتابعة تنصرف النفس انصرافاً نهائياً، وتكتسب خلق الزهد والعفة عن المحارم، مهما كانت إجراءاتها آسرة، ومثيرة لرغباتها وأهوائها"[1].

❁ ❁ ❁

---

(١) أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها، عبدالرحمن حبنكة الميداني ص ٢٥٥.

٢٠- باب في الدلالة على خير والدعاء إلى هدى أو ضلالة

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾[القصص: ٨٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾[النحل: ١٢٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾[المائدة:٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾[آل عمران:١٠٤].

الحديث رقم (١٧٣)

١٧٣- وعن أَبِي مسعودٍ عُقْبَةَ بْن عمْرٍو الأَنْصَارِيِّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مثلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ» رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

أبو مسعود البدري الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١٠).

الشرح الأدبي

إن الترغيب في عمل الخير من أهم معالم المنهج الإسلامي، وقد وعد الله سبحانه كل من يُقْدم على عمل الخير أن يضاعف له الثواب إلى سبعمائة ضعف، وهو يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم.

وما أجمل هذه الكلمة "الخَيْر" وما أعظم دلالاتها، إنها تتوهج وتشع بكل عمل صالح جليل، وكل سلوك بشري نبيل، وكل قول صادق جميل، وما أكثر الطرق التي يرتادها الصالحون لعمل الخيرات، وما أجلّ النتائج التي تبزغ كالشموس من آفاق المكرمات والمساعي الطيبات، والحديث الشريف يقودنا إلى دروب الخير المضيئات، وإلى حقول الهدى المثمرات، وهي دروب الذين يخشون ربهم، حيث يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾

---

(١) برقم (١٣٣/١٨٩٣). أورده المنذري في ترغيبه (١٩٤).

أُوْلَـٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾[١].

ولنتأمل في ضوء هذا التصور الإسلامي لمصطلح "الخير" وما تتجمع حوله من دلالات وما تنطلق منه من إشعاعات، لنتأمل دلالته في سياق هذا الحديث الشريف الذي يتسم بالإيجاز والبلاغة، فالحديث في بنائه اللغوي يتكون من جملة واحدة، وهي جملة شرطية، "من دل على خير فله مثل أجر فاعله"، ومنطوق الحديث يعد الدال على الخير بالأجر والثواب الذي يقوم به فاعل الخير.

ومفهوم الحديث يتضوأ بمدلول لابد أن يفطن إليه الناس وهو: أنه لا يدل على فعل الخير إلا من كان فعل الخير أو قوله من سماته في الحياة قولاً وفعلاً وسلوكًا.. ولذلك يستحق الأجر على هداية الغير إلى الخير، والخير كما جاء في أساس البلاغة، هو العمل الكريم، وهو من صفات رسول الله ﷺ، فرسول الله خيرته من خلْقه، ويقال: هو من أهل الخير، والخير هو الكرم، ويقال: هو كريم، الخير والخيم: وهو الطبيعة[٢].

وألفاظ الحديث قليلة في مبناها كثيرة في معناها.. وأداة الشرط "مَنْ" للعاقل، وهي تفصح عن طبيعة ذلك الدال على فعل الخير، وهي العقل والعلم والحكمة، والموعظة الحسنة المرغبة.

والفعل "دل" ترشد مادته اللغوية إلى أن النائي عن فعل الخير كالتائه في مفازة متشعبة ومترامية الأطراف، وحين يجد من يرشده إلى "الخير"، يهتدي إلى الطريق الصحيح بفضل الدليل الصادق الأمين.

واختيار لفظ "على" أعمق في دلالته من لفظ "إلى" في هذا السياق لأن "على" تفصح عن وضوح الدلالة، وعن تحديد هذا الخير الذي استُدل عليه، أما "إلى" فالمدلول يحتاج إلى جهد حتى يصل إلى المدلول عليه، وهو "الخير" المراد، ومجيء كلمة "خير" في صيغة النكرة يعطي للمدلول اتساعًا في التصور والمفهوم.

---

(١) سورة المؤمنون، الآيات: ٥٧-٦١.

(٢) انظر: أساس البلاغة للزمخشري، مادة (خ ي ر).

فكل فعل جميل أو قول كريم هو خير عميم، ويأتي جواب الشرط حاسمًا جازمًا، حيث يَعُد هؤلاء الدالين على فعل الخير بأن لهم أجرًا مساويًا لأجر من فعل الخير أو اتصف به، وكلمة "فاعله" تفصح عن حتمية القيام بفعل الخيرات واتباع النصيحة، والاستجابة لكل من يدل على الخير، استجابة لأمر الله عز وجل: ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩﴾[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل الدلالة على الخير.

ثانيًا: من صفات الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: بيان فضل الله على عباده.

رابعًا: من أهداف الدعوة: نشر الخير في المجتمع.

خامسًا: من أساليب الدعوة: الترغيب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل الدلالة على الخير:

إن الإسلام يحث على نشر الخير بين المدعوين، وذلك للفوائد العميمة والمنافع الكثيرة التي تعود على الفرد والمجتمع من وراء ذلك، ومن طرق نشر الخير الدلالة عليه، ومن الشواهد على ذلك ما ورد في الحديث في قوله ﷺ "من دل على الخير فله مثل أجر فاعله"، فقد رتب الشرع الثواب على الدلالة على الخير فدل ذلك على فضله. والحديث له قصة. فقال أبو مسعود الأنصاري رضي الله عنه: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني أُبْدِع بي[2] فاحملني فقال: ما عندي. فقال رجل: يا رسول الله أنا أدلُّه على من يحمله. فقال رسول الله ﷺ: ((من دل على خير فله مثل أجر فاعله))[3].

قال النووي: (فيه فضيلة الدلالة على الخير والتنبيه عليه والمساعدة لفاعله، وفيه

(١) سورة الحج، آية: ٧٧.

(٢) هو بضم الهمزة ومعناه: هلكت دابتي وهي مركوبي، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢١٥.

(٣) أخرجه مسلم ١٨٩٣.

فضيلة تعليم العلم ووظائف العبادات لا سيما لمن يعمل بها من المتعبدين وغيرهم)[١].

وقال الصنعاني: (دلّ الحديث على أن الدلالة على الخير يؤجر بها الدال عليه كأجر فاعل الخير.. والدلالة تكون بالإشارة على الغير بفعل الخير، وعلى إرشاد ملتمس الخير على أنه يطلبه من فلان والوعظ والتذكير وتأليف العلوم النافعة، ولفظ خير يشمل الدلالة على خير الدنيا والآخرة، فلله در الكلام النبوي، ما أشمل معانيه وأوضح مبانيه، ودلالته على خير الدنيا والآخرة!)[٢].

ولا شكَّ أن الدلالة على الخير من قبيل نفع الناس وحب الخير لهم، وقد قال النبي ﷺ ((أحب الناس إلى الله تعالى أنفعهم للناس وأحب الأعمال إلى الله تعالى سرور تدخله على مسلم أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه دينًا أو تطرد عنه جوعًا، ولأن أمشي مع أخٍ في حاجةٍ أحب إلي من أن أعتكف في هذا المسجد - يعني مسجد المدينة- شهرًا... ومن مشى مع أخيه في حاجة حتى تتهيأ له أثبت الله قدمه يوم تزول الأقدام))[٣].

ثانيًا- من صفات الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم:

إن الداعية لا يدخر جهدًا في دلالة المدعوين على ما ينفعهم، لأنه يحب الخير لهم ولأنه قائدهم إلى الفلاح للدنيا والآخرة، وهو معلمهم ومرشدهم وهو في هذا يقتدي بالنبي ﷺ كما في هذا الحديث، وذلك واضحٌ في إخبار النبي ﷺ أن من دلَّ على خير كان له مثل أجر فاعله، ولا شك أن هذا نفع للمدعوين للدَّال على الخير والمدلول عليه، فضلاً عمن حَصَل له الخير.

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢١٥. وقال ابن الجوزي: "فيه إشكال: وهو أن يقال: الدلالة كلمة تقال وفعل الخير إخراج مال محبوب، فكيف يتساوى الأجران؟ فالجواب: أن المثلية واقعة في الأجر، فالتقدير لهذا أجر كما أن لهذا أجرًا.. وإن تفاوت الأجران". معاني الصحيحين ٤٠٢/١ مخطوط، نقلًا عن تعليق الدكتور فؤاد عبدالمنعم علي، الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم ١٧٧/٨ - ١٧٨.

(٢) سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، إسماعيل الصنعاني ص ٩٤٦ - ٩٤٧.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير ١٣٦٤٦/١٢، وحسنه الألباني (السلسلة الصحيحة ٩٠٦).

وقد وصف الله تعالى ما يبلغه رسول الله ﷺ للمؤمنين بأنه ﴿يُحْيِيكُمْ﴾، ولاشك أن هذا أعظم النفع والفائدة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[1] ففي ذلك "تنبيه على أن دعاءه إياهم لا يكون إلا إلى ما فيه خير لهم وإحياء لأنفسهم"[2].

وقد قال رسول الله ﷺ: ((إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقًا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم وينذرهم شرّ ما يعلمه لهم))[3] قال ابن عثيمين: (كل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كان منهم النصيحة لأقوامهم، يعلمونهم الخير ويدلونهم عليه ويحثونهم عليه، ويبينون الشر ويحذرونهم منه، وهكذا يجب على أهل العلم وطلبة العلم أن يبينوا للناس الخير ويحثوهم عليه، ويبينوا الشر ويحذروهم منه؛ لأن علماء هذه الأمّة ورثة الأنبياء، فإن النبي ﷺ ليس بعده نبي ختمت النبوة به، فلم يبق إلا العلماء الذين يتلقون شرعه ودينه، فيجب عليهم ما يجب على الأنبياء من بيان الخير والحث عليه ودلالة الناس إليه، وبيان الشر والتحذير منه)[4].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: بيان فضل الله على عباده:

خلق الله الخلق وتفضل عليهم سبحانه بنعمه الظاهرة والباطنة التي لا تعد ولا تحصى، فهم يحيون بفضله ويدخلون الجنة بفضله، ويثيبهم على العمل بفضله كما هو واضح من هذا الحديث أن الله أعطى – بفضله ومنّه-من دلَّ على خيرٍ، أعطاه ثواب من فعله، دون أن يشترط في ذلك أن يفعله، قال النووي: ((والمراد بمثل أجر فاعله أن له ثوابًا بذلك الفعل كما أن لفاعله ثوابًا))[5].

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٢٤.

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور، مج٤/٩/٣١٢.

(٣) أخرجه مسلم ١٨٤٤.

(٤) شرح رياض الصالحين ١/٩٦٠.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢١٥.

والله سبحانه وتعالى ذو الفضل العظيم والمن الكثير على عباده. قال تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾[١] قال القرطبي: (إن الجنة لا تنال ولا تدخل إلا برحمة الله تعالى وفضله)[٢].

وقال النبي ﷺ لأصحابه: ((لن يدخل أحدًا منكم عملُه الجنة: قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه بفضلٍ ورحمة))[٣] فالله فضله على عباده عظيم لا يحصى ولا يعدُّ.

رابعًا- من أهداف الدعوة: نشر الخير في المجتمع:

جاء الإسلام ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ومن الضيق إلى السعة، ومن الظلم إلى العدل، وفي جملة واحدة: إنما جاء الإسلام بالخير للبشرية جمعاء، وخير دليل على ذلك أنه لم يكتف بدعوة المدعوين إلى فعل الخير لينالوا الثواب المترتب على ذلك فقط، وإنما دعاهم أيضًا إلى أن يدلُّوا غيرهم على الخير، لينالوا ثواب من فعله، وفي هذا تحفيز مابعده تحفيز إلى فعل الخير.

إن جعل الثواب لمن دل على الخير حافز للمدعوين على نشر الخير وإشاعته في المجتمع والتعاون على ذلك والتكاتف.

قال عبدالله البسام: (وحديث الباب يدل على أن من دلّ على خير، سواء أكان من خير الدنيا أو خير الآخرة أن له من الأجر مثل أجر من فعل، من غير أن ينقص من أجر المقتدي به شيء، وإنما هو أجر بسبب كونه قدوة في الخير وأسوة في عمل الإحسان. ومن أفضل الأعمال الصالحة التي يتعدى نفعها وتبقى ثمارها هو العلم النافع، الذي هو شرع الله تعالى من أصوله وفروعه، وما أعان على فهمه، فمن نشر هذا العلم فقد

---

(١) سورة الحديد، آية: ٢١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي مج٩/١٧/٢٥٧.

(٣) أخرجه البخاري ٥٦٧٣، ومسلم ٢٨١٦.

ضرب بسهم وافر من القدوة الحسنة، والدلالة على الصراط المستقيم، وقد أخرج الناس - بإذن الله تعالى - من ظلمات الجهل إلى نور العلم والهداية والرشاد، ونال بهذا عظيم الأجر من الله تعالى فقد قال ﷺ: ((لأنْ يَهديَ اللهُ بكَ رجُلاً خَيرٌ لكَ من أن يكونَ لكَ حُمْرُ النَّعَم))[1][2].

وقد جاءت نصوص من الكتاب والسنة تحضّ على نشر الخير بين الناس. قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾[3] قال ابن عاشور: (الضمير في ﴿وَتَعَاوَنُواْ﴾ للمسلمين، أي ليُعن بعضكم بعضًا على البر والتقوى، وفائدة التعاون تيسير العمل وتوفير المصالح، وإظهار الاتحاد والتناصر حتى يصبح ذلك خلقًا للأمة)[4].

وقال النبي ﷺ:((لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم))[5].

قال النووي: (السلام أول أسباب التآلف، ومفتاح استجلاب المودة، وفي إفشائه تمكن ألفة المسلمين بعضهم لبعض، وإظهار شعارهم المميز لهم من غيرهم من أهل الملل، مع ما فيه من رياضة النفس ولزوم التواضع وإعظام حرمات المسلمين... ،ورفع التقاطع والتهاجر والشحناء وفساد ذات البين التي هي الحالقة، وأن سلامه لله، لا يتبع فيه هواه ولا يخصّ أصحابه وأحبابه به)[6].

ولا شك أن هذا كله يؤكد أن إفشاء السلام من طرق نشر الخير في المجتمع وإشاعته بين الناس، ولذلك حضّ عليه النبي ﷺ وحثّ عليه.

---

(١) أخرجه البخاري ٣٧٠١، ومسلم ٢٤٠٦.

(٢) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله البسام ٢٦٦/٦.

(٣) سورة المائدة، آية: ٢.

(٤) التحرير والتنوير، مج٣/٦/٨٧-٨٨.

(٥) أخرجه مسلم ٥٤.

(٦) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٣٠، وانظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠٣/١-١٠٤.

خامسًا- من أساليب الدعوة: الترغيب:

لقد رغب النبي ﷺ في الدلالة على الخير وبذل الوسع في ذلك وإنفاق الجهد فيه، بأن جعل لمن دل على الخير ثواب من فعله، وفي هذا تحفيز وشحذ لهمم المدعوين وتشجيع لهم على فعل الخير والدلالة عليه والتنافس في هذا المجال.

الحديث رقم (١٧٤)

١٧٤- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه أَن رسولَ اللَّه ﷺ قال: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لا يَنْقُصُ ذلِكَ مِنْ أُجُورِهِم شَيْئًا، ومَنْ دَعَا إِلَى ضَلالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لا يَنقُصُ ذلكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا» رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

إن الدعوة إلى الله هى مفتاح كل خير، ومغلاقُ كل شر، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر من معالم شخصية المسلم ومعالم منهجه الحياتي، فهو على قدر استطاعته – يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

والمؤمن في استقباله للمعروف هاش باش، لا يقبِّح معروفًا، ولا ينصر منكرًا، وهو في استقباله للمنكر رافض في ظلال النية الصادقة، والعزيمة المحققة على محو هذا المنكر وتغييره إما باليد في حال القدرة على التغيير، أو رفض هذا المنكر وتغييره بنشر الوعْي بين جماهير الأمة وإرشادهم إلى الطريق الصحيح بما يملك الداعية من طلاقة لسان، وعذوبة بيان، وقوة تأثيرية، وخبرة معرفية شرعية.

وإذا لم يملك المسلم القدرة على التغيير باليد أو إصدار القرار والقوانين التي تغير، فليخاطب الناس ولينشر بينهم الوعى الصحيح، وليرشدهم إلى الطريق السوي، والمنهج الجلي.

وإذا لم يملك هذا الداعي القدرة المادية، ولم تكن لديه القدرة البيانية، والخبرة العلمية، والملكة الدعوية فليس أمامه إلا الإنكار بالقلب، فالشعور مَرْصد المؤمن، وميزان استجابته للأشياء.

---

(١) برقم (٢٦٧٤/١٦). أورده المنذري في ترغيبه (١٩٧). وسيكرره المؤلف برقم (١٣٨٤).

ومن حديقة هذا الحديث الشريف نقتطف هذه الثمرات الدانية التي نضجت في دوحة هذا الحديث المباركة، وهذا الحديث مشحون بكثير من الطاقات المحفزة إلى فعل الخير، والدعوة إلى الله بالحسنى مثل الحديث السابق.

ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث النبوي الشريف، وهى جماليات تنبع من حسن اختيار الألفاظ، ودقة موقعها من نظم الجملة، ودرجة التحامها بباقي كلمات الحديث الشريف والبلاغة كما قال: عبدالقاهر الجرجاني هى: توخي معاني النحو بين الكلم.

وأول ظاهرة أسلوبية في هذا الحديث هي صياغته في قالب الجملة الشرطية، فهو يتكون من جملتين شرطيتين، أولاهما تبشر الداعين إلى الهدى بالأجر الجزيل مثل أجر الذين تبعوهم، والثانية تنذر العاصين والملحدين الداعين إلى الضلال، وهم يبوءون بالخسران المبين، ويلحق بهم الإثم والويل والثبور.

وكلمة "هدى" موجزة ولكنها تتسع في مدلولها لتشمل كل عمل من أعمال البر، والعبادات، والمعاملات والعقائد، وكلمة "إلى" ترشد إلى ضرورة الحركة في الدعوة، وإلى قصدية التوجه الصادق والمسعى الحميد إلى نَشْر الهدى والتعبير بالفعل كان في قوله "كان له من الأجر" يتجاوز الوظيفة الإعرابية للفعل وهو فعل ماضٍ ناقص.

و"كان" هنا ليست ناقصة الدلالة، وإنما في هذا السياق تفيد الثبات وتأكيد الحكم لأنه قضاء الله وحكمه.

و "له" في هذا السياق المبشر تفيد الملكية والاختصاص، وهى تقابل "عليه" في سياق الإثم، وفي قوله "مثل أجور" من تبعه، جاءت كلمة "أجور" جمعًا لترشد إلى مضاعفة أجر الداعي إلى الهدى، وأن هذا الأجر يتزايد كلما زاد عدد المستجيبين لهذه الدعوة، وعدد الذين اهتدوا، وزادهم الله هدى.

وعبر بقوله، "من تبعه" لأن اتباع الخير واجب، والاتباع في الشرع يفيد أن المتبوع على حق، وفي اللغة يقولون تابعه على كذا: أي: وافقه عليه، ويقولون تبعت النحل تُبَّعها وهو يَعْسوبها الأعظم . وتبعت الأغصان الريح.

والحديث تكمن دلالته في اتكائه على عنصر المقابلة بين جناحي المعنى المراد توصيله. فالطرف الأول يتمثل في الدعوة إلى الهدى واتباع هذه الدعوة، ثم الأجر الذي يتضاعف بعدد المدعوِّين، والطرف الثاني المقابل للأول والموازي له هو الدعوة إلى "ضلالة" ثم الإثم الذي يلحق بهذا الداعي، ويتزايد كلما زاد عدد الضالين والمغضوب عليهم، وهذان الطرفان المتناقضان يمثلان بؤرة الصراع بين الخير والشر، وبين الهدى والضلال.

والتضاد اللفظي الذي يجسد هذا الصراع يتجلى في هذه الثنائيات الضدية: "هُدىً - ضلالة"، و"الأجر - الإثم"، و "أجور- آثام"، و"كان له - وكان عليه".

والتعبير بقوله "كان له" في سياق الدعوة إلى "الهدى" يوحي بالملكية والاختصاص والمثوبة والتكريم والتعبير بقوله: "كان عليه في سياق الدعوة إلى ضلالة" يفصح عن شدة الوزر، وتحمل عقاب الدعوة إلى ضلالة، لأنه لم يكتف بأنه يسنّ سنة سيئة في الإسلام ، بل حاول الدعوة إلى الضلال .. فعليه وزر دعوته ووزر كل من عمل بها مهما تكاثر العدد، وتعددت البيئات ، وتوالت الأزمنة.

والتعبير بقوله "من الأجر" في سياق "الهدى"، يشير إلى التبشير بالثواب والترغيب في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

والتعبير بقوله "من الإثم" في سياق الضلالة للتحذير من هذه الدعوة، والإفادة أن العقاب ملازم للإثم: والتعبير بالإثم: لتذكير صاحبه بجرمه، وتنفيره منه، والإثم يستلزم العقاب الأليم.

والتوازي الأسلوبي بين طرفي الحديث في قوله: "لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا". وقوله: "لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا"، فيه إيحاء بالعدالة في الحساب، وأنه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[1]. وقال سبحانه تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾[2].

(١) سورة الزلزلة: ٧-٨.

(٢) سورة الأنبياء، آية: ٤٧.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل الدعوة إلى الهدى وشناعة الدعوة إلى ضلالة.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الاعتصام بالكتاب والسنة.

ثالثًا: من مهام الداعية: بيان الحقائق.

رابعًا: من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل الدعوة إلى الهدى وشناعة الدعوة إلى ضلالة:

إن الدعوة إلى الهدى لها أجر عظيم، كما أن الدعوة إلى الضلالة عليها إثم عظيم، وهذا واضح جليٌّ في الحديث "من دعا إلى هدى ... ومن دعا إلى ضلالة..." فإن من دعا إلى هدىً لم ينل ثواب ذلك فقط، وإنما يناله أيضًا مثل ثواب من تبعه، فهذا فضل عظيم ومنقبة كبرى. ومن ناحية أخرى فإن من دعا إلى ضلالة لم يلحقه إثمه فحسب، وإنما يحمل أوزار من تبعه وعمل بضلالته كذلك، وهذا خزي كبير وعار أليم.

قال النووي: (فيه أن من دعا إلى هدى كان له مثل أجور متابعيه أو إلى ضلالة كان عليه مثل آثام تابعيه، سواء كان ذلك الهدى والضلالة هو الذي ابتدأه أم كان مسبوقًا إليه، وسواء كان ذلك تعليم علم أو عبادة أو غير ذلك)[1].

وقال ابن هبيرة: (إن قوله ﷺ: "من دعا إلى هدى" فإن هدى هنا نكرة، يعني هدىً من الهدى، فإنّ ذلك الداعي له أجر دعائه، وأجر دعاء كل داع يدعو إلى الله إلى ذلك الهدى بعده، ولا أرى أن رسول الله ﷺ أتى بذكر هدى نكرة إلا إشارة منه إلى أن هدى الله عزوجل كبيرٌ واسعٌ، فيكون منه ما لم يكن قد ذكر إلى أنه يستنبط من الأذكار المروية، ويعرف من آثار الله في عباده، ودلائله في صنائعه، والفوائد من كتابه والأسرار في كلام رسول الله ﷺ فيكون ذلك الهدى الذي يدعو إليه العبد له أجره، وأجر كل من يدعو به.

وأما الضلالة: فإن من يدعو إليها بكلمة خبيثة أو عقد إشكال أو نابضة شك أو

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٨٣، وانظر: فتح الباري: ٣١٥/١٣.

طليعة حيرة؛ فإنه عليه إثمها وإثم كل من يضل بها إلى يوم القيامة، ليؤخذ منه ما يؤخذ، ثم يبقى له بقية، وينهض به إلى الخير والسلامة"[١].

وقد جاء في القرآن الكريم الإخبار بعاقبة الداعين إلى الضلالة، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾[٢]. فقد أخبر (أنهم غير ناجين من حمل تبعات لأقوام آخرين وهم الأقوام الذين أضلوهم وسولوا لهم الشرك والبهتان على وجه التأكيد بحملهم ذلك)[٣].

وأكد النبي ﷺ هذا المعنى، فعن حذيفة رضي الله عنه قال: ((سأل رجل على عهد رسول الله ﷺ فأمسك القومُ ثم إن رجلاً أعطاه فأعطى القوم، فقال النبي ﷺ: من سن خيرًا فاستُنَّ به كان له أجره ومن أجور من يتبعه غير منتقصٍ من أجورهم شيئًا، ومن سنَّ شرًا فاستُنَّ به كان عليه وزره ومن أوزار من يتبعه غير منتقصٍ من أوزارهم شيئًا))[٤].

فعلى الداعية أن يحذر من الضلالة والدعوة إليها، ويؤيد ويعضد الدعوة إلى الهدى والرشاد.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: الاعتصام بالكتاب والسنة:

إن الاعتصام بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة هو طريق الصلاح في الدنيا والفلاح في الآخرة. كما أن الخسران يكون بعدم التمسك بهما، لهذا حضّ الرسول ﷺ على التمسك بالكتاب والسنة وحذر من البعد عنهما. وذلك واضح في قوله ﷺ "من دعا إلى هدى ... ومن دعا إلى ضلالة..." فالهدى ما كان من القرآن الكريم والسنة والضلالة

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ١٧٨/٨.

(٢) العنكبوت، الآيتان: ١٢-١٣.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، مج٨/٢٠/٢٢١.

(٤) أخرجه أحمد ٣٨٧/٥ رقم ٢٣٢٨٩، وقال محققو المسند: صحيح لغيره وهذا إسناد حسن ٣٢٥/٣٨.

ما خالف الكتاب والسنة.

ولقد أمر الله الأمة بالاجتماع واتحاد الكلمة وجمع الصف على أن يكون أساس هذا الاجتماع الاعتصام بالكتاب والسنة، ونهى عن التفرق وبين خطورته على الأمة في الدارين. ولتحقيق ذلك أُمرنا بالتحاكم إلى كتاب الله تعالى في الأصول والفروع ونهينا عن كل سبب يؤدي إلى التفرق.

فالطريق الصحيح إلى النجاة هو التمسك بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ فإنهما حصن حصين وحرز متين لمن وفقه الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[1].

فقد أمر الله تعالى بالاعتصام بحبل الله، وحبل الله هو عهد الله أو هو القرآن كما قال المفسرون، إذ العهد الذي أخذه الله على المسلمين هو الاعتصام بالقرآن والسنة. فقد أمر الله تعالى بالجماعة ونهى عن التفرق والاختلاف. قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ﴾[2] وهذا شامل لأصول الدين وفروعه الظاهرة والباطنة.

وإن ما جاء به الرسول ﷺ يتعين على العباد الأخذ به واتباعه ولا تحل مخالفته، وإن نص الرسول ﷺ على حكم الشيء كنص الله تعالى، لا رخصة لأحد ولا عذر له في تركه، ولا يجوز تقديم قول أحد على قوله. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾[3] فقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين بطاعته

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٠٣.

(٢) سورة الحشر، آية: ٧.

(٣) سورة الأنفال، آية: ٢٠.

وطاعة رسوله ﷺ، وزجرهم عن مخالفته والتشبه بالكافرين به المعاندين له.ولهذا قال: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ أي: تتركوا طاعته وامتثال أوامره وترك زواجره.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾[1].

قال ابن كثير: (أطيعوا الله، أي اتبعوا كتابه، وأطيعوا الرسول أي خذوا سنته، وأولي الأمر منكم أي فيما أمروكم به من طاعة الله لا في معصية الله، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الله. وقوله: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾. قال مجاهد: أي إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وهذا أمر من الله عز وجل بأن كل شيء تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه أن يرد التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة كما قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ۚ﴾[2] فما حكم به الكتاب والسنة، وشهدا له بالصحة فهو الحق، فماذا بعد الحق إلا الضلال؟

ولهذا قال تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، أي: ردوا الفصل في الخصومات والجهالات إلى الكتاب والسنة، ومن لا يرجع إليهما في ذلك فليس مؤمنًا بالله ولا اليوم الآخر. وقوله ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾، أي: التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والرجوع إليهما في فصل النزاع خير ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾، أي: وأحسن عاقبة ومآلاً كما قال السدي وقال مجاهد: وأحسن جزاء. وهو قريب)[3]. وفي كتاب الله آيات كثيرة وردت

---

(١) سورة النساء، آية: ٥٩.

(٢) سورة الشورى، آية: ١٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيقك سامي بن محمد السلامة ٢/٣٤٥-٣٤٦.

في وجوب الاعتصام بالكتاب والسنة والرجوع إليهما في كل الأمور)[١].

ثالثًا- من مهام الداعية: بيان الحقائق:

إن المدعوين بحاجة دومًا إلى أن تكون الحقائق أمامهم واضحة جلية، وهذه إحدى مهام الداعية، وهو في هذا يقتدي بالنبي ﷺ كما هو مستنبط من هذا الحديث الشريف، فقد بيّن النبي ﷺ جزاء الداعي إلى هدى والداعي إلى ضلالة، وبيّن حقيقة أن جزاءهما لا يكون محدودًا بفعلهما فقط بل يكون ممتدًا أيضًا ليشمل الجزاء المترتب على من اتبعهما، فيكون جزاؤهما عظيمًا جدًا.

قال ابن عثيمين: (في هذا دليل على أن المتسبب للشيء كالمباشر له، فهذا الذي دعا إلى الهدى تسبب فكان له مثل أجر من فعله، والذي دعا إلى السوء أو إلى الوزر تسبب فكان عليه مثل وزر من اتبعه)[٢].

وقد كان بيان الحقائق مسلك الأنبياء مع المدعوين، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ﴾[٣].

ومن هذا القبيل ما رواه سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: ((مر رجل على رسول الله ﷺ فقال لرجل عنده جالس: ما رأيك في هذا؟ فقال: رجل من أشراف الناس هذا والله حَرِيٌّ إن خطب أن يُنكح وإن شفع أن يشفّع. فسكت رسول الله ﷺ ثم مرّ رجل فقال له رسول الله ﷺ: ما رأيك في هذا؟ فقال: يا رسول الله هذا رجل من فقراء المسلمين. هذا حري إن خطب ألا ينكح وإن شفع ألا يُشفع، وإن قال ألا يسمع لقوله، فقال رسول

---

(١) أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، إعداد نخبة من العلماء ٢٩٢-٢٩٥.

(٢) شرح رياض الصالحين ١/٤٦٢.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٥٨.

الله ﷺ: هذا خير من ملء الأرض مثل هذا))[١].

قال ابن حجر: (إن جهة تفضيله إنما هي لفضله بالتقوى، وليست المسألة مفروضة في فقير متق وغني غير متقٍ بل لا بد من استوائهما أولاً في التقوى)[٢]. ومن هذا القبيل أيضًا ما رواه عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((مَنْ قَالَ: أَشْهَدُ أَنَّ لاَ إِلهَ إِلاَّ الله وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَىٰ عَبْدُ اللّهِ وَابْنُ أَمَتِهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ، وَأَنَّ النَّارَ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ الله مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ شَاءَ))[٣].

قال النووي: (هذا حديث عظيم الموقع، وهو أجمع أو من أجمع الأحاديث المشتملة على العقائد، فإنه ﷺ جمع فيه مايخرج عن جميع ملل الكفر على اختلاف عقائدهم وتباعدها، فاختصر ﷺ في هذه الأحرف على ما يباين به جميعهم)[٤].

فعلى الداعية أن يبين الحقائق للمدعوين حتى تتضح لهم، فيأتوا من الأعمال ما ينفعهم في الدنيا والآخرة، ويجتنبوا من الأفعال ما يكون لهم خزيًا في الدارين.

رابعًا- من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب:

لقد رغب النبي ﷺ في الدعوة إلى الهدى بأن أخبر بثوابها الجزيل، وخوف ورهب من الدعوة إلى الضلالة بأن أنبأ بإثمها العظيم. وبهذا الأسلوب حث المدعوين على التزام الهدى والدعوة إليه وحثهم كذلك على تجنب الضلالة والدعوة إليها والعمل بها.

---

(١) أخرجه البخاري، ٥٠٩١، ٦٤٤٧.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٨٢/١١.

(٣) أخرجه البخاري ٣٤٣٥، ومسلم واللفظ له ٢٨.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٠٩.

الحديث رقم (١٧٥)

١٧٥- وعن أَبي العباسِ سهل بنِ سعدٍ السَّاعِدِيِّ ﷺ أَن رسولَ اللَّه ﷺ قال يَوْمَ خَيْبَرَ: «**لأعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غدًا**[1] **رَجُلاً يَفتَحُ اللَّه عَلَى يَدَيْهِ، يُحبُّ اللَّه ورسُولَهُ، وَيُحبُّهُ اللَّه وَرَسُولُهُ**» فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا. فَلَمَّا أصبحَ النَّاسُ غَدَوْا عَلَى رسولِ اللَّه ﷺ: كُلُّهُمْ يَرجُو أَنْ يُعْطَاهَا، فقال: «**أَيْنَ عليُّ بنُ أَبي طالب؟**» فقيلَ: يا رسولَ اللَّه هُو يَشْتَكي عَيْنَيْه قال: «**فَأَرْسِلُوا إِلَيْهِ**» فَأُتِي بِهِ، فَبَصقَ رسولُ اللَّه ﷺ في عيْنيْهِ، وَدعا لَهُ فَبَرأَ، حتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجعٌ، فأَعْطَاهُ الرَّايَةَ. فقال عليٌّ ﷺ: يا رسول اللَّه أُقاتِلُهم حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا؟ فَقَالَ: «**انْفُذْ عَلَى رِسلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يجِبُ مِنْ حقِّ اللَّه تَعَالَى فِيهِ، فَواللَّه لأَنْ يَهْدِيَ اللَّه بِكَ رَجُلاً وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمَ**» متفقٌ عليه[2].

قوله: «يَدُوكُونَ»: أَيْ يخُوضُونَ ويتحدَّثون، قوْلُهُ: «رِسْلِكَ» بكسر الراءِ وبفَتحِهَا لُغَتَانِ، وَالْكَسْرُ أَفْصَحُ.

ترجمة الراوي:

سهل بن سعد الساعدي: هو سهل بن سعد بن مالك بن خالد بن ثعلبة بن حارثة من بني الخزرج، الأنصاريُّ، الساعديُّ يكنى بأبي العباس، ويقال: أبو يحيى المدني.

حكى ابن حبان أنه كان اسمه حزنًا فغير النبي ﷺ كعادته في تغيير الأسماء السيئة إلى الحسنة اسمه من حزنٍ إلى سهل، وكان يصغر لحيته.

وهو من مشاهير الصحابة، وله رواية، وروى له الجماعة، له في كتب الحديث (١٨٨) حديثًا. توفيَّ رسولُ اللَّه ﷺ وسهل ابن خمس عشرة سنة، وعاش حتى أدرك الحجاج بن يوسف، وامتحن معه، وعذبه الحجاج عذابًا شديدًا بالحديد، روى عن سهل أبو هريرة، وسعيد بن المسيب، والزهري، وغيرهم.

---

(١) (غدا) لا توجد عند مسلم في هذه الرواية، وإنما هي عند الحميدي في جمعه (١/ ٥٥٠، رقم ٩٠٦).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٠٩)، ومسلم (٢٤٠٦/٣٤) واللفظ له. وسيكرره المؤلف مختصرًا برقم (١٣٨١).

ومات سهل رضي الله عنه بالمدينة المنورة، وقيل هو آخر من مات بالمدينة، وكان ذلك سنة (٨٨) وقيل (٩١)، ومات وهو ابن مائة سنة، وقيل ابن إحدى وتسعين سنة(١).

غريب الألفاظ:

يدوكون: فسرها النووي(٢).

على رسلك: رسلك: بكسر الراء وبفتحها لغتان والكسر أفصح. والرسل: الرفق والتؤودة. يقال: افعل كذا على رسلك: ائتد ولا تعجل(٣).

الشرح الأدبي

إن مشاهد السيرة النبوية تحفل بجلائل الآثار، وعظائم الأمور والأخبار، وكل مشهد من هذه المشاهد يدعو إلى التأمل العميق، والتتبع الدقيق، ومن أجل هذه المشاهد ما يرصد وقائع الفتوح، وملاحم الغزوات، وقصص البطولات، ومآثر الشهداء.

وهذا الحديث تصور كلماته العطرة، بعض مشاهد السيرة النضرة، وتقدم لشباب الإسلام أنموذجًا فذًا للبطولة والفداء، وغزوة خيبر هي مَيْدان الاختبار، وهي الشاهد على فروسية هذا البطل المغْوار علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد سار المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى خيبر في المحرم سنة سبع من الهجرة، بعد رجوعه من الحديبية، وهذه الغزوة تمثل إحدى حلقات الصراع بين المسلمين واليهود في عصر النبوة، وهم لا ميثاق لهم ولا ذمة، وفي هذه الغزوة كان شعار أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم يامنصور أمت أمت.

وقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق رضي الله عنه برايته، وكانت بيضاء إلى بعض حصون خيبر، فقاتل فرجع ولم يكن فتح، وقد جهد، ثم بعث الغد عمر بن الخطاب

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر (٣٠٨، ٣٠٩)، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٢/٥٧٥، ٥٧٦)، الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي (٥٤٨)، تهذيب الكامل (٣/٣٢٤، ٣٢٥)، السندي (٢٤/٣٣٢)، الأعلام (٣/١٤٣).

(٢) رياض الصالحين ١٢١.

(٣) رياض الصالحين ١٢١، والوسيط في (ر س ل).

رضي الله عنه فقاتل، فرجع ولم يكن فتح وقد جهد، فقال رسول الله ﷺ لأعطين الراية غدًا رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله. ويبدأ الحديث في سرد وقائع تسليم الراية لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهذا لا يَعْني اعتراضًا على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، لأنهما قاما بدورهما وأبليا بلاءً شديدًا، وكلهم من الصحابة الأخيار.

والقسم في بداية الحديث في قوله "لأعطين الراية غدًا"، يفصح عن نية المصطفى ﷺ الصادقة، وعزيمته القوية في تحقيق النصر على اليهود بمشيئة الله سبحانه، وبمواصلة حصار خيبر، وفتح باقي حصونها بعد الكفاح والنضال والجهاد الذي قدمه الشيخان، أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وتنكير لفظ رجلاً لتعظيم ذلك الرجل ولتعظيم الدور الذي سيقوم به، وتتمثل في هذا الحديث معجزتان من معجزات رسول الله ﷺ الأولى في قوله "يفتح الله على يديه"، وقد تحقق النصر المبين على يهود خيبر بمشيئة الله تعالى، وشجاعة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، واستبسال جنود الإسلام وفتح الله على يَدي عليٍّ خيبر كما أنبأ رسول الله ﷺ. والفتح المبين، والنصر على الأعداء في أي عصر وأي مكان مرهون بمَنْ يمسك الراية ويتولى القيادة، ومن معالمه وصفاته القيادية أنه رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، والمراد من محبة العبد لله ورسوله، امتثال أوامرهما، واجتناب مناهيهما، والمراد من محبة الله للعبد توفيقه لمرضاته وإنابته، وشجاعة الصحابة وإخلاصهم نُجِدهُ في شوقهم إلى معرفة ذلك الرجل، وكلهم يتمنى أن يكون هو ذاك، وهو الذي يُعْطي الراية، ويدور حوار بين المصطفى ﷺ وهؤلاء الصحابة المتشوفين إلى الفوز بهذا الشرف الكبير، ويقول رسول الله أين علي بن أبي طالب، فيقولون: هو يشتكي عينيه، وتتجلى المعجزة الثانية وهي شفاء علي بن أبي طالب: حيث دعا له الرسول فَبَرَأ كأن لم يكن وجع.

ويدور الحوار بين القائد الأعلى نبي الأمة ﷺ، وحامل الراية الفارس الفقيه علي بن أبي طالب، الذي جمع الوصفين، وحاز الشرفين المتلازمين، حيث حظى بمحبة الله ورسوله ﷺ فهم يحبونه وهو يحبهم.

ويتوجه علي بن أبي طالب بالسؤال والاستفهام إلى رسول الله ﷺ وهو واثق من

النصر والفتح، لأن الرسول بشره بذلك فيقول: أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا، أي: هل أظل أقاتلهم حتى يدينوا بالإسلام؟

وتأتي إجابة رسول الله ﷺ لتوضح المنهج الصحيح في الدعوة إلى الله حتى في أشد حالات القتال والصراع، ويأمره رسول الله بالتدرج في إقناع الناس، وتعريفهم بمعالم الدين الجديد، والابتعاد عن العنف، ويبدو هذا المنهج في قوله: "انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم": أي تمهل، وتأن في الحركة، ولا تدمّر بيوتهم، ولا تحرق أشجارهم، ولا تقتل أطفالهم ولا نساءهم ولا شيوخهم، والتعبير بقوله: "ثم" قبل قوله: "ادعهم إلى الإسلام": يرشد إلى التمهل وإعطاء الوقت الكافي لهم للتفكير في الإقبال على الدين الجديد راضين مقتنعين.

ويتضح الأمر ويزداد جلاء حين يأمره رسول الله أمرًا صريحًا بضرورة تثقيفهم وتعريفهم بالإسلام حيث قال: "وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه". وحتى لا يظن أن الحرب لا تكون إلا للغلبة وتحصيل الغنائم، يقسم رسول الله ﷺ موضحًا أن الهداية والتعريف بالإسلام هما هدف المسلم، وهما ثمرة المغازي والفتوحات: يقول المصطفى لعلي بن أبي طالب، ولكل من يتصدى للدعوة ويدافع عن حياض الإسلام، ويحمي حمى الدين. "فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك من حمر النعم".

وحين نتأمل صياغة الحديث الشريف نجد أن الجمل تتوالى وتتلاحق ويكثر العطف بحرف "الفاء" وهو للترتيب والتعقيب، وذلك في المواقف التي تستدعى السرعة والتنفيذ، ويتجلى ذلك في لهفة الصحابة على من يعطي الراية، وفي سؤال الرسول ﷺ عن علي: "فقال: أين علي"؛ وفي إجابة الصحابة، "فقيل: يا رسول الله...الخ"، وفي قوله: "فأرسلوا إليه"، وفي سرعة واستجابة سريعة: يقول الراوي: "فأتي به"، وهنا كلام محذوف، وتفصيل يوحي به المقام، ويغني عنه السياق، ولم يمهله رسول الله ﷺ، ولكن في لحظة شفى، وقيل فأعطاه الراية، فقال علي، فالعطف بحرف "الفاء" يصور سرعة الحركة، وتوالي الأحداث، وحرص الصحابة على سرعة الاستجابة لأوامر رسول الله ﷺ.

وقد قام علي بن أبي طالب بما أمره به رسول الله ﷺ، بعد أن أدّى أبو بكر

دوره، وأدّى عمر دوره في هذه الغزوة، وقد صدق الشاعر أبو الفضل الوليد حين صور فضل الصحابة الأجلاء- فقال:

صحابته الأبرار خير صحابة ... وأنصاره الأبطال والشرفاء

فمن كأبي بكر عفافًا وحكمة ... وتقوى إذا ما عُدّت الرؤساء؟

ومن يشبه الفاروق تحت عباءة ... هرقل اشتراها والحرير كساءُ؟

لقد كان جبارًا فصار بعدْله ... أبًا للرعايا فاغتنى البؤساء

ومن مثل عثمان تُقًى وتعبدًا ... إذا عُرض القرآن والشهداء؟

ومن كعليٍّ نجدةً وبلاغةً ... تمناهما القواد والخطباء

به ثبت الإسلام واعْتز أهله ... فدانت له الفرسان والأمراء[(١)]

وقد شاء الله أن يجلي اليهود عن خيبر في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حيث أرسل الفاروق إلى "يهود" فقال: "إن الله عز وجل قد أذن في جلائكم، قد بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان: فمن كان عنده عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليهود، فليأتني به، أنفذه له، ومن لم يكن عنده عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليهود فليتجهز للجلاء، فأجلى عمر من لم يكن عنده عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم"[(٢)]، قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[(٣)]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾[(٤)].

---

(١) انظر: ديوان أبي الفضل الوليد، دار الثقافة.

(٢) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام ص ٣٧١/٣.

(٣) سورة الحج، آية: ٤٠.

(٤) سورة الحج، آية: ٣٨.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم دعوة الكفار إلى الإسلام قبل القتال، وقد اتفق الفقهاء[1] على أنه إذا دخل المسلمون دار الحرب فحاصروا مدينة أو حصنًا، شرع لهم دعوة الكفار إلى الإسلام، فإن امتنعوا دعوهم إلى الجزية إن كانوا ممن تقبل منهم الجزية.

ولكن هل تجب عليهم الدعوة؟ اختلف الفقهاء في ذلك على ثلاثة آراء، فذهب جمهور الفقهاء إلى أنه يجب دعوة الكفار إلى الإسلام قبل القتال لمن لم تبلغهم الدعوة، ولا يجب إن بلغتهم لكن يستحب، وذهب المالكية والهادوية إلى أنه يجب تقديم الدعوة لمن بلغتهم الدعوة ومن لم تبلغهم، وذهب البعض إلى أنه لا تجب الدعوة مطلقًا.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على أن يكونوا ممن يحبهم الله ورسوله ويحبون الله ورسوله.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: دلائل نبوة النبي صلى الله عليه وسلم.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

رابعًا: من صفات الداعية: الحرص على هداية الناس.

خامسًا: من أساليب الدعوة: التوكيد والتشويق والسؤال والجواب والأمر والقسم.

---

(١) المبسوط، السرخسي ٣٠/١٠، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود١٠٠/٧، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٨١/٥ وما بعدها، وشرح معاني الآثار، الطحاوي ٢٠٩/٣، وشرح منح الجليل ١٤٤/٣ وما بعدها، وأحكام القرآن، ابن العربي ١٤٧/١، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي ٦٤/٨، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٣١/٦، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ١٧٢/٩، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٤٠/٣، والفروع، ابن مفلح ١٩٧/٦، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، الإمام الشوكاني ٢٧٢/٧ وما بعدها، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية١٤٣/١٦ وما بعدها.

أولاً- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على أن يكونوا ممن يحبهم الله ورسوله ويحبون الله ورسوله:

إن المؤمن يحرص أشد الحرص على محبة الله ورسوله، وعلى أن يعمل من الأعمال ما يوصله إلى أن يحبه الله ورسوله، ولقد كان الصحابة رضي الله عنهم، وهم أكمل المؤمنين إيمانًا، أشد الناس حرصًا على الأمرين معًا. كما هو واضح من قول الصحابي: "فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها" بعد أن سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "لأعطين هذه الراية غدًا رجلاً... يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله" وجاء في حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: "فتطاولنا لها"[1].

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ((ما أحببت الإمارة إلا يومئذ فتساورت لها[2] رجاء أن أدعى لها))[3] وفي حديث بريدة رضي الله عنه: ((فما منا من رجل له منزلة من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وهو يرجو أن يكون ذلك الرجل، حتى تطاولت أنا لها ورفعت رأسي لمنزلة كانت لي منه))[4].

وذلك لأن حب الله ورسوله من الإيمان، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[5].

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم: ((ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما....))[6].

وقال عبدالله بن هشام رضي الله عنه: ((كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال له عمر: يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي. فقال النبي

---

(١) أخرجه مسلم ٣٢-٢٤٠٤.

(٢) معناه تطاولت لها: أي حرصت عليها: أي أظهرت وجهي وتصديت لذلك ليتذكرني، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٤٧٠.

(٣) أخرجه مسلم ٣٣-٢٤٠٥.

(٤) أخرجه البيهقي في الدلائل ٢١٠/٤، وانظر: البداية والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢٦٤/٦.

(٥) سورة البقرة، آية: ١٦٥.

(٦) أخرجه البخاري ١٦، ومسلم ٤٣.

ﷺ: لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك. فقال له عمر: فإنه الآن، والله لأنت أحب إلي من نفسي. فقال النبي ﷺ: الآن يا عمر))[١].

فعلى الداعية أن يدفع المدعوين إلى فعل الطاعات التي تدل على أنهم يحبون الله ورسوله.

قال العز بن عبدالسلام: (محبة الله وسيلة إلى أن يعامله العبدُ معاملة المحبّ لحبيبه، في المبادرة إلى طاعته والمسارعة إلى كل ما يرضيه واجتناب كل ما يسخطه والتحرز من أسباب سخطه والاحتياط لأسباب رضاه، مع البكاء والقلق والشوق والأرق وغير ذلك من آثار المحبة، وينبغي أن تكون آثار محبته أشد من آثار كل محبةٍ وأعظم، وأن لا يشبهها شيء، كما أن المحبوب لا يشبهه شيء، وهو السميع البصير)[٢].

(ومحبة رسول الله ﷺ أشرف من محبة سائر العباد، وهي وسيلة إلى أن يطاع طاعة المحبوب، وكلما قوي التعلق بالحبيب قوي حب المتعلقين به والمنتسبين إليه)[٣].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: دلائل نبوة النبي ﷺ:

(أجرى الله تبارك وتعالى على يدي أنبيائه ورسله من المعجزات الباهرات والدلائل القاطعات والحجج الواضحات ما يدل على صدْق دعواهم أنهم رسل الله، وكي تقوم الحجة على الناس فلا يبقى لأحدٍ عذر في عدم تصديقهم وطاعتهم، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾[٤])[٥].

ومن دلائل نبوة النبي ﷺ في هذا الحديث إعلامه بأن الله تعالى يفتح حصون خيبر على يدي على بن أبي طالب رضي الله عنه وشفاء النبي ﷺ عيني علي بن أبي طالب رضي الله عنه بعد أن كان يشتكيهما، قال النووي: (في هذا الحديث معجزات ظاهرات لرسول الله

(١) أخرجه البخاري ٦٦٣٢.

(٢) شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال ٥٩.

(٣) المرجع السابق ٦٠.

(٤) سورة الحديد، آية: ٢٥.

(٥) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن حميد، وعبدالرحمن بن ملوح ٥٢٠/١.

ﷺ قولية وفعلية، فالقولية إعلامه بأن الله تعالى يفتح يدي علي، فكان كذلك، والفعلية بصاقه في عينه وكان أَرْمَدَ فَبَرأ من ساعته)[١]. فهاتان معجزتان تدلان على نبوة محمد ﷺ وأن الله بعثه للناس وأيده بالمعجزات.

وقد كثرت الوقائع التي تدل على نبوة النبي ﷺ كثرة بالغة وقد ألف فيها العلماء كتبًا مستقلة[٢]، ومن هذه الدلائل مارواه أنس بن مالك رضي الله عنه: أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آيةً، فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما[٣].

قال القاضي عياض في باب خصائصه ﷺ ومعجزاته: (نيتُنا أن نثبت في هذا الباب أمهات معجزاته ومشاهير آياته لتدل على عظيم قدره عند ربه، وأتينا منها بالمحقق والصحيح الإسناد وأكثره مما بلغ القطع أو كاد... وإذا تأمل المتأمل المنصف ما قدمناه من جميل أثره وحميد سيره وبراعة علمه ورجاحة عقله وحلمه وجملة كماله وجميع خصاله وشاهد حاله وصواب مقاله- لم يمتر في صحة نبوته وصدق دعوته)[٤].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

إن علي بن أبي طالب رضي الله عنه هو ابن عمّ الرسول ﷺ وزوج ابنته فاطمة البتول رضي الله عنها، وسيف الله المسلول، له فضائل كثيرة ومناقب عديدة في الإسلام، كما هو واضحٌ في هذا الحديث، فقد أعطاه النبي ﷺ الراية؛ فدل هذا على أنه يحبه الله ورسوله وأنه يحب الله ورسوله. فكان هذا منقبة له.

قال ابن هبيرة: (إنّ هذا حق لا شك فيه فإن عليًا رضي الله عنه كان يحب الله ورسوله،ويحبه الله ورسوله، لأنه كان من المؤمنين الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿يُحِبُّهُمْ

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٤٧١.

(٢) مثل كتاب دلائل النبوة للبيهقي كما أفردها ابن كثير بالذكر في البداية والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير بمساحة كبيرة تحت عنوان: كتاب دلائل النبوة ٧٠٠/٨، ٨٥/٩.

(٣) أخرجه البخاري ٣٨٦٨، ومسلم ٢٨٠٢.

(٤) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢٧٣/١.

﴿وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[١]، وممن شهد له رسول الله ﷺ أن حبّه إيمان وبغضه نفاق[٢])[٣].

وعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه مناقبه كثيرة، قال ابن حجر: (قال أحمد وإسماعيل القاضي والنسائي وأبو علي النيسابوري: لم يرد في حق أحد من الصحابة بالأسانيد الجياد أكثر مما جاء في عليّ)[٤].

من ذلك قول سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في فضائل على رضي الله عنه: ذكرت ثلاثًا قالهن له رسول الله ﷺ: لأن تكون لي واحدة منهن أحب إلي من حمر النعم، سمعت رسول الله ﷺ يقول له وخَلَّفَه في بعض مغازيه، فقال له علي رضي الله عنه: يا رسول الله خلفتني مع النساء والصبيان؟ فقال له رسول الله ﷺ: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبوة بعدي، وسمعته يقول يوم خيبر: لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله فتطاولنا لها فقال: ادعو لي عليًا.. ولما نزلت هذه الآية: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ﴾[٥] دعا رسول الله ﷺ عليًا وفاطمة وحسنًا وحسينًا فقال: ((اللهم هؤلاء أهلي))[٦].

قال النووي: (وفيه فضائل ظاهرة لعلي رضي الله عنه وبيان شجاعته وحسن مراعاته لأمر رسول الله ﷺ وحبه الله رسوله وحبهما إياه)[٧].

قال السيوطي: (وعلي رضي الله عنه أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأخو رسول الله ﷺ بالمؤاخاة. وصهره على فاطمة سيدة نساء العالمين رضي الله عنها وأحد السابقين إلى الإسلام،

---

(١) سورة المائدة، آية: ٥٤.

(٢) أخرجه مسلم ٧٨.

(٣) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم ٣٤٩/١.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٨٩/٧.

(٥) سورة آل عمران، آية: ٦١.

(٦) أخرجه البخاري ٣٧٠٦ مختصرًا، ومسلم ٣٢-٢٤٠٤ وهو لفظه.

(٧) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٤٧١.

وأحد العلماء الربانيين والشجعان المشهورين والزهاد المذكورين والخطباء المعروفين، وأحد من جمع القرآن وعرضه على النبي ﷺ، وهو أول خليفة من بني هاشم وأبو السبطين، أسلم قديمًا بل قال ابن عباس وأنس وزيد بن أرقم وسلمان الفارسي وجماعة: إنه أول من أسلم، ونقل بعضهم الإجماع عليه ... وشهد مع رسول الله ﷺ بدرًا وأحدًا وسائر المشاهد إلا تبوك، فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم استخلفه على المدينة. وله في جميع المشاهد آثار مشهورة، وأعطاه النبي ﷺ اللواء في مواطن كثيرة)(١).

فما أجمل أن يعالج الداعية فضل علي بن أبي طالب رضي الله عنه وبلاءه في الإسلام وعلو مكانته فيه، لكي يقتدي به المدعوون.

رابعًا- من صفات الداعية: الحرص على هداية الناس:

إن من أهم الصفات التي يتحلى بها الداعية حِرصه على هداية الناس إلى الحق، والأنبياء عليهم السلام -وهم أئمة الدعاة- إنما مهمتهم هداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور، وكان النبي ﷺ يحث أصحابه على القيام بهذه المهمة كلما أمكن ذلك، كما هو واضح في الحديث، وذلك في قول النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: "لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك من حمر النعم"، فالنبي ﷺ أخبر عليًّا أن هداية رجل واحد إلى الإسلام أفضل من أنفس الأموال وأقيمها.

قال البغوي: (لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك أجرًا وثوابًا من أن تكون لك حمر النعم)(٢).

قال ابن حجر: (يؤخذ منه أن تألف الكافر حتى يسلم أولى من المبادرة إلى قتله)(٣).

وقال النووي: (وفي هذا الحديث فضيلة العلم والدعاء إلى الهدى وسن السنن الحسنة)(٤).

---

(١) تاريخ الخلفاء جلال الدين السيوطي، وهي طبعة مصورة ص ١٥٥-١٥٦.

(٢) شرح السنة ١٤/١١٢.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧/٥٤٦.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٤٧١.

وقد قال الله تعالى عن إبراهيم وابنه إسحاق وحفيده يعقوب وهم من سادة الدعاة: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾[(١)].

ومن الأمثلة البليغة لحرص الداعية على هداية الناس ولو كان ذلك بقتله، ما أخرجه مسلم عن قصة الغلام والراهب والساحر والملك الكافر، وفيه قول الغلام للملك: ((إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به. قال: ماهو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد وتصلبني على جذع ثم خذ سهمًا من كنانتي ثم ضع السهم في كبد القوس ثم قل: باسم الله رب الغلام، ثم ارمني. فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني، ففعل الملك ذلك فقال الناس: آمنا برب الغلام. فأتى الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر؟ قد والله نزل بك حذرك، قد آمن الناس))[(٢)].

فعلى الداعية أن يبذل جهده وطاقته لهداية الناس.

خامسًا- من أساليب الدعوة: التوكيد والتشويق، والسؤال والجواب، والأمر والقسم:

أما التوكيد فقول النبي ﷺ "لأعطين هذه الراية غدًا..." ليؤكد أنه يعطي الراية لرجل توافرت فيه هذه الصفات.

أما التشويق فقوله ﷺ: "لأعطين هذه الراية غدًا رجلاً يفتح الله علي يديه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله" فالنبي ﷺ أبهم الصحابي ليشوقهم إلى أن يكونوا جميعًا إياه يوضح هذا "فبات الناس يدوكون" فإن عيّنه النبي غدًا عرفوا قدره ومكانته وفضله.

قال البغوي: (يدوكون أي يخوضون وأصله من الدوك، شبه الأمر فيه بمن دقّ شيئًا ليستخرج لبّه ويعلم باطنه)[(٣)]، وقد عيّنه ﷺ عن طريق السؤال: أين علي بن أبي طالب؟

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ٧٣.

(٢) أخرجه مسلم ٣٠٠٥.

(٣) شرح السنة ١١٢/١٤.

أما الجواب فقد كان مترتبًا على سؤال عليّ ﷺ: أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فبين له النبي ما يفعله.

والأمر هو قول النبي ﷺ "انفذ على رسلك"، وأما القسم فقول النبي ﷺ: "فوالله..." ليؤكد أهمية هداية الناس إلى الإسلام وإدخالهم فيه وجعلهم يعتنقونه.

الحديث رقم (١٧٦)

١٧٦- وعن أَنسٍ رضي الله عنه أَنْ فَتَى مِنْ أَسْلَمَ قال: يا رسُولَ اللَّه إِنِّي أُرِيد الْغَزْوَ ولَيْس مَعِي مَا أَتجهَّزُ (بِهِ)[1]؟ قَالَ: «ائْتِ فُلانًا، فإِنه قَدْ كانَ تَجَهَّزَ فَمَرِضَ» فَأَتَاهُ فقال: إِنَّ رسولَ اللَّه صلى الله عليه وسلم يُقْرِئُكَ السَّلامَ وَيَقُولُ: أَعْطِنِي الذي تجَهَّزْتَ بِهِ، فقال: يا فُلانَةُ أَعْطِيهِ الذي تجَهَّزْتُ بِهِ، ولا تحْبِسِي مِنْهُ[2] شَيْئًا، فَواللَّه لا تَحْبِسِينَ مِنْهُ شَيْئًا فَيُبَارَكَ لَكِ فِيهِ. رواه مسلم[3].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

الشرح الأدبي

إن الجهاد في سبيل الله ذروة سنام الدين، وهو تاج حياة المؤمنين، ففي ميدان الجهاد تبزغ كل شموس العبادات، ومن قلب المجاهد تنطلق أفراس القوة، ومعالم الفتوة، فهو يحمي بدمه شهادة التوحيد، ويصون باستشهاده حرمات المساجد، وأعراض المسلمين، وتاريخ الإسلام، ومعالم العقيدة، فالإسلام، كما يقول الرافعي: دين يعلو بالقوة، ويدعو إليها، ويريد إخضاع الدنيا وحكم العالم، ويستفرغ همته في ذلك، لا لإعزاز الأقوى وإذلال الأضعف، ولكن للارتفاع بالأضعف إلى الأقوى، وفرق ما بين شريعته وشرائع القوة، أن هذه إنما هي قوة سيادة الطبيعة وتحكمها، أما هو فقوة سيادة الفضيلة وتغلبها، وتلك تعمل للتفريق، والإسلام يعمل للمساواة، وسيادة الطبيعة وعملها للتفريق هما أساس الاستعباد، وغلبة الفضيلة في ظل الإسلام وعملها للمساواة هما أعظم وسائل الحرية[4].

---

(١) (به) لا توجد عند مسلم، وإنما هي عند الحميدي في جمعه (٢/٦٤٦ رقم ٢١٢٦).

(٢) لفظ مسلم: (عنه) والمثبت لفظ الحميدي في جمعه.

(٣) برقم (١٨٩٤/١٣٤). وسيكرره المؤلف برقم (١٣١٠).

(٤) انظر: وحي القلم للرافعي، ج١.

وفي ضوء هذا التوجه لمعيار القوة في الإسلام، وفلسفة الجهاد وبواعثه، نقرأ ونستكشف أسرار التعبير في هذا الحديث الشريف: فالحديث يصور مشهدًا من مشاهد الفداء، والاستعداد للجهاد دفاعًا عن العقيدة وترسيخًا لمبدأ القوة الإيمانية.. ويبدأ الحديث بمحاورة بين النبي ﷺ وفتى من قبيلة أسلم وهي قبيلة مشهورة: وبعد الإسلام كان بها كما يقول الرواة: خلق كثير من الصحابة والتابعين فمن بعدهم من العلماء ورواة الحديث، وتبدأ المحاورة بنداء رقيق مهذب من الفتى وكأنه استنجاد برسول الله حيث نادى: يارسول الله ثم يؤكد مَطْلبه ويَعْرِض حاجته، ويحدّد مطلبه بالإرادة دليلاً على صدق العزيمة، فيقول: إني أريد الغزو وليس معي ما أتجهز به، ويدرك الرسول ﷺ: صدق نيته وصحة عزيمته: فيدله على الطريق الصحيح ويأمره بالذهاب إلى أحد الصحابة ليستعين بعدته للغزو: لأنه ألم به مرض أقعده عن الخروج إلى الجهاد.

وأسلوب المصطفى ﷺ يفصح عن الاستعداد القوي لهذا الرجل قبل مرضه ولكن فاجأه المرض: حيث يقول الرسول مؤكدًا "فإنه قد كان تجهز فمرض"، فاجتماع المؤكدات: "إنَّ" "وقَدْ" ومجيء الفعل "كان" مع صيغة تفعّل في تجهّز، كل هذا يعلن عن قوة استعداد الرجل، ولكن يفاجئه المرض، والعطف بالفاء في قوله: فمرض، يفصح عن مداهمة المرض له.

ويتولى العطف بالفاء في قوله: "فمرض، فأتاه: فقال": للدلالة على سرعة الحركة، وتشوق هذا الفتى الأسلمي للقتال في سبيل الله، ومع هذه اللهفة، وذلك الشوق لا ينسى الفتى أدب التحية في الإسلام، ولا ينسى حُسْنَ الطلب، وجمال اللقاء: ويتجلى ذلك في مبادرته للرجل قائلاً: رسول الله ﷺ يقرئك السلام: وهذه الجملة تشعر بالاطمئنان، والراحة والسكينة، وذلك من سمات الأدب النبوي الذي تربى عليه الصحابة الأخيار، لينُ الحديث، وصدقُ القول، وبشاشة المُحَيَّا.

ولم يتوجه هذا الفتى بالأمر مباشرة إلى ذلك الرجل المريض مراعاة لشعوره، ولكن جعل الأمر بالإعطاء في دائرة قول رسول الله ﷺ حيث بدأ بالسلام ثم ثنى وقال:

ويقول: أعطني الذي تجهزت به، واختيار مادة "العطاء" لها مدلول نفسي وفني وأسلوبي فالعطاء هبة عن رغبة واختيار وليس قسرًا، ولم يقل له سلّمني أو هات ما عندك، وإنما قال له: أعطني، وهذا من أدب الحوار في الإسلام، ومن سمات بلاغة الحديث حيث يراعى مقتضى الحال، والقاعدة تقول: لكل مقام مقال، ويستجيب هذا الصحابي من فَوْره ويأمر امرأته أن تعطيه كل عُدّة الحرب، وينهاها أن تحبس شيئًا ويقسم بأنها إذا حبست شيئًا لن يبارك لها الله فيه، إنه مشهد من مشاهد الإيثار والعطاء، والصدق والوفاء.

فقه الحديث

قال النووي: (في الحديث أن ما نوى الإنسان من صرفه في جهة برٍّ فتعذرت عليه تلك الجهة، يستحبّ له بذله في جهة أخرى من البرّ ولا يلزمه ذلك ما لم يلتزمه بالنذر)[١].

كما يشير هذا الحديث إلى حكم فقهي في باب الجهاد، وهو شرط وجوب الجهاد، فلا يجب الجهاد إلا على مستطيع من ناحية الركوب والزاد، وإذا فقدت هذه الأشياء فلا يجب الجهاد، لكن إن وجدها بملك أو بذلٍ وجب عليه الجهاد [٢].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة على الجهاد في سبيل الله.

ثانيًا: من واجبات الداعية: الدلالة على فعل الخير.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة على تنفيذ أمر النبي ﷺ.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: الحرص على البذل في سبيل الله.

أولاً- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة على الجهاد في سبيل الله:

إن من موضوعات الدعوة في هذا الحديث حرص الصحابة رضي الله عنهم على الجهاد وهذا يظهر في قول أنس رضي الله عنه: إن فتى من أسلم قال: "يا رسول الله إني أريد الغزو وليس معي

---

(١) شرح صحيح مسلم، مج٧/١٣، ٣٥.

(٢) أسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ١٧٩١٤، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ١١٥/٤.

ما أتجهز به"، فحرص الصحابة على الجهاد في سبيل الله مضرب الأمثال.

وقد كان صحابة رسول الله ﷺ حريصين على الجهاد امتثالاً لأمر ربهم في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾(١).

وحرص الصحابة رضي الله عنهم على الجهاد نابع من إيمانهم بالله رسوله، ورغبة فيما عند الله تعالى، وقد أخبر الله بما أعده للمجاهدين في سبيله، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾(٢)، قال ﷺ: ((إنَّ في الجنةِ مائةَ درجةٍ أعدَّها الله للمجاهدينَ في سَبيلِ الله ما بينَ الدرجتين كما بينَ السماءِ والأرض))(٣).

ومما يدل على حرص الصحابة رضي الله عنهم على الجهاد في سبيل الله، بكاء الرجال حزنًا على حرمانهم من الجهاد، قال تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾(٤).

قال مجاهد: نزلت في بني مقرن من مزينة.

قال محمد بن كعب: كانوا سبعة نفر؛ من بني عمرو بن عوف: سالم بن عوف، ومن بني واقف: هرمي بن عمرو، ومن بني مازن بن النجار: عبدالرحمن بن كعب، ويكنى أبا ليلى، ومن بني المعلى: سلمان بن صخر، ومن بني حارثة: عبدالرحمن بن يزيد، أبو عيلة، وهو الذي تصدَّق بعرضه فقبله الله منه، ومن بني سلمة: عمرو بن عَنَمةُ وعبدالله بن عمرو المزني.

---

(١) سورة التوبة، آية: ١٢٣.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٦٩.

(٣) أخرجه البخاري ٢٧٩٠، ٧٤٢٣.

(٤) سورة التوبة، آية: ٩٢.

وقال محمد بن إسحاق في سياق غزوة (تبوك): ثم إن رجالاً من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ وهم البكاءون، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم، من بني عمرو بن عوف: سالم بن عمير، وعلبة بن زيد أخو بني حارثة، وأبو ليلى عبدالرحمن بن كعب أخو بني مازن بن النجار، وعمرو بن الحمام بن الجموح أخو بني سلمة، وعبدالله بن المغفل المزني، وبعض الناس يقول: بل هو عبدالله بن عمرو المزني، وهرمي بن عبدالله أخو بني واقف،وعرياض بن سارية الفزاري، فاستحملوا رسول الله ﷺ وكانوا أهل حاجة، فقال: ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾[1].

قال لي مَنْ أُحِبُّ والبَيْن قد حَلَّ ودمعي مرافِقٌ لشهيقي

ما تُرى في الطريق تصنع بعدي؟ قلتُ: أبكي عليك طول الطريق

هذا والله بكاء الرجال.. بكاؤهم على موطن يفوز فيه الإنسان المسلم بإحدى الحسنيين إما النصر وإما الشهادة في سبيل الله"[2].

فحرص الصحابة رضي الله عنهم على الجهاد وإخلاصهم جعلهم يفتحون البلدان وينشرون الإسلام ويدعون إلى الله على بصيرة.

ثانيًا- من واجبات الداعية: الدلالة على فعل الخير:

إن من واجبات الداعية التي تستنبط من هذا الحديث، الدلالة على فعل الخير، ويظهر هذا من قوله ﷺ: (ائت فلانًا فإنه قد كان تجهز فمرض).

حيث دلّه ﷺ على من يجهزه للجهاد في سبيل الله، والدلالة على فعل الخير كان صفة من صفات النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، قال تعالى: ﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١٩٩/٤-٢٠٠، والسيرة النبوية، ابن هشام ١٥٧/٤-١٥٨.

(٢) فرسان النهار من الصحابة الأخيار، د. سيد بن حسين العفاني ٣٣٧/١.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾(١)، قال القرطبي: (يسارعون في الخيرات التي يعملونها مبادرين غير متثاقلين)(٢).

وقال رسول الله ﷺ: ((مَنْ دَلَّ على خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ))(٣)، فيجب على الداعية أن يسارع إلى الخير ويدل على فعله.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة على تنفيذ أمر رسول الله ﷺ:

إن الصحابة رضي الله عنهم كانوا حريصين أشد الحرص على الامتثال لأوامر النبي ﷺ، ويظهر ذلك في قول أنس رضي الله عنه فأتاه فقال: إن رسول الله ﷺ يقرئك السلام ويقول: (أعطني الذي تجهزت به، فقال: يا فلانة أعطيه الذي تجهزت به ولا تحبسي منه شيئًا).

وقد كان صحابة رسول الله ﷺ حريصين على تنفيذ أمر رسول الله ﷺ لأنهم يعلمون أن طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله، قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾(٤)، وقد أمرهم ربهم بالامتثال لأمر رسوله ﷺ وتنفيذه، قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾(٥)، فعلى الداعية أن يبين للمدعوين مدى حرص الصحابة رضي الله عنهم على تنفيذ أمر الرسول ﷺ والاقتداء به وأن يدعوهم إلى اتباع سنة رسول الله ﷺ والاقتداء به، وانتهاج نهج صحابة رسول الله ﷺ.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: الحرص على البذل في سبيل الله:

يتضح ذلك من قول الرجل الذي أرسله إليه رسول الله ﷺ: "يا فلانة أعطيه الذي تجهزت به ولا تحبسي منه شيئًا، فوالله لا تحبسي منه شيئًا فيبارك لك فيه".

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١١٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٧٦/٤/٢ - ١٧٧.

(٣) أخرجه مسلم ١٨٩٣.

(٤) سورة النساء، آية: ٨٠.

(٥) سورة الحشر، آية: ٧.

والبذل في سبيل الله له ثواب عظيم في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾(١)، قال ابن كثير: (هذا مثل ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته، وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف)(٢).

أما البخل وهو عدم الإنفاق في سبيل الله ومسك اليد عنه فهو صفة المنافقين، كما وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾(٣)، "ويقبضون أيديهم" أي: عن الإنفاق في سبيل الله(٤).

فينبغي على الداعية أن يبين للمدعوين فضل الإنفاق في سبيل الله وبركته، وسوء البخل وعاقبته.

ويدل على فضل الإنفاق في سبيل الله حرص الصحابة رضي الله عنهم عليه، فهذا أبو بكر رضي الله عنه ينفق جميع ماله في غزوة تبوك وعمر رضي الله عنه ينفق نصفه.

فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: ((أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم أَنْ نَتَصَدَّقَ، فَوَافَقَ ذَلِكَ عِنْدِي مَالاً، فَقُلْتُ: الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا، قَالَ: فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ؟ قُلْتُ: مِثْلَهُ، وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ؟ قَالَ: أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللهَ وَرَسُولَهُ، قُلْتُ: وَاللهِ، لاَ أَسْبِقُهُ إِلَى شَيْءٍ أَبَدًا))(٥).

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٦١.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٦٩١/١.

(٣) سورة التوبة، آية: ٦٧.

(٤) المرجع السابق ١٧٢/٤.

(٥) أخرجه الترمذي ٣٦٧٥، وحسنه الألباني، (صحيح سنن الترمذي).

وهذا عثمان بن عفان رضي الله عنه يجهز جيش العسرة من ماله الخاص، فعنه رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((مَن جهَّزَ جيشَ العُسرةِ فلهُ الجنة، فجهَّزتُه))[1]. لذا كان للبذل ثمرات تمثلت في حل مشكلة ذوي الحاجات بين الصحابة رضي الله عنهم كما أنها كانت سببًا في تنفيس الكرب، والمشاركة الوجدانية، والمساعدة المادية، وهذا يعبر عن حقيقة الأخوة الإيمانية في الواقع، ويبرز معاني الوحدة القائمة بين المؤمنين[2].

---

(١) أخرجه البخاري ٢٧٧٨.

(٢) موسوعة القيم ومكارم الأخلاق العربية والإسلامية، د. مرزوق بن صنيتان بن تبناك وآخرون ٥/٤٧، ٩.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

إن روح الجماعة تؤثر على الأفراد لا محالة، وأن العقل الجمعي يفرض نفسه لا إرادياً على آحاد الأفراد، وقد حث الرسول ﷺ على أن يتوجه أفراد المجتمع إلى فعل الخير، فمن تعذر عليه ذلك لضيق ذات اليد أو لعجز معرفي ودعا غيره إلى فعل هذا ففعل كان له من الأمر مثل أجر من حثه على هذا من غير أن ينقص من أجره.

وكما أن الداعي إلى الخير يؤجر كما يؤجر فاعله، فإن الداعي إلى السوء يتحمل وزر كل سوء دعا إليه، وإن وقع من غيره. وقد نص الرسول ﷺ على أنه ما من نفس تقتل إلا وكان على ابن آدم الأول كفل منها، لأنه أول من سن القتل. وعلى الإنسان أن يتصور ما يلحق به من أجر و وزر من جراء فعله. ومن وسائل التربية ما يلي:

أولاً- التربية بالترغيب:

لقد رغَّب النبي ﷺ في الدلالة على الخير والدعوة إليه بقوله: «مَنْ دَلَّ علىٰ خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ»؛ حتى يصير الأمر بالمعروف والدعوة إلى الخيرات سلوكاً محموداً لدى المسلمين، فإنهم إن يفعلوا ذلك فإن الله سيثيبهم بمثل أجر المستجيبين لدعوتهم، دون نقص من أجور العاملين عند الله.

ولعلَّ الإنسان إذا أمر بالدعوة إلى الخير دون إيماء بالثواب، لعله يتقاعس ولا يسعى إلى ما أمر به، ولكن النبي ﷺ هنا لم يتبع أسلوب الأمر، لاسيما والأمر يخص الآخرين ولا يخص الشخص نفسه، فربما سأل سائل. وماذا يفيدني إذا دللت على الخير؟ وماذا يصيبني سوى إرهاق نفسي من أجل الآخرين؟

من أجل تجنب هذا الشعور لدى المسلم بأنه يعمل دون أجر، فقد رغَّب النبي في هذا الفعل، دونما أمر، بل اكتفى ببيان الثواب؛ لأنه يستند إلى ما فطر الله عليه الإنسان من الرغبة في النعيم والرفاهية، وللترغيب وعد يصحبه، وإغراء بمصلحة أو متعة آجلة مؤكدة[١].

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. محمد شحات الخطيب وآخرون ص ٨٤.

وأي ثواب أفضل من ثواب الله وأجره!

ثانياً- التربية بالترهيب:

ويتبدّى ذلك في الترهيب من الدلالة على الشر والدعوة إليه بقوله: «وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلاَلَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا»، وذلك تخويف من مغبة الوقوع في الدعوة إلى الشر، فذلك فعل الخاطئين، الذين يحبون أن يشيع الفساد في المجتمع، بأن يدعوا إليه بالقول أو الفعل، فيقتدى بهم ضعفاء النفوس، ويقتدى بالآخرين غيرهم، حتى يعم ذلك الضلال الذي دعا إليه الفاعل الأول، وهو يحصد ذنبه وذنوب هؤلاء جميعاً، دون أن تنقص آثامهم.

فأي مجازف ذلك الذي يدعو إلى الضلالة بعد ذلك الترهيب من جانب النبي ﷺ، بعد أن أطلع المسلمين على عقاب الله لتلك الفعلة المشينة؟ إنه إن يفعل ذلك بعد هذا الترهيب، فإنه يستحق العقوبة العاجلة والآجلة.

ولقد ثبت لعقلاء الناس "أن الحضارة الغربية بإشاعتها الفاحشة وإبرازها للفتنة والغواية عرَّضت مجتمعاتها لأخطار كبيرة؛ تتمثل في انهيار الأسرة وكثرة الأبناء الذين لا يُعرف لهم آباء، بالإضافة إلى انتشار جرائم الجنس والسرقة والقتل، وقد عجزت قيادات الحضارة الغربية عن معالجة هذه الأخطاء"[1].

وذلك كله من جراء الدعوة الأولى للفساد، ولهذا كان تخويفه ﷺ وترهيبه من الدعوة إليه، وإشاعته.

ثالثاً- التربية بالتشويق:

وذلك سبيل سلكه رسول الله ﷺ في غزوة خيبر، عندما قال لأصحابه: "لأُعطِيَنَّ الرَّايةَ غداً رَجُلا يَفتَحُ اللَّهُ عَلى يَدَيْهِ"، "فباتَ النّاسُ يُدوِكُون ليلَتَهمْ أيُّهم يُعطاها؟" أي يختلفون فيما بينهم ويموجون، ويضربون الاحتمالات، مطلعين إلى ذلك السعيد الذي ينال هذا الشرف الكبير، وتتفتح على يديه خيبر.

---

(١) التربية الروحية والاجتماعية في الإسلام، د. أكرم ضياء العمري، ٢٨٦، ٢٨٧.

ولقد اتبع هذا النبي هذا الأسلوب لهدف بعيد؛ لعله أراد إعلاء همة أصحابه بالاشتياق لهذا الأمر والاستعداد له، ثم بإعلاء شأن علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ لما قدم في سبيل نشر الدعوة من تضحيات، ولما له من سبق في الإسلام.

وقد فعل صلى الله عليه وسلم ذلك؛ لأن التشويق نوع من التحفيز، له علاقة بالترغيب، .. فعند حصول الرغبة في الشيء والقناعة به، والتطلع إلى نيله، يمكن أن يحصل الشوق إلى رؤياه[1].

رابعاً- التربية على علو الهمة:

ويظهر ذلك في اهتمام الصحابة بمن سيعطي الراية، عندما أخبرهم النبي صلى الله عليه وسلم بأنه سيعطيها رجلاً "يفتح الله على يديه" إن هِمَمَهم العالية المتطلعة إلى المعالي؛ جعلت كلا منهم يرجو أن يكون هذا الرجل.

وحين دعا داعي الجهاد وتجهز الناس للحرب، جاء فتى إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال: "يا رسول الله، إني أريد الغزو، وليس معي ما أتجهز به..."، فقد أبت همته العالية أن يقعد متكئاً على فقره وعوزه؛ إنما سعى للغزو والجهاد؛ حتى ينال الثواب في الدنيا والآخرة، فكانت عاقبة نيته الحسنة أن دله رسول الله صلى الله عليه وسلم على صحابي لديه عدة الحرب ولكنه مريض، فذهب إليه وأخذ العدة وحارب، ولم يستسلم للظروف الصعبة التي قد تمنع الكثيرين ممن ضعفت هممهم عن التغلب عليها.

خامساً- التربية بالممارسة العملية:

ليس بالقول وحده وصلت المبادئ التربوية إلى الأمة، ولكن الممارسة العملية كانت من الأساليب التربوية الكثيرة التي منها نتعلم، وبها نقتدي، ويتبدى ذلك في موقف علي بن أبي طالب رضي الله عنه، واستجابته للنبي صلى الله عليه وسلم عندما أمره بحمل الراية، وأيضاً في موقف الصحابي الذي أراد الجهاد وأعوزه المال والعدة، فذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم وشكا إليه، ما أصابه، وتلك ممارسة عملية لإبلاغ القائد في المعركة بكل ما يجري لأفراده

---

(١) أساليب الدعوة والتربية، زياد العاني ص ٢٢٣.

جيشه، حتى يتمكن من حل مشكلاتهم؛ مثلما فعل النبي ﷺ مع ذلك الرجل، بأن دلَّه على ما يتجهز به

هذا، ويعد أسلوب التربية بالممارسة العملية من أهم أساليب التربية الإسلامية؛ وذلك لأن الدين الإسلامي دين عمل، شريطة أن يكون العمل قريناً للعلم.... وهو دين يجعل العمل أساساً للنجاح أو الخسران في الدنيا والآخرة[١].

(١) أصول التربية الإسلامية، د. سعيد إسماعيل القاضي ص ١٧٧.

٢١- باب في التعاون على البر والتقوى

قَالَ اللَّه تَعَالَى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾[المائدة: ٢]، وَقالَ تَعَالَى: ﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[العصر: ١-٢] قَالَ الشافعي كلامًا معناه: إنَّ النَّاسَ أَوْ أكثرَهم في غفلة عن تدبر هذهِ السورة.

الحديث رقم (١٧٧)

١٧٧- عن أَبي عبدِ الرحمن زيدِ بن خالدٍ الْجُهَنيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم: «مَنْ جهَّزَ غَازِيًا في سَبِيلِ اللَّه فَقَدْ غَزَا وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًا في أَهْلِهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا» متفقٌ عليه(١).

ترجمة الراوي:

زيد بن خالد الجهني: يكنى أبا عبدالرحمن، وقيل أبا طلحة.

سكن المدينة، وشهد الحديبية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان معه لواء جهينة يوم الفتح.

روى عن النبي صلى الله عليه وسلم، وعن عثمان، وأبي طلحة، وعائشة رضي الله عنهم وروى عنه ابناه خالد، وأبو حرب، ومولاه أبو عمرة، وعطاء بن رباح، وعطاء بن يسار وغيرهم. وبلغت أحاديثه التي رواها عن النبي صلى الله عليه وسلم ٨١ حديثًا، واختلف في مكان ووقت وفاته وسنه اختلافًا كثيرًا، فقيل إنه توفي بالمدينة وقيل بمصر، وقيل بالكوفة.

وكانت وفاته سنة ٧٨هـ قال البغوي: مات سنة ٦٨هـ وقيل مات قبل ذلك في خلافة معاوية رضي الله عنه بالمدينة(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٤٣) واللفظ له، ومسلم (١٨٩٥/١٣٦). أورده المنذري في ترغيبه (١٨٦٥). وسيكرره المؤلف برقم (١٣٠٨).

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر (٢٤٩)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٣٥٥/٢)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي (٤٤٩)، وتهذيب الكمال في أسماء لرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس، ومجدي السيد أمين (٧٦/٣)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٦٦٤/١-٦٦٥، والأعلام للزركلي (٥٨/٣).

غريب الألفاظ:

خلف غازيًا: قام عنه بما كان يفعله بعده[١].

الشرح الأدبي

يفتتح النووي بهذا الحديث الشريف: باب التعاون على البر والتقوى، وقمة التعاون تكون في مواجهة الأعداء الذين يتربصون بالأمة الدوائر، والذين يُهَدِّدون ديار الإسلام، وهذا الحديث له صلة عضوية وموضوعية بالحديث السابق، ويعد مكافأة لذلك الرجل المريض الذي أعطى عدته وجهازه، الفتى الأسْلمي، وكأنه قام بالغزو والجهاد ، وهذا الحديث يؤكد ذلك الجزاء الأوفى فالنبي محمد ﷺ يحض أمته على التضامن والتساند إذا ما دعا داعي الجهاد في سبيل الله، فيجعل لمن يجهز الغازي ويهيئ له الأسباب والوسائل ببذل المال أو غيره من سلاح وعتاد مثل أجر الغازي، وكذلك من قام على أولاد المجاهدين وأهليهم، وتعهد بيوتهم بالرعاية والنفقة حتى ينتهي القتال، فله مثل أجر المجاهدين ولا ينقص بعضهم من أجر بعض شيئًا، وهكذا تصبح الأمة عند الخطر كتلة واحدة مترابطة متعاونة، يعمل كل فرد منها على قدر طاقته في الميدان الذي يجيده، وهو يطمئن ويعتقد أن له أجر الجندي في ميدان القتال.

والحديث في بنائه اللغوي يتكون من جملتين شرطيتين، وهذا البناء يشي بتحقق الجزاء، فالجملة الأولى تعد وتبشر كل من شارك في الإعداد للجهاد بالمال والسلاح والطعام ورفع الروح المعنوية، والقضاء على الشائعات والعمل على توحيد الصفوف، وهذا الذي يحث ويحض على الجهاد وتجهز المجاهدين له أجر المجاهد، وجواب الشرط جاء مؤكدًا "بقد" التي تدل على التحقيق: حيث قال رسول الله "فقد غزا" أي: كأنه قام بالغزو في سبيل الله، وفي هذا التعبير اللغوي استعارة تبعية من تشبيه التسبُّب في الغزو بالغزو الواقع بجامع تساوى الأجر في كل. واستعير الغزو للتسبب واشتق منه غزا بمعنى: تسبب في الغزو أو شجع عليه.

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (خ ل ف).

وقوله: "في سبيل الله" قيد لصفة الغازي: وقيد للأجر الذي يستحقه من يجهز ذلك الغازي، لأن الذي يغزو في سبيل جاهه أو قبيلته، أو استرداد ملك له أو طمعًا في الثروة والمكاسب المادية أو توسيع رقعة ملكه ... فهو ليس في سبيل الله، وكل من يشارك في ذلك يتحمل وزْره وتبعته، والجملة الثانية جاءت على نسق الجملة الأولى وهي شرطية كذلك، ولكنها تلقى الضوء على حماية الجبهة الداخلية، وتجعل الغازي مطمئنًا على ماله وولده، ويقاتل وهو على يقين أن أولاده في خير، ولذلك قال رسول الله "في أهله بخير"، وهذه الخيرية صفة جامعة مانعة تشمل كل أنواع الرعاية والحماية.

وفي رواية أخرى يتأكد ذلك الجزاء الأوفى "من جهز غازيًا في سبيل الله فله مثل أجره، ومن خلف غازيًا في أهله بخير أو أنفق على أهله فله مثل أجره"، وهذا الثواب الجزيل مرده إلى الفعل الجميل، لأن الجهاد هو ذروة سنام الدين كما ورد في الحديث الشريف، "وذروة سنامه الجهاد"[1]، فهو أفضل الأعمال بعد الفرائض: وفي الصحيحين عن أبي ذر رضي الله عنه قال: "قلت يا رسول الله أي العمل أفضل؟ قال: الإيمان بالله والجهاد في سبيله"[2].

وللحديث رواية أخرى حيث روى ابن ماجه من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه بلفظ ((من جهز غازيًا حتى يستقل كان له مثل أجره حتى يموت أو يرجع))[3]، وقال العلقمي: أفادت هذه الرواية: أن الوعد المذكور مرتب على إتمام التجهيز، وهو المراد بقوله: حتى يستقل وأنه يستوي معه في الأجر إلى أن تنقضي تلك الغزوة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[4].

---

(١) أخرجه الترمذي، ٢٦١٦ وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي، ٢١١٠).

(٢) أخرجه البخاري، ٢٥١٨، ومسلم، ٨٤.

(٣) أخرجه ابن ماجه ٢٧٥٨، وضعفه الألباني (ضعيف سنن ابن ماجه، ٦٠٣).

(٤) سورة الأنفال، آية: ٧٤.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: الإعانة على الجهاد في سبيل الله.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: الترغيب.

ثالثًا: من واجبات الداعية: بيان ما يحصل به الخير.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل الجهاد بالمال في سبيل الله.

خامسًا: من مهام الداعية: حث المدعوين على التعاون والتكافل.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الإعانة على الجهاد في سبيل الله:

إن من موضوعات الدعوة التي تستنبط من عموم الحديث الإعانة على الجهاد في سبيل الله وذلك في قوله ﷺ "من جهز غازيًا في سبيل الله فقد غزا، ومن خلف غازيًا في أهله بخير فقد غزا" ففي هذا بيان لأهمية إعانة الغازي على الجهاد في سبيل الله، لما لذلك من الثواب العظيم الذي يعادل ثواب الغزو، وذلك؛ لأن الغازي لا يتأتى منه الغزو إلا بعد أن يكفي ذلك العمل فصار كأنه يباشر معه الغزو[1].

والإعانة على الجهاد لها ثواب عظيم تكون بالمال وغيره× لأن المال يجهز به الجيش من عداد وأدوات ولوازم الحرب كما فعل ذو النورين عثمان رضي الله عنه عندما جهز جيش العسرة، وكان الرسول ﷺ يدعو لمن يجهز جيش العسرة فقال ﷺ ((من جهز جيش العسرة فله الجنة))[2] والإعانة قد تكون معنوية، بأنه يخلف المجاهد في أهله ويحمل مؤونتهم، يحريض على القتال كما كان يحرض الرسول المسلمين في حفر الخندق[3].

ثانيًا- من أساليب الدعوة: الترغيب:

من أساليب الدعوة في هذا الحديث أسلوب الترغيب حيث رغب ﷺ في تجهيز الغازي في سبيل الله، وكذلك خلفه في أهله، وأن من يفعل ذلك كأنما غزا، ومن ثم

---

(١) انظر: فتح الباري، ابن حجر ٥٩/٦، ٦٠.

(٢) أخرجه مسلم ٢٧٧٨.

(٣) أخرجه البخاري ٢٨٣٤، ومسلم ١٨٠٥.

فإن لهذا الأسلوب أثره الطيب على نفوس المدعوين.

ثالثًا- من واجبات الداعية: بيان ما يحصل به الخير:

إن مما يستنبط من هذا الحديث أن من واجبات الداعية بيان ما يحصل به الخير حيث بيّن رسول الله ﷺ أن من لا يستطيع الجهاد لعذر يستطيع أن يحصل على أجر الغازي يتجهيزه بما أنعم الله عليه من مال، ومن لا يملك مالاً باستطاعته أن يخلف الغازي في أهله بخير، فيكون قد بيّن ﷺ ما يحصل به الخير للجميع، فعلى الداعية إلى الله أن يقتدي به ﷺ في بيان ما يحصل به الخير.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل الجهاد بالمال في سبيل الله:

من موضوعات الدعوة فضل الجهاد بالمال، وهذا يستنبط من قوله ﷺ "من جهز غازيًا...) فالتجهيز يكون بما يحتاجه من سلاح وعداد للحرب.

فمن رحمة الله بعباده أنه لم يضيق عليهم فيما فرضه عليهم، بل جعل التيسير سمة ظاهرة من سمات دين الإسلام، ويتضح الأمر بجلاء في هذا الحديث، حديث زيد بن خالد رضي الله عنه: (من جهز غازيا في سبيل الله فقد غزا... إلخ) في هذا دليل على مشروعية تجهيز الغزاة في سبيل الله، وأن ذلك يقوم مقام الجهاد في سبيل الله، وأن الجهاد أنواع وأصناف متعددة منها:

النوع الأول: الجهاد بالمال: وهذا ما أشار إليه الحديث سابقًا، ويتحقق بإحدى حالتين في الغالب:

الحالة الأولى: أن يجاهد المؤمن بنفسه وماله في سبيل الله فيقوم بشراء السلاح وشراء ما يحتاجه من زاد وراحلة ونحوه، ويخرج بنفسه معتمدًا على ماله في النفقة وإعداد العدة، وهذا ما أكده القرآن الكريم وأمر به في كثير من الآيات، ومنها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾[1].

---

(١) سورة الصف، الآيتان: ١٠ - ١١.

الحالة الثانية: أن يجاهد بماله دون نفسه في سبيل الله، وهذا ما تضمنه حديث زيد ويكون الجهاد بالمال مُسْقِطٌ على صاحبه فريضة الجهاد بالنفس عند عدم القدرة على الجهاد بالنفس كمرض أو عذر مانع ولتحقيق مثل أجر المجاهد إذا قام المجهز بإعطاء المجاهد جميع التكاليف من نفقة وتجهيزات، بل قد يكون الجهاد بالمال بتجهيز الغزاة في بعض الأماكن والأزمان في حق بعض الأشخاص أولى من الجهاد بالنفس، وذلك مثل أن يوجد شباب لهم خبرة وتدريب ومعرفة بالمسالك والدروب، وليس معهم ما يتجهزون به للجهاد، ويكون صاحب المال له قدرة على الإنفاق في سبيل الله، وله خبرة بطرق تنمية المال، وليس له معرفة بأمور الجهاد في سبيل الله، فجهاده بالمال بتجهيز من ذكرنا أولى وأنفع للأمة من جهاده بنفسه بمفرده.

إن كثيرًا من البلدان الإسلامية في هذه الأيام أحوج ما يكون للمال لتجهيز المجاهدين للدفاع عن النفس والعرض والدين وما يجب الدفاع عنه عمومًا.

إن الفرض الواجب حاليًا تجهيز المدافعين لمقاتلة المحتلين الغاصبين لبلدان المسلمين، إنه يجب على أصحاب الأموال، والقادرين على الإنفاق، تجهيز من يقدرون على تجهيزه بما يستطيعون، من عتاد وتأهيل وتدريب، ووقف أرصدة مالية لمن يرونه أهلاً للجهاد في سبيل الله في اي بقعة من بقاع الأرض، ويكون الواجب أشد وجوبًا وأعظم أجرًا في الإنفاق لإعانة وتجهيز المدافعين عن أنفسهم ودينهم وأهليهم أمام قوات الاحتلال الغاصبين.

إن الفرض الواجب على القادرين على الجهاد في سبيل الله لا يسقط إلا على من قام بالجهاد بنفسه وماله، أو بتجهيز غيره للجهاد تجهيزًا كاملاً من ماله الحلال ابتغاء مرضاة الله، ودون أي مقابل أو عرض من عرض الدنيا، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾[1].

النوع الثاني: الجهاد بالنفس في سبيل الله، قال تعالى: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ

---

(١) سورة الليل الآيتان: ١٩ - ٢٠.

إِلَّا نَفْسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[١].

وهو الأصل، والجهاد بغير النفس كالمال ونحوه فرع عن الأصل، وقد يقوى الفرع ويضعف الأصل، فيقوم الأقوى مقام الأضعف وينوب عنه في أداء الواجب تحقيقًا لبذل الجهد المقدور عليه في سبيل الله.

وقد بين فضل الجهاد بالمال المولى عز وجل في قوله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾[٢].

قال السعدي: (أي كل ما تقدرون عليه من القوة العقلية والبدنية وأنواع الأسلحة ونحو ذلك مما يعين على قتالهم، ومن أعظم ما يعين على قتالهم بذلك النفقات المالية في جهاد الكفار)[٣].

وبين فضل الجهاد في سبيل الله النبي ﷺ فقال: ((من أنفق نفقة في سبيل الله كُتب له سبعمائة ضعف))[٤].

فينبغي على الداعية إلى الله أن يبيّن للمدعوين أن المال نعمة منّ الله بها عليهم، وأن عليهم استخدامها فيما يرضيه ويُعلي دينه، وعليهم عدم استخدامها فيما يغضبه ويوجب سخطه.

خامسًا- من مهام الداعية: حث المدعوين على التعاون والتكافل:

إن من مهام الداعية حث المدعوين على التعاون والتكافل، وتظهر هذه المهمة في بيانه ﷺ طريق التعاون والتكافل في تحقيق الجهاد في سبيل الله، إما بالنفس وهو

---

(١) سورة النساء، آية: ٨٤.

(٢) سورة الأنفال، آية: ٦٠.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٢٨٥، ٢٨٦.

(٤) أخرجه الترمذي ١٦٢٥، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي، ١٣٢٦).

الغازي، أو بالمال وهو المجهز له، وإما بالرعاية وهو من يخلفه في أهله، وهو يحقق التعاون والتكافل.

فالإسلام دين شامل ينظم علاقات المجتمع كلها، ويهتم بارتقائها إلى أعلى مستوى من التعامل الرفيع والتعاون البديع، قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[1] أي لاخير في كثير من المتناجين إلا من أمر منهم بصدقة أو معروف، وهو كل ما أمر الله به من أعمال البر والخير، أو إصلاح بين المختصمين ليعودوا إلى أُلفتهم واجتماع كلمتهم، وهؤلاء إذا ابتغوا بأعمالهم رضاه أثابهم أجرًا عظيمًا، وتظهر فائدة التكافل في الجهاد بأنه يوجب سدّ حاجة المحتاجين ممن لا يستطيعون القيام بعمل يسد عجز العاجزين، كما أنه يربي النشء تربية تظهر فيهم القوة، والحرص على الموت قبل الحرص على الحياة[2].

فحري بالداعية حث المدعوين على التعاون والتكافل داخل المجتمع الإسلامي ودعوتهم إلى البر والخير.

(١) سورة النساء، آية: ١١٤.

(٢) التربية الروحية والاجتماعية في الإسلام، د. أكرم ضياء العمري، دار إشبيليا، الرياض: ١٤١٧هـ/١٩٩٧م ص ٢٤٧، وموسوعة القيم ومكارم الأخلاق ١٣/ ٣٦، ٣٧.

الحديث رقم (١٧٨)

١٧٨- وعن أَبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رسولَ اللَّه ﷺ، بَعَثَ بَعْثًا إِلى بَني لِحيانَ مِنْ هُذَيْلٍ فقالَ: «**لِيَنْبعِثْ مِنْ كُلِّ رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا، وَالأَجْرُ بَيْنَهُمَا**» رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

أبو سعيد الخدري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢١).

غريب الألفاظ:

البعث: الجيش[٢].

لينبعث: ليخرج[٣].

الشرح الأدبي

هذا الحديث الشريف يفتح صفحة مضيئة من صفحات البطولة والجهاد، وما أعظم هذه الصفحات، وما أكثرها في تاريخ الإسلام الذي شاده المسلمون، ورووا بدمائهم حقول العقيدة، وأشجار الإسلام، وهذه الصفحة تكتب سطورها المجيدة وصية رسول الله ﷺ حين أراد أن ينشر الإسلام في بني لحيان من هذيل، وأن يَهْدي هذه القبيلة إلى نور اليقين، وأن يخرجهم من ظلمات الوثنية وأسْر الشياطين.

ويبدأ الحديث بصيغة التوكيد من الراوي في قوله: "إن رسول الله بعث بعثًا إلى بني لحيان من هذيل".

والتعبير بالفعل الماضي "بعث" هو من باب التعبير عن المستقبل في صيغة الماضي: لأن الراوي يحكي عما أراد الرسول ﷺ فعله، وكيف يكون إرسال البعث قبل تنظيمه؟

---

(١) برقم (١٨٩٦/١٣٧). أورده المنذري في ترغيبه (١٨٦٧).

(٢) القاموس المحيط، الفيروزآبادي في (ب ع ث).

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢١٥.

ولفظ "البعث": من الألفاظ الدالة على الحدث، وهو هنا يُوحي بالغَزو والبدء في التحرك لفتح بلاد بني لحيان.

والدلالة اللغوية تؤكد ذلك: لأن البعث معناه الرسول: والجمع بُعَثان، والبَعْث: من دلالاته: بَعْث الجند إلى الغزو، والبعث: هم القوم المبعوثون المشُخَصَوُن.

والبعث كذلك: يكون بعثًا للقوم يبعثون إلى وجه من الوجوه مثل السَّفْر والرَّكْب، وقولهم: كنت في بعث فلان أى في جيشه الذي بعث معه؛ والبعوث: الجيوش(١).

وصيغة الأمر في قول رسول الله ﷺ تفيد الوجوب في قوله: لينبعث من كل رجلين: أحدهما، والأجر بينهما، وهذا الحديث يعد ثمرة للحديث السابق: فقد وعد الرسول ﷺ بأنه "من خلف غازيًا في أهله بخير فقد غزا"، وفي هذا الحديث يتأكد هذا الوعد الحق في قوله: "والأجْر بينهما": أي أجرهما متساوٍ في الفضل والمقدار.

والتعبير بالكناية يغلف أسلوب الحديث: فقوله ﷺ: "لينبعث من كل رجلين" لايقصد منه تحديد الرجلين ولكن المراد لينبعث من كل قبيلة نصف عددها من الرجال، ويمكن أن يكون تحديد لفظ "الرجلان" للإشارة بأن النساء والأطفال والشيوخ والعجزة لا يجب عليهم القتال: فهم خارج دائرة الأمر بالانبعاث. وقوله: "الأجر بينهما"، إشارة إلى المساواة التامة بين من قاموا بالغزو دفاعًا عن الإسلام، ونشرًا لعقيدة الإسلام، وبين هؤلاء الذين جهّزوهم أو خلفوهم في أهلهم بخير، وحافظوا على أموالهم وأعراضهم، وكل ممتلكاتهم.

وفي هذه الإشارة التي تحدد من كل رجلين رجلاً، إرشادٌ إلى وجوب الجهاد على الرجال البالغين المكلفين القادرين، وإرشادٌ إلى ضرورة أن لا يذهب الجميع إلى ساحة الجهاد، بل لابد أن يبقى مجموعة من الرجال لصيانة الأعراض، والمحافظة على الحرمات، والقيام بمسؤولياتهم تجاه أطفالهم ونسائهم، وما يحتاجه المجتمع في حركته التي تُقوِّي جبهته الداخلية، وتصد أي تسلل للمعتدين، وتحيط أي فتنة داخلية.

---

(١) انظر: لسان العرب في (ب ع ث).

فما أعظم هذا التخطيط النبوي، وما أدقَّ وما أعمق هذه الرؤية الشمولية في أشد المواقف حرجًا، ولا غرو، فالمصطفى ﷺ هو القائد الهادي، والبشير النذير، والسراج المنير، يعرف كيف تدار الأمور، وكيف تساس الجيوش، وكيف تعد الفتوح، وقد أمده الله بجندٍ من عنده، فنصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، قال الله عز وجل: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾(١).

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الأمر.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل التعاون على البر والتقوى.

ثالثًا: من واجبات المدعو: الاستجابة والامتثال لتوجيهات النبي ﷺ.

أولاً- من أساليب الدعوة: الأمر:

من أساليب الدعوة التي تستنبط من هذا الحديث أسلوب الأمر ويظهر في قوله ﷺ "لينبعث..." وهو من الأساليب الدعوية المهمة في الدعوة إلى الله تعالى، حيث إنه يدل على أهمية المأمور به وضرورة استجابة المدعو له.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل التعاون على البر والتقوى:

إن من موضوعات الدعوة التي تستنبط من عموم الحديث فضل التعاون، وذلك في قوله ﷺ "لينبعث من كل رجلين أحدهما والأجر بينهما" حيث أراد الرسول ﷺ حصول الجهاد والمحافظة على الأمن في المجتمع المسلم وذلك؛ لأنه لو خرج جميع الرجال لأحدث ذلك فراغًا في البلاد والمدن مما يغري بالسطو والاحتلال، ومن ثم فإنه ينبغي توخي الحذر، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾(٢) أي لا تخرج السرايا

(١) سورة آل عمران، آية: ١٦٠.

(٢) سورة النساء، من آية: ٧١.

إلا بإذن الإمام ليكون متجسسًا لهم، عضدًا من ورائهم، وربما احتاجوا إلى درئه[(١)].

فخلف بعض المسلمين في الأهل حال الحرب، حث عليه النبي ﷺ، وفعله مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين خلفه رسول الله ﷺ في أهله في غزوة تبوك، فقال: يا رسول الله أتدعني مع النساء والصبيان، فقال ((أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي))[(٢)]. لذا ينبغي مراعاة هذه الأمور.

ثالثًا- من واجبات المدعو: الاستجابة والامتثال لتوجيهات النبي ﷺ:

من واجبات المدعو المسلم الاستجابة والامتثال لتوجيهات النبي ﷺ وقد طالب الله سبحانه أمة الدعوة بأن يستجيبوا للرسول محمد ﷺ؛ لأنه يدعوهم لما يحييهم في الدنيا حياة طيبة، ويعطيهم في الآخرة رضا الله[(٣)] فقال لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[(٤)].

والاستجابة المأمور بها في هذا الحديث، عدم خروج جميع الرجال للجهاد، لما فيه من حماية المجتمع وأمنه وسلامته، فلابد من الاستجابة له؛ فينبغي على الداعية إلى الله أن يبيّن للمدعوين أهمية الاستجابة والامتثال لتوجيهات النبي ﷺ لأن طاعة النبي من طاعة الله التي فيها النعيم المقيم في الآخرة، والتي هي الحياة الدائمة، ومن تمام طاعة الله طاعة رسوله وتحقيقها، ولن يحصل ذلك إلا عن طريق الاتباع والحرص على الكمال فيه[(٥)].

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢٧٣/٥/٣.

(٢) أخرجه البخاري ٣٧٠٦، ومسلم ٢٤٠٤.

(٣) أصناف المدعوين وكيفية دعوتهم، د. حمود بن أحمد الرحيلي ص ١٥.

(٤) سورة الأنفال، آية: ٢٤.

(٥) أحكام القرآن، ابن العربي ٣٩٠/٢.

الحديث رقم (١٧٩)

١٧٩- وعن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما أَنَّ رسُولَ اللَّه ﷺ لَقِيَ ركْبًا بالرَّوْحَاءِ فقال: «مَنِ الْقومُ؟» قالُوا: المُسْلِمُونَ، فَقَالُوا: مَنْ أَنْتَ؟ قال: «رسولُ اللَّه» فَرَفَعَتْ إِلَيْهِ امْرأَةٌ صَبِيًّا فَقَالَتْ: أَلِهَذَا حَجٌّ؟ قال: «نَعمْ وَلَكِ أَجْرٌ» رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

الروحاء: موضع في طريق الجحفة يعرف اليوم باسم (الشُفَيّة) وهي من عمل الفُرْع تبعد ٧٤ كم عن المدينة المنورة وتقع على الطريق المعبد بين المدينة وبدر[2].

الشرح الأدبي

إن أسلوب الحوار من سمة الأدب النبوي، ومن خصائص المنهج الإسلامي في الدعوة إلى الله، والحوار بالحسنى يحدث تفاعلاً بين المتحاورين، وتجاوبًا مقنعًا بين المتحادثين، وهو يشحن العقول بطاقات التأمل والتدبير، ويملأ القلوب بباقات الأحاسيس والتفكير، ويحدث تقاربًا في الرؤى المتباعدة، وينشئ تواصلاً بين الخواطر المتصادمة.

وحين نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف، ندرك أنه حوار واقعي، ينبع جماله السردي من واقعيته التي صنعت الحدث، وحددت المكان، ولا يصنع الحدث إلا من خلال الشخصيات، ولا يَعْمر المكان إلا بتفاعل الشخصيات مع الأحداث، وفي هذا الحديث ينشأ هذا الحوار القصير الجميل بين رسول الله ﷺ وجماعة من المسلمين الذين كانوا حديثي عهد بالإسلام، ولم يتعرفوا على رسول الله

---

(١) برقم (١٣٣٦/٤٠٩). وسيكرره المؤلف برقم (١٢٨٤).

(٢) أطلس الحديث النبوي ١٩٦.

ﷺ، وبؤرة الحوار تركزت حول شعيرة الحج، بعد أن تعرف رسول الله على القوم، وهم عرفوا رسول الله ﷺ، وفي الحديث إشارة صريحة إلى تحديد مكان الحوار وهو "الروحاء"، وهى محل بقرب المدينة، وزمان الحوار كان في حجة الوداع، كما يقول العلماء حيث لقى رسول الله ركبًا بالروحاء في حجة الوداع.

ومن سمات أدب التحية في الإسلام أن الرسول ﷺ هو الذي بدأ بالسلام على الركْب، ثم بدأهم بالسؤال: من القوم.

ولم يقل: من أنتم ؟ لأن السؤال عن انتمائهم وليس عن نسبهم ولا قبيلتهم: فالإسلام هو معيار الأخوة والافتخار، وما أجمل قول الشاعر:

أبـــى الإســـلام لا أب لـــي ســـواه ... إذا فخـــروا ببكـــر أو تمـــيم

ولذلك لم يقل لهم: من أي قوم أنتم؟ وتجيء الإجابة مناسبة للسياق ومطابقة لمقتضى الحال حيث قالوا: "المسلمون" وفي هذه الإجابة حذف ومجاز: فالتقدير نحن قوم من المسلمين: ولكن جاءت الإجابة بالأهم وبالثمرة المطلوبة: "المسلمون"، والكلام فيه مجاز مرسل: حيث أطلق الكل وأراد البعض، فقد أرادوا أن يقولوا: نحن قوم من المسلمين.

وفي سياق سؤال القوم للرسول ﷺ: جاء سؤالهم عن شخصه وليس عن قومه: فقالوا: من أنت ؟ لأنه هو الذي بادرهم بالسؤال: وقد اطمأنوا حين أجابوه.. ولم يجدوا في وجهه تغيرًا بل وجدوا ارتباطًا واطمئنانًا وبريقًا يشدهم ويجذبهم، ولم يحدد الرسول ﷺ اسمه: بل حدّد صفته، لأن الصفة هي التي تناسب الموقف، وتزيد القوم اطمئنانًا وسكنًا وأمنًا قال "رسول الله"، ونتيجة لهذا السكن الذي حل في قلوبهم.. فرح القوم.. واستبشروا، والحديث أجمل ذلك لأنه من فضول الكلام، وتسأله امرأة من الركب معها صبى صغير "ألهذا حج" وهذا السؤال هو مركز فكرة الحديث الشريف، فيبشرها رسول الله ﷺ ويقول: "نعم".. وتزداد البشارة ويقول: "ولك أجر"، فالحج صحيح، ولكنه تطوع.. ولا يغني عن حجة الإسلام، ولفظ "الحج" يعطي دلالة "القصد" ولكن هذا القصد تخصص بالقصد إلى عظيم، أو القيام بأمر كبير: وهو قَصْد الكعبة والطواف حولها قبل الإسلام، والعرب كانوا يدركون أن في الحج معنى

تكفير الذنوب، وهو المعنى الذي عرف للكلمة في دلالتها الإسلامية فيما بعد، ولكن الحج في الإسلام له أركانه وواجباته وسننه، وتطورت دلالة كلمة "الحج" في الإسلام بكل ما تحمل هذه الشعيرة من آداب وقيم وتعاليم، وقد ورد الفعل "حج" وما اتصل به في ثلاث عشرة آية في القرآن الكريم.

وهذا الحوار الذي دار بين الرسول ﷺ وهذه المرأة يشع بمدلول كلمة الحج في الإسلام، وينبئ عن إدراك هذه المرأة لدلالة وثمرة الحج وهو قصد البيت الحرام لأداء النسك، وثمرته تتمثل في قول المصطفى ﷺ "من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كما ولدته أمه"(١) فاللهم اغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا، وتوفنا مع الأبرار.

فقه الحديث

إن الحج أحد الأركان التي بني عليها الإسلام، وهو فرض على المستطيع فقط ويسقط عن العاجز عنه لمال أو صحة أو غير ذلك.

والحج فرض عين على المسلم البالغ العاقل المستطيع فمن شروط وجوبه البلوغ، ولكن إذا كان مع الرجل أو المرأة ولدها غير البالغ فهل يحج معها وهل يكون حجه صحيحًا؟

اتفق الفقهاء(٢) على أن الصبي إذا حضر الحج كان لوليه أن يحرم ويلبي عنه

---

(١) أخرجه البخاري١٥٢١ ، ومسلم ١٣٥٠.

(٢) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود٢/١٢٠، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٢/٣٤٠، والمدونة الكبرى رواية سحسنون عن ابن القاسم، الإمام الأصبحي ١/٣٩٩، وحاشية الدسوقي ٢/٥، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٢/٤٨٧ وما بعدها، والأم، الإمام الشافعي، تحقيق: علي محمد وعادل أحمد، وغيره ٢/١٢١، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٧/٣٧، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي ٣/٢٣٦، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٢/٢٠٧ وما بعدها، والفروع، ابن مفلح ٣/٢١٢، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ١/٥١٣، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤/٧١، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٨/١٦٠، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية١٧/٢٨.

ويحج معه ويكون الثواب لوليه، لأن من شروط الحج البلوغ، فإذا بلغ وجب عليه حجة الفريضة، وشذت طائفة[1] فقالت إذا حج الصبي أجزأه ذلك عن حجة الإسلام، ولم يلتفت العلماء إلى قولها.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

ثانيًا: من واجبات الداعية: السؤال عن هوية المدعو إذا اقتضت الحاجة.

ثالثًا: من واجبات المدعو: اغتنام الفرص.

رابعًا: من خصوصيات النبي ﷺ: جوامع الكلم.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: الحج.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: فضل الإعانة على الطاعة.

أولاً- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

يظهر أسلوب السؤال والجواب في هذا الحديث في أكثر من موضع هي فقال: "من القوم"؟ قالوا المسلمون. فقالوا من أنت؟ قال: "رسول الله"... فقالت ألهذا حج؟ قال: "نعم ولك أجر" وأسلوب السؤال والجواب من الأساليب المهمة في الدعوة من أجل استجلاء الأمور واستبانتها.

ثانيًا- من واجبات الداعية: السؤال عن هويّة المدعو إذا اقتضت الحاجة:

إن مما يجب على الداعية فعله استجلاء الأمور والسؤال عما يجهل إذا دعت الحاجة إلى ذلك؛ لأن الرسول ﷺ سأل "من القوم؟" يخشى أن يكونوا من العدو فيخونوا أو يغدروا، أما إذا لم تدع الحاجة إلى ذلك فلا حاجة له أن يسأل، لأن ذلك قد يكون داخلاً فيما لا يعنيه و((من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه))[2].

---

(١) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٣٧/٧، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧١/٤، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٠/٨، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية٢٨/١٧.

(٢) أخرجه الترمذي ٢٣١٧، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي،١٨٨٦).

ولكن إذا دعت الحاجة فيسأل حتى يكون على بينة من الأمر وعلى بصيرة[١].

وذلك لأن الداعية له طاقة معينة في المعرفة ولن يحيط بكل شيء، ومن عرف أشياء غابت عنه أشياء أخرى، لذا يجب على الداعية البحث عن إجابات لما يجهل، ومن ضمن وسائل الكشف عن المجهول السؤال، وللسؤال مزايا متعددة من توفير للجهد والوقت والمال، كما أن فيه تحصيل منفعة ودفع مضرة في أمور الدنيا والدين[٢].

ثالثًا- من واجبات المدعو: اغتنام الفرص:

من واجبات المدعو التي تظهر من هذا الحديث اغتنام فرصة وجود العالم، لأن القوم لما أخبرهم رسول الله ﷺ أنه رسول الله، جعلوا يسألونه فينبغي على المدعو أن يغتنم فرصة وجود الداعية من أجل أن يسأله عما أشكل عليه لما في ذلك من منفعة كبيرة للمدعو[٣]. وليس أدل على ذلك من اغتنام للفرصة فعل ابن عباس رضي الله عنهما عندما علم بمبيت المصطفى ﷺ عند خالته ميمونة فذهب وبات قال: ((بت في بيت ميمونة ليلة والنبي ﷺ عندها لأنظر كيف صلاة رسول الله ﷺ بالليل))[٤].

فقد حرص ابن عباس رضي الله عنه على أن يتعلم من النبي ﷺ وضوءه وصلاته وكيفية ذكره وقد تعلم أيضًا في هذه الليلة دعاء "اللهم اجعل في قلبي نورًا ..." كما ذكر العلماء أن فيه دليلاً على جواز السهر من أجل التعلم[٥].

رابعًا- من خصوصيات النبي ﷺ جوامع الكلم:

ويظهر هذا في قوله ﷺ "نعم ولك أجر" حيث أجاب ﷺ السائلة بقليل من الألفاظ لبيان ما تريد معرفته دون استطراد. وذلك من جوامع الكلم وهو من خصوصيات النبي ﷺ التي فضّله الله تعالى بها على غيره من الأنبياء، فكان يتكلم

---

(١) انظر: شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين، ٢/٢٧٦، ٣٧٧.

(٢) التربية الذاتية من الكتاب والسنة، هشام علي أحمد ص ١٢٣ بتصرف.

(٣) انظر: المرجع السابق ٢/٣٧٧.

(٤) أخرجه مسلم ٧٤٥٢.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢/٤٨٢، ٤١٣، وعمدة القاري شرح صحيح البخاري، العيني ٢/١٧٨.

بالقول الموجز القليل اللفظ الكثير المعاني[1]. وقد جاءت السنة مؤكدة على هذه الخاصية.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي المغانم وجعلت لي الأرض طهورًا ومسجدًا، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون))[2]. والله عز وجل قد أعطى المصطفى ﷺ مفاتيح الكلام، وهو ما يسره له من البلاغة والفصاحة، والوصول إلى غوامض المعاني وبدائع الحكم، ومحاسن العبارات والألفاظ التي أغلقت على غيره وتعذرت عليه قال العز بن عبدالسلام: (ومن الخصائص أنه بعث بجوامع الكلم واختصر له الحديث اختصارًا وفاق العرب في فصاحته وبلاغته)[3].

فينبغي على الداعية أن تكون إجابته قصدًا دون استطراد ما دام القليل من الكلام يؤدي المراد، وخير الكلام ما قل ودل.

خامسًا- من موضوعات الدعوة: الحج:

ويظهر هذا من سؤال المرأة عندما قالت: ألهذا حج؟ فقال ﷺ "نعم ولك أجر".

والحج أحد أركان الإسلام الخمسة، وهو فرض على المسلم القادر مرة واحدة في العمر قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾[4] وهو من أفضل الأعمال وأكثرها ثوابًا قال رسول الله ﷺ ((أفضل الجهاد حج مبرور))[5] وقال ﷺ: ((الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة))[6]. لأنه اقترن بالشوق إلى لقاء الله عز وجل؛ لأن

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤١٨/١٢، ٢٦١/١٣.

(٢) أخرجه مسلم ٥٢٣.

(٣) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن محمد بن عبدالرحمن بن ملوح ٤٥٩/١.

(٤) سورة آل عمران، آية: ٩٧.

(٥) أخرجه البخاري ١٥٢٠، ٢٧٨٤.

(٦) أخرجه البخاري ١٧٧٣، ومسلم ١٣٤٩.

المحب مشتاق إلى كل ما له إلى محبوبه إضافة، والبيت مضاف إلى الله عز وجل، فبالحري أن يشتاق إليه لمجرد هذه الإضافة، فضلاً عن الطلب لنيل ما وعد عليه من الثواب الجزيل بالجنة، والإنسان في الغالب الأعم يشتاق إلى ربه أشد شوق، فيحتاج إلى شيء يقضي به شوقه فلا يجده إلا الحج. لأجل ذلك فإنه ينبغي للداعية أن يبين للناس فضل الحج وثوابه.

سادسًا- من موضوعات الدعوة: فضل الإعانة على الطاعة:

إن من موضوعات الدعوة التي تستنبط من عموم الحديث فضل الإعانة على الطاعة حيث بيّن رسول الله ﷺ للمرأة التي تسأل عن حكم حج ابنها أن حجه صحيح، ولها أجر، جزاءً لها على إعانة ابنها على الحج الذي لا يجب عليه لأنه ليس مكلفاً.

والإعانة على الطاعة لها ثواب عظيم، ومن ذلك ما ورد عنه رسول الله ﷺ في قوله: ((من جهز غازيًا في سبيل فقد غزا ومن خلف غازيًا في أهله بخير فقد غزا))[1] حيث جعل للمعين على الجهاد ثواب المجاهد، فحري بالداعية أن يبين فضل الإعانة على الطاعة وثوابه.

وفي الحديث فائدة تتمثل في: أن فعل المرأة مع صبيها يعد تمرينًا على التعلم، وفعل الطاعات[2].

---

(١) أخرجه البخاري ٢٨٤٣، ومسلم ٤٩٠٢.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٨٣٧.

الحديث رقم (١٨٠)

١٨٠- وَعَنْ أَبي موسى الأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أَنَّهُ قال: «**الخَازِنُ المُسْلِمُ الأَمِينُ الذي يُنَفِّذُ ما أُمِرَ بِهِ، فَيُعْطِيهِ كَامِلاً مُوفَّرًا، طَيِّبَةً بِهِ نَفْسُهُ فَيَدْفَعُهُ إلى الذي أُمِرَ لَهُ بِهِ أَحَدُ المُتَصَدِّقَيْنِ**» متفقٌ عليه[1].

وفي رواية[2]: «**الذي يُعْطِي مَا أُمِرَ بِهِ**» وضَبَطُوا «**المُتَصدِّقَيْنِ**» بفتح القاف مع كسر النون على التَّثْنِيَةِ، وعَكْسُهُ عَلَى الجمْعِ وكلاهُمَا صَحيحٌ.

ترجمة الراوي:

أبو موسى الأشعري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٩).

غريب الألفاظ:

موفَّرًا: أي كاملاً تامًّا من غير نقصان[3].

الشرح الأدبي

إن البناء اللغوي في هذا الحديث كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا: وهو كما يقول الجاحظ: كلام ألقى الله المحبة عليه وغشاه بالقبول، وجمع بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام.

والحديث يتكون من جملة لغوية واحدة طرفاها: المبتدأ والخبر: فهى جملة اسمية تأخذ صفة الثبات: فالصفة التي يحض عليها الحديث لابد أن تكون مستقرة دائمة وهى صفة الأمانة والإخلاص في الإعطاء، ولذلك يجسد التشكل اللغوي ثبات المعنى المراد، فالصفة مستقرة، والحدث لا يتغير بتغير الزمن، ويعرض الحديث لصفة الأمانة، والعطاء عن طيب نَفْس، وعدم إبطال الصدقات بالمنِّ والأذى.

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٣٨)، ومسلم (١٠٢٣/٧٩) واللفظ له. أورده المنذري في ترغيبه (١١٤٩).

(٢) أي بدل: (ينفذ) كما في الرواية التي تقدمت تخريجها، وفيها: (الأمين الذي ينفذ، وربّما قال: يعطي).

(٣) انظر: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الفيومي في (و ف ر)، وشرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ١٣١.

ويبدأ الحديث بقول رسول الله ﷺ: "الخازن": وهو القائم على حراسة المال والمكلف بإعطاء الصدقة لمن يستحق، وهذا الخازن يرصد الحديث الشريف له عدة صفات تميز شخصيته، وتحدد نمط هذه الشخصية وأبعادها في ظلال المنهج الإسلامي، فالخازن كما حدد مقومات شخصيته الرسول ﷺ "مسلم، أمين، ينفذ ما أمر به، يعطيه كاملاً موفرًا، طيبة به نفسه، يدفعه إلى الذي أمر له به".

وهذا الخازن الذي يتمتع بهذه المقومات الشخصية في مجال إعطاء الصدقة هو أحد المتصدقين: أي يكتب له ثواب الصدقة، ولكن هذا الثواب يقل ويكثر حسب تعبه، وبقدر بشاشته في الإعطاء، وبقدر تمتعه بالصفات السابقة.

وجماليات الأداء الأسلوبي تكشف عن أسرار كثيرة في تقديم المعنى، وإضاءة العلاقات الحميمة بين أطراف العلاقة الإنسانية الجميلة القائمة على التعاطف والعطاء والمحبة، بين المتصدق، والمتصدق عليه، والذي يتولى تقديم الصدقة. وأول صفة لهذا "الخازن" هي الإسلام، ثم الأمانة، فقد يكون مسلمًا ولكنه يفتقد صفة الأمانة: فينقص من العطاء، ويستأثر بأجوده أو ببعض منه طمعًا وشحًا وحسدًا.

والتعبير بقوله: "ينفذ ما أمر به" يرشد إلى أن إعطاء الصدقة كاملةً يدخل دائرة الوجوب ولا مجال فيه للاجتهاد، فهذا الخازن ليس إلا منفذ لما يُؤمْر به، وفي ذلك اقتداء بالأسوة الحسنة، بنبينا محمد ﷺ، اتباعًا لقول الله عز وجل على لسان يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾[1].

وتحديد لفظ "أُمِرَ" في صيغة الفعل الماضي المبني للمجهول، يؤكد أن الإعطاء الكامل أمر واجب التنفيذ، ولا يأتي الأمر من شخص محدد بل هو أمر شامل يلتزم به كل خازن أمين، لأن هذا أمر شرعي، وليس أمرًا يخضع للمناسبة أو السياق أو الزمن أو البيئة، واختيار صيغة المضارع في قوله "ينفذ" يوحي باستمرار الصفة وتجددها، وكذلك صيغة المضارع في قوله "يعطيه" يوحى باستمرار صفة العطاء،

(١) سورة يوسف، آية: ٥٥.

والعطف بالفاء يرشد إلى سرعة العطاء، ومجيء لفظ "كاملاً" بمادته اللغوية، ونصبه للحالية يؤكد حتمية الأمانة الكاملة، ثم يأتي لفظ "موفّرًا" منصوبًا وهو حال ثان ليؤكد عمق الأمانة، وحتمية إيصالها غير منقوصة ماديًا أو معنويًا، والحال الثالثة: تتعلق بالخازن نفسه، في قوله "طيبة بها نفسه"، أي يخلو ذلك الخازن من الحسد والحقد والضغينة وهو يعطي، وهذه حالة نفسية يحرص عليها الإسلام، فالظاهر لا يكفي، وإنما لابد من الوازع القلبي، والشعور بالغبطة ساعة العطاء، والتعبير بالفعل "يدفعه" يومئ إلى طريقة الإعطاء وهي: الهمة والنشاط والخفة، وكأنه دَيْن يجب أداؤه، والعطف "بالفاء" يوحي بالسرعة وعدم التراخي، وصيغة المضارع تنبئ عن الاستمرار والتجدد مع كل فعل مماثل، في أى زمن، وفي أى بيئة إسلامية، وهذا من سمات الشمول والاستيفاء في البيان النبوي، ويختم الحديث بالثمرة المرجوة حيث تتم فائدة الكلام السابق، ويتضوأ الإشعاع الذي توهجت به الصفات السابقة للخازن الأمين المسلم، وثوابه الجزيل: هو أنه يرقى إلى درجة أحد المتصدقين، وهو عند الله من المقبولين الفائزين.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم فقهي يتعلق بأجر الوكيل في الصدقة، وقد ذكر الفقهاء[1] أن الوكيل في الصدقة أحد المتصدقين إذا أمضاه بشرطه، وله من الثواب مثل ثواب من تصدق دون أن ينقص من ثوابه شيء، ويحق له أن يأخذ أجره من الصدقة من تحت يده فيقبض من نفسه، قال ابن رجب: (والوكيل في الصدقة لا يأكل منها شيئًا لأجل العمل). والحديث يدل أيضًا على أن المشاركة في الطاعة توجب المشاركة في الأجر.

---

(١) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢٤٣/٦، والفروع، ابن مفلح ٦٠٨/٢، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، الإمام الشوكاني ١٩٦/٤، وقواعد ابن رجب ص ١٣١، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ٣٣٩/٥.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل الأمانة.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل الطاعة والامتثال.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: أهمية سلامة القلب ونقاء الصدر.

رابعًا: من أساليب الدعوة: الترغيب.

خامسًا: من واجبات الداعية: الحرص على نفع المدعوين.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل الأمانة:

إن ما يستنبط من عموم هذا الحديث فضل الأمانة حيث ذكر ﷺ ذلك في قوله "الخازن المسلم الأمين الذي ينفذ ما أُمر به، فيعطيه كاملاً موفرًا طيبة به نفسه فيدفعه إلى الذي أُمر له به أحد المتصدقين" الحديث.

فبيّن ﷺ أن المسلم المؤتمن الذي يؤدي الأمانة كاملة كما أُمر، يكون له مثل ثواب المتصدق، وهذا دليل على فضل الأمانة، وعلى فضل التنفيذ وعدم التفريط فيها[1]، لأنه من الأمانة الاهتمام بأن يحفظ المستأمنون ما تحت أيديهم من حقوق لغيرهم حتى يؤدوها إلى أصحابها وهي على حالتها حينما استؤمنوا عليها، ما لم يكن مرور الزمن يغير منها بصفة طبيعية معلومة، والأمانة مرتبطة بمبدأ الحق لذا تجدها مدفوعة بمبدأ الحق تجاه حقوق الآخرين، كما يجب التنويه إلى أن الأمانة يجب أداؤها إلى الذين لا يملكون وثائق تثبت حقهم عليها وهم أصحابها[2].

وللأمانة في الإسلام فضل عظيم، فقد جعل الله سبحانه من علامات الفلاح أداء الأمانات قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾[3] قال السعدي: (أي مراعون لها، ضابطون، حافظون، حريصون على القيام بها وتنفيذها)[4].

---

(١) انظر: شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين، ٢/٣٨١.

(٢) الوجيز في الأخلاق الإسلامية ٢٧٢.

(٣) سورة المؤمنون، آية: ٨.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٤٩٧.

وقد أمر بها رسول الله ﷺ فقال: (أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك)[١] والأمانة صفة مميزة لأصحاب الرسالات، فقد كان كل منهم يقول لقومه ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾[٢] فينبغي على الداعية أن يبيّن للمدعوين فضل الأمانة وأهميتها لهم، حتى تعم الأمانة في التعامل وتعم الثقة بين المسلمين.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل الطاعة والامتثال:

إن من موضوعات الدعوة في هذا الحديث فضل الطاعة والامتثال، ويظهر هذا في قوله ﷺ "الخازن المسلم الأمين الذي ينفذ ما أمر به" حيث أطاع وامتثل لأمر ولي أمره فيما أؤتمن عليه، والطاعة والامتثال لولي الأمر واجبة قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾[٣].

وقال رسول الله ﷺ: ((على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره، إلا أن يؤمر بمعصية، فإذا أُمر بمعصية، فلا سمع ولا طاعة))[٤]. قال الشيخ العراقي: (هذا الحديث مفيد لوجوب طاعة الأمراء والعلماء وأولي الأمر، و السبب في ذلك اجتماع كلمة المسلمين، فإن الخلاف سبب لفساد أحوالهم في دينهم ودنياهم، ويستنتج من ذلك أن من أطاع الأمير فقد أطاع الله، لأنه أطاع الرسول ﷺ ومن أطاع الرسول ﷺ فقد أطاع الله، وتجب الطاعة في ما يقتضيه العلم والمعروف، وحرمت طاعتهم في غير ذلك[٥]. فينبغي على الداعية بيان وجوب طاعة ولاة الأمر في غير معصية الله، وفضل إعانتهم على البر والتقوى، حيث بيّن هذا الحديث أن من أعان على البر كان له مثل

---

(١) أخرجه الترمذي ١٢٦٤، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٠١٥).

(٢) سورة الشعراء، الآيات: ١٠٧، ١٢٥، ١٤٣، ١٦٢، ١٧٨.

(٣) سورة النساء، آية: ٥٩.

(٤) أخرجه البخاري ٧١٤٤، ومسلم ١٨٣٩.

(٥) طرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين بن الحسن، عبدالرحمن بن الحسين العراقي، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، الإمام الشوكاني ٢٧١/٧.

ثواب فاعله أو الآمر به.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: أهمية سلامة القلب ونقاء الصدر:

إن من موضوعات الدعوة التي في هذا الحديث أهمية سلامة القلب ونقاء الصدر ويدل على ذلك قوله ﷺ "طيبة به نفسه".

وسلامة القلب ونقاء الصدر من الأمور التي دعا إليها الإسلام قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾[1] قال السعدي: (إذا صح القلب من مرضه، ورفل بأثواب العافية، تبعته الجوارح كلها، فإنها تصلح بصلاحه وتفسد بفساده)[2].

وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: ((قيل لرسول الله ﷺ: أي الناس أفضل؟ قال: كل مخموم القلب، صدوق اللسان. قالوا: صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟ قال: هو التقي النقي، لا إثم فيه ولا بغي ولا غل ولا حسد))[3].

فسلامة القلب ونقاء الصدر[4] تفرض على المسلم أن يتمنى الخير للناس، ويكره لهم الشر، فينبغي على الداعية أن يدعو المسلمين إلى سلامة القلب ونقاء الصدر من الغل والحسد، حتى لا يحمل أي منهم لأخيه حسدًا أو غلاً أو كراهية.

رابعًا- من أساليب الدعوة: الترغيب:

إن من أساليب الدعوة التي تظهر في هذا الحديث أسلوب الترغيب ويدل على ذلك ترغيبه ﷺ في أداء الأمانة على الوجه المطلوب أداؤها عليه.

---

(١) سورة يونس، من آية: ٥٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٣٢٣.

(٣) أخرجه ابن ماجه ٤٢١٦، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٣٣٩٧).

(٤) شرح سنن ابن ماجه ٣١١/١.

وأسلوب الترغيب من أساليب الدعوة الضرورية في الدعوة إلى الله حيث يقوم الداعية بتشويق المدعو إلى الاستجابة للدعوة وقبول الحق والثبات عليه، وبيان أن ذلك له فيه فائدة في الدنيا والآخرة[(١)].

خامسًا- من واجبات الداعية: الحرص على نفع المدعوين:

إن مما ينبغي للداعية أن يحرص عليه نفع المدعوين، ويظهر حرصه ﷺ على نفع المدعوين في هذا الحديث في أنه بيّن فضل أداء الأمانة كاملة وثواب ذلك، وبين أن ذلك فيه نفع للمؤدي.

والحرص على نفع المدعوين فيه محبة الخير لهم كما يحبه الإنسان لنفسه، ويقول رسول الله ﷺ: ((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه))[(٢)] يقول الصنعاني: (إنه لا يكمل إيمان أحدكم حتى يحب أحدكم لأخيه في الإسلام ما يحب لنفسه من الخير، والقيام بذلك يحصل بأن يحب له مثل حصول ذلك من جهةٍ لا يزاحمه فيها، بحيث لا تُنقص النعمة على أخيه شيئًا من النعمة عليه، وذلك سهل على القلب السليم، عسر على القلب الدغل، عافانا الله)[(٣)]؛ فينبغي للداعية أن يحب الخير لإخوانه المسلمين، ويحرص على نفعهم، لأن ذلك يدل على كرم النفس، وصفاء القلب، وتقدير المسؤولية الملقاة على عاتقه.

---

(١) انظر: أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان ص ٤٣٧، ٤٣٨.

(٢) أخرجه البخاري ١٣، ومسلم ٤٥.

(٣) سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، إسماعيل الصنعاني ٢/٦٣٥.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

قد يتعذر على الإنسان القيام بفعل ما، فيقوم غيره به، كالجهاد مثلاً، ويقوم صاحب العذر برعاية أهل القائم بالفعل فيكون في الأجر معه سواء. والسنة النبوية تلفت النظر إلى مسؤولية المقيم تجاه المسافر، والحاضر تجاه الغائب، فليست الفرصة متاحة لإساءة استخدام غيبة رب البيت، بل العلاقة محددة شرعاً: "ومن خلف غازياً في أهله في غزا". والتفاوت الاجتماعي في العمل من هدي القرآن والسنة، فلم يرب الإسلام أبناءه على القتال، ولم يربهم على العمل الدنيوي، بل فاوت بين أفراد المجتمع لاستقامة مسيرة الحياة ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ...﴾ [سورة المزمل:٢٠]. من المفاهيم التربوية نذكر:

أولاً- التربية الجهادية:

إن الجهاد في سبيل الله من الأعمال العالية في الإسلام، ولهذا فقد خصّها النبي ﷺ ببيان فضلها في كثير من الأحاديث، وفي هذا الباب يعمم النبي ﷺ ثواب الجهاد؛ ليصل إلى الذين يجهزون الغزاة بالعدة والعتاد، يقول ﷺ: «مَنْ جَهَّزَ غَازِياً فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا»، بل ويشمل الثواب الذين يقومون على أُسر المجاهدين بالرعاية أثناء الحرب، يقول ﷺ: «وَمَنْ خَلَّفَ غَازِياً في أَهلِهِ بخيْرٍ فَقَدْ غَزَا».

وقد حثَّ النبي ﷺ على إعانة المجاهدين، تعميقاً لقيمة الجهاد في سبيل الله، وتربية للمسلمين على تقديم العون والمساندة للمجاهدين بكل السبل، وعلى قدر الإمكانات، فمن لم يستطع الجهاد فأمامه أن يجهز الغزاة، ومن لم يقدر على تجهيزهم، فإن أمامه فرصة أخرى لينال الثواب؛ وهي أن يتعهد أهل المحارب بالرعاية حال غيابه.

إن على المربين أن يغرسوا حب الجهاد في نفوس المتلقين؛ لأن "منزلة الجهاد منزلة عظيمة، ومرتبته مرتبة كريمة، لا يحظى بأجرها وثوابها إلا الصادقون المتقون، الذين سلكوا الطريق القويم، مهتدين بآيات رب العالمين، ومقتدين بسنة النبيين، فوفاهم الله أجرهم وآتاهم ثوابهم، فكانوا من المنعمين الخالدين في جنات رب العالمين"[١].

ثانياً- غرس خلق التعاون في نفوس المتربين:

إن المرء قد يقبل على العمل، ولكن يعجزه القيام به وحده، ولهذا فقد اهتم النبي ﷺ بحث المسلمين على التعاون فيما بينهم، خاصة في الجهاد في سبيل الله، يقول: «مَنْ جَهَّزَ غَازِياً فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا...»، ويقول: «لِيَنْبَعِثْ مِنْ كُلِّ رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا. وَالأَجْرُ بَيْنَهُمَا»، وذلك إذا كانا فقيرين لا يستطيعان التجهيز بالعدة والدابَّة للحرب، فلا مانع أن يتعاونا ويجمعا إمكاناتهما المحدودة، ليجهزا أحدهما، وحينها يكون الأجر للطرفين.

وذلك المسلك القويم دعا إليه القرآن الكريم، يقول تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾[٢]. ولا يخفى على ذي بصيرة ما في التعاون من فائدة كبيرة تعود بالنفع على المجتمع بأسره، فتنجز الأعمال الكبيرة التي تعيي الأفراد من القيام بها، تنجز هذه الأعمال بالجماعة، وقد قال ﷺ: «يدُ الله مع الجَمَاعَةِ»[٣].

والتعاون خلق يحرص عليه المؤمن، بتقديم العون إلى الناس، ولا تتحكم فيه مشاعر شخصية، أو مواقف عارضة[٤].

---

(١) تربية الأولاد في الإسلام، د. أحمد مصطفى متولي، ٢٨٣.

(٢) سورة المائدة، آية: ٢.

(٣) أخرجه الترمذي ٢١٦٦، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي، ١٧٦٠)

(٤) هذه أخلاقنا، محمود محمد الخزندار ص ١٥٤.

ثالثاً: التربية بالحوار والمناقشة:

وهو من الوسائل البارزة في أحاديث هذا الباب، فإن رسول الله ﷺ لقي ركباً بالرَّوحاء، فدار هذا الحوار:

قال ﷺ: «مَنِ الْقَوْمُ؟» قَالُوا: الْمُسْلِمُونَ. فَقَالُوا: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: «رَسُولُ اللّهِ» فَرَفَعَتْ إِلَيْهِ امْرَأَةٌ صَبِيّاً فَقَالَتْ: أَلِهَذَا حَجٌّ؟ قَالَ: «نَعَمْ. وَلَكِ أَجْرٌ».

إنها طريقة مثلى لاستقاء المعلومات ومعرفة المجهولات، وفي سؤال المرأة وإجابة رسول الله سبيل تربوي إلى التعليم بالحوار، فإن المرأة عندما جهلت شيئاً من أمر دينها لم يسكتها الحياء عن السؤال، ولكنها سألت فأجابها المربي الأول ﷺ بما تريد.

وعلى المعلم المسلم أن يعوّد طلابه الحوار والمناقشة..... وعليه أن يكون واسع الصدر، فيرد على كل استفساراتهم وأسئلتهم بإجابات صحيحة ومناسبة لمستوياتهم؛ حتى يكونوا على وعي واقتناع بما يلقيه عليهم،وحتى يفيدهم بذلك[1].

رابعاً- تربية الأطفال على أداء العبادات:

وذلك في سماحه ﷺ للطفل الصغير بالحج، بل بشَّر أمه بأن لها أجراً عند الله تعالى؛ لأنها ربَّت ابنها على العبادة والتعلق بشعائر الله، وفي ذلك من الدعوة إلى تربية الأولاد وتنشئتهم على عبادة الله منذ الصغر، حتى يشبوا وقد شبَّ الإيمان في قلوبهم.

وحيث إن الحج مثل الصوم والصلاة يعود الطفل على هذه العبادات ليعتاد الصلة بالله تعالى ومناجاته، والاستجابة لأوامره، وليتهيأ للتكيف الذي ينتظره عند بلوغه، فلا يجده صعباً وشاقاً عليه، وإنما مألوفاً لديه، والحج يجمع مشقات العبادة كلها، بالإضافة إلى أنه يجمع لذاتها جميعها، فإذا ما حج الصبي، فهذه بشارة على سلوك الطاعة لله في المستقبل إن شاء الله[2].

(١) أصول التربية الإسلامية، د. سعيد إسماعيل القاضي ص ١٨٣ بتصرف يسير.

(٢) المنهج النبوي في تربية الطفل، د. عبدالباسط محمد السيد ص ٢٣٥.

خامساً- غرس خلق الأمانة في نفوس المتربين:

الأمانة من شيم المؤمن التي ربى النبي ﷺ عليها أصحابه الكرام، ورغب فيها ترغيباً، فقد عدّ الخازن الأمين الذي يتحلى بالأمانة من المتصدقين، رغم أنه لم يتصدق على صاحب المال الأساسي، والطرف الثاني المراد تسليم المال إليه، يقول ﷺ: "الْخَازِنُ الْمُسْلِمُ الأَمِينُ الَّذِي يُنْفِذُ مَا أُمِرَ بِهِ ... أَحَدُ الْمُتَصَدِّقِينَ".

والأمانة شاملة لكل ما استرعى الله تعالى للإنسان من جوارح، وأداؤها واجب شرعي، يتحتم على كل مسلم أن يحفظها، ولا يخون حتى من خانه(١).

ولقد حرص النبي ﷺ على تعميق قيمة الأمانة في نفوس المسلمين؛ لأن وجودها في المجتمع يعني السلامة والصفاء، ونقيضها الخيانة التي هي سبب الأزمات والغش والخديعة، إذ يرتبط بفقدان الأمانة قلة الإنتاج في الأعمال، وضعف المستوى في الأداء، في مختلف الحرف من الأعمال، وفقدانها تكسد التجارة وتتعثر بين الناس؛ لانعدام الثقة في المعاملات(٢).

❁ ❁ ❁

(١) أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي ص ١٩٢.

(٢) المرجع السابق ١٩٢.

٢٢- باب النصيحة

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[الحجرات: ١٠]، وَقَالَ تَعَالَى: إخبارًا عن نوحٍ ﷺ: ﴿وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾[الأعراف: ٦٢]، وعن هود ﷺ: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾[الأعراف: ٦٨].

وأما الأحاديث:

الحديث رقم (١٨١)

١٨١- فَالأَوَّلُ: عن أَبِي رُقَيَّةَ تَمِيمِ بنِ أَوْس الدَّارِيِّ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: **«الدِّينُ النَّصِيحَةُ» قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ «للَّه وَلِكِتَابِهِ ولِرسُولِهِ وَلأَئمَّةِ المُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ»** رواه مُسْلِم(١).

ترجمة الراوي:

تميم بن أوس الداري : هو تميم بن أوْس بن خارجة، ويكنى أبا رقية، بابنةٍ له تسمى رقية لم يولد له غيرها.

وهو صحابي، مشهور في الصحابة، كان نصرانيًا، وراهب أهل عصره، قدم المدينة وأسلم في سنة تسع من الهجرة، وقد حدّث عنه النبي ﷺ على المنبر بقصة الجسّاسة في أمر الدجال(٢).

وقد أقطعه النبي ﷺ قرية عينون "بفلسطين" وكتب له كتابًا بذلك وكان قد سكن المدينة ثم انتقل منها إلى الشام بعد مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه وكان كثير التهجد، فقد قام ليلة حتى أصبح بآية من القرآن، فيركع، ويسجد ويبكي وهو يقول: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾(٣)، وكان

---

(١) برقم (٩٥/٥٥). أورده المنذري في ترغيبه (٢٦٣٧).

(٢) أخرجه مسلم ٢٩٤٢.

(٣) سورة الجاثية، آية: ٢١.

يختم القرآن في سبع.

وقال فيه ابن سيرين: إنه كان ممن جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ. وهو أول من أسرج السراج بالمسجد، وأول من قصَّ القصص في عهد عمر بن الخطاب فأَذِن له.

وكان له كرامات، شهد بعضَها عمرُ بن الخطاب ﵁، ومنها أنه ذات يوم خرجت نار بالحرَّة، فجاء عمرُ إلى تميم، فقال له: قم إلى هذه النار!؟ فقال تميم: يا أمير المؤمنين! ومَنْ أنا؟ وما أنا؟ فلم يزل به حتى قام معه، فانطلقا إلى النار، فجعل تميم يحوسها بيده حتى دخلت الشِّعَب، ودخل تميمُ خلفها، فجعل عمر يقول: ليس مَنْ رأى كمن لم يَرَ!! قالها ثلاثًا[(١)].

وقد روى عن النبي ﷺ جُلة أحاديث بلغت ١٨ حديثًا.

وتوفي بفلسطين سنة ٤٠هـ، وقبره ببيت جبرين[(٢)].

لأئمة المسلمين وعامتهم: أئمة المسلمين: من يقوم بأمور المسلمين من أصحاب الولايات. وعامة المسلمين: من عدا ولاة الأمر[(٣)].

الشرح الأدبي

إن هذا الحديث من جوامع كلمه ﷺ، وعليه مدار الإسلام -كما قال العلماء- وقيل: هذا الحديث أحد أرباع الإسلام؛ وحين نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف، تطل علينا معان متجددة، ونقتبس من دلالات كلماته الإفرادية، ومن

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي، ٨٠/٦.

(٢) طبقات ابن سعد (٤٠٨/٧-٤٠٩)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي (١٤٣)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر ٩٧، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود ٤٢٨/١-٤٢٩، والأعلام للزركلي (٨٧/٢)، وتهذيب الكمال في أسماء لرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس، ومجدي السيد أمين (٣٩٨/١)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٢٥٩/١)، وسير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط (٤٤٢/٢-٤٤٨)، وموسوعة عظماء حول الرسول (٥٣٥/١-٥٣٧).

(٣) انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٣١، وشرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ١٧٨/٩.

دلالاته التركيبية إشعاعات معرفية، وتوجيهات نبوية، وقيم سلوكية، ومنارات روحية.

وأول ما يلفت انتباه القارئ والمتلقي: هو صيغة الحوار في هذا الحديث الشريف: وفي ظلال هذا الحوار يتوهج حرص الصحابة على الاستفادة والتعلم، ونتعلم نحن المسلمين جميعًا من توجيهات المصطفى ﷺ ومن حرصه على الإفهام والتوضيح والتصريح بعد التلميح، والتفصيل بعد الإجمال، والجملة الأولى: الدين النصيحة، في أدائها الأسلوبي، وجمالها اللغوي تتضمن عدة دلالات إفرادية لكل من لفظ الدين، ولفظ النصيحة ثم تتضمن دلالة تركيبية تومئ إلى الثمرة المرجوة من التوجيه النبوي الكريم، ولنتساءل: ما الدلالة اللغوية لكلمة الدين؟ وكيف ترتبط هذه الدلالة المتنوعة بالآفاق والمقاصد المطلوبة في الحديث الشريف حين نتعرف على المدلول اللغوي للفظ "النصيحة".

إن كلمة "الدين" تؤخذ تارة من فعل متعد بنفسه فنقول "دانه"، وتارة من فعل متعد باللام: فنقول: "دان له"، وتارة من فعل متعد بالباء فنقول، "دان به"، وباختلاف الاشتقاق تختلف الدلالة التي تعطيها الصيغة فإذا قلنا: "دانه دينًا"، عنينا بذلك أنه ملكه، وحكمه وساسه، وقهره، فالدين في هذا الاستعمال يدور على معنى الملك، والتصرف بما هو من شأن الملوك: من السياسة والتدبير والحكم والقهر والمحاسبة والمجازاة ومن ذلك ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾[1]، أي يوم المحاسبة والجزاء، وفي الحديث: "الكيِّس من دان نفسه"[2] أي: حكمها، وإذا قلنا دان له، أردنا أنه أطاعه وخضع له: فالدين هنا هو الخضوع والطاعة والعبادة والورع وعبارة "الدين لله"، يصح أن يفهم منها كلا المعنيين: الحكم لله، أو الخضوع لله، وهذا المعنى الثاني ملازم للأول ومطاوع له، "دانه فدان له"، أي قهره على الطاعة فخضع وأطاع، وإذا قلنا "دان بالشيء" كان معناه: أنه اتخذه دينًا ومذهبًا: أي اعتقده: أو تخلق به، فالدين على هذا هو المذهب والطريقة التي يسير

---

(١) سورة الفاتحة، آية: ٤.

(٢) المستدرك على الصحيحين ١٢٥/١ رقم ١٩١، والترمذي ٦٣٨/٤ رقم ٢٤٥٩، وابن ماجه ١٤٢٣/٢ رقم ٤٢٦٠.

عليها المرء نظريًا أو عمليًا.

ولا يخفى أن هذا الاستعمال الثالث تابع أيضًا للاستعمالين قبله: لأن العقيدة التي يدان بها لها من السلطان على صاحبها ما يجعله ينقاد لها ويلتزم اتّباعها.

فكلمة الدين في دلالاتها المتعددة في لغتنا وفي عقيدتنا الإسلامية تشير إلى علاقة بين طرفين يعظم أحدهما الآخر ويخضع له فإذا وصف بها الطرف الأول كانت خضوعًا وانقيادًا، وإذا وصف بها الطرف الثاني كانت أمرًا وسلطانًا، وحكمًا وإلزامًا وإذا نظر بها إلى الرباط الجامع بين الطرفين كانت هي الدستور المنظم لتلك العلاقة، أو المظهر الذي يعبر عنها[1].

ومن منطق الخضوع والانقياد، يشعر المسلم تجاه خالقه بالحب والتسليم المطلق، والاقتناع والرضا بكل ما يصدر عن الخالق عز وجل: من أقوال وأفعال وأحكام، فالدين له أثره الذي لا ينكر في تهذيب سلوك الإنسان، وتقويم نفسيته، وكل سلوك غير سوي، وكل انحراف عن الصراط المستقيم، ليس بينه وبين الدين ارتباط مهما ادعى الأدعياء، وتقوّل المتقوِّلون: يقول الله عز وجل: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[2].

وهذا السلوك الإسلامي يتبع من "النصيحة الخالصة"، التي جعلها الرسول عماد الدين وقوامه، وقال "الدين النصيحة"، وهذا الأسلوب من باب "الحصر المجازى، دون الحقيقي"، لأنه أريد المبالغة في مدح النصيحة حتى جعلت كل الدين، وإن كان الدين مشتملاً على خصالٍ كثيرة غيرها، كما عليه شراح السنة النبوية.

وحين نتأمل الدلالة اللغوية لكلمة "النصيحة" نجد أنها لا تتصادم مع الدلالة المرادة في الحديث الشريف وهى التوجيه والإرشاد، والإيمان بالله إيمانًا صحيحًا، واتباع ما

---

(١) انظر: كتاب الدين د. محمد عبدالله دراز بتصرف، وانظر: لسان العرب، والقاموس المحيط، الفيروزآبادي في (دي ن).

(٢) سورة الأنعام، آية: ١٥٣.

أمر به الله في كتابه، وما جاء به نبيه من أوامر ونواهٍ، وتصفية العقيدة من كل ما يشوبها، والحرص على أداء العبادات أداءً مكتملاً دون خلل أو نقصان أو ابتداع.

فالنصيحة كلمة جامعة: معناها: حيازة الخير للمنصوح له: ويقال: إنها من وجيز الأسماء، ومختصر الكلام، وأنه ليس في كلام العرب كلمة مفردة تستوفى العبارة عن معنى هذه الكلمة.

والنصيحة في اللغة لها دلالتان: إحداهما أنها مأخوذة من نَصَح الرجُل ثوبه: إذا خاطه: وهنا بلاغة وجمال أسلوبي تعبيري: حيث شبه فعل الناصح فيما يتحراه للمنصوح له بسد الخَيّاط خلل الثوب وإصلاحه، فالنصيحة التي جلى معالمها رسول الله ﷺ في بيانه الرائع الجامع: تصلح الخلل الذي يتسرب إلى عقيدة المسلم وسلوكه ومنهجه في الحياة، وتصحح موقفه من ربه، وتؤصل علاقته بالقرآن الكريم، وبرسول الله ﷺ وتقيم جسرًا من المودة والمحبة والصداقة والمشورة الصالحة بين المسلم وأئمة المسلمين وعامتهم، وكأن كل فرد منهم يقوم بنصيحة الآخر في صدق ومحبة، ومودة وإخلاص.

وأما الدلالة اللغوية الثانية: فقد قيل إن النصيحة مأخوذة من نَصَحْتَ العسل إذا صفيته من الشمع، وفي هذه الدلالة جمال أسلوب، وجمال سلوكي، وجمال تتوهج به هذه الجملة المضيئة التي تفوه بها الحبيب الناصح الأمين: محمد بن عبدالله الذي أرسله الله رحمة للعالمين، حيث قال: "الدين النصيحة".

وقد شبه تخليص القول والفعل من الغش بتخليص العسل من الخلط، وفي ضوء هذه الدلالة اللغوية نقول: إن الإيمان بالله، وبكتابه، وبرسوله، يجب أن يكون صحيحًا وجميلاً كالعسل المصفى في ظل النصائح الهادية، والتوجيهات الراشدة، التي تصدر من أرباب النهى، وأصحاب البصائر، وأُولِي العلم الذين يدركون: متى ينصحون، وكيف ينصحون، وبماذا ينصحون، والنصيحة لأئمة المسلمين، لا تكون بالمبالغة في بيان أخطائهم، ولكن، بمعاونتهم على الحق، وطاعتهم وأمرهم به، وتنبيههم وتذكيرهم برفق ولطف، والحرص على إصلاح أخطائهم، وإرشادهم بالحسنى إلى المنهج الصحيح، والنصيحة لعامة المسلمين آفاقها متعددة، ومقاصدها متنوعة،

ومراميها متسعة وفي ضوء الدلالة اللغوية: يحرص الناصح على إرشاد العامة إلى كل ما يجبر الخلل الذي يراه في أفعالهم وأقوالهم، ويدعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة، ويجادلهم بالتي هي أحسن، حتى يُصفىٍّ أقوالهم، ويهذب أفعالهم، ويجمل سلوكهم، وتصبح أعمالهم كالعسل المصفّى، وكالثوب الجميل: في ظل النصيحة الصادقة الخالصة.

ورحم الله عبدًا، جعل نُطْقه ذكرًا، وصمته فكرًا، ونظره عَبَرًا، وحركته تعبدًا، ويسلم الناس من لسانه ويده. اللهم آمين.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار، والسؤال والجواب.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: خصوصية النبي ﷺ في جوامع الكلم.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: بيان منزلة وأهمية النصيحة.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: بيان حرص الصحابة رضي الله عنهم على فهم ما غاب عنهم.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار، والسؤال والجواب:

فالإخبار من الأساليب الدعوية التي تعين الداعية على تبليغ دعوته للمدعوين وقد ورد ذلك في الحديث من قوله ﷺ "الدين النصيحة"، حيث أخبر النبي ﷺ بحقيقة لا يستغنى عنها المسلم، وهى النصيحة وأهميتها وحاجة الفرد والمجتمع إليها، لما في ذلك من الخير العظيم، أما السؤال والجواب (فهو أسلوب دعوي يجذب المدعوين ويلفت انتباههم، فضلاً عن وضعهم في حالة استعداد فكري ونفسي لمعرفة ما يكون من إجابة)[1]، ويظهر ذلك في الحديث من قوله ﷺ : (الدين النصيحة قلنا لمن؟ قال... إلخ).

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: خصوصية النبي ﷺ في جوامع الكلم:

(قد اختص الله تبارك وتعالى عبده ورسوله محمدًا ﷺ دون غيره من الأنبياء عليهم السلام بخصائص كثيرة، تشريفًا وتكريمًا، مما يدل على جليل رتبته وشرف منزلته

(١) انظر: فقه الدعوة إلى الله، د.عبدالرحمن حبنكة ٢/٥٩.

عند ربه)[١]، وكان من ذلك اختصاصه ﷺ بجوامع الكلم (فكان ﷺ يتكلم بالقول الموجز القليل اللفظ الكثير المعاني)[٢] ، وقد دلت السنة المطهرة على هذه الخاصية، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((فضلت على الأنبياء بست)) ثم ذكر ﷺ من ذلك: ((أعطيت جوامع الكلم))[٣] وقد ظهرت هذه الخصوصية في الحديث من قوله ﷺ: "الدين النصيحة".

وقد بين النووي ذلك فقال نقلاً عن الخطابي إن: (النصيحة كلمة جامعة معناها حيازة الحظ للمنصوح له ويقال: هو من وجيز الأسماء ومختصر الكلام وليس في كلام العرب كلمة مفردة يستوفى بها العبارة عن معنى هذه الكلمة)[٤].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: بيان منزلة وأهمية النصيحة:

(مما لاشك فيه أن النصيحة شأنها عظيم فهى لب الدين وجوهر الإيمان، بها يكون صلاح المجتمع؛ إذ تشاع فيه الفضيلة، وتستر فيه الرذيلة، من قام بها على وجهها يستحق الإكرام لا اللوم والاتهام، لما فيها من التواصي بالحق وبالصبر ونحوهما مما يكفل حياة مستقرة للمجتمع الإسلامي)[٥]. (والنصيحة كلمة جامعة تتضمن قيام الناصح للمنصوح له بوجوه الخير إرادة وفعلاً، وتشمل النصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم)[٦]. وقد أشار نص الحديث إلى تعظيم النبي ﷺ لأمر النصيحة وذلك في قوله ﷺ الدين النصيحة: (أي أن النصيحة عماد الدين وقوامه

---

(١) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن محمد بن عبدالرحمن بن ملوح ٤٤٩/١.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٦١/١٣.

(٣) أخرجه مسلم ٥٢٣.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٣٠.

(٥) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن محمد بن عبدالرحمن بن ملوح ٣٥٠٨/٨.

(٦) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢٢٢/١.

كقوله ﷺ "الحج عرفة"[١] أي: عماده ومعظمه عرفة)[٢] (وذلك أن المسلمين إذا تركوا التناصح والتشاور فيما بينهم فسد حالهم وضيعت كثير من السنن الحميدة وحلت محلها البدع الخبيثة ونقضت عرى الإسلام عروة بعد عروة وحل الشقاق والفساد محل الود والوفاق)[٣].

وقد ذكر الله في كتابه عن الأنبياء عليهم السلام أنهم نصحوا لأممهم فقال الله عز وجل إخبارًا عن نوح عليه السلام: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾[٤]، وقال تعالى إخبارًا عن هود عليه السلام: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ﴾[٥]، وقال تعالى في سورة الحجرات: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾[٦]، ومن تمام الأخوة المناصحة، وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[٧].

قال ابن رجب (يعني إن من تخلف عن الجهاد لعذر، فلا حرج عليه بشرط أن يكون ناصحًا لله ورسوله في تخلفه فإن المنافقين كانوا يظهرون الأعذار كاذبين، ويتخلفون عن الجهاد من غير نصح لله ورسوله... والنصح لله يقتضي القيام بأداء واجباته على أكمل وجوهها، وهو مقام الإحسان، فلا يكمل النصح لله بدون ذلك، ولا يتأتى ذلك بدون كمال المحبة الواجبة والمستحبة، ويستلزم ذلك الاجتهاد في التقرب إليه بنوافل الطاعات على هذا الوجه وترك المحرمات والمكروهات على هذا الوجه أيضًا...، وأما النصيحة لكتاب الله، فشدة حبه وتعظيم قدره إذ هو كلام الخالق، وشدة الرغبة في فهمه، وشدة العناية لتدبره والوقوف عند تلاوته لطلب معاني ما أحب مولاه أن يفهمه

---

(١) المستدرك ٣٥/١ رقم ١٧٠٣، والترمذي ٢٣٧/٣ رقم ١٨٩، والنسائي ٢٥٦/٥ رقم ٣٠١٦.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٣٠.

(٣) النصيحة ومكانتها في الإسلام، الأمين الحاج محمد أحمد ص ٩.

(٤) سورة الأعراف، آية: ٦٢.

(٥) سورة الأعراف، آية: ٦٨.

(٦) سورة الحجرات، آية: ١٠.

(٧) سورة التوبة، آية: ٩١.

عنه، ويقوم به له بعدما يفهمه.

وأما النصيحة للرسول ﷺ في حياته، فبذل المجهود في طاعته ونصرته ومعاونته، وبذل المال إذا أراده والمسارعة إلى محبته. وأما بعد وفاته: فالعناية بطلب سنته، والبحث عن أخلاقه وآدابه، وتعظيم أمره، ولزوم القيام به، وشدة الغضب، والإعراض عمن تدين بخلاف سنته، والغضب على من ضيّعها لأثرة دنيا، وإن كان متدينًا بها....

وأما النصيحة لأئمة المسلمين فحب صلاحهم ورشدهم وعدلهم، وحب اجتماع الأمة عليهم، وكراهة افتراق الأمة عليهم، والتدين بطاعتهم في طاعة الله عز وجل، والبغض لمن رأى الخروج عليهم ...، وأما النصيحة للمسلمين، فأن يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه، ويشفق عليهم، ويرحم صغيرهم، ويوقر كبيرهم، ويحزن لحزنهم، ويفرح لفرحهم...، ونصرتهم على عدوهم، ودفع كل أذى ومكروه عنهم)[1]، (فحاجة الإنسان للنصيحة كحاجته للأكل والشرب والهواء، لا غنى له عنها؛ لأنها هي التي تبين الطريق وتبصر الإنسان بأخطائه وما يحيط به من مخاطر ومهالك، والمسلم كله محتاج إلى النصح حاكمًا كان أو محكومًا، رجلاً كان أو امرأة، عالمًا أو متعلمًا، صديقًا كان أو عدوًا.

وما النصيحة إلا كلمة طيبة وموعظة حسنة، فهي إذن تحتاج إلى شروط وأهم تلك الشروط: الإخلاص، والعلم بما ينصح به وينهى عنه، والرفق، والتلطف بمن ينصحهم ويذكرهم ولو كانوا من أئمة الكفر ودعاة الضلال، فقد وصى الله موسى وهارون عندما أمرهما أن يذهبا إلى فرعون بقوله: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾[2]، وقال عز وجل: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[3]، فكيف إذن بأخوة العقيدة ورفقاء الدرب؟)[4].

---

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١/ ٢٢٠-٢٢٢.

(٢) سورة طه، آية: ٤٤.

(٣) سورة العنكبوت، آية: ٤٦.

(٤) النصيحة ومكانتها في الإسلام، الأمين الحاج، ٧٠٦.

وقد أفرد ابن رجب رسالة في الفرق بين النصيحة والتعيير أورد فيها شروطًا للنصيحة (قال فيها نقلاً عن: الفضيل إن المؤمن يستر وينصح والفاجر يهتك ويعير ورحم الله الشافعي إذ يقول في هذا المعنى:

تَعَمَّدني بِنُصْحِكَ فِي انْفِرَادِي ... وَجَنِّبْنِي النَّصِيحَةَ فِي الْجَمَاعَه

فَإِنَّ النُّصْحَ بَيْنَ النَّاسِ نَوْعٌ ... مِنَ التَّوْبِيخِ لا أَرْضَى اسْتِمَاعَه

وَإِنْ خَالَفْتنِي وَعَصَيْتَ قَوْلِي ... فَلاَ تَغْضَبْ إِذَا لَمْ تُعْطَ طَاعَه)[1]

فعلى الداعية أن يراعى شروط النصيحة عند القيام بحقها لما في ذلك من إحلال الرحمة والود مكان القسوة والشقاق، وفي ذلك عظيم الفائدة.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: بيان حرص الصحابة رضي الله عنهم على فهم ما غاب عنهم:

ورد في الحديث حرصهم رضي الله عنهم على معرفة ما غاب عنهم وذلك في قولهم رضي الله عنهم قلنا لمن؟ وكان حرصهم رضي الله عنهم في ذلك نهجًا يُحتذى به؛ فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: ((كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد وهي من عوالي المدينة، وكنا نتناوب النزول على رسول الله صلى الله عليه وسلم ينزل يومًا وأنزل يومًا، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك))[2].

وقد أمر الحق تبارك وتعالى بالحرص على فهم ومعرفة ما غاب عن المرء حتى يكون على بصيرة من دينه فيعبد ربه على هدى وبينة، فقال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[3]، قال السعدي: (إن الله أمر من لا يعلم بالرجوع إلى العلماء في جميع الحوادث، وفي ضمنه، تعديل لأهل العلم، وتزكية لهم، حيث أمر بسؤالهم، وأنه

---

(١) الفرق بين النصيحة والتعيير، ابن رجب الحنبلي، بدون تاريخ طبع، المكتبة القيمة، مصر والسودان ص ٣٩. والأبيات للإمام الشافعي من ديوان قافية الهاء.

(٢) أخرجه البخاري ٨٩.

(٣) سورة النحل، آية: ٤٣.

بذلك يخرج الجاهل من التبعة)[١]. وقد أكد النبي ﷺ على الرجوع إلى العلماء وسؤالهم فقال: «ألا سألوا إذ لم يعلموا، فإنما شفاء العي السؤال»[٢].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٣٩٤.

(٢) أخرجه أبو داود ٣٣٦، وحسنة الألباني (صحيح سنن أبي داود، ٣٢٥)، والعيّ: الجاهل.

الحديث رقم (١٨٢)

١٨٢-الثَّاني: عَنْ جرير بْنِ عبدِ اللَّه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بَايَعْتُ رَسولَ اللَّه ﷺ عَلى: إِقَامِ الصَّلاَةِ، وإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالنُّصْحِ لِكلِّ مُسْلِمٍ. متفقٌ عليه[١].

ترجمة الراوي:

جرير بن عبدالله البجلي: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٧١).

الشرح الأدبي

حين نتأمل متن هذا الحديث.. تأملاً فاحصًا ندرك أن كلماته كلها.. تخلو من البيان النبوي، فليس لرسول الله ﷺ في نظمه كلمة واحدة، ولكنه مع ذلك يُعدُّ من السنة النبوية الشريفة، لأن السنة النبوية الشريفة، إما قول أو فعل أو تقرير أو هيئة أو صفة.

وإذا أطلق الحديث أريدُ به، ما أضيف إلى النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير، أو صفة خَلْقية أو خُلُقيَّة، وقد يراد به ما أُضيف إلى صاحبي أو تابعي، ولكن الغالب أن يقيد ما أريد به غير النبي ﷺ.

وهذا الحديث: بَيْعة صادقة، وعهد مُوَثَّق: من صاحبي جليل، هو جرير بن عبدالله لرسول الله ﷺ، وقد شرُفَتْ هذه البيعة الخيِّرة بموافقة وتأييد المصطفى ﷺ.

وهى ليست بيعة بالحكم، ولا بالولاية. ولكنها بيعة أعم وأشمل، إنها بيعة في عنق كل مسلم، وهي التعهد أمام رسول الله ﷺ بإقامة أركان الإسلام، والمحافظة عليها، وهي بيعة لها شروطها ولها آدابها، ولها مواثيقها، والتعبير بقوله: "بايعت" أقوى وآكد في الالتزام، من قوله: تعهدت أو التَزْمتُ، لأن البيعةَ تتضمن كل وسائل الولاء والاتباع والتنفيذ والالتزام، والمحافظة، ولم يكُن جرير أو من يُبَايع: بل في القرآن الكريم تخليد وتسجيل "لبيعة الرضوان" في سورة الفتح، وهى بيعة كاملة باتباع

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧)، ومسلم (٩٧/٥٦) ولفظهما سواء، وسيعيده المصنف برقم ١٢١٥. أورده المنذري في ترغيبه (٣٤١٢).

الإسلام : والذود عنه، والوقوف في وجه أعدائه، وصد كل من يحاول تشويه معالم الدعوة، والفوز بإحدى الحسنيين، إما النصر وإما الشّهادة، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[1].

وفي سورة الممتحنة يأتي تفصيل لبيعة النساء، ويأمر الله رسوله ﷺ، بمبايعتهن والاستغفار لهن، يقول الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2].

وتأكيدًا لهذه البيعة يصوغها الراوي في صيغة المتكلم، والجملة الفعلية، "بايعتُ"، والمبايعة كانت لرسول الله ﷺ؛ ومواثيق البيعة تتمثل في ركنين كبيرين من أركان الإسلام، وهما الصلاة، والزكاة، ثم النصح لكل مسلم، ومن أسرار الجمال التعبيري قوله: إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وفي سياق الصلاة: جاء بقوله: "وإقام": لأن الصلاة تحتاج إلى حركة وجهد وعزيمة، وتتضمن قيامًا وركوعًا وسجودًا، وقراءة، وخشوعًا وهذا للفظ الذي يتضمن الهمزة الزائدة في أوله يرشد إلى ضرورة النصح والعمل على ضرورة أن تظل الصلاة منارة المؤمن، ونبراسه المضيء الذي لا يخبو وهجه، والفعل: "أقام الصلاة" يؤدي دلالة أعم وأشمل من قولنا: قام بالصلاة، ولفظ: "إيتاء"، مناسب للزكاة: لأنها إعطاء، وإعانة للفقراء والمحتاجين.

ولفظ "إقامة" مصدر، وكذلك لفظ "إيتاء" مَصْدر، ولذلك إيحاء ودلالة حيث تظل إقامة الصلاة مَصْدرًا للمسلم في كل أمور حياته، وكذلك إيتاء الزكاة يظل مصدر للتراحم والمودة والتكافل بين المسلمين.

---

(١) سورة الفتح، آية: ١٨.

(٢) سورة الممتحنة، آية: ١٢.

والنصح لكل مسلم جملة موجزة تتضمن قبسًا من قوله ﷺ، "الدين النصيحة" صلى الله وسلم على رسول الله وعلى آله وأصحابه الكرام الأخيار.

فقه الحديث

النصح للكافر: قال ابن حجر: (التقييد بالمسلم للأغلب، وإلا فالنصح للكافر معتبر بأن يُدْعى إلى الإسلام ويشار عليه بالصواب إذا استشار. واختلف العلماء في البيع على بيعه ونحو ذلك، فجزم أحمد أن ذلك يختصّ بالمسلمين، واحتج بهذا الحديث)[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من وسائل الدعوة: البيعة.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: بيان أهمية الصلاة والزكاة.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: بيان فضل النصيحة.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: بيان الحافز الحقيقي في النصح لكل مسلم..

خامسًا: من صفات المدعو: الحرص على الالتزام بفعل الطاعات.

أولاً- من وسائل الدعوة: البيعة:

البيعة هي (المعاقلة والمعاهدة على الأمر)[2] وقد بين الحق تعالى أهمية ذلك في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولاً﴾[3] أي (أوفوا بما بايعتم به النبي ﷺ على الإيمان والنصر)[4]، فالبيعة من الوسائل الدعوية الهامة التي تبين أهمية ما بويع عليه، بما يسترعي ذلك انتباه المدعوين وحثهم على الامتثال لما بويع عليه، وقد ورد في الحديث ما يدل على ذلك في قول الراوي: "بايعتُ رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٦٩/١، وانظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢٢٥/١.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٩٨.

(٣) سورة الإسراء، آية: ٣٤.

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٩٧/١٥.

والنصح لكل مسلم".

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: بيان أهمية الصلاة والزكاة:

قد أشار الحديث إلى ذلك في قول الراوي: بايعتُ رسول الله ﷺ على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة. فالصلاة والزكاة من أركان الدين ودعائمه وقد بين النبي ﷺ ذلك فقال: ((بني الإسلام على خمس)) ثم ذكر من ذلك ((إقام الصلاة وإيتاء الزكاة))[١]، وقد أمر الحق تبارك بهما في عدد من الآيات فقال: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾[٢] وما ذلك إلا لعظم أهمية ومكانة الصلاة والزكاة فالصلاة هي آكد أركان الإسلام، والفارق بين الكفار والمسلمين. وهي عمود الدين، لقوله ﷺ: ((رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد))[٣]، لذا كانت أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ بِصَلَاتِهِ فَإِنْ صَلَحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ»[٤].

وهي كما قال النبي ﷺ: «خَمْسُ صَلَوَاتٍ كَتَبَهُنَّ اللَّهُ عَلَى الْعِبَادِ مَنْ جَاءَ بِهِنَّ لَمْ يُضَيِّعْ مِنْهُنَّ شَيْئًا اسْتِخْفَافًا بِحَقِّهِنَّ كَانَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدٌ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ وَمَنْ لَمْ يَأْتِ بِهِنَّ فَلَيْسَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدٌ إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ»[٥]. (وهذه الصلوات الخمس تؤدي في أوقاتها المعينة التي حدّدها الله فقال: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾[٦].

---

(١) أخرجه البخاري ٨.

(٢) سورة البقرة، الآيات: ٤٣، ٨٣، ١١٠.

(٣) أخرجه الترمذي ٢٦١٦، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي، ٢١١٠).

(٤) أخرجه النسائي ٤٦٥، وصححه الألباني (صحيح سنن النسائي، ٤٥١).

(٥) أخرجه النسائي ٤٦١، وصححه الألباني (صحيح سنن النسائي، ٤٤٧).

(٦) سورة النساء، آية: ١٠٣.

ولها ركعات معدودة تؤدي بها هذه الصلوات الخمس دائمًا، وقد داوم عليها رسول الله -صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم- مدة حياته، حتى في الحروب، وتواترت أخبارها تواترًا لا يعرف لأي عمل أو عبادة في ملة من الملل، وفي دور من أدوار التاريخ، وتوارثتها الأمة جيلاً بعد جيل، وطبقة بعد طبقة من غير فترة يوم واحد، حتى في أدق ساعاتها وأعظم محنها وأزمانها.

وهذه الصلوات الخمس بأوقاتها وركعاتها، وجبات روحية، شرعها الخلاق العظيم، المبدع الحكيم، الذي ليس بطبيب النفوس فحسب، بل هو خالقها العليم وصانعها الحكيم كذلك، فلابد من الإيمان والخضوع لحكمتها وتشريعها، ولابد من التمسك بها، والعض عليها بالنواجذ، والإتيان بها في أوقاتها، التي لا يعلم أسرارها وما يظهر فيها من تجليّات وإشراقات، وما يتنزل فيها من بركات ورحمات، وما يوجب فيها التعبّد لله والسجود له مخالفة لعبّاد الشمس والكواكب، ولعبّاد الأحجار والنار، وقد خضعت الأجيال البشرية، والعقول السليمة، لتوجيهات أطباء البشر ووصاياهم وتحديداتهم، وهم من بني جلدتهم، وفي مستواهم البشري، لتجارب محدودة، أو تخمينات مظنونة وما ظنك بالرب الحكيم؟ ﴿ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[1]، ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾[2])[3].

وقد كانت الصلاة استجابة لغريزة البشر النوعية، غريزة الافتقار والضعف والطلب، وغريزة الالتجاء والاعتصام، والدعاء والمناجاة، والاطّراح على عتبة القوي الغني، الجواد الكريم، الرؤوف الرحيم، الحافظ المانع، المعطي الباذل، العليم الخبير، السميع المجيب، واستجابة لغريزة الشكر والوفاء، وغريزة الحب والحنان، وغريزة الخضوع والتواضع، والعبودية والتذلل، فهو في ذلك كالسمك لا يعيش إلا في

---

(١) سورة طه، آية: ٥٠.

(٢) سورة الملك، آية: ١٤.

(٣) الأركان الأربعة، أبو الحسن الندوي، ٢٣، ٢٤.

الماء، وإذا أخرج من الماء لم يزل في حاجة إلى الماء، وفي حنين وفي فرار والتجاء إليه، وذلك معنى قول رسول الله ﷺ: «وجعل قرة عيني في الصلاة»[١]. وقوله لمؤذنه بلال: «يابلال أقم الصلاة، أرحنا بها»[٢])[٣].

وفي ذلك بيان على عظم وأهمية الصلاة كآكد أركان الإسلام، وفي ذكر الزكاة في نص الحديث يكون الإشعار بمكانتها وأهميتها، فهي الركن الثالث في الإسلام، وقد أمر الله تعالى بأدائها وإخراجها لحكم جليلة وغايات نبيلة، "فحكمتها الأساسية الأولى، هي حكمة تزكية النفس من الشح والحرص، والأثرة وحب المال، ومنع حقوق الفقراء وقسوة النفس، وتزكية المال وتنميته، وحلول البركة فيه برضا الله سبحانه وتعالى وقبوله، وبفضل مواساة الفقراء الضعفاء، وانعطاف قلوبهم ورقتها، ودعائهم.

وقد ذكر الله هذه المصلحة الأساسية، ونوه بها في القرآن، ويكاد القرآن يقتصر عليها، فقال مخاطبًا للرسول ﷺ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[٤] وقال مقارنًا بين الربا والزكاة: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾[٥] وقد أخرج أبو داود عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: ((إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب ما بقي من أموالكم))[٦].

وتلي هذه المصلحة الأساسية مصلحة الجماعة والمجتمع، وهي كفالة المجتمع، الكفالة اللازمة الضرورية، وسد حاجات الفقراء الطبعية البدائية، وتهيئة كل عضو

---

(١) أخرجه النسائي ٣٩٤٠، وصححه الألباني (صحيح سنن النسائي ٣٦٨٠).

(٢) أخرجه أبو داود ٤٩٨٥، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤١٧١).

(٣) الأركان الأربعة، أبو الحسن الندوي، ٢٩.

(٤) سورة التوبة، آية: ١٠٣.

(٥) سورة الروم، آية: ٣٩.

(٦) أخرجه أبو داود، ٤٦٦٤، وضعفه الألباني (ضعيف سنن أبي داود، ٣٦٣).

من أعضاء المجتمع لأسباب الحياة الشريفة التي يستطيع بها القيام بحقوق الله وحقوق النفس، والوصول إلى الكمال المطلوب، والغاية المطلوبة من كل فرد مسلم)[(١)].

ومن أجل تحقيق هذه المصالح، رهَّب الحق تبارك وتعالى من تَقَاعَس عن أداء الزكاة ومنع إخراجها فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ۝٣٤ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾[(٢)] وقد أكد النبي ﷺ على ذلك فقال: ((ما من صاحب كنز لا يؤدي زكاته إلا أحمى عليه في نار جهنم فيجعل صفائح، فيكوى بها جنباه وجبينه، حتى يحكم الله بين عباده، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة))[(٣)].

ثالثًا- موضوعات الدعوة: بيان فضل النصيحة:

إن من موضوعات الدعوة المستنبطة في هذا الحديث بيان فضل النصيحة، من حيث حاجة كل مسلم إليها، وهذا ما ورد في الحديث من قول الراوي ((والنصح لكل مسلم)) وقد بين النبي ﷺ أن من حقوق المسلم على المسلم ست ثم ذكر منها ((وإذا استنصحك فانصح له))[(٤)].

والنصيحة كما ذكرها ابن رجب عن أبي عمر: (تعني كلمة جامعة تتضمن قيام الناصح للمنصوح له بوجوه الخير إرادة وفعلاً)[(٥)] (ومتى قام أهل العلم والفضل بواجب النصح فيما بينهم ومناصحة من هم في حاجة إلى ذلك. اتضحت معالم الدين واستنارت النفوس بأحكامه وحكمه وأسراره وارتفع مؤشر الوعي الديني والثقافي بين أفراد

---

(١) الأركان الأربعة، أبو الحسن الندوي، ١١٢، ١١٣.

(٢) سورة التوبة، الآيتان: ٣٤-٣٥.

(٣) أخرجه مسلم ٩٨٧.

(٤) أخرجه مسلم ٢١٦٢.

(٥) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢٢٢.

المجتمع وقد بين الحق تبارك وتعالى ذلك فقال: ﴿وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [١])[٢].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: بيان الحافز الحقيقي في النصح لكل مسلم:

هذا مما يستنبط من نص الحديث، وفي بيان حقيقة هذا الحافز قال أبو الحسن الندوي: (إن الإيمان بالآخرة وتمثل ما فيها من سعادة دائمة وشقاء دائم، وما أعد الله فيها لعباده المؤمنين المطيعين من جزاء، وللكفار من عقاب، هو الحافز الحقيقي للدعاة في دعوتهم وبذل نصحهم، وهو الذي يقلقهم ويطير نومهم ويكدر صفو عيشهم، ويجعلهم لا يهدأ لهم بال ولا يقر لهم قرار، وهو حافز أقوى وأعظم سلطانًا على نفوسهم مما يشاهدونه من اختلال النظام واضطراب الأحوال، وما يشعرون به من الأخطار المحيطة بهذا المجتمع إذا انتشر فيه الفساد، ويجعلون ذلك موجبًا لدعوتهم وإنذارهم وسببًا لقلقهم وإشفاقهم، فيقول القرآن عن نوح عليه السلام- وهو أول رسول يذكره القرآن بتفصيل- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾[٣].

ويقول عن هود عليه السلام - وهو من أقدم الأنبياء، وقد بعث في قوم تهيأت لهم أسباب العيش، وتوسعت لهم الدنيا، وطابت لهم الحياة-: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ۝ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ۝ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[٤].

ويقول عن شعيب عليه السلام -وقد بعث في قوم لانَ لهم العيش وانتشر في أرضهم الخصب-: ﴿إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾[٥])[٦].

---

(١) سورة العصر.

(٢) النصيحة شروطها وآدابها، د. عبدالرب نواب الدين، ط/١، دار القلم، بيروت: ١٤١٥هـ ص ١٥٦.

(٣) سورة هود، الآيتان: ٢٥، ٢٦.

(٤) سورة الشعراء، الآيات: ١٣٢-١٣٥.

(٥) سورة هود، آية: ٨٤.

(٦) النبوة والأنبياء في ضوء القرآن، أبو الحسن الندوي، ٦٥- ٦٦، بتصرف يسير.

فعلى الداعية أن يعي بقلبه وعقله هذا الحافز فلا يترك وسعًا ولا يبقى جهدًا إلا ويبذله في النصح لكل مسلم.

خامسًا- من صفات المدعو: الحرص على الالتزام بفعل الطاعات:

يستنبط هذا مما ورد في الحديث من مبايعة الراوي للنبي ﷺ على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم، وفي الحرص على الالتزام بفعل الطاعات لبيان على تحقيق الاستجابة لله وللرسول وفي ذلك عظيم الأجر، وقد بين الحق تبارك وتعالى ذلك فقال: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾(١) وقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ﴾(٢).

قال السعدي: (لما بيّن تعالى، الحق من الباطل، ذكر أن الناس على قسمين: مستجيب لربه، فذكر ثوابه، وغير مستجيب، فذكر عقابه فقال: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ﴾ أي: انقادت قلوبهم للعلم والإيمان، وجوارحهم للأمر والنهي، وصاروا موافقين لربهم فيما يريده منهم، فلهم ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ أي: الحالة الحسنة، والثواب الحسن. فلهم من الصفات أجلها، ومن المناقب أفضلها. ومن الثواب العاجل والآجل، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر)(٣). فعلى المدعو أن يحرص على أداء الطاعات وفعل المأمورات، إرضاءً لرب العباد؛ وفي ذلك دخول الجنات وعلو الدرجات.

---

(١) سورة الشورى، آية: ٢٦.

(٢) سورة الرعد، آية: ١٨.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٣٧٠.

الحديث رقم (١٨٣)

١٨٣- الثَّالثُ: عَنْ أَنَس رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «**لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**» متفقٌ عليه[1].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

الشرح الأدبي

يُرسي هذا الحديث الشريف قاعدة إسلامية راسخة تقوم على أسس الأخوة الإيمانية، وهذه القاعدة ثابتة الأسس، قوية الأركان: لأنها شُيِّدت على دعائم الأخوة الإسلامية.

وجوهرها "الحبُّ" وهذا الحب ليس محصورًا في مشاعر ذاتية، وفنية، وليس رهين عواطف تحكمها العصبية، أو يؤطرها الهوى، والنزعات الشخصية، وإنما ذلك الحب يتسامى، ويتحصن بالإيثار، والتوازن، انطلاقًا من القاعدة التي تقول: المؤمن مرآة أخيه. واسترشادًا بالآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[2].

والحديث في بنائه اللغوي: يبدأ بالنفى، وهو ليس نفيًا لشيء مكروه، ولكنه نفى للإيمان، وهذه البداية تثير الانتباه وتدعو للتفكير واليقظة، والتساؤل: وماذا بعد قوله ﷺ "لا يؤمن أحدكم" فالجملة لم يكتمل معناها وكلمات الحديث تتراص وتتآزر كالبنيان المرصوص يشد بعضها بعضًا، والحديث يعد جملة دلالية واحدة، تتضمن في جوانبها المشرقة عددًا من الجمل التي تتكون منها الدلالة الكبرى للحديث، وهى المحبة الخالصة لكل مؤمن.

فالحب من أمارات الإيمان ولفظ "أحدكم" عام وشامل : وكاف الخطاب هنا

---

(١) أخرجه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥/٧١) ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه (٢٦٤٣).

(٢) سورة الحجرات، آية: ١٠.

يتوجه بها الرسول ﷺ إلى كل هذه الملايين التي أنعم الله عليها بالتوحيد، وأظلها بالإسلام، وثبتها بالإيمان في كل عصر، وكل جيل، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

و"حتى" تفيد الغاية وهى توحي بأن المؤمن مهما جد في إيمانه، ومهما قطع الأشواط في هذا السبيل فإنه لن يفوز بالإيمان الكامل إلا إذا وصل إلى مرتبة الإيثار، والإحساس بالغير.

والفعل المضارع في قوله ﷺ "حتى يحب" يوحي باستمرار هذا المنهج، وذلك السلوك، وتجددهما، وهذه مرتبة لا يبلغها إلا من ينتصر على نفسه، وعلى رغباته الدنيا، وعلى "الأنا" المتحكم في ذاته، والتعبير بلفظ "لأخيه" فيه دلالة على رابطة الإيمان القوية، فإن الروابط القائمة على قيم الإسلام أقوى من روابط النسب، وصلات العصب، لأن المؤمنين إخوة في ظل المنهج الإسلامي، والتعبير بقوله "ما يحب لنفسه"، واسم الموصول، "ما" يتضمن كل ما يتمناه الإنسان لنفسه، وهذا السلوك يحدث توازنًا بين أفراد المجتمع الإسلامي.

ويوثق الروابط بين أبناء الأمة، والطريق إلى محبة الناس، وإيثارهم، والانتصار على شح النفس هو محبة رسول الله ﷺ. والذين يحبهم رسول الله ﷺ قد حدد معالم شخصيتهم في قوله ﷺ: "ألا أخبركم بأحبكم إليَّ وأقربكم منِّي مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا الموطأون أكنافًا، الذي يألفون ويؤلفون"[1] وهذه الصفات الثلاثة تعد معالم مضيئة للمؤمن الذي يحب لأخيه ما يحب لنفسه وهذه الثلاثة وإن ائتلفت ورجع بعضها إلى بعض فإنها تتميز وتتفرد كل واحد بشيء من المعنى فقوله: "أحاسنكم أخلاقًا" كلمة شاملة لكل ضروب الأخلاق التي تستوعب كل صلات الإنسان بغيره، ومن القول والفعل، ومن الصدق، والوفاء والبر والعدل، والكرم، والمروءة والنجدة، والإيثار والمعونة، وصلة الأرحام، ومساعدة الضعيف والإعانة على

---

(١) صحيح ابن حبان ٢٣٥/٢ رقم ٤٨٥، ومسند أحمد ١٨٥/٢.

نوائب الدهر، وغير ذلك مما لا يستطاع حصره، وتشمله كلمة الأخلاق، وكلمة "أحاسنكم" جمع أحسن، والمطلوب ليس الخلق الحسن، وإنما الخلق الأحسن.

ومن أمارات الحب ودلائله التي يدعو إليها الحديث: هذه الصفة الإيمانية التي تقرب المؤمن من مجلس رسول الله يوم القيامة، وهو شرف لا يسمو إليه شرف آخر، ورتبة لا تعلوها رتبة، والطريق إليها أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك.

وأن تكون من الذين قال فيهم المصطفى ﷺ "الموطأون أكنافًا، الذين يألفون ويؤلفون"، ورسول الله ﷺ الذي يجعل هذا الخلق سبيل الوصول إلى محبته ومجالسته هو نفسه ﷺ مثل رائع في هذا فقد كان يفيض بالرأفة والرحمة، وكان عليه السلام على خلق عظيم، وبهذا وصفه ربه: قال سبحانه: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[(١)]، وقال جل شأنه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[(٢)]، وكأنه عليه السلام يدعو أمته لأن تكون على شاكلته ﷺ.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: أسلوب الترهيب.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: أهمية حب الخير للمؤمنين.

ثالثًا: من أهداف الدعوة: ترسيخ الإيثار في النفوس وتحريرها من الأنانية.

رابعًا: من صفات الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم.

أولاً- من أساليب الدعوة: أسلوب الترهيب:

و(الترهيب (أسلوب قرآني يعالج النفس البشرية وحبها للأمن والسلامة وإيثارها البعد عن الخوف والخطر وذلك من خلال تخويفها وتهديدها)[(٣)]. وهذا ما ورد في الحديث من الترهيب في عدم اكتمال إيمان المرء حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

---

(١) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

(٢) سورة القلم، آية: ٤.

(٣) فقه الدعوة إلى الله، د. علي عبدالحليم محمود، ٢٣٢/١.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: أهمية حب الخير للآخرين من المؤمنين:

إن مما يستنبط من هذا الحديث أهمية حب الخير للمؤمنين؛ لأجل تحقيق التلاحم والتماسك بين المسلمين، ويظهر ذلك في قوله ﷺ "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"، وقد بين ابن حجر ذلك فقال: (والمحبة إرادة ما يعتقده المرء خيرًا والخير كلمة جامعة تعم الطاعات والمباحات الدنيوية والأخروية، وتخرج المنهيات)، وقال نقلاً عن النووي: (إن المحبة هي الميل إلى ما يوافق المحب، وقد تكون بحواسه كحسن الصورة، أو بفعله إما لذاته كالفضل والكمال، وإما لإحسانه كجلب نفع أو دفع ضر)(١).

وقد أمر الحق تبارك وتعالى نبيه بذلك فقال: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾(٢) قال السعدي: أي: (ألن لهم جانبك، وحَسِّن لهم خلقك، محبة، وإكرامًا، وتوددًا)(٣). وفي ذلك قال ابن رجب: (إن هذا كله من جملة النصيحة لعامة المسلمين التي هي من جملة الدين كما قال ﷺ ((الدين النصيحة))(٤))(٥) (وإن من جملة خصال الإيمان الواجبة أن يحب المرء لأخيه المؤمن ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكرهه لنفسه)(٦)، (فإذا زال ذلك عنه انتفى عنه كمال الإيمان)(٧)، وهذا ما أكده النبي ﷺ في قوله ((لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يحب للناس ما يحب لنفسه من الخير))(٨).

وفي حب الخير للآخرين من المؤمنين امتثالاً لقوله ﷺ ((مثل المؤمنين في توادهم

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧٤/١.

(٢) سورة الحجر، آية: ٨٨.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٨٨.

(٤) أخرجه مسلم ٥٥.

(٥) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٣٠٥.

(٦) المرجع السابق ٣٠٣.

(٧) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧٤/١.

(٨) أخرجه ابن حبان في صحيحه ٢٣٥، وقال محقق الصحيح: إسناده صحيح.

وتعاطفهم وتراحمهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر))(١) وقد رغب النبي ﷺ في ذلك فقال: ((فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه))(٢) قال النووي: (وقوله ﷺ "وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه" هذا من جوامع كلمه ﷺ وبديع حكمه، وهذه قاعدة مهمة فينبغي الاعتناء بها، وأن الإنسان يلزم أن لا يفعل مع الناس إلا ما يحب أن يفعلوه معه)(٣). وفي ذلك بيان على أهمية حب الخير للآخرين من المؤمنين.

ثالثًا- من أهداف الدعوة: ترسيخ الإيثار في النفوس وتحريرها من الأنانية:

إن مما يستنبط من الحديث فيما يتعلق بأهداف الدعوة: ترسيخ الإيثار في النفوس وتطهيرها من الشح والأنانية ومن الشواهد على ذلك ما ورد في قوله ﷺ "حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"؛ (فالإيثار دليل كمال الإيمان وحسن الإسلام، به تحصل الألفة والمحبة بين الناس، وهو دليل سخاء النفس وارتقائها، فضلاً عن كونه طريقًا موصلاً إلى الفلاح لأنه يقي الإنسان من داء الشح فيكون سببًا في عتق الإنسان من النار)(٤) (والإيثار هو تقديم الغير على النفس وحظوظها الدنيوية، ورغبةً في الحظوظ الدينية. وذلك ينشأ عن قوة اليقين، وتوكيد المحبة، والصبر على المشقة)(٥) وفي ذلك قال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾(٦) أي: (يقدمون المحاويج على حاجة أنفسهم ويبدؤون بالناس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك)(٧).

---

(١) أخرجه مسلم ٣٠٦.

(٢) أخرجه مسلم ١٨٤٤.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٩٤.

(٤) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن محمد بن عبدالرحمن بن ملوح ٣/ ٦٤٠.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٩/١٨/٢٦.

(٦) سورة الحشر، آية: ٩.

(٧) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٨/ ٧٠.

(وقد أتى رجل رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله أصابني الجهد، فأرسلَ إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئًا، فقال رسول الله ﷺ ((ألا رجل يضيفه هذه الليلة، يرحمه الله؟)) فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله، فذهب إلى أهله فقال لامرأته: ضيف رسول الله ﷺ لا تدخريه شيئًا قالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية، قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم وتعالى فأطفئي السراج، ونطوي بطوننا الليلة، ففعلت، ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ فقال: لقد عجب الله عز وجل، أو ضحك من فلان وفلانة))، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[1].

قال ابن القيم: (وضابط الإيثار: أن تؤثر الخلق على نفسك فيما لا يخرم عليك دينًا، ولا يقطع عليك طريقًا، ولا يفسد عليك وقتًا يعني: أن تقدمهم على نفسك في مصالحهم، مثل أن تطعمهم وتجوع، وتكسوهم وتعرى، وتسقيهم وتظمأ، بحيث لا يؤدي ذلك إلى ارتكاب إتلاف لا يجوز في الدين، ...، وكل سبب يعود عليك بصلاح قلبك ووقتك وحالك مع الله فلا تؤثر به أحدًا، فإن آثرت به فإنما تؤثر الشيطان على الله وأنت لا تعلم...، ولا يستطاع الإيثار إلا بثلاثة أشياء أولها: تعظيم الحقوق؛ فإن من عظمت الحقوق عنده قام بواجبها، ورعاها حق رعايتها، واستعظم إضاعتها، وعلم أنه إن لم يبلغ درجة الإيثار لم يؤدها كما ينبغي، ثانيها: مقت الشح. فإنه إذا مقته وأبغضه التزم الإيثار؛ فإنه يرى أنه لا خلاص له من هذا المقت البغيض إلا بالإيثار. ثالثها: الرغبة في مكارم الأخلاق وبحسب رغبته فيها يكون إيثاره؛ لأن الإيثار أفضل درجات مكارم الأخلاق)[2].

رابعًا- من صفات الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم:

إن من المهام الأساسية التي يضطلع بها الداعية، إرشادَ المدعوين ودلالتهم إلى ما يتحقق به إيمانهم، وقد ورد ذلك في الحديث من قوله ﷺ "لا يؤمن أحدكم حتى

---

(١) أخرجه البخاري ٤٨٨٩، ومسلم ٢٠٥٤.

(٢) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٣/٥٥-٥٨ بتصرف يسير.

يحب لأخيه ما يحب لنفسه"، وقيام الداعية بذلك وحرصه عليه يكون من باب النصيحة التي أمر بها النبي ﷺ: فعن تميم الداري رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: ((الدِّينُ النَّصِيحَةُ. قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: لله وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ))(١).

قال النووي: (... وأما نصيحة عامة المسلمين وهم من عدا ولاة الأمر فإرشادهم لمصالحهم في آخرتهم ودنياهم وكف الأذى عنهم، فيعلمهم ما يجهلونه من دينهم، ويعينهم عليه بالقول والفعل، وستر عوراتهم، وسد خلاتهم، ودفع المضار عنهم، وجلب المنافع لهم)(٢).

وفي دلالة المدعوين إلى ما يتحقق به إيمانهم عظيم الأجر وذلك لقوله ﷺ: ((مَنْ دَعَا إِلَىٰ هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لاَ يَنْقُصُ ذَٰلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا))(٣).

(ومما لاشك فيه أن الداعية مُتبع النبي الكريم ﷺ في مهمته الإرشادية... وقد كان ﷺ شديد الحرص على هداية الناس وتعليمهم وتزكيتهم وإرشادهم إلى ما ينفعهم...، وقد استمر ﷺ في أداء هذه المهمة الجليلة مشمرًا عن ساعديه، باذلاً كل ما في وسعه مستخدمًا جميع الأساليب والوسائل المشروعة المتاحة له في سبيل ذلك بتوفيق الله تعالى حتى لحق بالرفيق الأعلى صلوات ربي وسلامه عليه، وما أكثر المواقف في سيرته المطهرة التي يتجلى فيها حرصه الشديد على إرشاد المدعوين وإخراجهم من الظلمات إلى النور وإبعادهم عن كل ما يعرضهم لغضب الرب وعذابه)(٤)، وكان من ذلك صعوده ﷺ على الصفا ((فجعل يُنادي: يا بني فِهر، يا بني عَديّ -لبطونِ قُرَيشٍ- حتى اجتمعوا، فجعلَ الرجلُ إذا لم يَستطعْ أن يَخرجَ أَرسل رسولاً لِيَنظرَ ما هو، فجاء أبو لهبٍ وقريشٌ، فقال: أرأيتَكُم لو أخبرتُكم أنَّ خيلاً بالوادي

---

(١) أخرجه مسلم ٥٥.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٣١.

(٣) أخرجه مسلم ٢٦٧٤.

(٤) انظر: الحرص على هداية الناس، د. فضل إلهي، ١٧، ١٩.

تريدُ أن تُغيرَ عليكم أكنتم مُصَدِّقيَّ؟ قالوا: نعم، ما جرَّبنا عليك إلاّ صِدقًا. قال: فإني نَذيرُ لكم بينَ يَدَيْ عذابٍ شديدٍ...))[1].

فعلى الداعية أن يقتدي بالنبي ﷺ في حرصه على إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم ممتثلاً لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ﴾[2] وفي ذلك كامل الفائدة وجزيل الثواب.

(١) أخرجه البخاري ٤٧٧٠.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

حب الخير للآخر فرض كحب الإنسان الخير لنفسه، ولا يكمل إيمان المؤمن حتى يعيش هذا الشعور وعلينا كعلماء إسلام أن:

١/ نقدم النصيحة للآخرين إذا قصروا بحق هذا الدين وذلك بعد التزامنا الذاتي، حتى لا تخالف أقوالنا وأفعالنا فلا نجد صدى لدعوانا.

٢/ الإكثار من بيان منزلة السنة ومكانتها وتصحيح مفهوم العمل بها وإقامة الدليل على حجيتها والدفاع عن الشبهة المثارة بحقها.

٣/ تقديم النصح لولي الأمر بصيغة العموم ولكل مسؤول في أي موقع حتى لا يكون مما لا يحمد من جراء عدم النصح.

٤/ ينبغي مراعاة آداب النصح من حيث: توفر العلم بما ينصح به، وكون الناصح ملتزماً بما يدعو إليه وينصح به، وكذلك عدم إحرراج المنصوح، فلا يقدم النصيحة في الملأ، لأنها في الملأ تكون نصيحة للمنصوح، كما أن التلطف في الخطاب مطلوب حتى لا تكن النفرة من المنصوح وأظهار الأثر المترتب على الاستجابة، لأن النفس تميل إلى الخير العاجل. ومن المفاهيم التربوية ما يلي:

أولاً- التربية بالنصيحة:

إن النصيحة من أساليب التربية التي امتاز بها الأسلوب النبوي في التربية مثلما سادت هذه الطريقة لدى الأنبياء السابقين، يقول تعالى على لسان نوح عليه السلام: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾[1]، ويقول على لسان هود عليه السلام: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾[2].

ولقد جسدت هذه الطريقة جوهر الإسلام في التواصي بالحق، ولهذا فقد قال ﷺ: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ» ؛ لأنها تبرز صحة المجتمع، وترابطه وتآذره فيما بين أفراده،

---

(١) سورة الأعراف، آية: ٦٢.

(٢) سورة الأعراف، آية: ٦٨.

والنصيحة من أسس الإسلام التي كان الصحابة الأولون يبايعون الرسول ﷺ عليها في أول إسلامهم، ولهذا قال جرير بن عبدالله رضي الله عنه: «بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى إِقَامِ الصَّلَاةِ، ...، وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ».

وهذه الطريقة في التربية طريقة قديمة قدم الإنسان نفسه، فقد ارتبطت بالتعليم منذ أقدم العصور، على أساس أن المربي هو الشخص الذي يمتلك المعرفة، والمتعلمين ينتظرون أن يتلقوا بعضاً مما عنده، بهدف إفادتهم ونموهم السوي في كل جوانب حياتهم[(١)].

ثانياً- التربية بالحوار والمناقشة:

وهذا من الأساليب التي بدت في محاورته لصحابته؛ عندما قال: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ»، فسألوه: «لِمَنْ» فأجابهم: «لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ ...».

ولقد استخدم النبي ﷺ هذا الأسلوب بكثرة في تربية المخاطبين وتوجيههم، وإعدادهم إعداداً إسلامياً صحيحاً، وهو أسلوب يدفع المتعلم إلى المشاركة بالأسئلة والاستماع والفهم، والتساؤل عما لا يدركه من حقائق، وهو طريقة لا يمكن أن يكون المتعلم فيها سلبياً أو مصدقاً لما يسمعه دون فهم وإدراك؛... وهذا يحمل المخاطب إلى توجيه كل اهتمامه لما يلقى إليه؛ ليتمكن من فهمه، ثم الإجابة عليه، فإذا كان الاستفهام تقريراً فمعنى ذلك أنه يحمل المخاطب على الاعتراف، وينزع منه الإجابة[(٢)].

ثالثاً- التربية على الوفاء بالعهد:

من أخلاق المسلم التي يحرص عليها دائماً رغم كل الظروف: الوفاء بالعهد؛ فتلك هي الصفة التي تكشف عن معادن الرجال وتمكن الإيمان من قلوبهم، ولهذا كانت مبايعة النبي ﷺ عهداً ملزماً لصحابته بالوفاء به طيلة حياتهم، فهذا جرير بن عبدالله رضي الله عنه يقول: رضي الله عنه: « بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى إِقَامِ الصَّلَاةِ، ......». ثم عدَّد بنود المبايعة التي أبرمها مع رسول الله عندما أعلن إسلامه، وقد مدح الله تعالى الذين يوفون بالعهود

---

(١) تربية الطفل في الإسلام، د. أحمد محمود الحمد ص ١٩٥.

(٢) أساليب الدعوة والتربية، د. زياد العاني ص ٤٤٦، ٤٤٧.

في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟﴾[(١)]. وهي من صفات المؤمنين.

قال محمد الغزالي: (إذا أبرم المسلم عقداً فيجب أن يحترمه، وإذا أعطى موثقاً فيجب أن يلتزمه، ومن الإيمان أن يكون المرء عند كلمته التي قالها، ينتهي إليه كما ينتهي الماء عند شُطْآنه، فيعرف بين الناس بأن كلمته ميثاق غليظ، لا خوف من نقضها، ولا مطمع في اصطيادها؛ فالعهد لابد من الوفاء به، كما أن اليمين لابد من البرّ بها، ومناط الوفاء والبر أن يتعلق الأمر بالحق والخير، وإلا فلا عهد في عصيان، ولا يمين في مأثم)[(٢)].

رابعاً- التربية على خلق الإيثار:

من واجبات المؤمن تجاه أخيه المؤمن أن يربط بينهما خلق الإيثار، الذي حرص النبي ﷺ على تعميق جذوره في نفوس صحابته، حتى ربطه بالإيمان في قوله ﷺ: «لاَ يُؤْمِنْ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»، وذلك هو المنهج الرباني الذي دعا إليه القرآن وعضدته السنة الشريفة، يقول تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[(٣)]، وتلك هي صفات المؤمنين الأولين لمن أراد أن يتأسى.

إن الخدمة الجليلة التي تؤديها الأديان للجماعة لا تقف عند تهذيب السلوك، بل إنها وظيفة إيجابية أعمق أثراً في كيان الجماعة، ذلك أنها تربط قلوب معتنقيها برباط من المحبة والتراحم، لا يعدله رباط آخر من الجنس أو اللغة أو الحوار[(٤)].

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٧٧.

(٢) خلق المسلم، محمد الغزالي ص ٥٤.

(٣) سورة الحشر، آية: ٩.

(٤) الإيمان والحياة، د. يوسف القرضاوي ص ١٥٦.

٢٣- باب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[آل عمران: ١٠٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾[آل عمران: ١١٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[الأعراف: ١٩٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾[التوبة:٧١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[المائدة: ٧٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[الكهف: ٢٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾[الحجر:٩٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾[الأعراف: ١٦٥] وَالآيات في الباب كثيرة معلومة.

وأما الأحاديث:

الحديث رقم (١٨٤)

١٨٤- **فالأَوَّلُ**: عن أَبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه قال: سمِعْتُ رسُولَ اللَّه صلى الله عليه وسلم يقُولُ: «**مَنْ رَأَى مِنْكُم مُنْكراً فَلْيغيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطعْ فبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبقَلْبِهِ وَذَلَكَ أَضْعَفُ الإِيمانِ**» رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو سعيد الخدري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٠).

(١) برقم (٤٩/٧٨). أورده المنذري في ترغيبه (٣٣٩٧).

غريب الألفاظ:

المنكر: كل ما قبَّحَهُ الشَّرْعُ وكرِهَهُ وحَرَّمَهُ[١].

الشرح الأدبي

يتصدر هذا الحديث الشريف باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، في كتاب رياض الصالحين، وحين نتأمل نص الحديث ندرك أنه لم يرد به الأمر بالمعروف صراحة، ولكن برغم ذلك، فالنهى عن المنكر وتغييره هو في حقيقته التزام بالمعروف، وتمسك به: لأن المعروف معلوم وموجود، والمنكر مجهول، والأمر بالمعروف: أمر بكل فعل يعرف بالشرع والعقل حسنه، كما قال العلماء فتغيير المنكر: هو إزالته والعمل على بقاء المعروف قولاً وعملاً وسلوكاً ونية.

والحديث الشريف يتكون من أربعة جمل: الثلاثة الأولى منها تتضمن الأمر بتغير المنكر، حسب القدرة والإمكانات المتاحة، إما باليد أو باللسان أو بالقلب، وهذا الترتيب لا يعني انفصال كل مرحلة عن الأخرى، لأن التغيير باليد يكون في حال القدرة، وعدم إحداث فتنة أو ضرر بنفسه أو غيره، والذي يغير بيده، قادر على التوعية والإرشاد والنصح، وكذلك قلبه لا ينبض بالرضا عن هذا المنكر، ولكن يرفضه بقلبه ولسانه، ويغيره بيده.

والبناء اللغوي في الحديث الشريف يوحي بالمعاني والمقاصد التي نتعلمها من هذا التوجيه النبوي الكريم.

فالجمل الشرطية الثلاث: تتضمن الأمر بالتغيير، والأمر للوجوب. وفي رواية أخرى تعبر عن التغيير بالجهاد، ثم قال: "وليس ذلك من الإيمان حبة خردل".

ويبدأ الحديث بجملة الشرط: "من رأى منكم منكراً فليغيره بيده"، والفعل رأى هنا له دلالتان: فهو بمعنى شاهد أو علم، وحسب الدلالة يكون التصرف والتغيير بالوسائل المناسبة حسب العصر وحسب البيئة والسياق الملائم، والخطاب في منكم،

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ن ك ر).

موجه إلى كل مسلم حريص على دينه، وحريص على عدم تحقير نفسه، لأن الذي يحقر نفسه هو الذي يرى أمرًا لله عليه فيه مقال ثم لا يقول فيه: كما أخبر رسول الله ﷺ، فالخطاب هنا كما قال العلماء لمعشر المكلفين القادرين المسلمين: إنه خطاب لجميع الأمة: حاضرها بالمشافهة، وغائبها بطريق التبع، ولفظة منكراً جاءت في صيغة النكرة: دلالة على الشيوع وعدم تحديد أمر منكر محدد، بل كل مخالفة لأمر الشرع هى منكر يجب تغييره باليد وباللسان وبالقلب، والمنكر في اللغة خلاف المعروف على معناه الأصلي وهو المعرفة بالشيء، والمنكر في دلالته اللغوية: هو المجهول غير المعلوم، وكأن الأمر المخالف للشرع: لا وجود له إلا عند أهل الفجور والفسوق الذين لا يستجيبون لما أمر الله به، ولا ينتهون عما نهى عنه.

وتطورت دلالة الكلمة في ظل الإسلام من دلالة الجَهْل بالشيء إلى عدم قبوله ورفضه، وصارت في الإسلام مصطلحاً على كل أمر أو على كل سلوك أو خلق مرفوض، وفي القرآن الكريم ورد الفعل "نكر" ومشتقاته في سبع وثلاثين آية، وقد ذكرت كلمة "المنكر"، وحدها في ست عشرة آية، وتقابلت مع كلمة "المعروف" في تسع آيات منها، وكلمة "المعروف" أكثر ما وردت في القرآن أنها ضد المنكر، والمعروف كما قال العلماء: اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله والتقرب إليه، وقد فسرته معاجم اللغة بمعان عامة منها أنه الجود وأنه النصفة، وحسن الصحبة مع الأهل والناس جميعاً، وأنه الصبر، وقالوا إن المنكر ضد ذلك كله(١).

وفي الحديث إيجاز بالحَذْف وهو من سمات البيان النبوي: فالجملة الثانية تقديرها في الجواب: فليغير بلسانه، أي بالموعظة والتوعية وكل ما يقدر عليه من جميل الكلام، وقوة الإقناع، والترغيب والترهيب، والجملة الثالثة تقديرها، فإن لم يستطع التغيير باليد أو باللسان فليغير بقلبه: أى يرفض المنكر رفضاً نفسياً وشعورياً، ولا

---

(١) انظر: لسان العرب مادة: عرف، وانظر التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن، د. عودة خليل أبو عودة، ص ٣٠٩-٣١٤.

يحضر مجلساً فيه شبهة: وهذه أدنى مرحلة من مراحل التغيير والتغيير معناه: إزالة المنكر، وإيجاد المعروف بكل السبل المتاحة.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكمين فقهيين:

الأول: حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد سبق الكلام عنه تفصيلاً في الحديث رقم (١١٨).

الثاني: مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حيث يرى جمهور الفقهاء[1] أن المراتب الأساسية لهما ثلاث، اتباعاً لهذا الحديث وهي الإنكار باليد أو اللسان أو القلب، فمن وسائل الإنكار: التعريف بالرفق واللطف ليكون أبلغ في الموعظة والنصيحة وخاصة لأصحاب الجاه والسلطان، وأعلى مراتب الأمر والنهي اليد، فيقوم بكسر آلات الباطل وبريق المسكر بنفسه أو يأمر من يفعله، ويأخذ على يد الغاصب ويعيد المغصوب لمالكه فإذا ما انتهى الأمر بشهر السلاح وجب الرجوع إلى السلطان،وعلى كل لا يسقط الإنكار بالقلب عن المكلف باليد واللسان أصلاً إذ هو كراهة معصية وهو واجب على المكلف.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الشرط، والأمر.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: درجات إنكار المنكر.

رابعاً: من صفات المدعو: الائتمار بالمعروف والانتهاء عن المنكر.

---

(١) أحكام القرآن، الجصاص ٤٧/٢ وما بعدها، وأحكام القرآن، ابن العربي ٣٨٣/١، وأنوار البروق، القرافي ٢٥٥/٤ وما بعدها، وغذاء الألباب شرح منظومة الآداب، الإسفراييني الحنبلي ٢٢٥/١ وما بعدها، والمحلى، ابن حزم ٤٢٣/٨ وما بعدها، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٥٠/٦ وما بعدها.

أولاً- من أساليب الدعوة: الشرط، والأمر:

الشرط من الأساليب الدعوية الهامة التي يكون بها لفت انتباه المدعوين واستحضار أذهانهم لمعرفة جوابه، وقد اشتمل أسلوب الشرط في الحديث على أداة الشرط المتمثلة في قوله ﷺ: (من)، وعلى فعل الشرط في قوله ﷺ: (رأى)، وعلى جواب الشرط في قوله ﷺ: (فليغيره)، أما الأمر كأسلوب دعوي فقد ورد في الحديث من قوله ﷺ: (فليغيره)، وبه يحمل المدعو على فعل الأمر المدعو إليه بما في ذلك عظيم الفائدة، وكمال الأجر.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

(مما لا شك فيه أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دليل كمال الإيمان وحسن الإسلام، وهو صمامُ أمن الحياة وضمان سعادة الفرد والمجتمع، به يهيأ الجو الصالح الذي تنمو فيه الآداب والفضائل وتختفي فيه المنكرات والرذائل ويتربى في ظله الضمير العفيف والوجدان اليقظ، وهو سر أفضلية هذه الأمة لقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[1])[2]، وقد أشار نص الحديث إلى أهمية الائتمار بالمعروف والنهي عن المنكر فقال ﷺ: (من رأى منكم منكراً فليغيره... إلخ)، "والمعروف اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله والتقرب إليه والإحسان إلى الناس، وكل ما ندب إليه الشرع، ونهى عنه من المحسنات والمقبحات"[3]، أما المنكر "فهو كل ما قبحه الشرع وحرّمه ونهى عنه"[4].

وقد دلّت نصوص الشريعة الإسلامية على أهمية القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١١٠.

(٢) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن ملوح ١/٥٣٩.

(٣) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٢/١٧٦٣.

(٤) لسان العرب، ابن منظور ٥/٢٣٣.

وَأُوْلَتِيكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[١]، أي: "لتكون هنالك فرقة من الأمة متصدية لهذا الشأن، وإن كان ذلك واجباً على كل فرد من الأمة بحسبه"[٢]، وقوله تعالى: (وأولئك هم المفلحون)، "فالفلاح مختص بالقائمين به المباشرين له ذلك أن الله سبحانه وتعالى جعل من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حفاظاً للأمة الإسلامية"[٣].

وقال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾[٥].

وقد أمر النبي ﷺ بذلك ورهّب من تركه، فقال: ((والذي نفسي بيدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، أو لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَاباً مِنْهِ فتَدْعُونَهُ فَلاَ يَسْتَجِيبُ لَكُمْ))[٦]، وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النقصُ على بَنِي اسرائيلَ، كانَ الرجلُ يَلْقَى الرجلَ فيقولُ: يا هَذَا اتَّقِ الله وَدَعْ مَا تَصنَعُ، فَإِنَّهُ لاَ يَحِلُّ لك، ثم يَلْقَاهُ مِنَ الغدِ فَلاَ يَمْنَعُهُ ذلكَ أَنْ يكونَ أَكِيلَهُ وشَرِيبَهُ وقَعِيدَهُ، فلمَّا فَعَلُوا ذلكَ ضَرَبَ الله قلوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ))، ثم قالَ ﴿**لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابنِ مَرْيَمَ**﴾ إلى قوله: ﴿فاسقون﴾[٧] ثم قالَ: ((كَلاَّ والله، لَتَأْمُرُنَّ بالمعروفِ ولَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدِ الظالمِ ولَتَأْطِرُنَّهُ على الحَقِّ أَطْراً وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَى الحَقِّ قَصْراً))[٨].

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٠٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢/٩١.

(٣) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٤/٢٦.

(٤) سورة التوبة، آية: ٧١.

(٥) سورة الحج، آية: ٤١.

(٦) أخرجه الترمذي ٢١٦٩، وصححه الألباني، (صحيح سنن الترمذي ١٧٦٢).

(٧) سورة المائدة، الآيات: ٧٨ – ٨١.

(٨) أخرجه أحمد ٣٧١٢، وقال محققو المسند: صحيح الإسناد.

"فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين عليهم السلام، ولو طوى بساطه وأهمل علمه وعمله، لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وعمت الفَتَرةُ، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة واستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد، وهلك العباد، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد، وقد كان الذي خفنا أن يكون، فإنا لله وإنا إليه راجعون، إذ قد اندرس من هذا القطب عمله وعلمه، وانمحق بالكلية حقيقته ورسمه، فاستولت على القلوب مداهنة الخلق وانمحت عنها مراقبة الخالق واسترسل الناس في اتباع الهوى والشهوات استرسال البهائم، وعز على بساط الأرض مؤمن صادق لا تأخذه في الله لومة لائم، فمن سعى في تلافي هذه الفترة، وسد هذه الثُّلمة إما متكفلاً بعملها أو متقلداً لتنفيذها مجدداً لهذه السنة الدائرة ناهضاً بأعبائها ومتشمراً في إحيائها كان مستأثراً من بين الخلق بإحياء سنَّة أفضى الزمان إلى إماتتها، ومستبدّاً بقربة تتضاءلُ درجات القرب دون ذروتها"[(١)].

ومما لا شك فيه "إن قيام المسلم بواجبه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والغيرة على دينه، والدفاع والحفاظ على القيم الإسلامية وإحيائها، كل ذلك من شأنه أن يحافظ على قوة المجتمع وسلامته وتماسكه، وتأمينه من غضب الله وحلول النقم عليه، فضلاً عن معرفة المجتمع موقعه من الله تعالى، هل هناك قرب، أم بعد عن الله، هل يغار المسلم حينما تنتهك محارم الله، أو يتعدّ على حدود الله تعالى، إلى غير ذلك من الأمور التي يستشعرها المجتمع الصحيح المعافى"[(٢)].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: درجات إنكار المنكر:

قد ورد في الحديث ما يؤيد ذلك من قوله ﷺ: "فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان"، قال النووي: (قال القاضي

(١) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي ١١٩٢/٣.

(٢) انظر: دور الحسبة في حماية القيم الإسلامية، د. محي الدين عفيفي أحمد، ص ٤٧.

عياض: هذا الحديث أصل في صفة التغيير، فحق المغير أن يغيره بكل وجه أمكنه زواله به قولاً كان أو فعلاً، فيكسر آلات الباطل ويريق المسكر بنفسه، أو يأمر من يفعله"، وذلك تغييراً باليد - فإن غلب على ظنه أن تغييره بيده يسبب منكراً أشد منه من قتله أو قتل غيره بسبب كف يده، اقتصر على القول باللسان والوعظ بالتخويف، فإن خاف أن يسبب قوله مثل ذلك غير بقلبه وكان في سعة)[(١)].

"فالحاصل أن مقتضى التوجيه النبوي الوارد في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه يدلّ على أن التغيير باليد هو الأصل الذي يبدأ به، فإن تعذر القيام به خشية ما يفوت من مصالح أعظم أو وقوع مفاسد أكبر فإنه يُنتقل إلى ما دونه من التغيير باللسان ثم بالقلب... وفي مسألة التغيير للمنكر باليد خاصة، إذ جعلنا ذلك لكل أحد، وفي كل منكر، فإن ذلك يجر من المفاسد الشيء الكثير جداً"[(٢)].

قال ابن تيمية: (وليس لأحد أن يزيل المنكر بما هو أنكر منه مثل أن يقوم واحد من الناس يريد أن يقطع يد السارق، ويجلد الشارب، ويقيم الحدود لأنه لو فعل ذلك لأفضى إلى الهرج والفساد، لأن كل واحد يضرب غيره ويدعي أنه استحق ذلك، فهذا ينبغي أن يقتصر فيه على ولي الأمر...)[(٣)].

"فمسألة التغيير باليد مع وجود القدرة مشروطة بعدم ترتب مفسدة أكبر من جراء الاحتساب فإذا رأى أنه لا يتمكن من تغييره بيده إما لعدم قدرته على ذلك أو خشية ترتب مفسدة أكبر من المصلحة المرجوة انتقل بعد ذلك إلى المرتبة الثانية، وهي: الإنكار باللسان.. وإنما ينتقل إلى هذه المرتبة إذا عجز عن التي قبلها وهي الإنكار باليد.. فتسقط عنه، وهذه المرتبة أيسر ولا شك.. ثم اعلم أن الذي ينبغي في هذه المرتبة هو التغيير بحسب قول الله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢٥.

(٢) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، خالد بن عثمان السبت ص ٣٢٥ - ٣٣٢.

(٣) مختصر الفتاوى المصرية، بدر الدين محمد بن علي البعلي، تحقيق: محمد حامد الفقي ص ٥٧٩.

﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾[١] فإن عجز المحتسب عن القيام بهذا الواجب انتقل إلى ما دونه وهو المرتبة الثالثة، وهي: الإنكار بالقلب وهو أدناها... ولا رخصة لأحد في تركه البتة... بل يجب أن يكون كُرْه المنكر وبُغْضُه تاماً مستمراً... أما إذا كان القلب لا يعرف المعروف ولا ينكر المنكر فإن هذا دليل على موته"[٢].

كما جاء في الصحيح من حديث حذيفة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودا عُودا. فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ. وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ. حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ، عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا. فَلاَ تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ. وَالآخَرُ أَسْوَدُ مِرْبَادا كَالْكُوزِ مُجَخِّيا لاَ يَعْرِفُ مَعْرُوفا وَلاَ يُنْكِرُ مُنْكَرا. إلاَّ مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ))[٣].

وقد دلّ نص الحديث على لزوم هذه المرتبة وذلك بقوله صلى الله عليه وسلم: "وذلك أضعف الإيمان" قال ابن تيمية: (... فأما القلب فيجب بكل حال؛ إذ لا ضرر في فعله، ومن لم يفعله فليس هو بمؤمن، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: وذلك أدنى - أو أضعف الإيمان... وقيل لابن مسعود رضي الله عنه: مَنْ ميّتُ الأحياء؟ فقال: الذي لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً. وهذا هو المفتون الموصوف في حديث حذيفة بن اليمان)[٤]، وفي ذلك بيان على درجات إنكار المنكر التي يجب على من قام بذلك أن يراعيها ويقتدي بها حتى لا يترتب منكر وضرر أشد وأكبر مما هو موجود.

رابعاً- من صفات المدعو: الائتمار بالمعروف والانتهاء عن المنكر:

وفي ذلك استجابة لله ولرسوله بما يعود على المدعو بعظيم الأجر وجزيل الثواب قال

---

(١) سورة النحل، آية: ١٢٥.

(٢) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، خالد السبت ص ٣٣٢ - ٣٣٣.

(٣) أخرجه مسلم ١٤٤. والصفا: الحجر العريض الأملس الذي لا يعلق به شيء، والمِرْباد: موطن تجمع الإبل ومحل خزن التمر ومكان جمع الكتب، والكوز مجخيا: أي فارغاً ليس به شيء، انظر: المعجم الوجيز في (ص ف ر، ر ب د، ج خ ى).

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ١٢٧/٢٨.

تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[(١)]، قال القاسمي: (الاستجابة بمعنى الإجابة، قال:

وداعٍ دعا يا مَنْ يُجِيبْ ... فَلَمْ يَستجيبهُ عِنْدَ ذلكَ مُجِيبُ

يريد: فلم يجبه...، والمراد بها الطاعة والامتثال)[(٢)].

وقال القرطبي: (قال مجاهد والجمهور: المعنى: استجيبوا للطاعة وما تضمنه القرآن من أوامر ونواهٍ؛ ففيه الحياة الأبدية، والنعمة السرمدية)[(٣)].

وقال السعدي: (إن الله تعالى يأمر عباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان منهم وهو الاستجابة لله وللرسول، أي: الانقياد لما أمر به والمبادرة إلى ذلك، والدعوة إليه، والاجتناب لما نهيا عنه، والانكفاف عنه، وقوله تعالى: "إذا دعاكم لما يحييكم"، وصف ملازم لكل ما دعا اللهُ ورسولُه إليه، وبيان لفائدته وحكمته، فإن حياة القلب والروح، بعبودية الله تعالى، ولزوم طاعته، وطاعة رسوله ﷺ على الدوام ثم حذر عن عدم الاستجابة لله وللرسول فقال: "واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه"، فإياكم أن تردوا أمر الله أول ما يأتيكم، فيحال بينكم وبينه إذا أردتموه بعد ذلك، وتختلف قلوبكم فإن الله يحول بين المرء وقلبه، يقلب القلوب حيث شاء ويصرفها أنى شاء")[(٤)].

فعلى المدعو أن يأتمر ويستجيب لما يعرض عليه من معروف وينتهي عما ينكر عليه من منكر لما في ذلك من كامل الاستجابة لله ورسوله.

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٢٤.

(٢) محاسن التأويل، القاسمي ٣٢/٨/٥.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٤٨٤/٩.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٢٨٠.

فضلا عن عظيم الثواب المتمثل في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[١]، وقوله: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾[٢].

---

(١) سورة الرعد، آية: ١٨.

(٢) سورة الشورى، آية: ٢٦.

الحديث رقم (١٨٥)

١٨٥- **الثَّاني**: عن ابنِ مسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رسولَ اللَّه ﷺ قال: «**مَا مِنَ نَبِيٍّ بعَثَهُ اللَّه فِي أُمَّةٍ قَبْلِي، إِلاَّ كان لَه مِن أُمَّتِهِ حواريُّون وأَصْحَابٌ يَأْخذون بِسُنَّتِهِ ويقْتدُون بأَمْرِه، ثُمَّ إِنَّها تَخْلُفُ مِنْ بعْدِهِمْ خُلُوفٌ يقُولُون مَالاَ يفْعلُونَ، ويفْعَلُون مَا لاَ يُؤْمَرون، فَمَنْ جاهدهُم بِيَدِهِ فَهُو مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جاهدهم بقَلْبِهِ فَهُو مُؤْمِنٌ، ومَنْ جَاهَدهُمْ بِلِسانِهِ فَهُو مُؤْمِنٌ، وليس وراءَ ذلِك مِن الإِيمانِ حبَّةُ خرْدلٍ**» رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٧).

غريب الألفاظ:

الحواريون: هم خلصان الأنبياء وأصفياؤهم، والخلصان الذين نقوا من كل عيب[2].

تخلُفُ: أي تحدث[3].

خُلوفُ: جمع خَلْف بإسكان اللام وهو الخالف بشَرٍّ[4].

حبّة خردل: زِنَة حبَّة الخردل، وهو نبات بري يُساوي وزن حبته سدس وزن حبة الشعير، والمراد: ليس وراء ذلك من الإيمان شيء[5].

الشرح الأدبي

ما أجمَل البيان النبوي، وما أجلَّ وأعظم البشارات التي يقدمها للذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر، ونقتبس من أنوار هذا الحديث الشريف إشعاعات هادية يتألق وميضها في آفاق الترغيب والترهيب، وتتصل هذه الآفاق بما يشع

---

(١) برقم (٨٠/٥٠). أورده المنذري في ترغيبه (٣٤٠٦).

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢٦.

(٣) المرجع السابق.

(٤) المرجع السابق.

(٥) لسان العرب، ابن منظور في (خ ر د ل).

في الحديث السابق من توجيهات النبوة، إلى تغيير المنكر بكل ما نملك من قوة، القوة المادية أو القوة البيانية أو القوة الشعورية، والمؤمن القوى هو الذي يمتلك كل هذه القوى، وهو خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف.

ولنتأمل في تدبّر وإخلاص: جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث النبوي الشريف، إن البداية تثير الانتباه حيث تصاغ هذه البداية في أسلوب القصر، وهذا الأسلوب يوضح المعنى المراد ويزيده جلاء في النفس: فكل الأنبياء والرسل الذين بعثهم الله قبل محمد ﷺ كان لهم: من أمتهم حواريون وأصحاب وهذا المعنى الذي أكده وثبته أسلوب القصر: تزيده جلاءً ظواهر فنية وأسلوبية متعددة ومنها قوله : "ما من نبي" و"من" هنا زائدة، وقيل هذا الحرف مزيد لاستغراق النفى: أى ليشمل الحصر، أو القصر جميع الأنبياء والرسل: أو غالب الرسل.

ولنتساءل: من هم الحواريون؟ ومن هم الأصحاب وهل هما بمعنى واحد، ولماذا عطف أحدهما على الآخر، والعطف يقتضي المغايرة؟ الواقع أن الدلالة تختلف فالحواريون كما قال الأزهري وغيره: هم خُلْصان الأنبياء وأصفياؤهم، والخلصان: هم الذين نقوا من كل عيب. أما الأصحابُ فهم من الصحبة، أي الخلطة والملابسة على جهة المحبة، فهم أعم من الحواريين، لأن الحواريين في بعض الآراء هم: الأنصار أو المجاهدون، أو الذين يصلحون للخلافة بعد الأنبياء -- كما يقول صاحب دليل الفالحين.

وهؤلاء الحواريون والأصحاب: يأخذون بسنة النبي أو الرسول، ويقتدون بأمره وهاتان الصفتان من أخص خصائص الأتباع والأصحاب، والتعبير بقوله: يأخذون بسنته: أدق وأشمل من التعبير بـ "يعملون" لأن الأخذ بالسنة فيه عمل بالسنة، وفيه إرشاد الغير إلى العمل بها، فهم لا يكتفون بأنفسهم وإنما يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، والتعبير بالمضارع، (يأخذون، ويقتدون)، في سياق الحكاية أو الإخبار عن الماضي، للدلالة على المداومة على اتباع السنة، وللدلالة على استمرار الحواريين والأصحاب مع الرسل في كل زمن أو مع غالب الرسل.

وفي القسم الثاني من الحديث: ينبه المصطفى ﷺ أمته إلى كيفية انحراف الأمة

عن الطريق الصحيح ويحذر من هذا السلوك الذي يخالف منهج السلف من الحواريين والأصحاب، ويبدأ بقوله: ثم، إنها تَخْلُف من بعدهم خلوف: يقولون مالا يفعلون، ويفعلون مالا يؤمرون.

والتعبير بـ "ثم" يفيد تباعد الزمن، ويوحي بأن الخَلَف تناسي ما عليه السلف: وهذا ما أقره القرآن الكريم في قوله سبحانه: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴾[1].

وفي التعبير بـ"ثم" إشراقه أسلوبية أخرى نبه إليها صاحب "دليل الفالحين" وهي من ثمرة التأمل الإيماني في جماليات البيان النبوي، حيث يقول: ("ثم" أتى بها ،لتراخي رتبة المعطوف بها عما قبله، فتأمل سمت هذا الكلام، وتأمل جمال هذا التخريج البلاغي: فما قبل ثم: هم الحواريون والأصحاب، وما بعدها، هم الخلوف الذين يقولون مالا يفعلون، وشتان ما بين الفريقين: فتأمل ماذا أضاف التعبير بثم وبماذا أوحى؟).

وألفاظ النبوة يعمرها قلب متصل بجلال خالقه، كما قال الرافعي، ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه، وفي ضوء هذا التواصل المشرق بين البيان القرآني، والبيان النبوي: نتأمل: قوله ﷺ: ثم إنها تخلف من بعدهم: خلوف يقولون مالا يفعلون، إن المعنى هنا نابع ومستمد من قول الله عز وجل: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾[2]، والشاهد في قوله عليه السلام: تخلف من بعدهم خلوف، و"خلوف" جمع خلف بإسكان اللام وهو الخالف بشرّ: وهو ما يتفق مع دلالة الآية الكريمة، ودلالة الحديث الشريف، أما: خلف بفتح اللام، فهو الخالف بخير، على الأشهر.

فالكلمة بمادتها اللغوية، وبضبطها الصحيح: تفصح عن المعنى المراد: وهذا من أدق أسرار لغتنا العربية وهي لغة القرآن الكريم، حيث يقول الله عز وجل: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ

---

(١) سورة مريم، آية: ٥٩.

(٢) سورة مريم، آية: ٥٩.

قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[١].

وتأمل صيغة المضارع التي سيطرت على هذا القِسْم من الحديث: حيث قال ﷺ: ثم إنها تخلف، ولم يقل "خَلَفتْ" إيحاءً باستمرار الانحراف عن المنهج الصحيح، وفي ذلك زيادة في تحذير أمته لأن هذا الصنيع ربما يتكرر بعد تباعد العهد بين زمن الأصحاب الأخيار وزمن هؤلاء "الخَلْف" الذين يقولون مالا يفعلون: مثل من سبقهم من الأمم السابقة، ولذلك جاءت صيغة المضارع في قوله في هذه الأفعال الأربع وهي من الأفعال الخمسة، يقولون: مالا يفعلون، ويفعلون مالا يؤمرون، للدلالة على استمرار هذا الصنيع مع كل نبي ورسول.

ولذلك يأتي القسم الثالث من الحديث محذراً من هذا النهج المخالف، وداعياً إلى جهاد هؤلاء ومن على شاكلتهم باليد وباللسان وبالقلب، وتوالت الجمل الداعية للجهاد وهي ثلاث جمل في صيغة الشرط: وتكرر الفعل جاهد ثلاث مرات: للتأكيد على الثبات على منهج السلف من الحواريين والأصحاب، ورفض منهج هؤلاء الذين انحرفوا عن الطريق المستقيم.

وتكرر جواب الشرط في الجمل الثلاث بصيغة واحدة تكررت فيها صفة المؤمن، ثلاث مرات، حيث قال فهو "مؤمن ففعل" الشرط: "جاهدهم" كرر ثلاث مرات، وجواب الشرط: فهو "مؤمن": كرر ثلاث مرات، وهذا التكرار بشارة لكل من أمر بالمعروف، وقاوم المنكر، وجاهد المنحرفين الضالين.

وهذا التنويع في طرق الجهاد يدل على أن الجهاد في المفهوم الإسلامي، والبيان القرآني، والبيان النبوي، تتسع دلالته حيث تعني هذه الكلمة، كل ما يستطيع المسلم أن يبذله من جهد في سبيل إعلاء كلمة الحق، فليس الجهاد في الإسلام مقصوراً على حمل السيف، بل يتعداه إلى حمل القلم وبذل المال، وبذل الكلمة الحرة الشريفة في الميادين التي تجدي فيها الكلمة[٢]، والجهاد بالقلب: من أدق وأخفى صور الجهاد، لأن

---

(١) سورة يوسف، آية: ٢.

(٢) انظر: المنظور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن الكريم.

الأعمال بالنيات، والجهاد باليد، وباللسان وبالقلم لابد أن يكون ناتجاً من القلب: حيث العقيدة الخالصة، والشعور الإيماني الصادق.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد سبق القول في الحديث رقم (١١٨) أنه قد اتفق الفقهاء على مشروعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإن اختلفوا في حكمه على أقوال عدة سبق بيانها.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: القصر.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: بيان فضل الصحابة رضي الله عنهم.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: فضل وأهمية اتباع النبي صلى الله عليه وسلم والأخذ بسنته.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: خطورة الانحراف عن المنهج الصحيح.

خامساً: من موضوعات الدعوة: الحث على مجاهدة المخالفين للشرع.

سادساً: من موضوعات الدعوة: تنوع درجات إنكار المنكر.

سابعاً: من أساليب الدعوة: الترهيب.

أولاً- من أساليب الدعوة: القصر:

لقد جاء في الحديث ما يدل على ذلك في قوله صلى الله عليه وسلم "ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب" وهذا يفيد اختصاص الأنبياء بالحوارين والأصحاب، وأسلوب القصر من الأساليب الدعوية التي تلفت انتباه المدعوين على أهمية ما اختص به الأنبياء.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: بيان فضل الصحابة رضي الله عنهم:

إن الصحابة رضي الله عنهم هم مفخرة الإنسانية، وخير جيل عرفته البشرية، نصر الله بهم نبيه صلى الله عليه وسلم، فأقاموا الملة وحفظوا السنة، وهذا ما أكده نص الحديث من قوله صلى الله عليه وسلم: «ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته

ويقتدون بأمره». وقد عظم النبي ﷺ فضلهم وحفظ لهم قدرهم، فقال: ((النجوم أَمَنَةٌ للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أمنةٌ لأصحابي، فإذا ذهبتُ أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنةٌ لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون))[١].

قال النووي: (إن الأمنة هي الأمن والأمان)[٢] وقال ﷺ في تأكيد عظم فضل أصحابه رضي الله عنهم: ((لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مدّ أحدهم ولا نصيفه))[٣].

قال القاضي عياض: (ويقتضي ذلك تفضيلهم على من سواهم بتضعيف أجورهم؛ ولأن إنفاقهم كان في وقت الحاجة والضرورة وإقامة الأمر وبدء الإسلام، وإيثار النفس، وقلة ذات اليد ونفقة غيرهم بعد الاستغناء عن كثير منها مع سعة الحال، وكثرة ذات اليد؛ ولأن إنفاقهم كان في نصرة ذات النبي ﷺ وحمايته، وذلك معدوم بعده، وكذلك جهادهم وأعمالهم كلها، وقد قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ ۚ أُولَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾[٤]، هذا فرق ما فيهم أنفسهم من الفضل وبينهم من البون، فكيف لمن يأتي بعدهم؟ فإن فضيلة الصحبة واللقاء ولو لحظة لا يوازيها عمل ولا ينال درجتها شيء، والفضائل لا تؤخذ بقياس ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾[٥])[٦].

(وسب أصحاب النبي ﷺ وتنقصهم أو أحد منهم من الكبائر المحرمة والفواحش المنكرة، سواء من لابس الفتن منهم وغيره؛ لأنهم مجتهدون في تلك الحروب متأولون،

---

(١) أخرجه مسلم ٢٥٣١.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٢٢.

(٣) أخرجه البخاري ٣٦٧٣، ومسلم ٢٥٤١.

(٤) سورة الحديد، آية: ١٠.

(٥) سورة الحديد، آية: ٢١.

(٦) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٥٨٠/٧.

وقد لعن النبي ﷺ فاعل ذلك، وذكر أنه من آذاه وآذى الله فإنه لا يقبل منه صرفاً ولا عدلاً)[1].

(والصحابة رضوان الله عليهم هم أعز مأثرة تلمع على جبين الحياة الإنسانية من بين مآثر النبوة، فكان كل فرد منهم نموذجاً رائعاً للتربية النبوية، ومفخرة وشرفاً للنوع الإنساني، لا توجد صورة من المصور الإنساني العالمي الواسع، بل في الكون كله، أجمل وأروع وأشرف من هذه النماذج الإنسانية والأنماط البشرية، باستثناء الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم أجمعين.

إن إيمانهم الراسخ، وعلمهم العميق، وقلبهم الصادق، وحياتهم الفطرية، وتواضعهم وخشيتهم لله، وعفتهم وطهرهم وعطفهم ورأفتهم، وشجاعتهم وجلادتهم، وتذوقهم للعبادة وحنينهم إلى الشهادة، وفروسيتهم بالنهار، وقيامهم بالليل، وتحررهم من سلطان الثروات، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة واستهوائها، وزهدهم في زخارف الدنيا، وعدلهم وحسن تدبيرهم، كل ذلك مما لا يوجد له نظير في الدنيا، ومن مآثر النبوة أنها صنعت رجالاً كانوا أفذاذاً من نوعهم في التاريخ، ولولا شهادات تاريخية متواترة عن هؤلاء الرجال، لما عدا ذلك خيالاً شعرياً، وقصة أسطورية، ولكنها الآن حقيقة تاريخية، وواقع معلوم لا مجال فيه للشك)[2].

فعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: (إن الله نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه، فما رأى المسلمون حسناً، فهو عند الله حسن، وما رأوا سيئاً فهو عند الله سيء)[3].

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في خطبة له وهو يتحدث عن أصحاب محمد ﷺ:

---

(١) إكمال المعلم، القاضي عياض، ٧/٥٨٠، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٢٦.

(٢) انظر: صورتان متضادتان لنتائج جهود الرسول الأعظم ﷺ بين السنة والشيعة الإمامية، أبو الحسن الندوي، ٢٦، ٢٧.

(٣) أخرجه أحمد ١/٣٧٩ رقم ٣٦٠٠، وقال محققو المسند إسناده حسن ٦/٨٤.

(لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ ، فما أرى أحداً يشبههم منكم، لقد كانوا يصبحون شعثاً غبراً، وقد باتوا سجداً وقياماً، يراوحون بين جباههم وخدودهم، ويقفون على مثل الجمر من ذكر معادهم، كأن بين أعينهم ركب المعزى من طول سجودهم، إذا ذكر الله هملت أعينهم حتى تبتل جيوبهم، ومادوا كما يميد الشجر يوم الريح العاصف، خوفاً من العقاب، ورجاء للثواب)[١].

ويقول في خطبة ثانية: (أين القوم الذين دعوا إلى الإسلام فقبلوه، وقرؤوا القرآن فأحكموه، وهيجوا إلى القتال، فَوَلَهوا وَلَهَ اللقاح إلى أولادها، وسلبوا السيوف أغمادها، وأخذوا بأطراف الأرض زحفاً زحفاً وصفّاً صفّاً، بعض هلك وبعض نجا، لا يبشرون بالأحياء ولا يعزون بالموتى، مُرْه[٢] العيون من البكاء، خمص البطون من الصيام، ذبل الشفاه من الدعاء، صفر الألوان من السهر، على وجوههم غبرة الخاشعين. أولئك إخواني الذاهبون! فحق لنا أن نظمأ إليهم ونعض الأيدي على فراقهم)[٣].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: فضل وأهمية اتباع النبي ﷺ والأخذ بسنته:

إن اتباع النبي ﷺ والأخذ بسنته، أحد ركائز دين الإسلام وأساسياته، بل إن ذلك من أعظم مسلمات الشريعة والأمور المعلومة منها بالضرورة، وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم هم القدوة في ذلك، وهذا ما أكده نص الحديث في قوله ﷺ "وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره".

وقد استفاضت النصوص الشرعية الصحيحة في إيجاب ذلك على المؤمنين فقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾[٤]. وقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ

---

(١) نهج البلاغة، الشريف الراضي، تحقيق: د. صبحي الصالح ص١٤٣، نقلاً عن صورتان متضادتان لنتائج جهود الرسول الأعظم ﷺ بين السنة والشيعة الإمامية، أبو الحسن الندوي، ٣٠، ٣١.

(٢) مُرْه العيون من البكاء: أي سقط ما بها من كحل، وخمص البطون: أي ضامري البطون، المعجم الوجيز في (م ر هـ، خ م ص).

(٣) نهج البلاغة، الشريف الراضي، ١٧٧، ١٧٨، نقلاً عن صورتان متضادتان لنتائج جهود الرسول الأعظم ﷺ، الندوي، ٣١.

(٤) سورة الحشر، آية: ٧.

ﭐلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴾[١].

(واتباع النبي ﷺ هو الاقتداء والتأسي به في الاعتقادات والأقوال والأفعال والتروك، بعمل مثل عمله، على الوجه الذي عمله ﷺ، من إيجاب أو ندب أو إباحة أو كراهة أو حظر، مع توفر القصد والإرادة في ذلك.

ويكون الاتباع للنبي ﷺ في الاعتقادات: بأن يعتقد العبد ما اعتقده النبي ﷺ على الوجه الذي - اعتقده من ناحية الوجوب أو البدعية، أو لكونه من أسس الدين أو ناقضاً لأصله، أو قادحاً في كماله.... إلخ، من أجل أنه اعتقده ﷺ.

ويكون الاتباع للنبي ﷺ في الأقوال: بامتثال مدلولها، وما جاءت به من معاني، لا أن تكرر ألفاظها وتردد نصوصها فحسب، فمثلاً: الاتباع لقوله ﷺ: ((صلُّوا كما رَأَيْتُمُوني أُصَلِّي))[٢]. يكون بالصلاة كصلاته، والاتباع لقوله ﷺ: ((لا تَحَاسَدُوا، وَلاَ تَنَاجَشُوا))[٣]. بترك الحسد والنجش، والاتباع لقوله ﷺ: ((مَنْ سُئِلَ عن عِلْمٍ عَلِمَهُ ثم كَتَمَهُ أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ))[٤]. بنشر الإنسان لعلمه الصحيح النافع وعدم كتمانه له.

كما يكون الاتباع للنبي ﷺ في الأفعال: بأن نفعل مثل فعله، على الوجه الذي فعله، من أجل أنه فعله.

فقولنا: (مثل فعله)؛ لأنه لا تأسي مع اختلاف صورة الفعل وكيفيته.

وقولنا: (على الوجه الذي فعله): معناه المشاركة في غرض ذلك الفعل ونيته، إخلاصاً، وتحديداً للفعل من حيث كونه واجباً أو مندوبا؛ لأنه لا تأسي مع اختلاف الغرض والنية، وإن اتحدت صورة الفعل.

---

(١) سورة النساء، آية: ٨٠.

(٢) أخرجه البخاري ٦٣١.

(٣) أخرجه البخاري ٥١٤٣، ومسلم ٢٥٦٤.

(٤) أخرجه الترمذي ٢٦٤٩، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي، ٢١٣٥).

وقولنا: (من أجل أنه فعله)؛ لأنه لو اتحدت الصورة والقصد ولم يكن المراد التأسي والاقتداء فإنه لا يكون اتباعاً.

ولتوضيح الاتباع في الفعل: لو أردنا أن نقتدي بالنبي ﷺ في صومه فلابد أن نصوم على الصورة التي صامها ﷺ، بحيث نمسك عن جميع المفطرات من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس، بقصد التقرب إلى الله تعالى، فلو أمسك أحدنا عن بعض المفطرات فقط لم يكن متبعاً، كما لو أمسك في جزء من الوقت فقط لم يكن متبعاً.

كما لابد أن نصوم على الوجه الذي صامه ﷺ من ناحية القصد بحيث نريد بصيامنا وجه الله تعالى، وصيام الواجب أداء أو قضاء أو نذراً، أو النفل،- كالقصد الذي صام لأجله ﷺ.

كما لا بد أن نصوم من أجل أنه صام ﷺ؛ ولذا لا يعد الشخص متأسياً بشخص آخر- غير النبي ﷺ- يشاركه في الصورة والقصد إذا كان كل منهما يعمل ذلك امتثالاً لأمر الله تعالى واتباعاً لرسوله ﷺ.

ويكون الاتباع للنبي ﷺ في التروك: بأن نترك ما ترك، على الصفة والوجه الذي ترك، من أجل أنه ترك، وهي القيود نفسها في الاتباع في الأفعال.

ولتوضيح ذلك: قام النبي ﷺ بترك الصلاة عند طلوع الشمس، فيترك المتأسي الصلاة في ذلك الوقت على الوجه الذي ترك النبي ﷺ، لأجل أنه ترك)[1].

وقد جعل الحق تبارك وتعالى اتباع النبي ﷺ والأخذ بسنته شرطاً لقبول العبادات، قال ابن رجب: (فكما أن كل عمل لا يراد به وجه الله تعالى فليس لعامله فيه ثواب؛ فكذلك كل عمل لا يكون عليه أمر الله ورسوله فهو مردود على عامله، وكل من أحدث في الدين ما لم يأذن به الله ورسوله فليس من الدين في شيء)[2]، وهذا

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم، ٤٠٩/١٠، واتباع النبي ﷺ في ضوء الوحيين، فيصل بن علي البعداني، ٩٣، ضمن بحوث حقوق النبي ﷺ بين الإجلال والإخلال.

(٢) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١/١٧٦.

ما أكده النبي ﷺ في قوله: ((من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد))[١].

قال النووي: (قال أهل العربية: الرد هنا بمعنى المردود ومعناه، فهو باطل غير معتد به، وهذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الإسلام وهو من جوامع كلمة ﷺ فإنه صريح في رد كل البدع والمخترعات ...، وهذا الحديث مما ينبغي حفظه واستعماله في إبطال المنكرات وإشاعة الاستدلال به)[٢].

وقد جعل الحق تبارك وتعالى اتباع النبي ﷺ والأخذ بسنته دليلاً على محبته تعالى، فقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٣].

يقول ابن تيمية: (ومما ينبغي التفطن له أن الله سبحانه قال في كتابه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ...﴾، قالت طائفة من السلف: ادعى قوم على عهد رسول الله ﷺ أنهم يحبون الله فأنزل الله هذه الآية: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ...﴾ الآية، فبيّن سبحانه أن محبته توجب اتباع الرسول ﷺ، وأن اتباع الرسول ﷺ يوجب محبة الله للعبد، وهذه محبة امتحن الله بها أهل دعوى محبة الله؛ فإن هذا الباب تكثر فيها الدعاوى والاشتباه)[٤].

ويقول ابن كثير: (هذه الآية حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي والدين المحمدي في جميع أقواله وأفعاله)[٥].

---

(١) أخرجه البخاري ٢٦٩٧، ومسلم ١٧١٨.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٠٥.

(٣) سورة آل عمران آية: ٣١ .

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٨١/١٠.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣٢/٢.

وقال ابن القيم: (﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ إشارة إلى دليل المحبة وثمرتها وفائدتها؛ فدليلها وعلامتها اتباع الرسول ﷺ، وفائدتها وثمرتها محبة المرسل لكم، فما لم تحصل المتابعة فليست محبتكم له حاصلة، ومحبته لكم منتفية)(١).

ويقول: (ثباتها أي محبة الله إنما يكون بمتابعة الرسول في أعماله وأقواله وأخلاقه، فبحسب هذا الاتباع يكون منشأ هذه المحبة وثباتها وقوتها، وبحسب نقصانها يكون نقصانها)(٢).

رابعاً- من موضوعات الدعوة: خطورة الانحراف عن المنهج الصحيح:

قد أشار الحديث إلى هذا الانحراف فقال ﷺ "ثم إنها تخلُفُ من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون" وقد بين الحق تبارك وتعالى خطورة الانحراف عن المنهج الصحيح فقال: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٣) قال ابن كثير (أي: فليحذر وليخش من خالف شريعة الرسول باطناً أو ظاهراً أن تصيبه فتنة من كفر أو نفاق أو بدعة أو يصيبهم عذاب أليم في الدنيا بقتل أو حد أو حبس أو نحو ذلك)(٤).

وقال القرطبي: (قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ بهذه الآية احتج العلماء على أن الأمر للوجوب. ووجهها أن الله تبارك وتعالى قد حذر من مخالفة أمره، وتوعد بالعقاب عليها بقوله: ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فتحرم مخالفته، فيجب امتثال أمره. والفتنة هنا القتل؛ قاله ابن عباس، وقال عطاء: الزلازل والأهوال. جعفر بن محمد: سلطان جائر يسلط عليهم . وقيل: الطبع على القلوب بشؤم مخالفة

---

(١) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢٢/٣.

(٢) المرجع السابق ٣٧/٣.

(٣) سورة النور، آية: ٦٣.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٩٠/٦.

الرسول. والضمير في "أمره" قيل هو عائد إلى أمر الله تعالى، قاله يحيى بن سلام وقيل: إلى أمر رسوله عليه السلام)[١]، فعلى المرء أن يحذر مخالفة النبي ﷺ، وأن يجتهد في اتباع هديه ﷺ فهو والله الفلاح في الدنيا والآخرة.

خامساً- من موضوعات الدعوة: الحث على مجاهدة المخالفين للشرع:

قد ورد في الحديث ما يؤيد ذلك من قوله ﷺ "فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل" وهذا ما حث عليه الحق تبارك وتعالى في قوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[٢].

وقد رهب ﷺ من مخالفة ذلك فقال:"والذي نفسي بيده لتأمرون بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم"[٣].

وعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه، قَالَ: لَمَّا رَجَعَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُهَاجِرَةُ الْبَحْرِ، قَالَ: ((أَلاَ تُحَدِّثُونِي بِأَعَاجِيبِ مَا رَأَيْتُمْ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ؟» قَالَ فِتْيَةٌ مِنْهُمْ: بَلَى. يَا رَسُولَ اللَّهِ بَيْنَا نَحْنُ جُلُوسٌ، مَرَّتْ بِنَا عَجُوزٌ مِنْ عَجَائِزِ رَهَابِينِهِمْ تَحْمِلُ عَلَى رَأْسِهَا قُلَّةً مِنْ مَاءٍ. فَمَرَّتْ بِفَتًى مِنْهُمْ. فَجَعَلَ إِحْدَى يَدَيْهِ بَيْنَ كَتِفَيْهَا، ثُمَّ دَفَعَهَا. فَخَرَّتْ عَلَى رُكْبَتَيْهَا. فَانْكَسَرَتْ قُلَّتُهَا. فَلَمَّا ارْتَفَعَتِ، الْتَفَتَتْ إِلَيْهِ فَقَالَتْ: سَوْفَ تَعْلَمُ، يَا غُدَرُ إِذَا وَضَعَ اللَّهُ الْكُرْسِيَّ، وَجَمَعَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ، وَتَكَلَّمَتِ الأَيْدِي وَالأَرْجُلُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ، فَسَوْفَ تَعْلَمُ كَيْفَ أَمْرِي وَأَمْرُكَ، عِنْدَهُ غَداً. قَالَ: يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «صَدَقَتْ. صَدَقَتْ. كَيْفَ يُقَدِّسُ اللَّهُ أُمَّةً لاَ يُؤْخَذُ لِضَعِيفِهِمْ مِنْ شَدِيدِهِمْ؟))[٤].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٣٢٢/١٢/٦ - ٣٢٣.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٠٤.

(٣) أخرجه الترمذي ٢٦١٩، وصححه الألباني في الصحيحة ٢٨٦٨.

(٤) أخرجه ابن ماجه ٤٠١٠، وحسنه الألباني (صحيح سنن الألباني، ٣٢٣٩).

"فقيام المسلم بواجبه في الاحتساب والغيرة على دينه والدفاع والحفاظ على القيم الإسلامية، كل ذلك من شأنه أن يحافظ على قوة المجتمع وسلامته وتماسكه وتأمينه من غضب الله، وحلول النقم عليه لأن الحسبة هى صمام الأمان في المجتمع، ومن خلالها يعرف المجتمع موقعه من الله تعالى فيما يتعلق بالقرب أو البعد لأن المجتمع المريض هو الذي يغرق في الشهوات، وتتلاشى فيه القيم الإسلامية لأن ترك الحسبة ومجاهدة المخالفين للشرع مؤشر خطير في المجتمع المسلم"[١].

سادساً- من موضوعات الدعوة: تنوع درجات إنكار المنكر:

هذا ما أكده نص الحديث في قوله ﷺ "فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن". (فهذا نص صريح من المصطفى ﷺ بأن المغير للمنكر لا يلزمه إزالته بطريقة واحدة، بل عليه أن يغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وهذا أقل الأحوال)[٢]، وقال الجصاص في ذلك: (إن إنكار المنكر على هذه الوجوه الثلاثة على حسب الإمكان، ودل على أنه إن لم يستطع تغييره بيده فعليه تغييره بلسانه، ثم إن لم يكن ذلك فليس عليه أكثر من إنكاره بقلبه)[٣]، (ويشترط في الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يكون قادراً على الأمر والنهي وتغيير المنكر، فإن كان عاجزاً فلا وجوب عليه إلا بقلبه أى: يكره المعاصي وينكرها ويقاطع فاعليها)[٤].

سابعاً- من أساليب الدعوة: الترهيب:

(إن الترهيب من الأساليب الدعوية الهامة التي يكون بها إخافة المدعو وتحذيره من عدم الاستجابة، أو رفض الحق، أو عدم الثبات عليه بعد قبوله، وفي ذلك عظيم الفائدة، والأصل في الترهيب أن يكون بالتخويف من غضب الله وعذابه في الآخرة،

---

(١) انظر: دور الحسبة في حماية القيم الإسلامية، د. محي الدين عفيفي أحمد ص ٤٧.

(٢) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأثرهما في حفظ الأمة، د.عبدالعزيز أحمد المسعود، ٥٠٠-٥٠١.

(٣) أحكام القرآن، ابن العربي ٢/٣٦.

(٤) التشريع الجنائي، عبدالقادر عودة، ٤٩٧/١ .

وهو من الأساليب الناجحة للنفس الإنسانية التي جبلت على حب النفور من الضيق والعذاب)[1]. وقد ورد هذا الأسلوب الدعوي الهام في الحديث من قوله ﷺ: (وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل)، حيث أفاد الترهيب من عدم إنكار المنكر، وبيان أن الإيمان في لزوم إنكاره ولو بالقلب.

---

(١) انظر: فقه الدعوة، د. بسام العموش، ٨٦-٨٧.

الحديث رقم (١٨٦)

١٨٦- **الثالث**: عن أَبي الوليدِ عُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ ﵁ قال: «**بايعنا رسول اللَّه ﷺ على السَّمعِ والطَّاعَةِ في العُسرِ واليُسرِ والمَنْشَطِ والمَكْرَهِ، وَعلى أَثَرَةٍ علَيْنَا، وعلَى أَنْ لاَ نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ**»[١].

(**إِلاَّ أَنْ تَرَوْا كُفْراً بَوَاحاً عِنْدكُمْ مِنَ اللَّه تعالَى فيه بُرهانٌ**) [٢]، **وعلى أن نقول بالحقِّ أينَما كُنَّا لا نخافُ في اللَّه لَوْمةَ لائمٍ**» متفقٌ عليه[٣].

(المَنْشَط والمَكْره) بِفَتْحِ مِيميهما، أَيْ: في السَّهْلِ والصَّعْبِ. (والأَثَرةُ: الاخْتِصاصُ بالمُشْتَرك، وقَدْ سبقَ بيَانُها. (بوَاحاً) بفَتْح الْبَاءِ المُوَحَّدة بعْدَهَا وَاوثُمَّ أَلِفٌ ثُمَّ حاء مُهْمَلَةٌ أَيْ ظَاهِراً لاَ يَحْتَمِلُ تَأْوِيلاً.

ترجمة الراوي:

عبادة بن الصامت: صحابي مشهور، وعلم من أعلام صحابة رسول الله ﷺ واسمهُ: عُبَادة بن الصامت بن قيس بن أصرم بن فهر بن قيس الأنصاري الخزرجي، وكان يكنى بأبي الوليد المدني، له صحبة ورواية، له في كتب الحديث ١٨١ حديثاً، وله في الصحيحين ستة، وانفرد كل منهما بحديثين.

شهد العقبة الأولى والثانية، فكان أحد السبعين الذين بايعوا رسول الله ﷺ وكان أحد نقبائهم الاثني عشر فكان نقيباً على القوافل من بني عوف بن الخزرج، وبعد هجرة المهاجرين إلى المدينة آخى رسول الله ﷺ بينه وبين أبي مَرْثَد الغَنَوي، وله

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٥٦)، ومسلم (١٧٠٩/٤١، كتاب الإمارة، باب ٨) واللفظ له. أورده المنذري في ترغيبه (٣٣٩٨).

(٢) الزيادة من رواية البخاري (٧٠٥٦)، ومسلم (١٧٠٩/٤٢) قال الحميدي في جمعه (٤١٥/١، رقم ٦٦٦): وقد أخرجا هذا المعنى من حديث جنادة، عن عبادة، وزاد متصلاً بقوله: ولا ننازع الأمر أهله، قال: إلا أن تروا كفرًا بواحًا عندكم فيه من الله برهان).

(٣) أخرجه البخاري (١٧٠٩)، ومسلم (١٧٠٩/٤١). أورده المنذري في ترغيبه (٣٣٩٨). **تنبيه**: جمع المنذري في ترغيبه بين لفظي الحديث، وتبعه عليه المؤلف.

جهادٌ كبير مع رسول الله ﷺ فشهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ فهو صحابي عَقَبيٌّ نقيبيٌّ أنصاريٌّ بدريٌّ، وشهد فتح مصر في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

استعمله النبي ﷺ على بعض الصدقات وجَمَعَ رضي الله عنه القرآن كله في صدره حفظاً على عهد رسول الله ﷺ فكان يعلم أهل الصُفَّة القرآن، ولما فتح الله على المسلمين بلاد الشام كتب يزيد بن أبي سفيان إلى عمر أنه قد احتاج أهل الشام إلى مَنْ يعلمهم القرآن ويفقههم فأرسل معاذاً وعبادة وأبا الدرداء، فأقام عبادة بفلسطين، كما ولي إمارة رَبَع المَدَرِ، وذُكِر أن أبا عبيدة ولاه إمرة حمص ثم صَرفه.

وكان رضي الله عنه من أشد الناس ورعاً وحِلماً ولطفاً بغيره، أما عن صفاته الخِلْقِية: فكان طوالاً، جسيمًا، جميلاً، وقال سعيد بن عفير كان طوله عشرة أشبار. ذكر أن عبادة بن الصامت لما حضرته الوفاة قال: أخرجوا فراشي إلى الصحن -يعني الدار- ثم قال: اجمعوا لي مواليّ وخدمي، وجيراني، ومن كان يدخل عليَّ فتجمعوا له فقال: إن يومي هذا لا أُراه إلا آخر يوم يأتي عليّ في الدنيا وأول ليلة من الآخرة، وإني لا أدري لعله قد فرط مني إليكم بيدي أو بلساني شيء، وهو والذي نفس عبادة بيده القصاص يوم القيامة، فأُحَرِّجُ[1] على أحد منكم في نفسه شيء من ذلك إلا اقتص قبل أن تخرج نفسي فقالوا: بل كنت والداً، وكنت مؤدباً، وما قلت لخادم سوء قط، فقال أغفرتم لي ما كان مني لكم؟ قالوا: نعم، قال: اللهم أشهد، ثم قال: فاحفظوا وصيتي "أُحَرِّجُ على إنسان منكم يبكي عليّ، فإذا خرجت نفسي فتوضئوا وأحسنوا الوضوء ثم ليدخل كل إنسان منكم مسجداً فيصلي ثم يستغفر لِعُبَادَه ولنفسه، فإن الله تبارك وتعالى قال: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾[2] ثم أسرعوا بي إلى حفرتي ولا تُتْبِعُنِّي ناراً، ولا تضعوا تحتي أرجواناً.

---

(١) أي أقول لا حرج من الإقدام على أخذ الحق، المعجم الوجيز في (ح ر ج).

(٢) سورة البقرة، آية: ٤٥.

مات بالرَّملة من أرض الشام، وقيل مات ببيت المقدس وقبره إلى الحائط الشرقي يعني بيت المقدس، مات سنة ٣٤ وقيل ٤٥هـ، وهو ابن اثنتين وسبعين سنة(١).

غريب الألفاظ:

المنشط: فسرها النووي(٢)، وفي النهاية: هو الأمر الذي تنشط له وتخفُّ إليه وتُؤثر فعله(٣).

المكره: فسرها النووي(٤)، وفي النهاية: هو الأمر المكروه(٥).

الأثرةُ: فسرها النووي في عقب الحديث(٦).

بواحاً: فسرها النووي في عقب الحديث(٧).

الشرح الأدبي

في ظل هذا الحديث الشريف: نستروح نسمات مشهد بيعة العقبة الأولى، وهي من المواقف والمشاهد التي كان لها الأثر العميق في تَثْبيت أركان الدعوة الإسلامية، وترسيخ دعائم دولة الإسلام، ويروي عبادة بن الصامت: وهو أحد النقباء ليلة العقبة: أنهم بايعوا الرسول ﷺ أو الرسول بايعهم: أن يسمعوا ويطيعوا له ﷺ، ولغيره من ولاة الأمر في جميع الأحوال إلا في حال وقوع الكفر الصريح من ولي الأمر الشرعي فلا

---

(١) الطبقات الكبرى، ابن سعد ٥٤٦/٣، ٦٢١/٣، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٤٦٩، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود ١٥٨/٣، ١٦٠، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ٦٧٨، ٦٧٩، وسير أعلام النبلاء ٢٨٥/٢، ٢٨٦، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين ٦١/٤-٦٣، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٢٨٥/٢، ٢٨٦، والأعلام ٢٥٨/٣، وموسوعة عظماء حول الرسول ١١٣٥/٢-١١٤٢.

(٢) رياض الصالحين ١٢٥.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ن ش ط).

(٤) رياض الصالحين ٦٩، ١٢٥.

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ك ر هـ).

(٦) رياض الصالحين ٦٩، ١٢٥.

(٧) المرجع السابق.

سمع ولا طاعة؛ ولبداية الحديث رواية أخرى عن عبادة بن الصامت حيث: قال: دعانا النبي ﷺ فبايعناه، فقال: "فيما أخذ علينا: أن بايعنا على السمع والطاعة ..." الحديث.

ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف، وهذا الجمال يكمن سره في تعدد دلالة الألفاظ، وتتعدد المعاني وتتسع تبعاً للدلالة اللفظية، وربما يكمن سر التعبير الجمالي في طريقة النظم: أي العلاقة بين الكلمات، وتعدد الصيغ، والاشتقاقات اللغوية، وتعدد الأساليب، وموحيات كل أسلوب؛ وأول ما يلفت الانتباه: بداية الحديث في هذه الرواية بالفعل بايعنا: والفعل بفتح العين، يعطي دلالة: العهد والمراد: دعانا رسول الله ﷺ إلى المبايعة فبايعناه، والمراد عاهدناه: ففيه استعارة تبعية، وأطلق على المعاهدة: المبايعة: لأن كلاً من المتعاهدين يمد يده للأخر لأخذ العهد، كما أن كلا من المتبايعين يمد يده لصاحبه، وقيل سميت مبايعة لما فيها من المعاوضة لما وعدهم الله من عظيم الجزاء، وحركة العين في الفعل، بايَعَنا، تحدد القائل لباقي عبارات الحديث: فسكون العين يجعل باقي كلمات الحديث من كلام عبادة بن الصامت، وفتح العين يرشد إلى أن الحديث إلى نهايته من كلام المصطفى ﷺ.

والجمع بين السَّمع والطاعة: له سرٌّ بلاغي دقيق: فالسمع: هو الإصغاء إلى الحديث: والمراد هنا: الإصغاء إلى الأمر مع قبول النفس له، وهذا يستتبع العمل به وهو الطاعة، وأما السمع بدون قبول النفس فلا يستتبع الطاعة: قال تعالى: ﴿ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾[1].

ومواثيق هذه البيعة تتجلى في هذه العهود الأربعة: السمع والطاعة، والمبايعة على استئثار الأمراء بحظوظهم، وهو معنى "الأثرة" في قوله: على أثرة فينا، والمبايعة على أن لا ينازعوا الأمر أهله، وعلى أن يقولوا الحق أينما كان.

وتكرار الحرف "على"، في بداية كل عَهْد: يوحي بصدْق العهد، والالتزام بالمسؤولية، "والعسر واليُسْر"، و"المنشط والمكره" كناية عن الطاعة في جميع الأحوال:

---

(١) سورة البقرة، آية: ٩٣.

لأن طاعة ولي الأمر واجبة إلا إن أظهروا الفسُوق أو الكفر البواح، أو البراح.

"وعندكم من الله فيه برهان"، أي نص صريح من القرآن أو خبر صحيح لا يحتمل التأويل؛ وهذه العهود تضمن بقاء الأمة عزيزة قوية متماسكة البنيان ثابتة الأركان.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم فقهي يتعلق بحكم طاعة الإمام ومتى يجوز الخروج عليه، وقد أجمع جمهور العلماء[1] على أن طاعة أولي الأمر من الأمراء والحكام واجبة في كل زمان ومكان في المنشط والمكره، وأن الخروج عليه محرم، والخارج على الإمام باغ يعاقب بعقوبة البغي حتى يفيء إلى أمر الله، فإن ظهر من الإمام جور فهل يجوز الخروج عليه؟ قال الداودي: الذي عليه العلماء في أمراء الجور أنه إن قدر على خلعه بغير فتنة ولا ظلم وجب وإلا فالواجب الصبر، وعن بعضهم لا يجوز عقد الولاية لفاسق ابتداء، فإن أحدث جوراً بعد أن كان عدلاً فاختلفوا في جواز الخروج عليه، والصحيح المنع إلا أن يكفر فيجب الخروج عليه.

المضامين الدعوية

أولاً: من وسائل الدعوة: البيعة.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: وجوب السمع والطاعة لولاة الأمر.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: فضل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: قول الحق وعدم الخوف.

أولاً- من وسائل الدعوة: البيعة:

جاء في هذا الحديث في قول عبادة بن الصامت رضي الله عنه: "بايَعَنَا رسولُ الله على السمع

---

(١) المغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٣/٩، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ١٥٨/٦، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٨/١٣، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٢٢٩/١٢، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، الشوكاني ٢٠٧/٧ وما بعدها، والدراري المضية للشوكاني ٥٠٦/١ والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٣٢٣/٢٨ وما بعدها.

والطاعة" والبيعة وسيلة من وسائل الدعوة وهي تعني المعاقدة والمعاهدة على الأمر[١]. قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾[٢] قال ابن عاشور: (أي أوفوا بما بايعتم به النبي ﷺ على الإيمان والنصر)[٣] ولاشك أن البيعة من الوسائل الدعوية التي تحمل المدعوين على الامتثال بما بايعوا عليه، ويستفاد من ذلك مدى التزام الصحابة رضي الله عنهم بالسمع والطاعة في العسر واليسر واستجابتهم للنبي ﷺ، وحرصهم على مرضاة الله ورسوله ﷺ، وهذا مما ينبغي للدعاة إلى الله أن يركزوا عليه حتى يتأسى المدعوون بأصحاب النبي ﷺ.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: وجوب السمع والطاعة لولاة الأمر:

يستنبط هذا مما ورد في الحديث: "وعلى أن لا ننازع الأمر أهله" قال الإمام ابن حجر: (أي لا تنازع في الملك والإمارة، وإن اعتقدت أن لك في الأمر حقاً فلا تعمل بذلك الظن، بل اسمع وأطع، إلى أن يصل إليك بغير خروج عن الطاعة)[٤].

قال النووي: (ومعنى الحديث لا تنازعوا ولاة الأمور في ولاياتهم، ولا تعترضوا عليهم إلا أن تَرَوْا منهم كفراً بواحاً، ومنكراً محققاً تعلمونه من قواعد الإسلام فإذا رأيتم ذلك فأنكروا عليهم وقولوا بالحق حيث ما كنتم، وأما الخروج عليهم وقتالهم فحرام بإجماع المسلمين وإن كانوا فسقة ظالمين)[٥].

هذا وقد دلت نصوص الكتاب والسنة على وجوب السمع والطاعة لولاة الأمر، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ﴾[٦] وبين رسول الله

---

(١) النهاية، لابن الأثير ص ٩٨.

(٢) سورة الإسراء، آية: ٣٤.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/١٥/٩٧.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٣/١٠.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٩٢.

(٦) سورة النساء، آية: ٥٩.

ﷺ وجوب طاعة ولي الأمر وأن هذه الطاعة لا تكون في المعصية ففي الحديث ((على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وأكره، إلا أن يؤمر بمعصية، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة))(١).

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: فضل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

يستنبط هذا من قول النبي ﷺ في الحديث "إلا أن ترو كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان" هذا وقد جعل الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أسباب خيرية هذه الأمة ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾(٢) ومن صفات الجماعة المؤمنة ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾(٣).

وحث رسول الله ﷺ على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ففي الحديث ((من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان))(٤) قال الإمام الصالحي: (وتضمن الحديث أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر له مراتب ثلاث الأولى إزالته باليد وذلك يكون لمن كان له سلطان يُخاف والثانية إزالته باللسان وهذه يتصف بها العلماء، والثالثة من لم يكن له سلطان ولا هو من أهل العلم فينكر بقلبه)(٥). ولا شك أن النصوص القرآنية والأحاديث النبوية كثيرة في فضل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

---

(١) أخرجه مسلم ١٨٣٩.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١١٠.

(٣) سورة التوبة، آية: ٧١.

(٤) أخرجه مسلم ٤٩.

(٥) الكنز الأكبر من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عبدالرحمن بن أبي بكر بن داود الحنبلي الدمشقي الصالحي، تحقيق: د. مصطفى عثمان صميدة ص ٦٨.

رابعاً- من موضوعات الدعوة: قول الحق وعدم الخوف:

إن مما يستنبط من هذا الحديث أهمية قول الحق وعدم الخوف والشاهد على ذلك من الحديث في قوله "وعلى أن نقول الحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم" قال الإمام النووي: (معناه نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر في كل زمان ومكان، الكبار والصغار، لا نداهن فيه أحداً ولا نخافه هو، ولا نلتفت إلى الأئمة ففيه القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأجمع العلماء على أنه فرض كفاية)[1].

وقد وصف الله المؤمنين بأنهم ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾[2] وقد جاء في الحديث ((أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان أو أمير جائر))[3] قال شرف الحق العظيم آبادي: (إنما صار ذلك أفضل الجهاد؛ لأن من جاهد العدو كان متردداً بين رجاء وخوف لا يدري هل يغلِب أو يُغلب وصاحب السلطان مقهور في يده، فهو إذا قال الحق وأمره بالمعروف فقد تعرض للتلف وأهدف نفسه للهلاك، فصار ذلك أفضل أنواع الجهاد من أجل غلبة الخوف)[4].

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٩٢.

(٢) سورة المائدة، آية: ٥٢.

(٣) أخرجه أبوداود، ٤٣٤٤، وصححه الألباني، (صحيح سنن أبي داود ٣٦٥٠).

(٤) عون المعبود على سنن أبو داود، محمد أشرف بن أمير العظيم آبادي ١٨٨٣.

الحديث رقم (١٨٧)

١٨٧- **الرَّابع**: عن النعْمانِ بنِ بَشيرٍ رضي الله عنهما عن النبيِّ ﷺ قال: «**مَثَلُ القَائِمِ في**[١] **حُدودِ اللَّه، والْوَاقِعِ فيها كَمَثَلِ قَومٍ اسْتَهَمُوا على سفينةٍ فصارَ**[٢] **بعضُهم أعلاهَا وبعضُهم أسفلَها وكانَ الذينَ في أسفلها إذَا اسْتَقَوْا مِنَ الماءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فقَالُوا: لَوْ أنَّا خَرَقْنَا في نَصيبِنا خَرْقاً وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ تَرَكُوهُمْ وَمَا أَرادُوا هَلكُوا جَمِيعاً، وإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِم نَجوْا ونجوْا جَمِيعاً**» رواهُ البخاري[٣].

القَائمُ في حُدودِ اللَّه تعَالى» مَعْنَاهُ: المُنْكِرُ لها، القَائمُ في دفعِهَا وإزالَتِهَا والمُرادُ بِالحُدودِ: مَا نهى اللَّه عَنْهُ: «اسْتَهَمُوا»: اقْتَرعُوا.

ترجمة الراوي:

النعمان بن بشير: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٦٤).

غريب الألفاظ:

القائم في حدود الله: أي المنكر لها القائم في دفعها وإزالتها[٤].

حدود الله: فسرها النووي[٥].

الواقع فيها: أي الذي يقع في الحرام عمدًا.

استهموا: فسرها النووي[٦].

وإن أخذوا على أيديهم: أي منعوهم من الحفر[٧].

---

(١) لفظ البخاري (على) والمثبت لفظ الحميدي في جمعه (١/٥٠١، رقم ٨٠٩)، وكذا عند المنذري.

(٢) لفظ البخاري في هذه الرواية: (فأصاب) والمثبت عنده برقم (٢٦٨٦). وكذا هو عند المنذري.

(٣) برقم (٢٤٩٣). أورده المنذري في ترغيبه (٣٤٠٥).

(٤) رياض الصالحين ١٢٥.

(٥) رياض الصالحين ١٢٥.

(٦) رياض الصالحين ١٢٥.

(٧) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٤٩/٥.

الشرح الأدبي

إن الصورة البيانية في الحديث النبوي حين نطيل التأمل في استكشاف معالم الجمال والجلال فيها ندرك أنها، كما يقول د. محمد رجب البيومي، تلج بالمعنى إلى شعاب النفس فتزيده وضوحاً في الخاطر، وجلاء في الذهن، لتستحيل أفكاره الهادية دماً خالصاً يترقرق في عروق المسلم، ونوراً يمتد في عقله وبصره، ونفساً يتردد في رئتيه، وذلك بعض ما يفيض به البيان الساحر والأدب الرفيع.

وجمال التشبيه في هذا الحديث ينْبع من تصويره الرمزي لواقع الناس، وطريقة تعاملهم مع أوامر الله ونواهيه، وكيفية استقبالهم لحدود الله، والمحافظة عليها، وهذا التشبيه التمثيلي يقسم الناس إلى ثلاث فرق، وهو مستمد من مشاهد البيئة وواقع الناس، فالذين أرادوا غرق السفينة بمنزلة الواقع في حدود الله، أى العاصي الذي يستهين بالحدود ويتعداها: ثم ما عدا هذا الفريق وهم قسمان: إما قائم في حدود الله: أي يقيم الحدود ويذب عن المحارم، ويحافظ على الأنفس والأعراض والأموال؛ وإما مداهن، وهو المرائى الذي يضيع الحقوق، ولا يأمر بالمعروف، ولا ينهى عن المنكر.

وحين نتأمل أطراف الصورة الأدبية ودلالتها وجمالها وقيمتها في إصلاح الواقع: ندرك أن الحياة مثل هذه السفينة: أو لثقل عمارة الأرض في ضوء التصور الإسلامي، تتجلى في هذه السفينة: أما الحياة المثلى فتتجلى في الإبحار الموفق، وهكذا تبرز رموز شتَّى تشع بها كلمة "السفينة"، وعملها، وما يحيط بها وكونها طابقين، فهؤلاء الذين يحسبون أنهم يحسنون صنعاً في عدم تكلف مشاق الصعود، وعدم إحراج وإرباك القوم في الأعلى، منهجهم فاسد: لأنهم يتخذون من الإفساد المتمثل في خرق السفينة طريقاً للحياة، وهو في حقيقته طريق للموت وإهلاك الأمة، فإن منعهم الآخرون سَلِمَت السفينة من الغرق، وفاز الراكبون جميعاً بالنجاة والحياة، والثقب المقترح رمز للفساد الذي ينم عن غباوة يتمتع بها الفسقة في كل عصر، وهو خرق للعقل كما هو خرق للسفينة[1].

(١) انظر: الصورة الفنية في الحديث النبوي، د. أحمد باسوف ص ١٦٠-١٦١.

وهذه الصورة الأدبية الواقعية تأتي في إطار النزعة القصصية: فهي تسرد حدثاً رمزياً يمكن أن يتكرر في كل عصر وفي كل مكان: وكثرة الأفعال الماضية مع العطف بالفاء، والحوار الداخلي: من الدلائل الفنية على أن هذه الصورة صيغت في قالب الحكاية وهي مشحونة بالحدث والشخصيات. والحبكة القصصية، والمفارقة التصويرية، والحل الذي يأخذ الجميع إلى طريق النجاة وهو مقاومة الفاسدين والكسالى، والجهلاء، وهذه المقاومة تشع بها الدلالة في قوله ﷺ: "وإن أخذوا على أيديهم نَجَوْا جميعاً"، والعطف "بالفاء" يوحي بسرعة الأحداث ووجوب سرعة الإصلاح والمقاومة، وتكثر جمل الشرط في هذا الحديث إيحاء بأن النتائج رهن المقدمات، والجزاء من جنس العمل وجاء التعبير بأداة الشرط "إذا" مناسباً. في مقام طلب: السقيا: في قوله: "إذا استقوا من الماء مَرُّوا على مَنْ فوقهم"، لأن الماء سر الحياة، ولا يستغنى عنه مخلوق، "وإذا" تدل على التحقق: ولا مجال للشك في طلب السقيا، وإنما الخلل في المنهج والوسيلة التي أرادوا بها، الاستسقاء، وهي خرق السفينة.

وأداة الشرط "لو" جاءت في سياقها وموضعها لأنها أداة امتناع لامتناع، حيث امتنع جواب "لو"، وهو الحصول على الماء لاستحالة الوسيلة، وهي خرق السفينة، فبقيت أمنية هؤلاء في دائرة: المرفوض والمحرَّم، لأنها منفعة تجر خراباً وهلاكاً، وهي في الظاهر تتخذ من المراعاة والخوف على الغير قناعاً تخفي وراءه أطماعها المهلكة... وهذه فئة تتواجد في كل عصر، وعلى الأمة أن تأخذ على أيديهم، وأن تردهم إلى صوابهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾[1].

وتأمل اختيار أداة الشرط "إن" في الجملتين الأخيرتين من الحديث: فهو اختيار دقيق وعميق.

ولا غرو، فالقائل أفصح العرب، وهو الذي أوتى جوامع الكلم، وهو صاحب البلاغة الإنسانية التي خضعت الأفكار لآيتها، وحسرت العقول دون غايتها: المصطفى ﷺ، والسر اللغوي والبلاغي في اختيار "إن" في هذا الجزء من هذا الحديث، يكمن في دلالة "إن" فهي تفيد

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٢٥.

الاحتمال وعدم اليقين، والشك في وقوع الحدث أو الشرط والجواب.

وواقع الناس واستقبالهم للفتن والأحداث: يؤيد ذلك، لأن كل الناس لا يتركون الفاسدين يعيثون في الأرض فساداً، فبعضهم يقاوم، وبعضهم يداهن، وبعضهم يستسلم، فالأمر ليس يقينياً، لأن الطبيعة البشرية في مقاومتها للشر ليست على وتيرة واحدة.

وكذلك قوله: "وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعاً"، فالبعض يقوم بواجبه في مقاومة الضلال والفسوق، والبعض يركن إلى السلبية والانعزالية، والبعض يرضى ويستكين لهؤلاء المارقين.

فالتعبير بأداة الشرط "إن" يفصح عن دقة البيان النبوي، وعمق فهم النفس البشرية.

ولذلك لم يختم الحديث بالأمر الجازم، وإنما ختم بالتخيير الذي صور بحركة متقطعة، لا هؤلاء نقبوا، ولا هؤلاء منعوا، فالحديث مبني على محورين، وينتهي بخاتمة مفتوحة تدعو للتوقع وإعمال الفكر، وإثارة الخشية من الغرق والموت وسط مياه من كل الأطراف.

وما أعمق التصوير وما أجمله في هذا الحديث الشريف: إنه مستمد من الصورة القرآنية الفريدة الرائعة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[1].

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكمين فقهيين:

الأول: حكم الأخذ على أيدي المفسدين وعدم المجاملة في ترك الحدود وذلك؛ لأن التهاون في هذا الأمر مغبته كبيرة وعاقبته أليمة على الجميع، ولذا فقد اتفق

---

(١) سورة يونس، آية: ٢٢.

الفقهاء[1] على أنه لا يجوز للإمام التنازل عن الحد ولا إسقاطه بعد وجوبه ولا تجوز الشفاعة في حد من حدود الله أو العفو عنها حالة ثبوتها عند الحاكم، فإن تعافوا فيما بينهم ولم يبلغوا الحاكم فلا بأس في ذلك.

الثاني: حكم العمل بالقرعة وقد اتفق الفقهاء[2] على أن القرعة مشروعة ويعمل بها، وأنه متى تعينت المصلحة في جهة أو ظهر الحق دون خفاء لم يشرع العمل بالقرعة، فإن تساوت الحقوق ولم يظهر وجه الحق جاز العمل بالقرعة كما في القسم بين الزوجات، والقسمة بين الشركاء، وعتق أحد العبيد عند عدم تعيين أحدهم بالذات وغير ذلك، واختلفوا فيما تجري فيه وما لا تجري فيه من الأحكام مما لا مجال لتفصيله هنا.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: ضرب المثل.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: أهمية الحفاظ على حدود الله.

ثالثاً: من واجبات الداعية: بيان الأخطار التي تهدد المدعوين.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: خطورة ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أولاً- من أساليب الدعوة: ضرب المثل:

إن الداعية بحاجة إلى عدد من الأساليب الدعوية، التي يستطيع من خلالها بيان

---

(١) شرح فتح القدير، ابن الهمام الحنفي ٢١٢/٥، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ١٦٣/٣، وأحكام القرآن، ابن العربي ٥٨٧/١، والزواجر عن اقتراف الكبار ٢١١/٢، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ١٣١/٤، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين بن الحسن بن عبدالرحمن ٣٤/٨، والسياسة الشرعية لابن تيمية ص ٨٩، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ١٢٠/٩، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، الشوكاني ١٢٨/٧.

(٢) المبسوط، السرخسي ٤/١٥، والفصول في الأصول للجصاص ٢٠٤/١، وأحكام القرآن، الجصاص ٣٤٦/١، ٦٥٣/٢، والمدونة ٤٠٨/٢، وتبصرة الحكام ١١٢/٢، وأحكام القرآن، ابن العربي ٣٥٨/١، والأم ٤/٨، وقواعد الأحكام للعز بن عبدالسلام ٩٠/١، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ١٥٠/٦، والطرق الحكمية لابن القيم ص ١٨١، ٢٤٥، والفروع، ابن مفلح ٥٣٥/٥، والقواعد لابن رجب الحنبلي ص ٣٤٨ وما بعدها وفيه حصر لمسائل القرعة في المذهب الحنبلي.

المعاني والمضامين الدعوية التي يريد توضيحها للمدعوين، ولعل من أهم أساليب الدعوة التي لا يستغنى عنها الداعية: أسلوب ضرب المثل، وقد ورد استعمال المثل في القرآن والسنة لبيان المعاني وتقريبها إلى أذهان المدعوين، ومن الشواهد على ذلك في الحديث الذي معنا ما ورد في قوله ﷺ: "مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم" ولا يخفى أن العقول تتفاوت في الفهم فيأتي أسلوب ضرب المثل الواقعي المحسوس ليقرب المعنى إلى الأذهان، وهذا يعتبر من أساليب الدعوة الهامة، لما له من تأثير حيث تبقى صورته ثابتة في النفس مما يزيد درجة الإقناع لدى المدعوين، وكثيراً ما استخدم القرآن هذا الأسلوب مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾[1] وقوله جلّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ﴾[2]. والنصوص النبوية كثيرة في ضرب المثل لتقريب المعاني إلى الأفهام.

قال ابن عثيمين: (وفي هذا المثل الذي ضربه النبي ﷺ دليل على أنه ينبغي لمعلم الناس أن يضرب لهم الأمثال ليقرب لهم المعقول بصورة المحسوس، وكم من إنسان تشرح له المعنى شرحاً كثيراً وتردده عليه فلا يفهم، فإذا ضُرِب له مثلٌ بشيء محسوس يعرفه، فهم)[3].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: أهمية الحفاظ على حدود الله:

إن من الشواهد على أهمية الحفاظ على حدود الله ما ورد في الحديث في قوله ﷺ "مثل القائم في حدود الله والواقع فيها" ولقد بين الله سبحانه وتعالى أنه يجب الحفاظ على حدود الله قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾[4]، وقال جلّ شأنه: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾[5]. وقال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٦.

(٢) سورة النور، آية: ٣٩.

(٣) شرح رياض الصالحين ١/٤٩٨.

(٤) سورة البقرة، آية: ١٨٧.

(٥) سورة البقرة، آية: ٢٢٩.

فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾[(١)]، وقال سبحانه: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[(٢)].

ولما قام أسامة بن زيد رضي الله عنه يريد أن يشفع في المرأة المخزومية التي سرقت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((يا أسامة أتشفع في حد من حدود الله ثم قام فاختطب فقال: إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها))[(٣)] وقال صلى الله عليه وسلم: ((أقيموا حدود الله في القريب والبعيد ولا تأخذكم في الله لومة لائم))[(٤)]. ومن خلال هذه النصوص يتبين أهمية الحفاظ على حدود الله وإقامتها.

ثالثاً- من واجبات الداعية: بيان الأخطار التي تهدد المدعوين:

حيث جاء في الحديث: "فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً" ولذا فمن ألزم واجبات الداعية بيان الأخطار التي تهدد المدعوين لأن الداعية يجب أن يكون حريصاً على المدعوين. وقد قال الله تعالى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾[(٥)]، وفي الحديث الشريف بيّن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم خطورة عدم المحافظة على المدعوين، ولقد كان شأن الأنبياء دائماً النصح لأقوامهم، قال الله عن صالح عليه السلام: ﴿وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾[(٦)].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: خطورة ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

---

(١) سورة الطلاق، آية: ١.

(٢) سورة النساء، آية: ١٣، ١٤.

(٣) أخرجه البخاري ٦٧٨٨، ومسلم ١٦٨٨.

(٤) أخرجه ابن ماجه ٢٥٤٠، وحسنه الألباني (صحيح سن ابن ماجه ٢٠٥٨).

(٥) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

(٦) سورة الأعراف، آية: ٧٩.

إن من أخطر ما يعصف بالمجتمعات والأمم تركَ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل ويكون سبباً في حلول اللعنة، كما حدث في بني إسرائيل حيث أخبر سبحانه في قوله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾[1].

وفي هذا الحديث يبين النبي ﷺ خطورة ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قوله ﷺ "فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا" قال ابن حجر: (وهكذا إقامة الحدود يحصل بها النجاة لمن أقامها وأقيمت عليه، وإلا هلك العاصي بالمعصية والساكت بالرضا بها، وفي الحديث استحقاق العقوبة بترك الأمر بالمعروف وتبيين العالم الحكم بضرب المثل)[2].

وقال المباركفوري: (ومعنى الحديث: إنْ مَنَع الناسُ الفاسق عن الفسق نجوا ونجا من عذاب الله تعالى، وإن تركوه على فعل المعصية ولم يقيموا عليه الحد، حل بهم العذاب وهلكوا بشؤمه وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾[3] أي بل تصيبكم عامة بسبب مداهنتكم)[4]. وقد حذر الرسول الكريم ﷺ من خطورة هذا الأمر فقال: ((والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم))[5].

لذا يجب على الداعية تحذير المدعوين وتعريفهم بخطورة ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

---

(١) سورة المائدة، الآيتان: ٧٨-٧٩ .

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٤٩/٥.

(٣) سورة الأنفال، آية: ٢٥.

(٤) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٧٦٥/٢.

(٥) أخرجه الترمذي، ٢١٦٩، وصححه الألباني، (صحيح سنن الترمذي ١٧٦٢).

الحديث رقم (١٨٨)

١٨٨- **الخامِسُ:** عَنْ أُمِّ المُؤْمِنِينَ أُمِّ سَلَمَةَ هِنْدٍ بنتِ أَبي أُمَيَّةَ حُذَيْفَةَ رضي الله عنها ، عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ عليكُمْ أُمَراءُ فَتَعْرِفُونَ وتُنكِرُونَ فَمنْ كَرِه فقَدْ بَرِىءَ وَمَنْ أَنْكَرَ فقَدْ سَلِمَ، وَلَكِنْ منْ رَضِيَ وَتَابَعَ**» قالوا: يا رَسُولَ اللّه ألاَ نُقَاتِلُهُمْ؟ قَالَ: «**لاَ، مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلاَةَ**» رواه مسلم[١].

مَعْنَاهُ: مَنْ كَرِهَ بِقَلْبِهِ ولَمْ يَسْتطِعْ إِنْكَاراً بِيَدٍ وَلا لِسَانٍ فَقَدْ بَرِئَ مِنَ الإِثْمِ وَأَدَّى وَظِيفَتَهُ، ومَنْ أَنْكَرَ بَحَسَبِ طَاقَتِهِ فَقَدْ سَلِمَ مِنْ هَذِهِ المعصيةِ، وَمَنْ رَضِيَ بِفِعْلِهِمْ وتابعهم، فَهُوَ العَاصي.

ترجمة الراوي:

أم سلمة: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٨٣).

الشرح الأدبي

إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من واجبات المسلم التي لا يجوز التهاون في التمسك بها؛ وعدم النهى عن المنكر من مسببات العقاب الشديد اتباعاً لقول الله عز وجل: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾[٢].

وهذا الحديث الشريف يعد من معجزات رسول الله ﷺ ، لأنه من باب الإخبار عن المغيب، وكل أي "حدث" أخبر به ﷺ، فهو من معجزاته، وقد جمع أنواع المعجزات والخوارق ومنها العلم والأخبار الغيبية والسماع والرؤية.

وإخباره عن الأمور الغائبة ماضيها وحاضرها هو من باب العلم الخارق للعادة، وكذلك إخباره عن الأمور المستقبلة، وقد ثبت أنه كان معلوماً من حال النبي ﷺ كما يقول القاضي الباقلاني، في كتابه إعجاز القرآن، إنه كان أميا لا يكتب، ولا يحسن أن يقرأ، وكذلك كان معروفاً من حاله أنه لم يكن يعرف شيئاً من كتب

---

(١) برقم (١٨٥٤/٦٣) وزاد مسلم: (أي من كره بقلبه وأنكر بقلبه).

(٢) سورة المائدة: ٧٩.

المتقدمين وأقاصيصهم وأبنائهم وسيرهم، ثم أتى بجمل ما وقع وحدث من عظيمات الأمور، وقد علم أنه لا يصل إلى علم ذلك إلا بتأييد من جهة الوحي.

وحين تتأمل المضمون وصياغته في هذا الحديث الشريف تُدرك هذه الحقائق التي أنبأ عنها رسول الله ﷺ، وهي تتمثل في هؤلاء الذين يتولون أمور الناس ورعايتهم، ولكنهم أصموا آذانهم، وأغلقوا عيونهم، وختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم، ورانت على أبصارهم غشاوة، فظلوا سادرين في غيهم، لا يقومون بحق الرعية، ولا يتقون الله في حقوق الناس، ولا يصغون لقول المصطفى ﷺ: "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته"[1]، ولكن كيف تستقبل الأمة هذا المروق.

يبدأ الحديث بالتأكيد وضمير الشأن: إشعاراً بجدية الأمر وأهميته وصدقه وواقعيته، والتعبير بالفعل: "يستعمل" في صيغة الفعل المضارع المبني للمجهول، والمادة اللغوية "عمل" يوحي بوظيفة هذا الأمير وهو العمل لصالح الرعية، ولكن هؤلاء الأمراء: يحيدون عن النهج السوي، ولا يقومون بواجبهم، وكثير منهم، كما أخبر رسول الله أكلوا الحقوق، وظلموا الرعية: وهم يتكررون في كل عصر.. ومنهم ذلك الوالي الذي شكاه الشاعر الراعي النميري، إلى عبدالملك بن مروان، لأنه كان يختلس كثيراً من أموال الزكاة لنفسه، فقال:

خليفة الرحمن إنا معشر	حنفاء نسجُد بكرةً وأصيلا
عربٌ نرى لله في أموالنا	حقّ الزكاة منزلاً تنزيلا
إن السعاة عصوك يوم أمرتهم	وأَتَواْ دواهي لو علمت وغولا
فارفع مظالم عيلت أبناءنا	عنَّا وأنقذْ شِلْونا المأكولا

وهذا الشاعر، من الذين أنكروا بلسانهم، ورفعوا شكواهم إلى الخليفة، ولم يسكت عن حقه، وتنكير كلمة "أمراء" ترشد إلى عدم التحديد، وتوحي كذلك بتجاهل هذا الصنف الذي لا يراعي الحرمات، ولا يؤدي الحقوق، والإنكار يستلزم

---

(١) أخرجه البخاري ٥١٨٨، ومسلم ١٨٢٩.

الاعتراض باللسان أو باليد، ولكن الكره يعد مرحلة أدنى من ذلك حيث لا يقدر بعض الناس إلا على الشعور بالكره وعدم الرضا عن هؤلاء الأمراء والولاة والعمال، فمن كره فقد برئ ومن أنكر فقد سلم.

وفي الحديث: إيجاز بالحذف في كثير من عباراته: فكل فعل له متعلقاته المحذوفة: وهذا الحذف يفتح المجال للتفسيرات المتعددة التي تكمن وتشع في قوله: "تعرفون... وتنكرون، فمن كره... فقد برئ، ومن أنكر... فقد سلم، ومن رضي.. وتابع...".

والخبر في الجملة الثالثة محذوف: لدلالة الحال وسياق الكلام على أن هذا القسم ضد ما أثبته لقسيميه.

والحوار بين الصحابة ورسول الله ﷺ حول هذه القضية يبرهن على وجوب الإنكار، ومجابهة هؤلاء الولاة وإرشادهم بالحكمة والموعظة الحسنة، حيث قال الصحابة: يا رسول الله: ألا نقاتلهم؟

فإذا برسول الله يجيبهم: "لا"، ولكن ذلك يظل مشروطاً بإقامة هؤلاء الأمراء للصلاة، منعاً للفتنة وحرْصاً على توحيد الأمة، ورغبةً في إصلاح أمر هؤلاء، وهذه هي الثمرة المرجوة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد، السؤال والجواب.

ثانياً: من دلائل النبوة: الإخبار عما سيقع في مستقبل الأيام.

ثالثاً: من واجبات المدعو: إنكار المنكر حسب طاقته.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: بيان أهمية الصلاة.

خامساً: من مهام الداعية: التحذير من إثارة الفتن.

أولاً- من أساليب الدعوة: التوكيد، والسؤال والجواب:

١- **التوكيد**: حيث جاء في الحديث في قوله ﷺ "إنه" وهذا مما يفيد حدوث الأمر الذي أكّد عليه النبي ﷺ وعلى أهمية الاستجابة لما أمر به النبي ﷺ في هذا

الشأن[1]. والتوكيد أهم الوسائل في تثبيت المعنى في القلوب وبثه في النفوس وحملها على التصديق والإيمان به، وهذا الأسلوب من الأشياء التي هديت إليه فطرة الإنسان ولقد استخدم الرسول ﷺ هذا الأسلوب كوسيلة دعوية تجعل هذا الأمر المؤكد عند المرء عادة مستحكمة في أعماق قلبه ونفسه.

٢- **السؤال والجواب**: لقد جاء في الحديث في سؤال الصحابة رضي الله عنهم: (قالوا يا رسول الله ألا نقاتلهم)؛ ومما هو معلوم أن السؤال والجواب من الأساليب الدعوية الناجحة في الدعوة إلى الله تعالى، حيث يؤدي إلى وجود الحوار والتفاعل بين الداعية والمدعوين، ويجب على الداعية أن يتسع صدره للإجابة على تساؤلات المدعوين، وتقديم الحلول لمشكلاتهم؛ لأن المدعو حينما يسأل يريد أن يزيل أي لبس أو غموض في نفسه، كما يريد أن يتعرف على آلية التعامل خاصة في القضايا الخطيرة التي قد تترتب عليها الفتن، إن لم تكن المعالم واضحة في أذهان المدعوين حسبما ورد في القرآن والسنة؛ لذا وجب على الداعية أن يبين المنهج الإسلامي الصحيح في التعامل مع مثل هذه الأمور.

ثانياً- من دلائل النبوة: الإخبار عما سيقع في مستقبل الأيام:

يستنبط ذلك من قول النبي ﷺ في الحديث "إنه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون" قال ابن علان: (أي تجعل الملوك عليكم أمراء عمالاً فتعرفون بعض أعمالهم لموافقتها ما عرف من الشرع وتنكرون بعضها لمخالفتها ذلك، وهذا من باب الإخبار عن المغيب فكان كما أخبر به ﷺ فهو من معجزاته)[2].

وقد جاءت الأحاديث الكثيرة تخبر عما سيقع في المستقبل، وهذا من دلائل نبوته فعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((مَا مِنْ نَبِيَ بَعَثَهُ الله فِي أُمَّةٍ قَبْلِي، إلاَّ كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمِ خُلُوفٌ، يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لاَ يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ

---

(١) أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد العاني ص ٣٠١.

(٢) دليل الفالحين، ابن علان ٣٤٩٠.

وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ))[١].

ثالثاً- من واجبات المدعو: إنكار المنكر حسب طاقته:

إن كل مسلم مطالب بإنكار المنكر بالطريقة المشروعة والمناسبة التي لا يترتب عليها منكر أشد، وهذا ما بينه الحديث: (فمن كره فقد برئ ومن أنكر فقد سلم). قال النووي: (معناه من كره ذلك المنكر فقد برئ من إثمه وعقوبته وهذا في حق من لا يستطيع إنكاره بيده ولا لسانه فليكرهه بقلبه وليبرأ، والإثم والعقوبة على من رضي وتابع، وفيه دليل على أن من عجز عن إزالة المنكر لا يأثم بمجرد السكوت بل إنما يأثم بالرضى به أو بأن لا يكرهه بقلبه أو بالمتابعة عليه)[٢]. وقد بيّن النبي ﷺ درجات إنكار المنكر ففي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: ((مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ. فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ. فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ. وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ))[٣].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: بيان أهمية الصلاة:

إن من الشواهد التي تدل على أهمية الصلاة وإقامتها والحفاظ عليها ما جاء في الحديث أنهم لما سألوا رسول الله ألا نقاتلهم؟ قال "لا ما أقاموا فيكم الصلاة" ولاشك أن الصلاة لها المكانة السامقة في الإسلام فقد أمر الله تعالى بإقامتها فقال سبحانه: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾[٤] وأمر بالمحافظة عليها فقال: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾[٥] ونبه إلى ضرورة الخشوع فيها فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾[٦] وتوعد من يضيعها فقال: ﴿فَخَلَفَ مِنْ

---

(١) أخرجه مسلم ٥٠.

(٢) شرح صحيح مسلمو، ١١٩٨.

(٣) أخرجه مسلم ٤٩.

(٤) سورة البقرة، آية: ٤٣.

(٥) سورة البقرة، آية: ٢٣٨.

(٦) سورة المؤمنون، آية: ٢.

بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾[1] ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾[2]، وقال سبحانه: ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴾[3]. والصلاة سر لسلامة الإيمان، وسلامة الدين، والاتصال بالله تعالى والبقاء في حظيرة الإسلام، والانخراط في سلك المؤمنين، وذلك لأن الصلاة استجابة لغريزة البشر النوعية، غريزة الافتقار والضعف، والطلب، والالتجاء، والاعتصام، والدعاء، والمناجاة لله تعالى[4].

ولقد بين الرسول الكريم فضل الصلاة فقال ﷺ: ((الصَّلاَةُ الْخَمْسُ. وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ. كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ. مَا لَمْ تُغْشَ الْكَبَائِرُ))[5] وقال ﷺ: ((مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ كَمَثَلِ نَهْرٍ جَارٍ غَمْرٍ عَلَى بَابِ أَحَدِكُمْ. يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ))[6] وحذر الرسول من تركها فقال ﷺ: ((بين الرجل وبين الشرك ترك الصلاة))[7] وقال ﷺ أيضاً: ((الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ الصَّلاَةُ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ))[8]. والنصوص الشرعية كثيرة ومتعددة في بيان أهمية الصلاة.

خامساً- من مهام الداعية: التحذير من إثارة الفتن:

إن المحافظة على سلامة وأمن المجتمع المسلم مسؤولية عامة يجب أن تتضافر كل الجهود لتحقيقها، خاصة الدعاة إلى الله تعالى، الذين يجب عليهم أن يَحُولُوا دون زعزعة الأمن في المجتمع، ويحثوا المدعوين على أهمية الحفاظ على سلامة المجتمع.

---

(١) سورة مريم، آية: ٥٩.

(٢) سورة الماعون، الآيتان: ٤، ٥.

(٣) سورة المدثر، الآيتان، ٤٢، ٤٣.

(٤) الأركان الأربعة في ضوء الكتاب والسنة، أبو الحسن الندوي ص ٢٨.

(٥) أخرجه مسلم ٢٣٣.

(٦) أخرجه مسلم ٦٦٨.

(٧) أخرجه مسلم ٨٢.

(٨) أخرجه الترمذي، ٢٦٢١، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢١١٣).

ومما يؤكد ذلك في الحديث أن النبي ﷺ لما سئل وقيل له: "ألا نقاتلهم؟ قال: لا. ما أقاموا فيكم الصلاة". وهذا نهي لكل مسلم وإبعاد له عن الفتن، ولا يخفى ما في قتال الحاكم من الهرج والمرج وإراقة الدماء. قال الإمام النووي: (وفي الحديث أنه لا يجوز الخروج على الخلفاء بمجرد الظلم أو الفسق ما لم يغيروا شيئاً من قواعد الإسلام)[١].

وقال ابن عثيمين: (ودل الحديث على أنهم -أي الأمراء- إذا رأينا منهم ما ننكر، فإننا نكره ذلك وننكر عليهم، فإن اهتدوا فلنا ولهم، وإن لم يهتدوا فلنا وعليهم وأنه لا يجوز أن نقاتل الأمراء الذين نرى منهم المنكر، لأن مقاتلتهم فيها شر كبير، ويفوت بها خير كثير إلا أن النبي ﷺ شرط ذلك بشرط قال: ما أقاموا فيكم الصلاة. فدل ذلك على أنه إذا لم يقيموا الصلاة فإننا نقاتلهم)[٢].

والإنكار على الحكام يكون بالأسلوب الذي يتناسب مع مكانتهم ويحفظ هيبتهم ويعمل على استقطابهم واستجابتهم، ولهذا وجب على الداعية التحذير من إثارة الفتن.

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١١٩٨.

(٢) شرح رياض الصالحين، ١/٥٠٠.

الحديث رقم (١٨٩)

١٨٩- **السَّادسُ:** عن أُمِّ الْمُؤْمِنِين أُمِّ الْحكَم زَيْنَبَ بِنْتِ جحْشٍ ﵂ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا فَزِعاً يقُولُ: «**لا إِلهَ إِلاَّ اللَّه، ويْلٌ لِلْعربِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَربَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِن ردْمِ يَأْجُوجَ وَمأْجوجَ مِثْلُ هذِهِ**» وَحَلَّقَ بأُصْبُعه الإِبْهَامِ والَّتِي تَلِيهَا. فَقُلْتُ: يَا رسُول اللَّه أَنَهْلِكُ وفِينَا الصَّالحُونَ؟ قال: «**نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ**» متفقٌ عليه[١].

ترجمة الراوي:

زينب بنت جحش: وهي زينب بنت جحش بن رئاب من بني خزيمة، أم المؤمنين وإحدى شهيرات النساء في صدر الإسلام وهي أسدية، وكان اسمها برة فلما دخلت على رسول الله ﷺ سماها زينب، وأمها أميمة بنت عبدالمطلب عمة رسول الله ﷺ تزوجها النبي ﷺ سنة ثلاث وقيل سنة خمس للهجرة، وكان عمرها وقتئذ خمساً وثلاثين سنة، وكانت قبله عند زيد بن حارثة ﵁ مولى رسول الله ﷺ وهي التي نزل فيها ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾[٢].

روت عن النبي ﷺ أحد عشر حديثاً وروى لها الجماعة.

وفي بيان فضلها قال النبي ﷺ لأزواجه ((أسرعكن لحوقاً بي أطولكن يداً))[٣] أي أكثركن صدقة فكانت هي وقال النبي ﷺ لعمر عنها ((إنها أوَّاهَةٌ))[٤].

كما وصفتها السيدة عائشة ﵂ بالوصف الجميل في قصة الإفك وأن الله عصمها بالورع وقالت عنها يوم أن توفيت لقد ذهبت حميدةً، متعبدةً، مُفْزَع اليتامى والأرامل.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٥٩)، ومسلم (٢/ ٢٨٨٠) واللفظ له. أورده المنذري في ترغيبه (٣٤٠٧).

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٣٧.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الزكاة (١١)، صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة (١٠١)، والنسائي، كتاب الزكاة (٥٩).

(٤) الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي (٤/ ١٦٩٥).

وكان عطاؤها اثني عشر ألفاً لم تأخذه إلا عاماً واحداً فجعلت تقول اللهم لا يدركني هذا من قابل فإنه فتنة، ثم قسمته في أهل رحمها وفي أهل الحاجة فبلغ ذلك عمر فقال: هذه امرأة يراد بها خير، وكانت رضي الله عنها امرأة صنّاع اليدين، فكانت تدبغ وتَخْرِز وتتصدق به في سبيل الله وكانت كما وصفتها السيدة أم سلمة رضي الله عنها صوامة قوامة.

وكانت رضي الله عنها تفخر على نساء النبي صلى الله عليه وسلم بأنها بنت عمته، وبأن الله زوجها له وهن زوجهن أولياؤهن.

وهي أول من مات من نساء النبي صلى الله عليه وسلم سنة عشرين وهي بنت خمسين، وقيل عاشت ثلاثاً وخمسين سنة، وصلى عليها عمر بن الخطاب، ودفنت بالبقيع، ويقال هي أول امرأة صنع لها النعش وحملت به من موتى العرب، وكانت الحبشة تحمل به فلما رآه عمر قال: ((نعم خباء الظعينة))[١] رضي الله عنها وعن سائر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم.

غريب الألفاظ:

ويل: الوَيْلُ: الحُزن والهلاك والمشَقَّةُ[٢].

الردم: هو السد الذي بناه ذو القرنين - بقطع- الحديد[٣].

الخبث: أي الفسق والفجور[٤].

---

(١) الطبقات الكبرى، ابن سعد (١٠٩/٨، ١١٠)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر (٩٠٦، ٩٠٧)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٤٦٥/٥، ٦٩٥٥)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي (١٦٩٥)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين (٥٣٧/٨)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٦٧٤/٤)، والأعلام، الزركلي (٦٦/٣)، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك (٨٥٢/٢-٨٥٤).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (و ي ل).

(٣) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٧٧٧/٢.

(٤) المرجع السابق ١٧٧٧/٢.

الشرح الأدبي

ما أجل هذا المشهد وما أعظم تأثيره، إنه مشْهد واقعي من مشاهد السيرة النبوية المضيئة بالأحداث والمواقف والبطولات والنبوءات؛ هذا المشهد ينقل حواراً بين رسول الله ﷺ وأم المؤمنين زينب بنت جحش، وهى التي تقول زوجني الله من السماء، وكانت تفخر بذلك على نساء رسول الله ﷺ، وللحوار في ختام الحديث مقصد آخر، وهو التنبيه إلى ضرورة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، حتى لا يقع الناس فريسة الهلاك والدمار إذا كثر الخبث، حيث لا يمنع من وقوع الهلاك وجود صالحين، وهذا الحديث مثل الحديث السابق يعد من معجزات رسول الله ﷺ حيث أطلعه الله سبحانه على أمور مستقبلية جعل أخبارها، وذِكْرَ أحداثِها على لسانه ﷺ تأييداً لصدق نبوته، ودليلاً على صحة رسالته. وهذه الأحداث بعضها وقع في حياة النبي ﷺ، وبعضها وقع بعد وفاة رسول الله ﷺ وبعضها يتنبأ بالمستقبل، وستقع بمشيئة الله وإرادته، ومنها: أحداث الفتن المستقبلية، وأحداث قيام الساعة، ومن ذلك التنبؤ بخروج يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون.

وحين نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث النبوي الشريف نجد الراوي يصور دخول المصطفى ﷺ على أم المؤمنين "فزعاً" يقول: "لا إله إلا الله"، ولا يفزع الرسول إلا لأمر جلل، ونبأ عظيم، والفزع هنا ليس خوفاً على ضياع مال، ولكنه الخوف على ضياع الأمة؛ وشهادة التوحيد التي تفوه بها رسول الله في هذا المقام.. تعيد الاطمئنان إلى كل من يقلقه الخوف، ويقضي مضجعه، "الفزع" وهى دعوة إلى الاحتماء بشرع الله عز وجل وإلى التمسك بعقيدة التوحيد، والعمل بكل مقتضياتها، ومقاصدها: فهى باب النجاة، وهي الطريق إلى الوقوف في ثبات أمام الطغاة، والغزاة؛ وهذا الخطر الجسيم تفصح عنه هذه الصيحة النبوية المنذرة، "ويل للعرب من شر قد اقترب"، والإيقاع الصوتي المتمثل في السجع الجميل يجعل التأثير أقوى وأعمق في النفوس: ولفظ "ويل" يقال في سياق العذاب والهلاك، وقد خُصّ العرب بذلك، لأن القرآن نزل بلغتهم، والرسول عربي، وصحابته عرب غالباً وهم الذين حملوا لواء الدعوة

إلى مشارق الأرض ومغاربها، وعليهم أن يظلوا: في رباط إلى يوم القيامة، وعليهم أن يستعدوا لمواجهة الأخطار، وأن ينبهوا المسلمين في جميع الأقطار، وإشارة الرسول ﷺ إلى "يأجوج ومأجوج"، تعد من سمات البلاغة النبوية: وهى بلاغة الإشارة التي أومأ إليها هند بن أبي هالة في تصوير منطق المصطفى ﷺ حيث يقول: "إذا أشار ... أشار بكفه كلها"، وإذا تعجب قلبها، وإذا تحدث اتصل بها فضرب بإبهامه اليمنى راحته اليسرى.

والإشارة التي تومئ إلى اقتراب يأجوج ومأجوج وتغني عن اللغة تبدو جلية في هذه العبارة، "فتح اليوم ردم من يأجوج ومأجوج مثل هذه، وحلق بأصبعيه: الإبهام والتي تليها"، أي جعل السبابة في أصل الإبهام وضمها حتى لم يبق بينهما إلا خلل يسير، كما جاء في تحفة القاري، والسؤال في ختام الحديث يُجسد حرص الصحابة رضي الله عنهم على النجاة: ولكن الهلاك يكون إذا كثر الخبث.

والخبث: كلمة واحدة ولكنها تتضمن كلَّ سبل الانحراف، ومظاهر الفساد، وطرق الضلال، نسأل الله النجاة والفوز بالجنة.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: حرص أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها على وصف أحوال النبي ﷺ.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: فضل ذكر الله عند الفزع.

ثالثاً: من مهام الداعية: تحذير الناس من الشر.

رابعاً: من واجبات الداعية: بيان الحقائق للناس.

خامساً: من موضوعات الدعوة: من خصائص النبي ﷺ الإخبار عن بعض المغيبات.

سادساً: من واجبات المدعو: السؤال عما ينفعه.

سابعاً: من موضوعات الدعوة: بيان شؤم المعصية.

أولاً- من موضوعات الدعوة: حرص أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها على وصف أحوال النبي ﷺ:

لقد كان لأمهات المؤمنين -رضي الله عنهن- دور عظيم في الدعوة إلى الله تعالى،

حيث قمن -رضي الله عنهن- ببيان ووصف أحوال النبي ﷺ ليتسنى للأمة الاقتداء به ﷺ، ويتضح هذا من رواية أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها أن النبي ﷺ دخل عليها فزعاً، ولا شك أن هذا يدل على حرصها رضي الله عنها على وصف أحوال النبي ﷺ، وتتبع تصرفاته، وذلك باعتبار أن رسول الله ﷺ هو الأسوة والقدوة كما قال الله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾(١)، وهناك مواطن يكون فيها النبي ﷺ بعيداً عن أصحابه رضي الله عنهم، كأن يكون عند إحدى زوجاته كما وقع في هذا الحديث.

إن ذلك يُسهم في بيان كيفية تعامل النبي ﷺ مع الأمور، وإيضاح عدد من الجوانب التي اضطلعت ببيانها أمهات المؤمنين -رضي الله عنهن- وكثيراً ما سُئلن من أصحاب رسول الله ﷺ عن عدد من الأمور وهديه فيها فأجبن على ذلك، مما أتاح الفرصة للاقتداء به ﷺ في كافة الظروف والأحوال.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: فضل ذكر الله عند الفزع:

إن لذكر الله تعالى فضلاً عظيمًا، فبه تطمئن القلوب، وتغفر الذنوب، ولذا فإن رسول الله ﷺ كان دائم الذكر في كل حال مما يحمل على التأسي به ﷺ، ومن الشواهد على ذلك ما جاء في الحديث في قول زينب بنت جحش رضي الله عنها: (دخل عليها فزعاً وهو يقول: لا إله إلا الله) ولا شك أن ذكر الله أمان عند الفزع، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾(٢).

قال ابن عثيمين: (قال النبي: لا إله إلا الله في هذه الحال التي كان فيها فزعاً متغير اللون تثبيتاً للتوحيد، وتطميناً للقلوب لأن التوحيد هو القاعدة التي تبنى عليها جميع الشريعة)(٣)، وعن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: ((أَفْضَلُ الذِّكْرِ، لاَ إِلهَ إِلاَّ اللَّهِ. وَأَفْضَلُ

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

(٢) سورة الرعد، آية: ٢٨.

(٣) شرح رياض الصالحين ١/٥٠١.

الدُّعَاءِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ))[1] ، ولا شك أن النصوص القرآنية والنبوية كثيرة في هذا الموضوع، مما يؤكد على أهمية فضل ذكر الله تعالى في كل حال، لا سيما عند الفزع.

ثالثاً- من مهام الداعية: تحذير الناس من الشر:

إن من المهام الأساسية التي يضطلع بها الداعية تحذيرَ الناس من الشر، وقد حرص النبي ﷺ على تحذير أمته من الشر وإنذار الناس، ومن الشواهد على ذلك ما ورد في هذا الحديث في قوله ﷺ: (ويل للعرب من شر قد اقترب).

قال ابن حجر: (خص العرب بذلك لأنهم كانوا حينئذ معظم من أسلم، والمراد بالشر ما وقع بعده من قتل عثمان، ثم توالت الفتن بعد ذلك، وترتب على قتله من القتال بين المسلمين ما اشتهر واستمر، أو يكون المراد الإشارة بذلك إلى الفتوح التي فتحت بعده ﷺ فكثرت الأموال ووقع التنافس الذي جر الفتن)[2] .

وقال ابن علان: "ويل: كلمة تقال عند الحزن، والعرب هم خلاف العجم وخصص بهم لأن معظم مفسدتهم راجع إليهم، والتحذير من شر عظيم قد اقترب زمنه"[3] ، ولذلك قال الله عز وجل محذرًا من الشر ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ﴾[4] فهذا دليل على الوقاية من الأخطار وأخذ الاستعداد لكل خطر من أي شر. ولذا فإن من المهام الأساسية المنوطة بالداعية تحذير المدعوين من الشر وتوجيههم لأسباب الوقاية منه بتقوى الله والعمل الصالح، وإذا علم شراً أو ضرراً أن يحذر الناس منه.

رابعاً- من واجبات الداعية: بيان الحقائق للناس:

إن من الحقائق التي أشار النبي ﷺ إليها في هذا الحديث ما ورد في قوله: (فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلق بإصبعيه الإبهام والتي تليها)، ومعلوم أن مهمة النبي ﷺ البيان والبلاغ، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن

(١) أخرجه ابن ماجه ٣٨٠٠، وحسنه الألباني (صحيح سنن ابن ماجة ٣٠٦٥).

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١٥/١٣.

(٣) دليل الفالحين، ابن علان ص ٣٥٠.

(٤) سورة النساء، آية: ٧١.

رَّبِّكَ﴾[١]، وقال سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[٢]. لقد حرص الرسول ﷺ على إظهار وبيان الحقائق للناس. قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾، فهذا شاهد ظهر منه أن القرآن شهد للنبي ﷺ بأنه إمام الدعاة في إظهار وبيان الحقائق.

قال ابن عثيمين: (لقد بيّن النبي ﷺ هذا الوعيدَ والشرَّ للعرب وهو الذي يحصل بيأجوج ومأجوج وفي إشارته بالسبابة والإبهام ما يعني أنه جزء ضعيف ومع ذلك فإنه يهدد العرب...)[٣]، وقد أشار القرآن إلى إفساد يأجوج ومأجوج في قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[٤]، ويتضح من هذا أن من واجب الداعية بيان الحقائق للمدعوين.

خامساً- من موضوعات الدعوة: من خصوصية النبي ﷺ الإخبار عن بعض المغيبات:

لقد أخبر النبي ﷺ في هذا الحديث عن بعض المغيبات إذ قال: (فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه، وحلق بإصبعيه الإبهام والتي تليها)، ولا شك أن هذا من خصائص النبي ﷺ، وهذا الإخبار من عند الله سبحانه الذي يعلم غيب السماوات والأرض، قال الله عز وجل: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[٥]، وقال النبي ﷺ عن نفسه: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾[٦]، ولا شك أن إخباره عن أمور ستقع في

---

(١) سورة المائدة، آية: ٦٧.

(٢) سورة النحل، آية: ٤٤.

(٣) شرح رياض الصالحين ١/٥٠٢.

(٤) سورة الكهف، آية: ٩٤.

(٥) سورة النجم، الآيتان: ٣ - ٤.

(٦) سورة الأعراف، آية: ١٨٨.

المستقبل، أو قد وقعت بالفعل يعتبر من دلائل نبوته وخصائصه ﷺ.

سادساً- من واجبات المدعو: السؤال عما ينفعه:

يستفاد هذا من سؤال أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها: يا رسول الله (أنهلك وفينا الصالحون)، قال ابن حجر: (وكأنها فهمت من فتح القَدْر المذكور من الردم أن الأمر إن تمادى على ذلك اتسع الخرق بحيث يخرجون، وكان عندها علم أن في خروجهم على الناس إهلاكا عاما لهم)(١)، ولقد وجه القرآن الكريم المسلم أن يسأل عما ينفعه، قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(٢).

سابعاً- من موضوعات الدعوة: بيان شؤم المعصية:

إن مما يستنبط من هذا الحديث بيان شؤم المعصية، وأنها تكون سبباً في الهلاك العام، ويجب التحذير من جملة المعاصي كبيرها وصغيرها لتكون زاجرة عن اقتحام حمى المعاصي والآثام الموجبة للهلاك والبعد والطرد عن دار السلام، وللخزي والهوان والذلة والخسران والبوار والدمار والوبال والعثار لا سيما في دار القرار(٣). ومن الشواهد على ذلك ما قاله النبي ﷺ بعد أن سئل: (أنهلك وفينا الصالحون، قال: نعم. إذا كثر الخبث).

قال ابن عثيمين: (الصالح لا يهلك وإنما هو سالم ناج لكن إذا كثر الخبث هلك الصالحون لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾(٤)، والخبث هنا يراد به شيئان: الأعمال الخبيثة والبشر الخبيث فإذا كثرت الأعمال الخبيثة السيئة في المجتمع ولو كانوا مسلمين فإنهم عرضوا أنفسهم للهلاك وإذا كثر فيهم الكفار فقد عرضوا أنفسهم للهلاك أيضاً)(٥).

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١٧/١٣.

(٢) سورة النحل، آية: ٤٣.

(٣) الزواجر عن اقتراف الكبائر، ابن حجر الهيتمي ص ٢٣.

(٤) سورة الأنفال، آية: ٢٥.

(٥) شرح رياض الصالحين ٥٠٢/١.

وقال النووي: (الخبث فسره الجمهور بالفسوق والفجور، وقيل: المراد الزنا خاصة، وقيل: أولاد الزنا، والظاهر أنه المعاصي مطلقاً، والمعنى أن الخبث إذا كثر فقد يحصل الهلاك العام، وإن كان هناك صالحون)[1]، وفي هذا ما يدل على شؤم المعصية وأنها سبب في الهلاك، وبشؤم المعصية يعم الهلاك الصالحَ والطالحَ. وكتب عمر بن عبدالعزيز لبعض عماله محذرًا من شؤم المعصية ومفاسدها: قال: (أما بعد فإذا مكنك الله القدرة من ظلم العباد فاذكر قدرة الله عليك، واعلم أنك لا تفعل بهم أمرًا من الظلم إلا كان زائلاً عنهم - أي بموتهم- باقيًا عليك -أي عاره وناره- في الآخرة)[2].

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٧٢.

(٢) الزواجر عن اقتراف الكبائر، ابن حجر الهيتمي ص ٢٣.

الحديث رقم (١٩٠)

١٩٠- **السَّابعُ:** عنْ أَبِي سَعيد الْخُدْرِيِّ ﷺ عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «**إِيَّاكُم وَالْجُلُوسَ في الطرُقاتِ**» فقَالُوا: يَا رسَولَ اللَّه مَا لَنَا مِنْ مَجالِسنَا بُدٌّ، نَتحدَّثُ فِيهَا، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**فَإِذَا أَبَيْتُمْ إلاَّ الْمَجْلِس، فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ**» قالوا: ومَا حَقُّ الطَّرِيقِ يا رسولَ اللَّه؟ قال: «**غَضُّ الْبَصَر، وكَفُّ الأَذَى، وردُّ السَّلامِ، وَالأَمْرُ بالْمعْروفِ، والنَّهْيُ عنِ الْمُنْكَرِ**» متفقٌ عليه[1].

ترجمة الراوي:

أبو سعيد الخدري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٠).

غريب الألفاظ:

بُدٌّ: عوض أو مفر[2].

الشرح الأدبي

إن للمكان في الإسلام حُرْمة وقيمة يجب أن لا يستهين بها المسلم، والطرقات أماكن عامة يرتادها الجميع، وهي صورة للحياة الواقعية: حيث لا تنتهي حركة الأحياء، ولا يسكن إيقاع الحياة، فالناس يجيئون ويذهبون، ويغْدون ويَرُوحُون، يَسْعَون على أرزاقهم، ويقضون حوائجهم، فالطرقات معابر السالكين، يجب أن تُصان حرماتُها، وأن تُؤدي حقوقُها، ولذلك في هذا الحديث الشريف يحذر الرسول ﷺ أصحابه، ويحذر كل مسلم من الجلوس في الطرقات لأنها تجر إلى الحرام من الفتنة بالمارات، وإلحاق الأذى بالمارين، والسكوت عن المنكر، وعدم الأمر بالمعروف[3].

والجلوسُ بلا عمل، مفْسدَة ومضيعة للأمل، وانهزام أمام إغراءات العابثين،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٢٩) واللفظ له، ومسلم (١١/٢١٢١). أورده المنذري في ترغيبه (٤٥٠٩). وسيكرره المؤلف برقم (١٦٢٥).

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ب د د).

(٣) انظر: المنهل العذب الفرات: د. عبدالعال أحمد عبدالعال. ج٣.

واستجابةٌ لهمزات الشياطين، وتعطيل للقوى الإنسانية، وتكاسل عن الإنجازات الفردية والجماعية.

فالحديثُ من التوجيهات النبوية الرشيدة، والدروس الاجتماعية السديدة، ولذا قال: عبدالله بن الزبير، المجالسُ حِلَقُ الشيطان إن يروا حقاً لا يقومون به، وإن يروا باطلاً لا يدفعونه.

ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي، والبناء اللغوي في هذا البيان النبوي الذي يرشد كل أفراد الأمة إلى جمال السلوك، وحُسْن التصرف، ومراعاة حقوق الآخرين، والأخذ على يد اللاهين والعابثين؛ واتساقاً للمبني مع المعنى يبدأ المصطفى ﷺ الحديث بأسلوب التحذير، وهو من أساليب اللغة التي تأتي في سياق التنبيه على أمر مكروه لاجتنابه والابتعاد عنه، فالصيغة اللغوية تتفق مع الدلالة والفكرة النابعة من توجيهات المصطفى ﷺ حيث يقول: "إياكم والجلوس في الطرقات".

وهذه الصيغة اللغوية أدق في توصيل المعنى من أي صيغة أخرى مثل أن يقال: لا تجلسوا في الطرقات، والخطاب هنا للصحابة وللجماعة المسلمة كلها في أي زمان وفي أي مكان. ومجئ الضمير منفصلاً وهو معمول لفعل محذوف تقديره احذروا تلاقي أنفسكم والجلوس على الطرقات.

والحوار من وسائل الجدال بالتي هي أحسن وهو من سمات البيان النبوي حيث يعلّم الرسول ﷺ أصحابه رضي الله عنهم عن طريق الحوار والسؤال والجواب حتى يستجيب الناس وهم على بصيرة من أمرهم، وفقه في دينهم، واطمئنان لسلوكهم، ومن خلال الحوار تبين للصحابة أن النهى هنا والتحذير ليس على جهة التحريم، وإنما هو للتنزيه، ولذلك حينما قال الصحابة ما لنا بدٌّ: إنما هي مجالسنا نتحدَّث فيها، سمح لهم رسول الله ﷺ بشرط أن يعطوا الطريق حقها، وهذا السماح تحصنه الصياغة اللغوية حيث تجمع بين أسلوبين لغويين هما أسلوب الاستثناء وأسلوب الشرط، وفي ذلك إيحاء بأن الأمر ليس هيناً، وأن هذا السماح محفوف بالمكاره، ومقيد بالشروط التي يجب

تَنْفيذها، "فإذا أبيتم إلا الجلوس فأعطوا الطريق حقه"، أي إذا امتنعتم عن الجلوس إلا في مجالس الطريق ... إلخ، وما أجمل هذه السلوكيات التي يأمر بها رسول الله، وينهى عن سلوكيات أخرى غير جميلة "غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر"، وهذه الجمل يوشيها التناسق والتوازن في بنائها اللغوي، فهي كلها مصادر مضافة إلى ما بعدها، وكأن هذا التناسق صورة لتوازن سلوك المؤمن، وتناسق أفعاله، والعدول عن صيغ الأمر في هذه الخصال التي هي حق الطريق إلى صيغة المصدر وهى: غض، وكف، ورد، والأمر، والنهى، إيحاء بأن هذه السلوكيات من ينابيع شخصية المسلم، ومن مصادر شخصيته المتوازنة.

فقه الحديث

إن أمر المسلم كله ينبغي أن يكون مبنياً على فعل الخير وحب الخير للغير والبعد عما يغضب الله عز وجل، والطريق جعلت لمصالح الناس فلا ينبغي لأحد أن يتخذها مجالس للاطلاع على العيوب، وتتبع العورات، واغتياب الناس.

فإن أبى البعض إلا أن يجلس على الطريق فليعط الطريق حقها من غض البصر وكف الأذى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يبعد أذاه عن الطريق.

وقد اهتم الفقهاء[1] بالأحكام المتعلقة بالطريق فقالوا بحرمة البول على الطرق التي يمر بها الناس، وكذا نهوا عن حفر الآبار أو إنشاء الأشرعةُ التي تضر بالمارة ومن فعل ذلك كان عليه إزالة ما فعل، وإن تضرر أحد من فعله كان عليه الضمان، وغير ذلك من أحكام. ولقد اهتم بذلك باب الصلح في الفقه الإسلامي.

---

(١) انظر في ذلك مثلاً: المبسوط، السرخسي ٢٠٠/٢٣، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ٣٧/٥، والمدونة لمالك ٦٦٥/٤، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ٢٧/١، ٣٤٥، وأحكام القرآن، ابن العربي ٢٦١/٤، والأم للشافعي ٣٠٦/٧، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٠٢/٢، والأحكام السلطانية للماوردي ص ٣١١، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٢٢٩/١، وإعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، تحقيق: رائد صبري بن أبي علفة ٣٠٣/٤.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التحذير، والسؤال والجواب.

ثانياً: من مهام الداعية: تحذير المدعوين مما يضرهم.

ثالثاً: من واجبات المدعو: السؤال عما يخفى عليه.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: بيان حقوق الطريق.

أولاً- من أساليب الدعوة: التحذير، والسؤال والجواب:

١- **التحذير**: لقد ورد التحذير في قول النبي ﷺ: إياكم والجلوس، وهي صيغة وأسلوب تحذير، ومما هو معلوم أن التحذير أسلوب دعوي يستخدمه الداعية، لبيان خطورة أمر من الأمور حتى يتنبه المدعو، وينتهي عن إتيان ما حُذر منه، ويستخدم هذا ويعرف خطورة المحذر منه، قال ابن عثيمين: (هذه الصيغة صيغة تحذير يعني: أحذركم من الجلوس على الطرقات، وذلك؛ لأن الجلوس على الطرقات يؤدي إلى كشف العورات، وربما يفضي إلى الكلام والغيبة فيمن يمر، ولذا حذرهم من الجلوس)[١].

٢- **السؤال والجواب**: لقد وردت تلك الصيغة في هذا الحديث في سؤال الصحابة رضي الله عنهم: "وما حق الطريق؟" ويعتبر أسلوب السؤال والجواب من الأساليب الدعوية المهمة إذ يعين المدعو على فهم المقصود والمراد، وهو كذلك يدلل على تفاعل المدعو مع الداعية والسؤال في الشرع محمود، ويُعد من المؤشرات الإيجابية التي تبرهن على مدى استعداد المدعو للاستفادة من الداعية، طالما كان السؤال مشروعاً، والمدعو ليس لديه عناد أو مكابرة أو هوى. ولهذه الوسيلة قيمة تأثيرية عظيمة لدى طارحي الأسئلة، الذين يتلقون الإجابات على أسئلتهم ممن وجهوها لهم، ولدى المستمعين الآخرين، وذلك لسبب أو أكثر[٢].

ثانياً- من مهام الداعية: تحذير المدعوين مما يضرهم:

إن الداعية يجب أن يكون حريصاً على المدعوين، وعلى تقديم النفع لهم، ودفع ما

---

(١) شرح رياض الصالحين ١/٥٠٣.

(٢) فقه الدعوة إلى الله، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني ص ٥٨ بتصرف.

يضرّ بهم، وفي الحديث ما يؤكد على اهتمام النبي ﷺ بالمدعوين؛ لأنه لما رأى أن في الجلوس في الطرقات قد تحدث مفاسد شرعية حذر المدعوين من هذا الضرر ونهاهم عن الجلوس، ولما بينوا أنهم لا يستطيعون تركها أرشدهم إلى حق الطريق، قال ابن علان: (وقوله: إياكم تحذير والنهي للتنزيه لئلا يضعف الجالس عن أداء الحق الذي عليه، وفي قوله فأعطوا الطريق حقه إشارة إلى تأكيد تلك الأمور والاهتمام بها)(١). لما فيها من آداب يجب أداؤها من غض للبصر وامتناع عن أذى المارة وإكرام المارة برد السلام وأمر بمعروف ونهي عن منكر.

ولقد كان دَيْدَنُ أنبياء الله تحذير أقوامهم من عواقب الأمور فجاء على لسان صالح عليه السلام: ﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ﴾(٢) وجاء على لسان شعيب عليه السلام: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾(٣) وهكذا يجب أن يكون حال الداعية دائماً يحذر المدعوين مما يضرهم، ويشفق عليهم من المعاصي ومن عقوبتها.

ثالثاً- من واجبات المدعو: السؤال عما يخفى عليه:

لقد كان أصحاب رسول الله ﷺ حريصين على معرفة أمور دينهم والعمل بما يعلمونه، ولذلك يجب على المسؤول أن يتسع صدره للأسئلة والإجابة عليها وللمناقشة البناءة المنصفة، لأن السائل يريد اكتساب المعرفة وفهم ما عليه(٤). ولذا فإنه لما أمرهم النبي ﷺ بأن يعطوا الطريق حقه قالوا: "وما حق الطريق يا رسول الله" وهذا مما يجب على المدعو أن يسأل عما يجهل من أمور الشرع وقد أمر الله بذلك في القرآن، قال

---

(١) دليل الفالحين، ابن علان ٣٥١.

(٢) سورة هود، آية: ٦٤.

(٣) سورة هود، آية: ٨٤.

(٤) فقه الدعوة إلى الله ٤٨، ٥٨.

تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[(١)] ومن المواقف التي أنكر فيها الرسول ﷺ عدم السؤال ما جاء عن جابر رضي الله عنه قال: خرجنا في سفر فأصاب رجلاً منا حجرٌ فشجه في رأسه ثم احتلم فسأل أصحابه فقال: هل تجدون لي رخصة في التيمم فقالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء فاغتسل فمات فلما قدمنا على النبي ﷺ أُخْبِر بذلك فقال: ((قتلوه قتلهم الله ألا سألوا إذ لم يعلموا فإنما شفاء العي السؤال))[(٢)].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: بيان حقوق الطريق:

لقد بين النبي ﷺ في هذا الحديث حقوق الطريق فقال: (غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر). وهذه الحقوق لها شواهد من القرآن الكريم والسنة النبوية.

١- غض البصر: وقد جاء الأمر به في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾[(٣)] وحذر النبي من إطلاق النظر فقال لعلي رضي الله عنه ((لا تتبع النظرة النظرة فإن لك الأولى وليست لك الآخرة))[(٤)].

٢- كف الأذى: حيث قال رسول الله ﷺ ((الإيمان بضع وستون أو سبعون شعبة أدناها إماطة الأذى عن الطريق وأرفعها قول لا إله إلا الله))[(٥)]. ولما قال أبو برزة يا نبي الله علمني شيئاً أنتفع به قال: ((أمط الأَذَىٰ عَنْ طَرِيقِ الْمُسْلِمِينَ))[(٦)].

---

(١) سورة النحل، آية: ٤٣.

(٢) أخرجه أبو داود ٣٣٦، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٢٥).

(٣) سورة النور، آية: ٣٠، ٣١.

(٤) أخرجه أبو داود ٢١٤٩، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ١٨٨١).

(٥) أخرجه البخاري ٩، ومسلم ٣٥.

(٦) أخرجه مسلم ٢٦١٨.

٣- رد السلام: وقد جاء توجيه القرآن في ذلك ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾[(١)] وجعل الرسول الكريم رد السلام من حقوق المسلم ففي الحديث حق المسلم على المسلم خمس: ((ردُّ السلامِ، وعيادةُ المريضِ، واتِّباعُ الجَنائزِ، وإجابةُ الدَّعوةِ، وتشميتُ العاطِسِ))[(٢)].

٤- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: وقد جاء الأمر به في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[(٣)] وذم تاركيه فقال جلّ شأنه: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[(٤)] ووجه النبي ﷺ أمته إلى الالتزام به فقال: ((مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ. فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ. فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ. وَذٰلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ))[(٥)].

قال النووي معلقاً على هذه الحقوق: (هذا الحديث كثير الفوائد وهو من الأحاديث الجامعة وأحكامه ظاهرة، وينبغي أن يجتنب الجلوس في الطرقات لهذا الحديث، ويدخل في كف الأذى اجتناب الغيبة وسوء الظن، وإحقار بعض المارين وتضييق الطريق وكذا إذا كان القاعدون ممن يهابهم المارون أو يخافون منهم ويمتنعون من المرور في أشغالهم بسبب ذلك لكونهم لا يجدون طريقاً إلا ذلك الموضع)[(٦)].

---

(١) سورة النساء، آية: ٨٦.

(٢) أخرجه البخاري ١٢٤٠، ومسلم ٢١٦٢.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٠٤.

(٤) سورة المائدة، آية: ٧٨، ٧٩.

(٥) أخرجه مسلم ٤٩.

(٦) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٣٣٧.

الحديث رقم (١٩١)

١٩١- **الثَّامنُ:** عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَن رسولَ اللَّه ﷺ رأى خَاتماً مِنْ ذَهَبٍ في يَد رَجُلٍ[١]، فَنَزَعَهُ فطَرحَهُ وقَال: «**يَعْمَدُ أَحَدُكُمْ إِلَى جَمْرَةٍ مِنْ نَارٍ فَيجْعلهَا في يَدِهِ**» فَقِيل لِلرَّجُل بَعْدَ مَا ذَهَبَ رسولُ اللَّه ﷺ: خُذْ خَاتمَكَ، انتَفعْ بِهِ. قَالَ: لا واللَّه لا آخُذُهُ أَبَداً، وقَدْ طَرحهُ رسول اللَّه ﷺ. رواه مسلم[٢].

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

فطرحه: أي ألقاهُ[٣].

الجمرة: القطعة الملتهبة من النار[٤].

الشرح الأدبي

ما أعظم هذا الدَّرْس الواقعي النبيل، وما أجمل هذا التوجيه النبوي الجليل، ومن يَقْدرُ على تغيير المنكر باليد غير مَنْ لا ينطق عن الهوى، ومَنْ أكثر إقناعاً من رسول الله ﷺ.

ومن أشدّ صرامةً من رسول الله في إقامة الحدود، وإقرار الحقوق، وإزالة المنكرات، وإطفاء الشبهات، وهذا الحديث لا يشرق فيه الحوار بين رسول الله والذين معه في هذا الحدث المخالف.

لأن ما رآه المصطفى المختار، لا يناسبه الحوار ولا يجدى معه الاختبار، فلبس الذهب حرام على الرجال: حلال للنساء، وكما قال العلماء: "لا اجتهاد مع النص".

---

(١) عن الدمياطي، أنه طلحة بن عبيد الله. تنبيه المعلم (٨٧٥).

(٢) برقم (٥٢/٢٠٩٠). أورده المنذري في ترغيبه (٣٠٤٨).

(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٥٥٣.

(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١٣٤.

ولذلك يبدأ الحديث بالفعل "رأى" أي شاهد وتحقق، ولم يقل سمع أو علم، وإنما لا بد من التبين والتثبيت، ويؤيد ذلك نص الحديث السابق، من رأى منكم منكراً... الحديث، فالظن ليس معياراً للحكم وتحديد الخاتم بأنه من ذهب في يد رجل لتحديد علة التحريم وسبب الحكم، فالنهى ليس عن لبس الخاتم، وإنما النهى عن نوعية الخاتم، ولذلك حدد الذهب، لأنه حرام، إذا جَعَلَه الرجل زينة له، والصياغة اللغوية تفصح عن سرعة تغيير الرسول ﷺ لهذا المنكر: حيث جاء العطف بالفاء مرتين في قول الراوي، "فنزعه فطرحه"، ولم يترك الرسول ﷺ للرجل مساحة من الاختيار أو الاستجابة، ولم يقل: "انزعه"، لأنَّ الأمر حدوث للفعل في المستقبل، ويمكن للرجل أن لا يستجيب أو يتلكأ في تنفيذ الأمر، ولنتأمل كيف جاء اعتراض الرسول على هذا السلوك الذي لا يليق بالرجال، ولا يُنبئ عن الكمال والجمال، إن الرسول ﷺ، لم يردف قيامه بنزع الخاتم وطرْحه بالأوامر والنواهي، ولكنْه عمد إلى توصيف الحدث والتنفير منه في إطار مغلف بالتعريض والسخرية والترهيب، والتصوير الأدبي الدقيق: فالخاتمُ جمرةٌ من نارٍ يعْمَد بعض الناس إلى جعلها في يده، وليس هناك أبلغ من هذه الصورة في نقل الإحساس بفداحة الجرمُ، ولذْع الإحساس بالذنب، وهل هناك من يستطيع تحمل وضْع جَمْرةٍ من نار في يده، واكتفى المصطفى ﷺ بهذه الصورة ليتعظ كل من تراوده نفسه وتدفعه إلى ارتكاب مثل هذه الحماقات المترفة، وقيل: هذا الكلام على الحقيقة حيث قالوا: بأن هذا الخاتم نار في الآخرة، وقيل: إنه محمول على المجاز: أي يئول بلابسه لعظم إثمه على أن يجعل النار في محله، لأن الجزاء يكون على قدر الذنب، وحسبه، والتعبير بقوله: "فيجعلها في يده" المراد به في أصبعه.

وفيه مجاز مرسل حيث أطلق الكل وأراد الجزء؛ وبناء الفعل للمجهول في قوله. "فقيل للرجل" لأن الأهم هو الحكم الصحيح في هذه المسألة، والمقول له يمكن أن يكون أنموذجاً لكل من يقدم على مثل هذا السلوك، وتكرر فعل الأمر مرتين في قولهم: "خذ خاتمك: انتفع به" للدلالة على أن النهى ليس عن الخاتم بعينه، ولكن النهى عن لبس الرجال للذهب، ولكن يمكن الانتفاع به، وبملايين الخواتم التي يعطل الناس

قيمتها الاقتصادية والاستثمارية، وتظل مجمدة في أيديهم، ودورتها الاقتصادية معطلة، ويمكن أن تعود هذه القيمة بالنفع على الفقراء، وعلى الدولة في كل مرافقها، وهذه قيمة حضارية يعلي من شأنها الإسلام، وختام الحديث يفصح عن حرص الصحابي على التأسي بأمر رسول الله ﷺ وهذه مبالغة في امتثال أمر النبي ﷺ ومن حق المسلم الانتفاع بالذهب في كل آفاق حياته العامة التي ينتفع بها جميع الناس إلا ما ورد النهي عن الانتفاع به فيه فليس له أن يبرر الانتفاع به.

فقه الحديث

يبين هذا الحديث حكم لبس الذهب بالنسبة للرجال وهو حديث صريح في الحرمة هنا وقد أجمع الفقهاء على حرمة ذلك على الرجال[(١)]، لكن:

-نقل ابن حجر قولٌ: بأنه مكروه للرجال كراهة تنزيهية، لكن قال بأن هذا القول انقرض واستقر الإجماع بعده على التحريم[(٢)].

-قال أبو بكر محمد بن عمرو بن حزم بالإباحة! لكن هذا القول "شاذ" أو أنه لم يصله إخبار السنة بالحرمة؛ لأن الناس مجمعون بعده على خلاف قوله وهذا القول ذكره ابن حجر في الفتح[(٣)].

-أما عن جواز اتخاذ فص ذهب في الخاتم: جمهور الفقهاء على أنه يحرم من جملة تحريم الذهب اتخاذ فص ذهب، لكن ما نقل عن أحمد والحنفية في جواز ذلك ظاهره الجواز لكنه خطأ؛ لأنهم قالوا بالجواز في الجواهر الثمينة وليس الذهب[(٤)] والحنفية قالوا ليس الذهب الخالص بل المخلوط بغيره كالطرز[(٥)].

- أما النساء فيحل لهن التختم بالذهب ولبس الحرير.

---

(١) الإجماع لابن عبدالبر ص ٣٥٣.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٣١٧/١٠.

(٣) المرجع السابق.

(٤) كشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٥١/١، والفروع، ابن مفلح ٤٦٧/٢، ومطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، الشيخ مصطفى السيوطي الرحباني ٩٤/٢.

(٥) الإجماع، ابن عبدالبر ص ٣٥٣، والعناية شرح الهداية ٢٤/١٠.

المضامين الدعوية

أولاً: من مهام الداعية: الانتباه إلى أحوال المدعوين.

ثانياً: من مهام الداعية: إنكار المنكر.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: تغيير المنكر باليد.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: تحريم خاتم الذهب على الرجال.

خامساً: من موضوعات الدعوة: امتثال الصحابة رضي الله عنهم لأوامر النبي ﷺ.

سادساً: من أساليب الدعوة: بيان الحكمة والترهيب.

أولاً- من مهام الداعية: الانتباه إلى أحوال المدعوين:

كما أن المدعوين تكون أعينهم معلقة بالداعية تراقب أحواله وتصرفاته وشؤونه، فإن على الداعية من ناحية أخرى أن يكون منتبهاً غير غافل عن أحوال المدعوين، ذلك ليقوّم ما يحتاج إلى تقويم ويقرّ ما هو صحيح وصواب، ويفعل كما فعل النبي ﷺ في هذا الحديث وغيره، فعندما رأى النبي ﷺ الرجل يلبس خاتماً من ذهب، فنزعه منه وألقاه، لذا كان على الداعية أن ينتبه إلى أحوال المدعوين حتى يقوم بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد كان النبي ﷺ يعرف ما يصلح المدعوين ويهديهم إلى طريق الحق والرشاد، ومن المواقف ذات الدلالة البليغة على ذلك ما رواه سلمان الفارسي رضي الله عنه في قصة إسلامه الطويلة، وفيها: ثم جئت رسول الله ﷺ وهو ببقيع الغرقد، قال: وقد تبع جنازة من أصحابه، عليه شملتان[1] له، وهو جالس في أصحابه، فسلمت عليه، ثم استدرت أنظر إلى ظهره هل أرى الخاتم الذي وصف لي صاحبي، فلما رآني رسول الله ﷺ استدبرته عرف إني أستثبت في شيء وصف لي، فألقى رداءه عن ظهره، فنظرت إلى الخاتم، فعرفته، فانكببت عليه أقبله وأبكي، فقال لي رسول الله ﷺ: تحوّل، فتحوّلت،

---

(١) الشملة: شُقّة من الثياب ذات خَمْل يتوشح بها ويتلفع، وكساء من صوف أو شعر يتغطى به ويلتف به. المعجم المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ش م ل).

فقصصت عليه حديثي، فأعجب رسول الله ﷺ أن يسمع ذلك أصحابه)[1].

ومن أبلغ الأدلة على انتباه الداعية لأحوال المدعوين ما روته صفية بنت حيي رضي الله عنها قالت: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ مُعْتَكِفاً. فَأَتَيْتُهُ أَزُورُهُ لَيْلاً. فَحَدَّثْتُهُ. ثُمَّ قُمْتُ لأَنْقَلِبَ. فَقَامَ مَعِي لِيَقْلِبَنِي. وَكَانَ مَسْكَنُهَا فِي دَارِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ. فَمَرَّ رَجُلاَنِ مِنَ الأَنْصَارِ. فَلَمَّا رَأَيَا النَّبِيَّ ﷺ أَسْرَعَا. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((عَلَى رِسْلِكُمَا. إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ)) فَقَالاَ: سُبْحَانَ اللّهِ يَا رَسُولَ اللّهِ. قَالَ: ((إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ الإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ. وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَرّاً)) أَوْ قَالَ: ((شَيْئاً))[2].

قال النووي: (الحديث فيه فوائد منها بيان كمال شفقته ﷺ على أمته ومراعاته لمصالحهم وصيانة قلوبهم وجوارحهم: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾[3]، فخاف ﷺ أن يلقي الشيطان في قلوبهما فيهلكان، فإن ظنّ السوْء بالأنبياء كفر بالإجماع والكبائر غير جائزة عليهم، وفيه أن من ظن شيئاً من نحو هذا بالنبي ﷺ كفر)[4].

ثانياً- من مهام الداعية: إنكار المنكر:

على الداعية أن يبادر إلى إنكار المنكر، فقد نزع النبي ﷺ خاتم الذهب من يد الرجل وألقاه، وهذا ما فعله النبي ﷺ فكان ذلك منه ﷺ إنكاراً لهذا المنكر.

وقد قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[5]، أي: ولتكن منكم -أيها المؤمنون- جماعة تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وهو الدعوة إلى الإسلام وشرائعه وتنهى عن المنكر، وهو كل ما

---

(١) أخرجه أحمد ٤٤٣/٥ رقم ٢٣٧٣٧، وقال محققوه: إسناده حسن ا. هـ. وقد ذكروا من أخرجه من المحدثين فلينظر هناك ١٤٦/٣٩.

(٢) أخرجه البخاري ٢٠٣٥، ومسلم ٢١٧٥.

(٣) سورة الأحزاب، آية: ٤٣.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٣٦١.

(٥) سورة آل عمران، آية: ١٠٤.

خالف هدي النبي ﷺ وأولئك هم الفائزون بجنات النعيم"[١]، وقد قال النبي ﷺ: ((الدِّينُ النَّصِيحَةُ)) قالوا: لِمَنْ؟ قَالَ: ((لله وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ))[٢].

قال النووي: (وأما النصيحة لأئمة المسلمين فمعاونتهم على الحق وطاعتهم فيه وأمرهم به وتنبيههم وتذكيرهم برفق ولطف وإعلامهم بما غفلوا عنه ولم يبلغهم من حقوق المسلمين، وأما نصيحة عامة المسلمين وهم من عدا ولاة الأمر فإرشادهم لمصالحهم في آخرتهم ودنياهم وكف الأذى عنهم... وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر برفق وإخلاص)[٣].

وإن إنكار المنكر هو الذي يحفظ على المجتمع قيمه وأخلاقه ومبادئه السليمة الصحيحة.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: تغيير المنكر باليد:

إن المنكر يجب أن يغير ويزال، وما دام في الإمكان تغييره باليد فإنه يغير بشرط ألا يترتب على ذلك مفسدة أكبر منه، وهذا واضح من الحديث، فقد نزع النبي ﷺ خاتم الذهب من يد الرجل، قال النووي: (فيه إزالة المنكر باليد لمن قدر عليها)[٤].

وقال ابن هبيرة: (فيه دليل على أن من رأى منكراً في يد شخص جاز له نزع المنكر من يده، وإنما استجاز طرحه من مكان لا يعدم ملتقطاً ينتفع به، إذا لو كان رميه إياه في مضيعة لا يراه آدمي أو في بحر لا يمكن استخلاصه لم يجز لأنه مال، وقد نهى النبي ﷺ عن إضاعة المال)[٥].

---

(١) التفسير الميسر، إعداد نخبة من العلماء ٦٣.

(٢) أخرجه مسلم ٥٥.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٣١.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٣٢٢.

(٥) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٢٣٢/٣. أما نهي النبي ﷺ عن إضاعة المال، فأخرج البخاري ٥٩٧٥، ومسلم ٥٩٣ من حديث المغيرة بن شعبة مرفوعاً: (إنّ اللّهَ حرّم عليكم عُقوقَ الأُمّهاتِ، ووَأْدَ البناتِ، ومَنَعَ وهاتِ. وكرِهَ لكم قيلَ وقالَ، وكَثْرَةَ السّؤالِ، وإضاعةَ المالِ).

وقد جاءت النصوص بإنكار المنكر باليد لمن قدر على ذلك.

قال الله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ۝ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾[1].

(أي: وتا الله لأمكرن بأصنامكم وأكسرها بعد أن تتولوا عنها ذاهبين، فحطم إبراهيم الأصنام وجعلها قطعاً صغيرة وترك كبيرها كي يرجع القوم إليه ويسألوه فيتبين عجزهم وضلالهم وتقوم الحجة عليهم)[2].

وقال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمِرْبَدِ[3] فَخَرَجْتُ مَعَهُ فَكُنْتُ عَنْ يَمِينِهِ وَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ فَتَأَخَّرْتُ لَهُ فَكَانَ عَنْ يَمِينِهِ وَكُنْتُ عَنْ يَسَارِهِ ثُمَّ أَقْبَلَ عُمَرُ فَتَنَحَّيْتُ لَهُ فَكَانَ عَنْ يَسَارِهِ فَأَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمِرْبَدَ فَإِذَا بِأَزْقَاقٍ[4] عَلَى الْمِرْبَدِ فِيهَا خَمْرٌ - قَالَ ابْنُ عُمَرَ فَدَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْمُدْيَةِ[5] قَالَ وَمَا عَرَفْتُ الْمُدْيَةَ إِلاَّ يَوْمَئِذٍ - فَأَمَرَ بِالزِّقَاقِ فَشُقَّتْ ثُمَّ قَالَ: لُعِنَتِ الْخَمْرُ وَشَارِبُهَا وَسَاقِيهَا وَبَائِعُهَا وَمُبْتَاعُهَا وَحَامِلُهَا وَالْمَحْمُولَةُ إِلَيْهِ وَعَاصِرُهَا وَمُعْتَصِرُهَا وَآكِلُ ثَمَنِهَا))[6].

فعلى من يقدر على تغيير المنكر باليد أن يبادر إلى ذلك بشرط ألا يؤدي تغييره المنكر إلى ارتكاب منكر أشد.

قال ابن عثيمين: (معلوم أن هناك فرقاً بين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبين تغيير المنكر، لأن تغيير المنكر يكون من ذي سلطة قادر، مثل الأمير ومن جعل له

---

(١) سورة الأنبياء: الآيتان: ٥٧ - ٥٨.

(٢) التفسير الميسر، إعداد نخبة من العلماء ٣٢٦ - ٣٢٧.

(٣) الْمِرْبَد: قال السندي: بكسر ميم وفتح باء، موضع يجعل فيه التمر لينشف، ومربد الغنم: موضع على ميلين من المدينة، حاشية السندي على مسند أحمد ٢٨٩/٩ - ٢٩٠.

(٤) بأَزْقَاقٍ: جمع زق - بكسر فتشديد: السقاء. حاشية السندي.

(٥) الْمُدْيَةِ: بالضم والكسر، وقيل: بتثليث الميم. هي السكين، حاشية السندي.

(٦) أخرجه أحمد ٧/٢ رقم ٥٣٩٠ وقال محققوه: حديث حسن والمرفوع منه صحيح بطرقه وشواهده ٢١٨/٩.

تغييره، ومثل الرجل في أهل بيته، والمرأة في بيتها وما أشبه ذلك، فهذا له السلطة أن يغير بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، أما الأمر فهو واجب بكل حال، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب بكل حال، لأنه ليس فيه تغيير، بل فيه أمر بالخير ونهي عن الشر، وفيه أيضاً دعوة إلى الخير والمعروف وإلى ترك المنكر)[١].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: تحريم خاتم الذهب على الرجال:

إن لبس الذهب حرام على الرجال، وذلك لأن النبي ﷺ قد نزع خاتم الذهب من يد الرجل وطرحه، وقال: "يعمد أحدكم إلى جمرة من نار..." قال النووي: (فيه تصريح بأن النهي عن خاتم الذهب للتحريم)[٢].

وقال ابن هبيرة: (في هذا الحديث من الفقه: تحريم خاتم الذهب)[٣].

وقد جاءت أحاديث كثيرة بتحريم لبس الذهب على الذكور، من ذلك عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: ((إنَّ نَبيَّ الله ﷺ أخَذَ حَرِيراً فَجَعَلَهُ في يَمِينِهِ، وَأخَذَ ذَهَباً فَجَعَلَهُ في شِمَالِهِ، ثُمَّ قال: إنَّ هذَيْنِ حَرَامٌ عَلَى ذُكُورِ أُمَّتِي))[٤].

قال النووي: (أجمع المسلمون على إباحة خاتم الذهب للنساء، وأجمعوا على تحريمه على الرجال...)[٥].

والمسلم أمام الأحكام الشرعية يسلّم بها ويمتثل ويذعن لها ويخضع سواء علم الحكمة من ورائها أو لم يعلم، فهناك نوع من الأحكام الشرعية يطلق عليها التعبديات وهي -كما جاء في الموسوعة الفقهية-: (الأحكام الشرعية التي لا يظهر للعباد في تشريعها حكمة غير مجرد التعبد، أي التكليف بها، لاختبار عبودية العبد، فإن أطاع

---

(١) شرح رياض الصالحين ٥٠٦/١.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٣٢٢.

(٣) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٢٣٢/٣.

(٤) أخرجه أبو داود ٤٠٥٧، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٤٢٢).

(٥) الإجماع لابن عبدالبر ص ٣٥٣، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٣٢٢، وانظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٢٩/١٠ - ٣٣٠.

أثيب وإن عصى عوقب، والمراد بالحكمة هنا: مصلحة العبد من المحافظة على نفسه أو عرضه أو دينه أو ماله أو عقله. أما مصلحته الأخروية -من دخول جنة الله تعالى والخلاص من عذابه- فهي ملازمة لتلبية كل أمر أو نهي، تعبدياً كان أو غيره... هذا وقد اختلف الفقهاء في أن التعبديات شرعت لنا لحكمة يعلمها الله تعالى وخفيت علينا، أو أنها شرعت لا لحكمة أصلاً غير مجرد تعبد الله للعباد واستدعائه الامتثال منهم، اختباراً لطاعة العبد لمجرد الأمر والنهي من غير أن يعرف وجه المصلحة فيما يعمل، بمنزلة سيد أراد أن يختبر عبيده وأيهم أطوع له، فأمرهم بالتسابق إلى لمس حجر، أو الالتفات يميناً أو يساراً مما لا مصلحة فيه غير مجرد الطاعة، قال ابن عابدين نقلاً عن الحلية: أكثر العلماء على القول الأول، وهو المتجه بدلالة استقراء تكاليف الله تعالى على كونها جالبة للمصالح وارثة للمفاسد)[1].

خامساً- من موضوعات الدعوة: امتثال الصحابة رضي الله عنهم لأوامر النبي ﷺ:

إنما بعث الله محمداً ﷺ ليطاع، فمن أطاعه فاز ومن عصاه خسر، لذا كان الصحابة رضي الله عنهم أحرص الناس على امتثال أوامر النبي ﷺ، ذلك واضح في قول الراوي: فقيل للرجل بعد ما ذهب رسول الله ﷺ: خذ خاتمك انتفع به، قال: لا والله لا آخذه أبداً وقد طرحه رسول الله ﷺ".

قال النووي: (فيه المبالغة في امتثال أمر رسول الله ﷺ واجتناب نهيه وعدم الترخص فيه بالتأويلات الضعيفة)[2].

قال ابن عثيمين: (من فوائد هذا الحديث أيضاً: بيان كمال صدق الصحابة رضي الله عنهم في إيمانهم، فإن هذا الرجل لما قيل له: خُذ خاتمك انتفع به، قال: لا آخذ خاتماً طرحه النبي ﷺ، وذلك من كمال إيمانه رضي الله عنه، ولو كان ضعيف الإيمان لأخذه وانتفع به، ببيع أو إعطائه أهله أو ما أشبه ذلك)[3].

---

(١) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٢/٢٠١ - ٢٠٢.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٣٢٢.

(٣) شرح رياض الصالحين ١/٥٠٧.

وقد وردت أحاديث وآثار كثيرة تبين امتثال الصحابة ﵃ لأوامر النبي ﷺ، من ذلك ما حدث في غزوة الأحزاب، فقد أمر النبي ﷺ حذيفة ﵁ أن يأتيه بخبر المشركين، فقال: ((اذْهَبْ. فَأْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَلاَ تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ))[1]، فَلَمَّا وَلَّيْتُ مِنْ عِنْدِهِ جَعَلْتُ كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حَمَّامٍ[2]، حَتَّى أَتَيْتُهُمْ. فَرَأَيْتُ أَبَا سُفْيَانَ يَصْلِي ظَهْرَهُ بِالنَّارِ[3]، فَوَضَعْتُ سَهْماً فِي كَبِدِ الْقَوْسِ[4]، فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْمِيَهُ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ: ((وَلاَ تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ)) وَلَوْ رَمَيْتُهُ لأَصَبْتُهُ. فَرَجَعْتُ وَأَنَا أَمْشِي فِي مِثْلِ الْحَمَّامِ، فَلَمَّا أَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَفَرَغْتُ، قُرِرْتُ[5]. فَأَلْبَسَنِي رَسُولُ اللَّهِ مِنْ فَضْلِ عَبَاءَةٍ كَانَتْ عَلَيْهِ يُصَلِّي فِيهَا[6].

وعن عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب ﵄ قال: (كان للعباس ﵁ ميزاب على طريق عمر بن الخطاب ﵁ فلبس عمر ثيابه يوم الجمعة، وقد كان ذُبح للعباس فرخان، فلما وافى الميزاب صبّ ماء بدم الفرخين، فأصاب عمر، وفيه دم الفرخين، فأمر عمر بقلعه، ثم رجع عمر فطرح ثيابه ولبس ثياباً غير ثيابه، ثم جاء فصلّى بالناس، فأتاه العباس، فقال: والله إنه للموضع الذي وضعه النبي ﷺ، فقال عمر للعباس: وأنا أعزم عليك لما صعدت على ظهري حتى تضعه في الموضع الذي وضعه رسول الله ﷺ، ففعل ذلك العباس ﵁)[7].

---

(١) أي: لا تفزعهم علي ولا تحركهم عليّ، والمراد: لا تحركهم عليك فإنهم إن أخذوك كان ذلك ضرراً عليّ لأنك رسولي وصاحبي، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٥٧.

(٢) أي: لم يجد البرد الذي يجده الناس، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٥٧.

(٣) أي: يدفئه ويدنيه منها، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٥٧.

(٤) مقبضها، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٥٧.

(٥) هو بضم القاف وكسر الراء، أي: بردت، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٥٨.

(٦) أخرجه مسلم ١٧٨٨.

(٧) أخرجه أحمد ٢١٠/١ رقم ١٧٨٩، وقال محققو المسند: حسن ٣٠٩/٣.

سادساً- من أساليب الدعوة: بيان الحكمة والترهيب:

أما بيان الحكمة فواضح من قول النبي ﷺ: "يعمد أحدكم إلى جمرة من نار..." فقد بين النبي ﷺ سبب نزع الخاتم من الذهب وإلقائه وطرحه، وهذا البيان يثبت في النفوس الحكمة ويجعلها تزداد اقتناعاً به على اقتناع وامتثالاً على امتثال، وأما الترهيب فوصف خاتم الذهب بأنه جمرة من نار، فبين ﷺ عاقبة التختم بالذهب والجزاء على ذلك، وفي هذا تخويف لمن فعل فيقلع ويكف، ولمن لم يفعل فيمتثل ويبتعد ولا يقدم على ذلك.

الحديث رقم (١٩٢)

١٩٢- **التَّاسِعُ:** عَنْ أَبِي سعيدٍ الْحسنِ البصْرِي أَنَّ عَائِذَ بن عمْرٍو ﵁ دخَلَ عَلَى عُبَيْدِ اللَّهِ بن زِيَادٍ فَقَالَ: أَيْ بنيَّ، إنِّي سمِعتُ رسولَ اللَّه ﷺ يَقولُ: «**إنَّ شَرَّ الرِّعاءِ الْحُطَمَةُ**» فَإِيَّاك أَنْ تَكونَ مِنْهُمْ. فَقَالَ لَهُ: اجْلِسْ، فَإِنَّمَا أَنت مِنْ نُخَالَةِ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فقال: وهَلْ كَانَتْ لَهُمْ نُخَالَةٌ؟ إِنَّمَا كَانَتِ النُّخالَةُ بَعْدَهُمْ وَفِي غَيرِهِمْ، رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

عائذ بن عمرو: وهو عائذ بن عمرو بن هلال بن عبيد بن يزيد المزني، يكنى أبا هُبيرة البصري.

له صحبة، روى عن النبي ﷺ وعن أبي بكر الصديق، روى له الثلاثة، البخاري ومسلم والنسائي، له في البخاري حديث موقوف عليه وفي مسلم حديثان، شاركهما عنه النسائي، شهد بيعة الرضوان، وجاهد مع رسول الله ﷺ أصيب يوم خيبر، فدعا له رسول الله ﷺ وشفي ببركة رسول الله ﷺ فعنه أنه قال ((أصابتني رمية وأنا أقاتل بين يدي رسول الله ﷺ يوم خيبر في وجهي فسالت الدماء على وجهي ولحيتي وصدري إلى ثُنْدُوتَيَّ[٢] دعا لي، قال الراوي: فكان عائذ يخبرنا بذلك، فلما هلك غسلناه، نظرنا إلى ما كان يَصِفُ لنا من أثر يد رسول الله ﷺ إلى مُنتهى ما كان يقول لنا من صدره، فإذا غُرَّةٌ سائلةٌ كغُرة الفرس))[٣].

وكان ﵁ من صالحي الصحابة، بالغ الكرم والعطاء فذُكر أنه زَوَّج في غَدَاةٍ واحدة أربعين رجلاً من مُزَينة - قومه- كل امرأة على ألف، كما كان بعيداً كل البعد عن إيذاء غيره فذكر ابن حجر أنه كان لا يُخرج من داره ماءً إلى طريقٍ من ماء

---

(١) برقم (١٨٣٠/٢٣).

(٢) الثُندُوتان للرجل كالثديين للمرأة، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ث ن د).

(٣) مجمع الزوائد للهيثمي (٤١٢/٩)؟.

سماءٍ ولا غيره، فرؤى له أنه في الجنة فقيل بم؟ قال: بكفه أذاه عن المسلمين، وكان قد سئل عن ذلك في حياته فقال: لأن أصب طستي في حجرتي أحب إليّ من أن أصبه في طريق المسلمين، وكان قد سكن البصرة، وابتنى بها، ومات بها وقبره في البصرة معروف، مات سنة (٦١) في إمارة عبيدالله بن زياد أيام يزيد بن معاوية، وصلى عليه (أبو بَرْزة الأسلميُّ) وكان قد أوصى بذلك لئلا يصلي عليه عبدالله بن زياد[١].

غريب الألفاظ:

الرعاء: جمع راعٍ[٢].

الحُطُمة: أي العنيف في رعيته لا يرفق بها في سوقها ومرعاها، بل يحطمها في ذلك وفي سقيها ويزحم بعضها ببعض بحيث يؤذيها ويحطمها[٣].

النخالة: ما بقي في الغربال بعد نَخْل الدقيق[٤]، والمراد: لست من فضلائهم وعلمائهم وأهل المراتب منهم بل من سقطهم[٥].

ومن فقه الترجمة: أن الزواج الجماعي على نفقة الغير أمر عرفه الصحابة رضي الله عنهم وعلى رأسهم عائذ بن عمرو.

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر (٥٨٣)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (١٤٦/٣)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي (٦٥٠، ٦٥١)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين (٤٢/٤، ٤٣)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٢٧٥/٢)، والسندي (٢٤٠/٣٤)، وموسوعة عظماء حول الرسول (١١١٨/٢، ١١١٩).

(٢) لسان العرب، ابن منظور والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ر ع ي).

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٨٦.

(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ن خ ل).

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٨٦.

الشرح الأدبي

هذا الحديث الشريف يقدمه: الحسن البصري في سياق مواعظه التي يسوقها للحكام والولاة، حتى يستجيبوا لأمر المصطفى ﷺ في وجوب تغيير المنكر. وهم قادرون على ذلك، وفي الوقت ذاته لابد أن يكون الرِّفق منهجاً لهم، وإذا لم يستجيبوا لذلك فهم شر الرعاء.

وهذا المضمون الذي يقدمه الحسن البصري يسوقه في ظل هذه الرواية الواقعية أشخاصاً وأقوالاً، والحسن البصري من التابعين الذين أنعم الله عليهم برؤية كثير من الصحابة، ومَنّ الله عليه بشرف الرضاعة من أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها، حيث كانت أمه مولاة لأم سلمة، وفصاحته وتقواه تفيضان من هذا المنبع الطهور، ويقر الحسن البصري، بأنه تلقى علمه الذي لم يعهد الناس، عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، وهذه الموعظة التي تتوهجُ في أفق هذا الحديث الشريف يؤطرها الحوار الجاد الصادق بين عبيدالله بن زياد، وعائذ بن عمرو وهو من صالحي الصحابة، واتسم بالورع والزهد، والصدق والإخلاص في النصيحة، ومعيار هذا الإخلاص وذلك الصدق أنه خاطب عبيدالله بن زياد بقوله: أي بُني: وهو والي البصرة، واختيار النداء "أي" يدل على حرص عائذ بن عمرو، على استمالة قلب هذا الوالي واستجابته للموعظة، والتعبير بقوله "بُني"، يفْصح عن عدم خوف عائذ، ولا رهبته، وكذلك ينبئ عن ابتعاده عن ممالأة هذا الوالي ونفاقه، وكان كثير من العلماء يتوجه بالنصح إلى الولاة والخلفاء ومنهم الحسن البصري، وسعيد بن المسيب وغيرهم، وعبيدالله بن زياد كان قاسياً وشديداً في ولايته، تأسياً واقتداء بأبيه زياد بن أبيه، صاحب "خطبة البتراء" التي هدد بها أهل البصرة في بدء ولايته.

واتباعاً للقاعدة البلاغية التي تقول: "لكل مقام مقال" تأتي موعظة عائذ لابن زياد حيث يذكّره بقول رسول الله ﷺ: إن شر الرعاء الحطمة، ثم يقول: "فإياك أن تكون منهم"، والنداء في أول كلامه يرشد إلى ضرورة الاهتمام والانتباه، والتأكيد في قوله: "إني سمعت"، يفصح عن جدية الأمر وخطورته، وتحديد الفعل بقوله: "سمعت"

لمزيد من الإصغاء لأنه سمع هذه الموعظة من رسول الله مباشرة، ولم ينقلها عن راوٍ، فالخبر مثبتٌ يقيناً، وكلام رسول الله يبدأ بالتأكيد "إنَّ" ثم أفعل التفضيل "شر"، أى أكثر الولاة والرعاة، شروراً وفجوراً ولفظ "الحطمة"، في مبناه سر معناه. وفي صياغته سرٌ بلاغته، فالحطم في اللغة الكسر، والحطمة، السنة الشديدة القاحلة الجدباء، والحطمة: الشديدة من النيران، واسم لجهنَّم، أو باب لها، والحُطمة: الراعي الظلوم للماشية يهشم بعضها ببعض[١]. وهذه المعاني اللغوية تتلاقى مع صفات الوالي والراعي العنيف في رعيته: فهو لا يرفق في سوقها ومرعاها، بل يحطمها في ذلك وفي سقيها وغيره[٢]. ويفعل ذلك مع أفراد الأمة ولا يحكم بينهم بالعدل، ولا يرعى مصالحهم.

وأسلوب التحذير في قوله: "فإياك أن تكون منهم"، يتألق بالصدق والشجاعة في مواجهة هذا الوالي الذي استعلى على النصيحة ولم يصغ لذلك التحذير، واستهان بهذا الصحابي الجليل: وقال مستكبراً أجلس: فإنما أنت من نخالة أصحاب محمد ﷺ وهنا التعبير فيه استعارة حيث صور صغار الصحابة بقشور الدقيق ومنهم عائذ، فواجهه عائذ في حدَّة وصرامة واستفهام إنكاري وهو لا يخشى بأسه. وهل كانت لهم نخالة ؟ أى أن أصحاب محمد ﷺ كلهم كالنجوم في الهداية وليس فيهم قشور ولباب وإنما كلهم كرماء فضلاء يحب التآسي بهم، والاقتداء بأفعالهم.

ثم يختم عائذ بن عمرو هذا الحوار وتلك المواجهة بتعريض وسخرية من عبيد الله بن زياد، وكل من على شاكلته من الذين يسخرون من العلماء والوعاظ، ويتمادون فيسخرون من فريق من الصحابة، ويصوغ تعريضه وسخريته في أسلوب القصر، لمزيد من التأكيد والمواجهة، والحرص على الاحتفاظ بهيبة العلماء والناصحين المخلصين يقول الصحابي الجليل، عائذ بن عمرو. "إنما كانت النخالة بعدهم وفي غيرهم"، وكأنه يقول في تلميح دون تصريح، وعن طريق الإشارة لا العبارة، إنما أنت من النخالة

---

(١) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي مادة: حطم.

(٢) انظر: دليل الفالحين، ابن علان ، ٣٥٤، ٣٥٥.

لأنك لم تشرف برؤية رسول الله ﷺ، ولم تتذوق حلاوة هذه الرؤية، ولم تنعم بشرف الصحبة، ولا بزاد التقوى والأحاديث والمجالس النبوية الشريفة.

والاستعارة من الملامح الفنية في الحديث النبوي ولقد أثبتت الصورة الاستعارية في الحديث النبوي جدارتها كما في الحديث وفي غيره، وحافظت على مقدرتها الفنية على مدى العصور وتملكت ناصية الفن الراقي، واستحوذت على إثارة بالغة للوجدان والخيالات، كما كانت شكلاً فنياً مناسباً لمقاصد الفكرة، فلا يترك إلى شكل آخر، واعتمدت على عنصر المشابهة، وبذلك تنزهت عن الخطل، وأصابت حافة التأثير.

والشكل الاستعاري في الحديث النبوي بصفة عامة غني بتكوينه ومهامه، لأنه يعتمد على المشاهدات، وتقريب المتباعدات تقريباً منطقياً لائقاً بالفكر الديني السامي وغاياته الرفيعة، وهو غني بكونه وسيلة تجسيم وتشخيص، وعامل تنبيه وتأثير، فضلاً عن تبليغ الفكرة كاملة واضحة[١].

المضامين الدعوية

أولاً: من مهام الداعية: نصح المدعو.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: عاقبة الوالي الفظ.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: فضل الصحابة رضي الله عنهم على من بعدهم.

رابعاً: من أساليب الدعوة: ضرب المثل والتوكيد والتحذير والاستفهام الاستنكاري والقصر.

أولاً- من مهام الداعية: نصح المدعو:

إن النصيحة: هي الدعاء إلى ما فيه الصلاح والنهي عما فيه الفساد[٢]. لذا كان من المهام الأساسية للداعية القيام بالنصيحة للمدعوين، كما يتضح في هذا الحديث. فقد دخل عائذ بن عمرو رضي الله عنه على عبيدالله بن زياد والي البصرة وقد كان شديداً على رعيته[٣] وبلّغه حديث النبي ﷺ وحذره من أن يكون من هؤلاء الولاة القساة، لسوء

---

(١) انظر: الصورة الفنية في الحديث النبوي، د. أحمد باسوف ص ٢٤٠

(٢) التعريفات، الجرجاني ٢٩٦.

(٣) انظر: الأعلام، الزركلي ٤/١٩٣.

عاقبتهم عند ربهم. فقام الصحابي بواجب النصح تجاه المدعو.

وهذه سمة الدعاة دائماً، نصحُ المدعوين وإرشادهم إلى ما ينفعهم، قال الله تعالى إخباراً عن نوح عليه السلام: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾[1] وقال تعالى إخباراً عن هود عليه السلام: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾[2].

وقد كان النبي ﷺ يبايع أصحابه على النصح لكل مسلم، قال جرير بن عبدالله رضي الله عنه: بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم[3].

فبالنصح الذي فيه لين ورفق تُصلح أحوال المقصرين ويتوافر العلاج السريع لما يظهر من مخالفات شرعية. جاء في الموسوعة الفقهية: (ذهب الفقهاء إلى أن النصيحة تجب للمسلمين، قال ابن حجر الهيتمي: يتأكد وجوبها لخاصة المسلمين وعامتهم، وقال الراغب الأصفهاني: عظّم النبي ﷺ أمر النصح، فقال: "الدين النصيحة"[4]. فبيّن ﷺ أن النصح واجب لكافة الناس بأن تتحرى مصلحتهم في جميع أمورهم. وقال المالكية: النصيحة فرض عين سواء طلبت أم لم تطلب إذا ظن الإفادة؛ لأنه من باب الأمر بالمعروف. ونقل النووي عن ابن بطال أن النصيحة فرض كفاية يجزيء فيه من قام به ويسقط عن الباقين[5]. وهي لازمة على قدر الحاجة أو الطاقة إذا علم الناصح أنه يقبل نصحه ويطاع أمره وأمن على نفسه المكروه فإن خشي على نفسه أذىً فهو في سعة وقال غيرهم: إن ظاهر حديث "الدين النصيحة" وجوب النصح وإن علم أنه لا يفيد في المنصوح)[6].

---

(١) سورة الأعراف، آية: ٦٢.

(٢) سورة الأعراف، آية: ٦٨.

(٣) أخرجه البخاري ٥٧، ومسلم ٥٦.

(٤) أخرجه مسلم ٥٥.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٣١.

(٦) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٣٢٥/٤٠-٣٢٦.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: عاقبة الوالي الفظ:

إن الوالي مع رعيته كالوالد مع أبنائه يقوم على مصالحهم ويرعى أمورهم بالرفق واللين، لذا كانت عاقبة الوالي الفظ الغليظ سيئة. هذا واضح من وصف النبي ﷺ بأنهم شرُّ الولاة، وتحذير عائذُ الصحابيُ رضي الله عنه عُبَيْدَ الله بن زياد من أن يكون منهم.

وقد أخبر الله تعالى عن سوء عاقبة الولاة المتجبرين، من ذلك ما أخبر عن فرعون: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۝ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[1]. أي: (إن فرعون تكبر وطغى في الأرض وجعل أهلها طوائف متفرقة يستضعف طائفة منهم وهم بنو إسرائيل يذبح أبناءهم ويستعبد نساءهم، إنه كان من المفسدين ونريد أن نتفضل على الذين استضعفهم فرعون في الأرض ونجعلهم قادة في الخير ودعاة إليه ونجعلهم يرثون الأرض بعد هلاك فرعون وقومه)[2].

وقد قال النبي ﷺ: ((اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشقَّ عليهم فاشقق عليه ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به))[3]. قال النووي: (هذا من أبلغ الزواجر عن المشقة على الناس وأعظم الحث على الرفق بهم، وقد تظاهرت الأحاديث بهذا المعنى)[4].

قال الصنعاني: (شق عليهم: أدخل عليهم المشقة أي: المضرة. والدعاء عليه منه ﷺ بالمشقة جزاء من جنس الفعل، وهو عام لمشقة الدنيا والآخرة)[5].

---

(١) سورة القصص، الآيتان: ٤-٥.

(٢) التفسير الميسر، إعداد نخبة من العلماء ص٣٨٥.

(٣) أخرجه مسلم ١٨٢٨.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٨٥، وانظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٣/١٤٠.

(٥) سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، الصنعاني ٩٦٨.

وقال القاضي حسين المغربي: "ورواه أبو عوانة في صحيحه بلفظ: (ومن ولي منهم شيئاً فشق عليهم فعليه بهلة الله. فقالوا: يا رسول الله وما بهلة الله؟ قال: لعنة الله)، والحديث دليل على أنه يجب على الوالي تيسير الأمور على من وليهم والرفق بهم، ومعاملتهم بالعفو والصفح وإيثار الرخصة على العزيمة في حقهم، لئلا يدخل عليهم المشقة، وقد عدّ بعض العلماء مشقة الوالي على من وَلِيَه من الكبائر، وهو صريح حديث أبي عوانة، فإن اللعنة إنما تكون على من فعل الكبيرة"(١).

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: فَضْلُ الصحابة رضي الله عنهم على من بعدهم:

الصحابة رضي الله عنهم هم خير القرون، وصفوة هذه الأمة، وأفضل هذه الأمة بعد نبيها، وهذا واضح في هذا الحديث، وذلك في قول الصحابي: "وهل كانت لهم نخالة إنما كانت النخالة بعدهم وفي غيرهم" قال النووي: (وهذا من جزل الكلام وفصيحه وصدقه الذي ينقاد له كل مسلم، فإن الصحابة رضي الله عنهم كلهم هم صفوة الناس وسادات الأمة وأفضل من بعدهم وكلهم عدول قدوة لا نخالة فيهم، وإنما جاء التخليط ممن بعدهم، وفيمن بعدهم كانت النخالة)(٢).

وقد قال الله تعالى في شأنهم: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾(٣).

وقال ابن حجر: (والأحاديث الواردة في تفضيل الصحابة كثيرة)(٤) من ذلك قوله ﷺ: ((لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه))(٥). قال النووي: (قال القاضي [أي عياض](٦): ويؤيد هذا ما قدمناه في أول "باب

---

(١) البدر التمام في شرح بلوغ المرام من أدلة الأحكام ٢٨٩/٥.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٨٦-١١٨٧.

(٣) سورة التوبة، آية: ١٠٠.

(٤) الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ١١.

(٥) أخرجه البخاري ٣٦٧٣، ومسلم ٢٥٤١.

(٦) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٥٨٠/٧.

فضائل الصحابة" عن الجمهور من تفضيل الصحابة كلهم على جميع من بعدهم، وسبب تفضيل نفقتهم أنها كانت في وقت الضرورة وضيق الحال، بخلاف غيرهم، ولأن إنفاقهم كان في نصرته ﷺ وحمايته، وذلك معدوم بعده، وكذا جهادهم وسائر طاعتهم، وقد قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾(١) هذا كله مع ما كان في أنفسهم من الشفقة والتودد والخشوع والتواضع والإيثار والجهاد في الله حق جهاده، وفضيلة الصحبة ولو لحظة لا يوازيها عمل، ولا تنال درجتها بشيء، والفضائل لا تؤخذ بقياس، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء)(٢).

فالصحابة رضوان الله عليهم خير القرون وهم القدوة لمن جاء بعدهم(٣).

رابعاً: من أساليب الدعوة: ضرب المثل والتوكيد والتحذير والاستفهام الاستنكاري والقصر

أما ضرب المثل فقوله ﷺ: "إن شر الرعاء الحُطَمَة" قال ابن الأثير في تفسير الحُطَمَة: (هو العنيف برعاية الإبل في السَّوْق والإيراد والإصدار، ويُلْقِي بعضها على بعض ويعسفها، ضربه مثلاً لوالي السوء)(٤).

وهذا المثل منتزع من بيئة المدعوين فيكون أبلغ في إيصال المعنى وتوضيحه. وقد ورد ضرب الأمثال في الأحاديث كثيراً، مثال ذلك قول النبي ﷺ: ((مَثَلي ومثَلُ ما بعثني الله كمثل رجلٍ أتى قوماً فقال: رأيتُ الجيشَ بعَيني، وإني أنا النذيرُ العُريان، فالنجاءَ النجاء، فأطاعتهُ طائفة فأدلجوا على مَهلِهم فنَجَوا، وكذَّبتهُ طائفة فصبَّحَهمُ الجيش فاجْتاحَهم))(٥).

---

(١) سورة الحديد، آية: ١٠.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٢٦. وانظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٥٠٢/١ - ٥٠٣.

(٣) وانظر: فضائل الصحابة: أحمد بن حنبل ٢٤١هـ، تحقيق: وصي الله بن محمد عباس، والكتاب جزءان. وانظر: مقدمة المحقق.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢١٥.

(٥) أخرجه البخاري ٦٤٨٢، ومسلم ٢٢٨٣.

والتوكيد في قول النبي "إن شر الرعاء الحطمة" ليؤكد شر هؤلاء وسوء عاقبتهم. والتحذير: قول الصحابي: "فإياك أن تكون منهم". فهذا تحذير أفاد معرفة مدى ضرر المكروه المتوقع حصوله فيخاف من وقوعه خوفًا يدفعه إلى أخذ الحذر ومباشرة الأسباب لمنع وقوعه وتقليل الضرر[1].

والاستفهام الاستنكاري في قول الصحابي: "وهل كانت لهم نخالة؟" ليكون أبلغ في نفي النخالة عن الصحابة رضي الله عنهم[2]. وهذا الاستفهام في أصل وضعه يتطلب جوابًا يحتاج إلى تفكير يقع به هذا الجواب في موقعه وهذا يحمل المخاطب إلى توجيه كل اهتمامه كما يلقى إليه ليتمكن من فهمه ثم الإجابة عليه.

والقصر في قوله: "إنما كانت النخالة بعدهم وفي غيرهم" ليؤكد نفي أن يكون في الصحابة نخالة، فكلهم عدول قدوة.

---

(١) أساليب الدعوة والتربية، د. زياد العاني ص ٩٠، ٩١.

(٢) المرجع السابق ٤٤٦.

الحديث رقم (١٩٣)

١٩٣- العاشر: عَنْ حذيفةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ النبي ﷺ قال: «**والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بالمعرُوفِ، ولَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّه أَنْ يَبْعثَ عَلَيْكمْ عِقَاباً مِنْهُ، ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلاَ يُسْتَجابُ لَكُمْ**» رواه الترمذيُّ[1]، وقال: حديثٌ حسنٌ.

ترجمة الراوي:

حذيفة بن اليمان: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٠٤).

الشرح الأدبي

إن رسول الله ﷺ أفصح خلق الله، وأعذبهم كلاماً، وأسرعهم أداء، وأحلاهم منطقاً، حتى: كأن كلامه يأخذ بمجامع القلوب، ويجذب الأرواح.

ففصاحة لسانه كما يقول الإمام أحمد بن محمد بن أبي بكر القسطلاني: غاية لا يدرك مداها، ومنزلة لا يداني منتهاها، وكيف لا يكون ذلك؟ وقد جعل الله تعالى لسانه سيفاً من سيوفه، يبين مراده، ويدعو به إليه عباده، فهو ينطق بحُكمه عن أمره، ويبين عن مراده بحقيقة ذِكْره، أفصح خلق الله إذا لفظ، وأنصحهم إذا وعظ، لا يقول هجراً، ولا ينطق هذراً، كلامه كله يثمر علماً، ويمتثل شرعاً وحكماً، لا يتفوه بشر بكلام أحكم منه في مقالته، ولا أجزل منه في عذوبته، وخليق بمن عبر عن مراد الله بلسانه، وأقام به الحجة على عباده ببيانه، وبيَّن مواضع فروضه وأوامره، ونواهيه وزواجره، ووعده ووعيده وإرشاده، أن يكون أحكم الخلق جناناً، وأفصحهم لساناً، وأوضحهم بياناً، وفي ضوء هذه الظلال الحديثية، والقبسات النبوية، والإشعاعات المحمدية نقرأ جماليات الأسلوب في هذا الحديث الشريف ونتأمل ما يتوج به تراكيبه العجيبة، ودلالاته الرحيبة، فالمصطفى ﷺ ينذر هذه الأمة ويوقظها ويأمرها بالسعى إلى النجاة والفوز المبين، والطريق إلى ذلك

---

(١) برقم (٢١٦٩). قال المناوي في كشف المناهج (٤/٣٥٧): سنده جيدٌ. أورده المنذري في ترغيبه (٣٤٠٩).

الفوز هو الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإلا فالهلاك هو المصير المحتوم، ولا يجدي الدعاء، ولا ينفع الرجاء.

ولأن الإنذار شديد، يبدأ الحديث بالقسم، وهو ذو صيغة خاصة لا تُقال إلا عند شدائد الأمور، حيث يقول المصطفى ﷺ "والذي نفسي بيده"، وقيل أتى بهذا القسم لتأكيد الأمر بعده، والقسم يسن لمثل ذلك، ثم يؤكد الرسول ما يريد تبليغه للناس وما يقسم عليه، والتأكيد يتضاعف حيث تجتمع لام الأمر مع نون التوكيد الثقيلة في جملتين متصلتين بواو العطف، للدلالة على أنه لا ترتيب ولا فواصل بين هذين الأمرين الواجبين "لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر" فالاثنان متلازمان، ولا يجدي أحدهما في غياب الآخر.

والتكليف هنا جاء في صيغة الجمع للتدليل على أن المسؤولية جماعية، وعلى كل علماء الأمة وأفرادها وأمرائها أن يقوموا بهذا الواجب الشرعي: كل حسب طاقته وإمكاناته.

و"أو" عاطفة ولكنها للاختيار بين النجاة والهلاك، والفوز والخسران: فإما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو العذاب الشديد، والعقاب الأليم، والتعبير بقوله: "أو ليوشكن الله"، يوحي بإمهال الله للناس وإعطائهم فرصة للتوبة والرجوع والإنابة، والاستجابة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأن الفعل "أوشك" من أفعال المقاربة، والمجيء به يعد تنبيهاً وإنذاراً قبل مجيء العذاب علهم يثوبون إلى رشدهم، وهو أبلغ وأنسب للمقام من أن يقال: "أو ليبعثن الله عليكم"، والتعبير بالفعل: "يبعث"، يؤكد هذا الإنذار، ويدعو لليقظة والتنبيه، ويزيده تأكيداً وإحساساً بالخطر، قوله: "عليكم" ولم يقل "لكم"، لأن التعبير بـ "عليكم"، يفصح عن العقاب والنذير الشديد، أما إليكم، فتفيد التبليغ والإرشاد بعيداً عن ظلال الخوف، وتنكير كلمة "عقاباً" للتهويل والتعظيم لأنه غير محدود ولا معروف، والتحديد بقوله: "منه"، يزيد الأمر حسمًا وقوة، لأن المعاقِبَ هو الله، والله شديد العقاب، وبناء الفعل للمجهول في

قولـه: "فـلا يُـسْتجاب لكـم"، لبيـان أن الله لا ينظـر إلى مثـل هـؤلاء، ولا يـزكيهم ولهم عذاب أليم.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكمين فقهيين:

الأول: حكـم الأمـر بـالمعروف والنهـي عـن المنكـر للحـاكم وغـيره، وقـد سـبق الكلام عنه تفصيلاً في الحديث رقم (١١٨).

الثـاني: حكـم النـصح للإمـام وقـول الحـق عنـده لـو كـان جـائراً، وقـد ذكـر الفقهاء[1] أن النصح للإمام الجائر، وتنبيهه إلى الضرر من أفضل الأعمال حتى عده رسول الله ﷺ من أفضل الجهاد، فإن وجد في نفسه القوة لهذا النصح فعل وإلا سقط عنه، وفي الحديث دليل على أن من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر متى رجا فيه نفعاً في الدين فبذل فيه نفسه حتى قتل فهو في أعلى درجات الشهداء.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: سوء عاقبة إهمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: بيان جزاء مخالفة أمر الله.

ثالثاً: من أساليب الدعوة: القسم والترهيب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: سوء عاقبة إهمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

(إن الأمر بالمعروف: هو الأمر باتباع محمد ﷺ ودينـه الـذي جـاء بـه مـن عنـد الله، والنهي عـن المنكـر: طلـب الكـف عـن فعل مـا لـيس فيـه رضـى الله تعـالى)[2] لـذا كـان

---

(١) أحكام القرآن، الجصاص ٣٦١/١، وبريقة محمودية في طريقة محمدية وشريعة نبوية في سرية أحمدية، محمد بن مصطفى الخادمي ٢٥٠/٣، وأنوار البروق ٢٨٢/٤، والمدخل لابن الحاج ٧١/١، وأدب الدنيا والدين للماوردي ص ٩٦، وقواعد الأحكام للعز بن عبدالسلام ١١١/١، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين بن الحسن بن عبدالرحمن ١٠٤/٤، ومعالم القربة في معالم الحسبة ص ١٣، والسياسية الشرعية لابن تيمية ص ٢١٩، والآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ١٥٩/١، وغذاء الألباب شرح منظومة الآداب، الإسفراييني الحنبلي ٢١٤/١.

(٢) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٤٧/٦.

إهمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سيء العاقبة. وهذا واضح في قول النبي ﷺ "أوليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم".

قال المباركفوري: (والمعنى: والله إن أحد الأمرين واقع. إما الأمر والنهي منكم، وإما إنزال العذاب من ربكم ثم عدم استجابة الدعاء له في دفعه عنكم بحيث لا يجتمعان ولا يرتفعان، فإن كان الأمر والنهي لم يكن عذابٌ وإن لم يكن كان عذاب أليم)(١).

وقد أخبر تعالى بسوء عاقبة بني إسرائيل لإهمالهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾(٢) فالله سبحانه يخبر (أنه طرد من رحمته الكافرين من بني إسرائيل في الكتاب الذي أنزله على داود عليه السلام وهو الزبور وفي الكتاب الذي أنزله على عيسى وهو الإنجيل، بسبب عصيانهم واعتدائهم على حرمات الله، كان هؤلاء اليهود يجاهرون بالمعاصي ويرضونها ولا يُنْهِي بعضُهم بعضاً عن أي منكر فعلوه. وهذا من أفعالهم السيئة وبه استحقوا أن يطردوا من رحمة الله تعالى)(٣). (وهذا غاية التشديد إذ علل استحقاقهم للعنة تركهم النهي عن المنكر)(٤).

لذا (فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين، ولو طوى بساطُه وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة واضمحلت الديانة وعمت الفترة وفشت الضلالة وشاعت الجهالة واستشرى الفساد واتسع الخرق وخربت البلاد وهلك العباد ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد)(٥).

---

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٧٦٣/٢-١٧٦٤.

(٢) سورة المائدة، آية: ٧٨-٧٩.

(٣) التفسير الميسر، إعداد نخبة من العلماء ١٢١.

(٤) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، ١١٩٣/٣.

(٥) السابق ١١٩٢/٣. وانظر: نضرة النعيم ٥٢٥/٣-٥٣٩.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: بيان جزاء مخالفة أمر الله:

مخالفة أوامر الله عز وجل لها عواقب وخيمة ونتائج خطيرة، من ذلك أنها قد تؤدي إلى إعراض الله عز وجل عمن خالف أمره، كما هو الحال في هذا الحديث، وذلك واضح في قوله ﷺ "أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم" فقد بيّن النبي ﷺ أن الله يعرض عمن أهمل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا يستجيب لهم إذا دعوه لرفع ما نزل بهم من جزاء لتركهم ما أمرهم الله به.

وقد ورد إعراض الله عن العاصين في بعض الأحاديث: من ذلك ما رواه وائل بن حُجْر رضي الله عنه قال: ((جاء رجل من حضرموت ورجل من كندة إلى النبي ﷺ فقال الحضرمي: يا رسول الله إن هذا قد غلبني على أرض كانت لأبي، فقال الكندي: هي أرضي في يدي أزرعها ليس له فيها حق. فقال رسول الله ﷺ للحضرمي: ألك بينة؟ قال: لا. قال: فلك يمينه. قال: يا رسول الله إن الرجل فاجر لا يبالي على ما حلف عليه وليس يتورع من شيء فقال: ليس لك منه إلا ذلك، فانطلق ليحلف فقال رسول الله ﷺ لما أدبر، أما لئن حَلَفَ على ماله ليأكله ظلماً ليلقين الله وهو عنه معرض))(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾(٢) وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾(٣) ثم ذكر الرجل يطيل السفر(٤) أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يارب يا

---

(١) أخرجه مسلم ١٣٩.

(٢) سور المؤمنون، آية: ٥١.

(٣) سورة البقرة، آية: ١٧٢.

(٤) معناه -والله أعلم- أنه يطيل السفر في وجوه الطاعات كحج وزيارة مستحبة وصلة رحم وغير ذلك. شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦٤٤.

رب، ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنَّى يُستجاب لذلك؟))[١].

قال النووي: (أي: من أين يستجاب لمن هذه صفته وكيف يستجاب له؟)[٢].

وقال ابن رجب: (معناه كيف يستجاب له فهو استفهام وقع على وجه التعجب والاستبعاد وليس صريحا في استحالة الاستجابة ومنعها بالكلية فيؤخذ من هذا أن التوسع في الحرام والتغذي به من جملة موانع الإجابة وقد يوجد ما يمنع هذا المانع من منعه، وقد يكون ارتكاب المحرمات الفعلية مانعاً من الإجابة أيضاً، وكذلك ترك الواجبات كما في الحديث أن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يمنع استجابة دعاء الأخيار، وفعل الطاعات يكون موجبا لاستجابة الدعاء ولهذا لما توسل الذين دخلوا الغار، وانطبقت عليهم الصخرة بأعمالهم الصالحة التي أخلصوا فيها لله تعالى ودعوا الله بها أجيبت دعوتهم[٣])[٤].

وقد أخبر النبي ﷺ عن رجل جاء المسجد وهو ﷺ مع أصحابه في مجلس علم فأدبر ولم يجلس، أخبر عنه فقال ﷺ: ((أَعْرَضَ فأعرَضَ اللهُ عنه))[٥].

قال ابن حجر: (قوله: "فأعرض الله عنه": أي سخط عليه، وهو محمول على من ذهب معرضاً لا لعذر، هذا إن كان مسلماً ويحتمل أن يكون منافقاً واطلع النبي ﷺ على أمره. كما يحتمل أن يكون قوله ﷺ فأعرض الله عنه إخباراً أو دعاء)[٦].

وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾[٧].

---

(١) أخرجه مسلم ١٠١٥.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦٤٤.

(٣) أخرجه البخاري ٢٢١٥، ومسلم ٢٧٤٣.

(٤) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١/٢٧٥ - ٢٧٦.

(٥) أخرجه البخاري ٦٦، ومسلم ٢١٧٦.

(٦) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١/١٨٩-١٩٠، وانظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٣٦٢.

(٧) سورة الحشر، آية: ١٩.

قال ابن القيم: (عاقبهم على نسيانهم له بأن أنساهم أنفسهم فنسوا مصالحها أن يفعلوها وعيوبها أن يصلحوها وحظوظها أن يتناولوها ومن أعظم مصالحها وأنفع حظوظها ذكرها لربها وفاطرها، وهي لا نعيم لها ولا سرور ولا فلاح ولا صلاح إلا بذكره وحبه وطاعته والإقبال عليه والإعراض عما سواه، فأنساهم ذلك لما نسوه وأحدث لهم هذا النسيان نسياناً آخر، وهذا ضد حال الذين ذكروه ولم ينسوه فذكرهم مصالح نفوسهم ففعلوها وأوقفهم على عيوبها فأصلحوها وعرفهم حظوظها العالية فبادروا إليها فجازى أولئك على نسيانهم بأن أنساهم الإيمان ومحبته وذكره وشكره فلما خلت قلوبهم من ذلك؛ لم يجدوا عن ضده محيصاً.

وهذا يبين لك كمال عدله سبحانه في تقدير الكفر والذنوب عليها وإذا كان قضاؤه عليها بالكفر والذنوب عدلاً منه عليها فقضاؤه عليها بالعقوبة أعدل وأعدل فهو سبحانه ماضٍ في عبده حُكْمَه، عدل فيه قضاؤُه)[1].

ثالثًا- من أساليب الدعوة: القسم والترهيب:

أما القسم والأمر فقوله ﷺ: "والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر" وذلك ليؤكد الأهمية القصوى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وخطورته في حياة المسلمين، أما الترهيب فذكره ﷺ العقاب المترتب على إهمال الأمر بالمعروف وإهمال النهي عن المنكر، وذلك ليخوّف ويرهب من اقتراف هذا الشأن.

---

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، ابن القيم محمد بن أبي بكر ٧٥٢هـ، وهي طبعة مصورة، دار المعرفة، بيروت: ١٣٩٨هـ ص ١٣٥.

الحديث رقم (١٩٤)

١٩٤- الْحَادي عشَرَ: عنْ أَبِي سَعيد الْخُدريِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عندَ سلْطَانٍ جائِرٍ» رواه أبو داود، والترمذيُّ[1]، وقال: حديثٌ حسنٌ.

ترجمة الراوي:

أبو سعيد الخدري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٠).

غريب الألفاظ:

جائر: أي صاحب جور وظلم[2].

الشرح الأدبي

إن الجهاد في سبيل الله تتعدّد ألوانهُ، وتتكامل دوافعهُ، وتلتقي مشاربهُ، وكل ما يعلي من شأن العقيدة، ويعلي راية الإسلام، ويحفظ للمسلمين قوتهم ووحدتهم، وعزتهم وكرامتهم، هو جهاد في سبيل الله، أيا كانت الوسيلة، لأن الغاية سامية، والوسيلة مشروعة، فالجهاد بالنفس أو بالمال أو بالنصيحة أو باللسان أو بمواجهة الظالمين، وردع اللاهين العابثين، والحديث النبوي الشريف يتسم هنا بالإيجاز، ولكنه إيجاز غير مخل، فكل كلمة لها ظلالها، ولها إشعاعها، والحديث جملة واحدة، ولكنها تشع بكثير من المعالم والقضايا، وتوحي إلى كل صاحب قلم أن يترك العنان لقلمه كالجواد الجموح الأصيل ليكتب كلمة الحق، وليصول ويجول في ميدان الدعوة وتبصرة الناس وإرشادهم بالحكمة والموعظة الحسنة، وتوحي كذلك بل وتوجب على كل صاحب بيان، وقوة حجة، ونصاعة برهان أن لا يتفوه إلا بالحق، ولا يقر إلا بالعدل، لأنه لا يكب الناس في النار على وجوههم، إلا حصائد ألسنتهم، ولذلك يبدأ الحديث بأفعل التفضيل، وبالمادة اللغوية نفسها، "فضل"، فيقول: "أفضل الجهاد": ثم

---

(١) برقم (٢١٧٤) ولفظه: (إنَّ من أعظم الجهاد)، والمثبت لفظ أبي داود (٣٧٨١). قال الحافظ ابن حجر في الأمالي المطلقة (ص: ١٩٦): هذا حديثٌ حسنٌ. أورده المنذري في ترغيبه (٣٤٠١).

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٧٦٦/٢.

يخبر عن هذا الأفضل بأنه كلمة عدل عند سلطان جائر.

والحديث جاءت صياغته في قالب "الجملة الاسمية"، وخلا من أى فعل مرتبط بزمن، حتى لا تتقيد الدلالة بزمن ما، في الماضي أو الحاضر أو المستقبل، وإنما تظل هذه الحقيقة ثابتة دائمة في كل جيل، وفي كل مكان، فللعلماء كلمتهم، وللدعاة منهجهم، وكلمة العدل تنبه السلطان الجائر، وتردع الوالي الظلوم، وهم الذين صورهم رسول الله في قوله: "إن شر الرعاء الحطمة".

"والكلمة" في الحديث المراد منها النصيحة الصادقة لأئمة المسلمين وعامتهم، وابن مالك يقول: "وكِلْمة بها كلام قد يُؤم"، فالمراد ليس كلمة واحدة، ولكنه موقفٌ فيه مجابهة ومكاشفة ومناصحة.

والحديث يزدان بالمقابلة البديعية بين موقفين أحدهما محمود والآخر مذموم، فالمحمود كلمة العدل، والمذموم السلطان الجائر، وكلمة "عنده"، تفيد التحديد والمواجهة أى في حضرة هذا السلطان تكون حكمة البيان، وفصاحة اللسان، وثبات الجنان، وتحمل المشقة والمكابدة لأن السلطان الجائر ، كالسيف الباتر، قد لا يستجيب للإرشاد، ويظل سادراً في الغي والفساد.

وعلى المجاهد الصبرُ والاحتسابُ ولا يهرب من ساحة الدعوة إلى سبيل الله، بل يقاوم ويصمد في الميدان. فالجهاد كلمة مأخوذة من الفعل: "جهد"، وجهد يجهد جَهْداً: واجْتهد: كلاهما بمعنى جد.

وأصل الجَهْد والجُهْد هو الطاقة، وقيل، الجَهْد: المشقة، والجُهْد: الطاقة، وقال ابن الأثير، تكرر لفظ الجَهْد والجُهْد في الحديث، وهو بالفتح المشقة، وقيل المبالغة والغاية، وبالضم: الطاقة.

وفي القرآن الكريم: ورد الفعل جَاهَد، وما يشتق منه في إحدى وأربعين آية، وقد حمل معنى كل ما في الوسع والطاقة، من قول أو فعل أو بذل في مواجهة الأعداء، ومادة "عدل"، في القرآن الكريم، جاءت تحمل عدة معان ومنها العدل في القول، والعدل في الحكم، والعدل في الإشراك، والعدل : أي الفدية، والعدل بمعنى قصد

الحق في الحكم هو الذي شاع في حياة المسلمين، وصار بعد نزول القرآن أحد القواعد الأساسية التي يقوم عليها نظام الحكم في الإسلام.

فالحاكم الجائر غير عادل وهو في حاجة إلى كلمة عدْل: أي حق في معانيها، نابعة من شعور صادق، ونية خالصة. وهذا هو أفضل إليها "كلمة حق عند سلطان جائر".

المضامين الدعوية[(١)]

أولاً: من مهام الداعية: إرشاد المدعوين.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: فضل كلمة الحق عند السلطان الجائر.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: مراتب الجهاد ودرجاته.

رابعاً: من آداب المدعو: السؤال عن معالي الأمور وأفضلها.

خامسًا: من أساليب الدعوة: الترغيب، والسؤال والجواب.

أولاً- من مهام الداعية: إرشاد المدعوين:

إن الداعية بما عنده من علم يرشد المدعوين إلى ما يكون فيه صلاحهم وفلاحهم، ومن ذلك أن يرشدهم إلى أفضل الجهاد كما في هذا الحديث وذلك في قول النبي ﷺ "كلمة حق عند سلطان جائر" جواباً على سؤال الرجل "أي الجهاد أفضل"، فقد أرشده ﷺ إلى ما سأل عنه وأفاده.

وهكذا الداعية دائماً يرشد المدعوين إلى ما فيه خيرهم ونفعهم: قال الله تعالى: عن مؤمن آل فرعون: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[(٢)].

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ((إن فاطمة رضي الله عنها اشتكت ما تلقى من الرحى مما تطحن، فبلغها أن رسول الله ﷺ أُتي بسبي، فأتته تسأله خادماً فلم توافقه، فذكرت لعائشة رضي الله عنها، فجاء النبي ﷺ فذكرت ذلك عائشة له. فأتانا وقد دخلنا مضاجعنا فذهبنا لنقوم فقال: على مكانكما حتى وجدت برد قدميه على صَدْري

(١) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٩٤- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٩٥).

(٢) سورة غافر، آية: ٣٨.

فقال: ألا أدلكما على خير مما سألتماني؟ إذا أخذتما مضاجعكما فكبّرا الله أربعاً وثلاثين واحمدا ثلاثاً وثلاثين وسبحا ثلاثاً وثلاثين فإن ذلك خير لكما مما سألتماه))(١).

فالنبي ﷺ (علمهما - كما قال ابن حجر- ما هو الأولى بحالهما من الذِكْر عوضاً عما طلباه من الخادم، فهو من باب تلقي المخاطب بغير ما يطلب إيذاناً بأن الأهم من المطلوب هو التزود للمعاد والصبر على مشاق الدنيا والتجافي عن دار الغرور)(٢).

وقال ابن هبيرة: (فيه أن التسبيح خير من خادم، لأنه جمع لها بين تسبيح الله ثلاثاً وثلاثين وحمده ثلاثاً وثلاثين وتكبيره أربعاً وثلاثين يكمل ذلك مائة. فكتب الله به ألف حسنة، ولقد عوضها رسول الله ﷺ بِنِعْم العوض، فإن كل من سبح بهذه التسبيحات عاملاً بهذا الحديث، ممن بلغه ويبلغه إلى يوم القيامة فإن لفاطمة رضي الله عنها بركة من عمله، لأنها هي التي أثارت هذه السنة بسؤالها المبارك، فصار العاملون كلهم بهذا الحديث حيث كانت هي المثير له، خادمين بالثواب الذي يتصل من علمهم إليها من غير أن ينتقص من أجورهم شيء)(٣).

ثانياً- من موضوعات الدعوة: فضل كلمة الحق عند السلطان الجائر:

لقد وصف النبي ﷺ قول كلمة الحق عند السلطان الجائر أنها أفضل الجهاد. وذلك لأنه (جهاد - كما يقول السندي- قلّ من ينجو فيه، وقلّ من يُصوِّب صاحبه، بل الكلُّ يخطئونه أولاً، ثم يؤدي إلى الموت بأشد طريق عندهم بلا قتال بل صبراً(٤)، والله تعالى أعلم)(٥).

وكلمة الحق عند السلطان الجائر تكون (بما أفاد أمراً بمعروف أو نهياً عن منكر من لفظ أو ما في معناه ككتابة ونحوها)(٦).

---

(١) أخرجه البخاري ٣١١٣، ومسلم ٢٧٢٧.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٢٨/١١.

(٣) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٢٥٦/١.

(٤) قتله صبرا: حبسه حتى مات. المعجم المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٥٠٦.

(٥) حاشية السندي على سنن النسائي ١٨١/٧.

(٦) عون المعبود على سنن أبو داود، محمد أشرف بن أمير العظيم آبادي ١٨٨٣، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٧٦٥/٢.

وقد أخبر النبي ﷺ أن من أمر السلطان الجائر ونهاه فقتله كان سيد الشهداء، قال ﷺ: ((سيد الشهداء حمزة بن عبدالمطلب ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله))(١).

وقال أبو حامد الغزالي: (لما علم المتصلبون في الدين أن أفضل الكلام كلمة حق عند سلطان جائر وأن صاحب ذلك إذا قتل فهو شهيد كما وردت به الأخبار قَدِمُوا على ذلك موطّنين أنفسهم على الهلاك ومحتملين أنواع العذاب وصابرين عليه في ذات الله تعالى، ومحتسبين لما يبذلونه من مهجهم عند الله)(٢).

ومما يذكر في نصح الولاة والأمراء والسلاطين ما ذكر: أن عطاء بن أبي رباح دخل على عبدالملك بن مروان وهو جالس على سريره وحواليه الأشراف من كل بطن، وذلك بمكة في وقت حجه في خلافته، فلما بصر به قام إليه وأجلسه معه على السرير وقعد بين يديه وقال له: يا أبا محمد ما حاجتك؟ فقال: أمير المؤمنين؛ اتق الله في حرم الله وحرم رسوله فتعاهده بالعمارة، واتق الله في أولاد المهاجرين والأنصار فإن بهم جلست هذا المجلس، واتق الله في أهل الثغور فإنهم حصن المسلمين. وتفقد أمور المسلمين فإنك وحدك المسؤول عنهم. واتق الله فيمن على بابك فلا تغفل عنهم ولا تغلق بابك دونهم. فقال له: أجل أفعل. ثم نهض وقام فقبض عليه عبدالملك فقال: يا أبا محمد إنما سألتنا حاجةً لغيرك وقد قضيناها فما حاجتك أنت؟ فقال: ما لي إلى مخلوق حاجة. ثم خرج فقال عبدالملك: هذا وأبيك الشرف(٣).

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: مراتب الجهاد ودرجاته:

سؤال الرجل: أي الجهاد أفضل؟ وجواب النبي ﷺ بأنه كلمة الحق عند السلطان الظالم، دل على أن للجهاد مراتب ودرجات. وكان جهاد الولاة الظالمين بكلمة الحق من أفضل الجهاد، (وإنما صار ذلك أفضل الجهاد - كما يقول الخطابي-؛ لأن من

---

(١) أخرجه الحاكم ١٩٥/٣، وصححه الألباني (السلسلة الصحيحة ٣٧٤).

(٢) إحياء علوم الدين، الإمام الغزالي ١٢٥٦/٣.

(٣) المرجع السابق ١٢٦٠/٣.

جاهد العدو كان متردداً بين الرجاء والخوف لا يدري هل يغلِب أو يُغلب وصاحب السلطان مقهور في يديه فهو إذا قال الحق وأمره بالمعروف فقد تعرض للتلف، فصار ذلك أفضل أنواع الجهاد من أجل غلبة الخوف)[١].

كما كان أفضل الجهاد؛ (لأن ظلم السلطان يسير في جميع من تحت سياسته وهو جم غفير، فإذا نهاه عن الظلم فقد أوصل النفع إلى خلق كثيرٍ بخلاف قتل كافر)[٢].

(إن قيمة جهاد الكلمة وبلوغ ممارسها منزلة سيد الشهداء في سبيل الله، كما أخبر بذلك الرسول ﷺ إنما تعود إلى الأمور التالية:

١- أن الكلمة الشجاعة القوية تعرض صاحبها للمخاطر والمهالك؛ لأن المجاهد في الميدان ضد الكفار يجاهد في معركة جلية، وهو بين احتمالين: نصر وعزة في الدنيا، أو شهادة يذوق فيها الموت مرة واحدة، أما مجاهد الكلمة: فهو فرد أعزل أمام سلطة ذات بأس شديد، واحتمال هلاكه أكثر من سلامته.

٢- المجاهد بالكلمة الصادقة في معركة خفية مبهمة عند الناس، ولاسيما في زمن انتشار البدع وضعف الإسلام وقلة حماته، وبالتالي: فهو يتعرض -ميتاً وحياً- للتشويه والتجريم، فهو عند السلطة التي لا تحكم بالإسلام مرتكب خيانة ومجرم سياسي خطير، فيتسنى لها إلصاق التهم به واستخدام كل الوسائل المؤثرة لديها لتحقيق ذلك من خلال الشرطة، والإعلام، وتحريف الكلم والحقائق. واعتبار قول الحق انحرافاً ورجعيةً، والاحتساب بذلك -في نظرها- فتنة وجريمة وخروج عن السلطة الحاكمة بأمرها.

٣- إن مجاهد الكلمة معرَّض للفتنة أكثر من مجاهد السلاح واليد، والنجاة من الفتنة أشق؛ لأن فتنة التعذيب والسجن قد تسبب الانهيار العصبي والكآبة، فقد ينقلب من صف المصلحين إلى نقيضهم.

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٢٠٨/٧، وعون المعبود على سنن أبو داود، محمد أشرف بن أمير العظيم آبادي ١٨٨٣.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٢٠٨/٧.

ومن هنا: ندرك مغزى ورود نصوص الجهاد والأمر بالمعروف، مثل قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1]، ومن هذه الآية يفهم أن كلمة الحق واجب عيني على جماعة القادرين من أهل العلم والدراية، كالعلماء ورجال الفكر والمختصين في الميادين التي يشيع فيها المنكر)[2].

أما جهاد العدو بالسلاح فالآيات والأحاديث في فضله كثيرة مشهورة[3]، من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾[4].

وعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: ((سألت النبي صلى الله عليه وسلم أي العمل أفضل؟ قال: إيمان بالله وجهاد في سبيله))[5].

قال العز بن عبدالسلام: (يشرف البذل بشرف المبذول وأفضل ما بذله الإنسان نفسه وماله ولما كانت الأنفس والأموال مبذولة في الجهاد، جعل الله من بذل نفسه في أعلى رتب الطائعين وأشرفها بشرف ما بذله، مع محو الكفر ومحق أهله وإعزاز الدين وصون دماء المسلمين)[6].

رابعاً- من آداب المدعو: السؤال عن معالي الأمور وأفضلها:

يتمايز الناس فيما ينشغلون به وبما يسألون عنه[7]، وكلما كان المدعو شغوفاً

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٠٤.

(٢) تأملات في فقه الجهاد، محمد بن عبدالله الشباني، مجلة البيان، تصدر عن المنتدى الإسلامي، العدد ١٠٩ ص ٣٤-٣٥.

(٣) انظر: كتاب الجهاد من رياض الصالحين، الأحاديث ١٢٨٧-١٣٥٤.

(٤) سورة التوبة، آية: ١١١.

(٥) أخرجه البخاري ٢٥١٨، ومسلم ٨٤.

(٦) أحكام الجهاد وفضائله: عز الدين بن عبدالسلام، تحقيق نزيه حماد.

(٧) ويقول المتنبي: وتكبر في عين الصغير صغارها وتصغر في العين العظيم العظائم.

بالسؤال عن معالي الأمور ليعمل بها، كان ذلك علامة صدق على إيمانه فعلى المدعو أن يسأل عن أفضل الأمور كما في ذلك الحديث. وهذا واضح من سؤال الرجل للنبي ﷺ "أي الجهاد أفضل" فإن الرجل لا يسأل عن فضل الجهاد بوجه عام وإنما يسأل عن أكثر الجهاد ثواباً وأجراً عند الله، وقد أثنى الله تعالى على عباده الذين يتبعون أحسن ما يسمعون.

قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1] (أي يقدمون الأحسن الذي هو أشد حسناً على الأحسن الذي هو دونه في الحسن ويقدمون الأحسن مطلقاً على الحسن)[2]، (ويدخل تحته إيثار الأفضل من كل نوعين اعترضا، كالواجب مع الندب والعفو مع القصاص والإخفاء مع الإبداء في الصدقة، وهكذا)[3].

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يسألون النبي ﷺ عن أفضل الأعمال، وكذلك عن أكبر الذنوب. فهذا أبوذر رضي الله عنه يسأل النبي ﷺ: ((أي الأعمال أفضل))[4] وحكى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ سُئِلَ هذا السؤال[5] وابن مسعود رضي الله عنه يسأله ﷺ: ((أي الأعمال أحب إلى الله؟))[6] وعبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما يحكي أن رجلاً سأل النبي ﷺ: أي الإسلام خير؟ [أي أمور الإسلام][7]، وفي رواية ((أي المسلمين خير؟))[8] وهذا أبو موسى الأشعري رضي الله عنه يقول: ((قالوا يا رسول الله، أي الإسلام

---

(١) سورة الزمر، آية: ١٧-١٨.

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمدالأمين بن محمد المختار الشنقيطي ٤٨/٧.

(٣) محاسن التأويل، القاسمي ٢٠٢/١٤.

(٤) أخرجه البخاري ٢٥١/٨، ومسلم ١٣٦-٨٤.

(٥) أخرجه البخاري ٢٦، ومسلم ١٣٥-٨٣.

(٦) أخرجه البخاري ٥٢٧، ومسلم ١٣٧-٨٥/١٣٩.

(٧) أخرجه البخاري ١٢، ومسلم ٦٣-٣٩.

(٨) أخرجه البخاري ١٠، ومسلم ٦٤-٤٠ وهذا لفظه.

أفضل؟))[١] وفي رواية ((أي المسلمين أفضل؟))[٢].

وهذا عبدالله بن مسعود رضي الله عنه يحكي أن رجلاً سأل النبي ﷺ: ((أي الذنب أكبر عند الله؟))[٣]. وإنما سأل الصحابة رضوان الله عليهم عن أفضل الأعمال ليعلموها ويعملوا بها وعن أكبر الذنوب ليجتنبوها أشد الاجتناب

خامساً: من أساليب الدعوة: الترغيب والسؤال والجواب:

لقد استخدم النبي ﷺ أفعل التفضيل "أفضل"، ليرغب في هذا العمل ويحببه إلى المدعوين.

والجواب على السؤال أسلوب من أساليب الدعوة استخدمه النبي ﷺ ليوضح ما سأل عنه السائل فيشبع رغبته في العلم ومن ثمّ العمل.

(١) أخرجه البخاري ١١، ومسلم ٦٦-٤٢ واللفظ لفظ البخاري.

(٢) أخرجه مسلم ٦٦-٤٢.

(٣) أخرجه البخاري ٦٨٦١، ومسلم ١٤٢-٨٥.

الحديث رقم (١٩٥)

١٩٥- الثَّاني عَشَر: عنْ أَبِي عبدِ اللَّه طارِقِ بنِ شِهابٍ البُجَلِيِّ الأَحْمَسِيِّ ﵁ أَنَّ رجلاً سأَلَ النَّبِيَّ ﷺ، وقدْ وَضعَ رِجْلَهُ في الغَرْزِ: أَيُّ الجِهادِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «**كَلِمَةُ حقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جائِرٍ**» رَوَاهُ النسائيُّ[1] بإسنادٍ صحيحٍ.

«الْغَرْز» بِعَيْنٍ مُعْجَمةٍ مَفْتُوحةٍ ثُمَّ راءٍ ساكنة ثم زَاي، وَهُوَ ركَابُ كَورِ الجمَلِ إِذَا كَانَ مِنْ جِلْدٍ أَوْ خَشَبٍ، وَقِيلَ: لاَ يَخْتَصُّ بِجِلدٍ وَخَشَبٍ[2].

ترجمة الراوي:

طارق بن شهاب البَجَليُّ: وهو طارق بن شهاب بن عبد شمس بن سَلَمة بن هلال بن عوف بن جُشم البَجَليُّ الأَحَمَسيُّ، يكنى بأبي عبدالله، وهو في عداد الكوفيين.

أدرك الجاهلية، ورأى النبي ﷺ وهو رَجَلُ، فروى عنه أنه قال: رأيت رسول الله ﷺ وغزوت في خلافة أبي بكر وعمر ثلاثاً وثلاثين أو ثلاثاً وأربعين من غزوة إلى سرية[3].

دعا رسول الله ﷺ لقومه فعن طارق بن شهاب البَجَلي أنه قال: قدم وفد أحَمَسَ ووفد قَيْس على رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ ابدءوا بالأحْمَسيين قبل القيسيين، ثم دعا لأحَمَسَ فقال: اللهم بارك في أحَمَسَ وخيلها ورجالها، سبع مرات[4].

قال عنه يحيى بن معين "ثقة"، وقال أبو داود: قد رأى النبي ﷺ ولم يسمع منه شيئاً، وأرسل عن النبي ﷺ، وقال الإمام ابن حجر في الإصابة إذا ثبت أنه لقي النبي ﷺ فهو صحابي على الراجح، وإذا ثبت أنه لم يسمع منه فروايته عنه مرسل

---

(١) المجتبى (٤٢٠). وقال المنذري في الترغيب (١٧٨/٣): رواه النسائي بإسناد صحيح. وأورده في ترغيبه (٣٤٠٢).

(٢) بنصه في الترغيب (١٧٨/٣).

(٣) أخرجه أحمد (١٣٠/٣١) رقم (١٨٨٣٥)، وقال محققو المسند: إسناده صحيح.

(٤) أخرجه أحمد (١٢٩/٣١) رقم (١٨٨٣٤)، وقال محققو المسند: إسناده صحيح.

صحابي، وقال أبو حاتم "صدوق" وقال الإمام الذهبي في كتابه سير أعلام النبلاء "فأما قول أبي الفرج بن الجوزي ضَعَّفَه علماء النقل فهفوة، فإلى الساعة ما وجدت أحداً ضعفه، وحسبك قولُ المتَعنِّتِ في النقد أبي حاتم فيه" قال "صدوق".

أما عن وفاته فقال الهيثم بن عدي مات أيام الجماجم، وابن البرقي في سنة ٨٢، وعمر بن علي ٨٣، وقيل سنة ٨٤[١].

غريب الألفاظ:

الغرز: فسَّرها النووي، و المراد: أنه أراد السَّفر[٢].

الشرح الأدبي

إن هذا الحديث يتفق في معناه وفي لفظه مع الحديث السابق، ولكن الراوي ليس واحداً، وهذا الحديث يتضمن زيادة في مقدمته: وهي أن هذا الحديث لم يقله الرسول ﷺ مشافهة أو مجرداً من السؤال والجواب، حيث يقدمه الراوي في صيغة حوارية، بين رسول الله ﷺ وأحد الصحابة، وفي هذا الحديث إضافة أخرى تتضمن وصف هيئة النبي ساعة ركوبه البعير، مصوراً حال النبي ﷺ حيث قال: وقد وضع رجله في الغرز، فهي جملة خالية من مفعول سأل، والغرز: هو ركاب كور الجمل إذا كان من جلد أو خشب، وقيل: لا يختص بجلد وخشب وهذا الوصف يظهر دقة الصحابة في نقل الهيئة والنص.

والسؤال الذي توجه به ذلك الرجل إلى رسول الله هو: "أي الجهاد أفضل"؟ وهذا السؤال في ذلك السياق يوحي بأن الرسول ﷺ كان يستعد للجهاد، ولذلك سأل

---

(١) الطبقات الكبرى، ابن سعد (٦/٦٦)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر (٣٦٧)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٦٨/٣)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي (٦٣٢، ٦٣٣)، وسير أعلام النبلاء (٢٠٤٨/٢)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين (٤٩١/٣، ٤٩٢)، والسندي (١٢٤/٣١).

(٢) رياض الصالحين ١٢٧، والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (غ ر ز).

الرجل عن أفضل الجهاد، وبداية الحديث السابق تقوى من ذلك التفسير، لأن الروايات المتعددة للحديث الواحد يجب الموازنة بينها، والوقوف على أوجه الإتفاق وأوجه المغايرة، فإن بعضها يفسر البعض الآخر.

وإجابة المصطفى ﷺ في هذا الحديث، لم يرد فيها صدر الحديث السابق، "أفضل الجهاد" لأن سؤال الصحابي قد تضمن ذلك، ولذلك لم يكرر الرسول: ما جاء على لسان السائل؟.

وذلك من سمات البلاغة النبوية: حيث اتسمت بالخلوص والقصد والاستيفاء والإيجاز كما يقول الرافعي، ويقول أحمد حسن الزيات، أن أخص ما يميز الأسلوب النبوي الأصالة والإيجاز، فالأصالة هي خصوصية اللفظ وطرافة العبارة، تتجلى فيما كان ينهجه الرسول من المذاهب البيانية، ويرتجله من الأوضاع التركيبية، ويضعه من الألفاظ الاصطلاحية، وبلاغة الرسول من صنع الله، وما كان من صنع الله تضيق موازين الإنسان عن وزنه، وتقصر مقاييسه عن مقياسه، فنحن لا ندرك كنهه، وإنما ندرك أثره، ونحن لا نعلم إنشاءه، وإنما نعلم خبره، وهل يدرك المرء من آثار الشمس غير الضوء والحرارة، وهل يعلم من أسرار الروض غير العطر والنضارة؟[1].

والجملة الحديثية هنا تضمنت "كلمة حق" وفي الحديث السابق جاءت "كلمة عدل"، وهما يتوهجان بكثير من الدلالات، ويتلاقيان في كثير من الإيحاءات والتصورات، "فالحق" في دلالته اللغوية والاصطلاحية كما جاء في القاموس المحيط من أسماء الله تعالى أو من صفاته، وهو القرآن، وضد الباطل وهو الأمر المقضي والعدل، والإسلام، والمال، والملك، والموجود الثابت، والصدق، والموت والحزم، "وكلمة الحق" يمكن أن تتضوأ في آفاقها كل هذه الدلالات ، ومن هنا ندرك منبع الإيجاز في بلاغة المصطفى المختار.

وقوله "كلمة عدل" في الحديث السابق، تعطي دلالات كثيرة، وتغرس في قلب المؤمن الثبات والقدرة على المواجهة وقول الحق والنصيحة الخالصة، وقوله هنا "كلمة

---

(١) انظر: وحي الرسالة ٣/ ٨١.

حق" تؤكد هذا المنهج الصادق الصارم الذي يدفع المؤمن إلى أفضل الجهاد وهو الجهاد بالكلمة، وما أحوج الأمة في هذا العصر إلى أن يجأر علماؤها وحكماؤها بكلمة الحق العادلة: في وجه كثير من الولاة والطغاة الجائرين المستبدين، وهذا أفضل الجهاد لأنه كما يقول صاحب دليل الفالحين، يدل على كمال يقين فاعله، وقوة إيمانه، وشدة إيقانه، حيث تكلم بتلك الكلمة عند ذلك الأمير الجائر المهلك عادة بجوره وظلمه، ولم يخف منه، ولا من جوره وبطشه، بل باع نفسه في سبيل الله، وقدّم أمر الله وحقه على حق نفسه، وقد وردت كلمة الحق في القرآن في مائتين وسبع وعشرين آية، وهى تُعَلى من شأن هذا المنهج الصادق الصارم.

المضامين الدعوية[1]

---

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (١٩٦)

١٩٦- **الثَّالِثَ عشَرَ:** عن ابن مَسْعُودٍ رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ أَوَّلَ مَا دخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرائيلَ أَنَّه كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ فَيَقُولُ: يَا هَذَا اتَّق اللَّه وَدعْ مَا تَصنَعُ فَإِنَّهُ لا يَحِلُّ لك، ثُم يَلْقَاهُ مِن الْغَدِ (وَهُو عَلَى حالِهِ)[1]، فلا يمْنَعُه ذلِك أَنْ يكُونَ أَكِيلَهُ وشَرِيبَهُ وَقعِيدَهُ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّه قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ» ثُمَّ قال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ داوُدَ وعِيسَى ابنِ مَرْيمِ ذلِك بما عَصَوْا وكَانوا يعْتَدُونَ، كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ ما كانُوا يَفْعلُون ترى كثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَاسِقُونَ﴾[المائدة: ٧٨، ٨١] ثُمَّ قَالَ: «كَلاَّ، وَاللَّه لَتَأْمُرُنَّ بالْمعْرُوفِ، ولَتَنْهوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، ولَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ، ولَتَأْطِرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْراً، ولَتقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْراً، أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللَّه بقُلُوبِ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ، ثُمَّ لَيَلْعَنكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ» رواه أبو داود، والترمذيُّ[2]، وقال: حديث حسن.

هَذَا لفظ أَبي داود، ولفظ الترمذي، قَالَ رَسُول اللّه صلى الله عليه وسلم: **((لَمَّا وَقَعَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي المَعَاصي نَهَتْهُمْ عُلَمَاؤهُمْ فَلَمْ يَنْتَهُوا، فَجَالَسُوهُمْ فِي مَجَالِسِهِمْ، وَوَاكَلُوهُمْ وَشَارَبُوهُمْ، فَضَرَبَ اللهُ قُلُوبَ بَعضِهِمْ بِبعْضٍ، وَلَعَنَهُمْ عَلَى لِسانِ دَاوُد وعِيسَى ابنِ مَرْيَمَ ذلِكَ بما عَصَوا وَكَانُوا يَعتَدُونَ))** فَجَلَسَ رَسُول اللّه صلى الله عليه وسلم وكان مُتَّكِئاً، فَقَالَ: **((لا، والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى تَأطِرُوهُمْ عَلَى الحَقِّ أطْراً))**.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٧).

---

(١) قوله: (وهو على حاله) لا يوجد عندهما.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٣٣٦) واللفظ له، والترمذي (٣٠٤٧). أورده المنذري في ترغيبه (٣٤١٣) وقال: روياه من طريق أبي عبيدة، عن أبيه، ولم يسمع منه، وقيل: سمع منه، ورواه ابن ماجه ٤٠٠٦ مرسلاً.

غريب الألفاظ:

تَأطِرُوهم: أي تعطفوهم.

ولتقْصُرُنَّهُ: أي لتحبسُنَّه.

الشرح الأدبي

إن المنهج الإسلامي الصحيح هو مطابقة الأفعال للأقوال، وإذا اختل هذا المنهج فإن حياة المسلم يغزوها الفساد، ويحكمها القلق والاضطراب؛ وفي ظل التمسك بهذا المنهج يُحذر الحق سبحانه جموع المؤمنين من أن ينزلقوا إلى هذه الهوَّة، وإلا فقدوا مصادر العزة والقوة، وفي سورة الصف يأتي ذلك التحذير إشارة إلى أن المنهج هو الطريق إلى تكاتف الجماعة المؤمنة الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص، يقول الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[1]. والفعل المناقض للقول من مظاهر النفاق هو منْهج بني إسرائيل، وإيغالهم فيه، هو الذي زلزل كيانهم، وشتت شملهم، لأنهم كانوا لا يتناهَوْن عن منكر فعلوه، وكانوا ينصحون العاصين نصيحة كلامية، ويقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، وكانوا يصاحبون هؤلاء الآثمين، ويجلسون في مجالسهم ويشاركونهم مأكلهم ومشربهم، وأماكن لهوهم.

ويحذر الرسول أصحابه وكل المسلمين أن يكونوا على شاكلة بني إسرائيل حتى لا يكون مصيرهم الفتن والهلاك.

وفي ظل هذا المنهج السَّديد، نتأمل ونتدبر جماليات الأداء الأسلوبي والتصوير الفني، والبناء اللغوي في هذا الحديث الشريف، والحديث يتكون من ثلاثة أقسام... وكلها تتكامل ويشد بعضها بعضاً لتوصيل المعنى وتأكيد المقصد.

والقسم الأول: هو تقديم الأنموذج السلبي المتمثل في بني إسرائيل: حينما حادوا عن المنهج، وخالفت أفعالُهم أقوالهم، وتوظيف أحداث التاريخ، والاقتداء بمصائر الأمم

---

(١) سورة الصف، الآيتان: ٢، ٣.

السابقة، إيجاباً وسلباً من خصائص ووسائل الإقناع في المنهج الإسلامي، لأنها شواهد حية، وعبر صادقة.

والقسم الثاني: يمثل ظاهرة من ظواهر التكوين الأدائي في الحديث النبوي، وهى تَضَمّن الأحاديث بعض آيات القرآن الكريم، التي تلتحم بالمعنى وتقوي المبني، وتضاعف من التأثير والإقناع والإمتاع.

وفي قلب الحديث الشريف تشرق آيات من سورة المائدة وهى أصدق شاهد على انحراف بني إسرائيل عن المنهج الإلهي في مقاومة التعدي على حدود الله، ومقاومة الظالمين الآثمين ، الذين يداهنون العصاة، ويتولون الكافرين ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ۝٧٩ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ۝٨٠ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾[1].

والقسم الثالث: هو المقصد الأسنى لهذه الأمة من ذلك الحديث الشريف: ويتمثل في هذه الأوامر الصارمة، والأساليب المؤكدة، والأمر بالأخذ على يد الظالم، وإلا فالمصيرُ معروف: وهو سيكون مثل مصير بني إسرائيل : "ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض، ثم ليلعنكم كما لعن بني إسرائيل".

ويبدأ الحديث بالتأكيد بإنَّ في سياق الإخبار عن بني إسرائيل، وتعليل دخول النقص عليهم وتشتيت شملهم وهو أنه كان الرجل يلقي الرجل فيقول: ياهذا اتق الله، ثم بعد ذلك يصاحبه وهو على حاله من الإثم.

وهذه الجملة أيضاً تبدأ بالتأكيد وضمير الشأن أنّه، ولفظ أول، في الجملة الأولى:

---

(١) سورة المائدة، الآيات: ٧٨-٨١.

يوحي بخطورة هذا المسلك، الإمَّعيّ: وخاصة من العلماء الناصحين، ويؤيد ذلك ما جاء في الرواية الثانية للحديث، لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤهم: فلم ينتهوا فجالسوهم، وواكلوهم، وشاربوهم.

وفي الحديث إيجاز بالحذف لإثارة الاهتمام، وإعمال العقل، وكد الفكر، فقوله: كان الرجل يلقي الرجل أي: كان الرجل الناصح العالم، يلقي الرجل الفاعل معصية، والعطف بالفاء في قوله: فيقول: يرشد إلى ضرورة الإسراع في النصيحة، وعدم التأني، وعدم الخجل، ولكن الصدق ينجي، والدين النصيحة.

والنداء بحرف الياء مع اسم الإشارة: يفصح عن أهمية التوجيه والتنبيه، وضرورة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والعدول عن حرف النداء "الهمزة"، وهو للقريب إلى الياء وهو للبعيد للإيحاء بأن هذا العاصي سادر في غيه، وكأنه بعيد عن صوت النصيحة، ويحتاج إلى صوت قوي شديد، ونداء كأنه صادر من بعيد.

وقوله: ياهذا، يوحي بالسخرية والتحضير، واسم الإشارة في سياقات أخرى محمودة يدل على التمييز الكامل، أما هنا فالسياق مختلف، وفعلا الأمر "اتق الله ودع ما تصنع"، يزيدان الموقف جلاءً، والأمر تأكيداً، وقدم التقوى على ترك الفعل الآثم، لأن التقوى طريق الصلاح والطاعة، ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾[1].

والعطف "بثم" في قوله: ثم يلقاه من الغد، يومئ إلى عدم متابعة هذا الناصح لذلك العاصي، وفي ذلك تقصير، ويا ليت الأمر يقف عند هذا التقصير، وسوء التدبير، ولكن ذلك العالم الناصح يُهْزَم أمام إغراء المعصية، ولنتأمل هذه المفارقة العجيبة التي تكشف هشاشة موقف علماء بني إسرائيل ومن على شاكلتهم من خطباء الفتنة، وبعض الدعاة المنافقين، المأجورين، والأدعياء الغافلين.

ولنتأمل هذه الصيغة اللغوية التي كررت ثلاث مرات: أكيله وشريبه وقعيده، وهي تدل على المشاركة والمنادمة والمباسطة، والرضا بما يفعل، والوقوع في شرك هذا الفعل

(١) سورة البقرة، آية: ١٩٧.

الآثم؛ وما أخطر هذا السلوك الذي انتشر في المجتمعات الإسلامية تحت عناوين زائفة، ومسميات راجفة، ودعاوى مجحفة، ومنها الصداقة، والحرية، وعدم الإجبار، والرغبة في التجريب، واكتساب الخبرة.

ولكن الجزاء الأوفى السريع يُفصح عنه العطف بحرف الفاء، وأشار إلى هذا السلوك المنحرف باسم الإشارة "ذلك" في قوله: فما فعلوا ذلك، تضخيماً لهذا الأمر، وتشنيعاً له؛ والعقاب يأتي جواباً للشرط وهو قوله: ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، وتأمل وتدبر ما وراء قوله قلوب بعضهم ببعض، إنها تفوح بكل روائح الكراهية والعداء والحسد والتمزق؛ والفعل: ضَرب، يصور ذلك الصراع الكامن في النفوس، وقوله: بعضهم ببعض، يصور التصادم الشعوري، والنفسي والفكري، كما قال تعالى: ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾[1]. فما أدق هذا الأسلوب، وما أجمله، وما أوجزه، وإنه كما قال صاحبه من جوامع الكلم.

وتتوهج الآيات الكريمات في قلب الحديث كالشمس في كبد السماء، تتماوج دلالاتها الإشعاعية، وتكشف عورات بني إسرائيل الفكرية والسلوكية، وتحذر الأمة الإسلامية من هذا المصير المحتوم.

ويبدأ القسم الثالث: بالزجر والقسم في قوله: كلا والله، حرصاً على الأمة، وخوفاً على مصيرها وكيانها، وتتوالى التأكيدات في الجمل الست التالية.. التي تعد إنذارات للأمة، وأوامر جازمة صارمة: لا تقبل المراء ولا الالتواء، والأوامر صادرة من رسول الله للأمة جمعاء، وجاءت في صيغة المضارع التي تعلن عن وقوع هذه الأحداث المأمور بها في الحاضر والمستقبل: فهي سلوكيات تستمر مع الأمة كلها، لأنها من معالم منْهَجِها الثابت الشامل المتوازن الواقعي النابع من الإيمان بالألوهية والربوبية إيماناً ثابتاً لا تزلزله العواصف، ولا تهز ثباته الرياح، ولنتأمل هذا الإيقاع الصوتي: الذي يجسد المعنى، ويشخص الفكرة، حيث يتوالى في هذه الأفعال المضارعة التي تبدأ بلام الأمر، وتنتهي

---

(١) سورة الحشر، آية: ١٤.

بنون التوكيد الثقيلة، "لتأمرن – لتنهون، لتأخذن"، وفي سياق الأمر بالأخذ على يد الظالم نجد الإيقاع الصوتي المؤكد يقترن بضمير الغائب العائد على الظالم: لمزيد من التأكيد على مقاومته ويتصاعد الإيقاع والتوازي الأسلوبي، وتُلْقي الألفاظ بجُرْسها وظلالها على المعنى المراد: حتى يتأصل في النفوس، وتشحذ العقول وتظل الأمة في حالة استنفار، لمجابهة الاستعلاء والاستكبار من قبل الظالمين، وتتكرر عبارة علي "الحق" مرتين في سياق محاصرة الظالم، وإجباره على العودة إلى ساحة العدالة، وواحه الطاعة والسلام، ولنتأمل هذه القوة المعنوية والأسلوبية والإيقاعية في هاتين الجملتين، "ولتأطرنه على الحق أطرًا، ولتقصرنه على الحق قصراً"، إن السجع هنا يشد من عضد المعنى، وهو من بدائع الصياغة، ومن دلائل إحكامها، وختام الحديث يعانق أوله، حيث يؤكد المصطفى تحذيره للأمة من مخالفة المنهج حتى لا يكون مصيرها كبني إسرائيل.

فقه الحديث

١-لعن الكافرين: قال القرطبي: (قوله تعالى "لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم" فيه جواز لعن الكافرين وإن كانوا من أولاد الأنبياء، وأن شرف النسب لا يمنع إطلاق اللعنة في حقهم ومعنى "على لسان داود وعيسى ابن مريم" أي: لعنوا في الزبور والإنجيل. فإن الزبور لسان داود والإنجيل لسان عيسى، أي: لعنهم الله في الكتابين)[١].

٢- النهي عن المنكر: قال القرطبي: (قوله تعالى: "كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون" فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى "كانوا لا يتناهون" أي: لا ينهى بعضهم بعضًا، "لبئس ما كانوا يفعلون" ذم لتركهم النهي، وكذا من بعدهم يذمُّ من فعله فعلهم.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٨/١٠٤.

الثانية: قال ابن عطية[١]: (والإجماع[٢] منعقد على أن النهي عن المنكر فرضٌ لمن أطاقه ونهى بمعروف وأمن الضرر على نفسه وعلى المسلمين، فإن خاف فينكر بقلبه ويهجر ذا المنكر ولا يخالطه، وقال حذاق أهل العلم: ليس من شرط الناهي أن يكون سليمًا عن معصية بل ينهى العصاة بعضهم بعضًا. وقال بعض الأصوليين: فرض على الذين يتعاطون الكؤوس أن ينهى بعضهم بعضًا، واستدل بهذه الآية، قال لأن قوله "كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه" يقتضي اشتراكهم في الفعل وذمهم على ترك التناهي)[٣].

٣-هجر المجرمين وعدم مجالستهم: قال القرطبي: (وفي الآية دليل على النهي عن مجالسة المجرمين وأمر بتركهم وهجرانهم، وأكد ذلك بقوله في الإنكار على اليهود، ترى كثيرًا منهم يتولون الذين كفروا)[٤].

المضامين الدعوية

أولاً: من تاريخ الدعوة: بيان حال بني إسرائيل.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: خطورة ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ثالثاً: من واجبات الداعية: الإنكار على المخالفين.

رابعاً: من صفات الداعية: الالتزام والائتمار بالمعروف والانتهاء عن المنكر.

خامساً: من أساليب الدعوة: الترهيب.

سادساً: من أساليب الدعوة: القسم.

سابعاً: من موضوعات الدعوة: الاعتبار بالأمم السابقة.

ثامناً: من واجبات الداعية: حث المدعوين على القيام والالتزام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

---

(١) المحرر الوجير "تفسير ابن عطية" ٢٢٩/١.

(٢) انظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٤٨/٦ ومراجعها.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي١٠٦/٨.

(٤) المرجع السابق ١٠٦/٨.

أولاً- من تاريخ الدعوة: بيان حال بني إسرائيل:

إن من تاريخ الدعوة في هذا الحديث بيان حال بني إسرائيل ويظهر هذا في قوله ﷺ "إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا اتق الله... الخ الحديث" فبيّن ﷺ حال بني إسرائيل إذ كان علماؤهم ينهوهم عن المنكر فلم ينتهوا فجالسوهم وآكلوهم ولم يعرضوا عنهم لذلك استحقوا اللعن قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾[(١)].

قال ابن كثير: (يخبر سبحانه أنه لعن الكافرين من دهر طويل، فيما أنزل على داود نبيه عليه السلام، وعلى لسان عيسى ابن مريم، بسبب عصيانهم لله واعتدائهم على خلقه. ثم بين حالهم فيما كانوا يعتمدونه في زمانهم، فقال: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ﴾. أي: كان لا ينهى أحد منهم أحداً عن ارتكاب المآثم والمحارم ثم ذمهم على ذلك ليحذر أن يركب مثل الذي ارتكبوا، فقال: ﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾)[(٢)].

وقد بالغ القرآن الكريم في ذم العلماء وأولي الأمر من بني إسرائيل على أن الله تعالى قد بوأهم مكانة مرموقة من إصلاح الأمة، ولكنهم قصروا عن أداء مسؤوليتهم. فكانوا يرون الناس حولهم يعصون الله، ويعتدون على غيرهم ولا يفرقون بين الحلال

---

(١) سورة المائدة، الآيات: ٧٨ - ٨١.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١٦٠/٣.

والحرم فلا يحاولون تغيير الوضع البتة. يقول الله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾[١].

قال الرازي وهو يفسر الآيتين: "إن الله تعالى استبعد من أهل الكتاب أنهم ما نهوا سفلتهم وعوامهم عن المعاصي. وذلك يدل على أن تارك النهي عن المنكر بمنزلة مرتكبه، لأنه تعالى ذم الفريقين في هذه الآية على لفظ واحد"[٢].

وليس ذلك فحسب بل اشار الرازي وغيره من المفسرين إلى أن القرآن الكريم قد ذم تارك النهي عن المنكر بأشد مما ذم به مرتكبه فإنه قال في الأول: (يصنعون) بينما اكتفى في الثاني بقوله: (يعملون).

ولذلك رأى علماء الحق دائماً في هذه الآية توبيخاً شديداً لهم، يقول ابن جرير الطبري: (كان العلماء يقولون: ما في القرآن آية أشد توبيخاً للعلماء من هذه الآية ولا أخوف عليهم منها).

وروى ذلك عن عبدالله بن عباس والضحاك وعطاء أيضاً في تفسير هذه الآية[٣].

وذكر النبي ﷺ فساد بني إسرائيل الاجتماعي وهلاكهم، ثم أوصى أمته فقال: (كلا. والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطراً)[٤].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: خطورة ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

من موضوعات الدعوة في هذا الحديث خطورة ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويظهر ذلك من قوله ﷺ "أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض، ثم

---

(١) سورة المائدة، الآيتان: ٦٢، ٦٣.

(٢) مفاتيح الغيب، أو التفسير الكبير، الرازي ١٣٨/٣.

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ٥٥٠/٨، ٥٥١.

(٤) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، السيد جلال العمري ص ١٩٦ - ١٩٨.

ليلعنكم كما لعنهم" أي: لا تنجون من العذاب حتى تميلوهم عن الباطل إلى الحق وتمنعوهم الظلم[١].

ذلك لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبب لصلاح المجتمع واستقامته، وسلامته من الفواحش والمنكرات الظاهرة، فإذا أهملت هذه الشعيرة، ترتب على ذلك فشو المنكرات والمجاهرة بها، وظهور الخبث وكثرته، وكان ذلك دليلاً على تمكن أهل المنكر وقوتهم، وذريعة لاقتداء الناس بهم، وتقليدهم إياهم، وما تزال المنكرات تفشو وتنتشر حتى تتمكن في النفوس، وتصبح أمراً مألوفاً يهرم عليه الكبير ويشب عليه الصغير.

وحين يصبح المجتمع بهذه المثابة فإنه يستحق العقوبة العامة والعذاب الإلهي الشامل الذي يحيق بالطالحين والصالحين إلا من كان آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر. أما مجرد الصلاح من غير قيام بواجب الأمر والنهي فإنه لا ينجى من عذاب الله إذا نزل.

يقول الله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[٢].

فهذا تحذير من الله تعالى للذين سكتوا عن إنكار المنكر وأقروه بين أظهرهم: أن يعمهم العذاب مع الظالمين وإن كانوا لم يشاركوهم في فعل المنكر[٣].

قال القرطبي: (قال علماؤنا: فالفتنة إذا عملت، هلك الكل، وذلك عند ظهور المعاصي، وانتشار المنكر، وعدم التغيير)[٤].

وقال الشنقيطي: (والتحقيق في معناها: أن المراد بتلك الفتنة التي تعم الظالم وغيره، هي أن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه عمهم الله بالعذاب: صالحهم

---

(١) انظر: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٢/٢٢٣٣.

(٢) سورة الأنفال، آية: ٢٥.

(٣) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأثرهما في تحقيق الأمن، د. عبدالعزيز بن فوزان بن صالح الفوزان ص ١٢٨ - ١٣٠.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٣٩٢/٧/٤.

وطالحهم، وبه فسرها جماعة من أهل العلم، والأحاديث الصحيحة شاهدة لذلك)[١].

قال رسول الله ﷺ ((إِنَّ اللَّهَ، عَزَّ وَجَلَّ، لاَ يُعَذِّبُ الْعَامَّةَ بِعَمَلِ الْخَاصَّةِ، حَتَّى يَرَوُا الْمُنْكَرَ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ، وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَى أَنْ يُنْكِرُوهُ، فَلاَ يُنْكِرُوهُ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ، عَذَّبَ اللَّهُ الْخَاصَّةَ وَالْعَامَّةَ))[٢].

وقال أيضاً ﷺ: ((إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه))[٣].

وبترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يحصل ضرر كبير على الفرد والمجتمع في جميع جوانب الحياة الخاصة والعامة فينبغي على الدعاة والمدعوين أن يهتموا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قبل أن يأتيهم أمر لا مرد له من الله[٤].

ثالثاً- من واجبات الداعية: الإنكار على المخالفين:

إن واجبات الداعية التي تستنبط من عموم الحديث الإنكار على المخالفين حيث بين رسول الله ﷺ حال بني إسرائيل وأنكر عليهم صنيعهم وأمر المسلمين بإنكار المنكر حتى لا يأثموا.

وقال ﷺ في بيان ذلك: "إذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فكرهها" وقال مرة: "أنكرها" ((كَانَ كَمَنْ غَابَ عَنْهَا، وَمَنْ غَابَ عَنْهَا فَرَضِيَهَا كَانَ كَمَنْ شَهِدَهَا))[٥].

فهذا الحديث بيَّن أن المسلم الذي يرى الخطيئة لابد أن ينكرها فمن باب أولى الداعية إلى الله؛ لأنه القائم بالدعوة الدال على الخير.

---

(١) أضواء البيان، ٢/١٧١.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٤/١٩٢/١٧٧٢٠، وقال محققو المسند حسن لغيره.

(٣) أخرجه الترمذي برقم ٢٦١٨ وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي، ١٧٦١).

(٤) انظر: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأثرهما في حفظ الأمة، د. عبدالعزيز بن أحمد المسعود، ١/٢٤٩.

(٥) أخرجه أبو داود ٤٣٤٥، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٦٥١).

رابعاً- من صفات الداعية: الالتزام والائتمار بالمعروف والانتهاء عن المنكر:

إن من صفات الداعية التي تستنبط من عموم الحديث الالتزام والائتمار بالمعروف والانتهاء عن المنكر، بأن يكون قدوة للمدعوين فيما يأمر وينهى، أما إذا ترك ما يأمر به من معروف ولم ينته عما ينهى عنه من منكر فهذا ما حذر الله تعالى منه فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾(١).

قال السعدي: أي: لما تقولون الخير، وتحثون عليه، وربما تمدحتم به، وأنتم لا تفعلونه أو تنهون عن الشر، وربما نزهتم أنفسكم عنه، وأنتم متلوثون متصفون به، فهل تليق بالمؤمنين هذه الحالة الذميمة؛ أم من أكبر المقت عند الله أن يقول العبد ما لا يفعل؟

ولهذا ينبغي للآمر بالخير، أن يكون أول الناس مبادرة إليه، والناهي عن الشر، أن يكون أبعد الناس عنه(٢).

لأن الداعية إذا لم يتطابق فعله مع قوله، وإن لم يتوافق واقعه مع منطقه؛ فإنه يسيء أكثر مما يحسن، ويضر أكثر مما يصلح، بل ربما كان سبباً في إشاعة المروق والفسوق والمعصية بين الناس لأن بعض الناس؛ يقولون: لولا أن هذا الداعية يعلم في قرارة نفسه أنه لاوزناً لزواجره ومواعظه وتخويفاته، لما أقدم على ما أقدم عليه من مقارفة للمناهي والمفاسد والمنكرات(٣).

يقول ابن القيم: علماء السوء، جلسوا على باب الجنة، يدعون إليها الناس بأقوالهم، ويدعونهم إلى النار بأفعالهم؛ فكلما قالت: أقوالهم للناس: هلمُّوا، قالت أفعالهم: لا

---

(١) سورة الصف، الآيتان: ٢، ٣.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق، ٧٩٦.

(٣) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لابن تيمية ومعه بحث تمهيدي عنوانه: علامات ضوئية على طريق الدعاة، د. محمد جميل غازي ص ٨.

تسمعوا منهم. فلو كان ما كان ما دعوا إليه حقاً كانوا أول المستجيبين له؛ فهم في الصورة أدلاء وفي الحقيقة قُطاع الطرق[١].

خامساً- من أساليب الدعوة: الترهيب:

من أساليب الدعوة في هذا الحديث أسلوب الترهيب حيث ذكر رسول الله ﷺ حال بني إسرائيل وعدم التزامهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وذكر قوله تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾[٢] ليحذر أن يرتكب مثل الذي ارتكبوا[٣]. فرهب من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ورهّب من عدم الامتثال لهما، وأسلوب الترهيب من أساليب الدعوة المهمة حيث يستخدمه الداعية فيما يريد أن يخوف المدعوين منه ويجعلهم لا يأتونه خشية العقاب.

سادساً- من أساليب الدعوة: القسم:

من أساليب الدعوة التي تظهر في هذا الحديث أسلوب القسم وهذا يظهر في قوله ﷺ "والله لتأمرن..." فأقسم ﷺ على أمته أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وهذا إن دل فإنما يدل على أهمية الأمر المقسم عليه وحرص رسول الله ﷺ عليه لأمته لما فيه من خير لهم.

وأسلوب القسم من أساليب الدعوة المهمة في الدعوة إلى الله حيث يُعلم المدعوين بضرورة المقسم عليه وأهميته وحرص الداعية عليه بتأكيده بالقسم عليه.

فأسلوب القسم من الأساليب المؤثرة في الدعوة إلى الله، ذلك لأن الكلام المؤكد أوالذي يحمل صيغة التأكيد ذو تأثير لا يسعنا إنكاره في حياتنا الفردية والاجتماعية، وهذا التأثير لا يتم إلا إذا استندت هذه المؤكدات إلى دعائم قوية، هذه الدعائم موجودة في القسم، كيف لا والقسم إنما يكون بذات عظيمة هي ذات الخالق سبحانه وتعالى[٤].

---

(١) الفوائد، ابن القيم ٩٤.

(٢) سورة المائدة، آية: ٧٩.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣/ ١٦٠.

(٤) الترهيب في الدعوة، د. رقية بنت نصرالله محمد نياز ص ١٣٤.

(فإذا ما كان القسم بالعظيم من عظيم دل في وضوح على أن المقسم عليه عظيم)[1].

سابعاً- من موضوعات الدعوة: الاعتبار بالأمم السابقة:

إن من موضوعات الدعوة التي تستنبط من عموم الحديث الاعتبار بالأمم السابقة فقد بين رسول الله ﷺ ما كان عليه بنو إسرائيل لأخذ العبرة من قصصهم والاستفادة من أخطائهم، فإن ما انتقده القرآن على علماء بني إسرائيل وأحبارهم فيه عبرة وموعظة ودرس كبير للأمة المسلمة، ولا سيما العلماء منها. فإنها تؤكد لهم أنهم سوف يتعرضون لسخط الله وعقابه إذا توانوا في أداء واجبهم والقيام بمسؤولياتهم، وتركوا مهمة إصلاح الأمة وأعرضوا عنها، لأن الله تعالى لا يوالي أحداً لذاته، فيحبه على سيئاته كما لا يعادي أحداً لذاته فيبغضه على حسانه[2]، لذا فينبغي أخذ العبرة من أخطاء الأمم السابقة، وهذا ما نبه عليه المولى تبارك وتعالى، فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[3].

قال السعدي: (أي: قصص الأنبياء والرسل مع قومهم ﴿عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: يعتبرون بها، أهل الخير وأهل الشر، وأن من فعل مثل فعلهم، ناله ما نالهم من كرامة، أو إهانة)[4].

فينبغي للداعية أن يذكر الناس بقصص الأمم السابقة لأخذ العبرة منها ليبتعدوا عن أسباب هلاكهم.

---

(١) الدعوة الإسلامية، د. أحمد غلوش ص ٣٤٥.

(٢) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، جلال العمري ص ١٩٧.

(٣) سورة يوسف، آية: ١١١.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٣٦٢.

ثامناً- من واجبات الداعية: حث المدعوين على القيام والالتزام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

إن من واجبات الداعية نحو المدعوين أن يحثهم على القيام والالتزام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا ما أمر به المولى تبارك وتعالى فقال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[١].

قال ابن كثير: (يقول تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ أي منتصبة للقيام بأمر الله في الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من الأمة متصدية لهذا الشأن، وإن كان ذلك واجباً على كل فرد من الأمة بحسبه[٢]، كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ((مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ. فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ. فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ. وَذَٰلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ))[٣].

فالداعية إلى الله من أهم واجباته حث المدعوين على القيام والالتزام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٠٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢/٩١.

(٣) أخرجه مسلم ٤٩.

الحديث رقم (١٩٧)

١٩٧- **الرَّابعَ عَشَر:** عن أَبي بَكْرٍ الصِّدِّيق ﷺ. قال: يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تقرءونَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾[المائدة: ١٠٥] وإني سَمِعت رسول اللّه ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللّه بِعِقَابٍ مِنْهُ**» رواه أبو داود، والترمذي والنسائيُّ[١]، بأسانيد صحيحة.

ترجمة الراوي:

أبو بكر الصديق: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨٢).

غريب الألفاظ:

فلم يأخذوا على يديه: لم يمنعوه عمّا يُريد، كأنهم أمسكوا يدَه[٢].

الشرح الأدبي

هذا الحديث الشريف يختم به الإمام النووي باب "في الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر"، وهو يتلاقى في مضمونه ومقصده مع الأحاديث السابقة، التي تحض الأمة على مقاومة الظلم، وردْع الظالمين، الذين يشوِّهون قيم الحياة الجميلة، ويشيعون الفساد والرذيلة، لأنهم يظلمون أنفسهم، ويظلمون أمتهم، ويشوهون الفطرة الإنسانية، فالظلم وضع الشيء في غير موضعه، وهو الانتقاص من الشيء: قال تعالى: ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾[٣]. أي: ولم تنقص، والدلالة الحسية للكلمة تعني الاضطراب، والانحراف عن

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٣٨)، والترمذي (٢١٦٨، و٣٠٥٨) واللفظ له، والنسائي في الكبرى (١١٠٩٢). قال ابن كثير في التفسير (١١٠/٢): وقد روي هذا الحديث من طرق كثيرة عن جماعة كثيرة عن إسماعيل بن أبي خالد به متصلا، ومنهم من رواه عنه به موقوفًا على الصديق، وقد رجّح رفعه الدارقطني في العلل (٤٧).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (أ خ ذ).

(٣) سورة الكهف، آية: ٣٣.

الوجْه المألوف، فَقَوْل العرب: ظلم الأرض: أى حفرها في غير موضع حفرها، ويقول العرب: ظلم البعير أي: نحره من غير داء.

وهذه الدلالات اللغوية التي أوردها صاحب القاموس المحيط تؤكد وتؤصل انحراف هذا السلوك البشري الفاسد.

ويبدأ الحديث الشريف بداية تحذيرية لكل مسلك: وهذا التحذير يقدمه الراوي الأعلى للحديث وهو أبو بكر الصديق رضي الله عنه حيث ينبه الناس إلى ضرورة التأمل والتدبر، وإلى فقه المعنى، والوصول إلى المقصد الأسنى من هذه الآية الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ﴾[1]، وهو يرمي إلى إزالة الشبهة من عقول الذين يقرءون ولا يفقهون، حيت يظنون أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ليس واجباً، وليس مسؤولية جماعية، الإنسان في مسيرة حياته لا يعير العاصين انتباهاً، ولا يهمه أمر صلاحهم لأنه كما يتوهم ليس مسؤولاً إلا عن نفسه، وأنه استناداً إلى فهمه القاصر، لا يضره من ضل إذا اهتدى، وأراد أبو بكر بعد تضمين الحديث هذه الآية الكريمة أن يقيم الحجة على هؤلاء الواهمين الذين لا يتدبرون القرآن، ولا يفقهون أسراره ومقاصده، فأتى بهذا النص النبوي الذي يوضح المشكل في هذه الآية، ويفصل المجْمل، ويهدي المرتابين، والواهمين إلى المنهج السَوي الصحيح.

ولنتأمَّل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا البيان النبوي الكريم، وهو يتكون من جملة واحدة: وهذه الجملة اسمية، خبرية: تتكون من مبتدأ وخبر، وهذا التكوين يضم في إطاره عدة جمل، جملة الشرط، إذا رأوا الظالم، وبعدها جملة معطوفة، فلم يأخذوا على يديه، ثم تأتي جملة جواب الشرط، أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده.

وتداخل الجمل المكونة لخبر إن، وتشابكها يوحي بثقل الظلم وفداحته، والتحفز لمقاومته، وهذا التفسير النابع من التشكيل اللغوي، يتفق مع ما قاله عبدالقاهر في دلائل الإعجاز، وهو يؤسس لنظرية النظم حيث يقول الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون

---

(١) سورة المائدة، آية: ١٠٥.

الإعراب هو الذي يفتحها، وأن الأغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها، وأنه المعيار الذي لا يتبين نقصان الكلام ورجحانه حتى يعرض عليه، وأداة الشرط هنا "إذا"، وهى للتحقق، وفي ذلك إيحاء وتوجيه بأن رؤية الظالم متحققة، وبأن الظلم موجود، ولابد من مقاومته، والتعبير بالفعل رأوا، يؤكد هذا المعنى، لأن رأى: تحمل دلالتين، المشاهدة، والعلم وكلاهما من شواهد وجود الظلم، والظالمين، وقوله: فلم يأخذوا ، يتضمن وجوب ردع الظالم ورده عن ظلمه: لأن الأخذ على يده أقوى وآكد من المنع، فربما يمتنع ثم يعود ولكن الأخذ على يده ينهي هذه الخصلة المسيئة والسلوك الأهوج، وجواب الشرط تأتي مادته اللغوية موحية برحمة الله بعباده، فالفعل أوشك من أفعال المقاربة، وهو اختيار لغوي من شأنه أن يعطي ويمنح الظالمين فرصة للتوبة والمراجعة، قبل أن يعمهم الله بعذاب من عنده، واختيار الفعل: يعمهم دون غيره، بعد منح الفرصة لهؤلاء الذين لم يأخذوا على يد الظالم، يرشد إلى أن النقمة تعم، والنعم تخص، فالعقاب يقع على الظالم لظلمه، وعلى غيره لإقراره عليه، وقد قدر على منعه، أما المعذور فلا يتناوله بفضل الله هذا المحذور، وتنكير لفظ عقاب لإفادة عموم العذاب، وتعدد ألوانه وأنواعه، وتحديد العقاب بأنه منه أى من الله لإشاعة الرهبة والخشية حتى يرتدع الظالم عن ظلمه ، وحتى لا يفرط الناس في مقاومته كى تستقيم أمور الحياة، وينعم الناس بالأمن والنجاة.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم الأخذ على يد الظالم ومعونة المظلوم، وقد اتفق الفقهاء[1] على أنه يجب على كل مسلم أن يُعين على وقف الظالم عن ظلمه بما يستطيعه على قدر طاقته، وأن يعين المظلوم حتى يحصل على حقه، وأن الظالم يجوز

---

(١) انظر في ذلك: أحكام القرآن، الجصاص ٢٦٦/٢، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ١١٠/٦، وبريقة محمودية في طريقة محمدية وشريعة نبوية في سرية أحمدية، محمد بن مصطفى الخادمي ١٩٠/٣، وأحكام القرآن، ابن العربي ٤٩٢/٣، والغرر البهية في شرح البهجة الوردية، القاضي أبو يحيى الأنصاري ١١١/٥، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ١٦٦/٤، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين بن الحسن بن عبدالرحمن ١٦٣/٦، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ١٥٣/٩، وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٤٧٠/٣، والسياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، ابن تيمية ص ١٢٠، والمحلى، ابن حزم ٣٥٠/١١.

دفعه بما يكفي لردعه فإن لم يرتدع إلا بالقتل جاز قتله كمن راود امرأة عن نفسها ولم تجد سبيلاً للخلاص منه إلا قتله، وكمن قطع الطريق على الناس، أو خوفهم بما يقلقهم وقتل منهم ونال من أموالهم وأعراضهم، وغير ذلك مما بينه الفقهاء تفصيلاً في حكم دفع الصائل.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النداء.

ثانياً: من واجبات الداعية: تصحيح فهم المدعوين.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة ﵃ على نقل ما سمعوه عن رسول الله ﷺ.

رابعاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

خامساً: من موضوعات الدعوة: أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

سادساً: من أساليب الدعوة: الترهيب.

أولاً- من أساليب الدعوة: النداء:

من أساليب الدعوة التي تظهر في هذا الحديث أسلوب النداء وقد ورد في قول أبي بكر الصديق ﵁: "يا أيها الناس...".

وأسلوب النداء من الأساليب الدعوية المهمة، فهو يلفت انتباه المدعوين إلى الدعوة ويجعل الداعية يوجه دعوته لمن يريد من المدعوين، فإن أراد الدعوة عامة وجهها عامة كما فعل أبو بكر ﵁ وقال: "يا أيها الناس" وأن أرادها خاصة بشخص وجهها إليه وقال: (يا فلان).

ثانياً- من واجبات الداعية: تصحيح فهم المدعوين:

من واجبات الداعية التي تظهر من هذا الحديث تصحيح فهم المدعوين، فأبو بكر ﵁ قال: (يا أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا

يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [(١)]، فخاف الصديق أن يتأول الناس الآية غير تأويلها فيدعوهم ذلك إلى ترك الأمر بالمعروف فأعلمهم أنها ليست كذلك، وأن الذي أذن في الإمساك عن تغييره عن المنكر هو الشرك الذي ينطق به المعاهدون من أجل أنهم يتدينون به، وقد صولحوا عليه، فأما الفسوق والعصيان والريب من أهل الإسلام فلا يدخل فيه[(٢)]، فهو بذلك صحح فهم الناس للآية لذا يجب على الدعاة إلى الله تصحيح فهم المدعوين.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة على نقل ما سمعوه عن رسول الله ﷺ:

إن من موضوعات الدعوة التي تظهر من هذا الحديث حرص الصحابة رضي الله عنهم على نقل ما سمعوه عن النبي ﷺ ويظهر ذلك من قول أبي بكر رضي الله عنه: (وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول)؛ فالصحابة كانوا حريصين على سماع سنة الرسول ﷺ وحريصين على نقلها، وقد ورد ما يؤيد حرصهم على سماعها دون أن يفوتهم منها شيء فقد ورد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: ((كنتُ أنا وجارٌ لي مِنَ الأنصارِ في بني أُمَيَّةَ بن زيدٍ - وهيَ مِن عوالي المدينةِ- وكنا نَتَناوَبُ النُّزولَ عَلَى رسول الله ﷺ، يَنزِلُ يوماً وأَنزِلُ يَوماً، فإذا نَزَلتُ جِئتُه بِخَبرِ ذلكَ اليومِ مِنَ الوحيِ وغيرِه، وإذا نَزَلَ فَعلَ مِثلَ ذلِكَ....))[(٣)].

وكانوا كذلك حريصين على نقل ما سمعوه عن رسول الله ﷺ لأنهم يعلمون أنه ﷺ القدوة لجميع الأمة والمعلم لها، فينقلون ما يقول ويفعل حتى تقتدي به أمته، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾[(٤)]، وقد أمر ﷺ بالتبليغ عنه فقال: ((بلّغوا عني ولو آيةً))[(٥)].

---

(١) سورة المائدة، آية: ١٠٥.

(٢) انظر: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٧٦٣/٢.

(٣) أخرجه البخاري ٨٩.

(٤) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

(٥) أخرجه البخاري ٣٤٦١.

قال ابن حجر: "ليسارع كل سامع إلى تبليغ ما وقع له من الآي ولو قل ليتصل بذلك نقل جميع ما جاء به ﷺ"(١)، فكان صحابته رضي الله عنهم ممتثلين لهذا الأمر حريصين على النقل والتبليغ.

رابعاً- من أساليب الدعوة: الإخبار:

إن من أساليب الدعوة التي تضمنها الحديث أسلوب الإخبار وهذا يظهر من إخبار أبي بكر رضي الله عنه عما سمعه من رسول الله ﷺ، وأسلوب الإخبار يفيد منه الداعية في إخبار المدعوين بسنة الرسول ﷺ والإخبار عن تعاليم الدين وبحقيقة دعوته فينبغي على الداعية استخدام أسلوب الإخبار في دعوته.

خامساً- من موضوعات الدعوة: أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

إن من موضوعات الدعوة التي تستنبط من عموم الحديث أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد بيّن أبو بكر رضي الله عنه أن الآية ليس المقصود بها عدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا كان المسلم مهتد، فقد بين أن رسول الله ﷺ ذكر أن عدم القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يؤدي إلى وقوع عقاب الله على التاركين.

"ووظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في غاية الأهمية بالنسبة للمجتمع الإسلامي، فبها تصلح أحوال المسلمين العامة والخاصة، وإذا أهمل انتشر الفساد في البر والبحر، وعمّت الفوضى، واضطرب حبل الأمن والأمان، ودبّ الضعف في بنية الأمة وكيانها، وهذا يفضي إلى الهزيمة والخذلان"(٢).

وما أجمل ما قاله الغزالي في هذا الشأن: (إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين، ولو طوي بساطه وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وعمّت الفترة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد، وهلك

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦/٥٧٥.

(٢) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، د. محمد عبدالقادر أبو فارس ص ٢٩.

العباد، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد)[١].

ومما يدل على أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن جعله الله صفة للنبي ﷺ وذلك في قوله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾[٢]، فهذا بيان لكمال رسالته، فإنه ﷺ هو الذي أمر الله على لسانه بكل معروف، ونهى عن كل منكر وأحلّ كل طيب، وحرّم كل خبيث... وكذلك وصف الأمة الإسلامية بما وصف به نبيها حيث قال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[٤].

ولهذا قال أبو هريرة رضي الله عنه: كنتم خير الناس للناس تأتون بهم في السلاسل حتى تدخلوهم الجنة.

فبيّن الله سبحانه أن هذه الأمة خير الأمم للناس، فهم أنفعهم لهم، وأعظمهم إحساناً إليهم؛ لأنهم كملوا كل خير ونفع للناس بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وأقاموا ذلك بالجهاد في سبيل الله بأنفسهم وأموالهم، وهذا كمال النفع للخلق[٥].

ومما يدل على أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قول حذيفة رضي الله عنه: (الإسلام ثمانية أسهم: وذكر منها الأمر بالمعروف سهم، والنهي عن المنكر سهم، وقد خاب من لا سهم له)[٦].

---

(١) إحياء علوم الدين، الإمام الغزالي ١١٩٢/٣.

(٢) سورة الأعراف، آية: ١٥٧.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١١٠.

(٤) سورة التوبة، آية: ٧١.

(٥) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ابن تيمية، ومعه: بحث تمهيدي عنوانه (علامات ضوئية على طريق الدعاة)، د. محمد جميل غازي ص ٣٣ - ٣٥.

(٦) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، العيني ١٢٥/١.

ومما يدل أيضاً على أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما بيّنه رسول الله ﷺ من أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صدقة يؤجر المرء على قيامه بها فقد روى مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه أن ناساً من أصحاب النبي ﷺ قالوا للنبي: يا رسول الله ذهب أهل الدُثور بالأجور، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم، قال ﷺ: ((أَوَ لَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللّهِ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ؟ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً. وَكُل تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً. وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ. وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ. وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ. وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ))[١].

وقال ﷺ: ((مُرُوا بِالْمَعْرُوفِ، وَانْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، قَبْلَ أَنْ تَدْعُوا فَلاَ يُسْتَجَابَ لَكُمْ))[٢]، فيعتبر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم وسائل الأمان والحماية والحفاظ على كيان المجتمع الإسلامي، فهو بمثابة صمام الأمان الذي يوفر السلامة والحماية للمجتمع، وذلك بالحث على الالتزام بالمعروف وفعله، وترك المنكرات التي تؤثر على سلامة المجتمع[٣].

سادساً- من أساليب الدعوة: الترهيب:

من أساليب الدعوة التي تظهر من هذا الحديث أسلوب الترهيب وهذا يظهر في قوله ﷺ: ((إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ الله بِعِقَابٍ مِنْهُ))، حيث رهّب ﷺ من عدم إنكار المنكر ورد الظالم عن ظلمه وبيّن أن ذلك يكون سبباً في عقاب الله لهم، وذلك؛ لأن عدم إنكار المنكر يكون من دواعي اللعنة والعذاب، قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾[٤].

---

(١) أخرجه مسلم ١٠٠٦.

(٢) أخرجه ابن ماجة ٤٠٠٤، وحسنه الألباني (صحيح سنن ابن ماجة ٣٢٣٥).

(٣) انظر: دور الحسبة في حماية القيم الإسلامية، د. محيي الدين عفيفي أحمد ص ٣٢.

(٤) سورة المائدة، الآيتان: ٧٨ - ٧٩.

وقال رسول الله ﷺ: ((إِنَّ اللَّهَ لاَ يُعَذبُ الْعَامَّةَ بِعَمَلِ الْخَاصَّةِ حَتَّى يَرَوُا الْمُنْكَرَ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ وَهُمْ قَادِرُونَ عَلى أَنْ يُنْكِرُوهُ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عُذِّبَ الْخَاصَّةُ وَالْعَامَّةُ))(١).

والمقصود بالترهيب: كل ما يخيف وكل ما يحذر المدعو من عدم الاستجابة للحق أو عدم الثبات عليه(٢).

(١) أخرجه أحمد في مسنده ١٩٢/٤ رقم ١٧٧٢٠، وقال محققو المسند: حسن لغيره.

(٢) أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان ص ٤٣٧.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

الحرية المطلقة لا يعرفها الإسلام والكبت التام لا يقره الإسلام، بل الحرية المنضبطة بضوابط الشرع، ومعايير الالتزام مردها إلى أمرين:

١/ معروف عرفه الناس وأقره الشرع ودعا إليه.

٢/ منكر أنكره الناس وأقره الشرع أو جاء به ابتداءً.

والمسلمون مطالبون تربوياً بما يلي:

التربية على الإيجابية:

قد ربى النبي ﷺ أصحابه رضي الله عنهم على أن يكونوا إيجابيين إزاء المزالق الأخلاقية للآخرين، فعلى المؤمن أن لا يقف مكتوف اليدين عندما يرى المنكر والباطل يجاهر به؛ بل عليه أن يتحرك بإيقاف هذا المنكر، وسعه ذلك، يقول: "مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ..."، فإن المسلم لا يليق به أن يكون سلبياً، ولقد أتاح النبي ﷺ لكل المؤمنين على قدر قواهم ومكانتهم أن يغيروا المنكر، باليد أو باللسان أو بالقلب، يقول ﷺ: "فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ. وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ".

فالمرء إذا لم يكن إيجابياً غيوراً على الحق فإن ذلك مهدد بضياع الفضيلة، وانتشار الرذيلة، فالغيرة الصادقة تبعث صاحبها على الفضائل، وتنهض به إلى محاربة الفساد بكل صوره، وتأخذ بيده إلى مكافحة المبطل أو المفسد وتقويم عوجه في تثبت وحزم، أما ضعف الغيرة على الحق أو فقدها، فنقيصة تزل بصاحبها إلى الحضيض[1]، وأي حضيض أحط من السكوت على الحق، والسلبية في مواجهة الباطل؟!.

ثانياً- التربية على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

يقول ﷺ: "مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرا فَلْيُغَيِّرْهُ ..."، ويقول: "فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ

---

(١) الهمة العالية، محمد إبراهيم الحمد ص ٧٥.

مُؤْمِنٌ، ...، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ ..."، وذلك السلوك الذي ربى عليه النبي ﷺ صحابته الكرام هو سمة هذه الأمة، التي جعلها الله خير أمة أخرجت للناس، يقول تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾[(١)].

ولا تزال الأمة بخير ما دامت تأخذ بهذا المبدأ التربوي العظيم، الذي يميزها عن سائر الأمم التي يشيع فيها الضلال والفاحشة، ثم لا يتناهون عما يفعل ضُلالهم، بدعوى الحريات الشخصية، وتحرير المجتمعات من قيود العقائد والانحراف، وتلك هي النتيجة الطبيعية لترك هذا السلوك العظيم "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر".

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من طرق التربية الخلقية المباشرة، وهو القطب الأعظم في الدين، وهو المهمة التي بعث الله لها النبيين أجمعين، ولو طوي بساط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأهمل، لعطلت النبوة، وفشت الضلالة وشاع الجهل، واستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد وهلك العباد، فله دور هام في التربية الخلقية والتهذيب، وهو واجب على الناس جميعاً، خاصة أهل العلم منهم، وهذا الأمر أيضاً واجب وجوب كفاية على المسلمين، وهو دليل الصدق في الله والدين ولابد أن يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالشفقة والرأفة واللين في القول، وذلك حتى يؤتى ثماره في إحداث الغاية المرجوة من تهذيب الأخلاق[(٢)].

ثالثاً- التربية بضرب المثل:

وقد استعمله النبي ﷺ في تشبيه القائمين على حدود الله والواقعين فيها، يقول ﷺ: "مَثَلُ الْقَائِمِ فِي حُدودِ اللَّهِ ، وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، ..."، وقد أراد ﷺ من وراء ضرب المثل في هذا الموضع تصوير الأمر وتقريبه إلى أذهان صحابته رضي الله عنهم، وقد شبه هنا المعنوي بالحسي، أو الغائب بالحاضر، فإن السفينة من

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١١٠.

(٢) أصول التربية الإسلامية، د. محمد عزب ص ٢٦١.

الأشياء التي كانت معروفة لدى الصحابة، خاصة من سافر منهم إلى الشرق أو الغرب، ولهذا ضرب ﷺ المثل بها، حيث اشترك فيها مجموعة من المسافرين، فحل بعضهم بالطابق العلوي، والآخرون في الطابق الذي يلي الماء مباشرة، وإذا أراد الذين هم بأسفلها الماء صعدوا إلى أعلى، وهنا أراد بعضهم طلباً للراحة خرق السفينة للحصول على الماء دون عناء الصعود إلى أعلاها، وهذا فيه من الخطر على الجميع، فلو أخذ الناس على يد هؤلاء ومنعوهم نجا الجميع، وإلا فالهلاك سيكون مصيرهم لا محالة.

وهكذا الحال بالذين يفعلون المنكرات ويخرقون قواعد الدين ويمرقون عنها، فلو نهوا عن المنكر لنجا المجتمع كله من الفساد، ولو تركوا وما يفعلون، فما أقرب أن يضيع المجتمع كله، ويفشو الفساد، مثلما حدث في كثير من المجتمعات في عصرنا الحديث.

ولضرب المثل فوائد جمّة للمتربين، منها[1]:

١-تقريب المعنى إلى الأفهام، وزيادة التوضيح بذكر الشيء الذي تماثله.

٢-تجسيد الشيء المعنوي في صورة حسنة، فتوضح حاله، وتجعله قريباً للفهم.

٣-توضيح المجهول في صورة المعلوم، فتكشف عن حقيقته، وتوضيح حسنه أو قبحه.

٤-تؤثر في النفس تأثيراً واضحاً بذكر المثل الواضح الذي يشجع على العمل أو ينفر منه.

رابعاً- التربية على السمع والطاعة لولي الأمر:

فطاعة الحاكم من الأسس التي ربى النبي ﷺ عليها صحابته الكرام؛ لما في ذلك من أثر على وحدة الأمة وتماسكها، إلا أن يخرج هذا الحاكم عن المعلوم من الدين بالضرورة، وترك الصلاة، فحينها يجب على الرعية الخروج عليه، ومقاتلته، وليس في غير ذلك مبرر للخروج عليه، حتى إن أتى بغير ما يحبون من قسمة الأموال وتعيين الولاة وغير ذلك من الأمور الدنيوية.

---

(١) تربية الطفل في الإسلام، د. أحمد محمود الحمد ص ٢٠٦.

وقد جعل الماوردي خروج الإمام عن أساسيات الدين والعدل سبباً في الخروج عليه، وإيقافه عن بغيه، يقول: "وإن كانت أفعاله -يعني الإمام-خارجة عن حكم الدين ومقتضى العدل لم يجز إقراره عليها، ولزمه أن يستنصر من يقبض يده ويزيل تغلبه"(١).

خامساً- التربية بالترهيب:

من الأحاديث التي استعمل فيها النبي ﷺ أسلوب الترهيب، قوله: "وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ ..." ففيها تخويف لصحابته من هذا الخطر المحدق بهم؛ خطر يأجوج ومأجوج، وفي ذلك إعداد نفسي للمؤمنين، ليستعدوا لهذا الخطر القادم، من خلال ترهيبهم، وعندما سألته زينب بنت جحش رضي الله عنها: "أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟"، أجابها: "نَعَمْ. إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ".

وفي موضع آخر يرهب النبي ﷺ من لبس الذهب، عندما نزع الخاتم عن يد لابسه، وقال: "يَعْمِدُ أَحَدُكُمْ إِلَىٰ جَمْرَةٍ مِنْ نَارٍ فَيَجْعَلُهَا فِي يَدِهِ؟"، إنه تخويف من عاقبة لبس الرجال للذهب، فما هذا الخاتم في يد لابسه إلا جمرة من النار، وقد استخدم النبي ﷺ أسلوب الترهيب حتى يوقف هذا الرجل عن فعله الخاطئ، ويكف عن لبس الذهب، فكان هذا الأسلوب مانعاً له، حيث ترك الخاتم ولم يرض بمجرد بيعه، والانتفاع به، قائلاً: "لاَ. وَاللّهِ لاَ آخُذُهُ أَبَداً. وَقَدْ طَرَحَهُ رَسُولُ اللّهِ ﷺ".

وفي حديث ثالث يُرهب النبي ﷺ من السكوت عن الحق وإقرار الباطل بقوله: "لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ و لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَاباً مِنْهُ"، لأن السكوت على الباطل يؤدي إلى انتشاره وشيوعه في المجتمع، فعلى المسلمين أن يتواصوا بالحق فيما بينهم، حتى لا يقع عليهم عذاب الله الذي لا رادّ له.

ولأهمية أسلوب الترهيب في العملية التربوية، فقد استخدمه رسول الله ﷺ في المواقف التي تحتاج إلى بيان الوعيد أو التهديد بالعقوبة لمن يعمل عملاً لا يوافق الشريعة الإسلامية ويغضب الله تعالى، فكان رسول الله ﷺ يربي الصحابة رضي الله عنهم على تجنب المنكرات والوقوع بها(٢).

---

(١) الأحكام السلطانية، الماوردي ص ٢٠.

(٢) أساليب التربية الإسلامية في تربية الطفل، عبدالرحمن عبدالوهاب البابطين ص ٣٨.

سادساً- التربية بالتحذير:

وهو من الأساليب التربوية الهامة التي وردت في أحاديث هذا الباب، وقد استخدم النبي ﷺ أداة التحذير "إياكم" يقول: «إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ فِي الطُّرُقَاتِ»، لما فيها من عرضة لاقتراف المعاصي، من الغيبة والنميمة والنظر إلى ما حرم الله، ولهذا حذرهم من الجلوس فيها، إلا بحقها، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ورد السلام وكف الأذى وغض البصر.

والتحذير يكون بالتحرز من إتيانٍ أو فعلٍ أو امتناعٍ عنه، لكونه سبباً في غضب الله تعالى وعذابه، أو سبباً في إلحاق ضرر بالأمة والمجتمع المسلم، مما يدفع باتجاه الاستعداد والتأهب لتجنب حصول ذلك[1].

سابعاً- التربية على الشجاعة:

ويظهر ذلك في أحاديث هذا الباب في موضعين، أولهما: موقف عائذ بن عمرو رضي الله عنه حين دخل على عبيد الله بن زياد فقال: «أي بني....» وعندما قال كلمة الحق عنده وحدثه بحديث رسول الله ﷺ وذكره بالله، استهزأ به عبيد الله، فردّ عائذ بن عمرو كلامه، رغم علمه ببطشه الشديد، وقسوته وجبروته، ولكن شجاعته أبت إلا أن يقول ما يريد دون خوف العواقب.

أما الموضع الثاني فهو قوله ﷺ عندما سئل: أي الجهاد أفضل؟ فقال: «كلمة حق عند سلطان جائر»، ذلك هديه في التربية على الشجاعة وغرسها في نفوس صحابته الكرام رضي الله عنهم، ولهذا فقد اعتبر الذي يقول كلمة الحق عند السلطان الجائر في منزلة أعلى من المجاهد في سبيل الله بنفسه ودمه؛ لأن الجامع بينهما الشجاعة والفداء والتضحية؛ غير أن الذي يذكر ولي الأمر الظالم بظلمه أكثر شجاعة؛ لأنه ينطق دون غيره، ويخرج من المسالمة والخنوع، بل ومن الراحة ، إلى تعريض نفسه لبطش السلطان، وإذا ما أجدت نصيحته ونفعت، فإن النفع يعم الناس جميعاً؛ لأن صلاح السلطان صلاح للرعية كلها.

---

(١) أساليب الدعوة والتربية، د. زياد العاني ص ٢٤٩.

إن اعتزاز المسلم بنفسه ودينه وربه هو عزة إيمانه، وعزة الإيمان غير كبرياء الطغيان؛ إنها أَنَفَةُ المؤمن أن يصغر لسلطان، أو يتضع في مكان، أو يكون ذنباً لإنسان، هي كبرياء فيها من التمرد بقدر ما، فيها من الاستكانة، وفيها من التعالي بقدر ما فيها من التطامن، فيها من الترفع على مغريات الأرض ومزاعم الناس وأطايب الحياة، وفيها الانخفاض إلى خدمة المسلمين والتبسط معهم، واحترام الحق الذي يجمعه بهم، فيها إتيان البيوت من أبوابها، وطلاب العظمة من أصدق سبلها[١].

ثامناً- التربية بالقصة:

وذلك في ورود قصة بني إسرائيل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يقول ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ فَيَقُولُ...» ثم يروي ﷺ كيف تحولوا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى السكوت على الحق، ثم الانغماس في المعصية حتى فسدوا وقست قلوبهم حتى لعنوا.

وفي هذه القصة من العبرة والعظة ما يفي بإيصال المبدأ التربوي إلى نفوس المتلقين، وأسلوب القصة من أبلغ الأساليب في التربية بالموعظة؛ ففيها سحر يسحر النفوس، سحر قديم قدم البشرية... خاصة إذا أظهرت بشكل واضح المواعظ والعبر التي يراد نقلها للمتعلمين، وإذا كانت المعلومات التي تتضمنها حقيقة وسليمة، وإذا كانت أحداثها مشوقة حتى يظل المتعلمون مشدودين إليها[٢].

تاسعاً- التربية على إسداء النصح لأولياء الأمر:

إن ما ورد في الخبر عن النبي ﷺ وصحابته في إسداء النصيحة لولي الأمر وعدم خشيته، لدلالة قاطعة على حث الإسلام على الإيجابية في التعامل مع ولي الأمر، وأداء واجبه على الرعية، على أن يؤدوا إليه النصح والإرشاد، فهذا عائذ بن عمرو رضي الله عنه يؤدي النصيحة إلى عبيد الله بن زياد، ويبلغه حديث رسول الله ﷺ: «إن شَرَّ الرِّعَاءِ الْحُطَمَةُ». فَإِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ.

---

(١) خلق المسلم، محمد الغزالي ص ١٩٦.

(٢) تربية الطفل في الإسلام، أحمد محمود الحمد ص ١٩٧-٢٠١ بتصرف.

وذلك لأن النبي ﷺ سئل: أَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ؟ فأجاب: «كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ». ويقول: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ»؛ فأداء النصيحة لوليّ الأمر، وإن لم يفعلوا ذلك فإنهم مهددون بالعذاب العام من قبل الله عز وجل.

ويجب على العامة أن ينصحوا لولاة الأمر، وأن يأمروهم بالمعروف وينهوهم عن المنكر، ويعينوهم على طاعة الله وإقامة شرعه، وتتعين النصيحة على أهل العلم لأنهم هم أحق بها وأهلها... ولابد أن يبتغي المرء بنصيحته لولاة الأمر ولغيرهم وجه الله ولا يفعل هذا سمعة ورياء، وكذلك يجب عليه أن يكون رفيقاً بمن ينصحهم وأن يكون هدفه الأول والأخير ردهم إلى الحق والصواب، وإعانتهم على إقامة شرع الله، وما فيه من صلاح الرعية[١].

عاشراً- التربية على مراعاة آداب الطريق:

الإسلام أول دين وضع آداباً للطريق، وجعلها فرض عين على كل من يجلس على قارعة الطريق. وإذا كانت النظم الحديثة أنشأت وزارات للبيئة، وعقدت مؤتمرات من أجلها، فإن الرسول ﷺ لم يقف عند حد الصيانة الحسية، بل أوجب الحق الأدبي للطريق ليبقى للإسلام فضل السبق في ميدان التربية والتعليم، وقد اهتم بالطريق من أمرين:

الأمر الأول: رعاية حق الطريق من سبيل المحسوسات، وذلك في قوله: "كف الأذى"، وهي كلمة جامعة لكل صور الأذى، فالحفر والقاذورات وترك المخلفات وإيقاف السيارات في غير ما حدد له من أمكنة كل هذا من باب الأذى.

الأمر الثاني: رعاية حق الطريق من سبيل القيم وذلك بـ:

- غض البصر صوناً ورعاية للحرمات ودرءً لنار الشهوة ورعاية لحقوق الآخرين.

---

(١) النصيحة ومكانتها في الإسلام، الأمين الحاج محمد أحمد ص ٥٤.

- رد السلام وذلك لسيادة روح الخير، لأن إلقاء السلام يعني إعطاء الأمان ممن ألقاه، وعدم إلقائه يعني بقاء روح الشر قائمة به، ورد السلام يراد به إعلان مقابلة السلم بالسلم والأمان بالأمن.
- الأمر بالمعروف حتى ينصبغ المجتمع بهذه الروح "المعروف" وذلك بالدعوة إلى كل خير يمكن فعله ونشر كل فضيلة يتأتى القيام بها.
- النهي عن المنكر لقطع دابر الشر في المجتمع.

٢٤- باب تغليظ عقوبة من أمر بمعروف

أو نهى عن منكر وخالف قوله فعله

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾[البقرة: ٤٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾[الصف: ٢-٣]، وَقَالَ تَعَالَى إخباراً عن شعيب ﷺ: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾[هود: ٨٨].

الحديث رقم (١٩٨)

١٩٨- وعن أَبي زيدٍ أُسامة بْنِ حَارِثَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: سَمِعْتُ رسولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ: «**يُؤْتَى بالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيامةِ فَيُلْقَى في النَّار، فَتَنْدلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ، فيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ في الرَّحا، فَيجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّار فيَقُولُونَ: يَا فُلانُ مَالَكَ؟ أَلَمْ تَكُن تَأْمُرُ بالمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ المُنْكَرِ؟ فيَقُولُ: بَلَى، كُنْتُ آمُرُ بالمَعْرُوفِ وَلاَ آتِيه، وَأَنْهَى عَنِ المُنْكَرِ وَآتِيهِ**» متفق عليه[1].

قولُهُ: «تَنْدلِقُ» هُوَ بالدَّالِ المهملة، وَمَعْنَاهُ تَخْرُجُ. و«**الأَقْتَابُ**»: الأَمْعَاءُ، واحِدُهَا قِتْبٌ.

ترجمة الراوي:

أسامة بن زيد: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٠).

الشرح الأدبي

هذه الصورة من صور العذاب يوم القيامة، وهي تنقل إلينا مَشْهداً من مشاهد مصير هؤلاء الذين يقولون ما لا يفعلون، وهم العلماء الذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، وفي القرآن ترد صورتهم منفرة وهم في الدنيا، والصورة نفسها في الحديث الشريف تتطور إلى عذاب أليم، فهم في الدنيا: كمثل الحمار يحمل أسفاراً، وهم في الآخرة: لا يستطيعون إخفاء ما يكتمونه في الدنيا، ويرمز الحديث إلى ذلك بالأمعاء

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم (٢٩٨٩/٥١) واللفظ له. أورده المنذري في ترغيبه (٣٤٢٩).

التي تندلق من بطنه، وهو لا يستطيع منها خلاصاً، ولكن يدور كما يدور في الرحى، فتلتف عليه الأمعاء، فيبقى هكذا يدور، وهي تدور عليه عبرة ونكالاً، وتزداد الصورة عمقاً حين يفاجئه أهل النار الذين كانوا يرتكبون الكبائر في دنياهم وهو ينهاهم: ويستنكر هؤلاء العصاة موقفه، ومصيره، فيعترف بأنه كان من المنافقين وأنه: عاش حياته في تناقض بين المظهر والمخبر، وبين القول والفعل، فيقول في حسرة وندم: "كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه"!!! ولات ساعة مندم.

وهذه الصورة الدقيقة العميقة تسمى "الصورة الحركية الدائرية"، حيث يتوحد المكان مع الزمان، وتتجمع كل خيوط الأحداث، وتتراءى في الصورة معالم التناقض السلوكي، من خلال توظيف معطيات البيئة: حتى تكون الصورة مؤثرة وواضحة.

وتتضمن هذه اللوحة خمسة مشاهد متوالية متعاقبة بفعل الزمان والمكان، الإلقاء في النار، اندلاق الأمعاء، والدوران، اجتماع أهل النار، جواب المرائي في وعظه، والمشهدان الأخيران: حوار في أحشاء النار بين هذا المرائي المنافق. والعصاة الذين كان يعظهم في الدنيا.. ولا يصغون إلى مواعظه الزائفة.

ويتجلى الرعب في مشهد لا يُعْهد في الدنيا، إذ يدور المرء بأمعائه، وكأنه أصيب بصرع، إذ يحار إلى أين يذهب بما رأى من أمعائه، ونجد صفة الإكراه في صيغة الفعلين، يؤتي ويلقى، والبناء للمجهول هنا له ميزتان، إيماء إلى القوة الخارجية التي تصنع ما تصنع، ولفت نظر المتلقي إلى الحدث نفسه لأهميته التصويرية، ويبتدي القبح في مغايرة المشهد للمعهود، وفي تشبيه الدوران بدوران الحمار حول الرحى، مما يزيد في تصوير بهيمية المرائي، وحياته الغريزية، إذ يغدو عبداً لغرائزه، فضلاً عن اندلاق الأمعاء المثيرة للتقزز مع الرعب؛ أما بناء الفعلين الأخيرين في صورة (هذا المرائي "للفاعل") فيشير -كما يقول د. عزالدين السيد- إلى حصولهما منه، فاندلاق الأمعاء إثر انفجار الحاجز، وهو أمر تحدثه القذفة، والدوران بها إثر الصدمة، وهو ما تحدثه الفواجع، وكثيراً ما يحدث تلقائياً عند المباغتة، أما أنها أفعال مضارعة (يلقى - تندلق - يدور...) لم تقرن بالتسويف مع أنها أمور أخروية مستقبلة ، فذلك لاستحضارها في

الحال، كأنها تدرك وتحس، كما يُدْرِك ويحس دورانُ الحمار بالرحى، والتشبيه بأمر يتصل بالحمار لا يكون إلا تقبيحاً، وذلك سر اختياره دون ما يجر الرحى من سائر الحيوانات"(١).

وهذا التصوير القبيح إحدى أمارات تغليظ عقوبة من أمر بمعروف أو نهى عن منكر، وخالف قوله فعله.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: اختصاص النبي ﷺ بالإخبار عن بعض مشاهد يوم القيامة.

ثانياً: من أساليب الدعوة: الترهيب.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: خطورة مخالفة القول العمل.

رابعاً: من واجبات الداعية: مطابقة عمله قوله.

أولاً- من موضوعات الدعوة: اختصاص النبي ﷺ بالإخبار عن بعض مشاهد يوم القيامة:

إن من موضوعات الدعوة التي تظهر من هذا الحديث اختصاص النبي ﷺ بالإخبار عن بعض مشاهد يوم القيامة وهذا يظهر في قوله ﷺ "يؤتى بالرجل يوم القيامة فيُلقى في النار، فتندلق ... الخ الحديث" فقد أخبر ﷺ بما يلقى بعض أهل النار يوم القيامة وهذا من معجزات رسول الله ﷺ ودلائل نبوته ما اطلع عليه من الغيوب المستقبلة وإخباره عنها ومن المعلوم المقرر أن علم الغيب مختص بالله تعالى وحده: قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾(٢) ولكن جاءت أدلة أخرى تفيد: أن الله تعالى استثنى من خلقه من ارتضاه من الرسل، فأودعهم ما شاء من غيبه عن طريق الوحي إليهم وجعله معجزة لهم ودلالة صادقة على نبوتهم(٣).

---

(١) انظر: الصورة الفنية في الحديث النبوي، د. أحمد باسوف ص ٦٦٢، ٦٦٣.

(٢) سورة النمل، آية: ٦٥.

(٣) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن ملوح ١/٥٤٢، ٥٤٣.

قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ ﴾(1) فإخباره ﷺ عن بعض مشاهد يوم القيامة هو من الإخبار بالمغيبات التي هي بوحي من الله للدلالة على ثبوت نبوته وصحة رسالته وقد ورد عنه الكثير من أخبار تختص بيوم القيامة وما يحدث فيه منها: قوله ﷺ: ((إنكم مُلاقو الله حفاةً عراةً غُرْلاً))(2) وقوله: ((يعرَق الناسُ يومَ القيامةِ حتى يذهَبَ عَرَقهم في الأرض سَبعين ذراعاً، ويُلجِمهم حتى يَبلغَ آذانهم))(3). وغيرها من مشاهد يوم القيامة المروية عنه ﷺ مثل ثبوت الشفاعة له ﷺ وأحوال أهل النار وأهل الجنة وكل ذلك من دلائل نبوته التي أيده الله بها ﷺ.

ثانياً- من أساليب الدعوة: الترهيب

إن من أساليب الدعوة التي تظهر من هذا الحديث أسلوب الترهيب، حيث رهب ﷺ من مخالفة القولِ العملَ، وبيّن أن عقاب ذلك إلقاؤه في النار وتعذيبه فيها، وهو ترهيب قوي يخيف الدعاة والمدعوين من مسألة مخالفة القول العمل. فينبغي للداعية استخدامه في تخويف المدعوين من عواقب المعاصي والذنوب مع تذكره ذلك بحق نفسه.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: خطورة مخالفة القول العمل:

إن من موضوعات الدعوة التي تستنبط من عموم الحديث خطورة مخالفة القول العمل حيث بيّن أن ذلك من أسباب وقوع العقوبة في قوله ﷺ فيقول: بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه. ففي ذلك خطورة مخالفة القول العمل قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ ﴾(4) أي أعظم ذلك المقت والبغض عند الله، أي: إن الله يبغض بغضاً

(١) سورة آل عمران، آية: ١٧٩.

(٢) أخرجه البخاري ٦٥٢٤، ومسلم ٢٨٦٠.

(٣) أخرجه البخاري ٦٥٣١، ومسلم ٢٨٦٢.

(٤) سورة الصف، الآيتان: ٢، ٣.

شديداً أن تقولوا "ما لا تفعلون" وأن تعدوا من أنفسكم شيئاً ثم لم توفوا به[(١)].

وفي كتب السنة عشرات الروايات التي تحض على تطابق الظاهر مع الباطن، والقول مع الفعل.. كما تنذر وتحذر المعرضين عن ذلك بالعواقب الوخيمة والعقوبات العظيمة.

وتظهر خطورة مخالفة القول العمل في عدم قبول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من مخالفه[(٢)].

فالذي يدعو الناس إلى مكارم الأخلاق، وأخلاقه سيئة لن تكون دعوته مستجابة ولن يلقى إلا الصد والأعراض.

والذي يدعو الناس إلى الجهاد في سبيل الله، دون أن يكون مجاهداً أو على ثغرة من ثغور الجهاد لن يتجاوب الناس مع دعوته. والذي يحض الناس على البذل والتضحية والعطاء وهو شحيح لن يلقى أذناً صاغية في الناس أجمعين.

والذي يدعو الناس إلى التواضع وهو مختال فخور، وإلى الإيثار وهو صاحب أثرة، وإلى الصدق وهو كذاب، وإلى الأمانة وهو خائن، وإلى الاستقامة وهو منحرف، وإلى الطاعة وهو عاص، وإلى التماس الحلال الطيب وهو غارق في المحرمات والخبائث. إن إنساناً كذلك قد يتمكن من خداع الناس حيناً ولكنه لن يتمكن من خداعهم في كل حين[(٣)].

قال أبو العتاهية:

يا وَاعِظَ النّاسِ قد أصْبَحتَ مُتّهَماً ... إذ عِبتَ منهُمْ أُموراً أنتَ تَأتيهَا

كالمُلبِسِ الثّوْبَ من عُرْيٍ، عورته ... للنّاسِ باديَةٌ ما إنْ يُواريهَا

وَأعْظَمُ الإثمِ بَعدَ الكُفرِ نعلمه ... في كُلّ نَفسٍ عَمَاهَا عَنْ مَساويهَا

---

(١) معالم التنزيل، البغوي ١٠٨/٨.

(٢) الاستيعاب في حياة الدعوة والداعية، الشيخ: فتحي يكن ص ٢٥.

(٣) المرجع السابق ٢٢-٢٣.

عِرْفانُهـا بعُيُـوبِ النّـاسِ تَبـصِرُها منهُمْ، وَلا تُبـصرُ العيـبَ الـذي فيهَـا[١]

رابعاً- من واجبات الداعية: مطابقة عمله لقوله:

من واجبات الداعية التي تظهر من هذا الحديث مطابقة عمله لقوله، ويظهر ذلك من بيان سبب عذاب الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، أنه كان لا يطابق عمَلُه لقوله بل كان يأمر بالمعروف ولا يأتيه وينهى عن المنكر ويأتيه.

فإن من الأمور اللازمة لنجاح الداعية أن يفعل ما يأمر به ويجتنب ما ينهى عنه. والذي لاشك فيه أن الداعية إلى الله لا يستطيع أن ينفذ بدعوته إلى مستمعيه ما لم يكن قدوة حسنة، فعلى الدعاة أن يترسموا منهج الدعوة في كل شأن من شئونهم في أقوالهم وأفعالهم في حياتهم الخاصة والعامة.. في أنفسهم كأفراد، وفي بيوتهم كأزواج وآباء... وهذا ما أكدّ عليه علي ابن أبي طالب رضي الله عنه حين قال: ((من نصب نفسه للناس إماماً فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تهذيبه لسيرته قبل تهذيبه بلسانه، فمعلم نفسه، ومهذبها أحق بالإجلال من معلم الناس ومهذبهم))[٢].

إن الواجب على الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يكون حريصاً على إصلاح سره كما يجب عليه أن يكون حريصاً على إصلاح جهره... عليه أن يكون صريحاً مع نفسه فلا يخادعها، ومع الناس فلا يرائيهم ولا ينافقهم... وليسمع قول ابن السماك في هذا المعنى: (كم من مذكر بالله ناس لله... وكم داع إلى الله فار من الله... وكم من تال كتاب الله منسلخ عن آيات الله)[٣].

(١) جامع بيان العلم وفضله، ابن عبدالبر، ٦٧٢/١.

(٢) مشكلات الدعوة والداعية، فتحي يكن ص ٦٩، نقلاً عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في ضوء كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، د. سليمان بن عبدالرحمن الحقيل ص١٥٥.

(٣) المرجع السابق ص ١٥٦.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

التربية بالقدوة أشد تأثيراً من التربية بالقول، والانفصال بين القول والفعل بسبب أزمة نفسية عند المستمع، إذا كان ما يدعو إليه الداعي محموداً، فلماذا لم يتحلّ به، وإذا كان مذموماً فلماذا يدعوني إليه، ولأن هذا السلوك يضر أكثر مما ينفع، فقد حرص الإسلام على أن لا يفصل الإنسان بين قوله وفعله، وحسبنا أن الرسول ﷺ ما أمر بأمر إلا وكان أول الملتزمين به، وما نهى عن أمر إلا وكان أول المقلعين عنه.

وعلماء الأمة في هذا الجانب أكثر مسؤولية من غيرهم، فهم خلفاء الرسول ﷺ وهم القدوة وهم الأولى بالاتباع، ولهذا حذر الرسول ﷺ من مخالفة القول بالفعل، ومن هدي الرسول ﷺ أنه شبه ذلك بأسوأ صورة يتصورها الإنسان، ومن المفاهيم التربوية ما يلي:

أولاً- التربية بالترهيب:

في هذا الباب ورد حديث يستخدم فيه النبي ﷺ أسلوب الترهيب على نحو صريح، حيث يبين مصير الذين يأمرون بالمعروف ولا يفعلونه، وينهون عن المنكر ويأتونه، يقول ﷺ: «يُؤْتَىٰ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَىٰ فِي النَّارِ..»، ثم يصور صورة مرهبة لمصيره، حيث تخرج أمعاؤه من بطنه، ثم يدور بها في النار كما يدور الحمار في الرحا، وعندما يسأله أهل النار عن حاله، يجيب بأنه لم يكن صادقاً في أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر.

إن فعله في الدنيا لم يدخله النار فحسب، بل إنه جعل له عذاباً غريباً، يتعجب منه أهل النار جميعاً، عذاباً شاذاً ومختلفاً، تماماً كشخصيته في الدنيا؛ حيث كان يأمر بالخير ولا يفعله وينهى عن الشر ويفعله، ففضحه الله بين أهل النار.

وتلك صورة يرهب بها النبي ﷺ أمته من عاقبة هذا الفعل؛ حتى يجتنبوه، عندما بيّن عاقبة فاعليها؛ لأن كثيراً من الناس لا يصلحهم الإقناع الفكري المجرد... وأنجح علاجات الإصلاح بالنسبة لهم إنما هي وسيلة الترهيب، فهم يتأثرون بالمخاوف أكثر من

تأثرهم بالمرغبات؛ وذلك لأنهم قد يكونون ممن يتأثرون باللذات العاجلة مهما كانت ضئيلة ويؤثرونها على الخيرات الآجلة مهما كانت جليلة، ومن أجل ذلك يضعف لديهم أثر الترغيبات بالثواب الجزيل على فعل الخير وترك الشر، لكنهم إذا مثلت المخاوف المخففة في نفوسهم تيقظوا وحذروا واستقاموا[1].

ثانياً- التربية على الصدق في الدعوة إلى الله:

فعلى الداعي إلى الله والمربي أن يكون مثالاً للشفافية والنقاء، فهو لا يأمر بمعروف ويتركه، ولا ينهى عن منكر ويأتيه، بل هو مثال صادق وقدوة صالحة؛ كما أن دافعه الإيماني يزجره عن الازدواجية في حياته، والانفصال التام بين أقواله وأفعاله، إن مطابقة الأقوال للأفعال سمة أساسية في المربي، حتى يكون لدعوته الأثر في المتلقين، حين يجدونه يتمثل بكل ما يقول ويأمر نفسه وينهاها قبل أن يأمر الآخرين وينهاهم.

يقول ابن القيم: "علماء السوء من جلسوا على باب الجنة يدعون إليها الناس بأقوالهم، ويدعونهم إلى النار بأفعالهم، فكلما قالت أقوالهم للناس هلمّوا، قالت أفعالهم لا تسمعوا منهم، فلو كان ما دعوا إليه حقاً كانوا أول المستجيبين له، فهم في الصورة أدِلاّء، وفي الحقيقة قطاع الطريق"[2].

❁ ❁ ❁

(١) أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها، عبد الرحمن حسن حبنكة ص ٢٥٥، ٢٥٦.

(٢) الفوائد، ابن القيم ص ٨٠.

٢٥- باب الأمر بأداء الأمانة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ﴾[النساء: ٥٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾[الأحزاب: ٧٢].

الحديث رقم (١٩٩)

١٩٩- عن أَبي هريرة رضي الله عنه، أن رسولَ اللّه صلى الله عليه وسلم قال: «**آيَةُ المُنَافِقِ ثَلاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ**» متفقٌ عليه[1].

وفي رواية[2]: «**وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وزعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ**».

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

إن الصدق من أهم معالم الشخصية الإسلامية، ومن أهم سمات توازنها وأمارات تواجدها وأثرها في حركة المجتمع المسلم، ويَرْصد هذا الحديث الشريف سلوكيات تلقى بالمسلم في دائرة النفاق، وتجرفه إلى الابتعاد عن ملامحه الإسلامية التي وسم الله بها عباده المؤمنين في كثير من سور القرآن الكريم، وتجمعت في صفات عبادالرحمن، في سورة الفرقان.

ويبدأ الحديث بتقرير حقيقة ثابتة عن طريق الجملة الإخبارية الاسمية: "آية المنافق ثلاث".

والآية: هي: العلامة الظاهرة الواضحة لكل ذي لب؛ وجاءت كلمة آية مفردة.. ثم قال: "ثلاث" بعد ذلك والسياق أن يقول: آيات المنافق ثلاث: أي ثلاث خصال، قيل: أفرد

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩/١٠٧) ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه (٤٣٢٥). وسيكرره المؤلف برقم (٦٨٩).

(٢) أخرجه مسلم (٥٩/١١٠). أورده المنذري في ترغيبه (٤٣٢٥). وسيكررها المؤلف برقم (٦٨٩).

الآية على إرادة الجنس: أي جنس الآية أو العلامة وهل للمنافق علامات ثلاث فقط؟؟ إن هناك أحاديثًا أخرى تضيف إلى هذه الخصال خصالاً أخرى، وقبل إن الآية هى أعم من الخصلة والعلامة، فكأن هذه الآيات الثلاث تتضمن كل ما يمكن أن يتصف به المنافق: الذي يتعمد الكذب في الحديث: في أي شأن من شؤون دنياه، ويتعمد إخلاف الوعد في أي مسلك يسلكه وأي طريق يتخذه في أي مكان، وأى زمان، ويتعمد خيانة الأمانة مع سبق الإصرار والترصد، والدلالة اللغوية للنفاق تجسد سلوك المنافق، وترصد حركته في الحياة، فالنفاق في اللغة هو من جنس الخداع والمكر، وإظهار الخير، وإبطان خلافه؛ ودلالة النفق في اللغة تتفق مع سلوك المنافق: فالنفق هو : سرب في الأرض له مخلص إلى مكان ؛ فالمنافق يتوهم أنه سينجو بكذبه، وسيغنم بإخلاف الوعد، وسيزداد ثراء وقوة بخيانة الأمانة، وهو أشبه بمن يسرب في النفق ويختفي عن عيون محدثيه أو مواعديه أو مؤتمنيه، وقيل: النافقاء والنفقة: إحدى حجرات اليربوع: يكتمها ويظهر غيرها، فإذا أتى من جهة القاصعاء ضرب النافقاء برأسه فانتفق أي دخل في السرب وهرب، وهل المنافق الذي رسم المصطفى ﷺ معالمه وحدد آيته... في هذه الخصال وغيرها إلا صورة من هذا اليربوع الذي يصمم مسكنه كما يصور المنافق تفاصيل حياته، ومحاوراته وأفعاله مع الله ومع نفسه ومع الناس.

والنفاق في الشرع ينقسم إلى قسمين: "أحدهما: النفاق الأكبر: وهو أن يظهر الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويبطن ما يناقض ذلك كله أو بعضه؛ والثاني النفاق الأصغر، وهو نفاق العمل، وهو أن يظهر الإنسان علانية صالحة، ويبطن ما يخالف ذلك"[1].

والبناء اللغوي للحديث يفصح عن مقاصده، ومعانيه، فهو يتكون من أربعة جمل: الأولى: تحدد أو ترشد إلى ما يفضح المنافق.. وقد حددت في ثلاث خصال في هذا الحديث: ثم يأتي التفصيل بعد الإجمال. في ثلاث جمل شرطية وتلاحظ أن أداة الشرط

---

(١) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ، وجامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس.

هى: إذا: وهى ظرف لما يستقبل من الزمان: وتفيد التحقق ودلالة ذلك أن هذه الخصال ستظل موجودة لأنها من طبائع البشر الفاسدة: وعلى المسلم أن يقاوم ذلك ما استطاع إليه سبيلاً، والتعبير بلفظ "حَدّث"، أبلغ من "تكلم" لأن التحدّث يفيد المشاركة، حيث يحدث غيره، أما المتكلم فقد يتكلم المرء في عدم وجود من يسمعه.

والتعبير بـ "وعد" أبلغ من أوعد، لأن الوعد لا يكون إلا بالخير، أما أوعد فهي تعني الوعيد، فالمنافق يخلف الوعد في مجال الخير، ولكنه إذا أوعد كما يفهم من صياغة الفعل فإنه ينفذ وعيده، حَيْث الشر والضرر، وبناء الفعل للمجهول في قوله: وإذا أؤتمن خان"، يرشد إلى أن إعطاء الأمانة يكون سرًا ومن غير شهود: ولذلك يخون المنافق هذه الأمانة: وهى كل ما يؤتمن عليه الإنسان من الأقوال والأعمال والأموال والأحوال.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى أكثر من حكم فقهي:

الأول: حكم الكذب، وقد سبق الكلام عنه في الحديث رقم (٥٤).

الثاني: حكم الوفاء بالوعد، وقد اختلف الفقهاء في حكم الوفاء بالوعد على أقوال:

القول الأول: ذهب جمهور الفقهاء من الحنفية[١] والمالكية في المشهور[٢] والشافعية[٣] والحنابلة في المذهب[٤] إلى أن الوفاء بالوعد مندوب لا واجب.

القول الثاني: ذهب المالكية في قول[٥] وأحمد في رواية وهو قول ابن تيمية[٦] إلى

---

(١) المبسوط، السرخسي ٢٩/٢١، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٢٣٢/٥.

(٢) شرح الخرشي ٢٥/٤، وأنوار البروق للقرافي ٧٩/٣.

(٣) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٤٨٥/٤، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٤٨٧/٢.

(٤) الفروع، ابن مفلح ٤١٥/٦، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ١٥٢/١١.

(٥) شرح الخرشي ٢٥/٤، وأنوار البروق ٤٧/٤.

(٦) الفتاوى الكبرى ٥٥٤/٥، والفروع، ابن مفلح ٤١٥/٦، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ١٥٢/١١.

أن الوفاء بالوعد واجب لأن الخلف من صفات المنافقين استدلالاً بهذا الحديث.

القول الثالث: المشهور عند المالكية إلى أن الوعد يلزم إن كان لسبب ولا يلزم لغيره، كما لو قال لغيره تزوج وأعطيك؛ لأنه إذا كان معلقًا على سبب، يظهر منه معنى الالتزام[1] أي يجب الوفاء به.

الثالث: حكم أداء الأمانات والودائع، وقد اتفق الفقهاء[2] على أن من أودع شيئًا عند آخر كان أمينًا على الوديعة، ويجب عليه المحافظة عليها، وردها إلى صاحبها متى طلبها.

المضامين الدعوية

أولاً: من واجبات الداعية: بيان الخصال المذمومة.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: الإنذار والتحذير.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: خطر النفاق.

أولاً- من واجبات الداعية: بيان الخصال المذمومة:

من واجبات الداعية في دعوته أن يبين للمدعوين الخصال المذمومة ليجتنبوها، ويظهر ذلك في بيانه ﷺ خصال النفاق فقال: "آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان" ومع جمع الخصال الأخرى التي وردت في غير هذه الرواية.

قال ابن حجر: (وجه الاقتصار على هذه العلامات الثلاث؛ لأنها منبهة على ما عداها، إذا أصل الديانة منحصر في ثلاثة: القول، والفعل، والنية. فنبه إلى فساد القول

---

(١) غمز العيون والبصائر ٢٣٧/٣، والفروع، ابن مفلح ٤١٦/٦، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١١١/٦.

(٢) البحر الرائق ٢٧٥/٧، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٢١١/٦، وحاشية الدسوقي على الشرح الكبير، وهو مطبوع مع الشرح الكبير للدردير، محمد بن عرفة الدسوقي ٤١٩/٣ وما بعدها، وشرح منح الجليل ٣/٧ وما بعدها، ومغني المحتاج (٨٧٠) مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ١٢٦/٤، وتحفة المحتاج في شرح المنهاج، ابن حجر الهيتمي ٩٨/٧، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٣٥٢/٢ وما بعدها، والفروع، ابن مفلح ٤٧٩/٤.

بالكذب، وعلى فساد الفعل بالخيانة، وعلى فساد النية بالخلف؛ لأن خلف الوعد لا يقدح إلا إذا كان العزم عليه مقارنًا للوعد)[(١)].

وقال ابن هُبيرة: (في هذا الحديث من الفقه أن النفاق أصله من النافقاء، وهو أحد حجرة اليربوع، فالكذب يناسبه، والإخلاف يلائمه، والخيانة تطابقه. هذه الأشياء المذكورة ترجع إلى أصل واحد، وهو النفاق الذي تنافيه الأمانة، ويباينه الصدق، ويزايله الوفاء. والمراد من هذا الحديث أن تكون هذه الخلال مستمرة على هذا الشخص، وغالبة على أحواله، فأما إن بدرت منه أو ندر منها شيء لم يخرجه عن درجة الإيمان)[(٢)].

فينبغي على الداعية أن يبين هذه الخصال المذمومة خشية أن ينطبق عليه قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾[(٣)]؛ فالداعية إلى الله يجب أن يكون مبينًا للخير مطالبًا له ومبينًا للشر ناهيًا عنه.

ثانيًا- من أساليب الدعوة: الإنذار والتحذير:

إن من أساليب الدعوة التي تظهر من هذا الحديث أسلوب الإنذار والتحذير فقوله ﷺ آية المنافق ثلاث ... إلخ الحديث. خرج على سبيل الإنذار للمرء المسلم، والتحذير له أن يعتاد هذه الخصال، فيفضي به إلى النفاق، لا أن من ندرت منه هذه الخصال، أو فعل شيئًا من ذلك من غير اعتياد أنه منافق[(٤)].

فينبغي للداعية إنذار المدعوين مما يخاف عليهم منه، وتحذيرهم من اعتياده فيكون لهم طبعًا ويفضي بهم إلى المعصية؛ فأسلوب الإنذار والتحذير أسلوب يفيد الداعية في بيانه للمدعوين حتى يبيّن لهم معالم الخطر ووجوب اجتنابه.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١/١١٢.

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٦/٢٦٣، ٢٦٤، رقم ١٩٧٧.

(٣) سورة البقرة، آية: ١٥٩.

(٤) انظر: شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ١/١٩١.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: خطر النفاق:

إن من موضوعات الدعوة التي تستنبط من عموم الحديث خطر النفاق حيث بيّن رسول الله ﷺ خصال المنافقين لما فيها من خطر على المسلمين.

وخطر النفاق عظيم، من أجل ذلك أطال القرآن في بيان صفات المنافقين، وأنزل سورة كاملة باسمهم وذكرهم في كثير من آياته، وأكثر من ذكر فضائحهم ليحذرنا من التخلق بخلقهم، ويباعد بيننا وبين الانتساب إليهم، ولم يكتف القرآن بذلك القدر من التحذير بل قال "قاتلهم الله"، وهو دعاء عليهم بالهلاك بعد أن حذرنا منهم وعرّفنا أنهم عدو الأمة اللدود قال تعالى: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ﴾[1] وداؤها العضال وهم طريق نكبتها، وسبب استعباد العدو لها وشقائها في هذه الحياة[2].

فينبغي على الداعية أن ينبه المدعوين إلى خطر النفاق، وخطر التخلق به.

---

(١) سورة المنافقون، آية: ٤.

(٢) انظر: دعوة الرسل إلى الله تعالى، محمد أحمد العدوي، دار المعرفة، لبنان: ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ص ٤٧٠.

الحديث رقم (٢٠٠)

٢٠٠- وعن حُذيْفَة بنِ الْيمانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: حدثنا رسولُ اللّه ﷺ حَديثْين قَدْ رَأَيْتُ أَحدهُمَا، وَأَنَا أَنْتظرُ الآخَرَ: حدَّثَنا أَنَّ الأَمَانَة نَزلتْ في جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ، ثُمَّ نَزَلَ الْقُرآنُ فَعلموا مِنَ الْقُرآن، وَعلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ، ثُمَّ حَدَّثنا عَنْ رَفْعِ الأمانَةِ فَقال: «**يَنَامُ الرَّجل النَّوْمةَ فَتُقبضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ، فيظلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ الْوَكْتِ، ثُمَّ ينامُ النَّوْمَةَ فَتُقبضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ، فيظَلُّ أَثَرُهَا مِثْل (أثرِ)**[1] **الْمَجْلِ، كجَمْرٍ دَحْرجْتَهُ علَى رِجْلكَ، فَنفطَ فتَراه مُنْتبرًا وَلَيْسَ فِيهِ شَيءٌ**» (**ثُمَّ أَخذَ حَصاةً فَدَحْرجَهَا علَى رِجْلِهِ**)، **فَيُصبْحُ النَّاسُ يَتبايَعونَ، فلا يَكادُ أَحَدٌ يُؤدِّي الأَمَانَةَ حَتَّى يُقَالَ: إنَّ في بَنِي فَلانٍ رَجُلاً أَمِينًا، حَتَّى يُقَالَ لِلرجلِ: مَا أَجْلدهُ مَا أَظْرَفهُ، مَا أَعْقلَهُ، وَمَا في قلْبِهِ مِثْقَالُ حبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إيمانٍ.**

وَلَقَدْ أَتَى عَلَيَّ زَمَانٌ وَمَا أُبَالِي أَيُّكُمْ بايعْتُ، لَئِنْ كَانَ مُسْلمًا ليردُنَّهُ علَيَّ دِينُه، ولَئِنْ كَانَ نَصْرانيًا أَوْ يَهُوديًّا لَيُرُدَّنَّهُ عَلَيَّ سَاعِيه، وأَمَّا الْيَوْمَ فَما كُنْتُ أُبايِعُ مِنْكمْ إلاَّ فُلانًا وَفلانًا» متفقٌ عليه[2].

قولـه: (جَـذْر) بفتح الجيم وإسكان الذال المعجمة: وَهُوَ أصل الشيء وَ(**الوكت**) بالتاء المثناة من فوق: الأثر اليسير. وَ(**المَجْلُ**) بفتح الميم وإسكان الجيم: وَهُوَ تَنَفُّطٌ في اليدِ ونحوها من أثرِ عمل وغيرِهِ. قوله: (**مُنْتَبرًا**): مرتفِعًا[3]. قوله: (**ساعِيهِ**): الوالي علَيهِ.

ترجمة الراوي:

حذيفة بن اليمان: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٠٤).

---

(١) الزيادة ليست عندهما، في هذه الرواية، وإنما هي عند البخاري برقم (٧٠٨٦)، وكذا هو عند الحميدي في (٢٨٠/١، رقم ٣٩٤)، والمنذري في ترغيبه.

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٩٧)، ومسلم (١٤٣/٢٣٠) واللفظ له. أورده المنذري في ترغيبه (٤٤٠٥).

(٣) بنصه في الترغيب (٥٩٣/٣).

غريب الألفاظ:

المجلُ: تنَقطٌ في اليد ونحوها من أثر عمل وغيره. وقيل: هو أثر محكم لا يكاد يزول إلا بعد مدة[(١)].

فنفطت: أي قرحت[(٢)].

مثقال حبة: أي مقدار شيء قليل[(٣)].

الخردل: حبّة الخردل سدس حبّة الشعير، والمراد: ليس في قلبه شيءٌ من الإيمان[(٤)].

الشرح الأدبي

يصور هذا الحديث الشريف قصة "الأمانة" في رحلتها مع الإنسان، وكيف تحولت من فطرة فطر الله الناس عليها إلى نبض غريب في قلب ضجيج الحياة، وإلى طير مهاجر لا يستقبله إلا فضاء النفوس المؤمنة والقلوب التي عقدت على الإيمان، ولم تتمكن منها وساوس الشيطان، واحتمت بآيات الكتاب، وسنة المصطفى ﷺ.

فالأمانة هنا ليست سلوكًا مؤطرًا بالزمان أو المكان، ولكنها كما قال العلماء "عين الإيمان"، فإذا استمكنت من قلب العبد قام حينئذ بأداء التكاليف، واغتنم ما يرد عليه منها، وجَدَّ في إقامتها.

وقصةُ الأمانة كما يروي تفاصيلها رواية عن رسول الله ﷺ، حذيفة بن اليمان: تبدأ بالمرحلة الأولى وهي تتمثل في الحديث الأول، وقد جاء تصويرها في صورة كنائية" فقوله ﷺ: نزلت في جذر قلوب الرجال، كناية عن أن الأمانة فطرة في الإنسان: قد فطر الله الناس عليها، وهي الأمانة التي حملها الإنسان: وأما السموات والأرض

---

(١) رياض الصالحين ١٣٠، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٧٦٩/٢.

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٧٦٩/٢.

(٣) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٧٧٠/٢.

(٤) معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ١٧٢.

والجبال: فأبين أن يحملنها، وأشفقن منها، والصورة هنا تحمل كل أصول الفطرة النقيَّة، فالقلوبُ مثل شجرة سامقة أصلها ثابت، وفرعها في السماء، وما أدق هذا التصوير البياني في قول المصطفى ﷺ: نزلت: أى استقرت في جذر قلوب الرجال، وفي ذلك إيحاء بأن هذه الفطرة مهما ذبلت أغصانها، وجفت ثمارها، ويبست سوقها، فإن جذعها... وجذرها لا يزال ضاربًا في أعماق الفطرة الإنسانية.

والقلة المؤمنة الذين يقبضون على الجمر، ويعضون بالنواجذ على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، هم عصارة هذا الجذر الإيماني الطهور، وهم الذين عَلِمُوا من القرآن معالم تلك الأمانة، وعَلِمُوا من السنة كيف تؤدي الأمانة، وكيف يحملها الإنسان، وينجو من أن يكون فريسة للشيطان، فيظلم نفسه، ويلقى بها إلى مهاوي التهلكة، وينجو من أن يتردى في حمأة الجهل والرذيلة والفساد، والمرحلة الثانية: في قصة: الأمانة: تصور معالمها عدةُ مشاهد تحدد أبعادها الشخصيات والأحداث من خلال التصوير الدقيق الرامز لتفريط الإنسان في الأمانة، والنوم عن الفرائض والواجبات هو من مظاهر الغفلة وهو الطريق إلى المعصية، والتفريط في الأمانة، ولذلك يأتي التشبيه لتوضيح كيفية انطفاء وهج الأمانة في القلوب، ولا يبقى إلا مثل الوكت، وهو سواد يسير، أو أثر يسير، يبقى في القلب دالاً على رسوخ الفطرة في مكونات الإنسان، وتأتي ثم لتربط بين المرحلتين، وهي توحي بأن المرحلة الأولى في هذا الضياع لها زمن طويل ثم تبدأ المرحلة الجديدة، وهي أشد ضياعًا وتضييعًا للأمانة.

ويمكن أن تكون سمة للفرد، أوْسِمةَ في المجتمع، ولذلك يتكرر حدث النوم رمزًا للغفلة والسهد، وضعف الإيمان، والصورة هنا تتحرك وتزداد وضوحًا وتأثيرًا، حتى كأن الأمانة المضيعة مشخصة أمامنا في هذه الصور الواقعية المتتالية، فيظل أثرها مثل المجل: وهو أن يكون بين الجلد واللحم ماء، فهي ظاهرة مرضية تشوه فطرة الإنسان، وتحرق معالمه، ولذلك تأتي الصورة الثانية في ذلك التشبيه الدقيق التصويري الحركي الذي يوحي بأن الشيء قد يرتفع ويخدع الحواس، ولكنه نمو سرطاني، وتفاعل شيطاني تفصح عنه هذه الصورة (كجمر دحرجته على رجلك فنفط فتراه منتبرًا،

وليس فيه شيء"، ولتتأمل كثرة صيغ التعجب في سياق هؤلاء الذين يحاولون أن ينأوا بالصفات الخُلقيةُ عن ساحة الإيمان، وتعاليم الإسلام، وهم ليسوا في قلبهم مثقال حبة من خردل من الإيمان.

وقصة الإيمان تختم ختامًا تحذيريًا: حيث فرط أهل الكتاب في الأمانة، ولم يبق إلا القلة التي تحافظ على بيعة المصطفى ﷺ أي على عهده، وهي: القابضة على الجمر، والتي تعض بالنواجذ على الكتاب والسنة، وهم الذين نزلت الأمانة في جذر قلوبهم.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على نقل كل ما سمعوه من رسول الله ﷺ.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: منزلة الأمانة وأهميتها وخطورة تضييعها.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: التوكيد.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: اختصاص النبي ﷺ بالإخبار عن بعض ما يحدث في آخر الزمان ومراحل ضياع الأمانة.

خامسًا: من أساليب الدعوة: ضرب المثل.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: الصلة بين الإيمان وأداء الأمانة.

أولاً- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على نقل كل ما سمعوه من رسول الله ﷺ:

إن من موضوعات الدعوة التي تظهر في هذا الحديث حرص الصحابة رضي الله عنهم على كل ما سمعوه من رسول الله ﷺ وهذا يظهر فيما أخبر به حذيفة بن اليمان أن رسول الله ﷺ: حدثهم حديثين فقال: "قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر...".

وهذا يدل على يقينه وعلمه أن ما أخبر به رسول الله ﷺ سوف يقع لا محالة. فحرص الصحابة رضي الله عنهم لعلمهم بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ

﴿يُوحَىٰ﴾[1] وأن ما أخبر به حق.

وقد ورد عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قالَ: ((كُنْتُ أكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ أسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أُرِيدُ حِفْظَهُ، فَنَهَتْنِي قُرَيْشٌ وَقالُوا: أتَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ تَسْمَعُهُ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ بَشَرٌ يَتَكَلَّمُ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَى، فأَمْسَكْتُ عَنِ الْكِتَابِ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَوْمَأَ بأصْبَعِهِ إلَى فِيهِ فقالَ: أكْتُبْ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ إلاَّ حَقٌّ))[2].

فالصحابة رضي الله عنهم كانوا حريصين على كل ما سمعوه من رسول الله ﷺ وذلك من أجل حفظه وتبليغه ومتابعة وقوعه إذا أخبر عن شيء مستقبل كما في هذا الحديث.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: منزلة الأمانة وأهميتها وخطورة تضييعها:

من موضوعات الدعوة التي تستنبط من عموم الحديث منزلة الأمانة وأهميتها وخطورة تضييعها، ويظهر هذا من قول حذيفة ابن اليمان حدثنا "أن الأمانة نزلت في جذر..." حيث بيّن ثبوت الأمانة في القلوب، وقال: ثم حدثنا عن رفع الأمانة؛ فبين منزلة الأمانة وأهميتها وخطورة تضييعها.

قال ابن هبيرة: (ومدار هذا الحديث هو التنبيه على الأمانة التي تثبت وتنفع في الدنيا والآخرة هي التي كانت لله ومن أجل الله، وأن الأمانة التي يستعملها الناس لأجل الناس ولحراسة معايشهم ولحفظ أقوالهم بين الناس، ولصلاح دنياهم، فإنها هي التي تقبض من قلوبهم وترفع لارتفاع أسبابها، ولانقضاء ما كانت لأجله، فأما ما كان منها لله تعالى، فإنه لا يزول لدوام الله سبحانه وتعالى)[3].

فحين تستقيم الفطرة وتسلم من اتباع الهوى تتمثل في صاحبها بخلق الأمانة، وفي تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا

---

(١) سورة النجم، الآيتان: ٣ - ٤.

(٢) أخرجه أبو داود ٣٦٤٦، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٠٩٩).

(٣) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٢١٤/٢ رقم ٣٩٤.

وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾[١] يقول القرطبي: (والأمانة تعم جميع وظائف الدين على صحيح الأقوال)[٢] كما يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾[٣] (والأمانة والعهد: يجمعان كل ما يحمله الإنسان من أمر دينه ودنياه قولاً وفعلاً، وهذا يعم معاشرة الناس، والمواعيد، وغير ذلك. وغاية ذلك حفظه والقيام به)[٤].

وحين يعم التعامل بالأمانة يؤدي الذي أؤتمن أمانته، سواء أؤتمن على قنطار أو دينار، لأن الله أمر بأداء الأمانات إلى أهلها، ونهى عن خيانة الله والرسول وخيانة الأمانات، وجعل من صفات المفلحين أنهم يرعون عهودهم وأماناتهم. والنفوس البشرية بفطرتها تميل إلى الناصح الأمين[٥].

فالأمانة لها أهمية ومنزلة عظيمة، قال رسول الله ﷺ: ((اضْمَنُوا لِي سِتًّا مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَضْمَنْ لَكُمُ الْجَنَّةَ: اصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُمْ، وَأَوْفُوا إِذَا وَعَدْتُم، وَأَدُّوا الأَمَانَةَ إِذَا اؤْتُمِنْتُمْ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ وَغُضُّوا أَبْصَارَكُمْ وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ))[٦].

أما خطورة تضييع الأمانة فقد قال فيها ﷺ ((إذا ضُيِّعَتِ الأمانة فانتظرِ الساعة))[٧]. وقد أخبر رسول الله ﷺ أنه عندما تضطرب الموازين وتفسد القيم تضيع الأمانة وذلك بقوله ﷺ: ((سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ سَنَوَاتٌ خَدَّاعَاتٌ. يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ. وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ وَيَخُونُ فِيهَا الأَمِينُ. وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٧٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢٥٣/١٤/٧.

(٣) سورة المؤمنون، آية: ٨.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٠٧/١٢/٦.

(٥) هذه أخلاقنا، محمود محمد الخزندار ص ٥١٢.

(٦) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣٥٨/٤، رقم ٨١٣٠، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٧) أخرجه البخاري ٦٤٩٦.

قِيلَ: وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ؟ قَالَ: الرَّجُلُ التَّافِهُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ))[(١)].

فينبغي على الداعية حث المدعوين على التحلي والتمسك بالأمانة، وبيان منزلتها وأهميتها في الحياة، وبيان خطورة تضييعها.

ثالثًا- من أساليب الدعوة: التوكيد:

من أساليب الدعوة في هذا الحديث أسلوب التوكيد ويظهر في قوله ﷺ "إن في بني فلان رجلاً أمينًا" حيث أكّد ما يقال فيمَنْ توجد فيه الأمانة بعد رفعها.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: اختصاص النبي ﷺ بالإخبار عن بعض ما يحدث في آخر الزمان ومراحل ضياع الأمانة:

إن من موضوعات الدعوة التي تضمنها هذا الحديث إخباره ﷺ عن بعض ما يحدث في آخر الزمان.

وهذا يظهر في بيانه لمراحل ضياع الأمانة فبعد أن بيّن ﷺ نزول الأمانة في جذر أي أصل قلوب الرجال بيّن مراحل ضياعها فقال "ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه... إلخ الحديث.

أي أن الأمانة تزول عن القلوب شيئًا فشيئًا، فإذا زال أول جزء منها زال نورها وخلفته ظلمة كالْوَكْت وهو اعتراض لون مخالف للّون الذي قبله، فإذا زال شيء آخر صار كالمجل وهو أثر محكم لا يكاد يزول إلا بعد مدة، وهذه الظلمة فوق التي قبلها، ثم شبه زوال ذلك النور بعد وقوعه في القلب وخروجه بعد استقراره فيه واعتقاب الظلمة إياه بجمر يدحرجه على رجله حتى يؤثر فيها ثم يزول الجمر ويبقى التنفط وأخذ الحصاة ودحرجته إياها أراد زيادة البيان وإيضاح المذكور[(٢)].

وإخباره عن رفع الأمانة من الإخبار بالأشياء المستقبلة التي هي من معجزات رسول الله ﷺ ودلائل نبوته التي خصّه الله بها.

---

(١) أخرجه ابن ماجه ٤٠٣٦، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٣٢٦١).

(٢) انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٨٣.

فقد جاءت الأدلة على أن الله اختُص بمعرفة الغيب وحده ولكن استثنى من خلقه من ارتضاه من الرسل عليهم السلام فأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحي، وجعله معجزة لهم ودلالة صادقة على نبوتهم قال تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ﴾[١].

وقد وقع على لسان رسول الله ﷺ من الإخبار بكثير مما يحدث في آخر الزمان. منها قوله ﷺ: ((ولا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَظْهَرَ الفُحْش والتَّفَاحُشُ وَقَطِيْعَةُ الرَّحِمِ وَسُوْءُ المُجَاوَرَةِ، وَحَتَّى يُؤْتَمَنَ الخَائِنُ، وَيُخَوَّنَ الأمِيْنُ))[٢]. وغيرها من أخبار آخر الزمان مثل كثرة المفاتن من عري ومال... الخ.

خامسًا- من أساليب الدعوة: ضرب المثل:

إن من أساليب الدعوة التي تظهر في هذا الحديث أسلوب ضرب المثل لتوضيح المقال ويظهر ذلك في قوله "فيظل أثرها مثل الوكت... فيظل أثرها مثل المجل" "ثم أخذ حصاة فدحرجها على رجله...). فقد ضرب مثل لرفع الأمانة وبقاء أثرها مثل الوكت أي أثر النار ونحوه، والمجل أثر العمل في الكف[٣].

ثم أخذ حصاة ودحرجها على رجله، وذلك لتوضيح المعنى المذكور وزيادة إيضاحه.

وأسلوب ضرب المثل أسلوب مفيد في تقريب المعنى للمدعوين وزيادة إيضاح الدعوة لهم، فينبغي على الداعية أن يستخدم أسلوب ضرب المثل في دعوته لتكون دعوته مبسطة ليس بها تكلف. فلضرب الأمثال أثناء العظة أكبر الآثار في النفوس - فإن المقصود من ضرب الأمثال أنها تؤثر في العقول ما لا يؤثره وصف الشيء ذاته - ذلك أن الهدف تشبيه الخفي بالجلي، والغائب بالشاهد، فيتأكد الوقوف على ماهيته ويصير الحس مطابقًا للعقل، وذلك هو النهاية في الإيضاح[٤].

---

(١) سورة الجن، الآيتان: ٢٦، ٢٧.

(٢) أخرجه أحمد ١٦٣/٣ رقم ٦٥١٤، وقال محققو المسند صحيح لغيره ٦٤/١١.

(٣) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٤٢/١١.

(٤) هداية المرشدين، علي محفوظ ص ١٧٧.

سادسًا- من موضوعات الدعوة: الصلة بين الإيمان وأداء الأمانة:

من موضوعات الدعوة التي تستنبط من عموم الحديث الصلة بين الإيمان وأداء الأمانة، ويدل على ذلك قوله "ولقد أتى عليَّ زمان وما أبالي أيكم بايعت: لئن كان مسلمًا ليردنه عليّ دينه وإن كان نصرانيًا أو يهوديًا ليردنه علي ساعيه. وفي هذا دلالة على أن المسلم دينه يجعله يؤدي الأمانة، والحاكم المسلم أيضًا بإيمانه يجعل اليهودي والنصراني يلتزمان بأداء الأمانة، فتكون صلة الإيمان بالأمانة صلة وطيدة. فالأمانة صفة مميزة لأصحاب الرسالات، فقد كان كل منهم يقول لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾[1].

وكانت تلك شهادة أعدائهم فيهم، كما جاء في حوار أبي سفيان وهرقل حيث قال هرقل: ((سألتُك بماذا يأمُرُكم؟ فزعمتَ أنهُ يأمرُ بالصلاةِ والصِّدق والعفاف والوفاءِ بالعَهدِ وأداءِ الأمانة، قال: وهذه صِفَةُ نبيّ))[2]. قال رسول الله ﷺ: ((لا إيمانَ لِمَنْ لا أَمانَةَ لَهُ))[3]، وقال ﷺ: ((المُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ))[4].

فهذا الحديث ينفي الإيمان عن من لا أمانة له وهذا لضرورة الأمانة لوجود الإيمان.

---

(١) سورة الشعراء، الآيات: ١٠٧، ١٢٥، ١٤٣، ١٦٢، ١٧٨.

(٢) أخرجه البخاري ٢٦٨١.

(٣) أخرجه أحمد ١٥٤/٣ رقم ١٢٥٦٧، وقال محققو المسند: حديث حسن ٣٣/٢٠.

(٤) أخرجه أحمد ١٥٤/٣ رقم ١٢٥٦١، وقال محققو المسند: حديث صحيح ٢٩/٢٠.

الحديث رقم (٢٠١)

٢٠١- وعن حُذَيْفَةَ، وَأَبي هريرة رضي الله عنهما، قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يَجْمَعُ اللّه تبارك وَتَعَالَى النَّاسَ، فَيُقُومُ الْمُؤمِنُونَ حَتَّى تَزْلفَ لَهُمُ الْجَنَّةُ، فَيَأْتُونَ آدَمَ صلوات اللّه عَلَيْهِ، فَيَقُولُون: يَا أَبَانَا اسْتَفْتِحْ لَنَا الْجَنَّةَ، فَيقولُ: وهَلْ أَخْرجكُمْ مِنْ الْجنَّةِ إلاَّ خَطِيئَةُ أَبيكُمْ[١]، لَسْتُ بِصاحبِ ذَلِكَ، اذْهَبُوا إِلَى ابْنِي إبْراهِيمَ خَلِيل اللّه، قَالَ: (فَيأتُونَ إبْرَاهِيمَ)[٢]، فيقولُ إبْرَاهِيمُ: لَسْتُ بصَاحِبِ ذَلِك إنَّمَا كُنْتُ خَلِيلاً مِنْ وَرَاءَ وراءَ، اعْمَدُوا إِلَى مُوسَى الذي كَلَّمهُ اللّه تَكْلِيمًا، فَيَأْتُونَ مُوسَى، فيقُولُ: لسْتُ بِصَاحِب ذلك، اذْهَبُوا إِلَى عِيسى كَلِمَةِ اللّه ورُوحِهِ، فَيقُولُ عيسَى: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذلكَ. فَيأْتُونَ مُحَمَّدًا صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم، فَيَقُومُ فَيُؤْذَنُ لَهُ، وَتُرْسَلُ الأَمَانَةُ والرَّحِمُ، فَيَقُومَان جنْبَتَي الصراطِ يَمِينًا وشِمالاً، فيَمُرُّ أَوَّلُكُمْ كَالْبَرْقِ» قُلْتُ: بأَبِي وَأُمِّي، أيُّ شَيءٍ كَمَرِّ الْبَرْقِ؟ قال: «أَلَمْ تَرَوْا[٣] كَيْفَ يمُرُّ ويَرْجعُ في طَرْفَةِ عَيْنٍ؟ ثُمَّ كَمَرِّ الريحِ ثُمَّ كَمرِّ الطَّيْرِ؟ وَأَشَدُّ الرِّجالِ تَجْري بهمْ أَعْمَالُهُمْ، ونَبيُّكُمْ قَائِمٌ عَلَى الصرِّاطِ يَقُولُ: رَبِّ سَلِّمْ، حَتَّى تَعْجِزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ، حَتَّى يَجِئَ الرَّجُلُ لا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إلاَّ زَحْفًا، وفِي حافَتَي الصرِّاطِ كَلالِيبُ مُعَلَّقَةٌ مَأْمُورَةٌ بأَخْذِ مَنْ أُمِرَتْ بِهِ، فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ وَمُكَرْدَسٌ فِي النَّارِ».

وَالَّذِي نَفْسُ أَبِي هُرَيْرَةَ بِيَدِهِ إِنَّ قَعْرَ جَهنَّم لَسبْعُونَ خَرِيفًا، رواه مسلم[٤].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

حذيفة بن اليمان: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٠٢).

---

(١) عند مسلم زيادة: (آدم) وهي ليست في جمع الحميدي.

(٢) الزيادة ليست عند مسلم.

(٣) عند مسلم زيادة: (إلى البرق).

(٤) برقم (١٩٥/٣٢٩). أورده المنذري في ترغيبه (٥٣٢٩).

غريب الألفاظ:

تَزلِف: تقترب[١].

وراء وراء: وهي كلمة تذكر على سبيل التواضع أي: لست بتلك الدرجة الرفيعة[٢].

جنبتي الصراط: جانباه[٣].

حافتي الصراط: جانباه[٤].

الكلاليب: جمع كُلاب، وكَلُّوب وهو حديدة معوّجة الرأس ينشلُ بها الشيء أو يعلق[٥].

خدشُ: هو الأثر في الجلد حين يخدش والجمع: خدوش[٦].

المكردس: الذي جُمِعت يداه ورجلاه وأُلقي إلى موضع[٧].

خريفًا: أي سنة[٨].

الشرح الأدبي

ما أشد حاجة المسلم إلى الشفاعة، وما أكثر احتياجه إلى عفو ربه، ورحمته. وأداء الأمانة على وجهها الصحيح يقتضي أن يظل المؤمن متيقظًا لا تستهويه الغفلة، ولا تهزمه أحوال الحياة، بل لابد أن يظل في رباط إلى يوم القيامة، حتى يستحق شفاعة المصطفى ﷺ، فالإنسان لا ينفعه إلا عمله، ولا يُجدي إلا ما قدمت يداه، في هذا اليوم ﴿يَوْمَ

---

(١) لسان العرب، ابن منظور والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ز ل ف).

(٢) رياض الصالحين ٢٣٢.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٢٣٨.

(٤) المرجع السابق.

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ك ل ب).

(٦) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢٢٠.

(٧) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ك ر د س).

(٨) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٢٣٨.

يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾(١).

والحديث الشريف يقدم هذه الحقائق الناطقة بفضل رسول الله ﷺ فهو خاتم الأنبياء والمرسلين، وهو صاحب لواء البشارة والنذارة، كما يقول القاضي عياض في كتابه الشفا، وقد خصه الكبير المتعال بفضيلة النبوة والرسالة والخلة والمحبة، والاصطفاء والإسراء، والرؤية والقرب، والدنو والوحى، والشفاعة والوسيلة، والفضيلة والدرجة الرفيعة، والمقام المحمود، والحوض المورود.

وينقل الحديث لنا مشاهد المؤمنين وهم ينعمون بالقرب من الجنة، كما قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(٢).

وقد خص الرسول ﷺ المؤمنين بهذه المَكْرُمة حيث قال: "فيقوم المؤمنون حتى تزلف لهم الجنة"، وقبلها أخبر بأن الله تعالى "يجمع الناس"، ولكن لا ينعم بالقرب من الله إلا المؤمنون، والتعبير بالفعل المضارع، "يجمع" يفصح عن أن هذا الأمر سيحدث في المستقبل: حتى يستعد كل من يؤمن ويعمل صالحاً ويطمح إلى الفوز بالجنة.

وتتعدد مشاهد الحديث وحواراته بين المؤمنين وبين آدم وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد -عليهم الصلاة والسلام- إن هذه المشاهد الحوارية تتجلى فيها وحدة العقيدة، فالدين عند الله الإسلام، كما قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾(٣).

والحديث في بنائه الفني، وصياغته الأسلوبية يتسم بعدة ظواهر فنية وأسلوبية، ومنها:

---

(١) سورة عبس، الآيات: ٣٤-٣٧.

(٢) سورة الشعراء، آية: ٩٠.

(٣) سورة الشورى، آية: ١٣.

أ-الصياغة القصصية من حيث تسلسل المواقف، والحوارات المتعاقبة بين المؤمنين والأنبياء والرسل.

ب-تسارع المواقف، وتوالي الأحداث: حيث توالت الأفعال المضارعة معطوفة بالفاء إيحاء بسرعة الحركة، ورغبة في طلب الشفاعة التي لا يستحقها إلا من أدى الأمانة وحملها بصدق وَوَصَل الرحم.

ج-النداء والاستعطاف في قول المؤمنين: يا أبانا: استفتح لنا الجنة، أى اسأل لنا من الله فتحها لندخلها، والاستفهام في إجابة آدم: يحمل أنفاس الاعتراف والتوبة، والمحبة لكل المؤمنين، وآدم قد اجتباه ربه فتاب عليه وهدى، والأنبياء معصومون من الكبائر، ومعصومون من الصغائر التي تزرى بفاعلها أو تحط منزلته أو تسقط مروءته.

د-التَكْرَار في كثير من العبارات ومنها قول كل نبي "لست بصاحب ذلك" حتى ذهبوا إلى محمد ﷺ وهو صاحب الشفاعة، وتكرار الفعل "فَيَأْتُونَ" عند وصف مجيئهم للنبي آدم، وإبراهيم وموسى، ومحمد عليهم الصلاة والسلام.

هـ-تشخيص المعنويات، وتجسيدها مثل الأمانة والرحم، وكأنهما شخصان، يدركان ما يدور حولهما، وفي ذلك إشارة إلى أن صلة الرحم، وأداء الأمانة من مفاتيح الجنة، ومن أسباب الفوز بشرف الشفاعة.

و-تقسيم المؤمنين إلى ثلاث مراتب وهم يمرون على الصراط، وتشبيه كل طائفة حسب درجتها من القبول وإتقان العبادة، فأولهم كالبرق، وثانيهم كمدٍّ الريح، وثالثهم كمدٍّ الطير.

ز-وصف الصراط وتصويره للترهيب، حتى لا يغفل الناس، وحتى لا ينسوا هذه المشاهد التي قدمها الحديث في أحسن بيان، وأوضح برهان، ترغيبًا في الطاعة، وترهيبًا من المعصية، حتى يفوز المؤمنون بفضل الله ورحمته.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: إثبات البعث وجمع الخلائق.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: بيان منزلة النبي ﷺ بين الأنبياء.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: أدب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: عظم أمر الأمانة وصلة الرحم.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: مرور الناس على الصراط.

سادسًا: من واجبات المدعو: التزود بالأعمال الصالحة والاستعداد لأهوال يوم القيامة.

سابعًا: من صفات الداعية: الإشفاق على المدعو.

ثامنًا: من آداب المدعو: سؤال الداعية بأدب واحترام.

تاسعًا: من موضوعات الدعوة: من دلائل النبوة: الإخبار عن مشاهد يوم القيامة.

عاشرًا: من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب والتقرير.

أولاً- من موضوعات الدعوة: إثبات البعث وجمع الخلائق:

الدنيا دار عمل بلا حساب، والآخرة دار حساب بلا عمل، وشاء الله أن يجمع الناس بعد موتهم للحساب: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾[1]، وقد بيّن ذلك النبي ﷺ بقوله: (يجمع الله تبارك وتعالى الناس)، وذلك بعد بعثهم بأرض المحشر، والبعث والنشور من عقيدة المسلم، وقد جاءت بذلك كثير من الآيات والأحاديث، قال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3]. أي: "قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بالبعث: الله سبحانه وتعالى

---

(١) سورة طه، آية: ١٥.

(٢) سورة التغابن، آية: ٧.

(٣) سورة الجاثية، آية: ٢٦.

يحييكم في الدنيا ما شاء لكم الحياة، ثم يميتكم فيها، ثم يجمعكم جميعًا أحياء إلى يوم القيامة لا شك فيه، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن الله محييهم بعد مماتهم"[١].

وقال الله تعالى: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾[٢]، و"الحشر هو الجمع"[٣].

ومن الأحاديث قول النبي ﷺ: ((يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَهْتَمُّونَ لِذٰلِكَ))[٤].

وإنما يبعث الناس ويحشرون للحساب: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[٥].

"إن الحكمة من المعاد الأخروي الذي هو بعث الخلائق أحياء بعد موتهم كما كانوا يوم بدأ الله تعالى خلقهم، هو مجازاة المكلفين منهم بحسب كسبهم الإرادي الاختياري الذي كسبوه في هذه الدنيا، لأن الدنيا دار عمل، والآخرة دار جزاء، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[٦].

فالناس يعيشون في هذه الحياة الدنيا متفاوتين تفاوتًا كبيرًا في أرزاقهم وآجالهم وأعمالهم وفي سعادتهم وشقائهم. فمنهم الظالم الغشوم ومنهم المظلوم المهضوم، ومنهم الصحيح السليم، ومنهم المريض السقيم، ومنهم الغني الثري ومنهم الفقير الشقي، ومنهم العزيز، ومنهم الذليل، ومنهم المحسن ومنهم المسيء، إلى غير هذا من التفاوت والاختلاف، فلو أنهم يموتون بانقضاء آجالهم ولا يبعثون لكان ذلك منافيًا للحكمة

---

(١) التفسير الميسر، إعداد نخبة من العلماء ٥٠١.

(٢) سورة الكهف، آية: ٤٧.

(٣) العقيدة الإسلامية وأسسها، عبدالرحمن حبنكة ص ٦٥٣.

(٤) أخرجه البخاري ٦٥٦٥، ومسلم ٣٢٢ – ١٩٣.

(٥) سورة الزلزلة، الآيتان: ٧ – ٨.

(٦) سورة آل عمران، آية: ١٨٥.

مجانبًا للعدل والرحمة، ومن هنا قضى الله تبارك وتعالى بالبعث والجزاء وحكم بهما، فهما كائنان لا محالة"[١].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: بيان منزلة النبي ﷺ بين الأنبياء:

أفضلُ الخلقِ الأنبياءُ عليهم السلام، وأفضلُ الأنبياءِ محمدٌ ﷺ، فهو أكرمهم على الله، وهو صاحب الشفاعة العظمى يوم القيامة، وهذا واضح في قول النبي ﷺ: (فيأتون محمدًا فيقوم فيؤذن له)، مما يدل على أن الله فضّل محمدًا ﷺ على سائر الأنبياء، وقد قال ﷺ: ((فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِسِتٍ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ. وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ. وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ. وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا. وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً. وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ))[٢].

وهو أول من يبعث يوم القيامة، فقد قال ﷺ: ((لا تُفضلوا بينَ أنبياء الله، فإنهُ يُنفخُ في الصُّورِ فيَصعَقُ مَن في السماوات ومن في الأرضِ إلا مَن شاءَ الله، ثمَّ يُنفخُ فيهِ أُخرى فأكونُ أولَ مَن بُعِثَ))[٣].

وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: ((فأكون أوّلَ مَن تَنشَقّ عنه الأرضُ))[٤].

كما قال ﷺ: ((أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ. وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ))[٥].

وقال النووي: (وهذا الحديث دليل لتفضيله على الخلق كلهم)[٦].

وقال ابن حجر: (وفيه تفضيل محمد ﷺ على جميع الخلق؛ لأن الرسل والأنبياء والملائكة أفضل ممن سواهم، وقد ظهر فضله في هذا المقام العظيم)[٧].

---

(١) عقيدة المؤمن، أبو بكر الجزائري ص ٢١٨ - ٢١٩.

(٢) أخرجه مسلم ٥٢٣.

(٣) أخرجه البخاري ٢٤١٤، ومسلم ٢٣٧٣.

(٤) أخرجه البخاري ٢٤١٢، ومسلم ٢٣٧٤.

(٥) أخرجه مسلم ٢٢٧٨.

(٦) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٤١٣.

(٧) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٤٩/١١.

كما أنه صاحب الشفاعة العظمى وذلك عندما يشفع لأهل الموقف في أن يقضي بينهم ربهم بعد أن يتدافعها أفضل الرسل، وهي المقام المحمود المذكور في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾[١]، وقد فسّر المقام المحمود بالشفاعة جمعٌ من الصحابة رضي الله عنهم والتابعين منهم: حذيفة وسلمان وأنس وأبو هريرة وابن مسعود وجابر بن عبدالله وابن عباس رضي الله عنهم ومجاهد وقتادة وغيرهم[٢] وقال قتادة: "كان أهل العلم يرون المقام المحمود هو شفاعته يوم القيامة"[٣]، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه الطويل في الشفاعة: ((ثم يُقال: يا محمد ارفَعْ رأسَك، وسَلْ تُعطَه، وقُل يُسمَع، واشفعْ تُشفَّع))[٤].

قال ابن هبيرة عن حديث الباب: (في هذا الحديث من الفقه أن الشفاعة مما يجب الإيمان به، وأنها كرامة لمحمد ﷺ في أمته، وذلك أن الذنوب قد يتفاقم منها الذنب إلى أن تكون الجناية فيه لا يفي بها مقدار عمل عاملها، ولا حد مقامه، فإذا قابلها مقام رسول الله ﷺ وعرض جاهه في ذلك المقام المحمود، نهض بها، وكانت مكانته ﷺ وكريم قدره يغسل ذلك الحوب[٥]، وهذا على ما كان فيه فإنه إظهار لجاه رسول الله ﷺ عند الأولين والآخرين، ولا جرم أنه ينتشر كرمه وشرف مقامه حتى يتسع لأهل الجمع كلهم حين يضيق الخجل بالهداة عليهم السلام، فإن آدم عليه السلام يبلغ منه الأمر إلى أن يعترف لذريته بأن خطيئته كانت سبب إخراجهم من الجنة فهو في خجله منهم باق، ولقد كان قمينًا[٦] أن يتدارك ذلك بأن يشفع في يوم القيامة، ولكن

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٧٩.

(٢) انظر تلك الأقوال في: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ٤٢/١٥ - ٤٧، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١٠٣/٥ - ١١٠، والدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٤١٩/٩ - ٤٢٧.

(٣) أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، إعداد نخبة من العلماء، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية ص ١٧٢.

(٤) أخرجه البخاري ٣٣٤٠، ومسلم ١٩٤.

(٥) الحُوب: الإثم. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ح و ب).

(٦) القمين: الجدير بالشيء. المعجم الموسيط في (ق م ن).

رأى أن ذلك مقام يلائم من شمل أمره الكل، وأن ذلك لا يتحقق إلا فيمن صدق المرسلين، وهو خاتم النبيين ﷺ، وأما إرسال آدم ببنيه إلى إبراهيم عليه السلام فإنه تلويح يشير إلى أن الأمر يتسلسل إلى محمد ﷺ لكن بعد أن يدفعه الواحد منهم إلى الواحد حتى لا يبقى في قلب أحد شك أنه لما أرشد الأنبياء عليهم السلام كلهم إلى محمد ﷺ قام بها وقال: (أنا لها)[١].

وقول إبراهيم عليه السلام: (إنما كنت خليلاً من وراء وراء)، أي من خلف حجاب ومحمد ﷺ اتُخِذ خليلاً بعد أن أسري به.

وقوله في موسى "كلمه الله تكليمًا" فقوله تكليمًا مصدر مؤكدة لقوله "كلَّم" ولو لم يكن الكلام فيه زيادة على الوحي لما قال لهم إبراهيم عليه السلام: "اذهبوا إلى موسى الذي كلمه الله تكليمًا، إذ أن الأنبياء كلهم قد كان يوحى إليهم. وقول موسى عليه السلام: (لست بصاحب ذلك) عِلْمٌ منه وإشارة إلى أن هذا المقام هو مقام محمد ﷺ الذي وعده الله تعالى به بقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[٢]، فكأن موسى عليه السلام قال: لست بصاحب ذلك أي أن له صاحبًا اذهبوا إلى عيسى فسيرشدكم إليه، وما كان له أن يدل هو عليه، لأن عيسى بينهما، فيكون غَضًّا مِنْ عيسى عليه السلام، وإنما أمرهم بقصد عيسى عليه السلام ليرشدهم إليه.

وفي حديث آخر أن عيسى عليه السلام يدلهم على محمد ﷺ فيأتون محمدًا ﷺ[٣]. وبنفس قول عيسى عليه السلام لست بصاحب ذلك تعيين الأمر لمحمد ﷺ"[٤].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: أدب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام:

إن الأنبياء عليهم السلام هم صفوة الله من خلقه، أكملهم أدبًا وأحسنهم خلقًا، وهذا واضح في الحديث، وذلك أن كل نبي من الأنبياء ما عدا محمدًا ﷺ يقول عندما

---

(١) أخرجه البخاري ٧٥١٠، ومسلم ١٩٣ (٣٢٦).

(٢) سورة الإسراء، آية: ٧٩.

(٣) أخرجه البخاري ٦٥٦٥، ومسلم ١٩٣.

(٤) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٢/٢٤٥ - ٢٤٧.

يسأله الناس يوم القيامة أن يستشفع إلى ربه: لست بصاحب ذلك، أي: (لست بتلك الدرجة الرفيعة)[١]، وفي حديث أنس رضي الله عنه: (لست هناكم)[٢].

قال القاضي عياض: (هذا يقولونه تواضعًا وإكبارًا لما سُئِله، وقد تكون إشارة من كل واحد منهم إلى أن هذه الشفاعة وهذا المقام ليس له، بل لغيره)[٣].

وقد استنبط ابن حجر من حديث الشفاعة عدة فوائد، منها: (أن المسؤول إذا لم يقدر على تحصيل ما سئل يعتذر بما يقبل منه ويدل على من يظن أنه يكمل في القيام بذلك، فالدال على الخير كفاعله، وأنه يثني على المدلول عليه بأوصافه المقتضية لأهليته، ويكون أدعى لقبول عذره في الامتناع)[٤].

وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن المفاضلة بين الأنبياء، قال أبو هريرة رضي الله عنه: بينما يهوديٌّ يَعرِضُ سِلعَتُه، أعطِيَ بها شيئًا كرهَهُ، فقال: لا والذي اصطفى موسى على البشر، فسمعَهُ رجل منَ الأنصارِ فقامَ فلَطمَ وجهَهُ وقال: تقولُ والذي اصطفى موسى على البشرِ والنبيُّ صلى الله عليه وسلم بينَ أظهُرِنا ؟ فذهبَ إليهِ فقال: أبا القاسمِ، إن لي ذمةً وعهدًا، فما بالُ فلانٍ لَطمَ وَجهي؟ فقال: لم لطمتَ وَجهَهُ ؟ فذكرهُ، فغَضِبَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم حتى رُئيَ في وجهِهِ، ثم قال: ((لا تُفضلوا بينَ أنبياءِ اللَّه....))[٥].

ونهيه صلى الله عليه وسلم عن المفاضلة، وقوله صلى الله عليه وسلم: ((أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))[٦]، فيه تعارض ظاهري، أجاب عنه العلماء بعدة أجوبة[٧] من ذلك قول ابن أبي العز: "إن

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٢٣٨.

(٢) أخرجه البخاري ٦٥٦٥، ومسلم ٣٢٢ - ١٩٣.

(٣) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٥٧/١، وانظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٢٣٢، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤١/١١.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٤٩/١١.

(٥) أخرجه البخاري ٣٤١٤، ومسلم ٢٣٧٣.

(٦) أخرجه مسلم ٢٢٧٨.

(٧) انظر: شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٤١٣، والشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض ٢٥٨/١ - ٢٦٠.

التفضيل إذا كان على وجه الحمية والعصبية وهوى النفس كان مذمومًا.. فإن الله حرّم الفخر. وقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[(١)]، فعلم أن المذموم إنما هو التفضيل على وجه الفخر أو على وجه الانتقاص بالمفضول"[(٢)].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: عظم أمر الأمانة وصلة الرحم:

إن الأمانة وصلة الرحم لهما مكانة كبيرة في دنيا الناس، لذا حضّ الإسلام المدعوين على التحلي بهما، وعظّم من شأنهما، وأخبر بالعاقبة المحمودة لمن تحلى بهما، وبالعاقبة السيئة لمن خلا منهما، هذا واضح في قوله ﷺ: (وترسل الأمانة والرحم فتقومان جنبتي الصراط يمينًا وشمالاً)، قال النووي: (وأما إرسال الأمانة والرحم فهو لعظم أمرهما وكثير موقعهما فتصوران مشخصتين على الصفة التي يريدها الله تعالى، قال صاحب التحرير: في الكلام اختصار، والسامع فهم أنهما تقومان لتطالبا كل من يريد الجواز بحقهما)[(٣)].

قال ابن هبيرة: (وقوله: "وترسل الأمانة والرحم فيقومان جنبتي الصراط" يريد بهذا قيام الجد، من قولهم قام زيد بالأمر، وكل من أدى الأمانة فيما بينه وبين ربه وبين المسلمين ظهر خفيها وبرز كامنها، فكان في ذلك الموطن لأنها من الإيمان المحض الصرف، فيدفع الله بها الجبال من الزلات والمعاصي، وكذلك الرحم فإنها مما عظم الله تعالى شأنه، وجعلها آمرة[(٤)] في ذلك الموطن علمًا وحكمة، فإن الرحم من الوالدين والأقربين هي في المعنى تسببت في وجود الآدميين فالله تعالى خلق عبده في ذلك فهو كما قال عز وجل: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾[(٥)]، فإذا رعى الآدمي ما ذرأه الله فيه وجعله إكليلاً

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٥٥.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ، ابن أبي الفداء العز الحنفي، تحقيق: جماعة من العلماء ١٥٩/١ - ١٦٠.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٢٢٨.

(٤) في المطبوع: آمرة، وضبطها هو اجتهاد قد يصيب، ويحتمل أن تكون: أمارة. والله أعلم.

(٥) سورة الشورى، آية: ١١.

عليه من جوانبه كان ذلك من أكرم الصلات وأكثر الوسائل لمن وصلها، كما أنه من أعظم الحُوب لمن قطعها، مثل الأمانة؛ فإن من أداها لله عز وجل كان له الفوز العظيم ومن خانها وأضاعها خسر الخسران المبين، والرحم إنما اشتد الأمر في صلتها ثوابًا، وفي قطعها عقابًا؛ من حيث أن طباع الآدميين لهجة بالحسد من الأقرب فالأقرب، والغيظ من الأدنى فالأدنى، ولأن الأقارب قل ما يخلصون من موجبات الشر والخير في المشاركات والمحاورات والمعاملات ونحو ذلك، فللمسلم على المسلم حق، وللمسلم على المسلم إذا كان ذا رحم حقان، فإذا قطعه فقد قطع حقين كما أنه إذا وصله وصل سببين أكد الأول منهما الثاني)[١].

وقد جاءت النصوص بتعظيم أمر الأمانة والرحم، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[٢]، أي: "إنا عرضنا الأمانة -التي ائتمن الله عليها المكلفين من امتثال الأوامر واجتناب النواهي- على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وخفن ألا يقمن بأدائها، وحملها الإنسان، والتزم بها على ضعفه، إنه كان شديد الظلم والجهل لنفسه"[٣].

وقد جعل النبي ﷺ ذهاب الأمانة علامة من علامات الساعة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إذا ضُيِّعَتِ الأمانة فانتظرِ الساعة)). قال: كيفَ إضاعتُها يا رسولَ الله؟ قال: ((إذا أُسنِدَ الأمرُ إلى غير أهلِهِ فانتظرِ الساعة))[٤].

وأما ما يتعلق بالرحم؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ. حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْهُمْ قَامَتِ الرَّحِمُ فَقَالَتْ: هذَا مَقَامُ الْعَائِذِ مِنَ الْقَطِيعَةِ. قَالَ:

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٢٤٧/١.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٧٢.

(٣) التفسير الميسر، إعداد نخبة من العلماء ٤٢٧.

(٤) أخرجه البخاري ٦٤٩٦.

نَعَمْ. أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ؟ قَالَتْ: بَلَى. قَالَ: فَذَاكِ لَكِ)). ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: «اقْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ. أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ. أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[(١)]))[(٢)].

خامسًا- من موضوعات الدعوة: مرور الناس على الصراط:

يؤمن المسلم بالصراط وأن الناس يمرون عليه، وقد أخبر بذلك النبي ﷺ كما في هذا الحديث وذلك في قوله: (فيمر أولكم كالبرق... ونبيكم قائم على الصراط).

و(الصراط في اللغة: الطريق الواضح. وفي الشرع: جسر ممدود على متن جهنم، يَرِدُه الأولون والآخرون، وهو طريق أهل المحشر لدخول الجنة، وقد دلّت الأدلة من الكتاب والسنة على إثبات الصراط قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾[(٣)]، ذهب أكثر المفسرين أن المقصود بورود النار هنا: المرور على الصراط. وهو منقول عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم وكعب الأحبار وغيرهم.

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه وهو حديث طويل في الرؤية والشفاعة، وفيه عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((ثمَّ يؤتى بالجَسْر فيُجْعَلُ بين ظهرَيْ جَهنَّمَ))، قلنا يا رسول اللّهِ وما الجَسر؟ قال: ((مَدحَضَةٌ مَزلةٌ عليه خَطاطيف وكلاليبُ وحسكةٌ مفلطَحَةٌ لها شوكةٌ عُقيفاء تكون بنَجْد يقال لها السعدانُ، المؤمن عليها كالطرف وكالبرق وكالريح، وكأجاويد الخيل والرِّكاب فناجٍ مُسلَّم وناجٍ مخدُوشٌ ومُكَرْدَسٌ في نار جهنَّم حتى يَمرَّ آخرُهُم يُسحب سحبًا))[(٤)].

---

(١) سورة محمد، الآيات: ٢٢ - ٢٤.

(٢) أخرجه البخاري ٤٨٣٠، ٤٨٣١، ومسلم ٢٥٥٤ واللفظ له.

(٣) سورة مريم، الآيتان: ٧١، ٧٢.

(٤) أخرجه البخاري ٧٤٣٩ واللفظ له، ومسلم ١٨٣.

"وقد جاء وصف الصراط في نصوصٍ كثيرة وملخص ما جاء فيها أنه أدق من الشعر، وأحدّ من السيف، "دحض مزلة" لا تثبت عليه قدم إلا من ثبته الله،وأنه ينصب في ظلمة فيعطى الناس أنوارًا على قدر إيمانهم، ويمرون فوقه على قدر إيمانهم على ما جاء في الحديث السابق"(١).

سادسًا- من واجبات المدعو: التزود بالأعمال الصالحة والاستعداد لأهوال يوم القيامة:

إن الدنيا دار عمل بلا حساب، والآخرة دار حساب بلا عمل، لذا كان على المدعو أن يتزود بالأعمال الصالحة التي على قدرها يجتاز المؤمنون الصراط، وقد أخبر النبي ﷺ عن ذلك فقال: (وأشد الرجال تجري بهم أعمالهم... حتى تعجز أعمال العباد، حتى يجيء الرجل لا يستطيع السير إلا زحفًا، وفي حافتي الصراط كلاليب معلقة مأمورة بأخذ من أمرت به، فمخدوش ناجٍ ومُكَرْدَس في النار...).

قال ابن هبيرة: (ومعنى قوله: "كمر البرق" فإنه يجوز أن يكون التشبيه واقعًا بالسرعة ويجوز أن يكون بالنور فإن الناس في ظلمة يوم القيامة،وإنما إيمان المؤمنين ينير لهم، فالبرق أسرع الأشياء ثم الريح بعده، فمن أسرع به في ذلك الموطن عمله حمد سرى ليله، ومن أبطأ به كان متثاقلاً عن الطاعات فأبطأت به)(٢).

وقد قال الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾(٣)، وقال عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(٤)، وقال سبحانه: ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ وَأَنَّىٰ

---

(١) كتاب أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة ٢٣٧- ٢٣، وانظر: شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي الفداء العز الحنفي، تحقيق: جماعة من العلماء ٢/٦٠٥-٦٠٦، والتذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، محمد بن أحمد القرطبي ٦٧١هـ، دار الفكر للطباعة والنشر، دون بيانات أخرى ص ٣٢٩ - ٣٣٥، والبداية والنهاية، ابن كثير ٢٠/٨٠ - ٩١.

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٢/٢٤٧.

(٣) سورة البقرة، آية: ١٩٧.

(٤) سورة الحشر، آية: ١٨.

لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٢٣ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴾[١].

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقيل: أي قدمت عملاً صالحًا لحياتي، أي: لحياة لا موت فيها. وقيل: حياة أهل النار ليست هنيئة فكأنهم لا حياة لهم، فالمعنى: يا ليتني قدمت من الخير لنجاتي من النار فأكون فيمن له حياة هنيئة)[٢].

وقد بيّن رسول الله ﷺ أن الناس يمرون على الصراط ويكون ذلك بحسب أعمالهم، كما في حديث الباب، وكما في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: ((يَرِدُ النَّاسُ النَّارَ، ثُمَّ يَصْدُرُونَ مِنْهَا بِأَعْمَالِهِمْ، فَأَوَّلُهُمْ كَلَمْحِ الْبَرْقِ، ثُمَّ كَالرِّيحِ، ثُمَّ كَحُضْرِ الْفَرَسِ، ثُمَّ كَالرَّاكِبِ فِي رَحْلِهِ، ثُمَّ كَشَدِّ الرَّجُلِ، ثُمَّ كَمَشْيِهِ))[٣].

قال ابن القيم: (طالب النفوذ إلى الله والدار الآخرة، بل وإلى كل علم وصناعة ورئاسة، بحيث يكون رأسًا في ذلك مقتديً به فيه يحتاج أن يكون شجاعًا مقدامًا حاكمًا على وهمه، غير مقهور تحت سلطان تخيّله، زاهدًا في كلّ ما سوى مطلوبه، عاشقًا لما توجه إليه، عارفًا بطريق الوصول إليه والطرق القواطع عنه، مقدام الهمة، ثابت الجأش، لا يثنيه عن مطلوبه لوم لائم ولا عذل عاذل، كثير السكون، دائم الفكر، غير مائل مع لذة المدح ولا ألم الذم، قائمًا بما يحتاج إليه من أسباب معونته، لا تستفزه المعارضات، شعاره الصبر، وراحته التعب محبًا لمكارم الأخلاق، حافظًا لوقته، لا يخالط الناس إلا على حذر كالطائر الذي يلتقط الحب بينهم، قائمًا على نفسه بالرغبة والرهبة طامعًا في نتائج الاختصاص على بني جنسه غير مرسل شيئًا من حواسه عبثًا، ولا مسرحًا خواطره في مراتب الكون، وملاك ذلك: هجر العوائد وقطع العلائق الحائلة بينك وبين المطلوب، وعند العوام أن لزوم الأدب مع الحجاب خير من اطراح الأدب مع الكشف")[٤].

---

(١) سورة الفجر، الآيتان: ٢٣ - ٢٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٠/٢٠/٥٦.

(٣) أخرجه الترمذي ٣١٥٩ وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٥٢٦).

(٤) الفوائد ص ٢٧١ - ٢٧٢.

سابعًا- من صفات الداعية: الإشفاق على المدعو:

إن من الصفات الأساسية التي يتحلى بها الداعية الإشفاق على المدعوين، وذلك لأنه على الداعية أن يسوق الخير لهم بكل طريق ووسيلة ممكنة، وهذا نابع من شفقته عليهم ورحمته بهم، هذا واضح في قول النبي ﷺ: (ونبيكم قائم على الصراط يقول: رب سلم سلم)[١]، وقد قال الله تعالى عن النبي ﷺ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٢].

ولعل أشد المواقف التي تبين شفقة النبي ﷺ على أمته حديث الشفاعة الذي رواه أنس بن مالك رضي الله عنه وفيه: ((فَأَنْطَلِقُ فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي. فَيُؤْذَنُ لِي. فَأَقُومُ بَيْنَ يَدَيْهِ. فَأَحْمَدُهُ بِمَحَامِدَ لاَ أَقْدِرُ عَلَيْهِ الآنَ. يُلْهِمُنِيهِ اللهُ. ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا. فَيُقَالُ لِي: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ. وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ. وَسَلْ تُعْطَهْ. وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ. فَأَقُولُ: رَبِّ أُمَّتِي. أُمَّتِي. فَيُقَالُ: انْطَلِقْ. فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ بُرَّةٍ أَوْ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ مِنْهَا. فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ. ثُمَّ أَرْجِعُ إِلَى رَبِّي فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا. فَيُقَالُ لِي: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ. وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ. وَسَلْ تُعْطَهْ. وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ. فَأَقُولُ: أُمَّتِي. أُمَّتِي. فَيُقَالُ لِيَ: انْطَلِقْ. فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ مِنْهَا. فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ. ثُمَّ أَعُودُ إِلَى رَبِّي فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ. ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا. فَيُقَالُ لِي: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ. وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ. وَسَلْ تُعْطَهْ. وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ. فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي. أُمَّتِي. فَيُقَالُ لِيَ: انْطَلِقْ. فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى مِنْ مِثْقَالِ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ. فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ))[٣].

---

(١) قال ابن هبيرة: "يجوز أن يكون من قول النبي ﷺ يوم القيامة، ويجوز أن يكون من قول حذيفة"، الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٢٤٨/٢.

(٢) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

(٣) أخرجه البخاري ٧٥١٠، ومسلم واللفظ له ١٩٣.

ثامنًا- من آداب المدعو: سؤال الداعية بأدب واحترام:

إن من أدب المدعو وفطنته أن يسأل الداعية بأدب واحترام وإجلال، لأن الداعية هو الذي يرشده لما فيه نفعه ويعلمه ما لا يعلمه، وذلك واضح من أدب الصحابة عند رسول الله ﷺ، وذلك في قول الصحابي للرسول ﷺ متسائلاً: (بأبي وأمي أي شيء كمر البرق)، قال النووي: "معناه: أنت مفدي أو أفديك بأبي وأمي"[(١)].

وقد ورد مثل هذا القول عن الصحابة رضي الله عنهم عندما سألوا النبي ﷺ من ذلك قول أبي ذر رضي الله عنه: انتهيت إلى النبي ﷺ وهو جالس في ظل الكعبة، فلما رآني قال: ((هُمُ الأَخْسَرُونَ. وَرَبِّ الْكَعْبَةِ)) قَالَ: فَجِئْتُ حَتَّى جَلَسْتُ. فَلَمْ أَتَقَارَّ[(٢)] أَنْ قُمْتُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللّهِ، فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي مَنْ هُمْ؟))[(٣)]، وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: ((بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي. أَبَعَثْتَ أَبَا هُرَيْرَةَ بِنَعْلَيْكَ، مَنْ لَقِيَ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلهَ إِلاَّ اللّهُ مُسْتَيْقِناً بِهَا قَلْبُهُ، بَشَّرَهُ بِالْجَنَّةِ؟))[(٤)].

وقد خاطب الله المؤمنين فقال عز من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾[(٥)].

تاسعًا- من موضوعات الدعوة: من دلائل النبوة: الإخبار عن مشاهد يوم القيامة:

لقد بعث الله تعالى محمدًا إلى العالمين وأيده بالمعجزات والدلائل التي تدل على صدق نبوته وأنه مرسل من عند الله تعالى، ومن دلائل نبوته ﷺ إخباره عن بعض الغيبيات كمشاهد يوم القيامة، كما هو الحال هنا، فهذا الحديث كله إخبار عن

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٤.

(٢) أي: لم يمكني القرار والثبات، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦٣٤.

(٣) أخرجه البخاري ٦٦٣٨، ومسلم ٩٩٠.

(٤) أخرجه مسلم ٣١.

(٥) سورة الحجرات، آية: ٢، وانظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض ٢/٣٩٧ - ٤١١.

بعض مشاهد يوم القيامة وعن بعض ما يحدث فيه، وقد كان النبي ﷺ يذكّر أصحابه بالجنة والنار ويصفهما لهم حتى كأنهم يرونهما رأي العين، فهذا حنظلة بن الربيع الأسيدي رضي الله عنه يقول: ((نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللّهِ ﷺ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ. حَتَّى كَأَنَّا رَأْيَ عَيْنٍ))(١).

لذا كثرت تلك الأحاديث التي تتكلم عن يوم القيامة وأحداثه وعن الجنة والنار(٢).

ويكفي أن نذكر في هذا المقام قول عمرو بن أخطب الأنصاري رضي الله عنه: ((صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللّهِ ﷺ الْفَجْرَ. وَصَعِدَ الْمِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الظُّهْرُ. فَنَزَلَ فَصَلَّى. ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ. فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الْعَصْرُ. ثُمَّ نَزَلَ فَصَلَّى. ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ. فَخَطَبَنَا حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ. فَأَخْبَرَنَا بِمَا كَانَ وَبِمَا هُوَ كَائِنٌ. فَأَعْلَمُنَا أَحْفَظُنَا))(٣).

عاشرًا- من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب والتقرير:

أما الترغيب: فذكر الجنة، وهذا ترغيب، على حين أن ذِكْر النار: تخويف وترهيب، فتشتاق الأنفس إلى الجنة، وتستعيذ من النار.

أما التقرير فواضح من قول النبي ﷺ جوابًا لسؤال الصحابي: (ألم تروا كيف يمر ويرجع في طرفة عين؟) ولا شك أن التقرير أبلغ في الإفهام والتوضيح، لأن التقرير يكون مستندًا لشيء يعلمه ويعرفه السائل.

لذا كان على الداعية أن يستخدم هذه الأساليب في دعوته، كلما رأى أنها أنفع في موضعها وأنسب في مكانها.

---

(١) أخرجه مسلم ٢٧٥٠.

(٢) ولقد جمعها المحدثون في كتبهم، فهذا البخاري يدونها في صحيحه، وبخاصة في كتاب الرقاق، ومسلم يفرد في صحيحه كتابًا اسمه صفة القيامة، وقد اعتنى المتأخرون في جمع هذه المرويات في كتب متخصصة من أمثال ذلك كتاب (التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة) للقرطبي (٦٧١هـ)، وأفرد ابن كثير (٧٧٤هـ)، جزءًا كبيرًا من آخر كتابه (البداية والنهاية) لذكر هذه المرويات، ومن هذا القبيل كتاب (التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار)، لابن رجب الحنبلي (٧٩٥هـ).

(٣) أخرجه مسلم ٢٨٩٢.

الحديث رقم (٢٠٢)

٢٠٢- وعن أَبي خُبَيْبٍ بضم الخاءِ المعجمة عبد اللَّهِ بنِ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: لَمَّا وَقَفَ الزبَيْرُ يَوْمَ الْجَمَلِ دَعانِي فَقُمْتُ إِلَى جَنْبِهِ، فَقَالَ: يَا بُنَيَّ إِنَّهُ لا يُقْتَلُ الْيَوْمَ إلاَّ ظَالِمٌ أَوْ مَظْلُومٌ، وإِنِّي لا أُرَانِي إلاَّ سَأُقْتَلُ الْيَومَ مَظْلُومًا، وَإِنَّ مِنْ أَكْبَرِ هَمِّي لَدَيْنِي، أَفَتَرَى دَيْنَنَا يُبْقى مِنْ مالنا شَيْئًا؟ ثُمَّ قَالَ: بعْ مَالَنَا واقْضِ دَيْنِي، وَأَوْصَى بالثُّلُثِ، وَثُلُثِهُ لبنيه، يَعْنِي لبَنِي[1] عَبْدِ اللَّه بن الزبير ثُلُثُ الثُّلُث. قَالَ: فَإِن فَضلِ مِنْ مالِنَا بعْدَ قَضَاءِ الدَّيْنِ شَيءٌ فثُلُثُهُ لِبَنِيك[2].

قَالَ هِشَامٌ: وكان وَلَدُ عَبْدِ اللَّهِ قَدْ وَازَى بَعْضَ بَنِي الزبَيْرِ خُبيبٍ وَعَبَّادٍ، وَلَهُ يَوْمَئِذٍ تَسْعَةُ بَنِينَ وتِسعُ بَنَاتٍ.

قَالَ عَبْدُ اللَّه: فَجَعَل يُوصِينِي بدينِهِ وَيَقُول: يَا بُنَيَّ إِنْ عَجِزْتَ عنْ شَيءٍ مِنْهُ فَاسْتَعِنْ عَلَيْهِ بموْلاي[3]. قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا دَريْتُ ما أرادَ حَتَّى قُلْتُ يَا أَبَتِ مَنْ مَوْلاَكَ؟ قَالَ: اللَّه. قال: فَواللَّهِ مَا وَقَعْتُ في كُرْبَةٍ مِنْ دَيْنِهِ إلاَّ قُلْتُ: يَا مَوْلَى الزبَيْرِ اقض عَنْهُ دَيْنَهُ، فَيَقْضِيَهُ. قَالَ: فَقُتِلَ الزُّبَيْرُ وَلَمْ يَدَعْ دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا إلاَّ أَرَضِينَ، مِنْهَا الْغَابَةُ وَإِحْدَى عَشَرَةَ دارًا بالْمَدِينَةِ. وداريْن بالْبَصْرَةِ، وَدَارًا بالْكُوفَة وَدَارًا بِمِصْرَ.

قال: وَإِنَّمَا كَانَ دَيْنُهُ الذي كَانَ عَلَيْهِ أَنَّ الرَّجُلَ[4] يَأْتيِهِ بالمالِ، فَيَسْتَودِعُهُ إِيَّاهُ، فَيَقُولُ الزُّبيْرُ: لا وَلَكنْ هُوَ سَلَفٌ إِنِّي أَخْشَى عَلَيْهِ الضَّيْعةَ. وَمَا ولِي إِمَارَةً قَطُّ وَلا جِبَايةً ولا خَراجًا[5] ولا شَيْئًا، إلاَّ أَنْ يَكُونَ في غَزْوٍ مَعَ رسول اللَّه[6] صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَوْ مَعَ أَبي بَكْر وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

---

(١) لفظ البخاري: (بني) والمثبت لفظ الحميدي في جمعه.

(٢) لفظ البخاري (لولدك).

(٣) لفظ البخاري: (مولاي) والمثبت لفظ الحميدي في جمعه.

(٤) عند البخاري زيادة: (كان).

(٥) لفظ البخاري: (ولا جباية خراج)، والمثبت لفظ الحميدي في جمعه..

(٦) لفظ البخاري: (النبي) والمثبت لفظ الحميدي في جمعه.

قَالَ عَبْدُ اللَّه: فَحَسَبْتُ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الدَّيْنِ فَوَجَدْتُهُ أَلْفَيْ أَلْفٍ وَمائَتَيْ أَلْفٍ.

فَلَقِيَ حَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ عَبدَ اللَّهِ بْن الزُّبَيْرِ فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي كَمْ عَلَى أَخِي مِنَ الدَّيْنِ؟ فَكَتَمْتُهُ وَقُلْتُ[١]: مِائَةُ أَلْفٍ. فَقَالَ: حَكِيمٌ: وَاللَّه مَا أُرَى أَمْوَالَكُمْ تَسعُ هَذِهِ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: أَرَأَيْتُك إِنْ كَانَتْ أَلْفَي أَلْفٍ وَمِائَتَيْ أَلْفٍ؟ قَالَ: مَا أَرَاكُمْ تُطِيقُونَ هَذَا، فَإِنْ عَجَزْتُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَاسْتَعِينُوا بِي.

قَالَ: وكَانَ الزُّبَيْرُ قد[٢] اشْتَرَى الْغَابَةَ بِسَبْعِينَ ومِائَة أَلْف، فَبَاعَهَا عَبْدُ اللَّهِ بِألْف ألفٍ وسِتِّمِائَةِ أَلْفَ، ثُمَّ قَامَ فَقَالَ: مَنْ كَانَ لَهُ عَلَى الزُّبَيْرِ شَيْءٌ[٣] فَلْيُوافِنَا بِالْغَابَةِ، فأَتَاهُ عبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعفر، وكَانَ لَهُ عَلَى الزُّبَيْرِ أَرْبعُمِائَةِ أَلْفٍ، فَقَالَ لعَبْدِ اللَّه: إِنْ شِئْتُمْ تَرَكْتُهَا لَكُمْ؟ قَالَ عَبْدُ اللَّه: لا، قال فَإِنْ شِئْتُمْ جعَلْتُمُوهَا فِيمَا تُؤخِّرُونَ إِنْ أَخَّرْتُمْ، فقال عَبْدُ اللَّه: لا، قال: فَاقْطَعُوا لِي قِطْعَةً، قال عبْدُ اللَّه: لَكَ مِنْ هاهُنا إِلَى هاهُنَا. فَبَاعَ عَبْدُ اللَّهِ[٤] مِنْهَا فَقَضَى عَنْهُ[٥] دَيْنَه وَوَفَّاهُ، وَبَقِيَ منْهَا أَرْبعةُ أَسْهُمٍ وَنِصْفٌ.

فَقَدم عَلَى مُعَاوِيَةَ وَعِنْدَهُ عَمْرُو بْنُ عُثْمَانَ، وَالْمُنْذِرُ بْنُ الزُّبيْرِ، وَابْن زَمْعَةَ. فقال لَهُ مُعَاوِيَةُ: كَمْ قَوَّمَت الْغَابَةَ؟ قال: كُلُّ سَهْمٍ بِمائَةِ أَلْفٍ قال: كَمْ بَقِي مِنْهَا[٦]؟ قال: أَرْبَعَةُ أَسْهُمٍ ونِصْفٌ، فقال الْمُنْذِرُ بْنُ الزُّبَيْرِ: قَدْ أَخَذْتُ مِنْهَا[٧] سَهْمًا بِمائَةِ أَلْفٍ، وقال عَمْرُو بنُ عُثْمان: قَدْ أَخَذْتُ مِنْهَا[٨] سَهْمًا بِمِائَةِ أَلْفٍ. وقال ابْن زمْعَة: قَدْ أَخَذْتُ مِنها[٩] سَهْمًا بِمِائَةِ أَلْفٍ، فَقَالَ مُعَاوِيةُ: كَمْ بَقِيَ مِنْهَا؟ قال: سَهْمٌ ونصْفُ سَهْمٍ[١٠]، قَالَ: قَدْ أَخَذْتُهُ

---

(١) لفظ البخاري: (فقال) والمثبت لفظ الحميدي في جمعه.

(٢) (قد) لا توجد عند البخاري، وهي عند الحميدي في جمعه.

(٣) لفظ البخاري: (حق)، والمثبت لفظ الحميدي في جمعه.

(٤) (عبد الله) لا يوجد عند البخاري، وهو عند الحميدي في جمعه.

(٥) (عنه) لا توجد عند البخاري.

(٦) (منها) لا توجد عند البخاري، وهي عند الحميدي في جمعه في جميع المواضع التي بعدها.

(٧) (منها) لا توجد عند البخاري.

(٨) (منها) لا توجد عند البخاري.

(٩) (منها) لا توجد عند البخاري.

(١٠) (سهم) لا توجد عند البخاري.

بِخَمسينَ ومائَةِ ألف.

قَالَ: وبَاعَ عَبْدُ اللَّه بْنُ جَعْفَرٍ نصيبَهُ مِنْ مُعَاوِيَةَ بسِتِّمِائَةِ أَلْفٍ. فَلَمَّا فَرغَ ابنُ الزُّبَيْرِ مِنْ قَضاءِ دينِهِ قَالَ بَنُو الزُّبيْرِ: اقْسِمْ بَيْنَنَا ميراثَنَا. قَالَ: وَاللَّهِ لا أَقْسِمُ بيْنَكُمْ حَتَّى أُنَادِيَ بالموسم أَرْبَع سِنِين: أَلا مَنْ كان لَهُ عَلَى الزُّبَيِّر دَيْنٌ فَلْيَأْتِنَا فَلْنَقْضِهِ.

فَجَعَلَ كُلُّ سَنَةٍ يُنَادِي في الْمَوسمِ، فَلَمَّا مَضى أَرْبَعُ سِنينَ قَسم بَيْنَهُمْ ودَفَعَ الثُّلث وكَان للزُّبَيْرِ أَرْبَعُ نِسْوَةٍ[1]، فَأَصاب كُلَّ امْرَأَةٍ أَلْفُ أَلْفٍ ومِائَتَا أَلْفٍ، فَجَمِيعُ مَالِهِ خَمْسُونَ أَلْف أَلْفٍ ومِائَتَا أَلْفٍ. رواه البخاريُّ[2].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن الزبير بن العوام: صحابي مشهور، وهو عبدالله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبدالعزى بن قصي بن كلاب، القرشي، الأسدي، أحد العبادلة، وهو أول مولود في الإسلام من المهاجرين بالمدينة، هاجرت أمه أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها من مكة وهي حامل به، فولدته في السنة الأولى من الهجرة، وفرح المسلمون بمولده فرحًا شديدًا، وحنّكه رسول الله ﷺ بالتمر ودعا له وبرّك عليه، فعن عروة بن الزبير وفاطمة بنت المنذر بن الزبير قالا: خرجت أسماء بنت أبي بكر حين هاجرت، وهي حبلى بعبدالله بن الزبير فقدمت قُبَاء، فنُفِست بعبدالله بقُباء، ثم خرجت حين نُفِست إلى رسول الله ﷺ ليُحنِّكه فأخذه رسول الله ﷺ منها فوضعه في حِجْره، ثم دعا بتمرة، قال: قالت عائشة: فمكثنا ساعة قبل أن نجدها، فمضغها ثم بصقها في فيه، فإن أول شيء دَخَل بطنه لَرِيقُ رسول الله ﷺ ثم قالت أسماء: ثم مسحه، وصلى عليه - أي دعا له- وسماه عبدالله، ثم جاء وهو ابن سبع سنين أو ثمان ليبايع رسول الله ﷺ، وأمره بذلك الزبير، فتبسم رسول الله ﷺ حين رآه مُقبلاً إليه ثم بايعه[3].

وكان يكنى بأبي بكر، ويقال أبوبكير، وله كنية أخرى وهي "أبو حبيب"

(١) عند البخاري زيادة: (ورفع الثلث)، وهي لا توجد عند الحميدي، وقد تبع فيها المؤلف الحميدي في جمعه.

(٢) برقم (٣١٢٩)، انظر: الجمع للحميدي (١/١٨٢، رقم ١٧٦).

(٣) أخرجه البخاري ٣٩٠٩، ومسلم واللفظ له ٢١٤٦.

وكان أسنَّ ولده، ولعبدالله بن الزبير رواية. له في كتب الحديث (٣٣) حديثًا، اتفق البخاري ومسلم على واحد، وانفرد البخاري بستة، ومسلم بحديثين، وكان رضي الله عنه شهمًا ذا أَنَفَةٍ، وكان له لَسَانَةٌ وفصاحة، وكان أطلسًا لا لحية له ولا شعر في وجهه، كما كان صَوّامًا قوّامًا، طويل الصلاة، عظيم الشجاعة، وكان من العلماء المجتهدين، وما كان أحد أعلم منه بالمناسك، وكان من خطباء قريش المعدودين يُشَبَّه في ذلك بأبي بكر، قال عنه عبدالله بن عباس رضي الله عنهما ((أما أبوه فحَواريُّ النبي صلى الله عليه وسلم -يريد الزبير- وأما جَدُّه فصاحب الغار -يريد أبابكر-، وأما أمه فذات النطاقين -يريد أسماء- وأما خالته فأم المؤمنين - يريد عائشة-، وأما عمته فزوج النبي صلى الله عليه وسلم يريد خديجة، وأما عمة النبي صلى الله عليه وسلم - فجدته- يريد صفية، عفيف في الإسلام، قارئ للقرآن))(١).

حضر موقعة اليرموك مع أبيه، وشهد خطبة عمر بالجابية، كما شهد فتح إفريقية مع عبدالله بن أبي السرح زمن عثمان بن عفان، وشهد الجمل مع أبيه وخالته، وبويع له بالخلافة سنة (٦٤) عقيب موت يزيد بن معاوية، فحكم مصر والحجاز، واليمن، وخراسان، والعراق وأكثر الشام، وكانت ولايته ٩ سنوات، وحج بالناس ثمان حجج، وجعل قاعدة ملكه المدينة المنورة، وكان نقش الدراهم في أيامه بأحد الوجهين (محمد رسول الله) وبالآخر (أَمَرَ اللهُ بالوفاء والعدل) وهو أول من ضرب الدراهم المستديرة، وكانت له مع الأمويين وقائع هائلة حتى سيَّروا إليه الحجاج بن يوسف الثقفي في أيام عبدالملك بن مروان، فانتقل إلى مكة وعسكر الحَجَاج في الطائف، ونشبت بينهما حروب انتهت بمقتل عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما في مكة بعد أن خذله عامة أصحابه، وقاتل قتال الأبطال، وهو في عشر الثمانين، وبعد أن قُتِلَ صلبه الحجاج منكوسًا في مكة بمكان يُسمى عقبة المدينة يوم الثلاثاء لسبع عشر خلت من شهر جمادى الأولى سنة ٧٣هـ، وعمره نيف وسبعون سنة(٢).

(١) أخرجه البخاري ٤٦٦٥.

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٣٩٩-٤٠٢، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود ٢٤١/٣-٢٤٥، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ٧٧٢، ٧٧٣، وسير أعلام النبلاء ٣٦٣/٣-٣٨٠، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين ١٣٢/٤-١٣٣، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٣٢٣/٢، ٣٢٤، والأعلام ٨٧/٤، والسندي ٢٢/٢٦، وموسوعة عظماء حول الرسول ١١٩٩/٢-١٢٠٨.

غريب الألفاظ:

يوم الجمل: الوقعة المشهورة التي كانت بين علي بن أبي طالب ومن معه وبين عائشة ومن معها ومن جملتهم الزبير بن العوام في جمادى الأولى أو الآخرة ٣٦هـ[١].

وازى: أي ساوى[٢].

الغابة: هي أرض عظيمة شهيرة من عوالي المدينة[٣].

سَلَفٌ: أي ما كان يقبض من أحد وديعة إلا إن رضي صاحبها أن يجعلها في ذمته[٤].

الجباية: أي جمع الدولة من المال المترتب في ذمم الرعيّة من الزكاة والجزية والخراج ونحو ذلك[٥].

السهم: هو الحصّة والنصيب[٦].

الشرح الأدبي

إن الحرص على أداء الأمانة هو الدرس المستفاد من هذا الحديث الشريف الذي يعد تطبيقًا لسنة المصطفى ﷺ، وتنفيذًا لأمر الله عز وجل في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾[٧].

واتباعًا لأمر رسول الله ﷺ في قوله: "أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك".

وهذا الدرس الجليل، والمقصد النبيل يُتَوَّجُ به هذا الحوار المتعدد بين عبدالله بن

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦/٢٦٤.

(٢) لسان العرب، ابن منظور والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية (و ز ى).

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦/٢٦٥.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦/٢٥٦.

(٥) معجم لغة الفقهاء ، أ. د. محمد رواس قلعة جي ١٣٨.

(٦) المرجع السابق ٢٢٥.

(٧) سورة النساء، آية: ٥٨.

الزبير وأبيه، وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم حيث يختم الحديث بهذا القسم في سياق حرص عبدالله بن الزبير على أداء الأمانة وقضاء الدين الذي كان في عنق أبيه، ولم يقبل أن يقسم الميراث إلا بعد أن يتأكد من ذلك، وظل أربع سنوات ينادي في موسم الحج: "ألا من كان له على الزبير دين فليأتنا فلْنَقْضه".

ولنتأمل كيف صيغ هذا الدرس، وكيف قُدِّم لجماهير الأمة المسلمة في هذا السياق الواقعي، المشوق، إنه جاء في صورة قصة حقيقية، ومحاورات واقعية ليست من صنع الخيال: لأن الوقائع والأحداث صحيحة، فموقعة الجمل، من المواقع المعروفة والمشهودة في تاريخ الأمة، وهى أول مواجهة حربية بين المسلمين، كلٌّ يرى أنه صاحب الحق، وكانت بين علي بن أبي طالب ومن معه، وبين عائشة ومن معها: بسبب المطالبة بدم عثمان والقصاص من قتلته، وكانت هذه الموقعة سنة ستة وثلاثين من الهجرة، والزبير بن العوام، كان من الموالين لأم المؤمنين عائشة: أخت زوجه ذات النطاقين: أسماء بنت أبي بكر، والحوارات التي دارت: هى حوارات واقعية بين أشخاص حقيقيين: فعبدالله بن الزبير: تدور بينه وبين أبيه المحاورة **الأولى**، ثم تدور المحاورة **الثانية** بينه وبين حكيم بن حزام، والمحاورة **الثالثة** تدور بين عبدالله بن الزبير وعبدالله بن جعفر ابن أبي طالب، والمحاورة **الرابعة** تمتد وتطول حيث تدور بينه وبين أربعة من الصحابة هم معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن عثمان بن عفان، والمنذر بن الزبير بن العوام، وعبدالله بن زمعة، والمحاورة **الخامسة** تدور بين عبدالله بن الزبير وإخوته وأمه وزوجات أبيه حول تقسيم الميراث: وأداء الأمانة ، وقضاء الديون، وهذه المحاورات كلها تؤكد حرص عبدالله بن الزبير على تنفيذ وصية أبيه بقضاء الديون وأداء الأمانات إلى أهلها.

وفي الحوار بين عبدالله وأبيه الزبير، يتضح موقف عبدالله بن الزبير من الصراع بين الطائفتين في موقعة الجمل: حيث جاء هذا الموقف في صياغة تنبئ عن الجدِّ، وعن الورع وإسلام الأمر لله لأنها فتنة تذر الحليم حيرانًا، وجاء كلام الزبير مُحصنًا بعدة أساليب تفصح عن هول الأمر، وقرب النهاية: حيث النداء بالياء وهى للبعيد وحيث: أسلوب القصر في جملتين يوضحان موقفه من هذه الحرب، وتوقعه: الموت: (إنه لا يقتل اليوم

إلا ظالم أو مظلوم وإن لأراني إلا سأقتل اليوم مظلومًا وإن من أكبر همي لديني): وهذه الجملة المؤكدة هى بؤرة القضية في الحديث، حيث قضاء الدين وأداء الأمانة، ثم يأتي الاستفهام الحائر والقلق: "أفترى ديننا يبقى من مالنا شيئًا"، ثم يأتي، الحل الجازم الحاسم في صورة هذه الوصية الآمرة الواجبة "يا بني بع مالنا واقض ديني"، وحرصًا من الزبير على أداء الأمانة، وقضاء الديون: يستعين بالله ولا يعجز، ويوصي ابنه بالاستعانة بالله والتوكل عليه مع الأخذ بالأسباب، وفي مقدمتها بيع كل ما يملك الزبير، وما أصدق هذا الاعتراف الإيماني الواقعي إذ يقول عبدالله الذي أمره أبوه أن يستعين على قضاء الدين بمولاه، فوالله ما وقعت في كربة من دينه إلا قلت: يا مولى الزبير: "اقض عنه دينه، فيقضيه" وهذا الإقرار العظيم تصاحبه عدة أساليب تؤكد معناه، وتُجمل مبناه وهي: القسم وأسلوب القصر، والنداء، والدعاء، ثم تكون الاستجابة الإلهية. والديون لم تكن نتيجة التبذير والإسراف، ولكن كانت بدافع من الورع والخوف على ضياع الأمانة، فكان الزبير يحول كل أمانة إلى قرض ويظل ملتزمًا به حتى لو ضاعت عين الأمانة، وما أصدق هذا المحاورات بين عبدالله بن الزبير وحكيم بن حزام، وعبدالله بن جعفر، ومعاوية بن أبي سفيان، وإخوته، والحوارات كلها تتضافر وتتعاون لتنفيذ وصية ابن الزبير، وقضاء ديونه، وكلهم يحاول أن يشارك في تخفيف العبء، وإرجاع الأمانات والديون، وبارك الله في مال ابن الزبير بفضل استعانته بمولاه، رضي الله عن الزبير وأرضاه وجعل الجنة مثواه هو وابنه عبدالله: حواري رسول الله، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكمين فقهيين:

الأول: حكم قضاء دين الميت بعد وفاته، وقد سبق الكلام عنه في الحديث رقم (١٧٠).

الثاني: ذكر ابن حجر أن في الحديث دليلاً على ندب الوصية عند حضور أمر يخشى منه الفوت، وأن للوصي تأخير قسمة الميراث حتى توفي ديون الميت وتنفذ وصاياه إن كان له ثلث، وأن له أن يستبرئ أمر الديون وأصحابها قبل القسمة وأن يؤخرها

بحسب ما يؤدي إليه اجتهاده، ولا يخفى أن ذلك يتوقف على إجازة الورثة، وإلا فمن طلب القسمة بعد وفاء الدين الذي وقع العلم به وصمم عليها أجيب إليها ولم يتربص به انتظار شيء متوهم فإذا ثبت بعد ذلك شيء استعيد منه[١].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: الوصية عند حضور الموت.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الوثوق بالله والاستعانة به.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: عِظَم أمر الدَّين.

رابعًا: من آداب المدعو: إرشاد إخوانه لما هو أصلح.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: بركة المجاهد في ماله.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: بيان أخلاق الصحابة رضي الله عنهم.

سابعًا: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة على أداء الدَّين.

ثامنًا: من آداب المدعو: السؤال عما خفي عليه.

تاسعًا: من وسائل الدعوة: الإعلان عن أمر ما في جمع من الناس لإبراء الذمة.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الوصية عند حضور الموت:

يخرج الإنسان من هذه الحياة بالموت، فتنتهي علاقته بالدنيا، فإذا أحس بدنو الأجل، فإنه يوصي بأهم الأمور التي تشغله، ومنها الدين كما فعل الزبير بن العوام رضي الله عنه، وهذا واضح من قول عبدالله بن الزبير رضي الله عنه: "لما وقف الزبير يوم الجمل دعاني فقمت إلى جنبه فقال: يا بني إنه لا يقتل اليوم إلا ظالم أو مظلوم وإني لا أراني إلا سأقتل مظلومًا وإن أكبر همي لَدَيْني ... يا بني بع ما لنا واقض ديني... فجعل يوصيني بدينه..." فقد حثه على أن يقضي دَيْنَه نظرًا لأنه أكبر أمر أهمَّه. وفي رواية الحاكم ((انظر يا بني ديني فإني لا أدع شيئًا أهمَّ إليّ منه))[٢] قال ابن حجر: (في هذا الحديث من الفوائد

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ، ابن حجر ٦/٢٣٤.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣/٣٦٤ رقم ٥٦٢٠.

ندب الوصية عند حضور أمر يخشى منه الفوت)[١].

وقد كان النبي ﷺ يوصي في مرضه الذي مات فيه؛ فعن جندب بن عبدالله بن سفيان البجلي رضي الله عنه أنه قال: ((سَمِعْتُ النَّبِيَّ ، قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ، وَهُوَ يَقُولُ: «إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلاً، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلاً لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً. أَلاَ وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، أَلاَ فَلاَ تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ. إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ))[٢].

وهذا أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: كانت عامة وصية رسول الله ﷺ حين حضره الموتُ: ((الصَّلاةُ الصَّلاةُ وما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ)) حتى جعل رسولُ الله ﷺ يغرغر بها صدره، وما يكاد يفيض بها لسانه[٣].

جاء في الموسوعة الفقهية: (الوصية مشروعة بالكتاب والسنة والإجماع والمعقول... وأما المعقول. فهوحاجة الناس إلى الوصية زيادة في القربات والحسنات وتداركًا لما فرط به الإنسان في حياته من أعمال الخير.

وحكمة مشروعية الوصية تحصيل ذكر الخير في الدنيا، ونوال الثواب والدرجات العالية في الآخرة، لذا شرعها الشارع تمكينًا من العمل الصالح، ومكافأة لمن أسدى للمرء معروفًا، وصلة الرحم والأقارب غير الوارثين، وسد خلَّة المحتاجين، وتخفيف الكرب عن الضعفاء والبؤساء والمساكين وذلك بشرط التزام المعروف أو العدل، وتجنب الإضرار في الوصية، لقوله تعالى: ﴿ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖ ﴾[٤])[٥].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٦٩/٦.

(٢) أخرجه مسلم ٥٣٢.

(٣) أخرجه أحمد ١١٧/٣ رقم ١٢١٦٩، وقال محققو المسند: حديث صحيح ٢٠٩/١٩.

(٤) سورة النساء، آية: ١٢.

(٥) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٢٢/٤٣-٢٢٣.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: الوثوق بالله والاستعانة به:

إن المؤمن الحق هو من يثق بالله وبما عنده تمام الثقة، ويستعين به عز وجل في جميع أحواله وشؤونه؛ لأن ذلك علامة الصدق والرسوخ في الإيمان. لذا كان الصحابة رضي الله عنهم أشد الناس وثوقًا بالله. كما في هذا الحديث. وذلك واضح في قول الزبير لابنه رضي الله عنهما يا بني إن عجزت عن شيء منه فاستعن عليه بمولاي، فقال له عبدالله: من مولاك؟ قال: الله. قال عبدالله: فوالله ما وقعت في كربة من دَيْنه إلا قلت: يا مولى الزبير اقض عنه دينه فيقضيه.

قال ابن حجر: (وفيه بيان منزلة الزبير عندنفسه، وأنه في تلك الحالة كان في غاية الوثوق بالله والإقبال عليه والرضا بحكمه والاستعانة به)[1]. وقال ابن هبيرة: (وفيه ما يدل على غزارة دينه وثقته بالله عز وجل في أمره ولده بأن يستعين بمولاه الكريم في قضاء دينه)[2]. والمؤمن دائمًا يثني على الله تعالى ويستعينه، ولسان حاله ومقاله دومًا قولُ الحق: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[3].

والنبي صلى الله عليه وسلم يوصي أصحابه بالاستعانة بالله والوثوق به، فقال: ((احرص عَلَىٰ مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ. وَلاَ تَعْجِزْ))[4] قال النووي: (معناه احرص على طاعة الله تعالى والرغبة فيما عنده واطلب الإعانة من الله تعالى على ذلك ولا تعجز ولا تكسل عن طلب الطاعة ولا عن طلب الإعانة)[5].

وقال صلى الله عليه وسلم لابن عباس رضي الله عنهما يوصيه: ((وَإِذَا سَأَلْتَ فاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ))[6].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٧١/٦.

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ، ٣١٤/١.

(٣) سورة الفاتحة، آية: ٥.

(٤) أخرجه مسلم ٢٦٦٤.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٧٧.

(٦) أخرجه الترمذي ٢٥١٦ ، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٠٤٣).

ومن الأمثلة التطبيقية للثقة بالله، ما فعلته أم موسى عندما ألقته في اليم ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾[١]. (فإن فعلها هذا -كما يقول ابن القيم- هو عين ثقتها بالله تعالى، إذ لولا كمال ثقتها بربها لما ألقت بولدها وفلذة كبدها في تيار الماء تتلاعب به أمواجه. وجريانه إلى حيث ينتهي أو يقف)[٢].

وقال ابن القيم كذلك: (والاستعانة تجمع أصلين: الثقة بالله والاعتماد عليه، فإن العبد قد يثق بالواحد من الناس ولا يعتمد عليه في أموره - مع ثقته به-لاستغنائه عنه. وقد يعتمد عليه - مع عدم ثقته به- لحاجته إليه، ولعدم من يقوم مقامه، فيحتاج إلى اعتماده عليه مع أنه غير واثق به)[٣].

وقال ابن رجب محذرًا من عدم الاستعانة به سبحانه: (ومن ترك الاستعانة بالله واستعان بغيره وكَلَه الله إلى من استعان به فصار مخذولاً وهو كذلك في أمور الدنيا)[٤]، (فمن أعانه الله فهو المعان ومن خذله فهو المخذول)[٥].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: عِظم أمر الدَّيْن:

إن الاستدانة وإن كانت مباحة إلا أن الإقدام عليها والتوسع فيها بدون حاجة، أمر ينطوي على كثير من الخطورة، سواء في حياة المستدين أو بعد موته، ولذا كان على المسلم أن يكون على حذر من أمر الدين. ويعمل على أن يوصي أن يقضى دينه بعد موته، كما في هذا الحديث. وهذا واضح من قول الزبير: (وإن من أكبر همّي لدَيْني... يا بني بع ما لنا واقض دَيْني) وقال عبدالله بن الزبير: (والله لا أقسم بينكم حتى أنادي بالموسم أربع سنين: ألا من كان له على الزبير دين فليأتنا فلنقضه، فجعل كل سنة ينادي في الموسم).

---

(١) سورة القصص، آية: ٧.

(٢) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢/٤٠٤.

(٣) المرجع السابق ١/١٦١.

(٤) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١/٤٨٢.

(٥) المرجع السابق ١/٤٨٢.

قال ابن حجر: (وفيه شدة أمر الدين، لأن مثل الزبير مع ما سبق له من السوابق وثبت له من المناقب - رهب من وجوه مطالبة من له في جهته حق بعد الموت)[(١)].

ومن شدة أمر الدين أنه ﷺ كان لا يصلّي على من مات وعليه ديْنٌ؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه ((أَنَّ رَسُولَ اللّهِ كَانَ يُؤْتَىٰ بِالرَّجُلِ الْمَيِّتِ، عَلَيْهِ الدَّيْنُ، فَيَسْأَلُ: «هَلْ تَرَكَ لِدَيْنِهِ مِنْ قَضَاءٍ؟» فَإِنْ حُدِّثَ أَنَّهُ تَرَكَ وَفَاءً صَلَّىٰ عَلَيْهِ، وَإِلاَّ قَالَ: «صَلُّوا عَلَىٰ صَاحِبِكُمْ»))[(٢)] قال النووي: (إنما كان يترك الصلاة عليه ليحرض الناس على قضاء الدين في حياتهم والتوصل إلى البراءة منها لئلا تفوتهم صلاة النبي ﷺ، فلما فتح الله عليه عاد يصلي عليهم ويقضي دين من لم يخلف وفاء)[(٣)].

بل أخبر النبي ﷺ أن الشهيد يغفر له ذنوبه كلها إلا الدَيْن فقال ﷺ ((يُغْفَرُ لِلشَّهِيدِ كُلُّ ذَنْبٍ، إلاَّ الدَّيْنَ))[(٤)] وفي رواية: ((القتل فِي سَبِيلِ اللّهِ يُكَفِّرُ كُلَّ شَيْءٍ، إِلاَّ الدَّيْنَ))[(٥)].

ومن الأمثلة التطبيقية لقضاء الدين، ما ذكره ابن تيمية أن أحمد بن حنبل سئل عن رجل ترك مالاً فيه شبهة وعليه دين فسأله الوارث: هل يتورع عن ذلك المال المشتبه؟ فقال له أحمد: أتترك ذمة أبيك مرتهنة؟ فقال ابن تيمية معقبًا: (وهذا عين الفقه، فإن قضاء الدَيْن واجب، ولا يجوز إضرار الميت بترك ذمته مرتهنة، ففي الإعراض عن التركة إضرار الميت وإضرار المستحق، وهذان ظلمان محققان بترك واجبين)[(٦)].

رابعًا: من آداب المدعو: إرشاد إخوانه لما هو أصلح:

إن من الآداب السامية التي يتحلى بها المدعو هو أن يرشد إخوانه لما هو أصلح لهم وذلك قيامًا بالنصيحة، وهذا ما فعله الزبير مع إخوانه من الصحابة رضي الله عنهم. فقد كان

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦/٢٧١.

(٢) أخرجه البخاري ٢٢٩٨، ومسلم ١٦١٩.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٠٢٧، وانظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤/٥٥٨.

(٤) أخرجه مسلم ١٨٨٦، ١١٩.

(٥) أخرجه مسلم ١٨٨٦، ١٢٠.

(٦) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ١٥/١٥٥ ٢٩/٢٧٩.

الزبير إذا جاءه الرجل بماله ليودعه عنده يقول له: "لا ولكن هو سلف أخشى عليه الضيعة" قال ابن حجر: (فيه مبالغة الزبير في الإحسان لأصدقائه، لأنه رضي أن يحفظ لهم ودائعهم في غيبتهم ويقوم بوصاياهم على أولادهم بعد موتهم، ولم يكتف بذلك حتى احتاط لأموالهم -وديعة أو وصية- بأن كان يتوصل إلى تصييرها في ذمته مع عدم احتياجه إليها غالبًا، وإنما ينقلها من اليد للذمة مبالغة في حفظها لهم)(١). وقد روى الزبير ابن بكار من طريق هشام بن عروة أن كلاً من عثمان وعبدالرحمن بن عوف ومطيع ابن الأسود وأبي العاص بن الربيع وعبدالله بن مسعود والمقداد بن عمرو أوصى إلى الزبير بن العوام(٢).

خامسًا- من موضوعات الدعوة: بركة المجاهد في ماله:

إن المجاهد الصادق قد نذر حياته وماله في سبيل الله والدفاع عن دينه، لذا فإن الله عز وجل -بكَرَمه ومنّه- يكافئه بفضله العميم، ومن ذلك: البركة في ماله، وهذا واضح جليٌّ في قول عبدالله بن الزبير عن أبيه: وما ولي إمارة قط ولا جباية خراج ولا شيئًا إلا أن يكون في غزوةٍ مع النبي ﷺ أو مع أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، ولهذا أخرجه البخاري في كتاب "فرض الخمس" تحت باب "بركة الغازي في ماله حيًا وميتًا مع النبي ﷺ وولاة الأمر"(٣).

ويمكن أن يذكر هنا قصة أبي قتادة رضي الله عنه في غزوة حنين قال: (خرجنا مع رسول الله ﷺ عام حنين فبعت الدرع [التي كانت للقتيل الذي قتله] فابتعت به مخرفًا(٤) في بني سَلِمة، فإنه لأول مال تأثلته(٥) في الإسلام(٦).

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٧٠/٦.

(٢) كما في فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٦٦/٦.

(٣) كتاب فرض الخمس رقمه ٥٧ والباب رقمه ١٣.

(٤) المخرف، المشهور في ضبطه: فتح الميم وكسر الراء: والمراد به هنا: البستان، انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٢٥.

(٥) أي اقتنيته وتأصلته، وأثلة الشيء: أصله، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٢٥.

(٦) أخرجه البخاري ٢١٠٠ واللفظ له، ومسلم ١٧٥١، ٤١.

قال الراغب الأصفهاني: (البركة: ثبوت الخير الإلهي في الشيء، قال تعالى: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[(١)]، وسمى بذلك لثبوت الخير فيه ثبوت الماء في البِرْكة. والمبارك ما فيه ذلك الخير... ولما كان الخير الإلهي يصدر من حيث لا يحس وعلى وجهٍ لا يحصى ولا يحصر قيل لكلٍّ ما يشاهد منه زيادة غير محسوسة هو مبارك وفيه بركة)[(٢)].

سادسًا- من موضوعات الدعوة: بيان أخلاق الصحابة رضي الله عنهم:

تحلى الصحابة رضي الله عنهم بالأخلاق العالية والآداب الرفيعة ولا عجب في ذلك فقد كانوا خير القرون، لذا كانوا جامعين لفضائل الأخلاق ومحاسن الخصال، فمن أخلاقهم.

١- المعاونة: وهذا واضح من قول حكيم بن حزام رضي الله عنه: يا ابن أخي كم على أخي من الدَّيْن؟ وقال كذلك: فإن عجزتم عن شيء منه فاستعينوا بي.

وقد روى يعقوب بن سفيان من طريق عبدالله بن المبارك أن حكيم بن حزام بذل لعبدالله بن الزبير مائة ألف؛ إعانة له على وفاء دين أبيه فامتنع، فبذل له مائتي ألف فامتنع إلى أربعمائة ألف[(٣)]. قال ابن هبيرة: (وفيه ما يدل على كرم حكيم بن حزام ببذله الإعانة في قضاء دين الزبير ابتداءً منه)[(٤)].

٢- السماحة: وذلك في قول عبدالله بن جعفر رضي الله عنه وكان له على الزبير رضي الله عنه أربعمائة ألف: إن شئتم تركتها لكم... فإن شئتم جعلتموها فيما تؤخرون. وقد روى يعقوب بن سفيان في الرواية السابقة أن عبدالله بن جعفر قال: هي لك. قال: لا أريد ذلك قال: فأعطني بها نعليك هاتين أو نحوها. قال: لا أريد. قال: فهي عليك إلى يوم القيامة.

---

(١) سورة الأعراف، آية: ٩٦.

(٢) المفردات في غريب القرآن ٤٤.

(٣) نقلًا عن فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٦٦/٦.

(٤) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٣١٤/١.

قال: لا. قال: فحكمك[١]. قال ابن حجر: (وفيه بيان جود ابن جعفر لسماحته بهذا المال العظيم)[٢].

٣- قوة النفس: قال ابن حجر: (وفيه قوة نفس عبدالله بن الزبير لعدم قبوله ما سأل حكيم بن حزام من المعاونة وما سأله عبدالله بن جعفر من المحالة)[٣].

كل هذا يوضح كيف كانت أخلاق الصحابة رضي الله عنهم، وقد صدق عبدالله بن عمر ابن الخطاب رضي الله عنهما عندما قال: (أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وأعمقها علمًا وأقلها تكلفًا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم ونقل دينه، فتشبهوا بأخلاقهم وطرائقهم فهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا على الهدى المستقيم والله رب الكعبة)[٤].

سابعًا- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة على أداء الدَيْن:

إن من علامة المؤمن الصادق حرصه على أداء الدين، لذا كان الصحابة رضي الله عنهم أحرص الناس على أداء الدين. وذلك واضح في قول عبدالله بن الزبير: (والله لا أقسم بينكم حتى أنادي بالموسم أربع سنين: ألا من كان له على الزبير دين فليأتنا فلنقضه، فجعل كل سنة ينادي في الموسم، فلما مضى أربع سنين قَسَم بينهم).

قال ابن حجر عن فوائد هذا الحديث: (إن للوصي تأخير قسمة الميراث حتى توفى ديون الميت، وأن له أن يستبرىء أمر الديون وأصحابها قبل القسمة، وأن يؤخرها بحسب ما يؤدي إليه اجتهاده. والذي يظهر أن ابن الزبير إنما اختار التأخير أربع سنين لأن المدن الواسعة التي يُؤتى الحجاز من جهتها إذ ذاك كانت أربعًا: اليمن والعراق والشام ومصر، فبنى على أن كل قطر لا يتأخر أهله في الغالب عن الحج أكثر من ثلاثة أعوام فيحسن استيعابهم في مدة الأربع)[٥]. وقال ابن هبيرة: (وفيه جواز تأخير قسمة الميراث

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٦٦/٦، وانظر: الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٣١٤/١.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٧٠/٦.

(٣) المرجع السابق ٢٧١/٦.

(٤) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، الأصفهاني ٣٠٥/١-٣٠٦.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٧٠/٦.

احتياطًا لقضاء الدَيْن كما فعل عبدالله بن الزبير)[١].

وقد قال رسول الله ﷺ: ((مَن أخَذَ أموالَ الناسِ يُريدُ أداءَها أدّى اللهُ عنه، ومَن أخَذَ يُريدُ إتلافَها أتْلَفَهُ الله))[٢]. قال ابن حجر: (قال ابن بطال: فيه الحضّ على ترك استئكال أموال الناس والترغيب في حسن التأدية إليهم عند المداينة وأن الجزاء قد يكون من جنس العمل)[٣].

وقال عبدالله البسام: (وفيه تعظيم حقوق العباد وأموالهم ووجوب التحرز منها والابتعاد عنها إلا بحق)[٤].

ثامنًا- من آداب المدعو: السؤال عما خفي عليه:

إن على المدعو أن يسأل عما خفي عليه، حتى يتبين له حقيقةالأمر، وهذا واضح في قول الزبير لابنه: يا بني إن عجزت عن شيء منه فاستعن عليه بمولاي. قال عبدالله: فوالله ما دريت ما أراد حتى قلت: يا أبت من مولاك؟ قال: الله.

قال ابن حجر: (إن الزبير قال لابنه: استعن عليه بمولاي. والمولى لفظ مشترك فجوَّز ابن الزبير أن يكون أراد بعض عتقائه مثلاً، فاستفهمه فعرف حينئذٍ مراده)[٥].

وهكذا كان الصحابة رضي الله عنهم يسألون عما لا يتضح لهم من أمور الدين، فعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: ((لما نزلت هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾[٦] شقَّ ذلكَ على المسلمينَ فقالوا: يا رسول اللهِ أيُّنا لا يَظلِمُ نفسَهُ؟ قال: ليسَ ذلك، إنما هو الشركُ، ألم تَسمعوا ما قال لُقمانُ لابنهِ وهو يَعِظُه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٣١٤/١.

(٢) أخرجه البخاري ٢٣٨٧.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦٦/٥.

(٤) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٧٢/٤.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٧١/٦.

(٦) سورة الأنعام، آية: ٨٢.

﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[(١)]))[(٢)].

تاسعًا- من وسائل الدعوة: الإعلان عن أمر ما في جمع من الناس لإبراء الذمة:

إن الإعلان بالأمر في جمع بين الناس من وسائل الدعوة الفعالة، إذا اقتضى الأمر ذلك، كما هو الشأن في هذا الحديث. فقد نادى عبدالله بن الزبير رضي الله عنه في موسم الحج أربع سنوات: "ألا من كان له على الزبير دين فليأتنا فلنقضه" (واختار الموسم - كما قال ابن حجر- لأنه مجمع الناس من الآفاق)[(٣)]؛ فإذا اقتضت المصلحة الإعلان أو الإعلام بأمر من الأمور فلا بأس، وقد آذن أبو بكر رضي الله عنه الناس يوم النحر بمنى أن لا يحج بعد العام مُشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: ((بعثني أبو بكرٍ في تلك الحَجَّةِ في مُؤَذِّنينَ يومَ النَّحرِ نُؤَذِّنُ بمنىً أَن لا يَحُجُّ بعدَ العامِ مُشرِكٌ ولا يطوفُ بالبيتِ عُريان. ثمَّ أردَفَ رسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عليًّا فأَمَرَهُ أن يؤَذِّنَ ببراءة. قال أبو هريرةَ: فأَذَّنَ مَعنا عليٌّ في أهلِ مِنىً يومَ النحرِ: لا يحجُّ بعدَ العامِ مُشركٌ ولا يَطوفُ بالبيتِ عُريان))[(٤)].

---

(١) سورة لقمان، آية: ١٣.

(٢) أخرجه البخاري ٣٤٢٨، ومسلم ١٢٤.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦/٢٧٠.

(٤) أخرجه البخاري ٣٦٩، ومسلم ١٣٤٧.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

كثرت وصايا الرسول ﷺ بالأمانة، وحذر عليه السلام من تفلتها، ونص على أنها نزلت في أصل القلوب، وإنها بمضي الزمن تتفلت شيئاً فشيئاً، وتترك بقية من أثر لها في القلب حتى تأتي اللحظة التي لم يبق منها شيء في قلوب الناس.

وقد شبه الرسول ﷺ أثر الأمانة وأجرى تجربة عملية أمام الصحابة، وفي الباب من الجوانب التربوية التعليمية ما يلي:

أولاً- التربية بالوصف أو التقييم الذاتي:

وقد ورد ذلك في وصفه للمنافق، يقول ﷺ: «آية المنافق ثلاث...»، ثم يعدّد هذه الصفات الثلاث، وهي الكذب، وخلف الوعد، وخيانة الأمانة، رغبة منه ﷺ في إيصال هذه الصفات إلى المسلمين؛ ليحذروا الوقوع فيها، ويحذروا الانخداع بالمنافقين، ويميزوهم بين الناس.

والوصف أو التقييم الذاتي: هو أن يكسب الإنسان علماً تفصيلياً بصفات الخير والشر والمعاني السامية والمعاني الهابطة، والأعمال التي ترضي الله تعالى وتقرب منه وعكسها، فتجعل لديه ميزاناً خاصاً يزن به نفسه ويعرض عليه حاله في أي وقت شاء؛ ليحصل لديه تقويم ذاتي صحيح للوضع الذي هو فيه، وهذا الميزان هو وسيلة تربوية من وسائل الرسول ﷺ وضع المواصفات لأغلب الأمور والقضايا الدنيوية والأخروية، وأمر الجميع بأن يزنوا أنفسهم على ضوئها، فنستطيع أن نزن أنفسنا ونحاسبها من خلال هذه الصفات التي أخبرنا بها[1].

ثانياً- التربية بضرب المثل والتشبيه:

ويظهر ذلك من قوله ﷺ: «الأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ...»، ثم بقوله: «فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ الْمَجْلِ كَجَمْرٍ دَحْرَجْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ»، ويشبه

---

(١) أساليب الدعوة والتربية، د. زياد العاني ص ٤٣٤، ٤٣٥ بتصرف يسير.

النبي ﷺ فقدان الأمانة بالتمثيل: "ثم أخذ حصاة فدحرجه على رجله"، وكل هذه طرق في تقريب المعنى إلى قلوب المسلمين، لأن بعض المبادئ التربوية تحتاج لتوصيلها إلى التصوير والتشبيه.

والأمثال تبرز المعقول في صورة المحسوس، الذي يلمسه الناس فتقبله العقول؛ لأن المعاني المعقولة لا تستقر في الذهن إلا إذا صيغت في صورة حية قريبة الفهم، وتكشف الأمثال عن الحقائق، وتعرض الغائب في معرض الحاضر، وتجمع المعنى الرائع في عبارة موجزة، ويضرب المثل للترغيب فيما ترغب فيه النفوس، أو التنفير حينما يكون الممثَّل به مما تكرهه النفوس[1].

ثالثاً- التربية بالترهيب:

يقول ﷺ في تصوير النار والصراط: «وَفِي حَافَتَي الصِّرَاطِ كَلاَلِيبُ مُعَلَّقَةٌ. مَأْمُورَةٌ بِأَخْذِ مَنْ أُمِرَتْ بِهِ...».

إنه لا جدوى من التربية إن لم يستغرقها الترهيب، لأن الإنسان لن يمتنع عن العمل إلا إذا علم أن وراءه شراً محدقاً ينبغي اجتنابه، فإن عمل خيراً نال السرور، وإن عمل شراً ذاق الألم والمرارة[2].

رابعاً- من مهام المربي: البيان والإيضاح:

وذلك يظهر في توليه ﷺ تبيان الأمور الظاهرة للمتربين، فضلاً عن إبانته للغيبيات، وتلك خاصية تخص النبي ﷺ وحده، فعلم الغيب عند الله، وقد اطلع نبيه ﷺ على بعض الأمور الغيبية، ويظهر ذلك في أحاديث هذا الباب في عدة مواضع:

أولها: مراحل تضييع الأمانة، يقول ﷺ: «يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ...»، حتى يصل الأمر في نهاية الزمان إلى أن يندر الأمناء، حتى يقول الناس: «إِنَّ فِي بَنِي فُلاَنٍ رَجُلاً أَمِيناً»، حتى ينزع الإيمان كله من القلوب.

---

(١) فلسفة التربية الإسلامية في الحديث الشريف، د. عبدالجواد سيد بكر ص ٣٤٢.

(٢) أصول التربية الإسلامية، د. سعيد إسماعيل القاضي ص ١٨٦.

ثانيها: حديثه ﷺ عن يوم القيامة، وما فيه من أهوال، تدفع الناس إلي طلب الشفاعة من الرسل والأنبياء، حتي يقوم النبي محمد ﷺ بالشفاعة.

فإن بيان الحقائق دلالة أكيدة على علم المربي وإحاطته بما يجهله المتلقون، ولاشك "أن زاد العلم والثقافة لا بد منه حتى يجد الناس عند المربي إجابة التساؤلات، وحلول المشكلات، إضافة إلى ذلك هو العدة التي بها يعلم الداعية الناس أحكام الشرع، ويبصرهم بحقائق الواقع، وبه أيضاً يكون قادراً على الإقناع"(١).

خامساً- التربية بالقصة:

من الأساليب التربوية التي استخدمها النبي ﷺ في أحاديث هذا الباب: التربية بالقصة، ويظهر ذلك في حديثه عن يوم القيامة باعتباره حادثًا لا محالة، فكان حديثه عن المستقبل بصيغة الماضي، فكأن هذه القصة في يقين حدوثها وحتمية وقوعها ماضياً وقع لا مستقبلاً ينتظر وقوعه.

ذلك الأسلوب القصصي من الأساليب التربوية الناجحة في إيصال القيم إلى المتربين من خلال أحداث القصة، فضلاً عما يفيدونه من معرفة ما سيقع يوم القيامة، وأهم ما في هذه القصة هو إشارته ﷺ إلى أمرين:

أولهما: أنه صاحب الحظوة والشفاعة عند الله يوم القيامة، ولهذا يشفّعه ويفتح له.

ثانيهما: الإشارة إلى مكانة الرحم يوم القيامة ومكانة الأمانة، وأنهما تكونان على جنبي الصراط يميناً وشمالاً.

والقصة النبوية تشد القارئ، وتوقظ انتباهه دون توانٍ أو تراخٍ، فتجعله دائم التأمل في معانيها والتتبع لمواقفها، والتأثر بشخصياتها وموضوعاتها، حتى آخر كلمة فيها؛ ذلك أن القصة تبدأ غالباً وفي شكلها الأكمل، بالتنويه بمطلب أو وعد أو الإنذار بخطر، أو نحو ذلك مما يسمى عقدة القصة، وقد تتراكم قبل الوصول إلى حل هذه العقدة، مطالب أو مصاعب أخرى، تزيد القصة حبكاً، كما تزيد القارئ أو السامع

---

(١) مقومات الداعية الناجح، د. علي عمر بادحدح ص ٥٧.

شوقاً وانتباهاً، وتلهفاً على الحلِّ أو النتيجة[١].

ومن الجوانب القصصية التي تفيد في العملية التربوية ما رواه عبدالله بن الزبير: «لما وقف الزبير يوم الجمل ...» ثم ذكر وصيته بسداد دينه، واستشهاده في معركة الجمل، وفي القصة حرص شديد من جانب الزبير بن العوام على تسديد ديونه من بعده، رغم أنه كان في خطر الحرب، وبين السيوف والرماح.

---

(١) أصول التربية الإسلامية وأساليبها، عبدالرحمن النحلاوي ص ١٨٩.

٢٦- باب تحريم الظلم والأمر بردِّ المظالم

قَالَ اللَّه تَعَالَى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[غافر: ١٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾[الحج: ٧١].

وأمّا الأحاديث فمنها: حديث أبي ذر رضي الله عنه المتقدم في آخر باب المجاهدة[(١)].

الحديث رقم (٢٠٣)

٢٠٣- وعن جابر رضي الله عنه أَن رسولَ اللَّه صلى الله عليه وسلم قال: «**اتَّقُوا الظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، واتَّقُوا الشُّحَّ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حملَهُمْ على أَنْ سفَكَوا دِماءَهُمْ واسْتَحلُّوا مَحارِمَهُمْ**» رواه مسلم[(٢)].

ترجمة الراوي:

جابر بن عبدالله الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

الشُح: شدة البخل[(٣)].

سفكوا دماءهم: السفك: أي الإراقة والإجراءُ لكل مائع، والمقصود من سفك الدماء: القتل وإزهاق الأنفس والاعتداء[(٤)].

الشرح الأدبي

إن الظلم من أمارات فساد الفطرة الإنسانية، ومن دلائل الانحراف عن الصراط السوي في حياة البشرية، وما شاع الظلم في أمة إلا وكان عاقبتها الهلاك والدمار.

---

(١) برقم (١١١).

(٢) برقم (٢٥٧٨/٥٦). أورده المنذري في ترغيبه (٣٢٧٩).

(٣) معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ٢٢٩، وانظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٤٣.

(٤) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٤٣٣.

فعن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((إنَّ اللهَ لَيُملي للظالم، حتى إذا أخذَه لم يُفلِتْه. قال ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾(1))).

وقال أحد الشعراء:

لاَ تَظْلِمَنَّ إِذا ما كُنْتَ مُقْتَدِرًا	فَالظُّلْمُ مَصْدَرُهُ يُفْضِي إلى النَّدَمِ
تَنامُ عَيْناكَ والمَظْلُومُ مُنْتَبِهٌ	يَدْعو عَلَيْكَ وَعَيْنُ اللهِ لم تَنَمِ

والحديث الشريف في فسيحه اللغوي يبدأ بالأمر الحاسم الواجب التنفيذ: في قول رسول الله ﷺ: اتقوا الظلم، والتعبير بالفعل، "اتقوا" يحمل دلالة التحذير، لأن التقوى من الوقاية وكأن الظلم من موارد الهلاك، والإنسان يتجنب هذه الموارد التي يتردى فيها إن أقدم على الظلم، فالظالم لغيره ليس منتصرًا، ولكنه يظلم نفسه قبل ظلمه لغيره، ويهلك نفسه قبل أن يهلك غيره، بسبب الجور والفساد والظلم، وقد حرم الله الظلم على عباده، ونهاهم أن يتظالموا فيما بينهم، فحرم على كل عبد أن يظلم غيره، مع أن الظلم في نفسه حرام مطلقًا، وهو نوعان: أحدهما: ظلم النفس وأعظمه الشرك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(2)، والثاني ظلم العبد لغيره.

والجملة الثانية: تأتي تعليلًا للأمر باتقاء الظلم، في قول رسول الله ﷺ: "فإن الظلم ظلمات يوم القيامة"، وهذا التعليل يأتي في قالب الجملة الاسمية المبدوءة بالتوكيد، دلالة على ثبات المعنى، وعدم تغير هذه الصورة المنفرة للظلم، حيث شبهه الرسول ﷺ بأنه: ظلمات يوم القيامة، وليس ظلمة واحدة، وفي ذلك إشارة إلى أن الظالم لن يكون في زمرة هؤلاء المؤمنين الذين يسعى نورهم بين أيديهم، وبأيمانهم"، وفيه تحذير من المصير الذي سيؤول إليه الظالم، ويسيح في ظلمات بعضها فوق بعض،

---

(1) سورة هود، آية: ١٠٢.

(2) سورة لقمان، آية: ١٣.

وأرشد المصطفى ﷺ إلى ذلك في قوله: "من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلل منها..."[١] الحديث، لأنه إن لم يفعل ذلك سيأتي يوم القيامة وظلمات الظالم تغشاه بمقدار ما ظلم، وبمقدار ما نكب الناس، وفجر في نفوسهم الألم.

والمشاكلة بين لفظ الظلم والظلمات من خلال هذا التشابه في المادة اللغوية يؤكد مصير الظالم في دنياه وآخرته.

والقسم الثاني من الحديث يسير في السياق نفسه: حيث الأمر باتقاء الشح: والأمر جماعي، والشح أشد البخل وقيل هو: البخل مع الحرص، وقيل البخل في أفراد الأمور، والشح عام، وقيل: البخل يكون بالمال أما الشح يكون بالمال والمعروف، كما ذكر صاحب دليل الفالحين.

وتعليل الأمر باتقاء الشح يجيء في السياق اللغوي الذي جاء فيه تعليل اتقاء الظلم، وهو التأكيد في صيغة الجملة الاسمية، ولكن الآثار المترتبة على الشح أقرب إلى ما يشاهد من عذاب في الدنيا، وهو من شواهد العذاب في الآخرة، فالشح أهلك الأمم السابقة، واسم الموصول "مَنْ" وهو للعاقل يرشد إلى كل إنسان وكل أمة فشا فيها الشح، وغدا منهاجًا لها، ولذلك قال سبحانه: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[٢]، فالتعبير بـ"من" لا يعني الإفراد، وإنما للدلالة على كل من يهزم أمام شح نفسه، لأن الشح يحمل على سفك الدماء: حرصًا على جمع الأموال، أو السرقة أو الإرث قبل الأوان، والشح يقود إلى استحلال المحارم هربًا من تكاليف ومسؤوليات الزواج، فالشح في ظاهره وباطنه شاهد سلوكي من شواهد ظلم النفس، وظلم الغير، وباب من أبواب الفتن والفساد في الأرض، والهلاك في الآخرة.

---

(١) أخرجه البخاري ٦٥٣٤.

(٢) سورة الحشر، آية: ٩.

فقه الحديث

تحريم الظلم: أصل الظلم في اللغة: (وضع الشيء في غير موضعه، والجور يجاوزه الحدّ والميل عن القصد، ثم كثر استعماله حتى سمي كل عسف ظلمًا)[(١)].

ولا يخرج في الاصطلاح عن معناه اللغوي[(٢)].

والظلم محرم بالكتاب والسنة والإجماع.

أما الكتاب فمنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ۝١٦٨ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾[(٣)].

وأما السنة فمنها: حديث الباب، وحديث أبي ذر عن النبي ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: ((يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَىٰ نَفْسِي . وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا. فَلاَ تَظَالَمُوا))[(٤)]. وقد أجمع الفقهاء على تحريم الظلم[(٥)].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: سوء عاقبة الظلم.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: التحذير من الشح.

ثالثًا: من تاريخ الدعوة: بيان أسباب هلاك الأمم السابقة.

رابعًا: من أهداف الدعوة: حفظ المقاصد الخمسة.

خامسًا: من مهام الداعية: تحذير المدعوين مما يضرهم.

سادسًا: من أساليب الدعوة: الأمر والتعليل.

---

(١) لسان العرب والمصباح المنير وجمهرة اللغة "ظلم".

(٢) فتح القدير ٥/٤٣٣، ومعجم لغة الفقهاء، أ.د. محمد رواس قلعة جي ٢٦٧، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٩/١٦٩.

(٣) سورة النساء، الآيتان: ١٦٨، ١٦٩.

(٤) أخرجه مسلم ٢٥٧٧.

(٥) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٩/١٧٠، وانظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥/١٠٠.

أولاً- من موضوعات الدعوة: سوء عاقبة الظلم:

إن الظلم يؤدي إلى الفساد والإفساد في الأرض، لذلك كانت عاقبته سيئة، ففي هذا الحديث حذر النبي ﷺ من الظلم، لأنه "ظلماتٌ يوم القيامة".

قال الصنعاني: "الحديث من أدلة تحريم الظلم وهو يشمل جميع أنواعه سواء كان في نفس أو مال أو عرض، في حق مؤمن أو كافر أو فاسق"[(١)].

قال القاضي عياض: (قوله: "الظلم ظلمات يوم القيامة" قيل: إنه ظلمات على صاحبه لا يهتدي يوم القيامة سبيلاً حيث يسعى نور المؤمنين بين أيديهم وبأيمانهم. ويحتمل أن الظلمات هنا الشدائد، وبه فسَّروا قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾[(٢)] أي شدائدهما. ويحتمل أنها عبارة عن الأنكال والعقوبات)[(٣)].

قال ابن حجر: (قال ابن الجوزي: الظلم يشتمل على معصيتين: أخذ مال الغير بغير حق، ومبارزة الرب بالمخالفة، والمعصية فيه أشد من غيرها لأنه لا يقع غالبًا إلا بالضعيف الذي لا يقدر على الانتصار، وإنما ينشأ الظلم عن ظلمة القلب لو استنار بنور الهدى لاعتبر، فإذا سعى المتقون بنورهم الذي حصل بسبب التقوى اكتنفت ظلمات الظلم الظالم حيث لا يغني عن ظلمه شيء)[(٤)].

فالمؤمنون -كما قال عبدالله البسام-: (مستضيئون بنور إيمانهم، ويقولون: ربنا أتمم لنا نورنا، وأما الظالمون لربهم بالشرك أو لأنفسهم بالمعاصي أو لغيره في الدماء والأموال أو العرض، فهؤلاء يمشون في دياجير الظلم فلا يهتدون سبيلاً)[(٥)].

---

(١) سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، الصنعاني ص ٩٦١.

(٢) سورة الأنعام، آية: ٦٣.

(٣) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٤٨/٨، وانظر: شرح صحيح مسلم، النووي، ١٥٤٣.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٢١/٥.

(٥) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٣٠٥/٦.

وقد وردت آيات وأحاديث تحذر من سوء عاقبة الظلم، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾[1]. أي (ومن يرتكب ما نهى الله عنه من أخذ المال الحرام كالسرقة والغصب والغش معتديًا متجاوزًا حدَّ الشرع فسوف يدخله الله نارًا يقاسي حرَّها وكان ذلك على الله يسيرًا)[2].

وقال النبي ﷺ: ((ثَلاَثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٌ لا شَك فِيهنَّ دَعْوَةُ المَظْلُومِ، ودَعْوَةُ المُسافِرِ، ودَعْوَةُ الْوَالِدِ على وَلَدِهِ))[3].

ومن الأمثلة الفعلية لأثر دعوة المظلوم ما رواه عروة بن الزبير أن أرْوى بنت أويس ادَّعت على سعيد بن زيد أنه أخذ شيئًا من أرضها، فخاصمته إلى مروان بن الحكم فقال سعيد: أنا كنت آخُذُ من أرضها شيئًا بعد الذي سمعت من رسول الله ﷺ! قال: وما سمعت من رسول الله ﷺ؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من أخذ شبرًا من الأرض ظلمًا طُوِّقه إلى سبع أرضين" فقال له مروان: لا أسألك بيِّنة بعد هذا. فقال: اللهم إن كانت كاذبة فَعَمِّ بَصَرَها واقتلها في أرضها. فما ماتت حتى ذهب بصرُها ثم بينا هي تمشي في أرضها إذ وقعت في حفرة فماتت[4].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: التحذير من الشح:

إن الشح من الأخلاق الذميمة التي إذا تمكنت من الفرد والمجتمع أدت إلى نتائج

---

(١) سورة النساء، الآيتان: ٢٩-٣٠.

(٢) التفسير الميسر، إعداد نخبة من العلماء ٨٣.

(٣) أخرجه أبوداود ١٥٣٦، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ١٣٥٩).

(٤) أخرجه مسلم ١٦١٠، ١٣٩، وهو في البخاري (٢٤٥٢، ٣١٩٨)، بدون هذه القصة، وإنما باللفظ المرفوع فقط.

خطيرة، لذلك حذّر النبي ﷺ من الشح، معللاً ذلك بأنه "أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلُّوا محارمهم" قال القاضي عياض: (يحتمل أن هذا الهلاك هو الهلاك الذي أخبر عنهم به في الدنيا بأنهم سفكوا دماءهم، ويحتمل أنه هلاك الآخرة وهذا الثاني أظهر. ويحتمل أنه أهلكهم في الدنيا والآخرة. قال جماعة: الشح أشد البخل وأبلغ في المنع من البخل...)[١].

وقد وصف الله سبحانه وتعالى المثبطين عن الجهاد في سبيل الله، بأنهم: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ۚ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ﴾[٢] أي (بخلاء عليكم أيها المؤمنون بالمال والنفس والجهد والمودة لما في نفوسهم من العداوة والحقد حبًا في الحياة وكراهة للموت)[٣].

كما أخبر ﷺ أن الشح من شر صفات الرجل، فقال: ((شرُّ ما في رجل شُحٌّ هالعٌ، وجُبْن خالعٌ))[٤]. قال ابن مفلح: (أصل الهلع: الجزع والهالع هنا ذو الهلع ومعناه: أنه إذا استُخرج منه الحق الواجب عليه هلع وجزع منه، والجبن الخالع هو: الشديد الذي يخلع فؤاده من شدته)[٥].

كما أخبر النبي ﷺ أن الشح من أسباب الهلاك كما في حديث الباب وحديث أنس بن مالك رضي الله عنه: ((ثلاثٌ مهلكاتٌ، وثلاثٌ مُنجياتٌ، وثلاثٌ كفَّاراتٌ أمَّا

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٤٨/٨، وانظر: شرح صحيح مسلم، النووي، ١٥٤٣.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ١٩.

(٣) التفسير الميسر، إعداد نخبة من العلماء ٤٢٠.

(٤) أخرجه أبو داود ٢٥١١ من حديث أبي هريرة وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢١٩٢).

(٥) الآداب الشرعية والمنح المرعية، محمد بن مفلح المقدسي ٧٦٣هـ، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرين، ٣٠٣/٣.

المهلِكـاتُ: فَشُحٌّ مُطَـاعٌ، وهَـوَىً مُتَّبـعٌ وإِعْجَـابُ المَرْءِ بنفْسِهِ...))[١]. قـال ابـن رجـب: (قـال طائفة من العلماء: الشحُّ هو الحرص الشديد الذي يحمل صاحبه على أن يأخذ الأشياء من غير حلّها ويمنعها من حقوقها، وحقيقته شره النفس إلى ما حرّم الله ومنع منه، وألا يقنع الإنسان بما أحل الله من مال أو خرج أو غيرهما، ... فمن اقتصر على ما أبيح له فهو مؤمن، ومن تعدّى ذلك إلى ما منع منه فهو الشح المذموم، وهو منافٍ للإيمان ولهذا أخبر النبي ﷺ أن الشح يأمر بالقطيعة والفجور وبالبخل. والبخل هو إمساك الإنسان ما في يده، والشح: تناول ما ليس له ظلمًا وعدوانًا من مال أو غيره حتى قيل: إنه رأس المعاصي كلّها)[٢].

قال الصنعاني: "(فإن قلت) وما حقيقة البخل المذموم وما من أحد إلا وهو يرى نفسه أنه غير بخيل ويرى غيره بخيلاً وربّما صدر فعلٌ من إنسان فاختلف فيه الناس فيقول جماعةٌ: إنه بخيل ويقول آخرون: ليس بخيلاً فما حدُّ البخل الذي يوجب الهلاك وما حدُّ البذل الذي يستحقُّ به العبد صفة السخاوة وثوابها؟ قلت: السخاء هو أن يؤدي ما أوجب الله عليه والواجب واجبان: واجب الشرع وهو ما فرضه الله تعالى من الزكاة والنفقات لمن يجب عليه إنفاقه وغير ذلك، وواجب المروءة والعادة. والسخي هو الذي لا يمنع واجب الشرع ولا واجب العادة والمروءة فإن منع واحدًا منهما فهو بخيل لكن الذي يمنع واجب الشرع أشد بخلاً، فمن أعطى زكاة ماله مثلاً ونفقة عياله بطيبة نفسه ولا يتيمم الخبيث من ماله في حق الله فهو السخي.

والسخاء في المروءة أن يترك المضايقة والاستقصاء في المحقرات وغيرها فإنّ ذلك مستقبح ويختلف استقباحه باختلاف الأحوال والأشخاص وتفصيله يطول فمن أراد استيفاء ذلك راجع

---

(١) أخرجه البزار -كما في كشف الأستار ٨٠- وابن شاهين في الترغيب في فضائل الأعمال ٥٢٥، وابن عبدالبر في جامع بيان العلم وفضله، ابن عبدالبر ٩٦١، وحسنه الألباني بمجموع طرقه وشواهده (سلسلة الأحاديث الصحيحة ١٨٠٢).

(٢) شرح حديث "ما ذئبان جائعان" ضمن مجموع رسائل ابن رجب الحنبلي: أبو الفرج عبدالرحمن بن أحمد ابن رجب الحنبلي ٧٩٥هـ، تحقيق: أبي مصعب طلعت بن فؤاد الحلواني، ١/٦٩-٧٠.

الإحياء[١] للغزالي. واعلم أن البخل داء له دواءٌ وما أنزل الله من داءٍ إلا وله دواء، وداء البخل سببه أمران: الأول: حب الشهوات التي لا يتوصل إليها إلا بالمال وطول الأمل، والثاني: حب ذات المال والشغف به وببقائه لديه فإن الدنانير مثلاً رسولٌ يُنَال بها الحاجات والشهوات فهو محبوب لذلك ثم صار محبوبًا لنفسه لأن الموصل إلى اللذات لذيذٌ فقد تقضى الحاجات والشهوات وتصير الدنانير عنده هي المحبوبة، وهذا غاية الضلال فإنه لا فرق بين الحجر والذهب إلا من حيث أنها تقضى به الحاجات. فهذا سبب حب المال، ويتفرع منه الشحُّ وعلاجه بضده فعلاج الشهوات القناعة باليسير وبالصبر وعلاج حب المال وطول الأمل، الإكثار من ذكر الموت، وذكر موت الأقران والنظر في ذلك طول تعبهم في جمع المال ثم ضياعه بعدهم وعدم نفعه لهم، وقد يشح بالمال شفقة على من بعده من الأولاد. وعلاجه أن يعلم أن الله هو الذي خلقهم فهو يرزقهم وينظر في نفسه فإنه ربما لم يخلّف له أبوه فلسًا ثم ينظر ما أعده الله تعالى لمن ترك الشح وبذل ماله في مرضاة الله تعالى، وينظر في آيات القرآن المجيد الحاثّة على الجود المانعة عن البخل، ثم ينظر في عواقب البخل في الدنيا فإنه لا بدّ لجامع المال من آفات تُخرجه على رغم أنفه وذل أمره، فالسخاء خيرٌ كله ما لم يخرج إلى حد الإسراف المنهي عنه.

وقد أدب الله تعالى عباده أحسن الآداب فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾[٢]، فخيارُ الأمور أوسطها وخلاصته أنه إذا وجد العبدَ المالَ أنفقه في وجوه المعروف بالتي هي أحسن ويكون بما عند الله أوثق منه بما هو لديه وإن لم يكن لديه مال لزم القناعة والتكفف وعدم الطمع"[٣].

(١) إحياء علوم الدين، الإمام الغزالي ٤/١٨٠٦-١٨١٠.

(٢) سورة الفرقان، آية: ٦٧.

(٣) سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، الصنعاني ٩٦٢، ٢٨٠/٨ - ٢٨٢، وانظر: إحياء علوم الدين، الإمام الغزالي ١٨١٠/٤ - ١١٨٤.

ثالثًا- من تاريخ الدعوة: بيان أسباب هلاك الأمم السابقة:

إن المسلم يأخذ العظة والعبرة من قصص الأمم السابقة، حتى لا يقع فيما وقعوا، مما أدى إلى هلاكهم وفنائهم، لذا أخبر النبي ﷺ المسلمين أن من أسباب هلاك مَنْ قبلنا من الأمم الشُحَ لأنه دفعهم إلى أن يستحلوا ما حرّم الله، واستباحوا القتل والتقتيل. وإنما ذكر النبي ﷺ ذلك لكي نأخذ العظة والعبرة فلا نفعل ما فعلوا حتى لا نتعرض للهلاك مثلهم: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[١].

قال عبدالله البسام: (يدل الحديث على التحذير من الشح والبخل، فإنه صار سبب هلاك الأمم السابقة، حملهم على الحرص على المال وعلى الاعتداء على أموال غيرهم، فصارت الحروب والفتن التي صارت سبب هلاكهم واستحلال محارمهم، وهذا هلاك في الدنيا. كما أنه سبب للهلاك الأخروي، فإن الاعتداء على مال الغير والاعتداء على محارمه وسفك دمه من أكبر الظلم وأشد الإثم، وهذه المعاصي هي سبب الهلاك في الآخرة وعذاب النار)[٢].

وقد كان ﷺ يذكر أصحابه بأسباب هلاك الأمم السابقة، فلما جاءه أسامة ابن زيد رضي الله عنه يشفع في المرأة المخزومية التي سرقت، قال له: ((أتَشفَعُ في حدٍ من حُدودِ الله ؟ ثم قام فاختطَبَ ثم قال: إنما أهلكَ الذين قبلَكم أنهم كانوا إذا سرَقَ فيهمُ الشريفُ تَركوه، وإذا سرقَ فيهمُ الضعيفُ أقاموا عليهِ الحدَّ))[٣].

قال النووي: (ذكر مسلم في الباب: الأحاديث في النهي عن الشفاعة في الحدود، وأن ذلك سبب هلاك بني إسرائيل)[٤].

وقال عبدالله البسام: "إن إقامة الحدود على الضعفاء وتعطيلها في حق الأقوياء،

---

(١) سورة يوسف، آية: ١١١.

(٢) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٣٠٥/٦، وانظر: البدر التمام شرح بلوغ المرام، للقاضي المغربي ٢٧٥/٥ - ٢٧٦.

(٣) أخرجه البخاري ٣٤٧٥، ومسلم ١٦٨٨.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٠٨٣.

سبب الهلاك والدمار، والشقاوة في الدارين"[١].

رابعًا- من أهداف الدعوة: حفظ المقاصد الخمسة:

إن الغاية من تكاليف الشريعة الإسلامية حفظ المقاصد والكليات الخمس، لذا حضت على كل ما يحفظها في الوجود، ومنعت من كل ما يعطل حفظها، كما هو الأمر في هذا الحديث. وذلك واضح جلي في تحذير النبي ﷺ من الظلم والشح، فإن ذلك دفع الأمم السابقة إلى الاعتداء على النفس وما حرم الله تعالى.

قال الشاطبي: (تكاليف الشريعة ترجع إلى حفظ مقاصدها في الخلق وهذه المقاصد لا تعدو ثلاثة أقسام: أحدها: أن تكون ضرورية. والثاني: أن تكون حاجية. والثالث: أن تكون تحسينية... والحفظ لها يكون بأمرين: أحدهما: ما يقيم أركانها ويثبت قواعدها وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب الوجود. والثاني: ما يدرأ عنها الاختلال الواقع أو المتوقع فيها وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب العدم.. ومجموع الضروريات خمسة وهي: حفظ الدين والنفس والنسل والمال والعقل. وقد قالوا: إنها مراعاة في كل ملة[٢].

وقال الغزالي: (وتحريم تفويت هذه الأصول الخمسة والزجر عنها، يستحيل ألا تشتمل عليه ملة من الملل وشريعة من الشرائع، التي أريد بها إصلاح الخلق، لذلك لم تختلف الشرائع في تحريم الكفر والقتل والزنا والسرقة وشرب المسكر)[٣].

خامسًا- من مهام الداعية: تحذير المدعوين مما يضرهم:

إن علم الداعية يتيح له معرفة ما ينفع المدعوين وما يضرهم، فيرشدهم إلى نفعهم ويحذرهم مما يضرهم يتضح ذلك في قول النبي ﷺ: "اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات... واتقوا الشح..." فقد حذر النبي ﷺ أتباعه من الظلم والشح. وقد كان النبي ﷺ

---

(١) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٣١٥/٥.

(٢) الموافقات: الشاطبي، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي، بعناية مشهور بن حسن آل سلمان، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعوية: ١٤٢٤هـ، ٢/١٧-٢٠.

(٣) المستصفى من علم الأصول، محمد بن محمد الغزالي ٢٨٨/١.

يحذّر أصحابه دومًا مما يضرهم، وقد جاءت أحاديث كثيرة بذلك[(١)] منها: ((إِيَّاكُمْ وَكَثْرَةَ الْحَلِفِ فِي الْبَيْعِ، فَإِنَّهُ يُنَفِّقُ ثُمَّ يَمْحَقُ))[(٢)].

وقد ذكر سبحانه أن الغاية من قيام العلماء والفقهاء بمهامهم، تحذيرهم لأقوامهم من سوء العواقب وتبصيرهم بأمور دينهم ودنياهم، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[(٣)] أي: ليتعلموا العلم الشرعي ويعلموا معانيه، ويفقهوا أسراره وليعلموا غيرهم ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ففي هذا فضيلة العلم، خصوصًا الفقه في الدين وأنه أهم الأمور وأنه من تعلم علمًا فعليه نشره وبثه في العباد ونصيحتهم فيه فإن انتشار العلم عن العالم من بركته وأجره الذي ينمى.

وأما اقتصار العالم على نفسه وعدم دعوته إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة وترك تعليم الجهال ما لم يعلمون فأي منفعة حصلت للمسلمين منه؛ وأي نتيجة من عمله؟ وغايته أن يموت، فيموت علمه وثمرته، وهذا غاية الحرمان، لمن آتاه الله علمًا ومنحه فهمًا)[(٤)].

سادسًا- من أساليب الدعوة: الأمر والتعليل:

أما الأمر فقوله ﷺ: "اتقوا الظلم واتقوا الشح" والأمر صيغة مباشرة للامتثال وإنما استخدم هنا لخطورة هذين الصفتين السيئتين وأثرهما على الفرد والمجتمع.

أما التعليل فبيان العاقبة السيئة لفعل الظلم والشح، والتعليل يُزيد المخاطب امتثالاً على امتثال، وطاعةً فوق طاعة، فقد بُيِّن له الحكمة من الأمر.

---

(١) انظر على سبيل المثال الفهارس العامة لمسند أحمد بن حنبل ٤٧/٢١٨-٢٢١، فقد ذُكر فيها الأحاديث التي تبدأ بلفظ "إياك، وإياكم، وإياكن".

(٢) أخرجه مسلم ١٦٠٧.

(٣) سورة التوبة، آية: ١٢٢.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٣١٢، ٣١٣.

الحديث رقم (٢٠٤)

٢٠٤- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه أَن رسولَ اللَّه ﷺ قال: «**لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيامَةِ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاء مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاء**» رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

يقاد: يُقْتَصُّ[٢].

الجلحاء: التي لا قرن لها[٣].

القرناء: طويلة القرنين[٤].

الشرح الأدبي

هذا هو الحديث الثاني في باب تحريم الظلم، والأمر برد المظالم، ولغة الحديث تتسم بالصرامة والجد والحسم والجزم، لأنها تقدم قضية من أجلِّ القضايا في حياة الناس أجمعين، وهى: عدم التردي في مهاوي الظلم، والوقوف أمام إغراء السطوة والجاه والمال، والعِرْق، والنسب، فكلها من البواعث التي تدفع الإنسان إلى ظلم أخيه الإنسان.

وبعض الغافلين يتوهمون أن القوة الغاشمة، والسلطة القاصمة، من الموانع التي تمنع الظالم من العقاب، وتحميه من غضبة المظلومين، ولكن هذا الوهم، وإن تحقق في مظاهر الحياة الخادعة، وإن لمعت بوارقه في سراب الحركة الحياتية الواهمة، فإن الحق المغتصب لن يضيع، وإن قلوب المظلومين الواجفة لن يجمد نبضها ويدفن في الصقيع.

---

(١) برقم (٢٥٨٢/٦٠). أورده المنذري في ترغيبه (٥٢٧٨).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ق و د).

(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ج ل ح).

(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ق ر ن).

فدعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب، والظالم لن يظل متحصنًا بالوهم آمنًا من العقاب، والحق سبحانه وتعالى يتوعد الظالمين وينذرهم بالعقاب الشديد، وبأنهم إن أخافوا الناس وأرهبوهم في الحياة الدنيا، فإنهم يوم القيامة مالهم من ولي ولا نصير، وهم في الآخرة كما قال تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾(١).

ولأن الظالمين نهبوا حقوق الناس، وسطوا على أرزاقهم، ولم يرجعوا الحقوق إلى أصحابها: يبدأ الحديث الشريف بتأكيد إرجاع الحق إلى أهله: يوم القيامة.

وقد تضافرت عدة أساليب في هذا الحديث الشريف لتوصيل المعنى المقصود، والهدف المنشود وهو إرجاع الحق إلى أصحابه، ولنتأمل هذه الأساليب اللغوية والفنية التي يشع بها هذا الحديث الموجز في مبناه المتسع في دلالته ومعناه فقوله عليه الصلاة والسلام: "لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة"، فيه قسم وتأكيد، وبناء للمجهول وإيجاز، وهذه السمات الأربع اجتمعت في كلمة واحدة "لَتُؤدُّنَّ" فاللام مؤذنة بقسم مقدر لتأكيد المقام: والتقدير، والله ليؤدِّن الله الحقوق،ومع هذا القسم يأتي التأكيد المتمثل في نون التوكيد الثقيلة، والإيجاز تنبئ عنه الصيغة النحوية وهى: البناء للمجهول، والفاعل ليس مجهولاً ولكنه معلوم ولا يحتاج تعريفًا لأنَّ المؤمنين يعرفون أن الله يوم القيامة، سيعطي كل ذي حق حقه، وأما الظالمون فهم ظلموا أنفسهم قبل أن يظلموا غيرهم، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلاً ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولاً﴾(٢).

فالفعل في صيغته المتضمنة للأداء وهو الإعطاء جاء محصنًا بالقسم والتوكيد والإيجاز والتنويه بمعرفة المؤمنين بعدالة خالقهم، والتعريض بغباء الظالمين حيث ختم

---

(١) سورة غافر، آية: ١٨.

(٢) سورة الفرقان، الآيات: ٢٧-٢٩.

الله على قلوبهم وأسماعهم، ندركه من خلال صيغة البناء للمفعول "وأل" في "الحقوق"، للعهد والاستغراق، و"الحقوق"، جاءت جمعًا: لأن الحقوق متعددة ومتنوعة بتعدد المظالم، وتعدد المواقف، وتعدد الأزمنة، وتعدد الأمكنة، والتعبير بقوله: "إلى أهلها"، أبلغ في نسبة الحق إلى ذويه، من قوله: إلى أصحابها، لأن صاحب الحق قد يفرط فيه، أما أهله فهم منه وهو منهم فهما كيان واحد، وليسا صاحبين يمكنهما أن يتفرقا، وقوله "يوم القيامة" فيه إنذار للظالمين، وبشارة للمظلومين كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[١]، والسجع في نهاية الحديث: والطباق بين صورتي: الجلحاء والقرناء، يؤكد دلالة رجوع الحق: ومع الرجوع يكون القصاص من الظالمين الذين أفلتوا من العقاب في الدنيا، ولكنهم لن يفلتوا من عقاب الآخرة "إن ربك لبلمرصاد".

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: بيان عدل الله تعالى.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الحث على المسارعة في أداء الحقوق لأهلها.

ثالثًا: من مهام الداعية: بذل النصح للمدعوين.

رابعًا: من أساليب الدعوة: التوكيد والترهيب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: بيان عدل الله تعالى:

(العدل من أسماء الله الحسنى، وبه قامت السماوات والأرض، وانتظم أمر الخليقة)[٢] في الدنيا والآخرة كما هو واضح جليٌّ في قوله النبي ﷺ: (لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة)، فقد أخبر النبي ﷺ أن يوم القيامة هو يوم تأدية الحقوق إلى أهلها ومعاقبة مغتصبيها، فهو يوم العدل بين الناس والقصاص (حتى يقاد للشاة الجلحاء [وهي التي لا قرن لها] من الشاة القرناء).

قال عبدالرحمن الميداني: "إن الحشر يعم الإنس والجن والملائكة، وكل دواب

---

(١) سورة الكهف، آية: ٤٩.

(٢) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٣٠/٦.

الأرض وطيورها.

أما حشر الإنس والجن فلأنهم مكلفون، وأما حشر الملائكة فليقوموا بوظائفهم وفق سنة الله تعالى في خلقه.

وأما دواب الأرض وطيورها، فقد جاء في إثبات حشرها قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾(١).

وقد جاء في كلام الرسول ﷺ ما يدل على الفائدة من حشرها.

فمن ذلك: القصاص من البهائم الظالمة في الدنيا للمظلومة منها.

ونعتقد أن ذلك على مقدار إدراكها لمعنى الظلم الذي لا تقبله نفس من النفوس، مهما قلت مداركها العامة.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((لَتُؤَدُّنَّ الحقوقَ إلى أهلها يومَ القيامة، حتى يُقَادَ للشاة الجَلْحاء من القَرْنَاء تَنْطحُها)).

ومن ذلك أيضًا: تأديتها وظيفة الشهادة على الناس بحسب مشاهداتها في الدنيا، وتسخيرها لتعذيب العصاة الذين عصوا الله بها في الدنيا، حينما كانت مذلّلة لهم، مسخرة لمصالحهم وحاجاتهم.

ومن ذلك: مشاهدتها عقاب من ظلمها من الناس في الدنيا، وتعويضها عن ذلك طبق قانون العدل الرباني، حتى إذا تمت الحكمة الإلهية من حشرها، يقضي الله عليها بأمره، فتكون ترابًا"(٢).

وقد حذّر النبي ﷺ من أن الظلم يؤدي بصاحبه يوم القيامة إلى أن يكون مفلسًا من حسناته بسبب القصاص العادل، فقال ﷺ يخاطب أصحابه: ((أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟)) قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ. فَقَالَ: ((إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي،

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٣٨.

(٢) العقيدة الإسلامية وأسسها ٦٥٤ – ٦٥٥.

يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَـٰذَا، وَقَذَفَ هَـٰذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَـٰذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَـٰذَا، وَضَرَبَ هَـٰذَا. فَيُعْطَى هَـٰذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَـٰذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ. فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ، قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ. أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ. ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ))[١].

قال النووي: (حقيقة المفلس هو الهالك الهلاك التام، والمعدوم الإعدام المقطع، فتؤخذ حسناته لغرمائه، فإذا فرغت حسناته أخذ من سيئاتهم فوضع عليه ثم ألقي في النار فتمت خسارته وهلاكه وإفلاسه)[٢].

وقال ابن هبيرة: (هذا الحديث يقتضي أن القصاص يأتي على جميع الحسنات، حتى لا يبقى منها شيء، فينبغي لمن عليه مظالم أن يستكثر من الحسنات)[٣].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: الحث على المسارعة في أداء الحقوق لأهلها:

إن الإسلام يحرص أشد الحرص على تأدية الحقوق لأهلها، لذا حثّ المدعوين على ذلك وهذا مستنبط من قوله ﷺ: (لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة)، فإن الحق إذا لم يؤدَّ إلى صاحبه في الدنيا أُدِّي إليه يوم القيامة، فكان هذا أمرًا بأداء الحقوق والمسارعة إلى ذلك قبل أن تنقضي الحياة الدنيا، وقد وردت آياتٌ وأحاديث تحذر من أن تأخير الحق وعدم أدائه يكون سببًا للعذاب يوم القيامة، فمن ذلك:

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾[٤]، أي: (والذين يمسكون الأموال ولا يؤدون زكاتها ولا يخرجون منها الحقوق الواجبة فبشرهم بعذاب موجع يوم القيامة،

---

(١) أخرجه مسلم ٢٥٨١.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٤٤.

(٣) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ١٧٩/٨.

(٤) سورة التوبة، الآيتان: ٣٤ - ٣٥.

توضع قطع الذهب والفضة في النار فإذا اشتدت حرارتها أحرقت بها جباه أصحابها وجنوبهم وظهورهم، وقيل لهم توبيخًا: هذا مالكم الذي أمسكتموه ومنعتم منه حقوق الله، فذوقوا العذاب الموجع بسبب كنزكم وإمساككم)[١].

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: أتت امرأتان في أيديهما أساور من الذهب فقال لهما رسول الله ﷺ: ((أَتُحِبَّانِ أَنْ يُسَوِّرَكُمَا رَبُّكُمَا بِأَسْوِرَةٍ مِنْ نَارٍ؟)) قالتا: لا، قال: ((فَأَدِّيَا حَقَّ هَذَا الَّذِي فِي أَيْدِيكُمَا))[٢].

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ يَوْمَ حُنَيْنٍ، إِلَى جَنْبِ بَعِيرٍ مِنَ الْمَقَاسِمِ . ثُمَّ تَنَاوَلَ شَيْئًا مِنَ الْبَعِيرِ. فَأَخَذَ مِنْهُ قَرَدَةً. يَعْنِي وَبَرَةً. فَجَعَلَ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ. ثُمَّ قَالَ: ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ هذا مِنْ غَنَائِمِكُمْ. أَدُّوا الْخَيْطَ وَالْمِخْيَطَ، فَمَا فَوْقَ ذَٰلِكَ، فَمَا دُونَ ذَٰلِكَ. فَإِنَّ الْغُلُولَ عَارٌ عَلَى أَهْلِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَشَنَارٌ وَنَارٌ))[٣].

قال العز بن عبدالسلام: "إنما شرفت المسارعة إلى الطاعات لأنها أحسن في الطواعية وامتثال الأمر، ولما في المسارعة من أمن فوات الطاعات، فالمسارعة إلى أفضل الأعمال أعلى رتب المسارعات، وكذلك تترتّب المسارعات برتب فضائل الطاعات"[٤].

ثالثًا- من مهام الداعية: بذل النصح للمدعوين:

إن من المهام الأساسية للداعية أن ينصح المدعوين، فيحثهم على ما ينفعهم، ويحذرهم مما يضرهم، وهو إذ يفعل يقتدي بالأنبياء ، وإمامهم محمد ﷺ الذي بذل النصح للمدعوين في هذا الحديث بأن أخبرهم أن الحقوق سوف تؤدى إلى أصحابها يوم القيامة، وفي هذا نصح لهم، كما نبّه ﷺ على ذلك بأن قال: (حتى ليقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء)، قال النووي: (وأما القصاص من القرناء للجلحاء فليس هو من قصاص التكليف إذ لا تكليف عليها بل هو قصاص مقابلة)[٥].

---

(١) التفسير الميسر، إعداد نخبة من العلماء ص ١٩٢.

(٢) أخرجه أحمد ١٧٨/٢ رقم ٦٦٦٧ وقال محققو المسند: حديث حسن صحيح ٢٤٨/١١.

(٣) أخرجه ابن ماجه ٢٨٥٠ ، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه).

(٤) شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال، العز بن عبدالسلام، تحقيق: إياد خالد الطباع ٣٠٤.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٤٤.

ويمكن أن يستأنس في هذا المقام - مقام نصح المدعوين بما قد يغيب عن أذهانهم - بما رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنهما من أن عبد الله بن أبي سلول - رأس المنافقين - قال معرِّضًا بالنبي ﷺ: واللّهِ لئن رجَعنا إلى المدينةِ ليُخرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ، فقال عمرُ بنُ الخَطاب رضي الله عنه: دَعني يا رسولَ الله أضرِبْ عُنُقَ هذا المنافقِ، قال النبيُّ ﷺ: ((دعهُ، لا يتَحدَّثُ الناسُ أنَّ محمدًا يَقتُلُ أصحابَه)) (١).

قال النووي: (فيه ترك بعض الأمور المختارة والصبر على بعض المفاسد خوفًا من أن يترتب على ذلك مفسدة أعظم منه، وكان ﷺ يتألف الناس ويصبر على جفاء الأعراب والمنافقين وغيرهم لتقوى شوكة المسلمين وتتم دعوة الإسلام ويتمكن الإيمان من قلوب المؤلفة قلوبهم، ويرغب غيرهم في الإسلام، وكان يعطيهم الأموال الجزيلة لذلك، ولم يقتل المنافقين لهذا المعنى)(٢).

ولا بأس هنا بإيراد ما رواه ابن إسحاق عن أمر عبد الله بن أبي سلول بعد هذا، فقد روى: "وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه؛ فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، حين بلغه ذلك من شأنهم: كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلته يوم قلتَ لي أقتُله، لأُرعِدَت له آنف، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته؛ قال عمر رضي الله عنه: قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري"(٣).

قال النووي: (وأما نصيحة عامة المسلمين وهم من عدا ولاة الأمر فإرشادهم لمصالحهم في آخرتهم ودنياهم، وكف الأذى عنهم فيعلمهم ما يجهلونه من دينهم ويعينهم عليه بالقول والفعل، وستر عوراتهم وسد خلاتهم ودفع المضار عنهم، وجلب المنافع لهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر برفق وإخلاص، والشفقة عليهم وتوقير

---

(١) أخرجه البخاري ٣٥١٨، ومسلم ٢٥٨٤، ٦٣.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٤٥.

(٣) السيرة النبوية، ابن هشام ٣٠٥/٣، وقد رواه ابن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة وهو من صغار التابعين فتكون روايته معضلة.

كبيرهم ورحمة صغيرهم وتخولهم بالموعظة الحسنة وترك غشهم وحسدهم، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه من الخير، ويكره لهم ما يكره لنفسه من المكروه، والذب عن أموالهم وأعراضهم وغير ذلك من أحوالهم بالقول والفعل، وحثهم على التخلق بجميع ما ذكرناه من أنواع النصيحة وتنشيط هممهم إلى الطاعات، وقد كان في السلف رضي الله عنهم من تبلغ به النصيحة إلى الإضرار بدنياه)[١].

رابعًا- من أساليب الدعوة: التوكيد والترهيب:

أما التوكيد فقوله ﷺ "لتؤدن"[٢]، وذلك ليؤكد أمر تأدية الحقوق وخطورته، وأما الترهيب فذكره ﷺ: "يوم القيامة"، وما يستحضره الذهن من أهواله وشدائده، وكذلك ذِكْره القود من الشاة القرناء للجلحاء، وفي كل هذا ترهيب من أكل الحقوق واغتصابها من أهلها، والخلاصة: أنه ترهيب من الظلم.

وتأتي أهمية الترهيب في تحذير الإنسان من الانغماس في الشهوات والاعتداء على حدود الله تبارك وتعالى، فإن الإنسان "لما كان يعيش في الدنيا ويشاهدها ويحس بها ويتعرض لإغراءاتها مما قد يجره إلى الركون إليها والتعلق بها ونسيان الآخرة، وظلم النفس أو الغير، فلا بد إذن من تنفير المدعوين من إيثارها على الآخرة لا من الفرار منها جملة مع بيان حقيقتها وقيمتها وقدرها بالنسبة إلى الآخرة ونعيمها.

ويقصد بالترهيب كل ما يخيف ويحذر المدعو من عدم الاستجابة وقبول الحق والثبات عليه، والملاحظ أن القرآن الكريم مملوء بما يرغب الناس في قبول دعوة الإسلام والتحذير من رفضها، مما يدل دلالة قاطعة على أهمية هذا الأسلوب -أسلوب الترغيب والترهيب- في الدعوة إلى الله تعالى وعدم إهماله من قِبل الداعي المسلم[٣].

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٣١.

(٢) انظر: شرح ابن عقيل، عبد الله بن عقيل العقيلي الهمداني المصري، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دون بيانات أخرى، ٣٠٩/٢.

(٣) انظر: أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان ص ٤٣٧-٤٤١.

الحديث رقم (٢٠٥)

٢٠٥- وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كُنَّا نَتحدَّثُ عَنْ حَجَّةِ الْوَدَاعِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِنَا، وَلاَ نَدْرِي مَا حَجَّةُ الْوداع، حَتَّى[1] حمِدَ اللَّه رسول اللَّه ﷺ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ ذَكَرَ الْمَسِيحَ الدَّجَالَ فَأَطْنَبَ فِي ذِكْرِهِ، وَقَالَ: **«ما بَعَثَ اللَّه مِنْ نَبيٍّ إلاَّ أَنْذَرَهُ أُمَّتَهُ: أَنْذَرَهُ نوحٌ وَالنَّبِيُّون مِنْ بَعْدِهِ، وَإِنَّهُ إنْ يَخْرُجْ فِيكُمْ فما خفِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ شَأْنِهِ فَلَيْسَ يَخْفِي عَلَيْكُمْ[2] إنَّ رَبَّكُمْ لَيس بأَعْوَرَ، وَإِنَّهُ أَعورُ عَيْنِ الْيُمْنَى، كَأَنَّ عيْنَهُ عِنبَةٌ طَافِيَةٌ.**

ألا إن اللَّه حرَّم عليْكُمْ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوالكُمْ، كَحُرْمَةِ يوْمِكُمْ هذا، فِي بلدِكُمْ هذا، فِي شَهْرِكُم هذا ألاَ هل بلَّغْتُ؟ » قَالُوا: نَعَمْ، قال: « اللَّهُمَّ اشْهَدْ ثَلاثًا ويْلَكُمْ أَوْ: ويحكُمْ، انظُرُوا: لا ترْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ» رواه البخاري[3]، وروى مسلم بعضه[4].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

بين أظهرنا : بيننا[5].

أطنب: أكثر في ذكره[6].

---

(١) (حتى)، و(رسول الله ﷺ) لا توجدان عند البخاري في هذه الرواية، وهما عند الحميدي في جمعه (١٩١/٢، رقم ١٢٩٥).

(٢) عند البخاري زيادة: (إنَّ ربكم ليس على ما يخفى عليكم ثلاثًا). وهي ليست عند الحميدي في جمعه، فتبعه عليه المؤلف.

(٣) برقم (٤٤٠٢ – ٤٤٠٣).

(٤) أخرج مسلم (٦٦/١٢٠) طرفًا منه، وهو قوله: (ويحكم، أو: قال: ويلكم، لا ترجعوا بعدي كفّارًا يضرب بعضكم رقاب بعض)، وقد أخرج البخاري (٦٠٤٣) هذا الطرف منه في موضع آخر من حديث محمد بن زياد أيضًا عن جده.

(٥) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ظ هـ ر).

(٦) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ط ن ب).

عنبة طافية: أي ناتئة ناشزة[١].

كفًارًا: لا بسي السلاح، يُقال كفَر فوق دِرْعِه، فهو كافر: لبس فوقها ثَوْبًا، كأنه أراد بذلك النهي عن الحرب[٢].

الشرح الأدبي

إن البيان النبوي يعد النموذج الأعلى للبلاغة العربية بعد البيان بالقرآن الكريم، فهو قبس من أضواء الذكر الحكيم، وهو نموذج سام للبيان العربي الدال المفيد، ويكفي أنه صاحبه قد أوتي جوامع الكلم.

وفي خطبة حجة الوداع، تتجلى معالم البيان النبوي، وتتألق أبعاده، فالخطابة فن أدبي كاد يندثر في عصرنا الحديث، وما أحوجنا إلى تأمل النماذج العليا من هذا الفن الأدبي الراقي، إنه فن الإلقاء، وفن صياغة الكلمة صياغة آسرة تؤثر في المتلقى، وتأسر أحاسيسه، وتثير انفعالاته، وتمتع عقله، وتشبع عاطفته، وحين نتأمل هذه الخطبة في نصوصها الكاملة، ورواياتها المتعددة نجدها كنزًا من الأساليب المضيئة بالإيمان، والناطقة بأدق أسرار لغتنا العربية الفصحى، لغة القرآن الكريم.

وفي ظلال هذا الحديث الشريف: نتأمل ونقتبس ما وراء الكلمات من معان ومقاصد وأهداف، وما توحي به مقدمة الحديث من أثر جليل، ومقصد جميل، والحديث يفيض بهذه الظواهر الفنية والأسلوبية:

١-قول ابن عمر: "ولا ندري ما حجة الوداع"، وهو يؤكد هذا المعنى حينما قال مصورًا حال الصحابة رضي الله عنهم وهم لا يدرون ما هذه الحجة؟ والكلام ليس على عمومه، ولكن المراد هو غياب هذا الاسم عنهم، لأنه لم يكن مشهورًا لديهم: وقيل: كأنه شيء ذكره النبي ﷺ فتحدثوا به، وما فهموا أن المراد من الوداع،وداع النبي ﷺ حتى وقعت وفاته بعد ذلك بقليل: فعرفوا ذلك، وهذا من معجزات النبي ﷺ، وإخباره عن بعض الأمور الغيبية.

---

(١) المفصح المفهم لمعاني صحيح مسلم، ابن هبيرة ١٩٢.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ك ف ر).

٢-تقديم الحمد على الثناء في قوله: حتى حمد الله وأثنى عليه، وقيل: قُدِّم لفظ الجلالة للاختصاص، وقيل إن الحمد هنا مناسب للموقف، لأن المصطفى ﷺ يحمد ربه على قضائه وقدره، وعلى قرب أجله، وهو في هذا الموقف لم يجزع، ولم ييأس، ولم يتوجه بالشكوى إلى ربه أو الدعاء بطول العمر، ولكنه: أثنى على ربه، واستقبل هذا الأمر بالرضا والتسليم والبشارة، ثم بدأ يحذر أمته من فتنة المسيح الدجال: مخافة أن يرجعوا كفارًا متحاربين.

٣-لفظ المسيح يحمل في مادته اللغوية المعنى المراد منه والذي يتضمن خصائصه ووظيفته في إضلال الناس، وقيل في تفسير الاسم: لأنه يمسح معظم الأرض، أي: يقطعها في أيام معدودة، حتى يضل الناس، وقيل لأنه ممسوح من كل خير: أي مبعود ومطرود، ولذلك جاء وصف : الدجال مصورًا لوظيفته وهيئته.

٤-قوله: "فأطنب في ذكره"، أكثر دقة من قوله مثلاً: "أسهب"، لأن الإطناب محمودٌ إذا كان المقام يستدعيه أما الإسهاب، فهو غير محمود.

٥-أسلوب القصر في قوله: "ما بعث الله من نبي إلا أنذره أمته"، يؤكد صدق خبر مجيء المسيح الدجال، ولفظ "من" يدل على الاستقصاء.

٦-التأكيد والشرط في تصوير هيئة الدجال ينبه كل مؤمن إلى حتمية الحذر، وضرورة المقاومة، وعدم الضعف أمام إغراءات فتن المسيح الدجال. وهى تتعدد وتتلون، وتغرى ضعاف الإيمان بسرابها الخادع: وورد التأكيد أكثر من مرة في هذا السياق بإن وكأن في قوله: "وإنه إن يخرج فيكم، إن ربكم ليس بأعور، وإنه أي: المسيح، أعور عين اليمنى، كأن عينه عنبة طافية، وهذه الصورة التشبيهية مع التأكيد والشرط تعد مثيرات ومنبهات أسلوبية كى يتحصن المسلم بدينه أمام هذه الفتن.

٧-التكرار: ويمتزج التكرار بالتوكيد في قوله: "ألا إن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا، في شهركم هذا"، وتكرار اسم الإشارة يفسر لنا حرص رسول الله ﷺ على حرمة الدم للمسلم، وحرمة مال المسلمين، وحرمة الأماكن المقدسة، وثمرة ذلك الحرص: المحافظة على البلد الأمين،

واستقراره وأمنه بما فيه من أناس وطير وشجر وحيوان، فكلها من خلق الله، والإنسان مطالب بأن لا يظلم أخاه الإنسان، وكذلك لا يظلم الطير والنبات والحيوان، في هذا البلد الأمين، والآمن.

٨-في ختام الحديث يتوهج الاستفهام والحوار والتكرار والتحذير والنهي: حتى يظل المسلمون كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا، وهم بمنجى من فتنة المسيح الدجال: وقوله: "ويحكم أو ويلكم"، إنذار للأمة وتحذير لها.

المضامين الدعوية

أولاً: من تاريخ الدعوة: حجة الوداع.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: التحذير من فتنة الدجال.

ثالثًا: من مهام الداعية: وصف الأمر بما يتميز عن غيره.

رابعًا: من أهداف الدعوة: حفظ النفس وحفظ المال.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: النهي عن قتال المسلم.

سادسًا: من وسائل الدعوة: الخطبة.

سابعًا: من أساليب الدعوة: القصر، والتوكيد، والتنبيه، والتشبيه، والتقرير، والنداء والتكرار، والتحذير، والأمر والنهي.

أولاً- من تاريخ الدعوة: حجة الوداع:

كانت حجة الوداع في السنة العاشرة، قال ابن كثير: (ويقال لها حجة البلاغ وحجة الإسلام وحجة الوداع، لأنه ﷺ ودّع الناس فيها ولم يحج بعدها، وسميت حجة الإسلام لأنه ﷺ لم يحج من المدينة غيرها، وسميت حجة البلاغ لأنه ﷺ بلغ الناس شرع الله في الحج قولاً وفعلاً ولم يكن بقى من دعائم الإسلام وقواعده شيء إلا وقد بيّنه عليه الصلاة والسلام، فلما بيّن لهم شريعة الحج ووضحه وشرحه أنزل الله عز وجل عليه وهو واقف بعرفة ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ

دِينًا ﴾(١))(٢).

وقال النووي: (إن النبي ﷺ ودّع الناس فيها وعلمهم في خطبته فيها أمر دينهم وأوصاهم بتبليغ الشرع فيها إلى من غاب عنها)(٣)، (وكان هذا إيذانًا بإكمال الدين وإتمام النعمة وبلوغ الرسالة غايتها)(٤).

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: التحذير من فتنة الدجال:

كان النبي ﷺ كثيرًا ما يحذر أصحابه رضي الله عنهم وأمته فتنة الدجال، وذلك لخطورة فتنته وشدة أمره على من يدركه ويعاصره، وهذا واضح في قول ابن عمر رضي الله عنهما: "فأطنب في ذكره وقال: ما بعث الله من نبي إلا أنذره أمته؛ أنذره نوح والنبيون من بعده"، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((ما بُعِث نبيٌّ إلا أنذَرَ أمتَه الأعورَ الكذابَ، ألا إنه أعورُ وإنَّ ربَّكم ليسَ بأعْوَر، وإنَّ بين عينيه مكتوبٌ: كافر))(٥).

وقد وردت أحاديث كثيرة تبين أمر الدجال وتحذر من فتنته(٦)، من ذلك ما رواه النواس بن سمعان: ((ذَكَرَ رَسُولُ اللّهِ الدَّجَّالَ ذَاتَ غَدَاةٍ، فَخَفَّضَ فِيهِ وَرَفَّعَ. حتى ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ. فَلَمَّا رُحْنَا إِلَيْهِ عَرَفَ ذلك فِينَا. فَقَالَ: «مَا شَأْنُكُمْ؟» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللّهِ ذَكَرْتَ الدَّجَّالَ غَداةً فَخَفَّضْتَ فِيهِ وَرَفَّعْتَ. حتى ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ. فَقَالَ: «غَيْرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفُنِي عَلَيْكُمْ. إِنْ يَخْرُجْ، وَأَنَا فِيكُمْ، فَأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ. وَإِنَّ يَخْرُجْ، وَلَسْتُ فِيكُمْ، فَامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِهِ. وَاللّهُ خَلِيفَتِي على كُلِّ مُسْلِمٍ. إِنَّهُ شَابٌّ قَطَطٌ. عَيْنُهُ

---

(١) سورة المائدة، آية: ٣. والحديث في نزول هذه آية في يوم عرفة أخرجه البخاري ٤٥، ومسلم ٣٠١٧.

(٢) البداية والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٤٠٤/٧.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٤٩/٢/١.

(٤) تاريخ الدعوة، د. محمد إبراهيم الجيوشي ص ١٤١.

(٥) أخرجه البخاري ٧١٣١، ومسلم ٢٩٣٣.

(٦) انظر: الأحاديث في ذلك: التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ٦٥٨-٦٧٥، والبداية والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير "الفتن والملاحم" ١١٣/١٩-٢١١.

طَافِئَةٌ. كَأَنِّي أُشَبِّهُهُ بِعَبْدِ العزى بْنِ قَطَنٍ. فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ. إِنَّهُ خَارِجٌ خَلَّةً بَيْنَ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ. فَعَاثَ يَمِينًا وَعَاثَ شِمَالاً(١). يَا عِبَادَ اللّهِ فَاثْبُتُوا». قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللّهِ وَمَا لَبْثُهُ فِي الأَرْضِ؟ قَالَ: «أَرْبَعُونَ يَوْمًا. يَوْمٌ كَسَنَةٍ. وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ. وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ. وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللّهِ فذلك الْيَوْمُ الَّذِي كَسَنَةٍ، أَتَكْفِينَا فِيهِ صَلاَةُ يَوْمٍ؟ قَالَ: «لاَ. اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللّهِ وَمَا إِسْرَاعُهُ فِي الأَرْضِ؟ قَالَ: «كَالْغَيْثِ اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ. فَيَأْتِي على الْقَوْمِ فَيَدْعُوهُمْ، فَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ. فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ. وَالأَرْضَ فَتُنْبِتُ. فَتَرُوحُ عَلَيْهِم سَارِحَتُهُمْ، أَطْوَلَ مَا كَانَتْ ذُرًا، وَأَسْبَغَهُ ضُرُوعًا، وَأَمَدَّهُ خَوَاصِرَ(٢). ثُمَّ يَأْتِي الْقَوْمَ. فَيَدْعُوهُمْ فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ. فَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ. فَيُصْبِحُونَ مُمْحِلِينَ لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْوَالِهِمْ. وَيَمُرُّ بِالْخَرِبَةِ فَيَقُولُ لَهَا: أَخْرِجِي كُنُوزَكِ. فَتَتْبَعُهُ كُنُوزُهَا كَيَعَاسِيبِ النَّحْلِ(٣)....))(٤).

قال النووي: (قال القاضي عياض: هذه الأحاديث التي ذكرها مسلم وغيره في قصة الدجال حجة لمذهب أهل الحق في صحة وجوده، وأنه شخص بعينه ابتلى الله به عباده، وأقدره على أشياء من مقدورات الله تعالى: من إحياء الميت الذي يقتله، ومن ظهور زهرة الدنيا والخصب معه، وجنته وناره، ونهريه، واتباع كنوز الأرض له وأمره السماء أن تمطر فتمطر، والأرض أن تنبت فتنبت، فيقع كل ذلك بقدرة الله تعالى ومشيئته، ثم يعجزه الله تعالى بعد ذلك فلا يقدر على قتل ذلك الرجل ولا غيره ويبطل أمره ويقتله عيسى عليه السلام ويثبت الله الذين آمنوا، هذا مذهب أهل السنة وجميع المحدثين والفقهاء

---

(١) العيث: الفساد أو أشد الفساد والإسراع فيه، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٩٧.

(٢) وأسبغه: أي أطوله لكثرة اللبن، وكذا أمدّه خواصر لكثرة امتلائها من الشبع، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٩٧.

(٣) يعاسيب النحل: هي ذكور النحل وقال القاضي عياض: المراد جماعة النحل لا ذكورها خاصة، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٩٧، وإكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٤٨٤/٩.

(٤) أخرجه مسلم ٢٩٣٧.

والنظار خلافًا لمن أنكره وأبطل أمره من الخوارج والجهمية وبعض المعتزلة وخلافًا للجبائي المعتزلي وموافقيه من الجهمية وغيرهم في أنه صحيح الوجود ولكن الذي يدعي مخارف وخيالات لا حقائق لها وزعموا أنه لو كان حقًا لم يوثق بمعجزات الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم. وهذا غلط من جميعهم، لأنه لم يدع النبوة فيكون ما معه كالتصديق له وإنما يدعي الإلهية وهو في نفس دعواه مكذب لها بصورة حاله ووجود دلائل الحدوث فيه ونقص صورته وعجزه عن إزالة العور الذي في عينه وعن إزالة الشاهد بكفره المكتوب بين عينيه، ولهذه الدلائل وغيرها لا يغتر به إلا رعاع من الناس لسد الحاجة والفاقة رغبة في سد الرمق أو تقية وخوفًا من أذاه، لأن فتنته عظيمة جدًا تدهش العقول وتحير الألباب مع سرعة مروره في الأمر فلا يمكث بحيث يتأمل الضعفاء حاله ودلائل الحدوث فيه والنقص فيصدقه من صدقه في هذه الحالة ولهذا حذرت الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين من فتنته ونبهوا على نقصه ودلائل إبطاله، وأما أهل التوفيق فلا يغترون به ولا يخدعون لما معه لما ذكرناه من الدلائل المكذبة له مع ما سبق لهم من العلم بحاله، ولهذا يقول له الذي يقتله، ثم يحييه: (ما ازددت فيك إلا بصيرة)[١]، [٢].

ثالثًا- من مهام الداعية: وصف الأمر بما يتميز به عن غيره:

يقع التشابه بين كثير من الأمور في نفوس المدعوين، وهنا يأتي دور الداعية بأن يوضح الأمر بما يميزه عن غيره ويوضحه، بحيث يقع في نفوس المدعوين، واضحًا جليًا لا لبس فيه. وهذا واضح من قول النبي ﷺ: "إن ربكم ليس بأعور وإنه أعور عينه اليمنى، كأنها عنبة طافية".

قال ابن حجر: (إنما اقتصر على ذلك مع أن أدلة الحدوث في الدجال ظاهرة لكون العور أثر محسوس يدركه العالِم والعامي، ومن لا يهتدي إلى الأدلة العقلية، فإذا ادعى

---

(١) أخرجه البخاري ١٨٨٢، ومسلم ٢٩٣٨.

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٤٧٥/٩، ٤٧٦، وانظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٩٤.

الربوبية وهو ناقص الخلقة - والإله يتعالى عن النقص- علم أنه كاذب، وزاد مسلم[(١)] في رواية يونس والترمذي[(٢)] في رواية معمر: قال الزهري: (فأخبرني عمر بن ثابت الأنصاري أنه أخبره بعض أصحاب النبي ﷺ أن النبي ﷺ قال يومئذ للناس وهو يحذرهم ((تَعَلَّمُون أَنَّهُ لَنْ يَرَىٰ أَحَدٌ مِنْكُمْ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى يَمُوتَ))[(٣)]. وعند ابن ماجه[(٤)] نحو هذه الزيادة من حديث أبي أمامة، وعند البزار من حديث عبادة بن الصامت. وفيه تنبيه على أن دعواه الربوبية كذب؛ لأن رؤية الله تعالى مقيدة بالموت والدجال يدعي أنه الله ويراه الناس مع ذلك[(٥)].

وقال ابن كثير عن ملخص سيرة الدجال: (هو رجل من بني آدم خلقه الله تعالى ليكون محنة واختبارًا للناس في آخر الزمان فيضلُّ به كثيرًا ويهدي به كثيرًا، وما يضل به إلا الفاسقين)[(٦)] وقبله قال النووي: (إنه شخص ابتلى الله به عباده وأقدره على أشياء من مقدورات الله تعالى ... كل ذلك بقدرة الله تعالى ومشيئته ثم يعجزه الله تعالى بعد ذلك)[(٧)].

ويمكن أن يستأنس لما ذكر من أن من مهام الداعية توضيح الأمر بما يتميز به عن غيره، بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ﴾[(٨)] أي: (إن الذين يتعاملون بالربا قالوا: إنما البيع مثل الربا في أن كلاً منهما حلال ويؤدي

---

(١) صحيح مسلم ١٦٥، ٩٥.

(٢) سنن الترمذي ٢٢٣٥.

(٣) قال النووي: قال المازري: هذا الحديث فيه تنبيه على إثبات رؤية الله تعالى في الآخرة، وهو مذهب أهل الحق، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٩٣، والمعلم بفوائد مسلم ٤٤٥/٢.

(٤) سنن ابن ماجه ٤٠٧٧.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠٣/١٣.

(٦) البداية والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢٠٣/١٩، وانظر في صفته ٢٠٨/١٩-٢١٦.

(٧) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٩٤.

(٨) سورة البقرة، آية: ٢٧٥.

إلى زيادة المال، فأكذبهم الله وبين أنه أحل البيع وحرم الربا؛ لما في البيع والشراء من نفع للأفراد والجماعات ولما في الربا من استغلال وضياع وهلاك)(١).

رابعًا- من أهداف الدعوة: حفظ النفس وحفظ المال:

إن الشريعة جاءت بحفظ المقاصد الخمسة، منها حفظ النفس وحفظ المال، كما جاء في هذا الحديث فقد قال النبي ﷺ: "إن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا... لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض" فقد حذر النبي ﷺ من الاعتداء على الأنفس والأموال، وقد روى أبوبكرة رضي الله عنه هذا الحديث فذكر أن النبي ﷺ قال: ((أيُّ يومٍ هذا؟ فسكتنا حتى ظَنَنّا أنه سيُسَمِّيهِ سوى اسْمِه. قال: أليسَ يومَ النَّحرِ؟ قلنا: بلى. قال: فأيُّ شَهرٍ هذا؟ فسَكَتْنا حتى ظَننا أنه سيُسَمِّيه بغيرِ اسمهِ، فقال: أليسَ بذِي الحِجَّة؟ قال: فإنَّ دِماءَكمْ وأموالَكم وأعْراضَكمْ بَينَكم حَرامٌ كَحرْمَةِ يومِكم هذا، في شَهرِكمْ هذا، في بَلَدِكمْ هذا))(٢).

قال القرطبي: (سؤاله ﷺ عن الثلاثة، وسكوته بعد كل سؤال منها كان استحضارًا لفهومهم وليقبلوا عليه بكليتهم وليستشعروا عظمة ما يخبرهم عنه، ولذلك قال بعد هذا: "فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا" وهذا منه ﷺ مبالغة في بيان تحريم هذه الأشياء، وزيادة في التنفير عن الوقوع فيها، لأنهم كانوا قد اعتادوا فعلها، واعتقدوا حليتها)(٣).

قال النووي: (المراد بهذا كله بيان توكيد غلظ تحريم الأموال والدماء والأعراض والتحذير من ذلك)(٤)، وقال ابن حجر: (إن تحريم البلد والشهر واليوم كان ثابتًا في

---

(١) التفسير الميسر، إعداد نخبة من العلماء ٤٧.

(٢) أخرجه البخاري ٦٧، ومسلم ١٦٧٩.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٥/٤٧.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٠٧٥.

نفوسهم مقررًا عندهم بخلاف الأنفس والأموال والأعراض فكانوا في الجاهلية يستبيحونها فطرأ الشرعُ عليهم بأن تحريم دم المسلم وماله وعرضه أعظم من تحريم البلد والشهر واليوم)[١] ومن ثم (فإن التشريع الإسلامي يجعل من حياة الإنسان وبدنه وماله وعرضه، أشياء مقدسةً أو حرمات)[٢].

خامسًا- من موضوعات الدعوة: النهي عن قتال المسلم:

المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ولا يخذله، فضلاً عن أن يقاتله، لأن ذلك يتنافى مع الأخوة التي أثبتها الشرع ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[٣]، لذا نهى النبي ﷺ عن أن يقاتل المسلمون بعضهم بعضًا، ووصف الفاعلين لهذا بأنهم كفار، فقال: ((لا تَرجِعوا بَعدِي كُفّارًا، يَضرِبُ بَعضُكم رِقابَ بَعضٍ))، وفي هذا الوصف ترهيب ما بعده ترهيب لأن يقاتل المسلمون بعضهم بعضًا، كما قال ﷺ: ((سِبابُ المسلِم فسوقٌ وقتالُه كفرٌ))[٤].

قال ابن عبدالبر: (ومثل هذا كثير من الآثار التي وردت بلفظ التغليظ، وليست على ظاهرها عند أهل الحق والعلم؛ لأصول تدفعها أقوى منها من الكتاب والسنة المجتمع عليها والآثار الثابتة أيضًا من جهة الإسناد)[٥].

وذكر النووي عدة أقوال في تفسير قوله ﷺ: "لا ترجعوا كفارا"، منها: الرابع: (أنه فعل كفعل الكفار) أي: لا تتشبهوا بالكفار في قتل بعضكم بعضًا"[٦]، ثم قال النووي: (وأظهر الأقوال الرابع وهو اختيار القاضي عياض)[٧].

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١/١٩١.

(٢) دستور الأخلاق في القرآن، د. محمد عبدالله دراز، تعريب د. عبدالصبور شاهين ص ٢٧٠.

(٣) سورة الحجرات، آية: ١٠.

(٤) أخرجه البخاري ٤٨، ومسلم ٦٤.

(٥) التمهيد ٢٣/٣٦٤ موسوعة شروح الموطأ.

(٦) شرح السنة ١٠/٢٢٢.

(٧) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١/٢/٤٨.

ولفظ القاضي عياض: "نهاهم عن التشبيه بالكفار في حالة قتل بعضهم بعضًا ومحاربة بعضهم لبعض، وهذا أولى مما يتأول عليه الحديث"[١].

والمقصود أن المؤمن أبعد الناس عن فعل ما يشبه فعل الكفار لأن الله تعالى أكرمه بالإيمان والإسلام، وإلا فكيف يكون أثر العقيدة على سلوكه وأفعاله إن هو تشبه بهم وأتى مثل أعمالهم فرفع السيف في وجه أخيه وقاتله واعتدى على حرماته كما يفعل الكافر مع الكافر وغير الكافر؟

إن المسلم له حرمة يجب أن تصان بكل الوسائل والطرق ويمنع من الاعتداء عليها بشتى السبل الممكنة، كما أن شعار المسلمين فيما بينهم يجب أن يكون الحفاظ على هذه الحرمات وتعظيم حقها.

سادسًا- من وسائل الدعوة: الخطبة:

إن من وسائل الدعوة ذات التأثير الكبير والفعال، الخطبة، وقد استخدمها النبي ﷺ كثيرًا، كما في هذا الحديث، قال ابن عمر رضي الله عنهما: "حمد الله رسول الله ﷺ وأثنى عليه ثم ذكر المسيح الدجال فأطنب في ذكره..." قال ابن حجر: (وهذا يدل على أن هذه الخطبة كلها كانت في حجة الوداع وقد ذكر الخطبة في حجة الوداع جماعة من الصحابة لم يذكر أحد منهم قصة الدجال فيها إلا ابن عمر، بل اقتصر الجميع على حديث "إن أموالكم عليكم حرام..." الحديث)[٢]. وقال النووي: (علمهم في خطبته أمر دينهم وأوصاهم بتبليغ الشرع فيها إلى من غاب عنها)[٣].

إن الخطبة وسيلة جيدة للتبليغ، وتكون عادة لجمع من الناس قد لا يعرفهم الداعي أو يعرف بعضهم فقط، ويشترط للخطبة الناجحة أن يكون لدى الداعي معنى أو معانٍ معينة يريد بيانها ولفت الأنظار إليها، ومن المستحسن أن يكون موضوع الخطبة مما له

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ١/ ٣٢٤.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧/ ٧١٠.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٣٨.

علاقة في أحوال الناس مع ربط ذلك بمعاني العقيدة[١].

سابعًا- من أساليب الدعوة: القصر والتوكيد والتنبيه والتشبيه والتقرير والنداء والتكرار والتحذير والنهي:

أما القصر فقول النبي ﷺ "مابعث الله من نبي إلا أنذره أمته" وهذا يؤكد عظم فتنة الدجال، لذا حذّر كل نبي أمته من اتباعه، وأما التوكيد فـ"وإنه.. وإن.. وإنه.. وإن" كل هذا ليؤكد مضمون الجملة ومفهومها لدى المخاطب.

وأما التنبيه فقوله ﷺ "ألا إن الله حرم ...." لينبه على أهمية حرمة الدماء والأموال. وأما التشبيه فقوله ﷺ "كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا"، واستخدم ﷺ هذا التشبيه ليوضح هذه الحرمة، لأن حرمة اليوم والشهر كانت أثبت في أذهان السامعين[٢].

أما التقرير فقوله ﷺ: ألا هل بلغت؟ وجوابهم عليه: قالوا: نعم، وذلك (ليستشعروا عظمة ما يخبرهم عنه)[٣].

وأما النداء فقوله ﷺ: "اللهم[٤] اشهد" وقد أكد ﷺ ذلك (بإشهاد الله عليهم بأنهم شهدوا أنه قد بلغ ما أرسل إليهم به)[٥].

("اللهم اشهد ... اللهم اشهد... اللهم اشهد". وما أعظمها من سعادة!؟ سعادة رسول الله ﷺ بشبابه الذي أبلاه وعمره الذي أمضاه في سبيل نشر شريعة ربه جل جلاله، وذلك حينما ينظر فيرى حصيلة الجهد الذي قدَّم والعمر الذي بذل، أصواتًا ترتفع وتعج بتوحيد الله، وجباهًا تعنو ساجدة لدين الله وقلوبًا خفاقة تجيش بحب الله. ألا ما أسعد حبيب الله إذ ذاك بذكرى ما لقيه من ظمأ الهواجر، وشتات السفر في القفار، وعذاب

---

(١) انظر: أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان ص ٤٧٤.

(٢) انظر فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١/١٩١.

(٣) السابق ١/١٩١.

(٤) اللهم: أصله يا الله، وأبدل حرف النداء ميمًا في الآخر.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧/٧١٠.

السخرية والإيذاء، في سبيل هذا الإيمان الذي شاده فوق أرض الله!

ولا والله، ما كان ذلك شهادة تلك الآلاف المحتشدة من حولك فحسب ولكنها شهادة المسلمين في كل جيل وعصر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها تعلن بلسان حالها ومقالها: نشهد يا رسول الله أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فجزاك الله عنا خير ما جوزي نبي عن أمته)[(١)].

أما التكرار فكان بقوله ﷺ "اللهم اشهد" ثلاثًا، والتحذير كان في قوله ﷺ "ويلكم أو ويحكم"، فالويل (حلول الشر أو كلمة عذاب. والويح قيل بمعنى الويل)[(٢)].

وأما الأمر فقوله ﷺ: "انظروا".

وأما النهي فقوله ﷺ "لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض".

ولا شك أن هذه الأساليب الدعوية مفيدة في بابها، ولذا يحسن بالداعية أن يُفيد منها، مراعيًا في ذلك مناسبة هذه الأساليب للقضايا التي يتناولها الداعية، حتى ينجح في حسن العرض والبيان والإقناع وإزالة أي غموض أو لبس لدى المدعوين.

---

(١) فقه السيرة النبوية، د. محمد سعيد رمضان البوطي.

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (و ي ل).

الحديث رقم (٢٠٦)

٢٠٦- وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله ﷺ قال: ((**مَنْ ظَلَمَ قِيدَ شِبْرٍ مِنَ الأَرْضِ طُوِّقَهُ منْ سَبْعِ أَرَضِينَ**)) متفقٌ عليه[١].

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

غريب الألفاظ:

طُوِّقَهُ: خسف الله به الأرض فتصير البُقعة المغصوبة منها في عنقه كالطَّوق[٢].

الشرح الأدبي

إن الإيجاز من أدق خصائص البيان النبوي، ومن أصدق الدلائل على سمو بلاغة المصطفى ﷺ، وحين نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث النبوي ندرك أن الإيجاز في مبناه هو الطريق إلى اتساع مداه، وعمق معناه، وقد ينشأ اتساع المعنى من تعدد دلالات الكلمة الواحدة، ومن تعدد آراء العلماء في الوصول إلى المقصد، والوصول إلى مضمون الرسالة الموجهة عَبْر ذلك الخطاب الذي شيدته لغة الحديث الشريف، والحديث تشكله، جملة لغوية واحدة، وهى الجملة الشرطية ... حيث الأداة "مَنْ" وهي للعاقل، وكأن ذلك إشارة إلى أن الذي أكرمه الله بنعمة العقل حري به أن ينأى عن الوقوع في دائرة الظلم المظلمة، وجملة الشرط هي "ظلم قيد شبر من الأرض"، وهي ترشد وتحذر من الاستهانة بأي سلوك ظالم مهما صغر حتى لو كان قدر شبر من الأرض، وكلمة "قيد" معناها: قَدْر، ولكن المصطفى ﷺ عَدَل عن لفظ "قدر" واختار لفظ "قيد" حتى لا يلتبس لفظ، قدر في دلالته هنا بدلالاته في سياقات أخرى، مثل الشرف والعظم، وغير ذلك، أما "قيد" فهي تعطي دلالة: القيد، والطوق، والعقاب،

(١) أخرجه البخاري (٢٤٥٣)، ومسلم (١٦١٢/١٤٢) ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه (٢٧٨١).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ط و ق).

ويمكن أن يشير هذا اللفظ إلى القود، وهو القصاص، من ذلك الظالم "والأرض" اختيار يوحي بأن الظلم محرم في أى مكان، وفي أي زمان، من أي جنس وأي لون، وأي مذهب: فالأرض لا تكون إلا بما يعمرها من الخلق في تحركاتهم الحياتية المتدافعة.

ويأتي جواب الشرط: مصورًا مصير هذا الظالم تصويرًا دقيقًا عميقًا من خلال المادة اللغوية للفعل "طوق" ومن خلال بناء هذا الفعل للمجهول: لأن الله سبحانه هو الذي يلحق به ذلك العقاب، فمصدر العقاب معلوم، ولا يظن أن لهذا العقاب مصدرًا آخر، وضمير الغائب المتصل بالفعل: يفصح عن حتمية ذلك العقاب: فلم يفصل بين المعاقب: وفعل العقاب بأي فاصل: فتأمل هذه الدقة اللغوية، في هذا الكلام الجامع.

وهذه الدلالات المتعددة كلها صحيحة، وهي تنبع من الثراء اللغوي، والاتساع الدلالي في قوله: "طوقه من سبع أرضين"، فالألفاظ هنا لها ظلال تموج بالمعاني المشرقات، ولها ثمار تعطى أكلها لكل من تفتح قلبه لهذي الآيات البينات، ويقول العلامة: أحمد محمد شاكر: في القرآن الكريم -وفي الحديث النبوي الشريف- فيهما وحدهما تبلغ الفكرة في نفسها، ثم بتعبيرها وألفاظها، ثم بشمول معانيها لجميع الحقائق الواشجة بها ثم بتنسمها في ألفاظها وكلماتها نسمة الروَّح العطِر في جو السَّحر، ثم فوق ذلك البساطة واللين والتقارب والتعاطف بين هذه المعاني كلها: يبلغ كل هذا مبلغًا يكون منه ما هو كنسيم الجنة في طيبه ونعمته، ويكون منه ما هو كحدِّ المواسي في علائق القلوب، ويكون منه ما هو كالنار تستعر وتتلذَّع، ويكون منه ما ينتظم البنيان الإنساني البليغ المتفهم فيهزه هز الزلزلة أعصاب الأرض، وبهذا كان القرآن معجزًا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وبمثله كان حديث الرسول ﷺ: هو ذروة البلاغة البشرية التي تتقطع دونها أعناق الرجال"[1].

---

(١) من مقال في مجلة المقتطف: عدد يوليو سنة ١٩٣٤: للتعريف بكتاب مفتاح كنوز السنة، للمحدث: أحمد محمد شاكر.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم الغصب، وهو: الاستيلاء قهرًا وظلمًا على مال الغير عقارًا كان أو منقولاً وحرمانه منه، والمال أحد الكليات الخمس التي اهتم الشرع الشريف بحفظها وحمايتها من أي اعتداء أو الاستيلاء عليها بدون وجه حق.

وقد اتفق الفقهاء[1] على أن الغصب حرام لما فيه من الاعتداء على مال الغير الذي تكفل الشرع بحفظه، ويجب على الغاصب رده متى كان باقيًا على حالته، ومتى تلف المغصوب بأي سبب فإن الغاصب يكون ضامنًا له.

قال ابن حجر[2]: وفي الحديث تحريم الظلم والغصب وتغليظ عقوبته، وإمكان غصب الأرض، وأنه من الكبائر.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الترهيب.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: التحذير من الظلم.

ثالثًا: من مهام الداعي: بيان عواقب الأمور.

رابعًا: من أهداف الدعوة: الحفاظ على المال.

---

(١) انظر في ذلك: بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ١٤٣/٧، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ٢٢٢/٥، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٢٧٣/٥، وحاشية الدسوقي على الشرح الكبير، وهو مطبوع مع الشرح الكبير للدردير، محمد بن عرفة الدسوقي ٤٤٢/٣، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٣٣٦/٢، وإحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ابن دقيق العيد ١٥٩/٢، والغرر البهية في شرح البهجة الوردية، القاضي أبو يحيى الأنصاري ٢٤٣/٣، والزواجر عن اقتراف الكبائر ٤٣٤/١، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٢٩٦/٢، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٧٦/٤، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ١٤١/٥، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠٥/٥.

(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠٥/٥.

أولاً- من أساليب الدعوة: الترهيب:

اشتمل هذا الحديث على أسلوب الترهيب، حيث رهّب النبي ﷺ من الظلم، وبيّن عاقبته، فقال: "من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين" والمقصود بالترهيب: كل ما يخيف ويحذر المدعو من عدم الاستجابة أو رفض الحق أو عدم الثبات عليه بعد قبوله، لأن بعض النفوس لا تُساس إلا من خلال الترهيب الذي يكون باعثًا على البعد عن المعاصي والحذر منها، مما يدل دلالة قاطعة على أهمية أسلوب الترهيب في الدعوة إلى الله تعالى وعدم إهماله من قبل الداعي المسلم(١).

إن استخدام أسلوب الترهيب في الدعوة -مع الاقتصاد فيه- له من الفوائد الكثيرة التي تعود بالأثر الإيجابي على الدعوة والمجتمع، ومنها:

-إن الترهيب يجعل العصاة والمستهترين يقفون على حقيقة ما لهم في الآخرة.

-يزود المؤمن بما يدفع من إغواء الشياطين فيقلع عن المعاصي.

-يعجل بتوبة التائبين حتى لا يدركهم الموت وهم عصاة.

-الترهيب يورث الخوف من عذاب الله عز وجل، ويولد الرهبة حتى تصير طبعًا في الإنسان توصله إلى تقوى الله عز وجل(٢).

-يبين الآثار المترتبة على بعض الجرائم في الدنيا فيمنع من وقوعها وذلك كالحدود والتعزيرات.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: التحذير من الظلم:

لقد حذر النبي ﷺ من الظلم في أحاديث كثيرة -ومنها هذا الحديث الذي معنا- حتى ولو كان شيئًا بسيطًا، فقال ﷺ: (من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين)، والظلم من الأعمال السيئة التي جاء التصريح في النهي عنها وبيان عقاب الله

---

(١) انظر: أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان ص ٤٣٧.

(٢) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن ملوح ، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرون، ٦/٢١٩٥.

عليها، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾(١)، فتأخير العذاب ليس رضا من الله بأفعالهم بل هي سنة الله في إمهال العصاة(٢)، وقال: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾(٣).

أي: ليس لهم قريب منهم ينفعهم ولا شفيع يشفع لهم(٤)، وصرح الله بتحريم الظلم فعن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما روي عن الله تبارك وتعالى أنه قال: ((يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي. وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا. فَلاَ تَظَالَمُوا... الحديث))(٥)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((اتَّقُوا الظُّلْمَ. فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ... الحديث))(٦).

فإن العدل سبب لبقاء الأمم وسؤددها، والظلم سبب لفنائها وانهيارها، قال ابن تيمية: (ينصر الله الدولة العادلة، وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة ولو كانت مؤمنة)(٧) فإذا ساد العدل في المجتمع كان له أعظم الأثر في كافة نواحي الحياة: في القضاء وفي الحكم وفي مختلف النواحي الاجتماعي بحيث تتاح الفرص المتساوية لأبنائه في طرق الكسب المادي، وفي الوضع المعنوي فلا يهضم حق فرد أو فئة فيه، كل يحصل على حقه دون زيادة أو نقصان(٨).

وأرشد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى التحلل من الظلم إن وقع فيه إنسان، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((من كانت عندَه مَظلمةٌ لأخيهِ فلْيَتحللهُ منها، فإنه ليس ثمَّ دينارٌ ولا درهم، من قبل أن يُؤخذ لأخيه من حسناتِهِ، فإن لم يكن له حسَنَاتٌ أُخِذَ من

---

(١) سورة إبراهيم، آية: ٤٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٣٧٦/٩/٥.

(٣) سورة غافر، آية: ١٨.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١٣٧/٧.

(٥) أخرجه مسلم ٢٥٧٧.

(٦) أخرجه البخاري ٢٤٤٧، ومسلم ٢٥٧٨.

(٧) الحسبة، ابن تيمية ص ١٧٠.

(٨) انظر: الوجيزة في الأخلاق الإسلامية، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني ص ٣٦٨.

سيِّئاتِ أخيهِ فطُرِحَتْ عليه))[١]، لذا ينبغي على الداعي والمدعو اجتناب الظلم اجتنابًا لموارد التهلكة، وتحذير المدعوين من الوقوع فيه.

ثالثًا- من مهام الداعي: بيان عواقب الأمور:

من المهام الأساسية التي يضطلع بها الداعية بيان عواقب الأمور، وتحذير المدعوين من مغبة تلك العواقب، وفي الحديث بيّن ﷺ عاقبة الظلم ترهيبًا منه وترغيبًا وإرشادًا إلى اتخاذ العدل طريقًا ومنهاجًا، فقال: ((مَن ظَلَمَ قيدَ شِبرٍ منَ الأرضِ طُوِّقَهُ مِن سبعِ أرَضينَ))، وكأنه ذكر الشبر إشارة إلى استواء القليل والكثير في الوعيد[٢].

قال الخطابي: (قوله: "طُوِّقَه" له وجهان: أحدهما أن معناه أنه يكلف نقل ما ظلم منها في القيامة إلى المحشر ويكون كالطوق في عنقه، لا أنه طوق حقيقة، الثاني معناه أنه يعاقب بالخسف إلى سبع أرضين أي فتكون كل أرض في تلك الحالة طوقا في عنقه)، وقيل: معناه كالأول، لكن بعد أن ينقل جميعه يجعل كله في عنقه طوقا ويعظم قدر عنقه حتى يسع ذلك، وقيل: يكلف أن يجعله له طوقًا ولا يستطيع ذلك فيعذب بذلك، وقيل: إن معنى التطويق: تطويق الإثم والمراد به أن الظلم المذكور لازم له في عنقه لزوم الإثم[٣]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا﴾[٤].

وفائدة الإخبار بالعواقب (أن يتنبه الإنسان فيأخذ في الأسباب التي تخلص من تلك العواقب والأهوال، ويبادر إلى التوبة من التبعات ويلجأ إلى الكريم الوهاب في عونه على أسباب السلامة، ويتضرع إليه في سلامته من دار الهوان، وإدخاله دار الكرامة بمنه وكرمه)[٥].

---

(١) أخرجه البخاري ٦٥٣٤.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٢٥/٥.

(٣) انظر: المرجع السابق ١٢٥/٥.

(٤) سورة الإسراء، آية: ١٣.

(٥) انظر: المرجع السابق ٤٠٢/١١.

رابعًا- من أهداف الدعوة: الحفاظ على المال:

من المقاصد الرئيسة لشريعة الإسلام أنها تحفظ للإنسان دينه ونفسه وعرضه، وعقله وماله، وفي الحديث الذي معنا إشارة إلى حفظ مال الإنسان وحرمة أخذه بغير حق وبيان عاقبة ذلك، فقال ﷺ: "من ظلم قيد شبر من الأرض طوق من سبع أرضين" وفي الحديث تحريم للظلم والغصب وأخذ مال الغير بغير حق وتغليظ عقوبته[(١)].

ومن ثم فقد حرم الإسلام كل ما فيه ضرر بأموال الغير فحرم الربا قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[(٢)]، حرم تطفيف المكاييل والتلاعب بالموازين: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾[(٣)]، حرم السرقة وحد لها حدًا رادعًا من الاعتداء على أموال الغير، ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[(٤)]، حرم أكل أموال الناس بالباطل، قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾[(٥)].

يتناول الباطل الغصب والنهب والتدليس والغش والرشوة وغير ذلك، وذلك كله مناف للخلق الكريم وجالب للضرر بالآخرين وسبب من أسباب اضطراب الأمن العام، فضلاً عن أنه كسب من غير جهد[(٦)]، وعن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: ((مَنِ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِىءٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ، فَقَدْ أَوْجَبَ الله لَهُ النَّارَ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ)) فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: وَإِنْ كَانَ شَيْئًا يَسِيرا، يَا رَسُولَ اللّهِ؟ قَالَ: ((وَإِنْ قَضِيبا مِنْ أَرَاكٍ))[(٧)].

---

(١) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٢٦/٥، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٠٢٢.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٧٨.

(٣) سورة المطففين، الآيات: ١ - ٣.

(٤) سورة المائدة، آية: ٣٨.

(٥) سورة البقرة، آية: ١٨٨.

(٦) انظر: عناصر القوة في الإسلام، سيد سابق ص ١٠٨ - ١١٠.

(٧) أخرجه مسلم ١٣٧.

فأكل أموال الناس بالباطل حرمه الإسلام تحريمًا قاطعًا، حتى وإن استولى عليها بطريقة لا يتمكن المجتمع بتوجيه أصابع الاتهام إليه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1].

والمعنى: لا يأكل بعضكم مال بعض لأن ذلك جناية على نفس الآكل وجناية على الأمة التي هو أحد أعضائها، لا بد أن يصيبهم سهم من كل جناية تقع عليها، ولذا اختار الله لفظ "أموالكم" للإشعار بوحدة الأمة وتكافلها، فمال البعض هو مال الكل، لأن المال عصب الأمة، فكان لزامًا على الجميع أن يتكاتفوا لصيانته والمحافظة عليه.

ومعنى قوله تعالى: "وتدلوا بها إلى الحكام" أي ولا تلقوا بها إلى الحكام رشوة لهم، فالاستعانة بالحكام على أكل المال بالباطل محرم؛ لأن حكم الحكام لا يغير الحق ولا يحله للمحكوم إذا كان محرمًا عليه.

وإذا كان الله قد حرم آكل أموال الناس عامة، نراه في موضع آخر يشدد هذا المنع في فئات خاصة منها:

-تحريم أكل أموال اليتامى ظلمًا، والوعيد لمن يفعل ذلك بالعقوبة في الآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[2].

-وذم الله رجال الدين الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ﴾[3].

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٨٨.

(٢) سورة النساء، آية: ١٠.

(٣) سورة التوبة، آية: ٣٤.

فهذه الآية حذرت من الأحبار والرهبان الذين يأخذون أموال الناس بغير حق، ويقاس على ذلك ما يبذله كثير من الناس لمن يعتقدون أنه عابد قانت لله ليدعو لهم عند الله في قضاء حوائجهم، فالدعاء مطلوب دون أخذ الأموال.

-ومنها ما يأخذه سدنة قبور الأولياء من الهدايا والنذور التي يحملها إلى تلك المواضع من لا يعقلون معنى التوحيد المجرد، كل هذا مما حاربه الإسلام[1].

(١) انظر: روح الدين الإسلامي، عفيف عبدالفتاح طبَّارة ص ٣٣٥، ٣٣٦.

الحديث رقم (٢٠٧)

٢٠٧- وعن أَبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول اللّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللَّه لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ فَإِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾**، متفق عليه[١].

ترجمة الراوي:

أبو موسى الأشعري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨).

غريب الألفاظ:

يُملي للظالم: الإملاءُ: يمهله ويؤخِّره ويُطيل عمره[٢].

لم يُفلته: أي لم ينفَلت منه. ويجوز أن يكون بمعنى: لم يُفلِته منه أحد. أي: لم يخلّصه[٣].

الشرح الأدبي

إن القانون الإلهي هو ميزان العدالة بين الناس، والناس مجزيون بأعمالهم: إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، وهذا العدل الإلهي لا يترك الظالم سادرًا في غيِّه، ولا التقى يئن تحت وطأة الظلم، وجبروت الظالمين، وإن هذا الحديث الشريف يؤكد هذا المنهج الرباني الذي لا تستقيم حركة الحياة إلا في ظلاله الوضيئة، وتعاليمه الهادية العطرة المضيئة، فالظالم تقوده أوهامه إلى استمراء الظلم والتوغل في بواديه، حين يرى نفسه آمنًا في سربه وفي بدنه وذويه.

وحين يَصُمُّ أذنيه عن أن تستمع لأنين المظلومين، ويغلق عينية كى لا تشاهد عذابات المحرومين، وكأن الحقوق التي سلبها غدت من ممتلكاته الموروثة، ومن نفائسه ومدخراته المكنونة.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٦١/٢٥٨٣) ولفظهما سواء.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (م هـ ل).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ف ل ت).

ولكن هيهات، هيهات، فإن ربك لبالمرصاد ، ولا يظلم ربك أحدًا ، وفي هذا الحديث الشريف يتحدد مصير هؤلاء الظالمين السادرين في غيِّهم، والغارقين في ضلالاتهم، ولم يفيقوا من سباتهم، ولم يرتدعوا ، ولم يتخلصوا من غواية طريقهم الآثم، ولم يبصروا نور الهداية في آفاق أحلامهم.

والحديث في بنائه اللغوي يتكون من جملتين: إحداهما: إخبارية اسمية مؤكدة.. تحمل صدق الخبر، وتأكيده ... مع الإشعار بالقسم إيذانا بجدية الأمر، وخطورة المصير، وإنذارًا بأنه لا طريق للعودة يتلمسه الظالمون، بعد أن أمهلهم الله، وأفسح لهم طريق التوبة والنجاة، وتتمثل هذه الرؤى في قول رسول الله ﷺ: "إن الله يملى للظالم"، وفي رواية "ليملى" أي يمهل الظالم، ولا يعاجله بالعقوبة الوقتية حتى يثوب إلى رشده، ويعود إلى السلوك السوي، والطريق المستقيم، والتعبير بالفعل المضارع يملى، يوحى باستمرار الظالم في سلوكه، وإمهال العزيز الجبار له، ولكنه لم يستيقظ من غفوته، ولم يرجع عن سطوته، ولم يَحْتَم بحول الله وقوته، فكان مصيره كما حددته الجملة الثانية من الحديث وهى، "فإذا أخذه لم يفلته"، وأداة الشرط "إذا" تفيد التحقق، فجواب الشرط محقق لتحقق فعل الشرط، وفعل الشرط "أَخَذَهُ"، يفيد العقاب على الذنب: ولكنه عقاب أليم: لأن الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[١]، والآخذ هو الله: وهو على كل شيء قدير، وجواب الشرط يتجلى في قوله: "لم يفلته"، أي: لا يدفع عنه الهلاك أبدًا، وقيل إن النفي في جواب الشرط، للتأبيد إن كان هذا الظالم كافرًا.

والآية الكريمة تشير إلى أن الظلم قد يكون سلوكًا جماعيًا، وقد يكون منظمًا بدافع التخطيط لنهب الأموال، أو الأعراض، أو الأنفس، أو الثمرات: ويقول الله عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[٢]، وقد

(١) سورة هود، آية: ١٠٢.

(٢) سورة هود، آية: ١٠٢.

قص علينا القرآن أن الله عاقب بعض خلقه الذين عَتَوْا عن أمره بسبب الظلم، وأكلوا أموال الناس بالباطل: فقال: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[1]، وأكل مال اليتيم باب من أبواب الظلم، وهو يقود إلى أبواب جهنم، حيث توعدهم الله بذلك، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[2].

ويقول رسول الله ﷺ ترغيبًا في قطع الطريق على الظلم والظالمين، وفتحًا للطريق أمام الراغبين في العودة إلى واحة النجاة، ورياض الحياة، "كل المسلم على المسلم حرام دمه، وماله، وعرضه"[3]، وقال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[4].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: الترهيب.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: تحذير الظالمين من مكر الله.

رابعًا: من مهام الداعي: تبصرة المدعوين بعواقب الأمور.

خامسًا: من آداب الداعي: الاستشهاد بنصوص القرآن والسنة.

أولاً- من أساليب الدعوة: التوكيد:

استعمل النبي ﷺ أسلوب التوكيد في الحديث لتوكيد حقيقة كلامه فقال: (إن الله ليملي للظالم)، وتأكيد الداعي لكلامه يأخذ منه الداعي لنفسه ولأتباعه

---

(١) سورة النساء، الآيتان: ١٦٠-١٦١.

(٢) سورة النساء، آية: ١٠.

(٣) أخرجه مسلم، ٢٥٦٤.

(٤) سورة فصلت، آية: ٤٦.

ولأعدائه، أما لنفسه فإنه يداوم على الإيمان والعمل ويوصي بالحق ، ولأتباعه يدلهم على طرق الخير والتمسك بها ولأعدائه يعلم أنهم من الضالين الهالكين ويحذرهم مما هم فيه[١].

وقد استخدم القرآن الكريم التوكيد كثيرًا في تقريره لكثير من القضايا وعرضها على الناس، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾[٣].

ثانيًا- من أساليب الدعوة: الترهيب:

جاء أسلوب الترهيب واضحًا في الحديث، حيث رهّب الظالم من مكر الله وأن الله إذا أخذ ظالمًا بعقوبة لم يفلته، فقال ﷺ: (إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته) والترهيب من أهم الأساليب الدعوية، وأن الرغبة والرهبة إذا اجتمعتا في قلب إنسان وصل إلى النجاة، قال تعالى في وصف المؤمنين: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[٤]، أي: "يسارعون في عمل القربات وفعل الطاعات ويدعوننا رغبًا فيما عندنا ورهبًا مما عندنا"[٥]، والترهيب هو التخويف والتوعد والمقصود به في الشرع كل ما يخيف ويحذر المدعو من عدم الاستجابة للحق أو عدم الثبات عليه، والترهيب أنسب ما يكون مع أولئك الذين يلهثون

---

(١) انظر: الدعوة الإسلامية "أصولها ووسائلها"، د. أحمد أحمد غلوش ص ٣٣٦.

(٢) سورة الأنعام، آية: ١٩.

(٣) سورة النحل، آية: ٥١.

(٤) سورة الأنبياء، آية: ٩٠.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٥/٣٧٠.

وراء الشهوات ويجرون وراء المادة ويشغفون بالمنكر، فيقرعهم الترهيب ويوقظهم التخويف من عواقب ما هم فيه[١].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: تحذير الظالمين من مكر الله:

جاء التحذير من مكر الله في الحديث، لأنه لا يأمن مكر الله تعالى إلا من غفل عن الحقيقة وأورد نفسه موارد التهكلة والخسران، فإن أَخْذ الله شديد وعَذابه أليم، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[٢]، أي عقوبته موجعة غليظة[٣]، فعلى الإنسان الظالم ألا يغتر بنفسه، ولا بإملاء الله له، فإن ذلك مصيبة فوق مصيبته، لأن الإنسان إذا عوقب بالظلم عاجلاً فربما يتذكر ويتعظ ويدع الظلم، لكن إذا أملى له واكتسب آثامًا أو ازداد ظلمًا ازدادت عقوبته[٤].

وقد جاء الحديث مبينًا أن ترك الظالم بدون عقوبة ليس إهمالاً ولا نسيانًا وإنما إملاء وإمهالاً فقال ﷺ: "إن الله ليملي للظالم فإذا أخذه لم يفلته...".

قال القاضي عياض: (أي أن الله يمهل للظالم ويؤخر ويطيل له المدة، "فإذا أخذه لم يفلته" أي: لم يطلقه ولم ينفلت منه، وقيل يكون معناه: أي لم يخلصه أحد منه.

وقد حذر الله من أن يُؤمن مكره، قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾[٥]، أي يأتيهم عذابنا ونكالنا ليلاً وهم نائمون ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾[٦]، أي في حال شغلهم وغفلتهم ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا

---

(١) انظر: الدعوة إلى الله "الرسالة، الوسيلة، الهدف"، د. توفيق الواعي ص ١٩٩ - ٢٠٠.

(٢) سورة هود، آية: ١٠٢.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٩٦/٩/٥، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٣٤٦.

(٤) شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين ٢٤/٢ - ٢٥.

(٥) سورة الأعراف، آية: ٩٧.

(٦) سورة الأعراف، آية: ٩٨.

يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾(١)، ولهذا قال الحسن البصري: (المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وجل، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن)(٢).

فإن العبد المؤمن لا ينبغي له أن يكون آمنًا على ما معه من الإيمان، بل لا يزال خائفًا وجلاً، أن يبتلى ببلية، تسلب ما معه من الإيمان، وأن يعمل ويسعى في كل سبب يخلصه من الشر عند وقوع الفتن، فإن العبد -ولو بلغت به الحال ما بلغت- فليس على يقين من السلامة.

رابعًا- من مهام الداعي: تبصرة المدعوين بعواقب الأمور:

إن الداعي بالنسبة للمدعوين، كالراعي لرعيته والأب لأولاده لا يرى خيرًا إلا دلهم عليه ولا شرًا إلا حذرهم منه، ويبين لهم عاقبة كليهما؛ ولذا نجد الرسول ﷺ يبين لنا هذا المنهج الذي نسير عليه فيما يتعلق باجتناب الظلم وعاقبة الظالم التي يكون فيها هلاكه ونهايته الأليمة، وقدأمر الله نبيه بإنذار الظالمين، قال تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾(٣)، ونهانا الله عز وجل عن مجرد الميل والركون إلى الظالمين ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾(٤)، قال ابن عباس رضي الله عنهما: "ولا تميلوا إلى الذين ظلموا ولا تستعينوا بهم فتكونوا كأنكم قد رضيتم بباقي صنيعهم"(٥).

---

(١) سورة الأعراف، آية: ٩٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣/١٠٠.

(٣) سورة إبراهيم، آية: ٤٤.

(٤) سورة هود. آية: ١١٣.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٤/٣٥٤.

خامسًا- من واجبات الداعية: الاستشهاد بنصوص القرآن والسنة:

إن مما يجب على الداعية الالتزام به في معالجته لموضوعات الدعوة، الاستشهاد بنصوص القرآن والسنة، لأن ذلك مما يوثق كلامه ويكسبه نوعًا من المشروعية نظرًا لما يلتمسه من الشواهد من القرآن والسنة، وفي هذا الحديث الذي معنا يستشهد النبي ﷺ على كلامه بآية من كتاب الله وهي قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[1]، فالاستدلال والإثبات وتأييد الكلام بالدليل هو عمود الخطاب وقطبه[2]، وأعلى الأدلة وأعظمها وأولاها بالتقديم نصوص القرآن الكريم، فالقرآن الكريم أعظم سلاح يستعمله الدعاة إلى الله سبحانه في دعوتهم للناس والتأثير فيهم[3].

إن الاستشهاد بالنصوص الشرعية له وقع كبير في نفوس المدعوين لا سيما إذا كانوا مسلمين، لذا لا بد للداعية أن يعيش مع القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ليأخذ منهما زادًا لقلبه ويقتبس منهما نورًا لعقله، ويستمد منهما ريًا لروحه، ثم يمد الآخرين بعد ذلك من فيض هذا الري وذلك النور، ومما ينبغي أن يلفت النظر إليه في هذا المجال حسن الاستشهاد بنصوص القرآن والسنة، فإن الداعية إذا أحسن الاستدلال بالنص ووضعه في موضعه أزاح كل شبهة وقطع كل تعلة وأخرس كل معارض، فلا دليل بعد القرآن[4]، ولا كلام لبشر بعد رسول الله ﷺ.

---

(١) سورة هود، آية: ١٠٢.

(٢) انظر: الخطابة "أصولها، تاريخها في أزهى عصورها عند العرب"، الشيخ محمد أبو زهرة ص ١٠٥.

(٣) انظر: الدعوة إلى الله بالقرآن الكريم، د. خالد القريشي، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، عدد ٣١، رجب ١٤٢١هـ ص ٢٧٣-٢٧٨.

(٤) ثقافة الداعية، د. يوسف القرضاوي ص ٢١، ٣٠.

الحديث رقم (٢٠٨)

٢٠٨- وعن مُعاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بعثَنِي رسولُ اللّه ﷺ فقال: «إنَّكَ تَأْتِي قوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَاب، فادْعُهُمْ إلَى شَهَادة أَنْ لا إلَهَ إلاَّ اللَّه، وأنِّي رسول اللَّه فإنْ هُمْ أطاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمهُمْ أنَّ اللَّه قَدِ[1] افْترضَ عليْهم خَمْسَ صَلَوَاتٍ في كُلِّ يومٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذلكَ، فَأَعلِمْهُمْ أنَّ اللَّه قَدِ افْتَرَضَ عَلَيهمْ صدَقَةً تُؤْخذُ مِنْ أَغنيائِهِمْ فتُرَدُّ عَلَى[2] فُقَرائهم، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذلكَ، فَإيَّاكَ وكَرائِمَ أمْوالِهم، واتَّقِ دعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْس بينها وبيْنَ اللَّه حِجَابٌ» متفقٌ عليه[3].

ترجمة الراوي:

معاذ بن جبل: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٦١).

غريب الألفاظ:

كرائم أموالهم: أي نفائسها[4].

الشرح الأدبي

هذه وصية من أبلغ الوصايا في بيان المنهج الصحيح في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، ومعاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بعثه رسول الله ﷺ، أميرًا على اليمن، وأوصاه بهذه التعاليم الواضحة حيث المنهج الصحيح الذي يتدرج في إقناع الناس، واستمالة قلوبهم، ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف: وأول مظهر من مظاهر الجمال في هذا البيان النبوي أنه يبدأ بخطاب معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: في صيغة التأكيد: "إنك"، لتحديد المسؤولية، وعدم التفريط فيها، ومع أن الحدث مستقبلي فإن الفعل "تأتي"، لم يقترن بما يدل على التسويف: السين أو

---

(١) (قد) لا توجد عند مسلم.

(٢) لفظ مسلم: (في) والمثبت لفظ الحميدي في جمعه (١/٣٩٨، رقم ٦٤٠).

(٣) أخرجه البخاري (١٤٩٦)، ومسلم (١٩/٢٩) واللفظ له. وسيكرره المؤلف برقم (١٠٧٩) وبرقم ١٠٧٩.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ك ر م).

سوف، للإشعار بضرورة الإسراع في القيام بهذه المهمة، وأنها ليست من الأمور المؤجلة أو المسوَّفة، ولنتساءل: لماذا نكر كلمة "قومًا"، ولماذا: لم يحدد هؤلاء القوم: وهم معروفون بأنهم أهل اليمن؟ إن عدم التحديد هنا عن طريق أدوات التعريف أو تعيين هؤلاء القوم للإشعار بأن معالم هذا المنهج ثابتة لكل قوم يُدْعَوْن إلى الإسلام في كل مكان، وحتى لا يقع في الوهم، أن هذه التعاليم خاصة بأهل اليمن، وخصص القوم بأنهم من أهل الكتاب: حتى يستعد معاذ بن جبل ﵁ لمحاورتهم وإقناعهم: لأنهم أهل علم سابق، وإذا دعوا بالحكمة والموعظة الحسنة فلن يعاندوا مثل المشركين.

وفي قوله ﷺ: "فادعهم" إيجاز بالحذف، والإيجاز هنا مناسب للمقام، لأن المقام لا يحتاج إلى تفصيل والمهم هو: التبليغ والتوصيل، والتقدير: فإذا أتيتهم فادعهم؛ وقد رُتِّبت القواعد التي سيبلغها إلى هؤلاء القوم لبيان الأهم فالأهم، فالمسلم لابد أن يبدأ بأول الواجبات، وهو التلفظ بكلمة الشهادة مُصَدِّقًا بها، فالشهادة ركن، وفرض على الجميع تصديقًا بالجنان، وإقرارًا باللسان، وهي أسس الإيمان، والصلاة لا تسقط عن الإنسان إلا إذا كان مجنونًا، ويؤمر بها وهو صبي ابن سبع سنين، ويضرب على تركها وهو ابن عشر سنين، أما الزكاة فلا تجب إلا على من يملك النصاب، فالذين يؤدون الزكاة أقل بكثير من المصلين، وقد يتساءل سائل: لماذا اقتصر الحديث على هذه الأركان الثلاثة، ولم يشر إلى الصوم أو الحج: وهما قد شرعا في ذلك الوقت؟ قال بعض العلماء الحكمة في ذلك: أن الأركان الخمسة منها ما هو اعتقادي وهو الشهادة، وبدني وهو الصلاة، ومالي وهو الزكاة، فاقتصر في الدعاء عليها ليفرع الركنين الآخرين عليها، فإن الصوم بدني محض كالصلاة، والحج بدني مالي، يجمع في الشبه بين الصلاة والزكاة[1].

وقيل إنه من باب التدرج في الدعوة، واتباعًا لسنة التدرج في دعوة الرسول ﷺ حيث أمر بإعلان التوحيد أولاً ثم الصلاة ثم الزكاة.

---

(١) انظر: دليل الفالحين، ابن علان ١/ ٤٤٧.

وتتوالى بعد ذلك وصايا رسول الله ﷺ لمعاذ رضي الله عنه في صيغة: "الشرط والجواب"، وفي تدرج منطقي، وتسلسل إقناعي وجاءت أداة الشرط "إن" ، في كل الجمل الثلاثة: وهذه الأداة بدلالتها غير اليقينية تفصح عن طبيعة القوم، وتكشف عن استجابة البعض، ورفض البعض، وهذا هو الواقع الذي يكون عليه الناس، فمنهم من آمن ومنهم من كفر، فانظر السر الكامن وراء اختيار الحرف، وليس الكلمة أو الجملة، وفي الجملة الثانية تجيء كلمة "هم" ضمير الغائب العائد على هؤلاء القوم، ومع أنه لم يذكر في الجملة الأولى: للإيحاء بوجودهم، وأيضًا لتأكيد أنهم أطاعوا: لأن الكلام يتضمن إيجازًا بالحذف: والتقدير، فإن أطاعوا -هم- أطاعوا، والصدقة هنا: المراد بها الزكاة، وسميت صدقة لأنها تدل على صدق إيمان باذلها؛ والتعبير بالفعلين: ترد وتُؤْخَذ، يرشد إلى وجوب الأخذ من الأغنياء، وإعطاء الفقراء حسب القواعد الشرعية، ولا يترك الأمر اختيارًا، وأسلوب التحذير في قوله: "فإياك وكرائم أموالهم"، ينبه إلى عدم أخذ أي مال زائد عن النصاب من نفائس أموالهم.

وأسلوب الأمر في اتقاء دعوة المظلوم، فيه تحذير للولاة وللحكام بعدم الجور على الأغنياء مع الحرص على الفقراء.

فقه الحديث

قال النووي: (في هذا الحديث:

١-قبول خبر الواحد ووجوب العمل به.

٢-وفيه أن الوتر ليس بواجب، لأن بعث معاذ إلى اليمن كان قبل وفاة النبي ﷺ بقليل بعد الأمر بالوتر والعمل به.

٣-وفيه من السنة أن الكفار يدعون إلى التوحيد قبل القتال.

٤-وفيه أنه لا يحكم بإسلام أحد إلا بالنطق بالشهادتين. وهذا مذهب أهل السنة.

٥-وفيه أن الصلوات تجب في كل يوم وليلة.

٦-وفيه بيان عظم تحريم الظلم وأن الإمام ينبغي أن يعظ ولاته ويأمرهم بتقوى الله تعالى ويبالغ في نهيهم عن الظلم ويعرفهم قبح عاقبته.

٧-وفيه أنه يحرم على الساعي أخذ كرائم المال في أداء الزكاة، بل يأخذ الوسط ويحرم على رب المال إخراج شرّ المال.

٨- وفيه أن الزكاة لا تدفع إلى كافر ولا تدفع أيضًا إلى غني من نصيب الفقراء.

٩- واستدل به الخطابي وسائر أصحابنا على أن الزكاة لا يجوز نقلها عن بلد المال لقوله ﷺ "فترد في فقرائهم" وهذا الاستدلال ليس بظاهر، لأن الضمير في فقرائهم محتمل لفقراء المسلمين ولفقراء أهل تلك البلدة والناحية. وهذا الاحتمال أظهر.

١٠- واستدل به بعضهم على أن الكفار ليسوا بمخاطبين بفروع الشريعة من الصلاة والصوم والزكاة وتحريم الزنا ونحوها لكونه ﷺ قال: "فإن هم أطاعوا لذلك أن عليهم ..." فدلّ على أنهم إذا لم يطيعوا لا يجب عليهم، وهذا الاستدلال ضعيف. فإن المراد أعلمهم أنهم مطالبون بالصلوات وغيرها في الدنيا. والمطالبة في الدنيا لا تكون إلا بعد الإسلام، ولا يلزم من ذلك أن لا يكونوا مخاطبين بها يزاد في عذابهم بسببها في الآخرة، ولأنه ﷺ رتب ذلك في الدعاء إلى الإسلام، وبدأ بالأهم فالأهم، ألا تراه بدأ ﷺ بالصلاة قبل الزكاة ولم يقل أحد أنه يصير مكلفًا بالصلاة دون الزكاة، والله أعلم.

ثم اعلم أن المختار أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة المأمور به والمنهي عنه، هذا قول المحققين والأكثرين. وقيل: ليسوا مخاطبين بها. وقيل: مخاطبون بالنهي دون المأمور، والله أعلم.

١١- قال النووي: ("فأخبرهم أن الله فرض عليهم زكاة تؤخذ من أموالهم" قد يستدل بلفظة "من أموالهم" على أنه إذا امتنع من الزكاة أخذت من ماله بغير اختياره، وهذا الحكم لا خلاف فيه، ولكن هل تبرًا ذمته ويجزيه ذلك في الباطن، فيه وجهان لأصحابنا، والله أعلم)[١].

(١) شرح صحيح مسلم، مج١/١/١٧٦-١٧٨.

المضامين الدعوية

أولاً: من وسائل الدعوة: إرسال الرسل والكتب وإيفاد البعثات الدعوية.

ثانيًا: من فقه الداعي: مراعاة الفروق بين المدعوين.

ثالثًا: من أصناف المدعوين: غير المسلمين (أهل الكتاب).

رابعًا: من مهام الداعي: تبصير المدعوين بحقائق وأصول الدين.

خامسًا: من فقه الداعي: مراعاة الأولويات في الدعوة.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: توقي دعوة المظلوم.

أولاً- من وسائل الدعوة: إرسال الرسل، والكتب وإيفاد البعثات الدعوية:

من الوسائل الدعوية التي أفاد منها النبي ﷺ في دعوته إرسال الرسل والكتب، وكان ﷺ ينتقي الرسل الذين كانوا يوفدون من قبله إلى الأقوام، فقد اختار مصعب بن عمير رضي الله عنه حين أرسله إلى المدينة قبل الهجرة، واختار معاذ بن جبل رضي الله عنه حين أرسله إلى اليمن، وفي هذا الحديث يقول معاذ بن جبل رضي الله عنه: بعثني رسول الله ﷺ فقال: (إنك تأتي أهل الكتاب) وينبغي أن يلاحظ أن وسيلة إرسال الكتب والرسل وإيفاد البعثات الدعوية أفاد كثيرًا في تبليغ الدعوة وهي وسيلة صالحة للعصر الحديث.

إن إرسال الرسل وإيفاد البعثات الدعوية مما تفرضه عالمية الدعوة على أتباعها من المسلمين، فما دمنا نعتقد أن الإسلام رسالة عالمية، وما دام على وجه الأرض غير مسلم فإن أمانة تبليغ دعوة الإسلام إلى غير المسلمين تقع علينا نحن المسلمين بوجه عام، وعلى الدعاة بوجه خاص"(١).

وذلك ليس ببدع من الدعوة، فقد كان من أبرز وسائل الدعوة التي استخدمها النبي ﷺ في نشر دعوته إرسال الرسل وبعث الكتب، فقد أرسل رسول الله ﷺ دحية الكلبي إلى هرقل أمير بصرى - وهي مدينة بين الشام والحجاز- يدعوه إلى الإسلام، كما أرسل إلى سائر الملوك ومختلف الأمصار، فأرسل كتبًا إلى كسرى

---

(١) تاريخ الدعوة إلى الله، آدم عبدالله الآلوري ص ٢٦٣.

وقيصر وإلى النجاشي وغيرهم، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كتب إلى كسرى وإلى قيصر وإلى النجاشي وإلى كل جبار، يدعوهم إلى الله تعالى"[١]. وأظهرت هذه المكاتبات والرسائل التي أرسلها النبي صلى الله عليه وسلم إلى الملوك والأمراء والرؤساء مدى انتشار الدعوة، وإيمان الناس واستجابتهم[٢] والتعريف بدعوة الإسلام.

ثانيًا- من فقه الداعي: مراعاة الفروق بين المدعوين:

إن مراعاة الفروق بين المدعوين جاءت في الحديث إلى اعتباره والأخذ به، وذلك من خلال بيان الرسول صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل نوعية المدعوين الذين سيدعوهم مما يجعله يختار الأسلوب الأمثل الذي ينجح معهم فقال: (إنك تأتي قومًا أهل كتاب) لذا ينبغي التأكيد على مراعاة الفروق لما يتطلب ذلك من جهد وفكر وقدرة على الإبداع وانتقاء الأساليب والوسائل الدعوية التي تناسب المدعوين[٣].

ثالثًا- من أصناف المدعوين: غير المسلمين (أهل الكتاب):

في الحديث وجه النبي صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى فئة من غير المسلمين وهم أهل الكتاب، فقال: (إنك تأتي قومًا أهل الكتاب) يعني اليهود والنصارى لأنهم كانوا في اليمن أكثر من مشركي العرب وأغلب، وإنما نبهه على هذا ليتهيأ لمناظرتهم ويعد الأدلة لإفحامهم لأنهم أهل علم سابق بخلاف المشركين وعبدة الأوثان[٤]، فقوله: إنك تأتي قومًا أهل كتاب) كالتوطئة للوصية لتستجمع همته عليها لكون أهل الكتاب أهل علم بالجملة[٥].

---

(١) أخرجه مسلم ١٧٧٤.

(٢) انظر: خاتم النبيين، محمد أبو زهرة، ١١٧٨/٢.

(٣) انظر: المنهج والفروق الفردية، د. فتحي الديب ص ٧٥.

(٤) دليل الفالحين، ابن علان ص ٣٨٦.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤١٩/٣.

وليتخير الأسلوب الأحسن في مناقشتهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾[١]، ووجه الوصاية بالحسنى في مجادلة أهل الكتاب أنهم مؤمنون بالله غير مشركين به فهم متأهلون لقبول الحجة غير مظنون بهم المكابرة ولأن آداب دينهم وكتابهم أكسبتهم معرفة طريق المجادلة فينبغي الاقتصار في مجادلتهم على بيان الحجة دون إغلاظ حذرًا من تنفيرهم[٢].

رابعًا- من مهام الداعي: تبصير المدعوين بحقائق وأصول الدين:

لا ينبغي التعرض للفرعيات والتفصيلات إلا بعد بيان أصول الدين وكلياته الكبرى، ويتضح ذلك من توجيه النبي ﷺ لمعاذ لدعوة أهل الكتاب إلى الإسلام من خلال أركانه العظام فبدأ بالتوحيد وثنى بالصلاة ثم ذكر الزكاة: (فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم)، بل إنه ليلاحظ أنه لم يذكر الزكاة والحج، قال الكرماني مجيبًا على ذلك: "بأن اهتمام الإسلام بالصلاة والزكاة أكثر ولأن الصلاة والزكاة إذا وجبتا على المكلف لا يسقطان عنه أصلاً بخلاف الصوم، فإنه قد يسقط بالفدية، والحج فإن الغير يقوم مقامه، والصوم بدني محض، والحج بدني مالي، فكلمة الإسلام وهي شاقة على الكفار والصلوات شاقة لتكررها والزكاة شاقة لما في جبلة الإنسان من حب المال فإذا أذعن المرء لهذه الثلاثة كان ما سواها أسهل عليه بالنسبة إليها"[٣].

خامسًا- من فقه الداعي: مراعاة الأولويات في الدعوة:

في الحديث نجد أن الرسول بدأ بالشهادتين لأنهما أصل الدين الذي لا يصح شيء

---

(١) سورة العنكبوت، آية: ٤٦.

(٢) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ٦/٢١/٨.

(٣) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٢٢/٣.

غيرهما إلا بهما[(١)]، ثم ذكر الصلاة ورتب عليها الزكاة لأن الذي يقر بالتوحيد ويجحد الصلاة يكفر بذلك فيصير ماله فيئًا فلا تنفعه الزكاة، وتمام القول أن الرسول ﷺ بدأ بالأهم فالأهم وذلك من التلطف في الخطاب لأنه لو طالبهم بالجميع في أول مرة لم يأمن النفرة[(٢)].

(فينبغي على الداعية أن يعنى بتقديم ما هو أصل على ما هو فرع فيقنع الناس به ويحملهم على قبوله، فإذا استقر في القلوب واستجابت له النفوس انتقل إلى ما هو دون ذلك، متأسيًا برسول الله ﷺ حينما أنفق ثلاث عشرة سنة من عمره في معالجة قضايا العقيدة وبعض العبادات، لينتقل بعد ذلك إلى معالجة ما هو أصل من السلوك العملي)[(٣)]، وهذا الأمر يتجلى في الحديث في وصية النبي ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: "إنك تأتي قومًا أهل كتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله..."، فنجد في الحديث أن رسول الله ﷺ يعلم معاذ بن جبل رضي الله عنه كيفية مراعاة الأولويات وتقديم ما هو أصل على ما هو فرع، واتباع أسلوب التدرج في التبليغ، فما ورد من تدرج في التبليغ ومراعاة الأولويات في الحديث ليس إلا إرشادًا نبويًا، بل تدبيرًا إلهيًا يتجاوز الحالة الخاصة في تحويل أهل الجاهلية من واقع جاهليتهم الباطلة إلى الحياة الإسلامية، وكل واقع بعيد عن الإسلام"[(٤)].

إن المتمعن في وصية النبي ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه يرى أنه قد تدرج في وصيته له بدعوة أهل اليمن، من الأهم إلى المهم، فاول ما أوصاه بالدعوة به هو الدعوة إلى التوحيد، ومرتكزها، وأساسها: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ثم أوصاه بالعبادة، والدعوة إلى بقية أركان وشرائع الإسلام؛ كالصلاة، والزكاة.

---

(١) المرجع السابق ٤٢٠/٣.

(٢) المرجع السابق ٤٢٠/٣.

(٣) صفات الداعية، أ. د. حمد بن العمار ص ١٠٩.

(٤) انظر: التدرج بين التشريع والدعوة، د. يوسف يوسف محي الدين أبو هلالة ص ٢٨.

ثم أوصاه بمعاملة الناس بالحسنى، وعدم أخذ أموالهم بالإكراه، ودون طي نفس، ورضا منهم.

ثم أوصاه بالأخلاق الحميدة، والمسالك والتصرّفات العالية الرفيعة أثناء الدعوة ومخالطة الناس، وذلك باحترامهم، وعدم ظلمهم، وتحقيق العدل والإخاء والمساواة بينهم.

ولا شك أن نهج النبي ﷺ في وصيّته لمعاذ بهذه الكيفية البديعة، وتنبيهه إلى التدرج في الدعوة، والبدء بالأهم فالمهم، وإعطاء كل مسألة وأمر ما يستحق من العناية والأهمية، ليدل دلالة واضحة على الحكمة النبوية العالية في الدعوة، والنظرة الحصيفة في ما ينفع الناس ويمكث في الأرض.

ومن هنا ينبغي أن يعلم كل داعية أهمية التدرج في الدعوة، والبدء بأهم الأمور إلى المهم، وأن يفقه الداعية هذا الأمر الهام، وذلك لأن أعظم ما يكون في البيت أساسه، وأهم ما تستند عليه الشجرة جذرها وأصلها، فإذا كان الأساس صحيحًا قويًا صلبًا كان ما فوقه صحيحًا قويًا كذلك، وإن كان الأساس هشًا ضعيفًا فلا يستبعد أن يسقط المنزل، أو تعصف بالشجرة الرياح، وهذا ما يوضحه قول الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ (١).

ولا شك أن المتتبع لدعوة المصطفى ﷺ يجد هذا الأمر جليًا واضحًا فيها، فقد أمضى ﷺ ثلاثة عشر سنة في مكة وهو يدعو الناس إلى التوحيد، وقوله: "لا إله إلا الله" قبل دعوتهم إلى الصلاة والزكاة والصوم والحج وبقية شرائع الإسلام الأخرى، وما

---

(١) سورة إبراهيم، الآيات: ٢٣-٢٧.

ذاك إلا لأهمية هذا الأصل العظيم، وهذا الركن الركين، الذي ما إن يتثبت في القلوب، وتأتلف عليه الصدور حتى يثمر الثمرات اليانعة الطيبة بإذن الله[(١)].

سادسًا- من موضوعات الدعوة: توقي دعوة المظلوم:

جاء ذلك في وصية الرسول ﷺ لمعاذ بن جبل في الحديث: (واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب) وذلك التذييل للحديث لاشتماله على هذا الظلم الخاص من أخذ كرائم الأموال وعلى غيره مما يتعلق بالمزكي وعلى هذا المظلوم وغيره قوله: (فإنه ليس بينها وبين الله حجاب) تعليل للاتقاء وتمثل لمن يقصد إلى السلطان متظلمًا فلا يحجب عنه [(٢)]، قال أبو العباس القرطبي: (ويستفاد من الحديث: تحريم الظلم، وتخويف الظالم وإباحة الدعاء للمظلوم عليه، والوعد الصدق بأن الله تعالى يستجيب للمظلوم فيه، غير أنه قد تعجّل الإجابة فيه وقد يؤخرها إملاءً للظالم، كما قال ﷺ "إن الله يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[(٣)]))[(٤)])[(٥)].

وقد حذرنا النبي ﷺ من الظلم عامة وبين عاقبته في الدنيا والآخرة فعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((اتَّقُوا الظُّلْمَ. فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَاتَّقُوا الشُّحَّ. فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ. حَمَلَهُمْ عَلَىٰ أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ))[(٦)]. قال القاضي عياض: (قوله: "الظلم ظلمات يوم القيامة" قيل: ظاهره أنه

---

(١) انظر: منهج الدعوة إلى الله على ضوء وصية النبي ﷺ لمبعوثه معاذ بن جبل >، د. عبدالرحيم بن محمد المغذوي ص ١٢٩، ١٣٠.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٤/٦.

(٣) سورة هود، آية: ١٠٢.

(٤) أخرجه مسلم ٢٥٨٣.

(٥) انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ١/١٨٤.

(٦) أخرجه مسلم ٢٥٧٨.

ظلمات على صاحبه حتى لا يهتدي يوم القيامة سبيلاً حيث يسعى نور المؤمنين بين أيديهم وبأيمانهم، وقد تكون الظلمات هنا الشدائد، وبه فسروا قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾[1] أي: شدائدهما، وقد تكون الظلمات ها هنا عبارة عن الاتكال بالعقوبات عليه)[2].

إن الظلم من أسوأ الأخلاق التي تنخر في كيان المجتمعات وسبب من أسباب انهيارها وانفراط عقدها، قال ابن تيمية: (إن الناس لم يتنازعوا في أن عاقبة الظلم وخيمة، وعاقبة العدل كريمة، وأن الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة)[3].

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٦٣.

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٤٨/٨.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٦٢/٨ - ٧٣.

الحديث رقم (٢٠٩)

٢٠٩- وعن أَبي حُميْد عبْدِ الرَّحْمن بنِ سعدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: استعْملَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلاً مِن الأَزْدِ يُقَالُ لَهُ: ابْنُ اللُّتْبِيَّةِ عَلَى الصَّدَقةِ، فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ: هَذَا لَكُمْ، وَهَذَا أُهدِيَ إِلَيَّ[1] فَقَامَ رسولُ اللَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الْمِنبرِ، فَحمِدَ اللَّه وأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قال: **«أَمَّا بعْدُ فَإِنِّي أَسْتَعْمِلُ الرَّجُلَ مِنْكُمْ على الْعملِ مِمَّا ولاَّنِي اللَّه، فيأْتِي فيَقُولُ: هَذَا لَكُمْ، وَهَذَا هَدِيَّةٌ أُهْدِيَت إِليَّ، أَفَلا جلس في بيتِ أَبيهِ أَوْ أُمِّهِ حتَّى تأْتِيَهُ إِنْ كَانَ صادقًا، واللَّه لا يأْخُذُ أَحدٌ مِنْكُمْ شَيْئًا بِغَيْرِ حقِّهِ إِلاَّ لَقِيَ اللَّه تَعالَى، يَحْمِلُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ، فَلا أَعْرِفَنَّ أَحدًا مِنْكُمْ لَقِيَ اللَّه يَحْمِلُ بعِيرًا لَهُ رغَاءٌ، أَوْ بَقرة لَهَا خُوارٌ، أَوْ شاةً تيْعَرُ.**

ثُمَّ رفَعَ يَديْهِ حتَّى رُؤِيَ بَياضُ إِبْطيْهِ فقال: «اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ» ثلاثًا، متفقٌ عليه[2].

ترجمة الراوي:

أبو حميد الساعدي: هو عبدالرحمن بن سعد بن المنذر.

اختلف في اسمه، وغلبت عليه كنيته، يعدّ في أهل المدينة، له صُحبة ورواية وقد شهد أُحدًا وما بعدها.

وقد روى عنه من الصحابة، جابر بن عبدالله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، ومن التابعين عروة بن الزبير، وعباس بن سهل، ومحمد بن عمرو بن عطاءَ، وخارجة بن زيد بن ثابت، وغيرهم.

وتوفي في آخر خلافة معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أو أول خلافة يزيد[3].

---

(١) البخاري رقم (٢٥٧٩).

(٢) أخرجه البخاري (٦٩٧٩)، ومسلم (١٨٣٢/٢٧) واللفظ له. والسياق للحميدي في جمعه (٤٦٩/١، رقم ٧٥٦). أورده المنذري في ترغيبه (١١٥٦).

(٣) أسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٧٥/٦-٧٦)، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر (٩٤٩)، الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي (١٤٥٦)، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين (٢٩٤/٨)، تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٥١٤/٤).

غريب الألفاظ:

الرغاءُ: صوت الإبل[١].

الخُوار: صوت البقر[٢].

تَيْعرُ: أي تصيح[٣].

الشرح الأدبي

إن هذا الحديث الشريف -كما يقول د. محمد أبو موسى، من أصول الإسلام في الحكم، ورعاية المصلحة العامة، واحترام الحق والعدل في إدارة شؤون الناس، وسياسة مصالحهم، ويؤكد ضرورة ابتعاد من يتولى أمرًا من الأمور العامة عن كل شبهة، ووجوب أمانته، وترفعه عن كل المغريات التي يتساقط فيها من ليسوا أهلاً لولاية الأمر.

ومكونات الحديث الشريف هنا تشمل مقدمة تضيء سياقات الحديث، وتكشف كثيرًا من الأمور التي أومأ إليها رسول الله ﷺ، ولم يصرح بها في كلامه الشريف، فالراوي أبو حميد الساعدي رضي الله عنه يقول: "استعمل النبي ﷺ رجلاً من الأزد يقال له: ابن اللتبية على الصدقة"، والتعبير بالفعل "استعمل" يوضح أن هذا الوالي أو العامل على جمع الزكاة: كلف بالعمل من قبل النبي ﷺ، والرجل من الأزد وهم من أشرف القبائل وقيل هم: أُسْد الله في الأرض: يريد الناس أن يضعوهم، ويأبى الله إلا أن يرفعهم".

وهذا العامل لما قدم قال: "هذا لكم، وهذا أهدي إلي"، وهذه الجملة فيها إيجاز شديد، وتخليص الكلام وتجريده للغرض المقصود منه، والعبارة تطوى خلف ألفاظها، وفي مكامن مقاصدها أحداثًا وأحوالاً، ورؤى واجتهادات وآراء أجملها صاحبها في هاتين الجملتين، وقد نص في الجملة الثانية على أن الشيء الخاص به: هدية: حسب اجتهاده، ولم يقل لي فقط، لأنه لم يقم بشرائها من ماله الخاص، ولم يكن يحسب

---

(١) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ر غ و).

(٢) المرجع السابق في (خ و ر).

(٣)المرجع السابق في (ي ع ر).

أنها رشوة، لأنه من الصحابة رضي الله عنهم الذين شرفوا بتكليف رسول الله لهم بالعمل على الصدقة.

وقيل إن رسول الله ﷺ حينما علم بذلك، قام عشية بعد الصلاة على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال... الحديث.

ويلاحظ أن رسول الله ﷺ كان صارمًا في هذه المواجهة، وجاءت لغته ممزوجة بالتعريض والحدة والغضب وهو يُعلِّم كل من يتولى أمر المسلمين الدرس الحقيقي، والمسلك الشرعي: في تدبير أمر الرعية، وفي الحفاظ على الحقوق وعدم أكل أموال الناس بالباطل، وعدم التربح من الجاه والسلطان.

وهذه اللغة الجادة ذات الإيقاع الشديد تناسب المقام، وتتوجه بالوعيد إلى كل من يفرط في الأمانة، ويسعى جاهدًا لمصلحته الذاتية وإهمال شؤون الأمة، وكلام رسول الله ﷺ تجد له نغمة خاصة ويجري فيه تيار خاص، وتشوبه روح مشبوبة حين يرى شرخًا ولو قليلاً في بناء حياة الناس، ويرى ريبة ولو كانت شائبة فيمن يقومون على مصالحهم، وتحقيق الحق والعدل، وشرع الله فيهم[1].

ورسول الله ﷺ لم يحدد اسم الرجل، وإنما حدد وظيفته وهي العمل على الصدقة أو ولاية أمور الناس، لأن المراد هو التحذير من مثل ذلك سواء فيه القائل أو غيره، وهذا من مزيد فضله وحسن خلقه، وكذلك لتحذير كل من يتولى المسؤولية من أن يقوم بمثل هذا التصرف حرصًا على مصلحة الأمة، والأمر ليس مواجهة بين رسول الله وابن اللتبية، ولكنه مواجهة بين المنهج الصحيح، والمنهج المعوج، بين منهج الأمانة ومنهج الخيانة، ولذلك في هذه الرواية: يأتي الحديث عن ابن اللتبية بضمير الغائب، من باب التعريض، ولذلك لم يثبت أن هذا العامل: تمسك بما قال: بل أذعن للحق، واستجاب لكلام المصطفى ﷺ، وتشتد المواجهة بين الموقفين حين يستفهم رسول الله في إنكار ودهشة، ويقول: "أفلا جلس في بيت أبيه أو أمه حتى تأتيه هديته إن كان

---

(١) انظر: شرح أحاديث من صحيح البخاري، د. محمد أبو موسى: ص ٢٦٢-٢٧٥، مكتبة وهبة، القاهرة.

صادقًا"، ثم يختتم الحديث بهذه الصورة التي تفضح أمر كل مسؤول أو حاكم ينهب أموال رعيته ويدعى أنها من مخصصاته، حيث يقسم رسول الله ﷺ أن من يفعل ذلك سيلقى ربه وهو يحمل على رقبته كل ما سرقه من حقوق الأمة، وتحديد نوع المحمول: الإبل، والبعير، والغنم، وللرمز بها إلى غيرها مما ينهبه الكبار من أموال الرعايا والضعفاء.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم هدايا العمال، وقد اتفق الفقهاء[1] على أن هدايا العمال حرام وغلول، وأن من استُعمل على شيء كالقضاء أو جمع الزكاة أو غير ذلك من أعمال الدولة لا يحل له أن يأخذ شيئًا من أحد متى كان المقصود منه الرشوة، وأخذ أي شيء من الناس لييسر لهم عملاً دون وجه حق يكون رشوة محرمة وقد لعن رسول الله ﷺ الراشي والمرتشي، قال النووي: وفي هذا الحديث بيان أن هدايا العمال حرام وغلول لأنه المطلوب في ولايته وأمانته[2]، أما الهدية لأجل المودة بعيدًا عن العمل فلا بأس بها، وفي ذلك تفصيل كثير ذكره الفقهاء في أبواب الفقه المختلفة كالزكاة والقضاء والشهادة.

---

(١) انظر في ذلك: المبسوط، السرخسي ٦٧/١٦، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ١٦/٧، وأحكام القرآن، الجصاص ٦٠٨/٢ وما بعدها، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ١١٨/٥، وتبصرة الحكام لابن فرحون ١٥/١، والأحكام السلطانية للماوردي ص ١٥٩، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٣٠٠/٤، والفروع، ابن مفلح ٤٤٧/٦، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ١١٨/١٠، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٢١٩/١٢، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٢٣/٢٢، ٣٠٨/٢٣.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٢١٩/١٢.

المضامين الدعوية

أولاً: من وسائل الدعوة: الخطبة.

ثانيًا: من مهام الداعي: بيان الحقائق للمدعوين.

ثالثًا: من واجبات الداعي: التعميم في النصيحة وعدم التشهير.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: حرمة الرشوة.

خامسًا: من أساليب الدعوة: القسم والتحذير.

سادسًا: من وسائل الدعوة: الدعاء ورفع اليدين.

سابعًا: من وسائل الداعية: البلاغ.

أولاً- من وسائل الدعوة: الخطبة:

تعد الخطبة من الوسائل الدعوية التي لا يستغني عنها الداعية، حيث يستطيع من خلال الخطبة أن يتواصل مع المدعوين وأن يوجههم ويبيّن لهم المنهج الصحيح الذي ينبغي السير عليه، وأن يحذرهم من مغبة الوقوع في الحرام، ويذكرهم بأهمية تقوى الله، وغير ذلك من الموضوعات التي تحفل بها الخطب حسب مناسبتها ومراعاة مقتضى الحال وقد جاء في هذا الحديث: (فقام رسول الله ﷺ على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال...)، ومن ثمّ فإن النبي ﷺ رأى أهمية ومناسبة معالجة هذا الموضوع الخطير الذي يتوهمه بعض الناس، ويظنون أنه من حقوقهم وهدية لهم، لا تخص الأموال العامة، فاستعمل النبي ﷺ الخطبة كوسيلة دعوية لبيان حقيقة هذا الأمر والتحذير من هذا المنزلق الخطير الذي قد يقع فيه بعض الناس.

إن الخطبة وسيلة جيدة للتبليغ، وتكون عادة لجمع من الناس قد لا يعرفهم الداعي أو يعرف بعضهم فقط، ويشترط للخطبة الناجحة أن يكون لدى الداعي معنى أو معانٍ معينة يريد بيانها ولفت الأنظار إليها، ومن المستحسن أن يكون موضوع الخطبة مما له علاقة في أحوال الناس مع ربط ذلك بمعاني العقيدة الإسلامية، كما ينبغي على الداعي أن يكون كلامه بسيطًا واضحًا، لأن الذين يسمعونه ليسوا في مستوى واحد من العلم والقدرة على فهم الخطاب فإذا اختار الأسلوب البسيط الواضح والعبارات

القصيرة انتفع بها الجميع وفهمها الجميع[١].

ثانيًا- من مهام الداعي: بيان الحقائق للمدعوين:

من المهام الأساسية للداعية بيان الحقائق للمدعوين، وفي هذا الحديث الذي نحن بصدده يبين النبي ﷺ الحقائق واضحة للمدعوين، ويؤكد على حرية حرمة الرشوة تحت أي مسمى مما قد يتوهمه البعض بأنه هدية، ويبين أن ما يُدعى هدية ما كانت لتأتي لو قعد في بيت أبيه وأمه، وإنما أعطيت له بسبب المنصب أو الوظيفة التي يشغلها، وهذا مما يجب الحذر منه، وفي هذا الحديث يبين النبي ﷺ حرمة الرشوة والهدايا إلى العمال فقال: (فإني استعمل الرجل منكم على العمل مما ولاني الله فيأتي فيقول: هذا لكم وهذا هدية أهديت إلي. أفلا جلس في بيت أبيه وأمه حتى تأتيه هديته إن كان صادقًا)، وذلك قيامًا بمهمة البيان التي كلفه الله تعالى بها، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٢].

ثالثًا- من واجبات الداعي: التعميم في النصيحة وعدم التشهير:

إن مراعاة شعور الآخرين وعدم تجريحهم أو التشهير بهم في النصح يعد من عوامل قبول النصيحة والاستجابة، وهذا ما يجب أن يهتم به الداعية في نصحه للناس، وقد راعى النبي ﷺ ذلك فلم يفضح الرجل وإنما قال: (فإني استعمل الرجل منكم على العمل مما ولاني الله فيأتي فيقول: هذا لكم وهذا هدية أهديت إلي)، فلم يصرح باسم القائل لأن مراده التحذير من ذلك العمل السيء المحرم، وهذا من مزيد فضله وحسن خلقه ﷺ[٣]، لذا يبنبغي على الداعي في نصيحته الإسرار إذا كان المنصوح شخصًا بعينه، وحين يجهر بالنصح لا يسمى شخصًا بعينه ولا يذكر اسمًا، بل يفعل كما

(١) انظر: أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان ص ٤٧٤، ٤٧٥.

(٢) سورة النحل، آية: ٤٤.

(٣) دليل الفالحين، ابن علان ٣٨٩.

كان يفعل رسول الله ﷺ[1]، من التعميم وعدم التشهير (ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا).

رابعًا- من موضوعات الدعوة: حرمة الرشوة:

لقد بيّن رسول الله ﷺ في هذا الحديث حرمة الرشوة وتقديم الهدايا للعمال، فقال: (أفلا جلس في بيت أبيه أو أمه حتى تأتيه هديته إن كان صادقًا والله لا يأخذ أحد منكم شيئًا بغير حقه إلا لقى الله تعالى يحمله يوم القيامة)، وذلك تمييزًا للرشوة وآخذها يوم القيامة لمزيد قبحها[2].

وقد لعن رسول الله ﷺ الراشي والمرتشي، فعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: ((لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الرَّاشِي وَالْمُرْتَشِيَ))[3]، وهي تندرج تحت أكل أموال الناس بالباطل، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[4].

قال الطاهر بن عاشور: (فالآية دلت على تحريم أكل الأموال بالباطل، وعلى تحريم إرشاء الحكام لأكل الأموال بالباطل، والرشوة من أهم ما تصدى الإسلام لتأسيسه تغييرًا لما كانوا عليه في الجاهلية، فالرشوة حرمها الله تعالى بنص هذه الآية)[5]. وهي من الكبائر، قال الذهبي: (وقد استدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ ...﴾[6] أي: لا تصانعوهم بها

---

(١) انظر: النصيحة وموقعها من أسلوب الحكمة ودورها في الدعوة إلى الله، الباز محمد عبدالفتاح الدميري ص ٨١.

(٢) دليل الفالحين، ابن علان ٣٨٩.

(٣) أخرجه أبو داود ٣٥٨٠، والحديث صححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٠٥٥).

(٤) سورة البقرة، آية: ١٨٨.

(٥) التحرير والتنوير مج١/٢/١٩١.

(٦) سورة البقرة، آية: ١٨٨.

ولا ترشوهم ليقتطعوا لكم حقًا لغيركم وأنتم تعلمون أن ذلك لا يحل لكم)[١].

خامسًا- من أساليب الدعوة: القسم، والتحذير:

أكد النبي ﷺ كلامه في الحديث بالقسم فقال: (والله لا يأخذ أحد منكم شيئًا بغير حقه إلا لقي الله تعالى يحمله يوم القيامة)، والقسم من أساليب الدعوة، تأكيد لخبر أو تعظيمًا لشيء أو جمعًا للانتباه حول غاية، ومن هنا كانت أهمية القسم[٢] لما فيه من فائدة عظيمة في تبليغ الدعوة كما استعمل النبي ﷺ أسلوب التحذير في الحديث من الرشوة ببيان أنه يأتي بإثمه يوم القيامة وبما أخذه، تعبيرًا له وتحقيرًا لشأنه وفضيحة له[٣].

سادسًا- من وسائل الدعوة: الدعاء ورفع اليدين:

في الحديث توجه الرسول ﷺ رافعًا يديه مشهدًا الله على تبليغه للناس، وتقريرًا للناس على ذلك، وكما جاء في الحديث: (ثم رفع يديه حتى رؤي بياض إبطيه) فقال: (اللهم هل بلغت) وقد أمر الله عباده بالتوجه إليه بالدعاء ووعدهم بالإجابة، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[٤]، وقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[٥]، والمعنى: وإذا سألوك عن المعبود فأخبرهم أنه قريب يثيب على الطاعة ويجيب الداعي ويعلم ما يفعله العبد من صوم وصلاة وغير ذلك[٦]. والدعاء نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة، والقرب نوعان: قرب يعلمه من كل خلقه، وقرب من عابديه وداعيه بالإجابة والمعونة والتوفيق.

---

(١) الكبائر، الذهبي ص ١٤٢، ١٤٣.

(٢) انظر: الدعوة الإسلامية "أصولها ووسائلها"، د. أحمد غلوش ص ٣٢٩ - ٣٣٠.

(٣) انظر: دليل الفالحين، ابن علان ص ٣٨٩.

(٤) سورة غافر، آية: ٦٠.

(٥) سورة البقرة، آية: ١٨٦.

(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٣٠٨/٢/١.

فمن دعا الله بقلب حاضر ودعاء مشروع، ولم يمنع ما نع من إجابة الدعاء كأكل الحرام ونحوه، فإن الله قد وعده بالإجابة، وخصوصًا إذا أتى بأسباب إجابة الدعاء، وهي الاستجابة لله تعالى بالانقياد لأوامره ونواهيه القولية والفعلية، والإيمان به الموجب للاستجابة، فلهذا قال: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ أي: يحصل لهم الرشد، الذي هو الهداية للإيمان والأعمال الصالحة، ويزول عنهم البغي المنافي للإيمان والأعمال الصالحة[1].

سابعًا- من أساليب الدعوة: البلاغ:

لقد قام النبي ﷺ بالبلاغ خير قيام كما هو ظاهر في الحديث وأشهد الله على ذلك وأقر الحاضرون بتبليغ الرسول ﷺ عن ربه ويبدو ذلك واضحًا في الحديث، ثم رفع يديه حتى رؤي بياض إبطيه فقال: (اللهم هل بلغت) والبلاغ إنما هو تنفيذ لأمر الله، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رسالته﴾[2].

فالوظيفة الأساسية للرسل عليهم السلام هي تبليغ الناس الرسالة التي حمّلهم الله تعالى إياها، وهذه الرسالة وإن كانت مفرداتها كثيرة إلا أنها تتمحور في النهاية حول قضية جوهرية ونهائية، وهي تذكير الناس وتنبيههم لساعة الوقوف بين يدي الله تعالى وما تتطلبه النجاة في يوم الحساب من تبعات وتكاليف على مستوى الإيمان، وعلى مستوى العمل سلبًا وإيجابًا، وقد عبّر لنا القرآن الكريم بجلاء عن ذلك الهدف المحوري من بعث الرسل عليهم السلام حين قال: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾[3]، إن الإحساس بيوم التلاق وتبعاته هو الذي ينبغي أن يسيطر على مشاعر الناس حتى يستقيموا على الشريعة ويعمروا الأرض ويتراحموا

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٦٩.

(٢) سورة المائدة، آية: ٦٧.

(٣) سورة غافر، آية: ١٥.

بينهم، والأنبياء عليهم السلام وأتباعهم من الدعاة إذ يقومون بالبلاغ يكونون قد قاموا بالعمل الأساس الذي تبرأ به الذمة أمام الله.

وهناك آيات كثيرة تدلّ على هذا من نحو قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ﴾[2]"[3].

---

(١) سورة النحل، آية: ٣٥.

(٢) سورة الشورى، آية: ٤٨.

(٣) مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي، د. عبدالكريم بكار ص ١٤٨ - ١٥٠.

الحديث رقم (٢١٠)

٢١٠- وعن أَبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «مَنْ كَانتْ عِنْدَه مَظْلَمَةٌ لأخيهِ[1]، مِنْ عِرْضِهِ أَوْ مِنْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْه مِنْه الْيومَ قَبْلَ أَنْ لا يكُونَ دِينَارٌ ولا دِرْهَمٌ، إنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقدْرِ مظْلمتِهِ، وإنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سيِّئَاتِ صاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ» رواه البخاري[2].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

عِرضه: جانبه الذي يصونُه من نفسه وحسَبه ويُحامي عنه أن يُنتَقَص ويُعاب[3].

فليتحلّله: يسأله أن يجعله في حِلّ من قِبله[4].

الشرح الأدبي

ما أصدق هذه الدعوة المحمدية، وما أحوج الذين وجهت هذه الدعوة إليهم إلى الاستجابة القلبية والفعلية، قبل أن يقفوا في يوم لا ينفع فيه مالٌ ولا بنون، ويجدون أنفسهم أمام أصحاب الحقوق، لا مالاً يملكون، ولا جاهًا به عن أنفسهم يدافعون، ومن هذا الواقع تأتي دعوة الرسول ﷺ إلى أداء الحقوق في الدنيا قبل أن يعجز الظالم عن أدائها من نوعها في الآخرة.

ولنتأمل كيف أفصح التشكيل اللغوي عن هذه المعاني الجليلة، والمقاصد النبيلة، والبيان النبوي في هذا الحديث الشريف يتكون من ثلاث جمل، وكلها تنتمي لدائرة أسلوبية واحدة، وهى: دائرة الشرط والجزاء، وهذه الصيغة الأسلوبية تتوافق تمامًا مع

---

(١) لفظ البخاري في هذه الرواية: (من كانت له مظلمة لأخيه) والمثبت لفظ البخاري برقم (٦٥٣٤).

(٢) برقم (٢٤٤٩)، والسياق للحميدي في جمعه (٣/٢٤٧، رقم ٢٥٤٠). أورده المنذري في ترغيبه (٣٢٨٨).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ع ر ض).

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ح ل ل).

جو الحديث، ومناخ المعاني، وفضاء الدلالة، فالحديث دعوة إلى رد المظالم إلى أهلها، وإلا فالجزاء من جنس العمل كما تُقرر ذلك القاعدة القرآنية: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ﴾[1].

والجملة الأولى أو الإشراقة الأولى في أفق هذا الجو الداعي إلى التحلل من المظالم، والتوبة إلى الله تمثل حرص الرسول ﷺ على أمته، فهو بالمؤمنين رءوف رحيم: ولذلك أطلق هذه الصيحة التي تدوي في سمع كل مسلم، وقلب كل مؤمن: في كل الأجيال، وعلى مر الزمان، "من كانت له مظلمة لأحد من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم"، وكم استجاب لهذه الدعوة الصادقة من ملايين المسلمين، وكم أُنصف بسببها من المظلومين الضعفاء المنكسرين، فهي دعوة لنصرة المظلومين، ولإنقاذ الظالمين من أنفسهم، واللغة هنا تدعو للتأمل: فقوله: "من كانت له مظلمة"، يثير التساؤل: هل المظلمة للظالم أم للمظلوم؟ قال العلماء: إن "له" هنا بمعنى "على"، أي من كانت عليه مظلمة، أو بمعنى "عند"، بدليل الرواية هنا، من كانت عنده مظلمة لأخيه.

ويبقى التعبير النبوي هو الأدق، لأن المظلمة تضرُّ الظالم أكثر من ضرر المظلوم، فمصير الظالم غضب العزيز الحكيم، ومصير المظلوم هو إنصاف الحكم العدل، واللطيف الخبير له، ولذلك يقتص المظلوم من الظالم يوم القيامة، فالتعبير النبوي: "له"، يتوهج بكل هذه الإيحاءات والإشراقات، فهي على حقيقتها أو بمعنى عليه أو عنده، والعِرْض: موضع المدح والذم من الإنسان سواء كان في نفسه أو في سلفه أو في من يلزمه أمره، وقوله "أو مِنْ شيء" يفتح الطريق أمامنا لاستقصاء المظالم التي تتعدد وتتلون ولفظ "مِنْ" يدل على هذا الاستقصاء.

فكل ما ينال الإنسان من إساءات فعلية أو قولية، وكل ما يلحق به من أذى في نفسه أو عرضه أو ماله أو سيرته يُعد ظلمًا.

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ٤٧.

وجواب الشرط دقيق في عبارته: عميق في دلالته، "فليتحلله منه" أي أن يجعل نفسه في حل مما فرط، وقيل معناه يستوعبه ويقطع دعواه عنه، والجملتان الثانية والثالثة: شرطيتان كذلك، ولكنهما تفيضان بالجزاء العادل، والإنصاف الكريم لكل مظلوم، وهما كذلك تحددان مصير الظالمين الذين لم يستجيبوا لدعوة المصطفى ﷺ، حيث يكون القصاص العادل يوم تُجزى كل نفس بما كسبت، وأداة الشرط "إن"، تدين هؤلاء الظالمين لأنها تفيد التشكيك في رصيدهم من العمل الصالح، وكذلك في الجملة الثالثة توحي بالتشكيك في رصيدهم من الحسنات ولو جاء التعبير بـ"إذا"، فلن يكون مناسبًا للسياق، وما هكذا تكون بلاغة النبوة الفائقة، والفائز والمنتصر في نهاية الحديث ويوم القيامة هو "المظلوم"، لأنه يأخذ من العمل الصالح للظالم، وتوضع عنده إلى عمله: فتزيد أعمال الصالحة، وتنقص أعماله الظالم، ويزداد إكرام الله لهذا المظلوم، حيث يضع الله عنه سيئاته في الدنيا ويطهره منها ثم يضيفها إلى سيئات الظالم فتزداد سيئاته ويكون مصيره جهنم وبئس القرار.

فقه الحديث

(الاستحلال بمعنى طلب جعل الشخص في حلٍّ، قد يكون واجبًا، كالاستحلال من الغيبة، إن علم بها المغتاب، وقد يكون مباحًا، كاستحلال الغاصب من المغصوب بدلاً من ردّ المغصوب)[1]، وقد روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعًا: ((كفارة من اغتبته أن تستغفر له))[2].

قال الصنعاني: (والحديث دليل على أن الاستغفار من المغتاب لمن اغتابه يكفي ولا يحتاج إلى الاعتذار منه، وفصلت الهادوية والشافعية، فقالوا: إذا علم المغتاب وجب

(١) انظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٣٧/٣ ومراجعها: رد المحتار على الدر المختار المسمى بـ "حاشية ابن عابدين"، محمد أمين بن عمر عابدين، تحقيق: علي محمد معوض ٢٦٣/٥، ٢٦٤، وشرح الروض ٣٥٧/٤، ومطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، الشيخ مصطفى السيوطي الرحباني ٢١٠/٦، ومدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢٩٠/١، ٢٩١.

(٢) أخرجه الحارث بن أبي أسامة ١٠٨٧ زوائد مسند الحارث.

الاستحلال منه، وأما إذا لم يعلم فلا يستحب أيضًا، لأنه يجلب الوحشة وإيغار الصدر. إلا أنه أخرج البخاري من حديث أبي هريرة مرفوعًا: "من كانت عنده مظلمة لأخيه في عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم ..." الحديث، وهو دال على أنه يجب الاستحلال وإن لم يكن قد علم إلا أنه يحمل على من قد بلغه ويكون حديث أنس رضي الله عنه فيمن لم يعلم ويقيد به إطلاق حديث البخاري)[١].

وقال البسام: (وطلب الحل ممن اغتب قد يزيد الأمر شرًا وقد يثير فتنًا وعدوانًا، فصار الواجب بحث المغتاب أن يستغفر لمن اغتابه، ويدعو له ويذكر محاسنه في المجالس التي اغتابه فيها، وعند الأشخاص الذين عابه عندهم فهذا العمل مع الندم والعزم على عدم العودة يكون سببًا للتوبة النصوح وبراءة الذمة مع عِرض المسلم، والله أعلم)[٢].

المضامين الدعوية

أولاً: من مهام الداعي: حث المدعوين على التحلل من المظالم.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: الأمر.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: المسارعة إلى التحلل من المظالم وإبراء الذمة.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: بيان عدل الله تعالى بين الخلائق.

خامسًا: من أهداف الدعوة: الحفاظ على النفس والعرض والمال.

أولاً- من مهام الداعي: حث المدعوين على التحلل من المظالم:

يتضح ذلك من حث الرسول ﷺ على التحلل من المظالم فقال: "من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو من شيء فليتحلله منه اليوم" (لأن الظلم ظلمات يوم القيامة، وإن الله تعالى لا يظلم مثقال ذرة، بل يستوفي الحقوق ويردها لأصحابها وقد حث النبي ﷺ الناس على المسارعة إلى التحلل من المظالم، قبل أن يؤخذ من حسناتهم ويعطى

(١) سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، الصنعاني ٩٨١.

(٢) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٦/٣٦٣.

لمن ظلموهم، فإن فنيت الحسنات أُخذ من سيئات المظلومين وطُرح على الظالمين ثم يُطرح بهم في النار، ومن هذا المنطلق حث النبي ﷺ على التحلل من المظالم لأنه كما وصفه ربه[1] ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[2].

ثانيًا- من أساليب الدعوة: الأمر:

فلشدة حرص رسول الله ﷺ على الأمة ورحمته بهم وجه إليهم هذا الإرشاد في صيغة الأمر، وكما هو واضح في الحديث بالأمر من التحلل من المظالم في قوله: "من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو من شيء فليتحلله منه اليوم" لما في صيغة الأمر من حث وإسراع حثيث في التزام المدعوين بتنفيذ ما وجه إليهم من أوامر وإرشادات. وقد استخدم القرآن الكريم أسلوب الأمر في كثير من الآيات، ومنها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[3] وقوله: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾[4] واستخدام أسلوب الأمر في الحث والحض على الفعل فيه تنبيه بوجوب العمل بمقتضى الأمر وعدم الإخلال به، وفي ذلك تحقيق لعبودية الله وطاعته، فلا تأخر ولا تلكؤ ولا تراجع، وهذا هو مقتضى الإيمان، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه[5].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: المسارعة إلى التحلل من المظالم وإبراء الذمة:

أمر الإسلام بكف الأذى عن الآخرين وبين رسول الله ﷺ أن من كمال الإسلام أن يكف المسلم أذاه عن الآخرين، فعن عبدالله بن عمر بن العاص رضي الله عنهما عن النبي ﷺ

---

(١) انظر: النصيحة، الباز محمد عبدالفتاح الدميري ص ٦١.

(٢) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢١.

(٤) سورة الإسراء، آية: ٣٤.

(٥) انظر: العهد والميثاق في القرآن الكريم، د. ناصر العمر ص ٥٠، ٥١.

قال: ((المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسانِهِ وَيَدِهِ، والمهاجِرُ مَن هَجرَ ما نَهى اللّهُ عنه))[١] لكن من وقعت منه زلة ووقعت منه مظلمة على غيره وجب عليه التحلل منها كما في الحديث الذي معنا "فليتحلله منه اليوم" قبل أن يأتي يوم لا يتقاضى فيه بالدينار والدرهم وإنما بالحسنات والسيئات "إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه" وذلك هو الإفلاس بعينه كما وضح ذلك رسول الله ﷺ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله قال: ((أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ. فَقَالَ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي، يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هٰذَا، وَقَذَفَ هٰذَا، وَأَكَلَ مَالَ هٰذَا، وَسَفَكَ دَمَ هٰذَا، وَضَرَبَ هٰذَا. فَيُعْطَىٰ هٰذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهٰذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ. فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ، قَبْلَ أَنْ يُقْضَىٰ مَا عَلَيْهِ. أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ. ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ))[٢]. قال النووي: (معناه: أن هذه حقيقة المفلس، وأما من ليس له مال ومن قل ماله فالناس يسمونه: مفلسًا، وليس هو حقيقة المفلس؛ لأن هذا أمر يزول وينقطع بموته وربما ينقطع بيسار يحصل له بعد ذلك في حياته، وإنما حقيقة المفلس هذا المذكور في الحديث. فهو الهالك الهلاك التام والمعدوم الإعدام المقطع فتؤخذ حسناته لغرمائه، فإذا فرغت حسناته أخذ من سيئاتهم فوضع عليه ثم ألقي في النار فتمت خسارته وهلاكه وإفلاسه)[٣].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: بيان عدل الله تعالى بين الخلائق:

إن الله سبحانه منزّه عن الظلم، وعن ترك ظالم يفلت بظلمه دون عقوبة وعدل الله يتضح في الحديث في المقاضاة بين خلق الله "إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه" قال ابن حجر: (ولا تعارض بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[٤] لأنه إنما يعاقب

---

(١) أخرجه البخاري ١٠، ومسلم ٤٠.

(٢) أخرجه مسلم ٢٥٨١.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٤٤.

(٤) سورة فاطر، آية: ١٨.

بسبب فعله وظلمه ولم يعاقب بغير جناية منه بل بجنايته فقوبلت الحسنات بالسيئات على ما اقتضاه عدل الله تعالى في عباده)[1] وقال الطيبي: قال المازري: زعم بعض المبتدعة أن هذا الحديث معارضٌ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ وهو باطل وجهالة بينة، لأنه إنما عوقب بفعله ووزره، فتوجهت عليه حقوق لغرمائه فدفعت إليهم من حسناته فلما فرغت حسناته أخذت من سيئات خصومه فوضعت عليه، فحقيقة العقوبة مسببة عن ظلمه ولم يعاقب بغير جناية منه[2].

خامسًا- من أهداف الدعوة: الحفاظ على النفس والعرض والمال:

إن من أهم الأهداف الرئيسة للدعوة الإسلامية: الحفاظ على سلامة النفس وصيانة العرض والمحافظة على المال، لأن هذه الأمور بمثابة الكليات التي من خلالها تتحقق الحياة الكريمة. هذا بالإضافة إلى العقل والدين الذي يعد الأساس في تلك الكليات وكما هو واضح في الحديث الذي معنا ("من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه" في محل الحال بيان لمظلمة أومن شيء" من عطف العام على الخاص فتدخل فيه اللطمة ونحوها")[3]. إن الحفاظ على الضرورات الخمس "الدين والنفس والعقل والنسب والمال" هو هدف الدعوة الإسلامية، فكل ما جاء في الشريعة من مبادئ وأحكام وأوامر ونواه وزواجر وعقوبات كلها تهدف إلى حفظ هذه المقاصد[4]، يقول الشاطبي في الموافقات: هذه الضرورات إن فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة بل على فساد وتهارج وفوت حياة وفي الأخرى فوت النجاة والنعيم والرجوع بالخسران المبين[5] وإن دعوة الإسلام للحفاظ على حياة الإنسان وكرامته لمن أكبر الأسباب لانتشار الدعوة إلى الله عز وجل.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٢٢/٥.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٢٦٣/٩.

(٣) دليل الفالحين، ابن علان ص ٣٩٠.

(٤) انظر مستلزمات الدعوة في العصر الحديث، علي بن صالح المرشد ص ٦٠.

(٥) الموافقات ١٨/٢.

الحديث رقم (٢١١)

٢١١- وعن عبد اللَّه بن عَمْرو بن الْعاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «**الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسانِهِ ويَدِهِ، والْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ ما نَهَى اللَّه عَنْهُ**» متفق عليه[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمرو بن العاص: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٣٨).

الشرح الأدبي

للبيان النبوي أثره العميق في الكشف عن خبيئات النفوس، واستجلاء العبر والعظات والدروس، وهذا الحديث الذي اشتمل على جوامع معاني الكلم والحكم فبين ﷺ أن المسلم هو: الذي يسلم المسلمون من لسانه ويده فيحفظ للعباد حقوقهم، وبين ﷺ أن المهاجر هو: من هجر ما نهى الله عنه، وأنه لا خير في هجرة الأجسام، ما لم تصحبها الهجرة عن الحرام.

وفي ظل هذه المعاني الفائقة، والدلالات الشائقة نتلمس جماليات الأداء الأسلوبي في الحديث النبوي: وهى من سمات فصاحة المصطفى ﷺ.

والحديث تكونه جملتان اسميتان: تتماثلان في البناء، وتتوازيان في نمط التركيب اللغوي، فالمبتدأ الأولى هو "المسلم"، وهو اسم فاعل من أسلم، والخبر اسم الموصول "مَنْ"، وما بعده جملة الصلة، وكذلك المبتدأ في الجملة الثانية هو "المهاجر"، وهو اسم فاعل، والخبر اسم الموصول "من" وما بعده جملة الصلة وهذا التوازي الأسلوبي، يعد صورة لسلوكيات المسلم الثابتة المتوازنة لأن: هاتين الصفتين من خصائص الشخصية المسلمة في كل زمان وكل مكان.

وتكرار مادة "سلم" في الجملة الأولى ثلاث مرات يعد تأكيدًا لوجود ظلال ومقاييس صفة المسلم وهى في أرقى تصور لها تتمثل في السلام والأمن والأمان، وكذلك تجسد اللغة حب التقارب والألفة من خلال هذا الجناس الاشتقاقي بين المسلم، وسلم،

---

(١) أخرجه البخاري (١٠) واللفظ له، ومسلم (٦٤/٤٠). أورده المنذري في ترغيبه (٤٢٠١).

وخص اللسان بالذكر لأنه المعبر عما في النفس، وعبر به دون القول: ليشمل من أخرج لسانه على سبيل الاستهزاء، وكذلك لأن اللسان يخرج منه ومما حوله من أجزاء الفم، ثمانية عشر حرفًا، وحروف الحلق الستة لا تخرج من اللسان، وكذلك حروف اللين، ولذلك قال رسول الله ﷺ: "أمسك عليك لسانك"، وقال: وهل يكب الناسَ في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم، وخص اليد بالذكر لأن معظم الأفعال يحصل بسببها، إذ بها البطش والقطع والوصل والأخذ والمنع، واليد المعنوية لها حضورها في جو الحديث، ولابد أن تكف عن إيذاء الناس ومن سمات وجودها، سلطة الحاكم، والاستيلاء على حق الغير بغير حق، وقدم اللسان على اليد لأن الإيذاء به أنكى وأعم لأنه يتناول الحاضرين والغائبين والأحياء والأموات.

وما أجل المعاني، وما أكثر المنهيات التي تشع بها هذه الجملة الموجزة، فالمهاجر: من الهجر وهو الترك ولكن: هجر المعاصي أبلغ من تركها: فالهجر ترك مع النفور، وهو توبة نصوح، وقيل: الهجرة حزبان: هجرة ظاهرة، وهي الفرار من مواطن الفتن، وباطنة: وهي ترك ما تدعو إليه النفس الأمارة بالسوء، والمسلم الصادق في هجرة دائمة صادقة.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار، والتنبيه بالأدنى على الأعلى.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: بيان علامة المسلم، وعلامة المهاجر.

ثالثًا: من خصوصيات النبي ﷺ: جوامع الكلم.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: الحث على كمال الالتزام بالإسلام.

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار - التنبيه بالأدنى على الأعلى:

١- **الإخبار:** حيث أخبر الرسول ﷺ عن ماهية المسلم، والمهاجر، فقال ﷺ: "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه" ولا شك في أن الإخبار أسلوب من أساليب الدعوة التي من خلالها يتعرف المدعوون على أمور دينهم، وحقائق إسلامهم، ولقد كان أعظم ما تميز به الإسلام مصداقية أخباره حيث

لا يعتورها كذب، وهذا من أهم ما يجب أن يحرص عليه الداعية أن تكون أخباره كلها صادقة حتى يُؤَثِّر في المدعوين ويصل بهم إلى مرحلة الإقناع.

٢- **التنبيه بالأدنى على الأعلى:** وهو أسلوب من أساليب الدعوة حيث يعبر الداعية عن ضرورة الاهتمام بأمر أصغر ليشمل في داخله الإشارة إلى الأعلى من باب أولى، وفي هذا الحديث جعل النبي ﷺ وصف المسلم يطلق على من يكف أذاه عن إخوانه، رغم أنه يدخل في وصف المسلم من تكون علاقته بربه طيبة، قال الإمام ابن حجر: (ويحتمل أن يكون المراد بذلك الإشارة إلى الحث على حسن معاملة العبد مع ربه، لأنه إذا أحسن معاملة إخوانه فأولى أن يحسن معاملة ربه، من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى)[1].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: بيان علامة المسلم وعلامة المهاجر:

يشير الحديث الشريف إلى علامة المسلم، وأنه هو من سلم المسلمون من لسانه ويده، وهذا يبين أن الإسلام عبادة ومعاملة مع الخلق، قال الإمام ابن حجر: (قال الخطابي: المراد أفضل المسلمين من جمع إلى أداء حقوق الله تعالى أداء حقوق المسلمين)[2]، فعلامة المسلم التي يعرف بها كف الأذى عن المسلمين، قال الطيبي: (والإسلام أن يكون مع الاعتراف باللسان اعتقاد بالقلب، ووفاء بالفعل، واستسلام لله في جميع ما قضى وقدر كما ذكر عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[3]، فمن أسلم وجهه لله وهو محسن، ورضي بما قضى الله وقدر، لم يتعرض لأحد، وكف أذاه عنهم بالكلية لا سيما عن إخوانه المسلمين فذلك المسلم الكامل)[4]، وجاء في رواية مسلم "أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ أي الإسلام خير؟ قال من سلم المسلمون من لسانه ويده"، قال النووي: (قال العلماء قوله: أي الإسلام خير؟

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١/٦٩.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١/٦٩.

(٣) سورة البقرة، آية: ١٣١.

(٤) انظر: شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ١/١١٨.

معناه أي خصاله وأموره وأحواله؛ وقوله ﷺ "من سلم المسلمون من لسانه ويده" معناه: من لم يؤذ مسلمًا بقول ولا فعل، وخص اليد بالذكر لأن معظم الأفعال بها)[١].

هذا وقد جاء التحذير من إيذاء المؤمنين بالقول أو الفعل، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾[٣]، وقال ﷺ في الحديث: ((مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلاَحَ فَلَيْسَ مِنَّا))[٤].

وأما علامة المهاجر فلا يقتصر معناه على مَنْ ترك داره في مكة وهاجر إلى المدينة بل حقيقة الهجرة تحصل لمن هجر ما نهى الله عنه من المحرمات والكبائر والموبقات حتى وإن كانت الهجرة بمعناها الظاهر قد انقطعت وهي الهجرة إلى المدينة.

قال ابن حجر: (وهذه الهجرة ضربان: ظاهرة وباطنة، فالباطنة : ترك ما تدعو إليه النفس الأمارة بالسوء والشيطان، والظاهرة: الفرار بالدين من الفتن، وكأن المهاجرين خوطبوا بذلك لئلا يتكلوا على مجرد التحول من دارهم حتى يمتثلوا أوامر الشرع ونواهيه، ويحتمل أن يكون ذلك بعد انقطاع الهجرة لما فتحت مكة تطييبا لقلوب من لم يدرك ذلك، بل حقيقة الهجرة تحصل لمن هجر ما نهى الله عنه)[٥].

ومن خلال ما سبق تتضح علامة المسلم، وعلامة المهاجر فعلى الدعاة إلى الله حث المدعوين على بلوغ هذه الدرجات، والربط بين القول والعمل ليصبح الإسلام مطبقًا في جميع معاملات الناس فيما بينهم.

---

(١) انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢٠.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٥٨.

(٣) سورة النساء، آية: ١١٢.

(٤) أخرجه مسلم ١٠١.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١/ ٧٠.

ثالثًا- من خصوصيات النبي ﷺ: جوامع الكلم:

حيث جمع ﷺ معنى المسلم، والمهاجر في جملتين، وهذا من جوامع الكلم، وهذا من خصوصيات النبي ﷺ، ومما فضله الله به على غيره من الأنبياء، قال ابن منظور: (أعطاه مَفاتِيحَ الكَلِم، وهو ما يَسَّر الله له من البَلاغة والفصاحة والوُصول إلى غوامض المعاني، وبدائع الحِكَم، ومَحاسِن العِبارات والألفاظ التي أُغْلِقَت على غيره وتَعذَّرت عليه)[1].

وقال القاضي عياض: (وأما كلامه المعتاد، وفصاحته المعلومة، وجوامع كلمه وحكمه المأثورة فقد ألف الناس فيها الدواوين، وجمعت في ألفاظها ومعانيها الكتب ومنها ما لا يوازي فصاحة ولا يباري بلاغة...)[2].

وقال القاضي عياض في شرحه لهذا الحديث: (وقوله: "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده"، أي: الكامل الإسلام، والجامع لخصاله من لم يؤذ مسلمًا بقولٍ ولا فعلٍ. إذ أكثر الأفعال بالأيدي فأضيفت عامتها إليها. وهذا من جامع كلامه، وفصيحه، ومحاسنه، ولا يفهم من هذا أن من ليس بهذه الصفة ليس بمسلم. وهو كما يقال: المال الإبل، والناس العرب، على التفضيل لا على الحصر)[3]. وعلى هذا كان من خصوصيات النبي ﷺ جوامع الكلم ومفاتحه.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: الحث على كمال الالتزام بالإسلام:

يجتهد الداعية دائمًا للارتقاء بالمدعوين في العبادة والطاعة، والالتزام بآداب الإسلام، وفي هذا الحديث إشارة إلى الحث على كمال الالتزام بالإسلام باجتناب إيذاء المسلمين، وحسن معاملتهم، وهجر السوء من الأقوال والأفعال والأعمال، قال الإمام النووي: (ومعنى الحديث: من لم يؤذ مسلمًا بقول ولا فعل، وخص اليد بالذكر لأن

---

(١) لسان العرب، ابن منظور ٥٣٧/٢.

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض ١٦١/١.

(٣) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٢٧٦/١ - ٢٧٧.

معظم الأفعال بها، وقوله ﷺ: "من سلم المسلمون من لسانه ويده" قالوا معناه: المسلم الكامل، وليس المراد نفي أصل الإسلام عن من لم يكن بهذه الصفة، وكمال الإسلام والمسلم متعلق بخصال أخر كثيرة، وإنما خص ما ذكر لما ذكرناه من الحاجة الخاصة)[(١)].

وقال القرطبي: (وقوله: "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده"، أي: من كانت هذه حاله كان أحقَّ بهذا الاسم وأَمْكَنَهم فيه، ويُبيّن ذلك: أنه لا ينتهي الإنسان إلى هذا حتى يتمكّن خوفُ عقاب الله تعالى من قلبه ورجاء ثوابه، فيُكسبه ذلك ورعًا يحمله على ضبط لسانه ويده، فلا يتكلم إلا بما يعنيه، ولا يفعل إلا ما يسلمُ فيه، ومن كان كذلك فهو المسلم الكامل، والمتّقي الفاضل. ويقرب من هذا المعنى بل يزيدُ عليه قوله عليه الصلاة والسلام: ((لا يُؤْمِنُ أَحدُكُمْ حتى يُحِبَّ لأَخيه ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ))[(٢)]، إذ معناه: أنه لا يتمُّ إيمانُ أحدٍ الإيمان التام الكامل حتى يضمَّ إلى سلامة الناس منه إرادته الخير لهم، والنصح لجميعهم، فيما يحاوله معهم. ويُستفاد من الحديث الأول: أن الأصل في الحقوق النفسية والمالية المنع، فلا يحلّ شيء منها إلا بوجهٍ شرعي، والله تعالى أعلم بغيبه وأحكم)[(٣)].

والداعية الحصيف هو الذي يرتقي بالمدعوين وإيمانهم ليصلوا أعلى درجات الكمال من خلال تعريفهم بالخصال التي بها يكمل إسلام المرء.

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢٠.

(٢) أخرجه البخاري ١٣، ومسلم ٤٥.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو ٢٢٤/١.

الحديث رقم (٢١٢)

٢١٢- وعنه ﷺ قال: كَانَ عَلَى ثَقَلِ النَّبِيِّ ﷺ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ كِرْكِرَةُ، فَمَاتَ فقال رسول الله ﷺ: «هُوَ فِي النَّارِ» فَذَهَبُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ فوَجَدُوا عَبَاءَة قَدْ غَلَّهَا. رواه البخاري[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمرو بن العاص: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٣٨).

غريب الألفاظ:

الثَّقل: متاع المسافر[2].

غلَّها: الغُلول: السرقة من الغنيمة قبل القسمة[3]، وفي النهاية: كلُّ من خان في شيءٍ خفيةً فقد غلَّ[4].

الشرح الأدبي

إن الأمانة من سمات الشخصية الإسلامية، وهي ترجمان صدق المؤمن، وعنوان شخصيته، وخيانة الأمانة من الكبائر التي تلقى بالإنسان إلى التهلكة، وتقذف به في قرار سحيق، وتنتهي به إلى جهنم، وبئس المصير. والحديث مشهد من مشاهد الواقع، يقص حكاية هذا الشخص الذي خان الأمانة، وأخفى "عباءةً" من المغنم، ولم يكشف عن ذلك، وظن أنه قد فاز، ولكن خاب ظنه، وساء سعيه، وكانت عاقبته أن رسول الله ﷺ وهو البشير النذير، قال عقب موته: إنه في النار، وهنا تكمن عقدة القصة ويموج التساؤل في عقول الصحابة ﷺ، لماذا حكم الرسول ﷺ بذلك. وما قصة

(١) برقم (٣٠٧٤). أورده المنذري في ترغيبه (٢٠١٠).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ث ق ل).

(٣) معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ٢٠٣.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (غ ل ل).

هذا الرجل؟ وما الذي فعله وأخفاه، وهو الذي يقوم بعمل يتشرف فيه بحراسة دابة رسول الله ﷺ في القتال؟ وكيف أقدم على هذه الكبيرة؟ ولماذا لم يتب عنها؟

إن هذا الحديث يشترك فيه الراوي مع نص كلام رسول الله ﷺ، وفيه كذلك تحديد لاسم الشخصية، وفيه إخبار عن الصحابة بضمير الغائب، "واو الجماعة"، ولم يُحدد أسماءهم.

والقصة هنا: مشهد واقعي وليس تاريخيًا، ولا غيبيًا ولا مستقبليًا: وعناصر السرد تتجلي في لغة الحديث، وطريقة النظم، والعلاقات بين الكلمات والجمل، واختيار المفردات وأدوات الربط.

فالحديث يبدأ بالفعل "كان"، حيث يقدم الراوي لحديث رسول الله ﷺ فيقول: "كان على ثَقَل النبي رجل، يقال له كركرة، فمات"، وهذه البداية تدل على أن هذا المشهد رواه الراوي بعد عهد طويل، وساقه للتذكرة والموعظة والعبرة، وقوله، "على ثَقَل النبي"، خبر كان، واسمها، "رجل"، وهو مؤخر، وقد قدم شبه الجملة وهى الخبر المقدم به حتى يستثير الانتباه، ويلفت الأنظار إلى وظيفة هذا الرجل التي لم يستفد منها، ولم يعمل بمقتضيات هذه المكانة التي جعلته قريبًا من رسول الله ﷺ، والثقل: هو ما يثقل حمله من الأمتعة، كما يقول الشاعر في مدح علي زين العابدين بن الحسين.

حمّال أثقال أقوام إذا فُدِحُوا حُلو الشمائل تحلْو عنده نَعمُ

والثقل: المراد به هنا أنه كان يمسك دابة رسول الله ﷺ في القتال، وقيل إن كركرة هذا، كان نوبيًا، أهداه إلى رسول الله هوذة بن علي الحنفي صاحب اليمامة فأعتقه.

وقول رسول الله ﷺ هو في النار، فيه إضمار لاسم الرجل لأنه لم يقل إن كركرة في النار، بل قال: هو، حتى يظل الأمر مبهمًا، لأنه ليس خاصًا بكركرة وحده، ولكن كل من على شاكلته يلقى المصير نفسه، هو في النار، ويمكن أن نفسر عدم تحديد الاسم، بأن في ذلك تركًا لمشيئة الله إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه، كما قال العلماء، والمراد بقوله: فذهبوا ينظرون إليه هو تساؤل الصحابة رضي الله عنهم

عن السبب الذي من أجله قيل هو في النار!!، والنظر هنا ليس لشخص كركرة، ولكن إلى عمله والتدبر فيه .

والعطف بالفاء في جمل الحديث تفصح عن سرعة توالي مشاهد هذا الحدث على هذا النحو، (فمات - فقال - فذهبوا - فوجدوا)، وهذا يدل على عدم التمهل في الوصول إلى الحقيقة، والفعل الماضي له سيطرته في الحديث إيحاءً بأن هذا المشهد قد حدث، ولا يستحب تكراره، وقوله: "قد غلها" : أي أخفاها ، والغلول هو: الخيانة في المغنم، وفي ذلك تأكيد على ضرورة الأمانة ورد المظالم وعدم ظلم النفس والغير.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم الغلول في الغنائم وأنه منهي عنه شرعًا.

وقد اتفق الفقهاء[١] على أن الغلول من الغنيمة أو الأخذ منها لأي سبب حرام، واستثوا من ذلك الطعام والشراب له والعلف لدابته، فإن أخذ المقاتل شيئًا قبل القسمة وتاب وجب عليه رده، أما إذا لم يرده حتى اكتشف عنده فإنه يكون غالاً، وقد اختلف الفقهاء في حكمه على قولين:

القول الأول: ذهب إليه جمهور الفقهاء من الحنفية والمالكية والشافعية[٢] وهو أن الغال يؤدب، ويعزر دون أن تقطع يده أو يحرق متاعه، ولكن ذهب المالكية إلى أن هذا الحكم قبل الحوز أما بعد فمن سرق النصاب يقطع.

---

(١) المبسوط، السرخسي ٢٧/١ ، وشرح السير الكبير ٤٤/١ ، وأحكام القرآن، الجصاص ٦٣/٢، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ١٩٨/٣ ، وأحكام القرآن، ابن العربي ٣٩٤/١، والأم ٢٦٥/٤، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ١٩٩/٤ ، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين بن الحسن بن عبدالرحمن ٢٥٨/٧ ، والفروع، ابن مفلح ٢٣٧/٦ ، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ١٨٥/٤ ، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٢٤٥/٩.

(٢) المبسوط، السرخسي ٢٧/١ ، وشرح السير الكبير ٤٤/١ ، وأحكام القرآن، الجصاص ٦٣/٢، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ١٩٨/٣ ، وأحكام القرآن، ابن العربي ٣٩٤/١، والأم ٢٦٥/٤، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ١٩٩/٤ ، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين بن الحسن بن عبدالرحمن ٢٥٨/٧.

القول الثاني: وهو للحنابلة والأوزاعي والحسن ومكحول[1] ويرون أن الغال يحرق متاعه كله إلا المصحف والسيف وما فيه روح.

والراجح ما ذهب إليه جمهور الفقهاء لأن السنن والآثار الثابتة في هذا الشأن تدل على أن الغال يعاقب في الدنيا بالتعزير وفي الآخرة بالعذاب الشديد دون أن يثبت حرق متاعه.

المضامين الدعوية

أولاً: من وسائل الدعوة: القصة.

ثانيًا: من واجبات الداعية: الإخبار عن الحقائق.

ثالثًا: من دلائل النبوة: إخباره ﷺ بمر خفي على أصحابه رضي الله عنهم.

رابعًا: من أساليب الدعوة: الترهيب.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: تحريم الغلول قليله وكثيره.

أولاً- من وسائل الدعوة: القصة:

مما لا شك فيه أن القصة وسيلة هامة من وسائل الدعوة، وكانت في القرآن الكريم -ولا زالت- مصدر العبرة والعظة، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ...﴾[2]، فالقصة تقدم نماذج حية عملية للاتعاظ والعبرة والادكار، "إن القصة تصور نواحي الحياة المختلفة فتعرض الأشخاص والحركات والأخلاق والأفكار والاتجاهات، فهي بهذا تحرك الوجدان، وترفع نبض المشاعر، وهي كذلك تميل النفس إليها فتجعل النفوس أوعية مفتوحة يصب فيها الداعية ما يشاء فيبلغ القرار"[3]، وقد جاء في الحديث قصة هذا الرجل وهو كركرة فيجب على الداعية أن يجعل من

---

(١) الفروع، ابن مفلح ٢٣٧/٦، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ١٨٥/٤، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٢٤٥/٩، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٢١٨/١٢.

(٢) سورة يوسف، آية: ١١١.

(٣) انظر: تذكرة الدعاة، البهي الخولي ص ٤٤.

القصة وسيلة للتحذير من مثل هذه الأفعال التي وقع فيها هذا الرجل، ولعلاج بعض المشكلات المتعلقة بعدم الاحتراز من الغلول.

ثانيًا– من واجبات الداعية: الإخبار عن الحقائق:

حيث أخبر النبي ﷺ عن هذا الرجل، وهو كركرة أنه في النار، ومن هنا كان من أهم واجبات الداعية الإخبار عن الحقائق التي جاءت في القرآن والسنة ليجد الناس فيها العظة والعبرة فكما أمر الله رسوله بالتبليغ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾[1]، فإن الدعاة إلى الله كذلك مطالبون بالبلاغ والبيان للناس فقد قال رسول الله ﷺ: ((بلِّغوا عني ولو آيةً))[2].

قال ابن حجر: (وقوله في الحديث: "ولو آية"، أي: واحدة ليسارع كل سامع إلى تبليغ ما وقع له من الآي ولو قل ليتصل بذلك نقل جميع ما جاء به ﷺ)[3]. وقال: ﷺ في الحديث أيضًا: ((نَضَّرَ الله امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ غَيْرَهُ))[4]، ولذا كانت وظيفة الداعية ترتكز على الإخبار عن الحقائق وعرضها للناس.

ثالثًا– من دلائل النبوة: إخباره ﷺ بأمر خفي على أصحابه رضي الله عنهم:

لقد أخبر النبي ﷺ عن كركرة لما مات بأنه في النار فلما ذهبوا ينظرون إليه وجدوه قد غلّ عباءة، ولا شك أن هذا من دلائل النبوة حيث أخبر الله نبيه بذلك، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾[5]، وأخرج الإمام البيهقي في دلائل النبوة قصة شبيهة بقصة كركرة، فعن زيد بن خالد الجهني أنَّ رجلاً مِنْ أصحابِ النبيِّ تُوفِّي يَوْمَ خَيبر، فذكروهُ لرسولِ اللَّهِ فقالَ: ((صَلُّوا على صَاحِبِكُمْ))، فتغيَّرتْ

---

(١) سورة المائدة، آية: ٦٧.

(٢) أخرجه البخاري ٣٤٦١.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٧٥/٦.

(٤) أخرجه الترمذي ٢٦٥٦، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢١٤٠).

(٥) سورة النجم، الآيتان: ٣ – ٤.

وجوهُ القَوْمِ مِنْ ذٰلِكَ، فقالَ: ((إنَّ صَاحِبَكُمْ غَلَّ فِي سَبِيلِ اللَّهِ))، ففتحنا متاعَهُ، فوجدنا خَرَزًا مِنْ خَرَزِ اليهودِ لا يُسَاوِي دِرْهَمَيْنِ(١).

رابعًا- من أساليب الدعوة: الترهيب:

حيث ذَكَر النبي ﷺ أن هذا الرجل في النار لأنه غلّ، ولا شك أن هذا أسلوب من أساليب الدعوة، والترهيب يمنع النفس من الوقوع في الأخطاء الشرعية حيث "إن الترهيب هو كل ما يخيف ويحذر المدعو من عدم الاستجابة أو رفض الحق أو عدم الثبات عليه بعد قبوله"(٢)، ومما يجدر بالداعية أن يوازن بين الترغيب والترهيب فيستخدم كلاً في موضعه.

ومن صور استعمال القرآن لأسلوب الترهيب قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾(٣)، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾(٤).

وتأتي أهمية استخدام أسلوب الترغيب والترهيب في الدعوة، أن الإنسان مفطور على حب ما ينفعه ويرغب في الحصول عليه، وينفر عما يضره ويحرص على الابتعاد عنه، ويُغتنم ذلك في الدعوة، فيُرغب العبد في الخير ببيان نفعه له ويُحذر عن الشر بذكر وباله عليه.

وقد كان النبي ﷺ يكثر من الترغيب والترهيب في الدعوة إلى الله تعالى، ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ﴾(٥) ففي هذه

---

(١) دلائل النبوة، البيهقي ٢٥٥/٤.

(٢) أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان ص ٤٣٧.

(٣) سورة الأنبياء، آية: ١٠٠.

(٤) سورة النساء، آية: ٥٦.

(٥) سورة النحل، آية: ١٢٦.

الآية الكريمة جاء الأمر الإلهي للنبي الكريم ﷺ للقيام بالدعوة بثلاثة أساليب أحدها الموعظة الحسنة المقترنة بالترغيب والترهيب[(١)].

خامسًا- من موضوعات الدعوة: تحريم الغلول قليله وكثيره:

هذا ما دلت عليه النصوص الشرعية، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾[(٢)].

قال القرطبي: (ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة حاملاً له على ظهره ورقبته، مُعذّبًا بحمله وثِقَله، ومَرعُوبًا بصوته، ومُوَبَّخًا بإظهار خيانته على رؤوس الأشهاد، وهذه الفضيحة التي يوقعها الله بالغال نظير الفضيحة التي توقع بالغادر في أن ينصب لواء له يوم القيامة، والغلول كبيرة من الكبائر)[(٣)]. كما تدل عليه الآية الكريمة وغيرها من النصوص، فهو من أعظم الذنوب وشر العيوب[(٤)].

ودلت الأحاديث الصحيحة على تحريم الغلول، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللّهِ ذَاتَ يَوْمٍ. فَذَكَرَ الْغُلُولَ فَعَظَّمَهُ وَعَظَّمَ أَمْرَهُ . ثُمَّ قَالَ: ((لاَ أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، عَلَىٰ رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ. يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللّهِ أَغِثْنِي. فَأَقُولُ: لاَ أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا. قَدْ أَبْلَغْتُكَ...))[(٥)].

والغلول كثيره وقليله حرام فقد أهدى لرسول الله ﷺ عبدٌ أسود يقال له مدعم فبينما مدعم يحط رحل رسول الله ﷺ إذ جاءه سهم فقتله، فقال الناس هنيئًا له الجنة، فقال رسول الله ﷺ: ((كَلاَّ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ الشَّمْلَةَ الَّتِي أَخَذَهَا يَوْمَ

---

(١) انظر: ركائز الدعوة، د. فضل إلهي ص ١٨٠، ١٨١.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٦١.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢٥٦/٤/٢.

(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ١٢٢.

(٥) أخرجه مسلم ١٨٣١.

خَيْبَرٍ مِنَ الْمَغَانِمِ لم تُصِبْهَا الْمَقَاسِمُ لَتَشْتَعِلُ عَلَيْهِ نَارًا))، فَلَمَّا سَمِعُوا ذَلِكَ جَاءَ رَجُلٌ بِشِرَاكٍ أَوْ شِرَاكَيْنِ إلى رَسُولِ اللَّه ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: ((شِرَاكٌ مِنْ نَارٍ))، أَوْ قال: ((شِرَاكَان مِنْ نَارٍ))[1].

والغلول له صور متعددة ومظاهر متنوعة، المشهور منها: الغلول في الفيء أو الغنائم. ومن الغلول أيضًا الغلول في الزكاة وهدايا العمال، والاختلاس من الأموال العامة وكذا اغتصاب الأرض أو العقار أو ما أشبه ذلك، وهذه الصور وأشباهها من الغلول المحرم إذ يترتب عليه تعطيل المصالح العامة ويفقد الفقراء والمساكين جزءًا من حقوقهم التي كفلها الشارع فضلاً عن أن الغلول يورث الكراهية ويضيع الحقوق ويفقد الثقة بأصحابه ويبعد صاحبه عن الجنة ويجلب عليه العار والشنار[2].

هذا وإن موضوع الغلول وتحريمه من الموضوعات المهمة التي يجب أن يطرقها الدعاة، حتى يكون الناس على بينة من أمورهم، فقد يستهين البعض بأخذ ما ليس له طمعًا وتهاونًا وجشعًا وغير ذلك، ويغفل عن عاقبة ذلك الذي يكون سببًا في دخول النار، ولقد استشرى هذا الداء العضال في فئة من المسلمين تستحل ما حرم الله من أكل أموال الناس بالباطل، وغلّ حقوقهم ومتاعهم مع عدم المبالاة بذلك الأمر الخطير مما يستلزم بيان خطره من قِبل الدعاة إلى الله وتحذير الناس منه.

---

(١) أخرجه أبو داود ٢٧١١، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢٣٥٨).

(٢) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن ملوح ٥١٣١/١١، ٥١٤١.

الحديث رقم (٢١٣)

٢١٣- وعن أَبي بَكْرَةَ نُفَيْعِ بنِ الحارثِ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللّه السَّمواتِ والأَرْضَ: السَّنَةُ اثْنَا عَشَر شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُم: ثَلاثٌ مُتَوَالِيَاتٌ: ذُو الْقعْدة وَذو الحِجَّةِ، والْمُحرَّمُ، وَرجب الذي بَيْنَ جُمادَي وَشَعْبَانَ، أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟» قلْنَا: اللّه ورسُولُهُ أَعْلَم، فَسكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، قال: أَلَيْس ذَا الْحِجَّةِ؟ قُلْنَا: بلَى: قال: «فأَيُّ بلَدٍ هَذَا؟» قُلْنَا: اللّه وَرسُولُهُ أَعلمُ، فَسَكَتَ حتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سيُسميِّهِ بغَيْر اسْمِهِ. قال: «أَلَيْسَ الْبلْدَةَ الحرمَ؟» قُلْنا: بلَى. قال: «فَأَيُّ يَومٍ هذَا؟» قُلْنَا: اللّه ورسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّه سيُسميِّهِ بِغيْر اسمِهِ. قال: «أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟» قُلْنَا: بَلَى. قال: «فإِنَّ دِماءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وأَعْراضَكُمْ عَلَيْكُمْ حرامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا في بَلَدِكُمْ هَذا في شَهْرِكم هَذَا، وَسَتَلْقَوْن ربَّكُم فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ، أَلا فَلا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ، أَلاَ لِيُبلِّـغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فلَعلَّ بعْض من يبْلُغه أَنْ يَكُونَ أَوْعَى لَه مِن بَعْضِ مَنْ سَمِعه» ثُمَّ قال: «أَلا هَلْ بَلَّغْتُ، أَلا هَلْ بلَّغْتُ؟» قُلْنا: نَعَمْ، قال: «اللَّهُمْ اشْهدْ»(١) متفقٌ عليه(٢).

ترجمة الراوي:

أبوبكرة الثقفي: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٩).

غريب الألفاظ:

مُضر: هي قبيلة عربية وأضيف رجب إليها؛ لأنها كانت تحافظ على تحريمه أشد من سائر العرب(٣).

أعراضكم: جمع عِرض: جانبُ المرء الذي يصونُه من نفسه وحسبه ويُحامي عنه أن يُنْتَقَص أو يُعابَ(٤).

---

(١) قوله: (اللهم فاشهد) عند مسلم (١٦٧٩/٣١).

(٢) أخرجه البخاري (٥٥٥٠)، ومسلم (١٦٧٩/٢٩) والسياق بتمامه للحميدي في جمعه (٣٦٢/١، رقم ٥٧٧).

(٣) القاموس المحيط، الفيروزآبادي في (م ض ر)، ودليل الفالحين، ابن علان ٣٩٣.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ع ر ض).

الشرح الأدبي

إن هذا الحديث الشريف يستمد أشعته الهادية، ومعانيه السامية من آفاق خطبة حجة الوداع وهي خطبة من جوامع كلمه ﷺ، وتفيض بالقيم الإسلامية، والتعاليم الشرعية، وهذه القيم وتلك التعاليم يصوغها الرسول ﷺ في أسلوب سهل واضح مبين، لا عوج فيه ولا التواء، إنه كما قال الجاحظ، كلام قد حُفَّ بالعصمة، وشد بالتأييد، ويسر بالتوفيق، وألقى الله المحبة عليه، وغشاه بالقبول، وجمع بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام، وقلة عدد الكلام، وقد فاضت هذه الخطبة بالأسرار التعبيرية، والقيم الجمالية والأساليب الموحية، ولنتأمل هذه الأسرار التعبيرية في هذا الحديث الشريف وهو قبسات من خطبة الوداع، فالحديث يبدأ بهذه الجملة التي غلفها التأكيد "إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض"، والتأكيد هنا ليس مجرد حلية لفظية ولكنه يقرر حقيقة شرعية وهي وجوب التزام المسلمين بالمحافظة على أيام الله، وعلى المواقيت التي حددها الله عز وجل في كتابه الكريم اتباعًا لقوله عز وجل: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾[1]، ثم يوضح الأمر في الآية التالية حيث يقول عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾[2].

فالتأكيد يرشد المسلمين إلى أن الزمان استقر واستدار وثبت وتحدد، وعاد في انقسامه إلى الأعوام، والعام في انقسامه إلى الأشهر المعدودة المعهودة إلى الموضع الذي اختار الله وضعه عليه، وجاء هذا التوضيح في مناسبة الحج، حتى لا يظل الناس متبعين نهج الكافرين في النسيء، والتغيير في نظام الأشهر الحرم، وإحداث البلبلة والاضطراب، "يحلونه عامًا ويحرمونه عامًا ليوطئوا عدة ما حرم الله، فيحلوا ما حرم

---

(١) سورة التوبة، آية: ٣٦.

(٢) سورة التوبة، آية: ٣٧.

الله"، وهذا التأكيد من مقاصده: ثبات أشهر الحج، اتباعًا لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَـٰتٌ﴾[(١)].

وكان العرب في الجاهلية إذا احتاجوا إلى الحرب في رجب استحلوه وأخروا حرمته للشهر بعده، ونادوا بذلك في قبائل العرب، وجعلوا حساب الحج تابعًا لذلك، ولذلك أبطل القرآن النسيء وجعله زيادة في الكفر.

وأفصح الرسول عن مراده، وحدد للمسلمين المواقيت تحديدًا واضحًا معتمدًا على الأرقام، وتحديد أسماء الأشهر فقال: السنة اثنا عشر شهرًا، ثم حدد الأشهر الحرم تحديدًا قاطعًا: ثلاث متواليات: (ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم).

ثم زاد الأمر تحديدًا في قوله: "ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان" ونسب شهر رجب إلى مضر، لأن هذه القبيلة كانت تحافظ على تحريم "رجب" أشد من سائر العرب، وزيادة في الدقة والتحديد قال: "الذي بين جمادى وشعبان"، وهذه الزيادة بيان لعظم شأن هذا الشهر، وكذلك لإبطال وتجريم النسيء الذي كانت تفعله العرب في الجاهلية، حيث كانوا: إذا احتاجوا للحرب في رجب جعلوه حلالاً، وجعلوا شعبان رجبًا، وبنوا عليه حساب حجهم.

وتمتزج عدة أساليب في الجزء الباقي من الحديث لتوصيل المعنى عن طريق التشويق والإقناع، وتأكيد القيم والمقاصد الإسلامية في نفوس المسلمين، فالحوار بين رسول الله ﷺ والصحابة رضي الله عنهم يتوهج عبر وسائل وأساليب تعبيرية ومنها الاستفهام والتأكيد، والتكرار، فالرسول يسأل: أي شهر هذا، وأي بلد هذا، وأي يوم هذا؟ وتتكرر الإجابة التي تترجم آداب الصحابة والتزامهم بما يأمرهم به قرآنهم، ونبيهم، (الكتاب والسنة)، فيقول عقب كل سؤال: الله ورسوله أعلم، وفي ذلك إشارة لكل مسلم أنه لا رأي له خارج آفاق النص القرآني، والبيان النبوي، فالله ورسوله أعلم، وتكررت ثلاث مرات في الحديث، وتكررت عبارة: حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه للإفصاح عن

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٩٧.

عنصر التشويق إلى معرفة الحقيقة، ويمتزج التكرار بالتوكيد في قوله: "إن دماءكم وأموالكم، وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا"، وتكرار اسم الإشارة يوضح حرص الرسول ﷺ على حرمة الأماكن المقدسة، وضرورة حمايتها، والدفاع عنها، ويؤكد الرسول ﷺ وصاياه للأمة، حتى يشعر المسلمون بالمسؤولية وحتى يحافظوا عل دينهم الذي ارتضاه الله لهم.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى أكثر من حكم فقهي:

الأول: الأشهر الحرم، فقد أجمع الفقهاء(١) على أن الأشهر الحرم هي هذه الأشهر المذكورة في الحديث، ولكن اختلفوا في الأدب المستحسن في كيفية عدها على قولين هل يبدأ في العد بالمحرم أم يبدأ بذي القعدة، وجماهير الفقهاء يبدأون بذي القعدة وهم يذكرون الأشهر الحرم وأما السنة الهجرية فتبدأ بالمحرم.

الثاني: حرمة نفس الغير، فقد اتفق الفقهاء(٢) على أنه لا يجوز قتل النفس بغير حق وإذا كانت النفس مسلمة فالحرمة أشد.

الثالث: حرمة مال الغير فقد اتفق الفقهاء(٣) على حرمة مال المسلم فلا يجوز

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١/١٨٣، ١١/١٦٨.

(٢) المبسوط، السرخسي ٢٧/٨٤، تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ٦/٩٧، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٦/٢٣١، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم المالكي ٢/١٧٨، وتحفة المحتاج في شرح المنهاج، ابن حجر الهيتمي ٨/٣٧٥، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٤/٢ وما بعدها، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٣/٢٥٣، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٥/٥٠٣ وما بعدها.

(٣) المبسوط، السرخسي ١١/٥٠، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ٥/٢٢٢، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٥/٢٧٣، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم المالكي ٢/١٧٥، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٢/٣٣٦، وتحفة المحتاج في شرح المنهاج، ابن حجر الهيتمي ٦/٢، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٢/٢٩٦، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٦/١٠٤.

غصبه ولا سرقته ولا أخذه بغير حق.

الرابع: حرمة عرض المسلم، فقد اتفق الفقهاء[١] على أن قذف المسلم كبيرة تستحق الحد فيجلد المرء لأجلها ثمانين جلدة إن كان حرًا، وأربعين إن كان عبدًا.

الخامس: تبليغ العلم، قال النووي: قوله ﷺ ليبلغ الشاهد الغائب فيه وجوب تبليغ العلم، وهو فرض كفاية فيجب تبليغه بحيث ينتشر[٢].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد، السؤال والجواب،والتشبيه، وضرب المثل.

ثانيًا: من واجبات الداعية: تصحيح المفاهيم الخاطئة.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل الأشهر الحرم.

رابعًا: من أهداف الدعوة: الحفاظ على نفس المسلم وعرضه وماله.

خامسًا: من واجبات المدعو: تبليغ العلم ونقله عن العالم.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: تحريم الظلم.

أولاً- من أساليب الدعوة: التوكيد، السؤال والجواب، التشبيه وضرب المثل:

١- **التوكيد:** حيث جاء في الحديث "إن الزمان" ولاشك أن التوكيد أسلوب من أساليب الدعوة، يدلل على أهمية ما يقوله الداعية، وينبه المدعوين إلى ضرورة الاهتمام به كما أنه يضيف بعدًا آخر، وهو ثقة وقناعة الداعية بما يقول مما يؤثر تأثيرًا إيجابيًا على المدعوين.

٢- **السؤال والجواب:** وقد تكرر في الحديث سؤال النبي ﷺ أي شهر هذا؟ أي

---

(١) المبسوط، السرخسي ١٠٦/٩، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ١٩٩/٣، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٢٩٨/٦، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم المالكي ٢٠٩/٢، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ١٣٥/٤، وتحفة المحتاج في شرح المنهاج، ابن حجر الهيتمي ١٢٠/٩، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٣٥٢/٣، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٧٦/٤.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٩/١١.

بلد هذا؟ أي يوم هذا؟ وهذا كله لإيجاد نوع من الحوار بينه وبين المدعوين لجذب انتباههم وتفاعلهم مع ما يطرح من أسئلة ثم كان السؤال التقريري لهم: أليس ذا الحجة؟ أليس البلدة؟ أليس يوم النحر؟ وذلك لإقامة الحجة على المدعو بتقريره على الإجابة، وما من شك في أهمية السؤال والجواب كأسلوب من أساليب الدعوة إذ يعين الداعية على تبليغ ما يقول، ويعمل على شدّ انتباه المدعو لمعرفة الجواب أو طرح السؤال.

٣- **التشبيه، وضرب المثل:** جاء في الحديث "فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا". وهذا التشبيه وضرب المثل من قبيل الحرص على زيادة الإفهام للمدعو، وتقريب المعنى إليه ذلك لأن المدعوين ليسوا على نسق واحد في الفهم، وهذا مما يدل على أهمية التشبيه كأسلوب من أساليب الدعوة يجب أن يستخدمه الدعاة نظرًا لتعدد أصناف المدعوين وتباين أفهامهم.

ثانيًا- من واجبات الداعية: تصحيح المفاهيم الخاطئة:

قد يشيع في المجتمع بعض الأخطاء والتصرفات الغير شرعية، وهنا يأتي دور الداعية في تصحيح هذه المفاهيم الخاطئة، والأعراف السائدة، ومن ذلك ما كان يحدث في الجاهلية من تغيير الأشهر الحرم بتقديمها أو تأخيرها، وفي هذا الحديث يبين النبي ﷺ أن هذه الأشهر ثابتة لا تتغير - ذو القعدة، ذو الحجة، المحرم، رجب - ومن هنا يبرز دور الداعية في القيام بتصحيح المفاهيم الخاطئة لدى فئات من الناس، ومعالجة ذلك بالطريقة المناسبة، وقد نبه القرآن الكريم إلى أمر الأشهر الحرم، وما يحدث فيها من تغيير وتبديل، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ﴾[1].

قال السعدي: (النسيء ما كان أهل الجاهلية يستعملونه في الأشهر الحرم، وكان من جملة بدعهم الباطلة أنهم لما رأوا احتياجهم للقتال في بعض أوقات الأشهر الحرم رأوا

(١) سورة التوبة، آية: ٣٧.

بآرائهم الفاسدة - أن يحافظوا على عدة الأشهر الحرم التي حَرُم القتال فيها، وأن يؤخروا بعض الأشهر الحرم أو يقدموه، ويجعلوا مكانه من أشهر الحل ما أرادوا، فإذا جعلوه مكانه، أحلو فيه القتال، وجعلوا الشهر الحلال حرامًا فهذا كما أخبر الله عنهم أنه زيادة في كفرهم وضلالهم لما فيه من المحاذير منها:

أنهم ابتدعوه من تلقاء أنفسهم، وجعلوه بمنزلة شرع الله ودينه، والله ورسوله بريئان منه، ومنها: أنهم قلبوا الدين فجعلوا الحلال حرامًا، والحرام حلالاً ومنها: أنهم موَّهوا على الله بزعمهم، وعلى عباده، فلبسُّوا عليهم دينهم واستعملوا الخداع والحيلة في دين الله ومنها: أن العوائد المخالفة للشرع مع الاستقرار عليها يزول قبحها عن النفوس، وربما ظن أنها عوائد حسنة فحصل من الغلط والضلال ما حصل)[1].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل الأشهر الحرم:

لقد جاء النص على فضل الأشهر الحرم في القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾[2]. قال الإمام الشوكاني: (ذلك الدين القيم أي كون هذه الشهور كذلك، ومنها أربعة حرم هو الدين المستقيم، والحساب الصحيح، والعدد المستوفى فلا تظلموا في هذه الأشهر الحرم أنفسكم بإيقاع القتال فيها والهتك لحرمتها)[3]. ولفضل الأشهر الحرم شرع الله في أول الإسلام تحريم القتال فيها بقوله تعالى: ﴿لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾[4]، قال ابن رجب الحنبلي: (قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: اختص الله أربعة أشهر جعلهن حرمًا

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٢٩٧.

(٢) سورة التوبة، آية: ٣٦.

(٣) فتح القدير، الشوكاني ٢/٣٥٨.

(٤) سورة المائدة، آية: ٢.

وعظم حرماتهن، وجعل الذنب فيهن أعظم، وجعل العمل الصالح والأجر فيهن أعظم)[(١)].

رابعًا- من أهداف الدعوة: الحفاظ على نفس المسلم وعرضه وماله:

إن من أهداف الدعوة الرئيسة الحفاظ على نفس المسلم وعرضه وماله، وقد أوصى الرسول ﷺ بذلك في الحديث حيث قال: "فإن دماءكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا" وقد دلت نصوص القرآن الكريم على حرمة نفس المسلم، قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[(٢)]. ودلت على حرمة ماله قال تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾[(٣)] وعلى حرمة عرضه قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[(٤)].

قال السيد سابق: (إن الله كرّم الإنسان: خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وسخر له ما في السماوات وما في الأرض جميعًا منه، وجعله خليفة عنه، وزوّده بالقوى والمواهب ليسود الأرض، وليصل إلى أقصى ما قدر له من كمال مادي، وارتقاء روحي، ولا يمكن أن يحقق الإنسان أهدافه، ويبلغ غايته، إلا إذا توفرت له جميع عناصر النمو، وأخذ حقوقه كاملة، وفي طليعة هذه الحقوق التي ضمنها الإسلام حق الحياة، وحق التملك، وحق صيانة العرض، وهذه الحقوق واجبة للإنسان من حيث هو إنسان، بقطع النظر عن لونه أو دينه أو جنسه أو وطنه، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا

---

(١) لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: ياسين محمد السواس ص ٢٢٢.

(٢) سورة النساء، آية: ٩٣.

(٣) سورة المائدة، آية: ٣٨.

(٤) سورة النور، آية: ٤.

بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ﴾[١] ولما خطب الرسول ﷺ في حجة الوداع جعل حرمة دم المسلم وماله كحرمة الشهر الحرام والبلد الحرام)[٢].

خامسًا- من واجبات المدعو: تبليغ العلم ونقله عن العالم:

حيث قال النبي ﷺ في الحديث "ألا ليبلغ الشاهد الغائب" قال النووي: (فيه وجوب تبليغ العلم وهو فرض كفاية فيجب تبليغه بحيث ينتشر)[٣]. وقال الرسول ﷺ في الحديث ((بلّغوا عني ولو آيةً))[٤] وهكذا يجب أن يكون المدعو مبلغًا للعلم الذي تعلمه.

فلعل الله عز وجل أن يهدي به أحدًا فيكون الأجر والثواب لمن بلغ العلم فعن سهل ابن سعد أن رسول الله ﷺ قال لعلي رضي الله عنه: ((لأَنْ يُهدَى الله بكَ رجُلٌ واحدٌ خيرٌ لكَ من حُمْرِ النَّعَم))[٥].

قال ابن عبدالبر: (قال علي رضي الله عنه: لم يؤخذ على الجاهل عهد بطلب العلم حتى أخذ على العلماء عهد ببذل العلم للجهال، لأن العلم كان قبل الجهل. وعن ابن القاسم قال: كنا إذا ودّعنا مالكًا يقول لنا: اتقوا الله وانشروا هذا العلم وعلّموه ولا تكتموه. وعن عبدالرحمن بن مهدي قال: كان مالك بن أنس يقول: بلغني أن العلماء يسألون يوم القيامة كما يسأل الأنبياء يعني عن تبليغه. وعن سليم بن عامر قال: كان أبو أمامة يحدثنا فيكثر ثم يقول: عقلتم؟ فنقول: نعم، فيقول: بلغوا عنا فقد بلغناكم، يرى أن حقًا عليه أن يحدث بكل ما سمع، وعن جعفر بن برقان قال: كتب إلينا عمر بن عبدالعزيز: أما بعد، مُرْ أهل العلم والفقه من جندك فلينشروا ما علمهم الله عز وجل في

(١) سورة الإسراء، آية: ٧٠.

(٢) إسلامنا، السيد سابق ص ٢٦٧.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٠٧٥.

(٤) أخرجه البخاري ٣٤٦١.

(٥) أخرجه البخاري ٢٩٤٢ واللفظ له، ومسلم ٢٤٠٦.

مجالسهم ومساجدهم والسلام. ويقال: ما صِينَ العلم بمثل العمل به وبذله لأهله وقالوا: النار لا ينقصها ما أخذ منها ولكن ينقصها ألا تجد حطبًا وكذلك العلم لا ينقصه الاقتباس منه، ولكن فقد الحاملين سبب عدمه)[١].

وإذا كان تبليغ العلم من باب النصيحة للمسلمين فقد قال رسول الله ﷺ ((ثَلاَثٌ لاَ يُغَلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ امْرِىءٍ مُسْلِمٍ: إِخْلاَصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَالنُّصْحُ لأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ))[٢]. وتبليغ العلم مما يؤجر عليه المرء بعد موته فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((إِنَّ مِمَّا يَلْحَقُ الْمُؤْمِنَ مِنْ عَمَلِهِ وَحَسَنَاتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ، عِلْمًا عَلَّمَهُ وَنَشَرَهُ، وَوَلَدًا صَالِحًا تَرَكَهُ. وَمُصْحَفًا وَرَّثَهُ، أَوْ مَسْجِدًا بَنَاهُ أَوْ بَيْتًا لابْنِ السَّبِيلِ بَنَاهُ، أَوْ نَهْرًا أَجْرَاهُ أَوْ صَدَقَةً أَخْرَجَهَا مِنْ مَالِهِ فِي صِحَّتِهِ وَحَيَاتِهِ. يَلْحَقُهُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ))[٣].

سادسًا- من موضوعات الدعوة: تحريم الظلم:

يتضح ذلك من خلال توجيه النبي ﷺ إلى حرمة الدماء والأموال والأعراض وقد دلّ القرآن على تحريم الظلم والوعيد الشديد عليه ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[٤] وفي الحديث القدسي عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى قال: ((يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ على نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا. فَلاَ تَظَالَمُوا...))[٥]. وبيّن الله سوء عاقبة الظالمين يوم القيامة فقال سبحانه: ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[٦].

وحذر رسول الله ﷺ من الظلم فقال في الحديث: ((اتَّقُوا الظُّلْمَ. فَإِنَّ الظُّلْمَ

---

(١) جامع بيان العلم وفضله، ابن عبدالبر ٤٩٢/١-٤٩٧ بتصرف.

(٢) أخرجه ابن ماجه ٢٣٠، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ١٨٧).

(٣) أخرجه ابن ماجه ٢٤٢، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ١٩٨).

(٤) سورة إبراهيم، آية: ٤٢.

(٥) أخرجه مسلم ٢٥٧٧.

(٦) سورة الإنسان، آية: ٣١.

ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ...))[(١)] وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إنَّ اللَّهَ لَيُملي للظالم، حتى إذا أخذَه لم يُفلِتْه. قال ثم قرأ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[(٢)]))[(٣)].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ((المسلمُ أخو المسلمِ لا يَظلمُه ولا يُسلِمُه، ومَن كان في حاجةِ أخيهِ كان الله في حاجتِهِ...))[(٤)].

جاء في موسوعة نضرة النعيم: (قال عمر بن عبدالعزيز: إذا دعتك قدرتك على ظلم الناس فاذكر قدرة الله عليك ونفاد ما تأتي إليهم وبقاء ما يأتون إليك[(٥)]. قال أبو العتاهية:

أما والله إن الظلم لؤم ... وما زال المسيء هو الظلوم

إلى ديَّان يوم الدين نمضي ... وعند الله تجتمع الخصوم

ستعلم في الحساب إذا التقينا ... غدًا عند الإله من الملوم[(٦)]

وفي بعض المأثورات: إذا كان يوم القيامة يجتمع الظلمة وأعوانهم ومن ألاق لهم دواة، وبرى لهم قلمًا فيجعلون في تابوت ويلقون في جهنم)[(٧)].

---

(١) أخرجه البخاري ٢٤٤٧، ومسلم ٢٥٧٨.

(٢) سورة هود، آية: ١٠٢.

(٣) أخرجه البخاري ٤٦٨٦، ومسلم ٢٥٨٣ واللفظ له.

(٤) أخرجه البخاري ٢٤٤٢ واللفظ له، ومسلم ٢٥٨٠.

(٥) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن ملوح ٤٩٢٤/١٠.

(٦) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن ملوح ٤٩٢٥/١٠ ونسب الشعر إلى الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ١٨١/١ وهو في الكامل في التاريخ ٢٥٨/٥، والحماسة البصرية ٤٢٢/٢.

(٧) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن ملوح ٤٩٢٦/١٠ ونسبه إلى بصائر ذوي التمييز ٥٤٣/٢.

لقد نهى الله عن الظلم كافة في جميع الأوقات والأماكن وعلى جميع الأحيان خاصة في الأوقات التي عظم فيها شأن الظلم كالأشهر الحرم التي جاء فيها الحديث ونهى الله فيها عن الظلم، وقد أشار الله في آية النسيء أن ظلم الإنسان في الحقيقة إنما هو ظلم لنفسه، فقال تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾(١) فقد قسم العلماء الظلم إلى ثلاثة أقسام وهي في النهاية تصب في ظلم الإنسان لنفسه، قال بعض الحكماء: الظلم ثلاثة:

الأول: ظلم بين الإنسان وبين الله تعالى، وأعظمه الكفر والشرك والنفاق، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(٢) وإياه قصد بقوله: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾(٣).

والثاني: ظلم بينه وبين الناس وإياه قصد بقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾(٤) وبقوله: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾(٥).

والثالث: ظلم بينه وبين نفسه، وإياه قصد بقوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾(٦).

وكل هذه الثلاثة في الحقيقة ظلم للنفس، فالإنسان في أول ما يهم بالظلم فقد ظلم نفسه(٧).

---

(١) سورة التوبة، آية: ٣٦.

(٢) سورة لقمان، آية: ١٣.

(٣) سورة هود، آية: ١٨.

(٤) سورة الشورى، آية: ٤٠.

(٥) سورة الشورى، آية: ٤٢.

(٦) سورة فاطر، آية: ٣٢.

(٧) الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الأصفهاني ص ٣٥٨.

الحديث رقم (٢١٤)

٢١٤- وعن أَبي أُمَامةَ إِيَاسِ بنِ ثعْلَبَةَ الْحَارِثِيِّ ﵁ أَن رسولَ اللّه ﷺ قال: «مَنِ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِيءٍ مُسْلِمٍ بيَمِينِهِ فَقَدْ أَوْجَبَ اللّه لَه النَّارَ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ» فقال[1] رجُلٌ: وإِنْ كَانَ شَيْئًا يسِيرًا يا رسولَ اللّهِ؟ فقال: «وإِنْ قَضِيبًا مِنْ أَرَاكٍ» رواه مسلم[2].

ترجمة الراوي:

أبو أمامة بن ثعلبة الحارثي الأنصاري: واسمه: إياس بن ثعلبة، من بني حارثة بن الحارث بن الخزرج، حليف الثعلبي، الحارثي، التلوِيّ الأنصاري، حليف بني حارثة.

له صحبة، روى عن النبي ﷺ وعن عبدالله بن أنيس الجهني، إلا أنه لم يكن من المكثرين، وروى له الجماعة سوى البخاريُّ، لم يشهد بدرًا بسبب رعايته لأمه في مرض وفاتها، فعنه ((أن رسول الله ﷺ أخبرهم بالخروج إلى بدر، وأجمع الخروج معه، فقال له خاله أبو بردة بن نيار، أقم على أمك يا ابن أخت، قال: بل أنت أقم على أختك، فذكر ذلك للنبيِّ ﷺ، فأمر أبا أمامة بالمُقام على أمه، وخرج بأبي بُرْدة، فقدم النبي ﷺ وقد توفيت فصلى عليها[3] ولم يؤرخ لأبي أمامة حياته ومماته[4].

غريب الألفاظ:

الأراك: نوع من الشجر يُستاك بأغصانه[5].

---

(١) عند مسلم زيادة: (له).

(٢) برقم (١٣٧/٢١٨). أورده المنذري في ترغيبه (٢٧٤٦). وسيكرره المؤلف برقم (١٧١٥).

(٣) الطبراني في المعجم الكبير (٢٧٢/١، ٢٧٣)، حديث رقم (٧٩٢)، وقال الهيثمي في المجمع: رجاله ثقات، وقال ابن عبدالبر في الاستيعاب: سنده جيد.

(٤) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر (٧٧١، ٧٧٢)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (١٥/٦، ١٦)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي (١٤٢٧)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين (٢٣٥/٨، ٢٣٦)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٤٨٢/٤، ٤٨٣).

(٥) معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ٣٢.

الشرح الأدبي

إن من مقاصد الإسلام الشرعية والحضارية السعي في تحصيل الأموال بالطرق والوسائل المشروعة والاعتدال في صرفها، "ونهى الإسلام كذلك عن احتباس الأموال واكتنازها، ونهى عن تحصيلها بالطرق التي لا خير فيها صيانة لها عن الشر والفساد، وحفظًا لمال الغير من السرقة والانتهاب، وقد جعل الإسلام أخذ المال دون رضا صاحبه وطيب نفسه أكلاً له بالباطل يجب التحرز منه، فقال رسول الله ﷺ "كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه"[١]، وقال: إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا[٢][٣]"، والحديث السابق أكد على هذا المنهج في سياق وصايا المصطفى ﷺ للمسلمين في خطبة حجة الوداع.

ويؤكد هذا الحديث على وجوب اتباع هذا المنهج، وهو المحافظة على حقوق الغير، ولكن الأسلوب في هذا الحديث جاء تحذيريًا مشددًا العقوبة على كل من يعتدي على حق المسلم وغير المسلم الذي يعيش في كنف المسلمين وحمايتهم، ولأن الجزاء من جنس العمل، ولأن المصطفى ﷺ في بيانه البليغ يأتي المَبْني مجسدًا للمعنى، وكاشفًا طبيعته، ومحددًا سمته، فإن هذا الحديث جاء في صيغة الشرط والجواب، فالنتائج ثمرة المقدمات والجواب انبثاق حتمي عن فعل الشرط، وكذلك العقوبات تكون بقدر حجم المخالفة في السلوكيات.

ولنتأمل بداية هذا الحديث في قول رسول الله ﷺ "من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار، وحرم عليه الجنة"، "ومَنْ" هنا أداة شرط للعاقل: وفعل الشرط الذي يجلب العقوبة هو اقتطاع حق المسلم أو غير المسلم الذي يحتمي بالمسلمين،

---

(١) أخرجه مسلم، ٢٥٦٤.

(٢) أخرجه مسلم، ١٢١٨.

(٣) انظر: التكافل الاجتماعي في الإسلام، د. عبدالعال أحمد عبدالعال ص ٢٣٥.

ومادة الاقتطاع توحي بالأخذ الشديد، وبتر جزء من حقوق الغير، وكأن هذا الحق المعنوي والمادي صور في هيئة، وصور في كيان متكامل، وسلبه أو نهبه أو إنكاره، يعد اقتطاعًا له من كيانه وجسده: وكأنه عضو اقتطع من جسد، ومهما تمتع به آخذه، فإنه سيظل في حنين إلى حمى صاحبه، وإلى العودة إلى جسده الأصلي،وكلمة حق تتضمن دلالات كثيرة: فكل ما يملكه الإنسان هو حق له: المال، والمتاع، والأبناء، والزوجة، والأنعام والتجارة، وكل ما يكتسبه في حياته هو حق له، ولا يحل لأحد أن يقتطع هذا الحق من بنيانه المتكامل.

والإيجاز في هذه الكلمة يجعلها تشع بكثير من التفسيرات والدلالات، وتقييد المرء بأنه مسلم، لتمييز المسلم عن غيره، وللإشعار بالمحافظة على حقوقه، ومع ذلك فغير المسلم يحب كذلك المحافظة على حقوقه إذا كان يتمتع بالأمن وحسن الجوار في بلاد الإسلام؛ وقوله "بيمينه"، للإشعار بتعمد هذا الأخذ، ويسبق إصراره على ارتكاب هذا الجرم الخطير، وهذه الحيثيات التي تؤكد إصرار ذلك الذي سلب حق غيره تمثلت في فعل "الاقتطاع"، وليس القطع، فالصيغة تدل على قسوة الأخذ، ومقاومة المأخوذ منه، وهذا المأخوذ هو حق، وحق أخيه المسلم، وقد أُخِذ باليمين، لكل هذا وبسببه: أوجب الله له النار، وحرم عليه الجنة، إذا لم يتب توبة نصوحًا، والجملة الثانية سؤال من الراوي وقد صيغت في أسلوب الشرط، ولكن حذف الجواب إيجازًا لأن العقاب معروف ولا جدال فيه "وإن كان شيئًا يسيرًا يا رسول الله"، والجواب المحذوف: فهل العقاب كذلك؟ وتأتي الإجابة من رسول الله في صيغة الشرط والجواب، ولَكِنْ جواب الشرط محذوف، إيجازًا، وإيحاءً بأن العقاب ثابت؛ وأن النجاة تكمن في رد الحقوق إلى ذويها.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى أكثر من حكم فقهي:

الأول: حكم اليمين كدليل للإثبات، وقد اتفق الفقهاء[1] على أن اليمين أحد أدلة الإثبات في الدعاوى، ويجب على القاضي أن يأخذ بها وأنها تتوجه للمنكر عند عدم البينة من المدعي تطبيقًا للحديث الشريف الوارد في هذا الشأن فإن حلف المنكر قُضي له بيمينه.

الثاني: حرمة اليمين، فقد ذكر الفقهاء أنه يحرم الحلف كذبًا لاقتطاع حق الغير، ومن فعل ذلك مستحلاً له فهو كافر ومخلد في النار، ومن فعله غير مستحل فقد ارتكب ذنبًا كبيرًا يحرم عليه دخول الجنة أول وهلة مع الفائزين[2].

الثالث: هل يبيح حكم الحاكم للإنسان ما ليس له؟ اختلف الفقهاء في ذلك على رأيين، فذهب جمهور الفقهاء من المالكية والشافعية والحنابلة وأبي ثور ومحمد بن الحسن إلى أن حكم الحاكم لا يبيح للإنسان ما ليس له، وإنما يظل الحال على ما كان عليه قبل القضاء به من حل أو حرمة، وذهب أبو حنيفة إلى أن حكم الحاكم يبيح له ما لم يكن له، وينفذ حكمه ظاهرًا وباطنًا[3]، والراجح رأي الجمهور، لأن

---

(١) تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ٢٩٤/٤، والمبسوط، السرخسي ١١٨/١٦، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٣٠٥/٢، ٢٤٢/٦، والمدونة ٣٧٩/٣، وأحكام القرآن، ابن العربي ٣٢٩/١، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٣٨٦/٤، وحاشيتا قليوبي وعميرة ٣٤٢/٤، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٢٩٢/٤، والطرق الحكمية لابن القيم ص ٦٧، وإعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، تحقيق: رائد صبري بن أبي علفة ٧١/١.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦١/٢.

(٣) شرح معاني الآثار، الطحاوي ١٥٥/٤، وأحكام القرآن، الجصاص ٣٤٤/١ وما بعدها، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ١٨٦/٥، وأحكام القرآن، ابن العربي ٣٦٤/١، الأم ٤١٢/٨، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين بن الحسن بن عبدالرحمن ١٣٠/٧، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ١٠٥/١٠، والفتاوى الكبرى ٥٦٣/٥، والفروع، ابن مفلح ٤٩٠/٦، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٢/٢.

الحاكم يحكم بالظاهر فلا يبيح ما كان حرامًا.

الرابع: حرمة حقوق المسلمين من مال وغيره، وقد سبق الكلام عنه في الحديث رقم (٢١٣).

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الشرط، الترهيب، السؤال والجواب.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: حرمة غصب حقوق الآخرين.

ثالثًا: من حقوق المدعو: السؤال عما يجهل.

أولاً: من أساليب الدعوة: الشرط، والترهيب، والسؤال والجواب

١- **الشرط**: حيث جاء في الحديث "من اقتطع..." وما من شك في أن الشرط أسلوب من الأساليب الدعوية المهمة، حيث يلفت انتباه المدعو إلى معرفة جواب الشرط، ويبين كذلك ارتباط الجزاء بالعمل إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

٢- **الترهيب**: حيث قال النبي ﷺ في الحديث: "... فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة" والترهيب أسلوب دعوي يعمل على الزجر وحمل النفس على الطاعة، ويخوفها من الظلم والمعصية، وقد كثر في القرآن الكريم استخدام هذا النوع من الأساليب ومنه قوله تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾[1] ويحسن بالداعية أن يفيد من الترهيب في علاجه للموضوعات الدعوية التي تتطلب ذلك.

٣- **السؤال والجواب**: ويتضح هذا من سؤال الرجل للنبي ﷺ (وإن كان شيئًا يسيرًا يا رسول الله؟) ويعتبر السؤال والجواب من الأساليب الدعوية المهمة التي تسهم في بيان الحقائق، وإقرارها في أذهان المدعوين، لأنه يحقق التفاعل والحوار بين الداعية والمدعو، وتتوجه فيه المعلومة مباشرة إلى السامع، وعلى الدعاة إلى الله استخدام هذا الأسلوب لشد انتباه المدعوين، وإيجاد قنوات حوار فيما بينهم.

---

(١) سورة إبراهيم، آية: ٥٠.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: حرمة غصب حقوق الآخرين:

لقد حذر النبي ﷺ من الاعتداء على حقوق الآخرين وغصبها في الحديث فقال: "من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار، وحرم عليه الجنة". قال القاضي عياض: (إنما كبرت هذه المعصية بحسب اليمين الغموس، التي هي من الكبائر الموبقات، وتغييرها في الظاهر حكمة الشرع واستحلاله بها الحرام، وتصييرها المحق في صُورة المبطل والمبطل في صورة المحق، ولهذا عظم أمرها وأمر شهادة الزور، وإيجاب النار فيها على حكم الكبائر، إلا أن يشاء الله أن يعفو عن ذلك لمن يشاء، وتحريم الجنة عند دخول السابقين لها والمتقين، وأصحاب اليمين، ثم لابد لكل موحد من دخولها، إما بعد وقوف وحساب أو بعد نكال وعذاب.

وتخصيصه هنا المسلم، إذ هم المخاطبون، وعامة المتعاملين في الشريعة لا أن غير المسلم بخلافه، بل حكمه حكمه في ذلك)[1]، وقال الإمام النووي: "وتقييده بالمسلم ليس يدل على تحريم حق الذمي، بل معناه أن هذا الوعيد الشديد وهو أنه يلقى الله تعالى وهو عليه غضبان لمن اقتطع حق المسلم، وأما الذمي فاقتطاع حقه حرام، لكن ليس يلزم أن تكون فيه هذه العقوبة العظيمة، وفي هذا الحديث بيان غلظ تحريم حقوق المسلمين، وأنه لا فرق بين قليل الحق وكثيره لقوله ﷺ ((وَإِنْ قَضِيبا مِنْ أَرَاكٍ))[2] وقد دلت نصوص الشرع على حرمة غصب حقوق الآخرين قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمۡ﴾[3]. وقال الله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾[4] قال ابن عاشور: (والبغي المحرم هو الاعتداء على حق الغير بسلب أموالهم

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٤٣٤/١.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٧٩.

(٣) سورة النساء، آية: ٢٩.

(٤) سورة الأعراف، آية: ٣٣.

أو بأذاهم، والكبر على الناس من البغي، وقد كان البغي شائعًا في الجاهلية فكان القوي يأكل الضعيف)[١]. ويعتبر هذا الموضوع من الموضوعات المهمة التي تستلزم توعية الناس بها.

جاء في الموسوعة الفقهية: (والغصب لغة: هو أخذ الشيء ظلمًا وقهرًا، واصطلاحًا: الاستيلاء على حق الغير عدوانًا أي بغير حق، والغصب حرام إذا فعله الغاصب عن علم لأنه معصية، وقد ثبت تحريمه بالقرآن والسنة والإجماع. ويتحقق الغصب بمجرد الاستيلاء أي إثبات يد العدوان على الشيء المغصوب بمعنى إثبات اليد على مال الغير بغير إذنه، ولا يشترط إزالة يد المالك، وليس المقصود من الاستيلاء، الاستيلاء الحسي بالفعل، وإنما يكفي الحيلولة بين المال وبين صاحبه، ولو أبقاه بموضعه الذي وضعه فيه)[٢].

والغصب ظلم للغير، وقد حذر النبي ﷺ من عاقبة الظلم كما جاء في الحديث الذي معنا، وهذا واجب الداعية أن يبين للناس مساوئ الظلم حتى يجتنبوه، وقد بين الله في القرآن أن الظالمين لا نصير لهم ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[٣] وأن النار هي نهاية الظالمين ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٤] وأنهم لا فلاح لهم ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[٥] وأن الله أعدَّ لهم نارًا ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟﴾[٦]. وبناء على هذه النصوص واجب على الداعية أن يحذر المدعوين من غصب حقوق الغير لأن ذلك من أبشع الظلم.

---

(١) التحرير والتنوير مج٤/٨/١٠٠.

(٢) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٣١/٢٢٩-٢٣٠.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٩٢.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٥١.

(٥) سورة الأنعام، آية: ١٣٥.

(٦) سورة الكهف، آية: ٢٩.

ثالثًا- من حقوق المدعو: السؤال عما يجهل:

حيث جاء في الحديث فقال رجل: "وإن كان شيئًا يسيرًا يا رسول الله؟" وهذا حق المدعو أن يسأل عما يجهل حتى لا يقع في محرم، وليتحرز عن المعاصي ولا يمنع الإنسان الكبر أو الحياء عن السؤال والعلم فقد قال رسول الله ﷺ: ((من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين))[١]. وقد أمر الله بالسؤال لأهل الذكر فقال سبحانه: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٢].

أي أهل العلم، فإن الله أمر من لا يعلم بالرجوع إليهم، في جميع الحوادث، وفي ضمنه تعديل لأهل العلم وتزكية لهم حيث أمر بسؤالهم، وأن بذلك يُخْرِج الجاهل من التبعة، فدل على أن الله ائتمنهم على وحيه وتنزيله، وأنهم مأمورون بتزكية أنفسهم، وأفضل أهل الذكر: أهل هذا القرآن العظيم، فإنهم أهل الذكر على الحقيقة وأولى من غيرهم بهذا الاسم ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾[٣] أي القرآن الذي فيه ذكر ما يحتاج إليه العباد من أمور دينهم ودنياهم الظاهرة والباطنة[٤].

قال د. عبدالكريم البكار: (إن الناس يحتاجون إلى إقناع بضرورة تعلم المراجعة والمشاركة في عملية التعلم والتفهم للموضوعات المطروحة، وهم بحاجة إلى تدريب على ذلك، والترحيب باستجابتهم لهذه الدعوة بدل ما يحصل الآن من الحرص على صمتهم واستماعهم لما يلقى عليهم، ولخصوصية خطبة الجمعة فمن الممكن أن يجلس الخطيب دقائق بعد صلاة الجمعة لمناقشة بعض المسائل التي وردت في الخطبة والاطمئنان إلى أنها فهمت على الوجه الصحيح ولسماع وجهات النظر الأخرى)[٥].

---

(١) أخرجه البخاري ٧١.

(٢) سورة الأنبياء، آية: ٧.

(٣) سورة النحل، آية: ٤٤.

(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٣٩٤.

(٥) مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي ١٥٥.

الحديث رقم (٢١٥)

٢١٥- وعن عَدِي بن عُمَيْرَةَ ﷺ قال: سَمِعْتُ رسولَ اللَّه يَقُول: «**مَن اسْتَعْمَلْنَاهُ مِنْكُمْ عَلَى عَمَلٍ، فَكَتَمَنَا مِخْيَطًا فَمَا فَوْقَهُ، كَانَ غُلُولا يَأْتِي بِهِ يوْم الْقِيامَةِ**» فقَام إِلَيْهِ رجُلٌ أَسْوَدُ مِنَ الأَنْصَارِ، كأَنِّي أَنْظرُ إِلَيْهِ، فقال: يا رسول اللَّه اقْبل عني عملَكَ قال: «ومالكَ؟» قال: سَمِعْتُك تقُول كَذَا وَكَذَا، قال: «**وَأَنَا أَقُولُهُ الآن: من اسْتَعْمَلْنَاهُ**[1] **عَلَى عملٍ فلْيجِيء بقَلِيلهِ وَكثِيرِه، فمَا أُوتِي مِنْهُ أَخَذَ ومَا نُهِي عَنْهُ انْتَهَى**» رواه مسلم[2].

ترجمة الراوي:

عَدي بن عُمَيْرة: هو عَدي بن عُميرة بن فروة بن زرارة بن الأرقم الكندي كنيته: أبو زرارة.

له ولأخيه العُرْس [بضم العين وسكون الراء] صحبة، فقد وفدا على النبي ﷺ فأسلما وأقطعهما مسكنهما.

وكان سبب إسلام عَدي أنه كان بأرضهم حبرٌ من اليهود فقال لهم: إني أجد في كتاب الله أن أصحاب الفردوس قومٌ يعبدون ربهم على وجوههم، فمكثوا فترة حتى بلغهم بعثة النبي ﷺ فتذكر حديث الحبر فخرج إليه ﷺ فوجده هو ومن معه يسجدون على وجوههم فأسلم.

نزل العراق وسكن الكوفة، وكان مُجلاً لكبار الصحابة لا يقع فيهم ولا يقيم ببلدٍ تنال منهم، لما قتل عثمان بن عفان وجد بعض أهل الكوفة يقعون فيه وينالون منه ويشتمونه، فقال قومه بنو الأرقم: لا نقيم ببلدٍ يشتم فيها عثمان. فانتقلوا إلى الشام حيث أنزلهم معاوية بن أبي سفيان الجزيرة.

لم يرو عَدي إلا اليسير من الحديث. وقد اختلف في وفاته مكانًا وزمانًا: فقيل: مات بالجزيرة. وقيل غير ذلك. وهو والد عدي بن عدي من ثقات التابعين وقد ولي قضاء

(١) عند مسلم زيادة: (منكم).

(٢) برقم (١٨٣٣/٣٠). أورده المنذري في ترغيبه (١١٥٥).

الجزيرة أيام عمر بن عبدالعزيز[(١)].

غريب الألفاظ:

المخْيَط: أي الإبرة[(٢)].

الغُلُول: أخذ الشيء خُفْيَةً وخيانَةً[(٣)].

الشرح الأدبي

نقتبس من هذا الحديث ومضات من التوجيهات النبوية، وإشعاعات من التعاليم المحمدية.

وهذه الومضات تشرق في آفاق المسؤولية التي يتحملها الولاة والقواد، وأولوا الأمر بصفة عامة ومنهم في عصرنا الحاضر، الولاة والأمراء والمحافظون، ورؤساء المصالح والدواوين الحكومية، والقيام بأعباء هذه المسؤولية تحدد إطار هذه القاعدة المنهجية في سياسة الرعية، والتي قدمها خاتم الأنبياء المبعوث رحمة للعالمين، في قوله: "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته".

ويتوهج هذا الحديث بكثير من الدلالات والأساليب التي تؤطر مسؤولية كل من يتولى أمرًا من أمور المسلمين في كل زمان وكل مكان، ولذلك يبدأ الحديث بتأصيل هذه القاعدة التي أرساها رسول الله ﷺ محددًا مصير كل من يفرط في الأمانة، وكل من يقتطع حق امرئ مسلم بيمينه، وكل مسؤول يستغل موقعه ووظيفته استغلالاً مريبًا ويخص نفسه بمخصصات ومزايا لا تعطى لغيره ولا يجد محاسبًا ولا رقيبًا،

---

(١) الطبقات الكبرى، ابن سعد (٥٥/٦)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٥٧٨، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (١٤/٤)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ٨٩٩، ٩٠٢، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين (١٤٧/٥)، والتهذيب (٨٧/٣).

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (خ ي ط).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (غ ل ل).

وتشديدًا في العقوبة يصوغ المصطفى ﷺ هذه القاعدة في صيغة الشرط والجواب فيقول: "من استعملناه منكم على عمل فكتمنا مِخْيَطًا فما فوقه كان غلولاً يأتي به يوم القيامة"، والتعبير بهذه الصيغة "استعملناه"، يوحي بوجوب القيام بالعمل المنوط بالمكلف به، وحتمية القيام بواجبات هذه المسؤولية، وأداء الحقوق لمستحقيها، ولم يقل الرسول ﷺ: استعملته، لأن الولاية تكون تكليفًا من الأمة وفق تعاليم الكتاب والسنة، فالرسول لم يكلف هذا العامل بمطلب شخصي، ولكنه كلفه بمسؤولية رعاية الأمة، والمحافظة على حقوقها، وقوله "منكم"، يدل على أن العامل والوالي والمسؤول لا بد أن يكون مسلمًا، وأن لا يكون مترفعًا ولا متكبرًا، فالناس في الإسلام كلهم سواسية كأسنان المشط.

وتنكير لفظ "عمل"، يفيد الشمول والعموم: فأى عمل قليل أو كثير يجب أن يقوم به العامل عليه خير قيام، وقوله "فكتمنا مخيطًا فما فوقه"، يدل على أن المخالفة في الشيء الصغير، تعدل في العقوبة ارتكاب الكبائر في هذا المجال الذي يحتم على كل والٍ أن يرعى مصالح الأمة، ولا يستأثر بشيء لنفسه، ولا يقول: هذا لكم وهذا أهدي إلي، ولا يكتم شيئًا مما جمعه من الزكاة أو الغنائم أو الموارد، ولذلك رمز المصطفى ﷺ إلى قلة الشيء المختلس أو المغتصب أو المسروق أو المنهوب بقوله "مخيطا" وهو الإبرة، وجواب الشرط يأتي محددًا العقوبة في صرامة وحسم مصدرًا بفعل الكينونه، الذي يجسد العقوبة، ويشكل المصير، "كان غلولاً يأتي يوم القيامة"، والغلول: هو إخفاء الشيء وكتمانه، ولكن هذا الذي أخفاه يكون يوم القيامة عنوان فضيحة هذا المختلس، وذلك الغال، قال تعالى: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾[1].

والحوار في قلب الحديث بين الرسول ﷺ والأنصاري يعد ثمرة صادقة لهذا التوجيه النبوي، لأن الرجل شعر أنه غير أهل لهذه المسؤولية، وأنه أراد أن يستقيل من عمله لأنه لم يقم بواجبه خير قيام، ويسأله الرسول عن السبب، فيقول: سمعتك تقول:

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٦١.

كذا وكذا، وهذا تعبير فيه كناية عن أمور كثيرة، يمكن أن تتكرر في كل زمان وكل مكان، ثم يختم الرسول ﷺ حديثه بثلاث جمل شرطية يتوازن فيها العمل مع الجزاء، والجواب مع الشرط، ويحدد ما يجب على كل مسؤول فعله تحديدًا موجزًا واضحًا ويكرر ما بدأ به الحديث تأكيدًا للمعنى، وحرصًا على مصلحة الأمة، من استعملناه منكم على عمل فليجيء بقليله وكثيره، فما أوتي منه أخذ، وما نهي عنه انتهى.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم هدايا العمال وقد سبق الكلام عنها في الحديث رقم (٢٠٩)، وبَوَّبَ النووي هذا الحديث ونحوه تحت عنوان تحريم هدايا العمال، وقال: وفي هذا الحديث بيان أن هدايا العمال حرام وغلول، لأنه المطلوب في ولايته وأمانته[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الترهيب، والسؤال والجواب.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: حرمة الغلول.

ثالثًا: من واجبات المدعو: الانقياد للأحكام الشرعية.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: الدعوة إلى الأمانة والحذر من الخيانة.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: مسؤولية الإمام عن أموال الأمة.

سادسًا: من أهداف الدعوة: الحفاظ على الأموال.

أولاً- من أساليب الدعوة: الترهيب، والسؤال والجواب:

١- **الترهيب:** حيث جاء في الحديث أن من يكتم شيئًا من أموال المسلمين يأتي به يوم القيامة، ولا شك أن الترهيب من أساليب الدعوة التي لها دور في كف النفس عن الحرام، وأخذها بالحزم، ويبين عواقب الأمور للمدعو.

"إن النفوس البشرية مختلفة الطباع، منها ما يجلبه الترغيب، ومنها ما يخيفه

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢/٢١٩.

الترهيب، ولهذا جاء القرآن الكريم والسنة المطهرة بالأسلوبين، قال الله تعالى: ﴿وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗا﴾[(١)]، والدعاة إلى الله مطالبون بانتهاج الأسلوبين مع الناس كل حسب ما يناسبه، ومن أدوات الترغيب: بيان فضل ذكر الله وتسبيحه وتحميده وفضل المحافظة على الصلاة، وفضل الإحسان إلى الوالدين وصلة الرحم. ومن أدوات الترهيب التخويف بالله ومن الله وحسابه وعقابه وناره وملائكته وعذاب القبر وسؤاله"[(٢)].

٢- **السؤال والجواب:** ويظهر من الحديث في قوله: (ومالك؟) والسؤال والجواب أسلوب من أساليب الدعوة يعطي للمدعو فرصة للاستفسار عما يجهل، ومعرفة مدى توافق تصرفاته وأعماله مع الشرع الحنيف.

قال عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني: "إن مجالس السؤال والجواب لها قيمة تأثيرية عظيمة لدى طارحي الأسئلة الذين يتلقون الإجابات على أسئلتهم ممن وجهّوها لهم، ولدى المستمعين الآخرين، ذلك أن من طبيعة السائلين أن يطرحوا أسئلتهم عادة على من يحترمونه ويقدرونه ويثقون بعلمه وأمانته العلمية، وبقدرته على فهم أسئلتهم فهمًا دقيقًا، فإذا كان لديه علم بالأجوبة عليها أجاب، وإلا طلب تأجيل الإجابة حتى يستوثق من الجواب الصحيح"[(٣)].

ومن صور استعمال القرآن الكريم لأسلوب السؤال والجواب قوله تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ﴾[(٤)]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[(٥)].

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ٩٠.

(٢) فقه الدعوة، د. بسام العموش ص ٨٦ - ٨٧.

(٣) فقه الدعوة إلى الله تعالى ٢/٥٨.

(٤) سورة البقرة، آية: ٢٢٢.

(٥) سورة الأنفال، آية: ١.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: حرمة الغلول:

يستنبط هذا من قول النبي ﷺ (كان غلولاً يأتي به يوم القيامة) وقد نص الشرع الحنيف على حرمة الغلول، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (١)، قال السعدي: (والغلول هو الكتمان من الغنيمة، والخيانة في كل ما يتولاه الإنسان وهو محرم إجماعًا؛ بل هو من الكبائر كما تدل عليه هذه الآية فالغلول من أعظم الذنوب وشر العيوب، ومن غلّ يأت به حامله على ظهره حيوانًا كان أو متاعًا أو غير ذلك يعذب به يوم القيامة)(٢).

وحذر النبي ﷺ من الغلول فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللّهِ ذَاتَ يَوْمٍ. فَذَكَرَ الْغُلُولَ فَعَظَّمَهُ وَعَظَّمَ أَمْرَهُ. ثُمَّ قَالَ: ((لاَ أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ. يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللّهِ أَغِثْنِي. فَأَقُولُ: لاَ أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا. قَدْ أَبْلَغْتُكَ))(٣)، قال النووي: (أصل الغلول الخيانة مطلقًا، ثم غلب على الخيانة في الغنيمة، وأجمع المسلمون على تغليظ تحريم الغلول وأنه من الكبائر)(٤).

ثالثًا- من واجبات المدعو: الانقياد للأحكام الشرعية:

يتضح هذا من قول الرجل الأنصاري: (يا رسول الله أقبل عني عملك) وذلك بعد ما سمع تحذير النبي ﷺ من الغلول، وهذا شأن المسلم دائمًا سرعة الاستجابة والانقياد لحكم الله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٥)، وأمر الله بهذه الاستجابة فقال

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٦١.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ١٢٢.

(٣) أخرجه مسلم ١٨٣١.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٨٧.

(٥) سورة النور، آية: ٥١.

سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾[١].

قال ابن كثير: (قال البخاري: استجيبوا، أي: أجيبوا (لما يحييكم) أي: لما يصلحكم. وقال مجاهد: (لما يحييكم)، أي: الحق. وقال قتادة: (لما يحييكم) أي: هو هذا القرآن فيه النجاة والتقاة والحياة. وقال السدي: (لما يحييكم) ففي الإسلام إحياؤهم بعد موتهم بالكفر)[٢].

وقال السعدي في تفسير: (يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان منهم وهو الاستجابة لله وللرسول ﷺ، أي: الانقياد لما أمر به والمبادرة إلى ذلك والدعوة إليه والاجتناب لما نهيا عنه والانكفاف عنه والنهي عنه.

وقوله: "إذا دعاكم لما يحييكم" وصف ملازم لكل ما دعا الله ورسوله إليه، وبيان لفائدته وحكمته، فإن حياة القلب والروح بعبودية الله تعالى ولزوم طاعته وطاعة رسوله على الدوام[٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللّه. وَمَنْ يَعْصِنِي فَقَدْ عَصَى اللّهَ))[٤].

قال ابن القيم: (وبحسب متابعة الرسول ﷺ تكون العزة والكفاية والنصرة، كما أنّ بحسب متابعته تكون الهداية والفلاح والنجاة، فالله سبحانه علّق سعادة الدارين بمتابعته، وجعل شقاوة الدارين في مخالفته، فلأتباعه الهدى والأمن والفلاح والعزة والكفاية والنصرة والولاية والتأييد، وطيب العيش في الدنيا والآخرة، ولمخالفيه الذلة والصغار، والخوف والضلال، والخذلان والشقاء في الدنيا والآخرة)[٥].

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٢٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٤/٣٤ - ٣٥.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٢٨٠.

(٤) أخرجه البخاري ٢٩٥٧، ومسلم ١٨٣٥.

(٥) زاد المعاد ١/٣٧.

وقد بيّن ﷺ أن إيمان المسلم مرتبط بانقياده ومتابعته للرسول ﷺ: ((لاَ يُؤْمِنُ عَبْدٌ حتى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ))(١).

قال النووي: (قال الخطابي: لم يرد به حب الطبع، بل أراد به حب الاختيار، لأن حب الإنسان نفسه طبع، ولا سبيل إلى قلبه فمعناه: لا تصدق في محبتي حتى تفنى في طاعتي نفسك، وتؤثر رضاي على هواك، وإن كان فيه هلاكك. قال ابن بطال: ومعنى الحديث: أن من استكمل الإيمان علم أن حق النبي ﷺ آكد عليه من حق أبيه وابنه والناس أجمعين لأن به ﷺ استُنقذنا من النار، وهُدينا من الضلال)(٢).

رابعًا- من موضوعات الدعوة: الدعوة إلى الأمانة والحذر من الخيانة:

حيث قال النبي ﷺ: (من استعملناه على عمل فليجئ بقليله وكثيره) وهذا تنبيه من النبي ﷺ إلى الأمانة وأهميتها، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾(٣)، قال القاسمي: (هذه الآية من أمهات الآيات المشتملة على كثير من أحكام الشرع، قال أبو السعود: في تصدير الكلام بكلمة التحقيق، وإظهار الاسم الجليل، وإيراد الأمر على صورة الإخبار من الفخامة، وتأكيد وجوب الامتثال به، والدلالة على الاعتناء بشأنه ما لا مزيد عليه وهو خطاب يعم المكلفين قاطبة، كما أن الأمانات تعم جميع الحقوق المتعلقة بذممهم من حقوق الله تعالى وحقوق العباد)(٤).

وحذر الله من الخيانة فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾(٥)، وجعل الرسول الكريم ﷺ من علامة المنافق خيانة

---

(١) أخرجه البخاري ١٥، ومسلم ٤٤ واللفظ له.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢١.

(٣) سورة النساء، آية: ٥٨.

(٤) محاسن التأويل، القاسمي ٢٤٣/٥/٣.

(٥) سورة الأنفال، آية: ٢٧.

الأمانة، ففي الحديث: ((آيةُ المُنافِق ثلاثٌ إذا حَدَّثَ كَذَب، وإذا وَعَدَ أخْلَفَ، وإذا أؤْتُمِنَ خان))[١].

وفي الحث على أداء الأمانة جاء عن يوسف بن ماهك المكي قال: كُنْتُ أكْتُبُ لِفُلاَنٍ نَفَقَةَ أيْتَامٍ كَانَ وَلِيَّهُمْ فَغَالَطُوهُ بِألْفِ دِرْهَمٍ فأدَّاهَا إلَيهِمْ فَأدْرَكْتُ لَهُمْ مِنْ مَالِهِمْ مِثْلَيْهَا. قالَ قُلْتُ: أقْبِضْ الألْفَ الَّذِي ذَهَبُوا بِهِ مِنْكَ. قالَ: لاَ. حَدَّثَني أبي أنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللّه ﷺ يَقُولُ: ((أدِّ الأمَانَةَ إلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ، وَلاَ تَخُنْ مَنْ خَانَكَ))[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالمُؤْمِنُ مَنْ أَمنهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ))[٣].

جاء في موسوعة نضرة النعيم: "والأمانة من كمال الإيمان وحسن الإسلام، يقوم عليها أمر السماوات والأرض، وهي محور الدين وامتحان رب العالمين، وبالأمانة يحفظ الدين والأعراض والأموال والأجسام والأرواح والمعارف والعلوم والولاية والوصاية والشهادة والقضاء والكتابة، والأمين يحبه الله ويحبه الناس، ومن أعظم الصفات الخلقية التي وصف الله بها عباده المؤمنين بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾[٤]، والمجتمع الذي تفشو فيه الأمانة مجتمع خير وبركة"[٥].

خامسًا- من موضوعات الدعوة: مسؤولية الإمام عن أموال الأمة:

الإمام بحكم موقعه ومنصبه مسؤول ومحاسب عن أموال الأمة ففي الحديث الشريف: ((ألاَ كُلُّكُمْ رَاعٍ. وَكُلُّكُمْ مَسْوولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ. فَالأَمِيرُ الَّذي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ،

(١) أخرجه البخاري ٣٣، ومسلم ٥٩.

(٢) أخرجه أبو داود ٣٥٣٤، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٠١٨).

(٣) أخرجه الترمذي ٢٦٢٧، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢١١٨).

(٤) سورة المؤمنون، آية: ٨.

(٥) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن ملوح ٤٢٥/٣.

وَهُوَ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ))[١]، وفي تفريطه في أموال الناس يكون غاشًا لهم مضيعًا لحقوقهم، وقد جاء في الحديث: ((مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللّهُ رَعِيَّةً، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ، إلاَّ حَرَّمَ الله عَلَيْهِ الْجَنَّةُ))[٢].

قال النووي: (وفي هذا الحديث وجوب النصيحة على الوالي لرعيته، والاجتهاد في مصالحهم، والنصيحة لهم في دينهم ودنياهم)[٣].

ولا شك أن المناصب أمانة، واستغلالها خيانة، وقد قال الرسول الكريم ﷺ لأبي ذر رضي الله عنه: ((يَا أَبَا ذَرَ إِنَّكَ ضَعِيفٌ. وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ. وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ. إلاَّ مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا))[٤]، وقد حذر النبي ﷺ من استغلال المنصب في جمع مال أو ثروة أو قبول هدية أو رشوة فلما استعمل ابن اللتيبة - رجلاً من الأزد - على الصدقة فجاء بالمال فدفعه إلى النبي ﷺ فقال: هَذَا مَالُكُمْ. وَهَذِهِ هَدِيَّةٌ أُهْدِيَتْ لِي. فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: ((أَفَلاَ قَعَدْتَ فِي بَيْتِ أَبِيكَ وَأُمِّكَ فَتَنْظُرَ أَيُهْدَى إِلَيْكَ أَمْ لاَ؟ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ يَنَالُ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْهَا شَيْئًا إلاَّ جَاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُهُ عَلَى عُنُقِهِ))[٥]، وهذا يدل على الترهيب الشديد من استغلال المناصب.

سادسًا- من أهداف الدعوة: الحفاظ على الأموال:

إن الحفاظ على الأموال هدف رئيس من أهداف الدعوة باعتبار أن حفظ المال من الكليات أو الضرورات الخمس التي يؤمر بحفظها والدفاع عنها، قال الشاطبي: (ومجموع الضرورات خمسة وهي حفظ الدين والنفس والنسل والمال والعقل، وهذه الضرورات إن فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة بل على فساد وتهارج، وفوت حياة، وفي الأخرى فوت النجاة والنعيم والرجوع بالخسران المبين)[٦]، ومن هنا نص

---

(١) أخرجه البخاري ٢٥٥٤، ومسلم ١٨٢٩.

(٢) أخرجه مسلم ١٨٢٩.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٨٦.

(٤) أخرجه مسلم ١٨٢٥.

(٥) أخرجه مسلم ١٨٣٢.

(٦) الموافقات في أصول الشريعة ٢/ ٨ - ٩.

القرآن على حرمة أكل المال بالباطل، قال تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾[١]، ونص على عقوبة القطع لمن يتطاول على مال الآخرين: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾[٢].

وقال الرسول الكريم ﷺ: ((إِنَّ دِمَاءَكُمْ وأَمْوَالَكُمْ وأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذا))[٣]، وواجب الداعية إبراز هذه الأهداف وتعريف الناس بها.

(إن الإسلام الحنيف كما احترم حق الحياة فإنه كذلك احترم حق الملكية واعتبره حقًا مقدسًا، لا يحل لأحد أن يعتدي عليه بأي وجه من الوجوه، ولهذا حرّم السرقة والغصب والربا والغش وتطفيف الكيل والوزن والرشوة، واعتبر كل مال أخذ بغير سبب مشروع أكلاً للمال بالباطل، وقد قضى الإسلام بقطع يد السارق التي من شأنها أن تباشر السرقة، وفي ذلك حكمة بينة، إذ أن اليد الخائنة بمثابة عضو مريض يجب بتره ليسلم الجسم. والتضحية بالبعض من أجل الكل مما اتفقت عليه الشرائع والعقول، كما أن في قطع يد السارق عبرة لمن تحدثه نفسه بالسطو على أموال الناس، فلا يجرؤ أن يمد يده إليها، وبهذا تحفظ الأموال وتصان. ومما يؤكد حرص الإسلام على المحافظة على أموال الناس، وتقديسه لهذا الحق أنه هدد الذين يتلاعبون بالمكاييل والموازين بالويل والهلاك، قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾[٤])[٥].

---

(١) سورة النساء، آية: ٢٩.

(٢) سورة المائدة، آية: ٣٨.

(٣) أخرجه البخاري ١٠٥، ومسلم ١٦٧٩.

(٤) سورة المطففين، الآيات: ١ - ٣.

(٥) إسلامنا، السيد سابق ص ٢٧٣ - ٢٧٥ بتصرف.

الحديث رقم (٢١٦)

٢١٦- وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لمَّا كان يوْمُ خيْبرَ أقْبل نَفرٌ مِنْ أَصْحابِ[1] النَّبيِّ ﷺ فَقَالُوا: فُلانٌ شَهِيدٌ، وفُلانٌ شهِيدٌ، حتَّى مَرُّوا علَى رَجُلٍ، فقالوا: فلانٌ شهِيد. فقال النَّبيُّ ﷺ: «**كلاَّ إِنِّي رَأَيْتُهُ فِي النَّارِ فِي بُرْدَةٍ غَلَّها أَوْ عبَاءَةٍ**» رواه مسلم[2].

ترجمة الراوي:

عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١).

غريب الألفاظ:

خيبر: مجموعة من الحصون تقع شمال المدينة المنورة بـ ١٧٠ كم على الطريق منها إلى الشام فتحت بعد صلح الحديبية مباشرة في أول المحرم ٧هـ مع فَدْك ووادي القُرى وتيماء[3].

في بُرْدَة: بسبب بُردةٍ، وهي كساءٌ تلبسه الأعراب[4].

عباءة: كساء عريض يُلبس فوق الثياب[5].

الشرح الأدبي

إن الغزوات في عهد المصطفى ﷺ هي تاج الفخار لكل مسلم، وهي التي بسببها وفّق جندُ المسلمين إلى نشر العقيدة الإسلامية في أرجاء المعمورة، وقد سميت الغزوات بعد ذلك بالفتوحات؛ وفتح مكة هو الفتح الأعظم، وهو الفتح المبين، وهو الذي بشر به الله نبيه محمدًا ﷺ. وسورة الفتح لم تزل فيوضاتها تتجلى وتشرق في كل قلب ينطوي على عقيدة خالصة، يتخذ من التوحيد منهجًا وسلوكًا ملتزمًا بخصائص

---

(١) لفظ مسلم: (من صحابة النبي).

(٢) برقم (١١٤/١٨٢). أورده المنذري في ترغيبه (٢٠١٣).

(٣) انظر: أطلس الحديث النبوي ١٦٨.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ب ر د).

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ع ب أ).

التصور الإسلامي.

وغزوة خيبر، من الغزوات التي ظهرت فيها البطولات الإسلامية، والتي لقن فيها المسلمون اليهود دروسًا، وأذاقوهم الويل، وذلك لما قام به بنو قريظة من خيانة للعهد، ونكث للوعود.

وقد خرج النبي ﷺ إلى خيبر في بقية المحرم سنة سبع أو سنة ست من الهجرة، وظل يحاصرها سبع عشرة ليلة إلى أن فتحها في صفر من نفس السنة، ولما انصرف من الحديبية، نزلت عليه سورة الفتح فيها بين مكة والمدينة، فأعطاه الله فيها خيبر بقوله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾[1]. يعني خيبر، فقدم المدينة في ذي الحجة فأقام بها حتى سار إلى خيبر في المحرم.

ولنتأمل هذا الحديث الشريف وما يتضمنه من مشاهد هذه الغزوة التي ارتفع فيها لواء الإسلام، وثبتت راية العقيدة، وارتفع صوت سلمة بن الأكوع بهذه المناجاة، وذلك الدعاء الصاعد من القلب: إذ ينادي:

اللَّهُمَّ! لَوْلاَ أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا ... وَلاَ تَصَدَّقْنَا وَلاَ صَلَّيْنَا

فَاغْفِرْ، فِدَاءً لَكَ، مَا اقْتَفَيْنَا ... وَثَبِّتِ الأَقْدَامَ إِنْ لاَقَيْنَا

وَأَلْقِيَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا ... إِنَّا إِذَا صِيحَ بِنَا أَتَيْنَا

وَبِالصِيَاحِ عَوَّلُوا عَلَيْنَا[2]

والحديث يرصد مشهدًا حواريًا بين رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم حول الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله، وهم أحياء عند ربهم يرزقون، فرحين بما آتاهم الله من فضله، ورأى الصحابة رضي الله عنهم مصارع الشهداء، فشهدوا لهم وقالوا: فلان شهيد، وفلان شهيد، ويقرهم الرسول على ذلك، ولفظ "فلان"، كناية عن اسم يُسمَّى به المحدث عنه، والشهداء

(١) سورة الفتح، آية: ٢٠.

(٢) الرحيق المختوم ص ٣٦٥، ط دار العقيدة للتراث، الاسكندرية.

كانوا كثيرين، وأسماؤهم معروفة في كتب التاريخ والسير، وبطولاتهم مضيئة، ومواقفهم جريئة، ولكن الرسول لم يقر الصحابة رضي الله عنهم على شهادتهم لأحد القتلى، الذين سقطوا صرعى في يوم خيبر، وقال حينما مروا على رجل: فقالوا فلان شهيد: فقال النبي: كلا، أي: انته وانزجر عن هذا القول، والحكم له بالشهادة.

ويوضح المصطفى ﷺ السبب في عدم فوز هذا الرجل بالشهادة: ولم يسم الرجل: حرصاً على عدم فضح أمره بعد موته، والسبب أنه: كتم شيئًا مما جاءه من الغنائم حيث أخفى: بردة أو أخفى عباءة، وجزاؤه أن الرسول شاهد مصيره وهو النار وبئس المصير وتأكيدًا لهذا المصير: بدأ الرسول عبارته بالتأكيد وياء المتكلم: ولم يقل: هو في النار، وإنما قال: رأيته في النار، نعوذ بالله من ذلك ونسأله الفوز والنجاة.

المضامين الدعوية

أولاً: من تاريخ الدعوة: غزوة خيبر.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثالثًا: من مهام الداعية: تصحيح ما التبس على الناس من أخطاء.

رابعًا: من آداب المدعو: عدم التسرع في إصدار الأحكام.

خامسًا: من دلائل النبوة: إخبار النبي ﷺ عن مصير أحد الناس.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: حرمة الغلول وخطر الخيانة.

سابعًا: من أساليب الدعوة: الزجر والترهيب.

أولاً- من تاريخ الدعوة: غزوة خيبر:

هذا ما أشار إليه نص الحديث من قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما كان يوم خيبر "وقد كانت غزوة خيبر في أواخر المحرم للسنة السابعة من الهجرة، وخيبر مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع تقع على بعد مئة ميل شمال المدينة جهة الشام، وكان مع النبي ﷺ في هذه الغزوة ألف وأربع مئة مقاتل ما بين فارس وراجل"[1].

---

(١) فقه السيرة النبوية، د. محمد سعيد رمضان البوطي، ٣٥٨.

قال ابن اسحاق: (فلما أشرف النبي ﷺ على خيبر قال لأصحابه قفوا، ثم قال: اللهم رب السماوات وما أظللن، ورب الأرضين وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما أذرين، فإنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها. أقدموا باسم الله)(١).

"وقد أتى رسول الله ﷺ خيبر ليلاً وكان إذا أتى قومًا بليل لم يُغر بهم حتى يصبح، فلما أصبح خرجت اليهود "بمساحيهم، ومكاتِلهم"(٢)، فلما رأوه قالوا: محمد والله، "محمد والخميس"(٣)، فقال النبي ﷺ خربت خيبر، إنا إذا نزلنا ساحة قوم فساء صباح المنذرين"(٤).

قال ابن سعد: (فوعظ رسول الله ﷺ الناس، وفرق بينهم الرايات، وابتدأت المعارك بين رسول الله ﷺ وأهل خيبر – وقد تحصنوا بحصونهم – وأخذ المسلمون يفتحونها حصنًا حصنًا: إلا الحصنين الأخيرين: الوطيح، والسُّلالم، فقد حاصرهما رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة)(٥).

وأخرج البخاري من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: ((لأُعطينَّ هذهِ الرايةَ غدًا رجلاً يَفتحُ الله على يديه، يُحبُّ اللّهَ ورسولَهُ ويحبُّه اللّهُ ورسولُه. قال: فبات الناسُ يدوكون لَيلتهم: أيُّهم يُعطاها؟ فلما أصبح الناس غَدوا على رسولِ اللّه ﷺ كلُّهم يَرجو أن يُعطاها، فقال: أينَ عليُّ بن أبي طالبٍ؟ فقيل: هوَ يا رسولَ الله يَشتكي عينَيه. قال: فأرسَلوا إليه فأتيَ به فبصقَ رسولُ الله ﷺ في عينيه ودعا له فبرأَ حتى كأنْ لم يكنْ به وَجَع، فأعطاهُ الرايةَ. فقال عليّ: يا رسولَ الله،

(١) أخرجه ابن اسحاق في السيرة النبوية، ٢٧٦/٣ وإسناده ضعيف.

(٢) قوله: بمساحيهم: بمهملتين جمع مسحاه وهي من آلآت الحرث، ومكاتلهم: جمع مكتل وهو القفة الكبيرة التي يحول فيها التراب وغيره. فتح الباري، ابن حجر، ٥٣٥/٧.

(٣) قوله محمد والخميس: أي محمد والجيش. فتح الباري، ابن حجر، ٥٣٥/٧.

(٤) أخرجه البخاري ٤١٩٧. ومسلم ١٣٦٥.

(٥) انظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد ١٠٦/٢، وفقه السيرة النبوية، د. محمد سعيد البوطي، ٣٥٩.

أُقاتِلُهم حتى يكونوا مِثلنا. فقال ﷺ: انفُذْ على رِسلك حتى تنزلَ بساحَتهم، ثمَّ ادعهم إلى الإِسلام، وأخبِرْهم بما يَجبُ عليهم من حقِّ اللّهِ فيه، فواللّه لأنْ يَهديَ اللّه بك رجُلاً واحدًا خيرٌ لك من أن يكونَ لكَ حُمْرُ النَّعَم))[1].

قال سلمة رضي الله عنه: ((... فأعطاه ففتح عليه))[2].

وغنم المسلمون كل ما في تلك الحصون من الأموال.

(أما ذانك الحصنان، فقد ظل المسلمون يحاصرونهما، حتى إذا أيقن من فيهما بالهلاك، سألوه ﷺ أن يخرجهم ويجليهم ويحقن دماءهم ويتركوا له الأموال، فوافقهم رسول اللّه ﷺ على ذلك.

ثم إنهم سألوا رسول اللّه ﷺ أن تبقى خيبر تحت أيديهم يعملون فيها ويزرعونها لأنهم أعرف بأرضهم وأعمر لها. ولهم شطر ما يخرج منها، فصالحهم رسول اللّه ﷺ على ذلك وقال لهم: عَلَى أنَّا إن شئنا أن نخرجكم أخرجناكم)[3].

ثانيًا- من أساليب الدعوة: الإخبار:

قد ورد أسلوب الإخبار في الحديث من قول الراوي رضي الله عنه: "أقبل نفر من أصحاب النبي ﷺ" والإخبار من الأساليب الدعوية المهمة التي تعين الداعية على تبليغ دعوته، لاسيما إن صادف ذلك إخلاصًا وصدقًا مما يساعد على نفاذ ما يدعو إليه ويخبر عنه إلى قلوب المدعوين وفي ذلك عظيم الأجر والفائدة.

ثالثًا- من مهام الداعية: تصحيح ما التبس على الناس من أخطاء:

يتضح ذلك فيما ورد في الحديث من قول النبي ﷺ: "كلا إني رأيته في النار في بردة غلها"، وبيّن ابن عثيمين: (أن قول النبي ﷺ: "كلا" يعني أنه ليس شهيدًا لأنه غلَّ هذا الشيء البسيط فأحبط جهاده وصار في النار، قال اللّه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن

(١) أخرجه البخاري ٤٢١٠، ومسلم ٢٤٠٦.

(٢) أخرجه البخاري ٤٢٠٩، ومسلم ٢٤٠٧.

(٣) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام، ٣/٢٨٦.

يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾[١]. وفي ذلك تصحيح لما التبس على الناس من إطلاق لفظ الشهيد على كل من قتل في معركة بين المسلمين والكفار)[٢]، فعلى الداعية أن يصحح ما التبس على الناس من أخطاء مقتديًا في ذلك بالنبي ﷺ وممتثلاً لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾[٣].

رابعًا- من آداب المدعو: عدم التسرع في إصدار الأحكام:

هذا ما يظهر من سياق الحديث، وقد بين ابن عثيمين ذلك فقال: إن في هذا الحديث دليل على أنه لا ينبغي لنا أن نحكم على شخص بأنه شهيد، لاحتمال أن يكون غل شيئًا من الغنائم أو الفيء ولو غل قرشًا واحدًا، ولو مسمارًا زال عنه اسم الشهادة، وكذلك لاحتمال أن تكون نيته غير صواب، بأن ينوي بذلك الحمية أو أن يُرى مكانه"[٤]، فعلى المدعو ألا يتسرع في إصدار الأحكام علينا أن نفرق بين الحكم عليه والشهادة منا له.

خامسًا- من دلائل النبوة: إخبار النبي ﷺ عن مصير أحد الناس:

يتضح ذلك في قوله ﷺ "كلا إني رأيته في النار" وهذا من دلائل نبوته ﷺ ومما يؤكد ذلك قول سهل بن سعد رضي الله عنه: ((إن رسولَ الله ﷺ الْتقى هو والمشركونَ فاقتَتَلوا، فلمّا مالَ رسولُ الله ﷺ إلى عسكرِهِ ومالَ الآخرون إلى عسكرِهم، وفي أصحابِ رسولِ الله ﷺ رجُلٌ لا يَدَعُ لهم شاذَّةً ولا فاذَّة إلا اتَّبَعَها يَضرِبُها بسيفِهِ، فقالوا: ما أجْزَأَ منّا اليومَ أَحَدٌ كما أَجزَأَ فلان، فقال رسولُ الله ﷺ: «أما إنه من أَهلِ النارِ»، فقال رجلٌ منَ القَومِ: أَنا صاحِبُهُ، قال فخرَجَ معهُ كلَّما وَقَفَ وقَفَ معهُ، وإذا أسرَعَ أسرَعَ معهُ، قال: فجُرِحَ الرجُلُ جرحًا شديدًا، فاستعجلَ الموتَ، فوَضَعَ نصلَ

(١) سورة آل عمران، آية: ١٦١.

(٢) شرح رياض الصالحين ١/ ٥٥٠.

(٣) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

(٤) شرح رياض الصالحين ١/ ٥٥٠.

سيفهِ في الأرضِ وذُبابَهُ بينَ ثدْيَيهِ، ثمَّ تحامَلَ على سيفِهِ فقتلَ نَفسَه، فخرجَ الرجُلُ إلى رسولِ الله ﷺ فقال: أشهد أنكَ رسولُ الله، قال: «وما ذاكَ؟» قال: الرجلُ الذي ذكرتَ آنفا أنهُ مِن أهلِ النار، فأعظمَ الناسُ ذلك، فقلتُ: أنا لكم بهِ، فخرجتُ في طلبهِ، ثمَّ جُرح جُرحًا شديدًا، فاستعجَلَ الموتَ فوَضعَ نَصلَ سيفهِ في الأرض وذُبابهُ بينَ ثَدييْهِ ثمَّ تَحامَلَ عليهِ فقتَل نَفسَهُ. فقال رسول الله ﷺ عند ذلك: «إنَّ الرجُل ليَعملُ عملَ أَهلِ الجنَّةِ فيما يبْدو للناسِ وهو من أهلِ النار، وإنَّ الرجُلَ ليَعملُ عملَ أَهلِ النارِ فيما يَبدو للناسِ وهو من أهلِ الجنة))[1] وفي ذلك بيان على نبوته ﷺ.

سادسًا- من موضوعات الدعوة: حرمة الغلول وخطر الخيانة:

هذا ما ظهر في الحديث من قوله ﷺ: "إني رأيته في النار في بردة غلها أو عباءة". قال النووي: (إن الغلول هو الخيانة في الغنيمة خاصة، وقال غيره هى الخيانة في كل شيء)[2]، وقد رهب الحق تبارك وتعالى من ذلك فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[3].

قال ابن كثير: (إن هذا تهديد شديد ووعيد أكيد)[4]، فالآية بينت عظم جرم الغلول من الغنيمة فهو محرم تحريمًا قاطعًا، لأنه سرقة في مال الله، وبينت أن النبي ﷺ لا يمكن أن يغل هو، أو يقر غلول أحد، أو يسكت عنه، والغلول الأخذ من الغنيمة خفية، وإذا كان لا ينطبق عليه حد السرقة لأن مال الغنائم ليس في حرز مثله، ولأن المحارب له شبة حق فيه، والحدود تدرأ بالشبهات، إلا أن الله شدد في عقوبته في الآخرة وقد بين النبي ﷺ في الحديث شدة العقوبة بقوله: "كلا إني رأيته في النار في بردة غلها أو عباءة" فهذا غلول مهما تكون قيمته[5].

---

(١) أخرجه البخاري ٢٨٩٨، ومسلم ١١٢.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٦.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٦١.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١٥١/٢.

(٥) انظر خاتم النبيين، محمد أبو زهرة، ١٠٨٢/٢.

قال السعدي رحمه الله: الغلول هو الكتمان من الغنيمة، والخيانة في كل ما يتولاه الإنسان، وهو محرم إجماعًا، بل هو من الكبائر كما تدل عليه هذه الآية الكريمة وغيرها من النصوص، فأخبر تعالى أنه ما ينبغي ولا يليق بنبي أن يغل، لأن الغلول- كما علمت من أعظم الذنوب وشر العيوب[١]، وهذا ما أكد عليه النبي ﷺ في قوله: "إياكم والغلول، فإن الغلول خزى على صاحبه يوم القيامة"[٢]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "قام فينا النبيُّ ﷺ فذكرَ الغُلولَ فعظَّمهُ وعظَّم أمرَه، قال: لا أُلفينَّ أحدَكم يومَ القيامةِ على رقَبتهِ فرَس لهُ حَمْحَمة، يقول: يا رسولَ اللهِ أغِثني، فأقولُ: لا أملِكُ لكَ شيئًا، قد أبلغْتُك، وعلى رقبتهِ بعير لهُ رُغاءُ يقول: يا رسولَ اللهِ أغثْني، فأقول: لا أملِك لكَ شيئًا، قد أبلغتك. وعلى رقبتهِ صامِت فيقول: يا رسولَ اللهِ أغثْني، فأقولُ: لا أملكُ لكَ شيئًا، قد أبلغتك. أو على رقبتهِ رقاع تخفقُ، فيقول: يا رسولَ اللهِ أغثني، فأقول: لا أملكُ لكَ شيئًا قد أبلغتك"[٣]، وفي ذلك بيان عظيم على حرمة الغلول والخيانة في الأموال العامة.

سابعًا- من أساليب الدعوة: الزجر والترهيب:

الزجر من الأساليب الدعوية المهمة في لفت انتباه المدعوين إلى ما صدر عنهم من أخطاء، فضلاً عن استحضار أذهانهم لمعرفة ما يصح فعله، وقد ورد الزجر كأسلوب دعوي في الحديث من قوله ﷺ: "كلا"، أما الترهيب فقد ورد في الحديث من قوله ﷺ: "إني رأيته في النار"، "ومما لا شك فيه أن الترهيب من أنجح الأساليب الدعوية للنفس البشرية في كونها قد جبلت على النفور من الضيق والعذاب، والأصل في الترهيب أن يكون بالتخويف من غضب الله وعذابه في الآخرة"[٤]، وهذا ما ورد في

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ١٢٢.

(٢) أخرجه أحمد ٣٣٠/٥ رقم ٢٢٧٩٥، وقال محققو المسند: حديث حسن ٤٥٦/٣٧.

(٣) أخرجه البخاري ٣٠٧٣، ومسلم ٩٨٧، ١٨٣١.

(٤) انظر: أصول الدعوة، د.عبدالكريم زيدان، ٤٢١.

الحديث من ترهيبه ﷺ من الغلول وبيان أن عاقبة صاحبه في النار، وذلك من قوله ﷺ: "إني رأيته في النار".

الحديث رقم (٢١٧)

٢١٧- وعن أَبي قَتَادَةَ الْحارِثِ بنِ ربعي ﷺ عن رسول اللّه ﷺ أَنَّهُ قَام فِيهِمْ، فذَكَرَ لَهُمْ: أَنَّ الْجِهادَ فِي سبِيلِ اللّه، وَالإِيمانَ باللّه أَفْضلُ الأَعْمالِ، فَقَامَ رَجلٌ فقال: يا رسول اللّه أَرَأَيْت إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللّه، تُكَفَّرُ عنِي خَطَايَايَ؟ فقال لَهُ رسولُ اللّه ﷺ: **«نعَمْ، إِنْ قُتِلْتَ فِي سَبِيلِ اللّه وأَنْتَ صَابِرُ مُحْتَسِبٌ، مُقْبِلٌ غيْرَ مُدْبِرٍ»** ثُمَّ قال رسول اللّه ﷺ: **«كيْف قُلْتَ؟»** قال: أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيل اللّه، أَتُكَفَّرُ عني خَطَاياي؟ فقال رسول اللّه ﷺ: **«نَعمْ، وأَنْت صابِرٌ مُحْتَسِبٌ، مُقبِلٌ غَيْرَ مُدْبِرٍ، إِلاَّ الدَّيْن فَإِنَّ جِبْرِيلَ قال لِي ذلِكَ»** رواه مسلم(١).

ترجمة الراوي:

أبو قتادة الأنصاريّ: هو أبو قتادة بن رِبْعي الأنصاري الخزرجي، مختلفٌ في اسمه، والمشهور أنه الحارث فارس رسول اللّه ﷺ(٢) شهد أحدًا وشهد ما بعدها، وكان له بلاء كبير في المغازي والمعارك، فقد كان رجل المهام الخاصة الصعبة، وكان يختار أشد الأعداء قوة يبادرهم فيقتلهم، لذا استحق أن يقول عنه النبي ﷺ في غزوة ذي قَرَدٍ [اسم مكان]: ((كان خير فرساننا اليوم أبو قتادة))(٣). ولما رأى يوم حنين رجلاً من المشركين قد علا المسلمين قصده، قال: فاستدرت له حتى أتيته من ورائه فضربته بالسيف على حبل عاتقه(٤) فأقبل عليّ فضمني ضمة وجدت منها ريح الموت ثم أدركه الموت فأرسلني... الحديث(٥).

وكان يحرس النبي ﷺ ويرعاه ويكلؤه في السفر، فقد خرج معه ﷺ فقال:

---

(١) برقم (١١٧/١٨٨٥). أورده المنذري في ترغيبه (٢٠٢٧). وسيكرره المؤلف برقم (١٣١٥).

(٢) أخرجه مسلم ١٨٠٧، ١٣٢.

(٣) أخرجه مسلم ١٨٠٧، ١٣٢.

(٤) حبل عاتقه: هو ما بين العنق والكتف قاله النووي شرح صحيح مسلم، الإمام النووي (٥١/٦).

(٥) أخرجه مالك في الموطأ (١٨٩٦) والبخاري (٣١٤٢) ومسلم (٤١-١٧٥١).

بينما رسول الله ﷺ يسير حتى ابْهَارَّ الليل [أي انتصف] وأنا إلى جنبه فنعس رسول الله ﷺ فمال عن راحلته فأتيتهُ فدعمته[١] من غير أن أوقظه حتى اعتدل على راحلته ثم سار حتى تهوّر الليل [أي ذهب أكثره] مال عن راحلته فدعمته من غير أن أوقظه حتى اعتدل على راحلته ثم سار حتى إذا كان من آخر السحر مال ميلة هي أشد من الميلتين الأوليين حتى كاد ينجفل [أي يسقط] فأتيته فدعمته فرفع رأسه فقال: حفظك الله بما حفظت به نبيّه[٢] وفي رواية: حفظك الله كما حفظتنا منذ الليلة لا أُرانا إلا قد شققنا عليك[٣].

وفي عهد الخلفاء ظلّ رجلَ المهامِ الجسيمة، فقد بعثه عمر بن الخطاب في جيش لقتال الفرس، فقتل ملكهم بيده.

وكان بعض الصحابة يرونه أفضل منهم وأخير، قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: أخبرني من هو خير مني -أبوقتادة- أن رسول الله ﷺ قال لعمار: ((تقتلك الفئة الباغية))[٤]، ولما وقعت الفتنة قاتل مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وولاه على مكة.

وقد اختلف في وفاته: فقيل: توفي بالكوفة ٣٨هـ وصلّى عليه عليٌّ. وقيل: ٤٠. وقيل: توفي بالمدينة ٥٤. ورجح الحافظ ابن حجر أنه متأخر عن وفاة علي بن أبي طالب رضي الله عنه[٥].

---

(١) أي أقمت ميله من النوم وصرت تحته كالدعامة للبناء فوقها. شرح صحيح مسلم، للنووي (١٥٧/٣).

(٢) أخرجه مسلم (٣١١-٦٨١).

(٣) أخرجه أحمد ٣٠٢/٥ رقم ٢٢٥٧٥، وقال محققو المسند: رجاله ثقات ٢٦٧/٣٧.

(٤) أخرجه مسلم (٧٠-٢٩١٥).

(٥) الطبقات الكبرى، ابن سعد (١٥/٦)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٨٤٥، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٢٤٤/٦)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ١٥٣٦، والسير (٤٤٩/٢) وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين (٤٠٢/٨)، والتهذيب (٥٧٣/٤)، و الأعلام (١٥٤/٢)، وموسوعة عظماء حول الرسول (٢٠٨٠/٣).

غريب الألفاظ:

تكفّر: تستر وتغفر(١).

محتسب: مبادر إلى تحصيل الأجر بالتسليم والصبر(٢).

الشرح الأدبي

إن البيان النبوي يجمع بين دقة المعنى وسهولة اللفظ، وقوة الإقناع، وحسن الإمتاع، وكل حديث يتزيَّ بزيٍّ بياني مشوق، ومع تعدد الأحاديث في المعنى الواحد فإن القارئ لا يشعر بالملل، ولا يتسرب إليه أي خاطر من شبهة التكرار المعيبة، ولكنه التكرار المفيد، ففي كل حديث يشرق معنى جديد، ويتوهج مقصد فريد، وذلك ينشأ من تجديد في الصياغة، ومن تنويع في الأساليب، ومن إضافة بعض الكلمات والجمل والصور التي تكسب الحديث إلقاءً صادقًا، وتأثيرًا شائقًا ، وإقناعًا فائقًا.

ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف الذي يقدم درسًا في قيمة الجهاد في الإسلام، ومكانة الشهداء عند الله وعند الناس، وأثر هذه القيمة في غرس الإحساس بالإباء والعزة في نفس كل مسلم، والدفع به إلى الدفاع عن عقيدته ونفسه وماله وعرضه ووطنه، وكل ما يقوى هذا الدين، ويحفظ له مكانته بين العالمين، وأول ظاهرة أسلوبية تدعو للتأمل والتفكر: هي ظاهرة الحوار، فالحديث حوار واقع بين رسول الله ﷺ وأحد الصحابة رضي الله عنهم، وهذا الحوار يفصح عن تأصيل المنهج التربوي في الإسلام، وعن اتساع صدر رسول الله ﷺ لكل التساؤلات والاستفسارات: لأن إجابته تشريع، ورأيه حكم، وإتباع آرائه غنم، ومخالفتها غرم، والحوار كان في سياق خطبة من خطب الرسول ﷺ، وكأن الحوار أصبح جزءًا من الخطبة، ولم يعترض الرسول ﷺ: لأن المقام مقام تعليم وتشريع، وليس مقام إنشاء وتقريع.

وللراوي دور في توصيل كلمات رسول الله ﷺ وقوله: "قام فيهم" ترشد إلى أن

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ك ف ر).

(٢) المرجع السابق في (ح س ب).

المقام كان للخطابة، والراوي تتسق روايته عن قيمة الجهاد مع سماته الشخصية فهو فارس رسول الله ﷺ، كما يقول العلماء، والجملة التي رواها الحارث بن ربعى في بداية الحديث جاءت في إطار التوكيد وهى جملة اسمية: ثابتة الدلالة في أن الجهاد والإيمان بالله أفضل الأعمال وقيل على تقديره من أفضل الأعمال.

وتبدأ المحاورة بين أحد الصحابة رضي الله عنهم وبين رسول الله ﷺ حول علاقة الجهاد بتكفير الخطايا، لأن الرجل ظن أن المذنب لا يجاهد، أو لا يقبل منه جهاده إذا ارتكب خطأ، ولكن الحق سبحانه يفتح باب التوبة لكل مسلم، يعود إلى حديقة الإيمان، والتوبة هنا ليست قولاً فارغًا من المضمون العملي، والدليل الحركي، ولكنها توبة عملية يبرهن عليها الاستشهاد في سبيل الله، والدفاع عن راية الإسلام، وجاء سؤال الرجل في صيغة الجواب والشرط التي صدرت بالاستفهام وصدر جوابها بالاستفهام الحقيقي الذي يتوج بما يتمناه الرجل وهو أن تكفر عنه خطاياه إن قتل في سبيل الله، وبني الفعل "تكفر" للمعلوم، لأن الفاعل غير مجهول لأي مؤمن: فالله غافر الذنب وقابل التوب ولا يكفر الذنوب إلا الله.

ويُطمئن رسول الله ﷺ هذا الصحابي المشوق للجهاد والاستشهاد والتوبة: ولكن مواجهة الأعداء، والإقدام على الاستشهاد له شروط وهى: الصبر والاحتساب، والإقبال، وعدم الإدبار، وهذه الصفات المطلوبة جاءت في صيغة اسم الفاعل (صابر – محتسب – مقبل – غير مدبر) حتى يتأكد صدق النية، والقيام الحقيقي بالفعل، ويتكرر الحوار مرة ثانية، وتأتي الإجابة مطمئنة ولكنها تشير إلى ضرورة رد الحقوق وقضاء الديون.

فقه الحديث

قال ابن قدامة في المغني: (ومن عليه دَيْن حالّ أو مؤجل لم يجز له الخروج إلى الغزو إلا بإذن غريمه، إلا أن يترك وفاءً أو يقيم به كفيلاً، أو يوثقه بَرهْنٍ، وبهذا قال الشافعي ورخص مالك في الغزو لمن لا يقدر على قضاء دينه. لأنه لا تتوجه المطالبة به ولا حبسه من أجله، فلم يمنع من الغزو كما لو لم يكن عليه دين. ولنا أن الجهاد

نقصد منه الشهادة التي تفوت بها النفس، فيفوت الحق بفواتها، وقد ورد أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن قتلت في سبيل الله صابرًا محتسبًا تكفر عني خطاياي؟ قال: ((نعم إلا الدين فإن جبريل قال لي ذلك)) رواه مسلم(١).

وأما إذا تعيّن الجهاد فلا إذن لغريمه، لأنه تعلّق بعينه، فكان مقدمًا على ما في ذمته كسائر فروض الأعيان، ولكن يستحب له أن لا يتعرض لمظان القتل من المبارزة والوقوف في أول المقاتلة، لأن فيه تقريرًا بتفويت الحق، وإن ترك وفاءً أو أقام به كفيلاً فله الغزو بغير إذن. نص عليه أحمد، في من ترك وفاءً، لأن عبدالله بن حرام أبا جابر بن عبدالله خرج إلى أُحُدٍ وعليه دين كثير فاستشهد وقضاه عنه ابنه بعلم النبي ﷺ ولم يذمّه النبي ﷺ على ذلك ولم ينكر فعله بل مدحه، وقال: ((ما زالت الملائكة تظلُّه بأجنحتها حتى رفعتموه))(٢) وقال لابن جابر: ((أشعرت أن الله أحيا أباك وكلّمه كفاحًا(٣)))(٤).

---

(١) أخرجه مسلم ١١٧/١٨٨٥.

(٢) أخرجه البخاري ١٢٩٣، ومسلم ٢٤٧١.

(٣) كفاحًا: أي مواجهة ليس بينهما حجاب ولا رسول. النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ك ف ح)، والحديث أخرجه الترمذي ٣٠١٠، و ابن ماجه ١٩٠، ٢٨٠٠، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٤٠٨).

(٤) المغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٢٧/١٣-٢٨، وانظر: اختلاف الفقهاء في ذلك في (٤٤١) رد المحتار على الدر المختار المسمى بـ "حاشية ابن عابدين"، محمد أمين بن عمر عابدين، تحقيق: علي محمد معوض ٢٢١/٣، وحاشية الدسوقي على الشرح الكبير، وهو مطبوع مع الشرح الكبير للدردير، محمد بن عرفة الدسوقي ١٧٥/٢، وجواهر الإكليل شرح مختصر خليل، صالح عبدالسميع الآبي الأزهري ٢٥٢/١، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، شمس الدين الرملي ٥٦/٨، ٥٧، وروضة الطالبين ٢١٤/١٠، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد (عن الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٣٥/٦-١٣٦).

المضامين الدعوية

أولاً: من وسائل الدعوة: الخطبة.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: بيان فضل الجهاد في سبيل الله والإيمان به عز وجل.

ثالثًا: من صفات الداعية: دلالة المدعوين وإرشادهم لما ينفعهم.

رابعًا: من واجبات المدعو: الاستفهام عما أشكل عليه.

خامسًا: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.. والاستدراك.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: إخلاص النية لله تعالى في الجهاد.

سابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل الشهادة في سبيل الله.

ثامنًا: من موضوعات الدعوة: الحرص على أداء الدين.

أولاً- من وسائل الدعوة: الخطبة:

إن مما يستنبط من هذا الحديث الخطبة، حيث وردت الإشارة إليها في قول الراوي: "إن رسول الله ﷺ قام فيهم، فذكر لهم"، (والخطبة من وسائل الدعوة المهمة التي يستطيع الداعية من خلالها تبليغ دعوته للمدعوين بشكل مباشر فضلاً عن أنها أداة الدعوة الإسلامية الأولى لاستنهاض الهمم، والحث على الفضائل فهي أقوى وسائل الإعلام والدعاية والاتصال بالناس، وقد استعمل النبي ﷺ هذا النوع من الوسائل في نشر دعوته لكثرة فائدته، وعظيم جدواه)[1].

وعلى الداعية في خطبته مراعاة بعض الأمور المهمة منها: الاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية والتطبيقات العملية لها من قِبل الرسول الكريم والرسل الكرام - صلوات الله وسلامه عليهم- والصحابة الكرام رضي الله عنهم، فإن ذكر التطبيق يجعل معنى الآية والحديث مشهودًا محسوسًا.

- يستعين بالقصص الواردة في الكتاب والسنة ولا بأس من تصوير المعاني بشكل

---

(١) انظر: الدعوة الإسلامية "أصولها وسائلها"، د. أحمد أحمد غلوش ص ٤١٩، وانظر: الدعوة الإسلامية "الوسائل والأساليب"، محمد خير رمضان، ص ١٠٦.

قصصي وضرب الأمثال.

-أن لا يطيل في الخطبة إلا إذا اقتضت الضرورة إطالتها.

-أن يكون كلام الداعي بسيطًا واضحًا لأن الذين يسمعونه ليسوا في مستوى واحد من العلم والقدرة على فهم الخطاب، فإذا اختار الأسلوب البسيط الواضح والعبارات القصيرة انتفع بها الجميع وفهمها الجميع.

-على الداعية أيضًا في خطبته أن لا يسرع في كلامه، ولا يرفع صوته بلا حاجة[1].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: بيان فضل الجهاد في سبيل الله والإيمان به عز وجل:

لقد ورد في الحديث ما يدل على ذلك من قوله ﷺ: (إن الجهاد في سبيل الله والإيمان بالله أفضل الأعمال)، وفي بيان ذلك قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١١ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝١٢ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

قال السعدي: (هذه وصية ودلالة وإرشاد من أرحم الراحمين لعباده المؤمنين، لأعظم تجارة، وأجلّ مطلوب، وأعلى مرغوب، يحصل بها النجاة من العذاب الأليم، والفوز بالنعيم المقيم.

وأتى بأداة العرض الدالة على أن هذا أمر يرغب فيه كل معتبر، ويسمو إليه كل لبيب، فكأنه قيل: ما هذه التجارة التي هذا قدرها؟ فقال: (تؤمنون بالله ورسوله).

ومن المعلوم أن الإيمان التام هو التصديق الجازم بما أمر الله بالتصديق به ، المستلزم لأعمال الجوارح التي من أجلّها الجهاد في سبيله، فلهذا قال: (وتجاهدون في

---

(١) انظر: أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان، ص ٤٧٤-٤٧٦.

(٢) سورة الصف، الآيات: ١٠ - ١٢.

سبيل الله بأموالكم وأنفسكم)، بأن تبذلوا نفوسكم ومهجكم، لمصادمة أعداء الإسلام، والقصد دين الله، وإعلاء كلمته.

وتنفقون ما تيسر من أموالكم في ذلك المطلوب، فإن ذلك وإن كان كريهًا للنفوس، شاقًا عليها، فإنه (خير لكم إن كنتم تعلمون)، فإنه فيه الخير الدنيوي، من النصر على الأعداء، والعز المنافي للذل والرزق الواسع، وسعة الصدر، وانشراحه.

والخير الأخروي، بالفوز بثواب الله، والنجاة من عقابه، ولهذا ذكر الجزاء في الآخرة فقال: (يغفر لكم ذنوبكم) وهو شامل للصغائر والكبائر، فإن الإيمان بالله، والجهاد في سبيله مكفر للذنوب، ولو كانت كبائر.

(ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار)، أي: من تحت مساكنها وقصورها وغرفها، أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، ولهم فيها كل من كل الثمرات.

(ومساكن طيبة في جنات عدن)، أي: جمعت كل طيب، من علو وارتفاع وحسن بناء وزخرفة.

حتى إن أهل الغرف من أهل عليين، يتراءآهم أهل الجنة، كما يُتَرَاءى الكوكب الدري في الأفق الشرقي، أو الغربي.

وحتى إن بناء الجنة بعضه من لَبِنٍ ذهب، وبعضه من لَبِنٍ فضة، وخيامها من اللؤلؤ والمرجان، وبعض المنازل من الزمرد، والجواهر الملونة بأحسن الألوان، حتى إنها من صفائها يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، وفيها من الطيب والحسن ما لا يأتي عليه وصف الواصفين، ولا خطر على قلب أحد من العالمين، لا يمكن أن يدركوه حتى يروه، ويتمتعوا بحسنه وتقرّ به أعينهم.

ففي تلك الحالة، لولا أن الله خلق أهل الجنة وأنشأهم نشأة كاملة لا تقبل العدم، لأوشك أن يموتوا من الفرح، فسبحان من لا يحصي أحد من خلقه، ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يثني عليه أحد من خلقه.

وتبارك الجليل الجميل، التي أنشأ دار النعيم، وجعل فيها من الجلال والجمال ما

يبهر عقول الخلق، ويأخذ بأفئدتهم.

وتعالى من له الحكمة التامة، الذي من جملتها، أنه لو رأى العباد الجنة، ونظروا إلى ما فيها من النعيم لما تخلف عنها أحد، ولما هنأهم العيش في هذه الدار المنغصة، المشوب نعيمها بألمها، وفرحها بترحها.

وسميت جنة عدن لأن أهلها مقيمون فيها، لا يخرجون منها أبدًا، ولا يبغون عنها حولاً، ذلك الثواب الجزيل، والأجر الجميل، هو الفوز العظيم، الذي لا فوز مثله، فهذا الثواب الأخروي.

وأما الثواب الدنيوي لهذه التجارة، فذكر بقوله: (وأخرى تحبونها)، أي: يحصل لكم خصلة أخرى تحبونها، وهي: (نصر من الله) لكم على الأعداء، يحصل به العز والفرح.

(وفتح قريب) تتسع به دائرة الإسلام، ويحصل به الرزق الواسع، فهذا جزاء المؤمنين المجاهدين)[١].

ثالثًا- من صفات الداعية: دلالة المدعوين وإرشادهم لما ينفعهم:

هذا ما يستفاد من نص الحديث في دلالته ﷺ على الخير وإرشاده المدعوين لما فيه النفع والصلاح لهم في الدنيا والآخرة، وذلك في بيانه ﷺ لأفضل الأعمال، وقد أمر الحق تبارك وتعالى بذلك فقال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾[٢].

وحثّ النبي ﷺ على ذلك فقال: ((مَنْ دَعَا إِلَىٰ هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لاَ يَنْقُصُ ذٰلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا))[٣]، وفي ذلك عظيم الأجر والفائدة.

رابعًا- من واجبات المدعو: الاستفهام عما أشكل عليه:

قد ورد في الحديث ما يؤيد ذلك من قول الراوي: (فقام رجل فقال: يا رسول الله

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٧٩٧ - ٧٩٨.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٠٤.

(٣) أخرجه مسلم ٢٦٧٤.

أرأيت إن قتلت في سبيل الله، تكفر عني خطايا؟) وقد أمر الحق تبارك وتعالى بالاستفهام عما أشكل وخفي عن المرء حتى يكون على بصيرة من دينه، فيعبد الله على علم، فقال: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[١].

قال السعدي: (إن الله أمر من لا يعلم بالرجوع إلى أهل العلم في جميع الحوادث وفي ضمنه تعديل لأهل العلم، وتزكية لهم، حيث أمر بسؤالهم، وأن بذلك يخرج الجهل من التبعة، فدلّ على أن الله ائتمنهم على وحيه وتنزيله، وأنهم مأمورون بتزكية أنفسهم والاتصاف بصفات الكمال)[٢].

خامسًا- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب، والاستدراك:

إن السؤال والجواب والاستدراك من الأساليب الدعوية التي تعمل على لفت انتباه المدعوين واستحضار أذهانهم لمعرفة ما يكون من جواب وما يعقب الاستدراك من بيان، وقد ورد أسلوب السؤال والجواب في الحديث من قول السائل: (أرأيت إن قتلت في سبيل الله، تكفر عني خطاياي؟) فقال له رسول الله ﷺ: (نعم... إلخ) وقد ورد أسلوب الاستدراك في الحديث من قوله ﷺ: (كيف قلت؟).

سادسًا- من موضوعات الدعوة: إخلاص النية لله تعالى في الجهاد:

(النية روح العمل ولبه وقوامه، وهو تابع لها، يصح بصحتها، ويفسد بفسادها. والنبي ﷺ قد قال كلمتين كفتا وشفتا، وتحتهما كنوز العلم وهما قوله: ((إِنَّما الأَعْمَالُ بالنِّيات، وإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ ما نَوَى))[٣]، ثم بيّن في الجملة الثانية أن العامل ليس من له عمله إلا ما نواه. وهذا يعم العبادات والمعاملات، والأيمان، والنذور، وسائر العقود والأفعال)[٤].

---

(١) سورة النحل، آية: ٤٣.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٣٩٤.

(٣) أخرجه البخاري ١، ومسلم ١٩٠٧.

(٤) إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، تحقيق: رائد صبري بن أبي علفة ص ٦٠٠.

وهذا ما أكده النبي ﷺ في الحديث من قوله: "وأنت صابر محتسب"، قال القاضي عياض: (وقوله للذي سأله في تكفير خطاياه إن قتل في سبيل الله، قال: "نعم إن قتلت وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر" فيه: أن الأجر في ذلك لمن صدقت نيته، واحتسب أجره ولم يقاتل حمية، ولا طلب دنيا، ولا طلب ذكر وثناء، وأن من قُتِل مُدْبرًا - أي فارًا - فإنه ليس له من هذا الأجر شيء)(١).

وقال النووي: (والمحتسب هو المخلص لله تعالى فإن قاتل لعصبية أو لغنيمة أو لصيتٍ أو نحو ذلك فليس له هذا الثواب ولا غيره)(٢).

وهذا ما أكده النبي ﷺ، فعن أبي موسى رضي الله عنه: جاءَ رجُلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقال: الرجُلُ يُقاتلُ للمَغنم، والرجُلُ يُقاتلُ للذِّكر، والرَّجلُ يقاتلُ ليُرَى مكانهُ، فمَنْ في سبيلِ اللهِ؟ قال: ((مَن قاتَلَ لتكونَ كلمةُ اللهِ هي العُليا فهو في سبيلِ الله))(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أَنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ رَجُلٌ يُرِيدُ الْجِهَادَ، وَهُوَ يُرِيدُ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((لاَ أَجْرَ لَهُ))، فَأَعْظَمَ ذلِكَ النَّاسُ، وَقَالُوا لِلرَّجُلِ: عُدْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَعَلَّكَ لَمْ تُفْهِمْهُ، فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ رَجُلٌ يُرِيدُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَهُوَ يَبْتَغِي عَرَضَ الدُّنْيَا؟ قَالَ: ((لاَ أَجْرَ لَهُ))، فَأَعْظَمَ ذلِكَ النَّاسُ، وَقَالُوا: عُدْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ الثَّالِثَةَ: رَجُلٌ يُرِيدُ الْجِهَادَ وَهُوَ يَبْتَغِي عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا؟ فَقَالَ: ((لاَ أَجْرَ لَهُ))(٤).

وفي ذلك بيان على أهمية إخلاص النية لله تعالى في الجهاد حتى ينال المرء عظيم الثواب من الله.

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٦/٣٠٢.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢١١.

(٣) أخرجه البخاري ٢٨١٠، ومسلم ١٩٠٤.

(٤) أخرجه أبو داود ٢٥١٦، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢١٩٦)

سابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل الشهادة في سبيل الله:

لقد ورد في هذا الحديث ما يدل على فضل الشهادة في سبيل الله في قول الراوي: (فقام رجل فقال: يا رسول الله أرأيت إن قتلت في سبيل الله، تكفر عني خطاياي؟ فقال له رسول الله ﷺ: (نعم إن قتلت في سبيل الله وأنت صابر محتسب، مقبل غير مدبر)، قال النووي: (وفي الحديث هذه الفضيلة العظيمة للمجاهد وهي تكفير خطاياه كلها إلا حقوق الآدميين، وإنما يكون تكفيرها بهذه الشروط المذكورة وهو أن يقتل صابرًا محتسبًا مقبلاً غير مدبر)[1].

وقد بيّن النبي ﷺ عظم فضل الشهادة في سبيل الله فقال: ((إنَّ أرْوَاحَ الشُّهَدَاءِ في طَيْرٍ خُضْرٍ تَعْلُقُ مِنْ ثَمَرِ الْجَنَّةِ أو شَجَرِ الْجَنَّةِ))[2]، وقال ﷺ: ((للشَّهِيدِ عندَ الله سِتُّ خِصَالٍ: يُغْفَرُ لَهُ في أَوَّلِ دُفْعَةٍ ويرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، ويُجَارُ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَيَأْمَنُ مِنَ الفَزَعِ الأكْبَرِ، وَيُوضَعُ على رأسِهِ تَاجُ الوَقَارِ، اليَاقُوتَةُ منها خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وما فيها، ويُزَوَّجُ اثْنَتَيْنِ وسبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الْحُورِ (الْعِينِ)، وَيُشَفَّعُ في سَبْعِينَ مِنْ أقَارِبِهِ))[3].

فالشهادة في سبيل الله تعالى من أسمى الغايات وأجلّ الأمنيات، وحري بالمرء أن تتوق نفسه لنيلها، وأن يحدّث قلبه بطلبها، لعل الله بكرمه عليه ومنته أن يكرمه بها، فإن وجد اللهُ تعالى من عبده صدقًا وعزمًا في ذلك، بلّغه منازل الشهداء وإن مات على فراشه، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((مَنْ طَلَبَ الشَّهَادَةَ صَادِقًا، أُعْطِيَهَا، وَلَوْ لَمْ تُصِبْهُ))[4]، وعن سهل بن حنيف رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ، بَلَّغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ، وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ))[5]. قال النووي: (والمعنى أنه إذا سأل الشهادة بصدق أعطي من ثواب الشهداء، وإن كان على

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢١١.

(٢) أخرجه الترمذي ١٦٤١، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٣٣٩).

(٣) أخرجه الترمذي ١٦٦٣، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٣٥٨.

(٤) أخرجه مسلم ١٩٠٨.

(٥) أخرجه مسلم ١٩٠٩.

فراشه، وفيه استحباب سؤال الشهادة، واستحباب نية الخير)[١].

ثامنًا- من موضوعات الدعوة: الحرص على أداء الدين:

لقد أشار الحديث إلى عظم ذلك الأمر في قوله ﷺ: (نعم وأنت صابر محتسب، مقبل غير مدبر، إلا الدين)، قال القاضي عياض: (وقوله: "إلا الدين" فيه تنبيه على أن حقوق الآدميين والتبعات التي للعباد لا تكفرها الأعمال الصالحة، وإنما تكفر ما بين العبد وربه، ويكون هذا فيمن له بقضاء ما عليه من الدين وأتلفه على صاحبه عن علم أو عزة من ذمته وملائه، واستدانة في غير واجب، وتحذيرًا وتشديدًا لمن يسارع لإتلاف أموال الناس بهذا الوجه)[٢]. (وقد بين الحق تبارك وتعالى عظم هذا الأمر فكانت أطول آية في كتاب الله آية الدين وقد أمر فيها -سبحانه وتعالى- بكتابته فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكۡتُبُوهُ﴾[٣]، لما في ذلك من حفظ للحقوق)[٤]، وفي ذلك بيان على أهمية أداء الدين، وقد أشار ابن عثيمين (إلى أن الحديث يدل على أن الشهادة إذا قاتل الإنسان في سبيل الله صابرًا محتسبًا مقبلاً غير مدبر، فإن ذلك يكفر عنه خطيئاته وسيئاته إلا الدّين، إذا كان عليه دَيْن فلا يسقط بالشهادة لأنه حق آدمي، وحق الآدمي لا بد من وفائه)[٥].

وفي تأكيد ذلك قال محمد بن جحش: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَاعِدًا حَيْثُ تُوضَعُ الْجَنَائِزُ فَرَفَعَ رَأْسَهُ قِبَلَ السَّمَاءِ، ثُمَّ خَفَضَ بَصَرَهُ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى جَبْهَتِهِ، فَقَالَ: ((سُبْحَانَ اللَّهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ، مَا أُنْزِلَ مِنَ التَّشْدِيدِ)). قَالَ: فَعَرَفْنَا وَسَكَتْنَا حَتَّى إِذَا

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢٢١.

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٣٠٣/٦.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٨٢.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٧٢١/١، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق، ص ٩٨.

(٥) شرح رياض الصالحين ٥٥١/١.

كَانَ الْغَدُ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْنَا: مَا التَّشْدِيدُ الَّذِي نَزَلَ؟ قَالَ: ((فِي الدَّيْنِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ قُتِلَ رَجُلٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ثُمَّ عَاشَ، ثُمَّ قُتِلَ، ثُمَّ عَاشَ، ثُمَّ قُتِلَ وَعَلَيْهِ دَيْنٌ مَا دَخَلَ الْجَنَّةَ حَتَّى يُقْضَى دَيْنُهُ))[1].

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢٤١٢ رقم ٢٢٥٩، وقال: حديث صحيح الإسناد.

الحديث رقم (٢١٨)

٢١٨- وعن أَبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، أَن رسولَ اللَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أَتَدْرُون من الْمُفْلِسُ؟**» قالُوا: الْمُفْلسُ فِينَا مَنْ لا دِرْهَمَ لَهُ وَلا مَتَاعَ. فقال: «**إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقيامةِ بِصَلاةٍ وَصِيَامٍ وزَكَاةٍ، ويأْتِي وقَدْ شَتَمَ هذا، وقذَف هذَا وَأَكَلَ مالَ هَذَا، وسفَكَ دَم هذَا، وَضَرَبَ هذا، فيُعْطَى هذَا مِنْ حسَنَاتِهِ، وهَذا مِن حسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حسناته قَبْلَ أَنْ يقْضِيَ مَا عَلَيْهِ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عليْه، ثُمَّ طُرِحَ في النَّارِ**» رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

المتاع: كل ما يُنتفع به ويُرغب في اقتنائه، كالطعام، وأثاث البيت، والسلعة ونحو ذلك[٢].

سفك: سفك الدماء: الإراقة والإجراء لكل مائع، والمقصود: القتل وإزهاق الأنفس والاعتداء[٣].

الشرح الأدبي

إن هذا الحديث يعرض لنماذج بشرية تعيش في ازدواجية سلوكية، ومفارقة حياتية، فهم يظنون أن العبادة محصورة في زمانها ومكانها، ووقت أدائها، وهم في انفصال حقيقي بين أداء عبادتهم وإيقاع حياتهم فالصلاة لديهم أقوال وأفعال: مفتتحة بالتكبير ومختتمة بالتسليم، ولكن في معترك الحياة يفتقدون ثمرة الصلاة، ولا يتورعون عن ارتكاب الفحشاء والمنكر، وهم لا يدركون القاعدة الإسلامية التي

---

(١) برقم (٢٥٨١/٥٩). أورده المنذري في ترغيبه (٣٢٨٩).

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (م ت ع).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (س ف ك).

صاغها رسول الله ﷺ في قوله موضحًا حقيقة المنهج الإسلامي في ضرورة الارتباط بين العبادة والسلوك "من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له"، وكذلك الصيام ليس مجرد إمساك عن الطعام والشراب، ولكن اللسان يصوم، والعين تصوم، واليد تصوم، وكل جوارح الإنسان تصوم: أى تمسك عن اقتراف الآثام، وارتكاب المحرمات، والابتعاد عن الإضرار بالمسلمين وغيرهم من أهل الكتاب الذميين، وكذلك الزكاة ليست مقدارًا من المال يدفع في غياب النية الصالحة، وفي غياب السلوك الرشيد القويم.

وفي هذا الجو المشحون بهذه المفارقات، والسلوكيات المرفوضة، وحالة الازدواج التي تسيطر على حياة كثير من المسلمين وهم في غفلتهم سادرون، وفي ظنونهم لاهون، وعن الحقيقة الباهرة معرضون!! تشرق دلالات هذا الحديث الشريف، الذي يبدأ بسؤال حقيقي وإرشادي من رسول الله ﷺ، حيث يقول لأصحابه محذرًا ومنبهًا "أتدرون من المفلس"، وهذا السؤال فيه تشويق يشد السامع ويدعوه إلى الانتباه، والبحث عن الإجابة الصحيحة، وقد أجاب الصحابة رضي الله عنهم بما يعرفون من أمور الدنيا المشاهدة والمحسة، ومن خبراتهم وتجاربهم الحياتية، ولكن إجابة رسول الله ﷺ جاءت على غير ما يتوقعون، فالمفلس حسب المنظور المادي، هو الفقير الذي لا درهم له ولا متاع، ولكن هذا التوصيف للمفلس لا يعد في المنظور الإيماني، ولا في التصور الإسلامي إفلاسًا: لأن الفقير قد يكون غنيًا في نفسه، قانعًا برزقه، متمتعًا بنعم كثيرة غير المال، قد أنعم الله عليه بها مثل الصحة، وراحة البال، ونجابة الأبناء وحب الناس، والبركة في الرزق، والقناعة بالقليل، وليس كل ذي مال غنيًا في نفسه، متمتعًا بالسكينة والرضا، بل يظل بعضهم في حاجة إلى المزيد، وفقره بين عينيه لا يقنع بما حصله من مكاسب، بل يطمع في تحصيل المزيد من الرغائب، وبعض الناس يعلن إفلاسه وهو لا يدري، فهو يعيش في ازدواجية سلوكية بين عبادته وعمله، إنه دائم العبادة، ولكنه في غياب عن تطبيقها والانتفاع بثمارها فهو يصلي ولا ينهي عن الفحشاء والمنكر، وهو يزكي ويصوم، ولكن لا يتورع ولا يطهر جوارحه، وتظل حياته مرآة منكسرة،

وعلاقته بالآخرين مشوهة لأنه لا يتوانى عن الشتم والقذف وسفك الدماء، وأكل أموال الناس بالباطل.

وهذه الصورة السلبية للمسلم في حياته قُدمت في إطار أسلوبي مشحون بكثير من طاقات التأثير والإقناع ومنها السؤال والجواب، في بداية الحديث، والتأكيد في صدر إجابة رسول الله ﷺ، وتكرار اسم الإشارة ست مرات لتحديد الطوائف الذين ظلمهم بسلوكياته الفاسدة، وكذلك توالي الأفعال الماضية في سياق توصيف الحالة التي يأتي عليها ذلك المفلس يوم القيامة، حكاية وتصويرًا لماضيه الضال في دنياه التي انتهت على هذا النحو: (وقد شتم، وقذف، وأكل، وسفك، وضرب)، ويوم القيامة يقتضي منه المظلومون: بأخذ حسناته، ثم يتحمل بعض خطاياهم إذا فنيت حسناته، وقوله "فطرحت عليه"، يصور مدى ثقل هذه الخطايا، ومصيره الإفلاس حيث فقد رصيده من الحسنات، وزاد رصيده من السيئات والخطايا، ومثواه النار وبئس القرار.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

ثانيًا: من واجبات الداعية: تصحيح المفاهيم الخاطئة وبيان الحقائق للمدعوين.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: التحذير من الظلم والوقوع في المحرمات.

رابعًا: من أهداف الدعوة: الحفاظ على الأموال والأنفس والأعراض.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: بيان عدل الله تعالى بين الخلائق.

سادسًا: من أساليب الدعوة: الترهيب.

أولاً- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

قد ورد السؤال والجواب كأسلوب دعوي مهم في الحديث من قوله ﷺ: "أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع..."، (والسؤال والجواب من أساليب الأداء البياني التي يكون بها استحضار أذهان المدعوين ووضعهم في حالة استعداد فكري ونفسي لمعرفة أجوبة أسئلتهم التي طرحوها وهذا الاستعداد أمر مهم جدًا لتلقف المعرفة واختزانها في الذاكرة، ثم لتطبيق إرشاداتها في السلوك، فيجب

على الداعية أن يستثمر هذا الاستعداد إلى أقصى حد ممكن)[(١)].

ثانيًا- من واجبات الداعية: تصحيح المفاهيم الخاطئة وبيان الحقائق للمدعوين:

إن من واجبات الداعية المستنبطة من هذا الحديث، تصحيح المفاهيم التي تشيع بين الناس وبيان حقيقة الأمر فقد سأل النبي ﷺ الصحابة رضي الله عنهم عن المفلس؟ فقالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع.. ولكن النبي ﷺ صحح ذلك الفهم الخاطئ فقال: "إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا... إلخ".

قال النووي: (إن هذا حقيقة المفلس، وأما من ليس له مال، ومن قل ماله فالناس يسمونه مفلسًا وليس هو حقيقة المفلس؛ لأن هذا أمر يزول وينقطع بموته وربما ينقطع بيسار يحصل له بعد ذلك في حياته وإنما حقيقة المفلس هذا المذكور في الحديث الهالك الهلاك التام والمعدوم الإعدام المنقطع فتؤخذ حسناته لغرمائه فإذا فرغت حسناته أخذ من سيئاتهم فوضع عليه ثم ألقى في النار)[(٢)]، فعلى الداعية تصحيح ما التبس من أخطاء في أذهان المدعوين وبيان حقيقة الأمور لهم مقتديًا في ذلك بهدى النبي ﷺ وممتثلاً لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأٓخِرَ﴾[(٣)].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: التحذير من الظلم والوقوع في المحرمات:

هذا ما أشار إليه سياق الحديث، حيث بين أن الظلم للإفلاس المهلك يوم القيامة، فقال ﷺ "إن من أمتي مَنْ يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار" (فهذا أحق باسم المفلس، إذ تؤخذ منه أعماله التي تعب في تصحيحها

---

(١) انظر: فقه الدعوة إلى الله، عبدالرحمن حسن حبنكة ص ٥٨-٥٩.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٤٤.

(٣) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

بشروطها حتى قبلت منه، فلما كان وقت فقره إليها أخذت منه ثم طرح في النار، فلا إفلاس أعظم من هذا ولا أخسر صفقة ممن هذا حاله، ففيه ما يدل على وجوب السعي في التخلص من حقوق الناس في الدنيا بكل ممكن والاجتهاد في ذلك، فإن لم يجد إلى ذلك سبيلاً فالإكثار من الأعمال الصالحة، فلعله بعد أخذٍ ماعليه تبقى له بقية راجحة، والمرجو من كرم الكريم لمن صحت في الأداء نيته، وعجزت عن ذلك قدرته أن يرضى اللهُ عنه خصومَه، فيغفر للمطالِب والمطلوب ويوصلهم إلى أفضل محبوب[(١)].

وقد رهب الحق تبارك وتعالى من ذلك فقال في الحديث القدسي "يا عبادي: إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا"[(٢)]. وقال ﷺ: "اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة"[(٣)]، قال النووي: (قال القاضي: قيل هو على ظاهره فيكون ظلمات على صاحبه لا يهتدي يوم القيامة سبيلاً حتى يسعى نور المؤمنين بين أيديهم، وبإيمانهم ويحتمل أن الظلمات هنا الشدائد وبه فسروا قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾[(٤)]، أي: شدائدهما ويحتمل أنها عبارة عن الأنكال والعقوبات)[(٥)].

وقال ﷺ، محذرًا من الظلم والوقوع في المحرمات: (من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو من شيء فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه)[(٦)]، وفي ذلك بيان على أهمية التحذير من الظلم والوقوع في المحرمات.

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو ٥٦٣/٦.

(٢) أخرجه مسلم ٢٥٧٧.

(٣) أخرجه مسلم ٢٥٧٨.

(٤) سورة الأنعام، آية: ٦٣.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٤٣.

(٦) أخرجه البخاري ٢٤٤٩.

رابعًا- من أهداف الدعوة: الحفاظ على الأموال والأنفس والأعراض:

قد أشار الحديث إلى ذلك من قوله ﷺ: "ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطي هذا من حسناته وهذا من حسناته... إلخ". وقد أوجب الشرع الحدود والقصاص حماية للأموال والنفس والأعراض، فقال تعالى في حماية الأنفس: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1]. وفي الحفاظ على الأموال وحمايتها قال تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[2]. وفي الحفاظ على الأعراض قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[3].

وقد أكد النبي ﷺ حماية ذلك في حجة الوداع فقال: "إن دماؤكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا"[4]، وفي ذلك بيان عظيم على أهمية الحفاظ على الأموال والأنفس والأعراض كهدف من أهداف الدعوة الواجب تحقيقها.

لقد جاء الإسلام بآدابه وأحكامه الشرعية، وهي كلها ترجع إلى المحافظة على أمور خمسة: الدين والنفس والمال والعقل والنسل، وذلك لأن الدنيا التي يعيش فيها الإنسان تقوم على هذه الأمور الخمس، ولا تتوافر الحياة الإنسانية الرفيعة إلا بها، ولهذا كان تكريم الإنسان في المحافظة عليها، فالدين لا بد منه للإنسان الذي تسمو معانيه الإنسانية به، فلا بد أن يسلم له دينه من الاعتداء.

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٧٩.

(٢) سورة المائدة، آية: ٣٨.

(٣) سورة النور، آية: ٤.

(٤) أخرجه مسلم ١٢١٨.

والمحافظة على النفس هي المحافظة على حق الحياة العزيزة الكريمة والمحافظة على النفس تقتضي حمايتها من كل اعتداء عليها بالقتل أو قطع الأطراف أو الجروح، كما أن من المحافظة على النفس المحافظة على الكرامة الإنسانية بمنع القذف والسب، وغير ذلك من كل أمر يتعلق بالكرامة الإنسانية.

والمحافظة على المال تكون بمنع الاعتداء عليه بالسرقة والغصب ونحوهما وتنظيم التعامل بين الناس على أساس من العدل والرضا، وبالعمل على تنميته ووضعه في الأيدي التي تصونه وتحفظه، وتقوم على رعايته، فالمال في أيدي الآحاد قوة للأمة كلها، ولذا وجبت المحافظة عليه بتوزيعه بالقسطاس المستقيم، وبالمحافظة على إنتاج المنتجين وتنمية الموارد العامة، ومنع أن يؤكل بين الناس بالباطل وبغير الحق الذي أحله الله تعالى لعباده.

ويدخل في المحافظة على المال كل ما شرع للتعامل بين الناس من بيوع وإجارات، وغيرهما من العقود التي يكون موضوعها المال[1].

خامسًا- من موضوعات الدعوة: بيان عدل الله تعالى بين الخلائق:

"إن الله تعالى هو الحق العدل الذي لا يحكم إلا بالحق، ولا يقول إلا الحق ولا يفعل إلا الحق"[2]، وهذا ما أكده نص الحديث في عدله تعالى عند حكمه بين عباده يوم القيامة، واقتصاصه من الظالم للمظلوم، وإعطاء كل ذي حق حقه، وذلك من الحديث في قوله ﷺ: "فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه"، وفي ذلك قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾[3].

قال السعدي: (يخبر تعالى عن حكمه العدل، وقضائه القسط بين عباده إذا

---

(١) انظر: أصول الفقه، محمد أبو زهرة ص ٣٦٦-٣٦٩.

(٢) الأسماء والصفات، البيهقي، ١٤١/١، نقلاً عن الحليمي.

(٣) سورة الأنبياء، آية: ٤٧.

جمعهم يوم القيامة، وأنه يضع لهم الموازين العادلة التي يبين فيها مثاقيل الذر، الذي توزن به الحسنات والسيئات "فلا تنقص نفس"، مسلمة ولا كافرة "شيئًا" بأن تنقص من حسناتها، أو يزاد في سيئاتها)[١]. وفي ذلك بيان على عدل الله تعالى بين الخلائق.

سادسًا- من أساليب الدعوة: الترهيب:

قد ورد الترهيب كأسلوب دعوي في الحديث من قوله ﷺ "ثم طرح في النار"، وقد بين د. علي عبدالحليم (أن الترهيب هو أسلوب قرآني يعالج النفس البشرية وحبها للأمن والسلامة وإيثارها البعد عن الخوف والخطر وذلك من خلال تخويفها وتهديدها، ويمكن عرض الدعوة إلى الله بهذا الأسلوب لجذب الناس حول الحق خوفًا من العقاب وخوفًا من فقدان السلامة والأمن)[٢].

وهذا ما ورد في الحديث من ترهيبه ﷺ من الظلم والوقوع في المحرمات.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٤٧٣.

(٢) فقه الدعوة ٢٣٢/١.

الحديث رقم (٢١٩)

٢١٩- وعن أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّمَا أَنَا بشَرٌ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحنَ بحُجَّتِهِ مِنْ بَعْض، فأَقْضِي لَهُ[1] بنحْو ما أَسْمَعُ فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بحَقِّ أَخِيهِ فإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ» متفق عليه[2].

ترجمة الراوي:

أم سلمة: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٨٢).

غريب الألفاظ:

ألحن: أعلم[3].

الحُجَّة: الدليل والبرهان وما يدل على صحة الدعوى[4].

الشرح الأدبي

يبدأ هذا الحديث ببارقة من بوارق البيان النبوي تتوهج كلماتها بكثير من الإيحاءات والدلالات، وهذه البارقة المشعة تصاغ في أسلوب القصر والتأكيد، ولكن التساؤل الذي يموج بعقل كل من يتدبر الحديث هو، ما علاقة هذه البداية بالقضية التي ينبه إليها الحديث: وهى أخذ حق الغير، بالطرق المشروعة ظاهرًا، وهذا كأنه قطعة من النار، فما بالنا إذا كان الحق مغتصبًا ومنهوبًا!!. إن هذه البداية التي تؤكد مثلية الرسول لنا في البشرية في قوله ﷺ: "إنما أنا بشر"، تشير إلى أنه لا يعلم الغيب ولا يدرك ما يخفيه المتخاصمان عنه فيقضي بما يسمع: أى حسب الشواهد والأدلة الظاهرة.

وإنما ابتداء الحديث بهذه الجملة تنبيهًا على أن السهو والنسيان غير مستبعد عن

---

(١) (له) لا توجد عند البخاري في هذه الرواية، وإنما عنده برقم (٢٤٥٨)، وكذا عند مسلم.

(٢) أخرجه البخاري (٧١٦٩)، ومسلم (١٧١٣/٥)، والسياق للحميدي في جمعه (٢٢٩/٤، رقم ٣٤٤٦).

(٣) رياض الصالحين ١٣٩.

(٤) معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ١٥٤.

الإنسان، وأن الوضع البشري يقتضي أن لا يدرك من الأمور إلا ظواهرها، وقد بين الرسول ﷺ في الحديث أنه كباقي البشر يقضي بينهم برأيه فيما لم ينزل عليه فيه وحي.

وفي البارقة الثانية يتكرر التأكيد مع الإيحاء بضرورة الصدق في القول، وعدم إخفاء الشواهد والأدلة حتى لاتغيم الرؤية أمام القاضي، والقاضي هنا محمد رسول الله ﷺ وهو الصادق الأمين، وهو الذي قال: ((يا أيها الناس إنما ضل من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها. وقال لأسامة بن زيد رضي الله عنهما أتشفع في حدٍ من حدود الله))[1]. يقول: "وإنكم تختصمون إلي"، ومادة الافتعال الكائنة في الاختصام ترشد إلى تفاعل الخصومة بين الطرفين أو بين جميع أطراف الخصومة، وكل يدعى أنه صاحب الحق فالفعل "اختصم" يفصح عن هذه المشاركة والتأكيد في بداية الجملة "إنكم" وخطاب الجمع وواو الجماعة في "تختصمون"، كل هذا يرشد إلى أن القضية ليست قضية فردية: ولكنها قضية جماعية، وهي تتكرر في كل زمان ومكان، أمام القضاة والولاة وفي المحاكم، والجملة الثالثة في ترتيبها التصاعدي الناتج عن إيحاء الجملتين السابقتين، "ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض" عقدة القضية، وبؤرة المفارقة، فقوله: "ألحن" أي ألسن، وأفصح وأبين كلامًا وأقدر على الحجة، وللحن عند العلماء دلالتان: إحداهما مذمومة والأخرى محمودة، فالمذمومة تتمثل في صرف الكلام عن سننه الجاري عليه بإزالة الإعراب والتصحيف، والخطأ في نطق الكلام، والمحمودة، تتمثل في إزالة الكلام عن التصرح وصرفه بمعناه إلى تعريض وفحوى، كما قال الشاعر العربي، "وخير الحديث ما كان لحنًا"، ولكن مدلول اللحن في الحديث ظاهره محمود، وباطنه مذموم: لأن القدرة على الإبانة والإفصاح هنا في غير موضعها: تحجب الحقيقة عن القاضي، وتتمثل هذه الظاهرة في قول رسول الله ﷺ "فأَقْضِي له بنحو ما أسمع"، والفاء تدل على الإسراع في إصدار

---

(١) أخرجه البخاري ٦٧٨٨.

الحكم، وقوله بنحو ما أسمع يحدد مصدر الدليل الذي استند إليه رسول الله ﷺ وهو الكلام الظاهر الذي سمعه، وهو كلام لا يطابق الحقيقة، ثم يحذر رسول الله ﷺ الأمة كلها من الانزلاق إلى هذه الهاوية: وهي تزييف الحقائق، وتزوير الكلام، والكذب في الادعاء، فيقول: "فمن قضيت له بحق أخيه فإنما أقطع له قطعة من النار"، وما أدق هذا التعبير، وما أعظمه في إشاعة الإحساس بالأخوة الإيمانية في قوله: "بحق أخيه"، ولم يقل بحق غيره، وهذا الحق المسلوب الذي شبهه الرسول بقطعة من النار تضع أمام كل من يخادع ويضلل العدالة مصيره المحتوم، وفي ذلك تحذير لكل من يسعى عن طريق القضاء الذي لا يعتمد إلا على ظواهر الأمور، للحصول على حق أخيه في الإسلام، ويمكن أن يكون الحصول على هذا الحق المزور بالتدبير والترصد مع سبق الإصرار: عن طريق المحامين الذين يتحايلون ، ويجمعون الأدلة والوثائق عن طريق التزوير، وشهادات الزور، أو التهديد، أو الرشوة، وغير ذلك من صور الكذب والتضليل، وقد تفشت هذه الظاهرة في المجتمعات المعاصرة؛ وتظل كلمات المصطفى شموسًا وأقمارًا تضيء آفاق نفوسنا وحياتنا المظلمة.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى أكثر من حكم فقهي:

الأول: قضاء القاضي بما يظهر له، وقد اتفق الفقهاء[1] على أن القاضي يحكم بما يراه من ظاهر الأمور والأدلة ويجتهد في ذلك، ولا يكون مقيدًا له إلا الأدلة الواضحة، فالبينة على من ادعى واليمين على من أنكر.

الثاني: هل يبيح حكم الحاكم للإنسان ما ليس له؟ وقد سبق الكلام عنها

---

(١) تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ١٩٠/٤، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ١٥/٧ وما بعدها، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ١٢٤/٦، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم المالكي ٢٢٠/٢، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٣٠٦/٤، وتحفة المحتاج في شرح المنهاج، ابن حجر الهيتمي ١٣٩/١٠، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٥١٦/٣، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٣٤٤/٦.

تفصيلاً في الحديث رقم (٢١٤).

الثالث: قضاء القاضي بعلمه، ولا خلاف بين الفقهاء[1] في أنه لا يجوز للقاضي أن يقضي بعلمه في الحدود الخالصة لله تعالى، كالزنا وشرب الخمر، أما قضاؤه بعلمه في حقوق الآدميين فقد اختلف الفقهاء فيه، فذهب المالكية والشافعية في وجه والحنابلة في المذهب والشعبي وشريح وإسحاق وأبو عبيد إلى أنه لا يجوز للقاضي أن يقضي بعلمه في حقوق الآدميين، سواء في ذلك علمه قبل الولاية وبعدها، وذهب أبو يوسف ومحمد والشافعية في الأظهر والإمام أحمد في رواية إلى أنه يجوز للقاضي أن يقضي بعلمه سواء في ذلك علمه قبل الولاية وبعدها، وقيد الشافعية ذلك بشروط: أن يكون مجتهدًا وجوبًا، ظاهر التقوى والورع ندبًا.

والراجح في رأيي ما ذهب إليه الشافعية من تقييدهم الجواز بالشروط المذكورة سابقًا.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: بيان بشرية النبي ﷺ.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: بيان أن حكم القاضي لا يحل حرامًا ولا يحرم حلالاً.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: التحذير من الظلم وعواقبه.

خامسًا: من أساليب الدعوة: الترهيب.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار:

قد ورد أسلوب الإخبار في الحديث من قوله ﷺ: (إنما أنا بشر، وإنكم

---

(١) رد المحتار ٤٣٨/٥، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٦/٧ وما بعدها، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ١٨٥/٥، وأنوار البروق ٤٧/٤، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين بن الحسن بن عبدالرحمن ٨٦/٨، والفتاوى الفقهية الكبرى لابن حجر الهيتمي ٢٩١/٤، والفروع، ابن مفلح ٤٦٩/٦، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٣٣٥/٦، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٤٣/١.

تختصمون إليّ... إلخ)، والإخبار من الأساليب الدعوية المهمة التي تعين الداعية على بيان وتوضيح دعوته للمدعوين بما يوضح لهم كل ما أشكل عليهم وخفي عنهم فيحصل كامل الفائدة، ولا سيما إن صادف ذلك إخلاصًا وصدقًا من الداعي في تبليغ دعوته.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: بيان بشرية النبي ﷺ:

لقد ورد ذلك في الحديث من قوله ﷺ: "إنما أنا بشر"، قال القاضي عياض: (وقوله: "إنما أنا بشر" تنبيه على حالة البشرية، وأن البشر لا يعلمون من أمور الغيب والبواطن إلا ما يطلعهم سبحانه عليه، وأنه يجوز عليه في أمور الظاهر التأثر بقول القائل، وفيه أن حكمه ﷺ بين الخلق إنما كان على الظاهر، وإن كان باطن أمرهم بخلافه، فقضى باليمين وبالشاهدين حكمة من الله تعالى من ذلك، ليتعلم منه أمته طريق الحكم ويقتدى به في القضاء، ولو شاء الله لأطلعه على سرائر الخصمين ومخفيات ضمائر المدعيين، فيتولى الحكم بمجرد يقينه، ويقضي بقطع مغيبه دون حاجة إلى اعتراف أو بينة أو يمين أو شبهة، ولكن لما أمر الله سبحانه أمته باتباعه والاقتداء به في أقوال وأفعاله، وكان هذا مما يخص الله تعالى به لم يكن للأمة سبيل الاقتداء، في شيء من ذلك، ولا قامت حجة بقضية من قضاياه، لأنا لا نعلم بما أوحي به فيه إليه، ولا ما اطلع من أمر الخصمين عليه بحكمه هو، إذ المكنون من علم الله، فأجرى أحكامه ﷺ على الظاهر، الذي يستوي فيه هو وغيره من البشر؛ ليصح اقتداء أمته به في قضاياه، ويأت ما أتو من ذلك على علم من سنته، واعتماد على علمه، إذ البيان بالفصل إجلاء فيه من القول وأرفع لاحتمال اللفظ[1]).

وقال ابن عثيمين: (إن في هذا الحديث دليل على أن الرسول ﷺ بشر مثلنا، ليس ملاكًا من الملائكة، بل هو بشر يعتريه ما يعتري البشر بمقتضى الطبيعة البشرية، فهو ﷺ يجوع ويعطش ويبرد ويحتر، وينام ويستيقظ، ويأكل ويشرب، ويذكر وينسى كالبشر تمامًا، وقد أمره الله عز وجل أن يعلن هذا للملأ فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٥/٥٦١.

أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[١]، فلست إلهًا يعبد ولا ربًا ينفع ويضر، بل -عليه الصلاة والسلام- لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا)[٢]، وفي ذلك دليل على بشرية النبي ﷺ.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: بيان أن حكم القاضي لا يحل حرامًا ولا يحرم حلالاً:

يستنبط هذا من الحديث في قوله ﷺ: (فمن قضيت له بحق أخيه فإنما أقطع له قطعة من النار)، وفي ذلك قال ابن حجر: (وفي الحديث أن من أدعى مالاً ولم يكن له بينة، فحلف المدعى عليه وحكم الحاكم ببراءة الحالف، أنه لا يبرأ في الباطن، وأن المدعي ولو أقام بينة بعد ذلك تنافي دعواه سمعت وبطل الحكم، وفيه من احتال لأمر باطل بوجه من وجوه الحيل حتى يصير حقًا في الظاهر ويحكم له به أنه لا يحل تناوله في الباطن ولا يرتفع عنه الإثم بالحكم)[٣].

وقال ابن عثيمين: (بل يزداد إثمًا لأنه توصل إلى الباطل بطريق باطل فيكون أعظم ممن أخذه بغير هذا الطريق)[٤]، وفي ذلك بيان على أن حكم القاضي لا يحل حرامًا ولا يحرم حلالاً.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: التحذير من الظلم وعواقبه:

يستنبط هذا من عموم الحديث، والظلم من موجبات غضب الجبار وتخريب الديار، به يكون فساد الأمم وانهيار الدول، "فالله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة"[٥]، "وقد كان الظلم سببًا لهلاك الأولين بعد أن منعوا الحق حتى اشتُري وبسطوا الجور حتى افتُدي"[٦].

---

(١) سورة الكهف، آية: ١١٠.

(٢) شرح رياض الصالحين ١/٥٥٢.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٣/١٨٦.

(٤) شرح رياض الصالحين ١/٥٥٣.

(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٢٨/٦٢ - ٦٣.

(٦) الآداب الشرعية، ابن مفلح المقدسي ١/١٧٩.

لذا رهب الله عز وجل من الظلم فقال: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾[١]، وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[٢]، وقد بيّن الحق تبارك وتعالى، سوء عاقبة الظلم فقال: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾[٣]، وقد بيّن النبي ﷺ سوء عاقبة الظلم فقال: ((اتَّقُوا الظُّلْمَ. فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))[٤].

قال ابن القيم: (والظلم عند الله عز وجل يوم القيامة له دواوين ثلاثة: ديوان لا يغفر الله منه شيئًا، وهو الشرك به، فإن الله لا يغفر أن يشرك به. وديوان لا يترك الله تعالى منه شيئًا، وهو ظلم العباد بعضهم بعضًا، فإن الله تعالى يستوفيه كله. وديوان لا يعبأ الله به، وهو ظلم العبد نفسه بينه وبين ربه عز وجل فإن هذا الديوان أخف الدواوين وأسرعها محوًا، فإنه يمحى بالتوبة والاستغفار والحسنات الماحية والمصائب المكفرة ونحو ذلك. بخلاف ديوان الشرك، فإنه لا يمحى إلا بالتوحيد، وديوان المظالم لا يمحى إلا بالخروج منها إلى أربابها واستحلالهم منها)[٥].

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((إذا خَلَصَ المُؤمنونَ مِنَ النارِ، حُبِسُوا بقَنْطَرةٍ بينَ الجنَّةِ والنَّارِ، فيتقاصُّون مظالمَ كانتْ بينَهُمْ في الدُّنيا))[٦].

وقال ابن الجوزي: (والظلم يشتمل على معصيتين: أخذ مال الغير بغير حق، ومبارزة الرب بالمخالفة، والمعصية فيه أشد من غيرها لأنه لا يقع غالبا إلا بالضعيف الذي لا يقدر على الانتصار، وإنما ينشأ الظلم عن ظلمة القلب لأنه لو استنار بنور الهدى لاعتبر، فإذا سعى المتقون بنورهم الذي حصل لهم بسبب التقوى اكتنفت ظلمات الظلم الظالم

---

(١) سورة الفرقان، آية: ١٩.

(٢) سورة الأنعام، آية: ٢١.

(٣) سورة طه، آية: ١١١.

(٤) أخرجه مسلم ٢٥٧٨.

(٥) الوابل الصيب من الكلم الطيب ٢٧١.

(٦) أخرجه البخاري ٢٤٤٠.

حيث لا يغني عنه ظلمه شيئا)[١].

ولله درُّ القائل:

أمــا واللّــهِ إن الظلــمَ لــؤمٌ ... ومــا زالَ المــسيءُ هُــوَ الظلــومُ

إلى ديــانِ يــومِ الــدينِ نمــضي ... وعنــدَ اللّــهِ تجتمــعُ الخــصومُ

ســتعلمُ في الحــسابِ إذا التقينــا ... غــدًا عنــد الإلــهِ مــن الملــومُ[٢]

فعلى المرء أن يتجنب الظلم جهده، وأن يسعى إلى رد المظالم.

خامسًا- من أساليب الدعوة: الترهيب:

قد ورد هذا الأسلوب الدعوي في الحديث من قوله ﷺ: "فإنما أقطع له قطعة من النار"، والترهيب: وعيد وتهديد بعقوبة تترتب على اقتراف إثم أو ذنب مما نهى الله عنه أو التهاون في أداء فريضة مما أمر الله به، أو هو تهديد من الله يقصد به تخويف عباده وإظهار صفة من صفات الجبروت والعظمة الإلهية ليكونوا دائمًا على حذر من ارتكاب الهفوات والآثام[٣].

وتأتي أهمية استخدام أسلوب الترهيب لملائمتها لطبيعة كثير من الناس، وذلك لأن من الأنفس من لا ترجع إلا بالزجر، وإذا كانت النعم تسبب الغفلة فإن الترهيب يبعث اليقظة في كثير من الأحيان، وكم يفكر الناس في أشياء ثم يتذكرون النتائج السلبية المترتبة عليها فيقلعون عنها مباشرة، وقد استخدم الأنبياء أسلوب الترهيب كوسيلة لردع النفس عن الغواية وعن اتباع خطوات الشيطان، لما تضمنت الشرائع أحكامًا للترهيب، كالحدود والقصاص وبعض العقوبات المقدرة على بعض المعاصي التي تُرتكب ردعًا وزجرًا[٤].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ١٢١/٥.

(٢) الآداب الشرعية، ابن مفلح ٢٠٤/١، والأبيات في الكامل في التاريخ قافية الواو ٣٥٨/٥، والحماسة البصرية ٤٢٢/٢ ونسبه لأبي العتاهية.

(٣) أصول التربية الإسلامية وأساليبها، د. عبدالرحمن النحلاوي، ص ٢٥٧.

(٤) انظر: دعوة الرسل، د. بكر زكي عوض، ص ١٤٢.

الحديث رقم (٢٢٠)

٢٢٠- وعن ابنِ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال قال رسولُ اللَّه ﷺ: «**لَنْ يَزَالَ الْمُؤمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرامًا**» رواه البخاري[١].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٣).

غريب الألفاظ:

في فسحة: في سعة[٢].

الشرح الأدبي

إن المسلم أخو المسلم: لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، وكل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه، والإسلام في ظل هذا المنهج الداعي إلى المحافظة على الحقوق، حدد أمهات الجرائم وكبائر المعاصي، وهي التي يضطرب بها الأمن، ويفسد المجتمع، وفرض لها عقوبات معينة، تقلل من وقوعها، وهذه الجرائم ترجع إلى الجناية على النفس والمال والعرض والنسب والعقل والدين والنظام العام، وحين نتأمل فضاءات المعنى، وآفاق الدلالة في هذا الحديث الشريف ندرك حرص الرسول ﷺ على صيانة الأرواح والأجساد، والنفس بصفة عامة، وبرغم أن الكبائر متعددة، والجنايات كثيرة، فإن المصطفى ﷺ جعل من سفك الدماء، وقتل النفس مفتاحًا لكل شر، ومغلاقًا لكل خير، وقد أشار القرآن الكريم إلى أنه: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[٣].

---

(١) برقم (٦٨٦٢). أورده المنذري في ترغيبه (٣٥٨٧).

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٢/١٩٥.

(٣) سورة المائدة، آية: ٣٢.

والحديث في صياغته اللغوية جملة واحدة لا يتم المعنى إلا إذا أكملنا قراءة الحديث: وهو جملتان في التركيب اللغوي: ولكن المعنى لا يتم إلا بترابط الجملتين، قراءة ونطقا، فمقدمة الحديث تعلن عن بشارة الرسول ﷺ للمؤمن بأنه في سعة من دينه، أى أنه يحظى برحمة ربه، ومغفرته، حتى لو ارتكب بعض الكبائر، فإنه لن ييأس من رحمة الله وسحائب رضوانه، وشآبيب عفوه إذا أقدم على التوبة، أما إذا أقدم على القتل العمد، وأصاب دمًا حرامًا، فإن أبواب الرحمة تطفأ في عينيه أنوارها، وتتهاوى من الآفاق أقمارها ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[1].

والحديث يبدأ بأداة النفي "لن"، وهى حرف يفيد النفي والاستقبال، بالاتفاق، ولا يقتضي تأبيدًا خلافًا للزمخشري في أنموذجه، ولا تأكيدًا خلافًا له في كشافه، كما يقول ابن هشام في قطر الندى، فـ"لن" تفيد الاستقبال: وتفيد التأبيد والتأكيد عند الزمخشري، والفعل "يزال" بعدها مضارع يفيد الاستمرار، فالمؤمن يظل في سعة من دينه، وأمامه أبواب الرحمة والمغفرة مشرعة، وختام الحديث في قوله: "ما لم يصب دما حرامًا" فإذا قتل نفسًا بغير حق ضاقت عليه المسالك، ودخل في زمرة الآيسين من رحمة الله.

وفي الحديث بلاغة الإيجاز بالحذف... فختام الحديث يفضي إلى كلام محذوف يفسره ما قبله، والتقدير فإذا أصاب دمًا حرامًا ضاقت عليه المسالك، ودخل في زمرة الآيسين، وضاقت عليه الأرض بما رحبت.

وتعد جريمة القتل العمد من أكبر المحرمات، وأخطر الجرائم، وأشدها إخلالاً بالأمن، وأكثرها تسببًا في الاضطراب والفوضى في المجتمع، ولذا كانت من السبع الموبقات التي عدها النبي طالبًا اجتنابها، بقوله ﷺ: "اجتنبوا السبع الموبقات: قيل وما هن يارسول الله؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق

---

(١) سورة النساء، آية: ٩٣.

وأكل الربا وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات"[(١)].

ولفظ "المؤمن" في الحديث فيه إشارة إلى أن المؤمن يجب أن يكون حذرًا من إغراء النفس، ووساوس الشيطان، حتى لا ينطفئ وهج الإيمان في قلبه، وحتى لا يتمكن منه ظلام المعاصي فيطرد النور من روحه ونفسه.

وإذا كان المؤمن في غير مأمن من هذه الفتنة، فما بال الذي فقد حصانة الإيمان، ووقع فريسة الشيطان، فاللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا، وعذاب الآخرة.

فقه الحديث

يبين هذا الحديث أن النفس الإنسانية لها حرمة كبيرة حتى أن التعدي عليها بغير حق يعد من أكبر الذنوب وأعظم الخطايا، بل يظل المسلم في فسحة من دينه يستغفر الله عما فعل ويغفر الله له ما لم يصب دمًا حرامًا فيزهق نفسًا بدون وجه حق.

وقد اتفق الفقهاء[(٢)] على أنه لا يجوز قتل أي حي ولو كان غير مسلم بدون حق، ومن قتل مسلمًا بغير حق كان عليه القصاص، وإن كان خطأ فعليه الدية، وفصلوا في ذلك تفصيلات واسعة في باب الجنايات.

---

(١) أخرجه البخاري ٢٧٦٦، ومسلم ٨٩.

(٢) المبسوط، السرخسي ٨٤/٢٧، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ٩٧/٦، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٢٣١/٦، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم المالكي ١٧٨/٢، وتحفة المحتاج في شرح المنهاج، ابن حجر الهيتمي ٣٧٥/٨، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٢/٤ وما بعدها، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٢٥٣/٣، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٥٠٢/٥ وما بعدها.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الترهيب من قتل النفس بغير حق.

ثالثًا: من أهداف الدعوة: حفظ النفس.

رابعًا: من واجبات الداعية: بيان الحقائق للمدعوين.

أولاً- من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب:

إن النفوس البشرية مختلفة الطباع، منها ما يجلبه الترغيب، ومنها ما يخيفه الترهيب، ولهذا جاء القرآن الكريم والسنة المطهرة بالأسلوبين، قال تعالى: ﴿وَيَدۡعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾[(١)]، وقال ﷺ: ((سبعة يظلهم الله في ظله...)) إلخ[(٢)]، وقال ﷺ: ((...وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً، يهوى بها في جهنم ... إلخ))[(٣)]. والدعاة مطالبون بانتهاج الأسلوبين مع الناس، كلٌ حسب ما يناسبه[(٤)]، (وعليه فإن الإسلام قد جعل هذا الأسلوب طريقًا إلى دعوة الناس وتذكيرهم وتبصيرهم بما يؤول إليه أمرهم: إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر)[(٥)]. وقد ورد الترغيب كأسلوب دعوي في الحديث من قوله ﷺ: "لن يزال المؤمن في فسحة من دينه"، (أي في سعة من دينه)[(٦)]. أما الترهيب فقد ورد في الحديث من قوله ﷺ: "ما لم يصب دمًا حرامًا".

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: الترهيب من قتل النفس بغير حق:

هذا ما أكد عليه نص الحديث في قوله ﷺ "لن يزال المؤمن في فُسْحة من دينه ما لم يصب دمًا حرامًا".

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ٩٠.

(٢) أخرجه البخاري ١٤٢٣.

(٣) أخرجه البخاري ٦٤٧٨.

(٤) فقه الدعوة، د. بسام العموش، ٨٦.

(٥) الدعوة الإسلامية، الوسائل والأساليب، محمد خير رمضان، ٩٧.

(٦) فتح الباري، ابن حجر، ١٢/١٩٥.

قال ابن حجر: (قوله ﷺ: "في فُسْحة" بضم الفاء وسكون المهملة وبحاء مهملة أي سعة.

وقوله ﷺ: "من دينه" كذا للأكثر بكسر المهملة من الدين، وفي رواية الكشميهني: "من ذنبه" فمفهوم الأول أن يضيق عليه دينه ففيه إشعار بالوعيد على قتل المؤمن متعمدًا بما يتوعد به الكافر، ومفهوم الثاني أنه يصير في ضيق بسبب ذنبه ففيه إشارة إلى استبعاد العفو عنه لاستمراره في الضيق المذكور. وقال ابن العربي: الفسحة في الدين سعة الأعمال الصالحة حتى إذا جاء القتل ضاقت لأنها لا تفي بوزره، والفسحة في الذنب قبوله الغفران بالتوبة حتى إذا جاء القتل ارتفع القبول، وحاصله أنه فسره على رأي ابن عمر في عدم قبول توبة القاتل)[1].

وفي ذلك قال ابن عمر رضي الله عنهما: (إنَّ من وَرْطاتِ الأمور التي لا مَخرَجَ لِمَن أوقعَ نَفْسَه فيها سفكَ الدَّم الحرام بغير حِلِّه)[2].

(وقال ابن العربي: ثبت النهي عن قتل البهيمة بغير حق والوعيد في ذلك، فكيف بقتل الآدمي، فكيف بقتل المسلم، فكيف بقتل الصالح)[3].

وقد عظم الحق تبارك وتعالى حرمة نفس المؤمن ورهب من الاعتداء عليها فقال: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[4].

قال ابن كثير رحمه الله: (وفي ذلك تهديد شديد ووعيد أكيد لمن تعاطى هذا الذنب العظيم، الذي هو مقرون بالشرك بالله في أكثر من آية في كتاب الله)[5]، حيث يقول

(١) المرجع السابق ١٢/١٩٥.

(٢) أخرجه البخاري ٦٨٦٣.

(٣) فتح الباري، ابن حجر، ١٢/١٩٦.

(٤) سورة النساء، آية: ٩٣.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢/٣٧٦.

سبحانه في سورة الفرقان: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾(١)، وقال تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(٢)، والأحاديث في تحريم القتل كثيرة جدًا. "من ذلك ما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: "أول ما يقضي بين الناس يوم القيامة في الدماء"(٣).

قال النووي: (فيه تغليظ أمر الدماء، وأنها أول ما يقضي فيه بين الناس يوم القيامة، وهذا لعظم أمرها وكثير خطرها)(٤).

وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: ((لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ))(٥).

قال المباركفوري: (قوله: "لزوال الدنيا" اللام للابتداء "أهون" أي: أحقر وأسهل "على الله" أي: عنده "من قتل رجل مسلم")(٦). قال الطيبي: (الدنيا عبارة عن الدار القربى التي هي معبر للدار الأخرى، وهي مزرعة لها، وما خلقت السموات والأرض إلا لتكون مسارح أنظار المتبصرين، ومتعبدات المطيعين، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾(٧)، أي بغير حكمة بل خلقتها لأن

---

(١) سورة الفرقان، آية: ٦٨.

(٢) سورة الأنعام، آية: ١٥١.

(٣) أخرجه البخاري ٦٨٦٤، ومسلم ١٦٧٨.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٠٧٤.

(٥) أخرجه الترمذي ١٣٩٥، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١١٢٦).

(٦) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٣٢٥/١.

(٧) سورة آل عمران، آية: ١٩١.

تجعلها مساكن للمكلفين، وأدلة لهم على معرفتك. فمن حاول قتل من خلقت الدنيا لأجله فقد حاول زوال الدنيا)[١].

وفي ذلك بيان على عظم جرم قتل النفس بغير حق.

ثالثًا- من أهداف الدعوة: حفظ النفس:

إن من أهداف الدعوة المستنبطة من هذا الحديث: حفظ النفس البشرية، "فالإنسان إذا ما دخل في دين الله فإنه يصبح في مأمن، قال ﷺ: ((أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ. فَإِذَا قَالُوا: لاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلاَّ بِحَقِّهَا. وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ))[٢]، فإذا دخل الإنسان في دين الله ونطق بالشهادتين فإنه يعصم دمه وماله حتى يتبين منه ما يناقض ذلك من أنواع الردة، فيقام عليه حد المرتد، لقوله ﷺ: ((لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة))[٣]، فدم المسلم حرام، رتب الله عليه وعيدًا في الآخرة لمن استباحه، ووعيدًا في الدنيا، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[٤].

فلم يرد في أنواع الكبائر أعظم من هذا الوعيد بل ولا مثله، ألا وهو الإخبار بأن جزاءه جهنم، أي فهذا الذنب العظيم قد انتهض وحده، أن يجازي صاحبه بجهنم بما فيها من العذاب العظيم، والخزي المهين وسخط الجبار وفوات الفوز والفلاح وحصول الخيبة والخسار[٥].

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٧/٥٥.

(٢) أخرجه البخاري ١٣٩٩، ومسلم ٢٠.

(٣) أخرجه البخاري ٦٨٧٨، ومسلم ١٦٧٦.

(٤) سورة النساء، آية: ٩٣.

(٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق، ص ١٥٧.

وذلك لحرمة المؤمن عند الله سبحانه وتعالى وعظيم منزلته؛ لأنه دخل في دين الله، وأصبح من عباد الله، فمن تعدى عليه فقد توعده الله بهذا الوعيد، وقد كتب الله على اليهود في التوراة: ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾(١).

وذلك لعظمة حرمة المؤمن عند الله سبحانه وتعالى، وقد بين الحق تبارك وتعالى أن الخسران هو جزاء من خالف ذلك فقال في قصة ابني آدم: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾(٢).

وقال النبي ﷺ: ((لا تقتل نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنه أول من سن القتل))(٣). وذلكم يدل على عظمة حرمة المؤمن عند الله سبحانه وتعالى.

أما حكم القاتل في الدنيا فإن الله سبحانه وتعالى أمر بالقصاص منه، وذلك بأن يقتل القاتل حفظًا للدماء، وصيانة للأنفس، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى﴾(٤).

"وكُتِبَ" معناه: فرض، فقتل القاتل فرض إلا إذا عفا ولي الدم عن القصاص، قال

---

(١) سورة المائدة، آية: ٣٢.

(٢) سورة المائدة، الآيات: ٢٧-٣٠.

(٣) أخرجه البخاري ٣٣٣٥، ومسلم ١٦٧٧.

(٤) سورة البقرة، آية: ١٧٨.

الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾. إلى قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1].

وهذا بيان للحكمة الإلهية في تشريع القصاص، لأنه بالقصاص تحصل حياة المجتمع، فإذا قتل القاتل فإن الناس يأمنون على دمائهم وأنفسهم، أما إذا لم يقتل القاتل، فإن هذا يصبح خطرًا على المجتمع، وقد جعل الله القصاص حياة؛ لأنه يسبب الحياة وإن كان موتًا للمقتص منه لكنه حياة للبقية، قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[2]، وكانوا في الجاهلية يقولون: "القتل أنفى للقتل"، يعني: قتل الجاني أنفى لقتل الآخرين، بمعنى: أنه يمنع قتل الآخرين، ولكن الله عز وجل جاء بعبارة يعجز عنها البشر. ففي القصاص حماية للنفوس البريئة من الاعتداء عليها، وفيه منع أيدي العابثين والمجرمين من سفك الدماء، وهذا واقع مشاهد في البلاد التي يقتص فيها من القاتل، والمشاهد فيها استتباب الأمن، وقلة القتل، أما البلاد التي لا ينفذ فيها القصاص ويكتفي فيها بالسجن أو الغرامة، فالدماء فيها مراقة، والأمن فيها مختل، والعيش فيها نكد؛ لأنهم عطلوا هذا الحد العظيم، وإن كانوا ينتسبون إلى الإسلام، لهذا أصبح مجتمعهم مضطربًا قلقًا، لأنه لا يعوض عن القصاص شيء من العقوبات مهما كانت القسوة فيها؛ ولهذا قال جل وعلا: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾"[3]. فبين تعالى الحكمة العظيمة في مشروعية القصاص بأنه حياة، لأن من عرف أنه مقتول إذا قتل، لا يكاد يصدر منه القتل، وإذا رُؤي القاتل مقتولاً انذعر بذلك غيره وانزجر، فلو كانت عقوبة القاتل غير القتل لم يحصل انكفاف الشر

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٧٨.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٧٩ .

(٣) محاضرات في العقيدة والدعوة، د. صالح بن فوزان بن عبدالله الفوزان، ٢/١٢١-١٢٣.

الذي يحصل بالقتل، وهكذا سائر الحدود الشرعية فيها من النكاية والانزجار ما يدل على حكمة الحكيم الغفار، ونكّر "الحياة" لإفادة التعظيم والتكثير.

ولما كان هذا الحكم لا يعرف حقيقته إلا أهل العقول الكاملة والألباب الثقيلة خصهم بالخطاب دون غيرهم(١).

رابعًا- من واجبات الداعية: بيان الحقائق للمدعوين:

هذا ما بينه النبي ﷺ في الحديث من قوله: "لن يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دمًا حرامًا" فعلى الداعية أن يبين الحقائق للمدعوين وهذا من النصيحة التي أمر بها النبي ﷺ، فقال: ((الدِّينُ النَّصِيحَةُ)) قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: ((للَّه وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ))(٢). وتحملاً لأمانة التبليغ للدعوة الإسلامية وبيان حقائقها للناس، فينبغي على كل داعية أن يعلم أن الدعوة إلى الله من أهم المهمات، وأن الأمة في كل زمان ومكان في أشد الحاجة إليها بل في أشد الضرورة إلى ذلك، فالواجب على أهل العلم والإيمان أن يقوموا بهذا الواجب وأن يتكاتفوا فيه، وأن يبلغوا رسالات الله إلى عباد الله، وهذا أفضل الخير الذي يدعو إليه المؤمن، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٣).

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ، ص ٦٧.

(٢) أخرجه مسلم ٥٥.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٠٤.

الحديث رقم (٢٢١)

٢٢١- وعن خَوْلَةَ بِنْتِ عامِرٍ الأَنْصَارِيَّةِ، وَهِيَ امْرَأَةُ حمْزَةَ رضي اللَّهُ عنه وعنها، قالت: سمِعْتُ رسولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ: «**إنَّ رِجَالاً يَتَخَوَّضُونَ فِي مالِ اللَّهِ بِغَيْرِ حَقٍّ، فَلَهُمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامةِ**» رواه البخاري(١).

ترجمة الراوي:

خولة بنت عامر الأنصارية: وهي خولة بنت قيس بن ثعلبة الأنصارية.

تزوجت حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه فولدت له يعلى وعمارة وابنتين، ثم خلف عليها بعد حمزة حنظلة بن النعمان بن عجلان، فولدت له محمدًا أسلمت وبايعت النبي ﷺ، ولها صُحبة ورواية.

وكان رسول الله ﷺ يزور حمزة في بيتها، فقالت له: يا رسول الله بلغني عنك أنك تحدث أن لك يوم القيامة حوضًا ما بين كذا إلى كذا، قال النبي ﷺ ((أجل وأحب الناس إلي أن يَرْوي منه قومُك)) قالت: فقدمتُ إليه بُرمةً فيها خُبْرَةُ -أو خزيرة(٢) فوضع رسول الله ﷺ يدَه في البُرمة ليأكل، فاحترقت أصابعُه فقال: "حَسِّ" ثم قال: "ابنُ آدم إن أصابهُ البرد، قال حَسِّ وإن أصابهُ الحرُّ قال: حَسِّ"(٣).

وكان رضي الله عنها عدادها في البصريين(٤).

---

(١) برقم (٣١١٨).

(٢) الخبرة: الإدام، وقيل: هي الطعام من اللحم وغيره، والخزيرة: لحم يقطع صغارًا، ويصب عليه ماء كثير فإذا نضج، ذُرَّ عليه الدقيق. قاله ابن الأثير في النهاية: ص ٢٦٢.

(٣) أخرجه أحمد ٤١٠/٦ رقم ٢٧٣١٦، وقال محققو المسند: رجاله ثقات رجال الصحيح ٢٩٧/٤٥.

(٤) الطبقات الكبرى، ابن سعد (٤٤٤/٨)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر (٨٩٥)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٩٠/٧)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين (٥٣٠/٨-٥٣١)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٦٧١/٤-٦٧٢، وموسوعة عظماء حول الرسول (٧٢٤/١)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي (١٦٧٨).

غريب الألفاظ:

يتخوضون: يتصرفون[1].

الشرح الأدبي

هذا الحديث الشريف يختم به الإمام النووي باب تحريم الظلم والأمر برد المظالم، وهذا الختام يعد إنذارًا ووعيدًا لكل ظالم لنفسه، وظالم لغيره، ولكل من لا يصون الحقوق، ويظل سادرًا في العقوق، لا يسأل نفسه: من أين اكتسب ماله، وفيم أنفقه، ولماذا سلب حق أخيه، وأهان أهله وذويه، وتخوَّض بغير حق في مال الله، ولم يتعرف على مسالك النجاة، وأصاب الدم الحرام، وتوهم أن التعدي على أعراض الناس بالسب والقذف يخيفهم ويجعله مهاب الجناب، ولكنه خاب مسعاه، وباء بسخط من الله، وجاء يوم القيامة وهو من المفلسين، ورُدَّ الحق إلى المظلومين، وهو قد غَدَاَ وقودًا للنار، وبئس القرار، وحين نطيل التأمل في الأحاديث الثلاثة التي ختم بها هذا الباب، نجدها أنها تنتهي بالوعيد، وتحدد مصير الظالمين، فالمفلس يوم القيامة يتحدد مصيره بأنه "طرح في النار"، بعد أن تحمل عن مظلوميه خطاياهم وطرحت عليه الأوزار، والمؤمن يظل في مأمن من غواية الشيطان حتى إذا أصاب دمًا حرامًا يظلم نفسه وغيره ويلقي الله مكتوبًا بين عينيه: أيس من رحمة الله.

وهذا الحديث الذي يُختم به هذا الباب ينذر الذي يتخوضون في مال الله بغير حق بأن لهم النار يوم القيامة، ولغة الحديث تفصح عن مقاصده وأهدافه، وتوحي بجو الشدة والمصير المظلم الذي يؤول إليه الظالمون المعتدون الآثمون المتخوضون في مال الله بغير حق وهم غافلون، والحديث من خلال صياغته في ثوب الجملة الاسمية، وهي جملة واحدة "إن واسمها وخبرها"، يؤكد ثبات هذا المصير: لأن الجملة الاسمية من سماتها ثبات الحدث، وعدم تحركه إلا من خلال حركية بعض الأحداث داخل دائرة الثبات، فالحكم الثابت لمن يتخوضون في مال الله بغير حق: أن لهم النار يوم القيامة، ولا مجال

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦/٢٥٣.

للجدال في ذلك، إلا إذا تابوا وردوا المظالم، ويعضد هذا الثبات: التأكيد في أول الحديث بـ"إن"، والتأكيد هنا ليس للحكم عليهم ولكن لبيان إصرارهم على سلوكهم الضال، وتنكير اسم إن "رجالاً" فيه إيحاء بكثرتهم، واحتقارهم، وإيحاء بعدم الاغترار بمظهرهم الخادع في مسيرة الحياة، والرجال والنساء في ذلك سواء، ولكنه ذكر "الرجال" للتغليب، ولأن الرجل هو المسؤول: وله القوامة، فعقابه أشد، وحسابه أقوى وأنكى.

والتعبير بالفعل المضارع في صيغة الجمع يفصح عن استمرار هؤلاء الرجال في مسلكهم، فهذا هو طابع حياتهم، وسمة منهجهم في معاملاتهم وحركتهم الحياتية، والتعبير بـ"في" يوحي بغرقهم في هذه اللجة ومادة الفعل "تخوَّض" مع الحروف الزائد للافتعال: تعلن عن كثرة الحركة، وشدة الجهد والمعاناة في هذا المجال، وتصوِّرهم كأنهم يصارعون الموج، ومال الله: كأنه بحر فياض، تهدر موجاته بالأرزاق وهم يُجدفون في قلب هذا الموج المتلاطم: لينهبون أرزاق الناس، ويعتدون على حقوق الآخرين فالفعل: خاض: في اللغة يعطي دلالة خوض الماء ويقال: خاض الغمرات: أى اقتحمها، والفعل كذلك يوحي بالإيذاء والاعتداء، وكأنه سيف يخوض في دماء الضحايا والمظلومين: حيث يقول العرب: خاض بالسيف: أي حركة في المضروب، والمخاضة، ما جاز الناس فيه مشاة وركبانًا فتأمل وتبصر إيحاءات ودلالات هذا الفعل "يتخوضون"، وذلك من أسرار البيان النبوي، وبلاغة المصطفى ﷺ: فهو لا ينطق عن الهوى: إن هو إلا وحى يوحى ﷺ.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم القسمة في الغنائم، وقد سبق الحديث عنها، وهذا الحديث يصح الاحتجاج به على شرطية القسمة في أموال الفيء والغنيمة بحكم العدل واتباع ما ورد في الكتاب والسنة، وأن من أخذ من الغنائم شيئًا بغير قسم الإمام كان

عاصيًا، وفيه ردع الولاة أن يأخذوا من المال شيئًا بغير حقه أو يمنعوه من أهله[1].

كما أنّ في الحديث دليلاً على أنه يحرم على من لم يستحق شيئًا من مال الله بألا يكون من المصارف التي عينها الله تعالى أن يأخذه ويتملكه وأن ذلك من المعاصي الموجبة للنار[2].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد، الترهيب.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: التعريض في القول.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: حرمة تصرف الولاة في أموال المسلمين بغير حق.

رابعًا: من أهداف الدعوة: الحفاظ على المال.

١- التوكيد: حيث جاء في الحديث "إن رجالاً" ويعد التوكيد أسلوبًا دعويًا مهمًا يستعمله الداعية في المواطن التي تستلزم ذلك، إذ يبين به الداعية أهمية ما يقول، ولذا يؤكده، ويزيد في إقناع المدعوين.

٢- الترهيب: وهو أسلوب ناجع من أساليب الدعوة فأحيانًا لا تنزجر النفس عن المعاصي والشهوات إلا بالتخويف والترهيب، والداعية الحصيف هو الذي يستخدم هذا الأسلوب في موطنه المناسب، وشاهده من الحديث "فلهم النار يوم القيامة".

ثانيًا- من أساليب الدعوة: التعريض في القول:

يعد هذا الأسلوب من الأساليب الدعوية الناجحة التي يستعملها الداعية للحفاظ على مشاعر الآخرين ولعدم التشهير بهم، ولقد كان هذا هدي رسول الله ﷺ فدائمًا يعرض ولا يصرح ويقول "ما بال أقوام يفعلون كذا" وفي الحديث الذي معنا سلك نفس النهج فقال: "إن رجالاً يتخوضون.." هكذا بالتنكير وبدون أن يحدد من هم وما أسماؤهم ليتعلم منه الدعاة هذا الأسلوب في التعريض في القول وعدم التجريح

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢١٩/٦.

(٢) سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، الصنعاني ١٩٢/٤.

والتشهير، لأن ذلك أدعى للاستجابة والامتثال ويقرب بين الداعية والمدعو ويؤلف ولا يفرق.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: حرمة تصرف الولاة في أموال المسلمين بغير حق:

في هذا الحديث يبين الرسول حرمة من يفعل هذا، وأنه ليس له في الآخرة إلا النار وقد جاء في التحذير من هذا أيضًا قول النبي ﷺ: ((إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، مَنْ أَصَابَهُ بِحَقِهِ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَرُبَّ مُتَخَوِّضٍ فِيمَا شَاءَتْ بِهِ نَفْسُهُ مِنْ مَالِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ لَيْسَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلاَّ النَّارُ))[1]. وفي الحديث الذي معنا "إن رجالاً يتخوضون في مال الله بغير حق فلهم النار يوم القيامة" أي يتصرفون في مال المسلمين بالباطل، وهو أعم من أن يكون بالقسمة وغيرها، وقوله: "من مال الله" مُظْهرًا قام مقام المضمر إشعارًا بأنه لا ينبغي التخوض في مال الله ورسوله ﷺ والتصرف فيه بمجرد التشهي، وقوله: "ليس له يوم القيامة إلا النار" حكم مرتب على الوصف المناسب وهو الخوض في مال الله، ففيه إشعار بالغلبة[2].

(وأصل الخوض المشي في الماء وتحريكه ثم استعمل في التلبيس بالأمر والتصرف فيه أي رب متصرف في مال الله بما لا يرضاه الله أي يتصرفون في بيت المال، ويستبدون بمال المسلمين بغير قسمة، وقيل هو التخليط في تحصيله من غير وجه كيف أمكن وهذا ليس له جزاء يوم القيامة إلا دخول جهنم وهو حكم مرتب على الوصف المناسب وهو الخوض في مال الله تعالى)[3]. وقال ﷺ: ((مَنْ اسْتَعْمَلْنَاهُ عَلَى عَمَلٍ فَرَزَقْنَاهُ رِزْقًا فَمَا أَخَذَ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ غُلُولٌ))[4].

والمعنى: (من جعلناه عاملاً على عمل من أعمال الولاية والإمارة فأعطيناه رزقًا ومقدارًا معينًا فما أخذ بعد ذلك فهو غلول أي خيانة في الغنيمة وفي مال الفيء)[5]. هذا

(١) أخرجه الترمذي ٢٣٧٤، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٩٣٤).

(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ٢٥٢/٦، ٢٥٣.

(٣) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٨٧١/٢.

(٤) أخرجه أبوداود ٢٩٤٣، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢٥٥٠).

(٥) عون المعبود على سنن أبو داود، محمد أشرف بن أمير العظيم آبادي ١٢٥٢.

وقد ضرب الصحابة الكرام أروع الأمثلة في الاحتراز من أموال المسلمين فعن عائشة رضي الله عنها قالت: ((لمّا استُخلِفَ أبو بكرٍ الصدِّيقُ قال: لقد عَلِمَ قَومي أنَّ حِرْفَتي لم تَكنْ تَعجِزُ عن مَؤُونةِ أهلي، وشُغِلتُ بأمرِ المسلِمينَ فسيأكلُ آلُ أبي بكرٍ مِن هذا المالِ وأحترِفُ للمسلِمينَ فيه))(١).

قال ابن حجر: (أشار أبوبكر بذلك إلى أنه كان كسوبًا لمؤونته ومؤونة عياله بالتجارة من غير عجز، تمهيدًا على سبيل الاعتذار عما يأخذه من مال المسلمين إذا احتاج إليه)(٢). روى ابن سعد في الطبقات عن عائشة قالت: (لما مرض أبوبكر مرضه الذي مات فيه قال: انظروا ما زاد في مالي منذ دخلت الإمارة فابعثوا به إلى الخليفة من بعدي قالت فلما مات نظرنا فإذا عبد نوبي كان يحمل صبيانه، وناضح كان يسقي بستانًا له فبعثنا بهما إلى عمر فقال: رحمة الله على أبي بكر لقد أتعب من بعده)(٣).

ويعتبر هذا الموضوع من الموضوعات الدعوية المهمة التي يجب إبرازها، ومعالجتها بالطريقة المناسبة والتحذير من خطر أكل الحقوق لأن ذلك مما يورد الإنسان المهالك يوم القيامة.

رابعًا- من أهداف الدعوة: الحفاظ على المال:

إن من الأهداف الرئيسة للدعوة الإسلامية: الحفاظ على المال باعتبار أن ذلك من الكليات الخمس التي يجب حفظها وصيانتها، ومن هنا كانت دعوة الإسلام للحفاظ على المال العام، قال سبحانه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(٤).

قال السعدي رحمه الله: (وأكل الأموال على نوعين: نوع بحق، ونوع بباطل ولما كان

---

(١) أخرجه البخاري ٢٠٧٠.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٥٦/٤.

(٣) الطبقات الكبرى، ابن سعد ١٩٢/٣.

(٤) سورة البقرة، آية: ١٨٨.

المحرم هو أكلها بالباطل قيده الله تعالى بذلك فيدخل فيه أكلها على وجه الغصب والسرقة والخيانة والمعاوضات المحرمة، والغش في البيع والشراء والإجارة فكل هذا ونحوه من أكل الأموال بالباطل فلا يحل ذلك بوجه من الوجوه حتى ولو حصل فيه النزاع والارتفاع إلى حاكم الشرع، وأدلى من الحاكم، يريد أكلها بالباطل بحجة غلبت حجة المحق وحكم له الحاكم بذلك فإن حكم الحاكم لا يبيح محرمًا، ولا يحلل حرامًا، إنما يحكم على نحو مما يسمع، وإلا فحقائق الأمور باقية، فليس في حكم الحاكم للمبطل راحة، ولا شبهة، ولا استراحة فمن أدلى إلى الحاكم بحجة باطلة، وحكم له بذلك، فإنه لا يحل له، ويكون أكلاً لمال غيره بالباطل والإثم، وهو عالم بذلك فيكون أبلغ في عقوبته، وأشد في نكاله)[(١)].

ولما استعمل النبي ﷺ ابن اللتبية على الصدقة فلما قدم قال: هذا لكم وهذا أهدي إليَّ فقام النبي ﷺ على المنبر ثم قال: ((ما بالُ العامِلِ نبعثُهُ فيأْتي فيقول: هذا لكم وهذا لي، فهلاّ جلسَ في بيت أبيهِ وأمِّه فينظُرُ أيُهدَى له أم لا؟ والذي نفسي بيده لا يأتي بشيءٍ إلا جاءَ به يومَ القيامةِ يحمله على رقبتِهِ، إن كان بعيرًا له رُغاء، أو بقرةً لها خُوار أو شاةً تَيْعَر - ثم رفعَ يديهِ حتى رأينا عفْرتي إبطَيه - ألا هل بَلَّغتُ؟ ثلاثًا))[(٢)].

وكل هذا يدل على حرص الإسلام على صيانة المال العام لأن ذلك من مقاصد الشريعة. فالمال أحد المقاصد الخمسة التي عني الإسلام بالمحافظة عليها، فمقصود الشرع من الخلق خمسة، وهو أن يحفظ عليهم دينهم وأنفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم، فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة وكل ما يفوت هذه الأصول الخمسة فهو مفسدة ودفعها مصلحة[(٣)].

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٧٠.

(٢) أخرجه البخاري ٧١٧٤.

(٣) المستصفى، للغزالي، ص ٢٨٧، نقلاً عن كتاب أصول الفقه، محمد أبو زهرة، ص ٣٦٩.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

من هدي الإسلام بيان عاقبة الفعل وإبراز الأثر المترتب عليه، والإسلام يختلف في هذا الجانب عن غيره، فالعقوبة في كل الأساليب التربوية دنيوية، أما الإسلام فيجعل العقوبة دنيوية وأخروية، ويحمل الفرد والجماعة المسؤولية تجاه المجتمع بحق المنجيات والمهلكات.

ولتربية المسلمين على ذلك كانت الأساليب التالية:

أولاً- التربية بالوعظ والخطابة:

يتضح استخدام أسلوب الخطابة في خطبته في حجة الوداع، حيث بدأ النبي ﷺ الخطبة بحمد الله والثناء عليه، ثم شرع في عناصر الخطبة الأخرى، فتناول المسيح الدجال وأطنب في ذكره، وبيان صفاته ،ثم تطرق إلى الحديث عن حرمة الدماء والأموال بين المسلمين، والتي تساوى عند الله حرمة البيت الحرام والشهر الحرام، ثم وجه السؤال إليهم: «أَلاَ هَلْ بَلَّغْتُ؟ قَالُوا: نَعَمْ ، قَالَ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ»، ثم حذر صحابته في خطبته النبوية البليغة أن يرجعوا بعده كفاراً يضرب بعضهم رقاب بعض.

لقد احتوت هذه الخطبة علي عنصر الوعظ الذي يرق له القلب، ويبعث على العمل، وقدمت للمتلقين الترغيب والترهيب الذي يفطر أهل الإيمان بالله والجزاء على الأعمال الخيرة في الآخرة، فإن هؤلاء هم الذين يتقبلونه ويتعظون به، فتخشع له قلوبهم، ويتحرون العمل به، قبولاً لتأديب ربهم، وطلباً للانتفاع به في الدنيا، ورجاء في مثوبته ورضوانه في الآخرة(١).

ثانياً- التربية بالترهيب:

إن هذا الأسلوب التربوي بكاد يستغرق أحاديث هذا الباب، الذي يحرم فيه النبي ﷺ الظلم ويحذر منه، وليس أبلغ من أسلوب الترهيب في زجر الظالمين، وتخويف

---

(١) أصول التربية الإسلامية وأساليبها، عبدالرحمن النحلاوي، ص٢٢٦ بتصرف يسير.

المسلمين أن يقعوا في ظلم العباد، يقول ﷺ: «اتَّقُوا الظُّلْمَ. فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ...»، وفي حديث آخر يقول: «مَنْ ظَلَمَ قِيدَ شِبْرٍ مِنَ الأَرْضِ طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ»، ويقول: «إن الله يملى للظالم...»، وحيناً يخبر النبي ﷺ عن مصير الظالم يوم القيامة؛ حيث يؤخذ من حسناته ويعطى للمظلوم فإن فنيت حسناته أخذ من سيئات المظلومين فطرحت عليه ثم طرح في النار.

ذلك هو المصير الأكيد لمن ظلم غيره حتى في أقل شيء، حتى الرجل الذي كان مسئولاً عن أمتعة النبي ﷺ، لما مات سئل عنه رسول الله ﷺ فقال: «هو في النار»، فذهبوا ينظرون إليه فوجدوا عباءة قد غلّها..... ويقول ﷺ: «مَنِ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ، فَقَدْ أَوْجَبَ اللهُ لَهُ النَّارَ...»، وعندما سئل الرسول ﷺ عن قدر الشيء المسلوب، قال: «وَإِنْ قَضِيبا مِنْ أَرَاكٍ».

وهكذا يبين رسول الله ﷺ مصير الظالمين؛ لأن الظلم ليس مجرد انتهاك لما حرَّم الله تعالى، بل إن فيه أخذاً لحق الآخرين وتسبباً في إيلامهم وحزنهم، وذلك ما نهى عنه الإسلام، ولو نظرنا إلى هذه التربية الربانية وقارناها بما كان عليه العرب قبل الإسلام لرأينا المفارقة الكبيرة؛ فقد كان الجاهليون يتفاخرون بالظلم ويعدونه مقدرة على الغلبة، بل إن شعراءهم كانوا يوردون ذلك في شعرهم، يقول عمر بن كلثوم التغلبي متفاخراً:

بُغَاةً ظَالِمِينَ وَمَا ظُلِمْنَا ... وَلَكِنَّا سَنَبْدَأُ ظَالِمِينَا

وَنَشْرَبُ إِنْ وَرَدْنَا المَاءَ صَفْواً ... وَيَشْرَبُ غَيْرُنَا كَدَراً وَطِينَا

فأين هذه السلوكيات البهيمية الغابيّة من قيم الإسلام السامية العالية؟

ولهذا فقد كان تحريم النبي ﷺ للظلم رادعاً، مستخدماً فيه الترهيب من عواقبه؛ لأن الرسول ﷺ يريد أن يجتث جذور الظلم من النفوس اجتثاثاً، ويرغب في العدل والإنصاف.

ثانياً- التربية على أداء الحقوق:

لقد حث النبي ﷺ المسلمين على أداء الحقوق لبعضهم البعض؛ ونهى عن أخذ

حقوق الغير بغير حق، يقول ﷺ: «وَاللَّهِ لاَ يَأْخُذُ أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئاً بِغَيْرِ حَقِّهِ إلاَّ لَقِيَ اللَّهَ يَحْمِلُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ....»، بل إنه ﷺ عندما سئل في حديث آخر عن قدر الشيء المسلوب، وأنه ربما يكون شيئاً يسيراً فقال: «وَإِنْ قَضِيبا مِنْ أَرَاكٍ».

إن غلول أحد الصحابة لعباءة كانت عنده لأحد الناس، جعله في النار.

لقد حمى الإسلام الملكية الخاصة فيها حماية كاملة، ومنع الغصب، وشدد في منعه[1]، يقول ﷺ: «مَنْ ظَلَمَ قِيدَ شِبْرٍ مِنَ الأَرْضِ طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ».

ثالثاً- التربية بالتحذير:

ومن الأساليب التربوية التي وردت في أحاديث هذا الباب في النهي عن الظلم: أسلوب التحذير، وقد استخدمه ﷺ بطريقتين: الأولى: بقوله: «اتقوا»، يقول ﷺ: «اتقوا الظلم... واتقوا الشح»، والثانية باستخدام أداة التحذير «إياك»، يقول ﷺ: في وصيته لمعاذ عندما ولاه بعض النواحي: «وإياك وكرائم الأموال».

عندما يكون الخطر من العمل محتملا، فإن واجب المربي توجيه المتلقين إلى الابتعاد عنه، وتحذيرهم منه، وتبصيرهم بخطورة عاقبته، ويكون التحذير في كل ذلك ببيان وتوضيح هذا الشيء، ثم بيان الضرر الذي ينتج عنه ثم ذكر العقاب له في الدنيا والآخرة[2].

رابعاً- التربية بالتدرج:

إن للتدرج في الخطوات التربوية أثراً كبيراً في نفس المتلقي واستجابته، لأنه ما زال غضاً يافعاً، فلابد من التدرج معه، ونقله من مرحلة إلى أخرى، وتخطيط أي قضية أو هدف، يمر بمراحل وخطوات[3]، يرسمها المربي ويعمل على تنفيذها.

ذلك ما استخدمه النبي ﷺ في وصيته لمعاذ بن جبل، حين أرسله إلى اليمن، فقال

---

(١) حقوق الإنسان في الإسلام، سيف الدين حسين شاهين، ص٦٠.

(٢) تربية الطفل في الإسلام، د. أحمد محمود الحمد، ص٢٦٥.

(٣) المنهج النبوي في تربية الطفل، د. عبدالباسط محمد السيد، ص١٢٣.

له: « إِنَّكَ تَأْتِي قَوْما مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ. فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ. وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ. فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ ...، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً ...، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ...».

ذلك هو الأسلوب النبوي في تربية حديثي الإسلام، فالبداية تكون بالدعوة إلى الإسلام والشهادتين، ثم الدعوة إلى الصلاة، ثم الدعوة إلى الزكاة، ولا تأتي مرحلة إلا وقد تمت السابقة عليها، تدرج استخدمه رسول الله ﷺ حتى يتوثق الإسلام، ويقوى في نفوس من اعتنقوه.

خامساً- التربية بالتعريض:

لم يكن النبي ﷺ يصرح أحيانا، باسم من أخطأ؛ حرصًا منه على مشاعره ومكانته بين الناس، إنما كان يستخدم أسلوب التعريض في التنويه بخطئه، فكان يستعمل قوله: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَفْعَلُونَ كَذَا؟!»؛ لأن التبصير بالخطأ وتصويبه أولى عنده من الخطأ الفردي الذي وقع فيه أحد صحابته الكرام، وذلك ظاهر في موقف ابن اللتبية، حين تولى الصدقة، وعاد ليستأثر لنفسه بهدية، ويقول: هذا لكم وهذا أهدي إليّ، فما كان من رسول الله ﷺ إلا أن صعد المنبر وقال: «أما بعد فإني أستعمل الرجل ...» الحديث.

وذلك مسلك تربوي حميد، ينبغي على المربين الأخذ به في العملية التربوية؛ لأن التصريح باسم المخطئ يفضحه أمام الآخرين، وينقص مكانته لديهم، وربما كان لذلك نتيجة عكسية؛ فإن حاله قد يزداد سوءاً على سوئه، ويسترسل في خطئه، ولهذا فالنبي ﷺ كان من هديه: إذا رأى شيئاً من أصحابه أو بلغه عنهم شيء وأراد أن يدلهم على الحق فيه أنه كان لا يصرح بأسمائهم، ولكنه يلمح فيستر عليهم، ويحصل مقصوده من النصح[1]. دون هتك لأستار أراد الله أن يسدلها.

---

(١) التربية على منهج أهل السنة والجماعة، أحمد فريد، ص٢٧٩.

سادساً- التربية بالحوار والسؤال والجواب:

وقد ورد السؤال والجواب في هذا الباب على طريقتين:

الأولى: سؤال النبي ﷺ وإجابة أصحابه، وذلك في حجة الوداع، حين سأل ﷺ: «أَيُّ شَهْرٍ هَـٰذَا؟»، «أَيُّ بَلَدٍ هـذَا؟»، «أَيُّ يَوْمٍ هـذَا؟»، كل ذلك يسأله لصحابته وهم يسكتون ظانين أنه سيسميها بغير أسمائها، وتكون المفاجأة بأنها ما تزال تحتفظ بأسمائها، غير أنه أراد أن يؤكد لهم حرمة الشهر، وحرمة البلد وحرمة اليوم، ولهذا استخدم السؤال من أجل تأكيد الصفة التي تعارف عليها الناس من الحرمة للدماء والأموال.

الثانية: يكون السؤال فيها موجهاً من أحد الصحابة إلى النبي ﷺ بغرض المعرفة والتحصيل، فقد سأل النبي ﷺ رجل فقال: «يَا رَسُولَ اللّهِ أَرَأَيْتَ إنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللّهِ تُكَفَّرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ ...».

وهذه الطريقة في التربية هي طريقة الحوار، ولها كثير من الفوائد في العملية التربوية، منها[1]:

١-عرض الموضوع عرضاً حيوياً، مما لا يدع مجالاً للملل، بل يدفع السامع أو القارئ إلى الاهتمام والتتبع.

٢-إيقاظ العواطف والانفعالات مما يساعد على تربيتها وتوجيهها نحو المثل الأعلى.

سابعاً- التربية بتصحيح المفاهيم:

غزت المفاهيم الأجنبية الثقافة الإسلامية في ثقافتنا المعاصرة، واستبدل تجار المعاصي المصطلحات الإسلامية بمصطلحات ما أنزل الله بها من سلطان، فعبروا عن الرشوة بالإكرامية، الهدية، التحية، دخان، وهبة، بقشيش...

إن تصحيح مفهوم الرشوة وبيان منزلتها فرض عين على المسلمين، وإن كل ما يُدفع لجلب منفعة أو درء مضرة و رشوة، وإن هذا الأسلوب إن ساد غابت الفضيلة وفشت الرذيلة وضاعت الحقوق وسادت الرأسمالية وضاع الفقراء واستأسد الأغنياء.

---

(١) أصول التربية الإسلامية وأساليبها، عبدالرحمن النحلاوي، ص١٦٧.

كما أن هذا الخلق يسبب أزمة نفسية لدى أصحاب القيم الذين يعملون ولا يأخذون، فيعيشون في صراع نفسي بين فقد مدقع، وترف عند الآخرين مفزع، كما يدفع أصحاب المصالح إلى صراع نفسي وألم ذهني، أيستبقون رضى الله ثم رضى رسوله، فلا يدفعون رشوة ولا يستجيبون لداعي المعصية في وقت تؤخر فيه حقوقهم، لأنهم لا يدفعون، أم يدفعون ليدركوا حقوقهم في وقت يخالفون فيه ربهم؟

إن هذا السلوك - إن فشا في المجتمع الإسلامي أو غيره - سيفضي إلى هلكة لا محالة، وإذا أراد الإنسان أن يعرف حكم ما قُدِّم له عليه أن يسأل نفسه هذا السؤال: لو لم أكن في هذا الموقع هل كان هذا المال يأتيني؟

٢٧- باب تعظيم حرمات المسلمين وبيان حقوقهم والشفقة عليهم ورحمتهم

قَالَ اللّٰه تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللّٰهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾[الحج: ٣٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللّٰهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾[الحج: ٣٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[الحجر: ٨٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾[المائدة: ٣٢].

الحديث رقم (٢٢٢)

٢٢٢- وعن أَبي موسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول اللّٰه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْمُؤْمِنُ للْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشدُّ بعْضُهُ بَعْضًا**» وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِه. متفق عليه[١].

ترجمة الراوي:

أبو موسى الأشعري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨).

الشرح الأدبي

إن الصورة الأدبية في الحديث النبوي الشريف تجلى المعنى، وتجسد الهدف، وتقرب المقصد إلى أذهان السامعين: وهي بمنأى عن التعقيد اللفظي، والغموض البياني: وهى تجسِّم المعنويات وتستمد من البيئة عناصرها حتى يكون التأثير قويًا، والاستجابة سريعة.

والتجسيم في الصورة الحديثية قائم على اللغة المجازية البلاغية، ومستعين بصور الطبيعة الجامدة والمتحركة، فنراه يجسم التشبيه والاستعارة والكناية ليحقق الحديث إقناع العقل وإمتاع الحس[٢].

---

(١) البخاري (٢٤٤٦) واللفظ له، ومسلم (٢٥٨٥/٦٥).

(٢) انظر: الصورة الفنية في الحديث النبوي: د. أحمد باسوف، ص ٤١٦.

وحين نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف: نجد أنه قائم على التشبيه التمثيلي الذي يؤكد طبيعة العلاقة بين المؤمنين، ويحدد حتمية الترابط بين طوائف الأمة الواحدة الذين وحدتهم العقيدة، وشدت من أزرهم مشاعر الإيمان، والانتماء إلى الواحد الديَّان، فهم كالبنيان يشد بعضه بعضًا، وهذه الصورة الجمالية تتعانق معها الصورة التعبيرية والبنية اللغوية فالجملة: مبتدأ وهو "المؤمن للمؤمن"، وهذا المبتدأ يحتاج إلى ما يكمِّل دلالة الجملة، ويتمم المعنى، كما أن المؤمن في حالة انتمائه لأخيه المؤمن، في حاجة إلى الالتئام والاكتمال والتوحد، ويجيء الخبر المتمم للبناء اللغوي وهو "كالبنيان"، وذلك الخبر هو نفسه الذي يجسد حالة الاكتمال المعنوي والواقعي والحسي.

ولا يصمد البنيان إلا بتماسك لبناته، وتجاذب ذراته، وتعاطف مكوناته.

والجملة الثانية: "يشد بعضه بعضًا": لا تنفصل عن جو التماسك، ومناخ الترابط، ولكنها هي التي تؤكد هذا التماسك، فهى مستأنفة لبيان وجه الشبه، وصيغة المضارع هنا ترشد إلى ضرورة استمرار هذا الترابط بين أفراد الأمة وجماعاتها، وبين الدول الإسلامية: فهم أمة واحدة، والجملة الرابعة: "وشبك بين أصابعه"، تضفي على الصورة طابع الحركة، والتوضيح بالإشارة وذلك تقريب لوجه التشبيه وبيان للتداخل: كما يقول صاحب دليل الفالحين، وهل هناك أشرف وأسمى وأقوى من أن تكون الأمة متشابكة متحدة وهى في اتحادها ونقائها تحاكي أصابع المصطفى ﷺ: وهو مَنْ هو: فضلاً وشرفًا، وقوة وحكمة، وبلاغة وعصمة، وفطنة، وصدقًا وأمانة، يقول القرطبي: هذا تمثيل يفيد الحض على معاونة المؤمن للمؤمن ونصرته، وأن ذلك أمر متأكد لا بد منه.

فالصورة البيانية هنا: تحض على التآخي الإسلامي، وقد أضحى هذا التآخي -في ظل هذه الصورة- ظاهرًا مرئيًا، ويمكن أن نقول: صار ملموسًا، وصار المؤمن إلى جانب أخيه المؤمن لبنة متينة، والمتانة هى التمسك بأوامر الدين، والانزجار عن نواهيه، ولو لا متانة اللبنة لفقد البناء تماسكه، وهذا يعني أن الإسلام يوفق بين خيرية الذات

والخيرية تجاه المجتمع، والتوازن بينهما يدل على عافية وقوة، والإخلال بأحد الطرفين مدعاة لانحسار وزوال، ويحض هذا الحديث من خلال هذه الصورة التشبيهية، على الحب، وينفي الأنانية والأثرة كما تذوب هذه اللبنة في البناء، ولا يعطي قيمة للذات المفردة -كما صنعت الفلسفات الكافرة- فلا قيمة لها إلا داخل هذا التشكيل البنائي الذي يوطد مفهوم الإسلام وروح الجماعة[1]، وما أجمل أن يكون هذا الحديث في بداية باب تعظيم حرمات المسلمين والتعاون على البر والتقوى، والتلاؤم والتماسك بين الأفراد والجماعات في الأمة الإسلامية هو الطريق إلى وحدة الأمة وقوتها، واستعادة أمجادها وفتوحاتها.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار، التشبيه والتمثيل.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل التعاون بين المسلمين.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الحث على التراحم والملاطفة والتعاضد.

رابعًا: من واجبات الداعية: بيان حقوق المدعوين بعضهم على بعض.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار، التشبيه والتمثيل:

١- **الإخبار:** حيث أخبر النبي ﷺ بكون المؤمن للمؤمن كالبنيان، والإخبار أسلوب دعوي مهم يقوم على تعريف المدعوين بأمور دينهم، وإخبارهم بحقائق الإسلام. ومن أهم ما ينبغي أن يتوافر في الخبر مصداقيته لكسب الثقة لدى المدعوين، وهذا يلزم الداعية أن يعرض حقائق الإسلام من خلال أخبار القرآن والسنة إذ يتوافر فيهما الصدق وقد قال الله عن القرآن: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[2] وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3] وأما السنة

---

(١) المرجع السابق ٤٢٦-٤٢٧.

(٢) سورة الحجر، آية: ٩.

(٣) سورة النحل، آية: ٤٤.

الصحيحة فهي وحي الله قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾(١).

وحذر رسول الله ﷺ من الكذب عليه في أخباره وأقواله وأحواله ففي الحديث: ((من كذبَ عليَّ متعمدًا فليَتبوأْ مَقعدَهُ منَ النارِ))(٢). فعلى الدعاة استصحاب أسلوب الخبر لنشر الدعوة الإسلامية وتعريف المدعوين بربهم.

٢- **التشبيه والتمثيل:** يستخدم أسلوب التشبيه والتمثيل لتقريب المعاني إلى المدعوين، وتوصيل المعنى المراد لهم ولذا استخدم النبي ﷺ في الحديث أسلوب التشبيه عندما قال: "كالبنيان" والتمثيل عندما "شبك بين أصابعه" زيادة في إيضاح الصورة للمدعوين. قال الميداني: (ومن عناصر الجمال الأدبي في الكلام تقريب الصورة الغائبة، وذلك بوضعها في صورة مشهودة النظير، أو في صور متخيلة في أذهان المخاطبين، ودلائل هذا في القرآن والسنة كثيرة منها قوله تعالى في وصف شجرة الزقوم: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ۝ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ۝ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ۝ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾(٣) ففي أخيلة الناس صورة بشعة مرعبة لرؤوس الشياطين فجاء تقريب صورة طلع هذه الشجرة الخبيثة بأنه يشبه أبشع وأقبح صورة تتخيلونها وهي رؤوس الشياطين)(٤).

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل التعاون بين المسلمين:

جاء في الحديث أن "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا" وفي هذا حث على التعاون بين آحاد المسلمين، قال القاضي عياض: (وقوله: "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا" فيه الحض على تعاون المسلمين، وتناصرهم، وتآلفهم، وتوادّهم، وتراحمهم، وتمثيله ﷺ في ذلك بالبنيان وفي الحديث الآخر كالجسد تمثيل صحيح،

---

(١) سورة النجم، الآيتان: ٣ - ٤.

(٢) أخرجه البخاري ١١٠، ومسلم ٣.

(٣) سورة الصافات، آية: ٦٢-٦٥.

(٤) مبادئ في الأدب والدعوة، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني ١٤٨-١٤٩.

وتقريب للأفهام في إظهار المعاني في الصورة المرتبة، فيجب على المسلمين امتثال ماحض عليه رسول الله ﷺ من ذلك والتخلق به[١]. وقال النووي: (هذا الحديث ونظراؤه أحاديث صريحة في تعظيم حقوق المسلمين بعضهم على بعض وحثهم على التراحم والملاطفة والتعاضد في غير إثم ولا مكروه، وفيه جواز التشبيه وضرب الأمثال لتقريب المعاني إلى الأفهام)[٢].

وقد أمر الله بالتعاون والتعاضد في القرآن فقال: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾[٣] والمعنى (من واجبكم أن تتعاونوا بينكم على فعل البر والتقوى لأن التعاون عليها يكسب محبة تحصيلها، فيصير تحصيلها رغبة لهم فلا جرم أن يعينوا عليها كل ساع إليها، وفائدة التعاون تيسير العمل، وتوفير المصالح وإظهار الاتحاد والتناصر، حتى يصبح ذلك خلقًا للأمة)[٤].

ومن صور التعاون التي أبرزها القرآن ما حكاه على لسان ذي القرنين ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾[٥] وما حكاه عن بناء البيت من قبل نبي الله إبراهيم عليه السلام ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[٦].

وجاء في صحيح البخاري قصة بناء البيت بطولها وفيها (... ثم قال: يا إسماعيل إن الله أمرني بأمرٍ، قال: فاصنع ما أمرك ربك قال: وتعينني؟ قال: وأعينك قال: فإن الله أمرني بأمر أن أبني هاهنا بيتًا - وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها قال: فعند ذلك

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٥٦/٨ ، ٥٧.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٤٥.

(٣) سورة المائدة، آية: ٢.

(٤) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، مج٣/٦/٨٧، ٨٨.

(٥) سورة الكهف، آية: ٩٥.

(٦) سورة البقرة، آية: ١٢٧.

رفعا القواعد من البيت فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني)[١].

هذا وقد حثت السنة النبوية على التعاون فقال رسول الله ﷺ في الحديث: "المؤمن مرآة المؤمن، والمؤمن أخو المؤمن، يكف عليه ضيعته ويحوطه من ورائه"[٢]. والنصوص الشرعية كثيرة في بيان فصل التعاون لما له من أهمية في تحقيق الوحدة بين المسلمين. فعن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: ((كان النبي ﷺ ينقل التراب يوم الخندق حتى أغمر بطنه أو اغبرَّ بطنه وهو يقول:

والله لـــولا الله مـــا اهتـــدينا	ولا تـــــصدقنا ولا صــــلينا
فـــأنزلن ســـكينة علينـــا	وثبـــت الأقـــدام إن لاقينـــا
إن الأُلَـــى قـــد بَغَـــوْا علينـــا	إذا أرادوا فتنـــــة أبينـــــا

ويرفع بها صوته: أبينا أبينا)[٣].

قال ابن أبي الدنيا: "قال عطاء بن أبي رباح: تفقدوا إخوانكم بعد ثلاث فإن كانوا مرضى فعودوهم، أو مشاغيل فأعينوهم أو كانوا نسوا فذكروهم. وقال أبو جعفر بن صهبان: كان يقال: أول المودة طلاقة الوجه، والثانية التودد، والثالثة قضاء الحوائج، وقال أبو حمزة الشيباني لمن سأله عن الإخوان في الله من هم؟ قال: العاملون بطاعة الله عز وجل المتعاونون على أمر الله عز وجل وإن تفرقت دورهم وأبدانهم وقال ابن المعتز: من اتخذ إخوانًا كانوا له أعوانًا)[٤].

ثالثًا- الحث على التراحم والملاطفة والتعاضد:

إن مما يستنبط من عموم الحديث الحث على أهمية التراحم والتعاضد والملاطفة

(١) أخرجه البخاري ٣٣٦٤.

(٢) أخرجه أبو داود ٤٩١٨، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤١١٠).

(٣) أخرجه البخاري ٤١٠٤، ومسلم ١٨٠٣.

(٤) الإخوان لابن أبي الدنيا، ص ١٢٤-١٢٧ نقلاً عن موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن ملوح ٣/١٠٢٦-١٠٢٧.

والشفقة بين المسلمين، وقد أمر الله نبيه في القرآن بذلك فقال له: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[(١)] وقال سبحانه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾[(٢)] قال البغوي: (يعني لو كنت جافيًا سيء الخلق قليل الاحتمال غليظ القلب) قال الكلبي: (فظًا في القول غليظ القلب في الفعل لنفروا وتفرقوا عنك)[(٣)].

لقد أمر الإسلام بالتراحم العام، وجعله من دلائل الإيمان الكامل، فالمسلم يلقى الناس قاطبة وفي قلبه لهم عطف مذخور وبر مكنون، فهو يوسع لهم ويخفف عنهم جهد ما يستطيع.

وقد وصف الله تعالى المجتمع المؤمن بأنه متماسك بهذا العطف المتبادل، فقال عن أهله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[(٤)] وقال: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[(٥)] والإسلام كله رسالة خير وسلام وعطف على البشر كلهم، وقد قال تعالى لرسول ﷺ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[(٦)] وسور القرآن الكريم مفتتحة بـ"بسم الله الرحمن الرحيم" باستثناء سورة التوبة.

إن القسوة في خُلُق إنسان دليل نقص كبير، وفي تاريخ أمة دليل فساد خطير، فلا عجب إذا حذر الإسلام منها واعتبرها علة الفسق عن أمر الله وسر الشرور عن صراطه المستقيم، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا

---

(١) سورة الحجر، آية: ٨٨.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

(٣) معالم التنزيل، البغوي ١٢٤/٢.

(٤) سورة المائدة، آية: ٥٤.

(٥) سورة الفتح، آية: ٢٩.

(٦) سورة الأنبياء، آية: ١٠٧.

يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾[1])[2].

وقد ضرب الرسول ﷺ القدوة والمثل الصالح في الحث على التراحم والملاطفة فعن أبي هريرة رضي الله عنه ((أنّ رجلاً أتى النبيّ ﷺ يتقاضاهُ فأغلَظ، فهمّ بهِ أصحابهُ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ دَعوهُ فإنّ لصاحبِ الحقّ مَقالاً. ثمّ قال: أعطوهُ سِنًّا مِثلَ سنّهِ، قالوا: يارسولَ اللهِ، لا نجدُ إلاّ أمثلَ مِن سنّه، فقال: أعطوهُ، فإنّ من خيركم أحسنَكم قضاءً))[3]. وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((الْمُؤْمِنُونَ كَرَجُلٍ وَاحِدٍ. إنِ اشتكى رَأْسُهُ، تداعى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَّىٰ وَالسَّهَرِ))[4]. وربط رسول الله ﷺ بين رحمة الله ورحمة الناس فقال: ((لا يَرْحَمُ الله مَنْ لاَ يَرْحَمُ الناسَ))[5]. والرحمة هنا يراد بها عموم الرحمة المشروعة، ومن الرحمة الواجبة كف الأذى عن المسلمين، وإغاثة الملهوف، وفك العاني وإحياء المضطر واستنقاذ الغريق والواقع في هلكته وتسميته. ومن ذلك: سد خلة الضعفاء والفقراء من الواجبات.

رابعًا- من واجبات الداعية: بيان حقوق المدعوين بعضهم على بعض:

الحياة سلسلة من الحقوق والواجبات فما من حق لشخص إلا وهو واجب على آخر، ولذا وجب على الداعية إبراز هذه الحقوق وبيانها للمدعوين، حتى يلتزم كل طرف بما عليه، ويتحقق تماسك المجتمع فيما بينه، وإن الناظر المتأمل في نصوص القرآن والسنة يرى بيانًا للحقوق والواجبات، وتنظيمًا دقيقًا لعلاقة الفرد مع ربه، ومع نفسه ومع الآخرين وعلى الدعاة استخراج هذه النصوص والاستفادة من معطيات ومقررات القرآن

---

(١) سورة الحديد، آية: ١٦.

(٢) انظر: خلق المسلم، محمد الغزالي، ص ٢٠٤-٢٠٦.

(٣) أخرجه البخاري ٢٣٠٦، مسلم ١٦٠١.

(٤) أخرجه البخاري ٦٠١١، مسلم ٢٥٨٦.

(٥) أخرجه البخاري ٧٣٧٦، مسلم ٢٣١٩.

الكريم وتعريف المدعوين بها لتعميق روح الاتحاد والتآلف مما يكون له أثره الفاعل في تقوية البناء الاجتماعي للأمة الإسلامية. (ولا ريب أن أقوى عوامل نهوض الأمم هو اجتماع القلوب، واتحاد الكلمة فما تمسكت به أمة إلا ظهر سلطانها وقويت شوكتها، ودامت دولتها، وبلغت في الرقي ورغد العيش أقصى الغايات، وأرفع الدرجات. وما تفرقت أمة واختلت كلمتها وتنازعت في أمرها إلا اضمحل سلطانها، وضعفت قوتها، ودالت دولتها وتبدل عزها ذلاً ورفعتها ضعة وانحطاطًا، وكان من نصيبها: الفشلُ والخسرانُ المبين لهذا أمر الله بالائتلاف والاتحاد ونهى عن التفرق والتنازع)[1].

قال الماوردي: (واعلم أن الدنيا لم تكن قط لجميع أهلها مُسعدة، ولا عن كافة ذويها معرضة، لأن إعراضها عن جميعهم عطب، وإسعادها لكافتهم فساد لائتلافهم بالاختلاف والتباين، واتفاقهم بالمساعدة والتعاون، فإذا تساوى حينئذٍ جميعهم لم يجد أحدهم إلى الاستعانة بغيره سبيلاً، وبهم من الحاجة والعجز ما وصفنا فيذهبوا ضيعة، ويهلكوا عجزًا وأما إذا تباينوا واختلفوا صاروا مؤتلفين بالمعونة متواصلين بالحاجة لأن ذا الحاجة وصول، والمحتاج إليه موصول)[2].

---

(١) هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة، علي محفوظ ٤٨٩.

(٢) أدب الدنيا والدين ١٣٥.

الحديث رقم (٢٢٣)

٢٢٣- وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن مَرَّ فِي شَيْءٍ مِنْ مَسَاجِدِنَا، أَوْ أَسْوَاقِنَا، ومَعَه نَبْلٌ فَلْيُمْسِكْ، أَوْ لِيَقْبِضْ عَلَى نِصالِهَا بِكفِّهِ أَنْ يُصِيب أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْهَا بِشَيْءٍ**» متفق عليه[(١)].

ترجمة الراوي:

أبو موسى الأشعري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨).

غريب الألفاظ:

النَّبل: أي السهام، والجمع نِبال وأنبال[(٢)].

نصالها: جمع نصل: حديدة الرمح والسهم والسكين[(٣)].

الشرح الأدبي

تنطلق من هذا الحديث أشعة الرحمة، وأنوار التآلف، ومصابيح المودة والأخوة، وهذه الأشعة الإيمانية تتماوج مع ما في الحديث السابق من حقيقة التآلف الإيماني، والتوحد العضوي فيما بين المسلمين فهم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا، وكذلك تتصل أشعة هذا الحديث بما بعدها من مشاعر وأحاسيس بالتماسك والتآزر في الحديث التالي الذي يجعل من المسلمين جسدًا واحدًا، وكائنًا متوحدًا في التواد والتراحم والتعاطف، فهم في ظلال الحق فرد مُجَمَّعٌ، وهم في مقابلة الشدائد جمع مُوحَّد، وهذا الحديث يحيل هذه المشاعر وتلك الأحاسيس إلى سلوك عملي، ومنهج حياتي: فالمؤمن يخاف على أخيه المؤمن، ويحرص على سلامته، ولذلك يقدم رسول الله ﷺ هذا المنهج الوقائي في إشاعة الأمن والسلامة بين أبناء الأمة عن طريق صيغة

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٧٥)، ومسلم (٢٦١٥/١٢٣)، والسياق للحميدي في جمعه (٣٠١/١، رقم ٤٣٩).

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ن ب ل).

(٣) المرجع السابق في (ن ص ل).

لغوية تجسد المعنى، وتفصح عن مكنونه وثمراته المرجوة.

وهذه الصيغة هي: صيغة الشرط والجواب، والحديث كتلة واحدة وكأنها صورة لتوحد الأمة، ويجمع الحديث بين المساجد والأسواق في ضرورة المحافظة على أمن الناس، وسلامتهم من الأخطار، فالمساجد يتجمع فيها الناس للعبادة.. وتلقي العلم النافع، والأسواق تموج بالحركة الحياتية التي لابد منها للبيع والشراء والسعي على الرزق، ويزدحم فيها الأفراد، وتختلط فيها الأمور، ولذلك يقول المصطفى ﷺ: "إياكم وهوشات الأسواق"[1]، وعلى الرغم من ذلك فإن المصطفى ﷺ حرص على سلامة أفراد الأمة في المساجد والأسواق، وحذر من فوضى استعمال السلاح، والألعاب، وغير ذلك من الأمور التي تعود بالضرر على الناس.

وقال: "من مر في شيء من مساجدنا أو أسواقنا ومعه نبل: فليمسك أو ليقبض على نصالها بكفه" والتحذير يأتي لمن يمر ولو بجزء يسير من السوق أو المسجد، والذين يرتادون المساجد، ويمشون في الأسواق، ويبيعون ويشترون هم أولى بهذا التحذير، وذلك النهي، ولذلك يوحي قوله: "في شيء" بوجوب الحذر حتى لو كان المرور قليلاً زمانًا ومكانًا، "ومن" تفيد التبعيض، والجزئية، ومجيء "مساجدنا وأسواقنا"، في صيغة الجمع المتكلم، إرشاد إلى وحدة الأمة، وتماسكها، وإيحاء بعدم تفرقها وانقسامها إلى طوائف وفرق وشيع: وكل يدعى أنه صاحب الحق، وأن له أسواقًا خاصة، ومساجد خاصة، وقد توحي هذه الصيغة بأن هذا التحذير يشمل غير المسلمين الذين يمرون بحمى المساجد، وأسواق المسلمين وفي يدهم السلاح أو النبل، وجملة "ومعه نبل"، حالية: فهى تصور ذلك المار وهو متشح بما معه من نبل أو غير ذلك من أنواع السلاح، وجواب الشرط جاء في صيغة المضارع المقترن بلام الأمر، فهو أمر صريح، يوحي بوجوب استمرار الإمساك والقبض على النصال: وهى الحديدة التي في رأس السهم، أو تأمين

(١) أخرجه أحمد ٤٥٧/١ رقم ٤٣٧٣، وقال محققو المسند: إسناده صحيح على شرط مسلم ٣٨٠/٧. وهوشات الأسواق: اضطرابها وهياجها.

السلاح أيا كان نوعه، والتعبير بـ "على"، يفيد الاستعلاء والتمكن من السلاح حتى لا ينطلق منه ما يؤذي المسلمين، ويزهق أرواحهم، وفي الكلام إيجاز بالحذف، والتقدير مخافة أن يصيب أحدًا من المسلمين منها -أي بسببها- فمن هنا للتعليل، والحديث من خلال صيغته اللغوية، والعلاقات بين الكلمات، وطريقة النظم درس إيماني واجتماعي: من دروس النبوة في ضرورة تعظيم حرمات المسلمين، ودعوة إلى انضباط الحركة في دور العبادة، وفي الأسواق: والمحافظة على الأرواح، وإشاعة ثقافة الأمان والنظام في آفاق المجتمع الإسلامي.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم فقهي يتعلق بالمحافظة على السلاح المحمول لئلا يؤذي أحدًا من المسلمين في المساجد أو الأسواق.

وقد ذهب جمهور الفقهاء[1] إلى أنه يجب على من دخل المسجد أو السوق وهو يحمل سلاحًا أن يقبض على نصله ولا يجعله مُشْرَعًا فيؤذي أحدًا من المسلمين، ويطبق الأمر نفسه على الأسلحة الحديثة حيث يجب تأمينها لئلا تؤذي أحدًا من الناس، وذكر ابن حجر[2] أنه يستحب ذلك، والأولى القول بالوجوب لما فيه من توقي وقوع الضرر.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الشرط، الأمر.

ثانيًا: من صفات الداعية: الشفقة على المدعوين.

ثالثًا: من أهداف الدعوة: الحفاظ على النفوس.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: حث المسلمين على مراعاة عوامل السلامة والأمان.

---

(١) شرح معاني الآثار، الطحاوي ٤/ ٢٨٠، الأم للشافعي ١/ ٢٥١، المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢/ ٢٠٥.

(٢) فتح الباري، ابن حجر، ١/ ٥٤٦.

الأول- من أساليب الدعوة: الشرط، الأمر:

١- الشرط: حيث جاء في الحديث "من مَرَّ" ومما لا شك فيه أن الشرط أسلوب من أساليب الدعوة التي تلفت انتباه المدعو إلى جواب الشرط، مما يؤدي إلى شد انتباه المدعوين.

٢- الأمر: ورد الأمر في هذا الحديث في قوله "فليمسك" ويعد أسلوب الأمر من الأساليب الدعوية التي تشعر المدعو بمدى أهمية المأمور به، ويكون أدعى لتنفيذه.

ثانيًا- من صفات الداعية: الشفقة على المدعوين:

من الصفات التي تعمل على تحقيق التواصل بين الداعية والمدعو، الشفقة التي يتحلى بها الداعية، وتجعله حريصًا على إسداء الخير للمدعوين، وفي هذا الحديث تظهر شفقة النبي ﷺ في قوله: "فليمسك أو ليقبض على نصالها بكفه أن يصيب أحدًا من المسلمين منها بشيء" وقد وصف الله نبيه في القرآن بأنه ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1] قال السعدي: (يمتن الله على عباده المؤمنين بما بعث فيهم النبي الأمي الذي من أنفسهم يعرفون حاله ويتمكنون من الأخذ عنه، ولا يأنفون عن الانقياد له، وهو ﷺ في غاية النصح لهم، والسعي في مصالحهم يشق عليه الأمر الذي يشق عليكم ويعنتكم، وهو حريص عليكم فيحب لكم الخير ويسعى جهده في إيصاله إليكم، ويحرص على هدايتكم إلى الإيمان، ويكره لكم الشر ويسعى جهده في تنفيركم عنه، وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم، شديد الرأفة والرحمة بهم، أرحم بهم من والديهم ولهذا كان حقه مقدمًا على سائر حقوق الخلق وواجبٌ على الأمة الإيمان به وتعظيمه وتوقيره وتعزيزه)[2]. وخاطب الله تعالى نبيه ﷺ فقال له: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾[3] وهكذا يجب أن يكون الداعية.

---

(١) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٣١٣.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

ثالثًا- من أهداف الدعوة: الحفاظ على النفوس:

يتضح هذا في توجيه النبي ﷺ للقبض على النصال حتى لا تصيب أحدًا من المسلمين، حيث قال ﷺ: "من مر في شيء من مساجدنا أو أسواقنا ومعه نبل فليمسك أو ليقبض على نصالها بكفه أن يصيب أحدًا من المسلمين منها بشيء" فأمر ﷺ في الحديث بأخذ النصل وهي حدائد السهام وبين العلة في قوله "أن يصيب أحدًا من المسلمين منها بشيء" أي مخافة أن يصيب، ولئلا يصيب، وفي ذلك بيان لصورة من صور رحمته ﷺ بأمته حيث خشي عليهم، برأفته بالمؤمنين ورحمته بهم، ما يصيب بعضهم منها من خدش أو أذى عند مروره من غير قصد، وألا يتأذى بعضهم من بعض بمثل هذا القدر[١].

ويعتبر الحفاظ على النفس من مقاصد الإسلام الكبرى، ومن الضرورات الخمس التي يجب المحافظة عليها، وفي سبيل هذا قرر الإسلام حد القصاص قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٢] وجعل الإسلام من يقتل نفسًا واحدة فكأنما قتل الناس جميعًا قال سبحانه: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[٣]. قال ابن كثير: (ومن قتل نفسًا بغير سبب من قصاص، أو فساد في الأرض، واستحل قتلها بلا سبب ولا جناية فكأنما قتل الناس جميعًا لأنه لا فرق عنده بين نفس ونفس، ومن أحياها أي حرم قتلها واعتقد ذلك فقد سلم الناس كلهم منه بهذا الاعتبار)[٤]. وقال ﷺ ((كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَىٰ الْمُسْلِمِ حَرَامٌ . دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ))[٥].

---

(١) انظر: إكمال المعلم، القاضي عياض، ٩٤/٨، ٩٥.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٧٩.

(٣) سورة المائدة، آية: ٣٢.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٩٢/٣.

(٥) أخرجه مسلم ٢٥٦٤.

قال السيد سابق: (وقد شرع الله سبحانه، القصاص وإعدام القاتل، انتقامًا منه، وزجرًا لغيره وتطهيرًا للمجتمع من الجرائم التي يضطرب فيها النظام العام، ويختل معها الأمن، ولم تفرق الشريعة بين نفس ونفس، فالقصاص حق، سواء أكان المقتول كبيرًا أم صغيرًا، رجلاً أم امرأة فلكل حق الحياة، ولا يحل التعرض لحياته بما يفسدها بأي وجه من الوجوه، وحتى في قتل الخطأ لم يُعف الله تعالى القاتل من المسؤولية، وأوجب فيه العتق والدية وهذه العقوبة المالية إنما أوجبها الإسلام في القتل الخطأ احترامًا للنفس حتى لا يتسرب إلى ذهن أحدٌ هوانُها، وليحتاط الناس فيما يتصل بالنفوس والدماء، ولتسد ذرائع الفساد حتى لا يقتل أحد أحدًا، ويزعم أن القتل كان خطأ ومن شدة عناية الإسلام بحماية الأنفس أنه حرم إسقاط الجنين بعد أن تدب فيه الحياة، إلا إذا كان هناك سبب حقيقي يوجب إسقاطه، كالخوف على أمه من الموت ونحو ذلك)[1].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: حث المسلمين على مراعاة عوامل السلامة والأمان:

حيث وجه الرسول ﷺ إلى أخذ وسائل الاحتياط إذا صادف دخول المسجد بسلاح بالقبض على النصال، فقال ﷺ: "من مر في شيء من مساجدنا أو أسواقنا ومعه نبل فليمسك أو ليقبض على نصالها بكفه أن يصيب أحدًا من المسلمين منها بشيء"وفي هذا شيء من الآداب التي شرعها الإسلام، وهو الإمساك بنصال النبل ويقاس عليها جميع الأسلحة وما شاكلها من المؤذيات والقواطع عند إرادة المرور بين الناس في مسجد أو سوق أو غيرهما[2]. وفي هذا تعليم للمسلمين لأخذ وسائل الاحتياط للحفاظ على النفوس، وهذا لا ينافي التوكل على الله، وإنما هو من قبيل الأخذ بالأسباب وقد قال الله عن ذي القرنين ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾[3]، ولقد وجه الرسول ﷺ إلى مراعاة عوامل السلامة والأمان مثل ما جاء في الحديث: ((غَطُّوا الإِنَاءَ، وَأَوْكُوا السِّقَاءَ، وَأَغْلِقُوا الْبَابَ، وَأَطْفِئُوا السِّرَاجَ. فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لاَ يَحُلُّ سِقَاءً، وَلاَ يَفْتَحُ بَابًا، وَلاَ يَكْشِفُ إِنَاءً.

---

(١) إسلامنا ٢٧١-٢٧٢.

(٢) انظر: شرح صحيح مسلم، النووي، ص ١٥٥٨.

(٣) سورة الكهف، آية: ٨٩.

فَإِنْ لَمْ يَجِدْ أَحَدُكُمْ إِلاَّ أَنْ يَعْرُضَ عَلَىٰ إِنَائِهِ عُودًا ، وَيَذْكُرَ اسْمَ اللَّه ، فَلْيَفْعَلْ. فَإِنَّ الْفُوَيْسِقَةَ تُضْرِمُ عَلَىٰ أَهْلِ الْبَيْتِ بَيْتَهُمْ))[(١)].

قال النووي: (هذا الحديث فيه جمل من أنواع الخير والأدب الجامعة لصالح الدنيا والآخرة فأمر النبي ﷺ بهذه الآداب التي هي سبب للسلامة من إيذاء الشيطان، وجعل الله عز وجل هذه الأسباب أسبابًا للسلامة من إيذاء الشيطان، فلا يقدر على كشف إناء ولا حل سقاء، ولا فتح باب ولا إيذاء صبي وغيره إذا وجدت هذه الأسباب)[(٢)].

ويجب على الدعاة أن يوجهوا المدعوين إلى أخذ وسائل الاحتياط والسلامة والأمان في أمور الدنيا والآخرة.

---

(١) أخرجه مسلم ٢٠١٢.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢٧٨.

الحديث رقم (٢٢٤)

٢٢٤- وعن النُّعْمَانِ بنِ بشيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ: «**مثَلُ المُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وتَرَاحُمِهِمْ وتَعاطُفِهِمْ، مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَداعَى لهُ سائِرُ الْجسدِ بالسهَرِ والْحُمَّى**» متفقٌ عليه[١].

ترجمة الراوي:

النعمان بن بشير: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٦٠).

غريب الألفاظ:

تداعي: أي دعا بعضه بعضًا إلى المشاركة في الألم[٢].

الحمى: علة يَسْتَحِرُّ بها الجسم[٣].

الشرح الأدبي

يصور هذا الحديث الشريف المؤمنين بالجسد في حركتهم الحياتية، وتطلعاتهم المستقبلية، وإعدادهم القوة لمواجهة أعدائهم، وتكاتفهم في مواجهة الأزمات والمؤامرات الداخلية والخارجية، فالمؤمنون في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد: إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

وحين نتأمل جماليات البناء اللغوي والجمالي في هذا الحديث الشريف نجد أنه قدم صورة جمالية في إطار التشبيه التمثيلي، والصورة التشبيهية تضع بين قارئها أو سامعها معطياتها بلا مواربة، وتسعى إلى إغناء أبعادها بتفصيلاتها الداخلية والألوان والمحسوسات الأخرى، كما يقول د. فايز الداية، ويكثر في الحديث النبوي، أن يقدم التشبيه القائم على التمثيل صورًا حركية رائعة في مكان، وإن كان مختزلاً في

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٦٦/٢٥٨٦).

(٢) فتح الباري ١٠/٤٥٤.

(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ح م ى).

مكان آخر، كما يقول صاحب كتاب الصورة الفنية في الحديث النبوي.

وكلمات الحديث تتآزر مع الصورة التشبيهية في تقديم الصورة المثلى التي يجب أن يكون عليها المؤمنون في حركتهم الحياتية الشاملة مودة وتعاطفاً وتراحماً، فكلمة "مَثَلَ" تعني صفة: أي صفة المؤمنين كصفة الجسد في تماسكه الشعوري والنفسي والحسي، فلا انفصال بين المؤمنين في أي حال من الأحوال، حتى لو انفصلت أمة وتوهمت قوتها في استقلالها وانفصالها، فإن الضياع مصيرها، والهلاك عنوانها، والضعف ثمرتها، وواقع الأمة الإسلامية الآن خير دليل على التفكك والضعف والهوان، وتحديد المؤمنين في هذه الصورة إرشاد إلى ضرورة إخلاص المسلم في تطبيق معالم عقيدته، لأن الإيمان هو: تصديق بالجنان، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان، فلا يكفي أن يرفع المسلم شعار إسلاميته، ولكن لابد من هذه الدائرة التكاملية: التصديق بالقلب، والنطق باللسان، ثم العمل والتنفيذ لكل ما أوجبته الشريعة: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾[(١)].

والتعبير بقوله: "توادهم"، بهذه الصيغة التي أضفى عليها الإدغام شدة وتماسكاً يوحي بتماسك الأمة وترابطها فصورة اللفظ التعبيرية والإيقاعية هي صورة للمعنى المراد والهدف المقصود، فالتوادد تفاعل من المودة وهي: تَقَرّبُ شخصٍ من آخر بما يحب. فالإيقاع الصوتي: يجسد تماسك الأمة وترابطها في النكبات وفي المسرات.

وقد فرق العلماء بين التواد، والتراحم، والعطف: حتى لا يتوهم البعض أن في الحديث إسهابًا، أو ترادفًا معيبًا، وكيف؟؟، والنبي المصطفى ﷺ أفصح العرب، وقد أعطى جوامع الكلم، فالتراحم: المراد به أن يرحم بعضهم بعضًا بأخوة الإيمان، لا بسبب شيء آخر، والتوادد، المراد به: التواصل الجالب للمحبة كالتزاور والتهادي، والتعاطف: إعانة بعضهم بعضًا كما يعطف طرف الثواب عليه ليقويه[(٢)]، وهذا التفريق الدقيق بين هذه المواد اللغوية، يجعلها تفيض بأبعاد متعددة تحكم العلاقة بين المؤمنين،

---

(١) سورة الحجرات، آية: ١٤.

(٢) انظر: دليل الفالحين، ابن علان ٤٠٦.

وهي: البعد الإيماني في تراحمهم، والبعد الاجتماعي في توادهم، والبعد الإنساني التكافلي في تعاطفهم، وفي الحديث من خلال هذه الصورة إعجاز طبي في قوله: "تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"، فلو أردنا أن نتخيل أن الجسد قد تداعى لهذا العضو بالسهر والحمى، لما استطاع الخيال أن يحيط إلا بحركة الأطراف، وهذا لا يفي بالمعنى، فهل تبقي الصورة ساكنة، ففي الحديث كما يقول أحد الباحثين، إشارة إلى الغدد اللمفاوية المتوزعة في الجسم، والمتكاثفة في الثنايا، وعندما يصاب الجسم بأي أذى، ولو كان جرحًا طفيفًا أو خدشًا تعمل هذه الغدد على زيادة إفراز نوع من الكريات البيضاء التي تقاوم الجراثيم والالتهابات من خلال مادة تدعى الانترلوكيد[1]، والحمى والسهر في الحديث يشير إلى ذلك، وقد شبه ﷺ الإيمان بالجسد وأهله بالأعضاء، لأن الإيمان أصل وفروعه التكاليف، والجسد أصل كالشجر وأعضاؤه كالأغصان، فالحديث صورة صادقة لواقع الأمة الإسلامية.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التمثيل والتشبيه.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل التراحم والمودة بين المسلمين.

ثالثًا: من واجبات الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: بيان أهمية وفضل وحدة الصف.

أولاً- من أساليب الدعوة: التمثيل والتشبيه:

حيث شبه النبي ﷺ المؤمنين في ترابطهم بالجسد الواحد، فقال ﷺ: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى" ولا شك أن أسلوب التمثيل والتشبيه يقرب المعنى إلى أذهان المدعوين، قال القاضي عياض: (فتشبيهه المؤمنين بالجسد الواحد تمثيل صحيح، وفيه تقريب للفهم وإظهار للمعاني في الصور المرئية)[2].

---

(١) انظر: الصورة الفنية في الحديث النبوي، د. أحمد ياسوف، ص ٤١٧.

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٥٧/٨، وانظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ٥٥٤/١٠.

قال الشيخ علي محفوظ: (لضرب الأمثال أثناء العظة أكبر الآثار في النفوس؛ فإن المقصود من ضرب الأمثال: أنها تؤثر في العقول ما لا يؤثره وصف الشيء ذاته، ذلك بأن الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي، والغائب بالشاهد، فيتأكد الوقوف على ماهيته ويصير الحس مطابقًا للعقل، وذلك هو النهاية في الإيضاح، ألا ترى أن الترغيب في الإيمان إذا كان مجردًا عن ضرب مثل له لم يتأكد وقوعه في القلب كما يتأكد إذا مثل بالنور أو بشجرة طيبة. ولاشك أن إبراز المعاني باختصار في معرض التمثيل ابتداءً أو مجيئه في أعقاب المعاني وعلى أثرها لإيضاحها وتقريرها آكد وقعًا في القلوب وأبلغ أثرًا في النفوس)[١].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل التراحم والمودة بين المسلمين:

من الموضوعات الدعوية المهمة موضوع التراحم والمودة بين المسلمين، فقال ﷺ: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم ..." وقد جاءت الوصاية بها في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾[٢] قال ابن كثير: (كان من المؤمنين، العاملين صالحًا، المتواصين بالصبر على أذى الناس، وعلى الرحمة بهم كما جاء في الحديث ((الرّاحِمونَ يَرْحَمُهُمْ الرّحمن، ارْحَمُوا أَهْلَ الأرْضِ يَرْحَمْكُمْ أَهْلُ السّماءِ))[٣] فالمتصفون بهذه الصفات من أصحاب اليمين)[٤]. هذا وقد جاءت الرحمة بمعنى الألفة والمحبة بين أهل الإيمان قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾[٥].

وقد حث رسول الله ﷺ على التراحم بين المؤمنين فقال في الحديث ((رحمَ الله

---

(١) هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة ١٧٧-١٧٨.

(٢) سورة البلد، آية: ١٧.

(٣) أخرجه أحمد ٢/١٦٠، رقم ٦٤٩٤، وقا ل محققو المسند: صحيح لغيره ١١/٣٣.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٨/٤٠٩.

(٥) سورة الحديد، آية: ٢٧.

رجُلاً سَمحًا إذا باعَ، وإذا اشترَى، وإذا اقتَضى))[١].

وفي هذا الحديث جعل النبي ﷺ المؤمنين في تراحمهم وتعاطفهم كالجسد الواحد، قال ابن حجر: (قال ابن أبي جمرة: الذي يظهر أن التراحم والتوادد والتعاطف وإن كانت متقاربة في المعنى لكن بينها فرق لطيف، فأما التراحم فالمراد به أن يرحم بعضهم بعضًا بأخوة الإيمان لا بسبب شيء آخر، وأما التوادد فالمراد به التواصل الجالب للمحبة كالتزاور والتهادي، وأما التعاطف فالمراد به إعانة بعضهم بعضًا كما يعطف الثوب عليه ليقويه، وفي الحديث تعظيم حقوق المسلمين والحض على تعاونهم وملاطفة بعضهم بعضًا)[٢]، ولا شك أنه من خلال التراحم والتعاطف والتلاطف تتحقق معاني الأخوة الإيمانية التي أمر الله بها.

لقد أمر الإسلام بالتراحم، وجعله من دلائل الإيمان الكامل، فالمسلم يلقى الناس قاطبة وفي قلبه لهم عطف مذخور وبر مكنون، وقد وصف الله تعالى المجتمع المسلم بأنه متماسك بهذا العطف المتبادل، فقال عن أهله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[٣] وقال: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[٤])[٥].

(إن الإنسان من غير قلب أشبه بالآلة الصماء، والحجر الصلد فإن حقيقة الإنسان ليست في هذا الغلاف الطيني من لحم ودم وعظم، وإنما هي تلك اللطيفة الربانية والجوهرة الروحية التي بها يحس ويشعر وينفعل ويتأثر ويتألم ويرحم هي القلب الحي.

ومن أخص أوصاف المؤمن أنه يتميز بقلب حي مرهف لين رحيم يتجاوب به والأحداث والأشخاص، فيرق للضعيف ويحنو على المسكين ويمد يده إلى الملهوف،

---

(١) أخرجه البخاري، ٢٠٧٦.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠/٤٥٤.

(٣) سورة المائدة، آية: ٥٤.

(٤) سورة الفتح، آية: ٢٩.

(٥) انظر: خلق المسلم، محمد الغزالي، ص ٢٠٥.

وهذه الرحمة الدافقة الشاملة أثر من آثار الإيمان بالله واليوم الآخر ذلك الإيمان الذي يرقق بنفحاته القلوب الغليظة، ويلين الأفئدة القاسية[(١)].

ثالثًا- من واجبات الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم:

إن من أهم واجبات الداعية تقديم النفع للآخرين وإرشادهم -دائمًا- إلى ما ينفعهم في الدنيا والآخرة وقد بشر النبي ﷺ من يدل على الخير ويرشد إليه بقوله: ((مَنْ دَلَّ علىٰ خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ))[(٢)]، قال النووي: (وفي الحديث فضيلة الدلالة على الخير والتنبيه عليه والمساعدة لفاعله، وفيه فضيلة تعليم العلم ووظائف العبادات لاسيما من يعمل بها من المتعبدين وغيرهم، والمراد بمثل أجر فاعله أن له ثوابًا بذلك الفعل كما أن لفاعله ثوابًا ولا يلزم أن يكون قدر ثوابهما سواء)[(٣)]. وحينما يستشعر المدعوون حرص الداعية على نفعهم وإرشادهم إلى الخير فإنهم يقبلون عليه، ويستجيبون لموعظته لأنهم لمسوا فيه الحرص على مصلحتهم.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: أهمية وفضل وحدة الصف:

مما لا شك فيه أن الاتحاد قوة والتفرق ضعف، وهذا الحديث يشير إلى أهمية وحدة الجماعة المؤمنة ووحدة الصف الإسلامي، وقد بين الله أن من عوامل الوحدة والاتحاد تحقيق معاني الأخوة الإسلامية واستشعارها فقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[(٤)] وأمر المسلمين أن يعتصموا بكتاب ربهم لتحقيق وحدتهم فقال جل شأنه: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾[(٥)] وذكرهم أن من نعم الله عليهم التأليفَ بين قلوبهم فقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ

---

(١) انظر: الإيمان والحياة، د. يوسف القرضاوي، ص ٢٤٣-٢٤٦.

(٢) أخرجه مسلم ١٨٩٣.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢١٥.

(٤) سورة الحجرات، آية: ١٠.

(٥) سورة آل عمران، آية: ١٠٣.

عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ (١) وأرشد أنه سبحانه يحب وحدة الصف فقال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ (٢) ونهى الله عز وجل عن التفرق والاختلاف فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٣). وذم المتفرقين فقال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ﴾ (٤) وقال سبحانه ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (٥).

وحث الرسول الكريم على وحدة الجماعة المؤمنة فقال ﷺ: ((يدُ الله مع الجَمَاعَةِ)) (٦) وقال أيضًا: ((عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ وَهُوَ مِنَ الاثْنَيْنِ أَبْعَدُ. مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الْجَنَّةِ فَلْيَلْزَمِ الْجَمَاعَةَ)) (٧) وقال أيضًا: ((المؤْمِنَ للمؤْمِنِ كالبنيانِ يَشُدُّ بَعضُهُ بَعضًا)) (٨). وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((إنَّ اللّهَ يَرْضَىٰ لَكُمْ ثَلاَثًا وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلاَثًا فَيَرْضَىٰ لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ. وَإِضَاعَةَ الْمَالِ)) (٩).

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٠٣.

(٢) سورة الصف، آية: ٤.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٠٥.

(٤) سورة الأنعام، آية: ١٥٩.

(٥) سورة الروم، آية: ٣١، ٣٢.

(٦) أخرجه الترمذي ٢١٦٦، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٧٥٩).

(٧) أخرجه الترمذي ٢١٦٥، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٧٥٨).

(٨) أخرجه البخاري ٦٠٢٦، ومسلم ٢٥٨٥.

(٩) أخرجه مسلم ١٧١٥، واللفظ له وبعضه عند البخاري برقم ٥٩٧٥.

إن تكاثر هذه النصوص القرآنية والنبوية يدل على أهمية وفضل وحدة الصف مما يستلزم أن يقوم الدعاة إلى الله باستحضار هذه النصوص، وبيان مضامينها للمدعوين ليتحقق للأمة الإسلامية الاتحاد والاجتماع.

إن من أبرز مظاهر الوعي في الأفراد شعورهم بحق الجماعة عليهم، وتصرفهم في حدود التعاون الاجتماعي، حتى يكون المجتمع كبناء متراصٍ لا تجد فيه ثغرة ولا خللاً، وبهذا المقياس يقاس رقي الأمم وخلود الحضارات وعظيمة الديانات.

إن الإسلام يحتل مكان الصدارة بين الديانات التي تدعو إلى التعاون وتحارب العزلة والإنكماش، وتقوي صلة الفرد بالمحيط الذي يعيش فيه عن طريق العبادة والتربية والتشريع[1].

---

(١) انظر أخلاقنا الاجتماعية، د. مصطفى السباعي، ص ٤١، ٤٢.

الحديث رقم (٢٢٥)

٢٢٥- وعن أَبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: قبَّل النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم الْحسنَ بن عليٍّ رضي الله عنهما، وَعِنْدَهُ الأَقْرعُ بْنُ حَابِسٍ، فقال الأَقْرَعُ: إنَّ لِي عَشرةً مِنَ الْولَدِ ما قَبَّلتُ مِنْهُمْ أَحدًا فنَظَر إلَيْهِ رسولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم فقال: «**مَن لا يَرْحمْ لا يُرْحَمْ**» متفقٌ عليه[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

ما أروع هذا المشهد الإنساني الجميل، وما أجمل القيم التي يغرسها المصطفى صلى الله عليه وسلم في نفوس الصالحين من أبناء أمته، وهذه القيم الإسلامية التي تمثلت في سلوك النبي صلى الله عليه وسلم تتصدرها قيمة الرحمة بالأبناء والعطف عليهم، ومعاملتهم بالحسنى، وحسن تنشئتهم لأنهم ثمرة مستقبل هذه الأمة، وهم أشجارها الصاعدة، ونجومها الواعدة، وفرسانها القادمون، وعلماؤها الآتون من رحم الجِدّ والمثابرة والحب والإخلاص.

والمشهد الجميل في هذا الحديث يؤكد رقة النبي صلى الله عليه وسلم ومحبته لحفيده الحسن بن علي، وابن بنته فاطمة رضي الله عنهم، وما أحوج الأمة الإسلامية وهي ترسي دعائم حضارتها، وتؤسس أركان قوتها إلى إعداد الأبناء إعدادًا نفسيًا وشعوريًا وجسمانيًا وعاطفيًا قويًا وجميلاً، ولن يكون ذلك كذلك إلا إذا اتخذنا منهج المصطفى صلى الله عليه وسلم قدوة لنا في كل مناحي حياتنا وفي مقدمة هذه الاهتمامات: أن نحسن التعامل مع أبنائنا ومع الأطفال بصفة عامة، وقد عنى الإسلام بمستقبل الطفل، وأمر الآباء برعاية الأبناء، وأرشدهم إلى ضرورة إكساب الطفل المهارات والقدرات التي تجعل منه رجلاً قويًا ثابتًا متزنًا في مستقبله، وفي عهد الشباب والفتوة، وكان المصطفى صلى الله عليه وسلم هو القدوة والنموذج الأعلى في ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٩٧)، ومسلم (٦٥/٢٣١٨)، والسياق للحميدي في جمعه (٦٨/١، رقم ٢٢٤٩). أورده المنذري في ترغيبه (٣٣٤٢). وسيكرره المؤلف برقم (٨٩٤).

والحديث في ضوء هذا المنهج التربوي السديد -يبدأ بالفعل: "قبَّل"، وعنده "الأقرع ابن حابس"، فالمصطفى ﷺ يُقبل حفيده أمام الناس، ولا يتوارى من ذلك، وهو بهذا السلوك يرسى قاعدة من قواعد السلوك التي يجب أن تسود حتى تترسخ عاطفة الحب والتنشئة الصحيحة، والعلاقات الجميلة بين الآباء والأبناء، وبين أبناء البيت الواحد، وبين أبناء الأمة كلها.

وحينما يرى الأقرع بن حابس هذا المشهد الفطري الجميل: يبادر ويسرع فيقول: وهو يبدي اعتراضه على هذا المشهد المؤثر "إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدًا" وهذا الاعتراف المُنْكر يبديه صاحبه في أسلوب التوكيد، وكأنه يتفاخر بذلك، وقيل: إن هذا السلوك من ذلك الرجل، يرجع إلى أنه من أهل البادية، وهم أهل غلظة وجفاء، وقد أنكر الرسول ﷺ ذلك، وبدا هذا الإنكار في قولة الراوي، وهو ينقل حركة رسول الله ﷺ، وطريقة اعتراضه على إقرار الأقرع بن حابس، يقول الراوي: "فنظر إليه رسول الله ﷺ فقال" والعطف بالفاء في "فنظر، وقال" يرشد إلى سرعة إنكار الرسول لهذا السلوك المرفوض، وهذه العاطفة المتجمدة تجاه الأبناء، وقول رسول الله ﷺ: من لا يَرْحم لا يُرْحم، يعد قاعدة عامة، وعبارة موجزة تحمل كثيراً من الدلالات، وهي من جوامع كلمه ﷺ، وتتنوع الدلالة حسب التأويل اللغوي، فمن اسم موصول وما بعدها، صلة الموصول[1]، أو أداة شرط وما بعدها فعل الشرط وجواب الشرط: ولكن الثمرة في النهاية أن من لا يرحم الناس فلن يستحق رحمة الله سبحانه.

فقه الحديث

يتعرض الحديث لصفة من الصفات التي يتحلى بها المؤمنون حقًا وهي صفة الرحمة بالصغير فمن لا يرحم لا يرحم، ومن لا يوجد في قلبه رحمة بالناس وخاصة صغارهم لا يؤمن على شيء.

---

(١) انظر: الأدب الإسلامي بين النظرية والتطبيق، د. صابر عبدالدايم، ص ٢٠٤-٢٢٨، مبحث: أدب الطفولة.

وقد اتفق الفقهاء[1] على أنه يجوز، بل يسن للرجل تقبيل ولده الصغير على الرأس والجبهة والخد، وكذا ولد قريبه وصديقه ذكرًا كان أو أنثى -غير مكلفة- على سبيل الشفقة والرحمة واللطف، فإن كانت هناك شهوة في التقبيل فهو حرام لخروجه عن معناه المشروع له.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: رحمة الولد وتقبيله ومعانقته.

ثانيًا: من صفات الداعية: القدوة الحسنة.

ثالثًا: من صفات الداعية: الرحمة والشفقة.

رابعًا: من واجبات المدعو: الإخبار عن حاله ومعرفة مدى مطابقته للشرع.

خامسًا: من واجبات الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم.

سادسًا: من أساليب الدعوة: الشرط، والترهيب.

سابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل الشفقة والرحمة بالمسلمين.

أولاً- من موضوعات الدعوة: رحمة الولد وتقبيله ومعانقته:

الأولاد هم مهجة القلب، وأغلى ما في الحياة، وقد جاءت الشريعة الإسلامية مراعية لهذه المحبة وهذه الشفقة. وقد طبق النبي ﷺ ذلك من خلال محبته للحسن والحسين رضي الله عنهما؛ حيث قال أبو هريرة رضي الله عنه: "قبَّل رسول الله ﷺ الحسن بن علي..." قال ابن حجر: (قال ابن بطال تعليقًا على باب رحمة الولد وقبلته ومعانقته[2] يجوز تقبيل الولد الصغير في عضو منه وكذا الكبير عند أكثر العلماء ما لم يكن عورة)[3]. وقد ورد عن النبي ﷺ أنه كان يقبل ابنته فاطمة رضي الله عنها، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: ((ما رأيت

---

(١) انظر في ذلك: بريقة محمودية في طريقة محمدية وشريعة نبوية في سرية أحمدية، محمد بن مصطفى الخادمي ٧٠/٣، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٤٧٧/٤، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ١١٤/٣، وحاشية الجمل على شرح المنهج للعجيلي ١٢٦/٤ ١٣٢/١٣.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رقم ١٨.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٦٤٢/٣.

أحدًا كان أشبه سمتًا وهديًا ودلاً برسول الله ﷺ من فاطمة رضي الله عنها، كانت إذا دخلت عليه قام إليها فأخذ بيدها فقبلها وأجلسها في مجلسه، وكان إذا دخل عليها قامت إليه فأخذت بيده فقبلته وأجلسته في مجلسها))[١].

وكذلك كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يقبل ابنته عائشة رحمة وشفقة عليها؛ فعن البراء رضي الله عنه قال: ((دخلت مع أبي بكر أول ما قدم المدينة فإذا عائشة ابنته مضطجعة قد أصابتها حمى، فأتاها أبوبكر فقال لها، كيف أنت يا بنية؟ وقَبّل خدها))[٢].

وقال ابن عثيمين في حديث الباب: (ففي هذا دليل على أنه ينبغي للإنسان أن يستعمل الرحمة في معاملة الصغار ونحوهم وأنه ينبغي للإنسان أن يقبل أبناءه وأبناء بناته، وأبناء أبنائه، يقبلهم رحمة بهم، واقتداءً برسول الله ﷺ ،أما يفعله بعض الناس من الجفاء والغلظة بالنسبة للصبيان، فتجده لا يمكن صبيه من أن يحضر إلى مجلسه، ولا يمكن صبيه من أن يطلب منه شيئًا وإذا رآه عند الرجال انتهره فهذا خلاف السنة وخلاف الرحمة)[٣].

ثانيًا- من صفات الداعية: القدوة الحسنة:

للقدوة أثر عظيم في الدعوة إلى الله تعالى، ومن الشواهد على القدوة الحسنة في هذا الحديث تقبيل النبي ﷺ للحسن بن علي رضي الله عنه مما يدل على رحمته ﷺ وشفقته وحنانه على الصغار وأثر ذلك في نفوسهم، والنبي ﷺ هو القدوة الأول، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾[٤].

قال القرطبي: (الأسوة القدوة. والأسوة ما يتأسّى به؛ أي يُتعزَّى به. فيُقْتَدَى به في جميع أفعاله ويُتَعزَّى به في جميع أحواله)[٥]، وهذه الأسوة الحسنة إنما يسلكها ويوفق

---

(١) أخرجه أبو داود ٥٢١٧، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤٣٤٧).

(٢) أخرجه أبو داود ٥٢٢٢، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤٣٥١).

(٣) شرح رياض الصالحين ٥٦٣/١.

(٤) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٥٥/١٤/٧.

لها من كان يرجو الله واليوم الآخر، فإن ما معه من الإيمان، وخوف الله، ورجاء ثوابه وخوف عقابه، يحثه على التأسي بالرسول ﷺ[١]. ومن هنا كان على الداعي أن يكون قدوة للمدعوين في جميع تصرفاته وأحواله.

وقد ذم الله بني إسرائيل لمخالفة أقوالهم وأفعالهم، قال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[٢]، وحسب الداعية قول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[٣].

قال ابن القيم: (علماء السوء جلسوا على باب الجنة يدعون إليها الناس بأقوالهم، ويدعونهم إلى النار بأفعالهم، فكلما قالت أقوالهم للناس هلموا، قالت أفعالهم لا تسمعوا منهم، فلو كان ما دعوا إليه حقًا كانوا أول المستجيبين له فهم في الصورة أدلاء، وفي الحقيقة قطاع الطرق)[٤].

وما من شك في أن الداعية الذي يريد أن يصل بدعوته إلى أعماق قلوب المدعوين فلا بدّ وأن يقدم لهم من سيرته الحسنة وسلوكه الطيب ما يبرهن به لهم على صدقه في دعوته وفيما يرشدهم إليه.

(إن للقدوة الحسنة والمطابقة والتلازم بين القول والفعل أهمية كبيرة، ولذا فلا مناص لكل داعية أن يبذل غاية جهده ليكون قدوة حسنة في كل مجال، وأن يجعل أفعاله ترجمة لأقواله، وأن تكون أقواله مؤكدة لأفعاله فينال محبة القلوب، ويصل إلى قناعة العقول، ويحظى قوله وفعله وإرشاده ونصحه بالرضى والقبول)[٥].

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق، ص ٦٠٩.

(٢) سورة البقرة، آية: ٤٤.

(٣) سورة الصف، الآيتان: ٢ - ٣.

(٤) الفوائد ص ٨٠.

(٥) مقومات الداعية الناجح، د. علي عمر بادحدح، ص ٤١.

إن القدوة الحسنة لها أثرها في الرعاية والتوجيه أكثر من القول أو الكلمة، فالرجل في أسرته والمرأة في أهل زوجها وولده، والعامل في مال غيره، كلٌّ من هؤلاء يحدث بسلوكه العملي الأثر النافذ في توجيه من يرعاه، والمجتمع كله ليس إلا رجلاً في أسرته وامرأة في أهل بيت زوجها وولده وعاملاً في مال غيره.

والاستجابة للقيادة التي تنيرها القدوة الحسنة أبقى وأسلم من تلك التي يحمل عليها الإكراه[1].

ثالثًا- من صفات الداعية: الرحمة والشفقة:

يتبين هذا من تقبيل النبي ﷺ للحسن بن علي رضي الله عنهما مما يدل على رحمته وشفقته، فينبغي على الداعية أن يحرص على الرحمة والشفقة بالصغار سواء أكانوا أبناءه، أم أولاود أبنائه وبناته أم من الأجانب، لأن هذا يوجب الرحمة، وأن لديه قلبًا يرحم الصغار، وكلما كان الإنسان بعباد الله أرحم، كان إلى رحمة الله أقرب وقد قال النبي ﷺ "من لا يرحم لا يرحم" فدل ذلك على أنه ينبغي للإنسان أن يجعل قلبه لينًا عطوفًا رحيمًا[2]. فالرحمة والشفقة فضيلة، والقسوة رزيلة. والرحمة تكون بالأبناء وأثرها تقبيل ومعانقة، كما صنع الرسول ﷺ بالحسن. وتأديب وتربية وإجابة رغائب - ما دامت في سبيل المصلحة، وإبعاد من الشر وتكون بالآباء والأمهات وأثرها قول كريم، وصنع جميل، وطاعة في غير معصية وخدمة صادقة: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾[3]، وتكون بالأقرباء، وأثرها بر وصلة، وزيارة ومودة، وسعى في مصلحة، ودفع مضرة فعلى الداعية أن يتخلق بخلق الرحمة والشفقة لما لها من أثر في نشر الدعوة إلى الله"[4]. وقد قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا

---

(١) انظر: خمس رسائل إلى الشباب المسلم المعاصر، د. محمد البهي ص ١٢٤.

(٢) انظر: شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين، ١١٦٨/٢.

(٣) سورة الإسراء، آية: ٢٤.

(٤) الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي، ١٢٢.

غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ...﴾ (١).

قال السعدي: (أي برحمة الله لك ولأصحابك منّ الله عليك أن ألنت لهم جانبك وخفضت لهم جناحك، وترفقت عليهم، وحسنت لهم خلقك، فاجتمعوا عليك وأحبوك وامتثلوا أمرك)(٢)، وما أحوج الدعاة الآن أن يتصفوا بالرحمة والشفقة ليقبل عليهم المدعوون، ويسمعوا قولهم، وقد قال الله تعالى آمرًا موسى وهارون عليهما السلام: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ (٣).

(إن كمال العلم في الحلم، ولين الكلام مفتاح القلوب، فيستطيع أن يعالج أمراض النفوس، وهو هادئ النفس مطمئن القلب لا يستفزه الغضب ولا يستثيره الحمق فتنفر منه القلوب وتشمئز منه النفوس، ولو كان الداعي سيء الخلق جافيًا قاسي القلب فأغلظ لهم في القول تفرقوا عنه، وانصرفوا من حوله فحرموا الهداية بأنوار دينهم فعاشوا وماتوا جهلاء وذلك هو الشقاء، وهو سببه وعلته)(٤).

رابعًا- من واجبات المدعو: الإخبار عن حاله ومعرفة مدى مطابقته للشرع:

حيث أخبر الأقرع بن حابس أن له عشرة من الولد ما قبّل منهم أحدًا، وهذا من واجبات المدعو أن يخبر عن حاله وأفعاله للداعية، ويرى هل هي مطابقة للشرع الحنيف أم لا، وذلك لأن الإنسان قد يقع في بعض الأخطاء الشرعية عن جهل، ولو أنه سأل في الدين وأخبر عن حاله لعرف موقع الصواب من الخطأ في تصرفاته، قال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ (٥).

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ١٢١.

(٣) سورة طه، آية: ٤٤.

(٤) هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة، علي محفوظ، ص ٩٤.

(٥) سورة النساء، آية: ٨٣.

ولذا فإن من أوجب الواجبات على المدعو أن يعرض حاله على الشرع ليعرف مدى قربه أو بعده منه، وليدرك موقعه الحقيقي من الشرع، هل حياته وسلوكياته مطابقة للشرع أم بعيدة عنه، وليحاسب نفسه ويصحح مساره، ويستدرك ما فاته من تقصير فهذا مما لا يستغني عنه كل مؤمن.

خامسًا- من واجبات الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم:

ويتضح هذا من توجيه النبي ﷺ إلى الرحمة بقوله: "من لا يرحم لا يُرحم"، وبهذا يتأكد على الدعاة ضرورة الحرص على إرشاد المدعوين، ولهم على ذلك الأجر والمثوبة، ففي الحديث الشريف: ((مَنْ دَعَا إِلَىٰ هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لاَ يَنْقُصُ ذٰلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا)) [1]، ومن هنا كانت مهمة وواجب الداعية هي الدعوة إلى الخير والإرشاد إلى الفلاح.

سادسًا- من أساليب الدعوة: الشرط، الترهيب:

١- **الشرط:** حيث جاء في الحديث "من لا يرحم" والشرط أسلوب من أساليب الدعوة، وهو يحمل في داخله معنى التشويق، ويشدّ انتباه المدعوين إلى معرفة جواب الشرط، وأسلوب الشرط فيه أيضًا بيان ارتباط الجزاء بالعمل كارتباط الجواب بالشرط.

٢- **الترهيب:** وذلك من قوله ﷺ "من لا يرحم لا يُرحم" قال ابن حجر: (من لا يكن من أهل الرحمة فإنه لا يرحم، وقد يكون المراد أن الذي يفعل هذا الفعل من عدم تقبيل الأولاد فإنه لا يرحم)[2].

ولا شك أن هذا الترهيب يدفع المدعوين إلى الإقبال على العمل، ذلك لأن أسلوب الترهيب في الدعوة يحمل النفس على الطاعة، ولكن يجب على الدعاة أن يوازنوا بينه وبين الترغيب، كما هو منهج القرآن الكريم، وقد قال الله تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[3].

---

(١) أخرجه مسلم ٢٦٧٤.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ، ابن حجر العسقلاني ١٠/٤٤٤.

(٣) سورة السجدة، آية: ١٦.

سابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل الشفقة والرحمة بالمسلمين:

يتضح هذا من مضمون الحديث، فمما لا شك فيه أن من موضوعات الدعوة المهمة الشفقة والرحمة بالمسلمين، وإن الناظر المتأمل ليجد أن بعثة النبي ﷺ في ذاتها كانت رحمة لجميع الخلق، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ (١)، قال القاسمي: (وما أرسلناك بهذه الحنيفية والدين الفطري، إلا حال كونك رحمة للخلق فإن ما بعثت به سبب لسعادة الدارين، وفي جعله نفس الرحمة مبالغة جلية فكل من لحظ بعين الحكمة والاعتبار، علم حاجة البشر كافة إلى رسالة خاتم النبيين، وأكبر مِنّة مَنّ الله بها على العالمين إذ أرسل إلى البشر رسولاً ليعتقهم من أسر الأوثان، ويخرجهم من ظلمة الكفر وعمى التقليد إلى نور الإيمان، وينقذهم من النار والعار، ويرفع عنهم الآصار، ويطهرهم من مساوئ الأخلاق والأعمال، ويرشدهم إلى صراط الحق)(٢).

هذا وقد وصف الله الجماعة المؤمنة، والصحابة الكرام رضي الله عنهم بقوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ (٣)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ. فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ. وَأَنْزَلَ فِي الأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا. فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ تَتَرَاحَمُ الْخَلائِقُ. حَتَّى تَرْفَعَ الدَّابَّةُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا، خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ))(٤).

وإذا كان الأمر كذلك فإنه من الضرورة بمكان أن تشيع الرحمة والشفقة بين المسلمين حتي ينالوا رحمة الله، ويحنو القوي على الضعيف، والغني على الفقير، والقادر على العاجز ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾(٥).

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ١٠٧.

(٢) محاسن التأويل ٢٩٨/١١ - ٢٩٩.

(٣) سورة الفتح، آية: ٢٩.

(٤) أخرجه البخاري ٦٠٠٠، ومسلم ٢٧٥٢.

(٥) سورة البلد، آية: ١٧.

إن الرحمة إن حلت في حياة الأفراد سادت المجتمع الفضيلة، لأن الفرد هو اللبنة الأولى في المجتمع، وهي متبادلة الحركة صعودًا ونزولاً، فالفرد الذي يرحم ذاته، سيصل إلى الكفاية والقناعة، فيُصدِّر شعوره بالرحمة إلى الآخر، وهكذا ترتفع قيمة الرحمة من الأسفل إلى الأعلى، وإذا كانت الرحمة واجبة على الفرد فالفرد بحاجة إلى مثل يدِّعم المثل الإيماني فيه، وهذا المثل يأتي من الحاكم الذي يتوجب أن يكون عدلاً رحيمًا رؤوفًا كما كان الرسول ﷺ وخلفاؤه، فصلاح الحاكم يعني صلاح الفرد وصلاح الفرد يعني صلاح المجتمع، وبالتالي فإن صلاح المجتمع يشف عن عدالة الحاكم ورحمته بمن ولي عليهم[1].

(١) موسوعة القيم ومكارم الأخلاق العربية والإسلامية، د. مرزوق بين صنيتان بن تنباك وآخرون، ٧٥/٢٦.

الحديث رقم (٢٢٦)

٢٢٦- وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: قَدِمَ نَاسٌ مِنَ الأَعْرَابِ عَلَى رسول اللَّه ﷺ، فقالوا: أَتُقَبِّلُونَ صِبْيَانَكُمْ؟ فقال: «نَعَمْ» قالوا: لَكِنَّا واللَّه ما نُقَبِّلُ، فقال رسولُ اللَّه ﷺ: «أَوَ أَمْلِكُ إِنْ كَانَ اللَّه نَزَعَ مِنْ قُلُوبِكُمْ[1] الرَّحْمَةَ» متفقٌ عليه[2].

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

غريب الألفاظ:

الأعراب: هم سكان البادية، المفرد أعرابي[3].

الشرح الأدبي

تتماوج أشعة هذا الحديث الشريف مع الحديث السابق في أفق دلالي واحد، وفي دائرة توجيهية واحدة، حيث يحرص رسول الله ﷺ على إعطاء القدوة والأسوة الحسنة في تنشئة الأطفال في ظل الحنان والعطف والمودة والرحمة، وقد قبّل رسول الله ﷺ، الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس.

وهذا الحديث يكمل القصة نفسها، كما يقول كثير من العلماء، فهؤلاء الذين قدموا من الأعراب: كانوا من تميم، ورئيسهم الأقرع بن حابس، لأن الحوار يكمل بعضه بعضًا، وأبو هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ روى مشهدًا من مشاهد هذه القصة الواقعية، والسيدة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا روت مشهدًا آخر أو أكملت الحوار الذي بين رسول الله ﷺ، ووفد تميم من الأعراب حول هذا الشأن: وهو الحنو على الأبناء، وتقبيلهم لمزيد من الإيناس، والإشعار بالحنان والعطف والبنوة.

ولا غرابة في ذلك فالشيماء أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة كانت كما يقول

---

(١) لفظهما: (قلبك) بالإفراد.

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٩٨)، ومسلم (٦٤/٢٣١٧). أورده المنذري في ترغيبه (٣٣٤٣).

(٣) القاموس المحيط، الفيروزآبادي ١١٣، ومعجم لغة الفقهاء، أ.د. محمد رواس قلعة جي ٥٧.

الرواة، تقبله وترقصه في مهده وهو لم يزل طفلاً رضيعًا وتقول له:

هـــــذا أخ لــــي لم تلــــده أمـــي

ولـــيس مـــن نـــسل أبـــي وعمـــي

فأنْمـــــه الله فيمـــــا تُنْمـــي[1]

والحسن البصري العالم الزاهد كان يداعب ابنه ويناديه وهو يلاعبه ويقبله:

يــــا حبـــــذا أرواحــــه ونفَــسُه

وحبـــــذا نَــــسمُه ملمــــسُه

والله يبقيـــــه لنــــا ويحرسُـــــه

حتـــى يجـــر ثوبـــه ويلبـــسُه[2]

ويروي أن رسول الله ﷺ: دخل عليه عمه الزبير بن عبدالمطلب وهو صبي فأقعده في حجره وقال له:

محمـــــدٌ بـــــن عَبْـــــدم عـــــشت بعـــــيش أنعـــــم

ودولـــــــة ومغـــــــنم في فـــــرع عـــــزٌ أسْـــــنم

مكـــــرَّم ... معظـــــم[3]

والشواهد السابقة تؤكد المنهج السديد في تربية الأبناء في ظل رعاية أبوية وحنان من الأهل كلهم، حسب تعاليم الإسلام.

والحديث الشريف يموج بأسرار تعبيرية كثيرة وفي مقدمتها هذا الحوار الواقعي بين رسول الله ﷺ ووفد تميم، ونتيجة الحوار تؤكد على سلبية منهج هؤلاء الأعراب الذين نزع الله من قلوبهم الرحمة، وتؤكد كذلك سلامة المنهج النبوي السديد، منهج

---

(١) السيرة الحلبية ١/١٦٧.

(٢) الغناء للأطفال عند العرب، د. أحمد عيسى بك.

(٣) الطبقات الكبرى، ابن سعد ج٤، والأمالي للقالي ٢/١١٧.

محمد رسول الله ﷺ والذين معه: فهم: أشداء على الكفار رحماء بينهم، ولفظ "ناس" يمكن توجيهه حسب ما يدل عليه من طبيعة الإنسان فقيل هو مأخوذ من "أَنِسَ" كفرح: لأنهم يأنسون بأمثالهم، فاللفظ "يعطي" دلالة الأنس والرحمة وقيل مأخوذ من "أَنَس" بفتح النون كضرب، وهو الظهور: لأنهم ظاهرون مبصرون أي مشاهدون، وقيل أصل هذه الكلمة من ناس: يَنُوس: إذا اضطرب: وهذه الدلالة تتطابق مع طبيعة هؤلاء الأعراب الذين قست قلوبهم ونزع الله منها الرحمة، فهم مضطربون في سلوكهم لا يقدرون على مقاومة غلظتهم وجفائهم، ولذلك أنكروا على رسول الله ﷺ تقبيل أبنائهم: وقالوا: أتقبلون صبيانكم، والاستفهام هنا إنكاري، فقال الصحابة رضي الله عنهم: نعم، وتأتي إجابتهم مغلفة، بالاستدراك، "لكنا"، والنفي "ما نقبل"، والحذف: أي أطفالنا، والحذف هنا يوحي بأنهم لا يقبلون أحدًا بدافع العطف والود والشفقة، وفي ذلك مزيد من الإدانة لهم، وتأتي إجابة رسول الله ﷺ في ثوب الاستفهام الإنكاري منكرًا عليهم هذا الصنيع، وبأنه لا يملك أن يغير طبيعتهم القاسية.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

ثانيًا: من صفات الداعية: الرحمة والشفقة بالصغار.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل الرحمة والعطف على الأولاد.

رابعًا: من أساليب الدعوة: الترهيب.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: الحذر من الغلظة والقسوة مع الأولاد.

أولاً- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

من أساليب الدعوة التي تظهر في هذا الحديث أسلوب السؤال والجواب، ويظهر السؤال في قول الأعرابي: أتقبلون صبيانكم؟ والجواب في قوله ﷺ: (نعم).

وهو من الأساليب الدعوية المفيدة في الدعوة حتى يتمكن المدعوون من السؤال عما يريدون معرفته، ويمكن الداعية من الإجابة بالحقيقة فينبغي على الداعية أن يشجع المدعوين على السؤال عما يجهلون.

فإن من طبيعة السائلين أن يطرحوا أسئلتهم عادة على من يحترمونه، ويقدرونه، ويثقون بعلمه وأمانته العلمية، وبقدرته على فهم أسئلتهم فهمًا دقيقًا، فإذا تلقوا منه الجواب تلقفوه تلقفاً، لأن كل أبواب أفكارهم ونفوسهم متفتحة لتلقي الإجابة منه.

فإن طارحي الأسئلة، إذا كان دافعهم إلى طرح أسئلتهم ما يعانونه من مشاكل فكرية أو نفسية أو اجتماعية في حياتهم، فلا بد أن يكونوا متلهفين لمعرفة الحل الأمثل لها، فيفتحون كل أبواب قدراتهم الفكرية ومشاعرهم النفسية، لتلقف الإجابات عليها، والنظر بإمعان.

وحين تكون الإجابات مقتبسة من أحكام الدين باجتهادات سليمة مشرقات واضحات الأدلة، فإنها تقع في نفوسهم في مواقع الرضا والتسليم والاقتناع(١).

ثانيًا- من صفات الداعية: الرحمة والشفقة بالصغار:

إن من صفات الداعية الرحمة والشفقة بالصغار، وتظهر هذه الصفة التي ينبغي أن يتحلى بها الداعية من الحديث فقد أجاب رسول الله ﷺ بأنه يُقَبِّلُ الصبيان وهذا من رحمته وشفقته عليهم، وَوَصَفَ من لا يُقَبِّلهم بأنه منزوع الرحمة.

والتقبيل معروف. ويبين الحديث أن تقبيل الصغار من سنة رسول الله ﷺ، وتشير وقائع الحديث لخصوصية تقبيل الصغار لاحتياج الصغير لمظاهر الميل والعطف واللين واللطف والرقة والرأفة وتبين الواقعة جانب من رحمة النبي ﷺ بالصغار وقد كانت رحمته ﷺ عامة لكل من يستحق الرحمة من الخلق.

(والطفل ضعيف في حاجة إلى الرحمة والشفقة فإذا شبع الأطفال من رحمة الكبار شبوا أسوياء صالحين)(٢)، فينبغي على الداعية أن يكون رحيمًا بالأطفال شفيقًا عليهم وله في ذلك المثل والقدوة الحسنة في رسول الله ﷺ فقد ورد في رحمته وشفقته بالأطفال الكثير من الأحاديث منها:

---

(١) فقه الدعوة إلى الله، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني ٢/ ٥٨ - ٥٩.

(٢) أخلاقنا، د. محمد ربيع محمد جوهري ص ١٣٣.

عن أم خالد بنت خالد بن سعيد قالت: أتيتُ رسولَ اللّه ﷺ مع أبي وعليَّ قميصٌ أصفرُ، قال رسولُ اللّه ﷺ: سَنَه سَنَه، قال عبدُ اللّه وهي بالحبشية: حسنة. قالت: فذَهبتُ ألعبُ بخاتم النبوَّةِ، فزَبَرَني[1] أبي. قال رسولُ اللّه ﷺ: دَعْها. ثم قال رسولُ اللّه ﷺ: ((أبلِي وأخْلِقي، ثم أبلي وأخلقي، ثم أبلي وأخلقي)). قال عبد اللّه: فبقِيتْ حتى ذكر.. يعني من بقائها))[2].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قَالَ: ((مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَرْحَمَ بِالْعِيَالِ مِنْ رَسُولِ اللّهِ . قَالَ: كَانَ إِبْرَاهِيمُ مُسْتَرْضِعًا لَهُ فِي عَوَالِي الْمَدِينَةِ. فَكَانَ يَنْطَلِقُ وَنَحْنُ مَعَهُ. فَيَدْخُلُ الْبَيْتَ وَإِنَّهُ لَيُدَّخَنُ. وَكَانَ ظِئْرُهُ قَيْنًا. فَيَأْخُذُهُ فَيُقَبِّلُهُ. ثُمَّ يَرْجِعُ))[3]، قال النووي: (فيه بيان كريم خلقه ﷺ ورحمته للعيال)[4].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل الرحمة والعطف على الأولاد:

يستنبط هذا من عموم الحديث: (فقالوا: أتقبلون صبيانكم؟ فقال: نعم، قالوا: ولكنا واللّه ما نقبل! فقال: أو أملك إن كان اللّه نزع من قلوبكم الرحمة) فيفهم من عموم اللفظ فضل الرحمة والعطف على الأولاد، فعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: أرسلَتِ ابنةُ النبيِّ ﷺ إليه: إنَّ ابنًا لي قُبِضَ، فأتِنا. فأرسلَ يُقرِىءُ السلامَ ويقول: إنَّ للّه ما أخذَ وله ما أعطى، وكلٌّ عندَه بأجَلٍ مُسمَّى، فلْتَصبِرْ ولْتحْتَسِبْ. فأرسلَتْ إليهِ تُقسمُ عليه لَيَأْتِيَنَّها. فقامَ ومَعَهُ سَعدُ بنُ عُبادة ومُعاذُ بنُ جَبَلٍ وأُبَيُّ بنُ كعبٍ وزَيدُ بنُ ثابتٍ ورِجالٌ. فرُفِعَ إلى رسولِ اللّه ﷺ الصبيُّ ونفسُهُ تَتقعْقَعُ - قال: حسِبتهُ أنَّهُ قال: كأنَّها شَنٌّ - ففاضَتْ عيناهُ، فقال سَعدٌ: يا رسولَ اللّهِ ما هذا؟ فقال: هذِهِ رحمةٌ جَعَلَها اللّهُ في قُلوبِ عِبادِهِ، وإنَّما يَرحَمُ اللّهُ مِن عبادِهِ الرُّحماءَ))[5]، فرحمة المسلم للأولاد وعطفه

---

(١) زبرني: أي نهرني ومنعني.

(٢) أخرجه البخاري ٥٩٩٣.

(٣) أخرجه مسلم ٢٣١٦، وعوالي المدينة: القرى المجاورة لها (ظئره) أي زوج مرضعته (قينًا) أي: حدادًا.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٤٢٩.

(٥) أخرجه البخاري ١٢٨٤.

عليهم تجعل الأولاد يحبونه ويسمعون كلامه فعلى الداعية أن يكون رحيمًا بالأولاد عطوفًا عليهم حتى يقبلون دعوته، ويعمل على إشاعة الرحمة بين المدعوين، حتى تعم آثارها بين الصغار والكبار.

رابعًا- من أساليب الدعوة: الترهيب:

من أساليب الدعوة التي تظهر في هذا الحديث: أسلوب الترهيب، ويظهر في قوله: "أو أملك إن كان الله نزع من قلوبكم الرحمة" حيث رهّب ﷺ من عدم رحمة الأطفال وبيّن أن من لا يُقَبِّل الصبيان ويرحمهم منزوع الرحمة من قلبه فينبغي على المسلمين أن يرحموا الصبيان طلبًا للرحمة.

خامسًا- من موضوعات الدعوة: الحذر من الغلظة والقسوة مع الأولاد:

إن مما يستنبط من عموم الحديث الحذر من الغلظة والقسوة مع الأولاد لأن ذلك ينزع الرحمة من القلب مما ينعكس على الصبيان أيضًا، (ومن المشاعر النبيلة التي أودعها الله في قلب الأبوين، شعور الرحمة بالأولاد، والرأفة بهم، والعطف عليهم، وهو شعور كريم له في تربية الأولاد، وفي إعدادهم وتكوينهم أفضل النتائج، وأعظم الآثار. والقلب الذي يتجرد من خلق الرحمة، يتصف صاحبه بالفظاظة العاتية، والغلظة اللئيمة القاسية. ولا يخفى ما في هذه الصفات القبيحة من ردود فعل في انحراف الأولاد، وفي تخبطهم في أوحال الشذوذ، ومستنقعات الجهل والشقاء)[١]. وقد حذر النبي ﷺ من عدم رحمة الصبيان، فقال: ((لَيْسَ مِناً مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا...))[٢].

فالغلظة والقسوة مع الأولاد أمر منفر لهم ومخيف فلا بد من البعد عنه حتى يكونوا غير خائفين بل يجب التلطف والرأفة بهم.

فعلى الداعية أن يبين علاقة الآباء بالأبناء، وأنها لا تقوم على القسوة والشدة بقدر ما تقوم على الرأفة والرحمة.

---

(١) تربية الأولاد في الإسلام، د. عبدالله ناصح علوان ١/ ٤٩.

(٢) أخرجه الترمذي ١٩١٩، وصححه الألباني، (صحيح سنن الترمذي ١٥٦٦).

الحديث رقم (٢٢٧)

٢٢٧- وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ لا يرْحَم النَّاس لا يرْحَمْهُ اللَّه**» متفقٌ عليه[1].

ترجمة الراوي:

جرير بن عبدالله البجلي: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٧١).

الشرح الأدبي

في ظلال الحديث نتنسَّم عبير الرحمة المهداة، ونبصر وهج أخلاق السراج المنير، والبشير النذير، محمد بن عبدالله، النبي المجتبى، والحبيب المصطفى، والرحمة المهداة: ولا غرو.. فقد كان ﷺ كما يقول أبو بكر القسطلاني، مع أصحابه وأهله، ومع الغريب والقريب من سعة الصدر، ودوام البشر وحسن الخلق، والسلام على من لقيه، والوقوف مع من استوقفه، والمزح بالحق مع الصغير والكبير أحيانًا، وإجابة الداعي، ولين الجانب، حتى يظن كل واحد من أصحابه أنه أحبهم إليه، وهذا الميدان لا تجد فيه إلا واجبًا أو مستحبًا أو مباحًا، فكان يباسط الخلق ويلابسهم ليستضيئوا بنور هدايته في ظلمات الجهل ويقتدوا بهديه ﷺ، وكان ﷺ يمازح أصحابه، ويخالطهم، ويحادثهم ويؤنسهم ويأخذ معهم في تدبير أمورهم، ويداعب صبيانهم، ويجلسهم في حِجره.

وفي وهج هذه الأخلاق الرفيعة، والشمائل البديعة، نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف: الذي اتسم بالإيجاز في لفظه، والاتساع في معناه فهو قاعدة من قواعد الإسلام في إقامة أسس العلاقات بين البشر جميعًا على اختلاف ألسنتهم وألوانهم، بل بين الإنسان وجميع الكائنات التي خلقها الله لإفادة البشرية، وعمارة الكون.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٧٦)، ومسلم (٦٦/٢٣١٩) والسياق للحميدي في جمعه (١/ ٢٣٤، رقم ٤٩٧). أورده المنذري في ترغيبه (٣٣٣١).

والحديث في بنائه اللغوي يتكون من جملة واحدة، لكنها تشكل سلوكيات الإنسان في كل زمان ومكان.

ولفظ "الناس" يرشد إلى اتساع آفاق المعنى، فالرحمة ليست للمسلم فقط ولكنها لكل إنسان خلقه الله من ذكر وأنثى، ولكن شريطة أن يأمن المسلمون جانبه، وأن لا يعتدى على حرمات المسلمين.

والجِذْرُ اللغوي للفظ "الناس" يعطي دلالات كثيرة تفسر كثيرًا من طبائع البشر: كما أوضحت في شرح الحديث السابق، "والْ" هنا للعهد، وقال العلماء: إن الناس خصوا بالذكر اهتمامًا بهم، وإلا فالرحمة مطلوبة لسائر المخلوقات حتى الدواب والبهائم، ففي كل كبد رطبة أجر، والشواهد كثيرة على ذلك في التاريخ والواقع.

ومن أسرار البيان النبوي في هذا الحديث، أن التوجيه الإعرابي فيه متعدد، وتتنوع الدلالة حسب التنوع الإعرابي، ونوعية الجملة، وهذا من الأسرار الخفية في بلاغة النبوة، فجملة الحديث يمكن أن تكون اسمية، ويمكن أن تكون شرطية.

فإذا كانت "مَنْ" اسم موصول: بمعنى الذي فهى مبتدأ وما بعده صلة: وجملة "لا يرحمه الله" خبر المبتدأ، وهى بهذه الصيغة تعلن عن ثبات هذه القاعدة حيث قال العلماء إنها صارت كضرب المثل: وكلام النبوة أعظم دلالة، وأعمق تأثيرًا من ضرب الأمثال، لأنه من وحى الكبير المتعال، وعلى هذا التقدير: فالفعل يرحم مرفوع في الموضعين.

وقيل إن "من" شرطية: والفعلان "يَرْحم لا يُرْحَم" مجزومان: وجواب الشرط ينفي الرحمة من الله للعبد الذي أقدم على فعل الشرط وهو عدم رحمة الناس، وقيل يمكن أن يكون الفعل الأول مجزومًا والثاني مرفوعًا وتقديره: من لا يكون من أهل الرحمة فإنه لا يرحم.

وقال العلماء في توجيه المعنى في هذا الحديث حسب التوجيه اللغوي: عدة توجيهات منها. المراد: من لا تكون فيه رحمة الإيمان في الدنيا لا يرحم في الآخرة، أو: من لا يرحم نفسه بامتثال أوامر الله واجتناب نواهيه لا يرحمه الله لأنه ليس عنده عهد، فتكون الرحمة الأولى بمعنى الأعمال، والثانية بمعنى الجزاء، أي لا يثاب إلا من عمل

صالحًا، ويحتمل أن تكون الأولى الصدقة والثانية البلاء أي لا يسلم من البلاء إلا من تصدق، ومن لا يرحم الرحمة التي ليس فيها شائبة أذى لا يرحم مطلقًا ؟ ولا ينظر الله بعين الرحمة إلا إلى من جعل في قلبه الرحمة ولو كان عمله صالحًا، وفي ضوء هذه التوجيهات قال العلماء: وينبغي للمرء أن يتفقد نفسه في هذه الأوجه كلها فما قصر فيه لجأ إلى الله تعالى: في الإعانة عليه[1]. وهكذا نتلقى بلاغة النبوة بما فيها من الإيجاز وقوة التعبير، وشدة التماسك وجوامع الكلم.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: أهمية الرحمة.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: الترهيب.

ثالثًا: من مهام الداعية: تحذير الناس مما قد يضرهم.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: خطورة عدم الرحمة بالناس.

أولاً- من موضوعات الدعوة: أهمية الرحمة:

من موضوعات الدعوة في هذا الحديث أهمية الرحمة وتظهر من قوله ﷺ: "من لا يرحم الناس لا يرحمه الله"، (فالرحمة هي رقة في القلب، وحساسية في الضمير، وإرهاف في الشعور. تستهدف الرأفة بالآخرين، والتألم لهم، والعطف عليهم، وكفكفة دموع أحزانهم وآلمهم. وهي التي تهيب بالمؤمن أن ينفر من الإيذاء، وينبو عن الجريمة، ويصبح مصدر خير وبر وسلام للناس أجمعين)[2]. إن الرحمة لها أهمية عظيمة على المجتمع المسلم إذ بالرحمة يشعر المسلمون بالمحبة والمودة بعضهم ببعض، لذلك قال رسول الله ﷺ: ((تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى عُضْوٌ مِنْهُ تَدَاعَى لَه سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى))[3]، والإنسان الرحيم بخلق

---

(١) انظر: دليل الفالحين، ابن علان، ج٢، حديث ٢٢٥.

(٢) تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان ٣٦٥/١.

(٣) أخرجه البخاري ٦٠١١، ومسلم ٢٥٨٦.

الله يرحمه الله، قال ﷺ: ((الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ. ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ ...))(١).

أما من لا يرحم الناس لا يرحمه الله، قال ابن بطال: (الحض على استعمال الرحمة لجميع الخلق فيدخل المؤمن والكافر والبهائم: المملوك منها وغير المملوك)(٢).

وحكم ﷺ على من افتقدوا الرحمة بأنهم هم الأشقياء، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا تُنْزَعُ الرَّحْمَةُ إلا مِنْ شَقِيٍّ))(٣).

ورحمة المؤمن لا تقتصر على إخوانه المؤمنين، وإنما هي ينبوع يفيض بالرحمة على الناس جميعًا إنها رحمة تتجاوز الإنسان الناطق إلى الحيوان الأعجم، فالمؤمن وحده هو الذي يرحمه، ويتقي الله فيه، ويعلم أنه سبحانه سيحاسبه ويسأله إذا قصر في حقه أو تسبب في إيذائه، وقد أعلن النبي ﷺ أن الجنة فتحت أبوابها لبغي سقت كلبًا فغفر الله لها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: ((أَنَّ امْرَأَةً بَغِيًّا رَأَتْ كَلْبًا فِي يَوْمٍ حَارٍّ يُطِيفُ بِبِئْرٍ. قَدْ أَدْلَعَ لِسَانَهُ مِنَ الْعَطَشِ. فَنَزَعَتْ لَهُ بِمُوقِهَا. فَغُفِرَ لَهَا))(٤)(٥).

ثانيًا- من أساليب الدعوة: الترهيب:

من أساليب الدعوة في هذا الحديث أسلوب الترهيب، ويظهر ذلك من ترهيبه ﷺ لمن لا يرحم الناس، بأنه لن يكون أهلاً لرحمة الله، لأن من لم ينل رحمة الله يكون قد خسر الدنيا والآخرة، فحري بالداعية أن يستعمل أسلوب الترهيب في الزجر عن افتقاد الرحمة، (ويقصد بالترهيب كل ما يخيف ويحذر المدعو من عدم الاستجابة أو رفض الحق أو عدم الثبات عليه بعد قبوله)(٦).

---

(١) أخرجه الترمذي ١٩٢٤، وصححه الألباني، (صحيح سنن الترمذي ١٥٦٩).

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠/٤٥٥.

(٣) أخرجه أبو داود ٤٩٤٢، والترمذي ١٩٢٣، وحسنه الألباني، (صحيح سنن الترمذي ١٥٦٨).

(٤) أخرجه البخاري ٣٤٦٧، ٣٣٢١، ومسلم ٢٢٤٥ واللفظ له. والنزع استخراج الماء من البئر والموق خف غليظ يلبس فوق غيره، المعجم الوجيز في (م و ق).

(٥) انظر: تربية الأولاد، عبدالله ناصح علوان ص ١/٣٦٥ - ٣٦٦.

(٦) أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان، ص ٤٣٧.

ثالثًا- من مهام الداعية: تحذير الناس مما قد يضرهم:

إن من مهام الداعية تحذير الناس مما قد يضرهم ويستنبط هذا من بيانه ﷺ أن ترك الرحمة يضر بهم ويجعلهم لا ينالون رحمة الله عز وجل.

فتعاليم الإسلام تفرض على المنتمين إليها ضرورة القيام بواجب تحذير الناس مما قد يضرهم، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1].

وتتبوأ هذه المهمة في حياة الداعية المكانة السامقة باعتبارها رسالته التي من أجلها وجد، وفي سبيلها يتحرك، ولولاها لم تكن دعوة، ولا داعية[2].

وله في هذا القدوة في رسول الله ﷺ إذْ كان دائمًا يحذر صحابته مما قد يضرهم ويدعوهم إلى ما يفيدهم.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: خطورة عدم الرحمة بالناس:

إن من موضوعات الدعوة التي تظهر من قوله ﷺ: (من لا يرحم الناس لا يرحمه الله)، خطورة عدم الرحمة بالناس.

فمن آثار عدم الرحمة في المجتمع انتشار الجفاف لينابيع الرحمة، وهذا ما يتنافى مع ما أمر الله به عباده من التراحم والعطف والشفقة، ولذا نجد من الناس من هو فظ غليظ، لا يتراخى، ولا يتألف، ولا يلذُّ إلا المهاترة والإقذاع، ولا يتكلم إلا بالعبارات النابية التي تحمل في طياتها الخشونة والشدة، والغلظة والقسوة. وذلك كله مدعاة للفرقة والعداوة، ونزغ الشيطان وعدم قبول الحق.

فهذا نبي الله محمدٌ ﷺ مع أنه مرسل من الله، ومؤيد بالوحي، ومع أنه جاء بالهدى ودين الحق - قال ربه عز وجل في حقه: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾[3][4].

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٠٤.

(٢) انظر: أخلاق الدعاة إلى الله تعالى "النظرية والتطبيق"، د. طلعت محمد عفيفي سالم ص ١٣١.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

(٤) سوء الخلق، محمد بن إبراهيم الحمد، ص ١٤.

الحديث رقم (٢٢٨)

٢٢٨- وعن أَبي هُريرةَ رضي الله عنه ، أَنَّ رسولَ اللَّه صلى الله عليه وسلم قال: «إذا صلى أحدُكُمْ للنَّاسِ فلْيُخَفِّفْ، فَإِنَّ فِيهِمْ الضَّعِيفَ وَالسقيمَ والْكَبيرَ. وإِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ لِنَفْسِهِ فَلْيطَوِّل ما شَاءَ» متفقٌ عليه[1].

وفي روايةٍ[2]: «وذَا الْحاجَةِ».

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

صلى أحدكم للناس: أي بالناس وكان إمامًا لهم.

السقيم: أي المريض[3].

الشرح الأدبي

إن الصلاة لها دور كبير في تنظيم حياة المسلم، وفي ترسيخ علاقته بربه وبالناس، وفي تخليصه بين وساوس الشيطان، وهواجس القلق، وأطياف الاضطراب، لأنها صلة روحية وفعلية من العبد وربه، فالمسلم يتهيأ لاستقبال الصلاة وهو طاهر نظيف، طاهر الثوب والبدن والمكان، والوضوء من الوضاءة وهى الحسن والنظافة، وهو شطر الإيمان وبعد هذا الاستعداد النفسي والبدني والذهني يقف المسلم خاشعًا في سكينة وهدوء وتأمل في مصلاه، مستحضرًا جلال ربه، وجماله وكماله وعفوه وحلمه وكرمه وصفحه، وكل ما في النفس من قلق وفزع ووساوس يُنزع حين يعلن المسلم دخوله في أنوار الصلاة، ويقول: الله أكبر ويفتتح... صلاته بالحمد... والثناء على الله، والإقرار بالعبودية والاستعانة بالله وطلب الهداية والاهتداء إلى الصراط المستقيم، صراط الذين

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٣) واللفظ له، ومسلم (٤٦٧/١٨٣).

(٢) أخرجه مسلم (٤٦٧/١٨٥).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (س ق م).

أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

في هذا الجو الإيماني المفعم بالسكون والجلال، والخشوع والجمال... يرشدنا المصطفى ﷺ إلى ضرورة إشاعة الطمأنينة في نفوس المصلين، وإلى تعظيم حرماتهم، ومراعاة أحوالهم، حتى لا يتسرب الضعف البشري إلى النفس المؤمنة، وحتى لا يجد الضعيف في الصلاة عبئًا يضاعف من معاناته، فيزهد شيئًا فشيئًا في صلاته، ويحرم من دعواته ومناجاته، وحتى لا يفر السقيم من بين صفوف الجماعة حين يعجز عن إتمام الصلاة، فيحرم الثواب، ويحيط به الفزع خوفًا من العقاب، وربما يغلبه اليأس ، ويقهره الشيطان، فيهجر الصلاة، فيبوء بالخسران والخذلان، ويتلقفه أعوان الشيطان، فيرد موارد التهلكة، ولا يستطيع العودة إلى حدائق الصلاة، وواحات النجاة.

وكذلك الكبير ... وهو الطاعن في السن.. الذي بلغ من العمر أرذله، وكاد أن لا يعلم من بعد علم شيئًا إنه في حاجة إلى رحمة ربه وعونه، ولكن ربما يقعده التطويل في الصلاة عن ذلك، وربما يحرم من صلاة الجماعة في المسجد لأنه يعاني من أمراض الشيخوخة، وما أدراك ماهيه؟ إنها تراكمات السنين، وأعباء الشقاء المزمن والصراع المرير في ميدان الحياة، ومتاهات العمر الضنين.

والمصطفى ﷺ وهو الرحمة الهداة، وهو كما قال تعالى: ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾[(١)]، يرشد أئمة المسلمين وعلماءهم إلى هذه القضية التي تعظم حرمات المسلمين وترغبهم في العبادة، والصلاة عماد الدين وهى رأس الأمر وعموده. ومع ذلك فهو يأمر كلّ من يؤم المصلين بالتخفيف، ولذلك تأتي صياغة الحديث اللغوية في جملتين تمثلان موقفين متقابلين ومتماثلين: فالتقابل بين موقفين متغايرين: وهما التطويل والتخفيف، والتماثل هو صلاة الجماعة، في الموقفين، ولذلك اتحدت أداة الشرط وهي: "إذا" في الجملتين: لأن الصلاة واجبة. وإذًا تدل على التحقق فجواب الشرط وهو التخفيف في الموقف الأول لابد أن يتحقق: لتحقق فعل الشرط ووجوده وجوبًا وهو الصلاة، والجملة

---

(١) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

الثانية أداة الشرط فيها "إذا" لأن فعل الشرط تحقق وجوبًا وهو الصلاة، وكذلك جواب الشرط وهو التطويل متحقق اختيارًا لذلك قال "فليطول ما شاء" لأنه يصلي وحده، وقال: "لنفسه"، فتأمل كيف دلت الصياغة اللغوية على المقاصد والأحكام الشرعية المتعلقة بالصلاة، وفي الحديث إيجاز بالحذف في قوله: "صلى ... للناس"، أي صلى إمامًا للناس، وحرف اللام أغنى بدلالته عن اللفظ المحذوف، وقوله: "أحدكم" ولم يقل الإمام، حتى لا يظن أن الإمامة تخص قومًا دون آخرين، فكل من اكتملت لديه شروط الإمامة، فهو صالح لها، وجملة، "فإن فيهم..." تعليلية: لبيان أصناف الناس الذين من أجلهم أمر بالتخفيف، فالدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه. والله الموفق.

فقه الحديث

لا شك أن على الإمام في الصلاة مدارًا كبيرًا، ولذا اهتم الفقهاء بشروط ومراتب الأئمة ومن تلك الشروط: أن يكون فقيهًا حتى يستطيع التعرف على أحوال الناس فيخفف عنهم متى وجد داع متأسيًا في ذلك بالرسول الكريم عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم حيث كانت صلاته قصدًا دون تطويل أو تقصير، ولذا ينبغي للإمام أن يتوسط في صلاته حين يؤم الناس وإن أراد التطويل في الصلاة فليطول صلاته هو حين يصلي منفردًا.

وقد اتفق الفقهاء[1] على أنه يسن لمن يصلي بالناس أن يخفف في القراءة والأذكار مع فعل الأبعاض والهيئات ويأتي بأدنى الكمال، فيأتي بالواجبات والسنن ولا يقتصر

---

(١) انظر في ذلك: حاشية رد المحتار ٥٦٤/١، وطلبة الطلبة للنسفي ص ١١، مكتبة المثنى ببغداد، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين بن الحسن بن عبدالرحمن ٣٤٦/٢، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٢٤/٤ وما بعدها، وإحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ابن دقيق العيد ٢٢٨/١ وما بعدها، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٢١١/١، والأم ١٨/١، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٣٣٣/١، والفتاوى الكبرى ١٢٠/٢، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٤٦٧/١، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، الشوكاني ١٦٣/٣، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢١٣/٦.

على الأقل ولا يستوي في الأكمل، ما لم يكن المصلون خلفه مؤثرين للتطويل فلا يكره حينئذ لأن المنع لأجلهم وقد رضوا، ويكره أن يسرع الإمام في الصلاة بحيث يمنع المأموم من فعل ما يسن له كتثليث التسبيح في الركوع والسجود، وغير ذلك.

المضامين الدعوية

أولاً: من صفات الداعية: مراعاة أحوال المدعوين.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: اليسر في العبادة.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الترغيب.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل الشفقة والرحمة بالناس.

أولاً- من صفات الداعية: مراعاة أحوال المدعوين:

ويتجلى ذلك في اهتمام النبي ﷺ بمراعاة أحوال المأمومين فقال: (إذا صلى أحدكم بالناس فليخفف فإن فيهم الضعيف، والسقيم، والكبير).

وقد أمر ﷺ عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه بتخفيف الصلاة مراعاة للمأمومين فقال له: ((أُمَّ قَوْمَكَ، فَمَنْ أَمَّ قَوْمًا فَلْيُخَفِّفْ، فَإِنَّ فِيهِمُ الْكَبِيرَ، وَإِنَّ فِيهِمُ الْمَرِيضَ وَإِنَّ فِيهِمُ الضَّعِيفَ. وَإِنَّ فِيهِمْ ذَا الْحَاجَةِ، وَإِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ وَحْدَهُ، فَلْيُصَلِّ كَيْفَ شَاءَ))[1].

فينبغي على الداعية مراعاة أحوال المدعوين في شتى الأمور حتى يقبل الناس على استماعه ولا ينفرون منه.

ومن مظان قبول الدعوة وتأثيرها في قلوب الناس مراعاة الأوقات، والمقصود بها تخير الوقت الملائم للدعوة من حيث فراغ المدعوين واستعدادهم للتلقي، وكذلك المراعاة لأوقات المواعظ والدروس، ومناسبة طول وقتها لأحوال المدعوين، ويندرج تحت ذلك مراعاة استعداد المدعو وبلوغه المرحلة التي يكون فيها الوقت مناسبًا لتفاعله واستجابته.

---

(١) أخرجه مسلم ٤٦٨.

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: (كان النبيُّ ﷺ يَتَخَوَّلُنا بالمَوْعِظَةِ في الأيام، كَرَاهةَ السَّآمةِ علينا)[(١)].

ومعنى: يتخولنا: بالخاء، أي: يتعهدنا، والمعنى: كان يراعي الأوقات في تذكيرنا، ولا يفعل ذلك كل يوم لئلا نَمَلّ، ومعنى: كراهة السآمة، أي: مخافة السآمة والمشقة الطارئة علينا.

قال ابن حجر: (يستفاد من الحديث استحباب ترك المداومة في الجد والعمل الصالح خشية الملال، وإن كانت المواظبة مطلوبة، ولكنها على قسمين: إما كل يوم مع عدم التكليف، وإما يوم بعد يوم، فيكون يوم الترك لأجل الراحة، ليقبل على الثاني بنشاط ورغبة، وإما في يوم الجمعة.

ولا شك أن هذا يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص، والضابط في ذلك الحاجة مع مراعاة وجود النشاط)[(٢)].

إن أمر المراعاة مهم جدًا في مجال الدعوة، وأنه متشعب حسب أحوال الناس والزمان والمكان، والحقيقة أن المراعاة من أنواع التدرج، لأن المراعاة كثيرًا ما تقتضي ترك أمر لعدم ملاءمته، إما للطبع، أو الفهم، أو الحال، أو غير ذلك، والاستعاضة عنه بغيره حتى يكون مُمهدًا لعرض الأمر المتروك فيأتي في وقته المناسب[(٣)].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: اليسر في العبادة:

من موضوعات الدعوة التي تستنبط من هذا الحديث يسر العبادة. قال العيني: (قال ابن بطال: وإنما غضب رسول الله ﷺ لأنه كره التطويل في الصلاة من أجل أن فيهم المريض ونحوه فأراد الرفق والتيسير بأمته، ولم يكن نهيه ﷺ من التطويل لحرمته؛ لأنه ﷺ كان يصلي في المسجد ويقرأ بالسور الطوال كالأعراف، والحاصل أن

---

(١) أخرجه البخاري ٦٨، ومسلم ٢٨٢١.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٩٩/١.

(٣) الدعوة إلى المضامين الحميدة في الحج، د. محمد بن إبراهيم بن سليمان الرومي، بحث ضمن بحوث مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد: ٥٥، رجب ١٤٢٧هـ ٥٧٠/٢ - ٥٧١.

التخفيف أو التطويل أمر نسبي يختلف باختلاف الأوقات والأحوال في الإمام والمأمومين)[١].

وقد كان ﷺ يعلم حال من صلى خلفه إما بالوحي، وإما برؤيته له، فقد ثبت أنه ﷺ كان يرى في الصلاة من خلفه كما يرى من أمامه. وقد كان ﷺ يدخل في الصلاة يريد إطالتها فيسمع بكاء الصبي فيتجوز فيها.

أما غير النبي ﷺ فإنه مأمور بالتخفيف إذا أمَّ غيره، إلا أن يحصل له علم بحال من خلفه كمن صلى بجماعة محصورين ليس فيهم من يكره الإطالة فله ذلك[٢].

فلم يكلف الله عباده إلا المستطاع، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[٣]، فأمره ﷺ بتخفيف الصلاة مراعاة لأحوال المأمومين دليل على يسر العبادة في الإسلام فالله عز وجل لا يريد أن يشق على عباده ويعذبهم، قال تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾[٤]، بل جعل الله عبادته ميسرة ولم يجعل فيها مشقة وعسرا، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[٥]، فينبغي على الداعية إلى الله أن يبين للمدعوين أن الدين كله يسر، وليس فيه كلفة فوق الطاقة والوسع، بل هو مناسب لحال كل مكلف، سواء أكان صحيحًا أم سقيمًا، قويًا أم ضعيفًا.

ثالثًا- من أساليب الدعوة: الترغيب:

إن من أساليب الدعوة التي تظهر في هذا الحديث أسلوب الترغيب وهذا في قوله ﷺ "إذا صلى أحدكم بالناس فليخفف" والترغيب في تخفيف الصلاة والدعوة يجعل المصلين أو المدعوين يقبلون على العمل، علمًا منهم أن العمل لن يكون فيه مشقة

---

(١) انظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، العيني ٢/١٠٥.

(٢) نصوص دعوية من أحاديث خير البرية، د. حيدر أحمد الصافح، ص ١٥٢.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٨٦.

(٤) سورة النساء، آية: ١٤٧.

(٥) سورة الحج، آية: ٧٨.

عليهم، فعلى الداعية إلى الله أن يراعي التيسير والتخفيف حتى يستقطب المدعوين، ويكون مراعيًا لأحوالهم وأعذارهم، ويحث المدعوين على التخفيف على أنفسهم والآخرين ترغيبًا لهم في الدعوة.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل الشفقة والرحمة للناس:

من موضوعات الدعوة التي تستنبط من عموم هذا الحديث فضل الشفقة والرحمة بالناس ويظهر من طلبه ﷺ الإمام بالتخفيف عن الناس لأن فيهم الضعيف والسقيم والكبير.

والشفقة والرحمة بالناس لها فضل كبير في إيصال الدعوة واتباع الداعية فرحمة الرسول بأمته وشفقته عليهم جعل الناس يتبعونه ويلتفون حوله، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[2].

قال السعدي في تفسير قوله تعالى "بالمؤمنين رءوف رحيم": (أي شديد الرأفة والرحمة بهم، أرحم من والديهم، ولهذا كان حقه مقدمًا على سائر حقوق الخلق، وواجب على الأمة الإيمان به، وتعظيمه وتوقيره وتعزيزه)[3].

فينبغي على الداعية أن يحرص على الرحمة والشفقة بالمدعوين حتى يحبونه ويقبلون دعوته، فالرحمة كلمة محببة للنفس فيها من التأثير النفسي، الشيء الكثير يتوق الإنسان إليها ويحنو عليها ويرغب فيها، لأنها تشبع فطرته وتواسي أمله وتوفر له حاجاته، بدونها يتجرد الإنسان من إنسانيته ويوصف بالهمجية والوحشية؛ لأنه لا رحمة

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

(٢) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٣١٣.

لديه وقد وردت أحاديث عديدة تضمنت هذه الكلمة الحبيبة على النفوس "الرحمة" واشتملت عليها فيما صحّ عن رسول الله ﷺ نورد بعضها:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل: يَا رَسُولَ اللّهِ ادْعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ. قَالَ ((إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا. وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً))[1].

وعنه رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ الصادقَ المصدَّقَ أبا القاسم يقول: ((لا تُنْزَعُ الرَّحْمَةُ إلا مِنْ شَقِيَ))[2][3].

---

(١) أخرجه مسلم ٢٥٩٩.

(٢) أخرجه أبو داود ٤٩٤٢، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤١٣٣).

(٣) قواعد الدعوة الإسلامية، د. حمدان الهجاري، ص ٢٩٢.

الحديث رقم (٢٢٩)

٢٢٩- وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: إِنْ كَانَ رسولُ اللَّه ﷺ لَيدعُ العَمَلَ، وهُوَ يحِبُّ أَنَ يَعْملَ بِهِ، خَشْيةَ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ النَّاسُ فيُفْرَضَ عَلَيْهِمْ، متفقٌ عليه(١).

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

الشرح الأدبي

حين نتأمل هذا الحديث الشريف، ونتمعن في كلماته نجد أنه من كلام أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا إخبارًا عن فعل رسول الله ﷺ وعن خصاله الجميلة، وشِيَمِهِ الكريمة، فالحديث من السنة العملية التي تعطي القدوة الفعلية، وقد كان رسول الله ﷺ، كما يقول الماوردي: وهو يذكر خصائص الرسول ﷺ وفضائله وشرف أخلاقه وشمائله المؤيدة لنبوته، والمبرهنة على عموم رسالته، ويرى أن الكمال المعتبر في البشر يكون من أربعة أوجه: كمال الخلْق، وكمال الخلُق، وفضائل الأقوال وفضائل الأعمال، وقد أفاض في شرح هذه الأوجه الأربعة من خلال بسط القول في الفضائل التي اختص الله بها محمدًا ﷺ، وفي سياق الإبانة عن معالم الوجه الرابع وهو فضائل أفعاله، يقول: إنه جمع بين رغبة من استمال، ورهبة من استطاع حتى اجتمع الفريقان على نصرته، وقاموا بحقوق دعوته رغبة في عاجل وآجل، ورهبًا من زائل ونازل، لاختلاف الشيم والطباع في الانقياد الذي لا ينتظم بأحدهما ولا يستديم إلا بهما، فلذلك صار الدين بهما مستقرًا، والصلاح بهما مستمرا.

وإنه عَدَل فيما شرعه من الدين عن الغلو والتقصير إلى التوسط، وخير الأمور أوساطها وليس لما جاوز العدل حظ من رشد ولا نصيبٌ من سداد.

وأحْكم ما شرع من نص أو تنبيه، وعمَّ بما أمر من حاضر وبعيد، حتى صار لما تحمله من الشرع مؤديًا، ولما تقلده من حقوق الأمة موفيًا، لئلا يكون في حقوق الله

---

(١) أخرجه البخاري (١١٢٨) واللفظ له، ومسلم (٧١٨/٧٧).

زلل، وذلك في برهة من زمانه، لم يستوف تطاول الاستيعاب حتى أوجز، وأنجز وما ذاك إلا بديع معجز.

وفي ضوء هذه الخصال، وتلك الخلال التي اتسم بها النبي ﷺ في أفعاله وأقواله، نقرأ هذا الحديث الشريف، ونتأمل صياغته، ودلالة هذه الصياغة على مراميه ومقاصده، فالحديث يبدأ بـ"أن" التوكيدية المخففة من الثقيلة، وضمير الشأن محذوف: والتقدير: إنه: أي إن شأن رسول الله ﷺ أن يترك العمل: وهو يحب أن يعمل به، والترك هنا ليس تركًا للعمل الواجب، ولكنه ترك الزيادة في أداء السنن والطاعات وهو مشتاق إلى أدائها، وفي سيرته الكثير من هذه المواقف ومنها ترك الخروج إلى القوم لصلاة الليل جماعة، فعن عروه أن عائشة رضي الله عنها أخبرته أن «رسولَ الله ﷺ خَرَجَ ليلةً مِن جَوفِ الليلِ فصلَّى في المسجدِ، وصلَّى رجال بصلاتهِ، فأَصْبَحَ الناسُ فتَحدَّثوا، فاجتمع أكثرُ منهم، فصلَّى فصلّوا معَهُ، فأَصْبَحَ الناسُ فتَحدَّثوا فكثُرَ أهلُ المسجدِ منَ الليلةِ الثالثةِ، فخرَجَ رسولُ الله ﷺ فصُلِّيَ بصلاتهِ، فلمّا كانتِ الليلةُ الرابعةُ عَجَزَ المسجدُ عن أهلهِ حتى خَرَجَ لصلاةِ الصبح، فلمّا قضَىَ الفجر أقبلَ على الناس فتشهدَ ثمَّ قال: أما بعدُ فإنهُ لم يَخْفَ عليَّ مَكانُكم. ولكِنِّي خَشِيتُ أن تُفرَضَ عليكم فتعجزوا عنها»[1]، واللام في قول عائشة رضي الله عنها "ليدع" هي الفارقة، كما يقول النحاة: بين إن المخففة من الثقيلة للتوكيد، وإن النافية، ولو لم تجيء اللام: لصار المعنى إلى الضد، وهو عدم ترك العمل، لأن إن في غياب اللام تكون بمعنى ما: النافية: ويكون التقدير: ما كان رسول الله ﷺ يدع العمل، وذلك منافٍ للمراد في هذا الحديث: فتأمل أثر الصياغة في تحديد المعنى، وكم الذي يحدثه حذف حرف أو إثبات حرف من توجيه للمعنى، وتحديد للمراد، وذلك من أسرار جمال العربية وعمقها ولا عجب فهي لغة القرآن الكريم فقد أنزل بلسان عربي مبين.

وتأمل الموقع الإعرابي لجملة "وهو يحب أن يعمل به" إنها في موقع الحال: أي إن حال

---

(١) أخرجه البخاري ٩٢٤.

رسول الله ﷺ هو حال المحب لهذا العمل المتعلق به الراغب فيه: ولكنه من كمال شفقته على أمته بترك ذلك خشية أن يعمل به الناس اقتداء به فيفرض عليهم.

وهذا هو المنهج المعتدل المتوازن الذي ينأى عن الغلو والتقصير، ويتجه إلى التوسط والاعتدال، وتبقى بعد ذلك للمصطفى خصائصه وشمائله، وفضائله التي اختصه الله بها من كمال خلقته، وجمال صورته، وبما أكرمه تعالى من الأخلاق الزكية، والأعمال التعبدية.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى أنه متى واظب النبي ﷺ على فعل شيء وأمر به كان ذلك دليلاً على وجوبه وعدم جواز تركه، وإن فعله أحيانًا وتركه أحيانًا أخرى كان ذلك دليلاً على أنه سنة لا واجب.

وقد ذكر الفقهاء(١) أنه متى ورد عن النبي ﷺ ما يفيد المداومة على فعل والأمر به ولم يدل دليل على تركه له كان ذلك الفعل واجبًا ولا يجوز تركه ما لم يظهر نسخه أو غير ذلك، وإن نقل عنه ﷺ فعل شيء وداوم عليه ولم يدل دليل على وجوبه، أو نقل عنه فعل شيء مع عدم المداومة عليه كان ذلك دليلاً على جواز الترك وأن الفعل ليس بواجب، ومن ذلك صلاة الوتر، وصلاة الضحى، وصلاة التراويح، والجلوس في المصلى بعد الفراغ من الصلاة، وغيرها.

---

(١) انظر في ذلك: أحكام القرآن، الجصاص ٥٥٩/٣، والمبسوط، السرخسي ١٥٩/١، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ٢٧٢/١، والمدخل لابن الحاج ٢٩٠/٢، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٧٠/٢، وفتاوى السبكي ١٥٨/١، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين بن الحسن بن عبدالرحمن ٣٦٨/٢، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٤٣٧/١، وشرح الكوكب المنير لأبي البقاء الفتوحي ص ٤٣.

المضامين الدعوية

أولاً: من صفات النبي ﷺ: الرحمة والشفقة بأمته.

ثانيًا: من واجبات الداعية: بيان سبب ترك ما اعتاده من عمل.

ثالثًا: من صفات الداعية: الإشفاق على المدعوين.

أولاً- من صفات النبي ﷺ: الرحمة والشفقة بأمته:

لقد كان النبي ﷺ رحيمًا شفيقًا بأمته وكان حريصًا على ذلك ويظهر من هذا الحديث رحمة وشفقة النبي ﷺ بأمته حيث إنه كان يدع العمل وهو يحب أن يعمل به خشية أن يعمل به الناس فيفرض عليهم.

فرسول الله ﷺ كان أكثر الأنبياء شفقة ورحمة بأمته، وسيرته العطرة مليئة بالمواقف والأحداث الدالة على ذلك، وهذا ما وصفه به ربه جلّ وعلا، فقال سبحانه تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[٢].

قال ابن زيد: "يعني رحمة للمؤمنين خاصة فهو رحمة لهم".

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: "هو عام في حق من آمن ومن لم يؤمن فمن آمن فهو رحمة له في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن فهو رحمة له في الدنيا بتأخير العذاب ورفع المسخ والخسف والاستئصال عنهم"[٣].

وقال ﷺ: ((يا أيُّها الناسُ إنما أنَا رحمةٌ مهداةٌ))[٤].

وقال ﷺ: ((مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَوْقَدَ نَارًا. فَجَعَلَ الْجَنَادِبُ وَالْفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهَا. وَهُوَ يَذُبُّهُنَّ عَنْهَا. وَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ. وَأَنْتُمْ تَفَلَّتُونَ مِنْ يَدِي))[٥].

---

(١) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

(٢) سورة الأنبياء، آية: ١٠٧.

(٣) معالم التنزيل ٣٥٩/٥.

(٤) أخرجه مسلم ٢٢٨٥.

(٥) أخرجه مسلم ٢٢٨٥.

فرحمة النبي ﷺ وشفقته بأمته ورد فيها الكثير والكثير ولكن يضيق المقام عن ذكره وسوف يظل ﷺ للمسلمين عمومًا وللدعاة خصوصًا المثل الأعلى والأسوة الحسنة، ما داموا يرجون الله واليوم الآخر(١).

ثانيًا- من واجبات الداعية: بيان سبب ترك ما اعتاده من عمل:

إن من واجبات الداعية التي تظهر من هذا الحديث أن يبين للمدعوين سبب تركه ما اعتاد فعله ويظهر ذلك في قوله ﷺ: (خشية أن يعمل به الناس فيفرض عليكم) إذ بين سبب تركه ﷺ ما اعتاد من عمل وهذا كان شأنه ﷺ إذا ترك فعل شيء اعتاده.

فينبغي على الداعية أن يقتدي برسول الله ﷺ في ذلك فإذا كان اعتاد عمل ما وعرفه الناس عنه ثم تركه لعذر ما، فيبين للناس سبب تركه.

ثالثًا- من صفات الداعية الإشفاق على المدعوين:

من صفات الداعية التي تظهر من هذا الحديث الإشفاق على المدعوين، ويظهر ذلك من تركه ﷺ العمل شفقة بأمته، والشفقة في الداعية من الصفات اللازمة لنجاح دعوته وذلك لأنه يقتدي برسول الله ﷺ حيث كان ﷺ يتحرى الرحمة والشفقة في كافة الأعمال وسائر الأوقات.

وقد وردت في حرص النبي ﷺ على هداية الناس وشفقته عليهم آيات عديدة منها: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(٢)، وقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾(٣)، وقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾(٤).

---

(١) انظر: أصناف المدعوين وكيفية دعوتهم، د. حمود بن أحمد الرحيلي ص ٨.

(٢) سورة التوبة، آية: ٢٨.

(٣) سورة يوسف آية: ١٠٣.

(٤) سورة الكهف، آية: ٦.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: (ولما كان النبي ﷺ حريصًا على هداية الخلق، ساعيًا في ذلك أعظم السعي، فكان ﷺ يفرح ويسر بهداية المتدين، ويحزن ويأسف على المكذبين الضالين، شفقة منه ﷺ عليهم ورحمة بهم أرشده الله أن لا يشغل نفسه بالأسف على هؤلاء الذين لا يؤمنون بالقرآن)(١).

(إن الداعية المسلم لا يكون إلا رحيمًا، لأنه يدعو إلى الإسلام دين الرحمة، وهو بذلك يظهر أعظم مَعْلَم من مَعَالِم هذا الدين الذي أمر بالرحمة وحثّ عليها، ورغّب فيها وجعل الثواب العظيم لمن اتصف بها وتمثلها واقعًا معاشًا في حياته، فها هو قدوته ﷺ يدعو لقومه بالرغم مما لقيه منهم من أذى وصل إلى التخطيط لقتله ﷺ إلا أن صاحب الخلق العظيم المبعوث رحمة للعالمين كان يقابل ذلك بقول: ((اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمُون))(٢)، وهذا لا يكون إلا من صاحب قلب رحيم، والداعية المسلم يجب أن يكون كذلك تأسيًا برسول الهدى فلا يتعجل النتائج، ولا يغضب من سوء المعاملة والصدود من المدعوين لأنه مهما لقي من مصاعب ومتاعب ومهما واجهته من عقبات لن يبلغ معشار ما لقيه الرسول الكريم ﷺ من جحافل الكفر والعناد في مكة ومن أعداء الحق والخير في مسار الدعوة في مهاجره ﷺ خلال العشر سنوات التي عاشها في المدينة المنورة؛ لذا فإن ممارسة الداعي للدعوة وتذكره ما وقع لإمامه ﷺ يخفف عليه ما يحل به ويقع عليه من أذى، وتحلى الداعية بهذه الصفة المباركة يورثه العفو والصفح والشفقة على المدعوين)(٣).

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٤٢٠.

(٢) أخرجه البخاري ٣٤٧٧، ومسلم ١٧٩٢.

(٣) قواعد الدعوة الإسلامية، د. حمدان الهجاري، ص ٢٩٤.

الحديث رقم (٢٣٠)

٢٣٠- وعنْهَا رضي الله عنها، قالَتْ: نَهَاهُمْ النَّبِيُّ ﷺ عَن الْوِصال رَحْمَةً لهُمْ، فقالوا: إنَّكَ تُواصلُ؟ قال: «إنِّي لَسْتُ كَهَيئَتِكُمْ إنِّي أَبِيتُ يُطْعِمُني رَبِّي ويَسْقِيني» متفقٌ عليه[1].

مَعناهُ: يجعَلُ فِي قُوَّةَ مَنْ أَكَلَ وَشَرِبَ.

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

الشرح الأدبي

إن للمصطفى ﷺ مكانة خاصة عند ربه، وقد أيده ربه بالمعجزات الحسية والمعنوية، ووهبه من الصفات والملكات ما لم يهبه لأحد من خلقه، وقد صور أحد الشعراء، وهو يوسف بن محمد الصرصري بعض هذه المعجزات، وساقها مع الموازنة والمقابلة بينها وبين ما حباه الله للأنبياء السابقين فقال[2]:

محمد المبعوث للناس رحمة ... يشيد ما أوهى الضلال ويصلحُ

لئن سبحت صم الجبال مجيبة ... داود أو لان الحديد المصفح

فإن الصخور الصمَّ لانت بكفه ... وإن الحصى في كفه ليسبح

وإن كان موسى أنبع الماء من ... فمن كفه قد أصبح الماء يطفَحُ

وإن كانت الريح الرخاء مطيعة ... سليمان لا تألو تروح وتسرح

فإن الصبا كانت لنصر نبينا ... برعب على شهر به الخصم يَكلَحُ

وإن كان إبراهيم أُعطِيَ خلة ... وموسى بتكليم على الطور يمنح

فهذا حبيب بل خليل مكلّم ... وخصص بالرؤيا وبالحق أشرح

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٦٧)، ومسلم (١١٠٥/٦١) واللفظ له.

(٢) البداية والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢٩٩/٦.

وخصص بالحوض العظيم وباللوا ويشفع للعاصين والنار تلفح
وبالمقعد الأعلى المقرب ناله عطاء ببشراه أقرُّ وأفرحُ

وفي ظل هذه الهبات والمنح الإلهية لخاتم الأنبياء وسيد المرسلين، نفهم ما وراء قول رسول الله ﷺ لأصحابه: "إني لست كهيئتكم: إني يطعمني وبي يسقيني".

وتلك من خصوصيات النبي ﷺ: ويبدأ الحديث بجمله من كلام السيدة عائشة رضي الله عنها وهي راوية الحديث: حيث تقول: نهاهم النبي ﷺ عن الوصال رحمة لهم، ولنتساءل، مرجع الضمير في قولها: "نهاهم"، وأين مكانه في الحديث ؟ إن مرجع الضمير يفهم من السياق: فالضمير يرجع إلى الصحابة رضي الله عنهم، وهم معلومون ومعروفون، ويرجع كذلك إلى كل مسلم يشق على نفسه، ويحاول الوصال في الصوم: فلا يتناول طعام السحور، وأحيانًا يمتنع عن طعام الإفطار، وفي ذلك إلقاء بالنفس إلى التهلكة، ففي الفعل "نهاهم": إيجاز بالحذف: أي نهى الصحابة رضي الله عنهم، وكأن ضمير الغائب في صيغة الجمع يعلن عن وجود الصحابة رضي الله عنهم بحيث لا ينصرف الضمير إلى سواهم، والوصال: هو أن لا يتناول الصائم مفطرًا بين الصومين، وقيل استدامة أحوال الصائم، وكلمة "رحمة" تعليل للنهى عن الوصال، وهى مفعول لأجله.

والحوار بين رسول الله ﷺ والصحابة رضي الله عنهم حول هذه القضية يفسر حرص الصحابة على إتقان العبادة، والاقتداء برسول الله ﷺ في ذلك، وينشر خوف رسول الله ﷺ على صحابته من الوصال منعًا للأذى والضرر، وللعبارة "إنك تواصل" منطوق ومفهوم، منطوقها واضح، ولكنه ليس المقصود، وإنما هم يريدون أن يقولوا إنك تواصل، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، ونحن أولى بذلك لأننا لسنا معصومين: وهذا الصنيع يخفف عنا أوزارنا، وكما جاء كلام الصحابة رضي الله عنهم في صيغة التوكيد في مخاطبة رسول الله ﷺ. جاء كلام الرسول ﷺ مُصدرًا بالتوكيد "إني لست كهيئتكم" أي لست على صفتكم، ثم يتكرر التوكيد وهو يوضح أن ربه يطعمه ويسقيه ﷺ.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم نوع من أنواع صوم التطوع، وهو صوم الوصال، ومعناه: ألا يفطر بعد الغروب أصلاً حتى يتصل صوم الغد بالأمس فلا يفطر بين يومين، وقال الحنفية هو أن يصوم السنة ولا يفطر في الأيام المنهية.

وقد اتفق الفقهاء[(١)] على أنه لا يجوز الوصال في الصوم للنهي عنه، وإن اختلفوا في قوة هذا النهي فجمهورهم من الحنفية[(٢)] والمالكية[(٣)] والشافعية في وجه[(٤)] والحنابلة[(٥)] كرهه، ولا يكره الوصال إلى السحر عند الحنابلة، وقال الشافعية في المذهب[(٦)] الوصال في الصوم مكروه كراهة تحريم.

---

(١) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٧٩/٢، وشرح فتح القدير، ابن الهمام الحنفي ٣٥٠/٢، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ٣٣٢/١، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ٦٠/٢، ومواهب الجليل، الحطاب ٤٠٠/٣، وشرح منح الجليل للشيخ عليش ٢٥٠/٣، وأحكام القرآن، ابن العربي ١٣٢/١، والأم للشافعي ١٥٥/٢، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٣٩٩/٦، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٤١٩/١، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ٣٥٠/٣، والفروع، ابن مفلح ١١٦/٣، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٥٥/٣.

(٢) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٧٩/٢، وشرح فتح القدير، ابن الهمام الحنفي ٣٥٠/٢، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ٣٣٢/١.

(٣) المنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ٦٠/٢، ومواهب الجليل، الحطاب ٤٠٠/٣، وشرح منح الجليل للشيخ عليش ٢٥٠/٣.

(٤) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ابن دقيق العيد ٢٨/٢، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٣٩٩/٦، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٤١٩/١.

(٥) الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ٣٥٠/٣، والفروع، ابن مفلح ١١٦/٣، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٥٥/٣.

(٦) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ابن دقيق العيد ٣٥٠/٣، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٣٩٩/٦، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٤١٩/١.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: النهي عن الوصال في الصيام والحكمة منه.

ثانيًا: من خصائص النبي ﷺ: الوصال في الصيام.

ثالثًا: من صفات الداعية: رفقه بالمدعوين وخوفه عليهم.

رابعًا: من حقوق المدعو: السؤال عن حكمة النهي.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: التخفيف والشفقة على المدعوين.

أولاً- من موضوعات الدعوة: النهي عن الوصال في الصيام والحكمة منه:

إن من موضوعات الدعوة التي تبرز من هذا الحديث النهي عن الوصال في الصوم ويظهر ذلك من قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها "نهاهم النبي ﷺ عن الوصال".

لقد بعث الله تبارك وتعالى رسوله ﷺ وسكب في قلبه العلم والحلم وفي خلقه من الإيناس والبر، وفي طبعه من السهولة والرفق، وفي يده السخاوة والندى ما جعله أزكى عباد الله رحمة وأوسعهم عاطفة وأرحبهم صدرًا[1]، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[2].

ومن رحمته ﷺ: نهيه أمته عن الوصال لما في ذلك من المشقة، وحصول المفسدة المترتبة على الوصال، والملل من العبادة والتعرض للتقصير في بعض وظائف الدين من إتمام الصلاة بخشوعها وأذكارها وآدابها، وملازمة الأذكار وسائر الوظائف المشروعة في نهاره وليله[3].

ثانيًا- من خصائص النبي ﷺ الوصال في الصيام:

اختص الله تبارك وتعالى عبده ورسوله محمدًا ﷺ دون غيره من الأنبياء[4]

---

(١) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن ملوح ٥٠٧/١.

(٢) سورة الأنبياء، آية: ١٠٧.

(٣) انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦٩٠، ونضرة النعيم ٥٠٧/١.

(٤) غاية السول في خصائص الرسول ﷺ، أبو حفص عمر بن علي الأنصاري الشهير بابن الملقن، تحقيق: عبدالله بحر الدين عبدالله ص ١٥٦.

بخصائص كثيرة تشريفًا له وتكريمًا -مما يدل على جليل رتبته وشرف منزلته عند ربه- منها: الوصال، والوصال في الصوم أبيح له ﷺ دون غيره من الأنبياء قال ﷺ لما قيل له إنك تواصل: "إني لست كهيئتكم، إني أبيت يطعني ربي ويسقيني".

قال القاضي عياض: (قال الخطابي: الوصال من خصائص ما أبيح للنبي ﷺ وهو محظور على أمته، وقوله: "إني أبيت يطعمني ربي ويسقيي" دليل على اختصاص النبي ﷺ بالوصال، ومعنى قوله: "يطعمني ربي ويسقيني" فيها وجوه: منها: أنه على ظاهره كرامة له واختصاصًا.

الثاني: أنه كناية عن القوة التي جعلها الله له، وإن لم يطعم ويسق، حتى يكون كمن قام به ذلك.

الثالث: أنه يخلق الله فيه من الشبع والري ما يغنيه عن الطعام والشراب)[1].

وعن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: "لا تواصلوا". قالوا إنك تواصل. قال: ((لستُ كأحدٍ منكم، إني أُطعَمُ وأُسقى))[2].

قال ابن حجر: (واسْتُدِلَّ بمجموع هذه الأحاديث على أن الوصال من خصائصه ﷺ، وعلى أن غيره ممنوع منه إلا ما وقع فيه الترخيص من الإذن فيه إلى السحر)[3].

ثالثًا- من صفات الداعية: رفقه بالمدعوين وخوفه عليهم:

إن من صفات الداعية التي تستنبط من هذا الحديث رفقه بالمدعوين، وخوفه عليهم ويظهر ذلك من سبب نهيه ﷺ أمته عن الوصال إنما كان رفقًا بهم وخوفًا عليهم من المشقة المترتبة من الوصال.

والداعية لابد أن يكون رفيقًا فيما يدعو إليه حريصًا على المدعوين، كأنه يحرص على نفسه، وقد أمر رسول الله ﷺ بالرفق وبين أن الله يحبه فقال: ((إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ))[4].

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٣٨/٤ - ٣٩.

(٢) أخرجه البخاري ١٩٦١، ومسلم ١١٠٢.

(٣) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٤٠/٤.

(٤) أخرجه البخاري ٦٠٢٤.

وقال أيضًا ﷺ: ((إِنَّ الرِّفْقَ لاَ يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلاَّ زَانَهُ، وَلاَ يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ شَانَهُ))(١).

فينبغي على الداعية أن يتحلى بالرفق في دعوته، وأن يحرص على مصلحة المدعوين حتى يحبونه ويقبلون على دعوته.

رابعًا- من حقوق المدعو: السؤال عن حكمة النهي:

يظهر ذلك من خلال ما ورد في نهيه ﷺ لهم، فقالوا إنك تواصل؟ وهذا يتضمن سؤال النبي ﷺ عن حكمة نهيه مع إنه يواصل، والسؤال والاستيضاح من حقوق المدعو التي كفلها له الإسلام وأمره بها قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(٢).

وكان الصحابة رضي الله عنهم يسألون رسول الله ﷺ عن كل ما يعنّ لهم في شؤون الدين، بل في الكثير من شؤون الدنيا، حتى أن بعضهم يسأل عن الشر مخافة أن يقع فيه(٣).

كما في حديث أبي إدريس الخولاني أنه سمع حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما يقول: (كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني)(٤).

فالمدعو له حق السؤال عما يجهل أو عما أشكل عليه فهمه وغيره إذا أراد العلم بالحقيقة.

خامسًا- من موضوعات الدعوة: التخفيف والشفقة على المدعوين:

إن من موضوعات الدعوة المستنبطة من هذا الحديث التخفيف والشفقة على

---

(١) أخرجه مسلم ٢٥٩٤.

(٢) سورة النحل، آية: ٤٣.

(٣) أصناف المدعوين وكيفية دعوتهم، د. حمود بن أحمد الرحيلي، ص ١٨.

(٤) أخرجه مسلم ١٨٤٧.

المدعوين، ويظهر ذلك من نهيه ﷺ عن الوصال مع إنه يواصل تخفيفًا عليهم في العبادة وشفقة عليهم من المشقة. والتخفيف والشفقة من أسس الدين الإسلامي قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[1] أي: مشقة وعسر، بل يسره غاية اليسر، وسهله غاية السهولة[2]. والشفقة على المدعوين من صفات المصطفى ﷺ فقد كان أكثر الأنبياء شفقة على أمته.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾[3] فالتخفيف والشفقة على المدعوين من عوامل نجاح الدعوة الإسلامية وإقبال الناس عليها، واستجابتهم لها. فعلى الداعية أن ينظر إلى المدعو بروح الناصح الشفيق، المتواضع السمح الرحيم به الذي يتمنى له الخير.

---

(١) سورة الحج، من آية: ٧٨.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ، ص ٤٩٦.

(٣) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

الحديث رقم (٢٣١)

٢٣١- وعن أَبي قَتادَةَ الْحارِثِ بنِ رِبْعي ﷺ قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**إِنِّي لأَقُومُ إِلَى الصَّلاةِ، وَأُرِيدُ أَنْ أُطَوِّل فِيها، فَأَسْمعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ، فَأَتَجوَّزَ فِي صلاتِي كَرَاهِيَةَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمِّهِ**» رواه البخاري[١].

ترجمة الراوي:

أبو قتادة الأنصاريّ: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢١٧).

غريب الألفاظ:

فأتجوَّز: أخفف[٢].

أشُقَّ: أُثقل وأُتعب[٣].

الشرح الأدبي

في ظلال هذا الحديث نستروح نسمات الرحمة، ونفيء إلى معانيه النيرات، وتجلياته المشرقات، وحرصه على الأمهات وهم يقومون بأداء الصلوات في جماعة مع أصحابه، وصغارهم موجودون، فيتشبث ذهنهم، ويضعف أجرهم بهؤلاء الأطفال، ولذلك يعطي الرسول ﷺ لكل من يصلي بالناس منهجًا واحدًا وهو التخفيف وعدم الإطالة في الصلاة رحمة بأمهات الأطفال، وشفقة عليهن، فأطفالنا هم قرة العين، وانشراح الصدر، ومنبع الفرح والأمل والإشراق.

ولذلك نجد رسول الله ﷺ: لا يطيل في الصلاة وهو راغب في ذلك، ولكنه حينما يسمع بكاء الطفل يخفف من صلاته كراهية أن يشق على الأم.

وهذا الأفق من آفاق التيسير يقدمه المصطفى ﷺ في إطار لُغَوي، وجمال تعبيري يفصح عن الدلالات والمقاصد المرادة في الحديث الشريف.

---

(١) برقم (٧٠٧).

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢/٢٣٧.

(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٤٩٠.

والحديث يتضمن عدة جمل تنتظم فيما بينها وتكوّن عِقْدًا من النسق التعبيري، والجمال التركيبي، والبداية تأتي في ثوب الجملة الاسمية المصدرة بـ"إن" المؤكدة المقترنة بياء المتكلم وهو أشرف الخلق محمد ﷺ، ويزيد الجملة تأكيدًا اقترانُ جملة خبر "إن" باللام في أول الفعل "لأقوم"، ويومئ ذلك التأكيد إلى حرص رسول الله ﷺ على الإطالة في الصلاة، حسب رضا المأمومين، أو تكون صلاة فردية وليست جماعية، وجملة، "وأريد أن أطوِّل فيها"، حالية، وهي تصور حال رسول الله ﷺ وهو يرغب في إطالة الصلاة، وفجأة يسمع بكاء الطفل، فيرق قلبه، ويعدل عن التطويل في الصلاة إلى قراءة قصار السور، وأدوات العطف في الحديث تشارك في توصيل المعنى: فالعطف بالواو بين الفعلين، "لأقوم إلى الصلاة وأريد"، يدل على مطلق الجمع، ولا يفيد الترتيب والتعقيب ولا الترتيب والتراخي، لأن القيام إلى الصلاة وإرادة التطويل يكونان في زمن واحد فلا فصل بين القيام والإرادة، ولكن بعد ذلك نجد أن العطف بالفاء في قوله "فأسمع"، وقوله: "فأَتَجَوَّزُ" يفصح عن الترتيب، والتعقيب أو الإسراع، فسماع بكاء الطفل كان وقت الصلاة، وفي الكلام حذف لتفصيلات تفهم من سياق الحديث ومنها البدء في الصلاة ثم القراءة ثم سماع بكاء الطفل، ولذلك عطف الفعل "فأتجوز" أي" أخفف، على ما قبله وهو فأسمع، وهذا التخفيف ليس إخلالاً بأركان الصلاة، وإنما يقرأ بالسورة القصيرة.

وقيل إن رسول الله ﷺ قرأ في الركعة الأولى سورة طويلة، فسمع بكاء صبي فقرأ في الثانية بثلاث آيات، ويأتي التعليل للإفصاح عن اهتمام الإسلام بأمر الطفل وحرصه على أن لا يلحق الأذى بالأم لأن بكاء طفلها يعذبها، وهذا التعليل النفسي والإيماني والاجتماعي تشرق أسراره في قوله ﷺ "كراهية أن أشق على أمه"، والموقع الإعرابي للفظ "كراهية"، يشارك في توصيل المراد والمقصد، فهو مفعول معه أو مفعول لأجله، وفي الحديث تتجلى شفقته ﷺ على الصحابة رضي الله عنهم، ومراعاة أحوال الكبير منهم والصغير، وعلى كل مسلم ومسلمة، ورعاية الأبناء والبر بالآباء والأمهات، منهج إسلامي رشيد له دوره في تجميل وجه الحياة وإعمارها ونشر عاطفة الرحمة والمحبة بين

الجميع يقول الشاعر العربي حطان بن المعلي:

وإنمـــا أولادنـــا بيننـــا أكبادنـــا تمـــشي علـــى الأرض

إن هبـــت الـــريح علـــى بعـــضهم لا امتنعـــت عـــيني عـــن الغمـــض(١)

ويقول ابن الرومي(٢):

وأولادُنـــا مثـــلُ الجَـــوارحِ أيُّهـــا فقـــدناه كـــان الفـــاجعَ البَـــيِّنُ الفَقْـــدِ

لكـــلٍّ مكـــانٌ لا يـــسُدُّ اخْتِلالَـــهُ مكـــانُ أخيـــه في جَـــزُوعٍ ولا جَلْـــدِ

هـــلِ العـــينُ بعـــدَ الـــسَّمْعِ تكفـــي أم الـــسَّمْعُ بعـــد العـــينِ يَهْـــدي

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: الإقبال على طاعة الله.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: شفقة النبي ﷺ على أمته.

ثالثًا: من صفات الداعية: مراعاة أحوال الكبير والصغير.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: يسر الإسلام.

خامسًا: من واجبات الداعية: الانتباه ومراعاة أحوال المدعوين.

سادسًا: من أساليب الدعوة: التوكيد والتعليل.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الإقبال على طاعة الله:

شرع الإسلام من العبادات ما يستريح به قلب المؤمن ويجد لذته وحلاوته، ومن أفضل هذه العبادات الصلاة، فإنها مناجاة بين العبد وربه، لذا أخبر النبي ﷺ أنه يريد أن يطوّل فيها لولا إشفاقه على المأمومين من خلفه ومراعاته لأحوالهم، فدلّ هذا على أنه يجب على العبد أن يقبل على ربه في عبادته ويستلذ بذلك ويسعد، ولهذا ترك النبي ﷺ المجال مفتوحًا لمن يصلي وحده أن يطول على حسب نشاطه وإقباله، فقال

---

(١) العقد الفريد ٢/٢٥٧ قافية الضاد.

(٢) ديوان ابن الرومي قافية الياء، أبيات رقم ١٩، ٢٠، ٢١.

ﷺ: ((إِذَا أَمَّ أَحَدُكُمُ النَّاسَ فَلْيُخَفِّفْ . فَإِنَّ فِيهِمُ الصَّغِيرَ وَالْكَبِيرَ، وَالضَّعِيفَ، وَالْمَرِيضَ، فَإِذَا صَلَّى وَحْدَهُ فَلْيُصَلِّ كَيْفَ شَاءَ))(١).

قال عبدالله البسام: (يؤخذ منه أنه لو كان العدد محدودًا وآثروا التطويل أنه جائز، لأنهم أصحاب الحق في ذلك، وقد جاءت الرغبة منهم فلا بأس إذن بالتطويل.

أما إذا صلَّى وحده فليصل ما شاء، لأن ذلك راجع إلى رغبته ونشاطه، وينبغي تقييده بما لا ينشغل به عن الواجبات)(٢).

لكن السؤال هنا: لما أحبَّ النبي ﷺ التطويل في الصلاة؟

الجواب -والله أعلم-: لأن في الصلاة إقبالاً من العبد بكليته على ربّه، وبيانًا لمدى تعلقه بحبه تعالى وإثباتًا لمدى تلذذه بمناجاته وسعادته بالوقوف بين يديه سبحانه. وذلك فضلاً عن عجز الإنسان عن القيام بحق شكر الله، على نعمه وآلائه التي لا تحصى، والتطويل بيانًا منه على شكره لخالقه؛ لذا أحب النبي ﷺ التطويل في الصلاة.

يقول عبدالله البسام في بيان رائق يأخذ بالقلوب عن الصلوات الخمس: (الصلوات الخمس أكبر أركان الإسلام بعد الشهادتين، وأفضل الأعمال بعدهما لكونها وضعت على أكمل وجوه العبادة وأحسنها، ولجَمعها ما تفرق من العبودية، وتضمنها أقسامها وأنواعها، فهي تكبير الله وتحميده تعالى، والثناء عليه وتهليله وحمده، وتنزيهه وتقديسه، وتلاوة كتابه والصلاة والسلام على رسوله محمد ﷺ وعلى آله، ودعاء للحاضرين وجميع عباد الله الصالحين، وهي قيام وركوع وسجود وجلوس، وخفض ورفع، فكل عضو في البدن، وكل مفصل فيه له من هذه العبادة حظه، ورأس ذلك كله القلب الحاضر.

فرضها الله تعالى على عباده ليذكرهم بحقه، وليستعينوا بها على تخفيف ما يلقونه من مشاق هذه الحياة الدنيا.

---

(١) أخرجه البخاري ٧٠٣، ومسلم ٤٦٧.

(٢) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٢/٢٥٧.

والمجتمع الإنساني بحاجة إلى قوة إيمان تدفع نفسية افراده على وجه الاستمرار إلى المثل العلى، لئلا ترتبط الأفراد بالحاجات المادية والمصالح الشخصية، مما يؤدي إلى الفساد في الأرض.

إن الإنسان إذا لم تتصل روحه بمبدعها، ظهرت فيه مظاهر الاكتئاب، فالصلاة طمأنينة في القلب عند المصائب وراحة للضمير عند النوائب. قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾[1].

وهي زاجرة عن المنكرات قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[2]، ومكفرة للسيئات قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[3]، فالصلاة رأس القُربات، وغرة الطاعات، لما فيها من تحقيق المناجاة ورفعة الدرجات)[4].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: شفقة النبي ﷺ على أمته:

لقد كان النبي ﷺ مشفقًا على أمته أتم الشفقة وأبلغها، فهو القائل ﷺ: ((إنما أَنَا لَكُمْ بِمَنْزِلَةِ الْوَالِدِ أُعَلِّمُكُمْ))[5]، وهذه الشفقة واضحة وذلك في قوله ﷺ في تعليله لتخفيفه الصلاة: (فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي كراهية أن أشق على أمه)، وقد ورد ذلك التعليل في أحاديث أخرى:

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: ((ما صلَّيتُ وراءَ إمامٍ قط أخفَّ صلاةً ولا أتمَّ منَ النبيِّ ﷺ، وإنْ كانَ لَيَسْمعُ بكاءَ الصبيِّ، فيُخففُ مَخافةَ أن تُفْتَنَ أُمُّه))[6].

---

(١) سورة البقرة، آية: ٤٥.

(٢) سورة العنكبوت، آية: ٤٥.

(٣) سورة هود، آية: ١١٤.

(٤) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٣٧٢/١.

(٥) أخرجه أبو داود ٨، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٦).

(٦) أخرجه البخاري ٧٠٨، ومسلم ١٩٠ - ٤٦٩.

قال ابن حجر: (أي تلتهي عن صلاتها لاشتغال قلبها ببكائه، زاد عبدالرزاق[١] من مرسل عطاء: أو تتركه فيضيع)[٢].

وفي رواية: ((إني لأدخُلُ في الصلاةِ فأُريدُ إطالتَها، فأَسمعُ بُكاءَ الصبيِّ فأَتجوَّزُ ممّا أَعلمُ مِن شدَّةِ وَجدِ أُمِّهِ من بُكائه))[٣].

قال ابن حجر: (قوله "وجد أمه" أي: حزنها.. وكأن ذكر الأم هنا خرج مخرج الغالب وإلا فمن كان في معناها ملتحق بها)[٤].

ومن الأمثلة التطبيقية الأخرى لشفقة النبي ﷺ على أمته رفضه لما عرضه عليه ملك الجبال له عندما كذبه قومه واشتدوا في ذلك، قال له ملك الجبال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت؟ إن شئت أطبق عليهم الأخشبين"[٥]، فقال له رسول الله ﷺ: ((بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللّهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللّهَ وَحْدَهُ، لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا))[٦]، ففي هذا الحديث -كما يقول ابن حجر- (بيان شفقة النبي ﷺ على قومه ومزيد صبره وحلمه وهو موافق لقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾[٧])[٨].

وقال القاضي عياض عن تحلّي النبي ﷺ بالشفقة والرأفة في معرض بيان حسن خلقه ﷺ: "وأما الشفقة والرأفة والرحمة لجميع الخلق فقد قال الله تعالى في حق

---

(١) مصنف عبد الرزاق ٣٧٢٢/٢، وفيه: خشية أن تفتتن أمه.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٣٧/٢.

(٣) أخرجه البخاري ٧٠٩ - ٧١٠، ومسلم ١٩٢ - ٤٦٩.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٣٧/٢.

(٥) هما جبلا مكة: أبو قبيس والجبل الذي يقابله، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٦١.

(٦) أخرجه البخاري ٣٢٣١، ٧٣٨٩، ومسلم ١٧٩٥.

(٧) سورة آل عمران آية: ١٥٩.

(٨) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٦٤/٦، وانظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض ١٨٧/١.

الرسول ﷺ: ﴿عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[2]، قال بعضهم عن فضله ﷺ: إن الله تعالى أعطاه اسمين من أسمائه فقال: (بالمؤمنين رءوف رحيم)"[3].

ثالثًا- من صفات الداعية: مراعاة أحوال الكبير والصغير:

إن الداعية يدعو جميع المدعوين كبارًا وصغارًا نساء ورجالاً، شيوخًا وأطفالاً ومن ثم كان عليه مراعاة أصناف المدعوين، حتى لا يهتم بصنف على حساب آخر، وإنما يراعي الجميع ويتآلف الجميع، وهو في هذا يقتدي بالنبي ﷺ كما في هذا الحديث، فقد جعل النبي ﷺ بكاء الصبي سببًا في تخفيف الصلاة مراعاة لحال أمه، وقد ذكر البخاري هذا الحديث تحت باب: من أخف الصلاة عند بكاء الصبي، قال ابن حجر: (قال الزين بن المنير: التراجم السابقة بالتخفيف تتعلق بحق المأمومين، وهذه الترجمة تتعلق بقدر زائد على ذلك وهو مصلحة غير المأموم لكن حيث تتعلق بشيء يرجع إليه)[4]، وفي الحديث: (بيان شفقة النبي ﷺ على أصحابه رضي الله عنهم، ومراعاة أحوال الكبير منهم والصغير)[5].

ويمكن هنا أن ذكر حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان النبيُّ ﷺ أحسنَ الناس خُلقًا، وكان لي أخٌ يقال له أبو عُمَير ـ قال أحسِبُهُ فطيمًا ـ وكان إذا جاء قال: ((يا أبا عمير، ما فعلَ النُّغَير؟[6] نُغَرٌ كان يلعَبُ به، فرُبما حضرَ الصلاة وهو في بَيتِنا،

---

(١) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

(٢) سورة الأنبياء، آية: ١٠٧.

(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض ١/١٨٧.

(٤) المرجع السابق ٢/٢٣٦. والضمير في إليه يرجع إلى المأموم.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢/٢٣٧.

(٦) هو تصغير النغر وهو طائر يشبه العصفور أحمر المنقار ويجمع على نغران، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٩٢٨.

فيأمر بالبساطِ الذي تحتهُ فيُكنَسُ وينضح، ثم يقوم ونقوم خَلفَه فيُصلِّي بنا))[١].

وقد استخرج بعض العلماء من هذا الحديث ستين فائدة، لخصها ابن حجر فذكر منها: (التلطف بالصديق صغيرًا كان أو كبيرًا، والسؤال عن حاله، وفيه أن الكبير إذا زار قومًا واسى بينهم فإنه صافح أنسًا ومازح أبا عمير ونام على فراش أم سليم وصلى بهم في بيتهم حتى نالوا كلهم من بركته)[٢].

وقال عبدالله البسام: (يجب مراعاة الضعفاء والعجزة في جميع الأمور التي يشاركهم فيها الأقوياء سواء في الأمور الدينية أو الاجتماعية، لأنه الذي يجب مراعاته والعمل به)[٣].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: يسر الإسلام:

إن شريعة الإسلام هي الشريعة الخاتمة، وهي رسالة عالمية، فهي للناس أجمعين تراعي أحوالهم في جميع الأزمان والأماكن والأحوال، لذا كان من أخص خصائص الإسلام اليسر ورفع الحرج والمشقة، ذلك واضح في الحديث كله: (وأريد أن أطول فيها فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي، كراهية أن أشق على أمه).

ومن الأمثلة التطبيقية ليسر الإسلام ما رواه جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: إنَّ مُعاذَ بن جبلٍ رضي الله عنه كان يُصلِّي معَ النبيِّ ﷺ ثم يأتي قومَهُ فيُصلي بهمُ الصلاةَ، فقرأ بهم البقرةَ، قال: فتجوَّز رجلٌ فصلى صلاةً خفيفةً، فبلغَ ذلك مُعاذًا فقال: إنه منافق، فبلغ ذلك الرجلَ فأتى النبيَّ ﷺ فقال: يارسول الله إنا قومٌ نعملُ بأيدينا، ونَسقي بنواضِحنا[٤]، وإنَّ مُعاذًا صلى بنا البارحة فقرأ البقرة فتجوَّزتُ، فزعمَ أني منافق. فقال النبيُّ ﷺ: ((يامعاذُ أفتّانٌ أنت؟ ثلاثًا. اقرأ والشمسِ وضُحاها، وسبِّحِ اسمَ ربِّكَ الأعلى ونحوَهما))[٥].

---

(١) أخرجه البخاري ٦١٢٩، ٦٢٠٣، ومسلم ٦٥٩، ١٢٥٠، ٢٣١٠.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦٩٩/١٠ - ٦٠١

(٣) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٢٥٧/٢.

(٤) النواضح: الإبل التي يستقى عليها واحدها، ناضح، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٩٢١.

(٥) أخرجه البخاري ٦١٠٦، ومسلم ٤٦٥.

قال ابن حجر: (وفي حديث الباب من الفوائد أيضًا استحباب تخفيف الصلاة مراعاة لحال المأمومين... فيه أن الحاجة من أمور الدنيا عذر في تخفيف الصلاة)(١).

وقد قال النبي ﷺ لعثمان بن أبي العاص رضي الله عنه: ((أَنْتَ إِمَامُ قَوْمِكَ، فَاقْتَدِ بِأَضْعَفِهِمْ))(٢).

جاء في الموسوعة الفقهية: (اليسر وانتفاء الحرج صفتان أساسيتان في دين الإسلام وشريعته، والتيسير مقصد أساسي من مقاصد الشريعة الإسلامية، ويدل على هذا الأصل آيات كثيرة في كتاب الله تعالى وأحاديث نبوية صحيحة وأجمعت الأمة عليه)(٣).

ومن القواعد الفقهية الكبرى: المشقة تجلب التيسير، قال الدكتور علي الندوي: "هذه إحدى القواعد الجليلة الناطقة بمرونة التشريع الإسلامي الحكيم، ولها أثر عميق جدًا في كثير من الأحكام الشرعية، وهي مستوحاة من النصوص التشريعية الكريمة التي ترشد إلى رفع الحرج عن العباد، وترفيههم عن المشقة البالغة، ومن المعلوم أن الأدلة على رفع الحرج في هذه الأمة بلغت مبلغ القطع.

وهناك آيات متوافرة من كتاب الله تعالى تعتبر من الأدلة الواضحة البينة على هذا الأصل، وبالاستناد إليها اكتسبت القاعدة خصائص الدليل الشرعي)(٤).

خامسًا- من واجبات الداعية: الانتباه ومراعاة أحوال المدعوين:

إن الداعية يعيش في مجتمع بشري يعجّ بالكثير من الأفكار والاتجاهات التي يكون لها تأثير كبير على نفوس المدعوين، وكلما كان الداعية منتبهًا لهذا كان أنجح في دعوته، وهو في هذا يكون مقتديًا بالنبي ﷺ، كما هو ظاهر في الحديث: (فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي كراهية أن أشق على أمه)، ومن هذا القبيل

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢/٢٣١.

(٢) أخرجه أبو داود ٥٣١، والنسائي ٦٧٢، وحسن إسناده الحافظ في الفتح ٢/٢٣٣، وأصله في صحيح مسلم ٤٦٨.

(٣) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٤/٢١٣.

(٤) جمهرة القواعد الفقهية في المعاملات المالية، د. علي أحمد الندوي ١/٢١١.

قول النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها: ((يا عائشةُ لولا أنَّ قومَكِ حديثُ عهدٍ بجاهليةٍ لأمَرتُ بالبيتِ فهُدِمَ، فأدخَلتُ فيه ما أُخرِجَ منه، وألزقتُه بالأرض، وجعلتُ لهُ بابَينِ بابًا شرقيًا وبابًا غربيًا فبلغتُ بهِ أساس إبراهيمَ))[1].

قال النووي: (وفي هذا الحديث دليل لقواعد من الأحكام: منها إذا تعارضت المصالح أو تعارضت مصلحة ومفسدة وتعذر الجمع بين فعل المصلحة وترك المفسدة بدئ بالأهم، لأن النبي ﷺ أخبر أن نقض الكعبة وردها إلى ما كانت عليه من قواعد إبراهيم ﷺ مصلحة ولكن تعارضه مفسدة أعظم منه، وهي خوف فتنة بعض من أسلم قريبًا، وذلك لما كانوا يعتقدونه من فضل الكعبة فيرون تغييرها عظيمًا فتركها ﷺ. ومنها فكر ولي الأمر في مصالح رعيته، واجتنابه ما يخاف منه تولد ضرر عليهم في دين أو دنيا إلا الأمور الشرعية، كأخذ الزكاة وإقامة الحدود ونحو ذلك. ومنها تألف قلوب الرعية وحسن حياطتهم وأن لا ينفروا ولا يتعرض لما يخاف تنفيرهم بسببه ما لم يكن فيه ترك أمر شرعي)[2].

سادسًا- من أساليب الدعوة: التوكيد والتعليل:

أما التوكيد قوله ﷺ: "إني..." ليؤكد أنه كان يود الإطالة في الصلاة، وأما التعليل فجملة "خشية أن أشق على أمه" ليبين ﷺ سبب تجوزه في الصلاة، وهذا التعليل يوضح شفقته ﷺ ورأفته بأمته، ليقتدي به الدعاة وولاة الأمر من بعده.

---

(١) أخرجه البخاري ١٥٨٦، ومسلم ١٣٣٣.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٨٣٢، وانظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٢٤/٣.

الحديث رقم (٢٣٢)

٢٣٢- وعن جُنْدبٍ بن عبد اللَّه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ صَلَّى صَلاةَ الصُّبحِ فَهُوَ فِي ذِمةِ اللَّه، فَلا يطْلُبنَّكُمْ اللَّهُ مِنْ ذِمَّتِهِ بِشَيْءٍ، فَإِنَّهُ مَنْ يَطْلُبْهُ مِنْ ذِمَّتِهِ بِشَيْءٍ يُدرِكه، ثُمَّ يكُبُّهُ عَلَى وجْهِهِ فِي نَارِ جَهَنَّم**» رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

جُنْدُب بن عبدالله بن سفيان: وهو جندب بن عبدالله بن سفيان البَجَلِيُّ، العَلَقِيُّ - والعَلَق: بطن من بجيلة وهو علقة بن عبقر بن أنمار بن إراش بن عمرو بن الغوث- أخو الأزد بن الغوث.

قال ابن السكن: أهل البصرة يقولون: جُنْدُب بن عبدالله، وأهل الكوفة ينسبونه إلى جده فيقولون: جندب بن سفيان، ويقال: جندب بن خالد بن سفيان.

يكنى أبا عبدالله، ويُقال: جندب الخير، وجندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ له صُحبة برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليست بالقديمة، وقد سكن الكوفة ثم انتقل إلى البصرة، وكان على عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غلامًا جزورًا، وكان يقول: كُنَّا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونحن فِتيانُ حَزَاورَة[2]، فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن فازددنا به إيمانًا، وقد روى عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعن حذيفة، وعن أبي بن كعب، وله عدَّةُ أحاديث.

وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من الناصحين لدين الله ورسوله، الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، فقد أوصى نفرًا من الناسِ فقال لهم: أوصيكم بتقوى الله، وأوصيكم بالقرآن، فإنه نور بالليل المظلم وهُدى بالنهار، فاعملوا به ما كان من جهد وفاقة، فإن عَرَضَ بلاءٌ، فقدِّموا أموالكم دون دينكم، فإن تجاوزَ البلاء، فقدِّموا أموالكم وأنفسكم دون دينكم، فإن المخروب من خُرِب دينُه، والمسلوبَ من سُلِب دينُه، واعلموا

(١) برقم (٢٦٢/٦٥٧).أورده المنذري في ترغيبه (٥٣٠).

(٢) حزاورة: هو جمع حَزْوَرٍ وحَزورٍ، وهو الذي قارب البلوغ، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ح ز ر).

أنه لا فاقةَ بعد الجنة، ولا غنى بعد النار.

وقد بعث جندب إلى عَسْعَس بن سلامة، زمن فتنة ابن الزبير، فقال له، ارجع لي نفرًا من إخوانك حتى أحدثهم، فبعث رسولاً إليهم، فلما اجتمعوا قال لهم: (إنَّ رسول الله ﷺ بعث بعثًا من المسلمين إلى قومٍ من المشركين، وأنهُمُ التقوا، فكانَ رجلٌ من المشركين إذا أراد أن يقصد إلى رَجُلٍ من المسلمين قصدَ لَهُ، فقتلَهُ، وإن رجلاً من المسلمين التمس غفلته، قال: وكنا نحدث أنه أسامة بن زيد، فلما رفع عليه السيف قال: لا إله إلا الله، فقتله. وجاء البشير إلى رسول الله ﷺ فسأله، وأخبره، حتى أخبره خبر الرجل كيف صنع، فدعاه فسأله فقال: لم قتلته؟ فقال: يا رسول الله، أوجع في المسلمين. وقتل فلانًا وفلانًا، وسمى له نفرًا. وإني حملت عليه السيف، فلما رأى السيف قال: لا إله إلا الله، قال رسول الله ﷺ: ((أقتلته))؟ قال: نعم، قال: ((فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة))؟ قال: فجعل لا يزيد على أن يقول ((كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاء يوم القيامة؟))[(١)].

ثم قال جندب عند ذلك: قد أظلتكم فتنة من قام لها أَرْدَته، قالوا: فما تأمرنا، أصلحك الله، إن دخل علينا مصرنا؟ قال: ادخلوا دوركم، فقالوا: فإن دخل علينا دورنا؟ قال ادخلو بيوتكم، قالوا فإن دخل علينا بيوتنا؟ قال: ادخلوا مخادعكم، قالوا: فإن دخل علينا مخادعنا؟ قال: كن عبدالله المقتول ولا تكن عبدالله القاتل.

سكن الكوفة ثم انتقل إلى البصرة مع مصعب بن عمير. أما عن وفاته فقال خليفة مات في فتنة ابن الزبير، وذكره البخاري في التاريخ فيمن توفي من الستين إلى السبعين عامًا. أ هـ وهو إلى حدود السبعين أقرب[(٢)].

---

(١) أخرجه مسلم، رقم (٩٧).

(٢) الطبقات الكبرى، ابن سعد (٣٥/٦)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي (٢٠٢)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر (١١٢)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٥٦٦/١-٥٦٨)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين (٤٨٣/١-٤٨٤)، وتهذيب التهذيب (٣١٧/١-٣١٨)، وسير أعلام النبلاء (١٣٣٦/١)، والسندي ٩٤/٣١.

غريب الألفاظ:

ذمة الله: عهده وأمانه وضمانه وحمايته(١).

كَبُّه على وجهه: قلَبه وألقاه(٢).

الشرح الأدبي

ما أجمل أن يستقبل المسلم يومه بالصلاة ومناجاة ربه، والتضرع إليه، وهو استقبال متوج بالحماية الربانية، والرعاية الإلهية، فالرسول ﷺ يبشر كل من صلى صلاة الصبح في جماعة - وهي صلاة الفجر- بأنه طيلة يومه في حماية الرحمن الرحيم يحميه من أذى المعتدين، وينذر كل من يتعرض له بسوء بأنه لن يفلت من عقاب الله مهما أمعن في التخفي، وسوف يكبه الله على وجهه في جهنم.

فأي بشارة أعظم من هذه البشارة، وأى حماية أقوى من حماية الله لعباده المؤمنين الذين هم في صلاتهم خاشعون، وفي صلاة الفجر تتجلى أنوار الرضا، وإشراقات الهداية، وأمارات الفوز والفلاح فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((يَتعاقَبونَ فِيكمْ مَلائِكَةٌ بالليلِ ومَلائِكةٌ بالنَّهَارِ، ويجتمعونَ في صلاةِ الفَجرِ وصلاةِ العصر، ثمَّ يَعرُجُ الذينَ باتوا فِيكمْ، فيَسْأَلُهُمْ -وهوَ أعلمُ بهم-: كيفَ تَركتُمْ عِبادِي؟ فيَقُولونَ: تَركنَاهمْ وهم يُصلُّونَ، وأَتيناهُمْ وهم يُصلُّون))(٣).

وبيانًا لأفضلية صلاة الفجر: يروي أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((لو يَعلمُ الناسُ ما في النِّداءِ والصفِّ الأوَّلِ ثم لم يَجدوا إلاّ أن يَسْتَهِموا عليه لاستهَموا، ولو يَعلمونَ ما في التَّهْجيرِ لاستَبَقوا إليه، ولو يَعلمون ما في العَتَمةِ والصُّبحِ لأتَوهما ولو حَبْواً))(٤).

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ذ م م).

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٧٧١.

(٣) أخرجه البخاري ٥٥٥، ومسلم ٦٣٢.

(٤) أخرجه البخاري ٦١٥، ومسلم ٤٣٧.

وفي ضوء إشراقات هذين الحديثين الكريمين وغيرهما من الأحاديث، في هذا السياق ندرك أسرار هذه البشارة الإلهية التي بشر بها رسول الله ﷺ كل من صلى صلاة الصبح... فهو في ذمة الله أى في أمانه وعهده: وقال العلماء في بيان علة هذه الأفضلية لصلاة الصبح، خصت بذلك لأنها أول النهار الذي هو وقت ابتداء انتشار الناس في حوائجهم المحتاجين وفي دوامه إلى أمْن بعضهم من بعض، وقال الطيبي: خصت بالذكر لما فيها من الكلفة والمشقة.

وحين نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي الذي يشارك في إيضاح المعنى في هذا الحديث الشريف: نجد أن الحديث تنظمه عدة جمل، وهى متلاحمة الأجزاء، متشابكة النسيج، تجمعها الوحدة الموضوعية والعضوية، فالحديث لابد أن يقرأ كله حتى نصل إلى مقصده الأسنى، وهدفه الأجلي، والوحدة العضوية من سمات البيان النبوي لأن لكل حديث دائرة محكمة تتضام محاورها وأقطارها، ويستدعى آخرها أولها.

والجملة الأولى في الحديث: جملة شرطية وهى مركز أشعة هذه البشارة النبوية، وهى بشارة للملايين من أبناء الأمة الإسلامية، الذين تمتلئ بهم بيوت الله في عتمة الصباح وتباشير الفجر الصادق، "من صلى صلاة الصبح فهو في ذمة الله" وأي أمان أعظم من هذا الأمان الإلهي، والجملة الثانية تحمل التهديد والوعيد لكل من يحاول نقض هذا العهد، وتلك الحماية: حيث ينهي رسول الله ﷺ كل من يسمعه أو يبلغه ذلك الخبر عن التعرض بأي أذى لهذا المؤمن الذي فاز بحماية ربه، وقد وقع النهي عن مطالبة الله إياهم عن نقض العهد وهو توضيح لنتيجة نقض عهد الله بسبب إيذاء هؤلاء المصلين والمراد كما قال العلماء نهيهم عن التعرض لما يوجب مطالبة الله إياهم، فالأسلوب فيه : إيجاز وإشارة إلى أحداث تقع ثم تكون نتيجتها: العقاب وسوء المصير، والضمير في "ذمته" يحتمل أن يكون عائدًا إلى: "مَنْ" اسم الموصول، وهو المصلى.

ويمكن أن يكون المراد بالذمة: الصلاة المقتضية للأمان- كما يقول صاحب دليل الفالحين-: والجملة تتوعد كل من يحاول إيذاء هذه الجماعة المؤمنة: وصيغت في أسلوب التوكيد: ليرتدع هؤلاء الآثمون المعتدون: فإن عقاب الله سيدركهم، مهما

تحصنوا بالجاه والمنصب والمال والعصبية والسلاح، والجملة الأخيرة تحدد مصير كل معتد يسخر من المصلين ويؤذيهم ويعتدي على مساجدهم وحرماتهم، فالله يكبهم على وجوههم في نار جهنم.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى ثواب صلاة الصبح ومكانتها وأنه من آكد الفروض التي يطالب الله تعالى بها عبده لأنها ابتداء يومه.

وقد اتفق الفقهاء[1] على أن صلاة الصبح يحين وقتها عند طلوع الفجر الصادق وحتى طلوع الشمس، واختلفوا في الأفضل في صلاة الصبح الإسفار أم التغليس[2]؟ فذهب جمهور الفقهاء من المالكية والشافعية والحنابلة إلى أن الأفضل تعجيل صلاة الصبح في أول وقتها أي الغلس، فقد كان النبي ﷺ يصلي الصبح فينصرف الناس وقت الغلس حتى لا يعرف النساء بمروطهن من فرط الغَلَس، وهو ما عليه كثير من الصحابة، وذهب الحنفية إلى أنه يستحب الإسفار بصلاة الصبح وتأخيرها إلى أن ينتشر الضوء.

---

(١) انظر في ذلك: بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٨٩/١ وما بعدها، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ٧٩/١ وما بعدها، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم المالكي ١٦٤/١ وما بعدها، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ٧/١، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٣٨١/١ وما بعدها، والأم للشافعي ٩٣/١، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ١١٥/١ وما بعدها، وتحفة المحتاج في شرح المنهاج، ابن حجر الهيتمي ٤١٧/١ وما بعدها، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ١٤٢/١ وما بعدها، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٢٤٩/١ وما بعدها، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٢٣٢/١، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٦٥/٣١ وما بعدها.

(٢) الغلس هو ظلام آخر الليل إذا اختلط بضوء الصبح، أو أول الصبح حين ينتشر في الآفاق، والإسفار ظهور الضوء، انظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٦٤/٣١ وما بعدها.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل صلاة الصبح.

ثانيًا: من مهام الداعية: نصح المدعو بما ينفعه وتحذيره مما يضره.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب والنهي المؤكد والتعليل.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل صلاة الصبح:

الصلاة هي عماد الدين، لها فضل عظيم، وصلاة الصبح لها أعظم الفضل كما يتضح في هذا الحديث فقد أخبر النبي ﷺ أن من صلى الصبح "فهو في ذمة الله" (والذمة قيل الضمان وقيل الأمان)[(١)].

وقال القرطبي: (أي في أمان الله، وفي جواره أي قد استجار بالله تعالى، والله تعالى قد أجاره، فلا ينبغي لأحد أن يتعرض له بضرٍ أو أذى، فمن فعل ذلك فالله يطلب بحقّه، ومن يطلبه لم يجد مفرًا ولا ملجأ)[(٢)].

قال الطيبي: (المعنى: من صلى صلاة الصبح فهو في ذمة الله تعالى فلا تعرضوا له بشيء يسير، فإنكم إن تعرضتم له يدرككم الله تعالى ولن يفوته -من طَلَب- فيحيط بكم من جوانبكم كما يحيط المحيط بالمُحاط ويكبكم في النار)[(٣)].

(وإنما خص صلاة الصبح بالذكر لما فيها من الكلفة والمشقة وأداؤها مظنة خلوص الرجل ومنه إيمانه، ومن كان مؤمنًا خالصًا فهو في ذمة الله تعالى وعهده)[(٤)].

وقد وردت أحاديث في فضل صلاة الصبح: من ذلك قول جرير بن عبدالله رضي الله عنه: ((كنا جلوسًا لَيلةً مع النبيِّ ﷺ فنظر إلى القمر ليلةَ أربعَ عشرةَ، فقال: إنكمُ سَتَرون

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٤٦٦.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٢/٢٨٢.

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٢/١٨٤.

(٤) المرجع السابق ٢/١٨٤.

ربكم كما ترون هذا لاتُضامُون في رُؤْيَتِهِ[١]، فإنِ استطعتم أنْ لاتغلَبُوا على صلاةٍ قبْلَ طلوع الشَّمْسِ، وقبل غروبها فافعلوا، يعني: العصر والفجر ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾[٢]))[٣]. وقال النبي ﷺ ((لَنْ يَلِجَ النَّارَ أَحَدٌ صَلَّىٰ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا))[٤].

وقال عائض القرني عن صلاة الفجر: (معيار صلاح الناس، وقيامُهم بالدين، صلاةُ الفجر جماعةً، لأنها في وقت راحة بعد سهر، وإذا أردت أن تعرف الناس في حيِّك فراقبهم في صلاة الفجر، ومما رأيناه وعشناه تخلّف الكثير عن صلاة الفجر مع عدم المبالاة والندم على ما حصل، وما ذاك إلا لموت القلوب، وقضية دعوى التدين والتقوى سهلة لكن العبرة بالعمل والتطبيق، فإذا رأيت الرجل مقيمًا للصلوات الخمس في جماعة ورعًا في منطقه خائفًا من ربه نادمًا على خطئه فهذا الذي يرجى له الخير ويبشر به.

أما المقصر في الصلوات، المعجب بنفسه، الغافل عن تقصيره، فدعواه مردودة عليه ومحبته داحضة وهو من المفلسين،وقد رأينا من يظهر التدين والصلاح فإذا حانت صلاة الفجر خذله شيطانه وهواه ونفسه الأمّارة بالسوء عن حضورها جماعة، فغبن في صفقته وخسر ثقة إخوانه المؤمنين، ولا تمدح لنا أحدًا ولا تزكي لنا عبدًا بل أعماله تمدحه وأخلاقه تزكيه، لأننا مللنا من الثناء على أناس تطبيق الإسلام عندهم باللسان ولكن إذا حَصْحَص الحق في حضور صلاة وصدق في قول ووفاء بوعد وقيام بواجب فإذا الخذلان والفشل والرسوب -قائم بهم- ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[٥]"[٦].

(١) لا تضامون في رؤيته: يروى بالتشديد والتخفيف، فالتشديد معناه: لا ينضم بعضكم إلى بعض وتزدحمون وقت النظر إليه، ويجوز ضم التاء وفتحها على تفاعلون وتتفاعلون، ومعنى التخفيف: لا ينالكم ضيم في رؤيته، فيراه بعضكم دون بعض، والضيم: الظلم، النهاية: ٥٥٠.

(٢) سورة ق، آية: ٣٩.

(٣) أخرجه البخاري ٤٥٨١، ومسلم ٦٣٣.

(٤) أخرجه مسلم ٦٣٤.

(٥) سورة الصف، آية: ٣.

(٦) هكذا حدثنا الزمان ٨٩.

ثانيًا- من مهام الداعية: نصح المدعو بما ينفعه وتحذيره مما يضره:

إن النصيحة (هي الدعاء إلى ما فيه الصلاح والنهي عما فيه الفساد)[(١)] وهذه هي مهمة الداعية، فإنه ينصح المدعو بما ينفعه ويحذره وينهاه عما فيه ضرره، وفي هذا الحديث اجتمع الأمران. أما النصح فقول النبي ﷺ "من صلى الصبح فهو في ذمة الله" أي في أمانه وعهده. وأما التحذير "فلا يطلبنكم الله من ذمته بشيء فإنه من يطلبه من ذمته بشيء... يكبه على وجهه في نار جهنم".

قال الطيبي: (وقع النهي على مطالبة الله تعالى إياهم عن نقض العهد، والمراد نهيهم عن التعرض لما يوجب مطالبة الله إياهم ... ثم أعاد الطلب وكرر الذمة ورتّب عليه الوعيد)[(٢)].

وقال القرطبي: (قوله: "يكبه في النار": يقلبه فيها على وجهه)[(٣)].

ويمكن في هذا الموضع الاستشهاد بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾[(٤)] أي: (يا أيها الذين آمنوا إن مقتضى الإيمان أن تمتثلوا أمر الله، وتبتعدوا عن كل ما يتنافى مع الإيمان الصحيح وخاصة التناجي بالإثم والعدوان، فلا تتناجوا كما يتناجى المنافقون واليهود ولكن تناجيكم المشروع بالبر والتقوى وبالخير الصالح)[(٥)].

وعلى هذا النحو يحمل قوله ﷺ لفاطمة بنت قيس رضي الله عنها عندما أخبرته أن معاوية

---

(١) التعريفات، الجرجاني ٢٩٦.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ١٨٤/٢.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٢٨٢/٢.

(٤) سورة المجادلة، آية: ٩.

(٥) التفسير الواضح، د. محمد محمود حجازي ٨/٢٨.

ابن أبي سفيان رضي الله عنه وأبا جهم رضي الله عنه خطباها - قال ﷺ لها: ((أَمَّا أَبُو جَهْمٍ فَلاَ يَضَعُ عَصَاهُ عَنْ عَاتِقِهِ[1]، وَأَمَّا مُعَاوِيَةُ فَصُعْلُوكٌ لاَ مَالَ لَهُ. انْكِحِي أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ» فَكَرِهْتُهُ. ثُمَّ قَالَ: «انْكِحِي أُسَامَةَ» فَنَكَحْتُهُ، فَجَعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا، وَاغْتَبَطْتُ))[2].

قال النووي: (فيه دليل على جواز ذكر الإنسان بما فيه عند المشاورة وطلب النصيحة ولا يكون هذا من الغيبة المحرمة بل من النصيحة الواجبة.. وأما إشارته ﷺ بنكاح أسامة فلما علمه من دينه وفضله وحسن طرائقه وكرم شمائله. فنصحها بذلك فكرهته لكونه مولىً ولكونه كان أسود جدًا، فكرر النبي ﷺ الحث على زواجه لما علم من مصلحتها وكان كذلك)[3].

ثالثًا- من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب والنهي المؤكد والتعليل:

أما الترغيب فذكره ﷺ أن من صلّى الصبح كان في أمان الله وعهده وهذا حثٌّ على صلاة الصبح والمحافظة عليها، وأما النهي المؤكد فقوله ﷺ: "فلا يطلبنكم الله من ذمته بشيء" والترهيب في قوله ﷺ "فإنه من يطلبه من ذمته بشيء يدركه ثم يكبه على وجهه في نار جهنم" وهذا أيضًا تصريح وتعليل بحكمة النهي، قال الطيبي: (وقيل: يحتمل أن يكون المراد بالذمة الصلاة المقتضية للأمان، فيكون المعنى لا تتركوا صلاة الصبح فينتقض به العهد الذي بينكم وبين ربكم فيطلبكم به)[4].

وقال القرطبي: (وهذا وعيد شديد لمن يتعرض للمصلّين وترغيب حضور صلاة الصبح)[5].

---

(١) لا يضع عصاه عن عاتقه: فيه تأويلان مشهوران: أحدهما: أنه كثير الأسفار. والثاني: كثير الضرب للنساء وهذا أصحّ. شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٩٣٧.

(٢) أخرجه مسلم ١٤٨٠.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٩٣٧.

(٤) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ١٨٤/٢.

(٥) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٢٨٢/٢.

الحديث رقم (٢٣٣)

٢٣٣- وعن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رسول الله ﷺ قال: «**المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ، لا يظْلِمُه، ولا يُسْلِمُهُ، منْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حاجتِهِ، ومَنْ فَرَّج عنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يوْمِ الْقِيامَةِ، ومَنْ ستر مُسْلِمًا سَتَرهُ اللَّهُ يَوْم الْقِيَامَةِ**» متفقٌ عليه[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

لا يسلمه: أي لا يتركه مع من يؤذيه ولا فيما يؤذيه[2].

فَرَّجَ: كشف وأزال[3].

الكربةُ: الغَمُّ الذي يأخذ بالنفس[4].

الشرح الأدبي

كان رسول الله ﷺ - كما يقول أبو بكر القسطلاني في المواهب اللدنية بالمنح المحمدية-، أفصح خلق الله، وأعذبهم كلاما، وأسرعهم أداء، وأحلاهم منطقًا، حتى كأن كلامه يأخذ بمجامع القلوب ويسلب الأرواح، ففصاحة لسانه غاية لا يُدرك معناها، ومنزلة لا يُدَاني منتهاها، وكيف لا يكون ذلك؟ وقد جعل الله تعالى لسانه سيفًا من سيوفه يبين مراده، ويدعو به إليه عبادة، فهو ينطق بحكمه عن أمره، ويبين عن مراده بحقيقة ذكره، أفصح خلق الله إذا لفظ، وأنصحهم إذا وعظ، لايقول هجرًا، ولا ينطق هذرًا، كلامه كله يثمر علمًا، ويمتثل شرعًا وحكمًا، لا يتفوه بشر

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٤٢) واللفظ له، ومسلم (٢٥٨٠/٥٨). أورده المنذري في ترغيبه (٣٨٦٠).

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١٧/٥.

(٣) القاموس المحيط، الفيروزآبادي في (ف ر ج).

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١٧/٥.

بكلام أحكم منه في مقالته، ولا أجزل منه في عذوبته.

وفي ضوء هذه الخصائص والسمات التي يتحلى بها البيان النبوي ويتجلى، نتأمل أسرار التعبير وأوجه الجمال في هذا الحديث الشريف؛ والحديث يدعو إلى تعظيم حرمات المسلم، وإلى المحافظة عليه والتعاون معه على البر والتقوى، وتفريج كربه، وستر عوراته، وعدم التشهير بأسراره التي يؤذيه أن يعرفها أحد.

وهذه المعاني الوضيئة، والقيم النبيلة أفصحت عن جمالها الصياغة اللغوية، وجسدتها الحروف والكلمات والأساليب، فالحديث في بنائه اللغوي يتكون من ست جمل أو ست قواعد من أسس الإسلام؛ فالجملة الأولى اسمية وهى "المسلم أخو المسلم"، وهى قاعدة من قواعد الإسلام التي لا تقبل النقض أو التغيير، حيث قال الحق سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[1]، ومن خلال الصياغة يتأكد ثبات الأخوة الإسلامية وديمومتها في كل زمان وكل مكان وفي كل بيئة وكل عصر، فاسمية الجملة تؤكد هذا الثبات : لأن الأخوة ليست مرتبطة بحدث ولا زمن متغير: فهي ليست حدثًا طارئًا في الحاضر أو المستقبل، أو حدثًا ماضيًا انتهى إيقاعه، وانطفأ بريقه، وإنما هي قيمة ثابتة، وصيغة راسخة في معالم الشخصية الإسلامية.

والجملتان: الثانية والثالثة بيان وتفصيل لمعيار هذه الأخوة، وهما فعليتان ومسبوقتان بحرف النفي "لا": الذي تكرر قبل كل فعل، "لا يظلمه ولا يسلمه"، وهما للترغيب في تعميق مصداقية الأخوة الإسلامية، وعدم الإقدام على ظلم المسلم لأخيه، وعدم إسلامه لعدو متربص به، بل ينصره ويدفع عنه الظلم، ويدفعه عن الظلم.

والفعلان أَتَيَا في صيغة المضارع، وهذه الصيغة الزمنية المستقبلية ترشد إلى ضرورة استمرار هذا السلوك الإيجابي تجاه كل أخ مسلم، والجمل الثلاث الأخيرة جاءت في صيغة "الشرط والجزاء"، ومضمونها كذلك، وهى تتماثل في أفعال الشرط، وأفعال الجزاء من خلال اتحاد فعل الشرط وجوابه من حيث اللفظ في الجمل الثلاث، وذلك

(١) سورة الحجرات، آية: ١٠.

يؤكد ثبات الجزاء الإلهي الحسن، والثواب المضاعف، وتكرار الكلمات في جملتي الشرط والجواب في كل جملة من خلال الصيغ المتماثلة: للتذكير والتنبيه والحث على مزيد من التعاون على البر والتقوى وعلى أن المسلم أخو المسلم.

فلفظ المسلم يتكرر مرتين في الجملة الأولى، وحرف النفي "لا"، يتكرر مرتين في الجملتين، الثانية والثالثة، والفعل "كان" يتكرر مرتين في الجملة الرابعة، وكذلك كلمة "حاجة" تتكرر مرتين في الجملة نفسها، والفعل "ستر" يتكرر مرتين في الجملة الأخيرة، والتكرار يأتي لمزيد من التوكيد والتذكير، والاطمئنان إلى أن الجزاء من جنس العمل، وما عند الله خير وأبقى.

ولفظ "المسلم" جاء مُعرَّفًا في الجملة الأولى: لإرساء قاعدة ثابتة لمعيار الأخوة في الإسلام، فالمسلم أيا كان جنسه أو لونه أو أصله أو لغته أو عِرْقه هو أخو المسلم في أى مكان، وأى زمان، وعبر بلفظ "أخيه" في الجملة الرابعة للتذكير بالأخوة التي توثقت عراها في مُفتتح الحديث، ثم جاء بلفظ "مسلم" في صيغة النكرة: في بقية الحديث لإفادة العموم حتى لا ينصرف الذهن إلى مسلم بعينه، ونكر كلمة "كربة" لإفادة الشمول والعموم، حتى لا ينحصر مفهوم الكربة في حالة خاصة أو ظرف طارئ، وعبر بقوله: "فرَّج" ولم يقل "نفَّس"، لأن التفريج أعظم من التنفيس: فهو إزالة الكربة بالكلية، والتنفيس فيه إرخاء وتهوين، وكرر يوم القيامة مرتين في آخر الحديث لإشاعة الاطمئنان في نفس كل مسلم أعان أخاه وستره بأن الله سيكافئه يوم القيامة.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حرمة نفس المسلم وماله وعرضه وأن من أفضل الأعمال تفريج كربة مسلم أو إعانته على ما يصلحه، وأن ستر المسلم من أفضل القربات عند الله تعالى.

وقد ذكر الفقهاء[1] أنه متى وَجَد مسلمٌ آخَرَ في معصية ثم نصحه بالإقلاع عنها فينبغي له أن يستر عليه، ولذا يجوز في الحدود الشهادة والستر والستر أفضل، ما لم يشتهر العاصي بمعصيته أو يكون قد ستر عليه فلم يتب فيستحب حينئذ الشهادة عليه، فقد استثنى الفقهاء من ذلك المتهتك الذي لا يبالي بإتيان المحظورات ولا يتألم لذكره بالمعاصي فلا ينبغي ستره حينئذ، وكذا من الستر المطلوب. أن من رأى ميتًا في حال سيئة فلا يشهر به بل يستر عليه، وغير هذا في كل الأحوال والظروف التي تتطلب الستر.

المضامين الدعوية[2]

أولاً: من موضوعات الدعوة: مراعاة مقتضيات الأخوة الإسلامية.

ثانيًا: من أهداف الدعوة: الحث على الأخوة الإسلامية.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: النهي عن كل ما يسبب العداوة بين المسلمين.

رابعًا: من فقه الداعية: تذكير المدعوين بعبوديتهم لله.

خامسًا: من أهداف الدعوة: حفظ الأرواح والأموال والأعراض.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: الجزاء من جنس العمل.

سابعًا: من موضوعات الدعوة: تحصيل التقوى.

ثامنًا: من وسائل الدعوة: الإشارة.

تاسعًا: من أساليب الدعوة: الإخبار والنفي والترغيب والنهي والأمر والتكرار.

أولاً- من موضوعات الدعوة: مراعاة مقتضيات الأخوة الإسلامية:

الأخوة تقتضي حقوقًا وواجبات، وتتميز الأخوة الإسلامية أن الباعث على أداء

---

(١) شرح فتح القدير، ابن الهمام الحنفي ٢١٤/٥، والجوهرة النيرة لأبي بكر العبادي ٢٢٥/٢، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ١٦٤/٦، والتاج والإكليل، محمد بن يوسف المواق ٤٣٧/٨، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ١٥١/٤، والزواجر عن اقتراف الكبائر ٢٠٨/٢، والفروع، ابن مفلح ٥٤/٦، والآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ٢٣٤/١.

(٢) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -٢٣٣- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (٢٣٤، ٢٣٥).

الواجبات والحقوق هو إرضاء الله، طاعة له وإجلالاً، وتعظيمًا له سبحانه، وقد ذكّر النبي ﷺ بمقتضيات هذه الأخوة فقال: "المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه"، وفي رواية أبي هريرة رضي الله عنه عند الترمذي: "المسلم أخو المسلم لا يخونه ولا يكذبه ولا يخذله" وعند مسلم: "المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره ولا يخذله".

قال ابن هبيرة: (في هذا الحديث من الفقه أن كل مسلم على الإطلاق أخ لكل مسلم، ولا يجوز لغني أن يتعاظم على أخيه الفقير بأن يأنف من مجالسته أو يتكبر عن مؤاكلته، ولذلك يقبح بالمسلم أن يظلم بالإطلاق، ثم إنْ بُلِيَ بأن يُظلم، قبيحٌ أن يَظْلم أخاه، الذي هو جدير بأن يَرْفِده ويُسْعِده، فإذا لم يكن هنالك فلا أقلّ من أن لا يظلمه.

وقوله: "ولا يسلمه": يعني به أنه إذا كان معه في حرب ودهمهم القتال[1] فغير جائز للمسلم أن يفرّ ويسلم أخاه فليصبر معه ليسْلَما جميعًا أو يواسي أخاه فيما يكون منه)[2].

وقال الشيخ عبدالله البسام: (قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[3]، فالأخوة الإسلامية هي أوثق رابطة وأقوى صلة بين المسلم وأخيه المسلم، وهي تقتضي حقوقًا بينهما إن قاما بها نمت وزكت، وإلا ضعفت وذوت حتى تموت، فعلى المسلمين مراعاتها وإحياؤها بالقيام بالحقوق والصلات.

وقوله: "لا يظلمه": هذا أقل ما يجب للمسلم على أخيه، والظلم يكون في النفس والعرض والمال، فعلى المسلم تجنب غيظ أخيه، فالمسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه.

"ولا يخذله": الخذلان هو أن يُظلم المسلم وتقدر على نصره فلا تفعل، بل تتخلى عنه، فإن المؤمن مأمور بنصر أخيه المسلم سواء أكان ظالمًا فتنصره على نفسه وتمنعه

---

(١) في المطبوع: ودهتهم القتال ولم نهتد لصوابه. أما دهمهم القتال فمعناه: غشيهم. انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ١١٠٩.

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٢/٣٥.

(٣) سورة الحجرات، آية: ١٠.

من الظلم، أو مظلومًا فتمنع الظلم عنه، فقد أخرج أبو داود من حديث جابر بن عبدالله وأبي طلحة الأنصاري رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: ((مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَخْذُلُ امْرءًا مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ تُنْتَهَكُ فِيهِ حُرْمَتُهُ ، وَيُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ إلاَّ خَذَلَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ، وَمَا مِنِ امْرِئٍ يَنْصُرُ مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ ويُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ إلاَّ نَصَرَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ))(١).

قوله: "ولا يحقره": احتقار المسلم لأخيه ناشئ عن الكبر، فقد أخرج مسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: ((الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ))(٢). فالمتكبر ينظر إلى نفسه بعين الكمال، وإلى غيره بعين النقص فيحتقرهم ويزدريهم، ولا يراهم أهلاً لأن يقوم بحقوقهم، ولا أن يقبل من أحدهم الحق إذا ردّوه عليه.

قوله: "بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم": يعني أن احتقار المسلم أخاه المسلم هو كفايته من الشر، فإنه إنما يحقره لتكبره عليه، والكبر أعظم خصال الشر، ففي صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: ((لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ))(٣))(٤).

وقال ابن هبيرة: (فأما قوله: "بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم" ففيه تحذير وأي تحذير من ذلك، لأن الله تعالى لم يحقره إذ خلقه ورزقه، ثم أحسن تقويم خلقه، وسخر ما في السماوات وما في الأرض جميعًا كله لأجله، وأسجد له الملائكة جميعهم، ثم إنه سبحانه سماه مسلمًا ومؤمنًا وعبدًا... فمن حقّر مسلمًا من المسلمين فقد حقّر ما عظمه الله وكافيه ذلك حزنًا، وإن من احتقار المسلم المسلم ألا يُسَلّم عليه إذا مرّ به ولا يرد السلام عليه إذا بدأه هو به، وأن يراه دون أن يدخله الله الجنّة أو يبعده من النار أي ليس أهلاً للجنة أو هو من أهل النار.

---

(١) أخرجه أبو داود ٤٨٨٤، وضعفه الألباني، (ضعيف الترغيب والترهيب ١٧٠٠).

(٢) أخرجه مسلم ٩١.

(٣) أخرجه مسلم ٩١.

(٤) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٦/٣٣٣ - ٣٣٤.

فأما ما ينقمه العالم على الجاهل والعدل على الفاسق فليس ذلك احتقارًا لعين المسلم ولا لذاته، وإنما كراهية للجهل والفسق اللذين اتصف بهما، فمتى فارق الجاهل جهله، وباين الفاسق فسقه، كان ذلك معيار صدق الذي أبدى الشنآن لأجل الله تعالى، بعوده ومراجعته إلى الاحتفال به والرفع لقدره)(١).

والخلاصة أنَّ المسلم يعرف ما يجب عليه تجاه أخيه المسلم فيفعله ولا يتقاعس ولا يتهاون في ذلك، بل يحرص على ذلك أشد الحرص امتثالاً لأمر الله عز وجل ورسوله ﷺ.

ثانيًا- من أهداف الدعوة: الحث على الأخوة الإسلامية:

الأخوةُ بين المسلمين تعادل -إن لم تزد- الأخوة بين الأشقاء، فكل صلة ستقلب إلى عداوة طالما افتقدت الإيمان والتقوى، لأن تقوى الله هي المحك الأساس، والإيمان هو الأصل الذي يجب أن تقوم عليه العلاقة بين المسلمين؛ لذا أمرهم الشرع بأن يتخلقوا بالأخلاق التي تعمق هذه الأخوة في القلوب، كما يتضح من هذه الأحاديث.

قال ابن عبدالبر: (تضمن الحديث تحريم بغض المسلم والإعراض عنه وقطيعته بعد صحبته بغير ذنب شرعي، والحسد له على ما أنعم به عليه، وأن يعامله معاملة الأخ النسيب، وأن لا ينقب عن معايبه، ولا فرق في ذلك بين الحاضر والغائب، وقد يشترك الميت مع الحي في كثير من ذلك)(٢).

وقال ابن العربي: (أصل الفساد البغض فنهى النبي ﷺ عنه، وينشأ عن البغض الإعراض، وهو أول درجات التدابر، ويترتب على الإعراض اختلاف الأهواء، ومروج الأمور(٣)، ففسره مالك بالإعراض، وهوالأصل حتى إذا اجتنب وكان الإقبال يترتب عليه اتفاق الأهواء)(٤).

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٢٧٦/٧ - ٢٧٧.

(٢) التمهيد ١٠٦/٢٢ موسوعة شروح الموطأ. وقد نقلنا كلامه بتصرف ابن حجر في فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٨٣/١٠.

(٣) مروج الأمور: اختلاطها. انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ، ص ٢٠٥.

(٤) القبس شرح الموطأ ٩٧/٢٢ موسوعة شروح الموطأ.

وقال القرطبي رحمه الله: (قوله: "وكونوا عباد الله إخوانًا" أي كونوا: كإخوان النسب في الشفقة والرحمة والمودة والمواساة والمعاونة والنصيحة)[١].

وقد جاءت الآيات والأحاديث الكثيرة تحث على تعميق معنى الأخوة الإسلامية وترسيخها في قلوب المسلمين، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾[٣]، (أي أحوال بينكم، يعني ما بينكم من الأحوال، حتى تكون أحوال ألفة ومحبة واتفاق)[٤].

وقال النبي ﷺ: ((إن المؤْمِنَ للمؤْمِنِ كالبنيانِ يَشُدُّ بَعضُهُ بَعضًا وشَبَّكَ ﷺ أصابعَهُ))[٥].

وقال ﷺ: ((لا يُؤْمِنُ أَحدُكُمْ حتى يُحِبَّ لأَخِيه ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ))[٦].

قال النووي: (هذه الأحاديث صريحة في تعظيم حقوق المسلمين بعضهم على بعض، وحثهم على التراحم والملاطفة والتعاضد في غير إثم ولا مكروه)[٧].

وقال ابن تيمية: (فمن كان قائمًا بواجب الإيمان كان أخًا لكل مؤمن ووجب على كل مؤمن أن يقوم بحقوقه، وإن لم يجر بينهما عقد خاص، فإنّ الله ورسوله قد عقد الأخوة بينهما، بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[٨]، وقال النبي ﷺ: ((وَدِدْتُ أَنِّي قَدْ

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٥٣٢/٦.

(٢) سورة الحجرات، آية: ١٠.

(٣) سورة الأنفال، آية: ١.

(٤) محاسن التأويل، القاسمي ٨/٨.

(٥) أخرجه البخاري ٦٠٢٦، ومسلم ٢٥٨٥.

(٦) أخرجه البخاري ١٣، ومسلم ٤٥.

(٧) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٤١/١٦/٨.

(٨) سورة الحجرات، آية: ١٠.

رَأَيْتُ إِخْوَانَنَا))[١])[٢].

وقال كذلك: (فهذه الحقوق واجبة بنفس الإيمان، والتزامها بمنزلة التزام الصلاة والزكاة والصيام والحج، والمعاهدة عليها كالمعاهدة على ما أوجب الله ورسوله، وهذه ثابتة لكل مؤمن على كل مؤمن، وإن لم يحصل بينهما عقد مؤاخاة)[٣].

وقال النبي ﷺ: ((أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلاَةِ وَالصَّدَقَةِ؟ قَالُوا: بَلَى. قال: صَلاَحُ ذَاتِ الْبَيْنِ، فَإِنَ فَسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ))[٤]. وقال ﷺ: ((دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الأُمَمِ قَبْلَكُمْ: الْحَسَدُ وَالبَغْضَاءُ هِيَ الْحَالِقَةُ، لا أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعْرَ وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، ولا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَفَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِمَا يُثَبِّتُ ذَلِكَ لَكمْ: أَفْشُوا السَّلاَمَ بَيْنَكُمْ))[٥].

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: ((أَنَّ رَجُلاً سأل النبيَّ ﷺ: أَيُّ الإِسلامِ خَيْرٌ؟ قال: تُطْعِمُ الطَّعامَ، وَتَقْرَأُ السَّلامَ عَلَى مَن عَرَفْتَ وَمَن لم تَعْرَف))[٦]. وعن عبدالله بن عمرو كذلك قال: ((إِنَّ رَجُلاً سَأَلَ رَسُولَ اللّهِ ﷺ: أَيُّ الْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ؟ قَالَ: «مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ))[٧].

قال النووي: (وفي هذه الأحاديث جمل من العلم، ففيها الحث على إطعام الطعام والجود والاعتناء بنفع المسلمين والكف عما يؤذيهم بقول أو فعل بمباشرة أو سبب والإمساك عن احتقارهم، وفيها الحث على تألف قلوب المسلمين واجتماع كلمتهم وتوادهم واستجلاب ما يُحَصّل ذلك، قال القاضي[٨]: والألفة إحدى فرائض الدين

(١) أخرجه مسلم ٢٤٩.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٥٩/١٩.

(٣) المرجع السابق ٩٦/٦.

(٤) أخرجه أبوداود ٤٩١٩، والترمذي ٢٥٠٩، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤٩١٩)..

(٥) أخرجه الترمذي ٢٥١٠، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٠٣٨).

(٦) أخرجه البخاري ١٢، ومسلم ٤٠.

(٧) أخرجه البخاري ١٠، ومسلم ٤٠.

(٨) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢١.

وأركان الشريعة ونظام شمل الإسلام، قال: وفيه بذل السلام لمن عرفت ولمن لم تعرف إخلاص العمل فيه لله تعالى، لا مصانعة ولا مَلَقًا لمن تعرف دون من لا تعرف، وفيه مع ذلك استعمال خلق التواضع، وإفشاء شعار هذه الأمة والله تعالى أعلم)[١].

قال ابن تيمية: (وأمثال هذه النصوص في الكتاب والسنة كثيرة وقد جعل الله فيها عباده المؤمنين بعضَهم أولياء بعض، وجعلهم إخوة وجعلهم متناصرين متراحمين متعاطفين، وأمَرَهم سبحانه بالائتلاف ونهاهم عن الافتراق والاختلاف ... فمتى ترك الناس بعض ماأمرهم الله به وقعت بينهم العداوةُ والبغضاء، وإذا تفرق القوم فسدوا وهلكوا وإذا اجتمعوا صلحوا ومَلَكُوا، فإن الجماعة رحمة والفرقة عذاب)[٢].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: النهي عن كل ما يسبب العداوة بين المسلمين:

المسلمون أخوةٌ يسودُ بينهم الحبُّ والتوادُّ وتنتشر بين قلوبهم الأُلفة، لذا نهى الإسلام عن كل ما يعرض روابط هذه الأخوة للتفكك والتصدع، فنهى عن الأسباب التي تؤدي إلى نشر العداوة والبغض بينهم، فقد نهى ﷺ عن بيع النبذ والنجش والتصرية ونهى عن بيع الطير في الهواء والسمك في الماء، ونهى أن يخطب الرجل على خطبة أخيه، وأن يبيع الحاضر للبادي، وأن يقسم الرجل على سلعته ليغلِي ثمنها كما حرم النميمة والهمز واللمز والغيبة كل ذلك لاستيفاء الأخوّة ونمائها. وهذا واضح من قوله ﷺ: (لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانًا)[٣].

قال الشيخ عبدالله البسام: (هذا حديث عظيم فيه جملة من آداب الإسلام الكريمة، التي من شأنها أن يتحبب المسلم لأخيه المسلم، حتى توحد كلمة المسلمين وتجمع صفوفهم وتلم شملهم، وتجعلهم أمة واحدة وأخوة مسلمين.

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٢٧٦/١.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٢٥٧/٢-٢٥٩.

(٣) تم تخريجه برقم ٢٣٥.

أولها: (لا تحاسدوا): يعني لا يحسد بعضكم بعضًا، والحسد مركز في طباع البشر فالإنسان يكره أن يفوقه أحد من جنسه في شيء من الفضائل، والمنهي عنه هنا منه هو أن يتمنى زوال نعمة العبد عنه، سواء تمناها أن تنتقل إليه أو تمنى مجرد زوالها عن المحسود. وهذا خلق ذميم نهى عنه الشارع الحكيم، بما يسببه من الشرور في الدنيا، ولأنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب(١).

ثانيًا: "لا تناجشوا": والنجش معناه أن يزيد الإنسان في السلعة لا لقصد شرائها، وإنما لقصد الإضرار بالمشتري يرفع ثمنها عليه، أو لنفع البائع بزيادة الثمن له، وهو حرام، وإذا تحقق خُيِّر المشتري بين الإمساك ورد المبيع، لما ناله من الخديعة والمكر وزيادة الثمن.

ثالثًا: "لا تباغضوا": نهى عن التباغض بين المسلمين، فإن المسلمين جعلهم الله إخوة، قال ﷺ: ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لا تَدْخُلُوا الجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، ولا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلاَ أَدُلُّكُمْ على شيءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ، أَفْشُوا السَّلاَمَ بَيْنَكُمْ))(٢).

ولهذا المعنى حرم الله تعالى المشي بالنميمة، لما فيها من إيقاع العداوة والبغضاء، ورخص في الكذب في الإصلاح بين الناس.

أما البغض في الله تعالى فهو من أوثق عرى الإيمان وليس داخلاً في النهي، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: (من أحب في الله وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك، وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئًا).

رابعًا: "لا تدابروا": مأخوذ من أن يولي الرجل صاحبه دُبُره ويعرض عنه بوجهه، فقد

(١) ورد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: "إياكم والحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، أو قال: العشب" أخرجه أبو داود ٤٩٠٣ وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة ١٩٠٢، كما رواه ابن ماجه ٤٢١٠ عن أنس بن مالك > مرفوعًا، وضعفه أيضًا الألباني في السلسلة الضعيفة ١٩٠١.

(٢) أخرجه مسلم ٥٤.

جاء في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: ((لا يَحلُّ لمسلم أن يَهجُرَ أخاهُ فوقَ ثلاث، يَلتقيانِ فيصدُّ هذا ويَصدُّ هذا، وخيرُهما الذي يَبدأُ بالسلام))[1].

فالهجر فوق ثلاث محرم لا يجوز، ويحصل إنهاء الهجر بالسلام، وأما الهجر لأجل دين فتجوز الزيادة من غير تحديد، حتى يزول المانع من الهجر، واستُدل على ذلك بقصة الثلاثة الذين خلّفوا[2]، ويباح على أهل البدع المغلظة والدعاة إلى الأهواء والمبادئ الهدامة وأصحاب المذاهب المضللة.

خامسًا: "ولا يبع بعضكم على بيع بعض": قال الفقهاء: معناه أن يكون قد باع عليه شيئًا فينزل للمشتري سلعته بأرخص ليشتريها، ويفسخ بيع الأول، وهذا إذا كان في خيار المجلس أو خيار الشرط، وكذلك على الصحيح يشمل فيما إذا تم بينهما ولم يبق خيار، وذلك لئلا يحتال المشتري أو البائع على فسخ العقد، ويكون في نفسه عداوة وبغض للعاقد معه.

قوله: "ولا يبع بعضكم على بيع بعض" قد تكاثر النهي عن ذلك، ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: ((لا يبع المؤمن على بيع أخيه المؤمن))[3]، وفي رواية لمسلم: ((وَلاَ يَسُومُ عَلَى سَوْمِ أَخيهِ))[4].

ولهما من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: ((لاَ يَبِعِ الرَّجُلُ عَلَى بَيْعِ أَخيهِ))[5]، هذا دليل على اختصاص ذلك بالمسلم دون الكافر، وهو مذهب أحمد والأوزاعي، وذهب كثير من الفقهاء إلى أن النهي عام في حق المسلم والكافر، وأصح القولين أن النهي للتحريم.

---

(١) أخرجه البخاري ٦٢٣٧، ومسلم ٢٥٦٠.

(٢) هو حديث كعب بن مالك > أخرجه البخاري ٤٤١٨ ومسلم ٢٧٦٩.

(٣) أخرجه البخاري ٢١٤٠، ومسلم ١٤١٣ بلفظ: (لا يبيع الرجل على بيع أخيه).

(٤) أخرجه البخاري ٢٧٢٧، ومسلم واللفظ له ١٥١٥، والسَوْم: عرض الثمن بهدف البيع أو الشراء، المعجم الوجيز، مادة (س و م).

(٥) أخرجه البخاري ٢١٣٩، ومسلم ١٤١٢.

"وكونوا عباد الله إخوانا": ذكره النبي ﷺ كالتعليل لما تقدم، فإن في هذه الجملة اللطيفة إشارة إلى أنهم إذا تركوا التحاسد والتناجش والتباغض والتدابر ولم يبع بعضهم على بيع بعض صاروا إخوة متحابين متآلفين.

ففيه الأمر باكتساب الأشياء التي تجلب المحبة، والمودة والألفة من رد السلام وتشميت العاطس وإجابة الدعوة وعيادة المريض ونحو ذلك من الحقوق التي سنها الإسلام بين المسلمين، لتمكن المودة والألفة بينهم وتوحد كلمتهم)[١].

رابعًا- من فقه الداعية: تذكير المدعوين بعبوديتهم لله:

معنى العبودية: التسليم والخضوع لله سبحانه وتعالى وطاعته وامتثال أوامره واجتناب نواهيه، فإن العبد لا يعصى سيده وإلا أصبح عاصيًا وهذا من سوء أدبه، لذا كان من فقه الداعية وفطنته أن يذكّر المدعوين بكونهم عبيدًا لله تعالى، وإن من مقتضيات العبودية ولوازمها وعلاماتها طاعة الله فيما أمر وفيما نهى. وهو في هذا يقتدي بالرسول ﷺ عندما أتبع خطابه للمدعوين بقوله: "وكونوا عباد الله إخوانًا".

قال الصنعاني: (وبعد هذه المناهي الخمسة حثهم بقوله: "وكونوا عباد الله إخوانا" فأشار بقوله: "عباد الله" إلى أن من حق العبودية لله الامتثال كما أمر)[٢].

وفي رواية عند مسلم: (كما أمركم الله)[٣].

قال ابن حجر: (قوله: "عباد الله" أي: يا عباد الله بحذف حرف النداء. وفيه إشارة إلى أنكم عبيد الله فحقكم أن تتواخوا بذلك... ولعل قوله في الرواية الزائدة: "كما أمركم الله" أي: بهذه الأوامر المقدم ذكرها فإنها جامعة لمعاني الأخوة، ونسبتها إلى الله، لأن الرسول مبلغ عن الله... ويحتمل أن يكون المراد بقوله: "كما أمركم الله" الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[٤]، فإنه خبر عن الحالة التي شرعت للمؤمنين، فهو بمعنى الأمر)[٥].

---

(١) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٦/٣٣١ - ٣٣٢.

(٢) سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، الصنعاني ٩٧٢.

(٣) بعد الرواية ٢٤ - ٢٥٥٩.

(٤) سورة الحجرات، آية: ١٠.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠/٣٨٤.

قال ابن القيم: (لله سبحانه على عبده أمرٌ أمر به، وقضاء يقضيه عليه، ونعمةٌ ينعم بها عليه، فلا ينفك من هذه الثلاثة. والقضاء نوعان: إما مصائب وإما معايب وله عليه عبودية في هذه المراتب كلها، فأحبهم إليه من عرف عبوديته في هذه المراتب ووفاها حقها، فهذا أقرب الخلق إليه، وأبعدهم منه من جهل عبوديته في هذه المراتب، فعطلها علمًا وعملاً. فعبوديته في الأمر امتثاله إخلاصًا واقتداءً برسول الله ﷺ وفي النهي اجتنابه خوفًا منه وإجلالاً ومحبّة)(١).

خامسًا- من أهداف الدعوة: حِفظ الأرواح والأموال والأعراض:

وذلك واضحٌ من قوله ﷺ: "كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعِرضه"، قال عبدالله البسّام: (النصوص في تحريم دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم كثيرة صحيحة صريحة، فهو مما علم من الدين بالضرورة، والمتعين على المسلم أن يحترز عن حقوق المسلمين فلا يعتدي عليها، وإذا حصل بيده منها شيء فليردها إن قدر على ذلك،وإلا استحلّ أهلها منها قبل أن يأتي يوم لا يستطيع أداءها إلا من أعماله الصالحة، فإذا نفدت أعماله وضع عليه من سيئات أصحاب الحقوق)(٢).

وقال الدكتور عبدالكريم بن علي النملة: (تنقسم المصالح باعتبار أهميتها إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الضروريات، وهي المصالح التي لا بد منها في قيام مصالح الدين والدنيا، وصيانة مقاصد الشريعة، بحيث إذا فقدت أو فقد بعضها، فإن الحياة تختل أو تفسد، وللمحافظة على المصالح الضرورية شرع الله حفظ الدين، والنفس، والعقل، والنسب، والمال.

فشرع لحفظ الدين: قتل الكافر المضل عن هذا الدين، وقتل المرتد الداعي إلى ردته، وعقوبة المبتدع الداعي إلى بدعته، وشرع الجهاد.

---

(١) الفوائد، ابن القيم ص ١٦٥ - ١٦٦.

(٢) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٦/٣٣٤.

وشرع لحفظ النفس: عقوبة القصاص، وعقوبة الدية، ووجوب الأكل والشرب عند الضرورة ولو كان صائمًا، كذلك: شرع اللبس والمسكن، مما يتوقف عليه بقاء الحياة وصون الأبدان من التلف، أو أي ضرر.

وشرع لحفظ العقل: عقوبة شرب الخمر، ووجوب الأكل والشرب اللذين يتوقف عليهما بقاء العقل وسلامة فهمه.

وشرع لحفظ النسل والأنساب عقوبة الزنا، وأحكام الحصانة والنفقات.

وشرع لحفظ المال: عقوبة السرقة، والقواعد المنظمة للمعاملات المختلفة بين الناس لصيانة الحقوق.

ولا يمكن - بأي حال- تفويت هذه الأصول الخمسة، فلابد إذن من مراعاتها؛ لكون كل واحد منها يعتبر ركنًا من الأركان التي لا تقوم الحياة البشرية إلا بها...)[(١)].

سادسًا- من موضوعات الدعوة: الجزاء من جنس العمل:

إن من قواعد العدل أن يكون الجزاء من جنس العمل، والإسلام دين العدل، فمن قدّم خيرًا وجد خيرًا، ومن فعل شرًا لم يجد إلا شرًا، كما يتضح في هذا الحديث، وذلك في قول النبي ﷺ: ((مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ، كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ. وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)). وقال ابن كثير: (وذلك أن الجزاء من جنس العمل)[(٢)]، قال ابن حجر: (وفيه أن المجازاة من جنس الطاعات)[(٣)].

وقد قال الله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ۝٦٠﴾[(٤)]. قال ابن كثير: (أي ما لمن أحسن في الدنيا العمل إلا الإحسان إليه في الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ

---

(١) المهذب في أصول الفقه المقارن ١٠٠٤/٣ - ١٠٠٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٤٥/٧.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١٧/٥.

(٤) سورة الرحمن، آية: ٦٠.

أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ ﴾[(١)])[(٢)]. ومن هذا القبيل قول النبي ﷺ لأسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها: "لا تُوكِي فيُوكَى عليك لا تُحصِي فيُحْصِي الله عليك" و((أنفِقي، ولا تُحصِي فيُحْصِيَ اللهُ عليكِ، ولا تُوعِي فيُوعِي اللهُ عليكِ))[(٣)].

قال ابن حجر: (يقال: أوعيت المتاع في الوعاء أوعيه إذا جعلته فيه، ووعيت الشيء حفظته... والإيكاء شد رأس الوعاء بالوكاء وهو الرباط الذي يربط به، والإحصاء معرفة قدر الشيء وزنًا وعددًا، وهو من باب المقابلة، والمعنى: النهي عن منع الصدقة خشية النفاد، فإن ذلك أعظم الأسباب لقطع مادة البركة، لأن الله يثيب على العطاء بغير حساب، ومن لا يحاسب عند الجزاء لا يُحسب عليه عند العطاء، ومن علم أن الله يرزقه من حيث لا يحتسب فحقه أن يُعطي ولا يحسب)[(٤)]، وقال أيضًا: (قوله "ولا توعي فيوعى عليك" المعنى: لا تجمعي في الوعاء وتبخلي بالنفقة فتجازي بمثل ذلك)[(٥)].

سابعًا- من موضوعات الدعوة: تحصيل التقوى:

إن التقوى هي خير الزاد في الدنيا والآخرة، لذا يحرص المسلم على تحصيلها والتخلق بها، لأنها طريق الفلاح والفوز. ولهذا حضّ القرآن الكريم والسنة المشرفة المدعوين على تحصيل التقوى، كما هو واضح في هذا الحديث. وذلك في قول النبي ﷺ "التقوى ههنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات" قال النووي: (إن الأعمال الظاهرة لا يحصل بها التقوى، وإنما تحصل بما يقع في القلب من عظمة الله تعالى وخشيته ومراقبته)[(٦)].

---

(١) سورة يونس، آية: ٢٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٥٠٥/٧.

(٣) كل هذه الروايات أخرجها البخاري ١٤٣٣، ١٤٣٤، ٢٥٩٠، ٢٥٩١، وهي بنحوها في صحيح مسلم ١٠٢٩.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٥٢/٣.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٥٨/٥. وانظر: الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٣٥/٢ - ٣٦.

(٦) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٣٨.

وقال عبدالله البسام: (فيه إشارة إلى أن أكرم الخلق عند الله من اتصف بالتقوى لا بالجاه والرئاسة والمال، فرب من يحقره الناس لضعفه وقلة حظه من الدنيا هو أعظم قدرًا ممن له قدرة في الدنيا، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[1]، والتقوى أصلها في القلب فلا يطلع على حقيقتها إلا الله تعالى. وحينئذ فقد يكون ممن له صورة حسنة أو جاهٍ أو رئاسة في الدنيا، قلبه خال من التقوى. ويكون من ليس له شيء من ذلك قلبه مملوء من تقوى الله فيكون أكرم عند الله تعالى)[2].

وقد جاءت الأحاديث تنبه على هذا المعنى: فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إِنَّ اللّهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَىٰ صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ. وَلكِنْ يَنْظُرُ إِلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ))[3].

وقال صلى الله عليه وسلم كذلك: ((ألا وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً: إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسدُ كلُّه، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجسدُ كله، ألا وهِيَ الْقَلْبُ))[4].

قال ابن تيمية: (وصلاح القلب في أن يصلح له وبه المقصود الذي خلق له من معرفة الله ومحبته وتعظيمه. وفساده في ضد ذلك، فلا صلاح للقلوب بدون ذلك قط)[5] وقال كذلك: (إذا كان الإيمان في القلب فقد صلح القلب فيجب أن يصلح سائر الجسد، فلذلك هو ثمرة ما في القلب)[6].

وقال ابن الجوزي عن كون التقوى أصل السلامة: (اعلم أن الزمان لا يثبت على حال كما قال عز وجل: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[7] فتارة فقر وتارة غنى وتارة

---

(١) سورة الحجرات، آية: ١٣.

(٢) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٦/٢٣٣ - ٢٣٤.

(٣) أخرجه مسلم ٣٤-٢٥٦٤.

(٤) أخرجه البخاري ٥٢، ومسلم ١٥٩٩.

(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٩/٢٨٣.

(٦) المرجع السابق ٧/٢٥.

(٧) سورة آل عمران، آية: ١٤٠.

عز وتارة ذل، وتارة يفرح الموالي وتارة يشمت الأعادي، فالسعيد من لازم أصلاً واحدًا على كل حال، وهو تقوى الله عز وجل، فإنه إن استغنى زانته وإن افتقر فتحت له أبواب الصبر، وإن عوفي تمت النعمة عليه، وإن اُبتلي حملته، ولا يضره إن نزل به الزمان أو صعد أو أعراه أو أشبعه أو أجاعه، لأن جميع تلك الأشياء تزول وتتغير، والتقوى أصل السلامة حارس لا ينام، يأخذ باليد عند العثرة، ويوافق على الحدود... ولازم التقوى في كل حال فإنك لا ترى في الضيق إلا السعة، وفي المرض إلا العافية، هذا نقدها العاجل والآجل معلوم)[١].

ثامنًا- من وسائل الدعوة: الإشارة:

وذلك في قول النبي ﷺ: "التقوى ههنا، ويشير إلى صدره ثلاث مرات" وفي هذه الإشارة توضيح للأمر وجلاء له وتمييز له عن غيره وبيان لأهميته. ومن هذا القبيل قوله ﷺ: ((الفتنةُ من ها هنا. وأشار إلى المشرق))[٢].

تاسعًا- من أساليب الدعوة: الإخبار والنفي والترغيب والنهي والأمر والتكرار:

أما الإخبار فقوله ﷺ "المسلم أخو المسلم"؛ ليقرر حقيقة ثابتة لا تقبل الجدال أو النقض وأكد هذا بأن أعقبه بالنفي "لا يظلمه ولا يسلمه ولا يخونه ولا يكذبه ولا يخذله" قال ابن حجر: (هوخبر بمعنى الأمر)[٣].

وكذلك الإخبار في قوله ﷺ "بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم" ليؤكد على شناعة هذا الأمر.

أما الترغيب فقوله ﷺ "من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته.." وهذا يدفع المخاطب أن يفعل ما يسمع طمعًا في عون الله له وستره يوم القيامة. فضلاً عن قضاء حوائجه.

---

(١) صيد الخاطر: ابن الجوزي، عبدالرحمن بن علي بن محمد، تحقيق د. عبدالرحمن البر ص ١٩٠-١٩١.

(٢) أخرجه البخاري ٥٢٩٦، ومسلم ٢٩٠٥.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١٧/٥.

أما النهي فقوله ﷺ "لا تحاسدوا ولا تناجشوا..." ليحذر من فعل هذه الأشياء وأكد ذلك بأن أتبعه بالأمر "وكونوا عباد الله إخوانا" ليُعلم المخاطبين أن هذه المنهيات والمحذورات فعلها يناقض حقوق الأخوة. وأما التكرار فواضح من قول الراوي: "ويشير إلى صدره ثلاث مرات" وفي هذا تنبيه على هذا الأمر وأهميته، وقد استخدم النبي ﷺ التكرار كثيرًا من ذلك حديث أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ: ((فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُونَ لِي صَاحِبِي "أي أبا بكر"، مرتين: فما أوذي بعدها))[1].

ولا شك أن هذه الأساليب قد وضحت الرسالة الدعوية للمدعوين خير توضيح وخير بيانٍ. وهذا ما يجب أن يحرص عليه الداعية أشد الحرص.

---

(١) أخرجه البخاري ٣٦٦١.

الحديث رقم (٢٣٤)

٢٣٤- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**المُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِم لا يخُونُه ولا يكْذِبُهُ ولا يخْذُلُهُ، كلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حرامٌ عِرْضُهُ ومالُه ودمُهُ التَّقْوَى هَاهُنا، بِحسْبِ امْرِىءٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخاهُ المسلم**» رواه الترمذيُّ[١]، وقال: حديث حسن.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

يخذله: يترك عونه ونُصْرَتَه[٢].

العرض: جانب الإنسان الذي يصونُه من نفسه وحسبه ويُحامي عنه أن يُنتقص ويُعاب[٣].

يحقِر أخاه: يستهين به[٤].

الشرح الأدبي

تتلاقى فكرة هذا الحديث مع ما في الحديث السابق من ترغيب في المحافظة على الأخوة الإسلامية، ولذلك جاءت جملة البداية في الحديثين واحدة، وهي الجملة المفتاحية كما يقول دارسوا الأسلوب في ضوء علم لغة الحديث، وهذه الجملة "المفتاح" هي التي تعطي بدء الإشارة بالدخول إلى عالم هذا الحديث، وتجيء الجمل الثلاث بعد هذه الجملة متماثلة في صياغتها اللغوية فهي كلها أفعال مضارعة مسبوقة بحرف النفي "لا" ومقترنة بضمير الغائب الذي يعود على "المسلم"، وهذه الجمل جاءت لبيان وتعليل

---

(١) برقم (١٩٢٧). سيأتي بعده من رواية مسلم.

(٢) الصحاح في (خ ذ ل).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ع ر ض).

(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ح ق ر)

الحكم بأن المسلم أخو المسلم، وهى قاعدة إسلامية ثابتة لا تتغير مهما تغيرت الأحوال، وشوهت الأعمال، فالأخوة -كما يقول العلماء- مقتضية للشفقة داعية للمعروف والمنفعة، ومعايير الأخوة ومقاييسها تقتضي أن لا يخون المسلم أخاه المسلم، وأن لا يكذبه، وأن لا يخذله، والنفي هنا يتضمن النهى عن الخيانة، ولكن النفي أبلغ لأن النهى يوحي بأن الخيانة وقعت، ثم جاء النهى عنها.. أما النفي فهو يقتضي انتفاء هذه الصفة وعدم تلوث المسلم بها.

والخيانة إما أن تكون حسيّة مادية، وهى ما يقوم به بعض ضعاف النفوس من إنكار للأمانات، وتضييع للحقوق وإما أن تكون خيانة معنوية وهى عدم الإخلاص في النصيحة، وأن ينقص أخاه حقه الذي عليه من التعاون والتعاضد.

وقوله: "ولا يكذبه"، يعطي دلالات متعددة حسب ضبط الفعل "يكذبه"، وله ثلاث أوجه في الضبط، فإذا كان بفتح الياء، "يَكْذِبُه"، فالمراد أن يخبر المسلم أخاه المسلم خبراً كاذباً، وهذا ذنب كبير، وجرم خطير نهى عنه رسول الله ﷺ، ووصف الله سبحانه المشركين بأنهم كذَبُوا الله ورسوله.

وإذا كان الفعل مضموم الياء والكاف ساكنة والذال مخففة وينطق هكذا، "يُكْذِبُه"، فمعناه أنه: لا يُلقيه للمخبَر بفتح الباء كاذباً: أى لا يوصل إليه الخبر كاذباً، فلا بد من الصدق لأن الصدق يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة، والكذب يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار.

وإذا كان الفعل مضموم الياء وساكن الكاف، والذال مُضعَّفة: فتقول: "يُكذِّبه"، فالمعنى: لا ينسبه إلى الكذب(١)، وكل هذه الدلالات تتلاقى في حقل دلاليٍّ واحد وهو نفى الكذب: والأمر بالصدق والإخلاص في القول.

وقوله: لا يخذله، يحمل دلالتين: فالمراد: أن المسلم لا يترك نصرة أخيه المسلم المشروعة سيما مع الاحتياج والإضرار، فالخذلان محرَّم شديد التحريم، والخذلان قد يكون دنيوياً، كأن يقدر على نصر مظلوم ودفع ظالمه عنه فلا يدفعه، أو يكون دينياً:

---

(١) انظر: دليل الفالحين، ابن علان، ٤٥.

كأن يقدر المسلم على نصح أخيه المسلم بترك غيبة أو نحوها من المخالفات الشرعية فيترك هذه النصيحة حياءً أو ضناً بالنصيحة أو كرهاً أو خوفاً أو نفاقاً.

والجملة الخامسة توضح وتفصل الشأن في سبل المحافظة على الأخوة الإسلامية، فكل المسلم على المسلم حرام.

والإيجاز هنا سر جمال هذا التعبير وبلاغته، فهو قول فصل، وحكم تشريعي لا مراء في صدقه وصحته.

ويزداد الأمر وضوحاً حين يقول: "وعرضه وماله ودمه"، وهى كل ما يتضمنه كيان المسلم، وهي بدل من كل، وبدأ بالعرض، لأنه الحسب والمفاخرة بالآباء وبكل ما يحافظ عليه الإنسان من حرماته، وحرصه على أن لا تنتهك بالسب والغيبة والبهت، وهى أمور ظاهرة في المجتمع والمال يجب أن لا يُغَصب أو يخان فيه، وهو عصب الحياة، ولا قيمة له إذا تلوث عرض الإنسان، ودمه: أى نفسه ولا يتعرض لها المسلم بقتل أو بأى إيذاء يشوه جسد الإنسان، وربما لكثرة الخوض في الأعراض، وانتهاك المال بالسرقة أو غيره يكون أقل، ثم القتل أو استباحة الدماء تكون أقل لخطورتها، جاء هذا الترتيب في الحديث الشريف، وختام الحديث يرشد إلى ضرورة سلامة القلب وإخلاص النية، وهما الطريق إلى الابتعاد عن احتقار المسلم، وتعظيم حرمته وصون كرامته.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى أكثر من حكم فقهي:

الأول: حرمة نفس المسلم وماله وعرضه، وقد سبق الكلام عنها في الحديث رقم (٢١٣).

الثاني: أداء الأمانة ورد الوديعة، وقد سبق الكلام عنها في الحديث رقم (١٩٩).

الثالث: حكم الكذب، وقد سبق الكلام عنه في الحديث رقم (٥٤).

المضامين الدعوية[1]

(١) تقدم ذكرها مدمجة مع مضامين الحديث رقم (٢٣٣).

الحديث رقم (٢٣٥)

٢٣٥- وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تَحاسدُوا ولا تناجشُوا ولا تَباغَضُوا ولا تَدابرُوا ولا يبِعْ بعْضُكُمْ عَلَى بيْعِ بعْضٍ، وكُونُوا عِبادَ اللَّه إِخْواناً. المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِم لا يَظلِمُه ولا يَحْقِرُهُ ولا يَخْذُلُهُ. التَّقْوَى هَاهُنا ويُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاَثَ مرَّاتٍ بِحسْبِ امْرِيءٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرِ أَخاهُ المسلم. كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حرامٌ دمُهُ ومالُهُ وعِرْضُهُ**» رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

النَّجش: أن يزيد في ثمن سلعة يُنادى عليها في السوق ونحوه ولا رغبة له في شرائها بل يقصد أن يُغْرى غيرهُ، وهذا حرام[2].

التدابر: أن يعرض عن الإنسان ويهجره ويجعله كالشيء الذي وراء الظهر والدبر[3].

عرضُه: جانبه الذي يصونه من نفسه وحسبه، ويُحامي عنه أن يُنتَقَص ويُعاب[4].

الشرح الأدبي

إن المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص ويشد بعضه بعضاً، ومثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، وهذه الصلة القوية بين أبناء الأمة الإسلامية لابد لها من التحصين والتمكين، ويجب أن يتسلح المؤمنون بكل الوصايا والسلوكيات التي تشحن هذه العاطفة الإيمانية

---

(١) برقم (٢٥٦٤/٣٢). أورده المنذري في ترغيبه (٣٣٠٠). وسيكرره المؤلف برقم (١٥٧٢).

(٢) رياض الصالحين ١٤٢، والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ن ج ش).

(٣) رياض الصالحين ١٤٣.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ع ر ض).

بالطاقات الشعورية التي تكسب الكيان الإسلامي مناعة قوية ضد أمراض السلوك، وآفات النفس الإنسانية، ولابد لهذه الصلة الإيمانية من وسائل المقاومة التي تصد عواصف الوسوسات الشيطانية، والنزغات الشهوانية، والرغبات النفسانية التي لا تأبه بالقيم الإسلامية، ولا تعظم حرمات المسلمين.

وفي ظل هذه الرؤية الإيمانية للسلوك الإسلامي يستقبل المسلم هذه الوصايا النبوية التي أشرقت في بداية الحديث الشريف وهى ست وصايا: قدمها لنا رسول الله ﷺ، وكلها وردت في صيغة الجمع، وخمس منها ورد في أسلوب النهى وهى لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، والوصية السادسة جاءت في أسلوب الأمر في قوله: "وكونوا عباد الله إخوانا".

وأول ما نهى عنه رسول الله ﷺ هو التحاسد أي تبادل الحسد: لأن قوله: لا تحاسدوا يدل على المفاعلة والمشاركة: أي لا تتحاسدوا، وهذا التعبير أبلغ من لا تحسدوا، لأن هذه الصيغة تنهي عن تبادل هذه الصفة الذميمة.. وهى كذلك تتضمن النهى عن الحسد من جهة واحدة، وصيغة المفاعلة تشير إلى أن الحسد مركوز في طباع البشر، وهو أن الإنسان يكره أن يفوقه أحد من جنسه في شيء من الفضائل، ومتع الدنيا.

والحسد أقسام، حسب طبيعة الحاسد وحسب ما يكنه صدره وقلبه من غل وضغينة، فمن الناس من يسعى في زوال نعمة المحسود بالبغى عليه بالقول والفعل، ومنهم من يسعى في نقل النعمة إلى نفسه، ومنهم من يسعى في إزالة النعمة عن المحسود من غير نقل إلى نفسه: قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[1]،[2].

والوصية الثانية هي: النهى عن التناجش، والتناجش في اللغة: إثارة الشيء بالمكر والحيلة والمخادعة، ومنه سمى الناجش في البيع ناجشاً، ويسمى الصائد في اللغة ناجشاً لأنه يصيد الصيد بحيلته عليه وخداعه له، فالوصية هنا في دلالتها اللغوية والشرعية

---

(١) سورة النساء، آية: ٥٤.

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢/٢٦٠.

تقول: لا تخادعوا ولا يختل بعضكم بعض بالمكر والاحتيال، ومن ذلك النجش في البيع: وهو أن يزيد في السلعة مَنْ لا يريد شراءها، إما لنفع البائع لزيادة الثمن له، أو بإضرار المشتري بتكثير الثمن عليه، وفي ذلك إفساد لحركة البيع والشراء، وإضرار بالاقتصاد، وإخلال بموازين الثقة بين أبناء الأمة الإسلامية، لأن هذا السلوك هو تجسيد للمكر والمخادعة حيث يتعمد هذا الناجش: إيصال الأذى إلى أخيه المسلم إما بطريق الاحتيال، وإما اجتلاب نفعه بذلك، ويلزم منه وصول الضرر إليه، كما يقول صاحب جامع العلوم والحكم[1].

والوصية الثالثة: تقول: "ولا تباغضوا": وعدم التباغض يكون ثمرة لعدم التحاسد، وعدم التناجش فإن هذين "السلوكين" يؤديان إلى التباغض والحديث ينهي عن أسباب التباغض، وهو النفرة عن الشيء لمعنى فيه مستقبح وما أقبح الحسد، وما أقبح التناجش!!. والوصية الرابعة تتضمن النهى عن التدابر وهو المصارمة والهجران ودلالته مأخوذة من أن يولي الرجل صاحبه دبره، ويعرض عنه بوجهه وهو التقاطع، ومن سماته أن يحجب الإنسان عن أخيه النصيحة، ويعرض عما يجب له من حقوق الإسلام كالإعانة والنصر، والتأييد في المواقف التي تحتاج للمؤازرة والتعاون، والوصية الخامسة تنهي عن التدخل في صفقات البيع، وإفساد العقود شراءً وبيعاً، وذلك داء اجتماعي خطير، وشر مستطير.

والوصية السادسة تجيء في صيغة الأمر في قوله : وكونوا عباد الله إخواناً"، وهذه الوصية ثمرة لأن الراوي واحد، والحديثان تجمعهما دائرة السلوك الرشيد والعمل المفيد.

فقه الحديث

أشار هذا الحديث إلى عدة أحكام فقهية:

الأول: النهي عن النجش، وهو الزيادة في السلعة بغير قصد البيع وإنما بقصد خداع المشتري واستثارته ليرفع الثمن بدون وجه حق.

---

(١) انظر: المرجع السابق ٢/ ٢٦٤.

وقد اتفق الفقهاء على أن النجش في البيع ممنوع للنهي عنه وإن اختلفوا في قوة هذا المنع بين الكراهة والتحريم، فجمهور الفقهاء من المالكية[(١)] والشافعية[(٢)] والحنابلة[(٣)] يرون أن النجش حرام، والحنفية[(٤)] يرون أنه مكروه.

وإذا تم هذا البيع فقد ذهب الحنفية[(٥)] والشافعية في الصحيح[(٦)] والحنابلة في المذهب[(٧)] إلى أن البيع يكون صحيحاً ولا يفسخ، وذهب المالكية[(٨)] والشافعية في وجه[(٩)] والحنابلة في وجه[(١٠)] إلى أن المشتري يكون له الخيار بين الإمضاء والرد، واشترط المالكية في هذه الحالة عدم فوات المبيع.

---

(١) المنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ١٠٧/٥، وأحكام القرآن، ابن العربي ٣٢٣/١، وشرح الخرشي ٨٣/٥.

(٢) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ابن دقيق العيد ١١٣/٢، ومعالم القربة في طلب الحسبة ص ١٣٢، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين بن الحسن بن عبدالرحمن ٦٢/٦.

(٣) كشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٢١١/٣، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٤١/٢.

(٤) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٢٣٣/٥، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ٦/٤، والعناية شرح الهداية ٤٧٧/٦.

(٥) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٢٣٣/٥، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ٦/٤، والعناية شرح الهداية ٤٧٧/٦.

(٦) مغني المحتاج (٨٧٠) مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٣٩٢/٢، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، شمس الدين الرملي ٤٧٠/٣، وحاشيتا قليوبي وعميرة ٢٢٩/٢.

(٧) الفروع، ابن مفلح ٩٦/٤، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ٣١٥/٤.

(٨) المنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ١٠٧/٥، وأحكام القرآن، ابن العربي ٣٢٣/١، وشرح الخرشي ٨٣/٥.

(٩) مغني المحتاج (٨٧٠) مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٣٩٢/٢، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، شمس الدين الرملي ٤٧٠/٣، وحاشيتا قليوبي وعميرة ٢٢٩/٢.

(١٠) الفروع، ابن مفلح ٩٦/٤، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ٣١٥/٤.

الثاني: حكم البيع على البيع، وقد اتفق الفقهاء على أن البيع على البيع ممنوع للنهي عنه، وإن اختلفوا في قوة المنع فهو حرام عند جمهور الفقهاء من المالكية[١] والشافعية[٢] والحنابلة[٣]، ومكروه عند الحنفية[٤].

واختلفوا في حكم هذا البيع إذا وقع هل يكون صحيحاً أم لا على قولين.

القول الأول: ذهب جمهور الفقهاء من الحنفية[٥] والمالكية[٦] والشافعية[٧] والإمام أحمد في رواية[٨] إلى أن البيع صحيح ولا يفسخ، وإن كان البائع على بيع أخيه آثماً لارتكابه الأمر المنهي عنه.

القول الثاني: ذهب الحنابلة[٩] في المذهب إلى أن البيع باطل ويفسخ للنهي عنه، والنهي يقتضي الفساد.

الثالث: حرمة دم المسلم وماله وعرضه، وقد سبق الكلام عنه في الحديث رقم (٥٤).

المضامين الدعوية[١٠]

---

(١) تبصرة الحكام، ابن فرحون ٢٠٠/٢، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ١٠٠/٥.

(٢) نهاية الرتبة في طلب الحسبة ص ٦١، ومعالم القربة في طلب الحسبة ص ١٣٢، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين بن الحسن بن عبدالرحمن ٦٩/٦.

(٣) الفتاوى الكبرى ١٤٠/٥، والفروع، ابن مفلح ٤٥/٤، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ١٤٩/٤.

(٤) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٢٣٣/٥، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ٦/٤، والعناية شرح الهداية ٤٧٧/٦.

(٥) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٢٣٣/٥، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ٦/٤، والعناية شرح الهداية ٤٧٧/٦.

(٦) تبصرة الحكام، ابن فرحون ٢٠٠/٢، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ١٠٠/٥.

(٧) أسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٣٩/٢، والغرر البهية في شرح البهجة الوردية، القاضي أبو يحيى الأنصاري ٤٣٨/٢، وحاشيتا قليوبي وعميرة ٢٢٨/٢.

(٨) الفروع، ابن مفلح ٤٥/٤، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ١٤٩/٤، ومجموع فتاوى الشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٢٩٩/٦.

(٩) الفروع، ابن مفلح ٤٥/٤، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ١٤٩/٤.

(١٠) تقدم ذكرها مدمجة مع مضامين الحديث رقم (٢٣٣، ٢٣٤).

الحديث رقم (٢٣٦)

٢٣٦- وعن أَنسٍ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لا يُؤْمِنُ أَحدُكُمْ حتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**» متفقٌ عليه[1].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

الشرح الأدبي

إن المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى، وما أبلغ هذا التشبيه الذي جاء به البيان النبوي: وهو يصور تماسك الأمة الإسلامية... وكأنها البنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، ويتموج هذا الحديث الشريف بفيوضات المحبة والمودة والرحمة، وتكمن مقاصده في قلب حروفه وكلماته، وتسع معالمه وأسراره من ثنايا العلاقات اللغوية والإيحائية بين مكوناته؛ وتأمل بنيانه اللغوي: إنه جملة واحدة، لكنها كالشمس تنتشر أشعتها في السموات والأرضين، وتضيء زوايا الكون كله.

وما أشبه هذه الجملة الحديثية بالشمس في وهجها وإشعاعاتها. ولا غرو فهي نموذج من بلاغة النبوة، بخاصة أنه قد تفوه بها أفصح العرب لساناً، من أوتي جوامع الكلم إنه محمد ﷺ ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾[2].

ويرسى الحديث قاعدة من قواعد الإسلام التي لا تستقيم الحياة في غيابها، ولا تصلح أعمال الإنسان إلا في وجودها... وهي المحبة الخالصة في الله بين أبناء الأمة الإسلامية ولا تقتصر هذه المحبة على الكلمات المجنحة الرقيقة، والعبارات المنمقة الرشيقة؛ ولكن المحبة قول وعمل؛ وسلوك رشيد مُوَشًّى بجميل الأمل، واستشراف لما

---

(١) أخرجه البخاري (١٣) ومسلم (٤٥/٧١) ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه (٢٦٤٣).

(٢) سورة النجم، الآيات: ٣-٥.

تأتي به الأيام من إنجازات مشروعة، وطموحات غير مقطوعة ولا ممنوعة؛ وفي هذه الدائرة الواقعية والمستقبلية لا يتحرك المسلم وحده، ولكن يظل مَوْجَةً مضيئة بالحب لكل من حوله وهو يكابد ويصارع الأهواء والرغبات، وهو يجني ثمرة ما أطلقته طاقاته الشعورية والعملية من رجاءات وطموحات.

وفي ضوء هذه الرؤى الإيمانية فتأمل أسرار الجمال التعبيري في هذه البلاغة النبوية في هذا الحديث الشريف، وأول ما نجنيه من ثمرات هذا البيان: هو ذلك الإيجاز البليغ في هذا الحديث، فاللفظ قليل، ولكن المعاني تمتد أشعتها لتصافح شعور كل مسلم في كل زمان وكل مكان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وتسري هذه الأشعة في كل قلب ينبض بشهادة التوحيد، وتضيء كل فم ينطق بهذه الشهادة صادقاً مخلصاً عن يقين وتسليم، والحديث يبدأ بالنفي في قوله "لا يؤمن أحدكم"؛ وينتهي بالإثبات: "حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"؛ فالإيمان الكامل لا يتحقق إلا في ظل المحبة الصادقة لكل مؤمن بالله ورسوله، وقوله: "أحدكم"، يفيد العموم: والمراد: ذكراً كان أو أنثى، في أي زمان وفي أي مكان، وإضافة: "أحد"، إلى ضمير المخاطب الجمع يوحي بأن الأمة كلها كالفرد الواحد، فكل واحد منها هو أحد من هذه الأمة، وصيغة الفعل المضارع تعطي دلالة الاستمرار وعدم انحصار النفي في زمن واحد ومكان واحد، فالرسول ﷺ يخاطب الأمة كلها، وقد قال: فليبلغ الشاهد الغائب.

وقوله "حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه" يتضمن معاني عديدة، ولكنها كامنة في موحيات هذه الكلمات، فالإنسان يحب لأخيه ما يحب لنفسه، من الطاعات والمباحات، وسياق الكلام يقتضي أن يبغض لأخيه ما يبغضه لنفسه من كل ما يخاف منه المسلم من الأمراض والأهواء، والوساوس، والتعثر في أمور الحياة، وقيل: وسكت عنه -أي قوله ويبغض لأخيه ما يبغض لنفسه- مع كونه من كمال الإيمان اكتفاء بذكر ضده، وفي الحديث إيحاء وإشعاع بأن المؤمنين كلهم نفس واحدة، وجسد واحد، فالعقيدة واحدة، والتصورات والتعاليم واحدة، والله واحد لا شريك له، وقد وحدت المؤمنين مأدبة القرآن، ووحدهم حب المصطفى ﷺ والاقتداء به، فصلاتهم

واحدة وصومهم واحد، وحجهم إلى بيت واحد وقبلتهم واحدة، وطرق اكتسابهم لأموالهم مصدرها واحد وهو "المكسب الحلال"، وطرق الإنفاق المشروعة تؤطرها معايير واحدة، ومسالك استثمارية المال تخضع لأحكام الشريعة المستمدة من القرآن الكريم، وفي هذا الأفق تتوهج شمس الحب بين المسلمين.

المضامين الدعوية[1]

(١) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (١٨٣).

الحديث رقم (٢٣٧)

٢٣٧- وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِماً أَوْ مَظْلُوماً» فقَالَ رَجُلٌ: يَا رسول اللَّه أَنْصرهُ إِذَا كَانَ مَظلُوماً أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ ظَالِماً كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قال: «تَحْجُزُهُ أَوْ تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذلِك نَصْرُهُ» رواه البخاري[1].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

الشرح الأدبي

إن هذا المشهد الحواري بين رسول الله ﷺ وأحد الصحابة رضي الله عنهم، يحدد الإطار الشرعي للمناصرة والمؤازرة بين أفراد الأمة وطوائفها وقبائلها وشعوبها وهو إطار تحكمه علاقة الأخوة الإيمانية، والعاطفة الإسلامية، والصلات والوشائج الأسرية، والاجتماعية في ظل التعاليم والقواعد الشرعية: وفي هذا الحوار المقنع البليغ نجد أن الرجل الذي حاور رسول الله ﷺ لم يحدد اسمه، وذلك لأن القضية في هذا الحديث عامة تتعلق بأمر المسلمين جميعاً، وليست أمراً خاصاً، فالأخوة هنا أخوة الإيمان، التي يمكن أن تجمع في دائرتها الكبرى أخوة النسب، ولذلك بُدئ الحديث بفعل الأمر، "انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً"، والأمر للوجوب، والمأمور هو كل مسلم سمع هذا الأمر أو بُلِّغ بوسائل التبليغ التي تعددت قنواتها، وتنوعت آلياتها.

والنصر يكون بالمؤازرة والدفاع عن المظلوم، وليس الأمر قاصراً على الأفراد، وإنما لابد من تحقق هذا السلوك بين الدول الإسلامية فيما بينها، والوقوف مع أي شعب مسلم ضد كل من يعتدي عليه أو يسلبه حقوقه، ويغتصب عرضه وماله ووطنه، أو يعتدى على حرماته، أو يشوه تاريخه وثقافته، أو يحرف القرآن الكريم، أو ينكر معلوماً من الدين بالضرورة، أو يعطل حدود الله، ويشكك في أحكامه، وينكر السنة النبوية الشريفة.

---

(١) برقم (٦٩٥٢). أورده المنذري في ترغيبه (٣٣٠٥).

وقد يتساءل طلاب العلم والمعرفة والهداية، كيف يقدم نصرة الظالم على نصرة المظلوم؟ والمتوقع عكس ذلك.

والأمر ليس فيه قلب للحقائق: فالمتكلم رسول الله ﷺ وهو قد أوتي جوامع الكلم، فإن رد الظالم عن ظلمه هو قضاء على أسباب الظلم ودواعيه، ونصر الظالم ليس تأييداً له في ظلمه، وإنما هو ردعه ومنعه وحجزه عن هذا الظلم، وقال البيهقي: إن الظالم مظلوم في نفسه: فيدخل فيه ردع المرء عن ظلمه لنفسه حساً ومعنى ؟ ، وقال ابن بطال: النصر عند العرب: الإعانة: وتفسير الرسول ﷺ لنصر الظالم بمنعه من الظلم مِنْ تسمية الشيء بما يئول إليه وهو من وجيز البلاغة.

وجاءت أداة الشرط "إذا" في سياق الحديث عن المظلوم، في قوله: "أنصره إذا كان مظلوماً" للإفادة بوقوع الظلم حقيقة وليس احتمالاً لأن "إذا" تفيد التحقق، فالنصر يكون عند تحقق الظلم إنصافاً للمظلوم.

وفي سياق الحديث عن "الظالم" جاءت أداة الشرط "إن" وهى للشك للإفادة بأن وقوع الظلم غير متيقن: فحتى لو كان محتملاً أو ما زال صاحبه في مرحلة التفكير والإعداد والتخطيط: لابد أن يُردع ويقاوم ويمنع من هذا الطريق، ويوحي مجيء هذه الأداة كذلك، بأن المسلم لا بد أن يأبى الوقوع في هذا الشَرَك، وذلك الإثم المبين، فالظلم ظلمات يوم القيامة وهو في الحياة من أمارات الغلو والتطرف والإجرام، وتكرار الاستفهام في قوله: "أرأيت إن كان ظالماً: كيف أنصره ؟؟" للإيحاء بمزيد من المبالغة في الحيرة والتعجب من هذا الأمر الذي استغربه بعض الصحابة رضي الله عنهم ، وظن أن الرسول عليه الصلاة والسلام يقر الأعراف العربية القديمة لأن هذا القول: "انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً"، كان على حقيقته في الجاهلية بدافع التعصب القبلي والمنطق الجاهلي.

وهذه العبارة من كلام جندب بن العنبر بن تميم، وأراد بذلك ظاهر القول: وهو ما اعتاده من حمية الجاهلية.

ولكن الإسلام ألغى هذه العصبية، واكتسبت هذه العبارة دلالات جديدة في ظل تعاليم الإسلام الواضحة، وفي ظل الأخوة الإيمانية الصادقة، والتعبير بالفعل المضارع في

قوله: يحجزه أو يمنعه من الظلم، يجعل من مقاومة الظالمين ومنعهم من الظلم فعلاً مستمراً، وسلوكاً مستقراً، حتى لو كان الظالم أخًا شقيقاً، أو أخاً في العقيدة، وكذلك يكون هذا المنهج بين الطوائف والشعوب والأمم، وينتهي الحديث بأسلوب التوكيد البليغ، فإن ذلك نصره، والنصر يكون بالتوعية والتثقيف، والصدق في النصيحة، والصدّ والرد عن الظلم.

فقه الحديث

يعد هذا الحديث أصلاً في أحكام فقهية كثيرة منها: الدفاع عن الغير عند الاعتداء عليه بغير حق[1]، وقال الشوكاني: (إنه يجب نصر المظلوم ودفع من أراد إذلاله بوجه من الوجوه، وهذا مما لا أعلم فيه خلافًا، وهو مندرج تحت أدلة النهي عن المنكر)[2].

جاء في فتح الباري: (قوله [أي قول البخاري]: فإن قاتل دون المظلوم فلا قود عليه ولا قصاص، قال الداودي: أراد لا قود ولا دية عليه ولا قصاص. قال: والدية تسمى أرشًا، قلت: والأولى أن قوله "ولا قصاص" تأكيد، أو أطلق القود على الدية، وقال ابن بطال: اختلفوا فيمن قاتل عن رجل خشي عليه أن يقتل فقَتَلَ دونه هل يجب على الآخر قصاص أو دية؟ فقالت طائفة: لا يجب عليه شيء للحديث المذكور، ففيه "لا يسلمه"[3] وفي الحديث "انصر أخاك" وبذلك قال عمر، وقالت طائفة: عليه القود وهو قول الكوفيين، وهو يشبه قول ابن القاسم وطائفة من المالكية، وأجابوا عن الحديث بأن فيه الندب إلى

---

(١) رد المحتار ٤/٦٣، وشرح الخرشي ٨/١١٢، وشرح الزرقاني ٨/١١٨، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٤/١٦٨، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، شمس الدين الرملي ٨/٢٤، والفروع، ابن مفلح ٦/١٤٨.

(٢) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، الشوكاني ص ١٠٩٩، ط بيت الأفكار.

(٣) هو جزء من حديث متفق عليه عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا: "المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه..." أخرجه البخاري ٦٩٥١، ومسلم ٢٥٨٠.

النصر، وليس فيه الإذن بالقتل، والمتجه قول ابن بطال إن القادر على تخليص المظلوم توجه عليه دفع الظلم بكل ما يمكنه، فإذا دافع عنه لا يقصد قتل الظالم وإنما يقصد دفعه فلو أتى الدَفْع على الظالم -أي قتله- كان دمه هدرًا وحينئذٍ لا فرق بين دفعه عن نفسه أو عن غيره)[١].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الأمر والاستفهام.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: نصرة المظلوم والأخذ على يد الظالم.

ثالثاً: من واجبات المدعو: الاستفسار عما خفي عليه.

رابعاً: من أهداف الدعوة: إقامة العدل ورفع الظلم.

أولاً- من أساليب الدعوة : أسلوب الأمر والاستفهام:

لقد ورد الأمر في الحديث في قوله ﷺ "أنصر" والأمر من الأساليب الدعوية التي يستعين بها الداعي لحمل المدعو على فعل ما يدعى إليه، أما الاستفهام فقد ورد في الحديث في قول الرجل: يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوماً أرأيت إن كان ظالماً كيف أنصره؟ وأسلوب الاستفهام من الأساليب الدعوية التي تعين المدعوين على فهم خطاب الداعية، وإزالة اللبس أو الغموض.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: نصرة المظلوم والأخذ على يد الظلم:

لقد ورد في الحديث ما يؤيد ذلك في قوله ﷺ: "انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً" وقد بيّن ابن عثيمين: (أن النصر بمعنى الدفاع عن الغير أي دفع ما يضره)[٢]، وقال ابن حجر: (إن النصر عند العرب يعني الإعانة)[٣]، وقد حرم الحق تبارك وتعالى الظلم فقال في الحديث القدسي: ((يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَىٰ نَفْسِي. وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّماً. فَلاَ

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٠٩٩/٣.

(٢) شرح رياض الصالحين ٥٨٢/١.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١٨/٥.

تَظَالَمُوا))[١]، وقد أمر النبي ﷺ بنصرة المظلوم فقال: ((أفشوا السَّلاَمَ، وَأَعِينُوا الْمَظْلُومَ، وَاهْدُوا السَّبِيلَ))[٢]، وقال ﷺ: ((مَنْ نَصَرَ أخاهُ بظَهْرِ الغيبِ نَصَرَهُ الله فـي الدُّنْيَا والآخِرَةِ))[٣]، ورهّب ﷺ من عدم ذلك، فقال: ((مَا مِنْ امْرِئٍ يَخْذُلُ امْرأً مُسْلِماً فِي مَوَاقِعِ يُنْتَهَكُ فِيهِ حُرْمَتُهُ وَيُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ إلاَّ خَذَلَهُ الله فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ، وَمَا مِن امْرِئٍ يَنْصُرُ مُسْلِماً فِي مَوْضِعٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ وَيُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ إلاَّ نَصَرَهُ الله فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ نُصْرَتَهُ))[٤]، وفي ذلك بيان على أهمية نصرة المظلوم والأخذ على يد الظالم.

ثالثاً- من واجبات المدعو: الاستفسار عما خفي عليه:

إن استفسار المدعو عما خفي عليه من كلام الداعية، يُعد مؤشراً إيجابياً يؤكد على تواصل المدعو مع الداعية واهتمامه بفهم واستيعاب ما يسمعه، ويتضح ذلك من خلال ما ورد في الحديث من قول الرجل: (يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوماً أرأيت إن كان ظالماً كيف أنصره؟) وقد أمر الحق تبارك وتعالى بالسؤال والاستفسار عما خفى وأشكل فقال: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٥]، قال السعدي في ذلك: (أنه أمر من الله لمن لا يعلم بالرجوع إلى أهل العلم، وذلك في جميع الحوادث)[٦]، وبذلك يتحقق عظيم الفائدة للمدعوين.

رابعاً- من أهداف الدعوة: إقامة العدل ورفع الظلم:

إن إقامة العدل ورفع الظلم من أعظم أسباب إرضاء الرب قبل إرضاء الخلق، وذلك

---

(١) أخرجه مسلم ٢٥٧٧.

(٢) أخرجه أحمد ٢٨٢/٤ رقم ١٨٤٨٣، وقال محققو الإسناد حديث صحيح ورجاله ثقات ٤٣٥/٣٠.

(٣) سنن البيهقي ١٦٨/٨، وصححه الألباني في الجامع الصغير ٦٤٥٠.

(٤) سنن البيهقي ١٦٨/٨، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير ٥٥٦٦.

(٥) سورة النحل، آية: ٤٣.

(٦) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٣٩٤.

فضلاً عن تحقيق استقرار المجتمع الإسلامي وحصول طمأنينته، وذلك من أعظم أهداف الدعوة التي يكون بها صلاح الحال والبلاد؛ لذا أمر النبي ﷺ بالاجتهاد في إقامة العدل ورفع الظلم، وهذا ما يستفاد من نص الحديث في قوله ﷺ: (تحجزه - أو تمنعه - من الظلم).

وقد أمر الحق تبارك وتعالى بالعدل فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾[1]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[2]، قال ابن كثير: (أي: كونوا قائمين بالحق لله عز وجل، لا لأجل الناس والسمعة، وكونوا "شهداء بالقسط"، أي: بالعدل لا بالجور)[3]، وقال تعالى: ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ﴾[4].

وقد ثبت في الصحيحين عن النعمان بن بشير أنه قال: نحلني أبي نحلاً، فقالت أمي عمرة بنت رواحة: "لا أرضى حتى تشهد رسول الله ﷺ فجاء ليشهده على صدقتي، فقال: ((أَفَعَلْتَ هذَا بِوَلَدِكَ كُلِّهِمْ؟)) قَالَ: لاَ، قَالَ: ((اتَّقُوا اللّهَ وَاعْدِلُوا فِي أَوْلاَدِكُمْ))، وقال: ((إِني لاَ أَشْهَدُ عَلَى جَوْرٍ))[5].

قال الماوردي: (إن مما تصلح به حال الدنيا قاعدة العدل الشامل، الذي يدعو إلى

---

(١) سورة النساء، آية: ٥٨.

(٢) سورة المائدة، آية: ٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٦٢/٣.

(٤) سورة الحجرات، آية: ٩.

(٥) أخرجه البخاري ٢٥٨٦، ومسلم ١٦٢٣.

الألفة ويبعث على الطاعة، وتعمر به البلاد، وتنمو به الأموال، ويكبر معه النسل، ويأمن به السلطان.

وليس شيء أسرع في خراب الأرض، ولا أفسد لضمائر الخلق من الجور؛ لأنه ليس يقف على حد، ولا ينتهي إلى غاية، ولكل جزء منه قسط من الفساد حتى يستكمل.

ونُقل عن بعض البُلغاء قوله: إن العدل ميزان الله الذي وضعه للخلق، ونصبه للحق فلا تخالفه في ميزانه، ولا تعارضه في سلطانه، واستعن على العدل بخلتين: قلة الطمع، وكثرة الورع. فإذا كان العدل من إحدى قواعد الدنيا التي لا انتظام لها إلا به، ولا صلاح فيها إلا معه، وجب أن يُبدأ بعدل الإنسان في نفسه، ثم بعدله في غيره. فأما عدله في نفسه فيكون بحملها على المصالح وكفها عن القبائح، ثم بالوقوف في أحوالها على أعدل الأمرين: من تجاوز أو تقصير، فإن التجاوز فيها جور، والتقصير فيها ظلم، ومن ظلم نفسه فهو لغيره أظلم، ومن جار عليها فهو على غيره أجور.

فأما عدله مع غيره، فقد تنقسم حال الإنسان مع غيره على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: عدل الإنسان فيمن دونه، كالسلطان في رعيته، والرئيس مع صحابته، فعدله فيهم يكون بأربعة أشياء:

باتباع الميسور، وحذف المعسور، وترك التسلط بالقوة، وابتغاء الحق في السيرة. فإن اتباع الميسور أدوم، وحذف المعسور أسلم، وترك التسلط أعطف على المحبة، وابتغاء الحق أبعث على النصرة.

القسم الثاني: عدل الإنسان مع من فوقه. كالرعية مع سلطانها، والصحابة مع رئيسها، ويكون ذلك بثلاثة أشياء:

بإخلاص الطاعة، وبذل النصرة، وصدق الولاء؛ فإن إخلاص الطاعة أجمع للشمل، وبذل النصرة أدفع للوهن، وصدق الولاء أنفى لسوء الظن.

وهذه أمور إن لم تجتمع في المرء تسلط عليه من كان يدفع عنه واضطر إلى اتقاء من كان يقيه.. وفي استمرار هذا حل نظام شامل، وفساد صلاح شامل.

القسم الثالث: عدل الإنسان مع أكفائه، ويكون بثلاثة أشياء: بترك الاستطالة،

ومجانبة الإدلال، وكف الأذى؛ لأن ترك الاستطالة آلف، ومجانبة الإدلال أعطف، وكف الأذى أنصف، وهذه أمور إن لم تخلص في الأكفاء أسرع فيهم تقاطع الأعداء، ففسدوا وأفسدوا.

وقد يتعلق بهذه الطبقات أمور خاصة، يكون العدل فيها بالتوسط في حالتي التقصير والسرف، لأن العدل مأخوذ من الاعتدال، فما جاوز الاعتدال فهو خروج عن العدل، وإذا كان الأمر كذلك فإن كل ما خرج عن الأولى إلى ما ليس بأولى خروج عن العدل إلى ما ليس بالعدل.

ولست تجد فساداً إلا وسبب نتيجته الخروج فيه عن حال العدل، إلى ما ليس بعدلٍ من حالتي الزيادة والنقصان، وإذاً لا شيء أنفع من العدل كما أنه لا شيء أضرّ مما ليس بعدل"[1].

وفي ذلك بيان على أن إقامة العدل ورفع الظلم من أسمى مقاصد الشريعة التي يجب إقامتها وبذل الأنفس في تحقيقها.

---

(١) أدب الدنيا والدين ص ١٤١-١٤٢ بتصرف.

الحديث رقم (٢٣٨)

٢٣٨- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم قال: «حقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ خمسٌ: رَدُّ السَّلامِ، وَعِيَادَةُ الْمرِيضَ، واتِّبَاعُ الْجنَائِزِ، وإِجابة الدَّعوةِ، وتَشمِيت العَاطِسِ» متفق عليه[1].

وفي رواية لمسلم[2]: «حق الْمُسْلِمِ سِتٌّ: إذا لقِيتَهُ فسلّم عليْهِ، وإِذَا دَعاكَ فَأَجِبْهُ، وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصحْ لهُ، وإِذا عطَس فحمِد اللّه فَشَمِّتْهُ، وَإِذَا مرِضَ فعُدْهُ، وَإِذَا ماتَ فاتْبعهُ».

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

التشميت: أي الدعاء بالخير والبركة[3].

عاده: أي زاره[4].

الشرح الأدبي

للعلاقات الاجتماعية في ظل الإسلام إيقاعها الجميل، وهو اتباع منضبط نبيل، لا تدفع به إلى الوجود بواعث نفعية، ولا محركات مادية وقتية، ولكنه يصعد من القلوب، وينبض بالحب والوئام، ويعبق بطيوب الأمن والسلام؛ وحين نتأمل هذا الحديث النبوي الشريف نبصر في كل بارقة من بوارقه الخمس ضبطًا لهذا الإيقاع الاجتماعي المتوازن، وتقعيدًا لحركة التفاعل في الحياة بين المسلم وأخيه المسلم.

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٤٠) واللفظ له، ومسلم (٢١٦٤/٤). أورده المنذري في ترغيبه (٣١٨٦)، و (٣٩٨٦). وسيكرره المؤلف برقم (٨٩٦).

(٢) برقم (٢١٦٢/٥). أورده المنذري في ترغيبه (٣٩٨٦).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٤٩١.

(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٦٣٥.

فالبداية تعلن صراحة بأن "حق المسلم على المسلم خمس"، والحصر هنا ليس مقصودًا به الاقتصار على هذه الواجبات، وإنما جاء تحديدها لأهميتها في سياق هذا الحديث، وقيل لأن العدد لا مفهوم له، وقيل، لأن محل العمل بمفهومه ما لم يُعلم خلافه فإن الحقوق المتأكدة كثيرة، واقتصر على ما ذكر، إما لأنها المشروعة إذ ذاك، وما عداها شرع بعدها، وإما لأنها الأنسب بحال السامعين بتساهلهم فيها وشدة احتياجهم إليها[1].

والبناء اللغوي للحديث يفصح عن دلالاته، فالمبني وعاء للمعنى، والحديث يتسم في بنائه بالتناسق والتوازن، وهو يتكون من ست جمل، وكلها جمل اسمية، والبداية تفصح عن ثبات هذه المعالم السلوكية في ضبط إيقاع حياة المسلم: حيث يقول المصطفى ﷺ في صرامة وحسم، "حق المسلم على المسلم خمس"، والبداية بهذه الجملة الاسمية المكونة من المبتدأ والخبر، تعلن عن ثبات هذه الحقوق، وعدم ارتباطها بزمن دون آخر، وبعصر دون آخر، ولا مكان دون آخر فهى معالم سلوكية لشخصية المسلم في الماضي والحاضر والمستقبل ، والقديم والحديث، والبادية والحضر، وفي كل البيئات، وبعد هذا الإجمال، يفصل المصطفى ﷺ القول في هذه الخمس في إيجاز وتلميح.

وكل الجمل التي شاركت في بنيان هذا الحديث هي جمل اسمية، وهذا البنيان يفصح عن ثبات هذه الحقوق وضرورة عدم التهاون فيها، أو التقليل من شأنها، وثبات دلالة الجملة الاسمية يوحي بهذه الدلالة الشرعية الصحيحة، ومن جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث أن البناء اللغوي يتسم بالتوازن والتناسق، فكل جملة تتناسق مع الجمل الأخرى في بنائها، وتتوازن في هيئتها: فكل جملة تبدأ بمصدر مضاف إلى معموله، وهو يمثل صورة من صور العلاقات المتنوعة بين المسلمين في حركتهم الحياتية.

وكأن هذا التوازن والتناسق صورة لما يجب أن تكون عليه هذه العلاقات بين المسلمين من توازن وتناسق تنتظم به حياة المسلمين، وبدايات الجمل تتماثل في البناء اللغوي على هذا النسق "رد - عيادة - إتباع - إجابة – تشميت"، والمصادر متنوعة،

---

(١) انظر: دليل الفالحين، ابن علان، ٤٢١.

فمنها الثلاثي وهو "رد"، ومنها الرباعي وهو "إجابة"، ومنها الخماسي، وهو "اتباع"، ومنها الرباعي المضعف وهو "تشميت"، وتنوع هذه البنى اللغوية من حيث تعدد مصادرها يوحي بتنوع الظروف والحالات التي يحق للمسلم فيها أن يؤازر أخاه، وهو أن يعظم حرماته، وكل هذه الحقوق مع ما ذكر في الرواية الثانية من شأنها أن تشيع الألفة والبهجة بين أبناء الأمة الإسلامية، ونلاحظ أن الحقوق الست في الرواية الثانية، صيغت كلها في قالب الشرط والجزاء، وأفعال الجواب كلها في صيغة الأمر إعلانًا عن أنها واجبات لازمة وأداة الشرط "إذا" تؤكد هذا اللزوم لأنها للتحقق.

فقه الحديث

أشار هذا الحديث إلى أكثر من حكم فقهي:

الأول: حكم ابتداء السلام ورده، وقد اتفق الفقهاء[1] على أن رد السلام من فروض الكفايات فمتى قام به واحد من جماعة أجزأ عنها وإن تركه الجميع أثموا، وإن كان من يرد واحدًا فقد وجب عليه رد السلام، أما ابتداء السلام فقد اختلفوا فيه، فذهب جمهور الفقهاء من المالكية والشافعية والحنابلة في المذهب إلى أن ابتداء السلام سنة وليس واجبًا، وهو سنة على الكفاية فلو كانوا جماعة يكفي سلام أحدهم ولو سلموا كلهم كان أفضل، وذهب الحنفية والمالكية في قول والإمام أحمد في رواية إلى أن ابتداء السلام واجب.

الثاني: حكم عيادة المريض، وقد سبق الكلام عنها في الحديث رقم (٦).

---

(١) المبسوط، السرخسي ٢٩/٢، ٢٧٤/٣٠، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٢٦٤/١، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ٢٧٩/٧، وأحكام القرآن، ابن العربي ٥٩١/١، والأم للشافعي ٢٣٤/١، وأحكام القرآن للشافعي ٣٥/٢، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٤٥١/٤، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٧١/٢، ٨٦، ٢١٣/٧، والآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ٣٣٢/١، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٣١٤/١١.

الثالث: حكم اتباع الجنازة، وقد ذهب جمهور الفقهاء[(١)] إلى أن تشييع الجنازة سنة، وقال الزين بن المنير من المالكية: إن اتباع الجنازة فرض على الكفاية فمتى قام به البعض سقط عن الباقين مع ما في ذلك من عظيم الأجر عند الله تعالى.

الرابع: حكم إجابة الوليمة عند الدعوة إليها، وقد اختلف الفقهاء في ذلك على ثلاثة أقوال:

القول الأول: وهو لجمهورهم ويرون أن الإجابة إلى دعوة الوليمة واجبة[(٢)].

القول الثاني: وهو للحنفية[(٣)] وقالوا إن الإجابة لوليمة المسلم سنة، فمن دعي إليها فليجب أخاه تطييبًا لخاطره وتقوية للصلاة بينهما.

القول الثالث: لبعض الحنابلة[(٤)] وقالوا هي فرض على الكفاية.

---

(١) تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ٢٣٨/١، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٣١١/١، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٢٠٨/٢، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم المالكي ٢٩٣/١، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٣١٣/١، ٣٢٦، وتحفة المحتاج في شرح المنهاج، ابن حجر الهيتمي ١٣١/٣، ١٦٧، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ١٠٩/٢، ١٢٦، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٣٥٧/١، ٣٧٠، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٣/١٦ وما بعدها.

(٢) المنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ٣٤٩/٣، والتاج والإكليل ٢٤١/٥، والأم للشافعي ١٩٥/٦، وأسنى المطالب ٢٤٤/٣، وإحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ابن دقيق العيد ٢٩٥/٢، والفروع، ابن مفلح ٢٩٧/٥، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ٣١٨/٨، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٢١٣/٧، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٣٣٧/٢٠.

(٣) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ١٢٨/٥، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ١٣/٦، وأحكام القرآن، الجصاص ٤٠٨/٢.

(٤) الفروع، ابن مفلح ٢٩٧/٥، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ٣١٨/٨، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٢١٣/٧.

الخامس: تشميت العاطِس، وقد اختلف الفقهاء[1] في حكمه، فذهب الحنفية والحنابلة في قول إلى أن تشميت العاطِس إذا حمد الله تعالى واجبٌ، وذهب المالكية والحنابلة في المذهب إلى أنه واجب على الكفاية فمتى شمته أحد الحاضرين كفى، وذهب الشافعية إلى أن تشميت العاطس سنة وليس واجبًا، وقال القاضي أبو محمد من المالكية: هو مندوب.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: بيان حقوق المسلم.

ثانيًا: من أهداف الدعوة: توثيق عُرى الأخوة الإسلامية.

ثالثًا: من واجبات الداعية: بيان ما يحقق الأخوة الإسلامية ويقويها.

رابعًا: من واجبات المدعو: الاستجابة والامتثال لتوجيهات النبي ﷺ.

أولاً- من موضوعات الدعوة: بيان حقوق المسلم:

لقد اشتمل هذا الحديث على بيان عدد من حقوق المسلم على المسلم، وذلك في قوله ﷺ "رد السلام" وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة وتشميت العاطس وفي رواية "وإذا استنصحك فانصح له..." وقد بين النبي ﷺ عظم وأهمية هذه الحقوق فقال في إفشاء السلام ((لاتَدْخُلونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا. وَلاَ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا. أَوَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ «أَفْشُوا السَّلاَمَ بَيْنَكُمْ))[2]، وبين ﷺ عظم حق عيادة

---

(١) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٢٦٤/١، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ٢٨٦/٧، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم المالكي ٣٤٨/٢، وتحفة المحتاج في شرح المنهاج، ابن حجر الهيتمي ٢٣٠/٩، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٤٧٤/٤، وإحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ابن دقيق العيد ٢٩٦/٢، والفتاوى الكبرى ٣٥٩/٥، والآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ٣٣٤/٢، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٧٨/٢، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٧/١٢.

(٢) أخرجه مسلم ٥٤.

المريض فقال ﷺ: ((إن الله عز وجل يقول يوم القيام يا ابن آدم مرضت فلم تعدني. قال: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلان مرض فلم تعده أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده))[١]، وقد أشار ابن عثيمين إلى: (أن من حق المسلم على أخيه أن يتبع جنازته من بيته إلى المصلى - سواء في المسجد، أو في مكان آخر- إلى المقبرة)[٢].

فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: ((مَنْ شَهِدَ جَنَازَةً حَتَّى يُصَلَّى عَلَيْهَا فَلَهُ قِيرَاطٌ وَمَنْ شَهِدَ حَتَّى تُدْفَنَ فَلَهُ قِيرَاطَانِ قِيلَ: وَمَا الْقِيرَاطَانَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: مِثْلُ الْجَبَلَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ))[٣] وفي ذلك حث من النبي ﷺ على أداء هذا الحق لنيل عظيم الأجر، وفي بيان حق إجابة الدعوة قال ﷺ: ((وَمَنْ لَمْ يُجِبِ الدَّعْوَةَ، فَقَدْ عَصَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ))[٤] وقال أيضًا: ((إِذَا دُعِيَ أَحَدُكُمْ إِلَى طَعَامٍ فَلْيُجِبْ فَإِنْ شَاءَ طَعِمَ، وَإِنْ شَاءَ تَرَكَ))[٥]، وفي بيان حق المسلم في تشميته إذا عطس، قال ﷺ ((إنَّ الله يُحبُّ العُطاسَ ويكرهُ التثاؤبَ، فإذا عَطسَ فحمِدَ اللهَ فحقٌّ على كل مسلم سمعَه أن يشمِّتَه))[٦]؛ وفي بيان عظم حق النصيحة قال ﷺ ((الدِّينُ النَّصِيحَةُ))[٧]. قال النووي: (ومعنى الحديث عماد الدين وقوامه النصيحة، كقوله "الحج عرفة" أي عماده ومعظمه عرفة)[٨]. وفي ذلك بيان لحقوق المسلم على المسلم وأهمية القيام بها.

---

(١) أخرجه مسلم ٢٥٦٩.

(٢) شرح رياض الصالحين ١/٥٨٦.

(٣) أخرج البخاري ١٣٢٥، ومسلم ٩٤٥.

(٤) أخرجه مسلم ١٤٣٢.

(٥) أخرجه مسلم ١٤٣٠.

(٦) أخرجه البخاري ٦٢٢٣.

(٧) أخرجه مسلم ٥٥.

(٨) شرح صحيح مسلم، ١٣٠.

ثانيًا- من أهداف الدعوة: توثيق عُرى الأخوة الإسلامية:

هذا ما يستفاد من عموم الحديث في قوله ﷺ "حق المسلم على المسلم خمس...إلخ" وفي رواية "ست"، وفي بيان هذه الحقوق تتوثق عُرى الأخوة الإسلامية بين المسلمين ويتأكد قول النبي ﷺ ((تَرى المؤمنينَ في تراحُمِهم وتوادّهم وتَعاطفِهم كمثَلِ الجسَدِ إذا اشتكى عُضوًا تَداعى له سائرُ جسَدِه بالسّهَرِ والحُمّى))[١]، قال ابن حجر: قال القاضي عياض: فتشبيهه المؤمن بالجسد الواحد تمثيل صحيح، وفيه تقريب للفهم وإظهار للمعاني في الصورة المرئية، وفيه تعظيم حقوق المسلمين والحض على تعاونهم وملاطفة بعضهم بعضًا)[٢]، وفي ذلك عظيم الأثر في تحقيق وحدة المسلمين وأهمية القيام بها.

ثالثًا- من واجبات الداعية: بيان ما يحقق الأخوة الإسلامية ويقويها:

هذا ما بينه النبي ﷺ من الحديث في قوله "رد السلام، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس، فعلى الداعية أن يبين ما يحقق الأخوة الإسلامية ويقويها ممتثلاً في ذلك لقوله تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾[٣]، قال السعدي: (أي: على كل من أعطاه الله الكتب، وعلمه العلم، أن يبين للناس ما يحتاجون إليه مما علمه الله، ولا يكتمهم ذلك، ويبخل عليهم به، خصوصًا إذا سألوه، أو وقع ما يوجب ذلك)[٤].

رابعًا- من واجبات المدعو: الاستجابة والامتثال لتوجيهات النبي ﷺ:

قد "أمر الحق تبارك وتعالى بذلك فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾[٥]، قال السعدي: (يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان

---

(١) أخرجه البخاري ٦٠١١.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٥٤/١٠.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٨٧.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ١٢٧.

(٥) سورة الأنفال، آية: ٢٤.

منهم وهو الاستجابة لله وللرسول، أي: الانقياد لما أمر به والمبادرة إلى ذلك، والدعوة إليه والاجتناب لما نهيا عنه، والانكفاف عنه، والنهي عنه)[1]. وقد بين الحق تبارك وتعالى عظيم أجر الاستجابة لأمر الله ورسوله فقال: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[2].

فعلى المسلم أن يستجيب لأمر النبي ﷺ في مراعاته لحقوق المسلمين والاجتهاد في أدائها، حتى ينال عظم الأجر في الدنيا والآخرة.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٢٨٠.

(٢) سورة الرعد، آية: ١٨.

الحديث رقم (٢٣٩)

٢٣٩- وعن أَبي عُمارة الْبراءِ بنِ عازبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: أَمرنا رسولُ اللَّه ﷺ بِسبْعٍ وَنَهَانا عَنْ سَبْعٍ: أَمرنا بِعِيادة الْمرِيضِ، وَاتِّبَاعِ الْجنازةِ، وتَشْمِيتِ الْعاطِس، وَإِبْرارِ الْمُقْسِمِ[١]، ونَصْرِ المظْلُومِ، وَإِجابَةِ الدَّاعِي، وإِفْشاءِ السَّلامِ. وَنَهانا عَنْ خواتِيمَ أَوْ تَختُّمٍ بالذَّهبِ، وَعنْ شُرْبٍ بالفضَّةِ، وعَنِ المياثِرِ (الحُمْرِ)[٢]، وَعَنِ الْقَسِّيِّ، وَعَنْ لُبْسِ الحَرِيرِ وَالإِسْتَبْرَقِ وَالدِّيبَاجِ، متفق عليه[٣].

وفي روايةٍ[٤]: وإِنْشَادِ الضَّالةِ -فِي السَّبْعِ الأُولِ-.

ترجمة الراوي:

البراء بن عازب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨٠).

غريب الألفاظ:

تشميت العاطس: الدعاء له بالخير والبركة[٥]، بقولنا: يرحمك الله[٦].

إبرار المقسم: إمضاء يمينه وتنفيذها[٧].

المياثرُ: جمع مَيثرة: وهي شيء يُتَّخذُ من حرير ويحشى قطنا أو غيره، ويجعل في السرج وكُور البعير يجلس عليه الراكب[٨].

الإستبرق: الديباج الغليظ أو الثوب الغليظ الذي يكون سداه ولحمته من الحرير[٩].

---

(١) لفظ مسلم: (وإبرار القسم، أو المقسم) واختصره المؤلف.

(٢) هذا اللفظ ليس عند مسلم، وإنما عند البخاري برقم (٥٨٣٨) من حديث سفيان، عن الأشعث.

(٣) أخرجه البخاري (١٢٣٠)، ومسلم (٢٠٦٦/٣) واللفظ له. وسيكرره المؤلف برقم (٨٤٧). ورقم (٨٩٥).

(٤) لم أقف على هذه الرواية.

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ش م ت).

(٦) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية (ش م ت).

(٧) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ب ر ر).

(٨) رياض الصالحين ١٤٤.

(٩) معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ٣٧.

الديباج: الثوب الذي سداه ولحمته من الحرير[١].

إنشاد الضالة: تعريف الشيء المفقود[٢].

الشرح الأدبي

إن المصطفى ﷺ حريص على أمته، وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم؛ ويقول الحق سبحانه ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾[٣].

وحين نتأمل آفاق المعنى في هذا الحديث نجدها متعددة، وهي آفاق نبصر فيها سلوكيات المسلم الإيجابية، وكذلك لا تخلو آفاق المؤمن السلوكية من مخالفات وممارسات نهى عنها رسول الله ﷺ، وهذا الحديث الشريف يعد إقراراً من النبي ﷺ بما ورد فيه من قيم وسلوكيات أمر بها رسول الله ﷺ، وكذلك ما ورد فيه من ممارسات وأفعال ذميمة لا يقرها الشرع ولا يعترف بها.

وأسلوب الحديث الشريف من قول البراء بن عازب رضي الله عنه، وقد أورده في صيغة الإخبار حيث قال: "أمرنا رسول الله ﷺ بسبع، ونهانا عن سبع" والحديث هنا يبدأ بهاتين الجملتين: أمرنا ونهانا، وصيغة الجمع هنا ترشد إلى أن جميع الأمة الإسلامية مأمورة بهذه الأوامر، ومنهية عن هذه السلوكيات التي نهى عنها رسول الله ﷺ، والعدد هنا لا يراد منه حصر الأوامر والنواهي في هذه السلوكيات، وإنما هذه الأوامر وتلك النواهي المذكورة هي ما يشيع في قلب المجتمع، وما يحدث بين أبناء الأمة من عادات وعلاقات تنمو وتتكاثر في ظل القيم الإسلامية، وتكرَّر الفعل "أمرنا"، مرة أخرى في بداية تفصيل هذه الأوامر "أمرنا بعيادة المرضى"، ولم يتكرر في باقي المأمورات... لأن كل ما أمر به رسول الله ﷺ يعد أمراً واحداً في قلب دائرة السلوك الإسلامي الذي يتحصن به المجتمع، ويلوذ بمعالم هذا السلوك الحضاري الإيجابي، في ظل التصور الإيماني.

---

(١) معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ١٨٨.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ن ش د).

(٣) سورة الحشر، آية: ٧.

وعيادة المرضى، كم تترك من آثار حميدة في نفوس هؤلاء المرضى، وربما تكون من أسباب الشفاء والمعافاة، واتباع الجنائز من أعظم مظاهر المواساة بين المسلمين، ومع المواساة تكون العظة، ويكون الدعاء والترحم على الأموات، واتباع الجنائز ليس توديعاً للميت فقط، ولكن أثره يمتد ويتواصل ليشمل رعاية الأيتام الذين رحل عنهم كفيلهم وراعيهم، لأن أهل الميت يطمئنون إلى أنهم لن يكونوا وحدهم في مفازة الحياة بعد موت راعيهم أو أخيهم أو أي راحل من ذويهم، وتشميت العاطس يوحي بأن المسلم لا يشمت في أخيه لأن التشميت أصله إزالة شماتة الأعداء، وقيل معناه، صان الله شوامتك: أي قوائمك التي بها قوامك: فقوام الدابة مثلاً بسلامة قوائمها، وقوائم الإنسان التي بها قوامة الرأس وما اتصل به من عنق وصدر.

وإبرار المقسم بنحو "أقسمت عليك بالله" أو نحو "والله لتفعلن كذا" فيسن له حيث لا مانع تخليصاً له عن ورطة الاستهتار بحقه في الأول، وحنثه في الثاني -كما يقول صاحب دليل الفالحين-[1]؛ وتتعدد آفاق نصر المظلوم وتتشعب أبعاده، وتتنوع معالمه، ولم يقل "إعانة المظلوم"، وقال: "نصر"، لأن المظلوم في حاجة إلى من يرد إليه حقه المسلوب، وهذا يحتاج إلى مجاهدة وقوة، وإجابة الداعي، وإفشاء السلام، يشيعان في المجتمع البهجة والألفة والمحبة.

وحين نتأمل السلوكيات التي نهى عنها رسول الله ﷺ نجد أنها ترتبط بالترف والإسراف والبذخ، والتفاخر، والتكاثر، واللهو والاستغراق في مظاهر الزينة الدنيوية، وهذه المظاهر من التختم بالذهب، والشرب في آنية الفضة، ولبس الحرير والاستبرق، وتقليد الأعاجم: من ظواهر الفساد والدمار.

---

(١) دليل الفالحين، ابن علان ص ٤٢٢.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى أكثر من حكم فقهي:

الأول: حكم عيادة المريض واتباع الجنائز: اختلف الفقهاء في حكم عيادة المريض واتباع الجنائز فذهب الشافعية والحنابلة إلى أن عيادة المريض واتباع الجنائز سنة(١). وذهب بعض الحنابلة إلى أن عيادة المريض واتباع الجنائز فرض كفاية(٢). وذهب ابن دقيق العيد إلى أن عيادة المريض قد تكون واجبة إذا كان المريض مضطراً إلى من يتعاهده. وأما اتباع الجنائز إن أريد به الصلاة على الميت فهو من فروض الكفاية(٣). وقال الظاهرية: إن عيادة المريض فرض(٤).

الثاني: حكم ابتداء السلام وتشميت العاطس، ورد السلام: ذهب الإمام ابن تيمية إلى أن ابتداء السلام وتشميت العاطس واجب على الكفاية(٥). وذهب الحنفية إلى أن تشميت العاطس يجب لكل مرة، وقيل لا يشمت العاطس أكثر من ثلاث مرات إذا تابع، وقيل يجب التشميت مرة واحدة وما زاد فمندوب(٦). وإذا عطس والخطيب يخطب فإنه يكره تشميته لأنه ليس بفرض فلا يجوز ترك الفرض لأجله(٧).

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٣١/١٤، وأسنى المطالب شرح روض الطالب لزكريا الأنصاري ١٨٧/٤، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٣٣٩/١، ٣٥٧، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٣٥٤/٢.

(٢) الإقناع لطالب الانتفاع، الحجاوي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢١٠/١، وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٣٥٩/٥، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٣٥٤/٢.

(٣) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ابن دقيق العيد ٢٩٥/١، ٢٩٦.

(٤) المحلى، ابن حزم ٤٠٢/٣، ٤٠٣.

(٥) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٣٥٩/٥. والابتداء بالسلام سنة مستحبة عند المالكية والشافعية والحنابلة، وهو واجب عند الحنفية ورواية عند أحمد وقول مقابل للمشهور عند المالكية. الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٦١/٢٥ ومراجعها ومصادرها.

(٦) حاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح ٢٦٩/٢.

(٧) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٥٩٢/١.

وذهب الشافعية إلى أن تشميت العاطس سنة على الكفاية.

أما رد السلام فهو فرض بالإجماع. فإن كان السلام على واحد كان الرد فرض عين عليه، وإن كان على جماعة كان فرض كفاية في حقهم.

الثالث: حكم إبرار القسم، وقد ذكر الفقهاء[1] أنه من حلف على غيره أن يفعل واجباً أو يترك معصية وجب عليه إبرار قسمه، لأن الإبرار هنا قيام بحق الله تعالى، ومن حلف على غيره أن يفعل معصية أو يترك واجباً لم يجز إبراره بل يجب تحنيثه لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ومن حلف على غيره أن يفعل مكروهاً أو يترك مندوباً ندب تحنيثه ولا يبر قسمه، ومن حلف على غيره أن يفعل مندوباً أو مباحاً أو يترك مكروهاً يندب إبرار القسم على سبيل الاستحباب.

الرابع: حكم نصر المظلوم، وقد ذكر الفقهاء[2] أن نصر المظلوم من فروض الكفايات لمن قدر عليه لما فيه من إزالة المنكر ودفع الضرر عن المسلم، قال الشوكاني: يجب نصر المظلوم ودفع من أراد إذلاله بوجه من الوجوه وهذا مما لا أعلم فيه خلافاً.

الخامس: حكم إجابة الدعوة إلى الوليمة، وقد سبق الكلام عنه في الحديث السابق.

السادس: حكم لبس الحرير والذهب بالنسبة للرجال، وقد سبق الكلام عنه في

---

(١) أحكام القرآن، الجصاص ٦٧٥/٣، وشرح منح الجليل ٤٣٤/٤، وإحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ابن دقيق العيد ٢٩٦/٢، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٢٤١/٤، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٤٤٢/٣، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٢٣٠/٦، ومطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، الشيخ مصطفى السيوطي الرحباني ٣٦٧/٦، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، الشوكاني ٢٦٨/٨، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٩٣/٧.

(٢) أحكام القرآن، ابن العربي ٤٩٢/٣، وإحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ابن دقيق العيد ٢٩٦/٢، والسياسة الشرعية لابن تيمية ص ١٢١، والآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ٢٩٣/١، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، الشوكاني ٣٩٤/٥.

الحديث رقم (١٩١).

السابع: حكم استعمال آنية الذهب والفضة، وقد ذهب جمهور الفقهاء[١] إلى أنه يحرم استعمال أواني الذهب والفضة في الطعام والشراب للرجال والنساء، وذهب الشافعية في قول ضعيف[٢] إلى أن استعمال أواني الذهب والفضة مكروه فقط، والراجح ما ذهب إليه الجمهور لأنه الذي تؤيده الأدلة القوية من السنة.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الأمر، والنهي.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: أهمية الامتثال لأمر النبي ﷺ.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: أهمية تجنب ما نهى عنه النبي ﷺ.

رابعاً: من صفات الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم.

أولاً- من أساليب الدعوة أسلوب الأمر، والنهي:

الأمر والنهي من الأساليب الدعوية الرئيسة في توجيه المدعوين وحملهم على الامتثال لأوامر الشرع ونواهيه، وقد ورد الأمر والنهي كأسلوب دعوي هام في الحديث من قول الراوي: "أمرنا رسول الله ﷺ بسبع، ونهانا عن سبع".

ثانياً: من موضوعات الدعوة: أهمية الامتثال لأمر النبي ﷺ:

إن مما يستنبط من هذا الحديث أهمية الامتثال لأمر النبي ﷺ، وقد ورد ذلك في قول الراوي "أمرنا رسول الله ﷺ بسبع -ثم ذكر- أمرنا بعيادة المريض، واتباع

---

(١) شرح معاني الآثار، الطحاوي ٢٤٦/٤، ٢٤٩، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ١٣٢/٥، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ١٠/٦، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ١٠٨/٢، وأحكام القرآن، ابن العربي ٩٦/٤، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٣٠٦/١، وإحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ابن دقيق العيد ٢٩٧/٢، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٥٩/١، والفتاوى الكبرى ٢٩٩/٥، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١١٧/١.

(٢) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ابن دقيق العيد ٢٩٧/٢.

الجنائز، وتشميت العاطس، وإبرار المقسم، ونصر المظلوم، وإجابة الداعي، وإفشاء السلام. وفي بيان أهمية الامتثال لأمره ﷺ قال الحق تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾(١) قال ابن كثير: (أي: من عمل بما أمره الله ورسوله، وترك ما نهاه الله عنه ورسوله، فإن الله عز وجل يسكنه دار كرامته، ويجعله مرافقاً للأنبياء ثم لمن بعدهم في الرتبة، وهم الصديقون، ثم الشهداء، ثم عموم المؤمنين وهم الصالحون الذين صلحت سرائرهم وعلانيتهم)(٢)، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾(٣). قال السعدي أي: إن: (من امتثل لأمر الله ورسوله فأدى الأوامر واجتنب النواهي، فلابد له من دخول الجنة، والنجاة من النار)(٤)، وهذا ما رغب فيه النبي ﷺ ورهب من مخالفته، فقال: ((من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله))(٥).

قال ابن حجر: (قوله: "من أطاعني فقد أطاع الله" هذه الجملة منتزعة من قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾(٦). أي لأني لا آمر إلا بما أمر الله به، فمن فعل ما آمره به فإنما أطاع من أمرني أن آمره، ويحتمل أن يكون المعنى لأن الله أمر بطاعتي

---

(١) سورة النساء، الآيتان: ٦٩-٧٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣٥٣/٢.

(٣) سورة النساء، آية: ١٣.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ١٣٦.

(٥) أخرجه البخاري ٧١٣٧.

(٦) سورة النساء، آية: ٨٠ .

فمن أطاعني فقد أطاع أمر الله له بطاعتي، وفي المعصية كذلك، والطاعة هي الإتيان بالمأمور به والانتهاء عن المنهي عنه، والعصيان بخلافه)[١].

وفي ذلك بيان على أهمية الامتثال لأوامر النبي ﷺ وطاعته.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: أهمية تجنب ما نهى عنه النبي ﷺ:

إن مما يستنبط من الحديث أهمية الانتهاء عما نهى عنه رسول الله ﷺ، وقد ورد ذلك في قول الراوي "ونهانا عن سبع"-ثم ذكر- ونهانا عن خواتيم أو تختم بالذهب، وعن شرب بالفضة، وعن المياثر الحمر، وعن القسي، وعن لبس الحرير والاستبرق والديباج". وفي بيان أهمية تجنب ما نهى عنه النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٢] أي: (فليحذر وليخش من خالف شريعة الرسول باطناً أو ظاهراً "أن تصيبهم فتنة" أي: في قلوبهم، من كفر أو نفاق أو بدعة أو يصيبهم عذاب أليم في الدنيا، بقتل، أو حد، أو حبس، أو نحو ذلك)[٣]، وقد رهب النبي ﷺ من مخالفة ذلك فقال: ((كُلُّ أُمَّتِى يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلاَّ مَنْ أَبَى. قَالُوا وَمَنْ يَأْبَى يَا رَسُولَ اللَّه . قَالَ: مَنْ أَطَاعَنِى دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ عَصَانِى فَقَدْ أَبَى))[٤]، وفي ذلك بيان على أهمية تجنب ما نهى عنه النبي ﷺ.

رابعاً- من صفات الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم:

إن مما يستنبط من هذا الحديث حرص الداعية واتصافه بإرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم، وقد اتضح ذلك من أوامر ونواهي النبي ﷺ للمسلمين في هذا الحديث. قال ابن عثيمين: (إن الأوامر التي أمر بها النبي ﷺ كلها خير، والنواهي التي نهى عنها كلها شر، لأن قاعدة الشريعة تأمر بالمصالح وتنهي عن المفاسد)[٥]، وفي قيام الداعية

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٢٠/١٣.

(٢) سورة النور، آية: ٦٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٩٠/٦.

(٤) أخرجه البخاري ٧٢٨٠.

(٥) شرح رياض الصالحين ٥٩٦/١.

ببيان ذلك وتوضيحه يكون عظيم الأجر، فعن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: ((مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً))(١). فعلى الداعية أن يسارع في ذلك لتحصيل قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾(٢).

(١) أخرجه مسلم ٢٦٧٤.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٤٨.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

المجتمع المسلم يختلف عن غيره من المجتمعات في قوة الرابطة والتعاطف وحسن التعامل واحترام الكبير ورحمة الصغير، كل هذا مردوده إيجابي في الدنيا والآخرة.

أما في الدنيا فبقوة الرابطة بين أفراده، والتي سبهها الرسول ﷺ بالبنيان حيث إن لبناته يقوى بعضها بعضاً، ويتحامل بعضها على بعض، ويحمي بعضها بعضاً، وأي فراغ فيها على غير هدي يؤذي سائر اللبنات الأخرى، ومن أجل البيان شبك رسول الله ﷺ بين أصابعه كوسيلة إيضاح بلغة العصر، وفي الآخرة يجلب الرباطُ القوي إسلامياً رحمة الله، ولذلك كان من أساليب التربية:

أولاً- التربية بالتشبيه والتمثيل:

لقد استخدم النبي ﷺ أسلوب التشبيه والتمثيل لتقريب الفكرة إلى صحابته، وتبسيطها إلى أذهانهم، يقول ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان...» ثم يمثّل لصحابته هذا الترابط بين المؤمنين فيشبك بين أصابعه، ليوصل إليهم مدى الترابط والتراحم الذي يجب أن يكون بينهم.

ويقول ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، مَثَلُ الْجَسَدِ ...»، ووجه الشبه بين المسلمين وبين الجسد أنه: «إِذَا اشْتَكَىٰ مِنْهُ عُضْوٌ، تَدَاعَىٰ لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّىٰ».

وثمة فائدة كبيرة لهذه الطريقة التربوية؛ لأنها تجمع بين الإقناع والإمتاع لدى السامع؛ لأن ضرب المثل والتشبيه يأتي بصورة حسية تشبه الصورة المراد انتزاعها إن كانت سلبية، وتعديلها إن كانت معوجة، وتعزيزها إن كانت إيجابية ومرغوباً فيها، فيضعها في دائرة الإدراك العقلي؛ وذلك بإشراك الحواس في تحليل تلك الصورة تحليلاً نفسياً؛ من أجل الوصول إلى غرس كراهية الصور السلبية، ومن ثم الإقلاع عنها، أو الوصول إلى حب السلوك الحميد وتمثله علمياً كلما لزم الأمر[١].

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. أمين أبو لاوي ص١٦٣، ١٦٤.

كذلك فإن للأمثال قدرة على الاستحواذ على المشاعر وإيقاظ النفوس وتجديد نشاطها[١].

ثانياً- التربية بالتوجيه المباشر:

قد استخدم النبي ﷺ هذا الأسلوب في قوله: «مَنْ مَرَّ فِي شَيْءٍ مِنْ مَسَاجِدِنَا ..... وَمَعَهُ نَبْلٌ، فَلْيُمْسِكْ...»، وقوله: «إذا صلى أحدكم فليخفف....».

وتلك طريقة تربوية تهدف إلى إيصال القيمة إلى المتلقي من أقصر السبل، ويكون ذلك في الأمور البدهية، أو التي هي من ضرورات الدين، فالأول يتعلق بعدم ترويع المؤمنين، والنهي عن إشهار الأسلحة بين الناس، بل على حامل السيف أن يغمده؛ لأن في ذلك سداً للذرائع وإغلاقاً لأبواب الشر، والثاني: في التخفيف عن المصلين وتقصير الصلاة؛ مراعاة لذوي الحاجات والضعفاء والمرضى.

ومن خلال التوجيه المباشر يكون تصحيح الأخطاء، والحث على صالح العمل، وتحويل طاقات الإنسان نحو فضائل الأعمال، واستثمار قدراته بجوانب الخير، وجعل ذلك عادة مستديمة له[٢].

ثالثاً- التربية بالمواقف من الأحداث:

ومن خلال هذه المواقف أراد النبي ﷺ إرساء مبدئين: الأول: الرحمة بالأولاد خاصة: وذلك في عدة أحاديث؛ فأولها موقف الأقرع بن حابس عندما تعجب من تقبيل النبي ﷺ الحسن، فقال له النبي ﷺ: «مَنْ لا يَرْحَمْ لا يُرْحَمْ»، والثاني: أن النبي يقول: «إِنِي لأَقُومُ إِلَى الصَّلاَةِ ... فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِي فَأَتَجَوَّزُ فِي صَلاَتِي ...»، فتلك رحمة بالصغار، حرص النبي ﷺ عليها؛ حتى ينشأ الأطفال تنشئة صحيحة، فيكبرون سالمين من العقد النفسية التي تصيب بعض الأطفال الذين قسا عليهم آباؤهم، فكبروا قساة، يكرهون الناس، وما أكثر الحكام الجائرين في كثير من الدول الغربية، والذين تميزوا بالوحشية والدموية ،وكان سبب ذلك أنهم تربوا على

---

(١) أسلوب الدعوة القرآنية، د. عبدالغني محمد، ص٢٩٩.

(٢) أساليب الدعوة والتربية، د. زياد العاني، ص٢١٨.

القسوة منذ الصغر، فكبروا عليها، وعاملوا الناس بها.

الثاني: الرحمة بالمسلمين عامة؛ تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: «إِنْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَيَدَعُ الْعَمَلَ، ...، خَشْيَةَ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ النَّاسُ، فَيُفْرَضَ عَلَيْهِمْ»؛ وذلك رحمة بهم، من خلال ترك بعض العبادات التطوعية؛ خشية أن يعمل بها الناس فتفرض عليهم.

وحسن المعاملة والترفق بالناس من أهم الأساليب التربوية الناجحة والمؤثرة، التي سلكها الرسول ﷺ في التعامل مع من يريد تربيتهم وهدايتهم، وقد ترك ذلك لنا مثالاً طيباً يبين لنا فيه كيف أن الرفق ولين الجانب يفتحان العقول، ويستميلان القلوب، حتى يستطيع المربي أن يقذف بكل ما يريد بذره فيها من القيم والمعاني السامية التي يسعى المصلحون لغرسها في القلوب[1].

رابعاً- من سمات التربية الإسلامية: الواقعية:

وذلك يظهر في نهيه ﷺ عن الوصال -وهو مواصلة الصوم دون إفطار- رحمة بالمسلمين، وعندما سأله الصحابة: إِنَّكَ تُوَاصِلُ؟ قَالَ: «إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ ...»، والواقعية سمة رئيسية في الإسلام؛ لأنه دين خاتم، فليس فيه ما يصعب فعله على البشر، وليس فيه تكليف للناس فوق طاقاتهم، بل إن الجميع يستطيع أن يؤدي الفرائض والنوافل على قدر استطاعته، ولهذا نهى النبي ﷺ عن مواصلة الصيام؛ لأن في ذلك تكليفاً للنفس فوق استطاعتها، وغلواً أبغضه الإسلام، ونهى عنه.

لقد وجدت التربية الإسلامية من أجل العمل بها وتفعيلها في الواقع العملي في الحياة، ... مع كونها قيماً سلوكية تتفق مع قدرات الإنسان العقلية والوجدانية والجسدية، ولا تخرج عن طاقته الكامنة، يقول تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[2]، وهذا كله بخلاف التربية عند الآخرين؛ حيث تكلف الإنسان فوق طاقته، أو تطلب منه ما لا يتفق مع فطرته مما لا يمكن تطبيقه[3].

---

(١) أساليب الدعوة والتربية، د. زياد العاني، ص٢٦٦.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٨٦.

(٣) أصول التربية الإسلامية، د. أمين أبو لاوي ص٤٤.

خامساً- من المبادئ التربوية الإسلامية: دعم العلاقات الاجتماعية بين المسلمين:

ذلك بارز في أكثر أحاديث الباب، يقول ﷺ: «المسلم أخو المسلم...»، ويقول: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً...»، ويقول: «حق المسلم على المسلم خمس...»، ويقول البراء بن عازب رضي الله عنه: «أمرنا رسول الله ﷺ بسبع ونهانا عن سبع...».

وكل هذه الأحاديث تحض على التراحم والتعاطف بين المسلمين، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وتشميت العاطس، ونصرة المظلوم... وما إلى ذلك من الأخلاقيات التي تقوي العلاقات الاجتماعية وتعضدها بين المسلمين.

إن الفرد مرتبط ارتباطاً شديداً بمجتمعه، ومن الصعوبة التعايش بدون المجتمع، أو بمعزل عنه؛ فالمجتمع مصدر أنسه وأمنه وسعادته، وعلى الفرد واجبات ومسئوليات نحو مجتمعه، كما أن له حقوقاً ينبغي على المجتمع أن يعني بتقديمها له(١).

سادساً- التربية على رحمة الصغير:

إن من سمات الأخلاق الإسلامية الأساسية احترام الكبير ورحمة الصغير والعطف عليه، وقد بدا في هذا الباب حرصه ﷺ على الرأفة بالصغير، يقول ﷺ: «إِنِّي لأَقُومُ إِلَى الصَّلاَةِ، ...، فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ، فَأَتَجَوَّزُ فِي صَلاَتِي، كَرَاهِيَةَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمِّهِ»؛ لأن بكاء الطفل الصغير سيثير شفقة الأم، وبالتالي ستهتم به وتنشغل بإسكاته عن الصلاة، ولهذا فإن النبي ﷺ كان يقصر الصلاة إذا سمع بكاء الطفل الصغير شفقة ورحمة منه به وبوالدته.

لقد ركز النبي ﷺ على الطفولة ووجوب رعايتها وتنشئتها النشأة الصالحة؛ وذلك إكراماً لجوهر الإنسان؛ حتى يجعل من تنشئة الجيل بجنسيه تنشئة لمجتمع يعرف حق الطفولة، ومن يعرف حق الطفولة فقد رفرفت الرحمة بنورها فوق ربوعه(٢).

---

(١) دور الأسرة في تربية أولادها في مرحلة البلوغ، عبدالرحمن الغامدي ص٣٦٧،.

(٢) موسوعة القيم ومكارم الأخلاق، إشراف د. مرزوق بن تنباك ٢٦/ ٨٠.

٢٨- باب ستر عورات المسلمين
والنهي عن إشاعتها لغير ضرورة

قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة ﴾[النور: ١٩].

الحديث رقم (٢٤٠)

٢٤٠- وعن أَبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**لا يستُرُ عَبْدٌ عبْدًا فِي الدُّنْيَا إِلاَّ سَتَرهُ اللّه يَوْمَ الْقيامَةِ**» رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

يتصدر هذا الحديث الشريف باب ستر عورات المسلمين، والإمام النووي يجعل في مقدمة هذا الباب: الميثاق الذي لابد أن ينتبه له المسلمون وهو ضرورة المحافظة على حرمات المسلمين، وفي مقدمة متعلقات هذا التعظيم ومعالمه ستر عورات المسلمين، ولذلك بدأ الإمام النووي: بقول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[2].

والحديث في منطوقه ينزع إلى التبشير والترغيب حيث يبشر رسول الله ﷺ كل من يستر مسلمًا ولا يفضح أمره، ولا يذيع عوراته وأسراره التي يحرص على كتمانها، بأن الله سيستره يوم القيامة ولا يفضحه على رءوس الأشهاد، وما أحوج كل عبد إلى الستر الإلهي في ذلك اليوم.

---

(١) برقم.(٢٥٠٩/٧٢). أورده المنذري في ترغيبه (٣٤٤١).

(٢) سورة النور، آية: ١٩.

وحين نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي والأسرار البلاغية في هذا الحديث الشريف: نجد أن الإيجاز هو السمة التي طبعت هذا الحديث بطابعها البليغ، ونسقها العجيب.

فبناء الحديث اللغوي ينبئ بمقاصده، ويعلن عن ثمرته المرجوة، حيث صيغ الحديث كله في جملة واحدة، ولكنها تشع بفيوضات من النعم الإلهية، وتظل أنموذجًا ومنارة لكل عبد مسلم أو معاهَدٍ يعيش آمنًا بين المسلمين: حيث ينعم الناس بنعمة الستر، ويمكنون في بيوتهم وهم آمنون من عيون المتلصصين وألسنة الواشين، وتعريض اللامزين الهمازين، ونقولات المشائين بالنميمة؛ وتأكيدًا لصرامة هذا النهج وحتمية وجوده، يجيء هذا الحديث في صيغة القصر عن طريق النفي والاستثناء، وفي ذلك القصر تأكيد لوعد الله بالستر يوم القيامة.

واختيار الألفاظ الدالة المشعة المائجة بالدلالات والإيحاءات من أسرار بلاغة البيان النبوي، فالفعل "يستر" بمجيئه في صيغة المضارع يعلن عن ديمومة الستر حاضرًا ومستقبلاً، وعدم التفلت منه.

والستر في اللغة من معانيه: الخوف والحياء والعمل، وكأن العبد حين يستر أخاه في الله والإنسانية والوطن، يخاف عليه من إفشاء أسراره الخاصة من عيب أو مرض أو فقر أو أى خصوصيات ذاتية، وهو في ظل هذا الخوف لديه حياء إيماني يمنعه من الخوض في سيرة غيره من عباد الله، واختيار النبي ﷺ للفظ "عبد"، فاعلاً ومفعولاً لفعل الستر، في الدنيا له موحياته وأسراره: فقد جاء في لسان العرب أن أصل العبودية: الخضوع والتذلل، وقال سيبويه، العبد في الأصل صفة، قالوا: رجل عبد: والجمع أعبد وعبيد وعباد وعُبد، ، وابن فارس يرى أن مادة عبد تجمع بين الذل والشدة، حيث يظل العبد في خضوع وتذلل وطاعة لمن يملكه: وما أعظم هذه الصفة في مقام العبودية ففي الإسلام لا معبود إلا الله.

وقال ابن الأنباري: فلان عابد وهو الخاضع لربه، المستسلم المنقاد لأمره، وقال الزجاج: ومعنى العبادة في اللغة الطاعة مع الخضوع، وقال الأزهري: اجتمع العامة على

تفرقة ما بين عباد الله والمماليك، فقال: هذا عبد من عباد الله، وهؤلاء عبيد مماليك، وفي ضوء هذه الأسرار اللغوية ندرك دقة البيان النبوي، وعمق أسراره، وبعد أغواره، وكيف لا، وهو يبزغ من مشكاة الوحى، وينبع من حوارات البيان القرآني، ففي القرآن الكريم مائتان وخمس وسبعون آية ترد فيها كلمة "عبد"، وهي لا تخرج عن الأصل اللغوي المعروف، والدلالة المصاحبة لها في ظل التصور الإسلامي، والقرآن الكريم أضفى عليها صفة التخصيص بعبادة الله عز وجل وحده، ويختم الحديث ببشارة الستر ووعد النجاة يوم القيامة: والستر من الله، وما أعظم هذا الستر، وما أحوج كل عبد إلى ستر المنعم الوهاب، يوم يُحدَّد العقاب ويضاعف الثواب.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم فقهي يتعلق بالستر على أهل المعصية ممن يظن توبتهم بالستر، وقد ذكر الفقهاء[1] أنه متى وجد مُسلم آخَر في معصية ثم نصحه بالإقلاع عنها فينبغي له أن يستر عليه، ولذا يجوز في الحدود الشهادة والستر، والستر أفضل، ما لم يشتهر العاصي بمعصيته أو يكون قد ستر عليه فلم يتب فيستحب حينئذ الشهادة عليه، فقد استثنى الفقهاء من ذلك المتهتك الذي لا يبالي بإتيان المحظورات ولا يتألم لذكره بالمعاصي فلا ينبغي ستره حينئذ، وكذا من الستر المطلوب أن من رأى ميتًا في حال سيئة فلا يشهر به بل يستر عليه، وغير هذا في كل الأحوال والظروف التي تتطلب الستر.

---

(١) شرح فتح القدير، ابن الهمام الحنفي ٢١٤/٥، والجوهرة النيرة لأبي بكر العبادي ٢٢٥/٢، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ١٦٤/٦، والتاج والإكليل ٤٣٧/٨، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ١٥١/٤، والزواجر عن اقتراف الكبائر ٢٠٨/٢، والفروع، ابن مفلح ٥٤/٦، والآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ٢٣٤/١.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: القصر، والترغيب.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: أهمية وفضل الستر.

ثالثًا: من أهداف الدعوة: المحافظة على سلامة وطهارة المجتمع.

أولاً- من أساليب الدعوة: القصر، والترغيب:

لقد ورد أسلوب القصر في الحديث من قوله ﷺ "لا يستر... إلا ستره..." وأسلوب القصر من الأساليب الدعوية الهامة التي تحفز المدعوين على فعل الأمر المدعو إليه، أما أسلوب الترغيب فقد ورد في الحديث من قوله ﷺ "إلا ستره الله يوم القيامة". (والترغيب من الأساليب الدعوية التي تشوق المدعو إلى فعل الأمر الذي يُدعى إليه، والأصل في الترغيب أن يكون في نيل رضى الله ورحمته وجزيل ثوابه في الآخرة)[1]. وهذا ما ظهر جليًا في الحديث من سَتْر اللهِ تعالى يوم القيامة لمن سَتَر مسلمًا في الدنيا.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: أهمية فضل الستر:

إن من موضوعات الدعوة المستنبطة من هذا الحديث أهمية وفضل الستر، حيث ورد في الحديث ما يؤيد ذلك من قوله ﷺ "لا يستر عبد عبدًا في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة".

وهذا ما أكده النبي ﷺ في قوله: ((المسلمُ أخو المسلمِ لا يَظلمُه ولا يُسلِمُه، ومَن كان في حاجةِ أخيهِ كان الله في حاجتهِ، ومَن فَرَّجَ عن مُسلمٍ كُربَةً فرَّجَ الله عنهُ كُربةً من كُرباتِ يومِ القيامةِ، ومَن سَتَرَ مُسلِمًا سَتَرَهُ اللهُ يومَ القيامة))[2].

قال ابن حجر: (معنى قوله "ستر مسلمًا" أي رآه على قبيح فلم يظهره للناس، وليس في هذا ما يقتضي ترك الإنكار عليه فيما بينه وبينه، ومن الستر أيضًا: أن يستتر الإنسان إذا وقع منه شيء.

---

(١) انظر: أصول الدعوة، د.عبدالكريم زيدان، ٤٢١.

(٢) أخرجه البخاري ٢٤٤٢، ومسلم ٢٥٨٠.

وقال: والذي يظهر أن الستر محله في معصية قد انقضت، والإنكار في معصية قد حصل التلبس بها فيجب عليه الإنكار وإلا رفعه إلى الحاكم)[١].

وقال النووي: (المراد بالستر الستر على ذوي الهيئات ونحوهم ممن ليس معروفًا بالأذى والفساد، فأما المعروف بذلك فيستحب أن لا يستر عليه بل ترفع قضيته إلى ولي الأمر إن لم يخف من ذلك مفسدة، لأن الستر على هذا يطمعه في الإيذاء والفساد وانتهاك الحرمات وجسارة غيره على مثل فعله، هذا كله في ستر معصية وقعت وانقضت، أما معصية رآه عليها وهو بعد متلبس بها فتجب المبادرة بإنكارها عليه ومنعه منها على من قدر على ذلك ولا يحل تأخيرها، فإن عجز لزمه رفعها إلى ولي الأمر إذا لم تترتب على ذلك مفسدة، وأما جرح الرواة والشهود والأمناء على الصدقات والأوقاف والأيتام ونحوهم فيجب جرحهم عند الحاجة، ولا يحل الستر عليهم إذا رأى منهم ما يقدح في أهليتهم وليس هذا من الغيبة المحرمة بل من النصيحة الواجبة)[٢]. (فإذا ستر مسلم مسلمًا معاصيه وعيوبه عن إذاعتها في أهل الموقف -وكان كما بين النووي- فهو من أجزل الله له الثواب، ورفع له الدرجات)[٣].

وقد بين الحق تبارك وتعالى فضل الستر بأن جعله صفة له سبحانه وفي ذلك قال النبي ﷺ ((إنَّ الله حَيِيٌّ سِتِّيرٌ يُحِبُّ الحيَاء وَالسَّتْرَ))[٤] فمن ستر عورة أخيه المسلم ستر الله عورته يوم القيامة ومن كشف عورة أخيه كشف الله عورته حتى يفضحه بها في بيته وفي ذلك قال ﷺ: ((يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ ، وَلَمْ يَدْخُلِ الإِيمَانُ قَلْبَهُ لاَ تَغْتَابُوا المُسْلِمِينَ، وَلاَ تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ فَإنَّهُ مَنْ يَتْبَعْ عَوْرَةَ أَخِيهِ يَتْبَعُ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، حَتَى يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ))[٥] وفي ذلك بيان على أهمية الستر وضرورة التخلق به.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١٧/٥.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٤٣.

(٣) انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٤٧.

(٤) أخرجه أبو داود ٤٠١٢، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٣٨٧).

(٥) أخرجه أبو داود ٤٨٨٠، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤٠٨٣).

ثالثًا- من أهداف الدعوة: المحافظة على سلامة وطهارة المجتمع:

إن من أهم وأبرز ما تهدف الدعوة الإسلامية إلى تحقيقه: المحافظة على سلامة وطهارة المجتمع من خلال إشاعة الستر والترغيب فيه، وهذا ما يستنبط من عموم الحديث، ومما يؤكد ذلك ما رواه ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن سمحاء، فقال النبي ﷺ: "البينة أو حد في ظهرك". فقال: يا رسول الله، إذا رأى أحدنا على امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة؟ فجعل النبي ﷺ يقول "البينة وإلا حد في ظهرك" فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق، ولينزلن الله ما يبرئ ظهري من الحد، فنزل جبريل وأنزل عليه "والذين يرمون أزواجهم" -فقرأ حتى بلغ- "إن كان من الصادقين" فانصرف النبي ﷺ فأرسل إليها، فجاء هلال فشهد، والنبي ﷺ يقول "إن الله يعلم أن أحدكما كاذب، فهل منكما تائب؟". ثم قامت فشهدت، فلما كانت عند الخامسة وقفوها وقالوا: إنها موجبة. قال ابن عباس: فتلكأت ونكصت، حتى ظننا أنها ترجع ثم قالت: لا أفضح قومي سائر اليوم فمضت، فقال النبي ﷺ: ((أَبْصروهَا. فإِنْ جَاءَتْ بِهِ اكْحَلَ العَيْنَيْنِ، سَابِغَ الأَلْيَتَيْنِ، خَدَلَّجَ السَّاقَيْنِ، فَهُوَ لِشَرِيكِ بنِ سَحْمَاءَ فَجَاءَتْ به كَذَلِكَ، فَقَالَ النبيُّ: لَوْلاَ مَا مَضَى مِنْ كِتابِ الله عز وجلّ لَكانَ لَي وَلَهَا شَأْنٌ))[1]، وفي ذلك بيان على عظم هذا الدين في أخذه بكل الأسباب من أجل عدم إقامة حد الزنا إلا ببينة وعلى الستر على المسلمين، وعدم إظهار عوراتهم وفضحهم، لما في ذلك من المحافظة على سلامة المجتمع. "وقد أوجب الحق تبارك وتعالى حفظ الأعراض من التلطيخ والاتهام؛ ولأجل ذلك شرع الله سبحانه وتعالى حد القذف لما في ذلك من المحافظة على سلامة المجتمع، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2].

---

(١) أخرجه البخاري ٤٧٤٧.

(٢) سورة النور، الآيتان: ٤-٥ .

هذا في الدنيا، وهو الجلد ثمانين جلدة، وذلك إذا رمى امرأة أو رجلاً بالزنا، ولم يثبت عليه بأربعة شهداء، يشهدون الشهادة التي بينها الشرع، فإذا شهد الشهداء حكم بالحد على المقذوف، وإلا فإن القاذف يجلد ثمانين جلدة، ويحكم عليه بالفسق، ولا تقبل شهادته، وذلك من أجل تطهير الأعراض من الكلام البذيء والتلطيخ. وفي ذلك حماية وحفاظًا على سلامة المجتمع"[1].

(١) محاضرات في العقيدة والدعوة، د. صالح بن فوزان ٢/١٢٨-١٢٩.

الحديث رقم (٢٤١)

٢٤١- وعنه قال: سمِعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «كُلُّ أَمَّتِي مُعَافًى إلاَّ المُجاهِرينَ، وإنَّ مِن المُجاهرةِ أَن يعمَلَ الرَّجُلُ بالليلِ عملاً، ثُمَّ يُصبْحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّه عَلَيْهِ، فَيقُولُ: يَا فُلانُ عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْترهُ ربُّهُ، ويُصبْحُ يَكْشفُ سِتْرَ اللَّهِ» متفق عليه(١).

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

إن من أعظم نعم الله على عباده هو الستر عليهم في الدنيا ترغيبًا لهم في التوبة والأوبة إلى طريق الطاعة، ووعده لكل عبد يستر عيبًا وقع منه بالستر يوم القيامة هو الدرس الذي علمه لنا رسول الله ﷺ.

وهذا الحديث تنطلق منه شهب الوعيد لمن حفظه الله من ألسنة الخلق وستر عليه في الدنيا، ولكنه يأبى إلا أن يكشف ستره، ويفضح أمره، ويضاعف وزره، فيبادر بإيذاء نفسه، والكشف عن أفعاله المنكرة، ونواياه المضمرة، فيصبح مضغة في أفواه الغادين والرائحين والنمامين والمغتابين، ولذلك يبدأ الحديث الشريف بصيغة الاستثناء، وتبدأ هذه الصيغة بقوله: "كل أمتي معافى"، وهى جملة تامة مثبتة: تَعِدُ الأمة كلها وهى أمة الإسلام: لأنه قال "أمتي". وفي إضافة الأمة لياء المتكلم وهو خاتم الأنبياء المبعوث رحمة للعالمين: تعظيم وتشريف لهذه الأمة بالانتساب إلى رسول الله ﷺ، وتتضمن كذلك حرص النبي محمد على أمته فهو بالمؤمنين رؤوف رحيم.

والمبتدأ هو "كل"، وهو مضاف إلى أمة، وأمة مضافة إلى ياء المتكلم وهو رسول الله ﷺ، والخبر هو الذي تتم به الفائدة، والفائدة هنا هى المعافاة، وهى تعني أنهم كلهم سالمون عن ألسن الناس وأيديهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٩٠/٥٢) واللفظ له، ومسلم (٢٩٩٠/٥٢).

وهذه القاعدة الكلية تشذ عنها طائفة لا تلتزم بما شرعه الله، من وجوبية الستر وصون الأعراض في الأنفس، وهؤلاء هم المجاهرون الذين يظهرون المعاصي، ويكشفون ما سترهم الله عليه، وهم المستثنى الذي به تتم صيغة الاستثناء لكنهم لا ينقضون القاعدة، ولا يحجبون رحمة الله وعدالته وفضله.

والدلالة اللغوية تتآزر مع الدلالة الاصطلاحية في الكشف عن طبيعة جرم هذه الطائفة التي انحرفت عن الطريق السوي، فالمجاهرة في هذا الحديث يحتمل أن يكون من جاهر بمعنى جهر أي أعلن، والنكتة أى السر والجمال الأسلوبي، يكمن في التعبير بفاعل المبالغة، فالجهر لا يظل أمام فرد واحد ولكنه يتعدى إلى المجاهرة أمام الجميع، وقيل يحتمل أن يكون على ظاهر المفاعلة، أي المجاهرة المتبادلة بين أرباب المعاصي وهم الذين يجاهر بعضهم بعضًا، وبعض الروايات تأتي بألفاظ تجسد فعل المجاهرين وتكشف عن جرمهم حيث يُروي: وإن من "المجانة" أي من المجون والتهتك، وفي رواية لمسلم، "من الإجهار" وهي بمعنى الظهور والإظهار، وتعمُّد افتضاح الأمر، وفي رواية من الهجار، أو الإهجار، وهما بمعنى الفحش والخنا وكثرة الكلام، فهذا التعدد اللفظي في رواية "وإن من المجاهرة"، يعلن عن انحراف هذه الفئة عن الطريق المستقيم، واستحقاقها للعذاب الأليم.

وبدء هذه الجملة بالتأكيد في قوله: "وإن"، يؤكد سوء مصير هؤلاء الذين سترهم الله، وأقدموا على فضح أنفسهم.

والحوار في قلب الحديث جاء في سياق السرد المتضمن تقديم صورة هؤلاء المجاهرين، حيث يصر كل واحد على أن ينادي على الناس، ويتباهى بالمعصية، ويعدد معاصيه، وقوله "يا فلان" كناية عن الذي يتحدث إليه عن معصيته "وكذا وكذا"، من ألفاظ الكنايات، ويمكن أن يكون هذا التصريح بالمعصية ليس قولاً ولكن يسجله صاحبه في مذكراته وقصصه ورواياته كما يفعل كثير من الكتاب والأدباء في بوحهم وأدبهم المكشوف المفضوح، ويسمونه أدب الاعتراف ويدعون أن هذا هو الصدق في "كتابة السيرة الذاتية، وبئس ما زعموا، فالإنسان لا يذيع إلا ما يفتخر به: لا ما

يفضحه!!!، ولا يقدم للناس إلا الصورة المضيئة المشرقة، وليس الصورة المشوهة الملفقة، ولذلك ما أشنع هذا المسلك الخطير حيث بات العبد: يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عليه، "نسأل الله الستر والعافية والأمن والإيمان".

فقه الحديث

لا شك أن معصية الله عز وجل وارتكاب المحرمات أمر منفر ولكن الأسوأ منه أن يجاهر المرء بفعله بل ويفخر به أحيانًا، وكأنه لا يكفيه الذنب ويريد مضاعفته.

وقد اتفق الفقهاء[1] على أنه يستحب للمرء متى ألم بشيء من حدود الله أو معاصيه أن يتوب ويقلع عن ذنبه ويستر على نفسه فلا يخبر أحدًا بما فعل حتى لا يتجرأ الغير على معصية الله، فإن جاهر بفعله حل تأديبه وتعزيره، وجاز للناس مقاطعته وهجره وعدم السلام عليه عند كثير من الفقهاء حتى يرجع عن فعله ويقلع عن ذنبه، وكذا لا تقبل شهادة المجاهر بالمعاصي لأنه لا مروءة له وشرط الشاهد المروءة، ومن يتجرأ على الله فهو على عباده أجرأ.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة الاستثناء.

ثانيًا: من مهام الداعي: بيان خطر المجاهرة بالمعاصي.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الترغيب في الستر.

رابعًا: من أساليب الدعوة: الترهيب.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: ذم المجاهرة بالسوء.

---

(١) انظر في ذلك: أحكام القرآن، الجصاص ٤٨/٢، وأنوار البروق ٢٣٠/٤، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ٣١٦/٧، ومعالم القرب في طلب الحسبة للقرشي ص ٣٥، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٤٦٧/٤، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ١٣١/٤، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين بن الحسن بن عبدالرحمن ١١٩/٤، والطرق الحكمية ص ١٤٨، والفروع، ابن مفلح ١٨٣/٢، والآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ٢٣٦/١.

أولاً- من أساليب الدعوة: الاستثناء:

جاء أسلوب الاستثناء واضحًا في الحديث فالرسول ﷺ ذكر حكمًا عامًا يشمل جميع مذنبي الأمة بالعفو بقوله: "كل أمتي معافى" ثم استثنى منهم المجاهرين للفت الانتباه وأخذ الحذر والحيطة من خطر المجاهرة بالذنوب، أو بكشف ستر الله على الإنسان الذي اقترف ذنبًا وستره الله ثم يهتك ستر الله عليه.

ثانيًا- من مهام الداعي: بيان خطر المجاهرة بالمعاصي:

لقد بيّن النبي ﷺ في هذا الحديث خطر المجاهرة بالسوء والمعاصي لأن ذلك يحرم الإنسان من عفو الله ورحمته فقال ﷺ: "كل أمتي معافى إلا المجاهرين"، وقوله معافى: من العافية، وهو إما بمعنى عفا الله عنه وإما سلمه الله وسلم منه[1]، وقد يظن ظان أن المجاهرة فعل المعصية عيانًا للناس، فبين رسول الله ﷺ أن ذلك ليس شرطًا، فمن ألوان المجاهرة الإتيان بالمعصية سرًا ثم الإخبار بها، بعد أن ستره الله تعالى، فيقوم بهتك ستر الله عليه، قال ابن هبيرة: (في هذا الحديث من الفقه أن معصية الله يزيدها غلظًا أن يجاهر بها فاعلها؛ لأنه يشير بذلك إلى جرأة منه على ربه بمشهد آخرين يجرئهم على مثل ذلك من فعله، فكأنه جعلهم شهودًا عليه بفسقه؛ فإن الحلم على مثل هذا مع مجاهرته يدعو من لم يعص إلى أن يعصي.

وقد سبق من الله تعالى الإنذار الذي شاع وذاع، فلم يقنع هذا العاصي بأن عصى الله سرًا حتى يعرض بفتنة آخرين، ولو كان قد استتر بما ستره الله به لكان أمره أسهل؛ ولكنه لما أبى إلا هتكة ستره استوجب توجه العقوبة إليه؛ لأنه لو قد أخرت عقوبة المجاهر لعرضت قلوب الضعفاء للفتنة في الدين، وقربهم من الشك في أمر الله، فكان استهدافه لسهام الانتقام من حيث مجاهرته بعصيان الله سبحانه وتعالى، فلذلك قال رسول الله ﷺ "كل أمتي معافى إلا المجاهرين"، فإنه يعني أن الطائع قد شملته العافية، وأن من قدرت عليه المعصية فستر ذلك، فإنه في عافية من الله إذ لم يفضح نفسه، وقد رجي له أن يتوب إلى الله

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٠١/١٠.

في السر كما عصاه في السر، فتكون العافية شاملة له.

فأما المجاهر فإنه يجري مجراه مجرى شارب الخمر، لو قد تاب فيما بينه وبين الله عز وجل لسقط عنه الحد، فأما لو قامت البينة عليه عند الحاكم بذلك ثم تاب، لم تكن التوبة مزيلة للحد الذي وجب عليه)(١).

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: الترغيب في الستر:

يظهر هذا في قوله ﷺ: "كل أمتي معافى" مبينًا فضل الله وستره على عباده، وكراهية هتك ستر الله على الناس، ويشتد غضبه على من يهتك ستر الله عليه بنفسه فاستثناه من ذلك العفو فيقول ﷺ: "إلا المجاهرين" فإنه من الطبيعي أن يخطئ الإنسان وتلك طبيعته نظرًا لدواعي المعصية والمحرض عليها من النفس وغيرها، فعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: ((كلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاء، وَخيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ))(٢).

لكن ليس من المقبول المجاهرة بالمعاصي لما في ذلك من حث على انتشارها وذيوعها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٣).

رابعًا- من أساليب الدعوة: الترهيب:

ورد أسلوب الترهيب في الحديث حيث رهّب النبي ﷺ من المجاهرة بالمعصية ببيان استثناء صاحبها من عفو الله تعالى ومعافاته فقال: (كل أمتي معافى إلا المجاهرين) والترهيب هنا لزجر هؤلاء الذين يجترؤون ويغترون بستره عليهم، فيتباهون بمعصيتهم لله تعالى فيخبرون بها إخوانهم، والدعاة إذا كانوا مطالبين باتباع أسلوب الترغيب والترهيب فإنه ينبغي عليهم أن يلاحظوا اختلاف الطبائع البشرية فمنها ما يجلبها الترغيب ومنها ما يخيفه الترهيب(٤).

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٢٣٢/٦.

(٢) أخرجه الترمذي ٢٤٩٩، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٠٢٩).

(٣) سورة النور، آية: ١٩.

(٤) انظر: فقه الدعوة، د. بسام العموش ص ٨٦ - ٨٧.

خامسًا- من موضوعات الدعوة: ذم المجاهرة بالسوء:

جاء في الحديث ذم واستنكار من يجاهر بمعصيته لما في ذلك من استخفاف واستهانة، قال ابن بطال: (في الجهر بالمعصية استخفاف بحق الله ورسوله ﷺ وصالحي المؤمنين، وفيه ضرب من العناد لهم، وفي الستر بها السلامة من الاستخفاف، لأن المعاصي تذل أهلها، ومن إقامة الحد عليه إن كان فيه حد ومن التعزير إن لم يوجب حدا، وإذا تمحض حق الله فهو أكرم الأكرمين ورحمته سبقت غضبه، فلذلك إذا ستره في الدنيا لم يفضحه في الآخرة، والذي يجاهر يفوته جميع ذلك)[1].

ومن أجل ردع العصاة من المجاهرة بالسوء والمعاصي كانت هناك بعض العقوبات الأدبية كالهجر، قال القاضي أبو حسين في التمام: (لا تختلف الرواية في وجوب هجر أهل البدع وفسَّاق الملة، وظاهر إطلاقه لا فرق بين المجاهر وغيره كالمبتدع والفاسق، فينبغي لك إن كنت متبعًا سَنَن من سلف أن كل من جاهر بمعاصي الله لا تعاضده ولا تساعده ولا تقاعده ولا تسلّم عليه بل اهجره ولاقه بوجه مُكْفَهِرٍّ)[2].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠/٥٠٣.

(٢) غذاء الألباب شرح منظومة الآداب، الإسفراييني الحنبلي ١/٢٥٧.

الحديث رقم (٢٤٢)

٢٤٢- وعنه، عن النبي ﷺ قال: «إذَا زَنَتِ الأَمةُ فَتبينَ زِناهَا فَليجلدْها الحدَّ، ولا يُثَرِّبْ عَلَيْهَا، ثمَّ إنْ زَنَتِ الثَّانية فَلْيجلدْها الحدَّ ولا يُثرِّبْ عَلَيْهَا، ثُمَّ إنْ زَنتِ الثَّالثةَ فَلْيبعْهَا ولوْ بِحبْلٍ مِنْ شعرٍ» متفق عليه[١].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

الحد: هي العقوبة المَقدَّرة شرعًا[٢].

الشرح الأدبي

إن إقامة الحدود في الإسلام من معالم المنهج الذي حدده رسول الله ﷺ تبليغًا عن ربه عز وجل، وهذه الحدود شُرعت صيانة للحرمات، وحفاظًا على الأعراض، وإصلاحًا لعلاقات بين المسلمين، وتثبيتًا للطمأنينة والأمن في نفوس الناس، ففي ظل هذه العقوبات الصارمة يرتدع الضالون المعتدون، ويأمن الطائعون على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم وأبنائهم. فعن ثعلبة الخشني رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدودًا فلا تعتدوها، ونهى عن أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رخصة لكم ليس بنسيان فلا تبحثوا عنها[٣].

وهذا الحديث الشريف من الأحاديث التي وردت في باب ستر عورات المسلمين، وهى أربعة أحاديث، وكلها من رواية الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله عنه ويحدد الحديث الحكمَ الشرعي الذي يطبق على الأمة الزانية في أسلوب واضح محدد، لأن أحاديث

(١) أخرجه البخاري (٢١٥٢، و٦٨٣٩)، ومسلم (١٧٠٣/٣٢)، والسياق للحميدي في جمعه (١١٥/٣ رقم ٢٣٢٢).

(٢) معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ١٥٤.

(٣) سنن البيهقي الكبرى ١٢/١٠ رقم ١٩٥٠٩.

الأحكام تتسم بالدلالة المحددة التي تنأى عن المبالغة أو التشبيهات والصور المرغبة أو المنفرة حسب السياق؛ وأسلوب الحديث في ظل هذا الطابع الدلالي الدقيق لا يخلو من الإيحاءات والإشارات التي تشع من خلال نظم الحديث والعلاقات بين كلماته، ومن خلال استعمال الأدوات النحوية، فالحديث يتكون من ثلاث جمل شرطية.

وهذا التكوين له صلة بالرسالة التي يوصلها الحديث إلى ولي الأمر، وإلى مالك الجارية، وهي العقوبة المستحقة كما حددها رسول الله ﷺ، لأن العقوبة من جنس العمل، وكذلك صياغة هذه العقوبة تتلاءم مع واقع الجرم والعقوبة المستحقة، فجواب الشرط وهو يعادل العقوبة أو الثواب يترتب على وقوع الشرط وهو يعادل هنا الكبيرة أو جريمة الزنا، ونلاحظ أن الجملة الأولى استخدمت فيها أداة الشرط "إذا" وهي تفيد التحقق إشارة إلى أن هذه المرة الأولى، وأن الزنا قد وقع، لأنه قال "إذا زنت الأمة: وتبين زناها"، وفي الجملتين الثانية والثالثة: وردت أداة الشرط "إن"، ولم يقل، وتبين زناها في الجملتين، وفي ذلك إشارة إلى أن الزنا في المرتين التاليتين يمكن أن لا يقع أو أن من شأنه أن لا يقع لأن الحدود زواجر، والعودة إلى ارتكاب الكبيرة بعد إقامة الحد أمر غريب حيث تتمكن المعصية من نفس صاحبها، وهذا واقع يخالف فطرة المؤمن وطبيعته.

وتكرار جواب الشرط "فليجلدها"، في كل جملة تأكيد على إقامة الحد، وكذلك تحديد لنوع العقوبة وهي: الجلد، وليس الرجم، وتكرار "فليثرب عليها"، مرتين في الجملتين الأولى والثانية، تأكيد لعدم التوبيخ والتحقير لأن إقامة الحد فيها زجر وتغني عن هذا التقريع، وربما نهى الرسول ﷺ عن ذلك حتى يفتح أبواب التوبة أمامها، وحتى لا يتسرب لنفسها كره الحياة والمجتمع.

وإن زنت الثالثة: فليبعها وليها بأبخس ثمن، لأن علاجها مُستعصٍ، وقيل: الأمر بالبيع، مسارعة لمفارقة أرباب المعاصي، وترك مخالطتهم، وقيل في تعليل البيع: لعلها تتعفف عند المشترى بأن يعفها بنفسه أو يصونها بهيبته، أو بالإحسان إليها، والتوسعة عليها، أو يزوجها أو غير ذلك.

والحدُّ للأمة خمسون سوطًا، وأما الحرة البكر والثيب، فالجلد أو الرجم، ففي صحيح مسلم عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال: «خُذُوا عَنِّي، خُذُوا عَنِّي، قَدْ جَعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً، الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدُ مِائَةٍ وَنَفْيُ سَنَةٍ وَالثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ، جَلْدُ مِائَةٍ وَالرَّجْمُ»(١)، وقد أخذ بظاهر هذا الحديث جماعة من العلماء: كما فعل عليٌّ بشراحة الهمدانية، وقال: جلدتها بكتاب الله، ورجمتها بسنة رسول الله ﷺ؛ وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة»(٢).

فقه الحديث

إن الزنا جريمة يعاقب عليها التشريع الإسلامي سواء وقع من حرة أو من أمة، لكن الأمة عليها نصف ما على الحرة من العقاب ولا تغرب بعد الجلد، فإن زنت بعد الثانية، فالأولى للمالك بيعها، لأن ذلك يدل على مدى تهاونها بحدود الله تعالى، والبعد عن تعاليم الإسلام ولا خير فيمن يكون هذا حالها.

وقد اختلف الفقهاء في حكم حد الزنا بالنسبة للإماء على قولين:

القول الأول: ذهب جمهور الفقهاء(٣) إلى أن الأمة إذا زنت فعليها نصف ما على الحرة من العذاب فتجلد خمسين جلدة، سواء أكانت محصنة أم لا.

القول الثاني: ذهب ابن عباس وطاووس وأبو عبيد(٤) إلى أنه لا حد على الأمة إلا إذا كانت محصنة فإن لم تكن محصنة فلا حد عليها.

---

(١) أخرجه مسلم ١٦٩٠.

(٢) أخرجه البخاري ٦٨٧٨، ومسلم ١٦٧٦.

(٣) تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ١٦٩/٣، وأحكام القرآن، الجصاص ٤٣٩/٢، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ١٤٤/٧ وما بعدها، وأحكام القرآن، ابن العربي ٥١٨/١، والأم للشافعي ١٨٦/٦، وإحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ابن دقيق العيد ٢٣٩/٢، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٤٩/٩، والفروع، ابن مفلح ٦٩/٦.

(٤) المغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٤٩/٩.

والراجح ما ذهب إليه جمهور الفقهاء لأنه الذي تؤيده نصوص القرآن والسنة، ومنها هذا الحديث.

المضامين الدعوية

أولاً: من واجبات الداعي: تبيين الأحكام.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: التحري قبل إقامة الحدود وإصدار الأحكام.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: العدل وعدم الإفراط في العقوبة.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: الزهد في أهل المعاصي.

خامسًا: من أهداف الدعوة: إقامة الحدود.

أولاً- من واجبات الداعي: تبيين الأحكام:

جاء ذلك واضحًا في هذا الحديث حيث بيّن رسول الله ﷺ حكم الأَمَةِ إذا وقع منها الزنا، وتكرر ذلك منها، بإقامة الحد عليها والزهد فيها، إذ لا خير فيمن استمرأ المعاصي ولم يقلع عنها، وبيان الأحكام أمرٌ إلهي قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1] فإبلاغ الداعي الدعوة للناس وتبيينها لهم قيام بأمر الله وخلاص لنفسه وإبراء للذمة ووفاء بالميثاق في البلاغ والبيان وعدم الكتمان، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾[2].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: التحري قبل إقامة الحدود وإصدار الأحكام:

إن القارئ يلمس ذلك واضحًا في الحديث في قوله ﷺ "فتبين زناها" فلا يجوز إقامة حد أو إصدار حكم إلا بعد استفراغ الجهد في التحري والبحث وثبوت البينة بالإدانة، وذلك منهج الإسلام من كل أمر قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ

(١) سورة النحل، آية: ٤٤.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٨٧.

بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴾[١] وفي الآية أمر بالتثبت لأخذ الحيطة[٢] والحذر وقوله "فتبينوا" من التبيين وهو تطلب البيان وهو ظهور الأمر وفي قراءة "فتثبتوا" من التثبت وهو التحري وتطلب الثبات وهو الصدق[٣]، وإن إقامة الحدود تستوجب التثبت بما لا يدع مجالاً للشك، فإن لم يثبت التيقن بما يوجب إقامة الحد سقط ذلك الحد، وذلك مما أجمع عليه الفقهاء، فإن الخطأ في العفو خير من الخطأ في العقوبة[٤]، وكما أثر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: (لأن أعطل الحدود بالشبهات أحب إلي من أن أقيمها في الشبهات)[٥].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: العدل، وعدم الإفراط في العقوبة:

يستنبط ذلك من قوله ﷺ فليجلدها الحد ولا يثرب عليها أي لا يوبخها ويقرعها بالذنب نحو يا زانية، يا فاجرة لما فيه من الفحش[٦] فإقامة الحدود ليست تشفيًا من المذنب وإنما هي مجرد إقامة لحدود الله وتنفيذًا لأوامره فلا يجوز بأي حال من الأحوال الزيادة عليها حتى ولو بمجرد التقريع والتوبيخ كما نرى ذلك في الحديث في قوله ﷺ "فليجلدها الحد ولا يُثَرِّب عليها". والعدل أمر إلهي قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[٧] وقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾[٨].

---

(١) سورة الحجرات، آية: ٦.

(٢) راجع تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣٧٠/٧.

(٣) التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مج١٠/٢٦/٢٣١.

(٤) انظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٣٤/١٧.

(٥) مصنف ابن أبي شيبة ٢٨٤٩٣

(٦) دليل الفالحين، ابن علان ص ٤٢٦.

(٧) سورة النحل، آية: ٩٠.

(٨) سورة النساء، آية: ٥٨.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: الزهد في أهل المعاصي:

يتضح ذلك من خلال ما ورد في الحديث من أمر الرسول ﷺ ببيع الأمة إذا تكرر زناها، ولو بثمن بخس "ثم إن زنت الثالثة فليبعها ولو بحبل من شعر" فقوله "فليبعها" ندبًا عند الجمهور، وقال داود: وجوبًا، "ولو بحبل من شعر" مسارعة لمفارقة أرباب المعاصي وترك مخالطتهم[(١)]. قال ابن بطال: فائدة الأمر ببيع الأمة الزانية المبالغة في تقبيح فعلها والإعلام بأن الأمة الزانية لا جزاء لها إلا البيع أبدًا، وأنها لا تبقى عند سيدها زجرًا لها عن معاودة الزنا، ولعل ذلك يكون سببًا لإعفافها، إما أن يزوجها المشتري أو يعفها بنفسه أو يصونها بهيبته[(٢)].

خامسًا- من أهداف الدعوة: إقامة الحدود:

من مقاصد الشريعة والدعوة الإسلامية إقامة الحدود ردعًا للعصاة وتقليلاً من المعاصي وحفاظًا على المجتمع، وأصل الحد ما يحجز بين شيئين فيمنع اختلاطهما، وحد الدار ما يميزها، وحد الشيء وصفه المحيط به المميز له عن غيره، وسميت عقوبة الزاني ونحوه حدًا لكونها تمنعه المعاودة، أو لكونها مقدرة من الشارع[(٣)] فكما أن الإسلام يهدف إلى الدعوة إلى التوحيد والحفاظ عليها وإقامة شعائر الدين، فكذلك يهدف إلى المحافظة على أرواح الناس وأعراضهم وأموالهم، ومن هنا شرع الحدود حتى لا يجترئ أحد على المساس بأحد، فإذا لم يوجد نظام بتلك المقومات لم تجر مصالح الناس على استقامة، بل على فساد وتهارج وفوت حياة، وفي الأخرى فوت النجاة والنعيم والرجوع بالخسران المبين[(٤)]. لذا ينبغي على الدعاة حمل الناس على الوقوف عند حدود الله والطاعة لأوامره وترغيبهم في ذلك، والدعوة إلى تنفيذ أحكام الله بمعاقبة المخالفين بالعقوبات الشرعية، وإزالة المفاسد والمنكرات من المجتمع كما يقضي به الإسلام[(٥)].

---

(١) دليل الفالحين، ابن علان ص ٤٢٦.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ٤٣٢/٤.

(٣) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ٥٩/١٢.

(٤) انظر: مستلزمات الدعوة في العصر الحاضر، علي بن صالح المرشد، ص ٦٠.

(٥) انظر: المرجع السابق، ص ٢٥٥.

الحديث رقم (٢٤٣)

٢٤٣- وعنه قال: أُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ برجلٍ قَدْ شرِب (خَمْرًا)[١]، قال: «**اضْرِبُوهُ**» قال أَبُو هُرَيْرَةَ: فمِنَّا الضَّارِبُ بيدهِ والضَارِبُ بِنَعْله، والضَّارِبُ بثوبِهِ. فَلَمَّا انْصَرَفَ قَال بعْضُ الْقَومِ: أَخْزَاكَ اللَّه، قال: «**لا تقُولُوا هَكَذا لا تُعِينُوا عليه الشَّيْطان**» رواه البخاري[٢].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

شرب: شرب الخمر. حذف المفعول.

أخزاك الله: أهانك وأذلك[٣].

الشرح الأدبي

بهذا الحديث الشريف يختم النووي باب "ستر عورات المسلمين"، وقد ورد في هذا الباب أربعة أحاديث، وكلها من رواية أبي هريرة رضي الله عنه وفي الحديث السابق أمر رسول الله ﷺ بعدم توبيخ الأمة الزانية بعد إقامة الحد عليها، وفي ذلك علاج نفسي، وترغيب لها ولمثيلاتها... ولكل من أقدمت على ارتكاب جريمة الزنا بأن باب التوبة مفتوح، وقلوب الناس كذلك لا ترفض مثل هؤلاء العصاة، إن تابو توبة نصوحا، وكذلك ألسنتهم لن تلاحقهم بالتهم والسب حتى يستطيعوا أن يخالطوا الناس، وأن يعيشوا في ظل التوبة، والندم على ما فات، والإقلاع عن المعصية: حياة كريمة تجمل ملامحها الطاعة وعدم التفريط في أوامر الشرع ونواهيه، والحديث الذي نحن بصدده يقودنا إلى درس إنساني واجتماعي وإصلاحي وهو عدم تحقير شارب الخمر إذا أقيم عليه الحد، وتاب وأناب إلى الله، وما أجمل هذا الموقف في علاج المدمنين، وإرشاد

---

(١) هذا التفسير من المؤلف.

(٢) برقم (٦٧٧٧).

(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (خ ز ي).

السكارى العابثين الذين خدعوا ببريق المتعة، ولذة الرغبة، وضعفوا أمام وساوس الشيطان، من الإنس والجان، فهم في مفازات العصيان، وأودية الخطيئة يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا.

والحديث في بنائه اللغوي، وصياغته الأدبية، يتضمن ثلاثة مشاهد واقعية حركية تصور الجزاء الصارم الذي لقيه مَنْ أقدم على شرب الخمر، والمشهد الأول يحكيه أبو هريرة رضي الله عنه الراوي الأعلى للحديث، حيث يقول: أُتِيَ النبي صلى الله عليه وسلم برجل قد شرب... قال: اضربوه، فما اسم هذا الرجل؟ ولماذا لم يحدد أبو هريرة اسمه؟، ولماذا لم يواجهه النبي صلى الله عليه وسلم بالتقريع والإدانة، إن المصطفى صلى الله عليه وسلم لم ينطق باسمه، ولم يحدده أبو هريرة: سترًا عليه: فإقامة الحد يكفي للزجر، أما التشهير به والخوض في سيرته، فهذا ليس من منهج المسلمين، ترغيبًا للرجل في الإقبال على حدائق الطاعة، والإقبال على العبادة، والقضية هنا ليست شخصية ولكنها قضية عامة تعالج أي موقف يماثل هذا الموقف، ولذلك بُنِي الفعلُ للمجهول في قوله: "أُتِيَ النبي برجل"، ولم يُعرف من هذا الرجل، للتعميم، فكل من في موقف مثل هذا سيلقى المصير نفسه، والفعل شرب: اقترن بقد، وهى للتحقيق والتأكيد، إشارة إلى التيقن من ارتكاب الرجل لهذا الجرم، فالحد لا يقام بالظن ولكن لا بد من اليقين، ولم يقل شرب الخمر، لأن الرجل كان في حالة من السكر وعدم الوعى، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "كل مسكر حرام" والخمر أم الخبائث، فمن شربها: قَتَل النفْسَ، وَزنَى، وربما كفر، ونلاحظ أن الأفعال توالت ولم يفصل بينها بحروف العطف "أتى برجل قد شرب، قال: اضربوه، قال أبو هريرة رضي الله عنه"، هذا التوالي بدون فواصل من الأفعال يوحي بالإسراع في توقيع العقوبة بعد التيقن من وقوعها، وهذا ما يجب تطبيقه عند كل مخالفة حتى لا يستهين الناس بتعاليم الدين، وأما المشهد الثاني فيصوره أبو هريرة رضي الله عنه، حيث استجاب بعض الصحابة رضي الله عنهم لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم: استجابة سرية، ولنتأمل الرجل وهو يتلقى عقوبته ضربًا باليد، وضربًا بالنعل، وضربًا بالثوب، من جموع الحاضرين، إنه مشهد علني يشهده طائفة من المؤمنين: حتى يتم الردع، ويتعظ الآخرون، وَحَدثُ الضرب صِيغَ في قالب اسم الفاعل، ولم يأت في قالب الفعل الماضي أو المضارع، للتدليل على واقعية

الحدث، وحضوره أمام الرسول ﷺ، لأن أبا هريرة رضي الله عنه لا يحكي المشهد وإنما يصوره، وينقله لأنه حدث أمام الرسول ﷺ وكرر قوله "فمنا الضارب" ثلاث مرات مع حذف في الضرب بالنعل والضرب بالثياب، من قبيل الإيجاز وسرعة الإنفاذ، والتكرار لتأكيد الحدث، وسرعة الاستجابة لأمر رسول الله ﷺ، والمشهد الثالث: يصور أثر المشهدين السابقين في الناس بعد أن تلقى الرجل عقابه، حيث قال بعض القوم: "أخزاك الله"، ولكن رسول الله ﷺ نهاهم عن الدعاء عليه في جملتين صادقتين، لأن رفضهم له يجعله بائسًا ويفتح عليه أبواب الشيطان، والإسلام منهجه الترغيب، وفتح أبواب الرجاء أمام التائبين.

فقه الحديث

يجسد هذا الحديث الشريف معنى ساميًا وراقيًا للتشريع الإسلامي وهو احتواء المذنب بعد معاقبته، ومحاولة إعادته إلى جادة الطريق بدلاً من طرده من المجتمع واعتباره رجسًا يجب البعد عنه والفرار منه، فمع أن هذا الرجل شرب الخمر وأقام عليه رسول الله ﷺ حدها المعروف شرعًا، إلا أنه نهى عن سبه ولعنه، وأن يكون أحد عونًا للشيطان عليه، بل يجب مساعدته للعودة إلى الطريق الصحيح.

وفي هذا الحديث: بيان لبداية تشريع حد الشرب، فمن شرب من المسلمين خمرًا وهو عالم بالحرمة متعمدًا للشرب مختارًا عاقلاً بالغًا وجب إقامة حد الشرب عليه، وقد اتفق الفقهاء[1] على أن شرب الخمر حرام وأنه موجب للحد سواء أكان المشروب منها قليلاً أم كثيرًا ولو لم يحصل السكر منه، واختلفوا في المقدار الواجب في حد

---

(١) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٣٩/٧، والمبسوط، السرخسي ٢/٢٤، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ١٩٥/٣، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٣١٧/٦، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم المالكي ٢١٢/٢، وتحفة المحتاج في شرح المنهاج، ابن حجر الهيتمي ١٦٦/٩، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ١٥٨/٤، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٣٦١/٣، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ١١٧/٦.

الخمر على قولين:

القول الأول: ذهب جمهور الفقهاء من الحنفية[١] والمالكية[٢] والحنابلة[٣] إلى أن مقدار حد الشرب ثمانون جلدة كالقذف.

القول الثاني: ذهب الشافعية[٤] إلى أن مقدار حد الشرب أربعون جلدة.

والراجح ما ذهب إليه الجمهور لأنه الذي تؤيده النصوص والآثار وما عمل به الصحابة رضوان الله عليهم.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الأمر.

ثانيًا: من أهداف الدعوة: توجيه العصاة وعدم تعييرهم.

ثالثًا: من أهداف الدعوة: إقامة الحدود.

رابعًا: من واجبات المدعو: إعانة الناس على الخير وعدم إعانة الشيطان عليهم.

أولاً- من أساليب الدعوة: الأمر:

من أساليب الدعوة المستنبطة من هذا الحديث: الأمر، حيث أمر النبي ﷺ الصحابة رضي الله عنهم بإقامة الحد على شارب الخمر بقوله: "اضربوه"، وتوجيه الخطاب بصيغة الأمر دلالة على أهميته وحث للمخاطب على الإسراع بالإتيان به.

"وقد استخدم القرآن الكريم الأمر في كثير من الآيات التي جاءت آمرة بخير أو ناهية عن شر، ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾[٥]،

---

(١) المبسوط، السرخسي ٣٠/٢٤، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ١٩٥/٣.

(٢) مواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٢١٧/٦، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم المالكي ٢١٢/٢.

(٣) تحفة المحتاج في شرح المنهاج، ابن حجر الهيتمي ١٧١/٩، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ١٦٠/٤.

(٤) شرح منتهى الإرادات، البهوتي ٣٦٢/٣، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ١١٧/٦.

(٥) سورة المائدة، آية: ١.

وأسلوب الأمر أسلوب يتسابق المؤمنون لتحقيقه والوفاء بالمراد منه فلا تأخر ولا تلكؤ ولا تراجع، وهذا هو مقتضى الإيمان، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه"[١].

ثانيًا- من أهداف الدعوة: توجيه العصاة وعدم تعييرهم وسبهم:

إن من الأهداف التي ترمي الدعوة إلى تحقيقها: توجيه العصاة ونصحهم ومعاملتهم برفق واحترام وعدم انتقاصهم أمام الناس، لأن ذلك يؤدي إلى إحباطهم وشعورهم باليأس والقنوط، وقد نهى النبي ﷺ عن تعيير هذا الرجل الذي أقيم عليه الحد حيث قال له بعض القوم بعد إقامة الحد (أخزاك الله) فنهاهم رسول الله ﷺ بقوله: (لا تقولوا هكذا) إذ أن إقامة الحد: في الأصل إنما هي تقويم لسلوك المخالف لشريعة الله تبارك وتعالى وللحفاظ على سلامة المجتمع المسلم، والحدود حددها الله تبارك وتعالى فلا يجوز الزيادة عليها ولو بمجرد تأنيب أو تقريع، ومن ثم نهى النبي ﷺ بعض الصحابة عندما قالوا للرجل: (أخزاك الله) نهاهم عن ذلك وقال: (لا تقولوا هكذا). وكما جاء في الحديث الذي روي عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: ((إِذَا زَنَتِ الأَمَةُ فَتَبَيَّنَ زِنَاهَا، فَلْيَجْلِدْهَا وَلاَ يُثَرِّبْ، ثُمَّ إِنْ زَنَتْ فَلْيَجْلِدْهَا وَلاَ يُثَرِّبْ، ثُمَّ إِنْ زَنَتِ الثَّالِثَةَ فَلْيَبِعْهَا وَلَوْ بِحَبْلٍ مِنْ شَعَرٍ))، فنجد في الحديث أن الرسول ﷺ في أمره عند إقامة الحد نهي عن مجرد الزيادة عليه بالتثريب وهو التوبيخ واللوم على الذنب[٢].

ثالثًا: من أهداف الدعوة: إقامة الحدود

إن من أهداف الدعوة الإسلامية إقامة الحدود، يستنبط ذلك مما ورد في الحديث من أمر الرسول ﷺ بإقامة حد شرب الخمر على ذلك الرجل الذي أتى به وقد شرب خمرًا فقال اضربوه.

فالشريعة بوضعها عقوبة الجلد لشارب الخمر، قد وضعتها على أساس متين من علم النفس، وحاربت الدوافع النفسية التي تدعو للجريمة بالدوافع النفسية المضادة التي تصرف بطبيعتها عن الجريمة، ودعوة الإسلام لإقامة الحدود في أصلها صيانة للمجتمع

---

(١) العهد والميثاق في القرآن الكريم، د. ناصر العمر، ص ٥٠.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٠٩٣.

من مضار المعصية، والتي لا تحصى، فمثلاً الخمر والتي وردت عقوبتها في الحديث أضرارها لا تحصى فهي تفسد العقل والصحة كما تؤدي إلى ضياع المال وضياع الكرامة[(١)]، إلى غير ذلك من المضارّ.

ورد ذلك المعنى واضحًا في الحديث في نهي رسول الله ﷺ لمن دعا على شارب الخمر بعد إقامة الحد عليه (أخزاك الله) فقال لهم: (لا تقولوا هكذا) أي: لا تقولوا وتدعو بمثل هذا الدعاء، وقوله (لا تعينوا الشيطان عليه) جملة استئنافية لبيان حكمة النهي عن ذلك القول، أي: ادعوا له بالتوفيق والنجاة من الخذلان ولا تكونوا بدعائكم عليه أعوانًا عليه للشيطان[(٢)].

قال ابن حجر: (وَوجْهُ عونهم الشيطان بذلك، أن الشيطان يريد بتزيينه له المعصية أن يحصل له الخزي فإذا دعوا عليه بالخزي فكأنهم قد حصلوا مقصود الشيطان)[(٣)]، ويستفاد من ذلك منع الدعاء على العاصي بالإبعاد عن رحمة الله كاللعن[(٤)]، وقال ابن عثيمين: (ففي هذا دليل على أن الإنسان إذا فعل ذنبًا وعوقب عليه في الدنيا فإنه لا ينبغي لنا أن ندعو عليه بالخزي والعار بل نسأل الله له الهداية ونسأل الله له المغفرة)[(٥)].

---

(١) انظر: التشريع الجنائي الإسلامي مقارنًا بالقانون الوضعي، عبد القادر عودة ص ٦٤٩ - ٦٥٠.

(٢) دليل الفالحين، ابن علان ص ٤٢٧.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٢/٦٨.

(٤) المرجع السابق ١٢/٦٩.

(٥) شرح رياض الصالحين ١/٦٠٥.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

الخطأ من سمات بني آدم، والإسلام كدين للفطرة صرح بهذا، ولهذا حرص على تربية أبنائه على ستر العورات وعدم تتبعها، والأحرار هم الذين يؤلمهم الإخبار بالأمر مع الإعلام بالستر أكثر مما يؤلمهم العقاب.

وإشاعة روح الستر وعدم تتبع العورات فيه مظهر عام مشرق بحق الأمة، وسمعة الدول لا تقل عن سمعة الأفراد.

وفرق بين الستر والشهادة، فإذا دعي الإنسان للشهادة فقد وجبت، وما كان للإنسان أن يعرض عنها بدعوى الستر، لأن في هذا إضاعة للحقوق وإشاعة الباطل. ولهذا كان من الأساليب التربوية ما يلي:

أولاً- التربية الاجتماعية:

لقد اعتنى النبي ﷺ بجانب التربية الاجتماعية في أحاديث هذا الباب، والتي تحث على انضباط المجتمع ونقائه، وخلوه من الأوبئة الأخلاقية المختلفة، التي ينشأ بعضها عن المجاهرة بالمعاصي، يقول ﷺ: "كُلُّ أُمَّتِي مُعَافىً إلاَّ الْمُجَاهِرِينَ"، وأيضًا من جوانب تنقية المجتمع من الأمراض الخلقية: معاقبة الزانية والزاني على فعله؛ حتى لا يكون أسوة لغيره، وأيضًا ليذوق وبال فعلته القبيحة وليرتدع عن فعلها مرة أخرى، يقول ﷺ: "إذَا زَنَتْ الأمَةُ ... فَلْيَجْلِدْهَا الْحَدَّ ...".

إن أهم أهداف التربية الاجتماعية هو جعل الناس أسوياء اجتماعيًا، أسوياء في المواقف الاجتماعية المختلفة، أي: أن يقف فيه كل فرد بحسب المعايير الاجتماعية العامة السائدة في مجتمعه... والخروج على هذه المعايير الاجتماعية وعدم مراعاة هذه الأمور في حياته، يعتبر انحرافًا عن السلوك الاجتماعي وشذوذًا فيه[1].

ثانيًا- التربية بالترغيب:

رغب النبي ﷺ في ستر العبد أخاه المسلم إذا رآه يفعل ذنبًا، فقال: "لاَ يَسْتُرُ عَبْدٌ

---

(١) تربية الأبناء والبنات، خالد العك، ص٢٢٢.

عَبْدًا إِلاَّ سَتَرَهُ اللّه يَوْمَ القِيَامَةِ"، فالمسلك الصحيح أن يستر الأخ علي أخيه ؛ لا أن يفضحه؛ لأن في فضحه إضرارًا به وبعشيرته، ويكون الأمر أكثر إلحاحًا، والستر واجبًا إذا كان المذنب من المعروفين بالتقوى والفضل، وممن يقتدى به؛ لأن هذه ربما تكون زلة وغفلة سرعان ما يفيق منها، وقد قالت العرب: "المشرفي ينبو واللاحقي يكبو"[1]، فما على من عاين هذا الفاضل يسقط في الذنب إلا أن ينصحه.

ولهذا رغب النبي ﷺ في ستره، بأن من ستره ستره الله يوم القيامة، وتلك رغبة يتمناها الجميع، أن يستروا يوم القيامة أمام الخلائق، ولهذا فقد اتبع النبي ﷺ أسلوب الترغيب.

ثالثًا- التربية الوقائية:

وفي طيات هذا الباب، يهتم النبي ﷺ بالتربية الوقائية، ويستخدمها أسلوبًا تربويًا ناجحًا ونافعًا، لاستئصال جذور الفساد قبل نموها، يقول ﷺ: "كُلُّ أُمَّتِي مُعَافَىً إِلاَّ الْمُجَاهِرِينَ"، وفي النهي عن المجاهرة بالذنب أو إفشاء المذنب أسراره، وقوله: "فعلت ذلك البارحة"، في ذلك وقاية للمجتمع، وحمايته ضد الشرور والآفات قبل أن يبدأ انتشارها، لأن العاصي إذا أفشى معصيته وجاهر بها، فإنه سيكون قدوة سيئة لغيره من الشباب والأطفال فيفعلون مثل ما يفعل.

وكذلك من التربية الوقائية أمره ﷺ بإقامة حد الزنى وحد شرب الخمر، يقول ﷺ: "إِذَا زَنَتْ الأَمَةُ وَتَبَيَّنَ زِنَاهَا، فَلْيَجْلِدْهَا الْحَدَّ ..."، ويقول عن شارب الخمر: "اضربوه"، وإقامة الحدود وقاية للفرد والمجتمع من انتشار الرذائل؛ فهي وقاية للفرد لأنها تجلب له الخوف من اقتراف الجرائم الخلقية والوقوع في حبائلها؛ لما ينتظره من ألم العقاب، وهي وقاية للمجتمع لأنها تقلل نسبة الفساد الخلقي، إن لم تقض عليه تمامًا[2].

---

(١) المشرفي: سيف يجلب من المشارف، وينسب إليها، وهو من أجود السيوف، ينبو: يخطئ الهدف، اللاحقي: الجواد الكريم الذي لا يلحق لسرعته، يكبو: يعثر وينكب على وجهه.

(٢) أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي، ص٦٤.

رابعًا- التربية بالعقوبة:

تعد العقوبة من الطرق التربوية الناجحة المفيدة في جبّ الفساد من المجتمع، وقد أمر النبي ﷺ بإقامة حد الزنا بقوله: "إِذَا زَنَتْ الأَمَةُ ... فَلْيَجْلِدْهَا الْحَدَّ ...". وكذلك في أمره بجلد شارب الخمر، ولا يخفى على ذي بصيرة أن المذنب إذا عوقب على ذنبه كان ذلك رادعًا له عن أن يعود إليه، وترهيبًا لغيره من أن يقعوا فيما وقع فيه فيعاقبوا بمثل ما عوقب.

وقد شرع الله سبحانه وتعالى العقوبات رغم أنها مكروهة للطبائع؛ لتكون زاجرة لطبع النفس عن اقتراف الآثام والذنوب، وفيها التطهير عن الآثام الناجمة من ارتكاب المعاصي[1].

❁ ❁ ❁

(١) أصول التربية الإسلامية، د. محمد علي عزب، ص٢٦٢.

٢٩- باب في قضاء حوائج المسلمين

قال تعالى: ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[الحج: ٧٧].

الحديث رقم (٢٤٤)

٢٤٤- وعن ابن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسولَ اللَّه ﷺ قال: «**المسلمُ أَخو المسلم لا يَظلِمُه ولا يُسْلِمُهُ. ومَنْ كَانَ فِي حاجةِ أَخِيهِ كانَ اللَّهُ فِي حاجتِهِ، ومنْ فَرَّجَ عنْ مُسلمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عنه بها كُرْبَةً من كُرَبِ يومَ القيامةِ، ومن سَتَرَ مُسْلماً سَتَرَهُ اللَّهُ يَومَ الْقِيامَةِ**» متفق عليه[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

المضامين الدعوية[2]

(١) أخرجه البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٥٨/٢٥٨٠)، تقدم برقم (٢٣٣). أورده المنذري في ترغيبه (٣٨٦٠)، هذا الحديث سبق شرحه كاملاً أثناء شرح الحديث رقم (٢٣٣) لتكراره.

(٢) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (٢٣٣).

الحديث رقم (٢٤٥)

٢٤٥- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «من نَفَّس عن مؤمن كُرْبة منْ كُرب الدُّنْيا، نفَّس اللَّه عنْه كُرْبة منْ كُرَب يوم الْقِيامَةِ، ومنْ يسَّرَ على مُعْسرٍ يسَّرَ اللَّه عليْه في الدُّنْيَا والآخِرةِ، ومنْ سَتَر مُسْلِماً سَترهُ اللَّه فِي الدنْيا والآخرة، واللَّه فِي عوْنِ العبْد ما كانَ العبْدُ في عوْنِ أَخيهِ، ومنْ سلك طَريقاً يَلْتَمسُ فيهِ عِلْماً سهَّل اللَّه لهُ به طريقاً إلى الجنَّة. وما اجْتَمَعَ قوْمٌ فِي بيْتٍ منْ بُيُوتِ اللَّه تعالَى، يتْلُون كِتَابَ اللَّه، ويَتَدارسُونهُ بيْنَهُمْ، إلاَّ نَزَلَتْ عليهم السَّكِينةُ، وغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمةُ، وحفَّتْهُمُ الملائكَةُ، وذكَرهُمُ اللَّه فيمَنْ عنده. ومنْ بَطَّأَ به عَملُهُ لمْ يُسرعْ به نَسَبُهُ» رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

نفَّس: أي فرّج وكشف[2].

كربة: الغم الذي يأخذ بالنفس[3].

المعسر: من العسر وهو ضد اليسر. وهو الضيق والشدة والصعوبة[4].

السكينة: الطُّمأنينة والوقار والسكون[5].

غشيتهم: غَطَّتْهُمْ وحوتْهُمْ[6].

حَفَّتهم: طافت بهم ودارت حولهم[7].

---

(١) برقم (٢٦٩٩/٣٨). أورده المنذري في ترغيبه (١٠٥). وسيكرره المؤلف مختصرًا برقم (١٠٢٤).

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ن ف س).

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١٧/٥.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ع س ر).

(٥) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (س ك ن).

(٦) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (غ ش ي).

(٧) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ح ف ف).

بطأ به عمله: كان عمله ناقصاً[(١)].

الشرح الأدبي

هذا الحديث عظيم جليل، جامع لأنواع من العلوم والقواعد والآداب والفضائل والفوائد والأحكام، وفيه إشارة إلى أن الجزاء من جنس العمل، كما يقول صاحب دليل الفالحين[(٢)]، وكذلك صاحب جامع العلوم والحكم، حيث يقول معقباً على الحديث: هذا يرجع إلى أن الجزاء من جنس العمل[(٣)].

وحين نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث، نجد أنه يتكون من سبع جمل أو سبع منارات من الهدي النبوي، وهى كلها تشارك في إقامة مجتمع إسلامي تسوده المحبة والرحمة، وكل جملة في هذا الحديث تعد لبنة في صرح الأخلاق الإسلامية، وشعاعاً وهاجاً من الهداية والتعاطف بين أبناء الأمة رغبة في التئام الشمل ورأب الصدع، وتكاتف وتكافل طوائف المجتمع المسلم، وتجاذب أفراده، وحين نعيد النظر في البناء اللغوي، وفي الكلمات المشعة، والعلاقات فيما بينها نجد أن الجمل الخمس الأولى صيغت في قالب الشرط والجزاء، وهذه الصياغة تتفق مع كل مقاصد الحديث وهى تتجمع في بؤرة دلالية واحدة، هي: "الجزاء من جنس العمل"، ولذلك جاء جواب الشرط في هذه الجمل مماثلاً لفعل الشرط في مادته اللغوية، إشارة إلى أن الجزاء من جنس العمل: ولكن فضل الله أوسع، وجزاؤه أعم وأشمل، ولنتأمل هذا التماثل الموحي بالبشارة والثواب الجزيل.

"من نَفّس عن مؤمن... نَفّسَ الله عنه، ومن يسر على معسر يسر الله عليه، ومن ستر مسلماً، ستره الله".

ويبدأ الحديث بوعد كل مسلم يشارك في تهوين الشدائد والكروب عن أخيه

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٩١.

(٢) دليل الفالحين، ابن علان ص ٤٢٨.

(٣) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢/٢١٦.

المؤمن، فالكربة هي الشدة العظيمة التي توقع صاحبها في الكرب، وتنفيسها أن يخفف عنه منها، وهذه الصورة التعبيرية مأخوذة من تنفس الخناق كأنه يرخى له الخناق حتى يأخذ نفساً، وكأن الكرب قيود تخنق أنفاس المؤمن، وفي رواية: من فرج، والتفريج أعظم من التنفيس، وقيل: الكربة تقارب أن تزهق النفس، كأنها لشدة غمها عطلت مجال التنفس منه.

وقد حدد في هذه الجملة الكرية بأنها من كرب يوم القيامة، ولم يقل من كرب الدنيا والآخرة، كما قيل في التيسير والستر لأن الكرب هي الشدائد العظيمة، وليس كل أحد يحصل له ذلك في الدنيا بخلاف الإعسار والعورات المحتاجة إلى الستر، فإن أحدًا لا يكاد يخلو من ذلك ولو بتعسر الحاجات المهمة[1].

ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، وأسلوب الشرط هنا يضيء المعنى، ويوضح الجزاء الأوفى لمن يتصدى لإنقاذ المعسر من ضائقة، فالله سبحانه ييسر عليه أموره في الدنيا والآخرة، فالإعسار كما يكون في الدنيا يكون في الآخرة.

وقد وصف الله يوم القيامة بأنه عسير، والجملة الثالثة تبشر هؤلاء الذين يسترون عورات الناس، ولا يفضحون أمرهم اتباعاً لأمر رسول الله ﷺ فعن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الإيمَانُ قَلْبَهُ لا تَغْتَابُوا المُسْلِمِينَ وَلا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فإنه مَنِ يتّبعَ عوراتهم يَتَّبِعِ الله عَوْرَتَهُ، وَمَنْ يَتَّبِعِ الله عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ في بَيْتِهِ»[2]. وما أصدق هذا الوعد الإلهي وهو أن الله في عون العبد طالما كان العبد في عون أخيه، وهذه الجملة تضمنت معنى الشرط؛ ثم يبشر رسول الله طالب العلم النافع المفيد بأن طريق العلم هو السبيل إلى جنة فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وكل معالم الهدي السابقة يمكن أن تنبثق وتتأصل في قلب كل مسلم بكثرة

---

(١) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب، الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١/ ٢٩٦.

(٢) أخرجه أحمد ٤/٤٢١ رقم ١٩٧٧٦، وقال محققو المسند حديث صحيح لغيره ٣٣/٢٠.

ارتياد المساجد، والتعلم والذكر والمناجاة والدعوات وختام الحديث يؤكد على وجوب العمل الصالح ففيه الفوز والنجاة.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكمين فقهيين:

الأول: حكم إنظار المعسر والوضع عنه، وقد اتفق الفقهاء[1] على أنه يجب على الدائن أن ينظر المعسر إلى ميسرة متى عجز عن الوفاء بدينه لنص الكتاب على ذلك، ويحرم عليه أن يلازمه أو يتعرض له، بل ويستحب له حينئذ أن يضع شيئاً من دينه عن المدين مساعدة له وإرفاقاً به والوضع عنه أفضل من إنظاره.

الثاني: الستر على المعاصي، وقد سبق الكلام عنه في الحديث رقم (٢٣٣).

١- الاجتماع لقراءة القرآن:

صرح الشافعية والحنابلة بأن الاجتماع لقراءة القرآن مستحب، لحديث الباب. وروى أبو داود أن أبا الدرداء رضي الله تعالى عنه كان يدرس القرآن مع نفر يقرأون جميعًا.

قال الرحيباني من الحنابلة: (وكره أصحابنا قراءة الإدارة، وهي أن يقرأ قارئ ثم يقطع، ثم يقرأ غيره بما بعد قراءته، وأما لو أعاد ما قرأه الأول وهكذا فلا يكره، لأن جبريل كان يدارس النبي ﷺ القرآن برمضان)[2].

وحكى ابن تيمية: عن أكثر العلماء أن قراءة الإدارة حسنة كالقراءة، مجتمعين بصوت واحد.

---

(١) أحكام القرآن، الجصاص ٦٤٦/١، وبريقة محمودية في طريقة محمدية وشريعة نبوية في سرية أحمدية، محمد بن مصطفى الخادمي ١٤١/٣، وشرح الخرشي على مختصر خليل ٢٠/٦، وأحكام القرآن، ابن العربي ٣٢٦/١، الأم ٢٠٦/٣، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين بن الحسن بن عبدالرحمن ١٦٣/٦، والفروع، ابن مفلح ٢٩٧/٤، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ١٥٨/٢، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ١٨٦/٣.

(٢) أخرجه البخاري ٦، ومسلم ٢٣٠٨.

وقال النووي عن قراءة الإدارة: هذا جائز حسن. وقد سئل مالك رحمه الله تعالى فقال: لا بأس به. وصوّبه البناني والدسوقي. لكن صرّح الحنفية والمالكية بكراهة قراءة الجماعة معًا بصوت واحد لتضمنها ترك الاستماع والإنصات ولِلزوم تخليط بعضهم على بعض.

قال صاحب غنية المتملي: يكره للقوم أن يقرأوا القرآن جملة؛ لتضمنها ترك الاستماع والإنصات. وقيل: لا بأس به[(١)].

٢-تعليم القرآن: قال القرطبي: (فيه ما يدل على جواز تعليم القرآن في المساجد، أما الكبار الذين يتحفظون بالمسجد فلا إشكال فيه، ولا يختلف فيه، وأما الصغار الذين لا يتحفظون بالمساجد فلا يجوز، لأنها تعرض المسجد للقذر والعبث، وقد قال النبي ﷺ ((جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم))[(٢)]).

المضامين الدعوية

أولاً: من مهام الداعي: توجيه أنظار الناس إلى طرق الخير.

ثانياً: من أساليب الدعوة: الترغيب.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: الحث على فضائل الأعمال.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: فضل التعاون والتيسير والستر.

خامساً: من موضوعات الدعوة: فضل السعي لطلب العلم ومدارسته.

سادساً: من موضوعات الدعوة: الجزاء من جنس العمل.

سابعاً: من موضوعات الدعوة: أهمية العمل في بلوغ الجنة.

---

(١) غنية المتملي شرح منية المصلّي ٤٩٧، وحاشية الدسوقي على الشرح الكبير، وهو مطبوع مع الشرح الكبير للدردير، محمد بن عرفة الدسوقي ٣٠٨/١، والتبيان في آداب جملة القرآن ١٢٨، ١٣٤، ومطالب أولي النهي ٥٩٧/١-٥٩٨ (عن الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٦٢/٣٣) وانظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٦٨٧/٦، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٨/١٧/٩ ط دار الكتب العلمية.

(٢) أخرجه ابن ماجه ٧٥٠، وضعفه الألباني (ضعيف سنن ابن ماجه ١٦٤).

ثامناً: من موضوعات الدعوة: فضل مدارسة القرآن وعمارة المساجد.

تاسعاً: من أهداف الدعوة الإسلامية: الترابط والوحدة ونشر العلم.

أولاً- من مهام الداعي: توجيه أنظار الناس إلى طرق الخير:

في ذكر لنا النبي ﷺ في الحديث عدة طرق للخير وروافد للثواب، فهذا حديث عظيم جامع لأنواع من العلوم والقواعد والآداب[(١)]، فبين فضل كشف الكرب والتيسير على المعسر والحث على الستر وإعانة الغير والحث على سلوك طرق العلم، والالتفاف حول كتاب الله عز وجل.

ثانياً- من أساليب الدعوة: الترغيب:

لقد رغّب النبي ﷺ في الخيرات وبين ثوابها حثاً للهمم وتحفيزاً للعزائم فقال "من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة... الحديث" وقد رغبنا الله عز وجل في فعل الخيرات ﴿وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[(٢)] وهذا أمر من الله بإسداء الخير إلى الناس من الزكاة وحسن المعاملة، كصلة الرحم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وسائر مكارم الأخلاق[(٣)]. وأسلوب الترغيب وغرس الرجاء في النفوس فيما عند الله سبحانه من الخير الذي لا منتهى له في الدنيا والآخرة أمر مطلوب حتى يبادر العبد إلى القيام بكل ما من شأنه أن يجعله أهلاً لنفحات الله سبحانه ورحمته وكرمه[(٤)].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: الحث على فضائل الأعمال:

وهذا ظاهر في هذا الحديث حيث حثنا رسول الله ﷺ على فضائل الأعمال طلباً للثواب والدرجات العلى وقد أرشد الحق إلى فعل الخيرات والإكثار منها فقال تعالى:

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي، ص ١٥٩١.

(٢) سورة الحج، آية: ٧٧.

(٣) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، مج٧/١٧/٣٤٦.

(٤) انظر: وسائل الدعوة، د. عبدالرحيم بن محمد المغذوي، ص ١٩٥.

﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[١] وذلك ندب فيما عدا الواجبات[٢] "لعلكم تفلحون" أي تفوزون بالمطلوب المرغوب وتنجون من المكروه والمرهوب[٣].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: فضل التعاون والتيسير والستر:

ورد في الحديث الدعوة والترغيب في تنفيس الكرب والتيسير على المعسرين وغير ذلك من أبواب الخير فيقول ﷺ "من نفس عن مؤمن كربة"، أي: أزال وفرج "عن مؤمن كربة" وهي ما أَهَمَّ النفس وغم القلب لأن الكربة تقارب أن تزهق النفس كأنها لشدة غمها عطلت مجال التنفس منه، "نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة" أي: من شدائدها "ومن يسر على معسر" بإبراء أو هبة أو صدقة أو نظرة إلى ميسرة بنفسه أو وساطته "يسر الله عليه في الدنيا والآخرة" "ومن ستر مسلماً" لم يشتهر بالأذى والضرر على معصية رآها منه فيما مضى "ستره الله يوم القيامة"[٤] وحث الرسول ﷺ بعد هذا التفصيل بصيغة أعم قائلاً: "والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه" إجمال لكل خير يستطيع أن يقدمه المسلم ويسوقه لأخيه المسلم فإن تقديم العون والنصرة لمن يحتاج إليها سلوك إسلامي أصيل وخلق رفيع تقتضيه الأخوة الصادقة[٥].

خامساً- من موضوعات الدعوة: فضل السعي لطلب العلم ومدارسته:

ورد ذلك في ترغيب الرسول ﷺ في السعي لطلب العلم فقال "ومن سلك طريقاً يبتغي به علماً سهل الله به طريقاً إلى الجنة" ففيه فضل المشي والسعي في طلب العلم ويلزم من ذلك الاشتغال بطلب العلم الشرعي بشرط أن يقصد به وجه الله تعالى، وإن

---

(١) سورة الحج، آية: ٧٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩٨/١٢/٦.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ، ص ٤٩٦.

(٤) انظر: دليل الفالحين، ابن علان ص ٤٢٩.

(٥) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن ملوح ٤١٩/٢.

كان هذا شرطاً في كل عبادة لكن عادة العلماء يقيدون هذه المسألة به لكونه قد يتساهل فيه بعض الناس ويغفل عنه بعض المبتدئين[١]. فإذا تحقق في طالب العلم ذلك "سهل الله له طريقاً إلى الجنة" يرشده إلى طلب الهداية والطاعة الموصلة إلى الجنة، وليس ذلك إلا بتسهيله تعالى، وإلا فبدون لطفه لا ينفع علم ولا غيره أو بأنه يجازيه على طلبه وتحصيله بتسهيل دخول الجنة بأن لا يرى من مشاق الموقف ما يراه غيره وهذا أقرب لظاهر الحديث[٢].

سادساً- من موضوعات الدعوة: الجزاء من جنس العمل:

جاء في الحديث بيان رسول الله ﷺ جزاء كل عمل من جنسه كقوله، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة. وكذا باقي فقرات الحديث، وذلك يوافق قول الله عز وجل ﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴾[٣]. فالجزاء من جنس العمل ثواباً وعذاباً كالتنفيس بالتنفيس والستر بالستر والعون بالعون ونظير ذلك في كثير من أحكام الدنيا والآخرة[٤].

سابعاً- من موضوعات الدعوة: أهمية العمل في بلوغ الجنة:

لا ينبغي لإنسان أن يتكل على حسبه أو ماله أو ما شاكل ذلك فمقياس الفضل عند الله تبارك وتعالى بالتقوى والعمل الصالح قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾[٥] فإذا كان لابد من التفاضل فليعلم أن التسابق يجب أن يكون بالأعمال الشخصية وليس هناك أفضل من تقوى الله عملاً[٦]. وبيان ذلك في الحديث الذي معنا "ومن بطأ به

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي، ص ١٥٩١.

(٢) دليل الفالحين، ابن علان ص ٤٣٠.

(٣) سورة النبأ، آية: ٢٦.

(٤) دليل الفالحين، ابن علان ص ٤٣٠.

(٥) سورة الحجرات، آية: ١٣.

(٦) التفسير الواضح، د. محمد محمود حجازي، ٣/٢٦/٦٥.

عمله لم يسرع به نسبه" أي لم يلحقه برتب أصحاب الأعمال الكاملة لأن المسارعة إلى السعادة إنما هي بالأعمال لا بالأحساب قال الشاعر:

وما الفخر بالعظم الرميم وإنما   فخار الذي يبقى الفخار بنفسه[١]

ثامناً- من موضوعات الدعوة: فضل مدارسة القرآن وعمارة المساجد:

يستنبط هذا مما ورد في الحديث من قوله ﷺ "وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللّهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللّهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إلاَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ" ولفضل مدارسة القرآن كان جبريل عليه السلام يدارس رسول الله ﷺ وكما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: ((وكانَ يلقاهُ في كلِّ ليلةٍ مِنْ رَمضانَ فَيُدارِسه القُرآنَ))[٢].

قال النووي: (ويلحق بالمسجد في تحصيل هذه الفضيلة الاجتماع في مدرسة ورباط ونحوهما)[٣]، ويدل على ذلك ما روي عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما أنهما شهدا على النبي ﷺ أنه قال ((لاَ يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللّهَ عَزَّ وَجَلَّ إلاَّ حَفَّتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ ، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ))[٤].

تاسعاً- من أهداف الدعوة الإسلامية: الترابط والوحدة ونشر العلم:

إن الدعوة الإسلامية لا تقتصر على حفظ مبادئ الشرع في الصدور وكتابتها في السطور، وإنما تبرز هذه المبادئ وتخرجها إلى حيز التنفيذ وتظهرها في ميدان التطبيق ومن أهدافها: ما ورد في الحديث من دعوة إلى الترابط عن طريق التعاون ومد اليد بالخير "والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه"، إلى غير ذلك من روافد الوحدة والترابط في هذا الحديث والحفاظ عليها بما يضمن سلامتها وبقاءها وذلك بنشر العلم

---

(١) دليل الفالحين، ابن علان ص ٤٣١.

(٢) أخرجه البخاري ٦.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي، ص ٦٠١.

(٤) أخرجه مسلم ٢٧٠٠.

-خاصة الشرعي-، فالوحدة والترابط لهما أهمية عظمى في حياة الأمة، فتثبت دعائمها وتسود فيها روح التعاون والألفة واحترام الحقوق والتزام الواجبات وتكون مُحَصِّلَة ذلك: مجتمعاً قوياً متآلفاً لا شحناء فيه ولا بغضاء مما يجعل نسيج الأمة كالبنيان يشد بعضه بعضاً[1].

(١) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن ملوح ١٢٣١/٤، ١٢٣٢.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

المسلم في مجتمعه آمن ومؤمّن عليه، وليس المراد به دفع مبلغ من المال مقابل خدمة معينة لرده حال الحوادث والنوازل.. إلخ. إن التأمين في الإسلام معنى مطلق، يشمل التأمين المادي والأدبي، والتأمين المادي قائم بكفالة الأغنياء للفقراء عن طريق ما وجب شرعاً (الزكاة، الكفارة، النذور) وما هو مسنون (الصدقة، الهبة، القرض الحسن.. إلخ).

والتأمين الأدبي كامن في إشاعة روح التعاون ومد يد المعروف، فالجهلة لا يُستغلون لجهلهم، والزمنى لا يستطيعون طلب الحق إلى من الأصحاء وأصحاب الحاجات كثيراً ما يفتقرون إلى هذا أو ذاك للوصول إلى حقهم.

وقد بين الرسول ﷺ الآثار الإيجابية المترتبة على هذا السلوك، فتفريج كربة من كرب الدنيا يكسب تفريج كربة من كرب الآخرة، ووعد الله لا يتخلف، والتعبير بأسلوب التنكير "كربة" للتنويع وقد يكون للتحقير في نظر الناس، ولكن عند الله لا يضيع القليل أو الكثير، ومن المضامين التربوية:

أولاً- غرس مبدأ الأخوة في الله:

لقد حث الإسلام دائماً على تآخي المسلمين، وحرص الرسول ﷺ على غرس هذه الروح في نفوس المسلمين؛ لأن الإسلام ليس مبادئ تعبدية تربط العبد بربه فحسب؛ بل هو أيضاً معاملات وعلاقات اجتماعية، ومن هنا كان التآخي في الله من المبادئ الأساسية في الإسلام، يقول ﷺ: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يُسْلِمُهُ...»، فمبدأ الأخوة يلزم عنه حسن التعامل معه، فلا يظلمه ولا يتخلى عنه ويفرج عنه همومه، ويستره إذا زلت قدمه.

والأخوة في الله هي رابطة نفسية تورث الشعور العميق بالعاطفة والمحبة والاحترام، مع كل من تربطه وإياه من أواصر العقيدة الإسلامية ووشائج الإيمان والتقوى، فهذا الشعور الأخوي الصادق يولد في النفس أصدق العواطف النبيلة في اتخاذ مواقف إيجابية

من التعاون والإيثار والرحمة والعفو عند المقدرة، واتخاذ مواقف سلبية عن كل ما يضر بالناس في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم والمساس بكراماتهم، ولقد حث الإسلام على هذه الأخوة في الله، وبين مقتضياتها وملتزماتها[1].

ثانياً- التربية على التعاون:

التعاون من المبادئ التربوية التي نشّأ الإسلام المؤمنين عليها، يقول تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾[2]، ولقد تضمنت أحاديث هذا الباب مبدأ التعاون، وتناولت مقتضياته، وهي: الأخوة في الله، وقضاء حوائج المسلمين، وتفريج كربهم، والتيسير على المعسرين، يقول ﷺ: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ .... مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ، كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ»، ويقول ﷺ: «مَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ».

تلك مقتضيات التعاون، فالمجتمع من المنظور التربوي الإسلامي لابد أن يكون يداً واحداً، متعاونين متآزرين.

والنجاح في بناء العلاقات الاجتماعية أمر لا غنى للمربي عنه، وهو مفتاح تأثيره على الأقربين الذين هم أولى بدعوته من سائر الناس، كما أنه لا غنى له عنه ليعيش حياته الاجتماعية، ومن ثم تبدو أهمية الاعتناء بتنمية هذه القدرة لدى الشباب[3].

ثالثاً- التربية بالترغيب:

لقد رغب النبي ﷺ في الأخوة في الله، وقضاء حوائج الناس؛ وذلك بأن أخبر أن الجزاء من جنس العمل، يقول ﷺ: «مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ، كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ». وفي كل معونة يقدمها المسلم لأخيه المسلم يجزيه الله بها مثلها في الدنيا والآخرة، وكذلك من فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة.

---

(١) تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، ٣٦٢/١.

(٢) سورة المائدة، آية: ٢.

(٣) تربية الشباب، محمد عبدالله الدويش، ص١٨٧ بتصرف يسير.

ولقد بين النبي ﷺ هذا الجزاء الدنيوي والأخروي لصحابته والمسلمين أجمعين، حتى يكون ذلك باعثاً لهم على فعل ما يأمرهم به، فإن المرء إذا علم أن لعمله جزاءً وثواباً، أقبل عليه، رغبة في نيل هذا الثواب، وذلك من الأسس التربوية التي استخدمها النبي ﷺ في تربية صحابته.

وقد استخدم المنهج الإسلامي هذا الأسلوب في تحريك الدوافع الخيرة وتنشيطها؛ بالترغيب فيما أعده الله تعالى لمن خاف مقام ربه، ونهى نفسه عن طغيانها[(١)].

رابعاً- من الأماكن التربوية في الإسلام: المساجد

لقد أظهر النبي ﷺ قيمة المساجد، وثواب الجلوس فيها ومدارسة الكتاب والسنة فيها؛ فهي من الأماكن التربوية الأساسية في الإسلام، يقول ﷺ: «وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى...»، وقد رغّب النبي ﷺ بمدارسة العلم في المساجد بقوله: «إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة...»، وذلك لمكانة المسجد العظيمة في الإسلام، وليس أدل على ذلك من قيام النبي ﷺ ببناء المسجد أول دخوله المدينة.

وقد يتبادر إلى الذهن أن الغرض من بناء المسجد إنما هو أداء الصلاة والعبادة، وهذا في الحقيقة غرض واحد من بين عدة أغراض مختلفة، وليس التعليم أقلها بعد العبادة؛ حيث كان التعليم من أشد الوظائف بروزاً في الدور الذي كان يؤديه المسجد، حيث اعتبر المسجد المكان الطبيعي لتلقي العلم، ومعرفة الشريعة أولًا بأول، فقد كان الرسول ﷺ يعقد حلقات العلم في المسجد ليغشاه كل راغب في العلم[(٢)].

❁ ❁ ❁

(١) أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي، ص٣٩٤.

(٢) أصول التربية الإسلامية، د. أمين أبو لاوي ص١٢١.

٣٠- باب الشفاعة

قَالَ اللَّه تَعَالَى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا﴾[النساء: ٨٥].

الحديث رقم (٢٤٦)

٢٤٦- وعن أَبي موسى الأَشعري ﷺ قال: كان النبي ﷺ إِذَا أَتَاهُ طالِبُ حاجةٍ أَقْبَلَ عَلَى جُلسائِهِ فقال: «**اشْفَعُوا تُؤجَرُوا ويَقْضِي اللّه عَلَى لِسان نَبِيِّهِ ما أَحبَّ**» متفق عليه[١].

وفي رواية[٢]: «مَا شَاءَ».

ترجمة الراوي:

أبو موسى الأشعري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٩).

غريب الألفاظ:

اشفعوا: الشفاعة هنا: التوسُّط لقضاء حوائج الناس[٣].

الشرح الأدبي

ما أشد حرص النبي ﷺ على أمته، وما أرفقه بهم، وما أجمل هذه المواقف الإنسانية المأثورة عن رسول الله ﷺ في تفريج الكروب، وتيسير الإعسار، وإزالة الهموم، وقضاء الحوائج، ومن خصوصيات محمد ﷺ أنه يشفع لأمته عند ربه يوم القيامة، وأن الحق سبحانه وتعالى يقبل شفاعته لمن يستحق الشفاعة ويكون أهلاً لها.

وفي ضوء هذه المنحة الإلهية للحبيب المصطفى ﷺ، نقرأ هذا الحديث مسترشدين بسنة النبي الكريم ﷺ الذي أراد أن يغرس عاطفة الرحمة والمودة في قلوب أمته، وأن يمنحهم فيوضات من التسامي والتراحم في ظلال سنته، وأن يحبب المسلمين في

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٣٢)، ومسلم (٢٦٢٧/١٤٥) والسياق للحميدي في جمعه (٣٠١/١، رقم ٤٣٧).

(٢) أخرجها البخاري (١٤٢٣، و ٦٠٢٨).

(٣) لسان العرب، ابن منظور والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ش ف ع).

الإقبال على التمسك والاهتداء بقدوته.

والحديث يقدمه أبو موسى الأشعري رضي الله عنه في أسلوب سردي.. ولكنه يحكي ويصور مشهدًا واقعيًا حقيقيًا... وهذا المشهد يتكرر كثيرًا في مواقف متعددة.. وهو الترغيب في قضاء حوائج الناس، والسعي عند ولاة الأمر... بالشفاعة لصاحب الحاجة حتى تُقضى حاجته، وتفرج كربته، لأن الولاة والأمراء والرؤساء لا يستطيع الوصول إليهم إلا صاحب شأن، وصاحب جاه أو علم أو مال، وصاحب الحاجة المشروعة في أمس الحاجة إلى قضاء مأربة، وتحقيق مطلبه.

ولذلك يبدأ الحديث بداية تدل على تكرار هذا المشهد حيث يقول أبو هريرة رضي الله عنه: "كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أتاه طالب حاجة أقبل على جلسائه فقال" وطلاب الحاجات كانوا يتوافدون على النبي صلى الله عليه وسلم، وأسلوب الشرط في هذه الجملة يرشد إلى تحقق هذا المشهد، لأن أداة الشرط إذًا تفيد تحقق الجواب لتحقق الشرط، فالأمر ليس افتراضًا، ولا احتمالاً، ولكنه واقع ملموس، وقوله: "طالب حاجة"، جاءت في صيغة النكرة المضافة إلى نكرة، وهذه الصيغة جاءت لإفادة العموم والشمول، فكل من قصد الرسول صلى الله عليه وسلم. وطرق باب بيته أو دخل مسجده، وطلب المؤازرة والمعونة، فهو طالب حاجة، وكلمة حاجة تتضمن كل ما يحتاجه الإنسان في جميع شؤون حياته، والتعبير بقوله: "أقبل على جلسائه فقال: اشفعوا تؤجروا"، يوحي بحرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على عنصر الترغيب لا الترهيب فالإقبال يعني: البشر والإيناس، والمحبة والرحمة، والتعبير بقوله: جلسائه -حيث أضاف الكلمة إلى الضمير العائد على رسول الله صلى الله عليه وسلم- فيه إشارة إلى قوة المحبة، وشدة المودة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلسائه، وجملة اشفعوا تؤجروا، جملة طلبية تضمنت معنى الشرط، والفعل تؤجروا مجزوم في جواب الأمر، والأمر هنا جاء بعد الترغيب والإقبال، وبعد أن قدَّم الرسول صلى الله عليه وسلم القدوة الحسنة في هذا الشأن، وسعى في قضاء حوائج الناس، وشفع لهم في الدنيا والآخرة.

ولفظ "الشفاعة"، تحمل دلالته اللغوية المعنى المقصود في الحديث الشريف، فالشفاعة المرادة في الحديث هي: أن يستوهب أحد لأحد شيئًا، ويطلب له حاجة،

وأصلها من الشفع ضد الوتر، كأن صاحب الحاجة كان فردًا، فصار صاحب الشفع له شفعًا، أي صارا زوجًا، فالشفاعة تعطي للمشفوع له قوة ومناعة، وهو في ظل هذه الشفاعة لا يشعر بأنه وحده في ميدان الحياة، ولكن معه من يؤازره ويعضده استجابة لأمر رسول الله ﷺ اشفعوا تؤجروا.

والله يفعل ما يشاء، ولا ينتظر طالب الشفاعة تحقيق طلبه، ولكن يترك الأمر لمشيئة الله سبحانه فهو العليم الخبير.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم السؤال للأشياء من أجل الغير، وقد ذكر الفقهاء أنه يجوز للرجل أن يسأل لغيره حاجة عن طريق الشفاعة ويقضي الله بعد ذلك ما يريد، وقال البعض يعرض بالسؤال كما قال النبي ﷺ حين جاءه قوم حفاة عراة مجتابي النمار فقال "تصدقوا"[(١)] ولم يقل أعطوهم، قال أبو عمر: قال النبي ﷺ اشفعوا تؤجروا، وفيه إطلاق السؤال لغيره[(٢)].

وقد بنى الفقهاء على هذا الحديث أحكامًا كثيرة، ومن ذلك أنهم أجازوا الشفاعة إلى ولاة الأمور، ومن ذلك الشفاعة في التعزير وكل ما ليس بحد، بل تستحب لهذا الحديث[(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم ١٠١٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٣/٣٤٤، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١/٥٣٢، والتمهيد لابن عبدالبر ٤/١٢٢، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠/٤٥٠.

(٣) إعانة الطالبين، عثمان البكري الدمياطي ٤/١٦٨، والإقناع، الشربيني ٢/٥٢٦، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٤/١٩٤، والمنثور في القواعد للزركشي ٢/٢٤٨، وانظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٦/١٣١-١٣٥.

المضامين الدعوية

أولاً: من آداب الداعية: حسن استقبال المدعوين والحرص على نفعهم.

ثانيًا: من واجبات الداعية: الاستجابة لحاجات المدعوين والسعي في قضائها.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الأمر، والترغيب.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل الشفاعة الحسنة للمسلمين وثوابها.

أولاً - من آداب الداعية: حسن استقبال المدعوين والحرص على نفعهم:

إن من الآداب التي تحبب الداعية إلى المدعوين حسن استقبالهم، وقد كان النبي ﷺ يحسن استقبال المدعوين، ويشعرهم باهتمامه وحفاوته بهم، ومن الشواهد على ذلك في هذا الحديث ما جاء في قول أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: (كان النبي ﷺ إذا أتاه طالب حاجة أقبل على جلسائه)، وهذا يبين أن من آداب الداعية حسن استقبال المدعوين، قال ابن علان: (وهذا من مزيد عنايته بصحابته رضي الله عنهم ودلالته على الخير لأمته)[1]، وفي حسن استقبال المدعوين دلالة على تواضعه، وبسط جناحه للمدعوين، (والدعاة إلى الله أحوج الناس إلى خلق التواضع، لأنهم يخالطون الناس ويدعونهم إلى الحق، ومن طبيعة الناس ألا يتقبلوا دعوة أو قول من يتطاول عليهم بعلم أو معرفة أو غنى أو جاه أو حسب أو نسب، وإن كان ما يقوله حقًا وصدقًا)[2].

وما من شك أن التواضع واللين للمدعوين طريق نجاح لكل داع صادق في دعوته، (وإذا كان من المستحيل على الداعي أن يسع من يدعوه بماله، فلا أقل أن يسعه بأخلاقه وتواضعه، فليس من خصلة أحب إلى النفس من التواضع، وعلى الداعي الناجح أن يجعل من رسول الله ﷺ أسوة حسنة في جميع خصاله الكريمة)[3].

وأما الحرص على نفع المدعوين فقد كان النبي ﷺ يحرص على نفع المدعوين

---

(١) دليل الفالحين، ابن علان ص٤٣٢.

(٢) أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان ص ٣٤٩.

(٣) الدعوة والداعية في ضوء سورة الفرقان، محمد سعيد البارودي ص ٢٤٤.

بما يقدم أو يبذل لهم من معروف، أو من خلال كونه ﷺ سببًا في جلب وتحصيل الثواب من خلال ما قدموه من معروف، يتضح ذلك من قوله ﷺ لأصحابه رضي الله عنهم إذا جاءه طالب حاجة: (اشفعوا تؤجروا) فكان يحرص على نفع المدعوين، وأن يشركهم في فعل الخير، (والداعية يدعو إلى الإيمان بالله تعالى وتوحيده والتزام أوامره، والابتعاد عن نواهيه ويدعو إلى مكارم الأخلاق ويحبب الناس بالخير ويأخذ بأيديهم إليه، أو يحول بينهم وبين اغتيال الشياطين لهم، ولا شك أن الداعية أمره عظيم، لأنه يدعو إلى ما يسعدهم في دنياهم ويجعلهم فائزين في أخراهم، يسوقهم إلى الجنة، ويحول بينهم وبين النار)[(١)].

ثانيًا- من واجبات الداعية: الاستجابة لحاجات المدعوين والسعي في قضائها:

يستنبط هذا من سياق الحديث، فالداعية هو ذلك الإنسان الذي يتوسم الناس فيه الخير لقضاء مصالحهم وأمورهم، وعلى الداعية أن يستحضر في داخله النصوص القرآنية التي تحفزه على السعي في قضاء مصالح المدعوين، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾[(٢)]، وقوله جلّ شأنه: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[(٣)].

وأما السنة النبوية فقد جاء في الحديث قوله ﷺ: ((ومَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ))[(٤)]، وقوله ﷺ: ((وَاللّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ))[(٥)]، ومن مواقف الرسول ﷺ التي تدل على سعيه في قضاء حوائج المدعوين ما جاء عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه: أن رجلاً قال: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي أُبْدِعَ[(٦)] بِي فَاحْمِلْنِي.

(١) مرشد الدعاة، محمد نمر الخطيب ص ١١١.

(٢) سورة المائدة، آية: ٢.

(٣) سورة البقرة، آية: ١٩٥.

(٤) أخرجه البخاري ٢٤٤٢، ومسلم ٢٥٨٠.

(٥) أخرجه مسلم ٢٦٩٩.

(٦) أُبْدِعَ: أي هلكت دابتي وهي مركوبي. شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٣/٣٩ المطبعة المصرية ومكتبتها.

قالَ: ((لا أجِدُ مَا أحْمِلُكَ عَلَيْهِ وَلكِن ائْتِ فُلاَنًا فَلَعَلَّهُ أنْ يَحْمِلَكَ))، فأتَاهُ فَحَمَلَهُ، فأتَى رسولَ الله ﷺ فأَخْبَرَهُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: ((مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أجْرِ فَاعِلِهِ))(١).

ثالثًا- من أساليب الدعوة: الأمر، والترغيب:

١- **الأمر:** ورد الأمر في قوله ﷺ: (اشفعوا)، ولا شك أن أسلوب الأمر من أساليب الدعوة، وهو يدل على أهمية المأمور به، ويكون بمثابة الحافز والدافع للمدعوين على تنفيذه والالتزام به.

٢- **الترغيب:** ويتضح من قوله ﷺ في الحديث: (تؤجروا) قال ابن حجر: ("تؤجروا": تعرضوا بذلك للأجر والمعنى: إنكم إن شفعتم حصل لكم الاجر سواء قبلت شفاعتكم أم لا، ويجري الله على لسان نبيه ما شاء، أي من موجبات قضاء الحاجة أو عدمها، أي: إن قضيتها أو لم أقضها فهو بتقدير الله تعالى وقضائه)(٢).

ولا شك أن الترغيب من الأساليب الدعوية المفيدة لأن النفس بطبيعتها تميل إلى الثواب والأجر، (ولما كان الإنسان مجبولاً على حب ما ينفعه، وتقر به عينه، وتطمئن به نفسه، كان لأسلوب الترغيب أهمية قصوى في الدعوة إلى الله، وأصبح الطريق ممهدًا بعض الشيء أمام الداعية لاستثمار هذه الفرصة لدى المدعو وتخوله بها)(٣).

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل الشفاعة الحسنة للمسلمين وثوابها:

يستنبط هذا من قوله ﷺ: (اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان نبيه ما أحب)، قال النووي: (وفي الحديث استحباب الشفاعة لأصحاب الحوائج المباحة سواء كانت الشفاعة إلى سلطان ووالٍ ونحوهما، أم إلى واحد من الناس وسواء كانت الشفاعة إلى سلطان في كف ظلم أو إسقاط تعزير، أو في تخليص عطاء لمحتاج أو نحو ذلك، وأما الشفاعة في الحدود فحرام، وكذا الشفاعة في تتميم باطل أو إبطال حق

---

(١) أخرجه مسلم ١٨٩٣.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠/٤٦٥.

(٣) وسائل الدعوة، د. عبدالرحيم بن محمد المغذوي، ص ١٩٣.

ونحو ذلك فهي حرام)[١].

ومما هو معلوم أن أفضل الأعمال أن يكون المسلم سببًا في كشف كربة أو إعانة محتاج، قال ابن حجر: (وفي الحديث الحض على الخير بالفعل وبالتسبب إليه بكل وجه، والشفاعة إلى الكبير في كشف كربة ومعونة ضعيف، إذ ليس كل أحد يقدر على الوصول إلى الرئيس ولا التمكن منه ليلج عليه أو يوضح له مراده ليعرف حاله على وجهه، وإلا فقد كان ﷺ لا يحتجب)[٢]، وتعتبر الشفاعة الحسنة للمسلم من زكاة الجاه على المسلم كزكاة المال.

قال ابن مفلح: "جاء رجل إلى الحسن بن سهل يستشفع به في حاجة فقضاها، فأقبل الرجل يشكره، فقال له الحسن بن سهل: علام تشكرنا، ونحن نرى أنّ للجاه زكاة كما أن للمال زكاة، ثم أنشأ الحسن يقول:

فرضت عليّ زكاة ما ملكت يدي ... وزكاة جاهي أن أعين وأشفعا

فإذا ملكت فجُد وإن لم تستطع ... فاجهد بوسعك كلّه أن تنفعا

وقيل أيضًا:

وإذا امرؤ أهدى إليك صنيعةً ... من جاهه فكأنما من ماله[٣]

قال أبو الحسن الماوردي: (والإسعاف بالجاه فقد يكون من الأعلى قدرًا، والأنفذ أمرًا وهو أرخص المكارم يمنًا، وألطف الصنائع موقعًا، وربما كان أعظم من المال نفعًا، وهو الظل الذي يلجأ إليه المضطرون، والحمى الذي يأوي إليه الخائفون. فهو بالبذل ينمي ويزيد، وبالكف ينقص ويبيد، فلا عذر لمن مُنح جاهًا أن يبخل به، فيكون أسوأ حالاً من البخيل بماله الذي قد يُعِدُّه لنوائبه، ويستبقه للذته، ويكنزه لذريته وبضد ذلك من بخل بجاهه، لأنه قد أضاعه بالشح، وبدده بالبخل، قال بعض الحكماء: اصنع الخير عند إمكانه يبق لك حمده عند زواله، وأحسن والدولة لك،

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٦١.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠/٤٦٥، ٤٦٦.

(٣) الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ٢/١٦٧.

يُحسن لك والدولة عليك، واجعل زمان رخائك عُدة لزمان بلائك، وبذل الجاه من كرم النفس وشكر النعمة)[١].

(١) أدب الدنيا والدين ٣٢١ - ٣٢٢.

الحديث رقم (٢٤٧)

٢٤٧- وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قِصَّة بريرَةَ وزَوْجِها. قال: قال لَهَا النَّبيُّ ﷺ: «لَوْ راجَعْتِهِ؟» قَالتَ: يا رَسُولَ اللَّه تأمُرُنِي؟ قال: «إنَّما أشْفَعُ» قَالَتْ: لا حاجة لِي فِيهِ. رواه البخاري(١).

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١).

الشرح الأدبي

إن العلاقة بين الرجل وزوجته علاقة تكاملية، تُقوِّى من دعائمها أسس عديدة منها السكن والمودة والرحمة، ولا تستقيم الحياة الزوجية في غياب الاستقرار النفسي، والتوافق الوجداني، والتكافؤ الاجتماعي، ولا تثمر العلاقة الزوجية ثمارها المرجوة إلا في وجود التعاطف الإنساني النابع من مصدرى المودة والرحمة، فهما جناحا طائر الحياة السعيدة، وهما عنوان المسيرة الزوجية الرشيدة.

وهذا الحديث مشهد واقعي من مشاهد الحياة الزوجية التي فقدت طعم السكن والألفة، وسُلب من آفاقها بريق التكافؤ والتوازن، ولنتأمل تفاصيل هذا المشهد الواقعي... ولننظر الموقف التشريعي الذي قدمه رسول الله ﷺ في هذا المشهد وفي أمثاله، وهى مشاهد تتكرر في كل زمان وفي كل مكان.

والراوي يقول: في قصة بريرة وزوجها: فما أصل هذه القصة؟ وماذا حدث بين بريرة وزوجها، قال العلماء: إن بريرة: كانت مولاة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها وقد أعتقت وهى زوجة: لمغيث، وكان مولى لبعض بني مطيع أو بني المغيرة.

وما أجمل هذا الموقف من رسول الله ﷺ، حيث عرض على هذه المرأة التي صارت حرة أن تظل زوجة لمغيث حيث ترجع إليه، ولم يأت هذا الطلب من رسول

---

(١) برقم (٥٢٨٣).

الله ﷺ في أسلوب الأمر وإنما جاء في صيغة اختيارية، ولكنها تحمل رغبة رسول الله ﷺ في الإصلاح، والإبقاء على الرباط الزوجي، ولذلك يحمل قوله ﷺ: "لو راجعتيه"، دلالة التمني أو الشرط، وكلاهما ينأى عن الأمر والجزم، وفي هذا الأسلوب بلاغة تعبيرية وهى بلاغة الحذف، فتقدير الكلام لو راجعتيه لكان أحسن أو لك فيه ثواب.

ومن جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث: اشتماله على الحوار والاستفهام والنداء، والتأكيد فالحديث: محاورة بين النبي ﷺ وبريرة زوجة مغيث، والحوار من أساليب النبي ﷺ في الإقناع والدعوة بصفة عامة، وتكررت في الحديث هذه الصيغ "قال لها النبي: ... قالت: ... قال: إنما أشفع، قالت...".

والنداء والاستفهام في قول بريرة: يارسول الله تأمرني... يرشدان إلى التأدب في الحوار مع رسول الله ﷺ والتقدير: أتأمرني، وإذا كان هذا الموقف أمرًا فهى لا تملك المخالفة، ولابد من الطاعة.

وما أشد حرص رسول الله ﷺ وحبه لأصحابه رضي الله عنهم، وما أعظم حرصه كذلك على أن تكون الحياة الزوجية محصنة بالمحبة والمودة والرحمة والسكن، ولا تكون إرغامًا أو إجبارًا، ولذلك يجيء رد رسول الله ﷺ واضحًا في تواضع وحكمة، ضاربًا المثل، ومؤسسًا للقدوة الحكيمة، والأسوة الحسنة في كل موقف مشابه حيث قال: "إنما أشفع" أي: آمرك استحبابًا ؛ وحينما تطمئن هذه الزوجة إلى أنها في مقام الاختيار، وليس في دائرة الإجبار تتخذ في ضوء ذلك هذا القرار، (لا حاجة لي فيه)، وهذا صدق مع النفس، لأنها لم تشأ أن تستمر الحياة الزوجية في ظل القلق والجفوة، وخفوت المشاعر والروابط النفسية والاجتماعية السليمة.

وقيل في هذا الرد إشارة إلى عذرها في عدم قبول شفاعته ﷺ؛ ورسول الله ﷺ كان حسن العشرة مع أزواجه، وكانت أحواله مع أزواجه تدعو للتأمل والاقتداء، حيث الملاطفة والتوادد والتراحم، وكان لا يأخذ عليهن، ويعذرهن، وإن أقام عليهن قسطاس عدل أقامه بغير قلق ولا غضب، بل رؤوف رحيم، حريص عليهن، وعلى

غيرهن: عزيز عليه ما يعنتهن، كما يقول الإمام أحمد بن أبي بكر القسطلاني.

فقه الحديث

بين الحديث حكمًا خاصًا بالرقيق، وهو ما إذا أعتقت الأمة وهي متزوجة من عبد فهل تظل زوجة له أم تطلق منه، أم يكون لها الخيار بين البقاء زوجة له أو الطلاق؟ فبريرة هنا كانت متزوجة وأعتقت، فاختارت نفسها، وشفع عندها رسول الله ﷺ لتظل مع زوجها، ولكنها اختارت نفسها وأبت الرجوع إليه، لما علمت أن ذلك شفاعة من الرسول عليه الصلاة والسلام لا أمرًا منه لها، فلو كان أمرًا لأطاعت.

وقد اتفق الفقهاء[1] على أنه متى كانت الأمة متزوجة من عبد ثم أعتقت كان لها الخيار بين البقاء معه أو فراقه، فإن مكنته من وطئها وهي عالمة بذلك لم يكن لها الخيار، وكذا إن اختارته هو ثم أرادت فراقه لم يكن لها ذلك.

المضامين الدعوية

أولاً: من وسائل الدعوة: القصة.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

ثالثًا: من صفات الداعية: الرحمة والشفقة بالمدعوين.

رابعًا: من مهام الداعية: الإصلاح بين الناس.

خامسًا: من أصناف المدعوين: النساء.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: أدب بريرة مع النبي ﷺ.

سابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل الشفاعة.

ثامنًا: من حقوق المدعو: التعبير عن رأيه.

---

(١) انظر: المبسوط، السرخسي ٩٨/٥، وشرح معاني الآثار، الطحاوي ٨٢/٣، والمدونة ٥٣/٢، ٨٤، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ٥٦/٤، والفروق للقرافي ١٤٥/١، والأم للشافعي ١٣١/٥، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ١٤٦/٧، ٨٨/٨، وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٤٦٥/٥.

أولاً- من وسائل الدعوة: القصة:

تعد القصة من وسائل الدعوة التي يفيد منها الداعية في دعوته، وقد ورد ذكر القصة في هذا الحديث في قول ابن عباس رضي الله عنهما (... في قصة بريرة وزوجها) وإن لتوظيف القصة في الدعوة إلى الله تأثيرًا على نفوس المدعوين، حيث تؤدي إلى تعميق المضامين في النفوس، ومما يساعد على ذلك "الميل الموجود في فطرة الإنسان إلى القصة ولها تأثير ساحر على القلوب سواء أكانت تاريخية أم معاصرة، فالداعية يجب أن يعي هذا الميل فيستخدم القصة في البيان والتربية"[١] وإذا كان ما جاء في الحديث هو من قصص الحديث النبوي، فإن قصص القرآن أيضًا له أهمية كبرى في الدعوة، وبيّن الله تعالى الفائدة منه فقال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[٢].

ولا شك (أن القرآن العظيم ملئ بالقصص الذي يجد فيه الداعية طريقًا ووسيلة مهمة من وسائل الدعوة إلى الله تعالى تناسب حالة أي مدعو، سواء أكان من علية القوم أو من الضعفاء أو من الأغنياء أو من الفقراء، ولذا فالقصة في القرآن الكريم ركيزة مهمة من ركائز الدعوة الإسلامية القائمة على اليقين النقلي، والإقناع العقلي، والاطمئنان القلبي)[٣].

ثانيًا- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

حيث جاء في الحديث في قوله ﷺ "لو راجعته؟" قالت: "يا رسول الله تأمرني؟" والسؤال والجواب أسلوب من أساليب الدعوة التي تساعد على بيان الأحكام وعرض المسائل ويكون بمثابة حوار بين الداعية والمدعو.

قال الميداني: (إن مجالس السؤال والجواب مجالس مفيدة ونافعة جدًا في نشر المعرفة وتثبيتها وتناقلها بين الناس، بشرط أن تكون الإجابات واضحات جليات

---

(١) دراسات في طرق الدعوة الإسلامية، د. أحمد محمد العدناني، بدون الطبعة ودار النشر: ١٤١٠هـ/١٩٨٩م، ص ١٧٩.

(٢) سورة يوسف، آية: ١١١.

(٣) وسائل الدعوة، د. عبدالرحيم المغذوي، ١٢٩.

مفصلات لا غموض فيها ولا التباس، وبشرط أن يكون المجيب على علم مؤكد بالجواب الصحيح)[١].

ومن صور استعمال القرآن الكريم لأسلوب السؤال والجواب قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾[٣].

ثالثًا- من صفات الداعية: الرحمة والشفقة بالمدعوين:

يتضح هذا من سياق الحديث في رحمة النبي ﷺ بزوج بريرة عندما قال لها: "لو راجعته" وقد وصف الله نبيه محمدًا ﷺ بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٤] ووصف الجماعة المؤمنة بقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ﴾[٥] وإذا كان الأمر كذلك فواجب الدعاة أن يتمثلوا هذه الرحمة والشفقة مع المدعوين حتى تنجح دعوتهم (فالرحمة صفة كريمة وعاطفة نبيلة تبعث على بذل المعروف، وإغاثة الملهوف وإعانة المحروم، فإن الإسلام يريد أن يطبع النفوس بطابع الرحمة، وأن ينشئهم على هذه الفضيلة، حتى ينعم الناس في ظلها الوارف، ويعيشوا في كنفها آمنين)[٦].

قال د. عبدالكريم البكار: (إن عند الناس من الهموم ما يكفيهم، وهم بحاجة إلى من يواسيهم لا من يعنفهم، وعلينا أن لا ننسى أن البشر مخلوقات عاطفية تجذبهم

---

(١) فقه الدعوة إلى الله ٦٢/٢.

(٢) سورة الأنفال، آية: ١.

(٣) سورة الأحزاب، آية: ٦٣.

(٤) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

(٥) سورة الفتح، آية: ٢٩.

(٦) دعوة الإسلام، السيد سابق، دار الكتاب العربي ص ١٧١.

الكلمة الطيبة، وينفرهم التوبيخ والتقريع، وعند كل واحد منهم من الاعتداد بنفسه ومواهبه وإمكاناته مايجعله يرى في الكلمة القاسية عدوانًا على كرامته ومجاله الخاص، وقد جاء في الأثر عن بعض السلف: لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان فقيها فيما يأمر به، فقيهًا فيما ينهى عنه، رفيقًا فيما يأمر به، رفيقًا فيما ينهى عنه، حليمًا فيما يأمر به، حليمًا فيما ينهى عنه، والداعية إلى جانب إيثاره الكلمة الرقيقة والأسلوب العذب يؤثر أيضًا التشبيهات الجميلة، ويبتعد عن الأمثال والتشبيهات القبيحة أو المنفرة، وإن من واجبنا أن نشعر المخاطب أننا لا نعتدي على خصوصياته وحريته الشخصية)[1].

رابعًا- من مهام الداعية: الإصلاح بين الناس:

ويستنبط هذا من تدخل النبي ﷺ للإصلاح بين بريرة وزوجها، ويعتبر هذا من أولى مهام الداعية، وإلى الإصلاح جاءت دعوة القرآن قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾[2] وقال سبحانه: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾[3] وأمر المؤمنين به فقال جلّ شأنه: ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾[4] وقال سبحانه: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[5].

قال الطبري: (هو الإصلاح بين المتباينين أو المختصمين بما أباح الله الإصلاح بينهما ليرجعا إلى ما فيه من الألفة واجتماع الكلمة على ما أذن الله وأمر به)[6]. وقال السعدي:

---

(١) مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي ١٥٣-١٥٤.

(٢) سورة الحجرات، آية: ١٠.

(٣) سورة النساء، آية: ١٢٨.

(٤) سورة الأنفال، آية: ١.

(٥) سورة النساء، آية: ١١٤.

(٦) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ٢٧٦/٤.

(ومتى امتثل المسلمون أمر الله فسعوا في حصول الاتفاق، وإزالة العداوات وأسبابها، وكانوا يدًا واحدة في السعي في مصالحهم المشتركة ومقاومة الأعداء، وبتحصيل القوة المادية بكل مقدور ومستطاع، وكان أمرهم شورى بينهم متى عملوا على ذلك كله حصل لهم قوة عظيمة يستدفعون بها الأعداء، ويستجلبون بها المصالح والمنافع، وعاد صلاح ذلك على دينهم وجماعاتهم وأفرادهم، ولم يزالوا في رقي مطرد في دينهم ودنياهم، ومتى أخلوا بما أمرهم به دينهم، عاد الضرر العظيم عليهم، فلا يلومون إلا أنفسهم، وقد وعد الله العز والنصر لمن قاموا بالتقوى، واعتصموا بحبله وتمسكوا بدينه)(١).

خامسًا- من أصناف المدعوين: النساء:

حيث جاء في الحديث الحوار بين النبي ﷺ وبين بريرة، والخطاب الدعوي هنا موجه إلى امرأة، وهذا يعني أن الداعية يتوجه بدعوته إلى النساء كما يتوجه بها إلى الرجال، وعلى هذا جاء القرآن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾(٢).

وجاءت التسوية بين الرجل والمرأة في الجزاء على العمل في قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾(٣).

إن الداعية الحصيف هو الذي يخصص من وقته لعظة النساء ودعوتهن، ففي

(١) الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة، عبدالرحمن السعدي ٥٩.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٣٥.

(٣) سورة النحل، آية: ٩٧.

الحديث ((... حَتَّىٰ أَتَى النِّسَاءَ. فَوَعَظَهُنَّ وَذَكَّرَهُنَّ . فَقَالَ: تَصَدَّقْنَ. فَإِنَّ أَكْثَرَكُنَّ حَطَبُ جَهَنَّمَ...))[١].

قال النووي: (وفي هذه الأحاديث استحباب وعظ النساء، وتذكيرهن بالآخرة وأحكام الإسلام، وحثهن على الصدقة، وهذا إذا لم يترتب على ذلك مفسدة وخوف على الواعظ أو الموعوظ أو غيرهما، وفيه أن النساء إذا حضرن صلاة الرجال ومجامعهم يكن بمعزل عنهم، خوفًا من فتنة أو نظرة أو فكر ونحوه)[٢].

سادسًا- من موضوعات الدعوة: أدب بريرة مع النبي ﷺ:

يظهر هذا من قول بريرة للنبي ﷺ: يا رسول الله تأمرني؟ (ولا شك أن هذا من أدبها مع الرسول الكريم ﷺ وقال الله تعالى في الأدب مع رسول الله ﷺ بعدم التقديم بين يديه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[٣] وأمر بعدم رفع الصوت فوق صوته ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾[٤] وأمر بتخصيصه في الدعاء إليه فقال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾[٥] ومنع الاختيار في أقضيته وأحكامه ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[٦] وحذر من مخالفة أمره فقال جلّ شأنه: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٧].

(١) أخرجه مسلم ٨٨٥.
(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٧٥.
(٣) سورة الحجرات، آية: ١.
(٤) سورة الحجرات، آية: ٢.
(٥) سورة النور، آية: ٦٣.
(٦) سورة الأحزاب، آية: ٣٦.
(٧) سورة النور، آية: ٦٣.

وأمام هذه النصوص تأدبت بريرة مع رسول الله ﷺ فقالت: "أتأمرني؟" لأنها تعلم أنه لو كان أمرًا فلا يجوز لها أن تخالف أمره. قال ابن حجر: (في قولها أتأمرني؟ أي تريد بهذا القول الأمر فيجب عليَّ قال: إنما أشفع أي أقول ذلك على سبيل الشفاعة له لا على سبيل الحتم عليك فقالت: لا حاجة لي فيه، أي فإذا لم تلزمني بذلك لا أختار العود إليه)(١).

سابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل الشفاعة:

يؤخذ هذا من قول النبي ﷺ "إنما أشفع" ولا يخفى أن الشفاعة للمسلم لها أجر عظيم وثواب كبير، قال تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَـٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾(٢)، قال السيوطي: (أخرج عبد بن حميد عن مجاهد في قوله: من يشفع شفاعة حسنة قال: شفاعة بعض الناس بعض، وعن الحسن: "من يشفع شفاعة حسنة كان له أجرها وإن لم يُشَفع، وعن عبدالله بن رواحة أنه سأله رجل عن قول الله ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾ قال: يقيت كل إنسان بقدر عمله)(٣).

وقال ابن كثير رحمه الله: (من سعى في أمر فترتب عليه خير كان له نصيب من ذلك وإن شرًا كان عليه وزر)(٤) ولذا يحسن بالداعية أن يوظف مكانته وعلاقاته الاجتماعية مع الوجهاء في المجتمع، في الشفاعة الحسنة للفقراء والضعفاء، واليتامى والأرامل والمحتاجين شريطة ألا يؤدي ذلك إلى الإضرار بالآخرين، أو يكون مجحفًا بأحد أو ترجى من ورائه منافع شخصية في صورة خدمات متبادلة أو غيره، إن مما يجب التأكيد عليه في هذا السياق أن تكون الشفاعة خالصة لله تعالى يبتغي بها الداعية مرضاة الله، وألا يكون الدافع إليها حماس شخص أو غيره. بل الغاية من ذلك نفع

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٩/٣٢٠.

(٢) سورة النساء، آية: ٨٥.

(٣) الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٤/٥٥٤.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢/٣٦٨.

المسلمين خاصة أصحاب الحاجات والأعذار، لإسعادهم وتفريج كروبهم، رغبة في مرضاة الله تعالى.

ثامنًا- من حقوق المدعو: التعبير عن رأيه:

يتضح هذا من تعبير بريرة عن رأيها كما جاء في الحديث "قالت: لا حاجة لي فيه" قال ابن علان: (أي لا غرض ولا صلاح لي فيه أي في ارتجاعه وفيه إيماء إلى عذرها في عدم قبول شفاعته ﷺ حيث قال: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا﴾[١] وإنها فهمت من شفاعته في ذلك تخييرها، وإطلاق الشفاعة على التخيير مجاز بجامع عدم إيجاب كليهما)[٢].

فالمدعو من حقه أن يعبر عن رأيه، طالما أنه لا يعارض نصًا، ولا يخالف أمرًا من أوامر القرآن الكريم والسنة النبوية.

قال السيد سابق: (إن التفكير هو وظيفة العقل، وبالعقل تميز الإنسان عن غيره من الحيوانات، فإذا تخلى العقل عن وظيفته، فقد تخلى عن أخص خصائصه، ولم يعد له دور في تقدم البشر ورقي الحياة، وحرية التفكير تتناول حرية التعبير، سواء أكان التعبير باللسان، أم بالقلم كما تتناول حرية الرأي والجهر بالحق، ولقد كانت المرأة تمتلك من حرية الرأي ما تخطئ به أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما أراد أن ينهى عن الغلو في المهور، فقالت له امرأة: يا أمير المؤمنين الله يقول: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾[٣] فقال عمر رضي الله عنه: كل الناس أعلم منك يا عمر، حتى النساء، أصابت المرأة وأخطأ عمر. وعلى كلٍ فقد جاء الإسلام ليطلق العقل من أساره،ويضع عنه

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٢٨.

(٢) دليل الفالحين، ابن علان ٤٣٣.

(٣) سورة النساء، آية: ٢٠.

الأغلال التي عطلته زمنًا طويلا) [١].

ومن خلال ما سبق يجب على الداعية أن يتسع صدره لآراء الآخرين، ويتقبل وجهات نظر المدعوين لأن من حق كل إنسان أن يعبر عن رأيه، ويعرض ما يراه فإن كان حقًا وصوابًا يعمل به، وإن كان خطأً يرد.

(١) عناصر القوة في الإسلام ١٣٩-١٤٠.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

ضرب رسول الله ﷺ المثل الأعلى في سعي المسؤول لقضاء حاجة السائل. ولو سلك المسؤول في كل مؤسسة ومصلحة هذا السبيل في حدود الاستطاعة لقضى على الرشوة ولانتهى الكثير من الفساد.

لقد امتدح الإسلام الشفاعة ورتب عليا عظيم الأجر، واشترط أن تكون حسنة فهي رجاء محمود، وهي تجري فيما فيه حق للإنسان ليتنازل عن بعض حقه أو كله أو ما فيه مصلحة لتقضى هذه المصلحة.

وينبغي أن لا تتضمن الشفاعة مخالفة شرعية أو ظلمًا بشرياً أو يقترن بأجر مادي.

إن الناس إذا سعوا في مصالح بعضهم قضي الكثير منا على وجه السرعة وحلت المشكلات وحقنت الدماء وسادت الأخوة وذلك مشروط بكون الشفاعة حسنة، ومن المضامين التربوية في هذا الباب ما يلي:

أولاً- التربية على قضاء حاجة الناس:

من أهداف التربية الإسلامية غرس قيمة السعي في قضاء حاجة الناس، وتقديم العون لهم، لأن ذلك يؤدي إلى تعميق المودة والمحبة بين الناس، والقضاء على الضغائن والأحقاد، وتقوية العلاقات بين الناس.

فلقد كان النبي ﷺ إذا أتاه طالب حاجة، أقبل على جلسائه فقال: «اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا. وَلْيَقْضِ اللَّهُ عَلَىٰ لِسَانِ نَبِيِّهِ مَا أَحَبَّ». فهذه تربية على قضاء الحاجة والسعي فيها سواء قضيت الحاجة أم لا؛ إن الإنسان لا يستغنى عن إخوانه، فهو يحتاج إليهم، ويحتاجون إليه يعينهم ويعينونه، ولذا ربى النبي ﷺ أصحابه رضي الله عنهم على هذه القيم الاجتماعية النبيلة من التعاون على قضاء حوائج الناس والسعي في ذلك بطريق مباشر أو غير مباشر، من خلال الشفاعات الحسنة، ولذا كان النبي ﷺ أسوة للأمة في مساعدة المحتاجين، وإغاثتهم، والسعي في تخفيف معاناتهم، مما يبعث على الشعور بالراحة لدى أفراد المجتمع، لأنهم تربوا على القيم الإنسانية النبيلة التي تشعر كل فرد

بأهميته ومكانته في مجتمعه، لأن أحوال الناس لا تستقيم على وتيرة واحدة، بل كثيرًا ما يحتاج بعضهم إلى بعض، ولذا فإن النبي ﷺ أراد أن يربي أصحابه رضي الله عنهم على تقديم العون للآخرين، وقد رغب في ذلك، كما ورد في أحاديث أخرى، بأن أخبر بأن السعي في حاجة الآخرين يكون سببًا في تفريج كرب الدنيا والآخرة[(١)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((مَنْ نَفَّسَ عن مُسْلِمٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ على مُعْسِرٍ فِي الدُّنْيَا يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ...))[(٢)].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: ((الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يُسْلِمُهُ. مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ، كَانَ اللّهُ فِي حَاجَتِهِ. وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فَرَّجَ اللّهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ))[(٣)].

ثانيًا- التربية بالحوار:

التربية بالحوار من أساليب التربية الهادفة لما لها من وضع خاص في التربية الإسلامية، فعن ابن عباس رضي الله عنهما في قصة بريرة وزوجها قال: «قال النبيُّ ﷺ: «لو راجعتِهِ». قالت: يا رسولَ الله تأمُرُني؟ قال: إنما أنا أشْفَع، قالت: لا حَاجَةَ لي فيه»، وهذا مما يؤكد على أهمية الحوار في التربية الإسلامية، وفي تعميق المفاهيم الإسلامية التي تعطي كلاً من الرجل والمرأة الحرية في ممارسة الحقوق المشروعة، دون تدخل بشكل أو آخر وتحفل السنة النبوية بالنماذج الحوارية التربوية التي تعمل على دعم عملية الاقتناع لتعديل اتجاهات السلوك تعديلاً إيجابيًا.

ولقد اهتم المربون المسلمون بالحوار والمناظرة فوضعوا له بعض الشروط. التي تجعله أسلوبًا فعالاً ومن أهمها: أن يكون هدف الحوار لبيان الحقيقة، كما يشترط فيه

---

(١) انظر: التربية الروحية والاجتماعية في الإسلام، د. أكرم ضياء العمري، ص ٢٥٢.

(٢) أخرجه البخاري، ٢٤٤٢، ومسلم، ٢٥٨٠.

(٣) أخرجه مسلم ٢٦٩٩.

الإلمام بموضوع المناظرة، والتحلي بالهدوء وسعة الصدر، وهذا ما علمنا إياه النبي ﷺ في حديث الجارية[١].

ثالثًا- التربية على احترام الرغبة المشروعة للآخرين:

إن من أبرز ما تميزت به التربية الإسلامية الإقرار بالرغبات المشروعة التي تعد من حقوق الإنسان، واحترام تلك الرغبات وعدم مصادرتها، لأن التربية الإسلامية تقوم على الحرية المقننة لا على القهر والكبت، فلا يمكن في ظل التربية الإسلامية تجاهل مشاعر الآخرين، ومن الشواهد على ذلك قول النبي ﷺ لبريرة في حديث الباب: لو راجعته، قالت يا رسول الله تأمرني، قال: إنما أشفع، فقد كان بإمكان النبي ﷺ أن يأمر بريرة لكن ليس هذا هو المنهج النبوي في التربية، وإنما كان فعل النبي ﷺ شفاعة ووساطة خير، لذلك يؤخذ من هذا التوجيه أيضًا أن شفاعة الإمام للرعية ليست أمرًا واجب النفاذ، وليس كما يحدث الآن، أن كل مسؤول كبير شفاعته أمر واجب، وإلا فلا، ولكن يجوز رد الشفيع وليس في ذلك قدح في الرد أو الشفيع، وفي كل هذا إقامة التربية على الحرية واحترام الرغبات المشروعة للآخرين[٢].

رابعًا- التربية بالقول والفعل:

فالنبيُّ ﷺ حضّ أصحابه على أن يشفعوا ورغبهم في ذلك بأن أخبرهم أن لهم أجرًا على ذلك، والنبيُّ ﷺ نفسه شفع، ومن الملاحظ أنه ﷺ شفع لرجل ليس من علية القوم أو من كبارهم، بل كان من عامة الناس بل كان عبدًا من العبيد، وفي هذا إرشاد لأهل التربية أن يجمعوا بين القول والفعل فلا يخالف فعلهم قولهم ولا يناقض عملهم ما يقولون، لأن من يربونهم أنظارهُم معلقةً بهم، تريد أن تعرف صدقهم فيما يربونهم عليه، فإن صدقوا أطاعوهم وأقبلوا عليهم وإلا أعرضوا عنهم ولم يلتفتوا إليهم.

---

(١) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. محمد شحات الخطيب، ص٨٥.

(٢) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي، ص٣٢.

٣١- باب الإصلاح بين الناس

قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾[النساء: ١١٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾[النساء: ١٢٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَاتَّقُوا اللّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾[الأنفال: ١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾[الحجرات: ١٠].

الحديث رقم (٢٤٨)

٢٤٨- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: **«كُلُّ سُلامى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ، كُلَّ يومٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ: تَعْدِلُ بيْن الاثْنَيْنِ صَدقَةٌ، وَتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ فَتحْمِلُهُ عَلَيْهَا، أَوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعهُ صَدقَةٌ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبةُ صدقةٌ، وبكُلِّ خَطْوَةٍ تَمْشِيهَا إِلَى الصَّلاةِ صَدقَةٌ، وَتُمِيطُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ»** متفق عليه[1].

ومعنى "تَعْدِلُ بَيْنهما": تُصْلح بَيْنَهما بالعَدْل.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

السُّلامى: المفَصِل[2].

تُميط الأذى: تُنحيه وتزيلُه[3].

الشرح الأدبي

يتصدر هذا الحديث باب "الإصلاح بين الناس" في كتاب رياض الصالحين، وقد حث الإسلام على إصلاح ذات البين، وشدد المصطفى صلى الله عليه وسلم ونبه المسلمين إلى هذا الخلق الكريم، فعن أم الدرداء عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ألاَ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٨٩)، ومسلم (١٠٠٩/٥٦) واللفظ له. أورده المنذري في ترغيبه (٤٦٥).

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (س ل م).

(٣) لسان العرب، ابن منظور في (م ي ط).

أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ: قَالُوا: بَلَى، قَالَ: إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ وَفَسَادُ ذَاتِ الْبَيْنِ الْحَالِقَةُ))(١).

وقال رسول الله ﷺ لأبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه: "ألا أدلك على صدقة هي خير لك من حمر النعم؟ قال: نعم يا رسول الله، قال: تصلح بين الناس إذا فسدوا وتقرّب بينهم إذا تباعدوا"(٢).

وهذا الحديث يأخذ بيد المسلم إلى ارتياد آفاق الشكر، وإلى الاعتراف بفضل المنعم، وإلى القيام بواجب الشكر على نعمه التي لا تعد ولا تحصى، وهذا الشكر ليس كلامًا يصقله اللسان، ولا يصحبه العمل الخالص، وإنما هذا الشكر مقرون بكثير من السلوكيات التي يبذلها المؤمن في سبيل التعاون على البر والتقوى، وفي سبيل إعانة كل من يحتاج إلى المعونة المادية أو المعنوية، وهذا الجهد المبذول هو إحساس بالنعم التي منحها الله للإنسان، ومنها ما هو ماثل في تكوينه وأساس صورته الخلقية التي تتشكل منها سائر عظام بدنه ومفاصله، "وقد خلق الإنسان على ستين وثلاثمائة مفصل".

وعلى كل مسلم بل على كل عبدالله تعالى: أن يؤدي أكبر قدر من أعمال الخير، وأنواع الصدقة، "كل يوم تطلع فيه الشمس"، فقد قال ابن الجوزي، معنى هذا الحديث: إن عظام الإنسان هي من أصل وجوده، وبها حصول منافعه إذ لا يتأتى الحركة والسكون إلا بها، فهي من أعظم نعم الله على الإنسان، وحق المنعم عليه أن يقابل كل نعمة منها بشكر يخصها، فيعطي صدقة، كما أعطى منفعة، لكن الله عز وجل لطف وخفف بأن جعل العدل بين الناس وشبهه صدقة، وإعانة المحتاج على حمل متاعه صدقة، والخطوات إلى المساجد لأداء الصلاة صدقة، وكلمة الخير الطيبة صدقة، وإماطة الأذى عن الطريق صدقة(٣).

---

(١) أخرجه أبو داود ٤٩١٩، وصححه الألباني، (صحيح سنن أبي داود، ٤١١١)

(٢) مسند الطيالسي ٤٩١/١ برقم ٥٩٩ وإسناده ضعيف.

(٣) انظر: المنهل العذب الفرات، د. عبدالعال أحمد عبدالعال، ص٣.

وهذه الآفاق الاجتماعية التي يتأملها كل مسلم، بل كل مخلوق هـى مـن شـأنها أن تقيم جسور المحبة والثقة بين أفراد الأمة، فتتوحد مشاعرهم، وتتقارب مشاربهم، وتتآلف خطواتهم، ولذلك كررت الصدقة في الحديث ست مرات: ترغيبًا للناس في الاستكثار من هذه الخصال الخيرة، حتى تصبح سلوكًا يوميًا لا ينقطع بانتهاء الحدث اليومي، ولكن يتجدد مع مشرق كل شمس، وبزوغ كل فجر، فالمسلم يكون حريصًا على أن تبلغ صدقاته الإصلاحية بين الناس، ستين وثلاثمائة صدقة بمقدار، عدد مفاصل جسمه، وسائر أعضاء بدنه، وقول رسول الله ﷺ: "كل يوم تطلع فيه الشمس"، فيه إشارة إلى هذا التوجيه النبوي الكريم: فهي صدقات يومية... يضاعفها إخلاص النية، والحرص على الاقتداء بالسنة النبوية.

والتعبير بقوله: "عليه"، يوحي بالوجوب، ولكنه هنا يفيد الاختيار والترغيب مع الحرص على ذلك حتى يكون الشكر صادقًا وصحيحًا، وليس ألفاظًا يرددها اللسان، ولا ينبض بها الجنان، ولم يقل عليها حيث السلامى مؤنثة لأن الضمير يرجع إلى كل: فالمراد: كل مفاصل الإنسان وليس: السلامى الواحدة، أو المفصل الواحد، أو أن السلامى بمعنى العضو، وسلامة أعضاء الإنسان وحسن هيئتها يوجب الشكر، والشكر برهانه الصدقة، ولذلك قال رسول الله ﷺ "الصدقة برهان"[(١)]، أي دليل وشعاع يضيء عمل الإنسان، ويترجم إحساسه بالشكر إلى فعل جميل، وإعانة للناس، وإصلاح ذات بينهم.

والجملة الأولى: اسمية: وهي تفيد الثبات: فكل يوم على كل عبد أن يتصدق بأقواله وأفعاله، حتى يؤدي الشكر لله على نعمه وعلى جمال وكمال خلْقه، والأفعال جاءت كلها مضارعة بعد ذلك: لتفيد استمرار هذا السلوك الإيماني وعدم انقطاعه حتى ينعم المجتمع بالألفة والمودة والاستقرار.

المضامين الدعوية[(٢)]

(١) أخرجه مسلم ٢٢٣.

(٢) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (١٢٢).

الحديث رقم (٢٤٩)

٢٤٩- وعن أُمِّ كُلْثُومٍ بنتِ عُقْبَةَ بن أَبي مُعَيْطٍ رضي الله عنها قالت: سمِعْتُ رسولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ: «**لَيْسَ الْكَذَّابُ الذي يُصْلحُ بَيْنَ النَّاسِ فَيَنْمي خَيْرًا، أَوْ يَقُولُ خَيْرًا**» متفق عليه[1].

وفي رواية مسلم[2] زيادة، قالت: وَلَمْ أَسْمَعْهُ يُرَخِّصُ في شَيْءٍ مِمَّا يَقُولُهُ النَّاسُ إلاَّ في ثَلاثٍ، تَعْنِي: الحَرْبَ، وَالإِصْلاَحَ بَيْنَ النَّاسِ، وَحَدِيثَ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ، وَحَدِيثَ المَرْأَةِ زَوْجَهَا.

ترجمة الراوي:

أم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعيط: هي أم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعيط القرشية الأموية، هي أخت عثمان بن عفان لأمه.

أسلمت قديمًا بمكة وبايعت النبي ﷺ لكنها حُبست عن الهجرة ومنعت، إلى أن هاجرت سنة ٧هـ بعد صلح الحديبية. وقيل: إنها هاجرت ماشية من مكة إلى المدينة. فكانت من المهاجرات المبايعات. وهي أول من هاجرت إلى المدينة بعد هجرة النبي ﷺ.

ولما وصلت المدينة جاء أخواها عمارة والوليد ليردَّاها، وقد كان النبي ﷺ عاهد المشركين على أن يرد إليهم من جاءه منهم مسلمًا، فطلبا من النبي ﷺ إرجاعها فأسرعت أم كلثوم قائلة: يا رسول الله أنا امرأة وحال النساء إلى الضعف ما قد علمت، فتردني إلى الكفار يفتنوني في ديني ولا صبر لي؟ فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٢) واللفظ له، ومسلم (٢٦٠٥/١٠١).

(٢) عقب الحديث رقم (٢٦٠٥/١٠١).

تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝١٠ وَإِن فَاتَكُمۡ شَيۡءٞ مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ فَعَاقَبۡتُمۡ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتۡ أَزۡوَٰجُهُم مِّثۡلَ مَآ أَنفَقُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴾[1]

فامتحنها النبي ﷺ وامتحن من بعدها، في أن سبب خروجهن حب الله ورسوله، لا لزوجٍ ولا مال. فإذا قلن ذلك لم يرجعهن إلى الكفار[2].

فظلّت أم كلثوم بالمدينة، ولم تكن تزوجت بمكة، فتزوجها زيد بن حارثة، فلما قتل تزوجها الزبير بن العوام ثم طلقها، فتزوجها عبدالرحمن بن عوف فتوفي عنها، وتزوجها عمرو بن العاص فماتت عنده في خلافة معاوية بن أبي سفيان.

كان من الرواة عنها ابناها حميد وإبراهيم ابنا عبدالرحمن بن عوف[3].

غريب الألفاظ:

فينمي: أي يبلغ[4].

والرُخصة: إباحة التصرف لأمر عارض مع قيام الدليل على المنع[5].

---

(١) سورة الممتحنة، الآيتان :١٠-١١.

(٢) ينظر الطبقات الكبرى، ابن سعد ، والدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي (٤١٦/١٤-٤١٨).

(٣) الطبقات الكبرى، ابن سعد (٢٣٠/٨)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٩٦١، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٣٧٦/٧)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ١٨٣٣، والسير (٢٧٦/٢) وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين (٦٠١/٨)، والتهذيب (٧٠١/٤) والأعلام (٢٣١/٥)، وموسوعة عظماء حول رسول الله ﷺ (٢١٦٨/٣).

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٦٩٢/٥.

(٥) معجم لغة الفقهاء ، أ. د. محمد رواس قلعة جي ١٩٧.

الشرح الأدبي

إن الصدق في الحديث معيار السلوك الإسلامي الصحيح، وهو من أهم ملامح الشخصية الإسلامية، فالصدق برهان سلامة العقيدة، ومقياس الانضباط الاجتماعي، والتوازن النفسي.

والكذب آفة جسيمة تفتك بأقدار الرجال، وتُذهب عنهم هالة الوقار والكمال، وحين نتأمل هذا النص النبوي الشريف، نجده يثير قضية اجتماعية وإنسانية لها أثرها في توجيه مسيرة الأمم والأفراد، وفي تحديد مصير كثير من الطوائف والشعوب.

وهي وجوب الإصلاح بين الناس، وإشاعة أجواء المحبة فيما بينهم، وحجب كل ما من شأنه أن يثير الفتن والعداوة والبغضاء، بين أفراد المجتمع وزملاء العمل، أو بين أفراد الأسرة نفسها.

والحديث في روايته الأولى يتكون من جملة واحدة لها متعلقاتها ودلالاتها، ويبدأ بنفي صفة الكذب أو إثم الكذب عن الرجل الذي يقوم بإصلاح ذات البين، والتعبير بقوله: "الكذاب" يدل على المبالغة وهو أقوى في الدلالة من "الكاذب"، ومجيء اسم الموصول "الذي" في موقع خبر ليس - وهو من أنواع المعارف ويوحي بالتحديد والتمييز- يدل على هذه القيمة، وذلك القدر في طبيعة ذلك الرجل الصادق فيما يقول: فهو ليس كذابًا: لأنه يخفي أشياء يمكن أن توغر الصدور، وتقطع العلاقات، ولذلك يتوهج هذا التعبير الذي جاء في صيغة المضارع "يصلح بين الناس" باستمرارية هذا النهج الإصلاحي الاجتماعي.

وما أعظم وما أبلغ هذا البيان النبوي: حين يعبر عن وسيلة الإصلاح حيث يقول: "فينمي خيرًا" : أي يبلغ خبرًا فيه خير وفيه حرص على عدم إشاعة الفتن، وهذا الحديث الخيِّر يتسرب في هدوء وسكينة ومحبة فالفعل "نمى" بالتخفيف يُستعمل في التبليغ على وجه الإصلاح، أما بالتشديد حين نقول: "نمّى"... الحديث فيستعمل في التبليغ على وجه الإفساد وكلمة "خيرًا" تتضمن كل الصفات الحسنة التي يتضمنها الحديث: فهي تتضوأ بكثير من التفسيرات والتأويلات، فما أبلغ هذا البيان النبوي الموجز الدقيق الحكيم.

والرواية الثانية تفصل وتوضح ما أجملته الرواية الأولى: حيث تروي أم كلثوم عن رسول الله ﷺ أنه أباح للناس أن يقولوا الصدق، ولكن في أساليب غير صريحة، وربما يظن السامع أنها ليست صادقة، مثل: التورية والتعريض، وتجميل موقف المتخاصمين، والثناء على الزوجة، وإظهار المحبة والتسامح مع الزوج.

وإرباك العدو بالخطط والأقوال والدعايات المضادة التي تفرق صفوفه، وتضعف جنوده.

ففي الحرب لابد من استخدام جميع وسائل الدفاع، وآليات الهجوم، ومنها الأقوال والأناشيد الحماسية، وإشاعة أسرار العدو، وكشف مؤامراته، وخططه، والتهوين من عدته وعتاده، والحرب خدعة كما قال رسول الله ﷺ، والإصلاح بين الناس من وسائل تجميل موقف كل خصم في عين الآخر حتى تقرب المسافات بينهم، وكذلك إبلاغ كل منهما بالثناء من الآخر، وحجب كل كلمة فيها سب وشتم، ومن أعظم الدروس النبوية في إصلاح الحياة الزوجية هو إباحة المجاملة والثناء المتبادل بين الزوجين، واستمرار الإشادة المتبادلة بينهما بمحاسن كل منهما، وإخفاء كل مشاعر النفور، وإظهار الفرح والحبور والسرور. ورسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق، كان يحب زوجاته ويعاملهن بالحسنى ويراعى ظروف كل واحدة سنًا، ومكانة، وظروفًا اجتماعية فعائشة رضي الله عنها لأنها كانت صغيرة، كان يُسرِّب إليها بنات الأنصار يلعبن معها[1]، وإذا شربت من الإناء أخذه فوضع فمه على موضع فمها وشرب، وكان يريها الحبشة وهم يلعبون في المسجد وهى متكئة على منكبه، وهو صادق فيما يقول: صادق فيما يفعل، ولم تحجبه هيبة النبوة عن إسعاد أهل بيته الأطهار.

(١) أخرجه البخاري ٦١٣٠، ومسلم ٢٤٤٠.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم الكذب.

وقد سبق القول في الحديث رقم (٥٤) أنه قد اتفق الفقهاء[١] على أن الأصل في الكذب أنه حرام، وهو من الكبائر إن كان في شهادة زور لما فيه من القول بغير حق، وأنه ينبغي للمسلم أن يكون صادقًا في حديثه، وقد يكون الكذب مباحًا أو واجبًا، فالكلام وسيلة إلى المقصود، وكل مقصود محمود يمكن تحصيله بغير الكذب يحرم الكذب فيه، فإن لم يمكن تحصيله بغير الكذب جاز الكذب فيه، وهنا ينظر إن كان تحصيل المقصود واجبًا كان الكذب واجبًا، كما لو اختفى مسلم من ظالم يريد قتله أو أخذ ماله، وسئل إنسان عنه، وجب الكذب بإخفائه، وإن كان المقصود مباحًا كان الكذب مباحًا، وإن كان لا يتم مقصود الحرب أو إصلاح ذات البين أو الزوجين إلا بالكذب كان الكذب مباحًا، إلا أنه ينبغي أن يتحرز منه ما أمكن.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النفي.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل الإصلاح بين الناس.

ثالثًا: من واجبات الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم.

رابعًا: من واجبات المدعو: الحرص على متابعة كلام النبي ﷺ.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: بيان الحالات التي يجوز فيها الكذب.

---

(١) انظر في ذلك: المبسوط، السرخسي ١٤٥/١٦، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ٢٤١/٤، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ٣١٣/٧، وحاشية العدوي على الخرشي ٤١٢/٢، وأنوار البروق للقرافي ٨/٤، وأدب الدنيا والدين للماوردي ص ٢٦١، والزواجر عن اقتراف الكبائر ٣٢٢/٢، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين بن الحسن بن عبدالرحمن ٢١٤/٧، والآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ١١/١، ١٩، وغذاء الألباب شرح منظومة الآداب، الإسفراييني الحنبلي ١٣٤/١، وإعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، تحقيق: رائد صبري بن أبي علفة ٩٣/١، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٠٥/٣٤.

أولاً- من أساليب الدعوة: النفي:

حيث جاء في الحديث في قوله ﷺ: "ليس الكذاب" والنفي أسلوب من أساليب الدعوة التي تعمل على لفت انتباه المدعو إلى معرفة المنفي، وفي هذا الحديث ينفي النبي ﷺ الكذب عن الشخص الذي يصلح بين الناس، ومن أساليب النفى التي جاءت في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾[2]، وفي الحديث الذي معنا نفى رسول الله ﷺ الكذب عن المصلح، قال ابن علان: (وسلب الكذب عن المصلح لا يستلزم كون ما يقوله كذبًا، لجواز أن يكون صدقًا بطريق التصريح أو التعريض)[3].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل الإصلاح بين الناس:

ويتضح هذا من قول النبي ﷺ: "ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس"، قال الطيبي: (يعني الكذاب المذموم عند الله تعالى الممقوت عند المسلمين، ليس من يصلح ذات البين، فإنه محمود عند الله تعالى وعندهم، وقوله "ينمي خيرًا" يقال نميت الحديث أنميته إذا أبلغته على وجه الإصلاح وطلب الخير، فإذا بلغته على وجه الإفساد والنميمة قلت: نميته بالتشديد)[4]، هذا وقد دلت النصوص القرآنية على فضل الصلح بين الناس، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾[5]، وقال سبحانه: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾[6]. قيل: "معناه جنس الصلح خير، فيعلم بهذا أن جميع أنواع الصلح حسنة لأن فيه

---

(١) سورة النساء، آية: ١١٤.

(٢) سورة الكافرون، آية: ٢.

(٣) دليل الفالحين، ابن علان ٤٣٨.

(٤) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ١٠٣/٩.

(٥) سورة الحجرات، آية: ١٠.

(٦) سورة النساء، آية: ١٢٨.

إطفاء الثائرة بين الناس ورفع المنازعات الموبقات عنهم"[١]، وقال الله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾[٢].

قال السعدي رحمه الله: (والإصلاح لا يكون إلا بين متنازعين متخاصمين، والنزاع والخصام يوجب من الشر والفرقة ما لا يمكن حصره فلذلك حث الشارع على الإصلاح بين الناس في الدماء والأموال والأعراض بل وفي الأديان، والساعي في الإصلاح بين الناس أفضل من القانت بالصلاة والصيام والصدقة، والمصلح لا بد أن يصلح الله سعيه وعمله)[٣].

وقال ابن بابويه: (إن الله عز وجل أحب الكذب في الإصلاح، وأبغض الصدق في الفساد)[٤]، وفي فضل الإصلاح قال ﷺ: ((أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلاَةِ وَالصَّدَقَةِ: قالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: إِصْلاَحُ ذَاتِ الْبَيْنِ وَفَسَادُ ذَاتِ الْبَيْنِ الْحَالِقَةُ))[٥].

ثالثًا- من واجبات الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم:

يظهر هذا في توجيه النبي ﷺ إلى الإصلاح بين الناس، ولا شك أن الداعية مصدر نفع للمدعوين، قال تعالى في وصف إمام الدعاة ﷺ: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ

---

(١) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن ملوح ٣٦٤/٢.

(٢) سورة النساء، آية: ١١٤.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ١٦٥.

(٤) منهاج الصالحين، عز الدين بليق ص ٤٢٠.

(٥) أخرجه أبو داود ٤٩١٩، وصححه الألباني، (صحيح سنن أبي داود ٤١١١).

عَلَيۡهِمۡۚ﴾[(١)]، ومن هنا كان من ألزم واجبات الداعية دلالة وإرشاد الناس إلى الخير، قال الماوردي: "ومن آداب العلماء نصح من علموهم، والرفق بهم، وتسهيل السبيل عليهم، وبذل المجهود في رفدهم ومعونتهم، فإن ذلك أعظم لأجرهم، وأسنى لذكرهم، وأنشر لعلومهم، وأرسخ لعلومهم"[(٢)].

رابعًا- من واجبات المدعو: الحرص على متابعة كلام النبي ﷺ:

ويتضح هذا من رواية مسلم: (ولم أسمعه يرخص في شيء مما يقوله الناس إلا في ثلاث)، والحرص على متابعة كلام النبي ﷺ من واجبات المدعو، لأن الرسول الكريم ﷺ هو القدوة للمسلمين، قال الله تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[(٣)]، وأمرنا الله باتباع أوامره واجتناب نواهيه، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾[(٤)]، ودعا رسول الله ﷺ بالنضارة لمن يسمع قوله ويتابعه، ففي الحديث: ((نَضَّرَ اللَّه امْرًا سَمِعَ مِنَّا شيئًا فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ غَيْرَهُ، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ))[(٥)].

قال المباركفوري: (قال التوربشتي: النضرة الحسن والرونق، والمعنى خصه الله بالبهجة والسرور لما رزق بعلمه ومعرفته من القدر المنزلة بين الناس في الدنيا ونعمه في الآخرة، حتى يرى عليه رونق الرخاء والنعمة. وقيل: إنه: إخبار، يعني جعله ذا نضرة، وقيل: دعاء له بالنضرة وهي البهجة والبهاء في الوجه من أثر النعمة.

وخص مبلغ الحديث كما سمعه بهذا الدعاء، لأنه سعى في نضارة العلم وتجديد السنة، فجازاه بالدعاء بما يناسب حاله، وهذا يدل على شرف الحديث وفضله ودرجة

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٥٧.

(٢) أدب الدنيا والدين ٩٣.

(٣) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

(٤) سورة الحشر، آية: ٧.

(٥) أخرجه الترمذي ٢٦٥٧، وصححه الألباني، (صحيح سنن الترمذي ٢١٣٩).

طلابه، حيث خصهم النبي ﷺ بدعاء لم يشرك فيه أحدًا من الأمة، ولو لم يكن في طلب الحديث وحفظه وتبليغه فائدة، سوى أن يستفيد بركة هذه الدعوة المباركة لكفى ذلك فائدة وغنما، وجلّ من الدارين حظًا وقسمًا)[١].

وقال الطيبي: (ويستفاد من قوله في الحديث: "شيئًا"، عموم الأقوال والأفعال الصادرة من النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم يدل عليه صيغة "منا" بلفظ الجمع)[٢].

خامسًا- من موضوعات الدعوة: بيان الحالات التي يجوز فيها الكذب:

يظهر هذا من رواية مسلم أنه رخص في ثلاث: "الحرب والإصلاح بين الناس وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها". قال ابن عثيمين:

"**وأما الحالة الأولى:** الحرب فيجوز فيها الكذب وهو نوع التورية، كأن يقول للعدو ورائي جنودٌ عظيمة، وما أشبه ذلك من الأشياء التي يرهب بها الأعداء.

الحالة الثانية: الإصلاح بين الناس بأن يقول للمخاطب غير الواقع، لكن له وجه وصحيح كأن يقول فلان يثني عليك أي على جنسك وأمثالك من المسلمين.

الحالة الثالثة: أي أن يحدث الرجل زوجته وتحدث المرأة زوجها، وهذا أيضًا من باب التورية كأن يقول لها: إني أحبك وإني أرغب في مثلك)[٣].

قال النووي: (لا خلاف في جواز الكذب في هذه الصور، واختلفوا في المراد بالكذب المباح فيها ما هو: فقيل: هو على إطلاقه فيجوز قول ما لم يكن في هذه المواضع للمصلحة، وقيل: المراد التورية واستعمال المعاريض لا صريح الكذب)[٤].

---

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٢/٢٠٢٥ - ٢٠٢٦.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ١/٣٨٩.

(٣) انظر: شرح رياض الصالحين ١/٦١٤ - ٦١٥.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٥٣.

الحديث رقم (٢٥٠)

٢٥٠- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمِع رسول اللَّه ﷺ صَوْتَ خُصُومٍ بالْبَابِ عَالِيةً أَصْوَاتُهُمَا، وَإِذَا أَحَدُهُمَا يَسْتَوْضِعُ الآخَرَ وَيَسْتَرْفِقُهُ فِي شيءٍ، وَهُوَ يَقُولُ: واللَّهِ لا أَفعَلُ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمَا رسولُ اللَّه ﷺ فقال: «أَيْنَ الْمُتَأَلِّي عَلَى اللَّه لا يَفْعَلُ المَعْرُوفَ؟» فقال: أَنَا يَا رسولَ اللَّهِ، فَلَهُ أَيُّ ذلِكَ أَحَبَّ، متفقٌ عليه(١).

معنى "تَسْتَوضعُه": يستأله أن يضع عنه بعض دينه. "وَيَسْتَرفِقُهُ": يسأله الرفق. "والمُتَأَلِّي": الحالف.

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

الشرح الأدبي

إن هذا المشهد الواقعي الذي حدث أمام بيت رسول الله ﷺ يمثل الصورة السلبية لما يحدث في المجتمع الإسلامي من شقاق وتنابذ، واختلاف حول عَرَض الحياة الدنيا، وهي صورة لم تنقطع بل مازالت تتكرر في ساحات المحاكم، وساحات الهيئات والدواوين الحكومية، ولكن حكمة المسؤول، وفراسة الحاكم العادل تذيب جليد الشقاق، وتهدم أسوار التباغض والنفاق، وتزرع المحبة والوفاق.

والإسلام يحب المسلم سمحًا إذا باع، سمحًا إذا اشترى، سمحًا إذا قضى، سمحًا إذا اقتضى، فالمسلم يعامل الناس والأخوة الإسلامية نصب عينيه لا يغيب عنه معناها، على ضوئها يسير، ووفق منهجها يعطي ويأخذ، ومع ذلك قد يغفل الإنسان ويختلف مع غيره.

وهذا المشهد الذي ترويه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها يصور وجهًا من وجوه التنازع بين بعض الصحابة رضي الله عنهم، حيث اشترى أحدهما من الآخر تمرًا على الشجر، فلما أحصى ما فيها وجده قليلاً جدًا، ولم تجمع الأقدار ما يطعم أولاده.

(١) أخرجه البخاري (٢٧٠٥)، ومسلم (١٥٥٧/١٩) ولفظهما سواء.

فطلب من صاحب النخل أن يخفض السعر الذي طلبه، أو أن يترفق به في دفع الثمن، وهذان المطلبان أفصح عنهما الحديث في مقدمته، "وإذا أحدهما يستوضع الآخر، ويسترفقه في شيء".

ولكن المفاوضات لم تنجح، ويصر ذلك البائع على الثمن كاملاً وعاجلاً، فذهبا إلى رسول الله ﷺ وهما في شجارهما وضجيجهما، ووصل صوت الخصوم إلى مَنْ بالمؤمنين رؤوف رحيم، وقوله "عالية أصواتهما" يصور قوة الشجار وعمق الخلاف، وكثرة الخصوم من جانبي المتنازعين، حيث كان التخاصم من الجانبين بين جماعتين.

وفي لغة الحديث إشارات بلاغية، وسمات جمالية، ومنها: صوت خصوم بالباب، حيث أضاف الصوت وهو مفرد إلى "خصوم" وهو جمع، فهل الخصوم لهم صوت أم أصوات، إن هذه الإضافة في هذه الصيغة اللغوية تصور قوة الضجيج، واختلاط الأصوات، وعدم التمايز بينها: فكأنها أصبحت صوتًا واحدًا مزعجًا مدويًا، وذلك مما يؤذي رسول الله ﷺ، وعلى الرغم من ذلك فإن رسول الله ﷺ لم يغضب لذاته، وإنما أبدى اعتراضه وإنكاره لهذا القسم بالله في غير موضعه، فكيف يقسم إنسان على عدم فعل الخير، حيث يقول: والله لا أفعل: أى لا أنقص الدين، ولا أترفق في طلبه ولا أمهلكم في الدفع!!!.

ولنتأمل كيف أصلح رسول الله ﷺ بين المتخاصمين؟، وكيف قضى على النزاع، وفض الشجار؟، إنه تفوه بجملة واحدة حيث قال: مستفهمًا ومنكرًا ما حدث من قسم على عدم فعل الخير، (أين المتألى على الله لا يفعل المعروف؟) وهذه الجملة أيقظت الحواس الغافية، وأعادت الرجل إلى سكينة الإيمان، وحديقة التسامح والاطمئنان، فقال مستجيبًا لموقف رسول الله ﷺ: متراجعًا عن موقفه المتشدد، أنا يارسول الله: فله أي ذلك أحب، أي تخفيف الدين أو الرفق في استيفائه، وهذه النتيجة الحاسمة السريعة هي صدى إيماني للبيان النبوي الذي أوجزه المصطفى ﷺ في هذه الجملة المشعة بكل دلالات الهدى والإقناع، فقد أعطى الحكم للمتخاصمين بأن على من طلب منه الوضع في الدين أن يستجيب إليه، وعلل هذا الحكم بأنه من المعروف

الذي يحسن شرعًا وعقلاً فعله، فعلى المرء أن ينقاد إليه بدينه وخلقه وعقله، وقد أنب الحالف بأسلوب بديع جميل، دون أن يزعجه أو يثير فيه شيئًا، أو يواجهه بأنه أذنب أو قصر.

وقول رسول الله ﷺ: "أين المتألي، على الله"، أقنع الخصم: بأن هذا القسم غير جائز، ولفظ الجلالة هنا له تأثير قوي في إقناع الرجل بالعدول عن موقفه؛ وكلمة "المعروف" أعادت الرجل إلى توازنه، فهل من صفة المسلم القسم على منع المعروف؟؟!!! وقول الرجل: أنا يارسول الله فيه اعتراف بفضل الرسالة، وإذعان لحكم الرسول ﷺ، ولذلك قال: "فله أي ذاك أحب".

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى أكثر من حكم فقهي:

الأول: حكم الحطيطة من دين المعسر، وقد ذكر الفقهاء[1] أنه يجوز أن يطلب المدين من الدائن أن يضع عنه بعض الدين، ولكن بشرط ألا ينتهي إلى الإلحاح وإهانة النفس أو الإيذاء ونحو ذلك إلا من ضرورة، ويستحب للدائن أن يضع عنه بعضه لما في ذلك من إعانته على قضاء دينه.

الثاني: حكم الحلف على ترك الخير، وقد سبق ذلك في الحديث رقم (٧٢).

الثالث: حكم الشفاعة إلى أصحاب الحقوق، حيث ذكر الفقهاء[2] أنه يجوز الشفاعة إلى أصحاب الحقوق وقبول الشفاعة في الخير، وهي أن يشفع الشفيع لإزالة ضرر أو مظلمة عن مظلوم، أو جر منفعة إلى مستحق ليس في جرها ضرر ولا ضرار.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٠٩/٥، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٢٢٠/١٠، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٢١٦/٢، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، شمس الدين الرملي ٢٨٤/٤، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، الشوكاني ٣١٩/٨.

(٢) بريقة محمودية في طريقة محمدية وشريعة نبوية في سرية أحمدية، محمد بن مصطفى الخادمي ٢٤١/٣، وأحكام القرآن، ابن العربي ٥٨٧/١، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٢٢٠/١٠، وتحفة المحتاج في شرح المنهاج، ابن حجر الهيتمي ١٨١/٩، والآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ١٧٦/٢، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، الشوكاني ٣١٩/٨، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٣١/٢٦.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة ﷺ على نقل أحوال النبي ﷺ.

ثانيًا: من مهام الداعية: السعي في الإصلاح بين المتخاصمين.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الاستفهام.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل الرفق بالغريم والوضع عنه.

أولاً- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة ﷺ على نقل أحوال النبي ﷺ:

يظهر هذا من قول عائشة ﷺ "سمع رسول الله ﷺ صوت خصوم بالباب عالية أصواتهما". وذلك باعتبار أن النبي ﷺ هو القدوة والأسوة، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾[1] ولهذا كان الصحابة يحرصون على نقل أحوال النبي ﷺ للاقتداء به فعن ابن عمر ﷺ: ((أنه سئل عن رجل معتمر طاف بالبيت أيقع على امراته قبل أن يطوف بين الصفا والمروة[2] فقال: قدم رسول الله ﷺ فطاف بالبيت وصلى خلف المقام ركعتين، وسعى بين الصفا والمروة ثم قرأ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[3] [4])).

ومن ذلك أيضًا ما جاء عن عابس بن ربيعة قال: ((رَأَيْتُ عُمَرَ ﷺ يُقَبِّلُ الْحَجَرَ وَيَقُولُ: إِنِّي لأُقَبِّلُكَ. وَأَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ. وَلَوْلاَ أَنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللّهِ ﷺ يُقَبِّلُكَ لَمْ أُقَبِّلْكَ))[5].

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

(٢) أخرجه البخاري ٣٩٥، ومسلم ١٢٣٤.

(٣) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

(٤) يعبر عن السعي بالطواف كما جاء في الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية "والسعي هو المشي بين الصفا والمروة وقد يطلق على السعي الطواف والتطوف وشاهده من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ لسورة البقرة، آية: ١٥٨]. انظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٩/١٢١.

(٥) أخرجه البخاري ١٥٩٧، ومسلم ١٢٧١.

ولقد كان الصحابة رضي الله عنهم يدركون أنه لا سبيل إلى معرفة العلوم والأحكام الشرعية إلا من طريق النبي صلى الله عليه وسلم ولذا نقلوا كلامه ووصفوا أحواله قال الإمام ابن القيم: (ولا سبيل إلى معرفة العلم إلا من مشكاة من قامت الأدلة القاطعة على عصمته، وصرحت الكتب السماوية بوجوب طاعته ومتابعته، وهو الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، ولقد كان التلقي عنه بلا وساطة حظَّ أصحابه الكرام رضي الله عنهم الذين حازوا قصبات السبق، ولقد ألقوا رضي الله عنه إلى التابعين ما تلقوه من مشكاة النبوة وقالوا: هذا عهد نبينا إلينا وقد عهدنا إليكم)(١).

ثانيًا- من مهام الداعية: السعي في الإصلاح بين المتخاصمين:

يستنبط هذا من خروج النبي صلى الله عليه وسلم إلى المتخاصمين يقول: أين المتألي على الله لا يفعل المعروف" والداعية في هذا إنما يستجيب لأوامر وتوجيهات القرآن الكريم.

جاء في الدر المنثور: "وعن عبدالله بن حبيب بن أبي ثابت قال: كنت جالسًا مع محمد بن كعب القرظي فأتاه رجل فقال له القوم: أين كنت؟ فقال: أصلحتُ بين قوم فقال محمد بن كعب: أصبت، لك مثل أجر المجاهدين، ثم قرأ: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾(٢)"(٣). وحتى على مستوى الحياة الزوجية، أمر الله بالإصلاح بين الزوجين المتخاصمين، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾(٤) ولما حدث الاختلاف في الأنفال يوم بدر، وجَّه الله الصحابة الكرام إلى ضرورة مراعاة الإصلاح، ونبذ التقاطع والاختلاف، وجاء تعليم القرآن

---

(١) انظر: فضل العلم والعلماء، ابن قيم الجوزية ص ١٦.

(٢) سورة النساء، آية: ١١٤.

(٣) الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٦/٥.

(٤) سورة النساء، آية: ٣٥.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ﴾ (١) وأمر الله المؤمنين بالإصلاح بين المتخاصمين فقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٢).

وبشَّر رسول الله ﷺ سبطه الحسن بن علي رضي الله عنهما بأن الله يصلح به بين المسلمين فعن أبي بكرة رضي الله عنه قال: ((رأيتُ رسول اللهِ ﷺ على المِنْبرِ -والحسنُ بن عليٍّ إلى جَنبهِ- وهوَ يُقبِلُ على الناسِ مرةً وعليهِ أُخرَى ويقول: إنَّ ابني هذا سَيِّد، ولعلَّ اللَّهَ أن يُصلِحَ بهِ بين فِئَتَينِ عظيمتَين منَ المسلمين)) (٣).

ثالثًا- من أساليب الدعوة: الاستفهام:

حيث جاء في الحديث في قوله ﷺ: "أين المتألي على الله لا يفعل المعروف؟" والاستفهام أسلوب من أساليب الدعوة والتي تلفت انتباه المدعو إلى أمر مهم، والاستفهام قد يكون تقريريًا وقد يكون إنكاريًا، والاستفهام في الحديث لمعرفة الشخص المتألي حتى توجه له الموعظة.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل الرفق بالغريم والوضع عنه:

يستنبط ذلك مما ورد في الحديث في قوله ﷺ: "فله أي ذلك أحب" قال الإمام النووي: (وفي هذا كراهة الحلف على ترك الخير وإنكار ذلك، وأنه يستحب لمن حلف لا يفعل خيرًا أن يحنث فيكفر عن يمينه) (٤). وقال ابن حجر: (وقوله فله أي ذلك أحب أي من الوضع أو الرفق، وفي هذا الحديث الحض على الرفق بالغريم والإحسان إليه بالوضع عنه، والزجر عن الحلف على ترك فعل الخير) (٥).

---

(١) سورة الأنفال، آية: ١.

(٢) سورة الحجرات، آية: ١٠.

(٣) أخرجه البخاري ٢٧٠٤.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٩٩٢.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٦٣/٥.

هذا وقد دلت الأحاديث على فضل الرفق بالغريم والوضع عنه ففي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: ((كَانَ رَجُلٌ يُدَايِنُ النَّاسَ. فَكَانَ يَقُولُ لِفَتَاهُ: إِذَا أَتَيْتَ مُعْسِرًا فَتَجَاوَزْ عَنْهُ. لَعَلَّ اللَّهَ يَتَجَاوَزُ عَنَّا. فَلَقِيَ اللَّهَ فَتَجَاوَزَ عَنْهُ))[1].

وعن أبي قتادة رضي الله عنه طلب غريمًا له فتوارى عنه ثم وجده فقال: ((إِنِّي مُعْسِرٌ. فَقَالَ: آللَّهِ؟ قَالَ: آللَّهِ. قَالَ: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُنْجِيَهُ اللَّهُ مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلْيُنَفِّسْ عَنْ مُعْسِرٍ، أَوْ يَضَعْ عَنْهُ))[2].

وجاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: ((مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا، أَوْ وَضَعَ عَنْهُ، أَظَلَّهُ اللَّهِ فِي ظِلِّهِ))[3] وعن بريدة الأسلمي رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((من أنظر معسرًا كان له كل يوم صدقة، ومن أنظره بعد حلّه كان له مثله في كل يوم صدقة))[4]. فعلى الدعاة إلى الله إحياء هذه المعاني وتوجيه الناس لها.

(١) أخرجه البخاري ٢٠٧٨، ومسلم ١٥٦٢.

(٢) أخرجه مسلم ١٥٦٣.

(٣) أخرجه مسلم ٣٠٠٦.

(٤) أخرجه أحمد ٣٥١/٥ رقم ٢٢٩٦٩، وقال محققو المسند: حديث صحيح ٦٩/٣٨.

الحديث رقم (٢٥١)

٢٥١- وعن أَبي العباس سهلِ بنِ سعدٍ السَّاعِدِيِّ ﷺ، أَن رسـولَ اللّـه ﷺ بلَغـهُ أَنَّ بَني عَمْرِو بن عوْفٍ كان بينْهُمْ شَرٌّ، فَخَرَجَ رسولُ اللّه ﷺ يُصلِحُ بَيْنَهم فِي أُنَاسٍ مَعَه، فَحُبِسَ رسول اللّه ﷺ وَحَانَتِ الصَّلاَةُ، فَجَاءَ بِلالٌ إِلَى أَبي بَكْرٍ ﷺ فقال: يَا أَبَا بَكْرٍ إِنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ قَدْ حُبِسَ، وَحَانَتِ الصَّلاةُ، فَهَلْ لكَ أَنْ تَؤُمَّ النَّاس؟ قال: نَعَمْ إِنْ شِئْتَ، فَأَقَامَ بِلالٌ (الصَّلاَةَ)[١]، وَتقَدَّمَ أَبُو بَكْرٍ فَكَبَّرَ[٢] وكبَّرَ النَّاسُ، وَجَاءَ رسول اللّه يمْشِي فِي الصُّفوفِ حتَّى قامَ فِي الصَّفِّ، فَأَخَذَ النَّاسُ فِي التَّصْفِيقِ، وكَانَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ لا يَلْتَفِتُ فِي صلاتِهِ، فَلَمَّا أَكثَرَ النَّاسُ (التَّصْفِيقَ)[٣] الْتَفَتَ، فَإِذَا رسولُ اللّه ﷺ، فَأَشَار إِلَيْهِ رسول اللّه ﷺ[٤]، فَرَفَعَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ يدَهُ[٥] فَحمِد اللّه، وَرَجَعَ القهقرى وَرَاءَهُ، حَتَّى قَامَ فِي الصَّفِّ، فَتَقدَّمَ رسول اللّه ﷺ، فَصلَّى للنَّاسِ، فَلَمَّا فرغَ أَقْبلَ عَلَى النَّاسِ فقال: **«أَيُّهَا النَّاسُ ما لَكُمْ حِينَ نَابكُمْ شَيْءٌ فِي الصَّلاَةِ أَخذْتُمْ فِي التَّصْفِيقِ؟ إِنَّما التَّصْفِيقُ لِلنِّسَاءِ. منْ نَابهُ شيءٌ فِي صلاتِهِ فَلْيَقلْ: سُبْحَانَ اللّهِ؟ فَإِنَّهُ لا يَسْمعُهُ أَحدٌ حِينَ يَقُولُ: سُبْحانَ اللّهِ، إِلاَّ الْتَفَتَ. يَا أَبَا بَكْرٍ: ما منعَكَ أَنْ تُصَلِّيَ بالنَّاسِ حِينَ أَشرْتُ إِلَيْكَ؟»** فقال أَبُو بكْرٍ: مَا كَانَ ينبَغِي لابْنِ أَبي قُحافَةَ أَنْ يُصلِّيَ بالنَّاسِ بيْنَ يَدَيْ رسولِ اللّه ﷺ. متفقٌ عليه[٦].

معنى **«حُبِس»**: أَمْسكُوهُ لِيُضيِّفُوه.

---

(١) قوله: (الصلاة) ليس عند البخاري في هذه الرواية، وإنما عنده برقم (١٢٠١).

(٢) هذا السياق للحميدي في جمعه (٥٤٥/١، رقم ٨٩٩)، وتبعه عليه المؤلف، ولفظ البخاري في هذه الرواية: (فتقدم أبوبكر >، فكبّر للناس).

(٣) قوله: (التصفيق) ليس عند البخاري في هذه الرواية وإنما عنده برقم (٦٨٤).

(٤) عند البخاري في هذه الرواية زيادة: (يأمره أن يصلي)، وعند مسلم: (أن امكث مكانك)، أسقطها الحميدي، وتبعه عليه المؤلف.

(٥) قوله: (يده) ليس عند المؤلف في هذه الرواية، وإنما عنده برقم (٢٦٩٠).

(٦) أخرجه البخاري (١٢٣٤) واللفظ له، ومسلم (٤٢١/١٠٢).

ترجمة الراوي:

سهل بن سعد الساعدي: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٧٥).

غريب الألفاظ:

حُبس: أمسكوه ليضيفوه[١].

ورجع القهقري: رجع في صلاته إلى الوراء دون أن يستدبر القبلة ولا يتحرفها[٢].

نابكم شيء: أصابكم شيء[٣].

الشرح الأدبي

ما أجمل أدب الصحابة مع رسول الله ﷺ، وما أعظم رفق الرسول ﷺ بأصحابه، وحرصه عليهم، وحبه لهم.

وهذا الحديث: مشهد من مشاهد السيرة النبوية الحافلة بجلائل الأفعال، وروائع الأقوال، وكيف لا؟ والحديث حوار بين رسول الله ﷺ، والصديق أبي بكر رضي الله عنه، خليفة رسول الله والذي شهد له رسول الله بأنه لو وضع إيمان أبي بكر في كفة وإيمان الأمة كلها في كفة لرجح إيمان أبي بكر، وهو أبو عائشة الصديقة بنت الصديق، وهو مَنْ هو في الدفاع عن الإسلام، والقضاء على المرتدين وما نعى الزكاة حبًا لرسول الله ﷺ، وحفاظًا على معالم العقيدة الصحيحة.

وبداية الحديث الشريف تحدد السياق الذي وضع من أجله هذا الحديث في باب الإصلاح بين الناس حيث: خرج رسول الله للإصلاح بين بني عمرو بن عوف، وهم بطن كبير من الأوس، وكانت منازلهم بقباء، وقد اقتتلوا حتى تداموا بالحجارة، فأُخبر رسول الله ﷺ بذلك فذهب لكي يصلح بينهم، وفي هذا تشريع للإسراع في الإصلاح بين المتخاصمين أو المتنازعين، وقوله "كان بينهم شر" فيه إيجاز شديد لأن كلمة "شر"

---

(١) رياض الصالحين ١٤٩.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٣٦٣.

(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ن و ب).

نكرة، وهي يمكن أن تطلق على كل أسباب النزاع، وما يؤول إليه من شقاق وخلاف وقتال، وما يؤدي إليه من نتائج وعواقب وخيمة، وأخطار جسيمة، ينتج عنها قطيعة الأرحام، وتفكك الأواصر، وتدمير الممتلكات، وإزهاق الأنفس، وتبديد الأموال والثمرات.

والعطف بالفاء في قوله: "فخرج رسول الله" يوحي بالإسراع في حل النزاع وقوله: "فحُبس رسول الله" أي أمسك المتخاصمون الرسول ﷺ ليضيِّفوه بعد أن تم الصلح فورًا استجابة لرسول الله، وإذعانًا لحكمه وحكمته.

ويحين وقت الصلاة ولم يحضر رسول الله ﷺ: فهل تتأخر الصلاة؟ أم يصلي أبو بكر بالناس إمامًا، ويقتدي أبو بكر برأي بلال حين قال له: "فهل لك أن تؤم الناس"، فقال أبو بكر له: "نعم إن شئت"، ولنتأمل هذا التواضع في خطاب أبي بكر لبلال رغم ما بينهما من فروق في المكانة والوضع، ولكن الإسلام سوى بينهما، وأبو بكر هو الذي يتبع رأي بلال رضي الله عنه، ويقول له: نعم أن شئت؟ فأي أدب هذا، وأي تواضع من أبي بكر الصديق رضي الله عنه، في هذا الموقف الجليل.

وتحدث المفاجأة: حين كبَّر أبو بكر ﷺ وبدأت الصلاة: يجيء رسول الله ﷺ يمشي في الصفوف: فماذا يفعل أبو بكر هل يستمر في الصلاة وهذا حقه، ورسول الله ﷺ أشار له بالاستمرار، والناس يصفقون حتى ينتبه أبو بكر لما يحدث.

فيرفع أبو بكر رضي الله عنه يده ويحمد الله على مجيء رسول الله ﷺ ويرجع القهقري، ويعود الهدوء إلى صفوف المأمومين، ويصلي الرسول ﷺ بالناس، وكأن أبو بكر رضي الله عنه بهذا السلوك الإسلامي منع خلافًا كاد أن ينشب في صفوف المسلمين، ومنع جدلاً يمكن أن يثير الفتنة بين ضعاف النفوس أو ملوك المنافقين، ويرشد النبي ﷺ أصحابه إلى المنهج الإسلامي في التنبيه على أمر ما في الصلاة، وهو لا يكون بالتصفيق، فذلك من عادات النساء، وإنما يكون بالتسبيح، وصار هذا شرعًا ومنهاجًا للمسلم.

وما أسمى هذا الحوار بين النبي ﷺ المختار والصديق الصدوق حين يقول رسول

الله ﷺ في مودة ومحبة ونداء أخوي رقيق، "يا أبا بكر ما منعك أن تصلي للناس حين أشرت إليك؟" فقال أبو بكر رضي الله عنه في محبة وتواضع واعتراف بمكانة رسول الله ﷺ وفضله: "ما كان ينبغي لابن أبي قحافة أن يصلي بين يدي رسول الله ﷺ"، ومبالغة في التواضع، واعترافًا بقيمة النبوة لجأ أبو بكر إلى استعمال صيغة الغيبة مكان الحضور، وجاء باسم أبيه أبي قحافة، إمعانًا منه في التواضع أمام رسول الله ﷺ، وقد عدل عن قوله: ما كان لي، إلى قوله: "ما كان لابن أبي قحافة"، لأنه أدل على التواضع، وفي الحديث كثير من الفوائد -كما جاء في فتح الباري- ومنها الإصلاح بين الناس، وجمع كلمة القبيلة، وحسم مادة القطيعة، وتوجه الإمام بنفسه إلى بعض رعيته، وفيه مزيد تواضعه ﷺ وجلوسه مع المتخاصمين جبرًا لخواطرهم، وحضور ضيافتهم.

وهكذا يكون منهج النبي ﷺ ومنهج الصحابة في الإصلاح بين الناس، وفي الاعتراف بأهل الفضل لذويه، وفي ضرب الأمثلة النادرة في التواضع، والتسامح والمؤاخاة، وهي من جذور التآلف والاتفاق بين المسلمين، حتى يظلوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى أكثر من حكم فقهي:

الأول: فضل الإصلاح بين الناس: وقد سبق الكلام عنه في الحديث رقم (١٢٢).

الثاني: حكم إذا ما تأخر الإمام: حيث يجوز لغيره أن يتقدم ليؤم الناس إذا لم يخف فتنة وإنكارًا من الإمام، وخشي الناس فوت الصلاة في وقتها(١).

---

(١) المنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ٢٨٩/٢، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٤٤/٤، ١٤٥، والفتاوى الفقهية الكبرى لابن حجر ٢٠٤/١، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٤٢٣/١، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ٢١٦/٢.

الثالث: حكم اتصال الإقامة بالصلاة: وقد ذكر الفقهاء [(١)] أنه لا يصح تقديم الإقامة على وقت الصلاة حيث يشترط لها شرطان، دخول الوقت، وإرادة الدخول في الصلاة، فإن أقام الصلاة، وأطال الفصل، بطلت الإقامة لعدم جواز إطالة الفصل بينها وبين الصلاة.

الرابع: أن المقدم على الإمام عند غيابه أفضل القوم وأصلحهم لذلك الأمر، لأنه يقوم مقام الإمام فاشترط فيه ما يشترط في الإمام[(٢)].

الخامس: أن المؤذن يعرض التقدم على الفاضل وأن الفاضل يوافقه[(٣)].

السادس: الفعل القليل في الصلاة: وقد ذكر الفقهاء[(٤)] أن الفعل القليل في الصلاة لا يبطلها إلا ما فيه لعب كما لو صفقت المرأة لأمر نابها في صلاتها ببطن اليمين على ظهر اليسار، أو نوى فعلاً كثيرًا واقتصر على القليل.

السابع: حكم الالتفات في الصلاة: وقد ذكر الفقهاء[(٥)] أنه يكره للمصلي

---

(١) تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ٩٣/١، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ٢٨٨/١، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٤٦٥/١، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٩٧/٣، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٤٤/٤، ١٤٥، والفروع، ابن مفلح ٣١٧/١ وما بعدها، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٨/٦.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٤٥/٤.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٤٥/٤.

(٤) المنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ٢٨٩/١، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٤٥/٤، والمنثور في القواعد للزركشي ٥٥/٣ وما بعدها، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين بن الحسن بن عبدالرحمن ٣٩٥/٢، ومغني المحتاج ٤١٨/١.

(٥) المبسوط، السرخسي ٢٥/١، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٢١٥/١، والمدونة ١٩٦/١، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ٢٨٩/١، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢٨/٤، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٢٦٩/١، والفروع، ابن مفلح ٤٨٣/١، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٤٥/٤، وسبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، الصنعاني ٢٢٣/١، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، الشوكاني ٣٨٥/٢، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٧٤/٦ وما بعدها.

الالتفات بالوجه في الصلاة بدون حاجة، ويجوز الالتفات للحاجة، أما الالتفات بالبدن كله فمنهم من كرهه ومنهم من قال تبطل به الصلاة إن حول قدميه.

الثامن: جواز المشي خطوة أو خطوتين في الصلاة، وأن هذا القدر لا يكره إذا كان لحاجة كمن رأى فرجة فشق الصفوف إليها[١].

التاسع: حكم إذا حدث أمر خارج عن الصلاة وأراد المصلي التنبيه عليه: وقد اتفق الفقهاء[٢] على أنه متى ناب المصلي أمر كأن يطرق عليه الباب أحد، أو يكون إمامًا فيسهو في صلاته ويريد المأمومون تنبيهه، أو يريد تنبيه أعمى سيقع في بئر أو حفرة أو غير ذلك، ففي هذه الحالة يختلف الحكم، فإن كان المصلي رجلاً كان التنبيه بالتسبيح لله تعالى، وإن كانت امرأة كان لها أن تنبه بالتصفيق، وكره المالكية التنبيه بالتصفيق ولو من المرأة، وجعلوا التنبيه بالتسبيح من الرجل والمرأة على السواء.

العاشر: حكم استخلاف الإمام لأحد المأمومين في الصلاة إن طرأ له عذر: وقد اختلف الفقهاء في حكم الاستخلاف على قولين:

القول الأول: وذهب إليه جمهور الفقهاء من الحنفية[٣] والمالكية[٤] والشافعي في

---

(١) المنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ٢٨٨/١، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٤٥/٤، ومغني المحتاج ٤١٨/١.

(٢) الفتاوى الهندية ١٠٤/١، لمجموعة من علماء الهند، والبحر الرائق ١٩/٢، والمدونة ١٩٠/١، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٢٩/٢، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ١٨٠/١، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين بن الحسن بن عبدالرحمن ٢٤٢/٢، وحاشيتا قليوبي وعميرة ٢١٦/١، والغرر البهية في شرح البهجة الوردية، القاضي أبو يحيى الأنصاري ٣٥٩/١ وما بعدها، وتحفة المحتاج (٢١٢) تحفة المحتاج في شرح المنهاج، ابن حجر الهيتمي ١٤٨/٢ وما بعدها، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٣٨٠/١ وما بعدها، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٤٨٦/١، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٤٥/٤.

(٣) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٢٢٤/١، وشرح فتح القدير، ابن الهمام الحنفي ٣٨٤/١.

(٤) التاج والإكليل ٤٧٩/٢، وشرح الخرشي ٥٤/٢.

الجديد[1] والحنابلة في المذهب[2] ويرون أنه يجوز للإمام أن يستخلف غيره من المأمومين متى حدث له ما يمنعه من إكمال الصلاة كحدث أو رعاف أو غير ذلك، ولكن المالكية يقولون إن ذلك مندوب في الصلوات كلها، وواجب على المأمومين في صلاة الجمعة إذا لم يستخلف الإمام لأنه لا يصح صلاتها فرادى.

القول الثاني: وذهب إليه الشافعي في القديم[3] والإمام أحمد في رواية[4] إلى أنه لا يجوز الاستخلاف متى حدث للإمام عذر، وإنما يكمل المأمومون صلاتهم فرادى.

والراجح ما ذهب إليه جمهور الفقهاء، لأنه ما تؤيده الأدلة، ومنها هذا الحديث الصريح والذي كان في آخر أيامه ﷺ ولم يرد عليه نسخ أو تخصيص.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: مسارعة النبي ﷺ في الإصلاح بين الناس.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل الإصلاح بين الناس.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على أداء الصلاة في وقتها.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

خامسًا: من صفات الداعية: التواضع.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: الحمد عند حصول نعمة للإنسان.

سابعًا: من واجبات الداعية: إنزال الناس منازلهم.

ثامنًا: من واجبات الداعية: بيان الحقائق للمدعوين.

تاسعًا: من واجبات الداعية: الاستفسار عن امتناع المدعو عن بعض الأمور.

---

(١) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٤/٤٤٥، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ١/٢٥٤، وتحفة المحتاج في شرح المنهاج، ابن حجر الهيتمي ٢/٤٨٤.

(٢) الفروع، ابن مفلح ١/٤٠٠، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ٢/٣٣، وكشاف القناع عن متن الإقناع، الشيخ منصور البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ١/٣٢١.

(٣) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٤/٤٤٥، وتحفة المحتاج في شرح المنهاج، ابن حجر الهيتمي ٢/٤٨٤.

(٤) الفروع، ابن مفلح ١/٤٠١، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ٢/٣٣.

أولاً- من موضوعات الدعوة: مسارعة النبي ﷺ في الإصلاح بين الناس:

يظهر هذا فيما روى أبو العباس سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه: (أن رسول الله ﷺ بلغهُ أن بني عمرو بن عوف كان بينهم شر فخرج رسول الله ﷺ يصلح بينهم في أناس معه)، فمسارعة رسول الله ﷺ في الإصلاح بين الناس، تطبيقًا لما جاء به من دعوة للوحدة والتآلف، والمحبة والمودة، والاجتماع على كلمة واحدة، ونبذ الكراهية والاختلاف والتفرق. فرسول الله ﷺ مبلغ شرع الله ومعلم الأمة الإسلامية وقدوتها، فلا ينتظر منه أن يرى مخاصمة بين مُسلمَيْن ولا يسارع إلى الإصلاح بينهما، فهو الداعي إلى الإصلاح بين الناس، والمبلغ أوامر الله الداعية إلى الإصلاح بين الناس، قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾(١).

قال السعدي: (أي أصلحوا ما بينكم من التشاحن والتقاطع والتدابر، بالتوادد والتحاب، فبذلك تجتمع كلمتكم ويزول ما يحصل -بسبب التقاطع- من التخاصم والتشاجر والتنازع)(٢)، فمسارعة رسول الله ﷺ إلى الإصلاح بين الناس من صفاته الكريمة التي اتصف بها من أجل إشاعة المودة والوحدة بين المسلمين.

فعلى المسلمين أن يسارعوا إلى إصلاح ذات البين، وتقوية الروابط إذا تعرضت لوهن أو ضعف.

إن الكلمة الطيبة التي تجمع الشتات، وتوحد الكلمة، وترأب الصدع، من الخير الذي يتقرب به إلى الله، قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(٣).

---

(١) سورة الأنفال، آية: ١.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٢٧٧.

(٣) سورة النساء، آية: ١١٤.

لقد جعل الإسلام الإصلاح بين الطوائف المتخاصمة أمرًا ضمنيًا، ولو لم يتم ذلك إلا بالعنف، محافظة على الكيان العام للجماعة، وإبقاء لعلاقات المودة والإخاء، قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[1].

إن إصلاح ذات البين من أهم الأسس التي حرص الإسلام على أن يقيم علاقة الجماعة المسلمة عليها، ليجعل من المسلمين أمة قوية يُحسب حسابها ويرهب جانبها، ويوم أن كان المسلمون ينفذون هذه التعاليم، ويقيمون علاقتهم على هذه القواعد كانت رابطتم أقوى من أن تُحل، ووحدتهم أعصى من أن ينال منها عدو[2].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل الإصلاح بين الناس:

يظهر هذا من حرص رسول الله ﷺ على الإصلاح بين بني عمرو بن عوف، قال ابن حجر: (وفي هذا الحديث فضل الإصلاح بين الناس وجمع كلمة القبيلة وحسم مادة القطيعة ومنه توجه الحاكم بنفسه لسماع دعوى بعض الخصوم إذا رجح ذلك على استحضارهم)[3].

والإصلاح بين الناس من أفضل الأعمال، وهذا ما بيّنه رسول الله ﷺ في قوله: ((أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلاَةِ وَالصَّدَقَةِ: قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ الله، قَالَ: إِصْلاَحُ ذَاتِ الْبَيْنِ وَفَسَادُ ذَاتِ الْبَيْنِ الْحَالِقَةُ))[4].

قال الطيبي: "فيه حث وترغيب على إصلاح ذات البين واجتناب عن الفساد فيها؛ لأن الإصلاح سبب للاعتصام بحبل الله، وعدم التفرق بين المسلمين، وفساد ذات البين ثلمة

---

(١) سورة الحجرات، آية: ٩.

(٢) انظر: عناصر القوة في الإسلام، السيد سابق، ص ١٩٠-١٩٢.

(٣) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٩٨/٢.

(٤) أخرجه أبو داود ٤٩١٩، وصححه الألباني، (صحيح سنن أبي داود ٤١١١).

في الدين، فمن تعاطى إصلاحها، ورفع فسادها، نال درجة عند الله سبحانه وتعالى فوق ما ينالها الصائم القائم المشتغل بخويصة نفسه"[١].

"إن من الأمور المهمة والواجبة على الدعاة إصلاح ذات البين ورأب الصدع، وتقريب وجهات النظر، وتضييق هوّة الخلاف بين المسلمين عامة والدعاة والعلماء وطلاب العلم خاصة، فإن الله سبحانه يُحبُّ من عباده أن يكونوا مجتمعين على الخير متعاونين على البر والتقوى متحابين متآلفين، فهم يد واحدة على من سواهم يسعى بذمتهم أدناهم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾[٢] [٣].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على أداء الصلاة في وقتها:

(إن الصلاة سر لسلامة الإيمان، وسلامة الدين، والاتصال بالله تعالى والبقاء في حظيرة الإسلام، والانخراط في سلك المؤمنين لا يعلمه إلا الله تعالى)[٤]، وقد كان الصحابة رضي الله عنهم حريصين على أداء الصلاة في وقتها، ويظهر هذا في قول الراوي: فحبس رسول الله صلى الله عليه وسلم وحانت الصلاة، فجاء بلال إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه فقال: يا أبا بكر، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حُبس وحانت الصلاة فهل تؤم الناس؟ قال: نعم إن شئت، فأقام بلال، وتقدم أبو بكر فكبر وكبر الناس.

فتأخر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة بسبب الصلح لم يجعلهم يؤخرون الصلاة بل صلوا وصلى بهم أبو بكر رضي الله عنه، وفي هذا دليل على حرصهم على أداء الصلاة في أول الوقت، ومعرفتهم فضل ذلك، فعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي العمل أحب إلى الله تعالى؟ قال: ((الصلاةُ عَلَى وَقتِها))[٥].

فالصحابة رضي الله عنهم هم خير الأمة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحرصهم على العبادات

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٢١٣/٩.

(٢) سورة الصف، آية: ٤.

(٣) انظر: نصوص دعوية، د. حيدر أحمد الصافح، ص ١١٦.

(٤) الأركان الأربعة، أبو الحسن الندوي، ص ٢٨.

(٥) أخرجه البخاري ٥٢٧، ومسلم ٨٥.

والطاعات، وقد ورد عنهم الكثير من الأحاديث والآثار التي تؤكد حرصهم على أداء الصلاة في وقتها ومنها:

عن كعب بن عجرة قال: بَيْنَمَا أَنَا جَالِسٌ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، مُسْنِدِي ظُهُورَنَا إِلَى قِبْلَةِ مَسْجِدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، سَبْعَةُ رَهْطٍ، أَرْبَعَةٌ مَوَالِينَا، وَثَلَاثَةٌ مِنْ عَرَبِنَا، إِذْ خَرَجَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ صَلَاةَ الظُّهْرِ، حَتَّى انْتَهَى إِلَيْنَا، فَقَالَ: ((مَا يُجْلِسُكُمْ هَا هُنَا؟)) قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، نَنْتَظِرُ الصَّلَاةَ، قَالَ: ((فَأَرَمَّ[١] قَلِيلاً))، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: ((أَتَدْرُونَ مَا يَقُولُ رَبُّكُمْ، عَزَّ وَجَلَّ؟)) قَالَ: قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: ((فَإِنَّ رَبَّكُمْ، عَزَّ وَجَلَّ، يَقُولُ: مَنْ صَلَّى الصَّلَاةَ لِوَقْتِهَا، وَحَافَظَ عَلَيْهَا، وَلَمْ يُضَيِّعْهَا اسْتِخْفَافًا بِحَقِّهَا، فَلَهُ عَلَيَّ عَهْدٌ، أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَمْ يُصَلِّ لِوَقْتِهَا، وَلَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا، وَضَيَّعَهَا اسْتِخْفَافًا بِحَقِّهَا، فَلَا عَهْدَ لَهُ، إِنْ شِئْتُ عَذَّبْتُهُ، وَإِنْ شِئْتُ غَفَرْتُ لَهُ))[٢].

فكان شأن الصحابة رضي الله عنهم المحافظة على الصلاة في وقتها، وكان حنينهم إلى الصلاة، وإيثارهم لها على كل ما حبب إلى النفس البشرية ومخاطرتهم بأنفسهم وحياتهم في سبيلها معروفة عند المشركين، فقد روى مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: ((غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللّهِ ﷺ قَوْمًا مِنْ جُهَيْنَةَ. فَقَاتَلُونَا قِتَالاً شَدِيدًا. - إلى أن قَالَ: إِنَّهُ سَتَأْتِيهِمْ صَلَاةٌ هِيَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنَ الأَوْلَادِ))[٣][٤].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

إن من موضوعات الدعوة التي تظهر من هذا الحديث: فضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وذلك في تقديم الصحابة رضي الله عنهم له لإمامتهم في الصلاة، قال القاضي عياض: (وإرساله ﷺ إلى أبي بكر رضي الله عنه للصلاة واستخلافه لها وحده ألا يكون سواه أجمل دليل على فضيلة أبي بكر رضي الله عنه وتقدمه، وتنبيه على أنه أولى بخلافته، ولأن الصلاة

---

(١) فَأَرَمَّ: أي سكت قليلاً، انظر: لسان العرب في (ر م م).

(٢) أخرجه أحمد ٢٤٤/٤، رقم ١٨١٣٢، وقال محققو المسند: مرفوعه صحيح لغيره ٥٦/٣٠.

(٣) أخرجه مسلم ٨٤٠.

(٤) الأركان الأربعة، أبو الحسن الندوي، ص ٣٠.

للخليفة)[1]، وقال النووي: (وفيه فضائل كثيرة لأبي بكر رضي الله عنه، وتقديم الجماعة له، واتفاقهم على فضله عليهم ورجحانه)[2].

ولفضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه كان رسول الله ﷺ يقدمه لإمامة المصلين، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: ((أَمَرَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ أَبَا بَكْرٍ أَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ فِي مَرَضِهِ. فَكَانَ يُصَلِّي بِهِمْ))[3].

وأبو بكر رضي الله عنه أول من أسلم من الرجال.

قال السيوطي: (قال العلماء: صحب أبو بكر رضي الله عنه النبي ﷺ من حين أسلم إلى حين توفي، لم يفارقه سفرًا ولا حضرًا إلا فيما أذن له عليه الصلاة والسلام في الخروج فيه من حج وغزو، وشهد معه المشاهد كلها، وهاجر معه وترك عياله وأولاده رغبة في الله ورسوله ﷺ، وهو رفيقه في الغار، قال تعالى: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[4]، وقام بنصر رسول الله ﷺ في غير موضع، وله الآثار الجميلة في المشاهد، وثبت يوم أحد ويوم حنين وقد فرّ الناس)[5].

وقال عنه رسول الله ﷺ: ((إِنه ليس منَ الناسِ أحدٌ أمنَّ عليَّ في نفسهِ ومالهِ من أبي بكرِ بنِ أبي قُحافةَ، ولو كنت متخذًا من الناس خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن خلة الإِسلام أفضل. سدّوا عني كل خَوخةٍ[6] في هذا المسجدِ غيرَ خَوخةِ أبي بكر))[7].

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٣١٩/٢.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٣٦٢.

(٣) أخرجه مسلم ٤١٨.

(٤) سورة التوبة، آية: ٤٠.

(٥) تاريخ الخلفاء، السيوطي، ص ٣٣ - ٣٤.

(٦) الخَوْخَة: باب صغير، وأصلها فتح في حائط، انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦٦٥/١.

(٧) أخرجه البخاري ٤٦٧.

وعن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: ((أَتَتِ امْرَأَةٌ النَّبِيَّ ﷺ فَأَمَرَهَا أَنْ تَرْجِعَ إِلَيْهِ قَالَتْ: أَرَأَيْتَ إِنْ جِئْتُ وَلَمْ أَجِدْكَ كَأَنَّهَا تَقُولُ: الْمَوْتَ قَالَ ﷺ: إِنْ لَمْ تَجِدِينِي فَأْتِي أَبَا بَكْرٍ))[١].

وكان رضي الله عنه من أشد الناس ملازمة لرسول الله ﷺ وغيرة على دينه وعلى شخصه، وكان له التضحيات العظيمة في سبيل نشر الدعوة الإسلامية، ضحى بنفسه وماله ووقته وبكل ما يملك، وكان لرسول ﷺ وزيرًا وكان خليفته بعده رضي الله عنه... وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة وفضائله لا تحصى[٢].

خامسًا- من صفات الداعية: التواضع:

إن التواضع -في حقيقته- هو بذل الاحترام والعطف والتقدير لمن يستحقه[٣]. يظهر هذا في إشارة النبي ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه بالاستمرار في الإمامة، وهذا تواضع من النبي ﷺ.

والتواضع من خير الخلال وأحب الخصال إلى الله تعالى وإلى الناس، وهو موجب للرفعة، وباعث على التآلف، ومحقق للحب والود وقد أمر نبيه ﷺ بأن يتواضع للمؤمنين[٤]، فقال تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[٥].

وقد أوحى الله تعالى إلى نبيه ﷺ بضرورة تواضع الناس فيما بينهم فقال رسول الله ﷺ: ((إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لاَ يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلاَ يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ))[٦].

فالتواضع يجعل الداعية محبوبًا في قومه وبيئته ومؤثرًا في المدعوين.

---

(١) أخرجه البخاري ٣٦٥٩، ومسلم ٢٣٨٦.

(٢) العشرة المبشرون بالجنة، محمد أحمد عيسى، ص ١٦.

(٣) رسائل الإصلاح، محمد خضر حسين ١/١٢٧.

(٤) صفات الداعية، د. حمد بن ناصر العمار، ص ٥٧.

(٥) سورة الحجر، آية: ٨٨.

(٦) أخرجه مسلم ٢٨٦٥.

والتواضع من ألصق الصفات الطيبة بالداعية، فالتواضع دليل على كبر النفس وعلو الهمة، وهو -في الوقت نفسه- سبيل لاكتساب المعالي والترقي في الكمالات.

فهو خلق يرفع من قدر صاحبه ويكسبه رضا أهل الفضل ومودتهم ويبعثه على الاستفادة من كل أحد وينأى به عن الكبر والاستنكاف عن قبول الحق والأخذ به.

ومن هنا يكمل السؤدد ويعلو القدر ويتناهى الفضل. ثم إن التواضع يغري باكتساب المعالي من جهة أن الناس يعجبون بالأكابر والعظماء إذا تواضعوا فيقودهم ذلك إلى محبتهم والاقتداء بهم والسير على منوالهم[(١)].

سادسًا- من موضوعات الدعوة: الحمد عند حصول نعمة للإنسان:

إن الحمد ثمن كل نعمة وهو من أخلاق المؤمنين يظهر ذلك في قول الراوي: "فرفع أبو بكر رضي الله عنه يده فحمد الله" فحمد الله على قدوم النبي صلى الله عليه وسلم، وعلى النعمة التي أحدثت له من الوجاهة في الدين.

قال ابن حجر: (فيه استحباب حمد الله لمن تجددت له نعمة ولو في الصلاة، وفيه الحمد والشكر على الوجاهة في الدين)[(٢)].

فحمد النعمة سبب في كثرتها كما وعد الله تعالى بقوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[(٣)]، قال ابن كثير: (أي: آذنكم وأعلمكم بوعده لكم لئن شكرتم نعمتي عليكم لأزيدنكم منها)[(٤)].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ نِعْمَةً فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، إِلاَّ كَانَ الَّذِي أَعْطَاهُ أَفْضَلَ مِمَّا أَخَذَ))[(٥)].

---

(١) علو الهمة، معوقاتها ومقوماتها، محمد بن إبراهيم الحمد، ص ١٨٦، ١٨٧.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٩٩/٢.

(٣) سورة إبراهيم، آية: ٧.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٤٧٩/٤.

(٥) أخرجه ابن ماجه ٣٨٠٥، وحسنه الألباني، (صحيح سنن ابن ماجه ٣٠٦٧).

والحمد من صفات المؤمنين لأن المؤمن دائمًا حامدًا لله وفي جميع الأحوال، قال رسول الله ﷺ: ((عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ. إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ. وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ. إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ. فَكَانَ خَيْرًا لَهُ. وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ))(١).

فيجب على الداعية حث المدعوين على حمد الله على نعمه، وعليه أيضًا أن يبين لهم فضل الحمد وعظم ثوابه، فكلمة الحمد يبلغ ثوابها من العظم أن يملأ به الميزان، كما جاء في الحديث عن أبي مالك الحارث الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((الطهور شطر الإيمان والحمد تملأ الميزان وسبحانه والحمد لله تملآن -أو تملأ- ما بين السماوات والأرض والصلاة نور والصدقة برهان والصبر ضياء والقرآن حجة لك أو عليك كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها))(٢).

إن الطاعة سهلة ميسورة على المؤمنين، ويحفزه عليهاما أعده له الله من عظيم الثواب، فما أعظم كرم الله تبارك وتعالى، إنه يعطي على الشيء القليل الثواب الكثير، ألا فلنكثر من ذكر الله تعالى وحمده ولتكن ألسنتنا رطبة بذكره ولنتضرع إلى الله بالدعاء.

إن الترغيب في ذكر الله تعالى وحمده وشكره على نعمائه ترغيب في الثواب العظيم يوم القيامة، لأن حاجة المرء في ذاك اليوم الرهيب إلى ما يثقل ميزانه حاجة شديدة لأن بذلك نجاته من النار الحامية، ولا شك في أن الكمال في الذكر أن يكون الذاكر محققًا معنى الذكر، فإذا قال بلسانه "الحمد لله" كان عليه أن يستقر في أعماق قلبه أن كل أنواع الحمد هي لله، لأن "أل" هذه تدل على الاستغراق.

ومن الحمد ألا يستعمل العبد نعمة آتاه الله إياها في معصية، وألا يقعد عن تسخير هذه النعم في مرضاة الله تعالى(٣).

---

(١) أخرجه مسلم ٢٩٩٩.

(٢) أخرجه مسلم ٢٢٣.

(٣) انظر: من هدي النبوة، تأملات في عدد من جوامع الكلم، د. محمد بن لطفي الصباغ، ص ٢١، ٢٢.

سابعًا- من واجبات الداعية: إنزال الناس منازلهم:

ويظهر هذا في إشارة النبي ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه بالاستمرار في الإمامة، قال ابن حجر: (وأن أمره إياه بالاستمرار في الإمامة من باب الإكرام له والتنويه بقدره)(١)، فرسول الله ﷺ أنزل أبا بكر رضي الله عنه منزلته اللائقة به في هذا الأمر بالاستمرار في الإمامة.

فإنزال الناس منازلهم من الأمور المهمة التي ينبغي على الداعية أن يراعيها وينتبه إليها ويحرص عليها وما ذاك إلا لتأليف قلوبهم، وجذب نفوسهم وشدهم إلى الإسلام، لا سيما إذا كان المدعو حديث عهد بالإسلام، أو كان ذا منزلة مرموقة في الناس، أو كان ذا نعمة معروفًا بها أو كان كفر يرجى هدايته، أو كان ذا فسق يؤمل تقواه أو كان ذا شيبة بلغ من الكبر عتيًا(٢).

ثامنًا- من واجبات الداعية: بيان الحقائق للمدعوين:

يظهر هذا في قوله ﷺ: "أيها الناس: ما لكم حين نابكم شيء في الصلاة أخذتم في التصفيق؟! إنما التصفيق للنساء، من نابه شيء في صلاته فليقل: سبحان الله..."، فبيّن لهم ﷺ الخطأ في تصفيقهم وبيّن لهم العمل الصحيح وهو التسبيح في حق الرجال، وبذلك بيّن لهم حقيقة الشيء وهذا مما يجب أن يقوم به الداعية من التأسي برسول الله ﷺ في بيان الحقائق للمدعوين حتى يأتوها صحيحة كما بينها لهم.

تاسعًا- من واجبات الداعية: الاستفسار عن امتناع المدعو عن بعض الأمور:

ويظهر هذا في قوله ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه: (ما منعك أن تصلي بالناس حين أشرت إليك؟) فقد استفسر رسول الله ﷺ من أبي بكر رضي الله عنه عن سبب امتناعه عن تنفيذ أمره، قال ابن حجر: (وفيه سؤال الرئيس عن سبب مخالفة أمره قبل الزجر عن ذلك)(٣).

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٩٩/٢.

(٢) انظر: صفات الداعية، د. حمد العمار، ص ١١٢.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٩٩/٢.

فيجب على الداعية إذا أمر بشيء فلم يمتثل المدعو لأمره أن يستفسر عن سبب الامتناع قبل الانكار والزجر حتى يكون على بينة من أمره.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

جوانب الخير في الإسلام متعددة وأبوابه مفتوحة، وإذا تعذر على البعض العلم بها فإن الرسول ﷺ قد جمع الكثير منها ليعلمنا بها ويربينا عليها، وفي حال الالتزام بها ينعم المجتمع ويسعد، وفي حال النأي عنها يشقى ولا ينهض، ومن الوسائل التربوية في هذا الباب:

أولاً- التربية على شكر النعم:

من أهداف التربية الإسلامية بيان أهمية شكر النعم، ومن الشواهد على ذلك في باب الإصلاح بين الناس حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "كُلُّ سُلامي مِنَ النَّاس عليه صدقةٌ ..."، فهذا شاهد تربوي أراد النبي ﷺ من خلاله التنشئة على معرفة نعم الله الظاهرة والباطنة، ليكون ذلك دافعاً على شكرها، لأنه ينبغي للعاقل ألا ينظر إلى جانب واحد أو جانبين، وينسى الجوانب الكثيرة للنعم، فلا يجب أن يحمله الجزع من مشكلة معينة إلى عدم الشكر، فالشكر واجب على المؤمن في جميع الأحوال قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[1]. وحتى يستشعر المؤمن قيمة وقدر نعم الله عليه فإن النبي ﷺ قال: ((انْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ولا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ، فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَنْ لا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللَّه))[2].

والتربية على شكر النعم من الإيمان، وقد أثنى الله على أهله ووعدهم بأحسن الجزاء، وجعله سبباً للمزيد من فضله وأخبر أن أهله هم المنتفعون بآياته واشتق لهم اسماً من أسمائه، فإنه سبحانه هو الشكور، وهو يوصل الشاكر إلى مشكوره بل يعيد الشاكر مشكوراً، وهو غاية الرب من عبده، وأهله هم القليل من عباده قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾. وحقيقته في العبودية، هو ظهور أثر نعمة الله على عباده،

---

(١) سورة إبراهيم، آية: ٣٤.

(٢) أخرجه مسلم ٢٩٦٣.

والشكر على نعم الله واجب على المؤمن، لأن الله تعالى هو الذي تفضل عليه بالنعم، والشكر يتحقق بالعبادة والطاعة، واستعمال النعم على الوجه الذي يُرضي الله تعالى، وشكر الله يتعلق بالقلب واللسان والجوارح: أما القلب فشكره بقصد الخير وإضماره لكافة الخلق، أما اللسان فإظهار الشكر لله تعالى بالتحميدات الدالة عليه، أما الجوارح فاستعمال نعم الله تعالى في طاعته والتوقي من الاستعانة بها على معصيته، حتى أن شكر العين أن تستر كل عيب تراه لمسلم، وشكر الأذنين أن تستر كل عيب تسمعه، والشكر باللسان يكون لإظهار الرضا عن الله تعالى، فنعم الله تعالى كثيرة لا تعد ولا تحصى. وواجبنا نحوها هو الشكر والاعتراف بها[1].

ثانياً- التربية بالتوجيه إلى القيم الإيجابية:

إن من أهم ما تميزت به التربية الإسلامية التوجيه إلى القيم الإيجابية التي ترمي إلى بناء الشخصية السوية، ومن الشواهد على ذلك في أحاديث الباب قوله ﷺ: «كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ: تَعْدِلُ بَيْنَ الاثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا، أَوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، .....». فهذه توجيهات تربوية نبوية ترشد إلى القيم الإيجابية التي ينبغي ترسيخها وحمل النفوس عليها في عملية التنشئة ومتطلباتها، ومن القيم الإيجابية الإصلاح بين الناس بالعدل، وإعانة المسلمين ومساعدتهم ومواساتهم، وهذه التوجيهات تبرز ما تميزت به التربية الإسلامية مما يجعلها زاداً تربوياً للقائمين على شؤون التربية، لأن التربية الإسلامية ينبغي أن يحرص عليها المسلم، وذلك من خلال إقامة العدل في الإصلاح بين الناس، وإعانة المسلمين ومساعدتهم، لما لهذه القيم من شأن عظيم في عملية التربية من خلال التوجيه الذي يؤثر في النفس تأثيراً إيجابياً ويؤثر في السلوك لأنه يرى النتائج أمامه ويعايشها في نفس اللحظة، وهذا ما يذهب إليه المهتمون بالتربية لأنهم يقولون: لا يكفي في التوجيه أن

---

(١) التدين والصحة النفسية، د. صالح الضيع، ص٣٠١، المستخلص في تزكية الأنفس، سعيد حوى، ص ٣٠٤، العقيدة الإسلامية، وأسسها، عبدالرحمن حبنكة الميداني، ص٢٥٨.

تأمر بفعل الشيء بل لابد من توجيه وإرشاد حسب الموقف، ولقد وجه الله تعالى نحو هذه القيم، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(١)(٢).

ثالثاً- من أهداف التربية الإسلامية: الحث على الإصلاح بين الناس:

تهدف التربية الإسلامية إلى الحث على الإصلاح بين الناس، ومن الشواهد على ذلك في أحاديث الباب، قوله ﷺ: «... ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس ...»، وقول عائشة رضي الله عنها قالت: «سَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَوْتَ خُصُومٍ بِالْبَابِ، عَالِيَةً أَصْوَاتُهُمَا، ... فَخَرَجَ عَلَيْهِمَا ...» وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ بلغه: «أنَّ بني عمرِو بنِ عَوفٍ كان بينهم شر، فخَرَجَ رسولُ اللَّهِ ﷺ يُصلِحُ بينهم في أُناسٍ مَعَهُ ...»، هذه شواهد تربوية ظهر منها الحث والإسراع في الإصلاح بين المسلمين، قطعاً للشر وحسماً للقطيعة.

إن على المربي أن يعمل على الاقتداء بالنبي ﷺ ويترسم خطاه في الإصلاح بين الناس وأن يستحث الناس على ذلك من خلال التوجيهات المباشرة وغير المباشرة، والممارسات العملية التي تعمق في النفوس أهمية تلك القيم الاجتماعية العظيمة التي تعمل على تقوية أواصر الصلات بين أفراد المجتمع الإسلامي، وتقرب وجهات النظر، وتصلح ما فسد من العلاقات بين الناس، ومن هنا جاء حرص ومسارعة النبي ﷺ من خلال توجيهاته وممارساته العملية.

إن الأمة في حاجة ماسة إلى جيوش من المصلحين الذين يسددون ويقاربون، ويصلون، ولا يقطعون، وفي هذا من التربية على الحرص على البناء الاجتماعي والاهتمام بتربية أفراده وتنشئتهم تنشئة سليمة، وما دام المربون لا يألون جهداً في الإصلاح، فما عليهم إلا أن يخلصوا في عملهم(٣)، هذا لتكون الثمرة طيبة، ولكي

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٠٤.

(٢) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. شحات الخطيب، ص٢٨٠.

(٣) سورة القلم، آية: ٤.

تؤتى العملية التربوية أكلها، ينبغي للمربين والمصلحين والقائمين على التوجيه أن يعملوا على نشر ثقافة الإصلاح المجتمعي باستنهاض الهمم في هذا المجال من خلال بيان آثاره الطيبة على الفرد والمجتمع، والتأكيد على دوره في النهضة والتنمية والتقدم، كل ذلك لا يتحقق إلا من خلال المجتمعات المتماسكة والدول المترابطة، فما أحوج المجتمعات الإسلامية والدول العربية والإسلامية إلى التماسك والترابط والاستعلاء على الخلافات والنزاعات التي تزكيها القوى المعادية من الدول الغربية من خلال تطبيق السياسة الاستعمارية "فرق تسد"، إن العرب والمسلمين بحاجة إلى الوحدة والتماسك لأننا نعيش عصر التكتلات والكيانات القوية ولا مكان في عصرنا للضعفاء، ومن هنا جاءت التوجيهات التربوية النبوية إلى أهمية الإصلاح بين الناس.

رابعًا- تنوع الأساليب التربوية:

يتضح في حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه عدة أساليب تربوية منها:

أ- الممارسة العملية: وهذا واضح من خروج رسول الله ﷺ إلى بني عمرو بن عوف ليصلح بينهم وقد خرج النبي ﷺ في أناس معه، والممارسة العملية من الأساليب التربوية التي تتميز بقوة بقاء أثر التعليم وتربط بين الجوانب النظرية والجوانب التطبيقية.

ب- توجيه الأسئلة: وهذا واضح من قول النبي ﷺ لما فرغ من الصلاة: أيها الناس ما لكم حين نابكم شيء في الصلاة أخذتم في التصفيق؟

وفي قوله ﷺ كذلك: "يا أبا بكر ما منعك أن تصلي بالناس حين أشرت إليك؟" وتوجيه الأسئلة يفيد في تقويم ما لدى المتعلمين من معلومات مرتبطة بالدرس وفي المناقشة والشرح بين المعلّم والمتعلمين ومعالجة بعض الأخطاء التي قد يقع فيها المتعلمون.

ج- الحوار والمناقشة: وهذا يتضح في الحديث كله: في الحوار بين بلال وأبي بكر رضي الله عنه، وفي الحوار بين النبي ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه.

ومما لا شك فيه أن الحوار له دور مهم في العملية التعليمية، فهو من الأساليب التي تقوِّي دور المتعلم في العملية التعليمية وتعتمد على مبدأ المشاركة بين المعلمين والمتعلمين وفي حجرة الدراسة أو خارجها.

٣٢- باب فضل ضعفة المسلمين والفقراء والخاملين

قَالَ اللَّه تَعَالَى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾[الكهف: ٢٨].

الحديث رقم (٢٥٢)

٢٥٢- عن حَارِثَة بْنِ وهْب رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ اللَّه ﷺ يقولُ: «**أَلا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الجنَّةِ؟ كُلُّ ضَعيفٍ مُتَضَعَّفٍ لَوْ أَقْسَم عَلَى اللَّه لأبرَّه، ألاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ**» متفقٌ عليه[(١)].

«**الْعُتُلُّ**»: الْغَلِيظُ الجافِي. و«**الجوَّاظُ**» بفتح الجيم وتشديدِ الواو وبالظاءِ المعجمة وَهُو الجمُوعُ المنُوعُ، وَقِيلَ: الضَّخْمُ المُخْتَالُ فِي مِشْيَتِهِ، وقيلَ: الْقَصيرُ الْبَطِينُ[(٢)].

ترجمة الراوي:

حارثة بن وهب الخزاعي: هو أخو عبيدالله بن عمر بن الخطاب لأمّه.

له صحبة برسول الله ﷺ.

يعدُّ من الكوفيين، وله رواية عن النبي ﷺ وعن حفصة بنت عمر "أم المؤمنين" رضي الله عنها وغيرها.

وله في الصحيحين أربعة أحاديث[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩١٨) واللفظ له، ومسلم (٢٨٥٣/٤٦). أورده المنذري في ترغيبه (٤٦٧٢).

(٢) بنصه في الترغيب (٤٧/٤).

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي (٢٤١)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ١٤٢، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٦٥٧/١)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين (٣٥/٢)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٣٤٢/١)، والطبقات الكبرى، ابن سعد (٢٦/٦).

غريب الألفاظ:

مُتضعَّف: أي يستضعفه الناس ويحتقرونه ويتجبرون عليه لضعف حاله في الدنيا[١].

لأبرّه: لو حلف يمينًا طمعًا في كرم الله تعالى بإبراره لأبره وأجابه[٢].

العُتُل: الغليظ الجافي[٣].

الجوَّاظ: هو الجموع المنوع، وقيل: الضخم المختال في مشيته وقيل: القصير البطين[٤].

الشرح الأدبي

إن القوة في الإسلام لها معايير ومقاييس، تتسامى وتعلو فوق المقياس المادي الذي يألفه الماديون، وهم في غياب عن القوى النفسية والروحية التي تكسبها الطاقة الإيمانية وهجًا من الإرادة، ودوافع من العزم والثقة، فدنيا المؤمن، حتى ولو بدا ضعيف البنية، رث الحال، هي الدنيا كلها بشمسها وقمرها كما يقول الرافعي، وإن لم يملك منها شيئًا، ما دامت في قلبه طبيعة السرور، فلا فقر ولا غنى مما يشعر الناس بمعانيه، بل كل ما أمكن فهو في غنى كامل، إذ لم تعد القوة في المادة تزيد بزيادتها، وتنقص بنقصها، بل القوة في الروح التي تتصرف بطبيعة الوجود، وتدفع قوى الجسم بمثل دوافع الطفولة النامية المتغلبة، حتى لتجعل من النور والهواء ما يؤتدم به مع الخبز الفقار، وبذلك لا تتسلط ضرورة على الجسم، كالجوع والفقر والألم ونحوها، إلا كان تسلطها كأنه أمر من قوة في الوجود إلى قوة في هذا الجسم، وهذا الجنس من الناس كالأزهار على أغصانها الخضر.

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري ٢/١٩٩٠.

(٢) المرجع السابق ٢/١٩٩٠.

(٣) رياض الصالحين ١٤٩.

(٤) المرجع السابق ١٤٩.

ولقد كان المسلم يضرب بالسيف في سبيل الله، فتقع ضربات السيوف على جسمه فتمزقه، فما يحسها إلا كأنها من قبل أصدقاء من الملائكة يلقونه ويعانقونه، ولم تكن أثقال المسلم من دنياه أثقالاً على نفسه، بل كانت له أسباب قوة وسمو(١).

وفي ضوء هذا التصور لمعيار القوة والضعف في الإسلام نقرأ هذا الحديث الشريف، ونتأمل جمالياته وأسراره التعبيرية وظواهره الأسلوبية، فالحديث يقدم نموذجين: أحدهما من أهل الجنة، والآخر من أهل النار، فهو في مجمله وبنائه، يقوم على المقابلة بين صنفين من الناس، وهما متناقضان في كل سماتهما وملامح شخصياتهما، وقدم رسول الله ﷺ النموذج "الخيِّر" لأفضليته، وهو من أهل الجنة، وأما النموذج الآخر فهو نموذج مرفوض في الدنيا والآخرة، وذلك النموذج قد يخدع الناس بمظهره، وقد يخافون بأسه، ويخشون سطوته، ولكنه في النهاية يلقى مصيره المحتوم.

والحديث يبدأ بقوله ﷺ: "ألا" وهي: حرف استفتاح لتنبيه السامع للكلام الآتي بعده.. وذلك لأهميته، وحتى ينتبه السامعون لهذه الأهمية، التي قد يغفل عنها كثير من الناس، كما قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ﴾(٢).

وهذا الاستفتاح كرر مرتين مقرونًا بالاستفهام: حيث جاءت الأداة نفسها في مقدمة القسم الثاني من الحديث.

والفعل: "أخبركم" كرر مرتين، والخطاب للصحابة الذين شَرُفوا بسماع صوت رسول ﷺ، ولكل من يقرأ الحديث أو يسمعه من المسلمين إلى يوم القيامة، ولكل من تبلغه الدعوة، عليه أن يفقه هذا الأمر الدقيق البليغ العميق، والإخبار هنا يحمل سمة الصدق واليقين والتثبت: لأن من ساق الخبر هو الصادق الأمين، الذي لا ينطق عن الهوى، والذي يبلغ عن ربه عز وجل.

---

(١) انظر: وحي القلم "للرافعي"، مقال: حقيقة المسلم، ٢/١٠-١١.

(٢) سورة الكهف، آية: ٢٨.

ويتسم البيان النبوي بالإيجاز، حيث حذف جواب السامعين للعلم بوقوعه، والتقدير: قالوا: بلى، وتأتي إجابة رسول الله ﷺ موشاة ببلاغة الحذف والتقدير: قال: هم، لأن هذه التفصيلات لا تفيد السامع شيئًا: وإنما الثمرة هي معرفة سمات أهل الجنة أو بعض أهل الجنة الذين وعدوا بها، وهم "كل ضعيف متضعف"، والضعيف هنا: هو الذي لا يملك القوة المادية، ولكنه يتسلح بقوة الإيمان والعزيمة والثقة وقوله: "متضعف" بفتح العين المشددة: أي الذي يستضعفه الناس ويقهرونه، لأنه يفتقد المال والجاه والحسب، وهم لا يدرون قدره عند ربه، ولو قلنا: "متضعِّف"، بكسر العين، لأصبح المعنى أعمق وأدق حيث يفيد أنه يخضع لله سبحانه، ويذل له نفسه، ولا يذل نفسه للناس، فهو عزيز بربه، قوي بعقيدته، فهو لو يقسم على الله لأبره، فالله يستجيب لدعائه.

والتعبير بـ"يقسم" في صيغة المضارع يفيد استمرار عناية الله بهذا الصنف من الناس، وإكرامه لهم، وأما أهل النار فهم "كل عتل" وهو الغليظ من الناس الجافي وقيل الكافر، أو السمين والأكول الشروب الذي يفتقد سماحة الإسلام، "والجواظ" هو الجموع المنوع البخيل، والكلمة توحي بكل الصفات الكريهة المنفرة.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التشويق.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل التواضع والتذلل لله.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل حسن الصلة بالله تعالى.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: النهي عن الغلظة والخيلاء.

أولاً- من أساليب الدعوة: التشويق:

تضمّن الحديث أسلوبًا من أساليب الدعوة وهو التشويق، يظهر هذا في قوله ﷺ "ألا أخبركم بأهل الجنة؟" فشوق أصحابه إلى معرفة أهل الجنة.

وأسلوب التشويق من الأساليب الدعوية التي تشوق المدعوين لكلام الداعية، فالتشويق نوع من التحفيز، وله علاقة بالترغيب، لكنه يأتي بعده، فعند حصول الرغبة

في الشيء والقناعة به والتطلع إلى نيله، يمكن أن يحصل الشوق إلى رؤياه والإسراع في كسبه وتحصيله، وقد كان الرسول ﷺ يقص على أصحابه من أخبار الجنة واليوم الآخر ما يشوقهم به لحصول المرغوب فيه، فيثير في نفوسهم حب التطلع إلى أخبار الجنة وأحوال أهلها، مما له أكبر الأثر في زيادة رغبتهم فيها والسعي نحو تحصيلها. وينتج عن ذلك استقامة في السلوك ونماء في العادات الجيدة والأخلاق الفاضلة[١].

كما أن التشويق يدل على براعة الداعية في جذب انتباه المدعوين. فمثلاً حينما وقف النبي ﷺ على الصفا ونادى في الناس "يا صباحاه"... فاجتمعوا -ثم لم يفاجئهم بل مهد لهم وتدرج معهم في أسلوب تشويقي جميل- وقال: ((أرأيتُم إن أخبرتُكم أنَّ خيلاً تخرُجُ من سَفح هذا الجبَل أكنتم مُصدِّقِيَّ؟ قالوا: ما جرَّبنا عليك كذبًا. قال: فإنِّي نَذيرٌ لكم بين يَدَيْ عذاب شديد))[٢].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل التواضع والتذلل لله:

يظهر ذلك في قوله ﷺ "ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضعف" قال القاضي عياض: (وقوله في أهل الجنة: "كل ضعيف متضعف"، هو: صفة نفي الكبرياء والجبروت التي هي صفة أهل النار، ومدح التواضع والخمول والتذلل لله -عز وجل- وحض عليه، فالحديث ذكر بعض علامات أهل الجنة ومنها أن يكون ضعيفًا متضعفًا أي لا يهتم بمنصبه أو جاهه، أو يسعى إلى علو المنازل في الدنيا، ولكنه ضعيف في نفسه متضعف، فهو يرى أن المهم أن له جاه ومنزلة عالية عند الله، لا يهمه أن يكون شريفًا في قومه أو عظيمًا فيهم[٣].

وقد وصف المولى عباده المتذللين المتواضعين بأنهم عباد الرحمن، فقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾[٤].

---

(١) انظر: أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد محمود العاني ص ٢٢٣-٢٢٥.

(٢) أخرجه البخاري ٤٩٧١، ومسلم ٢٠٨.

(٣) انظر: شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين، ٦١٩/١.

(٤) سورة الفرقان، آية: ٦٣.

قال الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ (إن المؤمنين قوم ذُلُل، ذلت منهم -والله- الأسماع والأبصار والجوارح حتى تحسبهم مرضى وما بالقوم مرض، وإنهم لأصحاء، ولكنهم دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم، ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة)[1].

والتواضع التذلل لله يكون سببًا لرفعة العبد جزاء من الله على تواضعه وتذلله، قال رسول الله ﷺ ((... وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلّهِ إلاَّ رَفَعَهُ اللّهُ))[2]. فينبغي للداعية دعوة الناس إلى التواضع والتذلل لله عز وجل.

إن التواضع خلق الأنبياء والمرسلين، ونعت المتقين والمهتدين، والتكبر خلق الجبابرة الظالمين.

إن التواضع يزيد الشريف شرفًا، ويرفع الوضيع حتى يصل إلى مقامات الأولياء والأصفياء. إنه من تواضع لله تعالى ولعباده كانت جميع اجتماعاته بالناس على اختلاف درجاتهم مغنمًا يكسب بها الخيرات والمثوبة من الله، فإنه يلاقي الناس ويخاطبهم ويجتمع بهم ويعاشرهم بهذه النية الصالحة الفاضلة، وبالكلام اللين الطيب للغني والفقير والشريف والوضيع، لا يرى لنفسه عليهم فضلاً، ويوطن نفسه على ما استطاع من نفع من اجتمع به، فهذه النية وهذا العمل وهذه المعاشرة من هذا المتواضع جميعه قربة يتقرب بها إلى الله ثم يترتب على ذلك محبة الناس وكثرة ثنائهم وأدعيتهم له، وهذا أفضل ما اكتسبه المكتسبون ونافس فيه المنافسون، وكل من سمع بأخلاقه ولو لم يجالسه أحبه ودعا له، فمن أعظم الغبن والخسران، الاستهوان بهذه الأمور الجليلة، والخصال الجميلة، التي لا تدرك وتنال إلا بخلق التواضع والإخلاص[3].

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١٢٢/٦.

(٢) أخرجه مسلم ٢٥٨٨.

(٣) انظر: الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة، السعدي ص ١٠٥-١١٢.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: حسن الصلة بالله تعالى:

إن من موضوعات الدعوة التي تظهر من هذا الحديث حسن الصلة بالله تعالى. يتضح ذلك من قوله ﷺ "لو أقسم على الله لأبره".

فحسن الصلة بالله تجعل صاحبها واثقًا بالله مهما ضاقت عليه الدنيا، قال ابن قيم الجوزية: (لا يزال العبد منقطعًا إلى الله، حتى تتصل إرادته ومحبته بوجهه الأعلى، والمراد بهذا الاتصال أن تُفضي المحبة إليه وتتعلق به وحده، فلا يحجبها شيء دونه، وأن تتصل المعرفة بأسمائه وصفاته وأفعاله، فلا يطمس نورها ظلمة التعطيل، كما يطمس نور المحبة ظلمة الشرك؛ وأن يتصل ذكره به سبحانه، فيزول بين الذاكر والمذكور حجاب الغفلة والتفاته في حال الذكر إلى غير مذكوره، فحينئذٍ يتصل الذكر به، ويتصل العمل بأوامره ونواهيه، فيفعل الطاعة لأنه أمر بها وأحبها، ويترك المناهي لكونه نهي عنها وأبغضها)[1]. فينبغي أن يحرص المسلمون على حسن الصلة بالله تعالى، وعلى الدعاة الاهتمام بتذكير المدعوين بأهمية حسن الصلة بالله عز وجل.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: النهي عن الغلظة والخيلاء:

يظهر هذا في قوله ﷺ "ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل جواظ مستكبر"، قال أبو العباس القرطبي: (وعلى الجملة فمقصود هذا الحديث أن أهل الجنة على النقيض من أحوال أهل النار، ألا ترى أنه قابل صفات أهل الجنة وذكر نقائضها في أهل النار، فقال: "وأهل النار كل عتل جواظ مستكبر" والعتل هو الجافي الشديد الخصومة، وقيل هو الأكول الشروب الظلوم، والجواظ هو الجموع المنوع وقال غيره المختال)[2]. فبيّن أن أهل النار هم المستكبرون من أهل الغلظة والخيلاء، فيكون في ذلك نهي عنهم لما فيهما من إثم ومعصية.

---

(١) الفوائد، ابن القيم، تحقيق: محمد عثمان الخشت ص ٢٨٧.

(٢) انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ١٦٩/٧، ١٧٠.

قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾[(١)]؛ لأن الكبر من أشنع ما يوصف به الإنسان حيث يترك على شخصيته آثارًا سيئة، لأنه خلق ذميم وآفة قاتلة تظهر آثاره جلية، لأن النفس البشرية يدمرها هذا السلوك؛ لذا فعلى المدعو أن يحذر الكبر حتى لا يبعده عن الصواب[(٢)].

لأن الكبر والتعالي من الخصال المذمومة في الشرع، والعقل، والفطرة. والمتكبر ممقوت عند الله وعند خلقه.

قال ﷺ: ((لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ» قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنا، وَنَعْلُهُ حَسَنَةً. قَالَ: «إِنَّ الله جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ. الْكِبْرُ: بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ))[(٣)].

وغمطُ الناس: احتقارهم، وأما بطر الحق، فهو: دفعه وإنكاره ترفعًا وتجبرًا[(٤)].

هذه هي حقيقة الكبر بطر الحق: يعني دفعه ورده، وغمط الناس: يعني احتقارهم[(٥)].

وكذلك يجب البعد عن الغلظة لقوله ﷺ ((من لا يَرحمُ لا يُرحَم))[(٦)]؛ فينبغي للداعية أن بين للناس مساوئ الغلظة والخيلاء وآثارها السيئة على الفرد والمجتمع وبغض الإسلام لهذا الخلق الذميم.

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٤٦.

(٢) قواعد الدعوة الإسلامية، د. الشريف حمدان الهجاري ص ٤٢٧.

(٣) أخرجه مسلم ٩١.

(٤) انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥١.

(٥) الهمة العالية، محمد إبراهيم الحمد ص ٦٠.

(٦) أخرجه أبو داود ٥٢١٨، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤٣٤٨).

الحديث رقم (٢٥٣)

٢٥٣- وعن أبي العباسِ سهلِ بنِ سعدٍ الساعديِّ رضي الله عنه قال: مرَّ رجُلٌ على النبيِّ ﷺ فقالَ لرجلٍ عِنْدهُ جالسٍ: «**ما رَأيُكَ فِي هَذَا؟**» فقال: رَجُلٌ مِنْ أشْرافِ النَّاسِ هذا وَاللهِ حَرِيٌّ إنْ خَطَبَ أنْ يُنْكَحَ وإنْ شَفَعَ أنْ يُشَفَّعَ. فَسَكَتَ رسول الله ﷺ، ثُمَّ مَرَّ رَجُلٌ آخرُ، فقال له رسولُ اللّه ﷺ: «**مَا رأيُكَ فِي هَذَا؟**» فقال: يا رسولَ اللّه هذا رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ، هذَا حريٌّ إنْ خطَبَ أنْ لا يُنْكَحَ، وإنْ شَفَعَ أنْ لا يُشَفَّعَ، وإنْ قَالَ أنْ لا يُسْمع لِقَوْلِهِ. فقال رسول اللّه ﷺ: «**هَذَا خَيْرٌ منْ مِلءِ الأَرْضِ مِثْلَ هذَا**» متفقٌ عليه[١].

قوله: «حَرِيٌّ» هو بفتحِ الحاءِ وكسر الراءِ وتشديد الياءِ: أَيْ حقيقٌ. وقوله: «شَفَعَ» بفتح الفاءِ.

ترجمة الراوي:

سهل بن سعد الساعدي: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٧٥).

غريب الألفاظ:

حريٌّ: حقيق[٢].

شفع: بفتح الفاء والشفاعة: التوسط لالتماس العفو أو التخفيف من العقوبة عن الغير من غير دليل[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٤٧) ولم يخرجه مسلم.

تنبيه: نبهنا عدّة مرات أن المؤلف رحمه الله تابع الحميدي في جمعه حتى في السياق في عدد كثير من الأحاديث، وهذا الحديث أورده الحميدي في جمعه (٥٥٢/١، رقم ٩١٥) في المتفق عليه وقال في آخره: ذكره أبو مسعود في المتفق عليه، وتبع الحميدي أيضًا في هذا الحديث ابن الجوزي في جامع المسانيد (٢٢١/٣، رقم ٢٤٣١)، وابن الأثير في جامع الأصول (٢٣٠/٩) فعزياه للبخاري ومسلم. ولم يعزه المزي في تحفة الأشراف (١١٤/٤، رقم ٤٧٢٠) إلا إلى البخاري. وقال الحافظ ابن حجر في النكت الظراف: قال الحميدي: ذكره أبو مسعود في المتفق، ولم أجده في: (م) أي في صحيح مسلم انتهى. وذكره ابن الجوزي في المتفق (٢٢١/٣، رقم ٢٤٣١)، وأهمل التنبيه الذي ذكره الحميدي، وذكره في إفراد (خ) أي البخاري خلف، والطرقي وغيرهما وهو الصواب.

(٢) رياض الصالحين ١٥٠.

(٣) معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ص ٢٣٥.

الشرح الأدبي

إن المنهج الإسلامي في تقويم الشخصية لا يُعْنى بالرسوم والحجوم، ولكن يُعنى بالقلوب والفهوم، وأبعاد الشخصية في الإسلام تتكامل وتتلاقى في دائرة واحدة: هي دائرة الإيمان، وهي في جوهرها لا تنفصل عن القاعدة الإسلامية التي تنطلق من منابع السنة النبوية الشريفة حيث يقول المصطفى ﷺ: ((إن الله لا ينظر إلى صوركم وأجسادكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم))[1]، والمسلم مطالب بالحفاظ على مظهره، وباتخاذ الزينة عند كل مسجد، وبنظافة البدن والثوب والمكان، وبالوضاءة والطهور عند كل صلاة، فهو في مظهره ذو وضاءة إيمانية، وهو في مخبره كالمرآة المجلوة صفاءً ونقاءً، لا تلهيه القشور عن اللباب، ولا تخدعه الأعراض فتنسيه الجوهر، وفي ظل هذا المنهج يجب أن يتشكل تصوره في الحياة، وأن تتشكل رؤيته للناس.

وحين نتأمل ونفقه الدرس النبوي الذي يقدمه هذا الحديث الشريف: من خلال استكشاف أسراره اللغوية وظواهره الأسلوبية والأدبية ندرك أن المصطفى ﷺ أراد أن يبرهن على صدق المنهج الإسلامي وصوابه من خلال هذا الحوار التدريبي التعليمي الواقعي، عبر هذا التشويق، وذلك الإقناع العملي الذي يهدف إلى ضرورة عمق النظر إلى الأشياء، وأن لا يخدع المسلم بسراب الأشكال البراقة، وأن لا يفتن ببريق المناظر والمظاهر المبهرة، والحديث في بنائه الأسلوبي يتكون من مشهدين متقابلين متضادين، والمشهد الأول يتشابه مع الثاني في الإطار العام، ولكنه في تفاصيله يناقضه تمامًا، فالنبي ﷺ يجلس مع أحد الصحابة، وقيل هو أبو ذر الغفاري، وبينما هما جالسان: يمر عليهما رجل من أشراف الناس: أي أغنيائهم وأعيانهم، وقيل هو عيينة بن حصن الفزاري، أو الأقرع بن حابس: وهما لهما مكانتهما الاجتماعية والسياسية، فيقول النبي ﷺ لصاحبه: "ما رأيك في هذا؟" أي ما تقويمك لشخصيته ومكانته، وتجيء الإجابة من منظور دنيوي اجتماعي يحكمه العرف، وتؤكده التقاليد، فقال: "هذا

---

(١) أخرجه مسلم ٢٥٦٤.

والله حري إن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يشفع".

والأسلوب هنا مصحوب بظواهر فنية تعمق الدلالة، وتنبئ عن اقتناع الرجل بما يقول، حيث بدأ بقوله: رجل من أشراف الناس، وتنكير كلمة "رجل" توحي بالعموم، والشيوع والتعظيم، ولم يكتف بذلك بل قال: "من أشراف الناس"، ثم واصل شهادته وجاء باسم الإشارة وبعدها القسم بالله عز وجل، ثم قوله "حري"، أي حقيق بما سيأتي من خصائص وسمات، وهو جدير وحقيق باحترام الناس، وتقديرهم بناءً على مظهره الشكلي، ووضعه الاجتماعي، ومكانته في قومه، وأتى بموقفين يمثلان البعد الاجتماعي في تقويم الشخصية، فهو لابد أن يستجيب له الناس ويزوجوه، إذا خطب أي فتاة منهم، ولابد أن يقبل الناس شفاعته إذا تقدم وشفع لأحد في أمر ما، ومجيء هاتين الخاصيتين في أسلوب الشرط ينبئ عن حتمية تحققهما، وسكوت رسول الله ﷺ يفيد دلالة عدم رضاه عن هذه الرؤية المقيدة بالضوابط والمعايير الاجتماعية المادية.

والمشهد الثاني يقابل الأول ويناقضه في الرؤية، ولكنه يماثله ويناظره في البناء اللغوي، حيث يمر رجل فقير ليس له جاه ولا منصب: ويكرر الرسول ﷺ سؤاله ما رأيك في هذا؟ فتأتي الإجابة على النقيض من الإجابة السابقة، حيث يقول: هذا رجل من فقراء المسلمين، وقيل هو جعيل بن سراقة الغفاري، وفي ضوء التأثر الشكلي، والتمسك بالمنظور الاجتماعي الضيق يقول: "هذا حري إن خطب أن لا ينكح، وإن شفع أن لا يشفع ..." إلخ، ولكن رسول الله ﷺ يصحح هذا الرأى المحكوم بالعرف والتقاليد، ويرسي دعائم المنهج الإسلامي، ويقول: "هذا خير من ملء الأرض من هذا".

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على مجالسة النبي ﷺ.

ثانيًا: من مهام الداعية: التعرف على رؤية المدعوين لبعض الأمور.

ثالثًا: من واجبات الداعية: تصحيح وتصويب رؤية المدعوين لبعض الأمور.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: بيان المعيار الصحيح للمفاضلة بين الناس.

أولاً- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على مجالسة النبي ﷺ:

ويظهر هذا فيما ورد في الحديث: "فقال النبي لرجل عنده جالس"، فحرص الصحابة رضي الله عنهم على مجالسة النبي ﷺ هو حرص على تعلّم أمور دينهم، ونيل الفضل من الله تعالى، لأن مجالسة النبي ﷺ فيها من الفضل والأجر ما لا يعلمه إلا الله. ولقد عرف الصحابة رضي الله عنهم قدره ﷺ فعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه، قال عمرو بن العاص رضي الله عنه ((وَمَا كَانَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ رَسُولِ اللّهِ وَلاَ أَجَلَّ فِي عَيْنِي مِنْهُ. وَمَا كُنْتُ أُطِيقُ أَنْ أَملأَ عَيْنَيَّ مِنْهُ إِجْلالاً لَهُ. وَلَوْ سُئِلْتُ أَنْ أَصِفَهُ مَا أَطَقْتُ، لأَنِّي لَمْ أَكُنْ أَمْلأُ عَيْنَيَّ مِنْهُ))[١] فصحابة رسول الله ﷺ كانوا محبين لرسول الله ﷺ راغبين في مجالسته.

ففي الحديث ما كانت الصحابة رضي الله عنهم عليه من توقير رسول الله ﷺ وإجلاله[٢].

ثانيًا- من مهام الداعية: التعرف على رؤية المدعوين لبعض الأمور:

يظهر هذا في سؤاله ﷺ لمن جلس معه "ما رأيك في هذا؟" فمن مهام الداعية التعرف على نظرة ورؤية المدعوين لبعض الأمور، حتى يعلم آراء المدعوين ونظرتهم في الناس، وما المقاييس التي يعولون عليها في تقديرهم للناس، حتى يقر ما هو صحيح من آراء ويصحح الخطأ (حتى لا يسترسل المسلم في خطأ وقع فيه أو هوى انساق إليه، لابد له في حياته من وقفات مع نفسه ومع إخوانه، لمراجعة حساباته من جديد، والسير -بعدئذ- على بصيرة)[٣]. لقد أراد النبي ﷺ أن يتعرف على نظرة الصحابة للناس والمعايير التي يحتكمون إليها في ذلك، فقام باستطلاع رأيهم في صنفين من أصناف الناس.

ثالثًا- من واجبات الداعي: تصحيح وتصويب رؤية المدعوين لبعض الأمور:

من الواجبات المنوطة بالداعية بيان الصواب في الأمور، وتصحيح التصورات الذهنية

---

(١) أخرجه مسلم ١٢١.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٧١.

(٣) هذه أخلاقنا، محمود محمد الخزندار ص ٤٠١.

الخاطئة خاصة فيما يتعلق بأقدار الرجال، والمكانة التي يضعهم الناس فيها، ولذا فإن المقاييس المادية البحتة من مال ووجاهة وحسب ونسب، تعد في نظر السواد الأعظم من الناس هي المؤهلة لرفع قدر الإنسان، وهي التي تجعله يحظى بالاحترام والتقدير، وأن افتقاد هذه الأمور المادية يجعل الإنسان غير جدير بالاحترام.

لقد كانت نظرة بعض المدعوين تنطلق من هذا المنطلق، وهذا ما تبلور في كلام من سأله النبي ﷺ عن رأيه في الرجلين اللذين مرا عليهما أثناء جلوسهما، ثم وجد النبي ﷺ الفرصة مواتية لتصحيح وتصويب تلك الرؤية التي تعوزها الموضوعية في النظر للأمور، فقام بالتصحيح فقال: "هذا خير من ملء الأرض مثل هذا" إن النبي ﷺ أراد أن يضع الأمور في نصابها الحقيقي، وأن يعلّمنا أقدار الرجال، وأن يبطل المقاييس المادية الفاسدة، والأعراف الاجتماعية البائدة التي تعوِّل على المادة ومظاهرها، وهذا ما جعل الملأ يرفض دعوة الأنبياء ولا يتقبلها، وعجبوا أن يُختار رسلُ الله من بينهم، مع أن في القوم من هو أغنى ولديه رصيد وميراث اجتماعي - في زعمهم-يؤهله للنبوة أفضل من هذا الذي اختاره الله، وهذا ينم عن الجهل المركب في النظر لأقدار الرجال، فالإسلام يعول على الإيمان وتقوى الله وحسن الصلة به، ولا يُعوّل على الأعراف الفاسدة والأسباب المادية.

إن تصحيحه ﷺ لمن أجابه عن رأيه في المارين لتلك الرؤية التي كانت على أساس خاطئ، هو نهجه ﷺ في تصحيح وتصويب رؤية أصحابه للأمور، يؤيد ذلك قوله ﷺ لأصحابه: ((أَتَدْرُونَ مَن الْمُفْلِسُ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ. فَقَالَ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي، يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هٰذَا، وَقَذَفَ هٰذَا، وَأَكَلَ مَالَ هٰذَا، وَسَفَكَ دَمَ هٰذَا، وَضَرَبَ هٰذَا. فَيُعْطَىٰ هٰذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهٰذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ. فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ، قَبْلَ أَنْ يُقْضَىٰ مَا عَلَيْهِ. أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ. ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ))[١].

---

(١) أخرجه مسلم ٢٥٨١.

قال النووي: (إن هذا حقيقة المفلس، وأما من ليس له مال ومن قل ماله فالناس يسمونه: مفلسًا وليس هو حقيقة للمفلس؛ لأن هذا أمر يزول وينقطع بموته، وربما ينقطع بيسار يحصل له بعد ذلك في حياته، وإنما حقيقة المفلس هذا المذكور في الحديث، فهو الهالك الهلاك التام، والمعدوم الإعدام المقطع، فتؤخذ حسناته لغرمائه، فإذا فرغت حسناته أخذ من سيئاتهم فوضع عليه ثم ألقى في النار، فتمت خسارته وهلاكه وإفلاسه)(١).

فصحح رسول الله ﷺ نظرة أصحابه للأمور من حيث الظاهر أو المتعارف وبيّن حقيقة المفلس؛ فينبغي على الداعية التأسي برسول الله ﷺ في تصحيح وتصويب رؤية المدعوين للأمور الخاطئة.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: بيان المعيار الصحيح للمفاضلة بين الناس:

يظهر هذا من بيان رسول الله ﷺ أن الغنى والفقر ليس هما الأساس في تقدير الناس أو عدم تقديرهم. وهذا يستنبط من بيانه ﷺ بأن هذا الفقير خير عند الله من ملء الأرض مثل الغني الذي له شرف وجاه في قومه؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا ينظر إلى الشرف والجاه، والنسب والمال والصورة واللباس، والمركوب، والمسكون، وإنما ينظر إلى القلب والعمل، فإذا صلح القلب فيما بينه وبين الله عز وجل، وأناب إلى الله، وصار ذاكرًا لله تعالى خائفًا منه، مخبتًا إليه عاملاً بما يرضي الله عز وجل، فهذا هو الكريم عند الله، وهذا هو الوجيه عنده(٢).

فمعيار التفاضل بين الناس في الإسلام ليس الغنى أو السلطة أو المكانة في القوم ولكن هو التقوى كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَـٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَـٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾(٣)؛ فجميع الناس في الشرف بالنسبة

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٤٤.

(٢) شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين ٦٢٢/١.

(٣) سورة الحجرات، آية: ١٣.

الطينية إلى آدم وحواء سواء، وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية، وهي طاعة الله ومتابعة رسول الله ﷺ[(١)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال سئل رسول الله ﷺ: أي الناس أكرم؟ قال: ((أكرمهم عند اللهِ أتقاهم))[(٢)]؛ فينبغي على الداعية دعوة الناس إلى تقوى الله عز وجل، وبيان أن التقوى هي أساس التفاضل بين الناس والتقرب إلى الله عز وجل.

إن أخطر ما يصاب به أي مجتمع وينذر بتراجعه وسقوطه، إنما هو اختلال القيم أو معايير التفاضل عند الناس، ذلك أن الجهل قد يسود في الناس إلى حد اختلال القيم أو معايير التفاضل عندهم، فتراهم يفضلون صاحب الدنيا، ويقدمونه حتى لو كان عاصيًا أو بعيدًا عن منهج الله، في الوقت الذي يحتقرون فيه البائس المسكين الذي أدارت الدنيا ظهرها له، حتى وإن كان طائعًا ملتزمًا بهدي الله، ومن يحيا في هذا الجو، يتأثر به لا محالة -إلا من رحم الله- ويتجلى هذا التأثر في احتقار الآخرين والترفع عليهم.

وقد ألمح القرآن والسنة إلى هذا السبب أو إلى هذا الباعث من خلال رفض هذا المعيار ووضع المعيار الصحيح مكانه، إذ يقول الله سبحانه: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾[(٣)]، ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾[(٤)]. [(٥)]

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣٨٥/٧.

(٢) أخرجه البخاري ٤٦٨٩.

(٣) سورة المؤمنون، الآيتان: ٥٥، ٥٦.

(٤) سورة سبأ، الآيات: ٣٥-٣٧.

(٥) انظر: آفات على الطريق، د. السيد محمد نوح ص ١٦٨-١٧٠.

وإذ يقول النبي ﷺ لأصحابه في الحديث الذي نحن بصدده لأحد أصحابه وقد مر عليه رجل "ما رأيك في هذا؟ فقال رجل من أشراف الناس، هذا والله حري إن خطب أن ينكح وإن شفع أن يشفع فسكت رسول الله ﷺ ثم مر رجل آخر فقال له رسول الله ﷺ ما رأيك في هذا؟ فقال يا رسول الله هذا رجل من فقراء المسلمين، هذاحري إن خطب أن لا ينكح وإن شفع أن لا يشفع وإن قال أن لا يسمع لقوله، فقال رسول الله ﷺ هذا خير من ملء الأرض مثل هذا".

الحديث رقم (٢٥٤)

٢٥٤- وعن أَبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «احْتَجَّتِ الجنَّةُ والنَّارُ، فقالت النَّارُ: فيَّ الجبَّارُونَ والمُتَكبِّرُونَ، وقَالتِ الجنَّةُ: فيَّ ضُعفَاءُ النَّاسِ ومسَاكِينُهُم، فَقَضَى اللّهُ بَيْنَهُما: إنَّكِ الجنَّةُ رحْمتِي، أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ، وَإِنَّكِ النَّارُ عَذابِي، أُعذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ، ولِكِلَيكُمَا عَلَيَّ مِلؤُها» رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو سعيد الخدري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٠).

الشرح الأدبي

إن الحوار والاحتجاج هو الأسلوب الذي يؤطر هذا الحديث، ويُقدِّم في قالبه، وهو قالب يناسب مجالات الإقناع، والرد على الشبه التي تثار بين المتجادلين، وفن الاحتجاج من أساليب العربية هو أقرب إلى فن المناظرات، وهذا الحديث مناظرة موجزة بين الجنة والنار، والمناظرة ليست لبيان أفضلية أحد الطرفين، لأن الجنة في الإسلام هي مأوى المتقين، كما قال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾[2]. وهي نعم القرار، والنار أعدت للكافرين، وهي بئس المصير. فالجنة دار السلام، وليس هناك أدنى مشابهة بينها وبين النار.

---

(١) برقم (٢٨٤٧) ولم يسق لفظه تمامًا حيث قال: (احتجت الجنة والنار) فذكر نحو حديث أبي هريرة إلى قوله: ولكليكما عليَّ ملؤها) ولم يذكر ما بعده من الزيادة.

تنبيه: إن مما ينبغي التنبيه عليه: اعتماد النووي على الجمع بين الصحيحين للحميدي إذ إنه أورد الحديث بتمامه في جمعه (٢/٤٦٤، رقم ١٨٠٢) وهذا لفظه، ونقله عنه المؤلف مباشرة، ولو تنبَّه له لَمَّا ساقه بتمامه؛ لأن مسلمًا ساق جزءًا من الحديث وأحال باقي ألفاظ الحديث إلى حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي أخرجه قبله برقم (٣٦/٢٨٤٦). ووقع فيما وقع فيه المؤلفُ المنذري في ترغيبه (٤٢٨٥) فساقه بتمامه.

قال الحميدي: بعد أن أورد الحديث بتمامه، قال: لم يزد. أدرجه أيضًا مسلم على حديث قبله لأبي هريرة رضي الله عنه في نحو معناه، ولم يذكر من أوله، إلا قوله: (احتجت الجنَّة والنار) فقط. وهذا الذي أوردنا هو لفظ حديث أبي سعيد على ما بيّنه أبو بكر البرقاني وأبو مسعود الدمشقيّ، انتهى.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٧٣.

ولذلك يبدأ الحديث بقول رسول الله ﷺ: "احتجت الجنة والنار"، أي كل منهما أدلى بحجته، وقدم الجنة في هذه الجملة: لأن الجنة تقترن بالثواب والعمل الصالح، والكل يطمح إلى دخول الجنة والتقلب في نعيمها، ولكنه في سياق تقديم الحجة قدم النار... حتى يجيء الرد من الجنة مفحمًا مبطلاً أقوال أهل النار الذين يدعون أنهم على حق.

وفي الحديث تشخيص للمعنويات: فالجنة والنار لا تستطيعان التحدث، ولكن المقصود كما يقول الطيبي: حكاية ما يقع بينهما مما اختص به كل منهما، وقيل: إن هذا الحدث على ظاهره، وإن الله تعالى جعل فيهما إدراكًا فتحاجا، وقيل يجوز أن يكون هذا الاحتجاج بين الجنة والنار على وجه التمثيل.

وبماذا تفخر النار؟ إنها تفتخر بأن فيها الجبارين والمتكبرين، وهم الذين يقهرون الغير على مراداتهم على حسب أهوائهم، وتقدم الجنة حجتها، وهي ليست للافتخار، ولكنها لإنصاف ضعفاء الناس ومساكينهم، والحديث السابق نوَّه بهذا النموذج الضعيف، الذي يتقوى بزاد التقوى، ويرى عزه في الإسلام، وقوته في الإيمان.

والجنة هو الاسم العلم، أو الاسم الشخصي، للمكان الذي وعد الله عز وجل عباده المتقين، وقد وردت في القرآن الكريم أكثر من مائتين وأربعين مرة، وقد وصفت الجنة بعدة صفات وردت في القرآن الكريم ومنها "الفردوس، وعدن، والنعيم، والخلد، والمأوى، ودار السلام، وطوبى، والغرفة أو الغرفات".

والنار: هي الاسم العلم على مقر العذاب الذي أعده الله لمن أعرض عن عبادته، ولمن أشرك، وقد وردت في القرآن الكريم صفات للنار مثل: "جهنم، والجحيم، والسعير، وسقر، ولظى، والهاوية، والحطمة، والغاشية".

ويقضي الله بينهما قضاءً عادلاً، فالجنة رحمة الله يرحم بها من يشاء، والنار عذاب الله يعذب بها من يشاء، فالجبارون المتكبرون الذين لم يَدْخل الإيمان في قلوبهم مصيرهم النار، أمَّا ضعفاء الناس ومساكينهم الذين نعموا بالإيمان، وحبب الله إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، فمصيرهم الجنة ونعيمها.

ويقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "عز الدنيا بالمال وعز الآخرة بالأعمال" ويقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "ألا وإن اليوم المضمار، وغدًا السباق، والسبقة الجنة، والغاية النار" وهذا الكلام فيه - مع فخامة اللفظ، وعظم قدر المعنى، وصادق التمثيل وواقع التشبيه- سرٌ عجيبٌ ومعنى لطيفٌ حيث لم يقل: السبقة النار كما قال السبقة الجنة لأن الاستباق يكون إلى أمر محبوب وغرض مطلوب وهذه صفة الجنة، وليس هذا المعنى موجودًا في النار، لأن الله يعذب بها من يشاء، فهي غاية الجبارين والمتكبرين، أما الجنة فهي رحمة الله يرحم بها من يشاء، جعلنا الله من أهل الجنة وهى نعم دار المتقين.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانيًا: من خصوصيات النبي صلى الله عليه وسلم الإخبار ببعض الأمور الغيبية.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الترهيب والترغيب.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: عدل الله في قضائه بين عباده.

خامسًا: من مهام الداعية: بيان الحقائق للناس.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: فضل الضعفاء والمساكين.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار:

يظهر ذلك في قوله صلى الله عليه وسلم "احتجَّت الجنة والنار" حيث أخبر صلى الله عليه وسلم عن تخاصم الجنة والنار.

وأسلوب الإخبار من الأساليب الدعوية المهمة فبه يخبر الداعية عن دعوته. (فإن من أبرز ما يمتاز به الداعية عن غيره من الناس قيامه وإخباره بالدعوة إلى الله تعالى، وليس معنى هذا أن الدعوة إلى الله تعالى حكر عليه وحده، لا وكلا، فإن الدعوة إلى الله تجب على كل فرد من أفراد المجتمع بحسب قدرته وجهده وطاقته.

فإن الدعوة إلى الله هي أحسن الأقوال عند الله تعالى، ويظهر هذا جليًا وواضحًا في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[١].

قال القرطبي في تفسير هذه الآية: والمعنى: أي كلام أحسن من القرآن، ومن أحسن قولاً من الداعي إلى الله وطاعته وهو محمد ﷺ. وقال ابن سيرين والسدّي وابن زيد والحسن هو رسول الله ﷺ، وكان الحسن إذا تلا هذه الآية يقول: هذا رسول الله، هذا حبيب الله، هذا ولي الله، هذا صفوة الله، هذا خيرة الله، هذا والله أحبُّ أهل الأرض إلى الله، أجاب الله في دعوته ودعا الناس إلى ما أجاب الله.

وقالت عائشة رضي الله عنها، وعكرمة وقيس بن أبي حازم ومجاهد رحمهم الله: نزلت في المؤذنين.

قال ابن العربي: والأول أصح، لأن الآية مكية والأذان مدني، وإنما يدخل فيه بالمعنى لا بأنه كان المقصود وقت القول.

وقال الحسن البصري: هذه الآية عامة، وفي كل من دعا إلى الله وهو أحسن الأقوال)[٢][٣].

ثانيًا- من خصوصيات النبي ﷺ الإخبار ببعض الأمور الغيبية:

يظهر ذلك في إخباره ﷺ عن محاجّة الجنة للنار والنار للجنة وقضاء الله بينهما وهذا من الأمور الغيبية التي اختصه الله بها، وجعلها من دلائل نبوته ومن المعجزات التي أيده الله بها.

وقد أخبر رسول الله ﷺ بأخبار كثيرة عن وصف الجنة والنار وأهلهما، منها قوله ﷺ ((إنَّ في الجنةِ خَيْمةً مِنْ لُؤلؤةٍ مُجَوَّفةٍ، عَرْضُها ستُّونَ مِيلا، في كلِّ زَاويَةٍ منها أَهْلٌ ما يَرَوْنَ الآخرينَ، يطُوفُ عليهنَّ المُؤمنون))[٤] ومنها قوله ﷺ ((إذا صارَ أَهْلُ الْجَنَّةِ إِلَىٰ الْجَنَّةِ، وَصَارَ أَهْلُ النَّارِ إِلَىٰ النَّارِ، أُتِيَ بِالْمَوْتِ حَتَّىٰ يُجْعَلَ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ. ثُمَّ

---

(١) سورة فصلت، آية: ٣٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٣٦٠/١٥/٨.

(٣) انظر: إعداد الداعية في ضوء سورة فصلت، د. حمد بن ناصر العمار ص ١٦٠.

(٤) أخرجه البخاري ٤٨٧٩، ومسلم ٢٨٣٨.

يُذْبَحُ. ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ لاَ مَوْتَ. وَيَا أَهْلَ النَّارِ لاَ مَوْتَ. فَيَزْدَادُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فَرَحًا إِلَىٰ فَرَحِهِمْ. وَيَزْدَادُ أَهْلُ النَّارِ حُزْنًا إِلَىٰ حُزْنِهِمْ))[1]، والشواهد على إخباره ﷺ بالغيبيات كثيرة وهي خاصة به ﷺ.

من أساليب الدعوة التي تظهر في هذا الحديث أسلوب الترهيب والترغيب، أما الترهيب فيظهر في إخباره بأن أهل النار هم الجبارون والمتكبرون، ففي ذلك ترهيب وتحذير من الغلظة والتكبر، لأن مصير من يتصف بهما إلى النار كما أشار الحديث.

وأما الترغيب فيظهر في إخباره ﷺ بأن أهل الجنة الضعفاء والمساكين المتذللون لله تعالى، والمتواضعون له، فيكون ذلك ترغيبًا منه ﷺ في التذلل لله والتواضع.

وأسلوب الترهيب والترغيب من أساليب الدعوة المؤثرة في المدعوين، والحاملة لهم على الامتثال للدعوة وقبولها، ويقصد بالترغيب: كل ما يشوق المدعو إلى الاستجابة وقبول الحق والثبات عليه.

ويقصد بالترهيب: كل ما يخيف وكل ما يحذر المدعو من عدم الاستجابة للحق أو عدم الثبات عليه.

قال تعالى في حق المؤمنين: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾[2].

فالترغيب والترهيب على هذا هو: تشويق الناس إلى ثواب الله والجنة، وتخويفهم من عذاب الله والنار[3].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: عدل الله في قضائه بين عباده:

ويظهر ذلك في جعله سبحانه وتعالى النار مثوى للجبارين والمتكبرين، والجنة مثوى للضعفاء والمساكين المتذللين لله.

---

(١) أخرجه مسلم ٢٨٥٠.

(٢) سورة الأنبياء، آية: ٩٠.

(٣) الدعوة إلى الله، د. توفيق الواعي ص ١٩٩.

والجنة هي رحمته تعالى يرحم بها من يشاء، والنار عقابه يعذب بها من يشاء، فالله جعل العدلَ اسمًا من أسمائه وهو أحكم الحاكمين، قال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[(١)].

قال ابن عاشور: (القسط هو العدل ... وقد أقام الله القسط في تكوين العوالم على نظمها، وفي تقدير بقاء الأنواع، وإيداع أسباب المدافعة في نفس الموجودات، وفيما شرع للبشر من الشرائع في الاعتقاد والعمل لدفع ظلم بعضهم بعضا، وظلمهم أنفسهم، فهو القائم بالعدل سبحانه، وعدل الناس مقتبس من محاكاة عدله[(٢)]، قال تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾[(٣)] أي: أما هو أحكم الحاكمين، الذي لا يجور ولا يظلم أحدًا، ومن عدله أن يقيم القيامة، فينصف المظلوم في الدنيا ممن ظلمه[(٤)].

خامسًا- من مهام الداعية: بيان الحقائق للمدعوين:

يظهر ذلك في بيان رسول الله ﷺ أن أهل النار منهم الجبارون والمستكبرون وأهل الجنة منهم الضعفاء والمساكين؛ فالداعية ناصح ومبيّن للمدعوين، فيجب عليه بيان الحقائق للمدعوين، حتى يأتوا منها ما هو خير لهم ويجتنبوا ما هو شر.

وقد أمر الله تعالى الأنبياء وأتباعهم أن يوضحوا للناس، وأن يقولوا لهم في أنفسهم قولاً بليغًا، قال تعالى: ﴿ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴾[(٥)] وقال: ﴿ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴾[(٦)] ولا يكون البيان على كماله إلا بالإيضاح الوافي، ولا يكون الكلام بليغًا إلا إذا كان واضحًا للنفوس المخاطبة.

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٨.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور مج٢/٣/١٨٧.

(٣) سورة التين، آية: ٨.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٨/٤٣٥.

(٥) سورة آل عمران، آية: ١٨٧.

(٦) سورة النساء، آية: ٦٣.

وقد كان ﷺ - سيد الدعاة- يوضح للناس ولأتباعه، ويكرر كلامه ثلاثًا ليتحقق الإيضاح.

فعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ: ((أنه كان إذا تكلَّم بكلمةٍ أعادَها ثلاثًا حتّى تُفهمَ عنه))(١).

كما أن أحكامه واضحة حيث تقوم على قاعدة ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾(٢) فالخمر والزنا والكذب والخيانة ونحو ذلك كله مما يتفق العقلاء على أنه شر وسوء، وفي المقابل فإن الصدق والأمانة ونظافة السلوك الأخلاقي واحتفاظ الإنسان بعقله ونحو ذلك من الفضائل والمكارم. كلها يقرها العقل البشري بسموها ومكانتها.

والدعوة الإسلامية يجب أن تكون واضحة الأهداف واضحة مع الأتباع(٣).

سادسًا- من موضوعات الدعوة: فضل الضعفاء والمساكين:

إن من موضوعات الدعوة التي تظهر في هذا الحديث فضل الضعفاء والمساكين وهذا يظهر في قوله ﷺ وقالت الجنة: في ضعفاء الناس ومساكينهم، فلفضل الضعفاء والمساكين كانوا من أهل الجنة، ولفضلهم أيضًا أمر الله عز وجل نبيه ﷺ بملازمتهم وعدم طردهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾(٤) ذُكِر أن هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ في سبب جماعة من ضعفاء المسلمين، قال المشركون له: لو طردت هؤلاء عنك لغشيناك وحضرنا مجلسك(٥).

---

(١) أخرجه البخاري ٩٥.

(٢) سورة الأعراف، آية: ١٥٧.

(٣) فقه الدعوة، د. بسام العموش ص ٢٦، ٢٧.

(٤) سورة الأنعام، من آية: ٥٢.

(٥) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ٢٥٨/٩.

وأمره بالجلوس معهم فقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾[(١)] أي: اجلس مع الذين يذكرون الله ويهللونه ويحمدونه ويسبحونه ويكبرونه، ويسألونه بكرة وعشية من عباد الله[(٢)] فوصفهم الله بالعبادة والإخلاص فيها، فالآية فيها الأمر بصحبة الأخيار ومجاهدة النفس على صحبتهم ومخالطتهم، وإن كانوا فقراء فإن في صحبتهم من الفوائد ما لا يحصى[(٣)]، فينبغي على الداعية بيان فضل الضعفاء والمساكين في الإسلام وكرم الله تعالى لهم.

---

(١) سورة الكهف، آية: ٢٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٥٢/٥.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٤٢٥.

الحديث رقم (٢٥٥)

٢٥٥- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه عن رسول اللّه ﷺ قال: «**إِنَّهُ لَيأتِي الرَّجُلُ السَّمِينُ العَظِيمُ يَوْمَ الْقِيامةِ لا يزنُ عِنْد اللَّه جنَاحَ بعُوضَةٍ**» متفقٌ عَلَيه[١].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

السمين: أي كثير اللحم والشحم في البدن[٢].

الشرح الأدبي

إن أقدار الرجال في الإسلام توزن بأعمالهم وليس بأجسامهم، وإن مقياس القوة يكمن في قوة الإيمان، وقوة النفس، وقوة الروح، وأما القوة العضلية فهي لا قيمة لها إلا في صحبة العاطفة الإيمانية، والنزعة الروحية، والاتشاح بالقيم الإسلامية، فالإسلام الذي أعاد تكوين البشرية في ضوء تعاليمه الإلهية، لم يكن في حقيقته إلا إبداعًا للصيغة العملية التي تنتظم الإنسانية فيها، ولهذا كانت آدابه كلها حراسًا على القلب المؤمن، كأنها ملائكة من المعاني، وكان الإسلام بها عملاً إصلاحيًا وقع به التطور في عالم الغريزة، فنقله إلى عالم الخُلُق، ثم ارتقى بالخُلق إلى الحق، ثم سما بالحق إلى الخير العام، فهو سمو فوق الحياة بثلاث طبقات، وتدرج إلى الكمال في ثلاث منازل، وابتعاد عن الأوهام بمسافة ثلاث حقائق -كما يقول الرافعي في مقاله حقيقة المسلم[٣].

وفي ضوء هذا التصور لحقيقة المسلم، ومعيار قوته، نقرأ هذا النص النبوي قراءة استكشافية، ونرصد جماليات الأداء الأسلوبي، وروعة البيان النبوي، والتوجيه

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٢٩)، ومسلم (١٨/٢٧٨٥) ولفظهما سواء، وزادا في آخره: (اقرأوا إن شئتم: (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنًا) الكهف (١٠٥). أورده المنذري في ترغيبه (٤٦٧٨).

(٢) معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ص ٢٢٤.

(٣) وحي القلم ٢/ ٩.

الإسلامي الراشد لكل مسلم يغتر بالمظهر، ويغفل عن المخبر، ويُعْنى بما يملأ البطون فتعيا ذاكرته، وينسى في زحمة الظنون والبطنة، كيف يشحذ الفطنة، ويحتفظ بالكياسة، ويحيا في وهج الفراسة !!.

والحديث في بنائه اللغوي: يبدأ بالتأكيد المقترن بضمير الشأن، وكأن هذه المفارقة بين صورة ذلك العظيم السمين في الدنيا، وصورته في الآخرة وهو "لا يزن عند الله جناح بعوضة"، هي قصة هذه الطائفة من الناس الذين استعبدتهم شهواتهم، وتاهوا في شعاب غرائزهم، وحُرموا لذة الطاعة، وهي قصة تتكرر في كل زمان وكل مكان، تصور حال هؤلاء الذين ألهاهم التكاثر، حتى زاروا المقابر.

والتأكيد في بداية الحديث ينبئ عن حقيقة هذا المصير الذي لاشك فيه، واللام في قوله: "ليأتي" هي المؤذنة بالقسم المقدر قبلها المأتي به لتأكيد الأمر وتقويته، وذلك بالتأكيد مع القسم، مع دلالة الفعل "يأتي"، وكأنه يأتي طائعًا رغم خوفه من العذاب الشديد، وليس بعد هذا إذلال وقهر، لأنه في يوم القيامة، لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى بقلب سليم، ولا تظلم نفس شيئًا، ومن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره، وأي سخرية تفوق هذه السخرية مِن هذا النموذج الذي اغتر بمظهره، وذلك حين يُصور بأنه "الرجل العظيم السمين"، وهي أوصاف دنيوية، فالعظمة هنا من خلال المنظور الدنيوي والبشري الذي اغتر به هذا النموذج وأشياعه، وأي تهكم تبوح به هذه الكلمة "السمين"، إن هذه السخرية من ذلك النموذج يصورها المتنبي في قوله:

أُعِيذُها نَظَراتٍ مِنْكَ صادِقَةً ... أن تحسَبَ الشّحمَ فيمن شحمهُ وَرَمُ

وَمَا انْتِفَاعُ أخي الدّنْيَا بِنَاظِرِهِ ... إذا اسْتَوَتْ عِنْدَهُ الأنْوارُ وَالظُّلَمُ

وقوله "يوم القيامة" تحديد لزمان ومكان التفاضل، والتنافس، فلا أنساب في هذا اليوم، ولا تفاضل إلا بالعمل الصالح.

والحديث كله جملة واحدة، تبدأ بتوضيح صورة هذا النموذج في الدنيا، وتنتهي بتصوير حاله في الآخرة يوم القيامة، فهو في ميزان الدنيا: الرجل العظيم السمين، لا يزن عند الله في الآخرة، جناح بعوضة، لأن الأقدار يومئذ بالأعمال وليست بالأحجام

ولا الأموال، ففي الحديث - كما قال العلماء- تنبيه على أنه ليس المدار في الرفعة عند الله والقرب من فضله وساحة جوده بالصور، وإنما ذلك بما يَقِرُّ في القلوب من الأنوار الإلهية، والتجليات الربانية، أَهلَّنا الله لذلك بفضله..آمين.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد والإخبار.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: أساس التفاضل الدين والتقوى.

ثالثًا: من مهام الداعية: بيان الحقائق للمدعوين.

رابعًا: من أهداف الدعوة: إبطال المعايير والأعراف الفاسدة.

أولاً- من أساليب الدعوة: التوكيد والإخبار:

يظهر أسلوب التوكيد والإخبار في قوله ﷺ "إنه ليأتي الرجل..." حيث أكد "بإن" ثم أخبر عن حال الرجل السمين يوم القيامة. وأنه ليس له ثمة قيمة أو وزن، وإنما القيمة والفضل والوزن للأتقياء، الذين كانوا يخافون ربهم ويخشونه.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: أساس التفاضل "الدين والتقوى":

يظهر هذا في قوله ﷺ "إنه ليأتي الرجل السمين العظيم يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة" أي لا يعدلها في القدر والمنزلة، أي لا قدر له[1]؛ حيث بيّن أن وزن الرجل السمين عظيم الجسد لا يزن عند الله جناح بعوضة، وذلك لأن أساس التفاضل هو الدين والتقوى والقلب السليم، لا عِظَم الجسد وزيادته.

قال رسول الله ﷺ ((إِنَّ اللّهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ وَلاَ إِلَىٰ صُوَرِكُمْ. وَلٰكِنْ يَنْظُرُ إِلَىٰ قُلُوبِكُمْ))[2]، قال النووي: إن الأعمال الظاهرة لا يحصل بها التقوى، وإنما

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٣١٥/٨.

(٢) أخرجه مسلم ٢٥٦٤.

تحصل بما يقع في القلب من عظمة الله تعالى وخشيته ومراقبته[١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[٢]؛ أي أكرمكم عند الله أتقاكم، وهو أكثركم طاعة وانكفافًا عن المعاصي، لا أكثركم قرابة وقومًا ولا أشرفكم نسبًا[٣]. فالتقوى هي أساس المفاضلة في الدين الإسلامي، فينبغي للداعية أن يبين للناس فضل الإيمان وتقوى الله وطاعته، والعمل الصالح الذي يثقّل موازين العبد يوم القيامة، حتى يبادر المؤمن إلى التزود بتقوى الله، ويستزيد من الطاعات، ويتجنب فعل المعاصي.

ثالثًا- من مهام الداعية: بيان الحقائق للمدعوين:

يستنبط هذا من عموم الحديث، إذ ينبغي للداعية أن يبين للمدعوين حقيقة ما ينفعهم من العمل الصالح، قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾[٤] فعمل الخير هو الذي يجب أن يحرص عليه الإنسان، وينبغي للداعية أن يُحذِّر المدعوين من انغماسهم في ملذّات الحياة وغفلتهم عن طاعة الله تعالى، إنه ينبغي للعاقل أن يهتم بتنعيم قلبه، ونعيم قلب الإنسان بالفطرة، وهي: التزام دين الله عز وجل، وإذا نعُم القلب نعم البدن لا عكس، وقد ينعم البدن ويؤتى الإنسان من الدنيا ما يؤتى من زهرتها، ولكن قلبه في جحيم والعياذ بالله[٥]؛ فينبغي على الداعية بيان حقيقة النعيم والراحة.

رابعًا- من أهداف الدعوة: إبطال المعايير والأعراف الفاسدة:

إن من أهداف الدعوة التي تظهر في هذا الحديث إبطال المعايير والأعراف الفاسدة حيث أبطل رسول الله ﷺ نظرة الناس إلى وزن الرجل وعظم جسده، وبين أن هذا الوزن لا قيمة له عند الله يوم القيامة. لقد عالج الإسلام ما يصيب القيم ومعايير

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٣٨.

(٢) سورة الحجرات، آية: ١٣.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٧٤٥.

(٤) سورة الزلزلة، آية: ٧.

(٥) انظر: شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين، ٦٢٥/١.

التفاضل عند الناس من اختلال، فبيّن تعالى أن معيار التفاضل بين الناس هو طاعته وتقواه، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾ ﴾[1] أما من تجرد من تقوى الله ونأى عنها فلا قيمة له ولا وزن مهما أوتي من بسطه في المال والجسم أو الجاه وما شابه ذلك، كما هو واضح في الحديث "إنه ليأتي الرجل السمين العظيم يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة".

لقد جاء الإسلام فأبطل كل الأعراف الفاسدة والمعايير المغلوطة، فقد كان الناس في الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الفقر، فجاء الإسلام فأبطل هذا العرف الباطل والمعيار الفاسد، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا﴾[2]. وكذلك أبطل الإسلام وأد البنات والربا، وحرم الخمر، وأقر كل ما هو صحيح سليم.

وقد حذر ﷺ من إحياء سنن الجاهلية أو التشبه بأهلها، أو موافقتهم في شيء من ذلك، فوقع هذا موقعه من أصحابه رضي الله عنهم ومن تبعهم من القرون المفضلة[3].

---

(١) سورة الحجرات، آية: ١٣.

(٢) سورة الإسراء، آية: ٣١.

(٣) أهل الجاهلية، محمد بن عبدالوهاب، المقدمة د. يوسف بن محمد السعيد ص ٨، ٩.

الحديث رقم (٢٥٦)

٢٥٦- وعنه أَنَّ امْرَأَةً سوْداءَ كَانَتَ تَقُمُّ المسْجِد (أَوْ شَابًّا) فَفقَدَهَا، (أو فقده) رسولُ اللَّه ﷺ، فَسَأَلَ عَنْهَا (أَوْ عنْهُ)، فقالوا: مات. قال: «أَفَلا كُنْتُمْ آذَنْتُمُونِي» فَكَأَنَّهُمْ صغَّرُوا أَمْرَهَا (أَوْ أَمْرَهُ)، فقال: «دُلُّونِي عَلَى قَبْرِهِ» فدلُّوهُ فَصلَّى عَلَيه[1]، ثُمَّ قال: «إِنَّ هَذِهِ الْقُبُور مملُوءَةٌ ظُلْمةً عَلَى أَهْلِهَا، وإِنَّ اللَّه تعالى يُنَوِّرهَا لَهُمْ بصَلاتِي عَلَيْهِمْ» متفقٌ عليه[2].

قوله: «تَقُمُّ هو بفتحِ التَّاءِ وَضَمِّ الْقَافِ: أَيْ تَكْنُسُ. «وَالْقُمَامَةُ»: الْكُنَاسَةُ. «وآذَنْتُمونِي» بِمدِّ الهَمْزَةِ: أَيْ: أَعْلَمتُمُونِي.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

تَقُمُّ: تَكْنُس القمامة: الكناسة[3].

آذنتموني: أعلمتموني[4].

صغَّروا أمرها: حقروه ولم يهتموا به[5].

---

(١) لفظ مسلم: (عليها).

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٨)، ومسلم (٩٥٦/٧١) وهذا لفظه وهو أتمّ من لفظ البخاري إذ لا يوجد عنده من قوله: (إن هذه القبور، إلخ). قال الحافظ في الفتح (وإنما لم يخرج البخاري هذه الزيادة لأنها مدرجةٌ في هذا الإسناد، وهي من مراسيل ثابت، وبيّن ذلك غير واحد من أصحاب ابن زيد.

(٣) رياض الصالحين ١٥١.

(٤) المرجع السابق ١٥١.

(٥) الوسيط في (ص غ ر).

الشرح الأدبي

إن الرسول ﷺ هو الرحمة المهداة، والسراج المنير، وقد خاطبه الله عز وجل في القرآن الكريم بقوله عز وجل: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[1]. ووصفه بأنه بالمؤمنين رءوف رحيم، وهو البشير النذير، وهو الشاهد والداعي إلى الله بإذنه، ولو جمعت كل أوصافه ﷺ، ونظمتها بعضها إلى بعض، واعتبرتها بأسرارها العلمية، لرأيت منها كونًا معنويًا دقيقًا قائمًا بهذا الإنسان الأعظم، كما يقوم هذا الكون الكبير بسننه وأصول الحكمة فيه، ولأيقنت أن هذا النبي الكريم إن هو إلا معجم نفسي حي ألفته الحكمة الإلهية بعلم من علمها، وقوة من قوتها، لتتخرج به الأمة التي تبدع العالم ابداعًا جديدًا، وتتشئه النشأة المحفوظة له في أطوار كماله:

فنوره من سنا الرحمن مقتبس	على مدى الدهر والأيام ما احتجبا
وذكره من جلال الله هيبته	في الجاه والحكم والسلطان ما رغبا
هو الفقير ويأبى أن تكون له	جبال مكة في دنيا الورى ذهبا
فنفسه من صفاء الخلد معدنها	والله أغناه بالقرآن حين أبى
فإن مشى كان قرآنًا جوانبه	تفيض بالذكر للقلب الذي نضبا
وإن تحدث فالآيات منطقه	ترد للكل حقًا كان قد سلبا
وفي تواضعه أسرار حكمته	هو النبي ولكن يجمع الحطبا[2]

وفي ضوء هذه السجايا المحمدية الكريمة، وفي ظل هذه الشمائل النبوية العظيمة يتحرك هذا المشهد الإنساني الرائع، والموقف النبوي الساطع، وكأنه الشمس تضيء آفاق السلوك البشري، وتدفئ ذلك الكون بأشعة الرحمة، وأنوار العطف والشفقة؛ وأناشيد المساواة والمحبة.

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ١٠٧.

(٢) ديوان مدائن الفجر، د. صابر عبدالدايم.

إن رسول الله ﷺ: خاتم الأنبياء والمرسلين، ورسول الله إلى العالمين، لم تشغله أعباء الدعوة عن الاهتمام بأمر امرأة سوداء حازت فضل السبق والرضا الإلهي بعملها اليدوي الخالص لوجه الله، إنها كانت تكنس المسجد، وربما لا يعيرها الآخرون اهتمامًا، فهي في منظورهم الدنيوي من الفقراء الخاملين الذين لا يؤبه بهم، ولا ينظر إليهم، ولكن المصطفى ﷺ فقدها ذات يوم أي لم يرها.. فسأل عنها، وتجيء المفاجأة حيث أخبره الصحابة بأنها قد ماتت: وقيل كان شابًا، ولكن أغلب الروايات ترجح أنها كانت امرأة وتسمى "أم محجن" وهنا تتجلى القدوة الحسنة في استجابة الرسول ﷺ وتلقيه لهذا الخبر الذي سكت عنه الناس، فقال في تساؤل وعتب واهتمام: "أفلا كنتم آذنتموني به"، والاستفهام هنا مع أداة الاستفتاح مع الخطاب المباشر للصحابة: يوحي بعدم رضا رسول الله ﷺ عن هذا السكوت الذي كان دافعه الإحساس بقلة شأن هذه المرأة وهي من ضعفة المسلمين، والراوي يفسر هذا الدافع فيقول "فكأنهم صغروا أمرها"، وظنوا أنها ليست أهلاً لإخبار رسول الله ﷺ بأمرها، لأنها ليست من مشاهير الصحابة والصحابيات، ممن لهم السبق والأيادي في الإسلام.

ولكن رسول الله ﷺ يقدم الدرس العملي، والقدوة الحسنة في الإعلان عن المساواة بين المسلمين، فلا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى، وقال في صيغة الأمر، "دلوني على قبره"، أي قبر ذلك الشخص: فدلوه فصل عليها، والعطف بالفاء هنا يوحي بالسرعة وعدم التراخي، ويدل على شدة اهتمام الرسول ﷺ بالأمر، وقال: -وقوله فيه الصدق والرحمة والمحبة والعطف والاهتمام بأمر كل المسلمين، الأحياء والأموات- "إن هذه القبور مملوءة ظلمة على أهلها؛ وإن الله تعالى ينورها لهم بصلاتي عليهم".

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى أكثر من حكم فقهي يتعلق بصلاة الجنائز:

الأول: حكم الصلاة على الجنازة: وقد ذهب جمهور الفقهاء[1] إلى أن الصلاة على الجنازة فرض على الكفاية، فمتى قام به البعض سقط عن الباقين، وذهب أصبغ من المالكية إلى أنها سنة على الكفاية.

الثاني: حكم الصلاة على قبر الميت: وقد ذهب جمهور الفقهاء[2] إلى أنها جائزة إذا كان الميت لم يصل عليه، وقيد الحنفية ذلك بأن لا يعلم أنه تمزق، وقيده الحنابلة بألا تمضي مدة تزيد على شهر وقيل ولو بعد شهر، وروي عن مالك أنه لا يصلي على القبر، وقيل إن دفن بغير أن يصلى عليه أخرج وصلي عليه ما لم يفت.

الثالث: حكم الصلاة على من صلى عليه لمن لم يحضر الصلاة من الناس هل يجوز له ذلك أم لا؟ اختلف الفقهاء في ذلك على قولين:

القول الأول: ذهب الحنفية[3] والمالكية[4] إلى أنه يكره الصلاة على الميت بعد أن

---

(١) تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ٢٣٨/١، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود شرح الطيبي ٣١١/١، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد المغربي ٢٠٨/٢، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم النفراوي ٢٩٣/١، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٣١٣/١، وتحفة المحتاج ١٣١/٣، ١٦٧، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ١٠٩/٢، ١٢٦، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٣٥٧/١، ٣٧٠.

(٢) المبسوط ٦٧/٢، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود شرح الطيبي ٣١١/١، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد المغربي ٢٤٠/٢، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم النفراوي ٢٩٩/١، وتحفة المحتاج ١٩١/٣، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٣٢٢/١ وما بعدها، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٣٦٥/١ وما بعدها، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ١٢١/٢.

(٣) المبسوط ٦٧/٢، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود شرح الطيبي ٣١١/١.

(٤) مواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد المغربي ٢٤٠/٢، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم النفراوي ٢٩٩/١.

صلي عليه، سواء أكان قبل الدفن أم بعده، ولكن يكفي في هذه الحالة الدعاء له بالرحمة والمغفرة، واستثنى الحنفية من ذلك الإمام، حيث يجوز له الصلاة على من صلى عليه.

القول الثاني: ذهب الشافعية(١) والحنابلة(٢) إلى أنه يستحب لمن لم يصل على الميت أن يصلي عليه سواء أكان ذلك قبل الدفن أم بعده.

والراجح: القول الثاني، لما فيه من الرحمة للميت بالصلاة عليه والدعاء له فيها بالمغفرة والله أعلم.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة على نظافة المسجد.

ثانيًا: من صفات الداعية: التواضع.

ثالثًا: من مهام الداعية: تفقد أحوال المدعوين والسؤال عنهم.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: رحمة النبي ﷺ بأمته.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: فضل صلاة النبي ﷺ على من مات.

سادسًا: من أساليب الدعوة: السؤال والأمر والتوكيد.

أولاً- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة على نظافة المسجد:

إن المساجد هي بيوت الله في الأرض، وهي أحب المواضع إلى الله سبحانه(٣)، لذا كان من شأن المسلم الحرص على نظافتها، وقد كان الصحابة رضي الله عنهم وهم أكمل الناس إيمانًا أحرص على نظافتها. وذلك واضح من قول أبي هريرة رضي الله عنه: "إن رجلاً أسود أو امرأة سوداء كان يقمُّ المسجد" "أي يكنسه"(٤).

---

(١) تحفة المحتاج ١٩١/٣، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٣٢٢/١ وما بعدها.

(٢) شرح منتهى الإرادات، البهوتي ٣٦٥/١ وما بعدها، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ١٢١/٢.

(٣) قال النبي ﷺ: "أَحَبُّ البلادِ إلى الله تعالى مَسَاجِدُها" أخرجه مسلم ٦٧١.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٦١٣.

ووقع في رواية عند البيهقي: ((إنَّ رجلاً كان يَتَتَبَّعُ قَذَى المسجدِ ويَلْقُطُهُ))[١]. ووقع في رواية عند ابن خزيمة ((كانتْ تَلْتَقِطُ الخِرَقَ والعِيْدَانَ من المسجدِ))[٢].

وقال ابن هبيرة: (في هذا الحديث ما يحث على تنظيف المساجد وكنسها وإخراج ما يؤذي منها حتى ما يقذى العين)[٣].

وجاء في حديث بريدة عند البيهقي: ((أَنَّ النبيَّ ﷺ مَرَّ عَلَى قَبْرٍ جديدٍ حديثِ عهدٍ بدَفْنٍ ومعَهُ أبو بكرٍ فقالَ: قَبْرُ مَنْ هَذَا، فقالَ أبو بكرٍ: يا رسولَ الله هَذِهِ أُمُّ مِحْجَنٍ كانتْ مُوْلَعَةً بَلَقْطِ القَذَى من المَسْجِدِ))[٤].

قال ابن حجر: (في الحديث فضل تنظيف المسجد)[٥].

كل هذا يبين أن من الصحابة رضي الله عنهم من فرغ نفسه للحفاظ على نظافة المسجد والقيام بخدمته.

وقد كان تعظيم المسجد بالخدمة مشروعًا في الأمم السابقة، قال ابن عباس رضي الله عنهما في قول الحق حكاية عن أم مريم: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾[٦] قال: للمسجد يخدمه[٧]. قال ابن حجر: (قوله "محررًا" أي معتقًا، والظاهر أنه كان مشروعًا عند الأمم السالفة، حتى إن بعضهم وقع منه نذر ولده لخدمته، ومناسبة ذلك لحديث الباب

---

(١) السنن الكبرى، البيهقي، تحقيق: محمد عطا ٤٧/٤.

(٢) صحيح ابن خزيمة ٢٧٢/٢ رقم ١٣٠٠، وحسن إسناده الألباني في تعليقه على صحيح ابن خزيمة، وانظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦٥٩/١.

(٣) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ١٨٨/٧.

(٤) السنن الكبرى ٤٨/٤ وحسن إسناده الحافظ في الفتح ٦٥٨/١.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦٥٩/١.

(٦) سورة آل عمران، آية: ٣٥.

(٧) علقه البخاري فوق الحديث ٤٦٠ وقال الحافظ في الفتح ٦٦٠/١: هذا التعليق وصله ابن أبي حاتم بمعناه أهـ، وانظر: الدر المنثور ٥١٦/٣.

من جهة صحة تبرع تلك المرأة بإقامة نفسها لخدمة المسجد، لتقرير النبي ﷺ لها على ذلك)[(١)].

وقد أخبر النبي ﷺ أن من مساوئ الأعمال النخاعة تكون في المسجد لا تدفن، فقد قال ﷺ ((عُرِضَتْ عَلَيَّ أَعْمَالُ أُمَّتِي، حَسَنُهَا وَسَيِّئُهَا، فَوَجَدْتُ فِي مَحَاسِنِ أَعْمَالِهَا الأَذَى يُمَاطُ عَنِ الطَّرِيقِ. وَوَجَدْتُ فِي مَسَاوِي أَعْمَالِهَا النُّخَاعَةَ تَكُونُ فِي الْمَسْجِدِ لاَ تُدْفَنُ))[(٢)] قال النووي: (ظاهره أن هذا القبح والذم لا يختص بصاحب النخاعة بل يدخل فيه هو وكل من رآها ولا يزيلها بدفن أو حك ونحوه)[(٣)].

ثانيًا- من صفات الداعية: التواضع:

تأنف النفس البشرية ممن كان طبعه الكبر والعجب، والداعية مهمته الأولى توصيل دعوته إلى المدعوين، ولا يكون هذا إلا بأن يكون متواضعًا غاية التواضع، حتى يقبلوا منه دعوته ويهتدوا بهديه، وقد كان النبي ﷺ -وهو إمام الدعاة- رأس المتواضعين، وهذا واضح من سؤال النبي ﷺ عنها أو عنه فقالوا: مات قال: "أفلا كنتم آذنتموني به". قال أبو هريرة رضي الله عنه: "فكأنهم صغروا أمرها أو أمره" وفي رواية عند البخاري ((فقالوا إنه كان كذا وكذا قصتهُ قال: فحقَرُوا شأنَهُ. قال: فدُلُّوني على قبرِه))[(٤)] وفي رواية عند ابن حبان ((فكأنَّهُمْ استَخَفُّوا شأنَهُ))[(٥)].

ووقع في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: ((ماتَ إنسانٌ كانَ رسولُ اللّهِ ﷺ يَعودُهُ، فماتَ بالليلِ، فدَفنوهُ ليلا. فلمَّا أصبحَ أخبروهُ فقال: ما مَنَعَكم أن تُعلِموني؟ قالوا: كان الليلُ فكرِهْنا - وكانت ظُلمةٌ- أن نشُقَّ عليك. فأتى قبرَه فصلَّى عليه))[(٦)]. وجاء في

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦٦٠/١ وانظر الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ١٧٦٥-١٧٦٦.

(٢) أخرجه مسلم ٥٥٣.

(٣) شرح مسلم ٤١٧-٤١٨.

(٤) صحيح البخاري ١٣٣٧.

(٥) صحيح ابن حبان ٣٠٨٦.

(٦) أخرجه البخاري ١٢٤٧ وهذا لفظه، ومسلم ٩٥٤.

حديث بريدة ﷺ: ((فقالوا: كُنْتَ نائمًا فكَرِهْنَا أَنْ نَهِيجَكَ، قال: فَلاَ تَفْعَلوا))[1].

قال النووي: (فيه بيان ما كان عليه ﷺ من التواضع والرفق بأمته، وتفقد أحوالهم والقيام بحقوقهم، والاهتمام بمصالحهم في آخرتهم ودنياهم)[2].

وقد بلغ النبي ﷺ في تواضعه مبلغًا كبيرًا، قال أنس بن مالك ﷺ: ((إن كانت الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت))[3].

قال ابن حجر: (والمقصود من الأخذ باليد لازمه، وهو الرفق والانقياد، وقد اشتمل على أنواع من المبالغة في التواضع لذكره المرأة دون الرجل، والأمة دون الحرة، وحيث عمّم بلفظ الإماء أي أمةٍ كانت، وبقوله حيث شاءت، أي من الأمكنة، والتعبير بالأخذ باليد إشارة إلى غاية التصرف، حتى لو كانت حاجتها خارج المدينة والتمست منه مساعدتها في تلك الحاجة، لساعد على ذلك. وهذا دال على مزيد تواضعه وبراءته من جميع أنواع الكبر ﷺ)[4].

وقد كان أصحابه ﷺ متواضعين، من ذلك ما حكاه سنان بن سملة الهذلي قال: خرجت مع النعمان ونحن بالمدينة نلتقط البلح، فإذا عمر بن الخطاب ﷺ معه الدِّرة، فلما رآه الغلمان تفرقوا في النخل، وقمت وفي إزاري شيء قد لقطته فقلت: يا أمير المؤمنين هذا ما تلقي الريح. فنظر إليه في إزاري فلم يضربني. فقلت: يا أمير المؤمنين الغلمان الآن بين يديّ وسيأخذون ما معي. قال: كلا. امش قال: فجاء معي إلى أهلي[5].

(فلقد كان عمر ﷺ - مع عظم شأنه، ورجاحة عقله، واشتهار عدله وفضله

---

(١) أخرجه البيهقي ٤٨/٤، وحسن إسناده الحافظ ابن حجر في الفتح ٦٥٨/١.

(٢) شرح مسلم ٦١٣.

(٣) أخرجه البخاري ٦٠٧٢ تعليقاً، وأخرجه أحمد ٣/ ٩٨ رقم ١١٩٤١ وقال محققو المسند: إسناده صحيح على شرط الشيخين ٩/١٩.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٠٦/١٠، وانظر: نضرة النعيم في مكارم الرسول الكريم، د. صالح بن حميد، عبدالرحمن بن ملوح ١٢٥٥/٤-١٢٦٨.

(٥) ذكره الكاندهلوي في حياة الصحابة ص ٥٧٠، وعزاه لابن سعد في الطبقات الكبرى.

وتمسكه بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ متواضعًا يحب أن يعرف عيوبه إن كانت له عيوب حتى يصلحها ولا يتمادى في الخطأ، إذ قد يصيب أحدًا بظلم وهو لا يدري، لذلك كان يقول "أحب الناس إليّ من رفع إليّ عيوبي". ولما اعترضت عليه امرأة اعترف بالخطأ في الحال وقال "كل أحد أعلم من عمر" ولام أصحابه على سكوتهم قائلاً: "تسمعونني أقول مثل هذا القول فلا تنكرونه علي، حتى ترد علي امرأة ليست من أعلم النساء" أما الآن فلسان حال الرجل منا يقول عكس ما قال عمر، أبغض الناس إليّ من رفع إليّ عيوبي. إننا لم نرد أحدًا منزهًا من العيوب، والمرء قد لا يرى عيوبه بنفسه، فإذا أرشد إليها عالجها وأصلحها ما دام راغبًا في الخير والإصلاح غير معجب بنفسه، على أن لا يكون الإرشاد بصيغة الشتم والسخرية؛ لأن النفوس تأبى ذلك. قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ﴾[1])[2].

ثالثًا- من مهام الداعية: تفقد أحوال المدعوين والسؤال عنهم:

إن تفقد الداعية لأحوال المدعوين من الأسباب القوية لتقريب الداعية إلى المدعوين، لأن ذلك عنوان صدق على التزامه بدعوته، وعلى أن فعله يطابق قوله، كما أن في ذلك تأليفًا لقلوب المدعوين، ومن ثم يكتب النجاح لدعوته، وقد كان النبي ﷺ كثير التفقد لأصحابه، هذا واضح في سؤال النبي ﷺ عن الصحابية أو الصحابي فلما أخبر بأنه مات قال: "أفلا كنتم آذنتموني".

ففي هذا تفقد من النبي ﷺ لأحوال المدعوين قال ابن حجر: (وفي الحديث... السؤال عن الخادم والصديق إذا غاب)[3].

وقال ابن هبيرة: (فيه افتقاد الصاحب والسؤال عنه مستحب)[4].

---

(١) سورة النحل، آية: ١٢٥.

(٢) الفاروق عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين، محمد رضا ص ٧١.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦٥٩/١.

(٤) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ١٨٨/٧.

وقد جاءت أحاديث في هذا المعنى، قال عثمان بن عفان رضي الله عنه: ((إنا والله قد صحبنا رسول الله ﷺ في السفر والحضر فكان يعود مرضانا ويتبع جنائزنا ويغزو معنا ويواسينا بالقليل والكثير))[١].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: ((إن كان رسول الله ﷺ ليخالطنا حتى كان ليقول لأخٍ لي: ((يا أبا عُمَيْرٍ ما فَعَلَ النُّغَيْرُ))[٢]))[٣].

وقد كان من عادة الصحابة رضي الله عنهم تفقد أحوال الناس والقيام بشأنهم. من ذلك أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يتعاهد عجوزًا كبيرة عمياء في حواشي المدينة [أي أطرافها] من الليل فيستسقي لها ويقوم بأمرها، وكان إذا جاءها وجد غيره قد سبقه إليها فأصلح ما أرادت، فجاءها غير مرة فلا يسبق إليها فرصده عمر فإذا هو بأبي بكر الصديق رضي الله عنه الذي يأتيها وهو خليفة. فقال عمر: أنت لعمري[٤].

وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يتفقد أحوال رعيته، وكان يطوف بالليل عليهم، والقصص في ذلك كثيرة مشهورة، من ذلك أنه (طاف ليلة فإذا هو بامرأة في جوف دار لها وحولها صبيان يبكون، وإذا قدر على النار قد ملأتها ماء، فدنا عمر بن الخطاب من الباب فقال. يا أمة الله. ما بال هؤلاء الصبية يبكون؟ فقالت: بكاؤهم من الجوع. قال فما هذه القدر التي على النار؟ فقالت: قد جعلت فيها ماء أعللهم بها حتى يناموا. أوهمهم أن فيها شيئًا من دقيق وسمن. فجلس عمر فبكى ثم جاء إلى دار الصدقة فأخذ غرارة وجعل فيها شيئًا من دقيق وسمن وشحم وتمر وثياب ودراهم حتى ملأ الغرارة[٥] ثم قال: يا أسلم أحمل عليَّ. فقال يا أمير المؤمنين أنا أحمله عنك. فقال لا أم لك يا أسلم. أنا

---

(١) أخرجه أحمد ١/٧٠ رقم ٥٠٤، وقال محققو المسند: إسناده حسن ١/٥٣٢.

(٢) النغير: تصغير النغر وهو طائر يشبه العصفور أحمر المنقار، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ن غ ر).

(٣) أخرجه البخاري ٦١٢٩ وهذا لفظه، ومسلم ٢١٥٠.

(٤) ذكره المتقي الهندي في الكنز ٣٥٦٠٧ وعزاه للخطيب في تاريخ بغداد.

(٥) الغرارة: وعاء من الخيش ونحوه يوضع فيه القمح ونحوه، وهو أكبر من الجوالق. والجولق عند العامة: الشوال. المعجم الوسيط في (غ ر ر).

أحمله لأني أنا المسؤول عنهم في الآخرة، فحمله على عنقه حتى أتى به منزل المرأة وأخذ القدر فجعل فيها شيئًا من دقيق وشيئًا من شحم وتمر، و جعل يحركه بيده وينفخ تحت القدر، وكانت لحيته عظيمة والدخان يخرج من خلل لحيته، حتى طبخ لهم، ثم جعل يغرف بيده ويطعمهم حتى شبعوا، وربض بحذائهم كأنه سبع، ولم يزل كذلك حتى لعبوا وضحكوا، ثم قال يا أسلم، أتدري لم ربضت بحذائهم؟ قلت لا يا أمير المؤمنين، قال: رأيتهم يبكون، فكرهت أن أذهب وأدعهم حتى أراهم يضحكون، فلما ضحكوا طابت نفسي.

هذه قصة مشهورة عن طواف عمر ليعلم حال الناس، فكان دائمًا يشعر بالمسؤولية فإنه قال لأسلم "أنا المسؤول عنهم في الآخرة" وكان هذا الشعور رائده في كل أعماله وأقواله)[١].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: رحمة النبي ﷺ بأمته:

لقد كان النبي ﷺ رحمة للعالمين، ومن ثم كان من الطبعي أن يكون أكثر رحمة بأمته، فقد كان رحيمًا بأمته في كافة الأحوال في حياتهم ومماتهم، ومن ذلك حرصه على الصلاة على هذا الرجل الذي مات ودفن. وذلك في قوله ﷺ "دلوني على قبره فدلوه فصلى عليه، وقال: إن هذه القبور مملوءة ظلمة على أهلها وإن الله عز وجل ينورها لهم بصلاتي عليهم".

قال ابن حجر: (وفيه [أي في الحديث]: المكافأة بالدعاء والترغيب في شهود جنائز أهل الخير، وندب الصلاة على الميت الحاضر عند قبره لمن لم يصلِّ عليه والإعلام بالموت)[٢].

وإنما كانت الصلاة على الميت رجاء أن يغفر الله له، فقد قال رسول الله ﷺ: ((مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ فَيَقُومُ عَلَىٰ جِنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلاً، لاَ يُشْرِكُونَ بِاللَّهِ شَيْئًا إلاَّ شَفَعَهُمُ اللَّهُ فِيهِ))[٣]، قال ابن القيم: (كان هديه ﷺ في الجنائز أكمل الهدي مخالفًا

---

(١) الفاروق عمر بن الخطاب، محمد رضا، ٤١-٤٢.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١/٦٥٩.

(٣) أخرجه مسلم ٩٤٨.

لسائر الأمم، مشتملاً على الإحسان إلى الميت ومعاملته بما ينفعه في قبره ويوم معاده وعلى الإحسان إلى أهله وأقاربه، وعلى إقامة عبودية الحي لله وحده فيما يعامل به الميت، وكان من هديه في الجنائز إقامة العبودية للرب تبارك وتعالى على أكمل الأحوال، والإحسان إلى الميت وتجهيزه إلى الله على أحسن أحواله وأفضلها، ووقوفه ووقوف أصحابه صفوفًا يحمدون الله ويستغفرون له، ويسألون له المغفرة والرحمة والتجاوز عنه، ثم المشي بين يديه إلى أن يودعوه حفرته، ثم يقوم هو وأصحابه بين يديه على قبره سائلين له التثبيت أحوج ما كان إليه، ثم يتعاهده بالزيارة له في قبره والسلام عليه والدعاء له كما يتعاهد الحي صاحبه في دار الدنيا)[١].

خامسًا- من موضوعات الدعوة: فضل صلاة النبي ﷺ على من مات:

صلى النبي ﷺ على هذا الميت وبين فضل صلاته ﷺ فقال: ((إِنَّ هَذِهِ الْقُبُورَ مَمْلُوءَةٌ ظُلْمَةً عَلَى أَهْلِهَا. وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُنَوِّرُهَا لَهُمْ بِصَلاَتِي عَلَيْهِمْ))[٢] وقد ذهب بعض العلماء إلى أن ذلك من خصائصه ﷺ[٣].

وقال عبدالله البسام: (فيه إثبات بركته ﷺ ودعائه، وأن الله تعالى يجعله سببًا في تنوير القبور على أهلها، فالمراد بالصلاة هنا الدعاء، لأنه ﷺ لا يصلي على الموتى كلّهم، ... إن النبي ﷺ لا يستطيع جلب نفع ولا ضر لأحد، ولو كان يملك شيئًا من الأمر لنفعهم بلا دعاء، ولكن الله تعالى يكرمه فيقبل دعاءه لمن أراد إسعاده من خلقه، وفي الحديث إثبات الأسباب، ومن أهم الأسباب الدعاء، لا سيما المستكمل لشروط قبوله واستجابة صاحبه)[٤].

قال ابن هبيرة: (في الحديث أن صلاة الرسول ﷺ على الميت تنور له، فمن له

---

(١) زاد المعاد ٤٩٨/١.

(٢) قال ابن حجر: (لم يخرج البخاري هذه الزيادة، لأنها مدرجة في هذا الإسناد، وهي من مراسيل ثابت، بين ذلك غير واحد من أصحاب حماد بن زيد، وقد أوضحت ذلك بدلائله في كتاب بيان المدرج) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦٥٩/١.

(٣) انظر فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٤٤/٣، وصحيح ابن حبان ٣٥٧/٧.

(٤) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله البسام ٥٠٩/٢.

بصلاة الرسول ﷺ؟ قال تعالى: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾[١]، وفيه أن الصلاة على الميت شفاعة في حقه، وكلما كان الشفيع وجيهًا، كانت شفاعته أسرع قبولاً، ورسول الله ﷺ هو الوجيه في الدنيا والآخرة المقبول شفاعته في الجمع كلهم، فما الظن بواحد يصلي عليه ويشفع فيه في صلاته، لأنه شرع لأمته لفظ الشفاعة في الصلاة على الجنازة، فلم يكن ليخلّ به، ولم يكن ليشفع إلا ويشفع)[٢].

وقد صلّى النبي ﷺ على النجاشي لما مات بالحبشة، فعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ ((قد تُوُفِّيَ اليومَ رجُلٌ صالحٌ مِن الحَبشِ، فهَلُمَّ فصلُّوا عليهِ. قال: فصففْنَا، فصلَّى النبيُّ ﷺ عليهِ ونحنُ صُفوف))[٣].

ولعل ما يوضح فضل صلاة النبي ﷺ على الميت ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما قال: لما توفي عبدالله بن أبي بن سلول جاء ابنه عبدالله إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه ليكفنه فيه فأعطاه ثم سأله أن يصلي عليه، فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فقام عمر بن الخطاب فأخذ ثوبه فقال: يا رسول الله أتصلي عليه وقد نهاك الله أن تصلي على المنافقين؟ قال: إن ربي خيرني وقال: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾[٤] وسأزيد على السبعين. فقال: إنه منافق. فصلَّى عليه فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾[٥] فترك الصلاة عليهم[٦].

وعن عوف بن مالك الأشجعي قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ - وصلى على جِنَازَةٍ - يَقُولُ:

---

(١) سورة التوبة، آية: ١٠٣.

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ١٨٨/٧.

(٣) أخرجه البخاري ١٣٢٠، ومسلم ٩٥٢.

(٤) سورة التوبة، آية: ٨٠.

(٥) سورة التوبة، آية: ٨٤.

(٦) أخرجه البخاري ١٢٦٩، ومسلم ٢٤٠٠.

((اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ وَارْحَمْهُ، وَاعْفُ عَنْهُ وَعَافِهِ، وَأَكْرِمْ نُزُلَهُ، وَوَسِّعْ مَدْخَلَهُ، وَاغْسِلْهُ بِمَاءٍ وَثَلْجٍ وَبَرَدٍ، وَنَقِّهِ مِنَ الْخَطَايَا كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ، وَأَبْدِلْهُ دَارًا خَيْرًا مِنْ دَارِهِ، وَأَهْلاً خَيْرًا مِنْ أَهْلِهِ، وَزَوْجًا خَيْرًا مِنْ زَوْجِهِ، وَقِهِ فِتْنَةَ الْقَبْرِ وَعَذَابَ النَّارِ. قَالَ عَوْفٌ فَتَمَنَّيْتُ أَنْ لَوْ كُنْتُ أَنَا الْمَيِّتَ، لِدُعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ على ذلك الْمَيِّتِ))[1].

سادسًا- من أساليب الدعوة: السؤال والأمر والتوكيد:

السؤال واضح من قول الصحابي عن النبي ﷺ فسأل عنها، وذلك بعد أن فقدها ولم تعد تأتي المسجد. وأما الأمر فقوله ﷺ "دلوني" وجاء هذا الأمر ليناسب علمه بموتها ليفيد الإسراع والذهاب إلى قبرها، ثم أكد ظلمة القبور بـ"إن" كما أكد أن الله ينورها بصلاته ﷺ عليهم ليناسب التوكيد الأول. فجاءت أساليب الدعوة موضحة خير توضيح للمضامين الدعوية.

---

(١) أخرجه مسلم ٩٦٣.

الحديث رقم (٢٥٧)

٢٥٧- وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رُبَّ أَشْعَثَ (اغبرَ) [١] مدْفُوعٍ بالأَبْوَابِ لَوْ أَقْسمَ عَلَى اللَّهِ لأَبرَّهُ» رواه مسلم[٢].

ترجمة الراوي:

ابو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

الأشعث: الملبد الشعر غير مدهون ولا مرجل[٣].

أغْبَرَ: لونه كلون الغبار لقلّة تعاهده بالنظافة بسبب فقره وحاجته[٤].

مدفوعٍ بالأبواب: أي لا قدر له عند الناس فهم يدفعونه عن أبوابهم ويطردونه عنهم احتقارًا له؛ بسبب فقره ورثاثة ثيابه[٥].

لأبره: لأوجد ذلك إكرامًا له بإجابة سؤاله وصيانته من الحنث في يمينه[٦].

الشرح الأدبي

إن ضعفة المسلمين لهم في الإسلام مكانتهم، وقد أوجب الدين على ولاة الأمور رعايتهم، وجعل الشارع من أبواب الصدقات والزكاة، إعطاء الفقراء والمساكين، وجعل هذا الإعطاء في مقدمة وجوه الإنفاق، وأبواب الصدقات، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا﴾[٧].

---

(١) (اغبر) لا توجد عند مسلم، وهي من الجمع بين الصحيحين للحميدي (٢١٢/٣، رقم ٢٧٤٨). وكذا عند المنذري.

(٢) أخرجه البخاري (٥١٩٦) واللفظ له، ومسلم (٢٧٣٦/٩٣). أورده المنذري في ترغيبه (٤٦٩٠).

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص (١٥٦٠).

(٤) الوسيط في (غ ب ر).

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص (١٥٦٠)، ودليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٤٤٩.

(٦) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٤٤٩.

(٧) سورة التوبة، آية: ٦٠.

وقد أشربت روح رسول الله ﷺ وقلبه حب الفقراء والمساكين، فكان كثير النفقات والصدقات عليهم، والحدب والرعاية لأمورهم، ولا يدخر عنهم مالا ولا عتاداً، بل كان يستدين في بعض الحالات لينفق على بعض ذوي الحاجات، وليشارك شعبه في آلامه واحتياجاته.

ولنتأمل آفاق الدلالة، ومنافذ المعنى في هذا الحديث الشريف، في ضوء موقف الإسلام من الطبقات الفقيرة، وذوي الحاجات، والمعاقين، وهو موقف العطف، والرعاية، والحث على العمل والحركة، والسعي على الرزق، واكتساب المال من الطرق المشروعة التي أحلها الله وشرعها للناس.

إن الحديث يبدأ بأداة من أدوات التكثير وهي "رب"، وهي ترد للتقليل أحيانًا، ولكنها في هذا الحديث للتكثير، وقال ابن هشام في "مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب"، ليس معناها التقليل دائمًا ، بل ترد للتكثير، كثيرًا، والحديث يلقي الضوء على فئة مهمة، من فئات المجتمع الإسلامي، وهذه الفئة ربما ورد ما يشير إليها في الحديثين السابقين، حيث أشار أحد الصحابة حين سأله الرسول ﷺ عن أحد الرجال، وهو من هذا الصنف، أشعث أغبر، فقال: "هذا حري، إن خطب أن لا ينكح، وإن شفع أن لا يُشفّع ... إلخ"، والمرأة التي كانت تَقُمُّ المسجد وماتت فلم يأبه بها أحد، ولم يبلغوا رسول الله ﷺ بخبرها.

وينصف الرسول ﷺ الرجل ويقول مفضلاً هذا الفقير المؤمن على الشريف الذي يُلبس إيمانه بظلم، ولا يعرف اليقين الطريق إلى قلبه "هذا خير من ملء الأرض مثل هذا".

وينصف المرأة المسكينة التي لقيت الإهمال ممن حولها: ويصلي عليها رسول الله ﷺ، ويعلم المسلمين جميعًا أن صلاته نور ينور القبور المظلمة.

وفي هذا الحديث يُرسي رسول الله ﷺ بعض دعائم المنهج الإسلامي، وذلك التصور في إعطاء الفقراء حقهم ومكانتهم في المجتمع، والصفات التي وسم بها ذلك الإنسان الضعيف المسكين هي ثلاث صفات وهي: (أشعث، أغبر، مدفوع بالأبواب) وهى صفات تصور المظهر الرث الذي ينفر الناس من ذلك الشخص، فصورة الأشعث

ترصد التغير والتلبد في شعر الإنسان، وعدم تناسق الهيئة مما يدل على التعب والإعياء وكأنه لا يجد مأوى يأويه، والوصف بـ "أغبر" يضيف معلمًا آخر من معالم البؤس والفاقة حيث يعلوه الغبار، ويهزمه الإجهاد والإعياء، والوصف الأخير "مدفوع بالأبواب" حيث يأنف منه الناس، ولا يرغبون في محادثته، ويتأففون من استقباله، وذلك لهيئته الرثة، وأثوابه البالية.

إن هذه الأوصاف لا تعني أن الرجل لا يُعنى بنظافة نفسه، ولا يصلي ولا يعرف أمور دينه: إنه يُعنى بكل هذا. ولكن لا يملك ما يقتات به، ولا ما يلبسه أو ما يحسن به مظهره، هذا الرجل الذي لا يلقى القبول في المجتمع كيف لا ينصفه ربه؟ وكيف يرفضه المنهج الإسلامي؟ إنه مقبول عند ربه لأنه ذو عمل صالح، وذو قلب سليم، وأمارة القبول: أن هذا الرجل إذا حلف يمينًا بحصول أمر طمعًا في كرم الله. لأوجد ذلك إكرامًا له بإجابة سؤاله وصيانته من الحنث في يمينه، وهذا لعظم منزلته عند الله تعالى، وإن كان حقيرًا عند الناس، وقيل معنى "أقسم": دعا، ومعنى "أبره": أجاب دعوته، كما يقول صاحب دليل الفالحين[(١)].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل الضعفاء.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة، التفاضل بالتقوى والعمل الصالح.

ثالثًا: من مهام الداعية: تنبيه المدعوين إلى ما قد يغفلون عنه.

رابعًا: من أهداف الدعوة: حفظ أقدار أهل الفضل.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل الضعفاء:

إن الضعيف إذا كان تقيًا فإنه يكون عند الله عظيم المنزلة، وإن كان عند الناس حقيرًا لا يلتفت إليه، وقد جاء هذا الحديث ليؤكد هذا المعنى، قال النووي: (ومدفوع بالأبواب أي لا قدر له عند الناس فهم يدفعونه عن أبوابهم ويطردونه عنهم احتقارًا له، لو أقسم على الله لأبره أي لو حلف على وقوع شيء أوقعه الله إكرامًا له بإجابة سؤاله

---

(١) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٤٤٩.

وصيانته من الحنث في يمينه، وهذا لعظم منزلته عند الله تعالى وإن كان حقيرًا عند الناس، وقيل معنى القسم هنا: الدعاء وإبراره إجابته والله أعلم)[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: ((تَحَاجَّتِ الجنة والنّار، فقالت النّار: أُوثِرْتُ بالمتكبِّرين والمتجبِّرين، وقالت الجنّة: فمالي لايَدخُلُني إلا ضُعَفاء الناس وسقَطُهم وعجزهم....))[٢].

قال ابن هبيرة: (أهل الجنة ضعفاء الناس سموا سقطًا على معنى أنهم لا يكرمون بصدر المجالس ولا يفتقدون إذا غابوا، ولا يعرفون إذا حضروا، وهذا هو الأغلب من صفة أهل الجنة)[٣].

قال ابن حجر: ("ضعفاء الناس وسقطهم" بفتحتين أي المحتقرون بينهم الساقطون من أعينهم، هذا بالنسبة إلى ما عند الأكثر من الناس، وبالنسبة إلى ما عند الله هم عظماء رفعاء الدرجات، لكنهم بالنسبة إلى ما عند أنفسهم -لعظمة الله عندهم وخضوعهم له- في غاية التواضع لله والذلة في عباده، فوصفهم بالضعف والسقط بهذا المعنى صحيح)[٤].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة، التفاضل بالتقوى والعمل الصالح:

إن الناس في الإسلام سواسية لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح، وهذا مما يستنبط من الحديث، فالرجل إذا أقسم على الله أبره، وذلك بسبب تقواه ورفعة مكانته عند الله. فحال هذا الرجل وحال أمثاله أنهم (عند الله عظماء رفعاء الدرجات، لكنهم بالنسبة على ما عند أنفسهم لعظمة الله عندهم وخضوعهم له - في غاية التواضع لله والذلة في عباده)[٥].

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٦٠.

(٢) أخرجه البخاري ٤٨٥٠، ومسلم ٢٨٤٦.

(٣) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٢٢٢/٧.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٦٢/٨، وانظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٦٥٩.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٦٢/٨.

وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾[(١)]، (أي: لا كرامة بالنسبة لتساوي الكل في البشرية المنتسبة إلى ذكر وأنثى، والامتياز بالشعوب والقبائل إنما يكون لأجل التعارف بالانتساب لا للتفاخر، فإنه من الرذائل، والكرامة لا تكون إلا بالاجتناب عن الرذائل الذي هو أصل التقوى. ثم كلما كانت التقوى أزيد رتبة كان صاحبها أكرم عند الله وأجلّ قدرًا)[(٢)]، (والتقوى معناها: مراعاة حدود الله تعالى أمرًا ونهيًا، والاتصاف بما أمرك أن تتصف به والتنزه عما نهاك عنه)[(٣)].

وقد جاءت أحاديث كثيرة تنصُّ على أن أفضل الناس وأكرمهم عند الله هو أتقاهم، من ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أيُّ النَّاسِ أكرُم؟ قال: ((أكرمُهم عندَ اللَّهِ أتْقاهُم...))[(٤)].

قال النووي: (أصل الكرم كثرة الخير، ومن كان متقيًا كان كثير الخير وكثير الفائدة في الدنيا وصاحب الدرجات العلى في الآخرة)[(٥)].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: قِيلَ لِرَسُولِ اللّهِ صلى الله عليه وسلم: أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: ((كُلُّ مَخْمُومِ الْقَلْبِ، صَدُوقِ اللِّسَانِ)). قَالُوا: صَدُوقُ اللِّسَانِ نَعْرِفُهُ. فَمَا مَخْمُومُ الْقَلْبِ؟ قَالَ: ((هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ. لاَ إِثْمَ فِيهِ وَلاَ بَغْيَ وَلاَ غِلَّ وَلاَ حَسَدَ))[(٦)].

ثالثًا- من مهام الداعية: تنبيه المدعوين إلى ما قد يغفلون عنه:

إن الداعية بما عنده من علم ينبّه المدعوين إلى ما قد يغفلون عنه، وذلك حتى يظهر

---

(١) سورة الحجرات، آية: ١٣.

(٢) محاسن التأويل ١٥/١٣٧.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٨/١٦/٣٤٥.

(٤) أخرجه البخاري ٤٦٨٩، ومسلم ٢٣٧٨.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٤٥٣.

(٦) أخرجه ابن ماجه ٤٢١٦، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجة ٣٣٩٧).

تأثير ذلك في حياتهم، وفي هذا الحديث ينبه النبي ﷺ المدعوين إلى أن بعض الناس قد يُحتقرون ويُستصغرون لكنهم أصحاب الدرجات العُلى عند الله.

وقد كان ﷺ ينبه على هذا كثيرًا إذا كان الموقف يستلزم ذلك، من ذلك قوله لأبي ذر رضي الله عنه: ((انْظُرْ، فَإِنَّكَ لَيْسَ بِخَيْرٍ مِنْ أَحْمَرَ وَلاَ أَسْوَدَ، إِلاَّ أَنْ تَفْضُلَهُ بِتَقْوَى)) [(١)].

وقال ﷺ كذلك: إِنَّ أَنْسَابَكُمْ هَذِهِ لَيْسَتْ بِسِبَابٍ عَلَى أَحَدٍ، كلكم بنو آدَمَ، طَفُّ الصَّاعِ لَمْ تَمْلَؤُهُ [(٢)]، لَيْسَ لأَحَدٍ فَضْلٌ إِلاَّ بِالدِّينِ، أَوْ عَمَلٍ صَالِحٍ، حَسْبُ الرَّجُلِ أَنْ يَكُونَ بَخِيلاً فَاحِشًا))[(٣)].

وقد قال النبي ﷺ: ((دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الأُمَمِ قَبْلَكُمْ: الْحَسَدُ وَالبَغْضَاءُ هِيَ الْحَالِقَةُ، لا أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعْرَ وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ))[(٤)].

قال الطيبي: "أي البغضاء تذهب بالدين كالموسى تذهب بالشعر؛ لأن البغضاء أكثر تأثيرًا في ثلمة الدين، وإن كانت نتيجة الحسد، وقوله: (لا أقول تحلق الشعر) تأكيد لإرادة غير المتعارف من قوله (الحالقة)"[(٥)].

رابعًا- من أهداف الدعوة: حفظ أقدار أهل الفضل:

هذا جلي في الحديث، فإن المدعوين إذا خوطبوا بهذا الحديث، عرفوا لأهل التقوى -وإن كانوا ضعفاء متضعفين- قدرهم وأنزلوهم منازلهم.

وقد حدث نحو هذا في عصر الصحابة رضي الله عنهم، فقد قال النبي ﷺ: (كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ[(٦)] لا يُؤْبَهُ لَهُ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ، مِنْهُمُ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ).

---

(١) أخرجه أحمد ١٥٨/٥ رقم ٢١٤٠٧، وقال محققو المسند: صحيح لغيره ٣٢١/٣٥.

(٢) قال السندي: قوله طف الصاع، هو ما قرب من ملئه.. أي: قريب بعضكم من بعض وكلكم في الانتساب إلى أب واحد بمنزلة واحدة في النقص والتقاصر عن غاية التمام وشبههم في نقصانهم بالمكيل الذي لم يبلغ أن يملأ المكيال، حاشية السندي على مسند أحمد ٥٤٩/٢٨.

(٣) أخرجه أحمد ١٥٨/٤ رقم ١٧٣١٣، ١٧٤٤٦، وقال محققو المسند: إسناده حسن ٦٥١/٢٨.

(٤) أخرجه الترمذي ٢٥١٠، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٠٣٨).

(٥) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٢١٤/٩.

(٦) الطِّمْر: الثوب الخَلَق البالي، الوسيط ٥٦٥.

(فلما كان يوم تستر، من بلاد فارس، انكشف الناس وقد أوجع المشركون في المسلمين، فقال له المسلمون: يا براء أقسم على ربك، فقال: أقسم عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم، وألحقتني بنبيك، فحمل وحمل الناس معه، فقتل مَرْزبان الزارة من عظماء الفرس، وأخذ سلبه، فانهزم الفرس، وقتل البراء)[1].

(١) أخرجه الحاكم ٢٩٢/٣، وصححه ووافقه الذهبي، وانظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٨٠، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ١١٦، والحديث أخرجه الترمذي ٣٨٥٤، مقتصرًا على المرفوع فقط، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٣٠٢٨).

الحديث رقم (٢٥٨)

٢٥٨- وعن أُسامَةَ ﵁ عن النبي ﷺ قال: «قُمْتُ عَلَى بابِ الْجنَّةِ، فَإِذَا عامَّةُ مَنْ دخَلَهَا الْمَسَاكِينُ، وأَصْحابُ الجَدِّ محْبُوسُونَ، غيْر أَنَّ أَصْحاب النَّارِ قَدْ أُمِر بِهِمْ إِلَى النَّارِ. وقُمْتُ عَلَى بابِ النَّارِ فَإِذَا عامَّةُ منْ دَخَلَهَا النِّسَاءُ» متفقٌ عليه[1].

«وَالجَدُّ» بفتحِ الجيم: الحظُّ والْغِنى. وقوله: «محْبُوسُونَ» أَيْ: لَمْ يُؤْذَنْ لهُمْ بَعْدُ فِي دُخُول الجَنَّةِ.

ترجمة الراوي:

أسامة بن زيد: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٩).

الشرح الأدبي

إن كلام رسول الله ﷺ يجري مجرى عمله، كله دين وتقوى وتعليم، وكله روحانية وقوة وحياة، وإن لأسلوبه نسقًا هادئًا هدوء اليقين، مبينًا بيان الحكمة، خالصًا خلوص السر، واقعًا من النفس المؤمنة موقع النعمة من شاكرها، كيف لا يكون كذلك؟ وهو أمر الروح العظيمة الموجهة بكلمات ربها ووحيه.

وهذا الحديث نوع من أساليب البيان النبوي المتعددة، وهو تقريب الصورة من باب الترغيب ونقل المشاهد كأنها ماثلة أمامنا، وشاخصة مشاهدة، وأسلوب المصطفى ﷺ يرشد إلى أن الجنة ونعيمها من الحقائق اليقينية التي لا تقبل الشك أو اللبس، فهي من التعبير عن المستقبل في قالب الزمن الماضي، لأن الأمر ثابت ويقيني، ولذلك يُرْوى الحديث في ثوب الحكاية، حيث يقول المصطفى ﷺ، "قمت على باب الجنة"، أي عاينت. وشاهدت الذين يدخلون الجنة، وذلك من باب التبشير وزرع اليقين في قلوب الطائعين المتقين، الذين أمروا أن يسارعوا إلى مغفرة من ربهم، وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين، الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ، والعافين عن الناس.

---

(١) أخرجه البخاري (٥١٩٦) واللفظ له، ومسلم (٢٧٣٦/٩٣). أورده المنذري في ترغيبه (٤٦٦٣).

وقال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾[(1)].

ويخبرنا الرسول ﷺ بأن عامة من دخل الجنة المساكين، وهم من ضعفة المسلمين، وهم الضعفاء المستضعفون في الدنيا، الصابرون على الضراء والشاكرون على السراء.

ولنتساءل ماذا وراء قوله: "وأصحاب الجد محبوسون"، والحبس هنا: يعني أنهم ممنوعون من دخول الجنة، فمنعهم ليس لمجرد أنهم أغنياء، لأن الإسلام لا يمقت الغني، ولا يركض وراء الفقر أو المسكنة والفاقة، وإنما لأن الأغنياء أصحاب الجد المذكورين في الحديث، صاروا محبوسين لمنعهم حقوق الله الواجبة للفقراء في أموالهم فحبسوا للحساب لما منعوه، فأما من أدى حقوق الله في ماله فإنه لا يحبس عن الجنة[(2)].

والمشهد الثاني من الحديث يأتي على النقيض من المشهد الأول: حيث يخبرنا رسول الله ﷺ بأمر أهل النار، ولفظ "غير" يفيد الاستثناء وفي رواية "إلا"، وما بعد الاستثناء يفيد أن المستثني منه وهو ما قبل "غير"، في دائرة القبول "المساكين" وأصحاب الجد المحبوسون الذين سيدخلونها بعد أن يوفوا حسابهم، وينالوا جزاءهم وعقابهم حسب ما ارتكبوه من ذنوب وآثام.

أما أصحاب النار فقد أُمر بهم إلى النار، ويختم الرسول الحديث بصيغة تماثل صيغة البداية ولكنها تتضاد معها في نوعية الجزاء، وتحديد المكان، ففي البداية يبشر ويقول: "قمت على باب الجنة" وفي النهاية ينذر ويحذر ويقول: "وقمت على باب النار، فإذا عامة من دخلها النساء"، وقال العلماء: فالنساء أكثر أهل النار ابتداءً وأكثر أهل الجنة انتهاءً؟ والحديث لا يتوعد النساء، ولا يحكم عليهن بدخول النار، فلن يدخل النار من النساء إلا من ماتت على الكفر أو العصيان والفسوق، والأكثرية

---

(١) سورة الزمر، آية: ٧٣.

(٢) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص٤٤٩.

في الحديث لا تعني دخول كل النساء النار، وإنما: لأن النساء عرضة للتفريط في بعض العبادات. والتهاون في بعض الشعائر وهن كثيرًا ما يتعرضن للفتن، والظروف الصحية والاجتماعية التي تبعدهن عن أداء العبادات في إتقان وجد وإخلاص.

وفي أحاديث كثيرة يوصي الرسول ﷺ خيرًا بالنساء ويقول: "استوصوا بالنساء خيرًا"[١]، ويقول: "اتقوا الله في الضعيفين اليتيم والنساء"[٢]، ويأمرنا الرسول ﷺ باختيار ذات الدين حيث يقول: "فاظفر بذات الدين تربت يداك"[٣].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل الفقراء والمساكين.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: أهل الجنة وأهل النار.

ثالثًا: من أصناف المدعوين: النساء.

رابعًا: من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل الفقراء والمساكين:

إن عامة أهل الجنة من الفقراء والمساكين، يتضح هذا من قوله ﷺ: (قمت على باب الجنة فإذا عامة من دخلها المساكين) قال النووي: (في هذا الحديث تفضيل الفقر على الغنى، وفيه فضيلة الفقراء والضعفاء)[٤].

وجاء في حديث عمران بن الحصين رضي الله عنه: ((اطَّلَعْتُ في الجنة فرأيتُ أكثرَ أهلِها الفُقَراءَ، واطَّلعتُ في النار فرأيتُ أكثرَ أهلِها النساءَ))[٥].

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: بينما أنا مع رسول الله ﷺ في المسجد إذ قال: ((انْظُرْ

---

(١) أخرجه البخاري ٣٣٣١، ومسلم ١٤٦٨.

(٢) أخرجه أحمد٢/٤٣٩ رقم ٩٦٦٦، وقال محققو المسند إسناده قوي، ١٥/٤١٦.

(٣) أخرجه البخاري ٥٠٩٠.

(٤) شرح مسلم ١٦٠٤، وانظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١/٢٧٨.

(٥) أخرجه البخاري ٣٢٤١، وهذا لفظه ومسلم ٢٧٣٨ باختصار، وانظر: حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، ابن القيم الجوزية ص ٩٦ - ٩٧، فقد ساق أحاديث كثيرة في هذا المعنى.

أَرْفَعَ رَجُلٍ فِي المَسْجِدِ فِي عَيْنَيْكَ. فَنَظَرْتُ، فَإِذَا رَجُلٌ فِي حُلَّةٍ جَالِسٌ يُحَدِّثُ قَوْمًا، فَقُلْتُ: هذَا؟ قال: انْظُرْ أَوْضَعَ رَجُلٍ فِي المَسْجِدِ فِي عَيْنَيْكَ. قَالَ: فَنَظَرْتُ فَإِذَا رُوَيْجِلٌ مِسْكِينٌ فِي ثَوْبٍ لَهُ خَلَقٍ، قُلْتُ : هذَا ، قَالَ النَّبِيُّ: هذَا خَيْرٌ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ قَرار الأَرْضِ مِثْلَ هذَا))(١).

وقال عبدالرحمن الحُبُلي: ((جَاءَ ثَلاَثَةُ نَفَرٍ إِلَىٰ عَبْدِ اللّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، وَأَنَا عِنْدَهُ، فَقَالُوا: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ إِنَّا، وَاللّهِ مَا نَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ. لاَ نَفَقَةٍ، وَلاَ دَابَّةٍ، وَلاَ مَتَاعٍ. فَقَالَ لَهُمْ: مَا شِئْتُمْ. إِنْ شِئْتُمْ رَجَعْتُمْ إِلَيْنَا فَأَعْطَيْنَاكُمْ مَا يَسَّرَ اللّهُ لَكُمْ. وَإِنْ شِئْتُمْ ذَكَرْنَا أَمْرَكُمْ لِلسُّلْطَانِ. وَإِنْ شِئْتُمْ صَبَرْتُمْ. فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ يَقُولُ: إِنَّ فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ يَسْبِقُونَ الأَغْنِيَاءَ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِلَىٰ الْجَنَّةِ، بِأَرْبَعِينَ خَرِيفًا))(٢)، قال النووي: (أي أربعين سنة)(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: ((يَدْخُلُ فُقَرَاءُ الْمُؤْمِنِينَ الْجَنَّةَ قَبْلَ أَغْنِيَائِهِمْ بخمسمائة عَامٍ))(٤).

قال ابن القيم: (لا يلزم من سبقهم لهم في الدخول ارتفاع منازلهم عليهم، بل قد يكون المتأخر أعلى منزلة وإن سبقه غيره في الدخول، والدليل على هذا أن من الأمة من يدخل الجنة بغير حساب -وهم السبعون ألفًا- وقد يكون بعض من يحاسب أفضل من أكثرهم، والغنيُّ إذا حوسب على غناه، فوُجد قد شكر الله تعالى فيه، وتقرب إليه بأنواع البر والخير والصدقة والمعروف، كان أعلى درجة من الفقير الذي سبقه في الدخول ولم يكن له تلك الأعمال، ولا سيما إذا شاركه الغني في أعماله وزاد عليه فيها، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً - فالمزية مزيتان. مزية سبق ومزية رفعة، وقد يجتمعان وينفردان فيحصل لواحد السبق والرفعة...)(٥).

---

(١) أخرجه أحمد ١٥/٥ رقم ٢١٣٩٥، وقال محققو المسند: إسناده صحيح ٣١٤/٣٥.

(٢) أخرجه مسلم ٢٩٧٩.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٧١٥.

(٤) أخرجه الترمذي ٢٣٥٣، وابن ماجه ٤١٢٢، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٩١٩).

(٥) حادي الأرواح ٩٢ - ٩٣.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: أهل الجنة وأهل النار:

إن الإنسان بعد هذه الحياة سيؤول مصيره إما إلى الجنة وإما إلى النار، وأهل الجنة لهم صفات كما أن لأهل النار صفات، ومن ثمّ كان على الداعية أن يُبيّن للمدعوين أهل الجنة وأهل النار، ولقد أخبر النبي ﷺ عن عامة أهل الجنة: "فإذا عامة من دخلها المساكين" كما أخبر أن عامة أهل النار "النساء"، وقد جاءت آيات وأحاديث كثيرة تذكر أهل الجنة وأهل النار، من ذلك حديث عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((أَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلاَثَةٌ: ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ. وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ. وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ. وَأَهْلُ النَّارِ خَمْسَةٌ: الضَّعِيفُ الَّذِي لاَ زَبْرَ لَهُ[1]، الَّذِينَ هُمْ فِيكُمْ تَبَعًا لاَ يَتْبَعُونَ[2] أَهْلاً وَلاَ مَالاً. وَالْخَائِنُ الَّذِي لاَ يَخْفَى لَهُ طَمَعٌ -وَإِنْ دَقَّ- إِلاَّ خَانَهُ. وَرَجُلٌ لاَ يُصْبِحُ وَلاَ يُمْسِي إِلاَّ وَهُوَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ)). وَذَكَرَ الْبُخْلَ وَالْكَذِبَ ((وَالشِّنْظِيرُ الْفَحَّاشُ))[3].

قال ابن رجب: (في هذا الحديث جعل النبي ﷺ أهل الجنة ثلاثة أصناف: أحدها: ذو السلطان المقسط المتصدق، وهو من كان له سلطان على الناس، فسار في سلطانه بالعدل، ثم ارتقى درجة الفضل. والثاني: الرحيم الرقيق القلب الذي لا يخصُّ برحمته قرابته بل يرحم المسلمين عمومًا. فتبيّن أن القسمين أهل الفضل والإحسان. والثالث: العفيف المتعفف ذو العيال، وهو من يحتاج إلى ما عند الناس فيتعفف عنهم. وهذا أحد نوعي الجود. أعني العفة عما في أيدي الناس لا سيما مع الحاجة.

وقد وصف الله في كتابه أهل الجنة ببذل الندى وكف الأذى، ولو كان الأذى بحق فقال: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ

---

(١) زبر بفتح الزاي وإسكان الموحدة: أي لا عقل له يزبره ويمنعه مما لا ينبغي. شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٦٦٦.

(٢) بالعين المهملة مخفف [كذا] ومشددة من الاتباع. وفي بعض النسخ: (يبتغون) بالموحدة والغين المعجمة: أي: لا يطلبون. شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٦٦٦.

(٣) أخرجه مسلم ٢٨٦٥.

لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾(١).

وأما أهل النار فقد قسمهم النبي ﷺ في هذا الحديث خمسة أقسام:

الصنف الأول: الضعيف الذي لا زبر له، ويعني بالزبر: القوة والحرص على ما ينتفع به صاحبه في الآخرة من التقوى والعمل الصالح.. وهذا القسم شر أقسام الناس ونفوسهم ساقطة، لأنهم ليس لهم همٌ في طلب الدنيا ولا الآخرة، وإنما همّة أحدهم شهوة بطنه وفرجه كيف اتفق له، وهو تبع للناس خادم لهم أو طوّاف عليم سائل لهم.

والصنف الثاني: الخائن الذي لا يخفى له طمع، وإن دقّ إلا خانه، أي: يعني لا يقدر على خيانة ولو كانت حقيرة يسيرة إلا بادر إليها واغتنمها.

الصنف الثالث: المخادع الذي دأبه صباحًا ومساء مخادعة للناس على أهليهم وأموالهم، والخداع من أوصاف المنافقين كما وصفهم الله تعالى بذلك، والخداع معناه: إظهار الخير وإضمار الشر لقصد التوصل إلى أموال الناس وأهاليهم والانتفاع بذلك، وهو من جملة المكر والحيل المحرمة.

الصنف الرابع: الكذب والبخل، وكلاهما ينشأ عن الشح وهو شدة حرص الإنسان على ما ليس له من الوجوه المحرمة، وينشأ عنه البخل وهو إمساك الإنسان ما في يده والامتناع من إخراجه في وجوهه التي أمر بها، وينشأ عن الشح أيضًا الكذب والمخادعة والتحيل على ما لا يستحقه الإنسان بالطرق الباطلة المحرمة.

الصنف الخامس: الشنطير وقد فسّر بالسيىء الخلق، والفحاش هو الفاحش المتفحش، وهو الذي يفحش في منطقه، ويستقبل الرجال بقبيح الكلام من السب ونحوه ويأتي كلامه بالسخف وما يفحش ذكره)(٢).

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان ١٣٣ - ١٣٤.

(٢) التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار ٢٦١ - ٢٦٥ بتصرف يسير.

ثالثًا- من أصناف المدعوين: النساء:

إن المرأة نصف المجتمع، وهي صانعة رجال المجتمع ونساءه، لذا اهتمت الدعوة الإسلامية بها اهتمامًا كبيرًا جدًا، وبينت لهن الأخطاء التي يقعن فيها وتسبب لهن دخول النار، فقد ذكر النبي ﷺ أن عامة من يدخل النار النساء. وقد جاء في الأحاديث أن النبي ﷺ كان يأتي النساء فيعظهن ويدعوهن، كما أخبر ﷺ عن سبب كثرة الداخلات منهن النار فقال: ((أُرِيتُ النارَ، فإذا أكثرُ أهلِها النِّساءُ يَكْفُرْنَ)). قيل: أيَكفُرنَ بالله؟ قال: ((يَكْفُرْنَ العَشِيرَ، ويَكْفُرْنَ الإِحْسانَ، لَوْ أحسنتَ إلى إِحداهُنَّ الدَّهرَ، ثمَّ رأتْ منكَ شَيئًا، قالتْ: ما رأيتُ مِنكَ خَيْرًا قَطُّ))[1].

قال ابن حجر: (لفظ العشير المراد به هنا: الزوج... فيه [أي في الحديث] إشارة إلى وجود سبب التعذيب لأنها بذلك كالمصرة على كفر النعمة، والإصرار على المعصية من أسباب العذاب)[2].

وقد كان النبي ﷺ يأمر المؤمنات في يوم العيد بالصدقة [3] حتى لا يكنّ من أهل النار، قال جابر بن عبدالله رضي الله عنهما: شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللّهِ الصَّلاَةَ يَوْمَ الْعِيدِ. فَبَدَأَ بِالصَّلاَةِ قَبْلَ الْخُطْبَةِ. بِغَيْرِ أَذَانٍ وَلاَ إِقَامَةٍ. ثُمَّ قَامَ مُتَوَكِّئًا عَلَىٰ بِلاَلٍ. فَأَمَرَ بِتَقْوَى اللّهِ. وَحَثَّ عَلَىٰ طَاعَتِهِ. وَوَعَظَ النَّاسَ. وَذَكَّرَهُمْ. ثُمَّ مَضَىٰ. حَتَّىٰ أَتَى النِّسَاءَ. فَوَعَظَهُنَّ وَذَكَّرَهُنَّ. فَقَالَ: ((تَصَدَّقْنَ. فَإِنَّ أَكْثَرَكُنَّ حَطَبُ جَهَنَّمَ)) فَقَامَتِ امْرَأَةٌ مِنْ سِطَةِ النِّسَاءِ[4] سَفْعَاءُ الْخَدَّيْنِ[5]. فَقَالَتْ: لِمَ؟ يَا رَسُولَ اللّهِ قَالَ: ((لأَنَّكُنَّ تُكْثِرْنَ الشَّكَاةَ. وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ)) قَالَ: فَجَعَلْنَ يَتَصَدَّقْنَ مِنْ حُلِيِّهِنَّ. يُلْقِينَ فِي ثَوْبِ بِلاَلٍ مِنْ أَقْرِطَتِهِنَّ وَخَوَاتِيمِهِنَّ[6].

---

(١) أخرجه البخاري ٢٩، ومسلم ٩٠٧.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٩/٢١٠.

(٣) انظر: صحيح مسلم ٨٨٤ – ٨٨٩.

(٤) أي: جالسة في وسطهن، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٥٧٥.

(٥) السفع: اللون الأسود مشربًا بحمرة فهو أسفع وهي سفعاء، الوسيط في (س ف ع).

(٦) أخرجه مسلم ٨٨٥، ٤.

قال ابن حجر: (قال القرطبي: إنما كان النساء أقل ساكني الجنة لما يغلب عليهن من الهوى، والميل إلى عاجل زينة الدنيا، والإعراض عن الآخرة لنقص عقلهن وسرعة انخداعهن)[١].

رابعًا- من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب:

إن من أساليب الدعوة المستنبطة من هذا الحديث: الترغيب والترهيب من خلال ذكره ﷺ الجنة والنار، قال ابن حبان: "اطِّلاعُه إلى الجَنَّةِ والنار معًا كان بجسمِه ونظرِه العِيان، تفضُّلا من اللَّهِ جَلَّ وعلا، وفَرْقًا فرقَ به بينه وبينَ سائرِ الأنبياءِ، فأَمَّا الأَوْصافُ التي وصفَ أنه رأى أهلَ الجنة بها، وأهلَ النارِ بها، فهي أوصافٌ صُوِّرَت له ﷺ لِيَعْلَمَ بها مقاصدَ نهايةِ أسباب أمته في الدارين جميعًا، ليُرَغِّبَ أمتَه بأخبارِ تلك الأَوصافِ لأهل الجنةِ ليرغَبُوا، ويُرَهِّبَهم بأوصافِ أهل النار لِيَرْتَدِعُوا عن سلوكِ الخِصال التي تُؤَدِّيهم إليها"[٢].

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١/٤٢٧.

(٢) صحيح ابن حبان ١٦/٤٩٥.

الحديث رقم (٢٥٩)

٢٥٩- وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي المَهْدِ إلاّ ثَلاثَةٌ: عِيسى ابْنُ مرْيَمَ، وصَاحِب جُرَيْجٍ، وكَانَ جُرَيْجٌ رَجُلاً عَابِدًا، فَاتَّخَذَ صَوْمَعةً فكانَ فِيهَا، فَأَتَتْهُ أُمُّهُ وَهَو يُصلي فَقَالَتْ: يا جُرَيْجُ، فقال: يَا رَبِّ أُمِّي وَصَلاتِي فأَقبلَ عَلَى صلاتِهِ فَانْصرفَتْ، فلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَتْهُ وهُو يُصَلّي، فقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ، فقال: أيْ رَبِّ أُمِّي وَصَلاتِي. فأَقْبَلَ عَلَى صَلاتِهِ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَد أَتَتْهُ وَهُو يُصَلّي فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ فقال: أيْ رَبِّ أُمِّي وَصَلاتِي، فَأَقْبَلَ عَلَى صَلاتِهِ، فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ لا تُمِتْه حَتَّى ينْظُرَ إلَى وُجُوه المومِسَاتِ. فَتَذَاكَرَ بَنُو إسْرائِيلَ جُرَيْجًا وَعِبَادَتَهُ، وَكَانَتِ امْرَأَةٌ بغِيٌّ يُتَمثَّلُ بِحُسْنِهَا، فَقَالَتْ: إنْ شِئْتُمْ لأَفْتِنَنَّهُ، فتعرَّضَتْ لَهُ، فَلَمْ يلْتَفِتْ إلَيْهَا، فأَتَتْ رَاعِيًا كَانَ يَأْوي إلَى صوْمعَتِهِ، فَأَمْكَنَتْهُ مِنْ نفسها فوقَع عليْهَا. فَحملَتْ، فَلَمَّا وَلدتْ قَالَتْ: هُوَ[1] جُرَيْجٌ، فَأَتَوْهُ فاسْتنزلُوه وهدَمُوا صوْمعَتَهُ، وَجعَلُوا يَضْرِبُونهُ، فقال: ما شَأْنُكُمْ؟ قالوا: زَنَيْتَ بِهذِهِ الْبغِيِّ فَولَدتْ مِنْك. قال: أَيْنَ الصَّبِيُّ؟ فَجاءُوا بِهِ فقال: دَعُونِي حَتَّى أُصَلّي فَصلىَّ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَتَى الصَّبِيَّ فَطَعنَ فِي بطْنِهِ وقالَ: يا غُلامُ مَنْ أَبُوكَ؟ قال: فُلانٌ الرَّاعِي، فَأَقْبلُوا علَى جُرَيْجٍ يُقَبِّلُونَهُ وَيَتَمَسَّحُونَ بِهِ وقَالُوا: نَبْنِي لَكَ صوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ قال: لا، أَعِيدُوهَا مِنْ طِينٍ كمَا كَانَتْ، ففَعَلُوا.

وَبيْنَا صَبِيٌّ يرْضَعُ مِنْ أُمِّهِ، فَمَرَّ رَجُلٌ رَاكِبٌ عَلَى دابَّةٍ فَارِهَةٍ وَشَارَةٍ حَسَنَةٍ فَقالت أُمُّهُ: اللَّهُمَّ اجْعَل ابْنِي مثْلَ هَذَا، فَتَرَكَ الثَّدْيَ وَأَقبَلَ إلَيْهِ فَنَظَرَ إلَيْهِ فقال: اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْنِي مِثْلهُ، ثُمَّ أَقبَلَ عَلَى ثَدْيِهِ فَجعَلَ يَرْتَضِعُ» فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إلَى رسول اللّه ﷺ وَهُوَ يحْكِي ارْتِضَاعَهُ بِأُصْبُعِه السَّبَّابَةِ فِي فِيهِ[2]، فَجَعلَ يَمُصُّهَا، قال: «وَمَرُّوا بِجَارِيَةٍ وَهُمْ يَضْرِبُونَهَا، وَيَقُولُونَ: زَنَيْتِ سَرَقْتِ، وَهِي تَقُولُ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ. فقالت أُمُّهُ: اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ ابْنِي مِثْلَهَا، فَتَرَكَ الرَّضَاعَ وَنَظَرَ إلَيْهَا. فقال: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا،

---

(١) عند مسلم زيادة: (من).

(٢) لفظ مسلم: (فمه)، والمثبت لفظ الحميدي في جمعه (١٨٧/٣، رقم ٢٤١٦).

فَهُنالِكَ تَرَاجَعَا الحَدِيثَ[١]، فقالَت: مَرَّ رَجُلٌ حَسَنُ الهَيْئَةِ فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ ابْنِي مِثْلَهُ فَقُلْتَ: اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، وَمَرُّوا بِهَذِهِ الأَمَةِ وَهُم يَضْرِبُونَهَا وَيَقُولُونَ: زَنَيْتِ سَرَقْتِ، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ ابْنِي مِثْلَهَا فَقُلْتَ: اللَّهُمَّ اجعَلْنِي مِثْلَهَا؟، قَالَ: إِنَّ ذلِكَ[٢] الرَّجُلَ كَانَ جَبَّارًا فقلت: اللَّهُمَّ لا تجعَلْنِي مِثْلَهُ، وإِنَّ هَذِهِ يَقُولُونَ لها زَنَيْتِ، وَلَمْ تَزْنِ، وَسَرقْت، وَلَمْ تَسْرِقْ، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا» متفق عليه[٣].

«والمُومِسَاتُ»: بضَمِّ الميم الأُولَى، وإِسكان الواو وكسر الميم الثانيةِ وبالسين المهملَةِ وهُنَّ الزَّوانِي. والمُومِسةُ: الزانية.

وقوله: «دابَّةٌ فَارِهَـة» بِالْفَاءِ: أَي حاذِقَةٌ نَفيسةٌ. «الشَّارَةُ» بِالشِّينِ المعْجمةِ وتَخْفيفِ الرَّاءِ: وَهِي الجمالُ الظَّاهِرُ فِي الهيْئَةِ والمَلْبسِ. ومعْنى «تراجعا الحديث» أَيْ: حدَّثَتِ الصَّبِي وحدَّثَهَا، والله أعلم.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

الصَّوْمَعُة: بيت العبادة عند النصارى ومُتَعَبدُ الناسك[٤].

المومسات: الزواني[٥].

بغيٌّ: المرأة الفاجرة[٦].

طعن في بطنه: وخزه برأس أصابعه[٧].

---

(١) عند مسلم زيادة: (حلقى)، وفي نسخة: (فقالت: يا بني حلقى) ولم يوردها الحميدي في جمعه.

(٢) لفظ مسلم: (ذاك) والمثبت لفظ الحميدي في جمعه.

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٣٦)، ومسلم (٨/٢٥٥٠) واللفظ له، وقال الحميدي في جمعه (١٨٧/٣ رقم ٢٤١٦): لفظ حديث مسلم عن زهير بن حرب، وهو أتمُّ، وأخرجه البخاري مختصرًا.

(٤) الوسيط (٥٢٣)، ومعجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ص (٢٥٠).

(٥) رياض الصالحين (١٥٣).

(٦) الوسيط في (ب غ ي).

(٧) الوسيط في (ط ع ن).

دابة فارهة: حاذقة نفيسة[١].

الشارةُ: الجمال الظَّاهِرُ في الهيئةِ والملبسِ[٢].

فيه: فمه[٣].

تراجعا الحديث: حدثت الصبي وحدثها[٤].

الأمة: المرأة المملوكة خلاف الحرة[٥].

الشرح الأدبي

كان رسول الله ﷺ أول من سلك نهج القرآن الكريم، وترسم خطاه في توظيف القصة من أجل نشر الوعي وتعميق مبادئ الإسلام في النفوس، حيث نجد رسول الله ﷺ يتخذ من القصة أسلوبًا مهمًا من أساليب الدعوة، يحملها قيم الإسلام ومعانيه، ويربي عليها الصحابة من رعيل الإسلام الأول، ويوجههم من خلالها إلى استلهام هذا الدين عقيدة في الفكر والتصور، وطريقه في السلوك وواقع الحياة[٦].

وهذا الحديث الشريف من نصوص القصص النبوي: وهو قصة تاريخية تتمثل فيها مواعظ ودروس ومعجزات وآيات، وعبر ومفارقات تدعو للتأمل والدهشة، وتغرس في النفوس الإيمان بالله عز وجل والتوكل عليه، وتعطي للضعفاء حقهم، وترشد الناس إلى عدم الانخداع بالمظاهر، وعدم الافتتان بالأشكال.

والقصة تبدأ بالإجمال ثم التفصيل: فمقدمتها تمهيدية تشويقية: حيث أخبر الرسول ﷺ عن المتكلمين في المهد من بني إسرائيل، وهم أكثر من ثلاثة في غير بني إسرائيل، ولم يحك قصة عيسى لأنها ذكرت في القرآن الكريم في سورة مريم، أما

---

(١) رياض الصالحين ١٥٣.

(٢) المرجع السابق ١٥٣.

(٣) الوسيط (٧٠٧).

(٤) رياض الصالحين ١٥٣.

(٥) الوسيط ٢٨.

(٦) القصص في الحديث النبوي، د. محمد بن حسن الزير.

صاحب جريج: فهو الصبي الذي أنطقه الله عز وجل لكي يبرئ ذلك العابد الزاهد، "جريج" من التهمة.

والقصة في صيغتها القصصية تتسم بطابع السرد والحكي المباشر، وصولاً إلى الحكمة والموعظة التي سيقت من أجلها، وأهم ظاهرة أسلوبية تضفي على هذه القصة الطابع السردي: تكرار الفعل "كان" و"كانت" كثيرًا، وكذلك الفعل: قال، و"قالت"، وكذلك التركيز على صيغة الفعل الماضي في كل أجزاء هذه القصة الحديثية، ولم يرد الفعل المضارع أو الأمر إلا قليلا في سياق الصيغة والموقف المطلوب، مثل: "جعلوا يضربونه"، أو في صيغة الدعاء.

وتكرار النداء الصادر من الأم "يا جريج"، وتكرار الدعاء والنداء من جريج إلى ربه "يا رب": وقيل: "أي ربي"، وهو نداء للقريب، وقد تكرر النداء والدعاء ثلاث مرات، وهذه الصيغ الأسلوبية ترصد انفعال الشخصيات وتلاحق الأحداث، وكذلك العطف بالفاء في أغلب جمل الحديث في كل أجزائه وأحداثه مثل قوله: (فأتت راعيًا، فأمكنته من نفسها فوقع عليها فحملت، فلما ولدت قالت: هو من جريج: فأتوه فاستنزلوه... وهدموا صومعته)، هذا التكثيف في العطف بالفاء يعلن عن تلاحق أحداث القصة وتتابعها، وعن شدة الانفعال، وعدم التروي لدى بعض أشخاص القصة.

والقصة في هذا الحديث: قد اكتملت عناصرها الفنية حيث تضمنت التشويق في بدايتها عن طريق الإجمال ثم التفصيل، وكذلك تضمنت الأحداث المتتابعة التي تتمثل في استغراق جريج في العبادة، وعدم انتباهه لنداء أمه المتكرر، ثم تغير موقف الأم ودعائها على ابنها لأنه أهمل في حقها ولم يبرها، ثم مؤامرة البغي على جريج واتهامها له بالزنا وبأن الطفل ابنه، ثم ثورة الناس عليه وهدم صومعته، ثم إظهار براءته على لسان الطفل الذي تكلم في المهد، ثم الشواهد على كياسة الصبي وفراسته، وعدم انخداعه بالمظاهر والصور البراقة، وهو مازال طفلاً في المهد، وذلك درس للكبار قبل الصغار الذين يعقلون كثيرًا من الأمور.

وشخصيات القصة هنا تعد نماذج واقعية من الحياة، ومنها ذات الطابع الخير،

والسلوك الإيماني: وهم: جريج، والصبي، ومنها شخصيات واقعية متأرجحة بين الخير والشر مثل: شخصية الأم التي دعت على ابنها العابد أن يريه الله وجه المومسات، وبنو إسرائيل الذين وافقوا البغي على مؤامرتها؛ والبغي هي نموذج الشر المهلك، والفساد المستشري.

ومنها شخصيات رمزية سيقت للموعظة والتنبيه على ضرورة التفكير الدقيق العميق، والابتعاد عن التعلق بالقشور والطلاء، وشخصية الرجل ذي المظهر الحسن الذي رفض الصبي أن يكون مثله، وشخصية الجارية البريئة المتهمة بالسرقة والزنا، ورغبة الصبي في أن يكون مثلها، والأم كانت ضد رغبته في النموذج الأول والثاني، لأنها تتعامل مع ظواهر الأمور وتغفل عن أسرارها.

وفي القصة كثير من العقد المتمثلة في دعاء الأم على ابنها، وفي إغراء المومس لجريج، وفي اتهامها له بالزنا.

ولكن الحل، أو لحظة التنوير والفرج تشرق حينما يتكلم الصبي: ويعلن براءة ذلك العابد الزاهد، بفضل رعاية الله وحفظه له.

والقصة تفيض بالمفارقات العجيبة في المواقف وتطور بعض الأحداث: ومنها، رفض جريج أن تكون صومعته من ذهب بعد هدمها، وبعد أن اكتشف القوم براءته، وكذلك رفض الصبي أن يكون حسن الهيئة لأن الرجل جبار، ورغبته في أن يكون مثل الجارية المتهمة لأنها، لم تزن ولم تسرق، والمفارقة التي تعد معجزة هي تكلم هذا الصبي في المهد!!!

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم من ناداه أبوه أو أمه وهو في الصلاة كيف يفعل، وقد ذكر الفقهاء أن من أتاه أبوه ليكلمه وهو في نافلة فليخفف ويسلم ويكلمه، وروي نحوه للنبي ﷺ، وكذا إذا نادته أمه فليبتدرها بالتسبيح ويخفف ويسلم، وظاهره أنه لا يجوز له القطع وهو الظاهر، لأنه وإن كانت إجابة أبيه وأمه واجبة، فإتمام النافلة أيضًا واجب، ويمكن الجمع بينهما بالمبادرة بالتسبيح ورفع الصوت به، وتخفيف ما هو

فيه، إلا أن لا يمكن ذلك البتة، فيتعارض حينئذ واجبات يقدم أو كدهما، ولا شك أن إجابة الوالدين أوكد، لوجوبه بالإجماع، وللخلاف في وجوب إتمام النافلة[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: عظم بر الوالدين.

ثانيًا: من فقه الداعية: ترتيب الأولويات.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: كيد النساء.

رابعًا: من صفات الداعية: وثوقه بما عند الله والالتجاء إليه.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: كرامات الأولياء.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: الابتلاء والحكمة منه.

سابعاً: من واجبات المدعو: عدم الحكم بظواهر الأمور.

ثامنًا: من موضوعات الدعوة: دلائل القدرة الإلهية.

تاسعاً: من وسائل الدعوة: القصة.

عاشرًا: من أساليب الدعوة: القصر.

أولاً- من موضوعات الدعوة: عظم بر الوالدين:

إن الوالدين فضلهما عظيم، لذا كان برهما من أوجب الواجبات على الإنسان، كما يتضح من قصة جُريج رضي الله عنه قال النووي: (فيه قصة جريج رضي الله عنه وأنه آثر الصلاة على إجابتها -أي أمه- فدعت عليه فاستجاب الله لها. قال العلماء: هذا دليل على أنه كان الصواب في حقه إجابتها، لأنه كان في صلاة نفل، والاستمرار فيها تطوع لا واجب، وإجابة الأم وبرها واجب وعقوقها حرام، وكان يمكنه أن يخفف الصلاة ويجيبها ثم يعود لصلاته، فلعله خشي أنها تدعوه إلى مفارقة صومعته والعود إلى الدنيا ومتعلقاتها وحظوظها، وتضعف عزمه فيما نواه وعاهد عليه)[2].

---

(١) مواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد المغربي ٢/٣٧، والتمهيد ٢١/١٠٦، ومختصر اختلاف العلماء ١/٣١٠.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٣١.

وقال ابن حجر: (وفي الحديث أيضًا عظم بر الوالدين وإجابة دعائهما ولو كان الولد معذورًا)[١].

جاء في الموسوعة الفقهية: (اهتم الإسلام بالوالدين اهتمامًا بالغًا. وجعل طاعتهما والبر بهما من أفضل القربات. ونهى عن عقوقهما وشدد في ذلك غاية التشديد. كما ورد في القرآن المجيد في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾[٢]، فقد أمر سبحانه بعبادته وتوحيده وجعل بر الوالدين مقرونًا بذلك، والقضاء هنا: بمعنى الأمر والإلزام والوجوب.

كما قرن شكرهما بشكره في قوله سبحانه: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾[٣]. فالشكر لله على نعمة الإيمان، وللوالدين على نعمة التربية. وقال سفيان ابن عيينة: من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله تعالى. ومن دعا لوالديه في أدبار الصلوات فقد شكرهما.

قال القاسمي: (أهم الواجبات بعد التوحيد إذن إكرامهما والقيام بحقوقهما)[٤].

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ: أي الأعمال أحب إلى الله عز وجل؟ قال: «الصلاة على أوقاتها» قال: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين» قال: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله»[٥]. فأخبر ﷺ أن بر الوالدين أفضل الأعمال بعد الصلاة التي هي أعظم دعائم الإسلام.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٥٦/٦.

(٢) سورة الإسراء، الآيتان: ٢٣، ٢٤.

(٣) سورة لقمان، آية: ١٤.

(٤) محاسن التأويل ٢١٨/١٠.

(٥) أخرجه البخاري ٥٢٧، ومسلم ٨٥.

وقدم في الحديث بر الوالدين على الجهاد، لأن برهما فرض عين يتعين عليه القيام به، ولا ينوب عنه فيه غيره. فقد قال رجل لابن عباس رضي الله عنهما: إني نذرت أن أغزو الروم، وإن أبوي منعاني. فقال: أطع أبويك، فإن الروم ستجد من يغزوها غيرك.

والجهاد في سبيل الله فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين، وبر الوالدين فرض عين، وفرض العين أقوى من فرض الكفاية.

وفي خصوص ذلك أحاديث كثيرة، منها ما رواه عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فاستأذنه في الغزو، فقال: «أَحَيٌّ والداك؟» قال: نعم. قال: «ففيهما فجاهد»[1].

قال ابن حجر: (في الحديث فضل بر الوالدين وتعظيم حقهما وكثرة الثواب على برهما)[2].

وفي سنن أبي داود عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: جئت أبايعك على الهجرة، وتركت أبويّ يبكيان، فقال: ((ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما))[3].

وفيه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلاً هاجر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليمن. فقال: «هل لك أحد باليمن؟» قال: أبواي. قال: «أذنا لك؟» قال: لا. قال: «فارجع فاستأذنهما فإن أذنا لك فجاهد، وإلا فبرهما»[4].

هذا إذا لم يكن النفير عامًا. وإلا أصبح خروجه فرض عين، إذ يتعين على الجميع الدفع والخروج للعدو.

وإذا كان بر الوالدين فرض عين، فإن خلافه يكون حرامًا، مالم يكن عن أمر بشرك أو ارتكاب معصية، حيث لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق[5].

---

(١) أخرجه البخاري ٣٠٠٤، ومسلم ٢٥٤٩.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٦٤/٦.

(٣) أخرجه أبو داود ٢٥٢٨، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢٢٠٥).

(٤) أخرجه أبو داود ٢٥٣٠، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢٢٠٧).

(٥) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٦٤/٣٢-٦٥ بتصرف.

ثانيًا: من فقه الداعية: ترتيب الأولويات:

إن ترتيب الأولويات من حسن فقه الداعية، فهي تمكنه من تحقيق الثمار المرجوة، وإلا تعرضت النتائج للخلل، وربما في بعض الأحيان جاءت النتائج عكسية لما كان يهدف إليه الداعية، كما في هذا الحديث: أن جريجًا قدم صلاة النفل على إجابة أمه وهى واجبة، فعاقبه الله بأن استجاب دعاء أمه. قال ابن حجر: وفيه (أي في الحديث) أن الأمرين إذا تعارضا بدئ بأهمهما"[١].

وقال ابن هبيرة: (إن جريجًا كان عبدًا صالحًا، إلا أنه لما دخل عليه من استغراقه في التعبد بالصلاة، كان غير ناظر إلى أن عبادة الله عز وجل في الطرق المشروعة متى أكبّ الإنسان على طريق منها أضر بالبواقي، ... فلما أتته أمه فكان كلامه لأمه أفضل عند الله من الصلاة النافلة، فقال: رب، أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته وترك أمه، وكان من الفقه أن يقدم أمه، لأن صلاته إنما تكون له، وتكليمه أمه يكون عملاً متعبدًا يشمله ويشمل غيره. فربما كانت أمه قد جاءت في حاجة مهمة، بحيث يجب عليه أن يجيبها عنه، وفيه أيضًا أنها صلة رحم، هي أولى الأرحام بالصلة، فآثر عليها ما لا يتعداه من الصلاة فغلط في الموازنة فخسر)[٢].

وقال النعمان بن بشير رضي الله عنهما: كُنْتُ عِنْدَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ. فَقَالَ رَجُلٌ: مَا أُبَالِي أَنْ لاَ أَعْمَلَ عَمَلاً بَعْدَ الإِسْلاَمِ. إِلاَّ أَنْ أُسْقِيَ الْحَاجَّ. وَقَالَ آخَرُ: مَا أُبَالِي أَنْ لاَ أَعْمَلَ عَمَلاً بَعْدَ الإِسْلاَمِ إِلاَّ أَنْ أَعْمُرَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ. وَقَالَ آخَرُ: الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَفْضَلُ مِمَّا قُلْتُمْ. فَزَجَرَهُمْ عُمَرُ وَقَالَ: لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ عِنْدَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ. وَهُوَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ. وَلَـٰكِنْ إِذَا صَلَّيْتُ الْجُمُعَةَ دَخَلْتُ فَاسْتَفْتَيْتُهُ فِيمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ. فَأَنْزَلَ اللهُ عز وجل: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَجَـٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ﴾[٣]،[٤].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٥٦/٦.

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ١٨٠/٧.

(٣) سورة التوبة، آية: ١٩.

(٤) أخرجه مسلم، ١٨٧٩.

وأوجب العز بن عبد السلام قطع الصلاة لإنقاذ الغريق ثم قال: (لأن إنقاذ الغرقى المعصومين عند الله أفضل من أداء الصلاة، والجمع بين المصلحتين ممكن بأن ينقذ الغريق ثم يقضي الصلاة، ومعلوم أن ما فاته من مصلحة أداء الصلاة لا يقارب إنقاذ نفس مسلمة من الهلاك، وكذلك لو رأى الصائم في رمضان غريقًا لا يتمكن من إنقاذه إلا بالفطر أو رأى مصولاً عليه[(١)]، لا يمكن تخليصه إلا بالتقّوِي بالفطر، فإنه يفطر وينقذه، لأن في النفوس حقًا لله عز وجل وحقًا لصاحب النفس، فقدم ذلك على فوات أداء الصلاة دون أصله)[(٢)].

وقال ابن تيمية: (إن الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، وأمرنا بتقديم خير الخيرين بتفويت أدناهما، وبدفع شر الشرين باحتمال أدناهما)[(٣)].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: كيد النساء:

إن موضوعات الدعوة التي يمكن معالجتها في ضوء هذا الحديث، كيد النساء ومكرهن، فقد ورد فيه: "وكانت امرأة بغي يتمثل بحسنها فقالت: إن شئتم لأفتننه لكم، قال: فتعرضت له فلم يلتفت إليها فأتت راعيًا كان يأوي إلى صعومته فأمكنته من نفسها فوقع عليها فحملت فلما ولدت قالت هو من جريج".

قال ابن حجر: (ولم أقف على اسم هذه المرأة، لكن في حديث عمران بن حصين رضي الله عنه أنها كانت بنت ملك القرية، وفي رواية الأعرج[(٤)] "وكانت تأوي إلى صومعته راعية ترعى الغنم" ونحوه في رواية أبي رافع عند أحمد[(٥)]، وفي رواية أبي سلمة[(٦)] "وكان عند

---

(١) من سطا عليه عدوانًا ابتغاء نفسه أو عرضه أو ماله. انظر معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ص ، ٢٤٠-٢٥٠.

(٢) قواعد الأحكام في مصالح الأنام: العز: عبد العزيز بن عبد السلام ٦٦/١. وقوله دون أصله، أي دون فوات أصل الفعل وهو قضاء الصلاة والصوم بعد ذلك، والله أعلم. انظر: فقه الموازنات وأثره في المعاملات المالية: عطية مختار عطية حسين، رسالة دكتوراه (مخطوطة)، مقدمة إلى جامعة عين شمس، القاهرة: ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م ص ٢٦.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٤٣٤/١٥.

(٤) علقها البخاري في صحيحه ١٢٠٦، ووصلها الإسماعيلي وأبو نعيم كما في تغليق التعليق، ٤٤٤/٢.

(٥) مسند أحمد ٣٨٥/٢ رقم ٨٩٩٤، وقال محققو المسند: إسناده صحيح على شرط مسلم ٥٤٢/١٤، ٥٤٣.

(٦) مسند أحمد ٤٣٤/٢ رقم ٩٦٠٣، لكن الرواية فيه مختصرة ٢٧٠/١٥.

صومعته راعي ضأن وراعية معزى" ويمكن الجمع بين هذه الروايات بأنها خرجت من دار أبيها بغير علم أهلها متنكرة، وكانت تعمل الفساد، إلى أن ادعت أنها تستطيع أن تفتن جريجا، فاحتالت بأن خرجت في صورة راعية ليمكنها أن تأوي إلى ظل صومعته لتتوصل بذلك إلى فتنته)[١].

ومما يذكر في هذا السياق ما قاله عثمان بن عفان رضي الله عنه: (اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث؛ إنه كان رجل فيمن خلا قبلكم يتعبد ويعتزل الناس، فعلقته امرأة غوية فأرسلت إليه جاريتها فقالت: إنّا ندعوك لشهادة. فدخل معها فطفقت كلما دخل بابًا أغلقته دونه، حتى أفضى إلى امرأة وضيئة عندها غلام وباطية خمر[٢] فقالت: إني والله ما دعوتك لشهادة، ولكن دعوتك لتقع علي، أو تقتل هذا الغلام، أو تشرب هذا الخمر (فإن أبيت صحت وفضحتك: فلما رأى أنه لابد من ذلك) قال: اسقيني كأسًا من هذا الخمر فسقته كأسًا من الخمر، ثم قال: زيديني فلم يَرِم[٣] حتى وقع عليها وقتل النفس. فاجتنبوا الخمر فإنها لا تجتمع هي والإيمان أبدًا إلا أوشك أحدهما أن يخرج صاحبه)[٤].

رابعًا: من صفات الداعية: وثوقه بما عند الله والالتجاء إليه

كثيرًا ما يتعرض الإنسان في حياته لمواقف كثيرة قد تزلزل كيانه وتهز ثقته بنفسه، لكن الداعية - وهو من أعلم الناس بالله - أول ما يفعله هو الالتجاء إليه سبحانه والتضرع إليه، والوثوق بما عنده والرجاء في رحمته وعفوه. وهذا واضح في قول جريج: "دعوني حتى أصلي فصلى. فلما انصرف أتى الصبي فطعن في بطنه، وقال: ياغلام من أبوك ؟ قال فلان الراعي..".

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦/٥٥٤-٥٥٥.

(٢) الباطية: إناء عظيم من الزجاج وغيره يتخذ للشراب. والجمع: بواط: الوسيط، ٦٢.

(٣) يَرِمْ: أي يبرح، انظر: لسان العرب في (ر ي م).

(٤) أخرجه النسائي ٨/٣١٥، والبيهقي في السنن الكبرى ٣/٣٥٢، وقال ابن كثير في تفسيره ٨/١٨٩: هذا إسناد صحيح أ. هـ، وقد رواه ابن أبي الدنيا في ذم المسكر برقم (١)، وابن حبان ٥٣٤٨ مرفوعًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وقال ابن كثير: الموقوف أصح.

قال ابن هبيرة: (فيه من الفقه أن جريجاً لما بلي بهذه البلية وعلم براءته منها، قوي إيمانه بالله عز وجل في أن يكشف كل لبس، فجاء إلى المولود فطعن في بطنه فقال: يا غلام، من أبوك؟ فقال: أبي الراعي، فكفّر بصدق إيمانه وحسن يقينه بالله سبحانه ما كان منه إلى أمه، فأنطق الله الغلام ببراءته، حتى قال: أبي الراعي. ولم يذكر رسول الله ﷺ هذه الحالة إلا منبهًا لكل من جرى عليه تلبيس حتى يتفاقم أمره ويعظم، فإنه ينبغي ألا يستطرح، بل يفزع إلى الله عز وجل، فإنه الذي أنطق المولود حتى بادر يسمع ويرى)(١).

قال ابن حجر: (فيه قوة يقين جريج المذكور وصحة رجائه، لأنه استنطق المولود مع كون العادة أنه لا ينطق، ولولا صحة رجائه بنطقه ما استنطقه ... وأن المفزع في الأمور المهمة إلى الله تكون بالتوجه إليه في الصلاة)(٢).

والوثوق بما عند الله صفات الأنبياء وهم سادة الدعاة. قال تعالى: عن قصة موسى وفرعون: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾(٣).

قال القرطبي: (لما لحق فرعون بجمعه جمع موسى، وقرب منهم، ورأت بنو إسرائيل العدوّ القويّ والبحر أمامهم ساءت ظنونهم، وقالوا لموسى على جهة التوبيخ والجفاء: "إِنَّا لَمُدْرَكُونَ" فردّ عليهم قولهم وزجَرهم، وذكّرهم وعد الله سبحانه له بالهداية والظفر "كَلَّا" أي لم يدركوكم "إِنَّ مَعِيَ رَبِّي" أي بالنصر على العدوّ. "سَيَهْدِينِ" أي سيدلّني على طريق النجاة؛ فلما عظم البلاء على بني إسرائيل، ورأوا من الجيوش ما لا طاقة لهم

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ١٨١/٧.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٥٦/٦-٥٥٧.

(٣) سورة الشعراء، الآيات: ٦١-٦٦.

بها، أمر الله تعالى موسى أن يضرب البحر بعصاه... ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾ يعني فرعون وقومه"[1].

قال ابن القيم: (واليقين قرين التوكل، ولهذا فسّر التوكل بقوة اليقين. والصواب: أن التوكل ثمرته ونتيجته، ولهذا حسن اقتران الهدى به، قال الله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾[2]. فالحق هو اليقين. وقالت رسل الله ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾[3]. ومتى دخل اليقين إلى القلب امتلأ نورًا وإشراقًا، وانتفى عنه كل ريب وشك وسخط، وهم وغمٌّ، فامتلأ محبّة لله وخوفًا منه ورضى به وشكرًا له وتوكلاً عليه، وإنابة إليه، فهو مادة جميع المقامات والحامل لها)[4].

خامسًا- من موضوعات الدعوة: كرامات الأولياء:

(الولي في الشرع: هو من اجتمع فيه وصفان الإيمان والتقوى، وإذا كان أولياء الله هم المؤمنين المتقين فبحسب إيمان العبد وتقواه تكون ولايته لله تعالى، فمن كان أكمل إيمانًا وتقوى، كان أكمل ولاية لله، فالناس يتفاضلون في الإيمان والتقوى)[5]، ومن ثم كان وقوع الكرامات، وهى الأمور الخارقة للعادة، كان ذلك إكرامًا لهم من الله عز وجل[6]، كما قد وقع في هذا الحديث، وذلك في قول النبي ﷺ: "فصلى فلما انصرف أتى الصبي فطعن في بطنه وقال يا غلام من أبوك؟ قال: فلان الراعي".

وذكر ابن حجر عدة روايات ثم قال: "يجمع بين هذا الاختلاف بوقوع جميع ما ذكر، بأنه مسح رأس الصبي، ووضع إصبعه على بطن أمه، وطعنه بأصبعه وضربه

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٣/٧/١٠٦-١٠٧.

(٢) سورة النمل، آية: ٧٩.

(٣) سورة إبراهيم، آية: ١٢.

(٤) مدارج السالكين ٢٢١/٣.

(٥) أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة ٢٠٥.

(٦) انظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢١٨/٣٤.

بطرف العصا التي كانت معه"، ثم قال: "وفيه إثبات كرامات الأولياء ووقوع الكرامة لهم باختيارهم وطلبهم"(١).

قال الطحاوي: (ولا نفضل أحدًا من الأولياء على أحد من الأنبياء عليهم السلام ونقول: نبي واحد أفضل من جميع الأولياء ونؤمن بما جاء من كراماتهم. وصح عن الثقات من رواياتهم"(٢). قال ابن أبي العز في شرح ذلك: "إن الولاية ثابتة للمؤمنين المتقين. كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾(٣).

والمعجزة في اللغة تعم كل خارق للعادة، وفي عرف أئمة أهل العلم المتقدمين كالإمام أحمد بن حنبل وغيره ويسمونها الآيات، ولكن كثيرًا من المتأخرين يفرقون في اللفظ بينهما، فيجعلون المعجزة للنبي والكرامة للولي. وجماعهما الأمر الخارق للعادة. فصفات الكمال ترجع إلى ثلاثة: العلم والقدرة والغنى، وهذه الثلاثة لا تصلح على وجه الكمال إلا لله وحده، فإنه الذي أحاط بكل شيء علمًا وهو على كل شيء قدير، وهو غني عن العالمين، ولهذا أمر النبي ﷺ أن يبرأ من دعوى هذه الثلاثة بقوله: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾(٤).

فأمر الرسول ﷺ أن يخبرهم بأنه لا يملك ذلك، وإنما ينال من تلك الثلاثة بعدما يعطيه الله، فيعلم ما علمه الله إياه، ويقدر على ما أقدره عليه، ويستغنى عما أغناه عنه من الأمور المخالفة للعادة المطردة، أو لعادة غالب الناس. فجميع المعجزات والكرامات

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٥٦/٦-٥٥٧.

(٢) العقيدة الطحاوية المطبوع مع شرحه: شرح العقيدة الطحاوية، ٧٤١/٢-٧٤٥، وانظر: صيد الخاطر، ٤٦٦-٤٦٧، ٥١٥-٥١٦.

(٣) سورة يونس، الآيتان: ٦٢-٦٣.

(٤) سورة الأنعام، آية: ٥٠.

ما تخرج عن هذه الأنواع، ثم الخارق إن حصل به فائدة مطلوبة في الدين، كان من الأعمال الصالحة المأمور بها دينًا وشرعًا إما واجب أو مستحب، وإن حصل به أمر مباح كان من نعم الله الدنيوية التي تقتضي شكرًا، وإن كان على وجه يتضمن ما هو منهي عنه نهي تحريم، أو نهي تنزيه، كان سببًا للعذاب أو البغض، كالذي أوتي الآيات فانسلخ منها بلعام بن باعورا[١] لاجتهاد أو تقليد، أو نقص عقل أو علم، أو غلبة حال، أو عجز أو ضرورة"[٢].

سادسًا- من موضوعات الدعوة: الابتلاء والحكمة منه:

الدنيا دار ابتلاء وامتحان واختبار، ومن حكم الابتلاء التمييز بين الصادق وغيره، والمؤمن وغيره، كما أن من حكمته كذلك رفع الدرجات وزيادة في الثواب، كما قد جاء في هذا الحديث: "فلما ولدت قالت: هو من جريج فأتوه فاستنزلوه وهدموا صومعته وجعلوا يضربونه، فقال: ما شأنكم؟ قالوا: زنيت بهذه البغي فولدت منك ...".

قال ابن حجر: (فيه أن الله يجعل لأوليائه عند ابتلائهم مخارج، وإنما يتأخر ذلك عن بعضهم في بعض الأوقات تهذيبا وزيادة لهم في الثواب)[٣]. وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾[٤].

قال ابن الجوزي: (من يرد أن تدوم له السلامة والنصر على من يعاديه والعافية من غير بلاء، فما عرف التكليف ولا فهم التسليم. أليس الرسول ﷺ ينصر يوم بدر، ثم يجري عليه ما جرى يوم أحد ؟ أليس يصد عن البيت ويقهر بعد ذلك؟

---

(١) بلعام بن باعورا: كان من عباد بني إسرائيل لا يسأل الله شيئًا إلا أعطاه، رجاه قومه أن يدعو على موسى وقومه، فاستجاب بعد إلحاح فسلخه الله مما كان عليه، راجع كتب التفسير سورة الأعراف، آية: ١٧٥. نقلاً عن تحقيق شرح العقيدة الطحاوية ٧٤٧/٢.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية، ٧٤٢/٢-٧٤٧، وقد نقله ابن أبي العز عن ابن تيمية في فتاويه، ١٧٢/٦-١٧٧، وانظر كذلك: شرح العقيدة الطحاوية ٥٠٥/٢-٥١١.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ٥٥٦/٦-٥٥٧.

(٤) سورة محمد، آية: ٣١.

فلا بد من جيد ورديء، والجيد يوجب الشكر، والرديء يحرك إلى السؤال والدعاء، فإن امتنع الجواب أريد نفوذ البلاء والتسليم للقضاء، وههنا يبين الإيمان ويظهر في التسليم جواهر الرجال، فإن تحقق التسليم باطنًا وظاهرًا فذلك شأن الكامل، وإن وجد في الباطن انعصار من القضاء لا من المقضى، فإن الطبع لا بد أن ينفر من المؤذي، دل على ضعف المعرفة، فإن خرج الأمر إلى الاعتراض باللسان، فتلك حال الجهال نعوذ بالله منها... إن الدنيا دار ابتلاء لينظر الله فيها كيف تعملون، ومما يهون هذه الأشياء علم العبد بالأجر، وأن ذلك مراد الحق)[1].

وقال د. يوسف القرضاوي: (الإيمان يهون على المؤمنين البلاء، وعرفوا أن ما ينزل بهم من مصائب ليس ضربات عجماء، ولا خبط عشواء، ولكنه وفق قدر معلوم، وقضاء مرسوم، وحكمة أزلية، وكتابة إلهية، فآمنوا بأنه ما أصابهم لم يكن ليخطئهم، وما أخطأهم لم يكن ليصيبهم... ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[2].

وعرفوا أن من صفته تعالى أن يقدر ويلطف، ويبتلي ويخفف، ومن ظن انفكاك لطفه عن قدره فذلك لقصور نظره ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾[3].

وعرفوا من لطف ربهم أن هذه الشدائد دروس قيمة لهم، وتجارب نافعة لدينهم ودنياهم، تنضج نفوسهم، وتصقل إيمانهم، وتذهب صدأ قلوبهم (مثل المؤمن تصيبه الوعكة من البلاء كمثل الحديدة تدخل النار فيذهب خبثها، ويبقى طيبها) وما أبلغ ما قال الرافعي: (ما أشبه النكبة بالبيضة، تحسب سجنًا لما فيها وهي تحوطه، وتربيه وتعينه على تمامه، وليس عليه إلا الصبر إلى مدة، والرضا إلى غاية، ثم تنقف البيضة[4]، فيخرج خلق آخر.

(١) صيد الخاطر ٣٨٧-٣٨٩.

(٢) سورة الحديد، آية: ٢٢.

(٣) سورة يوسف، آية: ١٠٠.

(٤) النقف: الفرخ حين يخرج من البيضة. القاموس المحيط في (ن ق ف).

وما المؤمن في دنياه إلا كالفرخ في بيضته: عمله أن يتكون فيها، وتمامه أن ينبثق شخصه الكامل فيخرج إلى عالمه الكامل)[١].

سابعًا- من واجبات المدعو: عدم الحكم بظواهر الأمور:

إن الأخذ بظواهر الأمور دون النظر إلى جوهرها وحقيقتها قد يؤدي في بعض الأحيان إلى نتائج غير محمودة، لذا كان على المدعو ألا يقع في هذا الأمر، كما وقع من المرأة في هذا الحديث، فقد تمنت أن يكون ابنها مثل فلان ذي الشارة الحسنة والهيئة الجميلة وألا يكون مثل الجارية التي يؤذيها الناس، فقد بين لها ابنها - بقدرة الله - أن من تمنت أن يكون ابنها مثله كان جبارًا، وأما المرأة فكانت مظلومة رماها الناس زورًا وبهتانًا. قال ابن هبيرة: (فأما حديث الجارية فإنه قد يتهم الجهال المرأة الصالحة بالزنا والسرقة، وليست من أهل ذلك، فلا ينبغي أن يترك الرجل أهله من أجل أن يقول عدو له أو لهم، أو يطبع الشيطان في أفواه الناس: إنها زانية أو سارقة. ولا يحلّ لمسلم أن يقبل هذا، ولا يؤثر عنده بحال إلا أن يثبت ذلك بثبوت مثله، أو يرى قرائن الأحوال ما يفيده عليه الظن. فيكون لذلك حكمه. فأما مجرد أقوال الأعداء فلا يحل العمل بذلك)[٢]. وقد قال الله تعالى عن قارون واختلاف نظر الناس إليه بحسب الظاهر وبحسب الحقيقة: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾[٣].

أي: "وقال الذين أوتوا العلم" الذين عرفوا حقائق الأشياء ونظروا إلى باطن الدنيا حين نظر أولئك إلى ظاهرها: "ويلكم" متوجعين مما تمنوا لأنفسهم راثين لحالهم منكرين لمقالهم (ثواب الله) العاجل من لذة العبادة ومحبته والإنابة إليه والإقبال عليه،

---

(١) الإيمان والحياة، يوسف القرضاوي ص ١٦٣.

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ١٨٢/٧.

(٣) سورة القصص، الآيتان: ٧٩-٨٠.

والآجل من الجنة وما فيها مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين (خير لمن آمن وعمل صالحًا) من هذا الذي تمنيتم ورغبتم فيه، فهذه حقيقة الأمر"[١].

ثامنًا- من موضوعات الدعوة: دلائل القدرة الإلهية:

إن الله كما وصف نفسه سبحانه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٢] (والقدير هو الفاعل لما يشاء على قدر ما تقتضي الحكمة لا زائدًا عليه ولا ناقصًا عنه، ولذلك لا يصح أن يوصف به إلا الله تعالى)[٣] ودلائل قدرته سبحانه وتعالى لا تعد ولا تحصى، من ذلك كلام بعض الأطفال في المهد، وقد أفاد الحديث بأنه "لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة عيسى بن مريم ..."[٤].

"إننا ندرك بداهة أن الخالق العظيم الذي صدرت عنه هذه الموجودات الكونية ذات القوى الكبيرة، لا بد أن يكون هو ذا قوة وقدرة، ولولا أن يكون ذا قوة وقدرة لم تصدر عنه أشياء لها قوى وقدر، والقدرة: صفة وجودية من شأنها أن يكون لها أثر، كإيجاد الأشياء الممكنة، أو إعدامها، أو التصرف في الموجودات بجمعها أو تفريقها، أو تحويلها أو نحو ذلك. وهذا المعنى هو ما نسميه بصفة القدرة، فالله سبحانه وتعالى قادر مقتدر، وقد وصف الله نفسه بهذه القدرة في القرآن الكريم في عدة آيات كريمات، منها قوله تعالى في سورة الحديد: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٥].... ولكن قدرة الله وقوته لا تشبه - من قريب ولا من بعيد- قدراتنا وقواتنا، لأن قدرته تعالى كاملة تتعلق بجميع الممكنات غير مستمدة من شيء، إذ هي من صفات الألوهية. أما قدراتنا

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٥٧٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٤. وغيرها من سور القرآن الكريم، انظر: معجم ألفاظ القرآن الكريم، إعداد: حسان عبدالمنان ص ٣٥٢-٣٥٣.

(٣) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني ٣٩٤.

(٤) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦/٥٥٣.

(٥) سورة الحديد، الآية: ٢.

فهي قدرات محدودة ناقصة مستمدة من غيرها، إذ هي من صفات المخلوقات، وقد جاء في المأثور من أسماء الله الحسنى عشرة[(١)] أسماء تعود إلى معنى تحقق صفة القدرة الكاملة لله تعالى، وهى: "القوي، والمتين، والقادر، والمقتدر، والواجد في أحد معانيه، والعزيز، والمقيت في أحد معانيه، ومالك الملك، والملك، والوارث"[(٢)].

تاسعًا- من وسائل الدعوة: القصة:

استخدم النبي ﷺ وسيلة القصة لتبليغ دعوته، وقد ورد ذلك كثيرًا في الأحاديث. وهى وسيلة فعالة لو أحسن استخدامها الداعية المعاصر يقول: الدكتور القرضاوي: (ومما ينبغي للداعية الالتفات إليه والعناية به: القصص القرآني وما اشتمل عليه من عبر وعظات وأسرار وحكم بالغة، وطريقة القرآن في سرد قصص الماضين لا تعتمد على ذكر التفصيلات، كذكر أسماء الأشخاص والبلدان والتواريخ ونحوها، إنما تهتم برءوس العبر، ورسم ملامح الشخصيات التاريخية، واتجاهات الأحداث ونتائجها، ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[(٣)]. وعند سرد القصة نجد القرآن الكريم يضمنها كثيرًا من الحقائق والأسرار العلمية والتوجيهية والتشريعية، لتنفذ إلى النفس والعقل عن طريق غير مباشر)[(٤)].

قال ابن هبيرة: (ولم يذكر رسول الله ﷺ مثل هذا سمرًا قط، بل ليعمل مثل الولد الصالح مع كونه لم يشتغل عنها بمنكر ولا بمحرم، وإنما اشتغل بعبادة فجرى في حقه هذا...)[(٥)].

---

(١) في الأصل (تسعة) ولكن عدد الأسماء التي ذكرها المؤلف عشرة، فلذلك كتبنا عشرة بحسب المذكور من الأسماء، وهو الظاهر لنا. وإن كان المؤلف أعاد كلمة (تسعة) مرتين، فلا ندري سبب ذلك، والله أعلم.

(٢) العقيدة الإسلامية وأسسها، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني ص ١٦٠-١٦١.

(٣) سورة يوسف، آية: ١١١.

(٤) ثقافة الداعية، د. يوسف القرضاوي ص ٢٤-٢٥.

(٥) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ١٨١/٧.

عاشرًا- من أساليب الدعوة: القصر:

وذلك في قوله ﷺ : "لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة..." وفائدة القصر الحصر والتأكيد، قال ابن هبيرة: (في هذا الحديث وجوب الإيمان بأنه لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة، حتى إنه قد روي على النبي ﷺ من الأحاديث الواهية أنه قد تكلم غير هؤلاء، ردّ ذلك، وعمل بهذا)[1].

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ١٧٩/٧، لكن فيما ذهب إليه ابن هبيرة نظر، انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٥٣/٦.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

يربي الإسلام أتباعه على معايير للتقييم الصحيح تختلف عن معايير الجاهلية وعن الحضارات الأخرى، كما سبق الحضارات المعاصرة، وقد تأثر المسلمون الملتزمون بذلك.

فالجاهلية كانوا يقدمون هذا أو ذاك على أساس من الجنس أو المال أو الجاه أو الشجاعة... والنظم المعاصرة تقدم المال ثم المنصب ثم الذكاء الاجتماعي، والإسلامي يربي أبناءه على تقييم الناس على أساس من الخلق الحسن، فهو معيار السبق وأساس التقدم في الدنيا والآخرة، ومن منهج التربية في هذا الباب:

أولاً – التربية بالتشويق:

من الأساليب التربوية الهادفة أسلوب التشويق، ومن الشواهد على ذلك في باب فضل ضعفة المسلمين، قوله ﷺ: «أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ: كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ، أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ: كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ».

فهذا شاهد تربوي يدل على التشويق استخدمه ﷺ مع أصحابه، وذلك لأن في الشوق "نزوع للنفس إليه وتحفيز لها لأنه عند حصول الرغبة في الشيء والقناعة به والتطلع إلى نيله، يمكن أن يحصل الشوق إلى رؤياه والإسراع في كسبه وتحصيله، وقد كان الرسول ﷺ يقص على أصحابه من أخبار الجنة واليوم الآخر، ما يشوقهم به لحصول المرغوب فيه، فيثير في نفوسهم حب التطلع إلى أخبار الجنة وأحوال أهلها، مما له أكبر الأثر في زيادة رغبتهم فيها والسعي نحو تحصيلها وينتج عن ذلك استقامة في السلوك ونماء في العادات الجيدة والأخلاق الفاضلة، ونتائج تربوية إيجابية ناجحة، نتجت عن هذه الصفة المصحوبة بالشوق"(١).

وهذا الأسلوب قد استخدمه الأنبياء والرسل لأنه يوصل إلى مرضاة الله وجنته، فأولئك الذين هدى الله وبهداهم يقتدي كلُّ السائرين إلى مرضاة رب العالمين(٢).

---

(١) أساليب الدعوة والتربية، د. زياد العاني ص ٢٢٣.

(٢) التربية الذاتية من الكتاب والسنة، د. هشام علي أحمد ص ٧٤.

ثانياً- التربية بالمواقف:

من أهم أساليب التربية الإسلامية التربية بالمواقف وتتمثل في أن الحياة مليئة بالمواقف المتتالية التي يمكن أخذ الدرس منها والشاهد على ذلك في حديث سهل بن سعد الساعدي ﵁ قال: «مَرَّ رَجُلٌ عَلَى النَّبيِّ ﷺ فقالَ لِرَجُلٍ عَنْدَهُ جَالِسٍ: «مَا رَأْيك في هذا؟» قالَ رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِ النَّاسِ هذَا وَاللَّهِ حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ ...».

إن المواقف تساعد على تحقيق الأهداف وغرس الفضائل، لأنه إذا ظهر موقف خاطئ من شخص ووضح له ما وقع فيه من خطأ، وفي نفس الوقت وجه التوجيه الإيجابي الحسن الذي كان من المفروض أن يسلكه، فإن لذلك وقعًا على النفس وتأثيراً في السلوك، لأنه يرى النتاج أمامه ويعايشه في نفس اللحظة[١].

والمربي البارع لا يترك المواقف تذهب سدى بغير عبرة وتوجيه وإنما يستغلها لتربية النفوس وتهذيبها، ومزايا المواقف -كأسلوب تربوي- أنها تثير النفس بكاملها وترسل فيها قدراً من حرارة التفاعل فيكون من الحكمة هنا استخدام الدواء عند حدوث الداء، ولذلك استخدم النبي ﷺ هذا الأسلوب في تربية النفوس[٢].

ثالثاً- من أهداف التربية الإسلامية: احترام أهل الفضل والصلاح:

التربية الإسلامية عملت على احترام أهل الفضل والصلاح وتقديرهم، ومن الشواهد على ذلك في حديث سهل بن سعد ﵁: «مَا رَأْيُكَ في هذَا؟» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللّهِ هذَا رَجُلٌ مِنَ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ. هذَا أَحْرَى إِنْ خَطَبَ أَنْ لاَ يُنْكَحَ وَإِنْ شَفَعَ أن لا يشفع ..»، وعنه ﷺ: « أَنَّ امْرَأَةً سَوْدَاءَ كَانَتْ تَقُمُّ الْمَسْجِدَ (أَوْ شَابًّا) فَفَقَدَهَا رَسُولُ اللّهِ . فَسَأَلَ عَنْهَا (أَوْ عَنْهُ) فَقَالُوا: مَاتَ. قَالَ: «أَفَلاَ كُنْتُمْ آذَنْتُمُونِي». قَالَ: فَكَأَنَّهُمْ صَغَّرُوا أَمْرَهَا (أَوْ أَمْرَهُ). فَقَالَ: «دُلُّونِي عَلَىٰ قَبْرِهِ» فَدَلُّوهُ. فَصَلَّىٰ عَلَيْهَا»، وقال ﷺ كذلك: «رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالأَبْوَابِ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَىٰ اللّهِ لأَبَرَّهُ».

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي ص ٢٧٨.

(٢) أصول التربية الإسلامية، د. سعيد القاضي ص ١٩٦، أساليب الدعوة والتربية، د. زياد العاني ص ٣٨٤.

فهذه شواهد تربوية ظهر منها أن النبي ﷺ كان يقدر ويحترم أهل الفضل والصلاح كما بين أن مقامات العباد بالأعمال لا بالمظاهر، وكذلك أراد النبي ﷺ أن يربي أصحابه على احترام أهل الفضل والصلاح لأنهم الأجدر بالاحترام والتقدير بدلاً من تلك المعايير الفاسدة في التقدير على أساس المال والمنفعة الشخصية.

إن من محاسن التربية الإسلامية رعاية واحترام أهل الفضل والصلاح وإنزال الناس منازلهم ونحن بحاجة إلى أن نقدر أهل الصلاح وننزلهم منازلهم وينبغي على المعلم أن يلمس ممن يربيه رعايته لهذا الجانب بتقدير واحترام أهل الصلاح والاعتراف بالفضل والسابقة، وهذا هو أدب المسلم نراه يقدر أهل الفضل والصلاح[(١)]، ولقد كان احترام أهل الفضل والصلاح هو الأدب الذي ربى عليه النبي ﷺ أصحابه[(٢)].

رابعاً- من خصائص التربية الإسلامية: الموازنة:

من خصائص التوجيه الإسلامي أنه ملائم للفطرة والجبلة الإنسانية ومن الشواهد على ذلك في باب ضعفة المسلمين: ما يستوحي من قصة جُرَيْجُ... قال: «يَا رَبِّ أُمِّي وَصَلاَتِي. فَأَقْبَلَ عَلَىٰ صَلاَتِهِ . فَانْصَرَفَتْ. فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّي. فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ فَقَالَ: يَا رَبِّ أُمِّي وَصَلاَتِي. فَأَقْبَلَ عَلَىٰ صَلاَتِهِ ...».

فهذا شاهد تربوي أراد النبي ﷺ منه إبراز خاصية الموازنة في التربية الإسلامية كخاصية يجب أن يربى عليها النشء المسلم والشاهد من هذا أنه لا ينبغي إعمال جانب إيماني أو أخلاقي وترك جانب آخر. فإن فعل ذلك فإن الموازنة تفقد جانباً من ضوابطها، وذلك لأنها تهتم بتربية جميع جوانب الإنسان الخلقية والجسمية والعقلية وتحقق التوازن بين مطالب الإنسان الجسدية والروحية، فلا يطغى جانب على جانب آخر بحيث تجعل الإنسان في صراع نفسي وعناء داخلي[(٣)].

والتربية الإسلامية لا تعمل على تنمية الحياة الآخرة فقط إنما هي تربية توخت

---

(١) تربية الشباب، "الأهداف والوسائل:، الدويش ص ١٦٠.

(٢) آداب المتعلمين، د. أحمد الباتلي، ٤٢، ٤٣.

(٣) أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي ص ٢٧٨.

الاعتدال، فدعت إلى أن يتمتع الإنسان في هذه الحياة الدنيا ولكن في الوقت نفسه عليه أن ينجز الواجبات المترتبة عليه إزاء ربه، فيعبده حق العبادة، وليست العبادة الحقة في أن يقف المرء نفسه عليها دون غيرها وأن يترك أعمال الدنيا بل يهتم بها أيضاً[(١)].

خامساً- التربية بالقصة:

من أساليب التربية الإسلامية التربية بالقصة لما لها من أسلوبها الساحر الذي يسحر النفوس ويشد الخيال إلى متابعة ومشاهدة أحداثها فتؤثر في متتبعها أيما تأثير، ومن الشواهد على ذلك في باب فضل ضعفة المسلمين قوله ﷺ: في قصة جريج قال ﷺ: «لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلاَّ ثَلاَثَةٌ: عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ. وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ. وَكَانَ جُرَيْجٌ رَجُلاً عَابِداً ...».

فهذا شاهد تربوي ساقه النبي ﷺ للصحابة عن طريق القصة أراد النبي ﷺ، منها إرشاد الصحابة للخير وما يهدى إليه الدين من سلوكيات وأخلاقيات، "ولقد استخدمت التربية الإسلامية أسلوب القصة في تحقيق أهدافها لما لها من عظيم الأثر في نفس الإنسان، وخاصة إذا وضعت في أسلوب عاطفي. مؤثر يخاطب العقل والقلب معاً، وتكون هذه القصة ذات قيمة بقدر ما يكون لصاحب القصة من أثر وانتشار (كقصة جريج)، ولذلك استخدمت القصة هنا لغرس بعض القيم الدينية والخلقية، لقدرتها على الإقناع عن طريق التأثير والحضور الوجداني"[(٢)].

فقارئ القصة وسامعها لا يملك أن يقف موقفاً سلبياً من شخوصها بل يتخيل أنه في هذا الموقف أو ذاك، ويروح يوازن بين نفسه وبين أبطال القصة فيوافق أو يستنكر أو يملكه الإعجاب[(٣)].

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. محمد شحات الخطيب ص ٧٦، وأصول التربية الإسلامية، د. سعيد القاضي ص ٢١٨.

(٢) التربية الإسلامية، د. عماد عطية ص ١٣١.

(٣) أصول التربية الإسلامية، د. سعيد القاضي، ١٩٠.

سادسًا- من الأساليب التربوية:

وردت عدة أساليب تربوية في أحاديث الباب يستفاد منها في المجال التربوي، ومن جملتها:

أ-المناقشة والحوار: كما في حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: "مرّ رجل على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال لرجل عنده جالس: ما رأيك في هذا؟ ..." الحديث والمناقشة والحوار أسلوب يمثل شبكة من الاتصالات بين المعلم والمتعلمين باستخدام أسئلة مناسبة يتولد عنها النقاش المتبادل.

ب-الممارسة العملية: كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه وقيام النبي صلى الله عليه وسلم بالصلاة على قبر الميت الذي لم يعلم بموته.

ج-تمثيل المعاني: وهو عبارة عن قيام المعلم بمحاكاة المعاني المختلفة، وقد ورد ذلك في فعل النبي صلى الله عليه وسلم فقال أبو هريرة "فكأني انظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحكي ارتضاعه بأصبعه السبابة في فيه، فجعل يمصها".

٣٣- باب ملاطفة اليتيم والبنات وسائر الضعفة والمساكين والمنكسرين والإحسان إليهم والشفقة عليهم والتواضع معهم، وخفض الجناح لهم

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[الحجر: ٨٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[الكهف: ٢٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ﴾[الضحى: ٩-١٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾[الماعون: ١-٣].

الحديث رقم (٢٦٠)

٢٦٠- وعن سعد بن أبي وَقَّاص رضي الله عنه، قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم سِتَّةَ نَفَرٍ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم: اطْرُدْ هؤلاء لا يَجْتَرِئُونَ عَلَيْنَا، وَكُنْتُ أنَا وَابْنُ مَسْعُودٍ. وَرَجُلٌ مِنْ هُذَيْلٍ وَبِلالٌ وَرَجُلاَنِ لَسْتُ أُسَمِّيهِمَا، فَوَقَعَ في نفس رَسُول الله صلى الله عليه وسلم مَا شَاءَ اللهُ أنْ يَقَعَ، فَحَدَّثَ نَفسَهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ تعالى: **﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾**[الأنعام: ٥٢] رواه مسلم(١).

ترجمة الراوي:

سعد بن أبي وقاص: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٦).

غريب الألفاظ:

لا يجترؤون علينا: أي لئلا تحصل منهم الجرأة علينا فنُعيّر بذلك(٢).

---

(١) برقم (٤٦/٢٤١٣).

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٤٦٠.

الشرح الأدبي

هذا الحديث الشريف" مشهد واقعي من مشاهد السيرة النبوية الفياضة بجلائل الآثار، وجميل الأخبار، والمشهد هنا قصة واقعية حقيقية، أشخاصها معروفون، وبعضهم لم يذكر اسمه مثل أبي بكر وعلي رضي الله عنهما، لأنهما من أشراف قريش، أما باقي الستة فقد ذكروا في الحديث، وتحديد الأسماء في الأحاديث بهذه الطريقة المحددة قليلاً ما يحدث. لأن المقام هنا يستدعي ذلك، وهم الراوي سعد بن أبي وقاص، وعبدالله بن مسعود، وبلال، ورجل من هذيل: وقيل سلمان الفارسي وأبو ذر رضي الله عنهم، وأما هؤلاء الذين قال الله فيهم ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا، فمنهم: أمية بن خلف الجمحى ومن تابعه، وعيينة بن حصن الفزاري، والأقرع بن حابس، وذووهم.

والشخصيات المؤمنة الذين أراد الأغنياء أن يبعدوهم عن الجلوس في مجلس رسول الله ﷺ، هم الذين قال الله فيهم ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾[1]، وأمر رسوله الكريم بأن لا يستجيب لهذه الدعوة التي تكرس الطائفية، وترفع شعار التميز والعصبية، وتفرِّق بين المسلمين، وتجعل الأغنياء أصحاب حظوة ومكانة في الإسلام، وهم لا يستحقونها لأنهم غير مخلصين في انتمائهم للإسلام، أو إقبالهم عليه، ولقد رسمت القصة النبوية، في هذا الحديث، وفي غيره – كثيرًا من النماذج الإنسانية التي حققت في واقعها هذا الجانب القوي الخير الفاضل، والبطل الحقيقي في القصة النبوية: هو ذلك الجانب الفذ في حياة الإنسان، البطل هو الموقف الذي يحقق فيه الإنسان سموه ورفعته، وانتصار الخير والفضيلة فيه، بالمعنى الشامل غير المحدود للخير والفضيلة[2].

وحين نتأمل ما يتضمنه هذا الحديث الشريف من ظواهر أسلوبية، وجمال لغوي،

---

(١) سورة الكهف، آية: ٢٨.

(٢) القصة في الحديث النبوي، د. محمد حسن الزير ص ١٧١.

نرى أنه صيغ في قالب الحكاية حيث بدأ الراوي، سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه بقوله: "كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم: ستة نفر"، أي: أنهم حضروا مجلس النبي صلى الله عليه وسلم، مع مجموعة من المشركين الذين يعرض عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم الإسلام، وتحدث المفاجأة التي تجسد غلظة المشركين، وضيق أفقهم، وتكشف عن منظورهم التسلطي والتعصبي في الحياة، فإذا بهم لا يراعون آداب المجلس.

ويقولون في صيغة الأمر لصاحب المجلس وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم، "اطرد هؤلاء، لا يجترئون علينا"، وكان ذلك أنفة منهم من مجالستهم لاستصغارهم واحتقارهم واستقذارهم لهم لفقرهم وخمولهم في الدنيا، ونُسب القول في الحديث للكل لرضاهم به، كما يقول صاحب "دليل الفالحين"، وعلى الرغم من غلظة هؤلاء المشركين، وسلوكهم السلوك الجاهلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه لم ينهرهم... ولم يعترض عليهم تأليفًا لقلوبهم، ورغبة في جذبهم للإسلام، وصمت قليلاً ، وصور الراوي هذا الصمت بقوله، "فوقع في نفس رسول الله ما شاء الله أن يقع فحدث نفسه"، ولكن الله سبحانه وتعالى أنزل القرآن الكريم، وحدد الموقف الذي لم يحد عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكنه لبث مليًا حتى يتبين الأمر الصالح للدعوة الإسلامية، وقال تعالى ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾(١) . قيل: فنهاه عما همَّ به من الطرد لا أنه أوقع الطرد، وقد كافأ الله هؤلاء الضعفة الذين تحصنوا بإيمانهم، فأثنى عليهم ربهم، وهذه المساواة بين الناس في ظلال العقيدة، أنطقت الشاعر العربي فقال:

إني ذكرتك يا محمد ناشرًا ... روح الأخوة في بني الإنسان

يعلو بلال العبد أشرف موقع ... ليذيع منه أشرف الألحان!!

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٥٢.

فقه الحديث

الحث على مجالسة أهل الخير، والصالحين الذين يكثرون من ذكر الله تعالى ودعائه، وأنه لا يجوز للإمام طردهم وإخراجهم من مجلسه بناء على طلب أهل الشرك والفجور، بل يحرم ذلك لوجود النهي في الآية، والنهي للتحريم ما لم تكن هناك قرينة صارفة - كما قال أهل الأصول - ولا قرينة صارفة لعدم الحرص على مجالسة الوجهاء، والأغنياء إلا لمصلحة دينية أو دنيوية معتبرة، أما مجرد الجلوس إليهم افتخارًا، فهذا مما لا يحمد عليه المؤمن[١].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل الصحابة رضي الله عنهم السابقين إلى الإسلام.

ثانيًا: من أصناف المدعوين: المشركون.

ثالثًا: من تاريخ الدعوة: بداية الجهر بالدعوة في مكة.

رابعًا: من مهام الداعية: الحرص على مصلحة الدعوة.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: ثناء الله على المسلمين الضعفاء المخلصين.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: نزول القرآن مُنجمًا.

سابعًا: من أهداف الدعوة: تكريم أهل الفضل والأمر بتقديرهم.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل الصحابة رضي الله عنهم السابقين إلى الإسلام:

إن السابقين إلى الإسلام هم من أهل الفضل والمكانة، لأنهم سبقوا إلى الإسلام حين كان معظم الناس على الكفر، ولما تحملوا من الأذى ما لا يتحمله إلا الثابتون المخلصون، يضاف إلى ذلك كونهم مستضعفين. وهذا واضحٌ في قول سعد رضي الله عنه: "كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ستة نفر" وسمّى بعضهم فقال: "أنا وابن مسعود وبلال..." وهؤلاء من السابقين إلى الإسلام[٢] وهذا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يقول: "ما أسلم أحدٌ إلا في اليوم

---

(١) شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين، ١٣٤/٢، ١٣٥.

(٢) انظر تراجمهم: الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ١٣٨، ٤٩٠، ٨٣٢. وقال ابن هبيرة: "ومن لم يذكر اسمه في هذا الحديث فقد ذكر في حديث آخر، وهم: سعد وابن مسعود وبلال وصهيب وعمّار والمقداد. الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٣٦٥/١.

الذي أسلمت فيه، ولقد مكثت سبعة أيام وإني لثلث الإسلام"[١].

وقد قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[٢] أي: (والذين سبقوا الناس أولاً إلى الإيمان بالله ورسوله من المهاجرين الذي هجروا قومهم وعشيرتهم، وانتقلوا إلى دار الإسلام، والأنصار الذين نصروا رسول الله ﷺ على أعدائه الكفار، والذي اتبعوهم بإحسان في الاعتقاد والأقوال والأعمال طلبًا لمرضاة الله سبحانه وتعالى، أولئك الذين رضي الله عنهم، لطاعتهم الله ورسوله ورضوا لما أجزل لهم من الثواب على طاعتهم وإيمانهم، وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا، ذلك هو الفلاح العظيم، وفي هذه الآية تزكية للصحابة رضي الله عنهم وثناء عليهم، ولهذا فإن توقيرهم من أصول الإيمان)[٣].

(وأفضل الصحابة السابقون الأولون في الإسلام من المهاجرين، ثم الأنصار، ثم أهل بَدْرٍ، ثم أهل أحد، ثم أهل غزوة الأحزاب، ثم أهل بيعة الرضوان، ثم من هاجر من قبل الفتح وقاتل أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا، وكلاً وعد الله الحسنى.

وأفضل الصحابة الخلفاء الراشدون أبوبكر الصديق وعمر الفاروق وعثمان ذو النورين، وأبو السبطين علي بن أبي طالب ثم عبدالرحمن بن عوف والزبير بن العوام حواريّ رسول الله ﷺ وطلحة بن عبيدالله وسعد بن أبي وقاص، وأمين هذه الأمة أبو عبيد بن الجراح، وسعيد بن زيد بن نفيل رضي الله عنهم أجمعين)[٤].

ثانيًا- من أصناف المدعوين: المشركون:

أرسل محمد ﷺ إلى الناس كافة بمختلف عقائدهم ومللهم، وكان منهم المشركون الذين قالوا للنبي ﷺ: "اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا".

---

(١) أخرجه البخاري ٣٧٢٧.

(٢) سورة التوبة، آية: ١٠٠.

(٣) التفسير الميسر، إعداد: نخبة من المختصين ص ٢٠٣.

(٤) أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة ٢٨٥.

(والمشركون الوثنيون: هم الذين أشركوا مع الله غيره في الاعتقاد أو العبادة مثل مشركي العرب وغيرهم من الوثنيين في الأمم الأخرى، الذين أخبرنا الله عنهم بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾[1])[2].

وقد كان النبي ﷺ حريصًا على دعوتهم فقد قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[3] وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[4].

وقد بلغ من حرص النبي على دعوة المشركين أنه كان يدعوهم وهم على فراش الموت، فعن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبدالله بن أبي أمية فقال رسول الله ﷺ يا عم قل: لا إله إلا الله كلمة أشهد لك بها عند الله. فقال أبو جهل وعبدالله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبدالمطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعيد له تلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبدالمطلب. وأبى أن يقول: لا إله إلا الله فقال رسول الله ﷺ: ((أما واللهِ لأستَغْفِرَنَّ لكَ ما لم أُنْهَ عنكَ...))[5].

ثالثًا- من تاريخ الدعوة: بداية الجهر بالدعوة في مكة:

كان من الطبيعي أن تمر الدعوة الإسلامية في مكة بمراحل تناسب الأحوال والظروف، فكانت في بدايتها سرًا، واستمرت على ذلك ثلاث سنوات، ثم جاءت مرحلة

---

(١) سورة الزمر، آية: ٣.

(٢) المدخل إلى علم الدعوة، محمد أبو الفتح البيانوني ص ١٧٨.

(٣) سورة الأنبياء، آية: ١٠٧.

(٤) سورة سبأ، آية: ٢٨.

(٥) أخرجه البخاري ١٣٦٠، ومسلم ٢٤. وانظر: البداية والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٣٠٤/٤-٣١٤.

الجهر بالدعوة، فعُرف معظم من أسلم مع النبي ﷺ لأنهم كانوا يجالسونه ليتعلموا منه، وكان أغلب هؤلاء من المساكين، فكان هذا يضايق المشركين. وهذا واضح من قول المشركين للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا... فهذا يدل على أن هذا كان بعد الجهر بالدعوة، فقد قال ابن إسحاق: (ثم أمر الله رسوله ﷺ بعد ثلاث سنين من البعثة بأن يصدع بما أمر، وأن يصبر على أذى المشركين، وقال: وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صلُّوا، ذهبوا في الشعاب واستخفوا بصلاتهم في قومهم، فبينا سعد بن أبي وقاص في نفرٍ يصلون بشعاب مكة، إذ ظهر عليهم بعض المشركين، فناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم، فضرب سعدٌ رجلاً من المشركين بلَحى جملٍ(١) فشجّه فكان أول دم أهريق في الإسلام)(٢).

ثم قال ابن إسحاق: (فلما بادى رسول الله ﷺ قومه بالإسلام وصَدَع به كما أمره الله، لم يبعد منه قومه ولم يردوا عليه - فيما بلغني- حتى ذكر آلهتهم وعابها فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه، وأجمعوا خلافه وعداوته، إلا من عصم الله تعالى منهم بالإسلام وهم قليل مستخفون)(٣).

رابعًا- من مهام الداعية: الحرص على مصلحة الدعوة:

إن الداعية أشد الناس حرصًا على مصلحة الدعوة، لأنها قضية حياته، لذلك هو يسلك كل السُّبل المشروعة في الحفاظ عليها، وهو يفعل ذلك اقتداءً بالنبي ﷺ كما وقع في هذا الحديث، وهذا واضح في قول سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدث نفسه، فأنزل الله عز وجل ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٤).

---

(١) اللَّحْيُ: العظمان اللذان فيهما الأسنان من كل ذي لَحْيٍ. ولحيا الغدير: جانباه، الوسيط ٨٢٠.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٢٩٥/١-٢٩٦)، وانظر: البداية والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٩٥/٤.

(٣) السيرة النبوية، ابن هشام ٢٩٦/١.

(٤) سورة الأنعام، آية: ٥٢.

قال القرطبي: (وكان النبي ﷺ إما مال إلى ذلك طمعًا في إسلامهم وإسلام قومهم، ورأى أن ذلك لا يفوت أصحابه شيئًا ولا يُنقص لهم قدرًا. فمال إليه فأنزل الآية فنهاه عما همّ به من الطرد، لا أنه أوقع الطرد)(١).

وقال ابن عاشور: (إن رسول الله ﷺ لحرصه على إيمان قريش ليكونوا قدوة لقومهم، ولعلمه بأن أصحابه يحرصون حرصه، لا يوحشهم أن يقاموا من المجلس إذا حضره عظماء قريش، لأنهم آمنوا يريدون وجه الله لا للرياء والسمعة، ولكن الله نهاه عن ذلك وسماه طردًا تأكيدًا لمعنى النهي، وذلك لحكمة: وهي كانت أرجح من الطمع في إيمان أولئك، لأن الله اطّلع على سرائرهم فعلم أنهم لا يؤمنون، وأراد الله أن يظهر استغناء دينه ورسوله عن الاعتزاز بأولئك الطغاة القساة، وليظهر لهم أن أولئك الضعفاء خيرٌ منهم، وأن الحرص على قربهم من الرسول أولى من الحرص على قرب المشركين وأن الدين يرغب الناس فيه، وليس هو يرغب في الناس)(٢).

خامسًا- من موضوعات الدعوة: ثناء الله على المسلمين الضعفاء المخلصين:

إن الله سبحانه أنزل فيهم: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٣).

وقال ابن هبيرة: "فيه ما يدل على كرامة هؤلاء النفر الستة، فإن هذه الآية قد شهدت لهم (يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه)، وفي هذا دليل على أنهم كانوا من أهل محبة الله عز وجل لقصدهم وجهه سبحانه، وذلك أن أطيب الزمان وألذه هو الغدوات والعشيات، فإذا طاب لهم زمانهم تمنوا أن يقطعوه بذكر ربهم سبحانه، وقوله تعالى: (ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء)، فإن معناه

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٤٣١/٦/٣.

(٢) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور ٢٤٦/٧/٣، ٢٤٧.

(٣) سورة الأنعام، آية: ٥٢.

غامض[1] شريف. وذلك أنه قال: (ما عليك من حسابهم)، فجعل الحساب لهم لا عليهم، وقال: (وما حسابك عليهم من شيء) وكفى بهذا شرفًا لمن تدبره"[2].

فقد ذكر الله (المتقين وأمره [أي رسوله ﷺ] بتقريبهم وإكرامهم وألا يطيع فيهم من أراد بهم خلاف ذلك، وأثنى عليهم بأنهم يواصلون دعاء ربهم أي عبادته ويواظبون عليها، والمراد بذكر الغداة والعشي: الدوام وقيل معناه: يصلُّون صلاة الصبح والعصر، ووسمهم بالإخلاص في عبادتهم بقوله ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ ... ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ كقوله تعالى: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى﴾[3] وذلك أنهم طعنوا في دينهم وإخلاصهم فقال: ما عليك من حسابهم من شيء بعد شهادته لهم بالإخلاص وبإرادة وجه الله في أعمالهم على معنى: وإن كان الأمر على ما يقولون عند الله فما يلزمك إلا اعتبار الظاهر والاتسام بسيمة المتقين، وإن كان لهم باطن غير مرضي فحسابهم عليهم لازم لهم لا يتعداهم إليك، كما أن حسابك لا يتعداك إليهم)[4].

سادسًا- من موضوعات الدعوة: نزول القرآن منجمًا:

"إن لنزول القرآن الكريم منجمًا [أي مفرقًا] حِكَمًا جليلة وأسرارًا عديدة عرفها العالمون وغفل عنها الجاهلون، ونستطيع أن نجملها فيما يأتي وهي:

أولاً: تثبيت قلب النبي ﷺ أمام أذى المشركين.

ثانيًا: التلطف بالنبي ﷺ عند نزول الوحي.

ثالثًا: التدرج في تشريع الأحكام السماوية.

رابعًا: تسهيل حفظ القرآن وفهمه على المسلمين.

خامسًا: مسايرة الحوادث والوقائع والتنبيه عليها في حينها.

---

(١) كذا في المطبوع.

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٣٦٥/١.

(٣) سورة الشعراء، آية: ١١٣.

(٤) الكشاف، الزمخشري ٣٢٩. وانظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢٥٩/٣، والتحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ٢٤٧/٧-٢٤٩.

سادسًا- الإرشاد إلى مصدر القرآن، وأنه تنزيل الحكيم الحميد:

أما الحكمة السابعة فهي "مسايرة الحوادث والوقائع في حينها" والتنبيه على الأخطاء في وقتها، فإن ذلك أوقع في النفس وأدعى إلى أخذ العظة والعبرة منها عن طريق الدرس العملي. فكلما جدّ منهم جديد نزل من القرآن ما يناسبه، وكلما حصل منهم خطأ أو انحراف، نزل القرآن بتعريفهم وتنبيههم إلى ما ينبغي اجتنابه وطلب عمله، ونبههم إلى مواطن الخطأ في ذلك الوقت والحين)[١]. وفي هذا الحديث نزل القرآن ليبيّن للنبي ﷺ ما يجب عليه فعله مع هؤلاء الستة من المسلمين، من الجلوس معهم وعدم طردهم طمعًا في إسلام هؤلاء المشركين. قال ابن كثير: (أي لاتبعد هؤلاء المتصفين بهذه الصفة عنك، بل اجعلهم جلساءك وأخصاءك)[٢].

سابعًا- من أهداف الدعوة: تكريم أهل الفضل والأمر بتقديرهم:

إن من أهداف الدعوة المستنبطة من عموم الحديث: تكريم أهل الفضل وتقديرهم فقد قال خباب رضي الله عنه بعد نزول هذه الآية: ((فكنا نقعد مع النبي ﷺ فإذا بلغنا الساعة التي يقوم فيها قمنا وتركناه حتى يقوم))[٣]، وقد قال الله عز وجل لرسوله ﷺ ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[٤].

وقال عبدالرحمن بن سهل بن حنيف قال: نزلت على رسول الله ﷺ وهو في بعض أبياته: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ فخرج

---

(١) التبيان في علوم القرآن، محمد علي الصابوني ص ٣٢-٣٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢٥٩/٣.

(٣) أخرجه ابن ماجه ٤١٢٧، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٣٣٢٩).

(٤) سورة الكهف، آية: ٢٨.

يلتمسهم، فوجد قومًا يذكرون الله، منهم ثائر الرأس وجافي الجلد[١] وذو الثوب الواحد. فلما رآهم جلس معهم وقال: الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني الله أن أصبر نفسي معهم)[٢].

قال ابن القيم رحمه الله: (إن أتباع الرسل، الذين صدقوهم، وآثروا الله والدار الآخرة على قومهم وأصحابهم قد أودع الله قلوبهم سرًا من أسرار معرفته ومحبته والإيمان به، خفي على أعداء الرسل، فنظروا إلى ظواهرهم، وعموا عن بواطنهم، فازدروهم واحتقروهم، وقالوا للرسول: اطرد هؤلاء عنك. حتى نأتيك ونسمع منك، وقالوا: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾[٣]، فقال نوح عليه السلام: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٤]. قال الزجاج: المعنى إن كنتم تزعمون أنهم إنما اتبعوني في بادي الرأي وظاهره، فليس عليَّ أن أطلع على ما في أنفسهم، فإذا رأيت من يوحد الله عاملته على ظاهره، ورددت علم ما في نفوسهم إلى الله، وهذا معنى حسن.

والذي يظهر من الآية: أن الله يعلم ما في أنفسهم، إذ أهَّلهم لقبول دينه وتوحيده، وتصديق رسله، والله سبحانه وتعالى عليم حكيم يضع العطاء في مواضعه. وتكون

---

(١) المعنى: أن جلدهم أصبح غليظًا من كثرة تعرضه للهواء والشمس، وذلك من قلة ما يجدونه من الثياب يلبسونها. أي أنهم شديدو الفقر والحاجة. فإن من معاني الجافي: الغليظ. القاموس المحيط في (ج ف ا).

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري ٢٣٨/١٥، ٢٣٩ والطبراني كما في تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١٥٢/٥، وقال الهيثمي في المجمع: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح، المجمع ٢١/٧. ولكن عبدالرحمن هذا راوي الحديث قال عنه الحافظ ابن حجر: لا يبعد أن يكون له رؤية وإن لم يكن له صحبة. الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ٧٠٣.

(٣) سورة الأنعام، آية: ٥٣.

(٤) سورة هود، آية: ٣١.

هذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾(١). فإنهم أنكروا أن يكون الله سبحانه أهَّلهم للهدى والحق، وحَرَمَه رؤساء الكفار، وأهل العزة والثروة منهم. كأنهم استدلوا بعطاء الدنيا على عطاء الآخرة؛ فأخبر الله سبحانه أنه أعلم بمن يؤهله لذلك لسر عنده من معرفة قدر النعمة، ورؤيتها من مجرد فضل المنعم، ومحبته وشكره عليها، وليس كل أحد عنده هذا السر، فلا يؤهل كل أحد لهذا العطاء)(٢).

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٥٣.

(٢) مدارج السالكين، ابن القيم ٣/٧١٢-٧١٣.

الحديث رقم (٢٦١)

٢٦١- وعن أَبي هُبَيرَة عائِذ بن عمرو المزني وَهُوَ مِنْ أهْل بيعة الرضوان رضي الله عنهم: أنَّ أبا سُفْيَانَ أتَى عَلَى سَلْمَانَ وَصُهَيْبٍ وَبلاَلٍ فِي نَفَرٍ، فقالوا: مَا أَخَذَتْ سُيُوفُ اللهِ مِنْ[1] عَدُوٍّ الله مَأْخَذَهَا، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: أتقولُون هَذَا لِشَيْخِ قُرَيْشٍ وَسَيدِهِمْ؟ فَأتَى النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم، فَأخْبَرَهُ، فَقَالَ: ((**يَا أَبَا بَكْرٍ، لَعلَّكَ أغْضَبتَهُمْ؟ لَئِنْ كُنْتَ أغْضَبْتَهُمْ لَقَدْ أغْضَبتَ رَبَّكَ**)).

فَأَتَاهُمْ فَقَالَ: يَا إخْوَتَاهُ، آغْضَبْتُكُمْ؟ قالوا: لاَ، يَغْفِرُ اللهُ لَكَ يَا أُخَيَّ. رواه مسلم[2].

قولُهُ: ((**مَأْخَذَهَا**)) أيْ: لَمْ تَسْتَوفِ حقها مِنْهُ. وقوله: ((**يَا أُخَيَّ**)): رُوِي بفتح الهمزةِ وكسرِ الخاءِ وتخفيف الياءِ، وَرُوِيَ بضم الهمزة وفتح الخاء وتشديد الياءِ.

ترجمة الراوي:

عائذ بن عمرو: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٩٢).

الشرح الأدبي

إن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم مكانتهم في التاريخ الإسلامي، ولهم دورهم في تأسيس أركان الدولة الإسلامية، وتثبيت دعائمها، وهم نجوم الهداية، ومنارات الاقتداء.

وفي هذا الحديث الشريف تشرق أسماء الصحابة الأجلاء الذين وقفوا بجانب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينصرونه ويؤازرونه، يتقدمهم في الفضل والسبق إلى الإسلام أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وهو الخليفة الأول لرسول الله صلى الله عليه وسلم وكان كما يقول العقاد- أليفًا ودودًا حسن المعاشرة، وكان مطبوعًا على أفضل الصفات التي تتألف لها الناس فيألفونه، ومنها التواضع ولين الجانب، فلم يتعال على أحد قط في جاهليته ولا في

---

(١) عند مسلم زيادة: (من عنق).

(٢) برقم (٢٤٠٥/١٧٠). أورده المنذري في ترغيبه (٤٦٦٨).

إسلامه، وكان في خلافته أظهر تواضعًا منه قبل ولايته الخلافة، وكان في جاهليته وإسلامه وقورًا جميل السمت يغار على مروءته، ويتجنب ما يريب، وكان لمروءته يتحاشى السقط من الكلام، فلا يتكلم إلا أن يدعوه داع إلى قولة خير فيقولها إذن ويصدق في مقاله [١].

وأما سلمان الفارسي رضي الله عنه: وإخوانه صهيب وبلال رضي الله عنهما وغيرهما قد شهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفضل، وقد ورد في فضلهم الكثير من الأحاديث.

وأبو سفيان أنعم الله عليه بالإسلام، ودخل مع جموع المؤمنين من الناس في دين الله أفواجا يوم الفتح الأكبر.

ويصدق حَدْس أبي بكر في تأليف قلب أبي سفيان، ويعطي الرسول صلى الله عليه وسلم الأمان لأبي سفيان حينما أعلن إسلامه والمسلمون على مشارف مكة: ويقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: ((ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن ألقى السلاح فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن))[٢]، وتشاء الحكمة الإلهية أن يكون أبناء أبي سفيان وأحفاده وأبناء أخيه من القواد الفاتحين بعد ذلك، وأن تكون الدولة الأموية، لها دورها الكبير في انتشار الإسلام في أفريقيا والأندلس، وآسيا، والهند، وباكستان في ظل خلفاء بني أمية، وقادتهم الكبار، والولاة الفرسان.

وفي ضوء هذه الإشعاعات التاريخية، وتلك القبسات النبوية، وتلك الحقائق الباسقة، نتأمل هذا الحديث النبوي الشريف، فزمن الحوار الذي دار بين الصحابة حول مصير أبي سفيان، كان في الهدنة بين الرسول صلى الله عليه وسلم ومشركي مكة بعد صلح الحديبية، وأبو سفيان كان كافرًا، ولذلك وصفه هؤلاء الصحابة بأنه عدو الله، وهو وصف محدود بإطاره الزمني لأنه أسلم بعد ذلك، والمواجهة بين أبي سفيان وهؤلاء الصحابة المستضعفين الموالي، تفصح عن دور العقيدة في تقوية إرادة هؤلاء الضعفة، فهم في الإسلام أقوياء بعقيدتهم لا يخشون في الله لومة لائم.

---

(١) عبقرية الصديق، عباس محمد العقاد.

(٢) أخرجه مسلم ١٧٨٠.

والحوار بين أبي بكر وهؤلاء الصحابة يطلعنا على حكمة أبي بكر ﵁ وعلى حرصه على تأليف قلب أبي سفيان، وقد وصفه بشيخ قريش وسيدها، واستنكر عليهم هذا المسلك معه؟ ولكن رسول الله ﷺ كان حريصًا على عدم إغضاب هؤلاء المستضعفين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي، فأقسم ونادى أبا بكر بأنه إن كان أغضبهم فقد أغضب ربه، واستعمال "إن" الشرطية هنا، يوحي بأن غضبهم غير متيقن لأنها لا تفيد التحقق، وينهض أبو بكر في تواضع ومحبة ويناديهم مستغيثًا يا إخوتاه، ويستفهم "أأغضبتكم؟" وتهدأ نفسه ويطمئن حين يقولون له : لا ثم يدعون له بالمغفرة وينادونه يا أخي، وما أجمل هذا الإخاء!!!.

المضامين الدعوية

أولاً : من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانيًا : من تاريخ الدعوة: بيعة الرضوان.

ثالثًا : من موضوعات الدعوة: أهمية إرهاب العدو.

رابعًا : من موضوعات الدعوة: فضل سلمان وصهيب وبلال ﵃.

خامسًا : من موضوعات الدعوة: مراعاة الضعفاء وأهل الإيمان وملاطفتهم.

سادسًا : من موضوعات الدعوة: ورع أبي بكر ﵁ وحرصه على إبراء ذمته.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار:

يظهر ذلك في الحديث من قول الراوي: "إن أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال في نفر فقالوا: ... إلخ"، والإخبار من الأساليب الدعوية المهمة التي يستعين بها الداعية على تبليغ دعوته للمدعوين لما لذلك من عظيم الأثر. حيث أمر الحق تبارك وتعالى نبيه ﷺ بذلك فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾[1]، فهذا أمر من الله الرسول ﷺ بأعظم الأوامر وأجلها، وهو التبليغ لما أنزل الله إليه ويدخل في

---

(١) سورة المائدة، آية: ٦٧.

هذا كل أمر تلقته الأمة عنه ﷺ[١]. وقال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[٢]، فعلى الداعية أن يقتدي بالنبي ﷺ في حسن إخباره وتبليغه لدعوته بما في ذلك من صدقه وإخلاصه ﷺ.

ثانيًا- من تاريخ الدعوة: بيعة الرضوان:

هذا ما أشار إليه الحديث من قول: "وهو من أهل بيعة الرضوان".

"وقد كانت بيعة الرضوان في السادس من الهجرة من ذي القعدة حيث خرج رسول الله ﷺ معتمرًا في ألف وأربع مائة رجل، وساق معه الهدى، وأحرم بالعمرة؛ ليأمن الناس من حربه، وليعلم الناس أنه إنما خرج زائرًا لهذا البيت، ومعظمًا له[٣]"[٤].

(وقد أراد النبي ﷺ بهذا النسك المنشود إقرار حق المسلمين في أداء عبادتهم، وإفهام المشركين أن المسجد الحرام ليس ملكًا لقبيل يحتكر القيام عليه، ويمكنه الصد عنه، فهو ميراث الخليل إبراهيم عليه السلام...، وإحرام النبي ﷺ وصحبه بالعمرة فحسب -وهم يريدون دخول مكة- آية على الرغبة العميقة في السلم، وعلى الرغبة في نسيان الخصومات السابقة، وتأسيس علاقة أهدأ وأرق، ولكن أبت قريش وتعاهدت ألا يدخل عليهم رسول الله ﷺ مكة أبدًا)[٥].

(وبعد ان أرسلت قريش بديل بن ورقاء الخزاعي، ثم مكرز بن حفص بن الأخيف، ثم الحليس بن علقة "سيد الأحابيش"، ثم عروة بن مسعود الثقفي، وبعد هذه الوفود كانت "بيعة الرضوان")[٦].

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٢٠١.

(٢) سورة النحل، آية: ٤٤.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١١٤٦.

(٤) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام، ٣٠٨/٢، والبداية والنهاية، ابن كثير، ٢٠٧/٦.

(٥) فقه السيرة، محمد الغزالي، ٣٢٢-٣٢٤.

(٦) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام، ٣١٣/٢، البداية والنهاية، ابن كثير، ٢١٠/٦.

حيث كان سبب هذه البيعة العظيمة أن النبي ﷺ: "دعا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليبعثه إلى مكة، ليبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له، فقال: يا رسول الله، إني أخاف قريشًا على نفسي، وليس بمكة من بني عدي بن كعب من يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها، وغلظتي عليها، ولكني أدلك على رجل أعز بها مني، عثمان بن عفان رضي الله عنه، فبعثه رسول الله ﷺ إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وأنه جاء زائرًا لهذا البيت ومعظمًا لحرمته.

فخرج عثمان رضي الله عنه إلى مكة، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة، أو قبل أن يدخلها، فحمله بين يديه، ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ، فانطلق عثمان رضي الله عنه حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش، فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به، فقالوا لعثمان رضي الله عنه حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إليهم: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف. فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ. واحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان رضي الله عنه قد قتل.

قال ابن اسحاق: فحدثني عبد الله بن أبي بكر: أن رسول الله ﷺ قال حين بلغه أن عثمان قد قتل: «لا نبرح حتى نناجز القوم». ودعا رسول الله الناس إلى البيعة، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، فكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله ﷺ على الموت، وكان جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يقول: إن رسول الله ﷺ لم يبايعهم على الموت ولكن بايعنا على ألا نفر.

فبايع الناس ولم يتخلف أحد من المسلمين حضرها إلا الجد بن قيس أخو بني سلمة، فكان جابر رضي الله عنه يقول: والله لكأني أنظر إليه لاصقًا بإبط ناقته قد ضبأ إليها يستتر بها من الناس، ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذي كان من أمر عثمان رضي الله عنه باطل"[١].

وقد أخرج البخاري عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: قال لنا رسول الله ﷺ يوم الحديبية: «أنتم خير أهل الأرض»[٢] وكنا ألفًا وأربعمائة، ولو كنت أبصر اليوم لأريتكم مكان الشجرة.

---

(١) السيرة النبوية ابن هشام، ٣١٥/٢، ٣١٦، البداية والنهاية، ابن كثير، ٢١٤/٦، ٢١٥.

(٢) أخرجه البخاري ٤١٥٤، ومسلم ١٨٥٦.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: أهمية إرهاب العدو:

قد ورد في الحديث ما يؤكد ذلك من قول الراوي: (إن أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال في نفر فقالوا: ما أخذت سيوف الله من عدو الله مأخذها)، وقد أمر الحق تبارك وتعالى بإخافة العدو وإرهابه، فقال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[1].

قال ابن كثير: (أي: تخيفون به عدو الله وعدوكم من الكفار)[2]، وقال القاسمي: (دلت هذه الآية على وجوب إعداد القوة الحربية، إتقاءً لبأس العدو وهجومه. ولما عمل الأمراء بمقتضى هذه الآية، أيام حضارة الإسلام، كان الإسلام عزيزًا، عظيمًا، أبيَّ الضيم، قوي القنَا، جليل الجاه، وفير السنا، إذ نشر لواء سلطته على منبسط الأرض، فقبض على ناصية الأقطار والأمصار، وخضد شوكة المستبدين الكافرين، وزحزح سجوف الظلم والاستعباد، وعاش بنوه أحقابًا متتالية، وهم سادة الأمم، وقادة الشعوب، وزمام الحول والطول، وقطب رحى العز والمجد، لا يستكينون لقوة، ولا يرهبون لسطوة. وأما اليوم، فقد ترك المسلمون العمل بهذه الآية الكريمة، ومالوا إلى النعيم والترف فأهملوا فرضًا من فروض الكفاية، فأصبحت جميع الأمة آثمة بترك هذا الفرض. ولذا تعاني اليوم من غصته ما تعاني. وكيف لا يطمع العدو بالممالك الإسلامية، ولا ترى فيها معامل للأسلحة، وذخائر الحرب، بل كلها مما يشترى من بلاد العدو؟ أما آن لها أن تتنبه من غفلتها، وتنشئ معامل لصنع المدافع والبنادق والقذائف والذخائر الحربية؟ فلقد ألقى عليها تنقص العدو بلادها من أطرافها درسًا يجب أن تتدبره، وتتلافى ما فرطت به. قبل أن يداهم ما بقى منها بخيله ورجله، فيقضى - والعياذ بالله- على الإسلام وممالك المسلمين، لاستعمار الأمصار، واستعباد الأحرار، ونزع الاستقلال المؤذن بالدمار. وبالله الهداية"[3].

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٦٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٨٢/٤.

(٣) محاسن التأويل، القاسمي ٨٥/٨/٥ - ٨٦.

وفي القيام بذلك يكون إرهاب العدو، وهذا ما أكد عليه النبي ﷺ، ففي غزوة أحد خرج أبو دجانة الأنصاري رضي الله عنه يختال في مشيته ويتبختر بين الصفين كعادته المتبعة عند الحرب، فلما رآه النبي ﷺ يختال في مشيته، قال ﷺ: ((إِنَّهَا لَمِشْيَةٌ يَبْغَضُهَا اللَّهُ إلا فِي مثل هَذَا الْمَوْطِنِ)) (١)، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لما قَدِمَ النبيُّ ﷺ لعامِهِ الذي استأمَنَ قال: ((ارمُلوا ليرَى المشركونَ قُوَّتهُمْ، وفي رواية إنما سعى النبي ﷺ بالبيت وبين الصفا والمروة ليُرِىَ المشركين قوته))(٢)، وفي ذلك بيان على أهمية إرهاب العدو وإخافته، لما في ذلك من حماية بيضة المسلمين وإقامة الدين.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل سلمان وصهيب وبلال رضي الله عنهم:

لقد أشار الحديث إلى فضل سلمان وصهيب وبلال رضي الله عنهم ويستنبط ذلك من قوله ﷺ: "يا أبا بكر لعلك أغضبتهم؟ لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك"، (فبلال رضي الله عنه من السابقين الأولين في الإسلام شهد بدرًا وشهد له النبي ﷺ على التعيين بالجنة)(٣)، وقال له ﷺ: ((سمعتُ دَفَّ نَعليكَ بينَ يدَيَّ في الجنَّة))(٤).

أما سلمان رضي الله عنه فهو الذي دلّ المسلمين على حفر الخندق في غزوة الأحزاب، وقال فيه علي بن ابي طالب رضي الله عنهما عندما سئل عنه: (امرؤ منا وإلينا أهل البيت، من لكم بمثل لقمان الحكيم علم العلم الأول والعلم الآخر، وقرأ الكتاب الأول والآخر، وكان بحرًا لا ينزف، وقد جُعل أميرًا على المدائن وكان إذا خرج عطاؤه تصدق به)(٥).

أما صهيب رضي الله عنه فقد نزل فيه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾(٦) (وذلك عندما أراد أن يهاجر من مكة فمنعه الناس أن يهاجر بماله،

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام، ٧١/٢.

(٢) أخرجه البخاري ٤٢٥٧.

(٣) سير أعلم النبلاء، الذهبي، ٤٢٧/١.

(٤) أخرجه البخاري ٣٧٥٤.

(٥) سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ٥٤٣/١، الأعلام، الزركلي ١١٢/٣.

(٦) سورة البقرة، آية: ٢٠٧.

فترك ماله وهاجر، فأنزل الله فيه هذه الآية، فتلقاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وجماعة إلى طرف الحرّة، فقالوا له: ربح البيع. فقال: وأنتم فلا أخسر الله تجارتكم، وما ذاك؟ فأخبروه أن الله أنزل فيه هذه الآية)[١].

فنعم أصحاب النبي ﷺ هم مفخرة الإنسانية، وخير جيل عرفته البشرية، فرضي الله عنهم ورضوا عنه.

خامسًا- من موضوعات الدعوة: مراعاة الضعفاء وأهل الإيمان وملاطفتهم:

إن من موضوعات الدعوة المستنبطة من هذا الحديث أهمية مراعاة الضعفاء وأهل الإيمان وملاطفتهم، لمالهم من عظيم الفضل والمنزلة عنه الله تعالى، ومن الشواهد على ذلك ما ورد في الحديث من سؤال النبي ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه قائلاً: له يا أبا بكر لعلك أغضبتهم، لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك فأتاهم أبو بكر رضي الله عنه قائلاً لهم: "يا إخوتاه آغضبتكم..."، ولاشك أن ذلك دليل على أهمية مراعاة الضعفاء وأهل الإيمان والفضل.

(وقد أمر الحق تبارك وتعالى بخفض الجناح ولين الجانب للمؤمنين)[٢] فقال تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[٣] وقال: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[٤] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[٥]. قال ابن كثير: (إن هذه صفات المؤمنين الكُمَّل، أن يكون أحدهم متواضعًا لأخيه ووليه، متعززًا على خصمه وعدوه)[٦]، وفي ذلك بيان على أهمية مراعاة قلوب الضعفاء وأهل الإيمان وملاطفتهم.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٥٦٤/١.

(٢) المرجع السابق ٥٤٦/٤.

(٣) سورة الحجر، آية: ٨٨.

(٤) سورة الشعراء، آية: ٢١٥.

(٥) سورة المائدة، آية: ٥٤.

(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١٣٦/٣.

سادسًا- من موضوعات الدعوة: ورع أبي بكر رضي الله عنه وحرصه على إبراء ذمته:

يظهر ذلك في الحديث من قول الراوي "فأتاهم فقال: يا إخوتاه آغضبتكم؟ قالوا: لا؛ يغفر الله لك يا أخي؟ وقد بين ابن عثيمين أن (في ذلك دليل على ورع أبي بكر رضي الله عنه، وعلى حرصه على إبراء ذمته، وأن الإنسان ينبغي له، بل يجب عليه إذا اعتدى على أحد بقول أو فعل، أو بأخذ مال، أو سب أو شتم، أن يستحله في الدنيا، قبل أن يأخذ ذلك منه في الآخرة)(١).

حيث حذر النبي صلى الله عليه وسلم من اعتداء أو ظلم المسلم للمسلم فقال: ((أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ. فَقَالَ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي، يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَـٰذَا، وَقَذَفَ هَـٰذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَـٰذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَـٰذَا، وَضَرَبَ هَـٰذَا. فَيُعْطَىٰ هَـٰذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَـٰذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ. فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ، قَبْلَ أَنْ يُقْضَىٰ مَا عَلَيْهِ. أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ. ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ))(٢).

فإن هذا هو المفلس الحقيقي، فهو الهالك الهلاك التام، والمعدوم الإعدام المقطع، فتؤخذ حسناته لغرمائه، فإذا فرغت حسناته أخذ من سيئاته فوضع عليه ثم ألقي في النار فتمت خسارته وهلاكه وإفلاسه(٣).

---

(١) شرح رياض الصالحين١/٦٤٤.

(٢) أخرجه مسلم ٢٥٨١.

(٣) انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٤.

الحديث رقم (٢٦٢)

٢٦٢- وعن سهل بن سعد رضي الله عنه ، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ : ((أَنَا وَكَافلُ اليَتِيمِ في الجَنَّةِ هكَذا)) وَأَشارَ بالسَّبَّابَةِ وَالوُسْطَى، وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا. رواه البخاري[١].

و((كَافلُ اليَتيم)): القَائِمُ بأُموره.

ترجمة الراوي:

سهل بن سعد الساعدي: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٧٥).

غريب الألفاظ:

كافل اليتيم: القائم بأُمورِه[٢].

فَرَّجَ بينهما: أي فرّق بين السبابة والوسطى؛ إشارة إلى أن بين درجة النبي ﷺ وكافل اليتيم قدر تفاوت ما بين السبابة والوسطى[٣].

الشرح الأدبي

إن التكافل الاجتماعي في الإسلام لا ينبع من منظور العطاء مقابل السلب، ولا يتوجه إلى الفئات التي تتخذ من الإهمال تعلة للعطف، وسبيلاً إلى التسول، لأن الإسلام يحث على العمل والكد والسعي، قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[٤].

وهذه القاعدة التي يؤسس عليها التكافل الاجتماعي في الإسلام، هي قاعدة إنسانية تلبي حاجة الضعيف، وتؤمن فزع المكروب، وتواسي طوائف المبتلين بأنواع

---

(١) برقم (٥٣٠٤) وزاد في آخره: (شيئًا). أورده المنذري في ترغيبه (٣٧٣٢). تنبيه: لم يورد المنذري الزيادة التي في آخر الحديث، فتبعه عليه المؤلف.

(٢) رياض الصالحين (١٥٤).

(٣) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٤٦٣.

(٤) سورة التوبة، آية: ١٠٥.

البلاءات، من العوز والفاقة واليتم والخوف، ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، واليتيم في الإسلام له حقوقه التي تستلزم رعايته وتربيته وتعليمه، وهي الحقوق التي منحها الله لكل فرد في حدودها المشروعة في الكتاب والسنة وهذه الحقوق في مجملها تتمثل في: حق الحياة، حق الحرية، حق العلم، حق الكرامة، حق التملك، ويقول الغزالي: إن مقصود الشرع من الخلق خمسة: (أن يحفظ عليهم دينهم ونفسهم، وعقلهم، ونسْلهم ومالهم)، فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة، ودفعها مصلحة.

وكفالة اليتيم في ظل هذه الأبعاد تتحرك لتشمل كل ما يحتاجه ذلك الطفل الذي حرم رعاية أبيه، وحنان أمه وهو من ضعفة المسلمين.

والحديث في بنائه اللغوي ينزع إلى الترغيب وإلى زرع الرحمة بالأيتام في قلوب المسلمين، ويتخذ الحديث نهجًا أسلوبيًا مشوقًا مرغبًا، حيث يبدأ بلفظ "أنا" وهو ضمير المتكلم، ومَنْ المتكلم إنه أشرف المرسلين وخاتم النبيين، والمبعوث رحمة للعالمين، ثم بعد هذا الضمير العلم الأسنى "يعطف كافل اليتيم" عليه، فأي صحبة أسمى من هذه الصحبة، وأي شرف أعظم من هذا التكريم: حين يبشر رسول الله ﷺ بني الأمة بأن كافل اليتيم معه في جنة عرضها السموات والأرض، أعدت للمتقين، ولهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد كما وعد الله عز وجل.

والإشارة في الحديث بالسبابة والوسطى، والتفريج بينهما، تضيف أبعادًا جديدة إلى المعنى، وتقوي من التأثير في نفوس السامعين: فالإشارات في مثل هذه المواقف صور حركية تكني عن مشاعر خلفها، وهي لغة تفوق الكلام في هذا المضمار، لأن الحركة تومئ إيماء لطيفًا، وتهجم إلى العين، وتؤدي بعد ذلك المغزى المتبقي من الحركة.

والإشارة في الحديث فكر وفن، ومن أجل تحقيق مقصد الإبلاغ والتوصيل سعى النبي ﷺ إلى تجسيم الأفكار لمستمعيه لإنشاء جسر من التواصل الفكري، ولسكب الصيغة الفنية التي تحن إليها القلوب في تلقف المضامين الإسلامية.

والأحاديث في استخدام الأصبعين السبابة والوسطى كثيرة في مضمار التوضيح، كما في هذا الحديث، ولقد سكت عن المشبه به، وصار حركة استلفتت الأنظار، وشدتها إلى الأصبعين اللذين يبرزان في المشهد، ويصيران رمزًا لقرب النبي ﷺ ولصوقه بكافل اليتيم، في الجنة، ولنتأمل لفظ "السبابة"، ولماذا أطلق عليها هذا الاسم، وفي رواية "السباحة"، قيل سمى الإصبع بالسبابة: لأنه يسب بها الشيطان، وقيل السباحة، لأنها يسبح بها في الصلاة، ويشار بها في التشهد لذلك.

ويقول القرطبي: مفسرًا دلالة قوله هاتين، إنه معه فيها أى في الجنة وبحضرته، غير أن كلا منهما على درجته فيها، إذ لا يبلغ درجة الأنبياء غيرهم.

ويقول الحافظ العراقي: في بيان قيمة التشبيه في هذا الحديث لعل الحكمة في تشبيه كافل اليتيم بالنبي ﷺ في دخول الجنة أو في علو المنزلة، أو في القرب منه ﷺ: كونه ﷺ من شأنه أن يبعث إلى قوم لا يعقلون أمر دينهم، فيكون كافلاً لهم ومعلمًا ومرشدًا، وكذا كافل اليتيم يقوم بكفالة من لا يعقل أمر دينه بل ولا دنياه فيرشده ويعلمه ويحسن أدبه: فظهرت مناسبة ذلك[١].

فقه الحديث

يشير هذا الحديث[٢] إلى نوع من أنواع البر المحمودة، والتي جعل لها الله سبحانه الجزاء العظيم والثواب العميم، وهو كفالة اليتيم والإحسان إليه.

وقد ذكر الفقهاء[٣] أن من أعمال البر الواجبة التي ينبغي للمسلم أن يفطن لها ويعملها البر بالفقراء والمساكين، وخاصة الأيتام لما في ذلك من الإحسان إليهم والرأفة

---

(١) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٤٦٣، ٤٦٤.

(٢) الحديث رقم (٢٦٢) والحديث رقم (٢٦٣).

(٣) انظر في ذلك: المنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ٢٦٨/٧، وبلغة السالك لأقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك، أحمد بن محمد الصاوي ٤٨٩/٣، والزواجر عن اقتراف الكبائر، ابن حجر الهيتمي ٤١٩/١، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين عبدالرحيم بن الحسن ٦٨/٧، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٣٩٣/٤، ومطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، مصطفى السيوطي ٥٢٨/٤، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٥٠/٤٥.

بهم وإعانتهم على الحياة، وما في ذلك من البركة في العمر والرزق إضافة إلى ما يدخره الله سبحانه للفاعل من الأجر العظيم في الآخرة.

المضامين الدعوية[١]

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار، والترغيب.

ثانيًا: من وسائل الدعوة: الإشارة.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل كفالة اليتيم.

رابعًا: من أهداف الدعوة: رعاية وكفالة الأيتام.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار، والترغيب:

ورد أسلوب الإخبار في الحديث في قوله ﷺ "أنا وكافل اليتيم في الجنة ... إلخ" وفي رواية "كافل اليتيم أو لغيره... إلخ" وأسلوب الإخبار أو البلاغ من الأساليب الدعوية التي تعين الداعية على تبليغ دعوته للمدعوين. وقد أمر النبي ﷺ بذلك فقال: «بلغوا عني ولو آية»[٢]، وفي ذلك عظيم الأجر لقوله ﷺ: ((من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا))[٣].

أما أسلوب الترغيب فيعمل على ترغيب النفس وتشويقها إلى فعل الطاعات والانقياد لأوامر الله تعالى. وقد ورد هذا الأسلوب في الحديث من قوله ﷺ: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا وأشار بالسبابة والوسطى، وفرج بينهما»، وفي رواية "أنا وهو كهاتين في الجنة" وأشار الراوي بالسبابة والوسطى.

ثانيًا- من وسائل الدعوة: الإشارة:

ورد ذكر الإشارة واستعمال النبي ﷺ لها في الحديث من قول الراوي "وأشار بالسبابة والوسطى، وفرج بينهما، والإشارة من الوسائل الدعوية التي تلفت انتباه المدعوين وتستحضر أذهانهم، وتعمل على بلورة المعاني في أذهان المدعوين، وقد أفادا

---

(١) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -٢٦٢- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (٢٦٣).

(٢) أخرجه البخاري ٣٤٦١.

(٣) أخرجه مسلم ٦٧٤.

استعمال الإشارة في هذا الحديث بيان ملاصقة كافل اليتيم وقربه من النبي ﷺ في الجنة، وهذا مما يحمل المدعو على سرعة المبادرة إلى كفالة اليتامى، والإحسان إليهم، وحسن رعايتهم طمعًا في بلوغ تلك المنزلة الرفيعة.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل كفالة اليتيم:

قد ورد ذلك في الحديث من قوله ﷺ "أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا وأشار بالسبابة والوسطى، وفرج بينهما، وفي رواية "كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين في الجنة... إلخ"، (وكافل اليتيم هو القائم بأمره ومصالحه من نفقة وكسوة وتأديب وتربية وغير ذلك)[١].

قال ابن حجر: (قال ابن بطال إنه حق على من سمع هذا الحديث أن يعمل به ليكون رفيق النبي ﷺ في الجنة، ولا منزلة في الآخرة أفضل من ذلك، وبين ابن حجر أن في الحديث إشارة إلى أن بين درجة النبي ﷺ وكافل اليتيم قدر تفاوت ما بين السبابة والوسطى، ويكفي في إثبات قرب المنزلة من المنزلة أنه ليس بين الوسطى والسباب إصبع أخرى)[٢].

وقد بين الحق تبارك وتعالى عظم جزاء إكرام اليتيم فقال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾[٣].

أي: لا نطلب منكم مجازاة تكافئوننا بها ولا أن تشكروننا عند الناس، قال

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٥١/١٠، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٧١٦.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٥١/١٠.

(٣) سورة الإنسان، آية: ٥-١٢.

مجاهد وسعيد بن جبير: أما والله ما قالوه بألسنتهم، ولكن علم الله به من قلوبهم، فأثنى عليهم به، ليرغب في ذلك راغب[١].

وقال تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾[٢].

قال ابن كثير: " قال ابن جرير: ...، عن ابن عمر رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ قال: جبل في جهنم. وقال كعب الأحبار: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ هو سبعون درجة في جهنم، وقال الحسن البصري: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ قال عقبة في جهنم، وقال قتادة: إنها عقبة قحمة شديدة فاقتحموها بطاعة الله عز وجل. وقال قتادة: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ﴾ ثم أخبر تعالى عن اقتحامها فقال : ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾..... وقوله: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: ذي مجاعة...، وقوله: ﴿يَتِيمًا﴾ أي: أطعم في مثل هذا اليوم يتيمًا"[٣]. وفي ذلك بيان على جزيل الثواب من الله تعالى وعظيم العطاء لمن أكرم يتيمًا، وهذا ما أكده النبي ﷺ في قوله: «من مسح رأس يتيم لم يمسحه إلا لله كان له بكل شعرة مرت عليها يده حسنات، ومن أحسن إلى يتيمة أو يتيم عنده كنت أنا وهو في الجنة كهاتين، وفرّق بين أصبعيه السباحة والوسطى»[٤].

وفي ذلك بيان على أن كفالة اليتيم من أجل أنواع الطاعات التي يتقرب بها الإنسان إلى الله تعالى.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٩٨/٨.

(٢) سورة البلد، الآيات: ١١-١٦ .

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٤٠٧/٨، ٤٠٨.

(٤) أخرجه أحمد ١٥٠/١٥ رقم ٢٢١٥٣، وقال محققو المسند صحيح لغير ٤٧٤/٣٦.

رابعًا- من أهداف الدعوة: رعاية وكفالة الأيتام:

إن من الأهداف الدعوية التي ترمى الدعوة إلى تحقيقها، وإشاعتها في المجتمع الإسلامي، رعاية الأيتام وكفالتهم من خلال بيان تلك المنزلة الرفيعة التي أعدها الله تعالى لكافل اليتيم، حيث تضافرت النصوص الشرعية في الكتاب والسنة على بيان أهمية وفضل رعاية الأيتام، والقيام على كفالتهم، ولذا فإن الأمر يعد من أهم أهداف الدعوة الإسلامية، وهذا ما يستنبط من عموم الحديث، وقد بين الله تعالى أخوة المؤمنين فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾(١) وأكد النبي ﷺ على ذلك فقال: ((مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، مَثَلُ الْجَسَدِ. إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ، تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى))(٢).

(وقد كان النبي ﷺ أعظم وخير المكفولين، فقد توفي والده قبل أن يولد ونشأ في كفالة جده عبدالمطلب يَلْقَى من الرعاية والعناية ما يعوضه عن فقد أبيه)(٣).

قال ابن إسحاق: "وكان رسول الله ﷺ مع جده عبدالمطلب بن هاشم، وكان يوضع لعبدالمطلب فراش في ظل الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك، حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له، قال: "ابن إسحاق": فكان رسول الله ﷺ يأتي وهو غلام جَفْر(٤)، حتى يجلس عليه، فيأخذه أعمامه، ليؤخروه عنه، فيقول عبدالمطلب إذا رأى منهم ذلك: دعوا ابني، فوالله، إنَّ لهُ لَشَأْنًا، ثم يجلسه معه على الفراش، ويمسح ظهره بيده، وَيَسُرُّه ما يراه يصنع"(٥)، "وبعد أن توفي عبدالمطلب وعمره ﷺ قد جاوز الثماني سنوات بقليل، انتقلت كفالته - أخذًا بوصية جده- إلى عمه

---

(١) سورة الحجرات، آية: ١٠.

(٢) أخرجه البخاري ٦٠١١، ومسلم ٢٥٨٦.

(٣) موسوعة نضرة النعيم ٣٢٤٨/٨.

(٤) الجَفْر: الصبي الذي يقوى على الأكل، لسان العرب في (ج ف ر).

(٥) السيرة النبوية، ابن هشام، ١٩٤/١.

الشقيق أبي طالب"[١]، "فنهض أبو طالب بحق ابن أخيه على أكمل وجه وضمَّهُ إلى ولده، وقدمه عليهم واختصه بفضل احترام وتقدير، فكان لا ينام إلا وهو إلى جواره ويصطحبه معه ما أمكنته الصحبة"[٢].

وقد ضرب لنا النبي ﷺ أروع الأمثلة في بيان أهمية كفالة اليتيم كأسنى مقاصد الشريعة.

فعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ ، قَالَ: «كُنْتُ مَعَ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ فِي مَسِيرٍ لَهُ. فَأَدْلَجْنَا لَيْلَتَنَا. حَتَّى إِذَا كَانَ فِي وَجْهِ الصُّبْحِ عَرَّسْنَا. فَغَلَبَتْنَا أَعْيُنُنَا حَتَّى بَزَغَتِ الشَّمْسُ. قَالَ فَكَانَ أَوَّلَ مَنِ اسْتَيْقَظَ مِنَّا أَبُو بَكْرٍ. وَكُنَّا لاَ نُوقِظُ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ مِنْ مَنَامِهِ إِذَا نَامَ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ. ثُمَّ اسْتَيْقَظَ عُمَرُ. فَقَامَ عِنْدَ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ. فَجَعَلَ يُكَبِّرُ وَيَرْفَعُ صَوْتَهُ بِالتَّكْبِيرِ. حَتَّى اسْتَيْقَظَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. فَلَمَّا رَفَعَ رَأْسَهُ وَرَأَى الشَّمْسَ قَدْ بَزَغَتْ قَالَ: «ارْتَحِلُوا» فَسَارَ بِنَا. حَتَّى إِذَا ابْيَضَّتِ الشَّمْسُ نَزَلَ فَصَلَّى بِنَا الْغَدَاةَ. فَاعْتَزَلَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ لَمْ يُصَلِّ مَعَنَا. فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا فُلاَنُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تُصَلِّيَ مَعَنَا؟» قَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَصَابَتْنِي جَنَابَةٌ. فَأَمَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَتَيَمَّمَ بِالصَّعِيدِ. فَصَلَّى. ثُمَّ عَجَّلَنِي فِي رَكْبٍ بَيْنَ يَدَيْهِ نَطْلُبُ الْمَاءَ. وَقَدْ عَطِشْنَا عَطَشًا شَدِيدًا. فَبَيْنَمَا نَحْنُ نَسِيرُ إِذَا نَحْنُ بِامْرَأَةٍ سَادِلَةٍ رِجْلَيْهَا بَيْنَ مَزَادَتَيْنِ[٣]. فَقُلْنَا لَهَا: أَيْنَ الْمَاءُ؟ قَالَتْ: أَيْهَاهْ. أَيْهَاهْ[٤]. لاَ مَاءَ لَكُمْ. قُلْنَا: فَكَمْ بَيْنَ أَهْلِكِ وَبَيْنَ الْمَاءِ؟ قَالَتْ: مَسِيرَةُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ قُلْنَا: انْطَلِقِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَتْ: وَمَا رَسُولُ اللَّهِ؟ فَلَمْ نُمَلِّكْهَا مِنْ أَمْرِهَا شَيْئًا حَتَّى انْطَلَقْنَا بِهَا. فَاسْتَقْبَلْنَا بِهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ. فَسَأَلَهَا فَأَخْبَرَتْهُ مِثْلَ الَّذِي أَخْبَرَتْنَا. وَأَخْبَرَتْهُ أَنَّهَا

---

(١) انظر: خاتم النبيين، الشيخ محمود أبو زهرة، بيروت، المكتبة العصرية، بدون رقم طبعة أو سنة، ١٦٦/١، والرحيق المختوم، المباركفوري، ٦٦، نقلاً عن موسوعة نضرة النعيم، ٣٢٤٨/٨.

(٢) المرجعان السابقان نفسهما، والصفحات نفسها.

(٣) السادلة: المرسلة المدنية والمزادة معروفة وهي أكبر من القربة والمزادتان: حمل البعير سميت مزادة لأنه يزاد فيها من جلد آخر من غيرها. (شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٤٨١)

(٤) أي: هيهات هيهات، ومعناه البعد عن المطلوب واليأس منه كما قالت بعده لا ماء لكم أي: ليس لكم ماء حاضر ولا قريب (شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٤٨١).

مُوتِمَةٌ[١]. لَهَا صِبْيَانٌ أَيْتَامٌ. فَأَمَرَ بِرَاوِيَتِهَا. فَأُنِيخَتْ[٢]. فَمَجَّ فِي الْعَزْلَاوَيْنِ الْعُلْيَاوَيْنِ[٣]. ثُمَّ بَعَثَ بِرَاوِيَتِهَا. فَشَرِبْنَا. وَنَحْنُ أَرْبَعُونَ رَجُلاً عِطَاشٌ. حَتَّى رَوِينَا. وَمَلأْنَا كُلَّ قِرْبَةٍ مَعَنَا وَإِدَاوَةٍ. وَغَسَّلْنَا صَاحِبَنَا. غَيْرَ أَنَّا لَمْ نَسْقِ بَعِيرًا، وَهِيَ تَكَادُ تَنْضَرِجُ مِنَ الْمَاءِ يَعْنِي الْمَزَادَتَيْنِ ثُمَّ قَالَ: «هَاتُوا مَا كَانَ عِنْدَكُمْ» فَجَمَعْنَا لَهَا مِنْ كِسَرٍ وَتَمْرٍ. وَصَرَّ لَهَا صُرَّةً. فَقَالَ لَهَا: «اذْهَبِي فَأَطْعِمِي هذَا عِيَالَكِ. وَاعْلَمِي أَنَّا لَمْ نَرْزَأْ مِنْ مَائِكِ»[٤] فَلَمَّا أَتَتْ أَهْلَهَا قَالَتْ: لَقَدْ لَقِيتُ أَسْحَرَ الْبَشَرِ. أَوْ إِنَّهُ لَنَبِيٌّ كَمَا زَعَمَ. كَانَ مِنْ أَمْرِهِ ذَيْتَ وَذَيْتَ. فَهَدَى اللهُ ذَاكَ الصِّرْمَ[٥] بِتِلْكَ الْمَرْأَةِ. فَأَسْلَمَتْ وَأَسْلَمُوا»[٦].

وقيام النبي ﷺ بذلك لخير دليل على أهمية رعاية وكفالة الأيتام كهدف من أهداف الدعوة.

---

(١) أي: ذات أيتام (شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٤٨١).

(٢) والراوية عند العرب: هي الجمل الذي يحمل الماء (شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٤٨١).

(٣) المج زرق الماء بالفم والعزلاء بالمد هو الشعب الأسفل للمزادة الذي يفرغ منه الماء ويطلق أيضًا على فمها الأعلى كما قال في هذه الرواية العزلاوين والعلياوين (المرجع السابق).

(٤) أي: لم ننقص من مائك شيئًا (المرجع السابق).

(٥) الصرم بكسر الصاد أبيات مجتمعة (المرجع السابق).

(٦) أخرجه البخاري، ٣٤٤، ومسلم واللفظ له ٦٨٢.

الحديث رقم (٢٦٣)

٢٦٣- وعن أَبي هريرة ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: ((**كَافلُ اليَتيم لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ أَنَا وَهُوَ كَهَاتَيْنِ فِي الجَنَّةِ**)) وَأَشَارَ الرَّاوِي -وَهُوَ: مَالِكُ بْنُ أنَس- بالسَّبَّابَةِ وَالوُسْطَى. رواه مسلم[1].

وقوله ﷺ: ((**اليَتِيمُ لَهُ أَوْ لِغَيرِهِ**)) مَعْنَاهُ: قَرِيبُهُ، أَو الأجْنَبيُّ مِنْهُ، فالقَرِيبُ مِثلُ أنْ تَكْفُلَهُ أمُّهُ أَوْ جَدُّهُ أَوْ أخُوهُ أَوْ غَيرُهُمْ مِنْ قَرَابَتِهِ، والله أعْلَمُ.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

إن أشعة الدلالة في هذا الحديث تستمد وهجها ومقاصدها من أضواء الدلالة، وبوارق المعاني في الحديث السابق، ولكن الصياغة تختلف من راوٍ لآخر ، فراوي الحديث السابق هو سهل بن سعد الساعدي ﷺ، وهو من رواية البخاري، أما هذا الحديث فهو من رواية مسلم، والراوي الأعلى هو أبو هريرة ﷺ.

والمضمون في الحديثين منبعهما واحد وهو حرص المصطفى ﷺ على ضرورة كفالة اليتيم، وهذا الحديث يبدأ بالكفالة في قوله: "كافل اليتيم له أو لغيره"، فالبدء بصيغة الكفالة يرشد إلى أهمية هذا النهج بين المسلمين، وفي هذا الحديث أيضًا إضافة توضيحية حيث يشير رسول الله ﷺ إلى أن كافل اليتيم لا ينحصر في أقربائه مثل الأم أو الجد أو الأخ أو غيرهم من قرابته، وإنما أبواب الخير مُشْرَعة، وينابيع التراحم مترعة، وكفالة اليتيم مضمار من الخير والرحمة مفتوح لكل سبَّاق إلى المكرمات، حريص على الفوز بصحبة المصطفى ﷺ في أعلى الدرجات، في جنات ونهر، في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ويؤكد المصطفى ﷺ على هذا التكريم لكافل اليتيم حين يقول: "أنا وهو، كهاتين في الجنة"، وهو تكريم لا يحظى به إلا من

(١) برقم (٢٩٨٣/٤٢). أورده المنذري في ترغيبه (٣٧٣٣).

أسلم وجهه لله، وأخلص في نيته وكفالته إرضاء لربه، وحرصًا على صحبة النبي ﷺ في دار القرار، ورغبة في مساعدة ضعفاء المسلمين من الأيتام وغيرهم، حتى لا يصيبهم القنوط، ولا يهزمهم اليأس.

فالتكافل الاجتماعي في ظل الإسلام له صور عديدة متجددة، تجسد النزعة الإنسانية والإيمانية في علاقة المسلم بالآخر، ومن هذه الصور الإنسانية ما قرره المصطفى ﷺ مِنْ حق لمن حضر موسم الحصاد من المعدومين واليتامى والمساكين الذين لا يزرعون أرضًا، ولا يقدرون على استئجارها لسبب ما، وهذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾(١). وقال مجاهد إذا حصدت فحضرك المساكين فاطرح لهم من السنبل، وإذا جذذت فألق لهم من الشماريخ، وإذا درسته وذريته فاطرح لهم منه(٢).

وقريب من ذلك من يحضر من اليتامى والمساكين قسمة الميراث وهم ليس لهم حق في الإرث، يجب على الوارثين أن يعطوا هؤلاء من الميراث شيئًا، عملاً بقول الله عز وجل في سورة النساء: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾(٣).

وقال ابن عباس: أمر الله المؤمنين عند قسمة مواريثهم أن يصلوا أرحامهم وأيتامهم ومساكينهم من الوصية، فإن لم تكن وصية، وَصَلُوا لهم من الميراث(٤).

وأهم ضابط للتكافل الاجتماعي في الإسلام، هو الشعور بأن المسلم مستخلف في ماله مهما كثر واتسع مجال استثماره، عملاً بقوله عز وجل: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾(٥). وعملاً بقول الله عز وجل: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾(٦).

---

(١) سورة الأنعام، آية: ١٤١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٠٠/٧/٤.

(٣) سورة النساء، آية: ٨.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٠٠/٥/٣.

(٥) سورة الحديد، آية: ٧.

(٦) سورة النور، آية: ٣٣.

وهاتان الآيتان تؤكدان أن المال هو لله سبحانه وتعالى، وقد جعل عباده مستخلفين فيه، فهم وكلاء عن صاحب المال، وعليهم أن ينفذوا عقد الوكالة وفقًا لشروطها، ومن قصر في تنفيذ هذه الشروط فهو مسؤول ومحاسب، أما نسبة ملكية المال للإنسان في أكثر من موضع في القرآن فهي نسبة توكيل، واعتماد ظاهرها التمليك، وحقيقتها التفويض الذي يستتبع المحاسبة. فهل يدرك الموسرون ورجال الأعمال سر هذا الترغيب في كفالة اليتيم، وهل يجملون الحياة في وجه اليتامى والمحرومين؟؟، وهل يفقهون سر هذا الدعاء؟

المضامين الدعوية[1]

---

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (٢٦٤)

٢٦٤- وعنـه، قَـالَ: قَـالَ رَسُـول الله ﷺ: ((لَـيْسَ المِسْكِينُ الَّـذِي تَـرُدُّهُ التَّمْـرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَلا اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ إِنَّمَا المِسكِينُ الَّذِي يَتَعَفَّفُ)) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ [١].

وفي رواية في الصَّحيحين: ((لَـيْسَ المِسكِينُ الَّـذِي يَطُـوفُ عَلَـى النَّـاسِ تَـرُدُّهُ اللُّقْمَـةُ واللُّقْمَتَـانِ، وَالتَّمْـرَةُ والتَّمْرَتَـانِ، وَلَكِنَّ المِسْكِينَ الَّـذِي لاَ يَجِـدُ غنـىً يُغْنِيـه، وَلاَ يُفْطَـنُ بِـهِ فَيُتَصَدَّقَ عَلَيهِ، وَلاَ يَقُومُ فَيَسْأَلُ النَّاسَ)) [٢].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

يتعفف: يترك سؤال الناس مع فقره[٣].

ولا يفطن به: لا يعلم[٤].

الشرح الأدبي

حين نتأمل الجوانب الإنسانية في ميدان تطبيق التكافل في الإسلام، نجد أنها تشمل فئات كثيرة من أبناء الإسلام، ومن غير المسلمين من أهل الذمة، وهم أكبر شاهد على حضارة الإسلام وإنسانيته، ومن أهم الجوانب الإنسانية للتكافل الاجتماعي في الإسلام وجوب رعاية الفقراء والمساكين، وإذا كانت رعاية الفقير واجبًا دينيًا واجتماعيًا في إطار التكافل، فإن لفقراء الأمة ومساكينها حقًا مقررًا في مال الأغنياء نظمته الزكاة، كما جاء في البيان العالمي لحقوق الإنسان في الإسلام، وكما أقرت

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٣٩) واللفظ له، ومسلم (١٠٣٩/١٠٢)، وزادا في آخره: اقرأوا إن شئتم: "لا يسألون الناس إلحافا".

(٢) أخرجه البخاري (١٤٧٩) واللفظ له، ومسلم (١٠٣٩/١٠١). أورده المنذري في ترغيبه (١٢١٧).

(٣) الوسيط في (ع ف ف).

(٤) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٤٦٥.

ذلك آيات القرآن الكريم، ونصوص السنة النبوية الصحيحة، وهو حق لا يجوز تعطيله ولا منعه، ولا الترخص فيه من قبل الحاكم، ولو أدى به الموقف إلى قتال مانعي نعى الزكاة اقتداء بموقف أبي بكر رضي الله عنه حيث قال: والله لو منعوني عناقًا كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه[١][٢].

وفي ضوء هذا التصور الإسلامي نتأمل أسرار اللغة التي تقودنا إلى مقاصد هذا الحديث الشريف في روايته، وأول ما يتبادر إلى الذهن هو السؤال عن دلالة المسكين في اللغة... ودلالته في الحديث الشريف وعند الفقهاء، وكيف أفصح البيان النبوي عن هذه الدلالة في صورة بيانية مشرقة واضحة مرغبة؟ فالمساكين المراد بهم في هذا الباب، هم المحتاجون: والفقراء يشملهم هذا التصنيف، ويقول الشافعي: الفقير والمسكين إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا، والمسكين على وزن مفعيل: من السكون، ويقول القرطبي: وكأنه من قله سكنت حركاته، فهو لا يملك ما يجعله كثير الحركة والأسفار، وهو كذلك لا يتحرك للسؤال، وقد أشار الحديث إلى ذلك، فالمسكين كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يتعفف؛ ومن دلائل هذا السكون أو المسكنة أنه لا يجد غني يغنيه، ولعدم حركته في السؤال والإعلان عن نفسه، لا يفطن له فيتصدق عليه، وهو لا يتقدم ولا يبادر بالسؤال، كما قال رسول الله "ولا يقوم فيسأل الناس" وهو من الذين وصفهم الله في قوله سبحانه: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾[٣]. وقال: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾[٤]، وهو لا يطوف على الناس حيث يعطفون على من يسألهم باللقمة واللقمتين، والتمرة والتمرتين، وفي القاموس المحيط يقال: أسكنه الفقر أي قلل حركته، وقيل: المسكين: الذليل، والضعيف، فالفقير مع

---

(١) أخرجه البخاري ١٤٠٠.

(٢) انظر: نص البيان العالمي لحقوق الإنسان في الإسلام بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة، محمد الغزالي.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٧٣.

(٤) سورة البقرة، آية: ٢٧٣.

المسكين تجمعهما دائرة واحدة وهى الحاجة، ولكن المسكين أشد فقرًا من غيره، وهو يتسم بالتعفف، والفقير عند الأحناف كما جاء في كتاب الفقه على المذاهب الأربعة: هو الذي يملك أقل من النصاب، أو يملك نصابًا غير تام يستغرق حاجته، أو يملك نصبًا كثيرة غير تامة تستغرق الحاجة، أما المسكين: فهو الذي لا يملك شيئًا أصلاً، فيحتاج إلى المسألة لقوته، أو لتحصيل ما يواري به بدنه، ولكن كثيرًا منهم يتعففون ولا يسألون الناس إلحافًا، فالمدح هنا لهذه الطائفة المتعففة، ليس على عدم سؤالهم المقيد بالإلحاف، فإن السؤال منفي عنهم رأسًا، في قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾[1]، التفعل هنا للتكلف، وليس على معنى أنهم يتكلفون: فإن التكلف مذموم، بل على معنى إنهم ليسوا بأغنياء في الحقيقة، ولكنهم يتكلفون، ويظهرون كأنهم أغنياء تعففًا عن السؤال. والحديث الشريف أوجز كل الدلالات السابقة في قوله ﷺ في أسلوب القصر: وهو قصر الصفة على الموصوف فقال: إنما المسكين الذي يتعفف، وفي قوله: ليس الذي ترده التمرة والتمرتان، ولا اللقمة واللقمتان: إيقاع صوتي ومشاكلة لفظية لمزيد من الاهتمام،والتنبيه على ظاهرة لا يعرفها الناس؛ والاستدراك في قوله: "ولكن" لنفي ما يتوهمه الناس عن المسكين، وإثبات مفهوم آخر، وهو ماثل في الصفات التي حددها له الحديث الشريف.

فقه الحديث

هذا الحديث يشير إلى الأحكام الفقهية التالية:

المقصود بالمسكين والفرق بينه وبين الفقير: اختلف الفقهاء في ذلك فذهب أبو حنيفة، والمالكية في المشهور، ورواية عن أحمد، إلى أن المسكين دون الفقير، لأن الفقير هو الذي له بعض ما يكفيه ويقيمه، والمسكين الذي لا شيء له[2]، واستدلوا

(١) سورة البقرة، آية: ٢٧٣.

(٢) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٥٧/٦، ٥٨، وحاشية الخرشي ٣٢٦/٦، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ٢٢٢/٥، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٤٥٥/٦ وما بعدها.

بقوله تعالى ﴿أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ﴾[(١)].

وذهب الشافعية في الأصح، والحنابلة في الصحيح من المذهب، إلى عكس ذلك فقالوا: إن الفقير دون المسكين، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾[(٢)] فسماهم مساكين مع أن لهم سفينة يعملون فيها[(٣)]، وذهب أبو يوسف وابن القاسم وسائر أصحاب مالك إلى أنهما سواء، لا فرق بينهما في المعنى، وإنما افترقا في الاسم، وذلك لأن المسكنة لازمة الفقر[(٤)].

وفائدة الخلاف في الفقير والمسكين هل هما صنف واحد أم صنفان تظهر: فيمن أوصى بثلث ماله لفلان وللفقراء والمساكين، فمن قال هما صنف واحد، قال: يكون لفلان نصف الثلث وللفقراء والمساكين نصف الثلث الباقي، ومن قال هما صنفان يقسم الثلث بينهم أثلاثًا[(٥)].

---

(١) سورة البلد، آية: ١٦.

(٢) سورة الكهف، آية: ٧٩.

(٣) روضة الطالبين، الإمام النووي، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، وعلي محمد معوض ١/٢٥٥، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ٥/٢٢٢، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٦/٤٥٥ وما بعدها.

(٤) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٦/٥٧، ٥٨، والتاج والإكليل شرح مختصر خليل، محمد المواق ٣/١٠٥.

(٥) المغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٦/١٨٧، وشرح فتح القدير، ابن همام الحنفي ٤/١٨٣، وحاشية الدسوقي على الشرح الكبير، محمد بن عرفة الدسوقي ١٩/٤١٢، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٦/١٩٦.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: أسلوب القصر.

ثانيًا: من مهام الداعية: تصحيح المفاهيم الخاطئة.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: أهمية التصدق ولو بالشيء اليسير.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل التعفف.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: تحري وضع الصدقة.

أولاً- من أساليب الدعوة: أسلوب القصر:

ورد أسلوب القصر في الحديث في قوله ﷺ "ليس المسكين الذي ترده التمرة... إنما المسكين الذي يتعفف" وفي رواية أخرى "ليس المسكين الذي يطوف على الناس...، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن به فيتصدق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس" والقصر الوارد في الحديث يفيد تخصيص المسكين بأنه الذي يتعفف ولا يجد غنى يغنيه، وهو من الأساليب الدعوية التي تعمل على إرشاد المدعوين.

ثانيًا- من مهام الداعية: تصحيح المفاهيم الخاطئة:

هناك مهام منوطة بالداعية يستطيع تحديدها من خلال المواقف التي تعرض له، أو من خلال المدعوين الذين يتعامل معهم فيعمل على بيان ما يحتاجون إليه، ومن ذلك تصحيح بعض المفاهيم الخاطئة، ومن مهام الداعية التي تضمنها هذا الحديث قيام النبي ﷺ بتصحيح بعض المفاهيم المتعلقة بحقيقة المسكين، وقد ورد ذلك في قوله ﷺ "ليس المسكين الذي ترده التمرة... إلخ".

قال ابن عثيمين: (إن النبي ﷺ أراد أن يبين أن المسكين؛ ليس "الشحاذ" الذي "يشحذ" الناس، ترده اللقمة واللقمتان، بل المسكين حقيقة هو الذي يتعفف كما قال تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾[1] هذا هو المسكين حقيقة، لأنه لا يسأل فيُعطى ولا يتفطن له فيعطى)[2].

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٧٣.

(٢) شرح رياض الصالحين ٦٤٥/١.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: أهمية التصدق ولو بالشيء اليسير:

إن مما يستنبط من هذا الحديث أهمية التصدق بالشيء اليسير، حيث ورد ذلك في الحديث في قوله ﷺ: "ترده التمرة والتمرتان، ولا اللقمة واللقمتان"، وقد حث النبي ﷺ على التصدق بأيسر الأشياء، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((لا يتصدق أحد بتمرة من كسب طيب، إلا أخذها الله بيمينه، فيربيها كما يربى أحدكم فلوه أو قلوصه. حتى تكون مثل الجبل أو أعظم))[١].

وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((اتَّقوا النارَ ولو بشقِّ تَمرةٍ))[٢]. قال ابن حجر: (إنه يتناول الكثير والقليل من الصدقة)[٣].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ((دخَلَتِ امرأةٌ معَها ابنتانِ لها تَسألُ، فلم تَجِدْ عندي شيئًا غيرَ تمرةٍ، فأعطيتُها إيَّاها، فقَسَمَتْها بينَ ابنَتَيْها، ولم تأكُلْ منها، فدخَلَ النبيُّ ﷺ علينا، فأخبرتهُ فقال: مَنِ ابتُلِيَ من هذهِ البَناتِ بشيءٍ كنَّ له سِترًا مِنَ النار))[٤].

وهذا مما يؤكد على أهمية التصدق ولو بالشيء اليسير. لعل الله أن يجعل في ذلك النجاة من النيران والفوز بالجنان.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل التعفف:

من موضوعات الدعوة المستنبطة من هذا الحديث: فضل التعفف في حياة المؤمن، وصيانة كرامته، حيث أشار الحديث إلى ذلك في قوله ﷺ "إنما المسكين الذي يتعفف" وفي رواية "لا يقوم فيسأل الناس" وقد بين النبي ﷺ عظم فضل التعفف عن المسألة فقال: ((مَنْ تَكَفَّلَ لِي أَنْ لاَ يَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئًا فَأَتَكَفَّلَ لَهُ بِالْجَنَّةِ، فَقَالَ ثَوْبَانُ أَنَا فَكَانَ لاَ يَسْأَلُ أَحَدًا شَيْئًا))[٥]، وقال ﷺ: ((وَأَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلاَثَةٌ: ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ

---

(١) أخرجه البخاري ١٤١٠، ومسلم ١٠١٤ واللفظ له.

(٢) أخرجه البخاري ١٤١٧، ومسلم ١٠١٦.

(٣) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٣٣/٣.

(٤) أخرجه البخاري ١٤١٨.

(٥) أخرجه أبو داود ١٦٤٣، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود، ١٤٤٦).

مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ . وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ))[١] وهذا فضلاً عن عون الله تعالى لمن يستعفف وقد بين النبي ﷺ ذلك فقال: ((ومَن يَستعفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ، ومَن يَستغنِ يُغنِهِ اللهُ))[٢].

قال النووي: (وفي هذا الحديث الحث على التعفف والصبر على ضيق العيش وغيره من مكاره الدنيا)[٣]، وفي ذلك بيان على فضل التعفف عن المسألة والحث عليه، لما للتعفف من آثار حميدة منها: أن التعفف ركن من أركان المروءة التي ينال بها الحمد والشرف وهو دليل كمال النفس وعزها[٤].

خامسًا- من موضوعات الدعوة: تحري وضع الصدقة:

من موضوعات الدعوة المستنبطة من هذا الحديث، تحرى المؤمن لوضع الصدقة وبذلها، وهذا ما يستفاد في الحديث من قوله ﷺ "إنما المسكين الذي يتعفف" وفي رواية "ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يفطن به فيتصدق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس"، قال ابن هبيرة: (قد حث الحديث على شدة التفقد؛ ليكون البر واصلاً إلى الأحوج فالأحوج)[٥].

(وقد أوصى الله تبارك وتعالى بالبحث عن الفقراء المتعففين وتعهدهم بالعطاء)[٦]، فقال تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ۝٢٧٢ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾[٧].

---

(١) أخرجه مسلم، ٢٨٦٥.

(٢) أخرجه البخاري ١٤٦٩، ومسلم ١٠٥٣.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٦٦٢.

(٤) انظر: موسوعة نضرة النعيم، د. صالح بن حميد وآخرون، ٢٨٨٨/٧.

(٥) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٢٥٢/٦.

(٦) الوجيز في الأخلاق الإسلامية، عبدالرحمن حسن حبنكة، ٤٩٥.

(٧) سورة البقرة، آية: ٢٧٣.

(فهذا الصنف من الفقراء، أفضل ما وضعت فيهم النفقات لدفع حاجتهم، وإعانة لهم على مقصدهم طريق الخير، وشكرًا لهم على ما اتصفوا به من الصبر، والنظر إلى الخالق، لا إلى الخلق)[١].

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ٩٦، وشرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين، ١/٦٤٥.

الحديث رقم (٢٦٥)

٢٦٥- وعنه، عن النَّبيّ ﷺ، قَالَ: ((السَّاعِي عَلَى الأَرْمَلَةِ وَالمِسْكِينِ، كَالمُجَاهِدِ فِي سَبيلِ اللهِ)) وَأحسَبُهُ قَالَ[1]: ((وَكالقَائِمِ الَّذِي لاَ يَفْتُرُ، وَكَالصَّائِمِ الَّذِي لاَ يُفْطِرُ)) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[2].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

القائم الذي لا يفتر: يقال: فَتَرَ: فتورًا: أي لان بعد شدة أو سكن بعد حدّة ونشاط[3].

الشرح الأدبي

في دوحة التكافل الاجتماعي تتحرك مقاصد وأهداف هذا الحديث الشريف، حيث يرغب المصطفى ﷺ في إشاعة نزعة التعاطف والتكافل من خلال السعي على رعاية طائفتين من المحتاجين وهما تتمثلان في: "الأرملة والمسكين"، ويشبه رسول الله ﷺ الساعي عليهما، والذي يقوم بمساعدتهما، وقضاء مآربهما بثلاث طوائف من العباد: وهم المجاهدون في سبيل الله، والمصلون الذين يقومون الليل ولا يفترون، والصائمون الذين لا يفطرون.

وهذا التشبيه يربط بين سلوك المسلم العملي وتعاطفه مع الأرامل والمساكين، وثواب المجاهدين الذين يخوضون ساحات القتال ويفوزون بإحدى الحسنين، وبثواب الصائمين الذين يجاهدون شهوتى البطن والفرج، وكل شهوات الجوارح ورغبات النفس ومتعها الحسية، وبثواب المتهجدين الذين يظمئون نهارهم، ويسهرون ليلهم في العبادة

---

(١) الشكُّ من القعنبيّ كما في رواية البخاري.

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٠٧)، ومسلم (٢٩٨٢/٤١) ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه (٣٧٤٩).

(٣) الوسيط (٦٧٢).

والتهجد، وتتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفًا وطمعًا، ويمكن أن يسمَّى هذا النوع من التشبيه "علاقة" وهو من التشبيهات التي هي بمنزلة مقارنات لطيفة المسعى إلى مقاصد الترغيب والترهيب، وهي نمط خاص بالحديث النبوي، إذ يشبه مقام بمقام بعمل آخر ومثوبة أخرى، وكلاهما من المفاهيم الدينية، وفائدة هذه التشبيهات زرع المشاعر التي تموج في صدر المُشبِّه لتكون في صور المشبه، وفي هذا تحفيز هائل.

وفي الصور التشبيهية التي نتأمل جوانبها في هذا الحديث الشريف تأتي كاف التشبيه في الصورة الأولى في مكانها المناسب، لتعني أن كل طرف قائم بذاته، ولكن الترغيب في الفضائل هو الذي يجعل الأول يصعد إلى مرتبة الثاني، أما وجود مشبه به ثان، فهو دلالة على عظم العطاء الرباني وإطلاقه وعدم تحديده.

وكلمة "الساعي"، تنبئ في معناها على التحرك والمشي السريع المتوالي، فالحركة تومئ إلى الاهتمام الشديد، ويصور الحرف "على" في قوله: "الساعي على الأرملة والمسكين"، الإحاطة التامة بشؤون الأرملة والمسكين من كل جانب، فأنى تلفتا وجدا هذا الساعي الفاضل، الذي وصل إلى مرتبة المجاهد، مع أن الجهاد من أحب الأعمال إلى الله ، وقد وصل هذا الفاضل الساعي على الأرملة والمسكين إلى درجة المصلي الذي لا يتوقف عن الصلاة، والصائم الذي لا يفطر[١].

ودلالة الألفاظ في هذا الحديث تفصح عن كثير من المقاصد والمعاني، فالأرملة هي التي فارقها زوجها، وقال ابن قتيبة: سميت أرملة لما يحصل لها من الإرمال وهو الفقر، وذهاب الزاد بفقد الزوج، ويقال أرمل الرجل: إذا فنى زاده.

وفي القاموس المحيط: امرأة أرملة: محتاجة أو مسكينة، والأرمل من الأعوام: القليل المطر والنفع، فالكلمة في دلالتها اللغوية، والاصطلاحية تقيد معنى الحاجة، والمسكنة، ولذلك نجد الجمع بين الأرملة والمسكين في هذا الحديث الشريف، وقيل في تفسير سر التشبيه بالمجاهد في الصورة الأولى، شبه به لأن القيام على المرأة بما

(١) الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف، د. أحمد ياسوف.

يصلحها ويحفظها ويصونها، لا يتصور الدوام عليه إلا مع الصبر العظيم، ومجاهدة النفس والشيطان، فإنهما يكسلان عن ذلك ويثقلانه ويفسدان النية فيه، كما يقول صاحب دليل الفالحين[١].

والصورتان الثانية والثالثة، جاءت صياغتهما في قالب متوازن متناسق حيث تشابهت الجملتان في بنائهما اللغوي، وتناسقتا في صورة تحاكي الشبه بين ثواب الساعي في الخير وثواب المتهجد الذي لا يفتر، والصائم الذي لا يفطر، وهذا الساعي الفاضل لا يفتر ولا تكل همته في مساعدته ورعايته لهذين الصنفين ليلاً ونهارًا، وهو يتحمل المشقة والعناء والمجاهدة كما يتحملها الصائم الذي يتوالى صومه ولا ينقطع.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم فقهي بأعمال البر، وهو حكم النفقة على الأرامل والضعفاء والمساكين، وقد ذكر الفقهاء[٢] أن السعي على الأرامل والمساكين واليتامى من أفضل طاعات البدن، حتى إنه يعدل الجهاد في سبيل الله في عِظَم الثواب وجزيل الأجر.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار، والتشبيه والتمثيل.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل السعي على الأرملة والمسكين.

ثالثًا: من مهام الداعية: حرصه على دلالة المدعوين على الخير.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل المجاهدين في سبيل الله.

خامسًا: من أهداف الدعوة: تحقيق التكافل الاجتماعي.

---

(١) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص٤٦٥، ٤٦٦

(٢) انظر في ذلك: بلغة السالك لأقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك، أحمد بن محمد الصاوي ٤٨٩/٣، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين عبدالرحيم بن الحسن ٧٤/٤، والزواجر عن اقتراف الكبائر، ابن حجر الهيتمي ٤٢٠/١، والفروع، ابن مفلح ٥٢٣/١، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٤١٤/١، ومطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، مصطفى السيوطي ٥٤٣/١، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٦٢/٨.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار، والتشبيه والتمثيل:

الإخبار من الأساليب الدعوية التي تعين الداعية على بيان وتوضيح دعوته للمدعوين بما ييسر لهم فهم ما خفي عنهم من أمور دينهم، وفي ذلك عظيم الفائدة وكمال الأجر، وقد ورد هذا الأسلوب في الحديث من قوله ﷺ: "الساعي على الأرملة والمسكين.. إلخ"، أما أسلوب التشبيه والتمثيل فقد ورد في الحديث من قوله ﷺ: "كالمجاهد في سبيل الله... وكالقائم... وكالصائم"، وأسلوب التشبيه والتمثيل من الأساليب الدعوية المهمة التي تعين الداعية على تقريب المعاني والمضامين لأذهان المدعوين.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل السعي على الأرملة والمسكين:

هذا ما أشار إليه الحديث في قوله ﷺ: "الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله"، وأحسبه قال: "وكالقائم الذي لا يفتر، وكالصائم الذي لا يفطر"، وإنما شبه الساعي على الأرملة بالمجاهد، لأن القيام على المرأة بما يصلحها وما يحفظها ويصونها، لا يُتصور الدوام عليه إلا مع الصبر العظيم، ومجاهدة النفس والشيطان، فإنهما يُكسِّلان عن ذلك ويثقلانه ويفسدان النيات في ذلك، وربما يدعوان بسبب ذلك إلى السوء ويسوِّلانه ولذلك قلَّ من يدوم على ذلك العمل، وأقل من ذلك من يسلم منه، فإذا حصل ذلك العمل، حصلت منه فوائد كشف كرب الضعفاء وإبقاء رمقهم وسد خلتهم وصون حرمتهم[1]. والساعي كما بينه ابن حجر: (هو الذي يذهب ويجئ في تحصيل ما ينفع الأرملة والمسكين والسعي هو العمل)[2].

قال النووي: (والأرملة من لا زوج لها سواء كانت تزوجت أم لا، وقيل: هي التي فارقت زوجها، قال ابن قتيبة: سميت أرملة لما يحصل لها من الإرمال، وهو الفقر وذهاب الزاد بفقد الزوج، يقال: أرمل الرجل إذا فني زاده)[3].

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٦١٣/٦.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤١٠/٩، وانظر: إكمال المعلم، القاضي عياض، ٥٣١/٨.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٧١٦.

قال ابن عثيمين رحمه الله: (وفي قيام الساعي بذلك يكون مستحقًا لهذا الوعد في كونه كالمجاهد في سبيل الله أو كالقائم الذي لا يفتر وكالصائم الذي لا يفطر)(١)، وفي ذلك بيان على فضل السعي على الأرملة والمسكين.

ثالثًا- من مهام الداعية: حرصه على دلالة المدعوين على الخير:

يتضح ذلك من خلال ما ورد في الحديث من حرصه ﷺ على دلالة المدعوين على الخير، وذلك في قوله ﷺ: "الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله... إلخ"، وقد بيّن الحق تبارك وتعالى حرص النبي ﷺ على ذلك فقال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(٢)، أي: حريص عليكم فيحب لكم الخير ويسعى جهده في إيصاله إليكم، ويحرص على هدايتكم إلى الإيمان، ويكره لكم الشر(٣).

فعلى الداعية أن يقتدي في حرصه على إرشاد المدعوين إلى الخير بالنبي ﷺ لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾(٤).

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل المجاهدين في سبيل الله:

إن مما يبين فضل المجاهدين في سبيل الله ما ورد في الحديث من قوله ﷺ: "كالمجاهد في سبيل الله"، وقد بين الحق تبارك وتعالى عظم فضل المجاهدين في سبيله فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِي

---

(١) شرح رياض الصالحين ٦٤٧/١.

(٢) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٣١٣.

(٤) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾(١)، (وقد بين الحق تبارك وتعالى في ذلك أنه عاوض عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم إذا بذلوها في سبيله بالجنة)(٢).

وهذا ما أكده النبي ﷺ في قوله: ((تَضَمَّنَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ، لاَ يُخْرِجُهُ إِلاَّ جِهَادًا فِي سَبِيلِي، وَإِيمَانًا بِي، وَتَصْدِيقًا بِرُسُلِي. فَهُوَ عَلَيَّ ضَامِنٌ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ. أَوْ أَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ. نَائِلاً مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ. وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا مِنْ كَلْمٍ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِلاَّ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ حِينَ كُلِمَ، لَوْنُهُ لَوْنُ دَمٍ وَرِيحُهُ مِسْكٌ. وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلاَ أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، مَا قَعَدْتُ خِلاَفَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَبَدًا. وَلَكِنْ لاَ أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلَهُمْ. وَلاَ يَجِدُونَ سَعَةً. وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي. وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأُقْتَلُ. ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ. ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ))(٣).

قال النووي: (وقوله ﷺ: "تضمن الله لمن خرج في سبيله"، أي: أوجب الله تعالى له الجنة بفضله وكرمه سبحانه وتعالى، وهذا الضمان والكفالة موافق لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾(٤)، أما الكلم بفتح الكاف وإسكان اللام فهو الجرح، ويكلم بإسكان الكاف أي يجرح، وفيه دليل على أن الشهيد لا يزول عنه الدم بغسل ولا غيره، والحكمة في مجيئه يوم القيامة على هيئته: أن يكون معه شاهد فضيلته وبذله نفسه في طاعة الله تعالى)(٥).

---

(١) سورة التوبة، آية: ١١١.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢١٨/٤.

(٣) أخرجه البخاري ٣٦، ومسلم ١٨٧٦ واللفظ له.

(٤) سورة التوبة، آية: ١١١.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٢٠٧.

وهذا ما أكده النبي ﷺ في قوله: ((مَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللهِ مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ فُوَاقَ نَاقَةٍ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، ومَنْ جُرِحَ جُرْحًا فِي سَبِيلِ الله أو نُكِبَ نَكْبَةً فإنها تَجِيءُ يَوْمَ القِيَامَةِ كَأَغْزَرَ ما كانَتْ لَوْنُهَا الزَّعْفَرَانُ ورِيحُهَا كالمسْكِ))[1]، وفي ذلك بيان على عظم فضل المجاهد في سبيل الله.

خامسًا- من أهداف الدعوة: تحقيق التكافل الاجتماعي:

تضمن هذا الحديث هدفًا من أهداف الدعوة وهو تحقيق التكافل الاجتماعي، ولا شك أن ذلك من الأهداف العظيمة التي ترمي الدعوة إلى تحقيقها، وقد جاء عموم الحديث ليؤكد على هذا الهدف من خلال حثّه ﷺ على السعي على الأرملة والمسكين، وذلك في قوله ﷺ: (الساعي على الأرملة والمسكين... إلخ)، وقد أكد الحق تبارك وتعالى على تحقيق هذا التكافل فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[2].

قال السعدي في ذلك: (ولقد أمر الله ورسوله بالقيام بحقوق المؤمنين بعضهم لبعض، ومما يحصل به التآلف والتوادد، والتواصل بينهم، كل هذا تأييد لحقوق بعضهم على بعض)[3]، فالمؤمنون كما قال ﷺ: ((فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، مَثَلُ الْجَسَدِ. إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ، تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى))[4]. وبذلك يتحقق التكافل الاجتماعي بين أفراد الأمة الإسلامية، الذي حث عليه الإسلام، وجعله سياجًا للمجتمع، وحماية له من مظاهر الفقر والعوز، إن من غايات الإسلام أن يقضي على الفقر ويستأصل شأفته، فلا يبقى فقير مضيَّع، ولا محتاج لا كفاية له، وأن يحفظ للفقراء قواهم البدنية بالرعاية والكفالة، فإن لهم أفواهًا ومعًى وأجسادًا، ولهم قلوب ومشاعر وعواطف، وأن تُراعي هذه القلوب والمشاعر وأن تحفظ هذه الكرامات.

---

(١) أخرجه الترمذي ١٦٥٧، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٣٤٨).

(٢) سورة الحجرات، آية: ١٠.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٧٤٤.

(٤) أخرجه مسلم ٢٥٨٦.

وما ينبغي أن تهدر كرامة فقير؛ والفقر هو أعظم مهدر للكرامة، ولا أن تضعف جسومهم، والفقر هو أعظم معول لهدم الجسم، ولا أن ينظر إلى الفقراء نظرة ازدراء واحتقار، فقد يكون لهم من المكان والقدرات، ومن القوى العقلية ما يستطيعون بها أن يصلوا إلى القمة من السيادة والقيادة والعلم والعمل[1].

(١) انظر: عناصر القوة في الإسلام، السيد سابق ص ١٢٤-١٢٧.

الحديث رقم (٢٦٦)

٢٦٦- وعنه، عن النَّبيِّ ﷺ، قَالَ: ((**شَرُّ الطَّعَامِ طَعَامُ الوَلِيمَةِ، يُمْنَعُهَا مَنْ يَأتِيهَا، وَيُدْعَى إلَيْهَا مَنْ يَأبَاهَا: وَمَنْ لَمْ يُجِبِ الدَّعْوَةَ، فَقَدْ عَصَى اللهَ وَرَسُولَهُ**)) رواه مسلم(١).

وفي رواية في الصَّحيحين، عن أَبي هريرة من قوله: ((**بِئْسَ الطَّعَامُ طَعَامُ الوَلِيمَةِ يُدْعَى إلَيْهَا الأغْنِيَاءُ ويُتْرَكُ الفُقَراءُ**(٢))) (٣).

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

هذا هو الحديث الرابع الذي يرويه أبو هريرة في هذا الباب، ولنتساءل: ما مناسبة مجيء هذا الحديث في روايته الأولى هنا؟

إن الرواية الثانية تفسر ذلك السبب، وتعطي الإجابة الشافية حيث يثير الحديث في روايتيه: ظاهرة الاهتمام بالأغنياء، وإهمال الفقراء، ولكن الأسلوب في الحديث الأول فيه من التلميح والتعريض والإيماء، والضمائر التي لا مرجع لها في الحديث بصورة صريحة. فالضمير في قوله ﷺ: "من يأتيها" يرجع إلى "الفقراء والمساكين"، لأنهم يأتون هذه الموائد نظرًا لحاجتهم إلى الطعام الذي لا يجدونه في بيوتهم، والضمير في "يأباها"، يرجع إلى الأغنياء الذين يدعون ولا يأتون.

ولنتأمل هذه المفارقة العجيبة في هذا السلوك المعوج من أصحاب الولائم، يلهثون وراء الذين يرفضون دعوتهم ولا يحتاجون إلى طعامهم، وفي الوقت نفسه يمنعون ويحرمون من يأتي محتاجًا ذا فاقة وحاجة.

---

(١) برقم (١١٠/١٤٣٢) من حديث سفيان، عن زيادة. أورده المنذري في ترغيبه (٣١٨١).

(٢) لفظ مسلم: (المساكين).

(٣) أخرجه البخاري (٥١٧٧)، ومسلم (١٠٧/١٤٣٢) من حديث مالك، عن ابن شهاب. والسياق للحميدي في جمعه (١١٧/٣، رقم ٢٣٢٦). أورده المنذري في ترغيبه (٣١٨١).

ومن خلال هذه المفارقة يتجسد "الشر" الذي وصف به ذلك الطعام، بل هو أشر الأطعمة، كما جاء في هذا البيان النبوي البليغ، حيث بدأ الحديث بأسلوب التفضيل، "شر الطعام" أي: أكثر الطعام شرورًا لأنه لم يقدم ابتغاء وجه الله، ولا لمساعدة الأيتام وسائر الضعفة والمساكين والمنكسرين إحسانًا إليهم وشفقة عليهم، وتواضعًا معهم، كما جاء في عنوان هذا الباب من رياض الصالحين، وقد ورد أنه قيل من عظم غنيًا ذهب ثلثا دينه، وذلك لأن أعمال العبادة باللسان والجنان، والأركان، فهذا الذي حرم الفقراء، وعظم الأغنياء لغناهم فقط وليس لعملهم الصالح، استعمل لغرض نفسه ثلثى ما يستعمل في العبادة، فأثنى عليه بلسانه بالباطل، وأكرمه بجوارحه طمعًا فيما عنده، قالوا: فإن جمع إلى تعظيمه بلسانه وأركانه تعظيمه بجنانه ذهب جميع دينه!!. فأى شر أعظم من هذا، وأى نفق مظلم يستقبل مصير الإنسان أخطر من هذا النفق السلوكي الحياتي في ظل هذا المنهج المعوج.

ولغة الحديث تفصح عن مقاصده، وألفاظه تجسد دلالاته ومعانيه، وتراكيبه تفصح عن ثمراته وآثاره.

فالوليمة: الطعام المتخذ للعرس، ومادتها اللغوية مأخوذة من "الولم"، وهو الجمع وذلك لأن الزوجين يجتمعان ويكونان مجتمعًا واحدًا وذرية متواصلة، وقيل "الوليمة" إصلاح الطعام واستدعاء الناس لأجله، وهى تجمع الناس وتقع على كل دعوة تتخذ لسرور حادث من زواج وختان، وغيرهما، وهي في العرس أشهر[1].

ولنتأمل هذه المقابلة التي تتشكل من التضاد بين الألفاظ والمواقف، فقوله "يمنعها" يتضاد مع "يدعى إليها"، وقوله: "يأتيها" يتضاد مع: "يأباها"، والمقابلة التي تصنع المفارقة تنشأ من ارتباط الإتيان بالمنع، وارتباط الرفض، بالدعوة والقبول، إنه موقف عجيب غريب كما قال الشاعر.

أريد فلا أُعْطَى، وأُعطي ولم أرد"!!!.

(١) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٤٦٦، ٤٦٧.

وبناء الفعلين "يمنعها، ويدعى إليها" للمجهول، يرشد إلى رفض هذا السلوك، ورفض صاحبه الذي طعامه: شر الطعام.

وفي القسم الثاني من الحديث: يأتي أسلوب الشرط: ليحدد قاعدة شرعية، وليرشد إلى خير الطعام، وهو الوليمة التي تعد في مواسم الخير والسرور والأعراس، ويدعى إليها الأقارب والفقراء، والأصدقاء بلا تمييز ولا منع، ولا تحيز، ولا رياء، وقيل المراد هنا : الدعوة لوليمة النكاح.

والرواية الثانية: تأتي في أسلوب الذم، "بئس الطعام طعام الوليمة" وهو كذلك شر الطعام، وهنا تصريح بما أومأ إليه في الرواية الأولى: حيث حدد المدعوين وهم الأغنياء، والمتروكين وهم الفقراء، والجملة الثانية بيان لسبب جعل هذا الطعام مذمومًا، ودلالة الفعل "يترك" تؤكد حق الفقير، فالأمر ليس حرمانًا فقط، لأن في اللغة يقولون: ترك حقه إذا أسقطه: فيؤخذ من التعبير، كما يقول صاحب دليل الفالحين[1]: أن للفقراء الحق في ذلك، وأن المانع لهم ساع في إسقاط حقهم، فتأمل بلاغة هذا البيان النبوي العظيم، فهو كما يقول الرافعي: كلام كلما زدته فكرًا زادك معنى، وتفسيره قريب، ولكنه بعيد كالروح في سرها الإلهي، فهو معك على قدر ما أنت معه، فهو بيان من أعطى جوامع الكلم.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم إجابة الدعوة إلى الوليمة، وقد سبق الكلام عنه في الحديث رقم ٢٣٨، ويزيد في هذا الحديث وصفه ﷺ لها بأنها شر الطعام متى دعي فيها الأغنياء وترك الفقراء، ولذا اشترط الفقهاء[2] القائلون بوجوب إجابة الداعي

---

(١) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٤٦٧.

(٢) المنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ٣٤٩/٣، والتاج والإكليل شرح مختصر خليل، محمد المواق ٢٤١/٥، والأم، الإمام الشافعي ١٩٥/٦، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٢٤٤/٣، وإحكام الإحكام لابن دقيق العيد ٢٩٥/٢، والفروع لابن مفلح٥/٢٩٧، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ٣١٨/٨، والمغنى٧/٢١٣، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٣٣٧/٢٠، ٢٤٥/٤٥.

للوليمة للزوم إجابتها أن لا يظهر من الداعي قصد تخصيص الأغنياء من أجل غناهم، فلو خصهم بالدعوة لأجل غناهم، لم يجب على المدعو إجابة الدعوة.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الترهيب - الشرط.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: أهمية وفضل إجابة الدعوة.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: عناية الإسلام بالفقراء والحث على إكرامهم.

أولاً- من أساليب الدعوة: الترهيب، الشرط:

١- **الترهيب:** حيث قال النبي ﷺ في الحديث: (شر الطعام طعام الوليمة)، وفي رواية: (بئس الطعام طعام الوليمة)، إن الترهيب هو كل ما يخيف المدعو ويحذره من عدم الاستجابة أو رفض الحق، أو عدم الثبات عليه بعد قبوله[1]. وفي هذا الحديث يرهّب النبي ﷺ من طعام الوليمة الذي يُدعى إليه من يرفضه من الأغنياء، وتترك دعوة من يجيب من الفقراء.

فيجب على الداعية استخدام أسلوب الترهيب في موقعه المناسب (نظرًا لأن هناك بعضًا من الناس، وأصنافًا منهم لا يجدي فيهم الترغيب والوعود الجميلة، وإنما ينفع معهم التقريع والتعنيف، وكسر حدة النفس ونتوئها وإعراضها عن الحق وإلزامها كلمة التقوى والمتابعة؛ فكان الترهيب والتخويف مناسبًا لذلك[2].

٢- **الشرط:** ورد الشرط في هذا الحديث في قوله ﷺ: "ومن لم يجب الدعوة فقد عصى الله ورسوله"، ويعتبر أسلوب الشرط من أساليب الدعوة التي تلفت انتباه المدعوين إلى الجواب، ويشد الفكر إلى ترقبه، كما أن الشرط يربط بين العمل والجزاء عليه.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: أهمية وفضل إجابة الدعوة:

إن مما يستنبط من هذا الحديث أهمية وفضل إجابة الدعوة إلى الطعام وقد ورد ذلك في قوله ﷺ: "ومن لم يجب الدعوة فقد عصى الله ورسوله"، وقد جاء في القرآن

---

(١) أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان ص ٤٣٧.

(٢) وسائل الدعوة، د. عبدالرحيم بن محمد المغذوي ص ١٩٤.

الكريم ما يدل على آداب إجابة الدعوة إلى الوليمة، وذلك عندما تزوج رسول الله ﷺ أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها، نزل القرآن يعلم آداب إجابة الدعوة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾[١].

قال ابن عاشور: (ومعنى ذلك لا تحضروا البيوت للطعام قبل تهيئة الطعام للتناول فتقعدوا تنتظرون نضجه، وكذلك البقاء بعد انقضاء الطعام فإنه تجاوز لحد الدعوة لأن الدعوة لحضور شيء تقتضي مفارقة المكان عند انتهائه، لأن تقييد الدعوة بالغرض المخصوص يتضمن تحديدها بانتهاء ما دعي لأجله، وفي هذه الآية دليل على أن طعام الوليمة وطعام الضيافة ملك للمتضيف وليس ملكًا للمدعوين ولا للأضياف، فلذلك لا يجوز لأحد رفع شيء من ذلك الطعام معه)[٢]، وقد جاء الأمر بإجابة الدعوة ففي الحديث: ((إذا دُعِي أحدُكُم إلى الوليمة فلْيأتِها))[٣]، وفي الحديث أيضًا: ((إِذَا دُعِيتُمْ إِلَى كُرَاعٍ فَأَجِيبُوا))[٤]، وفيه أيضًا: ((إِذَا دُعِيَ أَحَدُكُمْ إِلَى طَعَامٍ فَلْيُجِبْ فَإِنْ شَاءَ طَعِمَ، وَإِنْ شَاءَ تَرَكَ))[٥]، قال النووي: (فالصوم ليس بعذر في الإجابة، فإذا دعي وهو صائم لزمه الإجابة كما يلزم المفطر ويحصل المقصود بحضوره، وإن لم يأكل فقد يتبرك به أهل الطعام والحاضرون وقد يتجملون به، وقد ينتفعون بدعائه أو بإشارته، أو ينصانون عما لا ينصانون عنه في غيبته)[٦].

قال ابن عثيمين رحمه الله: (والحديث يدل على أن إجابة الدعوة واجبة لأنه لا شيء يكون معصية بتركه إلا وهو واجب)[٧].

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٥٣.

(٢) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور مج٩/٢٢/٨١.

(٣) أخرجه البخاري ٥١٧٣، ومسلم ١٤٢٩.

(٤) أخرجه مسلم ١٤٢٩.

(٥) أخرجه مسلم ١٤٣٠.

(٦) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٨٩٥.

(٧) شرح رياض الصالحين ١/٦٤٨.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: عناية الإسلام بالفقراء والحث على إكرامهم:

يستنبط هذا من عموم الحديث، ومما ورد في قوله ﷺ: "يمنعها من يأتيها ويُدْعَى إليها من يأباها"، وفي رواية: "يدعى إليها الأغنياء ويترك الفقراء"، شر الطعام طعام الوليمة يمنعها من يأتيها ويدعى إليها من يأباها ومن لم يجب الدعوة فقد عصى الله ورسوله، قال أبو العباس القرطبي: (سياق أن الجهة التي يكون فيها طعام الوليمة شر الطعام إنما هي ترك الأولى، وذلك أن الفقير هو المحتاج للطعام الذي إن دعي سارع وبادر ومع ذلك فلا يدعى، والغني غير محتاج ولذلك قد لا يجيب أو تثقل عليه الإجابة ومع ذلك فهو يدعى، فكان العكس أولى، وهو أن يدعى الفقير ويترك الغني، ولا يفهم من هذا القول: أعني الحديث. تحريم ذلك الفعل، لأنه لا يقول أحد بتحريم إجابة الدعاء للوليمة.

ولذلك كره العلماء اختصاص الأغنياء بالدعوة، ومقصود هذا الحديث: الحض على دعوة الفقراء والضعفاء، ولا تُقصر الدعوة على الأغنياء، كما يفعل من لا مبالاة عنده بالفقراء من أهل الدنيا[1].

وما من شك في أن الإسلام اعتنى بالفقراء وحث على إكرامهم في الدعوة والمجلس، قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ﴾[2]، وعاتب الله نبيه لما أقبل على الأغنياء وترك الفقراء قال تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾[3].

(إن أول واجب إنساني نحو الضعفاء والفقراء الرحمة التي تتمثل في الرفق بهم

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٤/١٥٥، ١٥٦.

(٢) سورة الكهف، آية: ٢٨.

(٣) سورة عبس الآيات: ١ - ٤.

والحنو عليهم، والمساهمة الفعالة في تخفيف آلامهم، ودفع ما ينزل بهم من ضرر وجور، ومحاولة الترفيه عنهم بكل وسيلة ممكنة، فإذا تحجرت القلوب، وغلظت الأكباد، وتنكرت للقيام بهذا الواجب الإنساني، كان ذلك إيذانًا بأن هؤلاء القساة ليسوا أهلاً لأن ينتظموا في سلك السعداء وإنما عني الإسلام بشأن هؤلاء:

أولاً: لأنهم أناس ومن حق الإنسان أن تصان كرامته ويأخذ حقه كاملاً غير منقوص.

ثانيًا: لأنهم يمثلون الأكثرية في كل مجتمع، والمجتمع الصالح لا بد له من رعاية أمثال هؤلاء، لأنهم قوة وثروات بشرية يمكن الانتفاع بها لو أحسنت رعايتها، ووجهت الوجهة الصالحة لاستخراج ما فيها من قوى وطاقات.

ثالثًا: إن رعاية هؤلاء تقي المجتمع من أن يتعرض للهزات التي تؤثر في كيانه، وتقيه شر التمرد عليه)[١].

وهذا الموضوع من الموضوعات الدعوية المهمة فيجب على الدعاة تنبيه المدعوين له وحثهم على إكرام الفقراء.

---

(١) إسلامنا، السيد سابق ص ٢٤٩، ٢٥٠.

الحديث رقم (٢٦٧)

٢٦٧- وعن أنس رضي الله عنه ، عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، قَالَ: ((مَنْ عَالَ جَارِيَتَيْن حَتَّى تَبْلُغَا، جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ انَا وَهُوَ (كَهَاتَيْنِ)[١])) وضَمَّ أصَابِعَهُ. رواه مسلم[٢].

((جَارِيَتَيْنِ)): بنتين.

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

عال جاريتين: قام عليهما بالمؤونة والتربية ونحوهما[٣].

جاريتين: بنتين[٤].

الشرح الأدبي

لقد أعاد الإسلام للمرأة مكانتها، وفرض لها حقوقًا، وألزمها بواجبات، تحفظ كرامتها، وتصون عرضها وعزتها، وقال رسول الله: ((خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي))[٥]، وقد كان المصطفى صلى الله عليه وسلم القدوة المثلى في حسن معاملة النساء، وفي حسن عشرتهن، ولين الجانب معهن، ومواقفه المضيئة بجلائل الأقوال والأعمال مع زوجاته وبناته ونساء المؤمنين، تظل نبراسًا لكل من ينشد الحكمة والحقيقة، ولكل من يتصدى لأي دعوة إصلاحية اجتماعية، فكان صلى الله عليه وسلم، لا يأنف أن يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي له الحاجة، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (كانتِ الأمَةُ من إماء أهلِ

---

(١) هذه الزيادة لا توجد عند مسلم، وإنما هي عند الترمذي (١٩١٤). تنبيه: أورد المنذري عقب إيراده للفظ الحديث عن مسلم، لفظ الترمذي، وجمع المؤلف بين لفظي مسلم والترمذي.

(٢) برقم (٢٦٣١/١٤٩). أورده المنذري في ترغيبه (٢٩٣٦).

(٣) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٤٦٧.

(٤) رياض الصالحين (١٥٥).

(٥) أخرجه الترمذي ٣٨٩٥، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٣٠٥٧).

المدينة لَتَأخُذُ بيد رسولِ الله ﷺ فتنطلَقُ به حيث شاءت)[١]. والمقصود من الأخذ باليد لازمه وهو الانقياد، وقد اشتمل على أنواع من المبالغة في التواضع لذكره المرأة دون الرجل، والأمة دون الحرة، وحيث عم بلفظ الإماء: أي أمة كانت، وبقوله: "حيث شاءت" أي: من الأمكنة، والتعبير باليد إشارة إلى غاية التصرف حتى لو كانت حاجتها خارج المدينة، والتمست منه مساعدتها في تلك الحالة لساعدها على ذلك، وهذا من مزيد تواضعه وبراءته من جميع أنواع الكبر.

وفي ضوء هذه الآثار الجليلة، والمقاصد النبيلة، والسلوكيات الجميلة: نستقبل مقاصد هذا الحديث ودلالاته، ونقرأ ما يكمن من أسرار خلف ألفاظه وعباراته، فالحديث يدعو إلى رفض هذه النزعة الجاهلية التي كانت تتشاءم بولادة البنات، وإغراقًا في التشاؤم، وإمعانًا في الكفر كانوا يدعون إلى وأد البنات: خشية العار والإملاق، وضنًا عليهن بالإنفاق، وخوفًا من تحول الميراث إلى الأغراب فيتفرق المال، وتضعف الأعراق، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[٢].

وقضاءً على هذا السلوك، وذلك المنهج الفاسد: يبشر رسول الله ﷺ كل من قام برعاية بناته وأخواته وعماته، وكل من يتصل به من نسب: ومن إمائه وجواريه، فهو مع رسول الله ﷺ في الجنة يوم القيامة، وضم أصابعه: إشارة إلى شدة القرب والملازمة لرسول الله ﷺ، وفي حديث سابق قيل: وفرج بينهما، دلالة على المصاحبة ولكن في درجة أقل، أما هنا، فالإشارة تعني أن الصحبة قريبة، وأن من يحسن رعاية النساء، ويحسن عشرتهن، ويحافظ عليهن ويصون أعراضهن، فهو في معية النبوة، وطيب الصحبة، وأي فضل أعظم من هذا الفضل العظيم في صحبة النبي الكريم ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري ٦٠٧٢.

(٢) سورة النحل، الآيتان: ٥٨، ٥٩.

والحديث في بنائه اللغوي صيغ في جملة شرطية واحدة: وهذه الصياغة اللغوية تفصح عن تحقق الثواب، ومضاعفه الجزاء، لأن الجزاء من جنس العمل، وألفاظ الحديث ذات دلالات لغوية متسعة تتماوج مع المعنى، وتزيده جلاءً وتأثيرًا: فمعنى: "أعال جاريتين": أي قام عليهما بالمؤنة والتربية ونحوهما: والعول هو العون: ومنه: عال الرجل اليتيم عولاً: أي كفله وقام به وفي القاموس المحيط: العول: كل ما عالك، والمستعان به، وقوت العيال، وعول عليه معولاً: اتكل واعتمد، والتعبير بحتى يفيد الغائية: أي تظل الرعاية متواصلة حتى سن البلوغ أو الزواج، ويقول القرطبي: ويعني ببلوغهما: وصولهما إلى حال يستقلان بأنفسهما، والتعبير بالجارية: لا يعني: الأمة فقط، ولكن المراد جنس النساء، والجارية في اللغة من معانيها: السفينة، وقيل للأمة جارية على التشبيه لجريها مسخرة في أشغال مواليها، وقيل الجري: بوزن الوصي: الوكيل، لأنه يجري في أمور موكلة، ومنه الجارية لجريانها وخفتها في إنجاز الأمور، وما أعظم صحبة الحبيب محمد ﷺ يوم لا ينفع مال ولا بنون.

فقه الحديث

الإحسان أن يكون بأداء الواجب أم زيادة عليه؟

قال ابن حجر: (وقد اختلف في المراد بالإحسان هل يقتصر على قدر الواجب أو بما زاد عليه؟ والظاهر الثاني، فإن عائشة رضي الله عنها أعطت المرأة التمرة فآثرت بها ابنتيها فوصفها النبي ﷺ بالإحسان بما أشار إليه من الحكم المذكور، فدل على أن من فعل معروفًا لم يكن واجبًا عليه، عدّ محسنًا، والذي يقتصر على الواجب، وإن كان يوصف بكونه محسنًا، لكن المراد من الوصف المذكور قدر زائد، وشرط الإحسان أن يوافق الشرع لا ما خالفه، والظاهر أن الثواب المذكور إنما يحصل لفاعله إذا استمر إلى أن يحصل استغناؤهن عنه بزوجٍ أو غيره، كما أشير إليه في بعض الأحاديث[١]، والإحسان إلى كل أحد بحسب حاله)[٢].

---

(١) قال ابن حجر: وفي حديث ابن عباس عند الطبراني: "فأنفق عليهن وزوجهن وأحسن أدبهن"، فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣/٢٦٤٢.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣/٢٦٤٢.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الشرط، والترغيب.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل رعاية البنات الأيتام.

ثالثًا: من واجبات الداعية: استثارة همم المدعوين لتحصيل معالي الأمور.

رابعًا: من أساليب الدعوة: التشبيه والتمثيل.

أولاً- من أساليب الدعوة: الشرط، والترغيب:

١- **الشرط:** حيث جاء في الحديث: (من عال جاريتين)، ولا شك أن الشرط من الأساليب الدعوية التي تحفز المدعوين إلى معرفة الجواب مما يلفت انتباههم، كذلك فإن أسلوب الشرط يقرن بين العمل والجزاء عليه، وواجب الدعاة الاستفادة من هذا الأسلوب في الدعوة إلى الله تعالى.

٢- **الترغيب:** حيث جاء في الحديث: "جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين"، وهذا تحفيز وترغيب للإقدام على الفعل، فالترغيب هو كل ما يشوق المدعو إلى الاستجابة وقبول الحق والثبات عليه[١]، ولا شك أن الإنسان مجبول على حب ما ينفعه، وتقر به عينه، وتطمئن به نفسه، لذا فإنه يحسن بالداعية أن يفيد من ذلك، كما أن (للترغيب أهمية كبيرة في جنس الطاعات، وعلى رأسها تحقيق كلمة التوحيد، والقيام بمقتضياتها وشروطها، والترغيب في أركان الإسلام، والترغيب في بقية أنواع الطاعات وأشكالها كبرِّ الوالدين وصلة الرحم والصدقة والإحسان إلى اليتيم والجار)[٢]، والداعية الحصيف هو الذي يعرف متى يستخدم أسلوب الترغيب، ومتى يستخدم الترهيب ويوازن بينهما.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل رعاية البنات الأيتام:

يستنبط ذلك مما ورد في الحديث في قوله ﷺ: "من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين"، ولا شك أن هذا يدل دلالة قاطعة على فضل رعاية البنات

---

(١) أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان ص ٤٣٧.

(٢) وسائل الدعوة، د. عبدالرحيم بن محمد المغذوي ص ١٩٤.

الأيتام، قال النووي: (وفي الحديث فضل الإحسان إلى البنات والنفقة عليهن والصبر عليهن وعلى سائر أمورهن، ومعنى عالها: قام على أمورهما بالمؤنة والتربية ونحوهما)[١].

وقال ابن عثيمين: (في هذا الحديث فضل عول الإنسان للبنات، وذلك لأن البنت قاصرة ضعيفة، والغالب أن أهلها لا يأبهون بها، ولا يهتمون بها، فلذلك جعل النبي ﷺ من يحسن إليها رفيقًا له في الجنة، والعول في الغالب يكون بالقيام بمؤونة البدن من الكسوة والطعام وكذلك يكون في غذاء الروح بالتعليم والتهذيب والتوجيه)[٢].

قال القاضي عياض: (وقوله ﷺ: "جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين وضم أصابعه" يريد رفاقته معه في الجنة، أو دخوله معه إياها في أول من يدخل وكفى بهذا فضلاً)[٣].

هذا وقد أمر الله في القرآن بالإحسان إلى اليتيم، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾[٤]، وبيّن جزاء من يقصر في حق اليتيم، فقال سبحانه: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾[٥]، وبيّن سبحانه أن من صفات المتقين: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾[٦]، وأرشد سبحانه إلى أن من وسائل العتق من النار الإحسان إلى اليتيم: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾[٧].

ثالثًا- من واجبات الداعية: استثارة همم المدعوين لتحصيل معالي الأمور:

إن من أهم الواجبات التي تجب على الداعي أن يعمل باستمرار لاستثارة همم

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٦٢.

(٢) شرح رياض الصالحين ٦٥٠/١.

(٣) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ١١١/٨.

(٤) سورة الضحى، آية: ٩.

(٥) سورة الماعون، الآيات: ١ - ٣.

(٦) سورة الذاريات، آية: ١٩ .

(٧) سورة البلد، الآيات: ١٣ - ١٦.

المدعوين لتحصيلهم معالي الأمور، يستفاد ذلك مما ورد في عموم الحديث في قوله ﷺ: (من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين وضم أصابعه)، ولا شك أن ذلك تشويق للمدعوين للوصول إلى هذه الدرجة العالية، وهي رفقة النبي ﷺ، فيجب على الداعية أن يرتفع بهمة المدعوين، ويرشدهم إلى أعلى درجات الفضل والثواب على الأعمال، ليكون ذلك أدعى إلى تنفيذها والالتزام بها، قال ابن عثيمين: (وينبغي للإنسان أن يهتم بالأمور التي تقربه إلى الله لا بالأمور الشكليات، أو مراعاة ما ينفع في الدنيا فقط، بل يلاحظ هذا ويلاحظ ما ينفع في الآخرة أكثر وأكثر)[1]، وهذا منهج القرآن في تشويق أتباعه لبذل أقصى وسعهم في الطاعة والعبادة والامتثال، قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ﴾[2].

(إن الهمة العالية خلق سام، ومسلك رائع، تحبه النفوس، وتهفو إليه القلوب، وأجمل ما في ذلك الخلق، وأروع ما فيه ما كان مقترنًا بشرف المقصد، ونبل الهدف والغاية فالناس تتفاوت هممهم رفعة وضعة، وتختلف مشاربهم علوًا وحطة، ولكن الشأن كل الشأن فيمن جمع إلى علو الهمة شرف المقصد، ونبل الهدف والغاية، ولا ريب أن أعلا المطالب وأشرف المكاسب هو ما كان لله وفي سبيل الله تبارك وتعالى، ولذلك لما كان مجد الآخرة أعظم المجد، كان ابتغاؤه أعظم الغايات، وكان هو الهمّ الأكبر للمؤمنين الصادقين، ذوي الهمم العلية، والنفوس الكبيرة الزكية، وأما الدنيا في نظرهم - مهما بلغت أمجادها - قليلة القيمة في جنب الآخرة، لذلك فهم يحاولون أن يبتغوا فيما آتاهم الله الدار الآخرة مع أنهم لا ينسون نصيبهم من الدنيا)[3].

رابعًا- من أساليب الدعوة: التشبيه والتمثيل:

إن للتشبيه أثرًا واضحًا في تقريب المعنى للمدعوين، واستحضار الصورة كاملة في الذهن، وقد جاء في الحديث: "من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو

---

(١) شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين، ١/٦٥٠.

(٢) سورة يونس، آية: ٢٦.

(٣) الهمة العالية، محمد إبراهيم الحمد ص ١١٣ - ١١٤.

كهاتين - وضم أصابعه"، حيث شبّه النبي ﷺ منزلة من عال جاريتين في الجنة بالقرب من النبي بقرب الأصابع من بعضها. وأسلوب التشبيه من الأساليب الدعوية التي يحسن بالداعية أن يفيد منها في الدعوة.

قال علي محفوظ: (لضرب الأمثال أثناء العظة أكبر الآثار في النفوس، فإن المقصود من ضرب الأمثال أنها تؤثر في العقول ما لا يؤثره وصف الشيء ذاته، ذلك بأن الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي، والغائب بالشاهد، فيتأكد الوقوف على ماهيته، ويصير الحسّ مطابقًا للعقل، وذلك هو النهاية في الإيضاح)[1].

فعلى الدعاة الهداة إلى الله تعالى أن يوضحوا ما غمض، ويجلوا ما استتر من خلال استخدام أدوات التشبيه والتمثيل لإفادة المدعوين، وتوضيح الصورة لديهم.

(١) هداية المرشدين إلى طريق الوعظ والخطابة ١٧٧.

الحديث رقم (٢٦٨)

٢٦٨- وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ: دَخَلَتْ عَلَيَّ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا ابنتان لَهَا تَسْأَلُ، فَلَمْ تَجِدْ عِنْدِي شَيْئًا غَيْرَ تَمْرَةٍ (وَاحدَةٍ)[1]، فَأَعْطَيْتُهَا إيَّاهَا فَقَسَمَتْهَا بَيْنَ ابْنَتَيْها ولَمْ تَأكُلْ مِنْهَا، ثُمَّ قَامَتْ فَخَرَجَتْ، فَدَخَلَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَينَا، فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ: ((**مَنِ ابْتُليَ مِنْ هذِهِ البَنَاتِ بِشَيءٍ فَأَحْسَنَ إلَيْهِنَّ، كُنَّ لَهُ سِترًا مِنَ النَّار**)) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[2].

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

غريب الألفاظ:

ابْتُلِيَ: اختبر[3].

الشرح الأدبي

هذه صورة فريدة من صور التراحم والعطف يفيض بها بيت النبوة، وهذا درس جليل من دروس الإيثار والزهد، تلقنه أم المؤمنين عائشة الصديقة بنت الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، لكل من يتطاول على الإسلام، وعلى نبيه المختار صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إن هذه الصورة تنقل إلينا طبيعة الحياة الزاهدة القانعة في بيت النبوة.

وعائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا لم تجد غير تمرة واحدة في بيتها، وعلى الرغم من ذلك تجود بها لمن جاءت تتضوَّر جوعًا مع بنتيها... وتسأل المعونة !! وقد سئل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عن أحب الناس إليه، فذكر منهم عائشة وأبها أباب بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، فعن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ((أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعثَهُ على جيش ذاتِ السلاسلِ، فأتَيتُه فقلتُ: أيُّ الناسِ أحبُّ إليك؟ قال: عائشة. فقلتُ منَ الرجال؟ قال: أبوها. قلتُ ثمَّ مَن؟ قال: ثمَّ عمرُ بن الخطاب، فعَدَّ رجالاً))[4].

---

(١) (واحدة) ليست عند البخاري في هذه الرواية، وإنما عنده برقم (٥٩٩٥). تبع المؤلف فيه المنذري في ترغيبه، حيث أوردها هكذا.

(٢) أخرجه البخاري (١٤١٨) واللفظ له، ومسلم (٢٦٢٩/١٤٧). أورده المنذري في ترغيبه (٢٩٣٤).

(٣) الوسيط (٧١).

(٤) أخرجه البخاري ٣٦٦٢.

وقد فارقت عائشة بيت أبيها وهي في نحو العاشرة أو أكبر من ذلك بقليل كما استخلص بعض المؤرخين من مراجعة التواريخ الكثيرة، فإذا هي في تلك السن -كما يقول العقاد- قد وعت ما وعته من الشعر البليغ، والأمثال السائرة، والأخبار النادرة، وقد نضجت لمصاحبة النبي ﷺ والوعيْ عنه، والدراية بالمأثور من كلامه، وكانت بعد ذلك مرجعًا من مراجع الفقه والسنة خليقًا باعتماد الثقات الأجلاء.

إن صاحبة هذا الفضل الواسع، والعطاء الجزيل، والخلق الإسلامي العظيم أم المؤمنين عائشة: التي تروي هذا المشهد الصادق من مشاهد الحياة في بيت رسول الله ﷺ. تقدم لهذا الجيل النموذج الأعلى للمرأة في الإسلام، ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف، حيث يبدأ الحديث بداية سردية تحكي فيها عائشة رضي الله عنها وقائع هذا الحديث الجليل، حيث تدخل عليها امرأة ومعها بنتان لها تسأل، ولم تذكر أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها الاستئذان، مما يفصح عن أن بيت عائشة كان غير محجوب عن الطارقين، بل مفتح الأبواب، كناية عن الكرم والقبول والتواضع والزهد والتقوى، وجملة "ومعها بنتان"، في موقع الحال، وجملة "تسأل" استئناف بياني، حيث يتضمن الكلام هنا إيجازًا بالحذف، وكأن سائلاً يسأل: ما سبب دخول هذه المرأة على عائشة رضي الله عنها، فقيل: جاءت للسؤال أي طلب المعونة والطعام، والمفاجأة غير المنتظرة هو: قول أم المؤمنين "فلم تجد عندها شيئًا غير تمرة!!!" فماذا تعطي؟ وماذا تبقي؟ ولنتأمل ولنتعظ، ولنراجع أنفسنا ونحن نلهث ونشكو وبيوتنا تفيض بالزاد، وما يُلقى في صناديق المهملات، يكفي لإشباع آلاف الجوعى، وما ينفق على مظاهر اللهو والترف وحفلات الاستقبال والتهاني والأعراس يكفي لإنقاذ كثير من الشعوب المسلمة من المجاعات والأمراض، وحروب الإبادة، ولكن لا حياة لمن تنادي!!، إنها تمرة واحدة في بيت عائشة رضي الله عنها، ولا تفكر صاحبة التمرة في الاحتفاظ بها ولكنها تقول: "فأعطيتها إياها"، وحرف الفاء هذا ينقل ويصور طبيعة هذا العطاء وهو، السرعة والإجابة الفورية التي لا تترك للنفس أي اختيار إلا العطاء والإيثار.

ويتعاظم الإيثار، ويتسابق العطاء سريعًا في اللحظة نفسها، حيث قسمت المرأة التمرة بين ابنتيها... ولم تأكل منها!!، وحرف الفاء يطل مرة أخرى حين يقترن بالفعل "قسمت"، ليصور سرعة الحركة من الأم وعدم التفكير في تذوق هذه التمرة.

وتؤكد هذا عائشة رضي الله عنها فتقول في زهو وحب لهذه الأم المعطاء: ولم تأكل منها، والتعبير بـ"ثم" قبل: الفعل "قامت": يفصح عن بطء الأم في الخروج وانتظارها لمزيد من العطاء لأنها في حاجة إلى سد الرمق، وبعد ذلك يتوالى العطف بالفاء ليصور سرعة تتابع مشاهد هذه القصة الواقعية المثالية، فخرجت، فدخل النبي ﷺ، فأخبرته... فقال: "من ابتلي من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن كن له سترًا من النار" وتجيء هذه الحكمة النبوية في ختام الحديث: لتبشر كل من يجاهد ويكافح في سبيل إعفاف بناته وصيانة أعراضهن، وصيغة الشرط تجعل البشارة محققة لأن الجزاء من جنس العمل، وعبر عن البنات "بالابتلاء" لأن رعايتهن تحتاج إلى مجاهدة ومعاناة وتحمل، والستر من النار يحصل بالإحسان إليهن، وهو طريق الفوز بالجنة في صحبة النبي ﷺ.

فقه الحديث

يشير هذان الحديثان[1] إلي حكم تربية الأولاد والإحسان إليهم، فإن كن إناثًا فالرعاية في حقهن أوجب، والثواب في تربيتهن أكبر بدلالة هذا الحديث.

وقد اتفق الفقهاء[2] على أن نفقه الأولاد الصغار واجبة على أبيهم، وأن نفقتهم تستمر حتى يقدروا على الكسب، فإن كان الولد أنثى استمرت النفقة لحين الزواج، وإن كان ذكرًا عاجزًا عن الكسب استمرت النفقة عليه.

---

(١) الحديث رقم (٢٦٨) والحديث رقم (٢٦٩).

(٢) المبسوط ٢٢٢/٥، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود شرح الطيبي ٣٠/٤، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٢١٨/٤، والمدونة ٣٦٢/٢، والبهجة في شرح التحفة، القاضي أبو بكر الأندلسي ٣٨٣/١، والمهذب للشيرازي ١٥٨/٣، وروضة الطالبين، الإمام النووي، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، وعلي محمد معوض ٤٦/٨، والعزيز شرح الوجيز ٦٥/١٠، والمغنى ٣٧٣/١١، والمبدع في شرح المقنع، ابن مفلح ٢١٣/٨.

وقد خص الشارع البنات بالذكر لكون الرغبة فيهن أقل، ونفقتهن أكثر، وتربيتهن أكثر صعوبة، والإحسان إليهن مؤثر، لأن المرأة هي المربية للصغار، فكأن الإحسان لها، فيه تأثير عليها في تربيتها لأولادها[١].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل التصدق ولو بالقليل.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: مظاهر الرحمة.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على إخبار النبي ﷺ بما حدث لهم.

رابعًا: من أساليب الدعوة: الشرط، الترغيب.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: فضل الإحسان إلى البنات.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل التصدق ولو بالقليل:

للصدقة ثواب عظيم عند الله تعالى، حتى وإن كانت قليلة، لأن الإسلام يأمر بالبذل والإنفاق. وقد ورد في الحديث ما يؤيد ذلك في قول عائشة رضي الله عنها: "فلم تجد عندي شيئًا غير تمرة واحدة فأعطيتها إياها" ومما لا شك فيه أن فضل الصدقة وثوابها عند الله كبير، حيث بين الله عز وجل أن من صفات المؤمنين: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾[٢] وأخبرنا أن الأبرار استحقوا دخول الجنة، لأنهم كانوا يبذلون الصدقات، ويطعمون الجائعين، فقال سبحانه: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾[٣] وبين الله سبحانه أن من أسباب عذاب النار: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ

---

(١) الزواجر عن اقتراف الكبائر، ابن حجر الهيتمي ١٠٤/٢، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين عبدالرحيم بن الحسن ٦٨/٧، وغذاء الألباب شرح منظومة الآداب، الإسفراييني الحنبلي ٤٣٧/٢.

(٢) سورة المعارج، آية: ٢٤، ٢٥.

(٣) سورة الإنسان، آية: ٨.

بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾[١] ولمّا سئل أهل النار عن سر دخولهم فيها ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾[٢] وعدّد لنا صور التكذيب بيوم الدين فقال سبحانه: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾[٣].

ولقد كان من رحمة الله أن من يتصدق ولو بالقليل أو يعمل عملاً صالحًا صغيرًا فإنه يؤجر عليه من الله، قال الله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾[٤] وبين لنا رسولنا الكريم ﷺ أن الصدقة القليلة قد تقي الإنسان من النار ففي الحديث ((اتّقوا النارَ ولو بِشقٍّ تَمرةٍ))[٥]. وكل هذه النصوص تبين فضل الصدقة ولو بالقليل، وثواب فاعلها، وأنها سبب في النجاة من النار يوم القيامة.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: مظاهر الرحمة:

إن من مظاهر الرحمة في هذا الحديث ما ورد في قول عائشة رضي الله عنها: "فأعطيتها إياها فقسمتها بين ابنتيها ولم تأكل منها" ولاشك أن هذا من رحمتها بابنتيها قال المباركفوري: (وتظهر رحمتها أنها أخذت التمرة ولم تستحقرها، ولم تأكل منها مع جوعها إذ يستبعد أن تكون شبعانة مع جوع ابنتيها)[٦].

ولقد دل فعلُ رسول الله ﷺ على فضل الرحمة، فعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يأخذني فيقعدني على فخذه ويقعد الحسن بن علي على فخذه الآخر ثم يضمهما ثم يقول: ((اللهمَّ ارحمْهما فإني أرحمُهما))[٧].

---

(١) سورة الحاقة، آية: ٣٣، ٣٤.

(٢) سورة المدثر، آية: ٤٢-٤٤.

(٣) سورة الماعون، آية: ١-٣.

(٤) سورة الزلزلة، آية: ٧.

(٥) أخرجه البخاري ١٤١٧.

(٦) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري ١٦٢٢/٢.

(٧) أخرجه البخاري ٦٠٠٣.

وفي فضل الرحمة والحث عليها قال ﷺ ((الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ. ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ))(١).

وفي التحذير من مجافاتها قال ﷺ: ((لا تُنْزَعُ الرحمةُ إلاّ مِنْ شَقِّي))(٢).

قال محمد الغزالي: (لقد أراد الله أن يمتن على العالم برجل يمسح آلامه، ويخفف أحزانه، ويرثى لخطاياه ويستميت في هدايته، وينصر الضعيف، ويقاتل دونه قتال الأم عن صغارها، فأرسل محمدًا ﷺ وسكب في قلبه من العلم والحلم، وفي خلقه من الإيناس والبر، وفي طبعه من السهولة والرفق، وفي يديه من السخاوة والندى ما جعله أزكى عباد الله رحمة وأوسعهم عاطفة، وأرحبهم صدرًا. إن القلوب الكبيرة قلما تستجيشها دوافع القسوة، فهي أبدًا إلى الصفح والحنان أدنى منها إلى الحفيظة والاضطغان. إن القسوة في خلق إنسان دليل نقص كبير، وفي تاريخ أمة دليل فساد خطير، وقد أمر الإسلام بالتراحم العام وجعله من دلائل الإيمان الكامل، فالمسلم يلقى الناس قاطبة، وفي قلبه لهم عطف مذخور، وبر مكنون، فهو يوسع لهم ويخفف عنهم جهد ما يستطيع)(٣).

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على إخبار النبي ﷺ بما حدث لهم:

لقد كان الصحابة رضي الله عنهم يحرصون أشد الحرص على إخبار النبي ﷺ بما يحدث معهم من مواقف، لمعرفة هديه ﷺ في ذلك، وشاهد ذلك ما ورد في الحديث "فدخل النبي ﷺ علينا فأخبرته" وما من شك في أن رسول الله ﷺ هو المرجع الأول للمسلمين، ولذا كانوا كثيرًا ما يبتدرون إليه يسألونه ﷺ عما وقع لهم من أحداث ليصحح ويصوب هذه التصرفات؛ ذلك لأن توجيه القرآن للمسلمين ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾(٤) وقد أمر الله بالاحتكام إليه فقال سبحانه وتعالى:

---

(١) أخرجه أبو داود ٤٩٤١، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤١٣٢).

(٢) أخرجه الترمذي ١٩٢٣، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٥٦٧).

(٣) خلق المسلم ٢٠٤-٢٠٥.

(٤) سورة الحشر، آية: ٧.

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾[(١)] وربط الله عز وجل بين محبته سبحانه وبين اتباع نبيه فقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ ﴾[(٢)] من أجل هذا كله حرص الصحابة رضي الله عنهم على إخبار النبي ﷺ وإطلاعه على ما يحدث لهم.

رابعًا- من أساليب الدعوة: الشرط، الترغيب:

١- الشرط: حيث جاء في الحديث "من ابتلى من هذه البنات بشيء" ولا شك أن الشرط أسلوب من أساليب الدعوة حيث يلفت انتباه السامع، ويشوقه إلى معرفة جواب الشرط.

٢- الترغيب: ويظهر هذا من الحديث "كن له سترًا من النار" ومما هو معلوم أن الترغيب يحث النفس على الإقبال على الفعل (والنفس تطمع فيما يرغبها من مسعدات وسارَّات ومفرحات، ولذات من منافع ومكاسب وأرباح عاجلات أو آجلات، وأسلوب الترغيب يدور في فلك هذا الموجه الذاتي للنفس، وهو الذي يؤثر في النفس تأثيرًا إيجابيًا نافعًا)[(٣)].

والداعية الناجح يستطيع من خلال أسلوب الترغيب أن يغوص في أعماق النفس الإنسانية، مبرزًا جوانب الترغيب في الشريعة، لتستقيم النفس على الطاعة.

خامسًا- من موضوعات الدعوة: فضل الإحسان إلى البنات:

يظهر هذا من قول النبي ﷺ "من ابتلي من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن كن له سترًا من النار" ولاشك أن الثواب الوارد في الحديث عظيم، وهو الوقاية من النار بفضل تربية البنات والإحسان إليهن. قال القرطبي: (قوله: "من ابتلي بشيء من البنات فأحسن إليهن كن له سترًا من النار" أي: أحسن إليهن وصانهن وقام بما يصلحهن ونظر في أصلح الأحوال لهن، فمن فعل ذلك وقصد به وجه الله تعالى، عافاه تعالى من النار

---

(١) سورة النساء، آية: ٦٥.

(٢) سورة آل عمران، آية: ٣١.

(٣) فقه الدعوة إلى الله تعالى، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني ص ٦٣٢/١.

وباعده منها، وهو المعبر عنه بالستر من النار، ولا شك في أن من لم يدخل النار دخل الجنة، قوله: "بشيء من البنات" يفيد بحكم عمومه: أن الستر من النار يحصل بالإحسان إلى واحدة من البنات، فأما إذا عال زيادة على الواحدة فيحصل له زيادة على الستر من النار السبق مع رسول الله ﷺ إلى الجنة[١]. وقال النووي: "وإنما سماه ابتلاءً لأن الناس يكرهونهن في العادة، قال الله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾[٢]"[٣] قال الإمام ابن حجر: (في الحديث تأكيد حق البنات لما فيهن من الضعف غالبًا عن القيام بمصالح أنفسهن، بخلاف الذكور لما فيهم من قوة البدن وجزالة الرأي وإمكان التصرف في الأمور المحتاج إليها في أكثر الأحوال)[٤]. ولا يخفى أن مطمح أي مسلم أن ينجو من النار، وهو الجزاء الذي أعده الله تعالى لمن يحسن إلى البنات.

---

(١) انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٦/٦٣٦، ٦٣٧.

(٢) سورة النحل، آية: ٥٨.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٦٢.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠/٤٤٣.

الحديث رقم (٢٦٩)

٢٦٩- وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ: جَاءَتْنِي مِسْكِينَةٌ تَحْمِلُ ابْنَتَيْنِ لَهَا، فَأَطْعَمْتُهَا ثَلاثَ تَمَرَاتٍ، فَأَعْطَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا تَمْرَةً، وَرَفَعَتْ إِلَى فِيْهَا تَمْرَةً لِتَأْكُلَهَا، فَاسْتَطْعَمَتْهَا ابْنَتَاهَا، فَشَقَّتِ التَّمْرَةَ الَّتِي كَانَتْ تُرِيدُ أَنْ تَأْكُلَهَا بَيْنَهُمَا، فَأَعْجَبَنِي شَأْنُهَا، فَذَكَرْتُ الَّذِي صَنَعَتْ لرسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: **((إِنَّ الله قَدْ أَوْجَبَ لَهَا بِهَا الجَنَّةَ، أَوْ أَعتَقَهَا بِهَا مِنَ النَّارِ))** رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

الشرح الأدبي

هذا الحديث قبس من مشكاة الحديث السابق، وهو فيما يضيفه من مشاهد يتماوج مع الحديث الذي قبله في دائرة واحدة، وهى دائرة التعاطف والتراحم بين الآباء والأبناء، وبين الأمهات والبنات، فالحديث السابق: لم يكن في حجرة عائشة غير تمرة واحدة، وأعطتها للمرأة السائلة، أما في هذا الحديث فإن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا تقول: "جائتني مسكينة تحمل ابنتين لها: فأطعمتها ثلاث تمرات"، ولنتأمل دلالة الألفاظ، وخصائص التراكيب، وطبيعة الأساليب، وما توحي من دلالات ومعان، ومقاصد وغايات.

إنها وصفت المرأة هنا بأنها مسكينة، وأطلقت على التي جاءتها "مسكينة"، والتقدير امرأة مسكينة، وكأن المرأة لشدة عوزها وفاقتها أصبحت المسكنة علمًا عليها، وشارة لها: والدلالة اللغوية للفظ "مسكين" يفصح عن قلة الحيلة، وقلة الحركة، حيث قال علماء اللغة: إنه مأخوذ من السكون، أي ذهاب الحركة، والمسكين الذي لا شيء له، والفقير الذي له بُلْغَة من العيش، وقال ابن الأعرابي:

---

(١) برقم (١٤٨/٢٦٣٠) وقد تكلم عليه ابن عمار في علله رقم (٣٠). أورده المنذري في ترغيبه (٢٩٣٥).

المسكين هو الفقير وهو الذي لا شيء له، فجعلهما سواء، وقد سبق توضيح هذه الدلالة بالتفصيل في حديث سابق.

وجملة "تحمل ابنتين لها" صفة لهذه المرأة المسكينة لأن الجمل بعد النكرات صفات، وبعد المعارف أحوال، وفي الكلام إيجاز بالحذف، والتقدير بعد هذه الجملة التي صورت المرأة وهى تحمل ابنتيها، "وهي تسأل" وحذف هذا الفعل كما قالوا لدلالة الحال عليه، وقولها "تحمل ابنتين" يفيد أن البنات مازالوا صغارًا لا يقدرون على الحركة والمشى نظرًا لصغر سنهما، وهذه الحالة أدعى للعطف والتراحم والرثاء والإعانة.

والعطف بالفاء في قول عائشة رضي الله عنها يفيد سرعة الإعطاء وعدم التردد، وكذلك هذه المسكينة لم تتردد في إطعام بنتيها، وهذا الإسراع أفصحت عنه الفاء في قولها: "فأعطت كل واحدة منهما تمرة"، ولكنها حين أرادت أن تأكل تمرتها لم تسرع، وإنما تباطأت لإحساسها بأن بنتيها قد تحتاجان إلى هذه التمرة حبًا فيهما: وإيثارًا لهما.

وهذه هي الفطرة الإنسانية الصادقة، فالآباء والأمهات يؤثرون أبنائهم على أنفسهم، وهذه عاطفة لا تكلف فيها وليس فيها تصنع، والعطف بالواو في قولها: "ورفعت إلى فيها تمرة لتأكلها": يفيد هذا البطء وعدم الإسراع، لأن الواو لمطلق الجمع وليست للتعقيب مثل الفاء، فلنتأمل دلالة الحروف ودورها في إبراز المعنى، وإضفاء الظلال التي تصبغ الموقف بصبغة الحركة أو السكون أو الإسراع أو البطء، ولنتأمل دور الفاء في قولها، "فاستطعمتها ابنتاها"، ثم قولها: "فشقت التمرة"، إن الفاء هنا تنقل إلينا طبيعة الحركة السريعة بين الأم وابنتيها، بعد الحركة البطيئة في رفع الأم التمرة إلى فيها، وما أروع هذا المشهد الذي يقطر حنانًا وأمومة حانية، وعاطفة قطوفها دانية، إنها صورة فريدة من صور الأمومة المشرقة: فالأم ترفع إلى فيها التمرة ولكنها تبصر في عيني البنتين اللهفة إلى هذه التمرة، وسرعان ما تتحول بالتمرة من فمها إلى فم ابنتيها بعد أن شقتها وقسمتها بينهما، وهذا الإيثار الذي تتوجه عاطفة الأمومة يستحوذ على إعجاب أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فتذكر ذلك الصنيع، وتشيد بهذا الإيثار الجميل لرسول

الله ﷺ: فيبشر المبعوث رحمة للعالمين هذه المسكينة بقوله في صيغة التأكيد والوعد الواجب، بالعتق من النار، والفوز بالجنة، وما أصدق هذا الوعد من رسول الله ﷺ: "إن الله قد أوجب لها بها الجنة، أو أعتقها بها من النار".

المضامين الدعوية

أولاً: من وسائل الدعوة: القصة.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل الصدق والإنفاق.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل الشفقة والرحمة على البنات.

رابعًا: من أساليب الدعوة: الترغيب.

خامسًا: من واجبات الداعية: دلالة المدعوين إلى ما فيه فلاحهم.

أولاً- من وسائل الدعوة: القصة:

إن من وسائل الدعوة المستنبطة في هذا الحديث: القصة، حيث قصت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها على النبي ﷺ فقالت: "جاءتني مسكينة" ومما لاشك أن للقصة أهمية كبيرة كوسيلة من وسائل الدعوة (وأهمية القصة تبرز في أثرها في النفس البشرية وما تحدثه فيها من إقناع العقل وإمتاع العاطفة، والقصة وسيلة مهمة من وسائل الدعوة، يجد فيها الداعية ما يناسب حالة أي مدعو، سواء أكان من عِلْية القوم، أو من الضعفاء، أو من الأغنياء، أو من الفقراء، أو من أصحاب المعاصي والأهواء، والقصة في القرآن والسنة تقوم على اليقين النقلي، والإقناع العقلي والاطمئنان القلبي)[1].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل الصدقة والإنفاق:

يظهر هذا من تصرف أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لما جاءتها مسكينة فأعطتها ثلاث تمرات، ولا شك أن ثواب الصدقة يضاعفه الله يوم القيامة، قال سبحانه: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[2].

---

(١) وسائل الدعوة، د. عبدالرحيم المغذوي، ١٢٩.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٦١.

وبيّن الله سبحانه أن الإنسان يجب عليه أن ينفق مما يحب، فقال جلّ شأنه: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[1] وأخبرنا سبحانه أن الذي يبتغي بنفقته وجه الله تعالى يحفظه الله من النار، قال تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾[2].

وبين لنا أن ما يقدمه الإنسان من خير مدخر له عند الله، قال جلّ شأنه: ﴿وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ﴾[3] وحث الله على النفقة فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[4].

وحض رسول الله ﷺ في الحديث على الصدقة فقال: ((مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ))[5] وقال ﷺ: ((سَبعةٌ يُظِلُّهم اللهُ في ظلِّهِ يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ: الإمامُ العادِلُ، وَشابٌّ نَشأَ في عِبادةِ ربِّه، ورجلٌ قلبُه مُعَلَّقٌ في المساجد، وَرجُلانِ تَحابّا في اللهِ اجتَمَعا عليهِ وتَفرَّقا عليه، ورجلٌ طَلَبَتهُ امرأةٌ ذاتُ مَنصِبٍ وجمال فقال: إني أخافُ اللهَ، ورجلٌ تَصدَّقَ أخفى حتى لا تَعلمَ شِمالُه ما تُنفِقُ يمينُه))[6].

وجاء في الحديث أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: ((سَبَقَ دِرْهَمٌ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ» قَالُوا: وَكَيْفَ؟ قَالَ: «كَانَ لِرَجُلٍ دِرْهَمَانِ تَصَدَّقَ بِأَحَدِهِمَا وَانْطَلَقَ رَجُلٌ إِلَى عُرْضِ مَالِهِ فَأَخَذَ مِنْهُ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ فَتَصَدَّقَ بِهَا))[7].

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٩٢.

(٢) سورة الليل، آية: ١٧-٢١.

(٣) سورة المزمل، آية: ٢٠.

(٤) سورة البقرة، آية: ٢٥٤.

(٥) أخرجه مسلم ٢٥٨٨.

(٦) أخرجه البخاري ٦٦٠، ومسلم ١٠٣١.

(٧) أخرجه النسائي ٢٥٢٨، وحسنه الألباني (صحيح سنن النسائي ٢٣٦٧).

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل الشفقة والرحمة على البنات:

حيث جاء في الحديث في قوله ﷺ: "إن الله قد أوجب لها بها الجنة أو أعتقها من النار" وهذا يبين فضل الشفقة والرحمة على البنات، ففي هذه الحديث ونظرائه فضل الإحسان إلى البنات والنفقة عليهن والصبر عليهن وعلى سائر أمورهن[1].

وقال ابن عثيمين: (لما رفعت الأم التمرة الثالثة إلى فيها لتأكلها، فاستطعمتاها - يعني أن البنتين نظرتا إلى التمرة التي رفعتها الأم- فلم تطعمها الأم بل شقتها بينهما نصفين، فأكلت كل بنت تمرة ونصف، والأم لم تأكل شيئًا، فلما رحمتهما هذه الرحمة العظيمة أوجب الله لها بذلك الجنة، فدل ذلك على أن ملاطفة الصبيان والرحمة بهم من أسباب دخول الجنة والنجاة من النار)[2] وقد جاء في الحديث ((مَنْ كَانَ لَهُ ثَلاَثُ بَنَاتٍ، فَصَبَرَ عَلَيْهِنَّ وَأَطْعَمَهُنَّ وَسَقَاهُنَّ وَكَسَاهُنَّ مِنْ جِدَتِهِ، كُنَّ لَهُ حِجَابًا مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))[3].

رابعًا- من أساليب الدعوة: الترغيب:

ورد الترغيب في قوله ﷺ: "إن الله قد أوجب لها بها الجنة أو أعتقها من النار" ولاشك أن أسلوب الترغيب من أساليب الدعوة التي تحث المدعوين على فعل الطاعات، وترغبهم في الخير وتحببهم إليه (والداعية المسلم عليه معرفة مواضع الترغيب في القرآن والسنة، فالإنسان تواق دائمًا لكل ما يحقق لذاته الخير والفلاح والسعادة، وفي الوقت ذاته حريص على تجنيب نفسه وحفظها من كل مكروه وشر، وأسلوب الترغيب محبب إلى النفس فأول ما يبدأ الداعية يكون بهذا الأسلوب)[4]. إذ أن الترغيب أبرز البواعث التي تحمل على التقوى والاستقامة، ولزوم الصراط المستقيم، قال تعالى: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[5] وأساس هذا الباعث هو عقيدة الجزاء

---

(١) انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٦٢.

(٢) شرح رياض الصالحين ٦٥٣/١.

(٣) أخرجه ابن ماجه ٣٦٦٩، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٢٩٥٩).

(٤) قواعد الدعوة الإسلامية، د. حمدان الهجاري، ٥١٠.

(٥) سورة الأعراف، آية: ٥٦.

والإيمان بالآخرة، وأن الله أعد فيها لكل حسنة ثوابًا ولكل سيئة عقابًا، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [(١)] [(٢)].

خامسًا- من واجبات الداعية: دلالة المدعوين إلى ما فيه فلاحهم:

يظهر هذا من إرشاد النبي ﷺ إلى أن تصرفها مما يوجب الجنة، ومن هنا كان من ألزم صفات الداعية إرشاد ودلالة المدعوين إلى ما فيه الخير لهم دائمًا، حتى يقبل عليه الناس (إن اشتمال الدعوة على جوانب الخير التي تملأ حياة الناس أمر مهم، لأن أي دعوة لم تتضمن الخير للمدعوين، لا تكون في مصلحتهم، ومن هنا ينفر منها الناس، ويعتبرونها خصمًا لهم فيقفون لها بالمرصاد)[(٣)]. وبناء على هذا يجدر بالداعية دائمًا أن يدل على الخير ويرشد إلى الفلاح، حتى يجد لدعوته صدى، ولقوله مردود.

قال الماوردي: (ومن آداب العلماء أن لا يبخلوا بتعليم ما يحسنون، ولا يمتنعوا من إفادة ما يعلمون، فإن البخل به لؤم وظلم، والمنع منه حسد وإثم، وكيف يسوغ لهم البخل بما مُنِحُوه جودًا من غير بخل، وأُوتُوه عفوًا من غير بذل؟ أم كيف يجوز لهم الشح بما إن بذلوه زاد ونما، وإن كتموه تناقص ووهى، ولو استن بذلك من تقدمهم لما وصل العلم إليهم، ولصاروا على مرور الأيام جهالاً، وبتقلب الأحوال وتناقصها أرذالاً)[(٤)].

---

(١) سورة الزلزلة، آية: ٧، ٨.

(٢) رسالة الإنسان في الحياة ومقتضياتها، د. عبدالستار نوير ص ١٩١، ١٩٢.

(٣) مستلزمات الدعوة في العصر الحاضر، علي بن صالح المرشد، ٢٤٠.

(٤) أدب الدنيا والدين ٨٧.

الحديث رقم (٢٧٠)

٢٧٠- وعن أَبي شُرَيحٍ خُوَيْلِدِ بن عمرو الخزاعِيِّ ﵁، قَالَ: قَالَ النَّبيّ ﷺ: ((اللَّهُمَّ إنِّي أُحَرِّجُ حَقَّ الضَّعِيفَينِ: اليَتِيم وَالمَرْأةِ)) حديثٌ حسنٌ، رواه النسائيُّ[1] بإسناد جيد.

ومعنى ((أُحَرِّجُ)): أُلْحِقُ الحَرَجَ وَهُوَ الإثْمُ بِمَنْ ضَيَّعَ حَقَّهُمَا، وَأُحَذِّرُ مِنْ ذلِكَ تَحْذِيرًا بَلِيغًا، وَأَزْجُرُ عَنْهُ زجرًا أكيدًا.

ترجمة الراوي:

أبو شُرَيْح الخُزاعيُّ: واسمه خويلد بن عمرو، وقيل: عمرو بن خويلد، وقيل: هانئ بن عمرو، وقيل: كعب بن عمرو، وقيل: عبدالرحمن بن عمرو، والأول أشهر وهو: خويلد بن عمرو بن صخر بن عبدالعزى بن معاوية، من بني ربيعة، الخزاعيّ، العدويّ ثم الكعبيّ، كانت كنيته "أبو شريح" وبها اشتهر، له صحبة، روى عن النبي ﷺ أحاديث، وروى عن ابن مسعود، وروى له الجماعة، أسلم قبل الفتح -وقيل يومه- وكان يحمل أحد ألوية بني كعب بن خزاعة، يوم الفتح، وهو في عداد أهل الحجاز، مات بالمدينة المنورة سنة (٦٨)[2].

---

(١) في السنن الكبرى (٩١٠٤)، وأخرجه ابن ماجه (٣٦٧٨) وقال البوصيري في الزوائد (١٢١٩): إسناده صحيح، رجاله ثقات كلهم.

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر (٢١٢)، (٨٢١)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٢/١٩٤)، (٦/١٦٠، ١٦١)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي (١٤٩٥)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين (٨/٣٣٣)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٤/٥٣٦)، والسندي (٢٦/٢٩١).

الشرح الأدبي

إن الشريعة الإسلامية تحفظ الحقوق، وتنبذ العقوق، فلكل إنسان حقه المشروع، وقد توعد الحق سبحانه وتعالى الظالمين الذين يتعدون على حدود الله بالخسران المبين، قال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ﴾(١). وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾(٢)؛ ونقتبس من هذا الحديث الشريف ومضات من الرحمة المحمدية، وهالات من وصاياه الكريمة، وإنذاراته الحاسمة العظيمة، حيث يحذر المصطفى ﷺ من تضييع حق اليتيم، ويلحق الإثم بمن يسعى في ذلك ، أو يتسبب في ضياع حق المرأة واليتيم، ويحذر من ذلك تحذيرًا بليغًا، ويزجر عنه زجرًا أكيدًا، واليتيم في الإسلام: من فقد أباه: أو فقد أباه وأمه، وهما جناحاه في هذه الحياة، يحلق بهما بفضل رعايتهما واحتضانهما في آفاق وأجواء طموحاته، ويرجع إليهما في حل مشكلاته وتحقيق رغباته، وحين نتأمل دلالة لفظ اليتيم اللغوية، ندرك أنها تتوافق مع الدلالة الواقعية، فاليُتم بالضم الانفراد، أو فقدان الأب، واليتيم: الفرد، وكل شيء يعز نظيره، والفعل يَتِم: بكسر التاء بمعنى قصر وفتر وأعيا وأبطأ، واليَتْم بفتح الياء وسكون التاء: الهم، وبتحرك: التاء: الإبطاء.

واليتائم في اللغة: رمال منقطع بعضها عن بعض، كما ورد في القاموس المحيط، مادة يتم، فتأمل الدلالات السابقة: إنها كلها ترصد واقع اليتيم المحزن، وتصور إيقاع حياته المنكسر المهموم!!.

وكذلك المرأة في حاجة إلى من يؤازرها، ويعضدها، ويؤنسها، ويحميها، وهي السكن والمودة والرحمة، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا

---

(١) سورة النساء، آية: ٢٩.

(٢) سورة النساء، آية: ١٠.

﴿لِتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[1].

وفي ضوء هذه المعاني السامية، والعلاقات القائمة على سند من الشرع والفطرة التي فطر الله الناس عليها، نجد أسلوب المصطفى ﷺ يشتد، ووعيده يهدر، وكلماته تبرق وترعد، وتتوعد وتنذر، حيث يبدأ الحديث بالنداء والدعاء، بقوله "اللهم"، وحذف حرف النداء، ومجيء الميم المشددة عوضًا عنه، يعلن عن شدة الوعيد، وقوة التحذير، وكأن رسول الله ﷺ يدعو على من يضيع حق هذين الضعيفين، ويلجأ إلى ربه ليتولى أمر كل مضيع للحقوق حتى يناله العقاب الشديد، والفعل "أُحَرِّجُ" يسبق بالتأكيد في قوله "إني": واسم إن المؤكدة هو ياء المتكلم، وهو رسول الله ﷺ: إنه دفاع خاتم الأنبياء عن حق اليتامى والنساء، في هذه الصيغة المؤكدة.

وصيغة المضارعة في "أحرج" مع تشديد الراء: توحي بالشدة والاستمرار: لأن الحرج هو الإثم، والمبالغة في هذه الصيغة جاءت لكي يرتدع هؤلاء الذين لا يتقون الله في الضعيفين "اليتامى، والنساء".

والتعبير بقوله: "حق" أعم وأشمل من أى كلمة أخرى: فالحقوق كثيرة: مادية ومعنوية وشعورية ونفسية.

وقال العلماء: وإنما حرّج حقهما، وبالغ في المنع منه، لأنهما لا جاه لهما يلتجئان إليه ويحاج عنهما سوى المولى سبحانه وتعالى؛ ومن الحقوق المضيعة للمرأة: محاولة بعض الناس حرمانها من الميراث: وهذا جرم شنيع، وجرأة على الشرع، وتعد على حدود الله، ومِن الناس من يدعو إلى المساواة في الميراث، وهذا تضييع لحق الشرع، وإهدار لحق المرأة في محيط أسرتها ومجتمعها: لأن الصلات ستتقطع بينها وبين إخوتها وأرحامها، وستتقطع أواصر السكن والمودة والرحمة.

فميراث البنت في الشريعة الإسلامية لم يقصد لذاته، بل هو مرتب على نظام الزواج فيها، لأن للمرأة حقًا واجبًا في مال زوجها وهو حق النفقة، وليس للرجل مثل هذا الحق

---

(١) سورة الروم، آية: ٢١.

في مال زوجه، والإسلام يحث على الزواج بل يفرضه، فهو بهذا يضيف إلى المرأة رجلاً، ويعطيها به حقًا جديدًا، فإن هي ساوت أخاها في الميراث مع هذه الميزة التي انفردت بها انعدمت المساواة في الحقيقة، فتزيد وينقص، إذ لها حق الميراث وحق النفقة، وليس له إلا مثل حقها في الميراث إذا تساويا[1].

والدعوات المغرضة التي تدعو إلى المساواة التامة بين المرأة والرجل، هي تضييع لحق المرأة في الرعاية والحماية، والنفقة والمسؤولية، والإسلام كفل لها حقوقها.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الدعاء والتحذير.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الوصية بالنساء واليتامى.

ثالثًا من أهداف الدعوة: رعاية وحماية الضعفاء من اليتامى والنساء.

أولاً- من أساليب الدعوة: الدعاء والتحذير:

حيث جاء في الحديث: "اللهم إني أحرج حق الضعيفين" وهذا دعاء وتحذير وهو أسلوب من أساليب الدعوة التي تخوف المدعو، وتحذره من اقتراف ما يُحذر منه، ويدل على حرص الداعية على المدعوين، حيث يحذرهم من كل ما فيه مفسدة.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: الوصية بالنساء واليتامى:

يظهر هذا من قول النبي ﷺ في الحديث: "اللهم إني أحرج حق الضعيفين اليتيم والمرأة"، قال ابن علان: (حق الضعيفين، أي: ما يستحقانه بملك أو غيره كاختصاص، ولذا عبر به دون مال، وليشمل سائر الحقوق المالية وغيرها، واليتيم هو من بني آدم من لا أب له وهو دون البلوغ والمرأة معروفة، وإنما حرج حقهما وبالغ في المنع منه لأنهما لا جاه لهما يلجئان إليه، ويحاجّ عنهما سوى المولى سبحانه وتعالى، فالمعترض لهما كالمخفر لله في عهده فهو حقيق بأنواع الوبال، وهذا بخلاف الكامل من الرجال، فإن الغالب منهم من يعتمد على قوته، أو قوة من يركن إليه، ويعول في أمره عليه من مخلوق

(١) وحي القلم، الرافعي ص ٣.

ذي أمر صوري، ومن اعتز بغير الله ذلّ)[١].

هذا وقد دلت نصوص القرآن والسنة على الوصية بالنساء واليتامى، فمن الوصية بالنساء قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[٢]"، قال الإمام القرطبي: (أي على ما أمر الله به من حسن المعاشرة، والخطاب للجميع، إذ لكل أحد عِشْرة زوجًا كان أو وليًا، ولكن المراد بهذا الأمر في الأغلب الأزواج، ومن المعاشرة بالمعروف توفية حقها من المهر والنفقة وألا يعبس في وجهها بغير ذنب، وأن يكون منطلقًا في القول لا فظًا ولا غليظًا ولا مظهرًا ميلاً إلى غيرها، فأمر الله سبحانه بحسن صحبة النساء إذا عقدوا عليهن لتكون خلطة ما بينهم وصحبتهم على الكمال، فإنه أهدأ للنفس وأهنأ للعيش)[٣].

ومن الوصية بهن قول الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٤]، ومن وصية النبي ﷺ بالنساء قوله في الحديث: ((لاَ يَفْرَكْ[٥] مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً. إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ))[٦]، وجاء في الحديث أيضًا: ((واستوصوا بالنساء خَيرًا فإنهنَّ خُلِقنَ من ضِلَع، وإنَّ أعْوَجَ شيءٍ في الضلَع أعلاه، فإن ذَهبتَ تُقيمه كَسَرتَه، وإن تركتَهُ لم يَزَل أعوجَ، فاستَوصوا بالنساء خَيرًا))[٧].

وأما اليتامى فقد أمر الله تعالى بدفع المال إليهم عند الرشد: ﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾[٨].

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٤٧١.

(٢) سورة النساء، آية: ١٩.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٩٧/٥/.

(٤) سورة الروم، آية: ٢١.

(٥) يفرك: أي يبغض، لسان العرب في (ف ر ك).

(٦) أخرجه مسلم ١٤٦٩.

(٧) أخرجه البخاري ٣٣٣١، ومسلم ١٤٦٨.

(٨) سورة النساء، آية: ٦.

وحذر من أكلها بالباطل فقال جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[(١)].

وتوعد من يعتدي عليه فقال سبحانه: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾[(٢)]، وأمر بحسن معاملته فقال عز وجل: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾[(٣)]، وجعل من البر الإحسان إلى اليتيم قال تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾[(٤)].

وحضّ رسول الله ﷺ على كفالة اليتيم فقال ﷺ: ((أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا))، وَأَشَارَ بالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى، وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا[(٥)]. وذلك لما كفالة اليتيم من أكبر الأثر في الحفاظ على بناء المجتمع وحمايته من التصدع والانهيار، إضافة إلى ما يجنيه الفرد من الحسنى في الدنيا والآخرة، ومن تلك الثمرات:

- صحبة النبي ﷺ وكفى بها شرفًا وفخرًا.
- كفالة اليتيم والإنفاق عليه دليل طبع سليم وفطرة نقية.
- كفالة اليتيم تعود على الكافل بالخير العميم في الدنيا فضلاً عن الآخرة.
- كفالة اليتيم تساهم في بناء مجتمع سليم خالٍ من الحقد والكراهية، وتسوده روح المحبة والمودة.
- إدخال السرور إلى قلوب الضعفاء واليتامى، ونشر روح السعادة بين أفراد المجتمع لتحقيقه أكبر قدر من العناية نحو الأيتام من الناحية المادية والمعنوية[(٦)].

---

(١) سورة النساء، آية: ١٠.

(٢) سورة الماعون، الآيتان: ١ - ٢.

(٣) سورة الضحى، آية: ٩.

(٤) سورة البقرة، آية: ١٧٧.

(٥) أخرجه البخاري ٦٠٠٥.

(٦) انظر: موسوعة نضرة النعيم، د. صالح بن حميد وآخرون، ٣٢٦٤/٨.

ثالثًا– من أهداف الدعوة: رعاية وحماية الضعفاء من اليتامى والنساء:

إن حماية الضعفاء هدف رئيس من أهداف الدعوة، حتى لا يتعدى القوي على حق الضعيف، وحتى لا يغتر الإنسان بقوته وسلطانه فيأخذ حق غيره، ومن هنا حذر الشرع الحنيف من استغلال ضعف المرأة واليتيم، وأمر بتوفية حقوقهما، قال تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾[1]، وقال سبحانه وتعالى في حق اليتيم: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾[2].

(إن اليتيم من فقد أباه الذي كان يرعاه بنفسه وماله، ويحبه من أعماق قلبه، ويؤثر مصلحته على مصلحته، وإن مما يذرف الدمع ساعة الموت صبية صغارًا، وذرية ضعافًا، يخلفهم المحتضر وراءه؛ يخشى عليهم إحن الحياة؛ وصروف الدهر، ويتمنى لهم وليًا مرشدًا، يرعاهم كرعايته، ويسوسهم كسياسته، يعزيهم بره وعطفه عن نفسه الراحلة، ويجدون فيه من العناية بمصالحهم ما يخرجهم رجالاً في الحياة يملأون العيون، ويشرحون الصدور، فالذي يكفل اليتيم ويتعهده، وينمي ثروته ويهذب نفسه، ويطمئن والده في جدثه، ويعوضه عنه كافلاً رحيمًا، وراعيًا حكيمًا، فلا جرم أن كان مكانه عند الله عظيمًا، وكان حريًا أن يكون لرسول الله ﷺ في الجنة صاحبًا وقرينًا، يتمتع بما فيها من النعيم، كما متع برعايته اليتيم، وفي هذا ترغيب عظيم في كفالة الأيتام، والعناية بأمورهم سواء أكان الكافل قريبًا أو أجنبيًا أو صديقًا)[3].

---

(١) سورة النساء، آية: ٤.

(٢) سورة النساء، آية: ٦.

(٣) الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي ص ١١٦.

الحديث رقم (٢٧١)

٢٧١- وعن مصعب بن سعد بن أَبي وقَّاص رضي الله عنهما ، قَالَ: رَأَى سعد أنَّ لَهُ فَضْلاً عَلَى مَنْ دُونَهُ، فَقَالَ النَّبيّ ﷺ: ((هَلْ تُنْصرُونَ وتُرْزَقُونَ إلاَّ بِضُعَفَائِكُمْ)) رواه البخاريُّ[1] هكذا مُرسلاً، فإن مصعب بن سعد تابعيٌّ، ورواه الحافظ أَبُو بكر البرقاني في صحيحه[2] متصلاً عن مصعب، عن أبيه رضي الله عنه.

ترجمة الراوي:

سعد بن أبي وقاص: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٦).

الشرح الأدبي

في ظل المساواة بين أفراد الأمة الإسلامية ينعم كل من أسلم وجهه لله، وأطاع ربه وعصى هواه، وكان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، واتخذ منهجًا سويًا إسلاميًا في ارتياده لآفاق وقضايا الحياة، وهو أن يحب المرء لا يحبه إلا لله، إن هذا المنهج السوي السديد: هو الطريق الوحيد الذي يجمل الحياة في عين الإنسان، ومن ثم يجد في قلبه وكيانه حلاوة الإيمان.

وإشعاعات هذا الحديث تمتد لتضيء هذا الموقف الذي ارتآه الصحابي الجليل، سعد بن أبي وقاص، وهو من هو في الإسلام: قوة وشجاعة وحميَّة: حيث ظن أن فروسيته وشجاعته، وبلاءه في ميدان القتال يجعل له الحق في أن يكون أفضل من غيره، وأن يأخذ من الغنائم أكثر.

وقد رُوى أنه قال: يا رسول الله أرأيت رجلاً يكون حامية القوم، ويدفع عن أصحابه: أيكون نصيبه كنصيب غيره، فالمراد بالفضل هنا الزيادة من الغنيمة، وليس

---

(١) برقم (٢٨٩٦). قال الحميدي في جمعه (١٩٦/١ رقم ٢٠٢): هكذا أخرجه البخاري منقطعا ومرسلًا من رواية سليمان بن حرب، وجوّده مسعر، عن محمد بن طلحة، عن أبيه، فقال فيه: عن مصعب بن سعد، عن أبيه. أورده المنذري في ترغيبه (٤٦٨٢).

(٢) أشار إليه أيضًا الحميدي في جمعه، وقال: وأخرجه أيضًا أبو بكر البرقاني عن مسعر وغيره مسندًا.

مطلق الفضل، وأعلمه رسول الله ﷺ أن مهام المقاتلة سواء، فإن كان القوي يترجح بفضل شجاعته، فإن الضعيف يترجح بفضل دعائه وإخلاصه[١].

والأشعة الهادية التي أضاءت الموقف لسعد بن أبي وقاص، تتألق في إجابة الرسول ﷺ له: ويقتنع ابن أبي وقاص، ولا يماري ولا يجادل، ويرسي المصطفى ﷺ: قاعدة راسخة من قواعد المنهج الإسلامي؛ وهذه القاعدة تصاغ في هذه الجملة الحديثية النبوية، المحكمة السديدة؛ المقنعة الرشيدة، وهي جملة واحدة يتصدرها الاستفهام ويحكم بنيانها أسلوب الاستثناء، الذي يحصر مع الاستفهام النصر والرزق في حماية الضعفاء، وفي رواية النسائي ((إنما يَنْصرُ الله هذه الأمة بضعيفها بدَعْوتِهِمْ، وصلاتهم وإخلاصهم))[٢]، والفعلان "تنصرون" "وترزقون" يفيضان بدلالات كثيرة من خلال صيغة المضارع: التي توحي بالاستمرار، وعدم انقطاع هذه الصلة بين إعطاء الضعفاء قدرهم وبين النصر والرزق، وبناء الفعلين للمجهول يتمخض عن سر بلاغي، حيث إن الناصر معلوم، والرازق معلوم وهو الله سبحانه وتعالى مصداقًا لقول الله عز وجل: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾[٣]. وقوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾[٤]، وصيغة الجمع في الفعلين تنبئ عن المسؤولية الجماعية في هذا السبيل، فالأمة كلها مطالبة بالعناية بالضعفاء اليتامى والنساء، والمرضى، والفقراء، والمساكين، وذوي الحاجات، وأصحاب العاهات.

والجيل الأول من الصحابة والتابعين الذين استضاءوا بنور الإسلام، وأشربت قلوبهم حب المصطفى ﷺ، كان جل عنايتهم باليتامى والمساكين والجيران، فعن الحسن البصري قال: "لقد عهدت المسلمين، وإن الرجل منهم يصبح فيقول: يا أهليه يا أهليه، يتيمكم، يتيمكم، يا أهليه ، يا أهلية، مسكينكم، مسكينكم ، يا أهليه يا أهليه جاركم جاركم، وكانوا يحرصون على إخوانهم ويؤثرونهم على أنفسهم.

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٤٧٢.

(٢) أخرجه النسائي ٣١٨٠، وصححه الألباني (صحيح سنن النسائي ٢٩٧٨).

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٢٦.

(٤) سورة الحج، آية: ٤٠.

وقال الشاطبي: (وتجدهم في الإجارات والتجارات، لا يأخذون إلا بأقل ما يكون من الربح أو الأجر، حتى يكون ما حاول أحدهم من ذلك كسبًا لغيره لا له، ولذلك بالغوا في النصيحة فوق ما يلزمهم، لأنهم كانوا وكلاء للناس لا لأنفسهم، بل كانوا يرون المحاباة لأنفسهم -وإن جازت- كالغش لغيرهم)(١).

والأمة الإسلامية في حاضرها المأزوم، وواقعها المكلوم، لابد أن تبحث عن أبواب النجاة، حتى لا تفقد أسباب الحياة، والنجاة في تمسكها بكتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، والعض عليها بالنواجز، حتى تعرف معالم الطريق.

فقه الحديث

يشير هذان الحديثان(٢) إلى تعظيم أمر الضعيف ورعايته، وعدم المن عليه فقد يرزق الإنسان وينصر به، ولذا فالواجب في المغنم تخميسه، وصرف الخمس إلى من ذكره الله تعالى، وقسمة الباقي بين الغانمين، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الغنيمة لمن شهد الوقعة وهم الذين شهدوها للقتال، قاتلوا أو لم يقاتلوا، ويجب قسمها بينهم بالعدل، فلا يحابى أحد، لا لرياسته، ولا لنسبه، ولا لفضله، كما كان النبي ﷺ وخلفاؤه رضي الله عنهم يقسمونها، وكماجاء في الحديث أن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه رأى له فضلاً على من دونه فقال النبي ﷺ هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم(٣)، لكن يجوز للإمام أن ينفّل من ظهر منه زيادة نكاية كسرية، بَسَرَت(٤) من الجيش، أو رجل صعد حصنًا عاليًا ففتحه، أو حمل على مقدم العدو فقتله، فهزم العدو ونحو ذلك، لأن النبي ﷺ وخلفاءه رضي الله عنهم كانوا ينفلون لذلك.

---

(١) انظر: التكافل الاجتماعي في الإسلام، د. عبدالعال أحمد عبدالعال ص ٢٤٣.

(٢) رقم ٢٧١، ٢٧٢.

(٣) انظر: فتاوى ابن تيمية ٢٧٠/٢٨، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٨٩/٦، والدراري المضية للشوكاني ٤٨٩/١.

(٤) بَسَرَتْ: أي تقدمت للقاء العدو، لسان العرب في (ب س ر).

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: الحث على التواضع.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: تقويم النبي ﷺ لفهم الصحابة رضي الله عنهم في بعض الأمور.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل الضعفاء.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الحث على التواضع:

إن التواضع من الأخلاق الإسلامية الرفيعة التي أمر بها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وقد رود في هذا الحديث الحث على التواضع من خلال قول النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاص "هل تنصرون إلا بضعفائكم" لما رأى أن له فضلاً على من دونه وليس المقصود بالفضل رفعه في المنزلة، وإنما زيادة في قسم الغنيمة، فأعلمه ﷺ أن سهام المقاتلة سواء، فإن كان القوى يترجح بفضل شجاعته، فإن الضعيف يترجح بفضل دعائه وإخلاصه[١].

وقال ابن بطال: (تأويل الحديث أن الضعفاء أشد إخلاصًا في الدعاء، وأكثر خشوعًا في العبادة، لخلاء قلوبهم عن التعلق بزخرف الدنيا، وقال المهلب أراد ﷺ بذلك حض سعد على التواضع، ونفي الزهو على غيره، وترك احتقار المسلم في كل حالة[٢] فالتواضع خلق كريم من أخلاق المؤمنين، ودليل محبة رب العالمين، وهو طريق موصل إلى مرضاته وإلى جنته[٣] وكان التواضع من جملة ماعلمه الله نبيه ﷺ ليجعل منه الداعية الأول في العالم، وكان من جملة ما أرشده إليه قوله: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٤].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠٥/٦.

(٢) المرجع السابق نفسه، ١٠٥/٦.

(٣) موسوعة نضرة النعيم، د. صالح بن حميد، وعبدالرحمن بن ملوح ١٢٦٨/٤.

(٤) سورة الحجر، آية: ٨٨.

فالتواضع قليل التكلفة على المستوى الشعوري والعملي، فالمتواضع دائمًا يبدو أقل من حقيقته، وبذا فإنه يظل يكبر في أعين الناس دون جهد يبذل، كلما كشفت لهم الأيام عن جواهره المخبوءة، على حين أن المتكبر يضع نفسه في امتحان دائم، فهو رجل عريض الدعاوى، وعليه باستمرار أن يثبت أنه ليس أقل مما يعرف عنه، وهيهات هيهات أن يتم له ذلك، إن المتواضع كالأرض المنخفضة، تجتمع فيها خيرات السماء، على حين تغادر القمم والسفوح[١].

إن التواضع وخفض الجناح، ولين الجانب، كل ذلك له مكانته في المجتمع الإسلامي، فهذا المجتمع لا يتكبر فيه فرد، ولا يختال ولا يزهو بنفسه، فإن الكبر والخيلاء والعجب تغرس الفرقة والعداوة، فضلاً عن أنها تحول بين المتكبر وبين إصلاح نفسه، لتعاميه عن عيوبه ونقائصه، واعتقاده الكمال في نفسه ورضاه عنها، قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾[٢] ويقول: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾[٣].

إن التواضع وخفض الجناح من شأنه أن يوطد العلاقة بين الأفراد، ويجعلهم إخوانًا متعاطفين وخلانًا متناصرين[٤].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: تقويم النبي ﷺ لفهم الصحابة في بعض الأمور:

إن تقويم النبي ﷺ للأفهام واضح في هذا الحديث من خلال تصحيح النبي ﷺ لذلك الفهم الذي عَرَض لسعد بن أبي وقاص، بأن المقاتل القوي له فضل على من دونه في المنزلة، أو على الأقل في الغنيمة، فصحح النبي ﷺ هذا الفهم وأعاد الأمور إلى

---

(١) مقدمات للنهوض بالعمل الدعوى، د. عبدالكريم بكار ص ١٣١.

(٢) سورة الإسراء، آية: ٣٧.

(٣) سورة الأعراف، آية: ١٤٦.

(٤) انظر: عناصر القوة في الإسلام، السيد سابق ص ١٨٥، ١٨٦.

نصابها قائلاً "هل تنصرون إلا بضعفائكم" وأن هذا الضعيف الذي قد تزدريه الأعين له عند الله من المقام ما لا يتصوره إنسان، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال ((رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالأَبْوَابِ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَىٰ اللَّهِ لأَبَرَّهُ))[١] أي لو حلف على وقوع شيء أوقعه الله إكرامًا له بإجابة سؤاله وصيانته من الحنث في يمينه، وهذا لعظم منزلته عند الله تعالى، وإن كان حقيرًا عند الناس[٢].

وقد كان رسول الله ﷺ لا يرى فهمًا خاطئًا -كما رأى عند سعد بن أبي وقاص في الحديث- إلا وسارع إلى تصحيحه، لذا كان من الواجب على الدعاة تصحيح الأفهام الخاطئة.

كما رأينا ذلك في الحديث في بيان رسول الله ﷺ أن الضعف والقوة من الأمور العارضة المتغيرة، وأن على القادرين مسئولية العاجزين، إضافة إلى ما في ذلك من تدعيم الأخوة بين أبناء الإسلام وتقرير للمسئولية الاجتماعية ورفع لمكانة المسلمين[٣] جميعهم دون استثناء لفقير أو ضعيف، (فالضعفاء سبب للنصر، وسبب للرزق، فإذا حنى الإنسان وعطف عليهم، وآتاهم مما آتاه الله، كان ذلك سببًا للنصر على الأعداء، وكان سببًا للرزق، لأن الله تعالى أخبر أنه إذا أنفق الإنسان لربه نفقة فإن الله تعالى يخلفها عليه، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[٤]. أي يأتي بخلفه وبدله[٥].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل الضعفاء:

أشار النبي ﷺ إلى فضل الضعفاء في الحديث فقال "هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم" وقد رفع القرآن من شأن الضعفاء وأمر الله نبيه بالصبر معهم فقال

---

(١) أخرجه مسلم ٢٦٢٢.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٦٠.

(٣) انظر: شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم ص ٢١٩.

(٤) سورة سبأ، آية: ٣٩.

(٥) شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين، ٦٥٣/١.

﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾[١].

ففي هذه الآية يأمر الله نبيه ﷺ وغيره أسوته من الأوامر والنواهي: أن يصبر نفسه مع المؤمنين العباد المنيبين فوصفهم بالعبادة والإخلاص، وفي الآية أمر بصحبة الأخيار، ومجاهدة النفس على صحبتهم ومخالطتهم، وإن كانوا فقراء، فإن في صحبتهم من الفوائد ما لا تحصى[٢].

---

(١) سورة الكهف، آية: ٢٨.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٤٢٤.

الحديث رقم (٢٧٢)

٢٧٢- وعن أَبي الدَّرداءِ عُويمر رضي الله عنه ، قَالَ: سمعتُ رَسُولَ الله ﷺ ، يقول: ((ابْغُوني الضُّعَفَاء، فَإنَّمَا تُنْصَرُونَ وتُرْزَقُونَ، بِضُعَفَائِكُمْ)) رواه أَبُو داود[1] بإسناد جيد.

ترجمة الراوي:

أبو الدرداء: هو عويمر بن زيد بن قيس الأنصاري.

حكيم هذه الامة، وسيدُ القراء بدمشق، أسلم يوم بدر، وأحسن البلاء يوم "أحد" فقال فيه النبي ﷺ ((نعم الفارس عُويمر))[2]، كان عالمًا ومحدثًا، وعابدًا، وهو معدود فيمن قرأ القرآن على النبي ﷺ وممن جمعه حفظًا على عهده ﷺ بلا خلاف.

وكان من أفاضل الصحابة، شهد اليرموك وكان قاضي أهله!! وحضر حصار دمشق وسكن حمص، ونقله عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى دمشق وولي بها القضاء، وكان أول قاضٍ بها.

وقد آخى النبي ﷺ بينه وبين سلمان الفارسي رضي الله عنهما.

وكان قدوةً في أخذه للعلم، فكان يقول: لو أُنسيت آية ثم لم أجد أحدًا يُذكّرنيها إلا رجلاً ببَرْك الغِماد، لرحلتُ إليه، وكان الصحابة يقولون فيه: أتبعنا للعلم والعمل أبو الدرداء، وقال فيه أبوذر رضي الله عنه : ما حملت ورقاءُ، ولا أظلّت خضراءُ، أعلم من أبي الدرداء.

وكان رجلاً منقطعًا عن الدنيا مقبلاً على الآخرة، فقد جاءه سلمان رضي الله عنه يزوره يومًا، فوجد أمُّ الدرداء متبذلة، فقال لها: ما شأنك؟ فقالت: إن أخاك لا حاجة له في الدنيا، يقوم الليل، ويصوم النهار، فجاء أبو الدرداء، فرحَّب به وقرب إليه طعامًا، فقال

---

(١) برقم (٢٥٩٤)، وأخرجه أيضًا الترمذي (١٧٠٢) وقال: حديث صحسن صحيح. أورده المنذري في ترغيبه (٤٦٨٣).

(٢) المستدرك، رقم (٥٥٠٠).

له سلمان كل. فقال: إني صائم. قال: أقسمتُ عليك لتفطرن، فأكل معه، ثم بات عنده، فلما كان الليل، أراد أبو الدرداء أن يقوم، فمنعه سلمان، وقال: إن لجسدك عليك حقًا، ولربّك عليك حقًا، ولأهلك عليك حقًا، صم وأفطر، وصلِّ وائتِ أهلك، وأعطِ كلَّ ذي حق حقه، فلما كان وجهُ الصبح، قال: قُم فصلِّيا، فأخبر النبي ﷺ بما قاله سلمان، فقال النبي ﷺ ((صدق سلمان))(١).

وقد روى عن النبي ﷺ جلة أحاديث بلغت ١٧٩ حديثًا.

وكانت وفاته في خلافة عثمان بن عفان سنة ٣٢هـ وقيل ٣١هـ(٢).

غريب الألفاظ:

ابغوني: اطلبوا لي(٣).

الشرح الأدبي

هذا هو الحديث الأخير في باب "ملاطفة اليتيم والبنات، وسائر الضعفة والمساكين والمنكسرين، والإحسان إليهم، والشفقة عليهم، والتواضع لهم وخفض الجناح لهم.

وبداية الحديث تؤكد حرص الرسول ﷺ على مكانة هؤلاء الضعفة، وتلك الطوائف، حيث يطلب من الصحابة في صيغة الأمر الحاني الهادئ أن يطلبوا له الضعفاء، وذلك ليكتبهم في ديوان المجاهدين، ويستعين بهم؛ وفي رواية يطلب من

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٦٨).

(٢) الطبقات الكبرى، ابن سعد (٧/٣٩١-٣٩٣)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر (٧٩٨-٨٠٠)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي (١٠٢٥)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٦/٩٤-٩٥) وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٣/٣٤٠-٣٤١)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين (٥/٥١٤-٥١٦)، وسير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط (٢/٣٣٥-٣٥٣) والأعلام، خير الدين الزركلي (٥/٩٨)، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك (٣/٢٠٤٢-٢٠٥٢).

(٣) الوسيط في (ب غ ي).

الصحابة أن يرضوه، وأن يحققوا مطلبه في ملاطفتهم وحسن علاقتهم بهؤلاء الضعفاء، فيقول: "ابغوني في ضعفائكم".

وما أرق هذا الطلب، وما أجمل هذا الخطاب الآمر الذي يرغب الأصحاب الأخيار في احتضانهم ورعايتهم لضعفاء الأمة الأبرار.

وتشع الألفاظ ببريق الدلالة من خلال ضبط الصيغة وإيقاعها، فالفعل "ابغوني" إن كان من الفعل الثلاثي "بغي" فهمزته للوصل مكسورة ولا تظهر في النطق ولا الكتابة، والمراد به مطلق الطلب، وإن كان من الرباعي "أبغي"، فهمزته للقطع، والمراد به طلب الإعانة، والمراد بقول رسول الله ﷺ في ظل هذا التوجيه لصيغة الكلمة وجذرها "أعينوني على طلب الضعفاء".

وما أحرص الرسول ﷺ على أمته، وهو يطلب منهم فتح أبواب الرجاء والأمل لضعفاء الأمة، لأن هذا الاحتواء والأخذ بيد الضعفاء فيه نجاة للأمة، وقد قيل لو لا شيوخ ركع، وأطفال رضع، وبهائم رتع، لصب عليكم البلاء صبًا.

ويختم الحديث بهذه الجملة الفياضة بينابيع الخير والعطاء، والفضل والبر والوفاء، حيث يقول المصطفى ﷺ معللاً طلبه من الصحابة رضي الله عنهم أن يعينوه في رعايتهم للضعفاء: "فإنما تنصرون وترزقون بضعفائكم".

وأسلوب القصر هنا يفيض بدلالة التقدير، والقيمة والأفضلية لهؤلاء الضعفاء، فالنصر والرزق يكاد يكون محصورًا في وجوب مراعاة هؤلاء الضعفاء، وعدم هجرهم؛ والإحسان إليهم دائمًا ومجيء "إنما" في صدر الجملة يؤكد هذه الدلالة، ويوحي بهذا المفهوم.

وفي العبارة إيجاز بالحذف في قوله "تنصرون وترزقون"، والتقدير تنصرون على من يعادونكم، أو تنصرون على جميع العقبات في كل أمور حياتكم، وترزقون المطر والفئ وغيرهما مما تنتفعون به، وغير ذلك من أنواع الرزق التي تتعدد مصادرها، وتتجدد بتعدد البيئات، وتجدد الزمن.

ويقول صاحب دليل الفالحين في ختام هذا الباب: وفي أحاديث الباب الانقطاع إلى الله سبحانه، وإعانة الفقراء، وإغاثة المنقطعين، وعدم رؤية النفس وفضلها على أحد

من العالمين، والحذر من التعرض لإيذاء أحد من الضعفاء والمساكين الذين لا ناصر لهم ولا معين سوى رب العالمين[١].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الأمر والطلب.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل التواضع.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل الضعفاء.

رابعًا: من أهداف الدعوة: تصحيح المفاهيم.

أولاً- من أساليب الدعوة: الأمر والطلب:

ورد ذلك في قوله ﷺ "ابغوني في الضعفاء" أي اطلبوا لي الضعفاء أستعين بهم يقال بغيتك الشيء طلبته لك[٢] وطلب الشيء بصيغة أمر خاصة إذا كان موجهًا من أعلى إلى من هو أدنى منه، فإن ذلك لفت للأنظار وإثارة للانتباه، مما يثير الهمم ويحفز العزائم، ويدفع إلى تنفيذ ما يلقى من أوامر وإرشادات. وقد استخدم القرآن أسلوب الأمر في كثير من آياته، ومنها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[٣]، وقوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[٤].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل التواضع:

إن التواضع يدل على رفعة الإنسان وعلو مكانته، لأنه يسمو على نفسه وينتصر على زهوها وغرورها، وفي هذا الحديث يبين النبي ﷺ فضل الضعفاء في النصر بإخلاصهم في الدعاء والرجاء، وكذلك في أمور الرزق، وفي هذا الحديث طلب رسول

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٤٧٤.

(٢) انظر: شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٣٣٦/٩، تحفة الأحوذي، العظيم آبادي، ١٤٩٩/٢، دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٤٧٣، ٤٧٤.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢١.

(٤) سورة البقرة، آية: ٤٣.

الله ﷺ من الضعفاء أن يدعوا للمسلمين بالنصر، وذلك تيمنًا بهم، ولأنهم لانكسار خواطرهم دعاؤهم أقرب إجابة[١] فأراد رسول الله ﷺ بذلك إظهار تواضعه وافتقاره إلى ربه، إرشادًا لأمته إلى استشعار التواضع والاحتراز عن الكبر ونحوه، وأراد بذلك التنبيه على علو درجات المساكين وقربهم من الله تعالى[٢]. وليس معنى دعوة الإسلام إلى التواضع ميلاً إلى الذل والمهانة، فليس هذا بصحيح، فالتواضع انكسار القلب لله وخفض جناح الذل والرحمة لعباده، فلا يرى له على أحد فضلاً، ولا يرى له عند أحد حقًا بل يرى الفضل للناس عليه، والحقوق لهم قبله، وهذا خلق إنما يعطيه الله عز وجل من يحبه ويكرّمه ويقربه. والله سبحانه وتعالى يحب التواضع ويبغض الضّعة والمهانة[٣].

إن تخلق المسلم بخلق التواضع من أسباب عزته ورفعته، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًا وما تواضع أحد لله إلا رفعه))[٤].

قال القاضي عياض: ("وما تواضع أحد لله إلا رفعه" فيه وجهان:

-أحدهما أن الله تعالى يمنحه ذلك في الدنيا جزاء على تواضعه له، وأن تواضعه يثبت له في القلوب محبة ومكانة وعزة.

-والثاني أن يكون ثوابه في الآخرة على تواضعه.

-وقد يكون المراد الوجهين معًا في الدنيا والآخرة[٥].

وقد وعد الله عباده المتواضعين الجنة فقال تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٦] حيث أخبر سبحانه وتعالى أن الدار

(١) تحفة الأحوذي، العظيم آبادي، ١٤٩٩/٢.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٣٣٦/٩.

(٣) موسوعة نضرة النعيم ١٢٥٦/٤.

(٤) أخرجه مسلم ٢٥٨٨.

(٥) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٥٩/٨.

(٦) سورة القصص، آية: ٨٣.

الآخرة ونعيمها المقيم الذي لا يحول ولا يزول، جعلها لعبادة المؤمنين المتواضعين، الذين لا يريدون علوًا في الأرض، أي ترفعًا على خلق الله، وتعاظمًا عليهم، وتجبرًا بهم ولا فسادًا فيهم[(١)].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل الضعفاء:

نبه ﷺ في ذلك الحديث على فضل الضعفاء، فقال "ابغوني الضعفاء فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم" ويضرب لنا القرآن أكبر المثل في رفع شأن الضعفاء وعتاب من أعرض عنهم، حتى ولو كان رسول الله ﷺ كما رأينا في موقف الرسول ﷺ من عبدالله بن أم مكتوم وعتاب القرآن له، ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ﴾[(٢)].

قال ابن كثير: (ذكر غير واحد من المفسرين أن رسول الله ﷺ كان يومًا يخاطب بعض عظماء قريش وقد طمع في إسلامه، فبينما هو يخاطبه ويناجيه إذ أقبل ابن أم مكتوم -وكان ممن أسلم قديمًا- فجعل يسأل رسول الله ﷺ عن شيء ويلح عليه وودَّ النبي ﷺ أن لو كف ساعته ليتمكن من مخاطبة ذلك الرجل، طمعًا ورغبة في هدايته، وعبس في وجه ابن أم مكتوم وأعرض عنه، وأقبل على الآخر فأنزل الله عز وجل: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ أي يحصل له زكاة وطهارة في نفسه أو يذكر فتنفعه الذكرى ﴿أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ وما أنت بمطالب به إذا لم يحصل له زكاة)[(٣)].

وهكذا رفع الإسلام من شأن الضعفاء، ووصى بالمساواة بين الناس في كل شيء

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢٥٨/٦.

(٢) سورة عبس، الآيات: ١-١٠.

(٣) المرجع السابق ٣١٩/٨.

ومن ذلك ما ورد في السورة من المساواة في إبلاغ العلم بين الناس من شريفهم ووضيعهم[(١)].

رابعًا- من أهداف الدعوة: تصحيح المفاهيم:

لقد صحح النبي ﷺ أن أسباب النصر لا تقتصر على القوة والمال، ولكن من أسباب النصر والرزق دعاء الضعفاء فقال ﷺ "ابغوني في الضعفاء فإنما تنصرون وترزقون بضعفائكم" أي بسببهم أو ببركة دعائهم[(٢)]. وفي ذلك رفع لشأنهم وتحذير من التعرض لإيذاء أحد من الضعفاء والمساكين، الذين لا جار لهم ولا كهف سوى رب العالمين[(٣)] وليس معنى أن الإسلام رفع من شأن الضعفاء أن نخلد إلى الضعف والسكينة[(٤)]، وإنما طالبنا بالأخذ بأسباب القوة، واستنفاد الطاقة في الإعداد، ويشترك في ذلك الكل، حتى ضعيف الخَلْقة، كل على قدر استطاعة، فخاطب الله عز وجل الجميع بقوله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾[(٥)].

والخطاب في الآية يشمل عموم المسلمين دونما تفرقه بين قوي وضعيف، كل حسب طاقته، قال الطاهر بن عاشور: (والخطاب لجماعة المسلمين، وولاة الأمر منهم، لأن ما يراد من الجماعة إنما يقوم بتنفيذه ولاة الأمور الذين هم وكلاء الأمة على مصالحها، والإعداد في الآية: التهيئة والإحضار، ودخل في (ما استطعتم) كل ما يدخل تحت قدرة الناس اتخاذه من العدة)[(٦)].

---

(١) انظر المرجع السابق، ٢١٩/٨.

(٢) تحفة الأحوذي، العظيم آبادي، ١٤٩٩/٢.

(٣) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٤٧٤.

(٤) انظر: منهج القرآن في التربية، محمد شديد ص ١١٢، ١١٩.

(٥) سورة الأنفال، آية: ٦٥.

(٦) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور ٥٥/١٠/٥.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

يربي الإسلام أتباعه على ترك كل تقليد جاهلي لا يتفق مع قيم الإسلام، لقد كان من تقاليد الجاهلية أن الفقراء والضعفاء لا يجلسون في مجالس الأغنياء والأقوياء والوجهاء.

وفي حياة الرسول ﷺ جاءه من المشركين من يطلب منه عدم إحضاره بعض الفقراء معهم؟ فماذا يفعل الرسول عليه السلام؟ هل يترك المسلمين لإسلامهم ليتفرغ هذه الدقائق لدعوة المشركين، أم يجلس ويحمل المشركين على الجلوس مع فقراء المسلمين، أم يدع المشركين ويبقى مع المسلمين؟

نزل النص القرآني ليحسم القضية ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [سورة الأنعام:٥٢].

إننا مطالبون بأن لا يحتقر أحداً وبخاص إذا كان الآخر مسلماً فقد يزدريه الناس في الدنيا وهو أسمى مكانة عند الله من غيره، ومن أحاديث الباب ندرك المضامين التربوية الآتية:

أولاً- التربية على احترام الفقراء والمساكين:

إن من أهداف التربية الإسلامية الهامة التربية على احترام الفقراء والمساكين، لأن التربية الإسلامية تقوم على التواضع، فالمسلم الذي تربى على خلق التواضع وعدم الترفع على الناس، يُكنّ الاحترام والتقدير لهؤلاء الشرفاء الذين لا يملكون مالاً ولا جاهاً - مما يعد من معايير التقدير والاحترام لدى الناس في هذا الزمان- إلا أن تلك الفئات الفقيرة تربطها بخالقها صلات متينة، وهذا ما يجب أن يقوم عليه في تقدير الناس، ولذا أراد النبي ﷺ تربية المسلمين على هذا الخلق، وذلك من خلال المواقف التربوية العملية، ومما يؤكد ذلك ما رواه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: "كنا مع النبي ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطْرُدْ هؤُلاَءِ لاَ يَجْتَرِئُونَ عَلَيْنَا... فأنزل الله تعالى ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [1]".

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٥٢.

ثانياً- التربية الاجتماعية:

من أهداف التربية الإسلامية التربية الاجتماعية لأنها تسعى إلى تنمية العلاقات الاجتماعية للفرد وبناء المجتمع الإسلامي، ولقد كان من أهداف النبي ﷺ في السنة النبوية إبراز الجوانب الاجتماعية متمثلة في نماذج تربوية. والتي منها في هذا الباب ما يلي: "لَيْسَ المِسْكِينُ الَّذِي تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ والتَّمْرَتانِ"، "شَرُّ الطَّعامِ طَعامُ الْوليمَةِ يُمْنَعُها مَنْ يأتيها ويُدْعَى إليْهَا الأَغْنِيَاءُ"، "من عال جارتين... حتى تبلغها، جاء يوم القيامة..."، "دَخَلَتْ عَلَيَّ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا ابْنَتَانِ ... فَقَالَ: مَنِ ابْتُلِيَ مِنْ هذهِ الْبَنَاتِ ..."، "جَاءَتْنِي مِسْكِينَةٌ تَحْمِلُ ابْنَتَيْنِ لَهَا ..."، "اللَّهُمَّ إِني أُحَرجُ عَنْ حَق الضَّعِيفَيْنِ الْيَتِيمِ وَالْمَرأَةِ"، "ابغُونِي بِضُعَفَائِكُمْ؛ فَإِنَّمَا تُنْصَرُونَ، وَتُرْزَقُونَ في الضعفاء".

فهذه نماذج تربوية اجتماعية أراد النبي ﷺ منها إبراز الجوانب المادية التي تنتج عن تقوية العلاقات الاجتماعية لأن اليتيم والمسكين في حاجة إلى هذه الوقفة الاجتماعية المادية، ولن يتحقق ذلك إلا من خلال هذه التربية الاجتماعية التي نادت بالوقوف مع هذه الفئة من المجتمع بالتعاون والتخلي عن الصراعات والتناقضات، ولذلك كان من أهداف التربية الاجتماعية التواصل بين الناس وهذا ما أراد النبي ﷺ إبرازه لكي تسود المودة والتعاطف بين الناس وترفع روح المجتمع وتنهض به[1].

ثالثاً- من مصادر التربية الإسلامية: القرآن الكريم:

تستمد التربية الإسلامية أصولها من المصادر الأساسية للشريعة الإسلامية، وهي القرآن الكريم والسنة النبوية، ومن هذه المصادر تشتق أهداف التربية الإسلامية، يظهر ذلك من خلال ما ورد في أحد أحاديث الباب الذي رواه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه حيث قال: «كنا مع النبي ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطْرُدْ هؤُلاَءِ لاَ يَجْتَرِئُونَ عَلَيْنَا... فأنزل الله تعالى ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ ...﴾[2]».

---

(١) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. محمد شحات ص ٦٨. والتربية الروحية والاجتماعية في الإسلام، د. أكرم ضياء العمري ص ٢٦٠.

(٢) سورة الأنعام، جزء من آية: ٥٢.

وهذا مما يبين اهتمام القرآن الكريم بتربية المؤمنين من خلال ما حدث مع رسول الله ﷺ من طلب المشركين منه طرد الفقراء والمساكين واستبعادهم من أن تضمهم المجالس معهم، فكانت التربية القرآنية بعدم طرد هؤلاء، فهذا توجيه تربوي عظيم للنبي ﷺ والمؤمنين وللأمة كافة من خلال ما ورد في القرآن الكريم الذي يعد المصدر الأول من مصادر التربية الإسلامية[١].

رابعاً- التربية بالوسائل التعليمية:

الوسائل التعليمية من الوسائل التربوية الهامة لأنها تسهم في تيسير عملية التعلم وتوضيح المعاني وتشرح الأفكار، لعلاقتها بإثارة الحواس، وظهر إبراز هذا الجانب التربوي في استعمال وسيلة (الإشارة) بالأصابع فقد ورد في حديث الباب عندما قال ﷺ: "أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا"، "وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى، وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا"، فهذا نموذج تربوي عملي استخدم فيه الرسول ﷺ وسيلة من وسائل التعليم وهي وسيلة الإشارة بالأصبع: "السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى" والوسائل التعليمية لها فوائد التعليم، والتي تتمثل في أنها توفر الجهد في التدريس وتخفف العبء عن كاهل المعلم[٢].

خامساً- من الأساليب التربوية:

من الملاحظ أن أحاديث الباب قد تضمنت عدة أساليب تربوية، منها:

أ-الحوار والمناقشة: كحديث عائذ بن عمرو المزني رضي الله عنه: "أن أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال رضي الله عنهم في نفر فقالوا: ما أخذت سيوف الله من عدو الله مأخذها. فقال أبو بكر رضي الله عنه: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم؟" الحديث.

والحوار له خاصية تربوية مميزة وهي تفعيل تحصيل المتعلمين وجذب انتباههم.

ب-الممارسة العملية: كما تصرفت عائشة رضي الله عنها مع المرأة التي دخلت عليها مع ابنتيها وتصرف المرأة نفسها مع ابنتيها. وهناك كذلك تربية بالمواقف من قبل النبي

---

(١) أصول التربية الإسلامية، أ. د. محمد شحات الخطيب وآخرون ص ٥١، أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي ص ١١.

(٢) انظر: طرق تدريس التربية الإسلامية، د. هدى الشمري ص ١٢٦.

ﷺ بأن بين ثواب هذه المرأة على ما فعلته بابنتيها.

ج-أسلوب الترهيب: كما في قوله ﷺ: "اللهم إني أحرّج حق الضعيفين: اليتيم والمرأة وأسلوب الترهيب من الأساليب التي تجدي في التعامل مع المواقف التي تستدعي اهتمام المجتمع بها وإلزام كل فرد بالقيام بدوره في المجتمع وتحذير كل فرد من التهاون في القيام بهذا الدور وبيان العواقب التي سوف تعود عليه نتيجة إهماله.

❁ ❁ ❁

٣٤- باب الوصية بالنساء

قَالَ اللَّه تَعَالَى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾[النساء: ١٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾[النساء: ١٢٩].

الحديث رقم (٢٧٣)

٢٧٣- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُول الله صلى الله عليه وسلم: **((اسْتَوْصُوا بالنِّساءِ خَيْرًا**[1] **؛ فَإِنَّ المَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلعٍ، وَإنَّ أعْوَجَ مَا**[2] **في الضِّلَعِ أعْلاهُ، فَإنْ ذَهَبتَ تُقيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإنْ تَرَكْتَهُ، لَمْ يَزَلْ أعْوجَ، فَاسْتَوصُوا بالنِّساءِ))** مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[3].

وفي رواية في الصَّحيحين[4]: **((المَرأةُ كالضِّلَعِ إنْ أقَمْتَهَا كَسَرْتَهَا، وَإن اسْتَمتَعْتَ بِهَا، اسْتَمتَعْتَ وفِيهَا عوَجٌ)).**

وفي رواية لمسلم[5]: **((إنَّ المَرأةَ خُلِقَت مِنْ ضِلَع، لَنْ تَستَقِيمَ لَكَ عَلَى طَريقة، فإنِ اسْتَمْتَعْتَ بِهَا اسْتَمْتَعْتَ بِهَا وَفيهَا عوَجٌ، وإنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهَا كَسَرْتَها، وَكَسْرُهَا طَلاَقُهَا)).**

---

(١) (خيرًا) لا توجد عند البخاري في هذه الرواية، وإنما عنده برقم (٥١٨٦)، وكذا عند الحميدي في جمعه.

(٢) لفظ البخاري: (شيء) بدل: (ما)، والمثبت لفظ مسلم، وكذا عند الحميدي في جمعه.

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٣١)، ومسلم (١٤٦٨/٦٠)، والسياق للحميدي في جمعه (١٧٩/٣، رقم ٢٤٠٧). أورده المنذري في ترغيبه (٢٨٨١).

(٤) أخرجه البخاري (٥١٨٤) من حديث مالك، عن أبي الزناد، عن الأعرج، وهذا لفظه، كما في الجمع للحميدي. وأخرجه مسلم (١٤٦٨/٦٥) من حديث الزهري، عن سعيد بن المسيب، ولفظه: (إن المرأة كالضلع، إذا ذهبت تقيمها كسرتها، وإن تركتها استمتعت بها، وفيها عوجٌ)، كما في الجمع للحميدي.

(٥) برقم (١٤٦٨/٥٩) من حديث سفيان بن عيينة، عن أبي الزناد، عن الأعرج، كما في الجمع للحميدي. أورده المنذري في ترغيبه (٢٨٨١).

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

ضِلع: الضلع: عظم من عظام قفص الصدر منحنٍ وفيه عِرَض، والعود فيه اعوجاج وعرض[١].

تقيمه: قوم المعوج: عدَّله وأزال عَوَجه[٢].

عوج: قوله (عوج) هو بفتح العين والواو[٣].

الشرح الأدبي

لقد كرم الإسلام المرأة، وصان حقوقها، وأوجب على الرجل القيام على جميع شؤونها، فالقوامة تكليف ومسؤولية، وليست تحكمًا واستبدادًا كما يتوهمه كثير ممن لا يفقهون حقيقة العلاقة بين الرجال والنساء، فالمرأة إما أن تكون أمًا أو أختًا أو زوجة أو بنتًا، أو تربطها بالرجل قرابة أو غير ذلك من الروابط الاجتماعية، وهذه العلاقات الحميمة ليس من شأنها أن تنشئ العداوة أو البغضاء بين الرجل والمرأة، ولكن بعض المجتمعات في نظامها وأعرافها لا تحتكم إلى شرع الله في ضبط العلاقات السوية بين الرجل والمرأة، فينشأ الخلل، ويستشرى الفساد، وتندلع أسباب الشقاق والعداوة والبغضاء، ووصايا رسول الله ﷺ بالنساء كثيرة ومتعددة، وفي كل وصية يشرق معنى جديد، ومسلك حميد، وتوجيه نبوي سديد، وحين نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث النبوي الشريف، نجده وهو يضيء الطريق أمام الرجال، ويوضح لهم السبيل الأقوم للتعامل مع النساء.

---

(١) الوسيط في (ض ل ع).

(٢) الوسيط في (ق و م).

(٣) رياض الصالحين ١٥٧.

نجد الحديث الشريف في أسلوبه وصيغه يفيض بالتوازن، والتعادل، حيث تضمن الحديث أمرين وتأكيدين ، وشرطين، وهذا التوازن في الصيغ، وتلك المساواة في الأساليب، تعد إشارة وإيحاءً بضرورة التوازن في معاملة المرأة، والعدل بين الزوجات: والاحتكام إلى العقل والتروي في استقبال ردود أفعالهن، فالحديث يبدأ بصيغة الأمر "استوصوا بالنساء خيرًا" وينتهي كذلك بالصيغة نفسها، "فاستوصوا بالنساء" وفي هذا المسلك الأسلوبي تأكيد على حسن التعامل مع النساء، وهن على طبيعتهن اللاتي خلقن عليها، وهى عدم الاستواء.

ومن أسرار البيان النبوي أن قوله ﷺ: "استوصوا بالنساء خيرًا" يحمل أربع دلالات، ويمكن أن تفيض هذه الصيغة بأكثر من ذلك حسب السياق والتفسير الملائم؛ وتعدد الدلالة نتج عن صيغة الاستفعال المتمثلة في زيادة السين والتاء، "استوصوا"، والأمر لكل المكلفين من أمة الإسلام في كل زمان وفي كل مكان.

فالمعنى الأول: اطلبوا الوصية من أنفسكم في حقهن: أى تواصوا فيما بينكم واعملوا على تنفيذ هذه الوصايا.

والمعنى الثاني: اطلبوا الوصية من غيركم بهن، ومعنى ذلك أن من يطلب الوصية من غيره عليه أن يكون قدوة في ذلك.

والمعنى الثالث: أن رسول الله ﷺ يقول: اقبلوا وصيتي فيهن، واعملوا بها والأمر للوجوب: فتكون الوصية واجبة.

والمعنى الرابع: ارفقوا بهن وأحسنوا عشرتهن، وكل هذه المعاني مطلوبة ولا تتعارض ولا تتناقض فيما بينها.

وأما التأكيدان، فيردان في الإخبار عن طبيعة المرأة، وهى طبيعة خلقت بها، وليس في إمكانها تغييرها، حيث أكد الحديث على أن المرأة خلقت من ضلع، ثم أكد على أن أعوج ما في الضلع أعلاه، وفي ذلك إشارة إلى تكوين المرأة الذي يختلف عن تكوين الرجل في المزاج والطبع، والهيئة، وطريقة التعامل مع قضايا الحياة ومشكلاتها، وأشار بعض العلماء إلى أن حواء خلقت من ضلع آدم الأيسر، وقيل من ضلعه القصير.

قال تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾[1].

وقيل: إن قوله: "أعوج ما في الضلع أعلاه": فيه إشارة إلى أن أعوج ما في المرأة لسانها[2]. وأما الشرطان فهما يمثلان العقدة والحل في هذه القضية: حيث قال رسول الله ﷺ فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج.

فالمسلم في تعامله مع المرأة لابد أن يكون حكيمًا، فالمرأة لن تتغير طبيعتها، وإنما يمكن تهذيب هذا الطبع بالعشرة الحسنة والمعاملة الجميلة، ولذلك عبر بأداة الشرط "إن" في الجملتين، لأن النتيجة من الإصلاح غير متيقنة، وكذلك على الإنسان أن لا يترك الأمر على اعوجاجه، بل عليه أن يعالج الأمور ويَسُوسُها في اتزان وثبات ومحبة ومودة ورحمة، حتى تحسن العشرة، استجابة لأمر رسول الله ﷺ "فاستوصوا بالنساء".

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم معاشرة النساء وما يجب لكل من الزوجين نحو الآخر، وقد اتفق الفقهاء[3] على أنه يلزم كلا الزوجين الإحسان إلى الآخر والبر به، فتلتزم الزوجة بطاعة زوجها في كل ما يأمرها به، ما لم يأمرها بمعصية فلا طاعة له لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ويلتزم الرجل بمعاشرة زوجته بالحسنى والبر بها

---

(١) سورة النساء، آية: ١.

(٢) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٤٧٥.

(٣) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود شرح الطيبي ٢/٣٣٤، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ٧/٢١٢، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين عبدالرحيم بن الحسن ٨/٥٤، والزواجر عن اقتراف الكبائر، ابن حجر الهيتمي ٢/٦٢، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٣/٢٢٩، ومطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، مصطفى السيوطي ٥/٢٥٥، والمغني ٧/٢٢٣، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٥/١٨٥.

وإكرامها، وعدم إهانتها وسبها أو ضربها، ما لم ترتكب محظورًا فيجوز له حينئذ تأديبها حسبما ورد في الشرع من طرق التأديب، وإكرام الرجل لزوجته لا يعني عدم إيذائها بل تحمل أذاها إن حدث وذلك أكرم الخلق.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الأمر، والتوكيد.

ثانيًا: من أصناف المدعوين: الرجال.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: التشبيه.

رابعًا: من فقه الداعي: بيان طبائع المدعوين.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: الصبر.

سادساً: من موضوعات الدعوة: مراعاة طبيعة المرأة.

أولاً- من أساليب الدعوة: الأمر، والتوكيد:

ورد أسلوب الأمر في الحديث في قوله ﷺ "استوصوا بالنساء خيرًا" أي تواصوا بهن[1]. قال الطيبي والمعنى أوصيكم بهن خيرًا فاقبلوا وصيتي فيهن، والأظهر أن السين للطلب مبالغة، أي اطلبوا الوصية من أنفسكم في حقهن بخير، ويجوز أن يكون من الخطاب العام أي ليستوص بعضكم بعضًا في حق النساء[2].

والتوكيد في قوله ﷺ للحقائق التي ساقها "فإنهن خلقن من ضلع وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه" واجتماع الأمر والتوكيد فيه دلالة على أهمية الأمر، ووجوب تنفيذ المدعو ما ألقى على مسامعه من إرشادات.

ثانيًا- من أصناف المدعوين: الرجال:

إن خطاب رسول الله ﷺ في هذا الحديث موجه للرجال فقال "استوصوا بالنساء خيرًا" وهذا مما يلفت نظر الداعية إلى تنوع دعوته وتوجيهها إلى شرائح المجتمع المختلفة

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٤٧٥.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٣٠٦/٦، ٣٠٧.

ولا شك أن الرجال يملكون حق القوامة على النساء. قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾[١]، فالزوج قيم على زوجته، والمقصود أن الزوج أمين عليها، يتولى أمرها، ويصلحها في حالها، ويقوم عليها آمرًا ناهيًا كما يقوم الوالي على رعيته[٢]، وإنما كان حق القوامة للرجل على المرأة بالتأديب والتدبير والحفظ والصيانة وغير ذلك لأمرين:

أ- لما فضل الله الرجل على المرأة في العقل والرأى (بما فضل بعضهم على بعض).

ب- بما ألزمه الله تعالى من الإنفاق عليها (وبما أنفقوا من أموالهم)[٣].

فالقوامة هنا لا يراد بها التغلب والاستطالة والقهر، وإنما هي مراعاة لطبيعة الرجل والمرأة، وإلزام للرجل بما تقتضيه هذه القوامة من بذل المهر والنفقة، وحسن العشرة وصيانة المرأة وما شاكل ذلك.

ثالثًا- من أساليب الدعوة: التشبيه:

في هذا الحديث شبه النبي ﷺ ما فطرت عليه المرأة بالضلع الأعوج فقال: "فإن المرأة خلقت من ضلع أعوج وإن أعوج ما في الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج" وبهذا التشبيه البليغ يتضح وجه الشبه لأن المرأة كما وصفها النبي ﷺ خلقت من ضلع أعوج، مما يدل على احتياج المرأة إلى تعامل من نوع خاص كالرفق والرحمة، والحكمة في تقبل بعض التبرم الذي قد يحدث منها في بعض المواقف إلى غير ذلك مما يطرأ على تصرفات المرأة مع زوجها، لأنه حينما يعلم طبيعتها، يمكنه أن يتقبل بعض التصرفات العادية التي تنم عن تلك الطبيعة، التي تحتاج إلى الحكمة والرفق والصبر. والتشبيه وضرب المثل من عناصر الجمال الأدبي الرفيع، وقد استخدم القرآن التشبيه وضرب الأمثال لتقريب المعاني والمفاهيم في كثير من الآيات،

---

(١) سورة النساء، آية: ٣٤.

(٢) الكشاف، الزمخشري، ٥٢٣/١٠.

(٣) انظر: أحكام القرآن، الجصاص، ١٨٨/٢.

ومنها قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾[١].

فينبغي على الدعاة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، أن ينتفعوا من هذا العنصر، ويهتدوا بهدي كتاب الله وهدي سنة رسول الله ﷺ في ذلك، فكم فيهما من أمثال رائعات[٢].

رابعًا- من فقه الداعي: بيان طبائع المدعوين:

في هذا الحديث بين الرسول ﷺ طبيعة المرأة وما فطرت عليه من اعوجاج، وبهذا بين الرسول ﷺ للرجال طريقة معاملتهن، وما يوجب ذلك من صبر عليهن، قال ابن حجر وفائدة هذه المقدمة أن المرأة خلقت من ضلع أعوج فلا ينكر اعوجاجها، أو الإشارة إلى أنها لا تقبل التقويم كما أن الضلع لا يقبله[٣].

خامسًا- من موضوعات الدعوة: الصبر:

أرشد النبي ﷺ الرجال إلى الصبر على نسائهن، وبين لهم طبيعتهن التي جبلن عليها، فالمرأة قاصرة بمتقضى جبلتها وطبيعتها، فإن ذهبت تقيمها كسرتها، وكسرها طلاقها، يعني معنى ذلك أنك إن حاولت أن تستقيم لك على ما تريد، فلا يمكن ذلك وحينئذ تسأم منها وتطلقها فكسرها طلاقها، وفي ذلك توجيه من رسول الله ﷺ إلى معاشرة الإنسان لأهله بالمعروف وأنه ينبغي أن يأخذ منهم العفو وما تيسر كما قال تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾[٤] يعني ما عفى وسهل من أخلاق الناس ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ

---

(١) سورة الرعد، آية: ١٧.

(٢) مبادئ في الأدب والدعوة، عبدالرحمن الميداني ص ١٢١.

(٣) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ٤٢٥/٦.

(٤) سورة الأعراف، آية: ١٩٩.

﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ وأيضًا فالمرأة إن كرهت منها خلقًا رضيت منها خلقًا آخر، فقابل هذا بهذا مع الصبر وقد قال تعالى: ﴿فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾[1]،[2]. أي فعسى أن يكون صبركم مع إمساككم لهن وكراهتهن فيه خير كثير لكم في الدنيا والآخرة، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية: هو أن يعطف عليها فيرزق منها ولدًا، ويكون في ذلك الولد خيرٌ كثيرٌ[3]، وفي الحديث الصحيح «لاَ يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً. إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ»[4].

فالنبي ﷺ يأمر الرجال بالصبر على النساء على ما فيهن من اعوجاج "استوصوا بالنساء خيرًا" فإن المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج ما في الضلع أعلاه" وذلك من حسن العشرة التي أمرنا الله بها قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾[5] أي على ما أمر الله به من حسن المعاشرة، والآية نبهت على معنيين أحدهما: أن الإنسان لا يعلم وجوه الصلاح، فرب مكروه عاد محمودًا، ومحمود عاد مذمومًا. والثاني أن الإنسان لا يكاد يجد محبوبًا ليس فيه ما يكره، فليصبر على ما يكره لما يحب، وأنشدوا في هذا المعنى:

ومن لم يُغمِّض عينه عن صديقه ... وعن بعض ما فيه يمت وهو عاتب

ومن يتتبع جاهدًا كل عثرةٍ ... يجدها ولا يسلم له الدهر صاحب[6]

سادساً- من موضوعات الدعوة: مراعاة طبيعة المرأة:

شاء الله عز وجل وتجلت حكمته أن يخلق المرأة على طبيعة تلاءم ما كلفت به،

(١) سورة النساء، آية: ١٩.

(٢) انظر: شرح رياض الصالحين ٦٥٦/١.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢٤٣/٢.

(٤) أخرجه مسلم ١٤٦٩.

(٥) سورة النساء، آية: ١٩.

(٦) زاد المسير في علم التفسير، أبو الفرج بن الجوزي، ٤٢/٢.

من رعاية للأزواج والأولاد وحنو عليهم، فخلقها الله من ضلع الرجل، وليس هذا تنقصًا منها أو قدحًا فيها، وإنما هو تمييز لها عن الرجل، وخلق لها على ما تقتضيه فطرتها وطبيعتها وإلى ذلك أشار الرسول ﷺ في الحديث في قوله: ((فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ أَعْوَجَ، وَإِنَّ أَعْوَجَ مَا الضِلْعِ أَعْلَاهُ فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ بِهِ عَوَجَ)).

وفي ذلك إشارة إلى الطبيعة التكوينية للنساء، وهي تغليب الفطرة على العقل، فهو حث للرجال على مخاطبة الفطرة والغرائز، قبل مخاطبة العقل، ودعوة للرجال للصبر على عوج النساء، وذلك لا يعني نقصان المرأة ولا امتهانها ولا كون الرجل أفضل منها لأن الحق يسوى من يشاء مما يشاء وينزله كيف يشاء، وقد كثرت النصوص في القرآن والتي تؤكد على منزلة النوعين من ناحية، وكون المرأة مظهرًا من مظاهر نعم الله على الرجال، فضلاً عن التسوية بينهما في التكاليف والثواب والعقاب وسائر الحقوق والواجبات، وكل إسقاط عن المرأة في جانب التكاليف -أو إرجاء- فهو من باب التخفيف عليها من ناحية، مراعاة لطبيعتها التكوينية ولظروفها الاجتماعية كإسقاط وجوب الجمعة والجماعة والجهاد، مع إعطائها استقلالية ذاتية بمثل ما يعطي الرجل، وما القوامة إلا لتحميل الرجل دوره تجاه المرأة في الرعاية والعناية ودرء الأذى، ورد عادية المعتدى، حتى وإن أدى ذلك لقتله دفاعًا عنها فينال الشهادة[1]، كما جاء ذلك فيما رواه الإمام أحمد بسنده عن سعيد بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: ((مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ))[2].

---

(١) دعوة الرسل بين القرآن الكريم والكتاب المقدس، دراسة تحليلية موضوعية مقارنة، د. بكر زكي إبراهيم عوض، مطبعة أولاد عثمان ص٧٧، ٧٨.

(٢) أخرجه أحمد ١/١٩٠ رقم ١٦٥٢، وقال محققو المسند: إسناده قوي ٣/١٩٠.

الحديث رقم (٢٧٤)

٢٧٤- وعن عبد الله بن زَمْعَةَ رضي الله عنه: أنَّهُ سَمِعَ النَّبيّ ﷺ يَخْطُبُ، وَذَكَرَ النَّاقَةَ وَالَّذي عَقَرَهَا[1]، فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: ((﴿إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ **انْبَعَثَ لَهَا رَجُلٌ عَزِيزٌ، عَارِمٌ مَنِيعٌ فِي رَهْطِهِ**)) [2]، ثُمَّ ذَكَرَ النِّسَاءَ[3]، فَوعَظَ فِيهِنَّ، فَقَالَ: ((**يَعْمِدُ أَحَدُكُمْ فَيَجْلِدُ امْرَأَتَهُ جَلْدَ العَبْدِ فَلَعَلَّهُ يُضَاجِعُهَا مِنْ آخِرِ يَومِهِ**)) ثُمَّ وَعَظَهُمْ فِي ضَحِكِهِمْ مِنَ الضَّرْطَةِ، وَقالَ: ((**لِمَ يَضْحَكُ أَحَدُكُمْ مِمَّا يَفْعَلُ؟!**)) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[4].

(**وَالعَارِمُ**) بالعين المهملة والراء: هُوَ الشِّرِّيرُ المفسِدُ، وقوله: (**انْبَعَثَ**)، أيْ: قَامَ بسرعة.

ترجمة الراوي:

ابن زمعة: هو عبدالله بن زمعة القرشي.

من أشراف قريش، وهو ابن أخت أم سلمة زوج النبي ﷺ وكان يأذن رضي الله عنه على النبي ﷺ، ويعدُّ من أهل المدينة، وهو الذي خرج فأمر عُمر بن الخطاب رضي الله عنه بالصلاة حين سمع النبي ﷺ يقول ((مُروا أبابكر أن يصلي بالناس))[5] فلم يجد أبابكر فأمر عمر، وتوفي النبي ﷺ وهو ابنُ خمس عشرة سنة.

وله في الصحيح حديث يشتمل على ثلاثة أحكام، أحدها في قصة ناقة ثمود، والآخر في النهي عن الضحك مع الضرطة، والثالث عن جلد المرأة.

---

(١) لفظ البخاري ومسلم: (عقر) والمثبت لفظ الحميدي في جمعه.

(٢) عندهما زيادة: (مثل أبي زمعة).

(٣) قال الحميدي في جمعه (٣٦٤/٣): (وذكر النساء، وفي رواية ابن نُمير، عن هشام بن عروة: ثم ذكر النساء).

(٤) أخرجه البخاري (٤٩٤٢)، ومسلم (٢٨٥٥/٤٩) والسياق للحميدي في جمعه (٣٦٤/٣، رقم ٢٨٤٧) حيث قال: حديث واحدٌ يجمع ثلاثة معانٍ، فرّقها البخاري في مواضع من كتابه، وجمعها هو ومسلم في موضع واحد، وأخرجاه مفرقًا ومجموعا، من رواية عروة بن الزبير، عن عبد الله بن زمعة.

(٥) أخرجه مسلم ٤١٨.

قُتل يوم الدّار. توفي سنة ٣٥هـ[١].

عقرها: نحرها وذبحها. وأصل العقر: ضرب قوائم البعير أو الشاة بالسيف وهو قائم[٢].

انبعث: قام بسرعة[٣].

عارم: والعارم بالعين المهملة والراء: هو الشرير المفسد[٤].

منيع في رهطه: أي قوي ذو منعة يمنعه قومه من الضيم[٥].

يضاجعها: أي يجامعها ووقع في رواية عند البخاري (٥٢٠٤): يجامعها[٦].

الضرطة: ضرط: ضرطًا وضُراطًا: أخرج ريحًا من استه مع صوت[٧].

الشرح الأدبي

إن راوي الحديث يقتبس كلمات من خطبة رسول الله ﷺ، حيث سمع النبي ﷺ يخطب، ويقتبس الراوي ثلاث قضايا من البيان النبوي في هذه الخطبة: أولاها: رصد لأوصاف الذي عقر ناقة صالح حين كذبت ثمود بطغواها: وهو قدار بن سالف أحيمر ثمود، وهو كما حكم عليه الحق سبحانه وتعالى: أشقى قبيلة ثمود، وأشقى الأولين "إذا انبعث أشقاها" ومعنى انبعث قام بسرعة.

---

(١) الطبقات الكبرى، ابن سعد ٢٢٠/٢-٢٢١، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٤٠٢-٤٠٣، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود ٢٤٦/٣، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ٤٧٤، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين ١٣٦/٤، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٦٣٦/٢.

(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، والمفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، والوسيط في (ع ق ر).

(٣) رياض الصالحين ١٥٨.

(٤) رياض الصالحين ١٥٨.

(٥) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٧٦/٨، والقاموس المحيط في (م ن ع).

(٦) انظر: شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي (٣٠٨/٦).

(٧) الوسيط ٥٣٨.

وهذا الشقي وصفه رسول الله ﷺ بثلاث صفات توحي بالقوة: ولكنها قوة باطشة مفسدة ظالمة، فهو "رجل عزيز" أي قليل المثل ونادر الشبه، ولكن في سلوكه المشين، وعمله الوحشي الذي لا يقدم عليه إلا كل كافر خاسر، وهو "عارم"، أي شرير مفسد، فالعرام: هو القوة والشدة والشراسة، وهذه الصفة حين تقرن بصفة "عزيز" تعطي للعزة دلالة غير محمودة في هذا السياق، لأن الكلمات قد لا يظهر معناها المطلوب والمراد، إلا حين تأنس بجارتها من كلمات، ويسلكن في عقد من التركيب والنظم البليغ.

والصفة الثالثة: "منيع في رهطه" أي قوي ذو منعة: وقومه يمنعونه ويحمونه من الضيم والإذلال.

وأما القضية الثانية: فقد لا تبدو متسقة مع موضوع الخطبة أو مقدمة الخطبة: وهي "الوصية بالنساء خيرًا"، كما جاء في الحديث السابق، ولكن بعد التأمل والتدقيق والتفكر، نجد أن صفات الذي عقر الناقة، وهي صفات غير محمودة، وهى مذمومة في علم السلوك، تشابه صفات ذلك الذي يجلد امرأته جلد العبد، في قسوة، وشدة وادعاء للقوة والفحولة، فوجه الشبه قائم بين الذي عقر الناقة والذي يجلد امرأته عامدًا جلد العبد، غير عابئ بما أمر به الحق سبحانه وتعالى من حسن العشرة وكريم المعاملة، وبما أوصى به رسول الله ﷺ من الرفق بالنساء، والحكمة في معاملتهن، وفهم طبيعتهن اللاتي خلقن عليها، وليس في مقدورهن تغييرها، أو تبديلها، فالجزء الأول من المقدمة تمهيد وإلحاح وإضاءة لما سيوصي به الرسول ﷺ من الرفق بالنساء، والوصية هنا ليست مباشرة، ولكنها توغل في إدراك ما بين الرجل والمرأة من أسرار، فكيف يضربها ويجلدها في قسوة ووحشية، ثم يدنو منها ويعاشرها ويضاجعها من آخر يومه، فهذا سلوك يستبعد من العاقل، والمسلم الذي يفقه أصول دينه، ومعالم عقيدته، كما قال العلماء: كيف يبالغ في ضرب امرأته، ثم يجامعها من بقية يومه أو ليلته، والمضاجعة، أو المجامعة إنما تستحسن مع الميل والرغبة في العشرة، وخاتمة الحديث تنبه على سلوك عام، فالمسلم يجب أن يظل بعيدًا عن السلوكيات التي تُذْهب بمروءته،

وفقده احترام الناس، وتزيل هيبته ووقاره، وهذا الذي يقسو على امرأته ويجلدها ويعاملها معاملة العبد، ربما تقوده هذه السلوكيات التي تذهب بالمروءة والهيبة فيضحك عليه الناس، ويسخرون منه، ونلاحظ أن الراوي ربط بين القضايا الثلاث بحرف العطف ثم، إيحاءً بأن كل قضية تحتاج إلى تأمل وتدبر، وبأن الرسول ﷺ كان في أناءة وتمهل حرصًا منه على الإفادة: حتى يعي السامعون والمسلمون أبعاد القضية كلها، ويدركوا دلالاتها، ومنها حسن معاملة النساء، لأن الإسلام أعطاها حقها، وأباح لها الدين أن تكسب كما يكسب الرجال، ورسول الله ﷺ -كما يقول العقاد في كتابه "عبقرية محمد" جعل خيار المسلمين خيارهم لنسائهم، وأمر بمدارة ضعفها ونقصها، وأوجب على الرجل أن يتجمل لامرأته، ويبدو لها في المنظر الذي يروقها، يقول الله عز وجل في محكم كتابه ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[1].

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم فقهي يتعلق بضرب الرجل زوجته تأديبًا لها، وقد اتفق الفقهاء[2] على أنه يجوز للزوج تأديب زوجته بالموعظة، والهجر، والضرب إن لم تستجب للأولين، على أن يكون الضرب خفيفًا يتقي فيه المقاتل والمهانة، كاللكزة ونحوها،

---

(١) سورة النساء، آية: ١٩.

(٢) تكملة البحر الرائق، وهو مطبوع في نهاية البحر الرائق، محمد بن الطوري ٣٩٢/٨، ومجمع الأنهر لداماد أفندي ٦٣٢/٢، وأحكام القرآن، ابن العربي، تحقيق: علي محمد البجاوي ٢٦١/٤، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٧٢/٥ ط٢، دار الشعب، القاهرة: ١٣٧٢هـ، وتبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام، برهان الدين المكي ٣٤٠/٢، والغرر البهية في شرح البهجة الوردية، القاضي أبو يحيى الأنصاري ١٠٨/٥، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ١٦٣/٤، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ٧٩/٦، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٥٠/٩، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢١/١٠ وما بعدها.

ولا يجلدها جلد العبد، ففي ذلك مهانة لها وانتقاص من كرامتها، وأن يقصد بالضرب زجر المرأة وعودتها إلى الحق، فإن فاءت لم يكن له أن يبغي عليها، أو يضربها ثانية، وإلا ضمن تلفها إن حدث.

وفي هذا الحديث أيضًا النهي عن ضرب النساء لغير ضرورة التأديب، وفيه النهي عن الضحك من الضرطة يسمعها من غيره، بل ينبغي أن يتغافل عنها، ويستمر على حديثه واشتغاله بما كان فيه من غير التفات ولا غيره، ويُظهرُ أنه لم يسمع[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من وسائل الدعوة: الخطبة.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: الوعظ.

ثالثًا: من تاريخ الدعوة: ذكر قصة ناقة صالح.

رابعًا: من فقه الداعي: التنويع في الدعوة ومراعاة جميع شرائح المدعوين.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: حسن المعاشرة.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: الحفاظ على المروءة.

أولاً- من وسائل الدعوة: الخطبة:

إن من وسائل الدعوة المستنبطة في هذا الحديث الخطبة، حيث كان النبي ﷺ يستعملها كثيرًا إذا ما عَنَّ له أمر وأراد أن يتحدث إلى الناس فيه، ومن الشواهد على ذلك في الحديث الذي معنا، ما وردت الإشارة إليه في قول الراوي عبدالله بن زمعة "أنه سمع النبي ﷺ يخطب" ولقد استعمل النبي ﷺ الخطبة في نشر دعوته لكثرة فائدتها وعظيم جدواها، ذلك أن الخطابة علم من العلوم المهمة التي تساعد على الاتصال الجماعي، ولعل أكبر ما يدلنا على اهتمام النبي ﷺ بالخطابة، أنها أول وسيلة أبرزها بعد الجهر بالدعوة مباشرة حين صعد على الصفا[2].

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٨٨/١٧، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٦٤/١٠.

(٢) انظر: الدعوة الإسلامية، أصولها ووسائلها، د. أحمد أحمد غلوش ص ٤١٩، ٤٢٠.

ثانيًا- من أساليب الدعوة: الوعظ:

ورد ذكر الوعظ في هذا الحديث في قوله ﷺ "ثم ذكر النساء فوعظ فيهن" والوعظ أحد الأساليب المهمة التي لها عظيم الأثر في نشر الدعوة، حيث يستطيع الداعية من خلاله أن يؤثر تأثيرًا إيجابيًا في مشاعر المدعوين فيحرك وجدانهم، ويستثير عواطفهم إلى الله تعالى، فتلين قلوبهم وتتبعث آمالهم إلى ما يحبون أن يصلوا إليه[١].

والوعظ أحد الأساليب الرئسية في الدعوة إلى الله، قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[٢]، والموعظة هي الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب[٣].

ثالثًا- من تاريخ الدعوة: ذكر قصة ناقة صالح:

ورد ذلك في الحديث في قوله (وذكر الناقة والذي عقرها) فإنه مما ينبغي أن يراعيه الداعية أن يفيد الدعوة من تاريخ الدعوة مع الأقوام السابقين.

وقد أورد القرآن قصة ناقة صالح في كثير من المواضع منها قوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ۝١١ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ۝١٢ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ۝١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝١٤ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾[٤].

ففي هذه الآيات يخبر الله عن ثمود أنهم كذبوا رسولهم، بسبب ما كانوا عليه من الطغيان والبغي، فأنزل الله بهم سوء العذاب على السواء فقال: "فسواها" أي فجعل العقوبة نازلة عليهم على السواء "ولا يخاف عقباها" قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا يخاف الله من أحد تبعة[٥].

---

(١) انظر: تذكرة الدعاة، د. البهي الخولي ص ٣٩.

(٢) سورة النحل، آية: ١٢٥.

(٣) التفسير القيم، ابن القيم، ٣٤٤.

(٤) سورة الشمس، الآيات: ١١-١٥.

(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٨/٤١٣-٤١٥.

وجمهور المسلمين على أن الناقة كانت معجزة لصالح عليه السلام وهو ما توافرت عليه الأدلة في القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١).

﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ (٢).

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ (٣).

﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝١٥٥ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٤).

﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ۝٢٧ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ (٥).

﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾ (٦).

وندرك من جملة النصوص السابقة النقاط التالية:

أ- أن هذه الناقة آية، أي: دليل على نبوة صالح عليه السلام وأنها على غير ما عهدوا من

---

(١) سورة الأعراف، آية: ٧٣.

(٢) سورة هود، آية: ٦٤.

(٣) سورة الإسراء، آية: ٥٩.

(٤) سورة الشعراء، الآيتان: ١٥٥، ١٥٦.

(٥) سورة القمر، الآيتان: ٢٧، ٢٨.

(٦) سورة الشمس، آية: ١٣.

الآيات قبلها وهي آية بينة.

ب- أن هذه الناقة فتنة لهم من حيث البعث أو السلوك الواقع منها أو الأثر الناتج عنها.

ج- أنها مضافة إلى الله للتهديد من ناحية وللفت النظر إليها من ناحية ثانية.

د-حرم عليهم مسها بسوء وبين النتيجة المترتبة على المخالفة ﴿فيأخذكم عذاب أليم﴾، ﴿فيأخذكم عذاب قريب﴾، ﴿فيأخذهم عذاب يوم عظيم﴾.

هـ- تقسيم الماء بينهم وبين الناقة، ويبدو أنه أراد بئرًا معينًا أو موردًا خاصًا ﴿لها شرب ولكم شرب يوم معلوم﴾، ﴿ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر﴾، ﴿ناقة الله وسقياها﴾.

وأما وجه كون الناقة آية، فقد اجتهد فيه المفسرون. ومما أثر عنهم في ذلك:

أ- أنها خرجت من صخرة صماء -مع فصيل لها- قد حددها القوم لصالح عليه السلام.

ب- أنها كانت تشرب سائر المياه في اليوم الذي ترد فيه الماء.

ج- أنها كانت تدر لبنا يعدل الماء الذي تشربه، حتى تغدق على ثمود بأسرها ما يكفيهم.

د- ربط هلاكهم بأذاها إن وقع منهم، وقليله وكثيره في ذلك سواء، بدليل ورود النكرة بعد النهي (ولا تمسوها بسوء).

هـ- أن جميع الحيوانات كانت يوم مجيئها للماء تمتنع من الورود، وكانت يوم غيابها تأتي الماء.

و- أنها تختلف في النشأة عن غيرها من نوعها، من حيث عدم التوالد وكبر الحجم وخروجها عشراء من صخرة صماء.

ويرى بعض العلماء: أن الناقة لم تكن خارقة للعادة من حيث الوجود والتكوين والطبيعة، بل هي ناقة شأنها شأن غيرها من حيث الوجود. حددها صالح كرمز لحرمات الله، وتشديدًا على القوم بعد شدة العنت، وزاد من التضييق عليهم قسمة الماء بينهم، وتحديد يوم خاص بها ترد فيه الماء، ويوم خاص بهم أجمعين. تهكما وتشديدًا وتهديدًا.

ولم يتأثر قوم صالح بتلك الآية ولم يستجيبوا لنصائح صالح عليه السلام فرغم تحذير صالح لهم من مسها بسوء حتى لا يأخذهم عذاب - سبق بيانه - إلا أن القوم قد بيتوا النية على عقر الناقة وقتل صالح، وقتل المؤمنين به معه، بهدف القضاء التام على الدعوة ويمكن إيجاز مواقفهم فيما يلي:

أ- عدم التسليم بكون الناقة آية من آيات الله، مع توافر الأدلة على ذلك حتى وصف القرآن ذلك بالظلم، مع أن القوم لم يبالوا بها ولم يخافوها أو يخافوا النتائج المترتبة على أذاها.

ب- اتهام صالح بالكذب في حديثه عنها مع الإصرار على عقرها.

ج- كان قرار العقر جماعيًا وإن نهض به بعضهم، فكل فعل يرضى عنه الإنسان يثاب ثواب فاعله، ويعاقب عقاب فاعله في الآخرة، وذلك من باب حمل الأمة على فعل الخير، والأخذ على يد الظالم والتوجه نحو الخير العام، وإلا أثمت الأمة جمعاء إذا رضيت بما يفعله الفسقة، ولذلك نسب العقر إليهم جميعًا في قول الحق: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾[(1)].

وإلى من ابتدأ العقر أو أتمه ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾[(2)]. وصف القرآن ذلك الشخص بالشقاء. قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ۝ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾[(3)]. كما وصف في السنة بمثل ذلك، وفي الحديث عن عمار بن ياسر قال: قال رسول الله ﷺ لعلي: «ألا أحدثك بأشقى الناس؟» قال : بلى. قال: «رجلان، أحدهما أحيمر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك يا علي على هذا ـ يعني قرنه ـ حتى تبتل منه هذه ـ يعني لحيته»[(4)].

---

(١) سورة الشمس، آية: ١٤.

(٢) سورة القمر، آية: ٢٩.

(٣) سورة الشمس، الآيتان: ١١، ١٢.

(٤) أخرجه أحمد ٤/٢٦٣ رقم ١٨٣٢١، وقال محققو المسند: حديث حسن لغيره ٣٠/٢٥٧.

تَحَدَّوْا صالحًا أن ينزل العذاب بهم: وجعلوا نزوله دليل صدقه وإرساله. كبرا منهم وبطرا ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَـٰصَـٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾(١). فجمعوا في كلامهم هذا بين كفر بليغ من وجوه:

منها: أنهم خالفوا الله ورسوله في ارتكابهم النهي الأكيد في عقر الناقة التي جعلها الله لهم آية.

ومنها: أنهم استعجلوا وقوع العذاب بهم، فاستحقوه من وجهين: أحدهما الشرط عليهم في قوله: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾(٢)، وفي آية ﴿عظيم﴾ وفي الأخرى ﴿أَلِيمٌ﴾(٣)، والكل حق. والثاني استعجالهم على ذلك.

ومنها: أنهم كذبوا الرسول الذي قد قام الدليل القاطع على نبوته وصدقه، وهم يعلمون ذلك علمًا جازمًا، ولكن حملهم الكفر والضلال والعناد على استبعاد الحق ووقوع العذاب بهم(٤). قال الله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾(٥). وهذه الفترة الزمنية هي المفسرة لقول الحق سبحانه ﴿وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾(٦).

ويبدو أن الندم أصاب بعضهم بعد عقر الناقة وتحديد وقت العذاب. ولات حين مناص. قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَـٰدِمِينَ﴾(٧)(٨).

---

(١) سورة الأعراف، آية: ٧٧ .

(٢) سورة هود، آية: ٦٤.

(٣) سورة الأعراف، آية: ٧٣.

(٤) قصص الأنبياء، ابن كثير.

(٥) سورة هود، آية: ٦٥.

(٦) سورة الذاريات، آية: ٤٣.

(٧) سورة الشعراء، آية: ١٥٧.

(٨) انظر: دعوة الرسل، د. بكر زكي عوض، ٢٤٧-٢٥١.

رابعًا- من فقه الداعي: التنويع في الدعوة ومراعاة جميع شرائح المدعوين:

إن القارئ للحديث ليجد التنويع واضحًا في هذا الحديث، حيث جمع النبي ﷺ بين الخطابة "أنه سمع النبي ﷺ يخطب"، والوعظ "ثم ذكر النساء فوعظ فيهن" وذكر أخبار الأمم الغابرة "وذكر الناقة والذي عقرها" وكما تكلم عن بعض الأمور الاجتماعية المهمة مما يتعلق بعلاقة الرجل بزوجته، وذكر مثالاً: ضرب الرجل لزوجته "يعمد أحدكم فيجلد امرأته جلد العبد فلعله يضاجعها من آخر يومه" حتى مجرد الضحك للضراط "لم يضحك أحدكم مما يفعل" وبذلك نجد أن النبي ﷺ استعمل أكثر من وسيلة، واتبع أكثر من أسلوب، واستغرق شرائح المجتمع، وعالج عددًا من القضايا دون فرق بين كبيرها وصغيرها.

خامسًا- من موضوعات الدعوة: حسن المعاشرة:

أشار النبي ﷺ إلى ذلك في قوله "يعمد أحدكم فيجلد امرأته جلد العبد فلعله يضاجعها من آخر يومه" (وفي هذا الحديث النهي عن ضرب النساء لغير ضرورة التأديب)[1]. وفيه استبعاد ذلك من العاقل أن يبالغ في ضرب امرأته ثم يجامعها من يومه أو ليلته، والمجامعة أو المضاجعة إنما تستحسن مع الميل والرغبة في العشرة والمجلود غالبًا ينفر ممن جلده فوقع الإشارة إلى ذلك[2].

وقد جاءت الآيات والأحاديث حاضّة على حسن المعاشرة، قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[3]، والعشرة هنا تتعلق بالنساء والمراد منها توفية حق المرأة من المهر والنفقة وألا يعبس في وجهها بغير ذنب، وألا يكون فظًا ولا غليظًا ولا مظهرًا ميلاً إلى غيرها، وقيل: حسن العشرة مع المرأة أن يتصنع لها كما تتصنع له[4].

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٦٦٢.

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٤٧٨.

(٣) سورة النساء، آية: ١٩.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢/٤/٩٧.

وقال السعدي رحمه الله: (وهذا يشمل المعاشرة القولية والعقلية، فعلى الزوج أن يعاشر زوجته بالمعروف من الصحبة الجميلة، وكف الأذى وبذل الإحسان وحسن المعاملة، ويدخل في ذلك النفقة والكسوة ونحوهما، فيجب على الزوج لزوجته المعروف من مثله لمثلها في ذلك الزمان والمكان، وهذا يتفاوت بتفاوت الأحوال، "فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئًا ويجعل الله فيه خيرًا كثيرا" أي ينبغي لكم -أيها الأزواج-أن تمسكوا زوجاتكم مع الكراهة لهن، فإن في ذلك خيرًا كثيرًا، من ذلك امتثال أمر الله تعالى وقبول وصيته التي فيها سعادة الدنيا والآخرة.

ومنها أن إجباره نفسه مع عدم صحبته فيه مجاهدة النفس والتخلق بالأخلاق الجميلة، وربما أن الكراهة تزول وتخلفها المحبة كما هو الواقع في ذلك، وربما رُزِقَ منها ولدًا صالحًا نفع والديه في الدنيا والآخرة، وهذا كله مع الإمكان في الإمساك وعدم المحذور)[١].

سادسًا- من موضوعات الدعوة: الحفاظ على المروءة:

ورد ذلك في قوله ﷺ في وعظه في ضحكهم من الضرطة قال "لم يضحك أحدكم مما يفعل" وذلك لما في الضحك من ذلك من خوارم المروءة، ولما فيه من هتك للحرمة[٢]؛ ففي الحديث نهي عن الضحك من الضرطة يسمعها من غيره، بل ينبغي أن يتغافل عنها، ويستمر على حديثه وانشغاله بما كان فيه من غير التفات ولا غيره ويظهر أنه لم يسمع وفيه حسن الأدب والمعاشرة[٣].

وفي ذلك إشارة ضمنية من رسول الله ﷺ إلى المروءة والمحافظة عليها، لما لها من ثمرات (يجنيها صاحبها، ويستلذ بها، فهي تهب صاحبها الرياسة والشرف والمكانة العالية، والمحلة السامية، فيصبح في أعين الناس كبيرًا صاحب هيبة، ويصبح له في أنفسهم مكانة عظيمة، لا يجاريه فيها إلا من كان مثله أو زاد عليه في المروءة)[٤].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ١٣٨.

(٢) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٤٧٨.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٦٦٢.

(٤) المروءة، سيد عاصم علي، مكتبة الصحابة، طنطا: ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ص ٢٩.

الحديث رقم (٢٧٥)

٢٧٥- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه ، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ : ((**لاَ يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً إنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ**)) ، أَوْ قَالَ: ((**غَيْرَهُ**)) رواه مسلم[1].

وقولُهُ: ((يَفْرَكْ)) هُوَ بفتح الياءِ وإسكان الفاء وفتح الراءِ معناه: يُبْغِضُ، يقالُ: فَرِكَتِ المَرأةُ زَوْجَهَا ، وَفَرِكَهَا زَوْجُهَا ، بكسر الراء يفْرَكُهَا بفتحها : أيْ أبْغَضَهَا ، والله أعلم.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

يفرك: قوله ((يَفْرَك)) هو بفتح الياء وإسكان الفاء وفتح الراء، معناه: يُبغض. يقال: فركت المرأةُ زوجَها وفركها زوجها -بكسر الراء- يفرَكها -بفتحها-: أي أبغضها. والله أعلم[2].

الشرح الأدبي

إن الحياة الزوجية سكن آمن، ومودة صادقة، ورحمة تفيض بالعطف والحنان، والحياة تتقلب بالناس، وتفيض بكثير من معضلات الأمور، وتصادم الآراء، واختلاف الطبائع، وطريقة استقبال الأحداث، والحكم على الأمور المستجدة.

ومن متطلبات الرحمة بين الزوجين أن يصبر كل منهما ، وأن يفهم طبيعة الآخر، وأن تكون المودة والعاطفة منهجًا حياتيًا يؤدي بهما إلى واحات السكينة، وأن يكون التراحم خلقًا بينهما يقود سفينتهما الزوجية إلى شاطئ الاستقرار: في ظل أبوة راعية، وأمومة حانية.

---

(١) رقم (٦١/١٤٦٩). أورده المنذري في ترغيبه (٢٨٨٣).

(٢) رياض الصالحين ١٥٨.

وفي ضوء هذا المنهج الإسلامي الذي يؤطر العلاقة بين الزوجين وهما يخوضان غمار الحياة، ويسعيان على رزق أولادهما، ويقومان على تربيتهم وتنشئتهم التنشئة الإسلامية الصحيحة بعيدًا عن المنازعات والصراعات، في أسرة متحابة كالشجرة السامقة مهما تفرعت غصونها، واختلفت هيئات أوراقها، فإنها تظل متشبثة بجذورها، منتمية إلى تربتها، تسقى بماء واحد، وتثمر ثمرًا طيبًا، وتؤتي أكلها كل حين، هكذا الأم والأب في دوحتهما الإنسانية وأسرتهما الإيمانية، ولنتأمل قول الله عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾[1].

في ضوء هذا الواقع الأسري الجميل نستقبل كلام رسول الله ﷺ، استقبالاً حسنًا كما تستقبل الأرض الظمأى الغيث من بعد القنوط، ولنتأمل دلالات هذا البيان النبوي الكريم وهو: يحث على التواصي بالحق والتواصي بالصبر، وحسن معاملة الرجل المؤمن لزوجته المؤمنة، والحديث يتكون في بنائه اللغوي من جملتين تشعان بكثير من أضواء السلوك الإسلامي الصحيح، فالجملة الأولى "لا يفرك مؤمن مؤمنة"، وهي جملة منفية أو منهية، فإذا كانت اللام نافية: تكون الجملة خبرية، فالرسول ﷺ يخبر كل مؤمن بأنه لا يبغض زوجته المؤمنة، والتعبير بالمضارع في "يفرك" يعلن عن استمرار هذا الخلق السمح، وهو عدم البغض، وقيل إن هذا الأسلوب نهي في أسلوب الخبر، إذا كان الفعل "يفرك" مرفوعًا، ولكنه كما ورد في كثير من الروايات جاء مجزومًا، فاللام هنا: لام النهي، والجملة: إنشائية.

ودلالة النهي هنا: أن المسلم يجب أن لا يبغض زوجته الملتزمة بالسلوك الإسلامي، لأن بغضه فيه جور وظلم، لأنه إن كره منها خلقًا رضي منها خلقًا آخر، ودقة التعبير في الحديث الشريف التي تُجلي المعنى تبدو في قوله: "مؤمن ومؤمنة" فالإيمان شرط في ضبط العلاقة بين الزوجين، فالمرأة العاصية التي لا يكتمل إيمانها تظل خارج دائرة هذه الوصية النبوية، وكذلك الزوج إذا فقد صفات المؤمن فهو فاقد لأهليته وشخصيته

---

(١) سورة نوح، الآيتان: ١٧-١٨.

الإيمانية التي أرادها رسول الله ﷺ لأن الإيمان له ثلاثة أركان: التصديق بالجنان، والعمل بالأركان، والإقرار باللسان.

وجاء لفظ مؤمن في صيغة النكرة للتعميم، ليشمل كل النساء المؤمنات في كل زمان وكل مكان، وكذلك يشمل الأزواج المؤمنين من عصر البعثة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها في جميع بقاع الأرض، فما أعظم هذا البيان النبوي، ولا غرو، فهو من جوامع الكلم، والمادة اللغوية تتسع لكثير من الدلالات ، حيث دلالة الإيمان، ودلالة: الأمن، ودلالة: الأمان، ودلالة الأمانة، كلها دلالات تموج بالسكن والمودة والرحمة، وكذلك اختيار لفظ "يفرك"، وهو يوحي بالتفرق والتبعثر من قولهم "فرك السنبل" أي: دلكه: فانفرك أي انفرط، ومنه "الفركان"، وهو خاص ببغضة الزوجين،ورجل مُفرَّك تبغضه النساء، وامرأة مفركة،يبغضها الرجال، ومعنى: فاركة، تاركة، فهذا اللفظ الذي اختاره الرسول الكريم لا يغني عنه لفظ غيره: فتأمل!!!.

وأما الجملة الثانية: فهي تعليل للنهي في الجملة الأولى، وهي جاءت في صيغة الشرط والجواب: وأداة الشرط "إن" ، حيث يقول: "إن كره منها خلقًا"، "رضي منها آخر"، لأنها مؤمنة ملتزمة ولا تخلو من الصفات الحسنة، وأداة الشرط تعلن عن عدم التيقن من هذا الخلق المكروه، وربما يكون من سوء القصد أو خطأ التفسير.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم فقهي يتعلق بالحياة بين الزوجين، وهو أدب معاشرة الرجل لزوجته، وقد ذكر الفقهاء[1] أنه يلزم الرجل معاشرة زوجته بالحسنى، ويندب له أن يصبر عليها حتى ولو كرهها، إن كان كرهه لها لدمامة أو سوء خلق أو سوء عشرة

---

(١) المغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢٢٣/٧، وغذاء الألباب شرح منظومة الآداب، الإسفراييني الحنبلي ٤٠٤/٢ وما بعدها، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، الشوكاني ٢٤٤/٦، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٧٦/٧، ٢٣٢/٣٤ وما بعدها.

من غير ارتكاب فاحشة، وأن يعمل على مدارة المرأة وألا يطمع في إقامة اعوجاجها كاملاً، ولا بغضها بمجرد كراهة خلق من أخلاقها، فإنها لا تخلو مع ذلك عن أمر يرضاه منها، وإذا كانت مشتملة على المحبوب والمكروه، فلا ينبغي ترجيح مقتضى الكراهة على مقتضى المحبة.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النهي.

ثانيًا: من صفات الداعي: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: حسن معاشرة الزوجة.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: الدعوة إلى العدل وضبط العواطف والانفعالات.

خامسًا: من أهداف الدعوة: الحفاظ على الأسرة.

أولاً- من أساليب الدعوة: النهي:

ورد هذا الأسلوب في الحديث في قوله ﷺ: (لا يفرك مؤمن مؤمنة) وأسلوب النهي من الأساليب المفيدة في الدعوة لما فيها من لفت المدعو إلى مكامن الخطر وحمله على عدم الوقوع فيها، وقد استعمل النبي ﷺ النهي في هذا الحديث، لإبعاد المسلم عن بغض زوجته وكرهها، مما تنتج عنه المشكلات الأسرية من تفكك وضياع للأولاد، ولكن لا بدّ من الحكمة والتريث في الأمور.

أرشد النبي ﷺ في هذا الحديث الأزواج بقوله: (لا يفرك مؤمن مؤمنة) إن كره منها خلقًا رضى منها آخر، حفاظًا على الأسرة وحمايتها من أسباب التفكك والتباغض، ولتسودها المحبة والمودة، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1]، وفي الآية إشارة إلى السكن الذي هو من الأنس وزوال الوحشة، والمودة التي بمعنى المحبة،

---

(١) سورة الروم، آية: ٢١.

والرحمة وهي صفة تبعث على حسن المعاملة[١]، وحفاظًا على هذه المعاني وتلك الثمار نهى رسول الله ﷺ عما يذهبها أو يكدر صفوها فقال: (لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقًا رضي الآخر).

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: حسن معاشرة الزوجة:

لقد أرشد النبي ﷺ في هذا الحديث الأزواج إلى حسن معاشرة أزواجهن، والحث على الرفق بهن[٢]، فقال: (لا يفرك مؤمن مؤمنة) أي: لا يبغضها (إن كره منها خلقًا رضي منها آخر) بمعنى: أنه إن وجد فيها خلقًا يُكره وجد فيها خلقًا مرضيًا، بأن تكون شرسة الخلق، لكنها دينه أو جميلة أو عفيفة أو رفيقة به أو نحو ذلك[٣]، وذلك أن الإنسان ينبغي عليه أن يوازن بين السيئات والحسنات، وينظر أيهما أكثر وأعظم وقعًا فيغلب ما كان أكثر وما كان أشد تأثيرًا[٤]، فإذا كان هناك شيء سيء فقد تكون هناك أشياء حسنة، قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[٥].

قال البغوي: (قيل: هو ولد صالح، أو يعطفه الله عليها)[٦]، وقال السعدي: (أي ينبغي لكم أيها الأزواج أن تمسكوا أزواجكم مع الكراهة لهن، فإن في ذلك خيرًا كثيرًا، من ذلك امتثال أمر الله وقبول وصيته التي فيها سعادة الدنيا والآخرة، ومنها أن إجباره نفسه مع عدم محبته فيه مجاهدة النفس، والتخلق بالأخلاق الجميلة وربما أن الكراهة تزول وتخلفها المحبة كما هو الواقع في ذلك وربما رزق منها ولدًا صالحًا نفع والديه في الدنيا والآخرة وهذا كله مع الإمكان في الإمساك وعدم المحذور)[٧].

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ٧٢/٢١/٨.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٩٢١.

(٣) المرجع السابق ٩٢١.

(٤) شرح رياض الصالحين ٦٥٨/١.

(٥) سورة النساء، آية: ١٩.

(٦) معالم التنزيل، البغوي، ١٨٦/٢.

(٧) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ١٣٨.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: الدعوة إلى العدل، وضبط العواطف والانفعالات:

في قوله ﷺ: (لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقًا رضي منها آخر) دعوة الإنسان إلى القيام بالعدل، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ﴾[1]، يعني: لا يحملنكم بغضهم على عدم العدل، لذا ينبغي على الإنسان أن يعامل مَنْ بينه وبينه صلة من زوجيه أو صداقة أو معاملة، أن يعامله بالعدل، إذا كره منه خلقًا أو أساء إليه في معاملة أن ينظر للجوانب الأخرى الحسنة حتى يقارن بين هذا وهذا، فإن هذا هو العدل الذي أمر الله به رسوله ﷺ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[2][3].

خامسًا- من أهداف الدعوة: الحفاظ على الأسرة:

من الأهداف الرئيسة للدعوة الإسلامية في المجال الاجتماعي: الحفاظ على الأسرة ووقايتها من التفكك، نجد ذلك واضحًا في هذا الحديث في قوله ﷺ: (ولا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقًا رضي منها آخر)، ففي هذا الحديث إشارة للجانب الوقائي على وقاية المجتمع من المشكلات وأخطارها قبل وقوعها، حفاظًا على تماسك المجتمع وقوته[4]. ويقول الشوكاني: (في هذا إرشاد إلى أن المرأة يجب ملاطفتها والصبر على ما لا يستقيم من أخلاق، والتنبيه على أنهن لا يفيد معهن التأديب الدائم، فلا يبق إلا الصبر وترك التأنيب والمخاشنة لكي تستقيم الأسرة، وفي هذا تقدير وإعمال لأحكام الأنوثة)[5].

---

(١) سورة المائدة، آية: ٨.

(٢) سورة النحل، آية: ٩٠.

(٣) انظر: شرح رياض الصالحين ٦٥٨/١ - ٦٥٩.

(٤) انظر: الضبط الاجتماعي والتماسك الأسري، خالد بن عبدالرحمن بن عبدالعزيز السالم ص ١١١ - ١١٢.

(٥) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، الشوكاني ٢٤٤/٦، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٧٦/٧.

الحديث رقم (٢٧٦)

٢٧٦- وعن عمرو بن الأحوصِ الجُشَمي رضي الله عنه : أنَّهُ سَمِعَ النَّبيّ ﷺ في حَجَّةِ الوَدَاعِ يَقُولُ بَعْدَ أنْ حَمِدَ الله تَعَالَى، وَأثْنَى عَلَيهِ وَذَكَّرَ وَوَعظَ، ثُمَّ قَالَ: ((**ألا وَاسْتَوصُوا بالنِّساءِ خَيْرًا، فَإنَّمَا هُنَّ عَوَانٍ عِنْدَكُمْ، لَيْسَ تَمْلِكُونَ مِنْهُنَّ شَيْئًا غَيْرَ ذلِكَ، إلاَّ أنْ يَأتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ، فَإنْ فَعَلْنَ فَاهْجُرُوهُنَّ في المَضَاجِعِ، وَاضْرِبُوهُنَّ ضَربًا غَيرَ مُبَرِّحٍ، فإنْ أطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيهنَّ سَبيلاً؛ ألاَ إنَّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقًّا، وَلِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا؛ فَحَقُّكُمْ عَلَيهِنَّ**[1] **أنْ لا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ مَنْ تَكْرَهُونَ، وَلا يَأْذَنَّ في بُيُوتِكُمْ لِمَنْ تَكْرَهُونَ؛ ألاَ وَحَقُّهُنَّ عَلَيْكُمْ أنْ تُحْسِنُوا إلَيْهِنَّ في كِسْوَتِهنَّ وَطَعَامِهِنَّ**)) رواه الترمذيُّ[2]، وَقَالَ: (حديث حسن صحيح).

قوله ﷺ "عَوَانٍ" أي: أَسيرات جمع عَانية، بالعين المهملة، وهي الأسيرة، والعَانِي: الأسير. شبه رسول الله ﷺ المرأة في دخولها تحت حكم الزوج بالأسير "والضرب المبرح" هو الشاق الشديد، وقوله ﷺ "فلا تبغوا عليهن سبيلا" أي: لا تطلبوا طريقًا تحتجون به عليهن وتؤذونهن به، والله أعلم.

ترجمة الراوي:

عمرو بن الأحوص الجشمي: هو عمرو بن الأحوص الجُشَمي. وعند ابن عبدالبر: عمرو بن الأحوص بن جعفر بن كلاب الجشمي الكلابي.

شهد حجة الوداع مع النبي ﷺ وروى خطبته بعرفة، كما في الحديث المذكور، ويقال: إن أمه وامرأته شهدتا معه حجة النبي ﷺ.

وشارك في الفتوحات ونشر دعوة الإسلام، فشهد اليرموك في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

---

(١) لفظ الترمذي: (فأما حقكم على نسائكم فلا يوطئن).

(٢) برقم (١١٦٣). أورده المنذري في ترغيبه (٢٨٨٤).

روى عنه ابنه سليمان بن عمرو بن الأحوص، وليس له إلا هذا الحديث الواحد -وهو حديث طويل- وبعضهم يقطعه[1].

غريب الألفاظ:

حجة الوداع: هي الحجة التي حجها النبي ﷺ عام ١٠هـ، وخطب الناس فيها خطبة الوداع وبعدها كانت وفاته ١١هـ. وسميت بذلك لأن النبي ﷺ ودع الناس فيها[2].

الشرح الأدبي

إن فن الخطابة فنٌّ أدبي يقصد به إلى التأثير في نفوس المتلقين عن طريق مخاطبة قلوبهم وعقولهم، وللخطيب أدوات تأثيرية وفي مقدمتها جذب انتباه السامعين وإيقاظ ضمائرهم، وإثارة مشاعرهم، بما يلقيه من عبارات لها إيقاعها المؤثر، في صياغتها، وفي نسيج كلماتها وحروفها، وفي طريقة إلقائها، وفي تلوين الصوت جهرًا وهمسًا، وعلوًا وانخفاضًا، وغير ذلك من وسائل تأثيرية متعددة، وللخطابة أهمية قوية وتأثيرية في الإسلام، وخطبة حجة الوادع من كنوز البيان النبوي، حيث تتضوأ بالقيم الجمالية والأساليب التعبيرية، والمبادئ المكونة للشخصية الإسلامية.

وهذا اقتباس جليل من هذه الخطبة، حيث اقتطف الراوي هذا الجزء الذي يُرسي فيه رسول الله ﷺ دعائم العلاقة الأسرية بين الرجال والنساء، ويبدأ الحديث بعد التنويه بالحمد والثناء على الله، والذكر والوعظ بالأمر بالاستيصاء بالنساء، وتبدأ هذه الوصية بأداة الاستفتاح"ألا"، وهي يؤتى بها أول الكلام إذا كان المقام يُهتم به، وقد كررت هذه الأداة في الحديث ثلاث مرات، مما يدل على جدية الأمر، واهتمام

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٥٠٣، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (١٧٦/٤)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ٩٥٨، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين (٣٩٣/٥) والتهذيب (٢٥٦/٣).

(٢) انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٧٥٦، وأطلس السيرة النبوية، د. شوقي أبو خليل ٢٢١.

المصطفى ﷺ، ولذلك بعد هذا الاستفتاح يأتي فعل الأمر "استوصوا بالنساء خيرًا" والأمر يدل على الوجوب، وكل زوج عليه واجب الحفاظ على بيته والإنفاق على أسرته؛ وقال "النساء"، وهذا اللفظ: يشمل الزوجة والأخت والبنت والأم: وكل من يجب على الإنسان نفقته ورعايته.

ويأتي التأكيد كثيرًا في هذه الخطبة، وقد ورد تسع عشرة مرة فيها، وقد ورد كثيرًا في هذا الحديث الذي يؤكد على حسن معاملة النساء والرفق بهن، واتباع الطريق الشرعي الحكيم في معالجة كل مسائلهن وخلافاتهن فقوله: "إنما هن عوان عندكم"، فيه تأكيد وقصر وتشبيه، وليس بعد اجتماع هذه المؤثرات الأسلوبية والبيانية اهتمام وعناية بهذا الأمر، فإنما تفيد التأكيد والقصر، وقد شبههن الرسول ﷺ بالأسيرات في قوله: "عوان عندكم"، حيث شبه رسول الله ﷺ المرأة في دخولها تحت حكم الزوج ووجوب طاعتها له بالأسير، وللأسير كذلك حق يجب أداؤه، وحتى لا يكون الأمر تحكمًا مطلقًا، وتملكًا خانقًا، قيد رسول الله ﷺ هذا التشبيه بقوله: "ليس تملكون منهن شيئًا غير ذلك"، واسم الإشارة يرشد إلى حق الاستمتاع، والطاعة والحفاظ على البيت والأبناء، أما غير ذلك فالمرأة لها عقلها، ولها كيانها، ولها ميراثها، ولها ذمتها المالية، وحقوقها المستقلة، ويشرح المصطفى ﷺ الوسائل التي يقضي بها على كل أي خلاف ينشأ بين الزوجين، وأتى بأسلوب الاستثناء في قوله: "إلا أن يأتين بفاحشة مُبيِّنة" أو مُبيَّنة: وفي الحالتين يجوز للرجل أن يتخذ الوسائل الشرعية التي يصلح بها ذلك الاعوجاج أو يهذبه، وصيغ الإصلاح في أسلوب الشرط والجواب، والأداء "إن" في جملتين، الأولى تشخص الداء وتصف الدواء، "فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع واضربوهن"، والثانية ترصد النتيجة في قوله: "فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا".

وأداة الشرط "إن" يوحي استعمالها بأن مثل هذه الوسائل لا تفيد، ولا تحقق المطلوب في بعض المواقف، لأن بعض النساء لا يرتدعن إلا بالطلاق، حين تستحيل العشرة، ثم تتكرر أداة الاستفتاح "ألا"، في سياق بيان حق النساء على الرجال، وحق الرجال على

النساء، فالرجل من حقه على زوجته أن تحافظ على بيته ولا تستقبل فيه أحدًا إلا بإذنه وفي حضوره، وللنساء حقوق كثيرة، ومنها الإحسان إليهن في كسوتهن وطعامهن، حتى تستقيم أمور الحياة في ظل المودة والرحمة.

فقه الحديث

إن الحياة الزوجية شركة تقوم على التوافق والتفاهم بين الزوجين، ولا يتسنى لهذه الشركة النجاح إلا إذا عرف كل طرف فيها ما له من حقوق وما عليه من واجبات وحرص على أدائها كاملة دون تقصير، فحق الرجل على المرأة الطاعة والعفة، وألا تدخل في بيته من يكره ولا تأذن لأحد بالدخول إلا بإذنه وعلمه، فإن فعلت ذلك لم يكن له عليها شيء، وإن قصرت في ذلك كان له تأديبها باتفاق الفقهاء[1] بما يراه مصلحًا لها من الوعظ والهجر في المضجع ثم الضرب الخفيف إن لم ينفع كل ذلك.

وحق المرأة على زوجها باتفاق الفقهاء[2] أن ينفق عليها سواء أكانت مسلمة أم ذمية ما دامت أنها انتقلت لبيته ولم تمنعه من نفسها، ولا يجوز له التخلي عن هذا الحق أبدًا وإلا كان لها طلب الطلاق.

---

(١) تكملة البحر الرائق، وهو مطبوع في نهاية البحر الرائق، محمد بن الطوري ٣٩٢/٨، ومجمع الأنهر لداماد أفندي ٦٣٢/٢، وأحكام القرآن، ابن العربي، تحقيق: علي محمد البجاوي ٢٦١/٤، وتبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام، برهان الدين المكي ٣٤٠/٢، والغرر البهية في شرح البهجة الوردية، القاضي أبو يحيى الأنصاري ١٠٨/٥، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ١٦٣/٤، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ٧٩/٦، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٥٠/٩.

(٢) البناية للعيني ٦٥٩/٥، وتحفة الفقهاء للسمرقندي، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد المغربي ١٨١/٤، وحاشية الدسوقي على الشرح الكبير، محمد بن عرفة الدسوقي ٤٧٨/٣، والمذهب للشيرازي ١٤٨/٣، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٤٢٦، ٣، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٣٤٧/١١، والمبدع في شرح المقنع، ابن مفلح .

المضامين الدعوية

أولاً: من تاريخ الدعوة: حجة الوداع.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: الحمد والثناء والوعظ.

ثالثًا: من وسائل الدعوة: الخطابة.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: الوصية بالنساء.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: تأديب الزوج لزوجته.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: بيان حقوق الأزواج على زوجاتهم وحقوق الزوجات على أزواجهن.

أولاً- من تاريخ الدعوة: حجة الوداع:

من تاريخ الدعوة في هذا الحديث حجة الوداع ويدل على ذلك قول عمرو بن الأحوص الجُشمي رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع.

وحجة الوداع معلم بارز في تاريخ الدعوة الإسلامية في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كانت حجة الوداع في آخر ذي القعدة للسنة العاشرة من الهجرة حيث، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم للحج هو ومن معه من المسلمين، وأقبلت الوفود من كل صوب تُيمّم وجهها شطر البيت العتيق، وهي تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا العام أمير حجهم ومعلمهم مناسكهم، ونظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الألوف المؤلفة وهي تلبي وتهرع إلى طاعة الله، فشرح صدره انقيادها للحق واهتداؤها إلى الإسلام، وعزم أن يغرس في قلوبهم لباب الدين، وأن ينتهز هذا التجمع الكريم ليقول كلمات تبدد آخر ما أبقت الجاهلية من مخلفات في النفوس، وتؤكد ما يحرص الإسلام على إشاعته من آداب وعلائق وأحكام[1].

فخطب خطبته الجامعة في جموع المسلمين، ونصحهم وبيّن ما لهم وما عليهم، ثم أتم مناسك الحج معلمًا وهاديًا للمسلمين.

---

(١) انظر: فقه السيرة، محمد الغزالي ص ٤٥٤.

وفي يوم عرفة من هذه الحجة العظيمة نزل قول الله عز وجل ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[1].

يقول ابن كثير: (هذه أكبر نعم الله عز وجل، على هذه الأمة حيث أكمل تعالى لهم دينهم، فلا يحتاجون إلى دين غيره، ولا إلى نبي غير نبيهم، صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا جعله الله خاتم الأنبياء، وبعثه إلى الإنس والجن، فلا حلال إلا ما أحله ولا حرام إلا ما حرمه، ولا دين إلا ما شرعه، وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه، ولا خلف. وقال أسباط عن السدى نزلت هذه الآية يوم عرفة فلم ينزل بعدها حلال ولا حرام ورجع رسول الله ﷺ فمات[2]. فكانت حجة الوداع مشتملة على المضامين الدعوية الكثيرة التي تعد زادًا للدعاة إلى الله تعالى.

ثانيًا- من أساليب الدعوة: الحمد والثناء والوعظ:

من أساليب الدعوة التي تظهر من هذا الحديث أسلوب الحمد والثناء والوعظ ويدل على ذلك قول عمر بن الأحوص رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ "... بعد أن حمد الله تعالى، وأثنى عليه وذكر ووعظ...".

والحمد أسلوب من أساليب الدعوة التي يبدأ بها الدعاة دائمًا، فهو حمد لله على نعمه التي لا تعد ولا تحصى، وأعظمها نعمة الإسلام.

والثناء أيضًا أسلوب من أساليب الدعوة يثني به الداعية على المولى سبحانه بما يليق من الثناء والتعظيم.

وأسلوب الوعظ والتذكير أسلوب من أساليب الدعوة التي يفيد منها الداعية في دعوته.

ولا ريب أن للموعظة أهمية كبرى في مجال الدعوة إلى الله تعالى، سواء اتخذت صفة النصح أو التذكير أو الترغيب، أو غير ذلك من صفات وأساليب الموعظة الحسنة.

وتتضح أهمية الموعظة في احتفاء القرآن الكريم والسنة المطهرة بها، واعتناء سلف الأمة الصالح وأخذه بها.

---

(١) سورة المائدة، من آية: ٣.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢٦/٣.

فمن القرآن الكريم نجد قول الله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[2].

ومن السنة المطهرة، فقد ثبت أن النبي ﷺ كان يباشر الموعظة ويقوم بأدائها وكان يتخوّل أصحابه بها مخافة السآمة عليهم[3].

كما كان يحث على تذكير الناس ونصحهم، ويرغب في ذلك ويجعله من مهمات الدين ولوازمه.

قال ﷺ: ((الدِّينُ النَّصِيحَةُ» قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: «للهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ))[4].

وأما اعتناء السلف الصالح بالموعظة فلا يحتاج إلى برهان، وذلك لما زخر به تاريخهم من مواعظ ونصائح تعد غررًا في جبين التاريخ.

فتعد الموعظة وسيلة مهمة من وسائل الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، يجني الداعية من وراء الأخذ بهذه الوسيلة خيرًا كثيرًا في اقتفاء أثر الأنبياء والرسل والصالحين، فما من نبي ولا رسول إلا وعظ أمته، ونصح لهم، وبشر وحذر، ورغب وأنذر. قال تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا﴾[5])[6].

ثالثًا- من وسائل الدعوة: الخطابة:

من وسائل الدعوة في هذا الحديث الخطابة، حيث ورد في هذاالحديث ما يدل على ذلك "في خطبته الجامعة في حجة الوداع".

---

(١) سورة النحل، آية: ١٢٥.

(٢) سورة هود، آية: ١٢٠.

(٣) انظر: حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه في صحيح البخاري ٦٨.

(٤) أخرجه مسلم.

(٥) سورة النساء، آية: ٦٣.

(٦) وسائل الدعوة، د. عبدالرحيم المغذوي ص ٧١-٧٣.

والخطابة وسيلة دعوة مهمة فهي من أقدم الوسائل وأكثرها فاعلية في تبليغ الدعوة وكذلك التأثير في المدعوين.

فالخطابة أداة الدعوة، واللسان الناطق بمحاسنها، تبين للناس ما خفي من الصواب، وتدلهم على الهدى والحق والصلاح، وتحبب الناس في الخير، وتحملهم على فعله وتفند آراء المخالفين، وتجادل الخصوم[(١)].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: الوصية بالنساء:

ويظهر هذا في قوله ﷺ "ألا واستوصوا بالنساء خيرًا..."، والإسلام يوصي بالنساء ويحث على الإحسان إليهن ومعاشرتهن بالمعروف، قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[(٢)].

قال ابن كثير: (أي: طيبوا أقوالكم لهن، وحسنوا أفعالكم وهيئاتكم بحسب قدرتكم، كما تحب ذلك منها فافعل أنت بها مثله)[(٣)].

وأمر النبي ﷺ الرجال أن يستوصوا بالنساء خيرًا، وذلك لأن الضعف ملازم للمرأة، فهي تحتاج إلى من يحسن إليها ويرفق بها[(٤)]. فقال ﷺ: ((اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ أَعْوَجَ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلْعِ أَعْلَاهُ فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا))[(٥)]؛ فينبغي على الداعية أن يوصي بالنساء خيرًا ويذكر وصية الإسلام بهن.

خامسًا- من موضوعات الدعوة: تأديب الزوج لزوجته:

إن من موضوعات الدعوة في هذا الحديث حق تأديب الزوج لزوجته لقوله ﷺ: "... فإن فعلن، فاهجروهن في المضاجع واضربوهن ضربًا غير مبرح..." وهذا حق أعطاه الإسلام للزوج على زوجته - دون تعسف أو ظلم- ولكن بحدود وضوابط وضعها

---

(١) طرق الدعوة الإسلامية، د. أحمد بن محمد العدناني ص ٤٠.

(٢) سورة النساء، من آية: ١٩.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢٤٢/٢.

(٤) كتاب الآداب، فؤاد بن عبدالعزيز الشلهوب ص ٣٤٧.

(٥) أخرجه البخاري ٣٣٣١، ومسلم ١٤٦٨.

الإسلام، قال تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًاۗ﴾[1].

قال السعدي: (قال تعالى: "واللاتي تخافون نشوزهن" أي ارتفاعهن عن طاعةأزواجهن بأن تعصيه بالقول أو الفعل، فإنه يؤدبها بالأسهل فالأسهل "فعظوهن" أي: ببيان حكم الله في طاعة الزوج ومعصيته والترغيب في الطاعة، والترهيب من المعصية، فإن انتهت، فذلك المطلوب، وإلا فيهجرها الزوج في المضجع، بأن لا يضاجعها، ولا يجامعها بمقدار ما يحصل به المقصود، وإلا ضربها ضربًا غير مبرح)[2].

فينبغي للداعية بيان حق الزوج في تأديب زوجته، وبيان حدوده، فلا يكون قاسيًا في التأديب، متسلطًا في استخدام هذا الحق، ويعلم أن هذا التأديب يجب أن يكون على الترتيب لأنه قد ينجح الأول فالأول.

سادسًا- من موضوعات الدعوة: بيان حقوق الأزواج على زوجاتهم، وحقوق الزوجات على أزواجهن:

إن من موضوعات الدعوة في هذا الحديث ذكره ﷺ لبعض الحقوق والواجبات التي بين الأزواج، ويدل على ذلك قوله ﷺ "فحقكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم من تكرهون، ولا يأذن في بيوتكم لمن تكرهون؛ ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن" فبعد ذكره ﷺ لحق الزوج في تأديب زوجته ذكر أن له أيضًا ألا يدخل منزله من يكرهه بدون إذنه. وذكر حقوق الزوجة أن يحسن إليها في الكسوة والطعام، وقد سئل رسول الله ﷺ عن حق المرأة على الزوج؟ فقال: ((أَنْ تُطْعِمَهَا إذَا طَعِمْتَ، وَتَكْسُوَهَا إذَا اكْتَسَيْتَ أو اكْتَسَبْتَ وَلا تَضْرِبِ الْوَجْهَ، وَلا تُقَبِّحْ، وَلا تَهْجُرْ إلاَّ فِي الْبَيْتِ))[3].

---

(١) سورة النساء، آية: ٣٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ١٤٢، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود شرح الطيبي ٢/٣٣٤..

(٣) أخرجه أبو داود ٢١٤٢، وقال الألباني: حسن صحيح (صحيح سنن أبي داود ١٨٧٥).

الحديث رقم (٢٧٧)

٢٧٧- وعن معاوية بن حيدة رضي الله عنه ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُول الله، مَا حق زَوجَةِ أَحَدِنَا عَلَيهِ؟ قَالَ: ((**أنْ تُطْعِمَهَا إِذَا طعِمْتَ، وَتَكْسُوهَا إِذَا اكْتَسَيْتَ**[١]**، وَلاَ تَضْرِبِ الوَجْهَ، وَلا تُقَبِّحْ، وَلا تَهْجُرْ إلاَّ في البَيْتِ**)) حديثٌ حسنٌ، رواه أَبُو داود[٢]، وَقَالَ: معنى ((**لا تُقَبِّحْ**)) أي: لا تقل: قبحكِ اللَّه.

ترجمة الراوي:

معاوية بن حَيْدة: هو معاوية بن حَيْدة بن معاوية بن صعصعة القشيري، له ولأبيه صحبة، وهو جد بهز بن حكيم المحدث الفقيه. روى عنه ابنه حكيم، وهو جد بهز بن حكيم المحدث المشهور.

قال البخاري: وفد على النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه وسأله عن أشياء وروى عنه أحاديث[٣].

نزل البصرة. وقيل: إنه غزا خراسان ومات بها غازيًا[٤].

---

(١) وزاد: (أو اكتسبت).

(٢) برقم (٢١٤٢). قال الحاكم (١٨٧/٢): هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال ابن الملقن في البدر المنير (٢٩٠/٨): هذا الحديث صحيحٌ، وألزم الدارقطني في التتبع (ص: ١٣٦) الشيخين تخريج هذه الترجمة، وهي: حكيم بن معاوية، عن أبيه. وقال في علله كما نقله ابن الملقن: إنه حديث صحيح.

(٣) انظر مسند أحمد (٢٠٠١١/٣٣).

(٤) الطبقات الكبرى، ابن سعد (٣٥/٧) والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٦٧٢ وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٢٠٠/٥) والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ١٢٥٨ ، (٣١٣ ترجمة أبيه) وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين (١٥٢/٧) والتهذيب (١٠٦/٤) والثقات لابن حبان (٣٧٤/٣).

الشرح الأدبي

ما أسمى العلاقة التي تقوم بين الزوجين في ظل القيم الإسلامية، فالمرأة في ظل الإسلام لم تعد فراشًا مستباحًا أو دمية يُتلَهَّى بها، أو عبئًا على المجتمع فتوأد خشية الإملاق، وهربًا من العار، وإنما رد لها الإسلام كرامتها وكيانها، فلم تعد تورث أو توأد، بل شاركت في مسيرة المجتمع الإسلامي الجديد، وأعطاها القرآن قيمتها الإنسانية التي فقدتها في عصور الجاهلية الأولى.

وفي ضوء هذا الواقع الإسلامي نقرأ هذا الحديث النبوي الشريف قراءة تأملية ترصد جماليات الأداء الأسلوبي في البيان النبوي، ونستلخص مقاصد وأهداف الحديث من خلال لغة الحديث، وأسلوبه، وبناء عباراته وتراكيبه، وأول ظاهرة أسلوبية تبرق في هذا الحديث هي: النداء في بداية الحديث، وبعده هذا الحوار المقنع المفيد بين، معاوية بن حيدة رضي الله عنه ورسول الله ﷺ: حيث نادى في تقدير وتصديق ورغبة في معرفة حقوق الزوجة حتى لا يفرط في هذه الحقوق: قال: يا رسول الله ﷺ: ثم سأل "ما حق زوجة أحدنا عليه؟" قال: أي رسول الله ﷺ، ولم يذكر اسم رسول الله ﷺ أو لقبه، وإنما اكتفى بالضمير العائد على رسول الله ﷺ: أي قال: هو: وجعل الضمير المحذوف وجوبًا فاعلاً، وذلك لأن السياق يقتضي أن يكون المجيب هو رسول الله ﷺ، ولا يتوقع غيره، لأنه المسؤول، فبماذا أجاب رسول الله ﷺ على هذا السؤال الذي لم يحصر في إطار حق الزوجة فقط الخاصة بهذا الصحابي، وإنما قال في صيغة عامة شاملة: "ما حق زوجة أحدنا عليه"، فقال المصطفى ﷺ مفصلاً بعض هذه الحقوق، ومنها مأمورات يجب القيام بها، ومنهيات يجب الإقلاع عنها وعدم الزيغ والتردي في أخطائها، فأما المأمور به، فقد جاء في جملتين شرطيتين حيث قال: "أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت"، وأداة الشرط "إذا"، وهي تفيد التحقق فكسوة الزوجة واجبة، وإطعامها واجب، فاستعمال أداة الشرط إذا، في هذا الحديث هو الأبلغ، والأكثر ارتباطًا بالواقع، ونلاحظ أن بداية الجملتين فعلان مضارعان منصوبان، ويمكن أن يؤولا بمصدر، والمضارعية هنا إشارة إلى استمرار هذا النهج

وعدم انقطاعه، لأن المضارع فعل يتوالى حدوثه في الحال والاستقبال، أى الحاضر والمستقبل، ونلاحظ أن فعل الشرط ماضي، "طعمت، واكتسيت"، ولكنهما في إطار الحال والاستقبال، وفي الجملتين تماثل وتشابه، حيث حذف جواب الشرط في كل منهما، وهو يفسر بما قبل أداة الشرط، وفي ذلك إيجاز بليغ عن طريق الحذف، والتقدير، إذا طعمت فأطعمها، وإذا اكتسيت فاكسها، ومع هذه الظواهر الأسلوبية التي ترتفع بلغة الحديث، وهو في ظلها يفيض رقة وترغيبًا، حيث نرى الإيقاع الصوتي المؤثر حيث السجع الجميل غير المتكلف "أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت".

وأما المنهيات التي نهى عنها رسول الله ﷺ وهو يجيب على سؤال هذا الصحابي فقد وردت في صيغة الأمر ثلاث مرات، فقال: "ولا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر إلا في البيت".

والأفعال هنا مضارعة "ولا تضرب، ولا تقبح، ولا تهجر" وهذه الصيغة ترشد إلى وجوبية استمرار هذا السلوك في التعامل مع الزوجة، فالزوجة إذا ضربها ضربًا خفيفًا غير مبرح لا يضرب الوجه تكريمًا وورعًا لأن الوجه عضو لطيف، والشين فيه شنيع، ولا يقبح ولا يذم خلقة الله، فإن ذم الصنعة ذم لخالقها، وكذلك لا يهجر الزوجة، ويهرب إلى بيت آخر أو زوجة أخرى، وإنما يهجر وهو في البيت، حتى لا يزداد نفور المرأة، وتتسع هوة الخلاف بين الزوجين.

والعطف بالواو في جمل الحديث يرشد إلى أن الحقوق كلها متساوية في الفضل، فالواو لمطلق الجمع، وهى تجمع بين المأمورات والمنهيات، فنسأل الله الأمن والأمان والإيمان.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكمين فقهيين:

الأول: حكم نفقة الزوجة، وقد سبق الكلام عنه في الحديث السابق.

الثاني: حكم ضرب الرجل لزوجته، وقد سبق الكلام عنه في الحديث رقم ٦٨.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

ثانيًا: من واجبات المدعو: معرفة ما عليه من حقوق تجاه زوجته.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: حقوق الزوجة على زوجها.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: الأمر بمعاشرة النساء بالمعروف.

خامسًا: من أصناف المدعوين: الأزواج.

أولاً- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

إن من أساليب الدعوة التي تظهر من هذا الحديث أسلوب السؤال والجواب، وهذا يظهر في قول معاوية بن حيدة رضي الله عنه: قلت: يا رسول الله ما حق زوجة أحدنا عليه؟ قال "أن تطعمها إذا طعمت... الحديث" وأسلوب السؤال والجواب من الأساليب الدعوية المهمة التي تجعل المدعو يسأل الداعية عن كل ما خفي عليه ويمكّن الداعية من بيان حقيقة الأمر؛ لأن المدعوين ينظرون إلى الداعية على أنه طبيب قلوبهم ودواء عللهم، ومن ثمَّ يفصحون له بما يستحيون من ذكره أمام خاصتهم وذويهم.

ولا يلجأ الناس لمثل هذا المسلك، إلا إذا علموا بأن الداعية لديه من القدرة العلمية، والبصيرة النافذة، ما يسد خللهم، ويقيل عثراتهم... ومن ثم كان على الداعية - إذا أراد الفلاح والنجاح لدعوته -أن يكون على فقه في دين الله، وأن يستكثر من فترات عمره كلها في العلم النافع، عملاً بقول الله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[1])[2] حتى يكون أهلاً للدعوة، وقادرًا على إجابة أسئله من يلجأ إلى سؤاله من المدعوين.

ثانيًا- من واجبات المدعو: معرفة ما عليه من حقوق تجاه زوجته:

إن من واجبات المدعو التي تظهر من هذا الحديث معرفة ما عليه من حقوق نحو زوجته، وهذا يظهر في قول معاوية بن حيدة رضي الله عنه، قلت: يا رسول الله ما حق زوجة

---

(١) سورة طه، آية: ١١٤.

(٢) أخلاق الدعاة إلى الله تعالى، د. طلعت محمد عفيفي سالم ص ٩٦.

أحدنا عليه؟ والصحابة رضي الله عنهم كانوا إذا سألوا النبي ﷺ فإنما يسألونه ليعملوا لا ليعلموا فقط[(١)].

فهو حريص على معرفة ما عليه من حقوق، حتى ينقاد إليها ويلتزم بها، ذلك لأن المدعو مطالب بالانقياد للحق وتطبيق منهج الله، وطالب الله سبحانه أمة الدعوة جميعًا بالانقياد للحق والاستجابة للرسول ﷺ فقال لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[(٢)].

فيجب على المدعو أن يحرص على معرفة ما عليه من حقوق فإذا استبان له الحق كان مطالبًا بأدائه.

والمسلم مطالب أن يأخذ العلم من أهله قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[(٣)].

قال السعدي: (فاسألوا أهل العلم بذلك ... فإن الله أمر من لا يعلم بالرجوع إليهم في جميع الحوادث، وفي ضمنه تعديل لأهل العلم وتزكية لهم، حيث أمر بسؤالهم)[(٤)] فيجب على المدعو أن يكون حريصًا على سؤال أهل العلم والفقه لأنهم أعلم الناس في تخصصهم وحتى يطمئن قلبه.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: حقوق الزوجة على زوجها:

من موضوعات الدعوة التي يتضمنها الحديث ذكر بعض حقوق الزوجة وذلك في قوله ﷺ "أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت" وحقوق الزوجة على زوجها من الأمور التي أقرها الإسلام قال تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ

---

(١) شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين ٦٦٣/١.

(٢) سورة الأنفال، آية: ٢٤.

(٣) سورة النحل، من آية: ٤٣.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٣٩٤.

قُرُوٓءٍۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًاۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1] أي: وللنساء على بعولتهن من الحقوق واللوازم مثل الذي عليهن لأزواجهن من الحقوق اللازمة والمستحبة، ومرجع الحقوق بين الزوجين إلى المعروف، وهو: العادة الجارية في ذلك البلد، وذلك الزمان من مثلها لمثله، ويختلف ذلك باختلاف الأزمنة والأمكنة، والأحوال، والأشخاص، والعوائد، وفي ذلك دليل على أن النفقة والكسوة والمعاشرة والمسكن وكذلك الوطء - الكل يرجع إلى المعروف، فهذا موجب العقد المطلق، وأما مع الشرط فعلى شرطهما إلا شرطًا أحل حرامًا أو حرم حلالاً[2].

فمبجرد تمام عقد الزواج وتمكن الزوج من الاستمتاع بالزوجة، يلزم الزوج الإنفاق على زوجته، وتوفير ما تحتاجه من مسكن وملبس، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ﴾[3] وقال ﷺ: ((فَاتَّقُوا اللّهِ فِي النِّسَاءِ. فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللّهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللّهِ ... وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ))[4]. وقد أجمع العلماء رحمهم الله على وجوب إنفاق الزوج على الزوجة.

قال ابن قدامة: (اتفق أهل العلم على وجوب نفقات الزوجات على أزواجهن إذا كانوا بالغين إلا الناشز منهن... وفيه ضرب من العبرة وهو أن المرأة محبوسة على الزوج يمنعها من الصرف والاكتساب، فلابد أن ينفق عليها)[5].

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٢٨.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٨٤.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٣٣.

(٤) أخرجه مسلم ١٢١٨.

(٥) المغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١١/٣٤٨.

ولا شك أن إنفاق الرجل على زوجته من أعظم أسباب استقرار الأسرة واستدامة الزواج، كما أنه دليل على علو مكانة المرأة ورفيع منزلتها.

ومن حقوق المرأة على زوجها أن يعاشرها بالمعروف، قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[(١)] ولاشك أن المعاشرة لفظ عام يشمل جميع جوانب الحياة الأسرية والتعاملات الزوجية التي تقع بين الزوجين، وبناء عليه فإن الزوج مطالب بأن يحسن إلى زوجته من جهة تحسين الحديث، والتأدب معها، وعدم تحميلها ما لا تطيق، ومن جهة التجمل لها ومراعاة ما يدخل السرور عليها، والتجاوز عما قد يبدر منها مما يكدر الصفو[(٢)].

فينبغي على الداعية أن يذكر الأزواج بحقوق زوجاتهم عليهم.

إن من موضوعات الدعوة التي دعا إليها الحديث معاشرة النساء بالمعروف وهذا يظهر في قوله ﷺ "... ولا تضرب الوجه ولا تقبح، ولا تهجر إلا في البيت".

وقد أمر الله بمعاشرة النساء بالمعروف قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[(٣)]. وإذا كان الإسلام أعطى الزوج إذا رأى من امرأته نشوزًا وترفعًا عليه. وأنها لا تقوم بحقه، أن يعظها أولاً، ثم يهجرها في المضجع، ثم يضربها ضربًا غير مبرح، فإذا حق له أن يضربها لوجود السبب، فإنه لا يضرب الوجه وذلك للنهي عن الضرب عليه.

ولا يقول لها أنت قبيحه، والنهي عن التقبيح الحسي والمعنوي، فلا يقبحها فيقول: أنت من قبيلة رديئة أو من عائلة سيئة.

ولا يهجر الزوجة علنًا، بل تُهجر في البيت، حتى لا يطلع أحد على ما بينهما[(٤)].

وكل ذلك من المعاشرة بالمعروف التي أمر بها الدين الإسلامي؛ فينبغي على الداعية حث الأزواج على معاملة أزواجهن بالمعروف، وبيان أن ذلك مما أمر به النبي ﷺ.

---

(١) سورة النساء، آية: ١٩.

(٢) القوامة الزوجية أسبابها - ضوابطها - متقضاها، د. محمد بن سعد بن محمد المقرن، بحث ضمن بحوث مجلة العدل، العدد ٣٢ ص ٢٨، ٢٩.

(٣) سور النساء، من آية: ١٩.

(٤) شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين، ١/٦٦٣، ٦٦٤.

خامسًا- من أصناف المدعوين: الأزواج:

إن من أصناف المدعوين في هذا الحديث الأزواج، وهذا يظهر من أن معاوية بن حيدة يسأل عما عليه من حقوق كزوج تجاه زوجته.

والأزواج من أصناف المدعوين، لأنهم عنصر أساس من عناصر الأسرة والمجتمع، وقد أعطاهم الإسلام حق القوامة على الزوجة وولاية التأديب، قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾[1].

قال رسول الله ﷺ ((كلكم راع ومسؤول عن رعيته...، والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته...))[2].

والإسلام اهتم بدعوة الزوج وبيان ماله من حقوق وما عليه من واجبات، حتى تستقر الحياة الزوجية، وتشيع المودة والرحمة بين الزوجين؛ فينبغي على الداعية الاهتمام بدعوة الأزواج إلى أداء ما عليهم من حقوق لزوجاتهم بالمعروف، وأن يحسنوا عشرتهن وأن يتقوا الله تعالى في العلاقة الموجودة بينهم والتي تقوم على السكن والمودة والرحمة.

---

(١) سورة النساء، آية: ٣٤.

(٢) أخرجه البخاري ٨٩٣.

الحديث رقم (٢٧٨)

٢٧٨- وعن أَبي هريـرة رضي الله عنه ، قَالَ: قَالَ رَسُول الله صلى الله عليه وسلم : ((**أَكْمَلُ المُؤمِنِينَ إيمَانًا أحْسَنُهُمْ**[١] **خُلُقًا، وخِيَارُكُمْ خياركم لِنِسَائِهِمْ**)) رواه الترمذيُّ[٢] ، وَقالَ: ((حديث حسن صحيح)).

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

إن لشخصية المسلم معالم وسلوكيات تصبغها بصبغة الإسلام، وتضفي عليها هالة من الوقار والالتزام والهيبة والانسجام، ومن هذه المعالم، الثبات، والتوازن، وحسن الخلق، والخلق الحسن، ملكة تبعث النفس على أفعال حميدة، واكتساب قيم شريفة؛ يقول الحسن البصري: حسن الخلق: بذل المعروف وكف الأذى، وطلاقة الوجه.

وحين نتأمل مكونات هذا الحديث الشريف، نجده يتكون من جملتين أو بارقتين من بوارق ومعالم شخصية المسلم، البارقة الأولى: تشع بقيمة إيمانية تتوهج في سلوكيات المؤمن الذي اكتمل إيمانه وهى حسن الخلق، ولذلك يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم : "أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا".

وهذه البارقة الإيمانية... تعد مقدمة وتمهيدًا للبارقة الثانية، التي تمثل قيمة إيمانية اجتماعية، تعلن عن حياة أسرية هانئة، تنعم بالسكن والمودة والرحمة، وهي حسن معاملة الزوج لزوجته ولأسرته بصفة عامة، حيث يعامل زوجته -كما قال العلماء- بطلاقة الوجه،وكف الأذى، والإحسان إليها، والصبر على أذاها، وكلمات المصطفى

---

(١) لفظ الترمذي: (أحسبهم).

(٢) برقم (١١٦٢). وصحّحه ابن حبان (الإحسان ٤٧٩)، وقال الحاكم (٣/١): هذا حديث صحيح لم يخرج في الصحيحين، وهو صحيح على شرط مسلم بن الحجاج. أورده المنذري في ترغيبه (٢٨٧٦). وسيكرره المؤلف برقم (٦٢٨).

ﷺ تُجْمل هذه المعاني، وتومض بها في قوله: "وخياركم خياركم لنسائهم"، وفي ذلك أيضًا إشارة إلى صلة الرحم والحث عليها، وذلك لن يكون إلا بحسن الخلق الذي هو من أمارات كمال الإيمان، وذلك من أسرار تقديم الجملة الأولى في الحديث على الثانية.

والجملتان اسميتان، لا تقيدان بحدث داخل إطار زمني محدد: لأن هاتين القيمتين ثابتتان في سلوكيات المؤمن، وفي منهجه الحياتي في كل مراحل حياته، والجملة الاسمية من خصائصها الثبات بعيدًا عن التغير والتحول والانقطاع، الذي يتسم به الحدث داخل إطار الزمن في الجمل الفعلية.

والحديث في بنائه اللغوي يتسم بالتناسق والتوازن، وكأنه صدى لغوي وتعبيري لسلوك المؤمن الذي اكتمل إيمانه وحسن خلقه، فهو أفضل الخلق في إطار هذا السلوك، ولذلك نرى الجملة الأولى تبدأ بأفعل التفضيل، وهو "أكمل" المضاف إلى "المؤمنين"، ثم يأتي التمييز وهو "إيمانًا"، وهذا التمييز في حقيقة الأمر هو فاعل معنوي، لأن المعنى، اكتمل إيمان المؤمن، وهذا التفضيل هنا "أكمل"، في موقع المبتدأ، ثم نجد الركن الثاني للجملة، يأتي في صيغة أفعل التفضيل كذلك، وهو "أحسن" مضافًا إلى ضمير الغائب العائد على المؤمنين، وحتى يتم التناسق، والتوازن اللغوي الموازي للتوازن السلوكي والنفسي نجد كلمة "خلقًا" وهى نكرة في موقع التمييز، وهى أيضًا فاعل معنوي، تمييز محول عن الفاعل: والمعنى: حسن خلق المؤمن.

ولنتأمل السر التعبيري والدلالي في اختيار لفظ المؤمنين، ولماذا لم يقل أكمل الناس أو أكمل الخلق، لأن بلاغة الرسول ﷺ تفاضل بين مؤمن ومؤمن في هذا السياق، أما غير المؤمن فهو خارج هذا الدائرة التفاضلية إلى أن يتوب ويثوب إلى رشده، وينعم الله عليه بالإيمان، وهو التصديق بالجنان، والإقرار باللسان، والعمل بالأركان.

وأما البارقة الثانية في هذا الحديث فهي من فيوضات وتألقات البارقة الأولى، فحسن الخلق الناشئ من كمال الإيمان، يقود المرء إلى معاملة أهل بيته معاملة حسنة، وقد كرر الرسول ﷺ: لفظ "خياركم" مرتين لتأكيد قيمة "الخبرية"، وفي هذه

الجملة التفات من الغائب إلى المخاطب، حيث خاطب الرسول ﷺ المؤمنين الذين حسن خلقهم بضرورة استثمار هذا الخلق في محيط الأسرة، ومعاملة النساء معاملة طيبة فيها صدق في المشاعر وتلطف في الحديث، وصبر على عوجهن الذي خلقن به، وحرص على التصالح والوئام، وبعد عن التشاجر والخصام، ويقول العقاد: والمعاملة الطيبة في الزمن الطويل خلق نادر بين الناس، ولكنه في حال الرضا خلق لا يشق فهمه على كثيرين، إلا أن الخلق الذي يشق فهمه على الأكثرين، هو طيب المعاملة عندما تتعرض الحياة الزوجية لأخطر ما يمسها من خطر، وهو المساس بالوفاء.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: تفاوت درجات الإيمان.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل حسن الخلق.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل الإحسان للنساء.

خامسًا: من واجبات الداعية: حث المدعوين على مكارم الأخلاق.

سادسًا: من أهداف الدعوة: حسن معاملة الزوج لزوجته.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار:

إن من أساليب الدعوة التي تظهر من هذا الحديث أسلوب الإخبار ويظهر في قوله ﷺ "أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، وخياركم خياركم لنسائهم".

وأسلوب الإخبار من الأساليب الدعوية المهمة، لأنه من خلاله تتم عملية التبليغ. (وذلك لأن الدعوة إلى الله تعالى من الأمور التي لا غنى للبشرية عنها قديمًا وحديثًا، فدعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام كانت لإنقاذ الناس من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ومن عبادة المخلوق إلى عبادة الخالق، ودور الدعاة بيان معالم الدين، وإخبار الناس بحقائقه)[1].

---

(١) انظر: أصناف المدعوين، د. حمود بن أحمد الرحيلي ص ١٩.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: تفاوت درجات الإيمان:

ويظهر هذا في قوله ﷺ "أكمل المؤمنين إيمانًا..."؛ فالإيمان يتفاوت ويتفاضل كما قال الله تعالى: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾[1] وليس الناس في الإيمان سواء؛ من الناس من يؤمن بالغيب وكأنه يشاهده شهود عيان، يؤمن بيوم القيامة كأنه الآن في تلك الساعات، يؤمن بالجنة وكأنها ماثلة أمامه، يؤمن بالنار كأنه يراها بعينه، يؤمن إيمانًا حقيقيًا لا يخالطه شك[2].

ومن الناس من يكون مزعزع الإيمان - نسأل الله العافية-كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾[3] يعني على طرف "فإن أصابه خير" يعني إن لم يواجه أحدًا يشككه في الدين، ولم يواجه إلا صلحاء يعينونه "اطمأن به" أي ركن إليه ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ﴾[4] إن أصابته فتنة في بدنه أو ماله، أو أهله، انقلب وجهه واعترض على القضاء والقدر، تسخط وهلك -والعياذ بالله- (خسر الدنيا والآخرة)[5]؛ فينبغي على الداعية دعوة المدعوين إلى ما يزيد إيمانهم ويثبتهم عليه، وينهاهم عما ينقص إيمانهم.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل حسن الخلق:

لما كانت ثمرات الخلق القويم للسلوك الديني وللسلوك الشخصي عظيمة جدًا وكانت عند المقارنة أجلَّ من الثمرات التي تحققها المبالغة في أداء كثير من العبادات المحض.

ولما كانت سلامة النفس من المساوئ الخلقية أهم من سلامة السلوك الظاهر من

---

(١) سورة المدثر، من آية: ٣١.

(٢) شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين، ٦٦٤/١.

(٣) سورة الحج، من آية: ١١.

(٤) سورة الحج، من آية: ١١.

(٥) شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين، ٦٦٤/١.

طائفة من المعاصي والذنوب الظاهرة، وكان ما يتحقق بحسن الخلق من رضوان الله تعالى أكثر مما يتحقق بالاستكثار من نوافل العبادات المحضة، كالصلاة والصيام والأذكار اللسانية.

لما كان كل ذلك وجدنا النصوص الإسلامية توجه الاهتمام العظيم والعناية الكبرى لقيمة حسن الخلق في الإسلام، وتذكر الخلق الحسن بتمجيد كبير[١]. وهذا يظهر في قوله ﷺ "أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا".

وحسن الخلق لا تخفى في الدين فضيلته، وهو الذي مدح الله سبحانه به نبيه ﷺ إذ قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٢].

وقال ﷺ: ((أَكْثَرَ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ، تَقْوَى الله وَحُسْنُ الْخُلُقِ))[٣] فحسن الخلق يثمر بين المسلمين المودة والرحمة والألفة، فينبغي على الداعية دعوة المدعوين إلى حسن الخلق فيما بينهم.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل الإحسان للنساء:

لقد أولى الإسلام النساء اهتمامًا خاصًا، وحث على معاشرتهن بالمعروف والإحسان إليهن. وهذا يظهر في قوله ﷺ "خياركم خياركم لنسائهم".

قال رسول الله ﷺ ((خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لاِهلِي))[٤]، وكان من أخلاقه ﷺ أنه جميل العشرة دائم البشر، يداعب أهله، ويتلطف بهم، ويوسعهم نفقته، ويضاحك نساءه، حتى إنه كان يسابق عائشة أم المؤمنين يتودد إليها بذلك[٥]. قالت: ((سابقني النبيّ ﷺ فسبقته فلبثنا حتى إذا رَهَقَني اللحم سابقني فسبقني، فقال: هذهِ بَتِلكَ))[٦].

---

(١) الوجيزة في الأخلاق الإسلامية، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني ص ٤٨.

(٢) سورة القلم، آية: ٤.

(٣) أخرجه الترمذي ٢٠٠٤، وقال الألباني: حسن الإسناد (صحيح سنن الترمذي ١٦٣٠).

(٤) أخرجه ابن ماجه ١٩٧٧، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ١٦٠٨).

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢/ ٢٤٢.

(٦) أخرجه النسائي في السنن الكبرى برقم ٨٩٤٢، وابن ماجه برقم ١٩٧٩، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ١٦١٠).

ويجتمع نساؤه كل ليلة في بيت التي يبيت عندها رسول الله ﷺ فيأكل معهن العشاء في بعض الأحيان، ثم تنصرف كل واحدة إلى منزلها، وكان ينام مع المرأة من نسائه في شعار[١] واحد، يضع عن كتفيه الرداء وينام بالإزار، وكان إذا صلى العشاء يدخل منزله يسمر مع أهله قليلاً قبل أن ينام يؤانسهم بذلك ﷺ[٢]، وقد قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[٣] فينبغي على المسلمين التأسي برسول الله ﷺ في الإحسان إلى النساء.

خامسًا- من واجبات الداعية: حث المدعوين على مكارم الأخلاق:

من واجبات الداعية التي تستنبط من عموم الحديث الحث على مكارم الأخلاق.

وهذا يظهر من بيانه ﷺ أن أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، فهو يدعو إلى مكارم الأخلاق ويحث عليها، حتى يكمل الإيمان؛ فالداعية يجب عليه أن يتأسى برسول الله ﷺ في الحثّ على مكارم الأخلاق، وذلك لأن أيَّ مجتمع من المجتمعات الإنسانية لا يستطيع أفراده أن يعيشوا متفاهمين متعاونين سعداء، ما لم تربط بينهم روابط متينة من الأخلاق الكريمة[٤]. فيجب على الداعية حث المدعوين على التحلي بمكارم الأخلاق.

من أهداف الدعوة التي يتضمنها الحديث حسن معاملة الزوج لزوجته، فالدعوة تهدف إلى الخير دائمًا، وتحاول أن يصل الإنسان إلى تمام الخير وكماله، فشرعت لأجله كثيرًا من التعاليم كل منها له هدفه الخاص لتصل في النهاية إلى الهدف الرئيسي الذي ترجوه الدعوة لاتباعها ألا وهو تحقيق السعادة[٥]، وحسن معاملة الزوج لزوجته من الأشياء الي تحقق السعادة الزوجية، وتدعو إلى الاحترام المتبادل.

---

(١) الشعار: ما ولي شعر جسد الإنسان دون ما سواه من الثياب، انظر: لسان العرب في (ش ع ر).

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ٢/٢٤٢.

(٣) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

(٤) انظر: الوجيزة في الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني ص ٣٣.

(٥) انظر: الدعوة الإسلامية، د. أحمد غلوش ص ٢٩.

فإن من حقوق الزوجة على زوجها أن يعاشرها بالمعروف، قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ﴾[1] ولاشك أن المعاشرة لفظ عام يشمل جميع جوانب الحياة الأسرية، والتعاملات الزوجية التي تقع بين الزوجين، وبناء عليه فإن الزوج مطالب بأن يحسن إلى زوجته من جهة تحسين الحديث، والتأدب معها، وعدم تحميلها ما لا تطيق، ومن جهة التجمل لها ومراعاة ما يدخل السرور عليها، والتجاوز عما قد يبدر منها مما يكدر الصفو.

(١) سورة النساء، آية: ١٩.

الحديث رقم (٢٧٩)

٢٧٩- وعن إياس بن عبد الله بن أَبي ذُباب ﵁، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: ((لاَ تَضْرِبُوا إمَاء الله)) فجاء عُمَرُ ﵁ إِلَى رسولِ الله ﷺ، فَقَالَ: ذَئِرْنَ النِّسَاءُ عَلَى أزْوَاجِهِنَّ، فَرَخَّصَ فِي ضَرْبِهِنَّ، فَأطَافَ بِآلِ رَسُول الله ﷺ نِسَاءٌ كَثِيرٌ يَشْكُونَ أزْوَاجَهُنَّ، فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: ((لَقَدْ أطَافَ[1] بِآلِ بَيتِ مُحَمَّدٍ نِسَاءٌ كثيرٌ يَشْكُونَ أزْوَاجَهُنَّ لَيْسَ أولَئكَ بخيَارِكُمْ)) رواه أَبُو داود[2]، بإسناد صحيح.

قوله: "ذَئِرْنَ" هو بذال معجمة مفتوحة ثم همزة مكسورة ثم راء ساكنة ثم نون، أي: اجْتَرَأْنَ، قوله: "أطاف" أي: أحاط.

ترجمة الراوي:

من أهل مكة.

مختلف في صُحبته، وله رواية عن النبي ﷺ[3].

إماء الله: الإماء: جمع أمة، أي زوجاتكم[4].

الشرح الأدبي

إن البيان النبوي يتسم بدقة العبارة، وصحة المعنى، وسلامة القصد، والمعنى والمبنى يمتزجان في الحديث النبوي الشريف، والفكر والأسلوب يتعانقان في هذا البيان

---

(١) لفظ أبي داود: (طاف).

(٢) برقم (٢١٤٦). وصحّحه ابن حبان (الإحسان ٤١٨٩)، وقال الحاكم (١٨٨/٢): هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال ابن الملقن في البدر المنير (٥٠/٨): صحيح.

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي (١٠٢)، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر (٦٩)، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٣٣٨/١)، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين (٣٠١/١)، تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (١٩٦/١).

(٤) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ٩٥٤.

المشرق، ليقدما للبشرية المنهج الإسلامي السديد المنبثق من هدْي القرآن العظيم.

وهذا الحديث يعد نموذجًا للحوار المقنع، والتدرج التشريعي، والحكمة في استقبال المواقف، وإصدار الأحكام، فالحديث في سياق الوصية بالنساء، وبدايته نهي من رسول الله ﷺ عن ضرب النساء، وجاء النهي صريحًا في هذه الجملة المفتاحية التي جاءت في صدر الحديث "لا تضربوا إماء الله".

وتحذف أحداث كثيرة، منها كيفية استقبال مجتمع النساء لهذا الأمر، وكذلك مجتمع الرجال.

فالرجال امتثلوا لأمر رسول الله ﷺ وانتهوا عن ضرب نسائهم، ولكن النساء "ذئرن على أزواجهن" كما أخبر عمر رضي الله عنه رسول الله ﷺ، وجاء إخباره سريعًا بعد أن شاهد ما شاهد من اجتراء النساء على أزواجهن، وهذه السرعة في تعقب الأمور، والحسم، في إنجازها، هي طبيعة عمر فهو شديد في غير عنف، رحيم في غير ضعف، والعطف بالفاء في قوله: "فجاء عمر" هو الذي أوحى بهذه السرعة في إبلاغ رسول الله ﷺ بما يحدث بعد النهي عن ضرب النساء، والتعبير بقوله: "ذئرن النساء" يصور التوتر والقلق والغضب في طبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة، لأن المادة اللغوية لهذا الفعل تعني الفزع والأنفة والاجتراء والغضب، ومجيء الفعل جمعًا رغم مخالفته للقياس النحوي، وتوافقًا مع لغة "أكلوني البراغيث"، يوحي بأن هذا الغضب جماعي من النساء، فالكلمة في مبناها إضاءة لدلالاتها ومعناها.

ويقال: ذئرت المرأة على بعلها أى نشزت، ويقال : ناقة مُذائر: تنفر من الولد ساعة تضعه أو ترأم بأنفها، ولا يصدق حبها، فانظر دلالات هذه الكلمة، وتأمل إشعاعاتها، وتأمل فصاحة ابن الخطاب: بكلمة واحدة يصور الموقف، ويحدد المشكلة، وينوه بالخطر، ولا غرو فهو الفاروق عمر رضي الله عنه !!!.

ويستجيب المصطفى ﷺ لشكوى عمر رضي الله عنه، وموقفه: ويحكي الراوي: سرعة استجابة رسول الله ﷺ في قوله: "فرخص في ضربهن"، وتأمل: العطف بالفاء وهي للترتيب والتعقيب، وتأمل كذلك التعبير بالفعل "رخص"، ولم يقل أمر، لأن الرخصة

أدق وأنسب وهي للاختيار، وكما قال العلماء في تحديد مفهومها هي تغيير الحكم من صعوبة إلى سهولة للعذر مع قيام سبب حكم الأصل؛ وسبب المنع من الضرب أولاً الرفق بهن، وهو قائم حال إباحته للعذر، وهو دوام الزوجية، والقيام بحقوقها عند من ترك ذلك – كما جاء في دليل الفالحين، فقوله: "رخص في ضربهن" أبلغ وأدق من قوله: أمر بضربهن[(١)].

ويترتب على هذه الرخصة موقف آخر، وحدث أخطر، وهو أن الرجال لم يستعملوا الرخصة حسب الشرع استعمالاً حكيمًا في ضوء السكن والمودة والرحمة، ولكنهم بالغوا في تطبيق هذه الرخصة الاختيارية، فأطاف بآل رسول الله نساء كثير يشكون أزواجهن، ولفظ "أطاف"، يصور الحركة والحوار، والجدل، والشكوى، وكل ذلك عبر أحاديث تموج بمتعلقات الحدث، وتفاصيل الموقف، والعطف بالفاء في قوله: "فأطاف" يدل على سرعة المواجهة والحركة، ورسول الله ﷺ لم يترك الأمر، ولكنه أسرع بعد معرفته بهذه الشكاوى، وأعاد تشخيص الموقف وتوصيفه للتأكيد على أهميته، وضرورة القضاء على هذه الظاهرة فقال: "ليس أولئك بخياركم"، أي الذين يضربون زوجاتهم ضربًا مبرحًا يلجئ إلى الشكوى والغضب، ليسوا بخياركم: وقال: "خياركم خياركم لنسائهم"[(٢)].

فقه الحديث

يشتمل هذا الحديث على حكم فقهي يتعلق بباب نشوز الزوجة، وهو الضرب.

اتفق الفقهاء على أنه لا يجوز للزوج أن يسلك طريق الضرب مع زوجته إلا بعد الموعظة والهجر، فإن أقامت على النشوز ضربها.

كما اتفق الفقهاء على جواز تأديب الزوجة إذا نشزت، لأن النبي ﷺ أخبر بذلك عندما سؤل عن الضرب، لكنه اختار لهم أن لا يضربوا.

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٤٨٣.

(٢) أخرجه الترمذي برقم ١١٦٢ وقال حديث حسن صحيح.

"وضابط الضرب" عند الفقهاء ألا يبلغ حدًا، ولا يكون مبرحًا، ولا دميمًا، يتقي فيه الوجه، فإن لم يأخذ بمحاذير هذا القيد عليه الفدية.

ولا يجوز للزوج ضرب زوجته بغير نشوز، ومتى تركت النشوز لم يحل هجرها ولا ضربها[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النهي.

ثانيًا: من صفات الداعية: مراعاة أحوال المخاطبين في الإفتاء.

ثالثًا: من حقوق المدعو: مراجعة الداعية في فتواه لمعرفة عواقبها.

أولاً- من أساليب الدعوة: النهي:

ورد النهي في قوله ﷺ: "لا تضربوا إماء الله"، فنهى عن الضرب، وأسلوب النهي يشعر المدعو بأهمية الامتثال في البعد عما نهى عنه، فينبغي للداعية أن يفيد في دعوته من هذا الأسلوب الدعوي.

ثانيًا- من صفات الداعية: مراعاة أحوال المخاطبين في الإفتاء:

من صفات الداعية التي تظهر من خلال الحديث مراعاة أحوال المخاطبين في الإفتاء وهذا يظهر في نهيه ﷺ عن ضرب النساء، وعندما رأى أن النساء اجترأن على الرجال رخّص في ضربهن، فلما زاد الرجال عن الحد المأمور به من الضرب واشتكت النساء، فبين أن من يفعل ذلك ليس من خيارهم.

إن مما ينبغي للداعية مراعاته في الإفتاء النظر إلى حال السائل، فكم من مسائل تختلف أحكامها باختلاف أحوال الناس، فيصير ما كان مستحبًا بالنسبة لشخص واجبًا على شخص آخر، بل قد يكون الواجب على شخص حرامًا على شخص آخر

---

(١) الأحكام السلطانية الماوردي ٢٦٩، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود شرح الطيبي ٣٣٥/٢، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ٨٩/٧، الأم، الشافعي ١٢٠/٥، ٢٠٨، ومختصر المزني ص ٢٩٠، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢٤٩/٧، والمحلى، ابن حزم ١٧٦/٩.

بسبب اختلاف الأحوال والظروف لكل واحد[(١)]، فلكل مقام مقال، فعلى الداعية أن يتعرف على نوعية المخاطبين ومشكلاتهم وقضاياهم، وأن يعالج كل قضية في دعوته بما يلائمها، وبذلك يجد الداعية في خطابه مدخلاً إلى نفوس المخاطبين[(٢)].

فإذا كان قال بفتوى، ثم وجد غيرها خيرًا منها، فعليه أن يرجع إلى الصواب، وهذا ما بينه عمر بن الخطاب رضي الله عنه في كتاب القضاء (ولا يمنعك قضاء قضيت به اليوم فراجعت فيه رأيك وهديت فيه لرشدك أن تراجع فيه الحق، فإن الحق قديم ولا يبطله شيء، ومراجعة الحق خير من التمادي فيه) قال ابن القيم: يريد أنك إذا اجتهدت في حكم ثم وقع لك مرة أخرى، فلا يمنعك الاجتهاد الأول من إعادته، فإن الاجتهاد قد يتغير، ولا يكون الاجتهاد الأول مانعًا من العمل بالثاني إذا ظهر أنه الحق، فإن الحق أولى بالإيثار؛ لأنه قديم سابق على الباطل، فإن كان الاجتهاد الأول قد سبق الثاني والثاني هو الحق، فهو أسبق من الاجتهاد الأول، لأنه قديم سابق على ما سواه، ولا يبطله وقوع الاجتهاد الأول على خلافه، بل الرجوع إليه أولى من التمادي على الاجتهاد الأول[(٣)]. فيجب على الداعية: مراعاة أحوال المخاطبين في الإفتاء.

ثالثًا- من حقوق المدعو: مراجعة الداعية في فتواه لمعرفة عواقبها:

يظهر ذلك في مراجعة الصحابة رضي الله عنهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم في أمره بعدم ضرب النساء، وكذلك شكوى النساء من قسوة ضربهن عندما أباحه صلى الله عليه وسلم، فالإسلام كفل للمدعو الحق في مراجعة الداعية في فتواه لمعرفة عواقبها، وهذا كان حال الصحابة رضي الله عنهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خفي عليهم حكم، أو تضرروا من فتوى والشواهد على ذلك كثيرة، منها:

---

(١) انظر: من صفات الداعية: مراعاة أحوال المخاطبين في ضوء الكتاب والسنة وسير الصالحين، د. فضل إلهي ص ١٦٢.

(٢) الدعوة إلى المضامين الحميدة في الحج، د. محمد بن إبراهيم بن سليمان الرومي، بحث ضمن مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد ٥٥، ٢/٥٦٨.

(٣) إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، تحقيق: رائد صبري بن أبي علفة ص ٨٠.

قوله ﷺ: ((إذا الْتقَى المُسْلِمان بسَيْفَيْهما فالْقاتِلُ والمقتولُ في النار. فقلتُ: يا رسولَ اللّهِ هذا القاتِلُ، فما بالُ المقتول؟ قال: إنه كان حَرِيصًا على قتلِ صاحبه))[1].

وكذلك مراجعة سعد بن عبادة رضي الله عنه لرسول الله ﷺ لما نزل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا﴾[2]، قال سعد بن عبادة رضي الله عنه -وهو سيد الأنصار- هكذا أنزلت يا رسول الله[3]، ومراجعة الصحابة لرسول الله ﷺ ليست لإنكار الفتوى، بل لمعرفة عواقبها وآثارها عليهم.

فيحق للمدعو مراجعة الداعية في فتواه، حتى يعرف عواقب هذه الفتوى، دون إنكار من الداعية على هذه المراجعة. ويشهد لذلك في حديث الباب، "لقد طاف بآل ببيت محمد نساء كثير يشكون أزواجهن، ليس أولئكم بخياركم" فهذه شكوى لرسول الله ﷺ ظهر منها طلب النظر في الفتوى التي صدرت من قبل، لأنه وقع عليهن ضرر جراء هذا الضرب.

---

(١) أخرجه البخاري ٣١، ٦٨٧٥، ٧٠٨٣، ومسلم ٢٨٨٨.

(٢) سورة النور، آية: ٤.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٥/٦.

الحديث رقم (٢٨٠)

٢٨٠- وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ، قَالَ: ((**الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيرُ مَتَاعِهَا المَرْأَةُ الصَّالِحَةُ**)) رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمرو بن العاص: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٣٨).

غريب الألفاظ:

متاع: المتاع: كل ما ينتفع به ويُرغب في اقتنائه، كالطعام، وأثاث البيت، والسلعة والأداة والمال، والمراد أنه ينتفع بها إلى وقت معلوم[٢].

الشرح الأدبي

ما أجل النعم التي أنعم الله بها على الإنسان، وما أعظم المنن الإلهية، والعطاءات الربانية التي منحها الله لخلقه من الإنس والجان، في الدنيا والآخرة، ومتاع الدنيا متعدد ومتنوع، وهو يتجدد ويزداد كلما تقدم الزمن، وتطورت الاكتشافات، ولكن هذا المتاع مهما تكاثر، ومهما تنوع فهو قليل ضئيل أمام ما يدخره الله لعباده المؤمنين الذين شكروا الله على نعمه عليهم في الدنيا، والتي لا تعد ولا تحصى، قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْأَٰخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾[٣].

ومتاع الدنيا قد يلقي بالإنسان إلى التهلكة، وقد يأخذ بيده إلى طريق النجاة، وفي سورة آل عمران ينبه الخالق عز وجل عباده إلى أن يفطنوا للنعيم الأبقى في الدار الآخرة، وذلك بالتقوى والعمل الصالح في دنياهم، قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[٤].

---

(١) برقم (١٤٦٨/٦٤). أورده المنذري في ترغيبه (٢٨٥٩).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير والوسيط في (م ت ع).

(٣) سورة النساء، آية: ٧٧.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٥.

والحديث الشريف يبدأ بهذه الجملة المشعة بكثير من التوجيهات والدلالات والإيحاءات: حيث يقول رسول الله ﷺ: "الدنيا متاع"، وكلمة متاع تحمل كل أنواع الزينة في الدنيا، من حب النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، والجذر اللغوي لهذه الكلمة يفيد الظهور والارتفاع والشدة، والجودة والرجحان، وكل ما سبق من أنواع الزينة يتضمن ذلك، ولكنه لا يكون مجديًا إلا إذا كان متلبسًا بالعمل الصالح: ففي اللغة يقولون: متع النهار متوعًا: أي ارتفع قبل الزوال، ومتع الضحى: أي بلغ آخر غايته، ويقولون: متع السراب: أي ارتفع، ومتع الحبل أي : اشتد، وقالت العرب والماتع: الطويل والجيد من كل شيء، والفاضل المرتفع من الموازين[1].

وفي ضوء هذه الدلالات لمادة "متع" ندرك القيمة البيانية والبلاغية لقول رسول الله ﷺ الدنيا متاع، ومجيء الجملة في إطار الثبات وهو اسميتها، يؤكد أن الدنيا مقترنة بهذا المتاع الذي يتعدد ويختلف من شخص لآخر، ومن زمن لآخر، ولكن هذا المتاع في أفضل صورة له هو المرأة الصالحة، ولذلك قدم رسول الله ﷺ خيرية المتاع على المرأة الصالحة، لأنه إذا وجدت المرأة وهي غير صالحة، كان المتاع فاقدًا لخيريته، وصلاحيته، فالمتاع الحلال كثير... وكله خير، ولكن أفضل متاع هو المرأة الصالحة.

---

(١) القاموس المحيط، الفيروز آبادي، في (م ت ع).

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم النكاح في الإسلام، وقد اتفق الفقهاء[1] على أن النكاح تجرى عليه الأحكام التكليفية الخمسة: فهو واجب على من له شهوة النكاح ويخاف على نفسه الوقوع في الزنا، فيكون النكاح حينئذ عاصمًا له ومحصنًا له من ذلك، فإن كانت عنده الشهوة ولم يخف على نفسه الوقوع في الزنا، فهو في حقه سنة، فإن كانت الشهوة عنده ساكنة كان النكاح في حقه مباحًا، وإن كان يظن في نفسه عدم القدرة على الإنفاق أو الوطء، كان النكاح في حقه مكروهًا، وإن أيقن أنه عاجز عن الوطء ولا يستطيع تحصين امرأته، كان النكاح في حقه حرامًا.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: الإخبار بحقيقة الدنيا.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: الترغيب.

ثالثًا: من واجبات الداعية: بيان الحقائق للمدعوين.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الإخبار بحقيقة الدنيا:

ويظهر هذا في قوله ﷺ "الدنيا متاع" والدنيا في حقيقتها متاع زائل، وهذا ما أقره المولى تبارك وتعالى في كتابه قال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ

---

(١) انظر: في ذلك تفصيلاً: تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ٩٤/٢ وما بعدها، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود شرح الطيبي ٢٢٨/٢ وما بعدها، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد المغربي ٤٠٣/٣ وما بعدها، وحاشية الدسوقي على الشرح الكبير، محمد بن عرفة الدسوقي ٢١٤/٢ وما بعدها، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ١٠٧/٣ وما بعدها، وتحفة المحتاج ١٨٣/٧ وما بعدها، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٦/٥ وما بعدها، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي وما بعدها.

مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[١].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: يقول تعالى موهنًا أمر الحياة الدنيا ومحقرًا لها (أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتكاثر في الأموال والأولاد). أي أنما حاصل أمرها عند أهلها هذا، كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾[٢].

ثم ضرب تعالى مثل الحياة الدنيا في أنها زهرة فانية ونعمة زائلة فقال: "كمثل غيث" وهو المطر الذي يأتي بعد قنوط الناس، وقوله: "أعجب الكفار نباته" أي:يعجب الزراع نبات ذلك الزرع الذي نبت بالغيث؛ وكما يعجب الزراع ذلك كذلك تعجب الحياة الدنيا الكفار، فإنهم أحرص شيء عليها. "ثم يهيج فتراه مصفرًا ثم يكون حطامًا" أي: يهيج الزرع فتراه مصفرًا بعد ما كان خضرًا نضرًا، ثم يكون بعد ذلك كله حطامًا، أي يصير يبسًا متحمطًا، هكذا الحياة الدنيا تكون أولاً شابة ثم تكتهل، ثم تكون عجوزًا شوهاء، والإنسان كذلك يكون شابًا في أول عمره طريًا ثم يصير عجوزًا ضعيفًا، ولما كان هذا المثل دالاً على زوال الدنيا وانقضائها وفراغها لا محالة، وأن الآخرة هي الباقية والكائنة، حذر من أمرها، ورغب فيما فيها من الخير. فقال تعالى: ﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ فالدنيا هي متاع فانٍ غارٌ لمن ركن إليه، فإنه يغتر بها وتعجبه حتى يعتقد أنه لا دار سواها ولا معاد وراءها، وهي حقيرة قليلة بالنسبة إلى الدار الآخرة[٣].

---

(١) سورة الحديد، آية: ٢٠.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٤.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢٥/٨.

وفي هذا الحديث بيّن النبي ﷺ أن الدنيا متاع وخير متاعها الزوجة الصالحة، لأن كل متاع الدنيا سيفنى، إلا أن الزوجة الصالحة هي التي تعين زوجها على طاعة الله وتقواه، وهذا هو الذي سيبقى للإنسان بعد رحيله عن الدنيا.

ثانيًا- من أساليب الدعوة: الترغيب:

من أساليب الدعوة في هذا الحديث الترغيب وهذا في قوله ﷺ "الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة" الحديث.

فقد رغب رسول الله ﷺ في اختيار الزوجة الصالحة؛ لأنها تكون معينة للإنسان على طاعة الله وقد قال ﷺ ((لِيَتَّخِذْ أَحَدُكُمْ قَلْبًا شَاكِرًا، وَلِسَانًا ذَاكِرًا، وَزَوْجَةً مُؤْمِنَةً، تُعِينُ أَحَدَكُمْ عَلَى أَمْرِ الآخِرَةِ))[1].

وقد بيّن رسول الله ﷺ الخصال التي تنكح لأجلها المرأة فقال: ((تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا ، وَلِجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ))[2].

قال ابن حجر: قوله "فاظفر بذات الدين" المعنى أن اللائق بذي الدين والمروءة، أن يكون الدين مطمع نظره في كل شيء، لا سيما فيما تطول صحبته، فأمره النبي ﷺ بتحصيل صاحبة الدين الذي هو غاية البغية[3].

ففي ذلك ترغيب في اختيار الزوجة الصالحة لأنها حسنة الدنيا؛ فينبغي على الداعية ترغيب المدعوين في اختيار الزوجة الصالحة، فهي رفيقه الحياة وأم الأولاد، وصلاحها يكون فيه إعانة على صلاح المجتمع.

ثالثًا- من واجبات الداعية: بيان الحقائق للمدعوين:

وهذا يظهر في بيانه ﷺ لحقيقة الدنيا وأنها متاع زائل وفان، وخير ما فيه الزوجة الصالحة؛ والداعية ناصح أمين للمدعوين، فيجب عليه أن يبيّن الحقيقة للمدعوين كاملة، وذلك لأن الداعية قدوته في دعوته رسول الله ﷺ وقد قام رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه ابن ماجه ١٨٥٦، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ١٥٠٥).

(٢) أخرجه البخاري ٥٠٩٠، ومسلم ١٤٦٦.

(٣) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٨/٩.

ببيان الحقائق والتي من جملتها أن الدنيا متاع زائل، ولكن خير هذا المتاع، تلك الزوجة الصالحة ذات الدين التي تعين زوجها على التقوى والطاعة، وتذكره بآخرته وبأهمية العمل لها، وهذا من أهم ما ينبغي أن تتوجه إليه همّة المسلم في هذه الحياة؛ فينبغي على الداعية أن يركز على بيان هذه المعاني وغيرها، مما يجدر بيانه من حقائق للمدعوين.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

المرأة في الإسلام مخلوق ضعيف لطيف، والتعامل معها يكون على أساس من الرفق واللين في القول والفعل. ويشبه الرسول ﷺ المرأة بضلع أعوج صلب، إن حرص الإنسان على استقامته كرهاً كسره، وإن تركه لم يزل على عوجه، فكأن الوسطية مطلوبة.

وقد لفت الرسول ﷺ الانتباه إلى لمسة طيبة حين نهى عن ضرب المرأة على عجل وطلبها بعد الضرب في غير وجل، وكلاهما لا ينهض به كريم، لأن الضرب فيه إذلال وامتهان للكرامة، وما أكرم النساء إلا كريم.

وعلينا أن نربي أولادنا على أن المرأة مخلوق مثل الرجل ومشاركة له في النفس الواحدة، وتحكيم العقل لا يتعارض مع الشرع، فمن استباح ضرب المرأة لأدنى سبب، هل يقبل هذا بحق ابنته أو أخته أو أمه، فضلاً عن ذي القرابة القريبة. ومن وسائل التربية في الباب:

أولاً- التربية بالوصية:

تعد التربية بالوصية من أهم أنواع التربية، وذلك عند الحاجة إلى نمط سلوكي معين في التعامل، وهذا ما يحتاجه المربي عند التعامل مع المرأة، لاسيما الرجل مع زوجته، وتلك العلاقة الحميمة بينهما والتي تحتاج إلى نوع من المرونة واللطف، واستصحاب الطبيعة المعوجة للمرأة وتغير مزاجها وتنكرها في بعض الأحيان لحسن عشرة زوجها، ولقد بين النبي ﷺ ذلك الجانب في أحاديث الباب. ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اِسْتَوْصُوا بِالنسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ أَعْوَجَ»، وفي الصحيحين: «المرأةُ كالضِّلَع: إن أقمتَها كَسَرتَها ، وإن استمتعتَ بها استمتعتَ بها وفيها عِوَج». وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لاَ يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً»، وقوله ﷺ في حجة الوداع: «.. وإسْتَوْصُوا بِالنسَاءِ خَيْرًا...».

فهذه إشارة تربوية من النبي ﷺ إلى مراعاة أن هذه امرأة ضعيفة فينبغي مراعاة ذلك عند وعظها، ولذلك كرر في الحديث الحث على ذلك، والتأكيد على التوجيه برحمة ورفق، ولذلك ينبغي مداراتها، وفي هذا التوجيه النبوي نكتة تربوية هامة، وهي

معرفة المربي لطبيعة من أراد تقويمه وتهذيبه في مهمته التربوية، ولذلك راعت العملية التربوية ذلك لكي تعتمد على سلامة تلك العناصر، وقيامها على أسس صحيحة، وإلا فإنها لن تحقق الغرض المنشود لأن هناك توجيهات تصلح للرجال دون النساء، فإن من لم يراع ذلك يخفق في العملية التربوية(١).

لذلك كانت الوصية بالمرأة مناسبًا لحالها؛ لما للوصية من وقع في النفس أشد من وقوع الموعظة لأن الوصية تشبه العهد الذي يؤخذ على الإقرار فهذا أسلوب تربوي ناجح(٢).

ثانيًا- التربية بالعقوبة:

التربية بالعقوبة أسلوب تربوي هام من أساليب التربية الإسلامية لأن العقوبة شرعت رحمة من الله تعالى بعباده فهي صادرة عن رحمة الخلق وإرادة الإحسان إليهم لأن الهدف الذي يجب أن توجه إليه العقوبة هو إصلاح المتربي وتقويم سلوكه، لذلك جاءت التوجيهات النبوية متضمنة هذه الأساليب التربوية العقوبية لكن بالتدرج، ولذلك قال ﷺ: «إلاَّ أَنَّ يَـأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَـةٍ فَـإِنْ فَعَلْنَ فَـاهجُرُوهُنَّ فِي المضَاجِعِ ...» وقال: «ولا تضربوا إماء الله ...». فالرسول ﷺ استخدم هذا الأسلوب كوسيلة من وسائل التربية الإسلامية لتقويم أخلاق الزوج مع زوجته وتعديل السلوك وإصلاح النفس وأنه لم يكن القصد منها الانتقام والتنكيل وإشفاء الغيظ، وهذا الحديث دليل على مشروعية التربية بالعقوبة عن طريق الهجر للزوجة التي بدا منها تقصير في جانب من جوانب الدين ومقاطعتها وترك السلام عليها، وهذا يكون الرسول ﷺ قد أرسى قواعد التربية بالعقوبة كأسلوب تربوي لتقويم الخطأ واستقامة السلوك، لكن نتعلم من هذا الهدي النبوي أن المربي لا يعمد إلى أسلوب العقوبة إلا إذا لم تؤثر الأساليب التربوية الأخرى لأن ذلك مُضر به، وله آثار تربوية خطيرة، كما نتعلم منه أن أساليب العقوبة التربوية تتنوع

---

(١) أصول التربية الإسلامية، الحازمي ص ٢٦٠، ٢٧٠.

(٢) رسائل في التربية والأخلاق والسلوك، الحمد ص ٧٠. أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، العاني، ٢٧٤. تربية الأبناء والبنات في ضوء الكتاب والسنة، خالد العك ص١١١.

وتتدرج حسب كل حالة معاقبة[١].

ثالثًا- التربية بالترغيب:

من أهم أساليب التربية الإسلامية التربية بالترغيب لما فيه من تحبب وإغراء بمصلحة أو لذة أو منفعة آجلة ومؤكدة خيرة خالصة، ولقد اهتم الهدي النبوي بإبراز هذا الأسلوب واعتبره من أكبر الأساليب تأثيرًا على شخصية المسلم، فقال ﷺ مرغبًا في اقتناء المرأة الصالحة: «الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة...» فهذا هدي نبوي يربي فينا الترغيب في اختيار المرأة الصالحة لأنها ركن من أركان السعادة وعون للزوج على طاعة ربه، باعتبارها من طيبات الدنيا، وأنها سبب في القيام بالعمل الصالح، فالتربية الإسلامية متمثلة في التربية بالترغيب تدل على أن الإسلام دين شامل ليس دين عبادة فقط، بدليل أنه اعتنى بحياة الإنسان في المجتمع وداخل أسرته متمثلة في الحديث الذي معنا، ومن هذا الحديث نتعلم أن التربية الترغيبية هي الأساس والعنصر الذي يقوم عليه الإصلاح الإسلامي في الأسرة، لما لها من أسلوب رائع يساعد على نشر المحبة بين الزوجين، ولما لها من شأن في تحقيق التوازن بين الحياتين الدنيا والآخرة، وهذا ما أراد إبرازه النبي ﷺ عندما قال: "الدنيا متاع..."، من هنا نتربى ونتعلم أن التربية الإسلامية متمثلة في الترغيب ساعدت على بلوغ أهداف التربية الإسلامية[٢].

---

(١) أساليب التربية والدعوة، د. زياد العاني ص ٧٠، وأصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي ص ٣٢١، وتربية الأولاد في الإسلام ص ١٥٩، وأصول التربية الإسلامية، د. أمين أبولاوي ص ٢٠٤.

(٢) تربية الأبناء والبنات في ضوء الكتاب والسنة، عبدالرحمن العك ص ١٨٦. أصول التربية الإسلامية، د. محمد عزب ص ٢٠٣.

٣٥- باب حق الزوج على المرأة

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ ﴾[النساء: ٣٤].

وأما الأحاديث فمنها: حديث عمرو بن الأحوص السابق في الباب قبله[١].

الحديث رقم (٢٨١)

٢٨١- وعن أَبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: **((إِذَا دَعَا الرَّجُلُ امرَأتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فَلَمْ تَأْتِهِ، فَبَاتَ غَضْبَانَ عَلَيْهَا، لَعَنَتْهَا المَلائِكَةُ حَتَّى تُصْبحَ))** مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[٢].

وفي رواية لهما[٣]: **((إِذَا بَاتَت المَرأةُ هَاجِرَةً فِرَاشَ زَوْجِهَا، لَعَنَتْهَا المَلاَئِكَةُ حَتَّى تُصْبحَ))**.

وفي رواية[٤]: قَالَ رَسُول الله ﷺ: **((والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا مِنْ رَجُلٍ يَدْعُو امْرَأتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فَتَأبَى عَلَيهِ إِلاَّ كَانَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ سَاخِطاً عَلَيْهَا، حَتَّى يَرْضَى عَنها))**.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

دعا امرأته إلى فراشة: طلب إليها الجماع[٥].

---

(١) تقدم برقم (٧٦).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٣٧)، ومسلم (١٢٢/١٤٣٦) واللفظ له. أورده المنذري في ترغيبه (٢٩٠٧). وسيكرره المؤلف برقم (١٧٥١).

(٣) أخرجه البخاري (٥١٩٤)، ومسلم (١٢٠/١٤٣٦) واللفظ له. أوردها المنذري في ترغيبه (٢٩٠٧).

(٤) أخرجها مسلم (١٢١/١٤٣٦). أوردها المنذري في ترغيبه (٢٩٠٧).

(٥) اللسان والوسيط في (ف ر ش).

الشرح الأدبي

إن صلاح أحوال الناس لا تتم صورته المثلى إلا في ظل التمسك بشرع الله عز وجل، والالتزام بما أمر الله به، وإلا فسدت الأمور، واختلت الموازين، والعلاقة بين الرجل وزوجته في ظل التعاليم الشرعية تظل قوية متماسكة، لا يتسرب إليها الملل، ولا يزلزل قواعدها الشك والقنوط، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾(١).

وفي ضوء هذا المنهج الإسلامي نقرأ هذا الحديث الشريف، ونتأمل أسراره، ونستبطن معانيه، ونستجلي أنواره، والحديث غايته سديدة، ومقاصده عديدة، حيث يحرص رسول الله ﷺ على حسن العشرة، وطيب المعاملة بين الرجل وزوجته، حتى في أدق الأمور، وأخفى الأسرار، ويرسي منهجًا سويًا، وهو طاعة الزوجة لزوجها إلا فيما حرم الله، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

ومن أمارات هذه الطاعة أن تلبي رغبته في قضاء وطره، وأن تستجيب له حينما يرغب في ذلك وهي لا يمنعها عذر شرعي.

والحديث في بنائه اللغوي: يتكون من جملة واحدة وهي جملة شرطية، ولكنها مفحمة بأسرار تعبيرية، وقيم جمالية تجلي المعنى، وتعلن عن المقصد الأسنى من هذه الرسالة النبوية، التي تنير الطريق لكل زوجة صالحة والتي صورها رسول الله ﷺ في الحديث السابق: بأنها خير متاع الدنيا.

وأداة الشرط هنا: "إذا" وهي للتحقق، لأن المعاشرة الزوجية متحققة في الواقع، وواجبة شرعًا، فالهجر في المضاجع لا يكون إلا في حالة النشوز، ويقول رسول الله ﷺ: ((وفي بضع أحدكم صدقة))(٢)، ويدعو رسول الله ﷺ أمته إلى الزواج والإنجاب.

---

(١) سورة النحل، آية: ٧٢.

(٢) أخرجه مسلم ١٠٠٦.

فالتعبير بـ"إذا" في الحديث الشريف يعلن عن مقاصد وأهداف كثيرة، ولو عبر بإن، لكان التعبير غير بليغ، والتعبير بالفعل "دعا"، وهو فعل الشرط، فيه إيحاء بالأنس والترغيب بعيدًا عن الإكراه والإجبار، لأن المعاشرة لا تؤتي ثمرتها إلا بالرغبة والسكن والمودة والرحمة، والمحبة والملاطفة، كما أوصى رسول الله ﷺ، وإضافة المرأة إلى الضمير العائد على الرجل، يرشد إلى أن الرجل لا يدعو أي امرأة، ولكن لابد أن تكون زوجته، فغيرها محرم عليه، فضمير الغائب، في "امرأته"، يقيد الدعوى ويُحض الطلب، ويجعله منحصرًا في الزوجة وليس غيرها، وقوله: إلى فراشه، كناية عن المعاشرة الزوجية، وهي كلمة تُغني عن الجماع، وعما يستحي من التصريح به، وذلك أمر فاش في الكتاب والسنة، وهي من سمات البلاغة النبوية، وهى من أبدع المسالك البيانية. والطرق الأسلوبية، التي يعبر بها المنشئ عن المعنى تعبيرًا مظللاً هادفًا موجزًا، يخفي تحته لطائف مراده، وقد عرفها العلماء بقولهم، لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادته معه[1]. وفي كلمة "فراشه"، إيحاء بأن على الزوج إعداد فراش الزوجية.

والعطف بالفاء في قوله: "فلم تأته" يوحي بالإسراع في النفور والتمنع من الزوجة، وكذلك العطف بالفاء في قوله: "فبات غضبان عليها" يوحي بالغضب السريع المترتب على ذلك التمنع والتأبي من الزوجة، ولكن إذا لم يغضب الزوج، نظرًا لأن الزوجة لديها عذرٌ، أو أنه تسامح وتحمل، فالزوجة لا تكون عرضة للعقاب ولا للعن الملائكة، أما إذا غضب الزوج، ولم يكن للزوجة عذر أو مانع شرعي، فإنها تستحق العقاب، وهو أن تلعنها الملائكة حتى تصبح، واللعن هو: الطرد والإبعاد عن رحمة الله، وقوله "حتى تصبح" إشارة إلى أن هذا اللعن مقيد بغضب الزوج، فإذا رضي الزوج نجت المرأة ونجا معها زوجها.

---

(١) انظر: الحديث النبوي من الوجهة البلاغية، د. عز الدين السيد ص ١٦٦.

فقه الحديث

إن من أهم مقاصد النكاح الاستمتاع بين الزوجين، ولذا يجب على المرأة إذا دعاها زوجها إلى فراشه، أن تلبي طلبه ولا تمانع في ذلك بدون عذر، وإلا كانت ناشزًا.

وقد اتفق الفقهاء(١) على انه يجب على المرأة أن تمكن زوجها من نفسها متى طلبها ولم يكن ثمة مانع شرعي عندها مهما كانت الظروف والأحوال، فإن امتنعت كانت ناشزًا وجاز له تأديبها بما يراه مصلحًا لها.

المضامين الدعوية(٢)

أولاً: من أساليب الدعوة: الكناية، والقصر، والشرط.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: وجوب طاعة الزوجة لزوجها ما لم يأمرها بمعصية.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الترهيب.

رابعًا: من أصناف المدعوين: النساء.

خامسًا: من صفات الداعية: دلالة المدعوين إلى ما ينفعهم.

سادسًا: من واجبات المدعو: الاستجابة لأوامر النبي ﷺ.

أولاً- من أساليب الدعوة: الكناية، والقصر، والشرط:

ورد أسلوب الكناية في الحديث من قوله ﷺ "إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه"، وقوله ﷺ: "إذا دعا الرجل زوجته لحاجته..." وهو كناية عن الجماع.

وذلك من جميل وعظيم آداب الإسلام، قال النووي: (والمستحب في مثل هذا، الكناية عن قبيح الأسماء، واستعمال المجاز والألفاظ التي تحصل الغرض...، وبهذا

---

(١) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٨٤/٣، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود شرح الطيبي ٣٣١/٢، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد المغربي ١١/٤، وشرح منح الجليل ٣٧٩/٣، ونهاية المحتاج ٣٣٩/٤، ومغنى المحتاج ٣٠٩/٦، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٦٧٥/٢، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ١٠٥/٥.

(٢) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث - ٢٨١ - مع المضامين الدعوية للحديث رقم (٢٨٢، ٢٨٤).

الأدب جاء القرآن العزيز والسنن كقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾(١). ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾(٢). ﴿فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾(٣). وقد يستعمل صريح الاسم لمصلحة راجحة، وهي إزالة اللبس أو الاشتراك أو نفي المجاز أو نحو ذلك كقوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى﴾(٤). وكقوله ﷺ: «أنِكْتَها»(٥). وكقوله ﷺ: «أدبَرَ الشيطانُ ولهُ ضُراط»(٦)... إلخ"(٧).

فعلى الداعية أن يُكنّى في ألفاظه عن قبيح الأسماء، إن لم يكن هناك مصلحة للتصريح بها.

وأما القصر كأسلوب دعوي فقد ورد في الحديث في قوله ﷺ: "لا يحل لامرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه... ولا تأذن في بيته إلا بإذنه" والقصر في الحديث الوارد يفيد تخصيص صيام التطوع للزوجة على إذن زوجها، وتخصيص دخول بيت الزوج على إذنه، وهو من الأساليب الدعوية التي بها لفت انتباه المدعوين على أهمية الأمر المدعو إليه، والحرص على القيام به.

أما أسلوب الشرط فهو من الأساليب الدعوية التي تستحضر أذهان المدعوين لمعرفة جواب الشرط، وقد اشتمل هذا الأسلوب في الحديث على أداة للشرط المتمثلة في قوله ﷺ: "إذا" ومن فعل الشرط في قوله ﷺ: "دعا" ومن جواب الشرط في قوله ﷺ: "فلتأته وإن كانت على التنور"، وقد أفاد وجوب طاعة الزوجة لزوجها إذا دعاها إلى فراشه.

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٨٧.

(٢) سورة النساء، آية: ٢١.

(٣) سورة البقرة آية: ٢٢٢.

(٤) سورة النور، آية: ٢.

(٥) أخرجه البخاري ٦٨٢٤، ومسلم ١٦٩٣.

(٦) أخرجه البخاري ٦٠٨، ومسلم ٣٨٨.

(٧) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١١٣.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: وجوب طاعة الزوجة لزوجها ما لم يأمرها بمعصية:

هذا ما يستفاد من سياق الأحاديث الشريفة، وقد أمر الحق تبارك وتعالى بوجوب طاعة الزوجة لزوجها فقال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾[(١)] يعني: (أمراء، فعليها أن تطيعه فيما أمرها به من طاعة، وطاعته: أن تكون محسنة إلى أهله حافظة لماله)[(٢)]، وقال تعالى: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾[(٣)] أي: (مطيعات لأزواجهن حتى في الغيب تحفظ بعلها بنفسها، وماله)[(٤)]، وفي بيان وجوب طاعة الزوجة لزوجها وعظم حقه عليها قال ﷺ ((لَوْ كُنْتُ آمرًا أحدًا أنْ يَسْجُدَ لأحَدٍ، لأمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا))[(٥)].

قال المباركفوري: (قوله ﷺ: "لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها" أي لكثرة حقوقه عليها وعجزها عن القيام بشكرها. وفي هذا غاية المبالغة لوجوب إطاعة المرأة في حق زوجها فإن السجدة لا تحل لغير الله")[(٦)]. وقال ﷺ ((لَوْ تَعْلَمُ الْمَرْأَةُ حَقَّ الزَّوْجِ مَا قَعَدَتْ مَا حَضَرَ غَدَاؤُهُ وَعَشَاؤُهُ حَتَّى يَفْرَغَ))[(٧)]، وبيَّن النبي ﷺ أن طاعته سبب في دخول الجنة فقال: ((إِذَا صَلَّتِ الْمَرْأَةُ خَمْسَهَا، وصَامَتْ شَهْرَهَا، وحَفِظَتْ فَرْجَهَا، وأَطَاعَتْ زَوْجَهَا دَخَلَتِ الجنَّةَ))[(٨)]، ثم رهب النبي ﷺ من مخالفة طاعته فقال ﷺ ((ثلاثةٌ لاَ

---

(١) سورة النساء، آية: ٣٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢٩٣/٢.

(٣) سورة النساء، آية: ٣٤.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ١٤٢.

(٥) أخرجه الترمذي ١١٥٩، وقال الألباني: حديث حسن (صحيح سنن الترمذي ٩٢٦)

(٦) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري ١١٨٣/١.

(٧) أخرجه البزار في مسنده ٢٦٦٥، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٥١٣٥.

(٨) أخرجه البزار كما في كشف الأستار للهيثمي ١٤٦٣، وقال الألباني حديث حسن في آداب الزفاف ص ٢١٤.

تُجاوِزُ صلاتُهمْ آذانَهُمْ: ثم ذكر منهم وامرأةٌ باتتْ وزوجُهَا عليها ساخِطٌ))[1].

وقد بين النبي ﷺ أنه لا يحل لامرأة أن تصوم وزوجها شاهد (أي حاضر) إلا بإذنه، ولا تأذن في بيته إلا بإذنه، وذلك لبيان أهمية طاعة الزوجة لزوجها، حتى في أمور النوافل، مثل: صوم التطوع فلم يُحلّ النبي ﷺ للزوجة أن تصوم التطوع إلا بإذن زوجها طالما أنه حاضر في بيته أو في بلدته، وليس مسافراً وكذلك لا يحل للزوجة أن تأذن لأحد بدخول البيت إلا بإذن زوجها وهذا مما أوجبه الإسلام من طاعة الزوجة لزوجها.

وقد بين النبي ﷺ أن وجوب هذه الطاعة تكون ما لم يأمرها بمعصية وفي ذلك قال ﷺ ((لاَ طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ . إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ))[2] وفي ذلك بيان على عظم حق الزوج على زوجته وعلى وجوب طاعته.

ثالثًا- من أساليب الدعوة: الترهيب:

قد ورد هذا الأسلوب الدعوي المهم في الحديث من قوله ﷺ "لعنتها الملائكة حتى تصبح" وفي رواية "إلا كان الذي في السماء ساخطًا عليها حتى يرضى عنها". (والترهيب ركيزة من ركائز الإيمان، ولازمة من لوازمه: فالإيمان يقتضي الخوف، لذا قيده الله تعالى بالإيمان في قوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[3]، فجعل الخوف - الرهبة- شرطًا في تحقيق الإيمان، فإذا تحقق الشرط -وهو الخوف- حقق المشروط- وهو الإيمان)[4]، (والترهيب من أبرز أساليب المنهج العاطفي: فهو يغوص في النفس الإنسانية ويخاطب فيها العاطفة والوجدان، ويهيج فيها عنصر الخوف، ومتى وجد الخوف في القلوب والنفوس، قطع دابر الشهوات واللذات .... فتحترق الشهوات بالخوف وتتأدب الجوارح، ويحصل في القلب الذبول والخشوع والذلة والاستكانة)[5].

---

(١) أخرجه الترمذي ٣٦٠، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٩٥).

(٢) أخرجه مسلم ١٨٤٠.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٧٥.

(٤) انظر: طريق الهجرتين، ابن القيم.

(٥) إحياء علوم الدين، الغزالي، ٤/١٥٦.

رابعًا- من أصناف المدعوين: النساء:

هذا ما يستفاد من سياق الأحاديث الواردة، وقد اهتم الإسلام بالنساء اهتمامًا عظيمًا، وذلك لما تحظى به من دور عظيم واحترام عال في الشريعة، سواء كانت بنتًا أو زوجة أو أمًا، وهن المؤثرات على الأزواج والمحارم، وبالتالي فإن العناية بالمرأة هي عناية بالدعوة ذاتها. ويكفي القول بأن أول من آمن بالنبي ﷺ من النساء هي "خديجة رضي الله عنها"، فالزوجات هن المؤثرات على الأزواج والراعيات للأطفال، ولذا فإن خطاب النبي ﷺ للنساء في هذه الأحاديث الشريفة لبيان حقوق الأزواج على الزوجات، ولحث الزوجة على أهمية القيام بحق زوجها وطاعته، والحذر من معصيته أو مخالفته طالما كان مطيعًا لله تعالى، يخاف الله فيها، لذا أمر النبي ﷺ الزوجة بحسن التبعل لزوجها وطاعته ومراقبة الله تعالى فيه[1].

خامسًا- من صفات الداعية: دلالة المدعوين إلى ما ينفعهم:

هذا ما يستفاد من جملة الأحاديث في حرصه ﷺ على دلالة المدعوين إلى ما فيه خير لهم، وفي ذلك قال ﷺ: ((إنما مثلي ومثل أمتي كمثل رجل استوقد نارًا، فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه، فأنا آخذ بحجزكم وأنتم تقحمون فيه))[2]. وقد حث النبي ﷺ على ذلك فقال: ((من دل على خير فله مثل أجر فاعله))[3]. قال النووي: (فيه فضيلة الدلالة على الخير والتنبيه عليه والمساعدة لفاعله)[4]، فعلى الداعية أن يحرص على دلالة المدعوين إلى ما ينفعهم، لما في ذلك من عظيم الفائدة وجزيل الثواب، وفي هذه الأحاديث يرشد النبي ﷺ النساء إلى ما يحقق بذلك لهن الأجر والمثوبة عند الله تعالى، وذلك من خلال بيانه ﷺ لحقوق الزوج على الزوجة، وأهمية القيام بذلك لنيل رضوان الله تعالى.

---

(١) فقه الدعوة، د. بسام العموش ص ٧٣.

(٢) أخرجه البخاري ٣٤٢٦، ومسلم ٢٢٨٤.

(٣) أخرجه مسلم ١٨٩٣.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٢١٥.

سادسًا- من واجبات المدعو: الاستجابة لأوامر النبي ﷺ:

هذا ما يستفاد من سياق الأحاديث الواردة، وقد أمر الحق تبارك وتعالى بذلك فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا﴾[2]، قال ابن كثير: (فهذه الآية عامة في جميع الأمور، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء، فليس لأحد مخالفته ولا اختيار لأحد هاهنا، ولا رأي ولا قول، كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾[3]، [4].

فعلى الزوجة المؤمنة أن تستجيب لأوامر الله عز وجل ورسوله ﷺ في طاعتها لزوجها، وقيامها بحقوقه عليها، ومراقبتها لله تعالى فيه، رغبة في رضوانه سبحانه.

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٢٠.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٣٦.

(٣) سورة النساء، آية: ٦٥.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٦/٤٢٣.

الحديث رقم (٢٨٢)

٢٨٢- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه أيضًا: أنَّ رَسُول الله ﷺ، قَالَ: ((**لاَ يَحِلُّ لامْرَأةٍ أنْ تَصُومَ وَزَوْجُهَا شَاهدٌ إلاَّ بإذْنِهِ، وَلاَ تَأذَنَ في بَيْتِهِ إلاَّ بإذنِهِ**)) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[1]، وهذا لفظ البخاري.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

شاهد: حاضر[2].

الشرح الأدبي

من حق الزوج على المرأة أن تصون بيته، وتحفظ ماله، وتكتم أسراره، وأن لا تدخل داره إلا من رغب ورضي له الدخول، وكذلك للمرأة حقوق على زوجها... وهي كثيرة وفي مقدمتها الإنفاق، والحماية، والعشرة الحسنة، والمعاملة الطيبة، والاختيار الصالح حيث تُخْتار المرأة لكثير من المزايا والمقومات، ولكن الدين في أعلى قائمة هذه الاختيارات: الجمال، والحسب، والنسب، والمال، ولكن وصية رسول الله الآمرة المرغبة تقول: "فاظفر بذات الدين تربت يداك"[3].

وهذا الحديث يعد ثمرة من ثمار هذا الاختيار الراشد، حيث يبين ما ينبغي أن تكون عليه معاشرة الزوجة لزوجها، فلا يحل لها أن تصوم نفلاً وهو حاضر إلا بإذنه، فقد يتضرر بهذا الصوم، ويفوت عليه بعض مقاصده، ولمنزله حرمة لا تنتهك، فلا يجوز

---

(١) أخرجه البخاري (٥١٩٥) واللفظ له، ومسلم (١٠٢٤/٨١). أورده المنذري في ترغيبه (٢٩٠٠). وسيكرره المؤلف برقم (١٧٥٢).

(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ش هـ د).

(٣) أخرجه البخاري ٥٠٩٠.

لها أن تدخل فيه أحدًا أيا كان، وهو حاضر أو غائب إلا بإذنه، فقد يغار على زوجته من الأجنبي، وقد يكون في بيته من القصور والعيوب ما يحرص على إخفائه، ولا يحب أن يراه أقرب الأقربين، والزوجة راعية في مال زوجها، مسؤولة عنه أمام الله، فلا تنفق شيئًا منه إلا بإذنه، فإن أنفقت من غير إذنه الخاص بعد حصول إذنه العام وهي تعلم رضاه فلها أجر بقصدها الخير، وفعلها له، ولزوجها أجر مثله باكتسابه هذا المال لا ينقص بعضهم أجر الآخر شيئاً"[1].

والحديث في بنائه اللغوي في هذه الرواية يتكون من جملتين فعليتين، وهاتان الجملتان تؤكد صياغتهما التشدد في حفظ حق الزوج، حيث صيغت الجملة الأولى في أسلوب القصر عن طريق النفي بـ"إلا" والاستثناء، وفي هذا القصر إيحاء بأن حق الزوج لابد أن يصان وأن يقدم على النوافل، والطاعات التي لا تجب عليها، فلو صامت الزوجة بغير إذن زوجها صح الصوم وأثمت، وأمر قبوله إلى الله، كما قال العلماء، وقيل في علة النهي عن الصوم والزوج حاضر إلا بإذنه: لأن من حقه الاستمتاع بها في كل وقت، ولا يبعد أن يكون النهي لما للزوج من حقوق كالتمتع وغيره.

وأما الجملة الثانية: فهي "ولا تأذن في بيته إلا بإذنه"، فهي كذلك في صيغة القصر عن طريق النفي والاستثناء، فالجملتان تحصنان حق الزوج بهذه الصيغة اللغوية، وذلك الأسلوب النبوي الذي يفصح مبناه عن معناه، وفي الجملة الثانية إيجاز بالحذف، فالفعل "تأذن" معطوف على "تصوم" وهو داخل في حيز نفى الحل، والتقدير، ولا يحل لها أن تأذن، والمأذون به محذوف للإيجاز والتعميم، والتقدير أن تأذن في دخول أحد إلى بيته.

(١) انظر: المنهل العذب الفرات، د. عبد العال أحمد عبد العال، ج٥، حديث رقم ٣٤٤.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكمين فقهيين:

الأول: حكم صوم المرأة المتزوجة تطوعًا، وقد اتفق الفقهاء[1] على أنه يجوز للمرأة أن تصوم تطوعًا في أي وقت كالرجل، إلا أنه لا يجوز للمرأة المتزوجة أن تصوم صوم تطوع وزوجها حاضر مراعاة لحقه إلا أن يأذن لها في ذلك، فإن أذن لها في الصوم كان لها أن تصوم، ولو صامت بدون إذنه صح صومها مع الحرمة، ولا تحتاج المرأة إلى إذن زوجها إذا كان غائبًا أو مريضًا أو محرمًا بحج أو عمرة، ويجوز للزوج إذا صامت زوجته تطوعًا بدون إذنه أن يأمرها بالإفطار، وخص المالكية الجواز هنا بالجماع فقط؛ لأن احتياجه إليها الموجب لتفطيرها إنما هو من جهة الوطء فقط.

الثاني: حكم الإذن في البيت، وقد ذكر الفقهاء[2] أنه يجب على الزوجة استئذان زوجها إن أرادت أن تدخل إليه من تعلم أن زوجها يكره دخوله، ولا يجوز لها أن تأذن في بيت زوجها وهو شاهد إلا بإذنه ما لم تكن هناك ضرورة، لأنه لا يفتات على مالكي البيوت بغير إذنهم.

المضامين الدعوية [3]

---

(١) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود شرح الطيبي ١٠٧/٢، والمدونة لمالك ٢٧٩/١، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ٦٧/٢، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٤٤٥/٦، والغرر البهية في شرح البهجة الوردية، القاضي أبو يحيى الأنصاري ٢٨٥/٤، وتحفة المحتاج ٤٦١/٣، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٣٤٩/٢، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٥٠٠/١ وما بعدها، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٩٩/٢٨.

(٢) طرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين عبدالرحيم بن الحسن ١٤٢/٤، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٩٦/٩، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١١٥/٧، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٤٢/٣، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ١٨٨/٥، ومطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، مصطفى السيوطي ٢٨٨/٥، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، الشوكاني ٢٥١/٦، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٥٢/٣ وما بعدها، ٢٣٠/٨.

(٣) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (٢٨٣)

٢٨٣-وعن ابن عمر رضي الله عنهما ، عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، قَالَ: ((كلكم رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ: وَالأَمِيرُ رَاعٍ، والرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أهْلِ بَيتِهِ، وَالمَرْأةُ رَاعِيةٌ عَلَى بَيْتِ زَوْجها وَوَلَدهِ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ)) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[1].

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

الشرح الأدبي

إن الخطاب النبوي في هذا الحديث الشريف موجه إلى الأمة كلها... حيث جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم أبناء الدين الإسلامي شركاء في تحمل التبعات والمسؤوليات العامة، كل واحد فيما أعده الله له، فالعلماء مسؤولون عن التوجيه والإرشاد، وتثقيف المسلمين بأحكام الدين، وإنارة العقول بتعريفها ما لها من حقوق، وما عليها من واجبات، ورجال الشرطة مسؤولون عن استتباب الأمن والمحافظة على الأرواح والأموال، ورجال الجيش مسؤولون عن الدفاع وحماية البلاد والحدود والثغور، والحكام مسؤولون عن توفير العدالة والطمأنينة بين الناس، والأغنياء مسؤولون عن إسعاد الفقراء وكفايتهم المؤنة والحاجة بدافع من الإسلام وكمال الإيمان.

والحديث - كما يقول د. عبدالعال أحمد عبدالعال- من أبرز ما يصور مبدأ التكافل الاجتماعي في الإسلام[2].

ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في الحديث الشريف: حيث تفصح المباني عن المعاني، وتبوح الأساليب والتراكيب بكثير من الدلالات والمقاصد التي يرمي إليها الحديث الشريف.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢٠٠) واللفظ له، ومسلم (١٨٢٩/٢٠). أورده المنذري في ترغيبه (٢٨٧٥). وسيكرره المؤلف برقم (٣٠٠)، و (٦٥٣).

(٢) انظر: المنهل العذب الفرات في شرح الأحاديث الأمهات، د. عبدالعال أحمد عبدالعال ، ج٣ حديث رقم ١٨٨.

فالراعي: كل من ولي أمر قوم، وهو مستعار من مستلزمات البيئة، حيث لا نجد أشد من حرص الراعي على غنمه وماشيته، فهو يحفظها من التلف والسرقة، ويحرص على إشباعها وأمنها[1]، فالرعية في اللغة: الماشية الراعية والمرعية، وفي الحديث تتطور الدلالة وتتعدد: فالراعي: كما يقول صاحب دليل الفالحين: هو: الحافظ المؤتمن الملتزم بصلاح ما أؤتمن على حفظه، فهو مطالب بالعدل فيه والقيام بمصالحه، وقد صيغ الحديث كله في إطار الأسلوب الخبري، وجاءت جمله كلها اسمية لا ترتبط بزمن دون آخر، ولا تتقطع أحداثها، ولا تؤطر في زمن محدد، للدلالة على ثبات هذه القواعد التي أرسى دعائمها الرسول الكريم ﷺ، فالمسؤولية ثابتة ومؤكدة، وهي تتنوع حسب المسؤول والراعي.

ولذلك تكرر لفظ "راع" وهو بصيغة اسم الفاعل: أربع مرات في صيغة المذكر، ومرة في صيغة المؤنث، للتأكيد على شرعية هذه المسؤولية، التي تتبع من حرص الإسلام وحرص رسول الله ﷺ على صورة المجتمع المثلى في ظل القيم والمبادئ الإسلامية؛ ويكرر المصطفى ﷺ جملة البدء "كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته" في ختام الحديث لمزيد من التأكيد والتذكير بعدم التفريط في هذه المسؤولية، وذلك من باب رد العجز على الصدر، إيحاءً بترسيخ هذه القاعدة الثابتة في المنهج الإسلامي.

وفي الحديث: تفصيل بعد الإجمال، وإجمال بعد التفصيل، وهذا من أسرار البيان النبوي الذي يجنح للإفهام والبيان، والتوجيه والإرشاد، في منطق محكم، وبيان جامع، والتفصيل يتمثل في تعدد أوجه المسؤولية والرعاية، فالأمير راعٍ، والرجل راعٍ على أهل بيته، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده؛ يقول الخطابي: فرعاية الإمام الأعظم رعايته الشريعة، بإقامة حدودها والعدل في الحكم، ورعاية الرجل أهله، سياسته لأمرهم وإيصال حقوقهم، ورعاية المرأة: تدبيرها لأمر البيت والأولاد والخدم والنصيحة

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٤٨٧.

للزوج، والرجل يرعى جوارحه وقواده وحواسه، فيعمل المأمورات ويجتنب المنهيات: فهو راع على جوارحه.

فقه الحديث

يعد هذا الحديث جامعًا لأنواع المسئولية عند الإنسان في كل أعماله، فهو كرجل مسئول عن أسرته وأولاده، وكعامل مسئول عن عمله، والحاكم مسئول عن الأمة، والمرأة مسئولة عن بيتها وأولادها بتربيتهم على الخلق الكريم، وأن تحافظ على ما لزوجها وولده وترعاه بما هو مطلوب منها شرعًا، فالكل راع ومسئول عن رعيته.

وقد اتفق الفقهاء(1) على أن الرجل مسئول عن زوجته وأولاده ومواليه، بأن ينفق عليهم ويتعاهدهم بما يصلحهم من مأكل ومشرب وملبس، وكذا على المرأة والرجل تعليم أولادهم أمور دينهم ودنياهم.

كما اتفقوا(2) على أن الإمام مسئول عن الأمة، فكما تجب له الطاعة من الرعية يجب عليه المراعاة لمصالحهم وتعهدها، والحكم بينهم بالعدل.

---

(1) المبسوط للسرخسي ١٨٠/٥، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود شرح الطيبي ١٥/٤، ومجمع الأنهر ٤٨٤/١، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ٥٠/٣، والتاج والإكليل شرح مختصر خليل، محمد المواق ١٨١/٤، وشرح الزرقاني على الموطأ، محمد بن عبدالباقي بن يوسف الزرقاني ٢٤٤/٤، وحاشية الدسوقي على الشرح الكبير، محمد بن عرفة الدسوقي ٤٧٨/٣، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٥١/١، وروضة الطالبين، الإمام النووي، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، وعلي محمد معوض ٣/٨، والتهذيب ٣٢٠/٦، والعزيز شرح الوجيز ٣/١٠، والمبدع في شرح المقنع، ابن مفلح ١٨٥/٨.

(2) أحكام القرآن، الجصاص ٦٩٧/٣، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود شرح الطيبي ١٥/٤، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ١٥١/٥، وأحكام القرآن، ابن العربي، تحقيق: علي محمد البجاوي ٥٧٢/١، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد المغربي ٢٧٦/٦ وما بعدها، وشرح منح الجليل ١٩٥/٩، والأحكام السلطانية للماوردي ص١٨ وما بعدها، ونهاية المحتاج ٤٠٢/٧، ومغني المحتاج ٣٩٩/٥، والسياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية لابن تيمية ص٢٠ وما بعدها، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٣٨٧/٣، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ١٨٥/٦.

المضامين الدعوية

أولاً: من الأساليب الدعوية: التفصيل بعد الإجمال.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: المسؤولية.

ثالثًا: من واجبات المدعو: القيام بمسؤولياته.

أولاً- من أساليب الدعوة: التفصيل بعد الإجمال:

إن أسلوب التفصيل بعد الإجمال من الأساليب الدعوية المهمة التي تعين الداعية على توضيح وبيان ما أشكل على المدعوين من كلام الداعية، وقد ورد في الحديث من قوله ﷺ والأمير راع، والرجل راع... إلخ" بعد قوله ﷺ "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته".

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: المسؤولية:

(إن من أبرز مميزات هذا الدين أنه وزع المسؤولية توزيعًا دقيقًا لتنظيم الحياة الاجتماعية، ومحاسبة المسؤولين والمكلفين كل حسب مهمته وواجباته)[1]، وهذا ما يظهر في الحديث من قوله ﷺ "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، والأمير راع... إلخ"؛ فالمسؤولية: (هي ما يكون به الإنسان مسؤولاً ومطالبًا عن أمور، أو أفعال أتاها)[2] (والشريعة الإسلامية لم تُخْلِ أحدًا من المكلفين من المسؤولية... سواء كان ذلك بالنظر إلى الشخصية الطبيعية أو الشخصية المعنوية، بمعنى أنها تعتبر الفرد مسؤولاً مسؤولية تامة عن ذاته، وتحمله نتيجة أفعاله بالنسبة إلى نفسه وبالنسبة إلى الآخرين أيضًا... هذه دائرة... تليها دائرة أخرى أوسع منها مدى: تلك هي مسؤولية الأسرة عن أفرادها الذين هم في رعايتها وتحت إشرافها، ثم الجماعة مسؤولة عن توجيه الأسر التي تمثل الخلايا التي تتكون منها الجماعة ذاتها، وعن سلامة الأفراد الذين يشكلون الجزئيات، التي هي في حقيقتها أجزاء لذلك المجتمع الكبير أو الجسد العام، والدولة بأجهزتها وأنظمتها مسؤولة عن استقامة الأفراد، وسلامة الأسر، وأمن الجماعة،

---

(١) دراسات تربوية في الأحاديث النبوية، أ. د. محمد لقمان الندوي ص ٢٩٨.

(٢) موسوعة نضرة النعيم في أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن حميد، عبدالرحمن بن ملوح ٨/٣٤٠١.

وتقويم ما يحدث في أي من ذلك من اعوجاج... والرواد وقادة الفكر ورجال الدعوة والمربون مسؤولون عن إصلاح المقاييس، وسلامة الموازين، وإيضاح خطوط السير، ومحاسبون على أي خلل أو فساد أو اعوجاج في ذلك بالنسبة للأفراد أو الجماعات.

فمن ذلك نجد شبكة ذات دوائر متصلة الحلقات، يأخذ بعضها بحجز بعض أخذًا محكمًا، فيظهر لنا منطق الإسلام في جعل المسلمين أمة واحدة مترابطة الأجزاء، ولعلنا في دراستنا للنظرة الإسلامية نحو المسؤولية، لا نجد الإسلام قد أسرف فيها أو تعسف، وإنما يُعِد أفراده إعدادًا دقيقًا، ويهيؤهم بالخبرات الزمنية، والقوى الجسدية والمدارك العقلية، والطاقات الروحية والنفسية، بما يجعلهم قادرين على مزاولة رسالتهم في المجموعة الإنسانية التي يعيشون معها بمقدرة ونجاح، بعد ذلك يجعل كلاً منهم مسؤولاً بقدر ما أتيح له من ظروف، وما تهيأ له من أسباب، أو تذرع به من وسائل، ما يجعله يصل إلى ما يسمى بالتعبير الفقهي بلوغ مرحلة التكليف)[(١)]، وفي ذلك قال تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[(٢)] وقال: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[(٣)] وقال: ﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾[(٤)].

قال الشنقيطي: (وهذا صريح في إثبات سؤال الجميع يوم القيامة)[(٥)]. (وقد كان من خصائص النظام الاجتماعي في الإسلام، تحميل الفرد مسؤولية إصلاح المجتمع، بمعنى أن كل فرد فيه مطالب بالعمل على إصلاح المجتمع، وإزالة الفساد منه على قدر طاقته ووسعه، والتعاون مع غيره لتحقيق هذا المطلوب، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾[(٦)]...، وإذا كان الفرد مسؤولاً عن إصلاح المجتمع فما

---

(١) انظر: المسؤولية في الإسلام، محمد زكي الدين حجازي ص ١٠-١٢.

(٢) سورة الأعراف، آية: ٦.

(٣) سورة الحجر، آية: ٩٢.

(٤) سورة الصافات، آية: ٢٤.

(٥) إيضاح البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي ٢/ ٢٩٠.

(٦) سورة المائدة، آية: ٢.

تعليل ذلك؟ ولماذا يطالب الفرد بهذا الواجب مع مطالبته بإصلاح نفسه؟ الذي نراه أن تعليل هذه المسؤولية أو هذه المطالبة، يتمثل فيما يأتي:

أولاً: الفرد يتأثر بالمجتمع: الإنسان كائن اجتماعي يتأثر بالمجتمع الذي يعيش فيه، فتمرض روحه أو تهزل، أو تصح وتقوى تبعًا لصلاح المجتمع أو فساده. وقد أشار النبي الكريم ﷺ إلى هذه الحقيقة. فقد جاء في الحديث الشريف ((ما من مَولودٍ إلاَّ يولَدُ على الفِطرةِ، فأَبَواهُ يُهوِّدانه أو يُنَصِّرانهِ... إلخ))[1] فالأبوان بالنسبة للصغير، مُجتمعُهُ الصغير الذي يؤثِّرُ فيه، فيدفعه إلى الفساد أو الصلاح، فإذا كان الأبوان ضالّين دفعاه إلى الضلال، وأخرجاه عن مقتضى الفطرة السليمة التي خلقه الله عليها، وإذا كانا صالحين أبقياه على الفطرة التي خلقه الله عليها، ونميًّا فيه جانب الخير. وهكذا شأن المجتمع الكبير في تأثيره في الفرد صلاحًا وفسادًا.

ثانيًا: ضرورة قيام المجتمع الصالح: وقيام المجتمع الصالح ضروري للفرد، لأن المطلوب من المسلم تحقيق الغرض الذي خلق من أجله، وهو عبادة الله وحده، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[2]...

... ولهذا يجب على كل مسلم مسؤولية تعهد المجتمع الذي يعيش فيه، وإزالة المنكر حال ظهوره أو وقوعه، وأن لا يستهين به، لأن المنكرات كالجراثيم التي تؤثر في الجسد قَطْعًا، وإذا لم تُمرِضِ البعض فإنها تضعف مقاومته، فيسهُلُ عليها فيما بعد التغلب عليه. ولهذا كانت أولى مهمات الدولة الإسلامية، إقامة هذا المجتمع الإسلامي الفاضل، وإزالة المنكرات منه، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾[3].

ثالثًا: النجاة من العقاب الجماعي: وقيام الأفراد بواجب المسؤولية من إصلاح

(١) أخرجه البخاري ١٣٥٩.

(٢) سورة الذاريات، آية: ٥٦.

(٣) سورة الحج، آية: ٤١.

المجتمع، ينجيهم وينجي المجتمع من الهلاك الجماعي، أو العقاب الجماعي، أو الضيق والضنك، والقلق والشر، الذي يصيب المجتمع، وتوضيح هذه الجملة يحتاج إلى شيء من التفصيل لأهمية الموضوع وخطورته. فنقول: من سنة الله تعالى، أن المجتمع الذي يشيع فيه المنكر، وتنتهك فيه حرمات الله، وينتشر فيه الفساد، ويسكت الأفراد عن الإنكار والقيام بواجب المسؤولية في التغيير، فإن الله تعالى يعمهم بمحن غلاظ قاسية، تعم الجميع، وتصيب الصالح والطالح، وهذه في الحقيقة سنة مخيفة وقانون رهيب يدفع كل فرد لا سيما من كان عنده علم أو فقه أو سلطان إلى المسارعة والمبادرة فورًا لتغيير المنكر دفعًا للعذاب والعقاب عن نفسه وعن مجتمعه)[1].

فالفرد مسؤول عن صلاح المجتمع، ومن باب أولى مسؤول عن صلاح نفسه، وفي ذلك بيان على عظم حق المسؤولية والقيام بها في الإسلام.

ثالثًا- من واجبات المدعو: القيام بمسؤولياته:

(دلت النصوص على أن الإنسان يُسألُ عن كل الأشياء التي جعل الله له سلطانًا عليها، أو قدرة على التصرف فيها، ولو من وجه من الوجوه، أو قدرة تأثير بقول أو عمل أو تفكير، ومسؤولية الإنسان في ذلك تنحصر في حدود استطاعته وقدرته على التصرف أو التأثير: فمن كان باستطاعته العمل، والواجب الديني يُلزمه بالعمل فهو مسؤول عنه، ومن كان باستطاعته إبداء الرأي والفكر والواجب يُلزمه بذلك فهو مسؤول عنه، وهذه المسؤولية تلاحقه منذ يبدأ تكليفه حتى يوافيه أجله، ما لم يسقط التكليف لانعدام شرط من شروطه، وتزداد مسؤوليته كلما ازدادت منح الله له، وتنخفض مسؤوليته بمقدار انخفاض منح الله له)[2].

وقد كان من هذه النصوص المبينة لعظم مسؤولية الإنسان، ما ورد في نص الحديث من قوله ﷺ: "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته والأمير راع، والرجل راع... إلخ".

---

(١) انظر: أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان، ١٣٢-١٣٦.

(٢) الوجيزة في الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبدالرحمن حبنكة، ١٨٣-١٨٤.

(فأبان الرسول ﷺ في هذا الحديث مسؤولية الرعاية المنوطة بكل راع، عظمت دائرة رعايته أم صغرت، ومسؤوليته تكون على مقدار دائرة رعايته ومقدار سلطته فيها)[١].

وقد بدأ النبي ﷺ في بيان مسؤولية الإمام بقوله "الإمام راع ومسؤولية عن رعيته" (والإمام هنا يقصد به الإمام الأعظم، ورعايته تكون بحياطة الشريعة وإقامة الحدود والعدل في الحكم)[٢]. قال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[٣].

(فإمام الناس من ملك أو أمير - راع كفيل. وحافظ أمين مسؤول عن أهل مملكته أو إمارته. فعليه إقامة العدل فيهم؛ وردّ الحقوق لأربابها. واحترام حرياتهم في دائرة الحق والأدب، واستشارتهم في الأمور، والاستماع لنصائحهم والذود عن كرامتهم، والحرص على مصالحهم، والدفاع عن حقوقهم، وفتح الأبواب لمعايشهم، وتذليل السبل لتنمية ثروتهم. والضرب على أيدي المفسدين والتنكيل بالمجرمين الخائنين...، وإن الإمام مسؤول أمام الله عن أمته وجماعته، يُسأل عن كل فرد فيها، وعن كل عمل من أعمالها، يُسأل عن ثروتها موردًا ومصرفًا، وعما عمل لمصلحتها، وسلك لسعادتها، بل يُسأل عن حيوانها: ماذا صنع لراحته. وتخفيف مشقته. وبعبارة أوجز: بقدر ما في يده من الشؤون، وما وكل إليه من الأمور، يكون الحساب وتكون المسؤولية. فلا يلهِ ذو منصب بمنصبه عن القيام بواجبه، ولا يغترن الرؤساء بمظاهر الرياسة من الحيطة والكياسة وإعداد العدة لحساب أحكم الحاكمين)[٤].

(وقد عني الإسلام بالأسرة عناية خاصة، وجعل منها أساس المجتمع، وحتى يتحقق

---

(١) المرجع السابق ص ١٨٦.

(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٢١/١٣.

(٣) سورة.ص، آية: ٢٦.

(٤) الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي، ٤٨-٤٩.

هدف الإسلام في بناء الأسرة على أساس متين، فقد وزع المسؤولية والأعمال توزيعًا جميلاً ينتظم به شأن البيت من جهة، كما ينتظم به العمل خارجه من جهة أخرى، مع تحديد الواجبات والمسؤوليات على كل من الرجل والمرأة)[١].

وهذا ما ورد في نص الحديث من قوله ﷺ: "والرجل راع، على أهل بيته؛ والمرأة راعية على بيت زوجها وولده... إلخ". قال ابن حجر نقلاً عن الخطابي: (ورعاية الرجل أهله سياستهم لأمرهم وإيصالهم حقوقهم)[٢]، (فالرجل راع على أهل بيته، فمن أوجب واجباته أن يسعى ويكد وينهض بالكسب، ما يحتاج إليه البيت من مال ونفقة؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ﴾[٣]...

... ومن أبرز مسؤولية الرجل أن يتجه بالدعوة أول ما يتجه إلى بيته وأهله وزوجته؛ لأن البيت المسلم هو نواة الجماعة، ونواة البيئة الإسلامية، وهو الخلية التي يتألف منها ومن الخلايا الأخرى ذلك الجسم الحي (المجتمع الإسلامي)، ومن ثم كان القرآن يتنزل للرجال والنساء، وكان ينظم البيوت ويقيمها على المنهاج الإسلامي، وكان يحمل المؤمنين مسؤولية أهليهم، كما يحملهم تبعة أنفسهم ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾[٤])[٥].

(ورعاية المرأة تكون بتدبير أمر البيت والأولاد والخدم، والنصيحة للزوج في كل ذلك)[٦].

---

(١) دراسات تربوية في الأحاديث النبوية، د. محمد لقمان الندوي، ٣٠٢.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٢١/١٣.

(٣) سورة النساء، آية: ٣٤.

(٤) سورة التحريم، آية: ٦.

(٥) دراسات تربوية في الأحاديث النبوية، د. محمد لقمان الندوي، ٣٠٢، ٣٠٤.

(٦) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٢١/١٣.

(وبعبارة أخرى: نريد من المرأة بيتًا نظيفًا منظمًا، وولدًا صحيحًا مؤدبًا، ومالاً مرعيًا وطعامًا شهيًا، وثمرًا جنيًا، وطاعة لزوج في معروف، وأدبًا في منطق وكمالاً في نفس. ونظافة في بدن وزي. وفي ولد وخدم، فإن فعلت ذلك فنعمّت الراعية، ونعمت من ترعى، وإن المرأة مسؤولة أمام الله عن هذه الرعية: أقامت بواجبها أم قصرت في حقها، فإن كان القيام فروح وريحان وجنة نعيم. وإن كان التقصير فنزل من حميم وتصلية جحيم. فليتق الله نساؤنا ولا يكن كل همهنَّ الطعام والشراب، وزيارة الأحباب، والتفنن في الزينات، والمشي في الطرقات)[1].

ومن مظاهر المسؤولية التي يتحملها الإنسان، تلك المهام التي بنسد إلى الخدم والعمال والعاملات في البيوت، خاصة المهام المالية، لأنها أمانة يجب أن تؤدى بصدق وإخلاص، لأنه كثيرًا ما يناط بالعمال والخدم عدد من الأمور المالية وغيرها، مما يستوجب استشعار المسؤولية والخوف من الله تعالى، والقيام بما أنيط بهم من أعمال طمعًا في مرضاة الله تعالى، وهذه مجرد أمثلة، وما أكثر المسؤوليات التي تتطلب القيام بها، ومراقبة الله في السر والعلن.

(١) الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي، ٥٠.

الحديث رقم (٢٨٤)

٢٨٤- وعن أبي علي طَلْق بن علي رضي الله عنه: أنَّ رَسُول الله ﷺ، قَالَ: ((إذَا دَعَا الرَّجُلُ[1] زَوْجَتَهُ لحَاجَتِهِ فَلْتَأتِهِ، وَإنْ كَانَتْ عَلَى التَّنُور)). رواه الترمذي والنسائيُّ[2]، وَقالَ الترمذي: (حديث حسن صحيح).

ترجمة الراوي:

طلق بن علي: وهو طلق بن علي بن طلق -وقيل طلق بن علي بن قيس، وقيل طلق بن ثُمامة- بن عمرو بن عبدالله بن عمرو بن عبدالعزى بن سُحَيم بن مرة، السُّحَيْميٌّ، الحنفي، اليماميّ، يكنى أبا علي اليمامي، وهو من الصحابة المشهورين، له صحبة، ووفادة ورواية، روى عن النبي ﷺ وروى عنه الأربعة أصحاب السنن، وكان من الوفد الذين قدموا على رسول الله ﷺ من حنيفة من اليمامة، فأسلموا وذكره الواقدي باسمه في وفد بني حنيفة.

وفي إسلامه يروي عن نفسه قائلاً: ((خرجنا وفدًا إلى النبي ﷺ فبايعناه وصلينا معه، وأخبرنا أنَّ بأرضنا بيعةً لنا فاستوهبناه من فضل طهوره، فدعا بماء فتوضأ وتمضمض، ثم صبه في إداوة وأمَرَنا فقال: اخرجوا فإذا أتيتم أرضكم فاكسروا بيعتكم، وانضحوا مكانها بهذا الماء، واتخذوها مسجدًا، قلنا: إن البلد بعيد، والحر شديد، والماءَ يَنْشَف، فقال: مدوه من الماء فإنه لا يزيده إلا طيبًا.

فخرجنا حتى قدمنا بلدنا، فكسرنا بيعتنا ثم نضحنا مكانها، واتخذناها مسجدًا فنادينا فيه بالأذان، قال: والراهب رجل من طيء، فلما سمع الأذان، قال: دعوةُ حقٍ، ثم

---

(١) لفظهما: (إذ الرجل دعا زوجته).

(٢) أخرجه الترمذي (١١٦٠)، والنسائي في الكبرى (٨٩٢٢) ولفظهما سواء، وقال الترمذي: هذا حديثٌ حسن غريبٌ. وصحّحه ابن حبان (الإحسان ٤١٦٥). أورده المنذري في ترغيبه (٢٩٠٦).

استقبل تَلْعَةً من تلاعنا[١] فلم نره بعد)) ولم يؤرخ لوفاته رضي الله عنه[٢].

التنور: الفرن يخبز فيه[٣]، والمراد: وإن كانت تخبز له[٤].

الشرح الأدبي

هذا الحديث يجيء تاليًا للحديث السابق الذي يؤكد مسؤولية الرجل تجاه بيته، ومسؤولية المرأة تجاه زوجها وأولادها.. وفي ظل القيام بهذه المسؤولية المزدوجة، والرعاية المتكاملة يكون حق الزوج على المرأة أي زوجته، ولذلك تجمع الآية الكريمة بين هذين النموذجين: أنموذج الرجل القوام الراعي لأهل بيته، وأنموذج المرأة الصالحة القانتة الحافظة للغيب حيث يقول الله عز وجل: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾[٥]. أي بحفظ الله إياهن بالأمر على حفظ الغيب، والحث عليه بالوعد والوعيد والتوفيق له، أو بالذي حفظه الله لهن عليهم من المهر والنفقة، والقيام بحفظهن والذب عنْهن.

وفي ظل هذه الرؤية الإسلامية للعلاقة الزوجية نقرأ هذا التوجيه النبوي الراشد في تحصين العلاقة بين الرجل وزوجته في كل أمور الحياة، ومن أدق هذه الأمور قضاء

---

(١) التلاع جمع تَلْعة وهي في اللغة من كلمات الأضداد، يقع على ما انحدر من الأرض وأشرف منها، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ص ١١٠.

(٢) الطبقات الكبرى، ابن سعد ٢١٦/١، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٢٦٨، ٣٦٩، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود ٩١/٣، ٩٢، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ٦٥٤، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين ١٥٧/٣، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٢٤٦/٢، والسندي ٢١١/٢٦.

(٣) الوسيط في (ت ن ر).

(٤) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري ١١٨٣/١.

(٥) سورة النساء، آية: ٣٤.

الوطر المتمثل في إشباع الرغبة، وكسر حدة الغريزة، وذلك أمر محبب في الشريعة لأنه -في إطاره الشرعي- يحجب المرء عن ارتكاب الفاحشة، والوقوع في جريمة الزنا وانتهاك الأعراض، والتعدي على الحرمات، ولذلك يقول المصطفى ﷺ "وفي بضع أحدكم صدقة"(١).

والحديث في بناءه اللغوي يؤكد هذه الرغبة، حيث تكوَّن من جملتين شرطيتين: الأولى أداتها "إذا"، وهى للتحقق، وجاءت في سياق دعوة الرجل زوجته للمعاشرة الزوجية، واختيار مادة فعل الشرط "دعا"، تومئ إلى التلطف في الطلب، فالدعوة لا تكون إلا بالرفق واللين والمودة والرحمة، ولم يقل إذا أمر أو استدعى وإنما قال "إذا دعا"، فتأمل ما وراء هذه الكلمة من اللطف والرقة والإيناس ترغيبًا في الاستجابة، وقال "زوجته" ولم يقل: امرأته أو المرأة، وذلك للإشعار بضرورة توفر الأمان الشعوري والنفسي وتنامي شعور المحبة والإحساس بالتزاوج الحقيقي، والاتحاد التام بين هذين اللذين خُلقا من نفس واحدة، وإضافة: زوجته إلى الضمير العائد إلى الزوج. يؤكد أن الدعوة لا تكون لأي زوجة، وكذلك الزوجة لا تستجيب لأي رجل، وتأمل، وراء هذه الكلمة من إيحاءات وإشارات في قوله "لحاجته"، حيث لم يصرح المصطفى ﷺ باللفظ المباشر، حتى لا يفهم أن المقصد هو إشباع الرغبة الحسية فقط، وإنما هو إشباع نفسي وأمان وصَوْن، ومودة ورحمة، وسكن واطمئنان، ورغبة في التكاثر والتوالد، والإعفاف.

وجواب الشرط في قوله: "فلتأته" يرشد إلى ضرورة الإسراع وعدم التباطؤ أو التمنع في إجابة هذه الدعوة، ولذلك لم يقل فلتستجب له، ولم يقل: فلتلب الدعوة، وإنما الجواب يحمل الاستجابة والتنفيذ: لأن قوله "فلتأته" يدل على الحركة والسعي إلى الزوج، وتجيء الجملة الشرطية الثانية مؤكدة لهذه الاستجابة حيث يصور الرسول ﷺ أنه لابد من إجابة الدعوة حتى في أشد الحالات خطرًا وانشغالاً، فيقول: "وإن

---

(١) أخرجه مسلم ١٠٠٦.

كانت على التنور": أي كانت مشغولة بإعداد الطعام وغير ذلك من الأمور الحياتية، وأداة الشرط هنا "إن" وهي احتمالية لا تفيد اليقين: لأن هذه الحالة طارئة: حيث يمكن أن تكون المرأة غير مشغولة ساعة دعوة زوجها، وفي الكلام إيجاز بالحذف حيث حذف جواب الشرط في الجملة الثانية اختصارًا، لأن الجواب السابق دلَّ عليه وأرشد إليه: والتقدير: وإن كانت على التنور فلتأته.

فتأمل هذه الأسرار التي يشرق بها هذا البيان النبوي البليغ في إيجازه واستيفائه، وإحاطته بالمعنى الجميل النبيل.

فقه الحديث(١)

المضامين الدعوية(٢)

(١) تم الشرح الفقهي لهذا الحديث (٢٨٤) أثناء الشرح الفقهي للحديث (٢٨١).

(٢) تم دمجها مع مضامين الحديث رقم (٢٨١).

الحديث رقم (٢٨٥)

٢٨٥- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه، عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: ((لَوْ كُنْتُ آمِرًا أحَدًا أنْ يَسْجُدَ لأحَدٍ، لأمَرْتُ المَرأةَ أنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا)) رواه الترمذيُّ[١]، وَقالَ: ((حديث حسن صحيح)).

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

إن السجود لا يكون إلا لله عز وجل، وهو من سمات العبادة والخضوع، والطاعة والامتثال، فسجد في اللغة بمعنى: خضع؛ وقيل عين ساجدة أي فاترة، ونخلة ساجدة أي أمالها حملها.

وفي القرآن الكريم ورد فعل سجد وما يشتق منه في أربع وستين آية، يضاف إليها عشرون آية أخرى ذكر فيها كلمة المسجد، وآيتان وردت فيها كلمة مسجدًا، وست آيات ذكرت فيها كلمة مساجد، وقد أسند فعل السجود في القرآن إلى عناصر متعددة من خلق الله، كالملائكة والشمس والقمر والنجم والشجر والإنسان، وكل من في السماوات والأرض، وما في السماوات والأرض، والسجود في الآيات المتعلقة بالظواهر الكونية معناه الطاعة والخضوع لله عز وجل، وهذا المعنى هو معنى مجازي متطور عن المعنى الحسي اللغوي، وهو الانحناء والتطامن، حتى يصل الوجه إلى الأرض، وإذا ذكر السجود اليوم، فهو سجود الصلاة خضوعًا وعبادة لله عز وجل[٢].

وفي ضوء هذه الآفاق الدلالية لمصطلح السجود نتأمل هذا الحديث الشريف وهو يحض الزوجة على طاعة زوجها في ظل الأعراف والتعاليم الإسلامية، ولذلك نرى

---

(١) برقم (١١٥٩) وقال: حديث حسن غريبٌ. وصحّحه ابن حبان (الإحسان ٤١٦٢). وقال الحاكم (١٧٢/٤): هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. أورده المنذري في ترغيبه (٢٨٩٧).

(٢) انظر: التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن، د. عودة خليل أبو عودة.

الحديث الشريف يصاغ في جملة لغوية واحدة، وهذه الجملة صيغت في قالب الشرط والجواب، وهذا القالب يجمل الرغبة في الإقناع: لأن المقدمة الشرطية تؤدي إلى الجواب المترتب على إنجاز الفعل الشرطي، وأداة الشرط التي جاء بها رسول الله ﷺ هي "لو" ، وهى بدلالتها لا تستطيع أداة سواها أن تؤدي وظيفتها ودلالتها وثمرتها في دقة المعنى، فهي أداة امتناع لامتناع، حيث يمتنع الجواب لامتناع الشرط، وهنا يمتنع أن تسجد المرأة لغير الله، وإنما المراد الطاعة والامتثال، وذلك من متعلقات السجود، ومن دلالاته اللغوية، وكذلك جاء أمر الرسول بعدم السجود من أحد لأحد: لأن السجود في المنظور الإسلامي لا يكون إلا لله، وصياغة الحديث تقيد هذا الامتناع عن السجود، ولذلك قال رسول الله ﷺ في إجابته لسؤال قيس بن سعد حينما قال: "أتيت الحيرة فرأيتهم يسجدون لِمَرْزُبَانٍ لهم، فقلت: رسولُ الله ﷺ أحقُّ أن يُسْجَدَ له، قال: ((فأتيت النبي ﷺ فقلت: إني أتيت الحيرة فرأيتهم يسجدون لمرزبان لهم، فأنت يا رسول الله أحق أن نسجد لك. قال: أرأيت لو مررت بقبري أكنت تسجد له؟ قال: قلت: لا. قال: فلا تفعلوا، لو كنت آمرًا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت النساء أن يسجدن لأزواجهن، لما جعل الله لهم عليهن من الحق))[1].

وتأمل قوله: "لو كنت آمرًا أحدًا"، فهو أكثر احتراسًا وتقييدًا من قوله: لو أمرت أحدًا، حتى لا يقع في الظن أن الأمر بالسجود للبشر يُحتمل وقوعه، فالتعبير بقوله: "لو كنت آمرًا" يحمل دلالة عدم وقوع هذا الأمر، إضافة إلى مجيء "لو" أداة للشرط، والتعبير بقوله "أحدًا"، يفيد: أنه لا يجوز لأي إنسان مهما كانت عقيدته أن يسجد لإنسان آخر، وجواب الشرط: لا يأمر بالسجود، ولكن يوحي بضرورة طاعة الزوجة لزوجها، ومراعاة حقوقه، وحفظه في نفسها وماله وبيته، فهي راعية على بيت زوجها وولده، كما جاء في الحديث الشريف.

---

(١) أخرجه أبو داود، ٢١٤٠، وقال الألباني: صحيح دون جملة القمر (صحيح سنن أبي داود ١٨٧٣).

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكمين فقهيين:

الأول: حكم طاعة المرأة لزوجها، وقد سبق الكلام عنه في الحديث رقم ٢٧٦.

كما اتفق الفقهاء[1] على أن المرأة الناشز لا نفقة لها في مدة نشوزها، لأنها لم تقم بوفاء ما عليها، فتسقط نفقتها لأجل ذلك.

الثاني: حكم السجود لغير الله، وقد اتفق الفقهاء[2] على أن السجود لغير الله من الأصنام والشمس والقمر، كفر يخرج به الساجد عن الملة إذا كان عاقلاً بالغًا مختارًا سواء أكان عامدًا أم هازلاً، وكذا اتفقوا على أن السجود لغير الصنم كأحد الجبابرة أو الملوك أو أي مخلوق آخر من المحرمات وكبائر الذنوب، فإن أراد الساجد بسجوده عبادة ذلك المخلوق، كفر وخرج بإجماع العلماء.

---

(١) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود شرح الطيبي ٢٢/٤، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ٥٢/٣، والفروق للقرافي ١٣٢/١، وأحكام القرآن، ابن العربي، تحقيق: علي محمد البجاوي ٥٣٥/١، والأم ٢٠٨/٥، وأحكام القرآن للشافعي ٢١٢/١، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٣٣٧/٣، والفروع، ابن مفلح ٥٨٥/٥، وإعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، تحقيق: رائد صبري بن أبي علفة ٧٥/٢، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٨٩/٨.

(٢) أحكام القرآن، الجصاص ٤٥/١ وما بعدها، ورد المحتار لابن عابدين ٣٨٣/٦، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٥٦/١، وإعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، تحقيق: رائد صبري بن أبي علفة ٢٤٧/٤، وغذاء الألباب شرح منظومة الآداب، الإسفراييني الحنبلي ٣٢٩/١، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، الشوكاني ٢٤٨/٦، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢١١/٢٤.

المضامين الدعوية

أولاً: من مهام الداعي: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: عظم حق الزوج على زوجته.

ثالثًا: من أصناف المدعوين: الزوجات.

أولاً- من مهام الداعي: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم:

في هذا الحديث أرشد النبي ﷺ النساء إلى عظم حق أزواجهن عليهن فقال "لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها" ففي الحديث بيان أن مصلحة المرأة في طاعة زوجها، ما دامت لا تخرج عن إطار طاعة الله تبارك وتعالى، وإن قيام الداعية ببيان حق الزوج على زوجته، وإرشاد الزوجات إلى ما ينفعهن، باب عظيم من أبواب الدعوة إلى الله تعالى، يؤكد خيرية هذه الأمة، التي ينتصب المتخصصون من أبنائها للدعوة إلى الله امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(١) أي يدعون إلى الإسلام وإلى العمل بطاعة الله آمرين بطاعة الله ناهين عن معصيته(٢).

وقد حث الإسلام على الدعوة إلى الخير، مبينًا أن الداعي إلى الخير له مثل أجر فاعله، فعن أبي مسعود الأنصاري قال جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال إني أبْدِع بي... أي هلكت دابتي وهي مركوبي فاحملني فقال ما عندي، فقال رجل: يا رسول الله أنا أدله على من يحمله فقال رسول الله ﷺ: ((مَنْ دَلَّ علىٰ خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ))(٣) وفي الحديث فضيلة الدلالة على الخير والتنبيه عليه والمساعدة لفاعله(٤). من خلال بيان حق الزوج على زوجته حتى تستقيم الحياة الزوجية ويُعرف قدر كل فرد من أفراد الأسرة وتعرف الحقوق والواجبات.

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٠٤.

(٢) انظر: زاد المسير، في علم التفسير، ابن الجوزي، ٤٣٥/١.

(٣) أخرجه مسلم ١٨٩٣

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٢١٥.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: عظم حق الزوج على زوجته:

وقد أشار إلى ذلك رسول الله ﷺ في الحديث "لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها" لكثرة حقوقه عليها، وعجزها عن القيام بشكرها، وفي هذا غاية المبالغة لوجوب إطاعة المرأة في حق زوجها فإن السجدة لا تحل لغير الله[1].

وقد حذر النبي ﷺ الزوجات من كفران العشير، وبيّن أن ذلك من أسباب النار واستحقاقها، فقال ﷺ في حديث طويل: «ورأيت النارَ فلم أرَ كاليوم منْظرًا قطُّ، ورأيتُ أكثرَ أهلِها النساء، قالوا: لِمَ يا رسولَ الله؟ قال: بكفرهِن. قيل: يَكْفُرْنَ بالله؟ قال: يكفُرْنَ العَشِير، ويكفُرْنَ الإحْسَانَ، لو أحسَنتَ إلى إحداهُنَّ الدَّهرَ، ثم رأت منك شيئًا، قالت: ما رأيتُ منك خيرًا قَطُّ»[2].

ثالثًا- من أصناف المدعوين: الزوجات:

وجه النبي ﷺ إرشاده في هذا الحديث إلى صنف من أهم أصناف المدعوين، ألا وهو: الزوجات قائلاً: (لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها)، فلقد اهتم الإسلام بالنساء، واعتبرهن شقائق الرجال، وقد شملهن خطاب التكليف ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[3]، والمرأة تحظى بدور كبير واحترام عال في شريعة الإسلام، وكان لدعوتهن وهدايتهن عظيم الشأن، فإن هداية المرأة كسب لها وحماية للمجتمع وأخلاقه، ومنع أية آثار سلبية تتركها في المجتمع حينما تكون بلا هداية، وبهذا نفهم أن الدعوة في صفوف النساء هي أيضًا حماية للمجتمع وأخلاقه وشبابه[4].

---

(١) تحفة الأحوذي، العظيم آبادي، ١/١٨٣.

(٢) أخرجه البخاري ٥١٩٧.

(٣) سورة البقرة، آية: ١٠٤.

(٤) انظر: فقه الدعوة، د.بسام العموش ص ٧٣-٧٤.

الحديث رقم (٢٨٦)

٢٨٦- وعن أم سَلَمَة رضي الله عنها ، قَالَتْ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ : ((**أيُّمَا امْرَأةٍ مَاتَتْ، وَزَوْجُهَا عَنْهَا رَاضٍ دَخَلَتِ الجَنَّةَ**)) رواه الترمذيُّ[1] ، وَقالَ: ((حديث حسن)).

ترجمة الراوي:

أم سلمة: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٨٢).

الشرح الأدبي

إن الحياة الزوجية لا تستقيم أمورها ، ولا تثمر بذورها ، إلا في ظل التماسك الأسري ، والتعاطف الوجداني ، وإحساس المرأة بواجبها الشرعي تجاه زوجها ، واقتناعها بقوامة الرجل ، ووجوب طاعته فيما أحل الله ، وكذلك الرجل عليه تبعات وواجبات تجاه زوجته وأولاده... وهو راعٍ ومسؤول عن رعيته في ظل القيم الإسلامية ، واتباعًا لتعاليم المصطفى ﷺ.

وفي ضوء هذا المعيار الإسلامي ، والتصور الإيماني نتأمل آفاق المعنى ، وأسرار الأسلوب في هذا الحديث الشريف ، الذي يجعل من طاعة الزوج ، ورضاه عن زوجته طريقًا ممهدًا يؤدي إلى دخول الجنة ، وتحت كلمة "راضٍ" التي تصور موقف الزوج من زوجته في حياتها وبعد موتها... نضع كثيرًا من خطوط التأمل ، وعلامات التعجب ، فهي كلمة تتموج وتشع بصور كثيرة ، ومواقف متصلة ، ومعانٍ متعددة ، فالرضا حالة من الطمأنينة والسكون والمحبة ، لا يصل إليها الإنسان إلا بعد تجارب ومواقف حياتية كثيرة ، وهذه الزوجة التي فازت برضا زوجها ، لا شك أنها قدمت له الكثير في حياتها من الرعاية ، والطاعة ، والحب والولاء ، وما أصدق الشاعر العربي جرير ، حين قال في معرض رثاء زوجته وهو يصور قيمتها وعطاءها :

---

(١) برقم (١١٦١) وقال: حديثٌ حسنٌ غريبٌ. قال الذهبي في الميزان (٤/٩٥ ، في ترجمة: مُساور الحميري): فيه جهالة ، والخبر منكرٌ. أورده المنذري في ترغيبه ٢٨٨٥).

عَمِـرَتْ مُكَرمَـةَ المَسَاكِ وَفارَقَـتْ مَـا مَـسّهَا صَـلَفٌ، وَلا إقْتَـارُ

كانَـتْ مُكَرِّمَـةَ العَشيرِ وَلمْ يَكُـنْ يَخْـشَى غَوَائِـلَ أُمّ حَـزْرَةَ جَـارُ

ثم يقول:

وَلَقَـدْ أرَاكِ كُسِيتِ أجمَـلَ مَنظَـرٍ وَمَـعَ الجَمَـالِ سَـكينَةٌ وَوَقَـارُ

وَالـرّيحُ طَيّبَـةٌ إذا اسـتَقْبَلتِهَا وَالعِـرْضُ لا دَنِـسٌ وَلا خَـوّارُ

صَـلّى المَلائِكَـةُ الـذينَ تُخُيّـرُوا وَالـصّالحُونَ عَلَيْـكِ وَالأبْـرَارُ(١)

وهذه الصفات الكريمة، والسجايا الحميدة هي التي تأسر الزوج، وتستولي على رضاه ومشاعره فيظل في شوق إلى زوجته، ويظل قلبه معلقًا بها حتى بعد رحيلها، ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة حيث ظل يثني على خديجة رضي الله عنها ويشيد بها أمام الأخريات من نسائه، وذلك لأنها صدقته، وآوته، وأمدَّته بمالها، ورزقه الله منها الولد، والحديث فيه إيجاز وبلاغة، وإيماءات وإيحاءات، فهو يتكون من جملة واحدة، وهي جملة شرطية، وأسلوب الشرط دائمًا يفصح عن قيمة الجزاء، وعن جنس العمل، والشرط هنا يتمثل في رضا الزوج عن زوجته في حياتها وبعد موتها، وهو رضا نابع من السلوك الإيماني للزوج والزوجة، وهذا الرضا يكون جزاؤه دخول الجنة، ونعيم الجنة غير محدود، وكيف يُحد؟ وفي الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، والشرط وجوابه صيغا في قالب الفعل الماضي دلالة على التمكن، وحصول الحدث، وثبات الأجر، فلم يقل ستدخل الجنة، وإنما قال: "دخلت الجنة"، لأن هذا وعدٌ من الله، فهو واقع وثابت لأن الله لا يخلف الميعاد.

---

(١) انظر: شرح هذه القصيدة في كتاب: جماليات النص الأدبي في ضوء القيم الإسلامية، د. صابر عبدالدايم، مكتبة الرشد، الرياض، ٢٠٠٦م ص ٢٤٢-٢٧٠.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة الشرط:

ثانيًا: من أساليب الدعوة: الترغيب.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل رضا الزوج عن زوجته.

أولاً- من أساليب الدعوة: الشرط:

استعمل النبي ﷺ أسلوب الشرط في هذا الحديث فقال "أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض" فقوله "أيما" الشرطية[(١)] وبين جواب الشرط بقوله "دخلت الجنة" وأسلوب الشرط من أساليب الدعوة المفيدة، التي تحث المدعوين وتُحفز هممهم على فعل الخير واجتناب الشرط، وهو أسلوب كثر استعماله في القرآن والسنة، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[(٢)] وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[(٣)].

ثانيًا- من أساليب الدعوة: الترغيب:

حيث رغب النبي ﷺ الزوجة في طاعة زوجها ورضاه عنها بدخول الجنة قائلاً: "أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة" لمراعاتها حق الله وحق عباده[(٤)] وأسلوب الترغيب والترهيب من أساليب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في دعوتهم إلى الله، لأن النفوس البشرية مختلفة الطباع منها، ما يجلبه الترغيب، ومنها ما يخيفه

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٤٨٩.

(٢) سورة الزلزلة، الآيتان: ٧، ٨.

(٣) سورة الأنفال، آية: ٢٩.

(٤) تحفة الأحوذي، المباركفوري، ١١٨٤/١.

الترهيب، ولهذا جاء القرآن الكريم فيقول: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[1] ويقول عن رسول الله ﷺ ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾[2]، ويقول عن رسول الله ﷺ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾[3].

فرسل الله دعاة جاءوا بوحي ورسالة، وحق وهداية، فمن قبل هدى الله فلا يضل ولا يشقى تبشره الرسل بالهداية، وتسره بالفوز في الدنيا والآخرة، ومن أعرض عن هدي الله سبحانه أنذروه بالويل والثبور في الدنيا والآخرة، وتوعدوه وأرهبوه بعذاب الله وغضبه عليه[4].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل رضا الزوج عن زوجته:

في هذا الحديث يبيّن النبي ﷺ فضل الزوج على زوجته، وأنه سبب لأعظم بغية وأفضل رجاء، وهو دخول الجنة، فقال رسول الله ﷺ "أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راضٍ دخلت الجنة" وعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: ((إِذَا صَلَّتِ المَرْأَةُ خَمْسَها، وصَامَتْ شَهْرَهَا، وحَفِظَتْ فَرْجَهَا، وأَطَاعَتْ زَوْجَهَا دَخَلَتِ الجَنَّةَ))[5] فبالطاعة تستقر الحياة الزوجية وتستقيم الأسرة، وينعم أفرادها ويسعدون في دنياهم وأخراهم، والواجب على الزوج أن يراعي الله في هذا الحق، فلا يأمرها إلا بما هو خير وحق، وعليه أن يتحلى بالخلق الرفيع عندما يأمر وينهى، حتى تحصل له الطاعة عن طيب نفس ورضا[6].

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٤٨.

(٢) سورة النساء، آية: ١٦٥.

(٣) سورة الأحزاب، الآيتان: ٤٥، ٤٦.

(٤) الدعوة إلى الله، الرسالة، الوسيلة، الهدف، د. توفيق الواعي ص ٢٠١، ٢٠٢.

(٥) أخرجه أحمد ١٩١/١ رقم ١٦٦١، وقال محققو المسند: حديث حسن لغيره، (مسند أحمد ١٩٩/٣).

(٦) دروس في الحقوق الواجبة على المسلم، د. فالح بن محمد بن فالح الصغير ص ١٤٠.

ولقد أثنى الإسلام على طاعة المرأة لزوجها، وجعل ذلك مؤهلاً لها بأن تكون من خير النساء، إضافة إلى ما يتسبب ذلك في رضا الزوج عن زوجته، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أي النساء خير؟ قال التي تسره إذا نظر وتطيعه إذا أمر ولا تخالفه فيما يكره في نفسها وماله))[1].

(١) أخرجه أحمد ١٥١/٢ رقم ٧٤٢١، وقال محققو المسند :إسناده قوي، (مسند أحمد ٣٨٤/١٢).

الحديث رقم (٢٨٧)

٢٨٧- وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه ، عن النَّبيّ صلى الله عليه وسلم ، قَالَ: ((**لاَ تُؤْذِي امْرَأةٌ زَوْجَهَا فِي الدُّنْيَا، إلاَّ قَالَتْ زَوْجَتُهُ مِنَ الحُورِ العِينِ: لاَ تُؤْذِيهِ: قَاتَلكِ اللهُ ! فَإِنَّمَا هُوَ عِنْدَكِ دَخِيلٌ، يُوشِكُ أنْ يُفَارِقَكِ إِلَيْنَا**)) رواه الترمذي[١] ، وَقالَ: ((حديث حسن)).

ترجمة الراوي:

معاذ بن جبل: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٦١).

غريب الألفاظ:

الحور العين: هن نساء أهل الجنة، واحدتهن حوراء وهي الشديدة بياض العين الشديدة سوادها وذلك نهاية في الحسن من العين[٢].

دخيل: الدخيل: الضيف والنزيل[٣].

الشرح الأدبي

يعرض هذا الحديث صورة من صور التنافر بين الزوجين، وحالة من حالات النشوز والإعراض من قبل الزوجات، وكأن هذا الحديث يقدم الوجه الآخر للحديث السابق: حيث يرغب الرسول صلى الله عليه وسلم الزوجة في السعي إلى تحقيق وإنجاز ما يرضي زوجها عنها وجزاء ذلك الجنة.

وهذا الحديث يتوجه بالتقريع إلى الزوجات اللائي لم يحرصن على رضا أزواجهن، بل يسْعين في إيذائهن، ولذلك يبشر الرسول صلى الله عليه وسلم هؤلاء الأزواج بأن الله سيعوضهم بالحور العين اللائي يدافعن عنهم، ويدعون على الزوجات المؤذيات بقتال الله لهن.

---

(١) برقم (١١٧٤). قال الذهبي في سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط (٤/٤٧): إسناده صحيحٌ متصل. أورده المنذري في ترغيبه (٢٩٠٥).

(٢) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ح و ر).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (د خ ل).

وفي كثير من سور القرآن الكريم يعد الله عباده المتقين بالحور العين، يقول الله عز وجل في سورة الطور: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾[1]. وفي سورة الرحمن، وسورة الواقعة، وغيرهما يتكرر هذا الوعد الإلهي الصادق.

ويبدأ الحديث الشريف بصيغة النفي في قوله: "لا تؤذي امرأة زوجها"، ولكن هذا النفي يجيء في سياق أسلوب القصْر: فهو نفي يثبت حالة من حالات الإيذاء، وطريق القصر هنا: النفي والاستثناء وذلك لتأكيد الجزاء الذي يعده الله لمن صبر على الإيذاء، ويتكرر الفعل المتضمن للإيذاء مرة أخرى في نهاية الجملة، ولكنه يجيء في صيغة النهي "لا تؤذيه" وهو نهي صادر من الحور العين دفاعًا عن ذلك الزوج الصالح، ثم بعد هذا النهي الذي جاء عقب جملة القصر للدلالة على تكرار النهي كلما تكرر الإيذاء تجأر الحور العين بهذه الجملة الدعائية، "قاتلك الله" حيث تدعو الحور العين على هذه الزوجة المؤذية لزوجها بأنها سيقاتلها الله، وكأنها حين نشزت وأعرضت وآذت زوجها خرجت عن طاعة ربها، وقيل إن صيغة المفاعلة في هذه الجملة الدعائية للمبالغة لأن المرأة المؤذية لما فعلت ذلك وتعرضت لعقوبة الله، صارت كالمقاتلة له تعالى!!!

ولفظ الإيذاء أو الأذى يحمل كل ألوان النفور والنشوز، وعدم الطاعة وعدم الرضا ويؤدي إلى القلق والحزن والتقلبات النفسية، والتموجات الغضبية، فيصبح الإنسان كالموج لا يستقر على حال، وفي اللغة الأذي هو الموج وكذلك البعير يقال له: أذٍ: وهو الذي لا يقر في مكان بلا وجع ولا مرض، وهذه حالة تتطابق مع حالة الزوج المؤمن الذي آذته زوجته فصبر واحتسب، ولذلك يكافئه الله عز وجل، والحور العين من نساء الجنة، والحور: جمع حوراء: وهي الشديدة بياض العين: الشديدة سوادها، ويتكرر أسلوب القصر في الحديث في هذه الجملة: فإنما هو عندك دخيل وهذه الجملة من كلام الحور العين، وهى توحي بأن الزوج في ضيافة زوجته، وبأن الحياة قصيرة، ويجب أن يجملها الزوجان، وأن يجعلا منها بستانًا من المحبة والسعادة، والرضا والقناعة،

---

(١) سورة الطور، آية: ٢٠.

والتعبير بالمضارع في ختام الحديث في قول الحور العين على لسان رسول الله ﷺ "يوشك أن يفارقك إلينا"، يوحي بقصر الحياة ويرشد إلى ضرورة إكرام الزوجة لزوجها، وعدم إيذائه، والتعبير بقوله: "يفارقك إلينا" بعد فعل المقاربة الذي يفيد الدنو والإسراع، فيه تهديد ووعيد لهذه الزوجة التي لم ترع زوجها، ولم تحرص عليه، بأن الفراق وشيك، وأنه سينتقل إلى نعيم مقيم، وثواب عظيم، حيث يكون مع الذين أنعم الله عليهم "في جنات النعيم" حيث يقول عز وجل: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ﴾[(١)].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الحصر والقصر.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: الترهيب.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: عظم حق الزوج على زوجته.

رابعًا: من مهام الداعي: تحذير المدعوين مما يضرهم.

خامسًا: من أصناف المدعوين: النساء.

أولاً- من أساليب الدعوة: الحصر والقصر:

ورد في الحديث استعماله ﷺ النفي والاستثناء، واجتماعهما الذي يفيد الحصر والقصر فقال ﷺ "لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجه من الحور العين لا تؤذيه قاتلك الله" أي لا يقع إيذاء من امرأة لزوجها في الدنيا إلا دعت عليها زوجته من الحور العين قائلة قاتلك الله.

ثانيًا- من أساليب الدعوة: الترهيب:

حيث رهب النبي ﷺ في الحديث من إيذاء الأزواج الذي يكون سببًا في دعاء زوجته من الحور العين على تلك المرأة التي كانت سببًا في إيذاء زوجها، ومن الشواهد

---

(١) سورة الواقعة، الآيات: ١٧-٢٢.

على ذلك في الحديث الذي نحن بصدده ما ورد في قوله ﷺ: "لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجه من الحور لا تؤذيه قاتلك الله" أي قتلك أو لعنك أو عاداك، وقد يرد للتعجب كتربت يداك[١] وقال ابن علان: "قاتلك الله" جملة دعائية، والمراد من المفاعلة فيه أصل الفعل، وعبر بها للمبالغة، وأنها لما فعلت ذلك وتعرضت لعقوبة الله صارت كالمقاتلة له فعبر بذلك[٢].

ووردت أحاديث عدة ترهب المرأة من إيذاء زوجها أو عصيانه فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال ((إذا دعا الرجل امرأتَهَ إلى فِراشه، فأَبت أن تجيءَ، لَعَنَتْها الملائكة حتى تُصبح))[٣] وفي رواية للبخاري أيضًا عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال النبي ﷺ ((إذا باتَتِ المرأةُ مُهاجرةً فِراشَ زوجها لَعَنَتْها الملائكةُ حتَّى ترجعَ))[٤]؛ (فالترهيب أسلوب دعوى ناجح يعالج النفس البشرية، وحبها للأمن والسلامة، وإيثارها البعد عن الخوف والخطر، وذلك من خلال تخويفها وتهديدها، ومن خلال أسلوب الترهيب، يمكن للداعي عرض الدعوة إلى الله عرضًا يجذب الناس حول الحق، خوفًا من العقاب وخوفًا من فقدان السلامة والأمن)[٥].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: عظم حق الزوج على زوجته:

للزوج الصالح حق على زوجته، ذكر النبي ﷺ ما يؤكد هذا الحق من خلال ما يترتب على إيذاء الزوجة لزوجها في قوله ﷺ "لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين لا تؤذيه قاتلك الله، فإنما هو عندك دخيل يوشك أن يفارقك" وحق الزوج على زوجته ليس بالشيء الهين، فلا ينبغي الاستهانة به، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال جاء رجل إلى رسول الله ﷺ بابنة له فقال يا رسول الله هذه ابنتي

---

(١) تحفة الأحوذي، المباركفوري، ١١٨٩/١.

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٤٨٩.

(٣) أخرجه البخاري، ٥١٩٣.

(٤) أخرجه البخاري، ٥١٩٣.

(٥) انظر: فقه الدعوة إلى الله، د. علي عبد الحليم محمود ٢٣٢/١.

قد أبت أن تتزوج، فقال لها النبي ﷺ أطيعي أباك، فقالت: والذي بعثك بالحق لا أتزوج حتى تخبرني ما حق الزوج على زوجته؟ فقال النبي ﷺ "حق الزوج على زوجته أن لو كانت قَرْحةٌ فلحستها ما أدت حقه" قالت والذي بعثك بالحق لا أتزوج أبدًا فقال النبي ﷺ ((لا تَنْكِحُوهُنَّ إلا بإذْنِ أَهْلِهِنَّ))[1].

لذا بات معلومًا في الذهن أنه يجب على المرأة المسلمة أن تطيع ربها، ثم تطيع زوجها وتقوم بحقه بالمعروف وأن تحفظ ماله وسره وفراشه[2] إلى غير ذلك مما أوجبه الشرع عليها.

رابعًا- من مهام الداعي: تحذير المدعوين مما يضرهم:

يحذر النبي ﷺ المرأة المسلمة من إيذاء زوجها فيقول: "لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين لا تؤذيه قاتلك الله" دعاء عليها، وأنّى لها بمعاداة الله وتحمل غضبه، لذا كان من مهام الداعي تحذير المدعوين من مكامن الخطر والإلقاء بالنفس إلى موارد التهلكة.

خامسًا- من أصناف المدعوين: النساء:

في هذا الحديث وجه النبي ﷺ دعوته إلى معشر النساء، يحذرهن من إيذاء أزواجهن، أو التفريط في حقوقهم، مبينًا لهم ومحذرًا لهن من عاقبة ذلك "لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين لا تؤذيه قاتلك الله فإنما هو عندك دخيل يوشك أن يفارقك إلينا"، والعناية بدعوة النساء وخطابهن عناية بالدعوة وعناية بالمجتمع كله، لذا نجد أن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ورد فيها الخطاب الدعوي الموجه للنساء، لما لذلك من أهمية، ولما للمرأة من دور اجتماعي وتربوي كبير في المجتمع، فهن راعيات الأطفال ومربيات الأبناء وهن المؤثرات على الأزواج والمحارم[3]، ومن هنا يتبين لنا أهمية النظر بعين الاعتبار للنساء بأنهن من أصناف المدعوين الذين لا يستهان بهم.

---

(١) صحيح ابن حبان، ٤١٦٤، وقال محقق الحديث: إسناده حسن، ٤٧٢/٩.

(٢) انظر: موسوعة الآداب الإسلامية، عبدالله بن محمد المعتاز، ١٣١/١.

(٣) انظر: فقه الدعوة، د. بسام العموش ص ٧٣ - ٧٤.

ولقد أوضح القرآن أن الرجل والمرأة في التكليف والثواب والعقاب سواء، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[١]، وفي هذا البيان دلالة على أن أحكام الإسلام يستوي فيها الرجال والنساء، ما عدا ما خصصه الدين بأحد الصنفين[٢].

---

(١) سورة النحل، آية: ٩٧ .

(٢) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ٢٧٣/١٤/٦.

الحديث رقم (٢٨٨)

٢٨٨- وعن أسامة بن زيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، عن النَّبيِّ ﷺ، قَالَ: ((مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً هِيَ أضَرُّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّساء)) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[1].

ترجمة الراوي:

أسامة بن زيد: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٩).

الشرح الأدبي

إن الحياة تموج بألوان الفتن، والإنسان محاصر فيها بحب الشهوات، ومتعلق بزينتها وبما تتْضح من مغريات وأهواء ومرغبات: من النساء والبنين، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث.

والحياة الدنيا في كمال زينتها، وفي قمة إغرائها لعب ولهو وزينة وتفاخر، وتكاثر في الأموال والأولاد، وهي في هذه الزينة الخادعة كمثل غيث أعجب الكفار نباته، ثم يهيج فتراه مصفرًا، ثم يكون حطامًا"....!!!! وفي الآخرة عذاب شديد، ومغفرة من الله ورضوان.

إن هذه الفتن المائجة بكل أنواع الشهوات تتصدرها فتنة النساء، فهي كما أخبر المصطفى ﷺ أكثر إضرارًا على الرجال من أي فتنة أخرى، لأن الافتتان بالنساء أشد منه بغيرهن من أنواع الفتن الأخرى.

وهذا الحديث لا يدعو إلى كراهية النساء، ولا إلى عداوتهن، ولا يقدح في طبيعتهن وخلقهن وإنما يدعو إلى التوازن في التعلق بهن، وعدم الانشغال بهن انشغالاً يؤدي بالإنسان إلى التهلكة، ويوقعه في الحرام، وتعطيل حدود الله، وفروضه وواجباته.

والحديث من البيان النبوي الموجز الذي يشع بدلالات كثيرة، ويرشد إلى آفاق سلوكية، ودروس اجتماعية تهدي الحيارى، وترشد السائرين، وتنقد السادرين في

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٩٦)، ومسلم (٢٧٤٠/٩٧) واللفظ له.

غواياتهم، والغارقين في شهواتهم وضلالاتهم، فهو ينبه ولا يسفه، ويفتح أبواب النجاة، ولا يغلق منافذ التمتع بالحياة، في ظل القيم المرتضاة، والتعاليم المرتجاة، والسلوكيات المبتغاة.

والحديث حين نتأمل بناءه اللغوي نجده يتكون من جملة واحدة، لا يكتمل المعنى إلا بعد قراءتها كاملة.

والتعبير بالماضي في قوله عليه الصلاة والسلام "ما تركت بعدي" والعدول عن التعبير بالمضارع يرشد إلى أن هذه حقيقة كائنة وماثلة، وفي ذلك تحذير لكل رجل، وللمؤمنين خاصة من الاستغراق في خضم فتنة النساء: لأنها من عين الشهوات، وهي الأصل في تكاثر كل أنواع الفتن، والتعبير بقوله "بعدي"، يوحي بأنَّ هذا التحذير الضمني موجه إلى المسلمين خاصة، وفيه كذلك إشارة إلى أن كل رجل بالغ عاقل مكلف عليه أن يدخل في دين الإسلام، وأن يحذر من التردي في حمأة فتنة النساء.

ولفظ: الفتنة من الألفاظ ذات الدلالات المتعددة.. وكلها تتجمع كحزمة الأشعة المكثفة، وتتوهج بكثير من المعاني التي تتوافق مع ما يقصد إليه رسول الله ﷺ من الإشارة إلى أنواع الفتن وفي صدارتها النساء، فالفتنة هي المحنة والابتلاء، والجمع فتن وأصلها من قولك: فتنت الذهب والفضة، إذا أدخلتهما النار لتمييز الجيد من الرديء، والفتن في اللغة: الإحراق، ومنه قوله سبحانه: ﴿عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ﴾[1].

ومن معاني الفتنة ودلالاتها: الضلال والإثم والكفر والفضيحة والعذاب وإذابة الذهب والفضة، والإضلال والجنون والمحنة والمال والأولاد، واختلاف الناس في الآراء، ويقال: فتن إلى النساء، أي أراد الفجور بهن، والفتَّان اللص والشيطان"[2]. فهذه المفاهيم اللغوية تتضمن كثيرًا من أنواع الفتن.. وفي مقدمتها فتنة النساء، ولذلك جاءت كلمة فتنة في صيغة النكرة، إشارة إلى ألوان الفتن الأخرى فهي ليست الفتنة الوحيدة، ولكنها أشدها ضررًا وقوله: "هي" لمزيد من التحديد والتخصيص، والتعبير بأفعل

---

(١) سورة الذاريات، آية: ١٣ .

(٢) القاموس المحيط، الفيروزآبادي في (ف ت ن).

التفصيل في قوله: "أضر" يفصح عن خطورة الانزلاق في مهاوي هذه الفتنة، والتعبير بـ"على" يفيد تحكم هذه الفتنة، واستعلاء ذلك الضرر، ووقوع الرجال في قبضته، وقوله: "الرجال" فيه تعميم، ولم يخصص الضرر بالمؤمنين أو المسلمين، لأن هذه فطرة يشترك فيها الناس جميعًا، وعليهم أن يقاوموا هذا الجموح حتى لا يصيبهم الهلاك، وقوله "النساء": إشارة إلى أن الفتنة قد تكون بما لا يحل للإنسان، ولم يقل الزوجات!!!.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار، التحذير.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: بيان خطر الفتنة بالنساء.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: إخبار النبي ﷺ بفتنة الرجال بالنساء من بعده.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار، الحذر:

أ- **الإخبار:** حيث أخبر النبي ﷺ في الحديث بضراوة الافتتان بالنساء، وذلك على سبيل التحذير قائلاً: "ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء" وإخبار الداعي المدعوين بمكامن الخطورة وموارد التهلكة، يجعلهم آخذين للحيطة، نائين بأنفسهم عن التهلكة وأسبابها.

ب- **التحذير:** فهذا الحديث في معناه يحمل معنى التحذير الذي وجهه النبي ﷺ إلى الرجال من فتنة النساء، والتحذير بمعنى التخويف، يقصد بذلك التيقظ والاستعداد وأخذ الحذر[(١)].

وقد أمرنا الله بأخذ الحذر والحيطة في الأمور عامة، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾[(٢)]، وحذرنا من مخالفة الأمر الشرعي سواء في الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟﴾[(٣)]، وقال: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ

---

(١) انظر: المعجم الوسيط ١٦٢.

(٢) سورة النساء، آية: ٧١.

(٣) سورة المائدة، آية: ٩٢.

أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[١].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: بيان خطر الفتنة بالنساء:

يبين النبي ﷺ في هذا الحديث خطر الفتنة بالنساء فيقول ﷺ: ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء" ففيه أن الفتنة بالنساء أشد من الفتنة بغيرهن[٢] وقد ذكرها الحق تبارك وتعالى في مقدمة الشهوات التي زينت للناس ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾[٣].

قال ابن الجوزي: (وهذه الأشياء المذكورة قد تحسن نية العبد بالتلبس بها، فيثاب عليها، وإنما يتوجه الذم إلى سوء القصد فيها وبها[٤]، فإذا قصد سوء القصد كانت فتنة وضررها واضح جلي، وقال ابن حجر في قوله: ("زين للناس حب الشهوات من النساء" فجعلهن -أي النساء- من حب الشهوات، وبدأ بهن قبل بقية الأنواع، إشارة إلى أنهن الأصل في ذلك. وقد قال بعض الحكماء: النساء شر كلهن، وأشر ما فيهن عدم الاستغناء عنهم، ومع أنها ناقصة عقل ودين، تحمل الرجل على تعاطي ما فيه نقص العقل والدين، كشغله عن طلب أمور الدين، وحمله على التهالك على طلب الدنيا، وذلك أشد الفساد[٥]. وقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[٦] أي أن هذه الأشياء تفتتن بها النفس، ويجري

---

(١) سورة النور، آية: ٦٣.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤١/٩.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٤.

(٤) زاد المسير في علم التفسير ٣٦٠/١.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤١/٩.

(٦) سورة التغابن، الآيتان: ١٤ - ١٥.

عليها البلاء إذا أوثروا على محبة الحق، والله عنده أجر عظيم لمن آثر طاعة الله ومحبته على ما دونه، وأدى حق الله في الأموال(١) وما طلب منه تجاه الأزواج والأولاد.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: إخبار النبي ﷺ بفتنة الرجال بالنساء من بعده:

إن ما يستنبط من هذا الحديث خصوصية النبي ﷺ في إخباره بما سيحدث من بعده من افتتان الرجال بالنساء وخطر ذلك، ففي الحديث يتجلى بعض ما اختص به النبي ﷺ بالإخبار ببعض ما يحدث بعده، ومن ذلك شدة خطورة افتتان الرجال بالنساء "ما تركت بعدي فتنة أضرّ على الرجال من النساء" فمن معجزات الرسول ﷺ ودلائل نبوته ما اطّلع عليه من الغيوب الماضية والمستقبلة وإخباره عنها، ومن المعلوم المقرر أن علم الغيب مختص بالله تعالى وحده، وقد أضافه الله تعالى إلى نفسه ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾(٢) ومن المعلوم أيضًا أن الأنبياء لا يعلمون الغيب ﴿قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾(٣) إلا أنه قد جاءت أدلة تفيد أن الله استثنى من خلقه من ارتضاه من الرسل، فأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحي إليهم، وجعله معجزة لهم ودلالة صادقة على نبوتهم(٤). قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾(٥)، قال القاضي عياض: ((وهذه المعجزة من جملة معجزات الرسول ﷺ المعلومة على القطع الواصل إلينا خبرها على التواتر، لكثرة رواتها واتفاق معانيها على الاطلاع على الغيب))(٦).

---

(١) انظر محاسن التأويل، الإمام القاسمي، مج٩/١٦/١٨٥، ١٨٦.

(٢) سورة النمل، آية: ٦٥.

(٣) سورة الأنعام، آية: ٥٠.

(٤) موسوعة نضرة النعيم في أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن حميد، عبدالرحمن بن ملوح ١/٥٤٢، ٥٤٣.

(٥) سورة الجن، الآيتان: ٢٦ - ٢٧.

(٦) كتاب الشفا، بتعريف حقوق المصطفى، ١/٣٢٩.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

يحرص الرسول ﷺ على إقامة توازن في العلاقات بين الزوجين، وقد مضى الحديث عن مسؤولية الرجل تجاه المرأة ودوره في رعايتها وعنايتها وحسن التعامل والتعاون معها.

وفي هذا الباب يظهر الرسول ﷺ حق الرجل على امرأته، فذكر الكثير مما ينبغي القيام به. وقد راعى في هذه الحقوق غيرة الرجل وحرمة المرأة ونزغ الشيطان وقالة السوء. ومن المضامين التربوية ما يلي:

أولاً- التربية على أداء الحقوق:

إن التربية على أداء الحقوق دعوة لتقويم سلوك الإنسان وضبط حركته في حياته للتنشئة على هذه الروح الطيبة، لذلك اهتم الرسول ﷺ، بتربية النساء على معرفة حقوق أزواجهن وأدائها، وتربية النفس على التقرب إلى الله تعالى بطاعة الزوج وأداء حقوقه، ومن الشواهد في التربية على أداء حق الزوج ما جاء في أحاديث الباب من حث الزوجة على أداء حقوق زوجها، قال ﷺ: «إِذَا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ، فَلَمْ تَأْتِهِ، فَبَاتَ غَضْبَانَ عَلَيْهَا، لَعَنَتْهَا الْمَلائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ». وقال: «إِذَا بَاتَتِ الْمَرْأَةُ هَاجِرَةً فِرَاشَ زَوْجِهَا، لَعَنَتْهَا الْمَلَائِكَةُ ...». وقال: «لا يَحِلُّ لامرَأةٍ أن تَصُومَ وزَوْجُهَا شَاهِدٌ إلا بإذنِهِ، ...» فهذه توجيهات تربوية لتربية المرأة على أداء حق زوجها وطاعته طمعًا في رضوان الله تعالى فضلاً عن دور هذه التربية في تقوية العلاقة الوثيقة بين الرجل وزوجته، مما ينعكس انعكاسًا إيجابيًا مباشرًا على أفراد الأسرة، ويعمل على حمايتها من الأسباب التي يمكن أن تصدع تماسكها، لأن من أهم وأبرز عوامل التفكك الأسري تساهل الزوجين أو أحدهما في حقوق الآخر مما يؤدي إلى ظهور الخلافات الزوجية، لذلك وضع الإسلام الأسس الزوجية لكي يأخذ منها التوجيهات التربوية الذي تربى في الزوجة معرفة حق زوجها[1].

---

(١) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي ص ٣٢٥. موسوعة الحقوق الإسلامية، سعد يوسف أبو غدير ص ٢١٥.

ثانيًا- التربية بالترهيب والترغيب:

إن من أساليب التربية الإسلامية الهادفة الترغيب والترهيب، ولقد استخدم رسول الله ﷺ هذا الأسلوب في التربية لما له من الأثر الكبير، وأحاديث الباب تدل على ذلك، فلقد قال رسول الله ﷺ في معرض الحديث عن حق الزوج على زوجته: "فلتأته وَإِنْ كَانَتْ عَلَى التَّنُّورِ»، وقال: «مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً، هِيَ أَضَرُّ، عَلَى الرِّجَالِ، مِنَ النِّسَاءِ». فهذه نماذج تربوية أراد النبي ﷺ إبراز الترهيب كأسلوب تربوي مؤثر لتغيير بعض السلوكيات الخاطئة، وذلك لأن الترهيب فيه من الوعيد عقوبة أو حرمان منفعة، ولذا أبرز النبي ﷺ هذه النماذج التي تدل على الترهيب لعلمه أن الإنسان لديه القدرة على التمييز بين ما يضره، وما ينفعه كما أنه يستطيع أن يستجيب أوامر التكليف، فيمتنع عما نهى عنه ويعمل بما أمر به، مما يجعل للترهيب أثراً في سلوكه ولولا هذه الخاصية الفطرية لما كان للترهيب أثر تربوي متمثل في عامل الخوف، كما أراد النبي ﷺ إبراز الترغيب أيضًا كأسلوب من أساليب التربية من خلال التوجيهات التربوية التي ذكرها النبي ﷺ في معرض الحث على طاعة الزوجة لزوجها، وهذا الثواب العظيم المترتب على تلك الطاعة، ومن الشواهد على ذلك قوله ﷺ: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ مَاتَتْ، وَزَوْجُهَا عَنْهَا رَاضٍ ، دَخَلَتِ الْجَنَّةَ». وهذا مما يجعل المرأة المؤمنة تتوق نفسها إلى الجنة، فتحرص على السلوكيات التي تؤهلها لذلك من خلال طاعتها لزوجها ومراقبة الله تعالى في ذلك، وكذلك حسن رعايتها لبيتها وأولادها، إن الترغيب فيه تحريك للدوافع الخيرة وتنشيطها بالترغيب فيما أعده الله تعالى لمن خاف مقام ربه، وهناك فائدة هامة في هذا المضمون وهي أن على المربي أن يعتدل في استخدام الترغيب والترهيب وأن يوائم بينها فلا يغلب أحدهما على الآخر[1].

ثالثًا- التربية على تحمل المسؤولية:

التربية على تحمل المسؤولية من أساليب التربية الإسلامية الصادقة والتي تهدف إلى تربية الجيل وإعداده، والرسول ﷺ جعل جميع أفراد المجتمع مسؤولين فيه ومكلفين

(١) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. الحازمي ص ٣٩٣. أصول التربية الإسلامية، د. عزب ص ٢٦٣.

بواجبات حيث قال: «كلُّكم راعٍ ومَسْؤولٌ عن رعيَّتِه... والمَرْأَةُ رَاعِيةٌ عَلى بَيْتِ زَوْجِها ووَلَدِهِ ...»، فهذا نموذج تربوي أراد النبي ﷺ أن يبرز فيه كيفية تحمل المسؤولية وتقسيم أدوارها، وذلك من باب التربية على الحرص على كل ما هو نافع. وذلك أن إشراك الجميع في تحمل المسؤولية من شأنه أن يشعر كل فرد فيهم بأن عليه دورًا مهمًا يجب أن يحرص على أدائه بكل أمانة، ويجعلهم يندفعون ذاتيًا نحو العمل، والإصلاح، وتلافي الخطأ والانحراف، وفي ظل هذا التوجيه التربوي النبوي تتحدد المسؤوليات، ويزداد التنافس الشريف في العطاء والبذل، وإتقان العمل فيكون المجتمع الإسلامي أعظم قابلية للنمو والتجديد، حيث يتحمل كل فرد من أفراد الأسرة، وكل فرد من أفراد المجتمع دوره الخاص به، ويجتهد في القيام به بالصورة الجادة المناسبة، وبعيدًا عن أي تخاذل، إلا أن للمسؤولية ضوابط تتلخص في أهلية التصرف، العلم الذي يقتضي التميز بين الحق والباطل، والإرادة، وهي القصد والنية دون إكراه أو اضطرار، والاستطاعة للقيام بهذه المسؤولية[1].

رابعًا- التربية بتهذيب اللسان في التعبير عن المعاني الصريحة:

من أهداف التربية الإسلامية تهذيب اللسان والتعبير عن المعاني الصريحة التي يستحيا من ذكرها صراحة بالألفاظ المناسبة، ومن الشواهد على ذلك في أحاديث باب حق الزوج على زوجته قوله ﷺ: «إِذَا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ، فَلَمْ تَأْتِهِ، ...». وقال: «إِذَا بَاتَتِ الْمَرْأَةُ هَاجِرَةً فِرَاشَ زَوْجِهَا، ...». وقوله: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا مِنْ رَجُلٍ يَدْعُو امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فَتَأْبَى ...». وقوله: «إِذَا دَعَا الرَّجُلُ زَوْجَتَهُ لِحَاجَتِهِ فَلْتَأْتِهِ ...» هذه توجيهات نبوية للتعود على تهذيب اللسان في الحديث عن العلاقة الزوجية، فقد عبّر النبي ﷺ عنها بكلمة "الفراش" أو "حاجته"، وهذا أدب نبوي تربوي عال ومتميز، لتهذيب الألسنة في التعبير عن المعاني التي يستحيا منها، ولغرس العفة في الألفاظ،

---

(١) انظر: أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية ص ٢٩٩، القيم بين الإسلام والغرب دراسة تأصيلية مقارنة، د. مانع بن محمد المانع ص ٩٩. التربية الذاتية في الكتاب والسنة، إعداد. هشام علي أحمد ص ٥٦.

وتعويد الزوجين والناشئة على ذلك لأن هذه عورات فلا ينبغي الحديث عنها صراحة لأن النبي ربى الصحابة على التزام الستر وإحاطة تلك العلاقة بنوع من السرية التي تتناسب مع حساسيتها، لأنها أمانة عظيمة، ومخالفتها تعد ندالة وانعدام نخوة تستوجب عقاباً شديداً، قال ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَشَرِّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الرَّجُلَ يُفْضِي إِلَى امْرَأَتِهِ، وَتُفْضِي إِلَيْهِ، ثُمَّ يَنْشُرُ سِرَّهَا»[١].

فهذا التوجيه التربوي يدعو إلى عدم الحديث عن الأمور الجنسية ولا الأمور الشخصية في زوجته ولو حدث لكان عيبًا كبيرًا في رجولته، ولذلك امتدح الله تعالى الزوجات الحافظات لما يجري بينهن وبين أزواجهن مما يجب كتمه، قال تعالى: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾[٢].

فهذه دعوة إلى تهذيب اللسان في التعبير عن المعاني الصريحة في العلاقات الزوجية وعدم الحديث عنها، وليس كما يحدث الآن في وسائل الإعلام من حديث الأزواج صراحة عن علاقتهم مع زوجاتهم[٣].

خامسًا- التربية الخلقية:

لقد قال رسول الله ﷺ: "ما تركت بعدي فتنة هي أضرّ على الرجال من النساء" وهذا الحديث يدخل ضمن التربية الوقائية التي تهدف إلى حماية المجتمع المسلم من الوقوف فيما هو مكروه وضار له، وذلك من خلال تحذير المسلمين من الفتن والمخاطر التي تحدق بهم، مثل فتنة النساء وبقية الشهوات.

---

(١) مختصر صحيح مسلم للمنذري، ٨٣١ ص ٢٤٠.

(٢) سورة النساء، آية: ٣٤.

(٣) انظر: موسوعة القيم ومكارم الأخلاق العربية والإسلامية، د. مرزوق بن صنيتان وآخرين ٤٠/٢٧.

٣٦- باب النفقة على العيال

قَالَ اللَّه تَعَالَى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾[البقرة: ٢٣٣]، وَقالَ تَعَالَى: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا﴾[الطلاق: ٧]، وَقالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُه﴾[سبأ: ٣٩].

الحديث رقم (٢٨٩)

٢٨٩- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه ، قَالَ: قَالَ رَسُول اللَّه ﷺ : ((**دِينَارٌ أنْفَقْتَهُ فِي سَبيلِ اللهِ، وَدِينار أنْفَقْتَهُ فِي رَقَبَةٍ، وَدِينارٌ تَصَدَّقْتَ بِهِ عَلَى مِسْكِينٍ، وَدِينَارٌ أنْفَقْتَهُ عَلَى أهْلِكَ، أعْظَمُهَا أجْرًا الَّذِي أنْفَقْتَهُ عَلَى أهْلِكَ**)) رواه مسلم[(١)].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

رقبة: الرقبة: العبد أو الأمة[(٢)]، أي: أعتقت به عبدًا أو أمةً[(٣)].

الشرح الأدبي

هذا هو الحديث الأول في باب "النفقة على العيال" وهو يفتح آفاق التعاون على البر والتقوى، ويعدد مجالات الإنفاق، وذلك من شأنه أن يؤكد قيمة التكافل الاجتماعي بين طوائف المجتمع، ويحدث تقاربًا وتماسكًا بين أفراد الأمة، وتراحمًا وتعاطفًا بينهم، وقد صدق الشاعر العربي حين قال:

---

(١) برقم (٣٩/٩٩٥). أورده المنذري في ترغيبه (٢٩١٤).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٣٧٠.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٦٣٧.

أحسِنْ إلى النّاسِ تَستَعبِدْ قُلوبَهُمُ فطالَما استَعْبَدَ الإنْسانَ إحسانُ

وهذا التعاطف والتراحم الذي يدعو إليه الحديث يتضح في ضوء الدعوة القرآنية في آيات كثيرة، ومنها قوله عز وجل: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾(1).

وفي ضوء الترغيب في الإنفاق، تأتي هذه الدعوة الكريمة من رسول الله ﷺ إلى التكافل بين أبناء الأمة حتى يتألفوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا..؛ في ضوء هذا نتأمل صياغة الحديث الشريف. وهي صياغة دقيقة لا مجال فيها للتصوير الفني.. ولا التأنق البياني، ولكن على الرغم من ذلك فإن أسلوب الحديث الشريف جمع بين دقة الدلالة، وحسن الترغيب في الإنفاق على المحتاجين، ومن مظاهر الجمال الأسلوبي في هذا الحديث، حسن التقسيم، حيث يتضمن الحديث خمس جمل، والأربع الأولى كلها تبدأ بلفظ واحد وهو "دينار"، وهو المبتدأ الذي به تفتتح الجمل الأربع، ثم بعد هذا المبتدأ تأتي جملة الخبر، وهي تبدأ في ثلاث جمل بالفعل "أنفقته" وفي جملة واحدة يقول "تصدقت به"، وهذا التقسيم وذلك التجانس في بناء الجمل، هو صورة لما يهدف إليه الحديث من تجانس أفراد الأمة، وتوحد مشاعرهم في ظل هذا التعاطف الذي ينبع من قيمة الإنفاق، وثمرة التصدق، وكسر الحواجز بين الأغنياء والفقراء، فالتجانس اللغوي في الحديث يؤدي إلى التجانس الاجتماعي.

والبدء بالنكرة في قوله "دينار" جائز، ومسوغه يتفق مع مقاصد الحديث، وهو إرادة التنويع: أي تنويع مصادر الإنفاق وجهاته، والدينار ليس مقصورًا لذاته بقيمته العددية، وإنما هو رمز لكل ما ينفقه من مال، ومن مظاهر الجمال الأسلوبي تكرار لفظ "دينار" أربع مرات، وذلك للترغيب في الإنفاق والحث عليه، والدينار ليس مقصودًا لذاته بقيمته العددية، وإنما هو رمز لكل ما ينفق من مال، ولا حدَّ لذلك حسب القدرة المادية للمنفق، وحسب المشروع الذي ينفق عليه، وهي متنوعة ومنها في سبيل الله، وفي

---

(1) سورة الطلاق، آية: ٧.

دائرة ذلك يتنوع الإنفاق وتتعدد آفاقه، ومنها الإنفاق في تحرير الرقاب من الرِّق، أو بعض الأجراء والخدم، الذين يتعرضون للتعذيب والقسوة، وتكرار الفعل "أنفقته" أربع مرات في صيغة الخطاب الموجَّه إلى كل مسلم منفق متصدق، يؤكد هذا المنهج الترغيبي الذي يحرص عليه رسول الله ﷺ، وفي مجال الترغيب في الإنفاق على المسكين قال: "تصدقت به"، ولم يقل: أنفقته، لأن المسكين لا تجب النفقة عليه، وإنما تجب له الزكاة، أما عتق الرقبة، والإنفاق في سبيل الله، والإنفاق على الأهل، قد يكون واجبًا في مواقف كثيرة حسب ما قاله الفقهاء في هذه المجالات، وأسلوب الحديث ينزع إلى التشويق، حيث لم يقدم الغرض تقديمًا مباشرًا: وهو الإنفاق على الأهل، ولكنه عدَّد أوجه الإنفاق، حتى يفتح المجالات أمام المتصدقين.

وفي النهاية أصدر الحكم، وأبان عن المقصد المراد فقال: "أعظمها أجْرًا الذي أنفقته على أهلك"، والنفقة: المراد بها: سائر المؤن من كسوة ونفقة وسكن، وسميت بذلك إما لذهابها بالموت، وإما لرواجها من نفقت السوق أو من نفق البيع: أي كثر طلابه، وإما لنفادها من نفق الزاد: إذ ذهب لأنه عرضة للنفاد[1].

فقه الحديث

يشير هذ الحديث إلى أكثر من حكم فقهي:

الأول: حكم النفقة وأسبابها، وقد اتفق الفقهاء[2] على أن النفقة تجب بأسباب ثلاثة هي: الزوجية، والقرابة، والملك (الرق).

---

(١) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٤٩١، ٤٩٢.

(٢) المبسوط للسرخسي ١٨٠/٥، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود شرح الطيبي ١٥/٤، ومجمع الأنهر ٤٨٤/١، وتبين الحقائق ٥٠/٣، والتاج والإكليل شرح مختصر خليل، محمد المواق ١٨١/٤، وشرح الزرقاني على الموطأ، محمد بن عبدالباقي بن يوسف الزرقاني ٢٤٤/٤، وحاشية الدسوقي على الشرح الكبير، محمد بن عرفة الدسوقي ٤٧٨/٣، وروضة الطالبين، الإمام النووي، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، وعلي محمد معوض ٣/٨، والتهذيب ٣٢٠/٦، والعزيز شرح الوجيز ٣/١٠، والمبدع في شرح المقنع، ابن مفلح ١٨٥/٨.

الثاني: حكم الإنفاق على الجهاد في سبيل الله وقد اتفق الفقهاء[1] على أن الجهاد كما يكون بالنفس يكون بالمال، فمن لم يستطع أن يجاهد بنفسه، ويخرج للقتال يستطيع كسب مثل أجر المجاهد، بإنفاقه في سبيل إعلاء كلمة الله عز وجل، ومعاونة المجاهدين في سبيله، بالإنفاق على أهليهم بعد خروجهم للجهاد.

الثالث: النفقة في سبيل الله، وقد اختلف الفقهاء في المقصود بسبيل الله، فذهب الفقهاء وعامة المفسرين إلى أن المقصود بسبيل الله الطرق الموصلة إلى الله، ويشمل جميع القرب إلى الله، إلا أنه عند الإطلاق ينصرف إلى الجهاد لكثرة استعماله فيه في القرآن، وقال بعض الحنفية سبيل اله طلبة العلم، وقال محمد بن الحسن إنه الحاج المنقطع[2]، وقيل غير ذلك.

الرابع: حكم الإنفاق في عتق الرقاب، وقد أجمعت الأمة على مشروعية عتق الرقاب، وأنه من الأمور التي يحصل بها القربة إلى الله تعالى، وقد نقل ابن قدامة هذا الإجماع[3].

---

(١) تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ٢٤٢/٣، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود شرح الطيبي ٩٩/٧، والبحر الرائق لابن نجيم ٨٩/٥، ومواهب الجليل للحطاب ٣٤٧/٣، ومغني المحتاج للشربيني ١٩/٦، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد للبهوتي ٣٦/٣، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٦١٨/١.

(٢) المبسوط ٢٠٣/٢، ودرر الحكام ١٨٩/١، وأحكام القرآن، ابن العربي، تحقيق: علي محمد البجاوي ٥٣٣/٢، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ١٥٤/٢، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٩٨/٦، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٣٩٨/١، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٤٥٨/١، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٢٨٣/٢، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٦٧/٢٤ وما بعدها.

(٣) المبسوط ٦٠/٧ وما بعدها، والتاج والإكليل شرح مختصر خليل، محمد المواق ٤٤٥/٨، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٤٣٤/٤، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢٧٨/١٠، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ٢٩٣/٧، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٦٥/٢٩.

الخامس: حكم الإنفاق على المساكين، وقد ذكر الفقهاء[1] على أنه يسن للمرء أن يتصدق على الفقراء والمساكين، وأن ذلك من خير الأعمال عند الله تعالى.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانيًا: من مهام الداعي: الدلالة على أبواب الخير.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: مراعاة ترتيب الأولويات.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل النفقة على الأهل.

خامسًا: من أهداف الدعوة: الترغيب في النفقة على الأهل.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار:

استعمل النبي ﷺ هذا الأسلوب في الحديث فأخبرنا بأن خير ما ينفقه الإنسان وأعظمه أجرًا ما ينفقه على أهله فقال: "دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك أعظمها أجرًا الذي أنفقته على أهلك"، وإخبار الداعي بأعمال الخير وأفضلها، يجعل المدعو أكثر حرصًا عليها وتحصيلاً لها، كما أن إدراكه لمكامن الخطر وموارد التهلكة، يجعله أكثر حذرًا منها وابتعادًا عنها.

ثانيًا- من مهام الداعي: الدلالة على أبواب الخير:

في هذا الحديث يبين النبي ﷺ عددًا من أبواب الخير والإنفاق والأفضل منها، فيذكر الإنفاق في سبيل الله، والعتق، والصدقة، والإنفاق على الأهل، ويبين أن أفضل

---

(١) أحكام القرآن، الجصاص ٤٣٧/١، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ٣٠٦/١، وبلغة السالك لأقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك، أحمد بن محمد الصاوي ٤٨٩/٣، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين عبدالرحيم بن الحسن ٧٤/٤، والزواجر عن اقتراف الكبائر، ابن حجر الهيتمي ٤٢٠/١، وأدب الدنيا والدين، أبو الحسن الماوردي ص١٨٨ وما بعدها، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢٤٤/٦، والفروع، ابن مفلح ٥٢٣/١، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٤١٤/١، ومطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، مصطفى السيوطي ٥٤٣/١، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٦٢/٨.

ذلك كله الإنفاق على الأهل فقال: "دينار أنفقته في سبيل الله ودينار أنفقته في رقبة ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك أعظمها أجرًا الذي انفقته على أهلك"، وإن دلالة الناس على الخير من أهم ما يضطلع به الداعية من مهام قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[١] أي يدعون إلى الإسلام[٢]، أصوله وفروعه، وشرائعه، ويأمرون بالمعروف وهو ما عرف حسنه شرعًا وعقلاً، وينهون عن المنكر، وهو ما عرف قبحه شرعًا وعقلاً وأولئك هم المفلحون، ويدخل في هذه الطائفة أهل العلم والتعليم، والمتصدون للخطابة ووعظ الناس عمومًا وخصوصًا، والمحتسبون الذين يقومون بإلزام الناس بشعائر الدين، فكل من دعا الناس إلى خير، أو قام بنصيحة فإنه داخل في هذه الآية الكريمة[٣].

في هذا الحديث بين النبي ﷺ وذكر أبوابًا من فعل الخير والإنفاق، ثم بين أن أعظم هذه الأبواب أجرًا هو الإنفاق على الأهل فقال "أعظمها أجرًا الذي أنفقته على أهلك" فالواجب على الإنسان أن يقدم الأهم على المهم، فالحديث بين فضل الإنفاق على الأهل على غيرهم، لأن الإنفاق على الأهل فرض عين، والإنفاق على من سواهم فرض كفاية، وفرض العين أفضل ومقدم على فرض الكفاية؛ فالواجب على المسلم أن يبدأ بالواجب الذي هو محتم عليه، ثم بعد ذلك ما أراد من التطوع[٤].

لذا ينبغي على المسلمين عامة الاهتمام بترتيب الأولويات دعاة ومدعوين، ويتضح ذلك جليًا في قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: ((إن أول ما أنزل منه سورة من المفصل، فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ولو نزل أول

(١) سورة آل عمران، آية: ١٠٤.

(٢) معالم التنزيل، البغوي ٢/٤/٨٥.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ١١٢.

(٤) شرح رياض الصالحين ٦٧٨/١.

شيء لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندع الخمر أبدًا ولو نزل لا تزنوا لقالوا لا ندع الزنا أبدًا))[١]. وقد أشارت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها إلى الحكمة في ترتيب التنزيل وأن أول ما نزل من القرآن: الدعوة إلى التوحيد، والتبشير للمؤمن والمطيع بالجنة، وللكافر والعاصي بالنار، فلما اطمأنت النفوس على ذلك أنزلت الأحكام[٢].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل النفقة على الأهل:

أشار النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث إلى فضل النفقة على الأهل مبينًا عظيم أجره على غيره فقال "أعظمها أجرًا الذي أنفقته على أهلك" والنفقة على الأهل وتعهدهم من الأمانات التي اؤتمن الإنسان عليها قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾[٣] فالأولاد والزوجات أمانات عند الأزواج والآباء، عليهم القيام بحفظ هذه الأمانات وكفهم عن جميع المضار والمفاسد[٤]. والإنفاق على الأهل يشمل جميع المؤن من النفقة والسكن والكسوة على من يعول من زوجة وولد وخادم وهي مقدرة بالكفاية[٥]؛ بل إن الإسلام ليعتبر النفقة على الأهل إذا احتسبت صدقة فعن أبي مسعود البدري رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا أَنْفَقَ عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةً، وَهُوَ يَحْتَسِبُهَا، كَانَتْ لَهُ صَدَقَةً))[٦] حتى مجرد اللقمة يرفعها إلى فم زوجته صدقة، فعن سعد بن أبي وقاص من حديث طويل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((وإنكَ لن تُنفِقَ نفقةً تبتغي بها وَجهَ الله إلاّ أجِرتَ بها، حتَّى ما تَجعَلُ في فِي امرأتِكَ))[٧].

---

(١) أخرجه البخاري ٤٩٩٣.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٠/٩.

(٣) سورة المؤمنون، آية: ٨.

(٤) انظر: الرياض الناضرة والحدائق الزاهرة، عبدالرحمن السعدي ص ٦٧.

(٥) انظر: موسوعة نضرة النعيم ٥٩٨/٣.

(٦) أخرجه مسلم ١٠٠٢.

(٧) أخرجه البخاري ١٢٩٥.

خامسًا- من أهداف الدعوة: الترغيب في النفقة على الأهل:

يتضح ذلك من خلال ترغيب النبي ﷺ في النفقة على الأهل، حيث أمر بتقديمهم على غيرهم، وذلك استصحابًا لفقه الأولويات، وتقديم الواجب على غيره فقال: "أعظمها أجرًا الذي أنفقته على أهلك" فبهم البدء ولهم الأولوية على غيرهم، فعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال ابدأ بنفسك فتصدق عليها، فإن فضل شيء فلأهلك، فإن فضل عن أهلك شيء فلذي قرابتك، فإن فضل عن ذي قرابتك شيء فهكذا وهكذا ((فَبَيْنَ يَدَيْكَ وَعَنْ يَمِينِكَ وَعَنْ شِمَالِكَ))[1] وحذر الإسلام من التقصير في النفقة على الأهل، فعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ: ((كَفَى بالمرءِ إثمًا أن يُضيِع مَنْ يَقُوتُ))[2] أي من تلزمه نفقته من أهله وعياله، وقال الخطابي: (يريد من يلزمه قوته، والمعنى كأنه قال للمتصدق لا يتصدق بما لا فضل فيه عن قوت أهله يطلب به الأجر فينقلب ذلك الأجر إثمًا إذا أنت ضيعتهم)[3] وقال بكر بن عبدالله: (نفقة الرجل على أهله في كفة الميزان اليمنى، وكفة اليمنى في الجنة، وكان أبو قِلابَة يقول: أيُّ رجل أعظم أجرًا من رجل ينفق على عيالٍ صغارٍ، فيعفهم وينفعهم الله تعالى ويغنيهم به)[4].

---

(١) أخرجه مسلم ٩٩٧.

(٢) أخرجه أبي داود ١٦٩٢، وحسنه الألباني، (صحيح سنن أبي داود ١٤٨٤).

(٣) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ص ٧٧٠.

(٤) موسوعة الحقوق الإسلامية، سعد يوسف أبو عزيز ص ١٦٤.

الحديث رقم (٢٩٠)

٢٩٠- وعن أَبي عبد الله، ويُقالُ لَهُ: أَبو عبد الرحمان ثوبَان بن بُجْدُد مَوْلَى رَسُول الله ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: ((**أفْضَلُ دِينَارٍ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ: دِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى عِيَالِهِ، وَدينَارٌ يُنْفِقُهُ**[1] **عَلَى دَابَّتِهِ في سَبيلِ الله، وَدِينارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى أصْحَابِهِ في سَبيلِ اللهِ**)) رواه مسلم[2].

ترجمة الراوي:

ثوبان بن بُجْدُدٍ: تقدمت ترجمته في الحديث (١٠٧).

غريب الألفاظ:

مولى: خادم[3].

الشرح الأدبي

تتعدد وجوه البيان النبوي، وتتوهج بالمعاني السامقة في كل وجه من هذه الوجوه البيانية، وعلى المسلم أن يقتبس من أساليب المصطفى ﷺ ما يضيء له الطريق، وعليه أن يهتدي بنور الهدي النبوي، وأن يسير في إشعاعاته التي تتألق بالتوجيهات الإلهية، والمعاني القرآنية.

وحين نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث، ونوازن بينه وبين الحديث السابق، نرى أن هذا الحديث يبدأ بأفضلية الإنفاق على أهل الرجل وعياله، ثم الإنفاق على الدابة في سبيل الله، ثم الإنفاق على الأصحاب الذين نذروا أنفسهم للجهاد في سبيل الله، أو نشر الدعوة الإسلامية في جميع أنحاء المعمورة، أما الحديث السابق فقد نهج مسلكًا بيانيًا آخر وهو: التشويق، رغبة في الوصول إلى قمة التأثير والأفضلية حين

---

(١) عند مسلم زيادة: (الرجل). وهي لا توجد عند المنذري.

(٢) برقم (٣٨/٩٩٤). أورده المنذري في ترغيبه (٢٩١٥).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير والوسيط في (و ل ي).

ختم الحديث بالإنفاق على الأهل وقال: إنه أعظم وجوه الإنفاق أجرًا ، وليست في بيان رسول الله ﷺ طريقة بيانية أفضل من أخرى، وإنما سياق الحديث هو الذي يعطي للنهج الأسلوبي مذاقه، حسب القاعدة البلاغية التي استنبطها العلماء من أساليب العرب: لكل مقام مقال، ومراعاة مقتضى الحال، وقد وصف الجاحظ كلام النبي ﷺ بأنه الكلام الذي قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه، وجمع بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام، وقلة عدد الكلام، ويبين الخطب الطوال، بالكلم القصار.

والحديث يبدأ بأفعل التفضيل، والمادة اللغوية نفسها وهي "فضل" تجسد المعنى المطلوب: فالأفضلية هنا تقدمها الصياغة ، ويجسدها الجذر اللغوي، وهما يقدمان جوهر المعنى الذي أراده رسول الله ﷺ ، والأفضلية تبدأ بالإنفاق على الأهل، وقيل بأن الأفضلية تشمل الأنواع الثلاثة التي فصَّلها رسول الله ﷺ في الحديث، وهذا لا يلغي أفضلية الإنفاق على الأهل: لأن رسول الله ﷺ في الحديث السابق بيّن: أنه أعظمها أجرًا .

وهنا يبدأ بالإنفاق على الأهل إشارة إلى أنه أفضل الأفضل، وقال العلماء: إذا أريد مطلق الطاعة في وجوه الإنفاق يكون الأول أفضلها ، وقيل بأنه: لا مانع أن الثلاثة وإن كانت أفضل من غيرها ، أن يكون أحدها أفضلها ، فهو أفضل الأفضل، وتأمل تكرار الفعل "ينفقه" أربع مرات في هذا الحديث الموجز. وهذا التكرار لمزيد من الترغيب في الإنفاق، وللتذكير الدائم بهذه الأبواب المشرعة للإنفاق والعطاء ورعاية الأهل، وللمشاركة في إعداد العدة للدفاع عن العقيدة، وهذه العدة تتمثل في تجهيز آلات الدفاع ووسائل المقاومة التي رمز إليها رسول الله ﷺ بالدابة، ولذلك فسرها العلماء بأنها الدابة التي يركبها أو يحمل عليها ،ويمكن أن يطلق المعنى، ويراد به: الإنفاق على أي وسيلة تعين الإنسان على رزقه ورزق أولاده، وتقدم مجتمعه، والدفاع عن عقيدته وأمته، وكذلك الإنفاق على الأصحاب في سبيل الله، وقوله "في سبيل الله" من المصطلحات الإسلامية المشعة كالشمس في كل اتجاه، وكل أفق يستضيء بالهدي

القرآني، والتوجيه النبوي، فكل جهد مادي أو معنوي يبذله الإنسان طاعة لله، وإعلاء لراية الإسلام، وتقوية للمسلمين فهو في سبيل الله، ولذلك قرن رسول الله ﷺ، الإنفاق على الدابة في سبيل الله، وكذلك الإنفاق على الأصحاب، لأن الإنفاق في هذين البابين ينحرف أحيانًا عن الصراط المستقيم، ولا يكون في سبيل الله، بل في سبل أخرى يقود إليها الهوى ويزينها الشيطان.

أما الإنفاق على الأبناء فهو فطرة إنسانية وهو أشرف الأنواع، ولا يملك الإنسان له دفعًا، ولا يقدر على الامتناع، ولكن يشترط أن يكون من الكسب الحلال، وأن يعين على طاعة الله، وتأمل: صيغة المضارع في مادة الإنفاق، حيث تكرر الفعل أربع مرات في صيغة المضارع، وفي ذلك إرشاد إلى ضرورة استمرار هذا المسلك الإيماني، حيث لا ينقطع ولا يمتنع، لأنه وقود حياة المسلمين وسر نهضتهم.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار، والتفصيل بعد الإجمال.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل النفقة على العيال.

ثالثًا: من مهام الداعية: إرشاد الناس إلى الخير ودلالتهم عليه.

رابعًا: من فقه الداعية: مراعاة ترتيب الأولويات.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار، والتفصيل بعد الإجمال:

١- **الإخبار:** ورد الإخبار في قوله ﷺ: "أفضل دينار ينفقه الرجل" والإخبار من الأساليب الدعوية المهمة إذ لا يخلو حال الداعية من إخبار عن أمر من أمور الشرع، أو إخبار لبيان الجزاء على الأعمال وفي هذا الحديث أخبر النبي ﷺ عن أفضل النفقة وأنها التي تكون على الأهل والعيال وفي سبيل الله.

٢- **التفصيل بعد الإجمال:** وذلك حيث جاء في الحديث "أفضل دينار ينفقه الرجل" هذا إجمال وإبهام ثم قال "دينار ينفقه على عياله، ودينار ينفقه على دابته...". وهذا تفصيل وبيان للإجمال السابق، ولاشك أن التفصيل بعد الإجمال، أسلوب يلفت انتباه المدعوين إلى ما يقال، وفي نفس الوقت فيه نوع تشويق للمدعوين لاستحضار ما يقال.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل النفقة على العيال:

يظهر هذا من الحديث في قول النبي ﷺ "أفضل دينار ينفقه الرجل دينار ينفقه على عياله" قال الإمام النووي: (والمقصود الحث على الإنفاق على العيال، وبيان عظم الثواب فيه، لأن منهم من تجب نفقته بالقرابة، ومنهم من تكون مندوبة، وتكون صدقة وصلة، ومنهم من تكون واجبة بملك النكاح أو ملك اليمين، وهذا كله فاضل محثوث عليه وهو أفضل من صدقة التطوع)[١].

هذا وقد دلت نصوص الشرع على فضل الإنفاق قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[٢] وقال أيضًا: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾[٣].

وحذر الرسول الكريم ﷺ من تضييع الأولاد وعدم الإنفاق عليهم ففي الحديث ((كَفَىٰ بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يَحْبِسَ، عَمَّنْ يَمْلِكُ، قُوتَهُ))[٤]، إن من أرذل الأخلاق أن يملك الإنسان المال ويمنع منه أهله وأولاده فلا ينفق عليهم منه، (ومن الناس من يجود على نفسه ويبخل على عائلته، فهو يلبس أحسن الثياب، ويأكل ألذ الطعام، حتى إذا كانت نفقة زوجته أو أولاده ضاقت في وجهه السبل، وركبته الهموم والعلل، وتبرم بزوجته وأولاده، وشكى لك ما يلقى في نفقة البيت من عنت وإرهاق، وإنها لصورة بشعة في نظر المروءة والخلق أن يشبع الرجل ويجوع أولاده، وأن يتنعم وتبتئس زوجته، إنه لأمر قبيح في منطق الإنسان، وإن في الحيوان من يؤثر أولاده على نفسه)[٥].

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٦٣٧.

(٢) سورة سبأ، آية: ٣٩.

(٣) سورة الطلاق، آية: ٧.

(٤) أخرجه مسلم ٩٩٦.

(٥) أخلاقنا الاجتماعية، د. مصطفى السباعي ص ١٧.

ثالثًا- من مهام الداعية: إرشاد الناس إلى الخير ودلالتهم عليه:

حيث أرشد النبي ﷺ إلى الأفضل في النفقة، وهذا من مهام الداعية ففي الحديث أرشد النبي ﷺ إلى أفضل أنواع النفقة لتحصيل الخير والدلالة عليه، وقد بينها الرسول ﷺ في النفقة على العيال والأهل وفي سبيل الله، وقد قال النبي ﷺ في الحديث ((مَنْ دَلَّ علىٰ خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ))[1]، وقد جعل الله في رسالة الإسلام الهداية والرشاد ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2].

قال محمد الغزالي: (وأول ما يجب على أصحاب الحق -وقد عرفوه- أن يفتحوا عيون الآخرين على ضوئه، وأن يعرفوا الجاهلين به، وأن يجعلوه في الحياة واضحًا كشعاع الشمس، شائعًا كأمواج الهواء، ذاك ما يفرضه الحق على أصحابه ألا يجعلوه عليهم حكرًا، وألا يحرموا من نفعه أحدًا، وألا يدعوا نفسًا تعيش بعيدة عن هداه، وليس ذلك -بداهة- عن طريق القسر، بل عن طريق لفت الأنظار، وإيضاح الخفى وشرح المبهم، فإن فتك الجهل بالناس ذريع، وغلبة الأوهام على أفكارهم تذهب بهم بددًا في كل فج، وتخيل إليهم أنهم على صواب، والواقع أنهم موغلون في الضلال، فالعالم بحاجة ملحة إلى أن ينشط أهل الإيمان الصحيح لشرح أصوله، وإبداء صفحته)[3].

رابعًا- من فقه الداعية: مراعاة ترتيب الأولويات:

حيث رتب النبي ﷺ أولوية الإنفاق، فبدأ ببيان الإنفاق على العيال، ثم على الدابة في سبيل الله، ثم على الصحبة، وهذا تعليم لمراعاة ترتيب أولويات الأعمال، ومثله حديث النبي ﷺ ((اليدُ العُليا خيرٌ منَ اليدِ السُّفلى، وابدأْ بمَنْ تَعولُ))[4] قال

---

(١) أخرجه مسلم ١٨٩٣.

(٢) سورة المائدة، آية: ١٦.

(٣) مع الله دراسات في الدعوة والدعاة ٣٠٢.

(٤) أخرجه البخاري ١٤٢٧.

ابن عثيمين رحمه الله: (والواجب على المسلم أن يبدأ بالواجب الذي هو محتم عليه، ثم بعد ذلك ما أراد من التطوع، فإن الشيطان يرغب الإنسان في التطوع ويزهده في الواجب، فربما يكون عليه دين ويذهب يتصدق على مساكين، أو يذهب للعمرة أو الحج التطوع، وهذا خلاف الشرع وخلاف الحكمة)[١].

والواجب على الداعية أن يراعى ترتيب الأولويات في دعوته، وفي جميع تصرفاته وأعماله، قال العز بن عبدالسلام: (إن الله سبحانه لم يشرع حكمًا من أحكامه إلا لمصلحة عاجلة أو آجلة، أو عاجلة وآجلة تفضلاً منه على عباده. ومن رفقه بنا أنه امرنا إذا اجتمع مصلحتان: قاصرتان أو متعديتان؛ أن نحصلهما، فإن عجزنا عن تحصيلهما حصّلنا أعلاهما، وإن اجتمعت مفسدتان: قاصرتان أو متعديتان أن ندفعهما، فإن تعذر دفعهما دفعنا أقبحهما وأكثرهما، فنقدم الفرض على النفل، والمضيق على الموسع، والأوجب على الواجب، والأفضل على الفاضل، ونقدم الأرواح على الأعضاء والأبضاع، ونقدم النفقات على الديون، والديون على الهبات والصدقات وسائر التبرعات، وفي الديون والزكوات التي بلغت نصابها خلاف. وإن بذلنا الأموال أو شيئًا من أنواع البر قدمنا الرحم والجوار، والضعف والعجز، وشدة الضرورة، ومسيس الحاجة، ونقدم المستور الخامل على المستور السائل، فإن اجتمع مضطرون لا تجب نفقتهم، ومعنا كفاية أحدهم قدمنا الأفضل فالأفضل)[٢].

---

(١) شرح رياض الصالحين ٦٧٨/١.

(٢) شجرة المعارف والأحوال ٣٥١-٣٥٢.

الحديث رقم (٢٩١)

٢٩١- وعن أمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُول الله، هَلْ لِي[١] أجرٌ فِي بَنِي أَبي سَلَمَةَ أنْ[٢] أُنْفِقَ عَلَيْهِمْ، وَلَسْتُ بِتَارِكتهمْ هكَذَا وَهكَذَا إنَّمَا هُمْ بَنِيَّ؟ فَقَالَ: ((نَعَمْ، لَكِ أجْرُ مَا انْفَقْتِ عَلَيْهِمْ)) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[٣].

ترجمة الراوي:

أم سلمة: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٨٢).

غريب الألفاظ:

ولست بتاركتهم هكذا ولا هكذا: أي يتفرقون لطلب القوت يمينًا وشمالاً، بل أنا كافيتهم بحسب الطبع[٤].

الشرح الأدبي

إن الحوار المقنع الممتع من أساليب الدعوة الإسلامية، وهو من أوجه الجدال بالتي هي أحسن، وهو كذلك من طرق الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

وهذا الحديث يعد مشهدًا حواريًا واقعيًا بين رسول الله ﷺ وزوجته أم سلمة التي مات عنها زوجها، وترك لها خمسة أبناء بعد استشهاد أبيهم، وتزوجها رسول الله ﷺ لكي تشعر بمزيد من الاطمئنان بعد رحيل زوجها الذي كان يعول أبناءه.

وقد حرصت أم سلمة على رعاية أبنائها والإنفاق عليهم: لأنهم أبناؤها، وهم يكونون أسرتها الأولى، والأسرة هي اللبنة الأولى في بناء مجتمع الأمة الذي يتكون من مجموعة أسر وهي أساس صلاحه، فإذا صلح الأساس صلح البناء، وإذا تم التكافل بين أفراد الأسرة فقد قام البناء الاجتماعي على أساس متين[٥].

---

(١) عند البخاري زيادة: (من).

(٢) (أن) لا وجد عند مسلم.

(٣) أخرجه البخاري (٥٣٦٩)، ومسلم (١٠٠١/٤٧) والسياق للحميدي في جمعه (٢٢٨/٤ رقم ٣٤٤٣).

(٤) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٤٩٢.

(٥) انظر: التكافل الاجتماعي في الإسلام، د. عبدالعال أحمد عبدالعال ص ١٥٥.

وهذا الحوار بين رسول الله ﷺ وأم سلمة يبدأ بقول أم سلمة راوية الحديث، وهي تقص خبرًا وتكشف عن أمر كان يقلقها، وتريد أن تجد إجابة شافية تطمئن إليها: تقول قلت يا رسول الله، وتأمل هذا التلطف في مخاطبة الرسول ﷺ، والحرص على ندائه بأشرف وصف به، وهو رسول الله المبلغ عن ربه، فهي لم تخاطبه بوصفه زوجها، ولكن بوصفه الرسول الذي يبلغ عن ربه، والذي لا ينطق عن الهوى.

ثم تأمل فحوى هذا السؤال: "هل لي أجر في بني أبي سلمة أن أنفق عليهم"، فالسؤال عن الأجر والثواب، وليس عن الإنفاق أهو واجب أم لا: لأن هذا أمر مقرر، وهي لن تمتنع عن ذلك: لأنهم أبناء أبي سلمة وأبناؤها كذلك، ومنشأ هذا السؤال، أنها ربما ظنت أن الإنفاق على الأبناء واجب شرعي، فلا يكون له أجر في ظل ذلك الواجب، وحتى تدفع أي توهم بأنها تسأل عن الإنفاق أهو واجب أم لا؟ قالت: "ولست بتاركتهم هكذا وهكذا..." وهذا التعبير كناية عن أنها لن تتركهم يتفرقون لطلب القوت يمينًا وشمالاً لأن شفقة الأمومة -كما قال العلماء- تحمل على تكلف القيام بما يحتاج إليه الأولاد، ويزداد الأمر جلاءً، وتتأكد قيمة النفقة على العيال، حينما تقول مؤكدة في أسلوب القصر "إنما هم بنيَّ" وكأنها تقول: فكيف أتركهم؟؟!!!! ولم تقل فهم بني، وإنما أكدت وحصرت الدلالة وقصرت أولادها على نفسها فقالت: "إنما هم بنيَّ"، وتأتي إجابة المصطفى ﷺ مقنعة كافية شافية، في إيجاز مشع بالهداية والرحمة، لتبعث في نفس أم سلمة الطمأنينة والهدوء والسكينة: لأنها تستجيب للفطرة الصافية التي فطر الله الناس عليها، وهي فطرة الأمومة، مع الاهتداء والاقتداء بكلام رسول الله ﷺ: حيث قال: "نعم لك أجر ما أنفقت عليهم". وفي ظل دلالة "ما" يوجه المعنى، فإذا كانت ما موصولة يكون المعنى: لك أجر قدر الذي أنفقته عليهم، فإذا كانت "ما" وقتية تفيد الزمن كان المعنى لك أجر دائم بدوام الإنفاق عليهم، وكلام رسول الله ﷺ يتموج بالمعاني الشمولية، ويتوهج بالدلالات العديدة، ولا غرو فقد أوتي جوامع الكلام، فكان ﷺ أفصح العرب بشهادة القريب والنائي، عليه الصلاة والسلام.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم نفقة المرأة على أولادها، وهل ذلك واجب عليها أم لا؟، وقد سبق الكلام عمن تجب عليه النفقة للأولاد في الحديث رقم ٢٦٨، أما إنفاق المرأة على أولادها فقد ذكر الفقهاء(١) أن المرأة لا يجب عليها الإنفاق على أولادها، ويجوز لها أن تخرج زكاة مالها عليهم ولها بذلك ثوابها، لأن نفقتهم ليست واجبة عليها ومتى أنفقت على أولادها من مالها كان لها بذلك أجر الصدقة، لكن هذه النفقة إن كانت في وجود الزوج وهو معسر، فإنما تكون دينًا عليه، ترجع به الزوجة عليه عند يسره.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

ثانيًا: من واجبات المدعو: السؤال عما يجهل.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل النفقة على الأولاد.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: حرص أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا على تحصيل الأجر.

أولاً- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

حيث جاء في الحديث "هل لي أجر في بني أبي سلمة" ويعتبر أسلوب السؤال والجواب من أساليب الدعوة إذ أنه يُوجد نوعًا من الحوار بين الداعية والمدعو. وأم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا

---

(١) انظر في ذلك: الجوهرة النيرة ٨٩/٢، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود شرح الطيبي ٥٠/٢، وشرح فتح القدير، ابن همام الحنفي ٢٧٠/٢، والمدونة ٣٤٧/١، وأحكام القرآن، ابن العربي، تحقيق: علي محمد البجاوي ٣٤٨/٤، والأم، الإمام الشافعي ٩٧/٢، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢٣٤/٦، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٤٠٧/١، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢٦٩/٢، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٤٦٢/١، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٢٨٩/٢، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين عبدالرحيم بن الحسن ١٧٠/٧.

تسأل في الحديث عن أجر النفقة على أبناء أبي سلمة، وبيّن لها الرسول الكريم ﷺ أن لها أجر ما أنفقت عليهم.

قال عبدالرحمن الميداني: (إن مجالس السؤال والجواب لها قيمة تأثيرية عظيمة لدى طارحي الأسئلة، الذين يتلقون الإجابات على تساؤلاتهم ممن وجهوها لهم، ولدى المستمعين الآخرين، فإن من طبيعة السائلين أن يطرحوا أسئلتهم عادة على من يحترمونه ويقدرونه ويثقون بعلمه وأمانته العلمية، وبقدرته على فهم أسئلتهم فهمًا دقيقًا، فإذا كان لديه علم بالأجوبة عليها أجاب، وإلا طلب تأجيل الإجابة حتى يستوثق من الجواب الصحيح)[1].

ومن صور استعمال القرآن الكريم لأسلوب السؤال والجواب، قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ ...﴾[2]، وقوله جل شأنه: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾[3].

ثانيًا- من واجبات المدعو: السؤال عما يجهل:

يظهر هذا في قول أم سلمة رضي الله عنها "هل لي أجر في بني أبي سلمة أن أنفق عليهم" وقد أمر الله بالسؤال فقال: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[4] وجاء في القرآن الكريم أيضًا التوجيه إلى السؤال عند الجهل، قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾[5].

---

(١) فقه الدعوة إلى الله تعالى، عبدالرحمن حسن حبنكة ٢/٥٨.

(٢) سورة المائدة، آية: ٤.

(٣) سورة الأحزاب، آية: ٦٣.

(٤) سورة الأنبياء، آية: ٧.

(٥) سورة الفرقان، آية: ٥٩.

وهذا هو منهج الإسلام يعمل على تحريك العقول، وإيقاظ الهمم لتسأل وتعرف أمور دينها، وقد قال رسول الله ﷺ في الحديث ((قَتَلُوهُ قَتَلَهُمُ الله ألاَّ سَأَلُوا إذْ لَمْ يَعْلَمُوا فإنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ))(١). قال شرف الحق العظيم آبادي: "أسند القتل إليهم؛ لأنهم تسببوا له بتكلفتهم له باستعمال الماء مع وجود الجرح في رأسه، ليكون أدل على الإنكار عليهم وقوله: "قتلهم الله" إنما قاله زجرًا وتهديدًا، وقوله: "فإنما شفاء العي السؤال" هو التحير في الكلام وعدم الضبط، والمعنى: "أن الجهل داء شفاءها السؤال والتعلم"(٢).

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل النفقة على الأولاد:

يستنبط هذا من قول النبي ﷺ "نعم لك أجر ما أنفقت عليهم" وهذا يدل على فضل النفقة على العيال، وقد وعد الله بأن يخلف على من ينفق قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾(٣) وعن كعب بن عجرة رضي الله عنه قال: مر على النبي ﷺ رجل، فرأى أصحاب رسول الله ﷺ من جلده ونشاطه فقالوا: يا رسول الله لو كان هذا في سبيل الله فقال رسول الله ﷺ: ((إن كان خرج على ولده صغارًا فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان))(٤).

وهذا الإنفاق هو من مسؤولية الإنسان أمام الله، ففي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: ((كلُّكم راعٍ ومَسؤولٌ عن رَعيَّتِه: فالأميرُ الذي على الناسِ فهو راعٍ عليهم وهو مسؤولٌ عنهم، والرَّجُلُ راعٍ على أهلِ بَيتِه وهو مسؤولٌ عنهم، والمرأةُ راعيةٌ على بَيتِ

---

(١) أخرجه أبوداود ٣٣٦، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٢٥).

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١٨٥.

(٣) سورة سبأ، آية: ٣٩.

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير ١٢٩/١٩ (٢٨٢)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب ص ٣٨٧ رجاله رجال الصحيح.

بَعْلِها ووَلَدِه وهي مسؤولةٌ عنهم، والعَبدُ راعٍ على مالِ سيِّدِهِ وهو مَسؤول عنه. ألا فكلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيَّتِهِ))[١].

قال السعدي: (الأولاد أمانات عند الوالدين، عليهم القيام بحفظ هذه الأمانات وكفهم عن جميع المضار والمفاسد، فلو كان لك بستان فيه غراس وأشجار، فلاحظته ونميته، لجاء منه ما تؤمله وترجوه، ولو أهملته وضيعته فلا تلومن إلا نفسك، يوم يحصد الزارعون ما زرعوه، كذلك الأولاد وهم غراسك الذي تؤمل نفعه، فقم عليهم بما تستطيعه من التربية الصالحة والملاحظة، وإياك أن تهملهم وتضيعهم فتبوء بسوء العاقبة)[٢].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: حرص أم سلمة على تحصيل الأجر:

حيث جاء في الحديث أنها سألت "هل لي أجر في بني أبي سلمة أن أنفق عليهم" ويظهر من هذا حرص أم سلمة رضي الله عنها على تحصيل الأجر والثواب، ولقد كانت دعوة القرآن للمسلمين دائمًا أن يسارعوا إلى الخيرات، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾[٣] وأمر الله عزوجل بالاستباق إلى الخيرات قال الله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ﴾[٤] وقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[٥].

قال ابن كثير: (إن الله تعالى شرع الشرائع مختلفة، ليختبر عباده فيما شرع لهم، ويثيبهم أو يعاقبهم على طاعته ومعصيته بما فعلوه أو عزموا عليه من ذلك كله، ثم إنه

---

(١) أخرجه البخاري ٥١٨٨، ومسلم ١٨٢٩.

(٢) الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة، عبدالرحمن السعدي ص ٦٧.

(٣) سورة المؤمنون، آية: ٦٠، ٦١.

(٤) سورة البقرة، آية: ١٤٨.

(٥) سورة المائدة، آية: ٤٨.

تعلى ندبهم إلى المسارعة إلى الخيرات والمبادرة إليها فقال: "فاستبقوا الخيرات"، وهي طاعة الله واتباع شرعه فإن المعاد والمصير إليه يوم القيامة)[١].

وقال ابن القيم في بيان قول الله عز وجل: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾[٢]، (أي شغلكم على وجه لاتعذرون فيه والتكاثر تفاعل من الكثرة، أى مكاثرة بعضكم لبعض، وأعرض عن ذكر المتكاثر به إرادةً لإطلاقه وعمومه، وأن كل ما يكاثر به العبد غيره، سوى طاعة الله ورسوله، وما يعود عليه بنفع معاده، فهو داخل في هذا التكاثر، فالتكاثر في كل شيء، من مال أو جاه أو رياسة، أو نسوة أو حديث أو علم، ولاسيما إذا لم يحتج إليه. والتكاثر في الكتب والتصانيف وكثرة المسائل وتفريعها وتوليدها. والتكاثر أن يطلب الرجل أن يكون أكثر من غيره. وهذا مذموم إلا فيما يقرب إلى الله، فالتكاثر فيه منافسة في الخيرات ومسابقة إليها)[٣].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١/ ١٣٠

(٢) سورة التكاثر، آية: ١.

(٣) الفوائد، ابن القيم، تحقيق: محمد عثمان الخشت ص ٥٥.

الحديث رقم (٢٩٢)

٢٩٢- وعن سعد بن أَبي وقاص رضي الله عنه في حديثه الطويل الذي قدمناه في أول الكتاب في باب النِّيَةِ[1]: أنَّ رسولَ الله ﷺ، قَالَ لَهُ: ((**وإنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ إلاَّ أُجِرْتَ بِهَا حَتَّى مَا تَجْعَلُ في فِي امرأتِكَ**)) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[2].

ترجمة الراوي:

سعد بن أبي وقاص: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٦).

الشرح الأدبي

هذا الحديث وصية من وصايا الرسول البليغة ذات المغزى الإيماني الاجتماعي، حيث يوصي سعد بن أبي وقاص باستحضار النية الخالصة لوجه الله في كل عمل، وخاصة في وجوه الإنفاق مهما تباينت أشكالها، ومهما تعددت سبلها، حتى ما يتصوره المسلم غير ذي قيمة، أو أنه من الواجبات التي لا يثاب عليها الإنسان، وهو إطعام الزوجة، يؤجر عليه الإنسان.

وفي هذه الوصية إعلاء من قيمة العاطفة المتبادلة بين الزوجين، ودعوة لترسيخ أواصر المودة والرحمة. والمحبة بينهما، وإشارة الرسول ﷺ إلى ذلك يجسدها هذا التعبير التصويري البليغ المحسوس المشاهد " حتَّى ما تَجعَلُ في فِي امرأتِكَ ".

وقد عرف الإسلام للمرأة مكانتها، وحث على حسن معاملتها، والتلطف معها في إطار العلاقة الحميمة الشرعية بين الزوجين، أو بين الأب وابنته، أو بين الأخ وأخته، أو بين الأم وأبنائها، وكلها مستويات من الصلات الحميمة لها متعلقاتها وواجباتها، وكانت المرأة -كما يقول العقاد- متاعًا يورث ويقسم تقسيم السوائم بين الوارثين، فأصبحت بفضل الإسلام ونبيه صاحبة حق مشروع، ترث وتورث، ولا يمنعها الزوج أن تتصرف بمالها وهي في عصمته كما تشاء.

---

(١) تقدم برقم (٦).

(٢) أخرجه البخاري (١٢٩٥)، ومسلم (١٦٢٨/٥). أورده المنذري في ترغيبه (٢٩١٧).

ولم يفضل الإسلام الرجل عليها إلا بما كلفه من واجب كفالتها، وإقامة أودها، والسهر عليها.

أما محمد ﷺ فقد جعل خيار المسلمين خيارهم لنسائهم فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ ((أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا وخياركم خياركم لنسائهم))(١) (٢).

وفي ضوء هذه القيمة التي منحها الإسلام للمرأة نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث النبوي الشريف، حيث يتوجه الرسول ﷺ بالخطاب المباشر إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، والخطاب يأتي في صيغة التوكيد: في قوله: "إنك"، للدلالة على أهمية الأمر، وهو كذلك مهم، لأنه يكشف عن قيمة الإنفاق المصحوب بالنية الخالصة في سبيل الله، ولذلك جاء هذا المضمون الإسلامي في أسلوب القصر، عن طريق النفي والاستثناء، للتأكيد على أن الأجر الكامل، والثواب المضاعف، مقصور على استحضار النية الخالصة في كل عمل، وقد صرح بالعمل المراد في الحديث وهو قوله: " نفقةً تبتغي بها وَجَه الله ".

وحتى لا يتوهم البعض أن الخطاب ينحصر في شخصية سعد، جاءت صيغة الإنفاق في إطار الزمن الحالي والمستقبلي، وهو الفعل المضارع الذي يفيد الحال والاستقبال، فقال: "لن تنفق نفقة... إلا أجرت بها"، فهذه القاعدة لها صفة الثبات والدوام والاستمرار، لأنها منهج إسلامي مستمر مع حركة الإسلام في كل زمان ومكان.

وتنكير كلمة "نفقه" يُلْغي هذا التوهم الذي يحصر النفقة في ظرف محدد، وزمن معروف، وشخص بعينه، وإنما تنكيرها يفيد العموم والشمول، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وقال العلماء فيه تعميم للنفقة، باعتبار قلتها وكثرتها، وجللها وحقارتها، وباعتبار مصرفها، وصيغة البناء للمجهول في قوله: "إلا أجرت بها" فيها إيجاز، وفيها كذلك إشعار بأنه لا يعطي الأجر إلا الله، ولكون ذلك معلومًا فلا يحتاج

---

(١) أخرجه الترمذي ١١٦٢، وقال الألباني: حديث حسن صحيح (صحيح سنن الترمذي ٩٢٨).

(٢) عبقرية محمد، ط/١، العدد الأول، من دار الهلال، كتاب الهلال (رمضان ١٣٧).

إلى إعلام ولا إلى تحديد الفاعل، فقد حذف كما يقول النحويون، للعلم به، ولا يجوز لمسلم أن يتشكك في ذلك، "وحتى" غائية، وهي غاية للعموم المستفاد مما قبله، وكأن المنفق يتدرج في الإنفاق حسب المستوى والسياق: حتى أقل الأمور التي يتصورها الإنسان وهي وضع الطعام في فم الزوجة يثاب عليه الإنسان، وهذه من أدق الصور الاجتماعية رقة وعطفًا، وتفصح عن تقدير الإسلام لقيمة العلاقة الزوجية في ظل تعاليم الإسلام التي تحدد لكل طرف حقوقه وواجباته، مع المشاعر الجميلة، والعواطف النبيلة، التي تعطي للحياة وجهها الجميل النبيل.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد، والترغيب.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل النية.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل النفقة على الزوجة.

رابعًا: من واجبات الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم.

أولاً- من أساليب الدعوة: التوكيد، والترغيب:

١- **التوكيد:** حيث جاء في الحديث: "إنك لن تنفق نفقة" حيث أكد النبي ﷺ قوله "بإن" التي تفيد التوكيد، ليدلل للمدعو أن أي نفقة يراد بها وجه الله يثاب عليها المسلم، والتوكيد أسلوب يبيّن ثقة الداعية فيما يقول، ويؤكد لدى المدعو أهمية ما يقال له أو يخاطب به.

٢- **الترغيب:** ويظهر هذا في قول النبي ﷺ: "إلا أجرت عليها"، وفي هذا ترغيب للمدعو للإقبال على الخير والطاعة، ومما جاء في الترغيب في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ۝٢١ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[1]، وبناء على هذا، "فإن الدعوة تحتاج في تبليغها إلى بشارة أصحاب القلوب الطيبة، والنفوس الصافية ليضحوا في سبيلها، ويتحملوا ما قد

(١) سورة التوبة، الآيتان: ٢١ - ٢٢.

يتعرضون له من أذى وبلاء؛ فالدعوة إلى الله بأسلوب الترغيب لازم للداعية كي يبلغ رسالة الإسلام؛ لأن الله عز وجل أرسل محمدًا ﷺ بالهدى ودين الحق بشيرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا[١].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل النية:

يستنبط هذا من قول النبي ﷺ: "تبتغي بها وجه الله" وهذا يدل على فضل النية الصالحة، قال الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾[٣].

وقوله جلّ شأنه: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾[٤].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[٥].

وهذه الآيات تشير إلى استحضار النية الصالحة وابتغاء وجه الله عند النفقة.

وقد دلت الأحاديث النبوية على فضل النية، قال ﷺ: ((إنَّما الأعْمَالُ بالنِّيات، وإنَّمَا لِكُلِّ امْرِىءٍ ما نَوَى))[٦]، قال الإمام ابن رجب الحنبلي: (وفي الحديث إخبار بأن الإنسان لا يحصل له من عمله إلا ما نواه به، فإن نوى خيرًا حصل له الخير، وإن نوى شرًا حصل له شر، والمراد أن صالح العمل وفساده بحسب النية المقتضية لإيجاده، وأن ثواب العامل على عمله بحسب نيته الصالحة، وأن عقابه عليه بحسب نيته الفاسدة)[٧].

---

(١) الدعوة والداعية في ضوء سورة الفرقان، د. محمد سعيد البارودي ص ٢٠٤.

(٢) سورة الكهف، آية: ١١٠.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٦٥.

(٤) سورة البقرة، آية: ٢٧٢.

(٥) سورة النساء، آية: ١١٤.

(٦) أخرجه البخاري ١، ومسلم ١٩٠٧.

(٧) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٦٥/١.

والواجب على المسلم استحضار النية الصالحة في جميع أعماله وتصرفاته وأحواله لينال بذلك الأجر الكبير، والثواب الجزيل من الله تعالى.

(إن النية هي انبعاث في القلب تجري مجرى الفتوح من الله، فقد تتيسر في بعض الأوقات وقد تتعذر في بعضها، ومن كان الغالب على قلبه أمر الدين، تيسر عليه في أكثر الأحوال إحضار النية للخيرات، فإن قلبه مائل بالجملة إلى أصل الخير، فينبعث قلبه إلى التفاصيل غالبًا، ومن مال قلبه إلى الدنيا وغلبت عليه، لم يتيسر له ذلك بل لا يتيسر له في الفرائض إلا بجهد جهيد، وصلاح الأعمال الموافقة للسنة بصلاح النية، والطاعات مرتبطة بالنيات في أصل صحتها، وفي تضاعف فضلها، فأما الأصل فهو أن ينوي بها عبادة الله وحده، فإن نوى الرياء صارت معصية، وأما تضاعف الفضل فبكثرة النيات الحسنة، أما المباحات فما من شيء إلا ويحتمل نية، أو نيات، يصير بها من محاسن القربات، وينال بها معالي الدرجات)[(١)].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل النفقة على الزوجة:

يستنبط هذا من قوله ﷺ: "حتى ما تجعل في في امرأتك" وقد دلت نصوص القرآن على فضل النفقة على الزوجة، قال الله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾[(٢)]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[(٣)].

قال ابن كثير: (أي طيبوا أقوالكم لهن، وحسنوا أفعالكم، وهيئاتكم بحسب قدرتكم كما تحب ذلك منها، فافعل أنت بها مثله، وكان من أخلاقه ﷺ أنه جميل العشرة دائم البشر يداعب أهله، ويتلطف بهم، ويوسعهم نفقته ويضاحك

---

(١) تزكية النفوس وتربيتها كما يقرره علماء السلف، جمع وترتيب: أحمد فريد، تحقيق: ماجد بن أبي الليل ص ١٨ - ١٩.

(٢) سورة الطلاق، آية: ٧.

(٣) سورة النساء، آية: ١٩.

نساءه)[١]، وقال النووي: (إن زوجة الإنسان هي من أخص حظوظه الدنيوية وشهواته وملاذه المباحة، وإذا وضع اللقمة في فيها فإنما يكون ذلك في العادة عند الملاعبة والملاطفة والتلذذ بالمباح، فهذه الحالة أبعد الأشياء عن الطاعة وأمور الآخرة، ومع هذا فأخبر ﷺ أنه إذا قصد بهذه اللقمة وجه الله تعالى حصل له الأجر بذلك)[٢].

رابعًا- من واجبات الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم:

إن مما يؤكد هذا الواجب ما ورد في الحديث من تأكيده ﷺ وتوجيهه حيث وجّه النبي ﷺ في الحديث إلى فضل النفقة على الزوجة والعيال، ولذا كان من أهم واجبات الداعية إرشاد المدعوين وتوجيههم إلى ما فيه صلاحهم ومنفعتهم، ولقد كان من صفات النبي ﷺ في القرآن ما جاء في قوله تعالى: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾[٣]، والحرص على المدعو يكسب الداعية ثقة لدى مدعويه. وقد جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: ((مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ، أَوْ قَالَ عَامِلِهِ))[٤].

قال النووي: (وفي الحديث فضيلة الدلالة على الخير، والتنبيه عليه، والمساعدة لفاعله، وفيه فضيلة تعليم العلم، ووظائف العبادات، لا سيما لمن يعمل بها من المتعبدين وغيرهم، والمراد بمثل أجر فاعله، أن له ثوابًا بذلك الفعل، كما أن لفاعله ثوابًا، ولا يلزم أن يكون قدر ثوابهما سواء)[٥].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢/٢٤٢.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٠٣٥.

(٣) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

(٤) أخرجه مسلم ١٨٩٣.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٢١٥.

الحديث رقم (٢٩٣)

٢٩٣- وعن أَبي مسعود البدري رضي الله عنه ، عن النَّبيّ صلى الله عليه وسلم ، قَالَ: ((**إِذَا أنْفَقَ الرَّجُلُ عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةً يَحْتَسِبُهَا، فَهِيَ لَهُ صَدَقَةٌ**)) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[١].

ترجمة الراوي:

أبو مسعود البدري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

غريب الألفاظ:

يحتسبها: يطلب بها الأجر من الله تعالى[٢].

الشرح الأدبي

إن معاني هذا الحديث الشريف تسبح في آفاق المودة والرحمة، وترغب في إشاعة الطمأنينة والسكينة بين أفراد الأسرة الواحدة، وتحث على ضرورة النية الخالصة في الإنفاق حتى على الأهل والأولاد، فالمودة والرحمة-كما يقول د. عبدالعال أحمد عبدالعال-مبدأ إنساني، وخلق إسلامي، يوقظ القلوب ويحركها نحو العطف والشفقة عل بني الإنسان مع بعضهم، ويوفق بين مصالحهم، ويكمل تقديرهم وتعاونهم، على مرافق الحياة، ويساعد على الصدق في تبادل المنافع، ويشعر كلا المتوادين بان مصلحته مرتبطة بمصلحة أخيه، فيسعى ويحرص عليها كما لو كانت مصلحة نفسه الخاصة.

والتواد والتراحم هما الطريق إلى السكن والاطمئنان في مجال الأسرة، ومجال المجتمع، ومن الوسائل التي تترجم هذا الود والتراحم، وتعمق الشعور بالسكن والألفة هو: الإخلاص في العطاء، والإنفاق في ظل هذا الحب الودود، وذلك العطف الرحيم، احتسابًا وابتغاء المثوبة، ورضا الحق سبحانه.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٥) واللفظ له، ومسلم (١٠٠٢/٤٨). أورده المنذري في ترغيبه (٢٩١٨).

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني (٤٠٨/٩).

وفي ظل هذا الأفق المشع بهالات الهدي النبوي، والنهج القرآني نقتبس من الحديث الشريف كثيرًا من الإشعاعات التي تفيض بها الصياغة، ويوحي بها الأسلوب في ضوء نظرية النظم التي أرسى دعائمها عبدالقاهر الجرجاني شيخ البلاغة العربية، حين قال: "إن البلاغة هي توخي معاني النحو بين الكلم"، والحديث في بنائه اللغوي، وتركيبه النحوي يتكون من جملة واحدة، ولكنها كالشمس لها إشعاعاتها الباهرة، ودلالاتها الباصرة، ومعانيها الآسرة، وهذه الجملة الحديثية اتخذت من أسلوب الشرط والجواب إطارًا لها، وفي ذلك إرشاد إلى تحقق الجزاء، ومضاعفة الثواب: لأن الشرط هنا وهو الإنفاق على الأهل: احتسابًا وابتغاء مرضاة الله: يحتاج إلى جواب: وهو الجزاء الذي أعده الله لكل منفق محتسب، حيث جاء الجواب في هذه العبارة النبوية المبشرة في حسم وصدق "فهو له صدقة" ومجيء الجواب في صيغة الجملة الاسمية، يفصح عن ثبات هذا الجزاء، واستقراره، وعدم نقصه، وعدم تحوله، ولذلك قال: "فهو له صدقة" ولم يقل فهو صدقة، واللام هنا مع الضمير تفيد الملكية والأحقية، والله يضاعف لمن يشاء.

ولتأكيد هذا النهج الإسلامي، والسلوك الإيماني، جاءت أداة الشرط "إذا" وهي للتحقق، وهي اسم لما يستقبل من الزمان: خافض لشرطه منصوب بجوابه، وهي تستخدم في الأمور اليقينية، وكأن ذلك إشارة إلى أن الإنفاق على الأهل واجب، وأمر يقيني لا يحتمل الشك، أو الانقطاع، وجملة "يحتسبها" في موقع الحال، حيث يكون المسلم حالة إنفاقه محتسبًا ذلك عند الله، ولا يشوب ذلك الاحتساب طائف من رياء أو منفعة، أو تأفف، أو نذير، أو إحساس بتبادل المنافع أو انطلاق من مذهب اجتماعي، أو تصور فلسفي بشري، وإنما الاحتساب لا يكون إلا ابتغاء مرضاة الله عز وجل، ولذلك جاء رصد حالة الاحتساب في صيغة الفعل المضارع، إرشادًا إلى ضرورة استمرار هذه الحالة التي تحيط بالمؤمن، وتسكن مشاعره، وتوشي انفعالاته، ولذلك قال العلماء في التعقيب على قوله ﷺ "فهو له صدقه"، أي عظيمة الثواب: لما فيها من أداء الواجب، وصلة الرحم، الوارد فيه من الثواب ما لا يحصيه إلا المتفضل؛ سبحانه وتعالى.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم النفقة على الأولاد، وما فيه من أجر عظيم رغم أنه واجب عليه، وقد سبق الكلام عنها في الحديث رقم ٢٦٨.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الشرط.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل النية في الأعمال.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل النفقة على الأهل.

رابعًا: من واجبات الداعية: الحرص على مصلحة المدعوين.

أولاً- من أساليب الدعوة: الشرط:

حيث جاء في الحديث في قوله ﷺ: "إذا أنفق الرجل على أهله نفقة يحتسبها" فقد اشترط النبي ﷺ أن يحتسب الإنسان ما ينفق لوجه الله، حتى ينال الأجر والثواب على فعله، وأسلوب الشرط من الأساليب الدعوية التي تلفت انتباه المدعوين، وتشوقهم إلى معرفة الجواب، ويدل من وجه آخر على مدى ارتباط الجزاء بالعمل، فعلى الداعية استخدام هذا الأسلوب لشد انتباه المدعوين، وبيان الجزاء على الأعمال إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل النية في الأعمال:

يتضح هذا مما جاء في الحديث "إذا أنفق الرجل على أهله نفقة يحتسبها" قال ابن علان: (إذا أنفق الرجل على أهله الذين تلزمه مؤونتهم وغيرهم يقصد بذلك وجه الله والتقرب إليه، كان له عظيم الثواب، لما في ذلك من أداء الواجب، وصلة الرحم، الوارد فيه من الثواب ما لا يحصيه إلا المتفضل به)[1]. ولاشك أن النية الصالحة لها فضل عظيم

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ، ٤٩٤.

قال الله عز وجل: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾[١] وهذه الآية محل دليل لتحقيق معنى الإخلاص وأن الله عز وجل جعل المجازاة لا تقع بمجرد الفعل حتى يبتغي بها وجه ربه الأعلى[٢]. وأمر الله بإخلاص النية في العبادة ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[٣].

وقال شرف الدين الدمياطي: (والشرط العام في قبول جميع أنواع الطاعات والفوز بأجرها وثوابها، هو الإخلاص، وكل عمل لا يصدر عن إخلاص فهو إلى الهلاك أقرب وقال سهل بن عبدالله التستري: العلم كله دنيا والآخرة منه العمل، والعمل كله هباء إلا بالإخلاص، فإن أردت إحراز الثواب، وحسن المآب، فاجتهد في الإخلاص)[٤].

وقال ابن رجب الحنبلي: (قال داود الطائي: رأيت الخير كله إنما يجمعه حسن النية وكفاك به خيرًا وإن لم تنصب، وعن بعض السلف قال: من سره أن يكمل له عمله، فليحسن نيته، فإن الله عز وجل يأجر العبد إذا حسنت نيته حتى باللقمة. وعن ابن المبارك قال: رب عمل صغير تعظمه النية، ورب عمل كبير تصغره النية، وقال الفضيل بن عياض: إنما يريد الله عز وجل منك نيتك وإرادتك)[٥].

جاء في الموسوعة الفقهية: "أعمال المكلفين إما مطلوبة أو مباحة، ولما كان المباح لا يتقرب به إلى الله تعالى، فلا يفتقر إلى النية، إلا إذا قصد المكلف الثواب عليه، فإنه يفتقر إلى النية، والمطلوب من الأعمال إما مطلوبة الترك أو مطلوبة الفعل. فالمطلوب الترك لا يفتقر إلى النية إلا إذا شعر المكلف بالمنهي عنه، ونوى تركه لله تعالى، فإنه يحصل له مع الخروج عن العهدة الثواب لأجل النية، والمطلوب الفعل هي الأوامر، فمنها

---

(١) سورة الليل، آية: ١٩-٢١.

(٢) حاشيتا قليوبي وعميرة ١٦٠/١، وإعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، تحقيق: رائد صبري بن أبي علفة ١٥١/١.

(٣) سورة البينة، آية: ٥.

(٤) المتجر الرابح في ثواب العمل الصالح، شرف الدين بن خلف الدمياطي ص ٤٨٨.

(٥) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٧١/١.

ما يكون صورة فعله كافية في تحصيل مصلحته، كأداء الدين والودائع ونفقات الزوجات والأقارب، فإن المحصلة المقصودة من هذه الأمور انتفاع أربابها، وهي تتحقق بمجرد امتثال الأمر، ولا تتوقف على قصد الفاعل لها، فيخرج الإنسان عن عهدتها وإن لم ينوها، ومنها ما تكون صورة فعله ليست كافية في تحصيل مصلحته المقصودة منه، كالصلوات والطهارات والصيام والنسك، فإن المقصود منها تعظيمه تعالى بفعلها، والخضوع له في إتيانها، وذلك إنما يحصل إذا قصدت من أجله سبحانه وتعالى، فهذا القسم هو الذي أمر فيه الشرع بالنيات، وهذا في الجملة[(١)].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل النفقة على الأهل:

يظهر هذا مما ورد في الحديث في قوله ﷺ: "إذا أنفق الرجل على أهله نفقة يحتسبها فهي له صدقة" ويظهر من هذا فضل النفقة على الأهل والعيال. قال الإمام النووي: (ويؤجر على نفقته إذا احتسبها وأراد بها وجه الله وطريقه في الاحتساب بأن يتذكر أنه يجب عليه الإنفاق على الزوجة والأطفال وغيرهم ممن تجب نفقته على حسب أحوالهم، وأن غيرهم ممن ينفق عليه مندوب إلى الإنفاق عليهم، فينفق بنية أداء ما أمر به، وقد أمر بالإحسان إليهم)[(٢)].

وقد جعل النبي ﷺ النفقة على الأهل والأولاد من أولى النفقات، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ((أمر النبي ﷺ بالصدقة، فقال رجل: يا رسول الله عندي دينار قال: تصدق به على زوجتك أو زوجك قال عندي آخر قال تصدق على خادمك قال عندي آخر قال: أنت أبصر))[(٣)] قال شرف الحق العظيم آبادي: (قال الخطابي هذا الترتيب إذا تأملته علمت أنه ﷺ قدم الأولى فالأولى والأقرب فالأقرب، وهو أنه ﷺ أمره أن يبدأ بنفسه ثم بولده؛ لأن ولده كبعضه فإذا ضيعه هلك، ولم يجد من ينوب عنه في الإنفاق عليه، ثم ثلث بالزوجة وأخرها عن الولد، لأنه إذا لم يجد ما ينفق عليها فرق

(١) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٤٢/٦١.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٦٣٩.

(٣) أخرجه أبو داود ١٦٩١، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ١٤٨٣).

بينهما ، وكان لها من يمونها من زوج أو ذي رحم تجب نفقتها عليه ، ثم ذكر الخادم؛ لأنه يباع عليه إذا عجز عن نفقته)[١].

رابعًا- من واجبات الداعية: الحرص على مصلحة المدعوين:

حيث وجه النبي ﷺ في عموم الحديث إلى ما فيه الأجر والثواب من الله عز وجل، وهكذا يجب أن يكون الداعية ، وأن يشعر المدعوين بالحرص عليهم وعلى مصلحتهم (فعلى الداعية أن يكون كالغيث أينما وقع نفع ، من أجل أن تظهر ثمرات جهده على جميع طوائف المجتمع، فإن قصر في القيام بواجبه نحو دينه ودعوته ، عاش لا يسمع به ولا يراه أحد ، ويكون قد أساء إلى نفسه ودعوته)[٢].

ونماذج دعوة الأنبياء عليهم السلام تبين مدى حرصهم على مصلحة أقوامهم ودعوتهم إلى الدين الحق، ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما كان من نبي الله نوح عليه السلام وصبره على دعوة قومه ، قال ابن كثير: (اشتكى نوح عليه السلام إلى ربه عزوجل ما لقي من قومه ، وما صبر عليهم في تلك المدة الطويلة التي هي ألف سنة إلا خمسين سنة ، وما بين لقومه ووضح لهم ودعاهم إلى الرشد والسبيل الأقوم، فلم يترك دعاءهم في ليل ولا نهار ، وكلما دعاهم إلى الحق ليقتربوا فروا منه وحادوا عنه ، وسدوا آذانهم لئلا يسمعوا ، واستكفوا عن اتباع الحق والانقياد له ، ولقد نوع نوح عليه السلام عليهم الدعوة لتكون أنجع فيهم)[٣].

إن الداعية الناجح هو الذي يحرص على مصلحة المدعوين، بأن يبين لهم الأجر والثواب على الأعمال، ويدلهم على كل ما فيه خير ونفع، ومؤمن آل فرعون - كما حكى القرآن خبره وشأنه - أبان عن كثير من الأجر نظير الإيمان، ولاشك ان هذا فيه مصلحة للمدعو ، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ

---

(١) عون المعبود شرح سنن أبي داود ، محمد شمس الحق العظيم أبادي ٧٦٩.

(٢) أخلاق الدعاة إلى الله تعالى، النظرية والتطبيق، د. طلعت محمد عفيفيص ١٣٥.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢٣٢/٨.

سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾[1].

(١) سورة غافر، الآيات: ٣٨-٤١.

الحديث رقم (٢٩٤)

٢٩٤- وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: ((كَفَى بِالمَرْءِ إثْمًا أنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ)) حديث صحيحٌ، رواه أَبُو داود وغيره[١].

ورواه مسلم في صحيحه[٢] بمعناه، قَالَ: ((كَفَى بِالمَرْءِ إثْمًا أنْ يحْبِسَ عَمَّنْ يَمْلِكُ قُوتَهُ)).

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمرو بن العاص: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٣٨).

غريب الألفاظ:

من يقوت: من تلزمه نفقته من أهله وعياله وعبيده[٣].

الشرح الأدبي

لقد حرص الإسلام على إقامة العلاقات القوية بين أفراد الأسرة الواحدة وأفراد الأمة كلها، وأوجب على الأب والأم رعاية الأبناء والقيام بتيسير كل سبل الرعاية والحماية والإنفاق لأبنائهم، لأن الأسرة هي الطاقة التي ينفذ منها الناشئ إلى المجتمع، ويرى فيها الأشخاص الذين يقتدي بهم، وينهج نهجهم، وفي الأسرة تتحدد طباع الصغار وأفكارهم وعواطفهم، على قدر ما يسود الأسرة من نظام واستقرار، يجعل منها منبتًا للنشء الصالح، والعمل الطيب، ومن هنا تأتي أهمية الأسرة في بناء المجتمعات، فكلما كانت الأسرة قوية ذات تماسك ومناعة، كانت الأمة المكونة منها كذلك، ذات ضعف وانحلال.

وفي ضوء هذه المكانة للأسرة التي يحرص عليها الإسلام لتظل الأمة ناهضة قوية

---

(١) أخرجه أبوداود (١٦٩٢)، والنسائي في الكبرى (٩١٣٢). وصحّحه ابن حبان (الإحسان ٤٢٤٠)، وقال الحاكم (٤١٥/١): هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. أورده المنذري في ترغيبه (٢٩٣١).

(٢) برقم (٩٩٦/٤٠).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ق و ت).

متماسكة، نتأمل كلمات هذا الحديث الشريف، ونستجلي أسراره، وهو من أحاديث الترهيب، لأنه يتوجه بالإنذار والوعيد إلى هؤلاء الذين يفرطون في الأمانة، ولا يقومون بواجباتهم تجاه من يعولون من الزوجة والولد والوالد، وممن تجب عليهم نفقتهم، والأحاديث السابقة كلها في باب "النفقة على العيال"، تدور في دائرة الترغيب، والوعد الحسن بالثواب الجزيل.

وحتى لا يغفل الناس عن الوجه الآخر، وهو حبس القوت عن الذين يجب لهم العطاء، ينبه رسول الله ﷺ ويحذر هؤلاء الذين يضيعون قوت من هم في ظل رعايتهم وكفالتهم، وهناك طوائف كثيرة تتردى في هذا المزلق، ولا ترعى ذويها حق الرعاية، ومن هنا ينشأ التفكك الأسري.

ولذلك نرى رسول الله ﷺ في صياغة الحديث يحاكي هذا الجو المحبط الذي يُوتِّر العلاقة بين الراعي ورعيته في الأسرة أو في المجتمع، فربما يُضيع الحاكم قوت شعبه، وربما بتهوره يؤدي بهم إلى الجوع والكوارث، ونقص من الأموال والأنفس والثمرات.

ولذلك قال رسول الله ﷺ "المرء" ولم يقل: الأب، أو غير ذلك من الصفات المحددة، وكلمة "المرء" تطلق على أي مسئول: يتولى رعاية أسرة أو طائفة أو قبيلة أو دولة، في أي عصر، وفي أي مكان: ومن ظواهر الالتواء الأسلوبي الذي يحاكي الالتواء السلوكي مجيء المفعول به في صورة غير مألوفة، حيث اقترن بالباء الزائدة: وهي لها دور في ترسيخ الإثم وتعظيم الجرم، فلم يجيء منصوبًا مباشرة، وإنما حجبت الباء الزائدة علامة النصب، وأصبحت مقدرة.

وكذلك قوله "إثمًا" فهو تمييز محول عن الفاعل، والتقدير كفى المرء في عظم الإثم إثم وتضييع من يقوت.

فكأن الفاعل حُوِّل عن صورته إلى صورة أجْلى وأكثر بيانًا، وهي صيغة التمييز، لمزيد من التنبيه على فداحة هذا الجرم.

وقال ابن رسلان: أي لو لم يكن له من الإثم إلا هذا لكفاه لعظمه عند الله تعالى.

وفاعل كفى في الحديث لم يأت في صياغة مألوفة، وإنما جاء في صيغة المصدر المؤول، وزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، وهذه الجملة الفعلية التي وقعت فاعلاً تتضمن فعلين مضارعين، "يضيع"، و"يقوت" وهما يفصحان عن غفلة ذلك الآثم المضيع: لأنه سادر في غيه، لاه في غفلته، مستمر في جرمه، وقد حذف المفعول المباشر للفعل "يُضيع" والتقدير أن يضيع قوت من يقوت، والتعبير في الحديث أوفى وأبلغ، لأن هذا الآثم لم يضيع القوت فقط، ولكنه كان سببًا في ضياع من يعولهم، وضياع مستقبلهم، فما أعظم هذا البيان النبوي البليغ، في كلمات قليلة يعطي دروسًا جليلة، ويكشف مثالب خطيرة، وينبه إلى مسببات النذر والكوارث التي تبيد الأمم، فهل من مُدّكر؟!

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم نفقة الرجل على أهل بيته، وأن من أكبر الذنوب أن يضيع من يعولهم بإهماله وتراخيه ورفضه الإنفاق عليهم، وقد اهتم الفقهاء بهذا اهتمامًا خاصًا، فاتفقوا[1] على أن النفقة على الزوجة والأولاد واجبة على الزوج، وأنه متى قصّر في ذلك أو امتنع، كان للزوجة أن تطلب نفقتها من القاضي ويجبره عليها، وكذا نفقة الأولاد، وما ذلك إلا لعظم حقهم عليه.

---

(١) البناية للعيني ٦٥٩/٥، وتحفة الفقهاء للسمرقندي ١٥٧/٢، والكفاية للكرلاني ١٩٢/٤، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد المغربي ١٨١/٤، وشرح الزرقاني على الموطأ، محمد بن عبدالباقي بن يوسف الزرقاني ٢٤٤/٤، وحاشية الدسوقي على الشرح الكبير، محمد بن عرفة الدسوقي ٤٧٨/٣، والمعونة على مذهب عالم المدينة ٥٢٢/١، والمهذب للشيرازي ١٤٨/٣، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٤٢٦/٣، والتهذيب للبغوي ٣١٧/٦، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٣٤٧/١١، والمبدع في شرح المقنع، ابن مفلح ١٨٥/٨.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الزجر والتهديد.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: التحذير من الإهمال في النفقة على العيال.

ثالثًا: من واجبات الداعية: تحذير المدعوين من المخالفات الشرعية.

أولاً- من أساليب الدعوة: الزجر والتهديد:

جاء الزجر والتهديد في هذا الحديث في قوله ﷺ: "كفى بالمرء إثمًا" وهذا أسلوب من الأساليب الدعوية التي تفيد في بيان خطورة الفعل، وتعمل على منع النفس من اقتراف المعصية، وعلى الداعية استخدام أسلوب الزجر والتهديد؛ لحث المدعوين وتوجيههم إلى ما ينفعهم وتحذيرهم مما يضرهم.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: التحذير من الإهمال في النفقة على العيال:

يظهر هذا من تحذير النبي ﷺ بقوله: "كفى بالمرء إثمًا" ذلك لأن الإنسان مسؤول عن نفقة زوجته وعياله، وقد قال النبي ﷺ: ((اليدُ العُليا خيرٌ منَ اليدِ السُّفلى، وابدأْ بِمَنْ تَعولُ))[1]، قال النووي: (وفي الحديث تقديم نفقة نفسه وعياله؛ لأنها منحصرة فيه بخلاف نفقة غيرهم، وفيه الابتداء بالأهم فالأهم في الأمور الشرعية)[2]، وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: كان النبيُّ ﷺ يَعودني وأنا مريضٌ بمكة، فقلتُ: لي مالٌ، أوصي بمالي كلِّه؟ قال: لا. قلتُ: فالشطر؟ قال: لا. قلت: فالثلث؟ قال: ((الثلث، والثلث كثير أن تَدَعَ وَرَثَتكَ أغنياءَ خير من أن تَدَعهم عالةً يتكففونَ الناس في أيديهم. ومهما أَنفقتَ فهو لك صَدَقة، حتى اللقمةَ ترفعها في فيِّ امرأتِكَ، ولعلَّ اللهَ يرفَعُك، ينتفع بكَ ناسٌ ويُضرُّ بك آخرون))[3].

---

(١) أخرجه البخاري ١٤٢٧.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٦٥٥.

(٣) أخرجه البخاري ٥٣٥٤.

وفي الترهيب والتحذير من الإهمال في النفقة على العيال جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه: ((... تَقُولُ الْمَرْأَةُ إِمَّا أَنْ تُطْعِمَنِي وَإِمَّا أَنْ تُطَلِّقَنِي، وَيَقُولُ الْعَبْدُ أَطْعِمْنِي وَاسْتَعْمِلْنِي، وَيَقُولُ الابْنُ أَطْعِمْنِي إِلَى مَنْ تَدَعُنِي؟ فقالوا: يا أبا هريرةَ، سمعتَ هذا من رسولِ الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: لا. هذا من كِيسِ[1] أبي هريرة))[2].

فالإنسان مسؤول عمن يقوتهم، وتلزمه نفقتهم، وقد بيّن رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه المسؤولية في الحديث فقال: ((كلُّكم راعٍ، وَكلكم مَسؤولٌ عن رَعيَّتِهِ، الرَّجُلُ راعٍ في أهلهِ وَهوَ مَسؤولٌ عن رعيَّتهِ))[3].

وبيّن الله عز وجل في القرآن وجوب النفقة على الزوجة، قال: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[4]، قال القرطبي: (أي لهن من حقوق الزوجية على الرجال مثل ما للرجال عليهن، وقيل: تتقون الله فيهن كما عليهن أن يتقين الله عز وجل فيكم، والآية تعم جميع ذلك من الحقوق الزوجية...)[5]، ولمسؤولية الإنسان عن النفقة على الأهل والعيال أجاز الشرع الحنيف أن يدخر لهم قوت سنة من أجل الوفاء بنفقاتهم، ففي صحيح البخاري عن عمرَ رضي الله عنه: ((أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم كان يَبيعُ نخلَ بني النَّضير، ويحبس لأهلِهِ قوتَ سَنَتِهم))[6]، قال ابن حجر: (ومع كونه صلى الله عليه وسلم كان يحتبس قوت سنة لعياله فكان في طول السنة ربما استجره منهم لمن يرد عليه ويعوضهم عنه، ولذلك مات صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة على شعير اقترضه قوتا لأهله)[7].

---

(١) كيس: أي من استنباطه أو فطنته، انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤١١/٩.

(٢) أخرجه البخاري ٥٣٥٥.

(٣) أخرجه البخاري ٥١٨٨، ومسلم ١٨٢٩.

(٤) سورة البقرة، آية: ٢٢٨.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٢٣/٢.

(٦) أخرجه البخاري ٥٣٠٧ واللفظ له، ومسلم ١٦٢٨.

(٧) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤١٤/٩.

ثالثًا- من واجبات الداعية: تحذير المدعوين من المخالفات الشرعية:

من أهم واجبات الداعية أن يحذر المدعوين من المخالفات الشرعية حتى لا يقعوا فيها، وفي الحديث حذر النبي ﷺ من تضييع الإنسان من يتحمل نفقتهم، وإذا كان المدعوون بالنسبة للداعية هم بمثابة أهله وإخوانه، فإن الله تعالى قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾(١)، وقد جاء في الحديث: ((الدِّينُ النَّصِيحَةُ)) قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: ((للهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ))(٢).

ولقد جعل الله سبحانه من خصائص الأمة الإسلامية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبالتناصح والتواصي حازت الأمة الإسلامية الخيرية والأفضلية على جميع الأمم، قال الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾(٣).

"وفي هذه الآية ذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قبل الإيمان، وإن كان الإيمان أصل كل شيء، ولا قيمة في خير إذا لم يكن معه الإيمان، والسبب في ذلك هو أن الإيمان صفة اشتركت مع الأمة الإسلامية فيها أمم سابقة، ولكن الذي يرفع الأمة الإسلامية من بين أتباع الأنبياء السابقين جميعًا عليهم السلام بصورة خاصة، هو هذا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو درة مميزة على جبين هذه الأمة، ويظهر من هذا وجوب الاهتمام به وبذل العناية الخاصة به"(٤).

وقد لعن الله بني إسرائيل لأنهم لم يحذر بعضهم بعضًا من المخالفات الشرعية، والمعاصي الدينية، وقد سجل الله عليهم ذلك في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ۝٧٨ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾(٥).

---

(١) سورة التحريم، آية: ٦.

(٢) أخرجه مسلم ٥٥.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١١٠.

(٤) فضائل الدعوة إلى الخير والتبليغ لدين الله، محمد يحيى الكاندهلوي ص ٢٥-٢٦.

(٥) سورة المائدة، الآيتان: ٧٨ - ٧٩.

الحديث رقم (٢٩٥)

٢٩٥- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه : أن النَّبيّ ﷺ ، قَالَ: ((مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ العِبَادُ فِيهِ إلاَّ مَلَكانِ يَنْزِلاَنِ، فَيَقُولُ أحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أعْطِ مُنْفقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الآخَرُ: اللَّهُمَّ أعْطِ مُمْسِكًا تلَفًا)) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[١].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

خلفًا : عوضًا[٢].

الشرح الأدبي

إن هذا الحديث الشريف يجمع بين الترغيب والترهيب، فهو يبشر ويعد المنفقين الذين لم يقعوا في براثن شح النفس، بالثواب والبركة، حيث تدعو لهم الملائكة ببقاء الثواب، ومضاعفة المال في حياتهم أو بعد مماتهم، وقال العلماء في بيان قيمة الإجمال والإبهام في قوله "خلفًا"، حيث أبهم الخلف: ليتناول المال والثواب وغيرهما، وقال الحافظ: وإبهامه أولى: فكم من منفق مات قبل وقوع الخلف المالي له، فيكون خلفه الثواب المعد له في الآخرة، أو يدفع عنه من السوء ما يقابل ذلك[٣].

ويتوعد هذا الحديث البخلاء الذين يضيعون من يقوتون، والذين يحبسون عمن يملكون ويرعون قوتهم، بأن الملائكة تدعو عليهم بتلف المال، أو تلف نفس صاحب المال، أو تلف الأبناء، ومحو البركة، وضيق الرزق.

ويموج الحديث بكثير من الظواهر الأسلوبية التي شاركت في تقوية المعنى، والإفصاح عن دلالات الحديث ومقاصده، ومنها:

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٤٢)، ومسلم (٥٧/١٠١٠) ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه (٢٩٣٠).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢٧٩.

(٣) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٤٩٥.

١- أسلوب القصر الذي صيغت في إطاره الجملة الأولى من الحديث عن طريق النفي والاستثناء، وذلك يدل على الحصر، وعلى أنه لن يمر يوم إلا وينزل الملكان ويدعوان لكل بما يستحق، وفي ذلك إيقاظ لكل غافل هزمته نفسه فوقع أسير الشح والإمساك، وفيه كذلك بشارة لكل من انتصر على شح نفسه وتجمل بالعطاء، وتوَّج كل أيامه بالإنفاق، فثوابه مضاعف، وعمله مبارك، وميراثه من الصالحات جزيل.

٢- زيادة "مِنْ" قبل يوم، والزيادة هنا ليست إسهابًا لفظيًا، أو ترفًا لغويًا، وإنما هي مزيدة لتأكيد النفي، ولتدل على الاستقصاء وتأكيد الحصر، فلن يمر يوم من أيام الإنسان إلا والملكان ينزلان: فتأمل بلاغة الأسلوب وروعة البيان: النفي والزيادة طريقان للإثبات والحصر والتأكيد..!!.

٣- تنكير لفظ "يوم" ولم يأت معرفًا حتى لا ينصرف الذهن إلى يوم محدد، وإنما التنكير للعموم حيث يشمل جميع الأيام، فالتنكير، مع زيادة من، مع النفي، يضفي صفة العموم على الزمن كله.

٤- ولنتأمل الأفعال التي تضمنها الحديث الشريف، فهي ترتبط بالزمن الآتي والمستقبلي (الحال والاستقبال) حيث وردت في صيغة الفعل المضارع أربعة أفعال هي: "يُصبح العبد"، "ملكان ينزلان فيقول أحدهما"، "ويقول الآخر"، وهذه الصيغة الزمنية تُعلن عن استمرار هذا الصنيع ووقوعه الآن وفي المستقبل: وحتى في الماضي الذي فاتنا كان حاضرًا لمن هم فيه، والفعلان الآخران جاءا في صيغة الدعاء وهما: "أعط ممسكًا تلفا، وأعط منفقًا خلفا"، وهما دعاء لما يُستقبل من الزمان ليُجزي كل بما قدمت يداه.

٥- وعبر بلفظ "أعط" في مقام الدعاء على الممسك للمشاكلة اللفظية بين الفعلين في السياقين، وكذلك للسخرية من هذا الممسك كما قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1]. لأن التلف لا يعد عطاءً إلا في إطار السخرية والشماتة.

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٢١.

٦- صيغة الدعاء في الحديث الشريف جاءت لمزيد من الترغيب في العطاء، للتبشير الإلهي لهؤلاء المنفقين بأن الله سيبارك لهم في الخلف، ولمزيد من ترهيب الممسكين حتى يكفوا عن شحهم، ويفيئوا إلى ظلال العطاء والجود.

٧- الطباق والجناس في دعاء الملكين، حيث يصور الأسلوب التناقض بين الصنيعين، وكذلك تناقض المصيرين، فتأمل وتبصر التلف، وهو مصير محتوم في ظل دعاء الملك وهو مستجاب الدعاء.

٨- الإيقاع في صياغة العبارات والكلمات: حيث اتفقت أواخر بعض الكلمات والعبارات، وذلك لمزيد من التأثير وخاصة في سياق الدعاء.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: القصر، والترغيب، والترهيب.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل الإنفاق.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: دعاء الملائكة للمنفقين بالخلف، وعلى الممسكين بالتلف.

رابعًا: من صفات الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم.

أولاً- من أساليب الدعوة: القصر، والترغيب، والترهيب:

ورد أسلوب القصر في هذا الحديث من قوله ﷺ: (ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان) والقصر كأسلوب دعوي يفيد التخصيص بنزول الملكين كل يوم، وهو من الأساليب الدعوية التي يلفت الداعية بها انتباه المدعوين، أما أسلوب الترغيب فقد ورد في الحديث في قوله ﷺ: (اللهم أعط منفقًا خلفًا) وهو من الأساليب الدعوية المهمة التي ينبغي للداعية استخدامها في دعوته، مما يشوق النفس إلى ما رغبت فيه فيحملها على الإنقياد وقبول الأمر المدعو إليه"[1]، وقد ورد أسلوب الترهيب في الحديث من قوله ﷺ: (اللهم أعط ممسكًا تلفًا) وهو من الأساليب الدعوية التي يحصل بها وعيد وتهديد بعقوبة إزاء ارتكاب المرء معصية، أو اقترافه سيئة منهيًا عنها، أو التهاون

---

(١) انظر: أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان ص ٤٢١.

في أمر من أمور الدين التي أمر الله تعالى بها، أو أداء فريضة مكتوبة على كل مسلم ومسلمة[١].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل الإنفاق:

يستنبط ذلك من هذا الحديث في قوله ﷺ "اللهم أعط منفقًا خلفًا" وقدبين الحق تبارك وتعالى فضل الإنفاق فقال: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[٣].

قال ابن كثير: (إن هذا مثل ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته، وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وهذا المثل أبلغ في النفوس، من ذكر عدد السبعمائة، فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله عز وجل لأصحابها، كما ينمي الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة)[٤]، وقد أفادت السنة بتضعيف الحسنة إلى سبعمائة ضعف، وذلك في قوله ﷺ: ((إنَّ رجلا تَصَدَّقَ بِنَاقةٍ مَخْطُومَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَقَالَ رسولُ اللَّهِ: «لَتَأْتِيَنَّ يَوْمَ القِيَامَةِ بِسَبْعِ مِئَةِ نَاقَةٍ مَخْطُومَةٍ))[٥].

قال النووي: (معنى مخطومة: أي: فيها خطام وهو قريب من الزمام، قيل: يحتمل أن المراد له أجر سبعمائة ناقة، ويحتمل أن يكون على ظاهره، ويكون له في الجنة بها سبعمائة، كل واحدة منهن مخطومة، يركبهن حيث شاء للتنزه كما جاء في خيل الجنة ونجبها وهذا

---

(١) دراسة ناقدة لأساليب التربية المعاصرة في ضوء الإسلام، فتحية عمر رفاعي الحلواني ص ١٣٩.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٦٥.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٦١.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١/ ٦٩٠.

(٥) أخرجه مسلم ١٨٩٢.

الاحتمال أظهر والله أعلم)[١]. وفي ذلك دليل على عظم فضل الإنفاق في الطاعات.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: دعاء الملائكة للمنفقين بالخلف، وعلى الممسكين بالتلف:

قد ورد ذلك في الحديث من قوله ﷺ "ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر اللهم أعط ممسكًا تلفًا"، وبهذا الدعاء والمدح تعرف غوائل البخل، وما فيه من الانحطاط عن تلك الدرجات العلية، إذ الشيء إنما يتم انكشافه بمعرفة ضده. وقد بين النووي: (أن الدعاء بالخلف يكون فيمن أنفق في الطاعات، ومكارم الأخلاق، وعلى العيال، وغير ذلك، مما لا يسمى سرفًا، والإمساك المذموم هو الإمساك عن هذا)[٢].

وقال القرطبي: (قوله: "اللهم أعط منفقًا خلفًا"، هو موافق في المعنى لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾[٣]، وهذا يعم الواجبات والمندوبات.

وقوله: "اللهم أعط ممسكًا تلفًا" يعني: الممسك عن النفقات الواجبات، وأما الممسكُ عن المندوبات؛ فقد لا يستحق هذا الدعاء باللهم، إلا أن يغلب عليه البخل بها. وإن قلت في أنفسها، كالحبة، واللقمة، وما شاكل هذا. فهذا قد يتناوله هذا الدعاء؛ لأنه إنما يكون كذلك لغلبة صفة البخل المذمومة عليه. وقلَّ ما يكون كذلك؛ إلا ويبخل بكثير من الواجبات، أو لا يطيب نفسًا بها، والله تعالى أعلم)[٤].

وقال ابن حجر: (إن الدعاء بالتلف يحتمل فيه تلف ذلك المال بعينه أو تلف نفس صاحب المال)[٥].

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٢١٤.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٦٤٣، والزواجر عن اقتراف الكبائر، ابن حجر الهيتمي١/٢٩٢.

(٣) سورة سبأ، آية: ٣٩.

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٣/٥٥.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣/٣٥٨.

رابعًا- من صفات الداعية: إرشاد المدعوين إلى فعل ما ينفعهم:

إن من صفات الداعية المستنبطة من عموم الحديث: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم، وهذا ما فعله النبي ﷺ من خلال ما ورد في الحديث، فالإنفاق في الطاعات والواجبات ومكارم الأخلاق، من آكد ما ينفع المسلم في دنياه وأخراه، والممسك عن ذلك إنما أراد إهلاك نفسه بدعاء الملائكة عليه بالتلف، كما أخبر الصادق المصدوق ﷺ في نص الحديث، وقيام الداعية بإرشاد المدعوين إلى ذلك يكون استجابة لأمر الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾[1]، (أي: منتصبة للقيام بأمر الله في الدعوة إلى الخير)[2]، وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾[3].

قال ابن كثير: (يأمر تعالى عباده المؤمنين بالمعاونة على فعل الخيرات، وهو البر، وترك المنكرات وهو التقوى، وينهاهم عن التناصر على الباطل، والتعاون على المآثم والمحارم)[4]، وقد حثّ النبي ﷺ على إرشاد المدعوين إلى الخير فقال: ((وَمَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ))[5]. فعلى الداعية أن يرشد المدعوين إلى فعل ما ينفعهم، لما في ذلك من عظيم الفلاح.

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٠٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٩١/٢.

(٣) سورة المائدة، آية: ٢.

(٤) المرجع السابق ١٢/٣ - ١٣.

(٥) أخرجه مسلم ١٨٩٣.

الحديث رقم (٢٩٦)

٢٩٦- وعنه، عن النَّبيّ ﷺ، قَالَ: ((اليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى، وَابْدَأ بِمَنْ تَعُولُ، وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ مَا كَانَ[1] عَنْ ظَهْرِ غِنىً، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ)) رواه البخاري[2].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

ما كان عن ظهر غنى: ما كان عفوًا قد فضل عن غنىً. وقيل: أراد ما فضل عن العيال[3].

الشرح الأدبي

يختم النووي بهذا الحديث المبارك باب "النفقة على العيال" وهو ختام موفق، وانتقاء، جيد وذلك لأن هذا الحديث يعد قواعد منهجية تمثل دعائم التصور الإسلامي للإنفاق، وعلاقة المعطي بالسائل، وهو كذلك يكشف عن طبيعة النفس المسلمة التي أراد لها الله أن تظل عزيزة، منيعة، لا تقع في مذلة السؤال، أو براثن التحايل والتسول، لأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين.

---

(١) (ما كان) لا توجد عند البخاري، وهي من الجمع للحميدي.

(٢) برقم (١٤٢٨) ولم يسق لفظه وإنما قال: وعن وهيب، أخبرنا هشام، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ بهذا. والمؤلف نقله عن الحميدي في جمعه (٢٨٦/٣، رقم ٢٨٦٨) حيث أورد الحديث بتمامه، ولو نقل النووي رحمه الله من صحيح البخاري مباشرة لنقل لفظ حديث حكيم بن حزام الذي ساقه البخاري بتمامه، ولما أخرج طريق أبي هريرة أحال بلفظه إلى حديث حكيم بن حزام، وهذا وغيره مما لا يترك مجالًا للشك أن النووي اعتمد كثيرًا على الجمع بين الصحيحين للحميدي، بل كان يحفظه. أورده المنذري في ترغيبه (١٢٠٨) من حديث عبد الله بن عُمر، وبرقم (١٢١١) من حديث حكيم بن حزام، وهما من المتفق عليه.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ظ هـ ر).

والحديث يتكون من خمس جمل لغوية تمثل في مجموعها خمس قواعد للسلوك الإسلامي في ميدان العطاء، وكل جملة لها نمط أسلوبي يغاير أساليب الجمل الأخريات، وهذا التنوع الأسلوبي يفصح عن تنوع العطاء، وتنوع أساليب التصدق، فالجملة الأولى اسمية، ليست مؤطرة بزمن محدد، ولا حدث معين، لأن دلالتها من أسس الشخصية الإسلامية، وهي تمثل قاعدة ثابتة من قواعد السلوك الإسلامي، "فاليد العليا خير من اليد السفلى"، والعلو هنا علو شرف ومكانة، فهو علو معنوي يرمز إلى عزة المؤمن واستعفافه واستغنائه، وهي يد المعطي، والعليا أفعل تفضيل، فهي ليست عالية فقط، ولكنها عليا، لأنها منفقة معطية، وفي هذا الثناء، وذلك الوصف إيحاء وإرشاد إلى كل مسلم بأن يحرص على أن يكون صاحب اليد العليا، وبذلك يشتد التنافس في العطاء وبذل الخير، وأما "اليد السفلى" فهي يد السائل الذي استمرأ السؤال، ولم يتحصن بعزة الاستعفاف، ولكن ربما ألجأه إلى ذلك ضيق ذات اليد، ولكن عليه أن يتجاوز دائرة الحاجة، وذل السؤال حتى لا تبقى يده هي السفلى، "والسفلى" كذلك من صيغ التفضيل، وذلك من المبالغة في الإيحاء بضرورة التسامي والتعالي والاكتفاء والاستعفاف والاستغناء، وقال العلماء بأن يد الآدمي أربعة: يد المعطي، وهي العليا، ويد السائل، وهي السفلى، ويد المتعفف عن الأخذ ولو بعد أن تمد إليه يد المعطي، وهذه توصف بالعلو المعنوي، ويد الآخذ بغير سؤال، وقال البعض بأنها سفلى، وقالوا: وأسفل ما في الأيدي، السائلة والمانعة للعطاء.

وأما القاعدة الثانية فهي في قوله: "ابدأ بمن تعول": وهذه القاعدة جاءت في صيغة الأمر: والأمر للوجوب: لأن الإنفاق لابد أن يكون أولاً في سبيل الله ورعاية من تجب على المنفق نفقته، وإلا كفاه إثما أن يضيع من يقوت كما ورد في الحديث سابقًا.

والقاعدة الثالثة تجيء في صيغة الجملة الاسمية: وهي قاعدة ثابتة تعلن عن أن المسلم لابد أن يكد ويسعى في طلب الرزق من مصادره المشروعة، حتى يكون ذا غنى فيستعفف ويعف، وينفق عن ميسرة، ولا يحرم نفسه ولا أهله، ولذلك قال: "وخير الصدقة" وهو إيحاء بأن الصدقة لا تكون إلا ممن لا يحتاج إلى المال المتصدق به، وقيل

المراد غنى: يستظهر به على النوائب التي تنوبه، والتنكير في "غنى" للتعظيم[1].

والجملتان الرابعة والخامسة: تمثلان قاعدتين من قواعد السلوك الإسلامي، ومعلمين من معالم الشخصية الإسلامية، وقد صيغتا في قالب الشرط والجواب، وهذه الصياغة تفصح عن تحقق وعد الله لهم، فالجملة الأولى تذكر ببداية الحديث، وتحث على أن يكون المؤمن صاحب اليد العليا، حيث يقول رسول الله ﷺ ويعدُ، "ومن يستعفف يعفه الله"، وصيغة الاستفعال توحي بضرورة المعاناة ومقاومة النفس، والتصدي لذل الحاجة، والحرص على أن يكون المسلم من هؤلاء الذين يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف، فالاستعفاف: غير العفاف، لأنه يحتاج إلى مشقة وصبر وعمل، وسعي على الرزق وجواب الشرط: بشارة ووعد إلهي فقوله: "يعفه الله"، وعد يقيني بذلك، ولن يخلف الله وعده، والجملة الأخيرة وردت في أسلوب الشرط والجواب، وهي ترشد المسلم إلى الاستغناء وعدم الوقوع في ذل السؤال، أو براثن الطمع والشره، فإن الرضا بما قسم الله هو الطريق إلى الغنى والعفاف.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكمين فقهيين:

الأول: حكم صدقة التطوع، وقد اتفق الفقهاء[2] على انه يسن للمرء أن يتصدق على الفقراء والمساكين وأن ذلك من خير الأعمال عند الله تعالى، خاصة إذا كان من يتصدق عليه محتاجًا ولا قدرة له على الكسب، كاليتيم والعاجز والأرملة، ويبدأ في الإنفاق بالأقرب فالأقرب.

---

(١) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٤٩٥.

(٢) أحكام القرآن، الجصاص ٤٣٧/١، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ٣٠٦/١، وبلغة السالك لأقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك، أحمد بن محمد الصاوي ٤٨٩/٣، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين عبدالرحيم بن الحسن ٧٤/٤، والزواجر عن اقتراف الكبائر، ابن حجر الهيتمي ٤٢٠/١، وأدب الدنيا والدين، أبو الحسن الماوردي ص١٨٨ وما بعدها، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢٤٤/٦، والفروع، ابن مفلح ٥٢٣/١، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٤١٤/١، ومطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، مصطفى السيوطي ٥٤٣/١، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٦٢/٨.

الثاني: حكم النفقة على الزوجة والأولاد، وقد سبق الكلام عنها في الحديثين رقمي: ٢٦٨، ٢٨٩.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار، والأمر.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل اليد العليا.

ثالثا: من موضوعات الدعوة: فضل الإنفاق.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: أهمية التعفف والقناعة والاستغناء.

خامسًا: من أساليب الدعوة: الترغيب.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار، والأمر:

لقد ورد الإخبار كأسلوب دعوي في الحديث في قوله ﷺ "اليد العليا خير من اليد السفلى" والإخبار من الأساليب الدعوية التي تعين الداعية على تبليغ دعوته للمدعوين وبيان ما خفي عنهم، وقد أمر الحق تبارك وتعالى نبيه ﷺ بذلك فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾[1]، أما أسلوب الأمر فقد ورد في الحديث في قوله ﷺ "وابدأ بمن تعول" وفيه حمل المدعو على فعل الأمر المدعو إليه.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل اليد العليا:

يظهر ذلك في الحديث في قوله ﷺ "اليد العليا خير من اليد السفلى" وقد بين ابن حجر: (أن اليد العليا هي المنفقة المعطية وأن السفلى هي السائلة)[2]. وقد دعا النبي ﷺ المؤمن إلى أن يكون صاحب اليد العليا فقال: ((مَنْ تَكَفَّلَ لِيَ أَنْ لاَ يَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئًا، فَأَتَكَفَّلُ لَهُ بِالْجَنَّةِ؟ فَقَالَ ثَوْبَانُ: أَنَا، فَكَانَ لاَ يَسْأَلُ أَحَدًا شَيْئًا))[3]. وقال ﷺ ((لأَنْ يَغْدُوَ أَحَدُكُمْ فَيَحْطِبَ عَلَى ظَهْرِهِ، فَيَتَصَدَّقَ بِهِ وَيَسْتَغْنِيَ بِهِ مِنَ النَّاسِ، خَيْرٌ لَهُ

---

(١) سورة المائدة، آية: ٦٧.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٤٩/٣، شرح رياض الصالحين ٦٧٧/١.

(٣) سنن أبي داود ١٦٤٣، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ١٤٤).

مِنْ أَنْ يَسْأَلَ رَجُلاً، أَعْطَاهُ أَوْ مَنَعَهُ ذلِكَ. فَإِنَّ الْيَدَ الْعُلْيَا أَفْضَلُ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى. وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ))[1].

وهذا ما أمر به النبي ﷺ حكيم بن حزام رضي الله عنه، فعن سعيد بن المسيب رضي الله عنه أن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: "سألتُ رسولَ اللهِ ﷺ فأعطاني، ثمَّ سألتهُ فأعطاني، ثم سألته فأعطاني ثمَّ قال: ((يا حكيمُ، إنَّ هذا المالَ خَضِرةٌ حُلْوةٌ، فمن أخذَهُ بَسخاوةِ نفسٍ بوركَ له فيه، ومن أخذَهُ باشرافِ نفسٍ لم يُبارَك له فيه، وكان كالذي يأكلُ ولا يشبَعُ. اليدُ العُليا خيرٌ منَ اليدِ السُّفلى)).

قال حكيمٌ: فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، والذي بَعثكَ بالحقِّ لا أرزأُ أحدًا بعدَكَ شيئًا حتى أُفارِقَ الدنيا. فكان أبو بكرٍ رضي الله عنه يَدعو حكيمًا إلى العطاءِ فيأبى أن يَقبلَه منه. ثمَّ إن عمرَ رضي الله عنه دعاهُ ليعطِيَهُ فأبى أن يَقبلَ منهُ شيئا، فقال عمرُ: إني أُشهِدُكم يا معشرَ المسلمينَ على حكيمٍ أني أعرِضُ عليهِ حقَّهُ من هذا الفَيْءِ فيأبى أن يأخُذَه، فلم يَرْزَأْ حكيمٌ أحدًا منَ الناسِ بعدَ رَسولِ اللهِ ﷺ"[2].

قال ابن حجر: (قوله: "لا أرزأ" بفتح الهمزة وإسكان الراء وفتح الزاي بعدها همزة أي لا أنقص ماله بالطلب منه...، وإنما امتنع حكيم من أخذ العطاء مع أنه حقه، لأنه خشي أن يقبل من أحد شيئا فيعتاد الأخذ، فتتجاوز به نفسه إلى ما لا يريده، ففطمها عن ذلك، وترك ما يريبه إلى ما لا يريبه، وإنما أشهد عليه عمر؛ لأنه أراد أن لا ينسبه أحد لم يعرف باطن الأمر إلى منع حكيم من حقه)[3]، فعلى المؤمن أن يستجيب لأمر نبيه ﷺ ويقتدي بسلفه الصالح في أن يكون صاحب اليد العليا.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل الإنفاق:

إن مما يستنبط من هذا الحديث من موضوعات دعوية: فضل الإنفاق، حيث يجعل المؤمن مستعليًا بالله تعالى، ثم بجهوده في كسب الرزق عفيفًا معينًا لإخوانه، وقد أشار

---

(١) أخرجه مسلم ١٠٤٢.

(٢) أخرجه البخاري ١٤٧٢، ومسلم ١٠٣٥.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣/٣٩٤.

الحديث إلى ذلك في قوله ﷺ "اليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول... إلخ" وقد بيّن الحق تبارك وتعالى عِظم فضل الإنفاق فقال: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾[١].

قال ابن كثير: (أي: مهما أنفقتم من شيء فيما أمركم به وأباحه لكم، فهو يخلفه عليكم في الدنيا بالبدل، وفي الآخرة بالجزاء والثواب)[٢]، وفي ذلك قال ﷺ: ((قال الله: أنفقْ ياابن آدمَ أُنْفِقْ عليكَ))[٣]، قال النووي: (وفيه الحث على الإنفاق في وجوه الخير والتبشير بالخلف من فضل الله تعالى)[٤]، فعلى المنفق أن يثق بموعود الله تعالى في إخلافه خيرًا مما أنفق، وأفضل مما أعطى.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: أهمية التعفف والقناعة والاستغناء:

لقد أشار الحديث إلى ذلك في قوله ﷺ "ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله" وفي ذلك قال تعالى (واصفًا المهاجرين الذين قد انقطعوا إلى الله وإلى رسوله ﷺ وسكنوا المدينة، وليس لهم سبب يردون به على أنفسهم ما يغنيهم)[٥] ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾[٦] أي: (أن الجاهل بأمرهم وحالهم يحسبهم أغنياء، من تعففهم في لباسهم وحالهم ومقالهم)[٧].

وقد أمر النبي ﷺ بذلك، فعن عوف بن مالك الأشجعي قال: ((كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللّهِ . تِسْعَةً أَوْ ثَمَانِيَةً أَوْ سَبْعَةً . فَقَالَ: «أَلا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللّهِ ؟» وَكُنَّا حَدِيثَ عَهْدٍ بِبَيْعَةٍ.

---

(١) سورة سبأ، آية: ٣٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٥٢٣/٦.

(٣) أخرجه البخاري ٤٦٨٤، ومسلم ٩٩٣.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٦٣٦.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٧٠٤/١.

(٦) سورة البقرة، آية: ٢٧٣.

(٧) المرجع السابق ٧٠٤/١.

فَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللّهِ ثُمَّ قَالَ: «أَلاَ تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللّهِ؟» فَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللّهِ ثُمَّ قَالَ: ((أَلاَ تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللّهِ؟)) قَالَ: فَبَسَطْنَا أَيْدِينَا وَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللّهِ فَعَلاَمَ نُبَايِعُكَ؟ قَالَ: ((عَلَى أَنْ تَعْبُدُوا اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا. وَالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ. وَتُطِيعُوا وَأَسَرَّ كَلِمَةً خَفِيَّةً وَلاَ تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا)) فَلَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَ أُولَئِكَ النَّفَرِ يَسْقُطُ سَوْطُ أَحَدِهِمْ. فَمَا يَسْأَلُ أَحَدًا يُنَاوِلُهُ إِيَّاهُ))[١]، والفقر الحقيقي لها علامات تظهر على الإنسان الفقير المتعفف كما تظهر على أسرته، في الطعام، والملبس، و المسكن، وفي حالة الجسم بشكل عام، وفي مراقبة موارد رزقه، إلى غير ذلك من علامات. وعلى المسلمين أن يبحثوا عن أحوال الفقراء المتعففين، ولا يعرفهم إلا دقيق الملاحظة أما الجاهل لا يعرفه بل يحسبه غنيًا[٢]. وقد رهب النبي ﷺ من عدم التعفف والقناعة والاستغناء فقال: ((ما يَزالُ الرجلُ يسألُ الناسَ حتى يأتيَ يومَ القيامةِ ليسَ في وَجهِهِ مُزْعَةَ لحمٍ))[٣].

قال النووي: (قال القاضي: قيل: معناه يأتي يوم القيامة ذليلاً ساقطًا لا وجه له عند الله. وقيل: هو على ظاهره فيحشر ووجهه عظم لا لحم عليه، عقوبة له وعلامة له بذنبه حين طلب وسأل بوجهه..، هذا فيمن سأل لغير ضرورة سؤالاً منهيًا عنه"[٤]، وفي ذلك بيان على أهمية التعفف عن المسألة والقناعة والاستغناء.

خامسًا- من أساليب الدعوة: الترغيب:

يقصد بالترغيب كل ما يشوق المدعو إلى الاستجابة، وقبول الحق والثبات عليه...، والأصل في الترغيب أن يكون في نيل رضا الله ورحمته، وجزيل ثوابه في الدنيا والآخرة[٥]، وقد ورد الترغيب كأسلوب دعوي في الحديث في قوله ﷺ: "ومن

---

(١) أخرجه مسلم ١٠٤٣.

(٢) الوجيز في الأخلاق الإسلامية، عبدالرحمن حسن حبنكة ص ٤٩١.

(٣) أخرجه البخاري ١٤٧٤، ومسلم ١٠٤٠.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٦٥٧.

(٥) انظر: أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان ص ٤٢١.

يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله". حيث أفاد أن من ترك شيئًا لله أبدله الله خيرًا منه، وأعطاه أفضل منه، فإن من عفّ واستغنى عن الناس، أغناه الله عنهم، وعفّه ونقله من منزلة الاحتياج إلى منزلة الاستغناء، ومن منزلة الذل إلى منزلة العز والكرامة، وفي ذلك عظيم الترغيب في الاستعفاف عن السؤال، والاستغناء عن طلب الناس.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

الإنسان مسؤول عن أهله مسؤولية مادية وأدبية، وذلك من قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [سورة التحريم:٦].

وإذا كانت نفس الإنسان مفطورة على حب الخير، فحري بالمؤمن أن يبدأ بالصدقة على أهله.

والفرق بين المسلم الذي يفقه دينه والمسلم الذي لا يفقه دينه كبير، فكل منهما يقوم بكفالة أسرته مادياً، ولكن المسلم الفقيه بأمور دينه يقصد حال الإنفاق وجه الله تعالى، أما من لا يفقه دينه فإنه يجاري التقاليد والعادات المتبعة، ومن المضامين التربوية في هذا الباب ما يلي:

أولاً- التربية على البذل والسخاء:

من أهداف التربية الإسلامية الحث على البذل والسخاء، ومن الشواهد على ذلك في باب النفقة على العيال قوله ﷺ: «اليد العليا خير من اليد السفلى»، وقوله ﷺ: «... دِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي رَقَبَةٍ، وَدِينَارٌ تَصَدَّقْتَ بِهِ عَلَى مِسْكِينٍ، ...».

فهذه شواهد تربوية تدل على أهمية البذل والسخاء في وجوه الخير الكثير والتي منها الإنفاق والسخاء في سبيل الله، وتجهيز الغزاة، وتحرير الأرقاء لينالوا حريتهم، وأن اليد المنفقة في سبيل الله هي العليا.

لأن السخاء محبة ومحمدة ويجلب المودة وينفي العداوة ويكسب الذكر الجميل، ويستر العيوب والمساوئ، وإذا ما تربى الإنسان على السخاء ضعفت نفسه ولانت عريكته وقاده ذلك إلى أن يرتقى في مكارم الأخلاق ومدارج الفضيلة لأن السخي قريب من كل خير وبر، قال الرافعي: "من ألزم نفسه الجود والإنفاق راضها رياضة عملية كرياضة العضل بأثقال الحديد ومعاناة القوة في الصراع ونحوه، أما الشح فلا يناقض تلك الطبيعة فحسب ولكنه يدعها جامدة مستعصية لا تلين ولا تستجيب

ولا تتيسر، لأن السخاء يعني سخاوة نفس الرجل بما في يديه وسخاوته عما في أيدي الناس، وتركه ما في أيدي الناس أمحض في التكرم وأبرأ من الدنس وأنزه من العيب فإن هو جمعهما فبذل وعف فقد استكمل الجود والكرم[(1)].

ثانياً- من أهداف التربية الإسلامية: بيان مسؤولية الرجل عن النفقة على أهله:

من الأهداف التي اهتمت بها التربية الإسلامية بيان مسؤولية الرجل عن النفقة على الأهل، وأنها واجبة عليه، وفي الشواهد على ذلك قوله ﷺ: « «كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْماً أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ». وقوله ﷺ: «كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْماً أَنْ يَحْبِسَ ، عَمَّنْ يَمْلِكُ، قُوتَهُ».

فهذا توجيه نبوي بين النبي ﷺ فيه أن جميع أفراد المجتمع مسؤولون ومكلفون بواجبات تجاه الأقارب من النفقات وأن أولوية الإنفاق تكون للعيال ومن يعول، وهذا يعتبر في التربية الإسلامية من تقاسم الأدوار.

فالراعي مسؤول عن رعيته بغض النظر عن موقعه في القمة أو في القاع، ومهما اختلفت الظروف والأحوال فإنه مسؤول عن رعيته والإنفاق على هذه الأسرة، ومما يزيد هذه المسؤولية خطورة وأهمية قوله ﷺ: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللَّهُ رَعِيَّةً، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ، إِلاَّ حَرَّمَ الله عَلَيْهِ الْجَنَّةَ»[(2)]، فهذا شاهد على عظم هذه المسؤولية، ولا داعي لجلب الأعذار وتبرير الأخطار لذلك شدد النبي ﷺ على هذه المسؤولية المتمثلة في الإنفاق على العيال، وهذا شيء يشعره بالتبعية الشاقة فيتعاهدها بالرعاية والعناية ويراقب الله في هذه الأمانة[(3)].

ثالثاً- التربية بالترغيب والترهيب:

من أساليب التربية الإسلامية الترغيب والترهيب، ولقد استخدمه رسول الله ﷺ في تربية الصحابة لما له من أثر كبير في عملية التربية، ومن الشواهد التي تدل على

---

(١) انظر: رسائل في التربية والأخلاق والسلوك، د. محمد بن إبراهيم الحمد ص ٥٢٤.

(٢) أخرجه مسلم، ١٢٥/١، ١٤٢

(٣) انظر: التربية الذاتية من الكتاب والسنة، هشام علي أحمد ص ٥٨، أصول التربية الإسلامية، د. محمد ص ٦٣.

الترغيب في باب النفقة على العيال، قوله ﷺ: «دِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي رَقَبَةٍ، وَدِينَارٌ تَصَدَّقْتَ بِهِ عَلَى مِسْكِينٍ، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ، أَعْظَمُهَا أَجْراً الَّذِي أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ». وقوله ﷺ: «وَإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ...»، وقوله ﷺ: «اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقاً خَلَفاً»، فهذه شواهد تدل على الترغيب في الإنفاق عامة والنفقة على العيال خاصة، والرسول استخدم أسلوب الترغيب في عملية تنشئة الصحابة، لأنه أسلوب فيه تحريك للدوافع على الخير - الإنفاق- وتنشيطها فيما، أعده الله تعالى لمن خاف مقام ربه ومقام النبي ﷺ، وكل هذا يكفل للمجتمع الاستقامة على طريق أداء الحقوق، وهذا ليس بغريب على التربية الترغيبية لأنها من الأسس التي يقوم عليها الإصلاح في المجتمع[1].

كما رهّب الرسول ﷺ من الإمساك في النفقة وعدم إعطاء العيال حقهم منها، في قوله ﷺ: «اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكاً تَلَفاً»، فهذا ترهيب من عدم الإنفاق، وجواز الدعاء على البخيل بتلف ماله الذي منعه وكنزه وتحريم البخل والشح لأنه سبب في الهلاك والإهلاك والرسول ﷺ ذكر الترهيب بعد الترغيب لعلمه أن الإنسان لديه القدرة على التمييز بين ما يضره وما ينفعه، كما أنه يستطيع أن يستجيب لأوامر الله فيمتنع عن ما نهى عنه ويعمل بما أمره به. مما يجعل الترهيب يؤثر في السلوك ولولا هذه الخاصية الفطرية لما كان للترهيب أثر تربوي، ولقد بين الرسول ﷺ الكيفية التربوية التي ينبغي للمربين اتباعها في عملية التربية وهي الموازنة والاعتدال والموضوعية في الإفادة من الترغيب والترهيب، فلا يغلب أحدهما على الآخر، وأن يستخدم كل واحد منهما بحسب الحاجة[2].

رابعاً- التربية بالتوجيه المباشر:

من أساليب التربية الإسلامية التربية بالتوجيه المباشر، ومن الشواهد على ذلك في

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي ص ٤٩٤ بتصرف.

(٢) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي ص ٣٩٦، أصول التربية الإسلامية، د. محمد شحات ص ٨٤.

باب النفقة على العيال: قوله ﷺ: «دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة...»، وقوله: «أَفْضَلُ دِينَارٍ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ: دِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَىٰ عِيَالِهِ...»، وقوله: « وَإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلاَّ أُجِرْتَ بِهَا حَتَّى مَا تَجْعَلُ...»، وقوله: «كفى بالمرء إثماً أن يضع من يقوت...»، وقوله ﷺ: «اليد العليا خير من اليد السفلى...».

فهذه شواهد تربوية تدل على أن الرسول ﷺ استخدم أسلوب التوجيه المباشر في تربيته للصحابة رضي الله عنهم لأنه عندما كان يرى حالة تحتاج إلى توجيه لدى أحد أصحابه فإنه يتدخل بالتوجيه والإرشاد والنصح، وذلك حتى تكون درساً عملياً يستقي منه الأصحاب الحكم والفوائد التربوية العلاجية لكثير من الحالات المشابهة، والرسول ما استخدم هذا الأسلوب إلا لعلمه بأنه مؤثر في سلوك الفرد، ولعلمه أنه بنجاحه فإنه يغير مجرى حياة الإنسان لأنه يعقبه أثار تربوية منها تزكية النفس وتطهيرها عن الرذائل كالبخل، وبهذا يسمو المجتمع ويبتعد عن المنكرات، وهذا الأسلوب له عدة عوامل لنجاحه ينبغي مراعاتها وهي: إشعار الأفراد محل التوجيه بالعطف والاهتمام، وتخير وقت التوجيه حيث تكون النفس هادئة للتقبيل[1].

❁ ❁ ❁

(١) أساليب الدعوة والتربية، د. زياد العاني ص ٢٨٤، أصول التربية الإسلامية، د. محمد شحات ص ٨٤.

٣٧- باب الإنفاق مما يحب ومن الجيد

قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[آل عمران: ٩٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾[البقرة: ٢٦٧].

الحديث رقم (٢٩٧)

٢٩٧- عن أنس رضي الله عنه، قَالَ: كَانَ أَبُو طَلْحَةَ رضي الله عنه أَكْثَرَ الأنْصَار بالمَدينَةِ مَالاً مِنْ نَخْل، وَكَانَ أَحَبُّ أمْوالِهِ إِلَيْه بَيْرَحَاء، وَكَانتْ مُسْتَقْبلَةَ المَسْجِدِ، وَكَانَ رَسُول اللّه ﷺ يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّب. قَالَ أنسٌ: فَلَمَّا نَزَلَتْ هذِهِ الآيةُ: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قام أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رسولِ اللّه ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُول اللّه، إنَّ اللّه تَعَالَى أنْزَلَ عَلَيْكَ[(١)]: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وَإنَّ أَحَبَّ مَالِي[(٢)] إِلَيَّ بَيْرَحَاءُ، وَإنَّهَا صَدَقَةٌ للّهِ تَعَالَى، أرْجُو بِرَّهَا، وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللّه تَعَالَى، فَضَعْهَا يَا رَسُول اللّه حَيْثُ أَرَاكَ اللّه، فَقَالَ رَسُول اللّه ﷺ: **((بَخٍ! ذلِكَ مَالٌ رَابحٌ، ذلِكَ مَالٌ رَابحٌ، وقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ، وَإنِّي أرَى أنْ تَجْعَلَهَا فِي الأقْرَبِينَ))**، فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: أفْعَلُ يَا رَسُول اللّه، فَقَسَّمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ، وبَنِي عَمِّهِ. مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[(٣)].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

بيرحاء: حديقة نخل وروي بكسر الباء وفتحها[(٤)].

---

(١) لفظهما: (إن اللّه تعالى يقول)، وكذا عند الحميدي في جمعه.

(٢) لفظ البخاري في هذه الرواية: (أموالي) وبهذا اللفظ عنده برقم (٥٦١١)، والمثبت لفظ الحميدي في جمعه (٥١٦/٢، رقم ١٨٨٢).

(٣) أخرجه البخاري (١٤٦١) واللفظ له، ومسلم (٩٩٨/٤٢). أورده المنذري في ترغيبه (١٢٨٣).

(٤) رياض الصالحين ١٦٥.

مستقبلة المسجد: أمام المسجد النبوي(١).

ذخرها: هو ما يعد لوقت الحاجة. والمراد: أجرها عند الله(٢).

بخ: كلمة تقول عند الرضا والإعجاب بالشيء أو المدح أو الفخر تقول: بَخْ وبخٍ وتقول مكرراً: بَخْ بَخْ وبخٍ بخٍ(٣).

مال رابح: قوله: (مال رابح) روى في الصحيح (رابح) و(رايح) بالباء الموحدة وبالياء المثناة: أي رايح عليك نفعه(٤).

الشرح الأدبي

إن الإنفاق في سبيل الله من سمات اكتمال معالم شخصية المسلم، وهو تاج سلوكها، ومضمار أصالتها، فللمال سطوة لا تقدر على مقاومتها النفوس الضعيفة، وله إغراءاته التي لا يقف في وجهها إلا ذوو الهمم العالية، والبصائر المؤمنة، وحينما تألف النفس الإنفاق، وتستمرئ العطاء، تجد له طعماً لا تعدله طعوم الدنيا وما فيها، وتبصر آفاقاً من العز تسمو إليها وهي متشحة بأردية الإيمان... ولباس التقوى.

وهذا الحديث الشريف مشهد واقعي من مشاهد العطاء الإيماني، وهو حوار بين رسول الله ﷺ وأبي طلحة يُرْسي معْلما من معالم الإسلام، وهو الإنفاق مما يحبه المنفق، استجابة لقول الله عز وجل: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾(٥).

ويأتي هذا الحديث في باب مستقل، إشارة إلى أن ثمرته تعود بالنفع على كل مسلم، المنفق، والمنفق عليه، وتعود كذلك على الأمة كلها بالنفع العام، وإشاعة عاطفة المودة والرحمة ونشر سلوك التعاون على البر والتقوى؛ ويأتي هذا الحديث كذلك عقب باب النفقة على العيال، وغيرهم من الذين يستحب الإنفاق عليهم أو يجب،

---

(١) انظر: الوسيط في (ق ب ل).

(٢) انظر المصباح المنير في (ذ خ ر)، ودليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٤٩٨.

(٣) الوسيط في (ب خ).

(٤) رياض الصالحين ١٦٥.

(٥) سورة آل عمران، آية: ٩٢.

وهو بذلك يرشد إلى أن الإنفاق لن يقبل إلا إذا كان طيباً، وأن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً.

ولنتأمل بعض جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الحواري، المشرق بكثير من القيم والمبادئ، والتعاليم النبوية والإلهية، وأول ظاهرة أسلوبية تلفت القارئ، هي أن الحديث صيغ في قالب الحكاية على لسان الراوي الأعلى: أنس بن مالك ﵁، حيث يستعيد الراوي هذه الواقعة، ويقدمها لكل مسلم أنموذجاً للعطاء الإسلامي، المنبثق من الهدي القرآني، والتوجيه النبوي، وسمة الحكاية القصصية أن الراوي كرر الفعل "كان" أربع مرات في سياق عرض مظاهر ثراء أبي طلحة، وبيان أحب أمواله إليه، والجمل الأربع: كل في بداية الحديث: كل جملة تعرض ملمحاً من ملامح ثراء أبي طلحة، وقد ازدادت حديقته شرفاً بأنها كانت مستقبلة مسجد رسول الله ﷺ وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب.

وفي الحديث إشارة إلى سرعة استجابة الصحابة لتوجيهات القرآن الكريم، وذلك يتضح في ذلك الحوار بين رسول الله ﷺ وأبي طلحة حينما نزلت هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[1]، والعطف بالفاء في قوله: "قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله" وذلك يوحي بأن الرجل لم يتمهل ولم يفكر إلا في الاستجابة للأمر الإلهي، ولذلك نرى استجابته يؤيدها هذا التأكيد بـ"إن" مرتين في إقراره أمام رسول الله ﷺ بأن حديقة بيرحاء أحب ماله إليه، ثم أكد وقال: إنها صدقة لله تعالى: إن هذا التأكيد مرتين يرشد إلى النية الخالصة في التصدق والاحتساب.

والأمر في قوله: "فضعها يا رسول الله: حيث أراك الله"، ليس على سبيل الحقيقة: ولكنه التماس ورجاء، لأنه صادر من الأدنى إلى الأعلى، والنداء في قوله "يا رسول الله" بعد صيغة الأمر: للإشعار بأن هذا أمر إلهي وهو أمر الإنفاق مما يحب، "وضعها" تعبير يحمل الاختيار في جوهره وفي سياق خطاب النبي ﷺ، والاختيار هنا مرتبط بقوله:

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٩٢.

"حيث أراك الله"، وأراك بمعنى أعلمك، فالرسول لا ينطق عن الهوى، ويزداد الحوار إشراقاً ووضاءة حيث يعبر الرسول ﷺ عن غبطته بموقف أبي طلحة فيقول "بخ"، وهي كلمة تقال لتفخيم الأمر والإعجاب به، والأمر يزداد فخامة، ويشرف ويسمو إذا كان القائل هو رسول الله ﷺ، ويبشر الرسول: أبا طلحة بشارة صادقة ويؤكد البشارة بتكرار عبارته مرتين، ويأتي باسم الإشارة "ذلك" لمزيد من التعظيم: فيقول: "ذلك مال رابح: ذلك مال رابح"، ثم يؤكد الرسول ما سمع بقوله: "وقد سمعت ما قلت"، ثم يؤكد توجيهه ورأيه بـ"إن" قائلاً: "وإني أرى..."، ولم يقل: اجعلها: وهذا من أدب النبوة في التوجيه وخطاب أصحابه، والعطف بالفاء في قوله: "فقال أبو طلحة" وقوله: "فقسمها في أقاربه..." يرشد إلى تنفيذ مشورة رسول الله ﷺ في سرعة وصدق ومحبة وإخلاص.

فقه الحديث

يربي الإسلام في نفس المسلم حب الخير وفعله، والتضحية بالنفيس والغالي في سبيل رضا الله عز وجل، ولذا فإن الإنسان إذا تصدق بشيء فليتصدق بما هو جيد، لا بما هو رديء، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، ولينظر من يتصدق إلى أن الصدقة تقع أولاً في يد الله قبل يد الفقير، وأفضل الصدقات ما كانت للقريب الفقير.

وقد سبق القول في الحديث رقم ٢٩٦ أن الفقهاء اتفقوا[1] على انه يسن للمرء أن يتصدق على الفقراء والمساكين، وأن ذلك من خير الأعمال عند الله تعالى، خاصة إذا كان من يتصدق عليه محتاجاً ولا قدرة له على الكسب، كاليتيم والعاجز والأرملة، ويبدأ في الإنفاق بالأقرب فالأقرب، فهو الأحق بالصدقة ثم غيره من المسلمين.

---

(١) أحكام القرآن، الجصاص ٤٣٧/١، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ٣٠٦/١، وبلغة السالك لأقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك، أحمد بن محمد الصاوي ٤٨٩/٣، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين عبدالرحيم بن الحسن ٧٤/٤، والزواجر عن اقتراف الكبائر، ابن حجر الهيتمي ٤٢٠/١، وأدب الدنيا والدين، أبو الحسن الماوردي ص ١٨٨ وما بعدها، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢٤٤/٦، والفروع، ابن مفلح ٥٢٣/١، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٤١٤/١، ومطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، مصطفى السيوطي ٥٤٣/١، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٦٢/٨.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: فضل الإنفاق مما يحب المرء.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: سرعة استجابة الصحابة رضي الله عنهم لأمر الله ورسوله.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: الحث على الإنفاق.

خامساً: من موضوعات الدعوة: فضل الإحسان بالإنفاق على ذوي الأرحام.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار:

لقد ورد أسلوب الإخبار في الحديث في قول أنس رضي الله عنه مخبراً عن أبي طلحة رضي الله عنه أنه كان... إلخ" والإخبار من الأساليب الدعوية التي تعين الداعية على تبليغ دعوته، وبيان أمور دينه وسنة نبيه.

قد ورد ذلك في الحديث من قول أنس رضي الله عنه: (فلما نزلت هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[1]... إلخ).

قال ابن هبيرة: (في هذا الحديث من الفقه أن الأضداد يبين ببعضها بعض، فإذا أراد الإنسان من البر الثواب، كان معيار ذلك إخراجه ما يحب، لقوله تعالى: "لن تنالوا البر"، فذكر البر "بالألف واللام" المستغرق للجنس أو المعهود، وهذا من جوده، فلو أنه عز وجل قال: "لن تنالوا براً حتى تنفقوا مما تحبون" لكان يصعب عليهم في كل الحالين، لأنهم لم يكونوا ينالون براً حتى ينفقوا كل ما يحبون، ولكن لما قال سبحانه: (لن تنالوا البر) بان أنه أراد البر المعهود، والمستغرق للجنس حتى ينفقوا مما يحبون، أي شيئاً مما يحبون يعني شيئاً ما، تخفيفاً وتيسيراً من الجهتين)[2].

وقد بيّن القرطبي: (أن البر في هذه الآية الكريمة قد يعني الجنة، أي لن تصلوا إلى الجنة وتعطوها حتى تنفقوا مما تحبون، وقيل إن البر قد يعني العمل الصالح، أي: لن

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٩٢.

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٥/ ٨١.

تنالوا شرف الدين والتقوى، حتى تنفقوا مما تحبون في سبل الخير، من صدقة أو غيرها من الطاعات)[١]، ومن أجل عظم فضل الإنفاق مما يحب المرء قال ابن عمر رضي الله عنهما: (حضرتني هذه الآية ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ فذكرت ما أعطاني الله عز وجل، فلم أجد شيئاً أحب إلي من مرجانة - جارية لي رومية - فقلتُ: هي حرة لوجه الله)[٢]، فعلى المرء أن ينفق مما يحب، حتى ينال عظيم الثواب، وجزيل العطاء من الله تعالى. وفي ذلك بيان عظيم على فضل الإنفاق مما يحب المرء.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: سرعة استجابة الصحابة رضي الله عنهم لأمر الله:

هذا ما ظهر في الحديث في قول أبي طلحة رضي الله عنه: "يا رسول الله إن الله تعالى أنزل عليك ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وإن أحب مالي إليَّ بيرحاء، وإنها صدقة لله تعالى، أرجو برها وذخرها عند الله تعالى.." وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يتميزون بسرعة الاستجابة لأمر الله، فعن أنس رضي الله عنه أنه قال: ((كنتُ ساقِيَ القومِ في منزلِ أبي طلحةَ، فنزل تحريم الخمر، فأمرَ مُنادياً فنادَى، فقال أبو طلحةَ: اخرُج فانظرْ ما هذا الصوتُ، قال: فخرجتُ فقلتُ: هذا مُنادٍ ينادي: ألا إن الخمرَ قد حُرِّمَت. فقال: لي: اذهَبْ فأهرِقْها. قال: فجَرَتْ في سِكَكِ المدينة))[٣].

قال ابن هبيرة رحمه الله: (في هذاالحديث ما يدل على إيمان القوم بحسن مسارعتهم إلى امتثال أمر الشرع)[٤]، وفي ذلك حسن الجزاء من الله، قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[٥].

قال السعدي رحمه الله: (أي: انقادت قلوبهم للعلم والإيمان، وجوارحهم للأمر والنهي،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٣٣/٤/٢.

(٢) حياة الصحابة، الكندهلوي ص ٣٧٧.

(٣) أخرجه البخاري ٤٦٢٠، ومسلم ١٩٨٠.

(٤) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٧١/٥.

(٥) سورة الرعد، آية: ١٨.

وصاروا موافقين لربهم فيما يريده منهم، فلهم "الحسنى" أي: الحالة الحسنة، والثواب الحسن. فلهم من الصفات أجلُّها، ومن المناقب أفضلها. ومن الثواب العاجل والآجل ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر)[١].

فعلى الأمة جمعاء أفراداً وشعوباً وحكاماً أن تسارع في الاستجابة لأمر الله ورسوله ﷺ مقتدية في ذلك بسلفها الصالح، حتى تنال العزة في الدنيا، كما نالها سلفها من قبل.

رابعاً- من موضوعات الدعوة: الحث على الإنفاق:

يظهر ذلك في الحديث عندما بارك النبي ﷺ فعل أبي طلحة وقال له بخ، فهذا لفظ دل على تفخيم الأمر والإعجاب به في قوله ﷺ "بخ! ذلك مال رابح، ذلك مال رابح" أي: مربوح فيه، كما يقال: ليل قائم ونهار صائم، أي: ليل يقام فيها ونهار يصام فيه[٢]، (وصدق النبي ﷺ فهذا مال رابح، فكم من حسنة يربح هذا المال، إذا كانت الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة؟)[٣]، وفي ذلك قوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ ﴾[٤].

خامساً- من موضوعات الدعوة: فضل الإحسان بالإنفاق على ذوي الأرحام:

قد أشار الحديث إلى ذلك في قوله ﷺ "وإني أرى أن تجعلها في الأقربين"، قال ابن هبيرة: (وإنما كان لهذا الإنفاق مزية، لأن المنفق آثر الله تعالى فيه على هواه، وأبو طلحة وإخراجه "بيرحاء" في سبيل الله، فإنه أنفقه نفقة دارة، ورد تعيين مصرفها إلى رسول الله ﷺ، فاختار له ﷺ أحسن المصارف لأنه ﷺ أراد أن يجمع له بين الصلة والصدقة، فقال: "اجعلها في الأقارب"، ليكون متصدقاً وواصلاً لرحمه)[٥].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٣٧٠.

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٨٢/٥.

(٣) شرح رياض الصالحين ٦٨٠/١، نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، الشوكاني ٣٤/٦.

(٤) سورة البقرة، آية: ٢٦١.

(٥) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٨١/٥.

وقد بين النووي: (أن الصدقة على الأقارب أفضل من الأجانب إذا كانوا محتاجين وفيه أن القرابة يرعى حقها في صلة الأرحام وإن لم يجتمعوا إلا في أب بعيد، لأن النبي ﷺ أمر أبا طلحة أن يجعل صدقته في الأقربين، فجعلها في أبي بن كعب وحسان بن ثابت رضي الله عنهما وإنما يجتمعان معه في الجد السابع)[1].

وفي الإنفاق والإحسان إلى ذوي الأرحام لأجران، أجر القرابة وأجر الصدقة، وهذا ما بينه النبي ﷺ لزينب امرأة عبدالله رضي الله عنهما عندما سألته ﷺ ((أيَجزي عني أن أُنفِقَ على زوجي وأيتامٍ لي في حجري. قال: نعم، ولك أجْرانِ: أجرُ القَرابةِ وأجرُ الصدقةِ))[2]. قال ابن حجر: (أي أجر صلة الرحم وأجر منفعة الصدقة)[3]، وفي ذلك بيان عظيم على فضل الإحسان إلى ذوي الأرحام.

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٦٣٨.

(٢) أخرجه البخاري ١٤٦٦.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٦٨/٣، والمدخل في الآداب الشرعية للعبدري "ابن الحاج" ص ٥٦.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

يراعي الإسلام في النفقة حال المنفق وحال المنفق عليه، فالمنفق في كثير من الأحيان يحرص على إخراج الحد الأدنى ويختار من بين ماله ما لا يراه في موقع الصدارة مما يتمول.

والمنفق عليه يحرص على ن يأخذ خير ما يملك الغني ويتمنى ذلك، وقد لا يحمد العطية لأنها من وجهة نظره دون ما يتوقع، والإسلام وازن بين الطرفين فأمر المنفق أن يخرج من خير ماله ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾ [سورة آل عمران:٩٢]، ونهى عن التصدق بالرديئ من الأشياء: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ﴾ [سورة البقرة:٢٦٧]، ونهى الرسول ﷺ معاذ بن جبل رضي الله عنه عند جمع الصدقة أن يركز على كرائم الأموال لأنها محببة إلى النفس.

كما أمر المنفق عليه بشكر المنفق وعدم تقييد ذلك بالخيرية مما أنفقه، ومن وسائل التربية في هذا الباب:

أولاً - التربية على الامتثال والرغبة في رضوان الله:

من أهداف التربية الإسلامية الحث على الامتثال لأوامر الله تعالى، يبدو ذلك واضحاً من خلال حديث الباب حيث استجاب أبو طلحة رضي الله عنه لأوامر الله، فكانت استجابته سريعة للفوز بالثواب الذي أعده الله تعالى للمنفقين، وقد كان أبو طلحة من أكثر الأنصار مالاً، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء ... فقام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: «يَا رَسُولَ اللَّهِ إنَّ اللَّهَ تَعَالَى أنْزَلَ عَلَيكَ: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[1]، وَإنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إلَيَّ بَيْرُحَاءُ، وَإنَّهَا صَدَقَةٌ أَرْجُو بِرَّهَا ....».

فهذه تربية على الامتثال لأمر الله والحرص على بلوغ الدرجات العلى التي حث الله

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٩٢.

تعالى ورسوله الكريم ﷺ على تحصيلها بالبذل والإنفاق من المال المحبب للنفوس، ولاشك أن هذا الامتثال من أبي طلحة يعد من أرقى ألوان التربية على التحرر من الشح والأنانية والرغبة في رضوان الله تعالى، لأن إقدام المؤمن على الاستجابة لأوامر الله والمسارعة في ذلك دليل وبرهان على الإيمان الراسخ لتحقيق رضوان الله. ومن هنا نقول إن الإنفاق من الممتلكات المحببة إلى النفس، يعد تحريراً للنفس من الأنانية والشح، وتربية لها على العطاء والبذل وهذا يعتمد على التطبيق والممارسة العملية التي تؤثر تأثيراً إيجابياً في النفوس، فتحملها على التأسي والاقتداء.

ومن الأمور التي تعين على الامتثال والرغبة في طاعة الله: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ، مَنْ كَانَ الله وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، ...»[(١)].

ثانياً- التربية بالترغيب:

من أساليب التربية الإسلامية الترغيب، ولقد استخدمه الرسول ﷺ لما له من أثر كبير في عملية التربية الإسلامية، ومن الشواهد التي تدل على ذلك في باب الإنفاق مما يحب ومن الجيد، «... قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ إنَّ اللَّهَ تَعَالَى أنْزَلَ عَلَيكَ: ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾[(٢)]، وَإنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إلَيَّ بَيْرُحَاءُ، وَإنَّهَا صَدَقَةٌ أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللَّهِ فَضَعْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللَّهُ...». فهذا ترغيب في الإنفاق من أحسن أموال العبد وأحبها إلى نفسه، والحض على فعل الخير والبر.

والنبي ﷺ يرغب ويربي الصحابة على الإنفاق والتصدق في سبيل الله، فقال ﷺ: «اليد العليا خير من اليد السفلى»[(٣)]، وقال ﷺ: «مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلاَّ مَلَكَانِ يَنْزِلاَنِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقاً خَلَفاً، وَيَقُولُ الآخَرُ: اللَّهُمَّ

---

(١) أخرجه البخاري ٦٩٤١، ومسلم ٤٣.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٩٢.

(٣) أخرجه البخاري ١٤٢٩، مسلم ١٠٣٣.

أَعْطِ مُمْسِكاً تَلَفاً»[١]، وقوله ﷺ: «مَنْ أَنْفَقَ نَفَقَةً فِي سَبِيلِ اللهِ كُتِبَتْ لَهُ بِسَبْعَمِائَةِ ضِعْفٍ»[٢].

وفي حديث الباب ترغيب وتربية لكل مسلم على البذل والإنفاق في أوجه الخير، ومواساة المسلمين بالمال وإعانتهم على مشكلات الحياة، وفي الحديث تربية على محاربة البخل والشح الذي كان سبباً في هلاك الأمم السابقة.

لذلك قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾[٣]، فالله عز وجل يربي الأمة على إنفاق الطيب لا يقبل إلا طيباً.

الإنفاق في سبيل الله ينبغي أن يكون من المال الطيب الذي يحبه الإنسان بالفطرة لأن الصدقة في المال الطيب هي التي يتقبلها الله تعالى من عباده ويثيبهم عليها الجنة بمنه وكرمه، وذلك أن المنفق آثر الله تعالى بالمال طلباً لمرضاته على نفسه وأهله كما فعل الأنصار مع المهاجرين فخلد القرآن ذكرهم، فقال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[٤][٥].

ثالثاً- من خصائص التربية الإسلامية: الموازنة بين الأمور:

من خصائص التربية الإسلامية التوازن حتى لا يطغى جانب على جانب، وفي حديث الباب أراد أبو طلحة رضي الله عنه أن يتصدق بأحب أمواله إليه -بيرحاء- إلا أن النبي ﷺ وجهه توجيهاً تربوياً سليماً حيث بيَّن له أن أولى الناس بالإحسان إليهم ذووا الأرحام وأولو القربى، فهذه تربية على الأولويات، وهذا ما ظهر من موقف أبي طلحة رضي الله عنه

---

(١) أخرجه البخاري ١٤٤٢، مسلم ١٠١٠.

(٢) النسائي ٤٩/٦، وقال الألباني: صحيح، صحيح الجامع برقم ٦١١٠، صحيح جامع الأصول ٤٩٤/٩.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٦٧.

(٤) سورة الحشر، الآية: ٩.

(٥) التربية الروحية والاجتماعية، د. أكرم العمري ص ٣٠٧.

وتوجيه النبي ﷺ له حيث قال له: «وَإِنِّي أَرَىٰ أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الأَقْرَبِينَ».

ونلاحظ من هذا التوجيه النبوي التوازن بين الجهات التي يخرج لها المال الذي ينفق.

إن التربية النبوية اهتمت اهتماماً كبيراً بتحقيق التوازن بين الرغبة في الإنفاق بأحسن ما يملك الإنسان، وبين توجيه هذا الإنفاق التوجيه السليم، لذلك كان من أبرز مظاهر التوازن في المنهج الإسلامي التوازن بين الأقارب في العطايا والإنفاق، وأخيراً إذا لم يحدث توازن وموازنة في الإنفاق يحدث خلل في السلوك والتصرفات(١).

والتوازن من خصائص التربية الإسلامية وميزاتها التي لا توجد في تربية سواها حيث تركز مفاهيمها وممارساتها على المساس من الاعتدال والاستقامة وتقيم مجالاً واسعاً متوازياً للاختيار والبدائل المباحة تجاه السلوك الواحد، وبفضل المعايير الشرعية الدقيقة فيما يتعلق بأنماط السلوك فإنها تكون بعيدة عن التطرف والإغراب(٢).

رابعًا- من الأساليب التربوية: المناقشة والحوار:

هذا واضح من حوار النبي ﷺ مع أبي طلحة رضي الله عنه، والمناقشة والحوار من الأساليب التي يمكن للمعلم استخدامها في العملية التربوية، وفي هذا الأسلوب يتم تبادل الأفكار والآراء بين المتعلمين والمعلم بحرية، وذلك بغية توضيح بعض المفاهيم والموضوعات التي تحتاج إلى توضيح، وتمتاز بأنها توفر الفرصة للمتعلمين للتعبير عن أنفسهم.

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. الحازمي ص ٤٢٠، الشخصية ومنهج الإسلام في بنائها ورعايتها ص ١٣٥.

(٢) أصول التربية الإسلامية، د. أمين أبو لاوي ص ٣٨، ٣٩.

٣٨- باب وجوب أمره أهله وأولاده المميزين وسائر من في رعيته بطاعة الله تعالى، ونهيهم عن المخالفة وتاديبهم ومنعهم عن ارتكاب منهي عنه

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾[طه: ١٣٢]، وَقالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾[التحريم: ٦].

الحديث رقم (٢٩٨)

٢٩٨- عن أَبي هريرة رضي الله عنه، قَالَ: أخذ الحسن بن علي رضي الله عنهما تَمْرَةً مِنْ تَمْرِ الصَّدَقَةِ فَجَعَلَهَا في فِيهِ، فَقَالَ رَسُول الله صلى الله عليه وسلم: **((كَخْ كَخْ إرْمِ بِهَا، أمَا عَلِمْتَ أنَّا لا نَأكُلُ الصَّدَقَةَ!؟))** مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[1].

وفي رواية[2]: **((أنَّا لا تَحِلُّ لَنَا الصَّدَقَةُ))**. وقوله: "كِخْ كِخْ" يُقَالُ بإسْكَان الخَاء، ويُقَالُ بِكَسْرِهَا مَعَ التَّنْوين، وهي كلمة زَجْرٍ للصبي عن المُسْتَقْذَرَات، وكَان الحَسَنُ رضي الله عنه صبيًا.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

لقد عُني الإسلام بتربية الأبناء عناية فائقة، حيث أمر كل مسلم بضرورة الاهتمام بتنشئة ابنه تنشئة صحيحة في ظل الأصول والمفاهيم الأخلاقية التي أصَّلتها الشريعة، وفاضت بتعاليمها نصوص الكتاب والسنة النبوية، حتى ينشأ الطفل المسلم ووجدانه مشبع بأنفاس الحضارة الإسلامية وعبقها، وكيانه مهيأ لمعايشة واقع الحياة الإسلامية سلوكًا وتعليمًا، وتربية ومشاركة مسؤولة في ميادين الحياة.

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٩١)، ومسلم (١٦١/١٠٦٩) واللفظ له.

(٢) أخرجها مسلم عقب الحديث (١٦١/١٠٦٩، بدون رقم) من حديث وكيع عن شعبة.

وهذا الحديث دَرْس عملي في التربية الإسلامية، وما أعظمه من درْس !!!، وما أجمله من توجيه !!!، ولا عجب، فالمعلم هو نبي الرحمة، ورسول الهداية محمد بن عبدالله ﷺ، والذي يتلقى الدرس، وينهل هذا العلم وهو علم السلوك، هو حفيد رسول الله الحسن بن علي ابن بنت رسول الله، فاطمة الزهراء رضي الله عنهم، وهو كما تقول الروايات أشبه الناس برسول الله ﷺ ووردت في فضله وهو وأخوه الحسين: أحاديث كثيرة صحيحة.

وعلى الرغم من حب رسول الله للحسن، فإنه حرص على تعليمه وتلقينه هذا الدرس السلوكي الذي يغرس في نفسه -وهو ما زال في سن الطفولة- مبادئ العزة والعفة والكرامة، لأن اليد العليا خير من اليد السفلى -كما قال رسول الله ﷺ-.

وهذا المشهد المضيء من مشاهد السيرة النبوية، ومشاهد التربية الإسلامية. يقدم النموذج الأمثل في التربية الصحيحة، فالحسن بن علي رضي الله عنهما وهو لا يدري لأنه طفل- أخذ تمرة واحدة من تمر الصدقة، فجعلها في فيه، فلم يكتف الرسول ﷺ بنهيه عن تناول شيء بعد ذلك، ولكنه حرص على أن لا يأكل الحسن التمرة، وقال "كخ كخ" وهي عبارة تقال للاعتراض واستقذار الشيء، ولم يبلع الحسن التمرة وألقاها كما أمره رسول الله ﷺ، وهذا المشهد الجليل في أدائه الأسلوبي يتضمن عدة ظواهر أسلوبية وفنية، ومنها العطف بالفاء في قول الراوي: "فجعلها في فيه"، فقال رسول الله ﷺ "كخ كخ" وهذا العطف بالفاء يرشد إلى إسراع رسول الله ﷺ، وحرصه على عدم الوقوع في مثل هذا الصنيع، لأن التمر من الصدقات، وأهل البيت ليسوا من أهل الصدقة، لأنها للمحتاجين، ومصارف الصدقات معروفة.

وتكرار هذه العبارة "كخ كخ" مع إيقاعها الصوتي الذي يشبه الإنذار بالعقاب، والتأفف من هذا العمل: يدل على شدة حرص النبي ﷺ على التزام حفيده بتعاليم الإسلام، وسنة رسول الله ﷺ وأسلوب الأمر في قوله "ارم بها"، يعلن عن وجوب الالتزام بما يأمر به رسول الله ﷺ، واختيار مادة "رمى" يوحي باستهجان هذا الفعل، وللفعل "ارم"، دلالات وإيحاءات كثيرة: وهو أدق في التعبير من ألق، أو لا تأكل،

والاستفهام في قوله "أما علمت" يفصح عن إنكار الرسول عليه الصلاة والسلام للفعل الذي أقدم عليه حفيده الحسن بن علي رضي الله عنهما، وهو يحرص على تعليم الحسن ما يجب فعله، والتأكيد في قوله: "أنَّا لا نأكل الصدقة"، لإقناع الصبي، وإفهامه بأن الأمر جد، وأنه لا يحل له ولا لغيره من آل بيت رسول الله ﷺ الأكل من مال الصدقة، وصيغة المضارع المقترنة بالنفي في قوله "لا نأكل الصدقة"، يعلن عن استمرار هذا الحكم، وعدم انقطاعه، فهو حكم شرعي ثابت ومستمر، واللغة أفصحت عن طبيعة الحكم وعن المعنى المراد، والدرس المبتغى من هذا الحديث الشريف.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم فقهي خاص بآل النبي ﷺ وهو أنه لا يحل لهم الأخذ من أموال الزكاة والصدقات، لأنها غسول الناس، وذلك لا يليق ببيته ﷺ لمكانتهم العالية.

وقد اتفق الفقهاء[1] على أنه لا يجوز صرف الزكاة إلى أحد من آل النبي ﷺ ولا لأحد من آله من بني هاشم وهم آل العباس بن عبدالمطلب، وآل أبي طالب بن عبدالمطلب، وآل الحارث بن عبدالمطلب، وآل أبي لهب بن عبدالمطلب، ولا يجوز لهاشمي أن يطلب الزكاة ولا أن يقبلها؛ لأنها أوساخ الناس، ويجوز لهم الأخذ من صدقة التطوع لما روي في ذلك من آثار تؤيده، وقد أبدلهم الله عن أموال الزكاة بخُمْس الغنيمة نفقة لهم.

---

(١) انظر في ذلك تفصيلاً: المبسوط ١٢/٣، وأحكام القرآن، الجصاص ١٩٢/٣ وما بعدها، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ٣٢٥/٧، وأحكام القرآن، ابن العربي، تحقيق: علي محمد البجاوي ٥٣٩/٢، والأم ٨٨/٢، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢١٩/٦، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين عبدالرحيم بن الحسن، ٣٤/٤، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٢٩١/٢، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢٧٤/٢، ومطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، مصطفى السيوطي ١٥٦/٢.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الزجر والإخبار.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: تحريم الصدقة عليه ﷺ وعلى آل بيته.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: تعاهد الأولاد بالتربية على أخلاق الإسلام.

أولاً- من أساليب الدعوة: الزجر والإخبار:

قد ورد أسلوب الزجر في الحديث في قوله ﷺ: "كخ كخ"، والزجر من الأساليب الدعوية التي تعين الداعية على توجيه المدعو وإرشاده إلى اجتناب ما نهي عنه، وهذا ما بيّنه النووي في قوله ﷺ: "كخ كخ"، فقال: (هي كلمة زجر للصبي عن المستقذرات وكان الحسن رضي الله عنه صبيًا)(١)، وقد ورد الإخبار في الحديث في قوله ﷺ: "أما علمت أنا لا نأكل الصدقة"، حيث أعلم النبي ﷺ أنه هو وآل بيته رضوان الله عليهم لا يأكلون الصدقة.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: تحريم الصدقة عليه ﷺ وعلى آل بيته:

هذا ما أشار إليه الحديث في قوله ﷺ "أما علمت أنا لا نأكل الصدقة" (وقد اختص النبي ﷺ بكثير من الخصائص والأحكام دون أمته تكريمًا له وتبجيلاً)(٢)، ومن هذه الخصائص تحريم الصدقة عليه ﷺ وعلى آل بيته، وفي ذلك قال ﷺ ((إِنَّ الصَّدَقَةَ لاَ تَنْبَغِي لآلِ مُحَمَّدٍ. إِنَّما هِيَ أَوْسَاخُ النَّاسِ))(٣).

قال النووي: (وفي الحديث دليل على أنها محرمة، سواء كانت بسبب العمل أو بسبب الفقر والمسكنة وغيرهما...، وفي قوله ﷺ: "إنما هي أوساخ الناس"، تنبيه على العلة في تحريمها على بني هاشم وبني المطلب، وأنها لكرامتهم وتنزيههم عن الأوساخ، ومعنى أوساخ الناس، أنها تطهير لأموالهم ونفوسهم قال تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً

---

(١) رياض الصالحين النووي ص ١٦٥..

(٢) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ٥٠٣/١.

(٣) أخرجه مسلم ١٦٨/١٠٧٢.

تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾(١)، وفي تأكيد ذلك، أخبر أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يَأْكُلُ الْهَدِيَّةَ وَلاَ يَأْكُلُ الصَّدَقَةَ، وذلك في قوله رضي الله عنه: ((كان رسولُ الله ﷺ إذا أتي بطعامٍ سأل عنه: أهديةٌ أم صدَقةٌ؟ فإن قيل صدقةٌ قال لأصحابه: كلوا، ولم يأكل. وإن قيلَ: هديةٌ، ضَرَبَ بيدِهِ ﷺ فأكلَ معَهم))(٢).

قال ابن هبيرة: (في هذا الحديث من الفقه: أن الله عز وجل صان رسوله ﷺ عن أكل الصدقة، وأذن له في الهدية من أجل أن الهدية مع نية المكافأة، وكان رسول الله ﷺ يثيب على الهدية إذا قبلها. فأما الصدقة: فإنما يطلب منها ثواب الآخرة؛ لعجز الفقير أن يجازي عليها فيكون ذليلاً للمتصدق، والرسول ﷺ منزه عن ذلك)(٣).

(وفي دخول الآل في ذلك التحريم، فإنهم دخلوا تبعًا لانتسابهم إليه ﷺ وتشريفهم بذلك)(٤).

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: تعاهد الأولاد بالتربية على أخلاق الإسلام:

إن تربية الأبناء على المبادئ الإسلامية أمر مهم وضروري، والإسلام لا يقوم إلا بالرجال الذين تربوا على أخلاقه وفضائله، لذا كان جيل الصحابة رضي الله عنهم الذين رباهم محمد ﷺ أفضل الخلق بعد الأنبياء عليهم السلام، لذا حثّ الإسلام وحضّ على تنشئة الطفل تنشئة إسلامية تقوم على فعل الواجبات، وترك المنهيات والابتعاد عنها.

وفي هذا الحديث صورة من صور التربية الإسلامية المشرقة، فقد نهى النبي ﷺ الحسن رضي الله عنه عن أكل هذه التمرة لأنها من الصدقة التي لا تحل لمحمد ﷺ وآله، وفي هذا درس بليغ للمربيين والآباء، أن يتعاهدوا الصبي بالتربية، ولا يتركونه يفعل ما فيه مخالفة لآداب الإسلام وأخلاقه، بحجة أنه ما زال صغيرًا، وأن التوجيه سيأتي في وقته بعد أن يتجاوز مرحلة الصبا، فهذا خطأ كبير لم يقع فيه المسلمون الأوائل، فلم يترك

---

(١) سورة التوبة، آية: ١٠٣.

(٢) أخرجه البخاري ٢٤٣٧، ومسلم ١٠٧٧.

(٣) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٧/ ٢٣٠.

(٤) موسوعة نضرة النعيم ١/ ٥٠٤.

النبي ﷺ الحسن رضي الله عنه دون توجيه وإرشاد مع كونه صغيرًا، بل تعاهده ﷺ وزجره عما أكل ما لا يحل له.

ومن هذا المنطلق أمر الإسلام بتعليم الصبيان الصلاة من سن سبع وضربهم عليها من سن عشر، وذلك حتى ينشأ على حب الصلاة، والعناية والاهتمام بها، والمحافظة عليها، قال ﷺ: ((مُرُوا الصَّبِيَّ بالصَّلاَةِ إذَا بَلَغَ سَبْعَ سِنِينَ، وَإذَا بَلَغَ عَشْرَ سِنِينَ فَاضْرِبُوهُ عَلَيْهَا))(١).

قال الفقهاء: "وهكذا في الصوم؛ ليكون ذلك تمرينًا له على العبادة، لكي يبلغ وهو مستمر على العبادة والطاعة ومجانبة المعصية وترك المنكر"(٢).

ولا يتعلق الأمر بأركان الإسلام وقواعده فحسب، بل يشمل أيضًا كل ما من شأنه أن يُخرج الصبي وقد اكتمل بناؤه الأخلاقي، بحيث يكون فاعلاً للخير تاركا للشر مما يبعده عما يؤدي به إلى الدخول في النار، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾(٣).

قال ابن كثير: (إنه حق على المسلم أن يعلم أهله من قرابته وإمائه وعبيده، ما فرض الله عليهم، وما نهاهم عنه)(٤).

---

(١) أخرجه أبو داود ٤٩٤، وقال الألباني: حديث حسن صحيح، (صحيح سنن أبي داود ٤٦٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٦٧/٨.

(٣) سورة التحريم، آية: ٦.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١٦٧/٨.

الحديث رقم (٢٩٩)

٢٩٩- وعن أَبي حفص عمر بن أَبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد ربيبِ رَسُول الله ﷺ، قَالَ: كُنْتُ غلامًا في حجر رَسُول الله ﷺ وَكَانَتْ يَدي تَطِيشُ في الصَّحْفَةِ، فَقَالَ لي رَسُول الله ﷺ: ((يَا غُلامُ، سَمِّ الله تَعَالَى، وَكُلْ بيَمِينكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ)) فَمَا زَالَتْ تِلْكَ طِعْمَتِي -بَعْدُ-. مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[١]. "وَتَطِيشُ" تدُورُ في نَواحِي الصَّحْفَة.

ترجمة الراوي:

عمر بن أبي سلمة: هو عمر بن أبي سلمة عبدالله بن عبد الأسد القرشي المخزومي، كنيته: أبو حفص، وهو ربيب رسول الله ﷺ، فأمه أم سلمة تزوجها النبي ﷺ بعد موت أبيه، وكان النبي ﷺ عمه من الرضاع، أسلم أبوه وكان من السباقين إلى الإسلام، وهاجر أبوه وأمه إلى الحبشة فارِّين بدينهما من أذى قريش، حيث ولد هناك قبل السنة الثانية من الهجرة، ثم هاجر أبواه إلى المدينة حيث شهد أبوه بدرًا وأُحُدًا وجرح فمات من جرحه. فتزوج النبي ﷺ أم سلمة وهو الذي زوجها به ﷺ وهو صبي[٢] وعلّمه النبي ﷺ أدب الأكل لما كان يأكل معه، فحفظه عنه ﷺ كما في الحديث المذكور.

ولما كانت غزوة الخندق جعل -وكان صغيرًا- هو وعبدالله من الزبير مع النسوة في أُطَم حسان بن ثابت[٣]، فكان يطأطئ لابن الزبير فينظر، وابن الزبير يطأطئ له فينظر.

ولما وقعت الفتنة قاتل مع علي بن أبي طالب، فشهد موقعة الجمل، واستعمله عليٌّ على فارس والبحرين، وتوفي بالمدينة ٨٣ هـ في خلافة عبدالملك بن مروان[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٣٧٦) واللفظ له، ومسلم (٢٠٢٢/١٠٨). وسيكرره المؤلف برقم (٧٤٠).

(٢) أخرجه النسائي (٨١/٦) وقال محققو السير: إسناده صحيح.

(٣) الأُطم: بناء مرتفع كالحصن. النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (أ ط م).

(٤) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٤٨٠، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (١٦٩/٤) والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ٩٥١، والسير (٤٠٦/٣)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين (٣٥٤/٥)، والتهذيب (٢٣٠/٣).

غريب الألفاظ:

ربيب: الربيب: ولد امرأة الرجل من غيره(١).

في حجر رسول الله ﷺ: أي كنفه وحمايته ﷺ(٢).

تطيش: تتحرك وتمتد إلى نواحي الصحفة(٣).

الصحفة: وعاء كبير مبسوط للطعام(٤).

الشرح الأدبي

يقدم الراوي الصحابي الجليل، عمر بن أبي سلمة رضي الله عنهما هذا الحديث في قالب الحكاية الواقعية، حتى يشوق القارئ والسامع، وهو يحكي مشهدًا من مشاهد حياته الكريمة في كنف رسول الله ﷺ وما أجمل هذا الوصف الذي وصف به: إنه ربيب رسول الله ﷺ، أي ولد زوجته أم سلمة، وعندما مات أبو سلمة تزوج رسول الله ﷺ أم سلمة، وضم أبناءها إليه ليرعاهم، وما أجلها من رعاية، وقد كنى عن جمال هذه الرعاية النبوية عمر بن سلمة حين قال: "كنت غلامًا في حجر رسول الله"، أي في تربيته وتحت نظره، وأنه يربيه في حضنه تربية ولده، وقال عياض: الحجر يطلق على الحضن وعلى الثوب فيجوز فيه الفتح والكسر ، وإذا أريد به الحضانة فبالفتح لاغير، وحضن الإنسان ما دون إبطه إلى الكشح، ثم قالوا: في حجر فلان أي في كنفه وحمايته، ومنه قوله تعالى: ﴿وَرَبَـٰٓئِبُكُمُ ٱلَّـٰتِى فِى حُجُورِكُم﴾(٥).

ويحكي عمر بن أبي سلمة هذه الواقعة التي حدثت وهو دون التاسعة، ومما يفصح عن صيغة الحكاية، تكرار الفعل كان في قوله: "كنت غلامًا وكانت يدي تطيش

---

(١) الوسيط في (ر ب ب).

(٢) المصباح المنير في (ك ن ف).

(٣) رياض الصالحين ١٦٦، ٣١٧.

(٤) معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ص ٢٤٢.

(٥) سورة النساء، آية: ٢٣ .

في الصحفة فقال لي رسول الله ﷺ..." وتحديد صغر السن يفصح عنه قوله: "كنت غلامًا" لأن كل مرحلة من عمر الإنسان لها عند العرب مسمى: ومنها الصديغ: وهو المولود الذي لم يتم سبعة أيام، والدارج: وهو الذي أخذ يدب ويحاول المشي، والمثغور: وهو الذي سقطت رواضعه، والغلام: وهو يطلق على الطفل منذ فطامه إلى أن يبلغ السابعة.

فتأمل هذه التوجيهات السلوكية الحضارية، التي يأمر بها رسول الله ﷺ هذا الغلام وهو في السابعة أو دون التاسعة، وهي أوامر تربوية تصلح من سلوك الطفل: حيث كانت يده تطيش في قصعة الطعام، أي تتحرك وتمتد في جوانب الإناء، ولا تقتصر على موضع واحد، واختيار مادة الطيش في قوله "تطيش" له إيحاءاته المتعددة التي تدل على عدم الروية، وعدم التعقب، وفقدان النظام، وعدم الالتزام بآداب الطعام، وقال: الطيبي: الأصل: أطيش بيدي، فأسند الطيش إلى يده مبالغة في أنه لم يراع أدب الأكل، وتأتي توجيهات رسول الله ﷺ في بيان بليغ فيه مراعاة لمقتضى الحال، وفيه استمالة لقلب الصبي وترغيب له، حيث لم يقل له: لا تفعل كذا، ولم يزجره في عنف، بل ناداه في حنو ورفق بقوله: "ياغلام" حتى ينتبه إثر ذلك النداء، وعدم تحديد اسمه والعدول عن الاسم إلى هذه الصفة، يوحي بأن هذه التوجيهات لكل من هم في سنه من أبناء المسلمين: حيث ينشأون في ظل آداب السلوك الإسلامي، والتوجيه النبوي، وقوله: "سم الله تعالى" أي قل قبل بدء الأكل: بسم الله الرحمن الرحيم، وقيل إن الحكمة من التسمية: لطرد الشيطان ومنعه من المشاركة في الطعام، وأيضًا لأن التسمية تجلب البركة وتدعو إلى القناعة وعدم الشره، وتعين على البعد عن الحرام والمكروه فيما يؤكل؛ والأمر الثاني وهو "كل بيمينك"، والحكمة في الأكل والشرب باليمين: أنها في الغالب أقوى من الشمال وأمكن منها، وأنها مشتقة من اليمن بمعنى البركة، فهي وما نسب إليها وما اشتق منها محمود لغة وشرعًا ودينا، والأمر الثالث، "كل مما يليك"، وهو سبب ورود الحديث: ولكن التوجيهين السابقين لازمان للكبار والصغار، وهما من سمات شخصية المسلم في طعامه، ويستجيب الغلام استجابة عملية، ويعطي

القدوة الحسنة لكل طفل مسلم يتلقى التوجيهات التربوية المفيدة السديدة، فيقول: "فما زالت تلك طعمتي بعد" عملاً بقول رسول الله ﷺ.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى آداب الطعام والشراب، وحكم التسمية قبل الطعام والأكل باليد اليمنى، وقد سبق الكلام عن ذلك في الحديثين ١٥٩، ١٦٤.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النداء، والأمر.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: آداب الطعام.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: تربية الأولاد على آداب الإسلام.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: الاستجابة لتوجيهات النبي ﷺ.

أولاً- من أساليب الدعوة: النداء، والأمر:

ورد النداء كأسلوب دعوي في الحديث من قوله ﷺ: "يا غلام"، والنداء من الأساليب الدعوية المهمة التي تعين الداعية على لفت انتباه المدعوين واستحضار أذهانهم، أما أسلوب الأمر فقد ورد في الحديث من قوله ﷺ: (سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك)، والأمر من الأساليب الدعوية التي يستعين بها الداعية على حمل المدعو وتوجيهه إلى فعل الأمر المدعو إليه.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: آداب الطعام:

هذا ما ظهر في نص الحديث في قوله ﷺ: "سمِّ الله تعالى، وكل بيمينك، وكل مما يليك" قال ابن عثيمين: (إن هناك ثلاثة آداب علمها النبي ﷺ للغلام وهي: أولاً: قال: "سم الله" وهذا عند الأكل، ولا يحل له أن يتركها؛ لأنه إذا تركها شاركه الشيطان في أكله، والأدب الثاني: قوله ﷺ: "وكل بيمينك": فيجب على الإنسان أن يأكل بيمينه، وأن يشرب بيمينه، وفي ذلك قال ﷺ: ((إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَأْكُلْ بِيَمِينِهِ. وَإِذَا شَرِبَ فَلْيَشْرَبْ بِيَمِينِهِ. فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ وَيَشْرَبُ بِشِمَالِهِ))[1]،

---

(١) أخرجه مسلم ٢٠٢٠.

والأدب الثالث قوله ﷺ: "وكل مما يليك" يعني لا تأكل من حافة غيرك، بل كل من الذي يليك؛ لأنك إذا اعتديت على حافة غيرك فهذا سوء أدب)[١]، وفي ذلك بيان على آداب الطعام في الإسلام.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: تربية الأولاد على آداب الإسلام:

لقد حرص النبي ﷺ على بيان أهمية تربية الأولاد على آداب الإسلام، من خلال توجيهه ﷺ لهذا الغلام الذي كانت يده تطيش في الصحفة، وهذا ما ظهر من سياق الحديث، وقد أمر الحق تبارك وتعالى بأهمية تربية الأهل وتأديبهم بأدب الإسلام فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ﴾[٢].

قال القرطبي: (على الرجل أن يصلح نفسه بالطاعة، ويصلح أهله إصلاح الراعي والرعية. ففيه صحيح الحديث أن النبي ﷺ قال: ((كلُّكم راعٍ، وَكلكم مَسؤولٌ عن رَعيَّتِهِ: الإمامُ راعٍ وَمَسؤولٌ عن رَعيَّتهِ، والرَّجُلُ راعٍ في أهلهِ وَهوَ مَسؤولٌ عن رعيَّتهِ))[٣]. وقال بعض العلماء لما قال تعالى: "و أنفسكم"دخل فيه الأولاد؛ لأن الولد بعض منه، فيعلّمه الحلال والحرام، ويجنّبه المعاصي والآثام، إلى غير ذلك من الأحكام)[٤]، وفي ذلك بيان على أهمية تربية الأولاد على آداب الإسلام.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: الاستجابة لتوجيهات النبي ﷺ:

يظهر ذلك في الحديث من قول الراوي "فما زالت تلك طعمتي بعد" أي: (صفة أكلي بعد ذلك الأمر)[٥]، وفي ذلك طاعة لله ولرسوله كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ﴾[٦]، قال ابن كثير: (يأمر تعالى عباده

---

(١) شرح رياض الصالحين ١/٦٨٤-٦٨٥.

(٢) سورة التحريم، آية: ٦.

(٣) أخرجه البخاري ٢٧٥١، ومسلم ١٨٢٩.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٨/١٩/١٩٥.

(٥) شرح رياض الصالحين ١/٦٨٣.

(٦) سورة الأنفال، آية: ٢٠.

المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله، ويزجرهم عن مخالفته، والتشبه بالكافرين والمعاندين له؛ ولهذا قال: "ولا تولوا عنه"، أي: تتركوا طاعته وامتثال أوامره وترك زواجره، "وأنتم تسمعون"، أي: بعد ما علمتهم ما دعاكم إليه)[(١)].

وفي الاستجابة لتوجيهاته ﷺ عظيم الأجر كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾[(٢)].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣٢/٤.

(٢) سورة الشورى، آية: ٢٦.

الحديث رقم (٣٠٠)

٣٠٠- وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قَالَ: سمعت رَسُول الله ﷺ، يقول: ((كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ: الإمَامُ رَاعٍ وَمَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، والرَّجُلُ رَاعٍ في أهْلِهِ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالمَرْأةُ رَاعِيَةٌ في بيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْؤُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالخَادِمُ رَاعٍ في مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ)) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

الشرح الأدبي والمضامين الدعوية[2]

(١) أخرجه البخاري واللفظ له (٨٩٣)، ومسلم (١٨٢٩/٢٠)، وقد تقدم مختصرا برقم (٢٨٣). وسيكرره المؤلف برقم (٦٥٣). أورده المنذري في ترغيبه (٢٨٧٥).

(٢) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (٢٨٣) مع اختلاف يسير واختصار في بعض ألفاظ الحديث المشار إليه.

الحديث رقم (٣٠١)

٣٠١- وعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: ((مُرُوا أوْلادَكُمْ بِالصَّلاةِ وَهُمْ أبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا، وَهُمْ أبْنَاءُ عَشْرٍ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي المضَاجِعِ)) حديث حسن رواه أَبُو داود[1]، بإسناد حسن.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمرو بن العاص: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٣٨).

غريب الألفاظ:

المضاجع: المفرد: المضجع، أماكن النوم[2].

الشرح الأدبي

الصلاة أهم الأعمال اليومية التي يؤديها المسلم فهي التي تنظم وقته، وسلوكه، وعلاقته بربه، والناس جميعاً، وتضبط إيقاع حياته، لذلك حرص الرسول ﷺ على أن يربِّى عليها الطفل بطريقة تجعلها جزءًا من حياته اليومية حتى إذا شبَّ عليها لم يتركها بعد، وغَرسُ قيمةٍ معينة من القيم في نفس الطفل يحتاج إلى حكمة، وفطنة لذلك جاء التوجيه النبوي في صورة إنشائية بالأمر المباشر للآباء مسنداً إلى ضمير الجماعة الذي يجعل الجميع معنيين بتنفيذ أمر الرسول ﷺ (مروا... واضربوهم.... وفرقوا بينهم) وأسلوب الأمر الأول طلب توجيه الصغار إلى أداء الصلاة ومتابعتهم ترغيباً دون ترهيب حتى يأتونها بمحبة تحقق غرضها، وهذا أمر يحتاج لصبر، ومتابعة، لذلك قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾[طه: ١٣٢] فأمر بالصبر عليها بل بالاصطبار، وهو تكلف الصبر، والمجاهدة في ذلك فخير للإنسان أن يتحمل العناء في ذلك حتى يستقيم له الأمر بدلا من أن يرى

---

(١) برقم (٤٩٥).

(٢) الوسيط في (ض ج ع).

ابنه تحرقه النار، وهو أمر لا قوة لوالد عليه، لذلك جاء الأمر بالضرب من الرسول ﷺ وهو أرحم الناس حتى على الحيوانات، لكن الضرب ضرب تخويف في فترة محددة يمنع عذاباً النار الطويل، لأنه إن لم يعتدها في هذه الفترة شق عليه التزامها بعد ذلك ثم جاء الأمر بالتفريق بينهم في المضاجع، رعاية لحال الصغار في هذه المرحلة، وحماية من عبث الشيطان، ولأنه مقبل على مرحلة يحتاج فيها إلى شيء من الخصوصية.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكمين فقهيين:

الأول: حكم صلاة الصبي وأمر الولي له بها، وقد ذكر الفقهاء[١] أنه يجب على الولي أن يأمر الصبي بالصلاة وهو ابن سبع سنين، وأن يضربه عليها متى بلغ عشر سنين، وإن كانت الصلاة غير واجبة على الصبي، فهو مأمور بها على وجه التأديب والتعليم.

الثاني: حكم التفريق بين الأولاد في المضاجع، وقد ذهب جمهور الفقهاء[٢] إلى أنه

---

(١) تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ٣٥٧/١، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود شرح الطيبي ١٤٣/١، وأحكام القرآن، الجصاص ٥٥٢/١، والمدونة ١٩١/١، وشرح الخرشي على مختصر العدوي ٢٢١/١، وحاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني، الشيخ علي بن أحمد العدوي ٤٠/١ وما بعدها، وقواعد الأحكام في مصالح الأنام، العز بن عبدالسلام ١٢١/١، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٧/٣ وما بعدها، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٣٥٧/١، والفروع، ابن مفلح ١٨/٢، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٩/٢.

(٢) رد المحتار على الدر المختار المسمى بـ "حاشية ابن عابدين"، محمد أمين بن عمر عابدين، تحقيق: علي محمد معوض ٣٨٢/٦، وأحكام القرآن، الجصاص ٤٦٤/٣، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ٢١٨/١، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ١١٣/٣، والغرر البهية في شرح البهجة الوردية، القاضي أبو يحيى الأنصاري ١٠٠/٤، والفروع، ابن مفلح ٢٠٠/٢، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٢٠٢/٣، والآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ٥٣٩/٣، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ١٧/٥، ومطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، مصطفى السيوطي ٢١/٥، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، الشوكاني ٣٦٩/١.

إذا بلغ الأولاد عشر سنين سواء أكانوا ذكورًا أم إناثًا، أو ذكورًا وإناثًا، فرق وليهم بينهم في المضاجع، متى أمكن ذلك، بأن يجعل لكل واحد فراشًا مستقلاً، وقيل إن هذا التفريق مستحب، ويكره عدم التفريق، وكذا يجب عليهم تعليم أولادهم ألا يتجرد أحدهما أمام الآخر، ولا يتجردا أمام والديهما بعد هذه السن.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الأمر.

ثانيًا: من أصناف المدعوين: الآباء والأبناء.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: تعليم الأولاد الصلاة والتفريق بينهم في المضاجع.

رابعًا: من واجبات الداعية: تذكير المدعوين بما يجب عليهم نحو أولادهم.

أولاً- من أساليب الدعوة: الأمر:

من أساليب الدعوة التي تظهر في هذا الحديث أسلوب الأمر، وقد استخدمه رسول الله ﷺ في أكثر من موضع هي: "مُروا أولادكم... واضربوهم... وفرقوا..."، "وعلموا الصبي... واضربوه..."، وأسلوب الأمر من أساليب الدعوة المهمة التي يستطيع الداعية من خلالها حث المدعوين على الامتثال لهذه الأوامر التي يخبرهم بها، ويشعر المدعوين بأهمية الأمر بالصلاة، ومتابعة الأولاد في تلك المراحل العمرية.

وفي هذا الحديث يأمر النبي ﷺ الآباء بأمر أولادهم بالصلاة لسبع، وبضربهم عليها لعشر، وأن يفرقوا بينهم في المضاجع، ولا شك أن هذه الأوامر النبوية تفيد أهمية اهتمام الآباء برعاية أبنائهم، وتفقد أحوالهم.

ثانيًا- من أصناف المدعوين الآباء والأبناء:

من أصناف المدعوين في هذا الحديث الآباء والأبناء، وهذا يدل عليه قوله ﷺ: "مروا أولادكم..."، فالأمر موجه للآباء، والمراد من الأمر الأبناء، وهما صنفان مهمان من أصناف المدعوين.

أما الآباء: فإن من المعالم المهمة في التربية، أن يكون الأبوان قدوة حسنة لأبنائهما وبناتهما، قدوة في العبادة والسلوك والتعامل داخل المنزل وخارجه، فالصغير يرى في

أبويه المثال الذي يجب أن يحتذى به[1]، فمن أجل ذلك فالآباء في حاجة إلى من يبصرهم بأمور دينهم، ويرشدهم إلى واجبهم نحو أولادهم؛ لأن الدعوة تكون لهم ولأولادهم وبصلاح الآباء ينصلح إن شاء الله الأولاد.

أما الأبناء: وهم الذكور والإناث دون سن البلوغ، وفوق سن التمييز، وهم صنف في غاية الأهمية، لأنهم جيل المستقبل، والعناية بهم عناية بمستقبل المجتمع[2].

وقد اهتمت الشريعة الغراء بهم، حيث ذكرهم القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ...﴾[3].

وإذا تدبرنا الهدي النبوي فإننا نجد أن الرسول ﷺ كان شديد الاهتمام بالأطفال، فها هو يرى طفلاً يبكي لطيران عصفور من يده فخاطبه قائلاً: ((يا أبا عمير، ما فعلَ النُّغَير؟))[4]، وإذ بالطفل يفرح لحديث الرسول ﷺ معه وينسى العصفور، لينتبه للتسمية التي سمعها من الرسول ﷺ حين كناه بأبي عمير.

وفي محطة أخرى نجد المسلمين قد علقوا التمور في المسجد، ليأتي الأطفال إليها بهدف الأكل، وبهذا تتعود أقدامهم السير نحو المسجد والصلاة فيه[5] فينبغي تنشئة الأبناء على طاعة الله، وعلى حب الخير، والبعد عن المعاصي، والخوف من غضب الله عز وجل.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: تعليم الأولاد الصلاة والتفريق بينهم في المضاجع:

من موضوعات الدعوة التي تظهر من هذين الحديثين تعليم الأولاد الصلاة والتفريق بينهم في المضاجع، أما تعليم الصلاة فيدل عليه قوله ﷺ: (مروا أولادكم بالصلاة

---

(١) انظر: دروس في الحقوق الواجبة على المسلم، د. فالح بن محمد الصغير ص ١٥٩ - ١٦٢.

(٢) فقه الدعوة، د. بسام العموش ص ٧٠.

(٣) سورة طه، آية: ١٣٢.

(٤) أخرجه البخاري ٦١٢٩، ٦٢٠٣.

(٥) انظر: فقه الدعوة، د. بسام العموش ص ٧٢.

وهم أبناء سبع سنين)، وأما التفريق في المضاجع فيدل عليه قوله: (وفرقوا بينهم في المضاجع).

ومن ذلك يتضح أهمية تعليم الأولاد الصلاة وهم صغار عند بلوغ الصبي سن السابعة وهذه مرحلة من أهم المراحل التي اهتم الإسلام بها اهتمامًا خاصًا، إذ جعلها بداية تمرين الصغار على الطاعات العملية، فأمر رسول الله ﷺ بأمر الأولاد بالصلاة لعظم شأن الصلاة، وضرورة توجيه الصغير إليها مبكرًا، إذ إنها من الأعمال اليومية المستمرة التي لا تنقطع، وإذا تدرب عليها الصبي صارت مألوفة لديه، ثم إن الصلاة علامة قوية على حسن الصلة بالله سبحانه، فلهذه الأمور وغيرها أمر رسول الله ﷺ بها الصبي صغيرًا وقبل سن التكليف، فإذا أنعم الله سبحانه وتعالى عليه وحافظ عليها؛ كانت عونًا له ودافعًا للمحافظة على سائر العبادات.

أما التفريق بينهم في المضاجع، التفريق بين الأبناء والبنات عند بلوغهم سن العاشرة، لأن هذه السن قد يصل الابن أو البنت إلى سن البلوغ، وأخذ الحيطة فيما بين الأبناء والبنات أمر في غاية الأهمية، إذ أن الإسلام يحث المنتسبين إليه على الطهر والعفاف[(١)].

وقال الطيبي: "فإذا بلغوا عشرًا ضربوا على تركها، وفرقوا بين الأخ والأخت مثلاً في المضاجع، لئلا يقعوا فيما لا ينبغي، لأن بلوغ العشر مظنه الشهوة وإن كن أخوات"[(٢)].

يتضح مما سبق أهمية تعليم الأولاد الصلاة والتفريق بينهم في المضاجع، وإنما جمع رسول الله ﷺ بين الأمر بالصلاة، والتفريق بينهم في المضاجع في الطفولة، تأديبًا ومحافظة لأمر الله كله، لأن الصلاة أصلها وأسبقها، وتعليمًا لهم المعاشرة بين الخلق وأن لا يقفوا مواقف التهم، فيجتنبوا محارم الله كلها[(٣)].

رابعًا- من واجبات الداعية: تذكير المدعوين بما يجب عليهم نحو أولادهم:

إن من واجبات الداعية التي تستنبط من عموم الحديثين تذكير المدعوين بالواجب

---

(١) انظر: دروس في الحقوق الواجبة على المسلم، د. فالح بن محمد الصغير ص ١٥٧ - ١٥٩.

(٢) انظر: شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ١٥٥/٢.

(٣) المرجع السابق ١٥٥/٢.

عليهم نحو أولادهم، فقد ذكّر رسول الله ﷺ القائمين بتربية الأبناء بواجبهم نحوهم من أمرهم بالصلاة وتعليمهم لها.

فيجب على الداعية تذكير الآباء بواجبهم نحو أبناءهم، وهذا انطلاقًا من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾[1]، فيجب على الآباء تحري الوسائل المفيدة في التنشئة على الإيمان والتقوى.

كذلك من واجب المربي إحساسه بمسؤوليته، قال رسول الله ﷺ: ((كلُّكم راعٍ وكلُّكم مَسؤول عن رعيَّتِه))[2]، فيجب على الداعية التذكير بواجب ومسؤولية تربية الأولاد، لأن الآباء راعون ومسؤولون عن أبناءهم أمام الله عز وجل.

ولأن الأبناء هم امتداد الآباء في هذه الحياة، فإذا كان الأولاد صالحين، كانوا نافعين لآبائهم، مطيعين لهم، عاملين على رضاهم في الدنيا، ونافعين لهم بعد موتهم، قال رسول الله ﷺ: ((إذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إلاَّ مِنْ ثَلاَثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ))[3].

فإرشاد الآباء إلى تعليم أولادهم أمور دينهم، والتزامهم بها، فيه صلاح وخير لهم. فينبغي على الداعية إرشاد المدعوين إلى ما يصلحهم ويصلح ذريتهم.

(١) سورة التحريم، آية: ٦.

(٢) أخرجه البخاري ٨٩٣، ومسلم ١٨٢٩.

(٣) أخرجه مسلم ١٦٣١.

الحديث رقم (٣٠٢)

٣٠٢- وعن أَبي ثُرَيَّةَ سَبْرَةَ بن معبدٍ الجُهَنِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُول الله صلى الله عليه وسلم: ((**عَلِّمُوا الصَّبِيَّ الصَّلاةَ لِسَبْعِ**[1] **سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُ عَلَيْهَا ابْنَ عَشْرِ سِنِينَ**[2])) حديث حسنٌ، رواه أَبُو داود والترمذيُّ[3]، وَقالَ: (حديث حسن).

ولفظ أَبي داود[4]: ((**مُرُوا الصَّبِيَّ بِالصَّلاةِ إِذَا بَلَغَ سَبْعَ سِنِينَ**)).

ترجمة الراوي:

سبرة بن معبد الجهني: صحابي جليل نال شرف صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم واسمه سَبْرة بن مَعْبد بن عوسجة الجهني أو ثُرَيَّة بفتح المثلثة وضمها، ويقال أبو ثلجة، ويقال أبو الربيع المدني. كان حريصًا على ملازمة رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجهاد منذ أن أسلم فشهد غزوة الخندق وما بعدها.

نزل بالمدينة المنورة، واتخذ له دارًا في جهينة، ونزل ذا المروة في آخر عمره. وكان له باع في سياسة الأمور وإداراتها، فاعتمد عليه علي بن أبي طالب لما ولي الخلافة بالمدينة وبعثه رسولاً إلى معاوية يطلب منه بيعة أهل الشام.

توفي في خلافة معاوية، رضي الله عنه وأرضاه[5].

---

(١) في المطبوع من الجامع: (ابن سبع سنين).

(٢) (سنين) لا توجد عند الترمذي.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٩٤)، والترمذي (٤٠٧) وقال: حديث حسن صحيح. وصحّحه ابن خزيمة (١٠٠٢)، وقال الحاكم (٢٠١/١): حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرج واحد منهما هذا الحديث. وقال البيهقي في الخلافيات (مختصر الإشبيلي ٢٧/٢): إسناده صحيح.

(٤) برقم (٤٩٤).

(٥) الطبقات الكبرى، ابن سعد (٣٤٨/٤)، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر (٢٩٩)، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٤٠٦/٢)، الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي (٤٧١)، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين (١٠٨/٣)، تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٦٨٤/١)، السندي (٥٣/٢٤).

الشرح الأدبي

الحديث في معنى سابقه نفسه يشير إلى ضرورة تعهد الصغير بالصلاة حتى يعتادها في طفولته، ويشب عليها؛ فإن من شبَّ على شيء شاب عليه، وقد مضى في الحديث السابق تتابع الأوامر لجميع الكبار بتعهد الصغار عن طريق تعميم الأوامر على الفاعل وهم أولياء الأمر، وتعميمه على المفعول، وهم الصغار بعد سن السابعة، وقد جاء هذا الحديث بلفظ الأمر المتصل بواو الجماعة (علموا) حتى يتعاون على ذلك كل أفراد الأسرة الأب، والأم، والأخوة الكبار، وحتى الجيران، والأصدقاء، ولفظ: (الصبي) يحدد بمعناه الفترة العمرية المستهدفة بالأمر، واللام للجنس أي: كل طفل ذكراً كان، أو أنثى، و(ال) في الصلاة للعهد أى: المعهودة المعروفة، وهي الصلوات الخمس المفروضة، وقوله (لسبع سنين) فيه إيجاز بالحذف أي لبلوغه سبع سنين، وقوله: (واضربوه عليها) اتصال الفعل بواو الجماعة ينادي بضرورة تكاتف المجتمع كله على إقامة هذه الشعيرة، ثم إن الأمر بالضرب فيه دلالة على عدم التهاون فيها؛ لأن من أضاع حق الله، فهو لحقوق غيره أكثر تضييعاً، وتحديد العاشرة للضرب لأنه صار أكثر تمييزاً لما يجب عليه من حقوق، كما أنه يستطيع تحمله، كما أن هذه الفرصة الأخيرة لتعويده الصلاة قبل انتهاء هذه المرحلة التي يكون التعليم فيها أثبت.

المضامين الدعوية[1]

---

(١) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث (٣٠٢) مع المضامين الدعوية للحديث رقم (٣٠١).

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

المعارف تكتسب من طريق: المشاهدة، التقليد، التعليم، الحمل عليها بالجوائز، الحمل عليها بالإكراه. والمسلم مطالب أن يطبق هذه الوسائل في حياته، ليصل بأهله إلى ما يريده الإسلام. وقد بدأ التطبيق العمل في هدي الرسول ﷺ على النحول التالي:

أولاً- التربية بالتوجيه:

التربية بتوجيه الطفل من الأساليب التربوية المهمة التي تميزت بها التربية الإسلامية، لأن الاهتمام بتربية الطفل والعناية به هي حجر الأساس الذي يرتكز عليه بناء شخصية المستقبل وإعداده الإعداد المناسب لتحمل المسؤوليات.

وقد اهتم النبي ﷺ بتربية الأطفال، وأمر بتوجيههم التوجيه التربوي المناسب، وتعاهدهم بالنصح والإرشاد. فالرسول ﷺ قام بتوجيه الحسن رضي الله عنه بأسلوب تربوي متميز عندما أخذ تمرة من تمر الصدقة ... فقال ﷺ: «كِخْ كِخْ، إِرْمِ بِهَا...»، ثم بيّن له سبب أمره بإلقائها بقوله ﷺ: «أَمَا عَلِمْتَ أَنَّا لاَ نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ؟»، مما يؤكد على احترام النبي ﷺ لعقلية الحسن رضي الله عنه بذكره ﷺ العلة في أمره وتوجيهه له، وهذا ما يبرز تميز التربية الإسلامية، ويُعد زادًا تربويًا للقائمين على شؤون التربية، ينبههم على أهمية احترام عقلية الناشئة، ومراعاة جانب الإقناع في توجيههم من خلال بيان العلل المناسبة، وليس من خلال افعل ولا تفعل، أو اترك ولا تترك.

إن الطفل له عالمه الخاص به، ويفهم ويدرك ويميز، وربما أقدم على ترك شيء وبداخله الرغبة في فعله وسرعان ما يفعله ، لأنه لا يقتنع بالنهي المجرد، لكن حينما ينتبه المربي إلى أهمية بيان العلة في الفعل أو الترك بالأسلوب المناسب لإدراك الطفل وبطريقة تربوية سليمة، فإن ذلك يؤدي إلى نجاح عملية التربية والتهذيب للسلوك.

والتوجيه المباشر وسيلة من وسائل العادة التعليمية التطبيقية، وهو طلب المربي المباشر والصريح من طلابه القيام بعمل معين، وهو بمثابة ممارسة العمل للمتعلم أمام مربيه أو العكس قيام المربي بممارسة العمل أمام المتعلم ثم يتابعه المتعلم، ويتخلل ذلك

أحيانًا مناظرة من المعلم، يرافقها تصحيح لأخطائه، وذلك له وقع على النفس وتأثير في السلوك لأنه يرى النتائج أمامه ويعايشها في نفس اللحظة وهذا ما يذهب إليه المهتمون بالتربية[١].

ومن الأمور التربوية التي تجدر الإشارة إليها والتي ينبغي الإفادة منها في مجال التربية أن التوجيه النبوي للحسن رضي الله عنه تزامن مع وقوع الحدث مما يثبت ذلك النصح في ذهن المنصوح، وبالتالي ينشأ على تلك الخصائص الحميدة التي توجه إليه، وخاصة وأنها تعلقت بموقف معين، وأخيرًا نقول إن اغتنام المواقف في التوجيه التربوي من أفضل طرقها وأساليبها وأظهرها لأنها تعالج خللاً في الحال[٢].

ثانيًا- التربية على المحافظة على الصلاة:

من أهداف التربية الإسلامية: المحافظة على الصلاة والمواظبة عليها، ولقد دلت على ذلك أحاديث الباب وهي تحث على الصلاة، فقال ﷺ: «مُرُوا أَوْلَادَكُم بالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ ...»، وقال: «علِّموا الصَّبيَّ الصلاةَ ابنَ سبعٍ ...»، فهذه نماذج تربوية عبادية تحث المربي على تربية أطفاله على حب العبادة (الصلاة) مما له أهمية كبيرة في أداء المأمور به وعدم التهاون في أداء هذه العبادة لأن المحافظة على أداء الصلاة والمواظبة عليها تؤدي إلى استقامة السلوك، فالعلاقة بين العبادة وسلوك الإنسان علاقة وثيقة لأن أكثر الناس التزامًا بأداء العبادات على الوجه المشروع أقربهم للسمو الخلقي، وإن أقلهم عبادة أبعدهم عن الانضباط الخلقي، وهذا ما يؤكد العلاقة القوية بين العبادات وسلوك الإنسان مع نفسه ومع الآخرين.

ومن هنا جاءت التوجيهات التربوية النبوية بأمر الأطفال بالصلاة لسبع وتعويدهم على الالتزام وتنشئتهم على ذلك، حتى يتأتى الالتزام الخلقي والاستقامة في السلوك والرغبة في التعاون والترابط وذلك من خلال الاجتماع في الصلاة، كما أنها ترى في

---

(١) أساليب الدعوة والتربية، د. زياد العاني ص ٣١٧، أصول التربية الإسلامية، الحازمي، ٢٧٨، تربية الطفل في الإسلام، ١٦١.

(٢) أساليب الدعوة والتربية، د. زياد العاني ص ٣١٧، أصول التربية الإسلامية، الحازمي، ٢٧٨.

الطفل الفضائل من خلال انشراح الصدر وطمأنينة النفس، كما أن الصلاة تكون سببًا في ترك الفواحش والمنكرات[١].

وفريضة الصلاة هي الأساس والأصل الذي يتقرب به إلى الله تبارك وتعالى وهي من الأمور التي ينبغي أن يعني بها المربي وأن يحرص على تعظيمها والاعتناء بها لدى من يربيهم، واهتمام المربي بغرس قيمة هذه الفريضة والاعتناء بها، لا ينبغي أن يقف عند مجرد تأكيد الإتيان بها وفعلها بل الاعتناء بأدائها وإقامتها على الوجه الأكمل وإتقانها وإحسانها، وهذا يتأتى بتعليم أدابها وسننها وهدي الرسول ﷺ[٢].

ثالثًا- التربية على تحمل المسؤولية:

من أهداف التربية الإسلامية: التربية على تحمل المسؤولية ناحية الأسرة، لأن الأسرة هي منبت الطفل والقائمة على رعايته في بدء حياته فيجب على المربي رعاية هذه الأسرة: ومن الشواهد على ذلك في أحاديث الباب قوله ﷺ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، فَالإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْؤُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، ...». فهذه توجيهات تربوية نبوية تحمل الأبوين المسؤولية تجاه الأبناء والبنات، ومن يقومون على رعايتهم من أفراد الأسرة.

ويظهر من هذا النموذج التربوي أن كل فرد في المجتمع الإسلامي له رعية يرعاها بغض النظر عن موقعه سواء كان رجلاً أو امرأة مهما اختلفت الظروف والأحوال، فإنه مسؤول عن رعيته، والذي معنا هو الأب، فهو مسؤول عن تربية أولاده في شتى النواحي المادية والأخلاقية، والثقافية والعقلية والصحية، وغير ذلك، ومما يزيد هذه المسؤولية خطورة وأهمية تجاه الأب مع أولاده، قوله ﷺ: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللّهُ رَعِيَّةً، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ، إِلاَّ حَرَّمَ اللّه عَلَيْهِ الْجَنَّةَ»[٣].

---

(١) انظر: أصول التربية الإسلامية، الحازمي ص ١١٩، تربية الطفل في الإسلام، د. الحمد ص ٢٦٢، التربية الذاتية من الكتاب والسنة، د. هشام علي أحمد ص ٨٢.

(٢) تربية الشباب، "الأهداف والوسائل"، الدويش ص ٦٠.

(٣) أخرجه مسلم، ١/١٢٥.

وعليه فليتذكر المربون هذه المسؤولية المأخوذة من هذا التحذير لأن التبعة كبيرة والحساب عسير فليندفعوا تجاه هذه المسؤولية بدون ملل وتكون المراقبة من الله عليهم هي الوازع الداخلي المحرك لذلك[١].

لأن تحمل المسؤولية وإشراك الجميع فيها من شأنه أن يفجر لدى الجميع الإبداع والعمل الدؤوب المتواصل والحرص على كل ما هو نافع، ذلك أن إشراك الجميع في تحمل المسؤولية من شأنه أن يشعر كل فرد فيهم بأن عليه دورًا مهمًا يجب أن يحرص عليه بكل أمانة وهو يجد ذاته يزرع الثقة في نفوسهم ويجعلهم يندفعون ذاتيًا نحو العمل والإصلاح وتلافي الخطأ والانحراف ما دامت الأمور لم يستأثر بها دونهم، وفي ظل تحمل المسؤولية سيكون المجتمع أعظم قابلية للنمو والتجديد[٢].

رابعًا- التربية بالعقوبة:

من الوسائل التي أقرتها التربية الإسلامية التربية بالعقوبة: فقد أقر الإسلام هذه الوسيلة على اعتبار أنها زجر للمخالف، فعندما أراد النبي ﷺ تربية الصحابة على كيفية تربية أطفالهم على الصلاة بين لهم أهمية التوجيه بالتعليم والوعظ ثم بعد ذلك أسلوب العقوبة: فقال ﷺ: «عَلِّمُوا الصَّبِيَّ الصَّلاَةَ لِسَبْعِ سِنِينَ ، وَاضْرِبُوهُ عَلَيْهَا ابْنَ عَشْرٍ». ولذلك نتعلم من هذا النهج التربوي النبوي أن الشريعة أقرت مبدأ التربية بالعقوبة مع الأولاد، لكن ضمن ضوابط وحدود، لأن الناس يختلفون في طبائعهم ومذاهبهم الأخلاقية ومتفاوتون في استعدادهم للتأثر بالقدوة؛ لأن هذه الوسيلة قد لا تجدي لدى بعضهم، ومن هنا ينبغي أن يعامل كل طفل بالأسلوب والطريقة التي يستجيب لها. فمن أصر على عناده وفساده فلابد له من عقاب مادي يردعه، وهو في الوقت ذاته ينفعه، المهم أن يكون الغرض من العقاب هو إصلاح الناشئ، وتحسين سلوكه بطريقة واعية؛ لكن عقوبة الضرب لها شروط:

---

(١) انظر: التربية الذاتية من الكتاب والسنة، إعداد. هشام أحمد ص ٥٢، الأولاد وتربيتهم في ضوء الإسلام، د. محمد مقبل ص ٥١، تربية الطفل في الإسلام، د. محمد الحمد ٢١٠.

(٢) أساليب الدعوة والتربية، د. زياد العاني ص ٢٩٦.

١- ألا يلجأ المربي إلى الضرب إلا بعد استنفاذ جميع الوسائل التأديبية والزجرية.

٢- ألا يضرب وهو في حالة غضب.

٣- أن يتجنب الضرب في الأماكن المؤذية.

٤- أن نعطي الولد الفرصة للاعتذار.

٥- أن يقوم الأب بضرب الولد بنفسه، وبذلك يكون قد أعملنا وسيلة التربية بالعقوبة منزلتها(١).

وينبغي أن تكون العقوبة هي آخر وسيلة يلجأ إليها، إذ ينبغي أن يبدأ المربي بالتوجيه والإرشاد، فإذا لم ينفع ذلك يأتي التهديد والإنذار، وإذا لم يفد التهديد والتشنيع أيضًا عندئذ ينتقل إلى الضرب، ولا يضرب الأطفال بقسوة لأن الهدف من الضرب هو الإصلاح وليس التشفي والانتقام(٢).

خامسًا- التربية الوقائية:

لقد اهتمت التربية الإسلامية بقضية مهمة تتعلق بالغريزة الجنسية تلك القضية التي يغفل عنها الكثير من الآباء والأمهات بدعوة أن الأولاد صغار، ولا يعرفون هذا الأمر، أو بزعم أن أخلاقهم فاضلة، وغير ذلك من الأمور التي تتم عن جهل الآباء والأمهات بهذا الأمر الخطير، الذي لا يمكن إنكاره أو تجاهله تحت أي زعم لأن الرغبة الجنسية تبدأ في الظهور عند سن معين ولا يمكن إنكار ذلك في بداية المراهقة التي تكون مبكرة لدى فئات من الأبناء، ومن ثم عمد النبي ﷺ إلى التربية الوقائية التي تعمل على سد الذرائع المفضية إلى الفساد السلوكي الخطير التي قد تدمر البيوت والأسر، ومن هنا جاء الأمر النبوي بالتفريق بين الأطفال في المضاجع، لأن النبي ﷺ أراد تهذيب الأطفال خلقيًا وجنسيًا من خلال التفريق بينهم في المضاجع، إنها نظرة نبوية ثاقبة للوقاية من النتائج المتمخضة عن الغفلة أو التغافل عن هذا الأمر الخطير.

إن العلة في التفريق في المضاجع أنه في أيام المراهقة لا يستبعد أن تفضي المضاجعة إلى شهوة المجامعة، فلابد من سد سبيل الفساد قبل وقوعه، فهذه تربية على أن النوم في

---

(١) الأولاد وتربيتهم في ضوء الإسلام، محمد مقبل ص ١٥٥، تربية الطفل في الإسلام، د. الحمد ص ٢٢٥.

(٢) أساليب التربية الإسلامية في تربية الطفل، عبدالرحمن البابطين ص ٦٢، ٦٣.

فراش تحت لحاف واحد؛ يؤدي بالأطفال أن تنمو فيهم الغريزة الجنسية بسرعة متزايدة وأن تتأجج فلا تجد طريقًا لإنقاذها إلا ببعض مظاهر الانحراف، وكم تحدث تحت الفراش شذوذات لا يشعر بها الأبوان، فتكون سببًا في دمار هؤلاء الأطفال الأبرياء، الذين تساهل آباؤهم عن أحوالهم فوضعوهم في مخالفة أوامر النبي ﷺ في قوله: «وفرقوا» فالمؤمن يمتثل فيفرق، وأين التفريق، إنه في المضاجع، فيجب على الآباء تربية أبنائهم[1] تربية وقائية تعمل على حمايتهم من كافة صور الانحراف.

وهذه الوقاية نوع من أنواع التحصين للفرد من سلوكيات تحدث من بعض الأمور السلبية المستقبلية، أو الامتناع عن فعل ما من شأنه أن يفضي إلى مفسدة أكبر منه والإسلام استخدم هذا الأسلوب لمنع السلوكيات الخاطئة التي تؤدي بالفرد إلى الهلاك، وهذه التحذيرات قدمها الرسول ﷺ على هيئة نصائح وإرشادات تحمل في طياتها الخوف والإشفاق تجاه الفرد المسلم[2].

سادسًا- التربية بالملاحظة:

من أساليب التربية الإسلامية التربية بالملاحظة، وتعني ملاحظة النشء وملازمته في التكوين العقدي والأخلاقي ومراقبته وملاحظته في الإعداد النفسي والاجتماعي.

ومن الشواهد على ذلك في باب وجوب أمر أهله المميزين، ما ورد عن أبي حفص عمر بن أبي سلمه عبدالله بن الأسد ربيب رسول الله ﷺ قال: «كنت غلامًا في حجر رسول الله ﷺ، وكانت يدي تطيش في الصحفة، فقال لي رسول الله ﷺ: ياغلام...».

فهذا توجيه نبوي حض الرسول ﷺ الآباء والأمهات والمربين جميعًا أن يهتموا بملازمة أولادهم ومراقبة أفلاذ أكبادهم في كل ناحية من نواحي الحياة، وفي كل جانب من جوانب التربية الشاملة، وخاصة التربية على آداب الإسلام في الأكل والشرب

---

(١) الأولاد وتربيتهم في ضوء الإسلام، محمد مقبل ص ١٢٩، تربية الأبناء والبنات في ضوء الكتاب والسنة، خالد العك ص ٣٤٧، الموسوعة الأم في تربية الأولاد ص ٣٩٣.

(٢) أساليب الدعوة والتربية، د. زياد العاني ص ٢٥٦.

والنوم، ولاشك أن التربية بالملاحظة تعد من أقوى الوسائل في نمو الإنسان المتوازن المتكامل الذي يؤدي حقه في الحياة ويعرف ماله وما عليه، والصبيان الصغار لا يعرفون الصواب من الخطأ في كثير من أمور الحياة، كما أن علاقاتهم بالآخرين لا يحكمها نظام معين أو قيمة محددة، وقد ينحرف في خضم الحياة إلى تصرفات غير سوية، وعلاقات سيئة، من هنا فإن الطفل محتاج إلى مراقبة وملاحظة مستمرة في مراحل عمره وبخاصة في سنوات الطفولة، وتلك هي مسؤولية الوالدين، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾[1].

سابعًا- من الأساليب التربوية: الزجر والممارسة العملية والتربية بالمواقف والأحداث:

جاءت في هذه الأحاديث بعض الأساليب التربوية التي يستفاد منها في العملية التربوية، منها:

أ-الزجر، كما في قول النبي ﷺ للحسن بن علي رضي الله عنهما لما أخذ تمرة من تمر الصدقة-قال له: "كخ كخ إرم بها أما علمت أنا لا نأكل الصدقة" والزجر يستخدم في حال ارتكاب المتعلمين ما لا يجوز أو ما لا يليق، وهو من الأساليب التي تساعد على غرس القيم في نفوس المتعلمين وتتميز ببقاء وأثر التعليم.

ب-الممارسة العملية: كما في الحديث السابق، وهذا الأسلوب يمكن استخدامه في الجوانب التي تحتاج إلى الجانب العملي، وتحتاج إلى ربط المحسوس بالمجرد وتوضيح المعنى للمتعلمين.

ج-التربية بالمواقف والأحداث: كما في حديث عمر بن أبي سلمة رضي الله عنهما عندما كان يأكل وتطيش يده في الصحفة، فعلمه النبي ﷺ آداب الأكل. ومما لا شك فيه أن التربية بالمواقف تهدف إلى غرس المفاهيم والعادات الإيجابية في نفوس المتعلمين.

وهذا التنوع في الأساليب يفيد في توصيل الرسالة التربوية فضلاً عن أنه يراعي الفروق الفردية بين المتعلمين.

---

(١) سورة التحريم، آية: ٦.

٣٩- باب حق الجار والوصية به

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾[النساء: ٣٦].

الحديث رقم (٣٠٣)

٣٠٣- وعن ابن عمر[١]، وعائشة[٢] رضي الله عنهما، قالا: قَالَ رَسُول اللهِ ﷺ: **((مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ))** مُتَّفَقٌ عَلَيهِ.

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

الشرح الأدبي

الحديث أسلوبه خبري يتسم بالهدوء، والثقة، وقد تجرد من المؤكدات لأن المخاطب به خالي الذهن من الخبر، فهو موقف بين رسول الأرض ﷺ، وبين رسول السماء، والمعنى يتناول تعظيم حق الجار، وقد بدأه ﷺ بالفعل الماضي الذي يدل على الإلحاح الشديد (ما زال) وقد صعَّد معنى العناية بالجار نسبة الفعل إلى جبريل الذي هو الواسطة بين الله، وبين رسوله ﷺ، ثم الفعل المضارع الذي يستحضر صورة تعاهد جبريل للرسول ﷺ بالوصية بالجار، وقوله (الجار) يشمل المؤمن، والكافر، والقريب، والبعيد، وهو ما يجعل المجتمع المسلم ذا خصوصية في قوة اتصاله بما لا يعطي فرصة لتفتيته من الداخل، وقوله: (حتى) يدل على بلوغ الغاية التي وصلت إليها كثرة الوصايا في نفس رسول الله، والتي صورها الفعل (ظننت) ثم إن توكيد الجملة

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠١٥)، ومسلم واللفظ له (٢٦٢٥/١٤١). أورده المنذري في ترغيبه (٣٧٨١).

(٢) أخرجه البخاري واللفظ له (٦٠١٤)، ومسلم (٢٦٢٥/١٤٠). أورده المنذري في ترغيبه (٣٧٨١). تنبيه: الحديث جمعه المنذري في ترغيبه بين لفظي الحديثين، وتبعه عليه المؤلفُ.

بعده بأكثر من مؤكد يدفع وهم المبالغة في هذا الظن، وقوله: (سيورثه) اخْتُلِفَ فِي الْمُرَادِ بِهَذَا التَّوْرِيثِ فَقِيلَ يُجْعَلُ لَهُ مُشَارَكَةٌ فِي الْمَالِ بِفَرْضٍ سَهْمٍ يُعْطَاهُ مَعَ الأَقَارِبِ، وَقِيلَ الْمُرَادُ أَنْ يَنْزِلَ مَنْزِلَةَ مَنْ يَرِثُ بِالْبِرِّ، وَالصِّلَةِ، وَالأَوَّلُ أَظْهَرُ، وجملة الحديث تُعظّم حق الجار، وتنبه إلى العناية به، والترغيب في صلته.

فقه الحديث

لما كان الإسلام حريصًا على إقامة علاقات المودة والتراحم بين الناس، فقد اهتم بحقوق الجار وجعل لها مرتبة عالية، وحرمة الجار منصوص عليها في الكتاب والسنة ونصوص الفقه الإسلامي[(١)] وجاءت أحكام كثيرة في الفقه الإسلامي مراعية لذلك ومن هذه الأحكام مثلاً.

أن الجار يكره له التعلية في بيته إلى الحد الذي يؤذي جاره ويمنع عنه الهواء والشمس[(٢)]، وكذا يستحب عند إخراج الصدقات تعاهد الجيران وتقديمهم على غيرهم فيها، لأنهم أولى، ولا تخرج لغيرهم مع حاجتهم إليها[(٣)].

وذكر جمهور الفقهاء[(٤)] أنه يحرم على الجار أن يضع خشبة أو أن يتصرف أي تصرف بحائط جاره إلا بإذنه، لأنه لا يملكه، وكذا سائر الأملاك المشتركة، وإن كان من المستحب للجار أن يمكن جاره من الانتفاع بحائطه فيما لا يضره.

---

(١) أحكام القرآن، ابن العربي، تحقيق: علي محمد البجاوي ٥٤٦/١.

(٢) المدونة الكبرى رواية سحنون، الأصبحي ٣٢٠/٤.

(٣) الأم، الشافعي ٥/٢.

(٤) المبسوط، السرخسي ٩١/١٧، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود شرح الطيبي ٢٦٤/٦، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد المغربي ١٥٢/٥، وشرح منح الجليل ٣١٢/٦، وتحفة المحتاج ٢٠٩/٥، وحاشيتا قليوبي وعميرة ٣٩٤/٢، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٤٥٥/١٥١٣/٢، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٤١٠/٣، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ٢٦١/٥.

وجعل الحنفية[١] الشفعة للجار الملاصق على خلاف ما ذهب إليه جمهور الفقهاء.

بل وليس للرجل أن يتصرف في ملكه تصرفًا يضر بجاره[٢].

وغير ذلك من أحكام يصعب فيها الحصر.

المضامين الدعوية[٣]

أولاً: من أساليب الدعوة: البيان.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: عظم حق الجار.

ثالثًا: من أهداف الدعوة: تقوية العلاقة بين الجيران.

رابعًا: من أساليب الدعوة: التوكيد.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: فضل الإحسان إلى الجيران.

سادسًا: من أساليب الدعوة: القسم والتكرار.

سابعًا: من واجبات الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما يوثق الصلات بينهم.

ثامنًا: من موضوعات الدعوة: تحريم أذى الجيران.

أولاً- من أساليب الدعوة: البيان:

ورد البيان في هذه الأحاديث الثلاثة[٤] التي بيّن النبي ﷺ فيها حقوق الجار وعناية الإسلام بالعلاقة بين الجيران، وأهمية الإحسان فيما بينهم، وإن من الأمور التي تدل على قوة الإيمان في قلب المؤمن حسن علاقته بجيرانه، وأن إيذاء الجيران مؤشر خطير يدل على خلل في إيمان المرء، مما جعل النبي ﷺ يقول: "والله لا يؤمن وكررها قيل: من يا رسول الله، من لا يأمن جاره بوائقه".

---

(١) المبسوط ٩٣/١٤، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود شرح الطيبي ٤/٥ وما بعدها.

(٢) المغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٣٣٣/٤، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٤٠٨/٣، والتاج والإكليل شرح مختصر خليل، محمد المواق ١٣٦/٧، وحاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني، الشيخ علي بن أحمد العدوي ٣٥٩/٢ وما بعدها.

(٣) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -٣٠٣- مع مضامين الحديث رقم (٣٠٤، ٣٠٥).

(٤) الحديث رقم (٣٠٣)، (٣٠٤)، (٣٠٥).

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: عظم حق الجار:

إن من موضوعات الدعوة المستنبطة من هذه الأحاديث عظم حق الجار، يدل على ذلك قوله ﷺ "ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه" الحديث، وحديث أبي هريرة في قوله ﷺ "والله لا يؤمن..." قال النووي: (في هذه الأحاديث الوصية بالجار وبيان حقه)[1].

ومما يدل على عظم حق الجار قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾[2].

قال القرطبي: (أما الجار فقد أمر الله تعالى بحفظه والقيام بحقه، والوصاة برعي ذمته في كتابه وعلى لسان نبيه، ألا تراه سبحانه أكّد ذكره بعد الوالدين والأقربين فقال تعالى: "والجار ذي القربى" أي: القريب "والجار الجنب" أي الغريب قاله ابن عباس وكذلك في اللغة)[3].

وقال رسول الله ﷺ ((خَيْرُ الأَصْحَابِ عِنْدَ الله خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ، وَخَيرُ الجيرَانِ عِنْدَ الله خَيْرُهُمْ لِجَارِهِ))[4].

فحق الجار عظيم، من أجل ذلك كانت وصية الله ورسوله به، فينبغي على الداعية بيان عظم حق الجار للمدعوين.

ثالثًا- من أهداف الدعوة: تقوية العلاقة بين الجيران:

إن من أهداف الدعوة التي تستنبط من عموم هذه الأحاديث تقوية العلاقة بين الجيران، فالوصية بالجار وعمل الخير معه، يقوي علاقة المحبة والتعاون بين الجيران

---

(١) انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٦١.

(٢) سورة النساء، آية: ٣٦.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٣/٥/١٨٣.

(٤) أخرجه الترمذي ١٩٤٤، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٥٨٦).

ويؤكد على أهمية إشاعة الخير فيما بينهم وقد أوصى رسول الله ﷺ بكل ما يقوي هذه العلاقة الحميدة بين الجيران، فقال ﷺ ((لاَ يَمْنَعْ أَحَدُكُمْ جَارَهُ أَنْ يَغْرِزَ خَشَبَةً فِي جِدَارِهِ))[1].

فالحرص على تقوية العلاقة بين الجيران أمر مطلوب، من أجل إحساس بعضهم ببعض فقد قال ﷺ ((لَيْسَ الْمُؤْمِنُ الَّذِي يَبِيتُ شَبْعَانًا، وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ))[2].

فالإسلام يدعو إلى إعلان الأخوة والمحبة بين الجيران، ومحبة الخير لهم، قال رسول الله ﷺ ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُحِبَّ لِجَارِهِ "أَوْ قَالَ لأَخِيهِ" مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ))[3].

يتضح من ذلك أن من أهداف الدعوة تقوية العلاقة بين الجيران، وإشاعة روح الإيثار والمحبة والتعاون بينهم، من أجل المحافظة على الراحة والأمان فيما بينهم.

رابعًا- من أساليب الدعوة: التوكيد:

يظهر هذا في حديث أبي ذر رضي الله عنه في قوله: إن خليلي أوصاني...؛ حيث أكد وصية رسول الله ﷺ بالجار.

وأسلوب التوكيد من الأساليب الدعوية المهمة التي أفادت اهتمام الإسلام وتوصيته بحسن العلاقة بين الجيران، ودعم أواصر المودة والمحبة بينهم.

خامسًا- من موضوعات الدعوة: فضل الإحسان إلى الجيران:

إن من موضوعات الدعوة التي تستنبط من عموم الأحاديث فضل الإحسان للجيران فحديث ابن عمر وعائشة رضي الله عنهما أخبر النبي ﷺ فيهما عن وصية جبريل له بالجار، مما يؤكد على فضل الإحسان إلى الجار.

وحديث أبي ذر فيه الإحسان إلى الجار، فقد أمر رسول الله ﷺ أباذر إذا طبخ مرقة أن يكثر ماءها من أجل إعطاء جيرانه وهو من الإحسان المأمور به؛ فإكرام الجار والإحسان إليه علامة الإيمان.

---

(١) أخرجه البخاري ١٦٠٩، ومسلم ٢٤٦٣.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ١٦٦/٤، برقم ٧٣٨٧، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٣) أخرجه مسلم ٤٥.

فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ((مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلاَ يُؤْذِ جَارَهُ. وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ. وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَسْكُتْ))(١).

قال ابن رجب: قوله ﷺ "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر" فليفعل كذا وكذا يدل على خصال الإيمان(٢).

وقال ﷺ ((... وَأَحْسِنْ إِلَى جَارِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا...))(٣). قال أبو محمد بن أبي جمرة: "حفظ الجار من كمال الإيمان، ويحصل امتثال الوصية به "الجار" بإيصال ضروب الإحسان إليه بحسب الطاقة، كالهدية والسلام، وإطلاقة الوجه عند لقائه، وتفقد حاله، ومعاونته فيما يحتاج إليه إلى غير ذلك، وكف أسباب الأذى عنه على اختلاف أنواعه حسية كانت أو معنوية)(٤).

فالإحسان إلى الجيران فضله عظيم وثوابه جزيل، ولا يحرص عليه إلا كل مؤمن كريم. فينبغي على الداعية بيان فضل الإحسان إلى الجيران، وضرورة وجوده في المجتمع المسلم، لأنه من خصال الإيمان وصفات الإسلام.

سادسًا- من أساليب الدعوة: القسم والتكرار:

يظهر هذا في حديث أبي هريرة في قوله ﷺ "والله لا يؤمن، والله لا يؤمن والله لا يؤمن" فأقسم ﷺ وكرر القسم ثلاث مرات، والقسم وتكراره أسلوب له دوره في صنع التأثير النفسي والعاطفي بواسطة المقسم به، والمقسم عليه وبهما معًا. الأمر الذي يجعل المدعو يتعلق بالدعوة ويؤمن بها، وذلك لإدراكه أن الكلام العظيم المستحق للاهتمام هو الذي يبدأ باليمين.

والتكرار ضرورة ملحة حين يراد إقناع الناس بفكرة، أو حملهم على سلوك معين

---

(١) أخرجه البخاري ٦٠١٨، ٦١٣٦، ٦٤٧٥، ومسلم ٤٧.

(٢) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٣٢٣/١.

(٣) أخرجه الترمذي ٢٣٠٥ وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٨٧٦).

(٤) بهجة النفوس ١٦٤/٤.

لأن هذا التكرار، يساعد على التأثير المطلوب وتعميقه. وقد راعى أسلوب القسم هذه الحقيقة فكرر القسم[١]؛ فعلى الدعاة إلى الله أن يستفيدوا من أسلوب القسم في التأثير على المدعوين.

سابعًا- من واجبات الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما يوثق الصلات بينهم:

من واجبات الداعية المستنبطة من عموم الأحاديث إرشاد المدعوين إلى ما يوثق الصلات بينهم، والإحسان إلى الجيران، وكف الأذى عنهم، يوثق الصلات بينهم.

فقوله ﷺ: "يا أبا ذر إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك" فحض ﷺ على مكارم الأخلاق، لما يترتب عليه من المحبة وحسن العشرة، ودفع الحاجة والمفسدة[٢].

فإن من واجبات الداعية إرشاد المدعوين إلى ما يوثق الصلات بين الجيران، وقدوته في ذلك رسول الله ﷺ حيث كان ﷺ يدعو إلى كل ما يوثق صلة الجيران من أجل المحبة والأمان ومن أجل عظم حق الجار.

ثامنًا- من موضوعات الدعوة: تحريم أذى الجيران:

إن من موضوعات الدعوة التي تظهر في الحديث الذي رواه أبو هريرة في قوله ﷺ "والله لايؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن.. الذي لا يأمن جاره بوائقه" تحريم أذى الجيران، وقد ورد ما يؤيد ذلك عن رسول الله ﷺ أحاديث كثيرة منها قوله ﷺ: ((مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلاَ يُؤْذِ جَارَهُ...))[٣].

وأذية الجار قد تتفاوت، فبعضها يسير بالنسبة إلى غيرها، وبعضها عظيم، بل إن أعظم أذية تنال الجار، هي أذيته في أهله، وهي من أعظم الذنوب عند الله، فعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: ((سألتُ النبيَّ ﷺ: أيُّ الذَّنبِ أعظمُ عندَ اللهِ؟ قال: أن تجعلَ للهِ ندًّا وهوَ خَلَقَكَ. قلتُ إنَّ ذلك لعظيم، قلتُ: ثمَّ أيُّ؟ قال: وأن تَقْتُلَ وَلَدَكَ تخافُ

---

(١) انظر: الدعوة الإسلامية، د. أحمد أحمد غلوش ص ٣٤٧.

(٢) موسوعة الأخلاق الإسلامية، سعد يوسف أبو عزيز ص ١٧٤.

(٣) أخرجه البخاري ٦٠١٨، ٦١٣٦، ٦٤٧٥، ومسلم ٤٧.

أن يَطعمَ معك، قلت: ثم أيٌّ؟ قال: أن تُزاني حَليلةَ جارِك))(١).

والجيران أقرب الناس في المعيشة، وأكثرهم تلاقيًا فإذا كانوا صالحين مأمونين كان ذلك سببًا في راحة الجار واطمئنانه، وإذا كان الجار مؤذيًا غير مأمون، كان ذلك سببًا في قلق الإنسان وخوفه، من أجل ذلك استعاذ رسول الله ﷺ من سوء الجوار، فقال: ((اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ جَارِ السُّوءِ فِي دَارِ الْمُقَامَةِ...))(٢).

(١) أخرجه البخاري ٤٤٧٧، ومسلم ٨٦.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه ١٠٣٣، والحاكم في المستدرك ٥٣١/١ رقم ١٩٩٤، وصححه على شرط مسلم.

الحديث رقم (٣٠٤)

٣٠٤- وعن أَبي ذر ﵁، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: ((**يَا أَبَا ذَرٍّ، إِذَا طَبَخْتَ مَرَقَةً، فَأَكْثِرْ مَاءهَا، وَتَعَاهَدْ جيرَانَكَ**)) رواه مسلم[١].

وفي رواية لَهُ[٢] عن أَبي ذر، قَالَ: إنّ خليلي ﷺ أوْصَاني: ((**إِذَا طَبَخْتَ مَرَقًا فَأَكْثِرْ مَاءها**[٣]**، ثُمَّ انْظُرْ أهْلَ بَيْتٍ مِنْ جِيرَانِكَ، فَأصِبْهُمْ مِنْهَا بِمعْرُوفٍ**)).

ترجمة الراوي:

أبو ذر الغفاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٦١).

الشرح الأدبي

هذا الحديث صورة عملية من معنى الحديث السابق الذي يوصي بالجار ويقرر ضرورة رعايته كأولي الأرحام، وقد بدأ حديث الرسول ﷺ بأسلوب إنشائي طلبي وهو النداء (يا أباذر) وهو نداء يحمل مع طلب الإقبال تنبيهاً إلى ما بعده كما يشي استخدام (يا) بتكريم الرسول ﷺ لصاحبه أبي ذر، ويؤكد ذلك نداؤه بكنيته، وجملة الشرط بعده تربط بين طبخ أبي ذر لطعامه، وبين إكثار المرقة، وإعطاء الجيران و(إذا) في أسلوب الشرط توحي بتحقق الفعل مع ما ارتبط به من جوابه، وتنكير (مرقة) يفيد العموم، وقوله (فأكثر، وتعاهد) يؤسس لمبدأ الإيثار في صغار الأمور ينسحب على كبارها، ويحارب الفردية التي تجعل الإنسان لا يفكر في إخوانه، وهذا التوجيه النبوي مع بساطته لو طبق بين المسلمين لسادت بينهم روح المحبة، ولأغلقوا على باباً عظيماً من الفتن أنفسهم لما وُجد بينهم جائع.

---

(١) برقم (١٤٢/٢٦٢٥).

(٢) مسلم (١٤٣/٢٦٢٥).

(٣) لفظ مسلم: (ماءه).

فقه الحديث

يشير هذان الحديثان إلى عمل من أعمال البر التي توثق الصلة والمحبة بين الجيران، وهي الإهداء إلى الجار ولو من المرقة التي يطبخها، أو الطعام الذي عنده، حتى تسود المرحمة بينهم، وقد ذكر الفقهاء[١] أنه يندب للجار إذا طبخ مرقًا أن يتعاهد جيرانه بشيء منه، وأن يحسن إليهم فذلك من كريم الخلق وحسن البر.

وكذا ذكر الفقهاء[٢] أنه يستحب في إخراج صدقات التطوع أن يخرجها للفقراء من أهل بلده، ويقدم الجار القريب على غيره عند إخراج صدقة التطوع، وكذا في الهبات والهدايا وتعدد الولائم، يقدم دائمًا الجار على غيره، ويقدم الجار الأقرب بابًا على غيره من الجيران.

المضامين الدعوية[٣]

(١) انظر في ذلك: بلغة السالك لأقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك، أحمد بن محمد الصاوي ٤٨٩/٣، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ١٨٠/٥، ومطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، مصطفى السيوطي٢٤٦/٥، وسبل السلام٦٣٧/٢.

(٢) انظر في ذلك: المبسوط ١٨٠/٢، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ٢٤٢/٧، وأحكام القرآن، ابن العربي، تحقيق: علي محمد البجاوي ٥٤٧/١، والأم ٨٦/٤، ٧٧، والغرر البهية في شرح البهجة الوردية، القاضي أبو يحيى الأنصاري ٨١/٤، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٤٠٦/١، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٣٢٢/٤، ومطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، مصطفى السيوطي ٣٨٠/٤.

(٣) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (٣٠٥)

٣٠٥- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه، أن النَّبيّ ﷺ، قَالَ: ((واللهِ لاَ يُؤْمِنُ، واللهِ لاَ يُؤْمِنُ، وَاللهِ لاَ يُؤْمِنُ!)) قيلَ: مَنْ يَا رَسُول اللهِ؟ قَالَ: ((الَّذِي لاَ يَأمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ!)) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[١].

وفي رواية لمسلم[٢]: ((لاَ يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ لاَ يَأمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ)). "البَوَائِقُ": الغوائل والشرور.

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

---

(١) أخرجه البخاري عقب حديث (٦٠١٦) معلقًا، ولم يسق لفظه.

تنبيه: قول المؤلف: (متفق عليه) لا يستقيم مع هذا الكلام، وفيه عدة ملاحظات:

الأولى: أن الحديث بهذا اللفظ لم يروه إلا البخاري من حديث أبي شريح.

الثانية: أن البخاري ساق إسناد حديث أبي هريرة معلقًا بعد حديث أبي شريح ولم يورد لفظه، وكأنه يشير إلى أن لفظه مثل لفظ حديث أبي شريح.

الثالثة: اعتمد المؤلف في إيراد لفظ حديث أبي هريرة في هذا الحديث على الجمع بين الصحيحين للحميدي (٢٣٠/٣، رقم ٢٤٨٥).

الرابعة: أشكل فهم كلام الحميدي على النووي فاعتبر هذا اللفظ من المتفق عليه، وهو خلاف ذلك، ومما أوهم المؤلف قول الحميدي في أوله: (أخرجاه جميعًا). ثم قال الحميدي عقب قوله هذا: فأما البخاري فأخرجه معلقًا من حديث ابن أبي ذئب، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة في عقب حديث قبله: أن النبي ﷺ قال: (والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه). هذا الحديث رواه البخاري برقم (٦٠١٦)، وليس عنده غير هذا الطريق، كما أن ليس عند مسلم بهذ اللفظ، فلا يصحُّ حينئذٍ أن يقال متفق عليه. ثمَّ قال الحميدي: وأخرجه مسلم بالإسناد من حديث إسماعيل بن جعفر، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: (لايدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه). وهذا الحديث أخرجه مسلم برقم (٤٦/٧٣) وليس عنده غير هذا الطريق. فتبين أن أصل الحديث من المتفق عليه، ولكن اللفظ الأول للبخاري، والثاني لمسلم، وليس اللفظ الأول من المتفق عليه كما فهمه الإمام النووي.

تنبيه: وقع المنذري فيما وقع فيه النووي، فأورده في ترغيبه (٣٧٥٣) عن أبي هريرة وعزاه إلى الصحيحين. ثمّ ذكر رواية مسلم.

(٢) برقم (٤٦/٧٣). أوردها المنذري في ترغيبه (٣٧٥٣).

الشرح الأدبي

الحديث يقرر معنى سابقه عن طريق الرهيب من أذى الجار، وصياغة الحديث تختلف عما سبقها حيث تصدَّرها القسم بلفظ الجلالة (الله) وهو من الألفاظ الموحية بطبيعتها لمعاني الهيبة، والجلال بالإضافة إلى أن القسم في بداية الكلام من وسائل التشويق التي تلفت عقل المخاطب لما بعدها انشغالا بسر القسم، وما يسفر عنه، لاسيما إذا تلقَّاك بالقسم صادق لا يكذب فما بالك إذا كان الحالف نبياً يوحى إليه، ثم لم يتوقف التصعيد للإحساس بالخطر عند هذا الحد بل إنه كرر جملة القسم (وَاللَّهِ لا يُؤْمِنُ وَاللَّهِ لا يُؤْمِنُ وَاللَّهِ) ثلاث مرات، والتكرار يفيد التشويق مع التقرير، والتوكيد، ولا ننسى جملة القسم المنفية، وأن المنفي هو أغلى ما لدى المؤمن، وهو إيمانه، وفي الكلام إيجاز بالحذف في جملة (لا يؤمن) أي لا يكون كامل الإيمان.

سمع الصحابة قسم الرسول ﷺ فانخلعت له قلوبهم، وثارت في عقولهم استفهامة عن سر ما سمعوا (وَمَا ذَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟) وهو استفهام حمل مع طلب الفهم تعجباً، وحيرة، فكانت إجابته، (الْجَارُ لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ) وجمع البوائق يدل على أن هذا الجار شروره كثيرة، والحديث يرهب من أذى الجار ويجعله سبباً في نفي كمال الإيمان.

فقه الحديث

لقد اهتم الإسلام بحقوق الجيران، ونبه عليها نبيه ﷺ ومنها هذا الحديث الرائع الذي يرسي قواعد وآداب الجوار وما ينبغي فعله مع الجار، ولاشك أنه يحرم على الجار أن يؤذي جاره بأي شكل، ولكن هل يمتد ذلك الحظر إلى حد منعه من التصرف في ملكه بما يضر بجاره؟

اختلف الفقهاء في حكم تصرف الجار في ملكه الخاص تصرفًا يضر بجاره، كأن يبني في بيته كوة يشرف منها على حرمات جاره، أو يحفر بجوار جداره كنيفًا، أو يبني حمامًا أو تنورًا، أو يعمل دكان حدادة وما شابهه، أو يبني ما يؤذيه، وذلك على قولين:

القول الأول: ذهب المالكية[١] والحنابلة[٢] إلى أنه يحرم على الرجل أن يتصرف في بيته وملكه تصرفًا يضر بجاره، وإن فعل ذلك كان لجاره منعه منه.

القول الثاني: ذهب الحنفية[٣] والشافعية[٤] إلى أنه يجوز للرجل أن يتصرف في ملكه أي تصرف ولو كان مضرًا بجاره، لأنه يتصرف في حق خالص له، واشترط الشافعية في ذلك ألا يضر التصرف بملك جاره، أما إن تضرر منه الجار دون ملكه فلا يمنع الرجل من تصرفه.

المضامين الدعوية[٥]

---

(١) المنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ٤١/٦، وتبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام، برهان الدين المكي ٣٤٨/٢، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد المغربي ١٦٠/٥.

(٢) الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ٢٦٠/٥، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ١٥٠/٢، والفروع، ابن مفلح ٢٨٥/٤.

(٣) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود شرح الطيبي ٢٦٤/٦، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ٢٢٥/٦، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٢٢٣/٨.

(٤) أسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٢٢٣/٢، ٤٤٦/٢، والغرر البهية في شرح البهجة الوردية، القاضي أبو يحيى الأنصاري ٣٥٨/٣، وحاشيتا قليوبي وعميرة ٣٩٢/٢.

(٥) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث (٣٠٥) مع المضامين الدعوية للحديث رقم (٣٠٣، ٣٠٤).

الحديث رقم (٣٠٦)

٣٠٦- وعنه، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: ((يَا نِسَاء المُسْلِمَاتِ، لاَ تَحْقِرَنَّ جَارةٌ لِجَارَتِهَا وَلَوْ فِرْسِنَ شَاة)) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

لا تحْقِرنَّ: لا تستَصْغرنَّ[2].

فِرْسِنُ الشاةِ: ظِلْفُها[3].

الشرح الأدبي

معنى الحديث من جملة الآداب التي تراعي حقوق الجار، وقد بدأه ﷺ بنداء عام لنساء المسلمين (يَا نِسَاءَ الْمُسْلِمَاتِ) ونداء الرسول ﷺ لهن تكريم لهن خاصة، وللنساء في كل زمان، ومكان عامة، يدل على ذلك استخدام أداة النداء (يا) التي لنداء البعيد مع قربهن، وإضافة النساء للمسلمات إضافة تشريف.

ثم تبع هذا النداء - بعد أن ضمن انتباههن - بالنهي في قوله: (لا تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِهَا) وتنكير كلمة (جارة) للتعميم، وإضافة الضمير للجارة لإشعارها بأنها منها، ولها حق عليها، وتخصيص النساء بالنداء لأنهن مدبرات البيوت، والمتابعات لأحوال جيرانهن لملازمتهن البيوت (وَلَوْ فِرْسِنَ شَاةٍ) وفرسن الشاة هُوَ: (عَظْمٌ قَلِيلُ اللَّحْمِ، وَهُوَ لِلْبَعِيرِ مَوْضِعُ الْحَافِرِ لِلْفَرَسِ، وَيُطْلَقُ عَلَى الشَّاةِ مَجَازًا، وَأُشِيرَ بِذَلِكَ إِلَى الْمُبَالَغَةِ فِي إِهْدَاءِ الشَّيْءِ الْيَسِيرِ، وَقَبُولِهِ لا إِلَى حَقِيقَةِ الْفِرْسِنِ، لأَنَّهُ لَمْ يَجْرِ الْعَادَةُ بِإِهْدَائِهِ، أَيْ لا تَمْنَعُ جَارَةٌ مِنْ الْهَدِيَّةِ لِجَارَتِهَا الْمَوْجُودَ عِنْدَهَا لاسْتِقْلالِهِ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ تَجُودَ لَهَا بِمَا

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠١٧، ٢٥٦٦)، ومسلم (٩٠/١٠٣٠) ولفظهما سواء.، وتقدم برقم (١٢٤).

(٢) الوسيط في (ح ق ر).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ف ر س ن).

تَيَسَّرَ، وَإِنْ كَانَ قَلِيلاً، فَهُوَ خَيْرٌ مِنَ الْعَدَمِ، وَذَكَرَ الْفِرْسِنَ عَلَى سَبِيلِ الْمُبَالَغَةِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ النَّهْيُ إِنَّمَا وَقَعَ لِلْمُهْدَى إِلَيْهَا، وَأَنَّهَا لا تَحْتَقِرُ مَا يُهْدَى إِلَيْهَا وَلَوْ كَانَ قَلِيلاً، وَحَمْلُهُ عَلَى الأَعَمِّ مِنْ ذَلِكَ أَوْلَى. وَفِي الْحَدِيثِ الْحَضُّ عَلَى التَّهَادِي وَلَوْ بِالْيَسِيرِ لِمَا فِيهِ مِنْ اسْتِجْلابِ الْمَوَدَّةِ وَإِذْهَابِ الشَّحْنَاءِ، وَلِمَا فِيهِ مِنْ التَّعَاوُنِ عَلَى أَمْرِ الْمَعِيشَةِ، وَالْهَدِيَّةُ إِذَا كَانَتْ يَسِيرَةً، فَهِيَ أَدَلُّ عَلَى الْمَوَدَّةِ وَأَسْقَطُ لِلْمُؤْنَةِ وَأَسْهَلُ عَلَى الْمُهْدِي لإِطْرَاحِ التَّكَلُّفِ، وَالْكَثِيرُ قَدْ لا يَتَيَسَّرُ كُلَّ وَقْتٍ، وَالْمُوَاصَلَةُ بِالْيَسِيرِ تَكُونُ كَالْكَثِيرِ)[1].

المضامين الدعوية[2]

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري شرح الحديث رقم (٢٠٥٦)

(٢) تقدم ذكرها في شرح الحديث (١٢٤).

الحديث رقم (٣٠٧)

٣٠٧- وعنـه: أن رَسُـول الله ﷺ، قَـالَ: ((**لاَ يَمْنَـعْ جَـارٌ جَـارَهُ أنْ يَغْـرِزَ خَـشَبَةً فِي جِدَارِهِ**))، ثُمَّ يقُولُ أَبُو هريرة: مَا لِي أرَاكُمْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ! وَاللَّهِ لأرْمِيَنَّ بِهَا بَيْنَ أكْتَافِكُمْ. مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[1].

رُوِيَ (خَشَبَهُ) بالإضَافَة وَالجمع. وَرُوِيَ (خَشَبَةً) بالتنوين عَلَى الإفراد. وقوله: مَا لي أراكم عَنْهَا مُعْرِضينَ: يَعْني عَنْ هذِهِ السُّنَّة.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

خشبة: رُوِي "خشبه" بالإضافة والجمع. ورُوي "خشبة" بالتنوين على الإفراد[2].

مالي أراكم عنها معرضين: قوله: ((مالي أراكم عنها معرضين)): يعني عن هذه السُّنة[3].

لأرمين بها بين أكتافكم: أي بينكم، والمعنى: أني أصرح بها بينكم وأوجعكم بالتقريع بها، كما يضرب الإنسان بالشيء بين كتفيه[4].

الشرح الأدبي

أكد الراوي الحديث بـ(إن) مع اسمية الجملة، وذكر الرسول بوصفه تكريماً، وأضافه لله تشريفاً، ثم ذكر الجملة الاعتراضية الدعائية ﷺ والتي تعبر عن أدب الصحابة، وحبهم للرسول ﷺ، واعترافهم بفضله، ثم إنها طاعة لله تعالى.

وقوله ﷺ (لا يَمْنَعْ جَارٌ جَارَهُ أَنْ يَغْرِزَ خَشَبَهُ فِي جِدَارِهِ) أسلوب نهي عام؛ لأنه لم

---

(١) أخرجه البخاري واللفظ له (٢٤٦٣)، ومسلم (١٦٠٩/١٣٦).

(٢) رياض الصالحين ١٦٨.

(٣) رياض الصالحين ١٦٨.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٠٢١.

يوجهه لمخصوص، وجاء بفاعل الفعل المنهي عنه نكرة(رجل) وهي في سياق النهي تفيد العموم، وإفراد (خشبة) وتنكيرها للتقليل، والتحقير، أي لا يمنعه من غرسها في حائطه، وأن يتحمله في الأمور التي تجري بين الجيران على شاكلة هذا الأمر.

وإذا تأملنا جماليات الحديث وجدنا عبارة الرسول ﷺ مع صغرها في قمة التناسق البياني والوضوح المعنوي، والنغم الشجي الذي يجذب السمع، ويقر في القلب عن طريق الجناس بين التام (جار - وجاره) والجناس الناقص بين (جاره وجداره) ثم السجع البديع بين فاصلتي العبارتين (لا يَمْنَعْ جَارٌ جَارَهُ)، وبين (أَنْ يَغْرِزَ خَشَبَهُ فِي جِدَارِهِ) ثم الترصيع، وهو تساوي الفقرتين في الوزن.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم الانتفاع بالجدار بين جارين، وقد ذهب جمهور الفقهاء[1] إلى أن الشريك في الجدار المشترك ينتفع بمقدار نفع شريكه، ولا يزيد على ذلك إلا بإذن شريكه، أما الجدار المملوك لأحد الجارين، فقد اختلف الفقهاء في حكم انتفاع الجار به، من نحو غرز خشبة عليه ينتفع بها وغيره، فذهب الحنفية في المفتى به عندهم والشافعي في القديم والإمام أحمد في رواية وإسحاق إلى أنه يجوز للجار الانتفاع بجدار جاره فيما لا يضر متى قامت الحاجة إليه، ويجبر مالكه على تمكينه من ذلك، وذهب المالكية والشافعية والحنابلة إلى أنه لا يجوز للجار أن ينتفع بجدار جاره إلا بإذنه ولا يجبر عليه، وإن كان من المندوب للجار تمكينه من غرز خشبة عليه أخذًا بهذا الحديث.

---

(١) المبسوط للسرخسي١٧/٩١، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود شرح الطيبي ٦/٢٦٤، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد المغربي ٥/١٥٢، وشرح منح الجليل ٦/٣١٢، وتحفة المحتاج ٥/٢٠٩، وحاشيتا قليوبي وعميرة ٢/٣٩٤، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٢/١٥١، ٣/٤٥٥، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٣/٤١٠، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ٥/٢٦١، وسبل السلام ٢/٨٥، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٦/٢٢٣.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النهي، والقسم.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: التعاون بين الجيران:

ثالثًا: من واجبات الداعية: الحرص على مصلحة المدعوين.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: الوصية بالجار.

١- **النهي**: ورد هذا الأسلوب صريحًا في الحديث في قوله ﷺ: "لا يمنع جار جاره أن يغرز خشبة في جداره"، وفي هذا الأسلوب لفت لأنظار المدعوين إلى خطورة الأمر المنهي عنه فيجتنبوه، لذا كان أسلوب النهي من الأساليب المفيدة في الدعوة.

٢- **القسم**: ورد ذلك في قول أبي هريرة رضي الله عنه راوي الحديث: "والله لأرمين بها بين أكتافكم"، وأسلوب القسم من الأساليب المفيدة في الدعوة، فهو يستعمل تأكيدًا لخبر، أو تعظيمًا لشيء، أو جمعًا للانتباه حول غاية، وهو أحد أسباب ثبوت الحق[(١)].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: التعاون بين الجيران:

في هذا الحديث حضّ على مد وتقوية أواصر المحبة والمودة والتعاون بين الجيران، فنهى ﷺ أن يمنع الجار من غرز خشبة في جدار جاره، فقال: (لا يمنع جار جاره أن يغرز خشبة في جداره) أي لا يمنعه من ذلك، لأن ذلك مما يتسامح به ويتساهل فيه[(٢)]، ولذا كان مما ينبغي على الإنسان الرفق وإسداء الخير والمعروف لجيرانه، والتخلق معهم بمكارم الأخلاق، لما يترتب عليها من المحبة وحسن العشرة، ودفع الحاجة والمفسدة[(٣)].

ثالثًا- من واجبات الداعية: الحرص على مصلحة المدعوين:

وذلك ببيان ما فيه مصلحتهم، والنهي عما يفوتها عليهم، أو يكدر عليهم صفو حياتهم، وتجلى ذلك في حرص النبي ﷺ أن تشيع المودة بين الجيران فقال: "لا يمنع

---

(١) انظر: الدعوة الإسلامية "أصولها ووسائلها"، د. أحمد أحمد غلوش ص ٣٢٩.

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٥٠٧.

(٣) انظر: موسوعة الحقوق الإسلامية، سعد يوسف أبو عزيز ص ١٧٤.

جار جاره أن يغرز خشبة في جداره"، ويظهر ذلك الحرص أيضًا في قول أبي هريرة رضي الله عنه: "ما لي أراكم عنها معرضين والله لأرمين بها بين أكتافكم"، أي: مالي أراكم معرضين عن هذه السنة والخصلة والموعظة أو الكلمات، والله لأرمين بها بين أكتافكم، أي: بينكم والمعنى أني أصرح بها بينكم، وأوجعكم بالتقريع بها، كما يضرب الإنسان بالشيء بين كتفيه[١].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: الوصية بالجار:

في الحديث وصية بالجار والإحسان إليه، وذكر مظهر من مظاهر الإحسان إليه فقال ﷺ: "لا يمنع جار جاره أن يغرز خشبة في جداره" وقد أمرنا القرآن بالإحسان إلى الجار في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾[٢]، وروي عن مجاهد أن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ذُبِحَتْ لَهُ شَاةٌ فِي أَهْلِهِ فلما جَاءَ قَالَ: أَهْدَيْتُمْ لجَارِنَا اليَهُودِيِّ؟ أَهْدَيْتُمْ لِجَارِنَا اليَهُودِيِّ؟ سَمِعْتُ رَسُولَ الله يقول: ((مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بالجَارِ حتى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ))[٣].

قال القرطبي: (أما الجار فقد أمر الله تعالى بالقيام بحفظه والوصاة برعي ذمته في كتابه وعلى لسان نبيه، ألا تراه أكد ذكره بعد الوالدين والأقربين[٤]، بل إن الرسول ﷺ ليجعل إكرام الجار والإحسان إليه من شروط كمال الإيمان، فعن أبي شريح العدوي قال: سمعتْ أُذُنايَ وأبصرَتْ عيناي حينَ تكلم النبيُّ ﷺ فقال: ((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جارَه، ومن كان يؤمن باللهِ واليوم الآخر فليُكرِم

---

(١) انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٠٢١.

(٢) سورة النساء، آية: ٣٦.

(٣) أخرجه الترمذي ١٩٤٢، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٥٨٥).

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٨٣/٥/٣.

ضيفَه جائزتَه))، قيل وما جائزته يا رسولَ الله؟ قال: ((يومٌ وليلةٌ، والضيافة ثلاثة أيام، فما كان وراءَ ذلك فهو صدَقةٌ عليه. ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقُل خيرًا أو ليَصمُتْ))[١]، وأن خير الجيران عند الله خيرهم لجاره، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ((خَيْرُ الأَصْحَابِ عِنْدَ الله خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ، وَخَيرُ الجِيرَانِ عِنْدَ الله خَيْرُهُمْ لِجَارِهِ))[٢]، أي أكثرهم إحسانًا إليه، ولو برفع الأذى عنه[٣].

---

(١) أخرجه البخاري ٦٠١٩.

(٢) أخرجه الترمذي ١٩٤٤، وصححه الألباني، (صحيح سنن الترمذي ١٥٨٦).

(٣) تحفة الأحوذي، العظيم آبادي، ١٦٣٥/٢.

الحديث رقم (٣٠٨)

٣٠٨- وعنه: أن رَسُول الله ﷺ، قَالَ: ((مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بالله وَاليَومِ الآخرِ، فَلاَ يُؤْذِ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللهِ وَاليَومِ الآخِرِ، فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللهِ وَاليَومِ الآخِرِ، فَلْيَقُلْ خَيرًا أَوْ لِيَسْكُتْ)) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

المعنى في الحديث قائم على أسلوب الشرط الذي تضمَّنه الموصول (مَنْ)، ولأسلوب الشرط مميزات عدة منها أنه يشتمل على نوع من التشويق؛ لأن النفس إذا سمعت الشرط استشرفت للجواب فيقع المعنى منها موقعاً حسناً، ثم إنه يعلق فعلاً على فعل يقع بوقوعه، ويمتنع بامتناعه، مما يؤكد قوة الصلة بين جملتي الشرط، وكأنهما جملة واحدة، أضف إلى ذلك أن أسلوب الشرط صالح لكل زمان، ومكان، وهو ما يفسر شيوع هذا الأسلوب في البيان النبوي.

وصياغة الرسول ﷺ لهذه المعاني في أسلوب الشرط يشير إلى أهميتها؛لأنه جعل فعل الشرط هو الإيمان (يؤمن) وعلَّقه علي هذه الأعمال كما أن صياغة الفعل في صورة المضارع يشير إلى التجدد، والاستمرار المرتبط بتجدد حفظ حق الجار، وعدم إيذائه، والإكرام للضيف، وقول الخير، أو السكوت، ثم إنه كرر الشرط مع كل خصلة إشارة إلى الاستقلالية، وأن كل نوع منها شرط للإيمان، ثم إن الفاء التي ربطت جواب الشرط في في جملة النهي عن أذى الجار، ولام الأمر التي اتصلت بالأفعال الثلاثة (فليكرم - فليقل - ليسكت) تقتضي المسارعة، وترغِّب فيها؛ لأن من شأن هذه الخصال أن تحقق المحبة، والتكافل، وتنزع الأحقاد، وتمنع الفتن، وهو من الأهداف السامية التي قررها الإسلام.

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٣٦)، ومسلم (٤٧/٧٥) ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه (٣٧٥١). وسيكرره المؤلف برقم (٧١١).

فقه الحديث

تشير هذان الحديثان[١] إلى حكمين فقهيين:

الأول: حكم إيذاء الجار، وقد سبق الكلام عنه في الحديث رقم ٣٠٥.

الثاني: حكم إكرام الضيف، وقد ذكر الفقهاء[٢] أن إكرام الضيف من مكارم الأخلاق، وحق من حقوق المسلم على أخيه، ولكن هل هذا الإكرام واجب على المرء أم مستحب؟.

اختلف الفقهاء في ذلك، فذهب الحنفية والمالكية والشافعية والإمام أحمد في رواية إلى أن الضيافة سُنَّة، ومدتها ثلاثة أيام، وذهب الإمام أحمد في رواية والليث بن سعد[٣] وابن حزم الظاهري[٤] إلى أنها واجبة يومًا وليلة، وجعلها المالكية[٥] والحنابلة[٦] واجبًا

---

(١) رقم (٣٠٨)، (٣٠٩).

(٢) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٢٣٤/٨، و(٤٤١) رد المحتار على الدر المختار المسمى بـ "حاشية ابن عابدين"، محمد أمين بن عمر عابدين، تحقيق: علي محمد معوض ٣٠٩/٦، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ٢٤٢/٧، وأحكام القرآن، ابن العربي، تحقيق: علي محمد البجاوي ٥٤٨/١، ٢٠/٣، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم النفراوي ٢٩٧/٢، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٦٢/٩، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٥٧٤/١، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٢٠١/٦ وما بعدها، ومطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، مصطفى السيوطي ٣٢٦/٦، والآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ١٩٠/٣، وغذاء الألباب شرح منظومة الآداب للسفاريني ١٥٨/٢، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، الشوكاني ١٧٨/٨، والمحلى لابن حزم ١٤٦/٨، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٣١٦/٢٨ وما بعدها.

(٣) أحكام القرآن، ابن العربي ٢٠/٣.

(٤) المحلى، ابن حزم ١٤٦/٨.

(٥) المنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ٢٤٢/٧، وأحكام القرآن، ابن العربي، تحقيق: علي محمد البجاوي ٥٤٨/١، ٢٠/٣، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم النفراوي ٢٩٧/٢.

(٦) كشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٢٠١/٦ وما بعدها، ومطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، مصطفى السيوطي ٣٢٦/٦، والآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ١٩٠/٣، وغذاء الألباب شرح منظومة الآداب للسفاريني ١٥٨/٢.

للمسلم المسافر في الفلاة ولا زاد له، أما في الحضر فهو سنة لوجود الخانات والمساجد التي يبيت فيها.

المضامين الدعوية[1]

أولاً: من أساليب الدعوة: الشرط.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل الإحسان إلى الجار وإكرامه.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الصلة بين الإيمان والسلوك.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل القول الحسن وفضل الصمت.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: من خصائصه ﷺ جوامع الكلم.

أولاً- من أساليب الدعوة: الشرط:

١- الشرط: وذلك في قوله ﷺ "ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت..." وقوله ﷺ: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليحسن إلى جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله اليوم الآخر، فليقل خيرًا أو ليسكت" حيث جعل النبي ﷺ التخلق بهذه الخصال شرطًا لكمال الإيمان، إذ أن المراد بقوله "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر" الإيمان الكامل[2] وأسلوب الشرط من الأساليب الناجعة في الدعوة، والتي تجعل المدعو حريصًا على فعل ما يؤدي به إلى الفضل والثواب.

٢- الأمر: وهذا الأسلوب تكرر في الحديثين في قوله ﷺ: "فليكرم ضيفه، فليقل خيرًا أو ليصمت، فليكرم ضيفه"، وعرض الدعوة في الحديث بأسلوب الأمر يحث المدعو على العمل بمقتضاه وعدم التهاون بما فيه.

---

(١) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -٣٠٨- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (٣٠٩).

(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ٤٦٠/١٠.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل الإحسان إلى الجار وإكرامه:

بيّن النبي ﷺ في الحديثين فضل الإحسان إلى الجار وإكرامه بمنع الأذى في قوله "فلا يؤذ جاره" وبالإحسان إليه في قوله "فليحسن إلى جاره" فلا يحل لمؤمن أن يؤذي جاره بأي نوع من أنواع الإيذاء[١]، بل إن الرسول ﷺ ليقسم على نفي الإيمان الكامل عمن يؤذي جاره؛ فعن أبي شريح أن النبي ﷺ قال والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قيل: ومن يا رسول الله؟ قال الذي لا يأمن من جاره بوائقه[٢] وهذا عام في كل جار، وقد أكد عليه السلام ترك إذايته بقسمه ثلاث مرات، وأنه لا يؤمن الإيمان الكامل من أذى جاره، فينبغي للمؤمن أن يحذر أذى جاره، وينتهي عما نهى الله ورسوله عنه، ويرغب فيما رضياه وحضا العباد عليه[٣].

قال أبو محمد بن أبي جمرة: (حفظ الجار من كمال الإيمان، وكان أهل الجاهلية يحافظون عليه، ويحصل امتثال الوصية به بإيصال ضروب الإحسان إليه بحسب الطاقة كالهدية والسلام وطلاقة الوجه عند لقائه، وتفقد حاله ومعاونته فيما يحتاج إليه إلى غير ذلك، وكف أسباب الأذى عنه على اختلاف أنواعه حسية كانت أو معنوية)[٤].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: الصلة بين الإيمان والسلوك:

أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى في الحديثين، فبين أنه من لوازم الإيمان، وأنه لا يكمل إلا بما يظهر على أعمال الإنسان أثرًا لهذا الإيمان، فقال "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت" في الحديث الثاني قال ﷺ: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليحسن إلى جاره ... إلخ" الحديث؛ فالإيمان ليس مجرد تصديق بالقلب وإقرار بالجنان، وإنما لابد أن تظهر آثار ذلك الإيمان على جوارح الإنسان ومعاملاته مع غيره، ولذا شرط النبي ﷺ في

---

(١) كتاب الآداب، فؤاد بن عبدالعزيز الشلهوب ص ٣١٤.

(٢) أخرجه البخاري ٦٠١٦.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٨٤/٥/٣.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٥٦/١٠.

الحديث على من يريد الوصول إلى درجة الكمال في الإيمان، أن يتحلى بمكارم الأخلاق، والتي منها ما ورد في الحديث ((من كان يُؤمن بالله واليوم الآخر فلا يُؤذِ جارَه، ومن كان يُؤمن بالله واليوم الآخِرِ فلْيُكرِم ضَيفَه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخِرِ فلْيَقُلْ خيرًا أو ليَصمُت))(١) والأمر نفسه في الحديث الثاني.

ولذا لم يكتف القرآن والسنة بقصر الإيمان على التصديق القلبي، وإنما دائمًا يعرضان الإيمان في أخلاق حية، وأعمال ناصعة، يتميز بها المؤمنون من الكفرة والمنافقين ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾(٢) فلا بد من صحة الإيمان، العمل بمقتضيات هذا الإيمان، والالتزام بمبادئه الخلقية والسلوكية، والجهاد في سبيلها بالمال والنفس(٣).

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل القول الحسن وفضل الصمت:

وردت الإشارة إلى ذلك في الحديث في قوله ﷺ "ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليسكت" قال الشافعي: ("فليقل خيرًا" لكن بعد أن يتفكر فيما يريد أن يتكلم به، فإذا ظهر له أنه خيرٌ محقق لايترتب عليه مفسدة، ولا يجر إلى كلام محرم أو مكروه، أتى به "أو ليسكت" فليطلب الصمت حتى عن المباح، لأنه ربما أدى إلى محرم أو مكروه، وبفرض أنه لا يؤدي إليها، ففيه ضياع الوقت فيما لا يعني)(٤).

---

(١) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١١٨/١.

(٢) سورة المؤمنون، الآيات: ١-١٠.

(٣) انظر: الإيمان والحياة، د. يوسف القرضاوي ص ٢٠، ٢١.

(٤) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٥٠٨، ٥٠٩.

قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾[١] أي لا خير في كثير من كلامهم[٢] وإذا لم يكن فيه خير، فإما لا فائدة فيه كفضول الكلام المباح، وإما شر ومضرة محضة كالكلام المحرم بجميع أنواعه، ثم استثنى الله تعالى من أمر بصدقة من مال، أو علم أو أي نفع كان، أو معروف وإحسان وطاعة أو إصلاح بين المتنازعين المتخاصمين[٣]؛ فالسكوت خير من الكلام الباطل، قال الشاعر:

ما إن ندمت على سكوتي مرة ولقد ندمت على الكلام مرارًا[٤]

خامسًا- من موضوعات الدعوة: من خصائصه ﷺ جوامع الكلم:

لقد أعطى ﷺ جوامع الكلم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((بعثت بجوامع الكلم))[٥] ومن تلك الجوامع هذا الحديث "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ...إلخ" الحديث (فهو من القواعد العظيمة لأنه ﷺ بين فيه جميع أحكام اللسان الذي هو أكثر الجوارح فعلاً، وبهذا الاعتبار يصح أن يقال: فيه ثلث الإسلام، وقال بعضهم: جميع آداب الخير تتفرع منه، ويشار فيه إلى سائر خصال البر والصلة والإحسان، لأن آكدها رعاية حق الجوار، وبهذا الاعتبار يصح أن يقال فيه: إنه نصف الإسلام، لأن الأحكام إما أن تتعلق بالحق أو بالخلق، وهذا أفاد الثاني، لأنه صلة الخَلْق تستلزم رعاية جميع حقوقهم[٦].

وقال ابن حجر: (واشتمل الحديث على أمور ثلاثة تجمع مكارم الأخلاق الفعلية والقولية، أما الفعلية فيرجع إلى الأمر بالتخلي عن الرذيلة "فلا يؤذ جاره" والتحلي

---

(١) سورة النساء، آية: ١١٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢/٤١١.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي ص ١٦٤.

(٤) موسوعة الآداب الإسلامية، عبدالله بن محمد المعتاز، ١/١٣٩.

(٥) أخرجه البخاري ٢٩٧٧.

(٦) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٥٠٩.

بالفضيلة "فليكرم ضيفه"، "فليقل خيرًا أو ليصمت"، وحاصله من كان حامل الإيمان فهو متصف بالشفقة على خلق الله قولاً بالخير وسكوتًا عن الشر، وفعلاً لما ينفع، أو تركًا لما يضر)[1].

(١) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ١٠/٤٦١.

الحديث رقم (٣٠٩)

٣٠٩- وعن أَبي شُرَيْح الخُزَاعيِّ رضي الله عنه : أن النَّبيّ صلى الله عليه وسلم ، قَالَ: ((**مَنْ كَانَ يُؤمِنُ باللهِ وَاليَومِ الآخِرِ، فَلْيُحْسِنْ إلَى جَارِهِ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللهِ وَاليَومِ الآخِرِ، فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللهِ وَاليَومِ الآخِرِ، فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَسْكُتْ**)) رواه مسلم[١] بهذا اللفظ، وروى البخاريُّ[٢] بعضه.

ترجمة الراوي:

أبو شُرَيْح الخُزاعيُّ: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٧٠).

الشرح الأدبي

اتفق هذا الحديث مع سابقه في الأسلوب، والصياغة مع اختلاف بسيط في المعنى ففي الحديث الأول جاء أسلوب النهي متصدراً الحديث، وهو قوله (فلا يؤذي جاره) نهياً عن التسبب له في ضرر يلحق دينه، أو نفسه، أو ماله، أو أهله، وفي هذا الحديث جاءت العبارة بأسلوب الأمر الواقع في جواب الشرط ترغيباً فيه في قوله (فليحسن إلى جاره)، وهذه العبارة أبلغ في هذا الموضع، لأن الإحسان مرتبة أعلى من كف الأذى، ومن لم يكف أذاه لا يكون محسناً، فالإحسان متضمن لكف الأذى دون العكس.

المضامين الدعوية[٣]

---

(١) برقم (٧٧/٤٨). وسيكرره المؤلف برقم (٧٠٦).

(٢) برقم (٦٤٧٦) دون قوله: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليحسن إلى جاره).

(٣) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (٣١٠)

٣١٠- وعن عائشة رضي الله عنها، قَالَت: قُلْتُ: يَا رَسُول الله، إنَّ لِي جارَيْنِ، فإلى أيِّهمَا أُهْدِي؟ قَالَ: ((إِلَى أقْرَبِهِمَا مِنكِ بَابًا)) رواه البخاريُّ[1].

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

الشرح الأدبي

معنى هذا الحديث يتصل بالأفضلية في الإحسان إلى الجيران أيهم يقدم، والذي يبحث في منهج الله المتمثل في كتابه، وسنة رسوله ﷺ يجد كل ما يبحث عنه في معاشه، ومعاده، لأنه أكمل دينه، وأتم نعمته على عباده، وهذا الحديث يدلل على ذلك، وقد بدأته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بنداء التكريم، ثم قدَّمت لما تريد بمقدمة تمهِّد لسؤالها، بقولها: (إن لِي جَارَيْنِ) وقد أكدت العبارة بـ (إن) مع اسمية الجملة الدالة على الثبوت، والدوام، وتقديم الجار والمجرور (لي) الذي يفيد الاختصاص، وبناء العبارة على هذه الهيئة من مطابقة الكلام لمقتضى الحال، فالتوكيد إيذاناً بأهمية الأمر، واسمية الجملة تقرر أنهما جاران مقيمان مما يجعل حقهما أوجب، والاختصاص يشير إلى أنهما جاران ملاصقان لبيتها لا لبيت غيرها، ثم طرحت سؤالها (فَإِلَى أَيِّهِمَا أُهْدِي) أي بمن أبدأ منهما؟، ولذلك قدمت الجار والمجرور على متعلقه، وقول الرسول ﷺ (إِلَى أَقْرَبِهِمَا مِنْكِ بَابًا) فيه إيجاز بحذف الفعل لدلالة ما قبله عليه، ثم إن هذا الحذف يجعل المقام يتسع لتقدير كثير من أفعال البر، مثل: (أهدي - أطعمي - أحسني - إبدأي) وأصلحها للتقدير في هذا المقام - والله أعلم - هو(أهدي)؛ لأنه شامل لمعاني غيره من أعمال البر بالإضافة إلى أنه المذكور في السؤال، والحديث يعمِّق الصلات بين المسلمين بما يبعث الألفة، والمحبة، ويستجد وسائل أخرى للتقارب بين الناس بخلاف القرابة.

---

(١) برقم (٢٢٥٩).

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

ثانيًا: من حقوق المدعو: السؤال عما يشكل عليه.

ثالثًا: من مهام الداعية: تبيين الأمور وإيضاح الحقائق.

رابعًا: من فقه الداعية: مراعاة الأولويات.

أولاً- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

ورد السؤال والجواب في هذا الحديث، فالسؤال في قول عائشة رضي الله عنها لرسول الله ﷺ: "إن لي جارين فإلى أيهما أهدى؟" والجواب في قول النبي ﷺ: "إلى أقربهما منك بابًا" فطلب المدعو وإجابة الداعي عليه، من الأساليب الناجحة في الدعوة، إذ أن الإنسان أكثر تعلقًا واقتناعًا بالشيء الذي يطلبه ويسأل عن الإجابة عليه.

ثانيًا- من حقوق المدعو: السؤال عما يشكل عليه:

إن من حقوق المدعو التي ينبغي له أن يباشرها: سؤاله عما يشكل عليه، وقد ورد في الحديث أن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها سألت ولم تتردد في سؤالها للنبي ﷺ، خاصة وأنها أمرت بإكرام الجار مطلقًا، ولا تقدر على الإهداء إلى كل الجيران أو جاريها الملاصقين لها، فماذا تفعل ليحصل لها الدخول في جملة القائمين بإكرام الجار[1]، فسألت رسول الله ﷺ قائلة: (إنّ لي جارين فإلى أيهما أهدي؟)، فأجابها ﷺ: (إلى أقربهما بابًا)، إن الإسلام يربي المسلمين على طلب العلم، ومعرفة ما يغيب عنهم من مسائل علمية تخدم حياتهم الاجتماعية، ولقد كان رسول الله ﷺ يسأل أصحابه رضي الله عنهم، وقد يأتيه جبريل عليه السلام يسأله ليقتدوا به، كما في حديث جبريل عليه السلام المشهور، قال النووي: (وفيه أنه ينبغي لمن حضر مجلس العلم إذا علم بأهل المجلس حاجة إلى مسألة لا يسألون عنها، أن يسأل هو عنها، ليحصل الجواب الصحيح)[2].

(١) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٥٠٩ - ٥١٠.

(٢) انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٨٣.

ثالثًا- من مهام الداعية: تبيين الأمور وإيضاح الحقائق:

أعطانا النبي ﷺ في هذا الحديث مثالاً يحتذى به خاصة من قِبل الدعاة، حيث أجاب رسول الله ﷺ عائشة مبينًا لها ما سألت عنه إلى من تهدي من الجيران، قال: (إلى أقربهما منك بابًا)، لذا ينبغي على الداعي في دعوته أن يجعل الرسول العظيم ﷺ قدوته فيقتفي أثره، وينسج على منواله[١].

فالتبيين يعين المبلّغ والداعية على أداء رسالته، وهو مثل التبليغ من وظيفة الرسل الكرام عليهم السلام وأتباعهم من الدعاة والعلماء[٢]، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾[٣]، ذكر القرطبي في تفسير الآية قول ابن عباس رضي الله عنهما في الآية: (قال المعنى: بلّغ جميع ما أنزل إليك من ربك، فإن كتمت شيئًا منه فما بلغت رسالته، وهذا تأديب للنبي ﷺ وتأديب لحملة العلم من أمته، ألا يكتموا شيئًا من أمر شريعته، وقد علم الله تعالى من أمر نبيه أنه لا يكتم شيئًا من وحيه)[٤].

رابعًا- من فقه الداعية: مراعاة الأولويات:

إن مراعاة الأولويات أمر ظاهر في الحديث في إجابة الرسول ﷺ التي تقتضي تقديم الأقرب من الجيران على غيره، وفعل ما هو أولى، فقال ﷺ: (إلى أقربهما منك بابًا)، إجابة لسؤال عائشة رضي الله عنها: (إن لي جارين فإلى أيهما أهدي؟)، قال ابن حجر: (ويؤخذ من الحديث: أن الأخذ في العمل بما هو أعلى أولى، وفيه تقديم العلم على العمل، والحكمة في ذلك أن الأقرب يرى ما يدخل بيت جاره من هدية وغيرها، فيتشوف لها بخلاف الأبعد، وإن الأقرب أسرع إجابة لما يقع لجاره من المُلمَّات، ولا

---

(١) انظر: تذكرة الدعاة، د. البهي الخولي ص ٢٠٠.

(٢) انظر: موسوعة نضرة النعيم في أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن حميد، عبدالرحمن بن ملوح ٩٠٠/٣.

(٣) سورة المائدة، آية: ٦٧.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٤٦/٥/٣.

سيما في أوقات الغفلة)[١].

لذا كان من الواجب على الداعي أن يستصحب في دعوته فقه الأولويات وترتيبها، فيعرف ماذا يقدم وماذا يؤخر، وما القضايا التي يعطيها أهمية وأولوية قبل غيرها، وما الأفكار الضرورية التي يطرحها ويبدأ بها؟ فيبدأ بالأهم ثم المهم، أن يبدأ بالعقيدة في الدعوة قبل العبادة، وبالعبادة قبل مناهج الحياة، وبالكليات قبل الجزئيات، فالداعية لا بد أن يكون حكيمًا، يعلم كيف يبدأ؟ ومن أين يبدأ؟ وماذا يقدم؟ وماذا يؤخر؟[٢].

وقد أنكر الله عز وجل على من يسوي بين الأعمال ويظنها على درجة سواء، ويدع الأفضل ويتمسك بالفاضل، قال تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَجَـٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ﴾[٣].

(١) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠/٤٦١.

(٢) انظر: كيف يدعو الداعية، عبد الله ناصح علوان ص ٤٦ – ٥٣.

(٣) سورة التوبة، آية: ١٩.

الحديث رقم (٣١١)

٣١١- وعن عبدِ الله بن عَمْرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: ((خَيْرُ الأَصْحَابِ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ، وَخَيرُ الجِيرَانِ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى خَيْرُهُمْ لِجَارِهِ)) رواه الترمذيُّ[1]، وَقالَ: (حديث حسن).

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

الشرح الأدبي

يدور معنى الحديث حول الترغيب في الخيرية المطلقة في كل الأمور، وهو منهج يربي الإسلام أبنائه عليه لتكون لهم الريادة في كل المجالات - لو ساروا عليه كما حدث مع الصحابة، والتابعين رَضِيَ اللهُ عَنْهُم وهذا الحديث من هذه النوعية التي تحث المؤمنين على التنافس في الخيرات، وقد بدأ الحديث بأسلوب التشويق عن طريق لفظ يداعب النفس بمحبوب ينتظر، وهو لفظ (خير) المضاف إلى الأصحاب إضافة بيانية، وقد صعّد من درجة التشويق بالظرف المضاف لله في قوله: (عند الله) وقوله (خيرهم لصاحبه) يجعل تحقيق الخيرية عند الله مرهوناً بأن يكون خيرهم في الدنيا بخدمتهم، ومساعدتهم، وإكرامهم، وغير ذلك من أعمال البر، مما يبعث المؤمنين على التسابق إلى هذه الخصال، وكذلك الحال مع الجيران، وإن كان الأمر مع الجيران يحتاج إلى مزيد صبر على تحمل أذاهم، ومزيد إيثار في معاملتهم لطول المقام، وكثرة التعاملات، وهو ما يجنب المجتمع الشقاق، والخلاف، ويوفر على المؤمنين أوقاتهم، وراحة صدورهم، ويفرغهم لما خلقوا من أجله.

---

(١) برقم (١٩٤٤). وصحّحه ابن خزيمة (٢٥٣٩)، وابن حبان (الإحسان ٥١٨)، وقال الحاكم (١/١٦٤): هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. أورده المنذري في ترغيبه (٢٧٧٩).

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار، والترغيب.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل الإحسان إلى الأصحاب.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل الإحسان إلى الجيران.

رابعًا: من مهام الداعية: إرشاد الناس إلى الخير.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار، والترغيب:

١- **الإخبار**: أسلوب من أساليب الدعوة التي تعرِّف المدعوين بما هو مطلوب منهم، أو تخبرهم بفضل بعض الأعمال عند الله تعالى، وينبغي للداعية أن يتحرى الصدق في أخباره التي يسوقها للناس، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[1] وأخبار الأنبياء جميعها صدق وحق، لأنه يستحيل عليهم الكذب، وفي هذا الحديث أخبر النبي ﷺ بأن خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره.

٢- **الترغيب**: يرغب الرسول ﷺ في هذا الحديث في حسن معاملة الأصحاب والجيران، ويبين أن أفضلهم في الدنيا أفضلهم في الآخرة، والترغيب يحث النفس على الإقدام على فعل الخير انتظارًا للثواب والأجر، فيجب على الدعاة استخدام هذا الأسلوب لتحبيب الناس في عمل الصالحات. ومن صور استعمال القرآن الكريم لأسلوب الترغيب قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾[3].

---

(١) سورة التوبة، آية: ١١٩.

(٢) سورة الدخان، الآيات: ٥١-٥٤.

(٣) سورة التين، آية: ٦.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل الإحسان إلى الأصحاب:

إن المسلم يَأْلف ويُؤْلف، ويحب إخوانه وأصحابه ويتودد إليهم، ويتحمل أذاهم، وأرشد النبي ﷺ إلى حسن معاملة الصاحب، كما جاء في الحديث: "خير الأصحاب عند الله تعالى خيرهم لصاحبه" هذا وقد دلت نصوص القرآن الكريم على حسن معاملة الصاحب لصاحبه، فهي ذكّرتهم بإخوة الإسلام، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[١] وأوصى القرآن بالإحسان إلى الصاحب، فقال جلّ شأنه: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾[٢] وبين القرآن أن من شروط الصحبة الطيبة أن تكون لله، ومن أجل الله، قال الله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾[٣].

قال ابن كثير: (فكل صداقة وصحابة لغير الله فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة إلا ما كان لله عز وجل، فإنه دائم بدوامه)[٤] وأشار القرآن إلى نموذج للصحبة الطيبة فقال: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ﴾[٥] وهي إشارة إلى صحبة أبي بكر الصديق للنبي ﷺ، قال السعدي: (إذ يقول النبي ﷺ لصاحبه أبي بكر لما حزن واشتد قلقه، لا تحزن إن الله معنا بعونه ونصره وتأييده، وفي هذه الآية الكريمة اختصاص أبي بكر رضي الله عنه بهذه الصحبة الجميلة، والمنقبة الجليلة، وأجمع المسلمون على أنه هو المراد بهذه الآية الكريمة)[٦].

ولقد دلت نصوص السنة النبوية على فضل الحب في الله، والصحبة الطيبة، فجعلها

---

(١) سورة الحجرات، آية: ١٠.

(٢) سورة النساء، آية: ٣٦.

(٣) سورة الزخرف، آية: ٦٧.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢٣٧/٧.

(٥) سورة التوبة، آية ٤٠.

(٦) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٢٩٨.

رسول الله إحدى ثلاث يجد بها المرء حلاوة الإيمان، فعن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإيمانِ: مَنْ كانَ اللّهُ ورسولُهُ أَحَبَّ إليهِ مِمّا سِواهُما، ومَنْ أَحَبَّ عَبدًا لا يُحِبُّهُ إلاّ للّهِ، وَمَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعودَ في الكُفْرِ بعدَ إذْ أَنْقَذَهُ اللّهُ كما يَكْرَهُ أَنْ يُلْقى في النّارِ))[1] وأخبر أن المتحابين في الله في ظل الله فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((إِنَّ اللّهَ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلاَلِي. الْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي. يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلِّي))[2]. والنصوص في هذا كثيرة.

قال الشيخ السيد سابق: (إن الإخاء والصحبة في الإسلام يقتضي تبعات وحقوقًا، وليس هو إخاء عقيمًا لا ثمرة له في الخارج، ولا أثر له في الواقع، فهو يقتضي أن يهتم كل أخ بأمر أخيه، وأن يعني بشأنه، والدفاع عنه، والذياد عن حياضه، والعمل الدائب على ترقية حاضره، وإعداده لمستقبل أعز وأكرم، ومن مظاهر هذا الاهتمام ألا يدع المسلم أخاه للأحداث تتحكم فيه وتنال منه. بل عليه أن يبذل له من ذات يده، وأن يدفع عنه كل أذى يصيبه، أو شر يقع عليه، ومن حق المسلم على المسلم أن يحفظ عرضه ويصون حرمته في حضوره أو غيبته مااستطاع إلى ذلك سبيلاً)[3]. وواجب الدعاة إلى الله إحياء معاني الأخوة والصحبة في نفوس المدعوين، وحثهم على الترابط والإخاء والحب.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل الإحسان إلى الجيران:

إن الإسلام ينظم العلاقات الاجتماعية بين الناس، ولما كان لا يخلو أحد من جار له في بيته أو عمله أو محله، أرشد النبي صلى الله عليه وسلم إلى أن علاقة الجار بجاره ينبغي أن تقوم على الخيرية، ويتضح هذا من قول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث "وخير الجيران عند الله تعالى خيرهم لجاره" ولقد أوصى الله بالإحسان إلى الجار فقال سبحانه: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾[4].

---

(١) أخرجه البخاري ١٦، ومسلم ٤٣.

(٢) أخرجه مسلم ٢٥٦٦.

(٣) دعوة الإسلام ١١٧-١١٨.

(٤) سورة النساء، آية: ٣٦.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: (أما الجار فقد أمر الله تعالى بحفظه، والقيام بحقه والوصاة برعي ذمته في كتابه وعلى لسان نبيه، ألا تراه سبحانه أكد ذكره بعد الوالدين والأقربين فقال: ﴿وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ أي: القريب ﴿وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ﴾ أي: الغريب، وعلى هذا فالوصاة بالجار مأمور بها مندوب إليها، والإحسان إليه قد يكون بمعنى المواساة، وقد يكون بمعنى حسن العشرة وكف الأذى والمحاماة دونه)[1].

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله ﷺ قال: ((ما زال جبريلُ يُوصيني بالجار حتى ظننتُ أنهُ سيُوَرِّثه))[2].

وأمر رسول الله ﷺ بعدم إيذاء الجار فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: ((من كان يُؤمن بالله واليوم الآخرِ فلا يُؤذِ جارَه))[3]. وربط رسول الله ﷺ بين الإحسان إلى الجار والإيمان فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: ((مَنْ يَأْخُذُ عَنِّي هذهِ الْكَلِمَاتِ فَيَعْمَلَ بِهِنَّ أَوْ يُعَلِّمَ مَنْ يَعْمَلُ بِهِنَّ»؟ فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: قُلْتُ: أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ، فَأَخَذَ بِيَدِي فَعَدَّ خَمْسًا فَقَالَ: «اتَّقِ الْمَحَارِمَ تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ، وَارْضَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَكَ تَكُنْ أَغْنَى النَّاسِ، وَأَحْسِنْ إِلَى جَارِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا، وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُسْلِمًا، وَلاَ تُكْثِرِ الضَّحِكَ فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ))[4].

قال الغزالي: (واعلم أنه ليس حق الجوار كف الأذى فقط، بل احتمال الأذى، فإن الجار أيضًا قد كف أذاه، فليس في ذلك قضاء حق، ولا يكفي احتمال الأذى، بل لابد من الرفق وإسداء الخير والمعروف، ومن مجمل حق الجار أن يبدأه بالسلام، ولا يطيل معه الكلام، ولا يكثر عن حاله السؤال، ويعوده في المرض، ويعزيه في المصيبة، ويقوم معه في العزاء ويهنئه في الفرح، ويظهر الشركة معه في السرور، ويصفح عن زلاته، ولا يتطلع من السطح على عوراته، ولا يتبعه النظر فيما يحمله إلى داره، ويستر ما

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٨٣/٥، ١٨٤.

(٢) أخرجه البخاري ٦٠١٤، ومسلم ٢٦٢٤.

(٣)أخرجه البخاري ٥١٨٥، ومسلم ٤٧.

(٤) أخرجه الترمذي ٢٣٠٥، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٨٧٦).

ينكشف له من عوراته، ولا يغفل عن ملاحظة داره عند غيبته، ولا يسمع عليه كلامًا، ويغض بصره عن حرمته، ويتلطف بولده في كلمته، ويرشده إلى ما يجهله من أمر دينه ودنياه)(١).

وهذا الموضوع يعتبر من الموضوعات الدعوية المهمة التي يجب أن يطرحها الدعاة إلى الله، ويقوموا بمعالجتها معالجة مناسبة، تعمل على تحسين العلاقة بين الجيران، وإشعار الناس بأهمية حسن العلاقة بينهم.

رابعًا- من مهام الداعية: إرشاد الناس إلى الخير:

يستنبط هذا من عموم الحديث، حيث أرشد النبي ﷺ إلى الإحسان إلى الصاحب والجار، وأرشد إلى أن من يفعل ذلك يكون خير الأصحاب وخير الجيران عند الله، وفي ذلك إرشاد إلى الخير، وإن مهمة الدعاة الأولى التي يجب ألا يفارقوها، إرشاد الناس إلى الخير، ودلالتهم عليه، وهي وظيفة الأنبياء والمرسلين، فمما جاء على لسان هود عليه السلام قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ﴾(٢).

ومما جاء على لسان شعيب عليه السلام قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾(٣) وهناك الكثير من الآيات التي تبين دعوة الأنبياء لأقوامهم إلى الخير والهدى والرشاد.

وأخبر الرسول ﷺ أن من يدل على الخير فله من الأجر مثله، فعن ابن مسعود الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((مَنْ دَلَّ على خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ))(٤) وفي هذا تحفيز للداعية أن يقوم بمهمته المنوطة به، وهي الإرشاد إلى الخير.

---

(١) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي ٢/١٠٣٠.

(٢) سورة هود، آية: ٥٢.

(٣) سورة هود، آية: ٨٥.

(٤) أخرجه مسلم ١٨٩٣.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

تكوين المجتمع القوي المتماسك من أهداف التربية الإسلامية، وقد رسم الإسلام السبيل لذلك على أساس من:

١/ الكلمة الطيبة.

٢/ الفعل الحسن.

٣/ ترك الإيذاء "قولاً أو فعلاً".

٤/ تبادل المشاعر الطيبة لتقوية العلاقات.

٥/ مراعاة مراتب الجوار في حال المعروف.

يتجلى ذلك من خلال المضامين التربوية التالية:

أولاً- التربية بالوصية:

من أساليب التربية الإسلامية التربية بالوصية لما لها من وقع في النفس وتأثير على التعاملات الاجتماعية لأن أثر التربية بالوصية مؤثر في السلوك، ومن الشواهد على ذلك في أحاديث باب حق الجار والوصية به، قوله ﷺ: «مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ». وقوله في حديث أبي ذر: «يَا أَبَا ذَرَ إِذَا طَبَخْتَ مَرَقَةً، فَأَكْثِرْ مَاءَهَا، وَتَعَاهَدْ جِيرَانَكَ». وقوله: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللّٰه وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلاَ يُؤْذِ جَارَهُ ...»، فهذا توجيه نبوي أراد النبي ﷺ به أن يبين منزلة الجار في المجتمع الإسلامي، من خلال التأكيد على الوصية به، وفي طريقة التواص التي اتبعها ﷺ، تربية كل مسلم بحسن التعامل مع الجار، وإكرامه والبعد عن إيذائه، وهذا مما تميزت به التربية الإسلامية لتنمية القيم والأخلاق والتلاحم والتماسك في المجتمع الإسلامي، والوصية أشبه بالعهد الذي يأخذ على الأفراد والجماعات، وهي تركز على أمور جوهرية لها علاقة بطبيعة الموصي وتمتاز بكونها مختصرة ومتعددة الجوانب وتميل إلى الطابع الخاص أكثر من العام.

ولما كانت هذه الوسيلة من أهم الوسائل التربوية التي اهتمت بها السنة النبوية كان

لزامًا علينا أن نأخذ بها[1].

ثانيًا- التربية بالتوجيه المباشر:

التربية بالتوجيه المباشر من أساليب التربية الإسلامية الهادفة، ومن الشواهد على ذلك قوله ﷺ: «يَا أَبَا ذَرَ إِذَا طَبَخْتَ مَرَقَةً، فَأَكْثِرْ مَاءَهَا ، وَتَعَاهَدْ جِيرَانَكَ». وقوله: «يَا نِسَاءَ الْمُسْلِمَاتِ لاَ تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِهَا. وَلَوْ فِرْسِنَ شَاةٍ»، وقول عائشة رضي الله عنها: «إن لي جارتين، فإلى أيهما أهدي؟ قال: إلى أقربهما منك بابا».

«لا يمنع جار جاره أن يغرس خشبة في جداره...»، وقوله: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره...».

فهذه نماذج تربوية أراد النبي ﷺ أن يوجه المسلمين من خلالها إلى كيفية التعامل مع الجيران وأصول التعامل التي يجب أن تكون، وذلك من خلال الأمر والنهي الذي جاء التوجيه المباشر من خلاله لإحسان معاملة الجار، وهذا مما يفيد في العملية التعليمية عند قيام المربي بممارسة العمل أمام المتعلم ثم يتابعه المتعلم، وقد يتخلل ذلك أحيانًا مناظرة من المعلم، يرافقها تصحيح لأخطائه، والرسول ﷺ أراد من هذا الخطاب المباشر عن الجار عندما سأل عنه الصحابة أراد أن يثير انتباه المخاطب ويشعره بنشوة اهتمام الآخرين به عن طريق البيان والإرشاد لأنه ﷺ قام بإرشاد السائل إلى الاعتناء بالجار. ولأهمية الجار في الإسلام وصى به النبي ﷺ الصحابة[2].

وقام ﷺ بتوجيه أصحابه رضي الله عنهم إلى مراعاة حقوق الجار والحرص على الإحسان إليه، بل وسط ذلك بالإيمان.

ثالثًا- التربية بالترغيب:

من أسالب التربية الإسلامية التربية بالترغيب لما فيه من الرغبة والحرص على عمل

---

(١) انظر: منهج التابعين في تربية النفوس، عبدالحميد البلالي ص ٨٣، أساليب الدعوة والتربية، د. زياد العاني ص ٢٧٤، موسوعة نضرة النعيم ١/١٤٠.

(٢) أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، العاني ص ٢٨٣. المنهج النبوي في تربية الطفل، د. عبدالباسط محمد السيد ص ٩٧، أساسيات التوجيه والإرشاد في التربية الإسلامية، د. مقداد يالجن ص ٤١.

الصالح، ولقد انتهجت السنة النبوية هذا الأسلوب في قوله ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلاَ يُؤْذِ جَارَهُ، ومَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ...»، وقوله ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُحْسِن إلى جَارِهِ...»، وقوله: «خَيْرُ الأَصْحَابِ عِنْدَ اللهِ خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ، وَخَيرُ الجِيرَانِ عِنْدَ اللهِ خَيْرُهُمْ لِجَارِهِ»، فهذه أساليب تربوية ترغب في الأجر العظيم من خلال المعاملة الحسنة للجار. لأنه بالتربية على إقامة هذا الحق يستقيم المجتمع، وإذا استقام المجتمع استقامت الأمة، وبالتالي نكون قد أقمنا مجتمعاً سوى يؤدي هذا الحق ويحترم هذه التربية النبوية، وهذا دليل على أن التربية الإسلامية اهتمت اهتمامًا كبيرًا بعلاقة المسلم بجيرانه وحضّه على تعزيز تلك العلاقة بشكل مباشر وغير مباشر من خلال تلك السلوكيات الطيبة التي تنم عن قناعة المسلم بأهمية وفضل التعامل الطيب مع الجيران، الذي يعد مؤشرًا واضحًا على ارتباط السلوك بالإيمان مما يكفل استقامة النشء على طريق الإيمان، وهذا ليس بالغريب أن تكون التربية الترغيبية هي الأساس والعنصر الذي يقوم عليه الإصلاح الإسلامي في المجتمع، ولذلك برز من هذا الهدي النبوي أهمية التربية الترغيبية في كونها أسلوبٌ رائعاً يساعد على نشر مكارم الأخلاق وبثها بين أفراد المجتمع مما يجعلها تسهم بدور فعّال في بلوغ أهداف التربية الإسلامية، وأخيرًا هذه التربية الترغيبية من شأنها تحقيق التوازن بين الحياتين الدنيا والآخرة، وهذا ما ظهر من النموذج التربوي الذي نحن بصدده[1].

رابعًا- من أهداف التربية الإسلامية: تقوية الصلات الاجتماعية:

إن من أبرز أهداف التربية الإسلامية تقوية الصلات الاجتماعية، حيث ركزت التربية الإسلامية على حسن العلاقة مع الجيران، وإحسان التعامل معهم، وكف الأذى عنهم، ومن الشواهد على ذلك في أحاديث الباب: قوله ﷺ: «ما زال جبريل يوصيني بالجار ...»، وقوله «يَا أَبَا ذَرٍ إِذَا طَبَخْتَ مَرَقَةً، فَأَكْثِرْ مَاءَهَا ، وَتَعَاهَدْ جِيرَانَكَ»، وقوله: «خَيْرُ الأَصْحَابِ عِنْدَ اللهِ خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ، وَخَيرُ الجِيرَانِ عِنْدَ اللهِ خَيْرُهُمْ لِجَارِهِ».

---

(١) انظر: تربية الأبناء والبنات في ضوء الكتاب والسنة، خالد العك ص ١٨٦. التربية الإسلامية، محمد أحمد جاد ص ١٥٣.

فهذه توجيهات تربوية تحث على التواصل بين الجيران وتزيد حقوق الجار كلما قرب الدار حتى كاد الإسلام أن يرتب حقوقًا في التوارث على أساس الجيران كما في حديث "جبريل" وإن ما يحدث بين المسلمين من قطيعة الجيران، وضعف التواصل بين أهل الإيمان حتى غلب عليهم الهجران، يعد من مظاهر الخلل في تطبيق التربية الإسلامية في مجال التعامل والعلاقة بين الجيران، حتى أن بعض الجيران لا يعرفون أسماء بعضهم، ولا يتزاورون فيما بينهم، وما حدث هذا من خلال تقليد المسلمين لطراز الحياة الغربية التي لا تعرف المعاني التي غرسها الإسلام للتواصل بين الناس كحق الجار، ولأهمية التربية على أداء هذا الحق، بل إن حسن علاقة المسلم أو المسلمة بجيرانه وإخوانه في المجتمع هو الذي يعُول عليه عند الله، لأن المعاملة مع الناس ثمرة لما يدين به الإنسان ويستقر في قلبه من إيمان، ومن ثم لما ذكرت «امرأة عند رسول الله ﷺ من كثرة صلاتها وصدقتها، غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها قال هي في النار»، وعلى النقيض «امرأة أخرى قليلة العبادة إلا أنها لا تؤذي جيرانها بلسانها، قال هي في الجنة»[1]. من أجل أهمية هذا الحق جاءت تعاليم الإسلام مؤكدة للتواصل بين الناس وتوثيق الروابط وإبعاد عوامل الشقاق والتقاطع والتدابر وهو ما يحتاجه المجتمع البشري في كل زمان ومكان، وتقوي الحاجة إليه بعد طغيان المادية والنفعية وقيم الحضارة الغربية[2].

خامسًا- من أهداف التربية الإسلامية: بيان الصلة بين الإيمان والسلوك:

من أهداف التربية الإسلامية بيان الصلة بين الإيمان والسلوك لما بينهما من ترابط وثيق، ومن الشواهد على ذلك في أحاديث الباب قوله ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلاَ يُؤْذِ جَارَهُ. وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ. وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرا أَوْ لِيَسْكُتْ».

فهذا توجيه نبوي تربوي أراد النبي ﷺ من خلاله "تعميق الربط بين الإيمان

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٢/ ٤٤٠.

(٢) انظر: التربية الروحية والاجتماعية في الإسلام، د. أكرم العمري ص ٤٦٢.

والسلوك عند الصحابة رضي الله عنهم. وهذا من خلال عرض نبوي في الحديث، بين فيه ما ينبغي الالتزام به من قيم وأخلاق مع الجيران، كما أراد النبي ﷺ من ذلك تعليم الصحابة أن الإيمان الصادق ليس مجرد إدراك ذهني أو تصديق قلبي غير متبوع بأثر سلوكي عملي في الحياة. كلا إنه اعتقاد وعمل وسلوك"(١).

إن النبي ﷺ أراد أن يؤكد الصلة بين الإيمان والسلوك، وأن كلا منهما لا ينفك عن الآخر، لأن السلوك الحسن ثمرة طبيعية للإيمان الصحيح، ومن ثم فإن الإسلام لا يقيد بالشعارات ولا بالمظاهر ولا الهيئات حتى وإن كان ظاهر الإسلام، لأن الذي يعتمده الإسلام هو التطابق بين القول والعمل، وتلك المعاملة الحسنة التي تبرهن على عمق الإيمان.

ومن ثم جاء التأكيد من النبي ﷺ على أهمية هذا الأمر الذي يُعد من الأهداف الأساسية للتربية الإسلامية التي تعمل على الربط بين الإيمان والسلوك، لأنه لو ترك الإنسان ليستسلم لنزعات حرصه وطمعه لأصبح خطرًا على نفسه وجماعته، فكان لابد من توجيه طموحه إلى قيم أرفع مقرونة بالإيمان.

سادسًا- من الأساليب التربوية: الوعظ والمناقشة:

ورد في أحاديث الباب أكثر من أسلوب تربوي يمكن استخدامه في مواقف التعليم والتعلم، ومنها:

أ-الوعظ: كحديث: "لا يمنع جارٌ جاره أن يغرز خشبة في جداره"، والوعظ يستخدم في الأمور التي تعالج علاقة الإنسان بالآخرين مع ترغيبه وتذكيره بواجباته وحقوقه.

ب-المناقشة: كقول عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله إن لي جارين فإلى أيهما أهدي؟ قال: إلى أقربهما منك بابًا" والمناقشة من الأساليب التي يتميز فيها المتعلم بالإيجابية داخل حجرة الدراسة.

---

(١) الإيمان والحياة، د. يوسف القرضاوي، ١٩١، ٢٥٣.

٤٠- باب بر الوالدين وصلة الأرحام

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾[النساء: ٣٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ﴾[النساء: ١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾[الرعد: ٢١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾[العنكبوت: ٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾[الإسراء: ٢٣-٢٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَوَصَّيْنَا الأِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْك﴾[لقمان: ١٤].

الحديث رقم (٣١٢)

٣١٢- وعن أَبي عبد الرحمن عبد الله بن مسعود ﵁، قَالَ: سألت النبي ﷺ: أيُّ العَمَلِ أحَبُّ إِلَى اللهِ تَعَالَى؟ قَالَ: ((**الصَّلاةُ عَلَى وَقْتِهَا**))، قُلْتُ: ثُمَّ أي؟ قَالَ: ((**بِرُّ الوَالِدَيْنِ**))، قُلْتُ: ثُمَّ أيٌّ؟ قَالَ: ((**الجِهَادُ في سبيلِ الله**)) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢٧، ٥٩٧٠)، ومسلم (٨٥/١٣٩) ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه (٣٦٤٧). وسيكرره المؤلف برقم (١٠٧٦)، و (١٢٨٨).

الشرح الأدبي

الحديث يدور حول أفضل الأعمال، وأحبها إلى الله، وهو ما كان يسعى إليه الصحابة رضي الله عنهم، وقد قام المعنى في الحديث على أسلوب الحوار الذي أداره عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بقوله: (أي العمل أحب إلى الله) وهو استفهام على حقيقته، وتقييده بالجار، والمجرور؛ لأنه الغاية المقصودة من اختيار العمل.

والسؤال عن أفضل الأعمال مما اختلفت فيه أجوبة الرسول ﷺ لاخْتِلافِ أَحْوَالِ السَّائِلِينَ بِأَنْ أَعْلَمَ كُلَّ قَوْمٍ بِمَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، أَوْ بِمَا لَهُمْ فِيهِ رَغْبَة، أَوْ بِمَا هُوَ لائِقٌ بِهِمْ، أَوْ كَانَ الاخْتِلاف بِاخْتِلافِ الأَوْقَاتِ بِأَنْ يَكُونَ الْعَمَلُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ أَفْضَلَ مِنْهُ فِي غَيْرِهِ، فَقَدْ كَانَ الْجِهَاد فِي إِبْتِدَاءِ الإِسْلامِ أَفْضَلَ الأَعْمَالِ؛ لأَنَّهُ الْوَسِيلَةُ إِلَى الْقِيَامِ بِهَا وَالتَّمَكُّنِ مِنْ أَدَائِهَا، وَقَدْ تَضَافَرَتْ النُّصُوص عَلَى أَنَّ الصَّلاةَ أَفْضَل مِنْ الصَّدَقَةِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَفِي وَقْتِ مُوَاسَاةِ الْمُضْطَرِّ تَكُونُ الصَّدَقَةُ أَفْضَلَ، أَوْ أَنَّ "أَفْضَلَ" لَيْسَتْ عَلَى بَابِهَا بَلْ الْمُرَاد بِهَا الْفَضْل الْمُطْلَق، أَوْ الْمُرَاد مِنْ أَفْضَلِ الأَعْمَالِ فَحُذِفَتْ (مِنْ) وَهِيَ مُرَادَة.

وقوله (الصلاة على وقتها) لأن الله ربطها بزمان محدد، وفي المسارعة إظهار لمعانٍ متعددة، كالطاعة، والشوق للقائه، ومحبته، وقوله: (ثم أي) فيه حذف يستلزمه الشوق إلى المزيد وتقديره: ثم أي الأعمال أحب؟، فجاء في المرتبة الثانية بر الوالدين لعظيم فضلهما، فقد قدم الصلاة؛ لأنها حق الله، ثم بر الوالدين، ثم الجهاد؛ لأن الحاجة إليه ليست في كل وقت، كالصلاة، وبر الوالدين.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى أكثر من حكم فقهي:

الأول: أوقات أداء الصلاة، وقد سبق الكلام عنها في الحديث رقم ٢٠٨.

الثاني: حكم الجهاد في سبيل الله، وقد سبق الكلام عنه في الحديث رقم٣.

الثالث: حكم بر الوالدين، وقد اتفق الفقهاء[1] على أن بر الوالدين واجب ما دام أنهما يأمران بالمعروف، فإن كان أمرهما بمعصية فلا طاعة لهما، وأن من أكبر الكبائر عقوق الوالدين.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

ثانيًا: من واجبات المدعو: السؤال عما يخفى عليه.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على الاستزادة من الخير.

رابعًا: من مهام الداعية: إرشاد المدعوين إلى أبواب الخير.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: فضل المحافظة على الصلاة.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: فضل بر الوالدين.

سابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل الجهاد في سبيل الله.

أولاً- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

إن الداعية الناجح تقوم علاقته مع المدعوين على الحوار، ومن صور الحوار: السؤال والجواب، وقد اشتمل هذا الحديث على السؤال والجواب من عبدالله بن مسعود رضي الله عنه الذي سأل النبي صلى الله عليه وسلم: "أي الأعمال أحب إلى الله" ثم تكرر السؤال أكثر من مرة وتكرر معه الجواب، ولا يخفى أن السؤال والجواب من الأساليب الدعوية المهمة التي يستعين بها الداعية على تبليغ دعوته، ويخلق نوعًا من الحوار بين الداعية والمدعو، ويجد

---

(١) أحكام القرآن، الجصاص ٢/٢٧٤ وما بعدها، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود شرح الطيبي ٧/٩٨، وشرح السير الكبير ١/١٩٢، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم النفراوي ٢/٢٩٠، وأحكام القرآن، ابن العربي، تحقيق: علي محمد البجاوي ١/٥٤٤ وما بعدها، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٢/٤٨٦، ومغني المحتاج ٣/٥٧٤، وإحكام الأحكام ١/١٦٣ وما بعدها، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ١/١٨٤، والفروع، ابن مفلح ٦/١٩٩، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٩/١٧٠.

المدعو ضالته في الإجابة على سؤاله مباشرة، مما يؤدي إلى تفعيل العملية الدعوية.

ثانيًا- من واجبات المدعو: السؤال عما يخفى عليه:

المسلم مطالب بأن يسأل عما يجهل، لأنه لا يُعذر بجهله طالما أن باستطاعته أن يتعرف على ما خفي عليه من أمور، ولذا كان أصحاب رسول الله ﷺ يحرصون على ذلك، ومن الشواهد على هذا، سؤال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه في الحديث عن "أحب الأعمال إلى الله" ولذا فمن واجبات المدعو أن يسأل عما يجهل، ولقد أنكر النبي ﷺ على قوم قالوا من غير أن يسألوا ويعلموا فقال: ((ألاَّ سَأَلُوا إذْ لَمْ يَعْلَمُوا فإنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ))[1]. (والعي هو التحير في الكلام وعدم الضبط، والمعنى أن الجهل داء وشفاءها السؤال والتعلم)[2] والمسلم الحريص هو الذي يسأل في أمور دينه، حتى يكون على بينة من أمره، عالمًا بما هو مطلوب منه شرعًا.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على الاستزادة من الخير:

إن المسلم تواق للمعرفة، حريص على الاستزادة من الخير، فهو لا يشبع منهما أبدًا، ويظهر هذا من قول عبدالله بن مسعود رضي الله عنه في الحديث: "قلت ثم أي" وهذا يدل على أن الصحابة رضي الله عنهم يسارعون في الخيرات ويحبون الاستزادة منها، وقد وقع في رواية البخاري أيضًا للحديث ما يدل على هذا، وهو قوله "ولو استزدته لزادني".

قال ابن حجر: (يحتمل أن يريد الاستزادة من هذا النوع، وهو مراتب أفضل الأعمال، ويحتمل أن يريد من مطلب المسائل المحتاج إليها، ولكنه لم يستزد، لأنه استشعر منه مشقة، وقد جاء ما يؤيد هذا في رواية لمسلم "فما تركت أن أستزيده إلا إرعاء عليه" أي شفقة عليه لئلا يسأم)[3]، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على حرص الصحابة رضي الله عنهم على معرفة أبواب الخير والاستزادة منها، وقد جعل الله من صفات المؤمنين أنهم ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾[4].

---

(١) أخرجه أبو داود ٣٣٦، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٢٥).

(٢) عون المعبود، محمد أشرف العظيم آبادي ص ١٨٥.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ١٤/٢.

(٤) سورة المؤمنون، آية: ٦١.

وقال النووي رحمه الله: (وفي الحديث حسن المراجعة في السؤال، ورفق المتعلم بالمعلم، ومراعاة مصالحه، والشفقة عليه لقوله "فما تركت أستزيده إلا إرعاء عليه" يعني إبقاءً عليه ورفقا به)(١) ومما يدل على حرص الصحابة على الاستزادة من الخير ما جاء عن معاذ رضي الله عنه قال: ((كُنْتُ مَعَ النبيِّ في سَفَرٍ فَأَصْبَحْتُ يَوْمًا قَرِيبًا مِنْهُ وَنَحْنُ نَسِيرُ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ الله أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِي عنِ النَّارِ، قَالَ: «لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ عَظِيمٍ وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ الله عَلَيْهِ: تَعْبُدُ الله وَلاَ تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلاَةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ، ثُمَّ قَالَ: أَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الخَيْرِ: الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِىءُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِىءُ المَاءُ النَّارَ، وَصَلاَةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوفِ اللَّيْلِ، قَالَ: ثُمَّ تَلاَ: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ المَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ حَتَّى بَلَغَ: ﴿يَعْمَلُونَ﴾(٢) ثُمَّ قَالَ: أَلاَ أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الأَمْرِ كُلِّهِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ: قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ الله قَالَ: رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلاَمُ، وَعَمُودُهُ الصَّلاَةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الجِهَادُ. ثمَّ قَالَ: أَلاَ أُخْبِرُكَ بِمِلاَكِ ذَلِكَ كُلِّهِ، قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ الله، قَالَ: فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ، قَالَ: كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا. فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ الله وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: ثَكِلَتْكَ أمّك يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ في النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ، أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ، إِلاَ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ))(٣). ففي هذا الحديث يظهر حرص معاذ رضي الله عنه على الاستزادة من الخير، والسؤال عما يوصل إلى الجنة.

رابعًا- من مهام الداعية: إرشاد المدعوين إلى أبواب الخير:

إن المسلم الحق يحب الخير لإخوانه، والداعية الحق حريص على نشر الخير بين الناس ليعملوا به، ويستزيدوا منه، ومن أجل هذا لم يكن يبخل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن إرشاد مسترشد، أو تعليم سائل، وفي الحديث كلما سئل عن أحب الأعمال إلى الله يبين مراتبها وأفضلها، وقد خاطب الله رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾(٤).

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٤٧.

(٢) سورة السجدة، آية: ١٦.

(٣) أخرجه الترمذي ٢٦١٦، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢١١٠).

(٤) سورة الأحزاب، الآيتان: ٤٥- ٤٦.

فعلى الداعية الاقتداء بالنبي ﷺ في الحرص على إرشاد المدعوين، وتعريفهم بأبواب الخير، قال ابن حجر رحمه الله: (وفي الحديث بيان ما كان عليه ﷺ من إرشاد المسترشدين ولو شق عليه)[١].

ومما يدل على مدى حرصه ﷺ على نشر الخير وتعريف أمته به، ما جاء في الحديث عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمَهُ. فَقَالَ: يَا قَوْمِ إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بِعَيْنَيَّ. وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ. فَالنَّجَاءَ. فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ. فَأَدْلَجُوا فَانْطَلَقُوا عَلَى مُهْلَتِهِمْ. وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ. فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاحَهُمْ. فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي وَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ. وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ مَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ))[٢].

خامسًا- من موضوعات الدعوة: فضل المحافظة على الصلاة:

إن عمود الإسلام الصلاة، وهي أساس العلاقة بين العبد وربه، ولذا جعل رسول الله ﷺ الصلاة على وقتها من أحب الأعمال إلى الله، وقد جاء الأمر بالمحافظة على الصلاة في القرآن، قال الله تعالى: ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾[٣].

وأمر بإقامتها على الوجه الصحيح، فقال سبحانه: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾[٤].

وبين أن من صفات المؤمنين المحافظة على الصلاة، فقال جلّ شأنه: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾[٥].

وذكر أن من الذين يحفظهم الله من الجزع والهلع الذين يحافظون على الصلاة،

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ١٤/٢.

(٢) أخرجه البخاري ٦٤٨٢، ومسلم ٢٢٨٣ واللفظ له.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٣٨.

(٤) سورة البقرة، آية: ٤٣.

(٥) سورة المؤمنون، آية: ٩.

فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾[1]

وحذر الله من إضاعتها وعدم أدائها، فقال سبحانه: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾[2].

وتوعد من يتكاسل عن أدائها، فقال جلّ شأنه: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾[3].

وجاءت الكثير من الأحاديث تبين فضل الصلاة فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ((الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما لم تغش الكبائر))[4]، قال أبو الحسن الندوي: (وفي الصلاة سر لسلامة الإيمان، وسلامة الدين، والاتصال بالله تعالى، والبقاء في حظيرة الإسلام، والانخراط في سلك المؤمنين، لا يعلمه إلا الله تعالى، ومن ترك الصلاة واستغنى عنها -اعتمادًا على وصوله إلى الغايات، والنتائج التي يعتقد أن الصلاة شرعت لها، وكانت قنطرة إليها، أو اعتمادًا على مأثرة من مآثره في خدمة الإسلام والمسلمين، وكثرة عبادته في الماضي، أو طول جهاده وحسن بلائه، أو شدة اشتغاله بعمل مثمر، يعود على الإسلام والمسلمين بالفائدة، والخير الكثير- فقد عرَّض نفسه للهلاك، وأعماله للحبط، وإيمانه للضياع، وكان كالشاة المفارقة للقطيع والراعي، التي يختطفها الذئب ويفترسها. والصلاة استجابة لغريزة البشر النوعية، غريزة الافتقار والضعف والطلب، وغريزة الالتجاء والاعتصام، والدعاء والمناجاة، وغريزة الخضوع والتواضع، والعبودية والتذلل، وبالجملة فالصلاة

(١) سورة المعارج، الآيات: ١٩ - ٢٣.

(٢) سورة مريم، آية: ٥٩.

(٣) سورة الماعون، أيتان: ٤- ٥.

(٤) أخرجه مسلم ٢٣٣.

هي معقل المسلم ومفزعه)[١]، والمحافظة على الصلاة من الموضوعات المهمة التي يجب الحث عليها وترغيب الناس في فضلها.

سادسًا- من موضوعات الدعوة: فضل بر الوالدين:

إن بر الوالدين من أحب الأعمال إلى الله، لما للوالدين من حق وفضل على أبنائهما وإلى هذا أرشد الحديث، فمما جاء فيه: (قلت ثم أي: قال: بر الوالدين" وقد جاءت الوصاية ببرهما بعد الأمر بعبادة الله، قال الله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾[٢] ووصى الله ببرهما فقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾[٣] وقال سبحانه: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ﴾[٤] وقال سبحانه: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗا﴾[٥] وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًا﴾[٦].

قال صاحب التفسير الواضح: (لقد قضى ربك بأن تحسنوا إلى الوالدين إحسانًا كاملاً في المعاملة، إحسانًا ليس بعده إحسان إذ يجتمع فيهما كل أسباب المودة والعطف، فمن قرابة قريبة إلى صلة وشيجة وجوار كريم، وعطف سابغ، وحنان أبوي سليم، فلا عجب أن ترى القرآن يجمع بين الأمر بعبادة الله والأمر بالإحسان إليهما، ويجمع بين الشكر لله وللوالدين)[٧].

وكثرت الأحاديث التي تحث على بر الوالدين، فعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: جاء رجل يستأذن النبي ﷺ في الجهاد قال له: ((أحيٌّ والداكَ؟ قال: نعم. قال: ففيهما فجاهد))[٨] وحذر من عقوقهما، وجعل ذلك من الكبائر، فعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما

---

(١) الأركان الأربعة ٢٨-٢٩.

(٢) سورة النساء، آية: ٣٦.

(٣) سورة الإسراء، آية: ٢٣.

(٤) سورة لقمان، آية: ١٤.

(٥) سورة العنكبوت، آية: ٨.

(٦) سورة الأحقاف، آية: ١٥.

(٧) التفسير الواضح، د. محمد محمود حجازي، مج٢/١٥/١٨.

(٨) أخرجه البخاري ٣٠٠٤، ومسلم ٢٥٤٩.

عن النبي ﷺ قال: ((الكبائرُ الإشراك بالله، وعقوق الوالدَين، وقتلُ النفسِ، واليمين الغموسُ))[١]. وبين الرسول الكريم ﷺ: أن برهما من أحب الأعمال إلى الله كما في الحديث الذي معنا.

قال د. خليل إبراهيم ملا خاطر: (ومما يدل على عظم حق الوالدين على الولد، أن برهما من أحب الأعمال إلى الله تعالى، كما أن العقوق من أكبر الكبائر، وبرهما أفضل من الجهاد في سبيل الله، فلا يجوز الجهاد ولا الهجرة إلا بعد استئذانهما، وبرهما ينوب عن الجهاد، ويجب الإحسان إليهما ولو كانا مشركين، والولد لا يؤدي حق أمه مهما فعل، ويلزمه وصالهما وإن هجراه، ورضاء الله سبحانه في رضائهما، وقد أوجب الشرع الإحسان إليهما، ليصل إلى البر والعدل، وما هو بواصل لسبقهما وفضلهما عليه، لذا جاءت الوصية بهما)[٢].

سابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل الجهاد في سبيل الله:

إن الجهاد ذروة سنام الإسلام، وهو من أحب الأعمال إلى الله، لما فيه من التضحية بالنفس والمال في سبيل الله، مما يدلل على صدق صاحبه في إيمانه بالله عز وجل، وقد أرشد الحديث إلى فضل الجهاد، ويظهر هذا لما سئل رسول الله ﷺ ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله "وما لا شك فيه أن الجهاد في سبيل الله له أجر كبير وفضل عظيم قال الله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾[٣] وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[٤] وقال جل شأنه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَ﴾[٥] وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ

---

(١) أخرجه البخاري ٦٦٧٥.

(٢) بر الوالدين ١٤.

(٣) سورة الحج، آية: ٧٨.

(٤) سورة الصف، آية ١٠، ١١.

(٥) سورة التوبة، آية: ١١١.

وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾[(١)].

وحث رسول الله على الجهاد في سبيل الله فعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((غَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ أَوْ غَرَبَتْ))[(٢)] وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إنَّ في الجنةِ مائةَ درجةٍ أعدَّها الله للمجاهدينَ في سَبيلِ الله ما بينَ الدرجتين كما بينَ السماءِ والأرض))[(٣)]. والنصوص الشرعية في هذا الباب كثيرة، ويبقى على الدعاة إبراز هذا الموضوع واستحضار هذه المعاني والنصوص، لإعلاء قيمة الجهاد في سبيل الله.

"ولما كان الجهاد هو الحجة والبرهان على صدق الإيمان، كانت منازل الناس عند ربهم في الدنيا والآخرة حسب ما يقومون به من جهاد، وما يقدمونه من تضحيات، فمن حاز قصب السبق منه، وجب على المجتمع المسلم أن يرفعه ويكرمه، ومن فترت همته لم يجز تسويته بالمجاهدين. فالجهاد قيمة عليا من القيم التي يتعامل بها المجتمع المسلم، وإنما كان العلم والتقوى من تلك القيم، لأنها أنواع من الجهاد، لما في العلم من دوافع للجهاد، ومعرفة طريقه، والتثبيت عليه، ولما في التقوى من جهاد النفس، وإلزامها بطاعة الله وترك نواهيه سبحانه، وكذلك فإن العلم والتقوى ثمرة من ثمار الجهاد في سبيل الله تعالى، قال الله عز وجل: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾[(٤)]، ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أكرم الخلق وأكملهم عند الله، لأنه كمل مراتب الجهاد كلها، وجاهد في الله حق جهاده من حين بعث إلى أن توفاه الله، وجاهد بقلبه وجنانه، ودعوته وبيانه، وسيفه وسنانه، وكانت ساعاته وأيامه وعمره موقوفة جميعها على الجهاد[(٥)].

---

(١) سورة التوبة، آية: ٢٠.

(٢) أخرجه مسلم ١٨٨٣.

(٣) أخرجه البخاري ٢٧٩٠.

(٤) سورة العنكبوت، آية: ٦٩.

(٥) الجهاد ميادينه وأساليبه، د. محمد نعيم ياسين ص ٢٤٤-٢٤٥.

الحديث رقم (٣١٣)

٣١٣- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه ، قَالَ: قَالَ رَسُول الله صلى الله عليه وسلم : ((**لا يَجْزِي وَلَدٌ وَالِدًا إلاَّ أنْ يَجِدَهُ مَمْلُوكًا، فَيَشْتَرِيهُ فَيُعْتِقَهُ**)) رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

لا يجزي: لا يكافئ[2].

الشرح الأدبي

الحديث أسلوبه خبري قام على أسلوب القصر حيث قصر صفة جزاء الولد لوالده على حالة وجدانه له مملوكاً فيعتقه، ونفى أن يوفيه حقه أي فعل آخر، وتنكير ولد، ووالد للتعميم لتشمل كل أب، وأم، وكل مولود مهما بلغ في بره لوالديه، وقوله: (أن يجده) توحي الجملة بالبحث، والجد فيما فيه بر والديه، ثم إن قوله (مملوكاً) يدل على أن هذا الوالد لم يقم بدوره كاملاً كأب لهذا الولد الذي فتش عنه، وأعتقه لأن هذا الوالد كان لا يملك شيئاً بل لا يملك نفسه، ومع هذا تحرك الولد، وبذل جهده في إيجاده، وبذل ماله في عتقه، كما أن عطف الفعلين بالفاء خاصة في (فيشتريه، فيعتقه) يدل على حفاوة هذا الولد بوالده على ما هو عليه، وهذا يشير إلى أمر من الأهمية بمكان، وهو أن المسألة في بر الوالدين ليست على سبيل المكافأة، بل هو طاعة لله أحسن الوالدين إلى أبنائهم أم أساءوا؛ ولذلك قال تعالى: (وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً) [الإسراء: ٢٣] ولذا كانت صورة عتق الولد لوالده هي الصورة الوحيدة التي يجزي فيها الولد والديه، وقد انتهت بانتهاء الرق، والعبودية، فلن يجزي ولد والده فليسعى، وليجتهد في بر والديه، وليعلم أنه مقصر.

---

(١) برقم (١٥١٠/٢٥). أورده المنذري في ترغيبه (٣٦٤٨).

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٩٦١.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: القصر والحصر.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: عظم حق الوالد على أولاده.

ثالثًا: من مهام الداعية: إرشاد الناس إلى الخير.

أولاً- من أساليب الدعوة: القصر والحصر:

حيث جاء في الحديث: "لا يجزي ولد والدًا إلا أن يجده" ولاشك أن القصر والحصر يفيد التخصيص، وهو من الأساليب النافعة في الدعوة، حيث يحدد الداعي ويخصص ما يريد قوله، وهو يساعد على زيادة الإفهام للمدعو حتى لا تلتبس عليه الأمور. وقد قصر النبي في الحديث قدرة مجازاة الولد لوالده على العتق فحسب.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة:عظم حق الوالد على أولاده:

تستقيم الحياة الاجتماعية بمعرفة منظومة الحقوق والواجبات. ومن ثم فمن الموضوعات الدعوية المهمة بيان عظم حق الوالد على أولاده، حيث جاء في الحديث أنه لا يكافئ إحسان الوالد شيء إلا العتق فحسب، فقال ﷺ "لا يجزي ولد والدًا إلا أن يجده مملوكًا فيشتريه ويعتقه" قال النووي: (أي لا يكافئه بإحسانه وقضاء حقه إلا أن يعتقه)[(١)] أما عن السر في كون العتق هو الذي يكافئ إحسان الوالد، فذلك (لأن العتق أفضل ما ينعم به أحد على أحد، إذ خلصه بذلك من الرق وجبر به النقص الذي فيه، وتكمل له أحكام الأحرار في جميع التصرفات)[(٢)].

ومما لاشك فيه أن فضل الوالد على ولده عظيم، كيف لا؟ وقد جعل الله الإحسان إلى الوالدين بعد الأمر بعبادته، قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾[(٣)].

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٩٦١.

(٢) تحفة الأحوذي المباركفوري، ١٦١٨/٢.

(٣) سورة النساء، آية: ٣٦.

وأمر بالشكر لهما بعد شكره، فقال جلّ شأنه: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾[١].

وأوصى بحسن صحبتهما، حتى وإن جاهدا الإنسان على الكفر، فقال سبحانه: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾[٢].

ونهى عن إيذائهما بالقول فضلاً عن الفعل، فقال تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾[٣].

ونبه إلى خفض الجناح لهما، والدعاء لهما بالرحمة، عرفانًا بالجميل والفضل، فقال عز وجل: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾[٤].

قال القرطبي رحمه الله: (هذا أمر من الله تعالى لعباده بالترحم على آبائهم والدعاء لهم، وأن ترحمهما كما رحماك، وترفق بهما كما رفقا بك، وخص التربية بالذكر ليتذكر العبد شفقة الأبوين وتعبهما في التربية، فيزيده ذلك إشفاقًا لهما وحنانًا عليهما)[٥]. وجعل رسول الله ﷺ الإحسان إلى الوالدين سببًا لدخول الجنة، فمن قصر فيه حرمها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((رَغِمَ أَنْفُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ» قِيلَ: مَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ «مَنْ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ عِنْدَ الْكِبَرِ، أَحَدَهُمَا أَوْ كِلَيْهِمَا فَلَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ))[٦].

---

(١) سورة لقمان، آية: ١٤.

(٢) سورة لقمان، آية: ١٥.

(٣) سورة الإسراء، آية: ٢٣.

(٤) سورة الإسراء، آية: ٢٤.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢٤٤/٥.

(٦) أخرجه مسلم ٢٥٥١.

وجعل من برهما إكرام صديقهما بعد موتهما، فعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إِنَّ أَبَرَّ الْبِرِّ صِلَةُ الْوَلَدِ أَهْلَ وُدِّ أَبِيهِ))[1] هذا ولقد كان الإحسان إلى الوالدين من أخلاق الأنبياء، فقال الله تعالى عن يحيى عليه السلام: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾[2] ولما أنطق الله عيسى عليه السلام قال: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾[3] ولما حاور إبراهيم عليه السلام أباه خاطبه بقوله: يا أبت، ولما وصل الحوار بينهما إلى طريق مسدود تلطف به في الخطاب، فمما جاء على لسانه قوله تعالى: ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾[4] ومن خلال ما سبق يتضح فضل الإحسان إلى الوالدين، وعظم حق الآباء على الأبناء.

ثالثًا- من مهام الداعية: إرشاد الناس إلى الخير:

لا يزال الناس -دائمًا- في حاجة إلى مذكر ومرشد يذكر بالله، ويرشدهم إلى ما فيه منفعتهم، وكانت هذه هي مهمة الأنبياء على اختلاف الأزمان، وبعد انقطاع خبر السماء أصبحت مهمة الدعاة والمصلحين، وفي ظل غواية الشيطان، وانهماك الناس في الحياة الدنيا، يأتي دور الدعاة لإرشاد الناس إلى الخير، وأعمال البر التي توصل إلى الجنة، وتصل المسلم بالله، وفي هذا الحديث يرشد النبي ﷺ إلى فضل الإحسان إلى الوالدين، وأنه لا يعدله شيء إلا العتق فحسب.

---

(١) أخرجه مسلم ٢٥٥٢.

(٢) سورة مريم، آية ١٤.

(٣) سورة مريم، آية: ٣٢.

(٤) سورة مريم، آية: ٤٧.

الحديث رقم (٣١٤)

٣١٤- وعنه أيضًا رضي الله عنه: أن رَسُول الله صلى الله عليه وسلم، قَالَ: ((مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللهِ وَاليَومِ الآخِرِ، فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللهِ وَاليومِ الآخِرِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللهِ وَاليَومِ الآخِرِ، فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ)) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

سبق شرح هذا الحديث خلال الحديث (٣١٣)، والحديث (٣١٤) بزيادة قوله (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فليصل رحمه) ترغيباً في صلة الرحم عن طريق تعليق الإيمان بالله، واليوم الآخر على صلة الرحم، وهو ما يشير إلى قيمة هذه الرابطة، وأثرها على سلامة الأسر المسلمة ثم إن هذا الحديث بني على التكرار الذي ينبيء باستقلال كل خصلة من الخصال المذكورة في التأثير على إيمان العبد، وتقييد الفعل المكرر (يؤمن) بالجار والمجرور (بالله) وعطف اليوم الآخر عليه فيه تربية للمهابة، والإجلال مع التلويح باليوم الآخر إلى الجزاء المقابل للفعل الحسن بالحسنى، والفعل السيئ بالسوء، مما يدفع بالعبد إلى الحسنى، ويعلى من قيمة هذه الخصال الطيبة، ثم إن الإضافة في قوله: (ضيفه - رحمه) توحي باختصاصه به، وتؤكد حقَّه عليه.

فقه الحديث

في هذا الحديث من الفقه ما يلي:

١- الحكم التكليفي للضيافة: تعتبر الضيافة من مكارم الأخلاق، وسنة الخليل عليه الصلاة والسلام والأنبياء بعده، وقد رغب فيها الإسلام، وعدها من أمارات صدق الإيمان.

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٣٨)، ومسلم (٤٧/٧٥) ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه (٣٦٩٤).

أما حكمها: فقد ذهب الحنفية، والمالكية، والشافعية، ورواية للحنابلة، إلى أنها سنة، مدتها ثلاثة أيام.

وذهب الحنابلة، في رواية ثانية -هي المذهب- إلى أنها واجبة، ومدتها يوم وليلة، والكمال ثلاثة أيام، وبهذا يقول الظاهرية[١].

٢- صلة الرحم:

قال القاضي عياض: (لا خلاف أن صلة الرحم واجبة على الجملة، وقطعها كبيرة، والأحاديث في هذا الباب من منعه الجنة يشهد لذلك[٢] ولكن الصلة درجات، بعضها فوق بعض، وأدناها ترك المهاجرة وصلتها بالكلام ولو بالسلام، ويختلف ذلك باختلاف القدرة والحاجة، فمنها واجب، ومنها مستحب.

واختلفوا في حد الرحم التي تجب صلتها، فقيل هو كل رحم محرم، بحيث لو كان أحدهما ذكرًا والآخر أنثى حرمت مناكحتهما، فعلى هذا لا يدخل أولاد الأعمام وأولاد الأخوال، واحتج القائل بهذا بتحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها في النكاح ونحوه[٣].

وجواز ذلك في بنات الأعمام والأخوال، وقيل هو عام في كل رحم من ذوي الأرحام في الميراث، يستوي المحرم وغيره، ويدل عليه قوله ﷺ: ((ثم أدناك أدناك))[٤] هذا كلام القاضي[٥]. قال النووي رحمه الله: (وهذا القول الثاني هو الصواب، ومما يدل عليه

---

(١) شرح معاني الآثار ٣٤١/٥ وما بعدها، ٣٣٤/٤، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٥٧/٩، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٤٢٩/٩، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ١٦٣/١٦، والمحلى، ابن حزم ١٤٦/٨.

(٢) أخرجه البخاري ٥٩٨٤، ومسلم ٢٥٥٦ مرفوعًا: "لا يدخل الجنة قاطع" قال سفيان: يعني قاطع رحم.

(٣) أخرجه البخاري ٥١٠٩، ومسلم ١٤٠٨ مرفوعًا: "لا يجمع بين المرأة وعمتها ولا بين المرأة وخالتها".

(٤) أخرجه مسلم ٢٥٤٨، ٢.

(٥) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٢٠/٨-٢١، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٩١/١٦/٨-٩٢.

الحديث في أهل مصر "فإن لهم ذمة ورحمًا"[١]، وحديث: "إن أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه"[٢] مع أنه لا محرمية، والله أعلم).

٣-حفظ اللسان:

قال النووي: (اعلم أنه ينبغي لكل مكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام، إلا كلامًا ظهرت فيه المصلحة، ومتى استوى الكلام وتركه في المصلحة، فالسنة الإمساك عنه، لأنه قد ينجرّ الكلام المباح إلى حرام أو مكروه، وذلك كثيرٌ في العادة، والسلامة لا يعدلها شيء. وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت". وهذا صريح في أنه ينبغي أن لا يتكلم إلا إذا كان الكلام خيرًا، وهو الذي ظهرت مصلحته، ومتى شك في ظهور المصلحة، فلا يتكلم)[٣].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الشرط، والتكرار.

ثانيًا: من مهام الداعية: إرشاد الناس إلى محاسن الأخلاق.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل إكرام الضيف.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل صلة الرحم.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: فضل التكلم بخير وفضيلة الصمت.

١- **الشرط**: حيث جاء في الحديث "من كان يؤمن" وأسلوب الشرط من أساليب الدعوة التي تجعل المدعو يتطلع لانتظار الجواب، وتثير انتباهه بما فيه من التشويق، وبيين ارتباط الجزاء بالعمل. وفي الحديث اشترط النبي صلى الله عليه وسلم لكمال الإيمان فعل هذه الأمور الواردة في الحديث.

---

(١) أخرجه مسلم ٢٥٤٣.

(٢) أخرجه مسلم ٢٥٥٢.

(٣) رياض الصالحين ٥١٩-٥٢٠، أو كتاب الأمور المنهي عنها، وانظر: الأذكار، النووي ٣٧٠.

٢- **التكرار:** حيث كرر النبي ﷺ جملة "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر" ثلاثًا، ولاشك أن التكرار أسلوب من أساليب الدعوة التي تساعد على تعميق الفهم، ولقد كان هذا من هدي النبي ﷺ فعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ ((كان إذا سلَّم سلَّم ثلاثًا، وإذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثًا. حتى تفهم عنه))(١).

ثانيًا- من مهام الداعية: إرشاد الناس إلى محاسن الأخلاق:

يستنبط هذا من عموم الحديث حيث أرشد النبي ﷺ إلى إكرام الضيف، وصلة الرحم، وقول الخير، وكل هذا من محاسن الأخلاق، وللأخلاق دور عظيم في حياة الأفراد والأمم، ومن هنا كان الاهتمام بها في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ (وفي رواية: صالح) الأَخْلاَقِ))(٢).

وأوصى النبي ﷺ بحسن الخلق فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: ((اتَّقِ اللَّه حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسِ بِخُلُقٍ حَسَنٍ))(٣). وحُسْن الخلق يبلغ به المسلم أعلى الدرجات، ففي الحديث عن عائشة رضي الله عنها قالت: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يقُولُ: ((إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ))(٤).

وبحسن الخلق يحظى المؤمن ببيت في الجنة. ففي الحديث عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((أَنَا زَعِيمُ بَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا، وَبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسُنَ خُلُقُهُ))(٥).

قال ابن القيم رحمه الله: (جمع النبي ﷺ بين تقوى الله وحُسن الخلق، لأن تقوى الله

---

(١) أخرجه البخاري ٩٥.

(٢) أخرجه أحمد ٢/٣٨١ رقم ٨٩٥٢، وقال محققو المسند: صحيح وهذا إسناد قوي ١٤/٥١٣.

(٣) أخرجه الترمذي، ١٩٨٧، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٦١٨).

(٤) أخرجه أبو داود ٤٧٩٨، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤٠١٣).

(٥) أخرجه أبو داود ٤٨٠٠، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤٠١٥).

تصلح ما بين العبد وبين ربه، وحُسن الخلق يُصلح ما بينه وبين خلقه، فتقوى الله توجب له محبة الله، وحسن الخلق يدعو الناس إلى محبته)[١].

ولذا وجب على الدعاة أن يبينوا للناس منزلة الخلق الحسن، لما له من أثر في توطيد العلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل إكرام الضيف:

إن المؤمن سخي اليد كريم النفس جواد معطاء، والسخاء والكرم من علائم الإيمان الصحيح، ولذا ربط النبي ﷺ بين الإيمان بالله واليوم الآخر وبين إكرام الضيف، قال ابن علان: (وهذا مما يوقظ النفس ويحركها في الهمة للمبادرة إلى امتثال جزاء هذا الشرط وما هو مثله، وإكرام الضيف يشمل الغني والفقير، ويكون بحسن البشر، والمبادرة بما تيسر عنده من الطعام من غير كلفة ولا إضرار بأهله، إلا أن يرضوا وهم بالغون عاقلون)[٢].

هذا وقد اشتهر من الأنبياء إبراهيم عليه السلام بإكرام الضيف، قال الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾[٣].

وأمر الرسول الكريم أن يأخذ الضيف حقه، فعن عبدالله بن عمرو قال: دخل عليَّ رسول الله ﷺ فقال: ((ألم أُخبَرْ أنكَ تقومُ الليلَ وتصومُ النهار؟ قلت: بَلى. قال: فلا تَفعلْ، قُم ونَم، وصُم وأفطِر، فإنَّ لجسَدِكَ عليك حقًا وإن لِعَينكَ عليكَ حقًا، وإنَّ لزَورِك عليكَ حقًا، وإنَّ لزَوجكَ عليكَ حقًا))[٤].

ولأهمية إكرام الضيف بين النبي ﷺ ماله وما عليه، فعن أبي شريح الكعبي رضي الله عنه

(١) الفوائد، ابن القيم، تحقيق: محمد عثمان الخشت ص ٧٥.

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٥٠٨.

(٣) سورة الذاريات، آية: ٢٤، ٢٥.

(٤) أخرجه البخاري ٦١٣٤، و مسلم ١١٥٩.

أن رسول الله ﷺ قال: ((مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِالله واليَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، جَائِزَتُهُ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ، وَضِيَافَتُهُ ثَلاثَةُ أَيَّامٍ فَمَا كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ صَدَقَةٌ. وَلاَ يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَثْوِيَ عِنْدَهُ حَتَّى يُحْرِجَهُ))(١) وعلى الدعاة تذكير الناس بهذه الحقوق والواجبات، حتى يعملوا بها.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل صلة الرحم:

إن التواصي بالمرحمة من دلائل صلاح المجتمع، ومراعاة صلة الأرحام وعدم قطيعتها من كمال الإيمان، وقد جعل النبي ﷺ من الإيمان بالله واليوم الآخر صلة الرحم، وقد دلت نصوص القرآن الكريم على أهمية صلة الرحم، فقد جعل الله من جملة أولي الألباب وصفاتهم ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾(٢) (وظاهر الآية يشمل كل ما أمر الله بصلته ونهى عن قطعه من حقوق الله وحقوق جميع العباد، خصوصًا حقوق الأقارب التي هي صلة الرحم من باب أولى)(٣). وذم الله عز وجل قاطعي الرحم، فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾(٤).

وجعل النبي ﷺ صلة الرحم سببًا لزيادة الرزق وبركة العمر، فقال: ((مَن سَرَّهُ أن يُبسَطَ لهُ في رِزقهِ أو يُنْسَأَ لهُ في أثَرِهِ فلْيَصِلْ رحِمَه))(٥) وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ((ليس الواصلُ بالمكافئ، ولكنِ الواصلُ الذي إذا قُطعَت رحمهُ وَصلَها))(٦).

---

(١) أخرجه البخاري ٦١٣٥ واللفظ له، و مسلم ٤٨.

(٢) سورة الرعد، آية: ٢١.

(٣) التفسير الواضح، د. محمد محمود حجازي، ٢/١٣/٤٣.

(٤) سورة محمد، آية: ٢٢، ٢٣.

(٥) أخرجه البخاري ٥٩٨٦، مسلم ٢٥٥٧.

(٦) أخرجه البخاري ٥٩٩١.

قال ابن حجر رحمه الله: (ولا يلزم من نفي الوصل ثبوت القطع، فهم ثلاث درجات: مواصل ومكافئ وقاطع، فالواصل من يتفضل ولا يتفضل عليه، والمكافئ الذي لا يزيد في الإعطاء على ما يأخذ، والقاطع الذي يتفضل عليه ولا يتفضل، وكما تقع المكافأة بالصلة بين الجانبين، كذلك تقع بالمقاطعة من الجانبين، فمن بدأ حينئذٍ فهو الواصل، فإن جوزي سمى من جازاه مكافئًا)(١).

وقال النووي: (قال القاضي عياض: ولا خلاف أن صلة الرحم واجبة في الجملة وقطيعتها معصية كبيرة، والأحاديث في الباب تشهد لهذا، ولكن الصلة درجات بعضها أرفع من بعض، وأدناها ترك المهاجرة، وصلتها بالكلام ولو بالسلام، ويختلف ذلك باختلاف القدرة والحاجة، فمنها واجب، ومنها مستحب ولو وصل بعض الصلة ولم يصل غايتها لا يسمى قاطعًا، ولو قصر عما يقدر عليه وينبغي له لا يسمى واصلاً)(٢).

خامسًا- من موضوعات الدعوة: فضل التكلم بخير وفضيلة الصمت:

إن الإسلام يربي المسلم على المسئولية عن كل ما يصدر منه حتى الكلام والألفاظ ليزن المسلم ما يقول بميزان الشرع. وقد جعل رسول الله ﷺ من الإيمان بالله واليوم الآخر التكلم بخير أو الصمت، قال النووي: (معناه أنه إذا أراد أن يتكلم فإن كان ما يتكلم به خيرًا محققًا يثاب عليه واجبًا أو مندوبًا فليتكلم، وإن لم يظهر له أنه خير يثاب عليه فليمسك عن الكلام، سواء ظهر له أنه حرام أو مكروه أو مباح مستوى الطرفين، فعلى هذا يكون الكلام المباح مأمورًا بتركه مندوبًا إلى الإمساك عنه، مخافة من انجراره إلى المحرم أو المكروه، وهذا يقع في العادة كثيرًا أو غالبًا)(٣).

وقال ابن حجر: (وفي هذا الحديث أن المرء إذا أراد أن يتكلم فليفكر قبل كلامه فإن علم أنه لا يترتب عليه مفسدة، ولا يجر إلى محرم ولا مكروه فيتكلم، وإن كان مباحًا فالسلامة في السكوت، لئلا يجر إلى المحرم والمكروه)(٤) وقد بين الله تعالى أن

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٣٧/١٠.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٣٤

(٣) المرجع السابق ١٢٣.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٤٩/١٠.

كل لفظ خارج من الإنسان مكتوب عليه، قال تعالى: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[(١)].

وجعل الله من صفات المؤمنين إعراضهم عن اللغو، فقال سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾[(٢)].

وكذلك من صفات عباد الرحمن ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِٱللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾[(٣)].

وبين رسول الله ﷺ أن الكلمة تخرج من الإنسان قد يدخل بها الجنة، وقد تهوى به في النار، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((إنَّ العبدَ ليتكلمُ بالكلمة من رِضوانِ اللهِ لا يُلقي لها بالاً يرفَعُه اللهُ بها درجات، وإن العبدَ ليتكلمَ بالكلمة من سَخَط الله لا يُلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم))[(٤)]. والإنسان العاقل من إذا وجد خيرًا في الكلام تكلم وإلا أنصت واستمع، فإن زلة اللسان ليس بعدها زلة. قال الإمام الماوردي: (ومن شروط الكلام أن يكون لداعٍ يدعو إليه، إما في اجتلاب نفع، أو دفع ضرر، فإن مالا داعي له هذيان، وما لا سبب له هُجْر. قال عمر بن عبدالعزيز: "من لم يعد كلامه من عمله كثرت خطاياه" وقال بعض الحكماء: عقل المرء مخبوء تحت لسانه. وقال بعض البلغاء: احبس لسانك قبل أن يطيل حبسك، أو يتلف نفسك، فلا شيء أولى بطول حبس من لسان يقصر عن الصواب، ويسرع إلى الجواب. وقال أبو تمام الطائي:

ومما كانت الحكماء قالت ... لسان المرء من تبع الفوائد

وكان بعض الحكماء يحسم الرخصة في الكلام، ويقول: إذا جالست الجهال

---

(١) سورة ق، آية: ١٨.

(٢) سورة المؤمنون، آية: ٣.

(٣) سورة الفرقان، آية: ٧٢.

(٤) أخرجه البخاري ٦٤٧٨ واللفظ له، ومسلم ٢٩٨٨ مختصرًا.

فأنصت لهم، وإذا جالست العلماء فأنصت لهم، فإن في إنصاتك للجهال زيادة في الحلم، وفي إنصاتك للعلماء زيادة في العلم)[١].

فعلى الدعاة تذكير المدعوين بهذه النصوص، وحثهم على الكلام في الخير والإمساك عن الشر.

---

(١) أدب الدنيا والدين ٢٦٦-٢٦٧.

الحديث رقم (٣١٥)

٣١٥- وعنه، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: ((إنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ الخَلْقَ حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْهُمْ قَامَتِ الرَّحِمُ، فَقَالَتْ: هَذَا مُقَامُ العَائِذِ بِكَ مِنَ القَطِيعَةِ، قَالَ: نَعَمْ، أمَا تَرْضَيْنَ أنْ أصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وَأقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ؟ قَالَتْ: بَلَى، قَالَ: فَذَلِكَ لَكِ، ثُمَّ قَالَ رَسُول الله ﷺ: ((اقْرَؤُوا إنْ شِئْتُمْ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾[محمد: ٢٢-٢٣] مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[١].

وفي رواية للبخاري[٢]: فَقَالَ الله تَعَالَى: ((مَنْ وَصَلَكِ، وَصَلْتُهُ، وَمَنْ قَطَعَكِ، قَطَعْتُهُ)).

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

العائذ: المستعيذ وهو المعتصم بالشيء المستجير به[٣].

الشرح الأدبي

الرسول ﷺ في هذا الحديث يحكي حواراً طريفاً يثير الأذهان، ويشوِّق النفوس بين الرحم وبين الله تبارك يبيِّن من خلاله منزلة صلة الرحم عند الله وعظم قدرها وقد استخدم في نقل هذا الحوار عدة أساليب بلاغية منها:

أسلوب التوكيد بإن مع اسمية الجملة في بداية الحديث مما يعكس أهمية الخبر وأيضاً لما يتسم به الخبر من غرابة، وطرافة لم يسمع بها المخاطبون، وتصدر لفظ الجلالة للجملة الأولى في الحديث يربي المهابة ويضفي على السياق قدسية توفر عليه

(١) أخرجه البخاري (٥٩٨٧)، ومسلم واللفظ له (٢٥٥٤/١٦). أورده المنذري في ترغيبه (٣٧١٠).

(٢) برقم (٥٩٨٨).

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٤٤/٨.

إذعاناً، وقبولاً، وخضوعاً، وقوله: (خلق الخلق) جناس مستوفي يؤكد المعنى، ويجذب السمع ويثير العقل، وقوله: (قالت الرحم) إسناد القول إلى الرحم يحتمل أن يكون بلسان الحال، ويحتمل أن يكون بلسان المقال تتكلم كما هي، أو يخلق الله لها عند كلامها حياة وعقلاً، وقوله: (أترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك ؟) استفهام غرضه، الإشادة، والتكريم، وبيان المنزلة والترغيب في صلة الرحم والتحذير من قطعها، وفي العبارة مقابلة بين جملة (أصل من وصلك) وجملة: (أقطع من قطعك) تؤكد المعنى الذي بني الحديث على إبرازه، وتوضيحه، وهو عظمة، وفضل صلة الرحم وما لهذه الوشيجة من منزلة عند الله صوَّرتها هذه المقابلة التي أعطت الواصل أعظم جزاء يطمح إليه مؤمن، وهو وصل الله له، وحرمت المحروم قاطع رحمه من هذه الصلة وكان جزاؤه قطع الله لصلته، وهذا الحوار الذي صوّره حديث الرسول ﷺ ينبئ عن خصوصية هذه الصلة وما لها من جزاء عند الله للواصل، وأسلوب الحديث البلاغي ينبئ أيضاً بعظيم خطأ القطيعة وخسارة القاطع وفضل الوصل تجد ذلك في بداية الرسول - بأسلوب التوكيد الذي يعكس اهتمامه ثم هذا التصوير البياني الرائع الذي أعطى الرحم منزلة خواص الملك الذين يدخلون على الملك كما يشاءون، ويطلبون ما يريدون ثم الاستفهام الذي جاء تكريماً وإشادة، وتنويهاً بالفضل، ثم باستجابته - تعالى بقوله (فهو لك) فالضمير يصوِّر ما سألت قائماً محققاً مملكاً لها بلام الملك المتصلة بكاف الخطاب عزاً وكرامة، هذا الاهتمام من الله - تعالى - ومن رسوله ﷺ يشير من قريب إلى ضرورة المحافظة على هذه الوشائج التي تجعل المجتمع بنية متماسكة أفراداً في أسرة واحدة وأسراً في قرية واحدة وقرىً في مجتمع شديد الترابط لا يستطيع مفسد أن ينال من وحدته، أو يضعف من قوته.

ولإدراك الرسول ﷺ لأثر هذه الوشيجة على المجتمع وأمنه واستقراره منعاً للفتن أتبعها بقوله ﷺ فاقرؤوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾[1]. أي: توليتم أمور الناس أو من التولي والإعراض عن الإيمان

---

(١) سورة محمد:٢٢

وهذا على كون المراد المنافقين، فعطف قطيعة الرحم على الإفساد في الأرض، فالآية ترفع درجة الإحساس بالخطأ، وتعلى من شأن صلة الرحم.[1]

فقه الحديث

في الحديث من الأحكام ما يأتي:

-تعظيم شأن الرحم، وفضيلة واصليها، وعظيم إثم قاطعيها لورود الوعيد الشديد في ذلك[2].

هذا: وقد اختلفوا في الرحم التي يجب وصلها:

فقيل: كل رحم محرم، بحيث لو كان أحدهما ذكرًا، والآخر أنثى حرمت مناكحتهما، فعلى هذا: لا يدخل أولاد الأعمام، ولا أولاد الأخوال.

-واحتج لذلك بتحريم الجمع بين المرأة وعمتها، أو خالتها في النكاح وجواز ذلك في بنات الأعمام، والأخوال.

وقيل: كل قريب، محرمًا كان أو غيره، ويدل عليه قوله ﷺ: ((... ثم أدناك أدناك))[3].[4]

-والقول الثاني هو الأصح، وإن كانت تتفاوت درجاتها، ففي الوالدين أشد من المحارم، وفيهم أشد من بقية الأرحام[5].

-والوصل المأمور به، إنما هو حق المؤمنين، أما الكفار والفساق فتجب المقاطعة لهم إذا لم تنفع الموعظة.

-واختلف العلماء بأي شيء تحصل القطيعة: فقال الزين العراقي: تكون بالإساءة

---

(١) بلاغة الرسول ﷺ في تقويم أخطاء الناس دراسة في الصحيحين، د. ناصر راضي الزهري ص ٦٤.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١١٢/١٦، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤١٩/١٠.

(٣) أخرجه مسلم ٢٥٤٨.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١١٢/١٦، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤١٩/١٠.

(٥) (٤٤١)، رد المحتار على الدر المختار المسمى بـ "حاشية ابن عابدين"، محمد أمين بن عمر عابدين، تحقيق: علي محمد معوض ٤١١/٦.

إلى الرحم، وقال غيره: تكون بترك الإحسان، وذلك لأن الأحاديث آمرة بالصلة ناهية عن القطيعة، فلا واسطة بينهما، والصلة نوع إحسان، والقطيعة ضدها، وهي ترك الإحسان[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد، والأمر، والاستشهاد بالقرآن الكريم، والشرط.

ثانيًا: من مهام الداعية: بيان الحقائق للناس.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل صلة الرحم والتحذير من قطيعتها.

أولاً- من أساليب الدعوة: التوكيد، والأمر، والاستشهاد بالقرآن الكريم، والشرط:

١- **التوكيد**: حيث جاء التوكيد في الحديث في قوله ﷺ "إن الله تعالى" ومما لا شك فيه أن التوكيد أسلوب من أساليب الدعوة التي تؤدي إلى إقناع المدعوين. وقد أكد النبي ﷺ قوله (بإن): لإفادة أن الله هو خالق الخلق من العدم.

٢- **الأمر**: ويظهر الأمر في الحديث في قوله ﷺ "اقرءوا إن شئتم" لبيان أهمية صلة الرحم وأثر ذلك في حياة المسلم، وقد كثر في القرآن الكريم استخدام أسلوب الأمر في توجيه الناس إلى الخير. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾[2].

٣- **الاستشهاد بالقرآن الكريم**: يظهر من قوله ﷺ: "واقرؤوا إن شئتم: "فهل عسيتم إن توليتم ... إلى آخر الآيتين". وهو من الأساليب المقنعة في الدعوة، حيث تقام الحجة على المدعو بما يُستشهد به من آيات القرآن، ولاشك أن القرآن الكريم هو المصدر الأول من مصادر الدعوة الذي يستجيب له المسلم، ويؤمن بما فيه، ويعمل على تطبيقه، بالإضافة إلى المصدر الثاني من مصادر الدعوة وهو السنة النبوية. لذا يجب

---

(١) سبل السلام ١٦٢/٤.

(٢) سورة البقرة، آية: ٤٣.

على الدعاة الاستشهاد بالقرآن والسنة لإقامة الأدلة الشرعية على ما يقولون.

٤- **الشرط:** حيث جاء في رواية البخاري "من وصلك... من قطعك". وقد اشترط الحديث صلة الرحم لنيل صلة الله، ولا يخفى ما للشرط من أثر في إثارة انتباه المدعو وتطلعه إلى جواب الشرط، وهو كذلك يبين أثر ترتب الجزاء على العمل، وأن الأجور مشروطة بالأعمال، والعقاب مشروط بالعمل كذلك.

ثانيًا- من مهام الداعية: بيان الحقائق للناس:

لقد أراد الله عز وجل أن يجعل من إرسال الرسل وتبليغهم لأقوامهم حجة على الناس ولذا خاطب الله نبيه محمدًا ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[1]. قال السعدي: (هذا أمر الله لرسوله محمد ﷺ بأعظم الأوامر وأجلها وهو: التبليغ لما أنزل الله، ويدخل في هذا كل أمر تلقته الأمة عنه ﷺ من العقائد والأعمال والأقوال والأحكام الشرعية، والمطالب الإلهية، فبلغ ﷺ أكمل تبليغ، ودعا وأنذر، وبشر ويسر، وعلم الجهال الأميين، حتى صاروا من العلماء الربانيين، وبلغ بقوله وفعله، وكتبه ورسله، فلم يبق خير إلا دل أمته عليه، ولا شر إلا حذرها منه، وشهد له بالتبليغ أفاضل الأمة من الصحابة فمن بعدهم من أئمة الدين ورجال المسلمين)[2].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[3].

ومن صفات الأنبياء التبليغ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾[4] وإذا كان هذا الخطاب للأنبياء عليهم صلوات الله

---

(١) سورة النحل، آية: ٤٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٢٠١.

(٣) سورة النحل، آية: ٨٩.

(٤) سورة المائدة، آية: ٦٧.

وسلامه، فإن الدعاة إلى الله مطالبون بالبلاغ والتبيين للناس حقائق الإسلام، والحقائق التي أخبر الله بها نبيه ﷺ حتى يكون المدعوون على بينة وبصيرة من أمرهم. وفي الحديث الذي معنا أبان الرسول ﷺ عن مكانة الرحم عند الله تعالى.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل صلة الرحم والتحذير من قطيعتها:

إن المجتمع الصالح هو الذي تشيع فيه الرحمة والحب وصلة الرحم والتآخي، والتجافي عن هذه الصلات الاجتماعية، لا يترك أثرًا صالحًا في المجتمع، ومن ثَمَّ تكاثرت النصوص الشرعية في فضل صلة الرحم والتحذير من قطيعتها، ويكفي في خطورة قطعها قول الله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ﴾[1].

قال ابن كثير: (أي تعودوا إلى ما كنتم عليه من الجاهلية الجهلاء، تسفكون الدماء، وتقطعون الأرحام، وهذه الآية نهي عن الإفساد في الأرض عمومًا، وعن قطع الأرحام خصوصًا، بل قد أمر الله تعالى بالإصلاح في الأرض وصلة الأرحام، وهو الإحسان إلى الأقارب في المقال والفعال وبذل الأموال)[2]. وفي الحث على صلة الرحم،والترغيب فيها جاء عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((من أحبَّ أن يُبسَطَ له في رِزقه، ويُنسأ له في أثره، فليَصِلَ رَحِمه))[3].

قال النووي: (والمعنى يؤخر له في أجله، وبسط الرزق توسيعه وكثرته وقيل: البركة فيه. وأما التأخير في الأجل فالصحيح فيه، أن هذه الزيادة تكون بالبركة في عمره، والتوفيق للطاعات، وعمارة أوقاته بما ينفعه في الآخرة، وصيانتها عن الضياع في غير ذلك)[4].

---

(١) سورة محمد، آية: ٢٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ٣١٨/٧.

(٣) أخرجه البخاري ٢٠٦٧، ومسلم ٢٥٥٧.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٣٥.

ولقد جاء عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلاً قال: يا رسول الله إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيئون إليَّ، وأحلم عنهم ويجهلون عليَّ فقال: ((لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ، فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ الْمَلَّ[١]. وَلاَ يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللّهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ، مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ))[٢]. قال الطيبي: (أي إحسانك إليهم إذا كانوا يقابلونه بالإساءة يعود وبالاً عليهم، حتى كأنك في إحسانك إليهم مع إساءتهم إياك أطعمتهم النار)[٣].

هذا وقد عظم الله قدر الرحم، فقال سبحانه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾[٤]، وقال جلّ شأنه: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾[٥] وقد قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (تعلموا أنسابكم ثم صلوا أرحامكم، والله إنه ليكون بين الرجل وأخيه شيء ولو يعلم الذي بينه وبينه من داخلة الرحم لأوزعه ذلك عن انتهاكه)[٦].

ويبين الحديث أيضًا خطورة قطيعة الرحم، وعظم إثم من يقطعها فقد جاء في الحديث الذي معنا "ومن قطعك قطعته" وفي سياق التحذير من قطيعة الرحم، جاء عن جبير بن مطعم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سمع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ((لا يدخُلُ الجنة قاطع))[٧].

وعن أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللهُ لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ))[٨] وفي

---

(١) تسفهم المل: أي تطعمهم الرماد الحار، وهو تشبيه لما يلحقهم من الألم والخزي، لكثرة إحسانك وقبيح فعلهم، انظر: شرح صحيح المسلم ١١٥/١٦.

(٢) أخرجه مسلم ٢٥٥٨.

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ١٥٦/٩.

(٤) سورة النساء، آية: ١.

(٥) سورة الأحزاب، آية: ٦.

(٦) جامع البيان، الطبري ١٤٤/١.

(٧) أخرجه البخاري ٥٩٨٤، ومسلم ٢٥٥٦.

(٨) أخرجه الترمذي ٢٥١١، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي، ٢٠٣٩).

التذكير بحق الرحم وخطورة قطعها. جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((إنَّ الرَّحمَ شُجْنَةٌ[(١)] من الرحمن، فقال الله: من وصلَكِ وَصَلتُه، ومن قَطعكِ قطعتُه))[(٢)].

ويتضح من خلال ما سبق أهمية صلة الرحم وخطورة قطيعتها، فواجب الدعاة إلى الله تحذير الناس من قطعها، والحث على وصلها ابتغاء الأجر والثواب من الله عز وجل.

---

(١) شُجْنَة: أصل الشجنة عروق الشجر المشتبكة، انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠/٤٣٢.

(٢) أخرجه البخاري ٥٩٨٨ واللفظ له ومسلم ٢٥٥٤ بزيادة.

الحديث رقم (٣١٦)

٣١٦- وعنه رضي الله عنه ، قَالَ: جاء رجل إِلَى رَسُول الله ﷺ ، فَقَالَ: يَا رَسُول الله، مَنْ أحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: ((**أُمُّكَ**)) قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ((**أُمُّكَ**))، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ((**أُمُّكَ**))، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ((**أبُوكَ**)) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[1].

وفي رواية[2]: يَا رَسُول الله، مَنْ أَحَقُّ بحُسْنِ الصُّحْبَةِ؟ قَالَ: ((**أُمُّكَ، ثُمَّ أُمُّكَ، ثُمَّ أُمُّكَ، ثُمَّ أَبَاكَ، ثُمَّ أدْنَاكَ أدْنَاكَ**)).

"والصَّحَابَةُ" بمعنى: الصُحْبَة. وقوله: "ثم أبَاكَ" هكذا هو منصوب بفعل محذوف، أي: ثم برَّ أباك وفي رواية: "ثم أبوك" وهذا واضح.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

الحديث قائم على أسلوب الحوار عن طريق السؤال، والجواب، وهو من الأساليب المهمة لتقرير المعاني، وتصحيح المفاهيم، والمعنى الذي يسوقه من باب بر الوالدين يقرر فضلهما، ويكشف جانباً قد يغفل عنه كثير من الأبناء، وهو فضل الأم لأن الولد لم ير ما عانته أمه في حمله، ووضعه، ورضاعه بينما يكبر، وهو يرى أباه يكد، ويتعب في مطعمه، وملبسه، ورعايته، ويكابد المشاق في دروب الحياة في حين يرى أمه لا تعاني ما يعانيه لذلك نرى الرسول ﷺ ينبه إلى فضل الأم، في إجابته للرجل(من أحق الناس بحسن صحابتي؟) وهو استفهام حقيقي، وإجابة الرسول ﷺ فيها دلالة على أن محبة الأم، والشفقة عليها ينبغي أن تكون أمثال محبة الأب، لأنه كررها ثلاثا، وذكر الأب في الرابعة فقط، وإذا تؤمل هذا المعنى شهد له العيان، وذلك أن صعوبة الحمل والوضع، والرضاع، والتربية تنفرد بها الأم، وتشقى بها دون الأب فهذه ثلاث

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٧١)، ومسلم (٢٥٤٨/١) ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه (٣٦٧٠).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٤٨/٢).

منازل يخلو منها الأب، ثم إنها امرأة، وتحتاج من العطف، والرعاية ما لا يحتاجه الرجل لاعتماده على قدرته في إعالة نفسه، وفي الحديث دلالة على الرسول ﷺ تكريم للأم خاصة، وللمرأة عامة.

فقه الحديث

لقد حث الإسلام الأولاد على الرحمة بآبائهم وأمهاتهم والبر بهم، وقد اتفق الفقهاء[1] على أن بر الوالدين واجب ما دام أنهما يأمران بالمعروف.

ومن البر الواجب على الولد، أن ينفق على والديه عند كبرهما وعجزهما عن النفقة، وقد اتفق الفقهاء[2] على وجوب نفقة الوالدين وإن عليا على الولد القادر على الكسب، أو الموسر، وكانا عاجزين عن الكسب، وفقيرين لا يجدان ما ينفقان منه.

ولكن ما الحكم إن تعارض بر الأب والأم معًا؟ ومن الذي يقدم منهما؟ ذكر الفقهاء[3] أن المقدم حق من يأمر بالطاعة منهما على من يأمر بالمعصية، فإن تساووا في

---

(١) أحكام القرآن، الجصاص ٢/٢٧٤ وما بعدها، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود شرح الطيبي ٧/٩٨، وشرح السير الكبير ١/١٩٢، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم النفراوي ٢/٢٩٠، وأحكام القرآن، ابن العربي، تحقيق: علي محمد البجاوي ١/٥٤٤ وما بعدها، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٢/٤٨٦، ومغني المحتاج ٣/٥٧٤، وإحكام الأحكام ١/١٦٣ وما بعدها، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ١/١٨٤، والفروع، ابن مفلح ٦/١٩٩، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٩/١٧٠.

(٢) البناية للعيني ٥/٧٠٠، وشرح فتح القدير، ابن همام الحنفي ٤/٢٢٠، وتحفة الفقهاء للسمرقندي ٢/١٦٤، والبهجة في شرح التحفة، القاضي أبو بكر الأندلسي ١/٣٨٣، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد المغربي ٤/٢٠٩، وروضة الطالبين، الإمام النووي، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، وعلي محمد معوض ٨/٤٦، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٣/٤٤٢، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١١/٣٧٤، والفروع، ابن مفلح ٥/٥٩٥، ومنار السبيل في شرح الدليل، إبراهيم بن محمد بن سالم بن ضويان ٢/٢٠٥، والمحلى، ابن حزم ١٠/١٠٠.

(٣) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٨/٦٨.

الأمر بالطاعة فحق الأم مقدم على حق الأب، لما اختصها به الشرع الشريف من مزيد الرعاية والتكريم، خاصة في حال الكبر والعجز، ولذا إذا عجز الولد عن الإنفاق على والديه معًا، كانت نفقة الأم مقدمة على نفقة الأب عند جمهور الفقهاء.

المضامين الدعوية

أولاً: من آداب المدعو: السؤال عن أعلى الأعمال وأفضلها.

ثانيًا: من مهام الداعية: الإجابة عما يشغل المدعو.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل الأم.

رابعًا: من فقه الداعية: ترتيب الأولويات.

أولاً- من آداب المدعو: السؤال عن أعلى الأعمال وأفضلها:

إن المدعو الصادق هو من يسأل عن أفضل الأعمال وأعلاها عند الله تعالى، حتى يعلمها ويعمل بها، ومن ثمّ ينال أجزل الثواب وأكثره، وهذا ما وقع في الحديث، فقد جاء الرجل وسأل رسول الله ﷺ: فقال: يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟.

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يسألون النبي ﷺ عن ذلك، فهذه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تقول للنبي ﷺ: يا رسول الله إن لي جارين فإلى أيهما أهدي؟ قال: (إلى أقربهما منك بابًا)[1].

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: إنَّ رَجُلاً سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: أَيُّ الإِسْلاَمِ خَيْرٌ؟ قَالَ: ((تُطْعِمُ الطَّعَامَ. وَتَقْرأُ السَّلاَمَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ))[2].

وفي رواية: أَيُّ الْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ؟ قَالَ: ((مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ))[3].

قال النووي: (قال العلماء: قوله: أيُّ الإسلام خير؟ معناه: أي خصاله وأموره وأحواله.

---

(١) أخرجه البخاري ٢٢٥٩، ٢٥٩٥، ٦٠٢٠.

(٢) أخرجه البخاري ١٢، ومسلم ٣٩.

(٣) أخرجه البخاري١٠، ومسلم ٤٠.

قالوا: وإنما وقع اختلاف الجواب في خير المسلمين لاختلاف حال السائلين والحاضرين، ، فكان في أحد الموضعين الحاجة إلى إفشاء السلام وإطعام الطعام أكثر وأهمّ، لما حصل في إهمالهما، والتساهل في أمورهما ونحو ذلك، وفي الموضع الآخر إلى الكف عن إيذاء المسلمين)[١]، وقال ابن حجر: (وخصّ هاتين الخصلتين بالذكر لمسيس الحاجة إليهما في ذلك الوقت، لما كانوا فيه من الجهد ولمصلحة التأليف)[٢].

ثانيًا- من مهام الداعية: الإجابة عما يشغل المدعو:

إن من الأمور التي تمكن الداعية من النجاح في دعوته، أن يجيب المدعو إذا سأله الإجابة الواضحة الكاملة، التي تلبي حاجته إلى المعرفة، وما يتبع ذلك من العمل والامتثال، وقد أجاب النبي ﷺ الرجل عن سؤاله، فقال: (أمك ثم أمك ثم أمك ثم أباك ثم أدناك أدناك) قال النووي: (فيه الحث على برّ الأقارب، وأن الأم أحقهم بذلك، ثم بعدها الأب ثم الأقرب فالأقرب)[٣].

ومن هذا القبيل ما رواه سفيان بن عبدالله الثقفي رضي الله عنه، قال: قلت: يَا رَسُولَ اللّهِ قُلْ لِي فِي الإِسْلاَمِ قَوْلاً، لاَ أَسْأَلُ عَنْهُ أَحدا بَعْدَكَ قَالَ: ((قُلْ آمَنْتُ بِاللّه فَاسْتَقِمْ))[٤].

قال ابن رجب: (طلب [أي سفيان] منه [أي من النبي ﷺ] أن يعلمه كلامًا جامعًا لأمر الإسلام كافيًا حتى لا يحتاج بعده إلى غيره"[٥]، وقال القاضي عياض عن قول النبي ﷺ: "قل آمنت بالله ثم استقم" قال: (هذا من جوامع كلمه عليه السلام وهو مطابق لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾[٦]، أي وحدوا الله وآمنوا به. ثم استقاموا فلم يحيدوا عن توحيدهم، ولا أشركوا به غيره، والتزموا طاعته، إلى أن

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٢٠.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧٢/١.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٣٠.

(٤) أخرجه مسلم ٣٨.

(٥) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٥٠٧/١

(٦) سورة الأحقاف، آية: ١٣.

توفوا على ذلك، وعلى ما قلناه أكثر المفسرين من الصحابة فمن بعدهم وهو معنى الحديث)[١].

ونقل النووي قول القشيري عن الاستقامة: (الاستقامة درجة بها كمال الأمور وتمامها، وبوجودها حصول الخيرات ونظامها. ومن لم يكن مستقيمًا في حالته ضاع سعيه وخاب جهده)[٢]، وقال ابن رجب: (والاستقامة هي سلوك الصراط المستقيم، وهو الدين القيم من غير تعريج عنه يمنة ولا يسرة، ويشمل ذلك فعل الطاعات كلها الظاهرة والباطنة، وترك المنهيات كلها كذلك، فصارت هذه الوصية جامعة لخصال الدين كلها)[٣]. ومن ذلك يتضح إجابة النبي ﷺ الكافية الشافية، وهذا ما ينبغي أن يقوم به الداعية إذا سأله المدعو عما يشغله.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل الأم:

للأم فضل عظيم على ابنها، فهي التي حملته في بطنها، وأرضعته من لبنها، وقامت على تربيته والعناية به ليل نهار، لذا قدمها النبي ﷺ في البر والإحسان وكرّر ذلك ثلاث مرات، وقد قال ﷺ كذلك: ((إِنَّ اللَّهَ يُوصِيكُمْ بِآبَائِكُمْ. إِنَّ اللَّهَ يُوصِيكُمْ بِالأَقْرَبِ فَالأَقْرَبِ))[٤].

قال ابن حجر: (قال ابن بطال: مقتضاه أن يكون للأم ثلاثة أمثال ما للأب من البر، قال: وكان ذلك لصعوبة الحمل ثم الوضع ثم الرضاع، فهذه تنفرد بها الأم وتشقى بها، ثم تشارك الأب في التربية، وقد وقعت الإشارة إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾[٥]، فسوى بينهما في الوصاية، وخص الأم بالأمور الثلاثة)[٦].

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٢٧٥/١.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١١٩.

(٣) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٥١٠/١.

(٤) أخرجه ابن ماجه ٣٦٦١، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٣٢٠٨).

(٥) سورة لقمان، آية: ١٤.

(٦) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤١٦/١٠.

وقال النووي رحمه الله: (وسبب تقديم الأم، كثرة تعبها عليه، وشفقتها وخدمتها، ومعاناة المشاق في حمله، ثم وضعه، ثم إرضاعه، ثم تربيته وخدمته، وتمريضه وغير ذلك. ونقل الحارث المحاسبي إجماع العلماء على أن الأم تفضل في البر على الأب"[١].

ومن جميل القصص في بر الأم ما رواه أبو بردة بن أبي موسى الأشعري قال: (شهد ابن عمر رضي الله عنهما رجلا يمانيا يطوف بالبيت حمل أمه وراء ظهره يقول:

إنـــي لهـــا بعيرُهـــا المـــذلّل إن أذعِـــرت ركابُهـــا لم أُذعَـــر

ثم قال يا ابن عمر أتراني جزيتها؟ قال: لا ولا بزفرة واحدة)[٢].

قال ابن هبيرة عن حديث الباب: "في هذا الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بالقسط، وندب إلى العدل، فإن الآدمي تتكلف له أمه -من حملها إياه في حشاها- حالاً يضرب بها الأمثال، ثم إنه يأخذ من غذائها الذي يتجاوز حلقها، فتغذيه من دمها ولحمها، فإذا وضعته كان غذاؤه من ثدييها، بأن أحال الله ذلك الدم الذي كانت تغذوه به في حشاها إلى ثدييها، تغذيه منهما لبنًا خالصًا سائغًا، ثم إنها جعلت فخذيها مهادًا، ولبنها زادًا، وحملته وهنًا على وهن، وكرهًا على كره، إلا أنها على ما قاست منه في كل ذلك لم يشنه ذلك عندها، ولا أثر لعِظَم أذاه في نفسها، بحيث يحملها ذلك على أن تشنأه[٣] أو تبغضه، بل كانت تتجرع أذاه محبة، وتصبر على تجرمه وتعنته، مستلذة لطول صحبته، تود أن لو فدته بنفسها، فهذا هو الخوف بالغ[٤]، وإن كان قد جبل عليه طبعها، فإنه قد وصل إلى هذا المحْسَنِ إليه نفعه، فكان من جزاء الإحسان، أن يكون فاضلاً لها في المجازاة إذ أحسنت إليه في حال ضعفه، وكان جزاؤه لها في حال قوته، إلا إنها لما قصرت قدرته عن أن يفضل عليها في الجزاء، فقد كان ينبغي أن يجازيها بغاية الوسع الذي لا تنتهي قدرته إلى غيره، فإذا غفل عن هذا كله ونسي

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٣٠.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١١، والبيهقي في شعب الإيمان ٢٠٩/٦، وصححه الألباني صحيح الأدب المفرد ٩.

(٣) شنأه: أي ابغضه. القاموس المحيط ص ٤٤.

(٤) كذا في المطبوع.

إحسانها القديم إليه، وأراد أن يكون من الكافرين بحاله لأول المحسنين بعد الله إليه، فليس يرجى من مثل هذا خير إذن، إلا أن يكون قد كان غافلاً ناسيًا مشدوهًا[١] عن تفقدها؛ فإنه يتعين عليه أن يتدراك ذلك"[٢].

رابعًا- من فقه الداعية: ترتيب الأولويات:

من فقه الداعية ترتيب الأولويات في الدعوة فيبدأ بالأهم فالأهم، ومن ثمّ لا يقدم مفضولاً على فاضل ولا مندوبًا على واجب، وهذا ما فعله النبي ﷺ مع الرجل فقد قال له: "أمك ثم أمك ثم أمك ثم أباك ثم أدناك أدناك" وفي الراوية الأولى رتب ذلك النبي ﷺ حسب سؤال الرجل.

قال النووي: (قال أصحابنا: يستحب أن تقدم في البر الأم، ثم الأب، ثم الأولاد، ثم الأجداد والجدات، ثم الإخوة والأخوات...)[٣].

وقال ابن حجر: (قال القرطبي[٤]: المراد أن الأم تستحق على الولد الحظ الأوفر من البر، وتقدم في ذلك على حق الأب عند المزاحمة... وأشار ابن بطال إلى أن الترتيب حيث لا يمكن إيصال البر دفعة واحدة وهو واضح)[٥].

ومن هذا القبيل ما رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما أن امرأة قالت: يَا رَسُولَ الله إنَّ ابْنِي هذَا كَانَ بَطْنِي لَهُ وِعَاءً، وَثَدْيِي لَهُ سِقَاءً، وَحِجْرِي لَهُ حِوَاءً، وَإِنَّ أَبَاهُ طَلَّقَنِي وَأَرَادَ أَنْ يَنْتَزِعَهُ مِنِّي، فقالَ: لَها رَسُولُ الله ﷺ: ((أَنْتِ أَحَقُّ بِهِ مَا لَمْ تَنْكِحِي))[٦].

---

(١) شده: دهش وشغل وحيِّر. القاموس المحيط ص ١٢٤٨.

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٦/٤٤٩ - ٤٥٠.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٣٠.

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٦/٥٠٨.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠/٤١٦.

(٦) أخرجه أبو داود ٢٢٧٦، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ١٩٩١).

فقد قدم النبي ﷺ حق الأم على الأب في حضانة الطفل، والمرأة "توصلت لاختصاصها به باختصاصه [أي الطفل] بها في الأمور الثلاثة)[١].

قال ابن هبيرة: (فقول رسول الله ﷺ لما قال له الرجل: (من أحق الناس بصحابتي؟ قال: أمك ثم أمك ثم أمك) ثلاثًا يعني به ﷺ فيما أرى لها الحق الأول؛ حيث كنت حملاً في حشاها، ولها الحق الثاني؛ حيث كنت رضيعًا في حجرها، ولها الحق الثالث حيث كنت صغيرًا في كنفها.

فهذه حقوق ثلاثة، ثم قال له في الرابعة: "ثم أباك"، يعني: إن أباك وضعك شهوة، وأنفق عليك من مال الله، الذي أوجب عليه إنفاقه، فإنه حق عظيم، إلا أن الأم تفضله بما ذكرناه؛ فلهذا وصى رسول الله ﷺ بالأمهات.

وقوله بعد ذلك: "ثم أدناك، أدناك" يعني ﷺ أن برك وصلتك ينبغي أن ترتبها على نحو ما رتبها الله في الميراث، فإنه سبحانه لم يورث إلا الأدنى فالأدنى، فأراد عليه السلام أن يكون العبد متابعًا في بره في الدنيا القرابة الأدنى فالأدنى على حسب المواريث بعد موته، فكان هذا من أحسن الكلام وأشرقه كفاية وإقناعًا)[٢].

ويقول ابن تيمية عن ترتيب الأولويات: (إذا ازدحم واجبان لا يمكن جمعهما، قدم أوكدهما ما لم يكن الآخر في هذه الحال واجبًا، ولم يكن تاركه لأجل فعل الأوكد تارك واجب في الحقيقة، وكذلك إذا اجتمع محرمان لا يمكن ترك أعظمهما إلا بفعل أدناهما، لم يكن فعل الأدنى في هذه الحال محرمًا في الحقيقة، وإن سمي ذلك ترك واجب، وسمي هذا فعل محرم باعتبار الإطلاق لم يضر. ويقال في مثل هذا: ترك الواجب لعذر وفعل المحرم للمصلحة الراجحة أو للضرورة أو لدفع ما هو أحرم)[٣].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤١٧/١٠.

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٤٥٠/٦ - ٤٥١.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٥٧/٢٠.

الحديث رقم (٣١٧)

٣١٧- وعنه، عن النَّبيّ ﷺ، قَالَ: ((رغِم أنفُ، ثُمَّ رَغِمَ أنْفُ، ثُمَّ رَغِمَ أنْفُ[١]، مَنْ أدْرَكَ أبَويهِ عِنْدَ الكِبَرِ، أحَدهُما أوْ كِليهمَا فَلَمْ يَدْخُلِ الجَنَّةَ)) رواه مسلم[٢].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

رغم أنف: وأرغم الله أنفه، أي: ألصقه بالرُّغام وهو التراب. هذا هو الأصل. ثم استعمل في الذل والعجز عن الانتصاف والانقياد على كُرْه[٣].

الشرح الأدبي

أسلوب الحديث يقوم على التشويق عن طريق تكرار لفظ مثير ترتجف منه القلوب لاسيما أنه يخرج من في رسول لا ترد دعوته، وهو قوله (رغم أنفه) وهو دعاء بمعنى أذله الله، وأهانه، وهو من استعمال الخبر بمعنى الإنشاء بغرض الحرص على تحقق الوقوع من أجل الترهيب، والتحذير، وصياغة الحديث تنبئ بعظم خسارة هذا الراغم، وخيبته، وذله دلَّ على ذلك تكرار الفعل (رغم) دعاءً بالذلة، والإهانة مع تصعيده، وإظهار تحققه بصياغته في صورة الماضي الذي وقع، وتحقق زيادة في الترهيب، واستخدامه (ثم) دون غيرها من حروف العطف يشير إلى زمان يقضيه هذا الراغم في الإهانة، والذل قبل أن تدركه ذلة أخرى ثم ذلة أخرى، وكأنه يلوح بإدراكه الذل في الحياة ثم في الممات ثم يوم القيامة، والعياذ بالله يدل على ذلك قوله ثم (لم يدخل الجنة)

(١) عند مسلم زيادة: (قيل: من يا رسول الله)، وهي لا توجد في الجمع للحميدي (٣/٢٨٨، رقم ٢٦٥٥).

(٢) برقم (٩/٢٥٥١). أورده المنذري في ترغيبه (٣٦٦٥).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ر غ م).

ومن فاتته الجنة فليس له إلا النار، والتقييد بالظرف في قوله (عند الكبر) لشدة حاجة الوالدين إلى من يعولهما في ضعفهما، والحديث يجعل من الوالدين فرصة لدخول الجنة، ويحذِّر من ضياعها بالتقصير في حقهما.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل الإحسان إلى الوالدين.

ثانيًا: من صفات الداعية: الحرص على مصلحة المدعوين.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: التشويق والتكرار.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل الإحسان إلى الوالدين:

فضل الوالدين عظيم، وحض الإسلام حضًا شديدًا على برهما والإحسان إليهما، وبين فضل ذلك كما في هذا الحديث الذي معنا. قال النووي: (فيه الحث على بر الوالدين وعظم ثوابه، ومعناه أن برهما عند كبرهما وضعفهما بالخدمة أو النفقة أو غير ذلك سببٌ لدخول الجنة، فمن قصر في ذلك فاته دخول الجنة وأرغم الله أنفه)[1]. (يعني ذلّ وخاب وخسر من أدرك تلك الفرصة، التي هي موجبة للفلاح والفوز بالجنة، ثم لم ينتهزها، وانتهازها هو ما اشتمل عليه قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾[2]، فإنه دلَّ على الاجتناب عن جميع الأقوال المحرمة، والإتيان بجميع كرائم الأقوال والأفعال من التواضع والخدمة، والإنفاق عليهما، ثم الدعاء لهما في العاقبة)[3].

وقد قرن سبحانه وتعالى بر الوالدين بعبادته، لأنه (لما كان أعظم الحقوق وأعلاها وأجلها هو حق الله تعالى: وهو أن يعبد وحده لا شريك له، ثم من حقوق الآدميين

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٣٢.

(٢) سورة الإسراء، الآيتان: ٢٣-٢٤.

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٩/١٤٦-١٤٧.

آكدها وأولاها بذلك حق الوالدين، لذا قرنه بعبادته كما قال جل شأنه: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾[١] وقال سبحانه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾[٢] إلى غير ذلك من الآيات[٣].

(ومن برهما الأدب معهما، والسلام عليهما عند الدخول والخروج، وتعظيم قدرهما وإكرامهما، ومخاطبتهما بلطف، ولين القول لهما، وعدم رفع الصوت فوق صوتهما، وتلبية ندائهما، وطاعة أمرهما، وقضاء حوائجهما، وتنفيذ وصاياهما، وعدم معارضتهما إلا عند المعصية، ويكون ذلك بلطف ومعروف، وإدخال السرور عليهما، والهدية لهما، وعمل ما يحبانه ويفرحان به من الخير، والمحافظة على سرهما وسمعتهما ومالهما، والحذر من التسبب في شتمهما، بأن يسب والدي إنسان ثم يقابله المسبوب بسبب والديه، وتفقد مواضع سرورهما، وعدم إزعاجهما وعدم مقاطعتهما بالكلام ومعاندتهما، أو الاستهزاء بهما، أو الضحك عليهما، وعدم مد اليد إلى الطعام قبلهما، أو أخذ الطيب منه دونهما وعدم التقدم عليهما بالدخول أو الخروج أو المشي، أو مد الرجل أمامهما. وعلى الولد استشارتهما، وأخذ رأيهما، وتجاربهما، وقبول نصيحتهما في الخير، والدعاء والترحم لهما وصلة من يحبانه، وتجنب إغضابهما، أو الإعراض بوجهه عنهما، أو التأفف من قولهما أو فعلهما، قال تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾[٤])[٥].

---

(١) سورة لقمان، آية: ١٤.

(٢) سورة الإسراء، آية: ٢٣.

(٣) بر الوالدين، د. خليل إبراهيم ملا خاطر العزامى ص ٢١-٢٢.

(٤) سورة الإسراء، الآيتان: ٢٣، ٢٤.

(٥) موسوعة الآداب الإسلامية، عبدالله بن محمد المعتاز، ١/٢٦-٢٧.

ثانيًا- من صفات الداعية: الحرص على مصلحة المدعوين:

إن من أبرز ما ينبغي أن يتصف به الداعية أن يكون أحرص الناس على مصلحة المدعوين حتى من أنفسهم، لذا فهو يبين لهم ما ينفعهم، ويحذرهم مما يضرهم ويؤدي بهم إلى الهلاك والخسران، وهو إذ يفعل ذلك يقتدي بالنبي ﷺ، كما يتضح في هذا الحديث. فقد بيّن النبي ﷺ أن من فرّط في حق والديه أو أحدهما عند كبرهما، فقد ذلّ وخسر، وفوّت على نفسه فرصة عظيمة لدخول الجنة والفوز بالنعيم المقيم. ولا شك أن هذا حرص على مصلحة المدعوين وتنبيه لهم ألا يغفلوا عن هذا الواجب العظيم تجاه آبائهم وأمهاتهم.

وإلا استحق [المدعو] - كما يقول ابن هبيرة -: (دعاء رسول الله ﷺ، لأنه لو امتثل أمر الله في طاعتهما بعد الإيمان به لأحبط ذلك عنه حال السوء، وتضاعف له درجات الخير، فإذا بلغ من الخذلان إلى أنه لم يمتثل أمر ربه في طاعة والديه، ولم يعرف لهما إحسانهما المتقدم من حقه، ولم يلحقه عليهما رأفة حين ضعفهما يماثل بها رأفتهما عليه حين ضعفه، فقد فاتته ثلاث درجات، فكان قول الرسول ﷺ: (رغم أنفه) ثلاث مرات، كل واحدة منهن جواب إخلاله بحال توجب عليه برهما، الأول: وصية الله إياه في الإحسان إليهما، والثانية: مكافأتهما في إحسانهما إليه، والثالثة: عدم رحمتهما مع الكبر)[1].

ومن هذا القبيل ما رواه معاوية بن جاهمة السَّلَمي قال: ((أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي كُنْتُ أَرَدْتُ الْجِهَادَ مَعَكَ، أَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ، وَالدَّارَ الآخِرَةَ. قَالَ: «وَيْحَكَ أَحَيَّةٌ أُمُّكَ؟» قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: ارْجِعْ فَبَرَّهَا ثُمَّ أَتَيْتُهُ مِنَ الْجَانِبِ الآخَرِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي كُنْتُ أَرَدْتُ الْجِهَادَ مَعَكَ. أَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ، وَالدَّارَ الآخِرَةَ. قَالَ: وَيْحَكَ أَحَيَّةٌ أُمُّكَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: فَارْجِعْ إِلَيْهَا فَبَرَّهَا ثُمَّ أَتَيْتُهُ مِنْ أَمَامِهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي كُنْتُ أَرَدْتُ الْجِهَادَ مَعَكَ. أَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ وَالدَّارَ الآخِرَةَ.

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٩٢/٨.

قَالَ: وَيْحَكَ أَحَيَّةٌ أُمُّكَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: وَيْحَكَ اِلْزَمْ رِجْلَهَا. فَثَمَّ الْجَنَّةُ))[١].

ومن هذا القبيل أيضًا ما روته عائشة رضي الله عنها قالت: ((قال النبي ﷺ: نمتُ فرَأَيْتُني فِي الْجَنَّةِ، فَسَمِعْتُ صَوْتَ قَارِىءٍ يَقْرَأُ فَقُلْتُ: مَنْ هذا؟ قالوا: هذا حارِثَةُ بْنُ النُّعْمانِ» فقال لها رسول الله ﷺ: «كَذَاكَ البِرُّ كَذَاكَ البِرُّ» وكان أبر الناس بأمه))[٢].

ومن ذلك قول أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: ((مَثَلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا . فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهَا جَعَلَ الْفَرَاشُ[٣] وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا. وَجَعَلَ يَحْجُزُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَتَقَحَّمْنَ فِيهَا. قَالَ: فَذَلِكُمْ مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ. أَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ[٤] عَنِ النَّارِ. هَلُمَّ عَنِ النَّارِ. هَلُمَّ عَنِ النَّارِ. فَتَغْلِبُونِي تَقَحَّمُونَ فِيهَا))[٥].

قال النووي: (ومقصود الحديث أنه ﷺ شبه تساقط الجاهلين والمخالفين بمعاصيهم وشهواتهم في نار الآخرة، وحرصهم على الوقوع في ذلك مع منعه إياهم وقبضه على مواضع المنع منهم، بتساقط الفراش في نار الدنيا لهواه وضعف تمييزه، وكلاهما حريص على هلاك نفسه ساع في ذلك لجهله)[٦].

ثالثًا- من أساليب الدعوة: التشويق والتكرار:

شوّق النبي ﷺ المدعوين بأن افتتح حديثه بقوله: رغم أنف ثم رغم أنف ثم رغم أنف، وفي ذلك شدٌ انتباه لهم، وجذب لعقولهم، وشدّ لأفئدتهم، وزاد هذا بأن كرّر قوله ﷺ ثلاث مراتٍ، فبلغ التشويق هنا ذروته وقمتَّه. مما دفع المدعوين أن يقولوا: من؟ يا

---

(١) أخرجه النسائي ٣١٠٤، وابن ماجه ٢٧٨١، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٢٢٤١).

(٢) أخرجه أحمد ١٥٢/٦ رقم ٢٥١٨٢، وقال محققو المسند: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين ١٠٠/٤٢.

(٣) قال النووي: أما الفراش فقال الخليل: هو الذي يطير كالبعوض، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٤١٨.

(٤) الحجز جمع الحجزة: وهي معقد الإزار والسراويل، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٤١٨.

(٥) أخرجه مسلم ٢٢٨٤.

(٦) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٤١٨.

رسول الله، كما هو في الحديث في صحيح مسلم[1]، وكل هذا يجعل المدعوين واعين لما يقال، منتبهين لمضمونه، ومن ثم يؤتى بالثمرة المرجوة من ذلك، وهو الحرص على بر الوالدين.

(١) أخرجه مسلم ٢٥٥١.

الحديث رقم (٣١٨)

٣١٨- وعنه رضي الله عنه : أن رجلاً قَالَ: يَا رَسُول الله، إنّ لِي قَرابةً أصِلُهُمْ وَيَقْطَعُوني، وَأُحْسِنُ إلَيْهِمْ وَيُسِيئُونَ إلَيَّ، وَأحْلَمُ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ، فَقَالَ: ((**لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ، فَكأنَّمَا تُسِفُّهُمُ الْمَلَّ، وَلاَ يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذلِكَ**)) رواه مسلم(١).

"وَتُسِفُّهُمْ" بضم التاء وكسر السين المهملة وتشديد الفاء "وَالمَلُّ" بفتح الميم وتشديد اللام وهو الرماد الحار: أي كأنما تطعمهم الرماد الحار وهو تشبيه لما يلحقهم من الإثم بما يلحق آكل الرماد الحار من الألم، ولا شيء على هذا المُحْسِنِ إليهم، لكن ينالهم إثم عظيم بتقصيرهم في حقه، وإدخالهم الأذى عليه، والله أعلم.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

تسفهم: تطعمهم(٢).

الملَّ: الرمادُ الحارَّ، وهو تشبيه لما يلحقهم من الإثم بما يلحَق آكل الرماد الحار من الألم(٣).

ظهير: ناصر ومعين(٤).

الشرح الأدبي

أسلوب النبي ﷺ قائم على أسلوب الشرط ثم التشبيه في قوله ﷺ (لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ الْمَلَّ) وأسلوب الشرط بهذه الصياغة له فائدتان:

---

(١) برقم (٢٥٥٨/٢٢). أورده المنذري في ترغيبه (٣٧١٦). وسيكرره المؤلف برقم (٦٤٨).

(٢) الوسيط في (س ف ف).

(٣) رياض الصالحين، واللسان في (م ل ل).

(٤) الوسيط في (ظ هـ ر).

الأولى: تعميم الحكم حتى لا يقيد بشخص معين، وإنما يشمل كل من كانت هذه حاله كل زمان ومكان - إذ لو قال ﷺ للرجل (إنك تسفهم المل) لاحتمل أن يكون خاصاً به لكن تعليق الرسول ﷺ للجواب على الشرط يعطى الحكم شمولية يندرج تحتها كل من كانت هذه حاله، وهذه إحدى فوائد أسلوب الشرط.

الثانية: تعليق الجواب على الشرط من الرسول ﷺ لكونه لا ينطق عن الهوى، ولو قال ﷺ: إنك تسفهم المل لكان حكماً بصدق الرجل، وإشارة إلى أنه قد استوفى ما عليه تجاه قرابته ولعله ﷺ لم يرد إثباته، وأراد الجواب معلقاً على الشرط (إن كنت كما قلت) حتى يبحث الرجل في نفسه، ويتأكد من أنه لم يقصر في حقهم، ويبحث أوجه التقصير فيما فعل فيتمه، ثم جاء التشبيه في جواب الشرط مرتبطاً بالفاء (فكأنما تسفهم المل) والمل: هو الرماد الحار، ومعناه كأنما تطعمهم الرماد الحار، وهو تشبيه لما يلحقهم من الألم بما يلحق آكل الرماد الحار من الألم، ولا شئ على هذا المحسن بل ينالهم الإثم العظيم في قطيعته، وإدخالهم الأذى عليه، والحديث يحث على تحمل الأذى، والرد الجميل، والإحسان لأولي القربى في حال إحسانهم، وفي حال إساءتهم.[1]

المضامين الدعوية

أولاً: من حقوق المدعو: السؤال عما أهمّه.

ثانيًا: من آداب الداعية: الاحتياط والتثبت قبل الإجابة.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل مقابلة الإساءة من الأقارب بالإحسان.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: الحذر من الإساءة إلى الأقارب.

خامسًا: من أساليب الدعوة: ضرب الأمثال واستخدام التشبيه.

أولاً- من حقوق المدعو: السؤال عما أهمّه:

إن المدعو يعرض له في حياته ما يحتاج معه إلى أن يسأل الداعية، ليوضح له الحقّ والصواب، ويرشده إلى ما يفعله وما لا يفعله، فهذا الرجل سأل رسول الله ﷺ عن

(١) انظر: بلاغة الرسول ﷺ في تقويم أخطاء الناس دراسة في الصحيحين، د: ناصر راضي الزهري، ٣٥٥.

حاله مع قرابته الذين يقابلون إحسانه بالإساءة، والحلم والصفح بالعدوان والجهل.

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يسألون عمّا أهمّهم وشغلهم، حتى يعرفوا الحق فيفعلوه، والباطل فيجتنبوه.

من ذلك ما ذكرته زينبُ بنت معاوية رضي الله عنها زوج عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قالت: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((تَصَدَّقْنَ، يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ وَلَوْ مِنْ حُلِيِّكُنَّ» قَالَتْ: فَرَجَعْتُ إِلَىٰ عَبْدِ اللَّهِ فَقُلْتُ: إِنَّكَ رَجُلٌ خَفِيفُ ذَاتِ الْيَدِ. وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَدْ أَمَرَنَا بِالصَّدَقَةِ. فَأْتِهِ فَاسْأَلْهُ. فَإِنْ كَانَ ذٰلِكَ يَجْزِي عَنِّي وَإِلاَّ صَرَفْتُهَا إِلَىٰ غَيْرِكُمْ. قَالَتْ: فَقَالَ لِي عَبْدُ اللَّهِ: بَلِ ائْتِيهِ أَنْتِ. قَالَتْ: فَانْطَلَقْتُ. فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ بِبَابِ رَسُولِ اللَّهِ. حَاجَتِي حَاجَتُهَا. قَالَتْ: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ قَدْ أُلْقِيَتْ عَلَيْهِ الْمَهَابَةُ. قَالَتْ: فَخَرَجَ عَلَيْنَا بِلاَلٌ فَقُلْنَا لَهُ: ائْتِ رَسُولَ اللَّهِ. فَأَخْبِرْهُ أَنَّ امْرَأَتَيْنِ بِالْبَابِ تَسْأَلاَنِكَ: أَتَجْزِئُ الصَّدَقَةُ عَنْهُمَا، عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمَا، وَعَلَىٰ أَيْتَامٍ فِي حُجُورِهِمَا؟ وَلاَ تُخْبِرْهُ مَنْ نَحْنُ. قَالَتْ: فَدَخَلَ بِلاَلٌ عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ . فَسَأَلَهُ. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ: مَنْ هُمَا؟ فَقَالَ: امْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ وَزَيْنَبُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: أَيُّ الزَّيَانِبِ؟ قَالَ: امْرَأَةُ عَبْدِ اللَّهِ. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ: لَهُمَا أَجْرَانِ: أَجْرُ الْقَرَابَةِ وَأَجْرُ الصَّدَقَةِ))[١].

جاء في الموسوعة الفقهية: (السؤال على وجه التبين والتعلم عما تمس إليه الحاجة في أمور الدين أو الدنيا مأمور به، أو مباح بحسب حال المسؤول عنه. أما السؤال عما لا تترتب عليه مصلحة دينية ولا دنيوية، على طريق التكلف والتعنت، لغرض التعجيز، وتغليط العلماء، فهو غير جائز ومنهي عنه)[٢].

ثانيًا- من آداب الداعية: الاحتياط والتثبت قبل الإجابة:

إن الداعية كالقاضي، فكما أن الأخير عليه أن يتثبت قبل إصدار الحكم، فكذلك الأمر مع الداعية، فإن عليه أن يستفسر من المدعو حتى يتضح الأمر جليًا قبل أن يجيبه، أو يحتاط في الإجابة، وخاصة إذا كانت تتعلق بطرف آخر لم يسمع منه، وذلك واضح من قول النبي ﷺ للرجل "لئن كنت كما قلت...".

---

(١) أخرجه البخاري ١٤٦٦، ومسلم ١٠٠٠.

(٢) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٩٦/٢٤.

ولعلّ من هذا القبيل ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: ((أَتَى رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ رَسُولَ اللَّهِ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ، فَنَادَاهُ، فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي زَنَيْتُ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ، فَتَنَحَّى تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَقَالَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي زَنَيْتُ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ حَتَّى ثَنَى ذَلِكَ عَلَيْهِ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا شَهِدَ عَلَى نَفْسِهِ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ، دَعَاهُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم. فَقَالَ: أَبِكَ جُنُونٌ؟ قَالَ: لاَ. قَالَ: هَلْ أَحْصَنْتَ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: اذْهَبُوا بِهِ فَارْجُمُوهُ))(١).

قال النووي: (قوله صلى الله عليه وسلم: "أبك جنون؟" إنما قاله ليتحقق حاله، فإن الغالب أن الإنسان لا يصر على الإقرار بما يقتضي قتله من غير سؤال، مع أن له طريقًا إلى سقوط الإثم بالتوبة. وفي الرواية الأخرى: ((أنَّه سَأَلَ قَوْمَهُ؟ فَقَالُوا: مَا نَعْلَمُ بِهِ بَأْسًا))(٢) وهذا مبالغة في تحقق حاله وفي صيانة دم المسلم)(٣).

وقال ابن حجر: (فيه التثبت في إزهاق نفس المسلم، والمبالغة في صيانته، لما وقع في هذه القصة من ترديده والإيماء إليه بالرجوع، والإشارة إلى قبول دعواه إن ادعى إكراهًا وأخطأ في معنى الزنا، أو مباشرة دون الفرج مثلاً أو غير ذلك)(٤).

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل مقابلة الإساءة من الأقارب بالإحسان:

يحث الإسلام على عدم مقابلة الإساءة بالإساءة، بل مقابلتها بالإحسان، وخاصة بين الأقارب، ولما كان هذا الأمر شاقًا على النفس يحتاج إلى مجاهدة ومثابرة، بيّن الإسلام فضله في قول النبي صلى الله عليه وسلم: (ولا يزال معك من الله تعالى ظهير عليهم) قال النووي: (الظهير المعين والدافع لأذاهم)(٥).

وقد رغّب سبحانه في مقابلة السيئة بالإحسان، وأثنى على من فعل ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ

(١) أخرجه البخاري ٥٢٧١، ومسلم ١٦٩١.

(٢) أخرجه مسلم ١٦٩٤.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٠٨٦.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٢/١٢٨.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٣٥.

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[١] وقال عز وجل: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: ((أن رجلاً شتم أبا بكر والنبيُّ ﷺ جالسٌ، فجعل النبي ﷺ يَعْجَبُ ويتبسَّم، فلما أكثر ردَّ عليه بعضَ قوله، فغضب النبي ﷺ وقام، فلحقه أبو بكر فقال: يا رسول الله كان يشتمني وأنت جالسٌ، فلما رددتُ عليه بعضَ قولِه غضبتَ وقمتَ قال: «إِنَّهُ كَانَ مَعَكَ مَلَكٌ يَرُدُّ عَنْكَ فَلَمَّا رَدَدْتَ عَلَيْهِ بَعْضَ قَوْلِهِ وَقَعَ الشَّيْطَانُ فَلَمْ أَكُنْ لأَقْعُدَ مَعَ الشَّيْطَانِ» ثم قال: «يَا أَبَا بَكْرٍ ثَلاَثٌ كُلُّهُنَّ حَقٌّ مَا مِنْ عَبْدٍ ظُلِمَ بِمَظْلَمَةٍ فَيُغْضِي عَنْهَا للهِ - عَزَّ وَجَلَّ - إلاَّ أَعَزَّ اللَّهُ بِهَا نَصْرَهُ، وَمَا فَتَحَ رَجُلٌ بَابَ عَطِيَّةٍ يُرِيْدُ بِهَا صِلَةً إِلاَّ زَادَهُ بِهَا كَثْرَةً، وَمَا فَتَحَ بَابَ مَسْأَلَةٍ يُرِيْدُ بِهَا كَثْرَةً إِلاَّ زَادَهُ اللَّهُ بِهَا قِلَّةً))[٣].

قال ابن حبان: (الواجب على العاقل توطين النفس على لزوم العفو عن الناس كافة، وترك الخروج لمجازاة الإساءة، إذ لا سبب لتسكين الإساءة أحسن من الإحسان، ولا سبب لنماء الإساءة وتهييجها أشد من الاستعمال بمثلها... فمن أراد الثواب الجزيل واسترهن الود الأصيل، وتوقع الذكر الجميل، فليتحمل من ورود ثقل الردى، ويتجرع مرارة مخالفة الهوى، باستعمال السنة التي ذكرناها، في الصلة عند القطع، والإعطاء عند المنع، والحلم عند الجهل، والعفو عند الظلم، لأنه من أفضل أخلاق أهل الدين والدنيا... فالواجب لزوم الصفح عند ورود الإساءة عليه من العالَم بأسرهم، رجاء عفو الله جل وعلا على جناياته التي ارتكبها في سالف أيامه، لأن صاحب الصفح إنما يتكلف الصفح بإيثاره الجزاء)[٤].

وما أجمل قول الشاعر في بيان حاله مع أقاربه:

---

(١) سورة فصلت، آية: ٣٤-٣٥.

(٢) سورة الشورى، آية: ٤٠.

(٣) أخرجه أحمد ٢/٤٣٦ رقم ٩٦٢٤، وقال محققو المسند: حسن لغيره ١٥/٣٩٠.

(٤) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، ابن حبان ١٦٦-١٦٨.

وإن الـذي بـيني وبـين بـني أبـي وبـين بـني عمـي لمختلـف جـدا
إذا أكلوا لحمـي وفـرت لحـومهم وإن هـدموا مجـدي بنيـت لهـم مجـدا
وإن ضيعوا غـيبي حفظـت غيـوبهم وإن هـم هـووا غيـي هويـت لهـم رشـدا[١]

رابعًا- من موضوعات الدعوة: الحذر من الإساءة إلى الأقارب:

حذر الإسلام من الإساءة والاعتداء على الغير، كما عظم أمر الاعتداء على الأقارب والإساءة إليهم، لأنهم رحم الإنسان، فقد قال النبي ﷺ في شأن الرجل المحسن إلى أقاربه المسيئين له "كأنما تسفهم الملّ" قال ابن الأثير: (الملّ والملّة: الرماد الحارّ الذي يحمى ليدفن فيه الخبز لينضج، أراد: إنما تجعل الملّة لهم سفوفًا يستفونه. يعني: أن عطاءك إياهم حرام عليهم ونارٌ في بطونهم)[٢].

وقال النووي: (وهو تشبيه لما يلحقهم من الإثم[٣] بما يلحق آكل الرماد الحار من الألم، ولا شيء على هذا المحسن، بل ينالهم الإثم العظيم في قطيعته وإدخالهم الأذى عليه. وقيل: معناه إنك بالإحسان إليهم تخزيهم وتحقرهم في أنفسهم لكثرة إحسانك وقبيح فعلهم، من الخزي والحقارة عند أنفسهم كمن يسف الملّ، وقيل: ذلك الذي يأكلونه من إحسانك كالملّ يحرق أحشاءهم)[٤].

وقد أمر الله تعالى بالإحسان إلى ذوي القربى، قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾[٥].

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ١٥٧/٩.

(٢) النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير ٨٨٣.

(٣) في المطبوع من شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص : الألم، والتصحيح من رياض الصالحين ص ١٧١.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٣٥، وانظر: شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ١٥٦/١.

(٥) سورة النساء، آية: ٣٦.

فقد (أوصى الله سبحانه بالإحسان إلى الوالدين إثر تصدير ما يتعلق بحقوق الله عز وجل التي هي آكد الحقوق وأعظمها، تنبيهًا على جلالة شأن الوالدين بنظمهما في سلكها، ثم عطف على الإحسان إليهما الإحسان إلى القرابات من الرجال والنساء)[١].

وجاء في الموسوعة الفقهية: (قال ابن جزي: حقوق المسلم على المسلم عشرة: أن يسلم عليه إذا لقيه، ويعوده إذا مرض، ويجيبه إذا دعاه، ويشمته إذا عطس، ويشهد جنازته إذا مات، ويبر قسمه إذا أقسم، وينصح له إذا استنصحه، ويحب له الخير ما يحب لنفسه، ويكف عنه شره ما استطاع، فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، ويبذل له من خيره ما استطاع في دينه ودنياه، فإن لم يقدر على شيء فكلمة طيبة، فإن كان من القرابة فيزيد على ذلك حق صلة الرحم بالإحسان والزيارة، وحسن الكلام واحتمال الجفاء)[٢].

خامسًا- من أساليب الدعوة: ضرب الأمثال واستخدام التشبيه:

بين النبي ﷺ حال الرجل مع أقاربه بأن قال له ﷺ "كأنما تسفهم المل" أي (كأنما تطعمهم الرماد الحار وهو تشبيه لما يلحقهم من الإثم بما يلحق آكل الرماد من الألم... فينالهم إثم عظيم بتقصيرهم في حقه وإدخالهم الأذى عليه)[٣].

والملاحظ على هذا التشبيه أنه منتزع من بيئة المدعو، فهو يعرفه جيدًا ويفهمه تمام الفهم، ومن ثم يصل المعنى إلى ذهنه لا لبس فيه ولا غموض، بل يصله وقد ازداد وضوحًا على وضوح.

وقد استخدم القرآن الكريم ضرب الأمثال في دعوته الناس إلى الحق[٤] ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٥]، كما استخدم النبي ﷺ الأمثال كذلك في دعوتهم[٦].

---

(١) محاسن التأويل، القاسمي ١٣٩/٥.

(٢) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٧٤/٣٣-٧٥.

(٣) رياض الصالحين ١٧١ بتصرف يسير.

(٤) انظر: مستلزمات الدعوة في العصر الحاضر، علي بن صالح المرشد، ١٦٤-١٦٦.

(٥) سورة الحشر، آية: ٢١.

(٦) وقد جعل الترمذي في سننه كتابًا أسماه، كتاب الأمثال عن رسول الله ﷺ ضمنه الأحاديث ٢٨٥٩-٢٨٧٤.

الحديث رقم (٣١٩)

٣١٩- وعن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : أن رَسُول الله ﷺ ، قَالَ: ((من أحبَّ أنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، ويُنْسأَ لَهُ فِي أثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ)) مُتَّفقٌ عَلَيهِ[1]. ومَعْنَى "يُنْسأَ لَهُ فِي أَثَرِه" أي: يُؤَخَّرَ لَهُ فِي أَجَلِه وعُمُرِه.

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

الشرح الأدبي

بدأ الرسول ﷺ حديثه بأسلوب شرط ضمَّنه كثيراً من وسائل التشويق والإثارة لمتابعة الخبر وتحقيق يقظة المخاطب، فقوله: (من سره أن يبسط له في رزقه أو ينسأ له في أثره) فقد صدَّره بأداة الشرط (من) التي تنادي بكل عاقل ليحوز الخير العاجل مع ما ينتظره من الثواب الآجل، ثم تعبيره بلفظ السرور الذي يداعب الوجدان ويمني النفس بكل محبوب وهي كلفة بكل ما يحقق لها السرور والسعادة، وتعبير الرسول ﷺ بالمصدر المنسبك من (أن) والفعل دون المصدر الصريح (البسط) لأن التعبير بالمصدر المنسبك من أن والفعل المضارع مع دلالته على ما يدل عليه المصدر يدل على التجدد والاستمرار الذي يوحي بتجدد البسط كلما جد وصل ويصوِّر الفعل المضارع (يبسط) مُلْكَ واصل رحمه وعمره وهو ما يزال يتسع مما يشجع الواصل على دوام هذه الصلة وقوله (يبسط له في رزقه، وينسأ له في أثره) كناية عن البركة في العمر بسبب التوفيق إلى الطاعة، وعمارة الوقت بما ينفعه في الآخرة، وصيانته عن تضييعه في غير ذلك، وقول الرسول ﷺ (فليصل رحمه) جواب للشرط سبقه بإثارة، وتشويق جعل المخاطب في قمة الاستشراف لجواب الشرط الذي سبقه بأحب ما تهفو إليه النفس المجبولة على حب البقاء، وكثرة الرزق[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٨٦) ومسلم (٢١/٢٥٥٧) ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه (٣٦٩٥).

(٢) انظر: بلاغة الرسول ﷺ في تقويم أخطاء الناس دراسة في الصحيحين، د. ناصر راضي الزهري، ٥٥.

فقه الحديث

إن صلة الرحم من أمور البر التي حث عليها الإسلام، فالإنسان الذي لا يصل رحمه قاطع لما أمر الله بصلته، ولاشك أن قطع الرحم معصية كبرى وذنب عند الله عظيم.

وقد بنى الفقهاء على ذلك أحكامًا فقهية عديدة، فاتفقوا[١] على أن صلة الرحم واجبة في الجملة على المسلم، وأنه مطالب بالسعي لوصل المقطوع منها، ونصوا[٢] على أن من نذر أن يقطع رحمه لا يوفي بنذره، بل يكفر عن يمينه ويصل رحمه، لأنه نذر في معصية، ونصوا[٣] على أن الهبة والصدقة تكون لذي الرحم أفضل منها في غيرهم.

---

(١) رد المحتار على الدر المختار المسمى بـ "حاشية ابن عابدين"، محمد أمين بن عمر عابدين، تحقيق: علي محمد معوض ٤١١/٦، وحاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني، الشيخ علي بن أحمد العدوي ٤٢٧/٢، وبلغة السالك لأقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك، أحمد بن محمد الصاوي ٤٨٨/٣، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين عبدالرحيم بن الحسن ١٩٢/٤، والزواجر عن اقتراف الكبائر، ابن حجر الهيتمي ١٣٠/٢، وغذاء الألباب شرح منظومة الآداب، الإسفراييني الحنبلي ٦٤٧/١، والآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ٤٣٣/١، وسبل السلام، الصنعاني٢/٦٢٧.

(٢) المدونة الكبري رواية سحنون، الأصبحي ٥٨٨/١.

(٣) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٥٠/٢، وشرح فتح القدير، ابن همام الحنفي ٢٧٠/٢، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم النفراوي ١٥٥/٢، والمدونة ٣٤٧/١، وأحكام القرآن، ابن العربي، تحقيق: علي محمد البجاوي ٣٤٨/٤، والأم، الإمام الشافعي ٩٧/٢، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٤٠٧/١، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢٠٩/٦، ٢٣٤، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢٦٩/٢، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٤٦٢/١، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٢٨٩/٢.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل صلة الرحم.

ثانيًا: من مهام الداعية: إرشاد المدعو إلى ما ينفعه.

ثالثًا: من أهداف الدعوة: صلة الأرحام.

رابعًا: من أساليب الدعوة: الترغيب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل صلة الرحم:

بيّن النبي ﷺ فضل من يصل رحمه بأنه يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره: "أي: يؤخر له في أجله وعمره"[١].

وقد أكد النبي ﷺ هذا المعنى في أحاديث أخرى، فقال ﷺ: ((تَعَلَّمُوا مِنْ أَنْسَابِكُمْ مَا تَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ، فَإِنَّ صِلَةَ الرَّحِمِ مَحَبَّةٌ فِي الأَهْلِ مَثْرَاةٌ فِي المَالِ، مَنْسَأَةٌ فِي الأَثَرِ))[٢].

وقال ﷺ كذلك: ((مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُمَدَّ لَهُ فِي عُمُرِهِ، وَيُوسَّعَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُدْفَعَ عَنْهُ مِيتَةُ السَّوْءِ، فَلْيَتَّقِ اللَّهَ، وَلْيَصِلْ رَحِمَهُ))[٣].

وقال ﷺ أيضًا: ((صِلَةُ الرَّحِمِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ، وَحُسْنُ الْجِوَارِ: تعمُرانِ الديَارَ، وَيَزِيدانِ فِي الأَعْمَارِ))[٤].

قال ابن هبيرة: (إن الرحم هي أولى الخلق بالبر، فإذا أبرها الإنسان فقد وضع البر في موضعه، فرجى منه أن يضع فيما وراء الرحم مثل ذلك من البّر، وكان جديرًا بما أخبر به رسول الله ﷺ من بسط الرزق وطول العمر)[٥].

---

(١) رياض الصالحين ١٧١.

(٢) أخرجه الترمذي ١٩٧٩، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٦١٢).

(٣) أخرجه عبدالله بن أحمد في زوائده على المسند ١٤٣/١ رقم ١٢١٣ وقال محققو المسند: إسناده قوي ٢٨٧/٢.

(٤) أخرجه أحمد ١٥٩/٦ رقم ٢٥٢٥٩ وقال من محققو المسند: (إسناده صحيح ١٥٣/٤٢).

(٥) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ١٣/٥.

قال ابن حجر رحمه الله: (قال العلماء: معنى البسط في الرزق البركة فيه، وفي العمر حصول القوة في الجسد، لأن صلة أقاربه صدقة، والصدقة تُربي المال وتزيد فيه، فينمو بها ويزكو؛ لأن رزق الإنسان يكتب وهو في بطن أمه، فلذلك احتيج إلى هذا التأويل، أو المعنى: أنه يكتب مقيدًا بشرط، كأن يقال: إن وصل رحمه فله كذا، وإلا فكذا، أو المعنى بقاء ذكره بعد الموت)[1].

وقد صحح النووي رحمه الله أن الزيادة في العمر: (البركة فيه والتوفيق للطاعات، وعمارة أوقاته بما ينفعه في الآخرة، وصيانتها عن الضياع في غير ذلك)[2].

جاء في الموسوعة الفقهية: (في صلة الرحم حكم جليلة، عبّر عن أهمها حديث رسول الله ﷺ: "من سره أن يبسط له في رزقه أو ينسأ له في أثره فليصل رحمه"، ومن الفوائد الكثيرة التي أشار إليها الفقهاء، رضى الله سبحانه وتعالى، لأنه أمر بصلة الرحم وإدخال السرور على الأرحام، ومنها زيادة المروءة، وزيادة الأجر بعد الموت، لأنهم يدعون له بعد موته كلما ذكروا إحسانه)[3].

ثانيًا- من مهام الداعية: إرشاد المدعو إلى ما ينفعه:

يوجه الداعية المدعوين إلى ما ينفعهم وما يفيدهم في دنياهم وآخرتهم، لأنه ناصح أمين لهم، والنبي ﷺ بيّن للمدعوين نفع صلة الرحم وفائدته، ولا شك أن هذا دعوة لهم إلى الامتثال والتطبيق في حياتهم، حتى يجنوا هذه الثمار الطيبة من صلة الرحم.

ومن هذا القبيل ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ، قال: ((مَنْ شَهِدَ الْجَنَازَةَ حَتَّى يُصَلَّى عَلَيْهَا فَلَهُ قِيرَاطٌ. وَمَنْ شَهِدَهَا حَتَّى تُدْفَنَ فَلَهُ قِيرَاطَانِ)) قيل: وَمَا الْقِيرَطَانِ؟ قَالَ: ((مِثْلُ الْجَبَلَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ))، وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يُصَلِّي عَلَيْهَا ثُمَّ يَنْصَرِفُ؛ فَلَمَّا بَلَغَهُ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: لَقَدْ ضَيَّعْنَا قَرَارِيطَ كَثِيرَةً[4].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٥٣/٤، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٣٥، وشرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ١٥١/٩ - ١٥٢، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٣٠/١٠.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٣٥.

(٣) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٨٥/٣.

(٤) أخرجه البخاري ١٣٢٥، ومسلم ٩٤٥ وهذا لفظه.

قال النووي رحمه الله: (وفيه ما كان الصحابة رضي الله عنهم عليه من الرغبة في الطاعات حين يبلغهم، والتأسف على ما يفوتهم منها، وإن كانوا لا يعلمون عظم موقعه)[١].

وقد قال ﷺ: ((إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلاَّ كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ))[٢].

قال ابن عثيمين: (كل الأنبياء عليهم السلام كان منهم النصيحة لأقوامهم، يعلمونهم الخير ويدلونهم عليه ويحثونهم عليه، ويبينون الشر ويحذرونهم منه، هكذا يجب على أهل العلم وطلابه، أن يبيّنوا للناس الخير، ويحثوهم عليه، ويبينوا الشر ويحذرونهم منه؛ لأن علماء هذه الأمة ورثة الأنبياء، فإن النبي ﷺ ليس بعده نبي، ختمت النبوة به، فلم يبق إلا العلماء الذين يبلغون شرعه ودينه، فيجب عليهم ما يجب على الأنبياء من بيان الخير والحث عليه، ودلالة الناس إليه، وبيان الشر والتحذير منه)[٣].

ثالثًا- من أهداف الدعوة: صلة الأرحام:

يحرص الإسلام حرصًا شديدًا على سوق الخير للناس أجمعين، ومن سوق الخير لهم حضّهم على صلة الأرحام، وهذا واضح في قوله ﷺ: "من أحب أن يبسط له في رزقه، وينسأ له في أثره فليصل رحمه"، قال النووي: (قال القاضي عياض[٤]: ولا خلاف أن صلة الرحم واجبة في الجملة وقطيعتها معصية كبيرة، والأحاديث تشهد لهذا، ولكن الصلة درجات بعضها أرفع من بعض، وأدناها ترك المهاجرة وصلتها بالكلام ولو بالسلام، ويختلف ذلك باختلاف القدرة والحاجة، فمنها واجبٌ ومنها مستحب، ولو وصل بعض الصلة ولم يصل غايتها لا يسمى قاطعًا، ولو قصّر عما يقدر عليه وينبغي له لا يسمى واصلاً)[٥].

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٦٠٨.

(٢) أخرجه مسلم ١٨٤٤.

(٣) شرح رياض الصالحين ٩٦٠/١.

(٤) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٢٠/٨.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٣٤.

وجاء في الموسوعة الفقهية: "تحصل صلة الأرحام بأمور عديدة منها: الزيارة والمعاونة وقضاء الحوائج والسلام لقوله ﷺ: ((بُلُّوا[١] أَرْحَامَكُمْ وَلَوْ بِالسَّلَامِ))[٢]، كما تحصل الصلة بالكتابة إن كان غائبًا، نصّ على ذلك الحنفية والمالكية والشافعية، وهذا في غير الأبوين، أما هما فلا تكفي الكتابة إن طلبا حضوره، وكذلك بذل المال للأقارب فإنه يعتبر صلة لهم، لقوله ﷺ: ((الصَّدَقَةُ عَلَى الْمِسْكِينِ صَدَقَةٌ، وَعَلَى ذِي الْقَرَابَةِ اثْنَتَانِ: صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ))[٣]، وظاهر عبارة الحنفية والشافعية أن الغني لا تحصل صلته بالزيارة لقريبه المحتاج إن كان قادرًا على بذل المال له، ويدخل في الصلة جميع أنواع الإحسان مما تتأتى به الصلة"[٤].

وصلة الرحم من مكارم الأخلاق، وقد قال النبي ﷺ: ((إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ))، وفي رواية: ((إِنَّمَا بُعِثْتُ لأتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلَاقِ))[٥].

قوله ﷺ: (لأتمم صالح الأخلاق)، قال ابن عبد البر: "ويدخل في هذا المعنى الصلاح والخير كله، والدين والفضل والمروءة والإحسان والعدل، فبذلك بعث ليتمّمه، وقد قالت العلماء: إن أجمع آية للبر والفضل ومكارم الأخلاق قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[٦][٧].

---

(١) بُلّوا: أي: ندّوها بصلتها، وهم يطلقون النداوة على الصلة كما يطلقون اليبس على القطيعة، لأنهم لما رأوا بعض الأشياء يتصل ويختلط بالنداوة، ويحصل بينها التجافي والتفرق باليبس استعاروا البَلَلَ لمعنى الوصل، واليبس لمعنى القطيعة، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ب ل ل).

(٢) أخرجه البزار والطبراني كما في مجمع الزوائد ١٥٢/٨، وقال السخاوي في المقاصد الحسنة ص ١٧٦: طرقه يقوي بعضها بعضًا.

(٣) أخرجه ابن ماجه ١٨٤٤، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ١٤٩٤).

(٤) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية، ٨٤/٣ – ٨٥.

(٥) أخرجه أحمد٢/٣٨١ رقم ٨٩٥٢، والبخاري في الأدب المفرد ٢٧٣، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٤٥، وانظر تتمة تخريجه في: تحقيق مسند أحمد ٥١٣/١٤.

(٦) سورة النحل، آية: ٩٠.

(٧) التمهيد، ابن عبدالبر، تحقيق: مجموعة من الباحثين ٣٣٢/٢٤.

وقال الحسن البصري عن هذه الآية: (إن الله عز وجل جمع لكم الخير كله والشر كله في آية واحدة، فوالله ما ترك العدل والإحسان من طاعة الله شيئًا إلا جمعه، ولا ترك الفحشاء والمنكر والبغي من معصية الله شيئًا إلا جمعه)[1].

رابعًا- من أساليب الدعوة: الترغيب:

رغّب النبي ﷺ في صلة الرحم بأن أخبر أن جزاء ذلك البسط في الرزق والنسأة في الأجل والعمر، ومن الملاحظ أن هذه الأشياء تهفو إليها كل النفوس، وترغب فيها كل الأفهام، مما يدفع المدعوين إلى سرعة الامتثال والتمسك بصلة الرحم، مهما قابلهم من عقبات أو واجهوا من مشكلات في سبيل ذلك.

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ١٤٠.

الحديث رقم (٣٢٠)

٣٢٠- وعنه، قَالَ: كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ الأنْصَارِ بالمَدينَةِ مَالاً مِنْ نَخل، وَكَانَ أحَبُّ أمْوَاله إلَيْهِ بَيْرَحاء، وَكَانَتْ مستَقْبلَةَ المَسْجِدِ، وَكَانَ رَسُول الله ﷺ يَدْخُلُهَا، وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّب، فَلَمَّا نَزَلَتْ هذهِ الآيةُ: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[آل عمران: ٩٢] قَامَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رسولِ الله ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُول الله، إنَّ الله تبارك وتَعَالَى، يقول: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وَإنَّ أَحَبَّ مَالِي[1] إلَيَّ بَيْرَحَاءُ، وَإنَّهَا صَدَقَةٌ للهِ تَعَالَى، أرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ الله تَعَالَى، فَضَعْهَا يَا رَسُول الله، حَيْثُ أرَاكَ الله. فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: ((**بَخٍ! ذلِكَ مَالٌ رَابحٌ، ذلِكَ مَالٌ رَابحٌ! وقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ، وَإنِّي أرَى أنْ تَجْعَلَهَا فِي الأقْرَبِينَ**))، فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: أفْعَلُ يَا رَسُول الله، فَقَسَّمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أقَارِبِهِ وبَنِي عَمِّهِ. مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[2].

وسبق بيان ألفاظِهِ في: (باب الإنْفَاقِ مِمَّا يحب)[3].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

بيرحاء: حديقة نخل وروي بكسر الباء وفتحها[4].

مستقبلة المسجد: أمام المسجد النبوي[5].

ذخرها: هو ما يعد لوقت الحاجة. والمراد: أجرها عند الله[6].

---

(١) لفظ البخاري في هذه الرواية: (أموالي) وبهذا اللفظ عنده برقم (٥٦١١)، والمثبت لفظ الحميدي في جمعه (٥١٦/٢، رقم ١٨٨٢).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٦١) واللفظ له، ومسلم (٩٩٨/٤٢). أورده المنذري في ترغيبه (١٢٨٣).

(٣) تقدم برقم (٢٩٧).

(٤) رياض الصالحين ١٦٥.

(٥) الوسيط في (ق ب ل).

(٦) المصباح المنير في (ذ خ ر).

بخ: كلمة تقال عند الرضا والإعجاب بالشيء أو المدح أو الفخرتقول: بَخْ وبخٍ وتقول مكررًا: بَخْ بَخْ وبخٍ بخٍ[١].

مال رابح: قوله: "مال رابح" روي في الصحيح "رابح" و"رايح" بالباء الموحدة وبالياء المثناة: أي رياح عليك نفعه[٢].

الشرح الأدبي

الحديث يحكي قصة وقعت مع صحابي جليل تضمنت معاني عظيمة تحكي تفاعل الصحابة البناء مع آيات الله إيماناً، ويقيناً، وعملاً، والراوي صوَّر هذا المعنى، بمقدمة تمثلت في بيان حال الصحابي أحد طرفي الحوار، وقد استخدم أفعل التفضيل (أكثر - أحب) والفعل الأول كشف عن وضعه المادي، والثاني كشف عن المفارقة بين حبه لبستانه (بيرحاء) وبين تنفيذ أمر الله، والتقرب إليه، وقد انتصر على نفسه، وآثر ما عند الله، وهو ما صوَّره بقوله (وإنها صدقة لله)، والواو في عبارته طوت ما سبق من أوصاف البستان ليدلل على مكانته عنده، وإيثاره لما عند الله، وقد أكد الجملة بعدة مؤكدات دلالة على تمام قناعته بما فعل وقوله للرسول (فَضَعْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللَّه) تفويض له ﷺ يعكس ثقته، ورضاه بما يرضي رسول الله؛ لأنه يتصرف بوحي الله، وهو ما يدل عليه قوله: (حَيْثُ أَرَاكَ اللَّهُ)، وقول الرسول ﷺ: « بَخٍ ذَلِكَ مَالٌ رابح ذَلِكَ مَالٌ رَائِحٌ) بخ كلمة يقولها المتعجب من الشيء، وتقال عند المدح، والرضا بالشيء، يؤكد ذلك الإشارة الدالة على التعظيم (ذلك) وتنكير كلمة (مال) للتعظيم ثم زاده حفاوة، ورضا بتكرار الجملة مع ما في التكرار من الترغيب لغيره، وقول الرسول ﷺ (وَإِنِّى أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الأَقْرَبِينَ » لأنه على الأقربين صدقة، وصلة إذا كانوا فقراء بالإضافة إلى أنه علاج نفسي ينزع الأحقاد، ويحقق المحبة، والرضا بين المسلمين.

المضامين الدعوية[٣]

---

(١) الوسيط في (ب خ).

(٢) رياض الصالحين ١٦٥.

(٣) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (٢٩٧).

الحديث رقم (٣٢١)

٣٢١- وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قَالَ: أقبلَ رَجُلٌ إِلَى نَبيِّ الله ﷺ، فَقَالَ: أُبَايِعُكَ عَلَى الهجْرَةِ وَالجِهَادِ أَبْتَغي الأجْرَ مِنَ الله تَعَالَى. قَالَ: ((**فَهَلْ لَكَ مِنْ وَالِدَيْكَ أحَدٌ حَيٌّ؟**)) قَالَ: نَعَمْ، بَلْ كِلاهُمَا. قَالَ: ((**فَتَبْتَغي الأجْرَ مِنَ الله تَعَالَى؟**)) قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: ((**فارْجِعْ إِلَى وَالِدَيْكَ، فَأحْسِنْ صُحْبَتَهُمَا**)) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ، وهذا لَفْظُ مسلِم[١].

وفي رواية لَهُمَا[٢]: جَاءَ رَجُلٌ[٣] فَاسْتَأذَنَهُ في الجِهَادِ، فقَالَ: ((**أحَيٌّ وَالِداكَ؟**)) قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: ((**فَفيهِمَا فَجَاهِدْ**)).

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمرو بن العاص: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٣٨).

الشرح الأدبي

الحديث يبدأ بأسلوب خبري خلى من المؤكدات، وتنكير كلمة (رجل) لعدم تعلق غرض بتعريفه، وقول الرجل: (أُبَايِعُكَ عَلَى الهجْرَةِ وَالجِهَادِ) أسلوب إنشائي غير طلبي لأنه قصد به إنشاء البيعة، وقوله (عَلَى الهجْرَةِ وَالجِهَادِ) إعلان لرغبته بذل ماله، ونفسه رغبة في ما عند الله كما دل عليه قوله: (أَبْتَغي الأجْرَ مِنَ الله (وقول الرسول ﷺ (فَهَلْ لَكَ مِنْ وَالِدَيْكَ أحَدٌ حَيٌّ ؟) استفهام حقيقي جاء تمهيداً يبني عليه الحكم، والاستفهام

---

(١) أخرجه مسلم عقب الحديث (٢٥٤٩/٦، بدون رقم) واللفظ له. أورده المنذري في ترغيبه (٣٦٤٩).

تنبيه: هذا الحديث أورده الحميدي في جمعه (٤٣٤/٣، رقم ٢٩٣٤) في المتفق عليه، وعزاه بهذا اللفظ إلى مسلم من حديث ناعم مولى أم سلمة، ولم يذكر البخاري، وهو الصواب، ولأجل ذلك ذكر المؤلف الرواية المتفق عليها بعده، حيث قال: (وفي رواية لهما). وكذا عزاه المنذري في ترغيبه بهذا اللفظ إلى مسلم.

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٠٤)، ومسلم (٢٥٤٩/٥) والسياق للحميدي في جمعه (٤٣٤/٣، رقم ٢٩٣٤). أورده المنذري في ترغيبه (٣٦٤٩).

(٣) عندهما زيادة: (إلى النبي ﷺ) اختصره الحميدي في جمعه ولم يوردها، فتبعه عليها المؤلف.

الثاني: (فَتَبْتَغِي الأجْرَ مِنَ اللهِ تَعَالَى ؟) استفهام محذوف الأداة غرضه حمل المخاطب على الإقرار بالحكم، فلما أقر بالحكم رتب عليه الأمر بالرجوع إلى والديه: (فارْجِعْ إلَى وَالِدَيْكَ، فَأَحْسِنْ صُحْبَتَهُمَا) وهذا الحديث يقرر عن طريق الواقع الفعلي بين الرسول ﷺ، وصاحبه عظمة أجر بر الوالدين، ومدى الثواب الذي يناله من حظي برضا والديه، في الدنيا عاجلاً، وفي الآخرة آجلاً.

فقه الحديث

إن الجهاد فرض كفاية متى قام به البعض سقط عن الباقين، ولا يتعين إلا في حالات معروفة شرعًا، وبر الوالدين فرض عين، ولذا كان مقدمًا على الجهاد، وقد اتفق الفقهاء[1] على أنه متى كان الجهاد فرض كفاية، فإنه لا يجوز لمن كان والداه حيين أو أحدهما أن يخرج إلى الجهاد متطوعًا إلا بإذنهما، ولكن متى تعين الجهاد كان له الخروج بدون إذنهما.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على الهجرة والجهاد.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: عظم حق الوالدين.

رابعًا: من أساليب الدعوة: الأمر.

خامسًا: من فقه الداعية: ترتيب الأولويات.

سادسًا: من مهام الداعية: توجيه المدعوين إلى ما يناسبهم.

---

(١) انظر في ذلك: شرح فتح القدير، ابن همام الحنفي ٤٤٢/٥، و(٤٤١) رد المحتار على الدر المختار المسمى بـ "حاشية ابن عابدين"، محمد أمين بن عمر عابدين، تحقيق: علي محمد معوض ١٢٥/٤، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ٢٢١/٣، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ١٧٥/٣، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد المغربي ٣٥٠/٣، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم النفراوي ٣٩٥/١، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ١٧٧/٤، وتحفة المحتاج ٢٣٣/٩، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٧٠/٩، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٦٢١/١، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٤٥/٣، والمحلى، ابن حزم ٣٤٢/٥.

أولاً- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

من أساليب الدعوة التي تظهر في هذا الحديث أسلوب السؤال والجواب في قوله ﷺ: "فهل لك من والديك أحد حي؟" قال: نعم بل كلاهما. قال: "فتبتغي الأجر من الله تعالى؟" قال: نعم قال: "فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما" فسأل رسول الله ﷺ الذي يريد أن يبايعه على الهجرة والجهاد، وأجابه الرجل.

وأسلوب السؤال والجواب أسلوب مفيد في الدعوة إلى الله، فهو يجعل الداعية لديه رؤية واضحة عن حقيقة أمر المدعو، حتى يتسنى له تحديد احتياجاته الدعوية.

قال القرطبي: (وقوله: "جاء رجل يستأذنه في الجهاد فقال: ألك أبوان؟ قال: نعم" فيه ما يدل على أن المفتي إذا خاف على السائل الغلط، أو عدم الفهم، تعين عليه الاستفصال، وعلى أن الفروض والمندوبات مهما اجتمعت قدم الأهم منها، وأنّ القائم على الأبوين يكون له أجر مجاهد وزيادة)[1]. وقال ابن حجر: (ويؤخذ منه أن المكلف يستفصل عن الأفضل في الأعمال ليعمل به، لأنه سمع فضل الجهاد فبادر إليه، ثم لم يقنع حتى استأذن فيه، فدل على ما هو أفضل منه في حقه، ولولا السؤال لما حصل له العلم بذلك)[2].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على الهجرة والجهاد:

إن من موضوعات الدعوة التي يتضمنها الحديث حرص الصحابة رضي الله عنهم على الهجرة والجهاد، وهذا يظهر من قول الرجل "أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من الله تعالى".

فهذا الحرص لعلم الصحابة رضي الله عنهم بفضل من سبق في الهجرة والجهاد، فيريدون أن يلحقوا بهم، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[3] فقد أخبر الله تعالى أنه قد رضي عن السابقين الأولين من

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٥٠٩/٦.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٦٣/٦.

(٣) سورة التوبة، آية: ١٠٠.

المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان[١]. والحرص على الجهاد لما له عند الله من الثواب والأجر العظيم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[٢].

وقال رسول الله ﷺ ((إنَّ في الجنةِ مائةَ درجةٍ أعدَّها الله للمجاهدينَ في سَبيلِ الله ما بينَ الدرجتين كما بينَ السماءِ والأرض))[٣].

فالهجرة والجهاد من أهم ما حرص عليه صحابة رسول الله ﷺ لعظم الفضل والأجر فيهما.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: عظم حق الوالدين:

إن من موضوعات الدعوة التي تظهر من هذا الحديث عظم حق الوالدين، يتضح ذلك عندما أقبل الرجل إلى النبي ﷺ فقال: "أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من الله تعالى" قال: "فهل لك من والديك أحد حي؟" قال نعم بل كلاهما... قال "فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما"، أو قال: "ففيهما فجاهد".

قال القاضي عياض: (قوله ﷺ: "ففيهما فجاهد": يحتمل أن هذا كان بعد الفتح وسقوط فرض الهجرة والجهاد، وظهور الدين، أو كان من الأعراب وغيرهم الذين كانت تجب عليه الهجرة، فرجح بر والديه وعظيم حقهما، وكثرة الأجر في برهما، وأن ذلك أفضل من الجهاد، وحسبك بهذا، ولم ير أهل العلم الجهاد إلا بإذنهما)[٤].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢٠٣/٤.

(٢) سورة الصف، الآيتان: ١٠-١٢.

(٣) أخرجه البخاري ٢٧٩٠.

(٤) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٧/٨.

وقال القرطبي رحمه الله: (وقول الأعرابي: "أبايعُك على الهجرة" أي: على أن أهجر دار قومي، وأهاجر إليك، فأقيم معك في المدينة، وهذا في زمن وجوب الهجرة.

وقوله: "فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما"، وعلى الخلاف في وجوب الهجرة، هل كان على أهل مكة خاصة، أو كان على كل من أسلم؟ وعلى القولين فقط أسقط عنه الهجرة، لأن حق الوالدين أولى؛ لأنه إن كانت الهجرة عليه واجبة، فقد عارضها ما هو أوجب منها، وهو حق الوالدين، فقُدم، وإن لم تكن واجبة عليه، فالواجب أولى على كل حال)[(١)].

وقد ورد الكثير في القرآن والسنة مما يدل على عظم حق الوالدين، مثل قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾[(٢)].

قال القرطبي: (أمر الله سبحانه بعبادته وتوحيده، وجعل بر الوالدين مقرونًا بذلك كما قرن شكرهما بشكره، فقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ﴾ وقال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾[(٣)] وفي صحيح البخاري عن عبدالله قال ((سألتُ النبيَّ ﷺ: أَيُّ العملِ أحبُّ إلى اللهِ ؟ قال: الصلاةُ عَلَى وَقتِها. قال: ثمَّ أيٌّ؟ قال: ثمَّ برُّ الوالِدَينِ. قال: ثمَّ أيٌّ؟ قال: الجهادُ في سبيل اللهِ))[(٤)] فأخبر النبي ﷺ أن بر الوالدين أفضل الأعمال بعد الصلاة التي هي أعظم دعائم الإسلام ورتب ذلك بثم التي تعطي الترتيب والمهلة[(٥)].

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٥١٠/٦.

(٢) سورة الإسراء، الآيتان: ٢٣، ٢٤.

(٣) سورة لقمان، آية: ١٤.

(٤) أخرجه البخاري ٥٢٧، ومسلم ٨٥.

(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢٣٨/١٠/٥.

فبر الوالدين من الأشياء التي اهتم بها الإسلام وأعطاها عناية خاصة، فينبغي على الدعاة بيان عظم حق الوالدين ووجوب برهما.

رابعًا- من أساليب الدعوة: الأمر:

من أساليب الدعوة التي تظهر في هذا الحديث أسلوب الأمر، ويظهر في قوله ﷺ "فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما" و"ففيهما فجاهد" وأسلوب الأمر من أساليب الدعوة المهمة، حيث يجعل الداعية يستطيع الأمر بما يراه أمرًا لازمًا في دعوته للمدعوين، ويشعر المدعو بأهمية الأمر الذي أمر به الداعية، فينبغي على الداعية استخدام أسلوب الأمر في دعوته من أجل حث المدعوين على الامتثال لطاعة الله عز وجل ورسوله ﷺ.

خامسًا- من فقه الداعية: ترتيب الأولويات:

من فقه الداعية المستنبط من عموم الحديث ترتيب الأولويات، وهذا يعني أن يبدأ الداعية بالأهم فالمهم، ويتضح ذلك جليًا في أمره ﷺ من أراد مبايعته على الهجرة والجهاد، أن يجاهد في والديه برعايتهما وصحبتهما، فالجهاد أمر مهم ولكن رعاية الأبوين أهم، لأن الجهاد يوجد من يقوم به، أما رعاية الأبوين فأولى الناس بها هم الأبناء، قال القرطبي: (وإن الفروض والمندوبات مهما اجتمعت قدم الأهم منها، وأن القائم على الأبوين يكون له أجر مجاهد وزيادة. وقوله: "ففيهما فجاهد" أي: جاهد نفسك في برِّهما وطاعتهما، فهو الجهاد الأولى بك؛ لأن الجهاد فرض كفاية، وبر الوالدين فرض عين، فلو تعين الجهاد وكان والداه في كفاية ولم يمنعاه، أو أحدهما من ذلك، بدأ بالجهاد. فلو لم يكونا في كفاية تعين عليه القيام بهما، فبدأ به، فلو كانا في كفاية ومنعاه لم يلتفت إلى منعهما؛ لأنهما عاصيان بذلك المنع، وإنما الطاعة في المعروف، كما لو منعاه الفرض"[1]، وترتيب الأولويات منهج إسلامي، فلم يكن الإسلام يسوق أحكامه دون ترتيب، بل ساقها مرتبة حسب أولويتها، وحسب استجابة المدعوين لها.

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٥٠٩/٦ - ٥١٠.

يؤيد ذلك قول أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ((أول ما نزل منه -أي القرآن- سورة من المفَصل فيها ذِكرُ الجنةِ والنار، حتى إذا ثاب الناسُ إلى الإسلام نَزَلَ الْحلالُ والحرامُ، ولو نزل أوَّلَ شيءٍ لا تشربوا الخَمرَ لقالوا لا نَدَعُ الخمر أبدًا، ولو نزل لاتزنُوا لقالوا لا نَدَعُ الزِّنا أبدًا))[1].

فقد أشارت أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إلى الحكمة الإلهية في ترتيب التنزيل، وأن أول ما نزل من القرآن: الدعوة إلى التوحيد، والتبشير للمؤمن المطيع بالجنة، وللكافر العاصي بالنار، فلما اطمأنت النفوس إلى ذلك نزلت الأحكام[2].

فينبغي على الداعية تقديم ما هو أصل على ما هو فرع، فيقنع الناس به، ويحملهم على قبوله، فإذا ما استقر في القلوب، واستجابت له النفوس، انتقل إلى ما دون ذلك من أمور[3]. فترتيب الأولويات من مهام الداعية التي تفيده في دعوته، لأنه لو علم كيف يبدأ، وماذا يقدم؟ وماذا يؤخر؟ وعلم ما هي القضايا التي يعطيها أولوية قبل غيرها؟ كان داعية ناجحًا مؤثرًا في مدعويه.

سادسًا- من مهام الداعية: توجيه المدعوين إلى ما يناسبهم:

إن من مهام الداعية التي تستنبط من عموم الحديث، توجيه المدعوين إلى ما يناسبهم وهذا يدل عليه توجيهه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمن أراد أن يبايعه على الهجرة والجهاد حيث وجهه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى ما يناسبه وهو رعاية والديه. وهو ما يجب أن يتصف به الداعية، قال ابن حجر: (المستشار يشير بالنصيحة المحضة)[4].

لأن الداعية محل تقدير المدعوين، وموضع احترامهم، فينبغي عليه أن يكون أهلاً لهذا التقدير والاحترام، وذلك بتوجيه المدعوين إلى ما يناسب حالهم، وحال أهلهم، أو المسؤولين منهم، وهذا ما فعله رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع من أراد الهجرة والجهاد، فوجهه إلى رعاية والديه وهذا مناسب له ولوالديه.

---

(١) أخرجه البخاري ٤٩٩٣.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦٥٧/٨.

(٣) انظر: صفات الداعية، د. حمد بن ناصر العمار ص ١٠٩.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٦٣/٦.

الحديث رقم (٣٢٢)

٣٢٢- وعنه، عن النَّبيِّ ﷺ، قَالَ: ((**لَيْسَ الوَاصِلُ بِالمُكَافِئِ، وَلكِنَّ الوَاصِلَ الَّذِي إِذَا قَطَعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا**)) رواه البخاري(١). و"قَطَعَتْ" بِفَتْحِ القَافِ والطَّاء. و"رَحِمُهُ" مرفوع.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمرو بن العاص: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٣٨).

غريب الألفاظ:

المكافئ: أي الذي يعطي لغيره ما أعطاه ذلك الغير(٢).

الشرح الأدبي

دعي الرسول ﷺ إلى ما يضمن تماسك المجتمع، من خلال سن خصال الخير التي تحقق ذلك، ومقابلة السيئة بالحسنة خلق كريم دعا القرآن إليه، وشاهده الصحابة ممثلاً في الرسول ﷺ ودعاهم إليه، وهذا الحديث يدعو إلى هذا الخلق في معاملة الناس لاسيما ذوي الرحم منهم.

والحديث أسلوبه خبري بني على جملة واحدة صدرت في ثوب القصر عن طريق العطف بـ(لكن) حيث نفى صفة الواصل عن المكافئ وأثبتها للذي يصلها إذا قطعت، وفي الحديث طباق يوضح المفارقة بين المسمى الخاطئ، وحقيقة الواصل بين (الواصل - وقطعت)، وإضافة الرحمة للضمير في قوله: (رحمه) إشارة إلى اختصاصه بها، وأنها جزء منه، وهو جزء منها.

والحديث يصحح خطأ الفهم عند كثير من الناس الذين يتعاملون بحساب المصالح يعطي إذا أُعْطَي، ويمنع إذا مُنِع، ولذلك سمّاه الرسول ﷺ بالمكافئ.

---

(١) برقم (٥٩٩١). أورده المنذري في ترغيبه (٣٧١٤).

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠/٤٣٧.

المضامين الدعوية[1]

أولاً: من مهام الداعية: تصحيح المفاهيم الخاطئة.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الحث على مقابلة الإساءة بالإحسان.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل صلة الأرحام.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: خطورة قطيعة الأرحام.

خامسًا: من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب.

أولاً- من مهام الداعية: تصحيح المفاهيم الخاطئة:

إن من مهام الداعية التي تظهر من هذا الحديث تصحيح المفاهيم الخاطئة، ويظهر في قوله ﷺ "ليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها"... الحديث.

فمن المفاهيم الخاطئة والمنتشرة بين كثير من الناس، أن صلة الرحم تكون مع من يصله، أما من يقاطعه ولا يصله فلا صلة له عليه، فأتى حديث رسول الله ﷺ مصححًا لهذا المفهوم الخاطئ، وبيّن أن صلة الرحم تكون مع من قطعه، وهذا كان نهجه ﷺ فلا يترك مفهومًا خاطئًا إلا صححه، فعندما رأى تصور الناس لمفهوم القوة وأن القوي من يصرع الناس بقوته ويغلبهم، بيّن لهم ﷺ أن هذا مفهوم خاطئ، وأن القوة الحقيقية تكمن في السيطرة على النفس عند الغضب، فيقول ((ليس الشديدُ بالصّرَعة، إنما الشديدُ الذي يملكُ نفسَه عندَ الغضب))[2] فينبغي للداعية إلى الله أن ينهج نهج رسول الله ﷺ ويتأسى به في تصحيح المفاهيم الخاطئة عند الناس، وخاصة في هذا العصر، الذي قلّت فيه معرفة الناس بأمور دينهم، وكثُر تقليدهم للعادات والتقاليد، والأنماط المعيشية البعيدة عن الإسلام.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: الحث على مقابلة الإساءة بالإحسان:

إن من موضوعات الدعوة المستنبطة من الحديث: الحث على مقابلة الإساءة

---

(١) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -٣٢٢- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (٣٢٣).

(٢) أخرجه البخاري ٦١١٤، ومسلم ٢٦٠٩.

بالإحسان وهذا يظهر في قوله ﷺ "... ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها..." فبيّن ﷺ أن واصل الرحم هو من يصل من قطعه، لا من وصله، وفي ذلك حثّ على مقابلة الإساءة بالإحسان، وهذا خلق من الأخلاق التي دعا إليها الإسلام، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾(١) قال السعدي: (... ثم أمر بإحسان خاص، له موقع كبير، وهو الإحسان إلى من أساء إليك فقال "ادفع بالتي هي أحسن" أي: فإذا أساء إليك مسيء من الخلق، خصوصًا من له حق عليك كالأقارب، والأصحاب، ونحوهم، إساءة بالقول أو بالفعل فقابله بالإحسان إليه. فإن قطعك فصله، وإن ظلمك فاعف عنه، وإن تكلم فيك غائبًا أو حاضرًا، فلا تقابله؛ بل اعف عنه وعامله بالقول اللين. وإن هجرك، وترك خطابك فطيِّب له الكلام، وابذل له السلام. فإذا قابلت الإساءة بالإحسان حصل فائدة عظيمة)(٢). فينبغي للداعية تذكير المدعوين بما دعا إليه الإسلام من الإحسان إلى المسيء، والعفو عن المخطئ، وصلة القاطع وحسن الخلق.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل صلة الأرحام:

إن من موضوعات الدعوة التي تظهر من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فضل صلة الرحم، ويدل على ذلك قوله ﷺ "الرحم معلقة بالعرش تقول: من وصلني وصله الله...". قال ابن عثيمين: (إن الرحم متعلقة بالعرش، تقول: من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله، وهذا يحتمل أن يكون خبرًا وأن يكون دعاءً، يعني يحتمل أن الرحم تخبر وتدعو الله عز وجل به، وعلى كل حال فهو دليل على عظم شأن الرحم وصلتها، وأنها تحت العرش تدعو بهذا الدعاء، أو تخبر بهذا الخبر)(٣).

---

(١) سورة فصلت، آية: ٣٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٦٩٥.

(٣) شرح رياض الصالحين ١/ ٦٩٦.

ولصلة الرحم فضل عظيم، ولذلك حث الإسلام على تلك الصلة، وأثنى على الواصلين كما جاء ذلك في الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾[(١)] قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: (والذين يصلون ما أمر به أن يوصل، من صلة الأرحام والإحسان إليهم وإلى الفقراء...)[(٢)].

وقال رسول الله ﷺ ((من أحبَّ أن يُبسَطَ له في رِزقه، ويُنسأ له في أثره، فليَصِلَ رَحِمه))[(٣)] وقال ﷺ: ((إنَّ الرَّحمَ شُجْنةٌ من الرحمن، فقال الله: من وصلَكِ وَصَلتُه، ومن قَطعكِ قطعتُه))[(٤)].

والنصوص في هذا الموضوع كثيرة جدًا، ومن أمعن النظر في هذه النصوص الكريمة وجدها صريحة في الحث على صلة الرحم[(٥)].

فينبغي على الداعية بيان فضل صلة الرحم، وأثره في المحبة والألفة بين الأقارب وكذلك ثوابه عند الله تعالى.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: خطورة قطيعة الرحم:

إن من موضوعات الدعوة التي تظهر من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها خطورة قطيعة الرحم ويدل على ذلك قوله ﷺ "الرحم معلقة بالعرش تقول... ومن قطعني قطعه الله" فبيّن أن من يقطع رحمه يقطعه الله، وهذا أمر خطير يدل على خطورة قطيعة الرحم.

وقد حذر الإسلام من القطيعة وتوعد أهلها بأشد العقوبات الدنيوية والأخروية.

فقال سبحانه محذرًا من القطيعة: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾[(٦)].

---

(١) سورة الرعد، آية: ٢١.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٤/٤٥٠.

(٣) أخرجه البخاري ٥٩٨٦، ومسلم ٢٥٥٧.

(٤) أخرجه البخاري ٥٩٨٨.

(٥) انظر: المنهج القويم في التأسي بالرسول الكريم ﷺ، زيد بن محمد هادي مدخلي ص ١٦٧، ١٦٨.

(٦) سورة محمد، الآيتان: ٢٢، ٢٣.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أي: تعودوا إلى ما كنتم فيه من الجاهلية الجهلاء، تسفكون الدماء، وتقطعون الأرحام ولهذا قال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ﴾ وهذا نهي عن الإفساد في الأرض عمومًا، وعن قطع الأرحام خصوصًا)[(١)].

وقال رسول الله ﷺ ((لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعُ رَحِمٍ))[(٢)]، وقال ﷺ: ((مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللهُ لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ))[(٣)].

والنصوص في التحذير من قطيعة الرحم كثيرة، وذلك لخطورة قطيعة الرحم، ولما تسببه من كراهية وقطع في العلاقات الأسرية بين المسلمين، مما يجعل الناس لا يشعر بعضهم ببعض، ويعم الجفاء بين الأقارب، وهذا منافٍ لشريعة الإسلام ومبادئه التي تدعو إلى الترابط والمحبة، والتعاطف والتراحم والمواساة.

فينبغي للداعية أن يحذر من قطيعة الرحم ويبين خطورة ذلك على المجتمع الإسلامي وعلى المتقاطعين.

خامسًا- من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب:

من أساليب الدعوة التي تظهر من حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا الترغيب والترهيب.

أما الترغيب ففي قوله ﷺ "الرحم معلقة بالعرش تقول: من وصلني وصله الله" فقد رغّب ﷺ في صلة الأرحام وبيّن أن من يصل الرحم يصله الله تعالى، وأي ترغيب هذا؟ إنه ترغيب عظيم يحمل كل مؤمن ومؤمنة على المسارعة إلى صلة الأرحام، طمعًا في رضوان الله تعالى.

وأما الترهيب ففي قوله ﷺ "الرحم معلقة بالعرش تقول: ...، ومن قطعني قطعه الله" فقد رهّب ﷺ من قطع الأرحام، وبيّن أن قطع الأرحام سبب في قطع الله لقاطع الرحم، وهذا ترهيب عظيم يخشاه كل ذي عقل سليم، لأن من يقطعه الله لا واصل له.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣١٨/٧.

(٢) أخرجه البخاري ٥٩٨٤، ومسلم ٢٥٥٦ واللفظ له.

(٣) أخرجه الترمذي ٢٥١١، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٠٣٩).

والأصل في الترغيب: أن يكون في نيل رضاء الله سبحانه وتعالى في الدنيا والآخرة وكسب ثوابه في الآخرة والفوز فيها ، والأصل في الترهيب: أن يكون بالخوف من غضب الله وعقابه في الدنيا والآخرة[1].

فينبغي على الداعية إلى الله أن يرغب في صلة الأرحام، ويرهب من قطعها.

---

(١) الدعوة إلى الله ، د. توفيق الواعي ص ٢٠٢.

الحديث رقم (٣٢٣)

٣٢٣- وعن عائشة، قَالَتْ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: ((**الرَّحِمُ مُعَلَّقَةٌ بِالعَرْشِ تَقُولُ: مَنْ وَصَلَنِي، وَصَلَهُ اللهُ، وَمَنْ قَطَعَنِي، قَطَعَهُ اللهُ**)) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[1].

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

الشرح الأدبي

الحديث يتميز بإيجاز القصر وهو سوق المعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة، وهو من مميزات البيان النبوي فقد أوتي جوامع الكلم، وهذا الحديث خير شاهد، فقد صدر في أسلوب خبري دون مؤكدات مساق الخبر المعلوم فالمعنى من عالم الغيب، والمتحدث نبي، والمخاطبون صحابته رضي الله عنهم اختارهم له كما اختاره للناس جميعاً، والحديث يبدأ بأسلوب تشويقي؛ لأنه أمر غيبي لا يقصُّه إلا نبي فتصغي له الأسماع، وتتطلع إليه النفوس (الرَّحِمُ مُعلَّقة بالعرشِ) وتعريف الرحم باللام للعهد إشارة لكل فرد توجهه إلى أهله، وكل من لهم حق عليه، وقوله: (معلقة بالعرش) شرف الموضع يدل على شرف الموضوع وأهميته التي بلغت به هذا المبلغ، وهو صلة الرحم، وهذا النحو من الكلام يشير خطر التهاون فيها، وقوله (تقول) أي بطريق الإخبار بداية، ورواية، وحكاية، أو على سبيل الدعاء من وصلني وصله الله أي بحسن رعايته، وبجميل حمايته، ومن قطعني قطعه الله أي عن عين عنايته، ومن كمال رحمته ورأفته فالوصل إقبال إليه، وقبول منه، والقطع عبارة عن الغضب عليه، والإعراض عنه.

وبين عبارة: (من وَصَلَني وَصَلَهُ اللهُ) وبين عبارة (ومن قطعني قَطَعَهُ الله) وهذه المقابلة تقرر أن الجزاء من جنس العمل، قطيعة بقطيعة، ووصل بوصل، فالشقي من قطع رحمه فقطعه الله، والسعيد من وصل رحمه فوصله الله.

المضامين الدعوية[2]

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٨٩)، ومسلم واللفظ له (٢٥٥٥/١٧). أورده المنذري في ترغيبه (٣٧٠٨).

(٢) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (٣٢٤)

٣٢٤- وعن أم المؤمنين ميمونة بنتِ الحارث رضي الله عنها: أنَّهَا أعْتَقَتْ وَلِيدَةً وَلَمْ تَستَأذِنِ النَّبيَّ ﷺ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُهَا الَّذي يَدُورُ عَلَيْهَا فِيهِ، قَالَتْ: أشَعَرْتَ يَا رَسُول الله، أنِّي أعتَقْتُ وَليدَتِي؟ قَالَ: ((أوَ فَعَلْتِ؟)) قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ: **((أما إنَّكِ لَوْ أعْطَيْتِهَا أخْوَالَكِ كَانَ أعْظَمَ لأجْرِكِ))** مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[١].

ترجمة الراوي:

ميمونة بنت الحارث: هي ميمونة بنت الحارث بن حَزْن الهلالية زوج النبي ﷺ وأم المؤمنين، وأخت أم الفضل زوجة العباس بن عبدالمطلب، وخالة خالد بن الوليد، وخالة عبدالله بن عباس.

كان اسمها برّة فسماها النبي ﷺ ميمونة. وتزوجها في ذي القعدة سنة سبع لما اعتمر عمرة القضاء، وولي أمر نكاحها العباس زوج أختها.

وقد تزوجها النبي ﷺ بسَرِف [مكان بين مكة والمدينة قريب من مكة] وقد اختلف في حال النبي وقت زواجه إياها: أكان محرمًا بالعمرة أم حلالاً قد فرغ منها.

قال ابن حجر: وقد انتشر الاختلاف في هذا الحكم بين الفقهاء، ومنهم من جمع بأنه ﷺ عقد عليها وهو محرم وبنى بها بعد أن أحلّ من عمرته بالتنعيم وهو حلال في الحلّ. وقيل: عُقِد له عليها قبل أن يحرم وانتشر أمر تزويجها بعد أن أحرم، فاشتبه الأمر.

كانت معروفة بالإيمان والصلاح والتقوى وصلة الرحم، شهد لها النبي ﷺ بالإيمان فقال: ((الأخوات مؤمنات: ميمونة وأم الفضل وأسماء))[٢].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥٩٢) واللفظ له، ومسلم (٩٩٩/٤٤). أورده المنذري في ترغيبه (٣٧٠٦).

(٢) أخرجه ابن سعد ١٣٨/٨ وقال الحافظ ابن حجر: سنده صحيح. وأخرجه الحاكم بلفظ: الأخوات مؤمنات: ميمونة زوج النبي ﷺ وأختها أم الفضل بنت الحارث وأختها سلمى بنت الحارث امرأة حمزة، وأسماء بنت عميس أختهن لأمهن.

وقالت عنها عائشة رضي الله عنها: ((إنها كانت من أتقانا لله عز وجل وأوصلنا للرحم))[١].

وذات مرة دخل عليها قريب لها، فوجدت منه ريح شراب، فقالت: لئن لم تخرج إلى المسلمين فيجلدوك لا تدخل عليّ أبدًا.

توفيت سنة ٥١هـ ودفنت بسرف المكان الذي تزوجها فيه النبي ﷺ[٢].

غريب الألفاظ:

وليدة: جارية[٣].

الشرح الأدبي

الحديث يحكي موقفاً طريفاً من بيت النبوة طرفاه النبي ﷺ وأم المؤمنين ميمونة -رضي الله عنها - وقد بدأ الحديث مؤكداً بأكثر من مؤكد في قولها: (أنها أعتقت وليدة) والفعل الماضي يقرر تمام الفعل، وقولها: (وَلَمْ تَسْتَأْذِنِ النَّبِيَّ ﷺ) يشير إلى مساحة من الحرية الشخصية في بيت النبي ثقة في حكمتهن وحسن تصرفهن، مع ما يوحي به من استقلال الذمة المالية للمرأة حيث تصرفت في مالها دون رجوع لإذن زوجها، وتعبيرها بالدوران في قولها (يدور فيه) دليل على العدل المطلق للرسول ﷺ بينهن؛ لأن الذي يسير في دائرة لا يخرج عنها لأنها ليس لها طرف، والعبارة كلها كناية عن تعاهد نسائه، والقيام بأمورهن، واستفهام أم المؤمنين رضي الله عنها إخبار للنبي ﷺ بما كان من أمر عتقها لوليدتها، واستفهام النبي ﷺ (أو فعلت ؟...) تقرير للتحقيق، والتثبيت للخبر، وبقية حديثه ﷺ تنديم لها على عدم إعطائها لأخوالها، وفيه بيان

---

(١) أخرجه ابن سعد ١٣٨/٨ والحاكم (٣٢/٤) وقال الحافظ: هذا سند صحيح.

(٢) الطبقات الكبرى، ابن سعد (١٣٢/٨) والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٩٣٦ وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٢٦٢/٧) والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ١٧٧٠ والسير (٢٣٨/٢) وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين (٥٧٩/٨) والتهذيب (٦٨٩/٤) والأعلام، خير الدين الزركلي (٣٤٢/٧) وموسوعة عظماء حول الرسول (١٨٦٦/٣).

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٥٨/٥.

فضل صلة الرحم، وتفضيلها على عتق الرقاب، والأسلوب من بدايته يوحي بعتاب رقيق لتقصير أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في استئذان النبي ﷺ في ذلك.

فقه الحديث

وفي الحديث من الأحكام ما يأتي:

١- الاعتناء بأقارب الأم إكرامًا لها، وهو زيادة في برها.

٢- وفيه: جواز تبرع المرأة بمالها بغير إذن زوجها[(١)].

٣- وفيه: أن الصدقة على الأقارب، وذوي الأرحام أفضل من العتق[(٢)].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: حرص أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا على تحصيل الثواب.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: التقرير.

ثالثًا: من مهام الداعية: الإرشاد إلى الأولى.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل صلة الأرحام.

أولاً- من موضوعات الدعوة: حرص أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا على تحصيل الثواب:

إن من موضوعات الدعوة التي تظهر من هذا الحديث حرص أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا على تحصيل الثواب، الشاهد على ذلك عتقها للأمة التي كانت عندها. ففي هذا العتق تحصيل للثواب لقوله ﷺ: ((مَن أعتَقَ رقَبةً مُسلمةً أَعتقَ اللّهُ بكل عُضو منه عضوًا من النار حتَّى فَرجَهُ بِفَرجِهِ))[(٣)].

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٨٦/٧، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢١٩/٥، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، الشوكاني ٢٠٠/٦.

(٢) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، الشوكاني ٢٠٠/٦، والتمهيد، ابن عبدالبر ٢٣٧/١٩.

(٣) أخرجه البخاري ٦٧١٥، ومسلم ١٥٠٩.

وقوله ﷺ: ((... وأَيُّما امرأةٍ مُسلمةٍ أَعتَقَتِ امرأةً مسلِمةً فإنّ اللّه جَلَّ وعلا جَاعِلٌ وِقاءَ كُلِّ عظمٍ من عظامِ محرِّرها عظمًا مِن عظامِها منَ النَّارِ))[1].

من أجل ذلك كانت أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها حريصة على تحصيل الثواب بعتق الأمة، وكيف لا تحرص على تحصيل الثواب؟ وهي أم المؤمنين إحدى زوجات النبي ﷺ من أهل بيته عاشت معه وتخلقت بأخلاقه وتعلمت من سنته وهديه. وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرًا ﴾[2].

وقالت عائشة رضي الله عنها عن ميمونة رضي الله عنها ((أما إنها كانت من أتقانا لله وأوصلنا للرحم))[3].

ثانيًا- من أساليب الدعوة: التقرير:

إن من أساليب الدعوة التي تظهر في هذا الحديث أسلوب التقرير، وهذا يظهر في قوله ﷺ: "أو فعلت؟" قالت: نعم، حيث قررها ﷺ بعتقها، وأسلوب التقرير أسلوب جيد في الدعوة الإسلامية، فهو يجعل الداعية يستطيع أن يقرر المدعو بفعله أو قوله، دون مخالفة شرعية وكذلك إقراره بالحق.

ثالثًا- من مهام الداعية: الإرشاد إلى الأولى:

إن من مهام الداعية التي تظهر من هذا الحديث الإرشاد إلى الأولى، والشاهد على ذلك قوله ﷺ: "أما إنك لو أعطيتها أخوالك كان أعظم لأجرك" حيث أرشد ﷺ أم المؤمنين ميمونة رضي الله عنها إلى الأولى من العتق وهو إعطاؤها لأخوالها.

قال ابن حجر: (إن أم المؤمنين ميمونة كانت رشيدة، وأنها أعتقت قبل أن تستأمر النبي ﷺ فلم يستدرك ذلك عليها، بل أرشدها إلى ما هو الأولى)[4].

فينبغي على الداعية التأسي بالنبي ﷺ في إرشاد المدعوين إلى الأولى من

---

(١) أخرجه أبو داود ٣٩٦٥، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٣٥٥).

(٢) سورة الأحزاب، من آية: ٣٣.

(٣) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ص ١٧٧١.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٢/١٣٠٢.

التصرفات. لأن الداعية لا ينجح في دعوته، ولا يكون موفقًا في تبليغها حتى يعرف من يدعوهم وكيف يدعوهم، وماذا يقدم معهم؟ وماذا يؤخر؟ وما القضايا التي يعطيها أهمية وأولوية قبل غيرها؟ وما الأفكار الضرورية التي يطرحها ويبدأ بها؟

وهذه الطريقة في الدعوة هي طريقة الرسول ﷺ وطريقة الذين اتبعوه بإحسان. فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذًا إلى اليمن قال: ((إنكَ ستأتي قومًا أهلَ كتابٍ، فإذا جئتهم فادعُهم إلى أن يَشهدوا أنْ لا إلهَ إلاّ اللّهُ وأنَّ محمدًا رسولُ اللّهِ، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبِرْهم أنَّ اللّهَ قد فَرَضَ عليهم خمسَ صلواتٍ في كل يومٍ وليلةٍ، فإن هم أطاعوا لك بذلكَ فأخبرْهم أنَّ اللّهَ قد فَرَضَ عليهم صدقةً تُؤْخَذُ من أغنيائهم فتُرَدُّ على فقرائهم. فإن هم أطاعوا لكَ بذلكَ فإيَّاكَ وكَرائمَ أموالهم. واتَّقِ دَعوةَ المظلومِ، فإنه ليس بينَهُ وبينَ اللّهِ حِجابٌ))[1].

من هذا النص يتبين أن على الداعية أن يبدأ بالأهم ثم المهم، وأن يبدأ في الدعوة بالعقيدة قبل العبادة، وبالعبادة قبل مناهج الحياة، وبالكليات قبل الجزئيات، وبالتكوين الفردي قبل الخوض في الأمور العامة[2].

فالإسلام أمرنا إن بذلنا الأموال أن نفعل الأولى، بإعطاء ذوي الأرحام وذوي الحاجات. ونقدم المستور الخامل على المستور السائل. فإن اجتمع مضطرون لا تجب نفقتهم ومعنا كفاية أحدهم، قدمنا الأفضل فالأفضل[3].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل صلة الأرحام:

إن من موضوعات الدعوة التي تظهر من الحديث، فضل صلة الأرحام ويدل على ذلك قوله ﷺ "أما إنك لو أعطيتها أخوالك كان أعظم لأجرك" قال النووي: (فيه فضيلة صلة الأرحام والإحسان إلى الأقارب وأنه أفضل من العتق)[4]. وذلك دليل على عظم صلة الأرحام.

---

(١) أخرجه البخاري ١٤٩٦، ومسلم ١٩.

(٢) كيف يدعو الداعية، عبدالله ناصح علوان ٤٧، ٤٨.

(٣) انظر: شجرة المعارف والأحوال، العز بن عبدالسلام السُلمي ص ٣٥٢.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٦٣٨.

ولأن الصدقة على ذوي الأرحام فضلها عظيم، كان ﷺ يأمر بها دائمًا. يؤيد ذلك ما ورد عن أنس رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[(١)] جاء أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، يقول الله تعالى في كتابه ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وإن أحب أموالي إلي ببرحاء -قال: وكانت حديقة كان رسول الله ﷺ يدخلها ويستظل فيها ويشرب من مائها- فهي إلى الله عز وجل وإلى رسوله ﷺ، أرجو بره وذخره، فضعها أي رسول الله حيث أراك الله، فقال رسول الله ﷺ ((بَخْ يَا أَبَا طَلْحَةَ، ذَلِكَ مالٌ رَابِحٌ، قَبِلْنَاهُ مِنْكَ، وَرَدَدْنَاهُ عَلَيْكَ، فاجعلهُ في الأَقْرَبِينَ)) فتصدق به أبو طلحة على ذوي رحمه[(٢)]. وقال ﷺ مرغبًا في الصدقة على ذوي الأرحام: (الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي القرابة اثنتان: صدقة وصلة)[(٣)].

(وليس أدلّ على عناية الإسلام البالغة بالرحم من تلك الصورة الرائعة التي رسمها رسول الله ﷺ للرحم حين تقوم بين يدي الله فتستعيذ بالله من قطيعتها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ. حَتَّىٰ إِذَا فَرَغَ مِنْهُمْ قَامَتِ الرَّحِمُ فَقَالَتْ: هذَا مَقَامُ الْعَائِذِ مِنَ الْقَطِيعَةِ. قَالَ: نَعَمْ. أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ؟ قَالَتْ: بَلَىٰ. قَالَ: فَذَاكِ لَكِ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: اقْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[(٤)]))[(٥)])[(٦)].

فينبغي على المسلم أن يحرص على صلة الأرحام وتقديم الأقارب في الصدقة على غيرهم.

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٩٢.

(٢) أخرجه البخاري ٢٧٥٨.

(٣) أخرجه ابن ماجه ١٨٤٤، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ١٤٩٤).

(٤) سورة محمد، الآيات: ٢٢-٢٤.

(٥) أخرجه البخاري ٤٨٣٠، ومسلم ٢٥٥٤.

(٦) دروس في الحقوق الواجبة على المسلم، د. فالح بن محمد بن فالح الصغير ص ٨١-٨٢.

الحديث رقم (٣٢٥)

٣٢٥- وعن أسماءَ بنتِ أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، قَالَتْ: قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ مُشركةٌ في عَهْدِ رسولِ الله ﷺ، فاسْتَفْتَيْتُ رَسُول الله ﷺ، قُلْتُ: (قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي) [1] وَهِيَ رَاغِبَةٌ، أفَأصِلُ أُمِّي؟ قَالَ: ((**نَعَمْ، صِلِي أُمَّكِ**)) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[2].

وقولها: "رَاغِبَةٌ"، أي: طامعة عندي تسألني شيئًا؛ قيل: كانت أمها من النسب، وقيل: من الرَّضَاعة والصحيح الأول.

ترجمة الراوي:

أسماء بنت أبي بكر: هي أسماء بنت أبي بكر بن أبي قحافة.

والدة الخليفة عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما، وأختُ أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، ولدت قبل الهجرة بسبع وعشرين سنة، وكان إسلامها قديمًا بمكة، وهاجرت إلى المدينة وهي حامل بعبدالله بن الزبير، وهي أسنُّ من عائشة ببضع عشرة سنة، شهدت اليرموك مع زوجها الزبير بن العوام رضي الله عنه وكانت تسمى ذات النطاقين، لأنها صنعت للنبي ﷺ طعامًا حين هاجر إلى المدينة فلم تجد ما تشده به، فشقت نطاقها وشدت به الطعام.

وكانت فصيحة حاضرة القلب واللب، تقول الشعر، وكانت سخية النفس، وفي ذلك قال ابن الزبير رضي الله عنهما ما رأيتُ امرأةً قط أجودَ من عائشة وأسماء، وجُودهما مختلف: أما عائشة فكانت تجمعُ الشيء إلى الشيء، حتى إذا اجتمع عندها وضعته مواضِعَه، وأما أسماء، فكانت لا تدخِرُ شيئًا لغد.

وكانت نموذجًا يقتدى به في خدمتها وعونها لزوجها، فضلاً عن رعايتها لغَيْرته، فقد قالت: تزوجني الزبير، وماله شيء غير فرسه، فكنتُ أسوسه وأعلفه، وأدق لناضِحه النَّوى، وأستقي، وأعجن، وكنت أنقل النَّوى من أرض الزبير، التي أقطعه

---

(١) قوله: (قدمت عليَّ أمي) لا يوجد عند البخاري في هذه الرواية، وعنده برقم (٢١٨٣): (إنَّ أمي قدمت عليَّ) والمثبت لفظ الحميدي في جمعه. وتبعه عليه المنذري والمؤلف.

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٢٠)، ومسلم (١٠٠٣/٤٩) والسياق للحميدي في جمعه (٢٦٤/٤، رقم ٣٥٠٨). أورده المنذري في ترغيبه (٣٦٧١).

رسول الله ﷺ وهي على ثلثي فرسخ فجئتُ يومًا، والنوى على رأسي، فلقيت رسول الله ﷺ ومعه نفر، فدعاني، فقال: "إخّ، إخّ"، ليحملني خلفه فاستحيتُ وذكرتُ الزُّبير، وغَيْرَته، قالت: فمضى.

فلما أتيتُ، أخبرتُ الزُّبير. فقال: والله، لحملك النَّوى كان أَشدَّ عليَّ من ركوبك معه! قالت: حتى أرسل إليَّ أبوبكر بعدُ بخادم، فكفتني سياسةَ الفَرَس، فكأنما أعتقني[1].

وكانت قوية شجاعة، لم تهب الحجاج بن يوسف الثقفي بعد أن قتل ابنها، أن تقول له سمعت رسول الله ﷺ يقول ((يخرج من ثقيف كذاب، ومُبير)) فأما الكذاب، فقد رأيناهُ -تعني المختار- وأما المُبيرُ، فأنت[2].

وقد بلغت من العمرِ مائة سنة، ولم يَسقُط لها سن ولم ينكر لها عقل. ولها (٥٨) حديثًا.

وتوفيت بمكة في جمادى الأولى سنة ٧٣هـ[3].

الشرح الأدبي

الحديث دليل على احترام، ورعاية الإسلام للمشاعر الإنسانية حتى للمشركين، تروي الحديث صحابية جليلة هي أحد طرفي الحوار، وقد قدمت للسؤال بما كان من قدوم أمها، وقولها (وهى راغبة) فيه إيجاز بالحذف أي: في أن أصلها، أو راغبة عن

---

(١) أخرجه البخاري ٣١٥١، ٥٢٢٤، ومسلم ٢١٨٢.

(٢) ذكره الهيثمي في "المجمع" ٩/٢٦٠.

(٣) الطبقات الكبرى، ابن سعد ٨/٢٤٩-٢٥٥، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر (٨٧١-٨٧٢)، والأعلام، خير الدين الزركلي (١/٣٠٥)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٧/٧-٩)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ١٦٣٢، وموسوعة عظماء حول الرسول (١/٤٩٠-٤٩١)، وسير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط (٢/٢٨٧-٢٩٦)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين (٨/٥١٧)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٤/٦٦٣).

الإسلام كارهة له، واستفهامها (أفأصل أمي ؟) استفهام على حقيقته مع ما يوحي به من رغبتها في صلة أمها يدل على ذلك جملة الحال التي قدمتها على السؤال (وهي راغبة) لذلك جاءت عبارة الرسول ﷺ الدالة على رحمته وحكمته (صلي أمك) وهو أمر إباحة يدل على أهمية صلة الرحم لاسيما صلة الوالدين اللذين أمر الله ورسوله ببرهما ولو كانا مشركين.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم صلة الرحم الكافرة، وقد اتفق الفقهاء[1] على أن صلة الوالدين الكافرين مطلوبة، لأنه نوع من البر لهما، فيطيعهما ويحسن إليهما، إلا في طلب الكفر، لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وكذا يجوز للمسلم عند جمهور الفقهاء أن يصل رحمه الكافرة، وأن يقيم معهم علاقة طيبة وأن يهبهم، ويهدي إليهم، ويتصدق عليهم، ويقبل منهم الهبات والهدايا.

المضامين الدعوية

أولاً: من تاريخ الدعوة: صلح الحديبية.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: حرص أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها على استفتاء رسول الله ﷺ.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الحث على صلة الوالدين وإن كانا غير مسلمين.

رابعًا: من أساليب الدعوة: الترغيب.

أولاً- من تاريخ الدعوة: صلح الحديبية:

إن من تاريخ الدعوة في هذا الحديث صلح الحديبية، ويدل على ذلك قول أسماء بنت أبي بكر ﷺ: "قدمت علي أمي وهي مشركة في عهد رسول الله ﷺ" قال ابن

---

(١) أحكام القرآن، الجصاص ٦٥٣/٢، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ٢٢٩/٧، وأحكام القرآن، ابن العربي، تحقيق: علي محمد البجاوي ٤٠١/١، والزواجر عن اقتراف الكبائر، ابن حجر الهيتمي ١٢١/٢، وغذاء الألباب شرح منظومة الآداب، الإسفراييني الحنبلي ٣٨٦/١، والفروع، ابن مفلح ٦٣٨/٤، ومطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، مصطفى السيوطي ١٦٢/٢، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٨٤/٣.

حجر رحمه الله: (قوله: "في عهد رسول الله ﷺ" أراد بذلك ما بين الحديبية والفتح)[١].

أي: في زمن معاهدته مع المشركين في صلح الحديبية، وكان صلح الحديبية في ذي القعدة في السنة السادسة من الهجرة.

وصلح الحديبية كان بداية مرحلة متميزة في تاريخ الدعوة، وقد كان فتحًا مبينًا تمهيدًا لفتح مكة.

وسمى الله تعالى صلح الحديبية فتحًا، وأنزل سورة الفتح في منصرف النبي ﷺ من الحديبية عائدًا إلى المدينة، تلك السورة التي افتتحت بقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾[٢].

نعم كان فتحًا، ولم يكن ذلاً كما تراءى لبعض كبار الأصحاب، وذلك لأنه أنهى الحرب المستمرة بين النبي ﷺ وبين قريش، ووفر الجهد ليدخره للدعوة خارج الجزيرة العربية، وكان وثيقة اعتراف من قريش بوجود النبي ﷺ، وكان تمهيدًا للفتح الأعظم: (فتح مكة)، كما أنه فرّغ النبي ﷺ لليهود الذين يتألبون عليه مع المنافقين، وكذلك المشركين واستطاع أن يطهر المدينة منهم، كما أنه أعطى المسلمين الحق في أداء الشعائر الدينية من حج وعمرة على النحو الإسلامي[٣]، فكان صلح الحديبية تاريخًا مؤثرًا وفعالاً في تاريخ الدعوة إلى الله تعالى.

ولقد تبرم كثير من الصحابة رضي الله عنهم من معظم شروط الصلح، ومن الادلة على ذلك أن عليًا رضي الله عنه اعتذر عن محو كلمة (رسول الله) التي اعترض عليها سهيل بن عمرو، فقال له رسول الله ﷺ: ((أرني مكانها)) فأراه مكانها فمحاها رسول الله ﷺ وكتب على مكانها (ابن عبدالله)[٤] وغضبوا لشرط رد المسلمين الفارين من قريش إلى

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢/٣٠٩.

(٢) سورة الفتح، الآيات: ١ - ٣.

(٣) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، د. محمد فوزي فيض ص ٢٩٠ - ٢٩١.

(٤) أخرجه البخاري ٢٦٩٩، ومسلم ١٧٨٣ واللفظ له.

قريش، فقالوا: يا رسول الله، نكتب هذا؟ قال: ((نَعَمْ، إِنَّهُ مَنْ ذَهَبَ مِنَّا إِلَيْهِمْ، فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ، وَمَنْ جَاءَنَا مِنْهُمْ، سَيَجْعَلُ اللَّهُ لَهُ فَرَجًا وَمَخْرَجًا))(١).

ويحكي عمر بن الخطاب ﷺ مجيئه إلى رسول الله ﷺ غاضبًا عند كتابة ذلك الصلح، قال: (فَأَتَيْتُ نَبِيَّ اللهِ ﷺ، فَقُلْتُ: أَلَسْتَ نَبِيَّ اللهِ حَقًّا؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ، وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا؟ قَالَ: إِنِّي رَسُولُ اللهِ، وَلَسْتُ أَعْصِيهِ، وَهُوَ نَاصِرِي، قُلْتُ: أَوَلَيْسَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ فَنَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: بَلَى، أَفَأَخْبَرْتُكَ أَنَّا نَأْتِيهِ الْعَامَ، قَالَ: قُلْتُ: لاَ، قَالَ: فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَّوِّفٌ بِهِ، قَالَ: فَأَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا بَكْرٍ، أَلَيْسَ هَذَا نَبِيَّ اللهِ حَقًّا؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا؟ قَالَ: أَيُّهَا الرَّجُلُ، إِنَّهُ لَرَسُولُ اللهِ ﷺ، وَلَيْسَ يَعْصِي رَبَّهُ، وَهُوَ نَاصِرُهُ، فَاسْتَمْسِكْ بِغَرْزِهِ، فَوَاللهِ، إِنَّهُ عَلَى الْحَقِّ)(٢).

وقال عمر ﷺ: (ما زلت أصوم وأتصدق وأعتق من مخافة كلامي الذي تكلمت به يومئذ حتى رجوت أن يكون خيرًا)(٣).

ولم تطب نفس عمر ﷺ إلا عندما نزل القرآن مبشرًا بالفتح(٤).

ونزلت سورة الفتح وهم في طريق العودة: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾(٥)، وقال عنها الرسول ﷺ: ((لقد أُنزلَت عليَّ الليلةَ سُورةٌ لَهِيَ أحبُّ إليّ مما طَلَعَتْ عليه الشمسُ))(٦)، وقال عمر ﷺ متعجبًا: (أَوَ فَتْحٌ هُوَ؟) فقَالَ له الرسول ﷺ: ((نَعَمْ))

---

(١) أخرجه مسلم ١٧٨٤.

(٢) أخرجه البخاري ٣١٨٢، ومسلم ١٧٨٥، وأحمد ٣٢٥/٤ بإسناد حسن، وابن إسحاق بإسناد حسن، ابن هشام ٤٣٩/٣ - ٤٤٠ وبقريب من رواية البخاري.

(٣) من رواية ابن إسحاق بإسناد حسن، ابن هشام ٤٤٠/٣.

(٤) انظر: ما أخرجه مسلم ١٧٨٥.

(٥) سورة الفتح، آية: ١.

(٦) أخرجه البخاري ٤١٧٧.

فَطَابَتْ نَفْسُهُ وَرَجَعَ[١]، وفي رواية: ((نَعَمْ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّهُ لَفَتْحٌ))[٢]، وفرح المسلمون بذلك فرحًا غامرًا، وانجلت السحابة من الغم، وأدركوا قصورهم عن إدراك كل الأسباب والنتائج، وأن الخير في التسليم لأمر الله ورسوله [٣].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: حرص أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها على استفتاء رسول الله ﷺ:

يظهر هذا في قولها رضي الله عنها: "فاستفتيت رسول الله ﷺ قلت: قدمت على أمي وهي راغبة أفأصل أمي؟" فحرص أسماء رضي الله عنها على استفتاء رسول الله ﷺ حرص منها على أن يكون عملها مرضيًا من رسول الله ﷺ، فإذا رفض، ما كانت لتصل أمها وخاصة أنها كانت مشركة، فخشيت أن تصلها دون أخذ رأي رسول الله ﷺ ومعرفة حكمه في صلة الأم المشركة، قال ابن حجر: (فيه تحري أسماء في أمر دينها، وكيف لا وهي بنت الصديق وزوج الزبير رضي الله عنهم)[٤] فسؤالها كان تحريًا منها ولأجل معرفة رأي رسول الله ﷺ وما يقضي به رسول الله ﷺ سوف تلتزم به لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[٥].

فيجب على المدعو استفتاء العلماء فيما خشي على نفسه من وقوع الخطأ فيه إذا فعله دون استفتاء، وينبغي على الداعية إرشاد المدعوين إلى سؤال أهل العلم والفقه فيما لا يعلمون.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: الحث على صلة الوالدين وإن كانا غير مسلمين:

إن من موضوعات الدعوة التي تظهر من هذا الحديث الحث على صلة الوالدين وإن

---

(١) أخرجه مسلم ١٧٨٥.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤٥٩/٢، رقم ٢٧٦٣، وقال: حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٣) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، د. مهدي رزق الله أحمد ص ٤٩٠ - ٤٩١.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٣٠٩/٢.

(٥) سورة الأحزاب، آية: ٣٦.

كانا غير مسلمين، ويدل على ذلك إذنه ﷺ لأسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما في صلة أمها مع أنها مشركة، فصلة الوالدين أمر من الأمور التي حثّ عليها الإسلام، وإن كان الأبوان مشركين، وذلك لعظم حق الوالدين على الإنسان، قال تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا﴾[1].

قال ابن كثير: (إن حرصا عليك كل الحرص على أن تتابعهما على دينهما، فلا تقبل منهما ذلك، ولا يمنعك ذلك من أن تصاحبهما في الدنيا معروفًا"[2]، فالإسلام لا ينهى عن صلة الكفار إذا لم يقاتلوا المسلمين، قال تعالى: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾[3]، فإذا كان الإسلام لا ينهى عن صلة الكفار المسالمين، فالأبوين من باب أولى أهل لهذه الصلة، لعظم حقهما، لذلك نجد رسول الله ﷺ يأذن لأسماء رضي الله عنها بصلة أمها المشركة بقوله ﷺ: "نعم صلي أمك"، قال الخطابي: "فيه أن الرحم الكافرة توصل من المال ونحوه، كما توصل المسلمة، ويستنبط منه وجوب نفقة الأب الكافر والأم الكافرة، وإن كان الولد مسلمًا)[4].

فينبغي على الداعية بيان فضل صلة الوالدين ودعوة الإسلام لذلك، وكيف دعا لهذه الصلة؟ حتى في حالة الشرك وهو أعظم الذنوب، وهذا دليل صريح على عظم حق الوالدين.

رابعًا- من أساليب الدعوة: الترغيب:

من أساليب الدعوة التي تظهر في هذا الحديث: أسلوب الترغيب، وهذا يظهر في إذن رسول الله ﷺ لأسماء رضي الله عنها في صلة أمها، لعل هذه الصلة تكون سببًا في

---

(١) سورة لقمان، آية: ١٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٦/٣٣٧.

(٣) سورة الممتحنة، آية: ٨.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥/٢٧٧.

إسلامها وهدايتها إلى دين الحق؛ (فالترغيب هو كل ما يشوق المدعو إلى الاستجابة وقبول الحق والثبات عليه)[١].

فصلتها ترغيب لها لمعرفة هذا الدين، ومعرفة مدى كرمه ورحمته بأهله، وأسلوب الترغيب أسلوب ضروري في الدعوة الإسلامية، فهو يجعل المدعو يقبل على الطاعات.

(١) انظر: أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان ص ٤٣٧.

الحديث رقم (٣٢٦)

٣٢٦- وعن زينب الثقفيةِ امرأةِ عبدِ الله بن مسعود رضي الله عَنْهُ وعنها، قَالَتْ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: ((تَصدَّقْنَ يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ وَلَوْ مِنْ حُلِيِّكُنَّ))، قَالَتْ: فَرَجَعْتُ إِلَى عبد الله (بنِ مسعود)، فقلتُ لَهُ[1]: إنَّكَ رَجُلٌ خَفِيفُ ذَاتِ اليَدِ، وَإنَّ رَسُول الله ﷺ قَدْ أمَرَنَا بِالصَّدَقَةِ فَأْتِهِ، فَاسأَلهُ، فإنْ كَانَ ذلِكَ يُجْزِئُ عَنِّي وَإلاَّ صَرَفْتُهَا إِلَى غَيْرِكُمْ. فَقَالَ[2] عبدُ اللهِ: بَلِ ائْتِيهِ أنتِ، فانْطَلَقتُ، فَإذا امْرَأةٌ مِنَ الأنْصارِ بِبَابِ رسولِ الله ﷺ حَاجَتي حَاجَتُها، وَكَانَ رَسُول الله ﷺ قَدْ أُلْقِيَتْ عَلَيهِ المَهَابَةُ، فَخَرجَ عَلَيْنَا بِلاَلٌ، فَقُلْنَا لَهُ: ائْتِ رَسُول الله ﷺ، فَأَخْبرْهُ أنَّ امْرَأتَيْنِ بالبَابِ تَسألانِكَ: أتُجْزِىءُ الصَّدَقَةُ عَنْهُمَا عَلَى أزْواجِهِمَا وَعَلَى أيْتَامٍ في حُجُورِهِمَا؟، وَلاَ تُخْبِرْهُ مَنْ نَحْنُ، فَدَخلَ بِلاَلٌ عَلَى رَسُول الله ﷺ، فسأله، فَقَالَ لَهُ رَسُول الله ﷺ: ((مَنْ هُمَا؟)) قَالَ: امْرَأةٌ مِنَ الأنْصَارِ وَزَيْنَبُ. فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: ((أيُّ الزَّيَانِبِ هِيَ؟))، قَالَ: امْرَأةُ عبدِ الله، فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: ((لَهُمَا أجْرَانِ: أجْرُ القَرَابَةِ وَأجْرُ الصَّدَقَةِ)) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[3].

ترجمة الراوي:

زينب الثقفية: هي زينب بنت معاوية الثقفية.

امرأة عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، أسلمت وبايعت النبي ﷺ ولها صُحبة، وروت عن النبي ﷺ، وعن زوجها، وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وكانت امرأة صَنَاعا، وليس لعبدالله بن مسعود مال، وكانت تنفق عليه وعلى ولده من ثمن صناعتها - فقالت: والله لقد شغلتني أنت وولدك عن الصدقة! فقال: ما أحبُّ -إن لم يكن لك أجر- أن تفعلي، فسألت رسول الله ﷺ فقالت: إني امرأة ذات صنعة فأبيع وليس لي ولا لولدي ولا لزوجي شيء، ويشغلونني فلا أتصدق فهل لي في

---

(١) (له) لا توجد عند مسلم.

(٢) عند مسلم زيادة: (لي).

(٣) أخرجه البخاري (١٤٦٦)، ومسلم (٤٥/١٠٠٠) واللفظ له. أورده المنذري في ترغيبه (١٣٠٩).

النفقة عليهم من أجر؟ فقال النبي ﷺ ((لك في ذلك أجرُ ما أنفقت عليهم، فأنفقي عليهم))[(١)][(٢)].

غريب الألفاظ:

خفيف ذات اليد: أي فقير قليل المال[(٣)].

يجزيء عني: أي يكفي[(٤)].

في حجورهما: في كفالتهما[(٥)].

الشرح الأدبي

الحديث يتميز بطوله، ويقوم على حوار تتعدد أطرافه بدأته راوية الحديث بالإخبار بأمر رسول الله ﷺ لهن: « تَصَدَّقْنَ يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ وَلَوْ مِنْ حُلِيِّكُنَّ » وعبارة الرسول ﷺ تصدرها أسلوب الأمر بالصدقة توجيهاً، وإرشاداً تلاه أسلوب النداء تنبيهاً للأمر، وتحديداً للمستهدفين بهذا الأمر وهم جماعة النساء، وقوله (ولو من حليكن) يوحي بأهمية الصدقة، وأن على المرأة ألا تؤثر زينة الدنيا على ثواب الآخرة الذي يحقق زينتها.

وقولها (وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ خَفِيفَ ذَاتِ الْيَدِ) كناية عن فقره، وحاجته، سيترتب عليه رد صدقتها عليه كما سيسفر عنه باقي الحديث، وقولها: (وَكَانَتْ قَدْ أُلْقِيَتْ عَلَيْهِ الْمَهَابَةُ) تشير إلى مكانة رسول الله ﷺ في أنفسهن وإجلالهن له، وقول بلال ﷺ

---

(١) صحيح ابن حبان، (٤٢٤٧/١٠)، وأصله في البخاري (١٤٦٦).

(٢) الطبقات الكبرى، ابن سعد (٢٩٠/٨)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر (٩٠٧-٩٠٨)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (١٢٢/٧)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي (١٧٠٠-١٧٠١)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين (٥٣٨/٨)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٦٧٥/٤)، وموسوعة عظماء حول الرسول (٨٥٩/٢).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢٧٤.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٦٣٩.

(٥) المفصح المفهم، ابن هبيرة ١٠٥-١٠٦.

(امْرَأَتَانِ تَعُولاَنِ أَزْوَاجَهُمَا وَيَتَامَى فِي حُجُورِهِمَا) مقدمة رتب عليها سؤاله الذي يجيب عن استفسارهما (هَلْ يُجْزِئُ ذَلِكَ عَنْهُمَا مِنَ الصَّدَقَةِ؟) وهو استفهام على حقيقته وقد جاءت إجابة الرسول ﷺ لتفتح الباب للصدق على الأقارب، وليس هذا فقط بل إنها صدقة، وصلة (فَقَالَ: « نَعَمْ لَهُمَا أَجْرَانِ أَجْرُ الْقَرَابَةِ، وَأَجْرُ الصَّدَقَةِ »

وقد جاءت إجابته في صورة التوشيع بذكر المثنى المحبوب (أجران) ثم تفصيله، وقيمة هذا الأسلوب تتمثل في توكيد المعنى بذكره مجملاً ثم مفصلاً مع ما يفيده من تشويق للمعنى بإجماله ثم تفصيله.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكمين فقهيين:

الأول: حكم صرف زكاة المرأة إلى زوجها متى كان فقيرًا، وهل يجزي عنها ذلك أم يجب صرفها إلى الفقراء؟

اتفق الفقهاء[1] على أنه يجوز لمن عنده مال تجب فيه الزكاة أن يخرجه على من لا تجب نفقتهم عليه من الأقارب، كالإخوة والأعمام والأخوال والزوج، فمتى كانت المرأة موسرة، ولها مال تخرج منه الزكاة، جاز أن تخرجه لزوجها وأولادها، ويجزي عنها ذلك، بل لها به أجران، لأن نفقتهم ليست واجبة عليها، وخالف في ذلك الإمام أبو حنيفة فلم يجز للمرأة أن تخرج زكاتها لزوجها وأولادها، ولكن الحديث يؤيد ما ذهب إليه جمهور الفقهاء من جواز ذلك لعدم وجوب نفقتهم عليها.

(١) انظر في ذلك: بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود شرح الطيبي ٥٠/٢، وشرح فتح القدير، ابن همام الحنفي ٢٧٠/٢، والمدونة ٣٤٧/١، وأحكام القرآن، ابن العربي، تحقيق: علي محمد البجاوي ٣٤٨/٤، والأم، الإمام الشافعي ٩٧/٢، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢٣٤/٦، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٤٠٧/١، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢٦٩/٢، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٤٦٢/١، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٢٨٩/٢.

الثاني: حكم تعارض المصالح: وقد ذكر الفقهاء[١] أنه متى تعارضت المصالح بدئ بأهمها، أو قدم أقواها وأولاها، كما في تقديم الفطر على الصوم للمسافر في اليوم الحار، قال النووي في هذا الحديث[٢]: قولهما: ولا تخبره من نحن ثم أخبر بهما، قد يقال إنه إخلاف للوعد وإفشاء للسر، وجوابه أن ذلك عارض جواب رسول الله ﷺ، وجوابه واجب محتم لا يجوز تأخيره.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الأمر.

ثانيًا: من أصناف المدعوين: النساء.

ثالثًا: من مهام الداعي: إرشاد المدعوين إلى أبواب الخير.

رابعًا: من أساليب الدعوة: الترغيب.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: التشاور بين الزوجين في الأمور التي تخصهما.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة على استشارة النبي ﷺ في شؤونهم.

سابعًا: من صفات المدعو: إجلال النبي ﷺ.

ثامنًا: من أساليب الدعوة: الحوار.

تاسعًا: من موضوعات الدعوة: فضل صلة الرحم.

عاشرًا: من مهام الداعية: التعرف على المدعوين.

أولاً- من أساليب الدعوة: الأمر:

ورد أسلوب الأمر في الحديث في قول رسول الله ﷺ: (تصدقن يا معشر النساء ولو من حليكن)، وهذا الحديث ورد في باب الندب في صدقة التطوع، إلا أن الرسول ﷺ، استعمل أسلوب الأمر حملاً على الفعل، وحثًا على التطوع وفعل الخير.

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٨٧/٧، وإحكام الأحكام ٢٢/٢، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين عبدالرحيم بن الحسن ٢٠٤/٧، والآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ٢٦٨/٢.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٨٧/٧.

ثانيًا- من أصناف المدعوين: النساء:

حيث وجه النبي ﷺ إرشاده في هذا الحديث إلى النساء فقال: "تصدقن يا معشر النساء ولو من حليكن"، واستعمل معهن لفظة "معشر"، مع أنها في الغالب تستعمل لجماعة الرجال دون النساء، قال ابن علان: (وكأنه لأنهن لما أمرن بالتصدق، وإنما يبعث عليه الإيقان الذي هو وصف كمال الرجل)[1]، وفي ذلك بيان مدى اهتمام الإسلام حيث اعتبرهن شقائق الرجال، وحظيت المرأة بدور كبير واحترام عال في شريعة الإسلام، لذا ينبغي على الدعاة والمؤسسات الدعوية بتكثيف النشاط لهداية المرأة وتفقيهها في دينها، فإن هداية المرأة لتعاليم الإسلام كسب لها، ومنع لأية آثار سلبية تتركها في المجتمع حينما تكون بلا هداية[2]، فحماية المرأة بالفهم السليم والدعوة الرشيدة حماية للمجتمع كله.

ثالثًا- من مهام الداعي: إرشاد المدعوين إلى أبواب الخير:

من المهام المناطة بالداعية إرشاد المدعوين إلى أبواب الخير، وهذا مما يستنبط من الحديث من دعوة النبي ﷺ للنساء في قوله ﷺ، وكما نرى واضحًا في الحديث، فالنبي ﷺ قد فتح أبواب الخير للمجتمع بجميع شرائحه، ومنه النساء فأوصاهن بالصدقة قائلاً: "تصدقن يا معشر النساء ولو من حليكن"، قال ابن حجر: (وفي الحديث حث على صلة الرحم، وجواز تبرع المرأة بمالها بغير إذن زوجها، وفيه عظة النساء، وترغيب ولى الأمر في أفعال الخير للرجال والنساء)[3].

رابعًا- من أساليب الدعوة: الترغيب:

الترغيب من الأساليب المفيدة في الدعوة إلى الله تبارك وتعالى، وقد استعمله النبي ﷺ في هذا الحديث، فرغّب النساء في الصدقة على وجه العموم فقال: "تصدقن يا معشر النساء ولو بحليكن"، وكذلك التصدق على الزوج حيث أفاد ﷺ أن التصدق

---

(١) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٥٢٧ - ٥٢٨.

(٢) انظر: فقه المرأة، د. بسام العموش ص ٧٣ - ٧٤.

(٣) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣/٣٨٧.

على الزوج يضاعف الأجر حينما سئل عن ذلك فقال: نعم، ولها أجران: أجر القرابة، وأجر الصدقة)، فلما كان الإنسان مجبولاً على حب ما ينفعه، وتقر به عينه، وتطمئن به نفسه، كان لأسلوب الترغيب أهمية قصوى في الدعوة إلى الله، وأصبح الطريق ممهدًا بعض الشيء أمام الداعية لاستثمار هذه الفرصة لدى المدعو وتخوّله بها[1].

خامسًا- من موضوعات الدعوة: التشاور بين الزوجين في الأمور التي تخصهما:

إن الشورى بين أفراد الأسرة الواحدة فيما يهمهم له بالغ الأثر في الحفاظ على تلك الأسرة، وتعميق معاني المودة والمحبة فيها، ويبدو من هذا الحديث أن أسرة عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما كانت تعنى بأمر الشورى، فزوجته لم تذهب مباشرة للرسول ﷺ لسؤاله، وإنما استشارت زوجها وعرضت الأمر عليه قائلة: "سل رسول الله ﷺ" أيجزي عني أن أنفق عليك وعلى أيتامي في حجري من الصدقة؟ فقال: سلي أنت رسول الله ﷺ، وقد وصف الله جماعة المؤمنين على مختلف مستوياتهم - أمة، أسرة،... ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[2]، فلا يقدمون على عمل إلا بعد الاستشارة وأخذ الرأي، وبهذا فإن الشورى من مبادئ الإسلام وصفات المؤمنين، التي يستحقون بها الفلاح في الدنيا والآخرة[3].

سادسًا- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة على استشارة النبي ﷺ في شؤونهم:

إن حرص الصحابة على استشارة النبي ﷺ يستنبط من حرص زينب امرأة عبد الله بن مسعود على سؤال النبي ﷺ في صرفها لصدقتها لزوجها ولأيتام في حجرها: (قالت: فرجعت إلى عبد الله بن مسعود فقلت له: إنك رجل خفيف ذات اليد وإن رسول الله ﷺ قد أمرنا بالصدقة فأته فاسأله فإن كان ذلك يجزئ عني وإلا صرفتها إلى غيركم، فانطلقت فإذا امرأة من الأنصار بباب رسول الله ﷺ حاجتي حاجتها)، وهذا من الأدب والتقدير الذي يحمل كل مسلم ومسلمة على الرجوع إلى رسول الله

---

(١) انظر: وسائل الدعوة، أ. د. عبدالرحيم بن محمد المغذوي ص ١٩٣.

(٢) سورة الشورى، آية: ٣٨.

(٣) انظر: التفسير الواضح، د. محمد محمود حجازي، ٢٧/٢٥/٣.

ﷺ في حياته، وإلى سنته بعد مماته واقتفاء أثره، واتباع هديه، والسير
والحرص على الاقتداء به، وتحكيم شرعه[1]، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْ
يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا
وقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِي

سابعًا- من صفات المدعو: إجلال النبي ﷺ:

إن من صفات المدعو التي يجب أن يتحلى بها إجلال وتقدير واحترا
ﷺ، ومما يؤكد هذا المعنى قول زينب: (وكان رسول الله ﷺ قد
المهابة) وذلك من بالغ حب وإجلال الصحابة رضي الله عنهم لرسول الله ﷺ.

وقد بيّن الحق تبارك وتعالى أن احترام رسول الله ﷺ من أسباب
تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُ
ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[4]، فقوله: "عزروه" أي: وقروه ونصروه[5]، فالذين آمنوا
وحموه ونصروه مع الإجلال والإكبار، واتبعوا النور الذي أنزل معه، أولئك
درجات الكمال، المتميزون على غيرهم، وهم المفلحون حقًا[6]، الذي
بمطلوبهم.

وقد رهّب القرآن الكريم من عدم الإجلال والاحترام لرسول الأ
يُستخف به، بأن ينادى باسمه مجردًا أو ما شاكل ذلك، قال تعالى:
ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾[7]، وبيّن أن الاستخفاف

---

(١) انظر: موسوعة الآداب الإسلامية، عبد الله بن محمد المعتاز ١/١٨ - ١٩.

(٢) سورة النساء، آية: ٦٥.

(٣) سورة آل عمران، آية: ٣١.

(٤) سورة الأعراف، آية: ١٥٧.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن ال

(٦) التفسير الواضح، د. محمد محمود حجازي، مج/١/٩/٣١.

(٧) سورة النور، آية: ٦٣.

ـه بجفاء، سبب لإحباط الأعمال، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ
ـ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا
.

من أساليب الدعوة: الحوار:

ـذا الأسلوب في هذا الحديث من خلال ما دار بين عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما
رجعت إلى عبد الله بن مسعود فقلت له: إنك رجل خفيف ذات اليد، وإن
ﷺ قد أمرنا بالصدقة فأته، فأسأله فإن كان يجزئ عني وإلا صرفتها
، فقال عبد الله: بل ائتيه أنت)، وكذلك فيما دار بين بلال وزينب امرأة
مسعود والمرأة الأخرى: (فخرج علينا بلال فقلنا له: ائت رسول الله ﷺ
مرأتين بالباب تسألانك: أتجزي الصدقة عنهما على أزواجهما وعلى أيتام في
فالحوار أحد الطرق المهمة للتوصل إلى الحق، أو البحث عن الصواب، وفي
وة قد يتطلب الموضوع، أو البحث، أو العرض، إلى الحوار والمشاركة مع
ـة التوصل إلى الحق، والاهتداء إلى الرشد، والنفع للفرد والجماعة[٢].

لام في دعوته ركّز على الحوار والإقناع، ولم يعتمد في دعوته على
م ما، وإنما الإقناع المطلق، وترك مساحات لعقل الإنسان للمفاضلة
ق والباطل، ثم بعد بيان الحقائق يترك له حرية الاختيار، قال تعالى:
قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾[٣]، وحسبنا أن كل ما يتعلق بالتكاليف
يلاً، قد ذكر له وجه أو وجوه عدة تدفع إلى الإقناع في الالتزام به.

إلى الإيمان بالله ربًا، وجدنا قول الحق سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ
وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ

، الوسيلة، الهدف"، د. توفيق الواعي ص ٢٨٩.

بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[1].

وكم وردت آيات في القرآن الكريم للإقناع بالألوهية والربوبية، وعندما أبطل الإسلام ألوهية غير الله اعتمد على الإقناع لا الإكراه، فقد سأل عن الآلهة المزعومة، وعن صفاتها وخصائصها وقدرتها على الخلق، واتصالها بعابديها، وبين مصيرها المحتوم، وقدرها المشؤوم، في آيات تبلغ حدًا في الكثرة في القرآن، وعندما أبطل البنوة اعتمد على العقل، ونفى وجود الزوجة، وبيّن أن الابن المزعوم لم يخالف البشر في الخلق الأول في طلاقة القدرة ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[2]، ولم يخالف الخلق الثاني في سنن الحياة ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾[3][4].

تاسعًا- من موضوعات الدعوة: فضل صلة الرحم:

إن صلة الرحم من مكارم الأخلاق التي دعانا الإسلام إليها فأمرنا الله بصلتها، قال تعالى: ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾[5]، وحذرنا من قطيعتها، قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ﴾[6]، وقال: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾[7].

---

(١) سورة البقرة، الآيتان: ٢١ - ٢٢.

(٢) سورة آل عمران، آية: ٥٩.

(٣) سورة المائدة، آية: ٧٥.

(٤) انظر: المدخل إلى دراسة النظم والثقافة الإسلامية، د. بكر زكي إبراهيم عوض ص ١٣٤.

(٥) سورة النساء، آية: ٣٦.

(٦) سورة النساء، آية: ١.

(٧) سورة محمد، الآيتان: ٢٢ - ٢٣.

ومن صور صلة الأرحام: التصدق على الفقراء من ذوي القربى ومضاعفة الأجر على ذلك، كما هو ظاهر في الحديث الذي معنا، من إجابة الرسول ﷺ في حكم الصدقة على الأزواج وذوي القربى، قال: نعم ولها أجران: أجر القرابة، وأجر الصدقة، قال ابن حجر: (وفيه الحث على صلة الرحم)[1].

عاشرًا- من مهام الداعية: التعرف على المدعوين:

وردت الإشارة في الحديث إلى هذا المعنى في سؤال النبي ﷺ لبلال: (فدخل -أي بلال- فسأله -أي رسول الله ﷺ- من هما؟ قال: زينب، قال: أي الزيانب؟ قال: امرأة عبد الله) ومعرفة الداعي للمدعوين فضلاً عن أنه لون من ألوان تأليف القلوب، فإنه يعطي الداعية الفرصة السانحة لاختيار أسلوب الدعوة المناسب لحال المدعوين، إضافة إلى ما في ذلك من تأليف القلوب وتقوية روابط الأخوة والوئام بين الداعية ومدعويه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[2]، "أي: لتعارفوا وتعاونوا ولا تتفرقوا"[3].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣/٣٨٧.

(٢) سورة الحجرات، آية: ١٣.

(٣) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، أبو بكر جابر الجزائري ٤/٢٩٥.

الحديث رقم (٣٢٧)

٣٢٧- وعن أَبي سفيان صخر بنِ حرب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في حديثِهِ الطويل في قِصَّةِ هِرَقْلَ: أنَّ هرقْلَ قَالَ لأبي سُفْيَانَ: فَمَاذَا يَأمُرُكُمْ بِهِ؟ يَعْنِي النَّبيّ ﷺ، قَالَ: قُلْتُ: يقول: ((**اعْبُدُوا اللهَ وَحْدَهُ، وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيئًا، واتْرُكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ، وَيَأمُرُنَا بالصَّلاَةِ**[1]، **وَالصِّدْقِ، والعَفَافِ، والصِّلَةِ**)) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[2].

ترجمة الراوي:

أبو سفيان: صخر بن حرب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٥٦).

غريب الألفاظ:

العفاف: الكَفُّ عمَّا لا يحِلُّ ولا يجمل من قول أو فعل[3].

الصلة: صلة الأرحام وكل ما أمر الله به أن يُوصل[4].

الشرح الأدبي

الحديث رواه أبو سفيان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قبل أن يسلم، وحديثه كما هو ثابت مع هرقل، وقد شهد للرسول ﷺ بما جاء في الحديث، واستفهام هرقل (فماذا كان يأمركم ؟) على حقيقته يدفعه شوق جارف إلى معرفة ما يدعو إليه، لأن ظهور نبي أمر يشغل العقل بمضمون ما جاء به لاسيما وأنهم أهل كتاب، يتوقعون ظهور نبي آخر الزمان، وقول أبي سفيان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن الرسول ﷺ (اعْبُدُوا اللهَ وَحدَهُ لا تُشْرِكوُا بِهِ شَيئاً) أسلوب أمر أكده بلفظ (وحده) نفياً للشرك، صعَّده بأسلوب النهي (لا تشركوا به) وتنكير كلمة (شيئاً) للتعميم، وقوله (وَاتْرُكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُم) كناية عن قولهم الشرك وإتيانهم الفواحش.

---

(١) عند البخاري زيادة: (والزكاة).

(٢) أخرجه البخاري (٧) واللفظ له، ومسلم (١٧٧٣/٧٤)، وقد تقدم برقم (٥٦).

(٣) الوسيط في (ع ف ف).

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١١٤٣.

وقوله (وَيَأْمُرُنَا بالصَلاةِ، وَالصِّدْقِ، والعَفَافِ، وَالصِّلَةِ) جملة هذه الأوامر المحكية بأسلوب الخبر تشمل أمور المعاد، والمعاش، وتنظم علاقة المؤمن بربه، وعلاقته بالناس، وفي الحديث ملمح جميل، وهو صدق أبي سفيان، وهو على شركه، ويتحدث عن عدوه الذي يريد أن يستعدي الملك عليه، ومع ذلك لم يكذب، وهذا خلق العرب ذوي الشهامة الذين اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب، والأمر.

ثانيًا: من أصناف المدعوين: غير المسلمين (أهل الكتاب).

ثالثًا: من مهام الداعي: بيان أصول الدين.

رابعًا: من فقه الداعية: ترتيب الأولويات.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: الحث على مكارم الأخلاق وصلة الأرحام.

سادسًا: من أهداف الدعوة: تعبيد الناس لله تبارك وتعالى.

أولاً- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب، والأمر:

ورد هذا الأسلوب في الحديث في سؤال هرقل لأبي سفيان عن النبي ﷺ وعما جاء به قال: فماذا يأمركم به؟، فأجاب عليه أبو سفيان بقوله: يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة، والأمر في قوله: (اعبدوا الله وحده) والسؤال والجواب من الأساليب الدعوية المفيدة، فالسؤال ينم عن حب للمعرفة وشغف بها مما يجعل لإجابة الداعي قبولاً واقتناعًا من السائل.

ثانيًا- من أصناف المدعوين: غير المسلمين (أهل الكتاب):

إن من أصناف المدعوين الذين اشتمل هذا الحديث على ذكرهم أهل الكتاب وذلك من خلال ما دار بين هرقل عظيم الروم الذين يدينون بالنصرانية وبين أبي سفيان قبل إسلامه، وكان النبي ﷺ قد بعث كتابه لهرقل يدعوه بدعاية الإسلام. ومعرفة أصناف المدعوين يساعد على اختيار الأسلوب الأمثل في التعامل الدعوي معهم[1]، فأهل

---

(١) انظر: فقه الدعوة، د. بسام العموش ص ٦٠.

الكتاب أوصانا الله بمجادلتهم بالتي هي أحسن، قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾[١]، فالجدال هو أحد الطرق المستخدمة في الدعوة لإقناع المدعو وإقامة الحجج والبراهين على صحة الدعوة، وبطلان ما سواها، وإزالة ما يعلق في الأذهان من الشبهات التي تحول دون قبولها[٢].

ولقد وردت في القرآن آيات جمة، وجه الخطاب فيها لأهل الكتاب لإعمال عقولهم وتوجيهها إلى الحق والصواب، ومنها قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾[٣].

قال ابن كثير: (هذا الخطاب يعم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ومن جرى مجراهم، يدعوهم إلى إفراد الله بالعبودية، ولا يتوجه بها إلى وثن أو صليب أو صنم أو طاغوت أو نار وأي شيء، بل نفرد العبادة لله وحده وتلك هي دعوة جميع الرسل)[٤]، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾[٥].

ثالثًا- من مهام الداعي: بيان أصول الدين:

يظهر ذلك في نقل أبي سفيان لهرقل ما يدعو إليه الرسول ﷺ، يقول: (اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئًا واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة)، وهي في جملتها من الأصول التي قام عليها دين الإسلام في العقيدة حيث يقوم على التوحيد (اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا) الذي هو دعوة جميع الانبياء والمرسلين: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[٦]، وفي

---

(١) سورة العنكبوت، آية: ٤٦.

(٢) دعوة غير المسلمين إلى الإسلام، د. عبد الله بن إبراهيم اللحيدان ص ١٢١.

(٣) سورة آل عمران، آية: ٦٤.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣٩٨/١.

(٥) سورة الأنبياء، آية: ٢٥.

(٦) سورة النحل، آية: ٣٦.

الشريعة ذكر أهمها وهو الصلاة، فقال: (ويأمرنا بالصلاة)، وفي مجال الأخلاق فهو يدعو إلى مكارمها، وذكر منها: (والصدق والعفاف والصلة)، وذلك هو المنهج القويم الذي يتم تأصيله والتأكيد عليه وترسيخه في القلوب، فإذا تمّ الإيمان به، كانت الدعوة إلى التفصيلات، وما يتفرع من هذه الأصول، من أحكام وخصائص، ومقاصد ومحاسن وآداب)[(١)].

رابعًا- من فقه الداعية: ترتيب الأولويات:

في هذا الحديث نجد أن أبا سفيان ينقل لهرقل منهج الرسول ﷺ بنفس الأولويات التي يتبعها، بالبدء بالدعوة إلى التوحيد، ثم الشرائع وما يتبعها من آداب وأخلاق، فبدأ بقوله: يقول: "اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئًا واتركوا ما يقول آباؤكم" ثم ذكر: "ويأمرنا بالصلاة"، ثم ذكر بعد ذلك نتاج وآثار تلك العبادة فقال: "والصدق والعفاف والصلة"، فالداعية لا ينجح في دعوته ولا يكون موفقًا في تبليغه حتى يعرف من يدعوهم وكيف يدعوهم؟ وما القضايا التي يعطيها أهمية وأولوية قبل غيرها، وما الأفكار الضرورية التي يطرحها، فعلى الداعية أن يبدأ بالأهم ثم المهم[(٢)].

وليكن للداعية في رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة، فقد أمضى ثلاث عشرة سنة من عمر الدعوة في معالجة قضايا العقيدة وبعض العبادات، لينتقل بعد ذلك إلى معالجة ما هو فرع من السلوك العملي[(٣)]، وهذا الأمر يتجلى في وصية النبي ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه حين بعثه إلى اليمن: ((إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ. فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلهَ إِلاَّ الله. وَأَنِّي رَسُولُ اللّهِ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذٰلِكَ. فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ الله افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ الله افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذٰلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ. وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللّهِ حِجَابٌ))[(٤)].

---

(١) انظر: مبادئ علم أصول الدعوة "دراسة تأصيلية"، د. محمد يسري ص ٢١.

(٢) انظر: كيف يدعو الداعية، عبد الله ناصح علوان ص ٤٧ - ٤٨.

(٣) الدعوة، د. حمد بن ناصر العمار ص ١٣٦ - ١٣٧.

(٤) أخرجه البخاري ١٣٩٥، ومسلم ١٩.

خامسًا- من موضوعات الدعوة: الحث على مكارم الأخلاق وصلة الأرحام:

إن من أهم ما دعا إليه الإسلام بعد تصحيح العقيدة والعبادة، الدعوة إلى مكارم الأخلاق وصلة الأرحام، وقد أشير إلى هذا المعنى في قوله: (ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة)، أي: بالصدق في الأقوال والأفعال، إضافة إلى الصدق في القصد والنوايا، وبالعفاف عن المحارم وعما في أيدي الناس، والصلة للأرحام وما ينبغي أن يوصل، وإن مما له أكبر الأثر في نجاح الدعوة إلى الله التخلق بمكارم الأخلاق، حيث كان له الأثر العظيم بعد الله تعالى في نجاح جهود رسول الله ﷺ في الدعوة، لأنه أقام من صفاته وكريم أخلاقه براهين عدة على صدقه، وأن ما يدعو إليه حق، وكان أعداؤه كلما زين لهم مطعن فيه، وجدوا من ماضيه وحاضره، وطباعه وخصاله، ما ينفي طعنهم ويرد كيدهم[(١)].

سادسًا- من أهداف الدعوة: تعبيد الناس لله تبارك وتعالى:

من الغايات الرئيسة التي خلق لأجلها الإنسان عبادة الله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[(٢)]، وتلك هي الغاية التي صدع بها رسول الله ﷺ وعلم بذلك القاصي والداني وتناقلوا ذلك عنه، ومن ذلك ما جاء في قول أبي سفيان لهرقل: يقول: (اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا واتركوا ما يقول آباؤكم) وهي كلمة جامعة لترك ما كانوا عليه في الجاهلية[(٣)]، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة، والدعوة إلى عبادة الله هي غاية مقصد جميع الأنبياء والمرسلين، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[(٤)]، والمعنى: وما أرسلنا يا محمد من قبلك من رسول إلى أمة من الأمم إلا نوحي إليه أنه لا معبود في السماوات والأرض تصلح له العبادة سواي (فاعبدون) أي فأخلصوا لي العبادة وأفردوا لي الألوهية[(٥)].

---

(١) انظر: هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة، علي محفوظ ص ٣٨٤.

(٢) سورة الذاريات، آية: ٥٦.

(٣) فتح الباري، الحافظ ابن حجر ٤٨/١.

(٤) سورة الأنبياء، آية: ٢٥.

(٥) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ٢٤٩/١٦.

الحديث رقم (٣٢٨)

٣٢٨- وعن أَبي ذرّ ﵁ ، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: ((**إنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ أرْضًا يُذْكَرُ فِيهَا القِيرَاطُ**))[(١)]. ((وفي رواية: ((**سَتَفْتَحُونَ مِصْرَ وَهِيَ أرْضٌ يُسَمَّى فِيهَا القِيراطُ**)) [(٢)]، **فَاسْتَوْصُوا بأهْلِهَا خَيْرًا؛ فَإنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا**)) [(٣)]. وفي رواية: ((**فإذا افتتحتموها، فأحسنوا إلى أهلها؛ فإن لهم ذمة ورحمًا**))، أَوْ قَالَ: ((**ذِمَّةً وصِهْرًا**)) [(٤)] رواه مسلم[(٥)].

قال العلماء: الرَّحِمُ التي لهم كون هاجَرَ أمِّ إسماعيل ﷺ مِنْهم "والصِّهْرُ" كون مَارِيَةَ أمِّ إبْراهيمَ ابْنِ رسول الله ﷺ مِنْهم.

ترجمة الراوي:

أبو ذر الغفاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٦١).

غريب الألفاظ:

القيراط: قال العلماء: القيراط جزء من أجزاء الدينار والدرهم وغيرهما وكان أهل مصر يكثرون من استعماله والتكلم به[(٦)].

ذمة: الذمة: العهد والأمان والضمان والحرمة[(٧)].

رحمًا وصهرًا: قال العلماء: الرحم التي لهم كون هاجر أم إسماعيل ﵇ منهم. والصهر كون مارية أم إبراهيم ابن رسول الله ﷺ منهم[(٨)].

---

(١) مسلم (٢٢٦/٢٤٥٣).

(٢) مسلم (٢٢٧/٢٥٤٣).

(٣) مسلم (٢٢٦/٢٥٤٣).

(٤) مسلم (٢٢٧/٢٥٤٣) وزاد: (فإذا رأيت رجلين يختصمان فيها في موضع لبنة، فاخرج منها).

(٥) هذا السياق وتجزئة الحديث، للحميدي في جمعه (٢٧٦/١، رقم ٣٨٦).

(٦) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٢٧. وانظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ق ر ط).

(٧) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ذ م م).

(٨) رياض الصالحين ١٧٤.

الشرح الأدبي

هذا الحديث من أعلام نبوة الرسول ﷺ؛ لأنه أخبر عن فتح مصر، وقد فتحت بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى، وقد بدأ كلامه ﷺ بأسلوب التوكيد بـ(إن) مع اسمية الجملة ليمهِّد النفوس لاستقبال الخبر الغريب، وقد دخل بهم بوابة المستقبل عن طريق السين التي تشير إلى المستقبل إذا دخلت على الفعل المضارع (ستفتحون) ،والسين للمستقبل القريب بخلاف (سوف) التي تشير إلى مستقبل أبعد، فقد كان الفتح بعد موته ﷺ بإحدى عشرة سنة تقريباً، وتنكير كلمة (أرضاً) ثم وصفها بالجملة الفعلية (يذكر فيها القيراط)تشويق يربط المخاطب بالمتكلم ويضمن بلوغ المعنى إلى قلبه وقوله: (يذكر فيها القيراط) كناية عن كونها أرض خصب وخير، وبركة، لأن القيراط مقدار من الوزن أو المساحة، ونصه على مصر في الرواية الأخرى تمييز لها، وتحديد لأن القيراط قد يذكر في أماكن أخرى وقوله: (فاستوصوا بأهلها خيراً) أمر توجيه، وإرشاد وإسناد الفعل إلى واو الجماعة حتى يتواصى الجميع من جيل إلى جيل، وقوله (فإن لهم ذمة ورحماً) الرحم تتمثل في كون (هاجر) أم إسماعيل عليه السلام من مصر، والصهر في كون (مارية) أم إبراهيم بن الرسول ﷺ.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد والأمر.

ثانيًا: من دلائل نبوته ﷺ: الإخبار ببعض الفتوحات الإسلامية.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الوصية بحفظ الذمة وصلة الرحم.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: وصية النبي ﷺ بأهل مصر.

أولاً- من أساليب الدعوة: التوكيد والأمر:

ورد أسلوب التوكيد في الحديث في قوله ﷺ إنكم ستفتحون أرضًا، والأمر في قوله ﷺ "فاستوصوا بأهلها" وفي الرواية الأخرى "فأحسنوا إلى أهلها" والأمر من الأساليب الدعوية المفيدة، خاصة إذا كان المدعوون يأخذونه مأخذ الجد والتنفيذ تصديقًا منهم وإيمانًا بالداعي، زيادة على ذلك تأكيده لكلامه، كما في قوله ﷺ "إنكم ستفتحون أرضًا".

لذا ينبغي على الداعي استصحاب أسلوب التأكيد، بذكر ما يثبت صدق كلامه وصحته، مما يجعل المدعوين أكبر قبولاً لدعوته وأكثر اقتناعًا بها، وقد استخدم القرآن أسلوب التوكيد في تقرير كثير من القضايا والأحكام، نحو قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾[٢].

ثانيًا- من دلائل نبوته ﷺ: الإخبار ببعض الفتوحات الإسلامية:

لقد ورد في هذا الحديث إخبار النبي ﷺ ببعض الفتوحات الإسلامية، وهذا من دلائل نبوته، ومنها ما جاء في هذا الحديث من إخباره ﷺ بفتح مصر بعده على يد صحابته رضوان الله عليهم، قال ابن علان: وهو من الإخبار بالمغيبات، فهو من جملة الإعجاز، وقد وقع كما أخبر به النبي ﷺ[٣]؛ وذلك من دلائل نبوته ﷺ، فكما هو معلوم أن الله تبارك وتعالى قد اختص بمعرفة علم الغيب وأنه استأثر به دون خلقه، إلا أنه قد جاءت أدلة تفيد أن الله تعالى استثنى من خلقه من ارتضاه من الرسل، فأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحي إليهم، وجعله معجزة لهم، ودلالة صادقة على نبوتهم، قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾[٤][٥].

قال القاضي عياض: (وهذه المعجزة من جملة معجزاته المعلومة على القطع الواصل إلينا خبرها على التواتر)[٦].

---

(١) سورة النحل، آية: ٥١.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٥٦.

(٣) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٥٣٠.

(٤) سورة الجن، الآيتان: ٢٦، ٢٧.

(٥) موسوعة نضرة النعيم ٥٤٢/١.

(٦) كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢٢٩.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: الوصية بحفظ الذمة وصلة الرحم:

إن من موضوعات الدعوة المستنبطة من هذا الحديث، وصية النبي ﷺ بحفظ الذمة وصلة الرحم، فقد نوّه النبي ﷺ في هذا الحديث إلى حفظ الذمة وصلة الرحم، والمقصود بالذمة: الحرمة والحق وهي هنا بمعنى الذمام[١]، وصلة الرحم حتى ولو كانت بعيدة فأوصى النبي ﷺ بها "فإن لهم ذمة ورحمًا" وذلك أن هاجر أم إسماعيل سرية إبراهيم الخليل عليه السلام كانت من مصر - ولهذا قال "إن لهم ذمة ورحمًا" لأنهم أخوال إسماعيل، وإسماعيل هو أبو العرب المستعربة كلها، فدل ذلك على أن الرحم لها صلة ولو كانت بعيدة، ما دمت تعرف أن هؤلاء من قبيلتك فلهم الصلة ولو كانوا بُعَداء، يستوي في ذلك صلة القرابة من جهة الأم والأب[٢].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: وصية النبي ﷺ بأهل مصر:

إن من مكارم الأخلاق التي دعا إليها الإسلام وحث عليها، صلة الأرحام والإحسان إلى الأصهار، وإن كانت بعيدة، ومن ذلك وصيته ﷺ في هذا الحديث بأهل مصر "فاستوصوا بأهلها خيرًا فإن لهم ذمة ورحما" وفي رواية "ذمة وصهرًا" والرحم التي لمصر كون هاجر أم إسماعيل عليه السلام من مصر، والصهر كون مارية أم إبراهيم ابن رسول الله ﷺ من مصر، وذلك أن المقوقس صاحب مصر لما كاتبه النبي ﷺ يدعوه إلى الإسلام لم يسلم، وأرسل بهدية إلى النبي ﷺ منها مارية وسيرين فحملت مارية من رسول الله ﷺ بإبراهيم، وأعطى رسول الله ﷺ سيرين لحسان بن ثابت الأنصاري[٣]، لهذه الرحم والصهر، ولما علم رسول ﷺ من الخير في مصر وأهلها استوصى بهم خيرًا.

لذا فينبغي على المسلم مراعاة صلة الرحم وإن بعدت، وأن يلتمس الأسباب لمعرفتها

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ص ١٥٢٨.

(٢) شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين ١/ ٧٠٠.

(٣) انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٢٨، وشرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ١/ ١٤٥، ١٤٦، ودليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٥٣١.

وإيصال الخير إليها، ومما ذكره الطبري في تفسيره: ما قاله عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (تعلموا أنسابكم ثم صلوا أرحامكم، والله ليكون بين الرجل وبين أخيه شيء، ولو يعلم بينه وبينه من داخلة الرحم لأوزعه ذلك عن انتهاكه)، أي: كفه ومنعه"[1].

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٤٤/١.

الحديث رقم (٣٢٩)

٣٢٩- وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾[الشعراء: ٢١٤] دعا رسول الله ﷺ قُرَيْشًا، فاجْتَمَعُوا فعَمَّ وَخَصَّ، وقال: ((يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ[1]، يا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ، انقِذُوا أنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي مُرَّةَ بن كَعْبٍ، أنْقِذُوا أنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، أنْقِذُوا أنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي هاشم، أنقذوا أنفسكم من النار، يَا بني عبد المطلب، انقذوا أنفسكم من النار، يَا فَاطِمَةُ، أنْقِذي نَفْسَكِ مِنَ النَّارِ. فَإنِّي لا أمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيئًا، غَيْرَ أنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأبُلُّهَا بِبِلالِهَا)) رواه مسلم[2].

قوله ﷺ: "بِبِلالِهَا" هو بفتح الباء الثانية وكسرها و"البِلالُ": الماءُ. ومعنى الحديث: "سَأَصِلُها، شَبَّه قَطِيعَتَها بالحرارة تُطْفأ بالماء وهذه تُبَرَّدُ بالصِّلَة.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

الحديث يدل على حرص الرسول ﷺ على أمته ورحمته بهم يبدأ في أسلوب خبري يقرر المعاني دون مؤكدات؛ لأنه يخاطب خالي الذهن عن الخبر، وقول الراوي (فعم، وخص) طباق يؤكد شمول الجميع بالنداء،وتتابع الفاءات في الربط بين الجمل في قوله (فَاجْتَمَعُوا فَعَمَّ وَخَصَّ فَقَالَ) دليل على تسارع الأحداث، وأنه دعاهم بعد نزول الآية دون انتظار، وقول الرسول ﷺ (يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ) استخدام (يا) لأنها تعطي مساحة لمد الصوت لبلوغ أكبر عدد من الناس، وهو نداء تنبيه، وتحذير وقوله (أنقذوا) أمر ترهيب وتحذير لأن دلالة الفعل تدل على وجود خطر،

---

(١) عند مسلم قوله: (يا يني عبد شمس) بعد قوله: (يا بني كعب بن مرة).

(٢) برقم (٢٠٤/٣٤٨). برقم (٢٠٤/٣٤٨) من حديث موسى بن طلحة. وأخرجه البخاري (٤٧٧١) بنحوه، أورده المنذري في ترغيبه (٥٣٤٨) وقال: رواه مسلم واللفظ له، والبخاري والترمذي والنسائي بنحوه.

وإضافته لواو الجماعة تعميم للنداء، وقوله: (أنفسكم) وإضافته لكاف الخطاب، وميم الجمع تصعيد للترهيب لأنه جعلهم المعنيين بالترهيب، وقوله: (من النار) لفظ النار من الألفاظ الموحية بطبيعتها بمعاني الألم والإحراق والعذاب، وقوله (يَا بَنِي مُرَّةَ بنِ كَعْبٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ) وما بعدها من ذكر الخاص بعد العام عناية به، وتكرار جملة النداء، والأمر الترهيبي يشير إلى خطر البقاء على الكفر لمن لم يسلم منهم وخطر المعصية لمن يتعرض لها، وخطر التقصير لمن أراد أن يرافق أحبابه في الجنة وقوله: (يَا فَاطِمَةُ أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنْ النَّارِ) نداء شفقة ورحمة وحنان، وقوله: (فَإِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا) تعليل للأمر يزيد من الترهيب لأن المتحدث الرسول ﷺ والمخاطب ابنته وهو لا يملك لها شيئا وتنكير كلمة (شيئاً) للتعميم وقوله (غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبَلالِهَا) مِنْ بَلَّ الرَّحِمِ إِذَا وَصَلَ أَيْ سَأَصِلُهَا فِي الدُّنْيَا، وَلا أَغْنَى مِنْ اللَّه شَيْئًا أَوْ بِالشَّفَاعَةِ فِي الآخِرَة أَيْ إِنْ آمَنْتُمْ لَكِنْ الْوَصْل الْمَشْهُور هُوَ وَصْل الدُّنْيَا لا وَصْل الآخِرَة وَاسْتُعِيرَ الْبَلُّ لِوَصْلِ الرَّحِمِ لأَنَّ بَعْضَ الأَشْيَاء تَتَّصِل بِالنَّدَاوَةِ وَتَتَفَرَّقُ بِالْيُبْسِ فَاسْتُعِيرَ الْبَلُّ لِلْوَصْلِ وَالْيُبْسُ الْقَطِيعَةُ والحديث تحذير ضمني شديد للأمة، لأنه خاطب أهل بيته، وأحب الناس إليه، وهم أهل الاجتهاد والطاعة بهذا التحذير فغيرهم أولى بالحذر لضعف الأعمال، وكثرة الذنوب.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التعميم والتخصيص، والنداء، والإنذار، والتوكيد.

ثانيًا: من مهام الداعي: تبيين الحقائق وإرشاد المدعوين.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الاهتمام بالعمل وعدم الاتكال على القرابة.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: العناية بصلة الأرحام.

خامسًا: من أهداف الدعوة: إخراج الناس من الظلمات إلى النور.

أولاً- من أساليب الدعوة: التعميم والتخصيص، والنداء، والإنذار، والتوكيد:

١- التعميم والتخصيص، والنداء: وذلك في قول أبي هريرة رضي الله عنه: دعا رسول الله ﷺ قريشًا فاجتمعوا "فعم" أي دعاهم بما يعمهم "وخص" أي خصص بعضًا منهم

بالنداء والتصريح باسم قبيله كقوله يا بني كعب، والنداء باسم شخص كقوله ﷺ "يا فاطمة"[١] واجتماع هذه الأساليب الثلاثة فيها ما يلفت ذهن المدعو إذا رأى تخصيصًا له من الداعي وتوجيه الخطاب إليه مباشرة، وهذا ما يسمى في عرف أهل البيان بذكر الخاص بعد العام، وهذا شائع في القرآن والسنة، ومنه قوله تعالى: ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾[٢] وقوله: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم ﴾[٣].

٢- الإنذار: وذلك في قوله ﷺ "يا بني كعب بن لؤي، أنقذوا أنفسكم من النار..." فالإنذار من الأساليب الدعوية المفيدة، وهو لا يعني الوعيد والتخويف فحسب، وإنما هو مظهر من مظاهر رحمة الله تبارك وتعالى، فالإنذار هو تحذير المخاطب وأمره بالاستعداد وأن يكون على علم وحذر[٤].

٣- التوكيد: وذلك إضافة لما استعمله النبي ﷺ فقد استعمل أسلوب التوكيد لحقيقة ما يقول، فقال "فإني لا أملك لكم من الله شيئًا" وذلك مما يجعل المدعو يقبل على ما يُدعى إليه غير معرض ولا متشكك.

ثانيًا- من مهام الداعي: تبيين الحقائق وإرشاد المدعوين:

يستنبط ذلك من بيان رسول الله ﷺ الأمر، وخطورة الكفر، وعدم الإيمان بالله تعالى لقومه، وأنه لا يملك لهم من الله شيئًا فقال: "يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار... فإني لا أملك لكم من الله شيئًا" فلا تتكلوا على قرابتي فإني لا أقدر على دفع مكروه يريده الله تعالى بكم[٥].

وتبيين الحقائق وإرشاد المدعوين مماكلف الله به نبيه ﷺ قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[٦] وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ

---

(١) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٥٣١، ٥٣٢.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٣٨.

(٣) سورة القدر، آية: ٤.

(٤) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ص ٩٠٩.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص٢٤١، ٢٤٢.

(٦) سورة النحل، آية: ٤٤.

شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾[١] وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾[٢].

فالتبيين يقطع حجة المعاندين الذين يحتجون بغموض ما يدعون إليه، وهو من الوسائل الناجعة لإنجاح الدعوة والوصول بها إلى تحقيق هدفها المنشود[٣].

قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[٤].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: الاهتمام بالعمل وعدم الاتكال على القرابة:

وقد أوضح النبي ﷺ هذا الأمر لجميع قريش، وخص بذلك أهله وذويه قائلاً: "فإني لا أملك لكم من الله شيئًا" فلا تتكلوا على القرابة، فإن الإنسان إذا تجرد من العمل وإخلاص العقيدة، لا تشفع له قرابة ولو كانت تمت لأنبياء الله، وقد ساق القرآن لنا نماذج تبين ذلك المعنى، مثلما وقع من ابن نوح عليه السلام لما أعرض عن منهج ربه، هلك مع من هلك، ولم تنفعه شفاعة أبيه ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[٥] فلم تنفعه قرابة، وعلل الله ذلك بقوله "إنه عمل غير صالح" تنبيهًا على أن أهله هم الصلحاء، أهل دينه وشريعته، وأنه لتماديه في الفساد والغي، كأن نفسه عمل غير صالح، وتلويحًا بأن سبب النجاة ليس إلا الصلاح، فمن لا صلاح له لا نجاة له[٦].

---

(١) سورة الأحزاب، الآيات: ٤٥-٤٧.

(٢) سورة الشورى، آية: ٥٢، ٥٣.

(٣) موسوعة نضرة النعيم في أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن حميد، عبدالرحمن بن ملوح ٣/٩٠٠.

(٤) سورة النساء، ١٦٥.

(٥) سورة هود، الآيات: ٤٥-٤٧.

(٦) محاسن التأويل، القاسمي ٦/٩/١٣٢، ١٣٣.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: الاهتمام بصلة الأرحام:

إن مما ورد في هذا الحديث تأكيد النبي ﷺ على أهمية العناية بصلة الأرحام قائلاً: "فإني لا أملك لكم من الله شيئًا غير أن لكم رحمًا سأبلها ببلالها" والبلال جمع بَلَل، وقيل هو كل ما بلَّ الحلق من ماء أو لبن أو غيره، والعرب تطلق النداوة والبلل على الصلة، كما يطلقون اليُبس على القطيعة[1] ومعنى الحديث سأصلها، شبهت قطيعة الرحم بالحرارة ووصلها بإطفاء الحرارة ببرودة[2] فلا يمنعه كفرهم من صلة رحمهم، فعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت قدمت عليَّ أمي وهي مشركة في عهد رسول الله ﷺ فاستفتيت رسول الله ﷺ، قلت: إن أمي قدمت وهي راغبة أفأصل أمي قال نعم صلي أمك[3].

وقد قال الحق تبارك وتعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[4].

خامسًا- من أهداف الدعوة: إخراج الناس من الظلمات إلى النور بعبادة الله تعالى:

إن أهم المقاصد والأهداف للدعوة: إخراج الناس من الظلمات إلى النور بعبادة الله وحده، وكما جاء في الحديث "يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئًا واتركوا ما يقول آباؤكم" إخراج لهم من ظلمات الجهل والشرك إلى نور الوحدانية والعلم، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[5]. فيهديهم طرق السلامة والنجاة من عذاب الله، ويخرجهم من ظلمات

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ص ٨٩.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٢٤٢.

(٣) أخرجه البخاري ٢٦٢٠.

(٤) سورة الممتحنة، آية: ٨.

(٥) سورة المائدة، الآيتان: ١٥، ١٦.

الكفر والشُّبَه إلى نور الإيمان والدلائل القطعية، ومن ظلمات الكفر والبدعة والمعصية والجهل والغفلة إلى نور الإيمان والسنة والطاعة والعلم والذكر[١]، ويهديهم إلى صراط مستقيم، ذلك الدين السويّ في الاعتقادات والأعمال، العريّ عن الإفراط والتفريط[٢].

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ١٨٨ - ١٨٩.

(٢) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ١٣٧/٦/٤.

الحديث رقم (٣٣٠)

٣٣٠- وعن أَبي عبد الله عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، قَالَ: سمعت رَسُول الله ﷺ جِهَارًا غَيْرَ سِرٍّ، يَقُولُ: ((إنَّ آل بَني[1] (فُلاَن)[2] لَيْسُوا بأوليَائي، إنَّمَا وَلِيِّيَ اللهُ وَصَالِحُ المُؤْمِنِينَ، وَلَكِنْ لَهُمْ رَحِمٌ أَبُلُّهَا بِبلاَلِهَا)) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ، واللفظ للبخاري[3].

ترجمة الراوي:

عمرو بن العاص: هو عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم القرشي السهمي، كنيته: أبو عبدالله، وأبو محمد.

أسلم قبل فتح مكة في صفر سنة ثمان من الهجرة، وكان أحد دهاة العرب وعقلائهم. يُضرب به المثل في الفطنة والدهاء والحزم. كان من فرسان قريش وأبطالهم في الجاهلية، فلما أسلم فرح النبي ﷺ به. وشهد لصدقه في إسلامه وشدة إيمانه، قال: ((أسلم الناسُ وآمن عمرو بن العاص))[4] كما قال ﷺ: ((ابنا العاص مؤمنان: عمرو وهشام))[5]. ولما قال له النبي ﷺ: إني أريد أن أبعثك على جيش فيسلمك الله ويغنمك وأزعب لك من المال زعبة صالحة[6]. قال له: يا رسول الله ما أسلمت من أجل المال ولكني أسلمت رغبة في الإسلام وأن أكون مع رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: يا عمرو نعمّا بالمال الصالح للرجل الصالح[7].

ونظرًا لبصره بالأمور وكفاءته وشجاعته وحسن رأيه، كان النبي ﷺ يقرّبه ويُدنيه، وولاه غزوة ذات السلاسل، وكان في الجيش أبوبكر وعمر بن الخطاب وأبو

---

(١) لفظ البخاري، ومسلم: (أبي) بدل: (بني).

(٢) عند مسلم لفظ: "يعني فلانًا"، والمثبت لفظ الحميدي في جمعه (٤٢٣/٣، رقم ٢٩٢٠).

(٣) أخرجه البخاري (٥٩٩٠) واللفظ له، ومسلم (٢١٥/٣٦٦).

(٤) أخرجه الترمذي (٣٨٤٤) وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٣٠٢٠).

(٥) أخرجه أحمد ٢٠٤/٢ رقم ٨٠٤٢، وقال محققوه: إسناده حسن ٤٠١/١٣.

(٦) أي أعطيك دفعةً من المال. النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢٩٧ "زعب".

(٧) أخرجه أحمد ١٩٧/٤ رقم ١٧٧٦٣، وقال الحافظ في الإصابة: سنده حسن ٢٩٩/٢٩.

عبيدة بن الجراح. واستعمله واليًا على عمان حتى توفي ﷺ ثم شارك في الفتوحات، فشارك في فتوح الشام، وكان من أمراء الجند في زمن عمر بن الخطاب، فافتتح قنسرين، وصالح أهل حلب ومنبج وأنطاكية، وولاه عمر فلسطين ثم سيّره إلى مصر ففتحها وجعله واليًا عليها ثم عزله عثمان عنها.

فلما وقعت الفتنة لحق بمعاوية بن أبي سفيان، فقاتل معه وولاه على مصر سنة ٣٨هـ حتى توفي سنة ٤٣هـ وعمره نحو تسعين سنة. قال عند موته وقد جزع جزعًا شديدًا: اللهم أمرتنا فتركنا، ونهيتنا فركبنا، ولا يسعنا إلا مغفرتك، وكانت تلك هجِّيراه حتى مات[١] اللهم لا بريء فأعتذر، ولا عزيز فأنتصر، وإلا تدركني برحمة أكن من الهالكين[٢].

قال الذهبي: "والله يغفر له ويعفو عنه، لولا حبُّه للدنيا ودخوله في أمور، لصلح للخلافة"[٣]. وله في كتب الأحاديث ٣٩ حديثًا[٤].

غريب الألفاظ:

أبلُّها: أصلها.

ببلالها: الماء، شبه الرحم المقطوعة بالحرارة التي تُطْفأ بالماء وهو وصلها[٥].

---

(١) أخرجه أحمد ٤/٢٠٠ رقم ١٧٧٨١، وقال محققو المسند: إسناده صحيح ٢٩/٣٢٠.

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى، ابن سعد (٤/٢٦٠) وقال محققو السير: إسناده قوي.

(٣) السير (٣/٥٩).

(٤) الطبقات الكبرى، ابن سعد (٤/٢٥٤)، (٧/٤٩٣) والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٤٩٦، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٤/٢٣٢)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي (٩٨) والسير (٣/٥٤)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين (٥/٤٢٦) والتهذيب (٣/٢٨١) والأعلام، خير الدين الزركلي (٥/٢٧٩)، وموسوعة عظماء حول الرسول (٢/١٤٢٧).

(٥) رياض الصالحين ١٧٤.

الشرح الأدبي

قول الصحابي رضي الله عنه (سمعت رسول الله ﷺ) يفيد تأكيد الخبر من جهتين: الأولى من ناحية السماع المباشر عن الرسول ﷺ، والثانية من ناحية استخدامه الفعل الماضي الذي يدل على تحقق الوقوع، وقوله: (جِهَاراً غَيْرَ سِرٍ) جملة معترضة تفيد توكيد المعنى لعموم العلم به وقوله: (غير سر) توكيد لقوله: (جهاراً)، ونص كلام الرسول ﷺ بني على ثلاث جمل أساسية الأولى جملة النفي في قوله ﷺ (إنَّ آل بَني فُلاَن لَيْسُوا بِأولِيَائِي) وهو مؤكد بأكثر من مؤكد لبيان أهمية الخبر وخطره، وقوله: (بني فلان) كناية عن موصوف لم يرد ذكر أسمائهم ستراً عليهم، وهو من أدبه العالي ﷺ وقوله (لَيْسُوا بِأولِيَائِي) نفي للولاية عنهم أكده بالباء الداخلة على الخبر، الجملة الثانية: جملة القصر في قوله (إِنَّمَا وَلِيِّيَ اللهُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ) وهي لقصر ولاية الرسول ﷺ على الله، وصالح المؤمنين، ونفيها عمن سواهم من المذكورين، وإضافة (صالح) للمؤمنين إضافة بيان وتشريف تعطي خصوصية لأولياء الرسول فليس مطلق الإيمان، ولكن إيمان مرتبط بصلاح، طائفة مصلحة صالحة، يصلح بصلاحها المجتمع كله، الثالثة جملة الاستدراك في قوله (وَلَكِنْ لَهُمْ رَحِمٌ أَبُلُّهَا بِبلاَلِهَا) وهو استدراك يقرر وصل النبي ﷺ لهؤلاء وفاءً بحق هذه الصلة، وقوله (أبلها ببلالها) في جناس يقرر المعنى ويجذب السمع.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الجهر، والإخبار والتوكيد.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: التأكيد على أخوة الدين.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الولاء والبراء.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: صلة الأرحام.

أولاً- من أساليب الدعوة: الجهر، والإخبار والتوكيد:

١- **الجهر:** إن حكمة الداعية ورؤيته الصائبة تجعله يوازن في النظر للأمور، فقد يرى من المناسب في الدعوة أن يُسّر بأمر من الأمور ولا يعلن به، وقد يرى مناسبة

الجهر، وفي هذا الحديث يجهر النبي ﷺ بأن آل فلان ليسوا بأوليائه يقول: (إن آل فلان ليسوا بأوليائي، إنما ولى الله وصالح المؤمنين... الحديث)، وقد جهر النبي ﷺ بالدعوة بعد أن كانت سرية زهاء ثلاث سنوات، وذلك عندما قام على الصفا ودعا قومه إلى التوحيد والإيمان برسالته واليوم الآخر[١]، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[٢] صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي "يا بني فهر يا بني عديّ" لبطون قريش... الحديث[٣].

٢- **الإخبار والتوكيد:** حيث أخبر النبي ﷺ في الحديث عمن هم أولياؤه، ومن ليسوا بأوليائه، وأكد كلامه هذا بقوله "إن آل بني فلان ليسوا بأوليائي، إنما ولي الله وصالح المؤمنين".

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: التأكيد على أخوة الدين:

فأخوة الدين من الحقائق التي أقرها الإسلام، وقد أشار النبي ﷺ إلى ذلك في الحديث "إنما ولي الله وصالح المؤمنين، قال ابن حجر: (فائدة الحديث انقطاع الولاية في الدين بين المسلم والكافر، ولو كان قريبًا حميمًا، وقال ابن بطال: أوجب في هذا الحديث الولاية بالدين، ونفاها عن أهل رحمه، إن لم يكونوا من أهل دينه)[٤]، وقال النووي: (ومعناه: إنما وليي من كان صالحًا وإن بعد نسبي منه، وليس وليي من كان غير صالح وإن كان نسبه قريبًا)[٥].

وفي ذلك تأكيد عمليٌّ من رسول الله ﷺ لتقرير الأخوة في الدين، تحقيقًا لقول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[٦] أي في الدين[٧] وقال القرطبي رحمه الله: (أي إخوة

---

(١) الرحيق المختوم ص في الرحمن المباركفوري ص ٧٩.

(٢) سورة الشعراء، آية: ٢١٤.

(٣) أخرجه البخاري ٤٧٧٠.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠/٤٣٥.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٢٤٥.

(٦) سورة الحجرات، آية: ١٠.

(٧) جامع البيان عن تأويل آي القرآن٢١/٣٦٣.

في الدين والحرمة لا في النسب، ولهذا قيل: أخوة الدين أثبت من أخوة النسب، لأن أخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين، وأخوة الدين لا تنقطع بمخالفة النسب)[١].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: الولاء والبراء:

في هذا الحديث يبيّن النبي ﷺ من هم أولياؤه الذين لهم حق الولاء، ومن ليسوا بأوليائه فوجب البراء منهم "إن آل فلان ليسوا بأوليائي إنما وليي الله وصالح المؤمنين" والمعنى الاصطلاحي للولاء، هو النصرة والمحبة، والإكرام والاحترام، والكون مع المحبوبين ظاهرًا وباطنًا" والبراء هو: البعد والخلاص والعداوة بعد الإعذار والإنذار، وقال ابن تيمية: وأصل الولاية المحبة والتقرب، وأصل العداوة: البغض والبعد، فإذا كان ولي الله هو الموافق المتابع له فيما يحبه ويرضاه، ويبغضه ويسخطه، ويأمر به وينهى عنه كان المعادي لوليه معاديًا له ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾[٢]،[٣] ولما عقد الله الأخوة والمحبة والموالاة والنصرة بين المؤمنين، ونهى عن موالاة الكافرين، كان من الأصول المتفق عليها أنَّ كل مؤمن موّحد، تارك لجميع المكفرات الشرعية، تجب محبته وموالاته ونصرته، وكل من كان بخلاف ذلك وجب التقرب إلى الله ببغضه ومعاداته، وحيث إن الولاء والبراء تابعان للحب والبغض، فإن أصل الإيمان أن تحب في الله أنبياءه وأتباعهم، وتبغض في الله أعداءه وأعداء رسله[٤].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: صلة الأرحام:

بيّن النبي ﷺ في هذا الحديث موالاته لله ولصالحي المؤمنين، وتبرؤه من غير المؤمنين، حتى ولو كانت تربطهم بهم صلة قرابة، إلا أنه أثبت لهم حق الصلة، فقال

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٨/ ٣٢٢/١٦، ٣٢٣.

(٢) سورة الممتحنة، آية: ١.

(٣) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، ابن تيمية ص ٧.

(٤) من مفاهيم عقيدة السلف الولاء والبراء في الإسلام، محمد سعيد القحطاني، ط١١، دار طيبة، الرياض: ١٤٢٣هـ ص ٨٩-٩١.

ولكن لهم رحم أبلُّها ببلالها "والبلال بمعنى البلل وهو النداوة، وأطلق ذلك على الصلة كما أطلق اليبس على القطيعة، لأن النداوة من شأنها تجميع ما يحصل فيها وتأليفه بخلاف اليبس فمن شأنه التفريق[1] وقال الطيبي: ("أبلها ببلالها" المعنى أبلها بما عرف واشتهر عند الله وعند الناس ما هو، فلا أترك من ذلك شيئًا)[2].

ولقد أعطانا النبي ﷺ في هذا الحديث مثلاً تطبيقيًا في صلة الرحم، وإن كان هناك خلاف في المعتقد، فقال "ولكن لهم رحم أبلها ببلالها" وقد قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[3] فلا ينهاكم الله عن بر الذين لم يقاتلوكم، وتقسطوا إليهم وتعدلوا فيهم بالإحسان والبر[4]. وصلة الرحم لها بالغ الأثر في تقوية أواصر العلاقات الاجتماعية[5]، ولا شك أن ذلك له أثر إيجابي على الدعوة، حيث يعمل على تأليف قلوب المخالفين، قال الله عز وجل: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[6] بأن يسلم منهم الكثير ويصيروا لكم أولياء وإخوانًا[7]. ويجعل بينكم محبة بعد البغْضة، ومودة بعد النَّفرة، وألفة بعد الفرقة[8].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٣٦/١٠.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ١٤٨/٩.

(٣) سورة الممتحنة، آية: ٨.

(٤) معالم التنزيل ٩٥/٨.

(٥) موسوعة نضرة النعيم في أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن حميد، عبدالرحمن بن ملوح ٢٦٣٢/٧.

(٦) سورة الممتحنة، آية: ٧.

(٧) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٩٥/٨.

(٨) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٨٩/٨.

الحديث رقم (٣٣١)

٣٣١- وعن أَبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري ﷺ : أنَّ رجلاً قَالَ: يَا رَسُول الله، أخبِرْني بِعَمَلٍ يُدْخِلُني الجنَّةَ، وَيُبَاعِدُني مِنَ النَّارِ[١]. فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ: ((**تَعْبُدُ الله، وَلاَ تُشْرِكُ بِهِ شَيئًا، وَتُقِيمُ الصَّلاةَ، وتُؤتِي الزَّكَاةَ، وتَصِلُ الرَّحمَ**)) مُتَّفقٌ عَلَيهِ[٢].

ترجمة الراوي:

أبو أيوب الأنصاري: هو خالد بن زيد بن النجار الخزرجي.

شهد العقبة، وبدرًا، والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وقد نزل عليه النبي ﷺ حين قدم المدينة شهرًا حتى بُنيت مساكنه ﷺ ومسجده (وقد انتبه أبو أيوب في ليلة -بعد أن شرفه النبي ﷺ بنزول بيته- فقال: نمشي فوقَ رأس رسول الله ﷺ! فتنحى هو وأم أيوب فباتوا في جانب، ثم قال للنبي ﷺ: لا أعلو سقيفةً أنت تحتها، فتحول النبي ﷺ في العُلُوِّ وأبو أيوب في السُّفْل)[٣].

وقد آخى النبي ﷺ بينه وبين مصعب بن عمير ﷺ.

وقال له النبي ﷺ ((نزع اللهُ عنك ما تكره))[٤] وذلك عندما كان رسول الله ﷺ يطوفُ بين الصفا والمروة، فسقطت على لحيته ﷺ ريشةٌ، فابتدر إليه أبو أيوب فأخذها.

وقد نزل في أبي أيوب وامرأته قول الحق تبارك وتعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾[٥]، وذلك بعد أن قالت له

---

(١) قوله: (ويباعدني من النار) لا يوجد عند البخاري، وهو من الجمع للحميدي (٤١٩/١، رقم ٦٧٧)، وعند البخاري بعده زيادة: (قال: ما له ما له).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٩٦) واللفظ له، ومسلم (١٢/١٣). أورده المنذري في ترغيبه (١١٠٨). وسيكرره المؤلف برقم (١٢١٣).

(٣) أخرجه مسلم، رقم ٢٠٥٣.

(٤) مجمع الزوائد للهيثمي، ٣٢٢/٩.

(٥) سورة النور، آية: ١٢.

زوجته: يا أبا أيوب؛ أما تسمع ما يقول الناس في عائشة رضي الله عنها؟ فقال لها: نعم، وذلك كذب، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا، والله ما كنت لأفعلهُ. قال رضي الله عنه: فعائشة والله خير منك[1].

وقد قدم البصرة فنزل على ابن عباس رضي الله عنهما، ففرّغ له بيته، وقال: لأصنعن بك كما صنعت برسول الله ﷺ، قال: كم عليك من الدين؟ قال: عشرون ألفًا. قال: فأعطاه أربعين ألفًا وعشرين مملوكًا، وقال: لك ما في البيت كله!!

وقد استخلفه عليٌّ رضي الله عنه على المدينة لما خرج إلى العراق، ثم لحق به بعد ذلك، وشهد معه قتال الخوارج، وكان شجاعًا صابرًا تقيًا محبًا للغزو والجهاد، عاش إلى أيام بني أمية، ولما غزا يزيد القسطنطينية في خلافة أبيه معاوية رضي الله عنه، صحبه أبو أيوب غازيًا، فحضر الوقائع ومرض فأوصى أن يوغل به في أرض العدو، وقال لأصحابه: إن أنا متُ فاحملوني، فإذا صادفتم العدو فادفنوني تحت أقدامكم، ومات ببلاد الروم غازيًا في خلافة معاوية بن أبي سفيان، وقبره في أصل القسطنطينية، وقال الواقدي: بلغني أن الروم يتعاهدون قبره، ويستسقون به وبلغت روايته عن النبي ﷺ ١٥٥ حديثًا.

وتوفي سنة ٥٢هـ، وصلى عليه يزيد بن معاوية[2].

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة (١٠/١٩٢).

(٢) الطبقات الكبرى، ابن سعد (٣/٤٨٤-٤٨٥)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر (١٩٦-١٩٧)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٢/١٢١-١٢٣)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ٣٢١، وسير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط (٢/٤٠٢-٤٠٦)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين (٢/٣٤٤-٣٤٥)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (١/٥١٩)، والأعلام، خير الدين الزركلي (٢/٢٩٥)، وموسوعة عظماء حول الرسول (١/٦٧٧).

الشرح الأدبي

إن أمر الرسول ﷺ (تعبد ، وتقيم وتؤتي وتصل) جاء في صورة الخبر وذلك ليوافق أسلوبه قول الأعرابي (أخبرني) فجاء أمره في صورة الخبر هذا من ناحية ومن ناحية أخرى رعاية لنفسية الأعرابي الذي يأنف أن يأمر، أو ينهى، وهو الذي يحيا في صحرائه بلا قيود، أو أوامر أو قوانين فأسلوب النبي بذلك راعي نفسية الأعرابي وشاكل كلامه، والعدول عن الأسلوب الإنشائي (أعبد) إلى الخبري في قوله "تعبد الله" لفائدتين: أحدهما: أن المأمور كأنه سارع إلى الامتثال، وهو يخبر عنه إظهارا للحرص بوقوعه ثانيهما: أن لا ينسب إلى عدم الامتثال لأمره إن قصر المأمور، أو لئلا يكون المأمور مسخوطاً عليه إن لم يمتثل واتباعه النهي في قوله (لا تشرك) للأمر في قوله (تعبد) تأكيداً له لإخلاص العبودية لله من الشرك العالق في نفوس القوم من آثار الجاهلية

والحديث الشريف بجملته نموذج يقتدي به في التعليم، والتربية، ومخاطبة الناس بأساليبهم، ورعاية الجانب النفسي عندهم. مع الحرص على عموم المنفعة، وبلوغ الموعظة، ولذلك نرى أن النبي ﷺ في ترهيبه، وترغيبه كثيراً ما يدعم الأمر بالنهي، أو يسبقه بالنداء، وغيره من الأساليب القوية التي تعضد الأمر، وتحض على الامتثال له.

فقه الحديث

١- قال ابن حجر: (وخصّ هذه الخصلة لوهي قوله ﷺ: وتصل رحمك"] من بين خلال الخير، نظرًا إلى حال السائل، كأنه كان لا يصل رحمه، فأمره به، لأنه المهم بالنسبة إليه، ويؤخذ منه تخصيص بعض الأعمال بالحضّ عليها بحسب حال المخاطب وافتقاره للتنبيه عليها أكثر مما سواها، إما لمشقتها عليه، وإمّا لتسهيله في أمرها)[١].

٢- قال القرطبي: (إن النبي ﷺ دلّ السائل على فعل ما وجب عليه)[٢].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٦٥/٣.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ١٦٦/١.

٣- قال ابن حجر: (قال القرطبي: في هذا الحديث -وكذا حديث طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه في قصّة الأعرابي وغيرهما- دلالة على جواز ترك التطوعات، لكن من داوم على ترك السنن كان نقصًا في دينه، فإن كان تركها تهاونًا بها ورغبة عنها كان ذلك فسقًا. يعني لورود الوعيد عليه، حيث قال صلى الله عليه وسلم: ((من رغب عن سنتي فليس منّي))[1]، وقد كان صدر الصحابة رضي الله عنهم ومن تبعهم يواظبون على السنن مواظبتهم على الفرائض، ولا يفرقون بينهما في اغتنام ثوابهما، وإنما احتاج الفقهاء إلى التفرقة لما يترتب عليه من وجوب الإعادة وتركها، ووجوب العقاب على الترك ونفيه. ولعل أصحاب هذه القصص كانوا حديثي عهد بالإسلام، فاكتفى منهم بفعل ما وجب عليهم في تلك الحال؛ لئلا يثقل ذلك عليهم فيملوا، حتى إذا انشرحت صدورهم للفهم عنه، والحرص على تحصيل ثواب المندوبات، سهلت عليهم، انتهى)[2].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

ثانيًا: من واجبات المدعو: السؤال عن الأعمال الموصلة للجنة.

ثالثًا: من فقه الداعية: مراعاة الأولويات وحال السائل.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل التوحيد والعبادة.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: فضل الصلاة والزكاة.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: فضل صلة الرحم.

أولاً- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

حيث جاء في الحديث: "أخبرني بعمل يدخلني الجنة؟" والسؤال هنا عن العمل الذي يوصل إلى الجنة، وهو سؤال عن غاية عظيمة يسعى المؤمن لأجلها، ولا شك أن أسلوب

---

(١) أخرجه البخاري ٥٠٦٣، ومسلم ١٤٠١.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣/٢٦٥، والكلام في المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ١/١٦٦-١٦٧ بأطول من هذا، وإنما نقلناه بتصرف عن ابن حجر لكونه اختصره مع المحافظة على مضمونه.

السؤال يعمل على إرشاد المؤمن إلى ما ينفعه، ويحقق له السعادة في الدنيا والآخرة، وقد أمر الله عباده بالسؤال عما يجهلون، وأن يسألوا المختصين من العلماء، فقال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]، وعلم الله نبيه ﷺ أن يجيب على تساؤلات المدعوين ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾[2]، وعلى الداعية أن يفيد من هذا الأسلوب مع المدعوين.

ثانيًا- من واجبات المدعو: السؤال عن الأعمال الموصلة للجنة:

إن غاية المسلم دخول الجنة، ولذا فهو يتطلع إليها دائمًا، ويسعى في كل طريق وسبيل يوصل إليها، ويتضح هذا من الحديث: "أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار"، هذا ومن واجبات المدعو أن يسأل عن السبل والطرق الموصلة لمرضاة الله عز وجل حتى يفوز بسعادة الدارين، قال تعالى في وصف المؤمنين: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[3].

قال ابن عثيمين: (ولا شك أن كل إنسان يسعى إلى هذا الكسب العظيم أن ينجو من النار ويدخل الجنة، فإن من زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز، وكل مسلم يسعى إلى ذلك، وهذا يحصل بهذه الأمور الأربعة التي جاءت في الحديث: (تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة وتصل الرحم)[4].

وفي مضمون السؤال الوارد في الحديث أنه سؤال عن الأعمال الموصلة إلى الجنة، والمباعدة عن النار، وهذا يبين ضرورة أن يتجنب المدعو السؤال عن الأمور التي لا تفيد، ويحرص أن يعلو بهمته في سؤاله، ويسأل عن الأمور المفيدة التي تعود عليه بالنفع والمصلحة في دنياه وآخرته.

---

(١) سورة النحل، آية: ٤٣.

(٢) سورة الكهف، آية: ٨٣.

(٣) سورة السجدة، آية: ١٦.

(٤) شرح رياض الصالحين ٧٠٢/١.

قال ابن مفلح: (ويكره السؤال عن الغرائب، وعما لا ينتفع به ولا يعمل به، وما لم يكن، فعن طاووس عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لا تسألوا عما لم يكن فإني سمعت عمر رضي الله عنه ينهى أن يسأل عما لم يكن، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما رأيت قومًا خيرًا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما سألوا إلا عن ثلاث عشرة مسألة حتى قبض، كلهن في القرآن، وما كانوا يسألون إلا عما ينفعهم. وعن جابر رضي الله عنه قال: ما أنزل البلاء إلا كثرة السؤال، ويكره عند أحمد السؤال عما لا ينفع السائل، ويترك ما ينفعه ويحتاجه، وأن العامي يسأل عما ابتلي به، وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾[١]، واحتج به الشافعي على كراهة السؤال عن الشيء قبل وقوعه)[٢].

ثالثًا- من فقه الداعية: مراعاة الأولويات وحال السائل:

إن الأعمال المطلوبة من المسلم ليست كلها على درجة واحدة في الإلزام، ولذا فمن فقه الداعية مراعاة الأولويات وحال السائل، وهذا يظهر من قول النبي صلى الله عليه وسلم: "وتصل الرحم" وذلك بعد أن ذكر التوحيد وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وهذا من حصافة الداعية، قال ابن علان: (وخص الرحم بالذكر لقربها من السائل، أو نظرًا لحاله، كأنه كان قاطعًا لها، فأمر بصلتها لأنها المهم بالنسبة إليه، وعطف الصلاة وما بعدها على العبادة من عطف الخاص على العام)[٣]، ومراعاة الأولويات من أهم صفات الداعية: "إن الداعية لا ينجح في دعوته، ولا يكون موفقًا في تبليغه حتى يعرف من يدعوهم وكيف يدعوهم؟ وماذا يقدم معهم وماذا يؤخر؟ وما القضايا التي يعطيها أهمية وأولوية قبل غيرها، وما الأفكار الضرورية التي يطرحها ويبدأ بها، فالداعية يبدأ بالأهم ثم المهم، فيبدأ بالعقيدة قبل العبادة، وبالكليات قبل الجزئيات"[٤]، والداعية الذي يفعل

---

(١) سورة المائدة، آية: ١٠١.

(٢) الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ٢/٧٢ - ٧٣.

(٣) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٥٣٤.

(٤) كيف يدعو الداعية، عبدالله ناصح علوان ص ٤٧ - ٤٨.

هذا يضمن لدعوته النجاح، "لقد سئل النبي ﷺ عن النصيحة والوصية من بعض أصحابه فاختلفت إجاباته، وما ذلك الاختلاف في الجواب إلا مراعاة منه ﷺ للأحوال الخاصة بالمدعوين، واكتشاف حاجة كل واحد منهم والجانب القاصر عنده، والأمر اللائق به فأوصى كل واحد بما يناسبه"(١).

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل التوحيد والعبادة:

إن من أعظم نعم الله على العبد نعمة التوحيد والهداية إليه، ولأجل التوحيد أرسل الله رسله وأنزل كتبه، وقد جعله الرسول ﷺ في مقدمة الأمور التي ينبغي على العبد أن يقوم بها، ويظهر هذا في قوله ﷺ: (تعبد الله ولا تشرك به شيئًا) ومما لا شك فيه فضل التوحيد والعبادة، فهي أول المطلوبات من المسلم، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾(٢)، وقال سبحانه: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾(٣)، واشترط لنيل الثواب والدرجات إخلاص العبادة لله، قال جلّ شأنه: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾(٤)، وأخبر أن فطرة التوحيد هي التي خلق عليها الناس، قال تعالى: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾(٥).

"ولا إله إلا الله"، هي كلمة التوحيد التي اتفقت عليها كلمة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، بل هي خلاصة دعواتهم وزبدة رسالاتهم، وما من رسول منهم إلا جعلها مفتتح أمره، وقطب رحاه، ودلالة هذه الكلمة على التوحيد باعتبار اشتمالها على النفي والإثبات المقتضي للحصر، وهو أبلغ من الإثبات المجرد؛ كقولنا: "الله

---

(١) مقومات الداعية الناجح، د. علي بن عمر بادحدح ص ١٣٥.

(٢) سورة البينة، آية: ٥.

(٣) سورة الإخلاص، الآيات: ١ - ٤.

(٤) سورة الكهف، آية: ١١٠.

(٥) سورة الروم، آية: ٣٠.

واحد"، مثلاً فهي تدل بصدرها على نفي الإلهية عما سوى الله تعالى، وتدل بعجزها على إثبات الإلهية له وحده، وأما العبادة فهي الحكمة التي خلق الله الخلق لأجلها كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (١)، فكمال المخلوق في تحقيق تلك الغاية، وكلما ازداد العبد تحقيقًا للعبودية ازداد كماله وعلت درجته (٢).

خامسًا- من موضوعات الدعوة: فضل الصلاة والزكاة:

إن الصلاة والزكاة من أركان الإسلام، ولأهميتها كثيرًا ما قرن القرآن بينهما، وفي الحديث قرن النبي ﷺ بينهما جريًا على عادة القرآن الكريم، ويظهر ذلك في قول النبي ﷺ: (وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة)، وقد دلت نصوص الشرع على أهمية إقامة الصلاة، قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ (٣).

وأمر الله بالمحافظة عليها فقال سبحانه: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ (٤)، وجعل من صفات المؤمنين ما جاء في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ (٥).

ومن صفات عباد الرحمن ما وصفهم به سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ (٦).

وحذر من التكاسل عن أدائها فقال سبحانه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ (٧).

---

(١) سورة الذاريات، آية: ٥٦.

(٢) شرح العقيدة الواسطية لابن تيمية، محمد خليل هراس ص ٨٨ - ٨٩.

(٣) سورة البقرة، آية: ٤٣.

(٤) سورة البقرة، آية: ٢٣٨.

(٥) سورة المؤمنون، آية: ٢.

(٦) سورة الفرقان، آية: ٦٤.

(٧) سورة الماعون، الآيتان: ٤ - ٥.

وأمر بإقامتها فقال سبحانه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾[1]، وقال: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾[2].

والصلاة هي النور الذي يربط المسلم بالله، والنور الذي يمشي به في الناس، فعن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: ((... والصَّلاةُ نُورٌ...))[3].

وأما الزكاة فقد كثر في القرآن اقترانها بالصلاة، ولقد أمر الله بإخراجها، فقال سبحانه: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾[4].

وحدد مصارفها فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾[5].

ووعد بالأجر العظيم لمن يؤديها فقال جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[6].

سادسًا- من موضوعات الدعوة: فضل صلة الرحم:

إن المسلم رقيق القلب، لين الطبع، شفيق على ذوي رحمه وأقاربه، وأولى الناس برحمته ورقته وشفقته هم ذوو رحمه، فينبغي أن يحرص المسلم على صلة الرحم، وقد جاء في الحديث: "وتصل الرحم"، وقد وصف الله المؤمنين بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾[7]، وحذر الله من

---

(١) سورة هود، آية: ١١٤.

(٢) سورة الإسراء، آية: ٧٨.

(٣) أخرجه مسلم ٢٢٣.

(٤) سورة الأنعام، آية: ١٤١.

(٥) سورة التوبة، آية: ٦٠.

(٦) سورة البقرة، آية: ٢٧٧.

(٧) سورة الرعد، آية: ٢١.

قطيعتها، فقال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾[(١)].

وفي فضل صلة الرحم جاء عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((مَن سَرَّهُ أن يُبسَطَ لهُ في رِزقهِ أو يُنْسَأَ لهُ في أثَرِهِ فليَصِل رحِمَه))[(٢)]، قال ابن عثيمين: (وصلة الرحم أن تؤتيهم حقهم بالصلة حسب ما يتعارف الناس، فما عدَّه الناس صلة فهو صلة، وما لم يعدوه صلة فليس بصلة، إلا إذا كان الإنسان في مجتمع لا يبالون بالقربات، ولا يهتمون بها، فالعبرة بالصلة نفسها المعتبرة شرعًا)[(٣)].

ولأهمية صلة الرحم أرشد الله سبحانه وتعالى إلى أهمية مقابلة الإساءة بالحسنى لتستمر صلة الأرحام بين المسلمين، قال الله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[(٤)]، قال ابن حجر الهيتمي: (وهذه الآية اشتملت على أنفع الأدوية لإزالة العداوة بل وتليها صداقة، وهي الدفع بالتي هي أحسن، وجماعه أن توصل إليه ما قدرت عليه من خير وتودد وتتحمل ما يصدر عنه في حقك، فإذا فعلت ذلك لم يبق لك عدو من أهل ولا من غيرهم. وبعد أن علمت هذا الدواء الذي لا أنفع منه، فلا عذر لك في مقاطعة قريب أو بعيد، وما أحسن ما قيل:

ولم أر في عيوب الناس عيبًا كنقص القادرين على الكمال

فحيث رزقك الله فطنة، وعملاً معيشًا، ودراية ولطفًا، وحسن خلق، فلا تضيع ذلك كله بوقوفك مع نفسك وحظك وهواك، بل المطلوب منك أن توصل إليه من الحب والتودد ما يقلب بغضه محبة، وعداوته صداقة)[(٥)].

---

(١) سورة محمد، الآيتان: ٢٢ - ٢٣.

(٢) أخرجه البخاري ٢٠٦٧.

(٣) شرح رياض الصالحين ١/٧٠٢.

(٤) سورة فصلت، آية: ٣٤.

(٥) أسنى المطالب في صلة الأقارب ١٧٧.

الحديث رقم (٣٣٢)

٣٣٢- وعن سلمان بن عامر رضي الله عنه ، عن النَّبيِّ ﷺ ، قَالَ: ((**إِذَا أفْطَرَ أحَدُكُمْ، فَلْيُفْطِرْ عَلَى تَمْرٍ؛ فَإنَّهُ بَرَكَةٌ، فَإنْ لَمْ يَجِدْ تَمْرًا، فالمَاءُ؛ فَإنَّهُ طَهُورٌ**))، وَقَالَ: ((**الصَّدَقَةُ عَلَى المِسكينِ صَدَقَةٌ، وعَلَى ذِي الرَّحِمِ ثِنْتَانِ: صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ**)) رواه الترمذيُّ[1] ، وَقَالَ: (حديث حسن).

ترجمة الراوي:

سلمان بن عامر الضبي: وهو سلمان بن عامر بن أوس بن حجر من بني ضبة الضبي، كان في حياة النبي ﷺ شيخًا، وكان ممن سكن البصرة، وكان له بها دار قرب الجامع.

روى له الجماعة سوى الإمام مسلم، وكان ممن نزل البصرة.

أما عن وفاته فقيل إنه مات في خلافة عمر، وقيل في خلافة عثمان، وقال الدولابيُّ: قُتِلَ يوم الجمل وهو ابن مائة سنة، وقال ابن حجر في الإصابة: الأصح أنه عاش إلى خلافة معاوية[2].

الشرح الأدبي

أسلوب الحديث خبري ساقه النبي ﷺ دون مؤكدات في بدايته لأنه تأسيس لسنة من سننه في أمر يستطيعه أكثر الناس، وقد وضع البديل لمن لا يستطيع حتى يحظى الجميع بالأجر، وقد جاء في أسلوب الشرط المؤذن بقوة الاتصال بين الشرط، والجزاء

---

(١) برقم (٦٥٨). وصحّحه أبو حاتم الرازي كما في العلل لابنه (٦٨٧)، وابن خزيمة (٢٠٦٧)، وابن حبان (الإحسان ٣٥١٥)، وقال الحاكم (٤٣٢/١): هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه. وأورده المنذري في ترغيبه (١٥٩٣).

(٢) الطبقات الكبرى، ابن سعد (٨٠/٧)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر (٢٩٣، ٢٩٤)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٥٠٩/٢، ٥١٠)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي (٥٢١)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين (٢٣٨/٣)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٦٨/٢)، والسندي (١٦٣/٢٦).

يربط الإفطار بكونه على تمر كلما استجد إفطار استجده على تمر، وقد علل للأمر الذي جاء في جواب الشرط بجملة(فَإِنَّهُ بَرَكَةٌ)، ولفظ البركة يحمل ترغيباً في الفعل، وقد أكد الجملة بعدة مؤكدات لتحقق الإقناع، واستخدام (إذا) في الشرط يوحي بتحقق الوقوع، وقوله (فإن لَمْ يَجِدْ تَمْراً، فالمَاءُ؛ فَإِنَّهُ طَهُورٌ) من الملاحظ في صياغة أسلوب الشرط في هذه الجملة أن أداة الشرط هي (إن) التي تدل على عدم تحقق الوقوع، لأن عدم إيجاد التمر في مدينة تعتمد عليه في غذائها أمر مستبعد، وفعل الشرط منفي، وجواب الشرط محذوف تقديره فليفطر على الماء، والجملة التعليلية (فَإِنَّهُ طَهُورٌ) مؤكدة بأكثر من مؤكد، والتعبير بالطهور ترغيب فيه، واستخدام صيغة المبالغة يصعّده، وقوله (الصَّدَقَةُ عَلَى المِسكِينِ صَدَقَةٌ، وعَلَى ذِي الرَّحِمِ ثِنْتَانِ: صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ) فيه ترغيب في الصدقة عموماً، وبيان لأفضلية الصدقة على ذي الرحم خصوصاً، وقوله(وعَلَى ذِي الرَّحِمِ ثِنْتَانِ: صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ) جاء في صورة التوشيع بذكر المثنى (ثنتان) ثم تفصيله، (صدقة، وصلة) وقيمة هذا الأسلوب تتمثل في توكيد المعنى بذكره مجملاً ثم مفصلاً مع ما يفيده من تشويق للمعنى بإجماله ثم تفصيله.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكمين فقهيين:

الأول: فضيلة مهمة تتعلق بالصيام وهي ما يفطر عليه المسلم، وقد ذكر الفقهاء[1] أنه يسن للصائم عند فطره أن يفطر على رطبات، فإن لم يجد فعلى تمرات اقتداء بالنبي ﷺ، فإن لم يجد أفطر على حسوات من ماء.

(١) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود شرح الطيبي ١٠٥/٢، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم النفراوي ٣٠٥/١، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٤١٩/١، وتحفة المحتاج ٤٢١/٣، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٥٥/٣، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٣٣٢/٢، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، الشوكاني ٢٦١/٤، وسبل السلام، الصنعاني ٥٦٤/١.

الثاني: فضل التصدق على الغير وخاصة القريب، وقد سبق الكلام عنه في الحديث رقم (٣٢٦).

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الشرط والأمر.

ثانيًا: من واجبات الداعية: بيان علة الحكم الشرعي إن وجد.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل التمر.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل الصدقة وصلة الرحم.

أولاً- من أساليب الدعوة: الشرط، والأمر:

١- الشرط: ويظهر هذا من قول النبي ﷺ "إذا أفطر" والشرط أسلوب من أساليب الدعوة التي تلفت انتباه المدعوين من خلال الربط بين الشرط وجوابه.

٢- الأمر: ويتضح هذا من قول النبي ﷺ "فليفطر" والأمر من أساليب الدعوة حيث يبين للمدعو أهمية المأمور به وفضله، وهو من أساليب القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ ﴾[(١)] وقال جلّ شأنه: ﴿ حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ ﴾[(٢)]، وقال سبحانه: ﴿ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا ﴾[(٣)]، وعلى الداعية استخدام هذا الأسلوب مع المدعوين لبيان أهمية المأمور به.

ثانيًا- من واجبات الداعية: بيان علة الحكم الشرعي إن وجد:

يظهر هذا من قول النبي ﷺ "فإنه بركة"، "فإنه طهور" فليس كل الناس على درجة واحدة من الإيمان، ومن الاقتناع، ومن هنا كان من واجبات الداعية بيان علة الحكم الشرعي إن وجد، حتى يقتنع المدعو بما يؤمر به. قال الطيبي: ("قوله فإنه بركة" أي فإن في الإفطار على التمر ثوابًا كثيرًا، ولإرادة الثواب وبركته علل الماء

(١) سورة النحل، آية: ١٢٥.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٣٨.

(٣) سورة الأنعام، آية: ١٤.

بالطهورية؛ لأنه مزيل للمانع من أداء العبادة، ولهذا منَّ الله تعالى على عباده بقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾(١))(٢).

والناظر في القرآن الكريم يجد الربط بين الحكم الشرعي وعلته، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾(٣) وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾(٤) وقوله جلّ شأنه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(٥) وقوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾(٦).

قال د. يوسف القرضاوي: (ينبغي على الداعية أن يقتدي بالقرآن والسنة في تعليل الأحكام، وبيان حكمها وثمراتها في الأنفس والحياة، وربطها بالفلسفة العامة للإسلام حتى تقع من النفس موقع القبول، والقرآن الكريم كثيرًا ما يذكر الحكم والمنافع من وراء العبادات ذاتها، مع أن الأصل فيها التعبد والامتثال لأمر الله تعالى، فإذا كان هذا في الأمور التعبدية فكيف بغيرها من المعاملات وشؤون الحياة؟ فهذا مطلوب في كل حين، ولكن طلبه في عصرنا ألزم، والحاجة إليه أوكد، لأن كثيرًا من الناس لم يعد يغلب عليهم التسليم، وإنما يغلب عليهم البحث والتساؤل لمعرفة الأسرار والعلل، ورحم الله امرأً عرف زمانه، وخاطب أهله بما يعرفون، ومما يجب على الداعية في تعليله للأحكام أن يحذر المبالغة في ذلك؛ لأن الحقيقة الكبرى والتي يجب التنبيه عليها، أن العبادات مطلوبة طلب الغايات والمقاصد، لا طلب الأدوات والوسائل،

---

(١) سورة الفرقان، آية: ٤٨.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ١٥٤/٤..

(٣) سورة الإسراء، آية: ٣٢.

(٤) سورة المائدة، آية: ٩٠.

(٥) سورة البقرة، آية: ١٨٣.

(٦) سورة النور، آية: ٣٠.

فهي مرادة لذاتها بغض النظر عما وراءها من منافع وثمرات، بل هي الغاية من خلق المكلفين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[١]، فالمبالغة في هذا الجانب قد تؤدي ببعض الناس إلى أن يقول: إذا كان هدف العبادات تربية الضمائر، وتزكية الأنفس، وتقويم الأخلاق. فعندنا وسائل أخرى توصلنا إلى هذا الهدف. وقد يقول بعض آخر ما قاله بعض الفلاسفة من قبل، ومن المحذورات الواجب أخذها في الاعتبار، التعليل بأمر غير جامع ولا مانع، مثال ذلك: تعليل تحريم لحم الخنزير بأنه يأكل القاذورات، فقد يُردُّ بأن هذا لا ينطبق إلا على الخنازير السيئة التغذية، أما الخنازير التي تربى في حظائر خاصة، ويشرف عليها مختصون يعنون بأمرها، فلا يتعلق معها هذا التعليل...، ولهذا لا يجوز للداعية المجازفة بالتعليل في مثل هذه الأمور، ما لم يكن تعليلاً ثابتًا محكمًا مطردًا في كل الأحوال، تقوم عليه الأدلة العلمية الناصعة، التي لا مطعن فيها. وإلا فحسب الداعية أن يقول: إن الله لا يحل إلا طيبًا، ولم يحرم إلا خبيثًا، ولم يشرع إلا لحكمة، علمها من علمها، وجهلها من جهلها، وعدم العلم بها لا ينفي وجودها، وأخيرًا ينبغي التنبيه على عدم الاقتصار على التعليلات المادية، كالقول إن الصلاة لها حكمة على تمرين الجسم على الرياضة والحركة، وإن الصيام بغية إراحة المعدة شهرًا في كل عام، وأن الحج رحلة كشفية، للتدريب على احتمال المشاق، وجهل من قال ذلك، لأن هذه التعليلات تفتح عليهم أبوابًا لا يقدرون على إغلاقها، كقول أحدهم: إني أستطيع أن أمرن جسمي رياضيًا بغير الصلاة، وكقول آخر: إني قادر على إراحة معدتي بغير الصيام، وكقول ثالث: إني أقوم برحلات كشفية أتدرب فيها على المشقة)[٢].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل التمر:

إن من فضل الله على عباده أنه وضع لهم البركة في الأطعمة التي توجد لدى الغني والفقير، ومن تلك الأطعمة: التمر، حيث جاء في الحديث "فليفطر على تمر فإنه بركة"

---

(١) سورة الذاريات، آية: ٥٦.

(٢) ثقافة الداعية ٨٣ -٨٩ باختصار.

قال المباركفوري: (أي ذو بركة وخير كثير أو أريد به المبالغة)[١] هذا وقد وردت الأحاديث الصحاح في فضل التمر، فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((مَن تَصبَّح كلَّ يومٍ سبعَ تمراتٍ عَجوةً لم يَضرَّه في ذلك اليومُ سُمٌّ وَلاَ سِحْرٌ))[٢].

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: ((بَيْتٌ لاَ تَمْرَ فِيهِ، جِيَاعٌ أَهْلُهُ))[٣].

وثبت عنه ﷺ أنه أكل التمر بالزبد، وأكل التمر بالخبز، وأكله مفردًا، فعن جابر رضي الله عنه قال: ((حدثني سُلَيْمُ بنُ عَامِرٍ عن ابْنَيْ بُسْرٍ السُّلَمِيَّيْنِ، قالاَ: دَخَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَدَّمْنَا زُبْدًا وَتَمْرًا، وَكَانَ يُحِبُّ الزُّبْدَ وَالتَّمْرَ))[٤].

قال ابن القيم: (والتمر مقو للكبد، ملين للطبع، يزيد في الباءة ولاسيما مع حب الصنوبر، ويبرئ من خشونة الحلق، وهو من أكثر الثمار تغذية للبدن بما فيه: من الجوهر الحار الرطب، وأكله على الريق يقتل الدود، وهو فاكهة وغذاء، ودواء وشراب وحلوى)[٥].

ومما لا شك فيه "أن التمر يمد بني الإنسان بالغذاء الضروري ويشبعهم، فلا يحتاجون إلى غيره، ولذلك كان هو الطعام الذي لا غيره في بيت رسول الله ﷺ لأشهر، فالتمر غذاء يكفي الإنسان في حياته، لأنه يحتوي على أكثر ما يحتاجه الإنسان من المواد الغذائية، كما أن هناك معادن كثيرة موجودة في التمر حتى أطلق عليه اسم "منجم" ولعل هذا هو ما يفسر بقاء رسول الله ﷺ وأهله بدون طعام غير التمر والماء"[٦].

---

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري ٨٩٢/١.

(٢) أخرجه البخاري ٥٤٤٥، ومسلم ٢٠٤٧.

(٣) أخرجه مسلم ٢٠٤٦.

(٤) أخرجه أبو داود ٣٨٣٧، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٢٤٤).

(٥) الطب النبوي، ابن القيم ٢٢٤.

(٦) الإعجاز العلمي في السنة النبوية، د. صالح بن أحمد رضا ٢٨٦/١، ٢٨٧.

قال د. زغلول النجار: (والتمر من ثمرات النخيل يعد غذاءً كاملاً تقريبًا لاحتوائه على أغلب العناصر التي يحتاجها جسم الإنسان، ولذا يصفه تبارك وتعالى بقوله: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا...﴾[(١)].

فالتمر يحتوي على مواد سكرية، وكربوهيدراتية، وبروتينية، ودهنية وعلى عدد من العناصر المهمة، والفيتامينات الضرورية لحياة الإنسان، وقد أثبتت التحاليل الكيمائية أن التمر الجاف يحتوي على ٧٠,٦٪ من الكربوهيدرات، ٢,٥٪ من الدهون، ١,٣٢٪ من الأملاح المعدنية التي تشمل مركبات كل من الكالسيوم، والحديد والفوسفور، والمغنيسيوم، والبوتاسيوم، والنحاس، والمنجنيز، والكوبلت، والزنك وغيرها، ١٠٪ من الألياف، بالإضافة إلى فيتامينات تشمل فيتامين أ، ب (١)، ب (٢)، ج، وإلى نسب متفاوتة من السكريات والبروتينات.

وللتمر فوائد طبية كثيرة فهو غذاء مهم للخلايا العصبية، وطارد للسموم، ومفيد في حالات الفشل الكلوي، والمرارة، وارتفاع ضغط الدم، والبواسير، والنقرس، وهو ملين طبيعي، ومقو للسمع، ومنبه لحركة الرحم، ومقو لعضلاته مما ييسر عملية الولادة الطبيعية، ومن هنا كانت الإشارة القرآنية إلى السيدة مريم البتول وهي تضع نبي الله عيسى عليهما السلام بقول الحق تبارك وتعالى لها: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ۝٢٥ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا﴾[(٢)].

ويعجب كل قارئ لهذه الأحاديث الشريفة، لما تحتويه من علم صحيح، لم تصل إليه مدارك الإنسان إلا منذ سنوات قليلة، ونطق به المصطفى ﷺ من قبل ألف وأربعمائة من السنين، مؤكدًا على صدق نبوته، وصدق رسالته، وصدق اتصاله بوحي السماء الذي وصف بقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[(٣)])[(٤)].

---

(١) سورة النحل، آية: ٦٧.

(٢) سورة مريم، الآيتان: ٢٥ - ٢٦.

(٣) سورة النجم، الآيتان: ٣ - ٤.

(٤) الإعجاز العلمي في السنة النبوية، د. زغلول النجار ١/٥٥ - ٥٧ بتصرف.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل الصدقة وصلة الرحم:

إن أولى الناس بصدقة المسلم هم ذوو قرابته، ولذا كان المتصدق عليهم له أجران ويتضح هذا من قوله ﷺ "الصدقة على المسكين صدقة وعلى ذي الرحم ثنتان صدقة وصلة" وقد جاء في فضل الصدقة الكثير من النصوص الشرعية، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾[1] وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((سَبعةٌ يُظِلُّهم اللهُ في ظِلِّهِ يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ: الإمامُ العادِلُ، وَشابٌّ نَشأَ في عِبادةِ ربِّه، ورجلٌ قلبُه مُعَلَّقٌ في المساجد، وَرجُلانِ تَحابّا في اللهِ اجتَمَعا عليهِ وتَفرَّقا عليه، ورجلٌ طَلَبَتْهُ امرأةٌ ذاتُ مَنصِبٍ وجمال فقال: إني أخافُ اللهَ، ورجلُ تَصدَّقَ أخفى حتى لا تَعلمَ شِمالُه ما تُنفِقُ يمينُه ورجلٌ ذكرَ الله خاليًا ففاضت عيناه))[2].

ولاشك أن أفضل الصدقة ما كانت على القريب، فعن حكيم بن حزام أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن الصدقات أيها أفضل؟ قال: ((عَلَى ذِي الرَّحِمِ الكاشِحِ))[3]، وفي فضل صلة الرحم قال ﷺ: ((لَيسَ الواصلُ بالمُكَافِىء، ولَكِنَّ الواصلَ مَنْ إذَا قَطَعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا))[4] وعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: ((الرَّحِمُ مُتَعَلِّقَةٌ بالْعَرْشِ تَقُولُ: مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللَّهُ، وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللَّهُ))[5] وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((ومن كان يؤمن باللهِ واليومِ الآخر فلْيَصِلْ رَحِمَه))[6] وعلى الدعاة إلى الله استحضار هذه النصوص والمعاني، وتذكير المدعوين بها فإنها من موضوعات الدعوة المهمة.

---

(١) سورة الحديد، آية: ١٨.

(٢) أخرجه البخاري ٦٦٠، ومسلم ١٠٣١.

(٣) أخرجه أحمد ٢٠٢/٣ رقم ١٥٣٢٠، وقال محققو المسند: حديث صحيح وإسناده ضعيف، ٣٦/٢٤.

(٤) أخرجه البخاري ٥٩٩١.

(٥) أخرجه البخاري ٥٩٨٩، ومسلم ٢٥٥٥.

(٦) أخرجه البخاري ٦١٣٦، ومسلم ٤٨.

الحديث رقم (٣٣٣)

٣٣٣- وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قَالَ: كَانَتْ تَحْتِي امْرَأَةٌ، وَكُنْتُ أحِبُّهَا، وَكَانَ عُمَرُ يَكْرَهُهَا، فَقَالَ لي: طَلِّقْهَا، فَأبَيْتُ، فَأتَى عُمَرُ رضي الله عنه النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم، فَذَكَرَ ذلِكَ لَهُ، فَقَالَ النَّبيّ صلى الله عليه وسلم: ((طَلِّقْهَا)). رواه أَبُو داود والترمذيُّ[1]، وَقَالَ: (حديث حسن صحيح).

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

الشرح الأدبي

الحديث يتناول معنى طاعة الوالدين والمدى الذي يمكن أن تصل إليه انقياداً لما يرضي الله تعالى بسبب رضا الوالدين، يروي الحديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه وهو أحد طرفي الحوار، ويبدأ بمقدمة خالية من المؤكدات لأنه يحكي قصة خاصة به لا يتوقع أن يعترضها معترض، وقوله: (كَانَتْ تَحْتِي امْرَأَةٌ، وَكُنْتُ أحِبُّهَا، وَكَانَ عُمَرُ يَكْرَهُهَا) فعل الكينونة الماضي يقرر أن الأحداث سابقة الوقوع محققة الوجود، وقوله (تحتي امرأة) كناية عن القوامة، والسيطرة، والطباق بين (أحبها، يكرهها) يشير إلى المفارقة في المشاعر التي سببت التباين في الموقفين بين رغبته فيها، ورغبة أبيه في طلاقها، كما أن استخدام المضارع (أحبها - يكرهها) يشير إلى استمرارية التناقض الذي صعَّد المسألة إلى الحكم الفصل، وقول النبي: (طَلِّقْهَا) يؤكد ضرورة طاعة الوالدين، وإن كان على غير رغبة الأبناء.

---

(١) أخرجه أبو داود (٥١٣٨) واللفظ له، والترمذي (١١٨٩). وصحّحه ابن حبان (الإحسان ٤٢٦)، وقال الحاكم (١٩٧/٢): هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. أورده المنذري في ترغيبه (٣٦٥٨).

فقه الحديث

حكم طاعة الوالد في تطليق الزوجة:

سأل رجل الإمام أحمد فقال: إن أبي يأمرني أن أطلق امرأتي، قال: لا تطلقها. قال: أليس عمر رضي الله عنه أمر ابنه عبدالله أن يطلق امرأته؟ قال: حتى يكون أبوك مثل عمر رضي الله عنه. يعني لا تطلقها بأمره، حتى يصير مثل عمر في تحريه الحق والعدل، وعدم اتباع هواه في مثل هذا الأمر.

واختيار أبو بكر من الحنابلة أنه يجب، لأمر النبي صلى الله عليه وسلم لابن عمر رضي الله عنهما.

وقال ابن تيمية فيمن تأمره أمه بطلاق امرأته. قال: لا يحل له أن يطلقها. بل عليه أن يبرها وليس تطليق امرأته من برها[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الأمر.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على تحكيم النبي صلى الله عليه وسلم فيما شجر بينهم.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: عظم حق الآباء.

رابعًا: من مهام الداعية: الإفتاء في المسائل الشرعية.

أولاً- من أساليب الدعوة: الأمر:

حيث جاء في الحديث "طلقها" ومما لاشك فيه أن الأمر أسلوب من أساليب الدعوة، وهو يدل على أهمية المأمور به، والأمر إذا كان من الأعلى للأدنى، فهو أمر صريح، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾[2] وإذا كان من الأدنى للأعلى فهو دعاء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى

---

(١) الآداب الشرعية والمنح المرعية، لابن مفلح المقدسي الحنبلي، ٥٠٢/١، والزواجر، ابن حجر الهيتمي، ٧٢/٢، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٧٠/٨-٧٢.

(٢) سورة البقرة، آية: ٤٣.

﴿ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[(١)] وإذا كان من المساوي للمساوي، فهو التماس، ومنه ما يأتي من أمر شخص لآخر مساوٍ له في الدرجة والمنزلة.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة ﷺ على تحكيم النبي ﷺ فيما شجر بينهم:

إن الرسول الكريم ﷺ هو مرجع المسلمين فيما يعرض لهم من أمور ومشكلات، ولذا كان الصحابة ﷺ يتحاكمون إليه فيما يعرض لهم، ويتضح هذا من الحديث في قوله "فأتى عمر النبي ﷺ فذكر ذلك له".

وقد دلت نصوص القرآن الكريم على وجوب طاعته ﷺ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾[(٢)] وجعل الله طاعة نبيه من طاعته فقال جلّ شأنه: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[(٣)] وأمرنا بالاستجابة له فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[(٤)] ودعت إلى التزام أمره ونهيه فقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾[(٥)] وربطت الآيات بين الإيمان بالله والاحتكام إليه ﷺ فقال سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾[(٦)].

وأمام هذه النصوص كان لدى الصحابة الكرام ﷺ الحرص الكامل على الاحتكام إلى رسول الله ﷺ في أي أمر من أمورهم، ولقد حذر الله من مخالفة أمر

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٨٦.

(٢) سورة محمد، آية: ٣٣.

(٣) سورة النساء، آية: ٨٠.

(٤) سورة الأنفال، آية: ٢٤.

(٥) سورة الحشر، آية: ٧.

(٦) سورة النساء، آية: ٦٥.

نبيه فقال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(١) وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾(٢).

وبلغ من شدة حرص الصحابة رضي الله عنهم على الاحتكام إليه ﷺ واتباع أمره ماجاء عن كعب بن علقمة عن بلال بن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: ((سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ: لاَ تَمْنَعُوا نِسَاءَكُمُ الْمَسَاجِدَ إِذَا اسْتَأْذَنَّكُمْ إِلَيْهَا». قَالَ فَقَالَ بِلاَلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: وَاللَّه لَنَمْنَعُهُنَّ، قَالَ فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ فَسَبَّهُ سَبًّا سَيِّئًا، مَا سَمِعْتُهُ سَبَّهُ مِثْلَهُ قَطُّ وَقَالَ: أُخْبِرُكَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ، وَتَقُولُ: وَاللَّه لَنَمْنَعُهُنَّ))(٣).

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: عظم حق الآباء:

إن الآباء قاموا بتربية أبنائهم صغار ورعايتهم كبارًا ومن ثمَّ جعل الإسلام للآباء منزلة ومكانة كبيرة، وأوجب على الأبناء طاعتهم والتزام قولهم، وقد دل هذا الحديث على عظم حق الآباء، فقد جاء فيه "كانت تحتي امرأة وكنت أحبها وكان عمر يكرهها فقال لي طلقها". وكان أول من أمر ابنه بطلاق امرأته: إبراهيم الخليل عليه السلام، ومن بر الابن لأبيه: أن يكره ما كرهه أبوه، وإن كان محبًا له، وأن يحب ما أحب أبوه وإن كان كارهًا له، هذا إذا كان الأب من أهل الدين يحب في الله، ويبغض في الله، ولم يكن ذا هوى، فإن لم يكن كذلك استحب له فراقها لإرضائه، ولم يجب عليه كالحالة الأولى، لأن طاعة الأب في الحق من طاعة الله(٤). هذا وقد دلت الكثير من النصوص على عظم حق الآباء على الأبناء، ولا أدل على ذلك من حوار إبراهيم عليه السلام مع

(١) سورة النور، آية: ٦٣.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٣٦.

(٣) أخرجه مسلم ٤٤٢.

(٤) مختصر سنن أبي داود، المنذري ٣٥/٨.

أبيه كما جاء في قوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾[١] وكان جواب إبراهيم عليه السلام مع أبيه مراعيًا أدب الخطاب معه كما جاء في قوله سبحانه: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾[٢] ويظهر أيضًا من حوار إسماعيل عليه السلام مع أبيه لما قال له: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾[٣] كان جواب إسماعيل عليه السلام ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[٤].

ولقد جاء في الحديث النبوي ما يدل على عظم حق الآباء، ومن ذلك ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لاَ يَجْزِي وَلَدٌ وَالِدًا إلاَّ أَنْ يَجِدَهُ مَمْلُوكًا فَيَشْتَرِيَهُ فَيُعْتِقَهُ))[٥]، وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((رِضاَ الرَّبِّ في رِضَا الْوَالِدِ وسَخَطُ الرَّبِّ في سَخَطِ الْوَالِدِ))[٦] وعن أبي الدرداء قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (الوالد أوسط أبواب الجنة فإن شئت فأَضِعْ ذلك الباب أو احفظه)[٧].

وأخرج الإمام السيوطي في الدر المنثور قال: (أخرج عبدالرزاق في المصنف عن الحسن أنه سئل: ما بر الوالدين؟ قال: أن تبذل لهما ما ملكت، وأن تطيعهما فيما أمراك به، إلا أن يكون معصية)[٨].

وعن طاووس قال: (إن من السنة أن نوقر أربعة، العالم وذو الشيبة، والسلطان، والوالد قال: ويقال إن من الجفاء أن يدعو الرجل والده باسمه)[٩] ولعظم حق الأب جاء

---

(١) سورة مريم، آية: ٤٦.

(٢) سورة مريم، آية: ٤٧.

(٣) سورة الصافات، آية: ١٠٢.

(٤) سورة الصافات، آية: ١٠٢.

(٥) أخرجه مسلم ١٥١٠.

(٦) أخرجه الترمذي ١٨٩٩، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٥٤٩).

(٧) أخرجه الترمذي ١٩١٠، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٥٤٨).

(٨) الدر المنثور، السيوطي ٢٨٩/٩.

(٩) المرجع السابق نفسه ٣٠٧/٩.

عن عبدالله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إِنَّ أَبَرَّ الْبِرِ أَنْ يَصِلَ الرَّجُلُ أَهْلَ وُد أَبِيهِ بَعْدَ أَنْ يُوَلِّيَ الأَبُ))(١).

رابعًا- من مهام الداعية: الإفتاء في المسائل الشرعية:

إن الداعية يخالط المدعوين ويجالسهم، ومن ثم يلتمسون منه معرفة الحكم الشرعي فيما يعرض لهم من أمور، وواجب الداعية في هذه الحالة أن يبين لهم، ويفتيهم بحكم الشرع طالما أنه يعرف الجواب. ويستنبط هذا من الحديث، أن النبي ﷺ لما احتكموا إليه أفتاهم. وقيام الداعية بواجبه في الإفتاء، يقطع التنازع الذي قد يحدث بين الناس، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يقطع الطريق على من يتصدر للإفتاء وهو ليس من أهله، فعن عبدالله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: ((إِنَّ اللَّهَ لاَ يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ النَّاسِ. وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ. حَتَّى إِذَا لَمْ يَتْرُكْ عَالِمًا، اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَّالاً، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ. فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا))(٢).

وبتصدر الداعية لواجبه في الإفتاء في المسائل الشرعية، يخرج من إثم كتمان العلم ففي الحديث عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: ((مَنْ سُئِلَ عن عِلْمٍ عَلِمَهُ ثم كَتَمَهُ أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ))(٣).

ويجب على الداعية عند الفتوى أن يستصحب النصوص الشرعية التي تؤيد فتواه قال ابن القيم: (وينبغي للمفتي أن يفتي بلفظ النص مهما أمكنه، فإنه يتضمن الحكم والدليل مع البيان التام، فهو حكم مضمون له الصواب، متضمن الدليل عليه في أحسن بيان، وقول الفقيه المعين ليس كذلك. وقد كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ والتابعون والأئمة الذين سلكوا منهجهم يتحرون ذلك غاية التحري، فإن ألفاظ النصوص عصمة وحجة بريئة من الخطأ والتناقض والتعقيد والاضطراب، ولما كانت هي عصمة وعهدة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأصولهم التي إليها يرجعون، كانت علومهم أصح من علوم من بعدهم،

---

(١) أخرجه مسلم ٢٥٥٢.

(٢) أخرجه الترمذي ٢٦٥٢، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢١٣٦).

(٣) أخرجه الترمذي ٢٦٤٩، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢١٣٥).

وخطؤهم فيما اختلفوا فيه أقل من خطأ من بعدهم، ثم التابعون بالنسبة إلى من بعدهم كذلك. ولما استحكم هجران النصوص عند أكثر أهل الأهواء والبدع، كانت علومهم في مسائلهم وأدلتهم في غاية الفساد والاضطراب والتناقض)[1].

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، تحقيق: رائد صبري بن أبي علفة ٤/ ١٧٠.

الحديث رقم (٣٣٤)

٣٣٤- وعن أَبي الدرداءِ رضي الله عنه: أن رجلاً أتاه، قَالَ: إنّ لي امرأةً وإنّ أُمِّي تَأمُرُنِي بطَلاقِهَا؟ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُول الله ﷺ، يقول: ((**الوَالِدُ أوْسَطُ أبْوَابِ الجَنَّةِ، فَإنْ شِئْتَ، فَأَضِعْ ذلِكَ البَابَ، أَو احْفَظْهُ**)) رواه الترمذيُّ[1]، وَقَالَ: ((حديث حسن صحيح)).

ترجمة الراوي:

أبو الدرداء: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٧٢).

الشرح الأدبي

الحديث في فضل طاعة الوالدين يقرر وجوب احترام رغبات الوالدين، وإن تعارضت مع رغبة الأبناء، ويروي الحديث أبو الدرداء رضي الله عنه وهو أحد شخصيات القصة وقد بدأ بأسلوب التوكيد فيما يروي على لسان السائل وقوله (إنّ لي امرأةً وإنّ أُمِّي تَأمُرُنِي بطَلاقِهَا ؟) حيث أكد الكلام بـ(إن)مع اسمية الجملة وتقديم خبر إن (لي) على اسمها والذي أفاد الاختصاص ودلَّ على أنها زوجته، ثم أكد الجملة المقابلة لها في المسألة (وإنّ أُمِّي تَأمُرُنِي بطَلاقِهَا ؟) دلالة على العزيمة على الأمر وظاهر كلامه أنه يستفتي أو يستفهم لذلك جاء رد أبي الدرداء بقوله (سَمِعْتُ رَسُول الله ﷺ، يقول) وقوله سمعت يفيد تأكيد ما ينقل، وكون السماع من رسول الله دلالة على أن ما يأتي بعده تشريع، وقول الرسول ﷺ (الوَالِدُ أوْسَطُ أبْوَابِ الجَنَّةِ) (ال) في الوالد للعهد أي الوالد المعهود لكل ولد، وعبر بالوسط (أوسط) لأنه أعدل الجهات، وفيه دلالة على التمكن، وجمع الأبواب فيه دلالة على السعة ومعنى العبارة أن الوالد سَبَب لِدُخُولِ الْوَلَد مِنْ أَحْسَن أَبْوَاب الْجَنَّة أو من خَيْرهَا، وقوله: (فَأَضِعْ) مِنْ الإِضَاعَة وَلَيْسَ الْمُرَاد التَّخْيِير بَيْن الأَمْرَيْنِ بَلْ الْمُرَاد التَّوْبِيخ عَلَى الإِضَاعَة وَالْحَثّ عَلَى الْحِفْظ، والمعنى أن أحسن ما يتوسل به إلى دخول الجنة ويتوصل به إلى، وصول درجتها العالية مطاوعة الوالد، ومراعاة جانبه، وإذا

---

(١) برقم (١٩٠٠) وقال: حديث صحيحٌ. وصحّحه ابن حبان (الإحسان ٤٢٥)، وقال الحاكم (١٩٧/٢): هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. أورده المنذري في ترغيبه (٣٦٥٧).

كان حكم الوالد هذا فحكم الوالدة أقوى، وبالاعتبار أولى فإن شئت فحافظ على الباب أي داوم على تحصيله، أو ضيع حصول الباب بترك المحافظة عليه.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد، والإخبار، والاستشهاد بالسنة النبوية، والسؤال والجواب.

ثانيًا: من واجبات المدعو: السؤال عما خفي عليه.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: عظم حق الوالدين.

أولاً- من أساليب الدعوة: التوكيد، الإخبار، الاستشهاد بالسنة النبوية، السؤال والجواب:

١- التوكيد: حيث جاء في الحديث "إن لي امرأة" "وإن أمي تأمرني" ولاشك أن التوكيد يفيد في بيان المعنى وإقراره في ذهن السامع، حيث يؤكد هذا الرجل لأبي الدرداء أن له امرأة، ويؤكد أيضًا أن أمه تأمره بطلاقها، كل ذلك ليعرف حكم الشرع في ذلك.

٢- الإخبار: حيث أخبر النبي ﷺ بقوله: "الوالد أوسط أبواب الجنة" وتأتي أهمية الإخبار كأسلوب من أساليب الدعوة، باعتبار أن أخبار القرآن والسنة الصحيحة كلها صادقة والنبي ﷺ هو المعصوم وما ينطق عن الهوى، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[1] وبهذا يتوجب على الدعاة إلى الله أن يتحروا في أخبارهم الصدق.

٣- الاستشهاد بالسنة النبوية: يتضح هذا في الحديث من قول أبي الدرداء لما أتاه رجل وقال: إن لي امرأة وإن أمي تأمرني بطلاقها؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول..." وساق الحديث، وما من شك أن السنة تمثل المصدر الثاني من مصادر الدعوة إلى الله، فهي الشارحة للقرآن المبينة له، المفصلة لما أجمل، ومن هنا كان من أساليب

(١) سورة النجم، آية: ٣، ٤.

الدعوة الاستشهاد بالسنة النبوية (إن السنة النبوية سجل حافل لحياته وجهاده عليه الصلاة والسلام في سبيل دعوته، وقد حوت من جوامع الكلم، وجواهر الحكم، وكنوز المعرفة، وأسرار الدين، ومكارم الأخلاق، وروائع التشريع، وخوالد التوجيه، ودقائق التربية، وشوامخ الموقف، وآيات البلاغة ثروة طائلة، فلا يستغني داعية يريد أن يحدث، أو يحاضر أو يخطب، أو يكتب عن الرجوع إلى هذا المصدر الغني)[1].

٤- أسلوب السؤال والجواب: حيث جاء في الحديث سؤال الرجل لأبي الدرداء وجوابه له، وما من شك أن أسلوب السؤال والجواب من أساليب الدعوة التي تمكن الداعية من البيان والإيضاح، وتجعل الحوار موصولاً بين الداعية والمدعو، وهو أسلوب يشد انتباه المدعو حين يكون متطلعًا لسماع الجواب.

ثانيًا- من واجبات المدعو: السؤال عما خفي عليه:

إن المسلم مطالب أن يسأل عما يخفى عليه من الأمور والأحكام، قال الله عز وجل: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[2] وبالتأمل في آيات القرآن نرى أن الله لم يستنكر سؤال الناس لرسول الله ﷺ فلقد تكرر لفظ "يسألونك" مرات عديدة في القرآن الكريم، وفي كل مرة يخبر الحقُّ سبحانه رسوله ﷺ بالجواب على هذه التساؤلات، فعلى الداعية أن يشجع المدعو على السؤال، ويدربه عليه، وهذا مشروط بأن يكون السؤال عما يفيد، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾[3].

قال السعدي رحمه الله: (ينهى الله عباده المؤمنين عن سؤال الأشياء، التي إذا بينت لهم ساءتهم وأحزنتهم، وذلك كسؤال بعض المسلمين لرسول الله ﷺ عن آبائهم، وعن حالهم في الجنة أو النار، فهذا ربما أنه لو بُيِّن للسائل لم يكن له فيه خير، كسؤالهم للأمور غير الواقعة. وكالسؤال الذي يترتب عليه تشديدات في الشرع، ربما أحرجت

---

(١) ثقافة الداعية، د. يوسف القرضاوي ص ٥٢.

(٢) سورة النحل، آية: ٤٣.

(٣) سورة المائدة، آية: ١٠١.

الأمة. وكالسؤال عما لا يغني، فهذه الأسئلة وما أشبهها هي المنهي عنها، وأما السؤال الذي لا يترتب عليه شيء من ذلك فهو مأمور به)[١].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: عظم حق الوالدين:

إن الإسلام يربي أتباعه على البر والوفاء خاصة مع الوالدين، ولذا حث الشرع على تعظيم حقهما، وشجع على برهما بالوعد بالجنة ويتضح هذا من قول النبي ﷺ "الوالد أوسط أبواب الجنة، فإن شئت فأضع ذلك الباب أو احفظه" قال المباركفوري: (قال القاضي عياض أي خير الأبواب وأعلاها، والمعنى أن أحسن ما يتوسل به إلى دخول الجنة، ويتوسل به إلى وصول درجتها العالية، مطاوعة الوالد ومراعاة جانبه، وقال غيره: إن للجنة أبوابًا وأحسنها دخولاً أوسطها، وإن سبب دخول ذلك الباب الأوسط، هو المحافظة على حقوق الوالد، وإذا كان حكم الوالد هذا، فحكم الوالدة أقوى وبالاعتبار أولى)[٢].

وقال ابن علان: (ولفظ الوالد في الحديث يشمل الأبوين وإن علوا، والمعنى أن بره مؤدٍ إلى دخول الجنة من أوسط أبوابها، وقال العاقولي: أحسن ما يتوصل به إلى دخول الجنة بر الوالدين)[٣].

وقد تكاثرت النصوص الشرعية في بيان عظم حق الوالدين ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾[٤] وأوصى بهما فقال جل شأنه: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًا﴾[٥] وقرن شكره بشكرهما فقال سبحانه: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾[٦] والآيات والأحاديث في هذا المعنى كثيرة، وجميعها يؤكد عظم حق الوالدين.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٢٠٨.

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري ١٦١٥/٢.

(٣) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٥٣٥، ٥٣٦.

(٤) سورة النساء، آية: ٣٦.

(٥) سورة الأحقاف، آية: ١٥.

(٦) سورة لقمان، آية: ١٤.

الحديث رقم (٣٣٥)

٣٣٥- وعن البراءِ بن عازب رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، عن النَّبيّ ﷺ، قَالَ: ((**الخَالةُ بِمَنْزِلَةِ الأُمِّ**)) رواه الترمذيُّ[1]، وَقالَ: (حديث حسن صحيح).

وفي الباب أحاديث كثيرة في الصحيح مشهورة، منها حديث أصحاب الغار[2]، وحديث جُرَيْجٍ[3] وقد سبقا، وأحاديث مشهورة في الصحيح حذفتها اخْتِصَارًا، ومن أهَمِّهَا: حَديث عَمْرو بن عَبَسَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الطَّويلُ المُشْتَمِلُ عَلَى جُمَلٍ كثيرةٍ مِنْ قَواعِدِ الإسْلامِ وآدَابِهِ وسَأَذْكُرُهُ بتَمَامِهِ إنْ شَاء اللهُ تعالى في باب الرَّجاءِ[4]، قال فيه:

دَخَلْتُ عَلَى النَّبي ﷺ بِمَكَّةَ يَعْني في أوَّلِ النُّبُوةِ فقلتُ له: مَا أنْتَ؟ قال: "نَبيٌّ" فقلت: وَمَا نَبِيٌّ؟ قال: "أرْسَلَنِي الله تعالى" فقلت: بأيِّ شَيْءٍ أرْسَلَك؟ قال: "أَرْسَلَنِي بِصِلَةِ الأرْحَامِ وَكَسْرِ الأَوْثَانِ وأنْ يُوَحَّدَ اللهُ لا يُشْرَكَ بِهِ شَيْء" وذَكَر تَمَامَ الحَديث؛ والله أعلم.

ترجمة الراوي:

البراء بن عازب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨٠).

الشرح الأدبي

الحديث من جملة الأحاديث التي تحافظ على تماسك المجتمع المسلم، وتعمق الصلات بين أفراده، وقد بني هذا الحديث على إيجاز القصر وهو تضمُّن العبارة القصيرة المعاني الكثيرة، وقوله (الخالة) اللام فيه للعهد وهي أخت الأم، بمنزلة الأم، تشبيه لها بها يوحي بالعطف عليها ورعايتها وبرها، كما يجعل هذا التشبيه أجر بر الخالة كأجر بر الأم، أو يقارب. والله أعلم.

---

(١) برقم (١٩٠٤) وقال: حديث صحيحٌ.

تنبيه: هذا الحديث رواه البخاري (٢٧٠٠) ضمن حديث طويل.

(٢) الحديث رقم (١٣).

(٣) الحديث رقم (٤٤٣).

(٤) الحديث رقم (٢٦٤) عن أبي هريرة.

فقه الحديث

وفي الحديث دليل على أن الخالة في الحضانة بمنزلة الأم، عند فقد الأم لأنها تقترب منها في الحنو، والشفقة، والاهتمام إلى ما يصلح الولد[(١)].

ولأنه قد ثبت بالإجماع أن الأم أقدم الحواضن، فمقتضى التشبيه تقديم الخالة على غيرها، وإلا كان التشبيه لغوًا[(٢)].

وذهب الشافعية، والهادوية إلى تقديم الأب على الخالة.

وذهب الشافعي[(٣)]، والهادوية[(٤)] إلى تقديم أم الأم، وأم الأب على الخالة.

وذهب الحنفية[(٥)] إلى تقديم الأخوات عليها.

وقد رجح صاحب نيل الأوطار[(٦)] وغيره[(٧)] تقديم الخالة بعد الأم للمعنى الذي سبق ذكره.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل بر الأم والخالة.

ثالثًا: من مهام الداعية: بيان الأحكام.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار:

حيث أخبر النبي ﷺ في هذا الحديث بأن الخالة بمنزلة الأم، لتُعلم تلك المنزلة التي تتبوأها الخالة والتي تقتضي وصلها وبرها.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٠٦/٧، وسبل السلام ٢٢٩/٣، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري ٢٦/٦.

(٢) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، الشوكاني ١٣٨/٧، والدراري المضية للشوكاني ٣٩٥/١.

(٣) مغني المحتاج، شمس الدين الخطيب ١٣٨/٧.

(٤) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، الشوكاني ١٣٨/٧.

(٥) المبسوط للسرخسي ٢١٠/٥، وشرح فتح القدير، ابن الهمام الحنفي ٣٦٩/٤.

(٦) ١٣٨/٧.

(٧) سبل السلام، الصنعاني ٢٢٩/٣، تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري ٢٦/٦.

ومما لاشك فيه أن الإخبار يمثل جانب البلاغ في الدعوة إلى الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ﴾(1) وبين القرآن الكريم أن مهمة الرسول البلاغ، قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾(2).

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل بر الأم والخالة:

إن الاعتراف بالفضل والجميل من خِلال المؤمن، ولا معنى أن يتنكر الإنسان لأقرب الناس إليه أمه أو خالته، وقد أفاضا عليه برًا وحبًا وحنانًا ولطفًا ورقةً ودفئًا، وفي هذا الحديث أرشد النبي ﷺ أتباعه إلى فضل بر الخالة لأنها بمنزلة الأم، حيث قال: "الخالة بمنزلة الأم" وهذا يدل على فضل بر الأم والخالة، قال ابن حجر: (والخالة بمنزلة الأم في هذا الحكم الخاص، لأنها تقرب منها في الحنو والشفقة، والاهتداء إلى ما يصلح الولد لما دل عليه السياق، وفي الحديث من الفوائد أيضًا تعظيم صلة الرحم، بحيث تقع المخاصمة بين الكبار في التوصل إليها)(3).

هذا وقد دلت النصوص الشرعية على فضل بر الأم والخالة، ففي القرآن الكريم جاء قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾(4) وقوله سبحانه: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗاۖ وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًاۚ﴾(5) وقال الله عز وجل عن نبيه يحيى عليه السلام ﴿وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ﴿١٣﴾ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا﴾(6)

---

(1) سورة المائدة، آية: ٦٧.

(2) سورة النور، آية: ٥٤.

(3) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٧٩/٧.

(4) سورة لقمان، آية:١٤.

(5) سورة الأحقاف، آية: ١٥.

(6) سورة مريم، آية: ١٣، ١٤.

وكان مما قاله عيسى عليه السلام لقومه ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾(١).

ومن الأحاديث التي تبين فضل بر الأم والأقارب ما جاء عن معاوية بن حيدة رضي الله عنه قال: ((قلت : «يا رسولَ الله، مَنْ أَبَرُّ؟ قال: أمَّكَ، قال: قلت: ثُمَّ مَنْ؟ قال: أُمَّكَ، قال: قلتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قال أُمكَ، قال: قلتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قال: ثُمَّ أَبَاكَ ثُمَّ الأَقْرَبَ فالأَقْرَبَ))(٢)، وإذا كان من أفضل البر بر الأقارب، فإن أولى الأقارب بالبر الخالة، فقد جاء في الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ((يا رسولَ الله إنِّي أَصَبْتُ ذَنْبًا عَظِيمًا فَهَلْ لِي تَوْبَةٌ؟ قَالَ هَلْ لَكَ مِن أُمٍّ؟ قالَ: لا، قال: هَلْ لَكَ مِنْ خَالَةٍ؟ قَالَ: نعم قال: فَبِرَّها))(٣)، قال المباركفوري: (وفي قوله إني أصبت ذنبًا عظيمًا يجوز أنه أراد عظيمًا عندي، لأن عصيان الله تعالى عظيم، وإن كان الذنب صغيرًا، ويجوز أن يكون ذنبه كان عظيمًا من الكبائر، وإن هذا النوع من البر يكون مكفرًا له، وكان مخصوصًا بذلك الرجل، علمه النبي صلى الله عليه وسلم من طريق الوحي، والمعنى أن صلة الرحم من جملة الحسنات التي يذهبن السيئات)(٤).

ومن أقوال الشعراء في هذا:

عليك ببر الوالدين كليهما	وبر ذوي القربى وبر الأباعد
ولا تصحبن إلا تقيًا مهذبًا	عفيفًا ذكيًا منجزًا للمواعد(٥)

ثالثًا- من مهام الداعية: بيان الأحكام:

إن من الأمور المهمة في مجال الدعوة أن يقوم الداعية ببيان الأحكام للمدعوين

---

(١) سورة مريم، آية: ٣٢.

(٢) أخرجه الترمذي ١٨٩٧، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٥٤٦).

(٣) أخرجه الترمذي ١٩٠٤، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٥٥٤).

(٤) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري ٢/١٦١٧.

(٥) موسوعة نضرة النعيم ٣/٧٧٩.

ويتضح هذا من بيان النبي ﷺ بقوله:"الخالة بمنزلة الأم" وما من شك أن من مهام الداعية الأولى بيان الأحكام والتعريف بها، ولقد كان هذا من الميثاق الذي أخذه الله على أهل الكتاب، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾[١] وكانت مهمة البيان مما أمر الله به نبيه ﷺ قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٢].

قال ابن كثير: ("وأنزلنا إليك الذكر" يعني القرآن "لتبين للناس ما نزل إليهم" من ربهم لعلمك بمعنى ما أنزل عليك، وحرصك عليه، واتباعك له، ولعلمنا بأنك أفضل الخلائق وسيد ولد آدم، فتفصّل لهم ما أجمل، وتبين لهم ما أشكل "ولعلهم يتفكرون" أي ينظرون لأنفسهم فيهتدون فيفوزون بالنجاة في الدارين)[٣].

(١) سورة آل عمران، آية: ١٨٧.

(٢) سورة النحل، آية: ٤٤.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٥٧٤/٤.

وفي الباب أحاديث كثيرة في الصحيح مشهورة؛ مِنْهَا حديث أصحاب الغار[١]، وحديث جُرَيْجٍ[٢] وقد سبقا، وأحاديث مشهورة في الصحيح حذفتها اختِصَارًا.

وَمِنْ أهَمِّهَا حديث:

الحديث رقم (٣٣٦)

٣٣٦- عَمْرو بن عَبسَة رضي الله عنه الطَّويلُ المُشْتَمِلُ عَلَى جُمَلٍ كَثيرةٍ مِنْ قَواعِدِ الإسْلامِ وآدابِهِ، وَسَأذْكُرُهُ بتَمَامِهِ إنْ شَاءَ اللّهُ تَعَالَى في: (باب الرَّجَاء)[٣]، قَالَ فِيهِ:

دَخَلْتُ عَلَى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم بمَكَّةَ - يَعْني: في أوَّلِ النُّبُوَّةِ- فقلتُ لَهُ: مَا أنْتَ؟ قَالَ: ((نَبيٌّ))، فَقُلْتُ: وَمَا نَبيٌّ؟ قَالَ: ((**أرْسَلَنِي اللهُ تَعَالَى**))، فقلت: بأيِّ شَيءٍ أرْسَلَكَ؟ قَالَ: ((**أرْسَلَنِي بِصِلَةِ الأرْحَامِ وَكَسْرِ الأَوثَانِ، وَأنْ يُوَحَّدَ اللهُ لاَ يُشْرَكَ بِهِ شَيء...**)) وَذَكَرَ تَمَامَ الحَدِيث[٤]. والله أعلم.

غريب الألفاظ:

الأوثان: جمع وَثَن: التمثال يُعبَد من دون الله تعالى، من خشب أو حجر أو نحاس أو غير ذلك[٥].

المضامين الدعوية[٦]

---

(١) تقدم برقم (١٢).

(٢) تقدم برقم (٢٥٩).

(٣) باب ٥١، حديث رقم (٤٣٨).

(٤) أخرجه مسلم (٢٩٤/٨٣٢).

(٥) الوسيط في (و ث ن).

(٦) سيأتي شرح المضامين الدعوية لهذا الحديث - ٣٣٦ - بتمامه في شرح الحديث رقم (٤٣٨) إن شاء الله تعالى.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

الإسلام لا يعرف الأنانية، وهو يدعو إلى تفاعل أفراد المجتمع فيما بينهم ويعتمد في ذلك على الجانب العاطفي والعقلي في نفس الوقت.

فالجانب العاطفي يتمثل في شعور الإنسان بحق والديه عليه وحق أقاربه وحق جيرانه... والجانب العقلي في ناتج التفكير العقلي والذي يحسم النتيجة لصالح هذه الدعوة. إن بري بآبائي أم أبنائي سيدفعهم إلى بري كذلك، وإن بري بأقاربي يعني أنهم سيكونون بررة بي، وإن بري بجيراني يعني مثل ذلك..

ومن أحاديث الباب نأخذ المضامين التربوية الآتية:

أولاً- بيان منزلة الوالدين وفضل برهما:

من القيم الإسلامية السامية التي حرصت التربية الإسلامية على غرسها في نفوس المسلمين: بر الوالدين؛ فالأب أساس الوجود، والأم هي التي تعبت وسهرت.

وهذه تعاليم الرسول ﷺ "تكشف عن سمو العلاقات ورفعة الارتباط الإنساني، فإذا قورنت بالفلسفات المادية والحضارة رأينا عجباً عجاباً؛ فما أكثر المتشردين من الآباء والأمهات في الحدائق العامة، مع شدة البرد وتراكم الثلوج في أوروبا، وأمثال هؤلاء: الذين تحتضنهم دور العجزة وملاجئ الشيخوخة"[1].

وقد كثرت أحاديث الحض على بر الوالدين في هذا الباب، وتنوعت، فمنها ما يكون سؤالاً من أحد الصحابة وجواباً من رسول الله، «جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: من أحق الناس ...»، وأقبل رجل إلى نبي الله ﷺ فقال: «أبايعك على الهجرة...».

ومن الأحاديث ما يكون توجيهاً مباشراً من رسول الله ﷺ إلى صحابته إلى بر الوالدين: «لاَ يَجْزِي وَلَدٌ وَالِداً ...».

وإذا نظرنا إلى الإسلام، فإننا نجد صورة راقية للتعامل مع الأبوين، تنأى بالمسلم عن

---

(١) التربية الروحية والاجتماعية في الإسلام، د. أكرم ضياء العمري ص ٢٣٨ بتصرف يسير.

مخاطبتهما بأبسط كلمات التضجر والاعتراض ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾[(١)].

ويزداد احتياج الأبوين إلى بر أولادهما عند كبرهم وضعفهم وارتدادهم إلى أرذل العمر، ولهذا فقد دعا رسول الله ﷺ على ذلك المنكود الذي يدرك أبويه عند الكبر ثم لا يدخل الجنة؛ لأنه أضاع فرصة طيبة لدخول الجنة... رغم أنفه... الحديث.

ثانياً- التربية بالعبادة:

فهي وسيلة لربط العبد بربه، ومما لذلك من أثر في شعوره بالطمأنينة التي ينشدها المربي الأول ﷺ تجاه أمته؛ فقد أجاب على سؤال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلى اللهِ قَالَ: الصَّلاةُ عَلى وَقْتِها»، مزية التقاء المسلمين ببعضهم وتناصحهم بالحق وتواصيهم بالخير، وتعاونهم على البر والتقوى، وتفقدهم أحوال بعضهم[(٢)].

هذا فضلاً عن فضل صلاة الجماعة التي تزداد فيها الحسنات، إضافة إلى الأجر العظيم على كل خطوة يخطوها الإنسان إلى المسجد يرفع بها درجة وتحط عنه خطيئة، ولذا حث النبي ﷺ على أداء الصلاة على وقتها.

ثالثاً- بيان الصلة بين الإيمان والسلوك:

إن السلوك الإنساني لا بد له من قوة تحركه، والسر في ذلك أن الإنسان يمتاز عن سائر الحيوانات الحية بأن حركاته وتصرفاته الاختيارية يتولى قيادتها شيء لا يقع عليه سمعه ولا بصره.. وإنما هو معنى إنساني روحاني اسمه الفكرة والعقيدة[(٣)].

ولهذا ربط النبي ﷺ بين الإيمان والعمل؛ وبحيث لا يقبل عمل بغير إيمان، فهو سابق لسائر الأعمال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ...».

فالإيمان دافع إلى العمل الصالح، ومحفز عليه، ولهذا حرص النبي ﷺ على تربية أصحابه على ربط سائر أفعالهم بالإيمان بالله وملائكته وكتبه واليوم الآخر.

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٢٣.

(٢) التربية الروحية والاجتماعية في الإسلام، د. أكرم ضياء العمري ص ٢١.

(٣) الإيمان والحياة، د. يوسف القرضاوي ص ٢٠٦.

رابعاً- من مصادر التربية الإسلامية: القرآن الكريم:

وقد عضَّد رسول الله ﷺ كلامه بالقرآن الكريم في قوله: «اقْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾[١]» لأن القرآن الكريم يعد الإطار المرجعي لسائر شئون المسلمين ومنبعاً رئيساً للفكر التربوي الإسلامي، تشتق منه التربية الإسلامية أهدافها[٢].

خامساً- التربية بالحوار والمناقشة والسؤال والجواب:

من أجل تحصيل المتعلم المعلومة من مربيه، فقد أفسح النبي ﷺ المجال لسؤالات أصحابه وأجاب عنها بحلم وسعة صدر؛ فهذا عبدالله بن مسعود رضي الله عنه يقول: «أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلى اللهِ؟ قَالَ: الصَّلاةُ عَلى وَقْتِها»، فسأله ثلاثة أسئلة في آن واحد، تعليماً وتربية، وقبولاً لطريقة صحابته في السؤال عما يريدون.

وطريقة المناقشة تتيح للمتعلم الفرصة كي يتحدث في موضوعات تهمه ومشاكل تشغله، وبذلك فهو يشعر بقيمة التعلم وأهميته في حياته، فيزداد إقباله عليه وتفاعله معه[٣].

سادساً- التربية بالقصة:

ومن أحاديث هذا الباب موقف أبي طلحة وقصته حين تصدق ببيرحاء، ولهذه القصة "تأثير عميق، تتركه في ذهن المستمع أو القارئ، وتتجاوز ذلك إلى التأثير في سلوكه وأفكاره"[٤].

حين يتعلم من موقف حياتي لأحد صحابة رسول الله ﷺ؛ فعن طريق المشاركة الوجدانية لأحداث القصة وشخصياتها يندمج المستمع أو القارئ مع جو القصة العاطفي، حتى يعيش بانفعالاته مع شخصياتها[٥].

---

(١) سورة محمد، آية: ٢٢.

(٢) أصول التربية الإسلامية، د. محمد شحات الخطيب وآخرون ص ٥١.

(٣) منهج التربية في التصور الإسلامي، د. علي أحمد مدكور ص ٤٥٩.

(٤) أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي ص ٣٨٩.

(٥) أصول التربية الإسلامية، عبدالرحمن النحلاوي ص ٢١٢.

سابعاً- التربية بالترهيب:

ولهذه الوسيلة التربوية أثرها الناجع في استئصال جذور العصيان من قلب المسلم؛ بخوفه من عاقبة عصيانه؛ يقول ﷺ مرهباً: «لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ»، أي: «قَاطِعَ رَحِمٍ».

وذلك الأسلوب يتماشى مع الطبيعة البشرية، ولا يستغنى عنه المربي في كل زمان ومكان، إذ لا يمكن أن تجدي التربية وتحقق أهدافها ما لم يعرف الإنسان نتائج مسرة أو مؤلمة وراء عمله وسلوكه، فإن عمل خيراً نال السرور والحلاوة، وإن عمل شراً ذاق الألم والمرارة(١).

ثامناً- من مهام المربي: تبيان الحقائق:

وهي مهمة كشف الأستار عن بصائر المتلقين؛ فكثيراً ما يسيء المسلم فهم القيمة، ويكون لذلك أثر على سلوكه المعيشي؛ فالمربي عليه دور مهم في توضيح قيم المجتمع لتلاميذه، وفي إزالة ما يعلق بفهم بعضها من غبار(٢).

وعندما ننظر إلى قوله ﷺ: «ليس الواصل بالمكافئ ...» تتضح أمامنا هذه المهمة التربوية التي أرادها النبي من تصحيح المفهوم الخاطئ لصلة الرحم، الذي ربما يتصوره بعض الناس، بأن صلة الرحم إنما هي مقايضة بين الأقارب، ولكن النبي سما بالناس خلقياً إلى درجة يعطون فيها، وإن لم يأخذوا.

تاسعاً- التربية على علو الهمة والتطلع إلى معالي الأمور:

وهذا ما امتاز به صحابة رسول الله ﷺ، فحرصوا على إصابة أعلى الدرجات، ومعرفة الأسباب الموصلة إليها، فكان سؤال الرجل للنبي ﷺ: «أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ...».

فعلو الهمة خلق رفيع وغاية نبيلة، تتعشقه النفوس الكريمة، وتهفو إليه الفطر القويمة، وهو من الأسر الأخلاقية الفاضلة، وإليه ترجع مجموعة من الظواهر الخلقية، كالجد في الأمور، والترفع عن الصغائر والدنايا، والطموح إلى معالي الأمور(٣).

---

(١) نحو تربية إسلامية، أحمد محمد جمال، نقلاً عن أصول التربية الإسلامية، د. سعيد القاضي ص ١٨٦.

(٢) المعلم، د. محمد عبدالعليم مرسي ص ٨٢.

(٣) الهمة العالية، محمد إبراهيم الحمد ص ١٠٧.

عاشرًا- التربية على معرفة مراتب الأعمال:

وهذا واضحٌ من حديث ابن مسعود رضي الله عنه الذي سأل فيه عن أحب العمل إلى الله؟ فأخبره النبي ﷺ أن أحب العمل إلى الله تعالى: الصلاة على وقتها. ثم سأل عما يليه من عمل فقال النبي ﷺ: بر الوالدين. فسأل عما يلي ذلك من عمل فقال: الجهاد في سبيل الله. ففي هذا الحديث تربية على أن يعرف الناشئة والكبار مراتب الأعمال ودرجاتها حتى يأتي أعلاها فأعلاها، ويقدم أهمها إذا حدث تزاحم أو تعارض فيما بينها ولم يكن هناك طريق للجمع بينها. وهذا لا يفيده في دينه فحسب بل في دنيا أيضًا، فمن رام السبق والتقدم على غيره وإحراز قصب السبق لا بد أن يكون من أصحاب الهمم العالية التي لا تتعلق ولا تأتي إلا معالي الأمور ولا تلتفت إلى سفاسفها وتوافهها.

حادي عشر- تنوع الأساليب التربوية:

في أحاديث الباب كثير من الأساليب التربوية التي يحسن بالمربين أن يستفيدوا منها، من ذلك:

أ-التشبيه وذلك واضح من قوله ﷺ "لئن كنت كما قلت فكأنما تسفهم الملّ" قال النووي: (أي كأنما تطعمهم الرماد الحار وهو تشبيه لما يلحقهم من الإثم بما يلحق آكل الرماد الحار من الألم)[1] ولا شك أن التشبيه يقرب المعاني المجردة ويوضحها بذكر معانٍ محسوسة لدى المخاطب يستطيع بها أن يفهم المراد أفضل فهم وأوضحه.

ب-المناقشة والحوار: وذلك واضح في كثير من أحاديث الباب، منها حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: أقبل رجل إلى نبي الله فقال: أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من الله تعالى. قال: فهل لك من والديك أحد حي؟ قال: نعم بل كلاهما. قال: فتبتغي الأجر من الله تعالى؟ قال: نعم قال: فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما".

وأسلوب الحوار والمناقشة من الأساليب التربوية المهمة، ففيه يتم تبادل الأفكار والآراء بين المتعلمين والمعلم بحرية، وذلك ضرورة لتعميق وإيضاح بعض المفاهيم

(١) رياض الصالحين ١٧١.

والموضوعات التي تحتاج إلى توضيح. فضلاً عن أنه أسلوب يوفر الفرصة للمتعلمين للتعبير عن أنفسهم، كما أنه ينقل العملية التعليمية من الاعتماد على المعلم وحده إلى المشاركة الإيجابية للمتعلم.

ج-أسلوب الاكتساب الموجه: وفيه يتم تزويد المتعلم ببعض المعلومات التي تكفي لحصولهم على خبرة مناسبة تضمن لهم النجاح في استخدام قدراتهم المتعلقة بأمر ما.

وفي حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما السابق حدث ذلك، فقد سأل النبي ﷺ الصحابي عن بعض المعلومات، ثم قام بعد ذلك بتوجيهه إلى الخير والصلاح له.

د-الوصية: وهذا في حديث النبي ﷺ: "ستفتحون مصر وهي أرض يسمى فيها القيراط، فاستوصوا بأهلها خيرًا، فإن لهم ذمة ورحمًا، وأسلوب التربية بالوصية من الأساليب شائعة الاستخدام في مواقف الحياة اليومية من مختلف الأطراف المعنية بعملية التربية، فالوالد يستخدمه مع أبنائه والمعلم يستخدمه مع طلابه، ويتميز هذا الأسلوب بقوة بقاء أثر التعلم في نفوس المتعلمين.

ثاني عشر- التربية على سؤال أهل العلم:

وهذا يتضح من عدة أحاديث بالباب منها: حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: قَدِمَتْ علي أمي وهي مشركة في عهد رسول الله ﷺ، فاستفتيت رسول الله .." وحديث زينب الثقفية امرأة عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قالت لزوجها: إن رسول الله ﷺ قد أمرنا بالصدقة فأته فاسأله، فإن كان ذلك يجزئ عني وإلا صرفتها إلى غيركم". فانطلقت فإذا امرأة من الأنصار بباب رسول الله ﷺ حاجتي حاجتها.

وفي ذلك توجيه لأهل التربية أن يربوا من يقوم بتربيتهم على سؤال أهل العلم، فيما يعرض لهم من أمورٍ وأحوالٍ حتى يعرفوا الحكم الصحيح لها.

ثالث عشر- التربية الغذائية:

وهذا يتضح في حديث: "إذا أفطر أحدكم فليفطر على تمر فإنه بركة، فإن لم يجد تمرًا فالماء فإنه طَهُور" فقد تضمن هذا الحديث التربية الغذائية من خلال بيان بعض أنواع الطعام والشراب التي يفطر عليها الصائم. وقد اكتشف العلم الحديث فوائد التمر الكثيرة للصائم خاصة ولغيره عامةً، فضلاً عن فوائد الماء التي اتفق عليها القاصي والداني.

٤١- باب تحريم العقوق وقطيعة الرحم

قَالَ اللَّه تَعَالَى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾[محمد: ٢٢-٢٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾[الرعد: ٢٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾[الإسراء: ٢٣-٢٤].

الحديث رقم (٣٣٧)

٣٣٧- وعن أَبي بكرة نُفَيع بن الحارث ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: ((**ألا أُنَبِّئُكُمْ بِأكْبَرِ الكَبَائِرِ؟**)) -ثلاثًا- قُلْنَا: بَلَى، يَا رَسُول الله، قَالَ: ((**الإشْرَاكُ بالله، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ**))، وكان مُتَّكِئًا فَجَلَسَ، فَقَالَ: ((**ألاَ وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ**)) فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ. مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[1].

ترجمة الراوي:

أبوبكرة الثقفي: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٩).

غريب الألفاظ:

الزور: الكذب والباطل والتهمة[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم (١٤٣/٨٧) والسياق للحميدي في جمعه (٣٦٤/١، رقم ٥٨٠). أورده المنذري في ترغيبه (٣٣٩١). وسيكرره المؤلف برقم (١٥٥٢).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ز و ر).

الشرح الأدبي

المتأمل لأسلوب الرسول ﷺ يجد أنه يتسم بالانفعال، والنبرة العالية التي تعكس خطر الأمر، وقد ضمَّن أسلوبه لتقويم الخطأ ألواناً بلاغية تحمل عناصر التنبيه والإيقاظ والإثارة والتشويق حتى يضمن متابعة المخاطب للخبر مع تمام يقظته واستشرافه وتركيزه وإنصاته واستخدم أفعالاً وصيغاً ترفع درجة الإحساس بالخطر الناجم عن الفعل مع ما حمله الحديث من حركات تعبيرية ساعدت على تجسيد المعنى وبيان خطر الشرك ،وخطر الزور.

من هذه الأساليب البلاغية: بداية الحديث بطرقة المستفتح (ألا) للتنبيه، وإثارة المخاطب، وتدل على تحقق ما بعدها. وقوله: (ألا أنبئكم) صعَّد هذا التنبيه، وزاد المخاطب تشويقاً؛ لأن مادة الفعل (أنبئكم) تعني الخبر العظيم.

وقد زاد التشويق درجة بعد درجة بأفعل التفضيل (أكبر) التي أعطت الخبر المنتظر في خيال المخاطب حجماً لا يلتفت معه إلى شيء حتى يعرف مضمونه، ثم رفع درجة التشويق أكثر بإضافة أفعل التفضيل لكلمة (الكبائر) فبلغ بها قمة الإثارة والتشويق وملك بها على المخاطبين أفهامهم وأسماعهم، ثم التكرار ثلاثاً لجملة البداية (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر)، وتكرار العبارة يؤكد المعنى، ويرفع درجة التشويق، والإثارة التي تهز الوجدان وتملك على المخاطب أقطار نفسه، ويصير درجة بعد درجة في قمة الترقب مما يربي المهابة ويضمن للخبر الثابت والفاعلية ،أضف إلى ذلك أن هذا الذي يكرر العبارة في قمة الوعي بمدلولها مع قمة الصدق فيها.

قوله: (الإشراك بالله...) حذف المسند إليه وهو (أكبر الكبائر) لدلالة الكلام السابق عليه، وقوله: (عقوق الوالدين) جملة معطوفة على ما قبلهما لوجود المناسبة وعدم المانع، وقوله: (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر...) ثم قوله: (الإشراك بالله وعقوق الوالدين...) تفصيل بعد إجمال أحدث تطلعاً وتشويقاً، وقول الصحابي: (وجلس وكان متكئا) جملة حالية تعكس الاهتمام والعناية وسبب الاهتمام بذلك، وتأكيد الحرمة كون الزور، أو شهادة الزور أسهل وقوعاً على الناس والتهاون بها أكثر؛ لأن الحوامل

عليه كثيرة: كالعداوة والحقد والحسد... وغير ذلك، فاحتيج إلى الاهتمام بتعظيمه، والشرك مفسدته قاصرة، ومفسدة الزور متعدية، أما عن انعكاس هذا الفعل على المخاطبين فإن هذا الجلوس المفاجئ من الاتكاء يثير الدهشة، ويربط المخاطب بالمتكلم بحاسة البصر بعد حاسة السمع مما يزيد الخبر تمكناً في النفس وثباتاً مع الزمن؛ لأن هيئته ﷺ بين يدي حديثه غاضباً جارهاً بالصوت محمر الوجه مشيراً بيديه في انتفاضة تنذر بالعذاب تنطبع في الذهن مع انطباع المعنى مما يحقق - مع دوامها وثباتها - دوام وثبات تأثيرها كلما استدعاها موقف كما تلقّاها لحظة الحديث، وهذا التأثير هو الذي مكّن الصحابي من نقل الموقف بكل دقائقه.

وقوله: (ألا وقول الزور) و(ألا) كلمة تنبيه وتحضيض لضبط ما يقال وفهمه على وجهه، والزور في الأصل الانحراف وفي الاستعمال هو تمويه الباطل بما يوهم أنه حق؛ وإنما كرره بهذا الوجه؛ لأن الدواعي إليه كثيرة وأسهل وقوعاً على الناس، والشرك ينبو عنه المسلم، وعقوق الوالدين ينبو عنه الطبع، وتكرار قوله: (ألا وقول الزور) بعد اتكائه ثم جلوسه المفاجئ يعكس اهتمامه الشديد بتبليغ الخبر بحجمه الذي يشعر به للمخاطبين وتعظيمه لخطر هذا الفعل وغفلة الناس عنه لذا سبقها بعمل يقسر الانتباه، وبأداة تساوق العمل في مغزاه.

وتجد أثر العبارة، ومدى ما وصل إليه معنى الحديث في أغوار النفوس وما أحدث في وجدانهم تجد ذلك في تعبير الصحابي في قوله: (فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت) حيث عبر بالفعل المضارع الذي يدل على الاستمرار مع استحضاره للصورة في قوله (يكررها) وقبله بالفعل الذي يدل على الاستمرارية (ما زال) بدلالته، ثم استخدامه لـ (حتى) التي تدل على أن الأمر بلغ غايته ثم استخدامه للفعل (قلنا) متصلاً بناء الفاعلين إشارة إلى عموم الإحساس بمدى الانفعال الذي كان فيه الرسول ﷺ حتى أشفق الجميع عليه من شدة تأثره. الأمر الذي انطبع في وجدان المخاطبين، وأحدث هذا التجاوب، وقولهم: (ليته سكت) التي جعلت سكوته من طول ما كرر أمراً متمنى بعيداً حتى استخدموا (ليت) التي تستخدم في تمني البعيد، والمستحيل لشدة انفعاله وتأثره.

المضامين الدعوية[1]

أولاً: من أساليب الدعوة: الاستفهام، والترهيب، والتكرار.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الترهيب من الشرك.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الترهيب من عقوق الوالدين.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: الترهيب من قول وشهادة الزور.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: حب الصحابة وشفقتهم على النبي ﷺ.

سادسًا: من أساليب الدعوة: لفت الانتباه.

سابعًا: من موضوعات الدعوة: الترهيب من قتل النفس.

ثامنًا: من موضوعات الدعوة: الترهيب من اليمين الغموس.

أولاً- من أساليب الدعوة: الاستفهام، والترهيب، والتكرار:

لقد ورد أسلوب الاستفهام في الحديث في قوله ﷺ ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ وهو من الأساليب الدعوية المهمة التي يحصل بها لفت انتباه المدعوين واستحضار أذهانهم، أما بالنسبة للترهيب فإنه يقصد به (تخويف المدعو بالله تعالى وتحذيره من نزول عذابه، بغرض إبعاده عن المهالك المترتبة على كفره أو نفاقه أو شهواته المحرمة وعصيانه، تحقيقًا للسعادة في الدنيا والفوز في الآخرة)[2]، وقد ورد هذا الأسلوب الدعوي المهم في الحديث من قوله ﷺ: "أكبر الكبائر"، أما التكرار فقد ورد في الحديث من قوله ﷺ: "ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟"، ثلاثًا، والتكرار يعين الداعية على استحضار أذهان المدعوين، ولفت انتباههم لمعرفة الأمر المدعو إليه وبيان أهميته.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: الترهيب من الشرك:

إن الله عز وجل أرسل رسله، وأنزل كتبه،وخلق السماوات والأرض ليُعرف ويُعبد ويوحد ويكون الدين كله لله، والطاعة كلها له، والدعوة له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا

---

(١) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -٢٣٧- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (٢٣٨).

(٢) الترهيب في الدعوة في القرآن والسنة، د. رقية بنت نياز ص ٢٣.

خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[(٢)]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾[(٣)]، وقال تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[(٤)].

فأخبر سبحانه أن القصد بالخلق والأمر: أن يُعرف بأسمائه وصفاته، ويُعبد وحده لا يُشرك به، وأن يقوم الناس بالقسط، وهو العدل الذي قامت به السماوات والأرض، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾[(٥)].

فأخبر سبحانه أنه أرسل رسله عليهم السلام وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط وهو العدل، ومن أعظم القسط التوحيد، وهو رأس العدل وقوامه، وإن الشرك لظلم عظيم، فالشرك أظلم الظلم، والتوحيد أعدل العدل، فما كان أشد منافاة لهذا المقصود فهو أكبر الكبائر، وتفاوتها في درجاتها بحسب منافاتها له، وما كان أشد موافقة لهذا المقصود فهو أوجب الواجبات وأفرض الطاعات.

فتأمل هذا الأصل حق التأمل، واعتبر تفاصيله، تعرف به حكمة أحكم الحاكمين، وأعلم العالمين، فيما فرضه على عباده، وحرّمه عليهم، وتفاوت مراتب الطاعات والمعاصي.

---

(١) سورة الذاريات، آية: ٥٦.

(٢) سورة الحجر، آية: ٨٥.

(٣) سورة الطلاق، آية: ١٢.

(٤) سورة المائدة، آية: ٩٧.

(٥) سورة الحديد، آية: ٢٥.

فلما كان الشرك بالله منافيًا بالذات لهذا المقصود، كان من أكبر الكبائر على إطلاق[١].

وهذا ما بيّنه النبي ﷺ في الحديث من قوله: (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر)، ثم ذكر من ذلك: (الإشراك بالله) "وقد حرّم الله تعالى الجنة على كل مشرك..، وأبى الله سبحانه أن يقبل من مشرك عملاً، أو يقبل فيه شفاعة، أو يستجيب له في الآخرة دعوة، أو يقبل له فيها عثرة"[٢]، فهو القائل عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾[٣].

قال ابن كثير: (أي: إن الله لا يغفر لعبد لقيه وهو مشرك به، ويغفر تعالى ما عدا ذلك من الذنوب لمن يشاء)[٤]، (فالمشرك أجهل الجاهلين بالله، حيث جعل له في خلقه ندًا، وذلك غاية الجهل به، كما أنه غاية الظلم منه، وإن كان المشرك لم يظلم ربه، وإنما ظلم نفسه)[٥]، وهذا ما أكده الحق في قوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[٦].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: الترهيب من عقوق الوالدين:

إن برّ الوالدين من أوجب الواجبات، وأجل الطاعات، وأعظم القربات إلى إرضاء رب العباد، لذا قرنه سبحانه بعبادته، فقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى

(١) الداء والدواء ابن القيم ٢٢٨ - ٢٢٩.

(٢) المرجع السابق ٢٢٩.

(٣) سورة النساء، آية: ٤٨.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢/٣٢٥.

(٥) الداء والدواء، ابن القيم ص ٢٢٩.

(٦) سورة لقمان، آية: ١٣.

صَغِيرًا﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾[(٢)]، وقال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾[(٣)].

وقد عظم الحق تبارك وتعالى برّهما، وأوصى بالإحسان إليهما فقال: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[(٤)]، وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾[(٥)].

وهذا ما أكد عليه النبي ﷺ في قوله: ((إِنَّ اللهَ يُوْصِيْكُمْ بِأُمَّهَاتِكُمْ، ثم يُوْصِيْكُمْ بِآبَائِكُمْ، ثم يُوْصِيْكُمْ بِالأَقْرَبِ فالأَقْرَبِ))[(٦)]. لذا كانت مخالفة أمر الله تعالى ورسوله ﷺ في بر الوالدين من أعظم الجرائم وأكبر الكبائر، وهذا ما بينه النبي ﷺ في نص الحديث من قوله: ألا أنبئكم بأكبر الكبائر، ثم ذكر ﷺ عقوق الوالدين بعد الشرك بالله؛ ليؤكد ﷺ على عظم إثم من عقّ والديه، وقد رهب النبي ﷺ من ذلك فقال: (ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة" ثم ذكر ﷺ منهم ((العاقُّ لِوَالِدَيْهِ))[(٧)].

قال النووي: (ومعنى لا ينظر إليهم، أي: يعرض عنهم، ونظره سبحانه وتعالى لعباده رحمته ولطفه بهم)[(٨)].

---

(١) سورة الإسراء، الآيتان: ٢٣ – ٢٤.

(٢) سورة النساء، آية: ٣٦.

(٣) سورة الأنعام، آية: ١٥١.

(٤) سورة العنكبوت، آية: ٨.

(٥) سورة لقمان، آية: ١٤.

(٦) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٦٠، وصححه الألباني (صحيح الأدب المفرد ٤٤).

(٧) أخرجه النسائي ٢٥٦٢، وقال الألباني: حديث حسن صحيح (صحيح سنن النسائي ٢٤٠٢).

(٨) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٦١.

وقال ﷺ: ((رَغِمَ أَنْفُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ)) قِيلَ: مَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: ((مَنْ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ عِنْدَ الْكِبَرِ، أَحَدَهُمَا أَوْ كِلَيْهِمَا فَلَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ))(١).

قال النووي: (قوله ﷺ: "رغم أنف من أدرك أبويه عند الكبر أحدهما أو كليهما فلم يدخل الجنة"، قال أهل اللغة: معناه ذل. وقيل: كره وخزي وهو بفتح الغين وكسرها وهو الرغم بضم الراء وفتحها وكسرها، وأصله لصق أنفه بالرغام وهو تراب مختلط برمل.

وقيل: الرغم كل ما أصاب الأنف مما يؤذيه، وفيه الحث على بر الوالدين وعظم ثوابه. ومعناه أن برهما عند كبرهما وضعفهما بالخدمة أو النفقة أو غير ذلك، سبب لدخول الجنة، فمن قصر في ذلك فاته دخول الجنة وأرغم الله أنفه)(٢).

وفي ذلك بيان عظيم على جوب برّ الوالدين والترهيب الشديد من عقوقهما.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: الترهيب من قول وشهادة الزور:

ورد الترهيب من قول وشهادة الزور في هذا الحديث في قول الراوي: (وكان متكئًا فجلس فقال:"ألا وقول الزور وشهادة الزور فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت" قال ابن حجر: (قال القرطبي: إن شهاة الزور هي الشهادة بالكذب، ليتوصل بها إلى الباطل من إتلاف نفس، أو أخذ مال، أو تحليل حرام، أو تحريم حلال، فلا شيء من الكبائر أعظم ضررًا منها، ولا أكثر فسادًا بعد الشرك بالله)(٣).

وقال النووي: (وأما قوله: "فكان متكئًا فجلس"، فجلوسه ﷺ لاهتمامه بهذا الأمر، وهو يفيد تأكيد تحريمه وعظم قبحه)(٤).

وقد بيّن الحق تبارك وتعالى صفات عباده فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾(٥)

---

(١) أخرجه مسلم ٢٥٥١.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٣٢.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٢٦/١٠.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٤٩.

(٥) سورة الفرقان، آية: ٧٢.

قال القرطبي: (والزور كل باطل زُوّر وزخرف. وكان عمر بن الخطاب ﷺ يجلد شاهد الزور أربعين جلدة، ويسخم وجهه، ويحلق رأسه، ويطوف به في السوق. وقال أكثر أهل العلم: ولا تقبل له شهادة أبدًا، وإن تاب وحسن حاله فأمره إلى الله)[1]، وفي ذلك بيان عظيم على الترهيب من قول وشهادة الزور.

خامسًا- من موضوعات الدعوة: حب الصحابة وشفقتهم على النبي ﷺ:

إن من موضوعات الدعوة المستنبطة من هذا الحديث: حب الصحابة ﷺ وشفقتهم على النبي ﷺ، ويظهر ذلك فيما ورد في قول راوي الحديث: "فما يزال يكررها حتى قلنا ليته سكت"، قال ابن حجر: (أي تمنيناه يسكت إشفاقًا عليه لما رأوا من انزعاجه في ذلك)[2]، وقد كان الصحابة ﷺ يؤثرون حبه ﷺ على حبهم لأنفسهم، وفي ذلك قال عمر بن الخطاب ﷺ للعباس ﷺ: (أسلم فوالله لأن تسلم كان أحبَّ إلي من أن يسلم الخطاب، وما ذاك إلا ما رأيت رسول الله ﷺ يحبُّ أن يكون لك سبقًا، وفي رواية قال عمر بن الخطاب ﷺ لأَنَا بِإِسْلَامِكَ كُنْتُ أَسَرَّ مِني بإِسْلَامِ الْخَطَّابِ لَوْ أَسْلَمَ لِمَرْضَاةِ رَسُولِ اللَّهِ)[3]، وفي ذلك بيان عظيم على حب الصحابة ﷺ وإيثارهم لحبه ﷺ على حبهم لأنفسهم.

سادسًا- من أساليب الدعوة: لفت الانتباه:

هذا ما ورد في الحديث في قول الراوي -واصفًا النبي ﷺ- وكان متكئًا فجلس، ولفت الانتباه من الأساليب الدعوية التي يكون بها استحضار أذهان المدعوين لاستدراك أهمية الأمر المدعو إليه.

سابعًا- من موضوعات الدعوة: الترهيب من قتل النفس:

ورد الترهيب من قتل النفس في هذا الحديث في قوله ﷺ بعد ذكر الكبائر "وقتل النفس" ومما لاشك فيه أن قتل النفس من أكبر الكبائر، وفي ذلك قال تعالى:

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٧/١٢/٧٩-٨٠.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠/٤٢٥.

(٣) حياة الصحابة، الكاندهلوي ص ٤٥٥.

﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾[١].

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: (إنه لم يرد في أنواع الكبائر أعظم من هذاالوعيد، بل ولا مثله، ألا: هو الإخبار، بأن جزاءه جهنم. أي: فهذا الذنب العظيم، قد انتهض وحده، أن يجازى صاحبه بجهنم، بما فيها من العذاب العظيم، والخزي المهين، وسخط الجبار وفوات الفوز والفلاح، وحصول الخيبة والخسارة)[٢]، وفي ذلك قال ﷺ ((لن يزالَ المرءُ في فسْحةٍ من دينه ما لم يُصِبْ دمًا حرامًا))[٣].

قال ابن حجر: (قوله: "في فسحة" بضم الفاء وسكون المهملة وبحاء مهملة أي سعة.

قوله: "من دينه" كذا للأكثر بكسر المهملة من الدين، وفي رواية الكشميهني "من ذنبه" فمفهوم الأول أن يضيق عليه دينه، ففيه إشعار بالوغيد على قتل المؤمن متعمدا بما يتوعد به الكافر، ومفهوم الثاني أنه يصير في ضيق بسبب ذنبه، ففيه إشارة إلى استبعاد العفو عنه لاستمراره في الضيق المذكور، وقال ابن العربي: الفسحة في الدين سعة الأعمال الصالحة، حتى إذا جاء القتل ضاقت لأنها لا تفي بوزره، والفسحة في الذنب قبوله الغفران بالتوبة، حتى إذا جاء القتل ارتفع القبول، وحاصله أنه فسره على رأي ابن عمر في عدم قبول توبة القاتل)[٤].

وفي ذلك قال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (إنَّ من وَرْطاتِ الأمور التي لا مَخرجَ لِمَن أوقعَ نَفْسَه فيها سفكَ الدَّم الحرام بغير حِلِّه)[٥].

قال ابن العربي: (ثبت النهي عن قتل البهيمة بغير حق والوعيد في ذلك، فكيف بقتل الآدمي، فكيف بالتقي الصالح)[٦]. وفي ذلك بيان عظيم على الترهيب من قتل النفس.

---

(١) سورة النساء، آية: ٩٣.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ١٥٧.

(٣) البخاري، ٦٨٦٢.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٢/١٩٥.

(٥) أخرجه البخاري ٦٨٦٣.

(٦) فتح الباري، ابن حجر ١٢/١٩٦.

ثامنًا- من موضوعات الدعوة: الترهيب من اليمين الغموس:

لقد رهّب النبي ﷺ من اليمين الغموس في قوله ﷺ بعد ذكر "الكبائر" "واليمين الغموس" وهي اليمين الكاذبة التي تهضم بها الحقوق، أو التي يقصد بها الغش والخيانة، فصاحبها يحلف على الشيء وهو يعلم أنه كاذب، وهي كبيرة من الكبائر، ولا تنعقد هذه اليمين، ولا كفارة فيها؛ لأنها أعظم من أن تكفر، ولأنها يمين غير منعقدة، فلا توجب الكفارة كاللغو. وتجب التوبة منها، ورد الحقوق إلى أصحابها إذا ترتب عليها ضياع حقوق. وسميت هذه اليمين غموسًا لأنها تغمس صاحبها في الإثم، ثم في نار جهنم عياذًا بالله[1]، ودليل حرمتها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَـٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾[2] أي: (لا تتخذوا أيمانكم بينكم دخلاً وخديعة بينكم، تغرون بها الناس "فتزل قدم بعد ثبوتها" أي: فتهلكوا بعد أن كنتم من الهلاك آمنين)[3].

قال ابن حجر: (وقوله: "دخلاً مكرًا وخيانة" هو من تفسير قتادة وسعيد بن جبير أخرجه عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال: خيانة وغدرًا، وأخرجه ابن أبي حاتم من طريق سعيد بن جبير قال: يعني مكرًا وخديعة، وقال الفراء: يعني خيانة، وقال أبو عبيدة: الدخل كل أمر كان على فساد؛ وقال الطبري: معنى الآية لا تجعلوا أيمانكم التي تحلفون بها على أنكم توفون بالعهد لمن عاهدتموه دخلاً أي خديعة وغدرا ليطمئنوا إليكم وأنتم تضمرون لهم الغدر انتهى. ومناسبة ذكر هذه الآية لليمين الغموس ورود الوعيد على من حلف كاذبا متعمدا)[4].

---

(١) كتاب الفقه الميسر في ضوء الكتاب والسنة، إعداد: نخبة من العلماء ص ٣٨٨.

(٢) سورة النحل، آية: ٩٤.

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ١٤/٣٤٨.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١/٥٦٥.

الحديث رقم (٣٣٨)

٣٣٨- وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، عن النَّبيِّ ﷺ، قَالَ: ((**الكَبَائِرُ: الإِشْرَاكُ باللهِ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَاليَمِينُ الغَمُوسُ**)) رواه البخاري[1].

"اليَمِينُ الغَمُوسُ" التي يحلفها كاذبًا عامدًا، سميت غَمُوسًا، لأنها تَغْمِسُ الحَالِفَ في الإثم.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمرو بن العاص: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٤٢).

الشرح الأدبي

يتناول هذا الحديث عدداً من الذنوب لها صفات خاصة، وأثر خاص على الفرد والمجتمع أما وصفها فقد وصفت بأنها من الكبائر وأما تأثيرها فإنها تتعدى بضررها الفرد إلى الجمع، وقد ساق الرسول ﷺ المعنى في صورة خبرية تتميز بالتشويق، وإثارة الانتباه وذلك عن طريق ذكر اللفظ الموحي مسنداً إليه في قوله (الكبائر) وهو لفظ مثير لدلالته على جمع كبيرة، وهي الذنب العظيم، والصحابة رضوان الله عليهم كانوا شديدي الحرص على تجنب الصغائر، وقوله (الإشراك بالله...) فيه إيجاز بالحذف تقديره: هي كذا، وكذا، وتعلق الإشراك بالله يظهر مدى ما بلغه الفعل صعوداً في درج الذنوب، وتلاه بعقوق الوالدين لأن من هضم حق خالقه بعدم توحيده حري بأن يُقدَّم على من عق والديه ثم عق والديه اللذين كانا سبباً في إيجاده حري بأن يقدَّم على قتل النفس، وفيه قيد محذوف تقديره: دون حق لأن من قتل نفساً قصاصاً عادلاً لا يدخل في الوعيد، وأدرج القتل في الكبائر لتعديه على النفس التي حرم الله، ولذلك قُدِّم على اليمين الغموس، وسميت غموساً لأنها تغمس صاحبها في الذنوب، أو في النار، فترتيب ذكر هذه الكبائر من الأعلى للأدنى تقديماً للأهم على المهم.

---

(١) برقم (٦٦٧٥). أورده المنذري في ترغيبه (٢٧٣٥). وسيكرره المؤلف برقم (١٧١٦).

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكمين فقهيين: الأول: حكم قتل النفس بغير حق، وقد اتفق الفقهاء[١] على أنه يحرم قتل النفس بغير حق ولو كانت غير مسلمة، لأن نفس الإنسان لها عصمتها، والدماء لها حرمتها، فلا تسال بغير حق، ولا يجنى عليها بغير ذنب.

الثاني: حكم اليمين الغموس، وقد اتفق الفقهاء على أن اليمين الغموس هي اليمين التي يحلف بها صاحبها متعمدًا وهو يوقن أنه كاذب، سواء أكان حلفه على شيء ماض أم حاضر أم مستقبل، وسواء أكانت على النفي أم الإثبات، وسميت بذلك لأنها تغمس صاحبها في النار، وقد اختلف الفقهاء في حكم التكفير عن هذه اليمين على قولين:

القول الأول: ذهب الحنفية[٢] والمالكية[٣] والحنابلة في المذهب[٤] إلى أنها لا تكفر لكونها أكبر الإثم عند الله تعالى.

القول الثاني: ذهب الشافعية[٥] والإمام أحمد في رواية[٦] إلى أن الحالف بها يأثم ويكفر عنها كغيرها من الأيمان.

المضامين الدعوية[٧]

---

(١) المبسوط ٨٤/٢٧، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ٩٧/٦، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد المغربي ٢٣١/٦، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم النفراوي ١٧٨/٢، وتحفة المحتاج ٣٧٥/٨، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٢/٤ وما بعدها، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٢٥٣/٣، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٥٠٣/٥ وما بعدها.

(٢) المبسوط ١٢٧/٨، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود شرح الطيبي ٣/٣.

(٣) مواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد المغربي ٢٦٧/٣، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم النفراوي ٤١٢/١.

(٤) كشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي ٢٢٩/٦، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ٣٤٣/٦.

(٥) أسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٢٤٠/٤، وتحفة المحتاج ٥/١٠.

(٦) كشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي ٢٢٩/٦، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ٣٤٣/٦.

(٧) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (٣٣٩)

٣٣٩- وعنه أنَّ رَسُولَ الله ﷺ، قَالَ: ((مِنَ الكَبَائِرِ شَتْمُ الرَّجُلِ وَالِدَيْهِ!))، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، وَهَلْ يَشْتُمُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟! قَالَ: ((نَعَمْ، يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ، فَيَسُبُّ أباه، وَيَسُبُّ أُمَّهُ، فَيَسُبُّ أُمَّهُ)) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[1].

وفي رواية[2]: ((إنَّ مِنْ أكْبَرِ الكَبَائِرِ أنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ!))، قِيلَ: يَا رَسُول الله، كَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِديهِ؟! قَالَ: ((يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ، فَيَسُبُّ أباهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ، فَيَسُبُّ أُمَّهُ)).

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمرو بن العاص: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٣٨).

الشرح الأدبي

ونكتفي بالشرح الأدبي للرواية الثانية؛ لأنها استوعبت الرواية الأولى، وزادت عليها في بعض التراكيب بيّن الرسول ﷺ في هذا الحديث خطر السباب، أو التسبب فيه، وخاصة سباب الوالدين، أو التسبب فيه ويؤكد أن هذا الذنب من أعظم الذنوب تحذيراً منه، وبياناً لخطره، ولذلك استخدم الرسول ﷺ عدة أساليب بلاغية منها:

البداية بأسلوب التوكيد بإن مع اسمية الجملة مع أن المقام لخال الذهن تنزيلاً للمخاطبين منزلة المنكرين لما بدا عليهم من علامات التساهل في تبادل السباب والتهاون

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٦/٩٠).أورده المنذري في ترغيبه (٣٦٨٧).

(٢) أخرجها البخاري (٥٩٧٣)، والسياق للحميدي في جمعه. أورده المنذري في ترغيبه (٣٦٨٧).

تنبيه: أورد الحميدي هذا الحديث في جمعه (٤٣١/٣، رقم ٢٩٣١) في المتفق عليه، وقال: عن حميد بن عبد الرحمن، عن عبد الله بن عمرو، وساق اللفظ الأول، ثم قال: وفي رواية إبراهيم بن سعد مسندًا، ثمّ ذكر اللفظ الثاني، ففهم منه النووي، أن اللفظ الأول متفق عليه، وأن الثاني رواية أخرى لهذا الحديث، وليس الأمر كذلك، بل اللفظ الأول أخرجه مسلم، واللفظ الثاني أخرجه البخاري، وليس عند البخاري إلا في موضع واحد فقط.

وقع المنذري في ترغيبه، فيما وقع فيه المؤلف فاعتبر الرواية الأولى من المتفق عليه.

في تجنب أسبابه، مع ما يوجبه توكيد الخبر ابتداءً من عناية به واهتمامٍ بمضمونه، ثم التشويق بأفعل التفضيل في قوله: (إن من أكبر الكبائر) حيث بدأ الرسول ﷺ بتوكيد الخبر وسلط هذا التوكيد على صيغة (أفعل) التفضيل مرتقياً به قمة المعنى المراد ثم أضاف هذه الصيغة (أكبر) إلى لفظ (الكبائر) مرتقياً به درجة أعلى، وصلت بالمعنى إلى ذروة الخطايا فجعلت هذا الذنب من الكبائر ثم رفعته درجة بها صار أكبر هذه الكبائر، وأعظم الذنوب.

الطريف أنه لم يَذكر بَعْدُ هذا الكبير الذي فاق كل الكبائر الأمر الذي جعل المخاطب في قمة الترقب والتطلع لمعرفة كنه هذا الذنب خشية أن يكون ملماً به، واقعاً فيه، أو حتى لمجرد الاحتياط، والحذر منه، وهذا الأسلوب في التشويق والإثارة يمهد النفوس تماماً ويعدُّها لتلقي الخبر وهي في أتم يقظة وإدراك لعظم هذا الذنب، وخطره حتى إذا ما تلقته، وأدركته وقع منها موقعاً لا تتساه ولا تستهين به.

أضف إلى ذلك ذكره للخبر الغريب (أن يلعن الرجل والديه) لأن لعن الوالدين أمر مناف للفطرة مثير للعجب بعيد عن التصور - لا سيما - إن كان المخاطبون ثلة طاهرة من أصحاب الرسول ﷺ عَفَّة ألسنتهم نقيَّة قلوبهم، لذلك جاءت استفهامة الصحابي عفوية عجلى تعكس تحقيق الأسلوب لأغراضه بتحقيق الإثارة للذهن وتحقيق التشويق وإعداد المخاطب للخبر، وإشراكه في الحوار باستفهام التعجب والاستبعاد في قوله: (وكيف يلعن الرجل والديه؟) لأن الطبع المستقيم يأبى ذلك، وصياغة الفعل في صورته المضارعية في قوله: (يسب أبا الرجل...) لاستحضار الحالة الحوارية بين المتسابين، وتبادلهم للعنات. بغرض تقبيح الفعل والتنفير منه.

وتكرار الفعل عدة مرات: (يسب - فيسب - ويسب) ثلاث مرات، إحداهما ارتبطت بما قبلها بفاء السببية إشارة إلى أنه السبب في وقوع السب على والديه، وتكرار الفعل لجعله ملئ الأسماع، والأفهام وتقريره في الذهن، لأنه موضع الخطأ، ومحل التقويم، ومركز الحديث، والنص على ذكر الفعل في جانب الأم في قوله: (فيسب أباه ويسب أمه) مع إمكان الاستغناء عنه بما ذُكر في جانب الأب إشارة إلى

استقلالية الخطأ في حق كل منهما فسب الأب كبيرة منفردة، وسب الأم كبيرة أخرى بالإضافة إلى ما يؤكده من مضمون المعنى، وتقريره.

وقوله: (أن يلعن الرجل والديه) مجاز مرسل علاقته المسببية حيث أطلق المسبب، وهو لعن الرجل والديه، وأراد السبب، وهو سب الرَّجل لوالدي غيره، والتعبير بالمجاز هنا أفاد المبالغة في بيان خطر سب الآخرين، وجعله لعناً للوالدين بغرض التنفير منه، والتحذير من عاقبته، لأنه ينمي الكراهية وقطع أواصر المحبة، لذلك قاومه الرسول ﷺ بكل أشكاله[1]

فقه الحديث

في الحديث من الأحكام ما يأتي:

١- إن لعن الرجل والديه يعد من أكبر الكبائر[2]، وذلك لأنه فرد من أفراد العقوق، ولأنه إن كان التسبب إلى لعن الوالدين يعد من أكبر الكبائر، فالتصريح بلعنه أشد[3].

قال ابن تيمية: (فإذا كان النبي ﷺ قد جعل من الكبائر أن يسب الرجل أبا غيره لئلا يسب أباه، فكيف إذا هو سب أباه مباشرة؟!)[4].

٢- وفيه أن من آل فعله إلى محرم، فإنه يحرم عليه ذلك الفعل، حتى وإن لم يقصد إلى ما يحرم[5].

والأصل فيه قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا

---

(١) بلاغة الرسول ﷺ في تقويم أخطاء الناس دراسة في الصحيحين، د: ناصر راضي الزهري ص ٢٢٩.

(٢) تفسير القرطبي ٢٣٨/١٠، وإعانة الطالبين، عثمان بن محمد البكري ٢٨٢/٤، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٠٣/١٠، وسبل السلام، الصنعاني ١٦٦/٤.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٠٣/١٠.

(٤) كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في الفقه ٢٢٦/٢٤.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٠٤/١٠، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٨٨/٢، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥٩/٢، وسبل السلام، الصنعاني ١٦٦/٤.

بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[١]، وهي القاعدة المعروفة بسد الذرائع.

٣- وفيه دليل على أن من تسبب في شيء جاز أن ينسب إليه ذلك الشيء[٢].

٤- وفيه دليل على العمل بالغالب، لأن الذي يسب أبا الرجل، يجوز أن يسب الآخر أباه، ويجوز ألا يفعل، ولكن الغالب أن يجيبه بنحو قوله[٣].

٥- وفيه مراجعة الطالب لشيخه فيما يقوله مما يشكل عليه[٤].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الترهيب، والتوكيد.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الترهيب من سب الوالدين.

ثالثًا: من واجبات المدعو: الاستفهام عما أشكل عليه.

رابعًا: من مهام الداعية: توضيح ما أشكل فهمه على المدعوين.

أولاً- من أساليب الدعوة: الترهيب، والتوكيد:

لقد ورد أسلوب الترهيب في الحديث في قوله ﷺ: "من الكبائر"، وفي رواية: "من أكبر الكبائر"، (وهو من الأساليب الدعوية المهمة التي بها يتم الوعيد والتهديد بعقوبة إزاء ارتكاب المرء معصية، أو اقتراف سيئة منهيٍّ عنها، أو التهاون في أمر من أمور الدين أمر الله به، أو أداء فريضة على كل مسلم ومسلمة)[٥]، (والأصل أن يكون الترهيب بالتخويف من غضب الله وعذابه في الآخرة، مما يخيف المدعو ويحذره من عدم الاستجابة، أو رفض الحق، أو عدم الثبات عليه بعد قبوله)[٦]، أما التوكيد كأسلوب

---

(١) سورة الأنعام، آية: ١٠٨.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٢/٨٨، وعون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١٤/٣٥.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠/٤٠٤، وسبل السلام، الصنعاني ٤/١٦٦.

(٤) المرجع السابق ١٠/٤٠٤.

(٥) دراسة ناقدة لأساليب التربية المعاصرة في ضوء الإسلام، فتحية الحلواني ص ١٣٩.

(٦) أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان ص ٤٢١.

دعوي فقد ورد في الحديث من قوله ﷺ: "إن من أكبر الكبائر"، وبه يتم تثبيت الأمر المدعو إليه في أذهان المدعوين وتأكيده بما لا يدع فيه مجالاً للشك.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: الترهيب من سب الوالدين:

إن من موضوعات الدعوة المستنبطة من هذا الحديث الترهيب من سب الوالدين، (فكما لا يجوز للولد أن يلعن أو يسب والديه أو أحدهما، كذلك لا يجوز أن يكون سببًا في سبّ أحدهما أو لعنه، وذلك بأن يلعن أحدًا أو يسبّه في أبيه أو أمه، فيسب المسبوبُ أو الملعونُ أباه وأمه، لأن هذا عادة الناس وطباعهم)[1]، وكون الولد متسببًا في لعن أو سب والديه فإنه عقوق، وهو من أكبر الكبائر، وهذا ما أكده النبي ﷺ في نص الحديث من قوله: "من الكبائر شتم الرجل والديه"، وفي رواية: "إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه".

قال النووي: (وأما قوله ﷺ: "من الكبائر شتم الرجل والديه"، إلى آخره، ففيه دليل على أن من تسبب في شيء جاز أن ينسب إليه ذلك الشيء، وإنما جعل هذا عقوقًا لكونه يحصل منه ما يتأذى به الوالد تأذيًا ليس بالهين.. وفيه قطع الذرائع، فيؤخذ منه النهي عن بيع العصير لمن يتخذ الخمر، والسلاح لمن يقطع الطريق ونحو ذلك، والله أعلم)[2].

وقد أكد النبي ﷺ على الترهيب من أن يكون الولد متسببًا في لعن أو سب والديه، فعن المعرور بن سويد قال: مَرَرْنَا بِأَبِي ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ، وَعَلَيْهِ بُرْدٌ وَعَلَى غُلامِهِ مِثْلُهُ، فَقُلْنَا: يَا أَبَا ذَرٍّ! لَوْ جَمَعْتَ بَيْنَهُمَا كَانَتْ حُلَّةً، فَقَالَ: إِنَّهُ كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ رَجُلٍ مِنْ إِخْوَانِي كَلامٌ، وَكَانَتْ أُمُّهُ أَعْجَمِيَّةً، فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ، فَشَكَانِي إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَلَقِيتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: ((يَا أَبَا ذَرٍّ! إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ)) قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ سَبَّ الرِّجَالَ سَبُّوا أَبَاهُ وَأُمَّهُ، قَالَ: ((يَا أَبَا ذَرَ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، هُمْ إِخْوَانُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَأَطْعِمُوهُمْ مِمَّا تَأْكُلُونَ، وَأَلْبِسُوهُمْ مِمَّا تَلْبَسُونَ، وَلاَ

(١) بر الوالدين، القسم الأول، د. خليل إبراهيم ملا خاطر العزامي ص ١٩٨.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٠.

تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ))[١].

قال النووي رحمه الله: (وقوله: "فيك جاهلية" أي: هذا التعيير من أخلاق الجاهلية ففيك خلق من أخلاقهم، وينبغي للمسلم أن لا يكون فيه شيء من أخلاقهم، ففيه النهي عن التعيير وتنقيص الآباء والأمهات وأنه من أخلاق الجاهلية. وقوله: "قلت يا رسول الله من سب الرجال سبوا أباه أو أمه قال: يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية" معنى كلام أبي ذر الاعتذار عن سبه أم ذلك الإنسان يعني أنه سبني، ومن سب إنسانًا سب ذلك الإنسان أبا الساب وأمه، فأنكر عليه النبي ﷺ وقال: (هذا من أخلاق الجاهلية"، وإنما يباح للمسبوب أن يسب الساب نفسه بقدر ما سبه ولا يتعرض لأبيه ولا لأمه)[٢].

وفي ذلك قال عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: (من الكبائر عند الله تعالى أن يستسبَّ الرجل لوالده)[٣].

ولهذا كان السابُّ واللاعن لوالديه ملعونًا، والعياذ بالله تعالى، فعن أبي الطفيل رضي الله عنه قال: قُلْنَا لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ: أَخْبِرْنَا بِشَيْءٍ أَسَرَّهُ إِلَيْكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. فَقَالَ: مَا أَسَرَّ إِلَيَّ شَيْئًا كَتَمَهُ النَّاسَ. وَلَكِنِّي سَمِعْتُهُ يَقُولُ: ((لَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ. وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ آوَى مُحْدِثًا. وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ. وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ غَيَّرَ الْمَنَارَ))[٤]، فعلى المرء أن يتجنب أن يكون سببًا في لعن أو سب والديه حتى لا تصيبه لعنة الله وغضبه.

ثالثًا- من واجبات المدعو: الاستفهام عما أشكل عليه:

إن من واجبات المدعو المستنبطة من هذا الحديث الاستفهام عما أشكل عليه، حتى يكون واعيًا ومستوعبًا لما يسمعه أو يقرأه، وقد أشار الحديث إلى ذلك في قول الصحابة رضي الله عنهم: (وهل يشتم الرجل والديه؟)، وفي رواية: (يا رسول الله كيف يلعن الرجل والديه؟)، وقد أمر الحق تبارك وتعالى بذلك فقال: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا

---

(١) أخرجه البخاري ٣٠، ومسلم ١٦٦١.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٠٥٨ - ١٠٥٩.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٢٨، وصححه الألباني (صحيح الأدب المفرد ٢٢).

(٤) أخرجه مسلم ١٩٧٨.

تَعۡلَمُونَ﴾[١]، وفي ذلك قال السعدي: (إن الله أمر بالرجوع إلى أهل العلم في جميع الحوادث عند جهلها)[٢]، وفي ذلك عظيم الفائدة.

رابعًا- من مهام الداعية: توضيح ما أشكل فهمه على المدعوين:

لقد أمر الله تعالى الأنبياء عليهم السلام وأتباعهم أن يوضحوا الحق للناس، وأن يبيّنوا لهم ما أشكل فهمه عليهم، فقال تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾[٣]، وقال: ﴿وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا﴾[٤]، ولا يكون البيان على كماله إلا بالإيضاح الوافي، ولا يكون الكلام بليغًا إلا إذا كان واضحًا للنفوس المخاطبة، وقد كان عليه السلام (سيد الدعاة) يوضح للناس ولأتباعه ما أشكل فهمه عليهم"[٥]، وهذا ما ورد في الحديث في قوله ﷺ: (نعم، يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه)، وذلك بعد أن أشكل على الصحابة رضي الله عنهم فهم قوله ﷺ: (من الكبائر شتم الرجل والديه)، فحري بالداعية أن يقتدي بالنبي ﷺ في ذلك ممتثلاً لقوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾[٦].

---

(١) سورة النحل، آية: ٤٣.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٣٩٤.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٨٧.

(٤) سورة النساء، آية: ٦٣.

(٥) انظر: فقه الدعوة، د. بسام العموش ص ٢٦ - ٢٧.

(٦) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

الحديث رقم (٣٤٠)

٣٤٠- وعن أَبي محمد جبيرِ بن مطعم رضي الله عنه: أن رَسُول الله ﷺ، قَالَ: ((**لاَ يَدْخُلُ الجَنَّةَ قَاطِعٌ**)) قَالَ سفيان في روايته: يَعْنِي: قَاطِع رَحِم. مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[1].

ترجمة الراوي:

جبير بن مطعم: هو ابن عدي بن نوفل القرشي.

ابن عم النبي ﷺ، وشيخ قريش في زمانه، كان من أكابر وعلماء قريش، وكان شريفًا مطاعًا، من الطلقاء الذين حَسُن إسلامهم، قدم على النبي ﷺ في فداء أُسارى بدر وهو مشرك، فقال: وافقت رسول الله ﷺ وهو يصلي بأصحابه المغرب أو العشاء، فسمعتُه وهو يقرأ، وقد خرج صوتُه من المسجد، ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾[2] قال: فكأنما صَدَعَ قلبي، فكان يومئذٍ أول ما دخل الإسلام قلبي، قال: فلما سمعته يقرأ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾[3] فكاد قلبي يطير، فلمَّا فرغ في صلاته كلَّمتُه في أسارى بدر، فقال: ((لو كان الشيخُ أبوك حيًا فأتانا فيهم شفَّعْناه))[4].

وذلك ليدٍ كانت لمطعم عند رسول الله ﷺ في أنه أجار النبي ﷺ حين رجع من الطائف، وقام في نقض صحيفة القطيعة، وكان يحنو على أهل الشِّعب، ويصلهم في السر، ولم يكن يشرف لعداوة النبي ﷺ ولا يؤذيه، كما كان يفعل غيره.

وقد أسلم جبير قبل فتح مكة، وقد قال النبي ﷺ فيه ((إن بمكة أربعة نفر من

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٨٤)، ومسلم (٢٥٥٦/١٨) ولفظهما سواء، وأما قول سفيان، فتفرد مسلم بذكره عقب الحديث. أورده المنذري في ترغيبه (٣٧٢٩).

(٢) سورة الطور، آية: (٧-٨).

(٣) سورة الطور، آية: (٣٥-٣٦).

(٤) أخرجه البخاري، رقم (٤٠٢٣) (٤٠٢٤).

قريش أربأ بهم عن الشرك، وأرغب لهم في الإسلام، عَتَّابُ بن أُسيد، وجبير بن مطعم، وحكيم بن حزام، وسهيل بن عمر))[١].

وكان من أنسب قريش لقريش وللعرب قاطبة، وكان يقول إنما أخذتُ النسب عن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، وكان أبوبكر من أنسب العرب، وكان جبير رضي الله عنه ممن يُتَحاكَمُ إليه، وقد تحاكم إليه عثمان وطلحة رضي الله عنهما في قضية، وهو أحد الذين دفنوا عثمان بن عفان رضي الله عنه، وهو أول من لبس طيلسانًا بالمدينة، وقيل إنه كان من عمَّال عمر رضي الله عنه على الكوفة، وإنه ولاَّه قبل المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، وله رواية وأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم بلغت ٦٠ حديثًا توفي بالمدينة، سنة ٥٧هـ، وقيل ٥٩هـ في خلافة معاوية[٢].

الشرح الأدبي

بيَّن الرسول صلى الله عليه وسلم خطأ قطيعة الرحم، وأكد على وجوب صلتها، والصبر على ذلك؛ لأن الوشائج الأسرية هي وسيلة التماسك للحلقة الصغرى في بناء المجتمع المسلم منها يمكن الانطلاق إلى دائرة أوسع للتواصل، والتراحم والتكافل في أرجاء المجتمع، وأسلوب الحديث يعتمد أسلوب إيجاز القصر في إرسال عبارة الترهيب قصيرة مدوِّية تهز وجدان المخاطب وقد جاءت في أسلوب النفي الذي مثَّلت فيه (لا) النافية سداً منيعاً بين باب الجنة، والقاطع تمنعه من الدخول، والفعل المضارع الذي دخلت عليه يصورُ هذا الحدث ويجعله بين السمع، والبصر، وحذف المضاف إليه (قاطع رحم) تحذيراً من كل أشكال القطيعة التي تؤدي إلى تمزق المجتمع المسلم.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، رقم (٦٥٨٢)، وذكره الهندي في كنز العمال (٣٣٦٩٢).

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر (١١٩)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (١/٥١٥-٥١٦)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي (١٧٨)، وسير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط (٣/٩٥)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين (١/٤٣٩-٤٤٠)، وتهذيب التهذيب (١/٢٩١-٢٩٢)، والأعلام، خير الدين الزركلي (٢/١١٢)، وموسوعة عظماء حول الرسول (١/٥٥٨-٥٥٩).

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الترهيب.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الترهيب من قطيعة الرحم.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الحث على صلة الأرحام.

أولاً- من أساليب الدعوة: الترهيب:

لقد ورد الترهيب من قطيعة الرحم في هذا الحديث في قوله ﷺ: (لا يدخل الجنة قاطع). ليبيّن النبي ﷺ خطورة هذا الأمر وعاقبته الوخيمة التي تؤدي إلى حرمان المؤمن من دخول الجنة.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: الترهيب من قطع الرحم:

إن من موضوعات الدعوة التي يجدر بالداعية أن يعالجها ويحذر المدعوين منها قطيعة الرحم، وهذاما ورد في الحديث في قوله ﷺ "لا يدخل الجنة قاطع" قال سفيان في روايته: يعني قاطع رحم، وقد رهب المولى عز وجل من قطع الرحم فقال: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ (١) قال ابن كثير: (وهذا نهي عن الإفساد في الأرض عمومًا وعن قطع الرحم خصوصًا)(٢).

وفي الترهيب من ذلك قال ﷺ: (خلق الله الخلق، فلما فرغ منه قامت الرحم، فأخذت بحقو الرحمن، فقال له: مه، قالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: ألا ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى يا رب، قال: فذاك" قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾(٣)(٤) وقال ﷺ: ((مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللهُ لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا

---

(١) سورة محمد، الآيتان: ٢٢، ٢٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣١٨/٧.

(٣) سورة محمد، آية: ٢٢.

(٤) أخرجه البخاري ٤٨٣٠، ومسلم ٢٥٥٤.

مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ))(١).

قال المباركفوري: (قوله: "ما ذنب" ما نافية ومن زائدة للاستغراق "أجدر" أي أحرى "أن يعجل الله" صلة أجدر على تقدير الياء أي بتعجيله سبحانه "لصاحبه" أي لمرتكب الذنب "العقوبة" مفعول يعجل "مع ما يدخر" بتشديد الدال المهملة وكسر الخاء المعجمة أي مع ما يؤجل من العقوبة "له" أي لصاحب الذنب "من البغي" أي من بغي الباغي وهو الظلم أو الخروج على السطان "وقطيعة الرحم" أي ومن قطع صلة ذوي الأرحام)(٢). وفي ذلك بيان عظيم على الترهيب من قطع الرحم.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: الحث على صلة الأرحام:

يستنبط هذا من عموم هذا الحديث، وقد أمر الحق تبارك وتعالى بذلك فقال: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾(٣)، قال السعدي: (وقد افتتح تعالى هذه السورة بالأمر بتقواه، والحث على عبادته، والأمر بصلة الأرحام، والحث على ذلك)(٤)، وقال ﷺ: ((مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ))(٥).

قال النووي: (ينسأ مهموزًا أي: يؤخر والأثر الأجل؛ لأنه تابع للحياة في أثرها، وبسط الرزق توسيعه وكثرته وقيل: البركة فيه، وأما التأخير في الأجل ففيه سؤال مشهور وهو أن الآجال والأرزاق مقدرة لا تزيد ولا تنقص: ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾(٦)، وأجاب العلماء بأجوبة: الصحيح منها: أن هذه الزيادة

---

(١) سنن الترمذي ٢٥١١، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٠٣٩).

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري ١٩٤٤/٢.

(٣) سورة النساء، آية: ١.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ١٢٩.

(٥) أخرجه مسلم ٢٥٥٧.

(٦) سورة الأعراف، آية: ٣٤.

بالبركة في عمره والتوفيق للطاعات وعمارة أوقاته بما ينفعه في الآخرة وصيانتها عن الضياع في غير ذلك، والثاني: أنه بالنسبة إلى ما يظهر للملائكة وفي اللوح المحفوظ ونحو ذلك، فيظهر لهم في اللوح أن عمره ستون سنة إلا أن يصل رحمه فإن وصلها زيد له أربعون وقد علم الله سبحانه وتعالى ما سيقع له من ذلك، وهو من معنى قوله تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾[1] فيه النسبة إلى علم الله تعالى وما سبق به قدره، ولا زيادة، بل هي مستحيلة وبالنسبة إلى ما ظهر للمخلوقين، تتصور الزيادة وهو مراد الحديث)[2].

وقد جعل الله تعالى صلة الأرحام باب صلته تعالى وحبه، فعن عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا الرَّحْمن، وَأَنَا خَلَقْتُ الرَّحِمَ، وَاشْتَقَقْتُ لَهَا مِنِ اسْمِي، فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ اللَّهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا بَتَّهُ))[3]، وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: ((من اتقى ربه ووصل رحمه، نُسئ له في أجله، -وفي لفظ: أُنسيء له في عمره- وثرا ماله وأحبه أهله))[4]، فعلى الداعية أن يرغب في صلة الأرحام، ويحث على القيام بحقها، حتى يسعد الواصل في ذلك بنعيم الدنيا والآخرة.

---

(١) سورة الرعد، آية: ٣٩.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٣٥.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٥٣، وصححه الألباني (صحيح الأدب المفرد ٣٨).

(٤) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٥٨، وصححه الألباني (صحيح الأدب المفرد ٤٣).

الحديث رقم (٣٤١)

٣٤١- وعن أَبي عيسى المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: ((**إنَّ اللهَ تَعَالَى حَرَّمَ عَلَيْكُمْ: عُقُوقَ الأمَّهَاتِ، وَمَنْعًا وهاتِ، وَوَأْدَ البَنَاتِ، وكَرِهَ لَكُمْ: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإضَاعَةَ المَالِ**)) مُتَّفَقٌ عَلَيه[1].

قوله: (**مَنْعًا**) مَعنَاهُ: مَنْعُ مَا وَجَبَ عَلَيهِ، وَ(**هَاتِ**): طَلَبُ مَا لَيْسَ لَهُ. وَ(**وَأْد البَنَاتِ**) مَعنَاهُ: دَفْنُهُنَّ فِي الحَيَاةِ، وَ(**قيلَ وَقَالَ**) مَعْنَاهُ: الحَديث بكُلّ مَا يَسمَعهُ، فيَقُولُ: قِيلَ كَذَا، وقَالَ فُلانٌ كَذَا مِمَّا لا يَعْلَمُ صِحَّتَهُ، وَلا يَظُنُّهَا، وَكَفَى بالمَرْءِ كذبًا أنْ يُحَدّثَ بكُلِّ مَا سَمِعَ. وَ(**إضَاعَةُ المَال**): تَبذِيرُهُ وَصَرفُهُ فِي غَيْرِ الوُجُوهِ المأذُونِ فِيهَا مِنْ مَقَاصِدِ الآخِرَةِ وَالدُّنْيَا، وتَرْكُ حِفظِهِ مَعَ إمكَانِ الحِفظِ. وَ(**كَثْرَةُ السُّؤَال**): الإلحَاحُ فيما لا حَاجَةَ إلَيْهِ.

وفي الباب أحاديث سبقت في الباب قبله:

كحديث: ((**وأقْطَعُ مَنْ قَطَعَكَ**))[2]. وحديث: ((**مَنْ قَطَعَني قَطَعَهُ الله**))[3].

ترجمة الراوي:

المغيرة بن شعبة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٩٨).

الشرح الأدبي

الحديث يتناول بعض الأمور التي حرمها الله على المؤمنين، وقد بدأ الحديث بأسلوب خبري مؤكد بعدة مؤكدات منها أداة التوكيد (إن) واسمية الجملة، مع تصدير الجملة بلفظ الجلالة الذي يوحي بالهيبة، والجلال، ثم الجملة التنزيهية (تعالى)التي تصعِّد هذا الشعور، وقوله (حرم عليكم) يشير إلى أن مسألة التحريم،

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٧٥) واللفظ له، ومسلم (٥٩٣/١٢، عقب الحديث رقم ١٧١٥/١٠، كتاب الأقضية، باب ٥). أورده المنذري في ترغيبه (٣٦٧٧). وسيكرره المؤلف برقم (١٤١٨)، و (١٧٨٤).

(٢) برقم (٣١٥).

(٣) برقم (٣٢٣).

والتحليل من عند الله، والفعل الماضي يشير إلى التحقق، وإضافة كاف الخطاب، وميم الجمع إلى حرف الجر يفيد عموم الحكم، وإضافة العقوق للأمهات؛ لأن حقهن أوجب لما يلاقين من عناء، ولحاجتهن إلى الرعاية أكثر، وبين قوله منع، وهات طباق يؤكد المعنى، ويقرر حرمة منع ما يجب إخراجه، وحرمة سؤال ما ليس له، وما لا حاجة إليه، ووأد البنات أي دفنهن أحياء، وبناء الفعل(قيل) يشير إلى نقل كلام الغير (وقال) يشير إلى إذاعة ما سمع ولعله يشير إلى الغيبة، والنميمة، ونشر ما يحدث الفتن بين المسلمين، وفي الحديث سجع بين الجمل الثلاث الأولى بتكرار الألف، والتاء، وبين الجمل الثلاث الأخيرة بتكرار الألف واللام، وهذا السجع يعين على الحفظ والنقل ويساعد على الانتشار، مع ما يحققه من ثبات المعنى، وقبول النفس، وفيه جناس بين قيل، وقال أكد معنى التسمع على الناس، وإذاعة أسرارهم مما يحدث الفرقة، والشحناء بين الناس.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد، والترهيب.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: تحريم عقوق الأمهات.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: حرمة منع حقوق العباد وأخذ ما ليس للمرء فيه حق.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: حرمة وأد البنات.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: النهي عن الكلام بكل ما يسمعه المرء.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: النهي عن كثرة السؤال.

سابعًا: من موضوعات الدعوة: النهي عن إضاعة المال.

أولاً- من أساليب الدعوة: التوكيد، والترهيب:

لقد ورد أسلوب التوكيد في الحديث من قوله ﷺ: "إن الله تعالى" وهو من الأساليب الدعوية التي يستعين بها الداعية لتثبيت وتأكيد الأمر المدعو إليه في أذهان المدعوين، أما الترهيب فقد ورد في الحديث من قوله ﷺ: "إن الله تعالى حرّم عليكم... إلخ"، (والترهيب وعيد وتهديد بعقوبة تترتب على اقتراف إثم أو ذنب مما نهى

الله عنه، أو التهاون في أداء فريضة مما أمر الله به)[١]. وفي ذلك عظيم الفائدة في إخافة المدعو وحمله على فعل الأمر المدعو إليه.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: تحريم عقوق الأمهات:

"لقد خصّ الله ورسوله ﷺ الأم بالذكر بعد الوصية بالوالدين معًا، وجعل لها من البر أكثر مما للأب، وذلك لأن فضلها على الولد أكثر، وتمتاز بأمور لا يشركها فيها الأب، فاستحقت التقديم بالبر والإحسان، والتقدير والاحترام أكثر مما للأب، وذلك بثلاثة أمثال ما للأب:

قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾[٢].

وقال جلّ شأنه: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾[٣].

ففي الآيتين الكريمتين ذكر الوصية بالوالدين، ثم خصّ الأم بالذكر، وذكر لها ثلاثة أمور تتفرد بها عن الأب: الحمل، والولادة، والرضاع الذي يستمر سنتين كاملتين، وكلٌ من هذه الأمور الثلاثة التي تختص بها الأم -ولا يعرفها الرجل إلا نظرًا- تجعل الأم تستحق من البر أكثر مما يستحقه الرجل. ولها الحظ الأوفر من البر، إضافة إلى ضعفها، وقوة الرجل، وعدم قدرتها -غالبًا- على استخلاص حقها، لذا تُقدَّم في ذلك على الأب عند المزاحمة.

ولذا نلاحظ أن الله سبحانه غلّب جانب الوالدة في الذكر على جانب الأب، عندما جمع بينهما، فلم يقل الله تعالى: "بأبويه" لأنه تعالى لو قال: "بأبويه" لحصل تنافر بما ذكره من تخصيص الأم بالحمل والوضع...، فكان تغليب جانب الأم في الذكر هنا

---

(١) أصول التربية الإسلامية وأساليبها، د. عبدالرحمن النحلاوي ص ٢٥٧.

(٢) سورة لقمان، آية: ١٤.

(٣) سورة الأحقاف، آية: ١٥.

"بوالديه" ملفتًا للنظر، في تقديم الوصية بها، والاعتناء بها، وتقديم برها، وبيان مكانتها)[١].

وهذا ما أكده النبي ﷺ وحثّ عليه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ((جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: أُمُّكَ قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ أُمُّكَ قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ أُمُّكَ قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ أَبُوكَ))[٢].

لذا حرّم الحق تبارك وتعالى عقوق الأمهات، وهذا ما أشار إليه نص الحديث في قوله ﷺ: "إن الله حرّم عليكم عقوق الأمهات". والمراد بالعقوق كما بينه ابن حجر: (هو صدور ما يتأذى به الوالد من ولده من قول أو فعل، إلا في شرك أو معصية ما لم يتعنت الوالد، وقال: إن تخصيص الأم بالذكر، هو من تخصيص الشيء بالذكر إظهارًا لعظم موقعه)[٣].

والعقوق هنا من أكبر الكبائر، وفي ذلك قال ﷺ: ((ألا أُنَبِّئُكم بأكبَر الكبائِر))، ثم ذكر ﷺ من ذلك: ((وعقوقُ الوالِدَين))[٤]، ثم بيّن ﷺ عظم هذا الذنب فقال: (ثلاثة لا ينظر الله - عزل وجل - إليهم يوم القيامة)، ثم ذكر ﷺ: ((الْعَاقُّ لِوَالِدَيْهِ))[٥]، وفي ذلك بيان على عظم الترهيب من عقوق الوالدين وبالأخص عقوق الأم.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: حرمة منع حقوق العباد وأخذ ما ليس للمرء فيه حق:

لقد أشار الحديث إلى ذلك في قوله ﷺ: "إن الله حرم عليكم"، ثم ذكر ﷺ من ذلك: "ومنعًا وهات"، وبيّن ابن عثيمين: (أن المراد من قوله ﷺ: "ومنعًا وهات"، أن يكون الإنسان جموعًا منوعًا؛ يمنع ما يجب عليه بذله من المال، ويطلب ما ليس له، وقد حرم الله عز وجل ذلك؛ فلا يجوز للإنسان أن يمنع ما يجب عليه بذله من المال، ولا

---

(١) بر الوالدين القسم الأول، د. خليل إبراهيم ملا خاطر ص ٤٩ - ٥٠.

(٢) أخرجه البخاري ٥٩٧١.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠/٣٢٠.

(٤) أخرجه البخاري ٦٢٧٣، ومسلم ٨٧.

(٥) أخرجه النسائي ٢٥٦٢، وقال الألباني: حديث حسن صحيح (صحيح سنن النسائي ٢٤٠٢).

يجوز أن يسأل ما لا يستحق، فكلاهما حرام)[1].

وقد توعد الحق تبارك وتعالى من يمنع ما يجب عليه من بذل المال، فقال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[2]، وهذا ما أكد عليه النبي ﷺ في قوله: ((مَن آتاهُ الله مالاً فلم يُؤد زكاته مُثِّلَ له ماله شُجاعًا أقرَعَ له زَبيبتان يُطوَّقهُ يومَ القيامة، يأخذُ بلِهْزِمتيهِ - يعني بشدقَيهِ يقول: أنا مالكُ، أنا كَنزُك. ثمَّ تلا هذه الآية: (وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِيْنَ يَبْخَلُوْنَ بِمَا آتَاهُمُ الله مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خيرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ)[3]))[4]، وقد بيّن النبي ﷺ سوء عاقبة من يسأل الناس ما ليس له فيه حق، فقال: ((مَنْ سَأَلَ النَّاسَ أَمْوَالَهُمْ تَكَثُّرًا، فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْرًا. فَلْيَسْتَقِلَّ أَوْ لِيَسْتَكْثِرْ))[5]، وفي ذلك بيان عظيم على حرمة منع حقوق العباد، وأخذ ما ليس للمرء فيه حق.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: حرمة وأد البنات:

لقد أشار الحديث إلى ذلك في قوله ﷺ: (إن الله تعالى حرم عليكم)، ثم ذكر من ذلك: (وأد البنات)، وهذا ما أكده الحق تبارك وتعالى في قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾[6]، قال ابن كثير: (والموءودة هي التي كان أهل الجاهلية يدسونها في التراب كراهية البنات، فيوم القيامة تسأل الموءودة على أي ذنب قتلت،

---

(١) شرح رياض الصالحين ٧٠٦/١ - ٧٠٧.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٨٠.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٨٠.

(٤) أخرجه البخاري ١٤٠٣ - ٤٥٦٥.

(٥) أخرجه مسلم ١٠٤١.

(٦) سورة التكوير، الآيتان: ٨ - ٩.

ليكون ذلك تهديدًا لقاتلها، فإذا سئل المظلوم فما ظن الظالم إذا؟!)[١].

وهذا ما أكده السعدي في قوله: (والمؤودة هي ما كانت الجاهلية الجهلاء تفعله من دفن البنات وهن أحياء من غير سبب، إلا خشية الفقر، فتسأل: (بأي ذنب قتلت)، ومن المعلوم أنها ليس لها ذنب، ولكن هذا توبيخ وتقريع لقاتلها)[٢]. وفي ذلك بيان عظيم على حرمة وأد البنات وسوء عاقبة مرتكبه.

خامسًا- من موضوعات الدعوة: النهي عن الكلام بكل ما يسمعه المرء:

ورد النهي عن الكلام بكل ما يسمعه الإنسان في قوله ﷺ: (وكره لكم قيل وقال)، قال ابن حجر: (قال المحب الطبري في قيل وقال ثلاثة أوجه: أحدها: أنهما مصدران للقول، تقول قلت قولاً وقيلاً وقالاً، والمراد الإشارة إلى كراهة كثرة الكلام لأنها تؤول إلى الخطأ...، ثانيها: إرادة حكاية أقاويل الناس، والبحث عنها، ليخبر عنها فيقول: قال فلان كذا وقيل كذا، والنهي عنه إما للزجر عن الاستكثار منه، وإما لشيء مخصوص منه، وهو ما يكرهه المحكي عنه، ثالثها: أن ذلك في حكاية الاختلاف في أمور الدين كقوله: قال فلان كذا وقال فلان كذا، ومحل كراهة ذلك أن يكثر من ذلك بحيث لا يؤمن مع الإكثار من الزلل، وهذا مخصوص بمن ينقل ذلك من غير تثبت، ولكن يقلد من سمعه ولا يحتاط له، قلت: ويؤيد ذلك الحديث الصحيح: ((كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ ما سَمِعَ))[٣])[٤].

قال النووي: (ومعنى الحديث الزجر عن التحديث بكل ما سمع الإنسان، فإنه يسمع في العادة الصدق والكذب، فإذا حدَّث بكل ما سمع فقد كذب لإخباره بما لم يكن، وقد تقدم أن مذهب أهل الحق أن الكذب الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو،

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣٣٣/٨.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٨٤٤.

(٣) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه ٥.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٢١/١٠.

ولا يشترط فيه التعمد، لكن التعمد شرط في كونه إثمًا والله أعلم)[١].

فعلى المرء ألا يتحدث بكل ما يسمع لما في ذلك من الوقوع في الزلل.

سادسًا- من موضوعات الدعوة: النهي عن كثرة السؤال:

لقد ورد النهي عن كثرة السؤال في الحديث من قوله ﷺ: "وكره لكم"، ثم قال: "وكثرة السؤال".

قال ابن حجر: (وقد ورد الاختلاف في المراد بكثرة السؤال، وهل هو سؤال المال، أو السؤال عن المشكلات والمعضلات، أو أعم من ذلك؟ وأن الأولى حمله على العموم، وقد ذهب بعض العلماء إلى أن المراد به كثرة السؤال عن أخبار الناس وأحداث الزمان، أو كثرة سؤال إنسان بعينه عن تفاصيل حاله، فإن ذلك مما يكره المسئول غالبا، وقد ثبت النهي عن الأغلوطات... وثبت عن جمع من السلف كراهة تكلف المسائل التي يستحيل وقوعها عادة أو يندر جدا، وإنما كرهوا ذلك لما فيه من التنطع والقول بالظن، إذ لا يخلو صاحبه من الخطأ)[٢].

وهذا ما أكده ابن عثيمين في قوله: (إن السؤال عن العلم إن كان يقصد به إعنات المسؤول، والإشقاق عليه، وإلحاق السآمة به، أو تلقط زلاته لعله يزل فيكون في ذلك قدح فيه، فإن هذا هو المكروه، أما إذا كان المقصود من السؤال إرادة العلم، فإنه لا ينهى عن ذلك، ولا يكره ذلك، وقد كان عبدالله بن عباس رضي الله عنه كثير السؤال، فقد قيل له: بم أدركت العلم؟ قال: أدركت العلم بلسانٍ سؤول، وقلب عقول، وبدن غير ملول)[٣].

وفي ذم السؤال للمال قال ﷺ: ((لاَ تَزَالُ الْمَسْأَلَةُ بِأَحَدِكُمْ حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ، وَلَيْسَ فِي وَجْهِهِ مُزْعَةُ لَحْمٍ))[٤]، وقال ﷺ: ((إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لاَ تَحِلُّ إِلاَّ لأَحَدِ ثَلاَثَةٍ: رَجُلٌ تَحَمَّلَ

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٤٨ - ٤٩.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠/٤٢١.

(٣) شرح رياض الصالحين ١/٧٠٧.

(٤) أخرجه البخاري ١٤٧٥، ومسلم ١٠٤٠.

حَمَالَةً فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَهَا ثُمَّ يُمْسِكُ. وَرَجُلٍ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَاحَتْ مَالَهُ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ (أَوْ قَالَ سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ. وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ حَتَّى يَقُوم ثَلاثَةٌ مِنْ ذَوِي الْحِجَا مِنْ قَوْمِهِ: لَقَدْ أَصَابَتْ فُلانًا فَاقَةٌ. فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ. حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ أَوْ قَالَ سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ فَمَا سِوَاهُنَّ مِنَ الْمَسْأَلَةِ، يَا قَبِيصَةُ سُحْتًا يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُحْتًا))[1].

قال ابن حجر: (قال النووي: اتفق العلماء على النهي عن السؤال من غير ضرورة، قال: واختلف أصحابنا في سؤال القادر على الكسب على وجهين، أصحهما التحريم لظاهر الأحاديث، والثاني: يجوز مع الكراهة بشروط ثلاثة: أن لا يلح ولا يذل نفسه زيادة على ذل نفس السؤال، ولا يؤذي المسئول، فإن فقد شرط من ذلك حرم، وقال الفكهاني: يتعجب ممن قال بكراهة السؤال مطلقا مع وجود السؤال في عصر النبي ﷺ ثم السلف الصالح من غير نكير، فالشارع لا يقر على مكروه، قلت: لعل من كره مطلقا أراد أنه خلاف الأولى. ولا يلزم من وقوعه أن تتغير صفته ولا من تقريره أيضا، وينبغي حمل حال أولئك على السداد؛ وأن السائل منهم غالبًا ما كان يسأل إلا عند الحاجة الشديدة، وفي قوله: "من غير نكير" نظر، ففي الأحاديث الكثيرة الواردة في ذم السؤال كفاية في إنكار ذلك، (تنبيه): جميع ما تقدم فيما سأل لنفسه، وأما إذا سأل لغيره فالذي يظهر أيضا أنه يختلف باختلاف الأحوال)[2].

سابعًا- من موضوعات الدعوة: النهي عن إضاعة المال:

لقد أشار الحديث إلى ذلك في قوله ﷺ: "وكره لكم"، ثم قال: "وإضاعة المال". قال ابن حجر: (إن الأكثر حملوه على الإسراف في الإنفاق، وقيده بعضهم بالإنفاق في الحرام، والأقوى أنه ما أنفق في غير وجهه المأذون فيه شرعًا سواء كانت دينية أو دنيوية فمنع منه، لأن الله تعالى جعل المال قياما لمصالح العباد، وفي تبذيرها تفويت تلك المصالح، إما في حق مضيعها وإما في حق غيره، ويستثنى من ذلك كثرة إنفاقه في وجوه

(١) أخرجه مسلم ١٠٤٤.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠/٤٢٢.

البر لتحصيل ثواب الآخرة، ما لم يفوت حقا أخرويا أهم منه، والحاصل في كثرة الإنفاق ثلاثة أوجه:

الأول: إنفاقه في الوجوه المذمومة شرعًا فلا شك في منعه.

والثاني: إنفاقه في الوجوه المحمودة شرعًا فلا شك في كونه مطلوبا بالشرط المذكور.

والثالث: إنفاقه في المباحات بالأصالة كملاذ النفس، فهذا ينقسم إلى قسمين:

أحدهما: أن يكون على وجه يليق بحال المنفق وبقدر ماله، فهذا ليس بإسراف.
والثاني: ما لا يليق به عرفا، وهو ينقسم أيضا إلى قسمين: أحدهما: ما يكون لدفع مفسدة إما ناجزة أو متوقعة، فهذا ليس بإسراف.

والثاني: ما لا يكون في شيء من ذلك فالجمهور على أنه إسراف، وذهب بعض الشافعية إلى أنه ليس بإسراف قال: لأنه تقوم به مصلحة البدن وهو غرض صحيح، وإذا كان في غير معصية فهو مباح له.

قال ابن دقيق العيد: وظاهر القرآن يمنع ما قال ا هـ. وقد صرح بالمنع القاضي حسين، فقال في كتاب قسم الصدقات: هو حرام، وتبعه الغزالي، وجزم به الرافعي في الكلام على المغارم، وصحح في باب الحجر من الشرح وفي المحرر أنه ليس بتبذير، وتبعه النووي، والذي يترجح أنه ليس مذمومًا لذاته، لكنه يفضي غالبًا إلى ارتكاب المحذور كسؤال الناس، وما أدى إلى المحذور فهو محذور.

وجزم الباجي من المالكية بمنع استيعاب جميع المال بالصدقة قال: ويكره كثرة إنفاقه في مصالح الدنيا، ولا بأس به إذا وقع نادرًا لحادث يحدث كضيف أو عيد أو وليمة، ومما لا خلاف في كراهته مجاوزة الحد في الإنفاق على البناء زيادة على قدر الحاجة، وأما إضاعة المال في المعصية فلا يختص بارتكاب الفواحش، بل يدخل فيها سوء القيام على الرقيق والبهائم حتى يهلكوا، وغير ذلك من الأمثلة التي يتعذر حصرها والتي تتم إضاعة المال فيها، وكذلك دفع مال من لم يؤنس منه الرشد إليه، وقسمة ما لا ينتفع بجزئه كالجوهرة النفيسة، وقال السبكي الكبير في "الحلبيات": (الضابط

في إضاعة المال أن لا يكون لغرض ديني ولا دنيوي، فإن انتفيا حرم قطعًا، وإن وجد أحدهما وجودًا له بال وكان الإنفاق لائقًا بالحال ولا معصية فيه جاز قطعا، وبين الرتبتين وسائط كثيرة لا تدخل تحت ضابط، فعلى المفتي أن يرى فيما تيسر منها رأيه، وأما ما لا يتيسر فقد تعرض له: فالإنفاق في المعصية حرام كله، ولا نظر إلى ما يحصل في مطلوبه من قضاء شهوة ولذة حسنة، وأما إنفاقه في الملاذ المباحة فهو موضع الاختلاف، فظاهر قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾[1].

أن الزائد الذي لا يليق بحال المنفق إسراف، ثم قال: وبذل مالاً كثيرًا في غرض يسير تافه عده العقلاء مضيعًا، بخلاف عكسه، والله أعلم. قال الطيبي: هذا الحديث أصل في معرفة حسن الخلق، وهو تتبع جميع الأخلاق الحميدة والخلال الجميلة)[2].

(١) سورة الفرقان، آية: ٦٧.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠/٤٢٢ - ٤٢٣.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

الخلق الحسن من غايات التربية الإسلامية، وهو ناتج الإيمان بالله من ناحية وناتج التكاليف الشرعية من ناحية ثانية، وناتج الأمر بحسن الخلق من ناحية ثالثة، والرسول ﷺ وهو يرسم السبيل لهذا أبان لنا عن كثير من الأخلاق المرذولة التي حرمها الإسلام، وجعل بعض السلوكيات والأخلاق غير الحميدة في درجة الكبائر، وقرن بين بعضها ليرهب من إتيانها، ومن المضامين التربوية في أحاديث الباب ما يلي:

أولاً- التربية بالتكرار والتأكيد:

التأكيد والتكرار من أهم الأساليب في تثبيت المعنى في القلوب، وبثه في النفوس وحملها على التصديق والإيمان به، ولاشك في أن التأكيد والتكرار لهما أثر كبير في النفوس، وهذا شيء هديت إليه فطرة الإنسان، فلجأ إلى تأكيد كلامه للسامع وتكرار ما يريد نقله إليه[1].

ونظرًا لكون التكرار صار منهجًا متبعًا لدى الرسول في تعليمه لصحابته، فإن البخاري عقد بابًا كرّسه لتأكيد هذا المعنى، ترجم له بقوله: باب: من أعاد الحديث ثلاثًا ليفهم[2].

وفي هذا الباب كرر ﷺ سؤاله: «أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ ثَلاَث مَراتْ؟ ثُمَ كَرَر: «أَلاَ وَقَولُ الزُّورِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ»، حَتَّى قَالَ الصَحَابَة: لَيْتَهُ سَكَتَ، وهو إنما كرر تأكيدًا وتربية لأصحابه على قول الحق والابتعاد عن قول الزور.

ثانيًا- من أساليب التربية: التشويق:

وقد استخدمه ﷺ سبيلاً إلى إثارة انتباه صحابته إلى أهمية ما يقول؛ فنراه يكرر السؤال ثلاث مرات: «ألا أنبئكم....»، وهذه الطريقة في السؤال تشعر مستمعيه بخطورة

---

(١) أسلوب الدعوة القرآنية ص ٣٤، زياد العاني، نقلاً عن أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية ص ٣٠١.

(٢) انظر: التربية في لسنة النبوية، أبو لبابة حسين ص ٧١.

ما سيتلقونه واشتياقهم إلى سرعة سماعه، ولم يستعمل النبي هذا الأسلوب التشويقي في المنهيات وحدها، بل أيضًا في العبادات المقربة إلى الله تعالى: «أَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللهُ بِهِ الْخَطَايَا وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟»[1].

ولا شك أن هذا الأداء ينتج عنه استقامة في السلوك ونماء في العادات الجيدة والأخلاق الفاضلة، ونتائج تربوية إيجابية ناجحة[2].

وليس تشويقه عن طريق السؤال فحسب، بل أيضًا عن طريق إطلاق عبارة لها دلالة لا يعرفها صحابته، مما يجعلهم يسألون عن معناها «إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ».

ثالثًا- من أساليب التربية: التحذير:

وقد استخدم النبي ﷺ أسلوبًا تربويًا فعالاً، وهو التحذير من مغبة الوقوع في قطيعة الرحم؛ فالجنة لن يدخلها قاطع رحم «لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ»، وبهذه الطريقة يصل القاطعون أرحامهم وإلا لن يدخلوا الجنّة.

رابعًا- من الأساليب التربوية: تهذيب الأخلاق والتربية عن البعد عن السبِّ والشتم:

فالمسلم "من سلم المسلمون من لسانه ويده"، وعليه أن يحرص على مشاعر أخيه المسلم، ويزداد النهي عن التشاتم إذا تناول الآباء والأمهات، ذلك النمط المتدني من التشاتم، الذي استنكر الصحابة مجرد حديثه «مِنَ الْكَبَائِرِ شَتْمُ الرَّجُلِ وَالِدَيْهِ»، قيل: «وَهَلْ يَشْتِمُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟».

والنيل من عرض المسلم هو بحق خلاف المروءة وخلاف الأولى؛ فقد أمر الله تعالى بالستر على المسلم، خاصة إذا لم يكن معروفًا بالشر، مجاهرًا بالفواحش مستهينًا بالنصيحة، فمن كان هذا شأنه فلابد من بيان حاله، ورفع أمره لمن يلزمه تأديبه وكف شره عن الناس، ومنعه من المجاهرة بالمعاصي وتحدي أحكام الشرع وآدابه[3].

---

(١) أخرجه مسلم ١٤١.

(٢) أساليب الدعوة والتربية في السنة، د. زياد العاني ص ٢٢٤.

(٣) التربية الروحية والاجتماعية في الإسلام، أكرم ضياء العمري ص ٢٨٤.

خامسًا- من أهداف التربية الإسلامية: ترقية الذوق العام:

لقد حرص النبي ﷺ على تنشئة مجتمع إسلامي يمتاز بسمو الأخلاق والذوق الرفيع، فلا تشاتم ولا تسابّ، فعلى المسلم أن يحفظ لسانه، مراعاة لذوق الآخرين ومشاعرهم.

وحفظ اللسان والمنطق يشمل البعد عن الألفاظ المحرمة شرعًا، سواء كانت متعلقة بحق الله، أم بحق المخلوق كالسب والشتم والسخرية، ويشمل بذاءة اللسان، والتصريح بما يستحيي منه، وهذا الأمر مما شاع للأسف واعتاده طائفة من الناس، وأهل الصلاح والتقى أولى بأن يبتعدوا عنه، فهو مظهر من مظاهر قلة الحياء وخلق من أخلاق السوقة وأهل السوء[1].

سادسًا- التربية بالحوار والمناقشة:

وهذا واضح من حديثين: حديث أبي بكرة نفيع بن الحارث رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ "ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟"، وحديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: "من الكبائر شتم الرجل والديه" وأسلوب المناقشة -وهو من الأساليب التي تقوم على الحوار في جوهرها- فيه يعتمد المعلم على بعض المعارف والخبرات السابقة لدى المتعلمين وتتميز بأنها تُثبت المعارف الجديدة ومن مزاياه الدور الإيجابي للمتعلمين، كما أنها تدرب على طرق التفكير السليمة.

كما يفيد طرح الأسئلة في جذب اهتمام السامعين، ويمكن للمعلم أن يستغل ذلك في التمهيد الذي يسبق الدرس، وذلك لتنشيط أذهان المتعلمين للمعارف والمعلومات الجديدة التي سوف تلقى عليهم.

سابعًا- استخدام الحركات الجسدية:

وهذا واضح من قول الصحابي أبي بكرة رضي الله عنه: وكان متكئًا فجلس فقال: "ألا وقول الزور وشهادة الزور" فقد غير النبي ﷺ من هيئته ليبين خطورة أمر قول الزور وشهادة الزور. وتغيير هيئة المتكلم يسمى في علم التربية لغة الجسد، ويمكن للمعلم

---

(١) تربية الشباب، محمد عبدالله الدويش ص ١٥٥.

استخدامها للتنبيه على بعض النقاط المهمة وجذبًا لانتباه المتعلمين.

ثامنًا- التربية على معرفة مراتب الأحكام:

وهذا واضح من قوله ﷺ: "إن الله تعالى حرّم عليكم عقوق الأمهات ... وكره لكم قيل وقال ..." الحديث، فقد بيّن النبي ﷺ اختلاف الحكم ففي الثلاثة الاولى أنها حرام على حين أن الثلاثة الأخيرة مكروهات، قال النووي رحمه الله: (دليل على أن الكراهة في هذه الثلاثة الأخيرة للتنزيه لا للتحريم)[1].

وفي ذلك إرشاد لأهل التربية أن يربو الناشئة والكبار - قدر جهدهم- على معرفة مراتب الأحكام، فلا يجعلون الواجب مندوبًا أو الحرام مكروهًا وكذلك العكس في الحالتين ولا يجعلون المباح واجبًا أو حرامًا أو نحو ذلك لما في ذلك من أثر كبير على إتيان الفعل أو الترك، وخاصة في هذا الزمان الذي تساهل فيه كثير من الناس في كثير من الأحكام، فلا يبالون بفعل الحرام ولا بترك الواجب.

❁ ❁ ❁

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١١٠٣-١١٠٤.

٤٢- باب فضل بر أصدقاء الأب

الحديث رقم (٣٤٢)

٣٤٢- عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أن النَّبيّ ﷺ، قَالَ: **((إنّ أبَرَّ البرِّ أنْ يَصِلَ الرَّجُلُ وُدَّ أبيهِ))**[(١)].

- وعن عبد الله بن دينار، عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أنَّ رَجُلًا مِنَ الأعْرَابِ لَقِيَهُ بطَريق مَكَّةَ، فَسَلَّمَ عَلَيهِ عبدُ الله (بْنُ عُمَرَ)، وَحَمَلَهُ عَلَى حِمَارٍ كَانَ يَرْكَبُهُ، وَأعْطَاهُ عِمَامَةً كَانَتْ عَلَى رَأسِهِ، قَالَ ابنُ دِينَار: فَقُلْنَا لَهُ: أصْلَحَكَ الله إنَّهُمُ الأعرَابُ وَهُمْ يَرْضَوْنَ باليَسير، فَقَالَ عبد الله (بن عمر): إن أَبَا هَذَا كَانَ وُدًّا لِعُمَرَ بنِ الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وإنِّي سَمِعتُ رَسُول الله ﷺ، يقول: **((إنَّ أبرَّ البرِّ صِلَةُ الرَّجُلِ أهْلَ وُدِّ أبِيهِ))**[(٢)].

وفي رواية عن ابن دينار، عن ابن عمر: أنَّهُ كَانَ إذَا خَرَجَ إلَى مَكَّةَ كَانَ لَهُ حِمَارٌ يَتَرَوَّحُ عَلَيهِ إذَا مَلَّ رُكُوبَ الرَّاحِلَةِ، وَعِمَامَةٌ يَشُدُّ بهَا رَأسَهُ، فَبيْنَا هُوَ يَومًا عَلَى ذلِكَ الحِمَارِ إذْ مَرَّ بِهِ أعْرابيٌّ، فَقَالَ: ألَسْتَ فُلاَنَ بْنَ فُلاَن؟ قَالَ: بَلَى. فَأعْطَاهُ الحِمَارَ، فَقَالَ: ارْكَبْ هَذَا، وَأعْطَاهُ[(٣)] العِمَامَةَ، وَقالَ: اشْدُدْ بهَا رَأسَكَ، فَقَالَ لَهُ بعضُ أصْحَابِهِ: غَفَرَ الله لَكَ أعْطَيْتَ هَذَا الأعْرَابيَّ حِمَارًا كُنْتَ تَرَوَّحُ عَلَيهِ، وعِمَامةً كُنْتَ تَشُدُّ بهَا رَأسَكَ؟ فَقَالَ: إنِّي سَمِعتُ رَسُول الله ﷺ، يَقُولُ: **((إنَّ مِنْ أبَرِّ البِرِّ أنْ يَصِلَ[(٤)] الرَّجُلُ أهْلَ وُدِّ أبيهِ بَعْدَ أنْ يُولِّيَ))** وَإنَّ أبَاهُ كَانَ صَدِيقًا لعُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(٥)].

رَوَى هذِهِ الرواياتِ كُلَّهَا مسلم.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٥٢/١٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٥٢/١١). أورده المنذري في ترغيبه (٣٦٧٥).

(٣) لفظ مسلم: (والعمامة) بدون قوله: (أعطاه).

(٤) لفظ مسلم: (صلة) بدل: (أن يصل).

(٥) أخرجه مسلم (٢٥٥٢/١٣).

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

ودّ أبيه: صديقه[١].

يتروح عليه: معناه: كان يستصحب حمارًا ليستريح عليه إذا ضجر من ركوب البعير[٢].

الراحلة: الراحلة من الإبل: الصالح للأسفار والأحمال[٣].

يولى: تولى الرجل: إذا أدبر ورحل، والمراد: أنه مات[٤].

الشرح الأدبي

البر جماع الخير ومن عظمة الإسلام دعوته إلى كل أشكال البر مع جميع المسلمين حتى أنه جعل من البر بل من أبره أن يصل الرجل أصحاب أبيه ومن كان يحبهم، وهذا الحديث يعرض هذه الغاية النبيلة التي تشير إلى سمو المشاعر، ونبل الغايات وقد جاء الحديث في ثوب إيجاز القِّصر، وهو تضمُّن الألفاظ القليلة للمعاني الكثيرة كما هو الحال في هذا الحديث، وقد جاء الأسلوب مؤكداً بـ (إن) مع اسمية الجملة، ثم استخدام أفعل التفضيل الذي ارتقت درج البر، واستقرت فوقها مع ما في قوله (أبر البر) من جناس يؤكد المعنى، ويوضح المقصود، حتى لا يستبعد المخاطب العلاقة بين أعلى درجات البر، وبين أصدقاء الأب، وأحبابه، خاصة الذين لا تربطه بهم قرابة من أي نوع، والتعبير بالمصدر المنسبك من (أن) والفعل (أن يصل) دون المصدر الصريح (وصل) لأن التعبير بالمصدر المنسبك من أن والفعل المضارع مع دلالته على ما يدل عليه المصدر يدل

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٩٦٤.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٣٣.

(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ر ح ل).

(٤) المرجع السابق في (و ل ى).

على التجدد، والاستمرار الذي يوحي بتجدد الوصل كلما وجد الواصل إلى ذلك سبيلاً، وإضافة الود للأب، ثم إضافة الأب للضمير العائد إلى الابن يوجد صلة بينهم تقوي العلاقة بين الابن وأحباء والده تدعوه إلى وصلهم رغبة في تحقيق أعلى درجات البر، وأعظم أمثلة الوفاء للوالدين بعد موتهما، وعن عبد الله بن دينار، عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَجُلاً مِنَ الأَعْرَابِ لَقِيَهُ بطَرِيق مَكَّةَ، فَسَلَّمَ عَلَيهِ عبدُ الله بْنُ عُمَرَ، وَحَمَلَهُ عَلَى حِمَارٍ كَانَ يَرْكَبُهُ، وَأَعْطَاهُ عِمَامَةً كَانَتْ عَلَى رَأسِهِ، قَالَ ابنُ دِينَار: فَقُلْنَا لَهُ: أصلَحَكَ الله، إنَّهُمُ الأعرَابُ وَهُمْ يَرْضَوْنَ باليَسير، فَقَالَ عبد الله بن عمر: إن أَبَا هَذَا كَانَ وُدّاً لِعُمَرَ بنِ الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وإنِّي سَمِعتُ رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقول: ((إنَّ أبرَّ البِرِّ صِلَةُ الرَّجُلِ أهْلَ وُدِّ أبِيهِ)).

هذه الرواية في نفس مضمون الرواية السابقة غير أن هذه الرواية تحكي حرص الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ على تنفيذ توجيهات الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولاسيما الأعمال التي تضمنت أجراً عظيماً وهذه الرواية تحكي موقف عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مع ابن أحد أحباء أبيه حيث نزل له عن حماره، وأعطاه عمامة كانت على رأسه، وجملة (يركبه) وجملة (كَانَتْ عَلَى رَأسِهِ) تشيران إلى أنها كانت لاستعماله الشخصي ولم تكن زائدة عن حاجته، وأنه آثره بها على نفسه لمجرد أن كان أبوه وداً لأبيه، ثم ذكر الحديث ترغيباً لأصحابه، وبياناً لسر إكرامه لهذا الأعرابي.

المضامين الدعوية

أولاً: من حقوق المدعو: سؤاله عما لا يفهمه.

ثانيًا: من آداب المدعو: احترام الداعية.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: امتثال الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ لما أرشد إليه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل البر بأصدقاء الوالدين.

خامسًا: من أساليب الدعوة: التوكيد والسؤال والجواب.

أولاً- من حقوق المدعو: سؤاله عما لا يفهمه:

إن المدعو قد يعرض له ما يحتاج أن يسأل عنه الداعية، ليزيل ما في نفسه مما

لا يفهمه أو يبين له حقيقته، وهذا ما فعله عبدالله بن دينار، فقد سأل ابن عمر رضي الله عنهما حينما رآه يكرم الأعرابي وقال له: أصلحك الله إنهم الأعراب وهم يرضون باليسير فأجابه ابن عمر رضي الله عنهما: إن أبا هذا كان ودًّا لعمر بن الخطاب رضي الله عنه. وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن من أبرّ البر صلة الرجل أهل ودّ أبيه".

ومن هذا القبيل سؤال الصحابة عن معنى الشرك في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾[1] فقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: أينا لم يلبس إيمانه بظلم؟، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إنه ليس بذلك، ألا تسمعونَ إلى قول لقمانَ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[2]))[3].

ومن ذلك ما روته عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليس أحد يحاسب إلا هلك. قلت: يا رسول الله جعلني الله فداءك، أليس يقول الله عز وجل: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾[4] قال: ((ذاكَ العَرْض يُعْرَضون، ومن نوقش الحسابَ هَلَك))[5].

ثانيًا- من آداب المدعو: احترام وتقدير أهل الفضل:

إن الداعية هو الذي يرشد المدعو إلى ما ينفعه ويحذره مما يضره لذا كان عليه أن يتأدب مع الداعية. وهذا جلي وواضح في قول أصحاب ابن عمر له: "أصلحك الله" "غفر الله لك" وقد قال الله تعالى للمؤمنين وهم المدعوون: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٨٢.

(٢) سورة لقمان، آية: ١٣.

(٣) أخرجه البخاري ٦٩١٨، ومسلم ١٢٤.

(٤) سورة الانشقاق، الآيتان: ٧، ٨.

(٥) أخرجه البخاري ٤٩٣٩، ومسلم ٢٨٧٦.

وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾[١].

وكان ثابت بن قيس بن شمّاس رضي الله عنه رفيع الصوت فقال: ((أنا الذي كنت أرفع صوتي على رسول الله صلى الله عليه وسلم، حبط عملي، أنا من أهل النار، وجلس في أهله حزينًا، فتفقده رسول الله صلى الله عليه وسلم، فانطلق بعض القوم إليه فقالوا له: تفقدك رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك؟ فقال: أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي، وأجهر بالقول، حبط عملي وأنا من أهل النار، فأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فأخبروه بما قال، فقال: لا بل هو من أهل الجنة)) قال أنس: ((وكنا نراه يمشي بين أظهرنا، ونحن نعلم أنه من أهل الجنة، فلما كان يوم اليمامة كان فينا بعض الانكشاف، فجاء ثابت بن قيس بن شماس وقد تحنط ولبس كفنه، فقال: بئسما تعوِّدون أقرانكم، فقاتلهم حتى قتل))[٢].

قال ابن العربي: (حرمة النبي صلى الله عليه وسلم ميتًا كحرمته حيًا، وكلامه المأثور بعد موته من الرفعة مثل كلامه المسموع من لفظه، فإذا قرئ كلامه وجب على كل حاضر ألا يرفع صوته عليه ولا يعرض عنه، كما كان يلزمه ذلك في مجلسه عند تلفظه به، وقد نبّه الله تعالى على دوام الحرمة المذكورة على مرور الأزمنة بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾[٣]، وكلام النبي صلى الله عليه وسلم من الوحي وله من الحرمة مثل ما للقرآن إلا معاني مستثناة، بيانها في كتب الفقه)[٤].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: امتثال الصحابة رضي الله عنهم لما أرشد إليه النبي صلى الله عليه وسلم:

وهذا واضح من إكرام عبدالله بن عمر رضي الله عنهما لصديق أبيه وعلّل ذلك بقوله: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "إن أبرَّ البرِّ صلة الرجل أهل ودِّ أبيه".

وقد قال الله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ

---

(١) سورة الحجرات، آية: ٢.

(٢) أخرجه أحمد ٣٦/٣ رقم ١٢٣٩٩ وهذا لفظه، والبخاري ٣٦١٣، ٤٨٤٦، ومسلم ١١٩.

(٣) سورة الأعراف، آية: ٢٠٤.

(٤) أحكام القرآن، ابن العربي، تحقيق: علي محمد البجاوي ١٧١٤/٤ - ١٧١٥.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾(١).

وقد حدث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: ((أنَّ رسولَ الله ﷺ اصطَنَعَ خاتمًا من ذَهبٍ وكان يَلبَسُهُ، فيَجعلَ فصَّهُ في باطن كفِّه، فصَنَع الناس خواتيم. ثم إنه جَلسَ على المنبرِ فنزَعه فقال: إني كنتُ ألبَسُ هذا الخاتمَ وأجعَلُ فصَّهُ من داخل، فرمى به ثم قال: واللّهِ لا ألبَسُه أبدًا؛ فنبَذَ الناسُ خَواتيمهم))(٢).

قال النووي: (فيه بيان ما كانت الصحابة رضي الله عنهم من المبادرة إلى امتثال أمره ونهيه ﷺ والاقتداء بأفعاله)(٣).

ومن هذا القبيل ما قاله عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما قبَّل الحجر الأسود: لولا أني رأيت رسول الله ﷺ قبّلك ما قبلتك(٤).

قال النووي: (أما قول عمر رضي الله عنه فأراد به بيان الحث على الاقتداء برسول الله ﷺ في تقبيله ونبّه على أنه لولا الاقتداء به لما فعله)(٥).

وقال ابن حجر: (وفي قول عمر هذا التسليم للشارع في أمور الدين وحسن الاتباع فيما لم يكشف عن معانيها، وهو قاعدة عظيمة في اتباع النبي ﷺ فيما يفعله ولو لم يعلم الحكمة فيه)(٦).

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل البر بأصدقاء الوالدين:

إن من إكرام الوالدين والبر بهما إكرام أصدقائهما والإحسان إليهما، وقد حثّ الإسلام على ذلك. فقد وصفه النبي ﷺ بأنه "أبرُّ البرِّ" أو "من أبرّ البرّ".

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٥٨.

(٢) أخرجه البخاري ٧٢٩٨، ومسلم ٢٠٩١.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٣٢٣.

(٤) أخرجه البخاري ١٦١٠، ومسلم ١٢٧٠.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٨٠٢.

(٦) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٤١/٣.

قال ابن هبيرة: (في هذا الحديث إحسان الرجل إلى من بينه وبين أبيه معرفة ومودة، وإن بَعُد ذلك، فإن ابن عمر أكرم هذا الأعرابي، لأن أباه كان صديقًا لعمر)[١].

قال النووي: (في هذا فضل صلة أصدقاء الأب والإحسان إليهم وإكرامهم وهو متضمن لبر الأب لكونه بسببه وتلتحق به أصدقاء الأم والأجداد والمشايخ والزوج والزوجة)[٢].

وقال الطيبي: (المعنى أن من جملة المبرات الفضلى مبرة الرجل مع أحباء أبيه، فإن مودة الآباء قرابة الأبناء، أي إذا غاب أو مات يحفظ أهل ودّه ويحسن إليهم، فإنه من تمام الإحسان إلى الأب، وإنما كان أبرّ، لأنه إذا حفظ غيبته فهو يحفظ حضوره أولى وأحرى)[٣].

وعن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري قال: ((قَدِمْتُ المَدِينَةَ، فَأَتَانِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ فَقَالَ: أَتَدْرِي لِمَ أَتَيْتُكَ؟ قالَ: قُلْتُ: لا. قَالَ: سَمِعْتُ رَسولَ اللَّهِ، يَقُولُ: مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَصِلَ أَبَاهُ فِي قَبْرِهِ، فَلْيَصِلْ إِخْوَانَ أَبِيهِ بَعْدَهُ». وَإِنَّهُ كانَ بَيْنَ أَبِي عُمَرَ، وَبَيْنَ أَبِيكَ إِخَاءٌ وَوُدٌّ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَصِلَ ذَاكَ))[٤]. وبوّب ابن حبان على هذا الحديث: ذكر البيان بأن برّ المرء بإخوان أبيه وصلته إياهم بعد موته من وصْله رحمه في قبره.

خامسًا- من أساليب الدعوة: التوكيد والسؤال والجواب:

أما التوكيد فتصدير النبي ﷺ حديثه بـ"إنّ"، وذلك ليؤكد ما يقوله ويثبته في نفوس المدعوين. وأما السؤال والجواب فكان بين أصحاب ابن عمر وبينه، وقد بيّن لهم ابن عمر بجوابه على أسئلتهم سبب فعله، ومن ثم يرسّخ في أذهانهم ما وضحّه ونقله عن النبي ﷺ.

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٤/٢٧٥.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٣٣.

(٣) شرح الطيبي ٩/١٥١.

(٤) أخرجه ابن حبان في صحيحه ٤٣٢، وقال محققه: إسناده صحيح.

الحديث رقم (٣٤٣)

٣٤٣- وعن أَبي أُسَيد - بضم الهمزة وفتح السين- مالك بن ربيعة الساعدي ﷺ، قَالَ: بَيْنَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُول الله ﷺ إذ جَاءهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ، فَقَالَ: يَا رسولَ اللهِ، هَلْ بَقِيَ مِنْ برِّ أَبَوَيَّ شَيء أبرُّهُما بِهِ بَعْدَ مَوتِهمَا؟ فَقَالَ: **((نَعَم، الصَّلاةُ عَلَيْهِمَا، والاسْتغْفَارُ لَهُمَا، وَإنْفَاذُ عَهْدِهِمَا مِنْ بَعْدِهِما، وَصِلَةُ الرَّحِمِ الَّتي لا تُوصَلُ إلاَّ بِهِمَا، وَإكرامُ صَدِيقهمَا))** رواه أَبُو داود[1].

ترجمة الراوي:

مالك بن ربيعة الساعدي: هو مالك بن ربيعة بن البَدَن بن عامر الأنصاري الساعدي أبو أُسيد مشهور بكنيته وهي بصيغة التصغير.

من كبراء الأنصار، ومن كبار الصحابة المجاهدين، شهد بدرًا وأحدًا والمشاهد كلها. وهو الذي حمل راية قومه بني ساعدة يوم فتح مكة. قال: غزوت مع رسول ﷺ عشرين غزوة، غزوة بعد غزوة[2].

كان قصيرًا أبيض الرأس واللحية كثير الشعر. وقد ذهب بصره آخر حياته قبل مقتل عثمان فقال: الحمد لله الذي لما أراد الفتنة في عباده كفّ بصري.

وكان يحتفظ بذكريات طيبة ومواقف حميدة عن غزوة بدر الكبرى يوم الفرقان فقال مذكرًا الناس: لو كنت اليوم ببدر ومعي بصري لأريتكم الشعب الذي خرجت منه الملائكة، لا أشك ولا أتمارى.

مسنده يبلغ ٢٨ حديثًا. وقيل: إنه هو آخر البدريين موتًا[3].

---

(١) برقم (٥١٤٢). وصحّحه ابن حبان (الإحسان ٤١٨)، وقال الحاكم (١٥٥/٤): هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال العراقي في تخريج الإحياء (١٠٨٢): إسناده حسن. أورده المنذري في ترغيبه (٣٦٧٤).

(٢) أخرجه البزار كما في مجمع الزوائد (٣٦٣/٩).

(٣) الطبقات الكبرى، ابن سعد (٥٥٧/٣) والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٦٥٧، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٢١/٥) والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ١١٥٥، والسير (٥٣٨/٢)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين (١٨/٧) تهذيب التهذيب، ابن حجر (١١/٤) والأعلام، خير الدين الزركلي (٢٦١/٥) وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك (١٦٩٠/٣).

الشرح الأدبي

الحديث في بر الوالدين يشير إلى أن بر الوالدين لا يقتصر عليهما بل يتعداهما إلى أصدقائهما، وأحبابهما، ولا يتوقف على حياتهما بل إنه يستمر حتى بعد موتهما، وسؤال الأعرابي (هَلْ بَقِيَ مِنْ برِّ أَبَوَيَّ شَيء أبرُّهُما بِهِ بَعْدَ مَوتِهِمَا ؟) يدل على أنه كان باراً بوالديه، كما يدل على استعداده، وحبه للخير، وإجابة الرسول ﷺ جاءت ملبية لرغبته تفتح له أبواب البر بعدد من خصال الخير منها: (الصَّلاةُ عَلَيْهِمَا) أي الدعاء لهما، والتعبير بالصلاة عن الدعاء فيه إشارة للصلة بينهما، وهي طاعة لله في صلة لله أيضاً والمعنى الذي بينها وبين الصلاة في الشرع ليس ببعيدة، وقوله: (وَصِلَةُ الرَّحِمِ الَّتي لا تُوصَلُ إلاَّ بهِمَا) فيه جناس بين (صلة)و(توصل) يؤكد وصل ما انقطع من الصلات بموت والديه، وأسلوب القصر الذي بنيت عليه العبارة يشير إلى تقصِّيه لهذه الصلات، وإعادة وصل ما انقطع منها، وفي الحديث تناسب بين الألفاظ، والمعاني، وسجع استدعاه المعنى وحَسُن به اللفظ، مع حسن تقسيم استوعب كل أنواع البر التي يمكن أن يُبَرَّ بها الوالدين بعد موتهما.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم بر الوالدين بعد موتهما، وقد ذكر الفقهاء[1] أن بر الوالدين واجب في حياتهما بالإحسان والطاعة، وبعد الموت يكون البر بالدعاء والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما، والإحسان إلى صديقهما بعد وفاتهما فذاك برهما حينئذ.

(١) بريقة محمودية ١٤٨/٤، وحاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني، علي بن أحمد العدوي ٤٢٥/٢، وأحكام القرآن، ابن العربي، تحقيق: علي محمد البجاوي ٥٤٤/١ وما بعدها، والفتاوى الفقهية الكبرى، ابن حجر ٢٤/٢، والزواجر عن اقتراف الكبائر ، أبو العباس أحمد بن محمد الهيتمي ١٢٢/٢، وغذاء الألباب شرح منظومة الآداب، الإسفراييني الحنبلي ٣٩٢/١ وما بعدها، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٧٠/٨.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة ﭫ على مجالسة النبي ﷺ.

ثانيًا: من آداب المدعو: احترام وتقدير أهل الفضل.

ثالثًا: من آداب المدعو: السؤال عما يفيده.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: بر الوالدين بعد موتهما.

خامسًا: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة ﭫ على مجالسة النبي ﷺ:

لقد كان الصحابة رضوان الله عليهم أحرص ما يكونون على مجالسة النبي ﷺ فبه يقتدون ومنه يتعلمون وعلى سنته يسيرون. لذا أخبر الصحابي عن ذلك فقال: "بينا نحن جلوس عند رسول الله ﷺ".

وقد ورد كثير في هذا المعنى عن الصحابة رضوان الله عليهم قال عمر بن الخطاب ﭬ: ((بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب...))[1].

وقال حنظلة الأسيدي ﭬ: ((نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ. يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ. حَتَّى كَأَنَّا رَأْيَ عَيْنٍ))[2]، وهذا أنس بن مالك يقول: ((بَيْنَما نحنُ جُلوسٌ معَ النبيِّ ﷺ في المسجدِ، دَخَلَ رَجُل على جَمَل فأناخَهُ ...))[3] وأبو هريرة يقول: ((كُنَّا قُعُودا حَوْلَ رَسُولُ اللَّهِ))[4].

ولا يخفى الأثر المحمود لجلوس الصحابة ﭫ مع النبي ﷺ حيث الإفادة من علمه ﷺ والتأدب بآدابه ومعرفة أمور الدين والاستزادة من الخيرات وغير ذلك من الرحمة والبركة والفضل العظيم الذي كان يحصل بالجلوس مع النبي ﷺ.

---

(١) أخرجه مسلم ٨.

(٢) أخرجه مسلم ٢٧٥٠.

(٣) أخرجه البخاري ٦٣، ومسلم ١٢.

(٤) أخرجه مسلم ٣١.

(إن مصاحبة الأخيار وأصحاب الهمم العالية من أعظم ما يبعث الهمة، ويربي الأخلاق الرفيعة في النفس؛ فالإنسان مولع بمحاكاة من حوله، شديد التأثر بمن يصاحبه.

والصداقة الشريفة -لا صداقة المنفعة-تشبه سائر الفضائل من حيث رسوخُها في النفس، وإيتاؤها ثمرًا طيبًا في كل حين؛ فهي تُوجِد من الجبان شجاعة، ومن البخيل سخاء؛ فالجبان قد تدفعه قوة الصداقة إلى أن يخوض في خطر؛ ليحمي صديقه من نكبة.

والبخيل قد تدفعه قوة الصداقة إلى أن يبذل جانبًا من ماله؛ لإنقاذ صديقه من شدة.

فالصداقة المتينة لا تحل في نفس إلا هذبت أخلاقها الذميمة.

فالمتكبر تنزل به الصداقة إلى أن يتواضع لأصدقائه، وسريع الغضب تضع الصداقة في نفسه شيئًا من كظم الغيظ، فيجلس إلى أصدقائه في حلم وأناة، وربما اعتاد التواضع والحلم، فيصير بعد ذلك متواضعًا حليمًا.

بل إن كثيرًا من النابغين يعزون نبوغهم إلى أنهم وفقوا لاختيار صاحب أو أصحاب أثَّروا فيهم أثرًا صالحًا، ونبَّهوا فيهم قوى كانت خاملة.

فإذا ما وفق المرء لصحبة الأجلاء العقلاء من ذوي الدين والمروءة-فإن ذلك من علامات توفيقه، ومن مهيئات نبوغه.

فإذا كان الأمر كذلك فما أجدر المرء أن يبحث عن إخوان ثقات؛ حتى يعينوه على كل خير، ويُقْصِرُوه عن كل شر.

قال ابن حزم (من طلب الفضائل لم يساير إلا أهلها، ولم يرافق في تلك الطريق إلا أكرم صديق من أهل المواساة، والبر، والصدق، وكرم العشيرة، والصبر، والوفاء، والأمانة، والحلم، وصفاء الضمائر، وصحة المودة.

ومن طلب الجاه، والمال، واللذات - لم يساير إلا أمثال الكلاب الكلبة، والثعالب الخلبة، ولم يرافق في تلك الطريق إلا كل عدو المعتقد، خبيث الطبيعة)[1].

---

(١) الهمة العالية معوقاتها ومقوماتها، محمد بن إبراهيم الحمد ٢٠٧-٢٠٨.

فإذا كان هذا يحدث بمصاحبة أصحاب الأخلاق الرفيعة، فكيف يكون الأثر بمصاحبة أفضل الخلق محمد ﷺ وأكملهم خلقًا؟ لذلك فلا عجب أن يكون الصحابة رضي الله عنهم أفضل جيل شهدته البشرية على مرّ العصور وكرّ الدهور.

ثانيًا- من آداب المدعو: احترام وتقدير أهل الفضل:

من الآداب الواجب أن يتحلى بها المدعو أن يتأدب مع الداعية، فيخاطبه بما يليق به من الاحترام والتقدير كما فعل الرجل هنا، فقال: "يا رسول الله".

قد كان الصحابة كثيرًا ما يقولون للنبي ﷺ "بأبي أنت وأمي يا رسول الله"[(١)] عندما كان يسألونه ﷺ عن شيء ومعناه: (أنت مفدًّى أو أفديك بأبي وأمي)[(٢)].

وكان معاذ بن جبل رضي الله عنه يجيب النبي ﷺ فيقول له: "لبيك يا رسول الله وسعديك"[(٣)].

قال النووي: (الأظهر في معناها [أي: لبيك] إجابةً لك بعد إجابة للتأكيد، وقيل معناه: قربًا منك وطاعة لك. وقيل: أنا مقيم على طاعتك. وقيل: محبتي لك. ومعنى سعديك: أي ساعدت طاعتك مساعدة بعد مساعدة)[(٤)].

قال بكر أبو زيد عن أدب الطالب مع شيخه "فليكن شيخك محل إجلال منك وإكرام وتقدير وتلطف، فخذ بمجامع الآداب مع شيخك في جلوسك معه، والتحدث إليه، وحسن السؤال والاستماع، وحسن الأدب في تصفح الكتاب أمامه ومع الكتاب، وتَرْك التطاول والمماراة أمامه، وعدم التقدم عليه بكلام أو مسير أو إكثار الكلام عنده، أومداخلته في حديثه ودرسه بكلام منك. أو الإلحاح عليه في جواب، متجنبًا الإكثار من السؤال لاسيما مع شهود الملأ، فإن هذا يوجب لك الغرور وله الملل. ولا تناديه باسمه مجردًا أو مع لقبه كقولك: يا شيخ فلان. بل قل: يا شيخي أو يا شيخنا.

---

(١) انظر: صحيح البخاري ٧٤٤، ١٢٤١، ١٢٤٢، ١٨٩٧، ومسلم ٣١، ٢٢٦٩.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١١٤.

(٣) أخرجه البخاري ١٢٨، ومسلم ٣٠.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١١١.

فلا تسمّه. فإنه أرفع في الأدب، ولا تخاطبه بتاء الخطاب، أو تناديه من بُعْد من غير اضطرار)[١].

ثالثًا- من آداب المدعو: السؤال عما يفيده:

إن من حكمة السؤال العلم الذي يتبعه العمل، ولذلك كان من آداب المدعو أن يسأل عما يفيده في حياته كما سأل الرجل النبي ﷺ: "يا رسول الله هل بقي من برّ أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما"، فقد سأل الرجل عن بر أبويه بعد موتهما، وهذا لاشك أمر شديد الفائدة والنفع.

وهذا أبوبكر رضي الله عنه يسمع النبي ﷺ يقول: ((مَن أنْفقَ زَوجَين[٢] في سَبيلِ اللهِ نُودِيَ من أبوابِ الجنّةِ: يا عَبدَ اللهِ هذا خيرٌ، فمَن كانَ مِن أهلِ الصلاةِ دُعِيَ من بابِ الصَّلاَةِ، ومَن كان مِن أهلِ الجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الجِهَادِ، ومَنْ كَان مِنْ أَهْلِ الصِّيامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ، ومَن كانَ من أهلِ الصدّقةِ دُعي من بابِ الصدَقة». فقال أبو بكرٍ رضي الله عنه: بأبي أنتَ وأُمي يا رسولَ اللهِ، ما على من دُعى من تلكَ الأبوابِ من ضَرورةٍ، فهل يُدعَى أحدٌ من تلكَ الأبوابِ كلّها؟ قال: نعم، وأرجو أن تكونَ منهم))[٣].

وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: ((جاءتْ أُمُّ سُلَيمٍ إلى رسولِ اللّهِ ﷺ فقالت: يا رسولَ اللّهِ، إنَّ اللّهَ لا يَستَحْيِي مِنَ الحقّ، فهلْ عَلَى المرأةِ مِن غُسْلٍ إذا احتَلَمَتْ؟ قال النبيُّ ﷺ: إذا رأَتِ الماءَ))[٤].

قال النووي: (فيه أنه ينبغي لمن عرضت له مسألة أن يسأل عنها ولا يمتنع من السؤال حياءً من ذكرها. فإن ذلك ليس بحياء حقيقي، لأن الحياء خير كله، والحياء لا يأتي إلا بخير. والإمساك عن السؤال في هذه الحال ليس بخير. بل هو شر، فكيف يكون

(١) حلية طالب العلم، بكر بن عبدالله أبو زيد ص ٣٥-٣٦.

(٢) المراد بالزوجين إنفاق شيئين من أي صنف من أصناف المال من نوع واحد، فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤/١٣٤.

(٣) أخرجه البخاري ١٨٩٧، ومسلم ١٠٢٧.

(٤) أخرجه البخاري ١٣٠، ومسلم ٣١٣.

حياءً)[١]. وجاء في الموسوعة الفقهية: (السؤال على وجه التبين والتعلم عما تمس إليه الحاجة في أمور الدين أو الدنيا مأمور به، أو مباح بحسب حال المسؤول عنه. أما السؤال عما لا تترتب عليه مصلحة دينية ولا دنيوية على طريق التكلف والتعنت لغرض التعجيز وتغليط العلماء فهو غير جائز ومنهي عنه)[٢].

ويروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل بم أدركت العلم؟ قال: بلسان سؤول وقلب عقول وبدن غير ملول[٣].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: بر الوالدين بعد موتهما:

الوالدان لهما فضل عظيم على الابن، لذلك كان برهما لا يقتصر على حياتهما فحسب وإنما يمتد أيضًا إلى ما بعد موتهما كما بيّن النبي ﷺ ذلك فقال: "الصلاة عليهما والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما من بعدهما وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما وإكرام صديقهما".

قال شرف الحق العظيم آبادي: (الصلاة عليهما أي الدعاء ومنه صلاة الجنازة قاله القاري. وفي "فتح الودود": والمراد بها الترحم "والاستغفار لهما" أي طلب المغفرة لهما وهو تخصيص بعد تعميم "وإنفاذ عهدهما": أي إمضاء وصيتهما "وصلة الرحم" أي: إحسان الأقارب ... ولفظ البيهقي[٤]: وصلة رحمهما التي رحم لك إلا من قبلهما)[٥].

قال د. خليل إبراهيم مُلا خاطر: (إن من واجبات البر بالوالدين ومن حقهما على ولدهما أن يدعو لهما بعد وفاتهما بالرحمة والمغفرة ورفع الدرجات وتخفيف الحساب والإكرام بالجنان وإحلال رضوان الله تعالى عليهما... وكل ذلك جزاء ما فعلا وإلا

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٣٠٠، وانظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٧٦/١.

(٢) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٩٦/٢٤.

(٣) كتاب العلم: محمد بن صالح العثيمين، إعداد فهد بن ناصر السليمان ص ٦٠. وانظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ٣٤٥/٣، والمستدرك على الصحيحين، محمد بن عبدالله الحاكم ٥٣٩/٣، ٥٤٠.

(٤) السنن الكبرى، البيهقي ٢٨/٤ وكذلك هو عند ابن حبان ٤١٨.

(٥) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ٢١٩٣.

فإنهما قد أكثرا من الدعاء له من قبل وجوده وبعد وجوده.

قال الله عز وجل: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾[١]. فقد عطف الله تعالى الأمر بالدعاء لهما على ما سبق، وكلها واجبة على الأولاد، حق للوالدين ويلاحظ طلب الرحمة لهما، والربط بين طلب الرحمة وتربية الولد وهو صغير، لأن أكثر تعب الوالدين على الولد كان في حال صغره، فهذا أقلُّ ما يكون مكافأة وجزاءً لهما.

أما الاستغفار لهما فقد قال الله تعالى حكاية عن نوح عليه السلام: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾[٢]، حيث سأل عليه السلام المغفرة له ولوالديه ولمن دخل بيته من المؤمنين، ثم عمّم سؤال المغفرة لكل مؤمن من ذكر أو أنثى... وسؤال الله تعالى المغفرة للوالدين لا يقيد بقيد ولا يشترط بوجود الذنب، لأن من الذنوب ما لا يعرف، كما أن الذنوب درجات تتفاوت، فإذا كانا من أهل الصغائر فإنها تغفر، وإذا كانا من أهل الكبائر فتخفف، وإما إذا كانا من أهل اللمم فإنها تغفر، وإذا لم يكن عندهما ذنوب فترفع درجاتهما.

وأما تنفيذ الوصية بعد وفاتهما فإن الولد-الوارث-مطالب بتنفيذ وصية والده أو والدته - إذا كانت في معروفٍ، وليست في معصية - لأن ذلك واجب في حقه، سواء كانت الوصية مالية أو غيرها[٣].

ومن جميل الأمثلة لإنفاذ الابن وصية أبيه ما فعله عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما، فقد قال له الزبير رضي الله عنه قبل موته: ((يا بُنيَّ، بعْ ما لَنا، فاقضِ دَيني فلما فرَغَ ابنُ الزُّبيرِ من قَضاءِ

(١) سورة الإسراء، الآيتان: ٢٣-٢٤.

(٢) سورة نوح، آية: ٢٨.

(٣) بر الوالدين، د. خليل ملا خاطر ١٦٧، ١٦٩، ١٧٠-١٧١، ١٨٥-١٨٦ بتصرف يسير.

دَينهِ قال بنو الزُّبير: اقسِمْ بيننا مِيراثَنا. قال: لا واللهِ لا أقسِمُ بينَكم حتى أُنادِيَ بالموسم أربعَ سِنين: ألا من كان لهُ على الزُّبيرِ دَينٌ فليَأتِنا فلْنقْضِه))[١].

وكذلك من الواجب على الولد صلة الرحم التي لا توصل إلا بالوالدين (كالجد والجدة -وإن علوا- والعم والعمة والأخ والأخت والخال والخالة وأبنائهم... إلخ، حتى لو كانوا من الرضاع، والنصوص في صلة الرحم كثيرة جدًا... ومن بر الوالدين -بعد وفاتهما- أن يكرم الولد أصدقاء والده، والبنت أصدقاء أمها، وكذا الولد أيضًا، لأن في ذلك وصلاً بالوالدين، واحترامًا لهما، ولأنهما السبب في هذه الصلة)[٢].

خامسًا- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

أجاب النبي ﷺ على سؤال الرجل وبيّن له ما يقوم به تجاه والديه بعد وفاتهما، وذلك لكي يمتثل هو ومن يسمع ومن يقرأ ومن يعلم، وقد كان استخدام الجواب هنا مناسبًا وموفقًا؛ لأنه كان على سؤال من المدعو يحتاج إلى إجابة مباشرة تحمل المضمون في سهولة ووضوح.

---

(١) أخرجه البخاري ٣١٢٩.

(٢) بر الوالدين، د. خليل ملا خاطر ١٩٠، ٢٠٥.

الحديث رقم (٣٤٤)

٣٤٤- وعن عائشة رضي الله عنها ، قَالَتْ: مَا غِرْتُ عَلَى أحَدٍ مِنْ نِسَاءِ النَّبيِّ ﷺ مَا غِرْتُ عَلَى خَدِيجَةَ رضي الله عنها ، وَمَا رَأيْتُهَا قَطُّ[1] ، وَلَكِنْ كَانَ[2] يُكْثِرُ ذِكْرَهَا ، وَرُبَّمَا ذَبَحَ الشَّاةَ ، ثُمَّ يقطِّعُهَا أعْضَاء ، ثُمَّ يَبْعثُهَا في صَدَائِقِ خَدِيجَةَ ، فَرُبَّمَا قُلْتُ لَهُ: كَأنْ لَمْ يَكُنْ في الدُّنْيَا[3] إلاَّ خَدِيجَةَ! فَيَقُولُ: ((إنَّهَا كَانَتْ وَكَانَتْ وَكَانَ لي مِنْهَا وَلَدٌ)) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[4].

وفي رواية[5]: وإنْ كَانَ لَيَذْبَحُ الشَّاة ، فَيُهْدِي في خَلاَئِلِهَا مِنْهَا مَا يَسَعُهُنَّ.

وفي رواية[6]: كَانَ إذَا ذبح الشاة ، يقولُ: ((أَرْسِلُوا بِهَا إِلَى أصْدِقَاءِ خَدِيجَةَ)).

وفي رواية[7]: قَالَت: اسْتَأذَنتْ هَالَةُ بِنْتُ خُوَيْلِد أُخْتُ خَدِيجَةَ عَلَى رَسُول الله ﷺ ، فَعرَفَ اسْتِئذَانَ خَدِيجَةَ ، فَارتَاحَ لِذَلِكَ ، فَقَالَ: ((اللَّهُمَّ هَالةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ)).

قولُهَا: ((فَارتَاحَ)) هُوَ بالحاء ، وفي الجمعِ بَيْنَ الصحيحين للحُميدي[8]: ((فارتاع)) بالعينِ ومعناه: اهتم بهِ.

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

---

(١) (قط) لا توجد عند البخاري في هذه الرواية ، وهي من الجمع للحميدي.

(٢) عند البخاري زيادة: (النبي ﷺ) وهي ليست عند الحميدي في جمعه.

(٣) عند البخاري زيادة: (امرأة).

(٤) أخرجه البخاري (٣٨١٨) واللفظ له ، ومسلم (٢٤٣٥/٧٥).

(٥) أخرجه البخاري (٣٨١٦) من حديث سعيد بن عفير ، عن الليث.

(٦) أخرجه مسلم (٢٤٣٥/٧٥).

(٧) أخرجه البخاري (٣٨٢١) تعليقاً من حديث علي بن مسهر ، ومسلم (٢٤٣٧/٧٨) مسنداً من حديث علي بن مسهر.

(٨) (١١١/٤ ، رقم ٣٢٢٣).

غريب الألفاظ:

خلائلها: الخلائل: المفرد الخليلة: وهي الصديقة المخلصة[١].

يَسَعُهُنَّ: يكفيهنّ[٢].

الشرح الأدبي

النبي ﷺ أكثر الناس وفاءً وأكثرها إخلاصاً، وهذا الحديث يشير إلى ذلك، كما يشير إلى أن الغيرة من طباع النساء، وضرورة صبر الرجال عليهن، وترويه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن تجربة شخصية وقد بدأت بأسلوب النفي الذي قررت عن طريقه أن غيرتها من خديجة فاقت غيرتها من الجميع لمكانتها عند رسول الله ﷺ حتى بعد موتها، وقولها: (وما رأيتها قط) أسلوب نفي مؤكد بلفظ قط فيه دليل على أن سبب غيرتها راجع إلى بقاء مكانتها في قلب رسول الله ﷺ، وقولها: (ولكن كان يكثر ذكرها) من موجبات مكانتها عنده كثرة ذكر محاسنها وجميل أخلاقها، وقولها: (وَرُبَّمَا ذَبَحَ الشَّاةَ، ثُمَّ يقَطِّعُهَا أعْضَاء، ثُمَّ يَبْعثُهَا فِي صَدَائِقِ خَدِيجَةَ) حكاية هذه التفاصيل لذبح الشاة، وتقطيها وإرسالها تأكيد على صدق ما تقول من وفاء الرسول ﷺ لأم المؤمنين خديجة، وبيان لسبب غيرتها منها، وقوله ﷺ: (إِنَّهَا كَانَتْ وَكَانَتْ) كناية عن مواقفها العظيمة مع الرسول ﷺ وقوله: (وَكَانَ لي مِنْهَا وَلَدٌ) لأن جميع أولاده منها إلا إبراهيم فإنه من مارية، وفي الحديث مثال واقعي لأعلى صور الوفاء البشري.

---

(١) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (خ ل ل).

(٢) اللسان والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (و س ع).

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: وفاء النبي ﷺ لخديجة رضي الله عنها بعد موتها.

ثانيًا: من آداب الداعية: الثناء على أهل الفضل.

ثالثًا: من آداب الداعية: سعة صدره وصبره على المدعو.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: بر أصدقاء الزوجة وأقاربها.

خامسًا: من أساليب الدعوة: التوكيد والأمر والنداء.

سادسًا: من وسائل الدعوة: الهدية أو الصدقة.

أولاً- من موضوعات الدعوة: وفاء النبي ﷺ لخديجة رضي الله عنها:

إن النبي ﷺ هو المثل الأعلى في الوفاء، فقد ضرب أحسن المثل في الوفاء لأهله ولأصحابه ولزوجاته، من ذلك وفاؤه لزوجته خديجة رضي الله عنها. وهذا واضحٌ في جميع روايات الحديث، من ذلك: "كان يكثر ذكرها وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء ثم يبعثها في صدائق خديجة رضي الله عنها"، قال النووي: (قوله "فارتاح لذلك" أي هشَّ لمجيئها وسرّ بها لتذكره بها خديجة وأيامها، وفي هذا كله دليل لحسن العهد وحفظ الود ورعاية حرمة الصاحب والعشير في حياته ووفاته وإكرام أهل ذلك الصاحب)[(١)].

ووقع في صحيح مسلم قول عائشة رضي الله عنها: ((فَأَغْضَبْتُهُ يَوْمًا فَقُلْتُ: خَدِيجَةَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: إِنِّي قَدْ رُزِقْتُ حُبَّهَا))[(٢)].

قال ابن حجر: (هي أول من تزوجها ﷺ، وتزوجها سنة خمس وعشرين من مولده في قول الجمهور ... وقد تقدم في أبواب الوحي بيان تصديقها للنبي ﷺ في أول وهلة، ومن ثباتها في الأمر[(٣)] ما يدل على قوة يقينها ووفور عقلها وصحة عزمها، لا جرم كانت أفضل نسائه على الراجح)[(٤)].

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٤٨١.

(٢) أخرجه مسلم ٧٥-٢٤٣٥.

(٣) أخرجه البخاري ٣، ومسلم ١٦٠.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٦٧/٧. وانظر: ١٧٠/٧-١٧١ منه.

قال د. خليل إبراهيم ملا: (والنبي المصطفى الكريم ﷺ قد ضرب المثل الأعلى بالوفاء بالعهد وحسن الوفاء والإحسان لصاحبات خديجة رضي الله عنها، وتفقده لهن وإكرامهن ... حتى غارت السيدة عائشة رضي الله عنها منها، مع أنها لم ترها)[(١)].

إن الداعية قد يرى نماذج مشرقة في الاستجابة لدعوته والامتثال لها، فتستحق منه الثناء عليها تشجيعًا له وترغيبًا لغيره في الاقتداء به. ذلك واضح من قول عائشة إخبارًا عن النبي ﷺ: "كان يكثر ذكرها" وفي رواية للبخاري: ((لكثْرَةِ ذِكْرِ رسولِ الله ﷺ إياها وثنائِهِ عليها))[(٢)] وفي رواية لأحمد (فأطنب في الثناء عليها فأدركني ما يدرك النساء من الغيرة فقلت: لقد أعقبك الله يا رسول الله من عجوزٍ من عجائز قريش حمراء الشدقين[(٣)] قالت: فتغيّر وجه رسول الله ﷺ تغيرًا لم أره تغيرّ عند شيء قط إلا عند نزول الوحي أو عند المَخيلة[(٤)] حتى يعلم: رحمة أو عذاب[(٥)].

وقد فصّل ﷺ أوجه الثناء على خديجة رضي الله عنها، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: ((كان النبيّ ﷺ إذا ذكر خديجة أثنى عليها فأحسن الثناء، قالت: فغِرْتُ يومًا فقلت: ما أكثر ما تَذْكُرُها حمراءُ الشِّدْقِ، قد أبْدَلَكَ الله - عَزَّ وَجَلَّ - بها خيرًا منها، قال: «ما أَبْدَلَني الله - عَزَّ وَجَلَّ - خَيْرًا منها قَدْ آمَنَتْ بي إذ كَفَرَ بي النّاس، وصَدَّقَتني إذ كذَّبني النّاسُ، وَواسَتْني بمالِها إذ حَرَمَني النّاسُ، وَرَزَقَني الله -عَزَّ وَجَلَّ- وَلَدَها إذ حَرَمَني أولادَ النّساءِ))[(٦)].

---

(١) بر الوالدين ٢٠٦.

(٢) أخرجه البخاري ٥٢٢٩.

(٣) أي سقطت أسنانها لكبر سنها حتى ظهرت الحمرةُ في شدقها وهذا كناية عن كونها عجوز، حاشية السندي على مسند أحمد ٣٥٨/٤١.

(٤) أي عند ظهور السحاب في الجو، حاشية السندي على مسند أحمد ٩٠/٤٢.

(٥) أخرجه أحمد ١٥٤/٦ رقم ٢٥٢١٠، وصحح إسناده محققو المسند ١١٧/٤٢-١١٨.

(٦) أخرجه أحمد ١١٨/٦ رقم ٢٤٨٦٤، وقال محققو المسند: حديث صحيح وهذا سند حسن في المتابعات ٣٥٦/٤١.

ونقل ابنُ مفلح القول: (أما من مَدَح على الفعل الحسن والأمر المحمود ترغيبًا في أمثاله، وتحريضًا على الاقتداء به في أشباهه فليس بمداح، وإن كان قد صار مادحًا بما تكلم به من جميل القول)[1].

والمدح الشرعي من أهدافه المهمة التشجيع (والتشجيع بمعناه العام لا يختص بالنوابغ فحسب، ولا يقتصر على المربين والمعلمين، بل هو عام للنوابغ وغيرهم، في العلم أو في أي مجال آخر.

وهو كذلك ليس مسؤولية المربين والمعلمين، بل هو يقع على عاتق كل أحد يستطيع ذلك، سواء من المعلمين أو المربين، أو الوالدين، أو الرؤساء أو غيرهم.

بل هو مسؤولية عامة الناس؛ فبإمكانهم أن يحرِّضوا على الخير، ويعينوا على البر.

فيجدر بمن يستطيع القيام بذلك أن يقوم به، من خلال الكلمة الطيبة، أو المبادرة بالهدية، أو من خلال رسالة الشكر والتقدير، أو غير ذلك.

فلذلك الصنيع أثره البالغ في رفع الهمم، وتنمية المهارة، والشعور بالثقة؛ ذلك أن الناس مجبولون على محبة التشجيع والدعم والشكر.

ولهذا لو تتبعنا سير العلماء والمصلحين، والمجاهدين، ثم بحثنا عن سر نبوغهم وألمعيتهم - لوجدنا أن كثيرًا منهم قد نال ما نال بسبب كلمة سمعها فَغَيَّرت مسار حياته، أو كانت سببًا في ثباته، وصبره، واستشعاره للمسؤولية، أو نحو ذلك.

وقد يصدر ذلك من بعض العامة، فيكون له وقعه وأثره.

عن حسين الكرابيسي قال: (سمعت الشافعي يقول: كنت امرءًا أكتب الشعر، وآتي البوادي فأسمع منهم، وقدمت مكة وأنا أتمثل بشعر للبيد، وأضرب وحشي قدمي بالسوط، فضربني رجل من ورائي من الحجبة فقال: رجل من قريش، ثم ابن المطلب رضي من دينه ودنياه أن يكون مُعَلِّمًا الشعر؟

الشعر إذا استحكمت فيه قعدت معلمًا؛ تفَقَّه يُعلْك الله.

---

(١) الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ٣/٤٣٦.

قال: فنفعني الله بكلام ذلك الحجبي، ورجعت إلى مكة، وكتبت عن ابن عيينة ما شاء الله أن أكتب، ثم كنت أجالس مسلم بن خالد بن عبدالله الزنجي، ثم قدمت على مالك في المدينة، فكتبت موطأه)[١].

وهذا أحمد لما ابتلي بفتنة القول بخلق القرآن كان من أسباب ثباته رجل من عامة الناس، بل هو لص طرار[٢].

قال عبدالله بن أحمد بن حنبل: "كنت كثيرًا أسمع والدي يقول: رحم الله أبا الهيثم، غفر الله لأبي الهيثم، عفا الله عن أبي الهيثم.

فقلت: يا أبه، من أبو الهيثم؟

فقال: لما أخرجت للسياط، ومُدَّتْ يداي للعقابين إذا أنا بشاب يجذب ثوبي من ورائي، ويقول لي: تعرفني؟ قلت: لا.

قال أنا أبو الهيثم العيَّار، اللص الطرَّار، مكتوب في ديوان أمير المؤمنين أني ضُربت ثمانية عشر ألف سوط بالتفاريق وصبرت في ذلك على طاعة الشيطان؛ لأجل الدنيا؛ فاصبر أنت في طاعة الرحمن؛ لأجل الدين)[٣].

ثالثًا- من آداب الداعية: سعة صدره وصبره على المدعو:

إن الداعية الناجح يتسع صدره لما يصدر من المدعو مما يضايق أو يدعو إلى الغضب فلا يقابل هذا الضيق أو الضجر بمثله، وإنما يصبر عليه ويحتويه ويعامله بالإحسان، وذلك واضحٌ في صبر النبي ﷺ على غيرة عائشة وسعة صدره معها عندما كانت تغضب من ذكره ﷺ خديجة.

قال النووي رحمه الله: (قال القاضي عياض[٤]: قال الطبري وغيره من العلماء: الغيرة

---

(١) صفة الصفوة، ابن الجوزي، ١٦٥/٢.

(٢) الطرَّار: النشال يشق ثوب الرجل ويَسُلُّ ما فيه. المعجم المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ط ر ر).

(٣) صفة الصفوة، ابن الجوزي، ٢٢٩/٢-٢٣٠، هذا ... والعيَّار هو الرجل كثير التطواف والحركة يتبع هوى نفسه، مختار الصحاح في (ع ي ر)، والوجيز ٤٤٣.

(٤) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٤٤٣/٧، ٤٤٤.

مسامح للنساء فيها لا عقوبة عليهن فيها لما جُبلن عليه من ذلك ولهذا لم تُزجر عائشة عنها. قال القاضي[١]: وعندي أن ذلك جَرَى من عائشة لصغر سنها وأول شبيبتها ولعلها لم تكن بلغت حينئذ)[٢].

وقال الحافظ ابن حجر: (وهو محتمل مع ما فيه من نظر)[٣] ثم قال: (الغيرة يقع الصفح بها لأن من يحصل لها الغيرة لا تكون في كمال عقلها، فلهذا تصدر منها أمور لا تصدر منها في حال عدم الغيرة)[٤].

وقد كان ﷺ واسع الصدر مع نسائه قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ((تَغَضَّبْتُ يَوْمًا عَلَى امْرَأَتِي، فَإِذَا هِيَ تُرَاجِعُنِي، فَأَنْكَرْتُ أَنْ تُرَاجِعَنِي، فَقَالَتْ: مَا تُنْكِرُ أَنْ أُرَاجِعَكَ؟ فَوَاللَّهِ إِنَّ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ لَيُرَاجِعْنَهُ، وَتَهْجُرُهُ إِحْدَاهُنَّ الْيَوْمَ إِلَى اللَّيْلِ، فَانْطَلَقْتُ فَدَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ، فَقُلْتُ: أَتُرَاجِعِينَ رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَتْ: نَعَمْ، فَقُلْتُ: أَتَهْجُرُهُ إِحْدَاكُنَّ الْيَوْمَ إِلَى اللَّيْلِ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، قُلْتُ: قَدْ خَابَ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْكُنَّ وَخَسِرَ، أَفَتَأْمَنُ إِحْدَاكُنَّ أَنْ يَغْضَبَ اللَّهُ عَلَيْهَا لِغَضَبِ رَسُولِهِ، فَإِذَا هِيَ قَدْ هَلَكَتْ، لاَ تُرَاجِعِي رَسُولَ اللَّهِ وَلاَ تَسْأَلِيهِ شَيْئًا))[٥].

قال ابن حجر رحمه الله: (فيه الصبرُ على الزوجات والإغضاء عن خطابهن[٦] والصفح عما يقع منهن من زلل في حق المرء دون ما يكون من حق الله تعالى)[٧].

وقد ذكر عدة أسباب لاعتزال النبي أزواجه ثم قال: (ويحتمل أن يكون مجموع هذه الأشياء كان سببًا لاعتزالهن وهذا هو اللائق بمكارم أخلاقه ﷺ وسعة صدره وكثرة صفحه)[٨].

---

(١) المرجع السابق.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٤٨١.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٧٤/٧.

(٤) السابق ١٧٥/٧.

(٥) أخرجه البخاري ٥١٩١، ومسلم ٣٤-١٤٧٩.

(٦) أي عن خطاب النساء لأزواجهن وما يكون فيه من شدة وحدة وخروج عن التأدب مع الزوج. والله أعلم.

(٧) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٠٢/٩.

(٨) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٠١/٩.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: بر أصدقاء الزوجة وأقاربها:

كان النبي ﷺ يذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء ثم يبعثها في صدائق خديجة "ويهدي في خلائلها منها ما يسعهن" ويقول: "أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة" ولما استأذنت أختها ارتاح لذلك واهتز لذلك سرورًا وقال "اللهم هالة" قال ابن حجر: (فيه حذف تقديره اجعلها هالة ويحتمل أن يكون خبر مبتدأ محذوف أي: هذه هالة... وفي الحديث أن من أحب شيئًا أحب محبوباته وما يشبهه وما يتعلق به)(١) وقال النووي: (في هذا كله دليل لحسن العهد وحفظ الود ورعاية حرمة الصاحب والعشير في حياته ووفاته وإكرام أهل ذلك الصاحب)(٢).

ورُوي أن ابنًا لخديجة رضي الله عنها اسمه هالة بن أبي هالة دخل على رسول الله ﷺ وهو راقد فاستيقظ النبي ﷺ وضمّ هالة إلى صدره وقال: هالة هالة هالة. كأنه ﷺ سرّ به لقرابته من خديجة رضي الله عنها(٣). قال الحافظ ابن حجر: (فلعله كان لخديجة أيضًا ابنٌ اسمه هالة)(٤).

خامسًا- من أساليب الدعوة: التوكيد والأمر والنداء:

أما التوكيد فقول النبي ﷺ: "إنها كانت وكانت" وذلك ليؤكد على علو مكانة خديجة رضي الله عنها عنده. فهو ﷺ لم يتزوج على خديجة حتى ماتت(٥). قال ابن حجر: (وفيه دليل على عظم قدرها عنده وعلى مزيد فضلها)(٦)، وأما الأمر

---

(١) المرجع السابق ١٧٤/٧.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٤٨١.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط والصغير كما في مجمع الزوائد ٢٧٧/٩ والحاكم ٦٤٠/٤، وقال الهيثمي: فيه جماعة لم أعرفهم: وانظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٧٣/٧، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ١٣٤٨.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٧٣/٧.

(٥) أخرجه مسلم ٧٧-٢٤٣٦.

(٦) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٧٠/٧.

فقوله ﷺ: "أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة "ليبيّن مكانتها عنده، أما النداء فقوله ﷺ "اللهم" وذلك ليبين سروره بمقدم أخت خديجة، لأنها ذكرته بخديجة وبأيامها.

سادسًا- من وسائل الدعوة: الهدية أو الصدقة:

قد أرسل النبي ﷺ أعضاء من الشاة إلى أصدقاء خديجة، وفي هذا دعوة لهن ولمن علم بذلك إلى حسن الوفاء للزوجة في حياتها ومماتها، ومن ثم نشر هذا في المجتمع وبين المسلمين.

جاء في الموسوعة الفقهية: (الهبة والهدية والصدقة أنواع من البر يجمعها تمليك العين بلا عوض، فإن ملّك محتاجًا لطلب ثواب الآخرة فهي صدقة، وإن نقلها إلى مكان الموهوب له إكرامًا له فهدية، وإن ملكه بدون طلب الثواب ولم ينقل إلى مكان الموهوب فهبة محضة)[1].

---

(١) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٤٢/٢٥٣.

الحديث رقم (٣٤٥)

٣٤٥- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه ، قَالَ: خرجت مَعَ جرير بن عبد الله البَجَليّ رضي الله عنه في سَفَرٍ، فَكَانَ يَخْدُمُني، فَقُلْتُ لَهُ: لاَ تَفْعَل، فَقَالَ: إنِّي قَدْ رَأَيْتُ الأنْصَارَ تَصْنَعُ برسول الله صلى الله عليه وسلم شيئًا آلَيْتُ عَلَى نَفسِي[١] أنْ لا أصْحَبَ أحَدًا مِنْهُمْ إلاَّ خَدَمْتُهُ. مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[٢].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

آليت: أقسمتُ وحَلفتُ[٣].

الشرح الأدبي

الحديث يبدأ بأسلوب قصصي خبري دون مؤكدات؛ لأن الخبر حدث شخصي يرويه أنس بن مالك رضي الله عنه في أثناء سفره يبين إجلال الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإجلالهم لإخوانهم وقوله(فَكَانَ يَخْدُمُني) دليل عن تواضع جرير بن عبد الله رضي الله عنه ، وقول أنس رضي الله عنه (لاَ تَفْعَل) نهي من باب التواضع، والأدب، وقوله (إنِّي قَدْ رَأَيْتُ الأنْصَارَ تَصْنَعُ برسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً) كناية عن خدمتهم للرسول صلى الله عليه وسلم وإجلالهم لهم، وتنكير (شيئاً) للتعظيم، والمبالغة وقوله: (آلَيْتُ عَلَى نَفسِي أنْ لا أصْحَبَ أحَداً مِنْهُمْ إلاَّ خَدَمْتُهُ) أسلوب قصر يقصر صحبة جرير بن عبد الله لأحد من الأنصار على خدمته، وقوله (آليت) دليل على عزمه، والحديث يدلل على إجلال الصحابة. ووفائهم له صلى الله عليه وسلم .

---

(١) (على نفسي) لا توجد عند مسلم.

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٨٨)، ومسلم (٢٥١٣/١٨١) واللفظ له.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ، والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (أ ل ى).

فقه الحديث

استحباب رحمة المسافر الذي له نوع فضيلة، وخدمته، حتى وإن كان الخادم أكبر سنًا، فقد كان جرير أكبر من أنس[(١)] رضي الله عن الجميع.

المضامين الدعوية

أولاً: من آداب المدعو: التواضع وحب أهل الفضل.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل الأنصار رضي الله عنهم.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: النهي والتوكيد والقصر.

أولاً- من آداب المدعو: التواضع وحب أهل الفضل:

إن خلق التواضع من الأخلاق المهمة التي يجب أن تنتشر في المجتمع ويتحلى بها المدعوون لما في ذلك من أثر فعال في انتشار الود والألفة بين أبناء المجتمع ولذا كان خلق التواضع من أبرز ما تحلى به الصحابة رضي الله عنهم، ففي هذا الحديث كان جرير رضي الله عنه يخدم أنس بن مالك رضي الله عنه مع أنه كان أكبر منه. في رواية البخاري: صحبت جرير بن عبدالله فكان يخدمني وهو أكبر من أنس" وفي رواية لمسلم "وكان جرير أسنّ من أنس" قال النووي: (وفيه تواضع جرير وفضيلته)[(٢)].

وقد كان التواضع سمة الصحابة رضي الله عنهم وشيمتهم فهذا ثابت البناني التابعي مرّ على صبيان فسلّم عليهم وحدّث: أنه كان يمشي مع أنس بن مالك رضي الله عنه فمرّ بصبيان فسلّم عليهم، وحدّث أنسٌ: أنه كان يمشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فمرّ بصبيان فسلّم عليهم[(٣)].

قال ابن حجر: (قال ابن بطال: في السلام على الصبيان تدريبهم على آداب الشريعة، وفيه طرح الأكابر رداء الكبر، وسلوكُ التواضع ولينُ الجانب)[(٤)].

---

(١) المجموع شرح المهذب، النووي ٣٣٩/٤.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥١٦، وانظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٩٩/٦.

(٣) أخرجه البخاري ٦٢٤٧، ومسلم ١٥-٢١٦٨ واللفظ له.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٥/١١.

وقال الحسن البصري: (التواضع أن تخرج من منزلك ولا تلقى مسلمًا إلا رأيت له عليك فضلاً)[١].

(فالتواضع -في حقيقته- هو بذل الاحترام والعطف والتقدير لمن يستحقه والتواضعُ دليل على كبر النفس وعلو الهمة، وهو في الوقت نفسه سبيل لاكتساب المعالي والترقي في الكمالات.

فهو خلق يرفع من قدر صاحبه ويكسبه رضا أهل الفضل ومودتهم، ويبعثه على الاستفادة من كل أحد. وينأى به عن الكبر والاستنكاف من قبول الحق والأخذ به. ومن هنا يكمل السؤدد ويعلو القدر ويتناهى الفضل ثم إن التواضع يغري باكتساب المعالي من جهة أن الناس يعجبون بالأكابر والعظماء إذا تواضعوا. فيقودهم ذلك إلى محبتهم والاقتداء بهم والسير على منوالهم.

قال ابن المبارك: (كان يقال: الغنى في النفس، والكرم في التقوى والشرف في التواضع، وكان يقال: ثمرة القناعة الراحة وثمرة التواضع المحبة.

ثم إن المتواضع يرفع من أقدار الناس وينزلهم منازلهم. ويشعر النوابغ بقيمتهم واستعدادهم كي يكونوا من ذوي الشرف والمروءات. ثم إن من تواضع لله رفعه، فإذا رفع الله أحدًا فمن الذي سيخفضه ويضعه؟)[٢].

إن الداعية يقدم كل ما يستطيع من أجل نفع المدعو، ولا يدخر وسعًا في ذلك، لذا فإن حب الداعية يملأ قلب المدعو ويتمكن منه، وقد كان هذا الأمر واضحًا جدًا في الصحابة رضي الله عنهم، كما في هذا الحديث.

فقد علّل جرير صنعه بأن قال: إني قد رأيت الأنصار رضي الله عنهم تصنع برسول الله صلى الله عليه وسلم شيئًا آليت على نفسي ألا أصحب أحدًا منهم إلا خدمته.

قال ابن حجر رحمه الله: (في هذا الحديث... فضل جرير وتواضعه ومحبته للنبي صلى الله عليه وسلم)[٣] وقال النووي: (وفيه إكرامه للنبي صلى الله عليه وسلم)[٤]. قال القاضي عياض: (وبالجملة

---

(١) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي ١٩٤٩/٤.

(٢) الهمة العالية معوقاتها ومقوماتها، محمد بن إبراهيم الحمد، ١٨٦-١٨٧.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٩٩/٦.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥١٦.

أصل المحبة الميل إلى ما يوافق المحبّ، ثم الميل قد يكون لما يستلذه بعقله للمعاني الباطنة الجميلة والأخلاق الرفيعة، كمحبة الصالحين والعلماء وأهل الفضائل والخصال العلية، وإن لم يَرَهم ولا قارب زمانهم، أو ميله لمن يحسن إليه وينعم عليه، ويدفع المضار والمكاره عنه، فقد جبلت النفوس على حب من أحسن إليها. وهذا المعاني كلها موجودة في حقّ النبي ﷺ مسبِّبة حبه لما خلق عليه من كمال صورة الباطن والظاهر وكمال خلال الجلال وجماع الفضائل وإحسانه إلى المسلمين بهدايته إياهم إلى الصراط المستقيم ودوام النعيم والإبعاد من الجحيم)[١].

وقالت عائشة رضي الله عنها: ((جاءت هند بنتُ عُتبةَ فقالت: يا رسولَ الله، ما كان على ظهرِ الأرض من أهلِ خِباءٍ أحبُّ إليَّ أن يذلُّوا من أهلِ خِبائك، ثمَّ ما أصبحَ اليومَ على ظهر الأرضِ أهلُ خباءٍ أحبُّ إليَّ أن يَعِزّوا من أهلِ خِبائك. قال: وأيضًا والذي نفسي بيدِهِ))[٢].

قال النووي: (قال القاضي عياض[٣]: أرادت بقولها "أهل خباء" نفسه ﷺ فكنَّتْ عنه بأهل الخباء إجلالاً له. ويحتمل أن تريد بأهل الخباء أهل بيته. والخباء يعبر به عن مسكن الرجل وداره. وأما قوله ﷺ: "وأيضًا والذي نفسي بيده" فمعناه: وستزيدين من ذلك ويتمكن الإيمان من قلبك ويزيد حبك لله ورسوله ﷺ ويقوى رجوعك عن بغضه)[٤].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل الأنصار:

قام الأنصار رضي الله عنهم بدور بالغ الأهمية في نصرة الإسلام ونصرة رسول الله ﷺ وإيواء المهاجرين، وضربوا المثل العليا في الإيثار وأهلكوا أموالهم وبذلوا نفوسهم رخيصة في سبيل الله، لذا كان لهم الفضل العظيم والمكانة العالية، وهذا ما دفع جريرًا رضي الله عنه إلى أن يخدم أنس بن مالك رضي الله عنه ويقول: "رأيت الأنصار تصنع برسول الله ﷺ شيئًا"

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ١/٢٧٨-٢٧٩. وانظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٢١.

(٢) أخرجه البخاري ٣٨٢٥، ومسلم ٧-١٧١٤.

(٣) إكمال المعلم، بفوائد مسلم، القاضي عياض ٥/٥٦٦.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١١٠٢.

(أي من التعظيم، وأبهم ذلك مبالغة في تكثير ذلك)[١] قال ابن حجر: (في هذا الحديث فضل الأنصار)[٢] وقال النووي: (في حديث جرير بن عبدالله وخدمته لأنس إكرامًا للأنصار دليل لإكرام المحسن والمنتسب إليه،وإن كان أصغر سنًا، وفيه تواضع جرير وفضيلته وإكرامه للنبي ﷺ وإحسانه إلى من انتسب إلى من أحسن إليه ﷺ)[٣].

ومن الأحاديث التي تبيّن ما فعله الأنصار من نصرة النبي ﷺ ما رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه من حزن الأنصار بسبب أن النبي ﷺ أعطى الناس من غنائم غزوة حنين ولم يعطهم، ولما بلغه ﷺ حالهم أتاهم فحمد الله وأثنى عليه بالذي هو له أهل ثم قال: ((يا معشر الأنصار ما قالةٌ بلغتني عنكم وَجِدَةٌ وجدتموها في أنفسكم؟ ألم آتكم ضُلالاً فهداكم الله؟ وعالة فأغناكم الله؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟ قالوا: بل الله ورسوله أمنُّ وأفضل، قال: ألا تجيبونني يا معشر الأنصار؟ قالوا: وبماذا نجيبك يا رسول الله؟ ولله ولرسوله المن والفضل، قال: أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم وصدقتم، أتيتنا مكذبًا فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلاً فأغنيناك، أوجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لعاعة[٤] من الدنيا تألفت بها قومًا ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم، أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعون برسول الله ﷺ في رحالكم، فوالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار، ولو سلك الناس شعبًا وسلكت الأنصار شعبًا لسلكت شعب الأنصار اللّهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار، فبكى القوم حتى أخضلُوا لحاهم وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ قِسْمًا وحظًا))[٥]. وقد قال النبي ﷺ: ((آيةُ

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٩٩/٦.

(٢) المرجع السابق ٩٩/٦.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥١٦.

(٤) لُعاعة: بضم اللام: الجرعة من الشراب والمراد: الشيء اليسير والقدر القليل. حاشية السندي على مسند أحمد ٢٥٦/١٨.

(٥) أخرجه أحمد ٣/ ٧٦ رقم ١١٧٣٠ وحسن إسناده محققو المسند ٢٥٣/١٨، والحديث أصله في الصحيحين من رواية عبدالله بن زيد بن عاصم رضي الله عنه، أخرجه البخاري ٤٣٣٠، ومسلم ١٠٦١، ومن حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أخرجه البخاري ٣١٤٧، ومسلم ١٠٥٩.

الإِيمانِ حُبُّ الأنْصارِ، وآيةُ النِّفاقِ بُغْضُ الأنْصار))[١].

قال ابن حجر: (الأنصار: أي أنصار رسول الله ﷺ والمراد الأوس والخزرج... فسماهم رسول الله ﷺ الأنصار، فصار ذلك علمًا عليهم، وأطلق أيضًا على أولادهم وحلفائهم ومواليهم، وخصوا بهذه المنقبة العظمى لما فازوا به دون غيرهم من القبائل من إيواء النبي ﷺ ومن معه والقيام بأمرهم ومواساتهم بأنفسهم وأموالهم وإيثارهم إياهم في كثير من الأمور على أنفسهم، فكان صنيعهم لذلك موجبًا لمعاداتهم جميع الفرق الموجودين من عرب وعجم، والعداوة تجرّ البغض ثم كان ما اختصوا به مما ذكر موجبًا للحسد، والحسد يجر البغض، فلهذا جاء التحذير من بغضهم والترغيب في حبهم حتى جعل ذلك آية الإيمان والنفاق، تنويهًا بعظيم فضلهم وتنبيهًا على كريم فعلهم)[٢].

ثالثًا- من أساليب الدعوة: النهي والتوكيد والقسم والقصر:

أما النهي فقول أنس لجرير رضي الله عنهما: "لا تفعل" وذلك تحرجًا من أن يخدمه جرير وهو أكبر منه سنًا.

أما التوكيد فقول جرير رضي الله عنه ردًا على نهي أنس رضي الله عنه: "إني قد رأيت" ليؤكد عزمه على خدمة كل من كان من الأنصار، لأنهم نصروا النبي ﷺ نصرًا مؤزرًا، فكان توكيده لإظهار حبه للنبي ﷺ ومن هذا الحب حبٌّ من نصره وأعانه ﷺ، ومن ثم كان القسم مناسبًا لبيان عزم جرير على ذلك فقال: (آليت: أي حلفت)[٣]، وزاد هذا الحرص على الخدمة وإكرام الأنصار بأن عبر بأسلوب القصر "أن لا أصحب أحدًا منهم إلا خدمته"، ليشمل ذلك كل الأنصار صغيرهم وكبيرهم، حبًا لمن أحسن إلى النبي ﷺ وانتسب إليه، فإن من حب الحبيب حبَّ من أحسن إليه وأعزه.

---

(١) أخرجه البخاري ١٧، ومسلم ٧٤.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٨١/١. وانظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٤١.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٩٩/٦.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

الوفاء من خلق الإسلام، ولا يقف عند حد معين ولكنه يتأكد بحق الأقارب والأزواج والأصدقاء.. ومن الإشارات اللطيفة في هذا الباب ما ورد على لسان أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها كانت تغار من أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها، ولم تكن الغيرة راجعة إلى رؤيتها وإنما مرد الغيرة إلى كثرة ثناء الرسول ﷺ عليها من ناحية، وإلى بشره بصواحباتها من ناحية ثانية، وفرحته بزيارة أختها من ناحية ثالثة، ومما ننتفع به في مقام التربية والتعليم بشأن هذا الباب ما يلي:

أولاً- تدعيم العلاقات الاجتماعية:

لم يأمرنا رسول الله بصلة الأرحام وحدها، بل أيضًا حرص على صلة الأصدقاء ومن تربطنا بهم علاقات وثيقة تقوم على التآخي في الله، وتزداد أهمية هذه الصلة، إذا كانت تتعلق بأصدقاء الآباء والأمهات، وهذا ما أكده النبي ﷺ في قوله: «إِنَّ أَبَرَّ الْبِرِّ أَنْ يَصِلَ الرَّجُلُ أَهْلَ وُدِّ أَبِيهِ»، وفي تعليل عبدالله بن عمر لاحترامه للأعرابي يقول: «إِنَّ أَبَا هذَا كَانَ وُدًّا لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه ...».

وفي حديث آخر يقرن الرسول ﷺ إكرام أصدقاء الأبوين: «بِالصَّلاَةِ عَلَيْهِمَا، وَالاسْتِغْفَارِ لَهُمَا، ... وَإِكْرَامُ صَدِيقِهِمَا».

وفي هذه اللمحة الإنسانية بُعد تربوي واجتماعي حرص عليه الإسلام، وعمل على تربية المؤمن عليه، وقد أكد النبي ﷺ على ذلك، نظرًا للآثار الاجتماعية المحمودة والمترتبة على هذا السلوك التربوي في صلة أصدقاء الأب والأم والأقارب، ومن ترتبط بهم صلات وثيقة.

"وقد مضت أجيال المسلمين المتتالية منذ جيل الصحابة حتى وقت قريب، وفق هذه التعاليم السامية والمثل العليا، فكانت تكثر في مجتمعهم أعمال المروءة والفتوة والسعي في الخير والرفق بالآخرين، وسائر صنائع المعروف، ولكنَّ هذه المظاهر خفت في الأجيال المعاصرة"[1].

---

(١) التربية الروحية والاجتماعية في الإسلام، د. أكرم ضياء العمري، ص٢٤٩.

ولا شك أن تربية الأجيال على هذه القيم التربوية من الوفاء للوالدين -حتى ولو بعد رحيلهما- تعمق في النفوس أهمية التواصل الاجتماعي وأداء حقوق الأخوة التي من مقتضياتها: السؤال والتقدير وتقديم أي لون من ألوان الكرم.

ثانيًا- التربية على الوفاء والإخلاص وردِّ الجميل:

وفي هذا الباب حثٌّ على الإخلاص والوفاء لطرفين:

أولهما: الأبوان: فهما أولى الناس ببر الابن، ولكن هذا البرَّ لا يتوقف عند موتهما؛ إنما يبقى الوفاء لهما حتى بعد موتهما، بصلة أصدقائهما والصلاة عليهما، والاستغفار لهما.

ثانيهما: الزوجة: ويتبدَّى ذلك جليًا في وفائه ﷺ لزوجه خديجة رضي الله عنها، فكان وفيًّا لها بعد موتها، حتى قالت عائشة رضي الله عنها: «مَا غِرْتُ عَلَى أَحَدٍ مِنْ نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ، مَا غِرْتُ عَلَى خَدِيجَةَ رضي الله عنها، ... وَرُبَّمَا ذَبَحَ الشَّاةَ ثُمَّ يُقَطِّعُهَا أَعْضَاءً، ثُمَّ يَبْعَثُهَا فِي صَدَائِقِ خَدِيجَةَ ...».

فلا اعتبار للمسلم إذا لم يتحلَّ بخلق الوفاء، "فما على القدوة إلا أن يتأمل نفسه مليًّا ليرى مكان الوفاء فيها ويحرص أن يكون وفيًّا رادًّا للجميل، لا تضيع عنده صنائع المعروف، وإلا فهو كمن يزرع البذور في بيت النار، ولقد كان رسول الله ﷺ القدوة المثلى في الوفاء وردِّ الجميل، مما كان له أبلغ الأثر في نفوس المسلمين وغيرهم، وكان الوفاء عنده بمثابة الأمان الذي يستظلون بظله"(١).

وفي أحاديث هذا الباب موقف رائع من مواقف إكرام من هو أهل للإكرام، يتمثل في خدمة جرير بن عبدالله البجليِّ لأنس بن مالك رضي الله عنهما، عندما خرجا في سفر، وكان تعليل ذلك أن قال لأنس: «رَأَيْتُ الأَنْصَارَ تَصْنَعُ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ شَيْئًا، آلَيْتُ أَنْ لاَ أَصْحَبَ أَحَدًا مِنْهُمْ إِلاَّ خَدَمْتُهُ».

ثالثًا- التربية بالممارسة العملية:

وهي من الطرق الفعّالة وغير المباشرة في التربية الخلقية، والذي يريد أن يربي غيره

(١) أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد العاني، ص٣٦٢.

بمجرد الوعظ والكلام لا ينجح ولا يكون له نفس الأثر الناجم عن الذي يربي بالكلام، والعمل بما يتكلم به، وهذا هو المقصود بالقدوة[(١)].

وفي هذا الباب خمسة أحاديث، منها ثلاثة تصور الأساس الأخلاقي بالقدوة والمثل، وليس بمجرد الوعظ النظري.

وذلك يتبدّى في موقف عبدالله بن عمر من الأعرابي ابن صديق عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "إن أبا هذا كان وُدًّا لعمر بن الخطاب ...".

وكذلك موقف النبي صلى الله عليه وسلم من صديقات خديجة رضي الله عنها... "ذبح شاة ثم يقطعها أعضاء ثم يبعثها في صدائق خديجة ...".

وآخر الأحاديث في هذا الباب يصور موقفًا عمليًا جليلاً لصحابي يكرم صحابيًّا من الأنصار، لأنهم كانوا قد أكرموا رسول الله صلى الله عليه وسلم وبكل سبيل استطاعوه.

رابعًا- من أساليب التربية: المناقشة والحوار:

وهذا واضح من أحاديث الباب، ولا شك أن الحوار يفعّل دور المتعلم في العملية التعليمية لأنه ينقل العملية التعليمية من الاعتماد على المعلم إلى المشاركة الإيجابية من قبل المتعلم. وبالحوار يتم تبادل الأفكار والآراء بين المعلم والمتعلمين بحرية، بغية تعميق وإيضاح بعض المفاهيم والموضوعات التي تحتاج إلى توضيح.

❁ ❁ ❁

(١) أصول التربية الإسلامية، د. محمد علي عزب، ص٢٥٧.

٤٣- باب إكرام أهل بيت رسول الله ﷺ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[الأحزاب: ٣٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾[الحج: ٣٢].

الحديث رقم (٣٤٦)

٣٤٦- وعن يزيد بن حَيَّان، قَالَ: انْطَلَقْتُ أنَا وحُصَيْنُ بْنُ سَبْرَة، وَعَمْرُو بن مُسْلِم إِلَى زَيْد بْنِ أرقَمَ رضي الله عنه، فَلَمَّا جلسْنَا إِلَيْهِ قَالَ لَهُ حُصَيْن: لَقَدْ لقِيتَ يَا زَيْدُ خَيْراً كَثِيراً، رَأيْتَ رَسُول الله ﷺ، وسمعتَ حديثَهُ، وغَزَوْتَ مَعَهُ، وَصَلَّيْتَ خَلْفَهُ: لَقَدْ لَقِيتَ يَا زَيْدُ خَيْراً كَثيراً، حَدِّثْنَا يَا زَيْدُ مَا سَمِعْتَ مِنْ رسولِ الله ﷺ قَالَ: يَا ابْنَ أخِي، وَاللهِ لقد كَبِرَتْ سِنِّي، وَقَدُمَ عَهدِي، وَنَسيتُ بَعْضَ الَّذِي كُنْتُ أعِي مِنْ رسولِ الله ﷺ، فما حَدَّثْتُكُمْ فَاقْبَلُوا، ومَا لا فَلاَ تُكَلِّفُونيهِ. ثُمَّ قَالَ: قام رَسُول الله ﷺ يَوماً فينا خَطِيباً بمَاء يُدْعَى خُمّاً بَيْنَ مَكَّةَ وَالمَدينَةِ، فَحَمِدَ الله، وَأثْنَى عَلَيهِ، وَوعظَ وَذَكَّرَ، ثُمَّ قَالَ: ((**أمَّا بَعدُ، ألاَ أيُّهَا النَّاسُ، فَإِنَّمَا أنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أنْ يَأْتِي رسولُ رَبِّي فَأُجِيبَ، وَأنَا تارك فيكم ثَقَلَيْنِ: أوَّلُهُمَا كِتَابُ اللهِ، فِيهِ الهُدَى وَالنُّورُ، فَخُذُوا بِكتَابِ الله، وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ**))، فَحَثَّ عَلَى كِتَابِ الله، وَرَغَّبَ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: ((**وَأهْلُ بَيْتِي أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أهلِ بَيْتِي، أذكِّرُكُمُ اللهَ فِي أهل بيتي**)) فَقَالَ لَهُ حُصَيْنٌ: وَمَنْ أهْلُ بَيتِهِ يَا زَيْدُ، أَلَيْسَ نِسَاؤُهُ مِنْ أهْلِ بَيْتِهِ؟ قَالَ: نِسَاؤُهُ مِنْ أهْلِ بَيتِهِ، وَلكِنْ أهْلُ بَيتِهِ مَنْ حُرِمَ الصَّدَقَةَ بَعدَهُ، قَالَ: وَمَنْ هُمْ؟ قَالَ: هُمْ آلُ عَلِيٍّ وَآلُ عَقيلٍ وَآلُ جَعفَرَ وَآلُ عَبَّاسٍ. قَالَ: كُلُّ هؤلاء حُرِمَ الصَّدَقَةَ؟ قَالَ: نَعَمْ. رواه مسلم(١).

وفي روايةٍ(٢): ((**ألاَ وَإنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أحَدُهُما كِتَابُ الله وَهُوَ حَبْلُ الله، مَنِ اتَّبَعَهُ كَانَ عَلَى الهُدَى، وَمَنْ تَرَكَهُ كَانَ عَلَى ضَلاَلَة**)).

---

(١) برقم (٢٤٠٨/٣٦). وسيكرره المؤلف برقم (٧١٢).

(٢) مسلم (٢٤٠٨/٣٧). وسيكررها المؤلف برقم (٧١٢).

ترجمة الراوي:

زيد بن أرقم: هو زيد بن أرقم بن النعمان الأنصاري.

كان من خواص الصحابة، وكان يتيماً في حجر عبدالله بن رواحة رضي الله عنه، غزا مع النبي صلى الله عليه وسلم سبعَ عشرة غَزْوَةً، وقد استصغره النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد، وكانت الخندق أول مشاهده، وقيل المُريسيع.

وهو الذي رفع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عبدالله بن أُبي بن سلول قوله: ﴿ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ﴾[1].

فكذبه عبدالله بن أبي، وحلف، فأنزل الله تصديق زيد بن أرقم، فتبادر أبوبكر وعمر رضي الله عنهما إلى زيد ليبشِّراه، فسبق أبوبكر، فأقسم عمر لا يبادره بعدها إلى شيء وبعث النبي صلى الله عليه وسلم إلى زيد فقال له ((إن الله قد صدقك يا زيد))[2].

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث كثيرة بلغت ٧٠ حديثاً.

وقد شهد صفين مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان يعدُّ من الكوفيين، فقد نزل الكوفة وسكنها.

وتوفي أيام المختار بالكوفة سنة ٦٦هـ، وقيل ٦٨هـ[3].

غريب الألفاظ:

حبل الله: نور هداه، وقيل: عهده وأمانه الذي يُؤمن من العذاب. والحبل: العهد والميثاق[4].

---

(١) سورة المنافقون، الآية: ٨.

(٢) أصل الخبر في البخاري، رقم (٤٩٠٠) و(٤٩٠٤)، ومسلم (٢٧٧٢).

(٣) الطبقات الكبرى، ابن سعد (١٨/٦)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر (٢٤٨-٢٤٩)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٣٤٢/٢-٣٤٤)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي (٤٤٣-٤٤٤)، وسير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط (١٧٣٦/٢)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين (٦٤/٣)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٦٥٨/١)، والأعلام، خير الدين الزركلي (٥٦/٣).

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ح ب ل).

الشرح الأدبي

التعبير بالقيام مؤذن بمهم يتلوه، وحرف الجر المتصل بضمير الجمع (فينا) يؤكد الاحتشاد لهذا المهم، ثم إن الحمد، والثناء، والموعظة من لوازم خطبته ﷺ ثم إنه بدأ بفصل الخطاب بقوله (أما بعد) فصلاً للمقدمة عن موضوع الخطبة تلاه أداة الاستفتاح (ألا) وهي أشبه بطرقة عنيفة على الأسماع أتبعه بنداء الجمع (أيها الناس) الذي يؤكد أهمية الأمر، ويجعل الجميع في دائرة الحوار معنيين بما يتلوه، ثم أعقبه أسلوب قصر بإنما لنفسه ﷺ على كونه بشراً ونفي ما عداه من كونه ملكاً لا يموت، وهو تمهيد لما يريد أن يقرر من قرب الأجل، والذي قرره قوله(يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب) وقد طوت العبارة أسراراً متعددة منها أن إتيان رسول ربه وإجابته له كناية عن موته ﷺ ومنها: أن التعبير بـ(يوشك) يقرر اقتراب ذلك مما يكون له أعظم الأثر في تلقيهم لما يقول ومنها: أن إضافة ضمير المتكلم لكلمة (رب) فيها استشعار للحظة القرب ورغبة في لازم الربوبية من العناية، والتربية، والحفظ عند الخطوب، ومنها: الربط بالفاء التي ترتب الإجابة علي الإتيان وتوحي بالسرعة مما يدل على شوقه إلى لقاء ربه، وقوله: (وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ) وهذه الجملة تمهيد لتربة القلوب لتستقبل موعظة مودع بسمع مصغٍ وقلبٍ متفتح لا ينساها وتعبيره بالجملة الإسمية يفيد الثبات والدوام، وتصدير الكلام بالضمير (أنا) العائد عليه ﷺ ربط وجداني بحديث المودع السابق، ووصل له باللاحق؛ لأنها الفائدة التي يمهد لها وهي الوصية بالتمسك بكتاب الله وأهل بيته، وتنكير (الثقلين) للتعظيم وهو أسلوب توشيح يؤكد المعنى لأنه ذكر مثنى مجملاً ثم فصّله بقوله (أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ) وإضافة الكتاب لله ارتقاء به لذروة الشرف التي ليس فوقها مرتقى لكتاب، وجملة (فيه الهدى والنور) تقديم الجار والمجرور (فيه) تفيد اختصاصه بهداية الناس وإرشادهم دون غيره من الكتب، وفيه إشارة خفية إلى تعرض الأمة لفتن ومحن لا تخرج منها إلا بكتاب الله يضيء لها الطريق كما أن فيه إشارة إلى أن الإنسان في الحياة كالساري بليل مظلم يحتاج إلى ما يضيء طريقه وهو كتاب الله مع كل مؤمن وفي قوله: (وَأَهْلُ بَيْتِي أُذَكِّرُكُمْ اللَّهَ فِي

أَهْلِ بَيْتِي) إيجاز بالحذف تقديره: وثانيهما، والتكرار في الجملة يفيد التعظيم لشأنهم والتنبيه إلى فضلهم، ووجوب العناية بهم أينما كانوا ومهما تقلب بهم الزمان.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكمين أحدهما أصولي والآخر فقهي:

الأول: الحكم الأصولي، وهو أن المصدر الذي يؤخذ منه الأحكام هو كتاب الله تعالى ثم السنة، فإن وجد الحكم في كتاب الله عمل به، وإن لم يوجد ووجد في السنة عمل به، ولا يعدل عنهما إلى غيرهما مع وجود أحدهما فإن لم يوجد نص من كتاب أو سنة فحينئذ يؤخذ بالإجماع ثم القياس[1].

والثاني: فقهي وهو حكم دفع الصدقة لآل بيت النبي عليه الصلاة والسلام، وقد سبق الكلام عنه في الحديث رقم (٢٩٨).

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل الصحابة رضي الله عنهم.

ثانياً: من آداب المدعو: الحرص على التعلم من الداعية.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: التمسك بكتاب الله والاعتصام به.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: إكرام أهل بيت رسول الله ﷺ.

خامساً: من حقوق المدعو: السؤال عما يشكل عليه.

سادساً: من وسائل الدعوة: الخطبة.

سابعاً: من أساليب الدعوة: التنبيه والنداء والقصر والأمر والتكرار والسؤال والجواب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل الصحابة رضي الله عنهم:

إن جيل الصحابة هم خير القرون والأجيال، فقد صحبوا النبي ﷺ وبذلوا الغالي

---

(١) كشف الأسرار عن أصول البزدوي لعبدالعزيز بن أحمد بن محمد البخاري ١٩/١، شرح التلويح على التوضيح لمسعود بن عمر التفتازاني ٤٦/١ وما بعدها، التقرير والتحبير شرح التحرير لابن أمير الحاج ٢١٢/٢، حاشية العطار على شرح الجلال المحلي لحسن بن محمد العطار ٢٨٩/١ وما بعدها، المستصفى للغزالي ص ٨٠، شرح الكوكب المنير لأبي البقاء تقي الدين الفتوحي ص ١٦٢ وما بعدها.

والرخيص في الدفاع عن دين الله وعن نصره رسول الله ﷺ لذا استحقوا من الفضل ما عرفته الأجيال التي بعدهم وتمنوا أن يكون لهم هذا الفضل أو بعضه، وذلك واضح في قول التابعي للصحابي "لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً رأيت رسول الله ﷺ وسمعت حديثه وغزوت معه وصليته خلفه، لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً".

وقد قال الله عز وجل مخاطباً إياهم: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ﴾(١).

قال ابن القيم: (أخبر سبحانه أنه اجتباهم، والاجتباء كالاصطفاء، وهو افتعال من "اجتبى الشيء يجتبيه" إذا ضمّه إليه وحازه إلى نفسه، فهم المجتبون الذين اجتباهم الله إليه وجعلهم أهله وخاصته وصفوته من خلقه بعد النبيين والمرسلين، ولهذا أمرهم سبحانه أن يجاهدوا حق جهاده فيبذلوا له أنفسهم ويفردوه بالمحبة والعبودية ويختاروه وحده إلهاً معبوداً محبوباً على كل ما سواه كما اختارهم على من سواهم، فيتخذونه وحده إلههم ومعبودهم الذي يتقربون إليه بألسنتهم وجوارحهم وقلوبهم ومحبتهم وإرادتهم فيؤثرونه في كل حال على من سواه كما اتخذهم عبيده وأولياءه وأحباءه وآثرهم بذلك على من سواهم)(٢).

وقال ابن مسعود رضي الله عنه ((من كان متأسياً فليتأس بأصحاب محمد ﷺ، فإنهم كانوا أبرَّ هذه الأمة قلوباً وأعمقها علماً وأقلها تكلفاً وأقومها هدياً وأحسنها حالاً، قوماً اختارهم الله تعالى لصحبة نبيه ﷺ فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم في آثارهم، فإنهم كانوا على الهدي المستقيم))(٣).

---

(١) سورة الحج، الآية: ٧٨.

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، تحقيق: رائد صبري بن أبي علفة ١٢٣/٤-١٢٤.

(٣) أخرجه أبونعيم في الحلية ٣٠٥/١-٣٠٦، وابن عبدالبر في جامع بيان العلم وفضله ١٨١٠/٢، وقال محقق الجامع: الأثر لا بأس به.

وقال أيضاً ابن مسعود ﵁: ((إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون على دينه))[1].

جاء في الموسوعة الفقهية: (قال ابن الصلاح: ثم إن الأمة مجمعة على تعديل جميع الصحابة، ومن لابس الفتن منهم فكذلك، بإجماع العلماء الذين يعتد بهم في الإجماع، إحساناً للظن بهم، ونظراً إلى ما تمهد لهم من المآثر، وكأن الله سبحانه وتعالى أتاح الإجماع على ذلك لكونهم نقلة الشريعة.

وجميع ما ذكرنا يقتضي القطع بتعديلهم، ولا يحتاجون مع تعديل الله ورسوله لهم إلى تعديل أحد من الناس، ونقل ابن حجر عن الخطيب في "الكفاية" أنه لو لم يرد من الله ورسوله فيهم شيء مما ذكرناه لأوجبت الحال التي كانوا عليها من الهجرة، والجهاد، ونصرة الإسلام، وبذل المهج والأموال، وقتل الآباء، والأبناء، والمناصحة في الدين، وقوة الإيمان واليقين: القطع بتعديلهم، والاعتقاد بنزاهتهم، وأنهم كافة أفضل من جميع الخالفين بعدهم والمعدّلين الذين يجيئون من بعدهم، ثم قال: هذا مذهب كافة العلماء، ومن يعتمد قوله، وروى بسنده إلى أبي زرعة الرازي قال: إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق، ذلك أن الرسول ﷺ حق، والقرآن حق، وماجاء به حق، وإنما أدى إلينا ذلك كله الصحابة، وهؤلاء يريدون أن يجرحوا شهودنا، ليبطلوا الكتاب والسنة، والجرح بهم أولى، وهم زنادقة)[2].

ثانياً- من آداب المدعو: الحرص على التعلم من الداعية:

حض الإسلام على التعلم وعلى سؤال أهل العلم، لذا كان على المدعو أن يسأل الداعية حتى يعرف ما يجهله ويحسن ما يفعله ويلازم ما كان صواباً ويجتنب ما كان غير ذلك. وهذا ما دفع التابعي أن يقول للصحابي: "حدثنا يازيد ما سمعت من رسول الله ﷺ" فقد حضروا إلى زيد ﵁ من أجل أن يسمعوا حديث النبي ﷺ.

---

(١) أخرجه أحمد ٣٧٩/١ رقم ٣٦٠٠، وقال محققو المسند: إسناده حسن ٨٤/٦.

(٢) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٣١٤/٢٦ ومصادرها ومراجعها.

وقد كان هذا الأدب من آداب الصحابة رضي الله عنهم.

من ذلك ما قاله ابن عباس رضي الله عنهما: ((لم أزل حريصاً على أن أسأل عُمَرَ بن الخطاب عن المرأتين من أزواج النبيِّ صلى الله عليه وسلم اللتَين قال الله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ﴾[١] حتى حجَّ وحَجَجْت معه، وعدَل وعدلت معه بإدواةٍ[٢]، فَتبرزَ ثم جاءَ فسكَبت على يديه منها فتوَضأ، فقال له: يا أمير المؤمنين من المرأتان من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم اللتان قال الله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ﴾، قال: واعجبًا لك يا ابن عباس، هما عائشةُ وحَفصة))[٣].

وفي رواية: ((مكثتُ سنةً أريدُ أن أَسأَل عُمرَ بن الخطاب عن آيةٍ فما أستطيع أن أسْأَله هيبةً له))[٤].

قال ابن حجر: (وفيه حسن تلطف ابن عباس وشدة حرصه على الاطلاع على فنون التفسير، وفيه طلب علو الإسناد لأن ابن عباس أقام مدة طويلة ينتظر خلوة عمر ليأخذ عنه، وكان يمكنه أخذ ذلك بواسطة عنه ممن لا يهاب سؤاله كما كان يهاب عمر، وفيه حرص الصحابة رضي الله عنهم على طلب العلم والضبط بأحوال الرسول صلى الله عليه وسلم. وفيه البحث في العلم في الطرق والخلوات وفي حال القعود والمشي)[٥].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: التمسك بكتاب الله والاعتصام به:

الاعتصام بكتاب الله هو طريق الفلاح والفوز في الدنيا والآخرة، فقد أنزله الله عز وجل هدىً للناس ومرشداً لهم، لذلك حث الرسول صلى الله عليه وسلم على التمسك بالاعتصام به فقال: "وأنا تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله، فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله

(١) سورة التحريم، آية: ٤.

(٢) الإدواة: إناء صغير يحمل فيه الماء، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية: ١٠.

(٣) أخرجه البخاري ٥١٩١، ومسلم ٣٤-١٤٧٩.

(٤) أخرجه البخاري ٤٩١٣، ومسلم ٣١-١٤٧٩.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٠٢/٩.

واستمسكوا به" فحث على كتاب الله ورغّب فيه وفي رواية: "أحدهما كتاب الله وهوحبل الله من اتبعه كان على الهدى ومن تركه كان على ضلالة"، وفي رواية عند مسلم كذلك ((كِتَابُ اللّهِ فِيهِ الْهُدَىٰ وَالنُّورُ. مَنِ اسْتَمْسَكَ بِهِ، وَأَخَذَ بِهِ، كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ، وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ))[1]، قال الطيبي: (واستمسك بالشيء إذا تحرى الإمساك به، ومعنى التمسك بالقرآن: العمل بما فيه وهو الائتمار بأوامره والانتهاء عن نواهيه)[2].

وقد قال ﷺ في خطبة حجة الوداع: ((وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ. كِتَابُ اللّهِ))[3].

وقد قال ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾[4] قال: ((حبلَ اللّهِ القرآنُ))[5].

وقال النووي رحمه الله: (قوله ﷺ: "كتاب الله هو حبل الله"، قيل: المراد بحبل الله عهده وقيل: السبب الموصل إلى رضاه ورحمته، وقيل: هو نوره الذي يهدي به)[6].

(فالله تعالى أوجب على المسلمين كافة التمسك بكتابه العظيم والرجوع إليه عند الاختلاف وكذلك السنة، وأمرهم بالاجتماع على الاعتصام بالكتاب والسنة اعتقاداً وعملاً، وذلك سبب لاتفاق كلمتهم وانتظام شتاتهم الذي تتم به مصالح الدين والدنيا، والسلامة من الاختلاف وأمر بالاجتماع، ونهى عن الافتراق الذي حَصَلَ لأهل الكتابين قال الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾[7]. فالاعتصام يوجب على

---

(١) صحيح مسلم بعد الحديث ٣٦-٢٤٠٨.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٢٩٨/١١.

(٣) أخرجه مسلم ١٢١٨.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.

(٥) أخرجه سعيد بن منصور (٥١٩-التفسير) وابن أبي شيبة ٤٨٢/١٠، ٤٨٣، وابن جرير ٦٤٦/٥، والطبراني في الكبير ٩٠٣٢ وقال السيوطي: سنده صحيح. الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٧٠٩/٣.

(٦) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٤٧٢.

(٧) سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.

المسلمين أن يجعلوا اجتماعهم ووحدتهم على كتاب الله تعالى عليه يجتمعون وبه يتحدون لا بجنسيات يتبعونها ولا بمذاهب يبتدعونها، ولا بسياسات يخترعونها)[(١)].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: إكرام أهل بيت رسول الله ﷺ:

إن من لوازم المحبة محبة من له صلة بالمحبوب، لذا كان المسلمون يحبون أهل بيت النبي ﷺ، لأنهم أقرب الناس إليه، لذا حض النبي ﷺ على إكرام أهل بيته فقال: "وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي" (أي أحذركم الله في شأن أهل بيتي وأقول لكم: اتقوا الله ولاتؤذوهم فاحفظوهم، فالتذكير بمعنى الوعظ)[(٢)].

وقد أكرم الصحابة رضي الله عنهم أهل بيت النبي ﷺ: فقال أبوبكر رضي الله عنه ((ارقبُوا محمداً ﷺ في أهلِ بيته))[(٣)].

قال ابن حجر (يخاطب بذلك الناس ويوصيهم به والمراقبة للشيء المحافظة عليه يقول: احفظوه فيهم فلا تؤذوهم ولا تسيئوا إليهم)[(٤)].

وقال القاضي عياض: (ومن توقيره ﷺ وبره بر آله وذريته وأمهات المؤمنين أزواجه كما حضّ عليه ﷺ وسلكه السلف الصالح رضي الله عنهم)[(٥)].

قال العز بن عبدالسلام: (تشرف المحبة بشرف المحبوب، فمحبة رسول الله ﷺ أشرف من محبة سائر العباد، وهي وسيلة إلى أن يطاع طاعة المحبوب، وكلما قوى التعلق بالحبيب قوى حب المتعلقين به والمنتسبين إليه، وكلما قويت النسبة قويت المحبة، ولذلك نحب المهاجرين والأنصار والصالحين والأبرار وعلياً والحسن وغيرهما من أهل الولاية، وترتب محبتهم ترتب منازلهم من الله في حبه وقربه)[(٦)].

---

(١) عظمة القرآن الكريم، محمود بن أحمد الدوسري، ص ٥٢٧-٥٢٨.

(٢) شرح الطيبي ٢٩١/١١.

(٣) أخرجه البخاري ٣٧١٣، ٣٧٥١.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٩٨/٧.

(٥) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض ٤٠٦/٢.

(٦) شجرة المعارف والأحوال، العز بن عبدالسلام ٦٠-٦١.

(فأهل السنة يحبُّون [أهل البيت] ويكرمونهم ويحفظون فيهم وصية رسول الله ﷺ؛ لأن ذلك من محبة النبي ﷺ وإكرامه، وذلك بشرط أن يكونوا متبعين للسنة مستقيمين على الملّة كما كان سلفهم كالعباس وبنيه وعليّ وبنيه. أما من خالف السنة ولم يستقم على الدين فإنه لا يجوز موالاته، ولو كان من أهل البيت. فموقف أهل السنة والجماعة من أهل البيت موقف الاعتدال والإنصاف، يتولون أهل الدين والاستقامة منهم ويتبرؤون ممن خالف السنة وانحرف عن الدين، ولو كان من أهل البيت فإن كونه من أهل البيت ومن قرابة الرسول ﷺ لا ينفعه شيئاً حتى يستقيم على دين الله)(١).

خامساً- من حقوق المدعو: السؤال عما يشكل عليه:

إن الداعية شديد الصلة بالمدعوين وذلك عن طريق أقواله وأفعاله، وفي أثناء ذلك قد يعرض للمدعو ما يشكل عليه أو ما يريد أن يعرفه معرفة دقيقة، فيحتاج إلى أن يسأل الداعية، فقد سأل التابعيّ الصحابي عما أشكل عليه فقال: ومن أهل بيته يا زيد، أليس نساؤه من أهل بيته؟ فلما أجابه زيد سأله كذلك: ومن هم؟ فأجابه زيد.

قال النووي: (المراد أنهن [أي نساءه ﷺ] من أهل بيته الذين يساكنونه ويعولهم وأمر باحترامهم وإكرامهم وسماهم ثقلاً، ووعظ في حقوقهم وذكّر، فنساؤه داخلات في هذا كله ولا يدخلن فيمن حُرِمَ الصدقة)(٢).

ومن هذا القبيل ما روته عائشة رضي الله عنها: ((أنَّ رجلاً استأذنَ على النبيِّ ﷺ، فلما رآه قال: بئسَ أخو العَشيرةِ وبئسَ ابن العشيرة. فلما جلسَ تَطلَّقَ النبيُّ ﷺ في وَجهِهِ وانبسَطَ إليه. فلما انطلقَ الرجُلُ قالت له عائشة: يا رسولَ الله حينَ رأيتَ الرجُل قلتُ له كذا وكذا، ثم تطلقتَ في وجهِهِ وانبسَطتَ إليه. فقال رسولُ الله ﷺ: يا عائشة متى عهِدْتِني فاحشاً؟ إنَّ شرَّ الناسِ عندَ الله منزلةً يومَ القيامة مَن تَركهُ الناسُ اتقاءَ شرِّه))(٣).

---

(١) أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة ٢٨٠.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٤٧١-١٤٧٢.

(٣) أخرجه البخاري ٦٠٣٢ واللفظ له، ومسلم ٢٥٩١.

سادساً- من وسائل الدعوة: الخطبة:

إن الخطبة من الوسائل الدعوية ذات التأثير الكبير في المدعوين، لذا فإن النبي ﷺ وهو إمام الدعاة قد أكثر من استخدامها في دعوته، كما هنا في هذا الحديث يقول الصحابي: قام رسول الله ﷺ فينا خطيباً بماء يدعى خُمّاً بين مكة والمدينة. وقد كانت الخطبة هنا من الوسائل الفعالة في الدعوة، نظراً لأهمية الوصية، وكثرة عدد الصحابة، كما أن النبي ﷺ شعر بدنو أجله، فأرادها وصية عامة يسمعها أكبر عدد من الصحابة ليتمثلوها هم ومن ينقلونها إليهم، كما هو الحال في خطبة الوداع[١].

(إن الخطبة وسيلة ممتازة للدعوة لتبليغ الرسالة، أو إيضاح فكرة معينة. ومن مرامي الخطبة حملُ المخاطب على الإذعان والتسليم وإثارة العواطف الجياشة في فؤاده نحو الفكرة التي يحملها الخطيب ويدعو إليها)[٢].

سابعاً- من أساليب الدعوة: التنبيه والنداء والقصر والأمر والتكرار والسؤال والجواب:

أما التنبيه فقول النبي ﷺ: "ألا" ثم أتبعه النداء "أيها الناس" وفي هذا زيادة لتنبيه السامعين ومن ثم يزدادون إقبالاً على إقبالهم وحرصاً على حرصهم على سماع ما يقول النبي ﷺ.

وجاء أسلوب القصر "إنما أنا بشر" ليبين ﷺ أنه بشر يجري عليه ما يجري على البشر من الموت: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[٣]، فليس هو بمخلد، فكان هذا مدخلاً وتمهيداً لوصيته ﷺ لأصحابه، هذه الوصية تحمل ما يجب على الأمة أن تتمسك به حتى لا تضل وهو كتاب الله، وما يجب على الأمة نحو أهل بيت النبي ﷺ من التوقير والإكرام[٤]، فكان يناسب هذا الموقف استخدام فعل الأمر "استمسكوا" وأكد ذلك

---

(١) ذكر ابن كثير أنّ ذلك كان في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة من السنة العاشرة بعد رجوعه من حجة الوداع. البداية والنهاية ٦٦٦/٧.

(٢) الدعوة إلى الله، د. توفيق الواعي، ٢٧١.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٣٠.

(٤) انظر: شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٢٩٨/١١-٢٩٩.

بقول الصحابي "فحث على كتاب الله ورغب فيه". فلما أراد ﷺ أن يوصي بأهل بيته استخدم التكرار، فكان ﷺ يوصي كما يوصي الأب المشفق الناس في حق أولاده فيقول الرجل "الله الله في أولادي"[١].

وجاء السؤال والجواب ليستفهم التابعيُّ عما لا يعرف أو يتأكد مما يعلم ويأتي الجواب بالمقصود والمطلوب.

(١) انظر السابق: الموضع ذاته.

الحديث رقم (٣٤٧)

٣٤٧- وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، عن أَبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -مَوقُوفاً عَلَيهِ- أنَّهُ قَالَ: ارْقَبُوا مُحَمداً ﷺ في أهْلِ بَيْتِهِ. رواه البخاري[1].

ترجمة الراوي:

أبو بكر الصديق: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨١).

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

ارقبوا : راعوه واحترموه وأكرموه[2].

الشرح الأدبي

يروي الحديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأسلوب خبري يتسم بالهدوء، والثقة؛ لأن المعنى لا يتوقع له معارضة؛ لأنه نقل قول أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وهو إنشائي لا يحتمل صدقاً، ولا كذباً، وهو أسلوب أمر (ارْقُبُوا مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ) وغرضه الإرشاد، والتوجيه، والتعبير بالاسم الصريح للرسول ﷺ دون اللقب اعتماداً على مكانته في قلوبهم، وحبهم له وتلذذاً بذكره، ومعنى (ارقبوا محمداً) أي التمسوا رضاه وصلته، وما ترجون منه في إكرام آل بيته، وتوقيرهم، ومحبتهم، والحديث دعوة تفتح باب بر الرسول ﷺ - وهو أحق الناس به - ببر أهل بيته ومحبتهم، وإكرامهم أينما كانوا في كل زمان.

---

(١) برقم (٢٧١٣، و٢٧٥١).

(٢) رياض الصالحين ١٨١.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الأمر.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: تعريف الصحابة رضي الله عنهم بحق أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: الحث على إكرام أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم.

أولاً- من أساليب الدعوة: الأمر:

من أساليب الدعوة التي تظهر في هذا الحديث أسلوب الأمر وهذا في قول أبي بكر "ارقبوا..." وهذا يدل على أهمية وعظم هذا الأمر. وأسلوب الأمر من الأساليب الدعوية المهمة حيث يجعل المدعوين يشعرون بأهمية الدعوة، وأن الداعية يأمرهم ليقوموا بها ولا يتهاونون فيها.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: تعريف الصحابة رضي الله عنهم بحق أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم:

إن من موضوعات الدعوة في هذا الحديث تعريف الصحابة رضي الله عنهم بحق أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا يظهر في قول أبي بكر رضي الله عنه "ارقبوا محمداً صلى الله عليه وسلم في أهل بيته" أي: راعوه واحترموه وأكرموه بإكرام أهل بيته صلى الله عليه وسلم ومن توقيره وبره صلى الله عليه وسلم بر آله وذريته وأمهات المؤمنين أزواجه كما حض عليه صلى الله عليه وسلم وسلكه السلف الصالح رضي الله عنهم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي؛ أَحَدُهُمَا أَعْظَمُ مِنَ الآخَرِ كِتَابُ اللَّهِ حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ إلى الأَرْضِ وعِتْرَتِي أَهْلُ بَيْتِي وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ فَانْظُرُوا كَيْفَ تَخْلُفونِي فِيهِمَا))[2]؛ فينبغي على الداعية تعريف المدعوين بحق أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يجب لهم من احترام وتقدير.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: الحث على إكرام أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم:

من موضوعات الدعوة المستنبطة من عموم الحديث الحث على إكرام أهل بيت

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٣٣.

(٢) أخرجه الترمذي ٣٧٨٨، وصححه الألباني، (صحيح سنن الترمذي ٢٩٨٠).

النبي ﷺ وهذا ما ورد في قول أبي بكر رضي الله عنه "ارقبوا محمداً ﷺ في أهل بيته".

يفهم من ذلك حث أبي بكر رضي الله عنه المسلمين على إكرام أهل بيت رسول الله ﷺ لوصية النبي ﷺ بهم فقد قال: ((وَأَهْلُ بَيْتِي. أُذَكِّرُكُمُ اللّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي. أُذَكِّرُكُمُ اللّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي))[1]. أي آمركم بطاعة الله وبالقيام "في أهل بيتي" ثم كرر ذلك ثانياً للتوكيد فقال: "أذكركم الله في أهل بيتي" وفيه تأكيد الوصاية بهم وطلب العناية بشأنهم، فيكون من قبيل الواجب المؤكد المطلوب على طريق الحث عليه[2]؛ فيجب على الدعاة الحث على إكرام أهل البيت وتوقيرهم وإنزالهم منازلهم فهم أهل بيته ﷺ الذين يحبهم ويحب من يحبهم والذين وصّى بهم.

إن إجلال أهل بيت النبي ﷺ وآله إجلالاً يليق بهم، وإكرام الصالحين منهم وموالاتهم، ومعرفة أقدارهم، مطلب شرعي قبل أن يكون مقرباً لحب النبي ﷺ، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾[3][4].

وروى مسلم في صحيحه قوله ﷺ: ((أَمَّا بَعْدُ. أَلاَ أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبَ. وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللّهِ فِيهِ الْهُدَىٰ وَالنُّورُ. فَخُذُوا بِكِتَابِ اللّهِ. وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ)) فَحَثَّ عَلَىٰ كِتَابِ اللّهِ وَرَغَّبَ فِيهِ. ثُمَّ قَالَ: ((وَأَهْلُ بَيْتِي. أُذَكِّرُكُمُ اللّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي))[5].

كما ينبغي مراعاة ما يلي:

---

(١) أخرجه مسلم ٢٤٠٨.

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٥٥٦.

(٣) الشورى، الآية: ٢٣.

(٤) وهذا الاستثناء منقطع حتى لا يكون ذلك أجراً في مقابلة أداء الرسالة، ومعنى الآية: ولكني أذكركم المودة في القربى، وأذكركم قرابتي منكم، قاله البغوي في تفسيره: ١٩٢/٧، و ابن كثير، ١٩٩/٧، وابن عاشور في التحرير والتنوير ٨٣/٢٥/١٠.

(٥) أخرجه مسلم ٢٤٠٨، ولا تعني الوصية بهم تقديهم على سنة رسول الله ﷺ، بل أوصى بالسنة مع القرآن في أحاديث أخرى كثيرة، ليس هذا مقام ذكرها، وهي المقدّمة، يتجلى ذلك في قصة أبي بكر رضي الله عنه مع فاطمة رضي الله عنها في شأن ميراث النبي ﷺ.

- بقاء شرف النسب لهم وتميزهم عن غيرهم لأجل ذلك.

- أنهم كغيرهم فيهم الصالح وفيهم غير ذلك، وأنهم داخلون في قوله ﷺ: ((وَمَنْ أَبَطأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ))[1].

- الدعاء لهم في الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ بقوله: وآله.

- تولي الصالحين منهم ومجالستهم والأخذ منهم والبرِّ بهم وتطييب خواطرهم؛ فإنهم من آثار النبي ﷺ، ومحاولة القرب منهم، ومصاهرتهم تزوجاً أو تزويجاً.

- مناصرتهم والبذل لهم، والذبُّ عنهم، وذكر مناقبهم ومحاسنهم، وهم من حُرموا الصدقة.

- تأكيد مناصحة غير الصالح منهم والشفقة عليه والرحمة به، ودعوته إلى نهج آل البيت الطيبين الطاهرين واستقامتهم على الشريعة، وسلامة صدورهم وألسنتهم على الصحابة ومن بعدهم[2].

وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ أشد تعظيماً ومحبة لآل البيت لاستشعارهم مكانة أولئك من النبي ﷺ وامتثالاً لوصايا النبي ﷺ. وقد أمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه عام الرمادة أن يستسقي بالناس فسقوا. وكان عمر رضي الله عنه يقول: اللهم إنّا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فأسقنا، قال: فيُسقون[3].

قال ابن حجر: ويستفاد من قصة العباس: استحباب الاستشفاع بأهل الخير والصلاح وأهل بيت النبوة[4]، ومنه فضل العباس وفضل عمر بتواضعه للعباس ومعرفته بحقه[5].

ولما دخل عبدالله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم في حاجة له

---

(١) أخرجه مسلم ٢٦٩٩.

(٢) دمعة على حب النبي ﷺ نظرات متأملة للواقع في حب النبي ﷺ، الشيخ: عبدالله بن صالح الخضيري، بحث ضمن بحوث كتاب حقوق النبي ﷺ بين الإجلال والإخلال، ص ٥٠-٥١.

(٣) أخرجه البخاري ١٠١٠.

(٤) وغير خاف أن المقصود الاستشفاع بدعائهم لا بذواتهم.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢/٥٧٧، وانظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ١/٢٢٥، ٣١٥.

على عمر بن عبدالعزيز قال له عمر: إذا كانت لك حاجةٌ فأرسل إلي أو أكتب فإني استحيي من الله أن يراك على بابي.

وعن الشعبي: (صلى زيد بن ثابت على جنازة أمه، ثم قُرِّبت له بغلته ليركبها، فجاء ابن عباس رضي الله عنهما فأخذ بركابه، فقال زيد: خلِّ عنه يا ابن عم رسول الله ﷺ، فقال: هكذا نفعل بالعلماء فقبل زيدٌ يد ابن عباس؛ وقال: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا ﷺ)[1][2].

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض ٢/٤٠٩.

(٢) انظر: دمعة على حب النبي ﷺ، بحث ضمن بحوث كتاب حقوق النبي ﷺ بين الإجلال والإخلال، ص ٥١ - ٥٢.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

حب آل البيت لا يكون بالغلو فيهم ولا بشد الرحال إليهم ولا يجعلهم سبيلاً للخلاف بين المسلمين، بل سبيلاً للإيلاف.

وكل صالح من هذه الأمة هو من آل محمد وقيل من آل البيت قياساً على حديث الرسول ﷺ "سلمان منا آل البيت" فإن لم يكونوا من آل البيت فهم من أولياء الله، وأولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ولذا يجب على المسلم أن يحرص على اتباع منهج النبي ﷺ وهديه في سائر الأمور، واحترام آل بيت النبي ﷺ، واتباع هديه ﷺ في ذلك وعدم الغلو في ذلك أو إتيان فعل لا يرضي الله ورسوله. ومن المضامين التربوية نذكر:

أولاً- التربية على إكرام أهل بيت النبي ﷺ:

على المربي أن يربي أتباعه على إكرام أهل بيت النبي ﷺ ومحبتهم، فهذه وصية النبي ﷺ "وآل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي" فينبغي أن يربى الناشئة وغيرهم على محبة أهل البيت وموالاتهم، فقد انعقد إجماع الأمة وتواترت الأخبار بشرع الصلاة عليهم، فيجب لذلك حبهم وتعظيمهم وتوقيرهم واحترامهم والاعتراف بمناقبهم، فإنهم أهل آيات المباهلة والمودة والتطهير وأهل المناقب الجمة والفضل الشهير[١].

لذا فإن أهل السنة يحبونهم ويكرمونهم ويحفظون فيهم وصية رسول الله ﷺ، لأن ذلك من محبة النبي ﷺ وإكرامه. وذلك بشرط أن يكونوا متبعين للسنة مستقيمين على الملّة كما كان سلفهم كالعباس وبنيه وعليٍّ وبنيه، أما من خالف السنة ولم يستقم على الدين فإنه لا يجوز موالاته ولو كان من أهل البيت[٢].

---

(١) التربية على منهج السنة والجماعة ١٠٢.

(٢) أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، إعداد: نخبة من العلماء ص ٢٨٠.

ثانياً- التربية بالوعظ:

ويبدو ذلك في كون النبي ﷺ استخدم الخطابة في توصيل المعلومات إلى المتلقين، يقول زيد بن أرقم رضي الله عنه : "قَامَ رَسُولُ اللّهِ يَوْماً فِينَا خَطِيباً... فَحَمِدَ اللّهَ ...، وَوَعَظَ وَذَكَّرَ..."، والأسلوب الخطابي من الأساليب التربوية الهامة التي يتعين على المربين المسلمين العناية بها، واستخدامها في توجيه المتربين وإرشادهم؛ لما للموعظة من أثر كبير في نفوسهم، فضلاً عن أن هذا الأسلوب يتميز بالخطاب الجماعي، أي: مخاطبة أكبر عدد من الناس، وهذا أقرب إلى التبليغ وإيصال المطلوب إلى المراد تربيتهم وتعليمهم، وذلك يكفي المربي مؤونة إيصال المعلومات إلى الأفراد، ويضمن وصولها صحيحة، لم تشبها أخطاء الرواية التي قد تنجم عن الدعوة الفردية إذا كان أول المتلقين غير ضابط للحديث.

وترتبط الموعظة ارتباطاً تاماً بالحكمة؛ لأن الواعظ إذا فقد الحكمة ربما وضع الأمر في غير موضعه، وأساء في ذلك باختيار الوقت غير المناسب، والألفاظ غير الملائمة لحال المدعو، والمكان الذي لا يناسب الحال، فمن هنا تلازمت الموعظة والحكمة[١]، قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾[٢].

ثالثاً- من أساليب التربية: الحوار:

وهذا واضحٌ من سؤال التابعين للصحابي الجليل زيد بن أرقم رضي الله عنه وجوابه على ذلك، ولا شك أن الحوار يجعل مساحة مشتركة بين المعلّم والمتعلم فيعبر المتعلم عما يدور بداخله، ويجيب المعلم على ذلك، ويوضح المعلم المعاني والموضوعات المرادة خير توضيح ويبينها له خير بيان، كما هو ظاهر في الحديث فضلاً عن أن الحوار يجعل المتعلم إيجابيًا في العملية التعليمية ولا يكتفي بدور المتلقي الذي يكتفي باستقبال ما يقال دون أن تكون له مشاركة فعالة في ذلك. كما أن الحوار يخفف من عبء العملية

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي، ص٣٩٧، ٣٩٨.

(٢) سورة النحل، آية: ١٢٥.

التعليمية الملقاة على عاتق المعلم، وذلك بجعل المتعلم يفكر ويناقش ويحاور ونحو ذلك.

رابعًا- التربية على مراعاة المعلم:

وذلك واضح من قول زيد بن أرقم رضي الله عنه: "يا ابن أخي والله لقد كبرت سني وقدم عهدي ونسيت بعض الذي كنت أعي من رسول الله ﷺ فما حدثتكم فاقبلوا وما لا فلا تكلفونيه، فهذا زيد بن أرقم يبين للتابعين كيف يتعلمون منه، وكيف يراعون حاله وكبر سنّه فلا يكلفونه من أمره عسرًا، وكذلك المتعلم الذي يعرف أحوال معلمه فيقبل عليه وقت نشاطه وحيويته، ويدعه وقت كسله وانشغاله وفتوره، فيأخذ عنه أحسن ما عنده ويتجنب ما قد يقع فيه من نسيان أو سهو أو غلط إذا تعلم منه في غير وقت نشاطه وهمته.

٤٤- باب توقير العلماء والكبار وأهل الفضل

قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ﴾[الزمر: ٩].

الحديث رقم (٣٤٨)

٣٤٨- وعن أَبي مسعودٍ عقبةَ بن عمرو البدري الأنصاري رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُول اللّه صلى الله عليه وسلم: ((**يَؤُمُّ القَوْمَ أقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ الله، فَإنْ كَانُوا فِي القِراءةِ سَوَاءً، فأَعْلَمُهُمْ بالسُّنَّةِ، فَإنْ كَانُوا فِي السُّنَّةِ سَوَاءً، فَأَقْدَمُهُمْ هِجْرَةً، فَإنْ كَانُوا فِي الهِجْرَةِ سَوَاءً، فَأقْدَمُهُمْ سِنًّا، وَلاَ يُؤمَّنَّ الرَّجُلُ الرَّجُلَ فِي سُلْطَانِهِ، وَلاَ يَقْعُدْ فِي بَيْتِهِ عَلَى تَكْرِمَتِهِ إلاَّ بإذْنِهِ**)) رواه مسلم[1].

وفي رواية لَهُ[2]: ((**فَأقْدَمُهُمْ سِلْمًا**)) بَدَلَ ((**سِنًّا**)): أيْ إسْلامًا.

وفي رواية[3]: ((**يَؤُمُّ القَومَ أقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللهِ، وَأَقْدَمُهُمْ قِراءةً**[4]، **فَإنْ كَانَتْ قِرَاءتُهُمْ سَوَاءً فَيَؤُمُّهُمْ أقْدَمُهُمْ هِجْرَةً، فَإنْ كَانُوا فِي الهِجْرَةِ سَوَاء، فَلْيَؤُمُّهُمْ أكْبَرُهُمْ سِنًّا**)).

والمراد ((**بِسلطانِهِ**)): محل ولايتهِ، أَو الموضعِ الَّذي يختص بِهِ ((**وتَكرِمتُهُ**)) بفتح التاءِ وكسر الراءِ: وهي مَا ينفرد بِهِ من فِراشٍ وسَريرٍ ونحوهِما.

ترجمة الراوي:

أبو مسعود البدري الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١٠).

غريب الألفاظ:

سلطانه: محل ولايته أو الموضع الذي يختص به[5].

تكرمته: ما ينفرد به من فراش وسرير ونحوهما[6].

---

(١) برقم (٢٩٠/٦٧٣).

(٢) في رواية ابن أبي شيبة، قال مسلم: حدثنا أبوبكر بن أبي شيبة، وأبو سعيد الأشجّ، وقال في آخر الحديث: قال الأشجُّ في روايته (مكان: سِلمًا) سنًّا. قلتُ: ورواية ابن أبي شيبة في مصنفه (١٨٩/٣، رقم ٣٤٧٠).

(٣) برقم (٢٩١/٦٧٣).

(٤) لفظ مسلم: (هجرة)، والمثبت لفظ الحميدي في جمعه (٤٩٧/١، رقم ٨٠١).

(٥) رياض الصالحين ١٨٢.

(٦) رياض الصالحين ١٨٢.

الشرح الأدبي

الحديث في بيان فضل العلم، والعلماء، لأن تقديمهم في الصلاة، وهي دخول على الله وهو أشرف المواطن فتقديمهم فيها دليل على علو منزلتهم، وقول الرسول ﷺ (يَؤُمُ الْقَوْمَ أَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ،) خبر قُصد به الإنشاء ومعناه: ليؤم القوم، وأقرؤهم أفعل تفضيل بمعنى أكثرهم قراءة أي حفظاً، وأنداهم صوتاً لأنه أعون على الخشوع، وقوله: (فَإِنْ كَانُوا فِي الْقِرَاءَةِ سَوَاءً فَأَعْلَمُهُمْ بِالسُّنَّةِ) أسلوب شرط يضع حلولا لما يتوقع من مسائل، واستخدام (إن) يشير إلى استبعاد تساوي الجميع في مقدار الحفظ، ودرجة الإتقان، ونداوة الصوت، وقوله أعلمهم بالستة فيه إيجاز بحذف الفعل من جواب الشرط، وتقديره: فقدموا أعلمهم، لأنه يستطيع أن يتصرف يقتضي العلم الشرعي في ما قد يطرأ في أثناء الصلاة من مواقف، وكذلك تقدير المحذوف في (فَأَقْدَمُهُمْ هِجْرَةً... فَأَكْبَرُهُمْ سِنًّا) وقوله: (وَلا يُؤَمَّ الرَّجُلُ فِي سُلْطَانِهِ) أسلوب نهي، والخطاب للعموم عن طريق بناء الفعل (يُؤَمَّ) لما لم يسم فاعله مما يعطي أسلوب النهي سرياناً عبر الزمان، والمكان، وكذلك قوله: (وَلا يُجْلَسْ عَلَى تَكْرِمَتِهِ) لأن فيه تعدياً على الحرية الشخصية، والملكية الخاصة، وإضافة السلطان، والتكرمة إلى الضمير بيان لهذه الخصوصية، والحديث يشير من قريب إلى فضل العلم، والعلماء.

فقه الحديث

يتعرض الحديث لشروط الإمامة في الصلاة وأنه يشترط في الإمام أن يكون قارئًا لكتاب الله تعالى عالمًا عاملاً بأحكامه.

وقد اتفق الفقهاء[1] على أنه يشترط فيمن يتقدم إمامًا للناس في الصلاة أن يكون

---

(١) انظر في شرط الإمامة والأحق بها: البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٣٦٧/١ وما بعدها، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، علاء الدين أبي بكر الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ١٥٧/١ وما بعدها، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد المغربي ٩٧/٢ وما بعدها، وشرح منح الجليل ٣٥٩/١ وما بعدها، ونهاية المحتاج ١٦٢/٢ وما بعدها، ومغني المحتاج ٤٧٨/١ وما بعدها، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٢٦٩/١ وما بعدها، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٤٧١/١ وما بعدها.

قارئًا لكتاب الله تعالى فإذا وجد أكثر من شخص يقرؤون قدم أقرؤهم لكتاب الله، فإن استووا فأعلمهم بالسنة، ثم أقدمهم إسلامًا، ثم أسنهم إن استووا في كل شيء، وقد ذكر الصنعاني[1] المقصود بالأقرأ منهم هنا فقال: الظاهر أن المراد أكثرهم له حفظًا، وقيل أعلمهم بأحكامه والحديث الأول يناسب القول الأول.

المضامين الدعوية

أولاً: من وسائل الدعوة: الإمامة.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: تقديم العلماء.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل العلم بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل الأسبقية في الإسلام والهجرة وكبر السن.

خامسًا: من مهام الداعية: إنزال الناس منازلهم.

سادسًا: من آداب الداعية: إرشاد المدعوين إلى آداب الزيارة.

أولاً- من وسائل الدعوة: الإمامة:

من وسائل الدعوة التي تستنبط من هذا الحديث وسيلة الإمامة وذلك في قوله ﷺ: "يؤم القوم.."، قال القاضي عياض: (وقد روي عن الزهري في هذا الحديث: (فإن استووا في القراءة فأفقههم في دين الله، فإن كانوا في الفقه سواء فأكبرهم سنًا، فإن كانوا في السن سواء فأصبحهم وجهًا، فإن كانوا في الصباحة والحسن سواء فأكبر حسبًا).

قال بعض المتكلمين: رتب النبي ﷺ الأئمة هذا الترتيب؛ لأنها خلافة النبي ﷺ، إذ هو إمام الناس في الدنيا والآخرة، فهي بعده للأقرب منزلة، والأشبه به مرتبة، ثم بسط الكلام في أن هذه الصفات والأخلاق من العلم بالقرآن والسنة وقدم الإسلام وحصافة العقل وهيبة القدر -الذي هو معنى السن وجلالة النسب وحسن الصورة وحسن الأخلاق- هي صفات النبي ﷺ وهو المتصف بها حقيقة على الكمال، فمن اتصف بها كان أشبه بالنبي ﷺ وأولى بخلافته، ومن اتصف ببعضها كان من

---

(١) سبل السلام ١/٣٧١.

اتصف بجميعها أولى منه، وكان ﷺ خلقه القرآن[(١)]، وقال: (من قرأ القرآن فقد استدرج النبوة بين جنبيه غير أنه لا يوحى إليه)[(٢)]، وكان علمه وعلم السنن إليه ومنه اقتبس، وكان من جمال الصورة وحسن الخلق على ما عُرف، وقال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[(٣)].

قيل: قد تكون العبارة بصباحة الوجه وحسنه هنا عن بشره وطلاقته فيه، والقلوب إلى الصفات الحسنة أحب والنفوس إلى الأخلاق الحسنة والوجوه البسيطة أميل، وبالتقديم لها في أمورها وحوائجها أرضى، وقد قال ﷺ: ((أَقْرَبُكُمْ مِني مَجْلِسًا أَحْسَانُكُمْ أَخْلاقًا))[(٤)]، وكذلك الحسيب يقرب إليه بمشاركة شرف حسبه وكرم فخاره، مع أن أهل الحسب أنزه بهممهم عما يشين، وكذلك الكبير السن أتم عقلاً، وأقدم إيمانًا، وقد قال ﷺ: ((لِيَلِيَنِّي مِنْكُمْ أُولُو الأَحْلامِ وَالنُّهى))[(٥)]. فمن جمع هذه الخصال صلح لخلافته الكبرى فكيف الصغرى؟"[(٦)].

فالإمام في صلاته بالمسلمين يستطيع أن يكون وسيلة مهمة من وسائل الدعوة وذلك إذا اقتدى بما كان يفعله رسول الله ﷺ في إمامته للمسلمين؛ فقد جعل الله تعالى قُرة عينه ﷺ ونعيمه وسروره وروحه في الصلاة، ومع هذا لم يكن يشغله ما هو فيه من ذلك من مراعاة أحوال المأمومين وغيرهم مع كمال إقباله وقربه من الله تعالى.

وكان يدخل في الصلاة وهو يريد إطالتها، فيسمع بكاء الصبي، فيخففها مخافة

---

(١) أخرجه مسلم ٩٤٦.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٥٥٢/١ رقم ٢٠٧٢، وقال: هذا حديث الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٣) سورة القلم، آية: ٤.

(٤) أخرجه الترمذي ٢٠١٨، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٦٤٢).

(٥) أخرجه أبو داود ٦٧٤، وصححه الألباني (صحيح سن أبي داود ٦٢٦).

(٦) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٦٥٣/٢ - ٦٥٤.

أن يشق على أمه[١][٢]، وهذا مما يرغّب في الدعوة، ويجعل الناس يقبلون على الدعوة من خلال مراعاة الإمام لأحوال المدعوين، وهذا مظهر من مظاهر كون الإمامة وسيلة دعوية مؤثرة في المدعوين، بالإضافة إلى خشوع الإمام وإقباله على الله تعالى في صلاته.

فإذا التزم الإمام في إمامته بهدي رسول الله ﷺ في صلاته من خشوع وإقبال على الله وفعل ما كان يفعله رسول الله ﷺ من تسبيح ودعاء وغيرهم، لكان وسيلة من وسائل الدعوة التي توصل هدي النبي ﷺ إلى المدعوين، فإن المأموم يقتدي بالإمام ويتأسى به، فيعمل مثل عمله، ويطلق على المقتدى به أنه قدوة وأسوة.

وإمامة الصلاة تعتبر من خير الأعمال، ومما يدل على فضل الإمامة وأهميتها أن النبي ﷺ لما مرض اختار أفضل الصحابة رضي الله عنهم للإمامة حيث قال: ((مُروا أبا بكرٍ فلْيُصلِّ بالناس))[٣]. ففهم الصحابة رضي الله عنهم من تقديمه في الإمامة الصغرى استحقاقه الإمامة الكبرى[٤].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: تقديم العلماء:

من موضوعات الدعوة المستنبطة من عموم الحديث تقديم العلماء، قال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[٥]، يخبر الله تعالى عباده أنه لا يستوي أهل العلم الذين قاموا به وقام بهم العلم المطلوب تعلمه والموافقة في الدين كتابًا وسنة منزلة مع الذين لم يقم بهم ذلك، إما تقصيرًا، أو إعراضًا، أو استخفافًا، وهذا التفريق أبلغ في تقرير فضل العلم وأزين في رفع درجات أهله[٦].

---

(١) أخرجه البخاري ٧٠٧.

(٢) انظر: زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية ٢٦٥/١.

(٣) أخرجه البخاري ٧١٣.

(٤) انظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٠١/٦ - ٢٠٢.

(٥) سورة الزمر، آية: ٩.

(٦) انظر: بهجة الناظرين شرح رياض الصالحين، سليم بن عبيد الهلالي ٤١٩/١.

وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[(١)]، أي: يرفع أهل العلم والإيمان درجات بحسب ما خصهم به من العلم والإيمان[(٢)].

فتقديم العلماء أمر مطلوب للأمة لأنهم هم الذين يهدونها إلى طريق التقدم والنجاح. قال الشاعر:

ما الفضل إلى لأهل العلم إنهم   على الهدى لمن استهدى أدلاء[(٣)]

وقد اتفق الفقهاء على أن بناء أمر الإمامة على الفضيلة والكمال، فمن استجمع خصال العلم وقراءة القرآن والورع وكبر السن وغيرها من الفضائل كان أولى بالإمامة، ولا خلاف في تقديم الأعلم والأقرأ على سائر الناس، ولو كان في القوم من هو أفضل منه في الورع والسن وسائر الأوصاف[(٤)].

فينبغي على الداعية أن يبين فضل العلم والعلماء وضرورة تقديم أهل العلم في كل مناحي الحياة حتى يكونوا أدلاء للهدى والخير.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل العلم بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة:

إن من موضوعات الدعوة في هذا الحديث فضل العلم بالقرآن والسنة النبوية المطهرة، ويدل على ذلك قوله ﷺ: (يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله فإن كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة..)؛ فتقديم الإمام يكون بحفظه لكتاب الله أو علمه بسنة رسول الله ﷺ وهذا يدل على فضلهما على حاملهما.

قال رسول الله ﷺ: ((إِنَّ اللَّه يَرْفَعُ بِهذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ))[(٥)]،

---

(١) سورة المجادلة، آية: ١١.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٧٨٥.

(٣) انظر: فضل العلم ووجوب احترام العلماء، د. طارق بن محمد بن عبد الله الخويطر ص ٢٦.

(٤) انظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٦/٢٠٧.

(٥) أخرجه مسلم ٨١٧.

وقال رسول الله ﷺ: ((خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرآنَ وَعَلَّمَهُ))[1]، قال الطيبي: (قال المظهر: يعني إذا كان خير الكلام كلام الله، فكذلك خير الناس بعد النبيين من يتعلم القرآن ويعلمه، وأقول: لا بد من تقييد التعلم والتعليم بالإخلاص، ومن أخلصهما وتخلق بهما دخل في زمرة النبيين والصديقين، وكان مفضلاً على غيره ممن لم يتخلق به)[2].

فإن موضوع الدعوة الإسلامية هو الإسلام الذي أوحي به إلى محمد رسول الله ﷺ متمثلاً في القرآن والسنة، فهو المنهج الكامل الذي اختاره الله للعالمين وجمع فيه أصول الشرائع ووصايا الأنبياء.. وبعث عليه خاتم الأنبياء والمرسلين بخصائصه ومبادئه وأهدافه وغاياته ونظامه الشامل الذي يتناول مظاهر الحياة جميعًا. فهو دولة ووطن أو حكومة وأمة، وهو خلق وقوة، أو رحمة وعدالة وهو ثقافة وقانون، أو علم وقضاء، وهو مادة وثروة، أو كسب وغنى، وهو جهاد ودعوة وهو جيش وفكرة، كما هو عقيدة وعبادة مخلصة.

إذًا فموضوع الدعوة هو: الإسلام الشامل الذي ينظم الحياة بأوضاعها المختلفة، ويحيي الفرد بهديه ليشعر بإنسانيته وكرامته تمامًا كما خلقه الله كريمًا عزيزًا وصدق الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[3][4].

والسنة هي من وحي الله لرسوله أيضًا لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[5]، فمن كان قارئًا للقرآن حافظًا للسنة ينبغي تقديمه للإمامة لفضل القرآن والسنة.

---

(١) أخرجه البخاري ٥٠٢٧.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٢١٥/٤.

(٣) سورة الأنعام، آية: ١٢٢.

(٤) الدعوة إلى الله، د. توفيق الواعي، ص ٨١.

(٥) سورة النجم، الآيتان: ٣ - ٤.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل الأسبقية في الإسلام والهجرة وكبر السن:

إن من موضوعات الدعوة التي تظهر من هذا الحديث فضل الأسبقية في الإسلام والهجرة وكبر السن، ويدل على ذلك قوله ﷺ: (فأقدمهم هجرة، فإن كانوا في الهجرة سواء فأقدمهم سنًا)، وفي الرواية الأخرى: (فأقدمهم سلما) أي: إسلامًا، يتضح من ذلك فضل الأسبقية في الإسلام والهجرة: قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾[1].

قال السعدي: (هم الذين سبقوا هذه الأمة وبدورها للإيمان والهجرة والجهاد وإقامة دين الله)[2].

وعن أنس رضي الله عنه قال: كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف كلام فقال خالد لعبد الرحمن: تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها فبلغنا أن ذلك ذكر للنبي ﷺ فقال: ((دَعُوا لي أصْحَابي، فَوَالذي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أنْفَقْتُمْ مِثْلَ أُحُدٍ، أوْ مِثْلَ الجِبالِ ذَهَبًا ما بَلَغْتُمْ أَعْمالَهُمْ))[3]، وفي ذلك تفضيل للسبق في الإسلام، وأما تفضيل كبر السن فقد ورد ما يؤيد ذلك فقد قال ﷺ: ((إِذَا كُنْتُمْ ثَلاثَةً فَلْيَؤُمَّكُمْ أَكْبَرُكُمْ))[4]، وفي صحيح مسلم ((لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا، ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه))[5]، فينبغي مراعاة تفضيل الأسبقية في الخيرات وينبغي على الداعية الإرشاد إلى ذلك.

---

(١) سورة التوبة، آية: ١٠٠.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٣٠٨.

(٣) أخرجه أحمد ٢٦٦/٣ رقم ١٣٨١٢، وقال محققو المسند: صحيح الإسناد ٣١٩/٢١.

(٤) أخرجه مسلم ٦٧٢.

(٥) أخرجه مسلم ٢٥٤٠.

خامسًا- من مهام الداعية: إنزال الناس منازلهم:

من مهام الداعية التي تستنبط من عموم الحديث إنزال الناس منازلهم، وهذا يتضح من عموم الحديث حيث قدم رسول الله ﷺ للإمامة العلماء، وأهل الفضل، وتقديمهم على غيرهم ورفع مجالسهم، وإظهار مرتبتهم، يدل على إنزاله ﷺ الناس منازلهم، وإنزال الناس منازلهم من الأمور الهامة التي ينبغي على الداعية أن يراعيها وينتبه إليها ويؤيد ذلك توجيهات النبي ﷺ في إنزال الناس منازلهم.

قال رسول الله ﷺ: ((إِنَّ مِنْ إِجْلاَلِ اللَّه إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَالجَافِي عَنْهُ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ))[1]، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ((أمرنا رسول الله ﷺ أن ننزل النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ))[2].

فينبغي على الداعية أن ينزل الناس منازلهم، وأن يعاملهم على حسب أقدارهم وفي ذلك تأليف قلوبهم، وجذب نفوسهم، وشدهم إلى الدعوة[3].

سادسًا- من آداب الداعية: إرشاد المدعوين إلى آداب الزيارة:

إن من واجبات الداعية التي تظهر من هذا الحديث: إرشاد المدعوين إلى آداب الزيارة ويدل على ذلك قوله ﷺ: (ولا يُؤمَّنَّ الرجل الرجل في سلطانه، ولا يقعد في بيته على تكرمته إلا بإذنه)، فبيّن رسول الله ﷺ أن الذي يؤم المصلى في سلطانه أي: محل ولايته هو السلطان ومن واجب الضيف ألا يعتدي على حقه إلا بإذنه، وكذلك لا يجلس الضيف على تكرمته إلا بإذنه أي لا يجلس على ما ينفرد به عن أهل منزله كرامة له من فراش وسرير ونحوهما [4]؛ لأن ذلك قد يضايق صاحب الولاية أو الدار لأجل ذلك أرشد رسول الله ﷺ لتركه لذلك قال بعض العلماء: "لو أن أحدًا تقدم وصلى بجماعة المسجد دون إذن الإمام فصلاتهم باطلة، وعليهم أن يعيدوا، لنهي النبي ﷺ"[5].

---

(١) أخرجه أبو داود ٤٨٤٣، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤٠٥٣).

(٢) أخرجه مسلم في المقدمة.

(٣) انظر: كيف يدعو الداعية، عبد الله ناصح علوان، ص ١٥٥.

(٤) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٥٦٠.

(٥) انظر: شرح رياض الصالحين ٧١٨/١.

فينبغي على الداعية إرشاد المدعوين إلى آداب الزيارة وأن يلتزم المسلم بالآداب التي بيّنها رسول الله ﷺ في زيارة الأخ لإخوانه، وأن يراعي مشاعرهم، ولا يُثقل عليهم ولا يصدر منه ما يسيء إليهم، أو يؤذي مشاعرهم، لأن ذلك أدعى إلى المحبة والمودة ودوام الألفة.

الحديث رقم (٣٤٩)

٣٤٩- وعنه، قَالَ: كَانَ رَسُول الله ﷺ يَمْسَحُ مَنَاكِبَنَا فِي الصَّلاةِ، ويَقُولُ: ((اسْتَوُوا وَلاَ تَخْتَلِفُوا فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ، لِيَلِنِي مِنْكُمْ أُولُوا الأحْلامِ وَالنُّهَى، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ)) رواه مسلم[1].

وقوله ﷺ: ((لِيَلِنِي)) هُوَ بتخفيف النون وليس قبلها ياءٌ، وَرُوِيَ بتشديد النُّون مَعَ يَاءٍ قَبْلَهَا والمعنى ليدْنُ مني في الصلاة. ((وَالنُّهَى)): العُقُولُ. ((وَأُولُوا الأحْلام)): هُم البَالِغُونَ، وقِيلَ: أهْلُ الحِلْمِ وَالفَضْلِ. ومفرد النهى "نُهْية".

ترجمة الراوي:

أبو مسعود البدري الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١٠).

غريب الألفاظ:

مناكبنا: المَنْكِب: المكان الذي يجتمع فيه الكتف مع رأس العضد[2].

الشرح الأدبي

قوله: (يَمْسَحُ مَنَاكِبَنَا فِي الصَّلاةِ) كناية عن تسويته للصفوف مع ما يعكسه هذا التصرف من محبة، وتواضع، وألفة، وضمير الجمع المضاف إلى المناكب دليل على أنه كان يتعهد أصحابه بالمسح على مناكبهم حتى يطمئن إلى استقامة الصفوف، وقول الرسول لأصحابه (اسْتَوُوا وَلاَ تَخْتَلِفُوا، فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ) أسلوب أمر للتوجيه، والإرشاد، عضضه بالنهي عن ضده ثم تبعه بجملة تعليلية حملت تهديداً ووعيداً بجزاء من جنس العمل؛ فإنه لما خالفوا بين الصفوف ظاهراً عوقبوا بالمخالفة بين قلوبهم باطناً، ، والمخافة بين القلوب كناية تولد الكراهية، والتفرق بينهم، وقوله: (لِيَلِنِي مِنْكُمْ أُولُوا الأحْلاَمِ وَالنُّهَى) أمر توجيه، وإرشاد ' وتعليم لكل أمته بترتيب الصفوف

---

(١) برقم (٤٣٢/١٢٢). أورده المنذري في ترغيبه (٧١٤).

(٢) معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ٤٣٥.

بين يدي الله على هيئة ترضيه تعالى، وأولو الأحلام والنهى، هم أصحاب الحكمة، والعلم، والعقل، وقوله (ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ) استخدام حرف العطف ثم للتأخير الرتبي بحيث يقدم العقل فالأعقل، والأعلم فالأعلم، وتكرار العبارة يشير إلى ضرورة رعاية هذا الترتيب، والحرص عليه.

فقه الحديث

يتعرض هذان الحديثان لحكمين فقهيين:

الأول: تسوية الصفوف خلف الإمام، وقد ذكر الفقهاء[1] أن من أحكام صلاة الجماعة أن ينبه الإمام على تسوية الصفوف قبل أداء الصلاة وبعد الإقامة، وأن يؤخر المتقدم من المصلين، وينبه الغافل عن التسوية.

الثاني: من يلي الإمام في الصف، وقد ذكر الفقهاء أنه يسن أن يلي الإمام في الصفوف أكثر الناس قراءة وأكملهم عقلاً وأكثرهم علمًا ثم الذين يلونهم وهكذا، وذلك حتى ينبهوا الإمام إن سها أو توقف عن القراءة، وقد شدد النبي عليه الصلاة والسلام على ذلك ليعلم من يلونه فعله على وجهه ثم يبلغونه به غيرهم[2].

---

(١) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، علاء الدين أبي بكر الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ١٥٨/١ وما بعدها، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٣٧٣/١ وما بعدها، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد المغربي ١٢٦/٢، وشرح منح الجليل ٣٧١/١ وما بعدها، ونهاية المحتاج ١٨٦/٢ وما بعدها، ومغني المحتاج ٤٩٠/١ وما بعدها، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٤٨٥/١ وما بعدها، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٢٧٨/١ وما بعدها.

(٢) شرح معاني الآثار ٢٢٦/١، وأحكام القرآن، الجصاص ٦٣٩/٣، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٣٢٩/١.

المضامين الدعوية[1]

أولاً: من أساليب الدعوة: الأمر والنهي.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الحث على تسوية الصفوف.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: تقديم أهل الفضل.

رابعًا: من مهام الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم.

خامسًا: من واجبات الداعية: إنزال الناس منازلهم.

أولاً- من أساليب الدعوة: الأمر والنهي:

من أساليب الدعوة التي تظهر في هذين الحديثين أسلوب الأمر والنهي ويظهر الأمر في قوله ﷺ "استووا ... وليلني..." والنهي في قوله ﷺ "ولا تختلفوا...".

فقد أمر ﷺ بالاستواء في الصلاة وبيّن في أمره من يليه في الصلاة ونهى عن الاختلاف.

وأسلوب الأمر والنهي من الأساليب الدعوية المهمة التي تجعل الداعية يستطيع أن يوجه المدعوين إلى ما هو خير لهم في ذلك بأمرهم به وينهاهم عما هو شر. ويشعر المدعوين بأهمية الامتثال للأمر واجتناب النهي.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: الحث على تسوية الصفوف في الصلاة:

من موضوعات الدعوة المستنبطة من هذا الحديث الحث على تسوية الصفوف في الصلاة ويظهر ذلك فيما ورد عنه عليه الصلاة والسلام أنه كان يمسح مناكب المصلين في الصلاة، أي يُسوي الصفوف بنفسه وهذا يدل على أهمية تسوية الصفوف في الصلاة ويؤيد ذلك قوله ﷺ ((سَوُّوا صفوفَكم فإنَّ تَسويةَ الصفوفِ مِن إقامةِ الصلاة))[2] وقال أيضًا ((أقيموا الصفوفَ فإني أراكم خَلفَ ظهري))[3]، وحذر من عدم تسوية

---

(١) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -٣٤٩- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (٣٥٠).

(٢) أخرجه البخاري ٧٢٣، ومسلم ٤٣٣.

(٣) أخرجه البخاري ٧١٨.

الصفوف فقال ﷺ ((لتُسَوُّنَّ صفوفَكم، أَو ليُخالفَنَّ اللّهُ بينَ وُجوهِكم))[١].

قال النووي رحمه الله: (معناه أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء واختلاف القلوب، كما يقال تغير وجه فلان علي أي: ظهر لي من وجهه كراهة لي، وتغير قلبه علي لأن مخالفتهم في الصفوف مخالفة في ظواهرهم، واختلاف البواطن)[٢].

يتضح من ذلك أن رسول الله ﷺ يدعو إلى كل ما يجمع المسلمين ويحقق بينهم المحبة وينهى عما يدعو إلى البغضاء والكراهية وفي دعوته لتسوية الصفوف تحقيق ذلك.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: تقديم أهل الفضل:

من موضوعات الدعوة التي تظهر من هذين الحديثين تقديم أهل الفضل يدل على ذلك قوله ﷺ "ليلني منكم أولو الأحلام والنهى ثم الذين يلونهم".

قال النووي: (فيه تقديم الأفضل فالأفضل إلى الأمام لأنه أولى بالإكرام، ولأنه ربما احتاج الإمام إلى استخلاف فيكون هو أولى، ولأنه يتفطن لتنبيه الإمام عن السهو لما لا يتفطن له غيره، وليضبطوا صفة الصلاة ويحفظوها، وينقلوها ويعلموها الناس، وليقتدي بأفعالهم من وراءهم، ولا يختص هذا التقديم بالصلاة، بل السنة أن يقدم أهل الفضل في كل مجمع إلى الأمام وكبير المجلس، كمجالس العلم والقضاء والذكر والمشاورة ومواقف القتال وإمامة الصلاة والتدريس، والإفتاء وإسماع الحديث ونحوها، ويكون الناس فيها على مراتبهم في العلم والدين والعقل والشرف والسن والكفاءة)[٣].

فعلى الدعاة إلى الله الحث على تقديم أهل الفضل في كل مناحي الحياة من أجل صالح الأمة وخيرها.

رابعًا- من مهام الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم:

إن من مهام الداعية التي تستنبط من عموم الحديثين إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم ويفهم ذلك من دعوته ﷺ لتسوية الصفوف من أجل عدم الاختلاف وحذر من

---

(١) أخرجه البخاري ٧١٧، ومسلم ٤٣٦.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٣٦٨.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٣٦٦، ٣٦٧.

الخصومة والاختلاط والخصومات وارتفاع الأصوات التي تحدث في الأسواق بقوله: ((وَإِيَّاكُمْ وَهَيْشَاتِ الأَسْوَاقِ))(١) فحذر من هذه الفتن أن تحدث في المساجد.

فمن مهام الداعية أن يرشد المدعوين إلى ما فيه نفعهم لأن ذلك من باب التعاون على البر، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾(٢). وقال رسول الله ﷺ ((مَنْ دَلَّ على خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ))(٣) وقال ﷺ ((مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا))(٤).

فينبغي على الداعية إرشاد الناس إلى ما ينفعهم وينفعه أيضًا بحصول الثواب.

خامسًا- من واجبات الداعية: إنزال الناس منازلهم:

إن من واجبات الداعية التي تبرز من هذين الحديثين إنزال الناس منازلهم وهذا يظهر في قوله ﷺ "ليلني أولو الأحلام والنهى" حيث قدّم ﷺ أولي العقول النيرة البالغين من المصلين على غيرهم مراعاة لفضلهم ومنزلتهم.

إن النظام محبب في الإسلام، وإنزال الناس منازلهم أمر في غاية الأهمية وذلك لأن تقدم الصغار على الكبار والوضعاء على ذوي الهيئات فيه إهدار للقيم الإسلامية في احترام الكبار ومن هم أهل للتقدير والاحترام، ومن هنا كان تنظيم النبي ﷺ للصفوف أثناء الصلاة وأمره بتقدم الأكمل سنًا وعقلاً فمن بعده، وهكذا ليستخلف منهم في الإمامة من أراد ولينبهوه إذا سها ويحفظوا فعله ويعرفوا قوله ليبلغوه الناس على وجهه الصحيح، ومثل الصلاة وغيرها كمجالس العلم والقضاء والذكر والتدريس والإفتاء، تشجيعًا على التقدم ودفعًا للتنافس الشريف على بلوغ الهيئات الكريمة والمناصب الحميدة(٥).

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٥٦٢.

(٢) سورة المائدة، من آية: ٢.

(٣) أخرجه مسلم ١٨٩٣.

(٤) أخرجه مسلم ٢٦٧٤.

(٥) انظر: شرح رياض الصالحين، د. الحسيني عبدالمجيد هاشم، ٢٥٥.

وقد ورد عن رسول الله ﷺ ما يدل على أهمية إنزال الناس منازلهم، منها ما رواه الشيخان أن رسول الله ﷺ أرسل إلى سعد بن معاذ فلما دنا قريبًا من المسجد قال رسول الله ﷺ للأنصار ((قوموا إلى سيِّدِكُمْ -أو خَيركم-))[١].

قال النووي: فيه إكرام أهل الفضل وتلقيهم بالقيام لهم إذا أقبلوا[٢]. فعلى المسلمين بشكل عام، والدعاة إلى الله بشكل خاص أن يعرفوا للناس فضلهم ويؤدوا إليهم حقهم، وينزلوهم منازلهم، عسى أن يملكوا في الدعوة قلوبهم، ويجذبوا إليها نفوسهم، فيتقبلوا طائعين هدى الله عز وجل[٣].

(١) أخرجه البخاري ٣٠٤٣، ومسلم ١٧٧٨.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ، ١١٣٧.

(٣) انظر: كيف يدعو الداعية، عبدالله ناصح علوان، ص ١٥٦.

الحديث رقم (٣٥٠)

٣٥٠- وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: ((**لِيَلِنِي مِنْكُمْ أُولُوا الأَحْلام وَالنُّهَى، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**)) ثَلاثًا ((**وَإِيَّاكُمْ وَهَيْشَاتِ الأَسْوَاق**)) رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

غريب الألفاظ:

هيشات الأسواق: اختلاطها والمنازعة والخصومات وارتفاع الأصوات واللغط والفتن التي فيها[2].

الشرح الأدبي

أسلوب أمر يقرر ضرورة التصاف على هيئة مخصوصة يقدم فيها أهل الفضل من أولي التقوى والعلم، والحلم، ومَعْنَاهُ الَّذِينَ يَقْرُبُونَ مِنْهُمْ فِي هَذَا الْوَصْف. قَالَ النَّوَوِيّ: فِي هَذَا الْحَدِيث تَقْدِيم الأَفْضَل فَالأَفْضَل إِلَى الإِمَام لأَنَّهُ أَوْلَى بِالإِكْرَامِ، وَلأَنَّهُ رُبَّمَا إِحْتَاجَ الإِمَام إِلَى إِسْتِخْلاف فَيَكُون هُوَ أَوْلَى، وَلأَنَّهُ يَتَفَطَّن لِتَنْبِيهِ الإِمَام عَلَى السَّهْو لِمَا لا يَتَفَطَّن لَهُ غَيْره، وَلِيَضْبِطُوا صِفَة الصَّلاة وَيَحْفَظُوهَا وَيَنْقُلُوهَا وَيُعَلِّمُوهَا النَّاس وَلِيَقْتَدِيَ بِأَفْعَالِهِمْ مَنْ وَرَاءَهُمْ، وتكرار الأمر ثلاثاً تأكيد على أهمية الأمر، وتنبيهاً لمن لم يسمع في الأولى، وقوله (وَإِيَّاكُمْ وَهَيْشَاتِ الأَسْوَاق) أسلوب تحذير من الاختلاف والنزاع، لأن المسجد مكان سكينة، والصلاة متنزلها، والاختلاف والتنازع مضيع لها، وهيشات الأسواق أَيْ اِخْتِلاطهَا وَالْمُنَازَعَة وَالْخُصُومَات وَارْتِفَاع الأَصْوَات وَاللَّغَط وَالْفِتَن الَّتِي فِيهَا.

المضامين الدعوية[3]

---

(١) برقم (٤٣٢/١٢٣).

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٣٦٧. وانظر: المفصح المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٤٠٥.

(٣) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (٣٥١)

٣٥١- وعن أَبي يَحيَى، وقيل: أَبي محمد سهلِ بن أَبي حَثْمة -بفتح الحاءِ المهملة وإسكان الثاءِ المثلثةِ- الأنصاري رضي الله عنه، قَالَ: انطَلَقَ عَبدُ اللهِ بنُ سهْلٍ وَمُحَيِّصَة بن مَسْعُود[1] إِلَى خَيْبَرَ - وَهِيَ يومئذٍ صُلْحٌ- فَتَفَرَّقَا، فأتى مُحَيِّصَةُ إِلَى عبدِ اللهِ بنِ سهل وَهُوَ يَتَشَحَّطُ في دَمِهِ قَتِيلاً، فَدَفَنَهُ، ثُمَّ قَدِمَ المَدِينَةَ فَانْطَلَقَ عَبدُ الرحمان بنُ سهل وَمُحَيِّصَةُ وحوَيِّصَةُ ابْنَا مَسْعُودٍ إِلَى النَّبيّ صلى الله عليه وسلم، فَذَهَبَ عَبدُ الرحمان يَتَكَلَّمُ، فَقَالَ: ((كَبِّرْ كَبِّرْ)) وَهُوَ أحْدَثُ القَوم، فَسَكَتَ فَتَكَلَّمَا، فَقَالَ: **((أتَحْلِفُونَ وتَسْتَحِقُّونَ قَاتِلَكُمْ؟ ...))** وذكر تمام الحديث. مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[2].

ترجمة الراوي:

سهل بن أبي حَثْمَة: هو سهل بن أبي حَثْمة -واسم أبيه عبدالله، وقيل عامر- وقيل: هو سهل بن عبدالله بن أبي حثمة بن ساعدة بن عامر بن عديّ بن مجدعة بن حارثة بن الحارث بن عمرو بن مالك بن الأَوْس الأنصاريُّ الأُوسيُّ، يكنى أبا عبدالرحمن، ويقال: أبو يحيى، ويقال: أبو محمد المدني، له صحبة ورواية وكان رضي الله عنه من صغار الصحابة، ولد سنة ثلاث من الهجرة، ومات النبي صلى الله عليه وسلم وهو ابن سبع سنين أو ثمان سنين -كما قال بعض العلماء- ولكنه حفظ عنه، وقال الذهبي: أظن سهلاً مات زمن معاوية في أول أيامه[3].

---

(١) زاد البخاري: (ابن زيد)، ولم يذكرها الحميدي في جمعه (٤٧٥/١، رقم ٧٦٣) فتبعه عليه المؤلف.

(٢) اخرجه البخاري (٣١٧٣) واللفظ له، ومسلم (١٦٦٩/٢).

(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر (٣٠٩)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٥٧٠/٢، ٥٧١)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي (٥٤٦، ٥٤٧)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين (٣٢٢/٣)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (١٢٢/٢)، والسندي (٤٨١/٢٤).

غريب الألفاظ:

خيبر: مجموعة من الحصون تقع شمال المدينة المنورة بـ ١٧٠كم على الطريق منها إلى الشام. فتحت بعد صلح الحديبية مباشرة في أول المحرم ٧هـ[١].

يتشحّطُ في دمه: أي يتخبط فيه ويضطرب ويتمرغ[٢].

كبّر كبّر: يتكلم الأكبر[٣].

وتستحقون قاتلكم: معناه يثبت حقكم على من حلفتم عليه[٤].

الشرح الأدبي

الحديث يشير إلى بعض السلوكيات الاجتماعية التي يجب أن تراعى بين المسلمين حتى يعرف الصغير حق الكبير، ويراعي الكبير مشاعر الصغير، وأسلوب الحديث يقوم على الحوار الذي يصور الأحداث، وقوله (وَهُوَ يَتَشَحَّطُ فِي دَمِهِ قَتِيلاً) كناية عن قتله، ومنازعته خروج الروح، وقيمة التعبير بالكناية هنا أنه صوَّر المعنى بهيئته الدالة على تحققه مع ما تثيره صورة المتشحط في دمه من رعب، وخوف، وقول الرسول ﷺ لأولياء المقتول لما همَّ الصغير منهم بالكلام (كَبِّرْ كَبِّرْ) أسلوب أمر بمعنى قدِّموا الكبير أو، ابدأوا بالكبير،وهو من باب الأدب، وتقديم ما هو أولى وقول الراوي(فَسَكَتَ، فَتَكَلَّمَا، فَقَالَ) استخدام فاء العطف دليل على سرعة امتثال القوم لأمر الرسول ﷺ، وسرعة إجابته لهم، وقوله: ((أَتَحْلِفُونَ وتَسْتَحِقُّونَ قَاتِلَكُمْ ؟ ...) استفهام تقرير يرتب عليه استحقاقهم لدية المقتول.

---

(١) انظر: أطلس الحديث النبوي ١٦٨.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ش ح ط).

(٣) رياض الصالحين ١٨٣.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٠٦٦.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم القسامة في الدماء، وهي حلف خمسين يمينًا أو جزءها على إثبات الدم[١].

وقد ذهب جمهور الفقهاء[٢] إلى مشروعية القسامة، ولم يخالف فيها إلا الحكم ابن عيينة وسليمان بن يسار وإبراهيم بن علية وأبو قلابة وعمر بن عبدالعزيز في رواية عنه.

واتفق الفقهاء القائلون بها على أن القسامة تكون خمسين يمينًا يحلفها أولياء الدم، وأنها لا تكون إلا في القتل فقط، ولا تصح في الجراح والأطراف، واختلفوا في الواجب بها على قولين:

القول الأول: ذهب الحنفية[٣] والشافعي في الجديد[٤] وهو ما عليه المذهب أن موجب القسامة الدية فقط سواء أكانت في عمد أم خطأ.

---

(١) مواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد المغربي ٢٦٩/٦.

(٢) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، علاء الدين أبي بكر الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٢٨٦/٧، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٤٤٦/٨، وشرح حدود ابن عرفة ص ٤٨٤ وما بعدها، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد المغربي ٢٦٩/٦ وما بعدها، والتاج والإكليل شرح مختصر خليل، وهو مطبوع بهامش مواهب الجليل للحطاب، محمد بن يوسف المواق ٣٥٣/٨ وما بعدها، وتحفة المحتاج ٥٨/٩ وما بعدها، والغرر البهية في شرح البهجة الوردية، القاضي أبو يحيى الأنصاري ٢٧٧/٥ وما بعدها، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد الأنصاري ٩٨/٤ وما بعدها، وحاشية قليوبي ١٦٤/٤ وما بعدها، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٧٦/٦، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٣٢٩/٣.

(٣) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، علاء الدين أبي بكر الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٢٨٦/٧، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٤٤٦/٨.

(٤) الغرر البهية في شرح البهجة الوردية، القاضي أبو يحيى الأنصاري ٢٧٧/٥ وما بعدها، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد الأنصاري ٩٨/٤ وما بعدها، وحاشية قليوبي ١٦٤/٤ وما بعدها.

القول الثاني: ذهب المالكية[(١)]، والشافعي في القديم[(٢)]، والحنابلة[(٣)] إلى أن الواجب في القسامة القود إن كان القتل عمدًا، والدية إن كان القتل خطأ.

المضامين الدعوية

أولاً: من تاريخ الدعوة: صلح خيبر.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: امتثال الصحابة رضي الله عنهم لأمر رسول الله ﷺ.

ثالثًا: من واجبات المدعو: مراعاة الآداب الإسلامية في التعامل.

أولاً- من تاريخ الدعوة: صلح خيبر:

إن من تاريخ الدعوة في هذا الحديث صلح خيبر وهذا يدل عليه قول الراوي: فانطلق عبدالله بن سهل ومحيصة بن مسعود إلى خيبر وهي يومئذ صلح أي: بعد صلح خيبر.

وصلح خيبر كان في شهر محرم عام ٧ هجرية، وكان سبب غزوة خيبر: العداوة المستمرة التي أعلنها اليهود في خيبر واتصالهم بغطفان يحرضونهم على المسلمين، والحلف المعقود برئاسة خيبر والذي أراد مداهمة المدينة المنورة.

فلما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية مكث مدة من الأيام ثم خرج غازيًا إلى خيبر وكان الله عز وجل وعده إياها وهو بالحديبية. وسماها فتحًا قال الله عز وجل ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾[(٤)]. وقال السعدي: ("وأثابهم فتحًا

---

(١) شرح حدود ابن عرفة ٤٨٤ وما بعدها، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد المغربي ٢٦٩/٦ وما بعدها، والتاج والإكليل شرح مختصر خليل، وهو مطبوع بهامش مواهب الجليل للحطاب، محمد بن يوسف المواق ٢٥٣/٨ وما بعدها.

(٢) الغرر البهية في شرح البهجة الوردية، القاضي أبو يحيى الأنصاري ٢٧٧/٥ وما بعدها، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد الأنصاري ٩٨/٤ وما بعدها، وحاشية قليوبي ١٦٤/٤ وما بعدها.

(٣) كشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٧٦/٦، وشرح منتهى الإرادات ٣٢٩/٣.

(٤) سورة الفتح، الآيتان: ١٨، ١٩.

قريبًا" هو فتح خيبر ولم يحضره سوى أهل الحديبية)[١].

وكان هدف غزوة خيبر: القضاء على تآمر اليهود وحلفهم المبرم ضد المسلمين وإنهاء تأليبهم ضد المسلمين.

وفتح المسلمون حصون خيبر: النَّطاة "ناعم والصعب وقله" والشِّقّ "أُبي والبرئ" والكتيبة "القموص والوطيح والسلالم" وترك ﷺ الأرض لأهل خيبر بشطر ما يخرج منها وقال "نقركم ما شئنا" وقسم الغنائم بين من حضر الغزو من المسلمين[٢].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: امتثال الصحابة رضي الله عنهم لأمر رسول الله ﷺ:

إن من موضوعات الدعوة في هذا الحديث امتثال الصحابة رضي الله عنهم لأمر رسول الله ﷺ وذلك عندما أراد عبدالرحمن بن سهل رضي الله عنه أن يتكلم فقال له رسول الله ﷺ "كبر كبر" فسكت.

لقد كان الصحابة رضي الله عنهم يسارعون إلى تنفيذ أوامر رسول الله ﷺ عملاً بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾[٣].

وقد أمر الله المؤمنين بالامتثال لأمر رسول الله ﷺ فقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[٤] قال السعدي: (ما جاء به الرسول، يتعين على العباد الأخذ به وإتباعه ولا تحل مخالفته، وأن نص الرسول على حكم الشيء كنص الله تعالى، لا رخصة لأحد ولا عذر له في تركه ولا يجوز تقديم قول أحد على قوله[٥].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٧٣٨.

(٢) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٣٤٢/٣ وما بعدها.

(٣) سورة الأحزاب، آية: ٣٦.

(٤) سورة الحشر، آية: ٧.

(٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٧٨٩.

وصحابة رسول الله ﷺ كانوا يحبون رسول الله ﷺ ويقدرونه ويحرصون على رضائه ويمتثلون لأوامره. فعلى الدعاة بيان امتثال الصحابة لأوامر رسول الله ﷺ والاقتداء بهم في ذلك.

ثالثًا- من واجبات المدعو: مراعاة الآداب الإسلامية في التعامل:

من واجبات المدعو التي تظهر من هذا الحديث مراعاة الآداب الإسلامية في التعامل ومما يدل على ذلك أنه عندما تكلم عبدالرحمن بن سهل في حضرة من هو أكبر منه أمره رسول الله ﷺ بترك الكلام لمن هو أكبر منه وقال: "كبر كبر"، وقال القاضي عياض: (ففي هذا الحديث مراعاة السن والتقديم للأشياخ والكبراء في الكلام وفي الجماعة في محافل الناس وأمورهم، إذا كانت القضية تخص جميعهم لكونهم أولياءه، وكذلك يجب التقديم في الأمور والولايات وغيرها مع استواء الأحوال)[1].

وقال ابن علان: (قال العاقولي: قوله ﷺ لعبد الرحمن "كبر كبر" إرشاد وتأديب لأنهما أبناء عم أبيه وقد حضرا معه لنصره، وإذا لم يوقرهما بأن يجعل الكلام إليهما فقد أضاع حقهما، إذ لا نصيب لهما في الإرث، ولا ترك لهما مجالاً في القول، والإنسان إنما يتسلى بأحد هذين: مال يأخذه، أو كلام ينصت إليه فيه ويذعن له.

ويؤخذ من الحديث استحباب تقديم الأكبر سنًا، لأن حويصة أسن من عبدالرحمن ورتبة؛ فإنه في عداد والده)[2]. (فأرشده النبي ﷺ إلى أن من الأدب أن يتكلم الأكبر، فإذا نسي شيئًا أو احتاج إلى مساعدة تكلم الأصغر، وهكذا يعرف كل إنسان مكانه، ولا يتعدى شيخ على حق شاب ولا شاب على حق شيخ، ويسير المجتمع إلى طريقه المنشود في هدوء وحب واطمئنان بلا حزازات أو خور في الفكر أو تصدع في الأخلاق)[3]. وهذا من الآداب الإسلامية في التعامل وهي تقديم الأكبر احترامًا وتقديرًا لسنه ومكانته.

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٤٥٨/٥.

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٥٦٣.

(٣) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني عبدالمجيد هاشم، ص ٢٥٦.

وتقديم الأكبر سنًا مما ينبغي أن يتربى عليه الشباب المسلم وذلك لأن الإسلام يهدف إلى إقامة المجتمع الإسلامي على أساس من الاحترام والتقدير.

قال رسول الله ﷺ ((إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ المُسْلِمِ))[1]. ويؤيد أهمية تقديم الأكبر في الكلام فعل ابن عمر رضي الله عنهما، حيث لم يتقدم بين يدي من هو أكبر منه قال: قال رسول الله ﷺ ((أخبِرُوني بشجرةٍ مَثَلُها مَثَلُ المسلم تُؤتي أُكلَها كلَّ حينٍ بإذنِ ربِّها، ولا تَحتُّ ورقَها، فلما لم يتكلما قال النبيُّ ﷺ: هي النخلة. فلما خَرَجتُ معَ أبي قلتُ: يا أبتَاه وقعَ في نفسي النخلةُ. قال: ما منعكَ أن تقولها؟ لو كنتَ قلتَها كان أحبَّ إليَّ من كذا وكذا. قال: ما منعَني إلاَّ أني لم أرَكَ ولا أبا بكرٍ تكلَّمْتَا، فكرِهتُ وفي رواية أحمد والدارمي: فنظرت فإذا أنا أصغر القوم فسكتُّ))[2]. فينبغي على الداعية إرشاد المدعوين إلى هذه الآداب ويجب على المدعو مراعاة هذه الآداب في الكلام وغيره من الأفعال.

وقال القاضي عياض: (ففي هذا الحديث مراعاة السن والتقديم للأشياخ والكبراء في الكلام أو في الجماعة في محافل الناس وأمورهم، إذا كانت القضية تخص جميعهم لكونهم أولياءه، وكذلك يجب التقديم في الأمور والولايات وغيرها مع استواء الأحوال)[3].

---

(١) أخرجه أبو داود ٤٨٤٣ وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤٠٥٣).

(٢) أخرجه البخاري ٦١٤٤، ومسلم ٢٨١١، وأحمد ٤٥٨٥، والدارمي ٢٨٢.

(٣) إكمال المعلم ٤٥٨/٥.

الحديث رقم (٣٥٢)

٣٥٢- وعن جابر رضي الله عنه : أن النَّبيّ ﷺ كَانَ يَجْمَعُ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ مِنْ قَتْلَى أُحُد (يَعْنِي فِي القَبْرِ) [(١)] ، ثُمَّ يَقُولُ: ((أيُّهُما [(٢)] أكْثَرُ أخذًا للقُرآنِ؟)) فَإذَا أُشيرَ لَهُ إِلَى أحَدِهِمَا قَدَّمَهُ في اللَّحْدِ. رواه البخاري [(٣)].

ترجمة الراوي:

جابر بن عبدالله الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

الشرح الأدبي

الحديث يبين فضل القرآن الكريم، وأثره على صاحبه في الحياة، وفي الممات، وقد جاء المعنى في ثوب الخبر المؤكد بأكثر من مؤكد إشعاراً بأهمية الخبر، واستشعاراً لمكانة من يُخبر عنه، وقول الرسول ﷺ (أيُّهُما أكْثَرُ أخذاً للقُرآنِ ؟) استفهام، وإن كان على حقيقته إلا أنه يفيد الترغيب في حفظ القرآن، ودعوة لتكريم حافظه، وتقديمه على غيره في مواطن التكريم يدل على ذلك تقديمه الأحفظ للإمامة، وتقديمه على غيره عند اللحد كما ورد في هذا الحديث، وأفعل التفضيل تدل على ذلك: (أكثر) وتشير إلى أن الفضل يرتبط بمقدار الأخذ من القرآن الكريم.

فقه الحديث

يشير الحديث إلى حكم وفيه أكثر من ميت في قبر واحد وهو يوضح جواز ذلك نصًا عنه ﷺ وأنه يقدم إليه أكثرهم حفظًا للقرآن.

---

(١) هذا التفسير من المؤلف.

(٢) لفظ البخاري في هذه الرواية: (أيّهم) والمثبت عنده برقم (١٣٤٣).

(٣) برقم (١٣٥٣). أورده المنذري في ترغيبه (١٦٥).

وقد ذكر الفقهاء[(١)] أنه يسن أن يكون لكل ميت قبر واحد ولا يجمع في القبر بين اثنين فأكثر إلا لضرورة، فإن كانت هناك ضرورة جاز الجمع بين اثنين فأكثر على أن يقدم في الدفن أفضلهما وأكثرهما حفظًا.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار، والسؤال.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: تقديم الرسول ﷺ لأهل القرآن في اللحد.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: تكريم الله تعالى لشهداء أحد.

رابعًا: من واجبات المدعو: التأسي بالنبي ﷺ.

١- الإخبار: حيث أخبر جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان يجمع بين الرجلين من قتلى أحد، وأسلوب الإخبار له أهمية بالغة في عرض الحقائق، خاصة إذا كان يعرضها بأسلوب هادئ، وذلك مناسب في عرض الحقائق خاصة عندما تكون النفس مهيأة لقبولها[(٢)].

٢- السؤال: ورد السؤال في قوله ﷺ للصحابة رضي الله عنهم أيهما أكثر أخذًا للقرآن؟، وأسلوب السؤال والجواب من أساليب الدعوة المفيدة، لذا ينبغي على الداعية أن يعقد مجالس للسؤال والجواب، أو أن يجعل في آخر درسه حصة من الزمن للسؤال والجواب، وأن يستثمر هذه الوسيلة المؤثرة النافعة من وسائل الأداء البياني للقيام ببعض واجبات

---

(١) انظر في ذلك: بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، علاء الدين أبي بكر الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٣١٩/١، والمبسوط ٦٥/٢، وشرح السير الكبير ٢٣٤/١، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد سليمان الباجي ٢٢٦/٣، والتاج والإكليل شرح مختصر خليل، وهو مطبوع بهامش مواهب الجليل للحطاب، محمد بن يوسف المواق ٤٨/٣، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد المغربي ٢٣٦/٢، والمجموع شرح المهذب، النووي ٢٤٧/٥، وحاشيتا قليوبي وعميرة ٤٠٠/١، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٢٢١/٢، والفروع، ابن مفلح ٢٧٧/٢، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، عبدالرحمن بن قاسم ٣٦٢/٥.

(٢) وظيفة الإخبار في سورة الأنعام، د. سيد محمد ساداتي الشنقيطي، ص ٣٤٢، ٤٢٩.

وظيفته التي يضطلع بأعبائها[١]، والسؤال من أكبر روافد العلم والمعرفة، قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٢].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: تقديم الرسول ﷺ لأهل القرآن في اللحد:

إن تقديم الرسول ﷺ لأهل القرآن في اللحد يدل على فضلهم، وهذا ما ورد في قول جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان يجمع الرجلين من قتلى أحد يعني في القبر ثم يقول أيهما أكثر أخذًا للقرآن؟ فإذا أشير له إلى أحدهما قدمه في اللحد" وذلك فضل القرآن والعلم اللذين هما سببا رفع الدرجات قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[٣].

قال الطاهر بن عاشور: (والدرجات مستعارة للكرامة[٤] وفي الحديث إشارة إلى إكرام أهل العلم وأهل الفضل[٥] وفي تقديم المكثر من حفظه للقرآن تعظيم لشأنه وتشريف لما خص به من أكثرية الأخذ للقرآن، وظاهر منه بالأولى تقديم الآخذ لشيء من القرآن على من لم يأخذ بالمرة[٦].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: تكريم الله تعالى لشهداء أحد:

هذا التكريم من الله تبارك وتعالى لهم له صور متعددة منها أن الله عز وجل أكرمهم بدفن رسول الله ﷺ لهم بنفسه.

ويتضح ذلك بصورة مباشرة في الحديث "فإذا أشير إلى أحدهما قدمه في اللحد" وقد كان بعض أهالي الشهداء نقلوهم إلى المدينة ليدفنوا فيها ولكن نادى منادي رسول الله

---

(١) فقه الدعوة إلى الله، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني ٢/٥٨.

(٢) سورة الأنبياء، آية: ٧.

(٣) سورة المجادلة، آية: ١١.

(٤) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ١١/٢٨/٤٢.

(٥) شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين، ١/٧٢١.

(٦) انظر دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٥٦٤.

أن ردوا القتلى إلى مضاجعهم فأعادوهم[(١)] فحسبهم فضلاً أن الذي تولى دفنهم رسول الله ﷺ، ناهيك عما أعده الله لهم من نعيم مقيم وحياة طيبة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[(٢)]، وفي ذلك إخبار من الله عن الشهداء بأنهم وإن قتلوا في هذه الدار فإن أرواحهم حية مرزوقة في دار القرار[(٣)].

روي عن مسروق قال: سَأَلْنَا عَبْدَ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ عَنْ هَٰذِهِ الآيَةِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[(٤)] قَالَ: أَمَا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا رسول الله ﷺ عَنْ ذَٰلِكَ. فَقَالَ: ((أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ. لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ. ثُمَّ تَأْوِي إِلَىٰ تِلْكَ الْقَنَادِيلِ. فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمُ اطِّلَاعَةً. فَقَالَ: هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا؟ قَالُوا: أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي؟ وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا. فَفَعَلَ ذَٰلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ. فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا، قَالُوا: يَا رَبِّ نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّىٰ نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ. فَلَمَّا رَأَىٰ أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا))[(٥)].

رابعًا- من واجبات المدعو: التأسي بالنبي ﷺ:

لقد أعطانا الحديث صورة من صور الهدي النبوي التي ينبغي أن يقتدى بها وهي تكريم الرسول ﷺ للشهداء بأن باشر دفنهم بنفسه، وتكريمه لأهل القرآن بتقديمهم على غيرهم ويتضح ذلك من قوله "ثم يقول أيهما أكثر أخذًا للقرآن؟ فإذا

(١) البداية والنهاية، ابن كثير ٤٣٥/٥.

(٢) سورة آل عمران، الآيات: ١٦٩ - ١٧١.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٦١/٢.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٦٩.

(٥) أخرجه مسلم ١٨٨٧.

أشير له إلى أحدهما قدّمه في اللحد" لذا ينبغي إنزال الناس منازلهم خاصة أهل القرآن، وقد صرح النبي ﷺ بخيريتهم فعن عثمان بن عفان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((خيركم من تعلم القرآن وعلمه))[١].

وهذا لون وصورة من صور إنزال الناس منازلهم التي ينبغي للداعية مراعاتها، حيث يعامل الناس على حسب أقدارهم، وذلك لا يقتصر على فترة الحياة وإنما يمتد ليشمل الإنسان حتى بعد مماته[٢]. وهذا مبدأ ونظام حث عليه الإسلام وظهر من خلال هذا الحديث الذي معنا إذ يصل الأمر بالإسلام على رعاية مبدأ النظام في ترتيب الناس حسب مستواهم العلمي والثقافي بعد الموت، فيقدم الأحفظ للقرآن والأعلم به على من ونه جهة القبلة تشريفًا له وتعظيمًا، وفي ذلك ما فيه من الحث على العلم وتقييم الناس على أساسه، فصغير عالم يقدم على كبير جاهل، كل ذلك ليحرص الناس على الارتفاع بمستواهم العلمي والثقافي، عملاً على سمو المجتمع وتقدمه وإيصاله إلى أسمى الأماكن بين الشعوب[٣].

---

(١) أخرجه البخاري ٥٠٢٧.

(٢) انظر: صفات الداعية، د. حمد بن ناصر العمار، ص ١١٢.

(٣) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم، ٢٥٦.

الحديث رقم (٣٥٣)

٣٥٣- وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أن النَّبيّ ﷺ، قَالَ: ((أَرَانِي فِي المَنَامِ أتَسَوَّكُ بِسِوَاكٍ، فَجَاءنِي[1] رَجُلانِ، أحَدُهُما أكبر مِنَ الآخرِ، فَنَاوَلْتُ السِّوَاكَ الأصْغَرَ، فَقِيلَ لِي: كَبِّرْ، فَدَفَعْتُهُ إِلَى الأكْبَرِ مِنْهُمَا[2])) رواه مسلم مسندًا والبخاري تعليقًا[3].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

الشرح الأدبي

الحديث يحكي موقفاً طريفاً في رؤيا رآها النبي ﷺ، ومن المعلوم أن رؤيا الأنبياء حق، وقول الرسول ﷺ (أرَانِي فِي المَنَامِ أتَسَوَّكُ بِسِوَاكٍ) فيه جناس بين أتسوك، بسواك) يوضح المعنى ببيان الصلة بين الفعل، وبين الاسم الذي وقع مفعولاً له، وبين قوله: (الأصغر، الأكبر) تضاد يفصح عن جوهر القضية حيث بدأ النبي ﷺ بالأصغر فناوله السواك، فقالا له (كبر كبر) أي ابدأ بالكبير أو قدم الكبير، وقوله (فَدَفَعْتُهُ إِلَى الأكْبَرِ مِنْهُمَا) يشير إلى أن البداية بالكبير صارت سنة؛ لأن فعله - ﷺ - في المنام كفعله في اليقظة، وهي ترغيب في تقديم ذي السن في السواك، وكذلك ينبغي تقديم ذي السن في الطعام، والشراب، والكلام، والمشي، والكتاب، وكل منزلة قياسًا على السواك ما لم يترتب القوم في الجلوس، فإذا ترتبوا، فالسنة تقديم الأيمن فالأيمن كما تقدم في السنة في الشراب.

---

(١) لفظ مسلم في الموضعين: (فجذبني)، والمثبت لفظ الحميدي في جمعه (٢/٢٥٤، رقم ١٣٨٣)، وكذا عند البخاري بهذا اللفظ.

(٢) (منها) لا توجد عند مسلم، والمثبت لفظ البخاري، وكذا هو عند الحميدي في جمعه.

(٣) أخرجه مسلم (٣٠٠٣/٧٠) واللفظ له، والبخاري (٢٤٦) تعليقًا.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى سنة من السنن المروية عن النبي ﷺ وهي السواك، وقد ذهب جمهور الفقهاء[1] إلى أن السواك سنة عن النبي ﷺ، وأنه يستحب التسوك في كل وقت وأفضل الأوقات في السواك قبل الصلاة وبعد الوضوء حتى عده كثير منهم سنة من سنن الوضوء، ويكره السواك للصائم في آخر النهار عند الشافعية، ولم يخالف في استحباب السواك إلا داود الظاهري وإسحاق حيث قالوا إنه واجب لا سنة.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار والأمر.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: رؤيا الأنبياء.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضيلة السواك.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: توقير الكبير.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار والأمر:

١- الإخبار: لقد وظّف النبي ﷺ الإخبار في إعلامه ﷺ بالرؤيا التي رآها فقال: "أراني في المنام أتسوك بسواك فجاءني رجلان أحدهما أكبر من الآخر فناولت السواك الأصغر".

ب- الأمر في قوله "كبّر"، وقد أفاد الأمر في هذا الحديث فائدة عظيمة وهي أهمية تقدير الكبار وتقديمهم على مَنْ هم دونهم في السن.

---

(١) انظر في ذلك: تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، الزيلعي ٤/١، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، علاء الدين أبي بكر الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود، المنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد سليمان الباجي ١٣٠/١، والتاج والإكليل شرح مختصر خليل، وهو مطبوع بهامش مواهب الجليل للحطاب، محمد بن يوسف المواق ٣٧٩/١، وأحكام القرآن، ابن العربي، تحقيق: علي محمد البجاوي ٧٩/٢، والمجموع شرح المهذب، النووي ٣٢٤/١، وإحكام الأحكام، ابن دقيق العيد ١٠٧/١، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، عبدالرحمن بن قاسم ٣٠٢/٥، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٦٩/١، والفروع، ابن مفلح ١٢٥/١.

والإخبار والأمر أسلوبان من أساليب الدعوة المفيدة، ففي الإخبار نقل الصورة وبيان الحكم للمدعو، والأمر فيه حث للمدعو على تنفيذ ما دعي إليه.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: رؤيا الأنبياء:

إن من موضوعات الدعوة في هذا الحديث: الرؤيا التي رآها النبي ﷺ "أراني في المنام أتسوك بسواك فجاءني رجلان" ورؤيا الأنبياء وحي من الله إليهم، قال محمد بن كعب كانت الرسل يأتيهم الوحي من الله تعالى أيقاظًا ورقودًا فإن الأنبياء عليهم السلام لا تنام قلوبهم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: رؤيا الأنبياء وحي[1] وقد ذكر القرآن بعضًا من الرؤى التي رآها الأنبياء عليهم السلام منها رؤيا إبراهيم عليه السلام في ذبح ابنه إسماعيل عليه السلام ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَـٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾[2] قال قتادة: ورؤيا الأنبياء حق إذا رأوا شيئًا فعلوه[3].

ومن ذلك أيضًا ما أريه النبي ﷺ في منامه من دخوله والمسلمين المسجد الحرام، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[4].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضيلة السواك:

وردت الإشارة إلى فضله في الحديث في رؤيا رسول الله ﷺ أنه يستاك قال: "أراني في المنام أتسوك بسواك" وقد حث النبي ﷺ في أحاديث كثيرة على الاستياك، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((لَوْلاَ أنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي، لأَمَرْتُهُم بالسِّوَاكِ مَعَ كُلِّ وُضُوْءٍ))[5] وفي رواية عند كل صلاة[6].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٠٢/١٥/٨.

(٢) سورة الصافات، آية: ١٠٢.

(٣) زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي ٢٧/٧، محاسن التأويل، القاسمي ١١٧/١٤/٨.

(٤) سورة الفتح، آية: ٢٧.

(٥) أخرجه أحمد ٤٦٠/٢ رقم ٩٩٢٨، وقال محققو المسند: إسناده صحيح على شرط الشيخين ٢٢/١٦.

(٦) أخرجه أحمد ٢٤٥/٢ رقم ٧٣٣٩، وقال محققو المسند: إسناده صحيح على شرط الشيخين ٢٩٣/١٢.

وقال الصنعاني في البدر المنير: (قد ذكر في السواك زيادة على مائة حديث)[١].

وقال ابن قيم الجوزية: (وفي السواك عدة منافع: يطيب الفم ويشد اللثة ويقطع البلغم ويجلو البصر ويذهب بالحفر ويصح المعدة، ويصفي الصوت، ويعين على هضم الطعام، ويسهل مجاري الكلام، وينشط للقراءة والذكر والصلاة، ويطرد النوم، ويرضي الرب، ويعجب الملائكة ويكثر الحسنات)[٢].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: توقير الكبير:

إن من موضوعات الدعوة في هذا الحديث: أهمية توقير الكبير حيث ورد في قوله "فناولت السواك الأصغر، فقيل لي كبر فدفعته إلى الأكبر منهما" قال ابن بطال: فيه تقديم ذي السن في السواك، ويلتحق به الطعام والشراب والمشي والكلام، وقال المهلب: هذا ما لم يترتب القوم في الجلوس، فإذا ترتبوا فالسنة حينئذ تقديم الأيمن[٣].

إن مما تهدف إليه الدعوة الإسلامية: إشاعة الاحترام والتقدير بين الناس، وإنزالهم منازلهم والحرص على ذلك بين أفراد المجتمع الإسلامي، فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال قال رسول الله ﷺ: ((ليس مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفْ شَرَفَ كَبِيرِنَا))[٤] وفي الحديث الذي معنا أمر النبي ﷺ في الرؤيا أن يقدم الكبير في قوله فقيل لي كبر فدفعته إلى الأكبر منهما، وبين الرسول ﷺ أن إكرام الكبير لون من ألوان إجلال الله تبارك وتعالى وإعظام أمره، فعن أبي موسى رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ ((إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَالْجَافِي عَنْهُ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ))[٥][٦].

---

(١) سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني ٢٢٣/١.

(٢) الطب النبوي، شمس الدين ابن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي ص ٢٤٤.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٢٥/١.

(٤) أخرجه أبو داود ٤٩٤٣، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤١٣٤).

(٥) أخرجه أبي داود ٤٨٤٣، وحسنه الألباني (صحيح الجامع ٢١٩٥).

(٦) انظر: موسوعة الآداب الإسلامية، عبدالله بن محمد المعتاز، ٢٨/١.

أي: أن من تبجيل الله وتعظيمه: تعظيم الشيخ الكبير في الإسلام بتوقيره في المجالس والرفق به والشفقة عليه ونحو ذلك، كل هذا من كمال تعظيم الله لحرمته عند الله[1].

(١) انظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ص ٢٠٩٥.

الحديث رقم (٣٥٤)

٣٥٤- وعن أَبي موسى رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: ((**إنَّ مِنْ إجْلالِ اللهِ تَعَالَى: إكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ المُسْلِمِ، وَحَامِلِ القُرآنِ غَيْرِ الغَالِي فِيهِ، وَالجَافِي عَنْهُ، وَإكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ المُقْسِطِ**)) حديث حسنٌ، رواه أَبُو داود[1].

ترجمة الراوي:

أبو موسى الأشعري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨).

غريب الألفاظ:

غير الغالي فيه: الغلو: التشديد ومجاوزة الحد. يعني غير المتجاوز الحد في العمل به وتتبع ما خفي منه واشتبه عليه من معانيه وفي حدود قراءته ومخارج حروفه[2].

غير الجافي عنه: غير المتباعد عنه المعرض عن تلاوته وإحكام قراءته وإتقان معانيه والعمل بما فيه[3].

المقسط: العادل[4].

الشرح الأدبي

الحديث يبدأ بأسلوب خبري مؤكد بعدة مؤكدات تعظيماً لما يتلوه، وتمهيداً لتربة القلوب، وتهيئة للنفوس بغرس الهيبة فيها من جلال ما يتلوها، وقوله (إنَّ مِنْ إجْلالِ اللهِ تَعَالَى) خبر تضمَّن ثلاث كلمات موحية بطبيعتها، فالأولى لفظ الإجلال، ولا يطلق إلا على مُعظَّم، تلاه لفظ الجلالة (الله) الذي يوحي بصفات الكمال، والجلال، والجمال، ثم الفعل (تعالى) العائد على الله، وهي جملة تنزيهية تربِّي المهابة في نفس السامع، وهذه

---

(١) برقم (٤٨٤٣). قال العراقي في تخريج الإحياء (١٨٧٦): إسناده حسن، وكذا قال الحافظ ابن حجر في التلخيص (١١٨/٢). أورده المنذري في ترغيبه (١٦٥).

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ٢٠٩٥.

(٣) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ٢٠٩٥.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ق س ط).

الألفاظ الثلاثة تمثِّل شبه جملة خبر (إن)، وقد قدمت على اسمها للاهتمام من ناحية، ومن أخرى لتحقيق التشويق، وتربية المهابة حتى إذا جاء اسم (إن) صادف نفساً مهيئة، وعقلاً يقظاً، وقوله (إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ) أَيْ تَعْظِيم الشَّيْخ الْكَبِير فِي الإِسْلام بِتَوْقِيرِهِ فِي الْمَجَالِس، وَالرِّفْق بِهِ، وَالشَّفَقَة عَلَيْهِ، وَنَحْو ذَلِكَ، كُلّ هَذَا مِنْ كَمَالِ تَعْظِيم اللَّه لِحُرْمَتِهِ عِنْد اللَّه (وَحَامِلِ الْقُرآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ، وَالْجَافِي عَنْهُ) فيه إيجاز بالحذف أي: وَإِكْرَام حامل القرآن وهو: حَافِظه، وَسَمَّاهُ حَامِلاً لَهُ لِمَا يَحْمِل من الْمَشَاقّ الْكَثِيرَة الَّتِي تَزِيد عَلَى الأَحْمَال الثَّقِيلَة وقوله: (غَيْر الْغَالِي) أَيْ فِي الْقُرْآن، وَالْغُلُوّ التَّشْدِيد وَمُجَاوَزَة الْحَدّ، يَعْنِي غَيْر الْمُتَجَاوِز الْحَدّ فِي الْعَمَل بِهِ، وَتَتَبُّع مَا خَفِيَ مِنْهُ، وَاشْتَبَهَ عَلَيْهِ مِنْ مَعَانِيه وَفِي حُدُود قِرَاءَته، وَمَخَارِج حُرُوفه، وقوله (وَالْجَافِي عَنْهُ) أَيْ وَغَيْر الْمُتَبَاعِد عَنْهُ الْمُعْرِض عَنْ تِلاوَته، وَإِحْكَام قِرَاءَته، وَإِتْقَان مَعَانِيه، وَالْعَمَل بِمَا فِيهِ، وقوله: (وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِط) أي العادل من باب تنزيل الناس منازلهم.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى نوع من أنواع حسن الخلق وهو احترام الكبير وذوي الفضل من الناس كالعلماء والسلطان العادل وحملة القرآن.

وقد ذكر الفقهاء[1] أنه ينبغي للمرء إكرام العلماء وأصحاب الهيئة من الناس وأن يقوم تكريمًا لهم، كما يجوز تقبيل يد العالم الورع والسلطان العادل وتقبيل يد الوالدين والأستاذ وكل من يستحق التعظيم والإكرام، كما يجوز تقبيل الرأس والجبهة وبين العينين ولكن كل ذلك إذا كان على وجه المبرة والإكرام أو الشفقة عند اللقاء والوداع وتدينًا واحترامًا مع أمن الشهوة.

---

(١) بريقة محمودية للخادمي ١٦٨/٤، والمدخل لابن الحاج ١٨٢/١، والمجموع شرح المهذب، النووي ٤٧٧/٤، وأدب الدنيا والدين، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي، تحقيق: مصطفى السقا ص ٨٢، والزواجر عن اقتراف الكبائر، أبو العباس أحمد بن محمد الهيتمي ١٥٩/١، والآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ٤٠٨/١، وغذاء الألباب شرح منظومة الآداب، الإسفراييني الحنبلي ٢٢١/١، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٣١/١٢، ٢١٨/٣٤.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار، والتوكيد.

ثانيًا: من مهام الداعي: إرشاد المدعوين إلى أبواب الخير.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: إنزال الناس منازلهم.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل التوسط وعدم الغلو.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: تكريم ذوي السلطان العدول.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار والتوكيد:

في الحديث يخبرنا النبي ﷺ ويبين لنا ضروبًا من ضروب تعظيم الله وتوقيره، ويؤكد هذا الكلام بما يلقى في قلب المدعو الطمأنينة والقبول فقال "إن من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه وإكرام ذي السلطان المقسط". فجاء في الحديث الإخبار عن بعض خصائص المؤمنين العامة وسماتهم الأساسية وما جبلوا عليه وتخلقوا به من خلق حسن واحترام لأهل السبق والفضل[1].

ثانيًا- من مهام الداعي: إرشاد المدعوين إلى أبواب الخير:

يرشدنا النبي ﷺ في هذا الحديث إلى ثلاثة أبواب من أبواب الخير وهي في جملتها من مستلزمات تعظيم الله تبارك وتعالى فقال: (إن من إجلال الله تعالى: إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط)، إذ أنه مما ينبغي للداعية أن يرشد المدعوين إلى الخير وكما أمر الله بذلك في قوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[2].

---

(١) انظر: وظيفة الإخبار في سورة الأنعام، د. سيد محمد ساداتي الشنقيطي، ص ٣٨٧.

(٢) سورة آل عمران، آية:١٠٤.

أي: "ولتكن منه أمة منتصبة للقيام بأمر الله في الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من الأمة متصدية لهذا الشأن وإن كان واجبًا على كل فرد من الأمة بحسبه"[(١)].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: إنزال الناس منازلهم:

يتضح ذلك من في هذا الحديث من خلال دعوة الرسول ﷺ إلى احترام الكبير وصاحب القرآن، المتسم بالاعتدال والفقه، والسلطان العادل فقال ﷺ "إن من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشيبة المسلم" أي الذي شاب شعره أي ابيّض ونفذ عمره في الإسلام والإيمان فتعظيمه وتقديمه في الصلاة بشرطه على غيره وفي المجامع والمجالس وفي القبر وغيره والرفق به والشفقة عليه من كمال تعظيم الله لحرمته، وحامل القرآن تقديرًا لما تحمّل في حفظ القرآن من الدرس والمشقة في تفهمه والعمل بأحكامه وتدبره وكذلك "السلطان المقسط" أي العادل في حكمه بين رعيته[(٢)]، فوجب احترامهم وإنزالهم المنازل اللائقة بهم، وإنزال الناس منازلهم اللائقة بهم من الأمور المهمة التي ينبغي تطبيقها، ومعاملتهم ذلك على حسب أقدارهم[(٣)]، ولقد أعطانا النبي ﷺ المثل الحي والأنموذج التطبيقي لذلك، ومن ذلك إرشاده إلى الاهتمام بسيد القوم، فروي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن سعد بن معاذ سيد الأوس رضي الله عنه لما دنا من المسجد قال النبي ﷺ للأنصار: ((قُومُوا إِلَىٰ سَيِّدِكُمْ - أَوْ خَيْرِكُمْ))[(٤)].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل التوسط وعدم الغلو:

إن مما يستنبط من هذا الحديث: فضل التوسط وعدم الغلو، حيث بيّن رسول الله ﷺ أنه مما ينبغي على المسلم فعله: إكرام حامل القرآن بشرط عدم الغلو والابتعاد عن الجفاء فقال: "وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه" قال المُنَاوِي: ("وحامل

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٩١/٢.

(٢) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٥٦٥، ٥٦٦.

(٣) صفات الداعية، د. حمد بن ناصر العمار، ص ١١٣

(٤) أخرجه البخاري ٣٨٠٤، ومسلم ١٧٦٨.

القرآن" أي: قارئه "غير الغالي فيه" أي: غير المتجاوز الحد في العمل به وتتبع ما خفي منه واشتبه عليه من معانيه وفي حدود قراءته ومخارج حروفه "والجافي عنه" أي: التارك له البعيد عن تلاوته والعمل بما فيه)[١] وما وجب علينا إكرامه إلا لفضله وفضل منهجه مع القرآن الكريم من عدم الجفاء والغلو، تبيينًا إلى فضل الوسطية التي اختارها الله شعارًا مميزًا للأمة الإسلامية التي هي آخر الأمم، ووسطية الأمة إنما هي مستمدة من وسطية منهجها ونظامها فهو منهج وسط لأمة وسط، منهج الاعتدال والتوازن الذي سلم من الإفراط والتفريط أو من الغلو والتقصير، وإلى هذه الخصيصة البارزة يشير قوله تعالى مخاطبًا أمة الإسلام: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[٢][٣].

خامسًا- من موضوعات الدعوة: تكريم ذوي السلطان العدول:

إن من الشيم الكريمة تكريم ذوي السلطان العدول، وقد جاء الحث على ذلك في هذا الحديث فبيّن ﷺ أن من ألوان إجلال الله "إكرام ذي السلطان المقسط" قال المناوي: ("وإكرام ذي السلطان" أي: سلطان لأنه ذي قهر وغلبة من السلطة وهي التمكن من القهر، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾[٤] ومنه سمي السلطان وقيل ذي الحجة لأنه يقام به الحجج)[٥]. "المقسط" أي: العادل في حكمه بين رعيته[٦]. وقال طاووس: من السنة أن توقر أربعة: العالم وذا الشيبة والسلطان والوالد[٧]؛ فالإمام العادل جعله الله قوامًا لكل مائل وقصد كل جائر وصلاح كل فاسد وقوة كل

---

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير، المناوي ٥٢٩/٢.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٤٣.

(٣) انظر: الخصائص العامة للإسلام، د. يوسف القرضاوي، ص ١٣٠.

(٤) سورة النساء، آية: ٩٠.

(٥) فيض القدير شرح الجامع الصغير، المناوي ٥٢٩/٢.

(٦) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٥٦٦.

(٧) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ١٨١/٩.

ضعيف ونصفة كل مظلوم ومفزع كل ملهوف، والإمام العادل قائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله ويسمعهم وينقاد إلى الله ويقودهم[١] فلا جرم أن وجدنا رسول الله ﷺ في هذا الحديث يحث ﷺ على إكرام ذي السلطان المقسط وجعل ذلك إجلالاً لله تبارك وتعالى.

(١) مقتطفات من وصية الحسن البصري لعمر بن عبدالعزيز، انظر: موسوعة الحقوق الإسلامية، سعد يوسف أبو عزيز، ص ٧٣٩-٧٤١.

الحديث رقم (٣٥٥)

٣٥٥- وعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده رضي الله عنهم، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: ((لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفْ شَرَفَ كَبِيرِنَا)) حديث صحيح رواه أَبُو داود والترمذيُّ[1]، وَقالَ الترمذي: (حديث حسن صحيح).

وفي رواية أبي داود[2]: ((حَقَّ كَبِيرِنَا)).

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٧).

الشرح الأدبي

صدر المعنى في لافتة قصيرة مدوية يتصدرها تهديد بالخروج عن دائرة الإسلام يرتجف منها قلب كل مسلم لاسيما، وأن المتوعد صادق لم يكذب، ونبي يوحى إليه فقوله: (لَيْسَ مِنَّا) أي ليس من المسلمين الكاملين، و(من) اسم موصول وتعريف المسند إليه هنا بالموصولية للتنبيه على خطأ (لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا) بأن يعطى الصغير حقه من الرفق به، والرحمة، والشفقة عليه، وقوله (وَيَعْرِفْ شَرَفَ كَبِيرِنَا) الواو هنا بمعنى أو، لأن التحذير متعلق بكل واحدة منهما على حدة، وهما من السلوكيات الراقية التي عززها الإسلام، ودعا إليها.

فقه الحديث

يتعرض هذا الحديث إلى حكم من أحكام الآداب الشرعية التي ينبغي أن يتحلى بها المسلم، ويكون ذلك برحمته وبره بالصغير، وتقديره واحترامه للكبير.

وقد رتب الفقهاء على هذا الحديث أحكامًا عدة منها:

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٤٣)، والترمذي (١٩٢٠) واللفظ له. وقال العراقي في تخريج الإحياء (١٨٧٥): إسناده حسن. أورده المنذري في ترغيبه (١٧١).

(٢) بالرقم الذي تقدم.

١- ما سبق القول عنه في الأحاديث رقم (٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧) أن الفقهاء اتفقوا[١] على أنه يسن للرجل تقبيل ولده الصغير وولد قريبه وصديقه ذكرًا كان أو أنثى على سبيل الشفقة والرحمة واللطف، فإن كانت هناك شهوة في التقبيل فهو حرام لخروجه عن معناه المشروع له.

٢- أن الحنفية قالوا[٢] إن التقاط اللقيط مستحب وهو خير من تركه لما فيه من الرحمة بالصغير، وقال جمهور الفقهاء[٣] من المالكية والشافعية والحنابلة إنه واجب على الكفاية لما فيه من إحياء النفس.

٣- وكذا أجمع العلماء[٤] على عدم جواز التفريق بين الأم وولدها حتى يبلغ سواء أكان ذلك بسبب البيع أم الهبة أم القسمة أم غيرها رحمة بالصغير.

٤- وكذا استحبوا القيام لذوي الفضل والعلم من الكبار وعدوا الاستخفاف بهم كبيرة من الكبائر كما ذكر ابن حجر في الزواجر عن اقتراف الكبائر[٥].

---

(١) بريقة محمودية للخادمي ٧٠/٣، والمجموع شرح المهذب، النووي ٤٧٧/٤، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد الأنصاري ١١٤/٣، وحاشية الجمل على شرح المنهج للعجيلي ١٢٦/٤، والآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ٢٦٣/٢.

(٢) المبسوط ٢٠٩/١٠، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، الزيلعي ٢٩٧/٣.

(٣) التاج والإكليل شرح مختصر خليل، وهو مطبوع بهامش مواهب الجليل للحطاب، محمد بن يوسف المواق ٥٣/٨، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد المغربي ٨٠/٦، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد الأنصاري ٤٩٥/٢، والغرر البهية في شرح البهجة الوردية، القاضي أبو يحيى الأنصاري ٤٠٦/٣، والأحكام السلطانية ٣٠٨، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٣٥/٦، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٣٨٧/٢.

(٤) المبسوط ١٣٩/١٣، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، علاء الدين أبي بكر الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٢٢٨/٥، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، الزيلعي ٦٨/٤، وبلغة السالك لأقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك، أحمد بن محمد الصاوي ١٨٣/٣، وشرح منح الجليل ٤٨/٥، والمجموع شرح المهذب، النووي ٤٤٥/٩، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد الأنصاري ٣٠/٢، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٣١٥/٤، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٢١٢/٩.

(٥) ١٥٩/١، الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ٤٠٨/١.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النفي، والترهيب.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الحث على الرحمة بالصغار.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: أهمية توقير الكبار واحترامهم.

رابعًا: من آداب الداعي: الحث على التراحم والاحترام والتوقير بين أفراد المجتمع.

أولاً- من أساليب الدعوة: النفي، والترهيب:

في هذا الحديث نفي النبي ﷺ اتباع السنة عمن لا يرحم الصغير ولا يعرف شرف الكبير، فقال: "ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف شرف كبيرنا" وهذا في حد ذاته ترهيب من مثل هذه الأخلاق الشائنة فقوله ليس منا (قيل ليس على طريقتنا)[١] وقال العظيم آبادي: (ليس من أهل سنتنا وقيل أي ليس من خواصنا، وهو كناية عن التبرئة)[٢].

والترهيب من أبرز الأساليب الدعوية التي لها تأثير كبير على نفوس المدعوين، وهو أحد ركني الموعظة الحسنة المأمور بها في الدعوة، قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾[٣] والموعظة الحسنة هي الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب[٤]. والترهيب يكون بالعقوبات في الدنيا وفي الآخرة، وقد وصف الله المؤمنين بتوجههم إلى ربهم رغبة إليه ورهبة منه، قال تعال: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ﴾[٥] وقال ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[٦].

---

(١) تحفة الأحوذي، المباركفوري ٦٢٤/٢.

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ٢١٢٧.

(٣) سورة النحل، آية: ١٢٥.

(٤) التفسير القيم، ابن القيم، ص ٣٤٤.

(٥) سورة الأنبياء، آية: ٩٠.

(٦) سورة السجدة، آية: ١٦.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: الحث على الرحمة بالصغار:

من موضوعات الدعوة التي تظهر من هذا الحديث الحث على الرحمة بالصغار حيث نفى ﷺ كمال الاتباع عمن لا يرحم الصغار فقال "ليس منا من لم يرحم صغيرنا" أي من لا يكون من أهل الرحمة لأطفالنا[١] ونرى في حياته ﷺ المثل التطبيقي فعن أبي قتادة رضي الله عنه أنه قال قال رسول الله ﷺ ((إني لأقومُ في الصلاةِ أُريدُ أن أطوِّلَ فيها، فأَسمعُ بكاءَ الصبيِّ فأَتجوَّزُ في صلاتي كراهيةَ أن أشُقَّ على أُمِّهِ))[٢]. ونهر النبي ﷺ قاسي القلب على صغاره فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قبّل رسول الله ﷺ الحسن بن عليّ وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالسًا فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدًا فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: ((من لا يَرْحَم لا يُرْحَم))[٣]. وفي ذلك دعوة وحض على استعمال الرحمة لجميع الخلق[٤] وأخص ما يكون مع الصغار، ولذلك علمنا الرسول ﷺ بتوجيهاته القولية والعملية ما ينبغي لنا أن نمنحه أطفالنا وصغارنا من عطف وحنان وما ينبغي أن نشعر به نحوهم من رحمة[٥].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: أهمية توقير الكبار واحترامهم:

وقد دعا النبي ﷺ بمضمون هذا الحديث إلى توقير الكبار واحترامهم ونفي الإتباع الكامل للسنة لمن لم يوقر الكبير فقال: "ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف شرف كبيرنا" لأن من صور الاحترام المحمودة إكرام الصغير لمن هو أكبر منه سنًا أو أكثر منه فضلاً، فإن ابن عمر لما عرف جواب سؤال رسول الله ﷺ عن الشجرة التي تشبه المسلم لم يُجب احترامًا لمن هو أكبر منه فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ((إنَّ منَ الشَّجَرِ شَجَرَةً مَثَلُها كمَثَلِ المُسْلم. فأردتُ أَنْ أَقولَ هيَ النَّخلةُ، فإذا أنا

---

(١) تحفة الأحوذي، المباركفوري ١٦٢٤/٢.

(٢) أخرجه البخاري ٧٠٧، ومسلم ٤٧٠.

(٣) أخرجه البخاري ٥٩٩٧.

(٤) موسوعة نضرة النعيم ٢١٠١/٦.

(٥) الوجيزة في الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، ص ٣٢٨.

أصغَرُ القومِ، فَسَكتُّ. قال النبيُّ ﷺ: هيَ النَخلةُ))[١] والكبير في قومه لا يليق أن يقابل بغير الإكرام فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ ((إذا أتاكُمْ كريمُ قَوْمٍ فَأَكْرِمُوهُ))[٢] وتوقير الكبير واحترامه، والتعامل مع الآخرين بالأخلاق الكريمة يؤدي إلى وحدة الصف وتأليف القلوب، وإزالة الدخن وإغاظة العدو[٣].

رابعًا- من آداب الداعي: الحث على التراحم والاحترام والتوقير بين أفراد المجتمع:

إنَّ مما ينبغي على الداعي أن يحرص على فعله حث المدعوين على التحلي بمكارم الأخلاق والتي منها ما ورد في الحديث "ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف شرف كبيرنا" والتراحم والاحترام والتوقير بين أفراد المجتمع والتمسك بمكارم الأخلاق ضرورة اجتماعية لا يستغني عنها مجتمع من المجتمعات، ومتى فقدت الأخلاق التي هي الوسيط الذي لابد منه لانسجام الإنسان مع أخيه الإنسان تفكك أفراد المجتمع وتصارعوا وتناهبوا مصالحهم، ثم أدى بهم ذلك إلى الانهيار، ثم إلى الدمار، فالأخلاق الإسلامية تمثل معاقد الترابط في المجتمع الإسلامي[٤].

وما أمر الإسلام بمكارم الأخلاق والتمسك بها إلا لتحرير البشرية من الرق في جميع أشكاله وتحريك الإنسان من أجل السعي والدأب على الاحتفاظ بالخصائص الإنسانية وعدم الانحراف في توجيهها أو في ممارستها. وأن يبقى الأفراد على مستوى إنساني لا يستذل واحد آخر ولا يؤذي فردٌ فردًا في بشريته، وبهذا يكون المجتمع مجتمعًا إنسانيًا كل فرد فيه يشعر بالطمأنينة وبالارتياح في صلته بغيره[٥]. وبذلك تدب الروح الحقيقية في المجتمع التي لا تتحقق إلا بالرجوع واستلهام نصوص القرآن والسنة، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ ﴾[٦].

---

(١) أخرجه البخاري ٧٢.

(٢) أخرجه ابن ماجه ٣٧١٢، وحسنه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٢٩٩١).

(٣) انظر: هذه أخلاقنا حين نكون مؤمنين حقًا، محمود محمد الخزندار، ص ٤٨١-٤٨٤.

(٤) انظر: الوجيزة في الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، ص ٢٣-٢٥.

(٥) الدين والحضارة الإنسانية، محمد البهي، ص ٨٥.

(٦) سورة الأنفال، آية: ٢٤.

الحديث رقم (٣٥٦)

٣٥٦- وعن ميمون بن أَبي شَبيب: أنَّ عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا مَرَّ بها سَائِلٌ، فَأعْطَتْهُ كِسْرَةً، وَمَرَّ بهَا رَجُلٌ عَلَيهِ ثِيَابٌ وَهَيْئَةٌ، فَأقْعَدَتهُ، فَأكَلَ، فقيلَ لَهَا في ذلِكَ؟ فقَالتْ: قَالَ رَسُول اللَّه ﷺ: ((أنْزِلُوا النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ)) رواه أبو داود[١]. لكن قال: ميمون لم يدرك عائشة.

وقد ذكره مسلم في أول صحيحه[٢] تعليقًا فقال: وذكر عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: أمرنا رسول الله ﷺ أن ننزل الناس منازلهم، وَذَكَرَهُ الحَاكِمُ أَبُو عبد الله في كتابه ((مَعرِفَة عُلُومِ الحَديث)) [٣] وَقالَ: ((هُوَ حديث صحيح)).

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

غريب الألفاظ:

كسرة: قطعة من الخبز[٤].

الشرح الأدبي

الحديث يدل على مدى امتثال آل البيت رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ لتوجيهات رسول ﷺ ومسارعتهم إلى تنفيذ أوامره، ، وهذا الموقف من أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا يقرر ذلك عملياً، وقد حكى الراوي الموقف في أسلوب خبري مؤكد ب(إن) وبتقديم المسند إليه (عائشة) على

---

(١) برقم (٤٨٤٢).

(٢) المقدمة (٦/١). وقال ابن الصلاح في صيانته (ص: ٨٤): وفيما قاله أبو داود توقف ونظرٌ، فإنه كوفي متقدمٌ قد أدرك المغيرة بن شعبة، ومات المغيرة قبل عائشة رضي الله عنها، وعند مسلم التعاصر مع إمكان التلاقي كافٍ في ثبوت الإدراك، فلو ورد عن ميمون هذا أنه قال: لم ألقَ عائشة أو نحو هذا لاستقام لأبي داود الجزم بعدم إدراكه، وهيهات ذلك، والله أعلم. وجزم بصحته في مقدمته (ص: ٢٧٦)، وانظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص٥٦٧.

(٣) (ص: ٢١٧، النوع السادس عشر) ونصه: فقد صحت الرواية عن عائشة.

(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ك س ر).

الخبر الفعلي (مر بها) بعثاً للإحساس بأهمية الخبر في قلوب المخاطبين وتنكير كلمة(سائل) للإفراد أي للقصد إلى فرد مما يقع عليه اسم الجنس، وفي هذا إشارة إلى إكرام أى سائل، واستخدام الفاء في الربط (مَرَّ بِهَا سَائِلٌ، فَأَعْطَتْهُ كِسْرَةً) يدل على المسارعة في إجابة السائل مما يدل على تمكن حب العمل الصالح في قلبها وقوله (كسرة) تنكير الكلمة للتقليل أي كسرة صغيرة، وقوله: (وَمَرَّ بِهَا رَجُلٌ) تكرار الفعل يدل على كثرة من كان يقصدها من أهل الحاجة، وهو دليل على كرمها، وسخائها رضي الله عنها وقوله: (عَلَيهِ ثِيَابٌ وَهَيْئَةٌ) كناية عن كونه صاحب مكانة، قوله: (فَأَقْعَدَتهُ، فَأَكَلَ، فقِيلَ) فاء العطف تنبيء بالمسارعة بالإكرام، والفعل يدل على الزيادة في إكرام ذي الهيئة عن سابقه، وقوله: (فقِيلَ لَهَا في ذلِكَ) فيه دلالة عن سؤال سائل متعجب من تغاير الموقفين مع السائلين، فكانت إجابتها بحديث الرسول ﷺ (أَنْزِلُوا النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ) وهو كناية عن معاملة كُلّ أَحَد بِمَا يُلائِم مَنْصِبه فِي الدِّين وَالْعِلْم وَالشَّرَف أي احفظوا حرمة كل واحد على قدره، وعاملوه بما يلائم حاله في عمر، ودين، وعلم، وشرف، فلا تسووا بين الخادم والمخدوم، والرئيس، والمرؤوس؛ فإنه يورث عداوة، وحقدا في النفوس، وقد عد أهل الأدب هذا الحديث من الأمثال، والحكم.

فقه الحديث

يتعرض هذا الحديث لحكم من الأحكام الفقهية المتعلقة بالآداب الشرعية، حيث ينبغي احترام ذوي الهيئات من الناس وإنزالهم منازلهم التي تليق بهم وليس في ذلك تهويناً من شأن غيرهم وهذا ما فعلته أم المؤمنين عائشة هنا.

وقد ذكر الفقهاء[1] أنه يستحب إفساح المجلس لذوي الفضل والعلم من الكبار

---

(١) بريقة محمودية للخادمي ١٦٨/٤، والمدخل لابن الحاج ١٨٢/١، والزواجر عن اقتراف الكبائر، أبو العباس أحمد بن محمد الهيتمي ١٥٩/١، وأدب الدنيا والدين، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي، تحقيق: مصطفى السقا ص ٨٢، والآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ٤٠٨/١، وغذاء الألباب شرح منظومة الآداب، الإسفراييني الحنبلي ٣٢١/١، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٠/١٣.

وأن ينزلوا منازلهم التي يستحقون من التوقير والاحترام، وأن الاستخفاف بهم لا يليق بمسلم.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار، والتوكيد، والأمر.

ثانيًا: من مهام الداعية: إرشاد المدعوين، وإنزال الناس منازلهم.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الدعوة إلى البذل والعطاء.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: العطف وتوقير الناس.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار، والتوكيد والأمر:

يظهر أسلوب الإخبار في قول ميمون بن أبي شبيب راوي الحديث: أن عائشة مرّ بها سائل فأعطته كسرة ومر بها رجل عليه ثياب وهيئة فأقعدته فأكل.

وأسلوب الإخبار من الأساليب الدعوية المفيدة، لذا ينبغي على الدعاة الحرص على الإفادة من أسلوب الإخبار، بذكر ما يثبت صدق كلامهم وصحته، وقد استخدم القرآن أسلوب التوكيد في تقرير عدد من القضايا والأحكام، كقوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾(١) وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾(٢).

وقد ورد الأمر في قوله ﷺ: "أنزلوا الناس منازلهم" لتأكيد أهمية احترام وتقدير ذوي الهيئات ومن لهم مكانة مرموقة في المجتمع، ولا شك أن هذه الأساليب لها تأثير إيجابي على المدعو. وأسلوب الأمر من الأساليب الدعوية البارزة والتي لها أثر كبير وقد استخدم القرآن أسلوب الأمر في كثير من آياته مثل قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾(٣)

---

(١) سورة التغابن، آية: ٧.

(٢) سورة المائدة، آية: ٩٠.

(٣) سورة البقرة، آية: ٤٣.

وقوله: ﴿لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦ﴾[١].

ثانيًا- من مهام الداعية: إرشاد المدعوين إلى إنزال الناس منازلهم:

الشاهد على ذلك من الحديث الذي نحن بصدد بيان المضامين الدعوية فيه: قوله ﷺ "أنزلوا الناس منازلهم" حيث أرشد النبي ﷺ المدعوين المسلمين خاصة إلى احترام وتقدير ذوي الهيئات من خلال أمره بإكرامهم والتعامل معهم بما يليق بهم حتى وإن بدت عليهم الفاقة والحاجة، لأن الإسلام يحرص على ترسيخ القيم والمبادئ ومنها: قيمة الاحترام وقيمة التقدير، وعدم التنكر للآخرين لمجرد وتغير أحوالهم، وتبدّل أوضاعهم وهذا مما استشرى في هذا العصر الذي غابت فيه كثير من القيم النبيلة التي أمر بها الإسلام.

إن الأمور المهمة التي ينبغي على الداعية أن يراعيها، وينتبه إليها، ويحرص على تطبيقها: إنزال الناس منازلهم، ومعاملتهم على حسب أقدارهم، وما ذاك إلا لتأليف قلوبهم، وجذب نفوسهم وشدهم إلى الإسلام لا سيما إذا كان المدعو حديث عهد بالإسلام أو كان ذا منزلة مرموقة في الناس، أو كان ذا نعمة معروفًا بها، أو كان ذا كفر يرجى هدايته، أو كان ذا فسق يؤمل تقواه، أو كان ذا شيبة بلغ من الكبر عتيا.

ويتضع لنا أهمية مراعاة الداعية لهذا الأمر من فعل أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وامتثالها لأمر النبي ﷺ "انزلوا الناس منازلهم" إذ مر بها سائل فأعطته كسرة، ومر بها رجل عليه ثياب وهيئة فأقعدته فأكل، لذا ينبغي أن يُعنى الدعاة بإرشاد المدعوين إلى إنزال الناس منازلهم وإحياء قيم الاحترام والتقدير في حياتهم.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: الدعوة إلى البذل والعطاء:

إن من موضوعات الدعوة المستنبطة من هذا الحديث: الدعوة إلى البذل والعطاء من خلال ما ورد في الحديث: أن عائشة رضي الله عنها مر بها سائل فأعطته، فإن حب البذل والعطاء والدعوة إليه والتخلق به له من الآثار الاجتماعية العظيمة، وهو دليل على علو

---

(١) سورة الطلاق، آية: ٧.

الفطرة وسمو الطبع وارتقاء الإنسانية وراحة العقل[١]، وقد حث القرآن على البذل والإنفاق وسخاوة النفس بإعطاء الإنسان من أحب ما يملك، قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾[٢].

وقال: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[٣]، فمن صفات المتقين في هذه الآية أنهم ينفقون في عسرهم ويسرهم، إن أيسروا أكثروا من النفقة، وإن أعسروا لم يحتقروا من المعروف شيئًا ولو قل[٤]، وعن عدي بن حاتم قال: سمعت النبي ﷺ يقول: ((مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَتِرَ مِنَ النَّارِ وَلَوْ بِشِقٍّ تَمْرَةٍ، فَلْيَفْعَلْ))[٥].

رابعًا- من صفات الداعية: العطف وتوقير الناس:

من الأخلاق الحسنة التي دعا إليها الشرع: العطف وتوقير الناس وكما هو ظاهر في الحديث: (مرّ بها - عائشة رضي الله عنها- سائل فأعطته كسرة ومر بها رجل عليه ثياب وهيئة فأقعدته فأكل فقيل لها) أي المذكور من صنيعها بالمارين بها وتفريقها بينهما حيث أعطت واحدًا وأقعدت الآخر فذكرت قول رسول الله ﷺ: ((أَنْزِلُوا النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ))، أي: عاملوا كل أحد بما يلائم منصبه في الدين والعلم والشرف[٦]، فاحفظوا على كل أحد منزلته وأكرموا كلا على حسب فضله وشرفه[٧].

---

(١) انظر: الوجيزة في الأخلاق، عبدالرحمن حسن حبنكة، ص ٤١٦.

(٢) سورة آل عمران، آية: ٩٢.

(٣) سورة آل عمران، الآيتان: ١٣٣، ١٣٤.

(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ١١٦.

(٥) أخرجه مسلم ١٠١٦.

(٦) انظر: عون المعبود، المباركفوري ص ٢٠٩٥.

(٧) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ١٨٩/٩.

وهذا الحديث مما أدب به النبي ﷺ أمته في إيفاء الناس حقوقهم من تعظيم العلماء وإكرام ذي الشيبة وإجلال الكبير، وما أشبهه[١]. وذلك كله يندرج تحت حسن الخلق والأدب الذي هو مقام الاقتداء برسول الله ﷺ واتباع سنته، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[٢] فالداعية الناجح من يقتدي برسول الله ﷺ فيكون للمدعوين بمنزلة الأب يعطف عليهم ويهتم بأحوالهم وقضاياهم، ويوقر كبيرهم وذا الشأن فيهم، فإذا فعل ذلك، فحري إذا قال يسمع لقوله وإذا أمر يمتثل لأمره.

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٥٦٨، وشرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين ٧٢١/١.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

الحديث رقم (٣٥٧)

٣٥٧- وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَدِمَ عُيَيْنَةُ بنُ حِصْنٍ[١]، فَنَزَلَ عَلَى ابْنِ أخِيهِ الحُرِّ بنِ قَيسٍ[٢]، وَكَانَ مِنَ النَّفَرِ الَّذِينَ يُدْنِيهِمْ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَكَانَ القُرَّاءُ أصْحَاب مَجْلِس عُمَرَ وَمُشَاوَرَتِهِ، كُهُولاً كَانُوا أَوْ شُبَّانًا، فَقَالَ عُيَيْنَةُ لابْنِ أخيهِ: يَا ابْنَ أخِي[٣]، لَكَ وَجْهٌ عِنْدَ هَذَا الأمِيرِ، فَاسْتَأذِنْ لِي عَلَيهِ، فاستأذن له[٤]، فَأذِنَ لَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٥]، فَلَمَّا دَخَلَ قَالَ: هِي[٦] يَا ابنَ الخَطَّابِ، فَواللهِ مَا تُعْطِينَا الْجَزْلَ، وَلا تَحْكُمُ فِينَا بالعَدْلِ، فَغَضِبَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حَتَّى هَمَّ أنْ يُوقِعَ بِهِ، فَقَالَ لَهُ الحُرُّ: يَا أميرَ المُؤْمِنِينَ، إنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ لِنَبيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ** ﴾ وَإنَّ هَذَا مِنَ الجَاهِلِينَ. واللهِ مَا جَاوَزَهَا عُمَرُ حِينَ تَلاَهَا عليه، وكَانَ وَقَّافًا عِنْدَ كِتَابِ اللهِ تَعَالَى. رواه البخاري[٧].

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١).

غريب الألفاظ:

القُراء: العلماء العُبّاد[٨].

هي: ويقال: هيه وتبدل الهاء الاولى ألفًا فيقال إيه. وهي كلمة تقال لغرضين:

---

(١) عند البخاري زيادة: (ابن حذيفة بن بدر).

(٢) عند البخاري زيادة: (ابن حصن).

(٣) عند البخاري زيادة: (ها).

(٤) لفظ البخاري في هذه الرواية: (قال: سأستأذن لك عليه، قال ابن عباس: فاستأذن لعيينة، فلما دخل، قال)، وأما عنده برقم (٤٦٤٢): (قال: سأستأذن لك عليه، قال ابن عباس: فستأذن الحر لعيينة).

(٥) قوله: (فأذن له عمر) عند البخاري برقم (٤٦٤٢).

(٦) (هي) عند البخاري برقم (٤٦٤٢).

(٧) برقم (٧٢٨٦) وقد تقدم كذلك برقم (٥٠).

(٨) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٧٢/١٣.

الاستزادة من عمل أو حديث. والآخر: الزجر والتهديد والكف. والذي يقتضيه السياق أنه أراد بهذه الكلمة الزجر وطلب الكف لا الازدياد[١].

الجزل: الكثير العظيم من كل شيء[٢].

هم أن يوقع به: يضربه[٣].

كان وقافًا عند كتاب الله تعالى: أي يعمل بما فيه ولا يتجاوزه[٤].

الشرح الأدبي

الحديث فيه إشارة إلى حنكة أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه في سياسته، واختيار مستشاريه، وفيه إشارة إلى حلمه، وسيطرته على غضبه، ووقوفه عند كتاب الله، والعمل به، وقوله (وَكَانَ مِنَ النَّفَرِ الَّذِينَ يُدْنِيهِمْ عُمَرُ) يقرر أنه كان من أهل الفضل إيمانا، وعملاً، وقراءة لكتاب الله، وقوله (وَكَانَ القُرَّاءُ أصْحَاب مَجْلِس عُمَرَ وَمُشاوَرَتِهِ) يشير إلى أن أهل الثقة الأحق بها هم حفظة كتاب الله العاملون به، الذين يصدرون عن أوامره، وينتهون بنواهيه، لأن من هذه حاله لا يشهد إلا بحق، ولا ينطق إلا بصدق، لا ينافق، ولا يسعى إلى تحقيق مصالحه الشخصية على حساب مصالح الناس، وقوله (كُهُولاً كَانُوا أَوْ شُبَّاناً) طباق حسن يقرر بالجمع بين الضدين أن مقياس الاختيار في هذا المجلس هو العلم، والعمل بكتاب الله؛ لأنه الذي يحقق العدل المطلق، ويراعي مصالح الجميع في توازن دقيق بين الدنيا، والآخرة، وقول عيينة (يَا ابْنَ أخِي) نداؤه بهذه الصلة التي بينه وبين ابن أخيه فيها تودد يمهد للطلب، وقوله (لَكَ وَجْهٌ) كناية عن المكانة تفسر سر طلبه، وقوله: (عِنْدَ هَذَا الأمِيرِ) يدل على جفائه؛ لأنه لم يناديه بأمير المؤمنين، وقوله (فاسْتَأذَن له، فَأذِنَ لَهُ عُمَرُ رضي الله عنه) تتابع العطف بالفاء بين

(١) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٣/٢٧٣.

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ج ز ل).

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٣/٢٧٣.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٣/٢٧٣.

الجمل دليل على سرعة استجابة ابن أخيه، وسرعة استجابة أمير المؤمنين وقوله (هِي يَا ابنَ الخَطَّابِ، فَواللهِ مَا تُعْطِينَا الْجَزْلَ، وَلا تَحْكُمُ فِينَا بالعَدْلِ) قوله (هي) كلمة استزادة، وَالَّذِي يَقْتَضِيه السِّيَاق أَنَّهُ أَرَادَ بِهَذِهِ الْكَلِمَة الزَّجْر وَطَلَب الْكَفّ لا الازْدِيَاد ونداؤه ينبيء بغضبه، وقوله: (مَا تُعْطِينَا الْجَزْلَ، وَلا تَحْكُمُ فِينَا بالعَدْلِ) ظاهره اتهام بالبخل، والظلم، ولا ننسى أنه يخاطب ذا السلطان في محل سلطانه، وهو أعدل الناس، وقوله (فَغَضِبَ عُمَرُ رضي الله عنه) الغضب رد فعل طبعي، وقوله(حَتَّى هَمَّ أنْ يُوقِعَ بِهِ) يشير إلى شدة الغضب، وقول الحرُّ (: يَا أميرَ المُؤْمِنِينَ، إنَّ الله تَعَالَى قَالَ لِنَبيِّهِ) نداؤه نداء تلطف يهدأ من غضبه، وتأكيده للخبر تربية للمهابة وتعظيماً للخبر، وذكر لفظ الجلالة (الله) وتقديسه بالجملة المعترضة (تعالى) تذكير بهيبة ذي الجلال يخرجه من حالة الرغبة في العقاب ثم تذكيره بالنبي صلى الله عليه وسلم ومنزلته، وما له من مكانة عنده، ومعنى الآية - كما ذكر الطيبي - أَمَرَ من الله لنَبِيّه بمَكَارِمِ الأَخْلاق فَأَمَرَ أُمَّته بنَحْوِ مَا أَمَرَهُ اللّه بِهِ، وَمُحَصَّلهمَا الأَمْر بِحُسْنِ الْمُعَاشَرَة مَعَ النَّاس وَبَذْل الْجَهْد فِي الإِحْسَان إِلَيْهِمْ وَالْمُدَارَاة مَعَهُمْ وَالإِغْضَاء عَنْهُمْ، وقوله، (واللهِ مَا جَاوَزَهَا عُمَرُ حِينَ تَلاَهَا عليه) أي ما ترك ما أمرت الآية به، ولا تخطى ما نهت عنه، أي أنه التزم بأمر الله، وقد أكده بقوله: (وكَانَ وَقَّافاً عِنْدَ كِتَابِ اللهِ تَعَالَى)، واستخدامه صيغة المبالغة يؤكد ذلك.

المضامين الدعوية(١)

(١) تقدم الحديث برقم (٥٠).

الحديث رقم (٣٥٨)

٣٥٨- وعن أَبي سعيد سَمُرة بنِ جُندب ﷺ ، قَالَ: لقد كنت عَلَى عَهْدِ رَسُول الله ﷺ غُلامًا ، فَكُنْتُ أَحْفَظُ عَنْهُ، فَمَا يَمْنَعُنِي مِنَ القَوْلِ إلاَّ أنَّ هاهُنَا رِجَالاً هُمْ أَسَنُّ مِنِّي. مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[١].

ترجمة الراوي:

سَمُرة بن جندب: هو سَمُرة بن جندب بن هلال بن حُدَيج بن مُرَّة الفَزَارِيُّ، يكنى بأبي سعيد ، ويقال أبو عبدالله، أو أبو عبدالرحمن، أو أبو محمد ، أو أبو سليمان كان من حلفاء الأنصار ، فعن عبدالرحمن بن جعفر عن أبيه أن أمَّ سمرة بن جندب مات عنها زوجها ، وترك ابنه سمرة ، وكانت امرأة جميلة ، فقدمت المدينة ، فخطبت فجعلت تقول: لا أتزوج رجلاً إلا رجلاً يكفل لها بنفقة ابنها سمرة حتى يبلغ، فتزوجها رجل من الأنصار على ذلك، وكانت معه في الأنصار[٢].

وكان سمرة ﷺ شغوفًا بطلب العلم والاستماع من رسول الله ﷺ منذ صغره مما جعله معدودًا من الحفاظ والمكثرين عن رسول الله ﷺ ، قال سمرة بن جندب لقد كنت على عهد رسول الله ﷺ غلامًا فكنت أحفظ عنه ، فما يمنعني من القول إلا أن ها هنا رجالاً هم أسن مني.

كما كان حريصًا كل الحرص على الانتظام في صفوف المجاهدين في سبيل الله منذ صغره، ففي الطبراني من قول سمرة ((وكان النبي ﷺ يعرض غلمان الأنصار في كل عام، فمن بَلَغَ منهم بعثه، فعرضهم ذات عام، فمر به غلام، فبعثه في البعث، وعرض عليه سمرة من بعده فرده، فقال سمرة: يا رسول الله أجزت غلامًا ورددتني، ولو

---

(١) أخرجه مسلم (٩٦٤/٨٨) وليس عند البخاري بهذا اللفظ. وتبع المؤلف فيه الحميدي في جمعه (٣٧٧/١، رقم ٦٠٨) حيث أورد هذا الحديث بتمامه، وعزاه إلى الصحيحين، وليس كذلك، فإن هذا الشطر منه لا يوجد عند البخاري.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٧٧/٧)، حديث رقم ٦٧٤٩ ، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣١٩/٥)، رواه الطبراني مرسلًا ورجاله ثقات.

صارعني لصرعته، قال فدونك فصَارِعْه، قال فصرعته، فأجازني في البعث))[(١)].

وظهرت ثمار علمه وجهاده وصحبته لرسول الله ﷺ على أخلاقه وسلوكه، وأُثْني عليه ومن بين الذين شهدوا له ابن سيرين قال: كان عظيم الأمانة، صدوق الحديث، يحب الإسلام وأهله.

نزل البصرة، وكان زياد بن أبيه يستخلفه عليها ستة أشهر، وعلى الكوفة ستة أشهر، فمات زياد، وسمرة على البصرة، فأقره معاوية عامًا أو نحوه، ثم عزله.

كان رضي الله عنه شديدًا على الخوارج خاصة الحرورية، فكانوا يطعنون عليه، وكان الحسن وابن سيرين وفضلاء البصرة يثنون عليه ويحملون عنه.

مات رضي الله عنه سنة ٥٩، وقيل في أول سنة ٦٠ في آخر خلافة معاوية بالبصرة على الأرجح وقيل بالكوفة.

وفي سبب موته قيل: إنه سقط في قدر مملوءٍ ماءً حارًا كان يتعالج بالقعود عليها من قَزَازٍ شديد أصابه فيستدفئ بالبخار الصاعد من القدر، فسقط في القدر الحارة فمات، وقيل مات بغير هذا[(٢)].

الشرح الأدبي

ينقل الراوي رضي الله عنه قصة شخصية، حدثت له عندما كان غلاماً يتجاذبه فضول الحديث فيهمُّ بالكلام فيمنعه الحياء عنه، ولذلك لم يستلزم المقام أن يؤكد الكلام لأنه لا يحمل ما يمكن أن ينكر عليه، وقوله (كنت) دخول إلى ذكرياته عبر بوابة

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، (١٧٧/٧، ١٧٨) رقم ٦٧٤٩.

(٢) الطبقات الكبرى، ابن سعد (٤٩/٧، ٥٠)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر (٣٠٠، ٣٠١)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٥٥٤/٢، ٥٥٥)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي (٥٣٨، ٥٣٩)، والكمال (٣١٢/٣، ٣١٣)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين (١١٦/٢)، وسير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط (١٨٣/٣- ١٨٦)، والسندي (٢٦٦/٣٣)، والأعلام، خير الدين الزركلي (١٣٩/٣)، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك (٩٥٨/٢-٩٦٠).

الماضي يسترجع شعوره حال الحدث، وقوله (على عهد رسول الله) يفيض بالحنين إلى زمن الأحبة محمد، وصحبه، كما أنه العصر المعلم لكل العصور، وكلمة العهد تشير إلى تلك الرابطة المميزة لأهله، وذلك الميثاق الذي عاشوا عليه، وماتوا عليه مع رسول الله ﷺ، وقوله: (فَكُنْتُ أحْفَظُ عَنْهُ) فيه دليل على فطنته، وذكائه، وقوله (فَمَا يَمْنَعُنِي مِنَ القَوْلِ إلاَّ أنَّ هاهُنَا رِجَالاً هُمْ أسَنُّ مِنِّي) فيه دليل على عظيم أدبه، وأسلوب القصر الذي ساق المعنى في ثوبه يؤكد ذلك؛ لأنه لم يمنعه الجهل أو نحوه، ولكن منعه الحياء؛ لأن في المجلس من هم أكبر منه، وقوله (رجالاً) بالجمع يفيد الكثرة وقوله (أسن) يشير إلى احترامه لمن هو أكبر منه مطلقاً، قلَّ الفارق العمري بينهم، أو كثر، وهو خلق ربى النبي ﷺ عليه تلك السلة الطاهرة.

المضامين الدعوية(1)

أولاً: من أساليب الدعوة: القصر.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: بيان فضل العلم في الصغر.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: توقير الكبار وإكرامهم.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: بيان أن الجزاء من جنس العمل.

خامسًا: من أهداف الدعوة: إنزال الناس منازلهم.

أولاً- من أساليب الدعوة: القصر:

قد ورد أسلوب القصر في الحديثين من قول الراوي: "فما يمنعني من القول إلا أن ها هنا رجالاً هم أسن مني"، وورد أيضًا في قوله ﷺ: "ما أكرم شاب شيخًا لسنه إلا..." إلخ، وقد جاء هذا الأسلوب الدعوي في هذين الحديثين ليؤكد على أدب توقير الكبار وإجلالهم وهذا من الآداب الإسلامية العظيمة التي يجب التخلق بها ومراعاتها.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: بيان فضل العلم في الصغر:

يستنبط ذلك في الحديث من قول الراوي: "لقد كنت على عهد رسول الله ﷺ غلامًا فكنت أحفظ عنه"، وفي طلب العلم وحفظه في الصغر يكون ثباته في الكبر

(1) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -٣٥٨- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (٣٥٩).

وهذا ما بينه ابن عبد البر في جامع بيان العلم عن علقمة أنه قال: (ما حفظت وأنا شاب فكأني أنظر إليه في قرطاس أو ورقة)[١]، فضلاً عن حدوث التأدب بذلك، وكما قال الشاعر:

قد ينفع الأدب الأحداث في مهل ... وليس ينفع عند الكبرة الأدب

إن الغصون إذا قوَّمتها اعتدلت ... ولن يلين إذا قوّمته الخشب

قال الخطيب البغدادي: (التفقه في زمن الشبيبة وإقبال العمر، والتمكن منه بقلة الأشغال، وكمال الذهن وراحة القريحة يرسخ في القلب، ويثبت، ويتمكن، ويستحكم، فيحصل الانتفاع به والبركة، إذا صحبه من الله حسن التوفيق)[٢].

وفي بيان فضل العلم في الصغر قال الحسن البصري: (التعلم في الصغر كالنقش على الحجر)[٣].

وقال بعض الشعراء:

ما الحلم إلا بالتحلم في الكبر ... وما العلم إلا بالتعلم في الصغر

ولو ثقب القلب المُعَلّمُ في الصبا ... لألفيت فيه العلم كالنقش في الحجر[٤]

والعلم في الصغر أمر فطن إلى أهميته وفضله صحابة النبي ﷺ فجدوا في طلب العلم في صغرهم، ولينظر لصورة مشرقة لأحد صحابة النبي ﷺ الذين فطنوا لهذا المعنى فجدوا في طلب العلم في صغرهم، فلما كبر كان عالمًا يرجع الناس إلى رأيه ويحتاج القوم إلى فتواه، ألا وهو الصحابي الجليل عبدالله بن عباس رضي الله عنهما الذي دعا له النبي ﷺ بقوله: "اللهم فقهه في الدين"[٥].

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله ٤٨٣، وقال محققو الجامع: صحيح الإسناد.

(٢) الفقه والمتفقه ٢/١٧٩.

(٣) أخرجه الخطيب البغدادي في الفقيه والمتفق رقم ٨٢٢، وقال محققه إسناده حسن.

(٤) الفقيه والمتفقه ٢/١٨٢.

(٥) أخرجه البخاري واللفظ له ١٤٣، ومسلم ٢٤٧٧.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: توقير الكبار وإكرامهم:

إن من موضوعات الدعوة الظاهرة من هذين الحديثين: توقير الكبار وإكرامهم حيث وردت الإشارة إلى ذلك في قول الراوي: "فما يمنعني من القول إلا أن ها هنا رجالاً هم أسن مني"، وهذا أدب جميل من هذا الصحابي الجليل، حيث امتنع من التحديث بحضرة من هو أسن منه، فيندب أن يمتنع من التحديث بحضرة من هو أولى منه بزيادة علم أو ضبط أو حفظ أو تقدم سن أو نحو ذلك. وهذا من روائع الأدب ودقائق الأمور[1]، وقوله ﷺ: "ما أكرم شاب شيخًا لسنه إلا قيض الله له من يكرمه عند سنه"، وهذا حض على إكرام الكبير وتوقيره، ولرسولنا الكريم ﷺ اليد الطولى في الحث على توقير الكبير واحترامه، وقد أمر بذلك فقال: ((إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللَّه إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ))[2]، قال صاحب عون المعبود في قوله ﷺ: (إن من إجلال الله، أي: تبجيله وتعظيمه إكرام ذي الشيبة المسلم، أي: تعظيم الشيخ الكبير في الإسلام بتوقيره في المجالس والرفق به والشفقة عليه ونحو ذلك، كل هذا من كمال تعظيم الله لحرمته عند الله)[3]، وقال ﷺ: ((لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفْ شَرَفَ كَبِيرِنَا))[4].

قال المباركفوري: (وقوله ﷺ: "ليس منا" قيل أي: ليس على طريقتنا، وهو كناية عن التبرئة...، وقوله ﷺ: "ولم يوقر" من التوقير أي: لم يوقر "كبيرنا" وهو شامل للشاب والشيخ)[5]. وفي ذلك بيان على أهمية توقير الكبار وإجلالهم.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: بيان أن الجزاء من جنس العمل:

إن من موضوعات الدعوة المستنبطة من هذا الحديث: بيان أن الجزاء من جنس العمل، حيث وردت الإشارة إلى ذلك في قوله ﷺ: "ما أكرم شاب شيخًا لسنه

---

(١) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم، ص ٢٥٨، ٢٥٩.

(٢) أخرجه أبو داود ٤٨٤٣، وحسنه الألباني في الصحيح الجامع رقم ٢١٥٩.

(٣) عون المعبود على سنن أبي داود، محمد أشرف الحق بن أمير العظيم آبادي ٢٠٩٥.

(٤) أخرجه الترمذي ١٩٢٠، وصححه الألباني ٤٣٩.

(٥) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري ١٦٢٤/٢.

إلا قيض الله له من يكرمه عند سنه". قال د. الحسيني هاشم: (كماتدين تدان، والحياة تسير بالإنسان قهرًا عنه، فإذا احترم الكبار ووقرهم في حال شبابه قيض الله له من يرد له جميله في حال كبره، والعكس بالعكس)[١].

قال المباركفوري: (قوله ﷺ: "ما أكرم" أي: ما أعظم ووقر "لسنه" أي: لأجل سنه، لا لأمر آخر، قال المناوي: وقال القاري: أي كبر عمره لأن الغالب عليه زيادة علم وعمل مع سبق إيمانه. انتهى. "إلا قيض الله" بتشديد التحتية ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾[٢]، أي سلط ووكل "له" أي للشاب "من يكرمه" أي: قرينًا يعظمه ويخدمه لأن من خدم خدم "عند سنه" أي حال كبره مجازاة له على فعله بأن يقدر له عمرًا يبلغ به الشيخوخة ويقدر له من يكرمه)[٣]. وفي ذلك بيان على أن الجزاء من جنس العمل.

قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ﴾[٤]، أي: هل جزاء من أحسن في عبادة الخالق، ونفع عبيده، إلا أن يحسن إليه بالثواب الجزيل، والفوز الكبير، والنعيم، والعيش السليم[٥]. فعلى المرء أن يحسن العمل لينال حسن الجزاء من الله تعالى في الدنيا والآخرة.

خامسًا- من أهداف الدعوة: إنزال الناس منازلهم:

إن من أهداف الدعوة التي اشتمل عليها هذان الحديثان: إنزال الناس منازلهم بإكرام ذي الشيبة المسلم وتوقير الكبار وأهل الفضل، ولا شك أن ذلك حث على إحياء القيم الإسلامية التي جاء بها الإسلام ورغّب فيها لأجل تعميق عرى المحبة والمودة بين

---

(١) شرح رياض الصالحين ٢٥٩.

(٢) سورة الزخرف، آية: ٣٦.

(٣) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري ١٦٧٢/٢.

(٤) سورة الرحمن، آية: ٦٠.

(٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٧٧١.

أفراد المجتمع الإسلامي، وهذا ما يستنبط من عموم الحديثين، حيث قال سمرة بن جندب: "لقد كنت على عهد رسول الله ﷺ غلامًا فكنت أحفظ عنه، فما يمنعني من القول إلا ها هنا رجالاً هم أسن مني" فيكره أن يحدث إذا كان في البلد من هو أولى به لزيادة علم أو ضبط أو حفظ أو تقدم سن وذلك يدل على معرفته بأقدار الناس وأفضال العلماء وكبار السن وإنزالهم منزلتهم التي تليق بهم. وكذلك الحديث الثاني حيث قال رسول الله ﷺ "ما أكرم شاب شيخًا لسنه إلا قيض الله له من يكرمه عند سنة" وفي ذلك دعوة إلى إنزال الكبير المنزلة التي تليق بسنه وهذا هدف إسلامي عام حيث يهدف الإسلام إلى إنزال الناس منازلهم التي تليق بهم.

وفي بيان ذلك قال ميمون بن أبي شيب: إنَّ عائِشَةَ رضي الله عنها مَرَّ بِهَا سَائِلٌ فَأَعْطَتْهُ كِسْرَةٍ، وَمَرَّ بها رَجُلٌ عَلَيْهِ ثِيَابٌ وَهَيْئَةٌ فأَقْعَدَتْهُ فأَكَلَ، فَقِيلَ لَها في ذَلِكَ، فقالَتْ: قَال رَسُولُ الله ﷺ: ((أَنْزِلُوا النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ))[1].

قال صاحب عون المعبود: ("فأعطته كسرة": بكسر أوله أي قطعة من خبز ونحوه "فقيل لها": أي لعائشة رضي الله عنها "في ذلك": أي المذكور من صنيعها بالمارين بها. والمعنى قيل لعائشة رضي الله عنها: لم فرقت بينهما حيث أعطيت الأول كسرة وأقعدت الثاني وأطعمته "أنزلوا الناس منازلهم" أي عاملوا كل أحد بما يلائم منصبه في الدين والعلم والشرف.

قال العزيزي: (والمراد بالحديث الحض على مراعاة مقادير الناس ومراتبهم ومناصبهم وتفضيل بعضهم على بعض في المجالس وفي القيام وغير ذلك من الحقوق)[2].

---

(١) مقدمة صحيح مسلم ص ٢٠، وأخرجه أبو داود ٤٨٤٢، وضعفه الألباني، (ضعيف سنن أبي داود ١٠٣٢).

(٢) عون المعبود، محمد أشرف الحق بن أمير العظيم آبادي ص ٢٠٩٥.

الحديث رقم (٣٥٩)

٣٥٩- وعن أنس رضي الله عنه ، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ : ((**مَا أكْرَمَ شَابٌّ شَيْخًا لِسِنِّهِ إلاَّ قَيَّضَ الله لَهُ مَنْ يُكْرِمُهُ عِنْدَ سِنِّه**)) رواه الترمذيُّ[1] ، وَقالَ: ((حديث غريب)).

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

قيض الله له: قدّره له وهيأه[2].

الشرح الأدبي

احترام الصغير للكبير، وتوقيره معنى تضافرت على توكيده، والترغيب فيه العديد من الأحاديث النبوية، وربّى عليه الرسول ﷺ أصحابه حتى صار في قلوبهم، وعقولهم، وهذا الحديث من هذه النوعية التي ترغب في هذا الخلق عن طريق أسلوب القصر الذي يعطي المخاطب شعوراً بأن إكرام هذا الشيخ إكرام لنفسه، وأن هذا الإكرام سبب في أن يوكل به يكرمه عند تقدمه في السن، وفعل الشرط الماضي (أكرم)، وجواب الشرط الماضي يدلان على أن تحقق الثاني مترتب على تحقق الأول مما يوحي للمخاطب بأنه بهذا الإكرام يكرم نفسه، والمطابقة بين الشاب، والشيخ توضح المعنى، وتشير إلى حقيقة ملموسة، وهي أن الحال تتبدل فغداً يتحول الشاب إلى شيخ، والتعبير بقيض يوحي بالملازمة التي تشعر بالطمأنينة، وإسناد الفعل لله دليل على تحققه على الوجه الأكمل؛ لأن الفعل يرتبط بالفاعل في إيجاد الفعل، وتأثيره، وقوله: عند سنه، فيه إيجاز بحذف المضاف أي عند كبر سنه، وحذف المضاف يجعل هناك تماثلاً بين العبارتين في جانب المسن، وفي جانب الشاب (لسنه، وسنه) وفيه بشرى له

---

(١) برقم (٢٠٢٣). قال ابن عدي في الكامل (٢٧٣٢/٧، ترجمة: يزيد بن بيان): هذا حديث منكر.

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في قيض.

بطول العمر، وبلوغ عمر هذا الشيخ، مع وجود الإكرام، والإعانة عند كل حاجة مكفولة من الله بقول رسوله ﷺ (قيض).

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

الدرجات العلمية معترف بها في الإسلام، والتفاوت في هذه الدرجات والإشارة إلى التخصصات الدقيقة وارد في سنة الرسول ﷺ، والإسلام دعا المسلمين إلى تكريم العلماء من سبيلين:

السبيل الأول: أدبي، والسبيل الثاني: مادي.

والسبيل الأول له مظاهر شتى في الإسلام منها: شهادات التقدير التي تعطى لهؤلاء، وأول من سنها في الإسلام هو الرسول ﷺ حتى أعطى للمميزين في بعض العلوم شهادات تقدير مثل تزكيته ﷺ لبعض أصحابه رضي الله عنهم مثل قوله: "أقرؤكم أبى"، "أفرضكم زيد"، "أعلمكم بالحلال والحرام على"، "من أراد أن يسمع القرآن غضاً طرياً كما أنزل ليسمعه من ابن أم عبد".

السبيل الثاني: التكريم المادي، فقد اهتم الرسول ﷺ بالتكريم المادي في مجال التعليم، وجعل تعليم عشر من الصحابة عتقاً لرقبة المعلم إن كان من الأسرى، كما أذن بتقاضي الأجر على العملية التعليمية "إن أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله"، كما جعل التعليم مقابل المهر، كما ورد "زوجتكها بما معك من القرآن". وفيما يلي المضامين الآتية:

أولاً- التربية بالتوجيه المباشر:

استخدم النبي ﷺ أسلوب التوجيه المباشر في عدة أحاديث من هذا الباب، يقول ﷺ: «يَؤُمُّ الْقَوْمَ أَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ الله ...»، ويقول ﷺ: «اسْتَوُوا وَلاَ تَخْتَلِفُوا؛ ...» ويقول: «أَنْزِلُوا النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ»، فهذه كلها توجيهات نبوية إلى المتربين المسلمين لينفذوها في حياتهم وعباداتهم، فأول الأحاديث وثانيها توجيه إلى تنظيم فريضة الصلاة في الجماعة، وكيفية أدائها، وكيفية المفاضلة بين الناس في التقدم للإمامة، ثم في تسوية الصفوف، أما الثالث فإنه يتطرق إلى المعاملات بين الناس؛ فينبغي على المسلم أن يحترم الآخرين وينزلهم منازلهم؛ لأن ذلك من مظاهر تحضر المجتمع الإسلامي ورقيه، فضلاً عن مرضاة الله عز وجل، بالامتثال لأوامر نبيه ﷺ.

ويعتمد هذا الأسلوب على توجيه الكلام إلى الفرد المستهدف بالتربية عن طريق الخطاب المباشر، وذلك من خلال البيان والإرشاد؛ حيث يقوم المربي بتلقين الفرد المراد تغيير سلوكه أو تقويمه أو تعزيزه تلقينًا مباشرًا[1].

ثانيًا- التربية على تقديم أهل العلم والفضل:

تقوم التربية الإسلامية على احترام أهل العلم والفضل، وتقديمهم على غيرهم لجداراتهم بذلك، ولذا أراد النبي ﷺ أن يعمق هذا الفهم في نفوس أصحابه عن طريق وضع أسس للمفاضلة في تقديم الإمام في الصلاة، فلا يكون الأمر فوضى يتقدم للإمامة من يتقدم، ولكن ثمة معايير للمفاضلة وضعها النبي ﷺ لهذه المهمة، حتى يتجنب الصخب واللغط عند إقامة الصلاة، يقول: «يَؤُمُّ الْقَوْمَ أَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ؛ فَإِنْ كَانُوا فِي الْقِرَاءَةِ سَوَاءً، فَأَعْلَمُهُمْ بِالسُّنَّةِ...».

وفي هذا دعوة إلى عدم اتباع الأهواء الشخصية في مسألة الإمامة؛ لأن ذلك ربما يقدم إلى الصلاة من ليس أهلاً لها، فيسيء القراءة، أو لا يؤدي أركانها على الوجه الصحيح فتفسد بذلك الصلاة، التي هي أهم أركان الإسلام؛ ويتحول الأمر إلى ما حذّر منه ﷺ: «وَإِيَّاكُمْ وَهَيْشَاتِ الأَسْوَاقِ»، وما فيها من فوضى لا تليق بعامة المسلمين بلة المتقين العابدين.

وهذا السلوك التربوي في الصلاة لا شك سينسحب على سائر حياة المسلم، فتراه يحترم أهل القرآن وحفظة السنة النبوية، لأن العلماء ورثة الأنبياء، كما أخبر الرسول ﷺ، فاحترامهم وتوقيرهم وعدم رفع الصوت في مجلسهم، واللطف في معاشرتهم، ولين الجانب لهم، والمسارعة في خدمتهم، كل ذلك يحتاج المسلم إلى أن يتعوّده[2].

ثالثًا- إنزال الناس منازلهم:

فلحافظ القرآن منزلته، وللعالم بالسنة منزلته، وللكبير منزلته، وقد جمع الرسول ﷺ كل ذلك بقوله: «أَنْزِلُوا النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ»، حتى يسود المجتمع روح الاحترام والتوقير لأهل الفضل وللكبار سنًا.

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. أمين أبو لاوي، ص١٥٤ بتصرف يسير.

(٢) شخصية الطفل المسلم، محمد عثمان جمال، ص٨٧.

وعندما انطلق عبدالرحمن بن سهل ومحيصة وحويصة ابنا مسعود إلى النبي ﷺ وأراد عبدالرحمن الكلام، فقال ﷺ: «كبِّرْ كبِّرْ» لأنه كان أحدثهم سنًا، فتكلم أكبرهم سنًا.

وحق الكبير يكون بإنزاله منزلته اللائقة به، البدء به في الكلام والطعام والشراب، وعدم الاستخفاف به، والحياء منه والقيام له وإجلاسه وتقبيل يده إذا كان عالمًا أو أبًا أو جدًا[1].

رابعاً- من المبادئ التربوية: احترام وليّ الأمر وتوقيره:

وقد أمرنا الله تعالى بذلك في قوله تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾[2]، لأن طاعة أولي الأمر واحترامهم من شأنه توحيد الصف، وسيادة الوحدة في المجتمع، ولهذا فقط غضب عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما أساء أحد الناس مخاطبته وقال له: «فوَاللَّهِ مَا تُعْطِينا الْجَزْلَ، وَلاَ تَحْكُمُ فينَا بِالْعَدْلِ»، وهمّ أن يعاقبه لولا أن ذكره الآخر بقوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾[3].

يقول الماردي في حق ولي الأمر على رعاياه: وإذا قام الإمام بما ذكرنا -يعني رعاية الأمة والقيام بالواجبات-فقد أدى حق الله تعالى فيما لهم وعليهم، ووجب له عليهم حقان: الطاعة والنصرة، ما لم يتغير حاله[4].

خامساً- من المبادئ التربوية، الجزاء من جنس العمل:

إن من مظاهر ترغيبه في احترام الكبير وتوقيره أنه وعد بأن من احترم الكبير ووقره نال جزاء ذلك التوقير في الدنيا، بأن يقيد له الله في شيبه من يكرمه، يقول ﷺ: «مَا أَكْرَمَ شَابٌ شَيْخًا لِسِنِّهِ إلاَّ قَيَّضَ الله لَهُ مَنْ يُكْرِمُهُ عِنْدَ سِنِّهِ»، وذلك حتى

---

(١) تربية الطفل في الإسلام، د. أحمد محمود الحمد، ص١٦٠.

(٢) سورة النساء، آية: ٥٩.

(٣) سورة الأعراف، آية: ١٩٩.

(٤) الأحكام السلطانية، الماوردي، ص١٧.

يعلم المسلمون قيمة هذه الفضيلة ويقوموا بها؛ مقتنعين بأن الله سيقيض لهم في كبرهم من يخدمهم ويكرمهم؛ مثلما كانوا يكرمون الشيخ في صغرهم.

إن هذا الجزاء الذي يلقاه المرء في الدنيا هو الجزاء الإلهي، الذي يعجله الله للإنسان في الدنيا، قبل جزاء الآخرة، ويعني أن من يقوم بفعل الأوامر ويلتزم بقواعد السلوك الخلقي يحصل على نصيب من ثوابها في الدنيا، وكذا من يتجنب فعل الفضيلة ويأتي مضادها فإن الله يصيب سخطه عليه في غضبه على هذا السلوك المنحرف[١].

سادساً- التربية بالمواقف:

وهذا واضح من عدة أحاديث بالباب، مثل حديث جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجمع بين الرجلين من قتلى أحد يعني في القبر. ثم يقول: أيهما أكثر أخذاً للقرآن؟ فإذا أشير له إلى أحدهما قدّمه في اللحد. وكذلك ظهرت التربية بالمواقف في تصرف عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع عيينة بن حصن عندما أساء إليه بالقول، فوقف عمر بن الخطاب عند كتاب الله الآمر بالعفو والإعراض عن الجاهلين.

وفي ذلك وغيره تربية بالمواقف، ولا شك أن هذا الأسلوب من التربية يبقي أثرًا طويلاً عند المتعلمين.

سابعاً- التربية على حل المشكلات:

وهذا واضح من تصرف الحُرّ بن قيس عندما رأى غضب عمر بن الخطاب رضي الله عنه على عيينة بن حصن وهمّ عمر أن يوقع به العقوبة، فقال عندئذ ليهدئ من سورة عمر وغضبه وبالتالي يمنعه عن إيقاع العقوبة والاستجابة للغضب، قال: يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[٢] وإن هذا من الجاهلين فكان هذا من الحرّ حلاً لمشلكة غضب عمر، وكان حلاً موفقاً فقد توقف عمر عما همّ به، لأنه رضي الله عنه كان وقافًا عند كتاب الله تعالى.

---

(١) نضرة النعيم، إعداد مجموعة من المختصين ١١٧/١.

(٢) سورة الأعراف، آية: ١٩٩.

وفي ذلك إرشاد لأهل التربية أن يغرسوا فيمن يربونهم مهارة حل المشكلات التي تقابلهم في حياتهم، والحياة مليئة بها، كما أن كثيرًا من المشاكل يمكن أن تحل في بدايتها بجهد بسيط وعمل قليل بدلاً من تركها تكبر وتتعقد مع مرور الأيام حتى تستعصي على الحل.

٤٥- باب زيارة أهل الخير ومجالستهم وصحبتهم ومحبتهم

قَالَ اللَّه تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ إِلَى قوله تَعَالَى: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا؟﴾[الكهف: ٦٠-٦٦]، وَقالَ تَعَالَى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾[الكهف: ٢٨].

الحديث رقم (٣٦٠)

٣٦٠- وعن أنس ﷺ، قَالَ: قَالَ أَبُو بكر لِعُمَرَ ﷺ بَعْدَ وَفَاةِ رسولِ الله ﷺ: انْطَلِقْ بِنَا إِلَى أُمِّ أيْمَنَ ﷺ نَزُورُهَا كَمَا كَانَ رَسُول الله ﷺ يَزُورُهَا، فَلَمَّا انْتَهَيَا[1] إلَيْهَا، بَكَتْ، فَقَالاَ لَهَا: مَا يُبْكِيكِ؟ (أمَا تَعْلَمِينَ أنَّ) [2] مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لرَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَتْ: مَا أبْكِي أَنْ لاَ أَكُونَ أَعْلَم أنَّ مَا عِنْدَ الله تَعَالَى خَيْرٌ لرسول الله ﷺ، ولَكِنْ أبكي أنَّ الوَحْيَ قدِ انْقَطَعَ مِنَ السَّماءِ، فَهَيَّجَتْهُمَا عَلَى البُكَاءِ، فَجَعَلا يَبْكِيَانِ مَعَهَا. رواه مسلم[3].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

هيجتهما على البكاء: أثارتهما وحركتهما وبعثتهما على البكاء[4].

---

(١) لفظ مسلم: (انتهينا).

(٢) الزيادة من الجمع للحميدي (١/٩٧، رقم ١٨).

(٣) برقم (٢٤٥٤/١٠٣).

(٤) المفصح المفهم لمعاني صحيح مسلم، ابن هبيرة ٤٤٢ والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١٠٠٢.

الشرح الأدبي

كان الصحابة ﭬ أحرص الناس على متابعة الرسول ﷺ في كل صغيرة، وكبيرة حتى أنهم كانوا يتتبعون ممشاه في حياته، ومجلسه، وموطئه، وكل فعل علموا أنه فعله، وهذا الحديث يؤكد ذلك كما يؤكد حرصهم على صلة من كان رسول الله ﷺ يصلهم عملاً بقوله ﷺ (إنّ أبَرَّ البِرِّ أنْ يَصِلَ الرَّجُلُ وُدَّ أبيهِ)[1]، ورسول الله ﷺ خير عندهم من أمهاتهم، وآبائهم، وأبنائهم، والناس أجمعين، وهم أوفى الناس بحق الصلة، وقول أبو بكر الصديق ﭬ لعمر ﭬ (انْطَلِقْ بِنَا إِلَى أُمِّ أيْمَنَ ﭭ نَزُورُهَا) التعبير بلفظ انطلق فيه حث، ومسارعة، والأمر بمعنى الترغيب بدليل قوله (كَمَا كَانَ رَسُولُ اللّه ﷺ يَزُورُهَا) والتشبيه بزيارة الرسول ﷺ للحض والترغيب؛ لأنه دليل على أنها سنة لفعله ﷺ، وقولهم لها (ما يبكيك؟) استفهام إيناس، وتلطف لتهدئتها مع ما يلوح من التعجب، والاستفهام الثاني (أمَا تَعْلَمِينَ أنَّ مَا عِنْدَ اللّهِ خَيْرٌ لِرَسُولِ اللّه ﷺ) استفهام تقرير للتذكير، والإخبار تطييباً لقلبها، وقولها: (مَا أبْكِي أَنْ لاَ أَكُونَ أَعْلَم) أسلوب نفي؛ لأن يكون بكائها لعدم علمها بهذا الأمر، وقولها: (ولَكِنْ أبكي أنَّ الوَحْيَ قدِ انْقَطَعَ مِنَ السَّماءِ) استدراك لبيان حقيقة سبب بكائها، وهو حزنها على انقطاع الوحي، وهو دليل على فقهها، ورجاحة عقلها لإدراكها قيمة الصلة بين السماء، والأرض المثلة في الوحي -رضي الله عنها، وأرضاها-.

فقه الحديث

١- زيارة الصالحين، وفضلها، وزيارة الإنسان لمن كان صديقه يزوره ولأهل ود صديقه.

٢- زيارة جماعة الرجال للمرأة الصالحة، وسماع كلامها[2]، قال صاحب الفروع: (والأولى حمل ذلك على من لا يخاف منها فتنة كالعجوز)[3].

---

(١) سنن الترمذي حديث (١٩٠٣).

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٠/١٦، الفروع، المرداوي ١٤٥/٢.

(٣) الفروع، المرجع السابق الموضع نفسه.

٣ - استصحاب العالم والكبير في الزيارة والعيادة ونحوهما.

٤- البكاء حزنًا على فراق الصالحين والأصحاب، وإن كانوا قد انتقلوا إلى أفضل مما كانوا عليه[١].

٥- أدب الزيارة: ينبغي أن تكون الزيارة على الوجه الذي يرتضيه المزور، وفي الوقت الذي لا يكرهه ولا يشق عليه، وضبط ذلك يختلف باختلاف أحوالهم ومراتبهم وفراغهم[٢].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار، والحوار.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: بيان فضل أم أيمن رضي الله عنها.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: زيارة أهل الخير والفضل ومجالستهم.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: جواز البكاء على فراق الصالحين والأصحاب.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: حب الصحابة رضي الله عنهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحزنهم على فراقه.

سادسًا: من صفات الصحابة: البر برسول الله صلى الله عليه وسلم بعد وفاته.

أولاً - من أساليب الدعوة: الإخبار، والحوار:

أفاد الإخبار في هذا الحديث الإعلام بزيارة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما لأم أيمن رضي الله عنها، وهذا ما ورد في قول أنس رضي الله عنه: (قال أبو بكر لعمر رضي الله عنهما.. إلخ)، والإخبار من الأساليب الدعوية التي يستعين بها الداعية على تبليغ دعوته للمدعوين وتوضيح أمور دينهم امتثالاً لقوله تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾[٣]. وقد أفاد الإخبار في هذا الحديث حرص أبي بكر وعمر رضي الله عنهما على زياد أم أيمن لفضلها ومكانتها مما يعد برًا برسول الله صلى الله عليه وسلم.

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦/١٠.

(٢) روضة الطالبين وعمدة المفتين، الإمام النووي، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، وعلي محمد معوض ٢٧٣/١٠.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٨٧.

"أما الحوار فهو نوع من الحديث بين شخصين أو فريقين، يتم فيه تداول الكلام بينهما بطريقة متكافئة فلا يستأثر به أحدهما دون الآخر، ويغلب عليه الهدوء والبعد عن الخصومة والتعصب"[(١)]، فهو من أساليب الحديث المشوقة للنفس الذي يكون من خلاله تحقيق المواجهة المباشرة بين القلوب والعقول بما في ذلك من سبيل لتبليغ الدعوة للمدعوين"[(٢)]، وقد ورد هذا الأسلوب في الحديث من الحوار الذي كان بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وبين أم أيمن رضي الله عنها، وذلك في قول الراوي: فقالا لها ما يبكيك... فقالت:....إلخ).

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: بيان فضل أم أيمن رضي الله عنها:

ورد ذلك في الحديث من قول أبي بكر لعمر رضي الله عنهما: (انطلق بنا إلى أم أيمن رضي الله عنها نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها)، وهي: بركة بنت ثعلبة رضي الله عنها، مولاة النبي ﷺ وحاضنته، وقد هاجرت الهجرتين، وتزوجت زيد بن حارثة رضي الله عنه فأنجبت أسامة بن زيد رضي الله عنهما حب رسول الله ﷺ، وقد حضرت أحدًا، وكانت تسقي الماء وتداوي الجرحى، وقد شهدت خيبر[(٣)]، كان رسول الله ﷺ يكرمها ويبرها بر الأم ويكثر زيارتها، وكان ﷺ عندها كالولد، ولذلك كانت تخب عليه، أي: ترفع صوتها عليه، وتذمر؛ أي: تغضب وتضجر فعل الوالدة بولدها، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: انطلق رسول الله ﷺ إلى أم أيمن، وانطلقت معه، فناولته إناء فيه شراب، قال: فلا أدري أصادفته صائمًا أو لم يُرده، فجعلت تصخب عليه وتذمر عليه[(٤)]، وزيارة النبي ﷺ لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما لها دليل على فضلها ومعرفتهم بحقها[(٥)].

---

(١) الندوة العالمية للشباب الإسلامي في أصول الحوار ص ١١، الرياض: الندوة العالمية: ١٤١٥هـ، نقلاً عن الحوار وآدابه وتطبيقاته في التربية الإسلامية، خالد المغامسي ص ٢١.

(٢) انظر: الدعوة الإسلامية "الوسائل - الأساليب"، محمد خير رمضان يوسف ص ١١٣.

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة، ابن العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ١٧٨٦، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٨٧٦.

(٤) أخرجه مسلم ٢٤٥٣.

(٥) انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٦/٣٦١.

ثالثًا – من موضوعات الدعوة: زيارة أهل الخير والفضل ومجالستهم:

يظهر ذلك في الحديث من قول أبي بكر لعمر رضي الله عنهما: (انطلق بنا إلى أم أيمن رضي الله عنها نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها، قال النووي: (فيه زيارة الصالحين وفضلها وزيارة لمن هو دونه، وزيارة الإنسان لمن كان صديقه يزوره ولأهل ود صديقه، وزيارة جماعة من الرجال للمرأة الصالحة وسماع كلامها، واستصحاب العالم والكبير صاحبًا له في الزيارة والعيادة ونحوهما)[1].

وفي الحرص على زيارة أهل الخير والفضل ومجالستهم لعظيم الأجر؛ حيث يكون حب الله لمن زار أخاه لغير أمر دنيوي، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: ((أَنَّ رَجُلاً زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى. فَأَرْصَدَ اللّهُ لَهُ، عَلَى مَدْرَجَتِهِ، مَلَكًا. فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هذِهِ الْقَرْيَةِ. قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا؟ قَالَ: لاَ. غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ. قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكَ، بِأَنَّ اللّهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ))[2].

قال النووي: (... وفي الحديث فضيلة زيارة الصالحين والأصحاب)[3].

وهذا فضلاً عن الدعاء له بطيب العيش في الدنيا والآخرة، وهذا ما بينه النبي ﷺ في قوله: ((مَن عَادَ مَرِيضًا أَوْ زَارَ أَخًا لَهُ في الله نَادَاهُ مُنَادٍ أَنْ طِبْتَ وَطَابَ مَمْشَاكَ وَتَبَوَّأْتَ مِنَ الْجَنَّةِ مَنْزِلاً))[4]، وفي ذلك بيان على عظم وأهمية وأجر زيارة أهل الخير والفضل ومجالستهم.

رابعًا– من موضوعات الدعوة: جواز البكاء على فراق الصالحين والأصحاب:

ظهر ذلك في الحديث في قول الراوي: (فقالا لها: ما يبكيك.. إلخ)، قال النووي: (فيه البكاء على فراق الصالحين والأصحاب وإن كانوا انتقلوا إلى أفضل ما كانوا عليه)[5].

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٤٩٢.

(٢) أخرجه مسلم ٢٥٦٧.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٣٩.

(٤) أخرجه الترمذي ٢٠٠٨، وحسنه الألباني، صحيح سنن الترمذي ١٦٣٣.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٤٩٢.

وفي بيان جواز البكاء على فراق الصالحين والأصحاب ما روته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها - بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم - (أنَّ أبا بكرٍ رضي الله عنه أقبل على فَرَسٍ من مَسكنه بالسُّنْح، حتى نزلَ فدخل المسجد فلم يكلم الناسَ حتى دخلَ عَلَى عائشةَ، فتيمَّمَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وهو مُغشًّى بثوبِ حِبَرةٍ، فكشفَ عن وَجهِهِ، ثمَّ أكبَّ عليه فقبَّلهُ وبكى... إلخ)[1]، وفي ذلك بيان على جواز البكاء على فراق الصالحين والأصحاب.

خامسًا- من موضوعات الدعوة: حب الصحابة رضي الله عنهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحزنهم على فراقه:

يظهر ذلك في الحديث من قول الراوي: (فلما انتهينا إليها بكت... ولكن أبكي أن الوحي انقطع من السماء، فهيجتهما على البكاء فجعلا يبكيان معها)، قال القرطبي: (وقول أم أيمن: "أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء"، أي: أبكي من أجل أن الوحي لما انقطع بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم عمل الناس بآرائهم فاختلفت مذاهبهم، فوقع التنازع والفتن، وعظمت المصائب والمحن، وفشا الشقاق، ولولا أن الله تعالى تدارك الدِّين بثاني اثنين لما بقي منه أثر ولا عين)[2].

وفي بيان ذلك قال عثمان بن عفان رضي الله عنه: (توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم فحزن عليه رجال من أصحابه رضي الله عنهم حتى كاد بعضهم يوسوس - أي يختلط كلامهم -، فكنت ممن حزن عليه، فبينا أنا جالس في أُطم من آطام المدينة -وقد بويع أبو بكر- إذ مرّ بي عمر فلم أشعر به لِمَا بي من الحزن...)[3]، وفي ذلك بيان على حب الصحابة رضي الله عنهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحزنهم على فراقه.

سادسًا- من صفات الصحابة رضي الله عنهم: البر برسول الله صلى الله عليه وسلم بعد وفاته:

يظهر ذلك في الحديث من قول أبي بكر لعمر رضي الله عنهما: (انطلق بنا إلى أم أيمن رضي الله عنها

---

(١) أخرجه البخاري ٤٤٥٢، ٤٤٥٣.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٣٦٢/٦.

(٣) حياة الصحابة، للكاندهلوي ٤٦٥.

نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها)، وقد كان بر الصحابة رضي الله عنهم لرسول الله ﷺ بعد وفاته صفة لهم، فعن أنس ﷺ قال: (صَحِبْتُ جَرِيرَ بن عبدِ اللهِ فكانَ يَخدُمني -وهو أكبَرُ من أنَسٍ- قال جَرِيرٌ: إني رأيتُ الأنصارَ يَصنَعونَ شيئًا، لا أجدُ أحدًا منهم إلاّ أكرَمتهُ)[١]، وفي رواية: (آليتُ أن لا أصحب أحدًا منه إلا خدمته)، قال ابن حجر في قوله (يصنعون شيئًا) وفي رواية نصر: (يصنعون برسول الله ﷺ شيئًا: "أي من التعظيم وأبهم ذلك مبالغة في تكثير ذلك"[٢].

قال د. الحسيني هاشم: (وهذا مظهر من مظاهر صلة الرحم، ومن أرفعها وأروعها وأشملها: هو صلة من وصلوا الرسول ﷺ، وإكرامهم ومجازاتهم على ذلك خيرًا؛ فهذا جرير بن عبدالله البجلي يخدم خادم النبي ﷺ ويقسم فيما بينه وبين نفسه على خدمة الأنصار ما أمكن لخدمتهم رسول الله ﷺ)[٣].

وقيام جرير بن عبدالله رضي الله عنهما بخدمة الأنصار دليل على حسن بره برسول الله ﷺ بعد وفاته، ومن أعظم البر برسول الله ﷺ بعد وفاته الحفاظ على سنته ﷺ ونشرها والقيام بحقها قولاً وعملاً.

---

(١) أخرجه البخاري ٢٨٨٨، ومسلم ٢٥١٣.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٩٩/٦.

(٣) شرح رياض الصالحين ٢٥٢.

الحديث رقم (٣٦١)

٣٦١- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه ، عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم : ((أنَّ رَجُلاً زَارَ أخًا لَهُ فِي قَرية أُخْرَى، فَأرْصَدَ الله تَعَالَى عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا، فَلَمَّا أتَى عَلَيهِ، قَالَ: أيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أخًا لي فِي هذِهِ القَريَةِ. قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيهِ مِنْ نِعْمَة تَرُبُّهَا عَلَيهِ؟ قَالَ: لا، غَيْرَ أنِّي أحْبَبْتُهُ فِي الله تَعَالَى، قَالَ: فإنِّي رَسُول الله إلَيْكَ بَأنَّ الله قَدْ أحَبَّكَ كَمَا أحْبَبْتَهُ فِيهِ)) رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

فأرصد الله تعالى ملكًا: وكله بحفظه[2].

مَدْرَجته: طريقه[3].

تربُّها: تقوم بها وتسعى في صلاحها[4].

الشرح الأدبي

استخدم النبي صلى الله عليه وسلم قصص الأمم السابقة لتصحيح بعض المفاهيم، ولغرس بعض القيم وللإشارة إلى فضائل بعض الأعمال عن طريق الحوار الطريف بين الملائكة مع المؤمنين، أو تكريمهم لأهل هذه الأعمال، وهذا الحديث من هذه النوعية التي ترغب في زيارة الإخوان الصالحين وإذا نظرنا إلى مفردات الحديث وجدناها تفيض بتلك العاطفة، وتعلي من رابطة الأخوة في الله؛ لأن لها خصوصية من جهتين، الأولى: أنها تجمع المؤمنين جميعاً تحت مظلة الأخوة، وهو ما لا تفعله أخوة الرحم، والثانية: أنها في الله، وليس لها سبب آخر فهي خالصة لله تعالى و قوله (رَجُلاً زَارَ أخَاً لَهُ فِي قَرية أُخْرَى)

---

(١) برقم (٣٨/٢٥٦٧). أورده المنذري في ترغيبه (٢٧٨٨).

(٢) رياض الصالحين ١٨٦.

(٣) رياض الصالحين ١٨٦.

(٤) رياض الصالحين ١٨٦.

عبَّر فيه بالأخوة، وبالجار والمجرور(له) الذي يوحي بالخصوصية، ثم ذكر لفظ أرصد الذي يوحي باللطف، والخفاء في تبليغ البشرى، ونسبة الفعل لله فيها تشريف لهذا العبد، ثم إنه كلف بها ملك، وسؤال الملك للرجل (أين تريد؟) استفهام أريد به التمهيد، والاستدراج لما بعده والتنبيه إلى فضل ما هو فيه، والاستفهام الثاني (هَلْ لَكَ عَلَيهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا عَلَيهِ؟) استفهام تقرير بتمام الإخلاص وتنبيه إلى سر الأفضلية، ولذلك الجار، والمجرور(لك) واستقصى أفراد المستفهم عنه بقوله (من نعمة) وكثرة حروف الجر في عبارة الاستفهام تنقب عن خصوصية العمل الدالة على الإخلاص، وقوله في إجابة السؤال (لا) بني على الإيجاز، الذي يحفظ للأسلوب طبقته في الكلام العالي وتقديره: لا ليس لي نعمة أربُّها عليه، وقوله (غَيْرَ أنِّي أحْبَبْتُهُ في اللهِ تَعَالَى) توكيد الجملة لما شعر به عنده من كثرة الأسئلة التي توحي بالشك، ثم تعبيره بالماضي الدال على التحقق، والضمير المتصل به العائد على الأخ المقصود، وقوله: (في الله) تدلل على الإخلاص، والجملة التنزيهية (تعالى) تربي المهابة، وتوحي بالصدق، وقول الملك (فإنِّي رَسُولُ اللهِ إلَيْكَ) توكيد الخبر للتعظيم، وإضافة الرسول لله إضافة تعظيم، والجار والمجرور(إليك) تخصيص يدل على التشريف، وتوكيد الجملة التي تضمنت البشارة عدة مؤكدات منها (إن) وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي، وقد التي دخلت على الفعل الماضي، وكثافة المؤكدات لعظمة الخبر وعظمة البشارة، التي حملته العبارة، وتكرار لفظ الخ مرتين، ومادة المحبة ثلاث مرات مع قصر الحديث لأن تلك المادة هي الذي يدور عليها معنى الحديث.

المضامين الدعوية(١)

أولاً: من وسائل الدعوة: القصة.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: حقوق الأخوة في الله.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب، والتوكيد، والبشارة، والترغيب.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل زيارة المريض.

---

(١) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -٣٦١- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (٣٦٢).

أولاً- من وسائل الدعوة: القصة:

"القصة من الوسائل الدعوية الهامة التي تميل إليها النفس، وبها تتعلق مسامع المدعوين وأذهانهم فضلاً عن أنها تلازم الداعية وتملأه انفعالاً بدعوته، وفي ذلك عظيم الفائدة في وصول الدعوة إلى المدعوين"(١)، وقد أشار الحديث إلى ذلك من قوله ﷺ: (أن رجلاً زار أخًا له ... إلخ). ولا شك أن القصة في هذا الحديث ساعدت في بيان المعاني العظيمة التي تشتمل عليها زيارة المسلم لأخيه المسلم أو لإخوانه، وكذلك الثواب العظيم المترتب على الزيارة.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: حقوق الأخوة في الله:

يظهر ذلك في الحديثين في قوله ﷺ: (أن رجلاً زار أخًا له)، وأيضًا في قوله ﷺ: (من عاد مريضًا أو زار أخًا له.. إلخ)، فمن حقوق الأخوة في الله التزاور وعيادة المريض والسؤال عمن غاب، ومواساة المتضرر والمحتاج ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (٢).

قال السعدي: "هذا عقد، عقده الله بين المؤمنين أنه إذا وجد من أي شخص كان في مشرق الأرض ومغربها، الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، فإنه أخ للمؤمنين، أخوة توجب أن يحب له المؤمنون ما يحبون لأنفسهم، ويكرهوا له ما يكرهوا لأنفسهم...، ولقد أمر الله ورسوله بالقيام بحقوق المؤمنين بعضهم لبعض ومما يحصل به التآلف والتوادد، التواصل بينهم، كل هذا تأييد لحقوق بعضهم على بعض"(٣).

وهذا ما أكده النبي ﷺ في قوله: ((حَقُّ المسلمِ على المسلمِ خَمسٌ: ردُّ السلامِ، وعيادةُ المريضِ، واتِّباعُ الجَنائزِ، وإجابةُ الدَّعوةِ، وتشميتُ العاطِسِ))(٤)، وقال:

---

(١) انظر: الدعوة الإسلامية "أصولها ووسائلها"، د. أحمد أحمد غلوش، ص ٢٩٣.

(٢) سورة الحجرات، آية: ٦.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٧٤٤.

(٤) أخرجه البخاري ١٢٤٠، ومسلم ٢١٦٢.

((لا يُؤْمِنُ أَحدُكُمْ حتى يُحِبَّ لأَخِيه ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ))، ثم بيّن ﷺ عظم فضل هذه الأخوة إن كانت في الله فقال: ((سَبعةٌ يُظِلُّهم اللهُ في ظِلِّهِ يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ)) - وذكر منهم: ((وَرجُلانِ تَحابّا في اللهِ اجتَمَعا عليهِ وتَفَرَّقا عليه))[1]، قال النووي: "معناه: اجتمعا على حب الله، أي: كان سبب اجتماعهما حب الله واستمرا على ذلك حتى تفرقا من مجلسهما وهما صادقان في حب كل واحد منهما صاحبه لله تعالى حال اجتماعهما وافتراقهما"[2]، وفي ذلك بيان على عظم وأهمية حقوق الأخوة في الله والتزاور فيه.

ثالثًا - من أساليب الدعوة: السؤال والجواب، والتوكيد، والبشارة، والترغيب:

ورد أسلوب السؤال والجواب في الحديث من قوله ﷺ: (قال: هل لك من نعمة تربُّها عليه؟ قال: لا..) وهو من الأساليب الدعوية الهامة التي يستعين بها الداعية في لفت انتباه المدعوين واستحضار أذهانهم، وقد جاء السؤال هنا لبيان حقيقة الأخوة الخالصة التي لا ترتبط بمصالح مادية أو غيرها، أما أسلوب التوكيد فهو من الأساليب الدعوية التي يستعملها الداعية لإثبات وتأكيد ما يدعو إليه في أذهان المدعوين، وقد ورد ذلك في الحديث من تأكيد الملك على حب الله تعالى لمن زار أخاه لأجل محبته في الله، وذلك في قوله ﷺ: (قال: فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه.. إلخ)، وقد أفاد التوكيد هنا تحقق محبة الله تعالى للمتزاورين فيه والمتحابين فيه.

أما أسلوبي البشارة والترغيب، فهما من الأساليب الدعوية الناجحة في تشويق نفس المدعو وحمله على فعل الأمر المدعو إليه، وقد ورد أسلوب البشارة في الحديث في قوله ﷺ: (قال: فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه) أما أسلوب الترغيب فقد ورد في الحديث الثاني من قوله ﷺ: (ناداه منادٍ بأن طبت، وطاب ممشاك، وتبوأت من الجنة منزلاً). حيث أفاد عظيم أجر وثواب عيادة المريض. وفي ذلك ترغيب لكل مسلم في عيادة المريض، وهو أسلوب دعوي مؤثر حيث إن النفس تحب الخير وتهفو إليه، وخاصة إذا كانت الدعوة الطيبة من قبل ملك مسخر من قبل المولى عز وجل، والدعاء بدخول الجنة.

---

(١) أخرجه البخاري ٦٨٠٦، ومسلم ١٠٣١.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٦٥٣.

رابعًا - من موضوعات الدعوة: فضل زيارة المريض:

لقد أشار الحديث إلى ذلك في قوله ﷺ: (من دعاء مريضًا... ناداه منادٍ بأن طبت، وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منزلاً)، قال الطيبي: "قوله: (طبت) دعاء له بأن تطيب عيشه في الدنيا، و(طاب ممشاك) كناية عن سيره وسلوكه طريق الآخرة بالتعري من رذائل الأخلاق، والتحلي بمحاسن الأفعال ومكارمها، و(تبوأت) دعاء بطيب العيش في الآخرة"[١]، وقال النبي ﷺ في تأكيد ذلك: ((إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا عَادَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، لَمْ يَزَلْ فِي خُرْفَةِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَرْجِعَ)). قِيلَ: يَا رَسُولَ اللّهِ وَمَا خُرْفَةُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ ((جَنَاهَا))[٢]، وقال ﷺ: ((مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَعُودُ مُسْلِمًا غُدْوَةً إِلاَّ صَلَى عليهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتَّى يُمسِيَ، وإِنْ عَادَهُ عَشِيَّةً إِلاَّ صَلى عَلَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتى يُصْبِحَ وكَانَ لَهُ خَرِيفٌ في الجَنَّةِ))[٣]، وفي ذلك بيان عظم فضل زيارة المريض.

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٣/٢١٦.

(٢) أخرجه مسلم ٢٥٦٨.

(٣) أخرجه الترمذي ٩٦٩، وصححه الألباني، صحيح سنن الترمذي ٧٧٥.

الحديث رقم (٢٦٢)

٣٦٢- وعنه، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: ((**مَنْ عَادَ مَرِيضًا أَوْ زَارَ أخًا لَهُ في الله، نَادَاهُ مُنَادٍ: بِأنْ طِبْتَ، وَطَابَ مَمْشَاكَ، وَتَبَوَّأتَ مِنَ الجَنَّةِ مَنْزِلاً**)) رواه الترمذيُّ[1]، وَقَالَ: ((حديث حسن))، وفي بعض النسخ: ((غريب)).

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

شيوع أسلوب الشرط في الحديث النبوي ينبيء عن قيمة هذا الأسلوب الذي يجعل المخاطب طرفاً حرَّ الاختيار يستطيع القبول، أو الرفض بعد أن يعرض عليه الفعل مرتبطاً بعاقبته، وقول الرسول ﷺ (من عاد مريضاً، أو زار أخاً له في الله) أسلوب شرط فيه مزيد تشويق إلى الجواب، والتعبير بالعيادة يوحى بالتكرار لأن المريض يكون في حالة يحتاج إلى أن يشعر بمحبة إخوانه مما يساعد في سرعة شفائه، وقوله (أو زار أخاً)حرف العطف (أو) للتنويع، والتعبير بلفظ الأخوة يشير إلى تلك الرابطة التي تجمع بين الأشقاء بكل ما تستلزمه من رعاية، وعناية، ونصرة، وتنكير (مريضاً - أخاً)يعطي معنى العموم حتى تشيع تلك المعاني في الأمة كلها في محبة، ورعاية، وقوله (في الله)يشير إلى خصوصية الرابطة، وتجردها من الأغراض الدنيوية؛ لأن هذه الخصوصية تضمن للأخوة الدوام؛ لأن ما كان لله دام، واتصل، وما كان لغيره انقطع، وانفصل كما تضمن لها الشيوع؛ لأنها رابطة تجمع جميع المؤمنين، وتنكير (مناد) ليذهب العقل في تخيله كل مذهب، والجناس بين طبت، وطاب يبعث في العبارة جرساً حسناً، ويشير إلى إحاطة الصفة به وقوله: (وطاب ممشاك) مَصْدَرٌ أَوْ مَكَانٌ أَوْ

---

(١) برقم (٢٠٠٨) وقال: هذا حديث حسنٌ غريبٌ. وصحّحه ابن حبان (الإحسان ٢٩٦١)، وقال الحافظ في الفتح (٥٠٠/١٠): وله شاهد عند البزار من حديث أنس بسند جيد، وأخرجه أحمد بسند صحيح من حديث عتبان بن مالك. أورده المنذري في ترغيبه (٣٧٨٩).

زَمَانٌ مُبَالَغَةً. قَالَ الطِّيبِيُّ: كِنَايَةٌ عَنْ سَيْرِهِ وَسُلُوكِهِ طَرِيقَ الْآخِرَةِ بِالتَّعَرِّي عَنْ رَذَائِلِ الْأَخْلَاقِ وَالتَّحَلِّي بِمَكَارِمِهَا وقوله (من الجنة) يشير إلى شرف الموضع وعظمة المكان، وقول الملك (طِبْتَ، وَطَابَ مَمْشَاكَ، وَتَبَوَّأْتَ مِنَ الجَنَّةِ مَنْزِلاً) خبر في اللفظ وإنشاء في المعنى لأنه دعاء وصياغته في صورة الخبر إظهار للحرص على تحقق الوقوع؛ لأنه عبَّر عنه في صورة الماضي المتحقق، وكأنه يخبر عنه، والحديث دعوة إلى تقوية الروابط الاجتماعية تحت مظلة المحبة الإلهية، التي تصل، ولا تمزق، وتجمع، ولا تفرق.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم زيارة المرضى وعود الإخوة من الأحباب والأصدقاء وأنه من أفعال الخير التي حث عليها النبي ﷺ حتى يناديه ملك أن طاب وطاب ممشاه ويبشره بمنزله من الجنة.

وقد سبق القول في الحديث رقم (٦) أنه قد اختلف الفقهاء في حكم عيادة المريض على أقوال كثيرة، فذهب الجمهور[(١)] إلى أنها سنة، وذهب ابن حزم[(٢)] إلى أنها فرض ولو لمرة واحدة على الجار الذي لا تشق عيادته، وقيل هي سنة كفاية[(٣)]، وقيل هي واجبة على الكفاية[(٤)]، ونقل النووي الإجماع على عدم الوجوب[(٥)].

المضامين الدعوية[(٦)]

---

(١) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٣٢١/٤، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم النفراوي ٣٢٧/٢، والمجموع شرح المهذب، النووي ١٠٢/٥ وما بعدها، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد الأنصاري ٢٩٥/١، وإحكام الأحكام لابن دقيق العيد ٢٩٦/٢، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ١٦٠/٢، والفروع، ابن مفلح ١٧٤/٢، والآداب الشرعية لابن مفلح ٢٠٠/٢، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين أبو الحسن المرداوي ٤٦١/٢.

(٢) المحلى، ابن حزم ٤٠٢/٣ وما بعدها.

(٣) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٦٧/٣١.

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، عبدالرحمن بن قاسم ٣٠٥/٥.

(٥) المجموع شرح المهذب، النووي ١٠٢/٥، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، الشوكاني ٢٢/٤.

(٦) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (٣٦٣)

٣٦٣- وعن أَبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم ، قَالَ: ((إِنَّمَا مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَجَلِيسِ السُّوءِ، كَحَامِلِ المِسْكِ، وَنَافِخِ الْكِيرِ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ: إِمَّا أنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أنْ تَجِدَ مِنْهُ ريحاً طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الكِيرِ: إمَّا أنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإمَّا أنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحاً مُنْتِنَةً[١])) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[٢].

ترجمة الراوي:

أبو موسى الأشعري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨).

غريب الألفاظ:

الكير: جهاز من جلد أو نحوه يستخدمه الحداد وغيره للنفخ في النار لإشعالها[٣].

يحذيك: يعطيك[٤].

تبتاع منه: تشتري[٥].

الشرح الأدبي

يتصدر الحديث أسلوب القصر الذي يحصر معنى في معنى حيث حصر الجليس الصالح على كونه كحامل المسك، وحصر الجليس السوء في كونه كنافخ الكير، وحاصل معنى القصر أن كلاً منهما لا يتجاوز الصفة التي وصف بها، وقد صور المعنى في عبقرية عن طريق المثل فالأمثال، نموذجات الحكمة لما غاب عن الأسماع والأبصار لتهدي النفوس بما أدركت عياناً.. فمن تدبير الله لعباده أن ضرب لهم الأمثال من أنفسهم لحاجتهم إليها ليعقلوا بها فيدركوا ما غاب عن أبصارهم وأسماعهم

(١) لفظ البخاري ومسلم: (خبيثة).

(٢) أخرجه البخاري (٥٥٣٤) واللفظ له، ومسلم (٢٦٢٨/١٤٦). أورده المنذري في ترغيبه (٤٤٩٦).

(٣) الوسيط في (ك ي ر).

(٤) رياض الصالحين ١٨٧.

(٥) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ب ي ع).

الظاهرة[١]. وفي الحديث أسلوب نشر، ولف حيث ذكر الجليس الصالح، لجليس السوء ثم أعاد على كلاً إلى ما هو له، وقيمة هذا اللون أنه يجمع بين المتناظرين، وهما الجليسان في جهة واحدة يحقق التشويق، ويمهد للإخبار عنهما فإذا جاء صادف نفساً مهيئة، وعقلاً يقظاً، وفي الحديث مقابلة بين الجليس الصالح، والجليس السوء، وبين حامل المسك ونافخ الكير، وهي تجلى أبعاد المعنى، وتصور المفارقة بين الجلسة في ريح طيبة، والجلسة في الحر والريح الكريهة، وتشبيه الجليس الصالح بحامل المسك والجليس السوء بنافخ الكير يشير إلى عدة دلالات منها: أن أثر المجلس خيراً، أو شراً ينسحب على بقية الجالسين، كما يشير إلى شدة تأثر الجليس بنوعية جلسائه، كما يشير التشبيه بالريح إلى سرعة الانتشار التي تؤكد سرعة بلوغ الأثر، كما يشير التعبير بحرق الثوب، ونتن الرائحة يشير إلى قوة التأثير، والحديث يشير من قريب إلى ضرورة أن يتأنى الإنسان في اختيار جليسه، وصاحبه، وأن ينظر الوالد في جلسائه أبنائه، وأهله حتى يمنع عنهم نافخ الكير.

فقه الحديث

وفي الحديث من لأحكام ما يأتي:

١- الترغيب في مجالسة الصالحين، وأهل الخير، والمروءة ومكارم الأخلاق والورع والعلم والأدب.

٢- النهي عن مجالسة أهل الشر، وأهل البدع، ومن يغتاب الناس، أو يكثر فجره وبطالته، ونحو ذلك من الأنواع المذمومة[٢].

٣ - وفيه: جواز ضر المثل، والعمل في الحكم بالأشباه والنظائر[٣].

٤ - وفي الحديث طهارة المسك، واستحبابه، وجواز بيعه.

---

(١) ينظر الأمثال من الكتاب والسنة لأبي عبدالله محمد بن علي الحكيم الترمذي ص١٢: ١٤ تحقيق د/ السيد الجميلي الطبعة الأولي دار ابن زيدون بيروت ١٩٨٥م.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٧٨/٦، فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٢٤/٤.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٢٤/٤.

وقد ذهب جمهور الفقهاء[١]، إلى طهارة المسك، وجواز بيعه واستدلوا على ذلك بالسنة، والإجماع والمعقول:

أما السنة: فهذا الحديث، لأن قوله ﷺ: "وإما أن يبتاع منك" يدل على أن المسك يجوز بيعه، ولو كان نجسًا ما جاز بيعه[٢].

وأيضًا ما روي عن عائشة رضي الله عنها، وغيرها من الصحابة رضي الله عنهم أنهم رأوا وبيص المسك في مفارق رسول الله ﷺ[٣].

وأما الإجماع: فقد انعقد الإجماع على طهارته، وجواز بيعه، وقد حكى الإجماع غير واحد من العلماء منهم النووي[٤].

وأما المعقول: فلأن النبي ﷺ كان يستعمله في بدنه، ويخبر أنه أطيب الطيب[٥]، ولم يزل المسلمون على استعماله، وجواز بيعه[٦].

وهناك رأي ضعيف يرى أن المسك نجس، ولا يصح بيعه، وقد حكاه الماوردي في كتاب البيوع عن الشيعة[٧]، وقال به بعض الفقهاء[٨].

---

(١) رد المحتار على الدر المختار المسمى بـ "حاشية ابن عابدين"، محمد أمين بن عمر عابدين، تحقيق: علي محمد معوض ٢٠٩/١، وحاشية الدسوقي على الشرح الكبير، محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي ٥٢/١، والتاج والإكليل شرح مختصر خليل، وهو مطبوع بهامش مواهب الجليل للحطاب، محمد بن يوسف المواق ٩٧/١، والوسيط في المذهب، الغزالي ١٦٤/١، وإعانة الطالبين ٨٣/١، والمجموع، النووي ٥٢٨/٢، ٢٩٠/٩ - ٢٩١، والفروع، ابن مفلح ٢١٦/١، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين أبو الحسن المرداوي ٣٢٨/١.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٧٨/٦.

(٣) متفق عليه من حديث عائشة <، أخرجه البخاري ١٥٣٨، ومسلم ١١٩٠.

(٤) أخرجه مسلم ٢٢٥٢.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٧٨/٦، المجموع شرح المهذب، النووي ٢٩٠/٩.

(٦) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٧٨/٦.

(٧) وقد نقل هذه الحكاية النووي في المجموع شرح المهذب، النووي ٥٢٨/٢، بيد أنه بالرجوع إلى كتب الشيعة أنفسهم وجدتهم يقولون بطهارة المسك، وجواز بيعه، سواء في ذلك الشيعة الإمامية، أو الزيدية، فقد جاء في شرائع الإسلام ١٢/٢: "المسك طاهر، ويجوز بيعه في فأره" وايضًا: الروضة البهية ٣٨١/٣، وجاء في البحر الزخار ٣٢١/٤: "ويجوز بيع المسك..."، وينظر في طهارته عند الزيدية التاج المذهب لأحكام المذهب ٢٦/١.

(٨) وقد حكا صاحب الفروع، ابن مفلح احتمالًا، انظر: الفروع، ابن مفلح ٢١٦/١، الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين أبو الحسن المرداوي ٣٢٨/١.

واستدلوا على ذلك بأنه دم، ولأنه منفصل من حيوان حي، وما أبين من حي فهو ميت [١].

وقد تولى النووي في المجموع مناقشة هذا الدليل فقال: "وأما قوله: (إنه دم فلا يسلم، ولو سلم لم يلزم منه نجاسته فإنه دم غير مسفوح كالكبد والطحال.

وأما قوله: (منفصل من حيوان حي) فأجاب الأصحاب عنه بجوابين:

أحدهما: أن الظبية تلقيه كما تلقي اللد، وكما يلقي الطائر بيه، فيكون طاهرًا كولد الحيوات المأكول وبيضه.

ولأنه لو كان من حيوان لا يؤكل لم يلزم من ذلك نجاستهن فإن العسل من حيوان لا يؤكل، وهو طاهر حلال بلا شك.

الثاني: إن هذا قياس منابذ للسنة، فلا يلتفت إليه [٢].

بعد عرض آراء الفقهاء وأدلتهم ومناقشة دليل الشيعة، فقد بان بما لا يدع مجالاً للشك رجحان مذهب الجمهور من القول بطهارة المسك وجواز بيعه، أما ما ذهب إليه الشيعة، فهو غلط مخالف للسنة.

قال النووي: "وهذا المذهب خلط صريح، وجهالة فاحشة ولولا خوف لاغترار به لما تجاسرت على كايته" [٣].

وقال ابن عابدين الحنفي في حاشيته على الدر المختار: "وهذا القول لا يعول عليه، ولا يلتفت إليه "[٤].

---

(١) المجموع شرح المهذب، النووي ٢٩٠/٩.

(٢) المرجع السابق ٢٩٠/٩ - ٢٩١.

(٣) المرجع السابق ٢٩٠/٩.

(٤) الدر المختار، ابن عابدين ٢٠٩/١.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد، وضرب المثل، والترغيب والترهيب.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الحث على صحبة الأخيار والزجر عن عشرة الأشرار.

أولاً - من أساليب الدعوة: التوكيد، وضرب المثل، والترغيب والترهيب:

ورد التوكيد في هذا الحديث في قوله ﷺ: (... إنما مثل الجليس الصالح وجليس السوء)، والتوكيد من أساليب الدعوة التي يستخدمها الداعية في التأكيد على قوله مما يُشعر المدعو بأهميته وصدقه، وقد أفاد التوكيد هنا بيان أهمية تأثير الجليس في جلسائه سلبًا أو إيجابًا.

وضرب المثل من الأساليب الدعوية التي يفيد منها الداعية في توضيح توجيهاته الدعوية بما يشهده الناس بأم أعينهم، وبما يقع تحت حسهم ومشاهدتهم، لينتقل بالناس في ضرب الأمثال من الصورة إلى الحقيقية [١]، وهذا ما ورد في الحديث في قوله: (مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير)، وقد أفاد ضرب المثل هنا بيان سرعة تأثير الجليس من خلال التمثيل بانتشار الرائحة الطيبة أو الرائحة المنتنة، أما أسلوب الترغيب فقد ورد في الحديث في قوله ﷺ: (فحامل المسك إما أن يحذيك، وأما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحاً طيبة).

قال ابن حجر: "وفي الحديث الترغيب في مجلسة من ينتفع بمجالسته في الدين والدنيا"[٢].

"والترغيب من الأساليب الدعوية التي بها تشوق نفس المدعو وتحمله إلى فعل الأمر المدعو إليه، وذلك على عكس الترهيب الذي يقصد إلى إخافة المدعو وتحذيره من عدم الاستجابة للأمر المدعو إليه"[٣] وقد ورد هذا الأسلوب في الحديث من قوله ﷺ: (ونافخ الكير إما أن يُحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً منتنة).

---

(١) صفات الداعية، د. حمد بن ناصر العمار، ص ٩٨.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١٤٢/١.

(٣) انظر: أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان، ص ٤٢١.

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: "وفي الحديث النهي عن مجالسة من يتأذى بمجالسته في الدين والدنيا[١] فينبغي على الداعية ترهيب المدعوين من جلساء السوء".

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: الحث على صحبة الأخيار والزجر عن عشرة الأشرار:

هذا ما أشار إليه نص الحديث من تمثيل النبي ﷺ الجليس الصالح بحامل المسك، وقوله ﷺ في ذلك: (إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه ريحًا طيبًا)، وتمثيله ﷺ الجليس السوء بنافخ الكير، وقوله ﷺ: (إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحًا منتنة).

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "ومقصود هذا التمثيل: الحض على صحبة العلماء والفضلاء، وأهل الدين، وهو الذي يزيدك نطقه علمًا، وفعله أدبًا، ونظره خشية، والزجر عن مخالطة من هو على نقيض ذلك" [٢].

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "وفي الحديث فضيلة مجالسة الصالحين وأهل الخير والمروءة ومكارم الأخلاق والورع والعلم والأدب والنهي عن مجالسة أهل الشر وأهل البدع ومن يغتاب الناس أو يكثر فجره وبطالته ونحو ذلك من الأنواع المذمومة"[٣].

قال أبو حاتم: "العاقل يلزم صحبة الأخيار، ويفارق صحبة الأشرار؛ لأن مودة الأخيار سريع اتصالها، بطئ انقطاعها، ومودة الأشرار سريع انقطاعها، بطئ اتصالها. وصحبة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار، ومن خادن الأشرار لم يسلم من الدخول في جملتهم.

فالواجب على العاقل أن يجتنب أهل الريب، لئلا يكون مريبًا. فكما أن صحبة الأخيار تورث الخير كذلك صحبة الأشرار تورث الشر.

وأنشدني محمد بن عبدالله بن زنجي البغدادي:

عَلَيكَ بإخوان الثِّقَات فإنهم ... قليلٌ فَصِلْهم دُون مَن كنت تَصْحَبُ

ونَفْسَكَ أكرمها وصُنها؛ فإنها ... متى ما تجالس سفلةَ الناس تعطَبُ

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١٤٢/١.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٦٣٤/٦.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٦١.

... قال ابن عيينة: "من أحب رجلاً صالحًا فإنما يحب الله تبارك وتعالى".....،

وقال مالك بن دينار: "إنك أن تنقل الحجارة مع الأبرار خيرٌ من أن تأكل الخبيص[1] مع الفجار".

وقال أبو حاتم: "العاقل لا يُدنس عرضه، ولا يعوّد نفسه أسباب الشر بلزوم صحبة الأشرار، ولا يُغضي عن صيانة عرضه ورياضة نفسه بصحبة الأخيار".

فعن أبي عمرو بن العلاء، قال: رآني سعيد بن جبير وأنا جالس مع الشباب، قال: ما يجلسك مع الشباب؟ عليك بالشيوخ.

وعن ابن عمران بن حطان عن أبيه قال: قال أبو الدرداء: لصاحبٌ صالح خير من الوحدة، والوحدة خير من صاحب السوء، ومملي الخير خير من الساكت والساكت خير من مملي الشر.

قال أبو حاتم: "العاقل لا يصحب الأشرار؛ لأن صحبة صاحب السوء قطعة من النار، تُعقب الضغائن، لا يستقيم وده، ولا يفي بعهده، وإن من سعادة المرء خصالاً أربعًا: أن تكون زوجته موافقة، وولده أبرارًا، وإخوانه صالحين، وأن يكون رزقه في بلده.

وكل جليس لا يستفيد المرء منه خيرًا تكون مجالسة الكلب خيرًا من عشرته، ومن يصحب صاحب السوء لا يسلم، كما أن من يدخل مداخل السوء يتهم.

فالواجب على العاقل أن يستعيذ بالله من صحبة من إذا ذكر الله لم يعنه، وإن نسي لم يذكره، وإن غفل حرضه على ترك الذكر. ومن كان أصدقاؤه أشرارًا كان هو شرّهم، وكما أن الخير لا يصحب إلا البَررَة، كذلك الرديّ لا يصحب إلا الفَجَرة؛ فإن المرء إذا اضطره الأمر فليصحب أهل المروءات، لأن محمد بن عثمان العقبي قال: حدثنا أحمد بن داود البصري، حدثنا ابن عائشة، قال: قال عبدالواحد بن زيد: (جالسوا أهل الدين من أهل الدنيا ولا تجالسوا غيرهم، فإن كنتم لا بد فاعلين، فجالسوا أهل المروءات فإنهم لا يرفثون في مجالسهم)[2].

---

(١) الخبيص: نوع من الحلوى يصنع من التمر مخلوطًا بالسمن، (القاموس المحيط، الفيروزآبادي، الفيروزآبادي في (خ ب ص).

(٢) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، ابن حبان البستي، ص ٩٩ - ١٠٣.

فمجالسة الصلحاء لها أثر عظيم على سلوك الإنسان لما في ذلك من التخلق بأخلاقهم والتأدب بآدابهم، ومن هنا كان الأجدر بالداعية أن يرشد المدعوين إلى مجالسة الصلحاء من الناس.

الحديث رقم (٣٦٤)

٣٦٤- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه، عن النَّبيّ ﷺ، قَالَ: ((تُنْكَحُ المَرْأَةُ لأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَلِجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاك)) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

"تنكح المرأة لأربع ... فاظفر بذات الدين": معناه: أن الناس يقصدون في العادة من المرأة هذه الخصال الأربع، فاحرص أنت على ذات الدين، واظفر بها، واحرص على صحبتها[2].

تربت يداك: يقال في الدعاء، أي: خسر أو افتقر[3].

الشرح الأدبي

يشير معنى الحديث إلى عادة الناس في اختيار المرأة ويوجِّه إلى اختيار ذات الدين وبناء الفعل لما لم يسم فاعله (تنكح) يعطي الفعل صفة العموم، إشارة إلى شيوع ذلك في الناس و(ال) في المرأة للجنس، وقوله (لأربع) تنكير الكلمة يفيد التشويق، وهو إجمال يتلوه تفصيل يحقق اليقظة عن طريق الترقب الحاصل من الرغبة في معرفة ما تسفر عنه النكرة، وفيه حذف تقديره لإحدى خصال أربع، ثم فصَّلها بقوله (لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَلِجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا) وفيه حسن تقسيم؛ لأنه عدد الصفات التي تنكح من أجلها المرأة، واستوعب الأسباب جميعاً، وأخر صاحبة الدين في الذكر إشارة إلى أنها وإن كانت تنكح لتلك الأغراض لكن اللائق الضرب عنها صفحا وجعلها تبعا وجعل الدين هو المقصود بالذات فمن ثم قال (فاظفر بذات الدين) أي اخترها وقربها من بين سائر النساء

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٩٠)، ومسلم (١٤٦٦/٥٣) ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه (٢٨٧١).

(٢) رياض الصالحين ١٨٧.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ت ر ب).

ولا تنظر إلى غير ذلك، والتعبير بالظفر لأنه غاية المراد، والأمر بالظفر للترغيب، والعطف بالفاء يفيد الترغيب في المسارعة لاختيار ذات الدين وقوله (تربت يداك) أي لصقت بالتراب وهو كناية عن الفقر، وقيل: هو دعاء في الأصل إلا أن العرب تستعملها للإنكار والتعجب والتعظيم والحث على الشيء وهذا هو المراد به ههنا وفيه الترغيب في صحبة أهل الدين في كل شيء لأن من صاحبهم يستفيد من أخلاقهم ويأمن المفسدة من جهتهم.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم النكاح وأنه سنته ﷺ وسنة الأنبياء قبله، وأن المرأة حين تنكح فلمزايا فيها وأن أفضل هذه المزايا أن تكون ذات دين.

وقد اتفق الفقهاء[1] على أنه يندب لمن أراد النكاح أن يتحرى ذات الدين حتى يقيم أسرته على رضا الله سبحانه وحتى تحفظه زوجته وتحفظ أولاده وماله في حضوره وغيبته.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التفصيل بعد الإجمال.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: أسس اختيار الزوجة الصالحة.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل الزوجة الصالحة ذات الدين.

رابعًا: من أهداف الدعوة: الحث على الزواج للمحافظة على سلامة ونقاء المجتمع.

---

(١) انظر في ذلك: بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، علاء الدين أبي بكر الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٢/٢٧٠، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، الزيلعي ٢/٩٥ وما بعدها، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد المغربي ٣/٤٠٤، وحاشية الدسوقي على الشرح الكبير، محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي ٢/٢١٥، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد الأنصاري ٣/١٠٨، وتحفة المحتاج ٧/١٨٤، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٢/٦٢٤، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٥/٨.

أولاً - من أساليب الدعوة: التفصيل بعد الإجمال:

إن من أساليب الدعوة التي تظهر من هذا الحديث أسلوب التفصيل بعد الإجمال وهذا في قوله ﷺ: "تنكح المرأة لأربع..." ثم فصّل النبي ﷺ هذه الأربع، وذلك لأجل البيان والإيضاح لهذه الأمور حتى يكون المدعو على بينة منها حال اختياره للزوجة التي يجب أن تكون ذات دين وصلاح.

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: أسس اختيار الزوجة الصالحة:

لقد أشار الحديث إلى ذلك في قوله ﷺ "تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك...".

قال عبدالله البسام: "يخبر النبي ﷺ أن الذي يدعو الرجال إلى اختيار المرأة زوجةً هو أحد أربعة أمور:

أ/ فبعض الرجال يريد في المرأة الحسب والشرف الباقي لها ولآبائها، فالحسب هو الأفعال الجميلة للرجل ولآبائه.

ب/ وبعض الرجال يرغب في المال والثراء فنظرته نظرة مادية بحتة.

ج/ وبعض الرجال يطلب الجمال ويهيم في الحسن الظاهري ولا ينظر إلى ما سواه.

د/ وبعض الرجال يبحث عن الدين والتقى، فهو مقصده ومراده، وهذه الصفة الأخيرة هي التي حثّ عليها النبي ﷺ بقوله: (فاظفر بذات الدين ترتبت يداك)، كلمة يؤتى بها للحث على الشيء والأخذ به، وعدم التفريط فيه. واللائق بذوي المروءة وأرباب الصلاح أن يكون الدين هو مطمح نظرهم فيما يأتون ويذرون، لا سيما فيما يدوم أمره ويعظم خطره، فلذلك اختار النبي ﷺ بآكد وجه وأبلغه، فأمر بالظفر الذي هو غاية البغية ومنتهى الاختيار"[١].

وقال ابن هبيرة: "أن مفهوم هذا الحديث أن المرأة إذا نكحت لمالها، كان ذلك قدحًا في معنى المروءة، من جهة أن الله تعالى جعل الرجل هو المنفق على المرأة؛ فقال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾[٢].

---

(١) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله البسام ٤/٣٥٥.

(٢) سورة النساء، آية: ٣٤.

فمن تزوج المرأة لمالها؛ فكأنه قلب ما خلق له إلى المرأة؛ ورضي بالمقام الأدنى. فأما التي تنكح لجمالها؛ فإن الجمال بانفراده من غير دين يكون مجسرًا لها على الصلف؛ فلا يفيد إلا أن يضم إليه الدين، بل يكون بلية.

وكذلك الحسب، فإنها تفتخر عليه، وتتطاول، كما جرى ولا سيما بنت الجون الكندية في قولها للنبي ﷺ: (وهل تهب المرأة نفسها للسوقة؟! فشقيت بذلك)(١)(٢).

قال ابن حجر: "قال ابن المنير: هذا من بقية ما كان فيها من الجاهلية، والسوقة عندهم من ليس بملك كائنًا من كان، فكأنها استبعدت أن يتزوج الملكة من ليس بملك، وكان ﷺ قد خير أن يكون ملكًا نبيًا فاختار أن يكون عبدًا نبيًا تواضعًا منه ﷺ لربه. ولم يؤاخذها النبي ﷺ بكلامها معذرة لها لقرب عهدها بجاهليتها"(٣).

وقال ﷺ لأبي أسيد رضي الله عنه: ((أكسُها رازقيتين(٤)، وألْحقها بأهلِها))(٥).

قال ابن حجر: "فكانت تلقط البعر وتقول: أنا الشقية"(٦).

قال ابن هبيرة رضي الله عنه: "فلا يسعد الرجل بذلك إلا بصحبة ذات الدين"(٧).

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل الزوجة الصالحة ذات الدين:

إذا أراد الرجل أن يتزوج فعليه باختيار المرأة الصالحة دينًا واستقامة، وأن تكون بارة بوالديها، ومن بيت معروف بالبر والإحسان، وذلك لأن ذات الدين حريصة على دينها وعلى دين أبنائها وتربيتهم التربية الصحيحة السليمة كما أنها حريصة على زوجها

---

(١) أخرجه البخاري ٥٢٥٥.

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٢٧٦/٦ - ٢٧٧.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٧١/٩.

(٤) الرازقية: ثياب من كتان بيض طوال قاله أبو عبيدة. وقال غيره: يكون في داخل بياضها زرقة، والرازقي الصفيق، (فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٧٢/٩).

(٥) أخرجه البخاري ٥٢٥٥.

(٦) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٦٩/٩.

(٧) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٢٧٧/٦.

وسعادته، ومن ذلك أن تجعل أبناءها في غاية البر والإحسان والتقدير والاحترام لأبيهم، لشعورها بأن ذلك من دينها"[١]. وهذا ما أكد عليه النبي ﷺ في نص الحديث في قوله: (فاظفر بذات الدين ترتبت يداك).

قال ابن حجر: "أي أن اللائق بذي الدين والمروءة أن يكون الدين مطمح نظره في كل شيء لا سيما فيما تطول صحبته فأمره النبي ﷺ بتحصيل صاحبة الدين الذي هو غاية البغية"[٢].

قال ابن هبيرة: "وقوله: (إن المرأة تنكح لمالها، ولحسبها، وجمالها، ودينها)، فإنه لم يأمر أن تنكح المرأة لمالها فحسب، غير أن هذا اختار منه أنه قد يقصد، ولكن ليس بالجيد ولا بالأفضل، فلما وصل بذات الدين أمر ثم حض وسماه ظفرًا، والظفر لا يشتمل إلا عند كشف شدة أو إدراك مطلب سني.

وقوله: (بذات الدين): بالألف واللام؛ يعني به الدين المعروف، وأن تكون مشهورة به. وقوله: (تربت يداك)، لفظه لفظ الدعاء، وليس المراد به الدعاء، إلا أنه يستعمل للبعث والحض والإغراء"[٣].

قال البسام: "في الحديث أن الإنسان لا ينبغي له أن يكون الناس هم قدوته، ولا أن تكون أعمالهم هي المرغوبة عنده، فالنبي ﷺ ذكر في هذا الحديث أن ثلاثة أصناف من الناس مخطئون في اختيارهم لصفات الزوجة، وأن صنفًا واحدًا هو المصيب.

وفيه أنه ينبغي للإنسان أن ينظر في أموره لمستقبلها، وألا تكون النظرة الحاصرة العاجلة هي هدفه، فإن الزوجة الصالحة في دينها هي التي تحفظه في نفسها، وتحفظه في بيته، وتحفظه في ماله، وهي القرين الصالح الأمين.

وفيه أن الرجل لا يحرم عليه إذا كان من رغبته في الزوجة الحسب والجمال والمال مع الدين، وإنما يعاب عليه إن أهمل أهم صفات الزوجة وهي الدين.

---

(١) بر الوالدين القسم الأول، د. خليل إبراهيم ملا خاطر، ص ٨٢ - ٨٣.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٩/٣٨.

(٣) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٦/٢٧٦.

والنبي ﷺ أخبر بما يفعله الناس في العادة، فإنهم يقصدون هذه الخصال الأربع، ويؤخرون (ذات الدين) فأمر ﷺ أن يقدّم ما يؤخرون فقال: (فاظفر أنت أيها المسترشد بذات الدين، وفُز بها)[1].

وقد عظم النبي ﷺ فضل الزوجة الصالحة فقال: ((إِنَّمَا الدُّنْيَا مَتَاعٌ. وَلَيْسَ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا شَيْءٌ أَفْضَلَ مِنَ الْمَرْأَةِ الصَّالِحَةِ))[2]. وعن ثوبان رضي الله عنه أنه قال: لَمَّا نَزَلَ فِي الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ مَا نَزَلَ، قَالُوا: فَأَيَّ الْمَالِ نَتَّخِذُ؟ قَالَ عُمَرُ: فَأَنَا أَعْلَمُ لَكُمْ ذَلِكَ. فَأَوْضَعَ عَلَى بَعِيرِهِ. فَأَدْرَكَ النَّبِيَّ ﷺ، وَأَنَا فِي أَثَرِهِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيَّ الْمَالِ نَتَّخِذُ؟ فَقَالَ: ((لِيَتَّخِذْ أَحَدُكُمْ قَلْبًا شَاكِرًا، وَلِسَانًا ذَاكِرًا، وَزَوْجَةً مُؤْمِنَةً، تُعِينُ أَحَدَكُمْ عَلَى أَمْرِ الآخِرَةِ))[3]، وفي ذلك بيان فضل الزوجة الصالحة ذات الدين.

رابعًا- من أهداف الدعوة: الحث على الزواج للمحافظة على سلامة ونقاء المجتمع:

هذا ما يستفاد من سياق الحديث، حيث قال ﷺ: (تنكح المرأة لأربع....)، فالزواج سنة من سنن الهدي حثّ عليه الرسول ﷺ ورغّب فيه بأنواعه. وفي ذلك قال تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[4]، قال ابن كثير: "وهذا أمر بالتزويج"[5].

وقد حث النبي ﷺ على ذلك فقال: "ثلاثة كلهم حق على الله عونه، ثم ذكر منهم، والناكح الذي يريد التعفف"[6]، وقال ﷺ: ((يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج... ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء))[7].

---

(١) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله البسام ٣٥٦/٤.

(٢) أخرجه ابن ماجه ١٨٥٥، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ١٥٠٤).

(٣) أخرجه ابن ماجه ١٨٥٦، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ١٥٠٥).

(٤) سورة النور، آية: ٣٢.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٥١/٦.

(٦) أخرجه ابن ماجه ٢٥١٨، وحسنه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٤٢٩٢).

(٧) أخرجه البخاري ٥٠٦٦، ومسلم ١٤٠٠.

قال النووي رحمه الله: "وفي هذا الحديث الأمر بالنكاح لمن استطاعه وتاقت إليه نفسه"[١].

"والنبي ﷺ في هذا الحديث يخاطب شباب أمته الذين هم غرسها النامي، وعتادها في مستقبل أيامهم أن يبادر الشباب منهم إلى التزوج متى كان قادرًا على أمور الزواج من النفقة وما يتبعها، وكان به توقان إلى النساء حتى لا تزل به القدم في مهواة المعاصي وحمأة الشرور فإن للشباب فتوة ونزوة تدفع الشباب إلى إطاعة شهوته وتقهره على إرضائها بدون أن يبالي سوء مغبة أو حسنها، وكم جر ذلك من ويلات وأعقب من أدواء استفحل فيما بعد شرها، وعم ضررها وأصبحت ملافاتها عسيرة وتدارك أخطارها في غير الوسع والطاقة، وكم شاب أغرته شهوته واستعبدته لذته فآتى نفسه من المعاصي حظها وأروى من الموبقات غلتها فكان عاقبة ذلك أن افتقر بعد يسر ومال عريض، وضعف بعد قوة وصحة شاملة، وانتابته الأمراض والعلل فصار حليف الهم والسهاد، ينام على مثل شوك (القتاد)[٢]، قد أقض مضجعه، وذبلت نضرته وتنكرت له الحياة بعد إقبالها، وكشرت له الأيام بعد ابتسامها، وكَلَبَهُ الزمان[٣] وقد كان له مواتيًا مطيعًا، ونفر منه الأصدقاء، وكان قرة أعينهم وموضع الغبطة والسرور منهم.

ولقد بين الرسول ﷺ حكمة المبادرة إلى الزواج بعد القدرة والاستطاعة بأنها تحصن الفرج عن الوقوع في المحرمات وملابسة ما يغضب الله ويزري بالشرف والكرامة، وتدعو إلى العفة وغض البصر عما لا يجعل من محارم الله، أضف إلى ذلك أن المبادرة إلى الزواج تمكن المرء إذا رزق أولادًا من تربيتهم والقيام بشؤونهم وإعدادهم لمستقبل حياتهم وجعلهم رجالاً صالحين ينفعون أنفسهم وأمتهم، ويجعل منهم عمادًا لها وقوة، يرهب بهم جانبها، وتقوى شوكتها وتحفظ هيبتها وكرامتها، ويدفع من يريد إذلالها واستعبادها. وأما إذا أبطأ في الزواج حتى تقدّم به العمر فقد لا يستطيع تربية

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٨٦٨.

(٢) القتاد: شجر صلب له شوكة كالإبر، القاموس المحيط، الفيروزآبادي، الفيروزآبادي في (ق ت د).

(٣) كلبه الزمان: وثب عليه، وضايقه، القاموس المحيط، الفيروزآبادي، الفيروزآبادي في (ك ل ب).

أولاده لضعف قوته وعجزه عن تحصيل ما به حياتهم وتوفير أسباب السعادة لهم، وربما أدركه الأجل فيتركهم (كزغب القطا)[١] مهيضي الجناح[٢] ضعيفي المنة[٣]. لا يقدرون على دفع عوادي الأيام وكلب الزمان.

زد على ذلك أيضًا أن الإبطاء في الزواج يزيد في كثرة الفتيات العانسات ويفوت عليهن زمن نضرتهن، وجني ثمارهن في إبانة وليس لهن القوة على مدافعة الشهوة كالرجال فتطغى عليهن وتجبرهن على سلوك طريق الغواية والفساد وهناك الطامة الكبرى والمصيبة العظمى، من اختلاط الأنساب وانتهاك حرمة الأعراض وتمزيق ثوب الحياء والاستهتار بما يزيل الكرامة ويذل الشرف والعزة ويقضي على الإباء والمروءة والنخوة.

وقد وصف الرسول ﷺ العلاج لغير القادر على الزواج وهو الصوم فإنه يكسر الشهوة ويقتل الميل والرغبة في النساء لأنه يضعف البدن وينقص من الدم الذي يبعث الحرارة والقوة فتقل دوافع الشهوة وتضمحل شدتها"[٤]. وبذلك يحدث نقاء المجتمع الإسلامي وسلامته.

---

(١) كزغب القطا: أي يتركهم صغارًا ضعافًا (نقلاً عن حاشية المعتنى بكتاب الأدب النبوي، عبدالمجيد ص ٢٤٣).

(٢) مُهيضي الجناح: مكسوري الجناح (القاموس المحيط، الفيروزآبادي ، الفيروزآبادي ص ٦٠٥).

(٣) المُنَّة بالضم: القوة يقال هو ضعيف المُنَّة، مختار الصحاح في (م ن ن).

(٤) الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي، ص ٢٤٢ - ٢٤٤.

الحديث رقم (٣٦٥)

٣٦٥-وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ النَّبيّ ﷺ لِجبريل: ((**مَا يَمْنَعُكَ أنْ تَزُورنَا أكثَر مِمَّا تَزُورَنَا؟**)) فَنَزَلَتْ: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾[مريم: ٦٤] رواه البخاري[(١)].

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١).

الشرح الأدبي

الحديث حوار بين رسول السماء للأرض جبريل، وبين رسول الأرض للأرض محمد ﷺ يحكي شوق النبي ﷺ لأخيه جبريل لأنه يأتيه من حبيبه ذي الجلال والإكرام، وقد بدأ بأسلوب إنشائي يدل على الحركة الحوارية، والتجاوب بين المتكلم، والمخاطب، وينبيء عن التواصل بينهما، وهو أسلوب الاستفهام، وهو استفهام خرج عن حقيقته إلى معنى التحضيض، والحث على الزيارة يدل عليه ذكر أفعل التفضيل (أكثر) رغبة في مزيد من الزيارات وتكرار فعل الزيارة، وصياغته في صورة المضارع الدالة على التجدد، والاستمرار، وهو ما يرغب فيه ﷺ، وإيقاع فعل الزيارة على المفعول الذي هو ضمير الجماعة؛ لأن زيارة جبريل للرسول ﷺ هي زيارة لأهل الأرض جميعاً، وقد جاءت الإجابة في الآية الكريمة، في قوله تعالى (وما نتنزل إلا بأمر ربك) وهو أسلوب قصر يقصر نزول الملائكة على أمر الله لا تتعداه، وما نافية، والضمير في الفعل لجبريل، والملائكة، و﴿نتنزل﴾ مرادف ننزّل، وأصل التنزّل: تكلّف النزول، فأطلق ذلك على نزول الملائكة من السماء إلى الأرض؛ لأنه نزول نادر وخروج عن عالمهم فكأنه متكلّف، وقوله: (لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ) واللاّم في «له» للملك، وهو ملك التصرف، والمراد بـ﴿مَا بَينَ أيْدِينَا﴾ ما هو أمامنا، وبـ﴿وَمَا

---

(١) برقم (٤٧٣١).

خَلْفَنا﴾ ما هو وراءنا، وبـ ﴿ومَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ ما كان عن أيمانهم وعن شمائلهم، لأن ما كان عن اليمين وعن الشمال هو بين الأمام والخلف. والمقصود استيعاب الجهات، ولمّا كان ذلك مخبراً عنه بأنه ملك لله تعين أن يراد به الكائنات التي في تلك الجهات، فالكلام مجاز مرسل بعلاقة المحلية حيث أطلق المحل، وأراد الحال فيه، مثل ﴿واسأل القرية﴾[يوسف: ٨٢]، أي اسأل أهل القرية، فيعمّ جميع الكائنات، ويستتبع عمومَ أحوالها، وتصرفاتها مثل التنزل بالوحي، ويستتبع عموم الأزمان المستقبل، والماضي، والحال، وقد فسر بها قوله ﴿ما بين أيدينا وما خَلْفنا وما بينَ ذلِكَ﴾[١].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الاستفهام.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: طلب زيارة أهل الخير والعلم والاستزادة من الفضل.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: تنزل الملائكة بأمر الله.

أولاً - من أساليب الدعوة: الاستفهام:

ورد هذا الأسلوب في الحديث في قوله ﷺ (ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟ وقد أفاد الاستفهام هنا رغبة النبي ﷺ في زيادة جبريل عليه السلام لعدد مرات الزيارة للفائدة العظيمة في ذلك، واسلوب الاستفهام اسلوب دعوي مفيد حيث أنه من الأساليب التي تعين كلا من الداعية والمدعو في الاستفهام عما يريد معرفته وما أشكل عليه.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: طلب زيارة أهل الخير والعلم والاستزادة من الفضل:

إن من موضوعات الدعوة في هذا الحديث؛ طلب زيارة أهل الخير والعلم، وهذا ما يستفاد في قوله ﷺ لجبريل عليه السلام: (ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟)، قال ابن عثيمين: "إن في الحديث طلب زيارة أهل الخير إلى بيتك، فتطلب منهم أن يزوروك من أجل أن تنتفع بصحبتهم"[٢].

---

(١) ينظر تفسير الآية في التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور.

(٢) شرح رياض الصالحين ١/٧٢٦.

وليس أدل على ذلك من حديث عتبان بن مالك رضي الله عنه ((وهوَ من أصحابِ رسولِ اللّهِ صلى الله عليه وسلم ممّن شَهِدَ بَدرًا مِنَ الأنصارِ أنه أتى رسولَ اللّهِ صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسولَ اللّهِ قد أنكرتُ بَصَرِي وأنا أُصلّي لقَومي، فإذا كانتِ الأمطارُ سالَ الوادي الذي بَيني وبينَهم لم أستَطِعْ أن آتيَ مسجدَهُم فأصلّي بهم. ووددْتُ يا رسولَ اللّهَ أنَّكَ تأتيني فتُصلّيَ في بَيتي فأتخذَهُ مُصلًّى. قال: فقال له رسولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم: سأفعلُ إن شاءَ اللّهُ. قال عِتبانُ: فغدا رسولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم وأبو بكرٍ حينَ ارتَفَعَ النهار فاستأذَنَ رسولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم فأذِنتُ له، فلم يجلسْ حتى دَخَلَ البيتَ ثمَّ قال: أينَ تُحِبُّ أن أُصلّيَ من بَيتِكَ؟ قال: فأشرتُ له إلى ناحيةٍ من البيت، فقام رسولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم فكبَّرَ، فقمنا فصفَفْنا فصلّى رَكعتَينِ، ثم سلَّمَ... إلخ))[1].

قال النووي: "وفيه زيارة العلماء والفضلاء والكبراء أتباعهم، وتبريكهم إياهم، وفيه جواز استدعاء المفضول للفاضل لمصلحة تعرض"[2]، وفي ذلك بيان على طلب زيارة أهل الخير والعلم للاستزادة من الفضل.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: تنزل الملائكة بأمر الله:

يظهر ذلك في هذا الحديث في قول الراوي "فنزلت: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾[3].

قال ابن هبيرة: "في هذا الحديث ما يدل على أن جبريل عليه السلام غير محكم في نفسه، وأنه لا يمكنه أن ينزل نزلة ولا يرقى رقيا إلا بإذن الله عز وجل"[4].

وقال السعدي في تفسيره لقوله تعالى على لسان جبريل عليه السلام: "(وما تتنزل إلا بأمر بك): استبطأ النبي صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام مرة في نزوله إليه فقال له: (لو تأتينا أكثر مما تأتينا) شوقًا إليه، وتوحشًا لفراقه، وليطمئن قلبه بنزوله. فأنزل الله تعالى على لسان

(١) أخرجه البخاري ٤٢٥، ومسلم، ٣٣.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١١٦.

(٣) سورة مريم، آية: ٦٤.

(٤) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ١٦٩/٣.

جبريل عليه السلام: (وما نتنزل إلا بأمر ربك) أي: ليس لنا من الأمر شيء، إن أُمرنا ابتدرنا أمره، ولم نعص له أمرًا، كما قال الله عنهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾(١)، فنحن عبيد مأمورون.

(له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك) أي: له الأمور الماضية والمستقبلة والحاضرة، في الزمان، والمكان فإذا تبين أن الأمر كله لله، وأننا عبيد مدبرون فيبقى الأمر دائرًا بين: هل تقتضيه الحكمة الإلهية فينفذه؟ أم لا تقتضيه فيؤخره؟ ولهذا قال: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾(٢)، أي: لم يكن لينساك ويهملك، كما قال تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾(٣)، بل لم يزل معتنيًا بأمورك، مجريًا لك على أحسن عوائده الجميلة، وتدبيره الجليلة.

أي: فإذا تأخر نزولنا عن الوقت المعتاد، فلا يحزنك ذلك، ولا يهمك، واعلم أن الله هو الذي أراد ذلك، لما له من الحكمة فيه"(٤).

---

(١) سورة التحريم، آية: ٦.

(٢) سورة مريم، آية: ٦٤.

(٣) سورة الضحى، آية: ٣.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٤٤٧.

الحديث رقم (٣٦٦)

٣٦٦- وعن أَبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النَّبيّ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: ((**لا تُصَاحِبْ إلاَّ مُؤْمِنًا، وَلاَ يَأْكُلْ طَعَامَكَ إلاَّ تَقِيٌّ**)). رواه أَبُو داود والترمذيُّ[1] بإسناد لا بأس بِهِ.

ترجمة الراوي:

أبو سعيد الخدري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٠).

الشرح الأدبي

صدر الحديث في أسلوب القصر بالنفي والاستثناء، وهو طريق يأتي فيما ينكره المخاطب أو يجهله، ولما كان الناس في غفلة عن هذا التوجيه المهم خاطبهم خطاب الجاهل، وأسلوب القصر في الجملة الأولى يقصر المصاحبة على المؤمن، وينفيها عن من سواه، والجملة الثانية تقصر الإطعام على التقي، وتنفيه عن غيره، وقوله: (ولا يأكل طعامك إلا تقي) أي متورع، والأكل وإن نسب إلى التقي ففي الحقيقة مسند إلى صاحب الطعام فالمعنى لا تطعم طعامك إلا تقيا؛ لأن المطاعمة توجب الألفة وتؤدي إلى الخلطة بل هي أوثق عرى المداخلة ومخالطة غير التقي يخل بالدين ويوقع في الشبه والمحظورات فكأنه ينهى عن مخالطة الفجار إذ لا تخلو عن فساد إما بمتابعة في فعل، أو مسامحة في إغضاء عن منكر، فإن سلم من ذلك ولا يكاد فلا تخطئه فتنة الغير به، ثم إن فاعل الجملة الأولى الضمير المستتر(أنت) يجعل النهي موجهاً لكل من بلغه الخطاب عبر الزمان، والمكان، بأن ينظر في دين من يصاحب، وحال من يأكل معه، ويدخل عليه بيته، ويطلع على بعض خصوصياته؛ فكم هدم البيوت تهاون عن مثل هذه التوجيهات.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٣٢)، والترمذي (٢٣٩٥) ولفظهما سواء، وقال الترمذي: حديثٌ حسنٌ. وصحّحه ابن حبان (الإحسان ٥٥٤)، وقال الحاكم (١٢٨/٤): هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. أورده المنذري في ترغيبه (٤٤٦٠) وعزاه إلى ابن حبان فقط، واعترض عليه الناجي في العجالة.

فقه الحديث

وفي الحديث من الأحكام ما يأتي:

١- النهي عن مصاحبة الكفار، والمنافقين، لأن مصاحبتهم مضرة بالدين.

٢- يندب عدم إطعام الطعام إلا للأتقياء.

والمراد بالطعام في الحديث طعام الدعوة، وليس طعام الحاجة، لأن الله تعالى قال في كتابه الكريم: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [1]، ومعلوم أن أسراءهم لم يكونوا مؤمنين، ولا أتقياء.

وإنما حذر رسول الله ﷺ من مصاحبة من ليس يتقى، وزجر عن مخالطته، ومؤاكلته، لأن المخالطة والمؤاكلة توقع الألفة في القلوب [2]، فيخشى أن يتآلف قلبه مع غير التقى، فيعدى فيه.

المضامين الدعوية [3]

أولاً: من أساليب الدعوة: النهي، والإخبار.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الحث على مصاحبة الصالحين الأتقياء.

ثالثًا: من واجبات المدعو: عدم إكرام أهل السوء والفساد.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: أهمية اختيار الأصحاب.

أولاً- من أساليب الدعوة: النهي، والإخبار:

النهي من الأساليب الدعوية الهامة التي يكون بها إرشاد المدعو وتوجيهه إلى ما فيه الخير والفلاح له في الدنيا والآخرة، وقد ورد النهي في هذا الحديث في قوله ﷺ (لا تصاحب إلا مؤمنًا ولا يأكل طعامك إلا تقي)، لبيان أهمية البعد والحذر عن مصاحبة العصاة ومن لا يعينون على طاعة الله، وللتأكيد على أهمية مصاحبة الأتقياء الصلحاء.

---

(١) سورة الإنسان، آية: ٨.

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١٢٣/١٢، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري ٦٤/٧، وتفسير ابن كثير ٢١/٢.

(٣) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -٣٦٦- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (٣٦٧).

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: الحث على مصاحبة الصالحين الأتقياء:

لقد أشار الحديث إلى ذلك في قوله ﷺ: "لا تصاحب إلا مؤمنًا" قال العظيم آبادي: قوله: "لا تصاحب إلا مؤمنًا أي كاملاً أو المراد النهي عن مصاحبة الكفار والمنافقين، لأن مصاحبتهم مضرة في الدين فالمراد بالمؤمن جنس المؤمن ولا يأكل طعامك إلا تقي أي متورع. فالمعنى لا تطعم طعامك إلا تقيًا. فينبغي على المسلم أن يحرص على مصاحبة الصالحين الأتقياء"[1]. وفي ذلك حماية للخلق الحسن والعادات الكريمة، ومن أجل ذلك أمر النبي ﷺ بتخير الجليس، فقال: " مَثَلُ جَلِيسِ الصَّالِحِ كَمَثَلِ صَاحِبِ المِسْكِ أَنْ لَمْ يُصِبْكَ مِنْهُ شَيْءٍ أَصَابَكَ مِنْ رِيحِهِ، وَمَثَلُ جَلِيسِ السُّوءِ كَمَثَلِ صَاحِب الكِيرِ إِنْ لَمْ يُصِبْكَ مِنْ سَوَادِهِ أَصَابَكَ مِنْ دُخَانِهِ"[2]. "فبمصاحبة الصالحين يكون النجاح في الدنيا والفلاح في الآخرة، "فعلى المرء أن يتخير مصاحبة الصالحين الذين يعينونه على أداء الواجب وحفظ الحقوق ويحجزونه عن السوء واقتراف الحرام، فهم قرناء الخير، الذي يجب أن يستمسك بهم، ويحرص على مودتهم، وإلا فليحذر الانخداع بمن يزينون له طرق الغواية، أو يسترسلون معه في أسباب اللغو واللهو"[3].

ثالثًا- من واجبات المدعو: عدم إكرام أهل السوء والفساد:

أشار الحديث إلى ذلك من قوله ﷺ "ولا يأكل طعامك إلا تقيٌّ"، وفي ذلك قال الطيبي: "إن النبي ﷺقد حذر وزجر عن مخالطة ومواكلة من ليس بتقى لأن المطاعمة توقع الألفة والمودة في القلوب"[4]، فعلى المدعو أن يتحرز من ذلك امتثالاً لأمره ﷺ وحماية لدينه.

ومما لا شك فيه أن إكرام أهل السوء والفساد والتودد إليهم بصحبتهم ومخالطتهم، لدليل على الرضا بحالهم والسير على نهجهم، وفي ذلك شدة العذاب وسوء العقاب.

---

(١) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ٢٠٩.

(٢) أخرجه أبو داود ٤٨٢٩، وصححه الألباني، (صحيح سن أبي داود ٤٠٤٢).

(٣) خلق المسلم، محمد الغزالي ص ١٨٨.

(٤) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٢٠٤/٩.

قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[1].

قال القاسمي: "الفتنة: إما بمعنى الذنب، كإقرار المنكر، وافتراق الكلمة والتكاسل في الجهاد وإما بمعنى العذاب. فإن أريد الذنب فإصابته بإصابة أثره. وإن أريد العذاب، فإصابته بنفسه. و(لاتصيبن) جواب للأمر، أي: إن إصابتكم لا تختص إصابتها. بمن يباشر الظلم منكم، بل تشملهم وغيرهم بشؤم صحبتهم، وتعدي رذيلتهم إلى من يخالطهم"[2].

وهذا ما أكده النبي ﷺ في قوله: ((إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ فَيَقُولُ: يَا هذَا اتَّقِ اللَّهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ فَإِنَّهُ لاَ يَحِلُّ لَكَ، ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ فَلاَ يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ))، ثم قال: ((﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَآئِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابنِ مَرْيَمَ إلى قوله: فاسقون﴾[3] ثم قالَ: ((كَلاَّ والله، لَتَأْمُرُنَّ بالمعروفِ ولَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدِ الظالمِ ولَتَأْطِرُنَّهُ على الحَقِّ أَطْرًا وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَى الحَقِّ قَصْرًا))[4]. وهذا يقتضي عدم إكرام أهل السوء والفساد والبعد عن مخالطتهم ومؤاكلتهم.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: أهمية اختيار الأصحاب:

قد أشار الحديث إلى ذلك من قوله ﷺ "فلينظر أحدكم من يخالل"، وفي ذلك قال ابن عثيمين: (إن الإنسان يكون في الدين وكذلك في الخلق على قدر من يصاحب، فلينظر من يصاحب فإن صاحب أهل الخير صار منهم وإن صاحب سواهم صار

---

(١) سورة الأنفال آية: ٢٥.

(٢) محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي ٣٦/٨/٥.

(٣) سورة المائدة، الآيات: ٧٨ - ٨١.

(٤) أخرجه أبو داود ٤٣٣٦، وضعفه الألباني (ضعيف سنن أبي داود ٩٣٢).

مثلهم)[١]، وقال محمد الغزالي: في أهمية اختيار الأصحاب:"إن الطبع يسرق من الطبع، وما أسرع ، أن يسير الإنسان في الاتجاه الذي يهواه صاحبه، وللعدوى قانونها الذي يسري في الأخلاق كما يسري في الأجسام... وقد شوهد أن عدوى السيئات أشد سريانًا وأقوى فتكًا من عدوى الحسنات، ففي أحيان كثيرة تنتقل عدوى التدخين من المصاب بها إلى البريء منها، ويندر أن يقع العكس"[٢]، وفي ذلك بيان على أهمية اختيار الأصحاب بما يتفق وأوامر الله ورسوله ﷺ لما في ذلك من حماية للأخلاق وصون للأعراض والفوز برضوان الله تعالى.

---

(١) شرح رياض الصالحين ١/٧٢٦.

(٢) خلق المسلم، محمد الغزالي، ص ١٨٩.

الحديث رقم (٣٦٧)

٣٦٧- وعن أَبي هريرة ﷺ: أن النَّبيّ ﷺ، قَالَ: ((الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ)) رواه أَبُو داود والترمذيُّ[1] بإسناد صحيح، وَقالَ الترمذي: (حديث حسن).

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

الخليل: الصديق الخالص[2].

الشرح الأدبي

بدأ الراوي روايته بعدة مؤكدات تنبيهاً إلى عظمة الخبر، وعظمة من يخبر عنه، ونص الحديث يبدأ بأسلوب خبري يتسم بالهدوء، والثقة دون توكيد؛ لأن المتكلم لا يتوقع اعتراضاً من المخاطبين، ولعلهم كانوا في يقظة لحديثه فلم يستلزم المقام وجود التوكيد، و(ال) في الرجل للجنس، و(على دين خليله) والخلة خالص المحبة، وبين خليله، و يخالل جناس يقرر المعنى ويوضح مدار المعنى وهو ضرورة التدقيق في الخليل، والتعبير بالخلة إشارة إلى شدة المحبة التي تحمل صاحبها على موافقته فيما هو عليه بموجب المحبة بينهما غالبا، والخلة الحقيقية لا تتصور إلا في الموافقة الدينية، أو الخلة الظاهرة قد تقضي إلى حصول ما غلب على خليله من الخصلة الدينية، ويؤيده قوله (فلينظر أحدكم من يخالل) والفاء للسببية والأمر توجيه، وإرشاد، وتحذير، وإضافة لفظ أحد إلى كاف الخطاب، وميم الجمع في قوله (أحدكم) يجعل الجميع تحت مظلة الحكم.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٣٣)، والترمذي (٢٣٧٨) ولفظهما سواء، وقال الترمذي: حديث حسنٌ غريبٌ.. وقال الحاكم (٤/١٧١): صحيح إن شاء الله تعالى ولم يخرجاه. وقال الحافظ ابن حجر في أجوبته على المشكاة (حديث ١١): صحّحه الحاكم، ورجاله موثقون، إلا ان الراوي عن موسى مختلف فيه.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (خ ل ل).

فقه الحديث

في الحديث من الأحكام ما يأتي:

على الإنسان أن يتدبر، ويتأمل من يصاحبه، فمن رضي دينه وخلقه صادقه، ومن لم يرضى فيه ذلك تجنبه، لأن الطباع سراقة[1].

وقد صدق الشاعر في قوله:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي[2]

ومن الجدير بالذكر في هذا المقام، أن ابن جزي المالكي ذكر للصديق شروطًا سبعة:

١- أن يكون سنيًا في اعتقاده.

٢- أن يكون تقيًا في دينه، فإنه إن كان بدعيًا أو فاسقًا ربما جرّ صاحبه إلى مذهبه، أو ظن الناس فيه ذلك، فإن المرء على دين خليله.

٣- أن يكون عاقلاً، فصحبة الأحمق بلاء.

٤- أن يكون حسن الخلق، فإن سيء الخلق لم تؤمن عداوته، وتختبره بأن تغضبه، فإن غضب فاترك صحبته.

٥- أن يكون سليم الصدر في الحضور والغيبة، لا حقودًا، ولا حسودًا، ولا مريدًا للشر، ولا ذا وجهين.

٦- أن يكون ثابتًا غير ملول.

٧- أن يقوم بحقوقك كما تقوم بحقوقه، فلا خير فيمن لا يرى لك من الحق مثل الذي ترى له[3].

المضامين الدعوية[4]

---

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري ٤٢/٧.

(٢) هذا البيت ذكره القرطبي في تفسيره دون أن ينسبه لقائله، انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٧٨/٤.

(٣) القوانين الفقهية، ابن جزي، ص ٢٩١.

(٤) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (٣٦٨)

٣٦٨- وعن أَبي موسى الأشعري رضي الله عنه : أن النَّبيّ ﷺ ، قَالَ: ((المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ)) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[١].

وفي رواية[٢]: قيل للنبي ﷺ: الرَّجُلُ يُحبُّ القَومَ وَلَمَّا يَلْحَقْ بِهِمْ؟ قَالَ: ((المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ)).

ترجمة الراوي:

أبو موسى الأشعري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨).

الشرح الأدبي

هذا الحديث فيه الحث على قوة محبة الرسل، واتباعهم بحسب مراتبهم، والتحذير من محبة ضدهم، فإن المحبة دليل على قوة اتصال المحب بمن يحبه، ومناسبته لأخلاقه، واقتدائه به، فهي دليل على وجود ذلك، وهي أيضا باعثة على ذلك، وأيضا من أحب الله تعالى، فإن نفس محبته من أعظم ما يقربه إلى الله، فإن الله تعالى شكور، يعطي المتقرب أعظم - بأضعاف مضاعفة - مما بذل، والحديث جاء في لافتة قصيرة في تمام الوضوح بألفاظ ميسورة يستوي في فهمها الجميع، وكأنه أرادها أن تكون على ألسنة جميع الناس، وفي عقولهم تدفعهم إلى محبة الله ورسوله وصحبه، والمؤمنين؛ ولذلك عمم في المعنى وبنى الحديث على ذلك فـ(من) تقتضي العموم، وضمير المفعول في أحب محذوف تقديره من أحبه وهو يرجع إلى كلمة (من) فيكتسب العموم منها، ولفظ المرء يشمل الجميع، ولفظ (مع) يشير على التلازم في العاقبة، ولفظ (أحب) يشير مع ما قبله إلى أن عمل القلب له كبير الأثر على أفعال العبد، ومصيره.

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٧٠) واللفظ له، ومسلم (٢٦٤١).

(٢) أخرجه البخاري بالرقم الذي تقدم.

فقه الحديث

فيه من الأحكام ما يأتي:

فضل حب الله تعالى ورسوله ﷺ والصالحين، وأهل الخير الأحياء والأموات، لأن من أحب قومًا كن في زمرتهم.

ولا يشترط في الانتفاع بمحبة الصالحين أن يعمل عملهم، إذ لو عمل لكان منهم، وإنما ربما أدت هذه المحبة إلى موافقتهم[1].

المضامين الدعوية[2]

أولاً: من أساليب الدعوة: البيان.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل الحب في الله تعالى.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الاستفهام والسؤال.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: السؤال عن الساعة.

خامسًا: من أساليب الدعوة: الالتفات إلى الأهم.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: فضل محبة الله تعالى ورسوله ﷺ.

سابعًا: من أساليب الدعوة: البشارة.

أولاً- من أساليب الدعوة: البيان:

البيان من الأساليب الدعوية التي تعين الداعية على إبلاغ أمور الدين، وقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالبلاغ والبيان فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾[3].

قال ابن كثير رحمه الله: (يقول تعالى مخاطبًا عبده ورسوله محمد ﷺ باسم

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٨٦/١٦، وعون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ٢٥/١٤، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري ٥٢/٧.

(٢) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -٣٦٨- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (٣٦٩، ٣٧٠).

(٣) سورة المائدة، آية: ٦٧.

الرسالة، وآمرًا له بالإبلاغ بجميع ما أرسله الله به، وقد امتثل صلوات الله وسلامه عليه ذلك، وقام به أتمّ القيام. قال البخاري عند تفسير هذه الآية: حدَّثنا محمد بن يوسفَ حدَّثنا سفيانُ عن إسماعيلَ عن الشعبيِّ عن مَسروقٍ عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: (مَن حدَّثكَ أنَّ محمدًا صلى الله عليه وسلم كَتَمَ شيئًا مما أُنزِلَ عليه فقد كذَب، واللَّهُ يقول: ﴿يا أيُّها الرسول بلِّغْ ما أنزِلَ إليك﴾[1])[2].

وقد بيّن النبي ذلك صلى الله عليه وسلم في هذه الأحاديث التي نحن بصددها أن: "المرء مع من أحب"، ولا شك أن هذا البيان النبوي أفاد أهمية حب الصالحين وحب نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل الحب في الله تعالى:

لقد أشار الحديث إلى ذلك في قوله صلى الله عليه وسلم "المرء مع من أحب"، وأيضًا في قوله صلى الله عليه وسلم "أنت مع من أحببت".. قال ابن هبيرة: (في هذا الحديث من الفقه أن من أحب قومًا كان معهم، ومعنى ذلك أنه أحبهم على الإيمان لعملهم بالحق فصار ذلك من محبي الحق وحزبه، فكان له بمحبة الحق درجة الذين يؤثرون نصر الحق وظهوره، فألحق الله تعالى بفضله بأهل الحق)[3]، وهذا هو حقيقة الحب في الله تعالى، وقد عظّم النبي صلى الله عليه وسلم فضل ذلك فقال: ((إنَّ اللّهَ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلاَلِي. الْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي. يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلِّي))[4].

قال النووي في قوله تعالى: "المتحابون بجلالي" أي: بعظمتي وطاعتي لا للدنيا، وقوله تعالى: "يوم لا ظل إلا ظلي"، أي: أنه لا يكون من له ظل مجازًا كما في الدنيا، وجاء في غير مسم ظل عرشي.

قال القاضي عياض: (ظاهره أنه في ظله من الحر والشمس ووهج الموقف وأنفاس

(١) أخرجه البخاري ٤٦١٢، ومسلم ١٧٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣/١٥٠.

(٣) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٥/٢٠٩.

(٤) أخرجه مسلم ٢٥٦٦.

الخلق، قال: وهذا قول الأكثرين. وقال عيسى بن دينار: معناه: كفه من المكاره وإكرامه وجعله في كنفه وستره ومنه قولهم: السلطان ظل الله في الأرض وقيل: يحتمل أن الظل هنا عبارة عن الراحة والنعيم. يقال: هو في عيش ظليل أي: طيب)(١).

وقال ﷺ: ((إنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ عِبَادًا لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ، يَغْبِطُهُمُ الأنْبِياءُ والشُّهداءُ))، قيل: مَنْ هُمْ لَعَلَّنَا نُحِبُّهم؟ قَالَ: ((هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِنُورِ اللَّهِ مِنْ غَيْرِ أَرْحَامٍ وَلا انْتِسَابٍ، وُجُوهُهُمْ نُورٌ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، لا يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ، وَلا يَحْزَنُونَ إِذَا حَزِنَ النَّاسُ))، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٢)،(٣)، وفي ذلك بيان أهمية وفضل الحب في الله تعالى.

ثالثًا- من أساليب الدعوة: الاستفهام والسؤال:

الاستفهام والسؤال من الأساليب الدعوية التي تعين المدعو على استبيان ما خفي عنه، وفهم ما أشكل عليه، وقد ورد الاستفهام كأسلوب دعوي في الحديث من قول الراوي: قيل للنبي ﷺ: الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم؟ أما السؤال فقد ورد في الحديث من قول الراوي: إن أعرابيًا قال لرسول الله ﷺ: متى الساعة؟

رابعًا- من موضوعات الدعوة: السؤال عن الساعة:

يظهر ذلك في الحديث في قول الراوي "إن أعرابيًا قال لرسول الله ﷺ: "متى الساعة؟" والسؤال عن الساعة من المواضيع التي كثر السؤال عنها لرسول الله ﷺ حتى أخبر الله أن علمها عند الله ولا يعلمها غيره، وفي ذلك قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۝٤٢ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ۝٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾(٤)، قال ابن كثير: (أي: ليس علمها إليك ولا إلى أحد من الخلق، بل مردها ومرجعها إلى الله عز وجل، فهو

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٣٩.

(٢) سورة يونس، آية: ٦٢.

(٣) أخرجه ابن حبان ٥٧٣، وقال محققه: إسناده صحيح.

(٤) سورة النازعات، الآيات: ٤٢-٤٤.

الذي يعلم وقتها على التعين)[١].

قال تعالى: ﴿ ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾[٢].

قال السعدي: ("ثقلت في السماوات والأرض"، أي: خفي علمها عن أهل السماوات والأرض، واشتد أمرها أيضًا عليهم، فهم من الساعة مشفقون، "لا تأتيكم إلا بغتة"، أي: فجأة من حيث لا يشعرون... "يسألونك كأنك حفي عنها"، أي: هم حريصون على سؤالك عن الساعة، كأنك مستخف عن السؤال عنها، ولم يعلموا أنك - لكمال علمك بربك، وما ينفع السؤال عنه - غير مبال بالسؤال الخالي من المصلحة، المتعذر علمه، فإنه لا يعلمها نبي مرسل، ولا ملك مقرب، وهي من الأمور التي أخفاها عن الخلق، لكمال حكمته، وسعة علمه)[٣].

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾[٤].

قال القرطبي: (قد -أخفى الله عز وجل- الساعة التي هي القيامة، والساعة التي يموت فيها الإنسان ليكون الإنسان يعمل، والأمر عنه مبهم، فلا يؤخر التوبة)[٥].

خامسًا- من أساليب الدعوة: الالتفات إلى الأهم:

قد ورد هذا الأسلوب في قوله ﷺ: "ما أعددت لها؟" وذلك بعد سؤاله ﷺ عن الساعة في قول الأعرابي: "متى الساعة؟" فبيّن رسول الله ﷺ أن المهم هو الاستعداد والتأهيب لقيامها، إذ هي يوم الجزاء الذي لا ينفع الإنسان فيها إلا عمله[٦]. فلفت

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣١٨/٨.

(٢) سورة الأعراف، آية: ١٨٧ .

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٤٧٤.

(٤) سورة طه، آية: ١٥.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٨٣/١١/٦.

(٦) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم، ص ٢٦٣.

انتباهه إلى الأهم من السؤال عن الساعة وهو الاستعداد لها بالعمل الصالح والالتفات إلى الأهم من الأساليب الدعوية التي بها لفت انتباه السائل عن سؤاله إلى ما هو أهم منه،ولا شك أن الداعية حينما ينتهج هذا المسلك ويعنى بالإجابة على السؤال لكنه يركز على ما هو أهم منه أو ينبغي أن يؤكد عليه كان ذلك عين المصلحة)(١).

سادسًا- من موضوعات الدعوة: فضل محبة الله تعالى ورسوله ﷺ:

إن محبة الله ورسوله من أعظم واجبات الإيمان وأكبر أصوله، وأجلّ قواعده، وهي أصل السعادة ورأسها التي لا ينجو أحد من العذاب إلا بها(٢)، وقد بيّن النبي ﷺ عظم فضل محبة الله ورسوله لمن جاء يسأله عن الساعة؟ فقال ﷺ (ما أعددت لها؟) قال: حب الله ورسوله، قال: أنت مع من أحببت)، وفي رواية: (ما أعددت لها من كثير صوم، ولا صلاة، ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله! قال ﷺ: فأنت مع من أحببت)، وفي رواية لمسلم قال أنس رضي الله عنه: فما فرحنا بعد الإسلام فرحًا أشد من قول النبي ﷺ: (فإنك مع من أحببت)، قال أنس: فأنا أحب الله ورسوله، وأبا بكر، وعمر، فأرجو أن أكون معهم وإن لم أعمل بعملهم.

قال القرطبي: (وقوله: "ما أعددت لها كبير صلاة،ولا صيام، ولا صدقة" يعني بذلك: النوافل من الصلاة، والصدقة، والصوم؛ لأن الفرائض لا بد له ولغيره من فعلها، فيكون معناه: أنه لم يأت منها بالكثير الذي يُعتمد عليه، ويُرتجى دخول الجنة بسببه، هذا ظاهره، ويحتمل أن يكون أراد أن الذي فعله من تلك الأمور -وإن كان كثيرًا- فإنه محتقر بالنسبة إلى ما عنده من محبة الله تعالى ورسوله ﷺ، فكأنه ظهر له: أن محبة الله ورسوله أفضل الأعمال، وأعظم القرب، فجعلها عُمدته، واتخذها عُدته، والله تعالى أعلم.

وقوله: "ما فرحنا بعد الإسلام فرحًا أشد من قول النبي ﷺ"، هكذا وقع هذا اللفظ في الأصول، وفيه حذفٌ وتوسع، تقديره: فما فرحنا فرحًا أشد من فرحنا بقول

---

(١) صفات الداعية، د. حمد بن ناصر العمار، ص ٩٩.

(٢) انظر: التحفة العراقية في أعمال القلوب، ابن تيمية، والداء والدواء، ابن القيم، ص ٣٣٧.

النبي ذلك القول، وسُكت عن ذلك المحذوف للعلم به. وإنما كان فرحهم بذلك أشد؛ لأنهم لم يسمعوا أن في أعمال البر ما يحصل به ذلك المعنى من القرب من النبي ﷺ والكون معه، إلا حب الله ورسوله، فأعظمْ بأمر يُلحِقُ المقصر بالمشمر، والمتأخر بالمتقدم. ولما فهم أنس: أن هذا اللفظ محمول على عمومه علّق به رجاءه، وحقق فيه ظنه، فقال: أنا أحب الله، ورسوله، وأبا بكر، وعمر، فأرجو أن أكون معهم، وإن لم أعمل بأعمالهم. والوجه الذي تمسك به أنس يشمل من المسلمين المحبين كل ذي نفس، فلذلك تعلقت أطماعنا بذلك؛ وإن كنا مقصرين ورجونا رحمة الرحمن، وإن كنا غير مستأهلين"(١).

ومما يوجب تحقيق محبة الله ورسوله، إيثارهما على غيرهما. وهذا ما بينه ابن القيم في قوله: (فإذا استقرت المحبة فى القلب، استدعت من المحب إيثار محبوبه على غيره، وهذا الإيثار علامة ثبوتها وصحتها، فإذا آثر غير المحبوب عليه لم يكن محبًا له، وإن زعم أنه محب فإنما هو محب لنفسه ولحظه ممن يحبه، فإذا رأى حظًا آخر هو أحب إليه من حظه الذى يريده من محبوبه، آثر ذلك الحظ المحبوبَ إليه ...، وفي مثل هذا قيل:

تعصي الإله وأنتَ تزعُم حبَّهُ ... هذا لعَمْركَ في القياسِ شنيعُ

لو كان حبُّك صادقًا لأطَعتَهُ ... إنَّ المحبَّ لمن يحبُّ مطيعُ

فموافقة المحبوب من موجبات المحبة وثمراتها، وليست نفس المحبة، بل المحبة تستدعى الموافقة، وكلما كانت المحبة أقوى كانت الموافقة أتم، قال الله تعالى: ﴿قُل إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّه فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾(٢)، قال الحسن: قال قوم على عهد النبى ﷺ: إنا نحب ربنا، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿قُل إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّه فَاتَّبِعُونِى

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٦/٦٤٦ - ٦٤٧.

(٢) سورة آل عمران، آية: ٣١.

يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾، وقال الجنيد: ادَّعى قوم محبة الله فأنزل الله آية المحبة وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾، يعنى: أن متابعة الرسول هى موافقة حبيبكم، فإنه المبلغُ عنه ما يحبُه وما يكرهه فمتابعته موافقة الله فى فعل ما يحب وترك ما يكره.

وقال مالك في هذه الآية: من أحب طاعة الله، أحبه الله وحببه إلى خلقه.

وإنما كانت موافقة المحبوب دليلاً على محبته؛ لأن من أحب حبيبًا فلا بد أن يحب ما يحبه ويبغض ما يبغضه، وإلا لم يكن محبًا له محبة صادقة، بل إن تخلف ذلك عنه، لم يكن محبًا له، بل يكون محبًا لمراده منه، أحبه محبوبه أم كرهه، ومحبوبه عنده وسيلة إلى ذلك المراد، فلو حصل له حظه من غيره ترَّحل عِوضه، فهذه المحبة المدخولة الفاسدة، وإذا كانت المحبة الصحيحة تستدعى حب ما يحبه المحبوب وبغض ما يبغضه فلا بد أن يوافقه فيه)[1].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: (فاتباع سنة رسوله ﷺ وشريعته باطنًا وظاهرًا هي موجب محبة الله، كما أن الجهاد في سبيله وموالاة أوليائه، ومعاداة أعدائه، هو حقيقتها، كما في الحديث: ((أَوْثَقُ عُرَى الإِيمَانِ الحُبُّ فِي اللَّهِ وَالبُغْضُ فِي اللَّهِ))[2]، وفي الحديث: ((مَنْ أَعْطَى للَّه وَمَنَعَ للَّه وَأَحَبَّ للَّه وأَبْغَضَ للَّه وَأَنْكَحَ للَّه، فَقَدْ اسْتَكْمَلَ إِيمَانَهُ))[3].

وكثير ممن يدعي المحبة هو أبعد من غيره عن اتباع السنة، وعن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله، ويدعي مع هذا إن ذلك أكمل لطريق المحبة من غيره لزعمه أن طريق المحبة لله ليس فيه غيرة، ولا غضب لله، وهذا خلاف ما دل عليه الكتاب والسنة، ولهذا في الحديث المأثور: ((إِنَّ اللَّهَ تعالى يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلَالِي. الْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي. يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلِّي))[4].

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين، ابن القيم ٢٦٧ - ٢٦٧، ٢٧١.

(٢) أخرجه أحمد ٢٨٦/٤ رقم ١٨٥٢٤، وقال محققو المسند: حديث حسن بشواهده ٤٨٨/٣٠.

(٣) أخرجه الترمذي ٢٥٢١، وحسنه الألباني، (صحيح سنن الترمذي ٢٠٤٦).

(٤) أخرجه مسلم ٢٥٦٦.

فقوله: "أين المتحابون بجلال الله" تنبيه على ما في قلوبهم من إجلال الله وتعظيمه مع التحاب فيه، وبذلك يكونون حافظين لحدوده، دون الذين لا يحفظون حدوده لضعف الإيمان في قلوبهم، وهؤلاء الذين جاء فيهم الحديث: ((حَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِينَ فِيَّ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَوَاصِبِينَ فِيَّ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَنَاصِحِينَ فِيَّ، وَحَقَّت مَحَبَّتِي لِلْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَبَاذِلِينَ فِي وحَقَّتْ مَحَبَّتِي للمُتَصَافِينَ فِيَّ المتواصلين))[1])[2].

وقال: (فلا بد أن يقوم بالقلب من محبة الله ما يدعوه إلى طاعته، ومن إجلاله والحياء منه ما ينهاه عن معصيته)[3]. وبذلك يتحقق صدق محبة الله ورسوله، ومن ثم عظيم الفضل وجزيل الثواب.

سابعًا- من اساليب الدعوة: البشارة:

هذا ما ورد في الحديث في قوله ﷺ -مبشرًا لمن أحب الله ورسوله-: "أنت مع من أحببت"، (والبشارة هي كل خبر صدق تتغير به بشرة الوجه، ويستعمل في الخير والشر، وفي الخير أغلب)[4]، (وقد وردت البشارة في القرآن على اثني عشر وجهًا لاثني عشر قومًا باثنتي عشرة كرامة)[5]، ومن ذلك بشارة المطيعين بالجنة والسعادة والشفاعة: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾[6]، وكذلك بشارة المؤمنين بالعطاء والشفاعة: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[7]، والبشارة من الأساليب الدعوية الهامة التي يكون بها تشويق النفس وحملها على فعل الأمر المدعو إليه.

---

(١) أخرجه أحمد ٢٢٢٠٢، وقال محققو المسند: حديث صحيح.

(٢) التحفة العراقية في أعمال القلوب، ابن تيمية ص ٧٧ - ٧٨.

(٣) المرجع السابق ٦١.

(٤) التعريفات، الجرجاني ص ٧٠ - ٧١.

(٥) موسوعة نضرة النعيم، د. صالح بن حميد، وعبدالرحمن بن ملوح ٧٨٠/٣.

(٦) سورة البقرة، آية: ٢٥.

(٧) سورة يونس، آية: ٢.

الحديث رقم (٣٦٩)

٣٦٩- وعن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : أنَّ أعرابيًا قَالَ لرسول الله ﷺ : مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ رَسُول الله ﷺ : ((مَا أعْدَدْتَ لَهَا؟)) قَالَ: حُبَّ الله ورسولهِ، قَالَ: ((أنْتَ مَعَ مَنْ أحْبَبْتَ)) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[1]، وهذا لفظ مسلم.

وفي رواية لهما[2]: مَا أعْدَدْتُ لَهَا مِنْ كَثيرِ صَوْمٍ، وَلاَ صَلاَةٍ، وَلاَ صَدَقَةٍ، وَلَكِنِّي أُحِبُّ الله وَرَسُولَهُ.

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

الشرح الأدبي

الحديث يقرر خلال أحداثه أن هناك أموراً لا يعلمها إلا الله، وهي مما اختص الله بها نفسه فأخفاها حتى عن صفوة خلقه (محمد ﷺ وجبريل عليه السلام) وقد قرر الرسول ﷺ هذه الحقيقة كما قررها القرآن أيضاً، وهذا الحديث من هذه النوعية التي تؤكدها، وقد قرر المعنى عن طريق الحوار الهادف المبني على فهم طبيعة المخاطب، وتقرير ما يصلح له، وقد بدأ الحوار على إثر سؤال الأعرابي (متى الساعة؟) ولو قال له ما أعلمها، لما شفى نفسه، ولكن عبقرية الرسول ﷺ حادت عن أصل السؤال إلى إجابته بما يجب عليه دون ما ليس له، وهو ما يسمى بأسلوب الحكيم (ما أعددت لها؟) وهو سؤال تنبيه، وتذكير بما يجب عليه التفكير فيه، والانشغال به، وإجابة الأعرابي (حُبَّ الله ورسولهِ) فيها إيجاز بحذف الفعل أي أعددت حبَّ الله، ورسوله، وإجابة الأعرابي جاءت عفوية تفيض بالمودة، والإيمان، مع ما توحي به إجابته من عدم اتكاله على عمله، والرواية الثانية تؤكد ذلك (ما أعْدَدْتُ لَهَا مِنْ كَثيرِ صَوْمٍ، وَلاَ صَلاَةٍ، وَلاَ صَدَقَةٍ) فقد اتكل على فضل الله، وما في قلبه من محبة لله ورسوله؛ ولذلك جاءت إجابة الرسول ﷺ (أنْتَ مَعَ مَنْ أحْبَبْتَ) بشارة له، وللمؤمنين

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٨٨)، ومسلم (٢٦٣٩/١٦١) واللفظ له. أورده المنذري في ترغيبه (٤٤٥٧).

(٢) أخرجه البخاري (٦١٧١) واللفظ له، ومسلم (٢٦٣٩/١٦٤).

المحبين في كل زمان، ومكان وتعريف المسند إليه بضمير المخاطب توكيد للبشارة تقرر المعية المفهومة من (مع) ويحققها الماضي الذي صيغ فيه فعل المحبة، ولكن هذه العبارة تحمل ضمناً تحذيراً، وترهيباً لمن يحب الكافرين، والفجار، والعصاة من أهل الفساد في كل زمان، ولا سيما في هذا العصر الذي كثر فيه أولئك المهرجون يسوقون الناس إلى النار زرافات، ووحداناً من محبيهم، ومعجبيهم بنفس حرف المعية سيكونون معهم، فانظر في قلبك..من تحب؟.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (٣٧٠)

٣٧٠- وعن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: جاء رجلٌ إلى رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُول الله، كَيْفَ تَقُولُ فِي رَجُلٍ أَحَبَّ قَوْمًا وَلَمْ يَلْحَقْ بِهِمْ؟ فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: ((المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ)) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

الشرح الأدبي

المعنى الذي يتناوله الحديث من أعظم المعاني التي تزف البشرة للمؤمنين عامة، ولمن ضعفت عزائمهم فلم ترق إلى مستوى من سبقهم من الأحبة، ونداء الرجل المقبل على الرسول ﷺ (يا رسول الله) نداء تكريم، ومحبة، وتشريف؛ لأنه استخدم أداة النداء التي للبعيد مع قربه إشارة إلى بعد مكانة الرسول ﷺ، وناداه بكنيته، وأضافه لله، ثم إن سؤاله يشع بالمحبة لله، ولرسوله، وللمؤمنين (كَيْفَ تَقُولُ فِي رَجُلٍ أَحَبَّ قَوْماً وَلَمْ يَلْحَقْ بِهِمْ؟)، والسؤال بكيف سؤال عن الحال، وتنكير كلمة رجل، وقوم يفيد عموماً يجعل الحكم ينسحب عل كل من كانت هذه حاله، والتعبير بـ(يلحق) يفيد المتابعة أي أنهم تابعوا أحبابهم في أعمالهم، ولكنهم لم يستطيعوا إدراكهم، وقوله (المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ) بشارة من جنس عمله فهو أحبهم، وتابعهم، ولم يلحق بهم فالتوفيق إلى الطاعة نعمة من عند الله يوفق من يشاء لإدراكها، ويحرمها من يشاء، ويعطيها بمحبة القلوب لمن يشاء.

المضامين الدعوية[2]

(١) أخرجه البخاري (٦١٦٩) واللفظ له، ومسلم (١٦٥/٢٦٤٠). أورده المنذري في ترغيبه (٤٤٥٨).

(٢) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث (٣٧٠) مع المضامين الدعوية للحديث رقم (٣٦٨، ٣٦٩).

الحديث رقم (٣٧١)

٣٧١- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه ، عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، قَالَ: ((**النَّاسُ مَعَادِنٌ كَمَعَادِنِ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ**[١] ، **خِيَارُهُمْ في الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ في الإسْلاَمِ إِذَا فَقِهُوا، وَالأرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، ومَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ**)) رواه مسلم[٢].

وروى البخاريُّ[٣] قوله: ((**الأَرْوَاحُ ...**)) إلخ مِنْ رواية عائشة رضي الله عنها.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

فقُهوا: علموا أحكام الشرع[٤].

مجندة: مجموعة[٥].

ائتلف: اجتمع وتوافق[٦].

تناكر: تنافر وأنكر بعضه بعضًا[٧].

الشرح الأدبي

تشبيه الرسول صلى الله عليه وسلم للناس بالمعادن في قوله:(النَّاسُ مَعَادِنٌ) يشير إلى عدة دلالات منها: اختلاف طباع الناس، وصفاتهم الخُلقية، والنفسية يفهم هذا من تفاوت المعادن، ومنها الإشارة إلى تفاوت الناس في تقبلهم للإصلاح، فمنهم السهل، ومنهم من يحتاج إلى صبر، ومنهم من لا يقبل كما هو حال معادن الأرض (المشبه به) فمنها ما يسهل

---

(١) لفظ مسلم: (الفضة والذهب).

(٢) برقم (١٦٠/٢٦٣٨).

(٣) برقم (٣٣٣٦) مُعلقًا، ولفظه: (الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف). انظر: تغليق التعليق (٥/٤).

(٤) رياض الصالحين ٧٧.

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ج ن د).

(٦) اللسان والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (أ ل ف).

(٧) اللسان والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ن ك ر).

استخراجه ومنها ما يصعب استخراجه، ومنها ما يسهل تشكيله، ومنها ما يصعب تشكيله، ومنها الإشارة إلى تفاوت الناس في كرم الأصل، وخسته يفهم ذلك من تفاوت المعادن في نفاستها فمنها الغالي كالذهب، والفضة، ومنها الرخيص كالحديد، والقصدير منها - أيضاً - الإشارة إلى تفاوت الناس في قوة التحمل، والصبر على الأذى يفهم ذلك من تفاوت المعادن في صلابتها فالحديد يخالف النحاس كما يخالف الرصاص، ومنها الإشارة إلى أن معرفة أصول الناس تحتاج إلى بحث في أحوالهم، وتدقيق في منابتهم حتى لا ينخدع الإنسان بالظاهر ويحكم خلاله على صفات الشخص، لأن كريم الخلال قد يعتريه في الظاهر ما يخفي كرم أصله من فقر، أو خمول ذكر في الناس، أو غيره كما يمكن لخسيس الأصل أن يعتريه في الظاهر ما يوهم بكرم الأصل، وهو على غير ذلك يفهم ذلك من حال المعادن في الأرض التي لا يعرف خصائصها إلا بعد استخراجها من باطنها والكشف عنها، قال بن حجر:وجه التشبيه أن المعدن لما كان إذا استخرج ظهر ما اختفى منه ولا تتغير صفته فكذلك صفة الشرف لا تتغير في ذاتها بل من كان شريفا في الجاهلية فهو بالنسبة إلى أهل الجاهلية رأس فإن أسلم استمر شرفه، وكان أشرف ممن أسلم من المشروفين في الجاهلية وأما قوله إذا فقهوا ففيه إشارة إلى أن الشرف الإسلامي لا يتم إلا بالتفقه في الدين)[1]

وقوله: (، وَالأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، ومَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ) حافل بصور البديع التي تقرر المعاني، وتؤكدها منها: الجناس في قوله: (جنود مجندة) والطباق بين تعارف وتناكر، وبين ائتلف، واختلف، وهي إِشَارَة إِلَى مَعْنَى التَّشَاكُل فِي الْخَيْر وَالشَّرّ وَالصَّلاح وَالْفَسَاد، وَأَنَّ الْخَيِّرَ مِنْ النَّاس يَحِنّ إِلَى شَكْله وَالشِّرِّير نَظِير ذَلِكَ يَمِيل إِلَى نَظِيره فَتَعَارُف الأَرْوَاح يَقَع بِحَسَبِ الطِّبَاع الَّتِي جُبِلَتْ عَلَيْهَا مِنْ خَيْر وَشَرّ، فَإِذَا اِتَّفَقَتْ تَعَارَفَتْ، وَإِذَا اِخْتَلَفَتْ تَنَاكَرَتْ.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦/٥٢٩.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار والتشبيه.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: إقرار الإسلام للأمور الحسنة.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل التفقه في الدين.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: بيان ائتلاف الأرواح واختلافها.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار والتشبيه:

لا شك أن الإخبار من الأساليب الدعوة المهمة في بابها، حيث يعمل على تزويد المدعو بالحقائق التي يحتاج إلى معرفتها والإلمام بها، وقد أخبر النبي ﷺ في هذا الحديث بأن الناس معادن، وأن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام شريطة الفقه والفهم لأمور الدين، وانشراح الصدر واتساع الأفق والرغبة في العلم والمعرفة التي تعين المسلم على فهم أمور دينه.

أما بالنسبة للتشبيه فهو أسلوب دعوي، يعمل على تقريب المعاني المُرادة، وجعلها واضحة في الأذهان، لأنه قد يتعذر على فئات من الناس فهم المراد من الكلام، إلا أن التشبيه مفيد في تقريب المعاني وإيضاحها وبيانها، وقد شبّه النبي ﷺ في هذ الحديث الناس بالمعادن التي من أنفسها الذهب والفضة، ولا شك أن هذا التشبيه ينطوي على دلالات معنوية هامة تبين أصناف الناس، ومواقفهم وتعاملهم مع الأمور.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: إقرار الإسلام للأمور الحسنة:

يستنبط ذلك من قول النبي ﷺ: "الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا" حيث بين النبي ﷺ أن الخيرية من القواسم المشتركة التي كانت لدى فئات من الناس في الجاهلية وتكون ممتدة في الإسلام، ذلك أن الإنسان إذا كان خيّرًا في الجاهلية وأسلم وحسن إسلامه وتفقه في دين الله، كن متميزًا، وترقّى في أمور دينه، وقد حدث ذلك بالفعل ومن الشواهد على ذلك تميز عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي تمنى رسول الله ﷺ أن يعزّ الله الإسلام به، فتحقق ذلك وهناك نماذج أخرى رائعة، لأنه كما بيّن النبي ﷺ أن الناس معادن،

والمعادن تزداد نفاسة إذا تمت العناية بها، وكذلك الناس إذا تفقهوا في أمور دينهم، وتعلموا العلوم النافعة استفادوا وأفادوا، وإن الإسلام يقر الأمور الحسنة مثل: محاسن الأخلاق التي كانت في الجاهلية، إلا أنها أخذت أبعادًا إيمانية في الإسلام وكذلك حال الناس ونفوسهم، فإنها تزكوا بالإيمان.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل التفقه في الدين:

يظهر هذا من قول النبي ﷺ "إذا فقهوا" حيث جعل شرط الشرف في الإسلام بعد الشرف في الجاهلية بالفقه في الدين يقول الإمام ابن حجر: (إن الأفضل من جمع بين الشرف في الجاهلية والشرف في الإسلام، وكان شرفهم في الجاهلية بالخصال المحمودة من جهة ملائمة الطبع، ثم الشرف في الإسلام بالخصال المحمودة شرعًا، ثم أرفعهم منزلة ومرتبة من أضاف إلى ذلك التفقه في الدين)[١] وفي فضل الفقه في الدين قال النبي ﷺ: ((مَنْ يُرِدِ اللّهُ به خَيرًا يُفَقِّهْهُ في الدِّين))[٢] قال الإمام النووي: (وفي الحديث فضل العلم والتفقه في الدين والحث عليه وسببه أنه قائد إلى تقوى الله عز وجل)[٣].

وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾[٤]، قال الإمام ابن كثير: «أي ليتعلموا ما أنزل الله على نبيهم، وليعلموا السرايا إذا رجعت إليهم»[٥].

قال ابن القيم: (وأما فقهاء الإسلام ومن دارت الفتيا على أقوالهم بين الأنام الذين خصوا باستنباط الأحكام، وعنوا بضبط قواعد الحلال والحرام، فهم في الأرض بمنزلة النجوم في السماء، بهم يهتدي الحيران في الظلماء، وحاجة الناس إليهم أعظم من

---

(١) المرجع السابق ٦/٤٧٧.

(٢) أخرجه البخاري ٧١، ومسلم ١٠٣٧.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٦٥٦.

(٤) سورة التوبة، آية: ١٢٢.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢/٢٣٦.

حاجتهم إلى الطعام والشراب، وطاعتهم أفرض عليهم من طاعة الأمهات والآباء بنص الكتاب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾[١]).

قال ابن عباس في إحدى الروايتين عنه ومجاهد في إحدى الروايتين عنه وجابر بن عبدالله والحسن البصري وأبو العالية وعطاء بن أبي رباح والضحاك: أولوا الأمر هم العلماء وهو إحدى الروايتين عن الإمام أحمد[٢].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: بيان ائتلاف الأرواح واختلافها:

قد أشار الحديث إلى ذلك من قوله ﷺ: (والأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف)، قال النووي: "قال العلماء: معناه جموع مجتمعة أو أنواع مختلفة وأما تعارفها فهو لأمر جعلها الله عليه وقيل: أنها موافقة صفاتها التي جعلها الله عليها وتناسبها في شيمها وقيل: لأنها خلقت مجتمعة ثم فرقت في أجسادها فمن وافق بشيمة ألفه ومن باعد نافرة وخالفه).

وقال الخطابي وغيره: تآلفها هو ما خلقها الله عليه من السعادة أو الشقاوة في المبتدأ وكانت الأرواح قسمين متقابلين فإذا تلاقت الأجساد في الدنيا ائتلفت واختلفت بحسب ما خلقت عليه فيميل الأخيار إلى الأخيار والأشرار إلى الأشرار والله أعلم"[٣].

---

(١) سورة النساء، آية: ٥٩.

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، تحقيق: رائد صبري بن أبي علفة ص ١٨.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٦٤.

الحديث رقم (٣٧٢)

٣٧٢- وعن أُسَيْر بن عمرو، ويقال: ابن جابر وَهُوَ -بضم الهمزة وفتح السين المهملة- قَالَ: كَانَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه إذَا أتَى عَلَيهِ أمْدَادُ أهْلِ اليَمَنِ سَألَهُمْ: أفِيكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ؟ حَتَّى أتَى عَلَى أُوَيْسٍ رضي الله عنه، فَقَالَ لَهُ[1]: أنْتَ أُوَيْسُ ابْنُ عَامِرٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: مِنْ مُرَادٍ ثُمَّ مِنْ قَرَنٍ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَكَانَ بِكَ بَرَصٌ، فَبَرَأْتَ مِنْهُ إلاَّ مَوْضِعَ دِرْهَمٍ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: لَكَ وَالِدَةٌ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: سَمِعْتُ رَسُول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: ((**يَأتِي عَلَيْكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ مَعَ أمْدَادِ أهْلِ اليَمَنِ مِنْ مُرَادٍ، ثُمَّ مِنْ قَرَنٍ، كَانَ بِهِ بَرَصٌ، فَبَرَأَ مِنْهُ إلاَّ مَوْضِعَ دِرْهَمٍ، لَهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِهَا بَرٌّ، لَوْ أقْسَمَ عَلَى الله لأَبَرَّهُ، فإنِ اسْتَطَعْتَ أنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ فَافْعَلْ**)) فَاسْتَغْفِرْ لي فَاسْتَغْفَرَ لَهُ.

فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: أيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: الكُوفَةَ، قَالَ: ألاَ أكْتُبُ لَكَ إلَى عَامِلِهَا؟ قَالَ: أكُونُ في غَبْرَاءِ النَّاسِ أَحَبُّ إلَيَّ.

فَلَمَّا كَانَ مِنَ العَامِ المُقْبِلِ حَجَّ رَجُلٌ مِنْ أشْرَافِهِمْ، فَوافَقَ عُمَرَ، فَسَألَهُ عَنْ أُوَيْسٍ، فَقَالَ: تَرَكْتُهُ رَثَّ البَيْتِ قَليلَ المَتَاعِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُول الله صلى الله عليه وسلم، يقولُ: ((**يَأتِي عَلَيْكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ مَعَ أمْدَادِ مِنْ**[2] **أهْلِ اليَمَنِ مِنْ مُرَادٍ، ثُمَّ مِنْ قَرَنٍ، كَانَ بِهِ بَرَصٌ فَبَرَأَ مِنْهُ إلاَّ مَوْضِعَ دِرْهَمٍ، لَهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِهَا بَرٌّ، لَوْ أقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ، فَإنِ اسْتَطَعتَ أنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ، فَافْعَلْ**)) فَأتَى أُوَيْسًا، فَقَالَ: اسْتَغْفِرْ لِي. قَالَ: أنْتَ أحْدَثُ عَهْدًا بسَفَرٍ صَالِحٍ، فَاسْتَغْفِرْ لي. قَالَ: لَقِيتَ عُمَرَ؟ قَالَ: نَعَمْ، فاسْتَغْفَرَ لَهُ، فَفَطِنَ لَهُ النَّاسُ، فَانْطَلَقَ عَلَى وَجْهِهِ. رواه مسلم[3].

وفي رواية لمسلم[4] أيضًا عن أُسَيْر بن جابر رضي الله عنه: أنَّ أهْلَ الكُوفَةِ وَفَدُوا عَلَى[5]

---

(١) (له) لا توجد عند مسلم.

(٢) (من) لا توجد عند مسلم.

(٣) برقم (٢٥٤٢/٢٢٥).

(٤) برقم (٢٥٤٢/٢٢٣).

(٥) لفظ مسلم: (إلى).

عُمَرَ رضي الله عنه ، وَفِيهِمْ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ يَسْخَرُ بِأُوَيْسٍ، فَقَالَ عُمَرُ: هَلْ هَاهُنَا أَحَدٌ مِنَ الْقَرَنِيِّينَ؟ فَجَاءَ ذَلِكَ الرَّجُلُ، فَقَالَ عمرُ: إنَّ رَسُول الله صلى الله عليه وسلم قَدْ قَالَ: **((إِنَّ رَجُلاً يَأتِيكُمْ مِنَ الْيَمَنِ يُقَالُ لَهُ: أُوَيْسٌ، لاَ يَدَعُ بالْيَمَنِ غَيْرَ أُمٍّ لَهُ، قَدْ كَانَ بِهِ بَيَاضٌ فَدَعَا الله تَعَالَى، فَأَذْهَبَهُ إلاَّ مَوضِعَ الدِّينَارِ أو الدِّرْهَمِ، فَمَنْ لَقِيَهُ مِنْكُمْ، فَلْيَسْتَغْفِرْ لَكُمْ)).**

وفي رواية لَهُ[(١)]: عن عمر رضي الله عنه ، قَالَ: إنِّي سَمِعْتُ رَسُول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول: ((إنَّ خَيْرَ التَّابِعِينَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: أُوَيْسٌ، وَلَهُ وَالِدَةٌ وَكَانَ بِهِ بَيَاضٌ، فَمُرُوهُ، فَلْيَسْتَغْفِرْ لَكُمْ)).

قوله: (غَبْرَاءِ النَّاسِ) بفتح الغين المعجمة، وإسكان الباءِ وبالمد: وهم فُقَرَاؤُهُمْ وَصَعَالِيكُهُمْ وَمَنْ لا يُعْرَفُ عَيْنُهُ مِنْ أخلاطِهِمْ (وَالأَمْدَادُ) جَمْعُ مَدَدٍ: وَهُمُ الأَعْوَانُ وَالنَّاصِرُونَ الَّذِينَ كَانُوا يُمدُّونَ الْمُسْلِمِينَ في الجهَاد.

ترجمة الراوي:

عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١).

البرص: بياض يقع في الجسد لعلَّة[(٢)].

أبرّه: صَدَّقَه[(٣)].

الكوفة: مدينة وسط العراق غرب نهر الفرات مُصِّرت أيام عمر بن الخطاب ١٧هـ وقيل ١٩هـ[(٤)].

رث البيت: قليل المتاع، والرثاثة: حقارة المتاع وضيق العيش.

والمتاع: كل ما يُنتفع به ويرغب في اقتنائه؛ كالطعام وأثاث البيت والسلعة والأداة والمال[(٥)].

---

(١) مسلم (٢٢٤/٢٥٤٢).

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ب ر ص).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ب ر ر).

(٤) أطلس الحديث النبوي، د. شوقي أبو خليل ٣٢١.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٢٧، والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (م ت ع).

أحدث: أقرب[١].

فطن له الناس: تنبهوا له[٢].

انطلق على وجهه: أي خرج من الكوفة[٣].

بياض: هو البرص كما جاء في الرواية السابقة[٤].

الشرح الأدبي

هذا الحديث يقوم على الأسلوب القصصي الذي يعتمد القصص تارة، ويعتمد الحوار تارة أخرى، والحديث يحمل معاني عميقة فيها الحرص على تتبع توجيهات النبي ﷺ، والحرص على دعاء الصالحين، مع بيان فضل بر الوالدين، والحديث حافل بألوان البلاغة العالية التي يتميز به سمت الكلام الأول منها أساليب تدل على بحث عمر بن الخطاب رضي الله عنه وتحريه لأويس القرني عملاً بوصية رسول الله، ومنها الاستفهام الذي يدل على ذلك في قوله: (أَفِيكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ؟)، والجملة التي تصدرتها حتى التي تدل على بلوغ الغاية، في قوله: (حَتَّى أَتَى عَلَى أُوَيْسٍ)، واستفهام التقرير الذي تحقق به من شخصيته (أَنْتَ أُوَيْسُ ابْنُ عَامِرٍ؟) ثم الاستفهامات المتتابعة منه لأويس حتى يتأكد من العلامات التي أخبره بها رسول الله ﷺ، وهي المكان، ونوع البلاء وسر الأفضلية في قوله (مِنْ مُرَادٍ ثُمَّ مِنْ قَرَنٍ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَكَانَ بِكَ بَرَصٌ، فَبَرَأْتَ مِنْهُ إِلاَّ مَوْضِعَ دِرْهَمٍ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: لَكَ وَالِدَةٌ؟)، ثم أسلوب الشرط بغرض الترغيب، والحض في قول الرسول ﷺ (فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ فَافْعَلْ) ثم أسلوب الأمر بغرض الالتماس، والرجاء (فَاسْتَغْفِرْ لي فَاسْتَغْفَرَ لَهُ) والفاء العاطفة تدل على تمكُّن صفة البر عند أويس لسرعته في إجابة طلب عمر رضي الله عنه وإعانته على تنفيذه لوصية رسول الله، والجار، والمجرور يدل على الخصوصية، ثم الأساليب التي تدل على زهد أويس في الدنيا برفضه لكل مظاهر الترف، والتي صوَّرها الحوار الذي دار بينه، وبين عمر رضي الله عنه

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٥٨٥.

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ف ط ن).

(٣) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٥٨٦.

(٤) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٥٨٦.

عن طريق الاستفهام الذي جاء تمهيداً للعرض (أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: الكُوفَةَ) ثم استفهام العرض (أَلاَ أَكْتُبُ لَكَ إِلَى عَامِلِهَا؟) ثم إجابته بأسلوب الخبر الذي يعكس زهده، وتقواه (قَالَ: أَكُونُ فِي غَبْرَاءِ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيَّ) يدل على ذلك قيد الفعل في قوله (في غبراء الناس) أي ضعافهم، وفقرائهم، والتعبير بأفعل التفضيل، وفعل المحبة الذي يدل على أنه اختيار قلبي، وقول الرجل عن أويس (تَرَكْتُهُ رَثَّ البَيْتِ قَلِيلَ المَتَاعِ) كناية عن شدة الفقر، وتدل على أنه صدق فيما أخبر به عمر رضي الله عنه، والحديث بجملته دليل إخلاص الصحابة، ودقة متابعتهم للرسول صلى الله عليه وسلم ووفاء التابعين، وزهدهم، وفضل بر الوالدين.

فقه الحديث

١- استحباب طلب الدعاء من الصالحين، حتى وإن كان الطالب أفضل من المطلوب منه[١].

٢- فضل أويس بن عامر، وأنه أفضل التابعين[٢].

فإن قيل: إن أحمد وغيره قال: أفضل التابعين سعيد بن المسيب. قلنا: إن مرادهم: سعيد أفضل في العلوم الشرعية كالتفسير والحديث، والفقه ونحوها، لا في الخير عند الله[٣].

٣- وفيه: معجزة النبي صلى الله عليه وسلم وإخباره بالمغيبات[٤].

٤- وفيه: فضل بر الوالدين -خصوصًا- الأم[٥].

٥- وفيه: فضل العزلة، وإخفاء الأحوال[٦].

---

(١) الفروع، ابن مفلح ٤٥٧/٢.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٢٩٥/٦، والفروع، ابن مفلح ٤٥٦/٢، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم النفراوي ١٠٢/١.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٩٥/١٦.

(٤) المرجع السابق، الموضع نفسه.

(٥) المرجع السابق، الموضع نفسه.

(٦) المرجع السابق، الموضع نفسه.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار، والسؤال والجواب.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل أويس بن عامر رضي الله عنه.

ثالثًا: من دلائل النبوة: إخباره ﷺ عن الأمر قبل وقوعه.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل البر بالأم.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: طلب الدعاء من الصالحين.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: فضل العزلة وإخفاء الأحوال.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار.. والسؤال والجواب:

الإخبار أسلوب دعوي يفيد منه الداعية في تبليغ دعوته وفي ذلك عظيم الفائدة وقد ورد هذا الأسلوب في الحديث في قول الراوي: "كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا أتى عليه أمداد أهل اليمن سألهم... إلخ" فأخبر عمر رضي الله عنه في أمداد أهل اليمن عن أويس بن عامر، وباقي الأحداث التي حدثت مع عمر رضي الله عنه وأويس، وأسلوب الإخبار من الأساليب كثيرة الاستعمال في الدعوة، فينبغي على الداعية الإفادة منه فيما يخدم الدعوة إلى الله. أما السؤال والجواب فقد ورد هذا الأسلوب في الحديث من قول الراوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه إنه: "... سألهم: أفيكم أويس بن عامر؟.. حتى أتى على أويس رضي الله عنه فقال له: أنت أويس بن عامر قال: نعم، قال: من مُراد من ثم قرن؟ قال: نعم.. إلخ". وأسلوب السؤال والجواب من الأساليب الدعوية التي لها قيمة تأثيرية عظيمة لدى طارحي الأسئلة الذين يتلقون الإجابات على أسئلتهم ممن وجهوها لهم، ولدى المستمعين الآخرين، وذلك لأن طارحي الأسئلة يريدون اكتساب معرفة حول ما طرحوا من أسئلة، فهم في حالة استعداد فكري ونفسي لمعرفة أجوبة أسئلتهم التي طرحوها. وهذا الاستعداد أمر مهم جدًا لتلقف المعرفة واختزانًا في الذاكرة تم تطبيق إرشاداتها في السلوك. فيجب على الداعية أن يستثمر هذا الاستعداد إلى أقصى حد ممكن[1].

---

(١) انظر: فقه الدعوة إلى الله، عبدالرحمن حبنكة، ٥٨/٢، ٥٩.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل أويس بن عامر رضي الله عنه:

لقد أشار الحديث إلى ذلك في قوله ﷺ: "فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل"، قال النووي: (هذه منقبة ظاهرة لأويس رضي الله عنه)(١)، وقد أخرج مسلم في رواية من الحديث عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن خير التابعين رجل يقال له أويس، وله والدة وكان به بياض، فمروه فليستغفر لكم"، قال النووي: (هذا صريح في أنه خير التابعين وقد يقال: قد قال أحمد بن حنبل وغيره: أفضل التابعين سعيد بن المسيب، والجواب: أن مرادهم أن سعيدًا أفضل في العلوم الشرعية كالتفسير والحديث والفقه ونحوها لا في الخير عند الله تعالى)(٢).

وقد قال فيه الذهبي: (هو القدوة الزاهد، سيد التابعين في زمانه، وفد على عمر رضي الله عنه وروى قليلاً عنه، وعن علي رضي الله عنه، وقد كان من أولياء الله المتقين ومن عباده المخلصين)(٣). وقال فيه الحاكم: (أويس راهب هذه الأمة ولم يصحب رسول الله ﷺ إنما ذكره رسول الله ﷺ ودل على فضله فذكرته في جملة من استشهد بصفين بين يدي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه)(٤).

ثالثًا- من دلائل النبوة: إخباره ﷺ عن الأمر قبل وقوعه:

إن من معجزات رسول الله ﷺ ودلائل نبوته ما اطلع عليه من الغيوب المستقبلة وإخباره عنها، ومن المعلوم المقرر أن علم الغيب مختص بالله تعالى وحده. وقد أضافه الله تعالى إلى نفسه الكريمة في غير ما آية من كتابه العزيز، قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾(٥)، وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾(٦)،

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٢٧.

(٢) المرجع السابق ١٥٢٧.

(٣) سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ٤/٣٠.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣/٤٠١ رقم ٥٧٦٩.

(٥) سورة النمل، آية: ٦٥.

(٦) سورة الأنعام، آية: ٥٩.

ومن المعلوم أيضًا أن الأنبياء عليهم السلام لا يعلمون الغيب ولا اطلاع لهم على شيء منه. قال الله تعالى مخبرًا عن غير واحد من رسله الكرام عليهم السلام أنهم قالوا لأقوامهم: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾[1].

وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: ((مَنْ زَعَمَ أَنَّ رسول الله ﷺ يُخْبِرُ بِمَا يَكُونُ فِي غَدٍ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللهِ الْفِرْيَةَ))[2].

وكما جاءت الأدلة تدل على أن الله تبارك وتعالى قد اخْتُصَّ بمعرفة علم الغيب وأنه استأثر به دون خلقه، جاءت أدلة أخرى تفيد أن الله تعالى استثنى من خلقه من ارتضاه من الرسل فأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحي إليهم وجعله معجزة لهم ودلالة صادقة على نبوَّتهم، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾[4].

فتلخص من ذلك أن ما وقع على لسان رسول الله ﷺ من الإخبار بالمغيبات فبوحي من الله تعالى وهو من إعلام الله عز وجل لرسوله ﷺ للدلالة على ثبوت نبوته وصحة رسالته"[5].

وهذا ما أكده نص الحديث في "إخباره ﷺ بمجيئ الأمداد من اليمن، "والأمداد جمع مدد، وهم الجماعة الغزاة الذين يمدون جيش الإسلام في الغزو"[6]، وإخباره ﷺ بوجود رجل اسمه أويس بن عامر، وهو من بني عامر، ثم من قرن، ثم ذكر سائر

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٥٠.

(٢) أخرجه مسلم ١٧٧.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٧٩.

(٤) سورة الجن، الآيتان: ٢٦ - ٢٧.

(٥) موسوعة نضرة النعيم، د. صالح بن حميد ٥٤٢/١ - ٥٤٣.

(٦) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٢٧.

أوصافه، وإخباره ﷺ أن أويسًا كان به برص، فدعا الله تعالى فأشفاه منه إلا موضع درهم، وإخباره ﷺ أن لأويس أمًا، وهو بها برٌّ، وكان كذلك حيث تركها في اليمن حينما قدم زمن عمر رضي الله عنه"(١).

وقد اشتهر وانتشر أمره ﷺ بإطلاع الله له على المغيبات:

قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما: ((قَامَ فِينَا رَسُولُ اللّهِ ﷺ مَقَامًا. مَا تَرَكَ شَيْئًا يَكُونُ فِي مقَامِهِ ذٰلِكَ إِلَىٰ قِيَامِ السَّاعَةِ. إِلاَّ حَدَّثَ بِهِ. حَفِظَهُ مَنْ حَفِظَهُ وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ))(٢).

وقال عمرو بن أخطب الأنصاري رضي الله عنه: ((صَلَّىٰ بِنَا رَسُولُ اللّهِ ﷺ الْفَجْرَ. وَصَعِدَ الْمِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حَتَّىٰ حَضَرَتِ الظُّهْرُ. فَنَزَلَ فَصَلَّىٰ. ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ. فَخَطَبَنَا حَتَّىٰ حَضَرَتِ الْعَصْرُ. ثُمَّ نَزَلَ فَصَلَّىٰ. ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ. فَخَطَبَنَا حَتَّىٰ غَرَبَتِ الشَّمْسُ. فَأَخْبَرَنَا بِمَا كَانَ وَبِمَا هُوَ كَائِنٌ. فَأَعْلَمُنَا أَحْفَظُنَا))(٣).

ومما يؤكد ذلك إخباره ﷺ بما كان من ظهور الإسلام وعلوه وانتشار ملكه، فعن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: ((شَكَونا إلى رسولِ الله ﷺ ـ وهو مُتَوَسِّدٌ بُردَةً لَهُ في ظِلِّ الكعبةِ ـ قلنا له: ألا تَستنصِرُ لنا، ألا تَدعو اللهَ لنا؟ قال: كان الرَّجلُ فيمن قبلَكمُ يُحفَرُ له في الأرضِ فيُجعَلُ فيه، فيُجاء بالمنشارِ فيوضعُ على رأسهِ فيُشَقُّ باثنتَينِ، . وما يَصُدُّهُ ذلك عن دينه، ويُمشَطُ بأمشاطِ الحديدِ ما دُونَ لحمهِ من عظمٍ أو عَصَبٍ، وما يَصدُّهُ ذلكَ عن دينه. والله لَيتمَّنَّ هذا الأمرَ حتى يَسيرَ الراكبُ من صنعاءَ إلى حَضرَمَوتَ لا يخافُ إلاّ اللهَ، أوِ الذِّئبَ على غَنمه، ولكنَّكم تَستَعجِلون))(٤).

"وهكذا وقع فقد عم وظهر الدين وغلب وعلا على سائر الأديان، في مشارق الأرض ومغاربها وعلت كلمته في عهد الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم وذلت لهم سائر

---

(١) بر الوالدين "القسم الأول"، د. خليل إبراهيم ملا خاطر، ص ٣٧٩.

(٢) أخرجه البخاري ٦٦٠٤، ومسلم ٢٣، ٢٨٩١.

(٣) أخرجه مسلم ٢٨٩٢.

(٤) أخرجه البخاري ٣٦١٢.

البلدان ودان لهم جميع أهلها على اختلاف أصنافهم وألوانهم وصار الناس إما مؤمن داخل في الدين، وإما مهادن باذل الطاعة والمال، وإما محارب خائف وجل من سطوة الإسلام وأهله"[١].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل البر بالأم:

إن من موضوعات الدعوة في الحديث فضل البر بالأم، وهذا ما أكده النبي ﷺ في نص الحديث من قوله عن أويس: "... له والدة هو بها برّ، لو أقسم على الله لأبره، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل".

وقد استفاضت النصوص النبوية في التأكيد على عظم فضل البر بالوالدين، وخاصة البر بالأم؛ لما لها من عظيم فضل وجميل فعل على ولدها، فقد جعل النبي ﷺ البر بالأم سببًا في دخول الجنة، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: ((نِمْتُ فَرَأَيْتَنِي فِي الْجَنَّةِ فَسَمِعْتُ صَوْتَ قَارِىءٍ يَقْرَأُ فَقُلْتُ مَنْ هذَا؟ فَقَالُوا: هذَا حَارِثَةُ بْنُ النُّعْمَانِ، فقال رسول الله ﷺ: ((كَذَلِكَ البِرُّ كَذَلِكَ البِرُّ)) وكان أبر الناس بأمه[٢].

وعن معاوية بن جهامة السلمي أن جهامة جاء إلى النبي ﷺ فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَدْتُ أَنْ أَغْزُوَ وَقَدْ جِئْتُ أَسْتَشِيرُكَ فَقَالَ: ((هَلْ لَكَ مِنْ أُمٍّ؟)) قَالَ: نَعَمْ قَالَ: ((فَالْزَمْهَا فَإِنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ رِجْلَيْهَا))[٣].

وعن طيسلة بن مياس قال: ((كنت مع النجدات[٤] فأصبت ذنوبًا لا أراها الا من الكبائر فذكرت ذلك لابن عمر رضي الله عنهما، قال: ما هي؟ قلت: كذا وكذا، قال: ليست هذه من الكبائر هن تسع: الإشراك بالله، وقتل نسمة، والفرار من الزحف، وقذف المحصنة، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، وإلحاد في المسجد، والذي يستسخر[٥]،

---

(١) موسوع نضرة النعيم ٥٤٦/١.

(٢) أخرجه أحمد ١٦٧/٦ رقم ٥٢٣٧، وقال محققو المسند: إسناده صحيح ٢٠٦/٤٢.

(٣) أخرجه النسائي ٣١٠٤، وقال الألباني: حديث حسن صحيح (صحيح سنن النسائي ٢٩٠٨).

(٤) النجدات: أصحاب نجدة بن عامر الخارجي، وهم قوم من الحرورية، انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، الفيروزآبادي في (ن ج د).

(٥) يستسخر: الاستسخار من السخرية، القاموس المحيط، الفيروزآبادي في (س خ ر).

وبكاء الوالدين من العقوق. قال لي ابن عمر: أتفرق من النار وتحب أن تدخل الجنة، قلت: أي، والله. قال: أحي والدك قلت عندي أمي. قال: فوالله لو ألنت لها الكلام وأطعمتها الطعام لتدخلن الجنة ما اجتنبت الكبائر))[١].

وقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنه أن البر بالوالدين وخاصة الأم يكفر الكبائر من الذنوب، فقد روي أنه رضي الله عنه: (أتاه رجل فقال: أني خطبت امرأة فأبت أن تنكحني وخطبها غيري فأحبت أن تنكحه، فغرت عليها فقتلتها، فهل لي من توبة؟ قال: أمك حية؟ قال: لا، قال: تب إلى الله عز وجل وتقرب إليه ما استطعت. قال عطاء بن يسار: فذهبت فسألت ابن عباس لم سألته عن حياة أمه؟ فقال: إني لا أعلم عملاً أقرب الى الله عز وجل من بر الوالدة)[٢]. فعلى المرء أن يجتهد جهده في بر والديه، وخاصة أمه، لعله أن يدرك ما أدركه أويس بن عامر.

خامسًا- من موضوعات الدعوة: طلب الدعاء من الصالحين:

لقد أشار الحديث إلى ذلك في قوله ﷺ لعمر: "فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل"، وقال في رواية: "فمن لقيه منكم فليستغفر لكم"، فطلب عمر رضي الله عنه عنه منه أن يستغفر له. وفي ذلك قال النووي: (وفيه استحباب طلب الدعاء والاستغفار من أهل الصلاح وإن كان الطالب أفضل منهم)[٣]، وليس أدل على طلب الدعاء من الصالحين من قول أبي هريرة رضي الله عنه للنبي ﷺ: ادْعُ اللّهَ أَنْ يَهْدِي أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ . فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ: ((اللَّهُمَّ اهْدِ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ» فَخَرَجْتُ مُسْتَبْشِرًا بِدَعْوَةِ نَبِيِّ اللّهِ . فَلَمَّا جِئْتُ فَصِرْتُ إِلَى الْبَابِ. فَإِذَا هُوَ مُجَافٌ. فَسَمِعَتْ أُمِّي خَشْفَ قَدَمَيَّ. فَقَالَتْ: مَكَانَكَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ وَسَمِعْتُ خَضْخَضَةَ الْمَاءِ. قَالَ: فَاغْتَسَلَتْ وَلَبِسَتْ دِرْعَهَا وَعَجِلَتْ عَنْ خِمَارِهَا. فَفَتَحَتِ الْبَابَ. ثُمَّ قَالَتْ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلهَ إِلاَّ اللّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللّهِ ، فَأَتَيْتُهُ وَأَنَا أَبْكِي مِنَ الْفَرَحِ. قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللّهِ أَبْشِرْ قَدِ

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٨، وصححه الألباني، (صحيح الأدب المفرد ٦).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٤، وصححه الألباني (صحيح الأدب المفرد ٤).

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٢٧.

اسْتَجَابَ اللّهُ دَعْوَتَكَ وَهَدَى أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ. فَحَمِدَ اللّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ خَيْرًا.

قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللّهِ ادْعُ اللّهَ أَنْ يُحَبِّبَنِي أَنَا وَأُمِّي إِلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَيُحَبِّبَهُمْ إِلَيْنَا. قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ : «اللَّهُمَّ حَبِّبْ عُبَيْدَكَ هذَا ــ يَعْنِي أَبَا هُرَيْرَةَ ــ وَأُمَّهُ إِلَى عِبَادِكَ الْمُؤْمِنِينَ. وَحَبِّبْ إِلَيْهِمُ الْمُؤْمِنِينَ» فَمَا خُلِقَ مُؤْمِنٌ يَسْمَعُ بِي، وَلاَ يَرَانِي، إِلاَّ أَحَبَّنِي))[1].

سادسًا- من موضوعات الدعوة: فضل العزلة وإخفاء الأحوال:

قد ورد في هذا الحديث بيان فضل العزلة، وعدم الشهرة، وإيثار الخمول، وكتم الحال، كما هو ظاهر من قول أويس بن عامر رضي الله عنه لعمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما طلب أن يكتب له إلى عامل الكوفة: (أكون في غبراء الناس أحب إلي).

قال النووي: (أي: ضعافهم وصعاليكهم وأخلاطهم الذين لا يؤبه لهم وهذا من إيثار الخمول وكتم الحال، وقال: وفي الحديث فضل العزلة وإخفاء الأحوال)[2].

وذلك ما أفاده الحديث من قول الراوي: "فلما كان من العام المقبل حج رجل من أشرافهم..."، إلى قول: (فأتى أويسًا، فقال: استغفر لي قال: أنت أحدث عهدًا بسفر صالح، فاستغفر لي قال: لقيت عمر؟ قال: نعم. فاستغفر له، ففطن له الناس فانطلق على وجهه).

قال ابن مفلح: (وقد اختلف الناس في الأفضل من الخلطة والعزلة على مذهبين، وعن الإمام أحمد عنه في ذلك روايتان، قال في رواية أبي الصقر وقد سأله عنها: إذا كانت الفتنة فلا بأس أن يعتزلها الرجل حيث شاء، فأما ما لم يكن فتنة فالأمصار خير.

قال أحمد: حدثنا حجاج: حدثنا شعبة، عن الأعمش عن يحيى بن وثاب، عن شيخ من أصحاب النبي ﷺ - قال الأعمش: هو ابن عمر- عن النبي ﷺ قال: ((المؤمنُ الَّذي يُخَالِطُ الناسَ ويَصْبِرُ على أَذَاهُمْ، أَعْظَمُ أجرًا مِنَ المؤمنِ الَّذي لا يُخَالِطُ الناسَ

---

(١) أخرجه مسلم ٢٤٩١.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٢٧.

ولا يَصْبِرُ على أَذَاهُمْ))(١).

... وقال الحسن بن محمد بن الحارث: قلت لأبي عبدالله: التخلي أعجب إليك؟ فقال: التخلي على علم، وقال: يروى عن النبي ﷺ أنه قال: "الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم"، ثم قال أبو عبدالله: رواية شعبة، عن الأعمش ثم قال: من يصبر على أذاهم؟

وقال إسحاق بن إبراهيم في الأدب من مسائله عن أحمد قال: قال أبو سنان وجاءه رجلان فقال: تفرقا فإنكما إذا كنتما جميعًا تحدثتما، وإذا كنتما وحدانا ذكرتما الله تعالى. قال أبو عبدالله: رواه وكيع عن أبي سنان.

قال القاضي أبو الحسين: إنه نقل من الجزء الثالث من الأدب تأليف المروذي، قال: قال أبو عبدالله أحمد بن حنبل: كفى بالعزلة علمًا، وإنما الفقيه الذي يخشى الله. وهي اختيار أبي عبدالله بن بطة.

وقد بيّن ابن الجوزي أن المفاضلة بين العزلة والمخالطة تختلف باختلاف الأشخاص والأحوال فقال: وقد كان أكثر السلف يؤثرون العزلة على الخلطة.

وقال أيضًا: إن من قدر على نفع الناس بماله أو بدنه لقضاء حوائجهم مع القيام بحدود الشرع إنه أفضل من العزلة إن كان لا يشتغل في عزلته إلا بنوافل الصلاة والأعمال البدنية، وإن كان ممن انفتح له طريق عمل بالقلب بدوام ذكر أو فكر فذلك الذي لا يعدل به البتة.

وقال أيضًا: ليس في الدنيا أطيب من تنزه العالم بالعلم فهو أنيسه وجليسه، وقد قنع بما يسلم به دينه من المباحات الحاصلة لا عن تكلف ولا عن تضييع دين، وارتدى بالعزلة عن الذل للدنيا وأهلها، والتحف بالقناعة باليسير إذا لم يقدر على الكثير فيسلم دينه ودنياه. واشتغاله بالعلم يدله على الفضائل ويفرجه في البساتين، فهو يسلم من الشيطان والسلطان والعوام بالعزلة، ولكن لا يصح هذا إلا للعالم؛ فإنه إذا اعتزل الجاهل فاته العلم فتخبط.

(١) أخرجه الترمذي ٢٥٠٧، بلفظ: إن المسلم الذي يخالط، وصححه الألباني، (صحيح سنن الترمذي ٢٠٢٥).

وقال أيضًا: فإذا عرفت فوائد العزلة وغوائلها تحققت أن الحكم عليها مطلقًا خطأ، بل ينبغي أن ينظر إلى الشخص وحاله، وإلى الخليط وحاله، وإلى الباعث على مخالطته، وإلى الفائت بسبب مخالطته من الفوائد، ويقاس الفائت بالحاصل فعند ذلك يتبين الحق، فقد قال الشافعي رضي الله عنه: الانقباض عن الناس مكسبة العداوة، والانبساط لهم مجلبة لقرناء السوء، فكن بين القبض والبسط، ومن ذكر سوى هذا فهو قاصر وإنما هو إخبار عن حاله فلا يجوز أن يحكم بها على غيره المخالف له في الحال، انتهى كلامه"[1].

والمستفاد من ذلك أن هناك من تكون العزلة عن مخالطة الناس في حقه أولى وأصلح لحاله؛ لقلة صبره على إيذاء الناس وعدم تحمله لذلك، بل قد يترتب من المفاسد العظام والآثام الجسام عند مخالطته للناس ما هو أعظم من تركهم، كسوء أخلاقه باقتحامه للمنكرات وفعل المحرمات، كما هو مشاهد من مصاحبة أهل البطالة والتهتك، فيفسد بذلك حاله ويكون وبالاً على غيره.

ومن الناس من تكون المخالطة للناس في حقه أولى من العزلة؛ لدفاعه عن الدين وقضائه لحقوق المسلمين، فيعظُم نفعه لغيره، فضلاً عن رباطة جأشه في حماية خلقه، فلا يتأثر بسوء أخلاق من حوله، بل يقوّم تارة ويعلم وينصح تارة، كمنار يهتدى به في حالك الظلمات، فهذا تكون مخالطته الناس في حقه أولى من العزلة. والله أعلم.

---

(١) الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ٣/٤٤٩ - ٤٥١.

الحديث رقم (٣٧٣)

٣٧٣- وعن عمر بن الخطاب ﵁، قَالَ: اسْتَأذَنْتُ النَّبيَّ ﷺ في العُمْرَةِ، فَأذِنَ لِي، وَقَالَ: ((**لاَ تَنْسَنا يَا أُخَيَّ مِنْ دُعَائِكَ**)) فَقَالَ كَلِمَةً مَا يَسُرُّنِي أنَّ لِي بِهَا الدُّنْيَا.

وفي رواية[1]: وَقَالَ: ((**أشْرِكْنَا يَا أُخَيَّ في دُعَائِكَ**)).

حديث صحيحٌ، رواه أَبُو داود والترمذيُّ[2]، وَقَالَ: (حديث حسن صحيح).

ترجمة الراوي:

عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١).

الشرح الأدبي

الحديث مثال ماثل بين عيني الزمان يشهد بتواضع النبي ﷺ وحبه لأصحابه ولأمته، وهو يعلمهم أن يدعو كل واحد منهم لإخوانه فإنه أحرى أن يجاب لهم وقوله (اسْتَأذَنْتُ النَّبيَّ ﷺ في العُمْرَةِ، فَأذِنَ لِي) استخدام الفاء ينبيء بسرعة استجابته له، وفيه إشارة إلى تعجيل الخير، وقوله ﷺ (لا تنسنا) نهي أريد به طلب الدعاء ترغيباً، وتعليماً لأمته، وشرحاً لصدر صاحبه لأنه يشعره بثقة النبي ﷺ في دينه، وطي هذا النهي مدح لعمر ﵁ وثناء على دينه، وقوله (يا أخي) نداء تودد، وتلطف يفيض بالمحبة، وقوله (من دعائك) فيه إرشاد إلى إشراك الصالحين في الدعاء عسى أن يجاب له بصلاحهم، والرواية الثانية (أشْرِكْنَا يَا أُخَيَّ في دُعَائِكَ) تصرح بذلك، وعبارة الرسول ﷺ تفيض بالرحمة، والمحبة لصاحبه خاصة، وللأمة التي يعلّمها سنّته عامة.

---

(١) قال أبو داود: (قال شعبةُ: ثمَّ لقيتُ عاصمًا بعدُ بالمدينة، فحدَّثنيه) ثم ذكره.

(٢) أخرجه ابو داود (١٤٩٨) واللفظ له، والترمذي (٣٥٦٢). قال الحافظ ابن كثير في مسند الفاروق (٣٢٦/١): قال علي بن المديني: لا نحفظه إلا من هذا الوجه، وعاصم بن عبيد الله فيه ضعفٌ، روى أحاديث مسندة. وسيكرره المؤلف برقم (٧١٤).

فقه الحديث

١- استحباب طلب الدعاء من المسافر[١]، خصوصًا من الصالحين المعروفين بالهداية[٢]، ولا يشترط أن يكون من يطلب منه الدعاء أفضل من الطالب بل يشرع حتى ولو كان الطالب أفضل من المطلوب منه[٣]، كما في هذا الحديث، وذلك لأن أهل الفضل ينوو بطلب الدعاء، أن الذي يطلبون منه الدعاء إذا دعا لهم كان له من الأجر على دعائه لهم أعظم من أجره لو دعا لنفسه فقط[٤].

٢- مشروعية السرور والفرح بتقدير الفضلاء، والصالحين للشخص، فقد فرح عمر بن الخطاب رضي الله عنه بتقدير الرسول صلى الله عليه وسلم له، وطلب الدعاء له.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: من أدب الصحابة رضي الله عنهم استئذان النبي صلى الله عليه وسلم.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل العمرة.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: طلب الفاضل الدعاء من المفضول.

رابعًا: من آداب الداعية: مخاطبة المدعو بما يدل على المحبة والمودة.

أولاً- من موضوعات الدعوة: من أدب الصحابة رضي الله عنهم استئذان النبي صلى الله عليه وسلم:

يظهر ذلك في هذا الحديث في قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "استأذنت النبي صلى الله عليه وسلم في العمرة، فأذن لي"، وفي ذلك قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٥] قال ابن كثير: (إن في هذا أدب أرشد الله عباده المؤمنين إليه،

---

(١) المجموع شرح المهذب، النووي ٣٢٧/٤.

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ٢٥٦/٤.

(٣) انظر: مجموع الفتاوى ٦٩/٢٧.

(٤) الفروع، ابن مفلح ٤٥٧/٢.

(٥) سورة النور، آية: ٦٢.

فكما أمرهم بالاستئذان عند الدخول، كذلك أمرهم بالاستئذان عند الانصراف – لاسيما إذا كانوا في أمر جامع مع الرسول ﷺ من صلاة جمعة أو عيد أو جماعة، أو اجتماع لمشورة ونحو ذلك - أمرهم الله تعالى ألا ينصرفوا عنه والحالة هذه إلا بعد استئذانه ومشاورته وإن من يفعل ذلك فهو من المؤمنين الكاملين)(١). وقال السعدي في تفسيره لهذه الآية: (هذا إرشاد من الله لعباده المؤمنين، أنهم إذا كانوا مع الرسول ﷺ على أمر جامع، أي: من ضرورته أو من مصلحته، أن يكونوا فيه جميعًا، كالجهاد، والمشاورة، ونحو ذلك من الأمور التي يشترك فيها المؤمنون، فإن المصلحة تقتضي اجتماعهم عليه وعدم تفرقهم، فالمؤمن بالله ورسوله حقًا، لا يذهب لبعض الحوائج التي يشذ بها عنهم، إلا بإذن من الرسول أو نائبه من بعده، فجعل موجب الإيمان عدم الذهاب إلا بإذن، ومدحهم على فعلهم هذا وأدبهم مع رسوله وولي الأمر منهم، فقال: "إن الذين ستأذنوك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله")(٢).

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل العمرة:

لقد أشار الحديث إلى ذلك في قول عمر رضي الله عنه: "استأذنت النبي ﷺ في العمرة". وقد حث النبي ﷺ على أدائها وبيّن فضلها فقال: ((الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا...))(٣) قال النووي: (هذا ظاهر في فضيلة العمرة وأنها مكفرة للخطايا الواقعة بين العمرتين)(٤). وقال ﷺ: ((تابِعُوا بَيْنَ الحَجِّ والعُمْرَةِ فإنهُما يَنْفِيَانِ الفَقْرَ والذنُوبَ كَمَا يَنْفِي الكِيْرُ خَبَثَ الحَدِيدِ))(٥) وقال ﷺ: ((جِهَادُ الْكَبِيرِ وَالصَّغِيرِ وَالضَّعِيفِ وَالْمَرْأَةِ الْحَجُّ وَالْعُمْرَةُ))(٦) وهذا يدل على فضل العمرة وثواب أجرها.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٨٨/٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٥٧٦.

(٣) أخرجه البخاري ١٧٧٣، ومسلم ١٣٤٩.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٨٤٤.

(٥) أخرجه النسائي ٢٦٣٠، وصححه الألباني (صحيح سنن النسائي ٢٤٦٧، ٢٤٦٨).

(٦) أخرجه النسائي ٢٦٢٧، وحسنه الألباني (صحيح سنن النسائي ٢٤٦٣).

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: طلب الفاضل الدعاء من المفضول:

يتضح ذلك في الحديث في قوله ﷺ "لا تنسانا يا أخي من دعائك" وفي رواية "أشركنا يا أخيَّ في دُعائكَ" قال العظيم آبادي: (قوله: "من دعائك" فيه إظهار الخضوع والمسكنة في مقام العبودية بالتماس الدعاء ممن عرف له الهداية حث للأمة على الرغبة في دعاء الصالحين وأهل العبادة وتنبيه لهم على أن لا يخصوا أنفسهم بالدعاء ولا يشاركوا فيه أقاربهم وأحباءهم لا سيما في مظان الإجابة)[١]، فطلب الرسول ﷺ الدعاء من عمر رضي الله عنه ورسول أحب الخلق إلى الله وأفضل الخلق يدل طلب الفاضل الدعاء من المفضول إذا علم صلاحه وهدايته وفي مواطن الإجابة أمر ينبغي أن يحرص عليه المسلم اللبيب، وليس أدل على طلب الفاضل الدعاء من المفضول من قول عمر بن الخطاب إلى أويس بن عامر رضي الله عنهما سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((يَأْتِي عَلَيْكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ مَعَ أَمْدَادِ أَهْلِ الْيَمَنِ مِنْ مُرَادٍ، ثُمَّ مِنْ قَرَنٍ. كَانَ بِهِ بَرَصٌ فَبَرأَ مِنْهُ إلاَّ مَوْضِعَ دِرْهَمٍ. لَهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِهَا بَرٌّ. لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللّهِ لأَبَرَّهُ. فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ فَافْعَلْ». فَاسْتَغْفِرْ لِي، فَاسْتَغْفَرَ لَهُ))[٢]، وفي ذلك قال النووي: (وفيه استحباب طلب الدعاء والاستغفار من أهل الصلاح وإن كان الطالب أفضل منهم)[٣].

رابعًا- من آداب الداعية: مخاطبة المدعو بما يدل على المحبة والمودة:

لقد أشار الحديث إلى ذلك في قوله ﷺ "يا أخي" قال المباركفوري: (قوله "أي أخي" بالتصغير وهو تصغير تعطف وتلطف لا تحقير وطلبه ﷺ الدعاء من عمر رضي الله عنه فيه تفخيم لشأن عمر وإرشاد إلى ما يحمي دعاءه من الرد)[٤] فينبغي على الداعية أن يخاطب المدعو بما يدل على محبته ومودته له؛ لأن المدعو إذا شعر بأن الداعية يحبه ويوده، لا شك سيتجاوب معه ويسمع منه. وفي ذلك قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ

---

(١) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ٦٨١.

(٢) أخرجه مسلم ٢٥٤٢.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٢٧.

(٤) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري ٢٥٠٨/٢.

بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[١]، وقال تعالى لنبيه موسى عليه السلام: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾[٢]، (وهذه الآية فيها عبرة عظيمة، وهي أن فرعون في غاية العتو والاستكبار، وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أمر ألا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين)[٣]، فحري بالداعية أن يخاطب المدعو بما يدل على المحبة والمودة، لما في ذلك من استجلاب قلبه، وترغيبه على قبول دعوته، وفي ذلك عظيم الفلاح.

---

(١) سورة النحل، آية: ١٢٥.

(٢) سورة طه، الآيتان، ٤٢- ٤٤.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢٩٤/٥.

الحديث رقم (٣٧٤)

٣٧٤- وعن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ، قَالَ: كَانَ النَّبيُّ ﷺ يزور قُبَاءَ رَاكِبًا وَمَاشِيًا[1]، فَيُصَلِّي فِيهِ رَكْعَتَيْنِ. مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[2].

وفي رواية[3]: كَانَ النَّبيُّ ﷺ يَأتي مَسْجِد قُبَاءَ كُلَّ سَبْتٍ رَاكبًا وَمَاشِيًا[4]، وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَفْعَلُهُ.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

الشرح الأدبي

فعل الكينونة الماضي هو بوابة العودة في الزمن، وعندما تتعلق بالنبي ﷺ فإنما تستحضر حكماً شرعياً يُلتزم، أو سنة نبوية تتبع، وقوله (يزور) في صيغة المضارع تفيد التجدد، والاستمرار، والتعبير بالزيارة ينفي طول الإقامة لأنها تتضمن دلالة على الرجوع، (وقباء) فيه إيجاز بحذف المضاف أي: مسجد قباء يدل على ذلك، قوله: (فيصلي فيه) فقد أعاد الضمير مذكراً عليه وقد جاء مصرحاً به في الرواية الثانية (يأتي مسجد قباء) والفاء المتصلة بفعل الصلاة تدل على المسارعة بصلاة الركعتين فور دخول المسجد، وفي قوله (ماشياً، وراكباً) فيه طباق يستوعب أحوال انتقاله، وقرر معناها، والحديث من بدايته أسلوب خبري غرضه لازم الفائدة، وهو بيان حكم الجواز في الركوب، أو المشي، وتقديم، الركوب لرفع الحرج، والدلالة على اليسر.

---

(١) قال البخاري ومسلم: زاد ابن نُمير. تنبيه: زيادة ابن نُمير عند البخاري معلّقة.

(٢) أخرجه البخاري (١١٩٤)، ومسلم (١٣٩٩/٥١٦) ولفظهما سواء.

(٣) أخرجه البخاري (١١٩٣) من حديث عبد العزيز بن مسلم، عن عبد الله بن دينار.

(٤) لفظ البخاري: (ما شيًا وراكبًا)، والمثبت لفظ الحميدي في جمعه (٢٠٨/٢، رقم ١٣١٨).

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى فضل مسجد قباء ذلك المسجد الذي وصفه الله تعالى بأنه مسجد أسس على التقوى فيه رجال يحبون أن يتطهروا.

وقد اتفق الفقهاء[1] على أنه يستحب زيارة مسجد قباء والصلاة فيه، وتستحب تلك الزيارة يوم السبت اقتداء بفعله ﷺ حين كان يأتي قباء ماشيًا وراكبًا فيصلي فيه، وكذا اتفقوا على أن من نذر أن يعتكف في مسجد قباء وجب عليه الوفاء بنذره في مكانه ولا يجزئه غيره من المساجد لما لهذا المسجد من فضل بعد المساجد الثلاثة حتى صح عنه ﷺ أن جعل ركعتين فيه بعمرة.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: بيان فضل مسجد قباء وفضل الصلاة فيه.

ثانيًا: من صفات المدعو: الحرص على التأسي برسول الله ﷺ.

ثالثًا: من ميادين الدعوة: المسجد.

أولاً- من موضوعات الدعوة: بيان فضل مسجد قباء وفضل الصلاة فيه:

لقد أشار الحديث إلى ذلك في قول ابن عمر رضي الله عنهما "كان النبي ﷺ يزور قباء" وفي رواية "كان النبي ﷺ يأتي مسجد قُباء كل سبت..."، فمن عظم مكانة هذا المسجد الشريف أن النبي ﷺ كان يتعهده بالمجيء دائمًا، كان يأتيه ﷺ راكبًا وماشيًا، ولا يمر أسبوع إلا ويأتيه فيه ﷺ، وهذا يدل على مدى مكانة هذا المسجد الشريف عنده ﷺ وعنايته به، كيف لا، وهو أول مسجد يقام لجماعة المسلمين

---

(١) انظر في ذلك: شرح فتح القدير، ابن الهمام الحنفي ١٨٣/٣، والفتاوى الهندية ٢٦٧/١، والتاج والإكليل شرح مختصر خليل، وهو مطبوع بهامش مواهب الجليل للحطاب، محمد بن يوسف المواق ٥٣١/٤، والمجموع شرح المهذب، النووي ٢٥٨/٨، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد الأنصاري ٤٣٨/١، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين عبدالرحيم بن الحسن ٤٤/٦، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٥٩٤/١، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين أبو الحسن المرداوي ٣٦٦/٣.

بشكل علني، بناه ﷺ قبل أن يصل إلى المدينة النبوية، ويبني فيها مسجده.

فلعظم هذا المسجد، كان النبي ﷺ يتفقده، ويكثر الاختلاف إليه، ماشيًا، وراكبًا، حسب ما تيسر[١].

ومن فضائل مسجد قباء - وهو معدود في فضاء المدينة النبوية أيضًا- أن من أتاه وصلى فيه ركعتين، كان له من الأجر كأجر عمرة كاملة، وهذا فضل من الله تعالى ونعمة، أنعم بها على عباده، وتكرم بها على أهل المدينة، ومن نزل بها[٢]. كما بين ﷺ أن صلاته في قباء أحب إليه من الصلاة في بيت المقدس. وقد بيّن النبي ﷺ ذلك فيه فقال: ((مَنْ خَرَجَ حَتَّى يَأْتِيَ هذَا الْمَسْجِدَ مَسْجِدَ قُبَاءٍ فَصلَّى فِيهِ كَانَ لَهُ عَدْلَ عُمْرَةٍ))[٣]، وعن عامر بن سعد، وعائشة بنت سعد سمعا أباهما رضي الله عنه يقول: ((لأنْ أُصلِّي فـي مَسْجِدِ قُبَاءٍ أَحَبُّ إلَيَّ من أَنْ أُصَلِّي فـي بيتِ المَقْدِسِ))[٤].

ثانيًا- من صفات المدعو: الحرص على التأسي برسول الله ﷺ:

هذا ما أكد عليه نص الحديث في قول الراوي: (وكان ابن عمر يفعله)، وقد جعل الله تعالى التأسي بالنبي ﷺ شأن المؤمن الذي يرجو الله واليوم الآخر، فقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ﴾[٥].

(إن هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله)[٦].

"وقد أثر ذلك في صحابته رضي الله عنهم حتى كانوا يراعون ما يفعل ﷺ وينظرون إليه كيف يفعل. ويتحينون الفرص لذلك لأجل أن يقتدوا به...، وكان أشدهم في هذه

---

(١) انظر: فضائل المدينة المنورة، د. خليل إبراهيم ملا خاطر، ٣٧٤-٣٧٦.

(٢) المرجع السابق ٣٧٨/٢.

(٣) أخرجه النسائي ٦٩٩، وصححه الألباني، صحيح سنن النسائي ٦٧٥.

(٤) صححه الحاكم ١١/٣ رقم ٤٣٣٧، وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٥) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣٩١/٦.

الناحية، وأدومهم عليها، وأحرصهم على التحري عن أفعاله ﷺ حتى في أدق التفاصيل، عبدالله بن عمر رضي الله عنهما. وقد حفظت لنا الوثائق الحديثة نماذج كثيرة من ذلك تكشف لنا عن دوافع نفسية عميقة التأثر، بل يكاد يكون هذا المعنى هو مفتاح فقه ابن عمر رضي الله عنهما، والسمة الرئيسية لما ينقل عنه من الآراء التشريعية، فمن ذلك أنه لما دخل النبي ﷺ الكعبة ثم خرج يقول ابن عمر رضي الله عنهما فلما فتحوا كنت أول من ولج، فلقيت بلالاً فسألته: (هل صلَّى فيه رسولُ اللهِ ﷺ؟ قال: نعم، بينَ العَمودَينِ اليَمَانِيين. قال ابن عمر: فذهب عني أن أسأله: كم صلى)[1].

وكان ابن عمر رضي الله عنهما يبيت بذي طوى بين الثنيتين ثم يدخل من الثنية التي بأعلى مكة. وكان إذا قدم حاجًا أو معتمرًا لم ينخ ناقته إلا عند باب المسجد، وكان يذكر أن النبي ﷺ (كان) يفعل ذلك[2].

وأحصى ابن عمر رضي الله عنهما الأماكن التي صلى فيها النبي ﷺ عند سفره لحجة الوداع من مكة إلى المدينة، وحدد مواقعها بأوصاف دقيقة. وقد أورد البخاري حديثه في ذلك بتمامه، وهو حديث طريف طويل فليرجع إليه[3].

ولقد كان اقتداء الأمة الإسلامية بنبيها ﷺ بعد عصر الصحابة رضي الله عنهم النابع من أحكام دينها، وتأثرها بشخصيته وأخلاقه الكريمة، دافعًا كبيرًا لها إلى الاستقامة على أمر الدين على بصيرة من أمرها.

ولم تزل سيرة نبيها ﷺ تمثل لها أنبل الصفات والأعمال والأخلاق، وتجسّم المثل والمبادئ الإسلامية أمام أنظارها، فتعمل بدينها حق العمل، اقتداء بتلك السيرة العطرة

ولم تزل تلك السيرة تبدع في الأمة أجيالاً من البطولات. تحقق القدوة بالنبي ﷺ بدرجة عالية، حتى كأنهم نسخ أخرى لتلك الشخصية الفذة، في صبرها وبلائها ويقينها بالله، وفي تواضعها وزهدها وصدقها مع الله، وفي معاملة الناس، مع الصدق في العمل بدين الله وإيصال منافعه إلى البشر.

---

(١) أخرجه البخاري ٤٦٨، ومسلم ١٣٢٩.

(٢) أخرجه البخاري ١٧٦٧، ١٧٦٩، ومسلم ١٢٥٩.

(٣) أخرجه البخاري ٤٨٤، ومسلم ١٢٥٧.

وقد كان لتلك الشخصيات العظيمة الأثر البعيد في جذب الناس إلى الإسلام، واقتناعهم به، ورغبتهم في الدخول فيه والعمل به، ما لم تؤثره الخطب والمواعظ والأقوال البليغة. لأنهم يرون بأعينهم، ويلمسون بأيديهم، مدى الإخلاص والتفاني في حب الله، ومقدار النفع الحاصل بتلك الشموس المضيئة"[١].

ثالثًا- من ميادين الدعوة: المسجد:

قد ورد ذلك في الحديث من قول الراوي: "كان النبي ﷺ يزور قُباء"، وفي رواية "كان النبي ﷺ يأتي مسجد قباء، ..." إلخ.

(فالمسجد أحب البقاع إلى الله تعالى؛ قال سبحانه: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۝ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[٢]، وقال ﷺ: ((أَحَبُّ الْبِلاَدِ إِلَىٰ اللهِ مَسَاجِدُهَا . وَأَبْغَضُ الْبِلاَدِ إِلَى اللهِ أَسْوَاقُهَا))[٣]، فالمسجد قلعة الإيمان، وحصنُ الفضيلة، وهو المدرسة الأولى التي يتخرج فيها المسلم فهو بيت الأتقياء، ومكان اجتماع المسلمين كل يوم خمس مرات، ومحل تناصحهم وتشاورهم، ومن المسجد خرجت الجيوش الإسلامية ففتحت مشارق الأرض ومغاربها...، ولقد اختار رسول الله ﷺ المسجد ليكون مركزًا للتعليم والتوجيه...، وهو الأساس الأول في تكوين شخصية المسلم، وتكوين خلقه وعبادته وعلاقته بربه وبنفسه وإخوانه المسلمين)[٤].

ولا شك أن المسجد من أهم ميادين الدعوة الإسلامية منذ بدء انطلاق الدعوة من المدينة المنورة، ومن مسجد رسول الله ﷺ والذي أخرج للعالم قادة وعلماء وصلحاء لم يكن لهم نظير في أي عصر من العصور.

---

(١) أفعال الرسول ﷺ ودلالتها على الأحكام الشرعية، محمد سليمان الأشقر ١/٧٤ - ٧٥.

(٢) سورة النور، الآيتان: ٣٦ - ٣٧.

(٣) أخرجه مسلم ٦٧١.

(٤) رسالة إلى أئمة المساجد والمؤذنين والمأمومين، عبدالله بن جار الله، ص ١٩ - ٢١.

وعلى النهج نفسه سار سلف هذه الأمة الصالح في إيلاء المسجد أهمية من حيث نشر الدعوة علمًا وعبادة وعملاً وأخلاقًا ومسلكًا.

إذًا فالمسجد هو قلب المسلمين النابض، ومحركهم إلى حمل الدعوة ونشر العقيدة وتوجيه الناس التوجيه الصحيح بالأسلوب الحسن والوسيلة[1].

(١) انظر: وسائل الدعوة، د. عبدالرحيم بن محمد المغذوي، ص ٢٢٠.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

يحرص الإسلام على تقوية الروابط الاجتماعية التي وهنت بين الناس إن لم تكن انقطعت، وما ذاك إلا لأن كثيرين يجهلون الأجر المترتب على العلاقات الاجتماعية المشروعة.

إن الرسول ﷺ قد بيّن فضل زيارة الآخرين، إذا كانت خالصة لوجه الله، ولم يشر إلى أجر مترتب على الزيارة التي تهدف ابتداءً إلى متاع دنيوي أو كسب مادي.

لقد بين الإسلام أن الملائكة تفرح وتستبشر وتدعو بالخير لمن زار أخاً له في الله، ابتغاء مرضاة الله تعالى، وطمعًا في رضوانه.

ومن المضامين التربوية في أحاديث الباب ما يلي:

أولاً- التربية على الوفاء:

إن من القيم التربوية الإسلامية: الوفاء بمعناه الواسع، وليس الوفاء بالمعنى الانتقالي، ولذا أعلى الإسلام قيمة الوفاء، وعملت التربية الإسلامية على تعميق ذلك وترسيخه في النفوس، لما له من فوائد وآثار إيجابية عظيمة في حياة الفرد والمجتمع، وقد ربّى النبي ﷺ أصحابه رضي الله عنهم على ذلك عمليًا، وعمّق في نفوسهم هذه القيمة التربوية من خلال مواقفه العملية ووفائه ﷺ، ومن الأمثلة على ذلك وفاؤه لخديجة رضي الله عنها حتى بعد رحيلها، وقد تربى الصحابة على هذا الخلق الرفيع مما دفع أبا بكر وعمر رضي الله عنهما إلى الذهاب لزيارة أم أيمن حاضنة رسول الله ﷺ بعد وفاته ﷺ مباشرة، وفاءً بحقه، وإخلاصًا لذكراه، قال أبو بكر لعمر: "انطلق بنا إلى أم أيمن نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها ...".

ثم يتحقق الوفاء من جانب أم أيمن رضي الله عنها، عندما تنهمر باكية، ويُهَيِّج بكاؤها بكاء أبي بكر وعمر رضي الله عنهم أجمعين، حُزْنًا على وفاة سيد الخلق وانقطاع الوحي بعده؛ ضاربين بذلك أروع مُثُل الوفاء، "فمهما أوتي الداعية أو المرَبِّي من علم ولم يكن له حظ من الوفاء فلا اعتبار له؛ لأن اللوم والغدر يفسدان خصال الخير، كما يُفسد الملحُ الطعام.

ولقد استمد أبو بكر وعمر هذه القيمة من المربّي الأول ﷺ، الذي كان بارًا بصديقات خديجة بعد موتها؛ لأن الوفاء لصاحب الفضل بعد موته هو أبلغ في ردِّ جميله وشكره على حسن صنيعه"[١].

ثانيًا- التربية على الحب في الله تعالى:

لقد حرص الإسلام على أن تكون العلاقات الاجتماعية كلها لله تعالى، فالحب لله وكذلك البغض لله تعالى، يقول الرسول ﷺ: «وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إلاَّ للهِ»[٢].

ولقد جعل الله تعالى للمتحابين فيه ثوابًا عظيمًا، وهو بُلوغ حب الله تعالى، وحكى رسول الله عن الرجل الذي زار صاحبه حبًّا في الله، فقال له الملك: «فَإِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكَ، بِأَنَّ اللّهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ»؛ لأن هذا الحب كان خالصًا من شوائب الدنيا وعوارض المنفعة الزائلة.

"إن الذي يستطيع أن يُحبَّ هذا الحبَّ الكبير صنفٌ واحد من بني الإنسان؛ إنه الصنف الذي خالطت قلبه بشاشة الإيمان، الإيمان وحده هو ينبوع الحبِّ الصّافي الخالد"[٣].

ثالثًا- التربية بالقصة:

من أساليب التربية المؤثرة، التي توخّاها المربي الأول ﷺ أسلوب القصة؛ لما له من أثر بالغ في نفوس المتلقين، ولقد أخبر النبي ﷺ صحابته بقصة الرجل الذي زار أخًا له في قرية أخرى "فأرصد الله على مَدْرَجَته ملكًا..."؛ ليفيد الصحابة بمعرفة القصة أولاً، ثم باستخلاص العبرة والدروس منها ثانيًا.

فقارئ القصة وسامعها لا يملك إلا أن يقف موقفًا سلبيًا من شخوصها وحوادثها، فهو يدس نفسه على مسرح الحوادث، ويروح يوازن بين نفسه وبين أبطال القصة، فيوافق أو يستنكر أو يملكه الإعجاب[٤].

---

(١) أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد العاني، ص٣٦٢.

(٢) أخرجه البخاري ١٦، ومسلم ٤٣.

(٣) الإيمان والحياة، د. يوسف القرضاوي، ص ١٤٦، ١٤٧.

(٤) أصول التربية الإسلامية، د. سعيد القاضي، ص١٩٠.

رابعًا- التربية بالترغيب:

لقد حفَّزَ النبي ﷺ أصحابه على الزيارة في الله، للمريض وغيره، حبًا خالصًا، يقول ﷺ: " من عاد مريضًا أو زار أخًا في الله، ناداه منادٍ ..."، ترغيبًا في هذه القيمة الرفيعة، فإن ملائكة الله سيدعون له: "طِبْتَ وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منزلاً".

وبذلك يكون ترغيبه ﷺ "وسيلة ضاغطة ودافعة باتجاه الخير والسلوك الحسن، وابتغاء رضى الله تعالى في كل عمل يفعله المرء؛ حرصًا منه على نَيْل المُرغّب فيه، وخشيةً من فواته، لا سيما وأنه لا مثيل له، ولا تعدله لذة مهما بلغت"[١]، ولأنه إنما رغّب في الجنة، التي هي غاية المُنى، ونهاية المآرب.

خامسًا- التربية بضرب المثل:

وذلك في تشبيهه ﷺ الجليس الصالح والجليس السوء بحامل المسك ونافخ الكير، وفي هذا المثل تقريب للأفهام، ووسيلة تربوية ناجحة في الإفهام والتوضيح.

فقد كان ﷺ يستعين على توضيح مواعظه بضرب المثل، مما يشهده الناس بأم أعينهم، ويقع تحت حواسهم وفي متناول أيديهم؛ ليكون وقع الموعظة في النفس أشدَّ، وفي الذهن أرسخ..."[٢].

سادسًا- التربية بالتوجيه المباشر:

ويظهر ذلك في دعوته ﷺ المؤمنين، والذين يبتغون الزواج باختيار الزوجة، وقد أبان عن ﷺ المعايير الاجتماعية السائدة، التي عليها يختار الناس زوجاتهم وهي المال والحسب والجمال والدين، ثم يعظ أصحابه ويأمرهم بقوله: "فاظفر بذات الدين...".

وكذلك في اختيار الأصحاب والأصدقاء يكون نهيه ﷺ مباشرًا: "لا تصاحب إلا مؤمنًا، ولا يأكل طعامك إلا تقيٌّ".

وكذلك كان أمره في الحديث التالي: "فلينظر أحدكم من يُخالل".

والتوجيه المباشر وسيلة من وسائل العادة التعليمية.. وهو طلب المربي المباشر

---

(١) أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، لزياد العاني، ص٢٢٣.

(٢) تربية الأولاد في الإسلام، محمد ناصح علوان، ص٧١٦.

والصريح من طلابه القيام بعمل معين"(١).

وكذلك فإن من الآثار التربوية التي تترتب على التربية بأسلوب التوجيه": تزكية النفس وتطهيرها، وهو هدف من أسمى الأهداف التربوية التي تسعى التربية الإسلامية إلى تحقيقها، وبه يسمو المجتمع ويبتعد عن المنكرات وعن الفحشاء، ويسلك الجميع وفق منهج الله وشرعته"(٢).

سابعًا- التربية على توقير الصالحين وطلب الدعاء منهم:

وإن لم يكونوا أهل سبق في الدين، وقد حثَّ النبي ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه على طلب الدعاء والاستغفار من أُوَيْس بنُ عَامِرٍ الْقَرَنِي رضي الله عنه، لأنه كان صالحًا بارًا بأمه.

وكذلك في طلبه الدعاء من عمر حينما ذهب إلى العمرة: «لاَ تَنْسَنَا يَا أَخِي مِنْ دُعَائِكَ».

وفي كلا الحديثين طلب من المفضول، والعبرة في ذلك بالصلاح والتقوى، وفي ذلك "حثٌّ على احترام أهل العلم والفضل ... ومعرفة أقدار الناس، وأنهم يتفاضلون بالعلم والتقوى؛ لا بالحسب والنسب"(٣).

ثامنًا- التربية على برِّ الوالدين والإحسان إليهما:

ولا سيَّما الأم، وقد كان بُّر أويس القرني سببًا في قربه من الله تعالى، حتى صار مستجاب الدعاء، لو أقسم على الله لأبرِّه، ثم كان ذلك سببًا في أمر النبي ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يطلب من أويس الدعاء والاستغفار، يقول ﷺ: «لَهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِهَا بَرٌّ. لَوْ أَقْسَمَ عَلَىٰ اللّهِ لأَبَرَّهُ». وقد عقد البخاري في صحيحه بابًا عنوانه: "باب إجابة دعاء من برَّ والديه"، وإن من إكرام الله تعالى للبارِّ لوالديه: أن يجعل دعوته مستجابة في هذه الدنيا"(٤).

---

(١) أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد العاني، ص٢٨٣.

(٢) أصول التربية الإسلامية محمد شحات الخطيب وآخرون، ص٨٤.

(٣) التربية على منهج أهل السنة والجماعة، أحمد فريد، ص٢٨٤.

(٤) بر الوالدين، د. خليل إبراهيم ملاّ خاطر العزّامي، ص٢٧١.

تاسعًا- التربية بالممارسة العملية:

من أساليبه ﷺ التربوية أن يقوم بنفسه بالفعل، حتى يتأسى به صحابته، وهذا ما يعمق المعاني في النفوس ويجعلها مستقرة وواضحة، بل يحفز على التأسي والتطبيق، وذلك ظاهر في أنه ﷺ: "كان يزور قباء راكبًا ما شيًا، فيصلي ركعتين، متبركًا بهذا المكان، ومبينًا لفضله، لأن من عِظم مكانة هذا المسجد الشريف أن النبي ﷺ كان يتعهده بالمجيء دائمًا، ولا يمرُّ أسبوع إلا ويأتيه فيه"(١).

ويقول ﷺ: «صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِ قُبَاءٍ كَعُمْرَةٍ»(٢).

عاشرًا- تنوع الأساليب التربوية:

في أحاديث الباب عدة أساليب تربوية يجدر الإشارة إليها، منها:

أ-توجيه الأسئلة: وذلك واضح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أن رجلاً زار أخًا له في قرية أخرى فأرصد الله تعالى على مدرجته ملكًا..." الحديث. فقد وجه الملك عدة أسئلة إلى هذا الرجل ثم أخبره بعد ذلك بحب الله له.

ويمكن للمعلم أن يستخدم توجيه الأسئلة في تقديم مدى إدراك المتعلمين للمعلومات المتعلقة بالدرس وفي معالجة بعض أفكارهم.

ب-أسلوب الإلقاء: كحديث "المرء مع من أحب" وأسلوب الإلقاء يعتمد على العرض الشفهي للمعلومات على المتعلمين، ويجدر بالمعلم أن يستخدمه مع المراحل العليا من المتعلمين كالمرحلة الثانوية، ويمكن الإلقاء من عرض أكبر قدر من المعلومات في أقصر وقت ممكن على أكبر عدد من الطلاب.

ج-أسلوب الحوار والمناقشة كحديث أنس بن مالك رضي الله عنه في زيارة أبي بكر وعمر بن الخطاب لأم أيمن رضي الله عنها، وهذا الأسلوب ينمي معلومات المتعلمين، ويحثهم على البحث والاطلاع ويعودهم التعبير عن آرائهم ويكسبهم مهارة المناقشة، كما أن استخدام الأسئلة والأجوبة في العملية التعليمية يشدّ انتباه المتعلمين نحو الدروس

---

(١) فضائل المدينة المنورة، د. خليل ملاّ خاطر العزامي، ٢/٣٧٤.

(٢) أخرجه ابن ماجة ١٤١٢، وصححه الألباني (في صحيح سنن ابن ماجة ١١٦٠).

ويشعرهم بأثر مساهمتهم في سيره كما تدفع عنهم الملل، فضلاً عن تميز هذا الأسلوب ببقاء أثر التعليم.

د-التربية بالوصية: كما في حديث النبي ﷺ: "لا تصاحب إلا مؤمنًا ولا يأكل طعامك إلا تقى" والتربية بالوصية من الأساليب التربوية شائعة الاستخدام في ميادين الحياة المختلفة، فهي تستخدم في البيت من قبل الأب مع أبنائه، وفي الشارع وفي المسجد وفي كل مكان في المجتمع المسلم.

حادي عشر- التربية على حبّ التزاور في الله:

وهذا واضح من الأحاديث الأولى في الباب، والتي تبين فضل التزاور في الله تعالى، كما أن هذا التزاور يحقق العديد من الفوائد التي تعود على الفرد والمجتمع، ومنها:

أ-تقوية العلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع المسلم.

ب-تحقيق الأمن الاجتماعي في المجتمع المسلم.

ج-تأليف القلوب بين المسلمين والعمل على جمعهم وحثهم على التعاون بين المسلمين.

د-تربية المودة بين المسلمين.

هـ-فضلاً عن نيل محبة الله تعالى.

٤٦- باب فضل الحب في الله والحث عليه

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[الفتح: ٢٩] إِلَى آخر السورة، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾[الحشر: ٩].

الحديث رقم (٣٧٥)

٣٧٥- وعن أنسٍ رضي الله عنه، عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: **((ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلاوَةَ الإيمانِ: أنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سَوَاهُمَا، وَأنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إلاَّ للهِ، وَأنْ يَكْرَهَ أنْ يَعُودَ في الكُفْرِ بَعْدَ أنْ أنْقَذَهُ الله مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أنْ يُقْذَفَ في النَّارِ))** مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[1].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

الشرح الأدبي

تتعدد أساليب التشويق في الحديث النبوي لأن لها كبير الأثر في سيطرة الأسلوب على حواس المخاطبين، و صرفهم إليه حتى يقرر المعنى الذي يريد، ويدل على عظمة الخبر بعده، وبداية الحديث بالنكرة الموصوفة (ثلاث) لون من ألوان التشويق؛ لأن فيها إبهاماً يستشرف المستمع إلى إيضاحه مما يضمن متابعته للمتكلم حتى يعلم ما يسفر عنه لفظ ثلاث، وجملة الصفة (من كن فيه...) لم تزل إبهام النكرة بل صعَّدت التشويق، والجار والمجرور(فيه) يدل على تمكن هذه الصفات في نفسه، وقد زاد المخاطب ترقباً بقوله (وَجَدَ بِهِنَّ حَلاوَةَ الإيمانِ) وما أجمل التعبير بالحلاوة عمَّا يجده المؤمن من الأنس بالله، والوجد، وفيوضات القرب، وهو استعارة كأنه شبه الإيمان بالعسل، أو ما تشتهيه النفس، ورمز إليه بالحلاوة بجامع ميل النفس في كل، فَلِلإِيمَانِ لَذَّة فِي الْقَلْب تُشْبِه الْحَلاوَة الْحِسِّيَّة بَلْ رُبَّمَا يَغْلِب عَلَيْهَا حَتَّى يَدْفَع بِهَا أَشَدّ الْمَرَارَات،

---

(١) أخرجه البخاري واللفظ له (١٦)، ومسلم (٤٣/٦٧). أورده المنذري في ترغيبه (٤٤٢٧).

وَهَذَا مِمَّا يَعْلَم بِهِ مَنْ شَرَحَ اللَّه صَدْره، ثم أسلوب القصر الذي يحصر محبة المؤمن لإخوانه في الله، وينفي أن تكون لأغراض أخرى، ثم التشبيه الذي جعل العود في الكفر كالقذف في النار، وجعل كرهه له ككرهه لقذفه في النار فالمشبه هو العود في الكفر، والمشبه به وهو القذف في النار، ووجه الشبه هو وجدان الألم، وكراهة القلب إياه، وإذا تأملنا مفردات الحديث، وجدنا لفظ المحبة تكرر ثلاث مرات، لأنه المعنى الذي يدور حوله صلب الحديث، وكرر ضده (الكره) مرتين تثبيتاً لدعائم هذه المحبة بنفي ضدها، وتكرار لفظ الجلالة (الله) ثلاث مرات يشير إلى أن نبض قلب المؤمن، وإيقاع حياته منضبط وفق ما يرضى الله تعالى في كل حركة، وسكنة.

فقه الحديث

١- فيه: أن حب الله تعالى وحب رسوله ﷺ سبب في الإحساس بحلاوة الإيمان[١].

وذلك لأن من استكمل الإيمان علم أن حق الله تعالى ورسوله ﷺ آكد عليه من حق أبيه وأمه والناس أجمعين، لأن الهدى من الضلال، والخلاص من النار إنما كان بالله على لسان رسوله ﷺ[٢].

هذا: ومحبة الله تعالى على قسمين: فرض، وندب:

- فالفرض: المحبة التي تبعث على امتثال أوامره، والانتهاء عن معاصيه والرضا بما يقدره.

- والندب: أن يواظب على النوافل، ويتجنب الوقوع في الشبهات.

ومحبة الرسول ﷺ على قسمين أيضًا، كما تقدم في محبة الله، ويزاد: ألا يتلقى شيئًا من المأمورات، والمنهيات إلا من مشكاته ولا يسلك إلا طريقته[٣].

٢- وجوب أن يكون حبنا للآخري خالصًا لله تعالى بحيث لا يكون لغرض أو عرض، أو عوض، وذلك حتى يكون الإنسان داخلاً في المتحابين في الله[٤].

---

(١) تفسير ابن كثير ٣٠٢/٢.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٦٣/١٠.

(٣) ملخصاً من فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦١/١.

(٤) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري ٣١٢/٧.

٣- وفيه: أن من أكره على كلمة الكفر فالأفضل ألا يأتي بها للحديث.

وذهب البعض إلى أنه إن كان ممن يرجو النكاية في العدو، أو القيام بأحكام الشرع، فالأفضل له أن يدفع القتل عن نفسه، ويتلفظ بكلمة الكفر، لما في بقائه من صلاح حال المسلمين وإن كان لا يرجو ذلك اختار القتل(١).

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التفصيل بعد الإجمال.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: حلاوة الإيمان ولذته.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الخصال المؤدية إلى حلاوة الإيمان.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: محبة الله تعالى ورسوله ﷺ.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: محبة الإنسان لله تعالى.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: كراهية الكفر.

أولاً- من أساليب الدعوة: التفصيل بعد الإجمال:

لقد فصّل النبي ﷺ بعد الإجمال في هذا الحديث في قوله ﷺ: (ثلاث من كن فيه...)، ثم عدّد النبي ﷺ هذه الأصناف الثلاثةوذلك للفت انتباه المدعوين لأهمية الأمر المدعو إليه وفي ذلك عظيم الفائدة.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: حلاوة الإيمان ولذته:

إن طيب العيش ولذته وحياة القلب وبهجته لا تكون إلا لمن ذاق طعم الإيمان، وحلاوته، وحلاوة الإيمان كما أشار إليها نص الحديث في قوله ﷺ: "ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان..." إلخ الحديث، هي عبارة عما يجده المؤمن المحقّقُ في إيمانه، المطمئن قلبه به، من انشراح صدره، وتنويره بمعرفة الله تعالى ومعرفة رسوله، ومعرفة منّة الله تعالى عليه في أن أنعمَ عليه بالإسلام، ونَظَمه في سلك أمة محمد خير الأنام، وحبّب إليه الإيمان والمؤمنين، وبغّض إليه الكفر والكافرين، وأنجاه من قبيح

---

(١) المهذب للشيرازي ٢/ ٢٢٢.

أفعالهم، وركاكة أحوالهم. وعند مطالعة هذه المنن والوقوف على تفاصيل تلك النِّعم تطيرُ القلوب فرحًا وسرورًا، وتمتلئ إشراقًا ونورًا، فيا لها من حلاوة ما ألذها! وحالة ما أشرفها! فنسأل الله تعالى أن يمنَّ بدوامها وكمالها، كما منَّ بابتدائها وحصولها، فإن المؤمن عند تذكر تلك النعم والمنن لا يخلو عن إدراك تلك الحلاوة، غير أن المؤمنين في تمكنها ودوامها متفاوتون، وما منهم إلا وله منها شرب معلوم، وذلك بحسب ما قسم لهم من هذه المجاهدة الرياضية، والمنح الربانية"(١).

"وفي ذلك تلميح إلى قصة المريض والصحيح لأن المريض الصفراوي يجد طعم العسل مرًا، والصحيح يذوق حلاوته على ما هي عليه، وكلما نقصت الصحة شيئًا ما نقص ذوقه بقدر ذلك...، قال أبو محمد بن أبي جمرة: إنما عبر بالحلاوة لأن الله شبه الإيمان بالشجرة في قوله تعالى: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾(٢)، فالكلمة الطيبة هي كلمة الإخلاص، والشجرة أصل الإيمان، وأغصانها اتباع الأمر واجتناب النهي، وورقها ما يهتم به المؤمن من الخير، وثمرها عمل الطاعات، وحلاوة الثمر جني الثمرة، وغاية كماله تناهي نضج الثمرة وبه تظهر حلاوتها"(٣).

وهذا ما عبر عنه بعض السلف في قوله: (إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب، وقال آخر: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف، فحلاوة الإيمان هي حياة القلوب وغذاء الأرواح، وليس للقلب لذة، ولا نعيم، ولا فلاح ولا حياة إلا بحصولها)(٤).

(فإن تحصّل ذلك في قلب المؤمن وتحقق، تُستلذ الطاعات ويتحمل العبد المشقات في إرضاء رب العباد وإيثار حبه تعالى، وحب نبيه ﷺ على عرض الدنيا وما فيها)(٥).

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٢١٠/١.

(٢) سورة إبراهيم، آية: ٢٤.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧٧/١ - ٧٨.

(٤) انظر: الداء والدواء، ابن القيم، ص ٣٨٨.

(٥) انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٢١.

(فلا يستطيع أي إنسان أن يتذوق العبادة وينهمك فيها ما لم يشعر بلذتها ويذق طعمها وما لم تحتل العبادة محل الدواء والنزاع والقوة، ويصل إلى درجة تصبح العبادة لعينه قرة ولروحة مسرة)[١]، وبذلك يشعر العبد بحلاوة الإيمان تسري في عروقه وتملأ وجدانه، وكأن لسان حاله يقول: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[٢].

"وقد كان لابن تيمية القدح المعلى في هذه الثروة الغالية، فكان له ذوق خاص في العبادة، والمناجاة والخلوة، وكان شديد الشغف بهذه الناحية، عظيم الإنهماك فيها، ما ذلك إلا لتذوقه حلاوة الإيمان ولذته.

جاء في الكواكب الدرية: (وكان في ليله منفردًا عن الناس كلهم، خاليًا بربه عز وجل، ضارعًا إليه، مواظبًا على تلاوة القرآن العظيم، مكررًا لأنواع التعبدات الليلية والنهارية، وكان إذا دخل في الصلاة ترتعد فرائصه وأعضاؤه حتى يميل يمنة ويسرة، وقال عنه العلامة الذهبي: له أوراد وأذكار يدمنها بكيفية وجمعية)[٣].

(وبحلاوة الإيمان ولذته ينطلق القلب من القيود المادية، ويحصل للعارف بها السكينة والسرور، ويذوق بذلك لذة النعيم والجنة في الدنيا، يقول ابن القيم: إن شيخ الإسلام قال مرة: إن في الدنيا جنة، من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة.

وقال : وقلبه ينبض بحلاوة الإيمان ولذته "ما يصنع أعدائي به؟ إن جنتي وبستاني في صدري، إن رحت فهي معي لا تفارقني".

وظلت حلاوة الإيمان وسكينته لا تفارقه في حياته، وبعد مماته، يقول ابن القيم: (زرته ذات ليلة في الرؤيا، وذكرت له بعض الأعمال القلبية، فقال: أما أنا فطريقي الفرح والسرور به)[٤]، وهكذا فلتكن حياة العارفين المجاهدين في حب الله ورسوله.

---

(١) انظر: الحافظ أحمد بن تيمية، أبو الحسن على الحسني الندوي ص ١٥٩.

(٢) سورة الأنعام، الآيتان: ١٦٢ - ١٦٣.

(٣) انظر: الحافظ ابن تيمية، أبو الحسن الندوين ص ١٥٩ - ١٦٠.

(٤) المرجع السابق ١٦٥ - ١٦٦.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: الخصال المؤدية إلى حلاوة الإيمان:

هذا ما أشار إليه نص الحديث في قوله ﷺ: "ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان..." إلخ.

وفي إيضاح هذه الخصال قال ابن هبيرة: (هذه الخصال الثلاث المذكورة في هذا الحديث مرتبة على الترتيب الصحيح المستقيم؛ لأنه بدأ أولاً بحب الله تعالى، وحب رسوله ﷺ وأن يكون الله ورسوله أحب إلى الإنسان مما سواهما، ولفظه يعم ما يعقل وما لا يعقل، فيشمل الآدميين بمن يدخل فيهم من الأهل والولد والحميم وغير ذلك.

ثم نزل من هذه الطبقة إلى الطبقة المماثلة وهو أن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وذلك أنه لما كان الله ورسله أحب إليه مما سواهما، كان من شرط هذا أن لا يحب المؤمن أحدًا يرى أنه بغيض إلى الله وإلى رسوله، بل يكون من شرط حب العبد ربه سبحانه وحبه نبيه ﷺ أن لا يحب المرء إلا لله وهذا النطق في قوله المرء يشمل الذكور من الآدميين.

فإذا أردت أن يُسمى به أنثى قلت: المرأة، فأضفت إليه علامة التأنيث فيكون هذا النطق مشيرًا إلى أن لا يحب الرجل ولدًا ولا صاحبًا ولا صديقًا ولا منعمًا ولا محسنًا إلا لله سبحانه وتعالى، فإن جعلنا هذا النطق كافيًا بجنسه المذكر عن كشف المؤنث فهو كذلك، وإن أخرجنا ذكر التأنيث منه، فإن لطف الله تعالى غير مستبعد فيه أن يكون أنطق رسوله ﷺ بهذا الكلام وهو قوله: ((المرءُ معَ من أحبَّ))[(١)]، المرء مختص بالمذكر رفقًا لعباده لعلمه بما لا ينضبط فيه نفوس الآدميين لهم من حيث الميل إلى النساء كما روي عنه ﷺ من قوله: ((هذَا قَسَمِي فِيمَا أَمْلِكُ فَلاَ تَلُمْنِي فِيمَا تَمْلِكُ وَلا أَمْلِكُ))[(٢)].

فأما حب الرجل الرجل المنعم عليه؛ أو ذا الخلة الحسنة، أو المحسن إليه لله

---

(١) أخرجه البخاري ٥٨١٧، ومسلم ٢٦٤٠.

(٢) أخرجه أبو داود ٢١٣٤، ضعفه الألباني، (ضعيف سنن أبي داود ٤٦٧).

سبحانه، فلأن أصل النعم منه سبحانه، وهو خالق الخلة الحسنة جلّ جلاله، فهذا كاف في مقامه.

ثم أتبع ذلك بما هو من أوصاف الإنسان،وهو أن يود أن يلقى في النار ولا يرد إلى الكفر، فالمعنى فيه ظاهر، وذلك أن المؤمن إذا ألقي في النار، نار هذه الدنيا وهو مؤمن كان كالخائض بها إلى الجنة فلا يباليها، لأنه يعلم أن خوض النار إلى الجنة ربما استطابه خائضه من حيث أنه يتيقن أن كل ما قطع خطوة قرب إلى الجنة مرحلة، ولو قد كان عوده إلى الكفر لكان ذلك مؤديًا إلى نار لا خلاص منها أبدًا.

فهذه آيات المؤمن وعلاماته التي يعرف بها، وهي جامعة لحب الله وحب رسوله ﷺ، وحب المؤمنين وحب الإيمان على الكفر، فهذاالحديث جامع لأوصاف الحب"[1].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: محبة الله تعالى ورسوله ﷺ:

هذا ما أكده نص الحديث في قوله ﷺ: "... من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما"، قال ابن حجر: (قال البيضاوي: المراد بالحب هنا الحب العقلي الذي هو إيثار ما يقتضي العقل السليم رجحانه وإن كان على خلاف هوى النفس، كالمريض يعاف الدواء بطبعه فينفر عنه، ويميل إليه بمقتضى عقله فيهوى تناوله، فإذا تأمل المرء أن الشارع لا يأمر ولا ينهي إلا بما فيه صلاح عاجل أو خلاص آجل، والعقل يقتضي رجحان جانب ذلك، تمرن على الائتمار بأمره بحيث يصير هواه تبعا له، ويلتذ بذلك التذاذًا عقليًا، إذ الالتذاذ العقلي إدراك ما هو كمال وخير من حيث هو كذلك، وعبر الشارع عن هذه الحالة بالحلاوة لأنها أظهر اللذائذ المحسوسة)[2].

"فالمحبة موطأة القلب على ما يرضي الرب سبحانه، فيحب ما أحب، ويكره ما يكره....، وبالجملة أصل المحبة الميل إلى ما يوافق المحب، ثم الميل قد يكون لما يستلذه الإنسان ويستحسنه، كحسن الصورة والصوت والطعام ونحوها ، وقد يستلذه بعقله

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ١٤٩/٥ - ١٥١.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧٨/١.

للمعاني الباطنة، كمحبة الصالحين والعلماء وأهل الفضل مطلقًا، وقد يكون لإحسانه إليه ودفعه المضار والمكاره عنه، وهذه المعاني كلها موجودة في النبي ﷺ، لما جمع من جمال الظاهر والباطن، وكمال خلال الجلال، وأنواع الفضائل، وإحسانه إلى جميع المسلمين بهدايته إياهم إلى الصراط المستقيم، ودوام النعيم، والإبعاد عن الجحيم. وقد أشار بعضهم إلى أن هذا متصور في حق الله تعالى، فإن الخير كله منه سبحانه وتعالى"[(١)].

"ومحبة الله على قسمين فرض وندب، فالفرض المحبة التي تبعث على امتثال أوامره والانتهاء عن معاصيه والرضا بما يقدره، فمن وقع في معصية من فعل محرم أو ترك واجب فلتقصيره في محبة الله حيث قدم هوى نفسه. والتقصير تارة يكون مع الاسترسال في المباحات والاستكثار منها، فيورث الغفلة المقتضية للتوسع في الرجاء فيقدم على المعصية، أو تستمر الغفلة فيقع. وهذا الثاني يسرع إلى الإقلاع مع الندم. وإلى الثاني يشير حديث: ((لاَ يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ))[(٢)]، والندب: أن يواظب على النوافل، ويتجنب الوقوع في الشبهات، والمتصف عموما بذلك نادر. قال: وكذلك محبة الرسول على قسمين كما تقدم، ويزاد أن لا يتلقى شيئا من المأمورات والمنهيات إلا من مشكاته، ولا يسلك إلا طريقته، ويرضى بما شرعه، حتى لا يجد في نفسه حرجا مما قضاه، ويتخلق بأخلاقه في الجود والإيثار والحلم والتواضع وغيرها، فمن جاهد نفسه على ذلك وجد حلاوة الإيمان، وتتفاوت مراتب المؤمنين بحسب ذلك، وقال الشيخ محيي الدين: هذا حديث عظيم، أصل من أصول الدين، ومعنى حلاوة الإيمان استلذاذ الطاعات، وتحمل المشاق في الدين، وإيثار ذلك على أعراض الدنيا، ومحبة العبد لله تحصل بفعل طاعته وترك مخالفته، وكذلك الرسول ﷺ"[(٣)].

وفي تحقيق محبة الله تعالى ورسوله ﷺ يكون عظيم الفلاح في الآخرة، فعن

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٢١.

(٢) أخرجه البخاري ٢٤٧٥، ومسلم ٥٧.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧٨/١.

أنس رضي الله عنه: ((أنَّ رجلاً سألَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم: متى الساعة يارسولَ اللهِ؟ قال: ما أعدَدتَ لها؟ قال: ما أعدَدتُ لها من كثير صلاة ولا صَوم ولا صدَقة، ولكني أُحبُّ اللهَ ورسولَه. قال: أنتَ معَ من أحبَبْتَ))[١].

قال القرطبي: (وقوله: "ما أعددت لها كبير صلاة، ولا صيام، ولا صدقة" يعني بذلك: النوافل من الصلاة، والصدقة، والصوم؛ لأن الفرائض لا بد له ولغيره من فعلها، فيكون معناه: أنه لم يأت منها بالكثير الذي يُعتمد عليه، ويُرتجى دخول الجنة بسببه، هذا ظاهره، ويحتمل أن يكون أراد أن الذي فعله من تلك الأمور -وإن كان كثيرًا- فإنه محتقر بالنسبة إلى ما عنده من محبة الله تعالى ورسوله، فكأنه ظهر له: أن محبة الله ورسله أفضل الأعمال، وأعظم القرب، فجعلها عُمدته، واتخذها عُدته، والله تعالى أعلم)[٢].

خامسًا- من موضوعات الدعوة: محبة الإنسان لله تعالى:

هذا ما أكد عليه نص الحديث في قوله صلى الله عليه وسلم: (وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله)، قال يحيى بن معاذ: "حقيقة الحب في الله أن لا يزيد بالبر ولا ينقص بالجفاء"[٣].

قال القرطبي : "ويعني بالمرء هنا: المسلم المؤمن؛ لأنه هو الذي يمكن أن يُخلِصَ لله تعالى في محبته، وأن يتقرب لله تعالى باحترامه وحرمته، فإنه هو الموصوف بالأخوة الإيمانية، والمحبة الدينية، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[٤]، وكما قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾[٥].

وقد أفاد هذا الحديث: "أن محبة المؤمن الموصلة لحلاوة الإيمان لا بد أن تكون

---

(١) أخرجه البخاري ٦١٧١، ومسلم ٢٦٣٩.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٦/٦٤٦ - ٦٤٧.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١/٧٩.

(٤) سورة الحجرات، آية: ١٠.

(٥) سورة آل عمران آية: ١٠٣.

خالصة لله تعالى، غير مشوبة بالأغراض الدنيوية، ولا الحظوظ البشرية؛ فإن من أحبه لذلك انقطعت محبته إن حصل له ذلك الغرض أو يئس من حصوله.

ومحبة المؤمن وظيفة متعينة على الدوام وجدت الأعراض أو عُدمت. ولما كانت المحبة للأعراض هي الغالبة قلّ وجدان تلك الحلاوة، بل قد انعدم -لا سيما في هذه الأزمان التي قد أمحى فيها أكثر رسوم الإيمان- وعلى الجملة فمحبة المؤمنين من العبادات التي لا بد فيها من الإخلاص في حسن النيات"[١].

وقد بيّن النبي ﷺ عظم فضل محبة المرء لله تعالى؛ بأن في ذلك حب الله تعالى،وهو غاية كل مؤمن يرجو الله واليوم الآخر، فقال ﷺ: ((إنَّ رَجُلاً زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى. فَأَرْصَدَ اللّهُ لَهُ، عَلَىٰ مَدْرَجَتِهِ، مَلَكًا. فَلَمَّا أَتَىٰ عَلَيْهِ قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هذِهِ الْقَرْيَةِ. قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا؟ قَالَ: لاَ. غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ. قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكَ، بِأَنَّ اللّهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ))[٢].

سادسًا- من موضوعات الدعوة: كراهية الكفر:

هذا ما أكده نص الحديث في قوله ﷺ: "وأن يكره أن يعود في الكفر مما يكره أن يقذف في النار"، قال القرطبي: (يقذف: يرمى. والقذف: الرمي. وهذه الكراهة موحية لما انكشف للمؤمن من محاسن الإسلام، ولما دخل قلبه من نور الإيمان، ولما خلّصه الله من رذائل الجهالات، وقُبح الكفران)[٣].

قال ابن عثيمين رحمه الله: (وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار، يعني يكره أن يرجع في الكفر بعد أن أنقذه الله منه. وهذه ظاهرة فيمن كان كافرًا ثم أسلم، لكن من ولد في الإسلام فيكره أن يكون

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٢١٤/١ - ٢١٥.

(٢) أخرجه مسلم ٢٥٦٧.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٢١٥/١.

في الكفر بعد أن منَّ الله عليه الإسلام كما يكره أن يقذف في النار، يعني أنه لو قذف في النار لكان أهون من أن يعود كافرًا بعد إسلامه، وهذا والحمد لله حال كثير من المؤمنين لو قيل له: تكفر أو نلقيك من على شاهق في البلد أو نحرقك لقال: احرقوني، ألقوني من أعلى شاهق ولا أرتد بعد إسلامي)(١).

ولله تعالى وحده في ذلك الحمد والمنة قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾(٢)، وقد توعد الحق تبارك وتعالى الكفار بأشد الوعيد فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١٦٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ١٦٨ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾(٣).

قال ابن كثير: (أخبر تعالى عن حُكمه في الكافرين بآياته وكتابه ورسوله، الظالمين لأنفسهم بذلك، وبالصد عن سبيله وارتكاب مآثمه وانتهاك محارمه، بأنه لا يغفر لهم "ولا ليهديهم طريقًا" أي: سبيلاً إلى الخير "إلا طريق جهنم" وهذا استثناء منقطع (خالدين فيها أبدًا وكان ذلك على الله يسيرًا")(٤). وفي ذلك بيان على أهمية كراهية الكفر والبعد عنه.

---

(١) شرح رياض الصالحين ٧٣٤/١.

(٢) سورة الحجرات، آية: ٧.

(٣) سورة النساء، الآيتان: ١٦٧ - ١٦٩.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٤٧٦/٢.

الحديث رقم (٣٧٦)

٣٧٦- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه، عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: ((سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ في ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إلاَّ ظِلُّهُ: إمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأ في عِبَادَةِ الله عز وجل، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بالمَسَاجِدِ، وَرَجُلاَنِ تَحَابّا في اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيهِ وتَفَرَّقَا عَلَيهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأةٌ ذَاتُ حُسْنٍ[1] وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إنِّي أخَافُ الله، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ، فَأخْفَاهَا حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِياً فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ)) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[2].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

في الحديث براعة استهلال تحقق سيطرة المتكلم على سمع، وبصر المخاطب منشؤها البداية بنكرة موصوفة تشير إلى معنى الاجتماع تحت ظل الله، وأعظم به من ظل !؛ لأن هؤلاء السبعة اجتمعوا تحت مظلة الطاعة لله، وربط بينهم الإخلاص له، وجملة (يُظِلُّهُمُ اللهُ في ظِلِّهِ) تصعِّد التشويق، ووقوع الفعل على ضمير الجمع شمول لهم بهذه النعمة، وكون الله هو الفاعل يؤكد التحقق، وتقييد الفعل بالجار والمجرور تخصيص للظل يقرر عظمته، وإضافة الظل للضمير العائد على الله تشريف، وتعظيم، وقد صعَّد شوق المخاطب حتى صار لهفة بجملة القصر التي تقرر أنه الظل الأوحد في يوم تدنوا فيه الشمس من الرؤوس (يَوْمَ لاَ ظِلَّ إلاَّ ظِلُّهُ)، ثم بدأ بتفصيل هؤلاء السبعة بعد أن بلغ المخاطبون ذروة الاستشراف إلى معرفتهم، وقد ذكر كل واحد منهم بقيد خاص، فذكر الإمام بقيد العدل، وذكر الشاب بقيد النشوء في عبادة الله، وذكر الرجل بقيد تعلق قلبه بالمساجد، وهو كناية عن حبه للصلاة والمحافظة عليها، وكثرة

---

(١) عندهما: (ذات منصب).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٢٣) واللفظ له، ومسلم (٩١/١٠٣١). أورده المنذري في ترغيبه (٤٨٦). وسيكرره المؤلف برقم (٦٥٩).

النوافل، ولذلك جمع المساجد، وذكر الرجلان بقيد التحابب في الله، وقوله (اجْتَمَعَا عَلَيهِ وتَفَرَّقَا عَلَيهِ) تضاد يوضح المعنى، ويقرره، وهو كناية عن الإخلاص في التعامل بينهما، وملازمة هذه المحبة لهما، ودوامها، وذكر الخامس بقيد الصبر على المحرمات مهما قويت الدواعي لذلك وصف الداعية بأنها (ذات حسن، وجمال) وذكر السادس بقيد الإخلاص في الصدقة (، فَأَخْفَاهَا حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ) كناية عن شدة الإخلاص، والطباق بين شماله، ويمينه، يؤكد شدة الإخلاص في الإنفاق حتى عن أقرب المقربين، وذكر السابع بقيد شدة الخشية لله، ونلاحظ في أعمال السبعة أنها يربطها جميعاً خيط واحد، وهو الإخلاص، ولها ارتباط بالقلب بشكل من الأشكال.

فقه الحديث

هذا الحديث يشير إلى الأحكام الفقهية التالية:

١-حكم اشتراط عدالة الولاة: اختلف الفقهاء في اشتراط العدالة فيمن يتولى الإمام الكبرى أو ما شابهها من الولايات العامة، كالوزارة، والإمارة، وقيادة الجيوش.

فذهب المالكية و الشافعية والحنابلة وبعض الحنفية إلى اشتراطها؛ لأن الفاسق متهم في دينه.

وذهب الحنفية إلى أنها ليست شرطًا للصحة وأن تقليد الفاسق الإمام الكبرى جائز مع الكراهة، ونقلت في هذا رواية عن أحمد وبعض الشافعية[١].

٢-فضل من يسلم من الذنوب، وشغل بطاعة ربه طول عمره: فإن الشباب شعبة من الجنون، وهو داع للنفس إلى استيفاء الغرض من شهوات الدنيا ولذاتها المحظورة، فمن سلم منه فقد سلم[٢].

---

(١) الأحكام السلطانية لأبي يعلى ص ٦، ٢٠، ورد المحتار على الدر المختار المسمى بـ "حاشية ابن عابدين"، محمد أمين بن عمر عابدين، تحقيق: علي محمد معوض ٣٦٨/١، ٢٩٩/٤، وجواهر الإكليل، صالح عبدالسميع الأزهري ٢٢١/٢، ٢٢٧، ومغني المحتاج، شمس الدين الخطيب ٧٥/٣، ١٣٠/٤، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة .

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٠/٥.

وعن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: ((إن الله عز وجل ليعجب من الشاب ليست له صبوة))[١].

٣-فضيلة الرباط في المساجد: لذا يستحب لزومها والجلوس فيها لما في ذلك من إحياء البقعة وانتظار الصلاة، وفعلها في أوقاتها على أكمل الأحوال.

فعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: ((ما توطّن رجلٌ مسلمٌ المساجد للصلاة والذكر إلا تبشبش الله له كما يتبشبش أهل الغائب بغائبهم إذا قدم عليهم))[٢].

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه لابنه: يا بني ليكن المسجد بيتك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((المساجد بيوت المتقين وقد ضمن الله عز وجل لمن كان المساجد بيوته الرَّوْح والرحمة والجواز على الصراط))[٣].

٤-ينبغي للعبد إذا رأى محلاً فيه فتنة وأسباب معصية، أن يفر منه ويهرب غاية ما يمكنه، ليتمكن من التخلص من المعصية.

يقول تعالى مخبرًا عمن يخاف مقام ربه فيما بينه وبينه إذا كان غائبًا عن الناس، فينكف عن المعاصي ويقوم بالطاعات، حيث لا يراه أحد إلا الله، بأنه له مغفرة وأجر كبير ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾[٤]، أي: يكفر عنه ذنوبه، ويجازى بالثواب الجزيل، ويقول: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾[٥].

---

(١) أخرجه أحمد ٤/١٥١، والطبراني في الكبير ١٤٢٦٩، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع ١٦٥٨. لكن محققي المسند قالوا: حسن لغيره ٢٨/٦٠٠ رقم ١٧٣٧١.

(٢) أخرجه ابن ماجه ٨٠٠، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٣٢٧.

(٣) قال المنذري: رواه الطبراني في الكبير والأوسط والبزار، والترغيب والترهيب ٥٠٤، لكنه حسنه لغيره في صحيح الترغيب والترهيب ٣٣٠.

(٤) سورة الملك، آية: ١٢.

(٥) سورة النازعات، الآيتان: ٤٠، ٤١.

٥-حكم إخفاء الصدقة: ذهب أكثر الفقهاء إلى أن كتمان صدقة التطوع أفضل، وإخفاءها خير من إظهارها، لأنه أقربُ إلى الإخلاص، وأبعدُ من الرياء، وإن كانت تصح ويثاب عليها في العلن، فكلٌ مقبول إذا كانت النية صادقة[1]، قال الله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[2].

وأما الزكاة الواجبة فإعلانها أفضل، كحكم الصلاة فإعلان فرائضها أفضل، وإسرار نوافها أفضل[3].

٦-فضيلة البكاء من خشية الله تعالى، وأثره في غفران الذنوب: يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[4].

يقول القرطبي في تفسير هذه الآية: (وصف الله تعالى المؤمنين في هذه الآية بالخوف والوجل عند ذكره، وذلك لقوة إيمانهم ومراعتهم لربهم، وكأنهم بين يديه. وهذا يرجع إلى كمال المعرفة وثقة القلب.

وقد جمع الله بين المعنيين في قوله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾[5]، أي: تسكن نفوسهم من حيث اليقين إلى الله وإن كانوا يخافون الله.

---

(١) المهذب ١٨٣/١، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٢٦٦/٢.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٧١.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٥/٧.

(٤) سورة الأنفال، آية: ٢.

(٥) سورة الزمر، آية: ٢٣.

فهذه حالة العارفين بالله، الخائفين من سطوته وعقوبته، لا كما يفعله جهال العوام والمبتدعة الطغام من الزعيق والزئير ومن النهاق الذي يشبه نهاق الحمير.

فيقال لمن تعاطى ذلك وزعم أن ذلك وجد وخشوع: لم تبلغ أن تساوي حال الرسول ﷺ ولا حال أصحابه رضي الله عنهم في المعرفة بالله، والخوف منه، والتعظيم لجلاله، ومع ذلك فكانت حالهم عند المواعظ الفهم عن الله والبكاء خوفًا من الله.

ولذلك قال العرباض بن سارية رضي الله عنه: (وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون)[١].

ولم يقل: زعقنا ولا رقصنا ولا زَفَنَّا ولا قمنا[٢].

المضامين الدعوية[٣]

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار مع براعة الاستهلال.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: ظل عرش الله تعالى يوم القيامة.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل الإمام العادل.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل الشاب التقي النقيّ.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: فضل مَنْ تعلق قلبه بالمساجد.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: فضل المتحابين في الله تعالى.

سابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل المتعفف عن الحرام.

ثامنًا: من موضوعات الدعوة: فضل المتصدق في السر.

تاسعًا: من موضوعات الدعوة: فضل البكاء من خشية الله.

---

(١) أخرجه أبو داود ٤٦٠٧، والترمذي ٢٦٧٦، وابن ماجه ٤٣، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢١٥٧).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٣٦٦/٧، وزَفَن زَفْنًا أي رقص، الوجيز في (ز ف ن).

(٣) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -٣٧٦- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (٣٧٧).

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار مع براعة الاستهلال:

أخبر النبي ﷺ هذا الخبر "سبعة يظلهم الله في ظله" وهذا الإخبار وسيلة دعوية تصل بالمدعو إلى معرفة المراد وتهيئ نفسه لفهمه وبخاصة إذا ألقي بهذه الطريقة النبوية التي ساقت الخبر مع براعة الاستهلال وحسن البشارة.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: ظل عرش الله تعالى يوم القيامة:

هذا ما أشار إليه نص الحديث في قوله ﷺ "سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله".

قال القاضي عياض: (إضافة الظل هنا إلى الله إضافة ملك، وكل ظل فهو لله ومن خلقه وملكه وسلطانه، وهو ظل العرش على ما في "الحديث الآخر"[(١)]، والمراد بذلك يوم القيامة، إذا قام الناس لرب العالمين، ودنت منهم الشمس ويشتد عليهم الحر ويأخذهم العرق، ولا ظلَّ هناك لشيء إلا ظلُّ العرش كما جاء في بعض الروايات: ((في ظل عرشي))[(٢)]. وقديراد به هنا ظل الجنة أو ظل طوبى، وهو نعيمها، والكونُ في دارها، كما قال تعالى: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً﴾[(٣)]، وذهب ابن دينار إلى أن معنى الظل هنا: الكرامة والكنف والكن من المكاره في ذلك الموقف، قال: ولم يرد الظل من الشمس، وما قال معلوم في اللسان، يقال: فلان في ظل فلان، أي في كنفه وحمايته، وهو أولى الأقوال، ويكون إضافته إلى العرش لأنه مكان التقريب والكرامة، وإلا فالشمس وسائر العالم تحت العرش وفي ظله)[(٤)].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل الإمام العادل:

لقد أكد نص الحديث على عظم فضل الإمام العادل؛ وذلك في الابتداء بذكره بعد قوله ﷺ "سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله".

---

(١) يقصد حديث أبي قتادة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من نفس عن غريمه أو محا عنه كان في ظل العرش يوم القيامة" أخرجه أحمد ٣٠٠/٥ رقم ٢٢٥٥٩، وقال محققو المسند: إسناده صحيح ٢٥١/٣٧.

(٢) أخرجه أحمد ١٢٨/٤ رقم ٧١٥٨، وقال محققو المسند: حديث صحيح لغيره ٣٩٠/٢٨.

(٣) سورة النساء، آية: ٥٧.

(٤) إكمال المعلم ٥٦٢/٣، وانظر: المفهم، القرطبي، ٧٥/٣، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٦٥٣.

(والإمام العادل: هو كل من وُلّي شيئًا من أمور المسلمين من الولاة والحكام، فعدل فيه، وبدأ به النبي ﷺ لكثرة مصالحه وعموم نفعه)[١].

قال ابن هبيرة: (في هذا الحديث من الفقه أن هذه الأوصاف السبعة لا يقدر أن يجمعها إلا إمام عادل؛ فإنه إذا كان قد نشأ في طاعة الله، وتعلق قلبه بالمساجد، وأحب رجلاً في الله، وأحبه ذلك الرجل في الله، جمع فيه الأوصاف كان له هذا الأجر.

والفقه في هذا الحديث أن رسول الله ﷺ عين ظل عرش الله عز وجل يوم لا ظل إلا ظله لكل صنف من الناس، كانت في ذلك الصنف واحدة من هذه الصفات؛ فبدأ بالإمام؛ لأنه الأحق أن يبدأ به.

وأما قوله: "عادل"؛ فإن الإمامة لها شرائط، يجمع بين أشراطها تسميته إمامًا. ولم يقل رسول الله ﷺ: زاهد، ولا ورع، ولا خائف، ولا غير ذلك؛ لأن ذلك كله دخل في اشتراط الإمامة، ثم ذكر المهم بعد عقد الإمامة وهو اشتراط العدل، ومعنى العدل مأخوذ عنده الاعتدال، وهو القوي في أمر الله، لكن إلى الحد الذي لا ينتهي إليه العنف، الرفيق بخلق الله؛ لكن لا إلى الحد الذي ينزل إلى الضعف؛ فيكون من الاعتدال عند ألا يجبن عن استيفاء حد، وقتل باغ، وقطع سارق وغير ذلك مما ينبغي أن يكون حسمًا لدواعي الفساد.

كما ينبغي أن يكون رفيقًا بالأرملة، حدبًا على اليتيم، موقرًا للعلماء، مُدْنيًا للفقهاء، وقافًا عند كتاب الله عز وجل، مجالسًا للقراء؛ فيكون معتدلاً في طرقه، داخلاً في فضل الله من كِلا بابيه.

وإذا كان مقيمًا للصلاة، آمرًا بالشرع، صائنًا لدماء المسلمين وفروجهم، مناضلاً من وراء بيضتهم، كافًا لبوائض الشعث، باذلاً في ذلك وسعه بمقتضى وقته، ناويًا إبلاغ الحق مبالغَهُ عند تمكنه، فذلك واجب وقته، ومن عدله أن يجدَّ في أخذ الصدقات وصرفها إلى وجوهها، وكذلك في أخذ الجزية والخراج وسائر وجوه الفيء،

(١) إكمال المعلم، القاضي عياض، ٥٦٢/٣، والمفهم، القرطبي، ٧٥/٣، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٦٥٣.

وصرف كل شيء منه في منصرفه الذي عينه الشرع له، وألا يترك من ذلك شيئًا لأحد بغير موجب شرعي)[١].

فإن قام الإمام بذلك فقد وفَّى وكفَّى واستحق عظيم الأجر من الله تعالى في أن يظله يوم لا ظل إلا ظله، فضلاً عن الفوز بالجنة لقوله ﷺ: ((أهل الجنة ثلاثة. وذكر ﷺ منهم: ذو سلطان مقسط))[٢].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل الشاب التقيّ النقيّ:

لقد شمل ظل الله تعالى يوم لا ظل إلا ظله "الشاب الطائع له"، وذلك في الحديث من قوله "وشاب نشأ في عبادة الله عز وجل".

(وقوله ﷺ "نشأ" أي: نبت، وابتدأ، وقد خُص الشاب لكونه مَظِنَّة غلبة الشهوة لما فيه من قوة الباعث على متابعة الهوى، فإن ملازمة العبادة مع ذلك أشد وأدل على غلبة التقوى، فترتفع عنه "الصبوة"[٣]، فينعم بظل الله عز وجل يوم القيامة، فضلاً عن قوله ﷺ ((إن الله ليعجب من الشاب ليست له صبوة))[٤])[٥].

وليعلم الشاب أن الله عز وجل يجزي العبد عن عمله بما هو من جنس عمله، فمن ترك لله شيئًا عوضه الله خيرًا منه؛ فإذا ترك شهوته لله وغض بصره عن محارم الله واتقى الله جهده، عوضه الله تعالى في الدنيا بنور بصيرته، وصدق فراسته، وأذاقهُ حلاوة إيمانه، وفتح عليه من العلم والإيمان ما لا ينال إلا ببصيرة القلب، وفي الآخرة ظله تعالى وجنته وعفوه، فنعم الجزاء من رب العباد[٦].

وليعلم الشاب أنه لا فلاح له إلا بحبسين، بينهما ابن القيم في قوله: (طالب الله والدار الآخرة لا يستقيم له سيرُه وطلبُه إلا بحبسين: حبس قلبه في طلبه ومطلوبه،

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٦/٢٣٤-٢٣٥.

(٢) أخرجه مسلم ٢٨٦٥.

(٣) والصبوة: أي ميل إلى الهوى. النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ص ب ا).

(٤) أخرجه أحمد ٤/١٥١ رقم ١٧٣٧٠، وقال محققو المسند: حسن لغيره ٢٨/٦٠٠.

(٥) المفهم، القرطبي، ٧٥/٣، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٧٠/٢.

(٦) انظر: الداء والدواء، ابن القيم، ٣٠٧.

وحبسه عن الالتفات إلى غيره. وحبس لسانه عما لا يفيد، وحبسه على ذكر الله وما يزيد في إيمانه ومعرفته. وحبس جوارحه عن المعاصي والشهوات، وحبسها على الواجبات والمندوبات.

فلا يفارق الحبس حتى يلقى ربه، فيخلصه من السجن إلى أوسع فضاء وأطيبه. ومتى لم يصبر على هذين الحبسين، وفرَّ منهما إلى فضاء الشهوات، أعقبه ذلك الحبس الفظيع عند خروجه من الدنيا؛ فكل خارج من الدنيا، إما متخلص من الحبس، وإما ذاهب إلى الحبس... وبالله التوفيق.

وَدَّعَ ابنُ عونٍ رجلاً فقال: عليك بتقوى الله؛ فإن المتقي ليست عليه وحشة.

وقال زيد بن أسلم: كان يقال: من اتقّى الله أحبَّه الناس وإنْ كَرِهوا.

وقال الثوري لابن أبي ذئب: إن اتقيت الله كفاك الناس، وإن اتقيت الناس لن يُغنوا عنك من الله شيئًا.

وقال سليمان بن داود: أُوتينا مما أُوتي الناس ومما لم يُؤتَوا، وعلمنا مما علم الناس ومما لم يعلموا، فلم نجد شيئًا أفضل من تقوى الله في السر والعلانية، والعدل في الغضب والرضا، والقصد في الفقر والغنى)[1].

فعلى الشاب أن يضع ذلك نصب عينيه ويجعل شعاره ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾[2].

خامسًا- من موضوعات الدعوة: فضل من تعلق قلبه بالمساجد:

قد عظّم النبي ﷺ في الحديث فضل من أحب المساجد وتعلق بها ولازمها؛ بأن الله تعالى يظله يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله، قال القرطبي: (وقوله ﷺ "ورجل قلبه معلق بالمساجد" أي: يحبُّ الكون فيها للصلاة، والذكر، وقراءة القرآن، وهذا إنما يكون ممن استغرقه حبُّ الصلاة، والمحافظة عليها، وشُغِف بها)[3].

---

(١) الفوائد، ابن القيم ٨٣-٨٤.

(٢) سورة الحجر، آية: ٤٩.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٧٦/٣.

(فإذا خرج من المسجد ظل في شوق إلى العبادة والطاعة حتى يعود إليه؛ وذلك لأنه لما آثر طاعة الله وغلب عليه حبه صار قلبه مشدودًا إلى المسجد، لا يحب البراح عنه فيه روح القربى وحلاوة الطاعة)[1]. قال ابن حجر: (قوله "معلق في المساجد" ظاهره أنه من التعليق كأنه يشبهه بالشيء المعلق في المسجد كالقنديل مثلاً إشارة إلى طول الملازمة بقلبه وإن كان جسده خارجًا عنه)[2].

(وهذه من الوسائل الفعَّالة التي اختارها الله تعالى لتنقية قلب العبد وتطهير روحه ونفسه من شوائب الدنيا وعلائق المادة، وليكون العبد مندفعًا إلى المسجد مشتاقًا للصلاة فيه ويضع نصب عينيه أن الملائكة تنتظره في رحال هذا المسجد، وأن بيت الله يشع نورًا وضياءً، ويعبق الجو بالعطر والمسك، وينعش النفس ويربط قلبه بالله تعالى، عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((إن الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه الذي صلى فيه ما لم يحدث. اللهم اغفر له، اللهم ارحمه))[3]...، وفي الحديث وقفة تربوية نبوية كريمة؛ إذ أراد صلى الله عليه وسلم أن يوجه المؤمن إلى تقوية الصلة بالله، ثم ذكر وسيلة فعالة لتطبيق هذه الفكرة، وهي أن يكون قويَّ الصلة بالمسجد، شديد العناية بأداء الصلوات الخمس مع الجماعة في المسجد، ليكون مرتبطًا بالجماعة يتفقد أحوالهم، ويتعاطف معهم في أمورهم، ويكون كل فرد منهم لبنة مباركة في بناء البيئة الإسلامية، وفي الحديث إشارة إلى فضل المسجد وفضل الملازمة له واستمرار المؤمن فيه بالقلب وإن عرض للجسد عارض ولذلك أشاد القرآن بمكانة المسجد في الإسلام فقال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ۝٣٦ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ۝٣٧ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن

---

(١) وقفات تربوية في الأحاديث النبوية، د. محمد لقمان الندوي، ٣٤٣-٣٤٤.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢/١٧٠.

(٣) أخرجه البخاري ١٧٦، ومسلم ٦٤٩.

فَضْلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[١].

تلك البيوت "أذن الله أن ترفع"، وإذن الله هو أمر للنفاذ، فهي مرفوعة قائمة، يعبد فيها الله تعالى "ويذكر فيها اسمه" وتتعلق بها القلوب المؤمنة الوضيئة الطاهرة المسبحة الواجفة، قلوب الرجال الذين "لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة"، والتجارة والبيع لتحصيل الكسب والثراء، ولكنهم مع شغلهم بهما لا يغفلون عن أداء حق الله في الصلاة وأداء حق العباد في الزكاة "يخافون يومًا تتقلب فيه القلوب والأبصار" من شدة الهول والكرب والاضطراب. إنهم يخافون ذلك اليوم فلا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، وهم مع هذا الخوف يعلقون رجاءهم بثواب الله "ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله". وهذا الصنف هو الذي يدخل في "ورجل قلبه معلق في المساجد")[٢].

سادسًا- من موضوعات الدعوة: فضل المتحابين في الله تعالى:

(إن المحبة في الله ولله خير وسيلة لمحاربة المادية والأنانية والنفعية ولنشر السعادة والهناء ولإقامة روابط أخوية وللتآلف والتواد ليكون المجتمع الإسلامي مجتمعًا مثاليًا يحتذى ويتطلع إليه البشر كلما ادلهمت الأمور واشتدت الأزمات وقد سلك الإسلام لذلك وسائل عديدة)[٣]، من أبرزها وأعظمها ما أوجبه النبي ﷺ للمتحابين في الله من ظله تعالى لهم يوم لا ظل إلا ظله، وذلك في قوله ﷺ "ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه" وقوله ﷺ "إن الله تعالى يقول يوم القيامة أين المتحابون بجلالي اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي".

قال القرطبي: (وقوله "ورجلان تحابًا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه" أي: داما على المحبة الصادقة الدينية، المبرَّأة عن الأغراض الدنيوية، ولم يقطعاها بعارضٍ في

---

(١) سورة النور، الآيات: ٣٦-٣٨.

(٢) وقفات تربوية في الأحاديث النبوية، د. محمد لقمان الندوي، ٣٤٤-٣٤٥.

(٣) المرجع السابق ٣٤٥.

حال اجتماعهما، ولا حال افتراقهما)[(١)].

وهذا ما أكده النووي في قوله: (ومعناه اجتمعا على حب الله وافترقا على حب الله أي كان سبب اجتماعهما حب الله واستمرا على ذلك حتى تفرقا من مجلسهما وهما صادقان في حب كل واحد منهما صاحبه لله تعالى حال اجتماعهما وافتراقهما وفي هذا الحديث الحث على التحاب في الله وبيان عظم فضله وهو من المهمات فإن الحب في الله والبغض في الله من الإيمان وهو بحمد الله كثير يوفق له أكثر الناس أو من وفق له)[(٢)].

وقد عظم النبي ﷺ فضل ذلك فقال: ((إن من عباد الله عبادًا ليسوا بأنبياء، يغبطهم الأنبياء والشهداء، قيل: من هم لعلنا نحبهم؟ قال: هم قوم تحابوا بنور الله من غير أرحام ولا انتساب وجوههم نور على منابر من نور...))[(٣)].

قال ابن هبيرة: (وأما الرجلان المتحابان في الله عز وجل؛ فإنهما يعرفان بأن ينظر إلى الجامع بينهما، وأنه ليس عن قرابة ترعى، ولا عن رحم تُبَل، ولا عن تجارة تضم، ولا عن سفر يجمع، ولا عن دنيا ترب، ولا عن خدمة مخدوم تجمع؛ بل حب لله عز وجل، ويعرف هذا من هذا حبه لله، فيتحابا في الله من حيث إنهما إذا اجتمعا تذاكرا ذلك وأفاضا فيه، وتعاوداه وتهاديا أذكاره فاجتمعا على ذلك إذا اجتمعا، وافترقا على ذلك إذا افترقا، فكانا من المتحابين في الله عز وجل، فإن اتفق أن يكونا نسيبين، لكل واحد منهما في حب الله عز وجل معاملة من صلة الرحم منه فذلك أفضل؛ فإن كان أحدهما يحب الآخر في الله عز وجل بحسب ما ظهر له من أمارات حب الله، فلم يكن باطن الآخر على ما كان عليه ظاهره، أثاب الله المخلص ولم يأخذ بجريرة الغال)[(٤)].

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٧٦/٣.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٦٥٣.

(٣) صحيح ابن حبان ٥٧٣، وقال محققو الصحيح: إسناده صحيح.

(٤) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٢٣٦/٦.

سابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل المتعفف عن الحرام:

قد أكد النبي ﷺ في نص الحديث على عظم فضل المتعفف عن الحرام بأن يظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، وذلك في قوله ﷺ "ورجل دعته امرأة ذات حسن وجمال، فقال: إني أخاه الله".

قال القرطبي: (معنى دعته: عرضت نفسها عليه. أي: للفاحشة. وقول المدعو في مثل هذا: إني أخاف الله، وامتناعه لذلك دليل: على عظيم معرفته بالله تعالى، وشدة خوفه من عقابه، ومتين تقواه، وحيائه من الله تعالى. وهذا هو المقام اليُوسُفِيّ)[1].

وقد ورد في رواية لمسلم قول "ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله".

قال القاضي: (يحتمل قوله أخاف الله باللسان ويحتمل قوله في قلبه ليزجر نفسه وخص ذات المنصب والجمال لكثرة الرغبة فيها وعسر حصولها وهي جامعة للمنصب والجمال لاسيما وهي داعية إلى نفسها طالبة لذلك قد أغنت عن مشاق التوصل إلى مراودة ونحوها فالصبر عنها لخوف الله تعالى وقد دعت إلى نفسها مع جمعها المنصب والجمال من أكمل المراتب وأعظم الطاعات؛ فرتب الله تعالى عليه أن يظله في ظله وذات المنصب هي ذات الحسب والنسب الشريف ومعنى دعته أي دعته إلى الزنا بها هذا هو الصواب في معناه وذكر القاضي فيه احتمالين أصحهما هذا. والثاني أنه يحتمل أنها دعته لنكاحها فخاف العجز عن القيام بحقها أو أن الخوف من الله تعالى شغله عن لذات الدنيا وشهواتها)[2].

ومما لاشك فيه (أن النجاة من هذه الفتنة من المسائل العويصة التي شغلت بال الأنبياء والمصلحين والمربين، ونحن نعرف أن نبيَّ الله يوسف عليه الصلاة والسلام وقع في سلسلة من الابتلاءات كان أبرزها فتنته أمام امرأة ذات منصب وجمال ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٧٦/٣.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٦٥٣، وإكمال المعلم ٥٦٣/٣.

هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾(١).

وهنا ننبه إلى أن بيئة الترف والثراء وبيئة الاختلاط والإغراء بيئة خطيرة في حياة المسلم، ومثل هذه البيئة تقع فيها هذه الفتن غالبًا. ويوسف عليه السلام كان فيها مولى، وتربى فيها في سن الفتنة، فهذه هي المحنة الطويلة التي مرَّ بها يوسف، وصمد لها ونجا منها ومن تأثيراتها ومغرياتها ووسائلها الخبيثة ولسنه وسن المرأة التي يعيش معها في قصر منيف، كل هذه المدة، قيمة في تقدير مدى الفتنة وخطورة المحنة "وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك". إذًا فقد كانت المراودة مكشوفة. وهذه الدعوة السافرة الغليظة لا تكون أول دعوة من المرأة إنما تكون هي الدعوة الأخيرة. ولكن جواب الشاب النقي يوسف عليه السلام كان عظيمًا وقويًا عندما قال كما يحكي القرآن العظيم: "قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون". وهذا الجواب وهذا العمل هو الذي يُسبِّب التشريف بظلٍّ عرش الرحمن وبالاسترواح في رحمته. وقد حدث هذا عبر السنين ويمكن أن يحدث في كل وقت إذا وجدت البيئة الصالحة والتربية الشاملة والرعاية المتكاملة للشباب)(٢).

وقد بين ابن حجر: (أن ذكر الرجال في هذا الحديث لا مفهوم له بل يشترك النساء معهم فيما ذكر، إلا إن كان المراد بالإمام العادل الإمامة العظمى، وإلا فيمكن دخول المرأة حيث تكون ذات عيال فتعدل فيهم. وتخرج خصلة ملازمة المسجد لأن صلاة المرأة في بيتها أفضل من المسجد، وما عدا ذلك فالمشاركة حاصلة لهن، حتى الرجل الذي دعته المرأة فإنه يتصور في امرأة دعاها ملك جميل مثلاً فامتنعت خوفًا من الله تعالى مع حاجتها)(٣).

---

(١) سورة يوسف، الآيتان: ٢٣، ٢٤.

(٢) دراسات تربوية في الأحاديث النبوية، د. محمد لقمان الندوي، ٣٤٨.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢/١٧٣.

ثامنًا- من موضوعات الدعوة: فضل المتصدق في السر:

لقد عظّم النبي ﷺ في نص الحديث فضل المتصدق بالسر، بأن جعله في ظل الله تعالى يوم لا ظل إلا ظله، وذلك في قوله "ورجل تصدق بصدقة، فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه".

قال النووي: (في هذاالحديث فضل صدقة السر قال العلماء: وهذه في صدقة التطوع فالسر فيها أفضل لأنه أقرب إلى الإخلاص وأبعد من الرياء وأما الزكاة الواجبة فإعلانها أفضل)[١]، وهذا ما أكده القرطبي في قوله: (إن إخفاء صدقة التطوع، هو حضٌّ على الإخلاص في الأعمال، والتستر بها ويستوي في ذلك جميع أعمال البر التطوعية. فأما الفرائض فالأولى إشاعتها وإظهارها لتنحفظ قواعد الدين، ويجتمع الناس على العمل بها، فلا يضيع منها شيء، ويظهر بإظهارها جمال دين الإسلام، وتعلم حدوده وأحكامه. والإخلاص واجبٌ في جميع القرب، والرياءُ مفسدٌ لها.

وقوله: "حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه" هذا مبالغةٌ في إخفاء الصدقة)[٢].

قال القاضي عياض: (وضرب مثل بهما لقرب اليمين من الشمال، ولتصرف اليدين جميعًا في العمل الواحد، وإن كان العلم لا يضاف لليد. وقيل: المراد: من على يمينه وشماله من الناس، والأول أظهر وأولى. وفيه استعمال اليمين في طاعة الله من الصدقة، وأنه أفضل وأولى، وقد ترجم البخاري على الحديث "الصدقة باليمين"[٣])[٤]. قال القرطبي: (وقد سمعنا من بعض المشايخ أن ذلك أن يتصدق على الضعيف في صورة المشتري منه، فيدفع له درهمًا مثلاً في شيء يساوي نصف درهم. فالصورة مبايعة، والحقيقة صدقة، وهو اعتبارٌ حسن)[٥].

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٦٥٣.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٧٦/٣.

(٣) كتاب الزكاة، باب الصدقة باليمين، رقم ١٦، ص ٢٧٧.

(٤) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٥٦٤/٣.

(٥) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٧٧/٣.

ومما لا شك فيه أن تعظيم النبي ﷺ لفضل المتصدق بالسر، بأن يظله الله تعالى يوم لا ظل إلا ظله (هو خير وسيلة لتشجيع المؤمنين على الإنفاق في سبيل الله ومد يد العون إلى الأمة الإسلامية. وقد ركّز الإسلام على هذه الناحية تركيزًا شاملاً نظرًا لخطورتها وأهميتها في بناء مجتمع إسلامي كريم. قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[1]. لأن تشريع الصدقة لا يبدأ بالفرض والتكليف إنما يبدأ بالحض والتشجيع. إنه يستجيش المشاعر والانفعالات في الكيان الإنساني كله بقوله: "سبعة يظلهم الله في ظله"، حيث تتطلع النفوس إلى هذا الظل الظليل المريح وتبحث عن وسائلها، إلى ذلك فتجد في الإنفاق وفي إخفاء الصدقات وسيلة إلى هذا الظل الظليل. وهذا التعبير في موكب الحياة النامية يتجه بالضمير البشري إلى البذل والعطاء، إنه لا يعطي، بل يأخذ، وإنه لا ينقص، بل يزاد وتمضي موجة العطاء والنماء في طريقها تضاعف المشاعر التي استجاشها.

إنه الإنفاق الذي يرفع المشاعر الإنسانية ولا يشوبها، والإنفاق الذي لا يؤذي كرامة ولا يخدش شعورًا، والإنفاق الذي ينبعث عن الأريحية والنقاء، ويتمثل ذلك في الإخفاء وفي عدم المنّ. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2].

إن الإسلام لم يرد بالإنفاق مجرد تأدية الواجب وتلافي الحاجة، كلا، إنما أراده تهذيبًا وتزكية وتطهيرًا لنفس المعطي واستجاشة لمشاعره الإنسانية، وارتباطه بأخيه الفقير في الله وفي الأخوة، وتذكيرًا له بنعمة الله عليه وعهده معه في هذه النعمة أن يأكل منها في غير سرف ولا مخيلة وأن ينفق منها في سبيل الله في غير منع ولا مَنٍّ

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٦١.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٦٢.

وبكل أساليب الإخفاء كما أراده ترضية لنفس الآخذ وتوثيقًا لصلته بأخيه في الله وسدًا لخلة الجماعة المسلمة كلها لتقوم على أساس من التكافل والتعاون وحث الإسلام على ذلك في أكثر من موضع من القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾(١).

وفي ذلك دلالة على أن إسرار الصدقة أفضل من إظهارها؛ لأنه أبعد عن الرياء، إلا أن يرتب على الإظهار مصلحة راجحة من اقتداء الناس به فيكون أفضل من هذه الحيثية)(٢).

تاسعًا- من موضوعات الدعوة: فضل البكاء من خشية الله:

لقد أكد نص الحديث على الصنف السابع والأخير الذي يتمتع بالعناية الربانية الخاصة ويستظل بظل عرشه في يوم عصيب وفي لحظة حرجة هو "رجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه".

قال ابن حجر: (قوله "ذكر الله" أي بقلبه من التذكر أو بلسانه من الذكر، و"خاليًا" أي من الخلو لأنه يكون حينئذ أبعد من الرياء والمراد خاليًا من الالتفات إلى غير الله ولو كان في ملأ...، وقوله "ففاضت عيناه" أي فاضت الدموع من عينيه، وأسند الفيض إلى العين مبالغة كأنها هي التي فاضت)(٣).

قال القرطبي: (وفيضُ العين: بكاؤها. وهو على حسب حال الذاكر، وبحسب ما ينكشف له من أوصافه تعالى. فإن انكشف له غضبه، فبكاؤه عن خوف، وإن انكشف له جمالُه وجلاله؛ فبكاؤه عن محبة وشوق. وهكذا يتلوَّن الذاكر بتلوُّنِ ما

---

(١) سورة البقرة، الآيتان: ٢٧٠-٢٧١.

(٢) دراسات تربوية في الأحاديث النبوية، د. محمد لقمان الندوي، ٣٤٩-٣٥٠.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢/١٧٢.

يذكر من الأسماء والصفات)[١].

قال النووي: (وفي الحديث فضيلة البكاء من خشية الله تعالى وفضل طاعة السر لكمال الإخلاص فيها)[٢].

ومما لا شك فيه أن البكاء من الخشوع والخوف من أحب اللحظات والصفات عند الله تعالى، وذكره القرآن بألفاظ مليئة بالمعاني والإيحاءات قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾[٣].

وهو مشهد مُوحٍ يلمس الوجدان مشهد الذين أوتوا العلم من قبله وهم يسمعون القرآن فيخشعون، ثم لا يتمالكون أنفسهم، فهم لا يسجدون ولكن يخرون للأذقان سجدًا، ثم تنطق ألسنتهم بما خالج مشاعرهم من إحساس بعظمة الله وصدق وعده "سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا"، ويغلبهم التأثر فلا تكفي الألفاظ في تصوير ما يجيش في صدورهم منه فإذا الدموع تنطلق معبرة عن ذلك التأثر الغامر الذي لا تصوره الألفاظ "ويخرون للأذقان يبكون"، "ويزيدهم خشوعًا" فوق ما استقبلوه به من خشوع وهو الأمر المفضل عند الله تعالى. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم))[٤].

وقد كان ﷺ يعلم أصحابه البكاء من خشية الله والبكاء بعد تلاوة القرآن؛ عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: ((اقرأ عليَّ فقلت: يا رسول

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٧٧/٣.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٦٥٤، وإكمال المعلم، القاضي عياض، ٥٦٤/٣.

(٣) سورة الإسراء، الآيتان: ١٠٧-١٠٩.

(٤) أخرجه الترمذي ١٦٣٣، وصححه الألباني، صحيح سنن الترمذي ١٣٣٣.

الله أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: نعم إني أحب أن أسمعه من غيري. فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية "فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلا شهيدًا" فقال: حسبك الآن. فإذا عيناه تذرفان))(١).

وكأنه ﷺ يدرب أصحابه على البكاء من خشية الله والتأثير بعد تلاوة القرآن حتى يدخل في زمرة "رجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه" وحتى يدخل في ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾(٢). أولئك النبيون ومعهم من هدى الله واجتبى من الصالحين فهم أتقياء شديدو الحساسية بالله، ترتعش وجداناتهم حين تتلى عليهم آياته فلا تسعفهم الكلمات للتعبير عما يخالج مشاعرهم من تأثر فتفيض عيونهم بالدموع ويخرون سجدًا وبكيًا.

وهو ﷺ يربي أصحابه على البكاء بالتطبيق العملي وبالانفعال بتلاوة القرآن مرة وبالحديث مرة أخرى. عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله))(٣). وكأنه ﷺ يحث خيرة أمته أن يكونوا من أولئك الأتقياء الحساسين الذين تفيض عيونهم بالدمع وتخشع قلوبهم لذكر الله. عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((ليس شيء أحب إلى الله من قطرتين وأثرين: قطرة دموع من خشية الله وقطرة دم تهراق في سبيل الله، وأما الأثران فأثر في سبيل الله وأثر في فريضة من فرائض الله))(٤).

هذه التربية النبوية تركت أثرًا جميلاً في نفوس أصحابه فكانوا يتلون القرآن بكل الخشوع والخضوع حتى كانت تفيض أعينهم من الدموع وتقشعر أبدانهم من

(١) أخرجه البخاري ٥٠٥٠، ومسلم ٨٠٠.

(٢) سورة مريم، آية: ٥٨.

(٣) أخرجه الترمذي ١٦٣٩، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٣٣٨).

(٤) أخرجه الترمذي ١٦٦٩، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٣٦٣).

الخوف والعظمة، وأولهم أبوبكر رضي الله تعالى عنه ((وكان له مسجد عند باب داره في بني جمح، فكان يصلي فيه، وكان رجلاً رقيقًا إذا قرأ القرآن استبكى. قالت عائشة: فيقف عليه الصبيان والعبيد والنساء يعجبون لما يرون من هيأته))[١])[٢].

---

(١) أخرجه البخاري ٣٩٠٥.

(٢) دراسات تربوية في الأحاديث النبوية، د. محمد لقمان الندوي، ٣٥٢-٣٥٤.

الحديث رقم (٣٧٧)

٣٧٧- وعنه، قَالَ: قَالَ رَسُول اللَّه ﷺ: ((إنّ الله تَعَالَى يقول يَوْمَ القِيَامَةِ: أيْنَ المُتَحَابُّونَ بِجَلالِي؟ اليَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لاَ ظِلَّ إلاَّ ظِلِّي)) رواه مسلم[(١)].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

قول الصحابي قال رسول الله ﷺ انتقال بمستوى الكلام البشري العادي إلى مستوى الكلام النبوي أسلوباً، ومعنى، وقول الرسول ﷺ (قال الله)ارتقاء بمستوى الكلام من المستوى البشري إلى مستوى الكلام الإلهي معنى لا لفظاً؛ لأنه حديث قدسي معناه لله، ولفظه للرسول ﷺ، وله خصوصية في النظم، فقد بدأ بأسلوب التوكيد بـ(إن) مع تقديم المسند إليه (الله)على الخبر الفعلي (يقول) مع ما يشعر به لفظ الجلالة من الهيبة، والإجلال، وتقييد الفعل بيوم القيامة يصعِّد الرهبة والخوف، ويزيد ترقب المخاطب للمقول وقول الله تعالى (أيْنَ المُتَحَابُّونَ بِجَلالِي؟) استفهام على غير حقيقته لأن الله تعالى علام الغيوب، ولكن الاستفهام خرج إلى معنى الإشادة بهم والتكريم لهم، والتنبيه على فضلهم، ومكانتهم، وقوله (المتحابون بجلالي) أي لعظمتي فالباء بمعنى اللام أو في وخص الجلال بالذكر لدلالته على الهيبة، والسطوة أي المنزهون عن شوائب الهوى والنفس والشيطان في المحبة فلا يتحابون إلا لأجلي ولوجهي لا لشيء من أمور الدنيا (اليوم أظلهم في ظلي) أي ظل عرشي كما جاء مصرحا به في خبر آخر وإضافة الظل إليه إضافة تشريف وملك والمراد أنه في ظله من الحر ووهج الموقف، أو كناية عن الراحة، والنعيم يقال هو في عيش ظليل أي طيب، والجناس بين، وتكرار لفظ الظل لتقرير معناه في قلب المخاطب، وسمعه ترغيباً في هذه العلاقة بين المؤمنين في الدنيا، ويجمعهم الله بها في الآخرة.

---

(١) برقم (٣٧/٢٥٦٦). أورده المنذري في ترغيبه (٤٤٢٨).

فقه الحديث

١- فضل التحابِّ في الله تعالى لأنها سبب في إكرام الله تعالى للعبد يوم القيامة[١].

٢- فيه دليل على جواز قول الإنسان: "الله يقول" وهو الصواب الذي عليه كافة العلماء.

إلا ما روي عن بعض السلف من كراهة ذلك، وأنه لا يقال: يقول الله، بل يقال: "قال الله".

ولكن جاء بجواز ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾[٢] كما جاءت به السنة في هذا الحديث[٣].

المضامين الدعوية[٤]

(١) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبدالبر ٤٢٩/١٧، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري ٥٦/٧.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٤.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢٣/٦.

(٤) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (٣٧٨)

٣٧٨- وعنه، قَالَ: قَالَ رَسُول اللّه ﷺ: **((والّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لا تَدْخُلُوا الجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أوَلاَ أدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أفْشُوا السَّلامَ بينكم))** رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

بدأ الحديث بقسم يتزلزل له الوجدان لأن الذي يحلف صادق لا يكذب، وهو نبي يوحى إليه مما يحقق اليقظة، والترقب، ويضمن للمعنى الثبات؛ لأنه ارتبط بتعبير له خصوصية في الترهيب وهو قوله: (وَالّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ) وطبيعة تكوين هذا القسم توحي بالرهبة، والجلال المشعرة بحساسية الموقف، وهو في إطلاقه ابتداءً دون مواجهة بالتكذيب يوحي بأهمية المعنى بعده الذي يقوم على تقرير معنى إفشاء السلام الذي يشيع المحبة بين المسلمين عن طريق المنطق الفطري بمقدمات تترتب عليها نتائج بطريقة مشوقة بدأت بجملة، نفت دخول الجنة إلا بعد بلوغ درجة الإيمان، وقد وصل الأفعال بواو الجماعة دلالة على عموم الحكم، ونظماً للمجتمع كله في سلك الخطاب، وهو ما يحقق ترقب الجميع للخبر، ثم إنه علّق الإيمان على التحابب، وهو تفاعل من المحبة، وهذه الصيغة تدل على المشاركة، أي يحب كل واحد منهم الآخر، ثم صعَّد التشويق عن طريق الاستفهام التشويقي (أوَلا أَدُلّكُمْ عَلَى شَيْء) ثم ربط بأسلوب الشرط المحبة التي يتوقف عليها الإيمان الذي يتوقف عليه دخول الجنة بهذا الشيء الذي يعرضه عليهم (إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ) حتى إذا صار المخاطبون في قمة اليقظة، والترقب قرر المعنى الذي يريد عن طريق أسلوب الأمر حثاً، وترغيباً (أفشوا السلام بينكم)وطريقة النبي ﷺ

---

(١) برقم (٥٤/٩٤) ولم يسق لفظه إلى قوله: (الجنة حتى تؤمنوا) وأحال الباقي على حديث أبي معاوية ووكيع برقم (٥٤/٩٣) والسياق للحميدي في جمعه (٢٧٨/٣، رقم ٢٦٢٨). أورده المنذري في ترغيبه (٣٩٧٩).

في تقرير المعنى تدل على أهمية الأمر، وأثره في المجتمع الذي ينبعث محبة بين أفراده، وسلاماً يعم الجميع.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم إفشاء السلام، وقد سبق القول في الحديث رقم (٢٣٨) أنه قد اتفق الفقهاء[1] على أن رد السلام من فروض الكفايات فمتى قام به واحد من جماعة أجزأ عنها وإن تركه الجميع أثموا، وإن كان من يرد واحدًا فقد وجب عليه رد السلام، أما ابتداء السلام فقد اختلفوا فيه، فذهب جمهور الفقهاء من المالكية والشافعية والحنابلة في المذهب إلى أن ابتداء السلام سنة وليس واجبًا، وهو سنة على الكفاية فإن كانوا جماعة يكفي سلام أحدهم ولو سلموا كلهم كان أفضل، وذهب الحنفية والمالكية في قول والإمام أحمد في رواية إلى أن ابتداء السلام واجب.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: القسم، والاستفهام.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: أهمية وفضل الإيمان في دخول الجنة.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: التحاب في الله من علامات كمال الإيمان.

رابعًا: من مهام الداعية: دلالة المدعوين على الأسباب المؤدية إلى سعادتهم.

أولاً- من أساليب الدعوة: القسم، والاستفهام:

القسم من أقوى التوكيدات في اللغة العربية وجاء القسم هنا مناسبًا لينبه أن الجنة لا يدخلها إلا مؤمن، وقد أفاد القسم هنا أهمية الإيمان في دخول الجنة، ونظرًا لعظم

---

(١) المبسوط، السرخسي ٢٩/٢، ٢٧٤/٣٠، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، علاء الدين أبي بكر الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٢٦٤/١، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد سليمان الباجي ٢٧٩/٧، وأحكام القرآن، ابن العربي، تحقيق: علي محمد البجاوي ٥٩١/١، والأم، الإمام الشافعي ٢٣٤/١، وأحكام القرآن، الشافعي ٣٥/٢، والمجموع شرح المهذب، النووي ٤٥١/٤، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٧١/٢، ٨٦، ٢١٣/٧، والآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ٣٣٢/١، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٣١٤/١١.

المقسم عليه؛ فإن النبي ﷺ أراد بيان ذلك فاستخدم القسم للدلالة على أهمية وعظمة دخول الجنة، وأنها الغاية التي يجب على كل مؤمن أن يسعى إليها، ويُعد لها العدة اللازمة، والتي يأتي الإيمان في قمّتها.

وجاء الاستفهام في قوله ﷺ "أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ وهذا الاستفهام جاء مناسبًا جدًا لمخاطبة المدعوين؛ حيث أفاد الاستفهام في هذا الموطن استثارة همم المدعوين ودفعهم إلى التنافس لإدراك تلك الغاية العظيمة وهي دخول الجنة، وذلك من خلال توجيههم إلى ما يؤدي إلى تلك الغاية من إيمان بالله ورسوله والإخلاص في ذلك. وقد وجههم النبي ﷺ إلى أن الإيمان لا يتحقق إلا من خلال الحب والمودة التي يجب أن تسود بين المؤمنين، وقد وجه النبي ﷺ المؤمنين إلى أن الحب لا يتحقق إلا من خلال عدد من الأمور وذكر أبرزها وهو إفشاء السلام.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: أهمية وفضل الإيمان في دخول الجنة:

هذا ما أكده النبي ﷺ في نص الحديث من قوله "والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا".

قال القرطبي: (الإيمان المذكور أولاً هو: التصديق الشرعي المذكور في حديث جبريل الذي قال فيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ((بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال يا محمد! أخبرني عن الإسلام ...، قال: فأخبرني عن الإيمان. قال: "أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره" قال: صدقت... إلخ))[1]، والإيمان المذكور ثانيًا هو الإيمان العملي المذكور في قوله: ((الإيمان بضع وسبعون بابًا))[2] ولو كان الثاني هو الأول للزم منه أن لا يدخل الجنة من

---

(١) أخرجه مسلم ٨.

(٢) أخرجه البخاري ٩، ومسلم ٣٥.

أبغض أحدًا من المؤمنين، وذلك باطلٌ قطعًا، فتعيّن التأويل الذي ذكرناه)[1].

(ولا يخفى على كل مسلم أهمية الإيمان كتصديق شرعي، وعظم شأنه، وكثرة عوائده وفوائده على المؤمن في الدنيا والآخرة، بل إن كل خير في الدنيا والآخرة متوقف على تحقق الإيمان الصحيح، فهو أجل المطالب، وأهم المقاصد، وأنبل الأهداف، وبه يحيا العبد حياة طيبة سعيدة، وينجو من المكاره والشرور والشدائد، وينال ثواب الآخرة ونعيمها المقيم وخيرها الدائم المستمر الذي لا يحول ولا يزول.

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾[3] وقال تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾[5]. والآيات في هذا المعنى في القرآن الكريم كثيرة.

وقد دلت نصوص الكتاب والسنة على أن الإيمان يقوم على الأصول الستة، وهي: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه،ورسله، واليوم الآخر، والقدر خير وشره، وقد جاء ذكر هذه الأصول في القرآن الكريم والسنة النبوية في مواطن عديدة، منها:

١- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[6].

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٢٤٢/١.

(٢) سورة النحل، آية: ٩٧.

(٣) سورة الإسراء، آية: ١٩.

(٤) سورة طه، آية: ٧٥.

(٥) سورة الكهف، الآيتان: ١٠٧-١٠٨.

(٦) سورة النساء، آية: ١٣٦.

٢- وقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾[١].

٣- وقوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾[٢].

٤- وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[٣].

٥- وثبت في صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه المشهور بحديث جبريل[٤]، السالف ذكره.

فهذه أصول ستة عظيمة يقوم عليها الإيمان، بل لا إيمان لأحد إلا بالإيمان بها، وهي أصول مترابطة متلازمة، لا ينفك بعضها عن بعض، فالإيمان ببعضها مستلزم للإيمان بباقيها، والكفر ببعضها كفر بباقيها.

ولذا كان متأكدًا في حق كل مسلم أن تعظم عنايته واهتمامه بهذه الأصول علمًا وتعلمًا وتحقيقًا)[٥].

قال القرطبي: (والإيمان بالله: هو التصديق بوجوده تعالى، وأنه لا يجوز عليه العدم، وأنه تعالى موصوفٌ بصفات الجلال والكمال من العلم، والقدرة، والإرادة، والكلام، والسمع، والبصر، والحياة، وأنه تعالى مُنَزَّهٌ عن صفات النقص التي هي أضداد تلك الصفات، وعن صفات الأجسام والمتحيّزات، وأنه واحدٌ صمدٌ فردٌ خالقُ جميع

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٧٧.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٨٥.

(٣) سورة القمر، آية: ٤٩.

(٤) أخرجه مسلم ٨.

(٥) كتاب أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، إعداد نخبة من العلماء.

المخلوقات، متصرف فيها بما يشاء من التصرفات، يفعلُ في ملكه ما يريد، ويحكمُ في خلقه ما يشاء.

والإيمان بالملائكة: هو التصديق بأنهم: ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾(١)، ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾(٢)، و﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾(٣) وأنهم سفراء الله بينه وبين رُسله، والمتصرِّفون كما أذن لهم في خلقه.

والإيمان برسل الله: هو أنهم صادقون فيما أخبروا به عن الله تعالى، وأنَّ الله تعالى أيدهم بالمعجزات الدالة على صدقهم، وأنهم بلَّغوا عن الله رسالاته، وبيَّنوا للمكلفين ما أمرهم الله ببيانه، وأنه يجبُ احترامهم، وألا يفرق بين أحد منهم.

والإيمان باليوم الآخر: هو التصديق بيوم القيامة، وما اشتمل عليه من الإعادة بعد الموت، والنشر، والحشر، والحساب، والميزان، والصراط، والجنة، والنار، وأنهما دارا ثوابه وجزائه للمحسنين والمسيئين إلى غير ذلك، مما صح نصه، وثبت نقله.

والإيمان بالقدر: هو التصديق بما تقدم ذكره، وحاصله: هو ما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾(٤)، وقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾(٥)، وقوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾(٦) وإجماع السلف والخلف على صدق قول القائل: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن. وقوله ﷺ: ((كلُّ شيءٍ بقَدَر حتى العجز والكيس))(٧).

---

(١) سورة الأنبياء، الآيتان: ٢٦، ٢٧.

(٢) سورة التحريم، آية: ٦.

(٣) سورة الأنبياء، آية: ٢٠.

(٤) سورة الصافات، آية: ٩٦.

(٥) سورة القمر، آية: ٤٩.

(٦) سورة الإنسان، آية: ٣٠.

(٧) أخرجه مسلم ٢٦٥٥.

تنبيه: (مذهب السلف وأئمة الفتوى من الخلف: أن من صدّق بهذه الأمور تصديقًا جازمًا لا ريب فيه، ولا تردد، ولا توقف، كان مؤمنًا حقيقةً، وسواء كان ذلك عن براهين ناصعة، أو عن اعتقادات جازمة)[١].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: التحاب في الله من علامات كمال الإيمان:

هذا ما دلَّ عليه الحديث في قوله ﷺ "ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم".

قال النووي: (وقوله ﷺ "ولا تؤمنوا حتى تحابوا" معناه: لا يكمل إيمانكم ولا يصلح حالكم في الإيمان إلا بالتحاب)[٢].

وقد بين النبي ﷺ أن من أعظم السبل لتحقيق التحاب في الله هو إفشاء السلام (فالسلام أول أسباب التألف ومفتاح استجلاب المودة، وفي إفشائه تمكن ألفة المسلمين بعضهم لبعض، وإظهار شعارهم المميز لهم من غيرهم من أهل الملل، مع ما فيه من رياضة النفس ولزوم التواضع وإعظام حرمات المسلمين، وقد ذكر البخاري في صحيحه عن عمار بن ياسر رضي الله عنهما أنه قال: ((ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان: الإنصاف من نفسك، بذل السلام للعالم، والإنفاق من الإقتار))[٣])[٤].

قال ابن القيم: (وبذل السلام للعالم يتضمن تواضعه وأنه لا يتكبَّر على أحد، بل يبذل السلام للصغير والكبير، والشريف والوضيع، ومن يعرفه ومن لا يعرفه، والمتكبر ضد هذا، فإنه لا يرد السلام على كل من سلم عليه كبرًا منه وتيهًا، فكيف يبذل السلام لكل أحد)[٥].

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ١/١٤٤-١٤٥.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٣٠.

(٣) أخرجه البخاري معلقًا في كتاب الإيمان، باب: ٢٠.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٣٠.

(٥) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم ٢/٤١٠.

(وفي إفشاء السلام وبذله للعالم يكون رفع التقاطع والتهاجر والشحناء وفساد ذات البين التي هي الحالقة، وأن سلامه لله لا يتبع فيه هواه ولا يخص أصحابه وأحبابه به)[1].

(ولما كان السلام من المسلم أمانًا له، وتأنيسًا منه، وطردًا للكبر عن كل تأذٍ به، وهو الأمارة على صلح المتهاجرين، والآيةُ عند تلاقي الغائبين كان إفشاؤه وإظهاره لما فيه من هذه الفضائل المذكورة ما يجري مجراها ناشئًا عن الإيمان لإيثار جمع كلمة المسلمين ولإصلاح ذات بينهم)[2].

رابعًا- من مهام الداعية: دلالة المدعوين على الأسباب المؤدية إلى سعادتهم:

هذا ما أشار إليه الحديث من بيان النبي ﷺ لأهم أسباب حصول التحاب في الله وذلك في قوله ﷺ "أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم؟ وقد دل ﷺ على إفشاء السلام لأنه طريقٌ إلى حصول التحاب بين المسلمين الذي بدوره من أسباب حصول كمال الإيمان، وكمال الإيمان متوقف على حصول أصل الإيمان الذي بدوره يُدخل الجنان.

ويمكن الاستشهاد في هذا المقام بقوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[3] (حيث أمر تعالى عباده بالمسارعة إلى مغفرته، وإدراك جنته، التي عرضها السماوات والأرض، فكيف بطولها، التي أعدها الله للمتقين، فهم أهلها وأعمال التقوى هي الموصلة إليها)[4]، وقد بين الحق تبارك وتعالى هذه الأعمال المؤدية إلى الجنة فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٥٣.

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، ٣٨٩/٦.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٣٣.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ١١٥.

ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾(١).

فحري بالداعية أن يوضح ويبين الأسباب الموصلة إلى إرضاء الله تعالى وجنته ممتثلاً في ذلك بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٢).

(١) سورة آل عمران، الآيات: ١٣٤-١٣٦.

(٢) سورة الصف، الآيات: ١٠-١٣.

الحديث رقم (٣٧٩)

٣٧٩- وعنه، عن النَّبيِّ ﷺ: ((أنَّ رَجُلاً زَارَ أخًا لَهُ في قَرْيَةٍ أخْرَى، فَأرصَدَ اللهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا ...)) وذكر الحديث إلَى قوله: ((إنَّ اللهَ قَدْ أحبَّكَ كَمَا أحْبَبْتَهُ فِيهِ)) رواه مسلم(١)، وقد سبق بالباب قبله.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

أرصَد: قيَّضَ وأرسل(٢).

مَدرَجته: طريقه(٣).

الشرح الأدبي، والمضامين الدعوية(٤)

---

(١) برقم (٢٥٦٧/٣٨) وقد تقدم برقم (٣٦١). أورده المنذري في ترغيبه (٣٧٨٨).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ر ص د).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (د ر ج).

(٤) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (٣٦١).

الحديث رقم (٣٨٠)

٣٨٠- وعن البرَاءِ بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّهُ قَالَ فِي الأنصار: ((**لاَ يُحِبُّهُمْ إلاَّ مُؤمِنٌ، وَلاَ يُبْغِضُهُمْ إلاَّ مُنَافِقٌ، مَنْ أحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ الله، وَمَنْ أبْغَضَهُمْ أبْغَضَهُ الله**)) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[1].

ترجمة الراوي:

البراء بن عازب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨٠).

الشرح الأدبي

فضل الأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لا ينكره مسلم في كل زمان، ومكان كما أن هذا الفضل ممتد، وباقٍ على كل مسلم إلى قيام الساعة، وقد صدر المعنى في ثلاثة أساليب بلاغية أولها: أسلوب القصر، ثانيها: المقابلة التي تقوم على المناظرة بين ضدين يتضح من خلال كل واحد منهما تفاصيل الآخر، والثالث: أسلوب الشرط الذي يربط الفعل بالجزاء، وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الأنصار (لاَ يُحِبُّهُمْ إلاَّ مُؤمِنٌ) أسلوب قصر لمحبة الأنصار على المؤمنين، ونفيها عن غيرهم من المنافقين، والكافرين وكذلك الجملة المقابلة لها (وَلاَ يُبْغِضُهُمْ إلاَّ مُنَافِقٌ) والتي تقصر بغض الأنصار على المنافقين، وتنفيه عن المؤمنين، فهي تأكيد لمعنى الجملة الأولى، وقد قابل بين المحبة والكراهية، وبين المؤمن، والمنافق ليبين المفارقة في الشعور القلبي التي نتجت عن التفاوت في العقيدة، ثم جاء أسلوب الشرط ترغيباً في محبتهم، وترهيباً من بغضهم (مَنْ أَحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ الله، وَمَنْ أبْغَضَهُمْ أبْغَضَهُ الله) وبلاغة هذا الأسلوب تكمن في أنه يجعل الإنسان مسئولاً عن اختياره، وعاقبته، مما يشعره بأنه طرف حر الاختيار، فيختار ما يهديه إليه عقله بعد أن يعرض عليه الفعلين مع النتيجتين، وقد قابل بين أحبهم، وأبغضهم وهما فعلي الشرط، وبين أحبه، وأبغضه وهما العاقبة، وإسناد الفعل لله يلق المهابة في القلوب خوفاً من غضب من لا يطيق له غضباً.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٨٣)، ومسلم (١٢٩/٧٥) واللفظ له.

فقه الحديث

فضل الأنصار، وحب رسول الله ﷺ لهم، حيث جعل حبهم علامة على الإيمان، وبغضهم علامة على النفاق، كما جعل حبهم موصلاً لحب الله تعالى وبغضهم سببًا لبغضه تعالى.

وذلك لأن من عرف مرتبة الأنصار، وما كان منهم من نصرة الإسلام، والسعي على إظهاره، وإيواء المسلمين، وحبهم النبي ﷺ وحبه إياهم، وبذلهم أموالهم وأنفسهم في سبيل الله ثم أحب الأنصار لهذه الأسباب كان ذلك دليلاً على صحة إيمانه وصدقه في إسلامه.

ومن أبغضهم لذلك، كان بضد ذلك، واستدل به على نفاقه وفساد سريرته[(١)].

على أن بغض الأنصار الذي يعد علامة على النفاق وبغض الله هو بغض جميعهم، لأن ذلك إنما يكون للدين.

أما من أبغض بعضهم لمعنى يسوغ البغض له، فليس داخلاً في ذلك[(٢)].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: القصر والشرط.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: من علامات الإيمان حب الأنصار رضي الله عنهم، ومن علامات النفاق بغضهم.

ثالثًا: من أساليب الدعوة:الترهيب.

أولاً- من أساليب الدعوة: القصر والشرط:

أما القصر ففي قوله ﷺ: "لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق"، وإنما جاء الحديث في أسلوب القصر ليدل على عظم فضل الأنصار وبيان مكانتهم السامية في قلب النبي ﷺ وفي قلب كل مؤمن بحيث جعل النبي ﷺ أن من أحب الأنصار لم

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٦٤/٢.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦٣/١.

يكن إلا مؤمنًا، أما من أبغضهم فلم يكن إلا منافقًا وهذا الأسلوب يأخذ بالألباب والقلوب أيّمًا مأخذ فيقلبها بين الترغيب من ناحية وبين الترهيب من ناحية أخرى فمن رغب أن يكون مؤمنًا فليحب الأنصار حتى لا يكون في زمرة المنافقين. ولا شك أن كل مؤمن يرهب أشد الرهبة من أن يكون منهم.

أما أسلوب الشرط، فجاء في قوله ﷺ: (من أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله)، ليبين ﷺ أن حب الله مترتب على حب المؤمن للأنصار وأن بغضه تعالى ومقته يلحق من أبغضهم.

والخلاصة: أن أسلوب القصر وأسلوب الشرط قد أبانا عن عظيم فضل الأنصار كما وضحا الخطر العظيم الذي يحيق بمن كره الأنصار وأبغضهم، فكان هذا دعوة قوية لحب الأنصار رضي الله عنهم.

ثانيًا- في موضوعات الدعوة: من علامات الإيمان حب الأنصار رضي الله عنهم ومن علامات النفاق بغضهم:

لما كان الأنصار قد أسدوا إلى كل مسلم يدًا بيضاء وفعلة زهراء، من حيث إنهم آووا رسول الله ﷺ ونصروه، وصبروا على حرب الأحمر والأسود معه، فكانت الهجرة إليهم، ونزول الوحي عليه في دارهم، وود كل مؤمن أن يُقدر له أن يحسن جزاءهم، فلما فاته ذلك عدل عنه إلى حبهم، فلا يحبهم إلا عن إيمان منه برسالة محمد ﷺ، كما أنه إذا أبغضهم دلّ ذلك على نفاقه، فكان حبهم ناشئًا عن محض الإيمان[1].

وهذا ما أكده النبي ﷺ في الحديث من قوله في الأنصار رضي الله عنهم: (لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق، من أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله).

قال النووي: (إن من عرف مرتبة الأنصار، وما كان منهم من نصرة دين الإسلام والسعي في إظهاره وإيواء المسلمين وقيامهم في مهمات دين الإسلام حق القيام، وحبهم النبي ﷺ وحبه إياهم، وبذلهم أموالهم وأنفسهم بين يديه، وقتالهم ومعادتهم سائر

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٦/٣٨٩.

الناس إيثارًا للإسلام، ثم أحب الأنصار كان ذلك من دلائل صحة إيمانه وصدقه في إسلامه لسروره بظهور الإسلام والقيام بما يرضي الله سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ، ومن أبغضهم كان بضد ذلك، واستدل به على نفاقه وفساد سريرته، والله أعلم"[(١)].

وقوله ﷺ: (فمن أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله) هذا على مقابلة اللفظ باللفظ. ومعناه: أن من أحبهم جازاه الله على ذلك جزاء المحبوب المحب من الإكرام والترفيع والتشفيع، وعكس ذلك من البغض. وظاهر هذا الكلام أنه خبرٌ عن مآل كلٍّ واحد من الصنفين، ويصلح أن يُقال: إن ذلك الخبر خرج مخرج الدعاء لكل واحد من الصنفين، فكأنه قال: اللهم افعل بهم ذلك. كما قال ﷺ والله أعلم"[(٢)].

وقد عظّم الحق تبارك وتعالى فضل الأنصار رضي الله عنهم فقال مادحًا لهم، ومبينًا فضلهم وشرفهم وكرمهم وعدم حسدهم، وإيثارهم مع الحاجة: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[(٣)(٤)].

(وقد أكد النبي ﷺ على عظيم فضلهم رضي الله عنهم في نصرته ﷺ، ففي غزوة حنين وبعد أن قسم النبي ﷺ الفئ مستألفًا في ذلك لإيمان قلوب كبار بعض القوم، فقال بعض الأنصار آثر علينا غيرنا، فبلغ ذلك النبي ﷺ فجمعهم، ثم خطبهم، فقال: ((يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ أَلَمْ تَكُونُوا أَذِلَّةً فَأَعَزَّكُمُ اللَّهُ . قَالُوا صَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ. قَالَ: أَلَمْ تَكُونُوا ضُلاَّلاً فَهَدَاكُمُ اللَّهُ . قَالُوا صَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ. قَالَ: أَلَمْ تَكُونُوا فُقَرَاءَ فَأَغْنَاكُمُ اللَّهُ. قَالُوا صَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ. ثُمَّ قَالَ: أَلاَ تُجِيبُونَنِي أَلاَ تَقُولُونَ أَتَيْتَنَا طَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ وَأَتَيْتَنَا خَائِفًا فَأَمَّنَّاكَ أَلاَ تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاءِ وَالْبُقْرَانِ - يَعْنِي الْبَقَرَ

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٤١.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ١/٢٦٦.

(٣) سورة الحشر، آية: ٩.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦٨/٨.

- وَتَذْهَبُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ، فَتُدْخِلُونَهُ بُيُوتَكُمْ لَوْ أَنَّ النَّاسَ سَلَكُوا وَادِيًا أَوْ شُعْبَةً وَسَلَكْتُمْ وَادِيًا أَوْ شُعْبَةً سَلَكْتُ وَادِيَكُمْ أَوْ شُعْبَتَكُمْ لَوْلاَ الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الأَنْصَارِ وَإِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ))(١).

وهذا ما أكده النبي ﷺ في قوله: ((لو أنَّ الأنصارَ سَلكوا واديًا أو شِعبًا لَسَلكتُ في وادي الأنصار، ولولا الهجرةُ لكنتُ امرَءًا منَ الأنصار. فقال أبو هريرةَ: ما ظَلَمَ - بأبي وأُمي - آوَوهُ ونصروهُ. أو كلمةً أخرى))(٢).

قال ابن حجر: (قال الخطابي: أراد ﷺ بذلك استطابة قلوب الأنصار حيث رضي أن يكون واحدًا منهم لولا ما منعه من سمة الهجرة، وأطال بذلك بما لا طائل فيه. وقوله: "فقال أبو هريرة ما ظلم" أي: ما تعدى في القول المذكور ولا أعطاهم فوق حقهم، ثم بين ذلك بقوله: "آووه ونصروه". وقوله: "أو كلمة أخرى" لعل المراد وواسوه وواسوا أصحابه بأموالهم، وقوله: "لسلكت في وادي الأنصار" أراد بذلك حسن موافقتهم له لما شاهده من حسن الجوار والوفاء بالعهد، وليس المراد أنه يصير تابعا لهم، بل هو المتبوع المطاع المفترض الطاعة على كل مؤمن)(٣).

وإذا كان الأنصار رضي الله عنهم قد قاموا بواجبهم أعظم قيام فنصروا دين ربهم وأقاموا سنة نبيهم ﷺ حتى قدّموا نحورهم وأولادهم وأنفسهم فداءً لرسول الله ﷺ، فاستحقوا لذلك عظيم الثناء من الله تعالى ورسوله ﷺ إلا أن هذا الدين العظيم في ذلك الوقت الذي أصبح غريبًا في قلوب أبنائه من المسلمين يحتاج إلى رجال مثل الأنصار ينافحون عنه بأنفسهم وأبنائهم وأموالهم، فلا يهدئون حتى يقيم الله على أيديهم الملة ويحفظ بهم السنة، فيتشبهوا بسلفهم الصالح في إقامة شعائر دينهم وامتثال أوامر ربهم واجتناب نواهيه، فتحيا البلاد ويمحى الفساد، وتقام دولة الإسلام من الصين شرقًا إلى الأندلس غربًا كما كانت بالأمس، فيا لها من غاية عظيمة تسترخص فيها النفوس

---

(١) أخرجه أحمد ١١٥٤٧، وقال محققو المسند: إسناده صحيح، ورجاله ثقات رجال الشيخين.

(٢) أخرجه البخاري ٣٧٧٩.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٤٠/٧.

والأموال، فمن يكون على شاكلة الأنصار من المدعوين فيفوز برضاء ربه وحب نبيه ﷺ.

ثالثًا- من أساليب الدعوة: الترهيب:

الترهيب من الأساليب الدعوية الهامة التي تؤثر في نفسية المدعو، وتزجره عن ارتكاب المعاصي، وتحذره من عدم الامتثال للأمر المدعو إليه، وقد ورد هذا الأسلوب الدعوي في الحديث من قوله ﷺ: "... ولا يبغضهم إلا منافق ... ومن أبغضهم أبغضه الله..."، للترهيب من بعض الأنصار الذي يكون سببًا في بغض الله تعالى.

والمقصود بالترهيب كل ما يخيف ويحذر المدعو من عدم الاستجابة أو رفض الحق أو عدم الثبات عليه بعد قبوله، والملاحظ أن القرآن الكريم والسنة النبوية مملوآن بما يرغب الناس في قبول دعوة الإسلام والالتزام بآدابها والتحذير من رفضها، مما يدل دلالة قاطعة على أهمية أسلوب الترغيب والترهيب في الدعوة إلى الله تعالى وعدم إهماله من قِبل الداعي المسلم[1].

(١) انظر: أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان، ص ٤٣٧.

الحديث رقم (٣٨١)

٣٨١- وعن معاذ رضي الله عنه ، قَالَ: سَمِعْتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول: ((قَالَ الله عز وجل: **المُتَحَابُّونَ فِي جَلالِي، لَهُمْ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ يَغْبِطُهُمُ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ**)) رواه الترمذيُّ[(١)]، وَقالَ: (حديث حسن صحيح).

ترجمة الراوي:

معاذ بن جبل: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٦١).

غريب الألفاظ:

المتحابون في جلالي: لأجل إجلالي وتعظيمي[(٢)].

يغبطهم: من الغبطة، وهي تمنى نعمة على ألا تتحول عن صاحبها[(٣)].

الشرح الأدبي

سبق هذا المعنى في حديث سابق في هذا الباب غير أن هذا الحديث يزيد عنه في قوله (لَهُمْ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ) تقديم الجار والمجرور يفيد الاختصاص بمعنى أنها خصوصية لهم دون غيرهم، والتعبير بالمنابر فيها دلالة على رفعة المكانة؛ لأن المقصود من ارتقاء الأمير، أو القائد، أو الخطيب، وجمع المنابر إشارة للكثرة من باب الترغيب، وقوله (من نور) إشارة الظهور والوضوح بحيث يراهم أهل الجمع تشريفاً لهم، كما أن في جعلها من نور إشارة إلى نور المحبة الذي عمر قلوبهم في الله وجمع بينهم، فهو جزاء من جنس العمل، وقوله: (يَغْبِطُهُمُ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ) كناية عن عظمة المنزلة، وخصوصيتها لأصحاب هذا العمل، فكل ما يتحلى به الإنسان، أو يتعاطاه من علم وعمل، فإن له عند الله منزلة لا يشاركه فيه صاحبه ممن لم يتصف بذلك، وإن كان له من نوع آخر

---

(١) برقم (٢٣٩٠).

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري (٢/ ١٨٨٥).

(٣) المرجع السابق ٢/ ١٨٨٥.

ما هو أرفع قدراً، وأعز ذخراً، فيغبطه بأن يتمنى، ويحب أن يكون له مثل ذلك مضموماً إلى ماله من المراتب الرفيعة، والمنازل الشريفة، وذلك معنى قوله يغبطهم النبيون، والشهداء فإن الأنبياء قد استغرقوا فيما هو أعلى من ذلك من دعوة الخلق وإظهار الحق، وإعلاء الدين، وإرشاد العامة، والخاصة إلى غير ذلك من كليات أشغلتهم عن العكوف على مثل هذه الجزئيات والقيام بحقوقها، والشهداء، وإن نالوا رتبة الشهادة، وفازوا بالفوز الأكبر فلعلهم لم يعاملوا مع الله معاملة هؤلاء فإذا رأوهم يوم القيامة في منازلهم، وشاهدوا قربهم، وكرامتهم عند الله ودوا لو كانوا ضامين خصالهم فيكونون جامعين بين الحسنتين فائزين بهما.

فقه الحديث

فضل التحاب والتجالس والتزاور والتباذل في الله تعالى وعظم منزلة المتحابين والمتجالسين والمتزاورين والمتباذلين فيه تعالى، وقد سبقت معالجة هذه الاحكام في الحديثين (٣٧٥) و (٣٧٧).

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: إثبات صفة الكلام لله تعالى.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل التحاب في الله تعالى.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: بيان درجة المتحابين ومنزلتهم يوم القيامة.

رابعًا: من أساليب الدعوة: الترغيب.

خامسًا: من أهداف الدعوة: ترابط المجتمع الإسلامي.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: جواز الغبطة في الخير.

أولاً- من موضوعات الدعوة: إثبات صفة الكلام لله تعالى:

لقد اتصف الله تعالى بصفات الكمال والجلال ومنها صفة الكلام وقد وردت الإشارة إلى ذلك في الحديث في قول رسول الله ﷺ: (قال الله عز وجل)، وقد وردت

نصوص كثيرة تثبت الكلام لله تعالى منها: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلاً﴾[(١)]، وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾[(٢)]، وقوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾[(٣)]، وقد تضمنت هذه الآيات إثبات صفة الكلام لله عز وجل، ومذهب أهل السنة والجماعة في هذه المسألة أن الله تعالى لم يزل متكلمًا إذا شاء، وأن الكلام صفة له قائمة بذاته، يتكلم بها بمشيئته وقدرته، فهو لم يزل ولا يزال متكلمًا إذا شاء وما تكلم الله به فهو قائم به[(٤)].

وقد أضيفت صفة الكلام لذاته سبحانه وتعالى، إضافة معنى إلى الذات دلالة على ثبوت المعنى لتلك الذات، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾[(٥)]، وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[(٦)(٧)]، فمذهب أهل السنة والجماعة إثبات صفة الكلام لله عز وجل، والوصف بالتكلم من أوصاف الكمال وضده من أوصاف النقص، قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً﴾[(٨)]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾[(٩)]، فعُلِم أن نفي رجع القول ونفى التكليم نقص يستدل به على عدم ألوهية العجل[(١٠)].

---

(١) سورة النساء، آية: ١٢٢.

(٢) سورة المائدة، آية: ١١٦.

(٣) سورة النساء، آية: ١٦٤.

(٤) شرح العقيدة الواسطية لابن تيمية، محمد خليل هراس، ص ١٢- ١٨.

(٥) سورة التوبة، آية: ٦.

(٦) سورة البقرة، آية: ٧٥.

(٧) العقيدة الواسطية، ابن تيمية، محمد خليل هراس، ص ١٨٥ - ١٨٦.

(٨) سورة الأعراف، آية: ١٤٨.

(٩) سورة طه، آية: ٨٩.

(١٠) شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز ١٧٥/١.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل التحاب في الله تعالى:

شاء الله عز وجل للأمة الإسلامية أن تكون أمة مترابطة متماسكة، فأرشد أفرادها إلى ما يحافظ على الوحدة بالتحاب والتآخي وغير ذلك، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾(١)، قال السعدي في تفسير الآية: (هذا عقد، عقده الله بين المؤمنين أنه إذا وجد من أي شخص كان في مشرق الأرض ومغربها الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فإنه أخ للمؤمنين أخوة توجب أن يحب له المؤمنون ما يحبون لأنفسهم ويكرهوا له ما يكرهون لأنفسهم)(٢). ومن لوازم الأخوة المحبة في الله، ومن ثمرات الإيمان المحبة لله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾(٣)، يحبونهم لله تعالى وذلك لوجود التجانس في الصفاء والموافقة في الدين وكون الفضيلة لهم أمرًا ذاتيًا باقتضاء الفطرة وفرط محبة الإخوان(٤)، وقد أشار النبي ﷺ في الحديث الذي معنا إلى فضل التحاب في الله بقوله: (قال الله عز وجل المتحابون في جلالي لهم منابر من نور)، والمحبة في الله من دلائل الإيمان، وسبب من أسباب الاستشعار بحلاوته، فعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإيمان: أَنْ يَكونَ اللَّهُ ورسولُه أحبَّ إليهِ مِمَّا سِواهُما، وأنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إلاّ لله، وأنْ يَكرَهَ أنْ يَعودَ في الكُفرِ كما يكرَهُ أنْ يُقذَفَ في النَّار))(٥). فإن محبة المسلم لأخيه المسلم من حسن الإيمان ودلائل اكتماله شريطة أن يكون حبًا خالصًا لله لا تشوبه شائبة ولا تؤثر فيه الأهواء والمصالح، قال ابن حجر: (قوله: "وأن يحب المرء" قال يحيى بن معاذ: حقيقة الحب في الله لا يزيد بالبر ولا ينقص بالجفاء)(٦).

---

(١) سورة الحجرات، آية: ١٠.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٧٤٤.

(٣) سورة الحشر، آية: ٩.

(٤) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ١٠١/١٦/٩.

(٥) أخرجه البخاري ١٦.

(٦) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧٩/١.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: بيان درجة المتحابين ومنزلتهم يوم القيامة:

بيّن النبي ﷺ في الحديث درجة المتحابين يوم القيامة ومنزلتهم التي يغبطون عليها، يقول: (قال الله عز وجل: المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء)، أي: المتحابون لأجل جلالي وتعظيمي[١]، على منابر النور، وأراد الله بيان فضلهم وشرفهم[٢]، عنده بقوله: (يغبطهم النبيون والشهداء)، والمعنى: أن حالهم عند الله يوم القيامة بمثابة لو غبط النبيون والشهداء يومئذ مع جلاله قدرهم ونباهة أمرهم حال غيرهم لغبوطهم[٣].

وقد جاءت الأحاديث الكثيرة المبينة لمنح الله وعطاياه للمتحابين في الله، ومنها ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((سَبعةٌ يُظِلُّهم اللهُ في ظِلِّهِ يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ: ... وَرَجُلانِ تَحابّا في اللهِ اجتَمَعا عليهِ وتَفَرَّقا عليه))[٤].

رابعًا- من أساليب الدعوة: الترغيب:

ورد الترغيب في هذا الحديث، حيث رغّب النبي ﷺ في التحاب في الله ببيان ما أعد الله للمتحابين فيه يوم القيامة من الرفعة والمنزلة العظيمة التي يغبطهم عليها الأنبياء والشهداء، يقول: (قال الله عز وجل: المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء، وأسلوب الترغيب من أنجح أساليب الدعوة لما فيه من تشويق المدعو إلى الاستجابة وقبول الحق والثبات عليه، والترغيب من أساليب الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، يبين هذا القرآن الكريم في مثل قول الله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾[٥][٦].

---

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري ٢/١٨٨٥.

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٥٩٩.

(٣) تحفة الأحوذي، المباركفوري ٢/١٨٨٥.

(٤) أخرجه البخاري ١٤٢٣ واللفظ له، ومسلم ١٠٣١.

(٥) سورة النساء، آية: ١٦٥.

(٦) انظر: الدعوة إلى الله "الرسالة - الوسيلة - الهدف"، ص ١٩٩ - ٢٠١.

خامسًا- من أهداف الدعوة: ترابط المجتمع الإسلامي:

إن من أهم الأهداف الدعوية التي ترمي الدعوة إلى تحقيقها، ترابط وتماسك المجتمع الإسلامي، وإن مما يستنبط من هذا الحديث الدعوة إلى المحبة المودة التي تؤدي إلى ترابط المجتمع وذلك من خلال بيان منزلة المتحابين في الله، قال الله تعالى: (المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء)، فالإسلام جاء ليجمع القلب إلى القلب، ويضم الصف إلى الصف، مستهدفًا إقامة كيان موحد، ومتقيًا عوامل الفرقة والضعف، وأسباب الفشل والهزيمة، فهو لهذا يكوّن روابط وصلات بين أفراد المجتمع، لتخلق هذا الكيان وتدعمه، ومن هذه الروابط الإخاء وما يستلزمه من محبة واحترام ومحافظ على كرامة وأمانة ووفاء وخفض للجناح وسلامة للصدر وغير ذلك[1].

وكان هذا الترابط في المجتمع الإسلامي من أعظم المنن وأسمى الآيات التي امتن الله تعالى بها على المجتمع الإسلامي، قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[2] فالآية دعت إلى الاتحاد والترابط وعدم الخلاف والشقاق مع الاعتصام بالعهد والقرآن، حيث أمرنا الله سبحانه بالاعتصام بحبله والتمسك بدينه ونهانا عن التفرق والاختلاف فقد أنعم علينا بالإسلام وألف بين قلوبنا بالقرآن والنبي ﷺ[3].

سادسًا- من موضوعات الدعوة: جواز الغبطة في الخير:

علم الله ما فطرت عليه النفس البشرية من حب الخير وتمنيه، فأجاز لها ذلك شريطة عدم تمني الاستئثار بهذا الخير وزواله عن الغير، لذا أجاز ما يسمى الغبطة

(١) انظر: عناصر القوة في الإسلام، السيد سابق، ص ١٨١ - ١٩٢.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٠٣.

(٣) انظر: التفسير الواضح، د. محمد محمود حجازي، ١/٤/١٠، ١١.

والتي وردت في الحديث في قوله: (يغبطهم النبيون والشهداء)، والغبطة هي: تمني مثل ما للغير من الخير من غير زواله عن صاحبه[١]، وألا يتحول عنه بخلاف الحسد فإنه تمني زوال الخير عن صاحبه[٢]. وقد أجمع على تحريمه بل هو كبيرة لما فيه من الوعيد الشديد في الكتاب والسنة أن فيه تسخطًا بقضاء الله وقسمته، وفيه أيضًا نسبة الله تعالى إلى الجور وعدم العدل - تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا[٣].

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٥٩٩.

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري ١٨٨٥/٢.

(٣) أسنى المطالب في صلة الأقارب، ابن حجر الهيتمي، تحقيق: د. حسن عبدالحميد حسن ص ١٣٦.

الحديث رقم (٣٨٢)

٣٨٢- وعن أبي إدريس الخولاني، قَالَ: دخَلْتُ مَسْجِدَ دِمَشْق، فَإذَا فَتَىً[١] بَرَّاقُ الثَّنَايَا وَإذَا النَّاسُ مَعَهُ، فَإذَا اخْتَلَفُوا في شَيْءٍ، أَسْنَدُوهُ إلَيْه، وَصَدَرُوا عَنْ رَأيِهِ[٢]، فَسَأَلْتُ عَنْهُ، فَقيل: هَذَا مُعَاذُ بْنُ جَبَل رضي الله عنه. فَلَمَّا كَانَ مِنَ الغَدِ هَجَّرْتُ، فَوَجَدْتُهُ قَدْ سَبَقَنِي بالتَّهْجِيرِ، وَوَجَدْتُهُ يُصَلِّي، فانْتَظَرْتُهُ حَتَّى قَضَى صَلاتَهُ، ثُمَّ جِئْتُهُ مِنْ قِبَلِ وَجْهِهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيهِ، ثُمَّ قُلْتُ: وَاللهِ إنِّي لأَحِبُّكَ لِله، فَقَالَ: آلله؟ فَقُلْتُ: آللهِ، فَقَالَ: آللهِ؟ فَقُلْتُ: اللهِ[٣]، فَأَخَذَنِي بِحَبْوَةِ رِدَائِي، فجبذني إلَيْهِ، فَقَالَ: أبْشِرْ! فإنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ، يقول: ((**قَالَ اللهُ تَعَالَى: وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحابين فيَّ، وَالمُتَجَالِسينَ فيَّ، وَالمُتَزَاوِرِينَ فيَّ، وَالمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ**)) حديث صحيح رواه مالك في الموطأ[٤] بإسناده الصحيح.

ترجمة الراوي:

معاذ بن جبل: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٦١).

غريب الألفاظ:

براق الثنايا: تلمع أسنانه[٥].

صدروا عن رأيه: رجعوا وانصرفوا إلى رأيه[٦].

هجَّرتُ: بكرت وهو بتشديد الجيم[٧].

---

(١) في الموطأ زيادة: (شاب).

(٢) في الموطأ: (عن رأيه).

(٣) تكررت في الموطأ ثلاث مرات.

(٤) (٢/٩٥٣، رقم ١٦) رواية يحيى بن يحيى الليثي. وصحّحه ابن حبان (الإحسان ٥٧٥)، وقال الحاكم (١٦٩/٤): هذا حديثٌ صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقد جمع أبو إدريس بإسناد صحيح بين معاذ وعبادة بن الصامت في هذا المتن. أورده المنذري في ترغيبه (٤٤٣٧).

(٥) القاموس المحيط، الفيروزآبادي في (ب ر ق)، ومعجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ١٣٤.

(٦) المعجم الوسيط في (ص د ر).

(٧) رياض الصالحين ١٩٣.

آلله: قوله: آللهِ؟ فقلتك ألله الأول بهمزة ممدودة للاستفهام والثاني بلامد[١].

حبوة ردائي: يقال: احتبى: جَلَس على أَليتيْه وضمّ فخذيه وساقيه إلى بطنه بذراعيه ليستند. وقال: احتبى بالثوب: أداره على ساقيه وظهره وهو جالس على نحو ما سبق ليستند[٢].

فجبذني: فجذبني[٣].

المتباذلين: من البذل وهو العطاء والجود[٤].

الشرح الأدبي

الحديث في فضل التحابب في الله يقوم على الأسلوب القصصي للأحداث، ويربط الحوار بين شخصياتها يبدأه الراوي بأسلوب خبري خال من المؤكدات؛ لأنه يروي حدثاً خاصاً به، وقوله (وَصَدَرُوا عَنْ رَأْيِهِ) كناية عن طاعته، وقوله لمعاذ رضي الله عنه (وَاللّهِ إنّي لأَحِبُّكَ لِله) أكده بعدة مؤكدات منها القسم، وهو من وسائل التشويق لدلالته على أهمية ما يتلوه لاسيما إذا صدر ابتداءً دون مواجهة بتكذيب، ومنها: التوكيد ب(إن) وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي، وقوله (لله) بيان لسر المحبة والحامل عليها، ولذلك قال له (: آلله؟ فَقُلْتُ: اللّهِ) وهو استفهام قصد به التقرير بغرض التحقيق، والتثبيت، فلما أقر به كرر الاستفهام زيادة في التثبت، والتوكيد (فَقَالَ: آللهِ؟ فَقُلْتُ: اللّهِ)، وفي هذا دلالة على عظيم ما أخبره الراوي به، وعظيم ما سيخبره هو به، وقوله (فَأَخَذَنِي بِحَبْوَةِ رِدَائِي، فجبذني إِلَيْهِ) هذا الفعل كناية عن المحبة، والتودد إليه مع ما فيها من إحراز تمام انتباهه، وملك حواسه مما يضمن للخبر أن يقع على عقل يقظ، وقلب متفتح (فَقَالَ: أبْشِرْ !) أمر بغرض الإخبار بما فيه إدخال السرور مع ما يحققه من التشويق؛ لأن لفظ البشارة من الألفاظ التي تبعث السرور في النفوس، لأنها عَلَم على

---

(١) رياض الصالحين ١٩٣.

(٢) المعجم الوسيط في (ح ب و).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ج ب ذ).

(٤) القاموس المحيط، الفيروزآبادي في (ب ذ ل).

الخير، وقول الرسول ﷺ عن ربه، (وجبت محبتي للمتحابين في)التعبير بالوجوب تأكيد للتحقق يزيد ه تحقيقاً صياغته في الماضي، وبين قوله محبتي، والمتحابين جناس يوفر جرساً يجذب السمع، ويؤكد معنى محبة الله لمن اجتمعوا على محبته ' وقوله (وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ، وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ، وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ) وفي الحديث تناسب في التقديم حيث أوجب المحبة أولاً للمتحابين في الله، والتي دفعتهم المحبة إلى الارتياح، والجلوس، ثم إن الجلوس دعاهم إلى التزاور، والتزاور يعني بذل الجهد، والوقت، والمال من أجل ضيافة الإخوان، وما تستلزمه صلتهم فدعاهم بذلك إلى التباذل، ونلاحظ في صياغة المذكورين أنها جاءت على صيغة التفاعل التي تفيد المشاركة، وتكرار حرف الجر (في) مع كل واحد منهم تأكيداً على الإخلاص، وأنه المحرك لحركة قلوبهم، وجوارحهم، وهو سر محبة الله لهم.

المضامين الدعوية

أولاً: من ميادين الدعوة: المساجد.

ثانيًا: من واجبات المدعو: الرجوع لأهل العلم وأصحاب الرأي.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: مراعاة الأدب مع العلماء.

رابعًا: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

خامسًا: من أساليب الدعوة: القسم والتوكيد.

سادسًا: من صفات الداعية: التبشير.

سابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل التحاب والتجالس والتزاور في الله.

أولاً- من ميادين الدعوة: المساجد:

إن المساجد أطيب ميادين الدعوة وأفضلها، وقد جاء في الحديث ما يدل ضمنيًا على أن المسجد من وظائفه الدعوة والتقاء الدعاة بالمدعوين فعن أبي إدريس الخولاني قال: "دخلت مسجد دمشق"، فالمسجد يعد أهم الميادين الدعوية وأهم مركز إعلامي بين المسلمين، وأوثق صلة بين بعضهم البعض، وذلك لترددهم المستمر عليه ولقائهم بالبعض فيه، ولا يقتصر المسجد على إقامة الشعائر الدينية فحسب، بل هو مكان

للدعوة والوعظ والتدريس والتناصح والتعاون على البر والتقوى [١].

وذلك يندرج تحت إعمار المساجد المأمور به، وقد قَصَر الله ذلك على عباده المؤمنين، قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ۚ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ۖ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾[٢]، (فعمارة المساجد بالعبادة والصلاة وغيرها من أنواع الطاعات إنما يقوم به المؤمنون المخلصون)[٣].

ثانيًا- من واجبات المدعو: الرجوع لأهل العلم وأصحاب الرأي:

لقد أمر الله المؤمنين بطلب العلم الاستزادة منه، حتى تكون دعوتهم وعبادتهم على بينة وبصيرة، ومن روافد العلم والثقافة في الإسلام الرجوع لأهل العلم، ومثال ذلك ما ورد في الحديث: (فإذا فتى برّاق الثنايا، وإذا الناس معه، فإذا اختلفوا في شيء أسندوه إليه، وصدروا عن رأيه، فسألت عنه، فقيل: (هذا معاذ بن جبل رضي الله عنه) وقد أمرنا الله بالرجوع إلى العلم وأهله فقال: ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[٤]، إن العلم أساس صحة الاعتقادات والعبادات، إذ أن شرائع الإسلام واجبة ولا يمكن أداؤها إلا بعد معرفتها والعلم بها، فهل تمكن عبادة الله إلا بالعلم؟ وهل ينال العلم إلا بطلبه؟[٥]؛ لذا فلا جرم أن الإسلام جعل طلبه فريضة، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((طلب العلم فريضة على كل مسلم))[٦] والعلم المفروض هو العلم الذي طلب

(١) انظر: الدعوة الإسلامية "الوسائل والأساليب"، محمد خير رمضان يوسف ص ١١ - ١٤.

(٢) سورة التوبة، الآيتان: ١٧ - ١٨.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٢٩١.

(٤) سورة الأنبياء، آية: ٧.

(٥) انظر: فضل العلم والعلماء، ابن القيم الجوزي، ص ٢٩.

(٦) أخرجه ابن ماجه ٢٢٤، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ١٨٣).

العمل به، فالعلم بأحكام الصلاة فرض ومعرفة الحلال والحرام فرض، وهكذا كل ما وجب عمله وجب العلم به، وأية عبادة لا تبنى على علم ومعرفة فهي عبادة باطلة لا تقبل بحال أبدًا فالله لم يُعصَ بمعصية أشد من معصية الجهل.

وتشمل العلوم الواجبة تعلمها العلوم المستمدة من الوحي، كالتفسير والسنة والسير والتوحيد والفقه وغير ذلك، وما وراء ذلك من علوم الكون فهو مما يدعو أيضًا إليه الإسلام ويحث عليه لتعرف بسنن الله في الكون وأسراره في الخلق وحكمته في الوجود[١].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: مراعاة الأدب مع العلماء:

إن من موضوعات الدعوة المستنبطة من هذا الحديث: مراعاة قواعد التعامل مع العلماء ولزوم الأدب في مخاطبتهم حيث إننا نلمس أن أبا إدريس الخولاني راعى الأدب مع معاذ بن جبل رضي الله عنه، ويكمن ذلك في تهجيره إلى المسجد للقائه، وانتظاره حتى يفرغ من صلاته والإقبال عليه من قِبَل وجهه ومبادأته السلام وغير ذلك، قال: (فلما كان الغد هجرت فوجدته قد سبقني بالتهجير، ووجدته يصلى فانتظرته حتى قضى صلاته، ثم جئته من قِبَل وجهه فسلمت عليه، ثم قلت: إني لأحبك) وفي معاملة أبي إدريس وغيره من سلفنا الصالح لعلمائهم القدوة لنا في أصول التعامل مع العلماء، وإن فيما سطروه من بيان لآداب طالب العلم لنورًا، ينبغي لشداة العلم أن يستنيروا به في طريق الطلب، فعلى طالب العلم أن يتأدب مع شيخه، ويتقرب إلى الله بخدمته، ويعلم أن تواضعه لشيخه عزّ ورفعة وأن ينظر إليه بعين الإجلال وأن يعرف له حقه ولا ينسى له فضله وأن يعظم حرمته ويرد غيبته إلى غير ذلك من الآداب[٢].

رابعًا- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

تكرر السؤال والجواب في هذا الحديث مثل قول أبي إدريس الخولاني: (فقيل: هذا معاذ بن جبل رضي الله عنه: "فسألت عنه"، وأسلوب السؤال والجواب من الأساليب الدعوية

---

(١) انظر: عناصر القوة في الإسلام، السيد سابق، ص ٧٩، ٨٠.

(٢) انظر: موسوعة الحقوق الإسلامية، سعد يوسف أبو عزيز، ص ٦٤٦ - ٦٤٨.

الناجحة لما فيه الإقبال على الدعوة والاستجابة لها من قبل المدعوين، ولما في السؤال من لفت نظر السامعين وإثارة انتباههم وشدّ أذهانهم لما يلقى على مسامعهم.

والسؤال عن العلم والجواب من أوسع الأبواب لنشر العلم وتحصيله، قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[١].

خامسًا- من أساليب الدعوة: القسم والتوكيد:

تكرر التوكيد في هذا الحديث ومن أمثلته: "إني لأحبك"، وزيادة على ذلك تأكيده بالقسم بقوله: "والله" وأسلوب القسم من الأساليب الدعوية المؤكدة لها، وقد عرف العرب أسلوب القسم قديمًا وحديثًا واستعملوه تأكيدًا لخبر أو تعظيمًا لشيء، أو جمع الانتباه حول غاية[٢]. ومن هنا ينبغي للداعية أن يستخدم أسلوب القسم والتوكيد لبيان أهمية الموضوعات التي يتحدث فيها إذا كانت بحاجة إلى ذلك، وقد استخدم رسول الله ﷺ ذلك، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((فَوَالَّذي نَفْسي بِيَدِهِ لا يؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حتى أكونَ أَحَبَّ إليهِ من والدِهِ وَوَلَدِهِ))[٣]. قال الإمام العيني: (ويستفاد منه جواز القسم على الأمر المبهم توكيدًا وإن لم يكن هناك من يستدعي الحلف)[٤].

سادسًا- من صفات الداعية: التبشير:

إن من أهم الصفات التي ينبغي أن يتحلى بها الداعية: صفة التبشير لما فيه من أثر عظيم في القلوب، وقد ورد ذلك في الحديث في قول معاذ بن جبل رضي الله عنه لأبي إدريس الخولاني: (أبشر)، والبشارة المطلقة لا تكون إلا بالخير[٥]، والتبشير بالخير نسب إلى الله في القرآن: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّـٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾[٦]، والملائكة:

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ٧.

(٢) مستلزمات الدعوة في العصر الحاضر، علي بن صالح المرشد، ص ١٦٢.

(٣) أخرجه مسلم ٤٤.

(٤) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني ١/١٤٣.

(٥) موسوعة نضرة النعيم في أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن حميد ٣/٧٨٠.

(٦) سورة التوبة، آية: ٢١.

﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾(١)، والقرآن: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾(٢)، والمرسلين: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾(٣)، وخاطب الله رسول الله ﷺ بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾(٤)(٥)، فهو ﷺ مبشر لأهل الإيمان والمطيعين بمراتب فوزهم، وقدمت البشارة على النذارة في الآية لأن النبي ﷺ غلب عليه التبشير لأنه رحمة للعالمين، ولكثرة عدد المؤمنين في أمته(٦).

سابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل التحاب والتجالس والتزاور في الله:

لقد دعا الإسلام إلى كريم الأخلاق وجميل الصفات، ومنها التحاب في الله تعالى وإخبار المحبوب بذلك، وما ينتج عن تلك المحبة من بذل الغالي والنفيس، والتزاور والتجالس، كل ذلك ابتغاء وجه الله وإرادة ثوابه، ومما يدل على ذلك ما ورد في الحديث: (فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله تعالى: وجبت محبتي للمتحابين فيَّ، والمتجالسين فيَّ والمتزاورين فيَّ والمتباذلين فيَّ)، أي: المتحابين والمتجالسين والمتزاورين من أجل الله لا لعرض ولا لغرض، والمتباذلين فيَّ الذين يبذلون أنفسهم وأموالهم في مرضاتي(٧)، فإن الأثر الذي يجب أن يكون واضحًا في أخوة الإسلام، والطابع الذي يجب أن يتسم به المسلمون ويكون أساسًا لترابطهم وقيام وحدتهم هو الحب في الله، كما وجّه إلى ذلك رسول الله ﷺ وأوضح ثماره، فعن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: ((ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإيمان: أَنْ يَكونَ اللّٰهُ ورسولُه أحبَّ إليهِ مِمَّا

---

(١) سورة فصلت، آية: ٣٠.

(٢) سورة النحل، آية: ٨٩.

(٣) سورة النساء، آية: ١٦٥.

(٤) سورة الأحزاب، آية: ٤٥.

(٥) انظر: موسوعة نضرة النعيم ٣/٧٨٠ - ٨١١.

(٦) انظر: التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ٩/٢٢/٥٣.

(٧) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٦٠١.

سِواهُما، وأنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إلاّ لله، وأنْ يَكرَهَ أنْ يَعودَ في الكُفرِ كما يكرَهُ أنْ يُقذَفَ في النَّار))[١]، ولقد ضرب السلف -رضوان الله عليهم- أروع الأمثلة للحب في الله، حتى بلغ درجة الإيثار على النفس، وبكل مرتخص وغالٍ، فرسموا بذلك الطريق للسالكين، وامتدحهم الله على حسن صنيعهم وإيثارهم وتفانيهم في الحب في الله، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[٢][٣].

قال القاسمي: (قوله: "يحبون من هاجرإليهم" أي لوجود الجنسية في الصفاء والموافقة في الدين والإخاء، قال الشهاب: المراد بمحبتهم المهاجرين هنا: مواساتهم وعدم الاستثقال والتبرم منهم إذا احتاجوا إليهم، "ولا يجدون في صدروهم حاجة مما أوتوا" أي لا يجدون في أنفسهم طلبًا أو حسدًا مما أوتي المهاجرين من الفيء وغيره، لسلامة قلوبهم وطهارتها عن دواعي الحرص.

قال القاشاني: لتجردهم وتوجههم إلى جناب القدس وترفعهم عن مواد الرجس، وكون الفضيلة لهم أمرًا ذاتيًا باقتضاء الفطرة وفرط محبة الإخوان بالحقيقة والأعوان في الطريقة، فتقديمهم أصحابهم على أنفسهم لمكان الفتوة وكمال المروَّة ولقوة التوحيد والاحتراز عن حظ النفس)[٤].

إن هذا الحب هو دليل إيمان المؤمن بربه، وقائده إلى جنته[٥]، وصدق الرسول ﷺ ((لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا أو لا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم))[٦].

---

(١) أخرجه البخاري ١٦.

(٢) سورة الحشر، آية: ٩.

(٣) انظر: خطب القرعاوي المنبرية، عبد الله بن إبراهيم القرعاوي ٢/٦٧- ٦٨.

(٤) انظر: محاسن التأويل، محمد جمال القاسمي ٩/١٦/١٠١.

(٥) الإيمان والحياة، د. يوسف القرضاوي، ١٩١.

(٦) أخرجه مسلم ٥٤.

الحديث رقم (٣٨٣)

٣٨٣- وعن أَبي كَرِيمَةَ المقداد[١] بن معد يكرب رضي الله عنه، عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: ((إِذَا أَحَبَّ الرَّجُلُ أخَاهُ، فَلْيُخْبِرْهُ أَنَّهُ يُحِبُّهُ)) رواه أَبُو داود والترمذيُّ[٢]، وَقَالَ: (حديث صحيح).

ترجمة الراوي:

المقدام بن معدي كرب: هو المقدام بن معدي كرب بن عمر بن يزيد الكِنْدي، كنيته أبو كريمة وقيل غير ذلك.

قدم وهو صغير على النبي صلى الله عليه وسلم مع وفد كِنْدة وكانوا ثمانين راكبًا، فأسلم وداعبه النبي صلى الله عليه وسلم ومازحه، فاحتفظ المقدام بهذا ذكرى طيبة ومأثرة يفتخر بها. قيل له: إن الناس يزعمون أنك لم تر رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: سبحان الله، والله لقد رأيته وأنا أمشي مع عمي فأخذ بأذني هذه فقال لعمي: أترى هذا يذكر أمه أو أباه؟[٣]

ونصحه النبي صلى الله عليه وسلم فقال له: ((أفلحت يا قُدَيْمُ إن مُت ولم تكن أميرًا ولا جابيًا ولا عَرِيفًا[٤])).

---

(١) الصواب: (المقدام) كما في: سنن أبي داود، وجامع الترمذي.

(٢) أخرجه أبو داود (٥١٢٤)، والترمذي (٢٣٩٣) ولفظهما سواء. وصحّحه أيضًا ابن حبان (الإحسان ٥٧٠).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٠/رقم ٦٦٤) وأبو يعلى كما في المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية لابن حجر (١٨/ رقم ٤٦٢٦) وقال محقق المطالب: إسناده ضعيف.

(٤) أخرجه أبو داود (٢٩٣٣) وأحمد ١٣٣/٤ رقم ١٧٢٠٥، وقال محققو المسند: إسناده ضعيف ٤٣٦/٢٨، وقال السندي في حاشيته على مسند أحمد: قوله: يا قديم تصغير المقدام. ولا جابيًا من الجباية وهو استخراج الأموال من مظانها وهو كالسعاة للسلاطين. ولا عريفًا -بفتح العين وتخفيف-: هو القيم بأمر القبيلة والمحلة يلي أمرهم ويتعرف الأمير منه أحوالهم لمعرفته بها. وفي الحديث تحذير من التعرض للرياسة والتأمر على الناس لما فيه من الفتنة ولأنه إذا لم يقم بحقه ولم يؤد أمانة فيه إثم واستحق من الله العقوبة.

مسنده ٤٠ حديثًا ، انفرد البخاري منها بحديث.

نزل الشام وسكن حمص ومات بها ٨٧هـ وهو ابن إحدى وتسعين سنة. وقيل غير ذلك في تاريخ وفاته[1].

الشرح الأدبي

دعت أحاديث الباب السابقة إلى التحابب في الله، وبينت أثره على علاقة العبد بربه، وأخبرت عن ثوابه، وأجره، وهذا الحديث يشير إلى معنى مهم يحد ث الأثر الأكبر في علاقة المؤمنين ببعضهم، ويساعد على انتشار المحبة، وهو أن يخبر الأخ أخاه بأنه يحبه، وقد جاء المعنى في صورة خبرية سيقت مساق الخبر المعلوم دون مؤكدات، وقد جاءت في صورة الشرط الذي يربط وقوع الجزاء بوقع الفعل، والتعبير ب(إذا) الشرطية دون (إن) للدلالة على تحقق الوقوع؛ لأن ذلك واقع بين المؤمنين، والتعبير بلفظ المحبة يوحي بالمشاعر التي يريد الله أن تشيع بينهم، والتعبير بلفظ الأخوة إشارة إلى تلك الرابطة التي تجمع بين جميع المؤمنين، وفعل الشرط (فليخبره) أمر توجيه، وإرشاد، وتوكيد الجملة بعده تأكيد على ضرورة إعلامه بهذه المحبة التي تحقق التواصل، وتشركه في أجر المحبين، والتعبير بالفعل المضارع يفيد التجدد، والاستمرار للإخبار تجديداً للمحبة حتى تظل الرابطة قوية بين المؤمنين.

---

(١) الطبقات الكبرى، ابن سعد (٤١٥/٧) والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٧٠٢ وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٢٤٤/٥) والإصابة في تمييز الصحابة، ابن العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ١٢٨٣ والسير (٤٢٧/٣) وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين (٢١٥/٧) تهذيب التهذيب، ابن حجر (١٤٧/٤) والأعلام، خير الدين الزركلي (٢٨٢/٧) وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك (١٨٣٧/٣).

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الأمر.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: تقوية أواصر المحبة والمودة.

رابعًا: من مهام الداعي: دلالة المدعوين على الخير.

أولاً- من أساليب الدعوة: الأمر:

أسلوب الأمر من الأساليب الدعوية المفيدة التي تُشعر المدعو بأهمية ما يؤمر به المدعو ولعل الحكمة من هذا الأمر الوارد في الحديث التعجيل بالأسباب التي تؤدي إلى تعميق أواصر المودة والحبة بين المؤمنين، وقد ورد في الحديث في قوله ﷺ "فليخبره" .

ثانيًا- من أساليب الدعوة: الإخبار:

ورد هذا الأسلوب في قوله ﷺ "فليخبره" والإخبار هو نقل الأمر وتعريفه على حقيقته[1]، وذلك هو المنهج الحقيقي في الدعوة: تبليغها وتعريف الناس بها، وتبليغها إليهم. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾[2]، وذلك أمر من الله تبارك وتعالى لرسوله ﷺ، يخاطبه ربه آمرًا له بالإبلاغ بجميع ما أرسله الله به، وقد امتثل صلوات الله وسلامه عليه ذلك، وقام به أتم القيام[3].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: تقوية أواصر المحبة والمودة:

في هذا الحديث دعوة إلى التلاحم بين أفراد المجتمع الإسلامي والترابط فيما بينهم بتوطيد عريي المحبة والإخاء، فيقول ﷺ إذا أحب الرجل أخاه فليخبره أنه يحبه"، لأن في الإخبار بذلك استمالة قلبه، واستجلاب زيادة المحبة وفي ذلك حث على التودد والتآلف[4]، وإزالة الاختلاف بين المؤمنين[5]، حتى يكون المجتمع الإسلامي كما أراده

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (خ ب ر).

(٢) سورة المائدة، آية: ٦٧.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣/ ١٥٠.

(٤) عون المعبود ، العظيم آبادي، ص ٢١٨٧.

(٥) تحفة الأحوذي، المباركفوري، ٢/ ١٨٨٧.

الله وأراده رسوله ﷺ لُحمَة واحدة، كما روى عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى[(١)].

إن شيوع المحبة والمودة من أسباب استقرار المجتمعات وتماسك أفرادها، قال الراغب الأصفهاني: المحبة والعدل من أسباب نظام أمور الناس، ولو تحاب الناس وتعاملوا بالمحبة لاستغنوا بها عن العدل، فقد قيل: العدل خليفة المحبة يستعمل حيث لا توجد المحبة، ولذلك عظم الله المنة بإيقاع المحبة بين أهل الملة. فقال عزَّ من قائل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾[(٢)]، أي محبة في القلوب[(٣)].

إن محبة المؤمن لأخيه المؤمن وتقوية أواصر المودة والترابط دليل حرص المؤمن على كمال إيمانه وصفاء قلبه، قال أبو عثمان الجاحظ: ينبغي لمحب الكمال أن يعوِّد نفسه محبة الناس والتودد إليهم والتحنن عليهم والرأفة والرحمة لهم، فإن الناس قبيل واحد متناسبون تجمعهم الإنسانية[(٤)].

رابعًا- من مهام الداعي: دلالة المدعوين على الخير:

إن مما ينبغي أن يضطلع به الداعي: دلالة المدعوين على الخير وحثهم عليه، وليكن له في رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة، فما ترك خيرًا إلا ودل الأمة عليه، ومن ذلك ما جاء في الحديث "إذا أحب الرجل أخاه فليخبره أنه يحبه" فالدلالة على الخير من المهام التي ينبغي أن يضطلع بها الداعية إلى الله تعالى، قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾[(٥)]، وعن أبي مسعود الأنصاري قال: جاء رجل إلى

---

(١) أخرجه البخاري ٦٠١١.

(٢) سورة مريم، آية: ٩٦.

(٣) الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الأصفهاني، ص٣٦٤.

(٤) انظر: تهذيب الأخلاق، الجاحظ ص ٥٥، ٥٦.

(٥) سورة الصف، آية: ١٠.

النبي ﷺ، فقال: إني أبدع فاحملني، فقال : ما عندي، فقال رجل: يارسول الله: أنا أدله على من يحمله، فقال رسول الله ﷺ "من دل على خير فله مثل فاعله"[١]، ومن أعلى درجات الخير الدعوة إلى الله عز وجل[٢]. قال تعالى ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[٣]، أي دعا عباد الله إلى الله، وهو في نفس الوقت في نفسه مهتد بما يقوله، فنفعه لنفسه ولغيره لازم ومتعد وذلك عام في كل من دعا إلى خير وهو في نفسه مهتد[٤].

(١) أخرجه مسلم ١٨٩٣.

(٢) انظر: الأعمال الصالحات، فضل عبدالرازق محمود، ص ١٤٠.

(٣) سورة فصلت، آية: ٣٣.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١٧٩/٧.

الحديث رقم (٣٨٤)

٣٨٤- وعن معاذ رضي الله عنه : أن رَسُول الله ﷺ أخذ بيدِهِ، وَقالَ: ((يَا مُعَاذُ، وَاللهِ، إنِّي لأُحِبُّكَ، ثُمَّ أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لاَ تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاَةٍ، تَقُولُ: اللَّهُمَّ أعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ)) حديث صحيح، رواه أَبُو داود والنسائيُّ[1]، بإسناد صحيح.

ترجمة الراوي:

معاذ بن جبل: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٦١).

غريب الألفاظ:

دبر كل صلاةٍ: عقبها أو خلفها أو آخرها[2].

الشرح الأدبي

نرى دائما فعل الرسول ﷺ يسبق قوله، وإذا أمر بشيء كان أول من يفعله حرصاً منه على الخير، وإيجاداً للقدوة الصالحة للأمة في دروب الخبر، وقول الرسول ﷺ (يا معاذ) نداء تنبيه، وتكريم، والقسم بالله توكيد لتعظيم ما بعده، وتنبيهاً إلى العناية به، والتوكيد بـ(إن) واللام الداخلة على الفعل المضارع الذي يعطي المعنى استمرارية، ويدل على دوام المحبة، وكثافة هذه المؤكدات تربي المهابة، والعناية والاهتمام بمضمون الخبر مع تمهيد النفوس له بما يدخله عليها دخول الخبر المأنوس، وفيه شرح لصدره؛ لأن الذي يخبره بأنه يحبه هو حبيب الله، والمؤمنين، وخير خلق الله ثم إن هذا الإحساس يبعثه على الاهتمام بما بعده من إرشادات، ونداؤه للمرة الثانية، وهو مقبل عليه مدرك لما يقول يدلل على محبته، وفيه مزيد تودد، وتكريم، والنهي في

---

(١) أخرجه أبو داود (١٥٢٢) واللفظ له، والنسائي في المجتبى (١٣٠٣). وكذا قال المؤلف في الخلاصة (١٥٤٨). وصحّحه ابن خزيمة (٧٥١)، وابن حبان (الإحسان ٢٠٢٠)، وقال الحاكم (٢٧٣/١): هذا حديثٌ صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. أورده المنذري في ترغيبه (٢٣٨٠)، وسيكرره المؤلف برقم (١٤٢٤).

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ٦٨٩.

قوله: (لا تدعن) نهي عن ترك الذكر للتوجيه، والإرشاد، والتعبير بالدبر يفيد تعقيب الصلاة بالذكر مباشرة، وترتيب كلمات الدعاء بدأ بالذكر لأنه يؤدي إلى الشكر، والذكر والشكر يؤديان إلى حسن العبادة، وقد تضمَّن عناصر إصلاح الصلاة، ودوامها، ومواصلة الذكر، وتصدَّره الدعاء بصيغة (اللهم) التي تملأ القلب خشوعاً، خضوعاً، وتوحي بحالة من السكينة تحقق القبول.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكمين فقهيين:

الأول: حكم الأذكار المسنونة عقيب الصلاة، وقد ذكر الفقهاء[1] أنه يسن للمصلي أن يأتي بالأذكار المسنونة عقب الصلاة من نحو حمد الله تعالى وشكره والصلاة على نبيه ﷺ، وأفضل الأذكار في هذا الشأن ما ورد نصًا عن النبي ﷺ ومنها قوله في هذا الحديث: "اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك".

الثاني: حكم الدعاء بعد الانتهاء من الصلاة، وقد ذكر جمهور الفقهاء[2] أنه يستحب الدعاء بعد الأعمال الصالحة، ومنها الدعاء بعد الصلوات المكتوبة لما فيها من رجاء الإجابة، وخير ما يدعو به المرء الإعانة على الذكر والشكر.

---

(١) رد المحتار على الدر المختار ٥٣٠/١، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد المغربي ١٢٧/٢، والمدخل لابن الحاج ٢٩٦/٢، والمجموع شرح المهذب، النووي ٤٦٧/٣، وحاشيتا قليوبي وعميرة ١٩٨/١، ومغني المحتاج ٣٩٣/١، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، عبدالرحمن بن قاسم ٢٠٥/٢، ٢١٨، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٣٦٠/١، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، الشوكاني ٢٤٣/٢، وسبل السلام ٢٩٧/١.

(٢) المدخل لابن الحاج ٢٨٠/٢، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد المغربي ١٢٦/٢ وما بعدها، والأم، الإمام الشافعي ١٥١/١، والمجموع شرح المهذب، النووي ٤٦٨/٣ وما بعدها، والغرر البهية في شرح البهجة الوردية، القاضي أبو يحيى الأنصاري ٣٣٩/١، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٣٢٧/١، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٢٠٦/١، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٤٦/٢١.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النداء.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: الوصية.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: القسم والتوكيد.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل معاذ بن جبل رضي الله عنه.

خامسًا: من آداب الداعية: اتباع الأساليب التربوية الحكيمة.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: فضل الذكر بعد الصلاة.

سابعًا: من موضوعات الدعوة: استحباب الدعاء بالمأثور والجوامع من الدعاء.

أولاً- من أساليب الدعوة: النداء:

ورد أسلوب النداء في الحديث في قوله ﷺ "يامعاذ" وأسلوب النداء أسلوب دعوي ناجح لما فيه من التقرب والتحبيب إلى المدعو بتخصيصه، والنداء عليه باسمه وهذا مما يورث المودة والمحبة في القلب. وقد استخدم القرآن النداء في كثير من الآيات، وقد وردت نداءات عامة كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾[1]، ونداءات لأمة التوحيد والتي إذا ما ناداها ناداها بأفضل وصف وهو الإيمان كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾[2]، فإن الله إذا نادى عباده الطائعين ناداهم بعنوان الإيمان، لأن المؤمن حي بإيمانه والله سبحانه إذا نادى عباده المؤمنين إنما يناديهم ليأمرهم بما فيه سعادتهم وكمالهم أو لينهاهم عما فيه شقاؤهم ونقصانهم أو ليبشرهم أو ينذرهم أو ليعلمهم ما ينفعهم[3].

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢١.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٨٣.

(٣) نداءات الرحمن لأهل الإيمان، أبو بكر الجزائري، ص٧.

ثانيًا- من أساليب الدعوة: الوصية:

تعددت أساليب الدعوة في هذا الحديث ومنها الوصية والتي وردت في قوله ﷺ "ثم أوصيك" وقد تكرر أسلوب الوصية في القرآن وفي السنة في عرض الدعوة إلى الله من ذلك قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[١]، ووصف الله مجتمع المؤمنين بالتواصي بالخير قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾[٢]، أي أوصى بعضهم بعضًا بالحق أى الإيمان والتوحيد وتواصوا بالصبر على أداء الفرائض وإقامة أمر الله[٣]، وذلك من أسباب السلامة من الخسار، والفوز بالربح العظيم[٤].

ثالثًا- من أساليب الدعوة: القسم والتوكيد:

ورد هذا الأسلوب في الحديث في قوله ﷺ "والله إني لأحبك" فأكد محبته لمعاذ بعدة مؤكدات "إن"، ولام التوكيد كما أكده بالقسم الذي عرفه الناس واستعملوه تأكيدًا لخبر أو تعظيمًا لشيء أو جمع الانتباه حول غاية، والمقصود بالقسم في الحديث ثبوت المقسم عليه[٥]، وهو محبة رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه.

وقد استخدم القرآن أسلوب القسم في تقرير كثير من الحقائق وإقناع الناس بها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾[٦]، وقوله: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾[٧].

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٣٢.

(٢) سورة العصر، آية: ٣.

(٣) معالم التنزيل، البغوي، ٥٢٥/٨، ٥٢٦.

(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٨٦٤.

(٥) انظر: الدعوة الإسلامية، أصولها ووسائلها، د أحمد أحمد غلوش، ص ٣٢٧-٣٣٤.

(٦) سورة الذاريات، آية: ٢٣.

(٧) سورة يونس، آية: ٥٣.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل معاذ بن جبل:

لقد عد كتّاب الرجال والمناقب كثيرًا من فضائل معاذ بن جبل والتي ورد في الحديث منها محبة رسول الله ﷺ له وقَسَمُ رسول الله ﷺ على ذلك إضافة إلى أخذ يده ، قال العظيم آبادي (وكأنه عقد محبة وبيعة مودة ، ثم قال له "أوصيك يامعاذ لا تدعن"، أي إذا أردت ثبات هذه المحبة فلا تتركن)[١] ، وقال ابن علان: (وهذا الحديث أوفى شاهد على فضل معاذ وكمال استقامته واهتمامه بأمور ديانته؛ حيث حصل له هذا المقام الأسني من المصطفى، وذكره توطئة وبعثًا له على امتثال أمره بعده، وقال بعضهم لما صحت محبة معاذ للنبي ﷺ ، جازاه بأعلى منها كما هو عادة الكرام ولا أكرم منه ﷺ)[٢]. وتلك من مناقب معاذ بن جبل وفضائله الجمة التي اشتهر بها والتي كان من أبرزها ما حباه الله به من علم وفقه في الدين، فلقد كان معاذ بن جبل رضي الله عنه من الصحابة الأجلاء، وكان من الذين يبعثهم رسول الله ﷺ ويعتمد عليهم في تعليم الناس، قال ابن عبدالبر عنه: (شهد العقبة وبدرًا والمشاهد كلها وبعثه رسول الله ﷺ قاضيًا إلى الجَنَد من اليمن يُعلِّم الناس القرآن وشرائع الإسلام ويقضي بينهم)[٣].

وجاءت الأحاديث الصحيحة، والتي تشيد بمعاذ بن جبل رضي الله عنه ومكانته العلمية منها ما روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : ((أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ، وأَشَدُّهُمْ فِي أَمْرِ اللَّهِ عُمَرُ وأَصْدَقُهُمْ حَيَاءً عُثْمَانُ بنُ عَفَّانَ وأَعْلَمُهُم بالْحَلَالِ والْحَرَامِ مُعَاذُ بنُ جَبَلٍ، وَأَفْرَضُهُمْ زَيْدُ بنُ ثابتٍ، وَأَقْرَؤُهُم أُبَيُّ بنُ كَعْبٍ، ولِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ. وأَمِينُ هَذِهِ الأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بنُ الجَرَّاحِ))[٤]. وكان رضي الله عنه من الذين جمعوا القرآن

---

(١) عون المعبود شرح سنن أبي داود ، محمد شمس الحق العظيم أبادي ٦٨٩.

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٦٠٢، الإصابة في تمييز الصحابة ، ابن العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ص ١٢٥٢-١٢٥٣.

(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٦٥١.

(٤) أخرجه الترمذي ٣٧٩٠، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي، ٢٩٨١).

على عهد رسول الله ﷺ وأمر النبي ﷺ بأخذ القرآن عنهم، فعن قتادة قال «سألْت أنس بن مالك رضي الله عنه: من جمع القرآنَ على عهدِ النبيِّ ﷺ؟ قال: أربَعَةٌ كلُّهم من الأنصار أبيُّ بن كعب ومُعاذُ بن جَبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد»[١]. وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: «سمعت النبي ﷺ يقول: خذوا القرآن من أربعة من عبدالله بن مسعود وسالم ومعاذ وأبي بن كعب»[٢].

خامسًا- من آداب الداعية: اتباع الأساليب التربوية الحكيمة:

إن اتباع الأساليب التربوية الحكيمة من أقرب الطرق للوصول إلى قلب المدعو ونجاح الدعوة، وفي الحديث نجد أن الرسول ﷺ اتبع عدة من الأساليب التربوية في تعليمه لمعاذ من أخذه بيده ومناداته باسمه وإخباره بمحبته وغير ذلك[٣]، "أن رسول الله أخذ بيده وقال يامعاذ والله إني لأحبك ثم أوصيك يا معاذ..." الحديث.

لذا ينبغي على الداعية اتباع ما جاء في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ من أساليب تربوية حكيمة التي من شأنها إذا اتُبعت الوصول بالمجتمع إلى غاية من الرفعة والسمو.

إن القرآن هو الذي قام فعلاً بدور التربية وله فيها منهج فريد يربي بآيته متى صادف الفطرة السليمة والقلب الذكي والعقل الواعي والقدوة الحسنة.

وكان الرسول ﷺ هو المبلغ عن ربه والقدوة الحسنة وصاحب التطبيق العملي لمنهج الداعية الفاهم لدعوته والمربي الذي أوتي كل صفات التربية، فوصل أصحابه بالله عن فهم ومعرفة وإيمان ووصلهم بالقرآن، ففهموه على أنه أوامر للتنفيذ فكان زاد قلوبهم ومطهر نفوسهم وموجه سلوكهم وصلة بينهم وبين ربهم[٤].

سادسًا- من موضوعات الدعوة: فضل الذكر بعد الصلاة:

إن من موضوعات الدعوة المستنبطة من هذا الحديث فضل الذكر بعد الصلاة،

---

(١) أخرجه البخاري ٣٤١، ومسلم ١٩١٤.

(٢) أخرجه البخاري ٣٤٢.

(٣) نزهة المتقين، شرح رياض الصالحين، د. مصطفى البغا وآخرون، ٢٩٧/١.

(٤) انظر: منهج القرآن في التربية، محمد شديد، ص ١١.

فقد ورد ذلك في وصية رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل "لا تدعن في دبر كل صلاة تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك". قال العظيم آبادي: (قوله: "أخذ بيده" كأنه عقد محبة وبيعة مودة، وأوصى معاذ بن جبل بقوله "أحببتك يا معاذ لا تدعن..." أي إذا أردت ثبات هذه المحبة فلا تتركَنَّ عقب كل صلاة أن تقول اللهم أعني على ذكرك من طاعة باللسان وشكرك من طاعة بالجنان وحسن عبادتكم من طاعة الأركان)(١).

وقد أرشد القرآن إلى الذكر بعد الصلوات فبعد ما أمر بالصلوات الخمس حث على الذكر بعدها، قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ۝ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾(٢)، قيل أنه أراد به الصلوات الخمس، وقال أبو صالح: قبل طلوع الشمس صلاة الصبح وقبل الغروب صلاة العصر، وقال ابن عباس: وقبل الغروب الظهر والعصر، ومن الليل فسبحه، أى صلاة العشاءين، وأدبار السجود. ومن تفسيراتها قال أبو الأحوص: هو التسبيح في أدبار السجود، قال ابن العربي: وهو الأقوى في النظر(٣)، وذكر الله ودعاؤه مظهر من مظاهر التوحيد وإظهار الفقر والفاقة إلى الله وشدة الحاجة والفقر إليه وفيه يجد العبد طعم المحبة في التقرب من الله والتملق له(٤).

سابعًا- من موضوعات الدعوة: استحباب الدعاء بالمأثور والجوامع من الدعاء:

إنَّ أفضل الأدعية والأذكار ما ورد في كتاب الله وحديث رسول الله ﷺ، لما في ذلك من صلة المسلم بكتاب ربه وسنة نبيه ﷺ، والدعاء بجوامع الكلم، ألا ترى في وصية الرسول ﷺ لمعاذ بهذا الدعاء دعاءً جامعًا تضمن الإعانة على جميع العبادات

---

(١) انظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ٦٨٩.

(٢) سورة ق، الآيتان: ٣٩، ٤٠.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢٤/١٧/٩، ٢٥.

(٤) انظر: الفوائد، شمس الدين ابن القيم، ص ٢٨٤.

فقوله: "أعني على ذكرك" أى من طاعة اللسان، "وشكرك"، من طاعة الجنان، "وحسن عبادتك" من طاعة الأركان"[١]، كما أن الذكر شامل للقرآن وسائر الأذكار والشكر يشمل شكر النعم الظاهرة والباطنة سواء كانت دينية أو دنيوية والتي لا يمكن أن يحصيها حاصٍ ولا يعدها عادٍ ، وقوله "وحسن عبادتك" أى القيام بشرائطها وأركانها وسننها من خضوع وخشوع وإخلاص واستغراق وتوجه تام[٢].

---

(١) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ص ٦٨٩.

(٢) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٦٠٣.

الحديث رقم (٣٨٥)

٣٨٥- وعن أنس ﵁: أنَّ رَجُلاً كَانَ عِنْدَ النَّبيِّ ﷺ، فَمَرَّ رَجُلٌ بِهِ، فَقَالَ: يَا رَسُول الله، أنِّي لأُحِبُّ هَذَا، فَقَالَ لَهُ النَّبيّ ﷺ: ((أأعْلَمْتَهُ[١]؟)) قَالَ: لا. قَالَ: ((أعْلِمْهُ)) فَلَحِقَهُ، فَقَالَ: إنِّي أُحِبُّكَ فِي الله، فَقَالَ: أَحَبَّكَ الَّذِي أحْبَبْتَنِي لَهُ. رواه أَبُو داود[٢] بإسناد صحيح.

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

الشرح الأدبي

الحديث تطبيق عملي لأمره بأن يعلم الأخ أخاه إذا أحبه، وقام المعنى على الحوار بين النبي ﷺ وبين أحد أصحابه بدأ بنداء تكريم وتشريف للرسول ﷺ إيذاناً بالتوجه بالخطاب إليه، وتمهيداً لما بعده، وقوله (أنِّي لأُحِبُّ هَذَا) ونلاحظ أن أكثر الجمل التي تحمل الإخبار بالمحبة تتضمن عدة عناصر من التوكيد كما مرَّ في الأحاديث السابقة، وكما نرى في هذا الحديث، ولعل ذلك يرجع إلى أن المحبة عمل قلبي لا يظهر، ولا يمكن لأحد أن يطلع عليه؛ فاحتاج الإخبار عنه إلى مزيد توكيد يدفع الشك، ويدخله على النفوس، وهي مهيأة لقبوله، ولذلك أكد العبارة ب(إن) واللام الداخلة على خبر إن، وميَّز المقصود بالإشارة، وقول النبي ﷺ له (أأعْلَمْتَهُ؟) استفهام على حقيقته تمهيداً لإخباره ما ينبغي عليه بأمره بإعلامه، والتعبير بالفعل (لحق) الدال على المتابعة عن قرب، واتصال الفعل بضمير المحبوب دلالة على سرعة استجابة الرجل للرسول ﷺ، وفيه دليل على صدقه، وقد جاء خبره لمن يحب ببعض عناصر التوكيد، وقد جاء رده مفعماً بالمودة، والمحبة (أَحَبَّكَ الَّذِي أحْبَبْتَنِي لَهُ) فقد عبَّر بالماضي الدال على

---

(١) لفظ أبي داود: (أعملته).

(٢) برقم (٥١٢٥). وصحّحه ابن حبان (الإحسان ٥٦٩).

التحقق، والموصول الدال بصلته على من جمعتهم المحبة فيه، وهو الله، واللام في قوله (له) تدل على السببية أي الذي أحببتني بسببه، وإفصاح كل منهما لأخيه عن محبته يقويها، ويضمن لهما الجر من الله كما أنها وسيلة لنشر المحبة بين في أرجاء الأمة.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعـوة: النداء.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: التوكيد.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

رابعًا: من أساليب الدعوة: الأمر.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: إظهار محبة المؤمن لأخيه وإخباره بها.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: إخلاص المحبة لله تعالى.

أولاً- من أساليب الدعـوة: النداء:

من أساليب الدعـوة والتي لها بالغ الأثر في تأليف القلوب وإقبال النفوس لما فيها من إظهار المحبة: أسلوب النداء وقد ورد في الحديث في قول الرجل "يا رسول اللـه" وفيه أن النداء إذا كان لأصحاب الفضل لابد أن يُراعى فيه التوقير والاحترام خاصة مع رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾[1]. قال قتادة: أمر الله أن يُهاب نبيُّه ﷺ وأن يُبَجّل وأن يُسَوَّد، وقال مقاتل: لا تسموه إذا دعوتموه يا محمد ولا تقولوا ياابن عبد الله، ولكن شرفوه فقولوا: يا نبي الله يا رسول الله[2].

ثانيًا- من أساليب الدعوة: التوكيد:

ورد هذا الأسلوب في قول الرجل لرسول الله ﷺ: "إني لأحب هذا" والتوكيد من الأساليب الدعوية المفيدة لما يلقيه في قلب المدعو من التصديق واليقين الناشئ عن

---

(١) سورة النور، آية: ٦٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨٨/٦، ٨٩، زاد المسير، ابن الجوزي، ٦٨/٦.

تأكيد الداعي لدعوته. وقد استخدم القرآن أسلوب التأكيد في تقرير كثير من القضايا خاصة ما يتعلق بجانب العقيدة، مثل قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾(١)، وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾(٢).

ثالثًا- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

ورد السؤال والجواب في هذا الحديث: "فقال له النبي ﷺ أعلمته ؟ قال لا"، والسؤال والجواب من الأساليب التي ينبغي أن تراعى في الدعوة لما فيها من تثبيت ما يدعى إليه في أذهان المدعوين، لما فيه من المؤثرات من استدعاء للفت الأنظار وإثارة الانتباه وشدّ الأذهان. واتباع أسلوب السؤال والجواب في الدعوة والحوار يجعل المدعوين في حالة استعداد فكري ونفسي لمعرفة الإجابة على الأسئلة المطروحة، وهذا الاستعداد أمر مهم جدًا لتلقف المعرفة واختزانها في الذاكرة ثم لتطبيق إرشاداتها في السلوك، فيجب على حامل الرسالة أن يستثمر هذا الاستعداد إلى أقصى حد ممكن(٣).

رابعًا- من أساليب الدعوة: الأمر:

إن الأمر من الأساليب الدعوية الناجحة ولاسيما في مجتمع المؤمنين لما للأمر من إظهار لأهمية المأمور به وحمل المدعوين على امتثالهم لما تضمنه ما أمروا به، وقد ورد الأمر في الحديث في قوله ﷺ: ((أعلمه)). وقد ورد أسلوب الأمر في كثير من آي القرآن، مثل قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾(٤)، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾(٥)، والأمر إذا كان من قِبَل الله أو من قبل

---

(١) سورة الذاريات، آية: ٢٣.

(٢) سورة سبأ، آية: ٣.

(٣) انظر: فقه الدعوة إلى الله، عبدالرحمن حسن حبنكة، ٥٩/٢.

(٤) سورة طه، آية: ١٣٢.

(٥) سورة النحل، آية: ٩٠.

رسوله ﷺ يتسابق المؤمنون لتحقيقه والوفاء بالمراد منه[١] وقد وصف الله المؤمنين بهذه الاستجابة المطلقة بلا تأخر ولا تلكؤ ولا تراجع وذلك مقتضى الإيمان، قال تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾[٢].

خامسًا- من موضوعات الدعوة: إظهار محبة المؤمن لأخيه وإخباره بها:

إن من حقوق الأخوة بين المؤمنين أن يظهر المؤمن بمحبته لأخيه ويخبره بها، لما في ذلك من إظهار المحبة وشيوع المودة بين أفراد المجتمع الإسلامي، وذلك ما تضمنه الحديث من أمر رسول الله ﷺ بإخبار الرجل لمن يحب بتلك المحبة "فقال يا رسول الله إني لأحب هذا، فقال له النبي ﷺ أعلمته ؟ قال لا، قال أعلمه، فلحقه فقال إني أحبك في الله، فقال أحبك الذي أحببتني له" أي أخبره لأن في الإخبار بذلك استمالة قلبه واستجلاب زيادة المحبة، قال الخطابي: (معناهُ الحث على التودد والتآلف؛ وذلك أنه إذا أخبره أنه يحبه استمال بذلك قلبه واجتلب وده)[٣]، وإذا شاعت المحبة في المجتمع على النحو الذي أراده رسول الله ﷺ فسيكون مترابطًا تعلو فيه قيم الأخوة والمحبة والمودة، فالمحبة هى صمام الأمان للمجتمعات، وإذا كان قانون الجاذبية يمسك الأرض والكواكب والأفلاك أن تصطدم فتتساقط أو تحترق وتزول، فقانون المحبة هو الذي يمسك العلاقات الإنسانية أن تتصادم أو تتهاوى[٤].

سادسًا: من موضوعات الدعوة: إخلاص المحبة لله تعالى:

إن إخلاص العمل لله تعالى هو شرط قبولها، وكما روى عن عمر رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إنما الأعمال بالنيات))[٥]، وفي شرح الحديث قال ابن عجلان:

---

(١) العهد والميثاق في القرآن الكريم، د. ناصر العمر، ص٥٠.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٨٥.

(٣) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ص ٢١٨٧.

(٤) انظر: الإيمان والحياة، د. يوسف القرضاوي، ص ١٧٥.

(٥) أخرجه البخاري ١، ومسلم ١٩٠٧.

"لا يصلح العمل إلا بثلاث: التقوى لله والنية الحسنة، والإصابة"(١)، لذا ركز النبي ﷺ في الحديث على أن تكون المحبة لله "فقال يا رسول الله إني لأحب هذا فقال له النبي ﷺ أعلمته؟ قال لا، قال: أعلمه، فلحقه فقال إني أحبك في الله، فقال أحبك الله الذي أحببتني له"، فالإنسان مكلف بأن يتجه بأعماله كلها إلى الله وحده، ومنها المحبة التي وردت في الحديث وهي من الأعمال القلبية التي يجب أن يتوجه العبد بها لله كما يتوجه إليه بالأعمال الظاهرة(٢).

إن إخلاص المحبة وكونها خالصةً ومن أجل الله تعالى وحده أصل لجني ثمار المحبة والتي منها:

١- استحقاق العبد لمحبة الله تعالى، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ:((أن رجلاً زار أخًا له في قرية أخرى فأرصد الله له على مدرجته ملكًا فلما أتى عليه قال أين تريد؟ قال أريد أخًا لي في هذه القرية، قال هل لك عليه من نعمة تربها؟ قال لا غير أني أحببته في الله عز وجل قال: فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه))(٣).

٢- الاستظلال بظل الله تعالى يوم القيامة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إن الله يقول يوم القيامة أين المتحابون بجلالي اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي))(٤).

٣- شرط لاستكمال الإيمان، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه))(٥).

٤-وُجدان حلاوة الإيمان، فعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((ثلاث من كن فيه

---

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس، ٧١/١.

(٢) انظر: الإخلاص، د. عمر سليمان الأشقر، دار النفائس، الأردن، دون ذكر رقم الطبعة والتاريخ، ص١٥.

(٣) أخرجه مسلم ٢٥٦٧.

(٤) أخرجه مسلم ٢٥٦٦.

(٥) أخرجه البخاري ١٣ واللفظ له، ومسلم ٤٥.

وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن أحب عبدًا لا يحبه إلا لله، ومن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله كما يكره أن يلقى في النار))[١].

قال أبو العباس القرطبي: (وقوله: "ثلاثًا من كن فيه وجد حلاوة الإيمان" إنما خص هذه الثلاث بهذا المعنى؛ لأنها لا توجد إلا ممن تنور قلبه بأنوار الإيمان واليقين وانكشفت له محاسن تلك الأمور؛ التي أوجب له تلك المحبة التي هي حال العارفين.

وقوله: "وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله" يعني بالمرء هنا المسلم المؤمن؛ لأنه هو الذي يمكن أن يخلص لله تعالى في محبته وأن يتقرب لله تعالى باحترامه وحرمته، فإنه هو الموصوف بالأخوة الإيمانية والمحبة الدينية، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[٢].

وقد أفاد هذا الحديث أن محبة المؤمن الموصلة لحلاوة الإيمان لا بد أن تكون خالصة لله تعالى، غير مشوبة بالأغراض الدنيوية والحظوظ البشرية؛ فإن من أحبه لذلك انقطعت محبته إن حصل له ذلك الغرض أو يئس من حصوله.

إن محبة المؤمن وظيفة متعينة على الدوام وجدت الأعراض أو عدمت، وعلى الجملة فمحبة المؤمنين من العبادات التي لا بد فيها من الإخلاص في حسن النيات[٣].

---

(١) أخرجه البخاري ٢١ واللفظ له، ومسلم ٤٣.

(٢) سورة الحجرات، آية: ١٠.

(٣) انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم ١/٢١١-٢١٥.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

من هدي الإسلام تربية أتباعه على حب الآخرين، هذا الحب لا ينتج عن تعامل مادي، ولا ترابط عصبي، بل أساسه التقرب إلى الله به، ومثل هذه الروح إن سرت في المجتمع وجدت أفراده متعاونين متآلفين متحابين كأنهم لبنات في بنيان مرصوص يشد بعضه بعضاً.

إن طرق الجنة في الإسلام كثيرة وإن أبوابها مفتوحة لكل من يلتمس أسباب الدخول، ومنها ما لا يكلف الإنسان عبئاً مادياً ولا جهداً جسمانياً، بل شعور روحي بحق هذا أو ذلك.

وإشاعة روح المحبة مما يحمده الإسلام حتى إنه أوجب إخبار من نحب بحبنا له، وأن نعلن أن ذلك مما يبتغى به وجه الله، لا عرض دنيوي ولا منفعة مادية. ومن المضامين التربوية في أحاديث الباب:

أولاً- من مهام المربي: بيان فضل الإخلاص في القول والعمل:

وذلك ببيان شيم المخلصين، الذين رسخ الإيمان في قلوبهم، فهم يجدون حلاوته، فأول هذه الخصائص: "أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا"، والثانية: "أَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّهُ إلاّ للّه"، والثالثة: " أَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ ...".

فحبُّ الله تعالى من أساسيات الإيمان، ومن واجبات الإخلاص، "فإن من عرف نفسه وعرف ربَّه عرف قطعًا أنه لا وجود له من ذاته؛ وإنما وجود ذاته وكمال وجوده من الله وإلى الله وبالله"، أما حب الرسول ﷺ فإنه واجب ومحمود؛ "لأنه أثر عن حبِّ الله تعالى" [(١)].

ومن الإخلاص أيضًا: الحبُّ في الله تعالى، وقد أخبر النبي ﷺ عن المتحابين في الله، وكيف يكون جزاؤهم في الدنيا والآخرة، وعندما أراد رجلٌ أن يزور أخاه في

---

(١) تزكية الأنفس، سعيد حوَّى، ص٢٨١.

الله، قيد الله له ملكًا يقول له: "إن الله قد أحبك كما أحببته فيه"، وهذا معاذاً بن جبل رضي الله عنه يخبر بحبه في الله بما سمعه من النبي ﷺ: «قَالَ اللَّه تَبَارَكَ وَتَعالَى: وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ ... ».

وهذا الحب في الله يوجب على صاحبه المصارحة به إلى من يُحبُّ، حتى يعمَّ الحب ويدوم إذا كان متبادلاً، يقول ﷺ: «إِذَا أَحَبَ الرَّجُلُ أَخَاهُ فَلْيُخْبِرْهُ أَنَّهُ يُحِبُّهُ».

ولقد دلّنا النبي ﷺ على سبب الحب بقوله: «أَوَلا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ «أَفْشُوا السَّلاَمَ بَيْنَكُمْ».

ثانيًا- التربية على علو الهمة:

لم يكن المربي الأول يعلم أصحابه ما ينجيهم من عذاب النار ويقربهم من الجنة فحسب؛ بل إنه دائمًا ما كان يخبرهم بما يرفعهم إلى أعلى الدرجات وأسمى الغايات، في الدنيا والآخرة.

يقول ﷺ: "سبعة يظلهم الله في ظله ..."، ثم عدَّ سبعة أصناف من الناس الذين علت هممهم، وتساموا واستعلوا بأخلاقهم وأفعالهم، حتى استحقوا هذا الظل الدائم الوارف.

إن ما يجمع بين هؤلاء السبعة هو الإخلاص وعلو الهمة، والتطلع إلى معالي الأمور، والترفع عن الدنايا والصغائر؛ فأولهم "إمام عادل"، كان بإمكانه أن يكون ظالمًا، ولكنه رأى نفسه كبيرًا فعدل في ملكه، وثانيهما: "شاب نشأ في عبادة الله"، مع أن الشباب مظنة المعاصي والتجاوز؛ نظرًا للقوة والفتوة والفحولة والنشاط والحيوية، ومع ذلك فإن هذا الشاب تغلب على غرائزه، وكبح شهواته، فنشأ في عبادة الله، وهذا يعد من النماذج الرائعة التي ينبغي أن تحتذى، ويربي الإنسان نفسه على أن يكون نموذجًا طيبًا مثل هذا الشاب الذي نشأ في عبادة الله.

أما الثالث: فقلبه "معلق بالمساجد"، وتلك غاية سامية، أن يصير القلب مرتبطًا بأطهر البقاع، وأن يربي المؤمن نفسه على العبادة والتوبة والخضوع والإنابة إلى الله تعالى، فهذا نموذج تربوي رائع، يجعل نفس الإنسان تهفوا إلى طاعة الله ورضوانه وما

أحوج المسلم إلى تنمية الجانب الروحي في نفسه.

والرابع: "رجلان تحابا في الله؛ اجتمعا عليه، وتفرقا عليه" وما أكثر ما يتحاب الناس، ولكن لمصالح دنيوية، أما هذا النموذج من الحب في الله ففيه سمو وترفع خلقي واستعلاء عن الأغراض المادية، مما يعزّ على الكثير، حيث أصبحت المصلحة والأمور المادية هي المحرك الأساسي للعلاقات والتواصل بين الناس، ومن الأمور التي يندى لها الجبين أن العلاقات بين الأهل والأقارب أصبحت مرتبطة بمدى الانتفاع المادي، فإن انتفت المصلحة والمنفعة، كانت القطيعة والفتور في العلاقات، وهذا لون من ألوان المعاناة النفسية للمسلم في هذا الزمان، الذي عزّ فيه الحب في الله بين الناس، إن مثل هذا النموذج من التحاب في الله ينبغي أن يحتذى، وأن يحاول الإنسان أن يوطن ويربي نفسه على الحب في الله.

والخامس: "رجل دعته امرأة ذات حسن وجمال، فقال: إني أخاف الله"، وهذه من الصفات التي يصعب أن تتحقق إلا في رجل أخلصه الله لعبادته، واختاره لمحبته؛ فتغلّب على شهوته، وفاضل بين لذة عارضة سريعة، وبين النعيم المقيم، فاختار ما عند الله، إن التربية على الطهر والعفاف من أهم ما ينبغي أن يركز عليه المربون خاصة مع الشباب الذي يعاني الفتن، ومظاهر التبرج والسفور، والانحلال الخلقي الذي استشرى في كثير من مجتمعات المسلمين اليوم، من خلال الغزو الثقافي والتغريب الاجتماعي، ومن ثم فإنه يتعاظم في هذا العصر دور القائمين على التربية والأسرة في إعلاء قيمة الفضيلة، وبيان أهمية العفاف، واجتناب الفتن، ولذا فإن هذا النموذج الذي ذكره النبي ﷺ في الحديث: "رجل دعته امرأة ..."، ينبغي أن يُحتذى.

وسادسهم: "رجل تصدق بصدقة فأخفاها، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه"، إنه سمو روحي؛ فما أكثر ما ترغب النفس في أن تُرى في هذا الموضع، موضع العطاء، لتكسب بذلك الفخر والمحمدة في الدنيا، ولكن الإخلاص في العبادة، يدفع صاحبه إلى أن يعطى ولا ينتظر حمدًا، إنه يطمع فيما عند الله، فتصدق ولم يحدث نفسه بجوده، فلا تعلم شماله ما تنفق يمينه.

وسابع هذه الأصناف الفريدة من الناس: "رجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه"، إنهما لم تفيضا رياءً ولا تملقًا؛ لأنه ذكره خاليًا دون أن يراه أحد، وهذا تربية على مراقبة الله وحده، والتسامي عن الاعتداد بالناس، وانتظار ثنائهم.

إن علوا الهمة "خلق رفيع ... تتعشقه النفوس الكريمة، وتهفو إليه الفطر القويمة، وهو من الأسس الأخلاقية الفاضلة، وإليه يرجع مجموعة من الظواهر الخلقية؛ كالجدِّ في الأمور، والترفع عن الصغائر والدنايا، والطموح إلى المعالي" (١).

ولقد أحسن الشاعر حين قال:

إذا غامرتَ في شَرَفٍ مَرُومٍ ... فَلا تَقْنَع بِمَا دُونَ النُّجُومِ

ثالثًا- التربية بالترغيب:

لقد رغَّب ﷺ في عمل الصالحات؛ لأنها مؤدية إلى مثوبة الله الجزيلة في الآخرة، وسبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله..."، ثم يُعدِّد النبي ﷺ هؤلاء السبعة، الذين سينعمون بالظل من حرِّ يوم القيامة.

وفي حديث آخر يُرغب النبي ﷺ في الحب في الله بقوله: "المتحابون في جلالي لهم منابر من نور..".

"وتبرز أهمية التربية الترغيبية من كونها أسلوبًا رائعًا يساعد على نشر مكارم الأخلاق وبثها بين الناس؛ ليصبحوا قادرين على تطبيق حقائق ومفاهيم وتشريعات الدين الإسلامي تطبيقًا عمليًا واقعيًا؛ لكونها خطوة حتمية لتنفيذ الشريعة في المجتمع الإسلامي؛ وذلك لأن أساس الأوامر والنواهي في الإسلام هو جلب المصلحة ودفعُ المَضَرَّة" (٢).

رابعًا- التربية بالتوجيه المباشر:

وقد بدا ذلك في توجيه النبي ﷺ لمعاذ بن جبل إلى أن يقول دبر كل صلاة: "اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك"، وفي قوله: "وإذا أحبَّ الرجل أخاه فليُخبره...".

---

(١) الهمة العالية، محمد إبراهيم الحمد، ص١٠٧.

(٢) تربية الأبناء والبنات، خالد عبدالرحمن العك، ص١٨٧.

"والتوجيه المباشر وسيلة من وسائل العادة التعليمية التطبيقية، وهو طلب المربي المباشر والصريح من الطلاب القيام بعمل معين..." [(١)]. و"العادة هي توظيف طاقات الإنسان وقدراته وجهده في جوانب الخير، وتحويلها إلى عادة سهلة وميسرة" [(٢)].

خامسًا- من مهام المربي: تعميق العلاقات الاجتماعية بين المربين:

وليس أحرص من النبي ﷺ على تماسك المجتمع الإسلامي، وسيادة روح المحبة والوئام فيه، يقول: "إذا أحب أحدكم أخاه فليخبره أنه يحبه"، وفي موضع آخر: يسأل النبي ﷺ صاحبه الذي أخبره بأنه يحب رجلاً في الله، فقال له: "أأعلمته؟" قال: لا، قال: "أعلِمْهُ".

وبهذه المصارحة بالحب يصير متبادلاً بين الأخوين المسلمين، ويقوي الترابط بينهما؛ لأن علة المحبة قائمة لا تزول؛ لأنها في الله تعالى.

وتهدف تعاليم الإسلام "إلى بناء مجتمع تقوم علاقات أفراده على الحب والمودة والتآلف والرحمة، ويبعد عن الشقاق والاختلاف والعداوة والبغضاء" [(٣)].

سادسًا- التربية بالقصة:

من أساليب التربية في هذا الباب القصة، التي تشحذ النفوس بأحداثها، وتشوق القلوب، فيثبت المبدأ التربوي المراد تثبيته، ويبدو ذلك في القصة التي رواها أبو إدريس الخولاني، عندما بُصر بمعاذ بن جبل رضي الله عنه بمسجد دمشق، ولقيه في اليوم التالي، وأخبره بأنه يحبه في الله، قال: "فأخذني بحبوة ردائي، فجبذني إليه فقال: أبشر...".

"وللقصة في التربية الإسلامية وظيفة تربوية مهمة، لا يحققها لون آخر من ألوان الأداء اللغوي؛ إنها تمتاز بميزات جعلت لها آثارًا نفسية وتربوية بليغة، بعيدة المدى على مرِّ الزمن، لما تثيره من حرارة العاطفة، ومن حيوية وحركية في النفس، تدفع الإنسان إلى تغيير سلوكه، وتجديد عزيمته بحسب إيماءات القصة وتوجيهها وخاتمتها والعبرة منها" [(٤)].

---

(١) أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، زياد العاني، ص٢٨٤.

(٢) السابق ٢٨٣.

(٣) التربية الروحية والاجتماعية في الإسلام، د. أكرم ضياء العمري، ص٢٥٠.

(٤) أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، زياد العاني، ص٤٠٧.

سابعًا- التربية الاجتماعية:

تتضمن أحاديث الباب التربية الاجتماعية للفرد والمجتمع من خلال تقوية المحبة والعلاقة بين المسلمين، وذلك أن يظلل أفراد المجتمع حب بعضهم لبعض لا لحاجة من حاجات الدنيا، حبًا يقصد به وجه الله تعالى، فمحبة المسلم لأخيه المسلم نابعة من حبه لله ولرسوله ﷺ ولدينه، فالحب في الله يدوم، كما أن المحبة في الله من كمال الإيمان.

ويمكن تحقيق الأمن الاجتماعي في المجتمع المسلم إذا تحققت المحبة بين المسلمين في الله، ساد الأمن والاطمئنان في المجتمع لأن الجميع سوف يسعى في صلاح من يحب وجلب الخير له، ودفع ما يضره عنه، كل واحد منهم آمن ومأمون، كما أن المحب لمن يحب مطيع.

ثامنًا- تنوع الأساليب التربوية:

في أحاديث الباب عدة أساليب تربوية، منها:

أ-المناقشة والحوار: كحديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلاً كان عند النبي ﷺ فمرّ رجل به فقال: يا رسول الله إني لأحبّ هذا فقال له الني ﷺ: "أأعلمته" الحديث.

ب-توجيه الأسئلة: وهذا واضح من قول معاذ بن جبل رضي الله عنه لأبي مسلم الخولاني عند أخبره أنه يحبه، قال: آلله؟ وتوجيه الأسئلة يفيد في تقويم ما تعلمه المتعلمون ومعالجة بعض أفكار المتعلمين.

ج-التكرار: وهذا واضح من قول معاذ بن جبل: آلله؟ ثلاث مرات. ولا شك أن التكرار يفيد في جذب انتباه المتعلم.

د-الوصية: وهذا واضح من قول النبي ﷺ ثم أوصيك يا معاذ لا تدعن في دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك" والوصية تدل أهمية الموصى به.

٤٧- باب علامات حب الله تعالى للعبد

والحث على التخلق بها والسعي في تحصيلها

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[آل عمران: ٣١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[المائدة: ٥٤].

الحديث رقم (٣٨٦)

٣٨٦-وعن أَبي هريرة رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: ((**إنَّ الله تَعَالَى قَالَ: مَنْ عَادَى لِيَ وَلِيًّا، فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيهِ، وَمَا يَزالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإنْ سَأَلَنِي أعْطَيْتُهُ**[١]**، وَلَئِن اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ**)) رواه البخاري[٢].

معنى **(آذنته)**: أعلمته بأني محارِب لَهُ. وقوله: **(استعاذني)** روي بالباءِ وروي بالنون[٣].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

---

(١) لفظ البخاري: (لأعطينه) بلام التأكيد.

(٢) برقم (٦٥٠٢) وقد تقدم برقم (٩٥).

(٣) قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١٢/٦٧٨): ضبطناه بوجهين، الأشهر: بالنون بعد الذال المعجمة، والثاني: بالموحدة، والمعنى: أعذته مما يخاف.

الشرح الأدبي

المتأمل لبناء الحديث يجد أنه يجسِّد النموذج الأكمل لمسلم يسعد المجتمع بانتمائه إليه لأنه يكون مصدر خير مطلق لكل من حوله يؤدي الأمانة ويساعد الضعفاء ويرفع المعاناة عن الآخرين فهو متفانٍ في مرضاة الله على كل وجه، والرسول ﷺ إذ يرفع هذا النموذج بين أعين أصحابه وبعد أن يبيّن طريقة الوصول إلى هذه المنزلة يريد أن يبني مجتمعاً مثالياً فاضلاً يجنب أفراده الخطأ حيث تتسامى نفوسهم عن الدنيا، وتطمح إلى مرضاة الله ضاربة سهام الخير في كل واد.قد استخدم لبيان ذلك ورسم صورة للمسلم المثالي والنموذج الأعلى لولي الله، عدة أساليب بلاغية منها:البداية بأسلوب خبري قصد منه إفادة الخبر مع إثارة مشاعر الإجلال والرهبة حول المقول في قوله (إن الله قال...) لصدوره عن الذات الإلهية، وإسناد الرسول ﷺ الكلام لله تعالى في قوله (إن الله قال...) ارتقاء بمستوى الكلام البشري إلى الكلام الإلهي، وهذه النقلة تعطي الخبر صفة القدسية التي توفر عليه اهتماماً وعناية وقبولاً، لأن الفرق بين كلام الله وكلام خلقه كالفرق بين الله وخلقه. وهو حديث قدسي معناه لله ولفظه للرسول ﷺ وقوله: (من عادى لي ولياً...) جملة خبرية تتسم ككل الأساليب الخبرية بهدوء وثقة، خلت من المؤكدات؛ لأنها مقولة للقول المؤكد بأكثر من مؤكد في قوله: (إن الله قال...) بالإضافة إلى أن إسناد القول لله زاد الأمر توكيداً لصدق الخبر وقبول المخاطبين له، وهي جملة شرطية تضفي على الأسلوب تشويقاً لتعلقها بالشرط فمن طبيعة الجملة الشرطية شدة اتصال معانيها، وبنائها على هذا الاتصال بجملة الجواب مما يجعل المخاطب متطلعاً مستشرفاً إليه.

وقد جاءت جملة الجواب (فقد آذنته بالحرب) مترتبة على جملة الشرط دون مهلة زمنية، إشارة إلى سرعة هذا الجزاء، والأسلوب ببنائه يوحي بعزة الربوبية في رعاية الولي، والذَّبِّ عنه كما يوحي بسيطرة الألوهية في حرب أعداء وليه وسرعة إهلاكهم، وفي قوله: (فقد آذنته بالحرب) مجاز مرسل في قوله (آذنته) حيث عبّر باللازم وهو الإيذان بمعنى الإعلام، وأراد الملزوم وهو الاستحقاق، والعلاقة اللزومية،

وفي قوله: (بالحرب) مجاز مرسل حيث أطلق اللازم (الحرب) وأراد الملزوم، وهو الإهلاك والإذلال، والتعبير بالمجاز في قوله (آذنته) يفيد مع معنى الاستحقاق معنى التحذير والتهديد ويترك فرصة العودة لمرتكب هذا الخطأ حتى يرجع عن معاداة وليه، لأن الإعلام سابق للحرب فالعودة ممكنة، والتعبير بالمجاز في قوله (بالحرب) مع ما يفيده من الإهلاك يثير في النفوس كل تبعات الحرب من مشقة اللقاء ومنظر الدماء وتطاير الأشلاء وغيرها، وهذا من شأنه التأثير في النفوس التي تميل للركون للراحة وتؤثر السلامة فترجع عن الخطأ، وتقديم الجار والمجرور في قوله (من عادى لي ولياً...) يفيد العناية والاهتمام، وفيه تشريف لهذا الولي، قوله: (وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه) الواو: للاستئناف، وكأن الله تعالى بعد أن بيَّن منزلة وليه عنده بدأ في ذكر الأسباب الموصلة إلى تلك المنزلة وأولها أداء الفرائض، وتقديم الجار والمجرور (إليَّ) في قوله: (وما تقرب إليَّ...) تخصيص وإشارة إلى وجوب توافر الإخلاص في القصد والعمل، ومن دونه لا يتحقق القرب، وإضافة العبد لياء المتكلم في قوله (عبدي) تشريف للعبد وإشادة به بنسبته إلى عبودية الله، وتنكير كلمة (شيء) للتقليل ومعناه - والله أعلم - أن العبد إذا أخلص في عمله كان سبباً في قربه مهما كان حجم العمل فمدار قبول العمل على الإخلاص، وقوله: (أحب إليَّ) التعبير بأفعل التفضيل يفيد المبالغة في المحبة، وقوله (وما يزال عبدي يتقرب إلي) والتقرب هو طلب القرب "وقرب العبد من ربه يقع أولاً بإيمانه ثم بإحسانه، وقرب الرب من عبده ما يخصه به في الدنيا من عرفانه وفي الآخرة من رضوانه، وفيما بين ذلك من وجوه لطفه، وامتنانه، وقوله تعالى: (فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به...إلخ) معناه أني أكون له في إعلامه ما لم يعلم، وتبشيره بما يجب كسمعه الذي يوصل إليه الأنباء والمعلومات، وكنت له في تبصيره ما خفي من الآيات، وانبهم من الدلالات ولطف من اللمحات كبصره، الذي ينقل إليه صور المرئيات، وكنت له في عمل ما يجب، ونفاد ما يريد، وتسخير ما يشاء، وتذليل من يشاء كَيَدِه التي يبطش بها، وكنت له في الإيصال إلى المقاصد والمرامي، وإدناء الغايات والأماني كرجله التي يمشي بها، وكنت له في

إلهامه الحكمة، وإيتائه البصيرة والفطنة بما أنزل في قلبه من نوري، وما أبديه له من أسراري كفؤاده الذي يعقل به المعقولات، ويدرك به المدركات، وكنت له في إنطاقه بالحجج والبينات، والقضايا المحكمات كلسانه الذي هو آلة المقال، وأداة البيان.

وهذه المنزلة هي محطُّ أنظار السالكين ومطمح نفوسهم ومنتهى آمالهم؛ لذلك رفع الرسول ﷺ بحديثه هذا النموذج الأعلى لصحابته الكرام ومَنْ بعدهم حتى يكون عَلماً تطمح نفوسهم إلى تحقيقه، قوله: (وإن سألني لأعطينه) أسلوب شرط علَّق فيه الجواب وهو العطاء على الشرط وهو السؤال، وقوله (ولئن استعاذني لأعيذنه) جملة شرطية فعلها ماض يدل على التحقق، وقوله: (ولئن استعاذني) أي طلب عياذي مما يكره فحذف المتعلقين اختصاراً ولإفادة العموم، والرسول ﷺ بتحديد ملامح شخصية ولي الله الذي يتحرك ويسكن وفق ما يرضي الله يؤدي الفرائض ويتقرب إلى الله بالنوافل حتى ينال محبة الله، بهذا البيان يتضح خطأ الذين يتخذون الدجالين، والمشعوذين، والمجانين أولياء يبنون لهم النصب والأضرحة ويدعونهم من دون الله - وهو شرك بالله - ويضلون غيرهم من العامة، ومن الجدير بالذكر أن بلوغ المؤمن مرتبة الولاية لا يعني أن يُتَّخذ إلها من دون الله، كما يفعل جهال الأمة مع أولياء الله، يدعونهم، ويتخذون قبورهم مساجد، ويذبحون لهم من دون الله، وهو لون من ألوان إيذاء أولياء الله بل هو من أشد ألوان الإيذاء لأن أقبح الذنوب أن يتخذ الإنسان إلهاً من دون الله، ولو كان هذا الولي حياً لتأذى بما يرى، وإيذاء الميت أشد من إيذاء الحي.[1]

المضامين الدعوية[2]

---

(١) انظر: بلاغة الرسول ﷺ في تقويم الأخطاء د ناصر راضي الزهري ص ١١٩.

(٢) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (٩٥).

الحديث رقم (٣٨٧)

٣٨٧- وعنه، عن النَّبيّ ﷺ، قَالَ: ((إِذَا أَحَبَّ اللهُ تَعَالَى العَبْدَ، نَادَى جِبْرِيلَ: إنَّ الله تَعَالَى يُحِبُّ فُلانًا، فَأَحْبِبْهُ، فَيُحِبُّهُ جِبريلُ، فَيُنَادِي[١] في أَهْلِ السَّمَاءِ: إنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلانًا، فَأحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ القَبُولُ في الأرْضِ)) متفق عليه[٢].

وفي رواية لمسلم[٣]: قال رسول الله ﷺ: ((إنَّ الله تعالى إذا أحب عبدًا دعا جبريلَ، فقال: إنّي أُحِبُّ فلانًا فأحببهُ، فيحبُّهُ جبريلُ، ثمَّ ينادي في السماءِ، فيقول: إنَّ اللهَ يحبُّ فلانًا فأحبوهُ[٤]، فيحبُّهُ أهلُ السماءِ، ثمَّ يوضعُ لهُ القبولُ في الأرضِ، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ، فَيَقُولُ: إنّي أُبْغِضُ فُلانًا فَأبْغِضْهُ. فَيُبغِضُهُ جِبريلُ، ثُمَّ يُنَادِي في أَهْلِ السَّمَاءِ: إنَّ الله يُبْغِضُ فُلانًا فَأبْغِضُوهُ، ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ البَغْضَاءُ في الأَرْضِ)).

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

القبول: المحبة والرضا بالشيء وميل النفس إليه[٥].

البغضاء: المقت والكراهية[٦].

---

(١) عند البخاري زيادة: (جبريل).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٠٩) واللفظ له، ومسلم بعد حديث (١٥٧/٢٦٣٧، بدون رقم) ولم يسق لفظه، وقال: غير أن حديث العلاء بن المسيب ليس فيه ذكر البغض.

(٣) (١٥٧/٢٦٣٧).

(٤) لفظ مسلم: (فأحبه)، والمثبت لفظ الحميدي في جمعه (٢٢٣/٣، رقم ٢٤٧٧)..

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ق ب ل).

(٦) المعجم الوسيط في (ب غ ض).

الشرح الأدبي

يدور معنى الحديث حول محبة الله للعبد، وأثرها على العبد، وعلاقته بمن حوله، وقد جاء في ثوب الشرط الذي يربط الفعل بالجواب، وكلاهما جاء في صورة الماضي الذي تحقق، ومحبة الله غاية يسعى إليها كل مؤمن، وقوله (نادى جبريل) جواب الشرط الذي يحكي سريان المحبة من مصدرها الأعظم من الله إلى جميع المخلوقات بداية بجبريل، ومروراً بأهل السماء، وانتهاءً بأهل الأرض، وفيه بيان لأثر فعل الله في الكائنات، وهذا التدرج من الأعلى إلى الأدنى في سريان المحبة ينبه العبد الذكي إلى أن يسعى لتحصيل محبة الله، وإن كانت على حساب غضب الخلق، وألا يسعى إلى محبة الناس بما يغضب الله؛ لأنها ناقصة، وقلوبهم متقلبة، والحب الثابت ما كان من عند الله متصلاً به، وقوله (إنَّ الله تَعَالَى يُحِبُّ فُلاناً) جملة اسمية مؤكدة بـ (إن) مع اسميتها لإزالة أي شك يمكن أن يخالج نفس المخاطب مع ما يوحي به التوكيد من أهمية الخبر، وعناية المتكلم به، وهو نوع من تمهيد النفوس لاستقبال نوعية الأخبار التي تتسم بالطرافة، وتحمل نوعاً من الغرابة، وتتميز بأهمية خاصة عند المتكلم، ويريد أن يبثها في نفس السامع، وقوله: (فلاناً) كناية عن الشخص المحبوب، واختياره في التعبير يفتح الباب لكل من سعى إلى محبة الله، ونالها، وقوله (ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ القَبُولُ في الأرْضِ) كناية عن محبة أهل الأرض، ورضاهم، والملاحظ في عطف الجمل أنه استخدم الفاء في الربط بين الجمل إلا في موضع واحد استخدم فيه ثم، فاستخدم الفاء دلالة على السرعة، والفورية في تنفيذ الأمر، من جبريل، وأهل السماء، واستخدم ثم في العطف في الجملة الأخيرة التي تخص قبول أهل الأرض دلالة على أن على المؤمن أن يصبر على الناس، ويتحمل منهم، لوجود العوائق التي قد تؤخر وجود هذه المحبة في نفوس الناس، لكنها ستتحق مهما تأخرت.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعـوة: التوكيد.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: الأمر.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: النداء.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: الترغيب فيما يؤدي إلى محبة الله تعالى.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: إثبات صفتي المحبة والبغض لله تعالى.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: بيان محبة الملائكة وبغضهم للعبد.

سابعًا: من موضوعات الدعوة: بيان محبة وبغض الناس للعبد وعلامة ذلك.

أولاً- من أساليب الدعـوة: التوكيد:

ورد التوكيد في هذا الحديث، حيث تكرر في قوله ﷺ: "إذا أحَبَّ اللّهُ تعالى العبدَ نادَى جبريلَ: إنَّ اللّهَ تعالى يُحِبُّ فلانًا فأحببْهُ ... الحديث" لما لأسلوب التوكيد من بيان لأهمية الأمر، وتقبل المدعوين له، خاصة إذا كان الخطاب موجهًا للمؤمنين.

وقد ورد أسلوب التوكيد في كثير من آي القرآن الكريم، ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾[1]، وقوله: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾[2]. لذا ينبغي عل الداعية أن يستخدم أسلوب التوكيد في بعض الأمور والقضايا التي يتحدث فيها إذا كانت لها أهمية كبيرة للتأكيد على صحتها أو ثبوتها.

ثانيًا- من أساليب الدعوة: الأمر:

تكرر الأمر في هذا الحديث في قوله ﷺ "إن الله تعالى يحب فلانًا فأحببه... الحديث" وأسلوب الأمر من الأساليب الدعوية المفيدة لما يحمله في طياته من أهمية ورفع لشأن المأمور به وحمل المدعوين على المسارعة للإذعان له والامتثال به.

---

(١) سورة الانفطار، الآيتان: ١٣، ١٤.

(٢) سورة الأنعام، آية: ١٣٤.

وقد كثر ورود أسلوب الأمر في القرآن بصيغ متعددة، منها الصريح، كقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ﴾(١)، وقوله: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾(٢)، ومنها غير الصريح كأن يجيء الأمر في صورة إخبار عن تقرير الحكم، نحو قوله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾(٣)، وكأن يجيء في صورة مدح الفعل أو مدح فاعله، نحو قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾(٤)،(٥).

ثالثًا- من أساليب الدعوة: النداء:

تكرر النداء في الحديث في قول الله تعالى وفي قول جبريل عليه السلام، "نادى جبريل ... فيحبه جبريل، فينادي في أهل السماء ... الحديث"، وأسلوب النداء يتضمن استمالة المدعو ولفت نظره لما للنداء من أثر في النفوس. وأسلوب النداء من الأساليب الدعوية الناجحة لما لها من بالغ الأثر في نفوس المدعوين، وقد ورد أسلوب النداء في كثير من النصوص القرآنية والنبوية، ومنها ما روى عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لاَ يَسْأَلَنِي عَنْ هذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلَ مِنْكَ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ: لاَ إِلهَ إِلاَّ اللَّهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ))(٦).

قال ابن أبي جمرة: والحكمة في ندائه باسمه تظهر من وجهين:

الأول: أن نداءه باسمه أجمع لخاطره فيكون ذلك سببًا لتحصيل جميع ما يلقى إليه.

---

(١) سورة البقرة، آية: ٤٣.

(٢) سورة الجمعة، آية: ٩.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٣٣.

(٤) سورة الفتح، آية: ١٧.

(٥) انظر: الموافقات، الشاطبي، ٣/١٤٤، ١٤٥.

(٦) أخرجه البخاري ٦٥٧٠.

الثاني: إن في ندائه باسمه إدخال السرور عليه، لأن النداء أبدًا إذا وقع من الفاضل إلى المفضول يحصل له به ابتهاج وسرور، فكيف وهو نداء سيد الأولين والآخرين[١].

رابعًا: من موضوعات الدعوة: الترغيب فيما يؤدي إلى محبة الله تعالى

ورد ذلك ضمنيًا في الحديث في تحصيل ما يؤدي إلى محبة الله تعالى، فكلٌ يتطلع إلى محبة الله له، ومحبة الله للعبد لها علامة، منها كون الإنسان متبعًا لرسول الله ﷺ؛ فإنه كلما كان الإنسان لرسول الله ﷺ أتبع كان لله أطوع، وكان أحب إلى الله تعالى[٢]، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٣]، أي يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه، وهو محبته إياكم، وقال الحسن البصري وغيره من السلف: زعم قوم أنهم يحبون الله، فابتلاهم الله بهذه الآية، فقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[٤]،[٥]، قال ابن القيم: لما كثر المدعون للمحبة طولبوا بإقامة البينة على صحة الدعوى، فلو يعطي الناس بدعواهم لادعى الخليُّ حُرقة الشَّجِيِّ فتنوع المدَّعون في الشهود فقيل لا تقبل هذه الدعوى إلا ببينة ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[٦]،[٧]. فهذه الآية هي الميزان، التي يعرف بها من أحب الله حقيقة، ومن ادعى ذلك دعوى مجردة، فعلامة محبة الله اتباع محمد ﷺ الذي جعل متابعته وجميع ما يدعو إليه طريقًا إلى محبته ورضوانه فلا تنال محبة الله ورضوانه وثوابه إلا بتصديق ما جاء به الرسول ﷺ

---

(١) بهجة النفوس، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ، ١٣٤/١.

(٢) شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين، ٧٣٩/١.

(٣) سورة آل عمران، آية: ٣١.

(٤) سورة آل عمران، آية: ٣١.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣٢/٢.

(٦) سورة آل عمران، آية: ٣١.

(٧) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٤٣٤/٣.

من الكتاب والسنة وامتثال أمرهما واجتناب نهيهما.

فمن فعل ذلك أحبه الله وجازاه جزاء المحبين، وغفر له ذنوبه وستر عليه عيوبه (١).

خامسًا- من موضوعات الدعوة: إثبات صفتي المحبة والبغض لله تعالى:

جاء في الحديث التصريح بإثبات المحبة لله في قوله ﷺ: "إذا أحب الله تعالى عبدًا... إن الله تعالى يحب فلانًا"، وإثبات البغض أيضًا لله في قوله: "وإذا أبغض عبدًا دعا جبريل فيقول إني أبغض فلانًا... إن الله أبغض فلانًا..." وقد ورد إثبات صفة المحبة لله في كثير من آيات القرآن منها قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (٢)، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (٣)، وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ (٤)، وذلك ماعليه أهل الحق من إثبات المحبة صفة حقيقية لله عز وجل، كما يليق به تعالى كسائر صفاته (٥) فإن ذلك يدخل تحت عموم قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (٦)، وإثبات صفة المحبة لله عز وجل على هذا النحو لا يقتضي نقصًا ولا تشبيهًا، وكما يثبت أهل الحق صفة المحبة لله عز وجل يثبتون لازم تلك المحبة وهى إكرام الله عزوجل لمن يحبه وإثابته (٧).

وما قيل في إثبات صفة المحبة لله تعالى كذلك يقال في إثبات صفة البغض وما في معناه من الغضب والسخط والأسف الكره والمقت لله تعالى، ومن الآيات الدالة على

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ١٠٥.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٩٥.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٢٢.

(٤) سورة المائدة، آية: ٥٤.

(٥) شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الدمشقي، ٣٩٦/٢.

(٦) سورة الشورى، آية: ١١.

(٧) شرح العقيدة الواسطية، ابن تيمية، ١٣٥.

ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[١]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾[٢]، وقوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾[٣]. والمراد من الآية شدة الغضب والسخط، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾[٤]، وقوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[٥]. فتضمنت هذه الآيات إثبات بعض صفات الفعل من الرضا لله والغضب واللعن والكره والسخط والمقت والأسف، وهى عند أهل الحق صفات حقيقية لله عز وجل على ما يليق به، ولا تشبه ما يتصف به المخلوق من ذلك، ولا يلزم منها ما يلزم في المخلوق[٦] فمحبة الله وبغضه لبعض الأشخاص والأعمال والأخلاق صفة له قائمة به وهى من صفات الفعل الاختيارية التي تتعلق بمشيئته فهو يحب بعض الأشياء دون بعض على ما تقتضيه الحكمة البالغة[٧].

سادسًا- من موضوعات الدعوة: بيان محبة الملائكة وبغضهم للعبد:

إن من دلائل محبة الله للعبد ومقتضياتها محبة الملائكة للعبد كما أن بغض الملائكة للعبد تبع لبغض الله عز وجل له، وقد ذكرت في الحديث محبة الملائكة وبغضهم للعبد في قوله ﷺ: "فيحبه أهل السماء؛ ... فيبغضه جبريل ... الحديث"، قال القاضي عياض: (وقوله: "إذا أحب الله عبدًا دعا جبريل: إني أحبه فأحبه ... إلى قوله: "فوضع له القبول في الأرض" وقال مثله في البغض، محبة الله عبده: إرادة الخير به في

---

(١) سورة النساء، آية: ٩٣.

(٢) سورة محمد، آية: ٢٨.

(٣) سورة الزخرف، آية: ٥٥.

(٤) سورة التوبة، آية: ٤٦.

(٥) سورة الصف، آية: ٣.

(٦) شرح العقيدة الواسطية، ابن تيمية، ١٤١، ١٤٢.

(٧) المرجع السابق، ١٤٥، ١٤٦.

الدنيا والآخرة من هدايته له وإنعامه عليه ورحمته له، ويغضه له: أراد به شقاء عقابه وشقاوته في الدنيا والآخرة، وقد تكون محبة جبريل والملائكة على وجهها من معنى المحبة وظاهرها التي تليق المخلوقين، ويتنزه عنها الخالق، وهو ميل النفس ونزوع الروح والقلب إليه وحب لقاءه، وأنه لما كان ممن أطاع وأحبه الله كان ممن يجب أن يكون مع جبريل والملائكة متحابين في الله، وقد يكون من جبريل والملائكة استغفارهم له، وذكرهم الجميل في الملأ الأعلى له ودعائهم له(١)، وكذا قال ابن علان: (ومحبة جبريل وأهل السماء محتملة أن يراد استغفارهم للعبد وثناؤهم عليه ودعائهم له، وأن يراد بها ظاهرها المعروف من الخلق، وهو ميل القلب إلى المحبوب وشوقه إلى لقائه، وسبب حبهم له كونه مطيعًا لمولاه محبوب له)(٢).

وقد أورد القرآن كثيرًا من دلائل محبة الملائكة للعبد المؤمن من استغفار ودعاء وغير ذلك، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾(٣)، أي ويستغفرون لأهل الأرض من آمن منهم بالغيب، فقيض الله سبحانه ملائكته المقربين أن يدعوا للمؤمنين بظهر الغيب(٤) فما أكرم المؤمن على الله!(٥).

سابعًا- من موضوعات الدعوة: بيان محبة وبغض الناس للعبد وعلامة ذلك:

ورد في الحديث بيان أن محبة الناس الصادقة وإقبالهم على العبد نتاج طاعته لله ومحبة الله له، وبغضهم علامة على بغض الله تعالى له، وجاء ذلك في قوله: "ثم يوضع له القبول في الأرض... ثم توضع له البغضاء في الأرض"، قال القاضي عياض: (وقوله:

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ١١٦/٨.

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٦٠٧.

(٣) سورة غافر، آية: ٧.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١٣٠/٧.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢٩٥/١٥/٨.

"فيوضع له القبول في الأرض" وهو الرضاء والحب في القلوب، أي تقبله وتميل إليه، ولا تنفر عنه ولا ترده)[١]، وقال ابن حجر العسقلاني: (والمراد بالقبول المحبة والرضا بالشيء وميل النفس إليه، ويؤخذ من الحديث أن محبة قلوب الناس علامة محبة الله، والعكس ومحبة الخلق للعبد في اعتقادهم فيه الخير وإرادتهم دفع الشر عنه ما أمكن)[٢]، والمحبة من الإنسان على هذا النحو لإخوانه المؤمنين من الأسس التي حرص الإسلام على أن يقيم علاقة المجتمع الإسلامي عليها ليجعل من المسلمين أمة قوية يحسب حسابها ويرهب جانبها، فرابطة المسلمين أقوى من أن تُحَلّ، ووحدتهم أعصى من أن يَنَال منها عدو[٣].

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ١١٦/٨.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٧٧/١٠.

(٣) انظر: عناصر القوة في الإسلام، السيد سابق، ص ١٩١-١٩٢.

الحديث رقم (٣٨٨)

٣٨٨- وعن عائشة رضي الله عنها: أنَّ رَسُول الله ﷺ بعث رجلاً عَلَى سَرِيَّة فَكَانَ يَقْرَأُ لأَصْحَابِهِ فِي صَلاَتِهِمْ فَيَخْتِمُ بـ ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾، فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذَلِكَ لرسول الله ﷺ، فَقَالَ: ((سَلُوهُ لأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذلِكَ؟)) فَسَأَلُوهُ فَقَالَ: لأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمانِ فَأَنَا أُحِبُّ أنْ أقْرَأ بِهَا. فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: ((**أخْبِرُوهُ أنَّ اللهَ تَعَالَى يُحِبُّهُ**)) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[1].

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

غريب الألفاظ:

سرية: طائفة من الجيش يبلغ أقصاها أربعمائة تبعث إلى العدو[2].

الشرح الأدبي

الحديث يتناول شكلاً من أشكال المحبة لله تعالى والتقرب إليه بصفاته، والراوي يبدأ حديث بأسلوب خبري تصدرته عدة مؤكدات، وتصدُّرُ المؤكدات دليل على أهمية الخبر والتنبيه إليه؛ ولذلك تجد أكثر أحاديثه يسبقها، أو يحدوها نوع من تمهيد النفوس بنوع، أو أكثر من المؤكدات، بيد أنها تختلف كماً، وكيفياً بحسبة طبيعة المعاني، وأحوال المخاطبين، وقول الرسول ﷺ (سَلُوهُ لأيِّ شَيءٍ يَصنَعُ ذلكَ؟) الأمر للتوجيه، والإرشاد، والاستفهام عن الغاية، والغرض الموجه لتكرار الفعل، لأن النية تحدد قيمة العمل، وقوله: (لأنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ، فَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا) أكد الخبر بعدة مؤكدات؛ لأنه يتحدث عن عمل قلبي، والأعمال القلبية لا يطلع عليها إلا الله- كما أسلفنا الذكر - فاحتاج إلى بناء الأسلوب على ما يدفع عنه الشك، ويوفر له القبول،

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٧٥)، ومسلم (٢٦٣/٨١٣) ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه (٢١٩٢).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٤٢٧.

ونسبة الصفة إلى الرحمن للتخصيص، وذكر هذه الصفة خاصة لما فيها من معنى الرحمة الغامرة، وقوله (فأنا أحب) الفاء للسببية، وذكر الضمير مع إمكان الاستغناء عنه للتخصيص، وفعل المحبة المضارع يدل على الاستمرارية في تلك العاطفة النبيلة التي دفعته لتكرار السورة الكريمة، وقول الرسول ﷺ (أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللَّه تعالى يُحبُّهُ) الأمر فيه إشادة، وتنويه، ومدح للرجل، وترغيب في محبة الله بأسمائه، وصفاته، وتوكيد جملة (أَنَّ اللَّه تعالى يُحبُّهُ) لتعظيم، وإجلال المعنى الذي تحمله العبارة مع ما توحي به محبة الله من معاني التقريب، والتوفيق، والإنعام، والنصرة.

المضامين الدعوية

أولاً: من ميادين الدعوة: الجهاد.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: بيان فضل سورة الإخلاص.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: استشارة الصحابة رضي الله عنهم لرسول الله ﷺ في شئونهم وأحوالهم.

خامسًا: من صفات الداعية: التثبت قبل إصدار الأحكام.

أولاً- من ميادين الدعوة: الجهاد:

إن ميادين الدعوة كثيرة ومتنوعة ومنها ميدان الجهاد، والذي ورد في الحديث "أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً" ففي ميادين الجهاد خاصة في أعقاب الحرب تسنح الفرصة تمامًا للدعوة بأن ينتشروا وينشروا الإسلام ويعرِّفوا به، فلم يكن الجهاد في يوم من الأيام حربًا قائمة على القهر والغلبة، وإنما شرع ليفتح الطريق أمام الدعوة إلى الحق والتوحيد الخالص[1].

ولذا كان الجهاد في الإسلام لتذليل العقبات أمام الدعوة الإسلامية، وقد أفاد الصحابة رضي الله عنهم والتابعون والسلف الصالح من الجهاد في نشر الدعوة بالحكمة

---

(١) انظر: الدعوة الإسلامية، الوسائل والأساليب، محمد خير رمضان يوسف، ص ١٧، ٢٠.

والموعظة الحسنة، وإعلام الناس بالمبادئ الإسلامية القويمة لأجل إخراجهم من الظلمات إلى النور. إن الإسلام يهتم بدعوة العالم الإنساني إلى الدخول في هدايته لينعم بهذه الهداية ويستظل بظلها الوافر الظليل.

وإن الأمة الإسلامية هي الأمة المنتدبة من قِبَل الله لإعلاء دينه وتبليغ وحيه وهي منتدبة كذلك لتحرير الأمم والشعوب، وهي بهذا الاعتبار كانت خير الأمم.

ومادام أمرها كذلك فيجب عليها أن تحافظ على كيانها الداخلي وتكافح لتأخذ حقها بيدها وتجاهد للتبوأ مكانتها التي وضعها الله فيها.

إنه لا يوجد دين من الأديان دفع بأهله إلى غمرات الحروب وقذف بهم إلى ساحات القتال في سبيل الله من أجل الحق والعناية بالمستضعفين ومن أجل أن يحيا الناس حياة كريمة غير الإسلام[1].

ثانيًا- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

جاء أسلوب السؤال والجواب في الحديث في قوله: "فقال سلوه لأي شيء يصنع ذلك؟ فسألوه، فقال: لأنها من صفة الرحمن فأنا أحب أن أقرأ بها ..." والسؤال من أنجح أساليب الدعوة لما فيه من لفت الأنظار وإثارة الانتباه، وشد الأذهان للدعوة والإقبال بالقلوب عليها.

لذا ينبغي على الداعية أن يهتم بهذا الجانب من الأساليب الدعوية، وأن يطرح على المدعوين من الأسئلة ما يشد انتباههم، إضافة إلى أن السؤال والجواب بصفة عامة من وسائل تحصيل العلم ونشره، وإلى ذلك أشار ابن حجر يقوله: (العلم سؤال وجواب، ومن ثم قيل: حسن السؤال نصف العلم)[2].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: بيان فضل سورة الإخلاص:

إن لسورة الإخلاص من الفضل ما لا يخفى على أحد، وهو من دافع هذا الصحابي في ختم الصلاة بها كل ليلة وحبه لها" فقال: لأنها صفة الرحمن، فأنا أحب أن أقرأ

---

(١) عناصر القوة في الإسلام، السيد سابق، ص ٢٢١، ٢٢٢.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١/١٧١.

بها"، وأنَّ حبها سبب لمحبة الله للعبد، فقال النبي ﷺ عن ذلك الصحابي الجليل الذي كان دائمًا ما يختم صلاته بقل هو الله أحد "أخبروه أن الله تعالى يحبه"، قال المازري: (إن البارئ عز وجل لا يوصف بالمحبة المعهودة فينا، لأنه يتقدس عن أن يميل أو يُمال إليه، وليس بذي جنس أو طب، فيتصف بالشوق الذي تقتضيه الجنسية والطبيعية البشرية، وإنما معنى محبته - تبارك وتعالى- للخلق: إرادته لثوابهم وتنعيمهم على رأي بعض أهل العلم، وعلى رأي بعضهم: أن المحبة راجعة إلى نفس الإثابة والتنعيم لا للإرادة، ومعنى محبة المخلوقين له: إرادتهم أن ينعمهم ويحسن إليهم)[١].

ويتجلى فضل سورة الإخلاص في أنها اشتملت على اسمين يتضمنان جميع أوصاف الكمال: وهما الأحد والصمد، فالأحد في أسماء الله مشعر بوجوده الخاص به الذي لا يشاركه فيه غيره، والصمد يتضمن جميع أوصاف الكمال لأن معناه الذي انتهى سؤدده بحيث يصمد إليه في الحوائج كلها وهو لا يتم حقيقة إلا لله[٢]. وقد اشتملت سورة الإخلاص على ما يجب لله سبحانه من التوحيد وما يجوز في حقه من توجيه الخلق حوائجهم إليه وقصدهم إياه في سائر أمورهم[٣]، ولما كان الدين يتكون من العقيدة والشريعة والأخلاق وشملت سورة الإخلاص الدعوة إلى تصحيح العقيدة، ثلث القرآن، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: لأصحابه "أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟ فشق ذلك عليهم، وقالوا: أينا يطيق ذلك يا رسول الله؟ فقال: الله الواحد الصمد، ثلث القرآن"[٤].

ومن فضائل سورة الإخلاص أنها صفة الرحمن، قال ابن التين: إنما قال أنها صفة الرحمن لأن فيها أسماؤه وصفاته، وأسماؤه مشتقة من صفاته[٥]. و"الرحمن" صفة

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ١/٢٢٧.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٣/٣٧٠.

(٣) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ، ٦٠٩.

(٤) أخرجه البخاري ٥٠١٥.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٣/٣٦٩.

مأخودة من الرحمة وهي بالنسبة لله بمعنى الإنعام، فمعنى الرحمن المنعم بجلائل النعم على مستحقها وغير مستحقها، والإنسان في جميع أطواره بأشد الحاجة إلى من يرحمه ويرأف به ولا يملك الرحمة الحقيقية به في دفع الضر عنه، وجلب الخير له، وإفاضة النعم عليه إلا خالقه وخالق السموات والأرض ومن بيده ملكوتهما(١).

رابعًا- من موضوعات الدعوة: استشارة الصحابة رضي الله عنهم لرسول الله ﷺ في شئونهم وأحوالهم:

لقد ضرب لنا الصحابة رضي الله عنهم المثل الأعلى في الاقتداء والرجوع إلى رسول الله ﷺ والحديث سجل لنا صورة من منهج الصحابة في ذلك، ((أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً على سرية فكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم بـ "قل هو الله أحد" فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ)). فإن مما يؤكد صدق الإتباع لرسول الله ﷺ الرجوع إليه في حياته وتحكيم سنته بعد مماته والتحاكم إليها وجعلها الميزان الذي توزن به الأقوال والأفعال والأحكام فما وافقها قُبِل وما خالفها رُدَّ وإن قاله مَنْ قاله، وقد وردت آيات كثيرة تؤكد هذا الأمر، منها قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾(٢)، (٣).

بل إن الله ليجعل من مقتضيات الإيمان الرجوع إلى رسول الله ﷺ في حياته وإلى سنته بعد وفاته ﷺ، قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾(٤)، فإن الإعراض عن منهج الله وعدم الرجوع إلى سنة رسول الله ﷺ يكون صاحبه قد التبس بحالة تنافي

---

(١) العقيدة الإسلامية وأسسها، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، ص ٢١٨.

(٢) سورة النساء، آية: ٥٩.

(٣) محبة الرسول ﷺ بين الإتباع والابتداع، عبدالرءوف محمد عثمان، ص ١٢٧، ١٢٨.

(٤) سورة النساء، آية: ٦٥.

الإيمان في خفاء إن استمر عليها بعد التنبيه على عاقبتها لم يكن مؤمنًا[١].

سادسًا- من صفات الداعية: التثبت قبل إصدار الأحكام:

من المبادئ التي غرسها الإسلام في المجتمع الإسلامي حتى لا يؤخذ إنسان بغير جريرة، ولا يحكم بغير دليل التثبيت قبل إصدار الأحكام، وفي الحديث مثال تطبيقي على ذلك في قوله ﷺ "سلوه لأي شيء يصنع ذلك؟ فسألوه، فقال: لأنها صفة الرحمن، فأنا أحب أن أقرأ بها فقال رسول الله ﷺ: أخبروه أن الله تعالى يحبه"، فقوله سلوه لأي شيء يصنع ذلك" ليرتب جزاءه على حسب نيته وقصده، فإن الأعمال بمقاصدها، وقال ناصر الدين ابن المنير: وفي الحديث أن المقاصد تغير أحكام الفعل، لأن الرجل لو قال: إن الحامل له على إعادتها أمر غير ما ذكره لإجابة بما يناسبه[٢].

لقد أمر الإسلام بالتثبت في الأمور كلها قبل إصدار الأحكام وإبداء الآراء حتى لا يقع المسلم في الزلل وإلحاق الضرر والأذى بالآخرين سواء كان ماديًا أو أدبيًا، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾[٣].

---

(١) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ١١٣/٥/٢

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٦٠٩.

(٣) سورة الحجرات، آية: ٦.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

الروح تنزع إلى مصدرها، ولها تعلق به، كما أن الجسد يخلد إلى مصدره وله تعلق به، والإسلام قد أشبع الجانبين في وقت واحد. ففي إطار إشباع الجانب الروحي أذن بحب العبد لله حباً يقوم على اتباع كلمته ورعاية حرماته والالتزام بالتكاليف الشرعية، وذلك لأن الحب دعوى تفتقر إلى دليل، ونصوص القرآن صريحة الدلالة على حب المؤمنين لله وحب الله للمؤمنين، ورضى الله عن المؤمنين ورضى المؤمنين عن الله. فإذا قام الإنسان برعاية حقوق الله وتعهدها، وأضاف النوافل إلى الفرائض عند الأداء وأكثر من النوافل صار ولياً، أي متعهداً لأوامر الله ونواهيه وعندها يتولاه الله فيحفظه ويرعاه ويحركه كما يشاء في الخير وذلك بأن يختم على حواسه فلا يسمع إلا ما صدر عن الله، ولا يرى إلا ما أذن الله برؤيته ولا يحرك يده في غير ما شرع الله، فإذا وصل العبد إلى هذه الحالة نال الرضا وتحققت الاستجابة في الدعاء - إذا شاء الله ذلك - ومد الله له يد العون عند الاستعاذة، ومن المضامين التربوية في أحاديث الباب ما يلي:

أولاً- من أهداف التربية الإسلامية: ربط السلوك بالعقيدة:

إن ربط السلوك الإنساني بالعقيدة من أبرز أهداف التربية الإسلامية التي أولاها النبي ﷺ عناية كبيرة لأنه لا قيمة للعمل الذي يقوم به الإنسان إذا لم يكن مسبوقاً بالاعتقاد الراسخ.

ولقد ربى النبي ﷺ صحابته على أن بإمكانهم أن ينالوا بصالح أعمالهم ما فوق القبول، أن ينالوا حُبَّ الله عز وجل، "وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه...".

وقوله ﷺ: "إذا أحبَّ الله تعالى عبداً نادى جبريل: إن الله يحب فلاناً فأحبوه..."، فهذا ربط للعبد بربه، وتعلق قلبي بخالقه، فليس الأمر مجرد أداء للواجبات؛ بل إن الإسلام يحرص على أن يكون العبد محباً لربِّه، حتى يحبه الله تعالى، ثم يلقي محبته في السماء والأرض من خلال ما بينه النبي ﷺ بأن الله يأمر جبريل أن ينادي في أهل السماء إن الله يحب فلاناً فأحبوه، ثم يوضع له القبول في الأرض.

إن الفضائل الخلقية "ثمرة من ثمرات الإيمان الراسخ، والإنسان حين ينشأ على الإيمان منذ طفولته تصبح عنده الملكة الفطرية والاستجابة الوجدانية؛ لتقبُّل كل فضيلة ومكرمة، والاعتياد على كلِّ فاضل؛ حيث يبيت إيمانه بالله حائلاً بينه وبين الصفات القبيحة والعادات الآثمة المرذولة"(١).

ويتربى المرء على المفاهيم التربوية الواضحة التي تؤكد الصلة الوثيقة بين السلوك والعقيدة، فتأتي أعماله ترجمة عملية لهذا الفهم الراسخ.

"إن الذي يستطيع أن يحب هذا الحب الكبير صنف واحد من بني الإنسان؛ إنه الصنف الذي خالطت قلبه بشاشة الإيمان، فالمؤمن بعقيدة الإسلام نفذ إلى سر الوجود، فأحب الله واهب الحياة ... أحبه حبَّه للجمال، فقد رأى في كونه أثر الإبداع والإحكام... وأحبه حبه للكمال ... وأحبه حبه للإحسان ... حُباً يفوق حب الإنسان لأبويه"(٢).

والمؤمن الحق "هو الذي أدرك جمال الله وجلاله، واستشعر لطفه وإحسانه... ثم تأثر بهذا الإدراك فأحبه، فأصبح قلبه مشغولاً به... يتحمل في ذلك ما يتحمل راضياً مغتبطاً، قرير العين مطمئن القلب"(٣).

ثانياً- التربية على أداء الفرائض والإكثار من النوافل:

من عظمة التربية الإسلامية أنها بينت الأسباب الموجبة لمحبة الله تعالى للعبد، والتي من جملتها المحافظة على الفرائض والاستكثار من النوافل.

وقد حرص النبي ﷺ على بيان ذلك من خلال الحديث القدسي الذي يرويه عن رب العزة جل وعلا" : «وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مما افْتَرَضتُ عَلَيهِ».

"ولكي ينال العبد حب الله ورضاه فلابد من إحياء قلبه بالذكر والشكر وتلاوة القرآن، وحسن العبادة والعمل الصالح؛ فإن الإيمان يروى بذلك، فيزيد ويقوي في القلب"(٤).

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. محمد علي عزب، ص٥٧.

(٢) الإيمان والحياة، د. يوسف القرضاوي، ص١٤٧، ١٤٨ بتصرف.

(٣) روح الدين الإسلامي، عفيف عبدالفتاح طبارة، ص١٨٠.

(٤) التربية الروحية والاجتماعية في الإسلام، د. أكرم ضياء العمري، ص٥١.

وقد وجه النبي ﷺ من حضر المسجد حال إقامة الصلاة أن يلتزم جماعة المسلمين فيصلي معهم، ولا ينفرد بصلاة السنَّة ... فالنافلة عبادة مطلوبة، ولكن لما تعارضت مع ما هو أهم وأولى، قدم الأولى عليها"[١].

ثالثاً- التربية بالترغيب:

لقد رغب النبي ﷺ في العبادة بأداء الفرائض، والنوافل، وبيَّن أن ذلك سبب لحبِّ الله تعالى، الذي يُكسب الإنسان قوَّة ربَّانية، يقول ﷺ فيما يرويه عن ربِّه عز وجل: "مازال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببتُه كنت سمعه الذي يسمع به...".

إن هذه القربات سبب لحب الله تعالى، وحب عباده: "إن الله تعالى إذا أحب عبداً نادى جبريل، فقال: إني أحبُّ فلاناً فأحبَّه...".

إن طريقة الترغيب في عاقبة الطاعة وثوابها: "يخلق لدى النفس وازعاً نفسياً، يسمو بها إلى القيم الأخلاقية السامية، على عكس ما نراه في المناهج الوضعية البشرية التي لا تدفع الإنسان إلى مكارم الأخلاق"[٢].

رابعًا- من أساليب التربية: الحوار والمناقشة وتوجيه الأسئلة:

وهذا واضحٌ في حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً على سرية وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم بـ "قل هو الله أحد"، فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال: سلوه لأي شيء يصنع ذلك؟ فسألوه فقال لأنها صفة الرحمن فأنا أحبّ أن أقرأ بها فقال رسول الله ﷺ: "أخبروه أن الله تعالى يحبّه".

فالحوار في هذا الحديث كان له ثلاثة أطراف: النبي ﷺ وصحابته والصحابي إمام السرية، ومما لا شك فيه أن الحوار له دور مهم في العملية التربوية والتعليمية. فهو من الأساليب التي تقوى دور المتعلم في العملية التعليمية وتعتمد على مبدأ المشاركة بين المعلمين والمتعلمين سواء في حجرة الدراسة أو خارجها.

---

(١) انظر: فقه الموازنات الدعوية، د. معاذ البيانوني، ص٢٢٤.

(٢) الشخصية ومنهج الإسلام في بنائها، د. ناصر بن عبدالله التركي، ص٥٩٥.

كما كان أسلوب توجيه الأسئلة واضحًا في هذا الحديث وذلك في قوله ﷺ: "سلوه لأي شيء يصنع ذلك؟ وتوجيه الأسئلة من الأساليب التي تمكن من معرفة المعلومات الجديدة وقياس ما تعلمه المتعلمون وتقويمه إن اقتضى الأمر ذلك.

❁ ❁ ❁

٤٨- باب التحذير من إيذاء الصالحين والضعفة والمساكين

قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً﴾[الأحزاب: ٥٨]، وَقالَ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ﴾[الضحى: ٩-١٠].

وأما الأحاديث، فكثيرة مِنْهَا:

حديث أَبي هريرة رضي الله عنه في الباب قبل هَذَا: ((مَنْ عَادَى لِي وَلِيّاً فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ))[١].

ومنها حديث سعد بن أَبي وقاص رضي الله عنه السابق في باب ملاطفة اليتيم[٢].

وقوله صلى الله عليه وسلم: ((يَا أَبَا بَكْرٍ، لَئِنْ كُنْتَ أغْضَبْتَهُمْ لَقَدْ أغْضَبْتَ رَبَّكَ))[٣].

الحديث رقم (٣٨٩)

٣٨٩- وعن جندب بن عبد الله رضي الله عنه ، قَالَ: قَالَ رَسُول الله صلى الله عليه وسلم: **((مَنْ صَلَّى صَلاةَ الصُّبْحِ، فَهُوَ في ذِمَّةِ الله، فَلاَ يَطْلُبَنَّكُمُ الله مِنْ ذِمَّتِهِ بِشَيْءٍ، فَإنَّهُ مَنْ يَطْلُبُهُ مِنْ ذِمَّتِهِ بِشَيْءٍ يُدْرِكْهُ، ثُمَّ يَكُبُّهُ عَلَى وَجْهِهِ في نَارِ جَهَنَّمَ))** رواه مسلم[٤].

ترجمة الراوي:

جندب بن عبدالله البَجَلِيّ: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٣٢).

غريب الألفاظ:

ذمَّة الله: ضمانه وحرمته وعهده وأمانه[٥].

---

(١) تقدم برقم (٩٥)، و (٣٨٦).

(٢) تقدم برقم (٢٦٠).

(٣) تقدم برقم (٢٦١).

(٤) برقم (٢٦٢/٦٥٧). أورده المنذري في ترغيبه (٥٣٠).

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ذ م م).

يُدْرِكْهُ: يناله ويبلغه بانتقامه وقدرته[١].
يكبُّه: يُلقيه مقلوبًا[٢].

الشرح الأدبي

البداية بالموصول، وصلته التي تدل على العموم من وسائل إعطاء المعنى صلاحية عبر الزمان، والمكان ليوافق التوجيه كل من كانت هذه حاله، وقوله (من صلى الصبح..) الفعل الماضي يؤكد التحقق، وذكر الصبح من بين الأوقات الخمسة؛ لأنه بداية النهار، وذكر الضمير للاختصاص، وذمة الله عهده، وأمانه، والتعبير بـ (في) التي تفيد الظرفية للإشارة إلى تمكن، وإحاطة هذا العهد به من كل مكان كتمكن الظرف في المظروف، وقوله (فَلا يَطْلُبَنَّكُمْ اللَّهُ مِنْ ذِمَّتِهِ بِشَيْءٍ) نهي عام أخذ عمومه من اتصال الفعل المنهي عنه بكاف الخطاب، وميم الجمع، والتي سبقتهما نون التوكيد زيادة في تأكيد النهي، وقد جاء لغرض التحذير، والتهديد، وكون لفظ الجلالة (الله) مسنداً إليه يزيد من الترهيب، والباء في قوله: (بشيء) للسببية أي بسبب شيء، وتنكير شيء للتقليل، أي مهما كان قليلاً، وقوله (فإنه)الفاء للتعليل، وإن للتوكيد، وضمير الشأن المتصل بها للتفخيم، والتعظيم لما بعده، والجملة بعده شرطية تربط، وقوع طلب الله لمن خان عهده بإدراكه، وهي تهديد، ووعيد ببطش الله بالظالم، وقوله (، ثُمَّ يَكُبُّهُ عَلَى وَجْهِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ) استخدام ثم يشير إلى الفترة الفارقة بين الحياة، ويوم الحساب، والتعبير بالكب يشير إلى الأخذ بالقوة والبطش الشديد، الذي يتناسب مع طبيعة الظالم المعتدي وتخصيص الوجه بالذكر فيه إهانة، وإذلال، لهذا المتجبر؛ لأنه أشرف ما فيه، وذكر النار يستحضر مع إحراقها، ولظاها دفئها، ونورها، وإضافتها لجهنم يخلصها للإحراق والتعذيب، وهي للترهيب، والتهويل بسوء المصير -والعياذ بالله- وكثرة ألفاظ الترهيب والوعيد في الحديث لتناسب النفوس

---

(١) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (د ر ك).

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ك ب ب).

السبعية التي تميل إلى الغضب، والقهر، وظلم الناس، لاسيما أهل الصلاح، والتقوى الذين هم في ذمة الله، فهو من مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

المضامين الدعوية[1]

(١) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (٢٣٢).

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

الناس كثيراً ما يستهينون بالضعفاء والمساكين، وكذلك الصالحين، ويخشون الأقوياء والمتجبرين والفاسقين، ولهذا جعل الله الفريق الأول في ذمته، وأوجب رعايته، وحرم أذاه، ومن المضامين التربوية في أحاديث الباب ما يلي:

أولاً- من أهداف التربية الإسلامية: غرس قيمة الرحمة بالضعفاء:

إن الرحمة مسلك إنساني حميد، دعا إليه الإسلام، كما توجبه الفطرة السليمة، وهي من صفات الله التي يُبتدأ بها في كل أمر "بسم الله الرحمن الرحيم"، وتتحتم الرحمة أكثر بالضعفاء ومن لا حيلة لهم، فإن من أغضبهم، ولم يرأف بهم فقد أغضب الله تعالى، يقول ﷺ لأبي بكر الصديق رضي الله عنه: "يا أبا بكر، لئن كنت أغضبتهم، لقد أغضبت ربك"، يعني اليتامى.

والرحمة "رقة في القلب، وحساسية في الضمير، وإرهاف في الشعور، تستهدف الرأفة بالآخرين، والتألم لهم، والعطف عليهم، مكفكفة دموع أحزانهم وآلامهم، وهي التي تهيب بالمؤمن أن ينفر من الإيذاء، وينبو عن الجريمة، ويصبح مصدر خيرٍ وسلم للناس أجمعين" (١).

وهذه الرحمة الدافقة الشاملة "أثر من آثار الإيمان بالله والآخرة؛ ذلك الإيمان الذي يرقق بنفحاته القلوب الغليظة، ويُلَيِّنُ الأفئدة القاسية... ولقد غلبت هذه العقيدة، وهذا الخلق على أعمال المسلمين الأولين، ووضحت آثارها في سلوكهم حتى مع الأعداء المحاربين"(٢).

وبهذه الرحمة يسود الخير والود في المجتمع الإسلامي، وينشأ الجيل على الرحمة؛ لأنه نالها من الجيل السابق عليه، وإن لم ينل الضعفاء واليتامى والمساكين الرحمة،

---

(١) تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، ص٣٦٥.

(٢) الإيمان والحياة، د. يوسف القرضاوي، ص٢٤٥، ٢٤٦.

فإنهم سيكونون قُساةً حال تمكنهم وقوتهم، يجزون المجتمع الجزاء الوفاق على إساءته وقسوته.

إن المؤمن: "يعتقد دائماً أنه فقير إلى رحمة الله تعالى، فبهذه الرحمة الإلهية يعيش في الدنيا ويفوز في الآخرة، ولكنه يُوْقن أن رحمة الله لا تُنال إلا برحمة الناس"(١).

ثانياً- التربية بالترغيب في أداء صلاة الصبح:

لقد بيَّن النبي ﷺ فضل صلاة الصبح بقوله: "من صلى الصبح فهو في ذمة الله"، أي: في حمايته، وتلك تربية للمسلم على أن يؤدي صلاة الصبح على وقتها، وفي ذلك ملمح عملي آخر؛ وهو اليقظة مبكراً، وفي حديث آخر يقول ﷺ: "اللهم بارك لأمتي في بكورها"(٢)، لما في الصباح من خير وعافية، وفي هذا الباب بيَّن النبي ﷺ فضلاً آخر للبكور بعد صلاة الصبح؛ وهو أن يصبح المرء في حماية الله وذمته، لا يناله مكروه، ولا يصيبه أذى.

والصلاة عموماً من أهم الركائز التي اهتم بها الإسلام؛ فهي "عمود الدين والمفتاح المؤدي إلى الجنة، وهي من أبرز العبادات في الدلالة على أن الفرد المسلم قوي الإيمان، عبادة يؤديها المسلم كل يوم، وعلى فترات من يومه، من استيقاظه إلى منامه، وهي العبادة التي يُعلن فيها المسلم ولاءه لله خمس مرات"(٣).

ثالثاً- التربية بالترهيب:

من المبادئ التربوية البارزة في هذا الباب الترهيب، وذلك أن النبي ﷺ حذَّر صحابته والمسلمين عامةً من مغبة الوقوع في إيذاء أوليائه وعباده الصالحين، يقول ﷺ: "ومن عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب"، وفي الحديث الثاني يُرهب من إيذاء المصلين العابدين، الذين يصلون صلاة الصبح، فيقول: "فإنه من يطلبه من ذمته بشيء

---

(١) المرجع السابق، ص٢٤٤.

(٢) رواه أبو داود ٢٦٠٦، والترمذي ١٢١٢، والنسائي وابن ماجة ٢٢٣٦، وابن حبان في صحيحه ٢٧٣٥، وقال الترمذي: حديث حسن.

(٣) تربية الأبناء والبنات، خالد عبدالرحمن العك، ص٢٠٠.

يدركه، ثم يكبُّه على وجهه في نار جهنم"؛ ذلك بأنه آذى مسلماً في حمى الله عز وجل، فحقٌّ على الله أن يعاقبه على فعلته بكبِّه على وجهه في نار جهنم.

"إن هذه السلوكيات الخاطئة التي قد يوجد في المجتمع المسلم من يفعلها ويجترئ على تكرارها، لاشك أنها تحطم المجتمع المسلم، وتفقده كل قيم الخير وفضائل الأعمال، وكان لابد من زجر شديد ووعيد مخيف، يوقظ قلب هذا المجترئ الجاني، ليكون أمام خيارين لا ثالث لهما"[1]: إما أن يكفّ عن إيذائه عباد الله الضعفاء واليتامى والأولياء الصالحين، وإما أن يُعرض نفسه لغضب الله، وعذابٍ في جهنم يوم القيامة.

۞ ۞ ۞

(١) أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، زياد العاني، ص٢٥٢.

٤٩- باب إجراء أحكام الناس على الظاهر

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُم﴾[التوبة: ٥].

الحديث رقم (٣٩٠)

٣٩٠- وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أنَّ رَسُول الله ﷺ، قَالَ: **((أُمِرْتُ أنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أنْ لاَ إلـهَ إلاَّ الله، وَأنَّ مُحَمَّدًا رَسُول الله، وَيُقيمُوا الصَّلاةَ، وَيُؤتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءهُمْ وَأمْوَالَهُمْ إلاَّ بحَقِّ الإسْلاَمِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى الله تَعَالَى))** مُتَّفَقٌ عَلَيهِ(١).

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

الشرح الأدبي

بناء الفعل لما لم يسم فاعله لتمام العلم به، وفيه تنبيه على أن هذه الأوامر ليست من عنده، وإنما فرضت عليه من عند الله، وقوله: (أن أقاتل الناس) أي بقتال الناس، وقد عبر بأن المصدرية، والفعل المضارع دون المصدر الصريح، لأن المصدر حدث ليس محدد الزمن، ويفيد الدوام، وهو لا يريد الدوام، ولا يقاتل إلا لضرورة في ظروف محددة، والفعل المضارع أدل على هذا المعنى، لأنه يفيد التجدد، و(ال) في قوله: (الناس) للجنس، وفيها دلالة على عموم رسالته؛ لأنه لم يحدد طائفة معينة كاليهود، أو النصارى، أو غيرهم بل كل من تصدَّى للدعوة مأمور بقتاله، وقوله (حتى يشهدوا) لبيان الغاية، وأنه لا يقاتل الناس طلباً لجاه، أو سلطان، وإنما ليُعبِّدهم لربهم فيوحدوه، ويؤمنوا بأنه رسول الله حتى يرتب على هذا الإيمان عملهم بالشرع الذي أرسل به، وقد قدم الشهادة بالله، لأنها مدخل الدين، فإذا آمنوا به آمنوا برسوله، فإذا آمنوا برسوله عملوا بما جاء به، وقدم إقامة الصلاة للاهتمام، وتلاها الزكاة لحاجة المسلمين يومئذ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢/٣٦) ولفظهما سواء. وسيكرره المؤلف برقم (١٠٧٨).

للأموال التي تستكمل بها عدة القتال، وتستمر الدعوة، وأسلوب الشرط في نهاية الحديث يقرر نقاء العقيدة، ونبل المقصد؛ لأنهم إن آمنوا أمنوا على أرواحهم، وأموالهم إلا بالحق، وقوله (عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ) كناية عن عدم القتل، والتعبير بالكناية يصور مشهد الدماء، وتطاير الأشلاء فيسارع إلى حفظها بالإسلام، وقولهم (وحسابهم على الله) تتميم بلاغي أفاد نكتة دقيقة، وهي أنه لا يعلم ما في القلوب، وأنه يعصمهم بظاهر الأعمال.

فقه الحديث

١-قال النووي: (قال الخطابي: ومعنى "حسابه على الله" أي فيما يستسرون به ويخفونه دون ما يخلون به في الظاهر من الأحكام الواجبة، قال: ففيه أن من أظهر الإسلام وأسرّ الكفر قبل إسلامه في الظاهر. وهذا قول أكثر العلماء. وذهب مالك إلى أن توبة الزنديق لا تقبل. ويحكي ذلك أيضًا عن أحمد بن حنبل رضي الله عنهما. هذا كلام الخطابي. وذكر القاضي عياض معنى هذا، وزاد عليه وأوضحه فقال: اختصاص عصمة المال والنفس بمن قال لا إله إلا الله تعبير عن الإجابة إلى الإيمان وأن المراد بهذا مشركو العرب وأهل الأوثان ومن لا يوحّد. وهم كانوا أول من دعي إلى الإسلام وقوتل عليه. فأما غيرهم ممن لا يقرّ بالتوحيد فلا يكتفي في عصمته بقوله: لا إله إلا الله، إذ كان يقولها في كفره، وهي من اعتقاده، فلذلك جاء في الحديث الآخر "وأني رسول الله ويقيم الصلاة ويؤتي الزكاة"[1]. هذا كلام القاضي. قلت: ولا بدّ مع هذا من الإيمان بجميع ما جاء به رسول الله ﷺ كما جاء في الرواية الأخرى لأبي هريرة -هي مذكورة في الكتاب-: "حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به"[2] والله أعلم. قلت: [القائل النووي]: اختلف أصحابنا في قبول توبة الزنديق، وهو

---

(١) أخرجه البخاري ٢٥، ومسلم ٣٦ من حديث ابن عمر { بلفظ "وأن محمدًا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة".

(٢) أخرجه مسلم ٣٤/٢١.

الذي ينكر الشرع جملة، فذكروا فيه خمسة أوجه لأصحابنا، أصحها والأصوب منها قبولها مطلقًا للأحاديث الصحيحة المطلقة)[١].

٢-قال النووي: (فيه دلالة ظاهرة لمذهب المحققين والجماهير من السلف والخلف أن الإنسان إذا اعتقد دين الإسلام اعتقادًا جازمًا لا تردد فيه، كفاه ذلك وهو مؤمن من الموحدين ولا يجب عليه تعلّم أدلة المتكلمين ومعرفة الله تعالى بها، خلافًا لمن أوجب ذلك وجعله شرطًا في كونه من أهل القبلة وزعم أنه لا يكون له حكم المسلمين إلا به. وهذا المذهب هو قول كثير من المعتزلة وبعض أصحابنا المتكلمين وهو خطأ ظاهر، فإن المراد التصديق الجازم وقد حصل، ولأن النبي ﷺ اكتفى بالتصديق بما جاء به ﷺ ولم يشترط معرفة بالدليل. فقد تظاهرت بهذا أحاديث في الصحيحة يحصل بمجموعها التواتر بأصلها والعلم القطعي)[٢].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانيًا: من فقه الدعوة: البدء بالتوحيد.

ثالثًا: من واجبات الداعية: ترتيب الأولويات.

رابعًا: من أساليب الدعوة: الشرط.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: الحكم بظواهر الأمور.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار:

جاء في أسلوب الإخبار ذلك في عموم الحديث حيث أخبر النبي ﷺ بما أمر به من مقاتلة الناس والجهاد في سبيل الله وسبيل دعوته حتى يدخل الناس في الإسلام وشعائره وبيان عصمة مَنْ فعل ذلك: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله... الحديث)، وإنّ أسلوب الإخبار لهو البلاغ الذي أمر به رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي، ١٨٤/١/١.

(٢) المرجع السابق ١٨٧/١/١.

رِسَالَتَهُۥ﴾[١]، فهذا أمر من الله لرسوله ﷺ بأعظم الأوامر وأجلها وهو التبليغ[٢].

ثانيًا- من فقه الدعوة: البدء بالتوحيد:

إن التوحيد هو الأصل الذي يقوم عليه الدين، وينطلق منه الداعية في دعوته وما بني من الدين على غير أساس التوحيد فلا قيمة له ولا بقاء، لذا بدأ النبي ﷺ به، وأكد عليه في هذا الحديث في قوله ﷺ: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم...)، قال شبير العثماني: (قوله: "حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله..." جعلت غاية المقاتلة وجود ما ذكر، فمقتضاه أن من شهد وأقام وآتى عصم دمه، واكتفى بذكر الصلاة والزكاة في الحديث وذلك لعظمتهما والاهتمام بأمرهما، لأنهما أما العبادات البدنية والمالية)[٣].

إن التوحيد هو أعظم أصول الدين وأساسها[٤]، فإن انتفى هذا الأصل بارت الأعمال: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾[٥]، ففي الآية شبهت الأعمال التي لا تقوم على أساس من التوحيد بالشيء التافه الحقير المتفرق، الذي لا يقدر منه صاحبه على شيء بالكلية، وذلك أن الأعمال التي لا تقوم على أساس من التوحيد لا قيمة لها وذلك لأنها فقدت الشرط الشرعي، إما الإخلاص فيها، وإما المتابعة لشرع الله، فكل عمل لا يكون خالصًا وعلى الشريعة المرضية فهو باطل، فأعمال الكفار لا تخلو من واحد من هذين، وقد تجمعهما معًا، فتكون أبعد من القبول حينئذ[٦].

---

(١) سورة المائدة، آية: ٦٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٢٠١.

(٣) انظر: موسوعة فتح الملهم، محمد تقي العثمان ١/٥٢٢.

(٤) انظر: شرح العقيدة الواسطية، ابن تيمية، محمد خليل هراس، ص ٩٨.

(٥) سورة الفرقان، آية: ٢٣.

(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٦/١٠٣.

ومن ثمَّ كان اهتمام الرسل عليهم السلام - ومَنْ بعدهم الدعاة- بإصلاح العقيدة أولاً، فأول ما يدعون أقوامهم إلى عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[1]، وقد بقي النبي ﷺ في مكة بعد البعثة ثلاثة عشر عامًا ما يدعو الناس إلى التوحيد وإصلاح العقيدة لأنها الأساس الذي يقوم عليه بناء التوحيد، وبمنهجه ينبغي أن يحتذى الدعاة والمصلحون في كل زمان ومكان[2].

ثالثًا- من واجبات الداعية: ترتيب الأولويات:

إن من أوجب الواجبات على الداعية مراعاة ترتيب الأولويات، وكما هو واضح في الحديث في بدء رسول الله ﷺ بالتوحيد الذي هو أسُّ الدين وأصله ثم بعد ذلك جاء ذكر الشعائر الدينية: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ويقيمون الصلاة.. الحديث)، فينبغي أن يعنى الداعية بتقديم ما هو أصل على ما هو فرع، فيقنع الناس به ويحملهم على قبوله، فإذا ما استقر في القلوب، واستجابت له النفوس انتقل إلى ما هو دون ذلك متأسيًا برسول الله ﷺ[3].

لذا ينبغي أن يعلم كل داعية أهمية التدرج في الدعوة، والبدء بأهم الأمور إلى المهم، وأن يفقه الداعية هذا الأمر الهام، وذلك لأن أعظم ما يكون في البيت أساسه وأهم ما تستند عليه الشجرة جذرها وأصلها فإذا كان الأساس صحيحًا قويًا صلبًا كان ما فوقه صحيحًا قويًا كذلك، وإن كان الأساس هشًا ضعيفًا فلا يستبعد أن يسقط المنزل أو تعصف بالشجرة الرياح، وهذا ما يوضحه قول الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا

---

(١) سورة النحل، آية: ٣٦.

(٢) عقيدة التوحيد وبيان ما يضادها من الشرك الأكبر والأصغر والتعطيل والبدع وغير ذلك، د. صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، دار القاسم، الرياض ص ٦ - ٨.

(٣) صفات الداعية، د. حمد بن ناصر العمار، ص ١٠٩.

كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[(١)].

ولا شك أن المتتبع لدعوة المصطفى ﷺ يجد هذا الأمر جليًا واضحًا فيها فقد أمضى ثلاثة عشر سنة في مكة، وهو يدعو الناس إلى التوحيد وقوله: "لا إله إلا الله" قبل دعوتهم إلى الصلاة والزكاة والصوم والحج وبقية شرائع الإسلام الأخرى، وما ذاك إلا لأهمية هذا الأصل العظيم وهذا الركن الركين، الذي ما إن يتبث في القلوب وتألف عليه الصدور حتى يثمر الثمرات اليانعة الطيبة بإذن الله.

فالدعوة العقيدة الصحيحة إذ تأتي في أولويات عمل الداعية ثم الحث على العبادات كالصلاة والزكاة والصوم والحج وبقية الشرائع والأخلاق الإسلامية الأخرى حسب الأهمية وما يقتضيه المقام[(٢)].

رابعًا- من أساليب الدعوة: الشرط:

ذكر هذا الأسلوب في الحديث في قوله ﷺ: "فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام"، ففيه شرط العصمة على أساس الإيمان؛ فإن انتفى الإيمان فلا مجال لعصمة الدم، وأسلوب الشرط يحمل المتلقي على العمل بما فيه رغبة بمنطوقه، ورهبة من مفهومه. وقد ورد أسلوب الشرط في كثير من آيات القرآن، كقوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[(٣)] وقوله: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾[(٤)].

خامسًا- من موضوعات الدعوة: الحكم بظواهر الأمور:

لقد أمر الله تعالى بمعاملة الناس بالظاهر وهو وحده يتولى السرائر: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ

(١) سورة إبراهيم، آية: ٢٤، ٢٥.

(٢) انظر: منهج الدعوة إلى الله، د. عبدالرحيم بن محمد المغذوي، ص ١٣٠، ١٣١.

(٣) سورة النحل، آية: ٩٧.

(٤) سورة الزلزلة، آية: ٧، ٨.

ﭐلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾[1]، وجاء في الحديث: "فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله تعالى"، والمعنى أن الشهادتين مع إقام الصلاة وإيتاء الزكاة تعصم دم صاحبها وماله في الدنيا إلا أن يأتي ما يبيح دمه، وأما في الآخرة فحسابه على الله عز وجل، فإن كان صادقًا أدخله الله الجنة، وإن كان كاذبًا فهو من جملة المنافقين، قال تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ﴿٢١﴾ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَكۡبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم﴾[2]، والمعنى: إنما عليك تذكيرهم بالله ودعوتهم إليه، ولست مسلطًا على إدخال الإيمان في قلوبهم قهرًا ولا مكلفًا بذلك، ثم ذكر أن مرجع العباد كلهم إليه وحسابهم عليه[3]، فينبغي تفويض أمر بواطن الناس إليه سبحانه، لأنه الذي يتولى خبايا أسرارهم وخفايا ضمائرهم من إيمان وكفر ونفاق، وأما الرسول ﷺ فإنما أُمر أن يحكم بظواهر أفعالهم وأقوالهم[4].

---

(١) سورة غافر، آية: ١٩.

(٢) سورة الغاشية، الآيات: ٢١ - ٢٦.

(٣) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢٣٦/١.

(٤) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٦١٢.

الحديث رقم (٣٩١)

٣٩١- وعن أَبي عبدِ الله طارِق بن أشَيْم رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُول الله ﷺ، يقول: ((**مَنْ قالَ لاَ إلهَ إلاَّ الله، وَكَفَرَ بما يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ، حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ عَلَى الله تَعَالَى**)) رواه مسلم(١).

ترجمة الراوي:

طارق بن أَشْيَم: وهو طارق بن أَشْيَم بن مسعود الأشجعيُّ، وأشيم بفتح الهمزة وإسكان الشين المعجمة وفتح المثناة التحتية.

له صحبة ورواية(٢).

الشرح الأدبي

قوله (من قال...) من اسم موصول متضمن معنى الشرط، وأسلوب الشرط من الأساليب الخبرية الشائعة في الحديث النبوي لما لها من خصوصيات تجعله أنسب الأساليب للسياق، وأوفاها للمعنى؛ لأنها تعطي الخبر حكم العموم، وبذلك يكون صالحاً لكل زمان، ومكان، مع ربطه الجزاء بالفعل، وجعل المخاطب طرفاً حرَّ الاختيار بعد توضيح العاقبة، وقوله (لاَ إلهَ إلاَّ الله) هي أعظم ما يقال لاحتوائها على توحيد الله، وإفراده بالألوهية دون سواه، تحقق هذا المعنى بأسلوب القصر لصفة الألوهية على ذات الله - سبحانه وتعالى - قصراً حقيقياً تحقيقياً؛ لأن الألوهية منفية عن الجميع، وثابتة لله وحده حقيقة، وحكماً، ومطابقة للواقع، زاد العبارة تركيزاً معنى إثبات الألوهية لله وحده، ونفيها عن كل ما سواه مجيء القصر بطرق النفي

---

(١) برقم (٢٣/٣٧).

(٢) أسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٢٦/٣)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي (٦٢١)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين (٤٩٠/٣)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٢٣٢/٢).

والاستثناء، وهو أقوى طرق القصر تأكيداً لما فيه من نص على المنفي، والمثبت، ولذلك يستخدم عند الإنكار، وقوله (وَكَفَرَ بما يُعْبَدُ مِنْ دُونِ) تأكيد للجملة الأولى بنفي ضدها؛ لأن بينهما تضاد من جهة أن من قال كلمة التوحيد فهو على الإسلام، وهو ضد الكفر، وقوله (حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ) بناء الفاعل لما لم يسم فاعله تعميم لهذه الحرمة، وفي هذا صيانة لماله، ودمه في الدنيا وصيانة لنفسه من النار في الآخرة بدخوله في الإسلام.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الشرط.

ثانيًا: من مهام الداعية: بيان الأمور وإظهار الحقائق.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: تعلق أحكام الشريعة بالظاهر.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: الحث على التبرؤ من عبادة غير الله تعالى.

خامسًا: من أهداف الدعوة: حرمة دم ومال وعرض المسلم.

أولاً- من أساليب الدعوة: الشرط:

ورد أسلوب الشرط في هذا الحديث في قوله ﷺ: "من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله، حرم ماله ودمه وحسابه على الله تعالى"، وأسلوب الشرط له أثره في شد انتباه المدعو لمضمون أسلوب الشرط، لما فيه من ربط للجزاء بالعمل، وقد تكرر أسلوب الشرط في القرآن كثيرًا، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[1]، وقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[2].

ثانيًا: من مهام الداعية: بيان الأمور وإظهار الحقائق

إن من المهام الأساسية التي يضطلع بها الداعية بيان الأمور وإظهار الحقائق، وقد ورد هذا المعنى في عموم الحديث حيث بين رسول الله ﷺ للناس طريق الخلاص

---

(١) سورة الزلزلة، الآيتان: ٧-٨ .

(٢) سورة النحل، آية: ٩٧.

وعصمة الدماء والأموال في قوله ﷺ "من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله، حرم ماله ودمه، وحسابه على الله تعالى" فالداعية مهمته تبيين تفاصيل وأحكام ومعاني الدين، وتنظيم حياة الأفراد ممن يتولاهم نظرًا لعلمه الواسع، وإحاطته بأمور الدين أكثر من غيره[1]. وجاء في القرآن ما يدل على أن التبيين مهمة الأنبياء قال تعالى: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾[2]. وذلك بشأن عيسى عليه السلام، وقال تعالى مخاطبًا نبيه الكريم محمدًا ﷺ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: تعلق أحكام الشريعة بالظاهر:

من موضوعات الدعوة المستنبطة من هذا الحديث: تعلق أحكام الشريعة بالظاهر، وأمر السرائر موكول إلى الله تعالى، وهذا ما ورد في قوله ﷺ: ((من قال لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله، حرم ماله ودمه، وحسابه على الله تعالى))، أي حساب سره إن أظهر ما يحقن دمه ويعصمه، وأبطن خلافه كما فعل المنافقون، فذلك إلى المطلع على السرائر وأن حكم النبي ﷺ والأئمة بعده إنما كان على الظاهر. وبهذا قد سدّت الشريعة الباب على من يريد أن يرمي أحدًا بالنفاق ظلمًا وبهتانًا، فريطت الأمر بالظاهر الذي يعصم الدم[4]، قال ابن حجر العسقلاني: أمور الناس محمولة على الظاهر، فمن أظهر شعار الدين أجريت عليه أحكام أهله ما لم يظهر منه خلاف ذلك[5].

وقد عنف النبي ﷺ أسامة بن زيد رضي الله عنه عندما قتل الرجل بعد أن قال: لا إله إلا الله، وزجره النبي ﷺ حتى إن أسامة رضي الله عنه قال: إن الرجل قال تقية وخوفًا من القتل،

(١) انظر: الدعوة الإسلامية، مفهومها وحاجة المجتمعات إليها، محمد خير رمضان يوسف، ص٢٠.

(٢) سورة الزخرف، آية: ٦٣.

(٣) سورة النحل، آية: ٣١.

(٤) انظر: فقه الائتلاف، محمود محمد الخزندار، ص ٢٠١.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٩٢/١.

فقال له النبي ﷺ كيف تحاجّ عن لا إله إلا الله يوم القيامة؟ لقد قال له النبي ﷺ: ((... يَا أُسَامَةُ أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ؟ قَالَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا كَانَ مُتعوِّذًا. قَالَ، فَقَالَ: أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ؟ قَالَ: فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ))[١]. وفي رواية: أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا؟ فما زال يكررها حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ". قال ابن حجر: (قال ابن التين: في هذا اللوم تعليم وإبلاغ في الموعظة حتى لا يقدم أحد على قتل من تلفظ بالتوحيد)[٢].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: الحثّ على التبرؤ من عبادة غير الله تعالى:

لا يصح إسلام الإنسان إلا بالتبرؤ من كل ما يعبد من دون الله تعالى، وقد أشار النبي ﷺ إلى ذلك في الحديث فقال: "من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله، حرم ماله ودمه وحسابه على الله تعالى" وتلك رسالة الأنبياء جميعًا، فأول ما يدعون أقوامهم يدعونهم إلى عبادة الله وحده وترك عباده ما سواه كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾[٣]،[٤].

يعني أن الرسل يأمرون بأن يُعْبَد الله وتُجتنب عبادة الطاغوت، والطاغوت اسم كل معبود من دون الله[٥]، وبهذا بيّن الله للأمم على ألسن الرسل عليهم السلام، أنه يأمرهم بعبادته واجتناب عبادة غيره[٦]، وبين الله تعالى أن التبرؤ من عبادة غيره استمساك بالعروة الوثقى، ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾[٧]، وهداية من الله وصفة لأولي الألباب: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّـٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ

---

(١) أخرجه البخاري ٦٨٧٢.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٠٣/١٢.

(٣) سورة النحل، آية: ٣٦.

(٤) عقيدة التوحيد، د. صالح بن فوزان بن عبدالله الفوزان، ص ٦.

(٥) لباب التأويل في معاني التنزيل، الخازن ١١٤/٣.

(٦) التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور ١٤٩/١٤/٦.

(٧) سورة البقرة، آية: ٢٥٦.

لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[1]. أي المتصفون بهذه الصفة هم الذين هداهم الله في الدنيا والآخرة، أي ذوو العقول الصحيحة والفطر المستقيمة[2].

خامسًا: من أهداف الدعوة: حرمة دم ومال وعرض المسلم

إن من أهداف الدعوة المستنبطة من هذا الحديث حرم دم ومال وعرض المسلم، حيث ورد الشاهد على ذلك في قوله ﷺ: "من قال لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله، حرم ماله ودمه، وحسابه على الله تعالى"، فلا يهدر دمه ولا يستباح ماله بسبب من الأسباب إلا بحقه، كفعل الواجبات وترك المنهيات فإنها واجبة وقد التزمها المسلمون بإسلامهم، فإن فعلوا واجتنبوا بنية صالحة فمؤمنون، أوتقية وخوفًا حقنوا ذلك وعصموه[3]، وبهذا قدس الإسلام حق الحياة للمسلم وحماه بالتربية والتوجيه وبالتشريع والقضاء، وبكل المؤيدات النفسية والفكرية والاجتماعية واعتبر الحياة هبة من الله لا يجوز لأحد أن يسلبها غيره[4]. لأن حماية النفس والمال والعرض من الأهداف الرئيسة للدعوة إلى الله تعالى، لأن الدعوة ترعى الحرمات وتجمع ولا تفرق، وتبني ولا تهدم، وتصون ولا تنتهك، وتعمل على توفير الحماية والضمانات التي تكفل للإنسان أن يعيش آمنًا على نفسه وماله وعرضه.

---

(١) سورة الزمر، الآيتان: ١٧-١٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٧/٩٠.

(٣) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٦١٢.

(٤) الخصائص العامة للإسلام، د. يوسف القرضاوي، ص ٨٤.

الحديث رقم (٣٩٢)

٣٩٢- وعن أَبي معبد المقداد بن الأسْود ﵁، قَالَ: قُلْتُ لرسول الله ﷺ: أرأيْتَ إنْ لَقِيتُ رَجُلاً مِنَ الكُفَّارِ، فَاقْتَتَلْنَا، فَضَرَبَ إحْدَى يَدَيَّ بالسَّيْفِ، فَقَطَعَهَا، ثُمَّ لاذَ مِنِّي بِشَجَرَةٍ، فَقَالَ: أسْلَمْتُ لِلهِ، أأقْتُلُهُ يَا رَسُول الله بَعْدَ أنْ قَالَهَا؟ فَقَالَ: ((**لا تَقْتُلْهُ**)) فَقُلْتُ: يَا رَسُول الله، قَطَعَ إحْدَى يَدَيَّ، ثُمَّ قَالَ ذلِكَ بَعْدَ مَا قَطَعَهَا؟! فَقَالَ: ((**لا تَقْتُلْهُ، فإنْ قَتَلْتَهُ فَإنَّهُ بِمَنْزِلَتِكَ قَبْلَ أنْ تَقْتُلَهُ، وَإنَّكَ بِمَنْزِلَتِهِ قَبْلَ أنْ يَقُولَ كَلِمَتَهُ التي قَالَ**)) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[١].

ترجمة الراوي:

المقداد بن الأسود الكندي: هو المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك الكندي المعروف بالمقداد بن الأسود، تبناه الأسود بن عبد يغوث فنسب إليه. كان من السباقين الأوائل إلى الإسلام، قال ابن مسعود: أول من أظهر إسلامه سبعة فذكره فيهم.

هاجر الهجرتين: هجرة الحبشة وهجرة المدينة، وتزوج ابنة عم النبي ﷺ ضباعة بنت الزبير بن عبدالمطلب.

كان من الأبطال الشجعان شهد بدرًا والمشاهد بعدها، وله في بدر الموقف الجليل والفعل الحسن: فقد كان أول من قاتل على فرس في سبيل الله. قال عبدالله بن مسعود: شهدت من المقداد بن الأسود مشهدًا لأن أكون صاحبه أحب إليّ مما عُدل به [أي أحب إلي من كل شيء دنيوي كالجاه والمال والسلطان]. أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال: لا تقول كما قال قوم موسى: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾[٢] ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك. فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسرَّه قولُه[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠١٩) واللفظ له، ومسلم (٩٥/١٥٥).

(٢) سورة المائدة، آية: ٢٤.

(٣) أخرجه البخاري (٣٩٥٢).

وظلّ على حبه الجهاد ومشاركته في الفتوح، قابله رجل وهو كبير في السن في مدينة حمص فقال له: قد أعذر الله إليك فقال: أبت علينا سورة البعوث ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً﴾[١] [٢].

وكان متواضعًا لا يحب الظهور والشهرة، استعمله النبي ﷺ على عمل فلما رجع سأله: كيف وجدت الإمارة؟ قال: يا رسول الله ما ظننت إلا أن الناس كلهم خَوَلٌ لي، والله لا ألي على عمل ما دمت حيًا[٣].

وكان يقول: لا أتحمل على أحد أبدًا. فكانوا يقولون: تقدم فصلٌ، فيأبى.

وكان جوادًا كريمًا أوصى للحسن والحسين بستة وثلاثين ألفًا ولأمهات المؤمنين كل واحدة بسبعة آلاف درهم.

مات ٣٣هـ - وقيل: وهو ابن سبعين سنة- وصلّى عليه عثمان بن عفان ودفن بالبقيع[٤].

غريب الألفاظ:

لاَذَ منِّي بشجرة: التجأ إليها واحتمى بها[٥].

---

(١) سورة التوبة، آية: ٤١.

(٢) سورة البحوث: هي سورة التوبة "سميت بذلك لأنها تبحث عن أسرار المنافقين" الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٦١/٨/٤.

(٣) أخرجه الحاكم (٢٤٩/٣-٢٥٠) وصححه ووافقه الذهبي.

(٤) الطبقات الكبرى، ابن سعد (١٦١/٣) والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٦٩٩ وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٢٤٢/٥) والإصابة في تمييز الصحابة، ابن العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ١٢٨٣، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين (٢١٣/٧) تهذيب التهذيب، ابن حجر (١٤٦/٤) والأعلام، خير الدين الزركلي (٢٨٢/٧) وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك (١٨٢٩/٣).

(٥) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٩٧/١٢.

بمنزلتك: معصوم الدم محكوم بإسلامه [١].

أنك بمنزلته: مباح الدم بالقصاص لورثته، لا أنه بمنزلته في الكفر [٢].

الشرح الأدبي

الحديث يدور حول عصمة من دخل في الإسلام، وقد قام المعنى فيه على الحوار بين المقداد رضي الله عنه، وبين الرسول ﷺ على إثر سؤال المقداد (أرَأيْتَ إنْ لَقِيتُ رَجُلاً مِنَ الكُفَّارِ) وهو بمعنى أخبرني فهو استفتاء للرسول ﷺ في تلك المسألة، والقيود التي بعده، والتي توالت بعد الاستفهام في سرعة دل عليها الربط بين الجمل بالفاء تحكي تفاصيل الحدث، وقوله (، فَضَرَبَ إحْدَى يَدَيَّ بِالسَّيْفِ، فَقَطَعَهَا) قوله بالسيف توكيد للفعل، وقوله فقطعها توكيد للضرب، وبيان للأثر المترتب عليه وقوله (ثم لاذ مني) استخدام ثم يشير إلى فترة تقاتلا فيها حتى تغلّب عليه، وقوله (أأقْتُلُهُ يَا رَسُول الله بَعْدَ أنْ قَالَهَا؟) استعلام قصد به معرفة الحكم، وقوله: (بعد أن قالها) تتميم بلاغي أفاد التأكيد على إعلانه دخول الإسلام، وقول الرسول ﷺ ((لا تَقْتُلهُ) نهى على حقيقته، وقوله (قَطَعَ إحْدَى يَدَيَّ...) خبر أريد به لازم الفائدة، وهي مراجعته في الحكم، وتكرار الرسول ﷺ لنهيه توكيد للحكم، وأسلوب الشرط بعده (فإنْ قَتَلْتَهُ فَإنَّهُ بِمَنْزِلَتِكَ قَبْلَ أنْ تَقْتُلَهُ، وَإنَّكَ بِمَنْزِلَتِهِ قَبْلَ أنْ يَقُولَ كَلِمَتَهُ التي قَالَ) يربط الفعل الذي هو القتل بالجزاء، وهو التماثل في العصمة، ومعناه أنه معصوم الدم بإسلامه، والتماثل في إباحة الدم، لأنه قتل مسلماً؛ لأن الكافر مباح الدم بحكم الدين قبل أن يسلم، فإذا أسلم صار مصان الدم كالمسلم، فإن قتله المسلم بعد ذلك صار دمه مباحاً بحق القصاص كالكافر بحق الدين، وليس المراد إلحاقه في الكفر، وحاصله اتحاد المنزلتين مع اختلاف المأخذ، فالأول أنه مثلك في صون الدم، والثاني أنك مثله في الهدر - كما

(١) رياض الصالحين ١٩٧.

(٢) رياض الصالحين ١٩٧.

أشار الخطابي-، واستخدامه (إن) كأداة شرط توحي بندرة الحصول؛ لأن قتل المسلم لمن دخل في الإسلام أمر نادر الحدوث.

فقه الحديث

تشير هذه الأحاديث إلى حكم عصمة الأنفس والأموال بنطق كلمة التوحيد، وقد سبق القول في الحديث رقم (٩٤) أنه قد اتفق الفقهاء[1] على أن الكافر إذا قال لا إله إلا الله فقد عصمت نفسه وماله إلا بحقه، وقد نقل ابن المنذر الإجماع على ذلك فقال: أجمع كل من نحفظ عنه من أهل العلم على أنه إذا قال الكافر أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وأن كل ما جاء به محمد حق وأبرأ من كل دين يخالف دين الإسلام وهو صحيح العقل أنه مسلم، فهو محمول على حكم الظاهر دون الباطن.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: النهي.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: حرمة دم ومال من صدر عنه ما يدل على دخوله الإسلام.

رابعًا: من واجبات المدعو: الانقياد للشرع وترك العصبية والانتقام.

خامسًا: من آداب المدعو: السؤال عما أشكل عليه.

---

(١) انظر في ذلك: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٣٢١/٧ وما بعدها، وتفسير ابن كثير ٥٠/١، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، الزيلعي ٢٤٢/٣، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، علاء الدين أبي بكر الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ١٠٠/٧، وشرح منح الجليل ١٤٤/٣ وما بعدها، ونهاية المحتاج ٦٤/٨، ومغني المحتاج ٣١/٦، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٦٢٦/١، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٤٠/٣، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٣٨/٣٠ وما بعدها.

أولاً- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

تكرر هذا الأسلوب في الحديث في أسئلة أبي معبد المقداد بن الأسود وجواب الرسول ﷺ عليها: (أرأيت إن لقيت رجلاً من الكفار فاقتتلنا... فقال أسلمت أأقتله.. فقال: لا تقتله، فقلت: يا رسول الله قطع إحدى يدي... فقال: لا تقتله... الحديث)، والسؤال والجواب من الأساليب الدعوية المفيدة لما فيه من بحث عن الحقيقة وتبيين لها أضف إلى ما فيه من لفت الأنظار وشد الأذهان وإثارة الانتباه.

ثانيًا- من أساليب الدعوة: النهي:

ورد النهي في هذا الحديث في قوله ﷺ: (لا تقتله) نهى عن قتل المحارب إذا أسلم، والنهي من الأساليب الدعوية المعتبرة في الدعوة إلى الله لما فيه من بيان المحذور للمدعوين لاجتنابه، ومن صفات الأمة خاصة العلماء والدعاة القيام بواجب النهي عن المنكر قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[1]. أي ولتكن منه جماعة منتصبة للقيام بأمر الله في الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[2]. والنهي أحد ركني الموعظة الحسنة والتي أمر الله بها في قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[3]. والموعظة الحسنة هي الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب[4].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: حرمة دم ومال من صدر عنه ما يدل على دخوله الإسلام:

من الحقائق المقررة حرمة وعصمة من صدر عنه ما يدل على دخوله الإسلام دمًا

(١) سورة آل عمران، آية: ١٠٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٩١/٢.

(٣) سورة النحل، آية: ١٢٥.

(٤) التفسير القيم لابن القيم، ص ٣٤٤.

وعرضًا ومالاً وقد ورد ذلك صريحًا في الحديث: "أرأيت إن لقيت رجلاً من الكفار فاقتتلنا، فضرب إحدى يدي بالسيف فقطعها ثم لاذ مني بشجرة، فقال: أسلمت لله، أأقتله يا رسول الله بعد أن قالها؟ فقال: لا تقتله"، وفي ذلك دليل على أن كل من صدر عنه أمر ما يدل على الدخول في دين الإسلام من قول أو فعل حكم له لذلك بالإسلام[١]، وعصم دمه وحرم ماله، ووضح النبي ﷺ ذلك أيما توضيح في قوله: (فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله وإنك بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال).

قال النووي: (فأحسن ما قيل فيه وأظهره ما قاله الإمام الشافعي وابن القصار المالكي وغيرهما أن معناه: فإنه معصوم الدم محرم قتله بعد قوله: لا إله إلا الله كما كنت أنت قبل أن تقتله، وأنك بعد قتله غير معصوم الدم ولا محرم القتل كما كان هو قبل قوله لا إله إلا الله. قال ابن القصار: يعني لولا عذرك بالتأويل المسقط للقصاص عنك)[٢].

رابعًا- من واجبات المدعو: الانقياد للشرع وترك العصبية والانتقام:

جاء هذا المعنى في إجابة النبي ﷺ للمقداد بن الأسود بالنهي عن قتل المحارب الذي صدر عنه ما يدخله الإسلام: (لا تقتله)، حتى وإن اعتدى على المسلم قبل أن يعلن الشهادة: (فقال: يا رسول الله إنه قطع يدي، فقال رسول الله ﷺ: لا تقتله) وذلك ابتعادًا بالمسلم عن ابتاع هوى نفسه وما تدعوه إليه من تشفٍ وانتقام[٣]. وقد أرشد الإسلام المسلمين انتهاج العفو والمسامحة منهج حياة وملازمة خلق، ما لم تنتهك حرمات الله ولقد ضرب النبي ﷺ مثلاً أعلى يحتذى به، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: ((مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ. وَلاَ امْرَأَةً. وَلاَ خَادِمًا. إِلاَّ أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللّهِ. وَمَا

---

(١) انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ١/٢٩٤.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٥.

(٣) انظر: شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٧/٤٤ - ٤٥.

نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ. فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ. إِلاَّ أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللَّهِ. فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ))[١]. ووصف الله عباده المؤمنين بقوله: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾[٢]. وفي ذلك بيان أن الانتقام ليس من صفات الكرام.

خامسًا- من آداب المدعو: السؤال عما أشكل عليه:

لقد كان شأن الصحابة رضي الله عنهم الرجوع إلى رسول الله ﷺ في أمورهم يسألونه عن الصواب والرشاد وإن ما ورد في الحديث من سؤال المقداد بن الأسود لرسول الله ﷺ يعد نموذجًا لأدب الصحابة رضي الله عنهم في الاحتكام إلى رسول الله ﷺ: (قال: قلت لرسول الله ﷺ أرأيت إن لقيت رجلاً من الكفار فاقتتلنا فضرب إحدى يدي بالسيف.. الحديث)، ذلك تطبيقًا منهم لما فهموه من أمر الله تعالى لهم وبيان الرجوع إلى رسول الله ﷺ شرط الإيمان: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾[٣]، فلا بد من الرضا بما بلغه النبي ﷺ عن الله من الدين، وما صدر عنه من سنة، وتلقي ذلك بالرضا والتسليم، وذلك لا بد منه في تمام الإيمان الواجب، ومن أخل بشيء منه فقد نقص من إيمانه الواجب بحسب ذلك[٤]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾[٥].

---

(١) أخرجه مسلم ٢٣٢٨.

(٢) سورة الشورى، آية: ٣٧.

(٣) سورة النساء، آية: ٦٥.

(٤) تفسير ابن رجب الحنبلي ١/٥٠٢.

(٥) سورة النساء، آية: ٥٩.

فإن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ يجب الوقوف عند حدودهما والتحاكم إليهما فهما الميزان الذي توزن به الاقوال والأفعال والأحكام فما وافقهما قُبل وما خالفهما رُدَّ[(١)].

إن من أهم وسائل المعرفة سؤال أهل العلم، وعدم ترك السؤال لهم حياء أو كبرًا، وفي الحديث صورة تطبيقية لما ينبغي أن يكون عليه المدعو، وذلك في سؤال المقداد بن الأسود لرسول الله ﷺ: "أرأيت إن لقيت رجلاً من الكفار فاقتتلنا.. الحديث" قال أبو العباس القرطبي: (قوله: "أرأيت إن جاء رجل من الكفار فقاتلني" دليل على جواز السؤال عن أحكام النوازل قبل وقوعها، وقد روي عن بعض السلف كراهية الكلام في النوازل قبل وقوعها، وهذا إنما يحمل على ما إذا كانت تلك المسائل مما لا تقع أو تقع نادرًا، فأما ما يتكرر من ذلك ويكثر وقوعه فيجب بيان أحكامها على من كانت له أهلية بذلك إذا خيف الشغور عن المجتهدين والعلماء في الحال أو في الاستقبال، كما قد اتفق عليه أئمة المسلمين من السلف لما توقعوا ذلك فرّعوا الفروع ودونوها، وأجابوا عما سؤلوا عنه من ذلك حرصًا على إظهار الدين)[(٢)].

إن الجهل داء دواؤه السؤال كما صرح بذلك رسول الله ﷺ: ((فإنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ))[(٣)]، والعي بكسر العين: الجهل، والمعنى: أن الجهل داء وشفاؤه السؤال والتعلم[(٤)].

---

(١) انظر: دروس في الحقوق الواجبة على المسلم، د. فالح بن محمد الصغير، ص ٤٦، ٤٧.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ١/٢٩٣.

(٣) أخرجه أبو داود ٣٣٦، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٢٥).

(٤) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ص ١٨٥.

الحديث رقم (٣٩٣)

٣٩٣- وعن أُسَامة بن زيدٍ رضي الله عنهما، قَالَ: بعثنا رَسُول الله ﷺ إِلَى الْحُرَقَةِ مِنْ جُهَيْنَةَ فَصَبَّحْنَا القَوْمَ (عَلَى مِيَاهِهِمْ) [1]، وَلَحقْتُ أنَا وَرَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ رَجُلاً مِنْهُمْ، فَلَمَّا غَشَيْنَاهُ، قَالَ: لاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ، فَكفَّ عَنْهُ الأَنْصَارِي، وطَعَنْتُهُ بِرُمْحِي حَتَّى قَتَلْتُهُ، فَلَمَّا قَدِمْنَا (المَدِينَةَ) [2]، بَلَغَ ذلِكَ النَّبيَّ ﷺ فَقَالَ لِي: ((**يَا أُسَامَة، أقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لا إِلهَ إلاَّ اللهُ؟!**)) قُلْتُ: يَا رَسُول الله، إِنَّمَا كَانَ متعوذًا، فَقَالَ: ((**أقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لا إِلهَ إلاَّ اللهُ؟!**)) فما زَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تمنيَّتُ أنّي لَمْ أكُنْ أسْلَمْتُ قَبْلَ ذلِكَ اليَوْمِ. مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[3].

وفي رواية[4]: فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: ((**أقالَ: لا إِلهَ إلاَّ اللهُ وقَتَلْتَهُ؟!**)) قُلْتُ: يَا رَسُول الله، إِنَّمَا قَالَهَا خَوْفًا مِن السِّلاحِ، قَالَ: ((**أفَلاَ شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أقَالَهَا أمْ لا؟!**)) فمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا[5] حَتَّى تَمَنَّيْتُ أنِّي أسْلَمْتُ يَوْمَئذٍ.

ترجمة الراوي:

أسامة بن زيد: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٩).

---

(١) لفظهما: (فهزمناهم).

(٢) (المدينة) لا توجد عندهم.

(٣) أخرجه البخاري (٦٨٧٢)، ومسلم (٩٦/١٥٩) ولفظهما سواء.

(٤) أخرجه مسلم (٩٦/١٥٨).

(٥) عند مسلم زيادة: (عليَّ).

غريب الألفاظ:

الحُرَقَةُ بضم الحاء المهملة وفتح الراء: بطن من جُهَينَةَ: القبيلة المعروفة[١].

صبَّحنا القوم: هجمنا عليهم صباحًا قبل أن يشعروا بهم[٢].

غشيناه: لحقنا به حتى تغطى بنا[٣].

متعوذًا: مُعتصمًا بها من القتل لا معتقدًا لها[٤].

الشرح الأدبي

الحديث اشتمل على قصة تلاها حوار، وقد بدأ القصة بقوله (بعثنا رَسُول اللَّه ﷺ إِلَى الْحُرَقَةِ مِنْ جُهَيْنَةَ) وهو خبر أريد الفائدة، وهي الإعلام بمضمون الخبر، وقوله (فَصَبَّحْنَا القَوْمَ عَلَى مِيَاهِهِمْ) كناية عن الإغارة عليهم، وقت الصبح وهم يسقون، وقوله: (لما غشيناه) التعبير بالغشي دلالة على الإحاطة به من كل جانب، وقوله (حتى قتلته) يشير إلى الغاية، وأنه قصد قتله لا إصابته، وقوله (بَلَغَ ذلِكَ النَّبيَّ ﷺ) نسبة الفعل للإشارة العائدة على الحدث مجاز مرسل، والغرض منه المبالغة فيه كأنه من هوله نما إلى علم الناس بنفسه، يؤكد هذا استخدام إشارة البعيد مع قربه في الذكر تفخيماً له، وقول الرسول (أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لا إلهَ إلاَّ اللَّهُ؟!) استفهام تقريري للتحقيق، والتثبيت، فلما أقر بالفعل كرر قوله (أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لا إلهَ إلاَّ اللَّهُ؟!) وهذا الاستفهام للإنكار، والتوبيخ، ومعناه ما كان ينبغي أن تفعل ذلك يدل على ذلك ما ورد في الرواية الثانية (أَفَلاَ شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لا؟!)، وقد صعَّد هذا التوبيخ عن طريق التكرار الذي ذهب، بأسامة كل مذهب من هول ما يسمع، حتى

---

(١) رياض الصالحين ١٩٨.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٢/٢٠٣.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٢/٢٠٣.

(٤) رياض الصالحين ١٩٨.

قال (تَمنَّيتُ أنِّي لَمْ أكُنْ أسْلَمْتُ قَبْلَ ذلِكَ اليَوْمِ) وهو كناية عن شدة ما لاقى من غضب رسول الله ﷺ، مع كونه حِبَّه، وهو أحرص الناس على طاعته - رضي الله عنه - والحديث تغليظ لجرم قتل من نطق بكلمة التوحيد، وإن قالها خوفاً يدل على ذلك قول أسامة رضي الله عنه للرسول ﷺ (قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إنَّمَا كَانَ متعوِّذا) كناية عن قولها نفاقاً خوفاً من القتل؛ ولذلك حصر المعنى بأسلوب القصر بإنما فقصر نطقه بالشهادة على كونه متعوذاً لا مسلماً.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الاستفهام الإنكاري.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: التكرار.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الحوار.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: أهمية البكور.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: العمل بالظاهر والله يتولى السرائر.

سادسًا: من مهام الداعية: إقناع المدعوين.

أولاً- من أساليب الدعوة: الاستفهام الإنكاري:

ورد الاستفهام في قوله ﷺ لأسامة بن زيد رضي الله عنه "يا أسامة أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله"، وأسلوب الاستفهام الإنكاري من الأساليب الدعوية الناجحة لما فيه من لفت نظر المدعو إلى ما وقع منه، ولبيان وجوب الإنكفاف عما صدر عنه[1]. وقد ورد الاستفهام الإنكاري في غير آية في القرآن الكريم كقوله تعالى موبخًا بني إسرائيل ومنكرًا عليهم سوء أفعالهم وخيانتهم للعهد والميثاق: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا

---

(١) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٦١٦.

يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ﴾[١]، وفي سورة يس يبين الله ما سيوجه للكافرين يوم القيامة من توبيخ وتقريع لتفريطهم بالعهد الذي عهده الله إليهم فضيعوه[٢] ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِي هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[٣].

ثانيًا- من أساليب الدعوة: التكرار:

ورد التكرار في هذا لحديث في قوله ﷺ: أقتلته بعد ما قال: لا إله إلا الله ومن الشواهد على ذلك ما جاء في قول أسامة بن زيد رضي الله عنه: "فما زال يكررها"، قال أبو العباس القرطبي: (وتكرار ذلك القول: إنكار شديد وزجر وكيد وإعراض عن قبول عذر أسامة الذي أبداه بقوله: "إنما قالها خوفًا من السلاح")[٤].

إن التكرار من الأساليب الدعوية المفيدة لما فيه من تأكيد للأمر وبيان لأهميته وخطورته، قال ابن حجر: إن من يريد التأكيد في أمر وإيضاح البيان فيه أن يكرره[٥].

ثالثًا- من أساليب الدعوة: الحوار:

يتضح الحوار في هذا الحديث من خلال ما دار بين الرسول ﷺ وأسامة بن زيد في شأن الرجل الذي قتله أسامة بعد ما نطق بالشهادة ظنًا من أسامة أنه قالها تعوذًا "فقال لي: يا أسامة أقتلته .... قلت يا رسول الله إنما كان متعوذًا، فقال بعد ما قال لا إله إلا الله.... الحديث"، فالحوار أسلوب دعوي هادف وهو من لون من ألوان الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، ففي الحوار رد للمخطئ للصواب والمبطل إلى الحق وإيقاظ للضمائر والعقول ودعوة إلى أعمال النظر والتفكير[٦].

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٦٩.

(٢) العهد والميثاق في القرآن الكريم، د. ناصر العمر، ص٥٢.

(٣) سورة يس، الآيتان: ٦٠، ٦١.

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ١/٢٩٦.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٨/٥٨٩.

(٦) انظر: أدب الحوار والمناظرة، المستشار الدكتور علي جريشة ص ٨٧.

والإسلام دعا للحوار لا بين المسلمين أنفسهم فقط، بل دعا للحوار بينهم وبين غيرهم من الأجناس الأخرى، وحثهم على أدب الحوار، هذا الأمر أحد العوامل المهمة في انتشار الإسلام سواء في بداية عهده بل إلى قيام الساعة [1]، قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾[2].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: أهمية البكور:

يعد البكور من العادات الإسلامية التي حث عليها الرسول ﷺ وقد ورد في الحديث ما يدل على الالتزام بهذا الهدى النبوي وذلك في قول أسامة بن زيد رضي الله عنهما "فصبحنا القوم"، أي هجمنا عليهم صباحًا قبل أن يشعروا بنا[3].

وقد دعا النبي ﷺ للأمة في بكورها وحثهم عليه؛ فروى عن صخر الغامدي عن النبي ﷺ أنه قال: اللهم بارك لأمتي في بكورها، وكان إذا بعث سرية أو جيشًا بعثها من أول النهار، وكان صخر رجلاً تاجرًا، وكان يبعث تجارته من أول النهار، فأثرى وكثر ماله"[4]، أي: صار ذا ثروة، أي: مال كثير[5].

إن ساعات الصباح والبكور من أعظم الساعات المباركات التي رغب النبي ﷺ في اغتنامها ودعا بالبركة لمن استثمرها، وإننا فعلاً نجد بركة اليوم كله حينما نغتنم هذه الساعات بالعمل، فتطيب أنفسنا وتنشط طوال نهارنا خلافًا لحالنا حينما نمضي تلك الساعات في النوم، وهذا مصداق لقول الرسول ﷺ فيمن بدأ نشاط يومه بصلاة الفجر ومن فاتته ((يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاثة عقد، فإذا

---

(١) الحوار: آدابه وتطبيقاته في التربية الإسلامية، خالد محمد المغامسي ص٣.

(٢) سورة العنكبوت، آية: ٤٦.

(٣) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٠٣/١٢.

(٤) أخرجه أبو داود، ٢٦٠٦، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢٢٧٠).

(٥) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ص ١١١٨.

هو استيقظ فذكر الله انحلت عقدة فإذا توضأ انحلت عقدة ثانية فإذا هو صلى انحلت عقدة ثالثة، فأصبح نشيطًا طيب النفس وإلا أصبح خبيث النفس كسلان))[١]، فالفارق عظيم بين من اغتنم بركة يومه وبين من ضيعها فإن الأول نتيجته نشاط وإنتاج والثاني نتيجته كسل وفشل[٢].

خامسًا- من موضوعات الدعوة: العمل بالظاهر والله يتولى السرائر:

إن من القواعد العامة في الإسلام أن الناس إنما يعاملون على ظواهرهم فأحكام الشريعة متعلقة بالظاهر[٣]، وجاء في الحديث ما يقرر ذلك من خلال إنكار الرسول ﷺ على أسامة "فقال لي يا أسامة أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله؟ قلت: يارسول الله إنما قالها خوفًا من السلاح، قال: أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا... الحديث"، قال القرطبي: (وفي ذلك دليل على ترتيب الأحكام على الأسباب الظاهرة الجلية دون الباطنة الخفية)[٤]، وقال ابن حجر: أمور الناس محمولة على الظاهر فمن أظهر شعار الدين أجريت عليه أحكام أهله ما لم يظهر منه خلاف ذلك[٥]، فنحن متعبدون بالأخذ بالظاهر والحكم على الظاهر وإقامة الحدود على الظاهر، ويعذرنا الله بذلك، ولم يكلفنا ما لا نستطيع من الاطلاع على بواطن الأمور[٦].

سادسًا: من مهام الداعية: إقناع المدعوين:

نرى ذلك بجلاء في حُجَّة أسامة بن زيد في قتله المحارب الذي تلفظ بالشهادة، ظانًا أنه قالها خوفًا من السلاح فقال "إنما كان متعوذًا" وفي رواية "إنما قالها خوفًا من

---

(١) أخرجه البخاري ١١٤٢، ومسلم ٧٧٦.

(٢) إدارة الوقت بين التراث والمعاصرة، د. محمد أمين شحادة، ص ٤٠٨، ٤٠٩.

(٣) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٦١٣.

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٢٩٦/١.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٩٢/١.

(٦) فقه الائتلاف، محمود محمد الخزندار، ص ٢٠١

السلاح"، فقال رسول الله ﷺ مقنعًا له أن ذلك الحكم ليس بمقدوره؛ قائلاً "أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا ؟ ولذا ينبغي على الداعية أن يُولي الإقناع ومخاطبة العقل عناية خاصة لما في ذلك من أثر في توجيه الآراء والسلوكيات للمدعوين، فلابد أن يخاطب عقولهم، ويقدم لهم من الحجج والبراهين ما تقتنع به عقولهم ويسلم به تفكيرهم ويذعنوا عن علم ويستجيبوا عن بينة[1].

---

(١) مقومات الداعية الناجح، د. علي بن عمر بن أحمد بادحدح، ص ٣٧، ٣٨.

الحديث رقم (٣٩٤)

٣٩٤- وعن جندب بن عبد الله رضي الله عنه: أنَّ رَسُول الله ﷺ بَعَثَ بَعْثًا مِنَ المُسْلِمِينَ إلَى قَومٍ مِنَ المُشرِكينَ، وَأنَّهُمْ التَقَوْا، فَكَانَ رَجُلٌ مِنَ المُشْرِكينَ إذَا شَاءَ أنْ يَقْصِدَ إلَى رَجُل مِنَ المُسْلِمينَ قَصَدَ لَهُ فِقَتَلَهُ، وَأنَّ رَجُلاً مِنَ المُسْلِمِينَ قَصَدَ غَفْلَتَهُ. وَكُنَّا نتحَدَّثُ[1] أنَّهُ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، فَلَمَّا رَفَعَ عَلَيهِ السَّيفَ، قَالَ: لا إلهَ إلاَّ اللهُ، فَقَتَلَهُ، فَجَاءَ البَشيرُ إلَى رَسُول الله ﷺ فَسَألَهُ وَأخبَرَهُ، حَتَّى أخْبَرَهُ خَبَرَ الرَّجُلِ كَيْفَ صَنَعَ، فَدَعَاهُ فَسَألَهُ، فَقَالَ: ((لِمَ قَتَلْتَه؟)) فَقَالَ: يَا رَسُول اللهِ، أوْجَعَ فِي المُسلِمِينَ، وَقَتَلَ فُلانًا وفلانًا، وسمى لَهُ نَفرًا، وَإنِّي حَمَلْتُ عَلَيهِ، فَلَمَّا رَأى السَّيفَ، قَالَ: لا إلهَ إلاَّ اللهُ. قَالَ رَسُول الله ﷺ: ((أقَتَلْتَهُ؟)) قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: ((فَكَيفَ تَصْنَعُ بلاَ إلهَ إلاَّ اللهُ، إذَا جَاءتْ يَوْمَ القِيَامَةِ؟)) قَالَ: يَا رَسُول اللهِ، اسْتَغْفِرْ لِي. قَالَ: ((وكَيفَ تَصْنَعُ بلا إلهَ إلاَّ الله إذَا جَاءتْ يَوْمَ القِيَامَةِ؟)) فَجَعَلَ لاَ يَزِيدُ عَلَى أنْ يَقُولَ: ((كَيفَ تَصْنَعُ بِلا إلهَ إلاَّ الله إذَا جَاءتْ يَوْمَ القِيَامَةِ)) رواه مسلم[2].

ترجمة الراوي:

جندب بن عبدالله البَجَليّ: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٣٢).

غريب الألفاظ:

بعثًا: جيشًا[3].

الشرح الأدبي

هذا الحديث يتفق مع سابقه في كثير من معناه، ويختلف في كثير من مبناه، وقوله (لم قتلته) استفهام تقريري للتحقيق، والتثبيت وقوله (أوْجَعَ فِي المُسلِمِينَ) كناية عن الإصابات، والجراح التي أحدثها فيهم، وقول الرسول ﷺ لأسامة رضي الله عنه (أقَتَلْتَهُ؟)

---

(١) لفظ مسلم: (نحدِّث).

(٢) برقم (١٦٠/٩٧).

(٣) القاموس المحيط، الفيروزآبادي في (ب ع ث).

استفهام إنكاري توبيخي، وقوله (فَكَيفَ تَصنَعُ بلاَ إلهَ إلاَّ اللهُ، إذَا جَاءتْ يَوْمَ القِيَامَةِ؟) استفهام صعَّد التوبيخ، وصار إلى التهويل والتي أكدها ذكر الظرف (يوم)، وإضافته للقيامة؛ لأنه يوحي بالهول، والشدة، والخوف، ونسبة المجيء لكلمة التوحيد يوحي بالرهبة، لأنه يصوِّر القصد، والتوجه، وكأنها تسعى إليه، وتقصده، وهو تركيب يوحي بالرهبة، والخوف الذي يسيطر علي القلوب لاسيما إذا صدرت من رسول لا يكذب، وقد وجهها لمن يحب، ثم جاء التكرار لهذه العبارة ليبلغ بالرهبة ذروتها في قلب أسامة ﷺ، وبناء عبارة الرسول ﷺ على هذا النحو في خطابه لحبه يدل على تعظيم حرمة دم من نطق بالشهادة مهما كان ما في قلبه.

المضامين الدعوية

من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: الاستفهام الإنكاري.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: التبشير.

رابعًا: من أساليب الدعوة: الحوار.

خامسًا: من مهام الداعي: توجيه المدعوين وبيان الأحكام.

سادسًا: من أهداف الدعوة: المحافظة على النفس البشرية.

سابعًا: من موضوعات الدعوة: طلب الصحابة من رسول الله ﷺ الاستغفار إذا وقع خطأ من أحدهم.

أولاً- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

ورد ذلك في سؤال النبي ﷺ للبشير "فجاء البشير إلى رسول الله ﷺ فسأله وأخبره" وفي سؤاله لأسامة بن زيد "فدعاه فسأله، فقال: لم قتلته؟" والسؤال والجواب من أكثر أساليب الدعوة تأثيرًا لما فيه من لفت الأنظار وإثارة الانتباه، وهو شكل من أشكال الاتصال الشخصي[1] وهو من أقوى الأساليب لعرض الدعوة وتبليغها.

---

(١) انظر: قواعد الدعوة الإسلامية، د. الشريف حمدان راجح المهدي الهجاري، ص ٦٠٧.

ثانيًا- من أساليب الدعوة: الاستفهام الإنكاري:

جاء هذا الأسلوب في سؤال النبي ﷺ لأسامة بن زيد رضي الله عنه مستنكرًا عليه قتله المحارب بعد تلفظه بالشهادة "أقتلته؟ قال نعم. قال فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟ فأنكر عليه امتناعه عن العمل بما ظهر باللسان[١] وأسلوب الاستفهام الإنكاري له بالغ التأثير في نفس المدعو لما فيه من تصحيح الأخطاء وبيان وجوب الإنكفاف عما يستنكره الداعي[٢]. وقد استخدمه القرآن في كثير من الآيات، ومن ذلك ما ورد في سورة الأعراف موبخًا بني إسرائيل ومنكرًا عليهم سوء أفعالهم وخيانتهم للعهد والميثاق[٣]، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ﴾[٤].

ثالثًا- من أساليب الدعوة: التبشير:

يستنبط ذلك في الحديث من قوله "فجاء البشير إلى رسول الله ﷺ أي المبشر[٥] والتبشير من أفضل الأساليب الدعوية التي لها أكبر الأثر في نفس المدعوين، وهي من أسس الرسالة النبوية قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾[٦] أي مبشرًا لمن آمن بالجنة ونذيرًا لمن كذب بالنار[٧] والمدعو أشد تقبلاً لأسلوب البشارة لما يجلب التبشير من طمأنينة وسكون النفس ورفع للروح المعنوية وسبب لانشراح الصدر وسعادة القلب واستقرار النفس وراحة البال[٨].

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي، ص ١٥٧.

(٢) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٦١٦.

(٣) انظر: العهد والميثاق في القرآن الكريم، د. ناصر العمر، ص ٥٢، ٥٣.

(٤) سورة الأعراف، آية: ١٦٩.

(٥) المرجع السابق، ص ٦١٨.

(٦) سورة الأحزاب، آية: ٤٥.

(٧) معالم التنزيل، البغوي، ٣٦١/٦.

(٨) انظر: موسوعة نضرة النعيم، ٨١١/٣.

رابعًا- من أساليب الدعوة: الحوار:

ويظهر ذلك الأسلوب فيما دار بين الرسول ﷺ وأسامة بن زيد من حوار وسؤال وجواب في أمر المحارب الذي تلفظ بالشهادة فقتله أسامة، والحوار أسلوب خير للوصول إلى الحق والإقناع به ولو اتبع الدعاة وغيرهم من المفكرين الحوار أسلوبًا لوصلوا إلى أفضل ما يَصبُون إليه، فإن الفكر يعالج بالفكر والحجة تقرعها الحجة[1].

ويعد أسلوب الحوار من أفضل الأساليب المناسبة للعصر التي يحسن بالداعية استخدامها[2]. والقرآن مليء بصور الحوار، ومناقشة ودحض الشبه التي قد تحول بين الناس والدخول في الإسلام. كما أن الحوار أسلوب دعوي تعليمي ذو تأثير كبير، والحوار من أجل التعليم والإقناع، وقد ورد في القرآن في مواضع كثيرة منها حوار موسى عليه السلام مع الخضر[3]، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾[4] إلى قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾[5].

خامسًا- من مهام الداعي: توجيه المدعوين وبيان الأحكام:

إن في بيان الرسول ﷺ لأسامة بن زيد رضي الله عنهما في الحديث أن الإنسان ما دام قد نطق بالشهادة فلا ينبغي التعرض له، بيان لما ينبغي أن يضطلع به الدعاة من بيان للأحكام وإرشاد وتوجيه للمدعوين وفي ذلك اقتداء برسول الله ﷺ في عنايته بالبلاغ وقيامه به على أتم وجه وأكمله[6] قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا

---

(١) أدب الحوار والمناظرة، د. علي جريشة، ص ١٤٧.

(٢) الأسلوب التربوي للدعوة إلى الله في العصر الحاضر، خالد الخياط ص ١٦٧.

(٣) الحوار آدابه وتطبيقاته، خالد محمد المغماسي، ص ٤٠.

(٤) سورة الكهف، آية: ٦٠.

(٥) سورة الكهف، آية: ٨٢.

(٦) نصوص الدعوة في القرآن الكريم، د. حمد بن ناصر العمار، ص ١٤٧.

﴿تَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾(١) وسيد الناس في هذاالمقام بل وفي كل مقام محمد رسول الله ﷺ، ثم ورث ذلك عنه أمته من بعده، فبنورهم يقتدى وعلى منهجهم يسلك الموفقون(٢).

سادسًا- من أهداف الدعوة: المحافظة على النفس البشرية:

يبدو ذلك واضحًا في استنكار رسول الله ﷺ لما فعله أسامة بن زيد رضي الله عنهما من قتله المحارب بعد تلفظه بالشهادة "أقتلته؟ قال نعم قال: فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة" أي بماذا تحتج إذا قيل لك: كيف قتلت من قال لا إله إلا الله وقد حصلت لدمه حرمة الإسلام(٣). ومن أجل الحفاظ على دم المسلم عَظَّم الله عقوبة من يعتدي عليه فقال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾(٤) فلم يرد في أنواع الكبائر أعظم من هذا الوعيد بل ولا مثله، ألا وهو الإخبار بأن جزاءه جهنم، أي: فهذا الذنب العظيم قد انتهض وحده أن يجازى صاحبه بجهنم بما فيها من العذاب العظيم والخزي المهين وسخط الجبار وفوات الفوز والفلاح وحصول الخيبة والخسارة(٥). وعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: ((لوْ أَنَّ أهلَ السَّماءِ والأرضِ اشترَكوا في دمِ مُؤمنٍ لأَكبَّهُمُ اللهُ في النَّارِ))(٦) ويؤخذ مما سبق أن قتل النفس التي حرم الله بغير حق أكبر

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٣٩.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٦٢٣/٣.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٢٩٧/١.

(٤) سورة النساء، آية: ٩٣.

(٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ١٥٧.

(٦) أخرجه الترمذي ١٣٩٨، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١١٢٨).

الكبائر بعد الإشراك بالله[1]، ويتبين مدى عصمة الإسلام لدم الإنسان.

سابعًا- من موضوعات الدعوة: طلب الصحابة رضي الله عنهم من رسول الله ﷺ الاستغفار إذا وقع خطأ من أحدهم:

في الحديث مثال تطبيقي لما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم، إذا وقع من أحدهم خطأ يطلب من رسول الله ﷺ الاستغفار له قال -أي أسامة- يا رسول الله استغفر لي- وقد ندب القرآن العصاة إلى طلب الاستغفار من رسول الله ﷺ؟ قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾[2] قال ابن كثير: (في الآية يرشد الله تعالى العصاة والمذنبين إذا وقع منهم الخطأ والعصيان أن يأتوا إلى الرسول ﷺ فيستغفروا الله عنده ويسألوه أن يستغفر لهم، فإنهم إذا فعلوا ذلك تاب الله عليهم ورحمهم وغفر لهم، ولهذا قال: ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾[3])[4]. وهذا المجيء إلى الرسول ﷺ مختص بحياته، لأن السياق يدل على ذلك، لكون الاستغفار من الرسول ﷺ لا يكون إلا في حياته، وأما بعد موته فإنه لا يطلب منه شيء[5].

وذم القرآن أقوامًا دُعُوا إلى رسول الله ليستغفر لهم فأبوا وأعرضوا، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾[6] أي صدوا وأعرضوا عما قيل لهم، استكبارًا عن ذلك واحتقارًا لما قيل لهم[7] فاستحقوا لعائن الله عز وجل.

---

(١) تنبيه الغافلين عن أعمال الجاهلين وتحذير السالكين من أفعال الهالكين، محي الدين ابن النحاس، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ١٣٦، ١٣٧.

(٢) سورة النساء، آية: ٦٤.

(٣) سورة النساء، آية: ٦٤.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢/٣٤٧.

(٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ١٤٩.

(٦) سورة المنافقون، آية: ٥.

(٧) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٨/١٢٦.

الحديث رقم (٣٩٥)

٣٩٥- وعن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، قَالَ: سَمِعْتُ عمر بن الخطاب ﷺ ، يقولُ: إنَّ نَاسًا كَانُوا يُؤْخَذُونَ بِالوَحْيِ فِي عَهْدِ رَسُول الله ﷺ ، وَإنَّ الوَحْيَ قَدِ انْقَطَعَ، وإِنَّمَا نَأخُذُكُمُ الآن بما ظَهَرَ لَنَا مِنْ أعمَالِكُمْ، فَمَنْ أظْهَرَ لَنَا خَيرًا أمَّنَّاهُ وَقَرَّبْنَاهُ، وَلَيْسَ لَنَا[١] مِنْ سَرِيرَتِهِ شَيْء، اللهُ يُحَاسِبُهُ فِي سَرِيرَتِهِ، وَمَنْ أظْهَرَ لَنَا سُوءًا لَمْ نَأمَنْهُ وَلَمْ نُصَدِّقْهُ وَإنْ قَالَ: إنَّ سَرِيرَتَهُ حَسَنَةٌ. رواه البخاري[٢].

ترجمة الراوي:

عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١).

غريب الألفاظ:

يؤخذون بالوحي ينزل على النبي ﷺ يخبره بأحوال الناس المؤمن منهم وغير ذلك.

سريرته: ما يكتمه[٣].

الشرح الأدبي

معنى الحديث يقرر الأخذ في الأحكام على الناس بالظاهر، وترك الباطن لعلم الله؛ لأنه لا يعلمه إلا هو، وقد جاء في أسلوب خبري مؤكد بأكثر من مؤكد تعظيماً للخبر، وتفخيماً للمعنى، وقوله (كانوا) عودة بهم إلى زمن التشريع، والتعبير بالعهد إشارة إلى تلك الرابط التي تربطهم بالنبي ﷺ وهي شريعته بين الكتاب، والسنة، وأسلوب القصر في قوله (وإِنَّمَا نَأخُذُكُمُ الآن بما ظَهَرَ لَنَا مِنْ أعمَالِكُمْ) يقصر الحكم عليهم بما بدا منهم دون ما خفي، والتعبير بالأخذ كناية عن تطبيق الأحكام عليهم بما فعلوا ، وأسلوب الشرط في قوله (فَمَنْ أظْهَرَ لَنَا خَيْراً أمَّنَّاهُ وَقَرَّبْنَاهُ) يؤكد

---

(١) لفظ البخاري: (إلينا).

(٢) برقم (٢٦٤١).

(٣) القاموس المحيط، الفيروزآبادي ، الفيروزآبادي في (س ر ر).

الأخذ بالظاهر، وما يترتب عليه، وقد قابل بين جملة الشرط الأولى، وبين الثانية فقد قابل بين ظهور الخير، وبين ظهور السوء، كما قابل بين التأمين، والتقريب، وبين التخويف، والتكذيب، وهذه المقابلة تؤكد عزمه على ذلك، وتفصِّل عاقبته، وقوله (اللَّهُ يُحَاسِبُهُ فِي سَرِيرَتِهِ) تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي يفيد الاختصاص أي حسابه على ما في قلبه على الله لا علينا، وهذه الجملة توكيد معنوي للتي قبلها، ولذلك فصلت عنها؛ لأنه لا يعطف الشيء على نفسه لاقتضاء العطف للمغايرة.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى قاعدة مهمة في الفقه الإسلام، وهي الأخذ بالظاهر دون الباطن، فمدار الأحكام في التشريع الإسلامي على ظواهر الأمور دون بواطنها، فالقاضي مثلاً مأمور بالحكم بالظاهر دون الباطن.

وقد سبق القول في الحديث رقم (٢١٩) أن الفقهاء اتفقوا[١] على أن القاضي يحكم بما يراه من ظاهر الأمور والأدلة ويجتهد في ذلك بما يستطيع من وسع، ولا يكون مقيداً له إلا الأدلة الواضحة فالبينة على من ادعى واليمين على من أنكر، وكذا في كل أمر يؤخذ بالظاهر دون الباطن لأنه هو الذي في مقدورنا دون بواطن الأمور.

---

(١) تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، الزيلعي ١٩٠/٤، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، علاء الدين أبي بكر الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ١٥/٧ وما بعدها، ومواهب الجليل للحطاب، المواق ١٢٤/٦، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم النفراوي ٢٢٠/٢، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد الأنصاري ٣٠٦/٤، وتحفة المحتاج، ابن حجر ١٣٩/١٠، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٥١٦/٣، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٣٤٤/٦.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: الشرط.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الوحي.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: معيار العدالة والأمانة في الإسلام.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: بيان ولاة الأمور لمنهجهم في سياسة الأمور.

أولاً- من أساليب الدعوة: التوكيد:

ورد التوكيد في هذا الحديث في قول عمر بن الخطاب ﷺ: "إن ناسًا كانوا يؤخذون بالوحي في عهد رسول الله ﷺ، وإن الوحي قد انقطع وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم"، وأسلوب التوكيد له تأثير جيد في قبول المدعو للدعوة لما يوقعه في قلب المدعو من أهمية الأمر.

ثانيًا- من أساليب الدعوة: الشرط:

لقد استخدم عمر ﷺ الشرط لبيان أهميته في المعاملة والأمان والقرب لمن أظهر الخير، وعدم الأمان وعدم التصديق لمن أظهر السوء والقرب لمن أظهر الخير وعدمه إن أظهر السوء، فقال:فمن أظهر لنا خيرًا أمَّناه وقربناه، وليس لنا من سريرته شيء، الله يحاسبه في سريرته، ومن أظهر لنا سوءًا لم نأمنه ولم نصدقه، وإن قال: إن سريرته حسنة"، وأسلوب الشرط من الأساليب الدعوية المفيدة وقد استخدم أسلوب الشرط كثيرًا في آيات القرآن ونصوص السنة النبوية من ذلك قوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾[1].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: الوحي:

لقد صرح عمر ﷺ بذكره في قوله: "إن ناسًا كانوا يؤخذون بالوحي في عهد رسول الله ﷺ والوحى يطلق في اللغة على الرسالة، والإلهام، والكلام الخفي[2]،

---

(١) سورة النساء، الآيتان: ١٢٣-١٢٤.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، ص ٩٣٦.

وقد كمَّل الله لرسول الله ﷺ من مراتب الوحي مراتب عديدة منها "الرؤيا الصالحة، وما كان يلقيه الملك في رُوْعه وقلبه من غير أن يراه، أو متمثلاً له في صورة رجل، أو في صورته التي خلق عليها، أو كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس، وكذلك ما أوحاه الله وهو فوق سبع سماوات، وكلام الله منه إليه بلا واسطة ملك"[١].

فلقد أوضح النبي ﷺ صور إتيان الوحى ونزوله عليه ومنها قوله ﷺ: ((أَحْيانًا يَأتِيني مِثْلَ صَلْصَلَةِ الجَرَسِ وهُوَ أَشَدُّه عَلَيَّ فَيُفْصِمُ عَنِّي وقد وَعَيْتُ عنهُ ما قالَ، وأحْيانًا يَتَمثَّلُ ليَ المَلَكُ رَجُلاً فيُكَلِّمُني فأعِي ما يَقولُ))[٢]. واستغرق نزول الوحي ثلاثة وعشرين سنة، منها ثلاثة عشر عامًا بمكة المكرمة، وهذا هو المشهور وعشر سنين في المدينة وهو المتفق عليه[٣].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: معيار العدالة والأمانة في الإسلام:

لقد وضع عمر رضي الله عنه معيارً للعدالة التي يعامل على أساسها الناس في قوله : "من أظهر لنا خيرًا أمناه وقربناه"، أى صيرناه عندنا أمينًا عدلاً، ومن أظهر لنا سوءًا لم نأمنه ولم نصدقه وإن قال إن سريرته حسنة"، قال المهلب: هذا إخبار عمر عما كان الناس عليه في عهد رسول الله ﷺ وعما صار بعده، ويؤخذ منه أن العَدْل مَنْ لم توجد منه الريبة[٤]، وأن الوحي كان يكشف المنافقين حماية للإسلام أما بعد عصر النبوة فخفيت الأمور، واحتاج الأمر إلى الاجتهاد والاحتياط في مراقبة من يُشك، وبيان أن الاعتبار بالظاهر غالبًا يكشف خبيئة صاحبة[٥]. لأننا نحن لا نكلف إلا بالظاهر، وهذا من نعمة الله علينا ألا نحكم إلا بالظاهر، لأن الحكم على الباطن من الأمور

(١) انظر: الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، ١٢٨/١-١٢٩، وزاد المعاد، ابن القيم الجوزي، ٧٨/١-٨٠.

(٢) أخرجه البخاري، ٣٢.

(٣) عيون الأثر في فنون المغازى والشمائل والسير، محمد بن محمد بن سيد الناس، تحقيق: محمد الخطراوي ومحي الدين نتو، المدينة المنورة، دار ابن كثير، بيروت: ١٤١٣هـ، ٨٩/١.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٩٨/٥.

(٥) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم، ص ٢٧٦.

الشاقة، والله تعالى لا يكلف نفسًا إلا وسعها، فالنية موكولة إلى رب العالمين الذي يعلم السر وأخفى[١].

خامسًا- من موضوعات الدعوة: بيان ولاة الأمور لمنهجهم في سياسة الأمور:

يستنبط ذلك من قول عمر رضي الله عنه وبيانه للعدالة التي يؤخذ بها ويحاسب عليها "وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم، فمن أظهر لنا خيرًا أمناه وقربناه، وليس لنا من سريرته شيء، الله يحاسبه في سريرته، ومن أظهر لنا سوءًا لم نأمنه ولم نصدقه وإن قال إن سريرته حسنة"، فالإمام مأمور بحفظ الدين على الأصول التي أجمع عليها سلف الأمة، فلابد أن يبين للناس منهجه، ويبين لهم الحجة ويوضح لهم الصواب حتى إذا زاغ منهم إنسان بعد ذلك أخذه بما يلزمه من الحقوق والحدود، ليكون الدين محروسًا من خلل، والأمة ممنوعة من زلل[٢].

إن من يتصفح التاريخ الإسلامي خاصة جانب الحكم فيه ليجد أن كل من كان يلي أمر المسلمين كان يبين لهم المنهج المرتضى والذي يوافقه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، سواء أكان هذا البيان لسواد الناس كما في الحديث وبيان عمر للمسلمين معيار الأمانة والعدالة بأنه إظهار الخير "فمن أظهر لنا خيرًا أمناه وقربناه وليس لنا من سريرته شيء الله يحاسبه في سريرته..." أم كان هذا البيان لأصحاب الولايات الخاصة كالإمارة والقضاء وما شابهها، ومن ذلك ما جاء في بيان عمر بن الخطاب لأسس القضاء والفصْل بين الناس في كتابه لأبي موسى الأشعري حينما بعثه قاضيًا إلى البصرة فكتب إليه أما بعد فإن القضاء فريضة محتكمة وسنّةٌ متبعة الفهم إذا أُدلي إليك، فإنه لا ينفع حقٌّ لا يقاد له، ساوِ بين الناس في وجهك ومجلسك وعدلك حتى لا يطمع قوي في حيفك، ولا ييأس ضعيفٌ من عدلك، البينة على المدَّعي واليمين على من أنكر، والصلح بين الناس جائز إلا صلح حرم حلالاً وأحل حرامًا، ولا يمنعك قضاءٌ

---

(١) شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين، ١/٧٤٧.

(٢) انظر: الأحكام السلطانية، للقاضي أبي يعلي محمد بن الحسين الفراء، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٤٠٣هـ/١٩٨٣، ص ٢٧.

قضيته بالأمس فراجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق، فإن الحق قديم والرجوع إليه خير من التمادي في الباطل الفهم الفهم فيما يختلج في صدرك مما ليس في كتاب الله، ولا سنة رسوله واعرف الأمثال والأشباه وقس الأمور برأيك واعمد إلى أقربها إلى الله سبحانه وأشبهها بالحق، واجعل لمن يطلب حقًا غائبًا أو شاهدًا أمدًا ينتهي إليه، فإن أحضر بينة أخذ له بحقه، وإن عجز عنها وجهت للقضاء، فإنه أجلى للعمى وأبلغ في العذر والناس كلهم عدولٌ بعضهم على بعض إلا محدود في قذف أو مجرى عليه شهادة الزور، فإن الله تولَّى السرائر ودرأ عنكم الشبهات[1].

---

(١) معالم القربة في معالم الحسبة، محمد بن محمد بن أحمد القرشي المعروف بان الأخوة ص ٢٠٣، ٢٠٤.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

يحرص الإسلام على أن لا يجعل من كل مسلم مفسراً أو شارحاً لما في قلوب الآخرين، ويحرم ويجرم أن يكفر المُسلم المسلمَ أخذاً بظواهر النصوص أو السلوك. إن ظاهر الناس كان للحكم عليهم وسرائرهم مردها إلى الله. والمتأولون في الإسلام لا تصدر الأحكام بحقهم على وجه السرعة، ولا يقتلون على ما هم عليه ابتداء، بل لا بد من إجراء المناظرات وعقد اللقاءات لتصحيح المفاهيم.

إن رسول الله ﷺ كان يكتفي بكلمة واحدة، تحقن دم صاحبها وتصون ماله، إنها كلمة التوحيد، ولم يثبت أنه عليه السلام كان يحمل قائلها على القسم أو يكلف من يتعقبه في السلوك، بل يكتفي بمجرد السماع، وقد نهى عليه السلام عن قتل كل من يقولها، وإن ارتكب محظوراً لا يوجب قتلا. كما أنكر عليه السلام قتل قائل هذه الشهادة وعاب على من قتله في ميدان القتال، وحذره من المساءلة أمام الله عن حق هذه الشهادة وسأله ماذا يقول عن علة القتل وهل شق صدره ليتأكد قالها متعوذاً أم راضياً. ومن مضامين التربية نذكر:

أولاً- التربية الإيمانية:

لمّا كان الإيمان بالله تعالى أساساً للعقيدة الإسلامية، فقد جعل النبي ﷺ قول «لاَ إِلهَ إِلاَّ اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ» هدفاً أولياً للجهاد في سبيل الله، حيث قال ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلهَ إِلاَّ اللَّه....»، ثم تأتي بعد ذلك الصلاة والزكاة، تلك هي أساسيات الإيمان بالله، ولا يكون عمل إلا إذا سبقه إيمان واعتقاد.

فالإيمان الصحيح أساس متين لتربية ثابتة، مضمونة النتائج، بعكس التربية التي لا تقوم على ترسيخ الإيمان؛ فإنها تربية عشوائية غير صحيحة[1]؛ لأنها معدومة الهدف، ليس لها غاية ثابتة.

---

(١) أصول التربية الإسلامية، عبدالرحمن النحلاوي ص٦٩، ٧٠.

يقول ابن القيم: "فالأساس لبناء الأعمال كالقوة لبدن الإنسان، فإذا كانت القوة قوية حملت البدن، ودفعت عنه كثيراً من الآفات، وإذا كانت القوة ضعيفة، ضعف حملها للبدن، وكانت الآفات إليها أسرع شيء، فاحمل بنيانك على قوة أساس الإيمان"[1].

إن لكلمة التوحيد مكانة كبيرة في الإسلام، فهي نقطة التحول التي يصير بها الكافر مسلماً، له حقوق المسلمين، وعليه ما عليهم، ولهذا فقد عاتب النبي ﷺ أسامة ولامه، فقال: «فَكَيْفَ تَصنَعُ بِلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللّهُ إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟».

ثانياً- التربية على الأخذ بالظاهر وإسناد السرائر إلى الله تعالى:

وهذا المبدأ معاضد للمبدأ السابق، فإذا جاهد المسلمون الكفار من أجل إعلاء كلمة الله تعالى، فإن المسلمين غير مكلفين بالتفتيش عن قلوب الناس؛ إنما يكفيهم أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، فإن «مَنْ قَالَ: لاَ إِلهَ إِلاَّ اللّهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللّهِ، حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ. وَحِسَابُهُ عَلَى اللّهِ تَعَالَىٰ».

وعندما تعلل أسامة بن زيد بقتله للرجل الذي قال: لا إله إلا الله بأنه: «إِنَّمَا قَالَهَا خَوْفا مِنَ السِّلاَحِ»، قال له النبي ﷺ: «أَفَلاَ شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ: أقالها أم لا».

فذلك منهج في التيسير على الناس، وعدم المشقة عليهم، فيكفي المسلم لعصمة دمه وماله أن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيم الصلاة، ويؤدي الفرائض الأساسية في الإسلام.

ثالثاً- التربية بالتحذير:

لقد حذر النبي ﷺ المقداد بن الأسود من قتل الكافر الذي قطع إحدى يديه، ثم لاذ بشجرة، وقال: أسلمت لله، حذَّره أن يقتله، وقال له: «لا تقتله؛ فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله، وأنت بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال»، أي: وإنك تصير مباح الدم لورثته، ويصير هو معصوم الدم محرمه؛ فكيف يجترئ المقداد على قتل من

---

(١) الفوائد، ابن القيم، ص١٧٥.

أسلم حال القتال، وقد لقي من النبي ﷺ هذا التحذير الشديد؟

تلك تربية النبي ﷺ لأصحابه، ليس فقط بمعاقبتهم بعد أن يقعوا في المحظور، بل إن رفقه بهم، ورحمته لهم، جعلته حريصاً على أن يعرفهم عاقبة ما يقعون فيه وعقوبته، ويحذرهم من إتيانه قبل أن يأتوه؛ حتى لا تكون لهم حجة إذا اقترفوا ما حذروا منه من قبل؛ فواجب المربي أن يحذر من الخطأ، وواجب المربيِّ أن يحذره ولا يقع فيه.

ولقد ورد التحذير على لسان النبي ﷺ: كأسلوب تربوي وتوجيهي، منه ما يتعلق بالتحذير من المعاصي واقتراف ما نهى الله تعالى عنه، ومنه ما ورد في التحذير مما يسبب إلحاق الضرر بالأمة والمجتمع[1].

خامسًا- تنوع الأساليب التربوية:

ورد في أحاديث الباب عدة أساليب تربوية منها:

أ-أسلوب الإلقاء، كما في حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ..." الحديث. وحديث طارق بن أشيم رضي الله عنه مرفوعًا: "من قال لا إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله تعالى".

وأسلوب الإلقاء يكون من خلال العرض الشفهي للمعلومات على المتعلمين، ولكن هذا الأسلوب يمكن للمعلم استخدامه مع المراحل العليا من المتعلمين كالمرحلة الثانوية، ويمكن الإلقاءُ المعلمين من عرض أكبر قدر من المعلومات في أقصر وقت ممكن على أكبر عدد من الطلاب.

ب-أسلوب الحوار والمناقشة كما هو في الأحاديث الأخيرة من الباب، وهذا الأسلوب ينمي معلومات المتعلمين ويحثهم على البحث والاطلاع ويعودهم على التعبير عن رأيهم، ويكسبهم مهارة المناقشة، كما أن استخدام الأسئلة والأجوبة في عملية التعليم والتعلم يجذب ويشد انتباه المتعلمين نحو الدرس ويشعرهم بأثر مساهمتهم في سيره.

---

(١) أساليب الدعوة والتربية، زياد العاني، ص٢٤٩.

ج-توجيه الأسئلة: كما في قول النبي ﷺ لأسامة رضي الله عنه: يا أسامة أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟ وقوله: "لم قتلته؟" و"أقتلته؟". وتوجيه الأسئلة يفيد في معرفة استيعاب المتعلمين لعناصر الدرس وتقويم أفكارهم إن لزم الأمر ذلك.

د-التكرار: كما في قول النبي ﷺ: "أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله" فما زال يكررها تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم. والتكرار أسلوب تربوي ينبه المتعلمين إلى أهمية الأمر وخطورته.

سادسًا- التربية على المحاسبة:

وذلك واضح من سؤال النبي ﷺ لأسامة لما بلغه قتله الرجل في الحرب، ولم يكن سؤال لمجرد السؤال وإنما كان محاسبة له على فعله بدليل قول أسامة فما زال يكررها عليّ حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم. قال أسامة: لما بيّن سبب فعله وقتله الرجل: يا رسول الله إنما قالها خوفًا من السلاح. قال له النبي ﷺ: "أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا؟ فما زال يكررها حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ.

ومن الملاحظ أن الرجل كان قد أعمل السيف في المسلمين فلما أحس بالقتل قال: لا إله إلا الله معلنًا إسلامه، فقتله أسامة متأولاً إنما قال ذلك خوفًا من القتل، لكن النبي ﷺ حاسبه على ذلك حسابًا شديدًا بلغ من شدته أن أسامة تمنى أنه لم يكن أسلم قبل ذلك اليوم حتى لا يكون قد ارتكب هذا الفعل الذي أغضب الرسول ﷺ. وفي ذلك إرشاد للمربين ولولاة الأمر وكل من له صلة بأن تكون هناك محاسبة على ما يفعله الإنسان وخاصة تلك التي تتعلق بدماء الناس وأموالهم وأعراضهم ولا يتركون المعتدين يمرون هكذا بدون عقاب.

وأنه من المحزن أن تجد بعض الحكومات تسعى جاهدة إلى عدم مثول جنودها وقت الحرب أمام المحاكم الدولية والجنائية، بحجة أنهم في حالة حرب، فيرتكب هؤلاء الجنود من الفظائع ما تشيب لهوله الولدان، وليس هذا فحسب بل يتقلدون أعلى الأوسمة وأعلى القلادات من قادة دولهم!

❁ ❁ ❁

٥٠- باب الخوف

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾[البقرة: ٤٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾[البروج: ١٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَعْدُودٍ يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾[هود: ١٠٢-١٠٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾[آل عمران: ٢٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[عبس: ٣٤-٣٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾[الحج: ١-٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[الرحمن: ٤٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ، فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾[الطور: ٢٥-٢٨].

وَالآيات في الباب كثيرة جدًا معلومات والغرض الإشارة إلَى بعضها وقد حصل:

وأما الأحاديث فكثيرة جدًا فنذكر مِنْهَا طرفًا وبالله التوفيق:

الحديث رقم (٣٩٦)

٣٩٦-عن ابن مسعود رضي الله عنه، قَالَ: حدثنا رَسُول الله ﷺ وَهُوَ الصادق المصدوق: **((إنَّ أحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ في بَطْنِ أُمِّهِ أربَعِينَ يومًا نُطْفَةً[١]، ثُمَّ يَكُونُ[٢] عَلَقَةً مِثْلَ ذلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ المَلَكُ، فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأرْبَعِ كَلِمَاتٍ:**

---

(١) (نطفة) لا توجد عندهما، وهي عند الشاشي في مسنده (٦٨٢).

(٢) عند مسلم زيادة: (في ذلك) في الموضعين.

بِكَتْبِ رِزْقِهِ وَأَجَلِهِ وَعَمَلِهِ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ. فَوَالَّذِي لا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وبينَهَا إلاَّ ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إلاَّ ذراعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيهِ الكِتَابُ فَيعْمَلُ بِعَمَلِ أهْلِ الجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا)) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

غريب الألفاظ:

النُطفة: ماء الرجل[2].

عَلَقةً: قطعة دم[3].

مُضغةً: قطعة لحم[4].

ذراع: والذراع من الإنسان يعني من طرف المرفق إلى طرف الإصبع[5]، ومقصوده في الحديث: التمثيل بقرب حاله من الموت[6].

فيسبقُ عليه الكتاب: يسبق المكتوب واقعًا عليه[7].

الشرح الأدبي

الحديث فيه جانب من الإعجاز العلمي المؤكد للنبوة؛ لأنه تناول جانباً من الغيب المجهول آنذاك مما لا يجرؤ عاقل أن يتكلم فيه من نفسه مما يدل على أنه من عند

(١) أخرجه البخاري (٧٤٥٤)، ومسلم واللفظ له (١/٢٦٤٣).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ن ط ف).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ع ل ق).

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (م ض غ).

(٥) معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ١٩٠.

(٦) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٩٦/١١.

(٧) المرجع السابق ٤٩٦/١١.

الله، والحديث بأسلوب خبري يناسب طبيعة المعنى الذي يقرر حقائق غيبية لا علم للمخاطبين بها، وإذا كان ذلك كذلك، فعنصر التشويق موجود، ومن ناحية أخرى فإن كونها غيباً غريباً عن معارفهم يستلزم توكيدها، وتمهيد النفوس لها فأكدها بأكثر من مؤكد وإضافة لفظ أحد إلى كاف الخطاب، وميم الجمع في قوله (أحدكم) يجعل الجميع تحت مظلة الحكم، وبناء الفعل لما لم يسم فاعله لتمام العلم به، ثم إنه يعطي مساحة لنسبة فعل الجمع للخلق الذي هو آية الإعجاز مما يلفت النظر، ويلقي الضوء على وجه الإعجاز، ومظهر القدرة الإلهية في هذا التكوين الذي يغفل عن تدبره الإنسان، وهذا التدرج في هذه المراحل حتي يولد، وهو سر ذكر مراحل التكوين، كما أن بناء فعل الإرسال، والنفخ لما لم يسم فاعله يعطي العقل فرصة ليذهب في تصوره كل مذهب، وقوله (وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ) أسلوب تشويق بذكر العدد المبهم، وهو لون من ألوان الإيضاح بعد الإبهام التي تحقق مع التشويق، والترقب تأكيداً للمعنى، وقد عطف بين هذه الأ ربع ب(ثم) لطول المدة بين كل مرحلة، والتي تليها، وقسم الرسول ﷺ (فَوَالَّذِي لا إلهَ غَيْرُهُ إنَّ أحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ) بهذه الصيغة مع ما تلاه من مؤكدات يرتقي بهم قمة الترقب، كما يرفع الإحساس بعظم ما يتلوه، وخطره ؛لأن المعنى الذي يتلوه معنى ترتجف منه أبدان المؤمنين، وتوجل منه قلوبهم، وهو قوله (إنَّ أحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وبيْنَهَا إلاَّ ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أهْلِ النَّارِ فَيدْخُلُهَا) وقوله :(حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وبيْنَهَا إلاَّ ذِرَاعٌ) كناية عن شدة القرب، وميزة الكناية أنها تجسِّد المسافة، وقوله (فَيَسْبِقُ عَلَيهِ الكِتَابُ) كناية عن نفاذ ما قدَّر الله، والتعبير بسبق الكتاب توكيد لتحقق ما قدر الله على خلاف ما يبدو من ظاهر العمل، وهذا المعنى إذا ما انصبغت به نفس المؤمن ربطه بربه بخيط الرجاء، والخوف، ونزع من نفسه الاتكال على عمله، وعلَّقه كلياً بربه.

فقه الحديث

هذا الحديث يشير إلى الأحكام الفقهية التالية:

١-المدة التي يستبين فيها شيء من الخلقة: لا يكون التخليق إلا في الأربعين الثالثة، فأقل ما يتبين فيه خلق الولد واحد وثمانون يومًا[١].

٢-الحمل الذي تنقضي به العدة: ذهب الجمهور إلى أن الحمل الذي تنقضي به العدة هو ما يتبين فيه شيء من خلق الإنسان ولو كان ميتًا أو مضغة تصورت ولو صورة خفية تثبت بشهادة الثقات من القوابل.

أما إذا لم تتصور، وشهد الثقات من القوابل أنها مبدأ خلق آدمي لو بقيت لتصورت، فقد اختلف الفقهاء في ذلك:

فذهب الشافعية في المذهب والحنابلة في رواية إلى انقضاء العدة بها لحصول براءة الرحم به، بينما ذهب الحنفية والشافعية في قول والحنابلة في رواية إلى عدم انقضاء العدة في هذه الحالة.

أما إذا ألقت المرأة نطفة أو علقة أو دمًا أو وضعت مضغة لا صورة فيها فلا تنقضي بها العدة عند الجمهور، وتوسع في ذلك المالكية فذهبوا إلى أن العدة تنقضي بانفصال الحمل كله مضغة كان أو علقة أو دمًا مجتمعًا[٢].

---

(١) الشرح الكبير ٨٩/٩، ومغني المحتاج ٣٨٤/٣، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٣٥٦/٢، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد المغربي ٧/١٢.

(٢) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، علاء الدين أبي بكر الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٤٣٠/٤، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٢٢٩/١، والمدونة ٣٩٩/٦، وحاشية الدسوقي على الشرح الكبير، محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي ٢٦٨/٤، ومغني المحتاج ٣٨٨/٣، والمجموع شرح المهذب، النووي ٥٤٩/٢، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٨٢/٨ وما بعدها، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٤٨٤/٥.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد.

ثانيا: من أساليب الدعوة: القسم.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الإعجاز العلمي في السنة النبوية.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: الإيمان بقضاء الله وقدره.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: العبرة بالخواتيم.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: التفكر في خلق الله للإنسان.

أولاً- من أساليب الدعوة: التوكيد:

وُجِدَ ذلك في الحديث بتأكيد كلامه ﷺ عند سياقه بكثير من المؤكدات، والقسم وغيرهما فقال ﷺ "إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه.... الحديث" وإن تأكيد الكلام له تأثير في إيقاعه في قلب المدعو، إن كان مترددًا زال عنه الشك والتردد، وإن كان مصدقًا ازداد إيمانًا ويقينًا، وقد أفاد التوكيد في هذا الحديث بيان مراحل خلق الإنسان في بطن أمه.

ثانيًا- من أساليب الدعوة: القسم:

جاء القسم في قوله ﷺ "فو الذي لا إله غيره" وأسلوب القسم من الأساليب التي لها تأثير على المدعوين لماله من أثر في تأكيد الأخبار أو تعظيم لشيء أو شد الانتباه حول أمر معين، ويؤدي القسم دوره في صنع التأثير النفسي، والعاطفي بواسطة المقسم به والمقسم عليه وبهما معًا، الأمر الذي يجعل المدعو يتعلق بالدعوة ويؤمن بها[(1)].

وقد أفاد القسم في هذا الحديث بيان أهمية الاستقامة على الطاعة ولزوم تقوى الله والحذر من المعاصي، والطمع في رحمة الله تعالى وعفوه وإحسانه، وقد استخدم القرآن الكريم القسم في تقرير وتأكيد كثير من القضايا الأحكام، مثل قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾[(2)]، وقوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾[(3)].

---

(١) مستلزمات الدعوة في العصر الحديث، علي بن صالح المرشد، ص ١٦٣- ١٦٤

(٢) سورة الذاريات، آية: ٢٣.

(٣) سورة التغابن، آية: ٧.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: الإعجاز العلمي في السنة النبوية:

من دلائل نبوته ﷺ صدقه المطلق وبعده عن الهوى؛ قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾(١)، وتصديق الواقع والعلم ومطابقتهما لكل ما صدر عنه ﷺ، وذلك من دلائل الإعجاز التي تحدو بالناس إلى خالقها وتعرفهم على بارئها وسيظل هذا الإعجاز قائمًا ومستمرًا إلى يوم الدين مهما تقدم العلم الوضعي وسيظل العلماء والمفكرون يكتشفون في كل زمان ومكان جوانب متعددة مضيئة من معجزات الله في خلقه، قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾(٢)، وقال: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾(٣).

وفي ذلك الدلالة على أن الإنسان على مر الزمن ومستقبلاً سيرى الكثير من آيات الله المثلة من أقطار السماوات والأرض، كما سيعلم الإنسان أسرارًا من قدرة الله في خلق الإنسان دالة على قدرات الله وعلى عجائب خلقه وبدائع حكمته في خلقه(٤).

ومن ذلك ما جاء في الحديث من إعلام الله عز وجل لرسوله ﷺ المراحل الجنينية لتكوين الإنسان في بطن أمه، من قبل اكتشاف العلم الحديث لذلك بأربعة عشرة قرنًا من الزمان أو يزيد، فيقول ﷺ: "إن أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك، ، فينفخ فيه الروح"، في الحديث يبين النبي ﷺ مراحل النمو للجنين حتى ينفخ فيه الروح بعد مائة وعشرين عامًا أى بعد أربعة أشهر من الحمل، وهى المدة التي يظهر بعدها حركة الجنين في بطن

---

(١) سورة النجم، الآيتان: ٣-٤.

(٢) سورة النمل، آية: ٩٣.

(٣) سورة فصلت، آية: ٥٣.

(٤) من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، د. حسن أبو العينين ص ٥٥ - ٥٦.

أمه، وصدق الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[١]، [٢].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: الإيمان بقضاء الله وقدره:

إن الإيمان بقضاء الله وقدره أحد أركان الإيمان التي لا قوام له إلا بها، وفي الحديث بيان أن ما يحدث للإنسان مكتوب عليه مقدر له، (ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات، يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد)، قال ابن تيمية: (وأما السلف والأئمة متفقون على وجوب الإيمان بالقدر، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن)[٣]، فالأجل والرزق والسعادة والشقاوة وجميع ما هو لاقيه الإنسان مما كتبه الله فإنه لا يزاد فيه ولا ينقص منه[٤].

ويوضح ابن تيمية مذهب أهل السنة واعتقادهم في القدر فيقول: "وخلاصة مذهب أهل السنة والجماعة في القدر وأفعال العبادات ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة من أن الله سبحانه هو الخالق لكل شيء من الأعيان والأوصاف والأفعال وغيرها، وأن مشيئته تعالى عامة لجميع الكائنات فلا يقع منها شيء إلا بتلك المشيئة وأن خلقه سبحانه الأشياء بمشيئته إنما يكون وفقًا لما علمه منها بعلمه القديم، ولما كتبه وقدره في اللوح المحفوظ وأن للعباد قدرة وإرادة تقع بها أفعالهم وأنهم الفاعلون حقيقة لهذه الأفعال بمحض اختيارهم وأنهم لهذا يستحقون عليها الجزاء إما بالمدح والمثوبة وإما بالذم والعقوبة، وأن نسبة هذه الأفعال إلى العباد فعلاً لا ينافي نسبتها إلى الله إيجادًا وخلقًا لأنه هو الخالق لجميع الأسباب التي وقعت بها"[٥].

إن المسلم يؤمن بقضاء الله وقدره وحكمته ومشيئته وأنه لا يقع شيء في الوجود حتى أفعال العباد الاختيارية إلا بعد علم الله بها وتقديره، وأنه تعالى عدل في قضائه

---

(١) سورة النساء، آية: ١١٣.

(٢) الإعجاز العلمي في السنة النبوية، د. صالح بن أحمد رضا، ١/ ٥٨ - ٥٩

(٣) انظر: مجموعة الفتاوى، ابن تيمية، ٤/٦٩٠

(٤) معارج القبول، الحكمي، ٣/١١٠١

(٥) شرح العقيد الواسطية لابن تيمية، تأليف: محمد خليل هراس، ص ٢٦١.

وقدره، حكيم في تصرفه وتدبيره وأن حكمته تابعة لمشيئته، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ولا حول ولا قوة إلا به تعالى"(١).

فالإيمان بالقضاء والقدر أحد أركان الإيمان، وهو مصدر الرضا والقوة عند الإنسان(٢). قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾(٣).

"وفي ذلك إخبار من الله تعالى عن قدره السابق في خلقه قبل أن يبرأ البرية وأن علم الله تعالى الأشياء قبل كونها وكتابته لها طبق ما يوجد في حينها سهل على الله عز وجل لأنه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، وقوله لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم، أي: أعلمناكم بتقدم علمنا وسبق كتابتنا للأشياء قبل كونها وتقديرنا الكائنات قبل وجودها لتعلموا أن ما أصابكم لم يكن ليخطئكم وما أخطأكم لم يكن ليصيبكم فلا تأسوا على ما فاتكم فإنه لو قدر شيء لكان ولا تفخروا على الناس بما أنعم الله به عليكم فإن ذلك ليس بسعيكم ولا كدكم وإنما هو عن قدر الله ورزقه لكم فلا تتخذوا نعم الله أشرًا وبطرًا تفخرون بها على الناس"(٤).

خامسًا- من موضوعات الدعوة: العبرة بالخواتيم:

إن العبرة ليست بصور الأعمال والركون إليها بل بالخاتمة فلا يقطع لأحد معين بدخول جنة أو نار إلا من أخبر ﷺ أنه من أهلها، لذا يحذر النبي ﷺ في الحديث من سوء الخاتمة بتقلب الأحوال في آخر لحظات العمر(٥)، وذلك ما يدفع بالإنسان إلى

(١) انظر: منهاج المسلم، أبو بكر جابر الجزائري ص ٤٠ - ٤٨.
(٢) انظر: الإيمان والحياة، د. يوسف القرضاوي، ص ١٠٨-١٢٢
(٣) سورة الحديد، الآيتان: ٢٢ - ٢٣.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢٦/٨ - ٢٧.
(٥) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم، ص ٢٧٨.

الدوام على الطاعة وملازمتها حتى إذا ما فاجأه الموت كان على طاعة ربه عز وجل، فيقول ﷺ: (فوالذي لا إله إلا غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها).

قال القاضي عياض: (وفي هذا أن الثواب والعقاب راجع إلى أمر الخاتمة، وأن من مات على شيء حكم عليه به من خير أو شر إلا ما عفا الله عنه من السيئات وسمح فيه لأهل الإيمان من التبعات)(١).

وقال النووي: (والمراد بهذا الحديث أن هذا قد يقع في نادر من الناس لا أنه غالب فيهم ثم إنه من لطف الله تعالى وسعة رحمته انقلاب الناس من الشر إلى الخير في كثرة،وأما انقلابهم من الخير إلى الشر ففي غاية الندور ونهاية القلة وهو نحو قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾(٢)، ويدخل في هذا من انقلب إلى عمل النار بكفر أو معصية لكن يختلفان في التخليد وعدمه فالكافر يخلد في النار والعاصي الذي مات موحدًا لا يخلد فيها.

وفي هذا الحديث إثبات القدر، وأن التوبة تهدم الذنوب قبلها وأن من مات على شيء حكم له به من خير أو شر إلا أن أصحاب المعاصي غير الكفر في المشيئة)(٣).

وقال ابن أبي جمرة في شرح الحديث: "قوله: (إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها)، هذه التي قطعت أعناق الرجال مع ما هم فيه من حسن الحال لأنهم لا يدرون بماذا يختم عملهم"(٤).

وقال محمد تقي الدين العثماني: "والحاصل أن الإنسان ليس له أن يفتخر ويُعجب

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ١٢٨/٨.

(٢) سورة الأعراف، آية: ١٥٦.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٦٨.

(٤) بهجة النفوس، عبدالله بن أبي جمرة الأندلسي ٤٥٥/٢.

بما يفعل من الأعمال الحسنة، لأن العبرة بالخواتيم ولا يدري إلى ما يصير إليه في العاقبة، وليس ذلك جبرًا، فإن ما يفعله في الأخير إنما يفعله بكسبه واختياره ولكن يتغير اختياره من الخير إلى الشر فيعاقب به، أعاذنا الله من ذلك"[١].

لذا ينبغي على الإنسان أن يسأل الله دائمًا الثبات، وكان ذلك هدي رسول الله ﷺ، كما ينبغي ألا ييأس ولا نيأس من شخص نجده على الكفر أو على الفسق فربما يهديه الله في آخر لحظة ويموت على الإسلام[٢].

سادسًا- من موضوعات الدعوة: التفكر في خلق الله للإنسان:

إن خلق الإنسان بهذا الإبداع في جميع مراحله وأطواره لمن ادعى الأسباب إلى التفكر في خلق الله للإنسان، وجاء في الحديث بيان لخلق الإنسان وأطواره في بطن أمه، "إن أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك، فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات... الحديث".

وقد لفت الله أنظارنا إلى التفكير في خلق أنفسنا في كثير من الآيات منها قوله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾[٣]، والمعنى ألا تتفكرون في خلق أنفسكم، كيف أنشأكم الله من ماء، وكيف خلقكم أطوارًا[٤]، وصدق الله: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ﴾[٥]، فإذا ما تفكر الإنسان في نفسه وما حوله من الكائنات ما من شك أنه يؤدي به إلى الاتعاظ والخوف والخشية من الله تبارك وتعالى ويورثه انشراحًا للصدر وسكينة للقلب، كما أن التفكر طريق موصل إلى

---

(١) فتح الملهم ٣٦٥/١١.

(٢) شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين ٧٥٣/١.

(٣) سورة الذاريات : ٢١.

(٤) التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، ٢٦/١٠، ٣٥٣

(٥) سورة فصلت : ٥٣.

رضوان الله ومحبته[١].

وقد مدح الله عباده المؤمنين الذين يزينون عباداتهم بالتفكر وإعمال العقول، ووصفهم بأنهم أصحاب العقول وأولو النهى، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[٢]. فخص الله تعالى بالآيات أولي الألباب وهم أهل العقول لأنهم المنتفعون بها الناظرون إليها بعقولهم لا بمجرد أبصارهم، ثم ذكر من صفاتهم بأنهم "ويتفكرون في خلق السماوات والأرض" أي: ليستدلوا بها على المقصود منها وفي ذلك دليل على أن التفكر عبادة من صفات أولياء الله العارفين فإذا تفكروا بها عرفوا أن الله لم يخلقها عبثًا[٣].

---

(١) انظر: موسوعة نضرة النعيم ٤/١٠٧٨

(٢) سورة آل عمران، الآيتان: ١٩٠ - ١٩١.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ١٢٨.

الحديث رقم (٣٩٧)

٣٩٧- وعنه، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: ((يُؤتَى بِجَهَنَّمَ يَومَئذٍ لَهَا سَبْعُونَ ألفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبعُونَ ألْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا)) رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

غريب الألفاظ:

الزمام: ما تقاد به الدابة من حبل أو غيره[2].

الشرح الأدبي

الحديث تجسيم لجهنم ليس عن طريق التشبيه، أو والوصف، ولكن عن طريق بعض ما يتصل بها مما يعطي تصوراً لكل عقل بقدر اتساع مخيلته، وبما يستطيع أن يستوعب، ولفظ جهنم من الألفاظ الموحية بطبيعتها ؛لأنها تستدعي في الذهن إحراق النار، وجحيمها، ولهيبها دون ما يمكن أن يستحضره لفظ النار من منافع كالإنارة، والتدفئة، وغيرها، وقوله: (بجهنم) الباء للتعدية أي يؤتى بها من المكان الذي خلقها الله تعالى فيه، وهي علم على الهول، والتعبير بالمبني للمجهول قبلها يذهب بالعقول كل مذهب في تصور الفاعل، وتحديد اليوم لزيادة الترهيب، واللام في قوله (لها) للملك، وذكر العدد للترهيب ؛لأنه يعطي تصوراً عن حجمها، وقد صعَّد الشعور بضخامة حجمها عن طريق العدد الثاني المركَّب ثم إن نسبة الجر إلى الملائكة مع ما عرف عنهم من قوة خارقة يرسم صورة لهول مطبق لا تدرك العين البشرية أبعادها، وتعجز الأذن البشرية عن سماع هدير حركتها، والملائكة يجرونها، ثم إن التعبير بالجر يوحي بثقل الكيان المجرور، وهو مشهد يشيب منه الولدان.

---

(١) برقم (٢٩/٢٨٤٢). أورده المنذري في ترغيبه (٥٣٦٤).

(٢) انظر: معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ٢٠٨، ودليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٦٢٦.

المضامين الدعوية[(١)]

أولاً: من موضوعات الدعوة: إخبار النبي ﷺ عن الحالة التي تأتي عليها جهنم يوم القيامة.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: أهمية الخوف من جهنم والبعد عن كل ما يقرب إليها.

ثالثًا: من مهام الداعية: تحذير المدعوين من جهنم.

رابعًا: من أساليب الدعوة: التوكيد.

خامسًا: من أساليب الدعوة: التحذير.

سادسًا: من واجبات المدعو: الفرار من جهنم بفعل الطاعات.

أولاً- من موضوعات الدعوة: إخبار النبي ﷺ عن الحالة التي تأتي عليها جهنم يوم القيامة:

إن يوم القيامة وما يجري فيه من الأهوال وعظائم الأمور من الغيبيات التي لا يعلمها إلا الله، إلا أن الله سبحانه قد استثنى بعض رسله فأطلعهم على بعض غيبه، قال تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ﴾[(٢)] قال العلماء: لما تمدّح سبحانه بعلم الغيب واستأثر به دون خلقه، كان فيه دليل على أنه لا يعلم الغيب أحد سواه، ثم استثنى من ارتضاه من الرسل، فأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحي إليهم، وجعله معجزة لهم ودلالة صادقة على نبوتهم[(٣)].

ومن ذلك ما جاء في الحديث بإخبار النبي ﷺ عن حال جهنم يوم القيامة وإتيانها[(٤)] "يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك

---

(١) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -٣٩٧- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (٣٩٨).

(٢) سورة الجن، الآيتان: ٢٦، ٢٧.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٠/١٩/٢٨.

(٤) شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين، ٧٥٤/١.

يجرونها" والمعنى: (أنها يُجاء بها من المحل الذي خلقها الله فيه فتُدار بأرض المحشر حتى لا يبقى للجنة طريق إلا الصراط، كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة، والزمام: ما يُزَمّ به الشيء أي: يشد ويربط، وهذه الأزمة التي تساق جهنم بها أيضًا تمنع من خروجها على أهل المحشر، فلا يخرج منها إلا الأعناق التي أمرت بأخذ من شاء الله أخذه، وملائكتها كما وصفهم الله تعالى: ﴿غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[1])[2].

وعن أهون أهل النار عذابًا "إن أهون أهل النار عذابًا يوم القيامة لرجل يوضع في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه ما يرى أن أحدًا أشد منه عذابًا، وإنه لأهونهم عذابًا"[3] والحديث الأول يدل على عظم النار وذلك للعدد الكبير من الملائكة الذين يجرونها، وذلك لعظمها وفرط كبرها بحيث إنها تحتاج في الإتيان بها إلى هذه الأزمة[4]، فيعتقد أنه ليس في النار أشد عذابًا منه، مع أن عذابه جمرة من جهنم في أخمصه، وسببه: أن القليل من عذاب جهنم -أعاذنا الله منه- لا تطيقه الجبال وخصوصًا عذاب الكفار[5]، فالحديث الثاني على شدة عذابها فأدنى أهلها رجل يوضع في أخمص قدميه جمرتان فما بالنا بمن هو أشد منه عذابًا.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: أهمية الخوف من جهنم والبعد عن كل ما يقرب منها:

إن ذكر الرسول ﷺ في الحديثين "يؤتى بجهنم..." و"إن أهون أهل النار..." دل على أهوال جهنم وشدة حرها، وفي ذلك باعث على الخوف من جهنم والفرار منها بالأعمال الصالحة.

لذا ينبغي الحذر من غضب الله وعذابه وقد أمرنا الله بالحذر منه ومن عذابه بغية

---

(١) سورة التحريم، آية: ٦.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ١٨٦/٧، ١٨٧.

(٣) سيأتي تخريجه في الحديث الذي بعده.

(٤) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٦٢٦.

(٥) المرجع السابق ٤٥٨/١.

النجاة من غضبه وانتقامه، قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾(١) وقال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾(٢). وقد أثنى القرآن على من هذا حاله يرجو رحمة الله ويحذر انتقامه، قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(٣).

لذا كان الواجب على الإنسان أن يلزم طاعة الله عز وجل ويترك مناهيه ومكروهاته، ومتى صار الخوف من جهنم عونًا على التقرب إلى الله بفعل ما يحبه وترك ما يكرهه فقد انعكس المقصود من التخويف بالنار وهو لزوم الطاعة واجتناب المعصية(٤).

ثالثًا- من مهام الداعية: تحذير المدعوين من جهنم:

إن العلماء هم ورثة الأنبياء ولذا كان عليهم أن يحذوا حذو النبي ﷺ في منهجه في الدعوة من ترغيب وترهيب ومن ذلك التخويف من النار وقد ورد ذلك في الحديثين، وقد حذرنا الله النار في كثير من آياته منها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾(٥) وحذر النبي ﷺ الناس كلهم من النار ولم يستثن أحدًا من هذا الإنذار حتى أقربائه فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ((لَمَّا أُنْزِلَتْ هذِهِ الآيَةُ: ﴿وَأَنذِرْ

(١) سورة البقرة، آية: ٢٣٥.

(٢) سورة المائدة، آية: ٩٢.

(٣) سورة الزمر، آية: ٩.

(٤) انظر: التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار، ابن رجب الحنبلي، ص ٣٥-٤٠.

(٥) سورة التحريم، آية: ٦.

عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾[١] دَعَا رَسُولُ اللهِ قُرَيْشًا. فَاجْتَمَعُوا. فَعَمَّ وَخَصَّ. فَقَالَ: «يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ. يَا بَنِي مُرَّةَ بْنِ كَعْبٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ. يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ. يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ. يَا بَنِي هَاشِمٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ. يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ. يَا فَاطِمَةُ أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنَ النَّارِ. فَإِنِّي لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا. غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبِلاَلِهَا))[٢].

رابعًا- من أساليب الدعوة: التوكيد:

ورد أسلوب التوكيد وذلك لإيقاع الكلام في القلب موقع اليقين فقال ﷺ "إن أهون أهل النار عذابًا يوم القيامة لرجل... وأنه لأهونهم عذابًا" وأسلوب التوكيد من الأساليب الدعوية المؤثرة لما فيه من إقبال المدعو على كلام الداعي. ولأهمية التوكيد في تقرير القضايا والأحكام وإثباتها استخدمه القرآن في كثير من الآيات ومنها قوله تعالى: ﴿ قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴾[٣].

خامسًا- من أساليب الدعوة: التحذير:

جاء في الحديثين تحذير النبي ﷺ الناس من النار وتخويفهم منها ببيان مدى عظمها وفَرْط كِبَرها بحيث يحتاج للإتيان بها إلى سبعين ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك[٤] لا يعلم مدى قوتهم إلا الله، "يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها" وببيان شدة عذابها بذكر أهون أهلها عذابًا

---

(١) سورة الشعراء، آية: ٢١٤.

(٢) أخرجه مسلم ٢٠٤.

(٣) سورة الأنعام، آية: ١٩.

(٤) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٦٢٦.

"إن أهون أهل النار عذابًا يوم القيامة لرجل يوضع في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه..." وأسلوب التحذير يذكر الناس ويبصرهم بما يؤول إليه أمرهم إن عصوا ربهم، فيحملهم ذلك على اجتناب معصيته ولزوم طاعته[١].

سادسًا- من واجبات المدعو: الفرار من جهنم بفعل الطاعات:

إن خوف العقاب ليس مقصودًا لذاته، إنما هو سوط يساق به المتواني عن الطاعة إليها، ومن هنا كانت النار من جملة نعم الله على عباده الذين خافوه واتقوه، ولهذا المعنى عدها الله سبحانه من جملة آلائه على الثقلين في سورة الرحمن[٢] لأنها تدعوهم بلسان حالها إلى الفرار منها باجتناب ما يؤدي إليها، وإلى التمسك بالإيمان والطاعة ولزوم العمل الصالح، بفعل المأمور على الوجه المطلوب[٣]، قال ابن رجب الحنبلي: (إن الله خلق الخلق ليعرفوه ويعبدوه ويخشوه ويخافوه، ونصب لهم الأدلة الدالة على عظمته وكبريائه ليهابوه ويخافوه خوف الإجلال، ووصف لهم شدة عذابه ودار عقابه التي أعدها لمن عصاه ليتقوه بصالح الأعمال، ولهذا كرر الله سبحانه وتعالى في كتابه ذكر النار وما أعده فيها لأعدائه من العذاب والنكال وما احتوت عليه من الزقوم والضريع والحميم والسلاسل والأغلال إلى غير ذلك مما فيها من العظائم والأهوال، ودعا عباده بذلك إلى خشيته وتقواه والمسارعة إلى امتثال ما يأمر به ويحبه ويرضاه واجتناب ما ينهى عنه ويكرهه ويأباه فمن تأمل الكتاب الكريم وأدار فكره فيه وجد من ذلك العجب العجاب، وكذلك السنة الصحيحة التي هي مفسرة ومبينة لمعاني الكتاب، وكذلك سير السلف الصالح أهل العلم والإيمان به من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، من تأملها علم أحوال القوم وما كانوا عليه من الخوف والخشية والإخبات وأن ذلك هو الذي رقاهم إلى تلك الأحوال الشريفة والمقامات السنيات من شدة الاجتهاد في الطاعات والانكفاف عن دقائق الأعمال والمكروهات فضلاً عن المحرمات[٤].

---

(١) انظر: الدعوة الإسلامية، الوسائل والأساليب، محمد خير رمضان يوسف، ص ٩٧.

(٢) التخويف من النار والتعريف بحال أهل البوار، ابن رجب الحنبلي، ص ٤٠.

(٣) نداءات الرحمن لأهل الإيمان، أبوبكر الجزائري ص ٢٤٣، ٢٤٤.

(٤) التخوف من النار والتعريف بحال أهل البوار ص ٦، ٧.

إن طاعة الله والرجاء في رحمة الله سبيل الخلاص والفوز بالنعيم يوم القيامة قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[1].

قال الرافعي:

إذا أمسى فراشي من تراب ... وصرت مجاور الرب الرحيم

فهنّوني أحبائي وقولوا لك ... البشرى قَدِمتَ على كريم[2]

فالرجاء مستلزم للخوف والخوف مستلزم للرجاء، ولأجل هذا حسن وقوع الرجاء في موضع يحسن فيه وقوع الخوف[3].

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢١٨.

(٢) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٦٧٦.

(٣) انظر: موسوعة نضرة النعيم، ج٥/٢٠٣٩، ٢٠٤٠.

الحديث رقم (٣٩٨)

٣٩٨- وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُول الله ﷺ، يقول: ((**إنَّ أهْوَنَ أهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ القِيَامَةِ لَرَجُلٌ يوضعُ في أخْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَتَانِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ**))[1].

((**مَا يَرَى أنَّ أحَدًا أشَدُّ مِنْهُ عَذَابًا، وَأنَّهُ لأَهْوَنُهُمْ عَذَابًا**))[2] مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[3].

ترجمة الراوي:

النعمان بن بشير: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٦٠).

غريب الألفاظ:

أخمص قدميه: ما لا يصل إلى الأرض من باطن القدم عند المشي[4].

والجَمرةُ: القطعة الملتهبة من النار[5].

الشرح الأدبي

تأكيد الكلام بأكثر من مؤكد عند عدم المواجهة بالإنكار نزوع إلى غرض آخر هو الرغبة في تفخيم الخبر، وتعظيمه، والمقام يستلزمه؛ لأنه حديث عن الهول، والتعبير بأفعل التفضيل (أهون) يشير إلى منتهى أحد الطرفين ارتفاعاً، أو انخفاضاً، وهو يشير هنا إلى الأدنى، وإضافته لأهل النار فيها تنفير، وتهويل، لأنه، وإن كان الأهون إلا أنه في النار، وقوله (عذاباً) يؤكد هذا الشعور، ويدعمه، ويصعّد هذا

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٦١)، ومسلم (٣٦٣/٢١٣) ولفظهما سواء.

(٢) أخرجه مسلم (٣٦٤) من حديث الأعمش. أورده المنذري في ترغيبه (٥٤٢٠).

(٣) **تنبيه:** الحديث أورده الحميدي في جمعه (٥٠١/١، رقم ٨٠٧) وساق اللفظ الأول، ثم قال: وفي حديث الأعمش، ثم ساق اللفظ الثاني، النووي جمع بين اللفظين في حديث واحد، وعزاه إلى الصحيحين، وليس كذلك، فإن اللفظ الأول متفق عليه، والثاني لفظ مسلم من حديث الأعمش.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٣٨/١١.

(٥) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١٣٤.

الشعور ذكر الظرف (يوم)، وإضافته للقيامة، وهي من الألفاظ ذات الإيحاء المرعب الذي تنقبض له القلوب، واتصال اللام بالخبر، توكيد له، وقوله (يوضعُ فِي أخْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَتَانِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ) ذكر الأخمص للمبالغة في التعذيب؛ لأنه إذا كان هذا حال الأهون فما بال البقية، وتثنية القدمين ، والجمرتين تشديد في العذاب، والتعبير بالغليان يبيِّن مدى حرارة الجمرتين، ويوحي بمدى الألم الذي يلقاه هذا الأهون، وذكر الدماغ تأكيد على شدة الحر لبعد ما بين الأخمص، والرأس، والتعبير بالدماغ فيه إشارة إلى أن الذي يغلي ما بداخلها ؛لأن الدماغ حشو الرأس، وفي هذا زيادة ترهيب، وتنفير من كل ما يؤدي إليها - أعاذنا الله - وقوله (مَا يَرَى أنَّ أحَداً أشَدُّ مِنْهُ عَذَاباً) يفصح عن مرارة التحريق داخل أحشائه، وما بلغ به عذاب الجمرتين، وبناء جملته يدل على ذلك، فقد جاءت بـ (ما) نفياً للرؤية، والفعل المضارع يشير إلى الاستمرار، والرؤية هنا ليست بصرية، لأنه لا يرى في النار، لأنها سوداء كالليل المظلم -والعياذ به- كما أن رؤيته لا تبلغ كل من في النار حتى يعلم من أشد عذاباً، ثم إنه نكَّر (أحداً) فأفادت العموم، وعبَّر بأفعل التفضيل للدلالة على أن عذابه فاق الجميع، وعبارة الرسول ﷺ (وَأنَّهُ لأهْوَنُهُمْ عَذَاباً) بكل ما فيها من مؤكدات إرصاد للمعنى يقرر أنه على ما فيه من الهول هو أهونهم عذاباً -أعاذنا الله-

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (٣٩٩)

٣٩٩- وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه: أنَّ نبيَّ الله ﷺ، قَالَ: ((مِنْهُمْ مَنْ تَأخُذُهُ النَّارُ إلَى كَعْبَيهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأخُذُهُ[1] إلَى رُكْبَتَيهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأخُذُهُ إلَى حُجزَتِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأخُذُهُ إلَى تَرْقُوَتِهِ)) رواه مسلم[2].

(الحُجْزَةُ): مَعْقِدُ الإزار تَحْتَ السُّرَّةِ، وَ(التَّرْقُوَةُ) بفتح التاءِ وضم القاف: هي العَظْمُ الَّذِي عِنْدَ ثُغْرَةِ النَّحْرِ، وَللإنْسَانِ تَرْقُوتَانِ فِي جَانبَي النَّحْرِ.

ترجمة الراوي:

سَمُرة بن جندب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٥٨).

الشرح الأدبي

المتأمل للحديث يجد أنه بني على جمل متشابهة في التركيب تصدَّر كل جملة منها جناس ناقص يرسخ في العقل معنى، وفي السمع لفظاً وهو قوله (منهم من) ومن الأولى تبعيضية، ومن الثانية موصولة، بمعنى الذي أي بعض منهم الذي، وتكرار الموصول يشير إلى اختلافهم درجاتهم في العذاب، تبعاً لاختلافهم في درجات المعاصي، فكل يأخذ بقدر ذنبه، والتعبير بالأخذ يوحي بالاستحواذ، والملك، ونسبتها للنار يوحى بقصدها إليهم، والسعي نحوهم، وكأنها تعقل، وذكر هذه المواضع التي تدركها النار، وهي:الكعب، والركبة، و الحُجْزَةُ، وهي مَعْقِدُ الإزار تَحْتَ السُّرَّةِ، وَالتَّرْقُوَةُ وهي :العَظمُ الَّذِي عِنْدَ ثُغْرَةِ النَّحْرِ، وتدرجها من الأسفل إلى الأعلى، لأن النار تأتيهم من أسفل، فيه تحذير من تراكم الذنوب التي تؤول بصاحبها إلى أحد هذه الأصناف.

---

(١) عند مسلم زيادة: (النار) في المواضع الثلاثة. ولم يوردها الحميدي في جمعه (٣٨٢/١) في موضعين، وأوردها في الأخير.

(٢) برقم (٢٨٤٥/٣٣). أورده المنذري في ترغيبه (٥٤٢٠).

المضامين الدعوية[١]

أولاً: من موضوعات الدعوة: الإخبار عن أحوال الناس يوم القيامة

ثانيا: من موضوعات الدعوة: التخويف بالنار

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: تفاوت أهل النار في العذاب

أولاً- من موضوعات الدعوة: الإخبار عن أحوال الناس يوم القيامة:

إن من دلائل نبوته ﷺ إخباره ﷺ بالمغيبات والأحاديث في هذا الباب بحر لا يدرك قعره ولا ينزف غمره، وهذه المعجزة من جملة معجزاته المعلومة[٢] ومن ذلك ما ورد في الحديث من بيان أحوال أهل النار، "منهم من تأخذه النار إلى كعبيه... الحديث" وحال الناس في عرقهم يوم القيامة "يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه". وإطلاع الله لرسوله على بعض المغيبات دلالة قاطعة على ثبوت نبوته وصحة رسالته، فما كان لرسول الله ﷺ أن يتأتى له الإخبار بمثل تلك الأمور إلا عن طريق الوحي، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[٣]. أي: ليس بمتكلم عن هواه[٤] فهو لا يتبع إلا ما أوحي إليه من الهدى والتقوى في نفسه وفي غيره، ودل هذا على أن السنة وحي من الله لرسوله ﷺ وأنه معصوم فيما يخبر به عن الله تعالى وعن شرعه لأن كلامه لا يصدر عن هوى وإنما يصدر عن وحي يوحى[٥].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: التخويف بالنار:

إن التخويف من النار والترهيب من كل ما يقرب إليها لهو الهدف من ذكر رسول

---

(١) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -٣٩٩- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (٤٠٠).

(٢) كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض، ١/٢٨٣، ٣٢٩

(٣) سورة النجم، آية: ٣، ٤.

(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٨/١٠٧.

(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٧٦٠.

الله ﷺ لأحوال أهل النار يوم القيامة " منهم من تأخذه النار إلى كعبيه، ومنهم من تأخذه إلى ركبتيه، ومنهم من تأخذه ... الحديث" وبيان الناس وعرقهم يوم القيامة "يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه" فالأمر جد خطير فيجب الحذر من أهوال يوم القيامة، وأن نخاف الله تعالى فنقوم بما أوجب علينا، وندع ما حرم علينا[١]. إن استحضار اليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب والإيمان به يجعل العبد على بصيرة من أمره في دينه ودنياه.

ولو اجتمعت معاني الإيمان باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب في حس المسلم وصار لها ذاكرًا واستشعرها بقلبه لأصبح من أولياء بإذن الله تعالى.

إن استحضار النار وما فيها من أهوال يوقظ العبد من سباته ويجعله في حذر دائم منها فإذا ما سولت له نفسه ارتكاب محذور تذكره فيتولد عنده حينئذ خوف يحمله على اجتناب المحارم جميعها ويجتهد في الطاعة حتى يكون من السعداء[٢]، وذلك له أكبر الاثر في سلوك العبد وتصرفاته وتوجهاته في الحياة.

إن الإيمان باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب يصحح سلوك العبد ويوجهه الوجهة الصحيحة لأنه القوة الدافعة إلى فعل الخير وترك الشر[٣]. وقد بين الله تعالى أن من صفات عباده المصلين: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٢٧ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾[٤].

وقد كان ﷺ كثيرًا ما يستعيذ من النار ويأمر بذلك في الصلاة وغيرها فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ ((إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ أَرْبَعٍ. يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ))[٥]. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان أكثر

---

(١) شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين، ٧٥٥/١

(٢) انظر: التوحيد وأثره على العبيد، خميس السعيد محمد، ص ٥٢٥.

(٣) انظر: أشراط الساعة، د. يوسف بن عبدالله بن يوسف الوابل، ص ٢٩، ٣٠.

(٤) سورة المعارج الآيتان: ٢٧، ٢٨.

(٥) أخرجه مسلم ٥٨٨.

دعاء النبي ﷺ: ((اللَّهُمَّ آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ))[١].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: تفاوت أهل النار في العذاب:

وردت الإشارة إلى ذلك بذكر أهون أهل النار عذابًا، فقال رسول الله ﷺ: "إن أهون أهل النار عذابًا يوم القيامة لرجل يوضع في أخمص قدميه جمرتان يغلى منهما دماغه"، وقوله: "منهم من تأخذه النار إلى كعبيه، ومنهم من تأخذه إلى ركبتيه، ومنهم من تأخذه إلى حجزته، ومنهم من تأخذه إلى ترقوته"، قال أبو العباس القرطبي: (ولا شك أن الكفار في عذاب جهنم متفاوتون كما قد عُلم من الكتاب والسنة، ولأنا نعلم على القطع والثبات أنه ليس عذاب من تل الأنبياء والمسلمين وفتك فيهم وأفسد في الأرض وفكر مساويًا لعذاب من كفر فقط وأحسن للأنبياء والمسلمين، فالحديث دليل على أن أهل النار يتفاوتون فيها[٢]، وقال ابن رجب الحنبلي: واعلم أن تفاوت أهل النار في العذاب هو بحسب تفاوت أعمالهم التي دخلوا بها النار، كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾[٤]، قال ابن عباس: وافق أعمالهم فليس عقاب من تغلظ كفره وأفسد في الأرض ودعا إلى الكفر كمن ليس كذلك، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾[٥]، وقال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾[٦]،[٧]

---

(١) أخرجه البخاري ٦٣٨٩.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ١٨٩/٧.

(٣) سورة الأحقاف آية: ١٩.

(٤) سورة النبأ: ٢٦.

(٥) سورة النحل آية: ٨٨.

(٦) سورة غافر: ٤٦.

(٧) التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار، ابن رجب الحنبلي، ص ١٨٠

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾[1] فالمنافق في الدرك الأسفل، وهي الهاوية لغلظ كفره وكثرة غوائله وتمكنه من أذى المؤمنين[2].

(١) سورة النساء، آية: ١٤٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٤٢٥/٥/٣.

الحديث رقم (٤٠٠)

٤٠٠- وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: (([1] (يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ العَالَمِينَ) حَتَّى يَغِيبَ أحَدُهُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَى أنْصَافِ أُذُنَيهِ)) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[2].

وَ((الرَّشْحُ)): العَرَقُ.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٣).

غريب الألفاظ:

والرشحُ: العرقُ[3].

الشرح الأدبي

التعبير بالقيام إشارة إلى ابتداء أمر عظيم، لذلك يقال قامت القيامة، وقام الناس للحرب، وقامت السوق، وصورة المضارع تشخص المشهد الرهيب، وتستحضره، واللام في الناس للجنس فتشمل الناس جميعاً، واللام المتصلة برب للسببية، والتعبير بالرب لما في اللفظ من معاني العناية، والرعاية، والحفظ، وهي معاني يحتاجها المؤمن خاصة في هذا الموقف، وإضافة الرب للعالمين شمول وعموم لجميع أهل الموقف، والعالمين جمع عالم، ويشمل عالم الإنس، والملائكة، والجن، والطير، وغيرها، و(حتى) لبيان الغاية، والتعبير بالغياب يدل على إحاطة الرشح بهم وقوله (في رشحه) دلالة على أن أكثر الهول من إحساسهم بشدة خوفهم من مصيرهم مع ما يعتريهم من الزحام، وشدة الحر، وقوله (إلى أنصاف أذنيه) فيه دلالة على مبلغ الهول، وشدة الموقف، -والعياذ بالله-.

المضامين الدعوية[4]

---

(١) عندهما بزيادة: (يوم) في أوله، وهي لا توجد عند الحميدي في جمعه (٢/٢٤٠، رقم ١٣٦٧).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٣٨، و٦٥٣١)، ومسلم (٢٨٦٢/٦٠) ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه (٥٢٥٥).

(٣) رياض الصالحين ٢٠١.

(٤) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (٤٠١)

٤٠١- وعن أنس رضي الله عنه، قَالَ: خطبنا رَسُول الله ﷺ خطبة مَا سَمِعْتُ مِثلها قط، فَقَالَ: ((**لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أعْلَمُ، لَضحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيتُمْ كَثِيرًا**)) فَغَطَّى أصْحَابُ رَسُول الله ﷺ وَجُوهَهُمْ، وَلَهُمْ خَنَينٌ. مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[١].

وفي رواية[٢]: بَلَغَ رَسُول الله[٣] ﷺ عَنْ أَصْحَابِهِ شَيْءٌ فَخَطَبَ، فَقَالَ: ((**عُرِضَتْ عَلَيَّ الجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَلَمْ أرَ كَاليَومِ في الخَيرِ وَالشَّرِّ، وَلَوْ تَعْلَمونَ مَا أعلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا**)) فَمَا أتَى عَلَى أصْحَابِ رَسُول الله ﷺ يَوْمٌ أَشَدُّ مِنْهُ، غَطَّوْا رُؤُسَهُمْ وَلَهُمْ خَنِينٌ.

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

الخنينُ: البكاءُ مع غُنَّة وانتشاق الصوت من الأنف[٤].

الشرح الأدبي

رسول الله رأى الجنة بنعيمها، ورأى النار بجحيمها، ورأى ما رأى عند سدرة المنتهى، وما كشف له من أهوال القبور، والحشر والنشر، وزوى الله له الأرض؛ فرأى

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٢١). أورده المنذري في ترغيبه (٤٩٤٩).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٩٥/١٣٤). أوردها المنذري في ترغيبه (٤٩٤٩). وسيكرره المؤلف برقم (٤٤٧).

تنبيه: الحديث أورده الحميدي في جمعه (٤٩١/٢، رقم ١٨٥٥) في المتفق عليه، وقال: وأخرجاه من حديث موسى بن أنس، عن أنس، ثم ذكر اللفظ الأول، ثمّ قال: وفي حديث النضر بن شميل، ثم ذكر اللفظ الثاني. ففهم النووي رحمه الله أن اللفظ الأول متفق عليه، وليس كذلك، بل اللفظ الأول أخرجه البخاري، واللفظ الثاني أخرجه مسلم.

(٣) لفظ مسلم: (النبي) والمثبت لفظ الحميدي في جمعه.

(٤) رياض الصالحين ٢٠١.

مشارقها ومغاربها، واختصه الله بمعارف بصرية، وقلبية، وجمع له بين علم اليقين، وعين اليقين مع الخشية القلبية، واستحضار العظمة الإلهية على وجه لم يجتمع لغيره، فصار قلبه مفعماً بتلك المعارف مهموماً بأمته، لأنه أكثر القلوب رحمة لذلك لم يترك فرصة يبث فيها تلك المعارف إليهم إلا استثمرها ترغيباً أو ترهيباً، وهذا الحديث يشير إلى هذا المعنى، وقوله (لو تعلمون ما أعلم) لو حرف امتناع لامتناع، امتناع الجزاء لامتناع الشرط، أي لم يحدث علم فلم يحدث بكاء كثير، وضحك قليل وقوله(لَضحِكتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيتُمْ كَثِيراً) مقابلة بين الضحك، والبكاء، وبين (قليلاً)، و(كثيراً)، وهذه المقابلة توضح المفارقة بين من علم فبكى، ومن جهل فضحك، وعبارته ﷺ بنيت على إيجاز القصر حيث كثرة المعاني، وقلة الألفاظ ؛لأن تلك العبارة تنظر بعيني الرسول ﷺ فيما وراء الغيب المنتظر، وما فيها من عقبات تنتظر الناس - بما فيهم من الصالحين - كالموت، وضمة القبر، والحشر، والنشر، وأهوال القيامة، وما فيها من فزع، ولذلك بكى الصحابة رضي الله عنهم لأنهم أعرف الناس بمغزى كلامه ﷺ ومقصده حتى صار لهم خنين، وهو صوت البكاء عندما يستغرق صاحبه فيه.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الخطبة

ثانيا: من أساليب الدعوة: الإخبار

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: خوف الصحابة رضي الله عنهم، وبكاؤهم.

رابعًا: من مهام الداعية: تحذير المدعوين من أهوال يوم القيامة

خامسًا: من موضوعات الدعوة: إخبار النبي ﷺ ببعض الأمور الأخروية.

أولاً- من وسائل الدعوة: الخطبة:

الحديث ورد في معرض خطبة لرسول الله ﷺ، وصرح بذلك راوي الحديث أنس بن مالك بقوله "خطبنا رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط"، والخطبة من

الوسائل المؤثرة في الدعوة إلى الله تعالى لما لها من آثار العواطف والمشاعر والوعظ[١]، والخطبة في الإسلام مظهر الحياة المتحركة فيه، الحياة التي تجعل هذا الدين يزحف من قلب إلى قلب، ويثب من فكر إلى فكر، وينتقل من الزمان من جيل إلى جيل، ومع المكان من قطر إلى قطر[٢]، وقد وظّف النبي ﷺ الخطبة في هذا الحديث لبيان حقيقة الأمور التي تستوجب التشمير عن سواعد الجدّ والاجتهاد في الطاعات والحذر من المعاصي والموبقات، وقد بيّن أن الأمر خطير جدًا يستلزم الاقتصاد في الضحك واللهو وفي ذلك بيان لأهمية الإقبال على الآخرة وعدم الانبهار بزينة الدنيا وأن يحاسب الإنسان نفسه فيندم على تقصيره في الطاعات ويستدرك ما فاته.

ثانيًا- من أساليب الدعوة: الإخبار:

ورد أسلوب الإخبار في الحديث بتعريف النبي ﷺ الناس بعظم أهوال يوم القيامة وأشار إلى ذلك بقوله " لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا" وفي قوله" عرضت على الجنة والنار ... الحديث، ويتجلى أسلوب الإخبار أيضًا في نقل أنس الخطبة للناس "خطبنا رسول الله ﷺ خطبة ..." وبحال الصحابة حين سمعوها "فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم ولهم خنين"، وأسلوب الإخبار من الأساليب المؤثرة لما فيه من إيقاف المدعوين على الحقائق مما يجعلهم على بينة من أمرهم وبصيرة.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: خوف الصحابة رضي الله عنهم، وبكاؤهم:

وقد جاء ذلك صريحًا في قول أنس رضي الله عنه "فغطى أصحاب رسول الله ﷺ ولهم خنين"[٣]، وقد وردت الإشارة التي تدل على فضل البكاء وأنه من صفات المؤمنين الذين هداهم الله واجتباهم، قال تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾[٤]،

---

(١) انظر: تذكرة الدعاة، البهي الخولي، ص ٣٨٥

(٢) انظر: مع الله، دراسات في الدعوة والدعاة، محمد الغزالي، ص٣٠٧

(٣) الخنين ورد بالخاء المهملة وهو الصورة الذي يرتفع بالبكاء من الصدر، بالخاء المعجمة، الصوت الذي يرتفع بالبكاء من الأنف، انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٢١/٨.

(٤) سورة مريم آية: ٥٨.

وقد نعت الله العلماء بالبكاء فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾[1]، [2] وذلك مبالغة في صفتهم ومدح لهم، وحق لكل من توسَّم بالعلم وحصل منه شيئًا أن يجري إلى هذه المرتبة فيخشع عند سماع القرآن والذكر ويتواضع ويذل[3].

وذلك علامة من علامات الإيمان ودلائله، ووقاية من عذاب النار، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ((عَيْنَانِ لا تَمسُّهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ الله، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحرُسُ في سبيلِ الله))[4] وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لا يَلِجُ النَّارَ رَجُلٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ الله حتى يَعُودَ اللَّبنُ فِي الضَّرْعِ، ولا يَجْتَمِعُ غُبَارٌ في سبيلِ الله وَدُخَانُ جَهَنَّم))[5].

رابعًا- من مهام الداعية: تحذير المدعوين من أهوال يوم القيامة:

ضرب لنا الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث مثالاً حيًا يحتذى به الدعاة في تحذير المدعوين من أهوال يوم القيامة "فقال صلى الله عليه وسلم "لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا" وذلك واجب العلماء والدعاة ليكون المدعوون على بينة ويأخذوا حذرهم وكما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[6] أي ينذرونهم ويقيموا عليهم

---

(١) سورة الإسراء، الآيتان: ١٠٧-١٠٩.

(٢) انظر: كتاب الزهد، لعبدالله بن المبارك المروزيّ، دار الكتب العلمية، بيروت: ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ص٧٨.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٧٨/١٠/٥.

(٤) أخرجه الترمذي ١٦٣٩، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٣٣٨).

(٥) أخرجه الترمذي ٢٣١١، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٨٨١).

(٦) سورة التوبة: ١٢٢.

الحجة[١]، وكما قال الله عن الأنبياء والمرسلين أئمة الدعاة ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[٢].

خامسًا- من موضوعات الدعوة: إخبار النبي ﷺ ببعض الأمور الأخروية:

أشار النبي ﷺ إلى ذلك بقوله: "لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرًا" وقوله "عرضت عليّ الجنة والنار" وذلك من دلائل نبوءته ﷺ ومن جملة المعجزات التي أيد الله بها رسوله ﷺ. قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدًا﴾[٣]، [٤].

فإخبار النبي ﷺ ببعض أخبار يوم القيامة من دلائل ثبوت نبوته وصحة رسالته ﷺ فما كان له أن يأتي بمثل هذه الأخبار إلا عن طريق الوحي الإلهي، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾[٥] ذلك بالإضافة إلى ما أخبر النبي ﷺ بوقوعه إلى قيام الساعة، فعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: ((قَامَ فِينَا رَسُولُ اللّهِ ﷺ مَقَامًا. مَا تَرَكَ شَيْئًا يَكُونُ فِي مقَامِهِ ذٰلِكَ إِلَىٰ قِيَامِ السَّاعَةِ. إِلاَّ حَدَّثَ بِهِ. حَفِظَهُ مَنْ حَفِظَهُ وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ))[٦]. وعن عمرو بن أخطب الأنصاري أنه قال: ((صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللّهِ الْفَجْرَ. وَصَعِدَ الْمِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الظُّهْرُ. فَنَزَلَ فَصَلَّى. ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ. فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الْعَصْرُ. ثُمَّ نَزَلَ فَصَلَّى. ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ. فَخَطَبَنَا حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ. فَأَخْبَرَنَا بِمَا كَانَ وَبِمَا هُوَ كَائِنٌ. فَأَعْلَمُنَا أَحْفَظُنَا))[٧].

---

(١) بدائع التفسير، الجامع لتفسير ابن قيم الجوزيه، جمع وتوثيق، يسري السيد محمد، ٢/٣٨٦.

(٢) سورة النساء، آية: ١٦٥.

(٣) سورة الجن الآيتان: ٢٦-٢٧.

(٤) انظر: كتاب الشفا، للقاضي عياض، ص ٣٢٩.

(٥) سورة النجم، آية: ٣، ٤.

(٦) أخرجه البخاري ٦٦٠٤، ومسلم ٢٨٩١.

(٧) أخرجه مسلم ٢٨٩٢.

الحديث رقم (٤٠٢)

٤٠٢- وعن المقداد رضي الله عنه، قَالَ: سمِعْتُ رَسُول الله ﷺ، يقول: ((**تُدْنَى الشَّمْسُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنَ الخَلْقِ حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ**)) قَالَ سُلَيْم بنُ عامِرٍ (الراوي عن المقداد)[1]: فَوَاللّهِ مَا أدْرِي مَا يعني بالمِيلِ، أمَسَافَةَ الأرضِ أَمِ المِيلَ الَّذِي تُكْتَحَلُ بِهِ العَيْنُ؟ قَالَ: ((**فَيكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدْرِ أعْمَالِهِمْ في العَرَقِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبَيْهِ، ومنهم من يكون إِلَى ركبتيه، ومنهم مَنْ يَكُونُ إِلَى حِقْوَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ العَرَقُ إلْجَامًا**)). قَالَ: وَأَشَارَ رَسُول الله ﷺ بيدِهِ إِلَى فِيهِ. رواه مسلم[2].

ترجمة الراوي:

المقداد بن الأسود الكندي: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٩٢).

غريب الألفاظ:

حِقويه: هما معقد الإزار، والمراد هنا: ما يحاذي ذلك الموضع من جنبيه[3].

يُلجمه العرق: أي يصل العرق إلى أفواههم فيصير بمنزلة اللجام[4]، واللجام: هو أداة من حديد ونحوه توضع في فم الدابة ولها سيور تمكن الراكب من السيطرة[5].

الشرح الأدبي

الحديث يتناول جانباً من الغيب المنتظر، والنفس بطبيعتها ليست مكلفة بالبحث عن المجهول، وهذا يجعلها في حالة ترقب فطرية فلم تحتج إلى أدوات تنبيه، أو وسائل تشويق، فبدأ الخبر دون توكيد؛ لأنه لم يواجه بشك، أو إنكار لكونه يخاطب بها

---

(١) هذا الكلام للنووي.

(٢) برقم (٢٨٦٤/٦٢). أورده المنذري في ترغيبه (٥٢٥٦).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ح ق و)، ودليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٦٢٩ - ٦٣٠.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ل ج م).

(٥) معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ٣٥٨.

خالي الذهن، وقوله: (تدنى الشمس) بناء الفعل لما لم يسم فاعله للعلم؛ لأنه من الأحداث العظام التي لا تتأتى لبشر، وذكر اليوم، وإضافته للقيامة يبث في النفس الإحساس بالرهبة، والجار والمجرور (من الخلق) يجعل الجميع في قلب الحدث مما يحكم الرهبة في القلوب، وحتى لبيان الغاية التي يبلغها الهول بهم، والذي صور إطباقه بالتشبيه (كمقدار ميل)، وهو بيان لمقدار القرب الذي يعطي صورة تقريبية عن شدة الحر الذي يشبه الجحيم، وقول الراوي (فَوَاللهِ مَا أدْرِي مَا يعني بالمِيلِ، أمَسَافَةَ الأرضِ أَمِ المِيلَ الَّذِي تُكْتَحَلُ بِهِ العَيْنُ ؟) يصعِّد الرهبة من عدة وجوه، منها :القسم في بداية العبارة، ثانياً: أسلوب النفي للعلم بالمقصود من الميل ثالثاً: استفهام التحير، والاضطراب الذي يعكس الفزع مما سمع، وسواء أكان المقصود من الميل المسافة أم ما تكتحل به المرأة فالمسافة قريبة بحيث يكون حراً يشوي الأبدان، ولا ينجي منه إلا ظل عرش الرحمن، وقوله (فَيكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدْرِ أعْمَالِهِمْ في العَرَقِ) خبر أريد به الفائدة أي الإخبار بمضمون الخبر بغرض التحذير، الترهيب، والتنفير من سوء العمل، وهو إجمال تبعه تفصيل يؤكد المعنى بعد التشويق إليه، والتدرج الذي تلاه يؤكد ما قرره الرسول ﷺ، وإشارته في نهاية الحديث توكيد تعاضد في استقباله حاستي البصر مع حاسة السمع مما يجعل له مزيد توكيد مع ثباتٍ في ذهن المخاطب، وفيه تحذير من سوء الأعمال، والركون إلى الراحة، وعدم الاستعداد المؤدي لهذا المصير.

المضامين الدعوية(١)

أولاً: من موضوعات الدعوة: بيان حال الناس يوم القيامة.

ثانيا: من موضوعات الدعوة: تفاوت أحوال الناس يوم القيامة حسب أعمالهم.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الخوف والرهبة والاستعداد بالعمل الصالح ليوم القيامة.

رابعًا: من صفات الداعية: الإشفاق على المدعوين.

(١) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -٤٠٢- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (٤٠٣).

أولاً- من موضوعات الدعوة: بيان حال الناس يوم القيامة:

إن الناس يعانون يوم القيامة الأهوال الشداد، لأنه يوم يقوم الناس فيه لرب العالمين، وقد نقل لنا النبي ﷺ في الحديث صورة من صور تلك الأهوال وهي ما يلاقيه الناس من العرق وغزارته، لدنو الشمس واشتداد حرها فيقول ﷺ " تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق، حتى تكون منهم كمقدار ميل ..." فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ... الحديث"، وذلك من شدة الهول والكرب[١]، وذلك مما يورث في قلب الإنسان الخوف والرهبة من الله ومن عذابه، ويظهر أثر ذلك على أركان الإنسان بلزوم الطاعة واجتناب المعصية[٢]. قال ابن حجر: (يستثنى من هذه الهيئة والعذاب الأنبياء، والشهداء، ومن شاء الله فأشدهم في العرق الكفار ثم أصحاب الكبائر ثم من بعدهم والمسلمون منهم قليل)[٣].

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: تفاوت أحوال الناس يوم القيامة حسب أعمالهم:

أشار النبي ﷺ إلى ذلك في الحديث ببيان أصناف الناس يوم القيامة وتفاوتهم فيما يصيبهم من عرق "فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون له حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجاما" أي اختلافهم في مكان العرق منهم بحسب اختلافهم في العمل صلاحًا وفسادًا[٤]، وذلك من الأهوال الهائلة يوم القيامة، هذه الشمس المحرقة القريبة جدًا من الناس والتي تتوزع حرارتها على حسب الأعمال، فمن كان عمله صالحًا كان حرها خفيفًا عليه بحيث لا يفرز من العرق إلا القليل، ومن كان عمله فاسدًا كان إحساسه بالحرارة أشد ألمًا وعرقه أكثر غزارة[٥]. قال ابن رجب الحنبلي: واعلم أن

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٦٢٩

(٢) انظر: هداية المرشدين، علي محفوظ، ص ٢٢٢

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٩٤/١١.

(٤) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٦٢٩

(٥) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم، ص ٢٨٠.

تفاوت الناس يوم القيامة هو بحسب تفاوت أعمالهم[1]، كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾[2]، يعني: ولكل واحد من الفريقين المؤمنين والكافرين"درجات" منازل ومراتب عند الله يوم القيامة، بحسب أعمالهم، فيجازيهم عليها[3]، قال ابن زيد: درجات أهل النار في هذه الآية تذهب سفالا، ودرجات أهل الجنة علوًا[4].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: الخوف والرهبة والاستعداد بالعمل الصالح ليوم القيامة:

إن استحضار الإنسان لأهوال يوم القيامة يورثه الخوف والرهبة، ويحفزه إلى الاستعداد لهذا اليوم بالعمل الصالح ليوم القيامة، ومن ثمَّ فقد ذكر النبي ﷺ في الحديث جانبًا وصورة من صور أهوال يوم القيامة فقال "تدني الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل... الحديث، والخوف المقصود من ذكر أهوال يوم القيامة هو ما يحول بين صاحبه وبين محارم الله عز وجل، قال أبو حفص: الخوف سوط الله، يُقوّم به الشاردين عن بابه، وقال الخوف سراج في القلب به يبصر ما فيه من الخير والشر، وكل أحد إذا خفته هربت منه إلا الله عز وجل، فإنك إذا أخفته هربت إليه[5].

رابعًا- من صفات الداعية: الإشفاق على المدعوين:

يظهر ذلك ضمنيًا في إخبار النبي ﷺ أمته بمشاهد وأهوال يوم القيامة ليكونوا على بصيرة منها، وليأخذوا حذرهم وليعدوا العدة لهذا اليوم بإخلاص التوحيد وإحسان العمل، فذكر أحوال الناس في عرقهم ودنو الشمس منهم، تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق.. الحديث، وقوله: يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض.. الحديث، وإن الباعث على بيانه ﷺ لأهوال يوم القيامة هو الشفقة والخوف على

---

(١) انظر: التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار، ابن رجب الحنبلي، ص ١٨٠

(٢) سورة الأحقاف، آية: ١٩

(٣) معالم التنزيل، البغوي، ٢٥٩/٧

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٦/٨/ ١٩٩

(٥) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢/ ١٣٩، ١٤٩

المدعوين، وإذا غرس هذا الخلق من الشفقة والرحمة في قلب الداعي فإنه يثمر الألفة ومحبة المدعوين له وإقبالهم عليه والامتثال بما يدعوهم إليه ويبلغهم به من كتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ[(١)].

يحمل الداعية على ذلك شفقته على المدعوين ورحمته بهم واقتداؤه برسول الله ﷺ الذي ضرب المثل الأعلى في الشفقة والرحمة بأمته، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[(٢)] أي يعز عليه الشيء الذي يعنت أمته ويشق عليها، حريص على هدايتها ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليها، لذا كانت شريعته ﷺ سهلة سمحة كاملة، يسيرة على من يسرها الله تعالى عليه[(٣)].

---

(١) انظر: موسوعة نضرة النعيم، د. صالح بن حميد ٦/ ٢٣٨٥-٢٣٩٢

(٢) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٤/ ٢٤١.

الحديث رقم (٤٠٣)

٤٠٣- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه: أن رَسُول الله ﷺ، قَالَ: ((**يَعْرَقُ النَّاسُ يَومَ القِيَامَةِ حَتَّى يَذْهَبَ عَرَقُهُمْ فِي الأرضِ سَبْعِينَ ذِراعًا، وَيُلْجِمُهُمْ حَتَّى يَبْلُغَ آذَانَهُمْ**)) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[(١)].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

يذهب عرقهم في الأرض: ينزل ويغوص[(٢)].

ذراعًا: والذراع من الإنسان: من طرف المرفق إلى طرف الإصبع[(٣)].

الشرح الأدبي

الحديث في معنى سابقه يتناول هول الموقف المرتقب جاء في أسلوب خبري مجرد عن المؤكدات، لأنه يقابل به خالي الذهن من الخبر، وقد بدأه بالفعل المضارع الذي يستحضر الصورة، ويلقي في روع المخاطبين كأنهم فيها، واللام في (الناس) للجنس تؤكد هذا الشعور لديهم؛ لأنها تستوعبهم فيه، وذكر اليوم، وإضافته للقيامة يصعِّد هذا الإحساس، وقوله (حَتَّى يَذْهَبَ عَرَقُهُمْ فِي الأرضِ سَبْعِينَ ذِراعاً) بيان للغاية التي وصلها العرق نزولاً في الأرض يصور عن طريق الأثر، وهو حجم العرق حجم المؤثر، وهو هول الموقف، وذكر العدد، وتمييزه يؤكد المعنى، ويُحجِّم الفعل بما يخلع القلوب، وقوله (وَيُلْجِمُهُمْ حَتَّى يَبْلُغَ آذَانَهُمْ) بيان لما وصل إليه العرق صعوداً، ونلاحظ أن أفعال الحديث جاءت في صورة المضارع (يعرق - يذهب - يلجم - يبلغ) وهي تعطي للحدث حيوية، وحركة تناسب اضطراب الناس في الموقف، ورعدة الأجسام التي تصبُّ العرق من

---

(١) أخرجه البخاري ٦٥٣٢ واللفظ له، ومسلم ٢٨٦٣/٦١. أورده المنذري في ترغيبه ٥٢٥٤.

(٢) رياض الصالحين ٢٠٢.

(٣) معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ١٩٠.

هولها صباً، وقوله (يَبْلُغَ آذَانَهُمْ) يؤكد الإلجام لأن موضع الآذان أعلى من الفم، بالإضافة إلى أن بلوغ العرق الآذان يسد مخارجه كلها نكاية به، وجزاء يتساوى مع عمله.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (٤٠٤)

٤٠٤- وعنه، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُول الله ﷺ إذْ سمع وجبة، فَقَالَ: ((**هَلْ تَدْرُونَ مَا هَذَا؟**)) قُلْنَا: الله وَرَسُولُهُ أعْلَمُ. قَالَ: ((**هذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفاً، فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الآنَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَعْرِها فَسَمِعْتُمْ وَجْبَتَهَا**[١])) رواه مسلم[٢].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

الوجْبةُ: صوت السقوط[٣].

خريفًا: هو العام أو السَّنَة[٤].

قعرها: القعر: من كل شيء أجوف: منتهى عُمْقه[٥].

الشرح الأدبي

قول الراوي (كنا) يوحي بالكثرة في شهود الحدث كما يدل على تمام تحققه، والتعبير بالوجَبَة يدل على الهدة، وهي السقطة القوية التي ترج ما حولها كما أنها تدل على السقوط المفاجيء، وقول الرسول ﷺ (هَلْ تَدْرُونَ مَا هَذَا ؟) استفهام بغرض التنبيه، والتشويق، وقولهم (الله وَرَسُولُهُ أعْلَمُ) تفويض، وردٌّ للأمر إلى أهله، وإشارة الرسول ﷺ (هذا) لتمييزه، واستحضاره في عقولهم قبل أن يذكر المسند، والتعبير بالخريف دون السنة؛ لأن الخريف موسم جفاف، ويوحي بالشدة، وهو يتناسب مع ذكر

---

(١) قوله: "فسمعتم وجبتها" هذه الزيادة في رواية مروان الفزاري التي تأتي بعد هذه الرواية، وهي بدون رقم. أوردها الحميدي في جمعه ٣٠٢/٣، رقم ٢٧٠٦ منبهًا عليها، وجمعهما المؤلف في حديث واحد.

(٢) برقم ٢٨٤٤/٣١.

(٣) النهاي في (و ج ب).

(٤) القاموس المحيط، الفيروزآبادي، الفيروزآبادي في (خ ر ف).

(٥) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٧٤٩.

النار، وذكر العدد كناية عن العمق الذي تُطْوى دونه المسافات، ولا تبلغه القياسات، وقوله (فهو يهوي) ذكر الضمير للاختصاص والفعل المضارع دلَّ على الحضور، والظرف (الآن) حدد الزمان، وأكد الحدث، وتكرار الجار، والمجرور (في النار) في الحديث يؤكد الظرفية أي أنه مع طول زمن السقوط لم يخرج عنها، وقوله (حتى انتهى) بيان للغاية، والقعر هو نهاية الشيء من أسفل، والتعبير به للدلالة على العمق مع الإشارة إلى الإظلام كطبيعة قعر أي شيء، والمعنى من بداية الحديث إلى نهايته ترهيب، وتنفير من النار، ينسحب على كل ما يقرب منها.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على مجالسة النبي ﷺ وملازمته.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

ثالثًا: من واجبات المدعو: تفويض العلم لله ولرسوله ﷺ.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: إخبار الرسول ﷺ ببعض الأمور الغيبية مما أطلعه الله تعالى عليها.

خامسًا: من واجبات الدعوة: الخوف والحذر من جهنم.

أولاً- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على مجالسة النبي ﷺ وملازمته:

إن الصحابة رضي الله عنهم كانوا أحرص ما يكونون على مجالسة النبي ﷺ وملازمته، وفي الحديث إشارة إلى ذلك في قول أبي هريرة رضي الله عنه "كنا مع رسول الله ﷺ" يدفعهم إلى ذلك محبتهم الشديدة له ومعرفة قدره وفضله[1] ﷺ بل كان بعضهم يدفعه حبه لرسول الله ﷺ أن يلازمه في أحواله كلها يخدمه ويقوم بحاجته، فعن ربيعة بن كعب الأسلمي قال: ((كُنْتُ أَبِيتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ. فَقَالَ لِي: «سَلْ» فَقُلْتُ: أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ. قَالَ: «أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ؟» قُلْتُ: هُوَ ذَاكَ. قَالَ:

---

(١) انظر: محبة الرسول ﷺ بين الاتباع والابتداع، عبد الرءوف محمد عثمان، ص: ٨٩

«فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ))(١).

وكان حرصَ الصحابة على مجالسة النبي ﷺ وملازمته محبة له وخوفًا من أن يفوتهم شيء من إرشاداته وتوجيهاته، بل كان مَنْ يتعذر عليه مداومة الملازمة يتناوب مع غيره في حضور مجالس رسول الله ﷺ، ومن الأمثلة على ذلك ما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: ((كنتُ أنا وجارٌ لي مِنَ الأنصارِ في بني أُمَيَّةَ بن زيدٍ - وهيَ مِن عوالي المدينةِ- وكنا نَتَناوَبُ النُّزولَ عَلَى رسول الله ﷺ، يَنزِلُ يومًا وأَنزِلُ يومًا، فإذا نَزَلتُ جِئتُه بِخَبَرِ ذلكَ اليومِ مِنَ الوحيِ وغيرِه، وإذا نَزَلَ فَعلَ مِثلَ ذلِكَ...))(٢).

ثانيًا- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

ورد هذا الأسلوب في الحديث في سؤال النبي ﷺ للصحابة، لا للاستفهام، وإنما لشد انتباه وإثارة غريزة حب التعلم والاطلاع على ما خفى، "كنا مع رسول الله ﷺ، إذ سمع وجبه؟ فقال هل تدرون ما هذا؟ قلنا الله ورسوله أعلم، قال هذا حجر رمى به في النار منذ سبعين خريفًا..." وأسلوب السؤال والجواب من الأساليب الدعوية المؤثرة لما فيه من إثارة الداعي من بعض التساؤلات التي تشوّق المدعوين إلى التطلع إلى إجاباتها(٣).

ثالثًا- من آداب المدعو: تفويض العلم لله ولرسوله ﷺ:

إن مما يجب على الإنسان تفويض العلم إلى الله ورسوله وعدم الإفتاء والإجابة بغير علم، والصحابة رضي الله عنهم، قد أوضحوا بصورة عملية ما ينبغي أن يكون في ذلك الأمر فأجابوا رسول الله ﷺ بقولهم "الله ورسوله أعلم" قال ابن علان: وفي ذلك بيان أن الأدب إذا سئل الإنسان عما لا علم له به أن يكل العلم فيه إلى الله سبحانه، ولا يتكلم فيما لا علم له به(٤) وليس في ذلك أدنى عيب في ذلك فإن الله يقول: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي

---

(١) أخرجه مسلم ٤٨٨.

(٢) أخرجه البخاري ٨٩.

(٣) انظر: طرق تدريس التربية الإسلامية، د. هدى علي جواد الشمري ص ٢٢٧.

(٤) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٦٣٠.

عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[١]، [٢]، بل هو من دلائل فقه العالم وإكرامه لنفسه، قال القاسم بن محمد: إن من إكرام المرء لنفسه أن لا يقول إلا ما أحاط به علمه، وقال مالك: من فقه العالم، أن يقول لا أعلم، فإنه عسى أن يهيأ له الخير[٣].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: إخبار الرسول ﷺ ببعض الأمور الغيبية مما أطلعه الله تعالى عليها:

ورد في هذا الحديث من دلائل نبوته ﷺ بيانه ﷺ لمصدر الوجبة وسببها فقال "هذا حجر رمى به في النار" وبيانه ﷺ لقعر جهنم وعمقها الذي يصل سبعين خريفًا، منذ سبعين خريفًا" أي سبعين سنة[٤]، وذلك مما اطلع الله عليه رسوله ﷺ، وذلك ممن جملة معجزاته المعلومة على القطع[٥] قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾[٦]. وذلك كقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾[٧] فهو سبحانه يعلم الغيب والشهادة ولا يطلع أحد من خلقه على شيء من علمه إلا مما أطلع تعالى عليه، ولهذا قال: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ وهذا يعم الرسول الملكي والبشري[٨] ويتلخص مما سبق أن ما وقع من رسول الله ﷺ من الإخبار بالمغيبات فإنما هو بوحي من الله تعالى وهو من إعلام الله عز وجل لرسوله ﷺ للدلالة على ثبوت نبوته وصحة رسالته[٩].

---

(١) سورة يوسف، آية: ٧٦.

(٢) انظر: جامع بيان العلم وفضله، ابن عبدالبر، ٥٣١/١

(٣) الآداب الشرعية، ابن مفلح المقدسي، ٦٥/٢

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٢٣٨

(٥) كتاب الشفا، القاضي عياض، ٣٢٩/١

(٦) سورة الجن، الآيتان: ٢٦-٢٧.

(٧) سورة البقرة، آية: ٢٥٥.

(٨) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢٤٧/٨.

(٩) موسوعة نضرة النعيم، د. صالح بن حميد ٥٤٣/١.

خامسًا- من واجبات المدعو: الخوف والحذر من جهنم:

ذكر الحق تبارك وتعالى أن من صفات عباده المؤمنين خشيتهم وإشفاقهم من عذابه تبارك وتعالى فقال: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾[1] وإن ذكر رسول الله ﷺ لعمق قعر جهنم في الحديث لمن أدعى الأسباب للخوف والحذر من جهنم "هذا حجر رمى به في النار منذ سبعين خريفًا فخوف الله والحذر من عذابه أمر واجب قال تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾[2]، ينبغي أن يحذر منه، ويخاف من وقوعه وحصوله، فحقيقته تقتضي حذر الموفقين إذ هو جدير بذلك[3]، فبالخوف والحذر يَنْكَفُّ الإنسان عن المناهي، كما أن الرجاء يبعث عن الطاعات[4]. فما جاء في الحديث من بيان رسول الله ﷺ لصحابته الوجبة التي سمعوها بأنها صوت حجر رمي به في النار منذ سبعين سنة لم يصل إلى قعرها إلا بعد هذه المدة الطويلة مما يبين مدى عمقها، ودارٌ كهذه سعتها هائلة فإذا كان هذا عمقها فكيف عرضها؟ فليحذر المؤمن وليسر في الطريق المستقيم لينجو من هذا فالأمر جدٌّ ليس بالهزل ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[5][6].

---

(١) سورة الطور، الآيتان: ٢٥-٢٧.

(٢) سورة الإسراء، آية: ٥٧.

(٣) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ١٤١/١٥/٦

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٨٩/٥

(٥) سورة البقرة، آية: ٧٤.

(٦) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم، ص ٢٨٠.

الحديث رقم (٤٠٥)

٤٠٥- وعن عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: **((مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلاَ يَرَى إِلاَّ مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلاَ يَرَى إِلاَّ مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلاَ يَرَى إِلاَّ النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ))** مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[١].

ترجمة الراوي:

عدي بن حاتم: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧٢).

غريب الألفاظ:

تَرْجُمان: الذي ينقل الكلام من لغة إلى أخرى[٢].

أيمن: يمينًا[٣].

أشأم: شِمالاً[٤].

الشرح الأدبي

بناء الرسول ﷺ للحديث على هذا النسق يؤكد رغبته في أن يكون دافع المؤمن لاجتناب الخطأ، والتزام الصراط المستقيم نابعاً من داخله مما يحقق الأمن، والطمأنينة، ويكفي المجتمع تبعات ملاحقته وعقابه، أو تقويمه، ولتحقيق ذلك نقل الرسول ﷺ مشهد العبد -كل عبد وأي عبد شقي- في الموقف العظيم، وصوَّر هواجس نفسه، واضطرابه بعدة أساليب بلاغية حيث بدأ الحديث بأسلوب خبري توجَّه به إلى عمق المخاطب ببراعة جعلته من البداية في قلب الحدث حتى يتحرك به في الزمان والمكان.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٣٩)، ومسلم (١٠١٦/٦٩). أورده المنذري في ترغيبه (١٢٦٤)، وقد تقدم برقم (١٣٩).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ت ر ج م).

(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ي م ن).

(٤) اللسان في (ش أ م).

لذا بدأ بقوله (ما منكم) بكاف الخطاب المتصلة بالجار، وقد بدأ بأسلوب القصر بالنفي والاستثناء في قوله ﷺ (ما منكم من أحد إلا وسيكلمه الله...)، وهو قصر موصوف (من أحد) على صفة (تكليم الله) وهو قصر إفراد -والله أعلم- حيث إن المخاطبين لم يكونوا على اعتقاد بأن حديث الله لكل فردٍ منهم على حدة، وظنوا الشركة في حديث الله لهم، فجاء القصر لكي يقصر كل واحدٍ منهم على التكليم، و(من) في قوله: (من أحد) زائدة للتوكيد وتفيد الاستغراق لجميع المخاطبين حتى يشعر كل فرد من المخاطبين بأنه المعنيُّ بالحديث، وكلمة (أحد) نكرة في سياق النفي أفادت التعميم، وتقديم الجار والمجرور (منكم) يفيد التخصيص، وهو بذلك يغرس في نفوس المخاطبين خصوصية الموقف المهيب الذي يهز الوجدان، ويستلزم تنقّية الأعمال من كل ما من شأنه أن يجعل العبد في موقف اللوم، والخزي بين يدي الله من الخطايا والذنوب.

وقوله: (إلا وسيكلمه) الواو عاطفة على كلام سابق تقديره: إلا سيخاطبه وسيكلمه، وتعبيره بالفعل المضارع (وسيكلمه) يوحي بالقرب لدرجة المضارعية، والسين في الفعل تضبط التوقيت، وتوحي بأنه أمر مستقبلي لكنه جد قريب حتى لا يستبعده أحد، والتعبير بلفظ الجلالة (الله) دون كلمة (رب) أو إله يعطي الفعل بعداً جديداً من الهيبة، والجلال، وشدة الموقف؛ لأن لفظ الجلالة يستدعي صفات الكمال، ونعوت الجلال، كذلك لفظ القيامة المضاف لليوم وما توحي به وتثيره في النفوس من مشاهد مرتبطة بها، وجملة: (ليس بين الله وبينه ترجمان) تستدعي في الخيال جلال الموقف وشدة الحساب، وتأمل تركيز الألفاظ على تعزيز الموقف النفسي بجلال الموقف وشدته حيث عبَّر بالاسم الظاهر (الله) في قوله (ليس بين الله وبينه) دون الضمير، وأيضاً تقديم لفظ الجلالة (الله) في قوله (ليس بين الله...) الذي يعزز هذا الشعور، ويذكّر بحجاب العزة الذي بين الله، وبين خلقه، وقوله: (ليس بين الله، وبينه ترجمان) تتميم: يفيد المبالغة في إزالة الحجب، وتأكيد المعنى حتى لا يظن ظان أن الكلام بواسطة، وهذا ما يؤكد صعوبة الموقف ؛لأن عتاب الله عز وجل وعقابه ومواجهته

بالخطايا أمر عظيم لا يقع فيه إلا هالك بيِّن الهلكة، أو شقي مؤكد الشقاء، الأمر الذي يجعل كل مخاطب يفتش في نفسه ويراجع أعماله، ويحاسب نفسه لما قرَّ في نفسه أنه لن يستطيع إخفاء سوء عمله؛ لأن الله مطلع عليه وهو يتولى حسابه، وتأمل تباطؤ الحركة، وتثاقل الأحداث، وتمطي الزمن بعد أن أزيلت الحجب، ووجد هذا العاصي نفسه موقوفاً بين يدي الله ليس له منقذ، هذا التباطؤ في الحركة، والتمطي في الزمن يحكيه حرف العطف (ثم) في قوله: (ثم ينظر فلا يرى شيئاً) التي تربط بين موقف الكلام مع الله، والحساب، وبين بحث العبد لنفسه عن مخرج، وهي تفيد مع الترتيب تراخياً يشير إلى فترة زمنية قد تطول، أو تقصر بحسب عمل العبد يبحث فيها العبد لنفسه عن مخرج.

والجملة المعطوفة تحكي الحيرة الشديدة والاضطراب يدلك على ذلك الفعل (ينظر) الذي يصوِّر حركة العين في مختلف الاتجاهات، (ثم) يأتي حرف العطف (ثم) مرة أخرى في قوله: (ثم ينظر بين يديه) ليؤكد على أنه أطال النظر بحثاً عن مخرج أمامه فعاد يائساً يبحث في اتجاه آخر بين يديه دون جدوى، ونظر العبد الشقي قدامه، وبين يديه كناية عن صفة الحيرة، والاضطراب التي أحاطت به فراح مشدوهاً في حركات لا إرادية تحكي فزعه، وذهوله.

وتأمل براعة الرسول ﷺ في الربط بالفاء بين الجمل التي تحكي سرعة العقاب، وصفعة العذاب في قوله (فلا يرى) التي تحكي العمى. وقوله: (فتستقبله النار) التي تحكي سرعة الأخذة، وعجلة العقاب، ثم استخدامه لصيغة (تستفعل) لما تدل عليه السين والتاء من مطلق الطلب، وكأنها تبحث عنه وتطلبه، وقوله (فمن استطاع منكم أن يتقي النار ولو بشق تمرة) أسلوب شرط محذوف الجواب تقديره (فليفعل)' وقوله (ولو بشق تمرة) تتميم أفاد المبالغة، إشارة إلى أن العمل الصالح ينفع - مهما قل -، واختيار الرسول ﷺ للإنفاق في افتراضه لاتقاء النار إشارة إلى أهمية التكافل الاجتماعي الذي يؤدي إلى استقرار الأمة، وتعاون أفرادها[1].

(١) انظر: بلاغة الرسول ﷺ في تقويم الأخطاء، د. ناصر راضي الزهري ص ٩٢.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: الشفقة على المدعويين.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: الحث على الصدقات إن قلت كميتها.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: قرب الله من عبده يوم القيامة.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: منزلة الكلمة الطيبة.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الشفقة على المدعويين:

إن رسول الله ﷺ مشفق على أمته وهذا الإشفاق يستدعي نصحهم وبيان ما سيكون من مواقف صعبة يوم القيامة حيث لا ينفع مال ولا بنون ولا ينفعه إلا ما قدم.

لذلك كان على الداعية الشفوق بيان المصير حتى يتهيأ المدعوون لهذا اليوم الرهيب.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: الحث على الصدقات وإن قلت كميتها:

الصدقة نجاة لصاحبها ونجاح في الدنيا والآخرة إذ هي سبب لتكفير الذنوب ﴿ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير﴾[البقرة: ٢١٧] ومن ثم كانت وقاية من النار "فاتقوا النار ولو بشق تمرة".

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: قرب الله من عبده يوم القيامة:

إن يوم القيامة عصيب وحسابه رهيب والمؤمن يعلم ذلك بإخبار النبي ﷺ له. ومن الدافع للنجاة في هذا اليوم الإحساس اليقيني بقرب الرب من عبده وكلامه له بما يليق بجلاله تعالى. وهذا أعظم دافع للخوف والرجاء والعمل لذلك اليوم.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: منزلة الكلمة الطيبة:

للكلمة الطيبة فضل عظيم وبخاصة في مجال الدعوة قال تعالى: "وقولوا للناس حسنا" وقد جاء في رواية مسلم من حديث عدي بن حاتم "اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد فبكلمة طيبة"[١] قال النووي: (فيه أن الكلمة الطيبة سبب للنجاة من النار وهي الكلمة التي فيها تطييب قلب الإنسان إذا كانت مباحة أو طاعة)[٢].

---

(١) كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٠١/٧.

الحديث رقم (٤٠٦)

٤٠٦- وعن أبي ذر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: ((إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ، أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوضِعُ أَرْبَعِ أَصَابعَ إلاَّ وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا للهِ تَعَالَى. والله لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بالنِّساءِ عَلَى الفُرُشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللهِ تَعَالَى)) رواه الترمذيُّ[١]، وَقَالَ: (حديث حسن).

ترجمة الراوي:

أبو ذر الغفاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٦١).

غريب الألفاظ:

أطّت: صوَّتت، والأطيط: صوت الرَّحل والقتب وشبههما، ومعناه: أن كثرة من في السماء من الملائكة العابدين قد أثقلتها حتى أطت[٢].

وحُقَّ: أي ويستحق وينبغي[٣].

لها أن تئط: أي تصوت[٤].

الصُّعدات: الطرقات، ومفردها: صُعْدَة[٥].

تجأرُون: تستغيثون[٦].

---

(١) برقم ٢٣١٢ وزاد في آخره: (لوددتُ أني كنتُ شجرة تعضد)، وقال: حديثٌ حسنٌ غريبٌ. إسناده منقطع، فيه مورق العجلي لم يسمع من أبي ذر، ورواه الحاكم ٥٧٩/٤ من طريق مجاهد، عن أبي ذر موقوفًا مختصرًا. أورده المنذري في ترغيبه ٤٩٤٨.

(٢) رياض الصالحين ٢٠٣، والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (أ ط ط).

(٣) تحفة الأحوذي، المباركفوري ١٨٤٨.

(٤) المرجع السابق ١٨٤٨.

(٥) رياض الصالحين ٢٠٣.

(٦) رياض الصالحين ٢٠٣، اللسان في (ص ع د).

الشرح الأدبي

بدأ الحديث بالتوكيد تربية للمهابة، وتنبيها للمخاطبين لعظم الخبر، وقوله (أَرَى مَا لا تَرَوْنَ) يشير إلى ما اختصه الله به من معارف بصرية، وسمعية، وما اختصه به عن خلقه من الغيبيات، وهذه الجملة تشويق لما بعدها؛ لأنه سيقص عليهم أموراً غابت عنهم، وقوله (أطت السماء) الأطيط، صوت الرحل، والقتب، وشبهها، وهو تصوير بديع بالاستعارة بالكناية حيث شبه ذلك الجرم العظيم الذي لا يعلم حدوده إلا الله بالدابة التي تحمل ما يثقلها فيسمع لها صوت، والجامع عظم الحمل، وشدة الثقل، ورمز إلى المشبه بالأطيط، ...وإذا أردت أن تتذوق جمال التعبير النبوي فتخيل دابة بحجم السماء تئط من ثقل ما تحمل ! ما حجم الحمل الذي يثقلها حتى تئط ؟! وهي تصوير لحجم الزحام مع عظم المساحة مما يقرب للتصور كثرة الملائكة العابدين على ظهرها، وحتى لا يستبعد أحد المعنى، ولا يستغلق على من تأخر فهمه، جاء أسلوب القصر ليزيد الصورة قرباً، ويؤكد المعنى السابق، وينفي وهم المبالغة، قال: (مَا فِيهَا مَوضِعُ أَرْبَع أَصَابعَ إلاَّ وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِداً للهِ تَعَالَى)، وقوله(وملك واضع جبهته) كناية عن العبودية، والذل لله، والهيبة، والخشية منه، وقوله (ساجداً) بعده يؤكد ذلك، وقسم الرسول ﷺ بعد هذا الخبر يرتقي بالقلوب الوجلة قمة الخشية التي تربِّي في النفس إجلال الله، وهيبته على وجه يمنعها عن التردي في معصيته، وقوله (لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أعْلَمُ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً) كناية عن كثرة علمه ﷺ، وقوله (وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بالنِّساءِ عَلَى الفُرُشِ) كناية عن هول ما ينتظر الناس، وقوله (وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأرُونَ إِلَى اللهِ تَعَالَى) كناية عن الفزع، والهلع، والحديث يدور حول تقريب معنى فوق وهم العبقري، ولا يحيط به عقل بشري؛ لأنه مستتر خلف جدار هول غيبي - والله المجير وحده-.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد، والقسم، والترهيب.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل الخوف من الله تعالى.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الحث على الاستغاثة بالله عز وجل.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: إخبار النبي ﷺ عن بعض الأمور الغيبية.

أولاً- من أساليب الدعوة: التوكيد، والقسم، والترهيب:

١- التوكيد: حيث جاء في الحديث في قوله ﷺ: "إني"، وقد أكد النبي ﷺ أنه يرى ما لا يرون من الأحوال والأمور واستخدم أداة التوكيد "إن". هنا لكون هذا الأسلوب مؤثر في النفوس ولكونه منبه للسامع على إحضار قلبه وفهمه لما سيقال له كما أن فيه تثبيت للمعنى في القلب(١).

٢- القسم: ورد في الحديث في قوله ﷺ: "والله لو تعلمون"، ومن استخدامات القسم اقناع المدعو بما يستبعد أو لا يتصور حصوله، فيأتي القسم لإقناع المدعو والبلوغ إلى أعلى درجات اليقين.

وفي الحديث أقسم النبي ﷺ أنهم لو يعلمون ما يعلمه لضحكوا قليلاً ولبكوا كثيرًا من شدة الأمر وهول الحساب والعقاب للعصاة والمذنبين.

٣- الترهيب: حيث جاء في الحديث في قوله ﷺ: "لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرا وما تلذذتم بالنساء على الفرش..."، ولأهمية الترهيب في الدعوة فإنه يجب على الداعية أن يفيد منه وذلك لزجر المدعو عن المعاصي وتخويفه من عذاب الله، ومن صور استعمال القرآن الكريم لأسلوب الترهيب قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾(٢).

---

(١) أساليب الدعوة والتربية، د. زياد العاني، ص ٣٠١.

(٢) سورة الحج، الآيات: ١٩ - ٢١.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل الخوف من الله تعالى:

إن المسلم يجمع في علاقته بربه بين الرغبة والرهبة والخوف والرجاء، وقد جاء في الحديث في قوله ﷺ: (إني أرى ما لا ترون أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع اصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدًا لله تعالى والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا وما تلذذتم بالنساء على الفرش)، وفي هذا إرشاد إلى أهمية الخوف من الله تعالى.

قال المباركفوري: (لو تعلمون من عقاب الله للعصاة وشدة المناقشة يوم الحساب لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا أي بكاء كثيرًا أو زمانًا كثيرًا من خشية الله ترجيحًا للخوف على الرجاء وخوفًا من سوء الخاتمة، وعن الحسن البصري قال: من علم أن الموت مورده، والقيامة موعده، والوقوف بين يدي الله مشهده فحقه أن يطول في الدنيا حزنه)[1].

إن هذا الحديث فيه التخويف والتحذير من السقوط في الفتن، ومن عظمة الله تعالى وشدة انتقامه في الدنيا والآخرة.

قال ابن علان: (واستدل به على فضل السماء على الأرض، وهو المختار عند أصحابنا الشافعية، فهي محل الطاعة ولم يقع عليها عصيان، وامتناع إبليس من السجود كان وهو خارج عنها. ويؤخذ منه فضل مواضع أعمال البر من الأرض على مواضع غيره، وقد أشار إليه إمامنا الشافعي بقوله:

إني نظرت إلى البقاع وجدتها ... تشقى كما تشقى الرجال وتسعد

وفي قوله ﷺ: "قليلاً أولاً وكثيرًا ثانيًا"، إيماء إلى أن المطلوب من العبد أن لا ينتهي به الخوف إلى اليأس والقنوط بل يكون عنده بعض الرجاء فيعمل معه البر ويكون عنده من الخوف ما ينزجر به عن المخالفة، ويكون تارة في مظهر الجمال، وتارة في مظهر الجلال)[2].

---

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري ٢/١٨٤٨.

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٢/٣٠١.

قال ابن الأثير: (الأطيط: صوت الأقتاب وأطيط الإبل: أصواتها وحنينها أي أن كثرة ما فيها من الملائكة قد أثقلها حتى أطت وهذا مثل وإيذان بكثرة الملائكة وإن لم يكن ثمة أطيط وإنما هو كلام تقريب أريد به تقرير عظمة الله تعالى)[١].

قال المباركفوري: (وأما قوله: "لو تعلمون ما أعلم" قال الحافظ: والمراد بالعلم هنا ما يتعلق بعظمة الله وانتقامه ممن يعصيه والأهوال التي تقع عند النزاع والموت وفي القبر ويوم القيامة، ومناسبة كثرة البكاء وقلة الضحك في هذا المقام واضحة والمراد به التخويف)[٢].

قال الطيبي: (قال التوربشتي: المعنى: لخرجتم من منازلكم إلى الجبانة متضرعين إلى الله تعالى، ومن حال المحزون أن يضيق به المنزل، فيطلب الفضاء الخالي لبث الشكوى)[٣].

هذا وقد دلت النصوص الشرعية على فضيلة الخوف من الله تعالى والأمر به، قال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[٤]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾[٥]، وقال جلّ شأنه: ﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾[٦]، ومدح أهل الخوف والخشية فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾[٧].

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثر ٤٠.

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري ١٨٤٨/٢.

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٢٤/١٠.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٧٥.

(٥) سورة البقرة، آية: ٤٠.

(٦) سورة المائدة، آية: ٤٤.

(٧) سورة المؤمنون، الآيات: ٥٧ - ٦١.

قال ابن القيم: (فالخائف هارب من ربه إلى ربه، قال أبو سليمان: ما فارق الخوف قلبا إلا خرب، وقال إبراهيم بن سفيان: إذا سكن الخوف القلوب أحرق مواضع الشهوات منها وطرد الدنيا عنها، والخوف المحمود الصادق: ما حال بين صاحبه وبين محارم الله عز وجل فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط)[١].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: الحث على الاستغاثة بالله عز وجل:

لا ملجأ للمسلم من الله إلا إليه فالمؤمن الصادق مفزعه واستغاثته بالله دائمًا، وقد جاء الحث على الاستغاثة في قوله ﷺ في الحديث: (ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى)، ومما لا يخفى أن المسلم يلجأ ويستغيث بالله في كل أحواله، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[٢]، والله هو الذي ينجي العبد من الكربات قال الله عز جل: ﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾[٣]، والاستغاثة هي "طلب الغوث والغياث، وهو ما يغاث به المضطر ويعان به من طعام أو شراب أو نصر وتأييد أو إخلاص من شدة، وإنقاذ من محنة والاستغاثة من جنس الدعاء وهي لا تكون إلا بالله الذي يجيب المضطر إذا دعاه[٤].

وقد استغاث النبي ﷺ بربه في غزوة بدر فكانت الإعانة والنصرة والظفر والنصر، وقد صور القرآن هذه الاستغاثة في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[٥].

ولقد كان هذا ديدن الأنبياء عليهم السلام دائمًا يلجأون ويستغيثون بالله فلما أتبع فرعونُ موسى عليه السلام جاء على لسان أصحابه قوله تعالى: ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا

---

(١) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢/ ١٤٠.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٨٦.

(٣) سورة الأنعام، آية: ٦٤.

(٤) عقيدة المؤمن، أبو بكر جابر الجزائري، ص ١١٥ - ١١٦.

(٥) سورة الأنفال، آية: ٩.

لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (١).

ولما اشتد الضر بأيوب وزاد عليه المرض جاء على لسانه قوله تعالى: ﴿ مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ ﴾ (٢).

ولما أظلمت الدنيا على يونس عليه السلام في بطن الحوت دعا ربه كما أخبر الله في قوله تعالى: ﴿ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣).

ولما يئس نوح عليه السلام من إيمان قومه بعد ألف سنة إلا خمسين عامًا من الدعوة وهم يسخرون منه ويستهزءون به جاء على لسانه قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴾ (٤).

ولما التقى جنود طالوت وهم قلة برجال جالوت وهم كثرة كان دعاؤهم ما جاء في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ (٥).

فالواجب على الدعاة تذكير الناس بهذه النصوص القرآنية، وحث المدعوين على

---

(١) سورة الشعراء، الآيات: ٦١ - ٦٣.

(٢) سورة الأنبياء، الآيتين: ٨٣ - ٨٤.

(٣) سورة الأنبياء، الآيتان: ٨٧ - ٨٨.

(٤) سورة الشعراء، الآيات: ١١٧ - ١٢٠.

(٥) سورة البقرة، الآيتين: ٢٥٠ - ٢٥١.

الاستغاثة والاستعانة بالله في كل أمر من أمور الحياة.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: إخبار النبي ﷺ عن بعض الأمور الغيبية:

أيد الله نبيه ﷺ بالكثير من الأمور التي تدلل على صدق نبوته ورسالته ومن ذلك إخباره عن الغيب حيث جاء في الحديث: (إني أرى ما لا ترون أطت السماء وحق لها أن تئط)، ولا شك أن هذا من دلائل نبوته ﷺ حيث أخبر عن بعض الأمور الغيبية التي لا تعرف إلا من خلال الوحي الإلهي المعصوم، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[١]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾[٢].

جاء في موسوعة نضرة النعيم: (ومن معجزات رسول الله ﷺ ودلائل نبوته ما اطّلع عليه من الغيوب الماضية والمستقبلية وإخباره عنها، ومن المعلوم المقرر أن علم الغيب مختص بالله تعالى وحده، ومن المعلوم أيضًا أن الأنبياء عليهم السلام لا يعلمون الغيب ولا اطلاع لهم على شيء منه وكما جاءت أدلة على أن الله تبارك وتعالى اختص بمعرفة علم الغيب، وأنه استأثر به دون خلقه فقد جاءت أدلة أخرى تفيد أن الله استثنى من خلقه من ارتضاه من الرسل عليهم السلام فأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحي إليهم وجعله معجزة لهم ودلالة صادقة على نبوتهم، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾[٣]، ونخلص من ذلك أن ما وقع على لسان رسول الله ﷺ من الإخبار بالمغيبات فبوحي من الله وهو من إعلام الله عز وجل لرسوله ﷺ للدلالة على ثبوت نبوته وصحة رسالته)[٤].

---

(١) سورة النجم، الآيتان: ٣ - ٤.

(٢) سورة الجن، الآيتان: ٢٦ - ٢٧.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٧٩.

(٤) موسوعة نضرة النعيم ٥٤٢/١ - ٥٤٣.

الحديث رقم (٤٠٧)

٤٠٧- وعن أَبي برزة -براء ثُمَّ زاي- نَضْلَة بن عبيد الأسلمي ﵁، قَالَ: قَالَ رَسُول اللَّه ﷺ: ((**لا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَومَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أفْنَاهُ؟ وَعَنْ عِلمِهِ فِيمَ فَعَلَ فِيهِ**[١]**؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أيْنَ اكْتَسَبَهُ؟ وَفِيمَ أنْفَقَهُ؟ وَعَنْ جِسمِهِ فِيمَ أبلاهُ؟**)) رواه الترمذيُّ[٢]، وَقالَ: (حديث حسن صحيح).

ترجمة الراوي:

أبو برزة الأسلمي: هو نَضْلة بن عبيد بن الحارث.

أسلم قديمًا، وشهد خيبر، وفتح مكة، وحنينًا مع النبي ﷺ وكان من سكان المدينة ثم تحول إلى البصرة، وهو الذي قتل عبدالعُزَّى بن خطل تحت أستار الكعبة بإذن النبي ﷺ، وكان آدم رَبْعةً، وقد شهد صفين والنهروان مع علي بن أبي طالب ﵁، وشهد قتال الأزارقة مع المهلب بن أبي صفرة، وغزا خرسان.

وقد روى عن النبي ﷺ، وعن أبي بكر الصديق ﵁، وله جُله أحاديث وكان محبًا للإنفاق في سبيل الله. فقد كانت له جَفْنةٌ من ثريد غدْوةً وجنفةٌ عَشِيَّةً جعلها للأرامل واليتامى والمساكين.

وكان قوامًا لليل، يتوضأ، ويوقظ أهله، وكان يقرأ من الستين إلى المائة آية.

وكان مجهارًا للحق، فقد رأى يزيد بن معاوية يومًا وهو يَنْكُتُ ثَغْر الحسين بن علي ﵁ بقضيب في يده بعد أن أُتي برأس الحسين، فقال له: لقد أخذ قضيبك من ثغره مأخذًا ربما رأيت رسول الله ﷺ يَرْشفه، أما إنك يا يزيد تجيء يوم القيامة وابن زياد شفيعك، ويجيء الحسين بن علي، ومحمد ﷺ شفيعه، ثم قام فوَلَّى.

وقد عاب على مروان وابن الزبير والقراء بالبصرة لما وقع من الاختلاف بعد موت يزيد بن معاوية، فقال في قصة ذكرها حاصلها أن الجميع يقاتلون على الدنيا وبلغت

---

(١) (فيه) لا توجدُ عند الترمذي.

(٢) برقم ٢٤١٧. أورده المنذري في ترغيبه ٢١٢.

روايته عن النبي ﷺ ٤٦ حديثًا.

وتوفي بالبصرة وقيل بخراسان سنة ٦٠هـ وقيل سنة ٦٤هـ وقيل ٦٥هـ[١].

الشرح الأدبي

الحديث دعوة للإنسان لكي يَعد نفسه لما سيحاسبه الله عليه مما هو فيه من نعم، وقد بدأ بأسلوب النفي الصريح العام، وصراحته من وجود أداة النفي الداخلة على الفعل المضارع، وأخذ العموم من النكرة التي وقعت في سياق النفي (عبد)، وقوله (لا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَومَ القِيَامَةِ) كناية عن انتقاله إلى الجنة، والتعبير بعدم الزوال تأكيد على عدم المفارقة، ولذلك ذكر القدمين، وبناء الفعل (يُسأل) لما لم يسم فاعله لتمام العلم به، والسؤال: (فِيمَ أفنَاهُ ؟، و فِيمَ فَعَلَ فِيهِ، ومِنْ أيْنَ اكْتَسَبَهُ ؟ وَفيمَ أنْفَقَهُ ؟، وفِيمَ أبلاهُ ؟) استفهام على غير حقيقته؛ لأن الله محيط بكل شيء، وإنما هو للتقرير بغرض إلزامه بالحجة، والسؤال عن العمر، والجسم يعم الجميع، والسؤال عن العلم، لمن حصله، والمال لمن ملكه، وإخبار الرسول ﷺ بهذه الأسئلة رحمة بأمته، وشفقة عليهم حتى يأخذ كل مؤمن حذره.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: المحافظة على النعم واستشعار المسؤولية.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: إثبات البعث والحساب.

---

(١) الطبقات الكبرى، ابن سعد ٢٩٨/٤ و٤٦٦٠٩/٧، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ١٣٢٥-١٣٢٦، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٧٨٣، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود ٣٠٥/٥-٣٠٦، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين ٣٣٦/٧، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٢٢٧/٤-٢٢٨، وسير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ٤٠٢٩/٣، والأعلام، خير الدين الزركلي ٣٣/٨، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك ١٨٩١/٣.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار:

حيث جاء في الحديث: "لا تزول قدما عبد..."، وأسلوب الإخبار يعتمد على سوق الحقائق وبيانها للمدعوين، وقد أخبر النبي ﷺ في هذا الحديث بمسؤولية الإنسان الكاملة عن عمره وعن علمه وعن ماله وعن جسمه.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: المحافظة على النعم واستشعار المسؤولية:

لقد أنعم الله على عباده نعمًا كثيرة ومنها هذه النعم المذكورة في هذا الحديث الذي يذكرنا بيوم الحساب على هذا الزمن الذي عاشه العبد في الحياة الدنيا، هل قام بعبادة الله تعالى الخالق المنعم؟ وهل عمل صالحًا فيثاب؟ ويسأل عن ماله كيف جمعه هل بالحلال أم بالحرام؟ وفي أي شيء صرف هذا المال هل صرفه فيما يرضي الله تعالى أم فيما يغضب الله تعالى؟ وعن جسمه في أي شيء أبلاه هل استخدمه في الطاعات أم في المعاصي؟

إنها سؤالات حتمية لن يفلت منها عبد إلا الذين يدخلون الجنة بغير حساب، هذه السؤالات تحتاج إلى أجوبة سديدة وأعمال رشيدة، فهذا الحديث العظيم يجعل المسلم العاقل محاسبًا لنفسه قبل أن يُحاسب، وأن يبذل قدر استطاعته الأعمال الصالحة، والقيام بما يرضي الله سبحانه.

ولا شك أن إيمانهم وأعمالهم الصالحة هي التي جعلتهم يصلوا إلى هذه المرتبة عند الله تعالى.

قال ابن حجر: (وفي سياق حديث أبي برزة إشارة إلى الخصوص وذلك أنه ليس كل أحد عنده علم يسأل عنه، وكذا المال فهو مخصوص بمن له علم وبمن له مال دون من لا مال له ومن لا علم له، وأما السؤال عن الجسد والعمر فعام)[1].

وقال المباركفوري: (عن عمره: بضمتين ويسكن الميم أي عن مدة أجله. فيما أفناه: أي صرفه. وعن شبابه: أي قوته في وسط عمره. فيما أبلاه: أي ضيعه وفيه تخصيص بعد تعميم وإشارة إلى المسامحة في طرفيه من حال صغره وكبره.

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤١٤/١١.

وقال الطيبي: فإن قلت هذا داخل في الخصلة الأولى فما وجهه؟ قلت: المراد سؤاله عن قوته وزمانه الذي يتمكن منه على أقوى العبادة وعن ماله من أين اكتسبه؟ أي أمن حرام أو حلال؟ وفيما أنفقه؟ أي طاعة أو معصية، وماذا عمل فيما علم؟

قال القاري: لعل العدول عن الأسلوب للتفنن في العبارة المؤدية للمطلوب.

وقال الطيبي: إنما غير السؤال في الخصلة الخامسة حيث لم يقل عن عمله ماذا عمل به؟

لأنها أهم شيء وأولاه، وفيه إيذان بأن العلم مقدمة العمل وهو لا يُعتد به لولا العمل)[1].

ولا شك أن كل هذه الأمور نعم من الله عز وجل فيجب على الإنسان المحافظة عليها بشكر هذه النعم، قال الله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[2]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[4]، والإنسان مسؤول أمام الله عز وجل على هذه النعم واستخدامها في الطاعة، قال تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾[5]، وقال جلّ شأنه: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾[6].

قال السعدي: (هذا الذي تنعمتم به في الدنيا هل قمتم بشكره؟ وأديتم حق الله فيه ولم تستعينوا به على معاصيه، فينعمكم نعيمًا أعلى منه وأفضل أم اغتررتم به ولم تقوموا بشكره، بل ربما استعنتم به على المعاصي فيعاقبكم على ذلك)[7].

---

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري ٨٥/٧.

(٢) سورة إبراهيم، آية: ٧.

(٣) سورة النمل، آية: ٤٠.

(٤) سورة النحل، آية: ٧٨.

(٥) سورة الإسراء، آية: ٣٦.

(٦) سورة التكاثر، آية: ٨.

(٧) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٨٦٣.

وما من شك في أن المعاصي سبب لزوال كثير من نعم الله، قال ابن القيم: (ومن عقوبات الذنوب أنها تزيل النعم وتحل النقم فما زالت عن العبد نعمة إلا بذنب، ولا حلت به نقمة إلا بذنب، ولا رفع بلاء إلا بتوبة، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1]، فأخبر الله تعالى أنه لا يغير نعمته التي أنعم بها على أحد حتى يكون هو الذي يغير ما بنفسه، فيغير طاعة الله بمعصيته، وشكره بكفره، وأسباب رضاه بأسباب سخطه، فإذا غيّر غُيِّر عليه جزاءً وفاقًا وما ربك بظلام للعبيد، فإن غير المعصية بالطاعة غير عليه العقوبة بالعافية، والذل بالعز ولقد أحسن القائل:

إذا كنت في نعمة فارعها ... فإن المعاصي تزيل النعم

وحطها بطاعة رب العباد ... فرب العباد سريع النقم[2]

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: إثبات البعث والحساب:

إن من أصول العقيدة الإسلامية الإيمان بوقوع البعث والحساب وأن الإنسان سوف يعاد ويحاسب بين يدي الله عز وجل وقد جاء في الحديث قوله ﷺ: "لا تزول قدما عبد حتى يسأل"، والبعث والحساب من أمور الغيب التي يجب الإيمان بها، وبأن العبد يسأل يوم القيامة وقد دلت النصوص الشرعية على إثبات البعث والحساب، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾[3]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[4]، قال ابن أبي العز الحنفي: (والقول الذي عليه السلف وجمهور

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٥٣.

(٢) الداء والدواء ص ١١٨ - ١١٩.

(٣) سورة نوح، الآيتان: ١٧ - ١٨.

(٤) سورة التغابن، آية: ٧.

العقلاء أن الأجسام تتقلب من حال إلى حال فتستحيل ترابًا ثم ينشئها الله نشأة أخرى كما استحال في النشأة الأولى، فإنه كان نطفة ثم صار علقة ثم صار مضغة ثم صار عظامًا ولحمًا ثم أنشأه خلقًا سويًا كذلك الإعادة يعيده الله بعد أن يبلى كله إلا عجب الذنب)[١].

إن هذا الحديث يقرر حقيقة البعث وأن العبد يسأل بين يدي الله تعالى: "لقد أخبرنا الله تعالى بأن البعث للدار الآخرة في يوم الجزاء حقيقة مقررة في قضاء الله وقدره، ستوضع موضع التنفيذ إذا جاء أجلها المحدد في علم الله، فالبعث أمر واقع لا محالة ستعود فيه الحياة إلى الأجساد التي رثت وبليت وليس ذلك ببعيد ولا مستغرب على قدرة الله الذي خلق السماوات والأرض وخلقهن أكبر من خلق الناس"[٢]. كما أنه يقرر حقيقة الحساب الذي هو وقوف العباد بين يدي الحق تبارك وتعالى، فعرفهم بأعمالهم التي عملوها، وأقوالهم التي قالوها، وما كانوا عليه في حياتهم الدنيا من إيمان وكفر، واستقامة وانحراف، وطاعة وعصيان، وما يستحقونه على ما قدموه من إثابة وعقوبة، وإيتاء العباد كتبهم بأيمانهم إن كانوا صالحين، وبشمالهم إن كاوا طالحين.

ويشمل الحساب ما يقوله الله لعباده، وما يقولونه له، وما يقيمه عليهم من حجج وبراهين، وشهادة الشهود ووزن للأعمال. والحساب منه العسير، ومنه اليسير، ومنه التكريم، ومنه التوبيخ والتبكيت، ومنه الفضل والصفح، ومتولي ذلك أكرم الأكرمين. اهـ[٣]. قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[٤] وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ

(١) شرح العقيدة الطحاوية ٢/٥٩٨.

(٢) العقيدة الإسلامية وأسسها، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، ص ٦٥١.

(٣) التوحيد وأثره على العبيد ٥١٦، ٥١٧.

(٤) سورة الجاثية، الآيتان: ٢١، ٢٢.

فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[1].

(١) سورة الكهف، آية: ٤٩.

الحديث رقم (٤٠٨)

٤٠٨- وعن أَبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قرأ رَسُول اللَّه ﷺ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾[الزلزلة: ٤] ثُمَّ قَالَ: (أتَدْرونَ مَا أخْبَارها)؟ قالوا: اللَّه وَرَسُولُهُ أعْلَمُ. قَالَ: (فإنَّ أخْبَارَهَا أنْ تَشْهَدَ عَلَى كُلّ عَبْدٍ أَوْ أمَةٍ بما عَمِلَ عَلَى ظَهْرِهَا تَقُولُ: عَملْتَ[1] كَذَا وكَذَا في يَومِ كَذَا وكَذَا فَهذِهِ أخْبَارُهَا) رواه الترمذيُّ[2]، وَقالَ: (حديث حسن صحيح).

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

اعتقاد المؤمن بأن المكان شاهد عليه، أو الزمان، أو الملائكة، أو غيره تجعله يتحرك في الزمان، والمكان في رقابة لا تنفك عنه، وهذا الشعور إذا ما قرَّ في نفسه نقّى أفعاله، وصفّى أقوله، فلم يفعل إلا ما يرضى الله، ولم يقل إلا ما يحبه، وهو ما قرر الرسول ﷺ في أكثر من حديث، ومنها هذا الحديث الذي يقرر شهادة المكان، وقد قرر ذلك خلال تفسيره لقول -الله تعالى - ({ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا) وقد بدأ حديثه بسؤال التنبيه، والتشويق (أتَدْرونَ مَا أخْبَارهَا) ؟، ثم بدأ الإجابة مؤكدة بعدة مؤكدات تفخيماً للخبر، وتنبيهاً إليه، ولفظ (كل) يفيد الشمول، وتنكير كلم (عبد، وأمة) استقصاء لجميع الخلق بالإخبار، والتعبير بالظهر إشارة إلى أنها مسخرة لهم في الدنيا، ولكنها في الآخرة تشهد عليهم، وقوله (عَملْتَ كَذَا وكَذَا) كناية عن

---

(١) لفظ الترمذي في الموضعين: (عمل)، والمثبت لفظ ابن حبان كما في الإحسان ٧٣٦٠ تبع المؤلف فيه المنذري في ترغيبه، حيث عزاه إلى ابن حبان واستدرك عليه المؤلف بذكر الترمذي، واعتمد على لفظ ابن حبان.

(٢) برقم ٢٤٢٩، و ٣٣٥٣ قال في الموضع الأول: هذا حديث حسنٌ غريبٌ، وفي الموضع الثاني: هذا حديث حسن صحيح. إسناده ضعيف، فيه يحيى بن سليمان لين الحديث. أورده المنذري في ترغيبه ٥٢٩١ وعزاه إلى ابن حبان فقط.

الحدث الذي أحدثه الإنسان عليها، وقوله (في يَومِ كَذَا وكَذَا) كناية عن زمان الحدث تأكيداً لتحقق وقوع الفعل، واستقصاءً لأعماله يوماً بيوم بل لحظة بلحظة كل عمل مرتبط بوقته الذي وقع فيه، وقول الرسول ﷺ (فَهذِهِ أخْبَارُهَا) خبر أريد به لازم فائدته، وهو التحذير، والتهديد من مواقعة المعصية عليها.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

ثانيًا: من آداب المدعو: تفويض العلم لله ورسوله.

ثالثًا: من مصادر الدعوة: القرآن الكريم.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: الاستعداد ليوم الحساب.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: شهادة الأرض على العبد.

سادسًا: من مهام الداعية: تعليم المدعوين.

أولاً- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

حيث جاء في الحديث: "أتدرون ما أخبارها؟، فقد سأل النبي ﷺ أصحابه رضي الله عنهم عن أخبار الأرض وأجابوا برد العلم إلى الله ورسوله"، ومما لا شك فيه أن أسلوب السؤال والجواب من أساليب الدعوة التي تحقق الحوار بين الداعية والمدعو، وتعين المدعو على الفهم حيث تكون الإجابة محددة في نقطة واحدة، وعلى الدعاة الإفادة من هذا الأسلوب الدعوي.

ثانيًا- من آداب المدعو: تفويض العلم لله ورسوله:

إن من أهم آداب المدعو أن لا يتقول على الله بغير علم، وأن يفوض العلم إلى الله ورسوله فيما لا علم له به، يتضح هذا مما جاء في الحديث: "قالوا الله ورسوله أعلم"، وهذا يجعل المدعو أن لا يجيب بغير علم، وهذا أدب قرآني علمه الله لنبيه محمد ﷺ، قال الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾[1]، ومن ثم فلا يجوز لأحد أن يتقول على الله بغير علم، قال ابن القيم:

(١) سورة الأحزاب، آية: ٦٣.

(حرم الله سبحانه القول عليه بغير علم في الفتيا والقضاء، وجعله من أعظم المحرمات، بل جعله في المرتبة العليا منها، وبيّن سبحانه أنه لا يجوز للعبد أن يقول هذا حلال وهذا حرام إلا بما علم أن الله سبحانه أحلّه وحرمه)[١].

ولقد كان هذا ديدن السلف الصالح رضي الله عنهم التوقف فيما لا يعلمون، والإتقاء من القول في القرآن والسنة بغير علم، قال ابن مفلح: (نقل الميموني عن أحمد أنه سئل عن حديث فقال: سلوا أصحاب الغريب فإني أخاف أن أتكلم في قول رسول الله ﷺ بالظن فأُخطئ، وعن الأصمعي عن معتمر بن سليمان عن أبيه قال: كان يتقون حديث النبي ﷺ كما يتقون تفسير القرآن، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إذا ترك العالم: لا أدري أصيبت مقاتله، وقال مالك: كان رسول الله ﷺ إمام المسلمين وسيد العالمين يسأل عن الشيء فلا يجيب حتى يأتيه الوحي من السماء. وقال الشعبي: لا أدري نصف العلم، وصح عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: العلم ثلاثة: كتاب ناطق، وسنة ماضية، ولا أدري)[٢].

ثالثًا- من مصادر الدعوة: القرآن الكريم:

تقوم الدعوة على مصادر ثابتة تستمد منها الدعوة أدلتها ومصداقيتها، ومن أهم مصادر الدعوة القرآن الكريم حيث جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾[٣]، ويعتبر القرآن الكريم هو المصدر الأساس في الدعوة وتأتي بعده السنة النبوية الصحيحة، (ومن مصادر الدعوة ووسائلها القرآن الكريم والسنة المطهرة وسيرة السلف الصالح، وفي القرآن الكريم كثير من مخاطبة الله لمحمد ﷺ في توجيهه لأمور الدعوة، وهذه الآيات الكريمة يستفاد منها في أصول الدعوة ووسائلها وأساليبها التي يجب أن يفقهها المسلم كما يتفقه أمور الدين الأخرى)[٤]، والقرآن

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، تحقيق: رائد صبري بن أبي علفة ٣٨/١.

(٢) الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ٦٠/٢ - ٦١.

(٣) سورة الزلزلة، آية: ٤.

(٤) أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان، ص ٤١٣.

الكريم كمصدر من مصادر الدعوة احتوى من جملة ما احتوى علاج كافة المشكلات، (فالقرآن الكريم كتاب متوازن فيما جاء به من هداية، وما عرضه من موضوعات، وما عالجه من مشكلات، يحقق انسجامًا بين الروح والمادة، وبين العقل والقلب وبين الحقوق والواجبات وما إلى ذلك من أوجه التوازن)[١].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: الاستعداد ليوم الحساب:

يعيش الإنسان في الدنيا وقد تغريه وتلهيه، بيد أن المطلوب من المسلم الحقيقي أن يستعد للقاء الله وأن يجعل الدنيا مزرعة الآخرة، يظهر هذا مما جاء في الحديث: "عملت كذا وكذا في يوم كذا"، وما من شك في أن الإنسان يجب أن يستعد ليوم الحساب، قال الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾[٢]، وقال جلّ شأنه: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[٣]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[٤].

(ولذا فإن الحساب يوم القيامة يدور على محتويات الكتب التي يعطاها كل فرد من أفراد الناس في ساحة فصل القضاء، ويقرؤها كل واحد من أهل الموقف، فمن الناس من يحاسب حسابًا يسيرًا ومنهم من يحاسب حسابًا عسيرا، وفي الحساب يستنطق الفرد، ويسأل عن كل صغيرة وكبيرة، ويجري هذا الاستجواب والاستنطاق في جو رهيب للغاية، إذ تقوم فيه الأشهاد، ولا يؤذن للمرء في الاعتذار فيعتذر، ولا تقبل من ظالم معذرة)[٥].

---

(١) المدخل إلى علم الدعوة، د. محمد أبو الفتح البيانوني، ص ١٢٨.

(٢) سورة الأنبياء، آية: ٤٧.

(٣) سورة الكهف، آية: ٤٩.

(٤) سورة الجاثية، آية: ٢٢.

(٥) عقيدة المؤمن، أبو بكر جابر الجزائري، ص ٣٤٥.

خامسًا- من موضوعات الدعوة: شهادة الأرض على العبد:

هذا الحديث العظيم ينبئ الإنسان عن أعماله بأن الأرض ستشهد عليه، وفي ذلك تخويف من اقتراف السيئات، وترغيب بفعل الحسنات، وهو أمر غيبي لا يُعلم إلا بالوحي، وقد أعلم النبي ﷺ بذلك للاستعداد لهذا اليوم العصيب.

قال ابن علان: (الظاهر أن العموم فيه مخصوص بغير ذي الأعمال المكفرة، ويحتمل عموم الخبر لهم ويكون شهادتها بذلك تذكيرًا لمزيد إنعام الله عليه حيث سامحه بسوء عمله ولم يعاقبه عليه بل أثابه من فضله، وقوله: "تقول عمل كذا وكذا في يوم كذا وكذا" تفصيل للشهادة وبيان لكيفيتها)[١].

قال المباركفوري: (أي هي يعني شهادتها أن تقول عمل أي فلان كذا وكذا أي من الطاعة أو المعصية في يوم كذا وكذا أي من شهر كذا أو عام كذا، قال: بهذا أمرها أي بهذا المذكور أمر الله تعالى الأرض، وفي بعض النسخ: فهذا أمرها، وفي بعضها: فهذه أخبارها، وفي بعضها: فهذا أخبارها)[٢].

قال سليم الهلالي في فقه الحديث:

(- خير ما فسر به كتاب الله هو كلام رسول الله.

- الحث على فعل الطاعة والبعد عن المعصية.

- قدرة الله تعالى في إنطاق ما شاء الله من خلقه حيث تشهد الأرض بما حدث عليها من خير أو شر.

- يشهد الله على العبد الكتبة وسمعه وبصره وجلده ويديه ورجليه والأرض كما ثبت في الكتاب والسنة؛ لتقوم الحجة الدامغة على العبد)[٣].

إن هذه الشهادة ليست قاصرة على الأرض فحسب ولكنها تشمل شهادة اللسان والأرجل، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٢/ ٣٠٤.

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري ٧/ ٩٨.

(٣) بهجة الناظرين شرح رياض الصالحين، سليم بن عيد الهلالي ١/ ٤٨٠.

يَعْمَلُونَ﴾[١]، بل تشمل السمع والبصر والجلود، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَـٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[٢]، قال القاسمي: (إذا بالغوا في إنكار المخالفة شهد عليهم سمعهم بأنهم سمعوا الحجج فأعرضوا عنها، وسمعوا الشبه فاتبعوها، وسمعوا الفواحش فاستحسنوها، وشهدت أبصارهم أنهم رأوا الآيات فلم يعتبروها، ورأوا القبائح فاختاروها وتشهد جلودهم بأنهم باشروا المعاصي، فوصل أثرها إلى القوة اللامسة منهم، فيشهد كل عضو وجزء بما كانوا يعملون)[٣].

سادسًا- من مهام الداعية: تعليم المدعوين:

يناط بالداعية الكثير من المهام تجاه المدعوين ومن أبرزها: التعليم للمدعوين، حيث جاء في الحديث: (قرأ رسول الله ﷺ: "يومئذ تحدث أخبارها"، ثم قال: أتدرون ما أخبارها؟)، ويعتبر التعليم من أولى مهام الداعية لأنه هو المسؤول عن تبليغ الحق للناس، والمرشد والمعلم لهم في أمور دينهم، يقول الشيخ محمد الغزالي: "وأول ما يجب على أصحاب الحق -وقد عرفوه- أن يفتحوا عيون الآخرين على ضوئه، وأن يعرفوا الجاهلين به، وأن يجعلوه في الحياة واضحًا كشعاع الشمس، شائعًا كأمواج الهواء، والعالم بحاجة ملحة إلى أن ينشط أهل الإيمان الصحيح لشرح أصوله وإبداء صفحته، ودحض الشبه المثارة حوله، فإن حاجة البشر إلى العلم الكثير كحاجة الأرض المجدبة إلى الغيث الهاطل، ولا بد أن يسخر الدعاة جميع وسائل التعليم والإيقاظ، كي ينصفوا الحق ويوصلوه إلى الخلق)[٤].

---

(١) سورة النور، آية: ٢٤.

(٢) سورة فصلت، آية: ٢٠.

(٣) محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي ٨/١٤/٢٦٣.

(٤) مع الله، دراسات في الدعوة والدعاة، ص ٢٠٢ - ٢٠٣.

الحديث رقم (٤٠٩)

٤٠٩- وعن أَبي سعيد الخدري ﵁، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: ((**كَيْفَ أنْعَمُ! وَصَاحِبُ القَرْنِ قَدِ التَقَمَ القَرْنَ، وَاسْتَمَعَ الإذْنَ مَتَى يُؤمَرُ بالنَّفْخِ فَيَنْفُخُ**)) فَكَأنَّ ذلِكَ ثَقُلَ عَلَى أصْحَابِ رسولِ الله ﷺ فَقَالَ لَهُمْ: ((قُولُوا: حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الوَكِيلُ)) رواه الترمذيُّ[1]، وَقالَ: (حديث حسنٌ).

ترجمة الراوي:

أبو سعيد الخدري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٠).

غريب الألفاظ:

أنعمُ: أفرح وأتنعم[2].

القرنُ: هو الصور الذي قال الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ [3] كذا فسره رسول الله ﷺ[4].

وصاحب القرن: الملك الموكل به وهو إسرافيل[5].

الشرح الأدبي

الحديث من باب الترهيب من أهوال القيامة، يصور مشهداً من أوائل مشاهد القيامة بدأه النبي ﷺ بالاستفهام (كيف أنعم....؟) استبعادا لأن يكون منه تنعم والحالة تلك، وجملة الحال التي ذكرها النبي ﷺ جعلت بينه وبين النعيم أسواراً منيعة بدأها بقوله :(وقد التقم صاحب القرن القرن) وصاحب القرن: كناية عن

---

(١) برقم ٢٤٣١ وزاد في آخره: (وعلى الله توكلنا). وصحّحه ابن حبان الإحسان ٨٢٣. أورده المنذري في ترغيبه ٥٢٣٣.

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري ١٩٠٥.

(٣) سورة ق، آية: ٢٠.

(٤) رياض الصالحين ٢٠٤.

(٥) انظر: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري ١٩٠٥، ١٩٠٦.

موصوف. هو إسرافيل عليه السلام المكلف بالنفخ (والتقام القرن وحنو الجبهة كناية عن صفة التأهب، والاهتمام، وقرب موعد النفخ)، وهي صورة تخيلية تصور الأمر الشديد الذي نحن في عمى عنه، على هذا الوجه الذي تنخلع له النفس فرقاً، صورة مَلَك عظيم التقم قرنه، وحنى جبهته، وقد أذن لله ينتظر أن يؤمر ببداية النهاية، وتصور الألفاظ رسول الله ﷺ ناظراً إليه واجف القلب خوفاً على أمته الغافلة عن هذا الأمر، هذا المنظر، وتلك الصورة كانت سبباً في أن صدَّر الرسول ﷺ حديثه بهذا الاستفهام استبعادا للنعيم، وإشارة إلى، وجوب الحذر، وترك الغفلة قبل مباغتة النفخة، فإذا كان النبي ﷺ أخبر أن الملك متهيئ للنفخ منتظراً الإذن من أكثر من ألف وأربعمائة عام مشيراً لأصحابه بقربه فإنه منّا اليوم (قاب قوسين أو ادني)[1]

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الاستفهام.

ثانيًا: من مهام الداعية: الإخبار عن الحقائق.

ثالثًا: من صفات الداعية: الرحمة والشفقة بالمدعوين.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: الخوف من قيام الساعة.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: الاستعانة بالله والمسارعة إلى العمل الصالح.

أولاً- من أساليب الدعوة: الاستفهام:

ورد الاستفهام في هذا الحديث في قوله ﷺ: "كيف أنعم..."، والاستفهام يعمل على جذب انتباه المدعوين، ولفت أنظارهم، والاستفهام من أساليب القرآن التي تعرض قضايا الرسالة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾[3]، وقوله جلّ

---

(١) انظر: الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في صحيح الترغيب، والترهيب للحافظ المنذري، د: ناصر راضي الزهري، ١٠٤، مخطوطة بكلية اللغة العربية بأسيوط، جامعة الأزهر.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٨.

(٣) سورة نوح، آية: ١٥.

شأنه: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾[١].

ثانيًا- من مهام الداعية: الإخبار عن الحقائق:

إن الداعية مُبلّغ ومبين لحقائق الإسلام لا يكتم منها شيئًا ويتضح هذا من الحديث في قوله ﷺ: "وصاحب القرن، قد التقم القرن واستمع الأذن متى يؤمر بالنفخ"، وإن الداعية هو المبلغ لحقائق القرآن، وبهذا أمر الله رسوله ﷺ في القرآن، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ...﴾[٢]، قال ابن كثير: (يقول تعالى مخاطبًا عبده ورسوله محمدًا ﷺ باسم الرسالة، وآمرًا له بالإبلاغ بجميع ما أرسله الله به، وقد امتثل صلوات الله وسلامه عليه ذلك، وقام به أتم القيام. وقد شهدت له أمته ببلاغ الرسالة، وأداء الأمانة، واستنطقهم بذلك في أعظم المحافل، في خطبته يوم حجة الوداع، وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: "وإن لم تفعل فما بلغت رسالته"، يعني: إن كتمت آية مما أنزل إليك من ربك لم تبلغ رسالته)[٣]. ومما لا شك فيه أن جميع أخبار القرآن الكريم والسنة الصحيحة كلها صادقة لأنها من عند الله سبحانه ولذا فمصداقية الخبر تزيد من اقتناع المدعو، وعلى الدعاة الهداة تبليغ حقائق الدين إلى جميع الناس فتلك مهمتهم ورسالتهم.

ثالثًا- من صفات الداعية: الرحمة والشفقة بالمدعوين:

إن المدعوين في حاجة إلى صدر واسع وقلب رحيم يتحملهم ويعطف عليهم، ولذا كان من أهم صفات الداعية الرحمة والشفقة بالمدعوين حيث جاء في الحديث: "فكأن ذلك ثقل على أصحاب رسول الله ﷺ فقال لهم قولوا: ..."، ويظهر من هذا مدى الرحمة والشفقة بالمدعوين وقد حصر الله الغاية من إرسال نبيه ﷺ في الرحمة، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[٤]، ووصف رسولنا الكريم ﷺ بالرأفة

---

(١) سورة المزمل، آية: ١٧.

(٢) سورة المائدة، آية: ٦٧.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣/١٥٠ - ١٥١.

(٤) سورة الأنبياء، آية: ١٠٧.

والرحمة فقال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[١]، والمتأمل لسيرة الرسول ﷺ يجد أنها كانت برًا ورحمة وشفقة بمن يدعوهم إلى الإسلام: (إن الدين الإسلامي بذاته رحمة من الله بعباده، لأنه يحقق للبشرية سعادتها، ويحفظ للإنسانية كرامتها من خلال التشريع الإلهي الذي جاء به، ومن هنا وجب على الداعية المسلم أن يتأسى برسول الله ﷺ في رحمته بالناس وشفقته عليهم؛ فإن الرحمة هي ترياق الحياة، لا طعم لها بدونها، فكيف بمن يريد هداية الناس وبيان الحق لهم لا بد أن يكون رحيمًا بهم حانيًا عليهم حتى يصل إلى قلوبهم، ومن ثم يقول لهم عن الدين ما يريد لأنهم أحبوه، والرحمة ما دخلت في أمر إلا تركت فيه أثرًا حميدًا أو أمرًا رشيدًا وحبًا وخيرًا لأن النفس البشرية في حاجة إليها في كل حين)[٢].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: الخوف من قيام الساعة:

يستنهض النبي ﷺ الهمم للاستعداد لهذا اليوم يوم القيامة، فإذا كان النبي ﷺ لم يهدأ له باله من هذا المشهد، وهو المشهد القريب حين يأمر الله تعالى الملك الموكل بالنفخ في الصور، فما بالنا نحن قد غفلنا عن هذا النفخ، فإن الملك قد أخذ القرن الذي يشبه البوق، وقد وضعه على فمه ليستجيب لأمر ربه تعالى فورًا إذا أمره بالنفخ، فهو على أهبة الاستعداد، ولقد تهيب الصحابة رضوان الله عليهم الذين سمعوا هذا الحديث وشعروا برهبة الموقف فأشفق عليهم ﷺ، وعلمهم أن يستعينوا بالله تعالى ويذكروه بقولهم "حسبنا الله ونعم الوكيل" قال ابن علان:

(قال المظهري: أي كيف أطيب عيشًا وقد قرب أمر الساعة، وكأنه خاف على أصحابه منها وقد علم أنها لا تقوم إلا على أشرار الناس، أو حثّ لأصحابه على الوصية لمن بعدهم بالتهيؤ لها.

---

(١) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

(٢) قواعد الدعوة الإسلامية، د. حمدان الهجاري، ص ٢٩٤.

(فينفخ) أي عقب الأمر فحينئذ يصعق من في السماوات والأرض: أي يموت (فكأن ذلك) أي المذكور من قرب الساعة، وهي إنما تقوم على الأشرار..

قال ابن رسلان: قوله الصور قرن هو على هيئة البوق دائرة رأسه كعرض السماوات والأرض)[١].

قال المباركفوري: "وفي رواية الترمذي في التفسير "وحنى جبهته وأصغى سمعه ينتظر أن يؤمر أن ينفخ.

والظاهر أن كلاً من الالتقام والإصغاء على الحقيقة وأنه عبادة لصاحبه بل هو مكلف به.

وقال القاضي: (معناه كيف يطيب عيشي وقد قرب أن ينفخ في الصور؟ فكنى عن ذلك بأن صاحب الصور وضع رأس الصور في فمه، وهو مترصد مترقب لأن يؤمر فينفخ فيه، فكأن ذلك ثقل على أصحاب النبي ﷺ، وفي التفسير قال المسلمون فكيف نقول يا رسول الله؟، وقوله: "حسبنا الله": مبتدأ وخبر أي كافينا الله. ونعم الوكيل: فعيل بمعنى المفعول والمخصوص بالمدح محذوف أي نعم الموكول إليه الله)[٢].

هذا وقد أخبر الله سبحانه أن الذين آمنوا مشفقون خائفون من الساعة، قال تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ۝١٧ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾[٣].

قال ابن عاشور: (يطلب الذين لا يؤمنون بالساعة من النبي ﷺ أن يعجل الله بحلول الساعة ليبين صدقه تهكمًا واستهزاء وكناية عن اتخاذهم تأخرها دليلاً على عدم وقوعها وهم آيسون منها، وأما الذين آمنوا فهم مشفقون من أهوالها، وإنما جعل الإشفاق من ذات الساعة لإفادة تعظيم أهوالها حتى كان أحوالها هي ذاتها...)[٤]، وقد

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٢/٣٠٥-٣٠٦.

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري ٧/٩٩.

(٣) سورة الشورى، الآيتان: ١٧ - ١٨.

(٤) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ١٠/٢٥/٧٠.

بيّن الله في القرآن الكريم كيف يكون حال الناس عند النفخ في الصور، قال تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾(١).

خامسًا- من موضوعات الدعوة: الاستعانة بالله والمسارعة إلى العمل الصالح:

إن المسلم تواجهه عقبات في حياته فلا يجد إلا الاستعانة بالله تعالى للنجاة مما هو فيه، وقد جاء في الحديث: "قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل"، ولا شك أن المسلم يرتكن إلى الله عند الشدائد، والله قادر على تخليصه مما هو فيه من الشدة، قال تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ... ﴾(٢)، وقال سبحانه: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾(٣)، وبين سبحانه جزاء من يرتكن إليه، قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾(٤)، وبيّن الرسول الكريم ﷺ أن الاستعانة والالتجاء لا تكون إلا لله.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ الله ﷺ، يَوْمًا فَقَالَ: ((يَا غُلَامُ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ، فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِالله، وَاعْلَمْ أَنَّ الامَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْكَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَضُرُّوكَ الا

---

(١) سورة الزمر، آية: ٦٨.

(٢) سورة النمل، آية: ٦٢.

(٣) سورة الزمر، آية: ٣٦.

(٤) سورة آل عمران، الآيتان: ١٧٣ - ١٧٤.

بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأقْلاَمُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ))[١].

وفي هذا الحديث إشارة إلى من أراد الاستعانة على الطاعة وغيرها من أمور الدنيا والآخرة فإن الله هو المستعان وعليه التكلان يحفظ في الدنيا من الآفات والمكروهات، وفي العقبى من أنواع العقاب والدركات وذلك لأنك استعنت به وراعيت حقه وتحريت رضاه[٢].

(١) أخرجه الترمذي ٢٥١٦، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٠٤٣).

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري ٢/١٩٤٦.

الحديث رقم (٤١٠)

٤١٠- وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: **(مَنْ خَافَ أدْلَجَ، وَمَنْ أدْلَجَ بَلَغَ المَنْزِلَ. ألا إنَّ سِلْعَةَ اللهِ غَالِيَةٌ، ألاَ إنَّ سِلْعَةَ الله الجَنَّةُ)** رواه الترمذيُّ[1]، وَقالَ: (حديث حسن).

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

أدْلَجَ: بإسكان الدال ومعناه: سار من أول الليل. والمراد التشمير في الطاعة[2].

الشرح الأدبي

الحديث جاء في أسلوب خبري غرضه لازم الفائدة حيث إن مضمونه معلوم، وإنما أراد فائدته، وهي الحث على الاجتهاد في الطاعة، والتحذير من القواطع التي تمنعه وقوله (مَنْ خَافَ أدْلَجَ، وَمَنْ أدْلَجَ بَلَغَ المَنْزِلَ) مثل ضربه النبي ﷺ لسالك الآخرة فإن الشيطان على طريقه، والنفس، وأمانيه الكاذبة أعوانه فإن تيقظ في مسيره وأخلص النية في عمله أمن من الشيطان، وكيده، ومن قطع الطريق بأعوانه، كمن خاف أن يدركه العدو فسار من أول الليل حتى بلغ مأمنه، ومن الملاحظ في الحديث كثرة الأفعال التي تدل على الحركة، والتبكير بالعمل كما أن هذه الأفعال جاءت في صورة الماضي الذي تحقق وقوعه، وفي هذا إشارة إلى سرعة إنجاز العمل، وتحقيقه، قبل فوات الوقت ؛فإن لكل وقت في الزمان عملاً خاصاً به، وقضاؤه في وقت غيره مضيع لغيره، كما نلاحظ تكرار أداة التنبيه، التي تنبه إلى فضل ما يليها فالأولى (ألا إنَّ سِلْعَةَ اللهِ غَالِيَةٌ) تنبيه إلى ما أعده لعباده، ونسبة السلع إلى تخصيص، وتشريف،

---

(١) برقم ٢٤٥٠ وقال: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ. قال الحاكم ٣٠٨/٤: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. أورده المنذري في ترغيبه ٤٩٤٢.

(٢) رياض الصالحين ٢٠٤.

والثانية (أَلاَ إنَّ سِلْعَةَ اللهِ الجَنَّةُ) تنبيه بعد تنبيه يشير إلى أهمية الخبر، وهو الجنة، وتكرار السلعة للترغيب في الجد، والاجتهاد لتحصيل ثمنها، وهو الباقيات الصالحات.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التشبيه والتمثيل، والترغيب.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الحث على الاهتمام بالطاعة والخلاص من المعصية.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضيلة الخوف من الله تعالى.

رابعًا: من واجبات الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم.

أولاً- من أساليب الدعوة: التشبيه والتمثيل، والترغيب:

١- **التشبيه والتمثيل:** حيث جاء في الحديث في قوله ﷺ: "من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل"، قال الطيبي: (هذا مثل ضربه النبي ﷺ لسالك الآخرة، فإن الشيطان على طريقه، والنفس وأمانيه الكاذبة أعوانه، فإن تيقظ في سيره وأخلص النية في عمله أمن من الشيطان وكيده، ومن قطع الطريق بأعوانه ثم أرشد إلى أن سلوك طريق الآخرة صعب وتحصيل الآخرة متعسر لا يحصل بأدنى سعي فقال: "ألا أن سلعة الله غالية")[(١)].

ومما لا شك فيه أن أسلوب التشبيه والتمثيل من أساليب الدعوة التي تساعد على تقريب المعنى للمدعوين، واستحضار الصورة في أذهانهم ومن أمثلة استعمال القرآن لهذا الأسلوب قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً﴾[(٢)]، وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[(٣)].

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ١٠/٢٥.

(٢) سورة النور، آية: ٣٩.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١١٧.

٢- الترغيب: حيث جاء في الحديث في قوله ﷺ: "ألا إن سلعة الله الجنة"، قال المباركفوري: (ألا إن سلعة الله المراد به: من متاعه من نعيم الجنة غالية أي رفيعة القدر ألا إن سلعة الله الجنة يعني ثمنها الأعمال الصالحة الباقية)(١)، والترغيب من أساليب الدعوة التي تحفز النفس على الإقدام على الطاعة رغبة في نيل الثواب والأجر من الله سبحانه، ومن أمثلة استخدام القرآن لأسلوب الترغيب قوله تعالى عن أصحاب الجنة: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾(٣)، وقوله جل شأنه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾(٤)، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾(٥).

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: الحث على الاهتمام بالطاعة والخلاص من المعصية:

يظهر هذا من قوله ﷺ في الحديث: "ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة"؛ فالطريق الموصل إلى سلعة الله هو طاعة الله عز وجل، وترك المعاصي، وقد وعد الله بالأجر الكبير لمن يطيعه، قال تعالى: ﴿فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾(٦)، ووعد سبحانه بدخول الجنة بالطاعة قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾(٧)، وجعل سبحانه الطائعين هم الفائزون فقال سبحانه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾(٨).

---

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري ١٩١٧/٢.

(٢) سورة ق، آية: ٣٥.

(٣) سورة يس، آية: ٥٧.

(٤) سورة محمد، آية: ١٢.

(٥) سورة النبأ، آية: ٣١.

(٦) سورة الفتح، آية: ١٦.

(٧) سورة الفتح، آية: ١٧.

(٨) سورة النور، آية: ٥٢.

قال الماوردي: (والواجب على الإنسان أن يستجيب إلى فعل الطاعة، ويكف عن ارتكاب المعصية فهذا أكمل أحوال أهل الدين، وأفضل صفات المتقين، ولهم جزاء العاملين وثواب المطيعين، قال ابن شبرمة: عجبت لمن يحتمي من الطيبات مخافة الداء، كيف لا يحتمي من المعاصي مخافة النار؟ وقال ابن ضبارة: إنا نظرنا فوجدنا الصبر على طاعة الله تعالى، أهونَ من الصبر على عذاب الله، وقيل للفضيل بن عباض: رضي الله عنك، فقال: كيف يرضى عني ولم أرضه وقال بكر بن عبدالله: رحم الله امرأً كان قويًا، فأعمل قوته في طاعة الله أو كان ضعيفًا ينكف عن معصية الله تعالى وقال عبد الأعلى بن عبدالله الشامي:

العمر ينقص والذنوب تزيد ... وتُقَال عَثَرات الفتى فيعودُ

هل يستطيع جحود ذنب واحد ... رجل جوارحه عليه شهود

والمرء يُسأل عن سنيه فيشتهي ... تقليلها وعن الممات يحيدُ)[1]

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضيلة الخوف من الله تعالى:

الخوف من الله تعالى عظيم الفوائد في الدنيا والآخرة، فإن المسلم الذي يخاف الله تعالى ينجو من الوقوع في مغبات المحرمات، ومن الاضطراب النفسي والضعف الروحي الذي يؤثر على حياة المسلم اليومية، ثم في الحياة الآخرة فإنه سيعاقب بعذاب النار، ويُحرم من ملذات الجنة التي أعدها الله تعالى لعباده المؤمنين الذين يخافون عقابه.

فمن خاف الله تعالى سلم من هذه الآفات الدنيوية والنيران الأخروية، وفاز بجنة عرضها السماوات والأرض.

وفي هذا الحديث ترغيب في الجنة، وإن نيلها ليس بالأمر السهل فإنها تحتاج إلى تصديق بالله تعالى وبطاعته سبحانه وتعالى.

وهذا الحديث نصٌ فيه على فضل الخوف، وقد بيّن الإمام ابن قيم الجوزية معناه،

---

(١) أدب الدنيا والدين، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي، تحقيق: مصطفى السقا ١٠٣، ١٠٥.

وأنواعه ومتعلقاته فقال:

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- يقول: الخوف المحمود: ما حجزك عن محارم الله.

وقال صاحب المنازل[١]: (الخوف: هو الانخلاع من طمأنينة الأمن بمطالعة الخبر).

يعني: الخروج عن سكون الأمن باستحضار ما أخبر الله به من الوعد والوعيد.

والخوف من العقوبة: هو الخوف الذي يصح به الإيمان. وهو خوف العامة. وهو يتولد من تصديق الوعيد، وذكر الجناية، ومراقبة العاقبة.

فالخوف مسبوق بالشعور والعلم. فمحال خوف الإنسان مما لا شعور له به. وله متعلقان:

أحدهما: نفس المكروه المحذور وقوعه.

والثاني: السبب والطريق المفضي إليه. فعلى قدر شعوره بإفضاء السبب إلى المخوف، وبقدر المخوف: يكون خوفه. وما نقص من شعوره بأحد هذين نقص من خوفه بحسبه، عمن لم يعتقد أن سبب كذا يفضي إلى محذور كذا: لم يخف من ذلك السبب. ومن اعتقد أنه يفضي إلى مكروه ما، ولم يعرف قدره: لم يخف منه ذلك الخوف. فإذا عرف قدر المخوف، وتيقن إفضاء السبب إليه: حصل له الخوف.

هذا معنى تولده من تصديق الوعيد، وذكر الجناية، ومراقبة العاقبة.

وفي مراقبة العاقبة: زيادة استحضار المخوف، وجعله نصب عينه، بحيث لا ينساه. فإنه -وإن كان عالمًا به- لكن نسيانه وعدم مراقبته يحول بين القلب وبين الخوف. فذلك كان الخوف علامة صحة الإيمان. وترحله من القلب علامة ترحل الإيمان منه. والله أعلم[٢].

ومما يدل على فضيلة الخوف ما جاء في الحديث الذي معنا: "من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل"، فالإنسان الذي يخاف الله عز وجل يقبل على طاعته ويمتنع عن

---

(١) هو أبي إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الهروي صاحب منازل السائرين.

(٢) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٥١٤/١، ٥١٥.

معصيته، وقد وصف الله عباده المؤمنين بقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾(١).

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ دَخَلَ على شاب وهُوَ بالمَوْتِ فقَالَ: ((كَيْفَ تَجِدُكَ؟)) قالَ والله يا رسولَ الله إنّي أرْجُو الله وإنّي أَخَافُ ذُنُوبي. فقَالَ رسولَ الله ﷺ: ((لاَ يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْد فِي مِثْلِ هَذَا المَوْطِنِ إلاّ أَعْطَاهُ الله مَا يَرْجُو، وآمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ))(٢)، وعن هانئ مولى عثمان رضي الله عنه قال: كَانَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ، إذَا وَقَفَ عَلَى قَبْرٍ، يَبْكِي. حَتَّى يَبُلَّ لِحْيَتَهُ. فَقِيلَ لَهُ: تَذْكُرُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ، وَلاَ تَبْكِي. وَتَبْكِي مِنْ هذا؟ قَالَ: إنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((إنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنَازِلِ الآخِرَةِ. فَإِنْ نَجَا مِنْهُ، فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ. وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ، فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ)) قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((مَا رَأَيْتُ مَنْظَرًا قَطُّ إلاَّ وَالْقَبْرُ أَفْظَعُ مِنْهُ))(٣).

قال الغزالي: (إن الرجاء والخوف جناحان بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود، ومطيتان بهما يُقطْع من طرق الآخرة كل عقبة كئود)(٤).

وقال ابن القيم: (والخوف أنفع شيء للقلب وهو فرض على كل أحد، والخوف هو توقع العقوبة على مجاري الأنفاس وقيل: الخوف: اضطراب القلب وحركته من تذكر المخوف، قال أبو حفص: الخوف سوط الله يقوم به الشاردين عن بابه، وقال: الخوف سراج في القلب به يبصر ما فيه من الخير والشر، وكل أحد إذا خفته هربت منه إلا الله عز وجل فإنك إذا خفته هربت إليه)(٥).

وقال ابن رجب الحنبلي: (والقدر الواجب من الخوف ما حمل على أداء الفرائض، واجتناب المحارم، فإن زاد على ذلك بحيث صار باعثًا للنفوس على التشمير في نوافل

---

(١) سورة النور، آية: ٣٧.

(٢) أخرجه الترمذي ٩٨٣، وحسنه الألباني، (صحيح سنن الترمذي ٧٨٥).

(٣) أخرجه الترمذي ٢٨٠٣، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٨٧٨).

(٤) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي ١٤٢/١.

(٥) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ١٣٩/٢.

الطاعات، والانكفاف عن دقائق المكروهات، والتبسط في فضول المباحات كان ذلك فضلاً محمودًا، فإن تزايد على ذلك بأن أورث مرضًا أو موتًا أو همًا لازمًا بحيث يقطع عن السعي في اكتساب الفضائل المطلوبة المحبوبة لله عز وجل لم يكن محمودًا، فإن خوف العقاب ليس مقصودًا لذاته إنما هو سوط يساق به المتواني عن الطاعة إليها، ومن هنا كانت النار من جملة نعم الله على عباده الذين خافوه واتقوه، ولهذا المعنى عدّها الله سبحانه من جملة آلائه على الثقلين. قال سفيان بن عيينة: خلق الله النار رحمة يخوف بها عباده لينتهوا)[1].

رابعًا- من واجبات الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم:

يظهر هذا من سياق الحديث، وتوجيه النبي ﷺ إلى الخوف من الله والعمل بالطاعة واجتناب المعصية، ولا شك أن الداعية من أهم واجباته الحرص على المدعوين وإرشادهم إلى ما فيه الخير لأنه -أي الداعية- هو العالم العارف بالكتاب والسنة فيلزمه دعوة الناس إليهما وقد قال رسول الله ﷺ: ((مَنْ دَلَّ علىٰ خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ))[2].

---

(١) التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار ٣٩ - ٤٠.

(٢) أخرجه مسلم ١٨٩٣.

الحديث رقم (٤١١)

٤١١- وعن عائشة رضي الله عنها ، قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُول الله ﷺ ، يقول: ((**يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً**)) قُلْتُ: يَا رَسُول الله، الرِّجَالُ وَالنِّساءُ جَمِيعًا يَنْظُرُ بَعضُهُمْ إِلَى بَعْض؟! قَالَ: ((**يَا عائِشَةُ، الأمرُ أَشَدُّ مِنْ أنْ يُهِمَّهُمْ ذلِكَ**)).

وفي رواية[١] : ((**الأَمْرُ أهمُّ مِنْ أنْ يَنْظُرَ بَعضُهُمْ إِلَى بَعض**)) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[٢].

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

غريب الألفاظ:

غُرلاً: بضم الغين المعجمة، أي: غير مختونين[٣].

الشرح الأدبي

بناء الفعل (يحشر) لما لم يسم فاعله يذهب بالعقول كل مذهب في تصور الفاعل، وتعريف لفظ (الناس) باللام يدخل الجميع تحت مظلة الخبر، وذكر اليوم، وإضافته للقيامة يوحي بالرهبة المرتبطة بمدلوله، وقوله (حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً) وغرلا أي: غير مختونين جمع أغرل، وذكر هذه الأحوال تنبيه إلى أن الساتر الوحيد يوم القيامة هو لباس التقوى العمل الصالح، وقول عائشة رضي الله عنها : (الرِّجَالُ وَالنِّساءُ جَمِيعاً يَنْظُرُ بَعضُهُمْ إِلَى بَعْض ؟!)استفهام أم المؤمنين رضي الله عنها يحمل مع التحقيق، والتثبيت تعجباً يعكس حياء جماً نسيت معه أن الموقف موقف الهول المذهل، والموقف العصيب الذي يذهل كل مرضعة عما أرضعت، ونداء الرسول ﷺ نداء تلطف، وتودد، وقوله (الأمرُ أشَدُّ مِنْ أنْ يُهِمَّهُمْ ذلِكَ) التعبير بأفعل التفضيل إشارة إلى ما فيه من أهوال، ومواقف تشغل الإنسان عن التفكير فيمن حوله.

---

(١) عند مسلم.

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٢٧) واللفظ الأول له، ومسلم (٢٨٥٩/٥٦) واللفظ الأخير له. أورده المنذري في ترغيبه (٥٢٤٢).

(٣) رياض الصالحين ٢٠٤.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: بيان صفة الحشر.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: بيان أهوال يوم القيامة.

رابعًا: من واجبات المدعو: السؤال عما خفي عليه.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار:

حيث جاء في الحديث "يحشر الناس"، لقد أخبر النبي ﷺ صفة وهيئة الناس في الحشر يوم القيامة، ولا شك أن أسلوب الإخبار إعلام بحقائق الإسلام الحنيف، (إن الداعي إلى الله خليفة الله في أرضه، وخليفة رسوله ﷺ، وخليفة كتابه في تبليغ شرائعه، وفي بيان هديه وسنته وفي بيان عقائده وأحكامه، وأخلاقه الكريمة وعظاته البالغة وأسرار التشريع)[1].

ومن خلال الإخبار تقوم حجة الله على عباده بتبليغهم وإخبارهم بالأوامر والنواهي، وتعريفهم بحقائق الدين.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: بيان صفة الحشر:

إن من المواقف الصعبة على الإنسان عندما يحشر للحساب بين يدي الله سبحانه وقد بيّن النبي ﷺ في الحديث صفة الناس عند الحشر فمما جاء في الحديث: "يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً"، قال النووي: (والمعنى: يحشر الناس كما خلقوا لا شيء معهم ولا يفقد منهم شيء حتى الغرلة تكون معهم)[2].

إنها موعظة راعدة في هذا الحديث ألا وهي الوقوف بين يدي الله يوم المحشر إنه يوم عصيب إذ تُجمع الخلائق كلها على صعيد واحد كما خلقهم الله تعالى حفاة عراة غير مختونين، الكل مشغول بهموم نفسه هموم كالجبال في ثقلها تجعل المرء لا يفكر بشيء

---

(١) هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة، على محفوظ ص ١٦.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٦٦٤.

آخر غير نفسه، حتى أنه يذهل عن رؤية الآخرين، لأن عقله مشغول بنفسه وهموم ما جنى.

وفي هذا الحديث الترهيب والترغيب من هذا المشهد للاستعداد له بما يرضي الله تعالى وتقواه سبحانه.

وهذا الحديث يُفصِّل ويبيِّن الإجمال في قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾[1]، ففي هذه الآية الإجمال في قوله كما بدأنا، وفي الحديث بيان لذلك إذ وصف الناس في الحشر والبعث حفاة عراة غير مختونين وهكذا بداية خلق الإنسان.

وهذه الأحاديث كلها ترغب في الخوف من الله، وما قبل هذا الباب ببابين أورد باب محبة الله تعالى ثم تلاها هذا الباب باب الرجاء، ليكون العبد ما بين المحبة والخوف والرجاء، وفي هذه الأمور الثلاثة تمام وكمال توحيد العبودية.

قال ابن قيم الجوزية:

لولا التعلق بالرجاء تقطعت نفس المحب تحسرًا وتمزقًا

وكذاك لولا برده بحرارة الـ أكباد ذابت بالحجاب تحرقًا

وعلى حسب المحبة وقوتها يكون الرجاء. فكل محب راجٍ خائف بالضرورة فهو أرجى ما يكون لحبيبه أحب ما يكون إليه. وكذلك خوفه. فإنه يخاف سقوطه من عينه، وطرد محبوبه له وإبعاده، واحتجابه عنه. فخوفه أشد خوف. ورجاؤه ذاتي للمحبة. فإنه يرجوه قبل لقائه والوصول إليه. فإذا لقيه ووصل إليه اشتد الرجاء له، لما يحصل له به من حياة روحه. ونعيم قلبه من ألطاف محبوبه، وبره وإقباله عليه، ونظره إليه بعين الرضى، وتأهيله في محبته، وغير ذلك مما لا حياة للمحب، ولا نعيم ولا فوز إلا بوصوله إليه من محبوبه. فرجاؤه أعظم رجاء، وأجله وأتمه.

فتأمل هذا الموضوع حق التأمل يطلعك على أسرار عظيمة من أسرار العبودية والمحبة. فكل محبة فهي مصحوبة بالخوف والرجاء. وعلى قدر تمكنها من قلب المحب

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ١٠٤.

يشتد خوفه ورجاؤه، لكن خوف المحب لا يصحبه وحشة. بخلاف خوف المسيء، ورجاء المحب لا يصحبه علة، بخلاف رجاء الأجير. وأين رجاء المحب من رجاء الأجير؟ وبينهما كما بين حاليهما[(١)].

وقال ابن حجر: (يحشر الناس عراة فإن الملابس في الدنيا أموال ولا مال في الآخرة مما كان في الدنيا، ولأن الذي يقي النفس مما تكره في الآخرة ثواب بحسن عملها أو رحمة مبتدأة من الله، وأما ملابس الدنيا فلا تغني عنها شيئًا قاله الحليمي، ويحشرون غرلاً: قال ابن عبدالبر: يحشر الآدمي عاريًا ولكل من الأعضاء ما كان له يوم ولد فمن قطع منه شيء يرد حتى الأقلف ويحشر الناس حفاة أيضًا)[(٢)].

ومصداق هذه الصورة والهيئة التي يحشر عليها الناس، قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[(٣)]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾[(٤)]، وقوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾[(٥)]، وقوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾[(٦)]، وقوله: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾[(٧)]، ولإذلال الكافر فإنه يحشر على وجهه حيث جاء في الحديث أن رجلاً قال: يا رسول الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة: قال ﷺ: ((أَلَيْسَ الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَىٰ رِجْلَيْهِ فِي الدُّنْيَا، قَادِرًا عَلَىٰ أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟))[(٨)]، وأما عن صفة أرض المحشر فقد جاء

---

(١) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢/٤٢-٤٣.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١/٣٩١.

(٣) سورة الأنعام، آية: ٩٤.

(٤) سورة مريم، الآيتان: ٨٥، ٨٦.

(٥) سورة الأعراف، آية: ٢٩.

(٦) سورة الأنبياء، آية: ١٠٤.

(٧) سورة الكهف، آية: ٤٨.

(٨) أخرجه مسلم ٢٨٠٦.

في الحديث أن الرسول ﷺ قال: ((يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ، عَفْرَاءَ، كَقُرْصَةِ النَّقِيِّ، لَيْسَ فِيهَا عَلَمٌ لأَحَدٍ))[1]، قال النووي: (قوله: "عفراء" أي: بيضاء إلى حمرة كقرصة النقي أي مثل الدقيق النقى وقوله ليس فيها عَلَم لأحد، أي: ليس بها علامة سكنى أو بناء ولا أثر)[2].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: بيان أهوال يوم القيامة:

يتضح هذا من قول النبي ﷺ في الحديث: (يا عائشة الأمر أشد من أن يهمهم ذلك)، وهذا يدل على شدة أهوال يوم القيامة، (إن الحشر عبارة عن جمع الخلائق بعد بعثهم أحياء في ساحة واحدة تدعى عرصات القيامة وذلك لفصل القضاء وهو الحكم فيما بينهم من أجل مجازاتهم، وتدني الشمس في ذلك اليوم من رؤوس الخلائق حتى تكون قريبة منهم جدًا فتشتد الحرارة في الموقف، ويعرق الناس لذلك حتى يذهب العرق سبعين ذراعًا)[3]، وقد وصف الرسول الكريم ﷺ شدة هذا اليوم فعن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((تُدْنَى الشَّمْسُ ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مِنَ الْخَلْقِ ، حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ)). قَالَ: ((فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدَرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ. فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبَيْهِ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حَقْوَيْهِ. وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِلْجَامًا)). قَالَ وَأَشَارَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ بِيَدِهِ إِلَى فِيهِ[4].

ولا يخفى أن تذكر أهوال يوم القيامة يولد في داخل الإنسان الخوف من الله والانقياد لأمره، "إن ذكر صفة الحشر وما فيه من أهوال جسام من ازدحام الخلائق اختلاط الأنفاس وعرى الأجسام وكثرة العرق ودنو الشمس من الخلائق والعرض على العزيز الجبار وذكر النار وصفتها المفزعة وحال أهل النار فيها هذه الأمور إذا تذكرها المسلم في هذا اليوم فإنه يشفق من عذاب الله ويخافه ويرجوه أن ينجيه من تلك الأهوال

(١) أخرجه مسلم ٢٧٩٠.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٦٣٩.

(٣) التوحيد وأثره على العبيد، خميس السعيد محمد، ص ٥١٥.

(٤) أخرجه مسلم ٢٨٦٤.

الشداد العظام"[١].

رابعًا- من واجبات المدعو: السؤال عما خفي عليه:

المسلم بحاجة مستمرة إلى أن يسأل عن أمور دينه وعن الأمور التي تظهر في حياته، ويحتاج إلى معرفة هدي الإسلام فيها، لذا كان المسلم بحاجة إلى أن يسأل عما خفي عليه، يظهر هذا من قول عائشة رضي الله عنها: "يا رسول الله الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟"، والمدعو مطالب أن يسأل عندما يخفى عليه أي أمر وبهذا أمر الله في القرآن، قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٢].

قال السعدي: (وهذه الآية وإن كان سببها خاصًا بالسؤال عن حالة الرسل المتقدمين من أهل الذكر وهم أهل العلم فإنها عامة في كل مسألة من مسائل الدين أصوله وفروعه إذا لم يكن عند الإنسان علم منها، أن يسأل من يعلمها ففيه الأمر بالتعلم والسؤال لأهل العلم، ولم يؤمر بسؤالهم إلا لأنه يجب عليهم التعليم والإجابة عما علموه وفي تخصيص السؤال بأهل الذكر والعلم نهي عن سؤال المعروف بالجهل وعدم العلم، ونهي له أن يتصدى لذلك)[٣]. وأمر الله حتى بالسؤال عنه سبحانه فقال: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾[٤]، ومن ثم أصبح من أهم واجبات المدعو السؤال عن الأمور الخافية عليه.

---

(١) التوحيد وأثره على العبيد، خميس السعيد محمد، ص ٥٧٤.

(٢) سورة الأنبياء، آية: ٧.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٤٦٨.

(٤) سورة الفرقان، آية: ٥٩.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

إن الخوف من الله يدفع إلى تقواه، وإن الشعور بالعرض عليه يحول دون معاصيه، وإن صفات الكمال القائمة بذات الله تحول دون الإقدام على معصية الله، إن الإقدام على المعصية ناتج غفلة أو ضعف الرائي أو مصلح مشركة بين الجاني والمشاهد، والحق سوى ذلك بالكلية، فالحق لا تأخذه سنة ولا نوم "إن الله كان عليكم رقيبا"، وأما المراقبة الإلهية فنصوص القرآن بحقها تبلغ حداً في الكثرة في الوصف بالبصر بعد الوصف بالسمع أو على سبيل الاستقلال.

ومع هذا فعفو الله واسع وكرم الله عميم، فقد جعل اتقاء النار أمراً سهلاً ميسراً، وأشار إلى أن قليل المعروف يؤدي إلى الجنة ويقي من جهنم. ومن المضامين التربوية في هذا الباب ما يلي:

أولاً- التربية والتنشئة على الخوف من الله عز وجل:

التربية على الخوف من الله تعالى من الأساليب التربوية التي يقوم عليها الإسلام، مما يسهم في صياغة شخصية المؤمن وتربيته على خشية الله تعالى وطاعته والحذر من مخالفة أوامره سبحانه: يظهر ذلك من قول النبي ﷺ: «إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لرجل ...»، وقوله: «منهم من تأخذه النار إلى كعبه ...»، وقال: «يقوم الناس لرب العالمين ...»، وقوله: «تدني الشمس يوم القيامة...»، وقوله ﷺ: «كيف أنعم وصاحب القرنِ ...».

فهذه أساليب تربوية تحذر من الوقوع في المعاصي حتى يحذر المؤمن أن يكون من أهل النار، إن التخويف من الأساليب التربوية المؤثرة في تربية النفوس للبعد عن المعاصي التي تكون سبباً في دخول النار، وحلول غضب الله، وعليه فإن الخوف المحمود الصادق ما حال بين صاحبه وبين محارم الله عز وجل ولا يتجاوز ذلك[1].

---

(١) انظر: التدين والصحة النفسية، د. صالح بن إبراهيم عبداللطيف، ص٢٢١، ٣٠٥، أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي، ص ٣٣٩.

والخوف من الله تعالى سمة المؤمنين وآية المتقين ودين العارفين، خوف الله تعالى في الدنيا طريق للأمن في الآخرة، وسبب للسعادة في الدارين، ودليل على كمال الإيمان وحسن الإسلام وصفاء القلب، وطهارة النفس. وإذا سكن الخوف في القلب أحرق موضع الشهوات منه وطرد بهرج الدنيا عنه وهو سوط الله يقوم به الشاردين عن بابه ويرد به الآبقين إلى رحابه، فهذه هي القلوب الممتلئة بخوف الله، المعظمة بخشية الله، والخوف شجرة طيبة إذا ثبت أصلها في القلب، ويرق الفؤاد، وتزكو النفس، وتجود العين، لأنه إذا خاف المرء ربه أخاف الله منه كل شيء، وإذا لم يخف ربه أخافه من كل شيء، والخوف من الله، مانع للذنب، عاصم من الخطأ.

وإمام الخائفين وقدوة المتقين هو خاتم الأنبياء والمرسلين كان دائماً مايردد أما والله إني لأتقاكم لله، وأخشاكم له[1].

ثانياً: من أهداف التربية الإسلامية: الحث على الأعمال الصالحة والمداومة عليها:

تعمل التربية الإسلامية على تحقيق جملة من الأهداف في حياة المسلم، لعل من أبرزها الحث على الأعمال الصالحة والمداومة عليها، لحاجة المسلم إلى التردد بالعمل الصالح والمداومة عليه، لأنه لا يدري متى يأتيه الموت، وعلى أي حال يدركه، لذا فإن التربية الإسلامية، ترمي إلى تنشئة وتربية المسلم على حب الأعمال الصالحة، التي تكون سبباً في رضوان الله تعالى، وقد كان النبي ﷺ حريصاً على حث أصحابه رضي الله عنهم على ذلك، ومن الشواهد من أحاديث الباب قوله ﷺ: «فَوَالَّذِي لاَ إِلهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّىٰ يَكُونُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلاَّ ذِرَاعٌ. فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ. فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ ...».

في هذا الحديث توجيه تربوي للمسلم للاستمرار على الأعمال الصالحة ولزومها لما في ذلك من الأثر الكبير في تقوية العلاقة مع الله وحسن الصلة به سبحانه واجتناب المنهيات على الدوام، ولاشك أن هذا النوع من التربية يجعل الإنسان موصولاً بالله تعالى

(١) الله: أهل الثناء والمجد ٦٤.

وينمي جوانب الخير في حياة الناس، ولفعل الأعمال الصالحة دور في صلاح المجتمع لما فيها من التربية المباشرة على مداومة الأعمال الصالحة، وذلك لأن التربية الإسلامية تهدف إلى تنمية شاملة[١].

والمنهج الإسلامي يوجه الإنسان الوجهة الصحيحة، وذلك: بحثه على فعل الخيرات والمسابقة إليها باستمرار دون أن يكون هناك تباطؤ أو كسل، وقد جعل الله المبادرة إلى فعل الخيرات أحد العناصر الرئيسية للفوز برضاه والعلاج في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[٢]. وهدف الإسلام من الحث على المداومة على أعمال الخير هو قهر نوازع الشر، ولأننا نجاهد في هذه الحياة للتزود ليوم القيامة كان لزاماً علينا أن نسارع إلى الخيرات[٣].

ثالثا: التربية بالترهيب:

لاشك أن الإنسان يحرص على ما يحقق له السعادة ويسعى إلى تحصيل أسبابها، وفي المقابل يحاول أن ينأى بنفسه عن كل ما ينغص عليه حياته، وقد حرص النبي ﷺ على تربية أصحابه من خلال الترهيب لما له آثار تربوية عميقة في النفوس لأنه يثير عند الإنسان عامل الخوف.

وهذا العامل في الواقع يوجه الإنسان، ويعمل على تحديد أهدافه وسلوكه، وعلى قدر ما يخاف يكون التأثير في السلوك والتوجه، ومن الشواهد التربوية في أحاديث الباب ما ورد في قوله ﷺ: «مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ»، وقوله ﷺ: عن الأرض عندما قرأ: ﴿يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا﴾[٤]. أتدرون ما أخبارها؟.... إن أخبارها أن

---

(١) انظر: أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، ص٢٧٧.

(٢) سورة الحج، آية: ٧٧.

(٣) الشخصية، د. ناصر التركي، ص٣٦٢.

(٤) سورة الزلزلة، آية: ٤.

تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها تقول: عملت كذا...

فهذا شاهد تربوي للتحذير من الأهوال، مما يبعث على الخوف من فعل المعاصي، والرسول ﷺ في هذه الأساليب يوجه الإنسان، ويرشده إلى السلوك الذي تصلح به حياته اعتماداً على الترهيب كأسلوب تربوي لتصحيح مسار الإنسان وزجره عن كثير من السلوكيات الخاطئة(١).

إن العلاقة بين العمل والجزاء في الآخرة تعد من أهم ما تميز به الإسلام على سائر الأديان، ويعد ذلك من أبرز الأساليب التربوية التي بمثابة الدوافع الإيجابية التي تدفع الإنسان إلى فعل الخيرات، والبعد عن المنكرات وتنمي لديه الرغبة في نيل رضوان الله تعالى في الآخرة. ومن الشواهد على ذلك قوله ﷺ: «لاَ تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمْرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ، وَعن عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ فِيه...».

ففي هذا الحديث لون من ألوان التربية الإسلامية التي تعمق في نفس الإنسان الفهم الواعي للصلة بين عمله، وبين جزائه في الآخرة.

لقد بيّن الرسول ﷺ أن الإيمان باليوم الآخر يمثل الوازع الداخلي والضابط لسلوك الإنسان في الحياة الدنيا، ولذلك أكد رسول الله ﷺ على أن سلوك الإنسان وتصرفه في حياته هو الذي يحدد ويربي الإنسان المسلم على قوة الصلة بين العمل والآخرة(٢).

إن مسألة استشعار الصلة بين العمل والجزاء في الآخرة تنمي في نفس المسلم المراقبة والمحاسبة والمعاتبة والمراجعة الدائمة لكافة تصرفاته وسلوكياته فيسأل نفسه ماذا أردت بهذا الفعل؟ هل ابتغيت به مرضاة الله، أم إشباع هوى النفس؟ وهكذا يكون المسلم في يقظة ومراجعة مستمرة لأنه يطمع في مرضاة الله تعالى.

---

(١) انظر: وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، عبدالعزيز الجليل، ٥٦/٣، أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، ص٢٢٢، ٢٥٠.

(٢) انظر: فلسفة التربية الإسلامية في الحديث الشريف، د. عبدالجواد سيد بكر، ص١٦٤. أصول التربية الإسلامية للحازمي، ص٢٩٢.

من أهداف التربية الإسلامية، التربية على المسؤولية، لأن فيها التزاماً وارتضاء لمجموعة القيم والمبادئ والتعاليم التي جعلها اله منهاجاً للحياة، ومن الشواهد على ذلك في باب الخوف. قوله ﷺ: «لاَ تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمْرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ، وَعَن عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ فِيه ...».

فهذا شاهد تربوي يبين مدى المسؤولية في الإسلام، وأن الإنسان محاسب ومسؤول يوم القيامة عن عمله، وعمره، وماله، وجسمه، والإسلام لم يخل أحداً من المكلفين من المسؤولية فهو يعتبر كل إنسان مسؤولاً مسؤولية كاملة عن نفسه، وعما ينتج عنه من أفعال، سواء كان بالنسبة إلى نفسه أو الآخرين، ويجني ثمارها إن أحسن ويلحقه عقابها إن أساء[1]. لذلك قال الله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[2].

إن شعور الفرد بهذه المسؤولية يدفعه للعمل بدون توان ولا ملل ويراعى في هذه المسؤولية هل حفظ الأمانة كما ينبغي أم ضيّع وفرّط، وإن أولى الناس بالمحاسبة والمراقبة نفسه التي بين جنبيه فيراجعها الفينة بعد الأخرى، ويسألها قبل أن تسأل، فكل فرد في المجتمع المسلم له رعية يرعاها بغض النظر عن موقعه فيه في القمة أو في القاع[3].

من أبرز ما تميزت به التربية الإسلامية أنها تربية وقائية تقوم على وقاية الإنسان من كل ما يورده المهالك في الدنيا والآخرة، وهذا منهج عظيم تميزت به التربية الإسلامية حيث لم تنتظر لحظات وقوع الإنسان في المعاصي والذنوب بل عمدت إلى وقايته وحمايته من كل ما يؤدي به إلى الضرر، وهذه التربية الوقائية، قدمها رسول الله ﷺ على هيئة نصائح، بينها رسول الله ﷺ ويتضح ذلك من أحاديث الباب في قوله ﷺ: «...

---

(١) أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد العاني، ص٩٩، الشخصية ومنهج الإسلام في بنائها ورعايتها، ص٣٤.

(٢) سورة المؤمنون، آية: ١١٥.

(٣) التربية الذاتية، د. هشام علي أحمد، ص٥٨.

فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»، وقوله: «مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ»، فهذه توجيهات نبوية وقائية تحذر من الوقوع في النار وأهوال يوم القيامة.

"وهذه الوقاية جاءت على شكل تحذير وتحصين للفرد فكرياً وسلوكياً من بعض الأمور السلبية المستقبلية أو الامتناع عن فعل ما من شأنه أن يقضي إلى مفسدة أكبر منه، والإسلام استخدم أسلوب الوقاية للفرد المسلم والأسرة والمجتمع من خلال تحذيرات الرسول ﷺ من بعض السلوكيات الخاطئة التي تؤدي بالفرد إلى الهلاك، والتربية الوقائية تعد جرعة إن أخذت ستقي الإنسان المسلم من الأخطار المتوقعة والهلاك المحقق"[(١)].

إن من أساليب التربية الإسلامية التنشئة بالسؤال والجواب، ومن الشواهد على ذلك في حديث الباب، قوله ﷺ: «هَلْ تَدْرُونَ مَا هذَا؟» قَالَ: قُلْنَا: اللّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «هذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفاً. فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الآنَ، حَتَّىٰ انْتَهَىٰ إِلَىٰ قَعْرِهَا فسمعتم وجبتها».

فهذا توجيه نبوي تربوي ظهر منه السؤال والجواب كأداة تعليمية فيه إثارة المعلم للاهتمام والانتباه قبل البيان لأن هذا أدعى إلى الفهم، والرسول ﷺ استخدم هذا الأسلوب، وذلك لإعداد الصحابة إعداداً صحيحاً لأن الاستفهام يتطلب جواباً يحتاج إلى تفكير، وهذا ما يحمل المخاطب إلى توجيه اهتمامه لما يلقي إليه لكي يجيب عليه[(٢)].

ويعد أسلوب السؤال والجواب من أهم الأساليب التربوية لأن السؤال من أحد أركان الفهم والإقناع، والجواب يعد من أحد أركان هذا الأسلوب، وهذا الأسلوب لا يستغني عنه الإنسان الذي منحه الله القدرة على النطق والتفكير، لأن الإنسان معارفه محدودة، ولن يحيط بكل شيء ومن عرف أشياء غابت عنه أشياء أخرى كثيرة، ولذلك تراه يبحث عن إجابات لما يحصل، ولأهميته حرص الصحابة عليه، ومن عود نفسه على السؤال زادت ثقته وشعر بالطمأنينة والارتياح لمعرفة الإجابة[(٣)].

---

(١) أساليب الدعوة والتربية، د. زياد العاني. ص٢٥٦.

(٢) الأولاد وتربيتهم في ضوء الإسلام، محمد بن مقبل، ص٥٨.

(٣) التربية الذاتية من الكتاب والسنة، د. هشام علي أحمد، ص١٢٤.

إن من أهداف التربية الإسلامية، الجد في الأمور، ولقد اعتبرت التربية الإسلامية ذلك من أولوياتها وصفة ملازمة لبرامجها التربوية، ومن الشواهد على ذلك في أحاديث الباب قوله ﷺ: «... لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً ...».

فهذا توجيه نبوي ربيّ فيه الصحابة على الجد في الأمور، وأنه لا نجاح في تحقيق الهدف دون استحضار واستصحاب الجدية في الأمور، لأن التربية الجادة طريق الأنبياء والعلماء من بعدهم، والأنبياء قدوة الناس، والجدية هي الأصل الأصيل في هذه الحياة، فلا ينجح في الحياة ولا يثمر ولا يحقق أهدافه إلا من وطن نفسه ورباها على الجد في الأمور والسعي الحثيث لإدراك معاليها مع التأكيد على أصالة التوكل على الله في كافة الأمور، فالمسلم يتوكل على الله أولاً ثم يبذل الأسباب الجادة بعد ذلك.

"والرجل الجاد هو صاحب الهدف الذي يسري في أعماقه وروحه فهمه وجهده متوجة إلى هذا الدين، إنه الرجل صاحب العبادة الحقة لله سبحانه وتعالى، ظاهراً، وباطناً، مخلصاً مخبتاً راجياً خائفاً، كثيرَ الذكر والصلاة والصيام والتلاوة، فهذا هو الرجل الجاد في نفسه القادر على اتخاذ القرار الحاسم في الوقت المناسب إنه الرجل الشجاع غير الهياب"(١).

من أسس التربية الإسلامية التربية العقدية الصحيحة، ومن مهام وأهداف التربية العقدية التأكيد على الإيمان بالغيبيات وترسيخ هذا الإيمان؛ لأن الإيمان بالغيبيات أصل عظيم من أصول العقيدة الإسلامية يضمن سلامة مسيرة المؤمن في حياته، وذلك لأن ترسيخ هذا الإيمان في النفس يكون بمثابة السياج القوي الذي يحمي الإنسان من الانحراف لإيمانه بوجود الجنة والنار، وأنه لابد من الحساب والجزاء والمصير إما إلى الجنة وإما إلى النار والعياذ بالله(٢).

ومن شواهد التربية العقدية من أحاديث هذا الباب على ذلك. حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ إذا سمع وجبةً فقال: «هَلْ تَدْرُونَ مَا هذَا؟» قَالَ: قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «هذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفاً. فَهُوَ يَهْوِي

---

(١) انظر: التربية الجادة ضرورة، محمد بن عبدالله الدويش، ص١٢.

(٢) روح الدين الإسلامي، عفيف عبدالفتاح طبارة، ص١١٦.

فِي النَّارِ الآنَ، حَتَّىٰ انْتَهَىٰ إِلَىٰ قَعْرِهَا». فهذا توجيه نبوي ظهر منه تأكيد النبي ﷺ على أحوال الدار الآخرة، وذلك لأنها من أصول العقيدة الإسلامية. "وذلك لأن العقيدة أساس يجب الوقوف فيه على ما ينبغي على المسلم اعتقاده وضبط سلوكه به في إطار التربية الإسلامية من الناحية النظرية والعملية، والإيمان بالدار الآخرة ركن من أركان العقيدة التي يجب التصديق به وأن يقف عند حدود بيان الله عز وجل لها فيثبت ما أثبته الله تعالى وينفي ما نفاه، مع ضرورة العلم بأن الإيمان ينتقض إذا أنكر المرء معلوماً من الدين بالضرورة -كالدار الآخرة- أو أتى بشيء مكفر حتى لو أمن بالأركان الأخرى"[1].

وردت في أحاديث الباب عدة أساليب تربوية، يستفاد في مجال التعليم والتربية، منها ما يلي:

أ-التلقين والموعظة الحسنة والخطبة كما في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: خطبنا رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط، فقال: "لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا" فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم ولهم خنين.

ومما لا شك فيه أن نفس الإنسان تتأثر بما يلقى من كلام، لذا كان الوعظ والتلقين من الأمور التي تصل إلى نفس المتعلم وتحرك وجدانه، وقد استخدم النبي ﷺ الموعظة والخطابة في مواقف متكررة لقوة أثرها وشدة تأثيرها.

ب-الإلقاء: كحديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا: "إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة ..." الحديث. والإلقاء يكون بالعرض الشفهي للمعلومات على المتعلمين ويُمَكّن الإلقاءُ المعلمين من عرض أكبر قدر من المعلومات في أقصر وقت ممكن على أكبر عدد من الطلاب.

ج-التربية بالمواقف، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: "كنا مع رسول الله ﷺ إذ سمع وجبةً [أي صوت سقطة] فقال: هل تدرون ما هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم..." الحديث.

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. أمين أبو لاوي، ص٨٠.

ولقد استخدم النبي ﷺ المواقف المختلفة لتربية أصحابه الكرام وغرس القيم النبيلة وإبعاد القيم غير الطيبة، وتمتاز التربية بالمواقف والأحداث بأنها تحدث في النفس أثرًا كبيرًا من خلال التجربة العملية والممارسة.

د-توجيه الأسئلة كما في الحديث السابق: "هل تدرون ما هذا؟" وتوجيه الأسئلة يفيد في قياس مدى إدراك المتعلمين لبعض المعلومات والمعارف المرتبطة بالدرس.

هـ-المناقشة والحوار، كما في حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعًا: "يحشر الناس يوم القيامة حفاةً عراةً غُرْلا" قلت: يا رسول الله الرجال والنساء جميعًا ينظر بعضهم إلى بعض" قال: "يا عائشة الأمر أشد من أن يهمهم ذلك" والمناقشة والحوار من الأساليب التي تفعل دور المتعلم في العملية التعليمية وتدفع الملل عن المتعلمين.

❁ ❁ ❁

٥١- باب الرجاء

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[الزمر: ٥٣]، وَقالَ تَعالَى: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾[سبأ: ١٧]، وَقالَ تَعالَى: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾[طه: ٤٨]، وَقالَ تَعالَى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ﴾[الأعراف: ١٥٦].

الحديث رقم (٤١٢)

٤١٢- وعن عبادة بن الصَّامتِ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: **((مَنْ شَهِدَ أنَّ لا إلـهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأنَّ مُحَمداً عَبْدهُ ورَسُولُهُ، وَأنَّ عِيسى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ ألْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ ورُوحٌ مِنْهُ، وَأنَّ الجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ، أدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ))** مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[1].

وفي رواية لمسلم[2]: **((مَنْ شَهِدَ أنْ لا إلَهَ إلاَّ اللهُ وأنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، حَرَّمَ اللهُ عَلَيهِ النَّارَ))**.

ترجمة الراوي:

عبادة بن الصامت: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٨٦).

الشرح الأدبي

جاء الحديث في أسلوب الشرط الذي يعرض الجزاء مرتبطاً بالفعل، ويترك العاقل ليختار مصيره، فيكون حرَّ الاختيار بعد ظهور العاقبة، وفي هذا رعاية لمصلحته ببيان سبيل الخير، ورعاية لحريته حتى يرجع إلى عقله، ويحكمه، فيهديه إلى الصواب، أو يحيد عن طريق الحق فتلزمه الحجة، وقوله: (مَنْ شَهِدَ أنَّ لا إلـهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ

(١) أخرجه البخاري ٣٤٣٥ واللفظ له، ومسلم ٢٨/٤٦. أورده المنذري في ترغيبه ٢٢٥١.

(٢) أخرجه برقم ٢٩/٤٧. أوردها المنذري في ترغيبه ٢٢٥١.

لَهُ...) من اسم موصول متضمن معنى الشرط، وشهد فعل الشرط، مع ما عطف عليها، وقوله (وَأَنَّ عِيسى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ) تعريض بالنصارى، ودعوة لهم للإسلام، والإضافات المتكررة في العبارة للتشريف، والنص على العبودية، وتقديمها على الرسالة في قوله: (وَأَنَّ عِيسى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ) نفياً للألوهية التي ادعاها النصارى لعيسى عليه السلام وقوله: (وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ) كناية عن ولادته دون أب، والتعبير بالإلقاء يشير إلى مسافة قطعها الملك ليبلغها، وتكرار المسند في قوله (وَأَنَّ الجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ) إيذاناً باستقلال الحكم في كل جملة منهما بمعنى أنه لابد، وأن يؤمن بكل واحدة منهما، وتوكيد الجملة بعدة مؤكدات لتضمنها دعوة غير المسلمين، وهم بين منكرين، وشاكين، وقوله (أَدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ) جواب الشرط والجواب محقق من جهة صياغته المضارعية، ومن جهة نسبته لله - تعالى-، وقوله (عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ) تتميم بلاغي أفاد بقاء عمله الصالح، وأنه يجزى به.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الشرط.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل الشهادتين.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل عيسى عليه السلام.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: الإيمان بالجنة والنار.

خامسًا: من صفات الداعية: التبشير.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: فضل الرجاء.

أولاً- من أساليب الدعوة: الشرط:

جاء الشرط في الحديث في قوله صلى الله عليه وسلم: "من شهد أن لا إله إلا الله ..."، ومما لا شك فيه أن أسلوب الشرط من الأساليب التي تعمل على شدّ انتباه المدعو إلى معرفة الجواب، كما أن أسلوب الشرط يبين مدى ارتباط الجزاء بالعمل من خلال الارتباط بين الشرط وجوابه، ومن استعمال القرآن لأسلوب الشرط قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ

ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴾[١]، وقوله جلّ شأنه: ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[٣].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل الشهادتين:

إن الدخول في الإسلام يكون بالشهادتين وهذا يدل على فضل هذه الكلمة، وقد ورد في الحديث في قوله ﷺ: "من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله"، وشهادة التوحيد هي أولى مطلوبات الإسلام، قال تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[٤]، وهي أحد دعائم الإسلام الخمسة: فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ((بُنِيَ الإسلامُ على خَمْسٍ: شَهادَةِ أَنْ لا إلهَ إلاّ اللّهُ، وَأَنَّ محمدًا رسولُ اللّهِ....))[٥]، وأمر الله رسله بالمقاتلة عليها فعن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: ((أُمِرْتُ أَنْ أُقاتِلَ الناسَ حتَّى يَشْهَدوا أَنْ لا إلهَ إلاّ اللّهُ وأنَّ محمدًا رسولُ اللّهِ، ويُقِيموا الصلاةَ، ويُؤْتوا الزَّكاةَ. فإذا فَعَلوا ذلكَ عَصَموا مِنِّي دِماءَهُم وأموالَهُم إلاّ بحَقِّ الإسلام، وحسابُهم عَلَى اللّه))[٦].

ومن قالها بإخلاص نال الشفاعة فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((أَسعدُ الناسِ بشفاعتي يومَ القيامةِ من قال لا إلهَ إلا اللّهُ خالِصًا مِن قَلبِه، أو نفسِه))[٧].

---

(١) سورة الحج، آية: ١٥.

(٢) سورة النساء، آية: ١٢٣.

(٣) سورة النحل، آية: ٩٧.

(٤) سورة محمد، آية: ١٩.

(٥) أخرجه البخاري ٨، ومسلم ١٦.

(٦) أخرجه البخاري ٢٥، ومسلم ٢٢.

(٧) أخرجه البخاري ٩٩.

قال ابن القيم رحمه الله: (وكلمة التوحيد هي الكلمة الطيبة، وهي شهادة أن لا إله إلا الله وهي تثمر جميع الأعمال الصالحة الظاهرة والباطنة فكل عمل صالح مرضي لله ثمرة هذه الكلمة، ولا تزال هذه الشعيرة تثمر الأعمال الصالحة كل وقت، بحسب ثباتها في القلب، وقيامه بحقوقها، ومراعاتها حق رعايتها فكلمة التوحيد أصلها ثابت راسخ في قلب كل مؤمن، وفروعها متصلة بالسماء، وهي مخرجة لثمرتها كل وقت)[1].

وقال حافظ بن أحمد حكمي: (وهذه الشهادة -كلمة التوحيد- هي سبيل الفوز بدخول الجنة والنجاة من النار، ولا سعادة في الدارين إلا عن طريقها فهي الكلمة التي أرسل الله بها رسله وأنزل بها كتبه، ولأجلها خلقت الدنيا والآخرة والجنة والنار، وفي شأنها تكون الشقاوة والسعادة، وبها تؤخذ الكتب باليمين أو الشمال، ويثقل الميزان أو يخف وبها النجاة من النار بعد الورود، وبعدم التزامها البقاء في النار، وبها أخذ الله الميثاق وعليها الجزاء والمحاسبة، وعنها السؤال يوم التلاق. وهي أصل الدين وأساسه ورأس أمره وساق شجرته وعمود فسطاطه وبقية أركان الدين وفرائضه متفرعة عنها متشعبة منها مكملات لها مقيّدة بالتزام معناها والعمل بمقتضاها)[2].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل عيسى عليه السلام:

إن نبي الله عيسى عليه السلام من أولي العزم من الرسل وهو كلمة الله وروح منه وهذا يدل على فضله عليه السلام حيث جاء في الحديث: "وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه"، قال النووي: (وسمى عيسى عليه السلام كلمة لأنه كان بكلمة "كن" فحسب من غير أب بخلاف غيره من بني آدم، قال الهروي: سمي كلمة؛ لأنه كان عن الكلمة فسمي بها كما يقال للمطر رحمة وقوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾[3]، أي: رحمة، وقال ابن عرفة: أي: ليس من أب إنما نفخ في أمه الروح وقال غيره: وروح منه،

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، تحقيق: رائد صبري بن أبي علفة ١٧٢/١ - ١٧٣.

(٢) معارج القبول ٥٠٩/٢ - ٥١٠.

(٣) سورة النساء، آية: ١٧١.

أي: مخلوقة من عنده وعلى هذا يكون إضافتها إليه إضافة تشريف كناقة الله، وبيت الله)[١].

وقال ابن حجر: (وفي ذكر عيسى عليه السلام تعريض بالنصارى وإيذان بأن إيمانهم مع قولهم بالتثليث شرك محض، وكذا قوله "عبده"، وفي ذكر "رسوله" تعريض باليهود في إنكارهم رسالته وقذفه بما هو منزه عنه وكذا أمه وفي قوله "وابن أمته"، تشريف له وقوله "وكلمته"، إشارة إلى أنه حجة الله على عباده أبدعه من غير أب وأنطقه في غير أوانه وأحيا الموتى على يده)[٢].

وعيسى عليه السلام من أولي العزم من الرسل، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾[٣].

وقد أيد الله عز وجل نبيه عيسى عليه السلام بالمعجزات لإثبات رسالته، "ولما أنكر عيسى عليه السلام على رجال الدين انغماسهم في الشهوات أجمعوا أمرهم على مناوأته وتكذيبه ولإحراجه طالبوه بما يؤيد رسالته فأيده الله بالمعجزات الباهرة وهي: صنع من الطين شكل طير ثم نفخ فيه فكان طيرًا بإذن الله، مسح على الأكمه -وهو من ولد أعمى- فعاد الأعمى بصيرًا بإذن الله، مسح على الأبرص فشفاه بإذن الله، أحيا الموتى بإذن الله "بالنداء أو اللمس"، أنبأ الناس بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم وهذا ما ذكره الله على لسان عيسى عليه السلام قال الله تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[٤]، هذا بالإضافة إلى معجزة المائدة من السماء التي طلبها

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٠٩.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦/٥٤٧.

(٣) سورة الأحزاب، آية: ٧.

(٤) سورة آل عمران، آية: ٤٩.

الحواريون فيتثبتوا من صدق رسالته، فدعا عيسى عليه السلام ربه فأنزل عليه المائدة التي طلبوها ولا شك أن هذا يدل على فضل نبي الله عيسى عليه السلام"(١).

رابعًا- من موضوعات الدعوة: الإيمان بالجنة والنار:

إن من ثوابت العقيدة الإسلامية الإيمان بأن الجنة حق والنار حق، حيث جاء في الحديث: "والجنة حق والنار حق"، والإيمان بالجنة والنار من أصول العقيدة الصحيحة، "لقد اتفق أهل العلم على أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن ودلت على هذا نصوص الكتاب الكريم ومن ذلك قوله تعالى عن الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾(٢)، وقوله سبحانه: ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾(٣)، وقوله تعالى عن النار: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾(٤)، وقوله: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾(٥))(٦).

وقد تواترت نصوص القرآن والسنة في بيان نعيم الجنة وعذاب النار، (ونعيم الجنة منه ما هو مادي حسي ومنه ما هو روحي معنوي هذا مفهوم القرآن الكريم ومن نعيم الجنة المادي أنهار الجنة وأشجار الجنة وثمارها وطعام الجنة وشرابها وثياب الجنة وحللها ومساكن الجنة وغرفها ونساء وحور الجنة ومن نعيم الجنة الروحي: لقاء الله تعالى، ورؤية الله تعالى، ورضوان الله تعالى وفي المقابل ذكر الله في القرآن العذاب الحسي لأهل النار وطعامهم وشرابهم والعياذ بالله)(٧).

ومما لا شك فيه أن الإيمان باليوم الآخر وما فيه من جنة ونار له أثر فاعل في نفس المؤمن، وفي توجيه سلوكه في الحياة، (ولو اجتمعت معاني الإيمان باليوم الآخر في حس

---

(١) مع الأنبياء في القرآن الكريم، عفيف عبدالفتاح طبارة، ص ٣٣١ - ٣٣٢

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٣٣.

(٣) سورة الحديد، آية: ٢١.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٣١.

(٥) سورة النبأ، الآيتان: ٢١ - ٢٢.

(٦) شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي ٦١٤/٢.

(٧) روح الدين الإسلامي، عفيف عبدالفتاح طبارة، ص ١٢٧.

المسلم، وصار لها ذاكرًا على الدوام، واستشعرها بقلبه، لأصبح من أولياء الله فعلاً لأن هذه العقائد الجلية توقظ المؤمن من سباته وتجعله في حذر دائم من عواقب هذا اليوم فإذا ما سولت له نفسه ارتكاب محذور تذكر الموت والقبر والحشر والميزان والصراط والنار والوقوف بين يدي الجبار، فيتولد عنده حينئذ خوف يحمله على اجتناب المحارم جميعها، ويجتهد في الطاعة حتى يكون من السعداء عند الموت وفي القبر وفي الحشر وعند الميزان والصراط والمرور عليه ولحظة الوقوف بين يدي الحليم الغفار فالإيمان باليوم الآخر هو الدافع إلى اجتناب المحارم وإتيان الطاعات وهو دستور إصلاح للأفراد والجماعات والأمم والشعوب المسلمة)[١].

خامسًا- من صفات الداعية: التبشير:

إن النفس تحب التبشير وتكره التنفير، وتأنس الترغيب وتخاف من الترهيب ولذا كان من صفات الداعية الناجح التبشير حيث جاء في الحديث: "إلا أدخل الجنة"، والداعية من ألزم صفاته أن يكون مبشرًا لا منفرًا، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾[٢].

قال الطاهر بن عاشور: (والمبشر: المخبر بالبشرى والبشارة وهي الحادث المسر لمن يخبر به والوعد بالعطية والنبي ﷺ مبشر لأهل الإيمان والمطيعين بمراتب فوزهم، وقد تضمن هذا الوصف ما اشتملت عليه الشريعة من الدعاء إلى الخير من الأوامر وهو قسم الامتثال من قسمي التقوى، فإن التقوى امتثال المأمورات واجتناب المنهيات، والمأمورات متضمنة المصالح فهي مقتضية بشارة فاعليها بحسن الحال في العاجل والآجل وقدمت البشارة على النذارة؛ لأن النبي ﷺ غلب عليه التبشير؛ لأنه رحمة للعالمين، ولكثرة عدد المؤمنين في أمته)[٣]، وقال جلّ شأنه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[٤]، وأمر رسول الله ﷺ

---

(١) التوحيد وأثره على العبيد، خميس السعيد محمد، ص ٥٢٥.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٤٥.

(٣) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ٥٣/٢٢/٩.

(٤) سورة الأحزاب، آية: ٤٧.

بالتبشير فعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ: ((يَسِّروا ولا تُعَسِّروا، وبَشِّروا ولا تُنَفِّروا))(١)، والداعية الذي يكون من صفاته التبشير فإن الناس تستمع لموعظته، وتستجيب لقوله.

سادسًا- من موضوعات الدعوة: فضل الرجاء:

يؤخذ ذلك من عموم الحديث والمسلم دائمًا يستصحب رجاءه في الله دائمًا، قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾(٢)، وقال سبحانه عن أهل الطاعة: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾(٣)، وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت فقال: ((كَيْفَ تَجِدُكَ؟ قالَ: والله يا رسولَ الله إنِّي أرجُو الله وإنِّي أَخَافُ ذُنُوبِي. فقَالَ رسولَ الله ﷺ: ((لاَ يَجْتَمِعَانِ في قَلْبِ عَبْد في مِثْلِ هَذَا المَوْطِنِ إلاَّ أَعْطَاهُ الله مَا يَرْجُو، وآمَنَهُ مِمَّا يَخافُ))(٤).

ومن الرجاء حسن الظن بالله، وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((يَقُولُ اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي. وَأَنَا مَعَهُ حيث يَذْكُرُنِي))(٥)، وعن جابر رضي الله عنه أنه قال: سمعت النبي ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول: ((لاَ يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إلاَّ وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللّهِ الظَّنَّ))(٦).

قال ابن القيم: (ومن فوائد الرجاء أن فيه إظهار العبودية والفاقة والحاجة إلى ما يرجوه من ربه ويستشرفه من إحسانه، وأنه لا يستغني عن فضله وإحسانه طرفة عين، ومن فوائده أنه سبحانه يحب من عباده أن يؤملوه ويرجوه ويسألوه من فضله لأن الملك الجواد أجود من سئل وأوسع من أعطى، وأحب ما إلى الجواد أن يرجى ويؤمل ويسأل. والسائل راجٍ وطالب فمن لم يرج الله يغضب الله عليه، والرجاء حادٍ يحدو بالعبد في

---

(١) أخرجه البخاري ٦٩ واللفظ له، ومسلم ١٧٣٤.

(٢) سورة الزمر، آية: ٩.

(٣) سورة السجدة، آية: ١٦.

(٤) أخرجه الترمذي ٩٨٣، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٧٨٥).

(٥) أخرجه البخاري ٧٤٠٥، ومسلم ٢٦٧٥.

(٦) أخرجه مسلم ٢٨٧٧.

سيره إلى الله، ويطيب له المسير، ويحثه عليه، ويبعثه على ملازمته فلولا الرجاء لما سار أحد فإن الخوف وحده لا يحرك العبد، وإنما يحركه الحب ويزعجه الخوف ويحدوه الرجاء، والرجاء يطرح العبد على عتبة المحبة فإنه كلما اشتد رجاؤه وحصل له ما يرجوه ازداد حبًا لله تعالى وشكرًا له ورضى به وعنه. والرجاء يبعث العبد على أعلى المقامات وهو مقام الشكر الذي هو خلاصة العبودية، فإنه إذا حصل له مرجوه كان أدعى لشكره)[(١)].

والرجاء له علامة وقد سئل أحمد بن عاصم: ما علامة الرجاء في العبد؟ فقال: أن يكون إذا أحاط به الإحسان أُلهم الشكر، راجيًا لتمام النعمة من الله عليه في الدنيا والآخرة وتمام عفوه عنه في الآخرة[(٢)].

قال ابن علان: (والمراد من صدّق بمضمون ذلك وأذعن له بجنانه ونطق به بلسانه، فإن منع من النطق مانع من خرس أو معاجلة منية فهو مؤمن، وإلا فنقل المصنف في أول شرح مسلم الإجماع على كفره. وعورض بأن الغزالي نقل فيه عن جمع أنه مؤمن عاص بترك النطق بها..

ويعني من مات على الإيمان لا تخرجه الكبائر عن إيمانه فيدخل الجنة. أما كونه ابتداء أو بعد دخول النار فمفوض إلى مشيئة الله تعالى)[(٣)].

قال ابن حجر: (قوله "على ما كان من العمل" أي من صلاح أو فساد لكن أهل التوحيد لا بد لهم من دخول الجنة، ويحتمل أن يكون معنى قوله: "على ما كان من العمل" أي: يدخل أهل الجنة الجنة على حسب أعمال كل منهم في الدرجات)[(٤)].

قال العيني: (وقال القرطبي: المقصود من هذا الحديث التنبيه على ما وقع من النصارى من الضلال والفساد في عيسى وأمه عليهما الصلاة والسلام)[(٥)].

---

(١) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢٤٠/٢ - ٢٤١.

(٢) نفس المرجع السابق ٣٦/٢.

(٣) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٦٣٩.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٧٥/٦.

(٥) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني ٢٧/١٦.

قال المناوي: أدخله الله الجنة على ما كان من العمل.

قال البيضاوي: فيه دليل على المعتزلة في مقامين:

أحدهما: أن العصاة من أهل القبلة لا يخلدون في النار لعموم قوله: "من شهد".

الثاني: أنه تعالى يعفو عن السيئات قبل التوبة واستيفاء العقوبة فإن قوله على ما كان من العمل حال من قوله أدخله الجنة، والعمل غير حاصل حينئذ بل الحاصل حال إدخاله استحقاق ما يناسب عمله من ثواب أو عقاب.

فإن قيل ما ذكر يوجب أن لا يدخل النار من العصاة؟ قلنا: اللازم منه عموم العفو، وهو لا يستلزم عدم دخول النار لجواز أن يعفو عن بعضهم بعد الدخول وقبل استيفاء العذاب، هذا وليس محتم عندنا أن يدخل النار أحد من الأمة بل العفو عن الجميع بموجب وعده بنحو قوله: ﴿يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾[1][2].

---

(١) سورة الزمر، آية: ٥٣.

(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير، المناوي ٦/١٥٩.

الحديث رقم (٤١٣)

٤١٣- وعن أَبي ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ جَاء بالحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أمْثَالِهَا أَوْ[1] أزْيَد، وَمَنْ جَاءَ بالسَّيِّئَةِ فَجَزاءُ سَيِّئَةٍ[2] سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا أَوْ أغْفِرُ. وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَمَنْ أتَانِي يَمْشِي أتَيْتُهُ هَرْوَلَةً، وَمَنْ لَقِيني بِقُرَابِ الأرْض خَطِيئةً لا يُشْرِكُ بِي شَيئًا، لَقِيتُهُ بِمِثْلِهَا مَغفِرَةً**)) رواه مسلم[3].

ترجمة الراوي:

أبو ذر الغفاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٦١).

غريب الألفاظ:

وقُراب الأرض: ما يقاربُ ملأها[4].

الشرح الأدبي

الحديث بني على أسلوب الشرط المنبيء باتصال الجمل و(من) في كلتا الجملتين شرطية، والمجيء بمعنى عمل، شبَّه عمله الحسنة بحال المكتسب، إذ يخرج يطلب رزقاً، فيجيء أهله بشيء فالباء للمصاحبة، والكلام تمثيل، ويجوز حمل المجيء على حقيقته، أي مجيء إلى الحساب، والحسنة، والسيئة هنا للجنس، والجار، والمجرور (له) للملك، وتعليق الجواب على الشرط الذي يقتضيه أسلوب الشرط يجعل حصول عشر حسنات للعبد معلق على فعله حسنة واحدة مما يرغِّبه فيها، وحصول سيئة للعبد معلق على فعله سيئة مما ينفِّره منها؛ لأنه يعلم أنها ستعود عليه بمثلها، وقوله في الحسنة (أو أزيد) تفضل منه بترك باب الزيادة مفتوحاً وجملة (أو أغفر) تفضل منه بترك باب

---

(١) لفظ مسلم: (أو)، وفي نسخة: (وأزيده).

(٢) لفظ مسلم: (فجزاؤه) بدل: (فجزاء شيئة).

(٣) برقم ٢٢/٢٦٨٧.

(٤) رياض الصالحين ٢٠٥، والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ق ر ب).

المغفرة مفتوحاً، وقوله (وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْراً تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعاً)أسلوب شرط يعلق تقرب الرب من العبد ذراعاً على تقرب العبد شبراً) ومعناه :(مَنْ تَقَرَّبَ) إلَيَّ بطَاعَتِي (تَقَرَّبْتُ) إِلَيْهِ بِرَحْمَتِي وَإِنْ زَادَ زِدْتُ (فَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي) وَأسرعَ في طَاعَتِي (أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً) أيْ: صَبَبْتُ عَلَيهِ الرَّحْمَةَ، وَسَبَقْتُهُ بهَا، وَلَمْ أحْوجْهُ إِلَى المَشْي الكَثِيرِ في الوُصُولِ إِلَى المَقْصُودِ والمراد أن جزاءه يكون تضعيفه على حسب تقربه -كما قال النووي- (وقُرَابُ الأَرضِ): مَا يُقَارِبُ مِلأَهَا، والله أعلم.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الشرط، والترغيب.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: بيان سعة رحمة الله تعالى.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل التوبة والرجاء في رحمة الله تعالى.

رابعًا: من واجبات الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم.

أولاً- من أساليب الدعوة: الشرط، والترغيب:

١- **الشرط:** حيث جاء في الحديث القدسي: "من جاء بالحسنة"، وأسلوب الشرط من الأساليب الدعوية التي تشدّ انتباه المدعو إلى معرفة الجزاء، ويربط للمستمع بين العمل والجزاء عليه، ومن أمثلة استخدام القرآن الكريم لهذا الأسلوب قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ (١)، وقوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ (٢).

٢- **الترغيب:** يستنبط هذا الأسلوب مما ورد في الحديث القدسي من الترغيب في الإتيان بالحسنات وعمل الصالحات والتقرب إلى الله تعالى، ومما لا شك فيه أن أسلوب الترغيب مما يحفز النفس على الإقدام على الطاعة، "والترغيب يكون بوعد الطائعين الحافظين لحدود الله تعالى بعظيم الخير وتبشيرهم بحسن المثوبة، وهو يفيد في حمل

---

(١) سورة طه، آية: ١٢٤.

(٢) سورة الأنعام، آية: ١٦٠.

الناس على التشمير عن ساعد الجد في طاعة الله تعالى لنيل السعادة في الدنيا والآخرة والترغيب على ضربين، الأول: الترغيب في جنس الطاعات مثل قوله تعالى: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾[1]، والثاني: الترغيب في أنواع الطاعات مثل الصلاة والصدقة والصوم[2].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: بيان سعة رحمة الله تعالى:

إن رحمة الله واسعة وفضله عظيم، ويعامل الناس بفضله لا بعدله ومما يدل على هذا ما جاء في الحديث القدسي: "من جاء بالحسنة له عشر أمثالها أو أزيد"، وهذا يدل على سعة رحمة الله تعالى، قال النووي: (معناه أن التضعيف بعشرة أمثالها لا بد بفضل الله ورحمته ووعده الذي لا يخلف، والزيادة بعد بكثرة التضعيف إلى سبعمائة ضعف وإلى أضعاف كثيرة يحصل لبعض الناس دون بعض على حسب مشيئة الله سبحانه وتعالى)[3].

وفضل الله عز وجل ورحمته واسعة قال سبحانه: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾[4]، قال السيد سابق: (وينبغي للإنسان أن يأخذ بالأسباب الموصلة إلى النجاة والخلاص، ولا يقف عند مجرد إحسان الظن بالله، ولكي يعفو الله عن الإنسان ويستره لا بد أن يستر الإنسان نفسه في الدنيا فلا يجهر بما يفعل من سيئات، والله سبحانه لحبه لعباده ولسعة مغفرته يلهم ملائكته أن يضرعوا إليه بالدعاء ويسألوه برحمته التي وسعت كل شيء وعلمه الذي وسع كل شيء أن يغفر للتائبين ويدخلهم رحمته، ومن أبلغ ما قيل في هذا المقام: إن استغفاري مع إصراري لؤم وإن ترك استغفاري مع علمي بسعة عفوك لعجز فكم تتحبب إليّ بالنعم مع غناك عني، وأتبغض إليك بالمعاصي مع فقري إليك - يا من

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٢٩.

(٢) هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة، علي محفوظ، ص ١٩٢.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٨٨.

(٤) سورة الأعراف، آية: ١٥٦.

إذا وعد وفى وإذا توعد عفى، أدخل عظيم جرمي في عظيم عفوك يا أرحم الراحمين)[١].

إن من كرم الله تعالى مضاعفة الحسنات لعباده ليكثروا منها، رجاء ثوابه سبحانه، فإنه يُرغّب في ذلك، ويؤكد على ذلك بالبشرى التالية لمن يتقرب إلى الله تعالى بالطاعات فإنه سبحانه يثيبه على ذلك.

ثم ختم الحديث القدسي بالبشرى الثالثة للمؤمنين التجاوز ومغفرة الذنوب مهما كثرت وتعددت حتى لو ملأت الأرض بشرط ألا يشرك بالله تعالى، وهذه البشرى تبدد اليأس والقنوط من رحمة الله تعالى، وتبث الأمل برحمة الله، وتقوي الرجاء لنيل ثمرات هذه البشرى العظيمة، فإذا كانت رحمته الواحدة في الدنيا تتراحم بها الخلائق والبهائم والهوام، فإن الرحمات التسعة والتسعين تنتظر المؤمنين ليتفيأوا بظلالها وجناتها.

قال ابن علان: فالجملة الأولى لبيان عظم الثواب على كثرة العمل ومزيد المجاهدة، والثانية لبيان حصول ثواب العمل وإن قل ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾[٢].

قال القرطبي: (هذه الجمل أمثال ضربت لمن عمل من الطاعات وقصد به التقرب إلى الله تعالى تدل على أنه تعالى لا يضيع أجر محسن وإن قل عمله، بل يقبله ويثيبه مضاعفًا)[٣].

وقال العيني: قوله "أنا عند ظن عبدي بي" يعني: إن ظن أني أعفو عنه وأغفر له فله ذلك، وإن ظن العقوبة والمؤاخذة فكذلك، ويقال إن كان فيه شيء من الرجاء رجاه لأنه لا يرجو إلا مؤمن بأن له ربا يجازي، ويقال إني قادر على أن أعمل به ما ظن أني عامله به.

وقال الكرماني: وفيه إشارة إلى ترجيح جانب الرجاء على الخوف قوله وأنا معه: أي بالعلم إذ هو منزه عن المكان، وقيل أنا معه بحسب ما قصد من ذكره لي.

---

(١) إسلامنا ١٠٩ - ١١٠.

(٢) سورة الكهف، آية: ٣٠.

(٣) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٢/٣١٣-٣١٤.

قوله "فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي" يعني إن ذكرني بالتنزيه والتقديس سرا ذكرته بالثواب والرحمة سرًا.

وقيل معناه إن ذكرني بالتعظيم أذكره بالإنعام.

قوله: "وإن ذكرني في ملأ" أي في جماعة "ذكرته في ملأ خير منهم" يعني: الملائكة المقربين[١].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل التوبة والرجاء في رحمة الله تعالى:

كل ابن آدم خطاء والمسلم الحق هو الذي يعود إلى ربه ويتوب إليه، ويأمل في مغفرته ولا يستسلم للمعصية، وقد جاء في الحديث القدسي الذي معنا: (ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئًا لقيته بمثلها مغفرة)، وما من شك في أن باب التوبة مفتوح، قال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾[٢]، وأخبر سبحانه أن من يتوب، يتوب الله عليه قال تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾[٣]، وأمر بالتوبة فقال جل شأنه: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٤]، وأمر أن تكون توبة نصوحًا فقال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾[٥]، وأخبر أنه يحب من يتوب، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾[٦]، ووصف خليله إبراهيم عليه السلام بالإنابة إليه فقال جل شأنه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾[٧]، وقد ثبت في الحديث عن أبي

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني ١٠١/٢٥.

(٢) سورة الزمر، آية: ٥٣.

(٣) سورة المائدة، آية: ٣٩.

(٤) سورة النور، آية: ٣١.

(٥) سورة التحريم، آية: ٨.

(٦) سورة البقرة، آية: ٢٢٢.

(٧) سورة هود، آية: ٧٥.

موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((إِنَّ اللَّه عز وجل يَبْسُطُ يَدَهُ بالليلِ ليتوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ وبالنَّهَارِ ليتوبَ مُسِيءُ الليلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا))(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ، مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ. وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللَّهَ مِنَ الرَّحْمَةِ، مَا قَنِطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ))(٢)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: ((يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَىٰ ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ وَمَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ وَمَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرُ لَهُ))(٣).

قال ابن حجر: (المقصود من الرجاء أن من وقع منه تقصير فليحسن ظنه بالله ويرجو أن يمحو عنه ذنبه، وكذا من وقع منه طاعة يرجو قبولها، وأما من انهمك على المعصية راجيًا عدم المؤاخذة بغير ندم ولا إقلاع فهذا في غرور وما أحسن قول أبي عثمان الجيزي: من علامة السعادة أن تطيع وتخاف أن لا تقبل، ومن علامة الشقاء أن تعصى وترجو أن تنجو)(٤).

رابعًا- من واجبات الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم:

يتضح هذا من سياق الحديث، ولا شك أن من ألزم واجبات الداعية أن يدعو الناس إلى الخير دائمًا، ويرشدهم إلى ما ينفعهم لأن الداعية حامل رسالة ودعوة، والمدعوون يثقون فيه ينتظرون منه الخير دائمًا، قال الله عن نبيه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٥).

والداعية الذي يرشد ويدل على الخير والصواب يناله من الأجر والثواب الكثير، وهذا من فضل الله عز وجل، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((مَنْ دَعَا

---

(١) أخرجه مسلم ٢٧٥٩.

(٢) أخرجه مسلم ٢٧٥٥.

(٣) أخرجه البخاري ١١٤٥، ومسلم ٧٥٨.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٠١/١١.

(٥) سورة الشورى، آية: ٥٢.

إِلَىٰ هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لاَ يَنْقُصُ ذَٰلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا. وَمَنْ دَعَا إِلَىٰ ضَلاَلَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لاَ يَنْقُصُ ذَٰلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا))[1].

قال النووي: (وفي الحديث الحث على استحباب سن الأمور الحسنة، وتحريم سن الأمور السيئة، ومن دعا إلى هدي كان له مثل أجور متابعيه أو إلى ضلالة كان عليه مثل آثام تابعيه سواء كان ذلك الهدى والضلالة هو الذي ابتدأه أم كان مسبوقًا إليه، وسواء كان ذلك تعليم علم أو عبادة أو أدب أو غير ذلك)[2].

---

(١) أخرجه مسلم ٢٦٧٤.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٨٣.

الحديث رقم (٤١٤)

٤١٤- وعن جابر رضي الله عنه ، قَالَ: جاء أعرابي إِلَى النَّبيّ صلى الله عليه وسلم ، فَقَالَ: يَا رَسُول الله، مَا الموجِبَتَانِ؟ قَالَ: ((**مَنْ مَاتَ لاَ يُشْرِكُ بالله شَيئًا دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ مَاتَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّار**)) رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

جابر بن عبدالله الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

الموجبتان: أي الخصلة الموجبة للجنة والخصلة الموجبة للنار[2].

الشرح الأدبي

كان الصحابة رضي الله عنهم يستبشرون بقدوم الأعراب؛ لأنهم يفتحون لهم أبواب العلم بالمسائل التي كانوا يسألون فيها الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهذا الأعرابي جاء يسأل النبي صلى الله عليه وسلم (مَا الموجِبَتَانِ ؟) وهي مفرد موجبة، وهو استفهام على حقيقته، ولذلك جاء رد الرسول صلى الله عليه وسلم مبنياً على الإيجاز بحذف المستفهم (مَنْ مَاتَ لاَ يُشْرِكُ بالله شَيَئاً دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ مَاتَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً دَخَلَ النَّار) ومن اسم موصول بمعنى الذي وتعريف المسند إليه بالموصول لعدم علم المخاطب بالأحوال المختصة به سوى الصلة، وتنكير (شيئاً) للتقليل أي لا يشرك بالله قليلاً، ولا كثيراً، والجملة الثانية من أشرك قليلاً، أو كثيراً، والمقابلة بين الجنة، والنار توضح مدى الفارق بين العاقبتين، والذي كان سببه انتفاء الشرك، أو وجوده.

---

(١) برقم (٩٣/١٥١).

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٣.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب، والترغيب والترهيب.

ثانيًا: من واجبات المدعو: التعرف على ما يحقق له النجاة في الآخرة.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل التوحيد وخطورة الشرك.

رابعًا: من واجبات الداعية: الإجابة عن أسئلة المدعوين.

أولاً- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب، والترغيب والترهيب:

١- السؤال والجواب: حيث جاء في الحديث في سؤال الأعرابي للنبي ﷺ "ما الموجبتان" ومما لا شك فيه أن أسلوب السؤال والجواب من الأساليب المقنعة في الدعوة إلى الله تعالى حيث تتوجه الإجابة إليه مباشرة على السؤال، ومن ناحية أخرى فإن أسلوب السؤال والجواب يحقق نوعًا من التفاعل والحوار بين الداعية والمدعو ومن أمثلة استخدام القرآن الكريم لهذا الأسلوب قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾[1]، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى﴾[2]، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ﴾[3].

٢- الترغيب والترهيب: حيث جاء في الحديث في قوله ﷺ: "دخل الجنة - دخل النار" وأسلوب الترغيب والترهيب، من أساليب الدعوة النافعة في حمل النفس على الطاعة، وبعدها عن المعصية (إن النفوس البشرية مختلفة الطباع، منها ما يجلبه الترغيب، ومنها ما يخيفه الترهيب ولهذا جاء القرآن الكريم والسنة المطهرة بالأسلوبين والدعاة مطالبون بانتهاج الأسلوبين مع الناس كل حسب ما يناسبه، على أن يقدموا الترغيب لأنه فعل إيجابي، ومطلوب من المسلمين أن يكونوا إيجابيين وللترغيب أدوات

(١) سورة البقرة، آية: ٢١٩.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٢٢.

(٣) سورة الأنفال، آية: ١.

كثيرة كما أن للترهيب أدواته)[1] والداعية الحصيف هو الذي يستطيع الممازجة بين الترغيب والترهيب كل في موطنه وموضعه اللائق به.

ثانيًا- من واجبات المدعو: التعرف على ما يحقق له النجاة في الآخرة:

إن من أهم واجبات المدعو البحث عن أسباب النجاة من العذاب في الآخرة يظهر هذا من الحديث في سؤال الأعرابي عن الموجبتان؟ قال الإمام النووي: (وأما قوله ما الموجبتان فمعناه الخصلة الموجبة للجنة والخصلة الموجبة للنار.

وأما حكمه ﷺ على من مات مشركًا بدخول النار ومن مات غير مشرك بدخوله الجنة فقد أجمع عليه المسلمون، فأما دخول المشرك النار فهو على عمومه فيدخلها ويخلد فيها ولا فرق فيه بين الكتابي اليهودي والنصراني وبين عبدة الأوثان وسائر الكفرة، ولا فرق عند أهل الحق بين الكافر عنادًا وغيره ولا بين من خالف ملة الإسلام وبين من انتسب إليها ثم حكم بكفره بجحده ما يكفر بجحده وغير ذلك وأما دخول من مات غير مشرك الجنة فهو مقطوع له به، لكن إن لم يكن صاحب كبيرة مات مصرًا عليها دخل الجنة أولاً، وإن كان صاحب كبيرة مات مصرًا عليها فهو تحت المشيئة فإن عفى عنه دخل أولاً وإلا عذب ثم أخرج من النار وخلد في الجنة، والله أعلم[٢].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل التوحيد وخطورة الشرك:

إن التوحيد يعني إفراد الله بالخلق، والملك والتدبر، وكذا إقراره بالألوهية ومقتضاياتها فحقيق بمن آمن بذلك أن يسعد في دنياه وأخراه وهذا ما نراه واضحًا في ثمرات الإيمان بتوحيد الربوبية، والجاحدون "بربوبية الله" يحيون حياة لا طعم لها ولا معنى حياة كلها قلق وحيرة، كلها أسئلة، من هنا تتجلى أهمية وفضل التوحيد[٣].

وفي هذا الحديث يظهر فضل توحيد الله عز وجل، فإنه يقوي في المؤمن درجة

---

(١) فقه الدعوة، د. بسام العموش، ص ٨٦، ٨٧.

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص (٢/٩٦).

(٣) التوحيد وأثره على العبيد، خميس السعيد محمد، ص ٦٠.

الرجاء لثواب الله تعالى وعفوه من عقابه سبحانه وتعالى، وفي الوقت نفسه يُرهِّب من أمر خطير وشره مستطير ألا وهو الشرك أعاذنا الله منه ومن أنواعه وأسبابه. فيالها من بشرى للمؤمنين بدخول الجنة برحمته سبحانه وتعالى بشرط أن يتقوا أنواع الشرك، ويستفاد من الحديث أن من تاب من الشرك قبل أن يغرغر وقبل أن يأتيه الموت فإنه أيضًا من أهل الجنة بمشيئة الله، الله أكبر، ما هذه الرحمات الكريمة! والبشريات العظيمة! والمواعظ الحكيمة! إنها والله تحتاج إلى تذكير الغافلين، وتبصير العاصين، وتحذير المشركين، من تلك النار التي أعدت للكافرين والمشركين، وترغيبهم بما بشر الله تعالى عباده الصالحين.

ويستفاد من هذا الحديث معرفة عظمة ثمرة توحيد العبودية وبركة التصديق بالله تعالى، وعلى العكس لمن حرم نفسه من هذه الثمرة، فإنه فوت عليه فرصة كريمة من عند الله الكريم سبحانه، وأن مصيره النيران أعاذنا الله تعالى منها.

وفي هذا الحديث أخبر النبي ﷺ بفضل التوحيد وخطورة الشرك فقال: "من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة، ومن مات يشرك به شيئًا دخل النار" ومما هو معلوم أهمية التوحيد وخطورة الشرك، قال حافظ حكمي: (والقرآن كله من أوله إلى آخره في تقرير التوحيد العلمي الخبري الاعتقادي وهو توحيد الربوبية والأسماء والصفات، والتوحيد الطلبي القصدي الإرادي وهو توحيد الإلهية وكثير من الآيات جاءت تخبر عن إكرامه سبحانه لأهل التوحيد وما فعل بهم في الدنيا من النصر والتأييد وما يكرمهم به في الآخرة وهو جزاء التوحيد، ومن الآيات ما تبين حال أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يفعل بهم في العقبى من العذاب فهو جزاء من خرج عن حكم توحيده)[1].

هذا وقد تكاثرت النصوص الشرعية في الدعوة إلى التوحيد قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾[2] وقال سبحانه: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا

---

(١) معارج القبول، حافظ حكمي، ص ١٢٢/١.

(٢) سورة الأنعام، آية: ١٥١.

بِهِۦ شَيْـًٔا﴾(١) وقوله سبحانه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾(٢) ودعو التوحيد هي دعوة كل الأنبياء لأقوامهم، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾(٣) وقد بين الله تعالى أنه يغفر كل شيء إلا الشرك به قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾(٤).

قال ابن عثيمين: (ومن فوائد التوحيد أنه أكبر دعامة للرغبة في الطاعة لأن الموحد يعمل لله سبحانه وتعالى، وعليه فهو يعمل سرًا وعلانية أما غير الموحد كالمرائي مثلاً يفعل الطاعة إذا كان عنده من يراه.

والموحدون لهم الأمن وهم المهتدون قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾(٥) فمن فضائل التوحيد استقرار الأمن)(٦). وقال د. صالح الفوزان: (وكثيرًا ما نجد في القرآن الكريم الدعوة إلى توحيد العبادة والأمر به والجواب عن الشبه الموجهة إليه، وكل سورة في القرآن، بل كل آية في القرآن فهي داعية إلى هذا التوحيد؛ لأن القرآن إما خبر عن الله سبحانه وأسمائه وصفاته وأفعاله، وهذا هو توحيد الربوبية، وإما دعاء إلى عبادته وحده لا شريك له وترك ما يعبد من دونه، وهذا هو توحيد الألوهية؛ وإما خبر عن إكرامه لأهل توحيده وطاعته في الدنيا والآخرة وهذا هو جزاء التوحيد، وإما خبر عن أهل الشرك وجزائهم في الدنيا والآخرة، وهذا جزاء من خرج عن حكم التوحيد، وإما أحكام وتشريع وهذا من حقوق التوحيد فإن التشريع حق لله وحده. وهذا التوحيد بجميع أنواعه تضمنته كلمة واحدة هي: "لا

---

(١) سورة النساء، آية: ٣٦.

(٢) سورة الإسراء، آية: ٢٣.

(٣) سورة الأنبياء، آية: ٢٥.

(٤) سورة النساء، آية: ٤٨.

(٥) سورة الأنعام، آية: ٨٢.

(٦) القول المفيد على كتاب التوحيد، محمد بن صالح العثيمين، ص ١/٧١.

إله إلا الله" فإنها تتضمن نفيًا وإثباتًا. نفي الإلهية الحقة عن كل ما سوى الله وإثباتها لله وحده، كما تتضمن ولاء وبراء، ولاء لله وبراء مما سواه، ودين التوحيد قائم على هذين الأساسين)[١].

رابعًا- من واجبات الداعية: الإجابة عن أسئلة المدعوين:

حيث أجاب الرسول الكريم عن أسئلة الأعرابي الذي جاء يسأل عن الموجبتين وهذا من ألزم واجبات الداعية، لأنه المفترض فيه أنه العالم بأحكام الدين، وأحكام الحلال والحرام وقد بين الله أنه أنزل الذكر لبيانه للناس قال سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٢]. وحذر الله من كتمان العلم فقال جل شأنه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾[٣].

قال القرطبي: (قال الحسن وقتادة: هي في كل من أوتي علم شيء من الكتاب فمن علم شيئًا فليعلمه وإياكم وكتمان العلم فإنه هلكة وقال محمد بن كعب: لا يحل للعالم أن يسكت على علمه، ولا للجاهل أن يسكت على جهله وقال أبو هريرة رضي الله عنه: لولا ما أخذ الله على أهل الكتاب ما حدثتكم بشيء ثم تلا هذه الآية. وقال الحسن بن عمارة: أتيت الزُّهري بعدما ترك الحديث فألفيته على بابه فقلت: إن رأيت أن تحدثني فقال: أما علمت أني تركت الحديث؛ فقلت إما أن تحدثني، وإما أن أحدثك قال: حدثني قلت: حدثني الحكم بن عتيبة عن يحيى بن الجزار قال: سمعت عليًّ بن أبي طالب يقول: ما أخذ الله على الجاهلين أن يتعلّموا حتى أخذ على العلماء أن يعلّموا. قال: فحدثني أربعين حديثًا)[٤].

---

(١) محاضرات في العقيدة والدعوة ١٥/١.

(٢) سورة النحل، آية: ٤٤.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٨٧.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٤٥٨/٥.

الحديث رقم (٤١٥)

٤١٥- وعن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أن النَّبيّ ﷺ ومعاذ رديفه عَلَى الرَّحْل، قَالَ: (**يَا مُعَاذُ**) قَالَ: لَبَّيْكَ يَا رَسُول الله وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: (**يَا مُعَاذُ**) قَالَ: لَبَّيْكَ يَا رَسُول الله وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: (**يَا مُعَاذُ**) قَالَ: لَبَّيْكَ يَا رَسُول الله وسَعْدَيْكَ، ثلاثًا، قَالَ: (**مَا مِنْ عَبْدٍ**[١] **يَشْهَدُ أن لا إلهَ إلاَّ الله، وَأنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ إلاَّ حَرَّمَهُ الله عَلَى النَّار**) قَالَ: يَا رَسُول الله، أفَلاَ أخْبِرُ بِهَا النَّاس فَيَسْتَبْشِروا؟ قَالَ: (**إذًا يَتَّكِلُوا**) فأخبر بهَا مُعاذٌ عِنْدَ موتِه تَأثُّمًا. مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[٢].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

ردیفه: راكب خلف رسول الله ﷺ[٣].

الرَّحل: ما يوضع على ظهر البعير للركوب[٤].

لبيك: تعني الإجابة والإقامة على الطاعة[٥].

سعديك: أي إسعادًا لك بعد إسعاد[٦].

تأثمًا: خوفًا من الإثم في كتم هذا العلم[٧].

---

(١) لفظ البخاري: (أحد) والمثبت لفظ الحميدي في جمعه ٢٩٨/١، رقم ٦٣٩ وكذا عند مسلم.

(٢) أخرجه البخاري ١٢٨ واللفظ له، ومسلم ٢٢/٥٣. أورده المنذري في ترغيبه ٢٢٥٢.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٧٣/١.

(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ر ح ل).

(٥) القاموس المحيط، الفيروزآبادي، الفيروزآبادي في (ل ب ى).

(٦) المرجع السابق ٢٨٨، والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٤٣٠.

(٧) رياض الصالحين ٢٠٦.

الشرح الأدبي

دلالة الحال التي كان عليها النبي ﷺ وصاحبه تدل على تواضع النبي ﷺ وحسن خلقه فلم يتكبر، ولم يتجبر، فركب الدابة وحده، أو مع غيره، كما تدل على المودة، والتقريب لصاحبه معاذ رضي الله عنه يدل على ذلك نداؤه الحنون: (يَا مُعَاذُ) مع قربه منه بأداة نداء البعيد إشارة لارتفاع مكانته عنده، ثم تكرار النداء الذي يعكس كمال الحرص على وصول الخير إليه، ثم كرره مرة ثالثة، وفي هذا التكرار دلالة على أهمية ما يتلوه، مع ما فيه من تشويق، وما يثيره من ترقب في نفسه، وكانت إجابة معاذ رضي الله عنه بعد كل نداء (: لَبَّيْكَ يَا رَسُول الله وَسَعْدَيْكَ) وهي إجابة مفعمة بالمحبة، والتكريم، والإجلال، لأن معنى لبيك أي تلبية لك بعد تلبية، فهي مبالغة في إجابة المنادي مع ما فيها من مودة، ورغبة في استطالة الخطاب، ولذلك صارت نداء الحاج لربه في أكثر المواقف خشوعاً في مواسم الخير، وخير البقاع، ثم نداء الرسول ﷺ مع قربه ب(يا) دلالة على علو مكانته، ونداؤه بلقبه دون اسمه، وإضافته إلى ربه، ثم قوله (سعديك) وهي كلمة تفيض بالمودة، والإعزاز، ومعناها إسعاداً لك بعد إسعاد، وقد ساق النبي ﷺ له البشارة بعد أن تيقن أنه في قمة اليقظة، والاستشراف، بتحريم النار على من نطق الشهادتين صدقاً، وعبَّر بالمصدر، ولم يقل صادقاً للمبالغة كأنه صيغ عند قولها من صدق، وقد جاءت البشارة في ثوب القصر الذي يؤكد المعنى، وقول معاذ (أفَلاَ أخْبِرُ بِهَا النَّاس فَيَسْتَبْشِرُوا) استفهام بغرض الاستئذان علله بجملة (فيستبشروا) وتقديم الجار والمجرور في جملة الاستفهام على المفعول للعناية، والاهتمام، وقول الرسول ﷺ (إذاً يتكلوا) جملة شرطية محذوفة فعل الشرط، وتقديره إذا أخبرتهم يتكلوا، وهو من حرص الرسول ﷺ على حمل الناس على الاجتهاد، وعدم الاتكال على فضل الله دون عمل.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النداء، والترغيب.

ثانيًا: من آداب المدعو: التلطف والتأدب مع الداعية.

ثالثا: من موضوعات الدعوة: بيان منزلة معاذ بن جبل رضي الله عنه بين الصحابة رضي الله عنهم.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل التوحيد والتصديق بالقلب.

خامسًا: من واجبات الداعية: عدم كتمان العلم.

سادسًا: من واجبات المدعو: السؤال عما يجهل.

أولاً- من أساليب الدعوة: النداء، والترغيب:

١- النداء: حيث جاء في الحديث في قوله صلى الله عليه وسلم: "يا معاذ" وأسلوب النداء يؤدي إلى لفت انتباه المدعو، ليصغى إلى المنادي بالإضافة إلى أن النداء يشعر المُنادى باهتمام المُنادي، لأنه خصّه بالنداء من بين سائر المدعوين، قال الإمام الشاطبي: "وفي الاستعمال القرآني إذا كان النداء من الله للعباد أثبات حرف النداء "يا" للدلالة على معنيين، الأول: إثبات التنبيه لمن شأنه الغفلة والإعراض والغيبة وهو العبد، والدلالة على ارتفاع شأن المنادي وأنه منزه عن مداناة العباد، إذ هو في دنوه عال، وفي علوه دان سبحانه"[1].

٢- الترغيب: لقد جاء هذا الأسلوب في الحديث: "فيستبشروا" ومما هو معلوم أن أسلوب الترغيب مما يشوق المدعو إلى الاستجابة وقبول الحق والثبات عليه والقرآن الكريم مملوء بما يرغب الناس في قبول دعوة الإسلام مما يدل دلالة قاطعة على أهمية هذا الأسلوب والأصل في الترغيب أن يكون في نيل رضا الله ورحمته وجزيل ثوابه في الآخرة وهذا هو نهج رسل الله الكرام عليهم السلام[2].

---

(١) الموافقات ٢/١٦٤.

(٢) أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان، ص ٤٣٧.

ثانيًا- من آداب المدعو: التلطف والتأدب مع الداعية:

إن من الآداب التي ينبغي أن يتحلى بها المدعو: التلطف والتأدب مع الداعية، يتضح ذلك فيما ورد في الحديث في قوله ﷺ: "لبيك يا رسول الله وسعديك"، مما يؤكد على أهمية تأدب وتلطف المدعو مع الداعية واحترامه له، قال الإمام الماوردي: "اعلم أن للمتعلم في زمان تعلمه تملقًا وتذللاً، إن استعملهما غنم، وإن تركهما حرم لأن التملق للعالم يظهر مكنون علمه، والتذلل له سبب لإدامة صبره، وبإظهار مكنونه تكون الفائدة، وباستدامة صبره يكون الإكثار، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "لا يعرف فضل أهل العلم إلا أهل الفضل" وقال بعض الحكماء: (من لم يحتمل ذل التعلم ساعة بقي في ذل الجهل أبدًا)[1].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: بيان منزلة معاذ بن جبل رضي الله عنه بين الصحابة رضي الله عنهم:

إن للصحابة فضلاً عظيمًا ومنزلة سامية، وفي الحديث ما يدلل على فضل ومنزلة معاذ بن جبل رضي الله عنه بين الصحابة ويظهر هذا من الحديث من قول النبي ﷺ ثلاث مرات: "يا معاذ" ولمعاذ بن جبل رضي الله عنه مناقب كثيرة، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ، ... وَأَعْلَمُهُم بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بنُ جَبَلٍ))[2].

قال ابن حجر: (هو الإمام المقدم في علم الحلال والحرام، قال أبو إدريس الخولاني: كان أبيض وضيء الوجه براق الثنايا أكحل العينين، وقال كعب بن مالك: كان شابًا جميلاً سمحًا من خير شباب قومه، وكان لا يسأل الله شيئًا إلا أعطاه، وعدّه أنس بن مالك فيمن جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ، وقال أبو نعيم في الحلية إمام الفقهاء وكنز العلماء شهد العقبة وبدرا والمشاهد وكان من أفضل شباب الأنصار حلما وحياء وسخاء حتى أنه لم يزل يدان حتى أغرق ماله كله في الدين فذهب غرماؤه به

---

(١) أدب الدنيا والدين، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي، تحقيق: مصطفى السقا ٧٥.

(٢) أخرجه الترمذي ٣٧٩٠، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٩٨١).

لرسول الله ﷺ، فأرسله إلى اليمن وقال له لعل الله أن يجبرك ويؤدي عنك دينك، فخرج إلى اليمن فلم يزل بها حتى توفي رسول الله ﷺ، وقال عمر عجزت النساء أن يلدن مثل معاذ، ولولا معاذ لهلك عمر، وقدم من اليمن في خلافة أبي بكر وكانت وفاته بالطاعون في الشام سنة سبع عشرة أو التي بعدها وهو قول الأكثر وعاش أربعا وثلاثين سنة)[١].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل التوحيد والتصديق بالقلب:

إن لكلمة التوحيد فضلاً كبيرًا، ومما يؤكد ذلك ما ورد في الحديث في قوله ﷺ: "ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله صدقًا من قلبه إلا حرمه الله على النار"، إن هذا الحديث تتجلى فيه عظمة كلمة التوحيد وثمرتها العظيمة في الآخرة، وبُشراها الكريمة في الجنة.

قال ابن حجر: (قوله: "صدقا" فيه احتراز عن شهادة المنافق. وقوله: "من قلبه" يمكن أن يتعلق بصدقًا أي يشهد بلفظه ويصدق بقلبه، ويمكن أن يتعلق بيشهد أي يشهد بقلبه والأول أولى).

وقال الطيبي: (قوله: "صدقا" أقيم هنا مقام الاستقامة؛ لأن الصدق يعبر به قولاً عن مطابقة القول المخبر عنه، ويعبر به فعلاً عن تحري الأخلاق المرضية كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾[٢]، أي حقق ما أورده قولا بما تحراه فعلا انتهى.

وأراد بهذا التقرير رفع الإشكال عن ظاهر الخبر؛ لأنه يقتضي عدم دخول جميع من شهد الشهادتين النار لما فيه من التعميم والتأكيد، لكن دلت الأدلة القطعية عند أهل السنة على أن طائفة من عصاة المؤمنين يعذبون ثم يخرجون من النار بالشفاعة، فعلم أن ظاهره غير مراد، فكأنه قال: أن ذلك مقيد بمن عمل الأعمال الصالحة قال

(١) الإصابة في تمييز الصحابة، ابن العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ص ١٢٥٢، والتمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبدالبر ١٢٩/٢١، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود ١٠٢١/١، وتاريخ دمشق ٤٣١/٥٨.

(٢) سورة الزمر، آية: ٣٣.

ولأجل خفاء ذلك لم يؤذن لمعاذ في التبشير به.

وقد أجاب العلماء عن الإشكال أيضا بأجوبة أخرى منها أن مطلقه مقيد بمن قالها تائبًا ثم مات على ذلك.

ومنها أن ذلك كان قبل نزول الفرائض، وفيه نظر؛ لأن مثل هذا الحديث وقع لأبي هريرة كما رواه مسلم وصحبته متأخرة عن نزول أكثر الفرائض، وكذا ورد نحوه من حديث أبي موسى رواه أحمد بإسناد حسن، وكان قدومه في السنة التي قدم فيها أبو هريرة.

ومنها أنه خرج مخرج الغالب إذ الغالب أن الموحد يعمل الطاعة ويجتنب المعصية.

ومنها أن المراد بتحريمه على النار تحريم خلوده فيها لا أصل دخولها.

ومنها أن المراد النار التي أعدت للكافرين لا الطبقة التي أفردت لعصاة الموحدين.

ومنها أن المراد بتحريمه على النار حرمة جملته؛ لأن النار لا تأكل مواضع السجود من المسلم كما ثبت في حديث الشفاعة أن ذلك محرم عليها، وكذا لسانه الناطق بالتوحيد والعلم عند الله تعالى.

وروى البزار بإسناد حسن من حديث أبي سعيد الخدري ﵁ في هذه القصة أن النبي ﷺ إذن لمعاذ في التبشير فلقيه عمر فقال: لا تعجل، ثم دخل فقال: يا نبي الله أنت أفضل رأيا، إن الناس إذا سمعوا ذلك اتكلوا عليها قال: فردَّه.

وهذا معدود من موافقات عمر.

قوله: (عند موته) أي موت معاذ وأغرب الكرماني فقال يحتمل أن يرجع الضمير إلى رسول الله ﷺ قلت ويردُّه ما رواه أحمد بسند صحيح عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال أخبرني من شهد معاذًا حين حضرته الوفاة يقول: سمعت من رسول الله ﷺ حديثًا لم يمنعني أن أحدثكموه إلا مخافة أن تتكلوا سمعته يقول: ((من شهد أن لا إله إلا الله مخلصًا من قلبه أو يقينًا من قلبه، لم يدخل النار أو دخل الجنة))[1].

قوله: "تأثما" هو بفتح الهمزة وتشديد المثلثة المضمومة أي خشية الوقوع في الإثم.

---

(١) أخرجه أحمد ٢٣٦/٥ رقم ٢٢٠٦٠ وقال محققو المسند: حديث صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين ٣٨١/٣٦ - ٣٨٢.

ودلَّ صنيع معاذ على أنه عرف أن النهي عن التبشير كان على التنزيه لا على التحريم وإلا لما كان يخبر به أصلا أو عرف أن النهي مقيد بالاتكال، فأخبر به من لا يخشى عليه ذلك وإذا زال القيد زال المقيد والأول أوجه لكونه أخَّر ذلك إلى وقت موته.

وقال القاضي عياض: لعل معاذًا لم يفهم النهي لكن كسر عزمه عما عرض له من تبشيرهم.

قلت والرواية الآتية صريحة في النهي فالأولى ما تقدم[١].

ومما ينبغي التنبيه عليه أن الإيمان والتوحيد يجب أن يتبعه تصديق بالقلب وعمل بالجوارح، "لقد بيّن الله سبحانه لعباده حقيقة الإيمان الذي تقبل به الأعمال ويتحقق به ما وعد الله المؤمنين، ولذا فالإيمان الحق هو الذي يشتمل على العقيدة الثابتة التي لا يخالطها شك، العمل الذي صدق العقيدة وهو ثمرتها والعمل أنواع: عمل القلب مثل: الخوف من الله، وعمل اللسان مثل نطق الشهادتين، وعمل الجوارح مثل الصلاة والزكاة، فإذا أردنا الفوز بتحقيق الإيمان فعلينا أن نقيمه تصديقًا ثابتًا في القلوب، وعملاً في القلوب، وقولاً باللسان وعملاً بجوارحنا[٢]، وقال د. القرضاوي: (إن الإيمان في حقيقته ليس مجرد عمل لساني ولا عمل بدني ولا عمل ذهني، إن الإيمان في حقيقته عمل نفسي يبلغ أغوار النفس ويحيط بجوانبها كلها من إدراك وإرادة ووجدان، ولا بد أن يتبع تلك المعرفة، وهذا الإذعان حرارة قلبية وجدانية تبعث على العمل بمقتضيات العقيدة، والالتزام بمبادئها الخلقية والسلوكية والجهاد في سبيلها بالمال والنفس)[٣].

خامسًا- من واجبات الداعية: عدم كتمان العلم:

إن من واجبات الداعية عدم كتمان العلم ونشره بين الناس، حيث جاء في الحديث: (فأخبر بها معاذ عند موته تأثما)، قال النووي: (تأثم الرجل إذا فعل فعلاً يخرج به من الإثم، وتحرج أزال عنه الحرج، وتحنث أزال عنه الحنث، ومعنى تأثم معاذ أنه كان

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٢٦/١-٢٢٧.

(٢) الإيمان، عبدالمجيد الزنداني ص ١٥ - ١٦.

(٣) الإيمان والحياة، د. يوسف القرضاوي، ص ١٥ - ١٦.

يحفظ علمًا يخاف فواته وذهابه بموته، فخشي أن يكون ممن كتم علمًا، وممن لم يمتثل أمر رسول الله ﷺ في تبليغ سنته فيكون آثمًا، فاحتاط وأخبر بهذه السنة مخافة من الإثم، وعلم أن النبيّ ﷺ لم ينهه عن الإخبار بها نهي تحريم)[1]، هذا وقد جاء توجيه الرسول ﷺ بتبليغ العلم فعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: ((بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً))[2]، ومن هنا وجب على الدعاة عدم كتمان العلم وتبليغه للناس.

سادسًا- من واجبات المدعو: السؤال عما يجهل:

يتضح هذا من الحديث في قول معاذ رضي الله عنه: (أفلا أخبر بها الناس فيستبشروا)، وما من شك أن المدعو يجب أن يسأل عندما يجهل أمرًا من الأمور وقد أمر الله بهذا في القرآن قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[3]، وقال جل شأنه: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾[4]، وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((... قَتَلُوهُ قَتَلَهُمُ الله ألاَّ سَأَلُوا إذْ لَمْ يَعْلَمُوا فإنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ))[5]، قال شرف الحق العظيم آبادي: (وقوله في الحديث: "قتلوه" أسند القتل إليهم لأنهم تسببوا له بتكليفهم له باستعمال الماء مع وجود الجرح في رأسه ليكون أدل على الإنكار عليهم، وقال: "قتلهم الله" زجرًا وتهديدًا. والعي هو التخيرُّ في الكلام وعدم الضبط، وقيل: الجهل والمعنى: أن الجهل داء وشفاءها السؤال والتعلم)[6]. ولقد كان هذا من عادة الصحابة الكرام رضي الله عنهم أن يسألوا رسول الله ﷺ عما وقع لهم من أحداث، وما جهلوا من أمور.

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١١٤.

(٢) أخرجه البخاري ٣٤٦١.

(٣) سورة الأنبياء، آية: ٧.

(٤) سورة الفرقان، آية: ٥٩.

(٥) أخرجه أبو داود ٣٣٦، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٢٥).

(٦) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١٨٥.

الحديث رقم (٤١٦)

٤١٦- وعن أَبي هريرة -أَوْ أَبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- شكٌّ الراوي[(١)] -(ولا يَضُرُّ الشَّكُّ فِي عَينِ الصَّحَابيِّ؛ لأَنَّهُمْ كُلُّهُمْ عُدُولٌ) [(٢)]- قَالَ: لَمَّا كَانَ غَزوَةُ تَبُوكَ، أَصَابَ النَّاسَ مَجَاعَةٌ، فقالوا: يَا رَسُول الله، لَوْ أذِنْتَ لَنَا فَنَحرنَا نَواضِحَنَا فَأكَلْنَا وَادَّهَنَّا؟ فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: ((**افْعَلُوا**))، فَجاء عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فَقَالَ: يَا رَسُول الله، إنْ فَعَلْتَ قَلَّ الظَّهْرُ، وَلَكِن ادعُهُمْ بفَضلِ أزْوَادِهِمْ، ثُمَّ ادعُ الله لَهُمْ عَلَيْهَا بِالبَرَكَةِ، لَعَلَّ الله أنْ يَجْعَلَ فِي ذلِكَ (البَرَكَةَ) [(٣)]. فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: ((**نَعَمْ**)) فَدَعَا بِنَطْعٍ فَبَسَطَهُ، ثُمَّ دَعَا بِفَضلِ أزْوَادِهِمْ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَجِيءُ بِكَفّ ذُرَة وَيَجِيءُ[(٤)] بِكَفّ تمر وَيجيءُ الآخرُ بِكِسرَة، حَتَّى اجْتَمَعَ عَلَى النّطعِ مِنْ ذلِكَ شَيء يَسيرٌ، فَدَعَا رَسُول الله ﷺ [(٥)] بالبَرَكَةِ، ثُمَّ قَالَ: ((**خُذُوا فِي أوعِيَتِكُمْ**)) فَأَخَذُوا فِي أوْعِيَتهم حَتَّى مَا تَرَكُوا فِي العَسْكَرِ وِعَاء إلاَّ مَلأوهُ وَأَكَلُوا حَتَّى شَبعُوا وَفَضَلَ[(٦)] فَضْلَةٌ. فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: ((**أشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ، وَأنّي رَسُولُ الله، لا يَلْقَى الله بهما عَبْدٌ غَيْرَ شَاك، فَيُحْجَبَ عَنِ الجَنَّةِ**)) رواه مسلم[(٧)].

ترجمة الراوي:

أبو سعيد الخدري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٠).

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

---

(١) وهو الأعمش سليمان بن مهران.

(٢) هذا الكلام النووي.

(٣) (البركة) لا توجد عند مسلم.

(٤) عند مسلم زيادة: (الآخر).

(٥) عند مسلم زيادة: (عليه).

(٦) لفظ مسلم: (فضلت).

(٧) برقم ٤٥/ ٢٧.

غريب الألفاظ:

تبوك: بلدة بين وادي القرى والشام، تبعد عن المدينة المنورة ٧٧٨ كم، وقد توجه النبي صلى الله عليه وسلم سنة ٩هـ إليها، وهي آخر غزواته(١).

نواضحنا: هي الإبل التي يستقى عليها، واحدها ناضح(٢).

وادَّهنَّا: أي اتخذنا دهنًا من شحومها(٣).

الظَّهرُ: هي الدواب لكونها يركب على ظهرها(٤).

الفضلة: البقيَّةُ(٥).

أزوادهم: الطعام المتخذ للسفر، مفردها: زَوْد، وزاد(٦).

بنطع: بساط من الجلد، والجمع: أنطاع ونطوع وأنطع(٧).

الشرح الأدبي

قول الراوي الأعلى (شك الراوي - ولا يَضُرُّ الشَّكُّ فِي عَينِ الصَّحَابيِّ؛ لأَنَّهُمْ كُلُّهُمْ عُدُولٌ) هذا من ناحية صحة الرواية، ومن الناحية البيانية نقول لا يضر الشك في عين الصحابي؛ لأنهم كلهم فصحاء، وسمت الكلام الأول يتفق في الفصاحة، ويتفاوت في درجتها بحسب طبيعة كلٍ، والحديث يتناول حدثاً نبوياً يبدو فيه الإعجاز النبوي، ويبدوا خلال قصة الحديث مدى لين النبي ﷺ لأصحابه، ومشاركتهم الرأي مع أنه يتحرك بوحي الله، وقول الصحابي رضي الله عنه (لَوْ أذِنْتَ لَنَا فَنَحرْنَا نَواضِحَنَا فَأكَلْنَا

---

(١) أطلس الحديث النبوي ٨٩.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٠٨.

(٣) المرجع السابق ١٠٨.

(٤) المرجع السابق ١٠٨، والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ن ض ح).

(٥) القاموس المحيط، الفيروزآبادي، الفيروزآبادي في (ف ض ل).

(٦) معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ٢٠٦، واللسان والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ز و د).

(٧) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ن ط ع).

وَادَّهَنَّا؟) أسلوب استفهام تلوح فيه أمنية الحصول على الموافقة التي تخرجهم مما هم فيه من الجوع، وقول الرسول ﷺ (افعلوا) أمر إباحة، وقد جاء حوار عمر بن الخطاب ﷺ في قمة الأدب دل على ذلك نداء الرسول ﷺ مع قربه ب(يا) دلالة على علو مكانته، ونداؤه بلقبه دون اسمه، وإضافته إلى ربه (يَا رَسُول الله)، ثم استخدام أسلوب الشرط الذي يعرض الأمر بعاقبته، ويترك للمخاطب حرية الاختيار بعد بيان العاقبة (إنْ فَعَلْتَ قَلَّ الظَّهْرُ) ثم إنه استخدم المجاز المرسل تأدباً مع الرسول ﷺ لكي لا ينسب له فعل التقليل، ونسبه إلى الظهر الذي هو المفعول، ثم إنه استخدم (إن) كأداة شرط لإحساسه بعدم تحقق الوقوع؛ لأنه قد يضر بالمصلحة العامة في نظره، ثم أسلوب الأمر بغرض النصح، والإرشاد (ادعُهُمْ بفَضلِ أزْوَادِهِمْ، ثُمَّ ادعُ الله لَهُمْ عَلَيْهَا بالبَرَكَةِ) ثم أسلوب الرجاء الذي تكمن فيه الغاية (لَعَلَّ الله أنْ يَجْعَلَ في ذلِكَ البَرَكَةَ) وقول الرسول ﷺ ((خُذُوا في أوعِيَتِكُمْ)) أمر تكريم، وقول الراوي (فَأَخَذُوا في أوْعِيَتهم حَتَّى مَا تَرَكُوا في العَسْكَرِ وِعَاء إلاَّ مَلأوهُ وَأكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا وَفَضَلَ فَضْلَةٌ) يدل على عظمة البركة والذي عبر عنه باستخدام (حتى)مرتين بياناً للغاية التي انتهوا إليها في الكفاية ببركة دعاء رسول الله ﷺ، ولذلك جاء نطقه بالشهادتين تذكيراً بمرجع الفضل، وأثر التوحيد (أشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ وَأنّي رَسُولُ الله)، وإشارة إلى امتداد العطاء لكلمة التوحيد في الآخرة (لا يَلْقَى الله بِهِما عَبْدٌ غَيْرَ شَاكٍّ فَيُحْجَبَ عَنِ الجَنَّةِ).

فقه الحديث

هذا الحديث يشير إلى الأحكام الفقهية التالية:

١- جواز عرض المفضول على الفاضل ما يراه مصلحة لينر الفاضل فيه، فإن ظهرت له مصلحة فعله.

٢- لا ينبغي لأهل العسكر من الغزاة أن يضيعوا دوابهم التي يستعينون بها في القتال بغير إذن الإمام، ولا يأذن لهم إلا إذا رأى مصلحة، أو خاف مفسدة ظاهرة.

٣- جواز الإشارة إلى الأئمة والرؤساء، وأن للمفضول أن يشير عليهم بخلاف ما رأوه

إذا ظهرت مصلحته عنده، وأن يشير عليهم بإبطال ما أمروا بفعله[١].

٤- أشار هذا الحديث إلى حكم الذبح: وهو أنه لا يحل الأكل من الحيوان الجائز أكله إلا بالذبح والتذكية، وهي قطع الحلقوم والمريء "الودجين" غير أنه يجوز العقر في الحيوان البحري "السمك والجراد" لأنه غير مقدور عليه[٢].

٥- أشار هذا الحديث إلى حكم المجاعة: والمجاعة من ناحية الأحكام الفقهية تأخذ أحكام الضرورات لكن تقدر هذه الضرورة بقدرها وتنزل منزلة الحاجة[٣].

٦- أشار هذا الحديث إلى مفهوم البركة وقد ورد هذا المفهوم في باب الوليمة والزكاة وهو أنه يستحب إجابة الداعي والدعاء له بالبركة، كما أنه تستحب التسمية على الأكل لتحل البركة، كما أن في إخراج الزكاة سبب لحلول البركة[٤].

المضامين الدعوية

أولاً: من تاريخ الدعوة: غزوة تبوك.

ثانيًا: من آداب المدعو: التلطف في الخطاب مع الداعية.

ثالثًا: من صفات الداعية: الرحمة والشفقة بالمدعوين.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: تكثير الطعام بين يديه ﷺ.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: فضيلة الرجاء في رحمة الله تعالى.

سادسًا: من حقوق المدعو: إبداء الرأي والمشورة.

أولاً- من تاريخ الدعوة: غزوة تبوك:

لقد جاهد النبي ﷺ لتبليغ كلمة الإسلام، ولا أدل على ذلك من هذه الغزوات التي غزاها ﷺ. وقد جاء في هذا الحديث الإشارة إلى غزوة تبوك في قول الراوي: "لما كان غزوة تبوك" قال ابن عبدالبر: (وكانت غزوة تبوك في رجب سنة تسع، وخرج

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٩٦/١ وما بعدها.

(٢) الفروع، ابن مفلح ٣١٣/٦، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٣١٧/٩.

(٣) المجموع شرح المهذب، النووي ٢١٠/٩، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ١١٩/٩.

(٤) حاشيتا قليوبي وعميرة ٢٩٩/٣، وتحفة المحتاج ٤٣٤/٧.

الرسول ﷺ فيها إلى غزوة الروم وهي آخر غزوة غزاها ﷺ بنفسه وكان خروجه في تلك الغزوة في حر شديد، وحين طاب أول الثمر وفي عام جدب وتخلف المنافقون عنها، ودعا رسول الله إلى الإنفاق، وأنفق فيها عثمان نفقة عظيمة جهّز بها جماعة من المعسرين في تلك الغزوة، واستعمل رسول الله على المدينة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وتخلّف في هذه الغزوة من صالحي المؤمنين ثلاثة: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية ونزل القرآن من سورة براءة والأحزاب بفضيحة المنافقين الذي كانوا يخذلون المسلمين)[١]، (ولما وصل جيش المسلمين تبوك لم يجد أحدًا هنالك لأن الروم لما بلغهم مسير هذا الجيش الذي يؤثر الموت على الحياة، فآثروا الإنسحاب إلى بلاد الشام ليتحصنوا بحصونها فلم ير النبي ﷺ داعيًا لتتبعهم داخل بلادهم وأقام عند الحدود يناجز من شاء أن يناجزه ويقاومه)[٢]. ولاشك أن غزوة تبوك من الأحداث التاريخية المؤثرة في مسيرة الدعوة الإسلامية في العهد المدني، حيث اشتملت الغزوة على كثير من الدروس الدعوية الهامة التي يمكن الإفادة منها في مجال الدعوة إلى الله تعالى.

ثانيًا- من آداب المدعو: التلطف في الخطاب مع الداعية:

يظهر هذا من الحديث من قول الصحابة رضي الله عنهم: "لو أذنت لنا" قال الإمام النووي: (هذا من أحسن آداب خطاب الكبار والسؤال منهم فيقال: لو فعلت كذا أوأمرت بكذا ومعناه لو كان خيرًا أولو كان صوابًا ورأيًا متينًا، أو مصلحة ظاهرة وما أشبه هذا؛ لأنه أجمل من قولهم للكبير: افعل كذا بصيغة الأمر)[٣].

وبهذا يعلم أن من أدب المدعو أن يخاطب الداعية برفق ولين، ولطف جميل وقد أمر الله المسلمين بتوقير الداعي الأول ﷺ فقال: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾[٤] قال السعدي: (تعظموه وتجلوه وتقوموا بحقوقه كما كانت له المنة العظيمة في رقابكم)[٥].

---

(١) الدرر في اختصار المغازي والسير ٢٣٨-٢٣٩.

(٢) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، أبو شهبة، ٥٠٢/٢.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٠٨.

(٤) سورة الفتح، آية: ٩.

(٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٧٣٦.

ثالثًا- من صفات الداعية: الرحمة والشفقة بالمدعوين:

إن صاحب القلب الرحيم تجتمع عليه القلوب وتهوى إليه الأفئدة ولذا كان من أهم صفات الداعية الرحمة؛ حيث قال النبي ﷺ لما استأذنوه "افعلوا" وما من شك في أن من أهم صفات الداعية الرحمة والشفقة بالمدعوين قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾[1] ولقد تكاملت في خلق رسول الله الرحمة والرأفة قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[2] ولاشك أن الرحمة عاطفة شريفة وخليقة محمودة (فالرحمة فضيلة والقسوة رذيلة والرحمة تكون بالأبناء وبالآباء والأمهات وبالأقرباء، وتكون بأهل الدين من خلال إرشادهم إلى الخير وتعليمهم ما لم يعلموا وتكون الرحمة بالناس جميعًا فيحب الداعية لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لها ومن كان رحيمًا رحمه الله وأسبغ نعمه عليه ظاهرة وباطنة)[3].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: تكثير الطعام بين يديه ﷺ:

لقد أيد الله نبيه ﷺ بالكثير من المعجزات التي تؤكد نبوته ومن ذلك تكثير الطعام بين يديه؛ حيث جاء في الحديث "فدعا رسول الله ﷺ عليها بالبركة" وما من شك في أن هذا من دلائل النبوة التي أعطاها الله لرسوله ﷺ قال القرطبي: (وتكثير الطعام معجزة له ﷺ مما تضافرت به الروايات واشتهر عند أهل الديانات ونقله العدول الثقات ومن ذلك إطعامه يوم الخندق، وإطعامه في غزوة تبوك والأخبار في هذا الباب كثيرة[4] لا يجهل شيء منها وعند الوقوف عليها تعلم أن نبينا محمد ﷺ أعطاه الله عز وجل من المعجزات مثل ما كان أعطى الأنبياء قبله وزاده على ذلك)[5]. ومما هو

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

(٢) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

(٣) الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي، ص ١٢٢.

(٤) انظر: دلائل النبوة للبيهقي ٨٤/٦ وما بعدها.

(٥) الإعلام بما في دين النصارى من الأوهام، القرطبي، تحقيق د. أحمد حجازي السقا، مكتبة الحرمين، الرياض، بدون التاريخ والطبعة، ص ٣٥٦/٣.

جدير بالذكر: (أن النبي ﷺ بعث في بيئة قليلة الغذاء والماء، وكان هو وأصحابه يتعرضون لحالات من الشدة التي يقل فيها الطعام والماء أو يكاد ينعدم، فكان مما أيده الله به من المعجزات: تكثير القليل من الطعام والماء على يديه، فيتغلب هو وأصحابه بقدرة الله تعالى ثم بهذه المعجزات والخوارق على ظروف البيئة الصحراوية القاسية التي يحتاجون فيها للطعام والشراب إلى جانب حاجتهم للماء من أجل الطهارة للعبادة، وأصبح ذلك من معجزاته التي رآها العشرات والمئات بل والآلاف من أصحابه، وتناقلها الناس في عهده ثم نقلت إلينا بأصح طرق الرواية حيث كان الطعام الذي لا يكفي إلا القليل من الأفراد فإذا به بعد نزول البركة فيه بفضل دعائه ﷺ يكفي العشرات أو المئات أو الآلاف. وقد وقع ذلك في مواقف متعددة)[1].

خامسًا- من موضوعات الدعوة: فضيلة الرجاء في رحمة الله تعالى:

إن المسلم لا ملاذ له إلا الرجاء في رحمة الله والطمع في ثوابه وفضله ومما يدل على ذلك ما جاء في الحديث "أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيحجب عن الجنة" وقد قال الله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2] عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ قبل وفاته بثلاثة يقول: ((لا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إلا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِرَبِّهِ))[3] قال ابن القيم: (والرجاء الاستبشار بجود وفضل الرب تبارك وتعالى والارتياح لمطالعة كرمه سبحانه وقيل: هو الثقة بجود الرب تعالى وقال شاه الكرماني: علامة صحة الرجاء حسن الطاعة ولهذا أجمع العارفون على أن الرجاء لا يصح إلا مع العمل فالرجاء حاد يحدو القلوب إلى بلاد المحبوب وهو الله والدار الآخرة ويطيب لها السير)[4]. وقال الإمام أبو حامد الغزالي: (اعلم أن الرجاء من جملة مقامات السالكين، وأحوال الطالبين فإن العبد المجتهد في

---

(١) بينات الرسول ﷺ ومعجزاته، عبدالمجيد الزنداني ٢٧١.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢١٨.

(٣) أخرجه مسلم ٢٨٧٧.

(٤) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢/٢١٦.

الطاعات، المجتنب للمعاصي، حقيق بأن ينتظر من فضل الله تمام النعمة، وما تمام النعمة إلا بدخول الجنة، وأما العاصي فإذا تاب وتدارك جميع ما فرط منه من تقصير فحقيق بأن يرجو قبول التوبة. وأما قبول التوبة إذا كان كارهًا للمعصية تسوءه السيئة، وتسره الحسنة وهو يذم نفسه ويلومها ويشتهى التوبة ويشتاق إليها فحقيق بأن يرجو من الله التوفيق التوبة، لأن كراهيته للمعصية وحرصه على التوبة يجري مجرى السبب الذي قد يفضي إلى التوبة، وإنما الرجاء بعد تأكد الأسباب قال يحيى بن معاذ: من أعظم الاغترار عندي التمادي في الذنوب مع رجاء العفو من غير ندامة، وتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة، وانتظار زرع الجنة ببذر النار، وطلب دار المطيعين بالمعاصي، وانتظار الجزاء بغير عمل، والتمني على الله عز و جل مع الإفراط.

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجري على اليبس)[1]

سادسًا- من حقوق المدعو: إبداء الرأي والمشورة:

يظهر هذا من قول عمر رضي الله عنه "يا رسول الله إن فعلت قل الظهر" قال النووي: (فيه جواز الإشارة على الأئمة والرؤساء وأن للمفضول أن يشير عليهم بخلاف ما رأوه إذا ظهرت مصلحته عنده وأن يشير عليهم بإبطال ما أمروا بفعله)[2] إن من حقوق المدعو إبداء الرأي والمشورة وقد وصف الله الجماعة المؤمنة بقوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[3] وأمر رسوله الكريم فقال سبحانه: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾[4].

قال القرطبي: (قال ابن عطية: والشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، من لا يستشير أهل العلم والدين فعز له واجب هذا ما لا خلاف فيه. وقال ابن خويز منداد: واجب على الولاة مشاورة العلماء فيما لا يعلمون، وفيما أشكل عليهم من أمور الدين،

(١) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي ٤/٢٣١٨-٢٣١٩.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ، ١٠٨.

(٣) سورة الشورى، آية: ٣٨.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

ووجوه الجيش فيما يتعلق بالحرب، ووجوه الناس فيما يتعلق بالمصالح، ووجوه الكُتَّاب والوزراء والعمال فيما يتعلق بمصالح البلاد وعمارتها وكان يقال: ما ندم من استشار وكان يقال: من أعجب برأيه ضلّ ولقد أحسن القائل:

شاور صديقك في الخفي المُشْكِلِ واقبل نصيحة ناصح مُتَفضِّلِ

فالله قد أوصى بذاك نبيَّه في قوله: "شاورهم" و "توكلِ")[1].

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢/٤/٢٤٩-٢٥٠.

الحديث رقم (٤١٧)

٤١٧- وعن عِتْبَانَ بن مالك رضي الله عنه وَهُوَ مِمَّن شَهِدَ بَدرًا ، قَالَ: كنت أُصلِّي لِقَوْمِي بَنِي سَالِم، وَكَانَ يَحُولُ بَيْنِي وبَيْنَهُمْ وَادٍ إِذَا جَاءتِ الأَمْطَار ، فَيَشُقُّ عَلَيَّ اجْتِيَازُهُ قِبَلَ مسْجِدِهم، فَجِئتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقلت لَهُ: إنّي أنْكَرْتُ بَصَرِي وَإِنَّ الوَادِي الَّذِي بَيْنِي وبَيْنَ قَومِي يَسيلُ إِذَا جَاءتِ الأَمْطَارُ فَيَشُقُّ عَلَيَّ اجْتِيَازُهُ فَوَدِدْتُ أنَّكَ تَأتِي فَتُصلِّي في[1] بَيْتِي مَكَانًا أتَّخِذُهُ مُصلّى، فَقَالَ رَسُول الله صلى الله عليه وسلم: **((سَأفْعَلُ))** فَغَدَا[2] رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وَأَبُو بكر رضي الله عنه بَعْدَ مَا اشْتَدَّ النَّهَارُ، وَاسْتَأذَنَ رَسُول الله صلى الله عليه وسلم فَأذِنْتُ لَهُ، فَلَمْ يَجْلِسْ حَتَّى قَالَ: **((أيْنَ تُحِبُّ أنْ أُصَلِّيَ مِنْ بَيْتِكَ؟))** فَأشَرْتُ لَهُ إِلَى المَكَانِ الَّذِي أُحبُّ أنْ يُصلِّيَ فِيهِ، فَقَامَ رَسُول الله صلى الله عليه وسلم فَكَبَّرَ وَصَفَفْنَا وَرَاءَهُ، فَصلَّى رَكعَتَينِ ثُمَّ سَلَّمَ وَسَلَّمْنَا حِينَ سَلَّمَ، فَحَبَسْتُهُ عَلَى خَزِيرَةٍ[3] تُصْنَعُ لَهُ، فَسَمِعَ أهلُ الدَّارِ أنَّ رَسُول الله صلى الله عليه وسلم في بَيْتِي فَثَابَ رِجالٌ مِنْهُمْ حَتَّى كَثُرَ الرِّجَالُ في البَيْتِ.

فَقَالَ رَجُلٌ[4]: مَا فَعَلَ مَالِكٌ لا أرَاهُ ! فَقَالَ رَجُلٌ[5]: ذلِكَ مُنَافِقٌ لا يُحِبُّ اللهَ ورسولَهُ، فَقَالَ رَسُول الله صلى الله عليه وسلم: **((لا تَقُلْ ذلِكَ، ألاَ تَرَاهُ قَالَ: لا إلهَ إلاَّ الله يَبْتَغي بذَلِكَ وَجهَ الله تَعَالَى))** فَقَالَ: اللهُ ورسُولُهُ أعْلَمُ، أمَّا نَحْنُ فَوَاللهِ مَا نَرَى وُدَّهُ وَلاَ حَدِيثَهُ إلاَّ إِلَى المُنَافِقِينَ! فَقَالَ رَسُول الله صلى الله عليه وسلم: **((فإنَّ الله قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لا إلهَ إلاَّ الله يَبْتَغِي بذَلِكَ وَجْهَ الله))** مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[6].

---

(١) لفظ البخاري: (من) والمثبت لفظ الحميدي في جمعه ١/ ٤٢٢، رقم ٦٩٩.

(٢) عند البخاري زيادة: (عليٌّ).

(٣) لفظ البخاري: (خزير).

(٤) عند البخاري زيادة: (منهم).

(٥) عند البخاري زيادة: (منهم).

(٦) أخرجه البخاري ١١٨٦ واللفظ له، ومسلم ٣٣/٢٦٣، كتاب المساجد، باب ٤٧، عقب الحديث رقم ٦٥٧/٢٦٢. وسيكرره برقم ١٥٣١.

ترجمة الراوي:

أبو موسى الأشعري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨).

عِتبان بن مالك: هو عِتبان بن مالك بن عمرو بن العجلان بن زيد الأنصاري الخزرجي السالمي.

كان من أهل المدينة الذين وسعوا المهاجرين من مكة وقد تركوا أموالهم ودورهم وكل ما يملكون، ابتغاء وجه الله وفرارًا بدينهم -وسعوهم لما قدموا المدينة بأنفسهم وأموالهم ودورهم وطعامهم وآثروهم على أنفسهم، فآخي النبي ﷺ بينه وبين الفاروق عمر بن الخطاب.

وشارك في الدفاع عن دولة الإسلام ورَفْع رايتها عالية، فشهد غزوة بدر، يوم الفرقان يوم نصر الله جنده وأعزهم وهزم الأعداء وأذلهم. وكان يؤم قومه بني سالم لكنه تعذر عليه أن يصلي بهم في مسجدهم بسبب ذهاب بصره والمطر والظلام، فطلب من النبي ﷺ أن يأتيه في بيته يصلي في مكان يتخذه مصلىً له كما في الحديث المذكور رقم (٤٢٢) وظلّ بالمدينة، وقد روى عنه الصحابيان أنس بن مالك ومحمود بن الربيع وتوفي في خلافة معاوية بن أبي سفيان[١].

غريب الألفاظ:

بدر: هي الغزوة التي كانت بين المسلمين وقريش في رمضان ٢هـ[٢].

اشتد النهار: أي علا وارتفعت شمسه[٣].

---

(١) الطبقات الكبرى، ابن سعد ٥٥٠/٣ والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٥٨٦، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود ٥٥١/٣ والإصابة في تمييز الصحابة، ابن العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ٨٨٠، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين ٩٣/٥ تهذيب التهذيب، ابن حجر ٥٠/٣.

(٢) أطلس الحديث النبوي ٦٥.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ش د د).

الخزيرةُ: دقيق يُطبخ بشحم(١).

فَثَابَ رجالٌ: جاؤوا واجتمعُوا(٢).

وُدَّهُ: حُبَّهُ(٣).

الشرح الأدبي

الحديث يبين جانباً من رفق الرسول بأمته، ودماثة خلقه، وحرصه على سلامة صدورهم، وفضل كلمة التوحيد، ومما يدل على رفقه بأمته سرعة إجابته للرجل الذي أراد أن يتخذ مسجداً في بيته بسبب ضعفه، وصعوبة طريقه، وقوله (أنكرت بصري) كناية عن ضعف بصره أو عماه، وقول الرسول ﷺ - (سأفعل) فالسين تدل على المستقبل القريب، والفعل المضارع يدل على الحضور، وقول الرجل (فغدا رسول الله ﷺ) يدل على سرعة إجابته كما يدل قوله (- فَأَذِنْتُ لَهُ، فَلَمْ يَجْلِسْ حَتَّى قَالَ: ((أَيْنَ تُحِبُّ أَنْ أُصَلِّيَ مِنْ بَيْتِكَ؟) على كمال أدب النبي ﷺ قولاً، وفعلاً حيث إنه لم يجلس حتى أذن له، وأشار إلى المكان الذي يريده أن يجلس فيه، وكذلك تعبير الرجل بقوله (فحبسته) يدل على لينه مع أصحابه، وتواضعه الجم، ويؤكد ذلك قول الصحابي (على خزيرة تصنع له) وهو طعام بسيط، وشهوده الحوار الذي دار بين الرجال في الدار حيث قال أحدهم (: مَا فَعَلَ مَالِكٌ لا أَرَاهُ !) وهو استفهام تعجب تلوح منه سخرية، واستهزاء، وقول الآخر (: ذلِكَ مُنَافِقٌ لا يُحِبُّ الله ورسولَهُ)خبر أريد به تقرير مضمونه، وهو لون من الرجم بالغيب، وغفلة عن أثر كلمة التوحيد، ولذلك جاء نهي الرسول ﷺ (لا تَقُلْ ذلِكَ)، واستخدامه اسم الإشارة للبعيد مع قربه في الحديث تعظيماً للفعل، تلاه استفهام تنبيه، وتعليم، (ألاَ تَرَاهُ قَالَ: لا إلهَ إلاَّ الله) وقوله: (يَبْتَغي بذَلِكَ وَجهَ الله تَعَالَى) تكميل بلاغي أفاد نكتة زائدة عن مضمون الكلام السابق، تفيد كونه مخلصاً وقول الرجل (أمَّا نَحْنُ فَوَاللهِ مَا نَرَى وُدَّهُ وَلاَ حَديثَهُ إلاَّ إلَى المُنَافِقينَ!) فيه دلالة على إصراره على ما

---

(١) رياض الصالحين ٢٠٨.

(٢) رياض الصالحين ٢٠٨.

(٣) القاموس المحيط، الفيروزآبادي ، الفيروزآبادي في (و د د).

اعتقده فيه فجاءت عبارة النبي ﷺ مبنية على التوكيد (فإِنَّ اللَّه قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لا إِلهَ إلاَّ اللَّه يَبْتَغِي بذَلِكَ وَجْهَ اللَّه) ليؤكد أثر كلمة التوحيد، وفضلها على العبد بتحريمه على النار، ومن ثم فليس له إلا الجنة.

فقه الحديث

هذا الحديث يشير إلى الأحكام الفقهية التالية:

١- إمامة الزائر للمزور: وفيه خلاف بين الفقهاء، فذهب أكثر أهل العلم إلى جواز إمامة الزائر للمزور إذا أذن له، بينما ذهب إسحاق إلى أن صاحب المنزل أحق بالإمامة من الزائر، فلا يصلي أحد بصاحب المنزل وإن أذن له، لكن هذا لا يجوز لأن الإمامة حق له فله نقلها إلى من شاء ولا بأس بنقلها قاله أحمد[(١)].

٢- إمامة الأعمى: وهي صحيحة بالإجماع إلا ماحكي عن أنس أنه قال: "ما حاجتهم إليه"[(٢)] وقول ابن عباس كيف أؤمهم وهم يعدلونني إلى القبلة؟[(٣)] والصحيح عنه أنه كان يؤم وهو أعمى[(٤)].

٣- التخلف عن الجماعة: اتفق الفقهاء على جواز التخلف عن الجماعة للعذر نحو المطر والظلمة أو الخوف على نفسه، أما من تخلف لغير عذر فقد بخس نفسه حظها[(٥)].

---

(١) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، الشوكاني ١٦٨/٣، والاستذكار ٣٦٠/٢، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، علاء الدين أبي بكر الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٦٧٤/١، وحاشية الخرشي ٤٩٠/٤، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ١٧٠/٢، ومغني المحتاج ٢٤٤/١، ودقائق أولي النهى ٢٧١/١.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ٢١٥/٢.

(٣) أخرجه عبدالرزاق ٣٩٦/٢ رقم ٣٨٣٣، وابن أبي شيبة ٢١٥/٢. كما روى ابن أبي شيبة الكراهة عن سعيد بن جبير.

(٤) الإجماع لابن المنذر ٩، والمبسوط ٤٠/١، وبداية المجتهد ٢٢١/١، الأم، الإمام الشافعي ٢٩٣/١، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ١٦٠/٢. وقد كره الحنفية والحنابلة إمامة الأعمى إلا أن يكون أعلم القوم فلا كراهة. وانظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢١١/٦-٢١٢، ٢٩٧/٣٠.

(٥) الاستذكار ٣٦١/٢، وعمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني ١٦٥/٤، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٣٨٠/٣، وحاشية الخرشي ٣٣/٥، وروضة الطالبين وعمدة المفتين، الإمام النووي، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، وعلي محمد معوض ١٢٦/١، والشرح الكبير ٨٣/٢ وما بعدها.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على الاستزادة من الخير والبركة بأفعال النبي صلى الله عليه وسلم والاقتداء به.

ثانيًا: من واجبات الداعية: الاستجابة للرغبة المشروعة للمدعوين.

ثالثًا: من صفات الداعية: التواضع واحترام رغبة المدعو.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: النهي عن اتهام الناس بالنفاق.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: فضل شهادة التوحيد.

سادسًا: من مهام الداعية: بيان الحقائق للمدعوين.

أولاً- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على الاستزادة من الخير والبركة بأفعال النبي صلى الله عليه وسلم والاقتداء به:

إن الرسول الكريم هو الأسوة الحسنة للأمة جميعًا ولقد كان الصحابة الكرام أشد الناس حرصًا على اتباع هدي النبي صلى الله عليه وسلم والاقتداء به ويتضح هذا من طلب عتبان بن مالك رضي الله عنه من النبي صلى الله عليه وسلم "أن يصلي في بيته، ويتضح أيضًا من اجتماع الرجال في بيت عتبان للقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم" قال النووي: (وفي الحديث التبرك بالصالحين وآثارهم والصلاة في المواضع التي صلوا بها وطلب التبريك منهم وفيه: أنه يستحب لأهل المحلة وجيرانهم إذا ورد رجل صالح إلى منزل بعضهم أن يجتمعوا إليه ويحضروا مجلسه لزيارته وإكرامه والاستفادة منه)[1].

وقال ابن عثيمين: (ومن فوائد هذا الحديث محبة الصحابة رضي الله عنهم للرسول صلى الله عليه وسلم والجلوس إليه لأنهم لما علموا أنه عند عتبان بن مالك ثابوا إليه، واجتمعوا عنده ليتعلموا منه، وينالهم من بركة علمه)[2]. ومما لاشك فيه أن الرسول الكريم هو القدوة لكل المسلمين قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٤٦٧، ٤٦٨.

(٢) شرح رياض الصالحين ٧٦٥/١.

﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[(١)] وحرص الصحابة رضي الله عنهم على اللقاء برسول الله والاستزادة منه لأن في اتباعه رضا الله ومحبته قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[(٢)].

(وأكبر دليل على صدق الحب لرسول الله هو طاعته واتباعه والاقتداء به واستعمال سنته واتباعه أقواله وأفعاله، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه والتأدب بآدابه في عسره ويسره، ومنشطه ومكرهه فالاتباع هو دليل المحبة الأول وشاهدها الأمثل، وهو شرط صحة هذه المحبة وبدونه لا تتحقق المحبة الشرعية ولا تتصور بمعناها الصحيح)[(٣)] ومن هنا وجب على الدعاة الهداة دعوة المسلمين إلى وجوب متابعة النبي ﷺ والاقتداء به لسعادة الدنيا والآخرة.

ثانيًا- من واجبات الداعية: الاستجابة للرغبة المشروعة للمدعوين:

يتضح هذا من قول النبي ﷺ "سأفعل" وفي تصرف النبي ﷺ استجابة لرغبة مشروعة من أحد المدعوين، ولاشك أن هذا يؤثر تأثيرًا بالغًا في نفس المدعو عندما يشعر بالاهتمام من الداعية والاستجابة لطلبه، ومن ثم يستجيب المدعو للنصيحة والإرشاد (إن من حق المدعو على الداعي أن يهتم به ويشعره بذلك الاهتمام، ويدفعه إلى أن يستمع له ويتجاوب معه، وإذا شعر المدعو باهتمام الداعي فإن الاستجابة غالبًا ما تكون إيجابية، وبذلك يصل الداعي إلى هدفه الذي يسعى لتحقيقه)[(٤)].

قال ابن عثيمين: (وفي هذا الحديث فوائد:

منها: أن من كانت حاله مثل حال عتبان بن مالك، فإنه معذور بترك الجماعة وله أن يصلي في بيته، مثل أن يكون بينه وبين المسجد وادٍ لا يستطيع العبور معه، فإنه معذور.

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

(٢) سورة آل عمران، آية: ٣١.

(٣) محبة الرسول بين الاتباع والابتداع، عبدالرؤوف محمد عثمان، ص ٦٦، ٦٧.

(٤) قواعد الدعوة الإسلامية، د. حمدان الهجاري، ٤١٤.

ومنها: جواز قول الإنسان سأفعل في المستقبل، إذا قال ستأتينا غدًا، قال: سآتيك وإن لم يقل إن شاء الله. فإن قال قائل: ما الجمع بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾[1]، لشيء: عام سواء من فعل الله أو من فعلك؟

قلنا: إن الذي يقول سآتيك غدًا له نيتان:

النية الأولى: أن يقول هذا جازمًا بالفعل، فهذا لا يقوله إلا أن يقول إن شاء الله؛ لأنه لا يدري أيأتي عليه الغد أو لا، ولا يدري هل إذا أتى عليه الغد يكون قادرًا على الإتيان إليه أو لا، ولا يدري إذا كان قادرًا، يحول بينه وبينه مانع أو لا.

النية الثانية: إذا قال: سأفعل، يريد أن يخبر عما في قلبه من الجزم دون أن يقصد الفعل؛ فهذا لا بأس به؛ لأنه يتكلم عن شيء حاضر، مثل: لو قيل لك: هل ستسافر مكة؟ قلت: نعم سأسافر، تريد أن تخبر عما في قلبك من الجزم، هذا شيء حاضر حاصل، أما إن أردت الفعل، أنك ستفعل يعني سيقع منك هذا، فهذا لا تقل فيه سأفعل إلا مقرونًا بمشيئة الله.

ومنها: أن الإنسان يعذر بترك الجماعة فيما إذا كان بينه وبين المسجد ما يشق عليه من وحل أو ماء أو غيره، وقد كان من هدي النبي ﷺ أنه كان ينادي مناديه في الليلة المطيرة؛ أن صلوا في رحالكم، يعني في أماكنكم، وذلك من أجل أن لا يشق على الناس، فأما إذا كان ماء بلا مشقة وبلا دحر ووحل؛ فإنه لا يعذر الإنسان بترك الجماعة.

ومن فوائد حديث عتبان بن مالك رضي الله عنه: أن المصلي الذي يكون في البيت لا يكون له حكم المسجد، فلو أن الإنسان اتخذ مصلى في بيته لا يصلي إلا فيه، فليس بمسجد، سواء حجره أو لم يحجره.

---

(١) سورة الكهف، آية: ٢٣-٢٤.

وعلى هذا فلا تثبت له أحكام المسجد؛ فيجوز للإنسان أن يبقى فيه وهو جنب، وإذا جلس فيه لا يلزمه تحية المسجد، فكل أحكام المسجد لا تثبت له، وإذا أراد أن يعتكف فيه؛ لم يصح اعتكافه. حتى لو كانت امرأة ولها مسجد في بيتها، فإنها لا تعتكف فيه.

ومن فوائد حديثه رضي الله عنه: أنه يجوز أن تقام الجماعة في النوافل؛ لكن ليس دائمًا بل أحيانًا، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لما أراه عتبان المكان الذي يصلي فيه، تقدم وصلى بهم ركعتين وصلوا خلفه، فإذا صلى الإنسان الراتبة مثلاً أو سنة الضحى، إذا صلاها جماعة؛ فلا بأس بذلك أحيانًا.

وثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه صلى معه ابن عباس رضي الله عنهما صلاة الليل، وصلى معه ابن مسعود، وصلى معه حذيفة، لكن ليس دائمًا. فصلاة الجماعة نفلاً أحيانًا لا بأس بها.

ومن فوائد هذا الحديث: أنه لا بأس أن يتخذ الإنسان مصلى يعتاد الصلاة فيه في بيته، ولا يقال إن هذا مثل اتخاذ مكان معين في المسجد لا يصلي إلا فيه، فإن هذا منهي عنه، يعني ينهى الإنسان أن يتخذ في المسجد مكانًا لا يصلي إلا فيه، مثل أنه لا يصلي النافلة، لا تحية المسجد ولا غيرها إلا فيه، فإن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن استيطان كاستيطان البعير، يعني عن اتخاذ موطنٍ كأعطان الإبل، تأوي إليه وتبيت فيه.

ومن فوائد هذا الحديث: محبة الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم والجلوس إليه؛ لأنهم لما علموا أنه عند عتبان بن مالك ثابوا إليه، واجتمعوا عنده، ليتعلموا منه، وينالهم بركة علمه عليه الصلاة والسلام[1].

قال العلامة العيني: ذكر ما يستنبط منه من الأحكام والفوائد منها:

جواز إمامة الأعمى، ومنها جواز التخلف عن الجماعة للعذر نحو المطر والظلمة أو الخوف على نفسه، ومنها أن فيه إخبار المرء عن نفسه بما فيه من عاهة وليس يكون من الشكوى، ومنها جواز اتخاذ موضع معين للصلاة.

---

(١) شرح رياض الصالحين ٧٦٣/١ - ٧٦٥.

وأما ما جاء من النهي عن إيطان موضع معين من المسجد.

قلت: هو محمول على ما إذا استلزم رياء ونحوه.

ومنها أن فيه تسوية الصفوف.

وفيه جواز الإمامة بصاحب البيت، قال بعض أهل العلم: إذا أذن له فلا بأس أن يصلي به. وقال اسحق: لا يصلي أحد بصاحب المنزل وإن أذن له صاحب المنزل وكذلك صاحب المنزل لا يصلي بهم في المسجد إذا زارهم يقول ليصلي بهم رجل منهم.

وقال مالك: يستحب لصاحب المنزل إذا حضر فيه من هو أفضل منه أن يقدمه للصلاة.

وقد روي عن أبي موسى أنه أمر ابن مسعود وجذبه في داره.

وقال أبو البركات ابن تيمية: أكثر أهل العلم على أنه لا بأس بإمامة الزائر بإذن ربِّ المنزل.

وفيه أن المسجد المتخذ في البيوت لا يخرج عن ملك صاحبه بخلاف المسجد المتخذ في المحلة.

وفيه الوفاء بالعهد وفيه صلاة النافلة في جماعة بالنهار، وفيه إكرام العلماء إذا دعوا إلى شيء بالطعام وشبهه، وفيه التنبيه على أهل الفسق والنفاق عند السلطان.

وفيه أن السلطان يجب عليه أن يستثبت في أمر من يذكر عنده بفسق ويوجه له أجمل الوجوه، وفيه أن الجماعة إذا اجتمعوا للصلاة وغاب أحد منهم أن يسألوا عنه، فإن كان له عذر وإلا ظن به الشر وهو مفسر في قوله: لقد هممتُ أن آمر بحطب.

وفيه جواز استدعاء المفضول للفاضل لمصلحة الفرض، وفيه إمامة الزائر المزور برضاه وفيه أن السنة في نوافل النهار ركعتان.

وفيه جواز استتباع الإمام والعالم أصحابه، وفيه الاستئذان على الرجل في منزله وإن كان قد تقدم منه استدعاء، وفيه أنه يستحب لأهل المحلة إذا ورد رجل صالح إلى منزل بعضهم أن يجتمعوا إليه ويحضروا مجلسه لزيارته وإكرامه والاستفادة منه، وفيه الذبُّ عمن ذُكر بسوء وهو بريء منه.

قال السيوطي: قوله: (أين تحب أن أصلي من بيتك) فيه أنه لا بأس بملازمة الصلاة في موضع معين من البيت وإنما نهي عن ذلك في المسجد خوفا من الرياء[1].

---

(١) الديباج على مسلم (٢/٣٠٠).

ثالثًا- من صفات الداعية: التواضع واحترام رغبة المدعو:

إن من أهم صفات الداعية التواضع للمدعوين ولين الجانب لهم وخفض الجناح معهم وعدم التكبر عليهم، لأن التكبر من شأنه أن ينفر المدعوين. ويتضح هذا مما ورد في الحديث: "فحبسته على خزيرة تصنع له" وأيضًا قوله: "أين تحب أن أصلي من بيتك" قال ابن عثيمين: (ومن فوائد الحديث أن الرسول الكريم كان على جانب كبير من التواضع؛ لأن عتبان حبسه على خزيرة[١] وهي نوع من الطعام ليس بذلك الجيد، وهذا ولاشك أن فيه تواضعًا من رسول الله ﷺ)[٢]. وقد قال الله لنبيه: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[٣] وقال سبحانه لرسوله ﷺ: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ﴾[٤] (إن الله تعالى علّم نبيه كل ما يجعل منه الداعية الأول في العالم، وكان من جملة ما أرشده إليه التواضع فالتواضع فوق أنه تعبير دقيق عن العظمة الحقيقية قليل التكلفة على المستوى الشعوري والعمل فالمتواضع يبدو دائمًا أقل من حقيقته، وبذا فإنه يظل يكبر في أعين الناس دون جهد يبذل، ولو لم يكن في التواضع سوى جعل صاحبه قادرًا على جذب من هم أكثر تفوقًا منه لكان مكسبًا كبيرًا)[٥].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: النهي عن اتهام الناس بالنفاق:

يظهر هذا من قول النبي ﷺ لا تقل ذلك ألا تراه قال: "لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله" والنهي عن اتهام الناس بالنفاق لأنه عمل بالظن وقد نهى الله عنه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾[٦] وجاء في الحديث عن

---

(١) الخزيرة: لحم يقطع صغارًا، ويُصب عليه ماء كثير، فإذا نضج ذُرَّ عليه الدقيق، فإن لم يكن فيها لحم فهي عَصيدة، هي حسًا من دقيق ودَسَم، وقيل: إذا كان من دقيق فهي حَرِيرَ، وإذا كان من نخالة فهو خزيرة. انظر: النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير ص ٢٦٢.

(٢) شرح رياض الصالحين ٧٦٥/١.

(٣) سورة الحجر، آية: ٨٨.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

(٥) مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي، د. عبدالكريم البكار، ص ١٢٦.

(٦) سورة الحجرات، آية: ١٢.

أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((إيّاكم والظنَّ فإن الظنَّ أكذَبُ الْحديث))[1] والأصل أنه علينا الظاهر والله يتولى السرائر، قال ابن مفلح: (وحسن الظن بأهل الدين حسن، وقد جعل النبي الظن أكذب الحديث والمراد استمراء ظن السوء وتحقيقه وهو لا يجوز، قال ابن عبدالبر: قال عمر بن الخطاب: لا يحل لامرئ مسلم يسمع من أخيه كلمة يظن بها سوءًا وهو يجد لها في شيء من الخير مخرجًا وقال أيضًا: لا ينتفع بنفسه من لا ينتفع بظنه)[2].

خامسًا- من موضوعات الدعوة: فضل شهادة التوحيد:

حيث جاء في الحديث: "إن الله قد حرم النار على من قال لا إله إلا الله" وما من شك في أن هذه الكلمة لها فضل عظيم وشرف كبير وقد أمر الله بالعلم بها فقال سبحانه: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[3] ولذلك "فقد دلت الأحاديث الكثيرة، وأجمعت الأمة على أن كلمتي الشهادة: لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله هما الركن الأول للإسلام، وعليهما تبنى الأعمال، ولا يقبل أي عمل بدونهما ولذلك قال سفيان الثوري: لو أن اليقين وقع في القلب كما ينبغي لطار اشتياقًا إلى الجنة وهربًا من النار فأصل الإيمان هو التصديق بالقلب والإقرار باللسان[4].

ومعنى كلمة التوحيد "لا إله إلا الله" أنه لا معبود بحق إلا الله، ولا يلجأ العباد ويضرعون في كل ما ينوبهم إلا إلى الله.

(فالعلم بمعنى هذه الكلمة العظيمة شرط في نفع صاحبها في الآخرة ودخول الجنة، وإن كان العلم يتفاوت، ومراتبه تختلف فإن أصل العلم بمعنى كلمة التوحيد من إثبات للألوهية لله وحده ونفيها عمن دونه ركن من أركان الإيمان باطنًا لا يثبت

---

(١) أخرجه البخاري ٦٠٦٦، ومسلم ٢٥٦٣.

(٢) الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ٧٤/١.

(٣) سورة محمد، آية: ١٩.

(٤) معنى لا إله إلا الله، الزركشي، تحقيق علي محي الدين القره داغي، طبع اللجنة الوطنية بالعراق، بدون ذكر التاريخ ورقم الطبعة، ص ٣٥، ٣٦.

بدونه، وأما ظاهرًا فيجب إثبات الإسلام بنطقها وحمل أمر من ينطقها على السلامة حتى يتبين ما يناقضها)[١].

سادسًا- من مهام الداعية: بيان الحقائق للمدعوين:

حيث جاء في الحديث "إن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله" وما من شك في أن مهمة الدعاة الأولى هي بيان الحقائق ولقد أمر الله رسوله بذلك فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾[٢] وأخبره أنه أنزل عليه الذكر لتبيين الحقائق للناس فقال سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٣] وببيان الحقائق للمدعوين تقوم عليهم حجة البلاغ أمام الله يوم القيامة حتى لا يكون هناك عذر لمعتذر أنه لم تبلغه الدعوة.

قال الماوردي: (ومن آداب العلماء أن لا يبخلوا بتعليم ما يحسنون، ولا يمتنعوا من إفادة ما يعلمون، فإن البخل به لؤم وظلم، والمنع منه حسد وإثم، وكيف يسوغ لهم البخل بما منحوه جودًا من غير بخل، وأتوه عفوًا من غير بذل؟ أم كيف يجوز لهم الشح بما إن بذلوه زاد ونما وإن كتموه تناقص ووهى. ولو استن بذلك من تقدمهم، لما وصل العلم إليه، ولانقرض عنهم بانقراضهم. ولصاروا على مرور الأيام جهالاً وبتقلب الأحوال وتناقضها أرذالاً)[٤].

---

(١) التوحيد وأثره على العبيد، خميس السعيد محمد، ص ٨١.

(٢) سورة المائدة، آية: ٦٧.

(٣) سورة النحل، آية: ٤٤.

(٤) أدب الدنيا والدين، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي، تحقيق: مصطفى السقا ٨٧.

الحديث رقم (٤١٨)

٤١٨- وعن عمر بن الخطاب ﷺ، قَالَ: قدم[١] رَسُول الله ﷺ بسَبْيٍ فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ تَسْعَى[٢]، إِذْ وَجَدَتْ صَبيًا فِي السَّبْيِ أخَذَتْهُ فَأَلْزَقَتهُ ببَطْنِهَا فَأَرضَعَتْهُ، فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: **((أَتَرَوْنَ هذِهِ المَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟))** قُلْنَا: لاَ وَاللهِ. فَقَالَ: **((للهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هذِهِ بِوَلَدِهَا))** مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[٣].

ترجمة الراوي:

عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١).

غريب الألفاظ:

السبي: الأسرى[٤].

الشرح الأدبي

كان النبي ﷺ يستثمر كل شيء حوله، وكل حدث يقع ليقرر خلاله معنى من المعاني كما ورد في هذا في هذا الحديث الذي اتخذ من حنان الأم مثالاً تقريبياً لرحمة الله في مشهد عملي يقرره عن طريق القصة التي تتبعت المشهد من بدايته، وقوله (فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ تَسْعَى) يدل على أنها في ذل، وقوله تسعى يدل على الحركة الدءوب، وقوله بعدها (إِذْ وَجَدَتْ صَبياً فِي السَّبْيِ) استخدام (إذ) يوحي بالمفاجأة، والفعل (وجدت) يدل على البحث، والتنقيب، وأنها افتقدته، وقوله (أَخَذَتْهُ فَأَلْزَقَتهُ بِبَطْنِهَا فَأَرضَعَتْهُ) التعبير بالأخذ فيه التناول بسرعة، وتتابع الفاءات يدل على تسارع الأحداث مما يشي بشدة لهفة الأم إلى الصبي وقوله (فَقَالَ رَسُول الله ﷺ) يدل على مسارعة الرسول ﷺ لاستثمار الحدث، وهكذا يجب على كل داعية ناجح أن يتفاعل مع ما

---

(١) عند البخاري ومسلم زيادة: (على).

(٢) هذا لفظ البخاري، ولفظ مسلم: (تبتغي).

(٣) أخرجه البخاري ٥٩٩٩، ومسلم ٢٢/٢٧٥٤ واللفظ لمسلم.

(٤) معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ٢١٤، والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (س ب ي).

حوله من أحداث تقع في الأمة، وقد جاء استفهامه في غاية البراعة (أَتَرَوْنَ هـذِهِ المَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟) استفهام بمعنى الأمر أي أخبروني وفيه تنبيه إلى ما يريد تقريره، ولا ننسى أنه اختار نموذجاً أعلى للرحمة مما حوله، فاختار الأم مثال الوفاء، وفي تلك الحال التي يبلغ فيها تعلقها بصغيرها مداه، واختار الطرف الثاني، ولدها، وليس أي ولد، بل رضيع، وليس أي رضيع، بل رضيع كان مفقوداً في الأسر على وشك الهلاك، ثم إنها وجدته، فالتزمته، وضمته إلى صدرها ترضعه هذا الموقف تؤثر المرأة أن تؤخذ روحها، ولا يؤخذ ابنها، فما بالك إذا كانت تعلم أنه سيلقى في النار؟، فضلا عن كونها تلقيه بنفسها، ثم إنه عبَّر بالطرح، وهو إلقاء المهمل، وبعد أن رسَّخ هذا المعنى في أذهانهم فضل عليه رحمة الله (للَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هـذِهِ بِوَلَدِهَا) فعبَّر بأفعل التفضيل، ولفظ العباد، وأضافهم لنفسه تشريفاً، واستخدم إشارة القريب لتمييز الأم أكمل تمييز، وذكر الولد، وأضافه إليها، والصورة تقرب للأذهان مدى عظمة رحمة الله تعالى - التي تملأ القلب طمأنينة، وإقبالاً عليه -والحمد لله على رحمته-.

فقه الحديث

١- جواز النظر إلى النساء المسببات، لأن النبي ﷺ لم ينه عن النظر إلى المرأة المذكورة، بل في سياق الحديث ما يقتضي إذنه في النظر إليها.

٢- وفيه: ضرب المثل بما يدرك بالحواس، لما لا يدرك بها، لتحصيل معرفة الشيء على وجهه، وإن كان الذي ضرب به المثل لا يحاط بحقيقته لأن رحمة الله لا تدرك بالعقل، ومع ذلك فقر بها النبي ﷺ للتابعين بحال المرأة المذكورة[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التمثيل، والاستفهام.

ثانيا: من موضوعات الدعوة: بيان رحمة الله بعباده.

ثالثًا: من مهام الداعية: البيان والتوضيح بضرب المثل.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠/٤٣١.

أولاً- من أساليب الدعوة: التمثيل، الاستفهام:

١- التمثيل: حيث جاء في الحديث تمثيل رحمة الله برحمة الأم لولدها، ولله المثل الأعلى، ومما لا شك فيه أن أسلوب التمثيل يعمل على استحضار الصورة في الذهن كأنها ماثلة أمام العين، ويساعد على الإقناع بتقريب المعاني البعيدة، يقول الشيخ علي محفوظ: (وللتمثيل أثناء العظة أكبر الآثار في النفوس فإن المقصود من ضرب الأمثال والتمثيل أنها تؤثر في العقول ما لا يؤثره وصف الشيء ذاته ذلك بأن الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي، والغائب بالشاهد فيتأكد الوقوف على ماهيته، ويصير الحس مطابقًا للعقل، وذلك هو النهاية في الإيضاح)(١).

٢- الاستفهام: حيث جاء في الحديث "أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار" وأسلوب الاستفهام من الأساليب التي تثير انتباه المدعو وتجذبه إلى متابعة الداعية وما أكثر الأساليب الحوارية الاستجوابية التي انتهجها نبي الرحمة محمد ﷺ مع أصحابه رضوان الله عليهم، حيث كان يدعوهم إلى الله ويربيهم التربية المثلى. وما هذا إلا ليثير انتباههم ويحرك فطنتهم وذكاءهم، ويذهب مللهم وسآمتهم، ويصب في مشاعر أحاسيسهم معين المعرفة وسلسبيل الهدى(٢).

وفي هذا الحديث منهج الحوار بالسؤال والجواب والتمهيد للقول الصواب، وفيه أيضًا الاستفادة من مشهد المرأة التي تبحث عن صبي لها وهم في السبي فلما رأته احتضنته فأرضعته، ولاشك أنه مشهد مليء بالحنان والرحمة، ومن خلال هذا المشهد طرح النبي ﷺ ذلك السؤال الحكيم للتعليم، وقد أجاب الصحابة رضي الله عنهم بثقة وتأكيد، ثم بين النبي ﷺ لهم ما يريد أن يبشرهم من هذه الرحمة العظمى.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: بيان رحمة الله بعباده:

في هذا الحديث بيان لشدة رحمة الله تعالى بعباده أجمعين، لأن رحمة الأم برضيعها معروفة، وهي مع شدة رحمتها برضيعها فإن الله تعالى أرحم بعباده أكثر وأكثر؛ لأن

---

(١) هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة، ص ١٧٧-١٧٨.

(٢) صفات الداعية، د. حمد العمار، ص٩٧

هذه الرحمة التي تتصف بها الأم هي منبثقة من رحمة الله عز وجل، وهي رحمة واحدة من مائة رحمة؛ لأنه سبحانه أنزل رحمة واحدة يتراحم فيها الخلائق والبهائم والهوام، وأخَّر تسعًا وتسعين رحمة للآخرة، ومن هنا يتبين الفرق الشاسع بين رحمته سبحانه وتعالى بعباده وبين رحمة الأم برضيعها. وفي ذلك أمل عظيم برجاء رحمته سبحانه، من أجل ذلك ساق المصنف هذا الحديث عند هذا الباب ألا وهو باب الرجاء.

إن رحمة الله تسع الخلق أجمعين فهو سبحانه رحيم بعباده وقد جاء في الحديث "لله أرحم بعباده من هذه بولدها، قال ابن حجر: قال الشيخ أبو محمد بن أبي جمرة: لفظ العباد عام ومعناه خاص بالمؤمنين وهو كقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾[1] فهي عامة من جهة الصلاحية وخاصة بمن كتبت له قال: ويحتمل أن يكون المراد أن رحمة الله لا يشبهها شيء لمن سبق له منها نصيب من أي العباد كان حتى الحيوانات وفيه: إشارة إلى أنه ينبغي للمرء أن يجعل تعلقه في جميع أموره بالله وحده، وأن كل من فرض أن فيه رحمة ما حتى يقصد لأجلها فالله سبحانه وتعالى أرحم منه فليقصد العاقل لحاجته، من هو أشد له رحمة[2].

وقال ابن عثيمين: وهذا الحديث من تمام رحمة الله تعالى وآيات ذلك كثيرة منها: هذه النعم التي تترى علينا وأعظمها نعمة الإسلام، فإن الله تعالى أضل عن الإسلام أممًا، وهدى عباده المؤمنين لذلك وهى أكبر النعم، ومنها: أن الله أرسل الرسل إلى الخلق مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس حجة بعد الرسل[3]. قال ابن القيم: (الرحمة سبب واصل بين الله عز وجل وبين عباده بها أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه وبها هداهم، وبها يسكنهم دار ثوابه، وبها رزقهم وعافاهم وأنعم عليهم فبينهم وبينه سبب العبودية، وبينه وبينهم سبب الرحمة)[4].

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٥٦.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٤٥/١٠.

(٣) شرح رياض الصالحين ٧٦٨/١.

(٤) بدائع التفسير، ابن القيم، جمع وتوثيق، يسري السيد محمد، ص ١٤١/١.

والمؤمنون دائمًا يطلبون الرحمة من الله تعالى قال سبحانه: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾(١)، وقال سبحانه: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾(٢) وبين سبحانه أن المؤمنين دائمًا يرجون رحمة الله فقال جل شأنه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٣) وذكر جل شأنه أن من دعاء الملائكة ما جاء في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾(٤) وأرشد سبحانه أن رحمته يختص بها من يشاء، فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾(٥) وقال جل شأنه: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا﴾(٦)، وذكر أن المؤمنين في الجنة في رحمة الله قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾(٧).

ويستنبط من الحديث بأن الله تعالى أيضًا لا يريد أن يعذب عباده كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا﴾(٨).

---

(١) سورة آل عمران، آية : ٨.

(٢) سورة المؤمنون، آية: ١١٨.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢١٨.

(٤) سورة غافر، آية: ٧.

(٥) سورة البقرة، آية : ١٠٥.

(٦) سورة الإنسان، آية : ٣١.

(٧) سورة آل عمران، آية : ١٠٧.

(٨) سورة الفرقان، آية: ٧٧.

قال العيني: (وقوله في الحديث: "إذا وجدت صبيًا إلى قوله فقال" لنا معناه إذا وجدت صبيًا أخذته فأرضعته، فوجدت صبيًا فأخذته فألزمته بطنها وعلم من هذا أنها كانت فقدت صبيًا وكانت إذا وجدت صبيا أرضعته ليخف عنها اللبن، فلما وجدت صبيها بعينه أخذته فالتزمته وألصقته ببطنها من فرحها بوجدانه.

قوله: "لله" اللام فيه للتأكيد وهي مفتوحة، وصرح بالقسم في رواية الإسماعيلي فقال "والله أرحم" إلى آخره. قوله: "بعباده" قيل لفظ العباد عام ومعناه خاص بالمؤمنين والظاهر أنها على العموم لمن سبق له منها نصيب)[1].

ثالثًا- من مهام الداعية: البيان والتوضيح بضرب المثل:

إن مهمة البيان والإيضاح من أبرز المهام المنوطة بالداعية، وقد جاء في الحديث "لله أرحم بعباده من هذه بولدها": (فقد بين النبي ﷺ: رحمة الله بعباده ولطفه بهم من خلال التمثيل بالمرأة التي ألزقت الصبي ببطنها، وقال أترون هذه طارحة ولدها في النار) قال ابن حجر: (وفيه ضرب المثل بما يدرك بالحواس لما لا يدرك بها لتحصيل معرفة الشيء على وجهه، وإن كان الذي ضرب المثل لا يحاط بحقيقته لأن رحمة الله لا تدرك بالعقل، ومع ذلك فقربها النبي ﷺ للسامعين بحال المرأة المذكورة)[2].

ومن خلال هذا فعلى الداعية الحصيف أن يبين مادته العلمية، وموضوعاته الدعوية للمدعوين من خلال الطرق البيانية لتكون الصورة واضحة أمام المدعوين ويعرفوا المراد مما يقول: (ومن عناصر الجمال الأدبي الرفيع في الكلام ضرب الأمثال، بشرط أن تتوافر فيها الشروط الفنية للأمثال، وتستجمع الشروط الأساسية العامة للكلام البليغ، ويشترط في ضرب المثل أن يكون له غرض بياني، لا أن يكون مجرد عبث في القول. ومن أهداف الأمثال تقريب صورة الممثَّل له إلى ذهن المخاطب عن طريق المثل، والإقناع بفكرة من الأفكار، وهذا الإقناع قد يصل إلى مستوى إقامة الحجة البرهانية، وقد يقتصر على مستوى إقامة الحجة الخطابية، وقد يقتصر على مجرد لفت

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني ١٠٢/٢٢.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني: ٤٤٦/١٠

النظر إلى الحقيقة عن طريق صورة مشابهة)[1].

ومن ثم كان من أبرز مهام الداعية البيان والتوضيح للمدعوين حتى تتضح لهم الأمور، وتكتمل لديهم الصورة.

(١) مبادئ في الأدب والدعوة، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، ١١٩.

الحديث رقم (٤١٩)

٤١٩- وعن أَبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: ((**لَمَّا خَلَقَ الله الخَلْقَ كَتَبَ في كِتَابٍ، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوقَ العَرْشِ: إنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبي**)) [(١)].

وفي رواية[(٢)]: ((**غَلَبَتْ غَضَبي**)) وفي رواية[(٣)]: ((**سَبَقَتْ غَضَبي**)) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

الحديث بيان لغلبة رحمة الرحمن على غضبه، هُوَ إِشَارَةٌ إِلَى سَعَةِ الرَّحْمَةِ وَشُمُولِهَا الْخَلْقَ كَمَا يُقَالُ غَلَبَ عَلَى فُلَانٍ الْكَرْمُ أَيْ هُوَ أَكْثَرُ خِصَالِهِ، وهو من فضل الله على خلقه، وقوله (خَلَقَ الله الخَلْقَ) فيه جناس يؤكد نسبة الفعل لله، كما بين كتب، وكتاب، وقوله (في كتاب) تأكيد للكتابة، وذكر الضمير (هو) للاختصاص أي عنده لا عند الملائكة، أو غيرهم، وفيه تشريف، وتعظيم لأمر هذا الكتاب، زاده رفعة، وتأكيداً بالظرف (عند) وإضافته لله، وارتقى به ذروة الشرف التي ليس فوقها مطمح في الرفعة بالظرف (فوق)، وإضافته للعرش، ثم إنه أكد المكتوب، وأضاف الرحمة إلى ذاته تعالى والتعبير بالمضارع (تغلب) يشير إلى الاستمرار، وصياغة المعنى بهذه الطريقة تفيد التأكيد على هذه الحقيقة تأكيداً لا يتصور معه تخلف.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار، التبشير.

ثانيا: من موضوعات الدعوة: معاملة الله لعباده بما هو أهله سبحانه وتعالى.

ثالثًا: من مهام الداعية: فتح أبواب الرجاء أمام المدعوين.

---

(١) أخرجه البخاري ٣١٩٤، ومسلم ٢٧٥١/١٤ واللفظ له.

(٢) للبخاري بالرقم الذي تقدم.

(٣) للبخاري ٧٤٢٢، و٧٤٥٣.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار، والتبشير:

١- الإخبار: أخبر النبي ﷺ في هذا الحديث بان الله تعالى لما خلق الخلق، كتب في كتاب عنده فوق العرش أن رحمته سبحانه سبقت غضبه وهذا مما يشرح صدور المدعوين ويبث فيهم التفاؤل والأمل في رحمة الله تعالى.

٢- التبشير: حيث جاء في الحديث "إن رحمتي تغلب غضبي"وكان التبشير بأن رحمة الله سبحانه تغلب غضبه، وفي هذا دافع نفسي يحرك النفس البشرية نحو الطاعة. وأسلوب التبشير من أساليب الدعوة التي تحبب النفس إلى الخير وفعله، ويسوق إليها المسرات فيشجعها ذلك على الطاعة والعبادة، والتبشير من الداعية للمدعو يحقق (انشراح الصدر وسعادة القلب، وسبب الاستقرار النفسي وراحة البال، وحب المبشر لمن يبشره واستئناسه به، وتجلب البشارة، الطمأنينة وسكون النفس وترفع الروح المعنوية، وتدلل على حصول الفرج بعد الشدة، كما أنها دليل كمال الإيمان وحسن الإسلام)[(١)].

ومن هذا يتضح أنه من واجب الداعية أن يستصحب في دعوته أسلوب التبشير والترغيب. " والترغيب هو كل ما يشوق المدعو إلى الاستجابة وقبول الحق والثبات عليه والقرآن الكريم مملوء بما يرغب الناس في قبول دعوة الإسلام. والأصل في الترغيب أن يكون في نيل رضى الله رحمته وجزيل ثوابه في الآخرة"[(٢)].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: معاملة الله لعباده بما هو أهله سبحانه وتعالى:

إن الله عز وجل يعامل عباده بالفضل لا بالعدل فهو أهل التقوى وأهل المغفرة ومما يدل على هذا ما جاء في الحديث "إن رحمتي تغلب غضبي" قال النووي: "ومنفعة العبد تسمى رضا ورحمة وإرادته عقاب العاصي وخذلانه تسمى غضبًا والمراد بالسبق والغلبة هنا: كثرة الرحمة وشمولها"[(٣)].

وقال الطيبي في بيان معاملة الله لعباده بالفضل لا بالعدل (وقضية هذا العالم، وهو

---

(١) موسوعة نضرة النعيم ٨١١/٣

(٢) أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان، ص ٤٣٧.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٦١١.

عالم العدل، إثابة المطيع وعقاب العاصي حسب ما يقتضيه العمل من خير أو شر، وذلك يستدعي غلبة الغضب على الرحمة، لكثرة موجبه ومقتضيه كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾[1] فيكون سعة الرحمة وشمولها على البرية وقبول إنابة التائب والعفو عن المشتغل بذنبه المنهمك فيه كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾[2] أمرًا خارجًا عنه، مترقيًا منه إلى عالم الفضل، وفي سبق الرحمة على الغضب إشارة إلى أن قسط الخلق منها أكثر من قسطهم من الغضب وأنها تنالهم من غير استحقاق، وأن الغضب لا ينالهم إلا باستحقاق فالرحمة تشمل الشخص جنينًا ورضيعًا وفطيمًا وناشئًا قبل أن يصدر منه شيء من الطاعة، ولا يلحقه الغضب: إلا بعد أن يصدر عنه من الذنوب ما يستحق معه ذلك)[3].

وقال ابن حجر: (إن الرحمة مقتضى ذاته المقدسة وأما الغضب فإنه متوقف على سابقة عمل من العبد الحادث، وعلى ذلك استمرت أحوال الأمم بتقديم الرحمة في خلقهم بالتوسع عليهم من الرزق وغيره ثم يقع بهم العذاب على كفرهم وأما ما أشكل من أمر من يعذب من الموحدين فالرحمة سابقة في حقهم أيضًا ولولا وجودها لخلدوا أبدًا)[4].

قال المناوي: (إن رحمتي تغلب غضبي أي غلبت عليه بكثرة آثارها، ألا ترى أن قسط الخلق من الرحمة أكثر من قسطهم من الغضب لنيلهم إياها بلا استحقاق، وأن قلم التكليف مرفوع عنهم إلى البلوغ ولا يعجل بالعقوبة عليهم إذا عصوه بل يرزقهم ويقبل توبتهم، وما تعلق بالرحمة والفضل أحب إليه من فعل ما يتعلق بالغضب)[5].

---

(١) سورة النحل، آية: ٦١.

(٢) سورة الرعد، آية: ٦.

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ١٢٢/٥

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٣٧/٦

(٥) فيض القدير شرح الجامع الصغير، المناوي ٢٥٩/٢.

قال العيني: (قوله: "لما قضى الله الخلق" أي لما أتمه كتب عنده أي أثبت في اللوح المحفوظ قيل صفاته تعالى قديمة كيف يتصور السبق بين الرحمة والغضب، وأجيب بأنهما من صفات الفعل لا من صفات الذات فجاز سبق أحد الفعلين على الآخر؛ وذلك لأن إيصال الخير من مقتضيات صفته بخلاف غيره فإنه بسبب معصية العبد)[1].

قال سليم الهلالي في فقه الحديث:

- دليل على علو الله على خلقه، وأنه فوق عرشه بائن من خلقه.

- إثبات صفتي الرحمة والغضب لله، ولا يجوز تأويلهما بإرادة الثواب والعقاب؛ لأنه خلاف منهج السلف الصالح من أهل السنة والجماعة والحديث.

- سعة رحمة الله بعباده كافة، وأن رحمته سبقت غضبه[2].

ثالثًا- من مهام الداعية: فتح أبواب الرجاء أمام المدعوين:

إن النفس البشرية تميل إلى الرجاء والترغيب والرحمة، ولذا فمن مهام الداعية الضرورية أن يفتح باب التوبة والرجاء أمام المدعوين ولا يقنطهم من رحمة الله قال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾[3]، وعن علي بن أبي طالب، قال: "إنَّ الفقيهَ حقَّ الفقه مَنْ لَمْ يُقَنِّطِ الناسَ من رحمةِ اللَّهِ، وَلَمْ يُرَخِّصْ لَهُمْ في معاصي اللَّهِ، ولم يُؤَمِّنْهُمْ من عذابِ اللَّهِ، ولم يَدَعِ القرآنَ رغبةً عنْهُ إلى غَيْرِهِ، إنَّهُ لاَ خيرَ في عبادةٍ لا علمَ فيها، ولا علمَ لا فَهْمَ فيهِ، ولا قراءَةَ لا تدَبُّرَ فيها"[4].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه مر على قاص يذكر النار فقال يا مذكر النار لا تقنط

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني ١٣٩/٢٥.

(٢) بهجة الناظرين شرح رياض الصالحين، سليم بن عيد الهلالي ٤٩٢/١.

(٣) سورة الزمر، آية: ٥٣.

(٤) أخرجه بن الضريس وابن بشران في أماليه كما في الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٦٧٩/١٢.

الناس ثم قرأ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾[(١)]، [(٢)].

ولقد جاء في سياق الحديث بأن رحمة الله تغلب غضبه وهذا ما يجب أن يفطن له الدعاة البدء بالرجاء قبل الخوف، والرحمة قبل العذاب، والتبشير قبل التنفير والرغبة قبل الرهبة.

قال المباركفوري: (ووجه المناسبة بين قضاء الخلق، وسبق الرحمة أنهم مخلوقون للعبادة شكرًا للنعم الفائضة عليهم، ولا يقدر أحد على أداء حق الشكر وبعضهم يقصرون فيه، فسبقت رحمته في حق الشاكر بأن وفي جزاءه وزاد عليه ما لا يدخل تحت الحصر وفي حق المقصر إذا تاب ورجع بالمغفرة والتجاوز)[(٣)].

---

(١) سورة الزمر، آية: ٥٣.

(٢) الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ١٢/ ٦٧٦.

(٣) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري ٩/ ٢٧٠.

الحديث رقم (٤٢٠)

٤٢٠- وعنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُول اللَّه ﷺ، يقول: ((جَعَلَ الله الرَّحْمَةَ مِئَةَ جُزْءٍ، فَأمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ، وَأنْزَلَ فِي الأرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ ذلِكَ الجُزءِ يَتَرَاحَمُ الخَلائِقُ، حَتَّى تَرْفَعَ الدَّابَّةُ حَافِرهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةَ أنْ تُصِيبَهُ)) [١].

وفي رواية [٢]: ((إنّ للهِ تَعَالَى مئَةَ رَحمَةٍ، أنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الجنِّ وَالإنس وَالبهائِمِ وَالهَوامِّ، فبها يَتعاطَفُونَ، وبِهَا يَتَرَاحَمُونَ، وبِهَا تَعْطِفُ الوَحْشُ عَلَى وَلَدِهَا، وَأَخَّرَ اللهُ تَعَالَى تِسعًا وَتِسْعينَ رَحْمَةً يرحَمُ بِهَا عِبادَهُ يَوْمَ القِيَامَة)) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ [٣].

ورواه مسلم [٤] أيضًا مِنْ رواية سَلْمَانَ الفارِسيِّ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُول اللَّه ﷺ: ((إنَّ للهِ تَعَالَى مِئَة رَحْمَةٍ فَمِنْهَا رَحْمَةٌ يَتَرَاحمُ بِهَا الخَلْقُ بَيْنَهُمْ، وَتِسْعٌ وَتِسعُونَ لِيَومِ القِيَامَةِ)).

وفي رواية [٥]: ((إنَّ الله تَعَالَى خَلَقَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاواتِ وَالأَرْضَ مِئَةَ رَحْمَةٍ كُلُّ رَحْمَةٍ طِبَاقُ مَا بَيْنَ السَّماءِ إلَى الأرْضِ، فَجَعَلَ مِنْهَا فِي الأرضِ رَحْمَةً فَبِهَا تَعْطفُ الوَالِدَةُ عَلَى وَلَدِهَا، وَالوَحْشُ وَالطَّيْرُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْض، فَإذا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ أكملَهَا بِهذِهِ الرَّحمَةِ)).

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨).

سلمان الفارسي: علم من أعلام الصحابة، فهو سلمان الخير، أبو عبدالله ابن الإسلام، وكان يسمي نفسه سلمان الإسلام، أصله من أصبهان، وقيل من رامَهُرْمُز، أخرج البخاري بسنده عن أبي عثمان قال سمعت سلمان يقول: (أنا من هرمز) [٦].

---

(١) أخرجه البخاري ٦٠٠٠، ومسلم ٢٦٥٢/١٧ واللفظ له.

(٢) أخرجه مسلم ٢٧٥٢/١٩ من حديث عطاء بن أبي رباح.

(٣) انظر: الجمع بين الصحيحين للحميدي ١٧/٣، رقم ٢١٨٣.

(٤) برقم ٢٧٥٣/٢٠.

(٥) أخرجه مسلم ٢٧٥٣/٢١.

(٦) أخرجه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب إسلام سلمان الفارسي، ص ٦٦٦، حديث رقم ٣٩٤٧.

سابق أهل أصبهان إلى الإسلام، أسلم عند قدوم النبي ﷺ المدينة، وكان قبل ذلك يقرأ الكتب، ويطلب الدين، فقرأ كتب الفرس والروم واليهود، فظل رضي الله عنه طيلة حياته باحثًا عن الدين الحق والملة السمحاء إلى أن هداه الله فهجر دين قومه وأبيه الذي كان دهقانًا لقومه أي رجل الدين عندهم، وكانوا على المجوسية فرغب عنها، ثم لحق بالنصارى، وكان قد سمع بأن النبي ﷺ سيبعث فخرج في طلب ذلك فتوجه إلى المدينة، وفي طريقه إليها استرقه البعض وباعوه في المدينة لرجل من اليهود من بني قريظة، فلما قدم النبي ﷺ مهاجرًا أتاه سلمان وأسلم، وكاتب مولاه اليهودي فأعانه النبي ﷺ حتى عتق وهو بهذا مولى المصطفى ﷺ، يحكى عما لاقاه من المشاق والتعرض للاسترقاق في رحلته للبحث عن الحق، كما جاء في البخاري بسنده عن سلمان الفارسي أنه تداوله بضعة عشر من ربٍّ إلى ربٍّ[1].

صحب النبي ﷺ وخدمه، وروى عنه، له في كتب الحديث ٦٠ حديثًا، أخرج البخاري منها أربعة، ومسلم ثلاثة.

آخى النبي ﷺ بينه وبين أبي الدرداء[2].

لازم النبي ﷺ وجاهد معه وأول مشاهده مع رسول الله ﷺ الخندق، وكان هو صاحب المشورة في حفره، وشهد بعدها المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وشهد فتوح العراق وَوُلِّي المدينة فأقام بها إلى أن مات.

وكان رضي الله عنه نبيلاً حازمًا لبيبًا عابدًا عاقلاً عالمًا، وكما وصفه علي بن أبي طالب لما سُئل عنه بقوله ((من لكم بمثاله لقمان الحكيم، ذلك امرؤ منا أهل البيت أدرك العلم الأول والعلم الآخر، وقرأ الكتاب الأول والكتاب الآخر بحْرٌ لا ينزف))[3].

كما كان لبيبًا عاقلاً ذا مشورة، ومن بين ما سجل له في ذلك الجانب ما قاله

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب إسلام سلمان الفارسي، ص ٦٦٦، رقم ٣٩٤٦.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع ولم ير عليه قضاءً إذا كان أوفق له، ص ٣١٦، رقم ١٩٦٨.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير ٦/٢١٣، ٢١٤ رقم ٦٠٤٢.

لأخيه أبي الدرداء مبينًا له أهمية الموازنة بين حقوق الله والنفس والأهل والناس روى البخاري بسنده عن عون بن أبي جحيفة عن أبيه قال: آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء فرأى أم الدرداء مُتَبَذِّلَةً، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعامًا، فقال له: كل، قال: إني صائم، قال: ما أنا بآكل حتى تأكل، قال: فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، قال نم، فنام، ثم ذهب يقوم فقال: نم، فلما كان من آخر الليل قال سلمان: قم الآن فَصَلَّيَا، فقال له سلمان: إن لربك عليك حقًا، ولنفسك عليك حقًا، ولأهلك عليك حقًا، فأعط كل ذي حق حقه، فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له، فقال له النبي ﷺ: صدق سلمان))[1].

وكان رضي الله عنه ورعًا يتصدق بعطائه مهما بلغ، وينسج الخوص، ويأكل من كسب يده.

أما عن عمره فكان رضي الله عنه من المعمرين، وقال ابن حجر في كتابه تهذيب التهذيب (وتبين لي أنه ما جاوز الثمانين)[2].

مات بالمدائن في خلافة عثمان سنة ٣٣، وقيل سنة ٣٦ وقيل في خلافة عليٍّ سنة ٣٧، وأقربها للصواب سنة ٣٣ في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه[3].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الصوم، باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع ولم ير عليه قضاءً إذا كان أوفق له ص ٣١٦ رقم ١٩٦٨، ص ١٠٦٩ رقم ٦١٣٩.

(٢) تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٦٩/٢.

(٣) الطبقات الكبرى، ابن سعد ٧٥/٤-٩٣، ١٦/٦، ٣١٨/٧، ٣١٩، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٢٩١-٢٩٣، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود ٥١٠/٢-٥١٥، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ٥٢١، ٥٢٢، وسير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ٥٠٥/١-٥٠٨، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين ٢٣٨/٣-٢٤١، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٦٨/٢، ٦٩، والأعلام، خير الدين الزركلي ١١١/٣، ١١٢، وعظماء حول الرسول ٩٢٦/٢-٩٣٨.

غريب الألفاظ:

الحافر من الدابة: ما يقابل القدم من الإنسان[١].

الهوامّ: جمع هامَّة: وهي الحشرات[٢].

الوحشُ: حيوان البرِّ[٣].

وطباق ما بين السماء والأرض: تملأ ذلك من كبرها وعظمها[٤].

الشرح الأدبي

الحديث يدور معناه حول سعة رحمة الله تعالى ويقوم على أسلوب الإجمال بعد التفصيل، وهو نوع من الإطناب يؤكد المعنى، ويوضح أبعاده عن طريق ذكره مرتين إحداهما مجملة وهي قوله (جَعَلَ اللهُ الرَّحْمَةَ مِئَةَ جُزْءٍ) ثم فصَّله بقوله (فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ، وَأَنْزَلَ فِي الأَرْضِ جُزْءاً وَاحِداً) ومن في قوله: (فمن ذلك الجزء) للتبعيض، واسم الإشارة للتعظيم، ويؤكده قوله (يتراحم الخلق) والتعبير بصيغة التفاعل للدلالة على تبادل الرحمة بينهم مما يبين عظمة هذا الجزء، وقوله (حَتَّى تَرْفَعَ الدَّابَّةُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ) كناية عن سعة الرحمة، وتمكنها، والتعبير بالدابة فيه مبالغة؛ لأنه إذا كان هذا حال غير العاقل فما الحال بالعاقل، والتعبير بالحافر يعني نوعية خاصة يضرب بها المثل في الغباء كالحمار وفصيله، والبقر، وفصيله من ذوات الحافر إشارة إلى أن هذا الجزء من الرحمة أثَّر حتى في أغبى الحيوانات، وفيه إشارة إلى أن مسألة الرحمة فطرة فطر الله الخلق عليها، وليس لها مرجع إلى العقل، وتعبيره بالخشية إشارة إلى لون مخصوص من الخوف ممزوج بالمحبة، والتعبير بالأفعال المضارعة

(١) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ح ف ر).

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٦٥١.

(٣) القاموس المحيط، الفيروزآبادي ، الفيروزآبادي في (و ح ش).

(٤) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ، الفيروزآبادي في (ط ب ق)، والكليات معجم المصطلحات والفروق الفردية، أبو البقاء الكفوي، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري ٥٨٥، ودليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٦٥٢.

(ترفع - تصيبه) يستحضر الصورة التي تجسِّد عظيم الأثر لهذا الجزء، وصورة حافر الدابة معلق في الهواء تحته صغيرها، يقول بلسان الحال - تبارك الله أرحم الراحمين -

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار، والتوكيد.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الطمع والرجاء في رحمة الله تعالى.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: أهمية التراحم بين الخلائق.

رابعًا: من واجبات الداعية: بيان الحقائق للمدعوين.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار، والتوكيد:

١- الإخبار: حيث جاء في الحديث "جعل الله الرحمة مائة جزء" فبيّن النبي ﷺ بأن الله عز وجل رحمته واسعة ولذا كانت مائة جزء وأسلوب الإخبار من أساليب الدعوة، التي تعمل على بيان الحقائق للمدعوين، وفي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ بأن الله جعل الرحمة مائة جزء، وأن ما يتراحم به الخلائق ما هو إلا جزء من مائة جزء، حيث أمسك الله تعالى عنده تسعة وتسعين يرحم بها عباده يوم القيامة، ولاشك أن هذا الإخبار والبيان مما يشرح صدور المدعوين ويشعرهم بفضل الله تعالى على عباده المؤمنين، مما يؤدي إلى الإقبال على الله تعالى والعمل على مرضاته.

٢- التوكيد: حيث جاء في الحديث "إن لله تعالى مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة". وقد أكد النبي ﷺ كلامه بـ"إن" التي تفيد التوكيد للدلالة على صدق ما يقول من أن لله عز وجل مائة رحمة، والشاهد المحسوس من رحمة الخلائق بعضهم لبعض هي رحمة واحدة في الأرض. وأسلوب التوكيد يزيد من إقناع المدعو، ويدلل على مدى ثقة الداعية في نفسه، وفيما يطرح من موضوعات دعوية، وقد استخدم القرآن هذا الأسلوب ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾[١] وقوله جل شأنه: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾[٢] وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾[٣].

---

(١) سورة النبأ، آية: ٣١.

(٢) سورة القمر، آية: ٥٤.

(٣) سورة المرسلات، آية: ٤١.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: الطمع والرجاء في رحمة الله تعالى:

إن المسلم مطلوب منه دائمًا أن يطمع في رحمة الله، ويرجو ثوابه سبحانه. وقد جاء في الحديث "وأخر الله تسعًا وتسعين رحمة يرحم عباده يوم القيامة وفي رواية "فإذا كان يوم القيامة" أكملها بهذه الرحمة.

قال النووي: (هذه الأحاديث من أحاديث الرجاء والبشارة، للمسلمين قال العلماء؛ لأنه إذا حصل للإنسان من رحمة واحدة في هذه الدار المبنية على الأكدار، والإسلام والقرآن والصلاة والرحمة في قلبه، وغير ذلك مما أنعم الله تعالى به فكيف الظن بمائة رحمة في الدار الآخرة وهى دار القرار، ودار الجزاء، وقد وقع في الحديث جعل الله الرحمة مائة جزء)[١].

وقال ابن حجر: (المقصود من الرجاء أن من وقع منه تقصير فليحسن ظنه بالله، ويرجو أن يمحو عنه ذنبه، وكذا من وقع منه طاعة يرجو قبولها، وأما من انهمك في المعصية راجيًا عدم المؤاخذة بغير ندم ولا إقلاع فهذا في غرور، وما أحسن قول أبي عثمان الجيزي: من علامة السعادة أن تطيع، وتخاف أن لا تقبل، ومن علامة الشقاء أن تعصى، وترجو أن تنجو)[٢]. وقد قال الله تعالى في القرآن: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾[٣] وقال سبحانه: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ﴾[٤] وجاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد"[٥]، هذا ومن فوائد الرجاء

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٦١١.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٠١/١١

(٣) سورة الإسراء، آية: ٥٧.

(٤) سورة الزمر، آية: ٩.

(٥) أخرجه مسلم ٢٧٥٥.

والطمع في رحمة الله "أنه سبحانه يحب من عباده أن يؤملوه ويرجوه ويسألوه من فضله، وأن في الرجاء الانتظار والترقب والتوقع لفضل الله ما يوجب تعلق القلب بذكره، ودوام الالتفات إليه بملاحظة أسمائه وصفاته)[(١)].

إن هذا الحديث بشرى عظيمة للبشرية جميعًا تبشر بسعة رحمته سبحانه وتعالى، إنها فرصة للتائبين من الشرك والكبائر والذنوب، فأبواب رحمته في الدنيا مفتوحة على مصراعيها، ورحمته الكبرى في الآخرة قد أخرها للمؤمنين والتائبين.

وهذا الحديث يرسخ معالم الرجاء في الإنسان، لمعرفة سعة رحمة الله قال تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾[(٢)].

قال ابن حجر: (قال ابن أبي جمرة: خصَّ الفرس بالذكر لأنها أشد الحيوان المألوف الذي يعاين المخاطبون حركته مع ولده، ولما في الفرس من الخفة والسرعة في التنقل، ومع ذلك تتجنب أن يصل الضرر منها إلى ولدها.

ووقع في حديث سلمان عند مسلم في آخره من الزيادة فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة مائة، وفيه إشارة إلى أن الرحمة التي في الدنيا بين الخلق تكون فيهم يوم القيامة يتراحمون بها أيضا، وصرح بذلك المهلب فقال: الرحمة التي خلقها الله لعباده وجعلها في نفوسهم في الدنيا هي التي يتغافرون بها يوم القيامة التبعات بينهم، قال: ويجوز أن يستعمل الله تلك الرحمة فيهم فيرحمهم بها سوى رحمته التي وسعت كل شيء وهي التي من صفة ذاته ولم يزل موصوفًا بها فهي التي يرحمهم بها زائدًا على الرحمة التي خلقها لهم.

قال: ويجوز أن تكون الرحمة التي أمسكها عند نفسه هي التي عند ملائكته المستغفرين لمن في الأرض لأن استغفارهم لهم دال على أن في نفوسهم الرحمة لأهل الأرض.

---

(١) موسوعة نظرة النعيم ٥/٢٠٤٠

(٢) سورة الأعراف، آية: ١٥٦.

قلت: وحاصل كلامه أن الرحمة رحمتان رحمة من صفة الذات وهي لا تتعدد، ورحمة من صفة الفعل وهي المشار إليها هنا، ولكن ليس في شيء من طرق الحديث أن التي عند الله رحمة واحدة بل اتفقت جميع الطرق على أن عنده تسعة وتسعين رحمة وزاد في حديث سلمان أنه يكملها يوم القيامة مائة بالرحمة التي في الدنيا فتعدد الرحمة بالنسبة للخلق.

وقال القرطبي: مقتضى هذا الحديث أن الله علم أن أنواع النعم التي ينعم بها على خلقه مائة نوع فأنعم عليهم في هذه الدنيا بنوع واحد انتظمت به مصالحهم وحصلت به مرافقهم فإذا كان يوم القيامة كمل لعباده المؤمنين ما بقي فبلغت مائة وكلها للمؤمنين واليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾(١) فإن رحيمًا من أبنية المبالغة التي لا شيء فوقها، ويفهم من هذا أن الكفار لا يبقى لهم حظ من الرحمة لا من جنس رحمات الدنيا ولا من غيرها إذا كمل كل ما كان في علم الله من الرحمات للمؤمنين.

وقال ابن أبي جمرة: في الحديث إدخال السرور على المؤمنين لأن العادة أن النفس يكمل فرحها بما وهب لها إذا كان معلوما مما يكون موعودًا.

وفيه الحث على الإيمان واتساع الرجاء في رحمات الله تعالى المدخرة)(٢).

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: أهمية التراحم بين الخلائق:

جاء في الحديث ما يؤكد على أهمية التراحم بين الخلائق؛ لأن ذلك من موجبات رحمة الله تعالى حيث يرحم الله تعالى الرحماء من عباده يستنبط ذلك مما ورد في قوله ﷺ: "فمن ذلك الجزء يتراحم الخلائق" والرحمة بين الخلائق واجب إنساني وبها كانت الوصاية قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾(٣).

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٤٣.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠/٤٣٢-٤٣٣.

(٣) سورة البلد، آية: ١٧.

وجاء في الحديث عن عبدالله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن رسول الله ﷺ قال: ((الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ارْحَمُوا أَهْلَ الأَرْضِ يَرْحَمُكُم مَنْ فِي السَّمَاءِ))[1] وقال وعن جرير بن عبدالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: "لا يَرحمُ اللَّهُ مَن لا يَرحم الناسَ"[2].

وقال السعدي: (إن الشريعة كلها مبنية على الرحمة في أصولها وفروعها وفي الأمر بأداء الحقوق سواء كانت لله أو للخلق فإن الله لم يكلف نفسًا إلا وسعها، وإذا تدبرت ما شرعه الله عز وجل في المعاملات والحقوق الزوجية وحقوق الوالدين والأقربين، والجيران وسائر ما شرع الله، وجدت ذلك كله مبنيًا على الرحمة، فلقد وسعت الشريعة برحمتها وعدلها العدو والصديق، ولقد لجأ إلى حصنها الحصين الموفقون من الخلق)[3].

ولا شك أن الشريعة داعية إلى الرحمة بين الخلائق بكل صورها وأنواعها (إن الرحمة بالناس بل بالحيوان عاطفة شريفة وخليقة محمودة فالرحمة فضيلة، والقسوة رذيلة والرحمة تكون بالأبناء وأثرها تقبيل ومعانقة وتأديب وتربية وإجابة رغائب - مادامت في سبيل المصلحة- وإبعاد من الشر. وتكون بالآباء والأمهات وأثرها قول كريم، وصنع جميل وطاعة في غير معصية وخدمة صادقة، وتكون بالأقرباء وأثرها بر وصلة وزيارة ومودة وسعي في مصلحة ودفع لمضرة، وتكون بين الزوج وزوجه وأثرها عشرة بالمعروف، وإخلاص متبادل، وألا ترهقه بالطلبات ولا يكلفها بالمرهقات، بل يعاونها على شؤون المنزل وتربية الأولاد بالخدم ما دام في المال سعة أو بنفسه إن كان في وقته فضل، وتكون بأهل دينك، ترشدهم إلى الخير، وتعلمهم ما علمت، وتأخذ بهم عن اللمم إلى السبيل الأهم وتعمل لعزهم، ودفع المذلة عنهم، وتكون بالناس جميعًا فتحب لهم ما تحب لنفسك وتكره لهم ما تكره لها. وتكون بالحيوان فتقدم له أكله وشربه وتداوي جرحه، ولا تكلفه عسيرًا، ولا تحمله ثقيلاً. فإن كانت الرحمة خليقتك

---

(١) أخرجه أبو داود ٤٩٤١، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤١٣٢).

(٢) أخرجه البخاري ٧٣٧٦، ومسلم ٢٣١٩

(٣) الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة ٦١، ٦٢

رحمك الناس كما رحمتهم، وكانوا لك كما كنت لهم، ورحمك الرحمن الرحيم)[١].

رابعًا- من واجبات الداعية: بيان الحقائق للمدعوين:

إن الداعية لا يكتم شيئًا من حقائق الإسلام؛ لأنه يقتدي بالأنبياء في تبليغهم للوحي، وقد بين النبي ﷺ في الحديث أن الرحمة مائة جزء، وهكذا يجب أن يكون دور الداعية بيان حقائق الدين للمدعوين ليلتزموا بها، ولا يكون لهم حجة في عدم تبليغهم، أو حجة في جهلهم وعدم معرفتهم، قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[٢].

وقد جعل الله من أهم صفات الأنبياء أن يبلغوا الوحي ولا يكتمونه تبيينًا للحقائق للمدعوين، وإذا تأكد هذا في حق الأنبياء فإنه ينسحب كذلك على الدعاة إلى الله تعالى باعتبار أن العلماء ورثة الأنبياء وقد أمر الله بالبيان والتبليغ والإيضاح لحقائق الإسلام فقال سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٣].

قال أبو بكر جابر الجزائري: (والمراد بالتبليغ أن يبلغ الرسول كل ما أمر بتبليغه فلا يخفي منه شيئًا، ولا يكتمه بحال من الأحوال، فلا تحمله رغبة ولا رهبة على أن يكتم بعضًا مما أوحي إليه، وأمر بإبلاغه إلى الناس، والكتمان للوحي الإلهي يتعذر على المرسلين، ويستحيل في حقهم، ولا يتأتى لهم، لأن الله تعالى أهّلهم للبلاغ عنه ما أراده لعباده من الهدى والخير فمتى وجد الكتمان بطلت النبوة وانتفت الرسالة)[٤].

---

(١) الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي، ١٢٢-١٢٣.

(٢) سورة التغابن، آية: ١٢.

(٣) سورة النحل، آية: ٤٤.

(٤) عقيدة المؤمن ٢٦٢.

الحديث رقم (٤٢١)

٤٢١- وعنه[١]، عن النَّبيِّ ﷺ فيما يحكِي عن ربهِ تبارك وتعالى، قَالَ: ((**أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أذنَبَ عبدي ذَنبًا، فَعَلِمَ أنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فقَالَ تبارك وتعالى: أذنَبَ عبدِي ذَنبا[٢]، فَعَلِمَ أنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أيْ رَبِّ! اغفِرْ لِيْ ذَنْبِيْ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِيْ ذَنْبًا، فَعلِمَ أنَّ لَهُ رَبًّا، يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بالذَّنْبِ[٣]، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي فَلْيَفْعَلْ[٤] مَا شَاءَ**)) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[٥].

وقوله تَعَالَى: ((**فَلْيَفْعَلْ مَا شَاءَ**)) أيْ: مَا دَامَ يَفْعَلُ هكذا، يُذْنِبُ وَيَتُوبُ أغفِرُ لَهُ، فَإنَّ التَّوْبَةَ تَهْدِمُ مَا قَبْلَهَا.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

هذا الحديث بالحوار المحكي فيه بين العبد، وربه يحكي ضعف النفس البشرية أمام دواعيها وترديها في المعاصي (أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْباً) ولكن نفسه نفس لوامة لا يلبث صاحبها - بعد التلبث بالذنب - أن ينيب إلى الله (اللَّهُمَّ اغفِرْ لِي ذَنْبِي) ويحكي عظمة

---

(١) أي عن أبي هريرة.

(٢) لفظ مسلم: (عبدي أذنب ذنبًا).

(٣) إلى هنا السياق لمسلم. قال الحميدي في جمعه ٣/١٠٧، رقم ٢٣٠٤ بعد أن ساق لفظ الحديث إلى هنا: في حديث عبد الأعلى، عن حمّاد بن سلمة، مسلم ٢٧٥٨/٢٩ عقب الحديث: (اعمل ما شئت فقد غفرتُ لك). وفي حديث عبد بن حميد، مسلم ٢٧٥٨/٣٠ بمعناه، وذكر ثلاث مرّات، وفي الثالثة: (فقد غفرتُ لعبدي، فليفعل ما شاء). المؤلف ساق لفظ مسلم برقم ٢٧٥٨/٢٩ إلى قوله: (ويأخذ بالذنب)، ثم جاء بالشطر الأخير من لفظ مسلم برقم ٢٧٥٨/٣٠.

(٤) لفظ البخاري ومسلم: (فليعمل) والمثبت لفظ الحميدي في جمعه.

(٥) أخرجه البخاري ٧٥٠٧، ومسلم ٢٧٥٨/٢٩.

عفو الله، وكرمه فمهما كثرت ذنوب العبد فإن الله يتوب عليه - إن عاد إليه وأناب - وقوله ثانياً (أذنَبَ عبدي ذَنباً) خبر أريد به لازم فائدته، وهو الترغيب في التوبة، وعدم اليأس من رحمة الله، ويدل على ذلك أمر الله (فليعمل ما شاء) الذي جاء امتناناً، ورضاً على عبد علم الله، أنه لن يقيم على معصية، قال الشيخ أبو موسى - في مثله - عن الأمر في قول الرسول ﷺ "لعل الله اطلع على أهل بدر" فقال: اعملوا ما شئتم" دلالة على نهاية الرضا والقبول وكأنه سبحانه لفرط حبه ورضاه عن هذه الكوكبة المباركة يقول: لهم افعلوا ما تشاءون إن خيراً وإن شراً - فالكل عندنا مقبول منكم ومرضي عنه، وليس معناه أن الله أباح لهم شيئاً مما حرمه[1] -... كذلك في قوله ﷺ عن رب العزة "فليفعل ما شاء" ليس إباحة لما حرم، ولكنه دليل على منتهى الرضا على عبده التواب المنيب.

فقه الحديث

هذه الأحاديث تشير إلى الأحكام الفقهية التالية:

١-حكم تكرار الذنوب، والتوبة منها:

ذهب البعض إلى أنه يشترط في التوبة عدم معاودة الذنب وقالوا: أنه متى عاد إليه تبينا أن التوبة كانت باطلة غير صحيحة.

وذه أكثر الفقهاء إلى أنه لا يشترط في التوبة عدم العود إلى الذنب الذي تاب منه، وإنما تتوقف التوبة على الإقلاع عن الذنب والندم عليه والعزم الجازم على ألا يعود، فإن عاوده مع عزمه حال التوبة على أن لا يعاوده، لم تبطل توبته المتقدمة، كما لا يعود إليه إثم الذنب الذي تاب منه، وصار كمن ابتدأ المعصية.

وقال بعضهم: يعود إليه إثم الذنب الأول؛ لفساد التوبة وبطلانها بالمعاودة.

قالوا: ولأن التوبة من الذنب بمنزلة الإسلام من الكفر، والكافر إذا أسلم هدم إسلامه ما قبله من إثم الكفر وتوابعه، فإذا ارتد عاد إليه الإثم الأول مع إثم الردة، لما

---

(١) انظر: دلالات التراكيب، د. أبو موسى، ص ٢٥٠.

روى ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله أنواخذ بما عملنا في الجاهلية؟ قال: ((من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلي ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر))[(١)].

قالوا: فهذا حال من أسلم وأساء في إسلامه ومعلوم أن الردة من أعظم الإساءة في الإسلام فإذا أخذ بعدها بما كان منه في حال كفره ولم يسقطه الإسلام المتخلل بينهما فهكذا التوبة المتخللة بين الذنبين لا تسقط الإثم السابق كما لا تمنع الإثم اللاحق[(٢)].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الترغيب.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: أهمية وفضل الاستغفار والتوبة.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: بيان سعة رحمة الله وفضله.

رابعًا: من مهام الداعية: تبشير المدعوين.

أولاً- من أساليب الدعوة: الترغيب:

يستنبط الترغيب من عموم الحديث، حيث أفاد الترغيب في التوبة والإنابة إلى الله عز وجل، وأسلوب الترغيب من الأساليب الدعوية النافعة التي تجعل المدعوين يقبلون على الطاعة حيث إن الأجر والثواب محبب إلى النفس، والنفس دائمًا ترغب في المزيد من الفضل والرحمة، (والترغيب هو التشويق للعمل على فعل أو اعتقاد أو تصور وترك خلافه كما أن الترغيب يقوم على وعد بتحقيق منفعة مقابل الالتزام بأداء أمر أو اجتناب نهى، ويبرز أثر الترغيب بحسب درجة المنفعة التي سوف تحقق للملتزم، والإنسان

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري ٦٩٢١، ومسلم ١٢٠.

(٢) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢٧٣/١ وما بعدها، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم النفراوي ١٨٩/١، والمهذب ٣٣٢/٢، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٤٢/١، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٢٠٢/٩.

مفطور على الميل إلى كل ما يحقق له اللذة، ولهذا العامل تأثير كبير في تربية الإنسان وتوجيه سلوكه)[١].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: أهمية وفضل الاستغفار والتوبة:

إن الإنسان بطبيعته خطاء وغير معصوم من اقتراف الذنوب،مما يستلزم التوبة والإنابة إلى الله تعالى ومن الشواهد على ذلك ما ورد في الحديث "اللهم اغفر لي ذنبي" وما من شك في أن الاستغفار له فضل عظيم قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾[٢] ومما جاء على لسان هود عليه السلام قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾[٣] وجعل الله من صفات المتقين الاستغفار فقال جل شأنه: ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[٤] وأمر الله بالإنابة والرجوع إليه فقال سبحانه: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُ﴾[٥].

قال النووي: (وهذا الحديث ظاهر الدلالة أنه لو تكرر الذنب مائة مرة أو ألف مرة أو أكثر وتاب في كل مرة قبلت توبته وسقطت ذنوبه، ولو تاب عن الجميع توبة واحدة بعد واحدة جميعها صحت توبته، وقوله للذي تكرر ذنبه اعمل ما شئت فقد غفرت لك معناه: ما دمت تذنب ثم تتوب غفرت لك)[٦].

وقال ابن حجر: (شروط التوبة ثلاثة: الإقلاع والندم والعزم على أن لا يعود، وقال بعضهم: يكفي في التوبة تحقق الندم على وقوعه منه فإنه يستلزم الإقلاع عنه والعزم

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. خالد بن حامد الحازمي، ص ٣٩٢.

(٢) سورة نوح، آية: ١٠.

(٣) سورة هود، آية: ٥٢.

(٤) سورة الذاريات، آية: ١٧-١٨.

(٥) سورة الزمر، آية: ٥٤.

(٦) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٦١٤.

على عدم العود فهما ناشئان عن الندم لا أصلان معه)[١].

وقال أبو العباس القرطبي في المفهم: (يدل هذا الحديث على عظيم فائدة الاستغفار، وعلى عظيم فضل الله وسعة رحمته وحلمه وكرمه لكن هذا الاستغفار هو الذي ثبت معناه في القلب مقارنا للسان لينحل به عقد الإصرار ويحصل معه الندم، فهو ترجمة للتوبة، فكلما وقع في الذنب عاد إلى التوبة لا من قال: استغفر الله بلسانه وقلبه مُصِر على تلك المعصية فهذا الذي استغفاره يحتاج إلى الاستغفار)[٢].

قال ابن حجر: (ورأيت في الحلبيات للسبكي الكبير: الاستغفار طلب المغفرة إما باللسان أو بالقلب أو بهما، فالأول: فيه نفع لأنه خير من السكوت؛ ولأنه يعتاد قول الخير، والثاني: نافع جدًا، والثالث: أبلغ منهما لكنهما لا يمحصان الذنب حتى توجد التوبة فإن العاصي المُصِر يطلب المغفرة ولا يستلزم ذلك وجود التوبة منه إلى أن قال والذي ذكرته من أن معنى الاستغفار هو غير معنى التوبة هو بحسب وضع اللفظ لكنه غلب عند كثير من الناس أن لفظ استغفر الله معناه، التوبة فمن كان ذلك معتقده فهو يريد التوبة لا محالة).

ثم قال: وذكر بعض العلماء أن التوبة لا تتم إلا بالاستغفار لقوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾[٣] والمشهور أنه لا يشترط[٤].

قال القرطبي: (وفائدة هذا الحديث أن العود إلى الذنب وان كان أقبح من ابتدائه لأنه انضاف إلى ملابسة الذنب نقض التوبة، لكن العود إلى التوبة أحسن من ابتدائها لأنه إن ضاف إليها ملازمة الطلب من الكريم والإلحاح في سؤاله والاعتراف بأنه لا غافر للذنب سواه)[٥].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٣/٤٧٩، ٤٨٠

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٧/٨٥.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ٧/٨٦.

(٤) سورة هود، آية: ٣.

(٥) المرجع السابق ٧/٨٦.

وفي هذا الحديث "بيان لفضل الله ورحمته على عباده ما داموا يعتقدون أن ربهم بيده مقاليدهم إن شاء غفر وإن شاء عاقب، وهذا يدل على فضل التوحيد، ولذلك أخرجه البخاري في كتاب التوحيد من "صحيحه".

وأن التوبة الصحيحة تكفر الذنب.

والمؤمن بالله تعالى يصفو قلبه بالتوبة ويأمل بعفو ربه، فيبادر إلى الصلاح وعمل الخير، وإن وقع منه ذنب استدرك على نفسه بالتوبة ولم يصر على المعصية.

وهذا الحديث دليل على أنه لو تكرر الذنب مئة مرة أو أكثر وتاب في كل مرة؛ قبلت توبته، وسقطت ذنبه، ولو تاب عن الجميع توبة واحدة بعد جميعها صحّت توبته"[(١)].

قال السفاريني: (ولما كان من متعلقات الذنوب التوبة كانت واجبة على كل من تلبس بذنب وجوب لزوم لابد منه، فالتوبة أصل كل مقام، ومفتاح كل حال فمن لا توبة له لا مقام له ولا حال. والتوبة هي الرجوع عن الذنب بأن يقلع عنه ويندم عليه ويعزم على أن لا يعود عليه ويرضي الآدمي عن ظلامته إن تعلقت به. وقال بعضهم: التوبة الواجبة الرجوع عما كان مذمومًا في الشرع من ترك واجب أو فعل محرم إلى ما هو محمود في الشرع قال النووي: أركانها ثلاثة: الإقلاع والندم على فعل تلك المعصية، والعزم على أن لا يعود إليها أبدًا وأن لا يغرغر. انتهى. فإن كانت المعصية لآدمي فلها ركن رابع وهو التحلل من صاحب ذلك الحق.

وقد نظم أركان التوبة الشيخ عثمان بن قائد الحنبلي في ثلاثة أبيات سمّاها شروطًا وهي:

شروط توبتهم إن شئت عدتها ثلاثة عرفت فاحفظ على مهل

إقلاعه ندم وعزمه أبدًا أن لا يعود لما منه جرى وقل

إن كان توبته من ظلم صاحبه لابد من رده الحق على عجل

هذا وأصل التوبة الندم وهو ركنها الأعظم، فمن تاب توبة نصوحًا واجتمعت

---

(١) بهجة الناظرين شرح رياض الصالحين، سليم بن عيد الهلالي ١/٤٩٤.

شروط التوبة في حقه أن يقطع بقبول توبته كرمًا منه وفضلاً)[١].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: بيان سعة رحمة الله وفضله:

حيث جاء في الحديث" قد غفرت لعبدي فليفعل ما شاء" وما من شك في أن هذا يدل على عظيم فضل الله وسعة رحمته بعباده قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾[٢].

قال ابن الجوزي: (والمراد أي ورحمتي وسعت المؤمنين من أمة محمد ﷺ قاله ابن عباس وقيل: إن هذه الرحمة على العموم في الدنيا، والخصوص في الآخرة وتأويلها: ورحمتي وسعت كل شيء في الدنيا البر والفاجر وفي الآخرة للمتقين خاصة قاله الحسن وقتادة فعلى هذا معنى الرحمة في الدنيا للكافر أنه يرزق ويدفع عنه. وقيل: إن الرحمة التوبة فهي على العموم وقيل: إن الرحمة تسع الخلائق كلهم إلا أن أهل الكفر خارجون منها فلو قدِّر دخولهم فيها لوسعتهم. قال الزجاج: وسعت كل شيء في الدنيا والمراد بقوله: "فسأكتبها للذين يتقون" أي فسأوجبها للذين يتقون الشرك وقيل يتقون المعاصي)[٣].

قال ابن كثير: هذه آية عظيمة الشمول والعموم كقوله: إخبارًا عن حملة العرش ومن حوله أنهم يقولون كما جاء في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾[٤] وقوله فسأكتبها للذين يتقون: يعني فسأوجب حصول رحمتي مِنَّةً مني وإحساناً إليهم كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾[٥] وقوله للذين يتقون أي سأجعلها للمتصفين بهذه الصفات وهم أمة محمد ﷺ الذين يتقون أي: الشرك والعظائم من الذنوب[٦].

---

(١) لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية ٢٧١/١-٢٧٢.

(٢) سورة الأعراف، آية: ١٥٦.

(٣) زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي ٢٧١/٣.

(٤) سورة غافر، آية: ٧.

(٥) سورة الأنعام، آية: ٥٤.

(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٤٨١/٣، ٤٨٢.

ومن سعة رحمة الله وفضله أنه جعل الجزاء على الحسنة بعشر أمثالها، قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾(١) قال السعدي: (وكون الحسنة بعشر أمثالها هذا أقل ما يكون من التضعيف، وكون من جاء بالسيئة لا يجزى إلا مثلها فهذا من تمام عدله تعالى وإحسانه وإنه لا يظلم مثقال ذرة)(٢).

ومما لا شك فيه أن رحمة الله واسعة، وتعم جميع الخلائق (إن الرحمة خزائنها بيده سبحانه، والفضل مفاتحه لديه، والخير منه وإليه لو كانت الرحمة بيد الناس لمنعوها عن عباده، وقطعوها عن خلقه، أو اختصوا بها فئامًا معينة، ونفوسًا محددة، وأمسكوا خشية الإنفاق، يمسكون بث عبق الرحمة كما يمسكون الأموال ضنًّا بها وبخلاً وخوفًا على نفادها، أما الواحد الأحد فقد بث رحمته للناس عمومًا، بل للمخلوقات عمومًا، ولو تأملت هذا الكون بما فيه لرأيته يفيض بالرحمة، وينبع باللطف، إلا أن هناك رحمة خاصة لأناس مخصوصين يجدون روحها، ويستنشقون عبيرها، ويرشفون مذابها، ويتذوقون رضابها وتلك هي الرحمة التي يظفر بها المؤمنون، وينالها المحسنون فتكون لهم في الدنيا والآخرة والمؤمن يجد رحمة الله تحف به وتمشي في ركابه في حال يسره وعسره ومنشطه ومكرهه، ومرضه وصحته، وغناه وفقره، وقد يفقد كل شيء يرى الناس أن فقده حرمان، وغيابه خسران، ولكنه سعيد برحمة الله فهي أنيس وحدته، ورفيق غربته)(٣).

رابعًا- من مهام الداعية: تبشير المدعوين:

يظهر هذا من سياق الحديث حيث إن التبشير يجعل المدعوين يقبلون على ما يقوله الداعي، وقد أمر الله نبيه بالتبشير، فقال سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ

---

(١) سورة الأنعام، آية: ١٦٠.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٢٤٥

(٣) الله أهل الثناء والمجد، د. ناصر بن مسفر الزهراني، ٣٢٥.

فَضۡلٗا كَبِيرٗا﴾[١] وأخبر عن أوليائه بقوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾[٢] وحث رسول الله ﷺ على التبشير في الدعوة فقال لأبي موسى ومعاذ بن جبل رضي الله عنه "يَسِّرا ولا تُعسِّرا، وبَشِّرا ولا تُنفِّرا"[٣].

قال ابن حجر: (والنكتة في الإتيان بلفظ البشارة وهو الأصل وبلفظ التنفير وهو اللازم، وأتى بالذي بعده على العكس للإشارة إلى أن الإنذار لا يُنفى مطلقًا بخلاف التنفير، فاكتفى بما يلزم عنه الإنذار وهو التنفير، فكأنه قيل: إن أنذرتم فليكن بغير تنفير)[٤] ولقد كان من هدي النبي ﷺ وهو إمام الدعاة وقدوتهم تبشير أصحابه ففي الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلاَّ غَلَبَه، فسَدِّدوا وقارِبوا، وأبْشِروا، واستَعِينوا بالغدْوَةِ والرَّوْحةِ وشيءٍ منَ الدُّلْجة))[٥].

وعن بريدة الأسلمي رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((بَشِّرِ الْمَشَّائِينَ فِي الظُّلَمِ إِلَى الْمَسَاجِدِ بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))[٦]. وفي الحديث أيضًا عن أبي بن كعب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((بَشِّرْ هَذِهِ الأمَّةَ بِالسَّنَاءِ والرِّفْعَةِ والنَّصْرِ والتَّمْكِينِ فِي الأرض فَمَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ عَمَلَ الآخِرَةِ للدُّنْيَا لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الآخِرَةِ نَصِيبٌ))[٧]. وهذا يدل على أن من أولى مهام الداعية التبشير.

---

(١) سورة الأحزاب، آية : ٤٧.

(٢) سورة يونس، آية : ٦٤.

(٣) أخرجه البخاري ٤٣٤١

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦٥٩/٧.

(٥) أخرجه البخاري ٣٩.

(٦) أخرجه أبو داود ٥٦١، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٥٢٥).

(٧) أخرجه أحمد في مسنده ١٣٤/٥ رقم ٢١٢٢٠، وقال محققو المسند: إسناده قوي ١٣٥/٣٥.

الحديث رقم (٤٢٢)

٤٢٢- وعنه، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: ((**والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا، لَذَهَبَ الله بِكُمْ، وَجَاءَ بِقَومٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ الله تَعَالَى، فَيَغْفِرُ لَهُمْ**)) رواه مسلم[(١)].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

القسم من أساليب التشويق؛ لأنه يشير إلى مهم يتلوه، فيترقب ما يسفر عنه، وقسم الرسول ﷺ عامةً له وقع خاص؛ لأنه قسم صادق لا يكذب، وقسم نبي لا ينطق عن الهوى، فهو يفوق غيره تشويقاً وتنبيهاً، زد على ذلك القسم في بداية الكلام، دون مواجهة بشك، أو إنكار، زد على ذلك القسم بهذه الصيغة(والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ) والتي تصور روحاً هي روح المُقْسِمِ في قبضة هي قبضة المقسَم به فكأن التركيب يقول لنا كيف يكذب من كانت هذه حاله ؟ وهذا الحشد يشير إلى عظمة ما يخبر به، وأنه بلغ مداه في الخير، أو في الشر، وقوله (لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا ، لَذَهَبَ الله بِكُمْ) خبر بلغ مداه في الخير للمذنبين، وهو أسلوب شرط يربط عدم الذنب بالذهاب بهم، وفي هذا إشارة إلى أن الله تعالى خلق خلقه على هذه الصفة من الضعف وفتح لهم باب المغفرة، ورضي لهم التوبة بعد الذنب، ومن أسمائه الغفار، وموجب هذا الاسم أن يغفر، ولكي يغفر لابد أن يكون هناك من يذنب، ولذلك قال بعده (وَجَاءَ بِقَومٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ الله تَعَالَى، فَيَغْفِرُ لَهُمْ) ومن الملاحظ أن أكثر أفعال الحديث جاء في صورة المضارع الدال على التجدد، والاستمرار (تُذْنِبُوا ، يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ، فَيَغْفِرُ) تجدد التوبة، والاستغفار من العبد، واستمرار المغفرة من الرب، ونلاحظ الربط بالفاء بين الذنب، والاستغفار، مما يقتضي المسارعة بالتوبة إلى الله تعالى - دون مهلة قد يدركه فيها الموت، أو تتراكم الذنوب فتحجب قلبه.

---

(١) برقم ٢٧٤٩/١١. أورده المنذري في ترغيبه ٤٦٠٩.

المضامين الدعوية[1]

أولاً: من أساليب الدعوة: القسم.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل الله تعالى على عباده.

ثالثًا: من مهام الداعية: التبشير.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: الاستغفار والتوبة.

أولاً- من أساليب الدعوة: القسم:

حيث جاء في الحديث" والذي نفسي بيده" وأسلوب القسم من أساليب الدعوة "حيث إن أسلوب القسم يبصر بالدعوة ويبين دعائمها الأساسية بشكل مفصل ثابت أمام المدعوين والدعاة. لكي تكون حركة الجميع على بيان ووضوح، كما أن هذا الأسلوب يناسب طبيعة البشر، وينطلق من بين فكرهم فهو أسلوب يثير الانتباه ويؤدي دوره كأسلوب من أساليب الدعوة صانعًا التأثير النفسي، والعاطفي بواسطة المقسم به والمقسم عليه وبهما معًا، الأمر الذي يجعل المدعو يتعلق بالدعوة ويؤمن بها"[2].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل الله تعالى على عباده:

إن الله عز و جل خلق الإنسان ويعلم ضعفه أمام الشهوات، ووهن عزيمته أما المغريات فكان من فضله سبحانه أنه يقبل إنابة التائبين وإخبات المنيبين إليه ولا أدل على ذلك مما جاء في الحديث "لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون" وهذا يدل على عظيم فضل الله وأنه سبحانه يعلم طبيعة الإنسان وضعفه أمام الشهوات والمعاصي، ولذا كان من فضل الله أن فتح للإنسان باب التوبة وقبوله قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[3].

قال ابن قدامة: "والتوبة واجبة على الدوام فإن الإنسان لا يخلو عن معصية، ولو خلا

---

(١) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -٤٢٢- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (٤٢٣).

(٢) مستلزمات الدعوة في العصر الحاضر، علي بن صالح المرشد، ص ١٦٣، ١٦٤

(٣) سورة النور، آية : ٣١.

عن معصية بالجوارح لم يخل عن الهم بالذنب بقلبه، وإن خلا عن ذلك، لم يخل عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله تعالى، ولو خلا عنه لم يخل عن غفلة وقصور في العلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله، وكل ذلك نقص، ولا يسلم أحد من هذا النقص، وإنما الخلق يتفاوتون في المقادير، وما أصل ذلك، فلابد منه[1].

وما من شك في أن فضل الله ورحمته على عباده كثيرة فمن ذلك قبول توبة التائب قال تعالى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾[2] ومن ذلك مضاعفة الحسنات وتكثيرها قال سبحانه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾[3] ومن ذلك إخباره بمغفرة جميع الذنوب قال جل شأنه: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾[4] وأمر بالفرح بفضله ورحمته فقال سبحانه: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[5].

قال الطيبي: ليس في الحديث تسلية للمنهمكين في الذنوب كما يتوهمه أهل الغرة بالله تعالى، فإن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم إنما بُعثوا ليردعوا الناس عن غشيان الذنوب بل بيان لعفو الله تعالى وتجاوزه عن المذنبين ليرغبوا في التوبة، والمعنى المراد من الحديث هو أن الله كما أحب أن يعطي المحسنين أحب أن يتجاوز عن المسيئين، وقد دلَّ على ذلك غير واحد من أسمائه الغفار الحليم التواب العفو، أو لم يكن ليجعل العباد شأنا واحدا كالملائكة مجبولين على التنزه من الذنوب بل يخلق

(١) مختصر منهاج القاصدين، ابن قدامة المقدسي، تحقيق: زهير الشاويش ص٢٧٥، ٢٧٦.

(٢) سورة الفرقان، آية: ٧١.

(٣) سورة الأنعام، آية: ١٦٠.

(٤) سورة الزمر، آية: ٥٣.

(٥) سورة يونس، آية: ٥٨.

فيهم من يكون بطبعه ميالا إلى الهوى متلبسا بما يقتضيه ثم يكلفه التوقي عنه ويحذره عن مداناته ويعرفه التوبة بعد الابتلاء، فإن وفي فأجره على الله، وإن أخطأ الطريق فالتوبة بين يديه[١].

قال المناوي: ولو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون كي يغفر لهم فيتوب عليهم وينيلهم جنته وإنما يخلي الله بين المؤمن والذنب ليبلغه هذه الدرجة ولو لم يخل بينه وبينه وسعى العبد في محاب الله كلها وتجنب مساخطه كلها ربما وجد نفسه قائمة بوظائف الله وساعية في طاعته ويرى لسانه ذاكرا فأعجبته نفسه واستكثر فعله واستحسن عمله، فيكون قد انصرف عن الله إلى نفسه العاجزة الحقيرة الضعيفة القوة الدنية الصفة الأمارة بالسوء اللوامة التي هي معدن الآفات ومحل الهلكات[٢].

إن في هذا الحديث "بيان فضل الله تعالى على عباده بالعفو والمغفرة.

وأن كل ابن آدم خطاء، فعلى العبد أن يسارع في الاستغفار والتوبة.

كما أن من حكمة التكليف ظهور أسماء الله المتضمنة لحلمه وعفوه ومغفرته وستره وتجاوزه عن خلقه وعتقه لمن شاء من عبيده.

كما أنه ليس في الحديث تحريض على فعل المعصية، ولكن فيه تبشير بالمغفرة وإزالة لشدة الخوف واليأس من نفوس أصحاب رسول الله ﷺ، فإنهم كانوا يفرون إلى الجبال ويعتزلون الحياة ونعيمها من شدة خوفهم، فكان في ذلك طمأنينة ورجاء لعفو الله ومغفرته"[٣].

ثالثًا- من مهام الداعية: التبشير:

لقد جاء سياق الحديث في التبشير بمغفرة الله للذنوب والتجاوز عنها، ولذا فإن من المهام الأساسية التي ينبغي للداعية القيام بها بشارة الناس بالخير دائمًا وبهذا جاء الأمر في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾[٤] ومن ثم "فإن الداعي إلى

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٩٨/٥.

(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير، المناوي ٣١٠/٥.

(٣) بهجة الناظرين شرح رياض الصالحين، سليم بن عيد الهلالي ٤٩٥/١.

(٤) سورة الأحزاب، آية : ٤٧.

الخير لا تتم له الدعوة ولا تحصل ثمراتها المطلوبة منها إلا بترغيب المدعوين وتذكيرهم بالأسباب المرغبة، الداخلية والخارجية، وإبعاد الأسباب المثبطة حسب الإمكان فسلوك طرق تبشير العاملين وترغيبهم لاريب في نفعه"(١).

رابعًا- من موضوعات الدعوة: الاستغفار والتوبة:

حيث جاء في الحديث "فيستغفرون الله تعالى فيغفر لهم" وإذا كان الأمر كذلك فعلى المسلم الإكثار من الاستغفار قال تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٢) وقال على لسان شعيب ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾(٣) وقال على لسان هود عليه السلام لقومه ما جاء في قوله سبحانه: ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾(٤).

وقد جاء في الحديث القدسي عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: ((يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ. فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ. يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلاَّ مَنْ أَطْعَمْتُهُ. فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ. يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلاَّ مَنْ كَسَوْتُهُ. فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ. يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا. فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ...))(٥)، قال ابن القيم: (والتوبة هي حقيقة دين الإسلام، والدين كله داخل في مسمى "التوبة" وبهذا استحق التائب أن يكون حبيب الله، فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين، وحقيقة التوبة: الرجوع إلى الله بالتزام فعل ما يحب، وترك ما يكره فهي رجوع من مكروه إلى محبوب)(٦).

---

(١) الرياض الناضرة، والحدائق النيرة الزاهرة، عبدالرحمن السعدي، ١٩١

(٢) سورة البقرة، آية: ١٩٩.

(٣) سورة هود، آية: ٩٠.

(٤) سورة هود، آية: ٥٢.

(٥) أخرجه مسلم ٢٥٧٧.

(٦) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٥٤١/١.

وإذا ثبت أن الله يتجاوز عن السيئات ويغفر الزلات فواجب الإنسان الإنابة إلى الله والتوبة، قال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾[1] وقال جل شأنه عن إبراهيم عليه السلام ما جاء في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾[2]، وأمر الله المؤمنين بالتوبة النصوح، فقال جل شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةً نَّصُوحًا﴾[3]، وعلى الداعية أن يحث المدعوين على هذه المعاني ويرشدهم إليها.

---

(١) سورة الزمر، آية: ٥٤.

(٢) سورة هود، آية: ٧٥.

(٣) سورة التحريم، آية: ٨.

الحديث رقم (٤٢٣)

٤٢٣- وعن أَبي أيوب خالد بن زيد رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: ((**لَوْلاَ أنَّكُمْ تُذْنِبُونَ، لَخَلَقَ الله خَلْقًا يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرونَ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ**)) رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو أيوب الأنصاري: هو خالد بن زيد بن النجار الخزرجي. تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٣١).

الشرح الأدبي

هذا الحديث في معنى سابقه يشير إلى أن حكمة الله اقتضت أن يخلق من يذنب فيتوب، ويستغفر فيغفر له، وبداية هذا الحديث بـ(لولا)، وهي حرف امتناع لوجود أي امتناع استبدالهم بغيرهم لوجود الذنب، ولكن الذنب المقترن بتوبة، واستغفار؛ ولذلك جاء في نهاية الحديث بقوله: (يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرونَ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ) ومن الملاحظ الربط بالفاء التي تقتضي السرعة، وعدم التسويف في التوبة؛ لأنها العبادة المقصود من استبدالهم بغيره، وليس المقصود -والله أعلم- الذنب؛ لأن الذنوب هي سبب كل البلاء (﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾[الشورى٣٠]، والاستغفار هو سبب الرحمة، وسعة الرزق، والمدد من الله (﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً، يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً، وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً ﴾[نوح١٠-١٢].

المضامين الدعوية[2]

(١) برقم ٢٧٤٨/٩، إلا قوله: (فيستغفرون) فهو عنده برقم ٢٧٤٩/١١.

(٢) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (٤٢٤)

٤٢٤- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه، قَالَ: كُنَّا قُعُودًا مَعَ[١] رَسُول الله ﷺ، مَعَنَا أَبُو بَكْرٍ وَعُمْرُ رضي الله عنهما في نَفَرٍ، فَقَامَ رَسُول الله ﷺ مِنْ بَيْنِ أظْهُرِنَا، فَأبْطَأَ عَلَيْنَا فَخَشِينَا أنْ يُقتطَعَ دُونَنَا، فَفَزِعْنَا فَقُمْنَا، فَكُنْتُ أوَّلَ مَنْ فَزِعَ فَخَرَجْتُ أبْتَغِي رسولَ الله ﷺ، حَتَّى أتَيْتُ حَائِطًا للأنْصَارِ... وَذَكَرَ الحَدِيثَ بِطُولِهِ إِلَى قوله: فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: ((**اذهَبْ[٢] فَمَنْ لَقِيتَ[٣] وَرَاءَ هَذَا الحَائِطِ يَشْهَدُ أنْ لا إله إلاَّ الله، مُسْتَيقِنًا بِهَا قَلبُهُ، فَبَشِّرْهُ بِالجَنَّةِ**)) رواه مسلم[٤].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

أظهُرنا: من بيننا[٥].

يقتطع دوننا: يُصاب بمكروه من عدو[٦].

حائطًا: بستانًا[٧].

مستيقنًا: معتقدًا اعتقادًا جازمًا[٨].

---

(١) لفظ مسلم: (حول).

(٢) عند مسلم زيادة: (بنعليَّ هاتين).

(٣) عند مسلم زيادة: (من).

(٤) برقم ٣١/٥٢.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١١٢.

(٦) المرجع السابق ١١٢.

(٧) المرجع السابق ١١٢.

(٨) انظر: معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ٤٨٤.

الشرح الأدبي

الحديث يصوِّر عملياً شدة حرص الصحابة على الرسول ﷺ وسلامته يدلك على ذلك عدة أمور في بناء الصحابي لعبارته منها كثرة الألفاظ التي تدل على الفزع (خشينا - فزعنا - فزع) ومنها العبارت التي تدل على القلق (أبطأ علينا - أن يقتطع دوننا) ومنها كثرة استخدام الفاء في الربط بين الأحداث، والتي تدل على سرعة الاستجابة (فقام - فأبطأ - فقمنا- فكنت - فخرجت - فدرت - فدخلت) ومنها عموم الأثر والذي يدل عليه استخدام الصحابي (نا) الفاعلين بكثرة، لذلك جاءت بشارة الرسول ﷺ لهم بالجنة جزاءً من جنس العمل، فتأمل كيف تحولت نصرتهم للرسول ﷺ نصرة لأنفسهم، وكذلك كل من ينصر رسول الله، وسنته، فإنه في الحقيقة يحي قلبه، وينصر نفس، وذلك في كل زمان، ومكان، وفي الحديث بيان لفضل كلمة التوحيد، وعظمة فضل الله بإدخال المستيقن بها الجنة، و(مستيقناً) قيد يفيد نفي النفاق لتحقق الأثر المترتب على الشهادة.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الأمر، والترغيب.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على ملازمة النبي ﷺ وخوفهم عليه.

ثالثًا: من مهام الداعية: التبشير.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل الإيمان واليقين بالله.

أولاً- من أساليب الدعوة: الأمر، والترغيب:

١- الأمر: حيث جاء في الحديث في قوله ﷺ "اذهب" ومما هو معلوم أن أسلوب الأمر من الأساليب الدعوية التي تحمل المدعو على الاستجابة، وفي أسلوب بيان لأهمية المأمور به، حيث جاء في صورة الأمر، ومن أمثلة استخدام القرآن الكريم لهذا الأسلوب قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿خُذۡ

(١) سورة البقرة، آية: ٤٣.

مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴾[٢].

٢- الترغيب: حيث جاء في الحديث "فبشره بالجنة" وأسلوب الترغيب من أساليب الدعوة التي تحبب المدعوين في الموعظة، وتحببهم في الاستجابة لما يقول الداعية "وما على المربي إلا أن يكون واسع الأفق، ثرى التفكير، منتبهًا للغرض والمواقف والمناسبات فينبه من يعلمهم إلى ما يقربهم من الجنة ويبعدهم من النار، ويقيس السلوك نوعًا وكما ويقرنه بجزائه، ويفتح آفاق المتعلمين على نعيم الآخرة الواسع الكبير المتعدد المتدرج المتنوع، ويشعرهم أن لكل عمل إغراء، ولكل بلاء جزاء، ويربط ربطًا وثيقًا ما بين جزئيات السلوك وبين العائد منه سلبًا أو إيجابًا"[٣]، ومن أمثلة استخدام القرآن لأسلوب الترغيب قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾[٤].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على ملازمة النبي ﷺ وخوفهم عليه:

لقد ضرب الصحابة الكرام النموذج الصالح في الحرص على ملازمة النبي ﷺ وفدائه بنفوسهم وأموالهم. يستنبط ذلك من عموم الحديث ويدل على مدى حرص الصحابة رضي الله عنهم على ملازمة رسول الله ﷺ؛ لأنهم يعلمون أنه القدوة لهم جميعًا قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾[٥].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني لأحبك حتى إني لأذكرك فلولا أني أجيء فأنظر إليك ظننت أن نفسي تخرج فأذكر أني إن دخلت الجنة صرت دونك في المنزلة فيشق ذلك على، وأحب أن أكون معك في الدرجة فلم يرد

---

(١) سورة التوبة، آية: ١٠٣.

(٢) سورة الحجر، آية: ٨٥.

(٣) علم النفس الدعوي، د. عبدالعزيز بن محمد النغيمشي، ص ١٧٠.

(٤) سورة الكهف، آية: ١٠٧.

(٥) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

عليه رسول الله ﷺ، شيئًا، فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ ﴾[(١)] فدعاه رسول الله ﷺ فتلاها عليه[(٢)]، ولقد كان أبو بكر رضي الله عنه من أكثر الصحابة ملازمة للنبي ﷺ وله شرف الصحبة قال الله تعالى: ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾[(٣)] وأبو هريرة رضي الله عنه كان من الملازمين للنبي ﷺ، فقد أخرج البغوي بسند جيد عن الوليد بن عبد الرحمن عن ابن عمر أنه قال لأبي هريرة رضي الله عنه أنت كنت ألزمنا لرسول الله ﷺ، وأعلمنا بحديثه[(٤)].

ثالثًا- من مهام الداعية: التبشير:

التبشير من مهام الداعية الرئيسة وقد قال الله عز وجل عن وظيفة الرسل عليهم السلام: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾[(٥)]، وأمر الله تعالى الرسولَ ﷺ أن يبشر المؤمنين فقال سبحانه: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾[(٦)]، وأمر الرسول ﷺ بالتبشير، في الحديث في قوله: "فبشره بالجنة" وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث أحدًا من أصحابه في بعض أمره قال: "يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا"[(٧)] وجعل الله من ثواب المؤمنين بشارة ربهم لهم ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴾[(٨)] وإذا كان الأمر كذلك فجدير بالداعية أن يستصحب التبشير في دعوته.

---

(١) سورة النساء، آية: ٦٩.

(٢) أخرجه الطبراني، وفيه عطاء بن السائب وقد اختلط كما في حياة الصحابة للكاندهلوي ٤٥٢.

(٣) سورة التوبة، آية: ٤٠.

(٤) الإصابة في تمييز الصحابة، ابن العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ص ١٥٧٥

(٥) سورة النساء، آية: ١٦٥.

(٦) سورة يونس، آية: ٢.

(٧) أخرجه مسلم ١٧٣٢

(٨) سورة التوبة، آية: ٢١.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل الإيمان واليقين بالله:

إن الإيمان واليقين في الله من أعلى درجات الإيمان، ويصل بالمؤمن إلى أشرف منازل الجنة، وقد جاء في الحديث "فمن لقيت وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنًا بها قلبه فبشره بالجنة" وهذا يدل على فضل كلمة التوحيد والإيمان بالله، ويدل أيضًا على فضل الإيمان واليقين؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ((كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَامَ بِلَالٌ يُنَادِي، فَلَمَّا سَكَتَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَنْ قَالَ مِثْلَ هذَا يَقِينًا دَخَلَ الْجَنَّةَ))[١].

قال ابن القيم: (واليقين مما خص به أهل الفلاح والهدى، وهو روح أعمال القلوب التي هي أرواح أعمال الجوارح ومتى وصل اليقين إلى القلب امتلأ نورًا وإشراقًا، وانتفى عنه كل ريب وشك وسخط وهم وغم فامتلأ محبة لله وخوفًا منه ورضى به وشكرًا له، وتوكلاً عليه، وإنابة إليه فهو مادة جميع المقامات والحامل لها)[٢].

جاء في الدر المنثور: (عن قتادة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾[٣] قال: إن الله عز وجل ليس تاركًا أحدًا من خلقه حتى يقفه على اليقين من هذا القرآن فأما المؤمن فأيقن في الدنيا فنفعه ذلك يوم القيامة، وأما الكافر فأيقن يوم القيامة حين لا ينفعه اليقين)[٤].

قال سفيان الثوري عن ثمرة الإيمان واليقين: (لو أن اليقين استقر في القلب كما ينبغي لطار فرحًا وشوقًا إلى الجنة وخوفًا من النار. وقال ذو النون: اليقين يدعو إلى قصر الأمل وقصر الأمل يدعو إلى الزهد، والزهد يورث الحكمة، وهي تورث النظر في العواقب.

وفي فوائد اليقين قال أبوبكر الوراق: اليقين ملاك القلب، وبه كمال الإيمان، وباليقين عرف الله وبالعقل عُقل عن الله. وقال الجنيد: اليقين هو استقرار العلم الذي لا يحول ولا ينقلب ولا يتغير في القلب، وقال أبوبكر بن طاهر: العلم يعارضه الشكوك،

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٣٥٢/٢ رقم ٨٦٢٤، وقال محققو المسند: حديث صحيح ٢٧٢/١٤.

(٢) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم، ٢٢٠/٣/٢٢١

(٣) سورة الواقعة، آية: ٩٥.

(٤) الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢٤٦/١٤.

واليقين لا شك فيه، وعند القوم: اليقين لا يساكن قلبًا فيه سكون إلى غير الله)[١].

والحديث الذي نحن بصدده يقيد الإطلاق في الأحاديث السابقة التي في الباب في هذه الأحاديث، إذ وردت كلمة التوحيد مطلقة وهنا جاءت مقيدة بأن يكون قائلها مستيقنًا قلبه لا يعتريه أدنى شك، فيفهم من هذا الحديث أن الذي يشوبه شك في ذلك، لا يفرح بتلك البشرى بل لابد أن يكون قلبه مستيقنًا، وفيه مراجعة هذه القلوب وتعهدها للحفاظ عليها من الأمراض القلبية، ومن علامات اليقين أن يكون مستجيبًا مطيعًا لله وللرسول في الأوامر والنواهي، لا يتردد في الاستجابة.

قال ابن علان: ("مستيقنًا بها قلبه" أي موقنًا بها قلبه والسين فيها للمبالغة لأن كثرة المبنى تدل على زيادة المعنى غالبًا، وخرج بها المنافق "فبشره بالجنة" إما ابتداء إن مات عقب الإسلام قبل التلبس بكبيرة أو بعد الإسلام بمدة ولم يفعل معصية أو فعلها وكانت صغائر وله حسنات لم تغلب عليها المعاصي أو كانت كبائر فتاب منها، أو بعد إدخال النار مدة إن مات على صغائر زائدة على حسناته أو على كبيرة ولم يتب منها، ويجوز أن يتفضل الله عليه فيدخله الجنة ابتداء، قال تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[٢] وحذف المصنف ما أشار به عمر من ترك هذا التبشير مخافة مما يترتب عليه من ترك صالح العمل المقتضي لفوات المراتب العلية في الجنة فوافقه ﷺ على ذلك)[٣].

قال النووي: (فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنا بها قلبه فبشره بالجنة) معناه: أخبرهم أن من كانت هذه صفته فهو من أهل الجنة وإلا فأبو هريرة لا يعلم استيقان قلوبهم، وفى هذا دلالة ظاهرة لمذهب أهل الحق أنه لا ينفع اعتقاد التوحيد دون النطق ولا النطق دون الاعتقاد، بل لا بد من الجمع بينهما، وقد تقدم إيضاحه في أول الباب وذكر القلب هنا للتأكيد ونفى توهم المجاز، وإلا فالاستيقان لا يكون إلا بالقلب[٤].

---

(١) موسوعة نضرة النعيم ٣٧٢٩/٨.

(٢) سورة النساء، آية: ٤٨.

(٣) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٣٣٢/٢-٣٣٣.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٢٣٧/١.

الحديث رقم (٤٢٥)

٤٢٥- وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أنَّ النَّبيّ ﷺ تَلاَ قَولَ الله عز وجل في إبراهيم ﷺ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾[إبراهيم: ٣٦] الآية، وقَولَ[١] عِيسَى ﷺ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[المائدة: ١١٨] فَرَفَعَ يَدَيهِ وَقالَ: ((**اللَّهُمَّ أُمَّتي أُمَّتي**)) وبَكَى، فَقَالَ الله عز وجل: ((**يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ -وَرَبُّكَ أعْلَمُ- فَسَلْهُ مَا يُبْكِيهِ؟**)) فَأَتَاهُ جبريلُ، فَأَخْبَرَهُ رسولُ الله ﷺ، بِمَا قَالَ -وَهُوَ أعْلَمُ- فَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ((**يَا جِبريلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَقُلْ: إنَّا سَنُرْضِيكَ في أُمَّتِكَ وَلاَ نَسُوءكَ**)) رواه مسلم[٢].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمرو بن العاص: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٣٨).

غريب الألفاظ:

لا نسُوءُك: لا نحزنك[٣].

الشرح الأدبي

الحديث يحمل معنى جليلاً يقوم على الحوار بين أشرف أطراف بين الله عزوجل، ورسول من السماء للأرض جبريل عليه السلام، ورسوله من الأرض للأرض محمد ﷺ، والذي يكشف عن مدى محبته ﷺ لأمته، وخوفه عليها يدل على ذلك قوله (اللَّهُمَّ أُمّتي أُمّتي) حيث صدر النداء بهذه الصيغة التي توحي بمزيد التذلل، والخشوع، وتكرار لفظ الأمة، وإضافتها له ﷺ تشريفاً ثم بكائه، وقد صدر البكاء من الرسول ﷺ كغيره من البشر، بكى خوفا، ولكن على أمته، بكى شوقا، ولكن

---

(١) لفظ مسلم: (وقال).

(٢) برقم ٢٠٢/٣٤٦.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٢٤١.

إلى خالقه، بكى شفقة - دون اعتراض - عند موت ابنه، وكل بكائه ﷺ كان في إطار ما يرضي الله عز وجل وقد كان بكاؤه - في أثناء حديثه - شديد التأثير على من حوله لشدة محبتهم له، ولعلمهم أنه إذا بكى ﷺ فإن وراءه أمراً عظيماً؛ لأنه بسبيل الوحي، وقد حوت أحاديثه كثيراً من المواقف شديدة التأثير التي بكى فيها، ونقلها الرواة نصاً إلينا ليخالجنا نفس الشعور الذي خالجهم عند صدورها أول مرة[١] -كما حكى الراوي في هذا الحديث- وقد جاء الرد الإلهي تكريماً للرسول ﷺ وبشارة لأمته في صورة استفهام إيناس، وتلطف أرسل به جبريل، وأمره أن يسأله (مَا يُبْكِيهِ ؟) فأخبره جبريل فرد عليه بما كان من دعائه فجاءته بشارة ربه (إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلاَ نَسُوءكَ) وقد أكدت الجملة بعدة مؤكدات، منها حرف التوكيد، ونسبة الفعل لله يؤكد التحقق، وجملة النفي للإساءة، والتي تؤكد معنى الترضية.

فقه الحديث

قوله: "فرفع يديه وقال: اللهم أمتي أمتي" فيه مسألتان:

١- رفع اليدين في الدعاء: قال القرطبي[٢]: (واختلف الفقهاء في رفع اليدين في الدعاء، فكرهه طائفة منهم جبير بن مطعم وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير وغيرهم، واختاروا إذا دعا الله في حاجة أن يشير بأصبعه السبابة، ويقولون: ذلك الإخلاص، واحتجوا بما رواه مسلم عن عمارة بن رويبة ورأى بشر بن مروان على المنبر رافعًا يديه فقال: قبّح الله هاتين اليدين، لقد رأيت رسول الله ﷺ ما يزيد على أن يقول بيده هكذا، وأشار بإصبعه المسبِّحة[٣] وبما روى أنس بن مالك أن النبي كان لا يرفع يديه في الدعاء إلا عند الاستسقاء فإنه كان يرفعها حتى يرى بياض إبطيه[٤].

---

(١) انظر: الحال الدالة في الحديث النبوي، بحث منشور في كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر بأسيوط، د. ناصر راضي الزهري، العدد، ٢٦، جـ١، ص ٦٦٩.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٩/٢٤٥-٢٤٧ بتصرف كبير.

(٣) أخرجه مسلم ٨٧٤.

(٤) متفق عليه، أخرجه البخاري ١٠٣١، ومسلم ٨٩٥.

أما جواز رفع اليدين في الدعاء فقد روى عن جماعة من الصحابة والتابعين، وقد ثبت ذلك عن النبي ﷺ، قال ابن عمر رضي الله عنهما: رفع النبي ﷺ يده وقال: ((اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد))(١).

أما أصحاب المذاهب الفقهية المعتبرة فقد ذهب الحنيفة والمالكية في قول والشافعية والحنابلة أن من آداب الدعاء خارج الصلاة رفع اليدين بحذاء صدره، ويرى المالكية في قول أن الداعي لا يرفع يديه عند الدعاء خارج الصلاة(٢).

وقال القرطبي: (والدعاء حسن كيفما تيسير وهو المطلوب من الإنسان، لإظهار موضع الفقر والحاجة إلى الله عز وجل والتذلل له والخضوع، فإن شاء استقبل القبلة ورفع يديه فحسن، وإن شاء فلا، فقد فعل ذلك النبي ﷺ حسبما ورد في الأحاديث)(٣).

٢- صفة رفع اليدين: اختلف من أجاز من الفقهاء رفع اليدين في هيئة الدين عند الدعاء:

فذهب الحنفية إلى أنه من الأفضل أن يبسط كفيه ويكون بينهما فرجة، وقالوا: لا يضع إحدى يديه على الأخرى، فإنه كان في وقت عذر أو برد شديد، فأشار بالمسبحة قام مقام بسط كفيه.

ونص الشافعية على أنه يسن رفع يديه في الدعاء للاتباع، وهو أن يجعل ظهر كفيه إلى السماء إن دعا لرفع بلاء، وعكسه إن دعا لتحصيل شيء.

ونص المالكية على أن من آداب الدعاء: بسط يديه ورفعهما إلى صدره لحديث

---

(١) أخرجه البخاري ٤٣٣٩.

(٢) انظر: الفتاوى الهندية ٣١٨/٥، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم النفراوي ٤٣٠/٢، ومغني المحتاج ١٦٧/١، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٣٦٧/١، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٦٦/٤٥.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢٤٧/٩.

((إذا سألتم الله فاسألوه ببطون أكفكم ولا تسألوه بظهورها))[1] وتكون يداه مضمومتين[2].

المضامين الدعوية

أولاً: من مصادر الدعوة: القرآن الكريم

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: عناية النبي ﷺ واهتمامه بأمور أمته

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: شفقة ورحمة النبي ﷺ.

رابعًا: من أساليب الدعوة: الأمر والنداء.

خامساً: من موضوعات الدعوة: شفاعة النبي ﷺ لأمته.

أولاً- من مصادر الدعوة: القرآن الكريم:

(إن القرآن الكريم هو كتاب الله المنزل على رسوله محمد ﷺ المكتوب في المصاحف المنقول إلينا عن النبي ﷺ نقلاً متواترًا بلا شبهة ولا خلاف بين المسلمين في أن القرآن هو المصدر الأول للتشريع وأنه حجة على الناس أجمعين، والدليل على حجيته أنه من عند الله، والدليل على أنه من عند الله إعجازه، وإذا ثبت كونه من عندالله بدليل إعجازه وجب اتباعه من قبل الجميع واستفادة الأحكام من نصوصه، وعلى هذا فالقرآن حجة على الجميع والمصدر الأول للتشريع بالدليل القاطع والبرهان الساطع. وأنواع الأحكام التي جاء بها القرآن ثلاثة:

أولاً: أحكام اعتقادية تتعلق بالعقيدة كالإيمان بالله ورسله واليوم الآخر.

---

(١) أخرجه أبو داود ١٤٨٥ من طريق محمد بن كعب عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقال أبو داود: روى هذا الحديث من غير وجه عن محمد بن كعب كلها واهية، وهذا الطريق أوثلها وهو ضعيف أيضًا.

(٢) انظر: الفتاوى الهندية ٣١٨/٥، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم النفراوي ٤٣٠/٢، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢٨٠/١٤، ٢٨١، ومغني المحتاج ١٦٧/١، وتحفة المحتاج ٤٨٦/١، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٣٦٧/١، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٦٦/٤٥، ٢٦٧.

ثانيًا: أحكام أخلاقية تتعلق بتزكية النفوس وتهذيبها وبيان الأخلاق القويمة التي يجب التحلي بها، والأخلاق الرديئة الواجب التخلي عنها.

ثالثًا: أحكام عملية وهي تشمل عبادات ومعاملات)(١).

والقرآن الكريم هو دستور الأمة الإسلامية، والمصدر الأول للتشريع وللدعوة إلى الله تعالى، والداعية لا يستغني عن القرآن الكريم أو السنة النبوية في دعوته لأنهما المصدران الأساسيان للدعوة، فالداعية عند تناوله لأية قضية لابد وأن يلتمس من القرآن الكريم الشواهد على كلامه وتوجيهه للمدعوين وفي هذا الحديث تلا النبي ﷺ آيتين من كتاب الله تعالى، (فالقرآن الكريم كتاب متوازن فيما جاء به من هداية، وما عرضه من موضوعات، وما عالجه من مشكلات، وهو كذلك كتاب عملي يصلح للتطبيق في كل زمان ومكان، وذلك لأنه كتاب خاتم الرسل عليهم السلام، ودستور خاتم الأديان، ولو لم يكن عمليًا لأنزل الله بعده كتبًا أخرى كما أنزل الإنجيل بعد التوراة، وأنزل القرآن بعدهما فسبحان من لا تنفد كلماته، ومن مظاهر عمليته جمعه بين التطور والثبات في أحكامه واشتماله على مزايا الواقعية والمثالية في تشريعاته)(٢).

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: عناية النبي ﷺ واهتمامه بأمور أمته:

لقد وصف الله نبيه في القرآن بأنه رؤوف رحيم بأمته ولا أدل على ذلك مما جاء في الحديث "اللهم أمتي أمتي وبكى" وهذا يدل على عناية النبي ﷺ واهتمامه بأمور أمته، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(٣).

قال الطاهر بن عاشور: (تأتي خاتمة هذه السورة -سورة التوبة- بتذكيرهم بالمنة ببعثة محمد ﷺ والتنويه بصفاته الجامعة للكمال، ومن أخصها حرصه على هداهم

(١) المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، د. عبدالكريم زيدان، ١٥٥-١٥٦.

(٢) المدخل إلى علم الدعوة، د. محمد أبو الفتح البيانوني، ١٢٨، ١٢٩

(٣) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

ورغبته في إيمانهم ودخولهم في جامعة الإسلام ليكون رؤوفًا رحيمًا بهم ليعلموا أن ما لقيه المعرضون عن الإسلام من الإغلاظ عليهم بالقول والفعل ما هو إلا استصلاح لحالهم. وهذا من مظاهر الرحمة التي جعلها الله تعالى مقارنة لبعثة رسوله ﷺ. وهذه الآية من شأنها أن تزيل الحرج من قلوب الفرق التي نزلت فيهم آيات الشدة وعوملوا بالغلظة تعقيبًا للشدة بالرفق وللغلظة بالرحمة وكذلك عادة القرآن فقد انفتح بهذه الآية باب التوبة من وفقه الله إليها، والخطاب في الآية موجه إلى جميع الأمة المدعوة للإسلام)[١].

قال النووي: (وهذا الحديث يدل على بيان كمال شفقته ﷺ على أمته واعتنائه بمصالحهم واهتمامه بأمرهم، وفيه البشارة العظيمة لهذه الأمة زادها الله تعالى شرفًا بما وعدها الله تعالى، وهذا من أرجى الأحاديث لهذه الأمة، والحديث يدل على بيان عظم منزلة النبي عند الله وعظيم لطفه سبحانه به ﷺ[٢]).

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: شفقة ورحمة النبي ﷺ:

حيث جاء في الحديث "فرفع يديه وقال: اللهم أمتي أمتي وبكى" وهذا يدل على شفقته ورحمته ﷺ فلم يكن فظًا ولا غليظًا قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾[٣] ولما بلغ النهاية في الشفقة والرحمة قال الله تعالى عنه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٤] ووصفه الله مع الجماعة المؤمنة من الصحابة بقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[٥]. وقد جعل الله عز وجل بعثته وإرساله رحمة لكل الخلق قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[٦].

---

(١) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ٧٠/١١/٥.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٢٤١.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

(٤) سورة القلم، آية: ٤.

(٥) سورة الفتح، آية: ٢٩.

(٦) سورة الأنبياء، آية: ١٠٧.

قال القاسمي: (أي: وما أرسلناك بهذه الحنيفية والدين الفطري إلا حال كونك رحمة للخلق، فإن ما بعثت به سبب لسعادة الدارين وفي جعله نفس الرحمة مبالغة جلية فهو نبي الرحمة قال الرازي: إنه عليه السلام كان رحمة في الدين وفي الدنيا أما في الدين فلأنه بعث والناس في جاهلية وضلالة وأهل الكتابين كانوا في حيرة من أمر دينهم لطول مكثهم وانقطاع تواترهم، ووقوع الاختلاف في كتبهم، فبعث الله تعالى محمدًا ﷺ حين لم يكن لطالب الحق سبيل إلى الفوز والثواب فدعاهم إلى الحق وبين لهم سبيل الثواب وشرع لهم الأحكام وميز الحلال من الحرام ثم إنما ينتفع بهذه الرحمة من كانت همته طلب الحق، فلا يركن إلى التقليد ولا إلى العناد والاستكبار وكان التوفيق قرينًا له. وأما في الدنيا فلأنهم تخلصوا بسببه من كثير من الذل والقتال والحروب ونصروا ببركة دينه)[1].

ولقد كان من خصال رسول الله ﷺ تواضعه للناس وخفض جناحه لهم وهو مطاع يمشي في الأسواق ويجلس على التراب، ويمتزج بأصحابه وجلسائه فلا يتميز عنهم: إلا بإطراقه وحيائه فصار بالتواضع متميزًا وبالتذلل متعززًا[2]، ومما يدل على شفقته ورحمته ما جاء عن أنس بن مالك أن نبي الله ﷺ قال: ((إِنِّي لأَدْخُلُ الصَّلاَةَ، وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أُطِيلَهَا، فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ، فَأَتَجَاوَزُ فِي صَلاَتِي، مِمَّا أَعْلَمُ مِنْ شِدَّةِ وَجْدِ أُمِّهِ مِنْ بُكَائِهِ))[3].

وهذا يدل على أن النبي ﷺ كانت عنده شفقة ورحمة بأمته حتى في أمور العبادة (ما كان رسول الله ﷺ يُرى متأثرًا وغاضبًا إلا عندما يرى أحدًا من أمته اعتدى على محارم الله أو قسى أو افترض على نفسه عبادة لا يطيقها إن عاجلاً وإن آجلاً حتى إنه صلوات الله وسلامه عليه من شدة رحمته وخشيته المشقة على أمته كان يترك كثيرًا من أعمال البر خشية أن يتابعه أصحابه فتفرض عليهم فتشق عليهم كما حدث عند

---

(١) محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي ٧/١١/٢٩٧-٢٩٨.

(٢) موسوعة نضرة النعيم ١/٤٤١

(٣) أخرجه البخاري ٧٠٩، ومسلم ٤٧٠

صلاته القيام في مسجده بالمدينة لليلتين على التوالي إحدى عشرة ركعة فانقطع عنهم الليلة الثالثة لما رأى المسجد ضاق بهم فسألوه حينما خرج عليهم لصلاة الفجر: خشيت أن تفرض عليكم)[(١)].

رابعًا- من أساليب الدعوة: الأمر، والنداء:

١- الأمر: حيث جاء في الحديث: "يا جبريل اذهب إلى محمد وما من شك في أن أسلوب الأمر من أساليب الدعوة، وهو يبين للمدعو أهمية المأمور به، وضرورة الالتزام به، ومن نماذج استخدام القرآن لهذا الأسلوب قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾[(٢)]، وقوله جل شأنه: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾[(٣)].

٢- النداء: حيث جاء في الحديث "يا جبريل" وأسلوب النداء من أساليب الدعوة، التي تفيد التنبيه للمدعو وتعمل على لفت انتباهه لما يقوله الداعية، ويدل من وجه آخر على مدى اهتمام الداعية بالمنادى عليه، ولذا خصه بالنداء؛ ومن صور استعمال القرآن لأسلوب النداء قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾[(٤)] وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾[(٥)].

خامساً- من موضوعات الدعوة: شفاعة النبي ﷺ لأمته:

حيث جاء في الحديث: "اللهم أمتي أمتي" وقوله "إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك" والشفاعة العظمى من خصائص الرسول ﷺ، قال ابن الملقن: (ومن خصائصه ﷺ أن له شفاعات منها الشفاعة العظمى في الفصل بين أهل الموقف حين يفزعون إليه بعد

(١) مواقف من السيرة النبوية، مصطفى حسين العطار ص ١١٢.

(٢) سورة الأحقاف، آية: ٣٥.

(٣) سورة المائدة، آية: ١٠٠.

(٤) سورة الأحزاب، آية: ٤٥.

(٥) سورة المائدة، آية: ٦٧.

الأنبياء والشفاعة في جماعة يدخلون الجنة بغير حساب، والشفاعة في ناس استحقوا دخول النار والشفاعة في ناس دخلوا النار فيخرجون والشفاعة في رفع درجات ناس في الجنة)[١] "ولا شك أن الشفاعة من أعظم ما يعطاه الرسول ﷺ يوم القيامة قال تعالى: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾[٢].

قال ابن هبيرة: (وفي الشفاعة العظمى يقول النبي ﷺ: أمتي أمتي أمتي. والمراد إنك وعدتني أن أمتي يكونون أول الناس حسابًا، وأنهم المقضي لهم قبل الخلائق فأراد عليه السلام أن يعلم ربه أنه غير مرتاب بوعد وعده إياه، وأنه واثق بما وعده من ذلك فأراد: يا رب اقض الحساب على الحال التي وعدتني من أنك تقضي بين أمتي أول الخلائق ثم يتبعهم الناس، فيكون كأنه سأل في الخلق كلهم)[٣].

ولقد (أجمع أهل السنة والجماعة على وقوع الشفاعة في الآخرة ووجوب الإيمان بها لصريح قوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾[٤] وقال عز من قائل: ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾[٥] وقد جاءت الأحاديث التي بلغت بمجموعها حد التواتر بصحة الشفاعة في الآخرة لمذنبي المسلمين فيشفع له من يأذن له الرحمن من الأنبياء والملائكة وصالحي المؤمنين.

قال العلماء: (الشفاعة في الآخرة خمسة أقسام:

أولها: مختصة بنبينا ﷺ وهي: الإراحة من هول الموقف، وتعجيل الحساب، وهي الشفاعة العظمى.

ثانيها: في إدخال قوم الجنة بغير حساب، وهذه أيضًا خاصة بنبينا ﷺ.

---

(١) غاية السول في خصائص الرسول ﷺ، ابن الملقن ٢٦٣، ٢٦٤

(٢) سورة الضحى، آية: ٥.

(٣) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٦/٤٤٠.

(٤) سورة طه، آية: ١٠٩.

(٥) سورة الأنبياء، آية: ٢٨.

ثالثها: الشفاعة لقوم استوجبوا النار فيشفع فيهم نبينا ومن شاء الله تعالى.

رابعها: فيمن دخل النار من المذنبين فقد جاءت الأحاديث بإخراجهم من النار بشفاعة نبينا ﷺ، والملائكة وإخوانهم من المؤمنين.

خامسها: في زيادة الدرجات في الجنة لأهلها. حري بالإنسان أن يسأل الله أن يرزقه شفاعة الحبيب محمد ﷺ)[١].

ومن أفضل مظاهر حب النبي ﷺ لأمته ﷺ على نيل الشفاعة لأمته فقد ادَّخر دعوته لهم يوم القيامة بالشفاعة؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ قال: ((لِكُلِّ نَبِيَ دَعْوَةٌ دَعَاهَا لأمَّتِهِ. وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لأمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ))[٢].

---

(١) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٦/١٣٢-١٣٣.

(٢) أخرجه مسلم ٢٠٠.

الحديث رقم (٤٢٦)

٤٢٦- وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه ، قَالَ: كُنْتُ رِدْفَ النَّبيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ ، فَقَالَ: ((**يَا مُعَاذُ، هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الله عَلَى عِبَادِهِ؟ وَمَا حَقُّ العِبَادِ عَلَى الله؟**)) قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أعْلَمُ. قَالَ: ((**فإنَّ حَقَّ اللهِ عَلَى العِبَادِ أنْ يَعْبُدُوهُ، وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيئًا، وَحَقَّ العِبَادِ عَلَى اللهِ أنْ لاَ يُعَذِّبَ مَنْ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيئًا**)) فقلتُ: يَا رَسُول الله، أفَلا أُبَشِّرُ[1] النَّاسَ؟ قَالَ: ((**لاَ تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا**)) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[2].

ترجمة الراوي:

معاذ بن جبل: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٦١).

غريب الألفاظ:

ردفَ النبي ﷺ: راكبًا خلفه[3].

الشرح الأدبي

قول الرسول ﷺ لمعاذ (هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الله عَلَى عِبَادِهِ ؟) استفهام قصد به التنبيه، والتعليم مع ما فيه من التسويق، وقوله (اللهُ وَرَسُولُهُ أعْلَمُ) تفويض علم الإجابة لمن عنده علمها، وقوله (فإنَّ حَقَّ اللهِ عَلَى العِبَادِ أنْ يَعْبُدُوهُ، وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيَئاً) أكد الجملة بعدة مؤكدات لتعظيم الخبر، وتربية المهابة، ونسبة الحق لله تخصيص ينادي بضرورة الوفاء به، وبين قوله العباد، ويعبدوه جناس يؤكد المعنى الذي خلق له العباد، وقوله (ولا يشركوا) مؤكد للجملة السابقة، وتنكير (شيئاً) يفيد التعميم فيشمل قليل الشرك، وكثيره، وتقديم الجار، والمجرور عليها يفيد التخصيص، وقول معاذ رضي الله عنه (أفلا أبشر الناس) الهمزة للاستفهام، والفاء عاطفة على كلام محذوف تقديره إذا كان

---

(١) عند البخاري زيادة: (به).

(٢) أخرجه البخاري ٢٨٥٦ ، ومسلم ٤٩/ ٣٠ من حديث عمرو بن ميمون، عن معاذ، ولفظهما سواء.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١/ ٢٧٣.

الأمر كذلك، وقصد بهذا الاستفهام الاستئذان في سوق البشارة للناس، وقوله (لا تبشرهم)نهي للتحذير علله بقوله (فيتكلوا) لأنه يريدهم بين الخوف، والرجاء حتى يلقوا ربهم.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النداء والسؤال والجواب.

ثانيًا: من واجبات المدعو: تفويض العلم لله ورسوله.

ثالثًا: من أهداف الدعوة: تعبيد العباد لله تعالى.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل الإيمان بالله وشناعة الشرك.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: أهمية العمل الصالح مع رجاء رحمة الله وعدم الاتكال.

أولاً- من أساليب الدعوة: النداء، والسؤال والجواب:

١- النداء: ورد النداء في الحديث في قوله ﷺ "يا معاذ" ومما لاشك فيه أن أسلوب النداء يشعر المدعو بالاهتمام من قِبل المنادي كما أن النداء يفيد التنبيه والحث على أمر معين إذا كان الإنسان في غفلة عنه، ولذا قال عبدالله بن مسعود لرجل قال له: اعهد إلي يا عبدالله فقال له (إذا سمعت الله يقول: "يا أيها الذين آمنوا" فأعرها سمعك فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه)[1] ومن صور استخدام القرآن لهذا الأسلوب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾[2] وقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ﴾[3].

٢- السؤال والجواب: جاء في الحديث في قوله ﷺ: "هل تدري ما حق الله على عباده، وما حق العباد على الله؟ قلت: الله ورسوله أعلم" ومما هو معلوم أن أسلوب السؤال والجواب من أساليب الدعوة، وهو يعين المدعو على فهم أحكام الإسلام، ويقوم

---

(١) نداءات الرحمن لأهل الإيمان، أبوبكر جابر الجزائري، ص ٧.

(٢) سورة الحجرات، آية: ١.

(٣) سورة الأحزاب، آية: ١.

الداعية بالإجابة على السؤال مباشرة، وهو يفتح من وجه آخر قناة حوار بين الداعية والمدعو مما يؤصل العلاقة بينهما، وقد جاء في القرآن الكريم استخدام هذا الأسلوب ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ﴾(١) وقوله جل شأنه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى﴾(٢) وقوله سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ﴾(٣).

ويستفاد من هذا الحديث الشريف أدب من آداب طالب العلم أنه إذا سئل عن مسألة ولا يعلم جوابها أن يقول: الله أعلم، وأن لا يتكلم فيما لا يعلم. وفيه التخوف من الاتكال على تلك البشرى لأن الإنسان يجب أن يعلم أنه لابد من عبادة الله تعالى والأخذ بالأسباب لدخول الجنة.

قال ابن علان: رجح ﷺ مصلحة ترك التبليغ لما فيه من الحث على الإكثار من صالح العمل على التبليغ لما قد يؤدي إليه من التعطيل(٤).

ثانيًا- من واجبات المدعو: تفويض العلم لله ورسوله:

إن الإنسان لا يحيط بعلم كل شيء، ولذا فما يجهله يجب أن يرد علمه إلى الله تعالى وقد جاء في الحديث "قلت: الله ورسوله أعلم" وهذا من أهم واجبات المدعو وقد علم الله نبيه أن يرد العلم إلى الله تعالى قال سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾(٥) وعلم المؤمنين أن يفوضوا ما لا يعلمون إلى الله تعالى والرسول ﷺ قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾(٦).

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٨٩.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٢٢.

(٣) سورة الأنفال، آية: ١.

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان (٢/٣٣٥).

(٥) سورة الأعراف، آية: ١٨٧.

(٦) سورة النساء، آية: ٥٩.

قال ابن القيم: (وقوله تعالى "فإن تنازعتم في شيء: نكرة في سياق الشرط تعم كل ما تنازع فيه المؤمنون من مسائل الدين دقه وجله جليه وخفيه ولو لم يكن في كتاب الله ورسوله بيان حكم ما تنازعوا فيه ولم يكن كافيًا لم يأمر بالرد إليه إذ من الممتنع أن يأمر الله تعالى بالرد عند النزاع إلى من لا يوجد عنده فصل النزاع)[1].

وقال الخطيب البغدادي: (وإذا سئل المفتي عن حكم نازلة فأشكل عليه وهناك من هو عارف به لزمه أن يرشد السائل إليه ويدل عليه، فإن لم يكن هناك من يستفتى غيره لزمه الإمساك عنه وترك الجواب فيه ما لم يتضح له فإن الله تعالى يقول: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾[2] وعن عبدالله بن بشر أن عليَّ بن طالب رضي الله عنه سئل عن مسألة فقال: لا علم لي ثم قال: وَابَرْدَهَا على الكَبِدِ سئلت عما لا أعلم، فقلت: لا أعلم. وعن عقبة بن مسلم أن ابن عمر رضي الله عنهما سئل عن شيء فقال: لا أدري، ثم أتبعها فقال: أتريدون أن تجعلوا ظهورنا لكم جسورًا في جهنم أن تقولوا لو أفتانا ابن عمر بهذا. وعن نافع عن ابن عمر: أنه سئل عن أمر فقال: لا أعلمه ثم قال: نعم ما قال ابن عمر سئل عن أمر لا يعلمه فقال: لا أعلم)[3].

ثالثًا- من أهداف الدعوة: تعبيد العباد لله تعالى:

حيث جاء في الحديث "فإن حق الله على العباد أن يعبدوه" وما من شك أن من الأهداف الرئيسة للدعوة إلى الله تعالى أن يستقيم الناس على عبادة الله سبحانه (إن هذا الدين العظيم "الإسلام" قائم على أركان خمسة ومبني على قواعد راسخة ثابتة بينها الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم عندما سئل عن الإسلام وهذه الأركان الخمسة التي يقوم عليها الإسلام ما هي إلا دعائم يرتكز عليها الدين يحقق بها العبد عبوديته لله سبحانه وتعالى إذ لا معبود بحق إلا الله سبحانه وتعالى متفرد في ألوهيته وربوبيته وأسمائه

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، تحقيق: رائد صبري بن أبي علفة ٤٩/١.

(٢) سورة الإسراء، آية: ٣٦.

(٣) الفقيه والمتفقه ٣٦٠/٢، ٣٦٤، ٣٦٥.

وصفاته بيده الأمر كله وإليه يرجع الأمر كله)[١]. إن الهدف الكبير للدعوة الإسلامية هو الإجابة على سؤال الناس "لماذا جئنا؟" والجواب في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٢] (إن أهم أهداف الدعوة الإسلامية الدعوة إلى العقيدة الإسلامية التي يعبدون الله على أساسها والشريعة التي يتعاملون بها والسلوك الذي ينظم حياتهم)[٣].

قال ابن حجر: (قال ابن التين: يريد بقوله "حق العباد على الله" حقا علم من جهة الشرع لا بإيجاب العقل، فهو كالواجب في تحقق وقوعه أو هو على جهة المقابلة والمشاكلة كقوله تعالى: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾[٤])[٥].

قال القرطبي: ("حق الله على العباد" هو ما أوجبه عليهم بحكمه وألزمهم إياه بخطابه)[٦] قال المباركفوري: (وفي قوله ﷺ: "أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا" المراد بالعبادة عمل الطاعات واجتناب المعاصي، وعطف عليها عدم الشرك لأنه تمام التوحيد، والحكمة في عطفه على العبادة أن بعض الكفرة كانوا يدعون أنهم يعبدون الله ولكنهم كانوا يعبدون آلهة أخرى فاشترط نفي ذلك، والجملة حالية والتقدير يعبدونه في حال عدم الإشراك به.

قال ابن حبان: عبادة الله إقرار باللسان وتصديق بالقلب وعمل بالجوارح، ولهذا قال في الجواب فما حق العباد إذا فعلوا ذلك؟ فعبر بالفعل ولم يعبر بالقول أن لا يعذبهم، وفي رواية للبخاري: حق العباد على الله أن لا يعذبهم)[٧].

---

(١) قواعد الدعوة الإسلامية، د. حمدان الهجاري، ص ٣٦.

(٢) سورة الذاريات،آية: ٥٦.

(٣) مستلزمات الدعوة في العصر الحاضر، علي بن صالح المرشد، ص ٢٤.

(٤) سورة التوبة، آية: ٧٩.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٦٨/١٢.

(٦) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ٢٠٣/١.

(٧) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري ٢٠١٩/٢.

قال القرطبي: ("حق العباد على الله" ما وعدهم به من الثواب، والجزاء فحق ذلك ووجب بحكم وعده الصدق، وقوله: "الحق" الذي لا يجوز عليه الكذب في الخبر ولا الخلف في الوعد فالله سبحانه وتعالى لا يجب عليه شيء بحكم الأمر إذ لا آمر فوقه، ولا حكم للعقل)[١].

قال الماوردي: (اعلم أن الله سبحانه وتعالى إنما كلف الخلق متعبداته، وألزمهم مفترضاته، وبعث إليهم رسله، وشرع لهم دينه لغير حاجة دعته إلى تكليفهم، ولا ضرورة قادته إلى تعبدهم، وإنما قصد نفعهم، تفضلاً منه عليهم، كما تفضل بما لا يحصى عَدًّا من نعمه، بل النعمة فيما تعبدّهم به أعظم، لأن نفع ما سوى المتعبدات مختص بالدنيا العاجلة ونفع المتعبّدات يشتمل على نفع الدنيا والآخرة، وما جمع نفعي الدنيا والآخرة، كان أعظم نعمة وأكثر تفضلاً، وجعل الله ما تعبدهم به مأخوذًا من عقل متبوع، وشرع مسموع فالعقل متبوع فيما لا يمنع منه الشرع، والشرع مسموع فيما لا يمنع منه العقل لأن الشرع لا يَرِدُ بما يمنع منه العقل، والعقل لا يُتَّبَع فيما يمنع منه الشرع؛ فلذلك توجه التكليف إلى من كَمُل عقله)[٢].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل الإيمان وشناعة الشرك:

حيث جاء في الحديث "فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا" هذا وقد دلت النصوص على فضل الإيمان بالله وشناعة الشرك فالإيمان بالله سبب للأمن والهدى، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[٣] والإيمان بالله سبب دخول الجنة قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾[٤] والشرك بالله مانع من مغفرة الذنوب، قال

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم ٢٠٣/١.

(٢) أدب الدنيا والدين، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي، تحقيق: مصطفى السقا ٩٤.

(٣) سورة الأنعام، آية: ٨٢.

(٤) سورة الكهف، آية: ١٠٧.

عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾(١) والشرك بالله سبب لإحباط العمل قال تعالى: ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾(٢) ولا ينال الإنسان ثواب الله إلا إذا تخلص من الشرك قال جل شأنه: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾(٣) والمؤمنون في ولاية الله قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾(٤).

وكل هذه النصوص الشرعية تبين بجلاء فضل الإيمان بالله وشناعة الشرك وخطورته (إن الشرك بالله تنكّرٌ لجلاله، وكفران بحقه، و استهانة بعظمته، وتعد على سلطانه، ولقد أرسل الله رسله، وأنزل كتبه للدعوة إلى توحيده قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾(٥) ومن هنا كان عنوان العقيدة الإسلامية يتمثل في هذه الكلمة العظيمة التي عرفت لدى المسلمين بكلمة "التوحيد" وكلمة "الإخلاص" وكلمة "التقوى" وهي: لا إله إلا الله وهي الكلمة التي تعني منهج الله الذي لا تعنو الوجوه إلا له، ولا تنقاد القلوب إلا لحكمه ولا تخضع إلا لسلطانه، وهي الكلمة التي قامت بها الأرض والسماوات وفطر الله عليها جميع المخلوقات، وعليها أسست الملة ونصبت القبلة وجردت سيوف الجهاد وهي محض حق الله على جميع العباد)(٦).

---

(١) سورة النساء، آية: ٤٨.

(٢) سورة الزمر، آية: ٦٥.

(٣) سورة الكهف، آية: ١١٠.

(٤) سورة محمد، آية: ١١.

(٥) سورة الأنبياء، آية: ٢٥.

(٦) الله أهل الثناء والمجد، د. ناصر بن مسفر الزهراني ٩٠.

خامسًا- من موضوعات الدعوة: أهمية العمل الصالح مع رجاء رحمة الله وعدم الاتكال:

يظهر هذا من الحديث "يا رسول الله أفلا أبشر الناس؟ قال لا تبشرهم فيتكلوا" ذلك لأن الإنسان لكي ينال جنةالله يجب أن يقدم العمل الصالح ويرجو رحمة ربه قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾(١) وربط الله بين التوبة والعمل الصالح فقال جلّ شأنه: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾(٢) وقال سبحانه في فضل رجاء رحمة الله مع العمل الصالح ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ﴾(٣) قال الإمام ابن القيم: (والرجاء حاد يحدو الإنسان في سيره إلى الله ويطيب له المسير، ويحثه عليه، ويبعثه على ملازمته، فلولا الرجاء لما سار أحد، ومما يعين على الرجاء الخوف فكلاهما مستلزم للآخر فكل راج خائف وكل خائف راج وفي الرجاء من الانتظار والترقب والتوقع لفضل الله ما يوجب تعلق القلب بذكره، ودوام الالتفات إليه بملاحظته وعبادته)(٤).

---

(١) سورة هود، آية: ١١٤.

(٢) سورة الفرقان، آية: ٧٠.

(٣) سورة الإسراء، آية: ٥٧.

(٤) انظر: مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢/٢١٦-٢١٧.

الحديث رقم (٤٢٧)

٤٢٧- وعن البراءِ بن عازب رضي الله عنهما، عن النَّبيّ ﷺ، قَالَ: ((**المُسْلِمُ إِذَا سُئِلَ في القَبْرِ يَشْهَدُ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ الله، وَأنّ مُحَمّدًا رَسُول الله، فذلك قوله تَعَالَى:** ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾[إبراهيم: ٢٧])) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ(١).

ترجمة الراوي:

البراء بن عازب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨٠).

الشرح الأدبي

الحديث يتناول أثر الشهادتين في أحد المواقف التي يمر بها الإنسان بين الحياة، والممات، والقبر، والحشر، والحساب، وغيرها من المواقف التي لا ينفع فيها إلا الإخلاص الذي هي روحه، والحديث عما في القبر نوع من الغيب، ولفظ القبر من الألفاظ التي توحي بالخوف، والانزعاج، والحديث يبدأ بداية خبرية خالية من المؤكدات؛ لأنه يقابل بها عاري الذهن عن الخبر، واللام في المسلم للجنس فتشمل جميع المسلمين، وقد أخبر عنه بجملة الشرط التي تربط السؤال بالشهادتين، في إشارة إلى أنهما سبيل النجاة من هول هذا الموقف، ثم إن بناء فعل السؤال لما لم يسم فاعله لون من الترهيب بحسب ما يستطيع كل عقل أن يتصور ثم إن تصور حجم الرهبة مرتبط بطاعة الإنسان، ومعصيته، كلما زادت الطاعة قلت الرهبة، والعكس.

---

(١) أخرجه البخاري ٤٦٩٩، ولم يخرجه مسلم بهذا اللفظ.

تنبيه: هذا الحديث أورده الحميدي في جمعه ١/٥٢٩، رقم ٨٦٦ في المتفق عليه بهذا اللفظ، ثمَّ قال: وفي حديث غندر عن شعبة، ثمَّ ذكر لفظه، وهذا اللفظ الثاني مما اتفقا على تخريجه، ثمَّ قال: وأخرجه مسلم أيضًا من حديث خيثمة بن عبد الرحمن، عن البراء، وذكره، ففهم المؤلف من إيراده اللفظ بهذه الصورة أنه من المتفق عليه، وليس كذلك، بل أخرجه البخاري فقط بهذا اللفظ.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التبشير.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: إثبات سؤال القبر.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: تثبيت الله للمؤمنين.

رابعًا: من مهام الداعية: بيان الحقائق للمدعوين.

أولاً- من أساليب الدعوة: التبشير:

ورد التبشير في الحديث في قوله ﷺ: "المسلم إذا سئل في القبر يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله" والأمر الذي لاشك فيه أن أسلوب التبشير من أساليب الدعوة التي تشجع المدعوين على الطاعة، وقد خاطب الله نبيه فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾[1].

ولقد كان من وصية النبي ﷺ إلى مبعوثيه أن يبشروا وييسروا، فعن سعيد بن أبي بردة عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ بعث معاذًا وأبا موسى رضي الله عنهما إلى اليمن قال: ((يَسِّرا ولا تُعسِّرا، وبَشِّرا ولا تُنفرا، وتطاوَعا ولا تختَلِفا))[2].

(إن الحث على فعل الطاعات وأداء الخير والاستقامة على أمر الله جاء في الكتاب والسنة مقرونًا ببشريات كثيرة وحكم مذكورة، والدعاة عندما يغرون العامة والخاصة باتباع الدين لا يسأمون من تكرار هذه الجوائز المضروبة والعلل الباعثة)[3] ومن صور استخدام القرآن لأسلوب التبشير والأمر به قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[4] وقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[5].

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٤٥، ٤٦.

(٢) أخرجه البخاري ٣٠٣٨، ومسلم ١٧٣٣.

(٣) انظر: مع الله دراسات في الدعوة والدعاة، محمد الغزالي، ٣١٢.

(٤) سورة البقرة، آية: ٢٥.

(٥) سورة يونس، آية: ٢.

إن هذا الحديث الشريف تضمن تفسيرًا نبويًا مبينًا الإجمال في معنى يثبت الله، ومعنى القول الثابت، وهذا البيان هو وجه من وجوه التفسير لهذه الآية.

وفي هذا الحديث بيان فضل الإيمان بالله تعالى، لأن الإيمان هو سبب هذا التثبيت من عند الله تعالى، وفي ذلك عناية الله تعالى بالمؤمنين، وبشرى عظيمة للمؤمنين بأنهم سيُجيبون الملك الذي سيسألهم من ربك؟ من نبيك؟ وهذا الجواب علامة على النجاح في هذا الامتحان العصيب الذي لا يفلت منه أحد.

ويستنبط منه أن غير المؤمنين لن يحظوا بهذه العناية، لأنهم فرَّطوا بتوحيد العبودية، من أجل ذلك فإنهم لن يستطيعوا أن يجيبوا الملك السائل بذلك الجواب العظيم وبتلك الكلمة العظيمة الثقيلة الميزان.

قال ابن علان: (إذا سئل في القبر) على وجه الامتحان وحذف السائل للعلم به، وهما الملكان الموكلان بذلك[1].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: إثبات سؤال القبر:

إن من قضايا العقيدة التي يجب الإيمان بها والتسليم بوقوعها إثبات سؤال القبر. حيث جاء في الحديث "إن المسلم إذا سئل في القبر" وهذا يدل دلالة قاطعة على أن العبد يسأل في قبره وقد دلت النصوص الشرعية على إثبات سؤال القبر، قال الله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ۝ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾[2].

وجاء في الحديث الصحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((إنَّ العبدَ إذا وُضِعَ في قبرِهِ وتولّى عنه أصحابُه ـ وإنّه ليَسمَعُ قرعَ نِعالِهم ـ أتاهُ مَلَكانِ فيُقعدانِه فيقولانِ: ماكنتَ تَقولُ في هذا الرجُلِ؟ لمحمدٍ صلى الله عليه وسلم. فأمّا المؤمِنُ فيقولُ أشهدُ أنهُ عبدُ اللهِ ورسولهُ. فيقال له: انظُرْ إلى مَقْعَدِك مِنَ النّارِ، قد

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان (٢/٣٣٦).

(٢) سورة غافر، الآيتان: ٤٥ - ٤٦.

أبدَلَكَ اللّهُ بهِ مَقعدًا منَ الجنةِ، فيراهُما جميعًا» قال قَتادةُ: وذُكِرَ لنا أَنَّهُ يُفسَحُ لهُ في قبرِهِ. ثم رَجَعَ إلى حديثِ أنس قال وأمّا المنافِقُ والكافرُ فيقالُ لهُ: ماكنتَ تقولُ في هذا الرجُلِ؟ فيقول: لاأدري، كنتُ أقولُ مايقولُ الناسُ. فيقال: لادَرَيتَ ولاتَلَيتَ. ويُضرَبُ بمطَارِقَ من حديدٍ...))[(١)].

قال ابن حجر: (وفي الحديث إثبات عذاب القبر، وأنه واقع على الكفار وعلى من شاء الله من الموحدين، قال الحكيم الترمذي: لما أرسل الله محمدًا ﷺ رحمة للعالمين أمسك العذاب عن الناس، وقبل الإسلام ممن أظهره منهم سواء أسر الكفر أو لا، فلما ماتوا قيض الله لهم فتاني القبر ليستخرج سرهم بالسؤال وليميز الله الخبيث من الطيب ويثبت الله الذين آمنوا ويضل الله الظالمين)[(٢)].

وجاء في شرح العقيدة الطحاوية: (لقد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ في ثبوت عذاب القبر ونعيمه لمن كان لذلك أهلاً، وسؤال الملكين فيجب اعتقاد ثبوت ذلك والإيمان به، ولا نتكلم عن كيفيته، إذ ليس للعقل وقوف على كيفيته، لكونه لا عهد له به في هذه الدار، والشرع لا يأتي بما يحيله المعقول، ولكنه قد يأتي بما تحار فيه العقول، فإن عود الروح إلى الجسد ليس على الوجه المعهود في الدنيا، بل تعاد الروح إليه إعادة غير الإعادة المألوفة في الدنيا. وليس السؤال في القبر للروح وحدها ولكنه للروح والجسم وكذلك عذاب القبر يكون للنفس والبدن جميعًا باتفاق أهل السنة والجماعة تَنْعم النفس، وتعذب مفردة عن البدن ومتصلة به. وعذاب القبر هو عذاب البرزخ فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيب منه قُبر أم لم يُقْبر أكلته السباع أو احترق حتى صار رمادًا، ونسف في الهواء، أو صلب أو غرق في البحر وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى المقبور)[(٣)].

وقال عبدالرحمن حبنكة الميداني: (لقد ثبت في الأحاديث الصحيحة أن الإنسان

---

(١) أخرجه البخاري ١٣٧٤ واللفظ له، ومسلم ٢٨٧٠ مختصرًا.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣/٢٨٣.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي، ٢/٥٧٨-٥٨٠.

المكلف إذا مات جاءه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر، ويقال للآخر النكير فيسألانه: من ربك؟ وما دينك؟ ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ أي محمد ﷺ، والمراد من سؤال القبر السؤال في البرزخ بين الموت والبعث، سواء كان ذلك في القبر أم لا، وقد أضيف السؤال إلى القبر بالنظر إلى أن أكثر الموتى يقبرون)[1].

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: تثبيت الله للمؤمنين

إن من فضل الله على المؤمنين أنه يثبتهم في الدنيا والآخرة وبذلك نطقت الآيات القرآنية، قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾[2] قال السعدي: (يثبت الله عباده المؤمنين في الحياة الدنيا عند ورود الشبهات بالهداية إلى اليقين، وعند عروض الشهوات بالإرادة الجازمة على تقديم ما يحبه الله على هوى النفس وفي الآخرة عند الموت بالثبات على الإسلام والخاتمة الحسنة، وفي القبر عند سؤال الملكين للجواب الصحيح إذا قيل للميت من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ هداهم للجواب الصحيح بأن يقول المؤمن: "الله ربي،والإسلام ديني، ومحمد نبيي")[3] وقدأمر النبي ﷺ بالدعاء بالتثبيت للميت فعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: ((كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا فَرَغَ مِنْ دَفْنِ المَيتِ وَقَفَ عَلَيْهِ فَقَالَ: اسْتَغْفِرُوا لأخِيكُمْ وَاسْأَلُوا لَهُ التَّثْبِيتَ، فَإِنَّهُ الآنَ يُسْأَلُ))[4].

قال القرطبي: (ينبغي أن يرشد الميت في قبره حين يوضع فيه إلى جواب السؤال ويذكر بذلك فيقال له: قل الله ربي والإسلام ديني ومحمد رسولي فإنه عن ذلك يسأل كما جاءت به الأخبار)[5] ومما لا شك فيه أن التثبيت إنما يكون لأهل الإيمان

---

(١) العقيدة الإسلامية وأسسها ٦٤٥، ٦٤٦.

(٢) سورة إبراهيم، آية: ٢٧.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٢٨٠ .

(٤) أخرجه أبو داود ٣٢٢١، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢٧٥٨).

(٥) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، ١١٠.

الصحيح، والتوحيدالخالص (ومن الآثار الطيبة لصاحب التوحيد في قبره أنه ينجو من الخوف والرعب عند السؤال، ويجيب على الأسئلة بكل ثبات ويقين وصدق ثم يأتيه التصديق من ربه جلا وعلا ويفرش له من الجنة ويلبس منها وفتح له وهو في قبره باب إلى الجنة)[١].

رابعًا- من مهام الداعية: بيان الحقائق للمدعوين:

يتضح هذا من سياق الحديث وإخبار النبي ﷺ عما ينال المؤمن من التثبيت عند سؤال القبر وتلك مهمة الداعية الأولى بيان حقائق الإسلام للمدعوين قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٢] وهذا البيان فيه البشارة للمؤمن والإنذار للعاصي. وواجب الداعية أن يبلغ للمدعوين الحقائق ويعرفهم بها فإن مهمته تقوم على البيان والتبيين قال الإمام ابن القيم: (ومراتب العلم أربعة: أولها وثانيها: سماعه وعقله فإذا سمعه وعاه بقلبه؛ أي: عقله واستقر في قلبه. المرتبة الثالثة: تعاهده وحفظه حتى لا ينساه فيذهب. المرتبة الرابعة: تبليغه وبثه في الأمة ليحصل به ثمرته ومقصوده، وهو بثه في الأمة فهو بمنزلة الكنز المدفون في الأرض الذي لا ينفق منه وهو معرض لذهابه فإن العلم ما لم ينفق منه ويعلم فإنه يوشك أن يذهب، فإذا أنفق منه نما وزكا على الإنفاق. فمن قام بهذه المراتب الأربع ودخل تحت هذه الدعوة النبوية المتضمنة لجمال الظاهر والباطن فإنه ينال النضرة وهي البهجة والحسن الذي يكساه الوجه من آثار الإيمان)[٣].

---

(١) التوحيد وأثره على العبيد، خميس السعيد محمد، ص ١٧٤.

(٢) سورة النحل، آية: ٤٤.

(٣) فضل العلم والعلماء، ابن قيم الجوزية، جمع وترتيب: صالح أحمد الشامي، ص ١٠٢-١٠٣.

الحديث رقم (٤٢٨)

٤٢٨- وعن أنس رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: ((إنّ الكَافِرَ إذَا عَمِلَ حَسَنَةً، أُطعِمَ بِهَا طُعْمَةً مِنَ الدُّنْيَا، وَأَمَّا المُؤْمِنُ فَإنَّ الله تَعَالَى يَدَّخِرُ لَهُ حَسَنَاتِهِ فِي الآخِرَةِ، وَيُعْقِبُهُ رِزْقًا فِي الدُّنْيَا عَلَى طَاعَتِهِ)) [١].

وفي رواية: ((إنَّ الله لاَ يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسنَةً يُعْطَى بِهَا فِي الدُّنْيَا، وَيُجْزَى بِهَا فِي الآخِرَةِ. وَأَمَّا الكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِ مَا عَمِلَ [٢] للهِ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلَى الآخرَةِ، لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَى بِهَا)) رواه مسلم [٣].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

طُعمةً: رزقًا [٤].

يُعقبُهُ: يُجازيه ويُعْطِيه [٥].

أفضى إلى الآخرة: انتهى وصار [٦].

---

(١) أخرجه مسلم ٢٨٠٨/٥٧.

(٢) برقم ٢٨٠٨/٥٦. هذه الرواية قبل الرواية الأولى عند مسلم، المؤلف تبع الحميدي في جمعه ٦٠٩/٢، رقم ٢١٠٥ حيث أوردها هكذا.

(٣) أخرجه مسلم ٢٨٠٨/٥٦.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ط ع م).

(٥) القاموس المحيط، الفيروزآبادي ، الفيروزآبادي في (ع ق ب)، ودليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٦٥٨.

(٦) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ف ض ى)، ودليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٦٥٨.

الشرح الأدبي

بداية الحديث خبرية مؤكدة بـ(إن) مع تقديم المسند إليه على الخبر الفعلى، مع تعريفه ب(ال) الجنسية الذي يدخل كل كافر في الحكم، وجملة (إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً، أُطعِمَ) شرطية تفيد استهلاكه لحسناته في الدنيا، كلما عمل حسنة نال ثوابها متاعاً دنيوياً، وقوله (أطعم - طعمة) جناس يؤكد المعنى، ويؤكد استهلاكه لما يفعل من الحسنات، وقوله (وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَإِنَّ الله تَعَالَى يَدَّخِرُ لَهُ حَسَنَاتِهِ) أما تفصيلية و(ال) في المؤمن للجنس فتشمل كل مؤمن بالحكم، والتعبير بالادخار يفيد البقاء، والحفظ، وتقديم الجار، والمجرور (له) يفيد الاختصاص، وذكر الله وسط الجملة يبعث الطمأنينة، ويؤكد التحقق، ويبعث الرجاء في مضاعفة المدخر ، قوله (وَيُعْقِبُهُ رِزْقاً في الدُّنْيَا) يشير إلى تبعية الخير العاجل للحسنة، وقوله (على طاعته) التعبير بعلى يفيد علو الرزق على الطاعة، وفي الحديث مقابلة بين الكافر، والمؤمن تشير إلى الفارق بين الوصفين اللذين كانا عليهما في الدنيا، كما قابل بين يدخر، ويطعم؛ لأن الطعمة لون من الإنفاق المقابل للادخار، وكذلك قابل بين الآخرة، والدنيا ليشير إلى استيفاء الجزاء في دار البقاء، أو الجزاء في دار الفناء.

فقه الحديث

هذ الحديث يشير إلى حكم فقهي يتعلق بباب القربات والطاعات، أجمع الفقهاء على أن المسلم إذا قصد القربة والطاعة وجه الله عز وجل فإنه يأخذ الثواب عليها: ويصدق تلك القاعدة الفقيهة الكلية "لا ثواب إلا بالنية" أما الكافر لا ثواب له في الآخرة بنيته لأنه ليس أهل للنية ومن شروط النية "القصد" الإسلام[1].

وصرح في هذا الحديث أنه يطعم في الدنيا بما عمله من الحسنات، أي: بما فعله متقربًا به إلى الله تعالى مما لا يفتقر صحته إلى النية، كصلة الرحم والصدقة والعتق

(١) غمز عيون البصائر في شرح الأشباه والنظائر، الحموي، ٧٦/١.

والضيافة وتسهيل الخيرات ونحوها، وأما المؤمن فيدخر له حسناته وثواب أعماله إلى الآخرة، ويجزى بها مع ذلك أيضًا في الدنيا، ولا مانع من جزائه بها في الدنيا والآخرة[١].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: عدل الله بين عباده.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل الله على عباده المؤمنين.

رابعًا: من مهام الداعية: بيان الحقائق للمدعوين.

أولاً- من أساليب الدعوة: التوكيد:

حيث جاء في الحديث "إن الله لا يظلم" وأسلوب التوكيد يساعد على إقناع المدعو، ويدل على مدى صدق الداعية فيما يقول، ولذا أكد النبي ﷺ في هذا الحديث بأن الله لا يظلم مؤمنًا حسنة..." ومن صور استخدام القرآن الكريم لهذا الأسلوب قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[٢] وقوله جل شأنه ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾[٣] وقوله سبحانه ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً﴾[٤].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: عدل الله بين عباده:

إن الله عز وجل حكم عدل يقضي بين عباده بالحق، ولذا جاء في الحديث "إن الله لا يظلم مؤمنًا حسنة، قال النووي: (معناه لا يترك مجازاته بشي من حسناته، وحقيقة الظلم مستحيلة من الله تعالى، وأما إذا فعل الكافر هذه الحسنات ثم أسلم فإنه يثاب عليها في الآخرة، وأجمع العلماء على أن الكافر الذي مات على كفره لا ثواب له في الآخرة، ولا يجازى فيها بشيء من عمله في الدنيا متقربًا به إلى الله تعالى، وأما

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٣٢/١٧.

(٢) سورة الزمر، آية: ٣٠.

(٣) سورة النمل، آية: ٧٩.

(٤) سورة الكهف، آية: ١٠٧.

التصريح في هذا الحديث بأنه يطعم في الدنيا بما عمله من الحسنات أي بما فعله متقربًا به إلى الله تعالى مما لا يفتقر صحته إلى النية، كصلة الرحم والصدقة والعتق والضيافة وتسهيل الخيرات ونحوها. وأما المؤمن فيدخر له حسناته وثواب أعماله إلى الآخرة، ويجزي بها مع ذلك في الدنيا ولا مانع من جزائه بها في الدنيا والآخرة)[1].

وقال المناوي: (وقوله في الحديث "إن الله لا يظلم" أي لا ينقص المؤمن فهو لا يضيع أجر حسنة المؤمن فيعطي بتلك الحسنة أجرًا في الدنيا وهو دفع البلاء وتوسعة الرزق وغير ذلك ويثاب عليها في الآخرة أي يثيبه الله أي يجازيه عليها برفع درجاته في الجنة فهو يجازى على حسناته في الدنيا وفي الآخرة، وأما الكافر إذا عمل حسنة في الدنيا كأن فك أسيرًا وأنقذ غريقًا فيطعم بحسناته في الدنيا أي يجازى فيها على ما فعله من القرب التي لا تحتاج لنية بنحو توسعة لرزقه، ودفع مصيبة ونصر على عدو وغير ذلك، وقال في المؤمن يعطى، وفي الكافر يطعم لأن العطاء أكثر استعماله فيما تحمد عاقبته حتى إذا أفضى إلى الآخرة أي صار إليها لم تكن له حسنة يعطى بها خيرًا)[2].

وفي توفية كل إنسان على حسناته ما يدل على عدل الله سبحانه بين عباده فإذا كان الأصل أن الكافر لا يجازى في الآخرة على خير عمله في الدنيا ولا يكتب له حسنة لأن شرط الثواب والجزاء عُدِم وهو الإيمان، لكن أخبر في هذا الحديث أنه من عدل الله أنه قد جازاه بها في الدنيا بما أعطاه ورزقه وأطعمه بخلاف المؤمن الذي يدخر له حسناته في الآخرة[3].

إن العدل من أسماء الله الحسنى، وهو مما أمر الله تعالى به قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾[4]. وبين أنه يأمر به فقال جلّ شأنه: ﴿قُلۡ

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٦٤٥.

(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير، المناوي ٢/٢٧٢.

(٣) إكمال المعلم، القاضي عياض، ٨/٣٤١، ٣٤٢.

(٤) سورة النحل، آية: ٩٠.

أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ ﴾[1] وإذا كان ضد العدل الظلم فلقد أخبر سبحانه عن نفسه فقال جل شأنه: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[2] وجاء في الحديث القدسي عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: ((يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا. فَلاَ تَظَالَمُوا))[3].

(إن العدل وضع الشيء موضعه وأداء الحقوق كاملة، والشريعة المحمدية كلهاعدل وقسط ورحمة لا جور فيها بوجه من الوجوه، لا في أصولها ولا في فروعها فالتوحيد أصل العدل، والشرك ضده أصل الظلم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[4] فالعدل تصلح به الدنيا، وتستقيم الأمور على السداد)[5].

وعدل الله بين عباده يتضح من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[6] وقوله جل شأنه ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾[7].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل الله على عباده المؤمنين:

إن فضل الله عظيم ورحمته واسعة ويظهر هذا مما جاء في الحديث من المجازاة على الحسنات للمؤمن في الدنيا والآخرة. قال الطيبي: (والكافر إذا صدرت منه حسنة

---

(١) سورة الأعراف، آية: ٢٩.

(٢) سورة آل عمران، آية: ٥٧.

(٣) أخرجه مسلم ٢٥٧٧.

(٤) سورة لقمان، آية: ١٣.

(٥) الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة، السعدي، ٢٩، ٣٠.

(٦) سورة النساء، آية: ٤٠.

(٧) سورة الأنبياء، آية: ٤٧.

يستوفي أجرها بكمالها في الدنيا حتى لا يكون له نصيب في الآخرة قط. والمؤمن بخلافه إنما يجزى الجزاء الأوفى في الآخرة وما يناله من رغد العيش المشار إليه بقوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾[١] فهو فضل وإحسان من الله تعالى وتحرير المعنى: أن الله تعالى لا يظلم أحدًا عمل حسنة فأما المؤمن فيجزيه في الآخرة الجزاء الأوفى ويفضل عليه في الدنيا. وأما الكافر فيجزيه في الدنيا الجزاء الأوفى وماله في الآخرة من نصيب)[٢].

وقال سليم الهلالي: (وفي هذا الحديث بيان لعدل الله مع عباده بأن يوفيهم أجورهم حتى الكفرة الفجرة، وأن الكافر يجزى على عمله الحسن في الدنيا، إما بزيادة ماله أو دفع مكروه عنه، وليس له في الآخرة من نصيب، لأن الكفر يحبط الأجر في الآخرة، وأما المؤمن فإنه يجزى عليه في الدنيا والآخرة)[٣]. ولاشك أن هذا من فضل الله تعالى على عباده المؤمنين قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[٤].

قال الشوكاني: (بين سبحانه مقدار جزاء العاملين بما أمرهم به الممتثلين لما شرعه لهم، بأن من جاء بحسنة واحدة من الحسنات فله من الجزاء عشر حسنات، وقد ثبت هذا التضعيف في أحاديث كثيرة، وهذا التضعيف هو أقل ما يستحقه عامل الحسنة، ووردت الزيادة على هذا عمومًا وخصوصًا، ومن جاء بالسيئة أي: من الأعمال السيئة أي فلا يجزى إلا مثلها من دون زيادة عليها على قدرها في الخفة والعظم فالمشرك يُجَازى على سيئة الشرك بخلوده في النار، وفاعل المعصية من المسلمين يجازى عليها بمثلها مما ورد تقديره من العقوبات)[٥].

---

(١) سورة النحل، آية: ٩٧.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٩/٢٨٦-٢٨٧.

(٣) بهجة الناظرين شرح رياض الصالحين، سليم بن عيد الهلالي ١/٤٩٩.

(٤) سورة الأنعام، آية: ١٦٠.

(٥) فتح القدير ٢/١٨٣.

وقال ابن الجوزي في قوله تعالى ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾[1] قال: (يجد الطائع الثواب، ويجد الفاسق العذاب، يجد المؤمن لذة الوصال ويجد الكافر العذاب والنكال يجد المؤمن النعيم والكرامة ويجدالكافر الخزي والندامة، يجد المؤمن الدرجات ويجد الكافر العقوبات، يجد المؤمن السرور ويجد الفاجر الثبور فيوم تجد كل نفس ماعملت يندم الظالم ويخسر الآثم ويفرح المؤمن بنعيم الله)[2].

رابعًا- من مهام الداعية: بيان الحقائق للمدعوين:

إنه من خلال بيان الحقائق تقوم الحجة على الناس، ولبيان الحقائق كان إرسال الرسل عليهم السلام قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[3] ومن ثم كان من أولى مهام الداعية بيان الحقائق لأنه مبلغ للشريعة والوحي، ومعرف للناس بربهم قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[4].

وفي هذا الحديث بين النبي ﷺ جزاء المؤمن وجزاء الكافر على العمل، وأنه لا ثواب في الآخرة إلا بإيمان صحيح مقبول عند الله تعالى، وذلك ليكون المدعو على بينة من أمره، وتقوم الحجة عليه، قال د. الحسيني عبدالمجيد هاشم: (الأعمال الدينية المقربة إلى الله تعالى لا تصلح بدون الإيمان الصحيح أما الأعمال الدنيوية كالبر وحسن الخلق والأمانة والصدق وغيرها فإن كل الناس مجزى عليها، الكافر يعطي جزاؤه في الدنيا وما له في الآخرة من نصيب، والمؤمن يدخر له جزاؤه، وقد يزيد الله تعالى له على طاعته ولا مانع من جزائه بها فيهما)[5].

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٣٠.

(٢) بستان الواعظين ورياض السامعين أبو الفرج بن الجوزي، تحقيق: د. السيد الجميلي، دار الكتاب العربي، بيروت: ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ص ١٣٤.

(٣) سورة النساء، آية: ١٦٥.

(٤) سورة النحل، آية: ٤٤.

(٥) شرح رياض الصالحين ٢٩١.

الحديث رقم (٤٢٩)

٤٢٩- وعن جابر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ كَمَثَلِ نَهْرٍ جَارٍ غَمْرٍ عَلَى بَابِ أَحَدِكُمْ، يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ)) رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

جابر بن عبدالله الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

الغَمْرُ: الكثيرُ[2].

الشرح الأدبي

أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يقرر في الأذهان كيف يمحو الله الخطايا بالصلوات الخمس بقياس صورة معنوية هي صورة تطهير الصلوات الخمس لما يقع بينهن من الخطايا على صورة معهودة حسية، وهي صورة إنسان يغتسل في نهر خمس مرات، ثم يلحق نتيجة الصلوات الخمس، وهي مغفرة الذنوب بنتيجة المغتسل خمس مرات إشارة إلى نقاء هذا المصلى من الخطايا كنقاء المغتسل. هذا ما يفيده التمثيل بقياس صورة على صورة؛ لتوضيحها في الأذهان، ووقفة مع الأسلوب العالي للنبي صلى الله عليه وسلم لنري بعض أسراره، فقد بدأ بلفظ (مثل) وهي من المفردات الثرية فمادة الكلمة تعني، الشبه، والمساوي، والصورة والأفضل، والمثل:هو قول سائر شبَّه به حال الثاني بالأول، والأصل فيه التشبيه قال العيني: "أن المثل له مفهوم لغوي، وهو النظير ومفهوم عرفي، وهو القول السائر، ومعنى مجازي، وهو الحال الغريبة[3]. وهو بمثابة إشارة الانطلاق لخيال المخاطبين؛ ليرى كل منهم حاله لو أن نهراً ببابه، وإتيانه بكلمة (نهر) منكرة تشيع في النفس معانى

---

(١) برقم ٦٦٨/٢٨٤. أورده المنذري في ترغيبه ٥١٧. وسيكرره المؤلف برقم ١٠٤٤.

(٢) رياض الصالحين ٢١١، ٣٩٩.

(٣) عمدة القارى شرح صحيح البخارى، لبدر الدين العيني، مراجعة: صدقى جميل العطار، ٢٠/٢.

متعددة كالعذوبة، والصفاء، والرقة، وكلمة (غمر) التي تشير إلى الكثرة التي تغمر المغتسل فتطهر كل أجزاء جسده، وهم الذين يكابدون المشاق من أجل القليل من ماء الآبار، وقبل أن يشرد خيال أحدهم فيستبعد وجود نهر في صحرائه يأتي النبي ﷺ - بـ (باء) الإلصاق التي تفيد قرب هذا النهر، ويظل الأسلوب يرعي حالهم، ويعالج أفكارهم، وهم يقفون بخيالهم أمام نهر بالباب، لكن باب أي أمير؟ تأتي الإجابة في الأسلوب عجلى (بباب أحدكم) أي واحد منكم، ثم يصور هذه المتعة بأنه فارغ الجوارح يغتسل منه خمس مرات في اليوم ؛مع اطراد مع الزمان أفاده لفظ الشمول (كل) المضاف ليوم، وبذلك تبدو صورة ذلك المصلى من خلال صورة المغتسل وتبدو الصلوات وهي الطهارة البدنية قالباً، وهي الطهارة المعنوية قلباً خلال صورة نهر صاف عذب قريب، وينتج من بين الصورتين صورة مؤمن نقي طاهر القلب، والقالب كنهره الذي اغتسل فيه صافياً نقياً.

فقه الحديث

هذا الحديث يشير إلى الأحكام الفقهية التالية:

١-أن الصلوات الخمس ترفع بها الدرجات وتمحى بها السيئات[١].

٢-فضل الصلاة لأول وقتها لأن الاغتسال في أول اليوم أبلغ في النظافة[٢].

وأداء الصلاة في أول أوقاتها مستحب عند الفقهاء، لتحصيل الفضل والثواب، لأن النبي ﷺ لما سئل أي العمل أحب إلى الله قال: ((الصلاة على وقتها))[٣].

ويستثنى من هذا الحكم ما نص على تأخيره لسبب، كالإبراد بصلاة الظهر في وقت الحر، لقول رسول الله ﷺ: ((إذا اشتد الحر فابردوا عن الصلاة فإن شدة الحر من فيح جهنم))[٤].

---

(١) الاستذكار ٢/٣٦٦.

(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير، المناوي ٥/٧٠٥.

(٣) أخرجه البخاري ٥٢٧، ومسلم ٨٥.

(٤) أخرجه البخاري ٥٣٦، ومسلم ٦١٥.

كذلك يستثنى صلاة العشاء، عند الحنفية والحنابلة، وقول عند المالكية، والشافعية[١]، لما روى أبي هريرة يرفعه قال: ((لولا أن أشق على المؤمنين لأمرتهم بتأخير العشاء وبالسواك عند كل صلاة))[٢].

٣-أن العذب من الماء أشد إنقاء للدرن كما أن الكثير أشد إنقاء من اليسير.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التمثيل.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل الصلاة وأهميتها في تكفير الذنوب.

ثالثًا: من مهام الداعية: إرشاد المدعوين إلى الحفاظ على الصلاة.

رابعًا: من أهداف الدعوة: الحث على المحافظة على الصلاة وإقامتها في أوقاتها.

أولاً- من أساليب الدعوة: التمثيل:

يتضح هذا من الحديث في قوله ﷺ: "مثل الصلوات الخمس"، حيث ضرب لنا النبي ﷺ مثل تطهير الصلوات لسيئات الإنسان بمن يغتسل في نهر جار خمس مرات كل يوم. وأسلوب التمثيل من أساليب الدعوة التي تعين على توضيح المراد للمدعو، قال ابن حجر: (وفائدة التمثيل التأكيد جعل المعقول كالمحسوس، قال ابن العربي: وجه التمثيل أن المرء كما يتدنس بالأقذار المحسوسة في بدنه وثيابه ويطهره الماء الكثير فكذلك الصلوات تطهر العبد عن أقذار الذنوب حتى لا تبقي له ذنبًا إلا أسقطته"[٣]، ولا شك أن ضرب المثل يقرب المعاني البعيدة عن الأفهام، فليس المدعوون كلهم على درجة واحدة من الفهم، "لقد كان رسول الله ﷺ يستعين على توضيح المواعظ

---

(١) رد المحتار على الدر المختار المسمى بـ "حاشية ابن عابدين"، محمد أمين بن عمر عابدين، تحقيق: علي محمد معوض ٢٥٦/١ وما بعدها، وحاشية الدسوقي على الشرح الكبير، محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي ١٧٩/١ وما بعدها، ومغني المحتاج ١٢٥/١ وما بعدها، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٣٨٨/١.

(٢) أخرجه أحمد ٢٤٥/٢ رقم ٧٣٣٩، وقال محققو المسند: إسناده صحيح على شرط الشيخين ٢٩٢/١٢.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٥/٢ - ١٦.

بضرب المثل مما يشاهده الناس بأم أعينهم، ويقع تحت حواسهم وفي متناول أيديهم ليكون وقع الموعظة في النفس أشد، وفي الذهن أرسخ[١]، ومن صور استخدام القرآن الكريم لأسلوب التمثيل قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[٢]، وقوله جلّ شأنه: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾[٣].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل الصلاة وأهميتها في تكفير الذنوب:

إن الصلاة لها أهمية كبيرة في حياة المسلم فهي مكفرة للذنوب ماحية للسيئات، رافعة للدرجات، وقد جاء في الحديث ما يدل على فضلها في قوله ﷺ: (مثل الصلوات الخمس كمثل نهر جار غمر على باب أحدكم)، ومما لا شك فيه أن الصلاة لها فضل كبير وثواب عظيم وقد دلت النصوص الشرعية على فضل الصلاة، والصلاة من صفات المتقين، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[٤]، ووعد الله عليها بالأجر الكبير، قال تعالى: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[٥]، وهي مما أوحى الله بها إلى الأنبياء، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾[٦].

وأخبر النبي ﷺ أن الصلاة نور، ففي الحديث عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ. وَالْحَمْدُ لله تَمْلأُ الْمِيزَانَ وَسُبْحَانَ الله وَالْحَمْدُ لله تَمْلآنِ (أَوْ تَمْلأُ) مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ. وَالصَّلاَةُ نُورٌ))[٧]، وأقرب ما

---

(١) التربية على منهج أهل السنة والجماعة، أحمد فريد ص ٣٣٢.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٦١.

(٣) سورة العنكبوت، آية: ٤١.

(٤) سورة البقرة، آية: ٣.

(٥) سورة البقرة، آية: ٢٧٧.

(٦) سورة الأنبياء، آية: ٧٣.

(٧) أخرجه مسلم ٢٢٣.

يكون العبد من ربه وهو ساجد في صلاته فعن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: ((أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاء))[1]، والصلاة تكفر الذنوب، فعن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: ((الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ. وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ. كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ. مَا لَمْ تُغْشَ الْكَبَائِرُ))[2]، وبالصلاة يغفر الله للمذنبين فعن عثمان بن عفان ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((لاَ يَتَوَضَّأُ رَجُلٌ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهُ. ثُمَّ يُصَلِّي الصَّلاَةَ. إِلاَّ غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الصَّلاَةِ الَّتِي تَلِيهَا))[3].

وبالصلاة يكون الإنسان في ذمة الله فعن جندب بن عبدالله ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: ((مَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فَهُوَ فِي ذِمَّةِ الله. فَلاَ يَطْلُبَنَّكُمُ الله مِنْ ذِمَّتِهِ بِشَيْءٍ فَيُدْرِكَهُ فَيَكُبَّهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ))[4].

قال عفيف طبارة: (إن الصلاة في الإسلام بما تحتويه من مراقبة لله وقيام وسجود له، وما تشتمل عليه من معاني القربى له تربط المصلي بخالقه وتشعره بعلو مكانته في نظر نفسه حتى يرى من آثار الكرامة ما يستقذر معه الإتيان بالقبائح فكلما حدثته نفسه بإتيان منكر أو عمل قبيح هتف به نداء من أعماق النفس: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[5]، (فالله هو الذي أحسن إلى الإنسان بنعمة الوجود، ثم منّ عليه بالنعم الوافرة، والهداية المثمرة، وشرّفه بالتقرب منه بالصلوات، فكيف تطاوعه نفسه بعد ذلك على معصية خالقه؟ وبإقامة الصلاة يتحقق المقصود وهو التوجه الكلي إلى الله، والخشوع الحقيقي، وتمثل رحمته وعظمته مما ينقل النفس من أرجاس الدنيا إلى عالم الطهر)[6].

---

(١) أخرجه مسلم ٤٨٢.

(٢) أخرجه مسلم ٢٣٣.

(٣) أخرجه البخاري ١٦٠، ومسلم ٢٢٧.

(٤) أخرجه مسلم ٦٥٧.

(٥) سورة يوسف، آية: ٢٣.

(٦) روح الصلاة في الإسلام ٣٢ - ٣٣.

ثالثًا- من مهام الداعية: إرشاد المدعوين إلى الحفاظ على الصلاة:

حيث جاء في الحديث إرشاد النبي ﷺ لأمته لفضل الصلاة والمحافظة عليها ولذا كان من مهام الداعية تحبيب المدعوين في الصلاة وبيان أثرها على المؤمن، هذا وقد أمر الله بالمحافظة عليها، فقال سبحانه: ﴿حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾[1]، ومن صفات المؤمنين أنهم يحافظون على الصلاة قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[2]، وهي تغير حال الإنسان وتصرفه عن الآثام والمنكرات قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾[3].

وبالصلاة يستعين الإنسان على مصائب الحياة قال جلّ شأنه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾[4]، وما من شك في "أن العبد إذا اعتاد الوقوف بين يدي مولاه في اليوم والليلة خمس مرات خاشعًا متواضعًا فارغ القلب من الشواغل، متدبرًا ما يتلوه من آيات انغرست في نفسه خشية مولاه في جميع أعماله، وحضرته هيبة خالقه في عموم أحواله"[5].

وقال د. الحسيني عبدالمجيد هاشم: "الصلوات الخمس تطهر النفوس، وتنقي القلوب وتذهب أدران المعاصي، وتسوق إلى الصلاح وتنظف صاحبها من الداخل كما ينظف النهر العذب الكثير الماء من يغتسل فيه خمس مرات يوميًا. وقد أشار بقوله في الحديث: "على باب أحدكم" إلى قرب تناولها ويسر الاستفادة منها ولكن بعض الناس يأنفون النظافة ويؤثرون القذارة وعدم النجاة"[6].

وعلى ضوء هذا كان من أبرز مهام الداعية إرشاد المدعوين إلى الحفاظ على الصلاة.

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٣٨.

(٢) سورة المؤمنون، آية: ٩.

(٣) سورة العنكبوت، آية: ٤٥.

(٤) سورة البقرة، آية: ١٥٣.

(٥) هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة، علي محفوظ، ص ٤٣٤.

(٦) شرح رياض الصالحين ٢٩١ - ٢٩٢.

رابعًا- من أهداف الدعوة: الحث على المحافظة على الصلاة وإقامتها في أوقاتها:

يظهر هذا من سياق الحديث، وتعتبر الدعوة إلى المحافظة على الصلاة من أهم أهداف الدعوة حيث جاء الأمر بذلك في القرآن، قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾(١)، وقال سبحانه: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾(٢)، وتوعد الله من يضيعها فقال جل شأنه: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾(٣)، وتركها من أسباب دخول النار قال سبحانه: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ۝ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾(٤)، ومن يسهو عنها ويهملها فله الويل قال جلّ شأنه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾(٥)، والصلاة تمد المسلم بطاقة روحية دافعة تعينه على متاعب الحياة؛ إذ إن المجتمع الإنساني بحاجة إلى قوة روحية ترفع من نفسية الأفراد على وجه الاستمرار إلى مثل عليا، وذلك خشية أن تنحصر روابط الأفراد في الحاجات المادية والمصالح الشخصية مما يؤدي إلى الفساد في الأرض، والصلاة هي التي تمد الجماعة الإنسانية بالقوى الروحية التي لا بد منها لصلاح المجتمع(٦).

وقال أبو الحسن الندوي: (ولمكانة الصلاة في الإسلام كان لا بد من الخضوع لحكمة التشريع والإيمان بأن الصلاة فريضة الله على عباده، وأنها عماد الدين، والفارق بين الكفار والمسلمين وشرط النجاة وحارسة الإيمان، وهي من الأشراط الأساسية للهداية والتقوى. وهي فريضة دائمة مطلقة على كل عبد وحر، غني وفقير،

---

(١) سورة البقرة، آية: ٤٣.

(٢) سورة النساء، آية: ١٠٣.

(٣) سورة مريم، آية: ٥٩.

(٤) سورة المدثر، الآيتان: ٤٢ - ٤٣.

(٥) سورة الماعون، الآيتان: ٤ - ٥.

(٦) روح الدين الإسلامي، عفيف طبارة، ص ٢٤٢.

وصحيح ومريض، ومقيم ومسافر، لا تسقط عمن بلغ الحلم في حال من الأحوال، ولا تسقط هذه الفريضة عن نبي مرسل فضلاً عن صالح أو عارف أو مجاهد، وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾[1]، ومن رأى أنها تسقط عنه لفضل معرفته ووصوله إلى درجة اليقين والمشاهدة، أو لحسن بلائه في الإسلام، أو لسوابقه ومآثره الكثيرة، فقد أتلف نفسه وعرَّضها للخطر الأكبر)[2].

(١) سورة الحجر، آية: ٩٩.

(٢) الأركان الأربعة ص ٢٥ - ٢٧ بتصرف.

الحديث رقم (٤٣٠)

٤٣٠- وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُول الله ﷺ، يقول: ((مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ، فَيَقُومُ عَلَى جَنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلاً، لاَ يُشْرِكُونَ بِاللهِ شَيئًا، إلاَّ شَفَّعَهُمُ اللهُ فِيهِ)) رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١).

غريب الألفاظ:

شفعهم الله فيه: قَبِل سؤالهم ودعاءهم في التجاوز عن ذنوبهم وآثامهم[٢].

الشرح الأدبي

أسلوب التعميم للكلام يعطي الحكم صلاحية عبر الزمان، والمكان، وله طرق متعددة منها وقوع النكرة في سياق النفي كما ورد في هذا الحديث، فالحكم يشمل كل ميت من المسلمين يصلي عليه أربعون موحداً، وتخصيص المسلم لنفي الحكم عن غيره والتعبير بالقيام يفيد العناية، والاهتمام بأمر الصلاة عليه، والدعاء له، وقوله (رَجُلاً) لن النساء لا يحضرون الجنائز، وقوله: (لاَ يُشْرِكُونَ بِاللهِ شَيَئاً) تكميل بلاغي أفاد الإشارة إلى تمام الإخلاص، وأكدته النكرة التي أفادت التعميم فنفت قليل الشرك، وكثيره، وقوله: (إلاَّ شَفَّعَهُمُ اللهُ فِيهِ) بقية جملة القصر التي شملت الحديث كله، وقد قصرت صفة قيام الأربعين مسلماً على ما وصفوا على الشفاعة لا يتعدونها إلى الحرمان، وفي الحديث استحباب تكثير المصلين على الجنازة، ويطلب بلوغهم إلى هذا العدد الذي يكون من موجبات الفوز، وقد قيد ذلك بأمرين الأول أن يكونوا شافعين فيه أي مخلصين له الدعاء سائلين له المغفرة الثاني أن يكونوا مسلمين ليس فيهم من يشرك بالله شيئا.

---

(١) برقم ٩٤٨/٥٩. أورده المنذري في ترغيبه ٥١٤٩. وسيكرره المؤلف برقم ٩٣٤.

(٢) انظر: النهاية في (ش ف ع)، ودليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٦٥٩.

فقه الحديث

هذا الحديث يشير إلى الأحكام الفقهية التالية:

١-حكم صلاة الجنازة: ذهب الجمهور إلى أنها فرض كفاية، وذهب المالكية في قول إلى أنها سنة، وهو الراجح عندهم[1].

٢-اشتراط الجماعة في صلاة الجنازة: لا يشترط ذلك عند الجمهور، بل يسقط فرضها بواحد، وإن كان يستحب تكثير جماعة الجنازة؛ لأنه أفضل للميت وأنفع له، كما يستحب ألا يقلّوا عن ثلاثة صفوف للحديث ((ما من مؤمن يموت فيصلي عليه أُمّة من المسلمين يبلغوا أن يكونوا ثلاث صفوف إلا غُفِر له))[2] وأقل ما يسمى صفًا رجلان، ولا حد لأكثره[3]. أما عند المالكية: فإن الجماعة شرط لصحة صلاة الجنازة كصلاة الجمعة، فإن صلّى عليها بغير إمام أعيدت الصلاة ما لم يفت ذلك.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: ثبوت شفاعة المؤمنين للميت.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الترغيب في الصلاة على الجنازة وكثرة المصلين.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: بيان فضل الله على عباده المؤمنين.

رابعًا: من مهام الداعية: حث المدعوين على فعل ما ينفعهم.

---

(١) الاختيار ١٢٣/١، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد المغربي ٢/٣، والمهذب ١٨١/١، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ١٢٩/٢.

(٢) أخرجه أحمد ٧٩/٤ رقم ١٦٧٢٤، وقال محققو المسند: إسناده ضعيف ٢٨١/٢٧.

(٣) المبسوط ١١٤/٢، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، علاء الدين أبي بكر الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٣٣٦/٢، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد المغربي ٢/٣، والفوكه الدواني ٣٤٢/١، ومغني المحتاج ٣٤٤/١ وما بعدها و٣٦١/١، والمهذب ٨١/١، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ١٢٩/٢ وما بعدها، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٤١٠/٢، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، الشوكاني ٧١٣ ط بيت الأفكار الدولية.

أولاً- من موضوعات الدعوة: ثبوت شفاعة المؤمنين للميت:

إن من رحمة الله بعباده وفضله عليهم أنه يشفع بعضهم في بعض حيث جاء في الحديث "إلا شفعهم الله فيه" قال الإمام النووي: (وهذا الحديث يثبت الشفاعة للأربعين، وفي حديث آخر: "ثلاثة صفوف"، وفي حديث ثالث "أمة من المسلمين يبلغون مائة". وهذه الأحاديث خرجت أجوبة لسائلين سألوا عن ذلك، فأجاب كل واحد منهم عن سؤاله، هذا كلام القاضي عياض، ويحتمل أن يكون النبي ﷺ أُخبر بقبول شفاعة مائة فأخبر به ثم بقبول شفاعة أربعين ثم ثلاث صفوف وإن قل عددهم فأخبر به، ويحتمل أيضًا أن يقال هذا مفهوم عدد فلا يلزم من الإخبار عن قبول شفاعة مائة منع قبول ما دون ذلك، وكذا في الأربعين مع ثلاثة صفوف وحينئذٍ كل الأحاديث معمول بها وتحصل الشفاعة بأقل الأمرين من ثلاثة صفوف وأربعين)[1].

وقال الطيبي: (إذا كان قد جاء في هذا الحديث أربعين وفي حديث آخر مائة فلا تضاد؛ لأن السبيل في أمثال هذا المقام أن يكون الأقل من العددين متأخرًا لأن الله تعالى إذا وعد المغفرة في المعنى الواحد مرتين وإحداهما أيسر من الأخرى، لم يكن من سنته أن ينقص من الفضل الموعود بعد ذلك، بل يزيد عليه فضلاً منه وتكرمًا على عباده)[2].

وقال المباركفوري: (وفي الحديث استحباب تكثير جماعة الجنازة ويطلب بلوغهم إلى هذا العدد الذي يكون من موجبات الفوز وقد قيد ذلك بأمرين:

الأول: أن يكونوا شافعين فيه أي مخلصين له الدعاء سائلين له المغفرة.

الثاني: أن يكونوا مسلمين ليس فيهم من يشرك بالله شيئًا)[3].

وقال سليم الهلالي: (ومن فقه الحديث ثبوت الشفاعة للمؤمنين إذا كان الميت من أهل الشفاعة، وشفاعتهم له أن يغفر الله له وفيه بيان لفضل التوحيد والبراء من الشرك؛ ففي من قام على الجنازة شرط وهو أن لا يشرك بالله شيئًا، وفيه الترغيب

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٦١٠.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٣/٣٦٨.

(٣) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري ١/١٠٩٢.

بتكثير المصلين على الجنازة رجاء حصول المغفرة للميت بفضل الله تعالى)[١].

ومن خلال ما سبق يتضح ثبوت شفاعة المؤمنين لأخيهم الميت.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: الترغيب في الصلاة على الجنازة وكثرة المصلين:

إن اجتماع المصلين على صلاة الجنازة له فضل عظيم، وهو سبب في رحمة الله للميت، ويتضح هذا من الحديث "ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً" وإذا ثبتت الشفاعة من المؤمنين للميت فهذا يدل على فضل حضور الصلاة على الجنازة واتباعها وهي من حقوق المسلم على أخيه المسلم ففي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ. قِيلَ: مَا هُنَّ؟ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: إِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ. وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ. وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ. وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ اللَّهَ فشمته. وَإِذَا مَرِضَ فَعُدْهُ. وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبِعْهُ))[٢] وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم فضل شهود الجنائز فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((من شهِدَ الجنازةَ حتَّى يُصلِّيَ فله قيراطٌ، ومن شَهِدَها حتَّى تُدفَنَ كان له قيراطانِ. قيل: وما القيراطان؟ قال: مثلُ الجبَلينِ العظيمينِ)) وفي رواية: ((وكان ابن عمر يصلي عليها ثم ينصرف فلما بلغه حديث أبي هريرة قال لقد ضيعنا قراريط كثيرة))[٣]. وفي ذلك ما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم من الرغبة في الطاعات حين يبلغهم التأسف على ما يفوتهم منها وإن كنوا يعلمون عظيم موقعة، وقوله صلى الله عليه وسلم عن القيراطين بأنهما "مثل الجبلين العظيمين" والقيراط مقدار من الثواب معلوم عند الله تعالى)[٤].

وأرشد النبي صلى الله عليه وسلم إلى فضيلة تكثير العدد في صلاة الجنازة فعن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((مَا مِنْ مَيِّتٍ يُصَلِّي عَلَيْهِ أمَّةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَبْلُغُونَ مِئَةً كُلُّهُمْ يَشْفَعُونَ لَهُ الا شُفِّعُوا فِيهِ))[٥].

---

(١) بهجة الناظرين شرح رياض الصالحين، سليم بن عيد الهلالي ٥٠٠/١.

(٢) أخرجه مسلم ٢١٦٢.

(٣) أخرجه البخاري ٤٧، ومسلم ٩٤٥.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٦٠٨.

(٥) أخرجه البخاري ١٢٤٠، ومسلم ٩٤٧.

قال ابن القيم: (كان هديه ﷺ في الجنائز أكمل الهدي مخالفًا لهدي سائر الأمم مشتملاً على الإحسان إلى الميت ومعاملته بما ينفعه في قبره ويوم معاده، وعلى الإحسان إلى أهله وأقاربه، وعلى إقامة عبودية الحي لله وحده فيما يُعامل به الميت، وكان من هديه في الجنائز إقامة العبودية للرب تبارك وتعالى على أكمل الأحوال، والإحسان إلى الميت، وتجهيزه إلى الله على أحسن أحواله وأفضلها ووقوفه ووقوف أصحابه صفوفًا يحمدون الله ويستغفرون له، ويسألون له المغفرة والرحمة والتجاوز عنه ثم المشي بين يديه إلى أن يُودِعُوهُ حفرته، ثم يقوم هو وأصحابه بين يديه على قبره سائلين له التثبيت أحوج ما كان إليه، ثم يتعاهده بالزيارة له في قبره، والسلام عليه، والدعاء له كما يتعاهد الحي صاحبه في دار الدنيا)[1].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: بيان فضل الله على عباده المؤمنين:

يظهر ذلك من سياق الحديث في قبول شفاعة المسلمين لأخيهم الميت قال ابن علان: (ولتأكيد العموم في الحديث جاء "من" لتشمل كل رجل مسلم يموت والمرأة كذلك، ومعنى شفعهم الله فيه معناه: أن يغفر له ولا ينافيه ماجاء في حديث آخر من ذكر "مائة رجل" إما لأن العدد لا مفهوم له وعلى الاعتداد بالعدد فحديث "أربعين رجلاً" أصح وهو مقدم على غيره وعلى الجمع بينهما يحمل أنه ﷺ أخبر بما فيه فأخبر به وهو المائة ثم تفضل الله على عباده بحصول ذلك العدد المذكور وهو الأربعين فأخبر به ﷺ ثانيًا)[2].

وما من شك في أن قبول شفاعة المسلمين في أخيهم الميت دليل على سعة فضل الله ورحمته بعباده، قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾[3] وقال جل شأنه: ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[4] وقال سبحانه على لسان يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾[5] وقال سبحانه وتعالى: ﴿نَبِّئْ

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم ١/٤٩٨.

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٦٥٩.

(٣) سورة الأعراف، آية: ١٥٦.

(٤) سورة الحديد، آية: ٢٩.

(٥) سورة يوسف، آية: ٨٧.

عِبَادِيَ أَنِّيَ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[(١)] ولواسع فضله وكرمه قال تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[(٢)].

رابعًا- من مهام الداعية: حث المدعوين على فعل ما ينفعهم:

يظهر هذا من توجيه النبي ﷺ إلى تكثير عدد المصلين على الميت ليشفعوا فيه، وما من شك أن الداعية رائد في قيادة المدعوين إلى الخير، وفي إرشادهم إلى الصواب لما له من مكانة في نفوسهم، وثقة في قلوبهم، وما يفعله الداعية هو من قبيل التعاون على الخير قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾[(٣)] وبين الرسول الكريم ثواب من يدل على الخير فعن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((مَنْ دَلَّ على خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ))[(٤)].

قال النووي: (وفي الحديث فضيلة الدلالة على الخير والتنبيه عليه والمساعدة لفاعله، وفيه فضيلة تعليم العلم ووظائف العبادات لاسيما لمن يعمل بها من المتعبدين وغيرهم، والمراد: بمثل أجر فاعله أن له ثوابًا بذلك الفعل كما أن لفاعله ثوابًا ولا يلزم أن يكون قدر ثوابهما سواء)[(٥)]. والداعية له في رسول الله ﷺ أسوة حسنة في الحرص على هداية المدعوين وإرشادهم وتوجيههم إلى ما فيه الخير والفلاح، فعن تميم الداري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: ((الدِّينُ النَّصِيحَةُ قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: «للَّه وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ))[(٦)].

---

(١) سورة الحجر، آية: ٤٩.

(٢) سورة المزمل، آية: ٢٠.

(٣) سورة المائدة، آية: ٢.

(٤) أخرجه مسلم ١٨٩٣.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٢١٥.

(٦) أخرجه مسلم ٥٥.

الحديث رقم (٤٣١)

٤٣١- وعن ابن مسعود رضي الله عنه، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُول الله ﷺ في قُبَّة نَحْوًا مِنْ أربَعِينَ[1]، فَقَالَ: ((أتَرْضَونَ أنْ تَكُونُوا رُبُعَ أهْلِ الجَنَّةِ؟)) قُلْنَا: نَعَمْ. قَالَ: ((أتَرْضَوْنَ أنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أهلِ الجَنَّةِ؟)) قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: ((وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إنِّي لأَرْجُو أنْ تَكُونُوا نِصْفَ أهْلِ الجَنَّةِ، وذلك أنَّ الجَنَّةَ لاَ يَدْخُلُهَا إلاَّ نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ، ومَا أنْتُم في أهْلِ الشِّركِ إلاَّ كَالشَّعْرَةِ البَيْضَاءِ في جلدِ الثَّورِ الأَسْوَدِ، أَوْ كَالشَّعْرَةِ السَّوداءِ في جلدِ الثَّورِ الأحْمَرِ)) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[2].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

غريب الألفاظ:

قُبَّة: بيت صغير مستدير من الخيام، وهو من بيوت العرب[3].

نحوًا من أربعين: قُرابة أربعين رجلاً[4].

الشرح الأدبي

صدر الحديث في أسلوب حوار من طبقة البيان العالي الذي تميَّز به الرسول ﷺ في عرض المعنى، وإعداد المخاطب لتلقيه بيقظة، وانتباه، وترقب يضمن للمعنى الثبات، والرسوخ في ذهن المخاطبين؛ لأنه يريد من صحابته أكثر من فهم المعنى يريد منهم أن يكونوا حملته لمن بعدهم من الأجيال، والحديث يبدأ باستفهام التشويق الذي يزفُّ البشارة إلى المؤمنين متدرجاً بهم في البشارة من الأصغر إلى الأكبر، فقد بدأ بالربع، ثم

---

(١) عند مسلم زيادة: (رجلا).

(٢) أخرجه البخاري ٦٥٢٨، ومسلم ٢٢١/٣٧٧ واللفظ له.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ق ب ب)، ودليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٦٥٩.

(٤) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ن ح و).

الثلث، ثم ارتقى بهم صعوداً في العدد إلى النصف بعد أن أكده بقسم ذي طبيعة خاصة، (وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ) يؤكد البشارة مع الرجاء المؤكد بحرف التوكيد (إني لأرجو) ثم جاء أسلوب القصر ليقصر دخول الجنة على النفوس المسلمة دون غيرها، ثم جاء أسلوب القصر لحصر صفة مقدارهم في الناس على المثل المذكور، وهو كونهم كالشعرة السوداء في جلد الثور الأحمر، وهذا التشبيه يدل على قلة عدد المسلمين في الناس يوم القيامة، وهذا يدل على كثرة من يدخلون الجنة من المسلمين، وهي بشارة يرسلها الرسول ﷺ للمسلمين في كل مكان، وزمان بميراث نصف الجنة لأمته، فلا عذر لمن تخلَّف منهم.

المضامين الدعوية

أولاً: من صفات الداعية: تبشير المدعوين.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل أمة محمد ﷺ على غيرها من الأمم.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الجنة لا يدخلها إلا مؤمن.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: كثرة أهل الشرك وقلة أهل الإيمان.

خامسًا: من أساليب الدعوة: الاستفهام والقسم والتوكيد والتعليل والقصر والتشبيه.

أولاً- من صفات الداعية: تبشير المدعوين:

إن البشارة لها الأثر المحمود في نفوس المدعوين فهي من ناحية تجعلهم يلتزمون ما هم عليه من عمل صالح، ومن ناحية أخرى الزيادة فيه والمسارعة إليه، ولهذا كان من صفات الداعية تبشير المدعوين، فقد بشّر النبي ﷺ أصحابه بأنهم من أهل الجنة ثم قال: ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ))، وفي رواية لمسلم: ((فكبرنا))[1].

قال ابن علان: (قال العلماء: كل رجاء جاء عن الله تعالى أو عن النبي ﷺ فهو كائن البتة. وإنما أتى فيه بصيغة الرجاء دن صيغة الجزم على عادة الملوك في وعد ما

(١) أخرجه مسلم ٢٢١.

يقطعون بفعله، يقولون: عسى تعطي ذلك وهم جازمون)[١].

وقال النووي: (أما تكبيرهم فلسرورهم بهذه البشارة العظيمة)[٢].

وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ)) فَحَمِدْنَا اللهَ وَكَبَّرْنَا. ثُمَّ قَالَ: ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ))[٣].

ومن أمثلة التبشير كذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: ((اذْهَبْ بِنَعْلَيَّ هَاتَيْنِ. فَمَنْ لَقِيتَ مِنْ وَرَاءِ هذَا الْحَائِطِ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلهَ إِلاَّ اللّهُ. مُسْتَيْقِنا بِهَا قَلْبُهُ. فَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ))[٤].

قال العز بن عبدالسلام: (بشارة الطائعين حث لهم على الطاعة، فإنهم يعملون ليصلوا إلى ما بشروا به من الأجر العظيم والنعيم المقيم)[٥]، ولذا جاء في الموسوعة الفقهية: (إخبار الناس بما يسرهم أمر مستحب... والبشارة مستحبة كالهبة إذا قصد بها وجه الله تعالى)[٦].

ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بعث أحدًا من أصحابه رضي الله عنهم في بعض أمره، قال: ((بَشِّرُوا وَلاَ تُنَفِّرُوا، وَيَسِّرُوا وَلاَ تُعَسِّرُوا))[٧]، قال النووي: (في هذا الحديث الأمر بالتبشير بفضل الله وعظيم ثوابه وجزيل عطائه وسعة رحمته، والنهي عن التنفير بذكر التخويف وأنواع الوعيد محضة من غير ضمها إلى التبشير، وفيه تأليف من قرب إسلامه وترك التشديد عليهم وكذلك من قارب البلوغ من الصبيان ومن بلغ ومن تاب من

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٦٦٠.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٢٤٨.

(٣) أخرجه البخاري ٦٥٣، ومسلم ٢٢٢.

(٤) أخرجه مسلم ٣٠.

(٥) شجرة المعارف والأحوال ص ٢٣٣.

(٦) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٨/٩٤ – ٩٥.

(٧) أخرجه مسلم ١٧٣٢.

المعاصي كلهم يتلطف بهم ويدرجون في أنواع الطاعة قليلاً قليلاً، وقد كانت أمور الإسلام في التكليف على التدريج)[١].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل أمة محمد ﷺ على غيرها من الأمم:

إن أمة محمد ﷺ هي أمة أفضل رسول ﷺ، لذلك كانت مفضلة على غيرها من الأمم، ذلك واضح في قول النبي ﷺ: (والذي نفس محمد بيده إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة)، قال ابن هبيرة: (في الحديث أن أمة محمد ﷺ يكونون نصف أهل الجنة، وذلك لأن أمة محمد ﷺ عقبت الأمم فورثت ما كانت عليه الأمم بأسرها ثم لا يعقبهم غيرهم، وإذا نزل المسيح بن مريم كان على ملتهم)[٢].

وقد جاءت أحاديث تؤكد هذا المعنى منها: قال ﷺ: ((أَهْلُ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِائَةُ صَفٍ: ثَمَانُونَ مِنْهَا مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ، وَأَرْبَعُونَ مِنْ سَائِرِ الأُمَمِ))[٣]، قال النووي: (هذا دليل على أنهم يكونون ثلثي أهل الجنة)[٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (لما نزلت: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾[٥]، شق ذلك على المسلمين فنزلت: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾[٦]، فقال ﷺ: ((أَنْتُمْ ثُلُثُ أَهْلِ الْجَنَّةِ بَلْ أَنْتُمْ نِصْفُ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَتُقَاسِمُونَهُمُ النِّصْفَ الْبَاقِي))[٧].

وقد قال الله تعالى عن أمة محمد ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾[٨]، قال السعدي: (أي: عدلاً لا خيارًا، وما عدا الوسط فالأطراف داخلة تحت الخطر. فجعل الله

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١١١٧.

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٣١/١.

(٣) أخرجه الترمذي ٢٥٤٦، وابن ماجه ٤٢٨٩، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٣٤٦٢).

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٢٤٨.

(٥) سورة الواقعة، الآيتان: ١٣ - ١٤.

(٦) سورة الواقعة، الآيتان: ٣٩ - ٤٠.

(٧) أخرجه أحمد ٣٩١/٢ رقم ٩٠٨٠، وقال محققو المسند: حسن لغيره، ٣٨/١٥.

(٨) سورة البقرة، آية: ١٤٣.

هذه الأمة وسطًا في كل أمور الدين، وسطًا في الأنبياء، بين من غلا فيهم كالنَّصارى، وبين من جفاهم كاليهود، بأن آمنوا بهم كلهم على الوجه اللائق بذلك، ووسطًا في الشريعة لا تشديدات اليهود وآصارهم ولا تهاون النصارى. وأباح الله تعالى لهم الطيبات من المطاعم والمشارب والملابس والمناكح، وحرّم عليهم الخبائث من ذلك، فلهذه الأمة من الدين أكمله ومن الأخلاق أجلها، ومن الأعمال أفضلها. ووهبهم الله من العلم والحلم والعدل والإحسان ما لم يهبه لأمة سواهم، فلذلك كانوا "أمة وسطًا"، كاملين معتدلين، ليكونوا "شهداء على الناس"، بسبب عدالتهم وحكمهم بالقسط، يحكمون على الناس من سائر أهل الأديان، ولا يحكم عليهم غيرهم)(١).

وقد ساق ابن كثير هذه الأحاديث ونحوها في تفسيره تحت عنوان: "نوع آخر من الأحاديث الدالة على فضيلة هذه الأمة وشرفها وكرامتها على الله وأنها خير الأمم في الدنيا والآخرة"(٢).

قال ابن الملقن: (إن أمته ﷺ خير الأمم لا تجتمع على ضلالة)(٣).

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: الجنة لا يدخلها إلا مؤمن:

جعل الله تعالى الجنة دار كرامته، فلا يدخلها إلا من هو كريم عليه سبحانه، لذلك لا يدخلها إلا مؤمن. فقد قال النبي ﷺ: (وذلك أن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة)، قال النووي: (هذا نص صريح في أن من مات على الكفر لا يدخل الجنة أصلاً، وهذا النص على عمومه بإجماع المسلمين)(٤)، وقد أكّد النبي ﷺ هذا المعنى في أحاديث أخرى منها:

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لَمَّا كَانَ يَوْمُ خَيْبَرَ أَقْبَلَ نَفَرٌ مِنْ صَحَابَةِ النَّبِيِّ ﷺ.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٥٣.

(٢) تفسير ابن كثير ١٠١/٢، عند تفسير آية: ١١٠ من سورة آل عمران.

(٣) غاية السول في خصائص الرسول ص ٢٧٥.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٢٤٨، وانظر: الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٣١/٢.

فَقَالُوا: فُلاَنٌ شَهِيدٌ. فُلاَنٌ شَهِيدٌ. حَتَّى مَرُّوا عَلَى رَجُلٍ فَقَالُوا: فُلاَنٌ شَهِيدٌ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((كَلاَّ. إِنِّي رَأَيْتُهُ فِي النَّارِ. فِي بُرْدَةٍ غَلَّهَا. أَوْ عَبَاءَةٍ)) ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: ((يَا ابْنَ الْخَطَّابِ! اذْهَبْ فَنَادِ فِي النَّاسِ أَنَّهُ لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلاَّ الْمُؤْمِنُونَ)) قَالَ فَخَرَجْتُ فَنَادَيْتُ: أَلاَ إِنَّهُ لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلاَّ الْمُؤْمِنُونَ[1].

وعن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ بَعَثَهُ وَأَوْسَ بْنَ الْحَدَثَانِ أَيَّامَ التَّشْرِيقِ. فَنَادَى ((أَنَّهُ لاَ يَدْخُلُ الجَنَّةَ إِلاَّ مُؤْمِنٌ. وَأَيَّامُ مِنىً أَيَّامُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ))[2].

وقال قال الله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[3]، قال الطاهر بن عاشور: (الإيمان هو أُس هيكل النجاة. ولذلك كان الكفر أُسّ الشقاء الأبدي فإن كل عمل سيئ فإن سوءه وفساده جزئي منقضٍ فكان العقاب عليه غير أبدي، وأما الكفر فهو سيئة دائمة مع صاحبها لأن مقرّها قلبه واعتقاده، وهو ملازم له فلذلك كان عقابه أبديًا، إن الحكمة تقتضي المناسبة بين الأسباب وآثارها فدلّ قوله: "فلا يجزى إلا مثلها"، أن جزاء الكفر شقاء أبدي لأنه مثل الكفر في كونه ملازمًا للكافر إن مات كافرًا)[4].

وقال ابن القيم: (وبالجملة فأهل الجنة أربعة أصناف، ذكرهم الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾[5][6].

---

(١) أخرجه مسلم ١١٤.

(٢) أخرجه مسلم ١١٤٢.

(٣) سورة غافر، آية: ٤٠.

(٤) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ١٥٠/٢٤/٩.

(٥) سورة النساء، آية: ٦٩.

(٦) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص ١٦٦.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: كثرة أهل الشرك وقلة أهل الإيمان:

إن الحق أتباعه قليل، بخلاف الباطل فإن أتباعه كثير، وكذلك الأمر في شأن الإيمان والكفر، وهذا ما يوضحه النبي ﷺ بقوله: (ما أنتم في أهل الشرك إلا الشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود أو كالشعرة السوداء في جلد الثور الأحمر).

وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: ((إِنَّ مَثَلَكُمْ فِي الأُمَمِ كَمَثَلِ الشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الأَسْوَدِ أَوْ كَالرَّقْمَةِ فِي ذِرَاعِ الْحِمَارِ))[1].

وفي حديث أبي سعيد نفسه: ((يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا آدَمُ! فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ! وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ! قَالَ يَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ[2]. قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ)).

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: ((أَخْرِجْ مِنْ كُلِ مِائَةٍ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ))[3].

ونقل ابن حجر عن الكرماني أن مفهوم العدد لا اعتبار له، فالتخصيص بعدد لا يدل على نفي الزائد، والمقصود من العددين واحد وهو تقليل عدد المؤمنين وتكثير عدد الكافرين، ثم قال ابن حجر: (ويحتمل أن يكون المراد ببعث النار الكفار ومن يدخلها من العصاة فيكون من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون كافرًا، ومن كل مائة تسعة وتسعون عاصيًا والعلم عند الله تعالى)[4].

قال ابن رجب: (أهل النار الذي هم أهلها على الحقيقة هم الذين يخلّدون فيها ولهم أعدت كما قال تعالى: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾[5]، وهؤلاء أهلها الخالدون فيها هم أكثر ممن يدخلها من عصاة الموحدين الذين يخرجون منها بعد أن يهذبوا وينقوا.

---

(١) أخرجه البخاري ٦٥٣٠، ومسلم ٢٢٢، والرقمة: قطعة بيضاء تكون في باطن عضد الحمار والفرس وتكون في قوائم الشاة، فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٩٦/١١.

(٢) أي ميّز أهل النار من غيرهم، فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٩٧/١١.

(٣) أخرجه البخاري ٦٥٢٩.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٩٧/١١ - ٣٩٨.

(٥) سورة البقرة، آية: ٢٤.

فهذه الأحاديث وما في معناها تدلّ على أن أكثر بني آدم من أهل النار وتدلّ أيضًا على أن أتباع الرسل عليهم السلام قليلون بالنسبة إلى غيرهم، وغير أتباع الرسل عليهم السلام كلّهم في النار إلا من لم تبلغه الدعوة أو لم يتمكن من فهمها على ما جاء فيهم من الاختلاف، والمنتسبون إلى أتباع الرسل كثير منهم من تمسك بدين منسوخ وكتاب مبدّل، وهم أيضًا من أهل النار كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾(١)، وأما المنتسبون إلى الكتاب المحكم والشريعة المؤيدة والدين الحق فكثير منهم من أهل النار أيضًا وهم المنافقون الذين هم في الدرك الأسفل من النار، وأما المنتسبون إليه ظاهرًا وباطنًا فكثير منهم فتن بالشبهات وهم أهل البدع والضلال... وكثير منهم أيضًا فُتن بالشهوات المحرمة المتوعد عليها بالنار وإن لم يقتض ذلك الخلود فيها فلم ينج من الوعيد بالنار، ولم يستحق الوعد المطلق بالجنة من هذه الأمة إلا فرقة واحدة،وهو ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم ظاهرًا وباطنًا وسلم من فتنة الشهوات والشبهات، وهؤلاء قليل جدًا لا سيما في الأزمان المتأخرة والقرآن يدلّ على أن أكثر الناس هم أهل النار وهم الذين اتبعوا الشيطان كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾(٣))(٤).

خامسًا- من أساليب الدعوة: السؤال والقسم والتوكيد والتعليل والقصر والتشبيه:

أما الاستفهام فقوله صلى الله عليه وسلم لأصحابه رضي الله عنهم: "أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟"، ثم قال صلى الله عليه وسلم: "أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟ ثم قال: والذي نفس محمد بيده إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة"، قال ابن حجر: (قال ابن التين: ذكره بلفظ

---

(١) سورة هود، آية: ١٧.

(٢) سورة سبأ، آية: ٢٠

(٣) سورة ص، آية: ٨٥.

(٤) التخويف من النار والتعريف بحال البوار ٢٥١ - ٢٥٣.

الاستفهام لإرادة تقرير البشارة بذلك، وذكره بالتدريج ليكون أعظم لسرورهم)[١].

قال النووي: (وأما قوله ﷺ: "ربع أهل الجنة ثم ثلث أهل الجنة ثم الشطر -النصف-"، ولم يقل أولاً شطر أهل الجنة، فلفائدة حسنة، وهي أن ذلك أوقع في نفوسهم وأبلغ في إكرامهم، فإن إعطاء الإنسان مرة بعد أخرى دليل على الاعتناء به ودوام ملاحظته، وفيه فائدة أخرى هي تكريره البشارة مرة بعد مرة، وفيه أيضًا حملهم على تجديد شكر الله تعالى وتكبيره وحمده على كثرة نعمه)[٢].

وقد أكد النبي ﷺ هذه البشارة بالقسم والتوكيد، فقال: "والذي نفس محمد بيده إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة" قال ابن علان: (أتى بالقسم وباسمه ﷺ مظهرًا تأكيدًا للأمر وتفخيمًا له)[٣]، كما علل هذه البشارة، وفي هذا كله بشارة بعد البشارة، كما زاد ذلك توكيدًا باستخدام أسلوب القصر، وقد استخدم فيه التشبيه، ليثبت تلك البشارة في نفوسهم ويوضحها لأفهامهم ويجعلها كأنها واضحة ماثلة أمام أعينهم.

❁ ❁ ❁

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٩٥/١١.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٢٤٨.

(٣) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٦٥٩ - ٦٦٠.

الحديث رقم (٤٣٢)

٤٣٢- وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((**إذا كان يوم القيامة دفع الله إلى كل مسلم يهوديا أو نصرانيا، فيقول: هذا فكاكك من النار**))[١].

وفي رواية عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: ((**يجيء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب أمثال الجبال، يغفرها الله لهم**)) رواه مسلم[٢].

قوله: ((**دفع إلى كل مسلم يهوديا أو نصرانيا، فيقول: هذا فكاكك من النار**)) معناه ما جاء في: حديث أبي هريرة رضي الله عنه: ((**لكل أحد منزل في الجنة، ومنزل في النار، فالمؤمن إذا دخل الجنة خلفه الكافر في النار؛ لأنه مستحق لذلك بكفره**))[٣].

ترجمة الراوي:

أبو موسى الأشعري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨).

غريب الألفاظ:

فكاكك: الفكاك: التخليص[٤].

الشرح الأدبي

جعل الله عز، وجل لكل إنسان مقعداً في الجنة، ومقعداً في النار، فإذا صلح عمله نال مقعده من الجنة، وإذا ساء عمله نال مقعده في النار، وهذا الحديث فيه شفاء لقلوب المؤمنين من وجهين: أحدهما أنه بشارة للمسلم باستقراره في الجنة، وفكاكه من النار، الثاني: أنه يقلي نصرانياً أو يهودياً في النار، وكأنه صلى الله عليه وسلم يعلم ما يفعلونه

---

(١) أخرجه مسلم ٢٧٦٧/٤٩.

(٢) برقم ٢٧٦٧/٥١ وزاد: (ويضعها على اليهود والنصارى).

(٣) أخرجه ابن ماجه ٤٣٤١ ولفظه: (ما منكم من أحد إلا وله منزلان، منزل في الجنة، ومنزل في النار، فإذا مات، فدخل النار، ورث أهل الجنة منزله، فذلك قوله تعالى: أولئك هم الوارثون). قال البوصيري في الزوائد ص ٥٦٢: هذا إسناد صحيحٌ على شرط الشيخين.

(٤) رياض الصالحين ٢١٢.

بالمسلمين في كل زمان، ومكان، وقوله :(هَذَا فِكَاكُكَ مِنَ النَّارِ) كأنه كناية عن ميراثه المقعد المخصص للمسلم الذي نجى من النار، ونال مقعده من الجنة، يعني كان لك منزل في النار لو كنت استحقيته دخلت فيه فلما استحقه هذا الكافر صار كالفكاك لك من النار؛ لأنك نجوت منه، وتعين الكافر له فألقه في النار فداءك، والتعبير بالفكاك، يوحي بالتحرر من القيود، والرواية الثانية في قوله :(يَجِيءُ يَوْمَ القِيَامَةِ نَاسٌ مِنَ المُسْلِمِينَ بِذُنُوبٍ أَمْثَالِ الجِبَالِ يَغْفِرُهَا اللَّه لَهُم) كناية عن سعة رحمة الله تعالى، وعظمة مغفرته، وهي خبر أريد به لازم فائدته، وهو الترغيب في التوبة والاستغفار مع الرجاء.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل الله العظيم على المسلمين.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: عظم ذنوب الكافرين.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: عدل الله يوم القيامة.

رابعًا: من أساليب الدعوة: الإخبار.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل الله العظيم على المسلمين:

لقد امتن الله على عباده المسلمين بأن هداهم إلى الإسلام ووفقهم إلى عمل الطاعات وإلى ترك الذنوب والمعاصي، كما امتن عليهم بأن أدخلهم الجنة. وهذا واضح من الحديث "هذا فكاكك من النار"، وفي رواية "بذنوب مثل الجبال يغفرها الله لهم".

وفي رواية أخرى عند مسلم: "لا يموت رجل مسلم إلا أدخل الله مكانه النار يهوديًا أو نصرانيًا".

قال النووي: (ومعنى هذا الحديث [أن] المؤمن إذا دخل الجنة خلفه الكافر في النار لاستحقاقه ذلك بكفره. ومعنى فكاكك من النار أنك كنت معرضًا لدخول النار وهذا فكاكك، لأن الله تعالى قدّر لها عددًا يملؤها، فإذا دخلها الكفار بكفرهم وذنوبهم صاروا في معنى الفكاك للمسلمين)[1]. وتعقب ابن حجر قول النووي ونقل

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٦١٨.

كثيرًا من أقوال العلماء منها قول البيهقي يحتمل أن الفداء في قوم كانت ذنوبهم كفرت عنهم في حياتهم، ويحتمل أن يكون هذا القول لهم في الفداء بعد خروجهم من النار بالشفاعة، وقال غيره: يحتمل أن يكون الفداء مجازًا عما يدل عليه حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((لا يدخل أحدًا الجنة إلا أري مقعده من النار ولو أساء ليزداد شكرًا ولا يدخل النار أحد إلا أري مقعده من الجنة لو أحسن ليكون عليه حسرة))[1])[2]. ليزداد المؤمن فرحًا ورضا فعبر عنه بلازمه لأن الراضي الشيء يشكر من فعل له ذلك، ويزداد الكافر حسرة للزيادة في تعذيبه[3].

ونقل الطيبي عن القاضي ناصر الدين البيضاوي قوله: (لما كان لكل مكلف مقعد في الجنة ومقعد في النار، فمن آمن حق الإيمان بدل مقعده من النار بمقعد من الجنة، ومن لم يؤمن فبالعكس وكانت الكفرة كالخلف للمؤمنين في مقاعدهم من النار والنائب منابهم فيها، وأيضًا لما سبق القسم الإلهي بملء جهنم [﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[4]] كان ملؤها من الكفار خلاصًا للمؤمنين ونجاة لهم من النار، فهم في ذلك للمؤمنين كالفداء والفكاك، ولعل تخصيص اليهود والنصارى بالذكر لاشتهارهما بمضاداة المسلمين، ومقابلتهما إياهم في تصديق الرسول المقتضى لنجاتهم)[5].

وقال النووي: (وقد جاء عن عمر بن عبدالعزيز والشافعي رحمهما الله أنهما قالا: هذا الحديث أرجى حديث للمسلمين، وهو كما قالا. لما فيه من التصريح بفداء كل مسلم وتعميم الفداء، ولله الحمد)[6].

---

(١) أخرجه البخاري ٥٦٥٩.

(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١/٤٠٥.

(٣) المرجع السابق ١١/٤٥٠، ٤٥١.

(٤) سورة السجدة، آية: ١٣.

(٥) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ١٠/١٧٤.

(٦) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٩/١٧/٨٩.

وقال رسول الله ﷺ لأصحابه: ((لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ» قَالُوا: وَلاَ أَنْتَ؟ يَا رَسُولَ اللّهِ قَالَ: «وَلاَ أَنَا. إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللّهُ مِنْهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ))[1].

قال ابن حجر: (قال الرافعي في الحديث: إن العامل لا ينبغي أن يتكل على عمله في طلب النجاة ونيل الدرجات، لأنه إنما عمل بتوفيق الله وإنما ترك المعصية بعصمة الله، فكل ذلك بفضله ورحمته)[2].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: عظم ذنوب الكافرين:

إن الكفار أعظم الناس ذنوبًا، لأنهم كفروا بالله وأشركوا معه سبحانه غيره من مخلوقاته، لذلك كان عقابهم أليمًا وعظيمًا، كما يتضح في هذا الحديث. ففي رواية "يجيء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب أمثال الجبال يغفرها الله لهم" قال النووي: (معناه أن الله تعالى يغفر تلك الذنوب للمسلمين ويسقطها عنهم ويضع على اليهود والنصارى مثلها بكفرهم وذنوبهم فيدخلهم النار بأعمالهم لا بذنوب المسلمين، ولابد من هذا التأويل لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[3] ويحتمل أن يكون المراد آثامًا كان للكفار سبب فيها بأن سنُّوها فتسقط عن المسلمين بعفو الله تعالى ويوضع على الكفار مثلها لكونهم سنوها، ومن سن سنة سيئة كان عليه وزر كل من يعمل بها)[4].

وعلى الاحتمال الأخير يمكن الاستشهاد بقول النبي ﷺ ((ولا تقل نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه كان أول من سن القتل))[5].

وقال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[6] قال ابن القيم: (أخبر سبحانه أنه أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم

---

(١) أخرجه البخاري ٦٤٦٣، ومسلم ٢٨١٦.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٠٣/١١.

(٣) سورة الأنعام، آية: ١٦٣، والإسراء، آية: ١٥

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٦١٨، وانظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٢٠١/٧، ٢٠٢.

(٥) أخرجه البخاري ٧٣٢١، ومسلم واللفظ له ١٦٧٧.

(٦) سورة الحديد، آية: ٢٥.

الناس بالقسط وهو العدل، ومن أعظم القسط التوحيد وهو رأس العدل وقوامه وإن الشرك ظلم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (١) فالشرك أعظم الظلم، والتوحيد أعدل العدل، فما كان أشدّ منافاة لهذا المقصود فهو أكبر الكبائر، وتفاوتها في درجاتها بحسب منافاتها له، وما كان أشد موافقة لهذا المقصود فهو أوجب الواجبات وأفرض الطاعات. فتأمل هذا الأصل حق التأمل واعتبر به تفاصيله تعرف به حكمة أحكم الحاكمين وأعلم العالمين فيما فرضه على عباده وحرّمه عليهم وتفاوت مراتب الطاعات والمعاصي.

فلما كان الشرك بالله منافيًا بالذات لهذا المقصود كان أكبر الكبائر على الإطلاق، وحرّم الله الجنة على كل مشرك، وأباح دمه وماله وأهله لأهل التوحيد، وأن يتخذوهم عبيدًا لهم، لما تركوا القيام بعبوديته، وأبى الله سبحانه أن يقبل من مشرك عملاً، أو يقبل فيه شفاعة أو يستجيب له في الآخرة دعوة، أو يقيل له فيها عثرة، فإن المشرك أجهل الجاهلين، حيث جعل له من خلقه ندًا، وذلك غاية الجهل به، كما أنه غاية الظلم منه، وإن كان المشرك لم يظلمْ ربَّه، وإنما ظلم نفسه)(٢).

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: عدل الله يوم القيامة:

العدل من أسماء الله تعالى فهو سبحانه عدل في أفعاله وقضائه وحكمه، فيدخل المؤمن الجنة بعدله، كما يدخل الكافر النار بعدله، فقد أخبر النبي ﷺ عن الله عز وجل أنه يقول للمسلم هذا [أي اليهودي أو النصراني] فكاكك من النار" معناه أن الله (يدخلهم النار بأعمالهم لا بذنوب المسلمين ولابد من هذا التأويل - كما قال النووي- لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (٣))(٤).

---

(١) سورة لقمان، آية: ١٣.

(٢) الداء الدواء، ١٩٦-١٩٧.

(٣) سورة الأنعام، آية: ١٦٤، والإسراء، آية: ١٥.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٦١٨، وانظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٧/٢٠١ - ٢٠٢.

قال أبو العباس القرطبي: (فهي قاعدة معلومة من الشرع لا يختلف فيها)[(١)].

فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[(٢)].

قال ابن كثير: (أي فيحكم بين عباده في أعمالهم جميعًا ولا يظلم أحدًا من خلقه، بل يغفر ويصفح ويرحم ويعذب من يشاء بقدرته وحكمته وعدله، ويملأ النار من الكفار وأصحاب المعاصي ثم ينجي أصحاب المعاصي ويُخلد فيها الكافرون وهو الحاكم الذي لا يجور ولا يظلم، قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾[(٣)] والآيات في هذا كثيرة)[(٤)].

قال ابن القيم: (كل ما يقضي على العبد فهو عدل فيه.

فإن قيل: فالمعصية عندكم بقضائه وقدره! فما وجه العدل في قضائها، فإن العدل في العقوبة عليها غير ظاهر؟

أهل السنة الظلم عندهم هو وضع الشيء في غير موضعه: كتعذيب المطيع ومن لا ذنب له، وهذا قد نزَّه الله نفسه عنه في غير موضع من كتابه. وهو سبحانه وإن أضلَّ من شاء وقضى بالمعصية والغيّ على من شاء، فذلك محض العدل فيه؛ لأنه وضع الإضلال والخذلان في موضعه اللائق به.

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٢٠٢/٧.

(٢) سورة الكهف، آية: ٤٩.

(٣) سورة الأنبياء، آية: ٤٧.

(٤) تفسير ابن كثير ١٦٦/٥.

كيف ومن أسمائه العدل، الذي كل أفعاله وأحكامه سداد وصواب وحق، وهو سبحانه قد أوضح السُبل، وأرسل الرسُل، وأنزل الكتب، وأزاح العلل، ومكّن من أسباب الهداية والطاعة بالأسماع والأبصار والعقول، وهذا عدله. ووفّق مَن شاء بمزيد عناية وأراد من نفسه أن يعينه ويوفقه، فهذا فضله. وخذل من ليس بأهل لتوفيقه وفضله وخلّى بينه وبين نفسه، ولم يرد سبحانه من نفسه أن يوفقه، فقطع عنه فضله، ولم يحرمه عدله.

وهذا نوعان:

أحدهما: ما يكون جزاءً منه للعبد على إعراضه عنه، وإيثار عدوِّه في الطاعة والموافقة عليه، وتناسي ذكره وشكره؛ فهو أهل لأن يخذله ويتخلى عنه.

والثاني: أن لا يشاء له ذلك ابتداء؛ لما يعلم منه أنه لا يعرف قدر نعمة الهداية ولا يشكره عليه، ولا يثني عليه بها، ولا يحبه؛ فلا يشاؤها له لعدم صلاحية محله. قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾[1]. وقال: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾[2].

فإذا قضى على هذه النفوس بالضلال والمعصية -كان ذلك محض العدل، كما إذا قضي على الحية بأن تقتل، وعلى العقرب، وعلى الكلب العَقور، كان ذلك عدلاً فيه، وإن كان مخلوقًا على هذه الصفة)[3].

رابعًا- من أساليب الدعوة: الإخبار:

فقد جاء الأسلوب في هذا الحديث إخبارًا عن مشهد من مشاهد يوم القيامة، وناسب الإخبار هنا الموقف؛ لأن النبي ﷺ يخاطب المسلمين الذي هم مؤمنون بيوم القيامة، لا يشكُّون في ذلك ولا يرتابون وهم مصدقون بالنبي ﷺ ومما يخبر به؛ فجاء الإخبار ليقرر هذه الحقيقة الثابتة في نفوسهم.

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٥٣.

(٢) سورة الأنفال، آية: ٢٣.

(٣) الفوائد ٤٦-٤٨.

الحديث رقم (٤٣٣)

٤٣٣- وعن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ، يقول: ((يُدْنَى المُؤْمِنُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ رَبِّهِ حَتَّى يَضَعَ كَنَفَهُ عَلَيهِ، فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ، فيقولُ: (أتعرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أتَعرفُ ذَنْبَ كَذَا؟)[1] فيقول: رَبِّ أعْرِفُ، قَالَ: فَإنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيا، وَأنَا أغْفِرُهَا لَكَ اليَومَ، فَيُعْطَى صَحِيفَةَ حَسَنَاتِهِ)) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[2].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

كنفهُ: سترهُ ورحمتُهُ[3].

فيُقرِّرُهُ: أي يحمله على الإقرار بما يعرفه[4].

الشرح الأدبي

لفظ (يدنى) يوحي بالتقريب، والاجتباء، ولفظ اليوم يؤقت الحدث، وإضافته للقيامة يعظِّم الأثر، ويعطيه بُعداً يتناسب مع أحداث الموقف، وقوله (من ربه) يوحي بجلاله وقوله :(حَتَّى يَضَعَ كَنَفَهُ عَلَيهِ) كناية عن شدة القرب، وقوله (: أتعرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟) استفهام بغرض التقرير لإلزام المخاطب بالحجة، وتكراره إشارة إلى ذنوب يعلمها، وسؤال الله لعبده تذكير للعبد ببعض غدراته، ودفعة لعقله بقوة ليعود إلى الماضي في الدنيا ليجعل صاحبه يعيش لحظة تطول، أو تقصر يرى نفسه في الحالين الأولى ملابس للخطيئة موشك على الهلكة، والثانية في معية الله، وبذلك تعظم عنده

(١) لفظ مسلم مسلم في هذه الرواية: (فيقول: هل تعرف) والمثبت لفظ البخاري.

(٢) أخرجه البخاري ٢٤٤١، ومسلم ٢٧٦٨ واللفظ له.

(٣) رياض الصالحين ٢١٢.

(٤) الكليات معجم المصطلحات والفروق الفردية، أبو البقاء الكفوي، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري ٣١٠.

المنة ويعلم عن يقين أنه نجى بفضل الله، وستره، ومغفرته، هذا بالنسبة لمن يخاطبه الله في الموقف المحكي، أما من يخاطبهم الرسول ﷺ فالاستفهام بالنسبة لهم تحذير وتنبيه من سيء الأعمال مع تقرير لعظمة مغفرة الله، وستره على عباده، ومن الملاحظ في أسلوب الاستفهام التقريري أن أكثر وروده في معرض التصوير، والحكاية لمشاهد القيامة استحضاراً للمستقبل بين يدي الحاضر يرى العبد نفسه خلالها ينتقل بين مشاهد القيامة بين الهول، أو النعيم فإذا ما انتهى الحديث وجد نفسه في الحياة ما زال - وما زالت فرصة العمل قائمة للنجاة من هول ما تصور له والفوز بما تخيل من نعيم.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: ستر الله على عبده المؤمن.

ثانيًا: من واجبات المدعو: عدم المجاهرة بالمعاصي.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: إثبات الحساب وإعطاء الصحف يوم القيامة.

رابعًا: من أساليب الدعوة: الإخبار.

أولاً- من موضوعات الدعوة: ستر الله على عبده المؤمن:

إن فضل الله على عبده لعظيم لا يعدّ ولا يحصى، ويكفي لبيان فضله سبحانه ستره على عبده المؤمن، كما جاء في صريح الحديث "يدني المؤمن يوم القيامة من ربه حتى يضع كنفه عليه فيقرره بذنوبه فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول رب أعرف قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم فيعطى صحيفة حسناته"، وفي بعض الروايات للحديث زيادة هي: ((وَأَمَّا الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيُنَادَىٰ بِهِمْ عَلَىٰ رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ: ﴿هَٰؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1]))[2].

قال المازري: (الدنو ها هنا: دنو كرامة لا دنو مسافة لأن الباري سبحانه في غير

(١) سورة هود، آية: ١٨.

(٢) صحيح البخاري ٢٤٤١، ٤٦٨٥، وصحيح مسلم ٢٧٦٨.

مكان فلا يصح منه دنو المسافة ولا بعدها، والمراد بقوله: "حتى يضع عليه كنفه" أي ستره وعفوه، وما يتفضل عليه به حينئذ)[١]، وقال ابن حجر: (قال المهلب: في الحديث تفضل الله على عباده بستره لذنوبهم يوم القيامة، وأنه يغفر ذنوب من شاء منهم بخلاف قول من أنفذ الوعيد على أهل الإيمان، لأنه لم يستثن في هذا الحديث ممن يضع عليه كنفه وستره أحدًا إلا الكفار والمنافقين، فإنهم الذين ينادى عليهم على رؤوس الأشهاد باللعنة)[٢].

وقال ابن هبيرة: (الكنف: الستر، وهو عز وجل يستر عبده حين يقرره بذنوبه لئلا يطلع على ما بينه وبين ربه من ذلك غير ربه)[٣].

وقد قال رسول الله ﷺ: ((إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَلِيمٌ حَيِيٌّ سِتِّيرٌ يُحِبُّ الحَيَاءَ والسَّتْرَ))[٤].

قال السندي: (معناه أنه عز وجل تارك للقبائح، ساتر للعيوب والفضائح، يحب الحياء والستر من العبد ليكون متخلقًا بأخلاقه تعالى)[٥].

وقال ابن الأثير: (ستير: فعيل بمعنى فاعل، أي من شأنه وإرادته حب الستر والصون)[٦].

وقال محمد بن إبراهيم التويجري: (الله تبارك وتعالى هو الستير الذي يستر على عباده كثيرًا، ولا يفضحهم في المشاهد، حيي ستير، يحب الحياء والستر، ويستر على عباده الكثير من العيوب والقبائح والفضائح... وإذا وقع المسلم في معصية أو تقصير فليستر على نفسه، ويتوب إلى ربه فإن الله يغفرها له، لأنه الغفور الذي يغفر الذنوب.

---

(١) المعلم بفوائد مسلم، المازري، ٤١٤/٢.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٠٤/١٠.

(٣) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ١٨٩/٤.

(٤) أخرجه أبو داود ٤٠١٢، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٩٣).

(٥) حاشية السندي ١/ الحديثين ٤٠٤، ٤٠٥ طبعة دار المعرفة.

(٦) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (س ت ر).

الساتر الذي يستر العيوب، الكريم الذي يبدل الحسنات بالسيئات)[١].

ثانيًا- من واجبات المدعو: عدم المجاهرة بالمعاصي:

إن المؤمن لا يحب فعل المعاصي وإتيانها، فإن وقعت منه فإنه يكون على وجل وخوف عظيمين يسارع بالاستغفار والتوبة، يحاول ستر المعصية بكل سبيل ممكن، طمعًا في أن يسترها الله عليه، وهذا واضح من قول الله لعبده المؤمن: "قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم". قال ابن حجر: (إن العصاة من المؤمنين في القيامة على قسمين: أحدهما من معصيته بينه وبين ربه، فدلَّ حديث ابن عمر رضي الله عنهما على أن هذا القسم على قسمين: قسم تكون معصيته مستورة في الدنيا فهذا الذي يسترها الله عليه في القيامة وهو بالمنطوق، وقسم تكون معصيته مجاهرةً فدل مفهومه على أنه بخلاف ذلك. والقسم الثاني من تكون معصيته بينه وبين العباد فهم على قسمين أيضًا: قسم ترجح سيئاتهم على حسناتهم فهؤلاء يقعون في النار ثم يخرجون بالشفاعة، وقسم تتساوى سيئاتهم وحسناتهم فهؤلاء لا يدخلون الجنة حتى يقع بينهم التقاصُّ)[٢].

وقد قال رسول الله ﷺ حاضًا على ستر المعصية وعدم المجاهرة بها: ((كلُّ أمَّتي مُعَافىً إلا المجاهِرين. وإنَّ من المجاهرة أَن يعملَ الرجلُ بالليل عملاً ثم يُصبح وقد سَتَرَهُ الله فيقول: يا فلان عملتُ البارحةَ كذا وكذا، وقد باتَ يَستُرُه ربُّه ويُصبحُ يكشِفُ ستَر الله عنه))[٣].

قال ابن حجر: (إن الحديث مصرح بذم من جاهر بالمعصية فيستلزم مدح من يستتر، وأيضًا فإن ستر الله مستلزم لستر المؤمن على نفسه، فمن قصد إظهار المعصية والمجاهرة بها أغضب ربه فلم يستره، ومن قصد التستر بها حياء من ربه ومن الناس مَنْ الله عليه بستره إياه)[٤].

---

(١) موسوعة فقه القلوب، محمد بن إبراهيم التويجري، بيت الأفكار الدولية، الرياض: ٢٠٠٦، ٣٣٤/١.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٠٤/١٠. وانظر: الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ١٨٩/٤ - ١٩٠.

(٣) أخرجه البخاري ٦٠٦٩، ومسلم ٢٩٩٠.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٠٣/١٠.

جاء في الموسوعة الفقهية: (يندب للمسلم إذا وقعت منه هفوة أو زلة أن يستر على نفسه ويتوب بينه وبين الله عز وجل وأن لا يرفع أمره إلى السلطان، ولا يكشفه لأحد كائنًا ما كان، لأن هذا من إشاعة الفاحشة التي توعد على فاعلها بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾[1] ولأنه هتك لستر الله سبحانه وتعالى ومجاهرة بالمعصية)[2].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: إثبات الحساب وإعطاء الصحف يوم القيامة:

جعل الله يوم القيامة لمحاسبة الناس على ما قدموا في هذه الدنيا، وقد أحصى الله سبحانه وتعالى أعمالهم عليهم وسجلتها ملائكته لهم في الدنيا، وهذا واضح جليّ من الحديث وفي آخره "فيعطى صحيفة حسناته". قال عبدالرحمن حبنكة الميداني: (ولا يتم تتجيز الرحلة الأخيرة من العقاب أو الثواب قبل اجتياز مرحلة الحساب، وذلك للفصل بين الخلائق ولإقامة الحكم بالعدل ولتقرير مرتبة الإكرام والفضل، تمهيدًا لمقتضى الجزاء المقرر بموجب قانون الجزاء الرباني، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾[3].

ويسبق الحساب عرض فسؤال ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾[4] وقال تعالى مبينًا مرحلة السؤال: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[5].

ولإقامة العدل في الحكم عند الحساب يوم القيامة ميزان حق لا يظلم مثقال ذرة،

---

(١) سورة النور، آية: ١٩.

(٢) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٤/١٧٠.

(٣) سورة الغاشية، الآيتان: ٢٥-٢٦.

(٤) سورة الكهف، آية: ٤٨.

(٥) سورة الحجر، الآيتان: ٩٢-٩٣.

قال الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾(١).

أما وسائل الإثبات لإدانة المكلف فهي:

١- شهادة كتب الأعمال التي سجلت فيها أعماله وأقواله في الحياة الدنيا، وشهادة الملائكة الكرام الكاتبين الذين قاموا بوظيفة تسجيلها في الدنيا. ويسلَّم المكلفون كتب أعمالهم يوم القيامة بأيمانهم إذا كانوا من أهل اليمين في الحياة الدنيا، وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، أو بشمائلهم ومن وراء ظهورهم إذا كانوا من أهل الشمال في الحياة الدنيا، وهم الذي كفروا وعملوا السيئات.

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾(٣).

قال ابن كثير: (وكتاب الأعمال الذي فيه الجليل والحقير والفتيل والقمطير والصغير والكبير ولا يترك ذنبًا صغيرًا ولا كبيرًا ولا عملاً وإن صغر إلا أحصاها أي ضبطها وحفظها "ولا يظلم ربك أحدا" فيحكم بين عباده في أعمالهم جميعًا ولا يظلم أحدًا من خلقه بل يغفر ويصفح ويرحم ويعذب من يشاء بقدرته وحكمته وعدله ويملأ النار من الكفار وأصحاب المعاصي ثم ينجي أصحاب المعاصي ويخلد فيها الكافرون وهو الحاكم الذي لا يجور)(٤).

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ٤٧.

(٢) سورة الانشقاق، الآيات: ٧-١٢.

(٣) سورة الكهف، آية: ٤٩.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٦٥/٥، ١٦٦.

٢- شهادة الإنسان على نفسه بإقراره واعترافه بجرمه، فإن كذب لسانه ختم على فمه واستنطقت جوارحه، فتنطق بإذن الله وقدرته شاهدةً عليه، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١).(٢)، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٣).

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ((قَالُوا: يَا رَسُولَ اللّهِ هَلْ نَرَىٰ رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ فِي الظَّهِيرَةِ، لَيْسَتْ فِي سَحَابَةٍ؟ قَالُوا: لاَ. قَالَ: فَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لَيْسَ فِي سَحَابَةٍ؟ قَالُوا: لاَ. قَالَ: فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ إِلاَّ كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا. قَالَ: فَيَلْقَىٰ الْعَبْدَ فَيَقُولُ: أَيْ فُلْ أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وَأُسَوِّدْكَ، وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟ فَيَقُولُ: بَلَىٰ. قَالَ فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلاَقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لاَ. فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي. ثُمَّ يَلْقَىٰ الثَّانِي فَيَقُولُ: أَيْ فُلْ أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وَأُسَوِّدْكَ، وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ، وَالإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟ فَيَقُولُ: بَلَىٰ. أَيْ رَبِّ فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلاَقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لاَ. فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي. ثُمَّ يَلْقَىٰ الثَّالِثَ فَيَقُولُ لَهُ مِثْلَ ذٰلِكَ. فَيَقُولُ: يَا رَبِّ آمَنْتُ بِكَ وَبِكِتَابِكَ وَبِرُسُلِكَ وَصَلَّيْتُ وَصُمْتُ وَتَصَدَّقْتُ. وَيُثْنِي بِخَيْرٍ مَا اسْتَطَاعَ. فَيَقُولُ: هَهُنَا إِذاً. قَالَ: ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: الآنَ نَبْعَثُ شَاهِدَنَا عَلَيْكَ. وَيَتَفَكَّرُ فِي نَفْسِهِ: مَنْ ذَا الَّذِي يَشْهَدُ عَلَيَّ؟ فَيُخْتَمُ عَلَىٰ فِيهِ. وَيُقَالُ لِفَخِذِهِ وَلَحْمِهِ وَعِظَامِهِ: انْطِقِي. فَتَنْطِقُ فَخِذُهُ وَلَحْمُهُ وَعِظَامُهُ بِعَمَلِهِ. وَذٰلِكَ لِيُعْذِرَ مِنْ نَفْسِهِ)) (٤).

---

(١) سورة النور، آية: ٢٤.

(٢) العقيدة الإسلامية وأسسها، عبدالرحمن حسن حبنكة، ٦٥٧-٦٥٨.

(٣) سورة فصلت، الآيات: ١٩-٢١.

(٤) أخرجه مسلم ٢٩٦٨.

رابعًا- من أساليب الدعوة: الإخبار:

جاء الحديث ليخبر عن أمر مستقبلي وهو ستر الله تعالى لعبده المؤمن يوم القيامة، وإن المؤمن أحوج ما يكون إلى ستر الله وعفوه ومغفرته لذنوبه يوم القيامة، لذا بيّن النبي ﷺ تلك النعمة والمنة العظيمة التي يمنّ الله تعالى بها على عبده المؤمن يوم القيامة.

الحديث رقم (٤٣٤)

٤٣٤- وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أنَّ رَجُلاً أصَابَ مِن امْرَأة قُبْلَةً، فَأتَى النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم فَأخْبَرَهُ، فَأنْزَلَ الله تَعَالَى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾[هود: ١١٤] فَقَالَ الرجل: ألِيَ هَذَا يَا رَسُول الله؟ قَالَ: ((لجميعِ أُمَّتِي كُلِّهِمْ)) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[(١)].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

الشرح الأدبي

الحديث يبين أثر الحسنة على السيئة، جاء في أسلوب خبري مؤكد بمؤكدين تنبيهاً على عظمة الخبر، ولفتاً للعناية به، وتنكير كلمة رجل لعدم إرادة تعيينه ستراً عليه، والتعبير بالإصابة يؤكد تحقق الفعل، وإتيان الرجل النبي صلى الله عليه وسلم دليل على عزمه التوبة، والربط بالفاء في قوله (فأتى - فأخبره) يدل على سرعة توبته، والفعل الماضي الدال على التحقق يؤكد صدق توبته، ومضاء عزيمته لذلك جاءت الآية الكريمة فرجاً من عند الله له، وللمؤمنين من بعده، بأن الحسنة تمحو السيئة ، وقول الرجل (ألى هذا؟) استفهام على حقيقته، وقدم الجار، والمجرور للاختصاص أي لى وحدي دون الناس، فكانت الإجابة من الرسول صلى الله عليه وسلم (لجميعِ أُمَّتِي كُلِّهِمْ) يسبقها التوكيد على الشمول، ويحدوها فضلا من الله على عباده.

فقه الحديث

هذا الحديث يشير إلى الأحكام الفقهية التالية:

١-حكم التقبيل واللمس والمعانقة: اتفق الفقهاء على عدم وجوب الحد في التقبيل واللمس والمعانقة ونحو ذلك[(٢)]، وإن كان هذا لا يعني إباحة هذه الأشياء فهي محرمة

---

(١) أخرجه البخاري واللفظ له ٥٢٦، ومسلم ٢٧٦٣/٣٩. وسيكرره المؤلف برقم ١٠٤٥.

(٢) المبسوط ٢٦٥/٧، ومنح الجليل ٤٣١/٤، وكفاية الأخيار ٦١٨/١، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ١٥٧/١٠، ومجموع الفتاوى ٣١٢/١٥.

شرعًا ولكنها لا تعد زنًا بالمعنى الفقهي، إذ أن هناك فرقًا بين الحل والحرمة وبين وجوب العقوبة.

وهل يعزر على ذلك؟ أجمع العلماء على أن التعزير مشروع في كل معصية لا حد فيها ولا كفارة[(١)].

المضامين الدعوية

أولاً: من واجبات المدعو المسلم: المسارعة إلى الخروج من الذنوب والسؤال عن كفارتها.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الحسنات تكفر السيئات.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: نزول القرآن حسب المقتضيات والأحوال.

رابعًا: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

أولاً- من واجبات المدعو المسلم: المسارعة إلى الخروج من الذنوب والسؤال عن كفارتها:

إذا كان كل ابن آدم خطاء، فإن المؤمن الحق إذا أخطأ سارع بالتوبة والاستغفار والإنابة إلى الله، وسؤال أهل العلم عن كفارة ذنوبه، وهذا واضح من قول الصحابي ابن مسعود رضي الله عنه: إن رجلاً أصاب من امرأة قبلة فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره).

وفي رواية لمسلم: ((يَا رَسُولَ اللّهِ! إِنِّي عَالَجْتُ امْرَأَةً فِي أَقْصَى الْمَدِينَةِ. وَإِنِّي أَصَبْتُ مِنْهَا مَا دُونَ أَنْ أَمَسَّهَا. فَأَنَا هذَا. فَاقْضِ فِيَّ مَا شِئْتَ))[(٢)].

قال ابن هبيرة: (في هذا الحديث ما يدل على شدة ورع هذا الرجل... ولما جرى عليه من مصيبة الله عز وجل ما جرى اختار الإعلان بحاله، وآثر سؤال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صورة أمره وتسليمه إليه نفسه ليقضي فيها بما شاء)[(٣)].

ومن هذا القبيل ما رواه أبو اليسر كعب بن عمرو السّلمي قال: أَتَتْنِي امْرَأَةٌ تَبْتَاعُ

(١) مجموع الفتاوى ٣٩/٣٠، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، علاء الدين أبي بكر الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٢٧٠/٩، والمهذب ٢٣٤/٣، والشرح الكبير ١٨٤/١٠، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ١٥٧/١٠.

(٢) أخرجه مسلم ٤٢ - ٢٧٦٣.

(٣) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٥٥/٢.

تَمْرًا، فَقُلْتُ: إنَّ فِي الْبَيْتِ تَمْرًا أَطيب مِنْهُ. فَدَخَلَتْ مَعِي فِي الْبَيْتِ، فَأَهْوَيْتُ إِلَيْهَا فَقَبَّلْتُهَا، فَأَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ، فقال: اسْتُرْ عَلَى نَفْسِكَ وَتُبْ وَلاَ تُخْبِرْ أحدًا فَلَمْ أصبِرْ. فأَتَيْتُ عُمَرَ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ. فقال: اسْتُرْ عَلَى نَفْسِكَ وَتُبْ وَلاَ تُخْبِرْ أَحَدًا فَلَمْ أَصْبِرْ. فأَتَيْتُ النَّبيَّ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ. فقال لَهُ: ((أَخَلَفْتَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ الله فِي أَهْلِهِ بِمِثْلِ هَذَا؟ حَتَّى تَمَنَّى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ أَسْلَمَ إِلاَّ تِلْكَ السَّاعَةَ، حَتَّى ظَنَّ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ)). قال: وَأَطْرَقَ رَسولُ الله طَوِيلاً حَتَّى أوحى الله إِلَيْهِ: ﴿وأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾[1][2].

وقد قال الله تعالى في صفة المتقين: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[3]. أي إذا صدرت منهم معصية أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله بالخوف من عقابه والحياء منه، وذكروا العرض الأكبر على الله فطلبوا الغفران لأجل ذنوبهم وعدلوا عن المعاصي ولم يصروا عليها فرتب الله تعالى بكرمه وفضله غفران الذنوب لمن أخلص في توبته[4]، فقال: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾[5].

وقال ابن القيم: (التوبة في كلام الله ورسوله كما تتضمن الإقلاع عن الذنب في الحال والندم عليه في الماضي والعزم على عدم العود إلى المستقبل، تتضمن أيضًا العزم على فعل المأمور والتزامه، فحقيقة التوبة: الرجوع إلى الله بالتزام فعل ما يجب وترك ما

---

(١) سورة هود، آية: ١١٤.

(٢) أخرجه الترمذي ٣١١٥، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٤٨٩).

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٣٥.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٣٣٢/٥.

(٥) سورة آل عمران، آية: ١٣٦.

يكره، ولهذا علّق سبحانه وتعالى الفلاح المطلق على التوبة، حيث قال: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[1])[2].

إن التوبة من المعصية واجبة شرعًا على الفور باتفاق الفقهاء، لأنها من أصول الإسلام المهمة وقواعد الدين وأول منازل السالكين[3].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: الحسنات تكفر السيئات:

من فضل الله على عباده أن جعل فعل الحسنات يكفر السيئات ويمحوها، وهذا واضح من الحديث، فلما نزل قول الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾[4]، قال الرجل: ألي هذا يا رسول الله؟ قال ﷺ: لجميع أمتي كلهم، فهذا (تصريح -كما يقول النووي- بأن الحسنات تكفر السيئات، واختلفوا في المراد بالحسنات هنا: فنقل الثعلبي أن أكثر المفسرين على أنها الصلوات الخمس واختاره ابن جرير وغيره من الأئمة، وقال مجاهد: هي قول العبد سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر[5]، ويحتمل أن المراد: الحسنات مطلقًا)[6].

وقال ابن هبيرة: (قوله: "إن الحسنات يذهبن السيئات" يدل على فرق ما بين الله تعالى وبين عباده، فإنه من لطفه أن الحسنات عنده يذهبن السيئات أي تمحوها وتزيلها،

---

(١) سورة النور، آية: ٣١.

(٢) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٥٤٠/٣، وانظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١١٩/١٤.

(٣) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٢٥/١٤.

(٤) سورة هود، آية: ١١٤.

(٥) انظر: هذه الأقوال في جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٦١٢/١٢، وما بعدها وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣٥٤/٤، وما بعدها والدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٥٩/٨ وما بعدها.

(٦) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٦١٦.

ومن شأن العباد أن السيئات عندهم تذهب الحسنات، فشتان ما بين حالين، ويا خسران من ترك معاملة الله تعالى إلى معاملة فلان وفلان)(١).

(والحسنات تعلّل بعلتين: أحداهما ما تتضمنه من جلب المصلحة والمنفعة. والثانية ما تتضمنه من دفع المفسدة والمضرة، فقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾(٢) بيان لما تضمنته من دفع المفاسد والمضار، وقوله: "ولذكر الله أكبر" بيان لما تضمنته من المنفعة والمصلحة، وهكذا في جميع الحسنات)(٣).

وقد قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: ((أَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ))(٤).

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللّهِ أَوْصِنِي، قَالَ: ((إِذَا عَمِلْتَ سَيِّئَةً فَأَتْبِعْهَا حَسَنَةً تَمْحُهَا)). قالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللّهِ أَمِنَ الْحسَنَاتِ لاَ إِلهَ إِلاَّ اللّهُ؟ قالَ: ((هِيَ أَفْضَلُ الْحَسَنَاتِ))(٥).

قال ابن رجب: (لما كان العبدُ مأمورًا بالتقوى في السرِّ والعلانية مع أنه لابدّ أن يقع منه أحيانًا تفريط في التقوى، إما بترك بعض المأمورات أو بارتكاب بعض المحظورات، فأمره أن يفعل ما يمحو به هذه السيئة وهو أن يتبعها بالحسنة)(٦).

وقال الحسن البصري: (استعينوا على السيئات القديمات بالحسنات الحديثات، وإنكم لن تجدوا شيئًا أذهب لسيئة قديمة من حسنة حديثة، وتصديق ذلك في كتاب الله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾)(٧).

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٢/٥٦.

(٢) سورة العنكبوت، آية: ٤٥.

(٣) موسوعة فقه القلوب، محمد بن إبراهيم التويجري ٣/٢٨٧٧.

(٤) أخرجه أحمد ٥/٢٢٨ رقم ٢١٩٨٨، وقال محققو المسند: حديث حسن ٣٦/٣١٣.

(٥) أخرجه أحمد ٥/١٦٩ رقم ٢١٤٨٧، وقال محققو المسند: حسن لغيره ٣٥/٣٨٦.

(٦) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١/٤١١ - ٤١٢.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٨/١٦٨.

قال ابن مفلح: (قال ابن تيمية في أثناء كلام له: الذنوب تزول عقوباتها بأسباب: بالتوبة وبالحسنات الماحية وبالمصائب المكفرة، لكنها من عقوبات الدنيا، وكذلك ما يحصل في البرزخ من الشدة. وكذلك ما يحصل في عرصات[١] القيامة. وتزول أيضًا بدعاء المؤمنين كالصلاة عليه، وشفاعة الشفيع المطاع لمن شفع فيه)[٢].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: نزول القرآن حسب المقتضيات والأحوال:

اقتضت حكمة الله تعالى أن ينزل القرآن مفرقًا منجمًا على النبي ﷺ منذ بعثته حتى وفاته، فكانت بعض الآيات تنزل حسب المقتضيات والأحوال، يتضح ذلك في قول الصحابي: فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾[٣].

وقد ذكر العلماء ستة أوجه تبين الحكمة من نزول القرآن منجمًا ومفرقًا.

منها الوجه الخامس: مسايرة الحوادث والوقائع والتنبيه عليها في حينها والتنبيه على الأخطاء في وقتها، فإن ذلك أوقع في النفس وأدعى إلى أخذ العظة والعبرة منها عن طريق الدرس العملي، فكلّما جد منهم جديد نزل من القرآن ما يناسبه، فكلما حصل منهم خطأ أو انحراف نزل القرآن بتعريفهم وتنبيههم إلى ما ينبغي اجتنابه ولطلب عمله ونبههم إلى مواطن الخطأ في ذلك الوقت والحين)[٤].

رابعًا- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

فقد أجاب النبي ﷺ على سؤال الرجل: ألي هذا يا رسول الله؟ بقوله: "لجميع أمتي كلهم"، فأفاد أن هذا عام لجميع أمته وليس قاصرًا على السائل، وفي هذا بشارة عظيمة للمدعوين، مما يفتح الأمل أمام العصاة والمذنبين، ويحملهم على المسارعة إلى التوبة والاستغفار وفعل الحسنات.

---

(١) العرْصة: البقعة الواسعة بين الدور لا بناء فيها. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ع ر ص).

(٢) الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ١/١٦٤.

(٣) سورة هود، آية: ١١٤.

(٤) انظر: التبيان في علوم القرآن، محمد علي الصابوني ص ٣٢، ٣٨ - ٣٩.

الحديث رقم (٤٣٥)

٤٣٥- وعن أنس رضي الله عنه، قَالَ: جاء رجل إِلَى النَّبيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُول الله، أَصَبْتُ حَدًّا، فَأَقِمْهُ عَلَيَّ، وَحَضَرَتِ الصَّلاةُ، فَصلَّى مَعَ رَسُول الله ﷺ، فَلَمَّا قَضَى الصَّلاةَ، قَالَ: يَا رَسُول الله، إنِّي أصَبْتُ حَدًّا فَأقِمْ فِيَّ كِتَابَ الله. قَالَ: **((هَلْ حَضَرْتَ مَعَنَا الصَّلاةَ))**؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: **((قَدْ غُفِرَ لَكَ)) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ**[1].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

أصبتُ حدًّا: معناه: معصية توجب التعزير وليس المراد الحد الشرعي الحقيقي كحد الزنا والخمر وغيرهما؛ فإن هذه الحدود لا تسقط بالصلاة، ولا يجوز للإمام تركها[2].

فأقم فيَّ كتاب الله: أي حكم الله الذي أنزله في كتابه[3].

الشرح الأدبي

قول الرجل (أصبت حداً) مجاز مرسل من باب إطلاق اسم المسبب على السبب والعدول عن الحقيقة إلى المجاز رغبة في عدم الإفصاح عن الذنب، أو التصريح بلفظه، وقوله :(فأقمه) الإقامة بمعنى إنفاذه، والتعبير بالإقامة فيه إشارة إلى تعديل الميل الذي طرأ على شيء كان مستقيماً، والمراد به حكم الله علي، وقول الرجل للرسول ﷺ للمرة الثانية (إنِّي أصَبْتُ حَدّاً فَأقِمْ فِيَّ كِتَابَ الله) ورد في المرة الأولى دون توكيد؛ لأنه خاطبه به وهو خالي الذهن عن مضمونه، وأكد الخبر في المرة الثانية؛ لأنه سكت عنه

---

(١) أخرجه البخاري ٦٨٢٣، ومسلم ٤٤/٢٧٦٤ واللفظ له.

(٢) رياض الصالحين ٢١٣.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ق و م).

في المرة الأولى، ولم يجبه، فنزله منزلة الشاك في كلامه، أو المعرض عنه، وقوله (كتاب الله) أي حكم الله، وذِكْرُ الكتاب توكيد للحكم، وقول الرسول ﷺ (هَلْ حَضَرْتَ مَعَنَا الصَّلاةَ) استفهام تقريري بغرض ترتيب الحكم عليه، لأنه سأله عن الحكم قبل الصلاة، ولم يجبه، فلم ينصرف، وقول الرسول ﷺ (قد غفر الله لك) خبر أريد به الفائدة، وأؤكد بقد، وبنسبته لله، وفيه إشارة إلى أن الحد الذي أخبر به في قوله (أصَبْتُ حَدّاً) مَعنَاهُ: مَعْصِيَةً تُوجِبُ التَّعْزِيرَ، وَلَيْسَ المُرَادُ الحدّ الشَّرعيَّ الحَقِيقيَّ كَحَدِّ الزِّنَا وَالخمر وَغَيرِهِمَا، فإنَّ هذِهِ الحُدودَ لا تَسْقُطُ بالصَّلاةِ، وَلاَ يَجُوزُ للإمَامِ تَرْكُهَا.

فقه الحديث

هذا الحديث يشير إلى الأحكام الفقهية التالية:

١-حكم الإقرار بالحدود على الإبهام: ذكر الفقهاء أن من أقر بحد من الحدود ولم يفسر لا يطالب بالتفسير، ولا يقام عليه الحد إن لم يقع منه ذلك[١].

وهل يستحق تلقينه الرجوع عن الإقرار بموجب الحد صريحاً؟ يرى جمهور الفقهاء أنه يسن للإمام أو لمن ينوب عنه أن يلقن المقر الرجوع عن الإقرار في الحدود، درءاً للحد[٢].

قال النووي: (وقد جاء تلقين الرجوع عن الإقرار بالحدود عن النبي ﷺ وعن الخلفاء الراشدين ومن بعدهم واتفق العلماء عليه)[٣].

---

(١) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، الشوكاني ١٠٦/٧، وفيض القدير شرح الجامع الصغير، المناوي ٢٢٩/١، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٨٤/١٧/٩-٨٥.

(٢) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٨/٥، وشرح فتح القدير، ابن الهمام الحنفي ١٢١/٤، والذخيرة ٥٦/١٢، والحاوي الكبير ٧٣/١٧، ومغني المحتاج ١٧٥/٤، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٥٣/٩، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين أبو الحسن المرداوي ٩/١٢.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٢٠٥/١١/٦.

المضامين الدعوية

أولاً: من واجبات المدعو المسلم: المسارعة إلى التكفير عن ذنوبه.

ثانيًا: من مهام الداعية: الستر.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الصلاة كفارة للذنوب.

رابعًا: من أهداف الدعوة: نشر الستر بين الناس.

خامسًا: من أساليب الدعوة: السؤال والتوكيد.

أولاً- من واجبات المدعو المسلم: المسارعة إلى التكفير عن ذنوبه:

إن علامة صدق المدعو هو أنه إذا أذنب أن يسارع إلى الاستغفار والتكفير عن ذنوبه، يتضح هذا من قول الرجل: "يا رسول الله أصبت حدًّا فأقمه عليّ"، وقد وقع ذلك من بعض الصحابة رضي الله عنهم، ويظهر ذلك واضحًا جليًا في حال الصحابة رضي الله عنهم فكان أحدهم إذا وقع في معصية أو غلب عليها سارع بالتوبة والاستغفار وسأل عما يجب هذا الذنب ويستره، والأدلة على ذلك كثيرة، منها عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله إني عالجت امرأة أقصى المدينة وإني أصبت منها ما دون أن أمسها فأنا هذا فأقضى في ما شئت؟ فقال له عمر: لقد سترك لو سترت على نفسك، قال فلم يرد عليه النبي ﷺ شيئًا، فقام الرجل فأتبعه النبي رجلاً دعاه فتلا عليه هذه الآية: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ فقال رجل من القوم يا نبي هذا له خاصة؟ قال بل للناس عامة))[1].

قال القرطبي: (قوله: "إن الحسنات يذهبن السيئات" يعني الصلوات الخمس، قال الطبري، وقال مجاهد هي لا إله إلا الله والله أكبر والحمد لله، قلت: واللفظ بحكم عمومه صالح لما قالاه، ولزيادة عليه، كما قال ﷺ: ((الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان كفارة لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر))[2])[3]، وعن

---

(١) أخرجه مسلم ٢٧٦٣.

(٢) أخرجه مسلم ٢٣٣.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٧/٨٧، ٨٨.

عائشة رضي الله عنها: ((إنَّ رجُلاً أتى النبيَّ ﷺ فقال إنهُ احترَقَ، قال: مالَكَ؟ قال: أصَبْتُ أهلي في رَمضانَ. فأُتِيَ النبيُّ ﷺ بمِكْتَلٍ [١] يُدعى العَرَق. فقال: أينَ المحترقُ؟ قال: أنا. قال: تَصدَّقْ بهذا)) [٢].

قال ابن حجر: (قوله: "إنه احترق" سيأتي في حديث أبي هريرة رضي الله عنه [٣] أنه عبّر بقوله هلكت ورواية الاحتراق تفسّر الهلاك، وكأنه لما اعتقد أن مرتكب الإثم يعذّب بالنار أطلق على نفسه أنه احترق لذلك. وقد أثبت النبي ﷺ له هذا الوصف فقال: أين المحترق؟ إشارة إلى أنه لو أصّر على ذلك لاستحق ذلك) [٤].

ثم قال: "وفي الحديث من الفوائد -غير ما تقدم- السؤال عن حكم ما يفعله المرء مخالفًا للشرع والتحدث بذلك لمصلحة معرفة الحكم" [٥].

وقد قال الله تعالى في صفة المتقين: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [٦]، قال ابن رجب: (فدلّ على أن المتقين قد يقع منهم أحيانًا كبائر وهي الفواحش وصغائر وهي ظلم النفس، لكنهم لا يصرون عليها، بل يذكرون الله عقب وقوعها، فيستغفرونه، والتوبة هي ترك الإصرار، ومعنى قوله: "ذكروا الله" أي: ذكروا عظمته وشدة بطشه وانتقامه، وما توعد به على المعصية من العقاب فيوجب ذلك لهم الرجوع في الحال والاستغفار وترك الإصرار) [٧].

---

(١) قفة من ورق النخيل (الخوص) ونحوه يحمل فيها التمر ونحوه، انظر: معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ص ٤٢٥.

(٢) أخرجه البخاري ١٩٣٥، ومسلم ١١١٢.

(٣) أخرجه البخاري ١٩٣٦، ومسلم ١١١١.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٩٢/٤.

(٥) المرجع السابق ٢٠٤/٤.

(٦) سورة آل عمران، آية: ١٣٥

(٧) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٤١٢/١ - ٤١٣.

ثانيًا- من مهام الداعية: الستر:

إن الداعية بحكم قربه من المدعوين قد يطلع منهم على بعض زلاتهم، وهو بإزاء هذا يستر عليهم قدر الإمكان، يتضح ذلك من قول النبي ﷺ: (هل حضرت معنا الصلاة؟ قال: نعم، قال: قد غفر لك).

وفي حديث واثلة بن الأسقع: فقال ﷺ: ((هَلْ تَوَضَّأْتَ حِينَ أَقْبَلْتَ؟)) قالَ: نَعَمْ، قالَ: ((صَلَّيْتَ مَعَنَا؟)) قالَ: نَعَمْ، قالَ: ((فَاذْهَبْ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ غَفَرَ لَكَ))[١].

قال ابن حجر: (قال الخطابي: في هذا الحديث أنه لا يكشف عن الحدود بل تدفع مهما أمكن، وهذا الرجل لم يفصح بأمر يلزمه به إقامة الحد عليه فلعله أصاب صغيرة ظنّها كبيرة توجب الحدّ فلم يكشفه النبي ﷺ عن ذلك لأن موجب الحد لا يثبت بالاحتمال، إنما لم يستفسره إما لأن ذلك قد يدخل في التجسس المنهي عنه وإما إيثارًا لستر ورأى أن في تعرضه لإقامة الحدّ عليه ندمًا ورجوعًا، وقد استحب العلماء تلقين من أقرّ بموجب الحد بالرجوع عنه إما بالتعريض وإما بأوضح منه ليدرأ عنه الحد)[٢].

وجاء في الموسوعة الفقهية: (يندب لولي الأمر إذا رفع العاصي أمره إليه مما فيه حدّ أو تعزير في شيء من حقوق الله تعالى معلنًا توبته أن يتجاهله وأن لا يستفسره، بل يأمره بالستر على نفسه، ويأمر غيره بالستر عليه، ويحاول أن يصرفه عن الإقرار، ولا سيما إذا كان معروفًا بالصلاح والاستقامة أو كان مستور الحال)[٣].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: الصلاة كفارة للذنوب:

إن الصلاة لها فضل عظيم وأثر كبير، فهي عماد الإسلام، ومن ثمّ فلا عجب أنها سبب لغفران الذنوب، وتكفير السيئات، يتضح ذلك من قول النبي ﷺ عندما أخبره الرجل أنه قد حضر الصلاة معه ﷺ قال له: (قد غفر لك)، وفي حديث ابن

---

(١) أخرجه ابن حبان ١٧٢٧.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٢/١٣٧ - ١٣٨.

(٣) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٤/١٧١.

مسعود رضي الله عنه[١]، (فأنزل الله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ﴾[٢])، وقد اختلف في المراد بالحسنات في الآية ورجح ابن جرير الطبري أنها الصلوات الخمس وعلّل ذلك بقوله: "لصحة الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتواترها عنه، أنه قال: ((مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ كَمَثَلِ نَهْرٍ عَذْبٍ يَجْرِي عِنْدَ بَابِ أَحَدِكُمْ، يَغْتَمس فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، فمَاذَا يَبْقين منه))[٣]، وأن ذلك في سياق أمر الله بإقامة الصلوات، فالوعد على إقامتها الجزيل من الثواب عقيبها أولى من الوعد على ما لم يجر له ذكر من سائر صالحات الأعمال، إذا خُص بالقصد بذلك بعضٌ دون بعض"[٤].

وقال ابن حجر[٥]: (وجزم النووي وجماعة أن الذنب الذي فعله كان من الصغائر بدليل أن في بقية الخبر أنه كفرته الصلاة، بناء على الذي تكفره الصلاة من الذنوب الصغائر لا الكبائر، وهذا هو الأكثر الأغلب وقد تكفر الصلاة بعض الكبائر كمن كثر تطوعه مثلاً بحيث صلح لأن يكفر عدداً كثيرا من الصغائر ولم يكن عليه من الصغائر شيء أصلاً أو شيء يسير وعليه كبيرة واحدة فإنها تكفر عنه ذلك، لأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً")[٦].

لكن ابن هبيرة يقول: (في هذا الحديث دلالة على أن الصلاة تكفر كبار الذنوب فإن الرجل قال: "أصبت حدًا"، فلما صلّى جعل النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة مكفرة عنه ذلك،وإنما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك من أجل أن الرجل لم يقرّ بذلك الحد، ولا عينّه، ولم يصرح بأمر يلزمه

---

(١) أخرجه البخاري ٥٢٦، ومسلم ٦٨٧.

(٢) سورة هود، آية: ١١٤.

(٣) الحديث بنحوه في الصحيحين من حديث أبي هريرة أخرجه البخاري ٥٢٨، ومسلم ٦٦٧.

(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٦١٧/١٢.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٨٤/١٧/٩.

(٦) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٣٨/١٢.

شيئًا في الحكم. فكانت الصلاة مكفرة، ورأى رسول الله ﷺ أن إقراره به والتماسه منه إقامة الحدّ عليه يعد ندمًا صريحًا، قد هدم ذنبه الذي أتى به، فلما لم يعينه ولم يثبت عليه حدٌّ معين اكتفى رسول الله ﷺ بالصلاة مكفرة)[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: ((لَوْ أَنَّ بِبَابِ أَحَدِكُمْ نَهْرًا يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ قَالُوا لا قَالَ فَكَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللَّهُ بِهَا الْخَطَايَا))[٢].

قال ابن حجر: (قال ابن العربي: وجه التمثيل أن المرء كما يتدنس بالأقذار المحسوسة في بدنه وثيابه ويطهره الماء الكثير فكذلك الصلوات تطهر العبد عن أدران الذنوب حتى لا تبقي له ذنبًا إلا أسقطته)[٣].

رابعًا- من أهداف الدعوة: نشر الستر بين الناس:

إن الإسلام يأمر بمكارم الأخلاق ومحاسن العادات لذا فإنه يحضّ على الستر، وعلى تخلق المجتمع كله دعاة ومدعوين بهذا الخلق الجميل، كما يحث على نشره بين الناس، فقد ستر النبي ﷺ على الرجل الذي أقّر بالذنب ولم يسأله عنه وأخبره أن الله قد غفر له، وكان هذا بحضرة الصحابة رضي الله عنهم وقد وقع لجماعة من الصحابة رضي الله عنهم غيره مثل ما وقع له[٤]، وقد جاء ماعز بن مالك والمرأة الغامدية يعترفان بالزنا، فستر عليهما النبي ﷺ أول الأمر فلما أصرّا أقام عليهما الحد[٥].

قال ابن حجر: (ويؤخذ من قضيته -أي ماعز- أنه يستحب لمن وقع في مثل قضيته أن يتوب إلى الله تعالى ويستر نفسه ولا يذكر ذلك لأحد كما أشار به أبو بكر وعمر رضي الله عنهما على ماعز[٦]، كما قال ﷺ في هذه القصة: ((لَوْ سَتَرْتَهُ بِثَوْبِكَ كَانَ

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ١٠١/٥.

(٢) أخرجه البخاري ٥٢٨، ومسلم ٦٦٧.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٥/٢ - ١٦.

(٤) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٣٥/١٢.

(٥) حديث ماعز أخرجه البخاري ٥٢٧١، ومسلم ١٦٩١، وحديث الغامدية أخرجه مسلم ١٦٩٥.

(٦) أخرجه مالك في الموطأ ٣٥١٣ من مرسل سعيد بن المسيب.

خَيْرًا لَكَ))[1]، وبهذا جزم الشافعي فقال: أحب لمن أصاب ذنبًا فستره الله عليه أن يستره على نفسه ويتوب، واحتج بقصة ماعز مع أبي بكر وعمر.. والذي يظهر أن الستر مستحب والرفع [إلى الإمام] لقصد المبالغة في التطهير أحب. والعلم عند الله تعالى)[2].

وجاء في الموسوعة الفقهية: (أجمع العلماء أن من اطلع على عيب أو ذنب أو فجور لمؤمن من ذوي الهيئات أو نحوهم ممن لم يعرف بالشر والأذى ولم يشتهر بالفساد، ولم يكن داعيًا إليه، كأن يشرب مسكرًا أو يزني أو يفجر متخوفًا متخفيًا غير متهتك ولا مجاهر، يندب له أن يستره ولا يكشفه للعامة أو الخاصة ولا للحاكم أو غير الحاكم للأحاديث الكثيرة التي وردت في الحث على ستر عورة المسلم والحذر من تتبع زلاته... ولأن كشف هذه العورات والعيوب والتحدث بما وقع منه قد يؤدي إلى غيبة محرمة وإشاعة للفاحشة. قال بعض العلماء: اجتهد أن تستر العصاة. فإن ظهور معاصيهم عيب في أهل الإسلام وأولي الأمور ستر العيوب. قال الفضيل بن عياض: المؤمن يستر وينصح والفاجر يهتك ويعيّر)[3].

ويذكر ابن هبيرة وجهًا آخر لستر العاصي على نفسه أنه إن أظهر ذنبه فإنه يجرأ (على المعصية من غيره مَنْ قد كان يرى عن هذا الرجل أن مقامه أكبر من أن يتعرض لمثل هذا)[4].

خامسًا- من أساليب الدعوة: السؤال والتوكيد:

لقد سأل النبي ﷺ الرجل عن حضوره الصلاة معه ﷺ ليرتب على ذلك جوابًا مؤكدًا وهو: (قد غفر الله لك)، واستخدم النبي ﷺ (قد) المؤكدة ليزيل كل تردد وشك من نفس هذا الصحابي بخصوص غفران ذنبه، فالله يقبل التوبة من عباده.

---

(١) أخرجه أحمد رقم ٢١٨٩٠.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٢/١٢٧ - ١٢٨.

(٣) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٤/١٦٩.

(٤) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٢/٥٦.

الحديث رقم (٤٣٦)

٤٣٦- وعنه، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: ((إنَّ الله لَيرْضَى عَنِ العَبْدِ أنْ يَأكُلَ الأَكْلَةَ، فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ، فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا)) رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

الشرح الأدبي

الحديث يبين مدى فضل الله - عز وجل - على عباده بتقبله لقليل أعمالهم، ومغفرته لكثير ذنوبهم، وهذا الحديث يشير إلى جانب من هذا المعنى، ومن الملاحظ في بداية الخبر كثافة المؤكدات التي تدل على أهمية الخبر، وتعظيمه، وربما أشارت هذه المؤكدات إلى تنزيل المخاطبين منزلة المنكرين بسبب غفلتهم عن فضل هذه الأعمال، واستهانتهم بها، لأنها تبدو سهلة بسيطة، ويترتب عليها أمر جلل، وهو رضى الله - عز وجل - ، وفي قوله (يأكل الأكلة)، و(ويشرب الشربة) جناس أكد المعنى المراد، وأحدث توازنا صوتياً في العبارة يلفت السمع، وتكرار الحمد للتنبيه على فضله، وصرف العناية إليه، واستخدام حرف العطف (أو) للتنويع، أي: أي نوع يفعله فيحمد الله، يرضي الله تعالى، وربط فعل الحمد بالفاء يؤذن بالتعقيب دون مهلة يستغلها الشيطان لينسيه إياها.

المضامين الدعوية[٢]

---

(١) برقم ٢٧٣٤/٨٩. وتقدم برقم ١٤٠. أورده المنذري في ترغيبه ٣١٩٥.

(٢) تقدم شرحها في الحديث رقم (١٤٠).

الحديث رقم (٤٣٧)

٤٣٧- وعن أَبي موسى رضي الله عنه، عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: ((**إنَّ الله تَعَالَى يَبْسُطُ يَدَهُ باللَّيلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيلِ، حَتَّى تَطلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا**)) رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو موسى الأشعري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨).

الشرح الأدبي

تصدير الخبر باسم الله يسبقه التوكيد، ويتلوه الجملة التنزيهية (تعالى) التي تربي مهابة الله في قلوب المخاطبين، تعظيم للخبر يتساوق مع مستوى التحديث الإلهي، وصياغة البسط في صورة المضارع يعطي تجدداً، واستمراراً يطرد باطراد الليل، وصياغة فعل التوبة من العبد في صورة المضارع يتوازى مع هذا البسط، فإذا الصورة باب رب مفتوح ليلاً يستقبل التائبين من عباده بالمغفرة، والصفح، ومقابلة صورة البسط الليلية مع الصورة النهارية يعطي الحكم اطراداً مع الزمان، حاصله باب توبة مفتوح ليل نهار أبداً، وتخصيص توبة مسيء الليل بالنهار وتوبة مسيء النهار بالليل يحقق فائدتين: إحداهما مراجعة العبد نفسه فيما عمل في ليله، أو نهاره في مساحة من الزمن تسكن فيها دواعي المعصية، والثانية التعجيل بالتوبة، وعدم تأخير التوبة بعد ذلك؛ لأن تأخيرها يعطي الشيطان فرصة ليستجد دوافع المعصية، ويوقعه فيها، وإذا تتالت الذنوب حجبت القلب عن نور الرب، وقوله (حَتَّى تَطلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا) كناية عن قيام الساعة مما يدل على استمرار البسط إلى يوم القيامة، وفي هذا ترغيب في التوبة والإكثار منها مع تبادل الليل، والنهار ما لم تقم الساعة.

المضامين الدعوية[2]

---

(١) برقم ٢٧٥٩/٣١ وتقدم برقم ١٦. أورده المنذري في ترغيبه ٤٥٨٧.

(٢) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (١٦).

الحديث رقم (٤٣٨)

٤٣٨- وعن أبي نجيح عمرو بن عَبَسَة -بفتح العين والباء- السُّلَمِيِّ رضي الله عنه ، قَالَ: كُنْتُ -وأنا في الجاهِلِيَّةِ- أظُنُّ أنَّ النَّاسَ عَلَى ضَلالَةٍ، وَأنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ، وَهُمْ يَعْبُدُونَ الأَوْثَانَ، فَسَمِعْتُ بِرَجُلٍ بِمَكَّةَ يُخْبِرُ أخْبَارًا ، فَقَعَدْتُ عَلَى رَاحِلَتِي، فَقَدِمْتُ عَلَيهِ، فإذَا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مُسْتَخْفِيًا ، جرءاءُ عَلَيهِ قَومُهُ، فَتَلَطَّفتُ حَتَّى دَخَلْتُ عَلَيهِ بِمَكَّةَ، فَقُلْتُ لَهُ: مَا أنْتَ؟ قَالَ: **((أنا نَبيٌّ))** قُلْتُ: وما نبيٌّ؟ قَالَ: **((أرْسَلَنِي الله))** قُلْتُ: وبأيِّ شَيْءٍ أرْسَلَكَ؟ قَالَ: **((أرْسَلَنِي بِصِلَةِ الأرْحَامِ، وَكَسْرِ الأَوْثَانِ، وَأنْ يُوَحَّدَ اللهُ لاَ يُشْرَكُ بِهِ شَيْءٌ))** قُلْتُ[1]: فَمَنْ مَعَكَ عَلَى هَذَا؟ قَالَ: **((حُرٌّ وَعَبْدٌ))** ومعه يَوْمَئذٍ أَبُو بكرٍ وبلالٌ رضي الله عنهما ، قُلْتُ: إنّي مُتَّبِعُكَ، قَالَ: **((إنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ ذلِكَ يَومَكَ هَذَا، ألا تَرَى حَالي وحالَ النَّاسِ؟ وَلَكِنِ ارْجعْ إِلَى أهْلِكَ فَإذَا سَمِعْتَ بي قَدْ ظَهرْتُ فَأْتِنِي))** قَالَ: فَذَهَبْتُ إِلَى أهْلِي وقَدِمَ رَسُول الله صلى الله عليه وسلم المَدِينَةَ (حَتَّى قَدِمَ نَفَرٌ مِنْ أهْلِي المَدِينَةَ)[2] ، فقلتُ: مَا فَعَلَ هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي قَدِمَ المَدِينَةَ؟ فقالوا : النَّاس إلَيهِ سِرَاعٌ، وَقَدْ أرادَ قَومُهُ قَتْلَهُ، فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا ذلِكَ، فَقَدِمْتُ المدينَةَ، فَدَخَلْتُ عَلَيهِ، فقلتُ: يَا رَسُول الله أتَعْرِفُني؟ قَالَ: **((نَعَمْ، أنْتَ الَّذِي لَقَيْتَنِي بمكَّةَ))** قَالَ: فقلتُ: يَا رَسُول الله، أخْبِرْنِي عَمَّا عَلَّمَكَ اللهُ وَأجْهَلُهُ، أخْبِرْنِي عَنِ الصَّلاَةِ؟ قَالَ: **((صَلِّ صَلاَةَ الصُّبْحِ، ثُمَّ اقْصُرْ عَنِ الصَّلاةِ حَتَّى تَرْتَفِعَ[3] الشَّمْسُ (قِيدَ رُمْحٍ) [4]، فَإنَّهَا تَطْلُعُ حِينَ تَطلُعُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيطَانٍ، وَحينَئذٍ يَسجُدُ لَهَا الكُفّارُ، ثُمَّ صَلِّ فَإنَّ الصَّلاَةَ مَشْهُودَةٌ مَحْضُورةٌ، حَتَّى يَسْتَقِلَّ الظِّلُّ بالرُّمْحِ، ثُمَّ اقْصُرْ عَنِ الصَّلاةِ، فَإنَّهُ حينئذ تُسْجَرُ جَهَنَّمُ، فإذَا أقْبَلَ الفَيْءُ فَصَلِّ، فَإنَّ الصَّلاةَ مَشْهُودَةٌ**

---

(١) عند مسلم زيادة: (له).

(٢) لفظ مسلم: (وكنتُ في أهلي، فجعلتُ أتخبر الأخبار ، وأسأل الناس حين قدم المدينة ، حتّى قدم عليَّ نفرٌ من أهل يثرب من أهل المدينة) وأنا على يقين أن هذين السطرين سقطا من نسخة المؤلف من الجمع للحميدي.

(٣) لفظ مسلم: (تطلع).

(٤) لفظ مسلم: (ترتفع) بدل: (قيد رمح).

مَحضُورَةٌ حَتَّى تُصلِّي العصرَ، ثُمَّ اقْصرْ عَنِ الصَّلاةِ حَتَّى تَغْرُبَ الشَّمْسُ، فإنَّهَا تَغْرُبُ بينَ قَرْنَيْ شَيطانٍ، وَحِينَئذٍ يَسْجُدُ لَهَا الكُفَّارُ)) قَالَ: فقلتُ: يَا نَبيَّ اللَّه، فالوضوءُ حدثني عَنْهُ؟ فَقَالَ: ((مَا مِنْكُم رَجلٌ يُقرِّبُ وَضُوءهُ، فَيَتَمَضْمَضُ وَيستَنْشِقُ فَيستَنْثِرُ[1]، إلاَّ خَرَّتْ خَطَايَا وَجْهِهِ وَفِيْهِ وَخَيَاشِيْمِهِ، ثُمَّ إذا غَسَلَ وَجْهَهُ كَمَا أَمَرَهُ اللهُ، إلا خَرَّتْ خَطَايَا وَجْهِهِ مِنْ أطْرَافِ لِحْيَتِهِ مَعَ الماءِ، ثُمَّ يَغْسِلُ يديهِ إلَى المرفقَيْن، إلاَّ خَرَّتْ خَطَايَا يَدَيْهِ مِنْ أنَامِلِهِ مَعَ الماءِ، ثُمَّ يَمْسَحُ رَأسَهُ، إلاَّ خرّتْ خطايا رأسِهِ من أطْرَافِ شَعْرِهِ مَعَ الماءِ، ثُمَّ يغسل قدميه إلَى الكعْبَيْنِ، إلاَّ خَرَّتْ خَطَايَا رِجلَيْهِ مِنْ أنَامِلِهِ مَعَ الماءِ، فَإنْ هُوَ قَامَ فَصلَّى، فَحَمِدَ الله تَعَالَى، وأثنى عَلَيهِ ومَجَّدَهُ بالَّذي هُوَ لَهُ أهْلٌ، وَفَرَّغَ قلبه للهِ تَعَالَى، إلاَّ انْصَرفَ مِنْ خَطِيئَتِهِ كهيئته يَومَ وَلَدتهُ أُمُّهُ)).

فحدث عَمْرُو بن عَبسَة بهذا الحديث أبَا أُمَامَة صاحِب رَسُول الله ﷺ، فَقَالَ لَهُ أَبُو أُمَامَة: يَا عَمْرُو بنُ عَبسَة، انْظُر مَا تقولُ في مقامٍ واحدٍ يُعْطَى هَذَا الرَّجُلُ؟ فَقَالَ عَمْرٌو: يَا أَبَا أُمَامَة، لقد كَبِرَتْ سِنِّي، وَرَقَّ عَظمِي، وَاقْتَرَبَ أجَلِي، وَمَا بِي حَاجَةٌ أنْ أكْذِبَ عَلَى اللهِ تَعَالَى، وَلا عَلَى رَسُول الله ﷺ، لَوْ لَمْ أسمعه مِنْ رَسُول الله ﷺ، إلاَّ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَينِ أَوْ ثَلاثًا -حَتَّى عَدَّ سَبْعَ مَرَّات- مَا حَدَّثْتُ[2] أبدًا بِهِ، وَلكنِّي سمعتُهُ أكثَر من ذلِكَ. رواه مسلم[3].

ترجمة الراوي:

عمرو بن عَبَسة السلمي: هو عمرو بن عَبَسة بن خالد السُّلمي البجْلي كنيته: أبو نَجيح أخو أبي ذر الغفاري لأمه. قال عنه الذهبي: الإمام الأمير.

أحد السابقين إلى الإسلام، فكان رابع أربعة أو خامس خمسة في الإسلام، كان قبل أن يُسلم من الباحثين عن الدين الحق. فاعتزل عبادة الأوثان، لِما رأى فيها من

(١) لفظ مسلم: (فينتثر).

(٢) عند مسلم زيادة: (به).

(٣) برقم ٨٣٢/٢٩٤. أورده المنذري في ترغيبه ٢٩٩.

البطلان والضلال قال: رغبت عن آلهة قومي في الجاهلية فرأيت أنها آلهة باطلة يعبدون الحجارة، والحجارة لا تضر ولا تنفع، فلقيت رجلاً من أهل الكتاب فسألتُه عن أفضل الدين فقال: يخرج رجلٌ من مكة يرغب عن آلهة قومه ويأتي بأفضل الدين، فإذا سمعت به فاتبعه -فلم يكن لي همٌّ إلا مكة أسأل: هل حدث فيها أمر؟

فلما علم بأمر النبي ﷺ أتاه وأسلم وأمره ﷺ بالرجوع إلى قومه، إشفاقًا عليه، حتى إذا مكن الله لرسوله أتاه كما في الحديث المذكور.

فرجع إلى بلاده فأقام بها إلى أن فتح المسلمون خيبر، فهاجر إلى المدينة وشارك في فتح مكة، وشهد حصار الطائف، وظلّ على جهاده في عهد الخلفاء، فكان من أمراء الجيش في موقعة اليرموك، وسكن الشام ونزل حمص، وقد روى عنه عبدالله بن مسعود مع تقدمه في العلم والعمل والصحبة.

ولم تُؤرَّخ وفاتُه، لكن الحافظ ابن حجر مال إلى أنه مات في أواخر خلافة عثمان، لأنه لم يَرَ له ذِكرًا في الفتنة ولا في خلافة معاوية[1].

غريب الألفاظ:

جرءاء عليه قومه: أي: جاسرون مستطبلون غير هائبين، هذه هي الرواية المشهورة، ورواه الحميدي وغيره "حِرَاءٌ" بكسر الحاء المهملة: وقال: معناه: غضاب ذوو غمّ وهمّ. قد عيل صبرهم به، حتى أثر في أجسامهم، منقولهم: حَرَى جسمه يحْرَى، إذا نقص من ألم أو غمّ ونحوه. والصحيح أنه بالجيم[2].

---

(١) الطبقات الكبرى، ابن سعد (٢١٤/٤) والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٤٩٢، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٢٣٩/٤)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ٩٨٤، والسير (٤٥٦/٢)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين (٤٣٥/٥)، تهذيب التهذيب، ابن حجر (٢٨٧/٣) وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك (١٤٣٩/٢).

(٢) رياض الصالحين ٢١٥.

ظهرت: غلبت وعلوت عليهم[١].

النفر: الناس كلهم، والجماعة من الناس من ثلاثة إلى عشرة[٢].

اقصَرْ: كفَّ واقعد[٣].

قيد رمح: قدر رمح[٤].

قرني شيطان: ناحيتي رأسه والمراد التمثيل، ومعناه: أنه حينئذ يتحرك الشيطان وشيعته ويتسلطُون[٥].

محضورة: تحضرها الملائكة فهي أقرب إلى القبول وحصول الرحمة[٦].

يستقل الظلُ بالرمح: أي يقوم مقابله في جهة الشمال ليس مائلاً إلى المغرب ولا المشرق، وهذه حالة الاستواء[٧].

تسجر جهنم: يوقد عليها إيقادًا بليغًا[٨].

أقبل الفيء: ظهر إلى جهة المشرق، والفيء مختص بما بعد الزوال. وأما الظلّ فيقع على ما قبل الزوال وبعده[٩].

يقرب وضوءه: يحضر الماء الذي يتوضأ به[١٠].

---

(١) معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ٢٦٨، والنهاية في غريب الحديث، ابن الأثير في (ظ هـ ر).

(٢) القاموس المحيط، الفيروزآبادي، الفيروزآبادي ٤٨٥، والكليات معجم المصطلحات والفروق الفردية، أبو البقاء الكفوي، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري ٦٨٦، ومعجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ٤٥٤.

(٣) المعجم المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ق ص ر).

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ق ي د).

(٥) رياض الصالحين ٢١٥.

(٦) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٥٥٠.

(٧) المرجع السابق ٥٥٠.

(٨) المرجع السابق ٥٥٠.

(٩) المرجع السابق ٥٥٠، ودليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٦٦٩.

(١٠) رياض الصالحين ٢١٥.

فينتثر: يستخرج ما في أنفه من أذى. والنثرة: طرف الأنف[١].

خرت خطاياه: سقطت، ورواه بعضهم جرت بالجيم، والصحيح بالخاء وهو رواية الجمهور[٢].

فيه: الفم، والجمع أفواه[٣].

خياشيمه: أقصى الأنف[٤].

المرفق: هو موقع اتصال الذراع بالعضد وهما مرفقان[٥].

أنامله: المفرد: أُنْمُلة: وهي عقدة الإصبع أو سلاماها، أو المفصل الأعلى من الإصبع الذي فيه الظُّفْر[٦].

الشرح الأدبي

يروي الحديث أَبو نجيح عمرو بن عَبَسَة - ﷺ السُّلَمِيُّ في أسلوب قصصي، لقصة هو بطلها، ورواية الراوي لقصته يتميز برواية الأحداث بتفاصيلها، وبما يخالج نفسه في أثنائها كما أنه، ويمكن تقسيمه أحداثها زمنياً إلى ثلاث مراحل: الأولى: خلال الجاهلية، والثانية: في أثناء الإسلام، والثالثة: في لقائه للرسول ﷺ، وما أخبره به.أما المرحلة الأولى فقد أشار إلى أحداثها بفعل الكينونة الذي يدخل به بوابة الزمن (كُنْتُ وأنَا فِي الجاهِلِيَّةِ) وقد عبَّر بضمير المتكلم تخصيصاً لنفسه، و(في) الظرفية التي تقرر الإحاطة إشارة إلى اصطباغ الحياة بالصبغة الجاهلية بما عرف من حالها في الشرك، والطيش، وقد صور اعتقاده الممهد لبحثه عن البديل بقوله (أظُنُّ أنَّ النَّاسَ عَلَى ضَلاَلَةٍ، وَأَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ، وَهُمْ يَعْبُدُونَ الأَوْثَانَ) الظن بمعنى الاعتقاد والتعبير بالجار

---

(١) المرجع السابق ٢١٦.

(٢) المرجع السابق ٢١٥ - ٢١٦.

(٣) القاموس المحيط، الفيروزآبادي ، الفيروزآبادي ١٢٥١.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٥٥٠.

(٥) القاموس المحيط، الفيروزآبادي ، الفيروزآبادي في (ر ف ق).

(٦) معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ٧٥.

والمجرور(على ضلالة) يوحي بركوبهم الضلالات، وهو ما يوحي به الاستعلاء في حرف الجر (على)، الداخل على النكرة، ثم أشار إلى الفراغ الداخلي، والخواء من العقيدة بقوله (ليسوا على شيء)، كما أشار إلى الاختصاص، والثبات على هذا الباطل بقوله (وهم يعبدون الأصنام) وهذه العقيدة التي هيأت للبحث عن البديل، جعلته يتلمس الحق (فَسَمِعْتُ بِرَجُلٍ بِمَكَّةَ يُخْبِرُ أَخْبَاراً) وتأمل تسارع الأحداث بعد أن سمع عن الداعي الجديد، والذي يوحي به الربط بين الجمل بالفاء(فَقَعَدْتُ عَلَى رَاحِلَتِي، فَقَدِمْتُ عَلَيهِ) ثم المفاجأة التي يتتبعها (فإِذَا رسولُ الله ﷺ) وانظر كيف وصف حاله بقوله (مُسْتَخْفِياً) التي تدل على ضعف، مع خوف، وحال قومه معه (جرَءاءُ عَلَيهِ قَومُهُ) والتعبير بالجرأة التي تشي بالاعتداء، والتطاول، وجمعها الذي يوحي بالتكاثر على إيذائهم، وتقديمها الذي استرعى انتباهه، ثم قوله (فَتَلَطَّفَتُ حَتَّى دَخَلْتُ عَلَيهِ بِمَكَّةَ) الذي يوحي بأن هناك من يترصد بالمسلمين، ولمن يريد الإسلام، المرحلة الثانية في القصة هي مرحلة لقائه بالنبي ﷺ وهي تقوم على الحوار الهادف إلى التعرف على النبي ﷺ، ودعوته؛ ولذلك استخدم (ما) التي يسئل بها عن الماهية (مَا أنْتَ ؟ قَالَ: ((أنا نَبيٌّ)) قُلْتُ: وما نبيٌّ ؟ قَالَ: ((أرْسَلَنِي الله)) قُلْتُ: وبأيِّ شَيْءٍ أرْسَلَكَ ؟ قَالَ: ((أَرْسَلَنِي بِصِلَةِ الأرْحَامِ، وَكَسْرِ الأَوْثَانِ، وَأنْ يُوَحَّدَ اللهُ لاَ يُشْرَكُ بِهِ شَيْءٌ)) قُلْتُ: فَمَنْ مَعَكَ عَلَى هَذَا ؟ قَالَ: ((حُرٌّ وَعَبْدٌ))، وقد تضمن التوجيه تنقية العقيدة بكسر الأصنام، وتوحيد الرحمن، لأنها الأهم، وقوله (حر، وعبد) طباق يشير إلى مساواة الإسلام، وعمومه لكل طبقات الناس، وقوله (إني متبعك) ورد الرسول ﷺ له(إنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ ذلِكَ يَومَكَ هَذَا، ألا تَرَى حَالي وحالَ النَّاسِ ؟) وهذا الاستفهام يؤكد ما هم فيه من خوف، وضعف، ثم استدرك كلامه بما يبشر بانقشاع الغمة، وتحقيق النصر (وَلَكِنِ ارْجعْ إلَى أهْلِكَ فَإذَا سَمِعْتَ بي قَدْ ظَهَرْتُ فَأْتِنِي)

المرحلة الثالثة، مرحلة لقاء الرسول بالمدينة، وهي تقوم على الحوار التعليمي قال: (فقَدِمْتُ المدينَةَ، فَدَخَلْتُ عَلَيهِ، فقلتُ: يَا رَسُول الله أتَعْرِفُني ؟ قَالَ: ((نَعَمْ، أنْتَ الَّذِي لَقَيْتَنِي بمكَّةَ)) قَالَ: فقلتُ: يَا رَسُول الله، أخْبِرنِي عَمَّا عَلَّمَكَ الله وأَجْهَلُهُ، أخْبِرْنِي عَنِ الصَّلاَةِ ؟)، وسؤاله عن الصلاة بعد تنقية العقيدة، لأنها أهم أركان الإسلام، وتعليم

الرسول ﷺ له أوقاتها بدية إشارة إلى أهمية الوقت عموماً، مع الإشارة إلى خصوصية بعض الأوقات، وإشارة إلى أهمية التوقيت في الصلاة خصوصاً، ثم سأله عن الوضوء الذي لا تصلح من غيره فأجابه بأسلوب القصر الذي يقصر تطهير كل عضو منها عل مغفرة ما علق به من الخطايا كما ينقي ماء الوضوء ما علق به من القذارة قال ﷺ (مَا مِنْكُمْ رَجُلٌ يُقَرِّبُ وَضُوءَهُ، فَيَتَمَضْمَضُ وَيَسْتَنْشِقُ فَيَسْتَنْثِرُ، إلاَّ خَرَّتْ خَطَايَا وَجْهِهِ مِنْ أطْرَافِ لِحْيَتِهِ مَعَ المَاءِ...)والتعبير بالخرير استعارة لمغفرتها يصورها بالقذارة العالقة بالجسد، والتي تستلزم من الإنسان الحرص على دوام تطهيرها بالوضوء، ويفيد التعبير بالخرير السرعة في السقوط، والنزول من المرتفع ، وهو الإنسان إلى المنخفض، وهو مكان القذارة، وقوله (وَفَرَّغَ قلبه للّهِ تَعَالَى) كناية عن ترك الشواغل الحسية، والمعنوية، وقوله (إلاَّ انْصَرَفَ مِنْ خَطِيئَتِهِ كهيئته يَومَ وَلَدتهُ أُمُّهُ) كناية عن نقائه من الخطايا، والتشبيه بهيئة المولود يشير إلى النقاء من الخطايا مع نقاء القلب يعرف هذا من نقاء قلب الطفل، كما يشير إلى تعلقه بربه كتعلق الجنين الفطري بأمه، وهو توكيد للمغفرة التامة ينفي وهم المبالغة عن استعظم خطاياه.

فقه الحديث

هذا الحديث يشير إلى الأحكام الفقهية التالية:

١-حكم الوضوء: أجمع العلماء على أن الوضوء للصلاة فرض لا تجزئ الصلاة إلا به لمن وجد إلى ذلك سبيلاً[١].

٢-حكم المضمضمة والاستنشاق في الوضوء: لا خلاف في مشروعيتهما في الوضوء وإنما الخلاف في صفتهما الشرعية، فذهب الحنابلة في المشهور إلى أنهما واجبان، بينما ذهب الحنفية والمالكية والشافعية إلى أنهما مسنونان[٢].

---

(١) الإجماع لابن المنذر ٣، والعناية على الهداية ١٤/١، وبداية المجتهد ١٤/١، ونهاية المحتاج ٤٧٨/١، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٩٢/١.

(٢) رد المحتار على الدر المختار المسمى بـ "حاشية ابن عابدين"، محمد أمين بن عمر عابدين، تحقيق: علي محمد معوض ٧٩/١، وجواهر الإكليل ١٦/١، وزاد المحتاج ٤٣/١، والكافي ٢٦/١.

٣-حكم غسل الوجه: وهو واجب بإجماع العلماء[(١)].

٤-حكم غسل اليدين في الوضوء: لا خلاف بين العلماء في وجوب غسل اليدين في الوضوء، وإنما الخلاف في غسل المرفقين مع اليدين هل يجب؟ ذهب الجمهور إلى أنه يجب إدخال المرفقين مع اليدين عند غسلهما في الوضوء[(٢)]، وذهب المالكية في قول إلى أنه لا يجب ذلك[(٣)]، وفي قول ثالث لهم يستحب ذلك لأنه أحوط[(٤)].

٥-حكم مسح الرأس: اتفق الفقهاء على وجوب مسح الرأس، ووقع الخلاف بينهم في المقدار الذي يجزئ، فذهب الشافعية وبعض المالكية إلى أن المجزئ مسح بعض الرأس ولو كان شعرة واحدة، بينما ذهب الحنفية إلى أن المجزئ هو مسح ربع الرأس، وذهب المالكية في المعتمد والحنابلة في المشهور إلى أن المجزئ هو مسح الرأس كله[(٥)] وهو الراجح لما فيه من العمل بالأحوط، وهو مطلوب في العبادات، ولأن في مسح الكل مسحًا للبعض الذي قال به الشافعية والربع الذي قال به الحنفية.

٦-حكم غسل الرجلين في الوضوء: اختلف الفقهاء في ذلك، فذهب جميع الفقهاء من أهل الفتوى إلى وجوب غسلهما[(٦)]، وذهب الإمامية إلى أن الواجب مسحهما[(٧)]،

---

(١) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، علاء الدين أبي بكر الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٩٣/١، وبداية المجتهد ١٩/١، وكفاية الأخيار ١٨/١، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ١١٧/١.

(٢) الاختيار ١٠/١، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد المغربي ٩١/١، وكفاية الأخيار ٢٠/١، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ١١٣/١.

(٣) المقدمات ١٣/٥.

(٤) الثمر الداني ٤١.

(٥) شرح فتح القدير، ابن الهمام الحنفي ١٧/١، وحاشية الدسوقي على الشرح الكبير، محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي ٨٨/١، ومغني المحتاج ٥٣/١، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ١٢٥/١-١٢٦.

(٦) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ، ١٢٣/٦/٣ ط دار عالم الكتب، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، علاء الدين أبي بكر الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ١٠٩/١، والقوانين الفقهية ٢٣-٢٤، ومغني المحتاج ٥٣/١، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ١٢١/١.

(٧) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، الشوكاني ١٨٩/١.

وذهب الطبري والحسن البصري إلى أنه مخير بين الغسل والمسح[١].

٧-الأوقات المنهي عن الصلاة فيها: الجمهور على النهي عن الصلاة بعد الصبح حتى ترتفع الشمس قدر رمح، وبعد العصر حتى تغرب الشمس، ووقت استواء الشمس، خلافًا لمالك حيث أجاز الصلاة عند الاستواء مطلقًا[٢].

أما عن الصلاة التي لا تجوز في هذه الأوقات، فقد اختلف الفقهاء فيها: فذهب الحنفية إلى أنه لا يجوز مطلق الصلاة في هذه الأوقات، وذهب المالكية إلى أنه لا يجوز فيها إلا صبح يومه أو عصره لمن فاته، أو قضاء المفروضة، وذهب الشافعية إلى أنه تكره الصلاة فيها إن كانت بلا سبب، أما التي لها سبب فلا، وذهب الحنابلة إلى أنه يجوز قضاء الفرائض الفائتة وكذا الصلاة المنذورة وركعتي الطواف وصلاة الجنازة في جميع أوقات النهي، أما التطوع بلا سبب فلا يجوز[٣].

المضامين الدعوية

أولاً: من واجبات المدعو: إتيان أهل الحق وسؤالهم.

ثانيًا: من تاريخ الدعوة: بداية الدعوة (المرحلة السرية).

ثالثًا: من مهام الداعية: إرشاد المدعو إلى ما فيه المصلحة والأنسب له.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: إخبار النبي ﷺ بما سيقع من إظهار الدين.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على سؤال النبي ﷺ عن أحكام الدين وشرائعه.

سادسًا: من مهام الداعية: بيان الحقائق للمدعوين.

سابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل الوضوء والصلاة.

---

(١) المغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ١٣٢/١.

(٢) الاختيار ٥٤/١، والقوانين الفقهية ٤٤، وكفاية الأخيار ١٣٠/١، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٥٤٧/١.

(٣) الاختيار ٥٤/١، والمبسوط ١٤٠/١ وما بعدها، والقوانين الفقهية ٤٤ وما بعدها، وكفاية الأخيار ١٣٠/١ وما بعدها، ومغني المحتاج ١٢٨/٢ وما بعدها، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٨٩/٢-١٠١، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٤٥٧/١ وما بعدها.

ثامنًا: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على التثبت عند رواية حديث رسول الله ﷺ.

تاسعًا: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب والتوكيد والاستفهام والأمر والقصر والترغيب.

أولاً - من واجبات المدعو: إتيان أهل الحق وسؤالهم:

إن المدعو مطالب إذا عرض له أمر يحتاج أن يعرف حقيقته أو الصواب من الخطأ فيه أو نحو ذلك - مطالب بأن يسأل أهل الحق والعلم ولو أدى ذلك إلى أن يسافر إليهم، كما وقع من عمرو بن عبسة رضي الله عنه في هذا الحديث فقد قال: (فسمعت برجل بمكة يخبر أخبارًا، فقعدت على راحلتي فقدمت عليه، فإذا برسول الله ﷺ مستخفيًا، جرءاء عليه قومه فتلطفت حتى دخلت عليه بمكة فقلت له: ما أنت.. وبأي شيء أرسلك؟...).

ونحو هذه القصة وقعت لأبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال ابن عباس رضي الله عنهما: (لَمَّا بَلَغَ أَبَا ذَرٍّ مَبْعَثُ النَّبِيِّ ﷺ بِمَكَّةَ قَالَ لأَخِيهِ: ارْكَبْ إِلَىٰ هَذَا الْوَادِي. فَاعْلَمْ لِي عِلْمَ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ يَأْتِيهِ الْخَبَرُ مِنَ السَّمَاءِ. فَاسْمَعْ مِنْ قَوْلِهِ ثُمَّ ائْتِنِي. فَانْطَلَقَ الآخَرُ حَتَّىٰ قَدِمَ مَكَّةَ. وَسَمِعَ مِنْ قَوْلِهِ. ثُمَّ رَجَعَ إِلَىٰ أَبِي ذَرٍّ فَقَالَ: رَأَيْتُهُ يَأْمُرُ بِمَكَارِمِ الأَخْلاَقِ. وَكَلاَمًا مَا هُوَ بِالشِّعْرِ. فَقَالَ: مَا شَفَيْتَنِي فِيمَا أَرَدْتُ. فَتَزَوَّدَ وَحَمَلَ شَنَّةً[1] لَهُ، فِيهَا مَاءٌ. حَتَّىٰ قَدِمَ مَكَّةَ. فَأَتَىٰ الْمَسْجِدَ فَالْتَمَسَ النَّبِيَّ ﷺ ... وساق قصة إسلامه)[2].

وعن عقبة بن الحارث رضي الله عنه أنه تزوج ابنة لأبي إهاب بن عزيز فأتته امرأة فقالت: إني قد أرضعت عقبة والتي تزوج فقال لها عقبة: ما أعلم أنك أرضعتني ولا أخبرتني. فركب إلى رسول الله ﷺ بالمدينة فسأله، فقال رسول الله ﷺ: ((كيفَ وَقَدْ قِيلَ؟)) ففارقها عقبة، ونكحتْ زوجًا غيرهُ[3].

---

(١) القربة الخلق الصغيرة يكون الماء فيها أبرد من غيرها، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ش ن ن).

(٢) أخرجه البخاري ٣٥٢٢، ٣٨٦١، ومسلم ١٣٣ - ٢٤٧٤.

(٣) أخرجه البخاري ٨٨.

وقد أخرج البخاري هذا الحديث في كتاب العلم، باب الرحلة في المسألة النازلة.

قال ابن حجر: (قوله: "فركب" أي من مكة لأنها كانت دار إقامته)(١).

ثانيًا- من تاريخ الدعوة: بداية الدعوة (المرحلة السرية):

شاء الله تعالى أن تكون المرحلة الأولى للدعوة الإسلامية مرحلة سرّية، حتى يهيئ الله تعالى الأسباب التي تناسب الجهر بالدعوة، نظرًا لسيطرة الشرك على ذاك المجتمع الجاهلي الذي تنكر للدعوة وناصبها العداء.

هذا واضح من قول النبي ﷺ جوابًا لسؤال عمرو بن عبسة رضي الله عنه: من معك؟ قال: حر وعبد، ومعه يومئذ أبو بكر وبلال رضي الله عنهما، وقبل ذلك قال عمرو بن عبسة رضي الله عنه، فإذا رسول الله ﷺ مستخفيًا جراءُ عليه قومُه.

قال د. مهدي رزق الله: (استجاب الرسول ﷺ للأوامر الإلهية التي صدرت له بالتبليغ وقد جاءت هذه الأوامر واضحة في الآيات التي نزلت بعد آيات سورة العلق: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾(٢).

فنهض الرسول ﷺ من فراشه وأخذ يدعو إلى ما أمر به سرًا لمدة ثلاث سنين كما ذكر ابن إسحاق(٣) ولفظه: "وكان بين ما أخفى رسول الله ﷺ أمره واستتر به إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين -فيما بلغني- من مبعثه وبدأ بالدعوة إلى التوحيد ونبذ كل مظاهر الشرك، وكان تحركه في هذه الفترة وسط الذين تربطهم به صلات مثل زوجته وأبنائه ومولاه وربيبه وأصدقائه وكل من يطمئن إلى أنه يكتم السر، ولهذا يلحظ أن من أوائل الذين دخلوا في الإسلام: زوجه خديجة رضي الله عنها وابن عمه علي بن أبي طالب رضي الله عنه ومولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه وأبو بكر الصديق رضي الله عنه وفي إطار

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١/٢٢٣.

(٢) سورة المدثر، الآيات: ١ - ٧.

(٣) السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ١/٢٩٥، عناية عمر عبدالسلام تدمري.

السرية تحرك أبو بكر وسط أقاربه ومواليه وأصدقائه ومن يثق به من قومه فاستجاب له نفر كريم، ومن خلال علاقات هؤلاء وغيرهم أخذ الإسلام ينتشر في مكة وخارجها، وفي فترة وجيزة وصل عدد الذين سبقوا إلى الإسلام من بطون قريش إلى أكثر من أربعين نفرًا)(١).

ثالثًا- من مهام الداعية: إرشاد المدعو إلى ما فيه المصلحة والأنسب له:

إن الداعية بما عنده من علم يرشد المدعو إلى ما يكون أصلح وأنسب؛ فإن ما يناسب بعض المدعوين قد لا يناسب بعضهم الآخرين، لذلك كان الداعية الحكيم هو الذي يعرف الأنسب والأصلح لكل مدعو، فهذا عمرو بن عبسة رضي الله عنه يقول للنبي ﷺ: إني متبعك، قال: إنك لن تستطيع ذلك يومك هذا، ألا ترى حالي وحال الناس؟ ولكن ارجع إلى أهلك فإذا سمعت بي قد ظهرت فأتني، قال النووي: (معناه قلت له: إني متبعك على إظهار الإسلام هنا وبإقامتي معك، فقال: لا تستطيع لضعف شوكة المسلمين، ونخاف عليك من أذى كفار قريش ولكن قد حصل أجرك فابق على إسلامك وارجع إلى قومك)(٢).

وفي حديث إسلام أبي ذر: ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لأَصْرُخَنَّ بِهَا بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ. فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى الْمَسْجِدَ. فَنَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ. وَثَارَ الْقَوْمُ فَضَرَبُوهُ حَتَّى أَضْجَعُوهُ. ... ثُمَّ عَادَ مِنَ الْغَدِ بِمِثْلِهَا. وَثَارُوا إِلَيْهِ...))(٣).

قال ابن حجر: (قوله: "لأصرخن بها"، أي: بكلمة التوحيد والمراد أنه يرفع صوته جهارًا بين المشركين، وكأنه فهم أن أمر النبي ﷺ له بالكتمان ليس على الإيجاب بل على سبيل الشفقة عليه، فأعلمه أن به قوة على ذلك، ولهذا أقره ﷺ على ذلك، ويؤخذ منه جواز قول الحق عند من يخشى منه الأذية لمن قاله، وإن كان السكوت

---

(١) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، د. مهدي رزق الله أحمد ص ١٥٥ - ١٥٩، وانظر: الرحيق المختوم، المباركفوري ص ٧٥ - ٧٧.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٥٥٠.

(٣) أخرجه البخاري ٣٥٢٢، ٣٨٦١، ومسلم ١٣٣.

جائزًا، والتحقيق أن ذلك مختلف باختلاف الأحوال والمقاصد، وبحسب ذلك يترتب وجود الأجر وعدمه)[١].

وفي رواية لمسلم: ((فَهَلْ أَنْتَ مُبَلِّغٌ عَنِّي قَوْمَكَ، عَسَى اللَّهُ أَنْ يَنْفَعَهُمْ بِكَ، وَيَأْجُرَكَ فِيهِمْ، فَأَتَيْتُ أُنَيْسًا، فَقَالَ: مَا صَنَعْتَ؟ قُلْتُ: صَنَعْتُ أَنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ وَصَدَّقْتُ، قَالَ: مَا بِي رَغْبَةٌ عَنْ دِينِكَ، فَإِنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ وَصَدَّقْتُ، فَأَتَيْنَا أُمَّنَا، فَقَالَتْ: مَا بِي رَغْبَةٌ عَنْ دِينِكُمَا[٢]، فَإِنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ وَصَدَّقْتُ، فَاحْتَمَلْنَا[٣] حَتَّى أَتَيْنَا قَوْمَنَا غِفَارًا، فَأَسْلَمَ نِصْفُهُمْ، وَكَانَ يَؤُمُّهُمْ إِيمَاءُ بْنُ رَحَضَةَ الْغِفَارِيُّ، وَكَانَ سَيِّدَهُمْ، وَقَالَ نِصْفُهُمْ: إِذَا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ أَسْلَمْنَا، فَقَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، فَأَسْلَمَ نِصْفُهُمُ الْبَاقِي))[٤].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: إخبار النبي ﷺ بما سيقع من إظهار الدين:

بعث الله محمدًا ﷺ نبيًا ورسولاً وأيده بالمعجزت والدلائل على صدق نبوته، ومن ذلك إخباره بما سيقع، وذلك في قوله ﷺ لعمرو بن عبسة رضي الله عنه: (فإذا سمعت بي قد ظهرت فأتني)، قال النووي عن معناه: "ارجع إلى قومك واستمر على الإسلام في موضعك حتى تعلمني ظهرت فأتني": (وفيه معجزة للنبوة وهي إعلامه بأنه سيظهر)[٥].

ومن هذا القبيل ما رواه عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: ((بَينا أنا عندَ النبيِّ ﷺ إذا أتاهُ رجلٌ فشَكا إليهِ الفاقَةَ، ثمَّ أتاهُ آخَرُ فشكا إليه قَطعَ السبيل، فقال: ((يا عَديُّ، هل رأيتَ الحِيرةَ؟)) قلت: لم أرَها، وقد أُنبِئتُ عنها. قال: ((فإن طالتْ بكَ حَياةٌ لتَرَيَنَّ الظَّعينةَ[٦] تَرتحِلُ منَ الحِيرةِ حتى تَطوفَ بالكعبةِ لا تخافُ أحدًا إلا اللَّهَ)) - قلتُ فيما بيني وبينَ نفسي فأين دُعّارُ طَيِّءٍ الذينَ قد سَعَّروا البلادَ؟[٧] - ولئنْ طالَتْ بكَ حياةٌ

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧/٢١٣.

(٢) أي لا أكرهه بل أدخل فيه، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٠١.

(٣) أي حملنا أنفسنا ومتاعنا على إبلنا وسرنا، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٠١.

(٤) أخرجه مسلم ٢٤٧٣.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٥٥٠.

(٦) المرأة في الهودج. وهو في الأصل اسم للهودج، فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦/٩٠٧.

(٧) أي: قطاع الطريق، وطئ: قبيلة مشهورة منها عدي بن حاتم المذكور وبلادهم ما بين العراق والحجاز. وكانوا يقطعون الطريق على من مرّ عليهم بغير جواز، ولذلك تعجب عدي كيف تمرّ المرأة عليهم وهي غير خائفة. وسعروا البلاد: أي ملؤوا الأرض فسادًا. انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦/٩٠٧.

لتُفتَحنَّ كُنوزُ كِسرَى، قلتُ: كِسرَى بن هُرمُزَ؟ قال: ((كِسرَى بنِ هُرمُزَ. ولئنْ طالت بكَ حياةٌ لَتَرَينَّ الرجلَ يُخرجُ مِلْءَ كفِّهِ من ذهبٍ أو فضةٍ يَطلُبُ مَن يَقبلُهُ منهُ فلا يَجِدُ أحدًا يَقبلُهُ منه. ولَيلقيَنَّ اللهَ أحدُكم يومَ يَلقاهُ وليسَ بينَهُ وبينهُ ترجمانٌ يُترجمُ لهُ، فيقولَنَّ: ألم أبعَثْ إليكَ رسولاً فيُبلِّغك؟ فيقول: بلى. فيقول: ألم أُعطِكَ مالاً وأُفْضِلْ عليك؟ فيقول: بلى. فيَنظرُ عن يَمينه فلا يَرى إلا جهنَّم، وينظرُ عن يَسارهِ فلا يَرى إلا جهنَم)). قال عَديٌّ: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: ((اتَّقُوا النارَ ولو بشِقِّ تمرةٍ، فمن لم يَجِدْ شقَّ تمرةٍ فبكلمةٍ طيِّبةٍ)). قال عديٌّ: فرأيتُ الظعينة ترتحلُ منَ الحِيرةِ حتى تطوفَ بالكعبةِ لا تخافُ إلا اللهَ، وكنتُ فيمن افتتحَ كنوزَ كسرَى بنِ هُرمُزَ، ولئنْ طالت بكم حياةٌ لَتَرَوُنَّ ما قال النبيُّ أبو القاسم ﷺ: ((يُخرجُ مِلءَ كفه))[1].

وقد أفرد ابن كثير كتاب (دلائل النبوة) في آخر سيرة النبي ﷺ وساق تحت هذا الكتاب: باب ما أخبر به ﷺ من الكائنات المستقبلة في حياته وبعده، فوقعت طبق ما أخبر به سواءً بسواءٍ، وكذلك: ومن كتاب دلائل النبوة في باب إخباره عليه الصلاة والسلام عن الغيوب المستقبلة وساق تحتها الأحاديث ذات الصلة[2]، وقبله ذكر البيهقي في كتاب (دلائل النبوة): جماع أبواب إخبار النبي ﷺ بالكوائن بعده، وتصديق الله جل ثناؤه رسوله ﷺ في جميع ما وعد[3].

خامسًا- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على سؤال النبي ﷺ عن أحكام الدين وشرائعه:

لقد كان الصحابة رضي الله عنهم أشد الناس اعتناء واهتمامًا بامتثال شرع الله، وذلك بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، لذلك كانوا أحرص ما يكونون على سؤال النبي ﷺ عن أحكام الدين وشرائعه، فقد قال عمرو بن عبسة رضي الله عنه: يا رسول الله أخبرني عما علمك الله وأجهله أخبرني عن الصلاة... يا نبي الله فالوضوء حدثني عنه. وقد كان

(١) أخرجه البخاري ٣٥٩٥.

(٢) البداية والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ١١٤/٩ - ٣٠٥.

(٣) دلائل النبوة، ٣١٢/٦ - ٥٥٢.

الصحابة رضي الله عنهم شديدي الحرص على سؤال النبي ﷺ عن الدين وشرائعه، قال طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد ثائر الرأس نسمع دوي صوته ولا نفقه ما يقول حتى دنا فإذا هو يسأل عن الإسلام، فأخبره النبي ﷺ بالصلاة والصيام والزكاة [١].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء [٢]، فكان يعجبنا أن يجئ الرجل من أهل البادية العاقل [٣] فيسأله ونحن نسمع فجاء رجل من أهل البادية فقال: يا محمد أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك؟ قال: صدق، قال: فمن خلق السماء؟ قال: الله ... إلخ الحديث. وفيه: وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا؟ ... وزعم رسولك أن علينا زكاة في أموالنا، وزعم رسولك أن علينا صوم شهر رمضان في سنتنا، وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ... وفي كل ذلك يقول رسول ﷺ: صدق، فقال الرجل: والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن، فقال النبي ﷺ: ((لَئِنْ صَدَقَ لَيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ)) [٤].

سادسًا- من مهام الداعية: بيان الحقائق للمدعوين:

إن من واجبات الداعية أن يبيّن للمدعوين الحقائق، حتى يعلموها ومن ثم يعملوا بحسبها فتأتي أعمالهم موافقة لمراد الشرع، وهذا واضح جلي في إخباره ﷺ بالأوقات التي لا يصلى فيها، وعلّل النبي ﷺ ذلك بأن الشمس "تطلع بين قرني شيطان وحينئذ يسجد لها الكفار، وأما وقت استواء الشمس في وسط السماء فإنه حينئذ تسجر جهنم"، كما بين ﷺ فضل الوضوء والصلاة وأثرهما في محو الخطايا وغفرانها.

ومن هذا القبيل إخباره ﷺ عن حال ناقته في صلح الحديبية: وسار النبي ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري ٤٦، ومسلم ١١.

(٢) قال النووي: يعني سؤال ما لا ضرورة إليه، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٨٦.

(٣) قال النووي: لكونه أعرف بكيفية السؤال وآدابه والمهم منه وحسن المراجعة، فإن هذه أسباب عظم الانتفاع بالجواب، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٨٦.

(٤) أخرجه البخاري ٦٣، ومسلم ١٢ واللفظ له.

حتّى إذا كان بالثَّنيَّةِ التي يُهبَطُ عليهم منها بَرَكَت بهِ راحلتُه، فقال الناسُ: حَلْ حَلْ. فألحّتْ. فقالوا خلأَتِ القَصواء. فقال النَّبيُّ ﷺ: ((ما خَلأَتِ القَصواء وما ذاك لها بخُلُق. ولكن حَبَسَها حابسُ الفيل))(١).

قال ابن حجر: (حل حل -بفتح المهملة وسكون اللام- كلمة تقال للناقة إذا تركت السير. فألحت -بتشديد المهملة- أي تمادت على عدم القيام، خلأت القصواء الخلاء -بالمعجمة والمد- للإبل كالحران للخيل(٢)، "وما ذاك لها بخلق"... أي بعادة، وقوله: "حبسها حابس الفيل"، أي حبسها الله عز وجل عن دخول مكة كما حبس الفيل عن دخولها ومناسبة ذكرها أن الصحابة رضي الله عنهم لو دخلوا مكة على تلك الصورة وصدتهم قريش عن ذلك لوقع بينهم قتال قد يفضي إلى سفك الدماء ونهب الأموال كما لو قدر دخول الفيل وأصحابه مكة، لكن سبق في علم الله تعالى في الموضعين أنه سيدخل في الإسلام خَلْقٌ منهم، ويستخرج من أصلابهم ناس يسلمون ويجاهدون)(٣).

ومن قبيل بيان الحقائق للمدعوين ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: ((يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ وَأَكْثِرْنَ الاسْتِغْفَارَ. فَإِنِّي رَأَيْتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ)) فَقَالَتِ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ، جَزْلَةٌ(٤): وَمَا لَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ؟ قَالَ: ((تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ. وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ(٥)، وَمَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَغْلَبَ لِذِي لُبٍ مِنْكُنَّ)) قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا نُقْصَانُ الْعَقْلِ وَالدِّينِ؟ قَالَ: ((أَمَّا نُقْصَانُ الْعَقْلِ فَشَهَادَةُ امْرَأَتَيْنِ تَعْدِلُ شَهَادَةَ رَجُلٍ. فَهَذَا نُقْصَانُ الْعَقْلِ، وَتَمْكُثُ اللَّيَالِيَ مَا تُصَلِّي، وَتُفْطِرُ فِي رَمَضَانَ، فَهَذَا نُقْصَانُ الدِّينِ))(٦).

---

(١) أخرجه البخاري ٢٧٣١.

(٢) خلأت الناقة، بركت أو حرنت فلم تبرح، وكذلك الجمل، القاموس المحيط، الفيروزآبادي، الفيروزآبادي في (خ ل أ).

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٩٤/٥ - ٣٩٥.

(٤) جزلة، أي: ذات عقل ورأى. قال ابن دريد: الجزالة العقل والوقار، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٤٢.

(٥) العشير: هو في الأصل المعاشر مطلقاً. والمراد هنا: الزوج، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٤٢.

(٦) أخرجه مسلم ٧٩.

قال النووي: (وأما أحكام الحديث ففيه جمل من العلوم منها : الحث على الصدقة وأفعال البر والإكثار من الاستغفار وسائر الطاعات، وفيه: أن الحسنات يذهبن السيئات كما قال الله عز وجل[١] ، وفيه أن كفران العشير والإحسان من الكبائر، فإن التوعد بالنار من علامة كون المعصية كبيرة، وفيه أن اللعن أيضًا من المعاصي الشديدة القبح وليس فيه أنه كبيرة، فإنه ﷺ قال: "تكثرن اللعن" والصغيرة إذا أكثرت صارت كبيرة، واتفق العلماء على تحريم اللعن، فإنه في اللغة الإبعاد والطرد، وفي الشرع الإبعاد من رحمة الله تعالى، فلا يجوز أن يبعد من رحمة الله تعالى من لا يعرف حاله وخاتمة أمره معرفة قطعية، فلهذا قالوا: لا يجوز لعن أحد بعينه مسلمًا كان أو كافرًا أو دابة إلا من علمنا بنص شرعي أنه مات على الكفر أو يموت عليه كأبي جهل وإبليس.

وفيه إطلاق الكفر على غير الكفر بالله تعالى، ككفر العشير والإحسان والنعمة والحق، وفيه بيان زيادة الإيمان ونقصانه، وفيه وعظ الإمام وأصحاب الولايات وكبراء الناس رعاياهم وتحذيرهم المخالفات وتحريضهم على الطاعات، وفيه مراجعة المتعلم العالم والتابع المتبوع فيما قاله إذا لم يظهر له معناه، كمراجعة هذه الجزلة[٢] رضي الله عنها، وفيه جواز إطلاق رمضان من غير إضافة إلى الشهر وإن كان الاختيار إضافته[٣].

قال المازري[٤]: قوله ﷺ: "أما نقصان العقل فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل" تنبيه منه ﷺ على ما وراءه، وهو ما نبه الله تعالى عليه في كتابه بقوله تعالى: ﴿أن

---

(١) قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ سورة هود: ١١٤.

(٢) الجزلة صاحبة العقل والوقار، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٤٢.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ، ١٤٢.

(٤) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٦٨/١.

تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا ﴾[(١)] أي أنهن قليلات الضبط.

وأما وصفه ﷺ النساء بنقصان الدين لتركهن الصلاة والصوم في زمن الحيض فقد يستشكل معناه وليس بمشكل بل هو ظاهر، فإن الدين والإيمان والإسلام مشتركة في معنى واحد كما قدمناه في مواضع، وقد قدمنا أيضًا في مواضع أن الطاعات تسمى إيمانًا ودينًا، وإذا ثبت هذا علمنا أن من كثرت عبادته زاد إيمانه ودينه، ومن نقصت عبادته نقص دينه، ثم نقص الدين قد يكون على وجه يأثم به، كمن ترك الصلاة أو الصوم أو غيرهما من العبادات الواجبة عليه بلا عذر، وقد يكون على وجه يأثم به، كمن ترك الصلاة أو الصوم أو غيرهما من العبادات الواجبة عليه بلا عذر، وقد يكون على وجه هو مكلف به، كترك الحائض الصلاة والصوم، فإن قيل: فإن كانت معذورة فهل تثاب على الصلاة في زمن الحيض وإن كانت لا تقضيها كما يثاب المريض والمسافر ويكتب له في مرضه وسفره مثل نوافل الصلوات التي كان يفعلها في صحته وحضره؟ فالجواب أن ظاهر هذا الحديث أنها لا تثاب، والفرق أن المريض والمسافر كان يفعلها بنية الدوام عليها مع أهليته لها، والحائض ليست كذلك بل نيتها ترك الصلاة في زمن الحيض، بل يحرم عليها نية الصلاة في زمن الحيض، فنظيرها مسافر أو مريض كان يصلي النافلة في وقت ويترك في وقت غير ناو الدوام عليها، فهذا لا يكتب له في سفره ومرضه في الزمن الذي لم يكن يتنفل فيه، والله أعلم)[(٢)].

سابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل الوضوء والصلاة:

من إكرام الله لعباده أن جعل ما يتقربون به إليه ويعبدونه به له فضل ومنزلة لديه سبحانه، مع أن ذلك هو الواجب عليهم، ويكفي دليلاً على ذلك أن الوضوء وهو واجب لأداء الصلاة التي هي بدورها واجبة على العبد أن يؤديها ويقيمها، يكفي دليلاً على ذلك أن الله جعل في فعلهما فضلاً مع أنهما واجبان على العبد. وهذا واضح من إخبار النبي ﷺ عن فضل الوضوء: (ما منكم رجل يقرب وضوءه فيتمضمض ويستنشق

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٨٢.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٤٢ - ١٤٣.

فينتثر إلا خرت خطايا وجهه وفيه وخياشيمه ثم إذا غسل وجهه كما أمره الله إلا خرت خطايا وجهه من أطراف لحيته مع الماء)، ونحو ذلك مع بقية أعضاء الوضوء، (فإن هو قام فصلى فحمد الله تعالى وأثنى عليه ومجده بالذي هو له أهل وفرّغ قلبه لله تعالى إلا انصرف من خطيئته كهيئته يوم ولدته أمه).

ومن هذا القبيل ما رواه حمران مولى عثمان بن عفان رضي الله عنه أن عثمان دعا بإناء فأفرغ على كفيه ثلاث مرار فغسلهما ثم أدخل يمينه في الإناء فمضمض واستنشق ثم غسل وجهه ثلاثًا ويديه إلى المرفقين ثلاث مرار ثم مسح برأسه ثم غسل رجليه ثلاث مرار إلى الكعبين ثم قال: قال الرسول صلى الله عليه وسلم: ((مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وُضُوئِي هذَا ، ثُمَّ قَامَ فَرَكَعَ رَكْعَتَيْنِ، لاَ يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ))[1].

قال ابن حجر: (قوله صلى الله عليه وسلم: "من ذنبه"، ظاهره يعم الكبائر والصغائر لكن العلماء خصوه بالصغائر لوروده مقيدًا باستثناء الكبائر في غير هذه الرواية[2]، وهو في حق من له كبائر وصغائر فمن ليس له إلا صغائر كفرت عنه ومن ليس له إلا كبائر خفّف عنه منها بمقدار ما لصاحب الصغائر، ومن ليس له صغائر ولا كبائر يزداد في حسناته بنظير ذلك)[3].

قال ابن القيم عن منزلة الصلاة: (الصلاة قد وُضِعَت على أكمل الوجوه وأحسنها التي تعبد بها الخالق تبارك وتعالى عباده من تضمّنها للتعظيم له بأنواع الجوارح من نطق اللسان وعمل اليدين والرجلين والرأس وحواسّه وسائر أجزاء البدن كلٌّ يأخذ لحظه من الحكمة في هذه العبادة العظيمة المقدار مع أخذ الحواسّ الباطنة بحظّها منها، وقيام القلب بواجب عبوديته فيها فهي مشتملة على الثناء والحمد والتمجيد والتسبيح والتكبير وشهادة الحق والقيام بين يدي الربّ مقام العبد الذليل الخاضع المدبّر

---

(١) أخرجه البخاري ١٥٩، ومسلم ٢٢٦.

(٢) الحديث هو: (الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات ما بينهن إذا اجتنب الكبائر)، أخرجه مسلم ٢٣٣ من حديث أبي هريرة.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣١٣/١.

المربوب، ثم التذلّل له في هذا المقام و التضرّع والتقرّب إليه بكلامه ثم انحناء الظهر ذلاً له وخشوعًا واستكانة، ثم استواؤه قائمًا ليستعدّ لخضوع أكمل له من الخضوع الأول وهو السجود من قيام فيضع أشرف شيء فيه وهو وجهه على التراب خشوعًا لربّه واستكانةً وخضوعًا لعظمته وذلاً لعزّته قد انكسر له قلبه وذلّ له جسمه وخشعت له جوارحه، ثم يستوي قاعدًا يتضرّع له ويتذلّل بين يديه ويسأله من فضله ثم يعود إلى حاله من الذلّ والخشوع والاستكانة فلا يزال هذا دأبه حتى يقضي صلاته فيجلس عند إرادة الانصراف منها مُثنِيًا على ربّه مُسَلّمًا على نبيّه وعلى عباده، ثم يصلّي على رسوله ثم يسأل ربّه من خيره وبرّه وفضله، فأيّ شيء بعد هذه العبادة من الحُسْن، وأيّ كمال وراء هذا الكمال، وأيّ عبودية أشرف من هذه العبودية)[١].

ثامنًا- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة ﵃ على التثبت عند رواية حديث رسول الله ﷺ:

هذا واضح من قول أبي أمامة لعمرو: يا عمرو بن عبسة انظر ما تقول في مقام واحد يعطى هذا الرجل؟ كما أنه واضح كذلك في رد عمرو عليه: ما بي حاجة أن أكذب على الله تعالى ولا على رسول الله ﷺ لو لم أسمعه من رسول الله ﷺ إلا مرة أو مرتين أو ثلاثًا -حتى عد سبع مرات- ما حدثت أبدًا به ولكني سمعته أكثر من ذلك.

قال النووي: (معناه: لو لم أتحققه وأجزم به لما حدثت به)[٢].

ومن هذا القبيل ما رواه أبو سعيد الخدري ﵁ قال: كنتُ في مجلسٍ من مجالسِ الأنصار، إذ جاءَ أبو موسى كأنه مَذْعور، فقال: استأذنتُ على عمرَ ثلاثًا فلم يُؤْذَنْ لي فرجَعت، فقال: ما منعَك؟ قلت: استأذنتُ ثلاثًا فلم يُؤْذَنَ لي فرَجَعت، وقال رسولُ الله ﷺ: ((إذا استأذنَ أحدُكم ثلاثًا فلم يُؤذَن له فلْيَرْجع)). فقال: والله لتُقيمَنَّ عليه ببيِّنة. أمِنكم أحدٌ سمعَهُ من النبيِّ ﷺ؟ فقال أبيُّ بن كعب: واللّهِ لا يقومُ معكَ إلا أصغَرُ القوم، فكنتُ أصغرَ القوم، فقمتُ معه فأخبرتُ عمرَ أن النبيَّ ﷺ قال ذلك[٣].

---

(١) مفتاح دار السعادة، ابن القيم ٢، ٣.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٥٥٠.

(٣) أخرجه البخاري ٦٢٤٥، ومسلم ٢١٥٣.

قال ابن حجر: (قال ابن عبدالبر[١]: يحتمل أن يكون حضر عنده - أي عمر - من قرب عهده بالإسلام فخشي أن أحدهم يختلق الحديث عن رسول الله ﷺ عند الرغبة والرهبة، طلبًا للمخرج مما يدخل فيه، فأراد أن يعلمهم أن من فعل شيئًا من ذلك ينكر عليه حتى يأتي بالمخرج)[٢].

قال د. محمد عجاج الخطيب: "تلكم طريقة الصحابة رضي الله عنهم ومنهجهم في المحافظة على حديث رسول الله ﷺ، خشية الوقوع في الخطأ، أو تسرب الدس إلى الحديث الشريف من الجهلاء وأصحاب الأهواء، أو أن تحمل بعض الأحاديث على غير وجه الحق والصواب، فيكون الحكم بخلاف ما أخذ به. فعلوا ذلك كله احتياطًا للدين ورعاية لمصلحة المسلمين، لا زهدًا في الحديث النبوي ولا تعطيلاً له. فلا يجوز لإنسان أن يفهم من منهاج الصحابة رضي الله عنهم ومن تشدد عمر خاصة - هجر الصحابة رضي الله عنهم للسنة أو زهدهم فيها، معاذ الله أن يقول هذا إلا جاهل أو صاحب هوى، لا علم له بقليل من السنة، ولم تخالط قلبه روح الصحابة رضي الله عنهم، ولا أنار سبيله قبس من هداهم، فقد ثبت عن الصحابة رضي الله عنهم جميعًا تمسكهم بالحديث الشريف وإجلالهم إياه، وأخذهم به، وقد تواتر خبر اجتهاد الصحابة رضي الله عنهم إذا وقعت لهم حادثة شرعية من حلال أو حرام، وفزعهم إلى كتاب الله تعالى، فإن وجدوا فيه ما يريدون تمسكوا به، وأجروا (حكم الحادثة) على مقتضاه، وإن لم يجدوا ما يطلبون فزعوا إلى "السنة" فإن روي لهم خبر أخذوا به، ونزلوا على حكمه، وإن لم يجدوا الخبر فزعوا إلى الاجتهاد بالرأي)[٣].

تاسعًا- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب والتوكيد والاستفهام والأمر والقصر والترغيب:

أما السؤال فقد سأل عمرو بن عبسة رضي الله عنه عن الإسلام وشرائعه، وقد أجابه النبي ﷺ، وأما التوكيد فقوله ﷺ: (إنك لن تستطيع ذلك يومك هذا)، والاستفهام: (ألا ترى حالي وحال الناس؟)، وهذا استفهام تقريري غرضه إقناع عمرو بن عبسة والتسليم

---

(١) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبدالبر ٢٣/٦٠ موسوعة شروح الموطأ.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١/٣٢.

(٣) السنة قبل التدوين ٩٨ - ٩٩.

بما قاله النبي ﷺ، لذا أتبعه ﷺ بالأمر: "ولكن ارجع إلى أهلك فإذا سمعت بي قد ظهرت فأتني"، كما استخدم ﷺ أسلوب الأمر: "صلِّ" في توجيه النبي ﷺ لعمرو ابن عبسة رضي الله عنه إلى الصلاة واستخدم ﷺ أسلوب القصر "ما، إلا"، في بيان فضل الوضوء والصلاة، كما استخدم النبي ﷺ أسلوب الترغيب في الحض على الوضوء والصلاة.

الحديث رقم (٤٣٩)

٤٣٩- وعن أَبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، قَالَ: ((**إذَا أرادَ الله تَعَالَى رَحمةَ أُمَّةٍ، قَبَضَ نَبيَّهَا قَبْلَها، فَجعلهُ لَهَا فَرطًا وسلَفًا بَيْنَ يَديْهَا، وإذَا أرادَ هَلَكَةَ أُمَّةٍ، عَذَّبَهَا وَنَبِيُّهَا حَيٌّ، فَأهلكَهَا وَهُوَ حيٌّ يَنظُرُ، فَأقرّ عينَهُ بهلاكِها حِينَ كَذَّبُوهُ وَعَصَوا أمْرَهُ**)) رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو موسى الأشعري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨).

غريب الألفاظ:

فرطًا: شفيعًا يتقدم[2].

سلفًا: المقدَّم[3].

---

(١) برقم ٢٢٨٨/٢٤ معلقًا. قال الرشيد العطار في غرر الفوائد ٩: وهذا الحديث متصلٌ محفوظٌ من رواية جماعة من الثقات، عن إبراهيم بن سعيد الجوهريّ، عن أبي أسامة، منهم: أبوبكر البزار الحافظ، ومحمد بن المسيب الأرغياني، والحسن بن أحمد بن إبراهيم بن فيل البالسيّ وغيرهم، ورواه عن الأرغياني هذا جماعةٌ، منهم: محمد بن إسحاق بن خزيمة النيسابوريّ الملقب بإمام الأئمة، وهو من أقرانه، وإبراهيم بن محمد بن يحيى -وأظنه المزكي-، وأبو أحمد محمد بن عيسى الجلودي، راوي صحيح مسلم وغيرهم، ومن صحيح طرق هذا الحديث عندنا، ثم ساقه بإسناده من طريق أبي بكر البزار، ومن طريق ابن عساكر، وقال: قال محمد بن المسيب، قال لي محمد بن إسحاق بن خزيمة: اقرأ عليَّ هذا الحديثَ، فقلتُ: أنا أستحيي منك أن أحدّثك، وأنت محدّث خراسان، فقال ابن علي الرازي: يقول لك الأستاذ: حدّثني وأنت تقول: لا. فقلتُ له: أنا لا أقول: لا، ولكنني أستحيي أن أحدّثه، فقرأتُ عليه، فقال لي بعد القراءة -ثلاث مرات- بارك الله فيك يا أبا عبد الله. قال الشيخ- يعني: زاهرًا: بلغني أن محمد بن إسحاق روى عنه هذا الحديث، وقال على رأس الملأ: ثنا محمد بن المسيب الشيخ الصالح، قالوا: من محمد بن المسيب؟ ثمّ قصده الناس بعد ذلك.

قلتُ: ورجال هذا الإسناد والذي قبله ثقاتٌ.

(٢) انظر: المفصح المفهم لمعاني صحيح مسلم، ابن هبيرة ٣٤٦، والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ف ر ط).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (س ل ف)، والكليات معجم المصطلحات والفروق الفردية، أبو البقاء الكفوي، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري ٤٩٤.

فأقرّ عينهُ: سُرَّ ورضي[١].

الشرح الأدبي

الحديث يعتمد أسلوب الشرط في بدايته لنقل الخبر، واستخدم أداة الشرط (إذا) لتشير إلى أن وقوع الشرط ممكن، وذكر الله يوحي بالهيبة، والجلالة، والتعبير بالقبض فيه دلالة على التمكن، والسيطرة، وإضافة النبي للأمة تشريف لها، والتعبير بالمصدر في قوله (فرطاً، وسلفاً) يفيد المبالغة في استقبالهم بالرعاية، والحماية في مختلف المواقف، والظرف، وما أضيف إليه (بين أيديها) كناية عن صفة القرب احتراساً من فهم السبق من قوله: (فرطاً وسلفاً) وقد قابلها بنقيضها في جملة الشرط الثانية حيث قابل الرحمة في الأمة الأولى بالعذاب في الأمة الثانية، وإضافة الأمة الهالكة لنبيها فيه مذمة لهم لأنهم أعرضوا عنه فاستحقوا العقاب وقوله: (فَأهلكَها وَهُوَ حيٌّ يَنظُرُ، فَأقرّ عَينَهُ بهلاكِها) التعبير بالهلاك يوحي بالشدة في الأخذ، وجملة (وهو حي ينظر) كناية عن رضاه عن إهلاكهم مما يدل على أنهم كذبوه، وآذوه، والفعل المضارع يستحضر الصورة، ويؤكد الحدث يدل على ذلك قوله (فأقر عينه بهلاكها) كناية عن سروره بهلاكهم، وفيه دليل على أنه بالغ في دعوته، وبالغوا في تكذيبه، وإيذائه، فاستحقوا ما حاق بهم، وهو ما أفصح به باقي الحديث، وهكذا الأمة التي تعطي ظهرها لشرع نبيها، وسنته يوشك الله أن يهلكها، ويذيقها وبال أمرها.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: رحمة الله تعالى بأمة النبي ﷺ.

ثانيًا: من مهام الداعية: بيان سنن الله في خلقه.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الجزاء من جنس العمل.

رابعًا: من أساليب الدعوة: الشرط.

---

(١) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ق ر ر)، والكليات معجم المصطلحات والفروق الفردية، أبو البقاء الكفوي، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري ٧٣٣.

أولاً- من موضوعات الدعوة: رحمة الله تعالى بأمة النبي ﷺ:

هذا واضح من قول النبي ﷺ: "إذا أراد الله تعالى رحمة أمة قبض نبيها قبلها، فجعله لها فرطًا وسلفًا بين يديها"، (والفرط والفارط: الذي يتقدم الورّاد يصلح لهم الحياض والدلاء ونحوهما من أمور الاستقاء، أي: أنه المهيأ لمصالحها)[1]، وقد دل ذلك على أن أمة محمد ﷺ مرحومة، فقد قبض نبيها قبلها، وجاء في صحيح ابن حبان: خَرَجَ علينا رَسُولُ اللَّهِ فقالَ: ((تَزْعُمُونَ أني مِنْ آخرِكُمْ وَفاةً، إنِّي مِنْ أَوَّلِكُمْ وَفاةً، وتَتْبَعُوني أفنادًا[2] يَضربُ بعضُكُمْ رِقابَ بَعْضٍ))[3]، ثم جاء بعده ما يلي: ذكر البيان بأن ما وصفنا من أول الحوادث هو من أمارة إرادة الله جلّ وعلا الخير بهذه الأمة، وجاء تحته حديث الباب[4]. وقد قال المناوي: "وفيه [أي في الحديث] بشرى عظيمة لهذه الأمة حيث كان قبضه ﷺ رحمة لهم كما كان بعثه)[5].

وقد قال النبي ﷺ: ((أَنَا أَمَنَةٌ لأَصْحَابِي. فَإِذَا ذَهَبَتُ أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ. وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لأُمَّتِي. فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ))[6].

قال النووي: (وقوله ﷺ: "وأنا أمنة لأصحابي فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون" أي: من الفتن والحروب وارتداد من ارتد من الأعراب واختلاف القلوب ونحو ذلك مما أنذر به صريحًا، وقد وقع كل ذلك. قوله ﷺ: "وأصحابي أمنة لأمتي فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون" معناه من ظهور البدع والحوادث في الدين والفتن فيه")[7].

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٦٧٣، وانظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ف ر ط).

(٢) أي: تتبعوني ذوي فند، أي ذوي عجز وكفر للنعمة. القاموس المحيط، الفيروزآبادي، الفيروزآبادي في (ف ن د).

(٣) أخرجه ابن حبان ٦٦٤٦، وقال محققه: إسناده صحيح.

(٤) صحيح ابن حبان ٦٦٤٧.

(٥) فيض القدير شرح الجامع الصغير، المناوي ٢/٢٠٧.

(٦) أخرجه مسلم ٢٥٣١.

(٧) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٢٢.

كما قال النبي ﷺ: ((أُمَّتِي هذِهِ أُمَّةٌ مَرْحُومَةٌ لَيْسَ عَلَيْهَا عَذَابٌ فِي الآخِرَةِ، عَذَابُهَا فِي الدُّنْيَا الْفِتَنُ وَالزَّلَازِلُ وَالْقَتْلُ))(١).

قال الطيبي: (قال المظهر: هذا حديث مشكل لأن مفهومه أن لا يعذب أحد من أمته ﷺ، سواء فيه من ارتكب الكبائر وغيره، وقد وردت الأحاديث بتعذيب مرتكبي الكبائر، اللهم إلا أن يؤول بأن المراد بـ "الأمة" هنا من اقتدى به ﷺ كما ينبغي ويمتثل بما أمر الله وينتهي عما نهاه.

أقول: [القائل: الطيبي]: الحديث وارد في مدح أمته ﷺ واختصاصهم من بين سائر الأمم بعناية الله تعالى ورحمته عليهم، وأنهم إن أصيبوا بمصيبة في الدنيا حتى الشوكة يشاكها أن الله يكفر بها في الآخرة ذنبًا من ذنوبهم، وليست هذه الخاصية لسائر الأمم، ويؤيده ذكر "هذه" وتعقيبها بقوله: "مرحومة"، فإنه يدل على مزية تمييزهم بعناية الله تعالى ورحمته.

والذهاب إلى المفهوم مهجور في مثل هذا المقام، وهذه الرحمة هي المشار إليها بقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾(٢)، أراد موسى عليه السلام أن يخص هذه الرحمة بأمته، فأجابه تعالى بأنها مختصة بأمة النبي الأمي ﷺ)(٣).

إن من أسباب محبة المسلم للنبي ﷺ النفع الأصل لهذه الأمة بسبب بعثة النبي ﷺ فيها ونزول القرآن عليه. وأنه سبب نجاة هذه الأمة في الدنيا والآخرة وأن كل خير وعز وسعادة حصلت لهذه الأمة أو يقدر لها أن تحصل فبسبب اتباعه.

وأن كل بلاء حصل لهذه الأمة أو سيحصل فسببه مخالفة ما جاء به من عند ربه. وحتى تكتمل هذه المعرفة يتخيل الإنسان كيف سيكون حال هذه الأمة لو لم يبعث

---

(١) أخرجه أبو داود ٤٢٧٨، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود).

(٢) سورة الأعراف، الآيتان: ١٥٦ - ١٥٧.

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ١٠/٤٢ - ٤٣.

فيها رسول الله ﷺ وكيف كان حالها قبل مبعثه ﷺ ثم كيف أصبح حالها بعد بعثته ونزول القرآن عليه. وكيف أن الله جمع به بعد فرقة، ورفع به شأن هذه الأمة وأخرجها من الظلمات إلى النور.

قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1][2].

ثانيًا- من مهام الداعية: بيان سنن الله في خلقه:

هذا واضح في قول النبي ﷺ في آخر الحديث: "وإذا أراد هلكة أمة عذبها ونبيها حيّ فأهلكها وهو حي ينظر فأقرّ عينه بهلاكها حين كذبوه وعصوا أمره".

وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾[3].

قال القاسمي: (في سنتنا المبنية على الحكم البالغة ألا نعذب قومًا حتى نبعث إليهم رسولاً يهديهم إلى الحق ويردعهم عن الضلال لإقامة الحجة وقطعًا للعذر، وقوله: وإذا أردنا أن نهلك قرية...، المعنى: إذا أردنا أن نعذب قومًا عذاب استئصال "أمرنا مترفيها" يعني متنعميها بالطاعة على لسان الرسول المبعوث إليهم "ففسقوا فيها"، بمخالفة أمره تعالى والخروج عن طاعته "فحق عليها القول"، فوجب عليها بمعصيتهم وفسقهم وطغيانهم، وعيد الله الذي أوعد من كفر به وخالف رسله من الهلاك بعد الإعذار والإنذار بالرسل والحجج "فدمرناها تدميرًا"، أي فخربناها تخريبًا لا يكتنه كنهه ولا

(١) سورة المائدة، الآيتان: ١٥ - ١٦.

(٢) انظر: محبة الرسول بين الاتباع والابتداع ٦٣ - ٦٤.

(٣) سورة الإسراء، الآيتان: ١٥ - ١٦.

يوصف وأهلكنا من كان فيها من أهلها إهلاكًا هائلاً "[١].

وقد قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾[٢]، وقال عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[٣].

(لقد وجه القرآن الكريم المسلمين نحو الوعي بعالم الشهادة فحثهم على النظر والتدبر والاستقراء؛ للكشف على قوانين المادة وسنن الاجتماع، كما نبّه إلى أهمية التعرف على السنن التاريخية، والإفادة من ذلك في الاعتبار وبناء الحضارة وكيفية المحافظة عليها من السقوط.

وقد أرشد القرآن الكريم إلى هذه السنن فذكرها نصًا في بعض الأحيان[٤]، ولم يذكرها أحيانًا أخرى نصًا، وإنما فهمت من النص دلالة وفحوى[٥]، وذكرها تارة مضافة إلى الله -تباركت وتقدست أسماؤه-[٦]، وذكرها تارة أخرى مضافة إلى أقوام[٧].

وللإشارة فإن هذه السنن تعمل مجتمعة ومتسلسلة، فيكون في حصيلتها في الحياة البشرية ما هو كائن بقدرة الله عز وجل.

---

(١) محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي ١٠/٢١٣ - ٢١٤ بتصرف يسير جدًا.

(٢) سورة الأنعام، آية: ١٣١.

(٣) سورة هود، آية: ١١٧.

(٤) في مثل قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [سورة آل عمران، آية: ١٣٧].

(٥) في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [سورة الأنعام، آية: ١٠].

(٦) في مثل قوله تعالى: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [سورة غافر، آية: ٨٥].

(٧) في مثل قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ...﴾ [سورة الكهف، آية: ٥٥].

وقد نبه الله -جل ثناؤه- المسلمين إلى أن هذه السنن صارمة؛ تتسم بالاطراد والشمول والثبات، كما في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾(٢).

فينبغي إذن معرفتها وتدبرها واستيعابها والاستفادة منها، لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(٣).

ومن خلال السنن في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ نفهم التاريخ على حقيقته، ونعرف عوامل البناء والأمن والاستقرار والتقدم، وعوامل الهدم والخوف والانحطاط والتخلف.

على أن هذه السنن مرتبطة بالأمر والنهي، والطاعة والمعصية، والإيمان والكفر، والتوحيد والشرك، فالإنسان إذا أتى الأمر واجتنب النهي ووقف عند حدود الله، أصاب خير السنة الربانية، وإذا أهمل الأمر وخالفه وارتكب المنهي عنه ووقع في حدود الله، أصاب شر السنة الربانية"(٤).

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: الجزاء من جنس العمل:

لقد بيّن ﷺ أن العذاب الذي يلحق بأمة من الأمم كان بسبب تكذيبها لنبيها وعصيانها أمره، وقد حدث هذا للأمم السابقة، قال قتادة وقد تلا قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾(٥)، قال: (ذهب النبيّ ﷺ وبقيت النقمة، ولم يُرِ الله

---

(١) سورة فاطر، آية ٤٣.

(٢) سورة الإسراء، آية: ٧٧.

(٣) سورة النساء، آية: ٢٦.

(٤) العلم بالسنن الربانية، د. محمد أمحزون، مجلة البيان، العدد: ١١٥، ص ٥٠ - ٥١، وانظر: مرجعه ومصدره.

(٥) سورة الزخرف، آية: ٤١.

نبيه ﷺ في أمته شيئا يكرهه حتى مضى، ولم يكن نبيّ قطُّ إلا رأى العقوبة في أمته، إلا نبيكم)[١].

جاء في نزهة المتقين تعليقًا على حديث الباب: (أفاد أن انتفاع الأمة بموت نبيها قبلها إنما يحصل إذا كانت متأسية به صابرة بعده على دينه، وهلاكها في حال حياته إنما يكون إذا كفرت به وعصت أمره، وسعت في أذاه فاستحقت الهلاك والعذاب)[٢].

وقد قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾[٣].

أي: (يجازي كلاً بعمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر)[٤].

(والجزاء من جنس العمل هو العدل الذي تقوم به السماوات والأرض، وبه تصلح الدنيا والآخرة، ويصلح به الدين والدنيا.

والجزاء مماثل للعمل من جنسه في الخير والشر، فمن ستر مسلمًا ستره الله.. ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة.. ومن نفس كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن أقال نادمًا أقال الله عثرته يوم القيامة، ومن أحسن إلى عباد الله أحسن الله إليه، ومن تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته... ومن ضار مسلمًا ضار الله به.. ومن شاق شاق الله عليه.. ومن خذل مسلمًا في موضع يجب نصرته فيه خذله الله في موضع يحب نصرته فيه.

ومن أنفق أُنفق عليه، ومن أوعى أُوعي عليه، ومن يسر يسَّر الله عليه، ومن عفا عن حقه عفا الله له عن حقه، ومن تجاوز عن غيره تجاوز الله عنه، ومن استقصى استقصى الله عليه.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان ٢٠/٦٠٠، وانظر: الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٣/٢٠٩ - ٢١٠.

(٢) نزهة المتقين شرح رياض الصالحين، د. مصطفى الخن، ود. مصطفى البُغا وآخرين ١/٣٩٦.

(٣) سورة النجم، آية: ٣١.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/٤٦٠.

ومن سمح سمح الله له، ومن رحم خلق الله رحمه الله، ومن عفا عنهم عفا الله عنه، ومن ظلمهم سلط الله عليه من يظلمه.

والراحمون يرحمهم الرحمن، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء، والله سبحانه أتقن كل شيء صنعه، وأحسن كل شيء خلقه، فهو عند مبدأ خلقه بريء من الآفات والعلل، تام المنفعة لما هيئ وخُلق له، وإنما تعرض له الآفات بعد ذلك بأمور أخر تقتضي فساده، ولو تُرك على خلقته الأصلية لم يفسد.

ومن له معرفة بأحوال العالم ومبدئه يعرف أن جميع الفساد في جوه ونباته وحيوانه وأحوال أهله حادث بعد خلقه بأسباب اقتضت حدوثه"[١].

رابعًا- من أساليب الدعوة: الشرط:

هذا واضح من لفظ "إذا" وفائدة الشرط هنا ترتيب الجواب على وقوع الشرط وبيان الارتباط بين النتائج والأسباب والثواب والعقاب بالمسببات، وذلك حتى يتعظ المدعوون ويتدبروا، ومن ثم ينعكس هذا على أفعالهم، فيفعلون ما كان نتيجته حسنة عند الله عز وجل ويجتنبون ما كان نتيجته سيئة عنده سبحانه وتعالى.

---

(١) موسوعة فقه القلوب، محمد بن إبراهيم التويجري ٤/٢٠٢٠ - ٢٠٢١.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

الأمل في العفو يولد القوة ويجر طاقة الخير ويحيي موات النفس، والإسلام يربي أبناءه على عدم اليأس: ﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧﴾ [سورة يوسف:٨٧]، وقد فتح الله باب الرجاء ولم يجعل له حداً، فرحمة الله واسعة وحسن الظن والأمل في قبول العمل، وحمل النفس على الجادة، كل هذا من شريعة الإسلام. ولهذا ينبغي أن تربى الأمة على ذلك ومن المضامين التربوية في أحاديث الباب ما يلي:

أولاً- غرس عقيدة التوحيد:

إن من أهم ما تسعى التربية الإسلامية إلى ترسيخه في القلوب العقيدة الصحيحة التي تقوم على توحيد الله تعالى، لأن التوحيد نجاة للعبد يوم القيامة، وفوز بالسعادة في الدنيا والآخرة.

ومن الشواهد على ذلك في أحاديث باب الرجاء قوله ﷺ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لاَ إِلـهَ إلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسى عَبْدُ اللَّهِ ... أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ العَمَلِ»، وقوله: رواية عن ربه: «... وَمَنْ لَقِيَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطِيئَةً لاَ يُشْرِكُ بِي شَيْئًا، لَقِيتُهُ بِمِثْلِهَا مَغْفِرَةً».

وقوله في حديث أنس رضي الله عنه: «ما مِنْ عَبْدٍ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلـهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ إِلاَّ حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلى النَّارِ ...».

ومنها حديث عتبان بن مالك رضي الله عنه وفيه: «فَإِنَّ الله قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لاَ إِلٰهَ إِلاَّ الله، يَبْتَغِي بِذٰلِكَ وَجْهَ الله».

ومنها حديث ابن عباس رضي الله عنهما وفيه: «مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ فَيَقُومُ عَلَىٰ جِنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلاً، لاَ يُشْرِكُونَ بِاللَّهِ شَيْئًا إلاَّ شَفَعَهُمُ اللَّهُ فِيهِ».

فهذه جملة شواهد ظهر منها بيان فضل عقيدة التوحيد، وواجب المربين نحو ترسيخ هذه العقيدة في نفوس الناشئة وكل مسلم ومسلمة للعمل بمقتضى هذه العقيدة، لأن كلمة التوحيد ترسخ في قائلها بأن لا معبود ولا محيي ولا مميت ولا رازق ولا مانع ولا نافع ولا ضار إلا الله.

وتحقق عقيدة التوحيد الحرية والعزة والكرامة للمسلم فليس لأحد عليه سلطان، ويستفيد المؤمن أيضًا من التوحيد التحرر من الخوف والقلق وغير ذلك لاعتقاده أن لا رزاق إلا الله، كذلك يستفيد المؤمن من التوحيد: الشجاعة وعدم هيبة الموت، لأن الذي يملكه هو الله وحده وبذلك ترتفع نفسه إلى العزة والإباء والاستشهاد في سبيل الحق[(١)].

والتوحيد هو روح العقيدة الإسلامية، ولذا كان من أهداف التربية ترسيخ هذه العقيدة في النفوس وتربيتها عليها وترجمة ذلك إلى سلوك عملي في حياة المسلم، وينبغي على المربي أن يصل بالمستهدف بالتربية إلى التصديق الجازم بأن الله عز وجل بيده مقاليد كل شيء، وهو المالك المطلق والمتصرف بإرادته المطلقة، وأنه رب كل شيء والمهيمن عليه، وأنه لا معبود بحق غير الله تبارك وتعالى، ومن ثم الدعوة إلى ذلك والتفاني في سبيله وتربية النشء على ذلك[(٢)].

والعقيدة الإسلامية لها أهميتها في حياة البشرية مما يؤكد على أهمية العناية بتربية النشء عليها، ولذا فإن التربية التي لا تركز على العقيدة إنما هي تربية تنزل بالمتربين إلى الهاوية فكل جهد وعمل لا يقبل من الإنسان ما لم يكن قائمًا على الإيمان الصحيح لأنه أساس متين لتربية ثابتة، مضمونة النتائج، بعكس التربية التي لا تقوم على ترسيخ الإيمان فإنها تربية عشوائية غير صحيحة[(٣)].

ثانيًا- التربية بالحوار والمناقشة:

من أساليب التربية الإسلامية الحوار والمناقشة، ولقد استخدم رسول الله ﷺ هذا الأسلوب بكثرة في تربية المخاطبين وتوجيههم وإعدادهم إعدادًا إسلاميًا صحيحًا، ومن الشواهد على ذلك في باب الرجاء: عندما جاء أعرابي وقال: «يا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْمُوجِبَاتُ؟ قَالَ: مَنْ مَاتَ لاَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ ...»، وقول: «يَا مُعَاذُ، قَالَ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ ثَلاَثًا. قَالَ: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ...»، وقوله: «يامعاذ، هل

---

(١) انظر: روح الدين الإسلامي، عفيف عبدالفتاح طبارة، ص٩٣، ٩٤.

(٢) أصول التربية الإسلامية، د. أمين أبو لاوي، ص٨١.

(٣) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي، ص١٠٥.

تدري ما حق الله على العباد ...»، وقوله: «أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة، قلنا: نعم...»، وقوله: «... يا رسول الله أصبت حدًا.... قال: حضرت معنا الصلاة ...».

فهذه شواهد تبين أهمية استعمال أسلوب الحوار والمناقشة في التربية، لهذا فإن من واجبات المربين غرس أسلوب الحوار والمناقشة لأنه أسلوب تربوي يدفع بالمتعلم إلى المشاركة بالأسئلة والاستماع والفهم والتساؤل عما لا يدركه من حقائق، وهذه الطريقة -الحوار والمناقشة- تحمل المخاطب إلى توجيه كل اهتمامه لما يلقى إليه ليتمكن من فهمه، ثم الإجابة عليه(١).

ولقد استخدمت التربية الإسلامية أسلوب الحوار والمناقشة. والذي له عدة فوائد تربوية كجذب الانتباه وشحذ الذهن وإعماله، وإبعاد المتعلمين والمتربين عن الانقياد الأعمى، وتحقيق الإقناع، والاقتناع العقلي ثم تحقيق المغزى التربوي المراد تحقيقه من الموقف(٢).

ثالثًا- التربية بالترغيب والترهيب:

من أساليب التربية الإسلامية: الترغيب والترهيب لأن هذا الأسلوب يتمشى مع الطبيعة البشرية -وعندما استخدمت التربية الإسلامية هذا الأسلوب قدمت الترغيب على الترهيب لأن الترغيب قد يفلح ولا يفلح الترهيب، لذلك قدمه ﷺ في أغلب أحاديث الباب. فقال: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لاَ إِلهَ إلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ، وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ العَمَلِ». ويقول: «من تقرّب مني شبرًا تقرّبت منه ذراعًا ومن تقرّب مني ذراعًا تقرّبت منه باعًا ...»، وقوله: «... مَنْ مَاتَ لاَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ ...»، وقوله: «ما مِنْ عَبْدٍ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلهَ إلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ إلاَّ حَرَّمَهُ اللهُ عَلى النَّارِ ...»، وقوله: «أشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلا اللَّهُ، وأنّي رسولُ الله، لا يلقى اللَّهَ بِهِمَا عَبْدٌ غيرَ شَاكٍ، فَيُحْجَبْ عَنِ الجَنَّةِ»، وقوله: «اذْهَبْ.

---

(١) التربية الذاتية من الكتاب والسنة، د. هشام علي أحمد، ص١٢٣.

(٢) أصول التربية الإسلامية، د. سعيد القاضي، ص١٨٠.

فَمَنْ لَقِيتَ مِنْ وَرَاءِ هذَا الْحَائِطِ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلهَ إِلاَّ اللّهُ. مُسْتَيْقِنا بِهَا قَلْبُهُ. فَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ».

فهذه شواهد نبوية تربوية أكدّ الرسول ﷺ من خلالها على أهمية استخدام الترغيب قبل الترهيب لأن الترغيب فيه تبشير وهذا التبشير قد يكون أبلغ في التأثير على السلوك أكثر من الترهيب.

ولا يمكن أن تجدي التربية وتحقق أهدافها ما لم يعرف الإنسان أن هناك نتائج مسرة أو مؤلمة وراء عمله وسلوكه، فإن عمل خيرًا نال السرور والحلاوة، وإن عمل شرًا ذاق الألم والمرارة، وهذا مما يجعل الإنسان يتحكم في سلوكه ويعدل فيه بمقدار معرفته بنتائج ذلك السلوك وما يترتب عليه من نفع أو ضرر، وعندما استخدمت التربية الإسلامية هذا الأسلوب، فإنها تقدم الترغيب على الترهيب ولا تستخدم الترهيب إلا إذا لم يفلح الترغيب والثواب، وحين لا يفلح الترغيب لابد من علاج حاسم يضع الأمور في وضعها الصحيح، وهذا الترغيب والترهيب يستعمل بدرجات متفاوتة وذلك لاختلاف طبائع البشر، على أن يكون الهدف الأسمى من وراء هذا الأسلوب هو الإصلاح والتأديب[(١)].

رابعًا- التربية بالمواقف والأحداث:

من أساليب التربية الإسلامية استثمار المواقف والأحداث في التغيير الإيجابي للسلوك، وذلك لأن الإنسان دائمًا يتعرض في حياته للأحداث والمواقف والتي تحدث بسبب بعض التصرفات الخاصة أو لأسباب خارجة عن تقديره وخارجة عن إرادته.

ومن الشواهد ما يدل على ذلك في أحاديث الباب: أحداث غزوة تبوك، وما أصاب الناس من مجاعة، فقالوا: «يا رسول الله لو أذنت لنا فنحرنا ...» وقول عتبان بن مالك: «كنت أصلي لقومي بني سالم، وكان يحول بيني وبينهم واد إذا جاءت الأمطار فيشق ...»، «قَدِمَ عَلَىٰ رَسُولِ اللّهِ بِسَبْيٍ. فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ، تَسْعَىٰ، إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ، أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا ...»، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كُنَّا قُعُودا مَعَ

(١) أصول التربية الإسلامية، د. سعيد القاضي، ص١٨٩.

رَسُولُ اللّهِ ﷺ. مَعَنَا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ رضي الله عنهما ، فِي نَفَرٍ. فَقَامَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِنَا. فَأَبْطَأَ عَلَيْنَا ...»، وحديث ابن مسعود رضي الله عنه : «أَنَّ رَجُلاً أَصَابَ مِنِ امْرَأَةٍ قُبْلَةً ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَأَنْزَلَ اللّهُ تَعَالَىَ: ﴿وأَقِمِ الصَّلاَةَ...﴾».

فهذه نماذج تربوية تدل على وقوع أحداث ومواقف من الصحابة رضوان الله عليهم دعت النبي ﷺ للتعليق عليها.

"والمربي البارع لا يترك الأحداث تذهب سدى بغير عبرة وبغير توجيه وإنما يستغلها لتربية النفوس، وصقلها وتهذيبها ومزية الأحداث والمواقف -كأسلوب تربوي- أيضًا تثير النفس بكاملها وترسل فيها قدرًا من حرارة التفاعل والانفعال، فيكون من الحكمة هنا استخدام الدواء عند حدوث الداء، وقد قامت السنة النبوية، وهي تربي الأمة الإسلامية في منشئها على استثمار المواقف والأحداث في تربية النفوس استثمارًا عجيبًا عميق الأثر، وكانت الحكمة من استخدام ذلك الأسلوب هو التأثير العميق في النفوس حتى لا تفلت الحادثة بلا عبرة مستفادة، وبلا أثر ينطبع في النفس ويبقى"[١].

خامسًا- التربية بالقصة:

من أساليب التربية القصة، وذلك لما فيها من شد للخيال ومتابعة ومشاهدة للأحداث فتؤثر في متتبعها أيما تأثير. ومن الشواهد على ذلك في أحاديث باب الرجاء قوله ﷺ: فيما يحكي عن ربه تبارك وتعالى قال: «أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا. فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي ...».

وعن أبي نجيح عمرو بن عبسة السلمي رضي الله عنه قال: « كُنْتُ ، وَأَنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، أَظُنُّ أَنَّ النَّاسَ عَلَىٰ ضَلاَلَةٍ. وَأَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَىٰ شَيْءٍ. وَهُمْ يَعْبُدُونَ الأَوْثَانَ. فَسَمِعْتُ بِرَجُلٍ بِمَكَّةَ يُخْبِرُ أَخْبَارًا ...».

فهذه نماذج تربوية تدل على اعتماد القصة كأسلوب تربوي مؤثر ساحر ناجح، وهذا ما ظهر من مفهوم ومنطوق الأحاديث.

والقصة في التربية الإسلامية وظيفة تربوية لا يحققها لون آخر من ألوان الأداء اللغوي، ذلك أنها تمتاز بميزات جعلت لها آثارًا نفسية وتربوية بليغة محكمة، بعيدة

---

(١) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. سعيد القاضي، ص١٩٦.

المدى على مر الزمن، مع ما تثيره من حرارة العاطفة، ومن حيوية وحركية في النفس، تدفع الإنسان إلى تغيير سلوكه وتجديد عزيمته بحسب مقتضى القصة وتوجيهها، وخاتمتها والعبرة منها، لما لها من شد القارئ وشحذ انتباهه، دون توانٍ أو تراخ، فتجعله دائم التأمل في معانيها والتتبع لمواقعها، والتأثر بشخصيتها وموضوعاتها حتى آخر كلمة فيها، والقصة تتعامل مع النفس البشرية في واقعيتها الكاملة متمثلة في أهم النماذج النبوية التي ساقها النبي والصحابة[١].

سادسًا- من مصادر التربية: القرآن الكريم:

من مصادر التربية الإسلامية القرآن الكريم الذي هو كلام رب العالمين، والذي نزل به الروح الأمين على سيد المرسلين ليكون منهجًا وتربية للعالمين.

ومن الشواهد على ذلك في باب الرجاء، حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَلاَ قَوْلَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي إِبْرَاهِيمَ ﷺ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى...﴾[٢]».

وحديث البراء بن عازب رضي الله عنه «عن النَّبِيِّ ﷺ: «الْمُسْلِمُ إِذَا سُئِلَ فِي الْقَبْرِ، يَشْهَد أَنْ لاَ إِلهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَذَٰلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ...﴾[٣]».

وحديث ابن مسعود رضي الله عنه «أَنَّ رَجُلاً أَصَابَ مِنِ امْرَأَةٍ قُبْلَةً ... ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[٤]».

فهذه نماذج تربوية دلت على أن القرآن الكريم مصدرٌ من مصادر التربية الإسلامية وأي تربية وأي حياة مع هذا الهدي الرباني.

---

(١) أصول التربية الإسلامية وأساليبها، عبدالرحمن النحلاوي، ص١٨٨.

(٢) سورة إبراهيم، آية: ٣٦.

(٣) سورة إبراهيم، آية: ٢٧.

(٤) سورة هود، آية: ١١٤.

"وإن من يريد أن يربي نفسه حري به أن يتعهدها بكتاب الله تلاوة وتدبرًا، وفهمًا وحفظًا، مبتعدًا بذلك عن منهج أهل الزيغ والعصيان الذين هجروا كلام الرحمن، ومن عاش في رحاب القرآن أصبح بمثابة قرآن يتحرك على الأرض ففيه منهج حياة لكل فرد في كل زمان ومكان، وما الحيرة والضياع التي يعيش فيها كثير من أفراد المسلمين إلا لأنهم ابتعدوا عن هذا النبع الأصيل، ولذلك نجد من اتصل بكتاب الله له رفعة يحظى بها في الدنيا والآخرة، وهذه الخيرية التي ينالها من بركات التوفيق لتربية الذات وتزكيتها"[1].

سابعًا- التربية بالتشبيه وضرب المثل:

من أساليب التربية الإسلامية أسلوب التشبيه وضرب الأمثلة، ولقد استخدم النبي ﷺ هذا الأسلوب لتقريب المعاني إلى الأذهان والتأثير في النفوس.

ومن الشواهد على ذلك في أحاديث باب الرجاء قوله ﷺ: «مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ كَمَثَلِ نَهْرٍ جَارٍ غَمْرٍ عَلَى بَابِ أَحَدِكُمْ. يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ».

فهذا نموذج تربوي استخدم فيه النبي ﷺ أسلوب التشبيه وضرب الأمثال للبيان والتوضيح لأثر وفضل المحافظة على أداء الصلوات الخمس، هذا الفضل الذي لا يستحقه إلا من صلى كما، أُمر فأقام أركانها وأتم واجباتها وخشع فيها.

"والأمثلة والتشبيهات النبوية دوافع تحرك العواطف والوجدان فيحرك الوجدان الإرادة ويدفعها إلى عمل الخيرات واجتناب المنكرات، وبهذا تساهم الأمثال في تربية الإنسان على السلوك الخير وتهذيب نزعاته الشريرة، فتستقيم حياة الأفراد والمجتمعات وتسير الأمة الإسلامية سيرتها نحو حضارة مثلى تحقق للإنسانية الرخاء والعدالة والتحرر، ويجب على المربي العمل على تحقيق هذا الجانب من تربية السلوك والإرادة الطيبة، والنزوع إلى الخير، وذلك باستحضار الأمثال في المواقف الحياتية والتعقيب عليها بذكر نتائجها السلوكية الطيبة بأسلوب يقوي إرادة الخير عند المسلم ويحقق

(١) التربية الذاتية من الكتاب والسنة، هشام علي أحمد، ص٨٦.

عزمه على توجيه سلوكه بما تقتضيه أمثال القرآن وتعاليمه"[١].

"ويحث علماء التربية الإسلامية على الاعتماد على الأمثلة الحسية في تفهيم المتعلمين[٢]، ولاسيما في البداية لأن الإنسان بحاجة إلى البيان والإيضاح لعدد من الأمور حتى يتم استيعابها والعمل بمقتضاها لأجل التغيير الإيجابي للسلوك.

ثامنًا- التربية بالتعليم والتوجيه:

من أهم وسائل التربية الإسلامية: التعليم والتوجيه، لما فيه من توظيف طاقات الإنسان وقدراته وجهده في جوانب الخير، وتحويلها إلى عادة تعليمية سهلة وميسرة.

ولقد استخدم هذه الوسيلة الرسول ﷺ في تعليمه للصحابة رضي الله عنهم.

ومن أمثلة ذلك في أحاديث باب الرجاء: حديث أنس: عندما جَاءَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللّهِ أَصَبْتُ حَدًّا فَأَقِمْهُ عَلَيَّ. قَالَ: وَحَضَرَتِ الصَّلاَةُ فَصَلَّى مَعَ رَسُولِ اللّهِ ﷺ. فَلَمَّا قَضَى الصَّلاَةَ قَالَ: يَا رَسُولَ اللّهِ إِنِّي أَصَبْتُ حَدًّا فَأَقِمْ فِيَّ كِتَابَ اللّهِ. قَالَ «هَلْ حَضَرْتَ الصَّلاَةَ مَعَنَا؟» قَالَ: نَعَمْ. قَالَ «قَدْ غُفِرَ لَكَ».

وقول أبي نجيح عمرو بن عبسة السلمي رضي الله عنه قال: «كُنْتُ، وَأَنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، أَظُنُّ أَنَّ النَّاسَ عَلَى ضَلاَلَةٍ ... فَقُلْتُ: يَا رَسُولِ اللّهِ أَخْبِرْنِي عَمَّا عَلَّمَكَ الله وَأَجْهَلُهُ. أَخْبِرْنِي عَنِ الصَّلاَةِ؟ قَالَ: «صَلِّ صَلاَةَ الصُّبْحِ. ثُمَّ ...».

فهذه شواهد تربوية ظهر فيها أن الصحابة كانوا يحرصون على التعلم والتوجيه من الرسول ﷺ.

والتعليم من الأساليب التربوية التي بها يعرف الإنسان ما يضره وما ينفعه، فالعلم يرشده إلى مواقع بذل المعروف، والفرق بينه وبين المنكر ويعتبر التعلم من أهم الوسائل التربوية لما يحدثه في نفس المتعلم من المفاهيم والمعارف التي تعينه على وضع الأمور في مواضعها الصحيحة، وتنير له الطريق إلى معرفة موضع كل خلق ومكان استعماله[٣].

---

(١) أصول التربية الإسلامية، النحلاوي، ص٢٠٤.

(٢) أصول التربية الإسلامية، د. سعيد القاضي، ص١٩٦.

(٣) أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي، ص٢٤٦.

كما أن التوجيه وسيلة من وسائل التعليم التطبيقية التي استخدمها الرسول ﷺ مع أصحابه ليكون درسًا عمليًا يستقي منه الأصحاب الحكم والفوائد[١].

تاسعًا- التربية على الرجاء في رحمة الله عز وجل:

إن من أهداف التربية الإسلامية التربية على الرجاء في رحمة الله عز وجل، وذلك لفتح باب الأمل أمام النفوس، وطرد اليأس والقنوط، وتحقيق الإقبال على الله تعالى بالطاعة حتى لا يستكثر الإنسان شيئًا على الله تعالى، فهو غفار الذنوب، وستار العيوب، وعلام الغيوب وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها.

ومن الشواهد على ذلك في باب الرجاء ما يلي:

حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها...ومن تقرب مني شبرًا، تقربت منه ذراعًا ...».

وقوله ﷺ: «لله أرحم بعباده من هذه بولدها...».

وقوله: «إن رحمتي تغلب غضبي...»، وقوله: «جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين ...»، وقوله ﷺ: فيما يحكي عن ربه تبارك وتعالى قال: «أذنب عبدي ذنبًا، فعلم أن له ربًا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب، فقال: ...»، وقوله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ، ...»، وقوله: «لولا أنكم تذنبون لخلق الله خلقًا يذنبون ...»، وقوله: «يجيء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب، أمثال الجبال يغفرها الله لهم ...»، وقوله: «يدني المؤمن يوم القيامة من ربه حتى يضع كنفه عليه فيقرره بذنوبه ...»، وقوله: «قد غفر لك»، وقوله: «إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ...»، وقوله: «إن الله تعالى إِذَا أَرَادَ رَحْمَةَ أُمَّةٍ، قَبَضَ نَبِيَّهَا قَبْلَهَا... ».

فهذه جملة شواهد تبين مدى سعة وعظمة الرجاء في رحمة الله عز وجل، لقول الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[٢].

---

(١) أساليب الدعوة والتربية، د. زياد العاني، ص٢٨٤.

(٢) سورة الزمر، آية: ٥٣.

"والرجاء طمعٌ في كرم الكريم وأمل في رحمته وثقته في فضل العظيم ونظرٌ إلى سعة الرحمة وجميل العفو والامتنان بالغفران، والتعلق بالمحسن المتفضل، ولولا روح الرجاء لعطلت عبودية القلب والجوارح، ولولا روح الرجاء ما تحركت الجوارح بالطاعة ولا ترنمت الألسنة بالدعاء، ولما فاضت القلوب بالثناء، إن الرجاء دليل على محبة الله وثمرة من ثمرات الخوف وكل محب على الحقيقة فهو راج لله خائف من عذابه، وعلى قدر تمكن المحبة في القلب يشتد الرجاء والخوف.

والرجاء ليس له قيمة ولا تبدو له فائدة ولا تنال منه ثمرة إن لم يكن مصحوبًا بالعمل مقرونًا بالطاعة ممزوجًا بالعطاء، يعمل ويرجو، ومن وقع منه تقصير فليحسن ظنه بالله ويرجو أن يمحو عنه ذنبه، وكذا من وقع منه طاعة يرجو قبولها، والمؤمن كلما كثرت ذنوبه وتعددت هفواته يكون رجاؤه في الله أعظم، وطمعه في مغفرته أكبر، فإن أسواط الذنوب، ولسعات المعاصي تحرك القلب وتؤنب الضمير، وتدعو إلى المناجاة"[1].

من فوائد الرجاء ما ذكره الإمام ابن القيم:

١- إظهار العبودية والفاقة لله عز وجل.

٢-حب الله لعباده الراجين.

٣-الرجاء حاد يحدو بالعبد في سيره إلى الله.

٤-الرجاء يزيد من محبة الله.

٥-الرجاء يبعث على أعلى المقامات وهو مقام الشكر.

٦-الرجاء مستلزم للخوف فكل راج خائف.

٧-الرجاء فيه انتظار وترقب وتوقع لفضل الله[2].

---

(١) الله أهل الثناء والمجد، د. ناصر بن مسفر الزهراني، ص٦٦٣.

(٢) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢/٢٤٠.

عاشرًا- من الأساليب التربوية:

وردت في أحاديث الباب عدة أساليب تربوية ،ويمكن الاستفادة منها في العملية التعليمية ، منها:

أ-أسلوب الإلقاء: ويكون بعرض شفهي للمعلومات من جانب المعلم، وهو واضح في كثير من أحاديث الباب، كحديث "لما خلق الله الخلق كتب في كتاب، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي" وحديث: "إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ، أو يشرب الشربة فيحمده عليها". ويمكن للمعلم أن يستخدم أسلوب الإلقاء في عملية الدراسة مع المراحل التعليمية المختلفة.

ب-التكرار: كما في حديث أنس بن مالك ﵁ أن النبي ﷺ قال لمعاذ وقد كان رديفه: "يا معاذ" ثلاث مرات. ويمكن من خلال استخدام أسلوب التكرار توضيح أهمية الموقف التعليمي للمتعلمين وجذب انتباههم لجانب معين من الدرس.

ج-توجيه الأسئلة كما في قول النبي ﷺ: "أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟" والأسئلة يستخدمها المعلم لتوجيه فكر المتعلمين وفي معرفة ما يعرفه المتعلم من معلومات وقيم، ومعالجة بعض أفكار المتعلمين.

حادي عشر- التربية على الشورى والعمل الجماعي:

وهذا واضح من قبول النبي ﷺ لما أشار به عمر بن الخطاب ﵁ من ترك نحر النواضح نظرًا لما يصيب المسلمين من ضرر إن هم نحروها ، وأن يدعو النبي ﷺ الناس ليأتو بفضل أزوادهم. وقد قبل النبي ﷺ ذلك مع أنه كان قد وافق الناس على نحر نواضحهم، لكن لما رأى النبي ﷺ المصلحة في رأي عمر ﵁ أخذ به، وتصرف الإمام على الرعية منوط بالمصلحة ، فما كان فيه مصلحة لهم عمله وإلا تركه ونحاه جانبًا ، وذلك مقيد بكون هذه المصلحة مصلحة شرعية لا تخالف نصًا شرعيًا أو مقصدًا شرعيًا ، المهم أن في قبول النبي ﷺ لما أشار به عمر ﵁ ، ما تنادى به التربية الحديثة ، وهو الشورى في الرأي والعمل الجماعي، وهو من أبرز المبادئ التي تستند عليها فلسفة الجودة الشاملة التي تطبق حاليًا في العديد من المؤسسات التعليمية

والحفاظ على الوقت والموارد المتاحة وحسن استغلال هذه الموارد وهو ما يعرف في التربية بالكفاءة والحرص على إنجاز المهام المكلف بها.

٥٢ - باب فضل الرجاء

قَالَ اللَّه تَعَالَى إخباراً عن العبدِ الصالِحِ: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۝٤٤ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾[غافر: ٤٤ - ٤٥].

الحديث رقم (٤٤٠)

٤٤٠ - وعن أَبي هريرة ﷺ، عن رسول الله ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: ((**قَالَ الله ﷻ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنا معه حَيْثُ يَذْكُرنِي. وَاللهِ، للهُ أفْرَحُ بِتوبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أحَدِكُمْ يَجِدُ ضَالَّتَهُ بالفَلاَةِ، وَمَنْ تَقرَّبَ إليَّ شِبْراً، تَقَرَّبْتُ إلَيْهِ ذِرَاعاً، وَمَنْ تَقَرَّبَ إلَيَّ ذِرَاعاً، تَقَرَّبْتُ إلَيْهِ بَاعاً، وَإذَا أقْبَلَ إلَيَّ يَمْشِي أقْبَلْتُ إلَيْهِ أُهَرْوِلُ**)) متفقٌ عليه، وهذا لفظ إحدى روايات مسلم[1]. وتقدم شرحه في الباب قبله.

ورُوِيَ في الصحيحين[2]: (**وأنا معه حين يذكرني**) بالنون، وفي هذه الرواية (**حيث**) بالثاء وكلاهما صحيح.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

ضالَّته: الضّالَّةُ: الشيء المفقود[3].

الفلاة: الصحرا[4].

أهرول: المراد صببت عليه الرحمة وسبقته بها ولم أُحوجه إلى المشي الكثير في الوصول إلى المقصود[5].

---

(١) برقم ٢٦٧٥/١، كتاب التوبة، باب ١. أورده المنذري في ترغيبه ٤٦١٦.

(٢) أخرجه البخاري ٧٤٠٥، ومسلم ٢٦٧٥/١ واللفظ له.

(٣) لسان العرب، ابن منظور في (ض ل ل).

(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ف ل و).

(٥) رياض الصالحين ٢٠٥.

الشرح الأدبي

قول الصحابي: (قال) النبي ارتقاء من مستوى الكلام العادي إلى المستوى الكلام النبوي، وهي نقلة كبيرة في المعاني، والأساليب، وقول الرسول ﷺ: (قال الله تعالى) ارتقاء من مستوى الكلام البشري إلى مستوى الكلام الإلهي، وهي نقلة عظمى في المعاني ؛لأن لفظ الحديث القدسي من الرسول، ومعناه من الله، وقوله تعالى (أنا عند ظن عبدي بي) ترغيب في حسن الظن بالله؛ لأنه سيعامله بمقتضى ظنه فيه، وإضافة العبد إليه تشريف للعبد، وقوله (وَأَنا معه حَيْثُ يَذْكُرني) يشير إلى أن الذاكر لله في معيته، وأكرم بها من معية ! - مما يعني أنه في تمام الأمان، لا يقربه شيطان، وقسم الرسول ﷺ تنبيه إلى ما يليه، ولصرف العناية إليه؛ لأنه يصور مدى حفاوة الله بعبده التائب، وترغيبه لغيره للإقبال على من استقبله بكل هذه الحفاوة، وطَلبهم هذا الطلب، وهو فضل يستنفذ العمر في شكره، وما يستطيع أن يؤدي المؤمن شكره، والحديث تفيض ألفاظه بأجمل المعاني من المعية الإلهية، إلى التقريب، إلى المحبة، وهي تحمل معاني تجعل المؤمن يحلق في فضل الله، ومعه، وبه.

فقه الحديث

هذه الأحاديث تشير إلى الأحكام الفقهية التالية:

الحكم التكليفي للظن بالله تعالى:

١ - يجب على المؤمن دائمًا أن يحسن الظن بالله تعالى، ويحرم عليه سوء الظن بالله لحديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأكثر ما يجب أن يكون إحسانًا للظن بالله عند نزول المصائب وعند الموت، لحديث جابر رضي الله عنه.

٢ - يستحب للمريض ومن حضرته أسباب الموت، ومعاناته، تحسين الظن بالله تعالى، يرجو رحمة ربه، ومغفرته، وسعة عفوه، زيادة على حالة الصحة، ترجيحًا للرجاء على الخوف، لأحاديث الباب[1].

---

(١) مواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن المغربي ٢١٨/٢، ٢١٩، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٠٨/٥، وكشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٢٢٧/٤.

وأما في حالة الصحة فقال النووي: (فيه وجهان لأصحابنا حكاهما القاضي حسين وصاحبه المتولي وغيرها.

أحدها: يكون خوفه ورجاؤه سواء.

والثاني: يكون خوفه أرجح.

قال القاضي: الثاني هو الصحيح.

والأظهر: أن الأول أصح ودليله ظواهر القرآن العزيز فإن الغالب فيه ذكر الترغيب والترهيب[١] مقرونين كقوله تعالى: "يوم تيض وجوه وتسود وجوه"، "إن الأرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم"، "فأما من أوتي كتابه بيمينه"، "وأما من أوتي كتابه بشماله" ونائره مشورة وقال: "فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون"، وقال: "لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون".

وعن فقير بن مسكين، قال: قال المزني: دخلت على الشافعي غداة وفاته، فقلت له: كيف أصبحت يا أبا عبدالله، قال: أصبحت من الدنيا راجلاً، ولإخواني مفارقًا، وبكأس المنية شاريًا، ولا أدري إلى الجنة تصير روحي فأهنيها أم إلى النار فأعزيها، وأنشأ يقول:

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي ... جَعَلتُ الرجا مني لعفوك سُلما

تَعَاظَمَنِي ذنبي فلما قرنته ... بعفوك ربي كان عفوك أعظما[٢]

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: إحسان الظن بالله تعالى.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: معية الله عز وجل مع الذاكر.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: المراد بمعية الله تعالى.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: فرح الله سبحانه بتوبة العبد.

خامساً: من موضوعات الدعوة: إثبات صفة الفرح لله عز وجل.

سادساً: من أساليب الدعوة: ضرب المثل.

---

(١) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٠٨/٥.

(٢) مروج الذهب، المسعودي، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد ٤٦/٢.

أولاً - من موضوعات الدعوة: إحسان الظن بالله تعالى:

لقد أخبر النبي ﷺ عن ربه عز وجل أنه يقول: "أنا عند ظن عبدي بي"، وقد ذكر القاضي عياض عدة معانٍ لهذا القول، فقال: "قيل معناه: بالغفران له إذا استغفرني، والقبول إذا أناب إليّ، والإجابة إذا دعاني، والكفاية إذا استكفاني، لأن هذه الصفات لا تظهر من العبد إلا إذا أحسن ظنه بالله وقوي يقينه. قال القابسي: يحتمل أن يكون تحذيراً مما يجري في نفس العبد، مثل قوله: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾[1]. وقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ﴾[2]. وقال الخطابي: "في قوله ﷺ: ((لا يموتن أحدكم إلا وهو حسن الظن بالله)) [3]، يعني: في حسن عمله، فمن حسن عمله حسن ظنه، ومن ساء عمله ساء ظنه، وقد يكون من الرجاء وتأميل العفو"[4][5].

وقد رجح النووي معنى الرجاء وتأميل العفو، فقال: "وهذا أصح"[6].

ويقدم ابن حجر هذا المعنى في تفسيره لهذا القول، ثم يذكر بعده أقوال بعض أهل العلم، فيقول: "أي قادر على أن أعمل به ما ظن أني عامل به"، وقال الكرماني: وفي السياق إشارة إلى ترجيح جانب الرجاء على الخوف"، وكأنه أخذه من جهة التسوية، فإن العاقل إذا سمع ذلك لا يعدل إلى ظن إيقاع الوعيد وهو جانب الخوف، لأنه لا يختاره لنفسه بل يعدل إلى ظن وقوع الوعد وهو الرجاء، وهو كما قال أهل التحقيق مقيد

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٨٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣٥.

(٣) أخرجه مسلم ٢٨٧٧.

(٤) معالم السنن ٢٨٤/٤، وتكملة كلامه: "والله جواد كريم لا واخذنا بسوء أفعالنا ولا وكلنا إلى حسن أعمالنا برحمته".

(٥) إكمال المعلم ١٧٢/٨.

(٦) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٧٠.

بالمختصر، ويؤيد ذلك حديث: "لا يموتن أحدكم إلا وهو حسن الظن بالله" وهو عند مسلم من حديث جابر. وأما قبل ذلك ففي الأول أقوال: ثالثها: الاعتدال. وقال ابن أبي جمرة: المراد بالظن هنا العلم وهو كقوله: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾[1].

وقال القرطبي في المفهم[2]: قيل: معنى ظن عبدي بي: ظن الإجابة عند الدعاء، وظن القبول عند التوبة، وظن المغفرة عند الاستغفار وظن المجازاة عند فعل العبادة بشروطها، تمسكاً بصادق وعده. قال: ويؤيده قوله ﷺ في الحديث الآخر: ((ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة))[3]. قال: ولذلك ينبغي للمرء أن يجتهد في القيام بما عليه موقناً بأن الله يقبله ويغفر له، لأنه وعد بذلك وهو لا يخلف الميعاد، فإن اعتقد أو ظن أن الله لا يقبلها وأنها لا تنفعه فهذا هو اليأس من رحمة الله، وهو من الكبائر، ومن مات على ذلك وتحل إلى ما ظن كما في بعض طرق الحديث المذكور ((فليظن بي عبدي ما شاء))[4]. قال: وأما ظن المغفرة مع الإصرار فذلك محض الجهل والغرة[5]. وهو يجر إلى مذهب المرجئة"[6].

ومما سبق يمكن استخلاص المعاني الآتية لقول رب العزة "أنا عند ظن عبدي بي":

المعنى الأول: قبول العمل بما يناسبه، فالاستغفار يقبل وتقع المغفرة كما أن الدعاء يقبل وتقع الإجابة، وعلى ذلك فقس بقية الأعمال.

المعنى الثاني: حسن الظن بالله عند الموت، وذلك لأن المحتضر قد ترك الدنيا ولم يعد أمامه إلا القدوم على الآخرة، ولم يعد هناك وقت للعمل، فهو يحسن الظن بربه

---

(١) سورة التوبة، آية: ١١٨.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٥/٧-٦.

(٣) أخرجه الترمذي، ٣٤٧٩، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٧٦٠).

(٤) أخرجه أحمد ٤٩١/٣ رقم ١٦٠١٦، وقال محققو المسند: إسناده صحيح ٣٩٨/٢٥.

(٥) جاء في القاموس المحيط، الفيروز آبادي ص:٤٥٠: الغارّ: الغافل. واغترّ: غَفَل والاسم: الغرَّة، بالكسر.

(٦) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ٣٨٥/١٣-٣٨٦.

ويغلب جانب الرجاء في عفوه وكرمه ومنّه، لأنه العفو الكريم المنان، وهو إذ يفعل هذا فإن الله يقابله بحسن ظنه هذا بما يسره ويفرحه.

يوضح هذا الحديث واثلة بن الأسقع على أبي الأسود الجرنثي في مرضه الذي مات فيه، فسلم عليه وجلس، قال: فأخذ أبو الأسود يمين واثلة، فمسح بها على عينيه ووجهه لبيعته بها رسول الله ﷺ فقال له واثلة: واحدة أسألك عنها، قال: وما هي؟ قال: كيف ظنك بربك؟ قال: فقال أبو الأسود، وأشار برأسه، أي حسن. قال واثلة: أبشر! إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((قال الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي ما شاء))[١].

وقد بوب ابن حبان على هذا الحديث، ـ ذكر البيان بأن من أحسن الظن بالمعبود كان له عند ظنه، ومن أساء به الظن كان له عند ذلك[٢].

المعنى الثالث: الرجاء وتأميل العفو، ولا يختص هذا بحال الاحتضار فحسب، وإنما يشمل ما قبلها أيضاً، ويعني ذلك أن العبد يرجو ويأمل من الله عز وجل أن يعفو عنه ويعامله بما هو أهله سبحانه من الكرم والعفو والصفح، ولا يعني هذا أن يفرط الإنسان في الطاعة والعبادة اعتماداً على هذا الأمل وهذا الرجاء، فهذا لا يقول به عاقل، وإنما يكون هذا عند فعل الطاعة وفعل المعصية، فالعبد عند الطاعة يرجو من الله أن يقبلها ويكافئه عليها بمزيد إحسانه وفضله ووجوده، كما أنه عند فعل المعصية فإن يرجو ألا يؤاخذه الله بها بل يعفو ويصفح ويقبل توبته وإنابته. ولاشك أن هذا الرجاء يكون معه الخوف من عقاب الله لأن هذا الخوف يمتعه من الاجتراء على المعاصي والذنوب، فإن وقعت منه فلا يوقعه الخوف إلى اليأس والقنوط من رحمة الله، بل يدفعه الرجاء إلى أن يطمع في رحمة الله وعفوه وصفحه وغفرانه، وهكذا فإن العبد يكون بين الخوف والرجاء مع الإقبال على الطاعة والقيام والاجتهاد فيها.

---

(١) أخرجه أحمد ٤٩١/٢٥٣ رقم ١٦٠١٦، وقال محققو المسند: إسناده صحيح ٣٩٨/٢٥.

(٢) صحيح ابن حبان ٦٤١.

والخلاصة أن معنى قول الله عز وجل: "أنا عند ظن عبدي به" يحتمل هذا المعاني الثلاثة وغيرها، وقد يكون المراد بها جميع هذه المعاني الثلاثة وخاصة أنها متقاربة ومتداخلة والله أعلم.

ثانياً - من موضوعات الدعوة: معية الله عز وجل مع الذاكر:

لقد أخبر النبي ﷺ عن رب العزة أنه يقول عن عبده: "وأنا معه حيث يذكرني" وقال رسول الله ﷺ: "إن الله عز وجل يقول: أنا مع عبدي إذا هو ذكرني، وتحركت بي شفتاه"(١).

قال ابن حجر: (قال ابن بطال: معنى الحديث أنا مع عبدي زمان ذكره لي، أي أنا معه بالحفظ والكلاءة لا أنه معه بذاته حيث حل العبد، ومعنى قوله: "تحركت بي شفتاه" أي تحركت باسمي لا أن شفتيه ولسانه تتحرك بذاته تعالى، لاستحالة ذلك انتهى ملخصاً. وقال الكرماني: المعية هنا معية الرحمة، وأما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾(٢).

فهي معية العلم يعني فهذه أخص من المعية التي في الآية)(٣).

وقال النووي: (قوله تعالى: "وأنا معه حين يذكرني" أي معه بالرحمة والتوفيق والهداية والرعاية، وأما قوله تعالى: "وهو معكم أينما كنتم"، فمعناه بالعلم والإحاطة)(٤).

ويتكلم القرطبي عن أصل الذكر وعن المقصود بمعية الله مع الذكر، فيقول: "أصل الذكر: التنبيه بالقلب للمذكور، والتيقظ له، ومنه قوله: ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾(٥). أي تذكروها، وقوله ﷺ: ((من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها

---

(١) أخرجه أحمد ٥٤٠/٢ رقم ١٠٩٦٨، وقال محققو المسند: حديث صحيح ٥٦٨/١٦.

(٢) سورة الحديد، آية: ٤.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ٥٠٠/١٣.

(٤) شرح مسلم، ٣/١٧/٩، وانظر: إكمال المعلم، القاضي عياض ١٧٢/٨.

(٥) سورة البقرة، آية: ٤٠.

إذا ذكرها))[1]. أي: إذا تذكرها بقلبه، وهو في القرآن كثير، وسمى القول باللسان ذكراً، لأنه دلالة على الذكر القلبي، غير أنه قد كثر اسم الذكر على القول اللساني حتى صار هو السابق للفهم، وأصل مع الحضور والمشاهدة، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾[2]. وكما قال: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾[3]. أي مطلع عليكم ومحيط بكم، وقد ينجر مع ذلك الحفظ والنصر، كما قيل في قوله تعالى: "إنني معكما أسمع وأرى" أي: أحفظكما ممن يريد كيدكما.

وإذا تقرر هذا فيمكن أن يكون معنى: "وأنا معه إذا ذكرني" أن من ذكر الله في نفسه مفرغة مما سواه رفع الله عن قلبه الغفلات والموانع وصار كأنه يرى الله ويشاهده. وهي الحالة العليا التي هي: أن تذكر الله كأنك تراه، فإن لم تصل إلى هذه الحالة فلا أقل من أن يذكره، وهو عالم بأن الله يسمعه ويراه، ومن كان هكذا كان الله له أنيساً إذا ناجاه، ومجيباً إذا دعاه، وحافظاً له من كل ما يتوقعه ويخشاه، ورفيقاً به يوم يتوفاه، ومحلاً له من الفردوس أعلاه"[4].

كما يذكر ابن حجر أنواع الذكر التي تقع من العبد، ذلك عن ابن أبي جمرة، فيقول: قال ابن أبي جمرة: "معناه: فأنا معه حسب ما قصد من ذكره لي، قال: ثم يحتمل أن يكون الذكر باللسان فقط أو بالقلب فقط أو بهما، أو بامتثال الأمر واجتناب النهي، قال: والذي يدل عليه الأخبار أن الذكر على نوعين: أحدهما مقطوع لصاحبه بما تضمنه هذا الخبر، والثاني على خطر، قال: والأول يستفاد من قوله تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴾[5]. والثاني من الحديث الذي فيه: "من لم تنه صلاته

---

(١) أخرجه مسلم ٦٨٠.

(٢) سورة طه، آية: ٤٦.

(٣) سورة الحديد، آية: ٤.

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين، ٦/٧-٧.

(٥) سورة الزلزلة، الآية: ٧.

عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً"[١]. لكن إن كان في حال المعصية بذكر الله بخوف ووجل مما هو فيه، فإنه يرجى له"[٢].

ثالثاً – من موضوعات الدعوة: المراد بمعية الله تعالى:

أخبر الله أنه عز وجل مع عبده حيث يذكره كما في الحديث، والمعية نوعان تختلف باختلاف الخلق فهي تكون بمعنى مع جميع الخلق على حين تكون بمعنى آخر مع المؤمنين إكراماً لهم وبيان لفضلهم، قال الشيخ عبدالله البسام: "معية الله تعالى مع خلقه نوعان: عامة وخاصة: فأما المعية العامة فهي التي بمعنى الإحاطة والاطلاع والمراقبة والعلم، وهذه هي المعية التي مع جميع خلقه. وأما المعية الخاصة فهي التي بمعنى النصر والحفظ والإعانة، وهذه معية خاصة بعباده المؤمنين. ومذهب أهل السنة والجماعة أن معية الله تعالى لا تقتضي أن يكون الله تعالى حالاً في أمكنة من هو معهم، ولا أنه مختلط بهم، فهذا معنى باطل يذهب إليه الحلولية.

فأهل السنة يرون أنه تعالى عالٍ على عرشه بائن من خلقه. له العلو الكامل علو الذات وعلو الصفة وعلو القدر، ولا تكاد تحصر أدلة هذه المسألة"[٣].

وهذه المعية بنوعيها تنعكس على العبد المؤمن في سلوكه، فهو من ناحية يراقب الله في تصرفاته "أي تصرفات العبد، فلا يفعل ما يكرهه وما يغضبه لأنه سبحانه مطلع عليه عالم به محيط بما يقع من ذلك العبد، من ناحية أخرى، فإن العبد يشعر بالأمن والطمأنينة والسكينة في حياته لأن الله عز وجل معه يعينه ويحفظه وينصره ويحميه، ويمده ذلك بقوة هائلة تساعده على مواجهة الشدائد والأزمات بقلب شجاع وعزيمة لا تلين، لأن من كان الله معه كفاه.

وانظر إلى موقف موسى عليه السلام وموقف بني إسرائيل، وقد رأوا فرعون وجيشه على وشك

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير ١١٠٢٥/١١، وحكم عليه الألباني بالبطلان في السلسلة الضعيفة، الحديث رقم ٢.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٨٦/١٣.

(٣) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٤٠١/٦.

اللحاق بهم وإدراكهم. فقال بنوا إسرائيل في موقف يملؤه الهلع والفزع والرعب "كما يحكي الله عنهم "إنا لمدركون" على حين قال موسى عليه السلام قوله من هو واثق بمعية الله ونعت تمام الثقة: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾، فكانت النتيجة: ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ۝ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1].

رابعاً - من موضوعات الدعوة: فرح الله سبحانه بتوبة العبد:

لقد أخبر النبي ﷺ أن الله سبحانه وتعالى يفرح بتوبة عبده وإنابته إليه، فقال مستخدماً أسلوب القسم لتأكيد هذا الفرح: "والله لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة"، ولاشك أن هذا دفع للعصاة للمسارعة إلى التوبة والإقلاع عن المعاصي والإقبال على رب العالمين والاجتهاد في طاعته والإذعان له عز وجل، وفي هذا يقول ابن هبيرة: (إنه من أعظم ما حضّ وحث وبعث الأبقين على حسن العود وتلافي الفارط، والفزع إلى التوبة، فإن الذي ذكره رسول الله ﷺ من موقع التوبة عنده سبحانه وتعالى دليل كرمه، وآية جوده، وأنّه يسره سبحانه وتعالى أوبة عبده حتى يبلغ ذلك السرور مقداراً لا يمكن أن تنتهي المعرفة إليه إلا بأن يضرب مثل هذا المثال في المخلوق ليعرف به قدر ذلك، فعلى هذا ينبغي أن لا يزال العبد تائباً إلى الله تعالى راجعاً إليه مقلعاً عن كل ما لا يصلح في معاملته إلى ما يصلح من مقتضى أمره وكريم وصاياه، فإنه تتوالى عنده المسار بتتابع توباته وموالاة إنابته.

وهذا في حق من يتوب مقبلاً بعد إعراض فكيف إذن مَنْ يتوالى إقباله ويتتابع إحسانه؟)[2].

ثم يقول في موضع آخر: (وهذا قد تقدم ما ذكرنا فيه من أنه إذا نظر منه صيغة الحديث فإنه لا يمكن أن يحمل إلا على ما ذكره رسول الله ﷺ من التمثيل إلا أنه مقام عظيم، وكل من فاء إلى طاعة الله سبحانه بعد مروق منها - فإنه يأتي ذلك من

---

(١) سورة الشعراء، الآيات: ٦٢-٦٧.

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ، ٤٣/٢.

فرح ربه سبحانه بعوده إلى طاعته إلى المبلغ الذي يمثل الإنسان نفسه له لو لم يكن له في الوجود عبد غيره، كما أن المضل راحلته لم يكن له في مقامه في حالته تلك سوى راحلته تلك قد أشعر ظن إبليس بتصديقه له، فكان ذلك في مقام فلح إبليس حيث قال: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾[1]. فصار هذا الآبق شمتاً لإبليس بآدم الذي خلقه الله سبحانه بيده واسجد له ملائكته، ونفخ فيه من روحه، فكان حال كل مؤمن في وقد إباق من يأنف من ذريته آدم عن طاعة ربه بمرى من العدو[2] الذي قد أخبر الله عز وجل فإن النظرة له إلى يوم القيامة سبقت فيعود حالهم في مثل الفرية والمصيبة للمؤمنين كلهم، فإذا رجع كان في المعنى: تلك الضالة التي يفرح المؤمنين كلهم بعودها إليهم ووجدانهم لها، فلذلك الذي يفرح الله عز وجل به)[3].

والخلاصة أن الله عز وجل يفرح بتوبة عبده، وفي هذا حض وحث على أن ينوب العبد ويسارع إلى الإنابة إلى ربه لذا بّوب النووي على هذا الحديث باب في الحض على التوبة والفرح بها[4].

خامساً - من موضوعات الدعوة: إثبات صفة الفرح لله عز وجل:

وهذا من الحديث "والله لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة" قال سليم الهلالي: (في هذا الحديث إثبات صفة الفرح لله عز وجل، وأنها صفة تليق بجلاله وكماله، ولا يلزم من إثباتها أن تكون كفرح المخلوقين الذي فيه اهتزاز وطرب وتغير يجده الشخص في نفسه عند ظفره بغرض يستكمل به نقصانه ويسد به ضعفه، ... وعليه، فإن لله عز وجل فرحاً يليق بجلاله كما أن للمخلوق فرحاً يليق بعجزه وافتقاره، ونحن نؤمن بصفات الله عز وجل الواردة في كتابه وسنة رسوله ﷺ الصحيحة ولا

---

(١) من الآية ٦٢ من سورة الإسراء، والآية كاملة: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

(٢) هكذا في المطبوع من الإفصاح ولم نهتد لصوابه، ولعله يكون بمرأى من العدو، والله أعلم.

(٣) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ١٩٨/٥-١٩٩.

(٤) شرح مسلم، ٥٠/١٧/٩، ١-٢٦٧٥. كتاب التوبة.

نتعدى القرآن والحديث، ولا نضرب لهما الأمثال، بل نثبت ما أثبته الله تعالى لنفسه وما أثبته له رسوله ﷺ، وننفي عنه ما نفى عن نفسه وما نفاه عن رسوله، ونسكت عما سكت الله ورسوله عنه، فالله أعلى وأعلم وأعز وأحكم، والتسليم أسلم)[١].

وقال الدكتور عمر سليمان الأشقر تحت عنوان: المنهج الذي تفهم أسماء الله وصفاته في ضوئه: ذكر محمد الأمين الشنقيطي أن القرآن العظيم دلّ على أن مبحث الصفات يرتكز على ثلاث أسس من جاء بها كلها فقد وافق الصواب، وكان على الاعتقاد الذي كان عليه النبي ﷺ وأصحابه والسلف الصالح، ومن أخل بواحد من تلك الأسس الثلاثة فقد ضلّ وذكر أن كل هذه الأسس الثلاثة يدل عليها القرآن العظيم:

الأساس الأول: تنزيهه جل وعلا عن أن يشبه شيء من صفاته شيئاً من صفات المخلوقين، وهذا الأصل يدل عليه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[٢]. ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[٣]. ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾[٤].

الأساس الثاني: هو الإيمان بما وصف الله به نفسه، لأنه لا يصف الله أعلم بالله من الله: ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾[٥]. والإيمان بما وصفه به رسوله ﷺ لأنه لا أعلم بالله بعد الله من رسول الله ﷺ الذي قال في حقه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[٦].

---

(١) صحيح رياض الصالحين وبذيله حواش نفيسة وتعليقات منيفة للألباني، هذبه وحققه وضبطه سليم بن عيد بن محمد الهلالي السلفي ص ٢٩.

(٢) سورة الشورى، آية: ١١.

(٣) سورة الإخلاص، آية: ٤.

(٤) سورة النحل، آية: ٧٤.

(٥) سورة البقرة، آية: ١٤٠.

(٦) سورة النجم، الآيتان: ٣، ٤.

الأساس الثالث: قطع الأطماع عن إدراك حقيقة الكيفية، لأن إدراك حقيقة الكيفية مستحيل، وهذا نص الله عليه في سورة طه حيث قال: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾[1]. والمعنى: لا إحاطة للعلم البشري برب السموات والأرض، فينفي جنس أنواع الإحاطة عن كيفيتها. فالإحاطة المسندة للعلم منفية عن رب العالمين.

وهذا الذي ذكره الشيخ العلامة من استحالة معرفة كيفية الله أو صفاته منطق سليم، لأن العقل الإنساني مهما بلغ من الذكاء وقوة الإدراك قاصر غاية القصور عاجز نهاية العجز عن معرفة حقائق الأشياء.

إن الإنسان عاجز عن معرفة حقيقة الروح التي تتردد بين جنبيه، فكيف يطمح إلى معرفة حقيقة الذات والصفات الإلهية[2].

سادساً - من أساليب الدعوة: ضرب المثل:

وهذا واضح في قوله ﷺ: "والله لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة"، فلاشك أن صاحب الضالة عندما يجدها وقد ضاعت منه في الصحراء، يكون فرحه فرحاً شديداً جداً، فلا أبلغ منه ولا أشد، فسبق هذا المثل لبيان المعنى، وقد جاء في هذا المعنى حديث عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه رواه عن النبي ﷺ وحديث آخر قاله هو، ومن الملاحظ استخدام المثل لتوضيح المعنى، فعن الحارث بن سويد قال: حدثنا عبدالله بن مسعود حديثين: أحدهما عن النبي ﷺ والآخر عن نفسه، قال: إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مرّ على أنفه فقال به هكذا - بيده فوق أنفه، ثم قال: لله أفرح بتوبة العبد من رجل نزل منزلاً ربه مهلكه ومعه راحلته عليها طعامه عليه الحرّ والعطش أو ما شاء الله. قال: أرجع إلى مكاني فرجع فنام نومة ثم رفع رأسه فإذا راحلته عنده"[3].

---

(١) سورة طه، آية: ١١٠.

(٢) العقيدة مع الله ١٩٧-١٩٩ بتصرف.

(٣) أخرجه البخاري ٦٣٠٨، ومسلم ٦٣٠٨.

قال ابن حجر: "قال ابن أبي جمرة: الحكمة في التمثيل بالجبل أن غيره من المهلكات قد يحصل التسبب إلى النجاة منه، بخلاف الجبل إذا سقط على الشخص لا ينجو منه عادة، وحاصله أن المؤمن يغلب عليه الخوف لقوة ما عنده من الإيمان فلا يأمن من العقوبة بسببها، وهذا شأن المسلم أنه دائم الخوف والمراقبة يستصغر عمله الصالح ويخشى من صغير عمله السيئ...، والحكمة في تشبيه ذنوب الفاجر بالذباب كون الذباب أخف الطير وأحقره وهو مما يعاين ويدفع بأقل الأشياء. قال: وفي ذكر الأنف مبالغة في اعتقاده خفة الذنب عنده، لأن الذباب قلما ينزل على الأنف وإنما يقصد غالباً العين. قال: وفي الحديث ضرب المثل بما يمكن[1]... ثم قال: "قال ابن أبي جمرة: وفي حديث ابن مسعود ومن الفوائد ... ضرب المثل بما يصل إلى الأفهام من الأمور المحسوسة"[2].

والداعية يستخدم ضرب المثل ليوضح المعنى ويزيده وضوحه، وذلك لأن المثل المضروب واضح جليّ تمام الوضوح عند المخاطبين، ومن ثم يؤدي هذا إلى شدة إيضاح المعنى المراد إيضاحه، لذا كلما كان المثل المضروب قريباً من أفهام المخاطبين أو منتزعاً من بيئتهم التي يعيشون فيها، كان أنجح في إيصال المعنى وإيضاحهن والملاحظ أيضاً أن المثل المضروب مثل مادي محسوس في الأغلب الأعم، ويراد به إيضاح معنى معنوي في الأغلب الأعم كذلك، لذا كان ضرب المثل من الأساليب الدعوية التي يجدر بالداعية استخدامها لإيصال رسالته الدعوية إلى المدعوين.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١/١٠٥.

(٢) المرجع السابق ١١/١٠٨.

الحديث رقم (٤٤١)

٤٤١ - وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أنه سمع رسول الله ﷺ قبلَ مَوْتِه بثلاثةِ أيّام، يقولُ: ((**لاَ يَمُوتَنّ أحَدُكُمْ إلاَّ وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بالله** عَزَّ وَجَلَّ)) رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

جابر بن عبدالله الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

أكد الصحابي ما يروي عن الرسول ﷺ بعدة مؤكدات استشعاراً لمقام التحديث عن رسول الله ﷺ، واستشعار لعظم ما يخبر به؛ لأنه ينقله للأمة، وقوله سمع فيه مزيد توكيد للخبر، وذكره الظرف (قبل) وإضافته إلى (موته) فيه لفت إلى العناية بالمقول؛لأنه صار كوصية المودع، وقول الرسول ﷺ (لاَ يَمُوتَنّ أحَدُكُمْ إلاَّ وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بالله - عز وجل) نهي خرج عن حقيقته؛ لأن الموت مما لا يستطيع الإنسان دفعه حتى ينهى عنه، ولكن القصد به الأمر بالمداومة على حسن الظن بالله حتى يدركه الموت على هذه الحالة، فيجازيه الله بحسن ظنه.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: التحذير من اليأس والقنوط.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: أهمية إحسان الظن بالله ورجاء رحمته.

ثالثاً: من مهام الداعية: توجيه المدعوين إلى ما ينفعهم.

رابعاً: من أساليب الدعوة: النهي والتوكيد.

أولاً - من موضوعات الدعوة: التحذير من اليأس والقنوط:

(اليأس والقنوط استصغار لسعة رحمة الله عز وجل ومغفرته، وذلك ذنب عظيم وتضييق لفضاء جوده)[٢]، لذا حذّر منه النبي ﷺ فقال: "لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل" قال القاضي عياض: (في الحديث تحذير من القنوط المهلك

---

(١) برقم ٢٨٧٨/٨٣. أورده المنذري في ترغيبه ٤٩٥٨.

(٢) شجرة المعارف والأحوال، العز بن عبدالسلام ١١٩.

وحضٌ على الرجاء عند الخاتمة لئلا يغلب عليه الخوف حينئذ فيخشى غلبة اليأس والقنوط فيهلك. وعبادة الله إنما هي من أصلين الخوف والرجاء، فيستحب غلبة الخوف ما دام الإنسان في خيرية العمل، فإذا دنى الأجل وذهب المهل وانقطع العمل استحب حينئذ غلبة الرجاء ليقى الله تعالى على حالة هي أحب الأحوال إليه جل اسمه إذ هو الرحمن الرحيم ويحب الرجاء، وأثنى على نبيه ﷺ بذلك.

ويؤيد ما قلناه قوله ﷺ في الحديث: ((يبعث كل أحد على ما مات عليه))[١] فهذا جامع لهذا ولغيره وأن العبد يبعث على الحالة التي مات عليها)[٢]، وقال النووي: (قال العلماء: هذا تحذير من القنوط وحث على الرجاء عند الخاتمة)[٣]. وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[٤].

قال ابن كثير: (هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن الله يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت، وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر) ثم ساق عدة أحاديث في المعنى نفسه ثم قال: (فهذه الأحاديث كلها دالة على أن المراد: أنه يغفر جميع ذلك من التوبة، ولا يقنطن عبدٌ من رحمة الله وإن عظمت ذنوبه وكثرت، فإن باب التوبة والرحمة واسع)[٥].

وقد قال الله تعالى حاكياً عن يعقوب عليه السلام: ﴿يَـٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[٦].

---

(١) أخرجه مسلم ٢٨٧٨.

(٢) إكمال المعلم ٤٠٩/٨، ٤١٠.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٧٠.

(٤) سورة الزمر، آية: ٥٣.

(٥) تفسير ابن كثير ١٠٦/٧-١٠٧.

(٦) سورة يوسف، آية: ٨٧.

قال القرطبي: (أي لا تقنطوا من فرج الله قاله ابن زيد، يريد أن المؤمن يرجو فرج الله والكافر يقنط في الشدة. وقال قتادة والضحاك: من رحمه الله ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ دليلٌ على أن القنوط من الكبائر وهو اليأس)[١].

جاء في الموسوعة الفقهية: (لا يجوز للمؤمن اليأس من روح الله ورحمته. ومن أمثلة الإياس من رحمة الله الإياس من الرزق أو نحوه كالولد، أو وجود المفقود، أو يأس المريض من العافية، أو يأس المذنب من المغفرة. والإياس من رحمة الله تعالى منهي عنه. وقد عده العلماء من الكبائر. قال ابن حجر المكي: عد ذلك كبيرة هو ما أطبقوا عليه، لما ورد فيه من الوعيد الشديد. كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾[٣].

وبكونه أكبر الكبائر صرح ابن مسعود كما رواه عبدالرزاق والطبراني. ثم قال ابن حجر: وإنما كان اليأس من رحمة الله من الكبائر لأنه يستلزم تكذيب النصوص القطعية. ثم هذا اليأس قد ينضم إليه حالة هي أشد منه، وهي التصميم على عدم وقوع الرحمة له، وهذا هو القنوط، بحسب ما دل عليه سياق الآية: ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾[٤] وتارة ينضم إليه مع اعتقاده عدم وقوع الرحمة له يرى أنه سيشدد عذابه كالكفار. وهذا هو المراد بسوء الظن بالله تعالى[٥].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٤٣٧/١١. وانظر تلك الأقوال في: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٣١٤/١٣-٣١٥.

(٢) سورة يوسف، آية: ٨٧.

(٣) سورة الحجر، آية: ٥٦.

(٤) سورة فصلت، آية: ٤٩.

(٥) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٠٠/٧-٢٠١، ومراجعها ومصادرها.

ثانياً - من موضوعات الدعوة: أهمية إحسان الظن بالله ورجاء رحمته:

إن كان الإيمان يدفع المؤمن إلى الخوف من الله، فإنه أيضاً يدفعه إلى إحسان الظن بالله ورجاء رحمته، وتغليب ذلك عند موته، وهذا واضح جلي في الحديث، قال النووي: (قال العلماء: هذا تحذير من القنوط وحث على الرجاء عند الخاتمة... قال العلماء: معنى حسن الظن أن يظن أنه يرحمه ويعفو عنه... فإذا دنت أمارات الموت غلب الرجاء أو محّضه لأن مقصود الخوف الانكفاف عن المعاصي والقبائح والحرص على الإكثار من الطاعات والأعمال. وقد تعذر ذلك أو معظمه في هذا الحال فاستحب إحسان الظن المتضمن للافتقار إلى الله تعالى والإذعان له، ويؤيده الحديث المذكور بعده: ((يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَىٰ مَا مَاتَ عَلَيْهِ))[1] ولهذا عقّبه مسلم للحديث الأول قال العلماء: معناه يبعث على الحالة التي مات عليها)[2].

وعن حيان أبي النضر قال: ((دَخَلْتُ مَعَ وَاثِلَةَ بْنِ الأَسْقَعِ عَلَى أَبِي الأَسْوَدِ الْجُرَشِيِّ، فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَجَلَسَ، قَالَ: فَأَخَذَ أَبُو الأَسْوَدِ يَمِينَ وَاثِلَةَ، فَمَسَحَ بِهَا عَلَى عَيْنَيْهِ وَوَجْهِهِ، لِبَيْعَتِهِ بِهَا رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ وَاثِلَةُ: وَاحِدَةٌ أَسْأَلُكَ عَنْهَا، قَالَ: وَمَا هِيَ؟ قَالَ: كَيْفَ ظَنُّكَ بِرَبِّكَ؟ قَالَ: فَقَالَ أَبُو الأَسْوَدِ: وَأَشَارَ بِرَأْسِهِ، أَيْ حَسَنٌ، قَالَ: وَاثِلَةُ أَبْشِرْ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: "قَالَ اللهُ، عَزَّ وَجَلَّ، أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، فَلْيَظُنَّ بِي مَا شَاءَ"))[3].

وقال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: ((والذي لا إله غيره ما أعطى عبد مؤمن شيئاً خيراً من حسن الظن بالله عز وجل، والذي لا إله غيره لا يحسن عبد بالله عز وجل الظن إلا أعطاه الله عز وجل ظنه، ذلك بأن الخير في يده))[4].

---

(١) أخرجه مسلم ٨٣-٢٨٧٨.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٧٠.

(٣) أخرجه أحمد ٤٩١/٣ رقم ١٦٠١٦ وقال محققو المسند: إسناده صحيح ٣٩٨/٢٥.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في حسن الظن ٩٦، نقلاً عن موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن محمد بن ملوح ١٦٠٧/٥.

قال د. عائض القرني: (ذكر ابن الوزير في كتاب "العواصم والقواصم" "أن الرجاء في رحمة الله عز وجل يفتح الأمل للعبد، ويقوِّيه على الطاعة، ويجعله نشيطاً في النوافل سابقاً إلى الخيرات" قُلت: وهذا صحيح، فإن بعض النفوس لا يصلحها إلا تذكر رحمة الله وعفوه وتوبته وحلمه، فتدنو منه وتجتهد وتثابر)[(١)].

ثالثاً - من مهام الداعية: توجيه المدعوين إلى ما ينفعهم:

إن الداعية مهمته الأولى توجيه المدعوين إلى ما ينفعهم وإرشادهم إلى ما يفيدهم في الدنيا والآخرة، وهذا واضح من الحديث حيث أرشد النبي ﷺ المدعوين إلى أن يُحْسنوا الظن بالله لما في ذلك من نفعهم، فالله سبحانه يقول كما أخبر النبي ﷺ ((أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي))[(٢)].

لذا جاءت الأقوال عن الصحابة رضي الله عنهم في أن الداعية عليه أن يرشد الناس دون أن يقنطهم لأنه (يقال شرّ الناس الذين يقنطون الناس من رحمة الله أي يُؤَيِّسُونهم)[(٣)].

فقد مرّ عبدالله بن مسعود رضي الله عنه على قاصٍّ يذكر النار فقال: ((يا مذكر النار لا تقنّط الناس. ثم قرأ ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ ﴾[(٤)]))[(٥)].

وقالت عائشة رضي الله عنها لعبيد بن عمير: ((ألم أُحدَّث أنك تجلس ويُجلس إليك؟ قال: بلى يا أم المؤمنين، قالت: فإياك وإهلاك الناس وتقنيطهم))[(٦)].

---

(١) لا تحزن، عائض القرني ١٣٩.

(٢) أخرجه البخاري ٧٤٠٥، ومسلم ٢٦٧٥.

(٣) لسان العرب، ابن منظور ٢٦٢/٩/٥.

(٤) سورة الزمر، آية: ٥٣.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة ١٨٥/١٣، والطبري ٢٢٨/٢٠، والطبراني في الكبير ٨٦٣٥، والبيهقي في شعب الإيمان ١٠٥٣، وانظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١٠٨/٧، والدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٦٧٦/١٢.

(٦) أخرجه عبدالرزاق في المصنف ٢٠٥٦٠، وانظر: الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٦٨٠/١٢.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : ((إنَّ الفقيهَ كل الفقيهِ مَنْ لَمْ يُقَنِّطِ الناسَ من رحمةِ اللَّهِ، وَلَمْ يُرَخِّصْ لَهُمْ في معاصي اللَّهِ، ولم يُؤَمِّنْهُمْ من عذابِ اللَّهِ، ولم يَدَعِ القرآنَ رغبةً عنْهُ إلى غَيْرِهِ، إنَّهُ لاَ خيرَ في عبادةٍ لا علمَ فيها، ولا علمَ لا فَهْمَ فيهِ، ولا قراءَةَ لا تدَبُّرَ فيها))[1]. لذلك فإن الداعية الحق هو من جمع بين ترغيب المدعوين في رحمة الله وتخويفهم من عذاب الله وعقابه، فيدلهم على الأعمال والأخلاق التي تقربهم من رحمة الله وعفوه، كما يحذرهم مما يؤدي إلى سخط الله تعالى وغضبه، فيكون المدعو بَيْن باعثين: باعث الطمع في رحمة الله التي تمنعه من القنوط واليأس إن هو وقع في الذنوب والسيئات، كما يزيد انبعاثه إلى فعل الطاعات والتزود منها والمسارعة إليها، والباعث الآخر الخوف من غضبه سبحانه يمنعه من الوقوع في السيئات كلما تمكن من ذلك، فإن هو وقع فيها منعه من الاستمرار والإصرار عليها، كما أن هذا الباعث يجعل المدعو على وجل ألا يكون الله قد قبل عمله، ومن ثم يستمر على الجادة وتحسين الطاعات.

قال ابن القيّم: (القرآن كلام الله، وقد تجلّى الله فيه لعباده بصفاته، فتارة يتجلى في جلباب الهيبة والعظمة والجلال. فتخضع الأعناق وتنكسر النفوس وتخشع الأصوات، ويذوب الكبر كما يذوب الملح في الماء... وإذا تجلّى بصفات الرحمة والبر واللطف والإحسان انبعثت قوة الرجاء من العبد وانبسط أمله وقوى طمعه وسار إلى ربّه وحادي الرجاء يحدو ركاب سيره. وكلما قوى الرجاء جدّ في العمل. كما أن الباذر كلما قوى طمعُه في المغل[2] غلق أرضه بالبذر، وإذا ضعف رجاؤه قصر في البذر. وإذا تجلى بصفات العدل والانتقام والغضب والسخط والعقوبة، انقمعت النفس الأمارة وبطلت أو ضعفت

(١) أخرجه ابن الضرِّيس في فضائل القرآن ٦٩، وانظر الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٦٧٩/١٢.

(٢) يقال أغلّت الضيعة أعطت الغلة فهي مغلة إذا أتت بشيء. والغلة كل شيء يحصل من ريع الأرض أو أجرتها. انظر: لسان العرب، ابن منظور ، والمصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الرافعي أحمد بن محمد الفيومي في (غ ل ل).

قواها من الشهوة والغضب واللهو واللعب والحرص على المحرمات وانقضت أعنّة رعوناتها فأحضرت المطية حظها من الخوف والخشية والحذر)[١].

رابعاً - من أساليب الدعوة: النهي والتوكيد:

أمّا النهي فقوله ﷺ: "لا يموتن" كما أنه أكد ﷺ هذا النهي بنون التوكيد في آخر الفعل، وهذا مما يؤكد حاجة العبد إلى إحسان الظن بالله، ولعل ما يزيد هذه الأهمية أن قال النبي ﷺ هذا الحديث قبل موته بثلاثة أيام.

إن توكيد الألفاظ من أهم الوسائل الدعوية في تثبيت المعاني في القلوب وبثها في النفوس وحملها على التصديق والإيمان به، ولا شك في أن التوكيد والتكرار لهما أثر كبير في النفوس، وهذا شيء هديت إليه فطرة الإنسان[٢].

---

(١) الفوائد ١٠٥-١٠٦.

(٢) انظر: أسلوب الدعوة القرآنية بلاغة ومنهجًا، د. عبدالغني محمد سعيد بركة، ص ٣٤.

الحديث رقم (٤٤٢)

٤٤٢ - وعن أنس رضي الله عنه، قَالَ: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: ((**قَالَ الله تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ، إنَّكَ ما دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ وَلاَ أُبَالِي. يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ بَلَغت ذُنُوبُكَ عَنَانَ السماءِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلاَ أُبَالِي. يَا ابْنَ آدَمَ، إنَّكَ لَوْ أتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايا، ثُمَّ لَقَيْتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئاً، لأَتَيْتُكَ بقُرَابِها مَغْفِرَةً**)) رواه الترمذيُّ[1]، وقال: (حديث حسن).

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

عنان السماء: هو ما عنَّ منها، أي: ظهر إذا رفعت رأسك، وقيل: هو السحاب والواحدة: عَنَانَة[2].

بقُراب الأرض: بضم القاف، وقيل: بكسره، والضم أصح وأشهر، وهو: ما يقارب ملأها[3].

الحديث يفيض بالمحبة، والعجيب أنها من ملك لعبيد ويفيض بالرحمة، والعجيب أنها شملت المجرمين، وهو ما دلَّ عليه البناء التركيبي للحديث، ونداء الله تبارك وتعالى (يا ابن آدم) نداء تودد، ومحبة على ما فيه من تنبيه لما يليه، والنداء بابن آدم شمول للبشر ذكوراً، وإناثاً في كل زمان، ومكان، وقوله (عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ) كناية عن موصوف، وهو ما فعل من خطايا، والذنوب التي ارتكبها في سالف حياته، وقوله (ولا أبالي) تتميم بلاغي أفاد تأكيد مغفرة الله لذنوب العبد دون اعتبار لكثرتها

---

(١) برقم ٣٥٤٠ وقال: هذا حديثٌ حسن غريبٌ. أورده المنذري في ترغيبه ٢٤٠٤.

(٢) رياض الصالحين ٢١٧، والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ع ن ن).

(٣) المرجع السابق ٢١٧.

فضلاً من الله يقرر سعة مغفرته، وتكرار النداء بنفس الصيغة ثلاث مرات في الحديث (يَا ابْنَ آدَمَ) إلحاح على العبد بطلب ما فيه نجاته بعد أن ضمن له استجابة دعائه، ومغفرة ذنبه، وهو نداء تودد، ورأفة، وقوله (لَوْ بَلَغت ذُنُوبُك عَنَانَ السماءِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ) والعنان السحاب، وإضافتها إلى السماء تصوير لارتفاعه، وأنه بلغ مبلغ السماء، أو إضافته من باب تأكيد الارتفاع، وتكرار قوله (ولا أبالي) يفتح الباب لنوعية من الناس أذنبت فأكثرت، وطغت، وبغت، لكي يتوبوا إلى الله، وفي هذا رحمة من الله لهم بمغفرة ذنوبهم، وتنقية للمجتمع من أمثالهم؛ لأنه صيَّرهم صالحين، ورحم الناس من إيذائهم، فهو رحمة للناس جميعاً من شقاء الدنيا، ورحمة من شقاء الآخرة.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: من أسباب غفران الذنوب.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: بيان فضل الله ورحمته بعباده.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: فضل التوحيد وقبح الشرك بالله.

رابعاً: من واجبات المؤمن: التضرع إلى الله والاستغفار ولزوم التوحيد.

خامساً: من أساليب الدعوة: النداء والتكرار والتبشير.

أولاً - من موضوعات الدعوة: من أسباب غفران الذنوب:

من كرم الله تعالى على عباده أن جعل أسباباً لغفران الذنوب ومحو السيئات، وقد أخبر النبي ﷺ أن من أسباب غفران ذنوب العبد: الدعاء والرجاء والاستغفار والتوحيد وعدم الإشراك بالله.

قال ابن رجب الحنبلي: (قد تضمن حديث أنس أن هذه الأسباب الثلاثة يحصل بها المغفرة:

أحدها: الدعاء مع الرجاء، فإن الدعاء مأمور به وموعود عليه بالإجابة كما قال

تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[١].

وفي السنن الأربعة عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: ((إِنَّ الدُّعَاءَ هُوَ الْعِبَادَةُ))، ثم تلا هذه الآية[٢]، لكن الدعاء سبب مقتض للإجابة مع استكمال شرائطه وانتفاء موانعه وقد تتخلف إجابته لانتفاء بعض شروطه أو وجود بعض موانعه...، ومن أعظم شرائطه حضور القلب ورجاء الإجابة من الله تعالى، كما خرجه الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((أُدْعُو اللَّهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لاَهٍ))[٣]، ولهذا نهي العبد أن يقول في دعائه: اللهم اغفر لي إن شئت ولكن ليعزم المسألة، فإن الله لا مكره له)[٤].

ونهي أن يستعجل ويترك الدعاء لاستبطاء الإجابة[٥]، وجعل ذلك من موانع الإجابة حتى لا يقطع العبد رجاءه من إجابة دعائه ولو طالت المدة، فإنه سبحانه يحب الملحين في الدعاء... فما دام العبد يلح في الدعاء ويطمع في الإجابة من غير قطع الرجاء، فهو قريب من الإجابة، ومن أدمن قرع الباب يوشك أن يفتح له... ومن أهم ما يسأل العبد ربه مغفرة ذنوبه، أو ما يستلزم ذلك كالنجاة من النار ودخول الجنة... وبكل حال فالإلحاح بالدعاء بالمغفرة مع رجاء الله تعالى موجب للمغفرة، فمن أعظم أسباب المغفرة أن العبد إذا أذنب ذنباً لم يرج مغفرته من غير ربه ويعلم أنه لا يغفر الذنوب ويأخذ بها غيره.

السبب الثاني للمغفرة: الاستغفار ولو عظمت الذنوب، وبلغت الكثرة عنان السماء وهو السحاب. وقيل: ما انتهى إليه البصر منها، وفي الرواية الأخرى: ((لَوْ أَخْطَأْتُمْ حَتَّى تَبْلُغَ خَطَايَاكُمْ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتُمُ الله لَغَفَرَ لَكُمْ))[٦]، والاستغفار

---

(١) سورة غافر، آية: ٦٠.

(٢) أخرجه أبو داود ١٤٧٩، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ١٣١٢).

(٣) أخرجه الترمذي ٣٤٧٩، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٧٦٦).

(٤) أخرجه البخاري ٦٣٣٩، ومسلم ٢٦٧٩.

(٥) أخرجه البخاري ٦٣٤٠، ومسلم ٢٧٣٥.

(٦) أخرجه أحمد ٢٣٨/٣ رقم ١٣٤٩٣، وقال محققو المسند: صحيح لغيره ١٤٦/٢١.

طلب المغفرة، والمغفرة هي وقاية شر الذنوب مع سترها. وكثيراً ما يقرن الاستغفار بذكر التوبة، فيكون الاستغفار حينئذ عبارة عن طلب المغفرة باللسان والتوبة عبارة عن الإقلاع عن الذنوب بالقلوب والجوارح...، ومجرد قول القائل: اللهم اغفر لي - طلب منه للمغفرة ودعاء بها، فيكون حكمه حكم سائر الدعاء فإن شاء الله أجابه وغفر لصاحبه، لا سيما إذا خرج عن قلب منكسر بالذنب أو صادف ساعة من ساعات الإجابة كالأسحار وأدبار الصلوات، فالاستغفار التام الموجب للمغفرة هو ما قارن عدم الإصرار كما مدح الله أهله ووعدهم بالمغفرة، وبالجملة فدواء الذنوب الاستغفار.

السبب الثالث من أسباب المغفرة: التوحيد: وهو السبب الأعظم فمن فقده فقد المغفرة ومن جاء به فقد أتى بأعظم أسباب المغفرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[1]، فمن جاء مع التوحيد بقراب الأرض - وهو ملؤها أو ما يقارب ملأها - خطايا لقيه الله بقرابها مغفرة.

فمن تحقق بكلمة التوحيد قلبه أخرجت منه كل ما سوى الله محبة وتعظيماً وإجلالاً ومهابة وخشية ورجاء وتوكلاً وحينئذ تحرق ذنوبه وخطاياه كلها لو كانت مثل زبد البحر، وربما قلبتها حسنات.. فإن هذا التوحيد هو الإكسير الأعظم، فلو وضع ذرة منها على جبال الذنوب والخطايا لقلبها حسنات"[2].

ثانياً - من موضوعات الدعوة: بيان فضل الله ورحمته بعباده:

يعيش العباد في الدنيا بفضل الله ورحمته، كما يدخل المؤمنون الجنة في الآخرة بمنّه وكرمه، فهو سبحانه المتفضل بمغفرة الذنوب وستر العيوب وكشف الكروب، يظهر ذلك من عموم الحديث فمن رحمة الله بعباده أن غفر ذنوبهم ولو كانت عظيمة تملأ الأرض أو مثل زبد البحر، كل هذ فضل من الله ومنة، وهو القائل سبحانه: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[3]، وقال جل شأنه: ﴿وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[4]، وقال عز وجل: ﴿وَمَن

---

(١) سورة النساء، آية: ٤٨.

(٢) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢/٤٠٢ - ٤١٨.

(٣) سورة البقرة، آية: ١٩٩.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٣٥.

يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[١].

وعن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال: ((يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّماً. فَلاَ تَظَالَمُوا. يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ. فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ. يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلاَّ مَنْ أَطْعَمْتُهُ. فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ. يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلاَّ مَنْ كَسَوْتُهُ. فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ. يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً. فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ...))[٢].

قال ابن رجب الحنبلي: (هذا يقتضي أن جميع الخلق مفتقرون إلى الله تعالى في جلب مصالحهم ودفع مضارهم في أمور دينهم ودنياهم، وأن العباد لا يملكون لأنفسهم شيئاً من ذلك كله، وأن من لم يتفضل الله عليه بالهدى والرزق، فإنه يحرمهما في الدنيا، ومن لم يتفضل الله عليه بمغفرة ذنوبه أوْبقته خطاياه في الآخرة)[٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يحكي عن ربه عز وجل قال: ((أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْباً. فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي. فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْباً، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ. ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ. فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي. فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْباً. فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ. ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي. فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْباً. فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ. اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ))[٤].

قال ابن حجر: (قال القرطبي[٥] في المفهم: يدل هذا الحديث على عظم فائدة الاستغفار وعلى عظيم فضل الله وسعة رحمته وحلمه وكرمه، لكن هذا الاستغفار هو

---

(١) سورة النساء، آية: ١١٠.

(٢) أخرجه مسلم ٢٥٧٧.

(٣) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢/٣٧، ٣٨.

(٤) أخرجه البخاري ٧٥٠٧، ومسلم ٢٧٥٨.

(٥) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٧/٨٥.

الذي ثبت معناه في القلب مقارناً للسان لينحلّ به عقد الإصرار ويحصل معه الندم فهو ترجمة للتوبة)[١].

ثالثاً - من موضوعات الدعوة: فضل التوحيد وقبح الشرك بالله:

إن الشرك بالله ذنب عظيم، فصاحبه يبوء بالخسران في الدنيا والآخرة، وفي المقابل فإن من وحدّ الله وأفرده بالعبودية فاز بالفلاح، على ما كان منه من تقصير في العمل أو إساءة فيه. هذا واضح في قول النبي ﷺ: (يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً أتيتك بقرابها مغفرة)، فقد علق سبحانه غفران الذنوب بعدم الإشراك به، وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: (إن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا ثم أتوا محمداً فقالوا: إن الذي تقول وتدعو لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة)[٢]. فنزل: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾[٣]، ونزل: ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[٤])[٥].

قال ابن كثير عن الآية الأخيرة: (هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة وإخبار بأن الله يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب منها ورجع عنها، مهما كانت وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر، ولا يصح حمل هذه الآية على غير توبة لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه)[٦].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٣/٤٨٠.

(٢) قال النووي: فيه محذوف وهو جواب لو: أي لو تخبرنا لأسلمنا، وحذفها كثير في القرآن العزيز وكلام العرب، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٧١.

(٣) سورة الفرقان، آية: ٦٨.

(٤) سورة الزمر، آية: ٥٣.

(٥) أخرجه البخاري ٤٨١٠، ومسلم ١٢٢.

(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٧/١٠٦.

وذلك لأن الشرك ظلم عظيم قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[١]، فقد (دلت الآية الكريمة على أن الشرك ظلم عظيم)[٢]، وقال الطاهر بن عاشور: "ابتدأ لقمان موعظة ابنه بطلب إقلاعه عن الشرك، لأن النفس المعرضة للتزكية والكمال يجب أن يقدم لها قبل ذلك تخليتها عن مبادئ الفساد والضلال، فإن إصلاح الاعتقاد أصل إصلاح العمل وكان أصل فساد الاعتقاد أحد أمرين: هي الدهرية والإشراك، فكان قوله (لا تشرك بالله)، يفيد إثبات وجود إله وإبطال أن يكون له شريك في إلهيته، وجملة (إن الشرك ظلم عظيم)، تعليل لنهي عنه وتهويل لأمره، فإنه ظلم لحقوق الخالق وظلم المرء لنفسه إذ يضع نفسه في حضيض العبودية لأخس الجمادات، وظلم لأهل الإيمان الحق إذ يبعث على اضطهادهم وأذاهم وظلم لحقائق الأشياء بقلبها وإفساد تعلقها"[٣].

رابعاً - من واجبات المؤمن: التضرع إلى الله والاستغفار ولزوم التوحيد:

المؤمن ملازم للتوحيد دوماً أبداً، قبل على الله عز وجلّ متضرع منيب إليه، يطلب منه المغفرة والعفو، وهذا ما يبينه الحديث، فقد بيّن بعض أحوال العبد مع الله من دعائه واستغفاره وتوحيده سبحانه وعدم الإشراك به، وهكذا يجب أن يكون حال العبد مع ربه عز وجل، وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾[٤].

قال القاسمي: (ذكر الله تعالى آداباً لذكره:

---

(١) سورة لقمان، آية: ١٣.

(٢) أضواء البيان ٤٩٨/٦.

(٣) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور ١٥٥/٢١.

(٤) سورة الأعراف، الآيتان: ٢٠٥ - ٢٠٦.

الأول: أن يكون في نفسه لأن الإخفاء أدخل في الإخلاص وأقرب إلى الإجابة وأبعد من الرياء.

الثاني: أن يكون على سبيل التضرع، وهو التذلل والخضوع والاعتراف بالتقصير ليتحقق بذلة العبودية لعزة الربوبية.

الثالث: أن يكون على وجه الخيفة أي: الخوف والخشية من سلطان الربوبية وعظمة الألوهية من المؤاخذة على التقصير في العمل لتخشع النفس ويخضع القلب.

الرابع: أن يكون دون الجهر، لأنه أقرب إلى حسن التفكر.

الخامس: أن يكون باللسان لا بالقلب وحده وهو مستفاد من قوله (ودون الجهر) لأن معناه: ومتكلماً كلاماً دون الجهر.

السادس: أن يكون بالغدو والآصال أي في البكرة والعشي فتدل الآية على مزية هذين الوقتين لأنهما وقت سكون ودعة وتعبد واجتهاد، وما بينهما، الغالب فيه الانقطاع إلى أمر المعاش.

ثم نهى تعالى عن الغفلة عن ذكره بقوله: "ولا تكن من الغافلين"، أي: من الذين يغفلون عن ذكر الله ويلهون عنه، وفيه إشعار بطلب دوام ذكره تعالى واستحضار عظمته وجلاله وكبريائه بقدر الطاقة البشرية)(١).

وقال ابن القيم: (التوحيد مفزع أعدائه وأوليائه: فأما أعداؤه فينجيهم من كرب الدنيا وشدائدها ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾(٢)، وأما أولياؤه فينجيهم من كربات الدنيا والآخرة وشدائدهما، ولذلك فزع إليه يونس عليه السلام، فنجاه الله من تلك الظلمات، وفزع إليه أتباع الرسل عليهم السلام، فنجوا به مما عذب به المشركون في الدنيا وما أُعدّ لهم في الآخرة.

ولما فزع فرعون عند معاينة الهلاك وإدراك الغرق لم ينفعه؛ لأن الإيمان عند المعاينة

---

(١) محاسن التأويل، القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ٣٣٢/٧ - ٣٣٣.

(٢) سورة العنكبوت، آية: ٦٥.

لا يقبل. هذه سنة الله في عباده، فما دفعت شدائد الدنيا بمثل التوحيد، ولذلك كان دعاء الكرب بالتوحيد، ودعوة ذي النون عليه السلام التي ما دعا بها مكروب إلا فرّج الله كربه، بالتوحيد فلا يُلقى في الكُرب العظام إلا الشرك، ولا ينجى منها إلا التوحيد. فهو مفزع الخليقة وملجؤها وحصنها وغايتها)[1].

خامساً - من أساليب الدعوة: النداء والتكرار والتبشير:

جاء النداء في (يا ابن آدم)، وكرر ذلك لإفادة التنبيه وبيان الأهمية، فإن الأمر إذا كرر لم يلبث في الحقيقة أن يستقر في مناطق اللا شعور العميقة حيث تنضج عوامل سيرنا، فبالتكرار يمكن التأثير على كثير من النفوس التي لا تأخذ بالتوجيه لأول وهلة للتعاون في مدارك البشر وأمزجتهم[2]، كما جاء التبشير في ذكر غفران الذنوب مهما عظمت وذلك بسبب الدعاء مع الرجاء والاستغفار وعدم الإشراك بالله، وفي ذلك كله حضّ على هذه الأسباب والتمسك بها والعض عليها بالنواجذ.

---

(١) الفوائد ص ٨٢.

(٢) انظر: من بلاغة القرآن، د. أحمد بدوي، ص ١٤٣، ١٤٤.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

فتح الإسلام باب الاعتذار ورغّب في الإعراض عما أقدم عليه من ذنب، وحرص على الإقلاع عما لا يمدح، وبهذا تستقيم حياة أفراد المجتمع، ويعود المؤمن إلى رشده، يراقب ربه ويعمل على تحقيق مرضاته وذلك من التوبة والإنابة والاستغفار، ومن المضامين التربوية في أحاديث الباب ما يلي:

أولاً - التربية بالتمثيل والتشبيه:

من أساليب التربية الإسلامية التمثيل والتشبيه، ولقد استخدم النبي ﷺ هذا الأسلوب في توجيهه للصحابة من خلال عرضه لفضل الرجاء وحسن الظن بالله. فقال: «قالَ اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حَيْثُ يَذْكُرُنِي، وَاللّهِ لَلّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ يَجِدُ ضَالَّتَهُ بِالْفَلاَةِ، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْراً تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعاً، وَمَنْ تَقَرَّبَ ... أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ أُهَرْوِلُ» فقد أراد النبي ﷺ من خلال ذكر هذا الحديث القدسي أن يوجه الصحابة رضي الله عنهم إلى رجاء رحمة الله، وإلى حسن الظن به سبحانه، ثم استخدم المثل في بيان فرح الله تعالى بتوبة عبده المؤمن، ممن يفقد ضالته ثم يفرح بوجودها، فالله تعالى أفرح بتوبة عبده من هذا الذي فرح بعثوره على دابته بعد فقدها، ولاشك أن هذا التمثيل فيه بيان وتوجيه وتقريب للمعاني والمضامين بطريقة تربوية تستهوى النفوس، ويجعلها مقبلة على الله تعالى، حيث تم تقريب المراد للعقل وتصويره بصورة المحسوس، أو تصوير المعاني بصورة الأشخاص لأنها أثبت في الأذهان لاستعانة الذهن فيها بالحواس[1]، وقد أراد النبي ﷺ أن يعمق في النفوس الرجاء والطمع في رحمة الله تعالى، وما يستلزم ذلك من حسن الظن بالله، لأن الله تعالى كما ورد في الحديث القدسي، عند حسن ظن عبده به وهو سبحانه، مع عباده المؤمنين يؤيدهم ويستجيب لهم، ورحمته قريب من المحسنين، وقد حرص النبي ﷺ على تعميق هذه المعاني في الأذهان لبيان أهمية الرجاء لفضل الله تعالى.

---

(١) أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، العاني، ص٤٢٣.

ثانياً - التربية بالتوجيه المباشر:

من أساليب التربية الإسلامية التربية بالتوجيه المباشر، حيث استخدم ﷺ هذا الأسلوب التربوي في توجيهه للصحابة رضي الله عنهم في قضية من أهم القضايا في حياة الإنسان، وهي قضية الرجاء وعدم اليأس، تلك القضية الكبرى التي قد تكون سبباً في تغيير مسار حياة الإنسان بهذه الروح، وإما بالإعراض عن الله، والارتكاس إلى المعاصي والخوض في المحرمات، وذلك عندما يسيطر اليأس ويخيم القنوط على حياة الإنسان، ويظن أنه هالك هالك، ومن ثم فقد عالج النبي ﷺ هذه القضية من خلال التوجيهات التربوية الجادة التي أكد فيها على حقيقة هامة بقوله: «لاَ يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلاَّ وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ»... وذلك لتعميق الرجاء وحسن الظن بالله في نفس كل مؤمن، لذا يحسن بالمربي اختيار المواقف واغتنام الفرص والأوقات المناسبة للتوجيه يسهل العملية التربوية، ولذلك وقع على النفس وتأثير في السلوك، فاغتنام المواقف في التوجيه من أفضل طرقها لأنها تعالج خللاً في الحال، وكثيراً ما يغفل الإنسان ولا يدرك فداحة الأمر إلا بعد فواته، وهذا الأساس مما ينبغي ملاحظته واغتنام فرصته[1].

ثالثًا - التربية بالتفاؤل:

من أساليب التربية الإسلامية التفاؤل، وهذا الأسلوب استخدمه ﷺ، مع أصحابه لأن له فائدة كبيرة في عملية التربية، وفي باب فضل الرجاء ما يدل على ذلك: فعن أنس رضي الله عنه قال: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ وَلاَ أُبَالِي، ...».

فهذا توجيه نبوي من الرسول ﷺ يعلم فيه الصحابة التفاؤل ويبعث في نفوسهم الأمل والراحة، والطمأنينة ويزيل عنهم الغم والحزن ويقتل اليأس والقنوط ويحيي فيهم روح التفاؤل والعمل، ولقد حرص الرسول ﷺ في هذا التوجيه أيضاً: على أن لا يتسرب إلى نفوسهم الوهن واليأس ولا يعتريهم التردد في رحمة الله تعالى[2]، ولقد كان

---

(١) انظر: أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد العاني، ص٢٨٨. أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي، ص٢٧٨.

(٢) أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد العاني، ص٢٢٩، ٢٣٠.

ﷺ يحب الفأل الحسن، وكان ﷺ إذا أعجبه شيء تفاءل به، وكان يتفاءل بالرجل الحسن الوجه، الحسن الاسم، وكان يكره الطيره، لذلك قال الحكماء: أن من صفات المتفائل التوكل على الله، وهذا ما غرسه النبي ﷺ في الصحابة في هذا التوجيه النبوي(١).

ولما قدم المدينة المنورة، نزل على رجل من الأنصار، فصاح الرجل بغلاميه، يا سالم، ويا يسار، فقال الرسول ﷺ: «سَلِمت لنا الدّار في يُسْر».

وكذلك حين قدم جد سعيد بن المسيب، حَزْن بن أبي وَهْب على رسول الله ﷺ فقال له: كيف اسمُك قال: حَزْن، فقال: بل سَهْل قال: ما كنتُ لأدع اسماً سَمّتني به أُمّي(٢).

❁ ❁ ❁

---

(١) العقد الفريد، ابن عبدربه، ١٣٨/٢.

(٢) موسوعة القيم ومكارم الأخلاق العربية والإسلامية، ١٧/١٤، والحديث أخرجه البخاري ٦١٩٠، ٦١٩٣.

٥٣ - باب الجمع بين الخوف والرجاء

اعْلَمْ أنَّ المُخْتَارَ لِلْعَبْدِ فِي حَالِ صِحَّتِهِ أنْ يَكُونَ خَائفًا رَاجيًا، وَيَكُونَ خَوْفُهُ وَرَجَاؤُهُ سَوَاءً، وفِي حَالِ المَرَضِ يُمحَّضُ الرَّجاءُ، وقواعِدُ الشَّرْعِ مِنْ نصُوصِ الكِتَابِ والسُّنَّةِ وغَيْرِ ذَلِكَ مُتظاهِرَةٌ عَلَى ذلك.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَسِرُونَ﴾[الأعراف: ٩٩]، وقال تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[يوسف: ٨٧]، وقال تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾[آل عمران: ١٠٦]، وقال تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الأعراف: ١٦٦]، وقال تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾[الانفطار: ١٣ - ١٤]، وقال تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾[القارعة: ٦ - ٩] والآيات في هذا المعنى كثيرةٌ. فَيَجْتَمعُ الخَوفُ والرجاءُ فِي آيَتَيْنِ مُقْتَرِنَتَيْنِ أَو آيات أَو آية.

الحديث رقم (٤٤٣)

٤٤٣ - وعن أَبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ، قَالَ: ((**لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤمِنُ مَا عِنْدَ الله مِنَ العُقُوبَةِ، مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ، وَلَوْ يَعْلَمُ الكَافِرُ مَا عِنْدَ الله مِنَ الرَّحْمَةِ، مَا قَنَطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ**)) رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

قَنَطَ: القنوط: يئس يأسًا شديدًا[2].

---

(١) برقم (٢٣/٢٧٥٥). أورده المنذري في ترغيبه (٤٩٤٥).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ق ن ط).

أراد الرسول ﷺ أن يقرر معنى شدة عقاب الله، ويقرر معنى سعة رحمة الله تبارك وتعالى - فاعتمد أسلوب المقابلة بين المعاني؛ لأن الضد يظهر حسنه الضد كما يقال - فطابق بين المؤمن، والكافر، وهذا الطباق يحقق المفارقة بين الاعتقادين الموجهين للغاية، والأمنية، وطابق بين العقوبة التي تعني العذاب، وبين الرحمة، وبين طمع، وقنط، وهو الشعور الذي تأثر بعدم العلم بشدة العذاب، وعظمة الرحمة ، وحرف الشرط (لو) يفيد امتناع عدم الطمع أي وجود الطمع في الجنة لامتناع العلم بمدى شدة عذاب الله، وامتناع عدم القنوط أي :وجود القنوط من رحمة الله لامتناع العلم بمبلغ رحمة الله، وتنكير لفظ (أحد) يفيد العموم، لأنه وقع في سياق النفي، وهذا المعنى يشير إلى جهل الناس جميعاً بهذه الحقائق.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: جمع المؤمن بين الخوف والرجاء.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: شدة عقاب الله.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: سعة رحمة الله.

رابعًا: من مهام الداعية: الإنذار والبشارة.

خامسًا: من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب.

أولاً - من موضوعات الدعوة: جمع المؤمن بين الخوف والرجاء:

المؤمن يجمع بين الخوف والرجاء، فيدفعه الخوف إلى الابتعاد عن الذنوب، ويدفعه الرجاء إلى حسن الظن بالله إن وقع منه تقصير وتفريط، وإن فعل طاعة رجا أن يتقبلها ربه سبحانه، وهذا واضح في الحديث كلّه، فقد أخرجه البخاري في كتاب الرقاق تحت باب الرجاء مع الخوف[1]، قال القرطبي: (ومعنى الحديث لو علم ذلك وجرد النظر إليه ولم يلتفت إلى مقابله، وأما إذا نظر إلى مقابل واحد من الطرفين، فالكافر ييأس من رحمة الله تعالى، والمؤمن يرجو رحمة الله تعالى ويخاف عقابه كما قال بعضهم: لو

---

(١) أخرجه البخاري ٦٤٦٩.

وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا)[١]، ووقال ابن حجر: (أي استحباب ذلك، فلا يقطع النظر في الرجاء عن الخوف ولا في الخوف عن الرجاء لئلا يفضي في الأول إلى المكر وفي الثاني إلى القنوط وكل منهما مذموم، والمقصود من الرجاء أن من وقع منه تقصير فليحسن ظنه بالله ويرجو أن يمحو عنه ذنبه، وكذا من وقع منه طاعة يرجو قبولها، وأما من انهمك على المعصية راجيا عدم المؤاخذة بغير ندم ولا إقلاع فهذا في غرور، وما أحسن قول أبي عثمان الجيزي: من علامة السعادة أن تطيع وتخاف أن لا تقبل، ومن علامة الشقاء أن تعصى وترجو أن تنجو)[٢].

وقال ابن حجر كذلك: "قال الكرماني: والمقصود من الحديث أن المكلف ينبغي له أن يكون بين الخوف والرجاء حتى لا يكون مفرطا في الرجاء بحيث يصير من المرجئة القائلين لا يضر مع الإيمان شيء، ولا في الخوف بحيث لا يكون من الخوارج والمعتزلة القائلين بتخليد صاحب الكبيرة إذا مات عن غير توبة في النار، بل يكون وسطا بينهما كما قال الله تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾[٣] ومن تتبع دين الإسلام وجد قواعده أصولا وفروعا كلها في جانب الوسط"[٤].

وقد دخل النبي ﷺ على شابٍّ وهو في الموت فقال: ((كَيْفَ تَجِدُكَ؟)) قَالَ: أَرْجُو اللَّهَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَخَافُ ذُنُوبِي. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: ((لاَ يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ، فِي مِثْلِ هذَا الْمَوْطِنِ، إِلاَّ أَعْطَاهُ اللَّهُ مَا يَرْجُو، وَآمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ))[٥].

(فيجب أن يكون العبد خائفًا راجيًا، فإن الخوف المحمود الصادق ما حال بين صاحبه وبين محارم الله، فإذا تجاوز ذلك، خيف منه اليأس والقنوط. والرجاء المحمود:

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٧٤/٧.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٠٧/١١.

(٣) سورة الإسراء، آية: ٥٧.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٠٩/١١.

(٥) أخرجه الترمذي ٩٨٣، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٧٨٥).

رجاء رجل عمل بطاعة الله على نور من الله، فهو راج لثوابه أو رجل أذنب ذنبًا، ثم تاب منه إلى الله، فهو راج لمغفرته، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[(١)].

أما إذا كان الرجل متماديًا في التفريط والخطايا، يرجو رحمة الله بلا عمل، فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب. قال أبو علي الروذباري: (الخوف والرجاء كجناحي الطائر إذا استويا استوى الطير وتم طيرانه، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص، وإذا ذهبا صار الطائر في حد الموت.

وقد مدح الله أهل الخوف والرجاء بقوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحْذَرُ ٱلْأٓخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾[(٢)]، وقال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفٗا وَطَمَعٗا﴾[(٣)]، فالرجاء يستلزم الخوف، ولولا ذلك لكان أمنًا، والخوف يستلزم الرجاء، ولولا ذلك لكان قنوطًا ويأسًا. وكل أحد إذا خفته هربت منه، إلا الله تعالى فإنك إذا خفته هربت إليه، فالخائف هارب من ربه إلى ربه)[(٤)].

وقال ابن عثيمين: (والإنسان يجب عليه أن يكون طبيب نفسه، إذا رأى من نفسه أنه أمن من مكر الله، وأنه مقيم على معصية الله، ومتمنٍّ على الله الأماني فليعدل عن هذه الطريق، وليسلك طريق الخوف، وإذا رأى أن فيه وسوسة وأنه يخاف بلا موجب، فليعدل عن هذا الطريق، وليغلب جانب الرجاء حتى يعتدل خوفه ورجاؤه)[(٥)].

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: شدة عقاب الله:

إن الله عقابه لشديد وعذابه لعظيم، فهو سبحانه القائل عن نفسه: ﴿شَدِيدُ

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢١٨.

(٢) سورة الزمر، آية: ٩.

(٣) سورة السجدة، آية: ١٦.

(٤) شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز ٢/٤٥٦ - ٤٥٧.

(٥) شرح رياض الصالحين ١/٧٧٨.

ٱلۡعَذَابِ﴾[١]، وأنه ﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾[٢]، وقد بين النبي ﷺ ذلك بقوله: "لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد"، قال الطيبي: (لو فرض أن المؤمن وقف على كنه صفة القهارية لظهر منها ما يقنط من ذلك الخلق طرًا[٣] فلا يطمع بجنته أحد)[٤].

وقد قال الله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾[٥].

قال ابن كثير: (قوله "شديد العقاب" أي: لمن تمرد وطغى وآثر الحياة الدنيا وعتا عن أوامر الله")[٦].

وقال عز وجل: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ﴾[٧].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ﴾[٨].

قال القاسمي: (ولو يرى الذين ظلموا، أي باتخاذ الأنداد ووضعها موضع المعبود "إذ يرون العذاب" المعد لهم يوم القيامة، "أن القوة لله جميعا"، أي: القدرة كلها لله على كل شيء من العقاب والثواب دون أندادهم، "وأن الله شديد العقاب"، أي: العقاب للظالمين، وفائدة عطفها على ما قبلها: المبالغة في تهويل الخطب وتفظيع الأمر، فإن

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٦٥.

(٢) سورة البقرة آية: ١٩٦.

(٣) أي: جميعًا. انظر: المعجم المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ط ر ر).

(٤) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ١٢٣/٥.

(٥) سورة غافر، الآيات: ١ – ٣.

(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١٢٧/٧.

(٧) سورة الحجر، الآيتان: ٤٩ – ٥٠.

(٨) سورة البقرة، آية: ١٦٥.

اختصاص القوة به تعالى لا يوجب شدة العذاب لجواز تركه عفوًا مع القدرة عليه، وجواب "لو" محذوف للإيذان بخروجه عن دائرة البيان إما لعدم الإحاطة بكنهه وإما لضيق العبارة عنه، وإما لإيجاب ذكره ما لا يستطيعه المعبر أو المستمع من الضجر والتفجع عليه أي: لكان منهم ما لا يدخل تحت الوصف من الندم والحسرة، ووقوع العلم بظلمهم وضلالهم)[١].

وقال ابن حجر: (من علم أن من صفات الله تعالى الرحمة لمن أراد أن يرحمه والانتقام ممن أراد أن ينتقم منه لا يأمن انتقامه من يرجو رحمته ولا ييأس من رحمته من يخاف انتقامه، وذلك باعث على مجانبة السيئة، ولو كانت صغيرة، وملازمة الطاعة ولو كانت قليلة)[٢].

ثالثًا – من موضوعات الدعوة: سعة رحمة الله:

إن من أسماء الله تعالى: الرحمن الرحيم، كما أن رحمته وسعت كل شيء، وقد بين النبي ﷺ ذلك فقال: "ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد".

قال الطيبي: (قال المظهر: ورد الحديث في بيان كثرة عقوبته ورحمته، كيلا يغتر مؤمن برحمته فيأمن عذابه، ولا ييأس كافر من رحمته)[٣].

وقال المناوي: (لو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة الواسعة لم ييأس، أي: يقنط من الجنة، أي: من شمول الرحمة فيطمع في أن يدخل الجنة، ولو يعلم المؤمن بالذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار أي من دخولها)[٤].

وقد قال الله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾[٥].

---

(١) محاسن التأويل، القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ٢٣/٢.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٠٨/١١.

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ١٢٣/٥.

(٤) فيض القدير شرح الجامع الصغير، عبدالرؤوف محمد المناوي ٢٣٤/٢.

(٥) سورة الأعراف، آية: ١٥٦.

وقد قال النبي ﷺ: ((لَمَّا خَلَقَ اللّهُ الْخَلْقَ، كَتَبَ فِي كِتَابِهِ، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي))(١).

قال النووي: (قال العلماء: المراد بالسبق والغلبة هنا: كثرة الرحمة وشمولها)(٢).

وقال ﷺ: ((جَعَلَ اللّهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ. فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ. وَأَنْزَلَ فِي الأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا. فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ تَتَرَاحَمُ الْخَلاَئِقُ. حَتَّى تَرْفَعَ الدَّابَّةُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا، خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ))(٣).

قال النووي: (هذه الأحاديث من أحاديث الرجاء والبشارة للمسلمين، قال العلماء: لأنه إذا حصل للإنسان من رحمة واحدة في هذه الدار المبنية على الأكدار، الإسلام والقرآن والصلاة والرحمة في قلبه وغير ذلك مما أنعم الله تعالى به، فكيف الظن بمائة رحمة في الدار الآخرة وهي دار القرار ودار الجزاء؟)(٤).

ورحمة الله وسعت كل شيء، وشملت كل أحد، المؤمن والكافر، والمطيع والعاصي، فهو سبحانه الرحيم الذي شمل الخلق كلهم برحمته، فسخر لهم ما في السموات وما في الأرض، فالشمس والقمر، والبر والبحر، والماء والتراب، والنبات والحيوان والهواء، كل ذلك خلقه الله، وسخر منافعه للناس.

وهذه النعم يستفيد منها المؤمن والكافر على حد سواء، وهي مسخرة للإنسان لا خيار لها: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾(٥).

---

(١) أخرجه البخاري ٣١٩٤، ومسلم٢٧٥١.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦١١، وانظر: شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ١٢١/٥ - ١٢٢.

(٣) أخرجه البخاري ٦٠٠٠، ومسلم ٢٧٢٥.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦١.

(٥) سورة لقمان، آية: ٢٠.

فهذه رحمة الرحمن تشمل الخلق كلهم في الدنيا، أما في الآخرة فإن الله عز وجل يطرد من رحمته من لم يؤمن به، ولم يشكر نعمه من الكفار والعصاة، ولا تشمل رحمته في الآخرة إلا عباده المؤمنين.

ففي الدنيا كثرت متعلقات الرحمة، وفي الآخرة قلّت متعلقات الرحمة، وإن كانت صفة الرحمة ثابتة لم تتغير ولم تتبدل، ولو أن الكفار والعصاة أطاعوا ربهم لوسعتهم رحمة الله في الآخرة، ولكنهم حرموا أنفسهم منها بكفرهم: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِى وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

ورحمة الله لعباده، ودخولهم الجنة، ليست على قدر أعمالهم، إذ أعمالهم لا تستقل باقتضاء الرحمة، وحقوق عبوديته وشكره التي يستحقها عليهم لم يقوموا بها كما يجب لعظمته وجلال سلطانه.

فلو عذبهم والحالة هذه لكان تعذيبًا لحقه، وهو سبحانه غير ظالم لهم فيه، فإن أعمالهم لا توازي القليل من نعمه عليهم، فتبقى نعمه الكثيرة لا مقابل لها من شكرهم وأعمالهم.

فإذا عذبهم الله عز وجل على ترك شكرهم، وترك أداء حقه الذي يجب عليهم، لم يكن ظالمًا لهم، فإن المقدور للعبد من الطاعات لا يأتي به كله، بل لا بد من فتور وإعراض وغفلة وتوان، وتقصير وتفريط.

وكذلك قيام المرء بالعبودية لا يوفيها حقها الواجب لها من كمل المراقبة والإجلال والتعظيم لله، وبذل مقدوره كله في تحسين العمل وتكميله ظاهرًا وباطنًا، فالتقصير لازم في حال الترك، وفي حال الفعل، وهذا هو السر في كون أعمال الطاعات تختم بالاستغفار.

ولو أتى العبد بكل ما يقدر عليه من الطاعات ظاهرًا وباطنًا، فالذي ينبغي لربه فوق ذلك، وأضعاف أضعافه، فإن عجز عنه لم يستحق ما يترتب عليه من الجزاء فإذا حرم جزاء ما لم يأت به مما يجب لربه لم يكن الرب ظالمًا له.

---

(١) سورة العنكبوت، آية: ٢٣.

فإذا أعطاه ربه الثواب، كان مجرد صدقة وفضل ورحمة، لا عوضًا عن عمله، والعبد مملوك لا يستحق شيئًا على سيده، فإن أعطاه شيئًا فهو إحسان منه وفضل"(١).

رابعًا – من مهام الداعية: الإنذار والبشارة:

إن من مهام الداعية الإنذار والبشارة، فينذر المدعوين بما أعدّه الله من العقوبة لمن عصى، ويبشرهم بما أعده الله من الرحمة لعباده، وهو إذ يفعل هذا يقتدي بالنبي ﷺ، فقد ذكر النبي ﷺ العقوبة التي عند الله وهذا جانب يحذر منه، كما ذكر ﷺ جانب رحمة الله تعالى وهذه بشارة يفرح بها.

ويقول حنظلة بن الربيع الأُسيِّدي رضي الله عنه: ((نكون عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالجنة والنار كأنا رأي))(٢).

وقال النبي ﷺ: ((عُرِضَتْ عَلَيَّ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ. فَلَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ. وَلَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا)) قَالَ أنس: فَمَا أَتَى عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللّهِ يَوْمٌ أَشَدُّ مِنْهُ. قَالَ: غَطَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَلَهُمْ خَنِينٌ"(٣)(٤).

قال النووي: (معنى الحديث: لم أر خيرًا أكثر مما رأيته اليوم في الجنة ولا شرًا أكثر مما رأيته اليوم في النار، ولو رأيتم ما رأيت وعلمتم ما علمتُ مما رأيته اليوم وقبل اليوم لأشفقتم إشفاقًا بليغًا ولقلَّ ضحككم وكثر بكاؤكم"(٥).

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ((نَظَرْتُ إلى الجَنَّةِ، فإذا أكثرُ أهلِها المساكينُ، ونَظَرْتُ في النَّارِ، فإذا أكثرُ أهلِها النساءُ، وإذا أَهْلُ الجَدِّ محبوسُونَ، وإذا الكُفَّارُ قَدْ أُمِرَ بهمْ إلى النَّارِ))(٦).

---

(١) موسوعة فقه القلوب ١/٩٣ – ٩٤.

(٢) أخرجه مسلم ٢٧٥٠.

(٣) الخنين: نوع من البكاء دون الانتحاب، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٤٤٤.

(٤) أخرجه البخاري ٥٤٠، ومسلم ٢٣٥٩.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٤٤٤.

(٦) أخرجه البخاري ٦٥٤٧، ومسلم ٢٧٣٦.

قال ابن حبان: "اطّلاعه ﷺ إلى الجنة والنار معًا كان بجسمه ونظره العيان تفضلاً من الله جل وعلا عليه وفرقًا فرق به بينه وبين سائر الأنبياء، فأما الأوصاف التي وصف أنه رأى أهل الجنة بها، وأهل النار بها، فهي أوصاف صورت له ﷺ ليعلم بها مقاصد نهاية أسباب أمته في الدارين جميعًا، ليرغب أمته بأخبار تلك الأوصاف لأهل الجنة ليرغبوا، ويرهبهم بأوصاف أهل النار ليرتدعوا عن سلوك الخصال التي تؤدّيهم إليها"(١).

خامسًا - من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب:

جمع النبي ﷺ بين ذكر العقوبة وذكر الرحمة، وهذا جمع بين الترغيب والترهيب، قال ابن كثير عن قوله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾(٢)، قد اجتمع في هذه الآية الرجاء والخوف، وهذه كقوله تعالى: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ﴾(٣)، يقرن هذين الوصفين كثيرًا في مواضع متعددة من القرآن، ليبقى العبد بين الرجاء والخوف(٤).

إن الترغيب من الأساليب الضرورية لأي داعي، لأن النفس البشرية قد فطرت على حب الكسب المترتب على فعل شيء ما دنيويًا كان الكسبُ أو أخرويًا، كذلك الترهيب لا يستغنى عنه لأن من الأنفس من لا ترجع إلا بالزجر، وإذا كانت النعم تسبب الغفلة، فإن الترهيب يبعث اليقظة في كثير من الأحيان، وكم يفكر الناس في أشياء ثم يتذكرون النتائج السلبية المترتبة عليها فيقلعون عنها مباشرة، وقد استخدم الأنبياء أسلوب الترهيب كوسيلة لردع النفس عن الغواية واتباع خطوات الشيطان كما تضمنت الشرائع أحكامًا للترهيب كالحدود والقصاص وبعض العقوبات المقدرة على بعض المعاصي التي ترتكب ردعًا وزجرًا(٥).

---

(١) صحيح ابن حبان ٤٩٥/١٦.

(٢) سورة غافر، آية: ٣.

(٣) سورة الحجر، الآيتان: ٤٩ - ٥٠.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١٢٧/٧.

(٥) انظر: دعوة الرسل، د. بكر زكي عوض، ص ١٤٠-١٤٢.

الحديث رقم (٤٤٤)

٤٤٤ - وعن أَبي سعيد الخدرِيِّ رضي الله عنه: أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، قَالَ: ((**إذَا وُضِعَتِ الجنازةُ واحْتَمَلَهَا (النَّاسُ أَوِ) الرِّجَالُ عَلَى أعناقِهِمْ، فَإنْ كَانَتْ صَالِحَةً، قالتْ: قَدِّمُونِي قَدِّمُونِي، وَإنْ كَانَتْ غَيْرَ صَالِحَةٍ، قالتْ: يَا وَيْلَهَا ! أَيْنَ تَذْهَبُونَ بها ؟ يَسْمَعُ صَوْتَها كُلُّ شَيْءٍ إلاَّ الإنْسانُ، وَلَوْ سَمِعَهُ صَعِقَ**)) رواه البخاري[1].

ترجمة الراوي:

أبو سعيد الخدري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٠).

غريب الألفاظ:

الجنازة: يعني الميت بسريره[2].

يا ويلها: دعاء بالويل عند الوقوع في الهلكة. ومعنى النداء: يا حزني[3].

صعق: غشي عليه من شدة ما يسمعه[4].

الحديث يتناول جانباً غيبياً يعرض لكل ميت فالمعنى يشمل الجميع، وقد أخذ هذا العموم من أسلوب الشرط، وبناء فعل الشرط فيه لما لم يسم فاعله، والتعبير بالاحتمال عن الحمل في قوله (واحتملها) يدل على التكلف، والمشقة الجسدية، والنفسية؛ لأن ذكر الموت مما تنقبض له القلوب لاسيما قلوب غير المؤمنين، بالإضافة إلى أن الجنازة تكون حاضرة قريبة على أعناقهم، وقوله (على أعناقهم) توكيد للحمل، والقول المحكي عن الميت الصالح: (قَدِّمُونِي قَدِّمُونِي) الأمر على غير حقيقته، والمقصود به الإشادة، والتنويه بصاحب العمل الصالح ترغيباً في العمل الصالح، وتكراره يوحي بحسن المصير، وجميل ما أطلعت عليه، والقول المحكي عن الميت غير الصالح (يَا

(١) برقم ١٣١٤. وسيكرره المؤلف برقم ٩٤٣.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ج ن ز).

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣/٢٢١.

(٤) المرجع السابق ٣/٢٢١.

وَيْلَهَا! أَيْنَ تَذْهَبُونَ بها؟) صدر على سبيل التجريد كأنها لما رأت سوء مصيرها كرهت أن تنسب هذا المصير إليها فجردت من نفسها مثلها، وخاطبتها هذا الخطاب، بنداء الترهيب، وإضافة الويل لها، ثم الاستفهام بغرض التهويل، وهو يشير إلى سوء ما رأت، وما ينتظرها، ويؤكد هذا الهول بلوغ مدى الصوت من الألم كل شيء عد الإنسان قال: (يَسْمَعُ صَوْتَها كُلُّ شَيْءٍ إلاَّ الإنْسانُ، وَلَوْ سَمِعَهُ صَعِقَ) والتعبير بالصعق يحكي قوة الصوت الذي يبلغ حده قتل السامع، وهو هول يستلزم الجد، والاجتهاد في العمل الصالح.

فقه الحديث

هذا الحديث يشير إلى الأحكام الفقهية التالية:

١ - حكم حمل المرأة للجنازة: اتفق الفقهاء على أنه لا يتولى حمل الجنازة إلا الرجال وذلك لضعف النساء غالبًا، فيكره لهن حملها كما يكره للرجال كراهية شديدة تمكينهن منها[(١)].

٢ - كيفية حمل الجنازة: اختلف الفقهاء في كيفية حمل الجنازة، فذهب الحنفية والحنابلة إلى أن السنة في حمل الجنازة أن يحملها أربعة رجال من جوانبها الأربع، وذهب الشافعية في الأصح أن السنة حملها بين العمودين، وهو أن يحملها رجلان يتقدم أحدهما فيضع جانبي الجنازة على كتفه، ويتأخر الآخر فيفعل مثل ذلك، وقال المالكية إن حمل الميت ليس له كيفية معينة، فيجوز أن يحملها أربعة أشخاص وثلاثة واثنان ولا يتعين البدء بناحية من السرير "النعش"[(٢)].

---

(١) المبسوط ٥٦/٢، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن المغربي ٤٤٦/٥، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢٢٨/٥.

(٢) المبسوط ٥٦/٢، والشرح الصغير ٢٢٧/١، ومغني المحتاج ٣٣٦/١، والمغني، أبن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٣٥٤/٢، وانظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١١/١٦-١٢.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: إخبار النبي ﷺ عن حالة الميت بعد موته.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: استبشار المؤمن بعمله الصالح وفزع العاصي من سوء عمله.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: رحمة الله بالإنسان بأن لم يسمعه صوت الميت المعذب.

رابعًا: من مهام الداعية: بيان الحقائق للمدعوين.

خامسًا: من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب.

أولاً - من موضوعات الدعوة: إخبار النبي ﷺ عن حالة الميت بعد موته:

أخبر النبي ﷺ عن حال الميت واختلاف ذلك بحسب عمل الإنسان، فالميت الصالح يستبشر فيطلب التقديم بينما غير الصالح يتحسر ويندم ويتمنى ألا يقدم ولكن هيهات هيهات وكثيرة هي الأحاديث النبوية التي تخبر عن أحوال الموتى، وقد اعتنى بعض العلماء بجمعها، كما فعل القرطبي المفسر في كتابه (التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة).

ومن هذه الأحاديث، حديث البراء بن عازب رضي الله عنه الجامع - كما قال القرطبي - لأحوال الموتى عند قبض أرواحهم وفي قبورهم[١]، وهو حديث صحيح له طرق كثيرة. وفيه: ((فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولاَنَ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، فَيَقُولاَنِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِيَ الإِسْلاَمُ، فَيَقُولاَنِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَيَقُولاَنِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ، فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ، فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ، قَالَ: فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ))[٢].

---

(١) انظر: التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ١١٩.

(٢) أخرجه أحمد ٤/٢٨٨ رقم ١٨٥٣٤، وقال محققو المسند: إسناده صحيح ٣٠/٥٠٣.

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: استبشار المؤمن بعمله الصالح وفزع العاصي من سوء عمله:

إن الميت الصالح يجد جزاء ما قدم، فيجد الخير يفرح به، أما غير الصالح فإنه يجد الشر الذي يسوءه، هذا واضح من الحديث كله، قال العيني: (قال ابن بطال: "قدموني" أي: إلى العمل الصالح الذي عملته يعني إلى ثوابه)[١]، وقال الطيبي: "كل من وقع في هلكة دعا بالويل، ومعنى النداء فيه: يا حزني يا هلاكي يا عذابي، احضر. فهذا وقتك وأوانك، وأضاف الويل إلى ضمير الغائب حملاً على المعنى. وعدل عن حكاية قول الجنازة "يا ويلي" كراهة أن يضيف الويل إلى نفسه)[٢].

وقال ابن حجر: (أو كأنه لما أبصر نفسه غير صالحة نفر عنها وجعلها كأنها غيره)[٣].

وقال النبي ﷺ: ((أَسْرِعُوا بِالْجِنَازَةِ، فَإِنْ تَكُ صَالِحَةً فَخَيْرٌ تُقَدِّمُونَهَا إِلَيْهِ. وَإِنْ يكُ سوى ذَٰلِكَ فَشَرٌّ تَضَعُونَهُ عَنْ رِقَابِكُمْ))[٤]، قال الطيبي: (قوله: "فخير تقدمونها إليه" يعني حاله في قبره يكون حسنًا طيبًا فأسرعوا به حتى يصل إلى تلك الحالة الطيبة عن قريب ولما لاحظ في جانب العمل الصالح هذا قابل قرينتها بوضع الشر عن الرقاب، وكان أثر عمل الرجل الصالح راحة، فأمر بإسراعه إلى ما يستريح إليه، وأثر عمل الرجل الطالح مشقة عليهم فأمر بوضع جيفته عن رقابهم، فالضمير في "إليه" راجع إلى الخير باعتبار الثواب والإكرام)[٥].

ويقول ﷺ: ((إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ. إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ. وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ. يُقَالُ: هَـٰذَا مَقْعَدُكَ حَتَّىٰ يَبْعَثَكَ اللّٰهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))[٦].

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني ١١٢/٨.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٣٦١/٣.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٢١/٣.

(٤) أخرجه البخاري ١٣١٥، ومسلم ٩٤٤.

(٥) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٣٦٠/٣ - ٣٦١.

(٦) أخرجه البخاري ١٣٧٩، ومسلم ٢٨٦٦.

قال النووي: (هذا تنعيم للمؤمن وتعذيب للكافر)[١].

وفي حديث البراء بن عازب رضي الله عنه السابق قال النبي ﷺ عن الرجل الصالح: ((وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِبُ الرِّيحِ فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، فَيَقُولُ: رَب أَقِمِ السَّاعَةَ، رَب أَقِمِ السَّاعَةَ، حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي)).

وقال ﷺ عن الكافر: ((وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ، هذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّر فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ، فَيَقُولُ: رَب لاَ تُقِمِ السَّاعَةَ))[٢].

ثالثًا - من موضوعات الدعوة: رحمة الله بالإنسان بأن لم يسمعه صوت الميت المعذب:

رحمة الله بالإنسان تشمله في جميع أحواله وشؤونه، فتشمله وهو يعيش مع الأحياء كما تلحقه وهو يدفن الأموات، هذا واضح من قول النبي ﷺ: "يسمع صوتها كل شيء إلا الإنسان، ولو سمعه صعق"، وفي حديث آخر: ((وأمّا المنافِقُ والكافرُ فيقالُ لهُ: ماكنتَ تقولُ في هذا الرجُلِ؟ فيقول: لا أدري، كنتُ أقولُ مايقولُ الناسُ. فيقال: لا دَرَيتَ ولا تَلَيتَ. ويُضرَبُ بمطَارِقَ من حديدٍ ضَربةً، فيَصيحُ صيحةً يَسمعُها مَن يَليهِ غيرَ الثقلَينِ))[٣]. (والثقلان هما الجن والإنس)[٤].

قال ابن حجر: (قوله: "لصعق" أي: لغشي عيه من شدة ما يسمعه وربما أطلق ذلك على الموت، والضمير في يسمعه راجع إلى دعائه بالويل أي: يصيح بصوت منكر لو سمعه الإنسان لغشي عليه، قال ابن بزيزة: هو مختص بالميت الذي هو غير صالح، وأما الصالح فمن شأنه اللطف والرفق في كلامه فلا يناسب الصعق من سماع كلامه انتهى. ويحتمل أن يحصل الصعق عند سماع كلام الصالح لكونه غير مألوف، وقد

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٦٦٧.

(٢) أخرجه أحمد ٢٨٨/٤ رقم ١٨٥٣٤، وقال محققوه: إسناده صحيح ٥٠٣/٣٠.

(٣) أخرجه البخاري ١٣٧٤.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ث ق ل).

روى أبو القاسم بن منده هذا الحديث في "كتاب الأهوال" بلفظ: "لو سمعه الإنسان لصعق من المحسن والمسيء" فإن كان المراد به المفعول دل على وجود الصعق عند سماع كلام الصالح أيضا)(١).

وقال المهلب - كما في فتح الباري - : (الحكمة في أن الله يسمع الجن قول الميت "قدموني" ولا يُسمِعهم صوته إذا عذب بأن كلامه قبل الدفن متعلق بأحكام الدنيا وصوته إذا عذب في القبر متعلق بأحكام الآخرة، وقد أخفى الله على المكلفين أحوال الآخرة إلا من شاء الله، إبقاء عليهم)(٢).

رابعًا - من مهام الداعي: بيان الحقائق للمدعوين:

إن الداعية يبين الحقائق للمدعوين، حتى يظهر أثر ذلك في حياتهم وأعمالهم وأفعالهم، فتتصلح دنياهم وآخرتهم، وفي هذا الحديث بيّن النبي ﷺ حال الميت وقت حمله للدفن، وأخبر أن الصالح معدّ له الخير بخلاف غير الصالح فإن العذاب قد أعدّ له، كما أخبر أنه لو سمع الناس صوت دعائه بالويل والهلاك لصعقوا.

وقد كان النبي ﷺ يبين الحقائق للمدعوين دومًا: فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ))(٣).

قال النووي: (معناه أن كل مؤمن مسجون ممنوع في الدنيا من الشهوات المحرمة والمكروهة مكلف بفعل الطاعات الشاقة، فإذا مات استراح من هذا وانقلب إلى ما أعد الله تعالى له من النعيم الدائم والراحة الخالصة من النقصان، وأما الكافر فإنما له من ذلك ما حصل في الدنيا مع قلته وتكديره بالمنغصات، فإذا مات صار إلى العذاب الدائم وشقاء الأبد)(٤).

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ بِالسُّوقِ، دَاخِلاً مِنْ بَعْضِ

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣/٢٢١.

(٢) المرجع السابق ٣/٢٨٣.

(٣) أخرجه مسلم ٢٩٥٦.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٧٠٨.

الْعَالِيَةِ، وَالنَّاسُ كَنَفَيْهِ. فَمَرَّ بِجَدْيٍ أَسَكَّ[١] مَيِّتٍ. فَتَنَاوَلَهُ فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ. ثُمَّ قَالَ: ((أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ؟)) فَقَالُوا: مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ. وَمَا نَصْنَعُ بِهِ؟ قَالَ: ((أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟)) قَالُوا: وَاللّهِ لَوْ كَانَ حَيًّا، كَانَ عَيْبًا فِيهِ، لأَنَّهُ أَسَكُّ. فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ؟ فَقَالَ: ((فَوَاللّهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللّهِ، مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ))[٢].

قال القرطبي: (ومعنى هوان الدنيا على الله: أن الله تعالى لم يجعلها مقصودة لنفسها؛ بل جعلها طريقًا موصلة إلى ما هو المقصود لنفسه، وأنه لم يجعلها دار إقامة، ولا جزاء، وإنما جعلها دار رحلة وبلاء، وأنه ملّكها في الغالب الكفرة والجهّال، وحماها الأنبياء والأولياء ... وحسبك بها هوانًا أن الله قد صغرها وحقرها وذمها وأبغضها وأبغض أهلها، ومحبيها ولم يرض لعاقل فيها إلا بالتزود منها والتأهب للارتحال عنها)[٣].

خامسًا - من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب:

أخبر النبي ﷺ أن الميت الصالح يقول: "قدموني قدموني"، ذلك للخير الذي يجده بخلاف غير الصالح فإنه يدعو بالويل والهلاك لما يجده من العذاب الذي أعد له، ولا شك أن الحالة الأولى ترغيب للناس في إصلاح العمل وأن الحالة الأخرى ترهيب لهم من إفساده.

إن الترغيب في الشيء يكون بتحسينه وتزيينه لأن النفس لا ترغب إلا فيما فيه سعادتها وصلاح أمرها، وما جاء به الشرع الحنيف كله - بعد الإقرار بالوحدانية وصدق الرسول ﷺ - لا يعدو أن يكون ترغيبًا في الخيرات وترهيبًا من المعاصي والموبقات، وثمرة ذلك حث المؤمن على الرغبة فيما عند الله تعالى والرهبة من عقابه، وقد لخص أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه عند موته حياة المؤمن الحق عندما قالوا له جزاك الله خيرًا فعلت وفعلت فقال: راغب راهب أي راغب فيما عند الله وراهب من عذابه[٤].

---

(١) أي: صغير الأذنين، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٧٠٨.

(٢) أخرجه مسلم ٢٩٥٧.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ١٠٨/٧.

(٤) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ر غ ب)، وموسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن محمد بن ملوح ٢١٢٧/٦.

الحديث رقم (٤٤٥)

٤٤٥ - وعن ابن مسعود رضي الله عنه ، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ : ((**الجَنَّةُ أقْرَبُ إِلى أحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذلك**)) رواه البخاري[1].

الشرح الأدبي

البداية بالجنة من براعة الاستهلال في الحديث؛ لأنها علم على كل نعيم محبوب، والتعبير بأفعل التفضيل (أقرب) يزيد من شوق المخاطب، وترقبه لشعوره بنعيم جد قريب، ومما يصعِّد شوق المخاطب إضافة لفظ أحد إلى كاف الخطاب، وميم الجمع في قوله (أحدكم) والتي تجعله معنياً بالحكم، وقوله :(مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ) كناية عن شدة القرب، وقوله (وَالنَّارُ مِثْلُ ذلك) أي في القرب، وفي الحديث طباق بين الجنة، والنار يؤكد معنى القرب، ويدعوا إلى الحذر من قرب النار، واغتنام فرصة القرب من الجنة بكثرة الصالحات التي يضاعفها الله تعالى فتقرب إليه الجنة.

المضامين الدعوية[2]

(١) برقم ٦٤٨٨ ، وتقدم برقم ١٠٥. أورده المنذري في ترغيبه ٤٩٠٦.

(٢) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (١٠٥).

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

الخوف وحده يدفع إلى اليأس والقنوط، والرجاء وحده يدفع إلى التحلل وعدم الالتزام، والجمع بينهما يحمل على الاتزان، ومن المضامين التربوية في أحاديث الباب ما يلي:

أولاً - التربية على الجمع بين الخوف والرجاء:

للخوف والرجاء أثر متميز في بناء الشخصية وتقويمها، ولا يمكن أن يُغلب جانب على آخر، لأن ذلك يؤدي إلى نوع من الخلل في عملية التربية، فلابد من المزج بين الخوف والرجاء، وتربية النفس على الخوف من الله تعالى، مما يدفع إلى البعد عن المعاصي والسعي الجاد في طاعة الله تعالى، ومن الشواهد على ذلك قول النبي ﷺ: «لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللّهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ، مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ. وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللّهَ مِنَ الرَّحْمَةِ، مَا قَنِطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ». ويعد ذلك توجيه تربوي نبوي في تقويم النفس وحملها على الطاعة والاستقامة بدلاً من التفريط والتسويف الذي قد يورد الإنسان المهالك، وفي المقابل لابد من الرجاء والطمع في رحمة الله تعالى، وغفرانه حتى مع الكافرين فضلاً عن المؤمنين، فإن الكافر إذا تاب وأناب إلى الله تعالى وأقر بالتوحيد وأخلص العبادة لله تعالى، غفر له ما قد سلف، قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[1].

ولذا فإن التربية على الجمع بين الخوف والرجاء تربية هادفة وجادة ومثمرة، وفيها علاج لما يعترى النفس البشرية من إفراط أو قنوط.

ثانيًا - التربية بالترغيب والترهيب:

من أساليب التربية الإسلامية أسلوب الترغيب والترهيب، وهو من الأساليب التي استمدها الرسول ﷺ وعمل على تعميقها في نفوس الصحابة رضي الله عنهم، ومن الشواهد

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٣٨.

على ذلك في أحاديث الباب. عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ، مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ. وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ، مَا قَنِطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ». وقول في الجنازة: "إذا وضعت الجنازة واحتملها الناس... فإن كانت صالحة... وإن كانت غير صالحة، قالت: يا ويلها أين تذهبون..."، فهذه توجيهات نبوية تربوية تحث على طاعة الله تعالى والبعد عن المعاصي وأن رحمة الله واسعة وأن عذابه شديد، "واستخدم الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الأسلوب هنا لأن الترغيب والترهيب أمران يقومان على الخوف والرجاء، وهما خطان متقابلان في النفس الإنسانية، فقد استخدم صلى الله عليه وسلم الترغيب بالجنة والطمع فيها بالترغيب عن طريق تحريك دوافع الخير وتنشيطها، واستخدم الترهيب هنا فيما أعده للمفسدين والمنحرفين عن سبل السلام"[1].

ولذا جاءت النتيجة لمن أثر فيه هذا الأسلوب عند جنازته من حيث الصلاح والخيرية، ومن حيث الشقاء وعدم التنفيذ فإن كانت صالحة قالت قدموني، وإن كانت غير صالحة قالت ياويلها أين تذهبون بها، من هذه التوجيهات التربوية يُعلّم الرسول صلى الله عليه وسلم الصحابة "القدرة على التمييز بين ما يضر وما ينفع كما أنهم يستطيعوا أن يستجيبوا لأوامر التكليف فيمتنع عما نهى عنه والعمل بما أمر به، مما يجعل للترغيب والترهيب أثر في سلوكه.

لكن وضع أهل التربية عوامل لنجاح هذا الأسلوب:

١ - قوة الترغيب والترهيب، فلابد أن يكون هذا الأسلوب قوياً ليقوي عند الإنسان عامل الخوف والرجاء.

٢ - مصدر الترغيب والترهيب، قوة الترغيب والترهيب تتأثر من حيث فعاليتها بالمصدر الذي ورد منه، فإن كانت من الله ورسوله كانت مصدر قوة.

٣ - مراعاته لحاجات الإنسان: من أبرز عوامل نجاح الترغيب والترهيب مراعاته لحاجات الإنسان.

---

(١) أصول التربية الإسلامية الحازمي، ص٣٩٤، أساليب التربية الإسلامية، عبدالرحمن البابطين، ص٣١.

من هذه العوامل التي استنتجها أهل التربية من توجيه المصطفى ﷺ تنجح عملية التربية في الإصلاح عن طريق الترغيب والترهيب[1].

❁ ❁ ❁

(١) أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي، ص٥٩٥.

٥٤ - باب فضل البكاء من خشية الله تعالى وشوقًا إليه

قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾[الإسراء: ١٠٩]، وقال تَعَالَى: ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴾[النجم: ٥٩].

الحديث رقم (٤٤٦)

٤٤٦ - وعن ابن مسعود رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ لِي النَّبيُّ ﷺ: ((اقْرَأْ عليَّ القُرْآنَ)) قلت: يَا رسول اللّهِ، أقرأُ عَلَيْكَ، وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟! قَالَ: ((إنِّي أُحِبُّ أنْ أسْمَعَهُ مِنْ غَيرِي)) فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ سورةَ النِّسَاءِ، حَتَّى جِئْتُ إِلى هذِهِ الآية: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾[النساء: ٤١] قَالَ: ((حَسْبُكَ الآنَ)) فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ فإذا عَيْنَاهُ تَذْرِفَان. متفقٌ عَلَيْهِ[(١)].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

غريب الألفاظ:

حسبُكَ الآن: يكفيك ذلك[(٢)].

تذرفان: يجري ويسيل دمعهما[(٣)].

قول الراوي (قال لي النبي ﷺ) له خصوصية من وجهين: الأول أنه اختصاص لنفسه ونفي عن غيره؛ لأنه قدم الجار والمجرور على الفاعل فأفاد الاختصاص، وتركيب عبارته يوحي باعتزازه بقول النبي ﷺ له هذا القول، ثانياً: أنه سمع بنفسه، وهو الذي نقل الحديث، وأحد طرفي الحوار مما يزيد الخبر الذي يرويه تأكيداً،

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٥٠)، ومسلم (٢٤٧/٨٠٠) والسياق للحميدي في جمعه (٢٢٤/١، رقم ٢٦٢).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ح س ب).

(٣) المرجع السابق في (ذ ر ف).

ومقول القول هو أمر النبي له ﷺ قوله (اقْرَأْ عليَّ القُرآنَ) وتقديم حرف الجر المتصل بياء المتكلم على المفعول به للاختصاص أي عليَّ أنا لا غيري، وهذا الاختصاص لاعتقاد المخاطب أنه يريد أن يقرأ على غيره، ولذلك جاء نداؤه بـ(يا) التي ينادى بها البعيد مع قربه إشارة إلى بعد مكانته، ثم ناداه بلقبه، وأضافه لربه، وكأنه يذكره بمنزلته (رسول الله) ثم تلاه استفهام التعجب (يَا رسول اللهِ، أقرأُ عَلَيْكَ، وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ ؟!) وقدم الجار والمجرور على الفعل أي نزل عليك لا على غيرك، وقد جاء رد النبي ﷺ معللاً للأمر، وقد أكد الخبر لينزع من نفسه تلك الحالة من التعجب (إِنِّي أُحِبُّ أنْ أسْمَعَهُ مِنْ غَيرِي) فقرأ ابن مسعود، واستمع الرسول ﷺ حتى قال له (حَسْبُكَ الآنَ)، وقوله (فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ فإذا عَيْنَاهُ تَذْرِفَان) والفعل التفت فيه مفاجأة قررتها(إذا) قال ابن القيم: وأما بكاؤه ﷺ فكان من جنس ضحكه لم يكن بشهيق ورفع صوت كما لم يكن ضحكه بقهقهة ولكن كانت تدمع عيناه حتى تهملا، ويسمع لصدره أزيز، وكان بكاؤه تارة رحمة للميت، وتارة خوفاً على أمته، وشفقة عليها، وتارة من خشية الله، وتارة عند سماع القرآن، وهو بكاء اشتياق، ومحبة، وإجلال مصاحب للخوف، والخشية.

فقه الحديث

هذا الحديث يشير إلى الأحكام الفقهية التالية:

١ - التنبيه على أن الفاضل لا يأنف من الأخذ عن المفضول(١).

٢ - تواضع أهل العلم والفضل ولو مع أتباعهم(٢).

٣ - حكم الاستماع لقراءة القرآن: ذهب بعض الحنفية إلى أن الاستماع إلى تلاوة القرآن الكريم حين يقرأ واجب كفائي إن لم يكن هناك عذر مشروع لترك الاستماع، وذهب البعض الآخر إلى أنه واجب عيني.

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٢/٣٢٠.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦/٨٠.

وذهب الحنابلة إلى أنه يستحب استماع قراءة القرآن الكريم[(١)].

٤ - استحباب البكاء عند استماع القراءة، لحديث الباب، ولقوله ﷺ: ((إنَّ هذا القُرآن نزل بحُزن فإذا قرأتموه فابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا))[(٢)].

كما يستحب تدبرها، لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[(٣)].

٥ - استحباب طلب القراءة من غيره ليستمع له، خاصة ممن يعلم منه إجادة التلاوة للقرآن الكريم مع حسن الصوت، وهو أبلغ من التفهم والتدبر من قراءته بنفسه.

قال النووي: (اعلم أن جماعات من السلف رضوان الله عليهم كانوا يطلبون من أصحاب القراءة بالأصوات الحسنة أن يقرؤوا وهم يستمعون، وهذا متفق على استحبابه، وهو من عادة الأخيار المتعبدين وعباد الله الصالحين، وهو سنة ثابتة عن رسول الله ﷺ)[(٤)].

٦ - جواز أمر الغير بقطع القراءة للمصلحة[(٥)].

فاستماع القرآن والتفهم لمعانيه من الآداب المحثوث عليها، لذا يكره التحدث بحضور القراءة، قال أبو محمد بن عبدالسلام: والاشتغال عن السماع بالتحدث بما لا يكون أفضل من الاستماع، سوء أدب على الشرع، وهو يقتضي أنه لا بأس بالتحدث للمصلحة[(٦)].

---

(١) رد المحتار على الدر المختار ابن عمر عابدين، تحقيق: علي محمد معوض ١/٣٦٦، وشرح منتهى الإرادات، منصور بن يوسف البهوتي ١/٢٤٢.

(٢) أخرجه ابن ماجه ١٣٣٧، وضعفه الألباني (ضعيف سنن ابن ماجه ٢٨١).

(٣) سورة محمد، آية: ٢٤.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦/٨٠، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢/١٦٧.

(٥) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٢/٣٢١.

(٦) البرهان في علوم القرآن ١/٤٧٥.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: استحباب استماع القرآن الكريم والإصغاء إليه.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: جواز طلب التوقف عن قراءة القرآن الكريم إذا كانت هناك مصلحة.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: استحباب البكاء عند قراءة القرآن الكريم.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: أهمية التدبر والاعتبار عند سماع القرآن الكريم.

خامسًا: من وسائل الدعوة: التعليم.

أولاً - من موضوعات الدعوة: استحباب استماع القرآن الكريم والإصغاء إليه:

القرآن الكريم كلام الله عز وجل، أنزله سبحانه لهداية الناس، فكان من المستحب استماع القرآن الكريم والإصغاء عند تلاوته يتضح ذلك من قول النبي ﷺ لابن مسعود: (اقرأ عليّ القرآن، فقال ابن مسعود رضي الله عنه: يا رسول الله أنا أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: إني أحبُّ أن أسمعه من غيري).

قال ابن هبيرة: (في هذا الحديث أن القرآن في سماعه ثواب كما في تلاوته)[1].

قال النووي: (في حديث ابن مسعود هذا فوائد منها: استحباب استماع القراءة والإصغاء لها. واستحباب طلب القراءة من غيره ليستمع له وهو أبلغ في التفهم والتدبر من قراءته بنفسه وفيه تواضع أهل العلم والفضل ولو مع أتباعهم)[2].

وقال أيضًا: (اعلم أن جماعات من السلف كانوا يطلبون من أصحاب القراءة بالأصوات الحسنة أن يقرءوا وهم يستمعون، وهذا متفق على استحبابه وهو من عادة الأخيار المتعبدين وعباد الله الصالحين، وهو سنة ثابتة عن رسول الله ﷺ فقد صحّ عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: "اقرأ عليّ ..." الحديث، وروى الدارمي وغيره بأسانيدهم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يقول لأبي موسى

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٢/ ٥٠.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٣٧.

الأشعري رضي الله عنه: (ذكرّنا ربنا)، فيقرأ عنده القرآن)[١].

جاء في الموسوعة الفقهية: "يستحب للمسلم أن يطلب ممن يعلم منه إجادة التلاوة للقرآن الكريم مع حسن الصوت، التلاوة ليستمع إليها".

والآثار في هذا كثيرة معروفة، قال النووي: (وقد استحب العلماء أن يستفتح مجلس حديث النبي صلى الله عليه وسلم ويختم بقراءة قارئ حسن الصوت مما تيسر من القرآن. وقد صرّح الحنفية بأن استماع القرآن الكريم أفضل من قراءة الإنسان القرآن بنفسه، لأن المستمع يقوم بأداء فرض بالاستماع، بينما قراءة القرآن ليست بفرض)[٢].

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: جواز طلب التوقف عن قراءة القرآن الكريم إذا كانت هناك مصلحة:

إن نفس المؤمن لا تشبع من تلاوة القرآن ومن الإصغاء إليه، لكن قد يعرض له ما يجعله يطلب من القارئ أن يتوقف عن القراءة فكان له أن يفعل ذلك إذا كانت هناك مصلحة في ذلك. هذا واضح من قول النبي صلى الله عليه وسلم: "حسبك الآن"، فالتفت ابن مسعود رضي الله عنه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فإذا عيناه تذرفان.

فالنبي صلى الله عليه وسلم طلب منه أن يتوقف نظرًا لبكائه صلى الله عليه وسلم، وقد بوّب البخاري على هذا الحديث باب: قول المقرئ للقارئ: حسبك[٣]. وقال ابن هبيرة: (فيه من الفقه أنه يجوز لمن يقرأ، عنده القرآن أن يقول للقارئ: حسبك)[٤].

ويمكن أن يستأنس في هذا المقام بما رواه نافع مولى ابن عمر قال: (كان ابن عمرَ رضي الله عنهما إذا قرأَ القرآن لم يتكلم حتى يَفرُغَ منه، فأخذتُ عليه يومًا، فقرأَ سورةَ البقرةِ حتى انتهى إلى مكانٍ قال: تدري فيمَ أُنزِلتْ؟ قلتُ: لا. قال: أُنزِلت في كذا وكذا. ثمَّ مضى)[٥].

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات ١٠٩/٤.

(٢) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٨٧/٤ ومراجعها.

(٣) صحيح البخاري رقم ٥٠٥٠.

(٤) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٥٠/٢.

(٥) أخرجه البخاري ٤٥٢٦.

وقال السيوطي: (يكره قطع القراءة لمكالمة أحد، قال الحليمي: لأن كلام الله لا ينبغي أن يُؤْثَر عليه كلام غيره، وأيده البيهقي بما في الصحيح: كان ابن عمر إذا قرأ القرآن لم يتكلم حتى يفرغ منه، ويكره أيضًا الضحك والعبث والنظر إلى ما يلهي)[١].

ثالثًا - من موضوعات الدعوة: استحباب البكاء عند قراءة القرآن الكريم:

نزل القرآن موعظة وذكرى للذاكرين، فيه تبشير وتحذير، وفيه حديث عن أهوال يوم القيامة وعن الجنة والنار، كُل هذا يأخذ بالألباب والقلوب فكان المناسب أن يقع عند ذلك البكاء، هذا واضح من قول ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: "فإذا عيناه تذرفان".

قال ابن حجر: (والذي يظهر أنه بكى رحمة لأمته، لأنه لا بد أن يشهد عليهم بعملهم، وعملهم قد لا يكون مستقيمًا فقد يفضي إلى تعذيبهم)[٢].

قال النووي: (وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه هذا فوائد منها استحباب استماع القراءة والإصغاء لها والبكاء عندها وتدبرها)[٣].

وقال القرطبي: (قال علماؤنا: بكاء النبي صلى الله عليه وسلم إنما كان لعظيم ما تضمنته هذه الآية من هول المطلع وشدة الأمر؛ إذ يؤتى بالأنبياء عليهم السلام شهداء على أممهم بالتصديق والتكذيب ويؤتى به صلى الله عليه وسلم شهيدًا على أمته وغيرهم)[٤].

قال العيني: (في بكاء النبي صلى الله عليه وسلم وجوه: الأول: قال ابن الجوزي: بكاؤه صلى الله عليه وسلم عند هذه الآية الكريمة لأنه لا بد من أداء الشهادة والحكم على المشهود وعليه إنما يكون بقول الشاهد، فلما كان صلى الله عليه وسلم هو الشاهد وهو الشافع بكى على المفرطين منهم[٥].

---

(١) الإتقان ٣٠٦/١ - ٣٠٧، وانظر: البرهان ٤٦٤/١، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٥٨/١٣.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧١٨/٨.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٣٧.

(٤) التذكار في أفضل الأذكار، محمد بن أحمد القرطبي المفسر ص ١٥٠.

(٥) انظر: الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٥٠/٢.

الثاني: أنه بكى لعظم ما تضمنته هذه الآية الكريمة من هول المطلع وشدة الأمر إذ يؤتى بالأنبياء عليهم السلام شهداء على أممهم بالتصديق والتكذيب.

الثالث: أنه بكى فرحًا لقبول شهادة أمته ﷺ يوم القيامة وقبول تزكيته لهم في ذلك اليوم العظيم)[1].

وقال النووي: (ويستحب البكاء والتباكي لمن لا يقدر على البكاء، فإن البكاء عند القراءة صفةُ العارفين وشعار عُباد الله الصالحين، قال تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾[2])[3].

قال القرطبي: (هذا مدح لهم، وحق لكل من توسم العلم وحصّل منه شيئًا أن يجري إلى هذه المرتبة، فيخشع عند استماع القرآن ويتواضع ويذل)[4].

قال ابن حجر: (قال الغزالي: يستحب البكاء مع القراءة وعندها وطريق تحصيله أن يحضر قلبه الحزن والخوف بتأمل ما فيه من التهديد والوعيد الشديد والوثائق والعهود، ثم ينظر تقصيره في ذلك، فإن لم يحضره حزنٌ فليبكِ على فقد ذلك وأنه من أعظم المصائب)[5].

رابعًا - من موضوعات الدعوة: أهمية التدبر والاعتبار عند سماع القرآن الكريم:

إن القرآن الكريم كتاب هداية، ولا تأتي هذه الهداية إلا بالتدبر والاعتبار عند سماع القرآن الكريم أو قراءته، ولهذا قد يطلب المسلم من أخيه المسلم أن يقرأ عليه القرآن ليتدبره ويتعظ به، وهو في ذلك يتأسى بالنبي ﷺ الذي طلب من ابن

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني ١٧٤/١٨.

(٢) سورة الإسراء، آية: ١٠٩.

(٣) الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار، الإمام النووي، تحقيق: محيي الدين مستو ١٣٣.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٣٤١/١٠/٥، وانظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٧٢/٨.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧١٧/٨، وانظر: الإتقان ٣٠١/١ - ٣٠٢.

مسعود رضي الله عنه أن يقرأ عليه القرآن، قال النووي: (وفيه استحباب طلب القراءة من غيره ليستمع له وهو أبلغ في التفهم والتدبر من قراءته بنفسه)[١].

وقال ابن حجر: (قال ابن بطال: يحتمل أن يكون أحبَّ أن يسمعه من غيره ليكون عرض القرآن سنة، ويحتمل أن يكون لكي يتدبره ويتفهمه، وذلك أن المستمع أقوى على التدبر ونفسه أخلى وأنشط لذلك من القارئ، لاشتغاله بالقراءة وأحكامها)[٢].

وقال ابن القيم: (إذا أردت الانتفاع بالقرآن، فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألق سمعك واحضر حضور مَنْ يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه، فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم)[٣].

وقال السيوطي: (ويسن الاستماع لقراءة القرآن وترك اللغط والحديث بحضور القراءة، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[٤])[٥].

وقال الزركشي: (واستماع القرآن والتفهم لمعانيه من الآداب المحثوث عليها ويكره التحدث بحضور القراءة، قال الشيخ أبو محمد بن عبد السلام: والاشتغال عن السماع بالتحدث بما لا يكون أفضل من الاستماع سوء أدب على الشرع، وهو يقتضي أنه لا بأس بالتحدث للمصلحة)[٦].

وقال العز بن عبدالسلام: (استماع القرآن أدب، ثمرته فهم معانيه والعمل بمواجبه)[٧].

وخلاصة القول أنه ينبغي على المسلم عند تلاوة القرآن أو استماعه آداب كثيرة منها الآداب القلبية، ومنها:

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٣٧.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧١٢/٨.

(٣) الفوائد، ابن القيم ص ١٥.

(٤) سورة الأعراف، آية: ٢٠٤.

(٥) الإتقان ٣٠٩/١ - ٣١٠.

(٦) البرهان في علوم القرآن، الزركشي ٤٧٥/١.

(٧) شجرة المعارف والأحوال، العز بن عبدالسلام ٣١٢.

١ - معرفة أصل الكلام: وهو التنبيه إلى عظمة الكلام المقروء وعلوه وإلى تفضل الله تعالى ولطفه بخلقه حيث خاطبهم بهذا الكلام العظيم الشريف وتكفل -تفضلاً منه ورحمة - بتيسير إفهامهم إياه.

٢ - تعظيم مُنزله لأن الذي يقرؤه ليس من كلام البشر خاصة إذا تفكر في صفات الله وأسمائه وأفعاله.

٣ - حضور القلب عند التلاوة.

٤ - تدبر المقروء والمسموع إذ لا خير في عبادة لا فقه فيها.

٥ - أن يتفاعل قلبه مع كل آية بما يليق بها.

٦ - أن يستشعر بأن كل خطاب في القرآن موجه إليه شخصيًا.

٧ - أن يتأثر بكل آية يتلوها.

٨ - التخلي من موانع الفهم.

٩ - أن يتبرأ من حوله وقوته[١].

خامسًا - من وسائل الدعوة: التعليم:

لقد طلب النبي ﷺ من ابن مسعود رضي الله عنه أن يقرأ عليه، ثم طلب منه التوقف بسبب بكائه ﷺ، وهذا كله تعليم، وهو وسيلة ذات فائدة كبيرة في الدعوة، قال ابن حجر عن حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه في صفة وضوء النبي ﷺ[٢]. (وفي الحديث التعليم بالفعل لكونه أبلغ وأضبط للمتعلم)[٣].

فقد أراد النبي ﷺ أن يعلم الصحابة رضي الله عنهم والأمة ذلك عمليًا من خلال طلبه من ابن مسعود رضي الله عنه أن يقرأ عليه القرآن، ثم استوقفه النبي ﷺ فإذا عيناه تذرفان. وتلك وسيلة تعليمية بالغة التأثير في نفوس المدعوين فإنها تبيّن لهم ما ينبغي أن يكون عليه المسلم حال الاستماع للقرآن من تدبر وخشوع، وأهمية ذلك.

---

(١) انظر: حق التلاوة، حسني شيخ عثمان ص ٣٩٩، ٤٠٠.

(٢) أخرجه البخاري ١٥٩، ومسلم ٢٢٦.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١/٣١٢.

الحديث رقم (٤٤٧)

٤٤٧ - وعن أنس رضي الله عنه ، قَالَ: خطب رسول الله ﷺ خُطْبَةً مَا سَمِعْتُ مِثْلَهَا قَطُّ، فقال: ((لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أعْلَمُ، لَضَحِكْتُمْ قَليلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا)) قَالَ: فَغَطَّى أصْحَابُ رسول الله ﷺ وُجُوهَهُمْ، وَلَهُمْ خَنِينٌ. متفقٌ عَلَيْهِ[1]. وَسَبَقَ بَيَانُهُ فِي بَابِ الخَوْفِ[2].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

الخَنين: بكاءٌ دون الانتحاب[3].

الشرح الأدبي والمضامين الدعوية[4]

---

(١) أخرجه البخاري ٤٦٢١. أورده المنذري في ترغيبه ٤٩٤٩.

تنبيه: الحديث بهذا اللفظ لم يخرجه مسلم، راجع تعليقنا عليه عند الحديث رقم ٤٠١.

(٢) تقدم برقم ٤٠١.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (خ ن ن).

(٤) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (٤٠١).

الحديث رقم (٤٤٨)

٤٤٨ - وعن أَبي هريرة رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: ((**لا يَلِجُ النَّارَ رَجُلٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللهِ حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ، وَلاَ يَجْتَمِعُ غُبَارٌ في سبيلِ اللهِ وَدُخَانُ جَهَنَّمَ**)) رواه الترمذيُّ[1]، وقال: (حديثٌ حَسنٌ صحيحٌ).

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

لا يلجُ: لا يدخل[2].

الضَّرْع: مدرُ اللبن من الشاة والبقر، وهو كالثدي للمرأة[3].

الحديث يشير إلى فضل البكاء من خشية الله والحديث يبدأ بأسلوب النفي العام، وعمومه جاء من وقوع الفاعل نكرة في سياق النفي وهو ما يجعله شاملاً غير مقصور على أحد بعينه، وإنما كل من بكى من خشية الله، والتعبير بالفعل الماضي يشير إلى تحقق الوقوع و(من) تفيد السببية، والتعبير بالخشية؛ لأنها نوع من الرهبة ممزوج بالإجلال، وإضافتها لله تخصيص، وقوله (حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ) تعليق على مستحيل يؤكد معنى الجملة السابقة، ومعناه استحالة، ولوج الباكي من خشية الله النار، وقوله: (وَلاَ يَجْتَمِعُ غُبَارٌ في سبيلِ اللهِ وَدُخَانُ جَهَنَّمَ)، لأن بينهما ما يشبه التضاد فالغبار في الدنيا، وغبار جهنم في الآخرة لذلك يستحيل أن يجتمعا فثبت بالطريقة العقلية أن المجاهد لا يدخل النار، وبناء عبارة النبي على هذا النمط يفتح باب الأجر لكل من شارك في الجهاد بأي مشاركة، ولو بدون قتال مباشر كخدمة المجاهدين

---

(١) برقم ١٦٣٣ وصحّحه ابن حبان، الإحسان ٤٦٠٧، وقال الحاكم ٢٦٠/٤: هذا حديث صحيح الإسناد ولن يخرجاه. اورده المنذري في ترغيبه ١٩١٦.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (و ل ج).

(٣) معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ٢٥٤.

والجرحى، ورعاية ركائبهم، وغيرها، ولذلك قال (في سبيل الله) أي طريقه ما دامت لله، وهذا يحقق الأجر لأضعاف المجاهدين، ويمكن غير القادر على القتال من المشاركة بما يستطيع من جهد.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل البكاء من خشية الله.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل الجهاد في سبيل الله.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: النفي.

أولاً - من موضوعات الدعوة: فضل البكاء من خشية الله:

إن البكاء من خشية الله دليل على صدق الإيمان وما يصاحب ذلك من خشوع وخضوع وتذلل وإنابة وتضرع إليه سبحانه، لذلك كان له فضل عظيم، وهذا ما أخبر به النبي ﷺ فقال: ((لا يَلِجُ النَّارَ رَجُلٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ الله حتى يَعُودَ اللَّبنُ فِي الضَّرْعِ)). وفي رواية النسائي: ((لاَ يَبْكِي أَحَدٌ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ فَتَطْعَمَهُ النارُ حَتَّى يُرَدَّ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ ولا يجتمع غبارٌ في سبيلِ الله ودخانُ جهنم في منخري مسلم أبدًا))[١].

قال السندي: (قوله: "فتطعمه النار" من طعم أي فتأكله النار ..."حتى يرد"، من التعليق بالمحال العادي ليدل على أن دخول الباكي من خشية الله في النار محال، وقبله قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾[٢]. ولعل الله تعالى لا يوفق للبكاء من الخشية إلا من أراد له النجاة من النار ابتداءً)[٣].

قال ابن علان: ("من" فيه تعليلية أي لخشية الله الداعية إلى امتثال الأوامر واجتناب النواهي، ومن كان كذلك لا يلجها بالوعد الكريم إلا تحلّة القسم. وقوله: "حتى يعود اللبن في الضرع" أي: يدخل من مسامه إليه، أي وذلك محال عادة، فتعلق ولوج الخائف

---

(١) أخرجه النسائي ٣١٠٧، وصححه الألباني (صحيح سنن النسائي ٢٩١٠)

(٢) سورة الأعراف، آية: ٤٠.

(٣) حاشية السندي على سنن النسائي ٣١٩/٥.

الوجِلُ من الله تعالى العارف بجلاله القائم بما تقتضيه الخشية من امتثال الأوامر واجتناب النواهي، بعود اللبن إلى الضرع، والمراد بالولوج الدخول فيها، فلا ينافي وجوب المرور عليها المفسر به الورود. أما من لم يقم بقضية الخشية مما ذكر ومات على غير الشرك من المعاصي فأمره إلى مولاه، إن شاء أدخله الجنة مع الفائزين وعفا عنه ما جناه. وإن حبسه بالنار قدر ما سبق في علمه. ثم أدخله الجنة لإيمانه؛ بمحض فضله)[(١)].

وقد ورد في فضل البكاء من خشية الله كثير من الأحاديث، من ذلك أن من اتصف بذلك يكون في ظل الله يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله، فقد قال النبي ﷺ: ((سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله" الحديث، منهم "رجل ذكر الله ففاضت عيناه))[(٢)].

قال النووي: "فيه فضيلة البكاء من خشية الله تعالى"[(٣)].

وقال النبي ﷺ: "عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله"[(٤)].

(والمؤمن يعيش في جهاد مع نفسه ويراقب الله في جميع أفعاله وتصرفاته، فهو يخاف الله ويَبْكي عند ذكره سبحانه تعالى، فهذا من المخبتين الذين بشرهم الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۝٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[(٥)]. وهم الذين عناهم الله بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[(٦)].

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٦٨٣-٦٨٤.

(٢) أخرجه البخاري ٦٦٠، ٦٤٧٩، ومسلم ١٠٣١.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦٥٤.

(٤) أخرجه الترمذي ١٦٣٩، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٣٣٨).

(٥) سورة الحج، الآيتان: ٣٤-٣٥.

(٦) سورة الأنفال، آية: ٢.

ومما قاله القرطبي[١] في تفسير هذه الآية، مع الإشارة إلى غيرها من الآيات القريبة منها في المعنى: وصف الله تعالى المؤمنين في هذه الآية بالخوف والوجل عند ذكره. وذلك لقوة إيمانهم ومراعاتهم لربهم، وكأنهم بين يديه، ونظير هذه الآية ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ وقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[٢]. فهذا يرجع إلى كمال المعرفة وثقة القلب، والوجل: الفزع من عذاب الله. فلا تناقض، وقد جمع الله بين المعنيين في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[٣] أي تسكن نفوسهم مع الله من حيث اليقين، وإن كانوا يخافون الله. فهذه حالة العارفين بالله الخائفين من سطوته وعقوبته)[٤].

إن البكاء من خشية الله من صفات عبادة المؤمنين، فهم دائمو الذكر لله تعالى والاستحضار لعظمته تمتلئ قلوبهم وجلاً منه وتفيض أعينهم بالدموع خشية له خاصة إذا ما تليت آيات الله، قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾[٥]، وقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾[٦].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ٤/٧/٢٦٥-٢٦٦.

(٢) سورة الرعد، آية: ٢٨.

(٣) سورة الزمر، آية: ٢٣.

(٤) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٨/١٦٨-١٦٩.

(٥) سورة الإسراء، آية: ١٠٧-١٠٩.

(٦) سورة مريم، آية: ٥٨.

قال الحسن البصري: (إن المؤمنين قوم ذلت والله منهم الأسماع والأبصار والأبدان حتى حسبهم الجاهل مرض، وهم والله أصحاب القلوب، ألا تراه يقول: ﴿ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ﴾[(١)] والله لقد كابدوا في الدنيا حزنًا شديدًا ما أحزن الناس ولكن أبكاهم وأحزنهم الخوف من النار)[(٢)].

إن البكاء دليل على خشية العبد لله ومراقبته له فهو يورث الخوف من الله وهو علامة على صحة الإيمان ودليل على رقة القلب واستقامته[(٣)].

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: فضل الجهاد في سبيل الله:

أعدّ الله سبحانه للمجاهدين في سبيل الله الفضل العظيم في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا النصر أو الشهادة، وفي الآخرة الابتعاد عن النيران ودخول الجنان، وهذا ما بينه النبي ﷺ ((ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم))[(٤)]. قال السندي: (فيه أن المسلم الحقيقي إذا جاهد لله خالصًا لا يدخل النار وعلى هذا فمن علم في حقه خلافه فلابد ألا يكون مسلمًا بالتحقيق)[(٥)].

وقد قال الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[(٦)].

---

(١) سورة فاطر، آية: ٣٤.

(٢) التخويف من النار، ابن رجب الحنبلي، ص ٢٣.

(٣) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن محمد بن ملوح ٤٨٢/٣.

(٤) أخرجه البخاري ٩٠٧.

(٥) حاشية السندي على سنن النسائي ٣١٩/٥.

(٦) سورة التوبة، آية: ١٢٠.

وقال رسول الله ﷺ "من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمه الله على النار". وفي رواية: ((مَا اغْبَرَّتْ قَدَمَا عَبْدٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ فَتَمَسَّهُ النَّارُ))[١]. وقد جعل البخاري هذا الحديث تحت الآية السابقة[٢].

قال ابن حجر: (قال ابن المنير: مطابقة الآية من جهة أن الله أثابهم بخطواتهم وإن لم يباشروا قتالاً، وكذلك دل الحديث على أن من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمه الله على النار سواء باشر قتالاً أم لا. أ. هـ، ومن تمام المناسبة أن الوطء يتضمن المشي المؤثر لتغبير القدم)[٣].

وقال ابن حجر كذلك: ("وقوله فتمسه النار" المعنى أن المس ينتفي بوجود الغبار المذكور. وفي ذلك إشارة إلى عظيم قدر التصرف في سبيل الله، فإذا كان مجرد مس الغبار للقدم محرم عليها النار فكيف بمن سعى وبذل جهده واستنفد وسعه)[٤].

وقال جابر بن عبدالله رضي الله عنهما: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((مَنْ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ في سبيلِ الله حَرَّمَهُمَا الله على النارِ)) فوثب الناس عن دوابِّهم. فما رأينا يومًا أكثر ماشيًا منه[٥].

ثالثًا – من أساليب الدعوة: النفي:

استخدم النبي ﷺ أسلوب النفي ليعبر ﷺ عن فضل البكاء من خشية الله، وفضل غبار الأقدام في سبيل الله، فعبر عن ذلك بأن نفى دخول من فعل أيًا منهما النار. ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾[٦].

---

(١) أخرجه البخاري، ٢٨١١/٩٠٧.

(٢) كتاب الجهاد: باب من اغبرت قدماه في سبيل الله، الحديث:٢٨١١.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٦/٦.

(٤) المرجع السابق ٣٦/٦.

(٥) أخرجه ابن حبان في صحيحه ٤٦٠٤، وقال محققه: حديث صحيح.

(٦) سورة الأعراف، آية: ٤٠.

قال الطاهر بن عاشور: (قد جعل لانتفاء دخولهم الجنة امتدادًا مستمرًا، إذ جعل غايته شيئًا مستحيلاً، وهو أن يلج الجمل في سم الخياط أي لو كانت لانتفاء دخولهم الجنة غاية لكانت غايته ولوج الجمل وهو البعير في سم الخياط وهو أمر لا يكون أبدًا)[1].

(١) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور ٨/١٢٧.

الحديث رقم (٤٤٩)

٤٤٩ – وعنه، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: ((سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إلاَّ ظِلُّهُ: إمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بالمَسَاجِدِ، وَرَجُلانِ تَحَابّا فِي الله اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إنِّي أَخَافُ الله، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأخْفَاهَا حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُه مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ الله خَالِيًا ففاضت عَيْنَاهُ)) متفقٌ عَلَيْهِ[١].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي والمضامين الدعوية[٢]

(١) أخرجه البخاري واللفظ له ١٤٢٣، ومسلم ٩١/١٠٣١. أورده المنذري في ترغيبه ٤٨٦. تقدم برقم ٣٧٦.

(٢) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (٣٧٦).

الحديث رقم (٤٥٠)

٤٥٠ - وعن عبد الله بن الشِّخِّير ﵁، قَالَ: أتيتُ رسولَ الله ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي ولِجَوْفِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ المِرْجَلِ مِنَ البُكَاءِ. حديث صحيح رواه أَبو داود، والترمذيُّ في الشمائل[1]، بإسناد صحيح.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن الشِّخِّير: وهو عبدالله بن الشِّخِّير بن عوف بن كعب بن وَقْدان بن الحَرِيش بن كعب بن ربيعة بن عامر، الحَرَشيّ، ثم الكعبي، ثم العامريّ، من الحَريش، وهم بطن من بني عامر بن صعصعة.

((وفد إلى النبي ﷺ في رَهْط بني عامر))[2]. له صحبة ورواية، روى عن النبي ﷺ وروى له الجماعة سوى البخاري.

وهو في عداد البصريين، نزل البصرة، وَوَلَدُه بها[3].

غريب الألفاظ:

أزيز: خنين من الخوف وهو صوت البكاء. وقيل: هو أن يجيش جوفُه ويغلي بالبكاء[4].

---

(١) أخرجه أبو داود ٩٠٤، والترمذي في الشمائل ٣٢٢ واللفظ له. وصحّحه ابن خزيمة ٩٠٠، وابن حبان، الإحسان ٧٥٣، وقال الحاكم ٢٦٤/١: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. أورده المنذري في ترغيبه ٧٦٢.

(٢) أخرجه أحمد ٢٣٧/٢٦، حديث رقم ١٦٣١١، وقال محققو المسند: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٣) طبقات ابن سعد ٣٤/٧، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر ٤٤٠، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود ٢٧٥/٣، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن علي العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ٧٨٧، ٧٨٨، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين ١٦٠/٤، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٣٥٢/٢، والسندي ٢٣٢/٢٦.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (أ ز ز).

المرجل: الإناء الذي يُغلى فيه الماء[١].

جمع الله لرسوله بين علم اليقين، وعين اليقين، كما جمع له بين الخشية القلبية، واستحضار العظمة الإلهية على وجه لم يجتمع لبشر غيره، فإذا قام لله تعالى اجتمعت هذا الأمور، وتزاحمت معاني الكمال، والجلال، والهيبة في صدره حتى يمتلأ بها فتفيض منه أزيزاً يرتج منه جسده، ودمعاً تفيض به عيناه، وهذا سر تعبير الصحابي بالأزيز، وهو حركة الإناء إذا غلى، وامتلأ، وتشبيه أزيز جوف الرسول ﷺ بأزيز المرجل يوحي بعدة دلالات منها: امتلأ صدره بهذه المعاني التي لا يحيط بها الوصف، وتزاحمها فيه، كما يوحي بشدة حرارة الشوق إلى ربه مع استشعاره لمقام الربوبية رعاية، وتربية، وحفظاً مع مقام الإلهية تعظيماً، وإجلالاً، وهيبة، يفهم ذلك من الصورة التشبيهية المعروفة عن شدة حرارة المرجل الذي لا يغلي إلا عند اشتدادها، كما يفهم من أزيز المرجل، واضطرابه بما حوله من نيران مشتعلة، قلق الرسول ﷺ وهمه بأمته، وقد أعلمه الله ما ستمر به من الأهوال، وهو لا ينساها في هذا الموقف بين يدي الله يدعوه أن يرحمهم، وأن يقيل عثراتهم فقلبه أعظم القلوب حناناً، وأكثرهم بالله علماً، وإيماناً ﷺ .

فقه الحديث

هذان الحديثان يشيران إلى الأحكام الفقهية التالية:

١ - حكم البكاء في الصلاة: اختلف الفقهاء في البكاء في الصلاة: فذهب الإمام أبو حنيفة إلى أنه إن بكى فارتفع بكاؤه بأن حصل به الحروف قطع الصلاة، وإن كان من ذكر الجنة والنار، أو خوف الله لم يقطع الصلاة لأنه يدل على زيادة الخشوع، وإن كان من وجع أو مصيبة قطع، لأن فيه إظهار الجزع فكان من كلام الناس. وروي عن أبي يوسف أن صلاته تامة في ذلك كله. وذهب الشافعي في الأصح إلى أن البكاء إن ظهر به حرفان بطلت صلاته ولو كان من خوف الآخرة، وإن لم يَبِنْ

---

(١) المرجع السابق في (م ر ج ل).

منه حرفان فلا تبطل، بذلك مطلقًا، لأنه لا يسمى كلامًا في اللغة ولا يكاد يتبين منه حرف محقق، فأشبه الصوت الغفل[١].

وذهب الحنابلة إلى أنه إن كان مغلوبًا عليه لم يؤثر، وإن كان من غير غلبة فإن كان لغير خوف الله أفسد الصلاة، وإن كان من خشية الله لم يفسد.

وذهب المالكية إلى أن البكاء في الصلاة جائز وغير مفسد لها إلا إذا كان بصوت أو من مصيبة أو وجع فإنه يبطل، وإن كان من الخشوع فلا شيء عليه[٢].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: بيان خشية النبي ﷺ.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: أهمية الخشوع والخشية في الصلاة.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الإخبار.

أولاً - من موضوعات الدعوة: بيان خشية النبي ﷺ:

إن النبي محمدًا ﷺ أعرف الخلق بربه وأعلمهم به سبحانه، لذا كان ﷺ أخشاهم وأتقاهم له عز وجل، وهذا ما أخبر به الصحابي أن النبي ﷺ "يُصلِّي وَبِجَوْفِهِ أزِيزٌ كَأزِيزِ المِرْجَلِ مِنَ البُكَاءِ".

قال السندي: (أزِيزٌ" بفتح الهمزة، وكسر الزاي الأولى، أي: صوت وغليان بالبكاء. والمرجل: القدر، فإنه عند غليان الماء فيه بالنار يخرج منه صوت)[٣].

وقال السندي أيضًا: (أي خنين من الخشية وهو صوت البكاء، قيل: وهو أن يجيش جوفه ويغلي بالبكاء)[٤].

---

(١) أي الصوت الخارج منه مع الغفلة عنه وعدم الإفادة منه.

(٢) شرح فتح القدير، ابن الهمام الحنفي ٢٧٩/٢ وما بعدها، والتاج والإكليل شرح مختصر خليل، وهو مطبوع بهامش مواهب الجليل للحطاب، محمد بن يوسف المواق ٢٨/٢، ومغني المحتاج ١٩٥/١، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٤٦/٢.

(٣) حاشية السندي على مسند أحمد، ٢٣٩/٣٠.

(٤) حاشية السندي على النسائي، ١٨/٣.

وقال ابن علان: (فيه دليل على كمال خوفه وخشيته وخضوعه لربه)[(١)].

وكان النبي ﷺ يصلي ويبكي خشية من الله، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم، إلا رسول الله ﷺ تحت شجرة يصلي ويبكي حتى أصبح)[(٢)].

وعن عطاء قال: دخلت أنا وعبيد بن عمير على عائشة... قال ابن عمير: ((أَخْبِرِينَا بِأَعْجَبِ شَيْءٍ رَأَيْتِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ؟ قَالَ: فَسَكَتَتْ، ثُمَّ قَالَتْ: لَمَّا كَانَ لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِي، قَالَ يَا عَائِشَةُ: ذَرِينِي أَتَعَبَّدُ اللَّيْلَةَ لِرَبِّي. قُلْتُ: وَاللَّهِ إِنِّي أُحِبُّ قُرْبَكَ، وَأُحِبُّ مَا سَرك. قَالَتْ: فَقَامَ فَتَطَهَّرَ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي. قَالَتْ: فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ حِجْرَهُ. قَالَتْ: فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ لِحْيَتَهُ. قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى حَتَّى بَلَّ الأَرْضَ فَجَاءَ بِلالٌ يُؤْذِنُهُ بِالصَّلاَةِ، فَلَمَّا رَآهُ يَبْكِي، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لم تَبْكِي، وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: أَفَلاَ أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا. لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ: وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[(٣)]))[(٤)].

وبوّب ابن حبان على هذا الحديث: ذكر البيان بأن المرء عليه إذا تخلّى لزومُ البكاء على ما ارتكب من الحوبات وإن كان بائنًا عنها مجدًا في إتيان ضدها[(٥)].

وقد قال النبي ﷺ عن نفسه: "أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له"[(٦)].

قال الكفوي: (الخشية أشد من الخوف لأنها مأخوذة من قولهم: شجرة خاشية أي يابسة، وهو موات بالكلية. والخوف: النقص. من ناقة خوفاء: أي بها داء وليس بفوات.

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٦٨٥.

(٢) أخرجه أحمد ١٢٥/١ رقم ١٠٢٣، وقال محققو المسند: إسناده صحيح ٢٩٩/٢.

(٣) سورة آل عمران، الآيات: ١٩٠-١٩٤.

(٤) أخرجه ابن حبان في صحيحه ٦٢٠، وقال محققه: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٥) صحيح ابن حبان ٣٨٦/٢.

(٦) أخرجه البخاري ٥٠٦٣، ومسلم ١١٠٨.

ولذلك خصت الخشية بالله في قوله: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾[(١)]، والخشية تكون من عظم المخشي، وإن كان الخاشي قويًا، والخوف يكون من ضعف الخائف وإن كان المخوف أمرًا يسيرًا. وأصل الخشية خوف مع تعظيم، ولذلك خص بها العلماء في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[(٢)]، على قراءة نصب الجلالة)[(٣)]. فالخشية أعلى درجة من الخوف وغيره؛ إذ (إن الخوف حركة والخشية انجماع وانقباض وسكون، فالخوف لعامة المؤمنين والخشية للعلماء العارفين والهيبة للمحبين والوجل للمقربين وعلى قدر العلم والمعرفة تكون الخشية، فصاحب الخوف يلتجأ إلى الهرب والإمساك وصاحب الخشية يلتجأ إلى الاعتصام بالعلم، ومَثَلهما كمثل من لا علم له بالطب ومثل الطبيب الحاذق فالأول يلتجئ إلى الحمية والهرب، والطبيب يلتجئ إلى معرفته بالأدوية والأدواء، وكل واحد إذا خفته هربت منه، إلا الله، فإنك إذا خفته هربت إليه فالخائف هارب من ربه إلى ربه)[(٤)].

ثانيًا – من موضوعات الدعوة: أهمية الخشوع والخشية في الصلاة:

قال شرف الحق العظيم آبادي: (وفي الحديث دليل على أن البكاء لا يبطل الصلاة سواء ظهر منه حرفان أم لا، وقد قيل: إن البكاء من خشية الله لم يبطل وهذا الحديث يدل عليه)[(٥)].

وقال ابن حبان بعد أن أخرج هذا الحديث وأخرج قبله حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا "ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي يتغنى بالقرآن"[(٦)]. قال: (قوله ﷺ: "يتغنى

---

(١) سورة الرعد، آية: ٢١.

(٢) سورة فاطر، آية: ٢٨.

(٣) الكليات معجم المصطلحات والفروق الفردية، أبو البقاء الكفوي، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري ٤٢٨.

(٤) انظر: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروز آبادي ٢/٥٤٤-٥٤٦.

(٥) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ٤٢٦، وانظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ٣/٢٤١.

(٦) أخرجه ابن حبان ٧٥١، وقال محققه: إسناده صحيح، وهو في البخاري ٥٠٢٤، وفي مسلم ٧٩٢.

بالقرآن"، يريد يتحزن به، وليس هذا من الغنية ولو كان ذلك من الغنية لقال: "يتغاني به"، ولم يقل: يتغنى به، وليس التحزن بالقرآن نقاء الجرم[١]. وطيب الصوت وطاعة اللهوات بأنواع النغم بوفاق الوقاع، ولكن التحزن بالقرآن هو أن يُقارِنه شيئان: الأسفُ والتلهف: الأسف على ما وَقَعَ من التقصير، والتلهفُ على ما يُؤمّل من التوقير، فإذا تألَّم القلب وتوجَّع، وتحزن الصوتُ ورجَّع، بَدَرَ الجَفْنُ بالدموع، والقلبُ باللُّمُوعِ، فحينئذ يستلِذُّ المتهجِّدُ بالمناجاة، وَيَفِرُّ من الخلق إلى وَكْرِ الخلوات، رجاءَ غفران السالفِ من الذنوب، والتجاوز عن الجنايات والعيوب)[٢].

ثم قال ابن حبان معلقًا على حديث الباب: "في هذا الخبر بيان واضح أن التحزن الذي أذن الله جل وعلا، فيه بالقرآن واستمع إليه، هو التحزن بالصوت مع بدايته ونهايته، لأن بداءته هو العزم الصحيح على الانقلاع عن المزجورات، ونهايته وفور التشمير في أنواع العبادات، فإذا اشتمل التحزن على البداية التي وصفتها والنهاية التي ذكرتها، صار المتحزن بالقرآن كأنه قذف بنفسه في مقلاع القربة إلى مولاه ولم يتعلق بشيء دونه" [٣]. وقد كان للصحابة رضي الله عنهم بكاء في صلواتهم، من ذلك ما رواه عبدالله بن شداد قال: سمعت نشيج عمر بن الخطاب، وإني لفي آخر الصفوف في صلاة الصبح، وهو يقرأ: ﴿إِنَّمَا أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[٤]"[٥]، قال ابن الأثير: (النشيج صوت معه توجع وبكاء، كما يردد الصبي بكاءه في صدره)[٦].

---

(١) جِرْم الصوت: جهارته، المعجم المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ج ر م).

(٢) صحيح ابن حبان ٣/٢٩-٣٠.

(٣) صحيح ابن حبان ٣/٣١.

(٤) سورة يوسف، آية: ٨٦.

(٥) أخرجه عبدالرزاق ٢٧١٦، وسعيد بن منصور ١١٣٨، التفسير، وابن سعد ٦/١٢٦، وابن أبي شيبة ١٤/٧، والبيهقي في شعب الإيمان ٢٠٥٧.

(٦) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ن ش ج)، وانظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢/٢٤٢، وانظر كذلك صفة الخشوع في نضرة النعيم، ٥/١٨٢٤-١٨٣٧.

جاء في الموسوعة الفقهية: (الخشوع: السكون والتذلل، وخشع في صلاته ودعائه: أقبل بلبه على ذلك، وهو مأخوذ من خشعت الأرض إذا سكنت واطمأنت. قال الراغب: الخشوع الضراعة، وأكثر ما يستعمل الخشوع فيما يوجد على الجوارح، والضراعة أكثر مما يستعمل فيما يوجد في القلب، ولذلك قيل فيما روي: إذا ضرع القلب خشعت الجوارح، وقال القرطبي: الخشوع هيئة في النفس يظهر منها في الجوارح سكون وتواضع)[1].

قال عبدالله البسام: (الخشوع في الصلاة هو روحها ويكثر ثوابها أو يقل حسبما عقله المصلي منها، وقد أثنى الله تعالى على الخاشعين فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾[2]، وقال الحداد: ومن المحافظة على الصلاة والإقامة لها حسن الخشوع فيها وحضور القلب وتدبر القراءة وفهم معانيها واستشعار الخضوع والتواضع لله عند الركوع والسجود، وامتلاء القلب بتعظيم الله وتقديسه عند التكبير والتسبيح وفي سائر أجزاء الصلاة، ومجانبة الأفكار والخوطر الدنيوية والإعراض عن حديث النفس في ذلك، بل يكون الهم مقصورًا على إقامتها وتأديتها كما أمر الله)[3].

ثالثًا - من أساليب الدعوة: الإخبار:

لقد رأى الصحابي عبدالله بن الشخير رضي الله عنه النبي ﷺ يصلّي وهو يبكي بكاءً شديدًا، فأخبر بذلك من كان معه ونقله لهم. وهم بدورهم أخبروا من جاء بعدهم وهكذا. ولقد أفاد الإخبار في هذا الحديث أهمية الاقتداء بالنبي ﷺ في الصلاة، وأهمية التزام الخشوع والبكاء والتضرع إلى الله تعالى، كما كان يفعل ﷺ.

---

(١) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١١٦/١٩.

(٢) سورة المؤمنون الآيتان: ١ - ٢.

(٣) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٤٩٨/١.

الحديث رقم (٤٥١)

٤٥١ - وعن أنس رضي الله عنه ، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ لأُبي بن كعب رضي الله عنه : ((إنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَنِي أنْ أقْرَأَ عَلَيْكَ: ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ... ﴾ قَالَ: وَسَمَّانِي؟ قَالَ: ((نَعَمْ)) فَبَكَى (أُبَيٌّ) [١]. متفقٌ عَلَيْهِ[٢].

وفي رواية[٣]: فَجَعَلَ أُبَيٌّ يَبْكِي.

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

الخبر الذي يسوقه الرسول ﷺ من الأخبار عظيمة الدلالة تتسم بلون من الغرابة مع الطرافة، ولذلك بدأه الرسول ﷺ بالتوكيد بحرف التوكيد، وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي، مع نسبة الفعل لله تعالى التي تزيده توكيداً ثم ذكر الجملة الاعتراضية (- عز وجل -) تنزيهاً، وتعبيره بالأمر الذي يقتضي الفور، واللزوم (أَمَرَنِي أنْ أقْرَأَ عَلَيْكَ) والتقييد بالجار والمجرور يفيد التخصيص، وقول أبي بن كعب (وسماني؟) استفهام تقرير، وتعجب، واستبعاد ومشاعر لا يحيط بها الوصف خالجت نفسه عند سماعه ما قال الرسول ﷺ، وحُقَّ له (فبكى أبي) إجلالاً وتعظيماً، ومحبة، واشتياقاً مصاحباً للخشية، فذكر الله لعبد من عباده، وتسميته، وبعث رسول السماء جبريل إلى رسول الأرض محمد ﷺ، وأمره بأن يقرأ عليه سورة (لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا) تشريف، وتكريم، وفضل لا تطمح إلى مثله نفس بشرية - مهما بلغت في الطاعة - ولكنه فضل الله على أبي بن كعب رضي الله عنه لمواقفه المشهودة في الدعوة، وفيما يتعلق بأهل الكتاب، وليجعل منه نموذجاً صالحاً لأهل الكتاب يقتدون به في الإيمان ورسوله ﷺ.

---

(١) قوله: (أُبيّ) لا يوجد عندهما.

(٢) أخرجه البخاري ٣٨٠٩، ومسلم ٧٩٩/٢٤٦ ولفظهما سواء.

(٣) أخرجها البخاري ٤٩٦٠، ومسلم ٧٩٩/٢٤٥.

فقه الحديث

هذا الحديث يشير إلى الأحكام الفقهية التالية:

١ - مشروعية التواضع في أخذ الإنسان العلم من أهله وإن كان دونه[١].

٢ - استحباب قراءة القرآن على الحذاق فيه وأهل العلم به والفضل، وإن كان القارئ أفضل من المقروء عليه، وقد سبق بيانه.

٣ - البكاء للسرور والفرح مما يبشر الإنسان به، ويعطاه من معالي الأمور.

٤ - الاستثبات في المحتملات[٢].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: بيان منزلة أُبيٍّ بن كعب رضي الله عنه.

ثانيًا: من صفات الداعية: التواضع.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل سورة البينة.

رابعًا: من أساليب الدعوة: التوكيد والجواب.

أولاً: من موضوعات الدعوة: بيان منزلة أبي بن كعب رضي الله عنه:

في هذا الحديث فضيلة واضحة لأُبيٍّ بن كعب رضي الله عنه فقد أمر الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقرأ على أبي: "لم يكن الذين كفروا"، وقد سماه الله له، وتعجب من ذلك أُبيّ وبكى.

قال ابن حجر: (قوله: قال: وسماني؟ أي هل نصّ عليّ باسمي أو قال اقرأ على واحد من أصحابك، فاخترتني أنت؟ فلما قال له: نعم، بكى إما فرحًا وسرورًا بذلك وإما خشوعًا من التقصير في شكر تلك النعمة، قال أبو العباس القرطبي: (تعجب أبي من ذلك، لأن تسمية الله له ونصّه عليه ليقرأ عليه النبي صلى الله عليه وسلم تشريفٌ عظيم، فلذلك

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي، ٧٧/٦.

(٢) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٥٦/١، فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٨٠/٧، وغمز عيون البصائر لأحمد الحموي، ص ١٩٣.

بكى إما فرحًا وإما خشوعًا)[١].

ونص عبارة القرطبي: (الاستفهام على التعجب منه، إذ كان ذلك عنده مستبعدًا، لأن تسميته تعالى له وتعيينه ليقرأ عليه النبي ﷺ تشريف عظيم، وتأهيل لم يحصل مثله لأحد من الصحابة رضي الله عنهم، ولذلك لما أخبره بذلك بكى من شدة الفرح والسرور لحصول تلك المنزلة الشريفة والرتبة المنيفة)[٢].

وقال ابن حجر: (وفي تخصيص أبي بن كعب التنويه به في أنه أقرأ الصحابة رضي الله عنهم، فإذا قرأ عليه النبي ﷺ مع عظيم منزلته كان غيره لطريق التبع له"[٣]، (فقد كان - كما يقول النووي - بعده ﷺ رأسًا في إقراء القرآن وهو أجل ناشرته أو من أجلهم)[٤].

وقال النووي كذلك: (وفي هذا الحديث فوائد كثيرة... منها المنقبة الشريفة لأبيٍّ بقراءة النبي ﷺ عليه ولا يعلم أحد من الناس شاركه في هذا، ومنها منقبة أخرى له بذكر الله تعالى ونصه عليه في هذه المنزلة الرفيعة)[٥].

وقد قال النبي ﷺ: يا أبا المنذر، أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟ فقال أُبيّ بن كعب رضي الله عنه: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾[٦]، فضرب النبي ﷺ في صدره وقال: ((والله لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ))[٧].

قال النووي: (فيه منقبة عظيمة لأبي، ودليل على كثرة علمه، وفيه تبجيل العالم فضلاء أصحابه وتكنيتهم، وجواز مدح الإنسان في وجهه إذا كان فيه مصلحة ولم يخف عليه إعجاب ونحوه لكمال نفسه ورسوخه في التقوى)[٨].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٥٩/٧.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ٤٢٦/٢.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٩٧/٨.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٣٧.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٣٦ - ٥٣٧.

(٦) سورة البقرة، آية: ٢٥٥.

(٧) أخرجه مسلم ٨١٠.

(٨) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٤٠.

وقال الذهبي: (شهد العقبة، وبدرًا، وجمع القرآن في حياة النبي ﷺ، وعرض على النبيّ عليه السلام، وحفظ عنه علمًا مباركًا، وكان رأسًا في العلم والعمل رضي الله عنه)[١].

ثانيًا - من صفات الداعية: التواضع:

إن التواضع من الصفات الأساسية التي يجب أن يتحلى بها الداعية فهذا يقربه من المدعوين ويجعلهم على أتم الاستعداد؛ لأن يتقبلوا دعوته ويعملوا بها، ومن التواضع في هذا الحديث قراءة النبي ﷺ سورة البينة على أبي بن كعب رضي الله عنه وهذا فيه من التواضع ما فيه، قال ابن حجر: (ويؤخذ من هذا الحديث مشروعية التواضع في أخذ الإنسان العلم من أهله وإن كانوا دونه؛ لأنه إن لم يأخذ من الصغار العلماء لكان علمه منفرًا والناس به يقتدون ولا قدوة إلا بالخير والعُجُب بكل أحد قبيح وبالعلماء أقبح، ولأن من تكبر بعلمه وترفع وضعه الله به، ومن تواضع بعلمه رفعه الله به)[٢].

وقال ابن هبيرة: (في هذا الحديث ما يدل على أنه لا يجوز أن يتكبر كبير أن يقرأ على صغير)[٣].

وقال القرطبي: (قال بعضهم: إنما قرأ النبيّ ﷺ على أُبيّ، ليعلم الناس التواضع؛ لئلا يأنف أحد من التعلم والقراءة على من دونه في المنزلة)[٤].

وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه لما أمره النبي ﷺ أن يقرأ عليه القرآن فقرأ ابن مسعود رضي الله عنه سورة النساء[٥]، قال النووي: (وفي حديث ابن مسعود هذا فوائد وذكر منها: تواضع أهل العلم والفضل ولو مع أتباعهم)[٦].

---

(١) سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ٣٩٠/١، وانظر: الإصابة في تمييز الصحابة، ابن علي العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ٢١.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٥٩/٧، وأدب الدنيا والدين، أبو الحسن الماوردي، تحقيق: مصطفى السقا ص ٧٢.

(٣) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ١٨٠/٥.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٣٩/٢٠/١٠.

(٥) أخرجه البخاري ٤٥٨٢، ومسلم ٨٠٠.

(٦) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٣٧.

وقد كان النبي ﷺ معروفًا بالتواضع ملازمًا له، قال أنس بن مالك رضي الله عنه: (كانت الأَمَةُ منْ إماءِ أهلِ المدينةِ تأخذُ بيدِ رسولِ الله ﷺ فتنطلقُ به حيثُ شاءتْ)[١].

قال ابن حجر: (والمقصود من الأخذ باليد لازمه وهو الرفق والانقياد، وقد اشتمل على أنواع من المبالغة في التواضع لذكره المرأة دون الرجل، والأمةُ دون الحرة، وحيث عمم بلفظ الإماء أي أمة كانت، وبقوله: "حيث شاءت" أي من الأمكنة، والتعبير بالأخذ باليد إشارة إلى غاية التصرف حتى لو كانت حاجتها خارج المدينة والتمست منه مساعدتها في تلك الحاجة على ذلك، وهذا دال على مزيد تواضعه وبراءته من جميع أنواع الكبر ﷺ)[٢].

ثالثًا - من موضوعات الدعوة: فضل سورة البينة:

لقد خصّ الله تعالى سورة البينة بأن يقرأها النبي ﷺ على أبيّ بن كعب رضي الله عنه، قال النووي: (وأما تخصيص هذه السورة فلأنها وجيزة جامعة لقواعد كثيرة من أصول الدين وفروعه ومهماته والإخلاص وتطهير القلوب، وكان الوقت يقتضي الاختصار)[٣].

وقال ابن حجر: (قال القرطبي: خص هذه السورة بالذكر لما اشتملت عليه من التوحيد والرسالة والإخلاص والصحف والكتب المنزلة على الأنبياء وذكر الصلاة والزكاة والمعاد وبيان أهل الجنة والنار مع وجازتها)[٤].

وقال ابن تيمية: (إن هذه السورة سورة جليلة القدر، وقد ورد فيها فضائل، وقد ثبت في الصحيح أن الله أمر نبيه ﷺ أن يقرأها على أُبيّ بن كعب رضي الله عنه وتخصيص هذه السورة بقراءتها على أبيّ يقتضي اختصاصها وامتيازها بما اقتضى ذلك)[٥].

---

(١) أخرجه البخاري ٦٠٧٢، تعليقًا، وأخرجه أحمد ١١٩٤١/١٩ موصولًا، وقال محققو المسند: إسناده صحيح.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٠٦/١٠.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٣٧.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٥٩/٧، وانظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٤٢٦/٢.

(٥) التفسير الكبير، ابن تيمية، تحقيق: د. عبدالرحمن عميرة، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت، ٣/٧ - ٤، وانظر: بدائع التفسير، لابن القيم ٢٨٩/٥.

وقال الطاهر بن عاشور عن أغراض سورة البينة: (توبيخُ المشركين وأهلِ الكتاب على تكذيبهم بالقرآن والرسول ﷺ. والتعجيب من تناقض حالهم إذ هم ينتظرون أن تأتيهم البينة فلما أتتهم البينة كفروا بها. وتكذيبُهم في ادعائهم أن الله أوجب عليهم التمسك بالأديان التي هم عليها. ووعيدهم بعذاب الآخرة. والتسجيل عليهم بأنهم شر البرية. والثناءُ على الذين آمنوا وعملوا الصالحات. ووعدهم بالنعيم الأبدي ورضى الله عنهم وإعطائه إياهم ما يرضيهم. وتخلل ذلك تنويه بالقرآن وفضله على غيره باشتماله على ما في الكتب الإلهية التي جاء بها الرسول ﷺ من قبل وما فيه من فضل وزيادة)[1].

رابعًا - من أساليب الدعوة: التوكيد والجواب:

حيث أكد النبي ﷺ إخباره لأُبيّ بن كعب رضي الله عنه: "إن الله عز وجل أمرني أن أقرأ عليك"، وجاء التوكيد مناسبًا لأن المقام مقام تشريف وتكريم عظيمين وقد يتعجب منه أبي فجاء التوكيد ليناسب الموقف، ومع هذا التوكيد فإن أبيًا استفصل في السؤال ليتأكد من هذه المكرمة والمنقبة التي له وما أعظمها من منقبة ومكرمة! فأجابه النبي ﷺ على سؤاله، حتى يتأكد أُبيٌّ من هذا الشرف الذي ناله وأعطاه الله إياه.

---

(١) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور ٤٦٨/٣٠.

الحديث رقم (٤٥٢)

٤٥٢ - وعنه، قَالَ: قَالَ أبو بكر لِعُمَرَ رضي الله عنهما، بعد وفاة رسول الله ﷺ: انْطَلِقْ بِنَا إلى أُمِّ أيْمَنَ رضي الله عنها نَزورُهَا، كَمَا كَانَ رسول الله ﷺ يَزُورُهـا، فَلَمَّا انْتَهَيَا إلَيْهَا بَكَتْ، فقالا لها: مَا يُبْكِيكِ؟ أمَا تَعْلَمِينَ أنَّ مَا عِنْدَ الله تَعَالَى خَيرٌ لرسولِ الله ﷺ! قالت: مَا أبْكِي أَنْ لاَ أَكُونَ أَعْلَمُ أنَّ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لرسولِ الله ﷺ، وَلكِنِّي أبكِي أَنَّ الْوَحْيَ قَد انْقَطَعَ مِنَ السَّمَاءِ؛ فَهَيَّجَتْهُمَا عَلَى البُكَاءِ، فَجَعَلا يَبْكِيَانِ مَعَهَا. رواه مسلم[1]، وقد سبق في بابِ زِيارَةِ أهلِ الخَيْرِ.

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

هيَّجَتْهُما: أثارتهما[2].

الشرح الأدبي والمضامين الدعوية[3]

(١) برقم ١٠٣/٢٤٥٤، وتقدم برقم ٣٦٠.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير والمعجم المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (هـ ي ج).

(٣) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (٣٦٠).

الحديث رقم (٤٥٣)

٤٥٣ - وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قَالَ: لَمَّا اشْتَدَّ برسول الله ﷺ وَجَعُهُ، قِيلَ له في الصَّلاَةِ، فقال: ((مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ)) فقالت عائشة رضي الله عنها: إنَّ أَبَا بَكْرٍ رَجُلٌ رَقِيقٌ، إِذَا قَرَأَ القُرْآنَ غَلَبَهُ البُكَاءُ، فقال: ((مُرُوهُ فَلْيُصَلِّ))[1].

وفي رواية عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قلت: إنَّ أَبَا بَكْرٍ إِذَا قَامَ مَقَامَكَ لَمْ يُسْمِعِ النَّاسَ مِنَ البُكَاءِ. متفقٌ عَلَيْهِ[2].

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

رجل رقيق: أي: رقيق قلبه[3].

قول الرسول ﷺ (مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ) أمر للوجوب، والإلزام على حقيقته، وفيه تزكية لإيمان أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ووصل فعل الأمر بواو الجماعة كأنه يريد أن يجتمعوا على تنفيذ الأمر أو إشهاداً لهم على رضاه عنه، فإذا كان قد اختاره، وائتمنه على أعظم أركان دينهم فمن الأولى أن يجمع المسلمون عليه أميناً على دنياهم، خليفة لرسول الله، وكان هذا الموقف من الأسباب المرجحة لخلافته لرسول ﷺ على المسلمين، ولكن أم المؤمنين رضي الله عنها أشفقت على أبيها من هذا الحمل فراجعت الرسول ﷺ في أمره (إِنَّ أَبَا بَكْرٍ رَجُلٌ رَقِيقٌ، إِذَا قَرَأَ القُرْآنَ غَلَبَهُ البُكَاءُ) وقولها (غلبه البكاء) كناية عن ارتفاع صوته بالبكاء، وانخفاض صوته بالقرآن لرقة قلبه، فكرر الرسول ﷺ أمره (مُرُوهُ فَلْيُصَلِّ) متصلاً بواو الجماعة يجعل المخاطبين معنيين بتنفيذه أكده بالأمر المباشر له بالصلاة.

---

(١) أخرجه البخاري ٦٨٢ واللفظ له، ومسلم ٤١٨/٩٤.

(٢) أخرجه البخاري ٦٧٩ واللفظ له، ومسلم ٤١٨/٩٥.

(٣) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٦٨٨.

فقه الحديث

اشتمل هذا الحديث على أحكام فقهية منها:

١ - جواز البكاء في الصلاة إذ كان من سبب ذكر الجنة والنار فهذا لا يفسدها لأنه يدل على زيادة الخشوع وهو المقصود في الصلاة وإن كان غير ذلك أفسدها لأنه فعل خارج عنها.

٢ - الخلافة للمسلمين تكون للأفضل وفيه الأخذ بالقياس حيث قاس الفقهاء تقديمه في الصلاة يكون مصوغًا لتقديمه في الخلافة[١].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: منزلة أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: خشية ورقّة أبي بكر رضي الله عنه وغلبة البكاء عليه عند قراءة القرآن.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: تقديم النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر رضي الله عنه في الصلاة دلالة على جدارته بالخلافة من بعده.

أولاً - من موضوعات الدعوة: منزلة أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

إن أبا بكر الصديق صلى الله عليه وسلم هو أفضل الصحابة رضي الله عنهم، صحب النبي صلى الله عليه وسلم منذ أسلم إلى حين توفي، رافق النبي صلى الله عليه وسلم في هجرته، وله المواقف الجليلة والمشاهد العظيمة، فلا عجب أن تكون له المنزلة الرفيعة عند النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا واضح من اختياره صلى الله عليه وسلم ليؤم الناس فقال صلى الله عليه وسلم "مروا أبابكر فيصلِّ بالناس" قال النووي: (فيه فوائد منها فضيلة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وترجيحه على جميع الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين وتفضيله، وتنبيه على أنه أحق بخلافة رسول الله صلى الله عليه وسلم من غيره. ومنها

(١) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ٣٧١/٣، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٠٩/١٠، و تبيين الحقاق شرح كنز الدقائق ١٥٦/١.

أن الإمام إذا عرض له عذر عن حضور الجماعة استخلف من يصلي بهم وأنه لا يستخلف إلا أفضلهم)[١].

وقال ابن حجر: (وفي هذه القصة من الفوائد غير ما مضى تقديم أبي بكر، وترجيحه على جميع الصحابة)[٢].

وقال ابن حجر (ومناقب أبي بكر رضي الله عنه كثيرة جدا وقد أفرده جماعة بالتصنيف، وترجمته في تاريخ بن عساكر قدر مجلدة. ومن أعظم مناقبه قول الله تعالى ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[٣] فإن المراد بصاحبه أبو بكر بلا نزاع ... وثبت في الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر وهما في الغار ((ما ظَنُّكَ باثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُما))[٤] والأحاديث في كونه كان معه في الغار كثيرة شهيرة ولم يشركه في هذه المنقبة غيره)[٥].

قال السيوطي: (قال النووي في تهذيبه: قال مصعب بن الزبير وغيره: وأجمعت الأمة على تسميته بالصديق؛ لأنه بادر إلى تصديق رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولازم الصدق، فلم تقع منه هناة ما، ولا وقفة في حال من الأحوال، وكانت له في الإسلام المواقف الرفيعة منها قصته يوم ليلة الإسراء، وثباته، وجوابه للكفار في ذلك، وهجرته مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وترك عياله وأطفاله، وملازمته في الغار وسائر الطريق، ثم كلامه يوم بدر ويوم الحديبية حين اشتبه على غيره الأمر في تأخر دخول مكة. ثم بكاؤه حين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن عبدًا خيره الله بين الدنيا والآخرة "فاختار الآخرة"[٦] ثم ثباته يوم

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٣٥٩.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٨٣/٢.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٤٠.

(٤) أخرجه البخاري ٣٦٥٣، ٣٩٢٢، ٤٦٦٣، ومسلم ٢٣٨١.

(٥) الإصابة في تمييز الصحابة، ابن علي العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ١٥٨/٦-١٥٩.

(٦) أخرجه البخاري ٣٩٠٤، ومسلم ٢٣٨٢.

وفاة رسول الله عليه الصلاة والسلام وخطبته الناس وتسكينهم، ثم قيامه في قضية البيعة لمصلحة المسلمين، ثم اهتمامه وثباته في بعث جيش أسامة بن زيد إلى الشام وتصميمه في ذلك، ثم قيامه في قتال أهل الردة ومناظرته للصحابة حتى حجهم بالدلائل، وشرح الله صدروهم لما شرح له صدره من الحق - وهو قتال أهل الردة - ثم تجهيزه الجيوش إلى الشام لفتوحه وإمدادهم بالأمداد، ثم ختم ذلك بمهمّ من أحسن مناقبه وأجلّ فضائله، وهو استخلافه على المسلمين عمر رضي الله عنه وتفرسه فيه، ووصيته له، واستيداعه الله الأمة، فخلفه الله عز وجل فيهم أحسن الخلافة، وظهر لعمر الذي هو حسنة من حسناته وواحدة من فعلاته تمهيد الإسلام، وإعزاز الدين، وتصديق وعد الله تعالى بأنه يظهره على الدين كله، وكم للصديق من مناقب ومواقف وفضائل لا تحصى! هذا كلام النووي)[١].

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: خشية ورقّة أبي بكر رضي الله عنه وغلبة البكاء عليه عند قراءة القرآن:

اشتهر أبوبكر الصديق رضي الله عنه برقة القلب، فكان يبكي عند قراءة القرآن، وهذا واضح من قول عائشة رضي الله عنها ((إن أبا بكرٍ رجلٌ رَقيقٌ إذا قرأ القُرْآنَ غلبَهُ البكاءُ))، وفي رواية ((لاَ يَمْلِكُ دَمْعَهُ))[٢] وفي حديث عائشة: "إن أبابكر إذا قام مقامك لم يُسمع الناس من البكاء".

وفي رواية أخرى: ((إنَّ أبا بكرٍ رجُلٌ أَسِيفٌ إذا قام في مقامِكَ لم يَستَطِعْ أَنْ يُصلِّيَ بالناس))[٣] قال ابن حجر: (أسيف بوزن فعيل وهو بمعنى فاعل من الأسف وهو شدة الحزن، والمراد أنه رقيق القلب، ولابن حبان[٤] من رواية عاصم عن شقيق عن مسروق عن عائشة في هذا الحديث: قال عاصم: والأسيف الرقيق الرحيم)[٥].

---

(١) تاريخ الخلفاء ٢٦-٢٧.

(٢) صحيح مسلم ٩٤-٤١٨.

(٣) صحيح البخاري ٦٦٤، ومسلم ٩٥-٤١٨ بنحوه.

(٤) صحيح ابن حبان ٢١١٨.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٧٩/٢.

بل إن أبابكر رضي الله عنه أراد أن يُقيم عمر بن الخطاب رضي الله عنه مكانه يصلي بالناس من أجل ذلك قالت عائشة رضي الله عنها: ((فأَرسلَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم إلى أبي بكرٍ رضي الله عنه بأَنْ يُصلِّيَ بالناسِ فأَتاهُ الرسولُ فقال: إنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يأمُركَ أَنْ تُصلِّيَ بالناسِ. فقال أبو بكرٍ - وكان رجُلاً رَقيقًا - يا عمرُ صلِّ بالناسِ، فقال له عمرُ: أَنتَ أَحقُّ بذلكَ))[(١)].

قال النووي: (وأما قول أبي بكر لعمر رضي الله عنهما صل بالناس فقاله للعذر المذكور، وهو أنه رجل رقيق القلب كثير الحزن والبكاء، لا يملك عينيه، وقد تأوله بعضهم على أنه قاله تواضعًا. والمختار ما ذكرناه)[(٢)].

وقد بلغ من غلبة البكاء على أبي بكر عند قراءة القرآن أن خافه المشركون بمكة على نسائهم وأبنائهم، ففي الحديث الصحيح: ((ثم بدا لأبي بكر فابتَنى مَسجدًا بِفناءِ دارِهِ وكان يُصلِّي فيه ويقرأ القرآن فيتقذَّفُ[(٣)] عليه نساء المشركِينَ وأبناؤُهم وهم يعجَبونَ منه وينظُرونَ إليه. وكان أبو بكرٍ رجُلاً بكّاءً لا يملِكُ عينيهِ إذا قرأ القرآنَ، فأفزَع ذلكَ أشرافَ قريشٍ منَ المشركين، فأرسَلوا إلى ابنِ الدغنة، فقَدِمَ عليهم، فقالوا: إنّا كنّا أجَرنا أبا بكرٍ بجِوارِك على أن يعبُدَ ربهُ في داره، فقد جاوَزَ ذلك فابتَنى مسجدًا بِفِناءِ دارِهِ فأعلنَ بالصلاةِ والقراءةِ فيه، وإنّا قد خشينا أن يفتِنَ نساءنا وأبناءنا))[(٤)].

وأفرد السيوطي في ترجمته فصلاً بعنوان: كلماته الدالة على شدة خوفه من ربه، ساق تحته عدة أخبار، منها: دخل أبوبكر حائطًا إذا بدبسي[(٥)] في ظل شجرة، فتنفس الصعداء ثم قال: طوبى لك يا طير تأكل من الشجر وتستظل بالشجر وتصير إلى غير

---

(١) أخرجه البخاري ٦٨٧، ومسلم ٩٠-٤١٨.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٣٥٩.

(٣) قال الحافظ في الفتح ٢٧٥/٧: قال الخطابي ... وأما يتقذف فلا معنى له إلا أن يكون من القذف، أي يتدافعون فيقذف بعضهم بعضًا فيتساقطون عليه.

(٤) أخرجه البخاري ٣٩٠٥.

(٥) الدُّبْسي: ضرب من الحمام. المعجم المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢٧٠.

حساب، يا ليت أبا بكر مثلك. وأخرج أحمد في الزهد عن أبي عمران الجوني، قال: قال أبوبكر الصديق: لوددت أني شعرة في جنب عبد مؤمن. وأخرج أحمد في الزهد عن مجاهد قال: كان ابن الزبير إذا قام في الصلاة كأنه عود، من الخشوع. قال: وحدثت أن أبابكر كان كذلك[١].

إن تدبر قراءة القرآن يؤثر في النفوس وقد يبعثها على البكاء مما يدل على شدة الخوف من عذاب الله أو الشوق إلى ثوابه ورؤيته سبحانه، وهذا البكاء هو خشية الله تعالى والشوق إلى لقائه.

أما الذي لا يتأثر بقراءة القرآن، فهو كالجثة الهامدة، يقول - الفرنسي المسلم الذي تأثر بالقرآن - فنساي مونتاي المنصور بالله الشافعي:"إن مثل الفكر العربي الإسلامي المبعد عن التأثير القرآني: كمثل الرجل أُفرغ من دمه"[٢].

قال فضل الرقاشي: "وأي عين لا تهمل على حسن الصوت بالقرآن إلا عين غافل، أو لاهي"[٣].

أخرج ابن عساكر من طريق جعفر بن ميمون عن أبي العالية قال:"سيأتي على الناس زمان تخرب صدورهم من القرآن، وتبلى كما تبلى ثيابهم وتتهافت، فلا يجدون له حلاوة، ولا لذاذة"[٤].

وقد روى نحوه الخطيب البغدادي من رواية الصحابي حذيفة[٥].

قال النووي: (وعن أبي صالح قال: قدم ناس من أهل اليمن على أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فجعلوا يقرؤن القرآن ويبكون، فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: "هكذا كنا".

---

(١) تاريخ الخلفاء، ص ٩٧، وانظر: الزهد، أحمد بن حنبل ٢٤١هـ ص ١١٢ وما بعدها.

(٢) رجال ونساء أسلموا، عرفات كامل العشي ٥١/٥.

(٣) انظر: الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا ٩٤، والحلية لأبي نعيم ٢٠٧/٦.

(٤) انظر: تاريخ دمشق ١٨١/١٨.

(٥) انظر: تاريخ بغداد ٤٠٠/١.

وقال أيضًا: قال الإمام أبو حامد الغزالي: البكاء مستحب مع القراءة وعندها.

قال: وطريقه في تحصيله: أن يحضر قلبه الحزن، بأن يتأمل ما فيه من التهديد والوعيد الشديد، والمواثيق والعهود، ثم يتأمل تقصيره في ذلك، فإن لم يحضره حزن... فليبكِ على فقد ذلك، فإنه من أعظم المصائب)(١).

ثالثًا - من موضوعات الدعوة: تقديم النبي ﷺ لأبي بكر في الصلاة دلالة على جدارته بالخلافة من بعده:

لقد استدلّ العلماء بقول النبي ﷺ "مروا أبا بكْرٍ فليصلِّ بالناس، على أنه أحق الصحابة بالخلافة من بعده. قال النووي: (فيه تنبيه على أنه أحق بخلافة رسول الله ﷺ من غيره)(٢).

وقال السيوطي: (هذا الحديث متواتر ورد أيضًا من حديث عائشة وابن مسعود وابن عباس وابن عمر وعبدالله بن زمعة وأبي سعيد وعلي بن أبي طالب وحفصة رضي الله عنهم، وقد سقت طرقهم في الأحاديث المتواترة... قال العلماء: في هذا الحديث أوضح دلالة على أن الصديق أفضل الصحابة على الإطلاق وأحقهم بالخلافة وأولاهم بالإمامة... وقد استدل الصحابة أنفسهم بهذا على أنه أحق بالخلافة منهم عمر ومنهم علي. وأخرج ابن عساكر عنه قال: لقد أمر النبي عليه الصلاة والسلام أبا بكر أن يصلي بالناس وإني شاهد، وما أنا بغائب وما بي مرض، فرضينا لدنيانا ما رضي به النبي ﷺ لديننا. قال العلماء: وقد كان معروفًا بأهلية الإمامة في زمان النبي ﷺ)(٣).

وهذا ما فهمه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأقره عليه الصحابة رضوان الله عليهم، قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه لما قبض رسول الله ﷺ قالت الأنصار: منا أمير ومنكم أمير. قال: فأتاهم عمر رضي الله عنه فقال: يا معشر الأنصار ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ أمر أبا بكر يؤم الناس فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر. فقالت الأنصار: نعوذ بالله

---

(١) التبيان في آداب حملة القرآن ٦٩.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٣٥٩.

(٣) تاريخ الخلفاء ٥٨-٥٩.

أن نتقدم أبابكر[١].

وقال علي بن أبي طالب والزبير بن العوام رضي الله عنهما: إنا نرى أن أبا بكر أحق الناس بها، إنه لصاحب الغار، وإنا لنعرف شرفه وخيره. ولقد أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصلاة بالناس وهو حيٌّ[٢].

وقال ابن حجر معلقًا على قول أبي بكر لعمر رضي الله عنهما: "يا عمر صلِّ بالناس" قال: (ويحتمل أن يكون رضي الله عنه فهم من الإمامة الصغرى الإمامة الكبرى وعلم ما في تحملها من الخطر، وعلم قوة عمر ذلك فاختاره، ويؤيده أنه عند البيعة[٣] أشار عليهم أن يبايعوه أو يبايعوا أبا عبيدة بن الجراح)[٤].

وقال أبو الحسن الأشعري: (وقد دل الله تعالى على إمامة أبي بكر الصديق رضي الله عنه في سورة "براءة" فقال للقاعدين عن نصرة نبيه صلى الله عليه وسلم والمتخلفين عن الخروج معه: ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا﴾[٥] وقال تعالى في سورة أخرى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ يعني قوله: ﴿لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا﴾ ثم قال: ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[٦] وقال: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ

---

(١) أخرجه أحمد ١٣٢/١ والنسائي ٧٧٧ وحسنه الألباني (صحيح سنن النسائي ٧٤٩). وانظر: البداية والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٨٦/٨.

(٢) أخرجه موسى بن عقبة في مغازيه كما في البداية والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٩٢/٨-٩٣ ومن طريقه الحاكم في المستدرك ٦٦/٣ والبيهقي في السنن الكبرى ١٥٢/٨، ١٥٣. وقال ابن كثير: هذا إسناد جيد.

(٣) الحديث في صحيح البخاري ٦٨٣٠.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٨٠/٢.

(٥) سورة التوبة، آية: ٨٣.

(٦) سورة الفتح، آية: ١٥.

إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْاْ﴾ يعني تعرضوا عن إجابة الداعي لكم إلى قتالهم: ﴿كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[1] والداعي لهم إلى غير ذلك النبي ﷺ الذي قال الله عز وجل له: ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا﴾ وقال الله في سورة الفتح: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ فمنعم عن الخروج مع نبيه ﷺ وجعل خروجهم معه تبديلاً لكلامه، فوجب ذلك أن الداعي الذي يدعوهم إلى القتال داع يدعوهم بعد نبيه ﷺ، وقد قال الناس: هم أهل فارس وقالوا: أهل اليمامة. فإن كانوا أهل اليمامة فقد قاتلهم أبوبكر الصديق رضي الله عنه عنه ودعا إلى قتالهم، وإن كانوا الروم، فقد قاتلهم الصديق أيضًا وإن كانوا أهل فارس فقد قوتلوا في أيام أبي بكر رضي الله عنه، وقاتلهم عمر رضي الله عنه من بعده، وفرغ منهم، وإذا وجبت إمامة عمر رضي الله عنه، وجبت إمامة أبي بكر رضي الله عنه، كما وجبت إمامة عمر رضي الله عنه، لأنه العاقد له الإمامة، فقد دل القرآن على إمامة الصديق والفاروق رضوان الله عليهما وإذا وجبت إمامة أبي بكر بعد رسول الله ﷺ وجب أنه أفضل المسلمين رضي الله عنه)[2].

---

(١) سورة الفتح، آية: ١٦.

(٢) الإبانة عن أصول الديانة، أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري ٣٢٤هـ، تحقيق: بشير محمد عيون ص ١٦٩.

الحديث رقم (٤٥٤)

٤٥٤ – وعن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف: أنَّ عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أُتِيَ بطعام وكان صائمًا، فقال: قُتِلَ مُصْعَبُ بن عُمَيْر رضي الله عنه، وَهُوَ خَيْرٌ مِنِّي، (فَلَمْ يوجَدْ له مَا يُكَفَّنُ فيهِ إلاَّ بُرْدَةٌ) [(١)] إنْ غُطِّيَ بِهَا رَأسُهُ بَدَتْ رِجْلاهُ؛ وَإنْ غُطِّيَ بها رِجْلاَهُ بَدَا رَأسُهُ، ثُمَّ بُسِطَ لَنَا مِنَ الدُّنْيَا مَا بُسِطَ – أَو قَالَ: أُعْطِينَا مِنَ الدُّنْيَا مَا أُعْطِينَا – قَدْ خَشِينا أنْ تَكُونَ حَسَنَاتُنَا عُجِّلَتْ لَنَا، ثُمَّ جَعَلَ يَبكِي حَتَّى تَرَكَ الطعَام. رواه البخاري[(٢)].

ترجمة الراوي:

إبراهيم بن عبدالرحمن بن عوف: هو إبراهيم بن عبدالرحمن بن عوف الزهري المدني، أبوه عبدالرحمن بن عوف أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأمه أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط كانت من المهاجرات الأول المبايعات. روى عن جماعة من الصحابة منهم: أبواه وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب.

ذكر الواقدي وغيره أنه ولد في زمن النبي صلى الله عليه وسلم في أواخر أيامه. لذا ترجمه بعضهم في الصحابة كأبي نعيم الأصبهاني، لكن آخرين ذكروه في الطبقة الأولى من التابعين الثقات، توفي سنة ٧٥هـ وقيل ٧٦هـ[(٣)].

عبدالرحمن بن عوف: هو ابن عوف بن عبدالحارث القرشي.

أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الستة أهل الشورى الذين جعل "عمر" الخلافة فيهم، وأحد السابقين البدريين الذين قيل فيهم ((اعملوا ما شئتم فقد غفرت

---

(١) هذه الزيادة ليست في هذه الرواية، وإنما عنده برقم ١٢٧٤.

(٢) أخرجه البخاري ٤٠٤٥.

(٣) الطبقات الكبرى، ابن سعد ٥٥/٥، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر ٦٩، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود ١٨/١، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن علي العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ١٥، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين ١٢١/١ والتهذيب ٧٤/١ وتقريب التهذيب ٣٨/١.

لكم))[1]، ومن أهل قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾[2] وكان ممن هاجر الهجرتين، وشهد كل المشاهد مع رسول الله ﷺ ((وكان ممن صلى النبي ﷺ خلفه))[3]، فحظي بهذا الفضل العظيم.

وقد ولد بعد عام الفيل بعشر سنين وكان أحد الثمانية الذين بادروا إلى الإسلام وكان اسمه في الجاهلية "عبدالكعبة" وقيل "عبد عمرو" فلما أسلم سماه النبي ﷺ عبدالرحمن[4].

وقد آخى النبي ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري رضي الله عنه، فعرض عليه سعد أن يُشاطره نعمته وأن يطلق له أحسن زوجتيه، فأبى وقال له: بارك الله لكَ في أهلك ومالك، ولكن دُلني على السوق، فذهب، فباع واشترى وربح، ثم لم ينشب أن صار معه دراهم، فتزوج امرأة على زنة نواة من ذهب، فقال له النبي ﷺ ((أولم، ولو بشاةٍ، بارك الله لك في مالك))[5] فقال عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه: فأقبلت الدنيا عليّ حتى رأيتني لو رفعت حجرًا لتوقعت أن أجد تحتَهُ ذهبًا أو فضة.

وكان عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه من الأجواد الذين قلّما يُنجب الزمان مثلهم. فقد تصدق على عهد النبي ﷺ بشطر ماله "أربعة آلاف، وحمل على خمسمائة فرس في سبيل الله، ثم حمل على خمسمائة راحلة في سبيل الله، وقد أعتق في يوم واحدٍ ثلاثين عبدًا، وأوصى لأمهات المؤمنين بحديقة بيعت بأربعمائة ألف، فلما بلغ ذلك عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((لا يحنو عليكن بعدي إلا الصابرون))[6] ثم قالت سقى الله ابن عوف من سلسبيل الجنة.

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري، رقم ٣٠٠٧.

(٢) سورة الفتح، آية: ١٨.

(٣) أخرجه أحمد ٢٤٧/٤ رقم ١٨١٥٧ وقال محققو المسند: حديث صحيح ٩١/٣٠.

(٤) المستدرك ٣٠٥/٣ رقم ٥٣٨٧ وصححه الحاكم.

(٥) أخرجه البخاري ٢٧٨١ و٢٢٩٢ و٣٩٣٧.

(٦) أخرجه أحمد ١٠٤/٦ رقم ٢٤٧٢٤ وقال محققو المسند: إسناده حسن ٢٤٧/٢٤.

وبلغ جهاده في سبيل الله بالمال مبلغًا عظيمًا، وكان على الرغم من ذلك رجلاً صوّامًا قد أفزعه الخوف من الله، فقد قرب إليه طعامًا ذات يوم وكان صائمًا، فقال: قتل مصعب بن عمير وهو خير مني، فكُفّن في بردتِهِ؛ إن غُطي رأسُهُ بدت رجلاه، وإن غطت رجلاه بدا رأسُهُ، ثم قال: وقتل حمزة وهو خير مني، ثم بُسط لنا في الدنيا ما بُسط -قد خشينا أن تكون حسناتنا عُجّلتْ لنا، ثم جعل يبكي، حتى ترك الطعام.

وكان ممن يُفتى في عهد النبي ﷺ، وفي خلافة أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم مما سمع من النبي ﷺ، وكان قد قدم مع عمر رضي الله عنه الجابية (من بلاد الشام) وشهد في كتاب صلح أهل بيت المقدس.

وكان من أفضل أعماله، أنه قد عزل نفسه من أمر الخلافة وقت الشورى وقام باختيار من أشار به أهل الحل والعقد، فنهض في ذلك أتم نهوض على جمع الأمة على عثمان رضي الله عنه، ولو كان محابيًا في ذلك لأخذها لنفسه، أو لولاها لابن عمه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه. وقد بلغت أحاديثه عن النبي ﷺ (٦٥ حديثًا).

وقد توفي بالمدينة وبعد وفاته قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه "اذهب يا ابن عوف فقد أدركت صفوها وسبقت رنقها -وهو الكدر -

وكانت وفاته سنة (٣٢هـ) ودفن بالبقيع[(١)].

غريب الألفاظ:

البُردةٌ، كساء مخطط يُلتحف به أو كساء مربع أسود صغير[(٢)].

---

(١) طبقات ابن سعد ٣/١٢٤-١٢٦، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر ٤٢٢-٤٤٥، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن علي العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ٧٢٠-٧٢١، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود ٣/٤٧٥، وسير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ١/٦٨-٩٢، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين ٤/٤٥١، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٢/٥٤٠، والأعلام، خير الدين الزركلي ٣/٣٢١، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك ١/٣٦٦-٣٧٤.

(٢) معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ٨٦.

الحديث يتناول صورة حوارية تصور جانباً من زهد الصحابة رضي الله عنهم مع أن ما كانوا فيه من متاع الدنيا لا يمثل شيئاً بالنسبة لما نحن فيه، وقد حمدوا الله، وسخطنا، وموقف عبد الرحمن بن عوف يدل على ذلك، وقوله عن مصعب رضي الله عنه (وَهُوَ خَيْرٌ مِنِّي)، فيه دلالة على تواضعه، ومحبته لصاحبه، وقوله (، فَلَمْ يوجَدْ له مَا يُكَفَّنُ فيهِ إلاَّ بُرْدَةٌ) أسلوب قصر وجدان شيء للكفن على البردة، وتقديم الجار والمجرور (له) اختصاص أي لكفنه، وليس للبس، ولا للزينة، وحتى البردة التي لا يوجد غيرها لم تكف كما وصفها بجملة الشرط (إنْ غُطِّيَ بهَا رَأسُهُ بَدَتْ رِجْلاهُ؛ وَإنْ غُطِّيَ بهَا رِجْلاَهُ بَدَا رَأسُهُ) وقوله (، ثُمَّ بُسِطَ لَنَا مِنَ الدُّنْيَا مَا بُسِطَ) كناية عن سعة الرزق وكثرة الأموال، والتعبير بالبسط يشير إلى السعة، والانشراح، وقوله (قَدْ خَشِينا أنْ تَكُونَ حَسَنَاتُنَا عُجِّلَتْ لَنَا) أكد الفعل بقد، والخشية رهبة ممتزجة بإجلال، وتعجيل الحسنات كناية عن التوسعة في ألوان النعيم الدنيوي وقوله: (ثُمَّ جَعَلَ يَبكِي) يوحي بشدة تأثُّره، وخوفه الذي يعكس حرصه على الآخرة حتى رفض الدنيا، وقد عبَّر الراوي عن ذلك بقوله: (حتى ترك الطعام) ولا ننسى أنه كان صائماً رضي الله عنهم، وأرضاهم.

فقه الحديث

اشتمل هذا الحديث على حكم فقهي يتعلق بأحكام الكفن والتكفين.

اتفق الفقهاء على أن تكفين الميت بما يستره فرض على الكفايةَ وقد ذهب الفقهاء إلى أن الميت يكفن بعد طهره بشيء من جنس ما يجوز له لبسه في حالة الحياة فيكفن في الجائز من اللباس، ويعتبر في الأكفان حال الميت فإن كان مكثرًا فمن جياد الثياب، وإن كان متوسطًا فأوسطها وإن كان مقلاً فخشنها.

ويجوز جميع أنواع القماش القديم منها والجديد والأفضل أن تكون في الثياب البيض.

- ويشترط في الكفن أن يكون ساتر للبشرة طاهرًا.

- أنواع الكفن ثلاثة: كفن السنة وهو أكمل الأكفان وهو للرجل ثلاثة أثواب وهو كفن المصطفى صلى الله عليه وسلم.

- كفن الكفاية: وهو أدنى ما يلبس حال ا٤لحياة وهو ثوبان للرجل وهذا هو كفن أبي بكر رضي الله عنه كان له ثوبان يصلي فيهما فأوصى بأن يكفن فيهما.

- كفن الضرورة: وهو ما يستر العورة فقط وهو ثوب واحد يستر ما بين السرة والركبة(١).

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: تواضع عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: عَدَم الركون إلى الدنيا والرغبة فيها.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الغني الشاكر.

أولاً: من موضوعات الدعوة: تواضع عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه:

عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه من العشرة المبشرين بالجنة، وكان من أهل الشورى الذين حددهم عمر عند وفاته ليكون أحدهم خليفةً بعده وكان رضي الله عنه متحليًا بكريم الخصال ومحاسن الأخلاق كالتواضع، والخشية والشفقة. أما تواضعه رضي الله عنه فقوله: "قتل مصعب بن عمير رضي الله عنه وهو خير مني"، قال ابن حجر: (لعله قال ذلك تواضعًا)(٢).

وأما مناقبه رضي الله عنه فكثيرة: قال الذهبي: (ومن مناقبه أن النبي صلى الله عليه وسلم شهد له بالجنة، وأنه من أهل بدر الذي قيل لهم: ((اعملَوا ما شِئتُم))(٣) ومن أهل هذه الآية: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾(٤) وقد صلَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم وراءه(٥)... ومن أفضل أعمال عبدالرحمن صلى الله عليه وسلم عزله نفسه من الأمر وقت

(١) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، علاء الدين الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٢٣٠٧/١، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد سليمان الباجي ٢٧/٢، والأم، الشافعي، تحقيق: علي محمد وعادل أحمد ٣٠٤/١، والفروع، ابن مفلح ٢٢٨/٢.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤١٠/٧.

(٣) أخرجه البخاري ٣٠٠٧، ومسلم ٢٤٩٤.

(٤) سورة الفتح، آية: ١٨.

(٥) أخرجه مسلم ٨١-٢٧٤.

الشورى واختياره للأمة من أشار به أهل الحل والعقد، فنهض في ذلك أتمَّ نهوض على جمع الأمة على عثمان، ولو كان محابيًا فيها لأخذها لنفسه أو لولّاها ابن عمه وأقرب الجماعة إليه سعد بن أبي وقاص)[(١)].

وأما خشيته وشفقته ألا يلحق بمن تقدمه من الصحابة في الدرجات والفضل، فذكرُه مصعب بن عمير رضي الله عنه وفقره حال استشهاده في أحد ثم قوله "ثم بسط لنا في الدنيا ما بسط - أو قال: أعطينا من الدنيا ما أعطينا - قد خشينا أن تكون حسناتنا عجلت لنا ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام".

قال ابن حجر: (قال ابن بطال: وفيه أنه ينبغي ذكر سير الصالحين وتقللهم في الدنيا لتقل رغبته فيها. قال: وكان بكاء عبدالرحمن شفقًا ألا يلحق بمن تقدمه)[(٢)].

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: عدم الركون إلى الدنيا والرغبة فيها:

قال ابن حجر: (وفي الحديث فضل الزهد، وأن الفاضل في الدين ينبغي له أن يمتنع من التوسع في الدنيا لئلا تنقص حسناته، وإلى ذلك أشار عبد الرحمن بقوله "خشينا أن تكون حسناتنا قد عجلت")[(٣)].

قال ابن علان: (وقوله: "قد خشينا أن تكون حسناتنا" أي أعمالنا الصالحة الحسنة "عجلت لنا" أي: عجل لنا جزاؤها فلا نقدم على ثواب مدخر... وهذا منه من مزيد خوفه من الله تعالى وشدة خشيته له، خشي أن يكون ما هو فيه من اليسار من جزاء طاعته التي فعلها، مع أن ذلك اليسار من أسباب عمله الصالح ومتجره الأخروي الرابح، كما علم من إنفاقه في سبيل الله تعالى، وتصدقه على عباد الله. ومع ذلك لعدم نظره لعمله واعتداده خشي أن يكون ما يدخره سواه من أسباب إبعاده عن مولاه "ثم جعل يبكي" خوفًا من ذلك وأن يكون صفر اليدين من صالح الأعمال في المآل)[(٤)].

---

(١) سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ٧٨/١، ٨٦.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤١٠/٧.

(٣) المرجع السابق ٤١٠/٧.

(٤) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٦٩٠.

وقال ابن هبيرة: (في هذاالحديث أن المؤمن يستحب له إذا بسط له من الدنيا أن يذكر شدة عيش الأفاضل من المؤمنين قبله)[1].

وفي هذا السياق يُستشهد بقول خباب بن الأرت: ((هاجَرنا معَ النبيِّ ﷺ نريدُ وَجهَ اللَّه، فوقعَ أجرُنا على اللَّه تعالى، فمنّا من مضى لم يأكل من أجرِه شيئًا، منهم مُصعَب بن عُميرٍ قُتِلَ يومَ أُحدٍ وتركَ نَمِرَةً[2]، فإذا غَطينا رأسَه بَدَتْ رِجلاه، وإذا غطينا رجليه بدا رأسه، فأمرَنا النبيُّ ﷺ أن نُغَطِّيَ رأسَه ونجعلَ على رِجلَيه منَ الإِذخر[3]. ومنّا مَن أَينَعَتْ له ثمرَتهُ فهو يَهدِبُها[4]))[5].

قال ابن حجر: (قوله "لم يأكل من أجره شيئا" أي من عرض الدنيا، وهذا مشكل على ما تقدم من تفسير ابتغاء وجه الله، ويجمع بأن إطلاق الأجر على المال في الدنيا بطريق المجاز بالنسبة لثواب الآخرة؛ وذلك أن القصد الأول هو ما تقدم لكن منهم من مات قبل الفتوح كمصعب بن عمير ومنهم من عاش إلى أن فتح عليهم، ثم انقسموا فمنهم من أعرض عنه وواسى به المحاويج أولا فأولا بحيث بقي على تلك الحالة الأولى وهم قليل منهم أبو ذر، وهؤلاء ملتحقون بالقسم الأول، ومنهم من تبسط في بعض المباح فيما يتعلق بكثرة النساء والسراري أو الخدم والملابس ونحو ذلك ولم يستكثر وهم كثير ومنهم ابن عمر، ومنهم من زاد فاستكثر بالتجارة وغيرها مع القيام بالحقوق الواجبة والمندوبة وهم كثير أيضا منهم عبد الرحمن بن عوف، وإلى هذين القسمين أشار خباب، فالقسم الأول وما التحق به توفر له أجره في الآخرة، والقسم الثاني مقتضى الخبر أنه يحسب عليهم ما وصل إليهم من مال الدنيا من ثوابهم في الآخرة، ويؤيده ما أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو رفعه ((مَا مِنْ غَازِيَةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٣٠١/١.

(٢) النَّمِرة: كساء فيه خطوط بيض وسود، المعجم المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٩٥٤.

(٣) نبت طيب الرائحة، معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ٣١.

(٤) أي يجنيها، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ١٠٠٢.

(٥) أخرجه البخاري ٦٤٤٨، ومسلم ٩٤٠.

اللّهِ فَيُصِيبُونَ الْغَنِيمَةَ، إلاَّ تَعَجَّلُوا ثُلُثَيْ أَجْرِهِمْ مِنَ الآخِرَةِ. ويبقى لَهُمُ الثُّلُثُ. وَإنْ لَمْ يُصِيبُوا غَنِيمَةً تَمَّ لَهُمْ أَجْرُهُمْ))[1] الحديث، ومن ثم آثر كثير من السلف قلة المال وقنعوا به إما ليتوفر لهم ثوابهم في الآخرة وإما ليكون أقل لحسابهم عليه)[2].

وقال ابن القيم: (لا تتم الرغبة في الآخرة إلا بالزهد في الدنيا، ولا يستقيم الزهد في الدنيا إلا بعد نظرين صحيحين:

النظر الأول: النظر في الدنيا، وسرعة زوالها، وفنائها، واضمحلالها، ونقصها، وخِسّتها، وألم المزاحمة عليها والحرص عليها. وما في ذلك من الغصص والنغص والأنكاد، وآخرُ ذلك الزوال والانقطاع، مع ما يعقب من الحسرة والأسف. فطالبُها لا ينفكُ من هَمٍّ قبل حصولها، وهمٍ في حال الظفر بها، وغَمٍّ وحزن بعد فواتها... فهذا أحد النظرين.

النظر الثاني: النظر في الآخرة، وإقبالها، ومجيئها ولا بُدّ، ودوامها وبقائها، وشرف ما فيها من الخيرات والمسرَّات، والتفاوت الذي بينه وبين ما ههنا. فهي كما قال سبحانه: ﴿وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾[3]. فهي خيرات كاملة دائمة، وهذه خيالات ناقصة منقطعة مضمحلة)[4].

ثالثًا - من موضوعات الدعوة: الغني الشاكر:

قال ابن عبدالبر عن عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه: (كان تاجرًا مجدودًا[5] في التجارة وكسب مالاً كثيرًا وخلّف ألف بعير وثلاثة آلاف شاة ومائة فرس ترعى بالبقيع،وكان

---

(١) أخرجه مسلم ١٩٠٦.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١/٢٨٣.

(٣) سورة الأعلى، آية: ١٧.

(٤) الفوائد ١٤٠.

(٥) مجدود: عظيم الحظ. المعجم المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ج د د).

يزرع بالجُرف[١] على عشرين ناضحًا[٢]، فكان يدخل منه قوت أهله سنة)[٣]. قال الذهبي معلقًا على هذا: (هذا هو الغني الشاكر، وأويس فقير صابر وأبوذر أو أبو عبيدة زاهد عفيف)[٤].

وقال ابن تيمية: (قد كثر تنازع الناس: أيهما أفضل الفقير الصابر، أو الغني الشاكر؟" وأكثر كلامهم فيها مشوب بنوع من الهوى، أو بنوع من قلة المعرفة، والنزاع فيها بين العلماء، والعامة والرؤساء وغيرهم. وقد ذكر القاضي أبو الحسين بن القاضي أبي يعلى في كتاب "التمام لكتاب الروايتين والوجهين" لأبيه فيها عن أحمد روايتين:

إحداهما: أن الفقير الصابر أفضل. وذكر أنه اختار هذه الرواية أبو إسحاق بن شاقلا، ووالده القاضي أبو يعلى، ونصرها هو.

والثانية: أن الغني الشاكر أفضل، اختاره جماعة منهم ابن قتيبة.

و"القول الأوّل يميل إليه كثير من أهل المعرفة والفقه والصلاح، والفقراء، ويحكى هذا القول عن الجنيد وغيره.

و"القول الثاني" يرجحه طائفة منهم، كأبي العباس بن عطاء وغيره وربما حكى بعض الناس في ذلك إجماعًا، وهو غلط.

وفي المسألة "قول ثالث" وهو الصواب أنه ليس هذا أفضل من هذا مطلقًا، ولا هذا أفضل من هذا مطلقًا بل أفضلهما أتقاهما. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[٥]، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الغنى والفقر مطيتان، لا أبالي أيتهما

---

(١) الجرف: موضع قريب من المدينة، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ج ر ف).

(٢) الناضح: الدابة يستغنى عليها، المعجم المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ن ض ح).

(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر ٤٤٤، والمجدد: العظيم الحظ. المعجم المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ص ١١٠: اسم موضع قريب من المدينة، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير: ١٤٩. والناضح الدابة يستقى عليها، المعجم المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٩٢٨.

(٤) السير ٩٢/١.

(٥) سورة الحجرات، آية: ١٣.

ركبت، وقد قال تعالى: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾[1] وهذا القول اختيار طائفة منهم الشيخ ابن حفص السهروردي، وقد يكون هذا أفضل لقوم، وفي بعض الأحوال. وهذا أفضل لقوم وفي بعض الأحوال، فإن استويا في سبب الكرامة استويا في الدرجة، وإن فضل أحدهما الآخر في سببها ترجح عليه، هذا هو الحكم العام.

والفقر والغنى حالان يعرضان للعبد باختياره تارة وبغير اختياره أخرى كالمقام والسفر، والصحة والمرض، والإمارة والائتمار، والإمام والائتمام. وكل جنس من هذه الأجناس لا يجوز إطلاق القول بتفضيله على الآخر، بل قد يكون هذا أفضل في حال، وهذا في حال، وقد يستويان في حال.

وكما أن الأقوال في المسألة "ثلاثة" فالناس "ثلاثة أصناف": غني، وهو من ملك ما يفضل عن حاجته. وفقير، وهو من لا يقدر على تمام كفايته، وقسم ثالث: وهو من يملك وفق كفايته، ولهذا كان في أكابر الأنبياء والمرسلين والسابقين الأولين من كان غنيًا: كإبراهيم الخليل وأيوب، وداود وسليمان، وعثمان بن عفان، وعبدالرحمن ابن عوف، وطلحة والزبير، وسعد بن معاذ وأسيد بن الحضير، وأسعد بن زرارة وأبي أيوب الأنصاري، وعبادة بن الصامت، ونحوهم. ممن هو من أفضل الخلق من النبيين والصديقين.

وفيهم من كان فقيرًا: كالمسيح عيسى بن مريم، ويحيى بن زكريا وعلي بن أبي طالب، وأبي ذر الغفاري، ومصعب بن عمير، وسلمان الفارسي ونحوهم. ممن هو من أفضل الخلق، من النبيين والصديقين، وقد كان فيهم من اجتمع له الأمران: الغنى تارة والفقر أخرى؛ وأتي بإحسان الأغنياء وبصبر الفقراء: كنبينا ﷺ، وأبي بكر وعمر.

والنصوص الواردة في الكتاب والسنة حاكمة بالقسط؛ فإن الله في القرآن لم يفضل أحدًا بفقر، ولا غنى، كما لم يفضل أحدًا بصحة ولا مرض، ولا إقامة ولا سفر، ولا إمارة ولا ائتمار، ولا إمامة ولا ائتمام، بل قال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[2].

---

(١) سورة النساء، آية: ١٣٥.

(٢) سورة الحجرات، آية: ١٣.

وفضلهم بالأعمال الصالحة: من الإيمان ودعائمه، وشعبه كاليقين والمعرفة، ومحبة الله والإنابة إليه، والتوكل عليه ورجائه، وخشيته وشكره والصبر له. وقال في آية العدل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ﴾[1].

ولذلك كان النبي ﷺ وخلفاؤه يعدلون بين المسلمين. غنيهم وفقيرهم في أمورهم. ولما طلب بعض الأغنياء من النبي ﷺ إبعاد الفقراء نهاه الله عن ذلك. وأثنى عليهم بأنه يريدون وجهه، فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾[2]، وقال: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾[3]. ولما طلب بعض الفقراء من النبي ﷺ ما لا يصلح له نهاه عن ذلك، وقال: ((يَا أَبَا ذَرَ إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا. وَإِنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي. لاَ تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ. وَلاَ تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ))[4].

وكانوا يستوون في مقاعدهم عنده، وفي الاصطفاف خلفه، وغير ذلك. ومن اختص منهم بفضل عرف النبي ﷺ له ذلك الفضل، كما قنت للقراء السبعين، وكان يجلس مع أهل الصفة، وكان أيضًا لعثمان وطلحة والزبير وسعد بن معاذ وأسيد بن الحضير وعباد بن بشر ونحوهم من سادات المهاجرين والأنصار الأغنياء، منزلة ليست لغيرهم من الفقراء، وهذه سيرة المعتدلين من الأئمة في الأغنياء والفقراء. وهذا هو العدل والقسط الذي جاء به الكتاب والسنة، وهي طريقة عمر بن عبدالعزيز، والليث بن سعد، وابن المبارك ومالك وأحمد بن حنبل، وغيرهم، في معاملتهم للأقوياء والضعفاء والأغنياء والفقراء)[5].

---

(١) سورة النساء، آية: ١٣٥.

(٢) سورة الأنعام، آية: ٥٢.

(٣) سورة الكهف، آية: ٢٨.

(٤) أخرجه مسلم ١٨٢٦.

(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٧٣/٦-٧٥ .

الحديث رقم (٤٥٥)

٤٥٥ - وعن أَبي أُمَامَة صُدَيّ بن عجلان الباهلي رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قَالَ: ((لَيْسَ شَيْءٌ أحَبَّ إلى اللهِ تَعَالَى مِنْ قطْرَتَيْنِ وَأثَرَيْنِ: قَطرَةُ دُمُوع مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، وَقَطرَةُ دَمٍ تُهَرَاقُ في سَبيلِ اللهِ. وَأمَّا الأثَرَانِ: فَأَثَرٌ في سَبيلِ اللهِ تَعَالَى، وَأثَرٌ في فَريضَةٍ مِنْ فَرائِضِ اللهِ تَعَالَى)) رواه الترمذيُّ، وقال: (حديثٌ حسنٌ).

وفي الباب أحاديث كثيرة منها:

حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه، قَالَ: وعظنا رسول الله ﷺ مَوعظةً وَجِلَتْ منها القُلُوبُ، وذرِفت منها العُيُونُ[1]. وقد سبق في باب النهي عن البدع.

ترجمة الراوي:

أبو أُمامة الباهليُّ: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧٤).

غريب الألفاظ:

تُهراقُ: الهاء في هراق بدل من همزة أراق، وأراقه: صبَّه[2].

الأثر: ما بقي من رسم الشيء دلالة عليه.

والأثران: أثر في سبيل الله: كخطوة، أو غبار أو جراحة في الجهاد أو سواد حِبْرٍ في طلب العلم، وأثر في فريضة: كإشقاق اليد والرجل من أثر الوضوء، وخلوف فم الصائم، واغبرار القدم في الحَجّ[3].

الحديث قائم على أسلوب التشويق بعدة أساليب منها: النفي، وأفعل التفضيل،

---

(١) تقدم برقم ١٥٧.

(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، والقاموس المحيط، الفيروز آبادي، الفيروز آبادي، والمعجم المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (هـ ر ق).

(٣) الكليات معجم المصطلحات والفروق الفردية، أبو البقاء الكفوي، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري ٤٠، ومعجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ٢٠، والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (أ ث ر).

والتوشيع، أما النفي فقوله: (ليس شيء أحب) وأسلوب النفي يحقق التشويق من حيث إن المخاطب إذا سمع النفي انشغل بالمنفي فترقبه مما يمهد نفسه لاستقبال المعنى، وأفعل التفضيل تأتي لترجيح أحد الشيئين المتفقين في صفة فإذا سمعها المخاطب رغب في معرفة المفضل، وتنكير كلمة (شيء) في سياق النفي يفيد العموم، وقوله (مِنْ قطْرَتَيْنِ وَأثْرَيْنِ) مثنيان مفسران بما بعدهما ن وهو لون من ألوان الإطناب يؤكد المعنى؛ لأنه يُذكر مرتين الأولى مجمل، والثانية مفصل، وهذا الإجمال ثم التفصيل يحقق التشويق، وهو ما يسمى بالتوشيع، وقد فصَّل المثنى الأول بقوله (قَطَرَةُ دُمُوعٍ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، وَقَطَرَةُ دَمٍ تُهَرَاقُ في سَبيلِ اللهِ) ونلاحظ أن سر التفضيل، وسبب المزية من القيد المتصل بكل منهما (من خشية الله)، و(في سبيل الله)، وفصَّل المثنى الثاني بقوله (وَأَمَّا الأَثَرَانِ: فَأَثَرٌ في سَبيلِ اللهِ تَعَالَى، وَأَثَرٌ في فَرِيضةٍ مِنْ فَرائِضِ الله تَعَالَى) وسبب الفضل فيهما تعلقهما بالله تعالى، وهذا يدل على أن العمل يشرف بشرف المقصد، يدل على ذلك كثرة تكرار لفظ الجلالة، لأن مدار أفضلية الأعمال المذكورة على تعلقها به، والحديث لون من ألوان غرس الإخلاص في النفوس، وتعويد المسلم العمل لله حتى يتقلب في كل حركة له، وسكْنة بين العادة، والعبادة لله - تعالى - .

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل البكاء من خشية الله.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل الجهاد في سبيل الله.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل آثار الأعمال الصالحة.

رابعًا: من واجبات الداعية: بيان الحقائق للمدعوين.

خامسًا: من أساليب الدعوة: النفي والتفصيل بعد الإجمال.

أولاً - من موضوعات الدعوة: فضل البكاء من خشية الله:

إن البكاء من خشية الله يدل على صدق إيمان العبد وعلى معرفته بقدر الله عز وجل وإجلاله له وعلى إنابته وتضرعه إليه لذا يجب أن يتصف عبده بهذا الأمر، وهذا واضح من قول النبي ﷺ: "ليس شيء أحب إلى الله تعالى من قطرتين وأثرين: قطرة

دموع من خشية الله" قال المباركفوري: (أي قطرة بكاء حاصلة من خشية أي من شدة خوفه وعظمته المورثة لمحبته)[١].

وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾[٢].

قال القرطبي: (قوله تعالى "ويخرون للأذقان يبكون" هذه مبالغة في صفتهم ومدح لهم، وحق لكل من توسم بالعلم وحصّل منه شيئًا أن يجري إلى هذه المرتبة فيخشع عند استماع القرآن ويتواضع ويذل)[٣].

وقال القاسمي: (دل نعت هؤلاء ومدحهم بخرورهم باكين على استحباب البكاء والتخشع، فإن لكل ما حمد فيه من النعوت والصفات التي وصف الله تعالى بها من أحبَّه من عباده يلزم الاتصاف بها، كما أن ما ذمّ منها من مَقْته منهم، يجب اجتنابه)[٤].

وقد بكى أبو هريرة رضي الله عنه في مرضه، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: أما إني لا أبكي على دنياكم هذه، ولكن أبكي على بعد سفري وقلة زادي، إني أمسيتُ في صعود على جنةٍ أو نارٍ، لا أدري إلى أيتهما يؤخذ بي[٥]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((سَبعةٌ يُظِلُّهم اللهُ في ظِلِّهِ يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ: رَجُلٌ ذكرَ اللهَ [خاليًا] ففاضَتْ عَيناه))[٦].

قال العز بن عبدالسلام: (أسباب البكاء: خوف أو حزن أو محبّة أو مهابة أو فرح أو

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٤٨١.

(٢) سورة الإسراء، الآيات: ١٠٧-١٠٩.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٨٩/١٣.

(٤) محاسن التأويل، القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ٢١٠/١٠.

(٥) شرح السنة للبغوي ٣٧٣/١٤، وانظر نضرة النعيم ٨٤٢-٨٣٣/٣.

(٦) أخرجه البخاري ٦٦٠، ٦٤٧٩، ومسلم ١٠٣١.

شوق أو غير ذلك على قدر حال الباكي. وبكاء الخلوة إما لحبّ الله أو لخوفه أو إجلاله فمن السبعة الذين يظلّهم الله في ظلّه: رجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه)[١]. ولذلك كان جزاؤهم أن لهم الرفيق الأعلى. قال ﷺ: ((قال الله تعالى: البكاؤون من خشيتي فأولئك لهم الرفيق الأعلى لا يشاركون فيه))[٢].

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: فضل الجهاد في سبيل الله:

الجهاد في سبيل الله لا يقدم عليه إلا المؤمنون الصادقون، فقد قدموا أرواحهم وأموالهم لله عز وجل، لذا فإن قطرة الدم التي تراق في سبيل الله تكون لها مكانة كبيرة عنده سبحانه وتعالى، فقد أخبر النبي ﷺ أن "قطرة دم تهراق في سبيل الله" من أحب الأشياء إلى الله عز وجل، قال الطيبي: (وإنما أفرد الدم وأجمع الدمع تنبيهًا على تفضيل إهراق الدم في سبيل الله على تقاطر الدموع بكاءً)[٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[٤].

وقال رسول الله ﷺ: ((تَضَمَّنَ اللّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ، لاَ يُخْرِجُهُ إِلاَّ جِهَادًا فِي سَبِيلِي، وَإِيمَانًا بِي، وَتَصْدِيقًا بِرُسُلِي. فَهُوَ عَلَيَّ ضَامِنٌ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ. أَوْ أَرْجِعَهُ إِلَىٰ مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ. نَائِلاً مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ. وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا مِنْ

---

(١) شجرة المعارف والأحوال ٢١٣، وانظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٧٢/٢-١٧٣، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٦٨/٨-١٦٩.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١٢٦٥٠ ١٢٠/١٢ والبيهقي في شعب الإيمان ١٠٥٢٧، ٢٤٥/٧ وسنده ضعيف، كنز العمال ١٢٦٦/٣.

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٢٩٨/٧.

(٤) سورة التوبة، الآية: ١١١.

كَلْمٍ[(١)] يُكْلَمُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إلاَّ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ حِينَ كُلِمَ، لَوْنُهُ لَوْنُ دَمٍ وَرِيحُهُ مِسْكٌ. وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلاَ أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، مَا قَعَدْتُ خِلاَفَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَبَدًا. وَلَـٰكِنْ لاَ أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلَهُمْ. وَلاَ يَجِدُونَ سَعَةً. وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي. وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأُقْتَلُ. ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ. ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ))[(٢)].

قال النووي: (وفيه دليل على أن الشهيد لا يزول عنه الدم بغسل ولا غيره، والحكمة في مجيئه يوم القيامة على هيئته أن يكون معه شاهد فضيلته وبذله نفسه في طاعة الله تعالى)[(٣)].

قال العز بن عبدالسلام: (الجهاد فيه مخاطرة بالنفوس والأموال، وهو واجب لرجحان مصالحه على المخاطرة، فإن الخطر في تركه أعظم من الخطر في فعله، فإنه لو ترك لاستباح الأعداء النفوس والأبضاع والحُرَم والأموال والأطفال، ولماتت مصالحه من إرهاب العدو وإعزاز الدين وأمن المسلمين... ولاشتماله على هذه المصالح جعل تلو الإيمان)[(٤)]. وقال ابن القيم: (وأما الجهاد فناهيك به من عبادة هي سنام العبادات وذروتها وهو المحك والدليل والمفرق بين المحب والمدعي، فالمحب قد بذل مهجته وماله لربه وإلهه متقربًا إليه ببذل أعز ما بحضرته يود لو أن له بكل شعرة نفسًا يبذلها في حبه ومرضاته ويود أن لو قتل فيه ثم أحيى ثم قتل ثم أحيى ثم قتل فهو يفدي بنفسه حبيبه وعبده ورسوله ولسان حاله يقول:

يفديك بالنفس صبٌّ لو يكون له ... أعز من نفسه شيء فداك به

فهو قد سلم نفسه وماله لمشتريها وعلم أنه لا سبيل إلى أخذ السلعة إلا ببذل

(١) الكلم بفتح الكاف وإسكان اللام: الجرح، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٨١٢، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢٠٧.

(٢) أخرجه البخاري ٣٦، ومسلم ١٨٦٧.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢٠٧.

(٤) شجرة المعارف والأحوال ٣٥٤.

ثمنها)[١].

ثالثًا - من موضوعات الدعوة: فضل آثار الأعمال الصالحة:

يترتب على بعض العبادات آثار حسية تظهر للعيان، وبعض هذه الآثار أحب إلى الله سبحانه وتعالى. وذلك واضح في قوله ﷺ: ((ليس شيء أحب إلى الله تعالى من قطرتين وأثرين... وأما الأثران فأثر في سبيل الله تعالى، وأثر في فريضة من فرائض الله تعالى)).

قال الطيبي: (قوله "وأثر في فريضة" قال القاضي ناصر الدين البيضاوي: الأثر بفتحتين: ما بقي من الشيء دالاً عليه. والمراد بالأثر من آثار خطى الماشي في سبيل الله والساعي في فريضة من فرائضه أو ما يبقى على المجاهدين من أثر الجراحات، وعلى الساعي التعب في أداء الفرائض والقيام بها والكد فيها، من علامة ما أصابه فيها، كاحتراق الجبهة من حرّ الرمضاء التي يسجد عليها وانفطار الأقدام من برد الماء الذي يتوضأ به)[٢].

وقال رسول الله ﷺ: ((والذي نَفْسي بيدِه، لا يُكْلَمُ أحدٌ في سبيلِ الله - والله أعلمُ بَمن يُكلَمُ في سبيلِهِ - إلا جاءَ يَومَ القيامةَ واللَّونُ لَونُ الدَّمِ، والرِّيحُ رِيحُ المسْكِ))[٣].

وقال النبي ﷺ أيضًا: ((ما شَحَبَ وجهٌ ولا اغبَرَّت قدم في عمل يبتغي فيه درجات الآخرة بعد الصلاة المفروضة كجهاد في سبيل الله))[٤].

قال ابن حجر: (إن الصفة المذكورة "الريح ريح المسك" لا تختص بالشهيد بل هي حاصلة لكل من جرح، ويحتمل أن يكون المراد بهذا الجرح هو ما يموت صاحبه بسببه قبل اندماله لا ما يندمل في الدنيا فإن أثر الجراحة وسيلان الدم يزول، ولا ينفي ذلك أن يكون له فضل في الجملة)[٥].

---

(١) مفتاح دار السعادة، ابن القيم ٤/٢.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٢٩٨/٧.

(٣) أخرجه البخاري ٢٨٠٣، ومسلم ١٠٥-١٨٧٦.

(٤) أخرجه أحمد ٢٤٥/٥ رقم ٢٢١٢٢، وقال محققو المسند: حسن لغيره ٤٣٢/٣٦.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٥/٦.

رابعًا - من مهام الداعية: بيان الحقائق للمدعوين:

إن الداعية يبين الحقائق للمدعوين ويوضحها لهم حتى يتصرفوا في ضوئها، ليحققوا الصلاح والنفع لهم في الدنيا والآخرة. وقد أخبر النبي ﷺ في هذا الحديث عن أحب الأشياء إلى الله تعالى، وذلك ليمتثلها المدعوون بعد معرفتهم بها وإدراكهم إياها. ومن هذا القبيل ما رواه معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال للنبي ﷺ: ((يا نبي الله، حدِّثني بعمل يدخلني الجنة لا أسألك عن شيء غيرها، قال نبي الله ﷺ: بخ، بخ، لقد سألت بعظيم، لقد سألت بعظيم، ثلاثًا. وإنه ليسير على من أراد الله به الخير، وإنه ليسير على من أراد الله به الخير، وإنه ليسير على من أراد الله به الخير، فلم يحدثه بشيء إلا قاله له ثلاث مرات، - يعني أعاده ثلاث مرات حرصًا لكيما يتقنه عنه - فقال نبي الله ﷺ: تؤمن بالله، واليوم الآخر، وتقيم الصلاة، وتعبد الله وحده لا تشرك به شيئًا، حتى تموت وأنت على ذلك، فقال: يا نبي الله، أعد لي، فأعادها له ثلاث مرات، ثم قال نبي الله ﷺ: إن شئت حدَّثتك يا معاذ برأس هذا الأمر، وقوام هذا الأمر، وذروة السنام، فقال معاذ: بلى، بأبي وأمي أنت يا نبي الله، فحدِّثني فقال نبي الله ﷺ: إن رأس هذا الأمر أن تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله، وإن قوام هذا الأمر إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وإن ذروة السنام منه الجهاد في سبيل الله، إنما أمرت أن أقاتل الناس حتى يقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، ويشهدوا أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، فإذا فعلوا ذلك فقد اعتصموا وعصموا دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله عز وجل))(١).

ومن قبيل بيان الحقائق، ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((انْظُرُوا إِلَى مَنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ. وَلاَ تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ. فَهُوَ أَجْدَرُ أَنْ لاَ تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللّهِ))(٢). قال النووي: (قال ابن جرير وغيره: هذا حديث جامع لأنواع من الخير، لأن

(١) أخرجه أحمد ٥/٢٤٥ رقم ٢٢١٢٢، وقال محققو المسند: صحيح بطرقه وشواهده ٣٦/٤٣٢.

(٢) أخرجه البخاري ٦٤٩٠، ومسلم ٢٩٦٣ واللفظ له.

الإنسان إذا رأى من فضل عليه في الدنيا طلب نفسه مثل ذلك واستصغر ما عنده من نعمة الله تعالى وحرص على الازدياد ليلحق بذلك أو يقاربه. هذا هو الموجود في غالب الناس، وأما من نظر في أمور الدنيا إلى من هو دونه فيها ظهرت له نعمة الله عليه فشكرها وتواضع وفعل فيه الخير)[١].

خامسًا - من أساليب الدعوة: النفي، والتفصيل بعد الإجمال:

أما النفي فقوله ﷺ "ليس شيء أحب إلى الله" ليثبت الأفضلية لما يذكره بعد ذلك، كما أنه ﷺ فصّل بعد إجمال في قوله: قطرتين وأثرين، وفي هذا جذب لأسماع المدعوين لمعرفة تفصيل هذا الإجمال.

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٧٠٩، وانظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٣٠/١١.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

من فضل الله أنه جعل البكاء سبيلاً لتفريغ شحنة الحزن أو زيادة الانفعال والتي تؤدي في حال البقاء إلى أمراض عضوية جسيمة فكان البكاء في ذاته شفاء من بعض الأمراض.

والإسلام راعى هذه الفطرة، فلم يحرم البكاء، بل جعل الدمع دليل رقة القلب، وجعل البكاء من الخشية دليل الخوف، وما كان الله ليجمع على عبده مشقتين في وقت واحد، خوف من الله دفعه إلى البكاء وعذاب يصاب من جرائه بالشقاء.

إن رسول الله ﷺ قد لفت نظرنا إلى خير البكاء، بل وقع منه ذلك، فلقد بكى لفراق إبراهيم ابنه، وقال: "إن العين لتدمع وإن القلب ليحزن... وخير البكاء ما كان لسماع نص قرآني واستشعار خوف من الله خوفاً يستحضر الإنسان معه عظمة عظمة الله استحضاراً يدفعه إلى هطول الدمع من عينه ليغسل بهذا الدمع ذنوبه.

فيكون الحجب من النار تحقيقاً لوعد الرسول ﷺ فيما أخبر عن ربه. ومن المضامين التربوية في أحاديث الباب ما يلي:

أولاً - التربية بالحوار:

من أساليب التربية الإسلامية التربية بالحوار والسنة النبوية رائدة في استخدام هذا الأسلوب، ومن الشواهد في باب فضل البكاء قوله ﷺ: في حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال لي النبي ﷺ: «اقْرَأْ عَلَيَّ الْقُرْآنَ» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللّهِ، أَقْرَأُ عَلَيْكَ...»، فهذا توجيه نبوي حواري بين هذا الصحابي الجليل ظهر منه أهمية الحوار النبوي وأثره في عملية التربية حيث دل هذا الحوار على أهمية تدبر القرآن عند تلاوته أو سماعه حتى يكون له أثر على النفس.

"ولقد استخدمت التربية الإسلامية أسلوب الحوار والمناقشة، لما له من فوائد تربوية كجذب الانتباه، وشحذ الذهن، كما أن الحوار يعمل على تحقيق الإقناع، لذا ينبغي للمعلم أن يُعوِّد طلابه على الحوار ليقوي الحجة لديهم ويعودهم الارتجال والمواجهة والثقة

بالنفس، كما أن عليه أن يكون واسع الصدر فيرد على استفساراتهم حتى يكونوا على وعي واقتناع بما يلقيه عليهم وحتى يغيرهم ذلك"[(١)].

ثانيًا - التربية بالموعظة:

من أساليب التربية الإسلامية: التربية بالموعظة التي تعد من أوسع أساليب التربية انتشارًا. ومن الشواهد على ذلك في باب البكاء... قوله ﷺ عن أنس رضي الله عنه، قال: خَطَبَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ خُطْبَةً مَا سَمِعْتُ مِثْلَهَا قَطُّ فَقَالَ: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا».

فهذا توجيه نبوي ظهر منه أسلوب التربية بالوعظ، وماله من تأثير في عملية التربية مع الصحابة رضي الله عنهم، وظهر هذا في قوله ﷺ: «فَغَطَّى أَصْحَابُ رَسُولِ اللّهِ ﷺ وُجُوهَهُمْ ولَهُمْ خَنِينٌ» من أثر هذه الموعظة، والتربية بالموعظة من أكثر الأساليب تغطية للمواقف التربوية فلا يكاد يخلو موقف تربوي من المواعظ والنصائح والإرشاد التي توجه للمتربين ولا يكاد يستغنى عن هذا الأسلوب مربٍ من المربين، ولقد أكد الإسلام على الموعظة كأسلوب تربوي مهم في تنشئة الأجيال تنشئة سليمة تحقق الخير لهم ولغيرهم فدعا الحق تبارك وتعالى إلى الاهتمام بالموعظة. قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[(٢)].

وحتى تحقق الموعظة آثارها التربوية لابد من مراعاة عدد من الأمور والتي من أبرزها ما يلي:

١ - إشعار الأفراد محل التوجيه بالعطف والاهتمام.

٢ - اتباع التدرج في النصح والإرشاد.

٣ - تخير وقت الوعظ حين تكون النفس هادئة ومرتاحة.

٤ - تنويع الأسلوب المباشر وغير المباشر في النصح والتوجيه[(٣)].

---

(١) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. سعيد إسماعيل القاضي، ص١٨٢.

(٢) سورة يونس، آية: ٥٧.

(٣) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. محمد شحات الخطيب وآخرون، ص ٨٣.

ثالثًا: التربية بضرب الأمثال:

من أساليب التربية الإسلامية الأمثلة، ومن الشواهد على ذلك في باب فضل البكاء. قوله ﷺ: «لاَ يَلِجُ النَّارَ رَجُلٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللهِ حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ، وَلاَ يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَدُخَانُ جَهَنَّمَ».

وقد استخدم النبي ﷺ الأمثلة لأجل ترسيخ المعاني في الأذهان وتقريبها للأفهام، وحمل النفوس على طاعة الله وخشيته واجتناب معاصيه.

والأمثلة تستخدم لتقريب غير المحسوس بالمحسوس، أو لتقريب محسوس غامض وبعيد إلى محسوس آخر أكثر منه وضوحًا وقربًا، وذلك حتى يدركه الإنسان ويتفهمه، قال ابن خلدون: ينبغي الحث على الاعتماد على الأمثلة الحسية في تفهيم المتعلمين، ولا سيما في البداية، وعلماء التربية الإسلامية كثيرًا ما كانوا يسوقون الأمثلة لتوضيح المعنى المقصود من توجيهاتهم ونصائحهم المربية[١].

والأمثال هنا مصنفة حسب دلالتها ومغزاها، والمثال مضروب للاعتبار والتحذير، وذلك لأن التربية بالأمثال طريقة تربوية قائمة بذاتها توظف العقل والوجدان، وتربيتها تعمل على تحقيق أهدافها الاعتقادية والسلوكية، كما أنها طريقة ذات نتائج فعالة في حياة الفرد والجماعة ذات أثر عميق في النفس والسلوك، وفي كيان المجتمع وتكوين علاقاته[٢].

رابعًا - التربية بالترغيب:

من أساليب التربية الإسلامية الترغيب، وذلك لتماشيه مع الطبيعة البشرية، وهو من الأساليب المهمة في عملية التربية، ومن الشواهد على الترغيب في هذا الباب: قوله ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله...».

فهذا توجيه نبوي تربوي يرغب في الجنة، وظل الله تعالى الذي لا ظل أعظم من ظله. ولقد عود الرسول ﷺ على استعمال هذا الأسلوب كثيرًا في عملية التنشئة.

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. سعيد القاضي، ص ١٩٦، أدب الدين والدنيا، الماوردي، ص ٢٣.

(٢) التربية بضرب الأمثال، عبدالرحمن النحلاوي، ص ١٠.

ولا يمكن أن تجدي التربية وتحقق أهدافها ما لم يعرف الإنسان أن هناك نتائج مثمرة وراء عمله وسلوكه، فإن عمل خيرًا نال السرور والحلاوة، مما يجعل الإنسان يتحكم في سلوكه ويعدل فيه بمقدار معرفته بنتائج ذلك السلوك، وما يترتب عليه من منفعة، وكل هذا فطرة فيه ورغبة في اللذة والنعيم والرفاهية تكون مقابل القيام بعمل صالح[1].

ومن أنواع الترغيب في التربية الإسلامية التحفيز والشاهد على ذلك قول النبي ﷺ لأبي بن كعب رضي الله عنه: «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، قَالَ: وَسَمَّانِي؟ قَالَ: نَعَمْ، فَبَكَى أُبَيّ»، فهذا تحفيز لأبي بن كعب لتميزه عن الصحابة في حفظ القرآن، وهذا تحفيز ودافع تجاه الخير والسلوك الحسن وابتغاء رضى الله تعالى في كل عمل يفعله المرء حرصًا على نيل ما حفز عليه وخشية فواته[2].

خامسًا - التربية على القيادة:

من أهداف التربية الإسلامية التربية على غرس روح القيادة، وهذا ما أراد النبي ﷺ تعميقه في نفس وشخصية الصحابة رضي الله عنهم، ومن شواهد ذلك في الباب عندما اشتد برسول الله ﷺ المرض فقال: «مروا أبا بكر فليصل بالناس، فقالت عائشة رضي الله عنها:...».

فهذا توجيه نبوي ظهر منه التربية على غرس القيادة في نفوس الصحابة رضي الله عنهم، وتربية كذلك على إنزال الناس منازلهم، يتضح ذلك من تحديد النبي ﷺ واختياره لأبي بكر رضي الله عنه صاحب المنزلة والمكانة المعروفة.

"إن الحاجة تدعو إلى قيادة ماهرة في صفوف المسلمين من الشباب، فيجب الاعتناء باختيار العناصر التي تملك السمات القيادية والحرص عليها، والاعتناء بإبراز السمات القيادية أمام الشباب، وإبراز النماذج القيادية في سير السلف، وإتاحة فرص عملية

---

(١) أساليب الدعوة والتربية، د. زياد العاني، ص ٢١٩.

(٢) أساليب الدعوة والتربية، د. زياد العاني، ص ٢١٩.

لممارسة المهمات القيادية من خلال الأنشطة التربوية"[١].

سادسًا - التربية على غرس قيمة الوفاء:

من الأهداف الخلقية للتربية الإسلامية غرس قيمة الوفاء، ولقد حرص النبي ﷺ على ذلك في تربيته للصحابة، ومن الشواهد على ذلك في باب فضل البكاء:

قول أبي بكر لعمر رضي الله عنهما: «بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: انْطَلِقْ بِنَا إِلَى أُمِّ أَيْمَنَ نَزُورُهَا. كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَزُورُهَا...»، فهذا نهج تربوي ظهر منه الوفاء سجية في خلق الصحابة رضي الله عنهما، "والوفاء قيمة إنسانية وأخلاقية عظمى لأنه يربي دعائم الثقة في الأفراد ويؤكد أواصر التعاون في المجتمع، كما أن له أهمية عظيمة على المستويين النفسي والاجتماعي، ونعني بالجانب النفسي ارتفاعه بصاحبه إلى المستوى الإنساني"[٢].

مما يعمق التواصل الاجتماعي بين المسلمين، إنها تربية إسلامية عظيمة على معاني البر والوفاء بعد موت النبي ﷺ، فقد رأى أبو بكر وعمر رضي الله عنهما أن من البر والوفاء للنبي ﷺ أن يزورا أم أيمن رضي الله عنها.

سابعًا - التربية بذكر سير الصحابة رضي الله عنهم:

من أساليب التربية الإسلامية التربية بذكر سير الصحابة رضي الله عنهم لما لها من خلفية تربوية لا يحققها لون آخر من ألوان الأداء اللغوي، ومن شواهد هذا الباب قول إبراهيم بن عبدالرحمن بن عوف أن عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه أتى بطعام، وكان صائمًا، فقال: قتل مصعب بن عمير رضي الله عنه وهو خير مني فلم يوجد له ما يكفن فيه إلا بردة إن غطى بها رأسه بدت رجلاه، وإن غطى بها رجلاه بدا رأسه.

فهذا توجيه تربوي ظهرت منه سيرة مصعب بن عمير رضي الله عنه كأسلوب تربوي يتعلم منه التقلل من الدنيا وزينتها، والحذر من التوسع فيها والاشتغال بها، والتقصير عن الواجبات بسببها، وذلك من خلال ذكر سير وقصص الصحابة رضي الله عنهم.

---

(١) تربية الشباب، "الأهداف والوسائل"، الدويش، ص ١٣٤.

(٢) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن محمد بن ملوح ٣٦٢٩.

"ولقد امتازت القصة بميزات جعلت لها آثارًا نفسية وتربوية بليغة محكمة، بعيدة المدى على مر الزمن، مع ما تثيره من حرارة العاطفة، ومن حيوية وحركية في النفس تدفع الإنسان إلى تغير سلوكه وتعديد عزيمته، بحسب مقتضى القصة وتوجيهها، والقصة لها أهمية تربوية تشمل في:

١ - شد القارئ وتوقظ انتباهه دون توانٍ أو تراخ.

٢ - تعاملها مع النفس البشرية في واقعيتها الكاملة، متمثلة في أهم النتائج التي تريد السنة إبرازها للكائن البشري فيعرضها عرضًا صادقًا يليق بالمقام ويحقق الهدف التربوي من عرضه.

٣ - الإقناع الفكري بموضوع القصة"[١].

"وتعتبر القصة أحد عناصر التوجيه المباشر في إطار أساليب التربية، والقصة لابد أن تنتهي حتمًا إلى عبرة، وغالبًا ما توصف القصة بالتشويق وسهولة الأسلوب وتسلسل الأحداث وترابطها، مما يساعد على تعلق السامع بالقصة"[٢].

ثامنًا - من الأساليب التربوية:

ورد في أحاديث الباب عدة أساليب تربوية، يمكن الاستفادة منها في العملية التعليمية، منها:

أ - المناقشة: كحديث ابن مسعود ﷺ قال لي النبي ﷺ: "اقرأ عليّ القرآن" قلت: يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل؟ والمناقشة من الأساليب التي تُفعّل دور المتعلم في العملية التعليمية وتدفع الملل عن المتعلمين وترفع دافعية المتعليم للتعلم.

ب - الإلقاء: كما في قوله ﷺ: "لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع..." الحديث. وأسلوب الإلقاء يكون بالعرض الشفهي للمعلومات على المتعلمين، ويُمَكّن الإلقاءُ المعلمين من عرض أكبر قدر من المعلومات في أقصر وقت ممكن على أكبر عدد من الطلاب.

---

(١) أصول التربية الإسلامية وأساليبها، عبدالرحمن النحلاوي، ص١٨٨.

(٢) أصول التربية الإسلامية، د. أمين أبو لاوي، ص١٥٨.

ج - الممارسة العملية: كما في قول عبدالله بن الشخير رضي الله عنه: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلّي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء. ولا شك أن الممارسة العملية من الأساليب التي تتميز ببقاء الأثر طويلاً في نفوس المتعلمين.

د - الموعظة: كما في حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: "وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون" الحديث. والموعظة تستخدم في الكثير من الجوانب الحياتية المختلفة: فالآباء يستخدمونها في الكثير من الأمور التي يريدون تعليمها لأبنائهم، وتعد الموعظة من الأساليب التربوية التي تتميز بشدة بقاء أثر التعلم؛ فهي تكون نصب عين من تعلمها ووجهت إليه من قبل الآباء والمعلمين والأفراد الذين تتاح لهم الفرص لاستخدام الموعظة في حياتهم.

٥٥ - باب فضل الزهد في الدنيا والحث علَى التقلل منها وفضل الفقر

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[يونس: ٢٤]، وقال تَعَالَى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾[الكهف: ٤٥ - ٤٦]، وقال تَعَالَى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[الحديد: ٢٠]، وقال تَعَالَى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾[آل عمران: ١٤]، وقال تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾[فاطر: ٥]، وقال تَعَالَى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾[التكاثر: ١ - ٥]، وقال تَعَالَى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ

﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾[العنكبوت: ٦٤] والآيات في الباب كثيرة مشهورة.

وأما الأحاديث فأكثر مِنْ أن تحصر فننبِّهُ بطرف منها عَلَى مَا سواه:

الحديث رقم (٤٥٦)

٤٥٦ - عن عمرو بن عوف الأنصاري رضي الله عنه: أنَّ رسولَ الله ﷺ بَعَثَ أبَا عبيدة بنَ الجرَّاح رضي الله عنه إلَى الْبَحْرَيْنِ يَأتِي بجزْيَتِها[1]، فَقَدِمَ بمَالٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ، فَسَمِعَتِ الأنْصَارُ بقُدُومِ أَبي عُبَيْدَةَ، فَوَافَوْا صَلاَةَ الفَجْرِ مَعَ رسولِ الله ﷺ، فَلَمَّا صَلَّى رسولُ الله ﷺ، انْصَرفَ، فَتَعَرَّضُوا لَهُ، فَتَبَسَّمَ رسولُ الله ﷺ حِينَ رَآهُمْ، ثُمَّ قَالَ: ((**أظُنُّكُمْ سَمعتُمْ أنَّ أبَا عُبَيْدَةَ قَدِمَ بِشَيْءٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ؟**)) فقالوا: أجل، يَا رسول الله، فقال: ((**أبْشِرُوا وَأمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ، فَوالله مَا الفَقْرَ أخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلكِنِّي أخْشَى[2] أنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، فَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أهْلَكَتْهُمْ**)) متفقٌ عَلَيْهِ[3].

ترجمة الراوي:

عمرو بن عوف الأنصاري: هو عمرو بن عوف الأنصاري ويقال له: عُمير. وذهب الحافظ ابن حجر إلى أن اسمه: عمرو. وتصغيره: عمير.

وهو حليف بني عامر بن لؤي. وقيل: كان مولىً لسهيل بن عمرو العامري.

كان من مولدي مكة وأسلم بها وهاجر إلى المدينة فارًّا بدينه إلى الله. وشارك في الدفاع عن الإسلام وساهم في قتال أعدائه وحمى قافلة الدعوة إلى الله حتى تصل إلى الناس واضحة جلية لا لبس فيها ولا تحريف، فشهد بدرًا وأحدًا والخندق والمشاهد كلها.

---

(١) عندهما زيادة: (وكان رسول الله ﷺ هو صالح أهل البحرين، وأمّر عليهم العلاء بن الحضرميّ).

(٢) عندهما زيادة: (عليكم).

(٣) أخرجه البخاري ٤٠١٥، ومسلم ٢٩٦١/٦ ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه ٤٧٥٨.

وظلّ بالمدينة حتى توفي في خلافة عمر بن الخطاب فصلى عليه عمر. وليس له إلا هذا الحديث الواحد، رواه عنه الصحابي المسور بن مخرمة[١].

غريب الألفاظ:

الجزية: المال الذي يُعقد للكتابي عليه الذمة[٢].

فتعرضوا له: سألوه بالإشارة دون تصريح[٣].

أمِّلوا: ترقَّبوا وانتظروا[٤].

تبسم الرسول ﷺ حدث تخشع له الأبصار، وتلتفت إليه الأنظار، وينشر البشر، والسرور على كل من حوله؛ لأنهم يعلمون أنه نبي يوحى إليه؛ فإن تبسم، فهي بشرى تُزف إليهم بخير قادم، وإذا تبسم لأحد منهم كان دلالة على رضاه عنه، ولا يرضى الرسول ﷺ إلا على من أرضى الله - عز، وجل -، وقوله للوفد القادم (أظُنُّكُمْ سَمعتُمْ أنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَدِمَ بِشَيْءٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ) استفهام تقريري فيه تودد، ورعاية حال يدل علي ذلك ما بعده من أوامر(أَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ، فَوالله مَا الفَقْرَ أخْشَى عَلَيْكُمْ) وهي أوامر للتبشير، وإدخال السرور عليهم، والتعبير بالبشر، والأمل، والسرور لون من مداعبة النفس بما تحب لتحقيق انشراحها، وإقبالها ثم يغرس المعنى المراد في هذه التربة المهيأة حتى تؤتي ثمرتها، ولذلك جاء استدراكه (، وَلَكِنِّي أخْشَى أنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ)وبسط الدنيا كناية عن

(١) الطبقات الكبرى، ابن سعد ٤٠٧/٣، ٤٦٣/٤ والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر ٤٨٥، ٤٩٦ وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود ٢٤٦/٤، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن علي العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ٩٨٨، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين ٤٤٨/٥ والتهذيب ٢٩٦/٣.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ج ز ي).

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٠٣/٦.

(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (أ م ل).

رغد العيش، وسعة الرزق، وفيض المال، والتشبيه يشير إلى الأمم التي اغترت بغناها فطغت، وبغت، ونصبت من نفسها مشرعاً، وحاكما، وردت منهج الرسل فدمرها الله تدميراً، وكما تفعل الأمم الطاغية في عصرنا بقوتها في ضعاف الأمم - حسبنا الله - وهذا أيضاً على مستوى الأفراد كما حدث في قصة قارون، وغيره، وقوله (فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، فَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ) تشبيه لبيان الحال يحذر من التشبه بهم في المقدمة، وهي التنافس على الدنيا، فيشبهونهم في النتيجة، وهي الهلاك، والحديث فيه إشارة إلى ما ستصير إليه الأمة من الغنى، وهو من أعلام نبوته ﷺ.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الجزية.

ثالثًا: من صفات الداعية: الرفق بالمدعوين وتبشيرهم.

رابعًا: من واجبات الداعية: تحذير المدعوين من الانصراف إلى الدنيا.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: التنافس في الدنيا قد يكون فيه الهلاك.

سادسًا: من تاريخ الدعوة: الإخبار عن أسباب هلاك السابقين.

أولاً - من أساليب الدعوة: الإخبار:

من أساليب الدعوة في هذا الحديث أسلوب الإخبار، ويظهر ذلك في رواية عمرو بن عوف الأنصاري رضي الله عنه: (أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه إلى البحرين.. إلخ الحديث)، ولا شك أن أسلوب الإخبار من الأساليب الدعوية المهمة التي يمكن أن يفيد منها الداعية في دعوته لأن الإخبار ينطوي على مضامين ذات فائدة ونفع بالنسبة للمدعو، سواء كان ذلك متعلقًا بأمور دنيوية أو أمور أخروية، نظرًا لأن الدعوة إلى الله تعالج قضايا الإنسان وتتسع باتساع الإسلام واستيعابه لسائر أمور الحياة الدنيوية والأخروية.

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: الجزية:

الجزية هي الخراج المضروب على رؤوس الكفار إذلالاً وصغارًا[(١)]، يظهر ذلك من قول عمرو رضي الله عنه: (يأتي بجزيتها)، فبعد أن تم فتح مكة في أواخر السنة الثامنة للهجرة، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، واستقرت الجزيرة العربية على دين الله تعالى أمر الله سبحانه وتعالى بمجاهدة أهل الكتاب من اليهود والنصارى[(٢)]، في قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾[(٣)].

بهذه الآية تم تشريع الجزية، هذا ولم يأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم جزية من أحد من الكفار قبل نزول آية الجزية، فلما نزلت أخذها من نصارى نجران، ومجوس هجر ثم أخذها من أهل أيلة، وأذرح، وأهل أذرعات وغيرها من القبائل[(٤)].

قال د. محمد راوس قلعة جي: "أسباب فرض الجزية: أرى أن الله تعالى فرض الجزية على أهل الذمة لأمرين:

أ - إظهارًا لسيادة الدولة الإسلامية وإقرارًا من أهل الذمة بهذه السيادة.

ب - لتكون الجزية مقابل الخدمات المتعددة التي تقدمها الدولة لأهل الذمة كالأمن وبناء الجسور وغير ذلك وعلى هذا فإن الجزية تعتبر أحد الموارد المالية للدولة تستعين بها على نفقاتها العامة.

- ويشترط فيمن تفرض عليه الجزية أن يكون ذميًا من أهل القتال حين فرضت الجزية عليه، وهو قادر على الاكتساب، وعلى هذا فإن الجزية لا تفرض إلا على حرّ،

---

(١) أحكام أهل الجزية، ابن القيم، ص ٣٤/١.

(٢) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٥٣/١٥.

(٣) سورة التوبة، آية: ٢٩.

(٤) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٥٣/١٥.

عاقل، بالغ، قادر على الاكتساب، وهي لا تفرض على الراهب المتعبد في صومعته المنقطع عن الناس، ولا على مريض زمن لا كسب له، ولا على شيخ هرم لا كسب له، ولا على أعمى، ولا على امرأة لا رأي لهما في الحرب.

- أما أنواع الجزية: فالجزية على نوعين:

أ - جزية عن صلح: وذلك إذا ما هاجم المسلمون بلدًا، فعرض عليهم أهله الرجوع عنهم مقابل أن يدفعوا للمسلمين جزية مقدرة، يتم الاتفاق عليها بينهم وبين المسلمين، ثم هم يوزعون هذه الجزية بينهم على ما يرونه من المصلحة لهم.

ب - جزية عن فتح: وذلك إذا ما فتح المسلمون بلدًا ضربوا على كل واحد من أهله ممن تتوفر فيه شروط دفع الجزية مبلغًا معينًا يدفعه للدولة الإسلامية كل عام.

ومن خصائص هذا النوع من الجزية أن مقدار الجزية المفروضة على الأفراد يتغير بتغير الحال المالية لدافع الجزية، فإذا افتقر قلت عليه الجزية، وإذا اغتنى بعد فقد زيدت عليه الجزية.

أما مقدارها: فإذا أراد ولي أمر المسلمين فرض الجزية على أهل الذمة قدَّر القدرة المالية لكل واحد منهم، ويفرض عليه من الجزية ما يتلاءم مع قدرته المالية من غير إرهاق له، ولما فرض عمر بن الخطاب رضي الله عنه الجزية على أهل الذمة جعل على الغني ثمانية وأربعين درهمًا في العام، وجعل على المتوسط نصفها أربعة وعشرين درهمًا، وجعل على الفقير نصفها اثني عشر درهمًا، ولا تزاد على الغني مهما كثر ثراؤه، وإذا زاد ثراء المتوسط فرضت عليه جزية الأغنياء، وإذا زاد ثراء الفقير فرضت عليه جزية المتوسطين، وهكذا، وهو أمر اجتهادي من عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وأرى أن تؤخذ الجزية من أهل الذمة اليوم بنسبة مئوية من أموالهم كما هو حال الضرائب الوضعية.

واستيفاء الجزية من حق الدولة، فإذا ضعفت الدولة عن استيفائها واستوفاها من أهل الذمة البغاة - مثلاً - فلا يحق للدولة المطالبة بها بعد ذلك، لأن أهل الذمة لا يستطيعون دفع البغاة عنهم، بل ما هم مكلفون بذلك لأن من شرط وجوب الجزية: أن تتولى الدولة الإسلامية الدفاع عن أهل الذمة.

وتسقط الجزية بواحد مما يلي: فقدُ شرط من شروط وجوب الجزية كما إذا جُن من وجبت عليه الجزية، أو أصيب بعاهة أقعدته عن الكسب ولا مال له، ونحو ذلك، وتسقط بعجز الدولة عن حماية أهل الذمة، وباشتراك أهل الذمة في الدفاع عن الوطن الإسلامي، وبإسلام الذمي وبموته.

أما مصارف الجزية: فبعض موارد بيت مال المسلمين له مصارف خاصة لا يجوز أن يصرف في غيرها، كالزكاة مثلاً، أما الجزية فإنها تدخل خزانة الفيء في بيت المال، وتُصرف من هذه الخزانة سائرُ النفقات العامة للدولة، كميزانيات الوزارات والنفقات الخاصة برئيس الدولة ونحو ذلك[1].

ثالثًا - من صفات الداعية: الرفق بالمدعوين وتبشيرهم:

إن من صفات الداعية التي تستنبط من الحديث الرفق بالمدعوين وتبشيرهم، وهذا في قوله ﷺ: (أبشروا وأملوا ما يسركم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم...)، قال الطيبي: (فائدة تقديم المفعول هنا الاهتمام بشأن الفقر، فإن الوالد المشفق إذا حضره الموت كان اهتمامه بحال ولده في المال، فأعلم ﷺ أصحابه أنه وإن كان لهم في الشفقة عليهم كالأب لكن حاله في أمر المال يخالف حال الوالد وأنه لا يخشى عليهم الفقر كما يخشاه الوالد ولكن يخشى عليهم من الغنى عليهم من الغنى الذي هو مطلوب الوالد لولده.

والمراد بالفقر العهدي، وهو ما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم من قلة الشيء ويحتمل الجنس والأول أولى، ويحتمل أن يكون أشار بذلك إلى أن مضرة الفقر دون مضرة الغنى لأن مضرة الفقر دنيوية غالبًا ومضرة الغنى دينية غالبًا)[2].

وقال العيني: (وفيه البشرى من الإمام لأتباعه وتوسيع أملهم منه)[3].

---

(١) الموسوعة الفقهية الميسرة، د. محمد رواس قلع جي ٦٣٢/١.

(٢) انظر: شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٢٩٣/٩.

(٣) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني ٨١/١٥.

في هذا الحديث يبشر الحبيب المصطفى ﷺ أصحابه رضي الله عنهم بالبشرى في نصيبهم من أموال الجزية، فينبغي على الداعية أن يتحلى بصفة الرفق وتبشير المدعوين بالخير فلقد تحلى قدوة الدعاة، النبي الخاتم محمد ﷺ بالرفق في أقواله وأفعاله مع مَنْ دعاهم إلى الله تعالى، وكان ذلك سببًا رئيسًا من أسباب نجاحه في دعوته ﷺ.

وقد حثّ النبي ﷺ المسلمين عامة، ويدخل في ذلك الدعاة من باب أولى إلى التحلي بالرفق فمن ذلك: ما روته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: ((إِنَّ اللّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ . وَيُعْطِي عَلَىٰ الرِّفْقِ مَا لاَ يُعْطِي عَلَىٰ الْعُنْفِ. وَمَا لاَ يُعْطِي عَلَىٰ مَا سِوَاهُ))[1].

وعن عائشة النبي ﷺ قال: ((إِنَّ الرِّفْقَ لاَ يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلاَّ زَانَهُ، وَلاَ يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ شَانَهُ))[2].

فبالرفق تُساس الطباع، ويعرف مكمن الداء، ويعطى الدواء لتستقيم الأنفس على الخير، وتقبل دعوة الله عز وجل[3]، وتبشير المدعوين بالخير يجعل المدعوين يقبلون على الأعمال الطيبة رغبة في المبشرات وقد كان إمام الدعاة محمد ﷺ يبشر أصحاب رضي الله عنهم بالخير لشحذ هممهم ويُفرح قلوبهم فينغي على الدعاة إلى الله أن يتحلوا بصفة الرفق مع المدعوين وأن يبشروهم بالخير.

رابعًا - من واجبات الداعية: تحذير المدعوين من الانصراف إلى الدنيا:

يقع على الداعية عبء تحذير المدعوين من الانصراف إلى الدنيا، ويظهر ذلك في قول رسول لله ﷺ: (... ولكني أخشى أن تُبسط الدنيا عليكم...إلخ الحديث)، قوله (فتهللكم)، قال ابن حجر: (قال ابن بطال: فيه أن زهرة الدنيا ينبغي لمن فتحت أن يحذر من سوء عاقبتها وشر فتنتها فلا يطمئن إلى زخرفها ولا ينافس غيره فيها،

---

(١) أخرجه مسلم ٢٥٩٣.

(٢) أخرجه مسلم ٢٥٩٤.

(٣) انظر: كيف يدعو الداعية، عبدالله ناصح علوان، ص ٧٤ - ٧٥، وصفات الداعية، د. حمد بن ناصر العمار، ص ٥٤ - ٥٦.

ويستدل به على أن الفقر أفضل من الغنى؛ لأنه فتنة الدنيا مقرونة بالغنى، والغنى مظنة الوقوع في الفتنة التي قد تجر إلى هلاك النفس غالبًا، والفقير آمن ذلك)[(١)].

فإن هذا الأمر هو الأخطر، وفي ذلك تصبير لمن يعيش حالة الفقر بأن حالته أخف ممن يعيش التنافس على الدنيا، وفيه تحذير من هذا التنافس، لأن التركيز على أمور الدنيا يؤدي إلى خسارة الآخرة، ولا بد من التوازن بينهما كما قال تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾[(٢)]، وليس كل من كان يريد الدنيا ينالها إذ بيّن الله تعالى في قوله: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾[(٣)]، فالاستجابة لمن يطلب الدنيا متوقفة على مشيئة الله تعالى، وليست لكل من يرغبها.

وقد أكد النبي ﷺ على هذا المعنى فقد قال: ((مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ، فَرَّقَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلاَّ مَا كُتِبَ لَهُ. وَمَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ نِيَّتَهُ، جَمَعَ اللَّهُ لَهُ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ))[(٤)].

فالداعية ناصح أمين فيجب عليه تحذير المدعوين من الانصراف إلى الدنيا إذا فتحت عليهم لأن ذلك قد يكون سبب الهلاك كما قال رسول الله ﷺ: ((لا تُفْتَحُ الدُّنْيَا عَلَى أَحَدٍ إِلاَّ أَلْقَى اللهُ ـ عزّ وجلّ ـ بَيْنَهُمُ العَدَاوَةَ والبَغْضَاءَ إلى يَوْمِ القِيَامَةِ))[(٥)]،

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٤٩/١١.

(٢) سورة القصص، آية: ٧٧.

(٣) سورة الإسراء، آية: ١٨.

(٤) أخرجه ابن ماجة ٤١٠٥، وصححه الألباني، صحيح سنن ابن ماجة ٣٣١٣.

(٥) أخرجه أحمد ١٦/١، وقال: أحمد شاكر في التعليق على المسند ٩١/١ - ٣١: إسناد صحيح كما ورد في كتاب: رياض الدعاة والمصلحين، إعداد: بهاء الدين عقيل، د. عبد العزيز مصطفى، خرج أحاديثه: فتحي الجندي هامش ٥٨٤.

فينبغي على الداعية تحذير الناس من الانصراف إلى الدنيا ونعيمها الزائل والاهتمام بالآخرة ونعيمها الباقي.

خامسًا – من موضوعات الدعوة: التنافس في الدنيا قد يكون فيه الهلاك:

ويظهر ذلك في قوله ﷺ: "فتنافسوها" كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم"، فالتنافس في الدنيا يجر الإنسان إلى فساد الدنيا والدين؛ لأن المال مرغوب فيه، فترتاح النفس لطلبه، فتتمتع منه، فتقع العداوة المقتضية للمقاتلة المفضية إلى الهلاك[1]، وذلك؛ لأن الدنيا تميل إليها القلوب وتأمل الإكثار من لذاتها وزينتها، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾[2]، قال السعدي: (أخبر تعالى عن إيثار الناس الدنيا على الآخرة فأخبر أن الناس زُينت لهم هذه الأمور، فرموها بالأبصار، واستحلوها بالقلوب، ومالوا إليها وجعلوها أكبر هممهم)[3].

كل هذه المفاتن جعلت الناس يتنافسون في الإكثار من الأموال وغيرها من مفاتن الدنيا، قال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾[4]، أي: شغلكم حب الدنيا ونعيمها وزهرتها عن طلب الآخرة وابتغائها[5]، فالتنافس في الدنيا وترك الآخرة فيه هلاك الإنسان وهذا ما ينبغي أن يبينه الدعاة إلى الله.

---

(١) بهجة الناظرين شرح رياض الصالحين، سليم بن عيد الهلالي ٥٢٨/١ – ٥٢٩.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٤.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ١٠٢.

(٤) سورة التكاثر، آية: ١.

(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٤٧٢/٨.

سادسًا – من تاريخ الدعوة: الإخبار عن أسباب هلاك السابقين:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم"، فقد بيّن رسول الله ﷺ من أسباب هلاك السابقين التنافس في الدنيا، وذلك لأن التنافس في الدنيا حملهم على البغضاء والحسد والبخل، قال رسول الله ﷺ: ((... وَاتَّقُوا الشُّحَّ. فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ))[١].

فحذر رسول الله ﷺ أمته من التنافس لما فيه من حسد وبغضاء وحرص على عدم الإنفاق – البخل – ولأن ذلك كان من أسباب هلاك بعض السابقين.

---

(١) أخرجه مسلم ٢٥٧٨.

الحديث رقم (٤٥٧)

٤٥٧ - وعن أَبي سعيد الخدري ﷺ، قَالَ: جلس رسولُ الله ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ، وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ، فقال: ((إنَّ ممَّا أخَافُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي مَا يُفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا)) متفقٌ عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

أبو سعيد الخدري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٠).

غريب الألفاظ:

زهرة الدنيا: حُسنها وبهجتها وكثرة خيرها[2].

الرسول ﷺ في هذا الحديث يخبر صحابته بأمر غيبي وهو إقبال الدنيا على المسلمين بعد الشدة التي عاشوا فيها ويحذرهم من الركون إليها والانشغال بمتعها حتى لا تطغى على آخرتهم، وهو يخاطب في صحابته بهذا الحديث كل الأجيال المسلمة إلى قيام الساعة حتى لا تشغلهم مباهج الحياة فينسون الآخرة، وإذا تتبعنا الأسلوب البياني للرسول ﷺ من بداية الحديث نجده ﷺ يبدأ بأسلوب التوكيد الذي يمهد النفوس لاستقبال الخبر، ولا سيما إذا كان الخبر من الأمور المستقبلية، لذا جاء قوله ﷺ (إن مما أخاف عليكم بعدي...) مؤكداً بإن مع اسمية الجملة، لأن الخبر غريب منتظر، وهو ليس تحذيراً من شر كالعادة في التحذير، ولكنه تحذير من خير مما زاد الأمر غرابة مما استدعى توكيد الجملة بأكثر من مؤكد ليمهد تربة القلوب لاستقبال بذور المعنى حتى تنبت شجرة الوعي واليقظة للتغيرات الشاملة لأكثر مناحي الحياة التي ستمر بها الأمة المسلمة من اتساع سلطانها وسعة أرزاقها وتعدد مصادر الخير التي يمكن أن تؤدي بهم إلى الغفلة والتفريط في شيء من شريعتها ومنهجها أو التكاسل في القيام بها، ثم يأتي حرف الجر (من) في قوله: (ما يفتح عليكم من زهرة

---

(١) أخرجه البخاري ١٤٦٥، ومسلم ١٠٥٢/١٢٣ ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه ٤٧٦٦.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ز هـ ر).

الدنيا) للإشارة إلى كثرة المخاوف وتجددها وأن أشدها الغرور بمباهج الحياة، ثم يأتي استخدام الموصول (ما) وما يفيده من إبهام يحيط بكل المباهج التي يمكن أن يصل إليها الذهن، ويتخيلها كل متلقي ويمكن أن تشغله عن الآخرة وتحمله على ارتكاب الخطايا ثم تأتي صيغة المبني لما لم يسمَّ فاعله (يُفتح) إشارة إلى أن تلك المباهج من أموال وأولاد وسلطان ليست محض كسب الإنسان وإنما هي فتح وعطاء من الله، وهذا الفهم يعالج في النفوس شعورها بالحرمان ويوجهها إلى طلب الفضل من الله مع ضرورة الرضا بقسمته تعالى.

ثم تأتي الاستعارة في إطار التحذير من الافتتان بالدنيا، وشهواتها في قوله ﷺ: (من زهرة الدنيا...) فقد استعار لفظ (الزهرة) وهي مأخوذة من زهرة الأشجار، وهو ما يصغر من أنوارها[1] لمباهج الدنيا وزينتها بجامع المظهر الخلاب مع قلة بقائه وسرعة فنائه في كل. ثم حذف المشبه به واستعمل لفظ المشبه به "الزهرة" في المشبه على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية.

واستعارة الزهرة لمباهج الحياة وجذبها للنظر مع سرعة تحولها يوحي بعدة دلالات منها:

أ- أن هذه المباهج سريعة التحول والانتقال بكثرة مكدراتها من هم ومرض أو خوف الزوال أو موت الإنسان أو ذهاب هذه المباهج من مال أو سلطان أو ولد وهذا مفهوم من حال اللفظ المستعار (الزهرة) إذ أن الزهرة سريعة التحول والذبول وهي أقصر أجزاء النبات عمراً وهذه الإشارة تجعل المتلقي لا يتعلق بزينة الدنيا، وزخرفها على حساب آخرته؛ لعلمه بتحولها السريع، أو تحوله المريع.

ب- أن هذه المباهج خداعة تخطف الأبصار وتأخذ بالألباب وتسر النفوس وتحدث نوعاً من الانفعال المغري بالانجذاب لها، وهذه الإشارة مفهومة من حال الإنسان أمام سحر الزهور وإعجابه الفطري بلونها وعبقها وارتياح النفوس لها، وفي هذه الإشارة تنبيه للإنسان بعدم الانخداع بظاهر المتاع دون التفكير في جوهره.

---

(١) انظر: أساس البلاغة للزمخشري ٤١٣/١، مادة (زهر) وعمدة القارى ٤٨٠/٦.

ج- الزهرة دائماً تبشر بالثمرة لأنها أول مراحل الإثمار، وهذا التبشير في حال الزهرة يشبه تبشير الرسول ﷺ بإقبال الدنيا على أمته.

د- في الزهرة إشارة رقيقة إلى أهم مباهج الحياة ومادة التجدد وعنصر الاستمرار وهو الأولاد؛ لأن الزهرة تحمل البذور التي هي مادة تجدد النبات واستمراره.

هـ يؤخذ من سرعة التحول والذبول المفهوم من حال الزهرة ضرورة الإسراع في استغلال هذه المباهج من مختلف الخيرات بالنفقة فيما يرضي الله من المال وغيره والتنشئة الصالحة للولد حتى ينشأ جيل صالح يحمي الأمة، وأن التواني في ذلك ضياع لهذه النعم أو تحول.[1]

فقه الحديث

في هذا الحديث من الفقه:

آداب الخطبة:

أ - استقبال الإمام القوم، واستقبال الناس الإمام إذا خطب:

ذهب الجمهور إلى أنه يستحب للخطيب استقبال القوم بوجهه، إذا خطب، يقبل عليهم في جميع خطبتيه، ولا يلتفت في شيء منهما.

كما يستحب للقوم الإقبال بوجههم عليه، لحديث الباب، ولحديث عدي بن ثابت عن أبيه قال: كان النبي ﷺ إذا قام على المنبر استقبله أصحابه بوجوههم[2].

قال الترمذي: والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم، يستحبون استقبال الإمام إذا خطب[3].

ولأنه الذي يقتضيه الأدب، ومكارم الأخلاق، كما أنه أبلغ في الوعظ، وحسن الإصغاء[4].

---

(١) انظر بلاغة الرسول ﷺ في تقويم الأخطاء د. ناصر راضي الزهري، ١٠٤.

(٢) أخرجه ابن ماجه ١١٣٦، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٩٣٢).

(٣) سنن الترمذي ١٣٤ بعد الحديث ٥٠٩.

(٤) الفتاوى الهندية ١٤٦/١، والقوانين الفقهية ٨٠، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٥٢٨/٤، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٣٠٣/٢.

قال إمام الحرمين: (سبب استقبالهم له واستقباله إياهم واستدباره القبلة: أن يخاطبهم فلو استدبرهم كان قبيحًا خارجًا عن عرف الخطاب ولو وقف في آخر المسجد واستقبل القبلة فإن استدبروه كان قبيحًا وإن استقبلوه واستدبروا القبلة، فاستدبار واحد واستقبال الجمع أولى من عكسه)(١).

ب - قيام الخطيب أثناء الخطبة:

اختلف الفقهاء في حكم قيام الخطيب أثناء الخطبة:

فذهب الحنفية والحنابلة وابن العربي من المالكية: إلى أن قيام الخطيب أثناء الخطبة سنة، ولا يجب؛ لأنه ليس من شرطها استقبال القبلة، فلم يجب لها القيام، كالأذان. وذهب الشافعية وأكثر المالكية: إلى أن قيام الخطيب - مع القدرة - حال الخطبة شرط وذكر الدردير من المالكية: أن الأظهر أن القيام واجب غير شرط، فإن جلس أساء وصحت.

وقال الشافعية: فإن عجز عن القيام خطب قاعدًا فإن لم يمكنه خطب مضطجعًا كالصلاة، ويجوز الاقتداء به سواء أقال لا أستطيع أم سكت؛ لأن الظاهر أن ذلك لعذر، والأولى له أن يستنيب.

ودليل الشافعية أحاديث منها: عن جابر بن سمرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يخطب قائمًا ثم يجلس ثم يقوم فيخطب قائمًا. فمن نبأك أنه كان يخطب جالسًا فقد كذب(٢).

وقد دخل كعب بن عجرة رضي الله عنه المسجد وعبدالرحمن بن أم الحكم يخطب قاعدًا. فقال: انظروا إلى هذا الخبيث يخطب قاعدًا وقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ﴾(٣))(٤).

(١) نهاية المطلب في دراية المذهب ٢/٥٤٧، وانظر: المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٤/٥٢٨.

(٢) أخرجه مسلم ٨٦٢، ٣٥.

(٣) سورة الجمعة، آية: ١١.

(٤) أخرجه مسلم ٨٦٤، ٣٩.

وقد أجاب الشافعي عن حديث أبي سعيد الخدري "أن النبي ﷺ جلس ذات يوم على المنبر وجلسنا حوله" - وهو حديث الباب - أجاب عنه أنه كان في غير جمعة[(١)]. قال الصنعاني: (وهذه الأدلة تقضي بشرعية القيام والقعود المذكورين في الخطبة، وأما الوجوب وكونه شرطًا في صحتها فلا دلالة عليه في اللفظ إلا أنه قد ينضم إليه دليل وجوب التاسي به ﷺ وقد قال: ((**صلُّوا كما رَأَيْتُمُوني أُصَلِّي**))[(٢)] وفعله في الجمعة في الخطبتين وتقديمها على الصلاة مبين لآية الجمعة فما واظب عليه فهو واجب وما لم يواظب عليه كان في الترك دليل على عدم الوجوب فإن صحّ أن قعوده في حديث أبي سعيد كان في خطبة الجمعة كان الأقوى القول الأول [وهو الجلوس سنة] وإن لم يثبت ذلك فالقول الثاني)[(٣)].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانياً: من أساليب الدعوة: التوكيد.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: التخويف من زخارف الدنيا والحرص على الزهد فيها.

رابعاً: من أساليب الدعوة: التحذير.

خامساً: من موضوعات الدعوة: شفقة النبي ﷺ على أمته وحرصه على نجاتها.

أولاً - من أساليب الدعوة: الإخبار:

يظهر ذلك في قول أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: "جلس رسول الله ﷺ" حيث أخبر عن جلوس رسول الله ﷺ على المنبر وجلوسهم حوله وقوله ﷺ لهم، وقد أفاد هذا الإخبار حرص الصحابة رضي الله عنهم على ملازمة النبي ﷺ وإصغائهم لكلامه، وكذلك شفقة النبي ﷺ على أصحابه رضي الله عنهم وخوفه من أن يقبلوا على الدنيا وزخارفها.

---

(١) انظر: سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، الصنعاني ٢٩٠.

(٢) أخرجه البخاري ٦٣١.

(٣) سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، الصنعاني ٢٩٠.

ثانياً - من أساليب الدعوة: التوكيد:

يظهر ذلك في قول رسول الله ﷺ: "إنّ مما أخاف..." حيث أفاد التوكيد في هذا الحديث شدة خوف النبي ﷺ من الانبهار والإقبال على الدنيا وافتتان الناس بها. ولقد استخدم النبي ﷺ، التأكيد لكونه من أهم الوسائل في تثبيت المعنى في القلوب وبثه في النفوس وحملها على التصديق والإيمان به ولا يكون التأكيد ذا نفوذ حقيقي إلا إذا دام تكراره ما أمكن والأمر إذا ما أكد انتهى إلى الرسوخ في النفوس على أنه حقيقة ثانية[1].

ثالثاً - من موضوعات الدعوة: التخويف من زخارف الدنيا والحرص على الزهد فيها:

حذر رسول الله ﷺ أصحابه رضي الله عنهم من التنافس في الدنيا والغفلة عن الزهد فيما يتيسر لهم من زينة الدنيا وبهجتها[2]، يظهر ذلك في قول رسول الله ﷺ: (إنّ مما أخاف عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها).

قال النووي: (حذرهم من زهرة الدنيا وخاف عليهم منها، وذلك لأن الذي يحصل من زهرة الدنيا ليس بخير وإنما هو فتنة لما تؤدي إليه من المنافسة والاشتغال بها عن كمال الإقبال على الآخرة)[3]، قال الحسن البصري: (والله ما أحد من الناس بسط له في أمر من أمور دنياه، فلم يخف أن يكون ذلك مكراً به واستدراجاً له إلا نقص ذلك من عمله ودينه وعقله، ولا أحد أمسك الله الدنيا عنه، ولم ير أن ذلك خيراً له إذا نقص من عمله وبان العجز في رأيه. وكان يقول: إن الله عز وجل ليعطي العبد من الدنيا مكراً به ويمنعه نظراً له)[4]، وإن الله تعالى بيّن أن الكفار هم الذين يغترون بزينة الدنيا وزخارفها فقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[5].

---

(١) أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد العاني، ص ٣٠١.

(٢) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني عبدالمجيد هاشم، ص ٣٠٩.

(٣) انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦٦١.

(٤) الزهد، الحسن البصري، ص ٤٤.

(٥) سورة البقرة، آية: ٢١٢.

والحرص على الزهد في الدنيا لليقين بالتفاوت بين الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾[١]، وكان رسول الله ﷺ أزهد الناس في الدنيا، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: ((إِنَّمَا كَانَ فِرَاشُ رَسُولِ اللَّهِ، الَّذِي يَنَامُ عَلَيْهِ، أَدَماً حَشْوُهُ لِيفٌ))[٢]، فينبغي على الداعية أن يخوّف الناس من الاغترار بزخارف الدنيا، ويدعوهم إلى الزهد فيها.

ما يعين على الزهد: إن الذي يصحح هذا الزهد ثلاثة أشياء:

أحدهما: علم العبد أن الدنيا ظل زائل، وخيال زائر فهي كما قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾[٣].

الثاني: علمه أن وراءها دارًا أعظم منها قدرًا وأجل خطرًا وهي دار البقاء، فالزاهد فيها لكمال الرغبة فيما هو أعظم منها.

الثالث: معرفته وإيمانه الحق بأن زهده فيها لا يمنعه شيئًا كتب له منها وأن حرصه عليها لا يجلب له ما لم يقض له منها فمتى تيقن ذلك ثلج له صدره وعلم أن مضمونه منها سيأتيه.

فهذه الأمور تسهل على العبد الزهد في الدنيا وتثبت قدمه في مقامه[٤].

وللزهد أقسام، قال ابن القيم: الزهد أقسام:

١ - زهد في الحرام وهو فرض عين.

٢ - وزهد في الشبهات وهو بحسب مراتب الشبهة فإن قويت التحق بالواجب، وإن ضعفت كان مستحبًا.

٣ - وزهد في الفضول وهو زهد النفس حيث تهون عليه نفسه في الله.

---

(١) سورة النساء، آية: ٧٧.

(٢) أخرجه البخاري ٦٤٥٦، ومسلم ٢٠٨٢ هذا والأَدَمُ: الجلد.

(٣) سورة الحديد، آية: ٢٠.

(٤) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ص ٢٥٤، ٢٥٥.

٤ - وزهد جامع لذلك كله، وهو الزهد فيما سوى ما عند الله وفي كل ما يشغلك عن الله [(١)].

رابعاً - من أساليب الدعوة: التحذير:

يظهر ذلك في قول رسول الله ﷺ: "إنّ مما أخاف عليكم" حيث حذر الصحابة رضي الله عنهم من انفتاح الدنيا عليهم.

والتحذير من الأساليب الدعوية المهمة التي تفيد في زجر المدعو عن الأمور التي حُذّر منها، وقد جاء التحذير في هذا الحديث لتنبيه الناس إلى خطورة الانقطاع للدنيا والإقبال عليها بالطريقة التي تُنسي الإنسان آخرته، وتجعله مقصراً في التزود من الأعمال الصالحة.

خامساً - من موضوعات الدعوة: شفقة النبي ﷺ على أمته وحرصه على نجاتها:

إن من موضوعات الدعوة التي تستنبط من عموم الحديث شفقة النبي ﷺ على أمته، وحرصه على نجاتها، وهذا يظهر في خوفه على أمته من انفتاح الدنيا عليهم فتفتنهم عن الآخرة.

ورسول الله ﷺ هو رحمة الله للعالمين، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [(٢)].

وشفقة النبي ﷺ بأمته وحرصه على نجاتها لم تفارقه لذلك بشر النبي ﷺ أصحابه رضي الله عنهم بفوائد الشفقة والتي منها أهم فائدة: أنها تكون سببًا للنجاة من النار؛ فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إِنِّي لأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولاً الْجَنَّةَ. وَآخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجاً مِنْهَا. رَجُلٌ يُؤْتَىٰ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. فَيُقَالُ: اعْرِضُوا عَلَيْهِ صِغَارَ ذُنُوبِهِ وَارْفَعُوا عَنْهُ كِبَارَهَا. فَتُعْرَضُ عَلَيْهِ صِغَارُ ذُنُوبِهِ. فَيُقَالُ: عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، كَذَا وَكَذَا. وَعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، كَذَا وَكَذَا. فَيَقُولُ: نَعَمْ. لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكِرَ. وَهُوَ

---

(١) الفوائد لابن القيم، ص ١١٨.

(٢) سورة الأنبياء، آية: ١٠٧.

مُشْفِقٌ مِنْ كِبَارِ ذُنُوبِهِ أَنْ تُعْرَضَ عَلَيْهِ فَيُقَالُ لَهُ: فَإِنَّ لَكَ بِكُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً. فَيَقُولُ: رَبِّ قَدْ عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لاَ أَرَاهَا ههُنَا. فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللّهِ ﷺ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ))[(١)]، هذه هي شفقة النبي ﷺ بأمته وحرصه على نجاتها.

فقد كان ﷺ رحيماً في كل المواطن، وكانت عيناه تفيضان بالدموع عندما يفيض قلبه بالرحمة، وقد يُسمع صوت بكائه عليه الصلاة والسلام، ولم يفقد الرحمة حتى في المواقف التي يضطهد فيها، يُضيق عليه أهل مكة الخناق هو وأصحابه، بل يؤذونه ويعذبون أصحابه فيقول: ((اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمُون))[(٢)].

وفي يوم الفتح صنع بمن حاربه السنين الطويلة ووقف في وجه الدعوة وقتل أصحابه فعل بهم كما فعل يوسف عليه السلام بأخوته عندما قال: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[(٣)]، وقال: (اذهبوا فأنتم الطلقاء)[(٤)].

وكانت رحمته تسع جميع الناس، ويحس بها كل الناس الضعفاء والأقوياء على حد سواء[(٥)]، وعندما طلب منه أن يدعو على المشركين قال: ((إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّاناً. وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً))[(٦)]. من فوائد الشفقة:

١ - طريق موصل إلى الجنة.

٢ - دليل على كمال الإيمان وحسن الإسلام.

٣ - تثمر الألفة والمحبة بين الناس.

---

(١) أخرجه مسلم ١٩٠.

(٢) أخرجه البخاري ٣٢٩٠.

(٣) سورة يوسف، آية: ٩٢.

(٤) السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٤/٥٥.

(٥) رحمة الله "أسبابها آثارها"، مجلة البحوث الإسلامية الصادرة عن إدارات البحوث العلمية والإفتاء، الرياض: العدد ٤٥، ربيع الأول - جمادى الآخرة ١٤١٦هـ، ص ٢١٧ - ٢١٨.

(٦) أخرجه مسلم ٢٥٩٩.

٤ – مظهر من مظاهر مراقبة الله عز وجل.

٥ – الأمن من الفزع الأكبر يوم القيامة.

٦ – دليل على قرب العبد من ربه ومحبته له[(١)].

وبهذه الرحمة والشفقة وما تفعله من آثار وما تتصل به من صفات الجلال والكمال أنشأ الرسول ﷺ الأمة الإسلامية[(٢)].

---

(١) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن محمد بن ملوح ٢٣٩٢/٦.

(٢) تميز الأمة الإسلامية مع دراسة نقدية لموقف المستشرقين منه، إعداد: د. إسحاق بن عبدالله السعدي، سلسلة الرسائل العلمية (٤٩) عمادة البحث العلمي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ٥٠٢/١.

الحديث رقم (٤٥٨)

٤٥٨ - وعنه: أن رسول الله ﷺ، قَالَ: ((إنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ وَإنَّ اللهَ تَعَالَى مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ)) رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو سعيد الخدري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٠).

غريب الألفاظ:

خَضِرة: غضة ناعمة طريَّة[2].

جاءت عبارته ﷺ: (إن الدنيا حلوة خضرة) لتجلّي أبعاد أكثر مباهج الدنيا خطورة وهو المال وتبيّن وجه الانتفاع به فبدأ العبارة بأسلوب التوكيد بإن مع اسمية الجملة ولعل السبب في هذا التوكيد يرجع إلى تمكُّن الرغبة للمال وحبه في نفوس الناس وانشغالهم عن خطره فجاءت هذه المؤكدات عناية بالأمر وتنبيهاً إلى خطره، وقوله ﷺ: (الدنيا خضرة حلوة) (ليس هو صفة الدنيا، وإنما هو للتشبيه كأنه قال: الدنيا كالبقلة الخضراء الحلوة) ووجه الشبه إقبال النفس عليه وسرورها به، وهو تشبيه بليغ حذف منه الوجه والأداة مما أعطى المعنى تأكيداً يفيد شدة التشابه في الصفة بين المشبه والمشبه به، والتعبير بالاستخلاف يوحي بتبادلها من خلفاء إلى خلفاء مما يؤكد على عدم بقائها وقوله: (فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) كالتعليل للجملة السابقة قصد به التحذير من الغرور كأنه استخلفهم فيها على سبيل الاختبار لهم، ولذلك جاء الأمر بعدها صريحاً (فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ) والأمر للتحذير، والنص على التحذير من النساء بعد التحذير من الدنيا من ذكر الخاص بعد العام عناية به إشارة إلى أنها من أعظم الفتن فعلى ذلك استلزمت مزيد تحذير، وكأنه ﷺ يرى حال الناس، وما هم فيه من بلاء لأنهم ضربوا عن الذكر صفحاً عن أوامره، ونواهيه، وتركوا النساء

---

(١) برقم ٢٧٤٢/٩٩، وتقدم برقم ٧٠. أورده المنذري في ترغيبه ٤٦٠٥.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (خ ض ر).

يتبعن كل ناعق بخراب المجتمع المسلم، وتفريغ تعاليم النبي، وتوجيهاته من مضمونها - وحسبنا الله - .

المضامين الدعوية[1]

(١) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (٧٠).

الحديث رقم (٤٥٩)

٤٥٩ - وعن أنس رضي الله عنه: أن النبي ﷺ، قَالَ: ((**اللَّهُمَّ لاَ عَيْشَ إلاَّ عَيْشَ الآخِرَةِ**)) متفقٌ عَلَيْهِ[١].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

الحديث فيه إيجاز قِصر، وهو كثرة المعاني في قلة الألفاظ، وهي طبقة من الكلام لا تتأتى إلا للفصحاء، والمتأمل لهذا الحديث القصير يجده أنه احتوى معاني عظيمة تتضمن جملة الفوارق بين الحياة الدنيا بكل نقصها، والآخرة بكمالها، وقد بدأ بلفظ اللهم، والنداء بصيغة (اللهم) نداء تفخيم وتعظيم، وأصل الأسلوب يا الله حذفت أداة النداء، وعوض عنها الميم في آخر لفظ الجلالة وقيل: زيدت الميم للتعظيم، والتفخيم كزيادتها في زرقم قال ابن فارس: (الزرقم: أجمع أهل اللغة أن أصله من الزرق؛ فإن الميم فيه زائدة[٢] والميم حرف شفهي يجمع الناطق به شفتيه، فوضعته العرب علماً على الجمع فقالوا للواحد: أنت فإذا جاوزوه إلى الجمع قالوا: أنتم، وكذلك هو، وهم)، وكذلك في المتصل يقولون: ضربت، وضربتم، وإياك، وإياكم، وإياه، وإياهم ونظائره نحو: به، وبهم، ويقولون للشيء الأزرق: أزرق فإذا اشتدت زرقته واستحكمت، قالوا: زرقم... وتأمل الألفاظ المعقود فيها الميم كيف تجد الجمع معقوداً بها مثل (ألم الشيء يلمه، إذا جمعه، ...وإذا علم هذا من شأن الميم؛ فهم ألحقوها في آخر هذا الاسم الذي يسأل الله - سبحانه - به في كل حاجة - وكل حال إيذانا بجميع أسمائه وصفاته، فالسائل إذا قال: (اللهم إني اسألك) كأنه قال: (ادعو الله الذي له الأسماء الحسني والصفات العلى، بأسمائه وصفاته فأتي بالميم المؤذنة بالجمع في آخر هذا الاسم إيذانا بسؤاله تعالى بأسمائه كلها، والداعي مندوب إلى أن يسأل الله تعالى بأسمائه،

---

(١) أخرجه البخاري ٦٤١٣، ومسلم ١٨٠٥/١٢٧ ولفظهما سواء.

(٢) مقاييس اللغة لابن فارس ٥٣/٣.

وصفاته كما في الاسم الأعظم...)[(١)] وقوله (لا عيش إلا عيش الآخرة) قصر لصفة العيش الحقيقي الكامل على موصوف هو عيش الآخرة نفياً لها عما سواه على سبيل المبالغة وعدم الاعتداد بغيرها إشارة إلى كمال الصفة في الحياة الأخروية لأنها كاملة من جميع الوجوه بعكس الدنيا التي يحدوها النقص في أكثر نواحيها، ويطويها الفناء، والإنسان مرض فيها للأعراض من فقر، ومرض، وهرم، وموت إن أخطأه هذا نهشه هذا..

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة القصر.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: بيان فضل الآخرة والزهد في الدنيا.

ثالثًا: من واجبات الداعية: بيان الحقائق للمدعوين.

أولاً - من أساليب الدعوة القصر:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة"، حيث قصر العيش على الآخرة، وهذا يُشعر بأهمية الآخرة واهتمام رسول الله ﷺ بها لما فيها من خير ونعيم فقصر العيش عليها وأسلوب القصر من أساليب الدعوة المعبرة عن أهمية وعظم الأمر الذي أُستُعمل فيه القصر، لذا فإنه ينبغي للداعية أن يفيد من هذا الأسلوب في دعوته.

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: بيان فضل الآخرة والزهد في الدنيا:

من موضوعات الدعوة التي تستنبط من عموم الحديث فضل الحياة الأخروية والزهد في الدنيا، وذلك؛ لأن الآخرة دار البقاء ودار النعيم الدائم، أما الدنيا فهي دار الفناء ودار النعيم الزائل، وقال ابن عثيمين: (قوله ﷺ: "اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة"، يعني: العيشة الهنية الراضية الباقية هي عيش الآخرة، أما الدنيا فإنه مهما طاب عيشها فمآلها للفناء وإذا لم يصحبها عمل صالح فإنها خسارة)[(٢)]، قال تعالى:

---

(١) انظر: دراسة الأساليب الإنشائية في صحيح الترغيب والترهيب للحافظ المنذري، ص ٣٢٨، د. ناصر راضي الزهري، رسالة مخطوطة في كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر بأسيوط.

(٢) شرح رياض الصالحين ١/٧٩٣.

﴿ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾[(١)]، وقال أيضًا: ﴿ قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾[(٢)]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾[(٣)].

قال ابن كثير رحمه الله: (يقول تعالى مخبرًا عن حقارة الدنيا وزوالها وانقضائها، وأنها لا دوام لها، وغاية ما فيها لهو ولعب "وإن الدار الآخرة لهي الحيوان" أي: الدائمة الحق الذي لا زوال لها انقضاء، بل هي مستمرة أبد الآباد، وقوله: "لو كانوا يعلمون" أي: لآثروا ما يبقى على ما يفنى[(٤)].

فالدنيا بالنسبة للآخرة دنيئة ليست بشيء، قال رسول الله ﷺ: ((ومَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ من الجنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدّنْيَا وَمَا عليها))[(٥)]. وليكن شعار كل مؤمن الزهد في هذه الحياة الدنيا الفانية ولا يحبها حب شهوة كحب من أراد أن يكون كأهل وقوم قارون، قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾[(٦)].

فهذه هي عادة الناس يحبون ويرغبون في الحياة الدنيا ويتمنوا أن يكونوا كأغنيائها، ولذلك كان الرد من الذين زهدوا الدنيا وعلموا أن الآخرة هي خير من أي أموال. قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴾[(٧)]، وقال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ

---

(١) سورة التوبة، آية: ٣٨.

(٢) سورة النساء، آية: ٧٧.

(٣) سورة العنكبوت، آية: ٦٤.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢٩٤/٦.

(٥) أخرجه البخاري ٢٨٩٢.

(٦) سورة القصص، آية: ٧٩.

(٧) سورة القصص، آية: ٨٠.

فِي حَرْثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [(١)]) [(٢)].

فينبغي على الداعية أن يبين للمدعوين فضل الحياة في الآخرة وأنها هي الباقية، أما الدنيا فهي زائلة فلا بد من الزهد فيها مع بيان حقيقة الزهد.

ثالثًا - من واجبات الداعية: بيان الحقائق للمدعوين:

إن من واجبات الداعية التي تستنبط من هذا الحديث بيان الحقائق للمدعوين، ويظهر ذلك من بيان رسول الله ﷺ لحقيقة العيش والنعيم وأنه هو عيش الآخرة.

فمهما بلغت الحياة الدنيا من الطيبات والملذات فإن مصيرها إلى زوال وفناء، ولكن الله تعالى أعدّ لعباده المؤمنين في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

فالداعية ناصح أمين عالم بحقيقة الأشياء فينبغي له أن يبين الحقائق للمدعوين وإلا عوقب على كتمان العلم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾ [(٣)].

إن ذلك يوجب على الداعية بيان الحقائق للمدعوين وعدم كتمانها، لأن ذلك من صميم رسالته الدعوية التي كُلّف بها.

---

(١) سورة الشورى، آية: ١٩.

(٢) تفسير البيضاوي ١/٣٠٤ بتصرف يسير.

(٣) سورة البقرة، آية: ١٥٩.

الحديث رقم (٤٦٠)

٤٦٠ – وعنه، عن رسول الله ﷺ، قَالَ: ((يَتْبَعُ الْمَيِّتَ ثَلاثَةٌ: أهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ: فَيَرْجِعُ اثْنَانِ، وَيَبْقَى وَاحِدٌ: يَرْجِعُ أهْلُهُ وَمَالُهُ وَيبْقَى عَمَلُهُ)) متفقٌ عَلَيْهِ[(١)].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

الشرح الأدبي

الحديث يتناول معنى المنافع الحقيقية التي يجب أن يسعى إليه الإنسان، ويدخرها للآخرة، ففيه ترغيب ضمناً في التزود من العمل الصالح، وترهيب من سيء العمل، والأسلوب خبري يصور بحركة الفعل المضارع جنازة ميت يصير خلفه ثلاثة يشيعونه يرجع اثنان، ويبقى منهم واحد، وذكر العدد ثلاثة ثم تفصيله من التفصيل بعد الإجمال تشويقاً للسامع، وتوكيداً للمعنى، وفي الحديث حسن تقسيم لأنه ذكر كل ما يتبع الميت في قوله: (ثلاثة) ثم قسمها: (أهله – ماله – عمله) ثم فرقها بقوله: (فَيَرْجِعُ اثْنَانِ، وَيَبْقَى وَاحِدٌ: يَرْجِعُ أهْلُهُ وَمَالُهُ وَيبْقَى عَمَلُهُ) ومثل هذا الصنيع من التصرف في فنون القول على ما فيه من التشويق للمعنى، وإعمال ذهن المخاطب بما يجعله مستغرقاً في المعنى، فإنه يقرر المعنى، ويؤكده، حيث كرر من يتبع الميت ثلاث مرات، دون أن نشعر بتكرار، مع إضافة معنى جديد في كل مرة ذكره فيها فقد ذكر أولاً أن من يتبع الميت ثلاثة، هم أهله، وماله، وعمله، ثم ذكر الثلاثة مرة ثانية، وأضاف معنى بقاء اثنين، ورجوع واحد، وهو ما يجب أن يحرص عليه المؤمن، ثم ذكر الثلاثة مرة ثالثة بإضافة معنى التعريف بالباقي ليتنبه الإنسان إليه، والتنبيه على الذي يرجع، وهما أهله، وماله، والتحذير من الانشغال بهما على حساب الباقي.

المضامين الدعوية[(٢)]

---

(١) أخرجه البخاري ٦٥١٤، ومسلم ٥/٢٩٦٠، والسياق للحميدي في جمعه ٥٣٥/٢، رقم ١٨٩٨، وتقدم برقم ١٠٤. أورده المنذري في ترغيبه ٤٧٢٧.

(٢) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (١٠٤).

الحديث رقم (٤٦١)

٤٦١ - وعنه، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: ((**يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لاَ وَاللهِ، يَا رَبِّ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ بُؤسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لاَ وَاللهِ، مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلاَ رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ**)) رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

البؤس: الخضوع والفقر وشدة الحاجة[٢].

فيصبغ في النار صبغة: أي: يُغمس كما يغمس الثوب في الصِّبغ[٣].

الحديث يتناول مشهداً من الغيب المنتظر يوضح المفارقة بين مقاييس الدنيا، والآخرة في النعيم، والعذاب، والحديث مفعم بوسائل الإنشاء التي تصف أدق المشاعر، وأخفاها في نفس المتكلم كما يعتمد المطابقة بين أنعم أهل الدنيا، وحاله بعد أن يغمس في النار، وبين أبأس أهل الدنيا، وحاله بعد أن يغمس غمسة في الجنة، وقوله (يصبغ صبغة) فيه جناس يقرر المعنى، ويؤكده، ولفظ صبغة يدل بوزنه على أنها صبغة، واحدة مما يدل على قوة الأثر، ومدى التغيير، وقوله (هل رأيت خيراً قط) استفهام تقرير للتحقيق، والتثبيت ينوه بشدة أثر العذاب الذي أنسته غمسة فيه ألوان النعيم التي طالما أترف فيها، وقوله (هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ ؟) استفهام تقرير، وتوكيد للأول غير أن الثاني أضاف خصيصة للسؤال، وهي كونه لم يمر، ولو عرضاً بنعيم،

---

(١) برقم ٢٨٠٧/٥٥. أورده المنذري في ترغيبه ٥٤٣٠.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ب أ س)

(٣) المرجع السابق في (ص ب غ).

ولو لغيره، ومعنى هذا أن تلك الغمسة محت من ذاكرته كل متاع رآه في الدنيا لنفسه، أو حتى لغيره، ويدل على ذلك رده على السؤال (لاَ وَاللَّهِ يَا رَبِّ) وعبارته بنيت على إيجاز يتطلبه الموقف، ومعناها: لا لم أر نعيماً ولم يمر بي خير قط، ثم أكد إجابته بالقسم بالله، ولا ننسى أنه يقسم بالله بين يدي الله بعد أن صار إلى عين اليقين، وهو موقف لا يحتمل الكذب فلماذا قال ما قال؟ مع أنه أكثر أهل الأرض نعيماً دل على ذلك استخدام أفعل التفضيل (أنعم)، والمفضل عليه (أهل) المضاف للدنيا، والحقيقة أنه لم يكذب؛ لأنه لم يخالف قوله ما يشعر به، ولكن شدة الهول محت من ذاكرته ما رآه محواً لم يبق له أثراً ومن هنا نتبيَّن عبقرية اختيار اللفظ في التعبير بـ(صبغة) لأنها تدل على صبغ صاحبها بصبغتها، وتلوينه بلونها، وتحويله، وهو ما حدث مع أنعم أهل الدنيا حيث صبغته بصبغة الجحيم فصار جحيماً حتى الذكرايات التي مرت به صبغتها، وكأنها من هولها انسحبت على الماضي، حتى لا يغتر شقي بما هو فيه من نعيم يذوب في غمسة في الجحيم، ثم قابل هذا المعنى المقرر بمقابله لصورة النعيم الذي يمحو بصبغة منه كل شقاء رآه أشقى أهل الأرض إشارة إلى أن على المؤمن أن يصبر على ما يلاقيه من مشقة الطاعة، وشدة الصبر عن المعصية، وما يكابده في الحياة، لأن غمسة في الجنة ستنسيه ما هو فيه مع أنه أقل شقاء من غيره.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: إخبار النبي ﷺ عن بعض أحوال أهل الجنة وأحوال أهل النار.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: الترهيب.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الترغيب.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: تنعيم أهل الجنة وشدة عذاب أهل النار.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: السعادة الحقيقية بدخول الجنة، والشقاوة الحقيقة بدخول النار.

أولاً - من موضوعات الدعوة: إخبار النبي ﷺ عن بعض أحوال أهل الجنة وأحوال أهل النار:

إن من خصوصيات النبي ﷺ التي تظهر في هذا الحديث الإخبار عن بعض أحوال أهل الجنة وأهل النار، يظهر ذلك في قوله ﷺ: "يؤتى بأنعم الدنيا من أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة.. ويؤتى بأشد الناس بؤسًا في الدنيا من أهل الجنة...".

إن هذا من معجزات رسول الله ﷺ ودلائل نبوته ما اطلع عليه من الغيوب الماضية والمستقبلة وإخباره عنها، وإذا كان من المعلوم أن علم الغيب مختص بالله تعالى وحده فقد جاءت أدلة تفيد أن الله تعالى استثنى من خلقه من ارتضاه من الرسل فأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحي إليهم(١).

قال تعالى: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾(٢)، وما وقع من على لسان رسول الله ﷺ من الإخبار بالمغيبات فبوحي من الله تعالى وهو من إعلام الله عز وجل لرسوله ﷺ للدلالة على ثبوت نبوته وصحة رسالته(٣).

وقد ورد عنه ﷺ الكثير من الأخبار التي تتعلق بأهل الجنة وأهل النار منها قوله ﷺ: ((اطَّلَعْتُ في الجنة فرأيتُ أكثرَ أهلِها الفُقَراءَ، واطَّلعتُ في النار فرأيتُ أكثرَ أهلِها النساءَ))(٤).

ثانيًا - من اساليب الدعوة: الترهيب:

ويظهر ذلك في ذكر رسول الله ﷺ لحال من يغمس مرة في النار وفي ذلك ترهيب

---

(١) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن محمد بن ملوح ١/٥٤٢.

(٢) سورة الجن، الآيتان: ٢٦ - ٢٧.

(٣) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن محمد بن ملوح ١/٥٤٣.

(٤) أخرجه البخاري ٢٧٣٨.

من النار وشدة عذابها وتخويف الناس منها وذلك من أجل أن يحرصوا على العمل الصالح الذي ينجيهم من عذابها، وقد ورد الترهيب في هذا الحديث لأجل أبعاد المدعو عن الإخلاد إلى الدنيا وزخارفها ومُتعها الزائلة، وتخويفه بالترهيب من الله وحسابه وعقابه وناره. وبيان أن كل ذلك إلى فناء وأنه لا يغني عن الإنسان شيئًا، والدعاة مطالبون بانتهاج هذا الأسلوب مع الناس.

ثالثًا - من أساليب الدعوة: الترغيب:

يظهر ذلك في ذكر رسول الله ﷺ لحال من يغمس مرة واحدة في الجنة من أهلها وفي ذلك ترغيب من رسول الله ﷺ في الجنة ونعيمها، وأسلوب الترغيب يقصد به كل ما يشوق المدعو إلى الاستجابة وقبول الحق والثبات عليه[(١)].

رابعًا - من موضوعات الدعوة: تنعيم أهل الجنة وشدة عذاب أهل النار:

إن من موضوعات الدعوة التي تستنبط من عموم الحديث تنعيم أهل الجنة وشدة عذاب أهل النار. ويشهد لذلك في الحديث قوله ﷺ: "يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار".

وتنعيم أهل الجنة قال فيه الله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[(٢)]، قال السعدي: (أي: كل ما تعلقت به مشيئتهم فهو حاصل فيها "ولدينا" فوق ذلك "مزيد" أي: ثواب يمدهم به الرحمن الرحيم، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)[(٣)].

وأما شدة عذاب أهل النار فقد قال فيه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾[(٤)].

قال السعدي رحمه الله: (ذكر حال أهل النار وعذابهم فقال: "والذين كفروا" أي: جحدوا ما جاءتهم به رسلهم من الآيات وأنكروا لقاء ربهم لهم نار جهنم، يعذبون فيها

---

(١) أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان، ص ٤٣٧.

(٢) سورة ق، آية: ٣٥.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٧٥٠.

(٤) سورة فاطر، آية: ٣٦.

أشد العذاب، وأبلغ العقاب "لا يقضى عليهم" بالموت "فيموتوا" فيستريحوا، (ولا يخفف عنهم من عذابها) فشدة العذاب وعظمه مستمر عليهم في جميع الآناء واللحظات"[١]، ومن تنعيم أهل الجنة قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٢] وسبب هذا النداء هو وعد الله أصحاب أهل الجنة النعيم والكرامة وكل خير علمه الناس أو لم يعلموه ووعد أهل النار كل خزي وعذاب علمه الناس أو لم يعلموه، ولذلك كان رد أهل النار على أهل الجنة "نعم" لقينا من الخزي والهوان والعذاب ما كان نتيجة لأعمالنا، لكن قال أهل الجنة فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًا من النعيم والكرامة[٣]. فينبغي على الداعية أن يذكّر المدعوين بالجنة ونعيمها والنار وعذابها.

خامسًا - من موضوعات الدعوة: السعادة الحقيقية بدخول الجنة، والشقاوة الحقيقة بدخول النار:

إن من موضوعات الدعوة التي تستنبط من عموم الحديث السعادة الحقيقية تتحقق بدخول الجنة وهذا يظهر من بيانه ﷺ لحال من غُمس مرة في الجنة فينسى بؤس الدنيا كله، والشقاوة الحقيقية في دخول النار ويظهر ذلك في بيان رسول الله ﷺ لحال أكثر الناس نعيمًا في الدنيا فغمسة واحدة في النار تنسيه نعيم الدنيا.

وقد بيّن المولى تبارك وتعالى هذه الحقيقة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٦٣٦.

(٢) سورة الأعراف، آية: ٤٤.

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ٥/٤٩٥.

مَجْذُوذٍ﴾[١]، فأهل النار في شقاء دائم لا ينقطع لاتصال عذابهم وأهل الجنة في نعيم دائم لا ينقطع لاتصال نعيمهم. لأنهم كانوا دائمًا ما يشعرون بمعية الله فتجعلهم في أُنس دائم بربهم، ونعيم موصول بقربة يحسون أبدًا بالنور يغمر قلوبهم ولو أنهم في ظلمة الليل البهيم ويشعرون بالأنس يملأ عليهم حياتهم وإن كانوا في وحشة من الخلطاء والمعاشرين ينشد ما قاله العبد الصالح:

إن قلبًا أنت ساكنهُ ... غير محتاج إلى السرج[٢]

---

(١) سورة هود، الآيات: ١٠٥ - ١٠٨.

(٢) الإيمان والحياة، القرضاوي، ص ١٠٠.

الحديث رقم (٤٦٢)

٤٦٢ - وعن المُسْتَوْرِد بن شَدَّاد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: (([١] **مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إلاَّ مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ أُصْبُعَهُ فِي اليَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ يَرْجِعُ!**)) رواه مسلم[٢].

ترجمة الراوي:

المستورد بن شداد: هو المستورد بن شدّاد بن عمرو القرشي الفِهْري المكي، له ولأبيه صحبة. قيل: إنه كان غلامًا يوم قُبض رسول الله ﷺ ولكنه سمع منه ووَعَى عنه.

شارك في الفتوحات وساهم في نشر دين الله، فقد شهد فتح مصر.

سكن الكوفة ثم أقام بمصر وسكنها، وقد روى عنه المحدثون من أهل الكوفة والبصرة ومصر وغيرهم. وله في صحيح مسلم حديثان.

توفي بالإسكندرية ٤٥هـ في خلافة معاوية[٣].

غريب الألفاظ:

اليم: البحر[٤].

---

(١) عند مسلم قبل هذا زيادة: (والله). تبع فيه المؤلفُ، والمنذريُّ: الحميديَّ في جمعه ٥٢٧/٣، رقم ٢١٠٠ حيث لم يوردها.

(٢) برقم ٢٨٥٨/٥٥. أورده المنذري في ترغيبه ٤٧٤٢.

(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر ٧٠٢، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود ١٤٨/٥ والإصابة في تمييز الصحابة، ابن علي العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ١٢٣٠، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين ٨٢/٧، والتهذيب ٥٧/٤ والأعلام، خير الدين الزركلي ٢١٥/٧.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ي م م).

الشرح الأدبي

وقد استخدم الرسول ﷺ عدة أشكال بلاغية في تمام الدقة والإصابة، وتمام الوضوح، وأسلوب القصر عن طريق النفي والاستثناء لينفي أن تكون الدنيا بالنسبة للآخرة إلا كهذا المقدار الذي أصاب الإصبع فبلله بالنسبة للبحر، وهو قصر موصوف هو (كون الدنيا) على صفة وهي المقدار القليل المشار إليه من خلال المثل، ثم يأتي التشبيه التمثيلي في قوله ﷺ: (ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليم) فقد شبه الرسول ﷺ حال الدنيا ونسبتها إلى الآخرة بحال ونسبة الإصبع المبلل بالقياس إلى ماء البحر، ووجه الشبه نسبة المحدود إلى ما لا حدود له سواء في الزمان، أو المكان أو فيما يشتمل على كل منهما"وهذا التشبيه يجعل المعنى واضحاً أتم الوضوح لبيان حال الدنيا بالنسبة للآخرة، ويقرر قصر عمر الدنيا وسرعة زوالها، ويصل بهذا المعنى إلى جميع المخاطبين على اختلاف أفهامهم بنفس الدرجة التي يصل بها إلى أسرعهم فهماً، وهذا مما لا تجده إلا في طبقات الكلام العالي، كالقرآن وكلام الرسول ﷺ، وفي بعض كلام بعض أذكياء البلغاء، ثم يأتي أسلوب الأمر ليؤكد العبرة ويخلص إلى المراد في قوله ﷺ (فلينظر بم يرجع؟) بغرض اللفت والتنبيه والاعتبار؛ ليضع النتيجة المراد استخلاصها من الحديث في بؤرة الشعور بين السمع والبصر ومركز العقل حتى ترسخ فيها صورة حقيقية للدنيا، وحقارتها بجوار الآخرة، والوصول بالمخاطبين إلى حقيقة صارت مؤكدة في الحديث وهو هوان الدنيا - حتى إذا ما ازدهرت يوماً - بين يدي أحدهم تذكر سبابة الرسول ﷺ تحكي إصبعاً مبللاً إزاء بحر هذا البلل هو دنياه"(١).

أولاً: من أساليب الدعوة: القصر.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: ضرب الأمثال.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: حقارة نعيم الدنيا مقارنة بنعيم الآخرة.

رابعًا: من مهام الداعية: بيان الحقائق للمدعوين.

---

(١) انظر بلاغة الرسول ﷺ في تقويم الأخطاء د ناصر راضي الزهري، ١١١.

أولاً - من أساليب الدعوة: القصر:

يظهر ذلك في قول رسول الله ﷺ "ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ...".

حيث قصر الدنيا بالنسبة للآخرة في قصر مدتها وفناء لذاتها ودوام الآخرة، ودوام لذاتها، ونعيمها إلا كنسبة الماء الذي يعلق بالأصبع إلى باقي البحر"[١].

وأسلوب القصر من أساليب الدعوة التي ينبغي أن يستخدمها الداعية لقصر دعوته أو كلامه على ما يريد حث المدعوي عليه والاهتمام به.

ثانيًا - من أساليب الدعوة: ضرب الأمثال:

يظهر في قوله ﷺ "... إلا مثل ما يجعل أصبعه في اليم فلينظر بم يرجع؟" فضرب مثل لتوضيح قلة نعيم الدنيا بالنسبة للآخرة كالذي وضع أصبعه في البحر وأخرجه.

إنه تشبيه وهو قمة في البلاغة، إذ وضح رسول الله ﷺ ضآلة الدنيا وما فيها أمام عظمة نعيم الآخرة، وأن نسبة ما ذكر من نعيم الدنيا وقلة زمانها إلى نعيم الآخرة ليس إلا مثل نسبة ذرات الماء الباقية على الإصبع إذا غمست في البحر.

قال المناوي: (فلينظر نظر اعتبار وتأمل بم يرجع، وضعه موضع قوله "فلا يرجع بشيء" استحضارًا لتلك الحالة بأن يستحضر مشاهدة السامع ثم يأمره بالتأمل والتفكر هل يرجع بشيء أم لا؟ وهذا تمثيل تقريبي وإلا فأين المناسبة بين المتناهي وغيره؟ والمراد أن نعيم الدنيا بالنسبة لنعيم الآخرة في المقدار كذلك أو ما الدنيا في قصر مدتها وفناء لذتها بالنسبة للآخرة في دوام نعيمها إلا كنسبة الماء الذي يعلق بالأصابع إلى باقي البحر)[٢].

وأسلوب ضرب الأمثال أسلوب من الأساليب الدعوية المهمة، فقد كان رسول الله ﷺ يستعين به على توضيح المواعظ بضرب المثل مما يشاهده الناس بأم أعينهم، ويقع تحت حواسهم وفي متناول أيديهم ليكون وقع الموعظة في النفس أشد وفي الذهن أرسخ.

---

(١) انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٦٤.

(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير، عبدالرؤوف محمد المناوي ٣٥٩/٦.

ومن الأمثلة على ذلك ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((مَثَلُ المُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ القُرْآنَ كَمَثَلِ الأُتْرُجَّةِ، طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَرِيحُها طَيِّبٌ، وَمَثَلُ المُؤْمِنِ الَّذِي لا يقْرَأُ القُرْآنَ كَمَثَلِ التَّمْرَةِ، طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَلا رِيحَ لَهَا، وَمَثَلُ الفاجِرِ الَّذي يَقْرَأُ القُرْآنَ كَمَثَلِ الرَّيحانَةِ رِيحُها طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، ومَثَلُ الفَاجِرِ الَّذِي لا يَقْرَأُ القُرْآنَ، كَمَثَلِ الحَنْظَلَةِ، طَعْمُهَا مُرٌّ، وَلا رِيحَ لَهَا))[1].

فالناس كما قسمهم الرسول صلى الله عليه وسلم أربعة أنواع، والسامعون يرهفون السمع وحاسة التصوير يريدون أن يتعرفوا هذه الأقسام الأربعة ليوازنوا بينها، ويحددوا في أي صنف يكونون... وهذه الموازنة تجعلهم يرغبون بالتعرف على سمات كل طائفة، ثم ينضمون إلى الطائفة الموجودة[2]. فضرب الأمثال من أساليب الدعوة التي اعتبرها الشرع الحنيف، وأكثر القرآن من ذكرها[3]؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[4].

فينبغي على الداعية استخدام أسلوب ضرب الأمثال ليقرب المعنى إلى الأفهام ويحرك العواطف والوجدان إلى قبول دعوته.

ثالثًا – من موضوعات الدعوة: حقارة نعيم الدنيا مقارنة بنعيم الآخرة:

إن من موضوعات الدعوة التي تستنبط من عموم الحديث حقارة نعيم الدنيا مقارنة بنعيم الآخرة، فالحياة الدنيوية لا تقارن بالحياة الأخروية، والإنسان في الدنيا أشبه حالاً بالمسافر أو الغريب عابر سبيل.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((مَالِي وَلِلدُّنْيَا، ما أَنَا في الدُّنْيَا إلاَّ كَرَاكِبٍ اسْتَظلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا))[5].

---

(١) أخرجه البخاري ٥٠٢٠، ومسلم ٧٩٧.

(٢) انظر: التربية النبوية، عثمان قدري مكانسي ص٣١، ٣٢.

(٣) انظر: التربية على منهج أهل السنة والجماعة، أحمد فريد، ص ٣٣٤.

(٤) سورة النور، آية : ٣٥.

(٥) أخرجه الترمذي ٢٣٧٧، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٩٣٦).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: ((أخذ رسولُ الله ﷺ بمنكبي فقال: كن في الدُّنيا كأنك غريبٌ أو عابرُ سَبيل. وكان ابنُ عمرَ يقول: إذا أمسيتَ فلا تنتَظِر الصباح، وإذا أصبحتَ فلا تنتظر المساء. وخُذْ من صحتِكَ لمرضِك، ومن حَياتِك لموتك))(١).

قال ابن رجب: (وهذا الحديث أصل في قصر الأمل في الدنيا، وأن المؤمن لا ينبغي له أن يتخذ الدنيا وطنًا ومسكنًا، فيطمئن فيها، ولكن ينبغي أن يكون فيها كأنه على جناح سفر: يهيئ جهازه للرحيل.

وقد اتفقت على ذلك وصايا الأنبياء وأتباعهم، قال تعالى حاكيًا عن مؤمن آل فرعون أنه قال: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾(٢))(٣).

إن التفاوت بين نعيم الدنيا والآخرة كبير، قال تعالى: ﴿قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾(٤). وقال تعالى: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۝١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾(٥).

وقال ابن كثير: (ثواب الله في الدار الآخرة خير من الدنيا وأبقى فإن الدنيا دنية فانية، والآخرة شريفة باقية)(٦).

رابعًا – من مهام الداعية: بيان الحقائق للمدعوين:

يظهر ذلك من بيان رسول الله ﷺ لدنو الدنيا وحقارتها بالنسبة للآخرة ونعيمها وهى حقيقة بينها رسول الله ﷺ لأمته. (فمثل من يتلهى بالدنيا عن الآخرة كمثل من يتشاغل بصورة عما تدل عليه أو تصوره، بل الأمر أيسر من هذا. إن ما يحصله من الخير

---

(١) أخرجه البخاري ٦٤١٦.

(٢) سورة غافر، آية: ٣٩.

(٣) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٣٧٧/٢.

(٤) سورة النساء، آية: ٧٧.

(٥) سورة الأعلى، الآيتان: ١٦-١٧.

(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣٨٢/٨.

لا قيمة له بالنظر إلى ما يفوته، إن يفرح بقطرة من بحر النعم الكبير وينسى ما يتركه فعلى المؤمن أن يتعقل وعلى الكافر أن يتدبر ومن الله التوفيق والتسديد)[1].

فالداعية هو الذي يبين للناس الحقائق لأنه يقوم بالأمر بالمعروف وينهى عن المنكر والناس يثقون في أقواله فينبغي عليه أن يبين لهم حقيقة الأشياء، وإن لم يفعل خشي أن ينطبق عليه قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾[2]، فينبغي على الداعية بيان الحقائق للمدعوين.

---

(١) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني عبدالمجيد هاشم، ص ٢١١.

(٢) سورة البقرة، آية : ١٥٩.

الحديث رقم (٤٦٣)

٤٦٣ - وعن جابر رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ مَرَّ بالسُّوقِ[١]، وَالنَّاسُ كَنَفَتَيْهِ، فَمَرَّ بِجَدْيٍ أَسَكَّ مَيِّتٍ، فَتَنَاوَلَهُ فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ، ثُمَّ قَالَ: ((أَيُّكُم يُحِبُّ أنْ يَكُونَ[٢] هَذَا لَهُ بِدرْهَمٍ؟)) فقالوا: مَا نُحِبُّ أنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ وَمَا نَصْنَعُ بِهِ؟ ثُمَّ قَالَ: ((أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟)) قَالُوا: وَاللهِ لَوْ كَانَ حَيًّا كَانَ عَيْبًا[٣]، إنَّهُ أَسَكُّ فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ! فقال: ((فَوَاللهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ)) رواه مسلم[٤].

ترجمة الراوي:

جابر بن عبدالله الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

كَنَفَتَيه: عن جانبيه[٥].

الأسَكُّ: الصغير الأُذُن[٦].

درهم: قطعة نقدية من الفضة وزنها ٢,٨١٢ جرامًا، أي ما يزيد قليلاً عن ثلاثة جرامات من الفضة إلا ربعًا[٧].

أراد النبي ﷺ أن يقرر بصورة عملية أن الدنيا لا تساوي عند الله شيئاً، وقد توصل لهذا بضرب المثل الماثل بينهم بهذه الجيفة التي ألقاها أصحابها زهداً فيها فأمسك بها مسكة تمهد لما يرمي إليه من تحقير للممثل له فأمسك بأذن الجدي ثم قال :(أيكم

---

(١) عند مسلم زيادة: (داخلاً من بعض العالية)، وهي لا توجد عند المنذري في ترغيبه.

(٢) لفظ مسلم: (أن هذا).

(٣) عند مسلم زيادة: (فيه).

(٤) برقم ٢٩٥٧/٢. أورده المنذري في ترغيبه ٤٧٣٢.

(٥) رياض الصالحين ٢٢٤.

(٦) المرجع السابق ٢٢٤.

(٧) معجم لغة الفقهاء، أ.د. محمد رواس قلعة جي ١٨٩.

يحب أن هذا له بدرهم؟) وطريقة عرض الرسول ﷺ زادت هذا المعروض حقارة زادها استفهامه تحقيراً قرره الصحابة بردهم (ما نحب أنه لنا بشيء)، وأكدوه باستفهامة لخصت حجم هذا التحقير (وما نصنع به؟) ثم عاد يقرر، ويؤكد على هذه الحقيقة مرة أخرى بتقريرهم بها (قال: أتحبون أنه لكم ؟) فإذا انتهي هذا الحوار بالسؤال، والإجابة وانتهي إلى نتيجة مؤكدة ثابتة في الأنفس بمدى هوان هذا الجدى الأسك عند أهله، وأكد تحقيره له حياً؛ لأنه أسك، وميتاً؛ لأنه جيفة - لا تنفع - نقل كل هذا الاحتقار في النفوس لهذه الجيفة السكاء بكامل هوانها؛ ليقرر بها مدى هوان الدنيا عند الله، وأنها لا تساوى جناح بعوضة، وتشبيهها بهذه الجيفة تنفيراً للصحابة منها؛ لكي لا يتنافسوا فيها، ويصرفهم إلي الحياة الكاملة - في الآخرة - ، وطريقة النبي ﷺ طريقة استدراج، وتقرير للحكم بحقارة الدنيا، وهوانها، يتوصل إليه المخاطب بنفسه، ويقرره بنتيجة لا يمكنه إنكارها؛ وبذلك يكون قد خاطب في المخاطبين كل مواطن الحس، وحرك فيهم سواكن المشاعر، وأقرت بذلك عقولهم بعد أن وعته قلوبهم، لقد طبع بدقة أسلوبه، وتنويعه بين الوسائل المرئية، والمسموعة والمعقولة طبع في أنفسهم صورة المتكالبين على الدنيا بصورة لاهثين في مضمار للفوز بجيفة جدي أسك، وهذا من تمام فطنة الرسول ﷺ.

هذا الحديث يشير إلى الأحكام الفقهية التالية:

١ - جواز مس ميتة مأكول اللحم، وأن غسل اليد بعد مسها ليس بضروري(١).

٢ - حكم الأضحية بالسكاء.

اتفق الفقهاء على أن السكاء إذا كانت صغيرة الأذنين فإنها تجزئ في الأضحية، إلا أن المالكية قالوا: إن كانت الأذن صغيرة جدًا، بحيث تقبح معها الخلقة فلا تجزئ.

أما التي خلقت بلا أذنين، فقد اختلف الفقهاء في حكمها هل تجزئ أم لا؟ فذهب الجمهور إلى أنها لا تجزئ في الأضحية. لقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أمرنا رسول

---

(١) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١/٢٠٨.

الله ﷺ أن نستشرف العين والأذن[(١)] أي: أن نتأمل سلامتها من الآفات [(٢)].

وذهب الحنابلة إلى أنها تجزئ؛ لأن ذلك لا يخل[(٣)].

أولاً: من أساليب الدعوة: ضرب الأمثال.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: القسم.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: هوان الدنيا على الله.

أولاً - من أساليب الدعوة: ضرب الأمثال:

يظهر ذلك في ضربه مثل الدنيا وهوانها على الله بالجدي الميت وهوانه وعدم قيمته عند الناس.

ولضرب الأمثال أثناء الدعوة أكبر الآثار في النفوس - فإن المقصود من ضرب الأمثال أنها تؤثر في العقول مالا يؤثره وصف الشيء ذاته - ذلك بأن الغرض من ضرب المثل تشبيه الخفي بالجلى، والغائب بالشاهد، فيتأكد الوقوف على ماهيته ويصير الحس مطابقًا للعقل، وذلك هو النهاية في الإيضاح[(٤)].

(والأمثال تبرز المعقول في صورة المحسوس، الذي يلمسه الناس فتقبله العقول، لأن المعاني المعقولة لا تستقر في الذهن، إلا إذا صيغت في صورة حية قريبة الفهم، وتكشف الأمثال عن الحقائق وتعرض الغائب في معرض الحاضر، وتجمع الأمثال المعنى الرائع في عبارة موجزة. ويضرب الممثل للترغيب في المثل به حين يكون مما ترغب فيه النفوس،

---

(١) أخرجه أبو داود ٢٨٠٤، والترمذي ١٥٠٣، والنسائي ٤٣٧٨، وابن ماجه ٣١٤٣، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٢٥٤٤).

(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير (ش ر ف)

(٣) البدائع ٧٥/٥، وحاشية الدسوقي على الشرح الكبير، محمد بن عرفة الدسوقي ١٢٠/٢، وحاشية الشبراملسي بهامش نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي ١٢٨/٨، وكشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٦/٣، والمغني، أبن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٦٢٥/٨.

(٤) انظر: هداية المرشدين، علي محفوظ، ص ١٧٧.

ويضرب المثل للتنفير حينما يكون الممثل به مما تكرهه النفوس، ويضرب المثل لمدح الممثل به، ويضرب المثل حين يكون المُمَثَّل به فيه صفة يستحقها الناس)[١].

(وللأمثال قدرة على الاستحواذ على المشاعر، وإيقاظ النفوس، وتجديد نشاطها، فالإنسان يميل بطبيعته إلى الاستشهاد بالأمثال لما يرى فيها من جمال حكمتها، ولطافة لفظها، وإصابتها المعنى)[٢] (فإن الأمثال وسيلة من وسائل الإقناع، فإن المورد للمثل، إنما هو في الحقيقة يقيس الأمر الذي يدعيه على أمر معروف ومسلم به عند من يخاطبه، ومن ثم لزم التسوية بينهما في الحكم.

وقد استعمل رسول الله ﷺ المثل وسيلة من وسائل الدعوة بنواحيها المختلفة[٣].

ثانيًا: من أساليب الدعوة: القسم:

ويظهر ذلك في قول رسول الله ﷺ "فو الله ..."؛ حيث أقسم رسول الله ﷺ على أن الدنيا أهون عند الله من هذا الجدي الأسك الميت.

وأسلوب القسم له شأن عظيم وتأثير عجيب في الدعوة إلى الله، إذ أنه يعمل على تعظيم الأمر في نفس المدعو وذهنه، كما يعمل على جمع الانتباه حول المقسم عليه، بصيغة مؤكدة من المقسم، خاصة إذا كان المقسم هو رسول الله ﷺ المؤيد بالوحي من عند الله، فإن ذلك يساعد على تثبيت المعاني المشتملة عليها الدعوة هذا من جهة، ومن جهة أخرى: فإن العقل الإنساني تعود وأدرك أن الكلام العظيم المستحق للاهتمام هو الذي يبدأ بالقسم، فعلى سبيل المثال لما أراد ﷺ أن يبين الوعيد الوارد في عصيان المرأة زوجها، كما جاء ذلك في أحاديث صحيحة، منها ما رواه الإمام البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: ((إذا دعا الرجل امرأته لفراشه ، فأبت أن تجيء فبات غضبانًا عليها، لعنتها الملائكة حتى تصبح))[٤].

---

(١) فلسفة التربية الإسلامية في الحديث الشريف، د. عبدالجواد سيد بكر ص ٣٤٢.

(٢) أسلوب الدعوة القرآنية بلاغة ومنهاجًا، د. عبدالغني محمد سعيد بركة ص ٢٩٩.

(٣) انظر: أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد محمود العاني، ص ٤٢٣-٤٢٤.

(٤) أخرجه البخاري ٥١٩٣.

وفي رواية عند الإمام مسلم عن أبي هريرة أنه عليه الصلاة والسلام قال: ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! مَا مِنْ رَجُلٍ يَدْعُو امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهَا، فَتَأْبَى عَلَيْهِ، إلاَّ كَانَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ سَاخِطًا عَلَيْهَا، حَتَّى يَرْضَى عَنْهَا))(١) فعند سماع هذا الوعيد يشعر المدعو بقشعريرة في نفسه وبدنه، ولكن في الرواية الثانية يشعر بمزيد خوف وحذر، والسبب كما هو واضح تقديم النبي ﷺ الوعيد وتأكيد بالقسم بذات الله العظيمة، فأعطى للحديث قوة ترهيب أكثر(٢).

والقسم النبوي يبصر بالعاقبة الوخيمة للعصاة ومن ذلك قوله ﷺ ((يا أمةَ محمد والله لو تَعلمونَ ما أعلمُ، لضحِكتم قليلاً ولَبَكيتم كثيرًا))(٣) فالحديث فيه إشارة مؤكدة إلى عاقبة الذين اتخذوا الدنيا دارًا للهو والضحك والمسرات، بأن عاقبته ستكون ندمًا وحزنًا وبكاء، وقد أكد عليه الصلاة والسلام ذلك بالقسم لاختصاصه ﷺ بمعارف بصرية وقلبية لم تجتمع لأحد غيره على وجه التفصيل كما جمع الله له بين علم اليقين على وجه لم يجتمع لغيره)(٤).

وأسلوب القسم من أساليب الدعوة التي تؤكد على أهمية الدعوة وذلك لأن الداعية لا يقسم إلا إذا كان هناك أمر عظيم يريد التأكيد عليه، مما يجعل المدعو أكثر حرصًا على إجابة الدعوة وشعورًا بأهميتها فينبغي على الداعية استخدام أسلوب القسم.

ثالثًا - من موضوعات الدعوة: هوان الدنيا على الله:

إن من موضوعات الدعوة التي تستنبط من هذا الحديث هوان الدنيا على الله ويظهر ذلك في قوله ﷺ: "فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم...".

قال القرطبي رحمه الله: (وقوله: "والله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم" الدنيا: وزنها فُعْلى وألفها للتأنيث، وهي من الدنو بمعنى القرب، وهي صفةٌ لموصوف محذوف،

---

(١) أخرجه مسلم ١٤٣٦.

(٢) انظر: الترهيب في الدعوة، د. رقية بنت نصرالله بن محمد نياز، ص ١٣٢-١٣٣.

(٣) أخرجه البخاري ٦٦٣١، ومسلم ٩٠١.

(٤) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١/٥٣٦، والترهيب في الدعوة ١٣٩.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[١] غير أنه قد كثر استعمالها استعمال الأسماء، فاستغني عن موصوفها، كما جاء في هذا الحديث والمرادُ: الدار الدنيا، أو الحياة الدنيا التي تقابلها الدار الأخرى، أو الحياة الأخرى، ومعنى هوان الدنيا على الله: أنَّ الله تعالى لم يجعلها مقصودة لنفسها؛ بل: جعلها طريقاً موصلةً إلى ما هو المقصودُ لنفسه، وأنه لم يجعلها دار إقامة، ولا جزاء، وإنما جعلها دار رحلةٍ وبلاء، وأنه ملكها في الغالب الكفرة والجهَّال، وحماها الأنبياءَ، والأولياء، والأبدال. وقد أوضح النبي ﷺ هذا المعنى فقال: ((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ الله جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))[٢]، وحسبك بها هوانًا، أن الله قد صغَّرها، وحقَّرها، وذمَّها، وأبغضها، وأبغض أهلها، ومحبيها، ولم يرض لعاقلٍ فيها إلا بالتزوُّد منها، والتأهُّب للارتحال عنها، ويكفيك من ذلك ما رواه أبو عيسى الترمذي عن النبي ﷺ أنه قال: ((الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلاَّ ذِكْرُ الله وَمَا وَالاَهُ وَعَالِمٌ أَو مُتَعَلِّمٌ))[٣])[٤].

وقد استخدم النبي ﷺ عدة أساليب في بيانه وفي هذا الحديث استخدم العبارة والإشارة في قوله وإشارته إلى الجدي الميت، ليرسخ في القلوب معالم ومعاني الزهد في الدنيا وليؤكد على حقارة الدنيا عند الله تعالى.

قال ابن عثيمين رحمه الله: (فهذا جدي ميت لا يساوي شيئًا، ومع ذلك فالدنيا أهون وأحقر عند الله تعالى من هذا الجدي الأسك الميت، فهي ليست بشيء عند الله، ولكن من عمل فيها عملاً صالحًا؛ صارت مزرعة له في الآخرة، ونال فيها السعادتين: سعادة الدنيا وسعادة الآخرة.

أما من غفل وتغافل وتهاون ومضت الأيام عليه وهو لم يعمل؛ فإنه يخسر الدنيا

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٨٥.

(٢) أخرجه الترمذي ٢٣٢٠، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٨٩٠).

(٣) أخرجه الترمذي ٢٣٢٢، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٨٩١).

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ١٠٨/٧.

والآخرة. قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾[2].

وكل ابن آدم خاسر إلا هؤلاء الذين جمعوا هذه الأوصاف الأربعة: آمنوا، وعملوا الصالحات، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر، جعلنا الله وإياكم منهم)[3].

---

(١) سورة الزمر، آية: ١٥.

(٢) سورة العصر.

(٣) شرح رياض الصالحين ١/٧٩٢.

الحديث رقم (٤٦٤)

٤٦٤ - وعن أَبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبي ﷺ في حَرَّةٍ بالمَدينَةِ، فَاسْتَقبَلَنَا أُحُدٌ، فقال: ((يَا أَبَا ذَرٍّ)) قلت: لَبَّيْكَ يَا رسولَ الله. فقال: **((مَا يَسُرُّنِي أنَّ عِنْدِي مِثْلَ أُحُدٍ هَذَا ذَهَبًا تَمْضي عَلَيَّ ثَلاثَةُ أيَّامٍ**[١] **وَعِنْدِي مِنْهُ دِينَارٌ، إلاَّ شَيْءٌ أرْصُدُهُ لِدَيْنٍ**[٢]**، إلاَّ أنْ أقُولَ بِهِ في عِبَادِ الله هكذا وَهكَذَا وَهكَذَا))** عن يَمِينِهِ وعن شِمَالِهِ وَمِنْ خَلْفِهِ، ثُمَّ سَارَ[٣]، فقال: **((إنَّ الأَكْثَرِينَ هُمُ الأَقَلُّونَ يَوْمَ القِيَامَةِ إلاَّ مَنْ قَالَ بالمَالِ**[٤] **هكَذَا وَهكَذَا وَهكَذَا))** عن يمينِهِ وعن شِمَالِهِ ومِنْ خَلْفِهِ **((وَقَلِيلٌ مَا هُمْ))**. ثُمَّ قَالَ لي: **((مَكَانَكَ لاَ تَبْرَحْ حَتَّى آتِيَكَ))** ثُمَّ انْطَلَقَ في سَوادِ اللَّيْلِ حَتَّى تَوَارَى، فَسَمِعْتُ صَوتًا، قَدِ ارْتَفَع، فَتَخَوَّفْتُ أنْ يَكُونَ أحَدٌ[٥] عَرَضَ للنَّبيِّ ﷺ، فَأَرَدْتُ أنْ آتِيهِ فَذَكَرتُ قَوْلَه: **((لاَ تَبْرَحْ حَتَّى آتِيَكَ))** فلم أبْرَحْ حَتَّى أتَانِي، فَقُلْتُ: لَقَدْ سَمِعْتُ صَوتًا تَخَوَّفْتُ مِنْهُ[٦]، فَذَكَرْتُ لَهُ، فقال: **((وَهَلْ سَمِعْتَهُ؟))** قلت: نَعَمْ، قَالَ: **((ذَاكَ جِبريلُ أتَانِي. فقال: مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِكَ لاَ يُشْرِكُ باللهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ))**، قلت: وَإنْ زَنَى وَإنْ سَرَقَ؟ قَالَ: **((وَإنْ زَنَى وَإنْ سَرَقَ))** متفقٌ عَلَيْهِ[٧]، وهذا لفظ البخاري.

ترجمة الراوي:

أبو ذر الغفاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٦١).

غريب الألفاظ:

حرَّة المدينة: الحرة: الأرض ذات حجارة سُود كأنها أحرقت. وحرّة المدينةَ: موضع بظاهر المدينة تحت واقم[٨].

---

(١) لفظ البخاري (ثالثة).

(٢) أخرجه مسلم ٩٩١/٣١ إلى هنا، وكذا البخاري برقم ٢٣٨٩.

(٣) لفظ البخاري: (مشى).

(٤) (بالمال) لا توجد عند البخاري.

(٥) (أحد) لا توجد عند البخاري.

(٦) (منه) لا توجد عند البخاري.

(٧) أخرجه البخاري ٦٤٤٤ واللفظ له، ومسلم ٩٤/٣٢ بعد الحديث ٩٩١/٣١. أورده المنذري في ترغيبه ٤٧٧٠.

(٨) انظر: المعجم المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ح ر ر)، وأطلس الحديث النبوي، د. شوقي أبو خليل ١٤٤.

أُحُدُ: جبل أحمر بينه وبين المدينة المنورة قرابة ميل في شماليها[١].

أرْصُدهُ: أُعِدُّه أو أحفظه[٢].

أقول به: قال ابن الأثير: العرب تجعل القول عبارة عن جميع الأفعال وتطلقه على غير الكلام واللسان، فتقول: قال بيده: أي: أخذ. وقال برجله: أي مشى... وقال بثوبه: أي رفعه. والمراد هنا: إنفاق المال والتصدق به[٣].

قال بالمال: أشار به[٤].

سواد الليل: أي ليلة قد غاب فيها القمر[٥].

توارى: أي غاب شخصه[٦].

عرض للنبي ﷺ: أي تعرّض له بسوء[٧].

الحوار الذي دار بين رسول الله ﷺ وصاحبه يدل على المحبة، والإجلال يجسِّد ذلك النداء في بدايته (يَا أَبَا ذَرٍّ) والرد المفعم بالإجلال، والتقدير(لَبَّيْكَ يَا رسولَ الله)، و قول الرسول ﷺ: (أَقُولَ بِهِ فِي عِبَادِ الله) كناية عن إنفاق المال، وقوله: (هكذا وَهَكَذَا وَهكَذَا) كناية عن جهات الإنفاق التي تشير إلى تعدد طرق الإنفاق، وقد وضحها الراوي بقوله: (عن يَمِينِهِ وعن شِمَالِهِ وَمِنْ خَلْفِهِ) ومن الملاحظ أن الإشارة لم تشمل ما بين يديه، ولعل ذلك يرجع إلى أن ما بين يدي الإنسان بيِّن لا يحتاج إلى توضيح، وغالباً ما يكون ما بين يديه من أهله، وخاصته الذين يلزمه نفقتهم، بعكس

(١) أطلس الحديث النبوي، د. شوقي أبو خليل ٢٣، وأطلس السيرة النبوية، د. شوقي أبو خليل ١١٩.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ر ص د).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٧٧٨، وانظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٧١/١١.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٧١/١١.

(٥) المرجع السابق ٢٧١/١١.

(٦) المرجع السابق ٢٧١/١١.

(٧) المرجع السابق ٢٧١/١١.

من خلفه ومن على يمينه، وشماله، فإنه لا يراهم إلا إذا نبه إليهم، والتفت إليهم، وقول الرسول ﷺ ((إنَّ الأَكْثَرِينَ هُمُ الأَقَلُّونَ يَوْمَ القِيَامَةِ) كثافة المؤكدات في العبارة تؤكد أهمية الخبر، والرغبة في صرف اهتمام المخاطب إلى العناية بالخبر، وتوسيط ضمير الفصل (هم) بين المبتدأ، والخبر يفيد اختصاصه به، والتقييد بالظرف (يوم) وإضافته للقيامة يصعِّد الإحساس بالخطر وقوله (إلاَّ مَنْ قَالَ بالمَالِ هكَذَا وَهكَذَا وَهكَذَا) استثناء من الحكم السابق يخرج المنفقين في وجوه الخير من الوعيد، وقوله (ذَاكَ جِبريلُ أتَانِي. فقال: مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِكَ لاَ يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئاً دَخَلَ الْجَنَّةَ) استخدم إشارة القريب لقرب انصرافه، والإشارة إليه تشوق إلى الخبر الذي أرسل به، ومن اسم موصول متضمن معنى الشرط، يربط موت المسلم على الإخلاص بدخول الجنة، وقول الرسول (وَإنْ زَنَى وَإنْ سَرَقَ ؟) استفهام تقريري للتحقيق، والتثبيت لعظم البشرى، وقول جبريل عليه السلام (وَإنْ زَنَى وَإنْ سَرَقَ) جملة شرطية محذوفة الجواب تقديره: دخل الجنة، واستخدام (إن) في الشرط يشير إلى عدم التحقق؛ لأنه من المستبعد أن يسرق المسلم المخلص، أو يزني، والحديث يتضمَّن بشارة عظيمة لأمة محمد ﷺ مع دعوة المسرفين للتوبة، والرجوع إلى الله.

ذكر ابن حجر لحديث أبي ذر فوائد كثيرة، نذكر منها ما يلي:

١ - حسن الأدب مع الأكابر، وأن الصغير إذا رأى الكبير منفردًا لا يتسور عليه، ولا يجلس معه، ولا يلازمه إلا بإذن منه. وهذا بخلاف ما إذا كان في مجمع كالمسجد والسوق فيكون جلوسه معه بحسب ما يليق به.

٢ - جواز تفدية الصغير الكبير بنفسه وبغيرها، والجواب بمثل لبيك وسعديك؛ زيادة في الأدب.

٣ - الانفراد عند قضاء الحاجة.

٤ - أن امتثال أمر الكبير والوقوف عنده، أولى من ارتكاب ما يخالفه بالرأي، ولو كان فيما يقتضيه الرأي توهم دفع مفسدة حتى يتحقق ذلك، فيكون دفع المفسدة أولى.

٥ - جواز استفهام التابع من متبوعه على ما يحصل له فائدة دينية أو علمية أو غير ذلك.

٦ - المراجعة في العلم بما تقرر عند الطالب في مقابلة ما يسمعه مما يخالف ذلك.

٧ - الحث على الإنفاق في وجوه الخير، وأن النبي ﷺ كان في أعلى درجات الزهد في الدنيا بحيث إنه لا يحب أن يبقى يده شيء من الدنيا إلا لإنفاقه فيمن يستحقه، وإما لإرصاده لمن له حق، وإما لتعذر من يقبل ذلك منه؛ لتقييده في رواية همام عن أبي هريرة الآتية في التمني بقوله: ((أجدُ من يَقبَلُه))[١].

٨ - ومما يؤخذ جواز تأخير الزكاة الواجبة عن الإعطاء إذا لم يوجد من يستحق أخذها، وينبغي لمن وقع له ذلك أن يعزل القدر الواجب من ماله ويجتهد في حصول من يأخذه، فإن لم يجد فلا حرج عليه ولا ينسب إلى تقصير في حبسه.

٩ - تقديم وفاء الدين على صدقة التطوع.

١٠ - وفيه جواز الاستقراض.

١١ - الحث على وفاء الديون وأداء الأمانات.

١٢ - جواز استعمال "لو" عند تمني الخير.

١٣ - الحض على إنفاق المال في الحياة وفي الصحة وترجيحه على إنفاقه عند الموت. لما روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: جاءَ رجلٌ إلى رسولِ اللهِ ﷺ فقال: يا رسول اللهِ أيُّ الصدقةِ أعظمُ أجرًا؟ قال: **((أن تَصدَّقَ وأنتَ صَحيحٌ شَحيحٌ تَخشى الفَقْرَ وتأمُلُ الغِنى، ولا تُمْهِلُ حتى إذا بلغتِ الحُلْقُومَ قلتَ: لفُلانٍ كذا ولفلانٍ كذا، وقد كان لفلان))**[٢] وذلك أن كثيرًا من الأغنياء يشح بإخراج ما عنده ما دام في عافية فيأمل البقاء ويخشى الفقر، فمن خالف شيطانه وقهر نفسه إيثارًا لثواب الآخرة فاز، ومن بخل بذلك لم يأمن الجور في الوصية، وإن سلم لم يأمن تأخير تنجيز ما أوصى به أو تركه أو غير ذلك من الآفات، ولا سيما إن خلف وارثًا غير موفق، فيبذره في أسرع وقت ويبقى وباله على الذي جمعه[٣].

---

(١) أخرجه البخاري ٧٢٢٨.

(٢) أخرجه البخاري ١٤١٩، ومسلم ١٠٣٢.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١/٢٦٨-٢٧١.

المضامين الدعوية[١]

أولاً: من صفات الداعية: التواضع.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الحث على الإنفاق، والبذل في أبواب الخير.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الحث على المسارعة في أداء الدين.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: الزهد في الدنيا.

خامسًا: من صفات المدعو: الالتزام بأوامر النبي ﷺ وعدم مخالفتها.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: فضل التوحيد وشناعة الشرك.

سابعًا: من حقوق المدعو: مراجعة الداعية للتأكد من بعض الأمور.

أولاً - من صفات الداعية: التواضع:

يظهر ذلك في قول أبي ذر رضي الله عنه: "كنت أمشي مع النبي ﷺ"، قال ابن علان: (فيه كمال تواضعه ﷺ مع أصحابه وعدم ترفعه على أحد منهم)[٢]. التواضع خلق حميد، اتّسم به الأنبياء والعلماء والصالحون، ويكون بتنازل المرء عن شيء من قدره لغرضٍ نبيل، وفيه دليلٌ على شفافية الروح، ورجاحة العقل، وطمأنينة النفس، وصدق الشعور بوجود الآخرين وبالنفس.

والتواضع خلق - كسائر الأخلاق - ذو شقين: فردي واجتماعي؛ فهو في جانبه الشخصي يعكس حالة عليا من التسامي الروحي يتمثل في كسر الميل النفسي إلى التسلط والتفرد، ونفي دواعي العُجب والغطرسة والخيلاء؛ وهذا كله يشق على النفس الإنسانية اتباعه لما يخالف ما رُكِّب في هواها من مسارعةٍ في حب الذات والاستجابة إلى نزعاتها الأنانية ورغبة التملك المطلقة.

ولا يلبث الإنسان المتواضع أن يحصد ثمار تواضعه، وتظهر آثار سلوكه في تعامله الاجتماعي مع الناس، عندما يلتمسون معنى التواصل الإنساني وترك الزيف والادعاء، ويُبدي لهم بشرًا ومباسطةً بعيدة عن التكلف والاصطناع، فعند ذلك تُفتح له القلوب

---

(١) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -٤٦٤- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (٤٦٥).

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٤/٧٠.

وتلين له النفوس ويصيب منها موقعًا عظيمًا، فينقلب إلى سيّد تنقاد إليه الرغائب طواعية، وينال من التقدير والإكبار والاحترام ما يعجز عن نوله وبلوغه كل أحمق متكبر، ظن أن التعالي على الناس والترفع عن مُوادّتهم والتباسط إليهم يجعله ذا مكانة في نفوسهم.

ثمة حقيقةٌ واضحةٌ تغيب عن أذهان كثير من الناس، في زحمة الحياة ومواجهة مشكلات التفاعل البشري اليومية، هي أن التواضع مفتاح القلوب والسبيل إلى ولوجها والتمكن منها، إذ أن "من لانت كلمته وجبت محبته". لعل ذلك يبدو أمرًا معروفًا لا لبس فيه، لكن مظاهر التعامل الاجتماعي تؤكد غياب هذا المفهوم من الناحية النظرية فضلاً عن الناحية العملية[١].

فقد كان رسول الله ﷺ مع رفعة مقامه شديد التواضع فعندما رأى رجلاً يرتعد منه كان يظنه كملوك الأرض، قال له رسول الله ﷺ "هون عليك فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش، كانت تأكل القديد"[٢].

ولقد كان رسول الله ﷺ يمشي مع أصحابه رضي الله عنهم، ويجلس معهم، ويسعى في قضاء حوائجهم، ولا يستنكف من الجلوس مع فقرائهم وكان يتلطف مع الصغار والأطفال ولا يسارع في نزع يده عندما يصافح أحدًا وغير ذلك من الشواهد التي تدل على تواضعه ﷺ مما يستوجب الاقتداء به.

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: الحث على الإنفاق، والبذل في أبواب الخير:

إن من موضوعات الدعوة في هذين الحديثين الحث على الإنفاق والبذل في أبواب الخير، ويتضح هذا من قول رسول الله ﷺ "ما يسرني أن عندي مثل أحد ذهبًا تمضي عليه ثلاثة أيام عندي منه دينار..."، وقوله: "لو كان لي مثل أحد ذهبًا لسرني أن لا تمر عليه ثلاث ليال وعندي منه شيء....."، قال ابن حجر: فيه الحث على الإنفاق في وجوه الخير[٣].

---

(١) موسوعة القيم ومكارم الأخلاق العربية والإسلامية ٥/١٦.

(٢) أخرجه ابن ماجه ٣٣١٢، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٢٦٧٧).

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٧٥/١١.

فالإنفاق والبذل في أبواب الخير من أعظم القربات ثوابًا، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1].

قال ابن كثير: (هذا مدح منه تعالى للمنفقين في سبيله وابتغاء مرضاته في جميع الأوقات من ليل أو نهار، والأحوال من سر وجهار، حتى أن النفقة على الأهل تدخل في ذلك"[2]. كما قال رسول الله ﷺ: "وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعه، حتى ما تجعل في في امرأتك)[3]. والإنفاق له أثر على أخلاق الناس فهو يخلصهم من الشح -وهو عدم الإجمال في الطلب والتكالب على الجمع - ومن البخل وهو التقتير خوفًا من الفقر أو حبًا للمال ورغبة في عدم التفريط فيه، حتى أن البخيل قد يكتفي بالجمع للمال دون أن يظهر أثر نعمة الله عليه في ملبسه ومأكله ومسكنه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾[4].

وقد ذمَّ الرسول الكريم ﷺ الشح والبخل بشدة وأثنى على الكرم والسخاء وبذل المال في سبيل الله. وضرب الرسول ﷺ في ذلك الأمثال، فقال: ((مَثَلَ الْبَخِيلِ وَالْمُتَصَدِّقِ. كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُنَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ. قَدِ اضْطُرَّتْ أَيْدِيهِمَا إِلَىٰ ثُدِيِّهِمَا وَتَرَاقِيهِمَا. فَجَعَلَ الْمُتَصَدِّقُ كُلَّمَا تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ انْبَسَطَتْ عَنْهُ. حَتَّىٰ تُغَشِّيَ أَنَامِلَهُ وَتَعْفُوَ أَثَرَهُ. وَجَعَلَ الْبَخِيلُ كُلَّمَا هَمَّ بِصَدَقَةٍ قَلَصَتْ. وَأَخَذَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا)). قَالَ أبو هريرة - راوي الحديث - : (فَأَنَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللّهِ يَقُولُ بِإِصْبَعِهِ فِي جَيْبِهِ. فَلَوْ رَأَيْتَهُ يُوَسِّعُهَا وَلاَ تَوَسَّعُ)[5]. قال ابن القيم معقبًا: (لما كان البخيل محبوسًا عن الإحسان،

(١) سورة البقرة، آية: ٢٧٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١/١٠٧.

(٣) أخرجه البخاري ٦٣٧٣/٤٤٠٩، ومسلم ١٦٢٨.

(٤) سورة الحديد، آية: ١٨.

(٥) أخرجه البخاري ٥٧٩٧ واللفظ له، ومسلم ١٠٢١.

ممنوعًا من عن البر والخير كان جزاؤه من جنس عمله، فهو ضيق الصدر، ممنوع من الانشراح، ضيق العطن صغير النفس، قليل الفرح، كثير الهم والغم والحزن، لا يكاد تُقضى له حاجة، ولا يُعان على مطلوب)[1].

ولا شك أن الإنفاق في سبيل الله يحتاج إلى الترشيد في هذا العصر بحيث تراعى الأولويات، من دعم المجاهدين وإغاثة الملهوفين ورعاية المستضعفين، والاهتمام بتعليم أبناء المسلمين المغتربين، وكذلك في ديار المسلمين الفقيرة التي لا تتمكن من الصرف على التعليم، والإنفاق على طبع الكتب الإسلامية النافعة وقف الأموال على المدارس الدينية، ورعاية اليتامى والأرامل، وقبل ذلك كله نفقة الإنسان على أهله، ففي الحديث: ((إذا أنفق المسلم نفقة على أهله وهو يحتسبها كانت له صدقة))[2].

والإنفاق في سبيل الله في الأمور المندوبة والواجبة من أموال الأفراد الخاصة أساس في بنية المجتمع الإسلامي، وهو يهدف إلى تحقيق التكافل الاجتماعي والانتعاش الاقتصادي بدوران المال بين عدد كبير من الناس مما يثمر حركة نشيطة في البيع والشراء نتيجة ارتفاع القدرة الشرائية عند الأفراد، لذلك سعى الإسلام إلى توزيع الثروات وتفتيتها وتأكيد الحقوق العامة فيها، فنهى عن السرف وتبديد المال وحجر على السفهاء، وشرع نظام الميراث الذي يفضي إلى عدم حصر الثروة بابن العائلة الكبير أو بالذكور مستهدفًا أن تعم الفائدة على أكبر عدد من الناس، وكذلك تشريع الزكاة يهدف إلى الارتفاع بمستوى الفئات الفقيرة من أبناء المجتمع، وتحقيق مشاركتهم في التملك والاستثمار والاستهلاك مما يعود بالخير على تماسك المجتمع وتحقيق المودة بين المسلمين إضافة إلى تنشيط الحركة الاقتصادية.

ومضى الصحابة رضي الله عنهم يتصدقون بالأموال العظيمة في سد الخلل في المجتمع وأعمال المروءات، وتجهيز الجيوش، ونشر العلم والعمران، ويحثون على الصدقة، وشعارهم قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[3]. فكان

---

(١) الوابل الصيب، ابن القيم، ص ٧٤.

(٢) أخرجه البخاري ٥٣٥١ واللفظ له، ومسلم ١٠٠٢.

(٣) سورة الحشر، آية: ٩.

عمر رضي الله عنه يقول: (ذكر لي أن الأعمال تتباهى فتقول الصدقة: أنا أفضلكم)[١].

وكان بعض الصحابة - عبدالرحمن بن عوف أو سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما - يطوف بالبيت الحرام وليس له دأب إلا هذه الدعوة: رب قني شح نفسي، رب قني شح نفسي، فقيل له: أما تدعو بغير هذه الدعوة؟ فقال: إذا وقيت شح نفسي فقد أفلحت[٢].

ورغم كثرة الإنفاق، فإن الأموال كانت تزيد زيادة عظيمة[٣].

فينبغي على الداعية أن يدعو الناس للإنفاق والبذل في أبواب الخير، وعليه أن يبين لهم ثواب ذلك وفضله.

ثالثًا - من موضوعات الدعوة: الحث على المسارعة في أداء الدين:

إن موضوعات الدعوة في هذين الحديثين الحث على المسارعة في أداء الدين، وهذا يظهر في قول رسول الله ﷺ: "... إلا شيء أرصده لدين ..."، قال الحافظ ابن حجر: (قال ابن بطال: فيه إشارة إلى عدم الاستغراق في كثير الدين والاقتصار على اليسير منه أخذًا من اقتصاره على ذكر الدينار الواحد، ولو كان عليه مائة دينار مثلاً لم يرصد لأدائها دينارًا واحدًا، وفيه الاهتمام بأمر وفاء الدين، وما كان عليه ﷺ من الزهادة في الدنيا)[٤].

وقال العيني: (ومما يستفاد من الحديث الاهتمام بأمر الدين وتهيئته لأدائه وصرف المال إلى وجوه القربات عند القدرة عليه والخوف من استغراق الدين لان المديون إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف والاحتراز من المطل عند القدرة لأنه في معنى الخيانة في الأمانة، وقد جاء في خيانة الأمانة من الوعيد ما رواه إسماعيل بن إسحاق من حديث زاذان عن عبدالله بن مسعود قال عن القتل في سبيل الله يكفر كل ذنب إلا الدين والأمانة، قال: وأعظم ذلك الأمانة تكون عند الرجل فيخونها فيقال له يوم القيامة: أدّ

---

(١) تفسير الطبري ٤٣/٢٨.

(٢) تفسير الطبري ٤٣/٢٨.

(٣) التربية الروحية والاجتماعية في الإسلام، د. أكرم ضياء العمري، ص ٣٠٩، ٢١٣.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٧٥/١١.

أمانتك. فيقول: من أين وقد ذهبت الدنيا؟ فيقال: نحن نريكها فيمثل له في قعر جهنم فيقال له: انزل فأخرجها فينزل فيحملها على عنقه حتى إذا كاد زلت فهوت وهوى في إثرها أبدًا، وفيه ما يدل على فضل أمة محمد ﷺ)[١]. والحث على المسارعة في أداء الدين من الأشياء ينبغي أن يحرص عليها المسلم، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ ﴾[٢].

والدين حق على المدين، ومن لم يف بذلك فلم يؤد الحقوق إلى أهلها، أو أخرها تأخيرا بالغًا فقد حمل نفسه إثمًا عظيمًا ووزرًا وعذابًا أليمًا، وسيقتص منه يوم القيامة[٣]. قال رسول الله ﷺ: "لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء"[٤].

فينبغي على المسلم المسارعة إلى أداء ما عليه من دين في الدنيا حتى لا يقتص منه يوم القيامة.

رابعًا – من موضوعات الدعوة: الزهد في الدنيا:

من موضوعات الدعوة في هذين الحديثين الزهد في الدنيا، وذلك يستنبط من قوله ﷺ في الحديثين: "لو أنه له من مال مثل جبل أحد ما أبقى منه شيء بعد ثلاث أيام".

قال ابن حجر: وأن النبي ﷺ كان في أعلى درجات الزهد في الدنيا بحيث إنه لا يحب أن يبقى بيده شيء من الدنيا إلا لإنفاقه فيما يستحقه"[٥].

وقال ابن عثيمين: (وهذا يدل على أن النبي ﷺ من أزهد الناس في الدنيا؛ لأنه لا

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني ٢٢٩/١٢.

(٢) سورة المائدة، آية: ١.

(٣) انظر: دروس في الحقوق الواجبة على المسلم، د. فالح الصغير، ص ٢٢٩.

(٤) أخرجه مسلم ٢٥٨٢.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٧٥/١١.

يريد أن يجمع المال إلا شيئًا يرصده لدين، وقد توفي ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي في شعير أخذه لأهله)[١].

والإنسان إذا عرف حقيقة الدنيا وحقارتها، وعرف الآخرة وخطرها فإنه يبادر ببذل نفسه وماله رغبة في رضا الله عز وجل والفوز بجنته[٢]؛ قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[٣].

خامسًا - من صفات المدعو: الالتزام بأوامر النبي ﷺ وعدم مخالفتها:

يظهر ذلك في التزام أبي ذر رضي الله عنه بأمر رسول الله ﷺ بالثبات مكانه حتى يأتيه رسول الله ﷺ رغم أنه سمع صوت فخاف على رسول الله ﷺ ولكن ذكر الأمر فالتزم به، ففي الحديث الوقوف عند أمره ﷺ ولزوم طاعته قال ابن حجر: (ففيه أن امتثال أمر الكبير والوقوف عنده أولى من ارتكاب ما يخالفه بالرأي، ولو كان فيما يقتضيه الرأي توهم دفع مفسدة حتى يتحقق ذلك فيكون دفعها أولى اهـ)[٤].

وهذا ما يجب أن تكون عليه جميع الأمة، وذلك لأن رسول الله ﷺ معلم الأمة الذي أمر الله عز وجل بطاعته، فلا تصح مخالفة أمره، قال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾[٥]. وذلك لأنه يدعو إلى صراط مستقيم[٦]، فينبغي على المسلم الالتزام بأوامر النبي ﷺ ويدعو المدعوين إلى ذلك.

---

(١) شرح رياض الصالحين ٧٩٥/١.

(٢) انظر: التربية على منهج أهل السنة والجماعة، أحمد فريد، ص ٢٦٤.

(٣) سورة التوبة، آية: ٣٨.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٧٤/١١.

(٥) سورة النور، آية: ٥٤.

(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٧٦/٦.

سادسًا - من موضوعات الدعوة: فضل التوحيد وشناعة الشرك:

يظهر ذلك في قول رسول الله ﷺ: "ذاك جبريل أتاني فقال: من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة... الخ".

فيظهر في ذلك فضل التوحيد وشناعة الشرك، فالتوحيد فضله عظيم والشرك شناعته شديدة قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾(١). وقال رسول الله ﷺ "من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة ومن مات يشرك بالله شيئًا دخل النار"(٢).

قال النووي: (أما حكمه ﷺ على من مات يشرك بدخول النار ومن مات غير مشرك بدخول الجنة فقد أجمع عليه المسلمون)(٣). وقال الحافظ ابن حجر: (قوله: "من مات يشرك بالله دخل النار" وقال القرطبي: معنى نفي الشرك أن لا يتخذ مع الله شريكًا في الإلهية، لكن هذا القول صار بحكم العرف عبارة عن الإيمان الشرعي)(٤).

والمعنى الإجمالي الجامع للتوحيد: عرّفه السعدي بتعريف شامل جامع، ذكر فيه حد هذا التعريف وكذا تفسيره، وأركانه، فقال: (فأما حده وتفسيره وأركانه فهو أن يعلم، ويعترف على وجه العلم واليقين، أن الله هو المألوه وحده، المعبود على الحقيقة، وأن صفات الألوهية ومعانيها، ليست موجودة بأحد من المخلوقات، ولا يستحقها إلا الله تعالى، فإذا عرف ذلك واعترف به حقًا أفرده بالعبادة كلها الظاهرة والباطنة، لا يقصد - بذلك - غرضًا من الأغراض غير رضا ربه وطلب ثوابه، متابعًا في ذلك رسول الله ﷺ فعقيدته ما دل عليه الكتاب والسنة، وأعماله ما شرعه الله ورسوله،

---

(١) سورة النساء، آية : ٤٨.

(٢) أخرجه مسلم ٩٣.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٢.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٣٣/٣.

وأخلاقه، وآدابه - الاقتداء بنبيه ﷺ - في هديه وسمته وكل أحواله)[١].

فينبغي على الدعاة أن يبينوا للناس فضل التوحيد وشناعة الشرك، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (إن الله خلق الخلق لعبادته الجامعة لمعرفته والإنابة إليه، ومحبته والإخلاص له، فبذكره تطمئن قلوبهم وبرؤيته في الآخرة تقر عيونهم ولا شيء يعطيهم في الدنيا أعظم من الإيمان به وحاجتهم إليه في عبادتهم إياه وتألههم كحاجتهم وأعظم في خلقه لهم وربوبيته إياهم فإن ذلك هو الغاية المقصودة لهم، وبذلك يصيرون عاملين متحركين، ولا صلاح لهم ولا فلاح، ولا نعيم ولا لذة بدون ذلك بحال. بل من أعرض عن ذكره ربه فإن له معيشة ضنكًا ونحشره يوم القيامة أعمى. ولهذا كان الله لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، ولهذا كانت لا إله إلا الله أحسن الحسنات، وكان التوحيد بقول: لا إله إلا الله، رأس الأمر)[٢].

سابعًا - من حقوق المدعو: مراجعة الداعية للتأكد من بعض الأمور:

يظهر ذلك في قول أبي ذر: "وإن زنى وإن سرق".

قال ابن حجر: (فيه المراجعة في العلم بما تقرر عند الطالب في مقابلة ما يسمعه مما يخالف ذلك، لأنه تقرر عند أبي ذر من الآيات والآثار الواردة في وعيد أهل الكبائر بالنار وبالعذاب، فلما سمع من مات لا يشرك دخل الجنة استفهم عن ذلك بقوله: "وإن زنى وإن سرق"، قوله: "وإن زنى وإن سرق" واقتصر على ذكر هذين لأن أحدهما متعلق بحق الله سبحانه، والآخر بحق العباد، فكأنه يقول: إن من مات على التوحيد دخلها وإن تلبس بمعصية متعلقة بحق الله تعالى أو بحق عباده، وزيادة شرب الخمر في رواية للإشارة إلى فحش تلك الكبيرة لأنها تؤدي إلى خلل في العقل الذي به شرف الإنسان على البهائم. وبوقوع الخلل فيه قد يزول التوقي الذي يحجز عن ارتكاب بقية الكبائر)[٣]. فللمدعو الحق في مراجعة الداعية حتى يتأكد ويزول لديه الشك، وعلى الداعية أن يقبل هذه المراجعة دون إنكار منه على من يراجعه من المدعوين.

---

(١) الفتاوى السعدي ١٠/٧.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٢٣/١.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٧٤/١١.

الحديث رقم (٤٦٥)

٤٦٥ - وعن أَبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، قَالَ: ((لَوْ كَانَ لِي مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَبًا، لَسَرَّنِي[١] أنْ لاَ تَمُرَّ عَلَيَّ ثَلاَثُ لَيالٍ وَعِنْدِي مِنْهُ شَيْءٌ إلاَّ شَيْءٌ أرْصُدُهُ لِدَيْنٍ)) متفقٌ عَلَيْهِ[٢].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

الجملة التي بدأ الحديث بها فيها لون من التشويق نبع من تركيبها حيث بدأت بداية افتراضية كنموذج معد سلفاً لأصحاب الأموال المتراكمة يبين لهم سنة نبيهم عند تكاثر الأموال، لأن كان يخاطب الزمان على امتداده، والمكان على انبساطه، وقوله ﷺ (لَوْ كَانَ لِي مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَباً) كناية عن محبته الإنفاق، وكراهيته للكنز، وتقديم الجار والمجرور (لي) للاختصاص أي لي خاصة، والتعبير بالسرور يوحي بسعادة ممزوجة بالراحة، واللام لتوكيده، وتنكير كلمة (شيء) للتقليل أي لا أبقي، ولو شيئاً قليلا إلا ما أعده لسداد دين لأن الدين لا يغفر لصاحبه حتى يقض دينه.

المضامين الدعوية[٣]

---

(١) لفظ البخاري: (ما يسرني).

(٢) أخرجه البخاري ٢٣٨٩ واللفظ له، ومسلم ٣١/٩٩١.

(٣) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (٤٦٦)

٤٦٦ - وعنه، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: ((انْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلاَ تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ؛ فَهُوَ أَجْدَرُ أنْ لاَ تَزْدَرُوا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ)) متفقٌ عَلَيْهِ[١]، وهذا لفظ مسلم[٢].

وفي رواية البخاري[٣]: ((إِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى مَنْ فُضِّلَ عَلَيْهِ فِي المَالِ وَالخَلْقِ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَل مِنْهُ)).

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

أجدرُ: أحق[٤].

ألا تزدروا: ألا تحتقروا[٥].

الخلق: الصورة الظاهرة[٦].

الحديث يعالج جانباً نفسياً في المسلم بتصحيح طريقة رؤية نعمة الله، وكثير من الناس لا يرون النعمة لأنهم لا يعرفون كيف يرونها لأنهم ولدوا على حالة معينة من الثراء، والصحة والستر، فلم يشعروا بما هم فيه، فإذا رأوا من هم أحسن حالاً في إحدى النعم سخطوا على ما هم فيه، فعلمنا الرسول ﷺ كيف نرى هذه النعم، بأمره (انْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْكُمْ) والأمر توجيه وإرشاد بغرض صرف النظر لاستشعار ذنعم الله، وفيه دعوة ضمنية للقناعة، والرضى، ثم أكد هذا الأمر بالنهي

---

(١) تنبيه: اللفظ الأول ليس متفقًا عليه، وإنما اللفظ الثاني، هو المتفق عليه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٦٣/٩) بهذا اللفظ.

(٣) برقم (٦٤٩٠)، وكذا مسلم (٢٩٦٣/٨).

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٧٠٩.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٧٠٩.

(٦) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (خ ل ق).

عن ضده (وَلاَ تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ)، والتعبير بأفعل التفضيل (أسفل) عند النظر إلى الأقل، لأنه كلما رأى نفسه أحسن حالا من غيره كلما استشعر حجم النعمة عليه فناسب أن يتتبع بالنظر فيمن دونه من هو أقلهم، ولذلك عبر بأفعل التفضيل في جانبه، بينما عبر بالظرف في صورة المصدر (فوق) الذي لا يدعوا إلى تتبع الأعلى فيمن فوقه، وقد علله بقوله: (فَهُوَ أَجْدَرُ أَنْ لاَ تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ) تحقيقاً للإقناع العقلي ببيان العلة، وهي عدم احتقار نعمة الله، والتعبير بأفعل التفضيل (أجدر) إشارة إلى أن الجدير بالمؤمن ألا يشغل نفسه بتتبع أحوال الناس بين الغنى، والفقر ولا يحتقر نعمة الله عليه، والأجدر منه أن تكون نظرته لمن حوله في متاع الدنيا لمن هو دونه، وفي الاجتهاد في الطاعات لمن هو أعلى منه.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الأمر.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل القناعة والرضا والشكر.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: خطر التطلع إلى ما في أيد الناس.

رابعًا من موضوعات الدعوة: فضل الزهد في الدنيا.

خامسًا: من واجبات المدعو: استشعار فضل الله عليه.

سادسًا: من مهام الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما يحقق لهم الرضا والسكينة.

أولاً - من أساليب الدعوة: الأمر:

يظهر ذلك في قول رسول الله ﷺ "انظروا... ولا تنظروا... فلينظر".

وأسلوب الأمر من الأساليب الدعوية المهمة حيث يبيِّن اهتمام الداعية بالدعوة ويشعر المدعوين بأهمية ما يؤمرون به من النظر إلى من هم أقل منهم في شؤون الحياة، وألا ينظروا إلى من هم أعلى منهم شأنا حتى يستشعروا فضل الله عليهم ويذوقوا طعم الرضا.

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: فضل القناعة والرضا والشكر:

يستنبط هذا من عموم الحديث حيث أرشدنا رسول الله ﷺ في هذا الحديث إلى الطريق الذي يورثنا القناعة ويملأ نفوسنا بالرضا، ويعرفنا نعم الله علينا لنقوم

بشكرها واستشعار فضل الله تعالى علينا من خلال ما حبانا به من نعم كثيرة، ومن ثم فقد أمرنا النبي ﷺ أن ننظر إلى من هو دوننا في أعراض الحياة الدنيا دون من هو فوقنا فيها لأن ذلك يدعو إلى الاعتراف بنعمة الله علينا وإكبارها والشكر عليها، لا احتقارها والاستهانة بها(١).

إن هذا الحديث الجليل يجعل النفس البشرية راضية مرضية إذا عمل به، فالنفس لها شهواتها ورغباتها وترغب أن تتطلع إلى أرباب الأموال وأحوالهم، وهذا الحديث يضع لهذه النفس حدود هذا التطلع، حيث جعل لها دائرة تنظر فيها لا تتعداها ألا وهي النظر إلى من هو أدنى في أمور الدنيا، وبهذا النظر يستشعر المسلم النعمة التي يتقلب فيها؛ التي لم ينلها مَن هو أدنى منه، فيحمد الله تعالى على ذلك ويشكره على ما حباه من الخير، وبذلك تزداد النعم لأن الله تعالى وعد وأكد: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾(٢)، وحينما تلهج الألسنة وتتحرك الجوارح بالطاعة فهو شكر لله تعالى فتزداد النعم.

وبهذا التوجيه النبوي الرشيد تطمئن النفوس وترتاح لأنها قد أحسَّت بنعمة الله عليها، وعلى العكس فإن النفس إذا حلَّقت في سماء النعم التي يتقلب فيها أرباب الثروات وتنظر إلى من هو أعلى منها في الأموال فإنها قد تتأثر وتتحسر وتعتريها الكآبة وقد تقع في مرض الحسد.

فجاء هذا الحديث في قمة التدابير الوقائية من الأمراض النفسية، وعالج بعض المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والنفسية، فهنيئًا لمن عمل به وحصّن نفسه من تلك المصائب.

فينبغي على الداعية توجيه المدعوين إلى القناعة والرضا والشكر وبيان فضل ذلك.

ثالثًا - من موضوعات الدعوة: خطر التطلع إلى ما في أيدي الناس:

إن من موضوعات الدعوة التي تستنبط من عموم الحديث خطر التطلع إلى ما في

---

(١) انظر: الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي، ص ٢٢١.

(٢) سورة إبراهيم، آية: ٧.

أيدي الناس وذلك؛ لأن الذي لا ينظر إلى من هو أسفل منه يتطلع إلى من هو أعلى منه وينشغل بالدنيا عن الآخرة فيكون في ذلك الندامة والخسران.

قال المناوي: قال الغزالي: وعجب للمرء كيف لا يساوي دنياه بدينه، أليس إذا لامته نفسه فارقها يعتذر إليها بأن من الفسّاق كثرة فينظر أبدًا في الدين إلى من دونه لا لمن فوقه؟ أفلا يكون في الدنيا كذلك؟

وقال الحكيم: لا يزال الإنسان يترقى في درجات النظر علوًا علوًا كلما نال درجة سما به حرصه إلى النظر إلى ما فوقها، فإذا نظر إلى من دونه في درجات الدين اعتراه العجب فأعجب بنفسه، فطال بتلك الدرجة على الخلق، واستطال فرمى به من ذلك العلو فلا يبقى منه عضو إلا انكسر وتبدد، وكذا درجات الدنيا إذا رمى ببصره إلى من دونه تكبر عليه فتاه على الله بكبره وتجبر على عباده فخسر دينه.

وقد أخذ هذا الحديث محمود الوراق فقال: لا تنظرنَّ إلى ذوي المؤثل والرياش، فتظل موصول النهار بحسرة قلق الفراش، وانظر إلى من كان مثلك أو نظيرك في المعاش تقنع بعيش كيف كان وترض منه بانتعاش[(١)].

قال ابن علان: قال بعض السلف: صاحبت الأغنياء فكنت لا أزال في حزن أرى دار واسعة ودابة فارهة ولا عندي شيء من ذلك، فصحبت الفقراء فاسترحت. وفي معناه ما أخرجه الحاكم من حديث عبد الله بن الشخير رفعه "أقلوا الدخول على الأغنياء فإنه قِمن أن لا تزدروا نعم الله"[(٢)]، وأما إذا نظر في الدنيا إلى من هو دونه ظهر له نعمة الله عليه فشكرها وتواضع وفعل ما فيه الخير، وكذا إذا نظر إلى من هو فوقه في الدين ظهر له تقصيره فيما أتى به فحمله ذلك على الخضوع لمولاه، وألا ينظر لعمله ولا يعجب به ويزداد في الجهد في العمل والدأب فيه[(٣)].

---

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير، عبدالرؤوف محمد المناوي (٣/٥٩).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/١٢ رقم ٧٩٣٩، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان (٢/٤٠٣-٤٠٤).

هذا فالذي لا ينظر إلى منه أسفل ولكن ينظر إلى من هو أعلى منه يورثه ذلك الهم والحزن وينسيه حمد الله وشكره، ويكون غير راضٍ بما قسم الله له، ويكون حاسداً لغيره على ما آتاه الله من فضله وهذا منهي عنه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[1].

فينبغي على الداعية أن يبيّن للمدعوين خطر التطلع إلى ما في أيدي الناس من الغنى.

رابعًا - من موضوعات الدعوة: فضل الزهد في الدنيا:

يستنبط هذا من عموم الحديث فالذي ينظر إلى من هو أسفل منه يكون على رضا بما قسم الله متوكلاً على الله، غني النفس، لا يحرص على الازدياد لغير الحاجة ولا يلح في الطلب، ولا يلحف في المسألة فكأنه واجد أبدًا[2]. والزهد في الدنيا يجعل الإنسان قانعًا بما رزقه الله ولو كان قليلاً.

قال رسول الله ﷺ ((قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللّهُ بِمَا آتَاهُ))[3].

فينبغي على الداعية أن يبين للمدعوين فضل الزهد في الدنيا.

خامسًا - من واجبات المدعو: استشعار فضل الله عليه:

ويظهر ذلك من قول رسول الله ﷺ "فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم". قال النووي: (قال ابن جرير وغيره: هذا حديث جامع لأنواع من الخير؛ لأن الإنسان إذا رأى من فضل عليه في الدنيا طلبت نفسه مثل ذلك، واستصغر ما عنده من نعمة الله تعالى وحرص على الازدياد ليلحق بذلك أو يقاربه، هذا هو الموجود في غالب الناس، وأما إذا نظر في أمور الدنيا إلى من هو دونه فيها ظهرت له نعمة الله تعالى عليه فشكرها وتواضع وفعل فيه الخير)[4]. وقال العيني: (قوله: "فلينظر إلى من هو أسفل

---

(١) سورة طه، آية: ١٣١.

(٢) انظر: حديث النفس وجولات الخاطر، عبدالإله بن سليمان الطيار ص ١٦.

(٣) أخرجه مسلم ١٠٥٤.

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي (١٨/٩٧).

منه" ليسهل عليه نقصانه ويفرح بما أنعم الله عليه، ويشكر عليه وأما في الدين وما يتعلق بالآخرة فلينظر إلى من هو فوقه لتزيد رغبته في اكتساب الفضائل)[١].

فما من حال للمرء إلا وفي الناس من هو دونه فيها كما فيهم من هو أعلى منه فيها، فالعاقل ينظر إلى المبتلى بالأسقام وينتقل إلى ما فضل عليه من العافية التي هي أساس التمتع بطيبات الحياة، وينظر إلى من في خلقه نقص من عمى أو صمم أو بكم أو تشويه في الشكل ويزن ذلك بسلامته من هذه العاهات وأشباهها، وينظر إلى من ابتلي بالدنيا وجمعها مع إهماله القيام بحق الله فيها، ويعلم أنه قد رجحه بالإقلال وبقلة التبعة في الأموال وبسلامة دينه، وينظر إلى من بلي بالفقر المدقع، والدَّين المثقل، وينتقل إلى سلامته منهما وهكذا يوازن بين حاله وأحوال من دونه فيرى تفضيل الله له على كثير من خلقه، ويستعظم نعم الله عليه فليهج بشكره ويجدّ في عبادته استشعارًا لفضل الله عليه[٢].

سادسًا - من مهام الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما يحقق لهم الرضا والسكينة:

إن من مهام الداعية التي تستنبط من عموم الحديث إرشاد المدعوين إلى ما يحقق لهم الرضا والسكينة ويظهر ذلك في إرشاد النبي ﷺ الإنسان المسلم في هذا الحديث ما يحقق له الخير الكثير.

وقال الحافظ ابن حجر: (قال ابن بطال: هذا الحديث جامع لمعاني الخير لأن المرء لا يكون بحال تتعلق بالدين من عبادة ربه مجتهدا فيها إلا وجد من هو فوقه، فمتى طلبت نفسه اللحاق به استقصر حاله فيكون أبدًا في زيادة تقربه من ربه، ولا يكون على حال خسيسة من الدنيا إلا وجد من أهلها من هو أخس حالاً منه، فإذا تفكر في ذلك علم أن نعمة الله وصلت إليه دون كثير ممن فضل عليه بذلك من غير أمر أوجبه، فيلزم نفسه الشكر، فيعظم اغتباطه بذلك في معاده).

---

(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني (٧٩/٢٣).

(٢) انظر: الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي، ص ٢٢١.

وقال غيره: في هذا الحديث دواء الداء؛ لأن الشخص إذا نظر إلى من هو فوقه لم يأمن أن يؤثر ذلك فيه حسدًا ، ودواؤه أن ينظر إلى من هو أسفل منه ليكون ذلك داعيًا إلى الشكر[1].

فقد أرشد رسول الله ﷺ أمته في هذا الحديث إلى ما يحقق لهم الرضا والسكينة ويدعوهم إلى استشعار نعم الله عليهم فينبغي على الداعية أن يقتدي برسول الله ﷺ في إرشاد المدعوين إلى ما يحقق لهم الرضا والسكينة.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني (٣٢٣/١١).

الحديث رقم (٤٦٧)

٤٦٧ - وعنه، عن النبي ﷺ، قَالَ: ((تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَالدِّرْهَمِ، وَالقَطِيفَةِ، وَالخَمِيصَةِ، إنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ)) رواه البخاري[١].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

تعس: هو دعاء عليه بالهلاك[٢].

عبد الدينار: طالبه الحريص على حِفظه، فكأنه لذلك خادمه وعبدُه[٣].

القطيفة: كساء له أهداب[٤].

الخميصة: ثوب أسود أو أحمر له أعلام[٥].

الحديث يبدأ بداية خبرية لفظاً إنشائية معنى؛ لأن قوله (تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَالدِّرْهَم، وَالقَطِيفَةِ، وَالخَمِيصَةِ) دعاء عليه بالتعس، والتعس في اللغة الانحطاط والعثور...، وهو أن يخطئ حجته - من خاصم - وبغيته أن طلب ؛[٦] ودعاء الرسول ﷺ بصيغة الماضي يفيد حرصه على تحقق التعس لمن استعبده الدرهم، والدينار بغرض الترهيب من حب المادة، والتكالب عليها، والتعبير بالعبودية للتنفير، والتقبيح وإضافة العبد للدينار للذم، وقوله (عبد الدينار) كناية عن شدة حب المال وإنفاق الوقت، والجهد في إصلاحه كما يتفانى العبد في خدمة سيده، وصورة الرق، والعبودية صورة

---

(١) برقم ٢٨٨٦، و٦٤٣٥. أورده المنذري في ترغيبه ١٨٤٤.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ت ع س).

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٥٩/١١.

(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ق ط ف).

(٥) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (خ م ص).

(٦) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤٣٣/١، ٤٣٤ في (ت ع س).

منفرة جعلها الرسول ﷺ وسيلة للتنفير من حب المال الذي يستغرق العمر، ويستنفد الجهد، وينسيه ربه، ودينه.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: التنفير من الإفراط في حب المال.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: التمثيل.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: التحذير.

رابعًا: من واجبات المدعو: القناعة.

أولاً - من موضوعات الدعوة: التنفير من الإفراط في حب المال:

ويظهر ذلك في قول رسول الله ﷺ "تعس عبد الدينار...". في هذا الحديث العظيم يعالج النبي ﷺ مرضًا من أمراض الأمة بل البشرية وذلك بتنفير الإنسان من هذا المرض الذي جثى على القلوب ألا وهو الانغماس بالحب الشديد للدنيا، وقد نهى النبي ﷺ عن هذا الحب بهذا الأسلوب البلاغي العالي وبهذا الدعاء الذي يخوف النفس البشرية من مغبة هذا التعلق الشديد بالدنيا. فهل يرضى مؤمن أن يشمله هذا الدعاء؟! قال الطيبي: (خص العبد بالذكر ليؤذن بإنغماسه في محبة الدنيا وشهواتها، كالأسير الذي لا خلاص له عن أسره، ولم يقل: مالك الدينار أو جامع الدينار؛ لأن المذموم من الدنيا الزيادة على قدر الحاجة لا بقدر الحاجة[(١)].

فالإنسان بطبيعته محبٌ للمال لأنه من زينات الدنيا قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[(٢)].

ولكن الإفراط في حب المال منهي عنه؛ لأنه يفتن الإنسان ويجعله عبدًا له ويشغله عن طاعة الله قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[(٣)] قال ابن حجر: (أي

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٢٨٨/٩.

(٢) سورة الكهف، آية: ٤٦.

(٣) سورة الأنفال، آية: ٢٨.

تشغل البال عن القيام بالطاعة)[١].

وقال رسول الله ﷺ: ((إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةً وَفِتْنَةُ أُمَّتِي الْمَالُ))[٢].

فينبغي للداعية أن ينهى المدعوين عن الإفراط في حب المال حتى لا يكونوا عبيدًا له فالمال وسيلة ولكنه ليس الغاية المبتغاة، فالغاية المبتغاة هي رضا الله واستعمال المال فيما يرضيه.

ثانيًا - من أساليب الدعوة: التمثيل:

حيث مثل النبي ﷺ لصور استعباد المال للإنسان بعبد الدينار والدرهم.

وأسلوب التمثيل من الأساليب التي تقرب المعنى وتوضحه للأفهام قال تعالى: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾[٣] قال الحكيم الترمذي: (اعلم أن ضرب الأمثال لمن غاب عن الأشياء، وخفيت عليهم الأشياء، فالعباد يحتاجون إلى ضرب الأمثال لما خفيت عليهم الأشياء فضرب لهم مثلاً من عند أنفسهم لا من عند نفسه، ليدركوا ما غاب عنهم، فأما من لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء فلا يحتاج إلى الأمثال، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا. قال عز وجل: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾[٤] فالأمثال نموذجات لما غاب عن الأسماع لتهتدي النفوس بما أدركت عيانًا)[٥].

فينبغي للداعية أن يفيد من الأمثال لتوضيح المعاني وتقريبها لأذهان المدعوين في دعوته.

ثالثًا - من أساليب الدعوة: التحذير:

وهذا يستنبط من عموم الحديث حيث حذر النبي ﷺ الإنسان الحريص على جمع المال من أن يكون عبدًا له وذلك بقوله ﷺ "تعس عبدالدينار والدرهم..". قال

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٥٨/١١.

(٢) أخرجه الترمذي ٢٣٣٦، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٩٠٥).

(٣) سورة إبراهيم، آية: ٤٥.

(٤) سورة النحل، آية: ٧٤.

(٥) الأمثال من الكتاب والسنة، لأبي عبدالله محمد بن الحكيم الترمذي، تحقيق: محمد علي البجاوي ١، ٢.

الطيبي: (في قوله: "تعس وانتكس"، فيه الترقي في الدعاء عليه؛ لأنه إذا تعس انكب على وجهه، فإذا انتكس انقلب على رأسه، وقيل التعس الخر على الوجه والنكس الخر على الرأس... وهذا دعاء عليه بالهلاك). وقال ابن حجر: (وقوله: "عبدالدينار" أي: طالبه الحريص على جمعه القائم على حفظه: فكأنه لذلك خادمه وعبده... وفيه إشارة إلى الدعاء عليه بما يثبطه عن السعي والحركة، وسوغ الدعاء عليه كونه قصر عمله على جمع الدنيا واشتغل بها عن الذي أمر به من التشاغل بالواجبات والمندوبات)[1].

قال سليم الهلالي: (وفيه التحذير من العبودية لغير الله، وخاصة لهذه الأشياء الفانية كالمال والكساء)[2]. وقد أفاد التحذير في هذا الحديث أهمية البعد عن حب المال والحرص عليه، حتى لا يكون الإنسان بمثابة العبد له ومما أفاده التحذير خطورة وقوع المؤمن في هذا الأمر.

رابعًا - من واجبات المدعو: القناعة:

يستنبط هذا من عموم الحديث، لأن الإنسان القنوع لن يكون عبدًا للمال وسوف يكون راضيًا بما أُعطي وإن لم يُعط صبر؛ لأنه عبدٌ لله وليس عبدًا للمال. والعبودية لله تورث الرضى والقناعة على خلاف العبودية لغير الله؛ فإنها تولد الشح والبخل والهلع والأثرة[3]. وقال المناوي: (قال الغزالي: سبيل النجاة أن تخلص عملك وتجرد إرادتك لله والقلوب والنواصي بيده سبحانه وتعالى، فهو يميل إليك القلوب، ويجمع لك النفوس، ويشحن من حبك الصدور، فتنال من ذلك ما لا تناله بجهدك وقصدك، وإن لم تفعل وقصدت رضا المخلوق دونه صرف عنك القلوب ونفر منك النفوس، وأسخط عليك الخلق أجمعين فتكون من الخاسرين)[4].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٥٩/١١.

(٢) بهجة الناظرين شرح رياض الصالحين، سليم بن عيد الهلالي ٥٣٤/١-٥٣٥.

(٣) المرجع السابق ٥٣٤/١-٥٣٥.

(٤) فيض القدير شرح الجامع الصغير، عبدالرؤوف محمد المناوي ٢١٨/١.

والقناعة من أهم صفات المؤمنين؛ لأن المؤمن على يقين بكرم الله ونعمه والقناعة فيها الغنى التام.

قال رسول الله ﷺ ((ليسَ الغِنى عن كثرةِ العَرَض، ولكنَّ الغَنى غِنى النفس))[1] فقد بيّن رسول الله ﷺ أن الغنى ليس بسعة الثروة ووفرة المال وكثرة المتاع ولكن الغنى غنى النفس، فمن استغنى بما في يده عما في أيدي الناس، ولم تتطلع إليه نفسه، وإن كان المال قلاً إذ رضاه بالقسم، وزهده قناعته، جعلته في درجة من الغنى دونها بطبقات أهل الثراء الذين حرموا الرضا والقناعة[2].

فإذا اقتنعت توفرت لك راحة ... إن القناعة للقلوب نقاء[3]

(١) أخرجه البخاري ٦٤٤٦، ومسلم ٢٤١٧.

(٢) انظر: الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي، ص ١٧٨.

(٣) انظر: حديث النفس، عبدالإله بن سليمان الطيار، ص ١٧.

الحديث رقم (٤٦٨)

٤٦٨ - وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُ سَبعِينَ مِنْ أهْلِ[1] الصُّفَّةِ، مَا منهُمْ رَجُلٌ عَلَيْهِ رِدَاءٌ: إمَّا إزارٌ، وَإمَّا كِسَاءٌ، قَدْ رَبَطُوا في أعنَاقِهِمْ، فَمِنْهَا مَا يَبْلُغُ نِصْفَ السَّاقَيْن، وَمِنْهَا مَا يَبْلُغُ الكَعْبَيْنِ، فَيَجْمَعُهُ بِيَدِهِ كَرَاهِيَةَ أنْ تُرَى عَوْرَتُهُ. رواه البخاري[2].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

الصفة: مكان مُظَلَّلٌ في مسجد رسول الله ﷺ في المدينة المنورة إبان العصر النبوي بعد الهجرة، يأوي إليه فقراء المهاجرين ينامون فيه[3].

رداء: ما يوضع على المنكبين وفوق الكتفين من ثوب وبُرد ونحوهما[4].

إزار: ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن من السرة إلى ما تحتها، ويسمي كذلك: المئزر[5].

الكساء: اللباس[6].

الحديث يعرض صورة لما كان عليه المسلمون من ضيق العيش، وقلة ذات اليد مع الزهد في الدنيا، والرضى بما قسم الله، وقول الراوي (لقد رأيت) يؤكد الخبر لأن الرؤية أقوى طرق العلم، وذكر العدد يشير إلى أنه حال كثير من الناس كما توحي به جملة (مَا منهُمْ رَجُلٌ عَلَيْهِ رِدَاءٌ) حيث دلت النكرة (رجل) على العموم، وحرف الجر

---

(١) لفظ البخاري: (أصحاب).

(٢) برقم ٤٤٢.

(٣) أطلس الحديث النبوي، د. شوقي أبو خليل ٢٣٧.

(٤) معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ١٩٨.

(٥) معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ٣٥، و٣٦٦.

(٦) المعجم المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٧٨٨.

(من) قبلها يدل على الاستغراق، وهذا النفي يوحي بشدة الفقر، ورثاثة الهيئة، والرداء هو ما يستر النصف الأعلى من البدن، والإزار ما يكسو النصف الأسفل، قوله (قد ربطوا) أي الأكسية فحذف المفعول للعلم به قوله (فمنها) أي فمن الأكسية باعتبار أن الكساء جنس، وهذه الصورة تشير إلى انشغالهم بالآخرة، وترك المظاهر، والجري خلف المتاع الزائل رضي الله عنهم.

فقه الحديث

هذا الحديث يشير إلى الأحكام الفقهية التالية:

١ - حكم ستر العورة خارج الصلاة: أجمع الفقهاء على وجوب ستر العورة خارج الصلاة بحضرة الناس[١].

٢ - حكم سترة العورة في الصلاة: أجمع الفقهاء على وجوب ستر العورة في الصلاة، وحدها للرجل ما بين السرة والركبة عند الجمهور، وفي رواية للحنابلة أنها الفرجان[٢].

٣ - حكم دخول السرة والركبة في العورة: اختلف الفقهاء على أقوال:

أ - أنهما داخلتان فيها.

ب - أنهما خارجتان عن العورة، وبه قال مالك والشافعي وأحمد[٣].

ج - أن السرة من العورة بخلاف الركبة فليست منها، وجه عند الشافعية[٤].

---

(١) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٥٨/٣، وبداية المجتهد ٩٤/١، وروضة الطالبين وعمدة المفتين، الإمام النووي، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، وعلي محمد معوض ١٠٤/١، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، أبو الحسن المرداوي ٢٢٠/٢، وشرح منتهى الإرادات، منصور بن يوسف البهوتي ٣٥٨/١.

(٢) الاختيار ٦١/١ وما بعدها، وبداية المجتهد ١٥٠/١-١٥١، ومغني المحتاج ١٨٤/١-١٨٥، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٥٠١/١.

(٣) المغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٢٨٦/١، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٧٣/١٢.

(٤) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٧٣/٢.

د - أن الركبة من العورة بخلاف السرة فليست منها، وبه قال أبو حنيفة[(١)].

٤ - ما يجزئ من الثياب في الصلاة: لا يجزئ من الثياب في الصلاة إلا ما ستر العورة عن غيره وعن نفسه، فإن ظهرت عورته له أو لغيره فسدت صلاته، وإن كان من غير عمد فسترها في الحال لم تبطل، وإن تكشف منها يسير لم تبطل صلاته أيضًا، عند الحنفية والمالكية والحنابلة، وقال الشافعية تبطل لأنه حكم تعلق بالعورة واستوى قليله وكثيره كالنظرة[(٢)].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: رقة حال أهل الصُفَّة.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: زهد الصحابة ﷺ.

ثالثًا: من واجبات المدعو: إيثار الآخرة على الدنيا.

أولاً - من موضوعات الدعوة: رقة حال أهل الصُفَّة:

يظهر هذا من قول أبي هريرة رضي الله عنه: "... ما منهم رجل عليه رداء: إما إزار وإما كساء، قد ربطوا في أعناقهم، فمنها ما يبلغ الساقين..."، وهذا يدل على رقة حالهم، وقد جاء في الحديث: (أهل الصُفَّة أضياف الإسلام لا يأوون إلى أهل ولا مال، إذا جاءته ﷺ الصدقة أرسل بها إليهم ولم يُصب منها وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها)[(٣)].

فقد كان رسول الله ﷺ يواسيهم ويمدهم بما عنده من طعام، وقد ورد في ذلك ما أخرجه الحاكم عن طلحة البصري قال: كان الرجل منا إذا قدم المدينة فكان له

---

(١) شرح فتح القدير، ابن الهمام الحنفي ٢٥٧/١، ٢٥٨، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٢٨٦/٢.

(٢) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، علاء الدين الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٥٤٤/١، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم النفراوي ١٥٠/١، ١٥١، والمهذب ٩٣/١، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٥٠٣/١، ٥٠٤.

(٣) أخرجه البخاري ٦٤٥٢.

بها عريف نزل على عريفه وإن لم يكن له بها عريف نزل الصُّفَّة، فقدمت فنزلت الصُّفَّة، فكان يجري علينا من رسول الله كل يوم مدٌّ من تمر بين اثنين ويكسونا الخنف، فصلّى بنا رسول الله ﷺ بعض صلاة النهار، فلما سلَّم ناداه أهل الصفة يمينًا وشمالاً: يا رسول الله أحرق بطوننا التمر وتخرقت عنا الخنف فمال رسول الله ﷺ إلى منبره فصعده فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر الشدة ما لقي من قومه حتى قال: ((وَلَقَدْ أَتَى عَلَيَّ وَعلَى صاحِبِي بِضْعَ عَشْرَةَ وَما لي وَلَهُ طَعامٌ إلا الْبرير، قال: قلت لأبي حرب: وأيّ شيء البرير؟ قال: طعام رسول الله ثمر الأراك، فَقَدِمْنا عَلى إِخْوانِنا هؤُلاءِ مِنَ الأَنْصارِ وَعظمُ طعامِهِم التَّمْرُ فَواسونا فِيهِ وَاللهِ لَوْ أَجِدُ لَكُمْ الْخُبْزَ وَاللّحْمَ لأَشْبَعْتُكُمْ مِنْهُ وَلكِنْ عَسى أَنْ تُدْرِكوا زَمانًا حَتّى يُغْدى عَلى أَحَدِكُمْ بجَفْنَةٍ وَيُراحُ عَلَيْهِ بِأُخْرَى، قال: فقالوا: يا رسول الله أنحن اليوم خير أم ذاك اليوم؟ قال: بَلْ أَنْتُمُ الْيَوْمَ خَيْرٌ أَنْتُمُ الْيَوْمَ مُتحابّونَ وَأَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقابَ بَعْضٍ))، أراه قال: متباغضون(١).

وقد أخرج الحاكم غيره من الأحاديث الواردة في معاشرة أهل الصفة وقال: "تأملت هذه الأخبار الواردة في أهل الصفة فوجدتهم من أكابر الصحابة رضي الله عنهم ورعًا وتوكلاً على الله عزّ وجل وملازمة لخدمة الله ورسوله اختار الله تعالى لهم ما اختاره لنبيّه ﷺ من المسكنة والفقر والتضرع لعبادة الله عزّ وجل وترك الدنيا لأهلها ...، فمن جرى على سنتهم وصبرهم على ترك الدنيا والأنس بالفقر وترك التعرض للسؤال فهم في كل عصر بأهل الصفة مقتدون وعلى خالقهم متوكلون(٢)".

وعن عبد الرحمن بن أبي بكر: أن أصحاب الصُفَّة كانوا أناسًا فقراء، وأن النبي ﷺ قال: ((مَنْ كانَ عِنْدَهُ طَعَامُ اثْنَيْنِ فَلْيَذْهَبْ بِثالِثٍ، وَإِنْ أَرْبَعٌ فَخَامِسٌ أَوْ سَادِسٌ))(٣)، كل ذلك يدل على رقة حال أهل الصُفَّة.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ١٤/٣، رقم ٤٣٤٧ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) المستدرك على الصحيحين ٥٥٣/٢.

(٣) أخرجه البخاري ٦٠٢.

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: زهد الصحابة رضي الله عنهم:

يُستنبط هذا من عموم الحديث فقد كان الصحابة رضي الله عنهم زاهدين في الدنيا راغبين في الآخرة، وقد ورد في زهد الصحابة رضي الله عنهم الكثير من الأحاديث والآثار منها.

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: ((بَعَثَنَا رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم وَنَحْنُ ثَلاَثُمَائَةَ نَحْمِلُ زَادَنَا عَلَى رِقَابِنَا فَفَنِيَ زَادُنَا حَتَّى كَانَ يَكونُ لِلرَّجُلِ مِنَّا كلَّ يَوْمٍ تَمْرَةٌ، فَقِيلَ لَهُ: يَا أَبَا عَبْدِ الله وَأَيْنَ كَانَتْ تَقَعُ التَمْرَةُ مِنَ الرجُلِ؟ فقالَ: لَقَدْ وَجَدْنَا فَقْدَها حِينَ فَقَدْنَاهَا فَأَتَيْنَا البَحْرَ فَإِذَا نَحْنُ بِحُوتٍ قَدْ قَذَفَهُ البَحْرُ فَأَكَلْنَا مِنْهُ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ يَوْمًا مَا أَحْبَبْنَا))[١].

قال النووي: (وفي هذا بيان ما كان الصحابة رضي الله عنهم عليه من الزهد في الدنيا والتقلل منها والصبر على الجوع وخشونة العيش وإقدامهم على الغزو مع هذا الحال)[٢].

وهذا عمر رضي الله عنه وهو خليفة المسلمين يرقع ثوبه، فعن أنس رضي الله عنه قال: (رأيت عمر وهو يومئذ أمير المؤمنين وقد رقع بين كتفيه برقاع ثلاث لبد بعضها على بعض).

وقال معمر في حديثه: "لما قدم عمر رضي الله عنه الشام تلقاه الناس وعظماء أهل الأرض. فقال عمر: أين أخي؟ قالوا: من؟ قال: أبو عبيدة، قالوا: الآن يأتيك. فلما أتاه نزل فاعتنقه ثم دخل عليه بيته فلم يرّ في بيته إلا سيفه وترسه ورحله"[٣].

ثالثًا - من واجبات المدعو: إيثار الآخرة على الدنيا:

يستنبط هذا من عموم الحديث، فأهل الصُفّة كانوا زاهدين في الدنيا إيثارًا للآخرة عليها؛ لأنهم يعلمون أن الآخرة خير وأبقى، ومتاع الدنيا قليل، قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾[٤].

---

(١) أخرجه البخاري ٢٤٨٣، ومسلم ١٩٣٥، والترمذي ٢٤٧٥ واللفظ له.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢٣٤.

(٣) انظر: التربية على منهج أهل السنة والجماعة، جمع: أحمد فريد، ص ٥٦ - ٥٧.

(٤) سورة النساء، آية: ٧٧.

وقد كان ﷺ يربي صحابته رضي الله عنهم على الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، فكان يقول: ((مَالِي وَلِلدُّنْيَا، ما أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلاَّ كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا))(١).

فينبغي على المدعو أن يؤثر الآخرة على الدنيا ويقتدي برسول الله ﷺ وصحابته الكرام رضي الله عنهم.

قال ابن القيم: (لا تتم الرغبة في الآخرة إلا بالزهد في الدنيا، ولا يستقيم الزهد في الدنيا إلا بعد نظرين صحيحين:

النظر الأول: النظر: في الدنيا، وسرعة زوالها وفنائها واضمحلالها، ونقصها، وخستها، وألم المزاحمة عليها والحرص عليها. وما في ذلك من الغصص والنغص والأنكاد، وآخر ذلك الزوال والانقطاع، مع ما يعقب من الحسرة والأسف. فطالبها لا ينفك من هم قبل حصولها، وهم من حال الظفر بها، وغم وحزن بعد فواتها.. فهذا أحد النظرين.

النظر الثاني: النظر في الآخرة وإقبالها ومجيئها ولا بُد، ودوامها وبقائها، وشرف ما فيها من الخيرات والمسرات، والتفاوت الذي بينه وبين ما ههنا. فهي كما قال سبحانه: ﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾(٢).

فهي خيرات كاملة دائمة، وهذه خيالات ناقصة منقطعة مضمحلة. فإذا تم هذان النظران آثر ما يقتضي العقل إيثاره، وزهد فيما يقتضي الزهد فيه. فكل أحد مطبوع على أن يترك النفع العاجل واللذة الحاضرة إلى النفع الآجل واللذة الغائبة المنتظرة، إلا إذا تبين له فضل الآجل على العاجل، وقويت رغبته في الأعلى الأفضل. فإذا أثر الفاني الناقص، كان ذلك إما لعدم رغبته في الأفضل.

وكل واحد من الأمرين يدلُّ على ضعف الإيمان، وضعف العقل والبصيرة. فإن الراغب في الدنيا، الحريص عليها، المؤثر لها، إما أن يصدق بأن ما هناك أشرف

---

(١) أخرجه الترمذي ٢٣٧٧، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٩٣٦).

(٢) سورة الأعلى، آية: ١٧.

وأفضل وأبقى، وإما أن لا يصدق؛ فإن لم يصدق بذلك كان عادمًا للإيمان رأسًا، وإن صدق بذلك ولم يؤثره، كان فاسد العقل سيئ الاختيار لنفسه.

وهذا تقسيم حاضر ضروري، لا ينفك العبد من أحد القسمين منه. فإيثار الدنيا على الآخرة إما من فساد في الإيمان، وإما من فساد في العقل. وما أكثر ما يكون منهما. ولهذا نبذها رسول الله ﷺ وراء ظهره هو وأصحابه رضي الله عنهم وصرفوا عنها قلوبهم، وطرحوها ولم يألفوها، وهجروها ولم يميلوا إليها، وعدّوها سجنًا لا جنة. فزهدوا فيها حقيقة الزهد، ولو أرادوها لنالوا منها كل محبوب، ولوصلوا منها إلى كل مرغوب. فقد عُرضت عليه مفاتيح كنوزها فردّها، وفاضت على أصحابه فآثروا بها ولم يبيعوا حظهم من الآخرة بها، وعلموا أنها معبر وممر لا دار مقام ومستقر، وأنها دار عبور لا دار سرور وأنها سحابة صيف تنقشع عن قليل، وخيال طيف ما استتم الزيارة حتى أذن بالرحيل)[1].

---

(١) الفوائد ١٤٠ - ١٤١.

الحديث رقم (٤٦٩)

٤٦٩ - وعنه، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: ((الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الكَافِرِ)) رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الحديث يقوم على جملتين قصيرتين في كل واحدة منهما تشبيه بليغ، وبين الجملتين طباق يؤكد المعنى الفارق بين الإيمان الموجه للأفعال، والذي يربط صاحبه بأوامر الله، ونواهيه ويقيده بقيد الشرع، وبين الكافر الذي يعيش دون منهج يحكمه، فيفعل ما يشاء يسوقه هواه إلى حيث رداه كما طابق بين النتيجتين المترتبتين على نوع الاعتقاد، وإذا نظرنا إلى التشبيهين في الجملتين نجد أنهما يشيران إلى عدة دلالات منها: الإشارة إلى أن المؤمن يحي بين أمر الله، ونهيه مسجون في الأمر، والنهي لا يخرج عنهما كما لا يخرج المسجون، وفي المقابل يصور التشبيه الكافر بالحر الطليق من القيود، لا تحده حدود، ولا يعترف بقيود كما يشير التشبيه بالسجين إلى قلة المتاع، وقلة القواطع لأن السجين منقطع عن المتاع منقطع عن الناس، انفراد السجين يشير إلى انفراد المؤمن عن الناس وجمعيته بربه، تسبيه المؤمن بالسجين يقرر أن حريته الحقيقية عند خروجه من الدنيا ولقاء ربه.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: تسلية المؤمن لما يواجهه من منغصات في الدنيا.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: شحذ الهمم للإقبال والاستعداد للآخرة.

ثالثًا: من مهام الداعية: بيان الحقائق للمدعوين.

أولاً - من موضوعات الدعوة: تسلية المؤمن لما يواجهه من منغصات في الدنيا:

يظهر ذلك من قول رسول الله ﷺ "الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر".

---

(١) برقم ٢٩٥٦/١.

وفي ذلك بشرى عظيمة للصابرين على فعل الطاعات والحسنات واجتناب المعاصي والسيئات، وأن هذا السجن لم يلبث المؤمن فيه إلا فترة لا يمكن تقدير زمن قصرها بالنسبة للآخرة التي لا يمكن تقدير زمن طولها؛ لأنها ما لا نهاية، هذا بالنسبة للفترة الزمنية، أما بالنسبة للطيبات فإن طيبات الدنيا قليلة جدًا بالنسبة للجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وقال المناوي: الدنيا أي الحياة الدنيا سجن المؤمن بالنسبة لمن أعد له في الآخرة من النعيم المقيم، وجنة الكافر بالنسبة لما أمامه من عذاب الجحيم، وعمّا قريب يحصل في السجن المستدام - نسأل الله السلام يوم القيامة - وقيل المؤمن صرف نفسه عن لذاتها فكأنه في السجن لمنع الملاذ عنه، والكافر سرحها في الشهوات فهي له كالجنة.

قال السهروردي: والسجن والخروج منه يتعاقبان على قلب المؤمن على توالي الساعات ومرور الأوقات، لأن النفس كلما ظهرت صفاتها أظلم الوقت على القلب حتى ضاق وانكمد، وهل السجن إلا تضييق وحجر من الخروج؟ فكلما همَّ القلب بالتبري عن مشائم الأهواء الدنيوية والتخلص عن قيود الشهوات العاجلة تشهيًا إلى الآجلة وتنزهًا في فضاء الملكوت ومشاهدة للجمال الأزلي حجزه الشيطان المردود من هذا الباب المطرود بالاحتجاب، فتدلى بحبل النفس الأمَّارة إليه فكدُر صفو العيش عليه، وحالَ بينه وبين محبوب طبعه، وهذا من أعظم السجون وأضيقها، فإن من حيل بينه وبين محبوبه ضاقت عليه الأرض بما رحُبت وضاقت عليه نفسه...

ذكروا أن الحافظ ابن حجر لما كان قاضي القضاة[1] مرَّ يومًا بالسوق في موكب عظيم وهيئة جميلة، فهجم عليه يهودي يبيع الزيت الحار، وأثوابه ملطخة بالزيت وهو في غاية الرثاثة والشناعة، فقبض على لجام بغلته. وقال: يا شيخ الإسلام تزعم أن نبيكم قال: (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر)، فأي سجن أنت فيه؟! وأي جنة أنا فيها؟! فقال: أنا بالنسبة لما أعد الله لي في الآخرة من النعيم كأني الآن في السجن، وأنت بالنسبة لما أعد لك في الآخرة من العذاب الأليم كأنك في جنة، فأسلم اليهودي[2].

---

(١) الأفضل أن يقال: كبير القضاة أو شيخ القضاة.

(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير، عبدالرؤوف محمد المناوي ٥٤٦/٣.

قال النووي: (أي كل مؤمن مسجون ممنوع من الشهوات المحرمة والمكروهة مكلف بفعل الطاعات الشاقة، فإذا مات استراح من هذا وانقلب إلى ما أعد الله له من النعيم الدائم والراحة الخالصة من النقصان، وأما الكافر فإنما له من ذلك ما حصل في الدنيا مع قلته وتكديره بالمنغصات، فإذا مات صار إلى العذاب الدائم وشقاء الأبد)(١).

والمؤمن تقابله بعض المنغصات في الدنيا فأراد رسول الله ﷺ أن يفرّج عنه ويعلمه أن مهما اشتد به الألم أو المنغصات فإن هذا حال الدنيا وأن ذلك هو الذي سوف يوصله للجنة، قال رسول الله ﷺ ((حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ. وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ))(٢) فالمكاره يدخل فيها الاجتهاد في العبادات والمواظبة عليها والصبر على مشاقها، وكظم الغيظ والعفو والحلم والصدقة والإحسان إلى المسيء والصبر على الشهوات ونحو ذلك(٣). فينبغي على الداعية أن ينهج نهج رسول الله ﷺ في تسلية المدعوين لما يواجههم من منغصات.

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: شحذ الهمم للإقبال والاستعداد للآخرة:

وهذا يستنبط من عموم الحديث حيث بيّن رسول الله ﷺ أن الدنيا سجن للمؤمن وجنة للكافر، والدنيا زائلة فانية فلابد للمؤمن أن يستعد ويعمل للجنة الخالدة في الآخرة.

وشحذ الهمم للإقبال والاستعداد للآخرة منهج إسلامي يظهر في كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ فهما يحثان المسلمين على العمل الصالح من أجل الاستعداد للآخرة قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾(٤).

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٧٠٨.

(٢) أخرجه مسلم ٢٨٢٢.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٥٢.

(٤) سورة هود، آية: ٢٣.

وقال رسول الله ﷺ ((إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً. يُعْطَى بِهَا فِي الدُّنْيَا وَيُجْزَى بِهَا فِي الآخِرَةِ))[1] وفي هذا شحذ للهمم على العمل الصالح فينبغي على الداعية شحذ همم المسلمين للإقبال والاستعداد للآخرة.

ثالثًا - من مهام الداعية: بيان الحقائق للمدعوين:

يستنبط من هذا الحديث، أن جنة المؤمن في الآخرة، كما أن سجن الكافر في الآخرة، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾[2] فقد أخرج الطبري بسند جيد عن ابن عباس ﴿حَصِيرًا﴾ سجنًا[3]. فبين رسول الله ﷺ حقيقة الدنيا بالنسبة للمؤمن وكذلك حقيقتها بالنسبة للكافر.

فالدعوة إلى الله تعالى لا تكون إلا من نفوس ارتوت من حب الله، فأحبت عباد الله، وكان من حبها لله الغيرة على محارمه أن تنتهك، وعلى ينابيع الخير أن تجف وعلى معالم الحق أن تدرس، ثم كان حبها لعباد الله أن تردهم عن مسارب الضلال ومسالك الغوايات والفتن، وكان طريقها إلى بيانها للحقائق للمدعوين، وهذا من مهام الداعية التي ينبغي أن يحرص عليها.

---

(١) أخرجه مسلم ٢٨٠٨.

(٢) سورة الإسراء، آية: ٨.

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٥٠٨/٤.

الحديث رقم (٤٧٠)

٤٧٠ - وعن ابن رضي الله عنهما، قَالَ: أخذ رسول الله ﷺ بِمَنْكِبَيَّ، فقال: ((كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَو عَابِرُ سَبِيلٍ)).

وَكَانَ ابن عُمَرَ رضي الله عنهما، يقول: إِذَا أَمْسَيتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ المَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ. رواه البخاري[1].

قالوا في شَرْحِ هَذَا الحديث معناه: لاَ تَرْكَنْ إِلَى الدُّنْيَا وَلاَ تَتَّخِذْهَا وَطَنًا، وَلاَ تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِطُولِ البَقَاءِ فِيهَا، وَلاَ بالاعْتِنَاءِ بِهَا، وَلاَ تَتَعَلَّقْ مِنْهَا إلاَّ بِمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ الْغَرِيبُ فِي غَيْرِ وَطَنِهِ، وَلاَ تَشْتَغِلْ فِيهَا بِمَا لاَ يَشْتَغِلُ بِهِ الغَرِيبُ الَّذِي يُرِيدُ الذَّهَابَ إِلَى أَهْلِهِ، وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

المنكب: ما بين الكتف والعنق[2].

والرسول ﷺ في هذا الحديث يغرس في نفس المؤمن فكرة الاغتراب ليحدث في وجدانه توازناً يجعله قادراً على رؤية حقيقة الدنيا وهي في الوقت نفسه - فكرة الاغتراب - تشير إلى أن له غاية أسمى ووطناً يجب أن يعود إليه في الجنة التي خرج منها في ركاب أبيه آدم عليه السلام.

ولترسيخ هذا المفهوم استخدم الرسول ﷺ عدة أشكال بلاغية منها:

البداية بأسلوب الأمر، واختار صيغة الأمر (كن) الدالة على طلب إحداث أمر لم يكن موجوداً وهو أمر إرشاد وتوجيه لجميع المؤمنين في كل زمان ومكان في شخص

---

(١) برقم ٦٤١٦. أورده المنذري في ترغيبه ٤٨٩٩.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ن ك ب).

عبد الله رضي الله عنه لما يجب أن تكون عليه علاقتهم بالدنيا فلا يستكثرون من متاعها بما يشغلهم عن آخرتهم، ثم يأتي التصوير بالتشبيه لإخراج المألوف القريب (الدنيا) مخرج المستغرب البعيد حيث جعل الدنيا دار غربة الأمر الذي يدفع المؤمن إلى عدم التعلق بشيء فيها وعدم الاستكثار من متاعها فجاء قوله صلى الله عليه وسلم (كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل) حيث شبه الحال التي يجب أن يكون عليها عبد الله رضي الله عنه - وكل فرد من الأمة - بالغريب، أو عابر السبيل بجامع عدم التعلق بما يثقل أو يشغل عن المقصود في كلٍ.

وتشبيه الرسول صلى الله عليه وسلم للحال التي يجب أن يكون عليها المؤمن في الدنيا بحال الغريب أو عابر السبيل، له عدة دلالات.

أ- عدم الإكثار في الاختلاط المضيع للوقت والمشتت للهدف وهذا مفهوم من حال الغريب الذي يقتصر في اختلاطه بالناس على ما يحتاج إليه في سفره، ويوضح مقصوده.

ب- عدم انشغال المؤمن بما يفسد قلبه من صراع مع الناس وما يتبعه من حقد، وحسد، ونفاق كما لا ينشغل الغريب بمثل هذه الأمور لعدم اختلاطه بالناس، وقلة معرفته بهم.

ج- وحدة الهدف، وعدم تشعب الهموم بالمؤمن كما أن الغريب هدفه واحد وهو الرجوع إلى لوطنه، كما يدل علي السعي الدائب الدائم الذي يجب أن يكون عليه المؤمن في الدنيا وعدم الاسترخاء، والركون حتى يلقى ربه كما أن الغريب أو عابر السبيل دائمان في سعيهما حتى يصلا إلى وطنهما.

هـ - بث الشعور الوجداني بالحنين إلى الله، وما ادخره للمؤمن في الآخرة كما يشعر الغريب بحنينه إلى موطنه الأمر الذي يدفعه إلى قطع المسافات وعبور المفاوز يحدوه أمل مغداق، وقلب خفاق.

ثم يأتي أسلوب العطف المقرب للفكرة والموضح دلالة اللفظة حيث عطف قوله صلى الله عليه وسلم : (أو عابر سبيل) على قوله: (كأنك غريب)، و(أو) للتنويع فإن قيل الغريب هو عابر سبيل فما وجه العطف؟ أجيب: بأن العبور يستلزم الغربة والمبالغة فيه أكثر؛

لأن تعلقاته أقل من تعلقات الغريب، وهو من عطف العام على الخاص)[١]، ومما تجدر الإشارة إليه في بلاغة الرسول ﷺ في هذا الحديث ما فيه من إيجاز القصر وإذا كان البلغاء يقولون (البلاغة لمحة دالة، فعبارة الرسول ﷺ : (كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل) تطوي معاني كثيرة من تحذير من الدنيا، والاغترار بها، والركون إليها، والتنافس فيها، وما يولده من أحقاد وحسد ونفاق وارتكاب لمختلف الخطايا جرياً وراء شهواتها، وفيها أيضاً توجيه للمؤمنين ممثلين في شخص ابن عمر رضي الله عنهما إلى الغاية العظمى والهدف الأسمى ولفت النظر إلى ما يجب التنافس فيه بالعطف المحقق للتنويع والمؤذن بالمنافسة لاختيار أفضل النوعين في طريق الآخرة.

ولا ننسى - في إطار بلاغة الرسول ﷺ في تهذيب النفس البشرية وعلاج أمراضها - ومنها التعلق بالدنيا ذكاء الرسول ﷺ الفطري في إعداد المخاطب فكرياً، وشعورياً، وهدهدة خواطره عن طريق الحركة السابقة لعبارته والتي حكاها عبد الله رضي الله عنه : (أخذ الرسول ﷺ بمنكبي وقال:...) وهذا الفعل الذي قد يبدو عفوياً يوحي للمخاطب بالمودة والقربى والحظوة من المتحدث إضافة إلى أنه يلفت انتباهه ويضمن إنصاته ويحقق متابعته؛ لذلك تجد الصحابي يحكي فعل الرسول ﷺ معه كما يحكي قوله، وكذا أكثر كلام النبي ﷺ وتوجيهاته تصدر بعد تهيئة ذهنية، وتمهيد فكري وتأثير شعوري، مفضٍ إلى الإقناع، ومن الجدير بالذكر أن الأسلوب عام يناقش قضية شاملة رغم توجيه الخطاب لشخص بعينه، ومما له اتصال بالموضوع، والخطاب فيه عاماً ما جاء في[٢].

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني ١٥/٥٠٠.

(٢) انظر: بلاغة الرسول ﷺ في تقويم الأخطاء د ناصر راضي الزهري، ١٠٠.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: إظهار الهيئة أو الشكل الذي يكون عليه الداعية.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: الأمر.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: التشبيه.

رابعًا: من واجبات الداعية: حث المدعو على المبادرة إلى الأعمال الصالحة.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: المسارعة في العمل للآخرة وقصر الأمل في الدنيا.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: اغتنام الفرص في تحصيل الثواب والاستعداد للآخرة.

أولاً - من أساليب الدعوة: إظهار الهيئة أو الشكل الذي يكون عليه الداعية:

يظهر ذلك في قول ابن عمر رضي الله عنهما: "أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي". وفي هذا بيان للصورة والشكل الذي كان عليه النبي ﷺ حينما وجه دعوته لابن عمر مما يبعث على الاهتمام والتركيز وشد انتباه المدعو، حيث أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي ابن عمر رضي الله عنهما؛ لأن ذلك من أساليب الدعوة المؤثرة في المدعوين.

قال ابن حجر: (وفي الحديث: فإنه للمعلم الإمساك بأعضاء المتعلم عند التعليم والموعوظ عند الموعظة، وذلك للتأنيس والتنبيه ولا يفعل ذلك غالبًا إلا بمن يميل إليه، وفيه مخاطبة الواحد وإرادة الجمع)[1].

ثانيًا - من أساليب الدعوة: الأمر:

يظهر هذا في قول رسول الله ﷺ "كن في الدنيا..." وأسلوب الأمر من أساليب الدعوة التي تبين للمدعوين أهمية ما يؤمرون به مما يجعلهم حريصين على سماع وفهم ما يحمله هذا الأمر، والاهتمام به لذا يحسن بالداعية أن يفيد من هذا الأسلوب في الدعوة إلى الله تعالى.

ثالثًا - من أساليب الدعوة: التشبيه:

إن من أساليب الدعوة التي تظهر من هذا الحديث أسلوب التشبيه ويظهر ذلك في

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١/٢٣٩.

قوله: "كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل". قال الطيبي: ليست أو للشك بل للتخيير والإباحة، والأحسن أن تكون بمعنى بل، قال الجوهري: فشبه الناسك السالك بالغريب الذي ليس له مسكن يأويه ولا مسكن يسكنه، ثم ترقّى وأضرَب عنه إلى عابر السبيل، لأن الغريب قد يسكن في بلد الغربة بخلاف عابر السبيل القاصد لبلد شاسع وبينهما أودية مردية ومفاوز مهلكة وقُطّاع طريق، فإن من شأنه أن لا يقيم لحظة ولا يسكن لمحة.

ومن ثم عقبه بقوله: "إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ... الخ" وبقوله وعد نفسك في أهل القبور، والمعنى: استمر سائرًا ولا تفتر، فإنك إن قصرت انقطعت وهلكت في تلك الأودية، وهذا معنى المشبه به، وأما المشبه فهو قوله: "وخذ من صحتك لمرضك" أي: إن العمر لا يخلو عن صحة ومرض، فإذا كنت صحيحا فسر سير القصد، وزد عليه بقدر قوتك ما دامت فيك قوة، بحيث يكون ما بك من تلك الزيادة قائما مقام ما لعله يفوت حالة المرض والضعف"[(١)].

قال ابن عثيمين: (وهذا التمثيل الذي ذكره النبي ﷺ هو الواقع؛ لأن الإنسان في هذه الدنيا مسافر، فالدنيا ليست دار مقر؛ بل هي دار ممر، سريع راكبه لا يفتر ليلاً ولا نهارًا، فالمسافر ربما ينزل منزلاً فيستريح، ولكن مسافر الدنيا لا ينزل، هو دائمًا في سفر، كل لحظة فإنك تقطع بها شوطًا من هذه الدنيا لتقرب من الآخرة.

فما ظنكم بسفر لا يفتأ صاحبه يمشي ويسير. أليس ينتهي بسرعة؟ الجواب: بلى، ولهذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾[(٢)].

وينبغي للإنسان أن يقيس ما يستقبل من عمره بما مضى، فالذي مضى كأنه لا شيء، حتى أمسك الأدنى، كأنك لم تمر به، أو كأنه حلم، وكذلك فما يستقبل من دنياك، فهو كالذي تقدم، ولهذا لا ينبغي الركون إلى الدنيا ولا الرضا بها؛ وكأن الإنسان مخلد فيها.

---

(١) انظر: شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٣/٣٢٧.

(٢) سورة النازعات، آية: ٤٦.

فالتشبيه أسلوب دعوي يجعل القول واضحًا، موجزًا، حكيمًا، ينتصب صدقه في العقول فيألفه الناس ويجري بينهم، ويشيع في أحاديثهم.

والناس من قديم الزمان، يجدون في طبائعهم الميل إلى الاستشهاد بالمثل، فقد يكون أحدهم بصدد حال يحكيها أو يسمعها فيحضره مثل يشابهها في المعنى فيستشهد به، لا لأن الكلام يزيد به صدقًا، بل لأن النفس تستأنس بالمثل، ويلتمع في جوانبها ضوء من وضوحه، وجمال حكمته، فما أسرع ما تتفرج جوانب النفس عن ثغرة يتعانق فيها معنى المثل القديم ومعنى المثل الحديث الجديد ثم تنطبق عليهما في تزاوج ووئام فإذا بالحال التي كانت تحكى قد استقرت لدى السامعين في رضى وقبول واطمئنان ويسمى هذا بضرب المثل أو التشبيه فينبغي على الداعية أن يحرص على الاستئناس في دعوته بالتشبيه وضرب الأمثال حتى يقرب المعنى إلى الأفهام)[1].

رابعًا – من واجبات الداعية: حث المدعو على المبادرة إلى الأعمال الصالحة:

يظهر ذلك في قوله ﷺ "كن في الدنيا كأنك غريب...".

قال ابن حجر: (وقوله: "خذ من صحتك ... الخ" أي: اعمل ما تلقى نفعه بعد موتك، وبادر أيام صحتك بالعمل الصالح، فان المرض قد يطرأ فيمتنع من العمل فيخشى على مَن فرط في ذلك أن يصل إلى المعاد بغير زاد، ولا يعارض ذلك الحديث الماضي في الصحيح إذا مرض العبد أو سافر كتب الله له ما كان يعمل صحيحا مقيما لأنه ورد في حق من يعمل والتحذير الذي في حديث بن عمر في حق من لم يعمل شيئًا، فإنه إذا مرض ندم على تركه العمل وعجز لمرضه عن العمل فلا يفيده الندم، وفي الحديث مسُّ المعلم أعضاء المتعلم عند التعليم والموعوظ، وحرص النبي ﷺ على إيصال الخير لأمته، والحضّ على ترك الدنيا والاقتصار على ما لا بد منه)[2].

فينبغي للداعية أن يحث المدعوين على المبادرة إلى الأعمال الصالحة ويبين لهم أن الحياة قصيرة فلابد من المبادرة إلى الأعمال الصالحة، قال تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟

---

(١) انظر: تذكرة الدعاة، البهي الخولي، ص ٦٦.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١/٢٣٩.

ٱلْخَيْرَٰتِ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٢]، من المسابقة بمعنى المبادرة والمسارعة أى بادروا بالأعمال الصالحة شكرًا لربكم وتزودوا في دنياكم لأخراكم فإن الله تعالى قد بين لكم سبيل النجاة فلا عذر لكم في التفريط[٣].

فيجب على الداعية حث المدعو على المبادرة إلى الأعمال الصالحة.

خامسًا – من موضوعات الدعوة: المسارعة في العمل للآخرة وقصر الأمل في الدنيا:

يظهر هذا في قوله ﷺ "... كأنك غريب أو عابر سبيل"، هذه الوصية الجليلة البليغة ترسخ اصلاً من أصول الزهد، وتعالج مرضًا من أمراض القلوب المتفشي في نفوس عشاق الدنيا، للاهتمام بالآخرة، والقناعة بما رزق الله تعالى وقصر الأمل، والتوازن بين الدنيا والآخرة، ولتعيش النفوس محررة من رق عشق الدنيا والركض وراءها، والتنافس فيها والتقاتل عليها.

قال ابن حجر: (قال ابن بطال: لما كان الغريب قليل الانبساط إلى الناس بل هو مستوحش منهم إذ لا يكاد يمر بمن يعرفه مستأنس به فهو ذليل في نفسه خائف، وكذلك عابر السبيل لا ينفذ في سفره إلا بقوته عليه وتخفيفه من الأثقال غير متثبت بما يمنعه من قطع سفره معه زاده وراحلته يبلغانه إلى بغيته من قصده شبهه بهما، وفي ذلك إشارة إلى إيثار الزهد في الدنيا وأخذ البلغة منها والكفاف فكما لا يحتاج المسافر إلى أكثر ما يبلغه إلى غاية سفره فكذلك لا يحتاج المؤمن في الدنيا إلى أكثر مما يبلغه المحل)[٤].

وقال المناوي: (وهذا أصل عظيم في قصر الأمل، وأن لا يتخذ الدنيا وطنًا وسكنًا بل يكون فيها على جناح سفر مهيأ للرحيل، وقد اتفقت على ذلك وصايا جميع الأمم،

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٤٨.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٣٣.

(٣) هداية المرشدين، علي محفوظ، ص ٢٤٢.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١/٢٣٨.

وفيه حث على الزهد والإعراض عن الدنيا والغريب المجتهد في الوصول إلى وطنه لا بد له من مركب وزاد ورفقاء وطريق يسلكها، فالمركب نفسه ولا بد من رياضة المركوب ليستقيم للراكب، والزاد التقوى والرفقاء الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والصراط المستقيم، وإذا سلك الطريق لم يزل خائفا من القطاع إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه بينها إلا ذراع أو عابر سبيل)[١]. وفي ذلك حث علي المسارعة في العمل للآخرة وقصر الأمل في الدنيا وعدم الركون إليها، قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[٢]، أمر الله تعالى المسارعة إلى مغفرته، وإدراك جنته، التي عرضها السموات والأرض، فكيف بطولها التي أعدها للمتقين، فهم أهلها وأعمال التقوى هى الموصلة إليها"[٣].

سادسًا - من موضوعات الدعوة: اغتنام الفرص في تحصيل الثواب والاستعداد للآخرة:

يظهر هذا في قول ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (إذا أمسيت، فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت، فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك). قال الطيبي: (انظر أيها المتأمل في هذا الكلام الجامع، وانتهز الفرصة لكي لا تندم. ونعم ما قال من قال:

إذا هبت رياحك فاغتنمها ... فإن لكل خافقة سكون

ولا تغفل عن الإحسان فيها ... فما تدري السكون متى يكون

فإذا ظفرت بذاك فلا تقصر ... فإن الدهر عادية تخون

قال الله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ﴾[٤])[٥].

---

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير، عبدالرؤوف محمد المناوي ٥٢/٥.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٣٣.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ١١٥- ١١٦.

(٤) سورة الأنعام، آية: ١٥٨.

(٥) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٣٢٨/٣.

وفي ذلك بيان لاغتنام تحصيل الثواب متى استطاع الإنسان ذلك حتى لو حصل له تقصير في وقت ما لا نجبر ذلك، قال رسول الله ﷺ: (بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنًا، ويمسى كافرًا، أو يمسى مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع دينه بعرض من الدنيا)[(١)].

قال النووي: (معنى الحديث: الحث على المبادرة إلى الأعمال الصالحة قبل تعذرها والاشتغال عنها بما يحدث من الفتن الشاغلة المتكاثرة المتراكمة كتراكم ظلام الليل المظلم لا المقمر، ووصف ﷺ نوعًا من شدائد تلك الفتن وهو أن يمسى مؤمنًا ثم يصبح كافرًا أو عكسه، وهذا لعظم الفتن ينقلب الإنسان في اليوم الواحد هذا الانقلاب)[(٢)].

فينبغي على الإنسان العاقل أن يغتنم صحته وأوقاته في طاعة الله وأن يعمل على تحصيل الثواب والاستعداد للآخرة.

ولذلك كان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: "إذا أصبحت فلا تنتظر المساء، فإنك قد تموت قبل أن تمسي، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح" فإنك قد تموت قبل أن تصبح، ولكن انتهز الفرصة، لا تؤخر العمل، لا تركن إلى الدنيا فتؤمل البقاء مع أنك لا تدري.

"وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك" انتهز الصحة، انتهز الحياة، فإنك قد تمرض فتعجز، وقد تفتقر فتعجز، وقد تموت فينقطع عملك[(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم ١١٨.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٨.

(٣) شرح رياض الصالحين، ابن عثمين، ١/٧٩٧.

الحديث رقم (٤٧١)

٤٧١ - وعن أَبي العباس سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النبي ﷺ، فقال: يَا رسولَ الله، دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا عَمِلْتُهُ أحَبَّنِي اللهُ وَأَحَبَّنِي النَّاسُ، فقال: ((ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبّكَ الله، وَازْهَدْ فِيمَا عِنْدَ النَّاسِ يُحِبّكَ النَّاسُ)) حديث حسن رواه ابن ماجه[1]، وغيره بأسانيد حسنة.

ترجمة الراوي:

سهل بن سعد الساعدي: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٧٥).

غريب الألفاظ:

ازهد في الدنيا: قال الزهري: الزهد في الدنيا هو أن لا يغلب الحلالُ شكرَه ولا الحرام صبرَه[2].

الشرح الأدبي

قول الرجل للرسول ﷺ (دلني) دليل على أنه جاء يلتمس الهداية ثم إنه رقيق القلب رقيق المشاعر يريد أن يحيا في محبة الله، ومحبة من حوله، وتلك نية طيبة، وتعبيره بالعمل؛ لأنه يشمل الفعل، والقول، ثم إنه استخدم أسلوب الشرط الذي يربط عمله بالنتيجة التي يطلبها، وقد فهم الرسول ﷺ طبيعته، وأجابه بما يصلح حاله، ويحقق غرضه، بقوله (ازهد في الدنيا يحبك الله) والأمر للنصح والإرشاد، والترغيب في الزهد في الدنيا؛ لأنه يوجب محبة الله - تعالى - ثم إنه أمره بالزهد مرة أخرى فيما عند الناس حتى تتحقق محبتهم له، ونلاحظ شيوع ألفاظ المحبة التي تستصحب أجمل المعاني كالإيثار، والوفاء، والعطاء، وهذه المعاني تحقق السعادة وتنمي روح التعاون.

---

(١) برقم ٤١٠٢، وكذا قال المؤلف في أربعينه ٣١، وقال الحاكم في المستدرك ٣١٣/٤: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الحافظ في بلوغ المرام ١٣٧٦: سنده حسن. أورده المنذري في ترغيبه ٤٦٩٥.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ز هـ د).

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النداء، والسؤال والجواب.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على معرفة ما يؤدي إلى محبة الله ومحبة الناس.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الأمر.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل الزهد في الدنيا، و فيما عند الناس.

خامسًا: من آداب المدعو: السعي لتحصيل محبة الله ومحبة الناس.

أولاً - من أساليب الدعوة: النداء، والسؤال والجواب:

يظهر النداء في قول الرجل الذي جاء إلى النبي ﷺ فقال: "يا رسول الله..."، وأسلوب النداء من أساليب الدعوة التي تلفت الانتباه والتي يستخدمها المدعو مع الداعية للفت انتباهه وإعلامه بالرغبة في الإفادة منه، والسؤال والجواب يظهر في قول الرجل: "دلني على عمل... فقال ﷺ "ازهد فيما عند الناس..." الحديث. وقد أفاد ذلك أهمية السؤال عن الأعمال التي تحبب الإنسان إلى الله تعالى وأيضًا الأعمال التي تجعل الإنسان محببًا إلى الناس ويعد ذلك من المؤشرات الإيجابية التي تدل على سلامة قلب المدعو وحرصه على مرضاة ربه سبحانه وتعالى.

فينبغي للداعية أن يفيد من أسلوب السؤال والجواب ويشجع المدعوين على ذلك؛ لأنه يعدُ من الظواهر الصحية في المجتمع المسلم؛ لأن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يسألون النبي ﷺ لمعرفة أمور دينهم.

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على معرفة ما يؤدي إلى محبة الله ومحبة الناس:

ويظهر ذلك في قول الرجل الذي جاء إلى رسول الله ﷺ: "يا رسول الله دلني على عمل إذا عملته أحبني الله وأحبني الناس". قال سليم الهلالي في فقه الحديث: (حرص الصحابة رضي الله عنهم على معرفة ما يقربهم إلى الله وينفعهم في الناس لتستقيم حياتهم معهم، وهو من باب جمع خيري الدنيا والآخرة)[1]. ومما يؤكد على أهمية معرفة ما يحقق

---

(١) بهجة الناظرين شرح رياض الصالحين، سليم بن عيد الهلالي ١/ ٥٣٧.

محبة الله تعالى، وما يجلب محبة الناس. إن محبة الله للإنسان أساس كل خير في الدنيا والآخرة: قال رسول الله ﷺ: ((إن الله قال: وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أُحبه، فإذا أحبَبته كنت سمعه الذي يسمع به وبَصرَه الذي يبصر به ويدَه التي يبطِش بها. ورجله التي يمشي بها، وإنْ سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذَنه. وما ترددتُ عن شيء أنا فاعله تَرَدُّدي عن نفسِ المؤمن يكرَه الموتَ وأنا أكرَه مَساءته))[١]، وقال الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝١٤ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴾[٢].

(فالله تبارك وتعالى هو الودود، الذي يحب أنبياءه ورسله وأتباعهم وهم يحبونه، فهو أحب إليهم من كل شيء، قد امتلأت قلوبهم من محبته، ولهجت ألسنتهم بالثناء عليه، وانجذبت أفئدتهم إليه ودًا ومحبة وإنابة.

وهو سبحانه الودود، الذي يحب ويود من أناب إليه، وذو المغفرة لمن تاب إليه، الواد لأهل طاعته، الراضي عنهم بأعمالهم الصالحة، المحسن إليهم لأجلها، المادح لهم بها، المثيب لهم عليها.

وهو سبحانه الودود، الذي يحب من أطاعه، ويبغض من عصاه، يحب التوابين ويحب المتطهرين، ويحب المؤمنين والمتقين، ويحب الصابرين والصادقين، ويحب المحسنين والمتوكلين.

ويبغض ويكره الكافرين والمشركين، والمستكبرين والمفسدين، والظالمين والفاسقين، والمسرفين والخائنين، والكاذبين والمنافقين.

فعلى المسلم أن يفعل ما يحبه الله ويرضاه، ويجتنب ما يبغضه ويسخطه، وأن يتودد إلى ربه بامتثال أمره واجتناب نهيه. كما تودد إليه ربه بإدرار نعمه وفضله، وأن يحبه كما أحبه، ويحسن إلى خلقه كما أحسن الله إليه)[٣].

أما محبة الناس فهي أساس التعاون والمودة والرحمة فإذا أحب الناس بعضهم بعضًا

---

(١) أخرجه البخاري ٦٥٠٢.

(٢) سورة البروج، الآيتان: ١٤، ١٥.

(٣) موسوعة فقه القلوب، د. محمد بن إبراهيم التويجري ١/ ٢٣٧.

عمتهم البركة وساد بينهم التعاون والإيثار والأمن لذلك حرص الصحابة رضي الله عنهم على معرفة ما يؤدي إلى محبة الناس. قال رسول الله ﷺ: «لاَ تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا. وَلاَ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا. أَوَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ «أَفْشُوا السَّلاَمَ بَيْنَكُمْ»[(١)]. فصحابة رسول الله كانوا حريصين على معرفة ما يؤدي إلى محبة الله ومحبة الناس.

ولهم في رسول الله ﷺ الأسوة والقدوة الحسنة فقد جمع النبي ﷺ بين تقوى الله وحسن الخلق؛ لأن تقوى الله تصلح ما بين العبد وبين ربه، وحسن الخلق يُصلح ما بينه وبين خلقه. فتقوى الله توجب له محبة الله، وحسن الخلق يدعو الناس إلى محبته)[(٢)].

ثالثًا - من أساليب الدعوة: الأمر:

يظهر ذلك في قول رسول الله ﷺ "ازهد في الدنيا... وازهد فيما...".

وأسلوب الأمر من أساليب الدعوة التي تشعر المدعوين بأهمية ما يؤمرون به مما يبعث على الاهتمام فهو بذلك من دواعي التركيز والانتباه.

رابعًا - من موضوعات الدعوة: فضل الزهد في الدنيا، و فيما عند الناس:

يظهر ذلك في قول رسول الله ﷺ: "ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس".

قال الطيبي: (فيه دليل على أن الزهد في الدنيا أعلى المقامات وأفضلها؛ لأنه جعله سببًا لمحبة الله تعالى وأن محب الدنيا متعرض لبغض الله تعالى)[(٣)].

أما الزهد فيما عند الناس: "فإن من أشرف المنى ترك الطمع إلى الناس إذ لا غنى لذي طمع وتارك الطمع يجمع به غاية الشرف، فطوبى لمن كان شعار قلبه الورع ولم يعم بصره الطمع.

---

(١) أخرجه مسلم ٩٣.

(٢) الفوائد، ابن القيم، ص ٨٤-٨٥.

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٩/٣٠٧.

"ومن أحب أن يكون حرًا فلا يهوى ما ليس له؛ لأن الطمع فقر، كما أن اليأس غنى، ومن طمع ذل وخضع، أن من قنع عف واستغنى"[١].

ففي هذا الحديث يرشد رسول الله ﷺ المؤمنين بالتقلل من أمور الدنيا لكي لا تتعلق نفوسهم بملذات الدنيا والإكثار منها، وأن تكون الدنيا بأيديهم لا بقلوبهم، حتى يتمكنوا من الإقبال على عبادة الله تعالى بإخلاص، فينالوا محبة الله تعالى، وهذا لا يعني ترك الدنيا إطلاقًا ولكن الوسطية مطلوبة إذ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾[٢].

وفي هذا الحديث معالجة للمشكلات الاقتصادية التي يعاني منها البشر في هذا الزمان، الذين يتسابقون ويتنافسون على جمع المال، وقد يشوبه الربا والشبهات ثم لا يحسنون التصرف فيه فيعيشون حياة الإسراف والبخل، وقد نهى الله تعالى عن ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾[٣].

وبالتقلل من ملذات الدنيا يقل هذا التسابق المحموم والتنافس المذموم،ويحبب الناس إلى أرباب هذا الفعل المحمود.

وقد بين العلماء الزهد وأنواعه قال العلامة ابن قيم الجوزية: وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: الزهد ترك ما لا ينفع في الآخرة. والورع ترك ما تخاف ضرره في الآخرة.

وهذه العبارة من أحسن ما قيل في (الزهد، والورع) وأجمعها.

وقال سفيان الثوري: الزهد في الدنيا قصر الأمل، ليس بأكل الغليظ، ولا لبس العباء.

وقد قال أحمد بن حنبل: الزهد على ثلاثة أوجه:

---

(١) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ١٤٢.

(٢) سورة القصص، آية: ٧٧.

(٣) سورة الإسراء، آية: ٢٩.

الأول: ترك الحرام، وهو زهد العوام.

والثاني: ترك الفضول من الحلال، وهو زهد الخواص.

والثالث: ترك ما يشغل عن الله، وهو زهد العارفين[1].

وقال المناوي: (ازهد) من الزهد بكسر أوله وقد يفتح وهو لغة: الإعراض عن الشيء احتقارًا. وشرعًا: الاقتصار على قدر الضرورة مما يتيقن حِله.

وقيل: أن لا يطلب المفقود حتى يفقد الموجود في الدنيا باستصغار جملتها واحتقار جميع شأنها لتحذير الله تعالى منها واحتقاره لها، فإنك إن فعلت ذلك يحبك الله لكونك أعرضت عما أعرض عنه ولم ينظر إليه منذ خلقه.

وفي إفهامه أنك إذا أحببتها أبغضك فمحبته مع عدم محبتها؛ ولأنه سبحانه وتعالى يحب من أطاعه ومحبته مع محبة الدنيا لا يجتمعان، وذلك؛ لأن القلب بيت الرب فلا يحب أن يشرك في بيته غيره، ومحبتها الممنوعة هي إيثارها بنيل الشهوات لا لفعل الخير والتقرب بها، والمراد بمحبته غايتها من إرادة الثواب فهي صفة ذاتية أو الإثابة فهي صفة فعلية، وازهد فيما في أيدي الناس منها يحبك الناس؛ لأن قلوبهم مجبولة على حبها مطبوعة عليها ومن نازع إنسانا في محبوبه كرهه وقلاه، ومن لم يعارضه فيه أحبه واصطفاه ولهذا قال الحسن البصري: لا يزال الرجل كريمًا على الناس حتى يطمع في دنياهم فيستخفون به ويكرهون حديثه[2].

خامسًا - من آداب المدعو: السعي لتحصيل محبة الله ومحبة الناس:

يظهر ذلك في قول الرجل الذي جاء إلى النبي ﷺ: "يارسول الله دلني على عمل إذا عملته أحبني الله وأحبني الناس".

فالإنسان العاقل يجب أن يسعى لتحصيل محبة الله ومحبة الناس، ومحبة الله تعالى أساس لمحبة الناس، قال رسول الله ﷺ: "إن الله تبارك وتعالى إذا أحب عبدًا نادى جبريل، إن الله قد أحب فلانًا فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي جبريل في السماء إن الله

---

(١) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢/١٠-١٢.

(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير، عبدالرؤوف محمد المناوي ١/٤٨١.

قد أحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ويوضع له القبول في أهل الأرض"[١]. ومحبة الله تدرك بطاعة أوامره واجتناب نواهيه والتقرب إليه بالطاعات فيجب على المسلم أن يحرص على طاعة الله حتى يحبه الله عز وجل.

أما محبة الناس فإنها مما ينبغي أن يحرص عليها الإنسان، وقد كان الصحابة رضي الله عنهم حريصين على محبة الناس، ويظهر ذلك في قصة أبي هريرة رضي الله عنه وأمه عندما طلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم الدعاء لهما بمحبة الناس، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قلت: يا رسول الله ادع الله أن يحببني أنا وأمي إلى عباده المؤمنين، ويحببهم إلينا، قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اللهم حبب عبيدك هذا، يعني: أبا هريرة - وأمه إلى عبادك المؤمنين، وحبب إليهم المؤمنين"، فما خُلِقَ مؤمن يسمع بي ولا يراني إلا أحبني"[٢]. ولمنزلة المتحابين في الله شأن عظيم؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((إن الله تعالى يقول: أين المتحابون بجلالي اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي))[٣].

فليحرص كل مؤمن على تحصيل هذه المنزلة عن طريق الحب في الله عز وجل، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم يحكي عن ربه تبارك وتعالى يقول: ((حقت محبتي للمتحابين في))[٤].

اعلم أن هذا الثواب في هذه المحبة إنما يكون إذا كانت في الله خالصة لا يشوبها كدر، وإذا قويت محبة الله عز وجل في القلب قويت محبته بعباده، فلينظر الإنسان من يؤاخي ممن يحب، ولا ينبغي أن يتخير إلا من سَبَرَ عقله ودينه[٥].

فمن آداب المدعو أن يسعى لتحصيل محبة الله ومحبة الناس.

---

(١) أخرجه البخاري ٧٤٨٥.

(٢) أخرجه مسلم ٢٤٩١.

(٣) أخرجه مسلم ١٧٠٨.

(٤) موطأ مالك ١٧١١، ٢/٩٥٣.

(٥) غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب، محمد بن أحمد بن سالم السفاريني، ص ٤٨٢.

الحديث رقم (٤٧٢)

٤٧٢ - وعن النعمان بن بشير ﵄ ، قَالَ: ذَكَرَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ ﵁ ، مَا أَصَابَ النَّاسُ مِنَ الدُّنْيَا ، فَقَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُ رسول الله ﷺ يَظَلُّ الْيَوْمَ يَلْتَوِي، مَا يَجِدُ مِنَ الدَّقَلِ مَا يَمْلأ بِهِ بَطْنَهُ. رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

النعمان بن بشير: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٦٠).

غريب الألفاظ:

الدَّقَل: رديء التمر[2].

سمة الصالحين تدبر الأحوال، ومراجعة الأعمال، والاعتبار بحوادث الأيام، وهذا الحديث يحكي مراجعة أمير المؤمنين لماضي الأمة، وحالهم مع رسول ﷺ، وقول الراوي (مَا أَصَابَ النَّاسُ مِنَ الدُّنْيَا) كناية عما فتح الله عليهم من الأمصار، وما جمعوا من الغنائم، والتعبير بالإصابة دلالة على التحقق، ، والمقصود بالناس المسلمون خاصة، وقوله (لَقَدْ رَأَيْتُ رسول الله ﷺ يَظَلُّ الْيَوْمَ يَلْتَوِي) التعبير بالفعل رأى يؤكد وضوح الذكرايات؛ لأنها بنيت على أقوى طرق العلم، وقد أكده باللام الموطئة للقسم، وقد الداخلة على الماضي، والتعبير بالفعل (يظل) يفيد الاستمرار بدلالته، وبصيغته كما يستحضر الصورة، وما أدق استخدامه للفعل يتلوى، والذي يصور حركة الأمعاء يطوي بعضها بعضاً ثم إن الظرف(اليوم) يعطي حركة الفعل امتداداً على المدى الطويل، ثم زادها امتداداً، وتمطياً بنفي الوجدان الذي يمنح الأمل بانطفاء نار الجوع التي أحرقت الجوف الطاهر - بأبي أنت وأمي يا رسول الله - .

---

(١) برقم ٢٩٧٨/٣٦. أورده المنذري في ترغيبه ٤٧٩٤.

(٢) رياض الصالحين ٢٢٧.

المضامين الدعوية(١)

أولاً: من أساليب الدعوة: الحكاية.

ثانيا: من موضوعات الدعوة: بيان الحالة التي كان عليها النبي ﷺ من الزهد في الدنيا.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: تعليم النبي ﷺ أصحابه رضي الله عنهم الزهد.

رابعًا: من صفات الداعية: الزهد والقناعة والإعراض عن الدنيا.

خامسًا: من معجزات النبي ﷺ: تكثير الطعام.

أولاً - من أساليب الدعوة: الحكاية:

ويظهر ذلك في ذكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما أصاب الناس من الدنيا فقال: "رأيت رسول الله ﷺ يظل اليوم يلتوي ما يجد من الدقل ما يملأ به بطنه".

فهو رضي الله عنه حكى ما كان عليه حال النبي ﷺ، وأسلوب الحكاية يلاحظ فيها المحاكاة والوقوف على ما جرى فقط(٢).

وقد أفادت الحكاية في هذا الحديث بيان تلك الحالة من الزهد في الدنيا التي كان يعيشها رسول الله ﷺ، وإيثاره لذلك على الشبع والتمتع بملذات الحياة، وقد كان ذلك باستطاعته، فلو أنه ﷺ دعا الله تعالى أن يُحوّل بطحاء مكة ذهبًا، لتحقق له ذلك بإذن الله تعالى، ولكنه آثر عيش الزهد.

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: بيان الحالة التي كان عليها النبي ﷺ من الزهد في الدنيا:

إن من موضوعات الدعوة التي تظهر من هذه الأحاديث بيان الحالة التي كان عليها النبي ﷺ من الزهد في الدنيا، لقد كان النبي ﷺ أزهد الناس في الدنيا، ويكفي تقلله منها وإعراضه عن زهرتها؛ وقد سيقت إليه بحذافيرها وترادفت عليه فتوحها إلى أن تُوفي ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي في نفقة عياله(٣)، وهو يدعو ويقول: ((اللَّهُمَّ

---

(١) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -٤٧٢- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (٤٧٣، ٤٧٤).

(٢) انظر: القصة في القرآن الكريم، د. مريم عبدالقادر السباعي، ص ٣١.

(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض ١/١٩٨.

اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا))[1].

عن عائشة رضي الله عنها قالت: ((إِنْ كُنَّا، آلَ مُحَمَّدٍ، لَنَمْكُثُ شَهْرًا مَا نَسْتَوْقِدُ بِنَارٍ. إِنْ هُوَ إِلاَّ التَّمْرُ وَالْمَاءُ))[2].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ((كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، يَبِيتُ اللَّيَالِيَ الْمُتَتَابِعَةَ طَاوِيًا وَأَهْلُهُ لاَ يَجِدُونَ عَشَاءً، وَكَانَ أَكْثَرُ خُبْزِهِمْ خُبْزَ الشَّعِيرِ))[3].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ((مَا شَبِعَ آلُ مُحَمَّدٍ ﷺ، مُنْذُ قَدِمَ الْمَدِينَةَ، مِنْ طَعَامِ بُرٍ، ثَلاَثَ لَيَالٍ تِبَاعًا. حَتَّى قُبِضَ))[4]. وعنها رضي الله عنها قالت: ((كان فِراشُ رسولُ الله ﷺ من أدَم وحَشْوُهُ لِيف))[5].

لقد دعا ﷺ إلى الله هنا وهناك وبلّغ رسالته للقاصي والداني، وجاهد في الله حق جهاده فلقي من سقط القوم وأذاهم ما تترنح له الجبال الراسيات فاحتمله واحتمل - صابرًا محتسبًا - من ضنك الحياة وضيق العيش ما لا يقدر عليه أحد من الناس سواه

وقد ثابر على زهده وترفعه عن الدنيا في أيام الرخاء كما كان أيام الشدة، وحسبك ما استفاض من أخبار زهده في الدنيا وإعراضه عن زهرتها أيام سيقت إليه بعد الفتوح ووضعت بين يديه[6].

وقد عد فخر الدين الرازي استمراره ﷺ على الزهادة مع توافر الكنوز بين يديه معجزة عقلية من دلائل نبوته القوية. وقال: (إنه ﷺ تحمّل في أداء الرسالة أنواعًا من المشاق والمتاعب، ولم يظهر في عزمه فتور لا في إصراره قصور. ثم إنه لما قهر الأعداء ووجد العسكر العظيم والدولة القاهرة القوية. ونَفَذ أمره في الأموال والأزواج، لم يتغير

(١) أخرجه البخاري ٦٤٦٠، ومسلم ١٠٥٥.

(٢) أخرجه البخاري ٦٤٥٨، ومسلم ٢٩٧٢.

(٣) أخرجه الترمذي ٢٣٦٠، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٩٣٦).

(٤) أخرجه البخاري ٦٤٥٤، ومسلم ٢٩٧٠.

(٥) أخرجه البخاري ٦٤٥٦، ومسلم ٢٠٨٢.

(٦) انظر: نبوة محمد ﷺ في القرآن د. حسن ضياء الدين عنز، ص ١٣٢ - ١٣٣.

عن منهجه الأول والزهد في الدنيا والإقبال على الآخرة. وكل من أنصف علم أن المزور لا يكون كذلك فإن المزور إنما يزور الكذب والباطل على الخلق ليجد الدنيا، فإذا وجدها ولم ينتفع بها كان ساعيًا في تضييع الدنيا والآخرة على نفسه. وذلك ما لا يفعله أحد من العقلاء)[1].

ثالثًا - من موضوعات الدعوة: تعليم النبي ﷺ أصحابه رضي الله عنهم الزهد:

هذا يظهر من عموم الأحاديث لأن رسول الله ﷺ هو القدوة لصحابته رضي الله عنهم، ولأمته، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾[2]، وبما أن الرسول ﷺ هو القدوة والمعلم لصحابته رضي الله عنهم وأمته يكون زاهدًا في الدنيا معرضًا عنها ففي ذلك تعليم لأمته بأهمية الزهد في الدنيا والتقلل من متاعها، لأن الإنغماس في الدنيا يجعل المؤمن يغفل عن آخرته، وقد بيّن النبي ﷺ أهمية القناعة والزهد في الدنيا.

فقال ﷺ: ((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِه مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا))[3]، وقال ﷺ: ((مَالِي وَلِلدُّنْيَا، مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلاَّ كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا))[4].

وكل ذلك؛ لأن الآخرة خير وأبقى فيجب على المسلمين ألا يضيعوا الآخرة بالانغماس في الدنيا والركون إليها.

رابعًا - من صفات الداعية: الزهد والقناعة والإعراض عن الدنيا:

يظهر هذا من عموم الأحاديث حيث بينت زهد النبي ﷺ وقناعته وإعراضه عن الدنيا، والدعاة ورثة النبي ﷺ وأتباعه يدعون إلى الله على بصيرة، ويقتدون

---

(١) الأربعين في أصول الدين، الفخر الرازي ص ٣١٢.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

(٣) أخرجه الترمذي ٢٣٤٧، وابن ماجة ٤١٤١، وحسنه الألباني (صحيح سنن ابن ماجة ٣٣٣٩).

(٤) أخرجه الترمذي ٢٣٧٧، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٩٣٦).

به ﷺ ، وإلى التحلي بصفاته في كل صفاته والتي من جملتها الزهد في الدنيا والقناعة بما أعطاهم الله، والإعراض عن الدنيا لحقارتها وهوانها ، فمن أجل ذلك كان لا بد للداعية أن يكون متصفاً بالزهد والقناعة والإعراض عن الدنيا ، وإلا انطبق عليه ما وصف الله به أهل الكتاب ومن نحى نحوهم حيث قال تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [1].

إن الزهد هو ترك الشيء والإعراض عنه وهو ضد الرغبة ، فكيف يعدُّ زاهدًا من هوى قلبه الدنيا وحرص على كسبها؟ ولا نقصد بذلك إطلاق القول، إنما نقصد من شغلت الدنيا قلبه ، واستحوذت على كل رغباته أو بعضها ، فلا يعد زاهدًا من خلت يداه من الأموال والضياع وعاش في ضنك شديد ، ولبس خشن الثياب ، إذا كان يتطلع إلى تحسين الحال وكسب الأموال ، إلا إذا كانت نيته وجه الله تعالى. فكم من غني ملك الكثير كان زاهدًا ، وزهد مما لا شك فيه أفضل وأعظم من زهد من لم يملك، لهذا قال أحد الصالحين: "الناس يقولون: مالك بن دينار زاهد ، إنما الزاهد عمر بن عبدالعزيز الذي أتته الدنيا فتركها"[2].

وعلى هذا ليس إخلالاً بالزهد من ملك الثروات الهائلة ،وكسب الأموال الطائلة إذا كان زاهدًا فيها ، معرضًا عنها ، لم تدخل قلبه ولم تتجاوز يده، فليس هناك من هو أزهد من الصحابة رضي الله عنهم وقد كان منهم من يملك الآلاف المؤلفة كعثمان، وعبدالرحمن بن عوف، وأبي بكر رضي الله عنهم ، وقد توفي عبدالرحمن بن عوف وترك ألف بعير وثلاثة آلاف شاة ومئة فرس وترك ثلاث نسوة أصاب كل واحدة مما ترك ثمانون ألفًا[3].

وليس الزهد المطلوب مقتصرًا على الأموال فحسب ، بل يتعدى إلى الأمور الشعورية

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٤٤.

(٢) مناقب عمر بن عبدالعزيز ، ابن الجوزي ، ص ١٨٤.

(٣) طبقات ابن سعد ١٣٦/٢.

والنفسية كالزهد في حب الرئاسة والجاه، والسمعة وذياع الصيت وغيرها.

فالزهد يدفع باتجاه التضحية والجهاد، اللذين فيهما إعزاز للأمة وحفاظ على وحدتها وكرامتها.

والزهدُ ينقي النفس مما يعتريها من أمراض القلوب كالحسد والغرور، والعجب والرياء وحب الرياسة وذياع الصيت ... إلخ.

وفي الزهد صفاء للروح والنفس، وارتقاء لها في سلم الكمال الروحي، وفيه صلاح للقلب لخلوه من هم الدنيا وإقباله على هموم الآخرة.

وفيه تهذيب للأخلاق وصلاح لها؛ لأن الزاهد رقيق المشاعر بعيد عن اهتمامات عوام الناس وتوجهاتهم، وعن الانتصار لنفسه وأذية غيره. إن الداعية الزاهد أقدر على استحواذ مشاعر الناس وكسب ودهم ومحبتهم، وبالتالي يكون سماعهم له ولتوجيهه أكثر من سماعهم لغيره، جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ: ((وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبُّكَ النَّاسُ))[1][2].

خامسًا - من معجزات النبي ﷺ: تكثير الطعام:

يظهر ذلك في قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: فأكلت منه حتى طال فكِلتُه ففنى)، "والذي يظهر أنه كان من الخصوصية لعائشة رضي الله عنها بركة النبي ﷺ"[3]، وقد وقع مثل ذلك في مزود أبي هريرة رضي الله عنه فقد ورد عنه أنه قال: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ بِتَمَرَاتٍ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللّهِ ادْعُ اللّهَ فِيهِنَّ بِالْبَرَكَةِ فَضَمَّهُنَّ، ثُمَّ دَعَا لِي فِيهِنَّ بِالْبَرَكَةِ، فَقَالَ لِي: ((خُذْهُنَّ فَاجْعَلْهُنَّ فِي مِزْوَدِكَ هَذَا أَوْفِي هَذَا الْمِزْوَدِ كُلَّمَا أَرَدْتَ أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُ شَيْئًا فَأَدْخِلْ يَدَكَ فيه فَخُذْهُ وَلاَ تَنْثُرْهُ نَثْرًا، فَقَدْ حَمَلْتُ مِنْ ذَلِكَ التَّمْرِ كَذَا، وَكَذَا مِنْ وَسْقٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَكُنَّا نَأْكُلُ مِنْهُ وَنُطْعِمُ، وَكَانَ لاَ يُفَارِقُ حِقْوِي حَتَّى كَانَ يَوْمُ قَتْلِ عُثْمَانَ فَإِنَّهُ انْقَطَعَ))[4].

---

(١) أخرجه ابن ماجة ٤١٠٢ وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجة ٣٣١٠).

(٢) أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد محمود العاني، ص ٣٤٣ - ٣٤٦.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٨٥/١١.

(٤) أخرجه الترمذي رقم ٣٨٣٩، وقال الألباني: حسن الإسناد (صحيح سنن الترمذي ٣٠١٥).

وقد ورد عنه ﷺ الكثير من بركاته في تكثير الطعام وهذا من دلائل نبوته ومعجزاته التي أيده الله بها وخصه دون غيره.

فقد بعث النبي ﷺ في بيئة قليلة الغذاء والماء، وكان هو وأصحابه يتعرضون لحالات من الشدة يقل فيها الطعام والماء أو يكاد ينعدم، فكان مما أيده الله به من المعجزات تكثير القليل من الطعام والماء على يديه، فيتغلب هو وأصحابه بقدرة الله تعالى بهذه المعجزات والخوارق على ظروف البيئة الصحراوية القاسية، التي يحتاجون فيها للطعام والشراب، إلى جانب حاجتهم للماء من أجل الطهارة للعبادة، وأصبح ذلك من معجزاته التي رآها العشرات والمئات بل والآلاف من أصحابه، وتناقلها الناس في عهده ثم نقلت إلينا بأصح طرق الرواية، وإليك طرفًا من هذه المعجزات:

خوارق ازدياد الطعام: فمن معجزاته ﷺ الخارقة للعادة أن يكثر الله الطعام القليل الذي لا يكفي إلا الأفراد، فإذا به بعد نزول البركة فيه بفضل دعائه ﷺ يكفي العشرات أو المئات أو الآلاف وقد وقع ذلك في مواقف متعددة، منها ما حدث عند حفر الخندق[1].

عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: لَمَّا حُفِرَ الْخَنْدَقُ رَأَيْتُ بِرَسُولِ اللّهِ ﷺ خَمَصًا. فَانْكَفَأْتُ. إِلَى امْرَأَتِي. فَقُلْتُ لَهَا: هَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ؟ فَإِنِّي رَأَيْتُ بِرَسُولِ اللّهِ خَمَصًا شَدِيدًا. فَأَخْرَجَتْ لِي جِرَابًا فِيهِ صَاعٌ مِنْ شَعِيرٍ. وَلَنَا بُهَيْمَةٌ دَاجِنٌ[2]. قَالَ فَذَبَحْتُهَا وَطَحَنَتْ. فَفَرَغَتْ إِلَىٰ فَرَاغِي. فَقَطَّعْتُهَا فِي بُرْمَتِهَا. ثُمَّ وَلَّيْتُ إِلَىٰ رَسُولِ اللّهِ . فَقَالَتْ: لاَ تَفْضَحْنِي بِرَسُولِ اللّهِ وَمَنْ مَعَهُ. قَالَ فَجِئْتُهُ فَسَارَرْتُهُ. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللّهِ إِنَّا قَدْ ذَبَحْنَا بُهَيْمَةً لَنَا. وَطَحَنَتْ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ كَانَ عِنْدَنَا. فَتَعَالَ أَنْتَ فِي نَفَرٍ مَعَكَ. فَصَاحَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ وَقَالَ: ((يَا أَهْلَ الْخَنْدَقِ إِنَّ جَابِرًا قَدْ صَنَعَ لَكُمْ سُورًا. فَحَيَّهَلاَ بِكُمْ)) وَقَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: ((لاَ تُنْزِلُنَّ بُرْمَتَكُمْ وَلاَ تَخْبِزُنَّ عَجِينَتَكُمْ، حَتَّىٰ أَجِيءَ)) فَجِئْتُ وَجَاءَ

(١) بينات الرسول ﷺ ومعجزاته، عبدالمجيد الزنداني، ص ٢٧١.

(٢) بهيمة داجن: هي الصغيرة من أولاد الضأن.

رَسُولُ اللّهِ يَقْدُمُ النَّاسَ. حَتَّى جِئْتُ امْرَأَتِي. فَقَالَتْ: بِكَ. وبِكَ. فَقُلْتُ: قَدْ فَعَلْتُ الَّذِي قُلْتِ لِي. فَأَخْرَجَتْ لَهُ عَجِينَتَنَا فَبَصَقَ فِيهَا وَبَارَكَ. ثُمَّ عَمَدَ إِلَى بُرْمَتِنَا فَبَصَقَ فِيهَا وَبَارَكَ. ثُمَّ قَالَ: ((ادْعِي خَابِزَةً فَلْتَخْبِزْ مَعَكِ. وَاقْدَحِي مِنْ بُرْمَتِكُمْ وَلاَ تُنْزِلُوهَا)) وَهُمْ أَلْفٌ. فَأُقْسِمُ بِاللّهِ لأَكَلُوا حَتَّى تَرَكُوهُ وَانْحَرَفُوا. وَإِنَّ بُرْمَتَنَا لَتَغِطُّ كَمَا هِيَ. وَإِنَّ عَجِينَتَنَا ـ أَوْ كَمَا قَالَ الضَّحَّاكُ ـ لَتُخْبَزُ كَمَا هُوَ[1].

ومجموع ذلك يفيد القطع بأنه ظهر على يديه ﷺ من خوارق العادات شيء كثير كما يقطع بوجود الوقائع[2].

(١) أخرجه البخاري ٤١٠١، ٤١٠٢، ومسلم ٢٠٣٩.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٨٢/٦.

الحديث رقم (٤٧٣)

٤٧٣ - وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ، قالت: تُوفي رسول الله ﷺ ، وَمَا فِي بَيْتِي مِنْ شَيْءٍ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلاَّ شَطْرُ شَعِيرٍ فِي رَفٍّ لي، فَأَكَلْتُ مِنْهُ حَتَّى طَالَ عَلَيَّ، فَكِلْتُهُ فَفَنِيَ. متفقٌ عَلَيْهِ[١].

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

غريب الألفاظ:

ذُو كبد: شمل جميع الحيوان[٢].

شطر شعير: شيء من شعير[٣].

الرفُّ: خشب يُرفع عن الأرض إلى جنب الجدار يُوَقَّى به ما يُوضع عليه[٤].

كِلْتُهُ: أخذت منه بالكيْل والمِقدار[٥].

ففني: فرغ[٦].

الشرح الأدبي

الحديث أسلوبه خبري يناسب المعنى الذي يرد في ركابه، وغير مؤكد لعدم المعارض، لأنه يُقابل به خالي الذهن من الخبر، وقد صدر في ثوب القصر بالنفي، والاستثناء لقصر وجدان المطعوم على شيء من شعير، وهذا يدل على ما كان عليه رسول ﷺ ، وآل بيته رضوان الله عليهم من الزهد والانصراف الكلي إلى الآخرة،

---

(١) أخرجه البخاري ٣٠٩٧ واللفظ له، ومسلم ٢٩٧٣/٢٧. أورده المنذري في ترغيبه ٤٨١٨.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٨٥/١١.

(٣) رياض الصالحين ٢٢٧

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ر ف ف).

(٥) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ك ي ل).

(٦) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٨٥/١١.

وقولها (من شيء) استخدام من يفيد الاستغراق، وكلمة شيء تفيد العموم، وقولها (ذو كبد) كناية عن الإنسان، والحيوان، والتعبير بذي كبد يفيد عدم وجود ما يصلح لطعام الناس، أو لطعام الحيوان، إلا المقدار المستثنى من الشعير وهو توكيد لنفي وجود أي طعام بخلافه، وقولها: (فَأَكَلْتُ مِنْهُ حَتَّى طَالَ عَلَيَّ)أي بقي فترة طويلة تأكل، وهي تظن كل يوم أن ينتهي وقولها(فَكِلْتُهُ فَفَنِيَ) علمت مقداره فانتهى، بمعنى أنه كان يبارك فيه ما كان مجهولاً، فلما علمته نفد، واستخدام الفاء يدل على سرعة نفاده.

المضامين الدعوية(١)

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (٤٧٤)

٤٧٤ - وعن عمرو بن الحارث أخي جُوَيْرِيَة بنتِ الحارِث أُمِّ المُؤْمِنِينَ رضي الله عنها، قَالَ: مَا تَرَكَ رسولُ الله ﷺ عِنْدَ مَوْتِهِ دِينارًا، وَلاَ دِرْهَمًا، وَلاَ عَبْدًا، وَلاَ أَمَةً، وَلاَ شَيْئًا إلاَّ بَغْلَتَهُ الْبَيْضَاءَ الَّتي كَانَ يَرْكَبُهَا، وَسِلاَحَهُ، وَأَرْضًا جَعَلَهَا لابْنِ السَّبِيلِ صَدَقَةً. رواه البخاري[(١)].

ترجمة الراوي:

جويرية بنت الحارث: هي "أم المؤمنين" جويرية بنت الحارث الخزاعية المصطلقية.

إحدى زوجات النبي ﷺ، ولدت قبل البعثة بنحو ثلاثة أعوام تقريبًا وقد سُبيتْ يوم غزوة المُريسيع وهي غزوة بني المصطلق، في السنة الخامسة وقيل السادسة من الهجرة، وكان أبوها سيد قومه، وقَبْلَ زواجها بالنبي ﷺ كانت تحت مسافع بن صفوان فقُتل يوم المريسيع، وكانت قد وقعت في سهم ثابت بن قيس رضي الله عنه، فكاتبته على نفسها، وكانت امرأة جميلة.

قالت فيها عائشة رضي الله عنها: (كانت جويرية عليها حلاوة وطلاوة لا يكاد يراها أحد إلا أخذت بنفسه) فأتت رسول الله ﷺ تستعينه على كتابتها، فكرهتُها -يعني لحُسنِها - فقالت: يا رسول الله، أنا جويرية بنت الحارث، سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يَخْفَ عليك وقد كاتبتُ، فأعني. فقال النبي ﷺ: ((أوخير من ذلك: أؤدي عنك، وأتزوَّجك))؟ قالت نعم ففعل، فبلغ الناس، فقالوا أصهارُ رسول الله ﷺ! فأرسلوا ما كان في أيديهم من بني المصطلق. فقالت عائشة: فلا نعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها)[(٢)].

وتزوجها النبي ﷺ وهي ابنة عشرين سنة، وكان اسمها "بَرَّة"، فسماها رسول الله ﷺ جويرية[(٣)]، وكانت من فضليات النساء أدبًا وفصاحة، وقد كانت كثيرة

(١) برقم ٢٧٣٩. أورده المنذري في ترغيبه ٤٨١٩.

(٢) أخرجه ابن هشام في السيرة ٢٩٤/٢، ٢٩٥، وأبو داود ٣٩٣١ وحسنه الألباني.

(٣) أخرجه مسلم، رقم ٢١٤٠.

الاجتهاد بالعبادة لله تعالى والإكثار من ذكر الله والصوم وفعل الخيرات.

وقد روت عن النبي ﷺ أحاديث بلغت سبعة أحاديث.

وقد عاشت بعد رسول الله ﷺ رضيةً مرضيةً إلى أن استقر الأمر لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، وتوفيت بالمدينة بعد منتصف القرن الأول من الهجرة سنة ٥٦هـ وقيل سنة ٥٠هـ وصلى عليها مروان بن الحكم أمير المدينة آنذاك[1].

عمرو بن الحارث المصطلقي: وهو عمرو بن الحارث بن أبي ضرار بن حبيب بن عائذ بن مالك بن جذيمة، وهو المصطلق بن سعد بن كعب بن عمرو وهو خزاعة، الخزاعي، المصطلقيّ، أخو أم المؤمنين جويرية بنت الحارث زوج النبي ﷺ وكان أبوه صهر عبدالله بن مسعود، له ولأبيه صحبة، روى عمرو بن الحارث عن النبي ﷺ وعن أخته جويرية، وعن أبيه الحارث بن أبي ضرار، وعبدالله بن مسعود، وزينب امرأة عبدالله بن مسعود، وقيل عن ابن أخيها عنها، وروى له الجماعة، وهو في عداد أهل الكوفة، وذكره ابن سعد في الطبقات في أهل الكوفة، ولم يؤرخ لحياته ولا لوفاته[2].

---

(١) طبقات ابن سعد ١١٦/٨-١٢٠، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر ٨٨٠، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن علي العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ١٦٥٩-١٦٦٠، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود ٥٧/٧-٥٩، والأعلام، خير الدين الزركلي ١٤٨/٢، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٦٦٧/٤-٦٦٨، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين ٥٢٤/٨٤، وسير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ٢٦١/٢-٢٦٥، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك ١٦٩/١-١٧٥.

(٢) طبقات ابن سعد ١٩٦/٦، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر ٤٩٩، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود ١٩٧/٤، ١٩٨، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن علي العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ٩٦٥، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين ٣٩٩/٥، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٢٦١/٣.

الشرح الأدبي

الحديث أسلوبه خبري غرضه الفائدة، لأن كل حياته ﷺ سنة لأمته، وفي الحديث السابق أخبرت أم المؤمنين عائشة أن النبي ﷺ توفي، وليس في بيتها إلا القليل من الشعير، وهنا يخبر عمرو بن الحارث بأسلوب القصر الذي يتسم بالحسم، والتأكيد، ويقرر الخصوصية، قصر صفة الترك على الأصناف البسيطة المذكورة في الحديث، ونفى كل ما عداها (مَا تَرَكَ رسولُ الله - ﷺ - ... إلا....) والأصناف التي نفاها تمثل غالب أموالهم، ثم استقصاها بكلمة (ولا شيئاً) وهو من ذكر العام بعد الخاص وقوله عن البغلة في جملة الموصول، وصلته (التي كان يركبها) تتميم بلاغي يفيد أنها لم تكن للتجارة، ولا لغرض الادخار، وإنما كانت للاستعمال الشخصي.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمج المضامين الدعوة لهذا الحديث (٤٧٤) مع المضامين للحديث رقم (٤٧٢، ٤٧٣).

الحديث رقم (٤٧٥)

٤٧٥ - وعن خَبابِ بن الأَرَتِّ رضي الله عنه، قَالَ: هَاجَرْنَا مَعَ رسول الله ﷺ نَلْتَمِسُ[١] وَجْهَ اللهِ تَعَالَى، فَوَقَعَ أجْرُنَا عَلَى اللهِ، فَمِنَّا مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَأكُل مِنْ أجْرِهِ شَيْئًا، مِنْهُمْ: مُصْعَبُ بن عُمَيْرٍ رضي الله عنه، قُتِلَ يَوْمَ أُحُد، وَتَرَكَ نَمِرَةً، فَكُنَّا إذَا غَطَّيْنَا بِهَا رَأْسَهُ، بَدَتْ رِجْلاَهُ، وَإذَا غَطَّيْنَا بِهَا رِجْلَيْهِ، بَدَا رَأسُهُ، فَأمَرَنَا رسول الله ﷺ، أنْ نُغَطِّي رَأسَهُ، وَنَجْعَل عَلَى رِجْلَيْهِ شَيْئًا مِنَ الإذْخِرِ، وَمِنَّا مَنْ أيْنَعَتْ لَهُ ثَمَرَتُهُ، فَهُوَ يَهْدِبُهَا. متفقٌ عَلَيْهِ[٢].

ترجمة الراوي:

خباب بن الأرت: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤١).

غريب الألفاظ:

نَمِرةً: كساءً ملونًا من صوف[٣].

الإذخر: حشيشة طيبة الرائحة تسقفُ بها البيوت فوق الخشب[٤].

أينعت: أي نضجت وأدركت[٥].

يُهدُبُها: يقطفها ويجتنيها، وهذه استعارة لما فتح الله تعالى عليهم من الدنيا وتمكنوا فيها[٦].

الحديث من مجموعة الأحاديث التي تتناول الأمة وقت الشدة، وما لاقاه الصحابة

---

(١) لفظ البخاري في هذه الرواية: (نريد)، وبهذا اللفظ برقم ١٢٧٦ والمثبت لفظ الحميدي في جمعه ٣٦٢/٣، رقم ٢٨٤٣.

(٢) أخرجه البخاري ٣٨٩٧، ومسلم ٤٤/٩٤٠ والسياق للحميدي في جمعه ٣٦٢/٣، رقم ٢٨٤٣. أورده المنذري في ترغيبه ٤٨٤٨.

(٣) رياض الصالحين ٢٢٨.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (إ ذ خ ر).

(٥) رياض الصالحين ٢٢٨.

(٦) رياض الصالحين ٢٢٨.

الأطهار حتى استقر الحال، وصارت الدولة للإسلام، وقول خباب رضي الله عنه (نَلْتَمِسُ وَجْهَ اللهِ تَعَالَى) كناية عن الإخلاص لله، والتوكل عليه، وقوله (فَوَقَعَ أَجْرُنَا عَلَى اللهِ) كناية عن تحقق الأجر، والجملة إجمال فصَّله ما بعده، وذكر النموذج الأعلى (فَمِنَّا مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَأْكُل مِنْ أَجْرِهِ شَيْئاً، مِنْهُمْ: مُصْعَبُ بن عُمَيْرٍ رضي الله عنه) وقد صور حاله بأنه لم يصب من الدنيا شيئاً عن طريق المقابلة في أسلوب الشرط (إِذَا غَطَّيْنَا بِهَا رَأْسَهُ، بَدَتْ رِجْلَاهُ، وَإِذَا غَطَّيْنَا بِهَا رِجْلَيْهِ، بَدَا رَأْسُهُ) فقابل الفعل غطى بالفعل بدت، وقابل بين رأسه، ورجلاه، والعكس، وهذه المقابلة تصور قصر الثوب عن الجسد الطاهر يجذبه صحابي إلى أسفل ليغطي قدميه، ويجذبه آخر ليغطي رأسه، ففصل بينهم رسول الله ﷺ بأن يغطوا به رأسه، ويغطوا قدميه بورق الشجر، وقوله (وَمِنَّا مَنْ أَيْنَعَتْ لَهُ ثَمَرَتُهُ، فَهُوَ يَهْدِبُهَا) كناية عن إقبال الدنيا عليهم بمتاعها من أموال، وضياع، وغيرها، وقوله (يهدبها) على صيغة المضارع لاستمرار الحال الماضية، والآتية استحضارا لها في مشاهدة السامع، مع ما يثيره اللفظ بمعناه، وهو قطف الثمر من شعور بالسرور، والفراغ، والأمان الذي - طالما - افتقدوه.

فقه الحديث

هذا الحديث يشير إلى الأحكام الفقهية التالية:

١ - حكم تكفين الميت: أجمع المسلمون على أن تكفين الميت بما يستره فرض كفاية، ولا يسع عامتَهم تركُه، وإذا قام بذلك بعضُهم أجزأ عن الباقين[1].

٢ - إذا ضاق الكفن عن ستر جميع البدن ولم يوجد غيره: قال النووي (فيه دليل على أنه إذا ضاق الكفن عن ستر جميع البدن ولم يوجد غيره، جعل مما يلي الرأس، وجعل النقص مما يلي الرجلين ويستر الرأس فإن ضاق عن ذلك سترت العورة، فإن

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٨/٧/٤، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، علاء الدين الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٣٢٣/٢، ومغني المحتاج ٣٣٢/١، وكشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ١٢٢/٢، وحاشية الخرشي ٢٥٦/٥.

فضل شيء جعل فوقها، فإن ضاق عن العورة سترت السوأتان، لأنهما أهم وهما الأصل في العورة)[١] وقال الشوكاني: (وفيه أنه يستحب إذا لم يوجد ساتر ألبتة لبعض البدن أو لكله أن يغطى الإذخر، فإن لم يوجد فما تيسّر من نبات الأرض)[٢].

المضامين الدعوية

أولاً: من تاريخ الدعوة: الهجرة.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم في هجرتهم على التماس الأجر من الله تعالى.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل مصعب بن عمير رضي الله عنه.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: بيان الحال التي كان عليها الصحابة رضي الله عنهم.

أولاً - من تاريخ الدعوة: الهجرة:

ويظهر ذلك في قول خباب بن الأرت رضي الله عنه "هاجرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم".

قال الشافعي: (كان المسلمون مستضعفين بمكة زمانًا لم يؤذن لهم فيه بالهجرة منها، ثم أذن الله عز وجل لهم بالهجرة وجعل لهم مخرجًا فيقال نزلت: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾[٣] فأعلمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قد جعل الله تبارك وتعالى لهم بالهجرة مخرجًا، وقال: ﴿وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ﴾[٤].

وأمرهم ببلاد الحبشة فهاجرت إليها منهم طائفة، ثم دخل أهل المدينة في الإسلام فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم طائفة فهاجرت إليهم غير محرم على من بقي ترك الهجرة إليهم، وذكر الله جل ذكره للفقراء المهاجرين وقال: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ﴾

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٨/٧/٤.

(٢) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ص ٧٠٠.

(٣) سورة الطلاق، آية: ٢.

(٤) سورة النساء، آية: ١٠٠.

قرأ الربيع إلى ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[١] قال الشافعي: ثم أذن الله تبارك وتعالى لرسوله ﷺ بالهجرة إلى المدينة، ولم يحرم في هذا على من بقي بمكة المقام بها وهي دار شرك، وإن قلّوا بأن يفتنوا، ولم يأذن لهم بجهاد، ثم أذن الله عز وجل لهم بالجهاد، ثم فرض هذا عليهم أن يهاجروا من دار الشرك)[٢].

فالهجرة إلى المدينة كانت إيذانًا بقيام دولة الإسلام، وتحوّل الدعوة الإسلامية إلى طور جديد مقرون بالعزة والغلبة شعاره "كلمة الله هي العليا" ولما كان فرض الهجرة بعد استقرار النبي ﷺ بالمدينة، بقصد تكثير جمع المسلمين حول النبي ﷺ لقلة المسلمين بالمدينة وحاجتهم إلى الاجتماع لتكوين المجتمع المسلم المتكامل المطبق لشريعة الإسلام، وبقصد تكوين جيش الإسلام للقتال مع رسول الله ﷺ ضد أعداء دعوة الإسلام؛ ولتعلم شرائع الدين من النبي ﷺ؛ ولمبايعته ﷺ على الإنضواء تحت راية دولته وتلبية ندائه إلى الجهاد[٣]، فحدث كل ذلك بالهجرة وكانت الهجرة من أهم الأحداث في تاريخ الدعوة إلى الله، فبعد أن قوي المسلمون بالمدينة علت راية الإسلام وانتشرت الدعوة في كل مكان وظهر الحق، ولذا كانت الهجرة نقطة تحول في تاريخ الدعوة الإسلامية.

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم في هجرتهم على التماس الأجر من الله تعالى:

يظهر هذا في قول خباب بن الأرت رضي الله عنه هاجرنا مع رسول الله ﷺ نلتمس وجه الله تعالى، وهذا يدل على حرص الصحابة رضي الله عنهم في هجرتهم على التماس الأجر من الله تعالى، وهذا ما أيده المولى تبارك وتعالى في قوله ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾[٤]

---

(١) سورة النور، آية: ٢٢.

(٢) الأم ، الشافعي، تحقيق: علي محمد وعادل أحمد ص ٧٦٠.

(٣) انظر: تاريخ الدعوة الإسلامية في عهد النبي @ والخلفاء الراشدين، بلاغ الدعوة، د. أحمد فؤاد سيد ص ٣٩، ٤٠.

(٤) سورة الحشر، آية: ٨.

قال ابن كثير: (أي خرجوا من ديارهم وخالفوا قومهم ابتغاء مرضاة الله ورضوانه)[1].

وقال قتادة: (في قوله: "للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم" إلى آخر الآية: قال: هؤلاء المهاجرون؛ تركوا الديار والأموال والأهلين والعشائر، وخرجوا حبًّا لله ولرسوله، واختاروا الإسلام على ما كانت فيه من شدة، حتى لقد ذكر لنا أن الرجل كان يعصب الحجر على بطنه؛ ليقيم به صلبه من الجوع، وكان الرجل يتخذ الحفرة في الشتاء ما له دثار غيرها)[2].

ثالثًا - من موضوعات الدعوة: فضل مصعب بن عمير رضي الله عنه:

يظهر ذلك في قول خباب رضي الله عنه "هاجرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نلتمس وجه الله تعالى، فوقع أجرنا على الله، فمنا من مات ولم يأكل من أجره شيئًا، منهم مصعب بن عمير رضي الله عنه قتل يوم أحد...".

وهذا يدل على فضل مصعب بن عمير رضي الله عنه فهو أحد السابقين في الإسلام وهاجر إلى الحبشة وهاجر إلى المدينة[3] وعن البراء قال: ((أول من قدم علينا من أصحاب النبيِّ صلى الله عليه وسلم مُصعَبُ بن عُمير وابنُ أُمِّ مَكتوم، فَجَعلا يُقرِئانِنَا القرآنَ...))[4] وشهد بدرًا ثم شهد أُحدًا ومعه اللواء فاستشهد[5] وقد ورد ((أنَّ عبدَ الرحمنِ بنَ عَوفٍ رضي الله عنه أُتِيَ بطعامٍ - وكان صائمًا - فقال: قُتِلَ مُصعَبُ بنَ عُمَيرٍ - وهو خيرٌ منِّي...))[6].

فمصعب بن عمير رضي الله عنه صحابي جليل وله فضل عظيم؛ لأنه من السابقين في الإسلام وممن شهد بدر وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((لعلّ اللّهَ اطّلعَ على من شهدَ بدرًا فقال: اعملوا ماشِئتم فقد غفرتُ لكم))[7].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٦٨/٨.

(٢) الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٣٦٦/١٤، ٣٦٧.

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة، ابن علي العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ١٢٤٦.

(٤) أخرجه البخاري ٤٩٤١.

(٥) الإصابة في تمييز الصحابة، ابن علي العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ١٢٤٦.

(٦) أخرجه البخاري ١٢٧٥.

(٧) أخرجه البخاري ٤٢٧٤.

وكثيرون من الصحابة رضي الله عنهم تمثلوا بمصعب بن عمير رضي الله عنه هذا وتذكروا حاله أيام غناهم سبق ذكر عبدالرحمن بن عوف له، وها هو خباب بن الأرتّ رضي الله عنه يذكره - في هذا الحديث الذي نحن بصدده - . لقد كان صاحب لواء رسول الله ﷺ يوم أحد واستشهد فيها، ولم يجدوا ما يستر جسمه بعد موته فأكملوا ستر رجليه بنبات طيب الرائحة يقال له - الإذخر - وأشار كل من تحدثوا عنه من الصحابة رضي الله عنهم إلى أن ذلك كان من دلائل فضله حيث إنه ادُّخِرَ له أجره كاملاً لم يصله منه شيء في الدنيا، أما غيره من الصحابة فقد عجل لهم بعض الثواب في الدنيا فخافوا أن يكون ذلك على حساب الآخرة، وهو شعور طيب صادق يبعث على الزهد وحسن التصرف والتحكم في الدنيا. وهذا ما ينبغي أن نكون عليه، فليس الغنى في الدنيا دليل نجاة ولا الفقر فيها دليل شقاء، والعبرة بالعمل، وكلما مالت بالإنسان ناحية الفقر فصبر كان دليلاً على وفرة ثوابه وكثرة حب الله له[1].

رابعًا - من موضوعات الدعوة: بيان الحال التي كان عليها الصحابة رضي الله عنهم:

يظهر ذلك في قول خباب ابن الأرت رضي الله عنه "... فمنا من مات ولم يأكل من أجره شيئًا..." فبيّن ما كان علي حال الصحابة رضي الله عنهم في بداية الدعوة الإسلامية من فقر وشدة العيش وقد ورد في بيان ذلك الكثير من الأحاديث منها: قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: ((إنّي لأوَّلُ رجُلٍ أَهْرَاقَ دَمًا فِي سَبِيلِ اللهِ، وَإِنّي لأَوَّلُ رَجُلٍ رَمَى بِسَهْمٍ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَلَقَدْ رَأَيْتُنِي أَغْزُو فِي العِصَابَةِ مِنْ أَصْحَابِ مُحمَّدٍ مَا نَأْكُلُ إلاَّ وَرَقَ الشَّجَرِ وَالْحُبْلَةَ، حَتَّى إِنَّ أَحَدَنَا لَيَضَعُ كَمَا تَضَعُ الشَّاةُ وَالبَعِيرُ))[2].

((عن فَضَالَةَ بن عُبَيْدٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ كَانَ إِذَا صَلَّى بالنَّاسِ يَخِرُّ رِجَالٌ مِنْ قَامَتِهِمْ فِي الصَّلاَةِ مِنَ الْخَصَاصَةِ وَهُمْ أَصْحَابُ الصُّفَّةِ حَتَّى تَقُولَ الأَعْرَابُ هَؤُلاَءِ مَجَانِينُ أَوْ مَجَانُونُ فَإِذَا صَلَّى رَسُولُ اللهِ انْصَرَفَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَالَكُمْ عِنْدَ اللهِ لأَحْبَبْتُمْ أَنْ تَزْدَادُوا فاقَةً وَحَاجَةً))[3].

---

(١) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم ٣١٨.

(٢) أخرجه الترمذي ٢٣٦٥، ٢٣٦٦، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٩٢٨).

(٣) أخرجه الترمذي ٢٣٦٨، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٩٣٠).

إنهم أناس صبروا وتحملوا المشاق في سبيل نصرة دينهم وإعانة نبيهم فكانوا بحق خير الناس.

فينبغي للداعية أن يبين للمدعوين تلك الحال التي كان عليها صحابة رسول الله ﷺ من فقر وقسوة عيش وصبر ابتغاء رضوان الله، فمكّن الله لهم في الأرض وفتحوا البلاد، وفاضت الخيرات، فأكرمهم الله تعالى بفضله ومنّ عليهم بالنعم التي لا تعد ولا تحصى - نعم الدنيا ونعم الآخرة - جزاء صبرهم وتحملهم أصبحوا فيه من نعيم ورغد، مما يستوجب شكر نعم الله، وعبادته وطاعته.

الحديث رقم (٤٧٦)

٤٧٦ - وعن سهلِ بن سعد الساعدي رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: ((**لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ الله جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ**)) رواه الترمذيُّ[(١)]، وقال: (حديث حسن صحيح).

ترجمة الراوي:

سهل بن سعد الساعدي: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٧٥).

غريب الألفاظ:

البعوضة: واحدة البَعُوض، وهو صغار البَقِّ[(٢)].

الشرح الأدبي

اختيار الجناح، لأن ليس له وزن، ولا فائدة، وإضافته للبعوضة لإفادة التحقير، وحاصل هذا أنها لا وزن لها عند الله، ولا قيمة، والتعبير ب(لو)وهي حرف امتناع لامتناع، يعني امتناع عدم السقي لامتناع مساواة الدنيا لجناح البعوضة، وتنكير لفظ كافر يفيد العموم؛ لأنه نكرة في سياق النفي، والتعبير بشربة الماء مبالغة في حرمانه، لأنها آخر ما يمكن أن يمنع، ثم إنه عبَّر بالفعل (تعدل) الذي يعني تساوي، ولم يقل (تفوق أو تزيد) مثلاً، ومعناه أن الدنيا في أحسن حالاتها لن تساوي هذا المقدار الحقير، ولو تأملنا الأحاديث التي تقارن بين الدنيا، والآخرة كالأحاديث السابقة في الباب لوجدنا أنه لا توجد نسبة بينهما؛ لأنه لا نسبة بين عمر الدنيا - مهما طالت - لأنها فانية، وبين معنى الخلود في الآخرة، لأن النسبة في تغير مستمر كلما مرَّ الزمان - بعد انقضاء الدنيا - قلت نسبة الدنيا بجوار الآخرة إلى أن تصير كما وصفها رسول الله ﷺ في الحديث الذي مر قريباً في هذا الباب (مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ أُصْبُعَهُ فِي اليَمِّ(فَلْيَنْظُرْ بِمَ يَرْجِعُ !).

---

(١) برقم ٢٣٢٠ وقال: هذا حديثٌ صحيحٌ غريبٌ. وقال الحاكم ٣٠٦/٤: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. أورده المنذري في ترغيبه ٤٧٣٧.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ب ع ض).

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعو: بيان هوان الكافر على الله تعالى.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: هوان الدنيا على الله.

أولاً - من موضوعات الدعوة: بيان هوان الكافر على الله تعالى:

يظهر ذلك في قول رسول الله ﷺ "لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها جرعة ماء". إن الكافر عدو الله لأنه يشرك به وهو من أهون الأشياء على الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[1] أي هو يوم القيامة بمنزلة من لا يملك لنفسه نفعًا ولا يدفع عن نفسه ضرًا ولا عذابًا؛ فهو بمنزلة من خَرّ من السماء فهو لا يقدر أن يدفع عنه نفسه "فتخطفه الطير" أي: تقطعه بمخالبها[2]. ولهوان الكافر على الله فمهما يعمل من عمل لا قيمة له عند الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾[3].

قال ابن كثير: (وهذا يوم القيامة حين يحاسب الله العباد على ما عملوه من خير وشر، فأخبر أنه لا يتحصل لهؤلاء المشركين من الأعمال - التي ظنوا أنها منجاة لهم - شيء؛ وذلك لأنها فقدت الشرط الشرعي، إما الإخلاص فيها، وإما المتابعة لشرع الله. فكل عمل لا يكون خالصًا وعلى الشريعة المرضية فهوباطل، فأعمال الكفار لا تخلو من واحد من هذين، وقد تجمعهما معًا، فتكون أبعد من القبول حينئذ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾)[4] قال رسول الله ﷺ:

---

(١) سورة الحج، آية: ٣١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٥٥/١٢/٦.

(٣) سورة الفرقان، آية: ٢٣.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١٠٣/٦.

((إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، دَفَعَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ، يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا. فَيَقُولُ: هذَا فِكَاكُكَ مِنَ النَّارِ))، وفي رواية: ((لاَ يَمُوتُ رَجُلٌ مُسْلِمٌ إِلاَّ أَدْخَلَ اللَّهُ مَكَانَهُ، النَّارَ، يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا)) وفي رواية: ((يَجِيءُ ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَاسٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، بِذُنُوبٍ أَمْثَالِ الْجِبَالِ، فَيَغْفِرُهَا اللَّهُ لَهُمْ. وَيَضَعُهَا عَلَىٰ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ))[(١)].

قال النووي: ("الفكاك" - بفتح الفاء وكسرها - والفتح أفصح وأشهر، وهو: الخلاص والفداء. ومعنى هذا الحديث ماجاء في حديث أبي هريرة: (لكل أحد منزل في الجنة ومنزل في النار، فالمؤمن إذا دخل الجنة خلفه الكافر في النار؛ لاستحقاقه ذلك بكفره)[(٢)]. ومعنى "فكاكك من النار": أنك كنت مُعرضًا لدخول النار، وهذا فِكَاكك؛ لأن الله - تعالى - قدر لها عددًا يملؤها، فإذا دخلها الكفار بكفرهم وذنوبهم صاروا في معنى الفكاك للمسلمين.

وأما رواية: "يجيء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب"، فمعناه: أن الله تعالى يغفر تلك الذنوب للمسلمين، ويسقطها عنهم، ويضع على اليهود والنصارى مثلها بكفرهم وذنوبهم، فيدخلهم النار بأعمالهم لا بذنوب المسلمين، ولابد من هذا التأويل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[(٣)].

وقوله: "ويضعها" مجاز، والمراد: يضع مثلها بذنوبهم كما ذكرناه، لكن لما أسقط - سبحانه وتعالى - عن المسلمين سيئاتهم، وأبقى على الكفار سيئاتهم، صاروا في معنى من حمل إثم الفريقين؛ لكونهم حملوا الإثم الباقي، وهو إثمهم، ويحتمل أن يكون المراد آثامًا كان للكفار سبب فيها؛ بأن سَنُّوها، فتسقط عن المسلمين بعفو الله تعالى، ويوضع على الكفار مثلها؛ لكونهم سَنُّوها، ومن سنّ سنة سيئة كان عليه مثل

---

(١) أخرجه مسلم ٢٧٦٧.

(٢) أخرجه ابن ماجه ٤٣٤١ بلفظ: "ما منكم من أحد إلا له منزلان: منزل في الجنة ومنزل في النار، فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله، فذلك قوله تعالى: "أولئك هم الوارثون" وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٣٥٠٢).

(٣) سورة فاطر، آية: ١٨.

وزر كل من يعمل بها، والله أعلم.

وقد جاء عن عُمَرَ بن عبدالعزيز، والشافعي رحمهما الله أنهما قالا: هذا الحديث أرجى حديث للمسلمين، وهو كما قالا؛ لما فيه من التصريح بفداء كل مسلم، وتعميم الفداء، ولله الحمد(١). وفيه هوان الكافر على الله تعالى.

فينبغي على الداعية أن يبيّن للمدعوين هوان الكافرين على الله تعالى وفضل المؤمنين عند الله تعالى.

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: هوان الدنيا على الله:

يظهر ذلك من قول رسول الله ﷺ: "لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء".

فإن الكافر عدو الله والعدو لا يعطي شيئًا مما له قدر عند المعطي، فمن حقارتها عنده لا يعطيها لأوليائه(٢). ويعطيها للكافرين ليمتعهم قليلاً ثم يكون مأواهم الجحيم. فالدنيا وما فيها من المظاهر، التي تسلب العقول، وتبهر العيون وتملك القلوب، أهون على الله عز وجل من جناح بعوضة(٣).

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾(٤)، وقال أيضًا: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾(٥).

قال قتادة (هي متاع متروك توشك أن تضمحل بأهلها؛ فينبغي للإنسان أن يأخذ من هذا المتاع بطاعة الله سبحانه ما استطاع)(٦).

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٩/٨٨-٨٩.

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٢/١٨٥١.

(٣) حديث النفس وجولات الخاطر، عبدالإله سليمان الطيار، ص ٨٢.

(٤) سورة محمد، آية: ٣٦.

(٥) سورة آل عمران، آية: ١٨٥.

(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢/٤/٢٠٢.

قال الشاعر:

ولا خير في الدنيا لمن لم يكن له ... من الله في دار المقام نصيبُ

فإن تُعجبُ الدنيا رجالاً، فإنها ... متاع قليل، والزوال قريبُ[1]

فالعاقل الذي يعمل في الدنيا لكسب الآخرة وذلك ما أمر الله به عباده في قوله تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ﴾[2] (أي: اطلب فيما أعطاك من الدنيا الدار الآخرة وهي الجنة؛ فإن من حق المؤمن أن يصرف الدنيا فيما ينفعه في الآخرة لا في التجبر والبغي)[3]؛ فينبغي على الداعية أن يبيِّن للمدعوين حقيقة الدنيا وهوانها على الله وأنها دار معبر وممر للآخرة فينبغي الإكثار فيها من الطاعات والاستعداد فيها بالصالحات لتكون عونًا يوم الحساب.

---

(١) حديث النفس ٨٣.

(٢) سورة القصص، آية: ٧٧.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٣١٤/١٣/٧.

الحديث رقم (٤٧٧)

٤٧٧ - وعن أَبي هريرة ﵁، قَالَ: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ، يقول: ((أَلاَ إنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إلاَّ ذِكْرَ اللهِ تَعَالَى، وَمَا وَالاهُ، وَعالِمًا وَمُتَعَلِّمًا[1])) رواه الترمذي[2]، وقال: (حديث حسنٌ).

ترجمة الراوي:

ابو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

مَا والاهُ: ما أدناه مما أحبّه الله تعالى. والوَلْي: القُرْب والدنو[3].

الشرح الأدبي

(ألا) طرقة مستفتح تنبه إلى أهمية ما يليها، يأخذ بها الأسماع لتنصت إليه، ويقطع بها شواغل القلوب لتنصرف إليه، ثم إنه أكد الكلام بحرف التوكيد مع الاسمية الدالة على الثبات، والدوام، لأهمية هذا الخبر، وخطره، وفيه تنبيه إلى ضرورة وعيه، ثم إن التعبير باللعنة يوحي بالغضب، وينبه على خطأ، ويوحي بمشاعر الرهبة ثم إن ثبات معنى اللعنة المفهوم من التعبير بالجملة الاسمية يشير إلى دوام هذه الصفة للدنيا، وأنها لن تنفك عنها يوماً لتطيب لأحد ثم إنه كرر اللعنة لما فيها، وهو من ذكر الخاص بعد العام عناية به، لأنه هو الذي يشغل الناس عن آخرتهم، إلا ما تصل بالآخرة منه، ولذلك جاء قوله (إلاَّ ذِكْرَ اللهِ تَعَالَى، وَمَا وَالاهُ، وَعالِماً وَمُتَعَلِّماً) وفيه تعظيم لقيمة الذكر، وما والاه أي أحبه الله من أعمال البر وأفعال القرب، أو معناه ما والى ذكر الله أي قاربه من ذكر خير، أو تابعه من اتباع أمره، واجتناب نهيه؛ لأن ذكره يوجب

---

(١) لفظ الترمذي: (وعالمٌ أو متعلمٌ). والمثبت لفظ ابن المنذري في ترغيبه.

(٢) برقم ٢٣٢٢ وقال: هذا حديث حسنٌ غريبٌ. وسيتكرر برقم ١٣٨٦. أورده المنذري في ترغيبه ١١٧.

(٣) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٧٢٠، وانظر: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٨٥٢/٢.

ذلك، وفيه بيان لفضل الانشغال بالعلم تعليماً، وتعلماً؛ لأن العلم طريق لله، ولذلك كان طريقاً للجنة، وفي الحديث سجع بديع بين قوله (إلاَّ ذِكْرَ اللّهِ) وبين (وَمَا وَالاهُ) وجناس رقيق بين َعالِماً، وَمُتَعَلِّماً) يؤكد أفضلية الطرفين باستثنائهم من اللعنة العامة التي شملت الدنيا، وما فيها.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: بيان بغض الدنيا وبغض ما يبعد عن ذكر الله.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الترغيب في الأعمال التي تحفل بذكر الله وتعلم العلم.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الترهيب والترغيب.

رابعًا: من مهام الداعية: دلالة المدعوين على فعل ما ينفعهم من ذكر الله وتعلم العلم.

أولاً - من موضوعات الدعوة: بيان بغض الدنيا وبغض ما يبعد عن ذكر الله:

يظهر ذلك في قول رسول الله ﷺ: (ألا إن الدنيا ملعونة ملعون ما فيها، إلا ذكر الله تعالى...).

فالدنيا مبغوضة من الله لكونها مبعدة عنه وملعون ما فيها مما يشغل عن الله إلا ذكر الله[(١)].

أي أن الدنيا مبغوضة ساقطة القدر، هي وما فيها، ما عدا ذكر الله وطاعته الموصلة لمرضاته والعلم وأهله، مما يبقي الدين ويحفظ الشريعة ويقرب إلى الله تعالى. ولا يخفى أن الدنيا المذمومة هي دنيا المادة المبعدة عن الله تعالى بين الناس الصارفة عن العبادة، أما ما عدا ذلك فليس بمذموم بل محمود[(٢)].

والدنيا متاع منقطع قد يزول بين عشية أو ضحاها فلا بد أن تكون مبغوضة للمؤمن، قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾[(٣)]، "أي:

---

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٨٥٢/٢.

(٢) شرح رياض الصالحين، الحسيني هاشم، ص ٢١٨.

(٣) سورة الكهف، آية: ٤٥.

(واضرب) يا محمد مثل الحياة الدنيا في زوالها وفنائها وانقضائها (كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض)، أي: ما فيها من الحب، فشب وحسن، وعلاه الزهر والنور والنضرة ثم بعد ذلك كله (أصبح هشيمًا) يابسًا (تذروه الرياح) أي: تفرقه وتطرحه ذات اليمين وذات الشمال"[١].

والدنيا كثيرة المفاتن والملاهي وهذه الأشياء قد تبعد عن ذكر الله وهذا ما أمر الله باجتنابه قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[٢]، يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بالإكثار من ذكره فإن في ذلك الربح والفلاح، وينهاهم أن تشغلهم أموالهم وأولادهم عن ذكره، لأن في ذلك الخسارة العظيمة[٣].

فينبغي على الداعية أن يبين بغض الله للدنيا وبغضه ما يبعد فيها عن ذكره تعالى.

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: الترغيب في الأعمال التي تحفل بذكر الله وتعلم العلم:

يستنبط ذلك من قوله ﷺ: (... إلا ذكر الله تعالى وما والاه وعالمًا ومتعلمًا)، فقد لعن الدنيا وما فيها، واستثنى ذكر الله وتعلم العلم وهذا لفضلهما وترغيبًا في تحصيلهما، وقد ورد في فضل ذكر الله تعالى الكثير من الآيات والأحاديث، مثل قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾[٤]، وقال: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[٥]، وقال تعالى مثنيًا على الذاكرين ومبينًا لثوابهم عنده ومنزلتهم: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[٦]، وقال رسول الله ﷺ: ((يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١٦١/٥.

(٢) سورة المنافقون، آية: ٩.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٨٠١.

(٤) سورة البقرة، آية: ١٥٢.

(٥) سورة العنكبوت، آية: ٤٥.

(٦) سورة الأحزاب، آية: ٣٥.

عَبْدِي بِي. وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي. إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ، ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي. وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلأ، ذَكَرْتُهُ فِي مَلأ هُمْ خَيْرٌ مِنْهُمْ...))[1].

قال ابن القيم: (الذكر منشور الولاية الذي من أعطيه اتصل ومن منعه عزل، وهو قوت القلوب التي متى فارقها صارت الأجساد لها قبورًا، وعمارة ديارهم التي إذا تعطلت عنه صارت بورًا وهو سلاحهم الذي يقاتلون به من قطع الطريق، ومأواهم الذي يطفئون به التهاب الطريق، ودواء أسقامهم الذي متى فارقهم انتكست منهم القلوب، والسبب الواصل والعلاقة التي كانت بينهم وبين علام الغيوب...، به يستدفعون الآفات، ويستكشفون الكربات وتهون عليهم به المصيبات، وهو جلاء القلوب وصقالها، ودواؤها إذا غشيها اعتلال وكلما ازداد الذاكر في ذكره استغراقًا ازداد المذكور محبة إلى لقائه واشتياقه وإذا واطأ في ذكر قلبه للسانه نسي في جنب ذكره كل شيء، وحفظ الله عليه كل شيء وكان له عوضًا من كل شيء)[2].

وكذلك ورد في فضل العلم وتعلمه الكثير من الآيات والأحاديث التي يعرف بها فضل العلم وأجره، وشموخ أهله، ورفعه طلابه، من ذلك قول الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[3].

قال ابن كثير: (أي وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم، المتضلعون منه)[4]، كما نفى المولى تبارك وتعالى التسوية بين أهله وغيرهم فقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[5]، وكذلك أهل العلم يرفعهم الله، قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[6]، وأمر رسوله ﷺ بالدعاء به فقال:

(١) أخرجه مسلم ٢٦٧٥.

(٢) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢٥٨/٢ - ٢٥٩.

(٣) سورة العنكبوت، آية: ٤٣.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢٧٩/٦.

(٥) سورة الزمر، آية: ٩.

(٦) سورة المجادلة، آية: ١١.

﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [١]، وقد بيّن رسول الله ﷺ فضل العلم والتعلم في كثير من الأحاديث، من ذلك قوله ﷺ: ((مَنْ يُرِدِ اللَّهُ به خَيرًا يُفَقِّهْهُ في الدِّين)) [٢]، وقوله ﷺ: ((مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمسُ فِيه عِلْمًا سَهَّلَ الله لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ)) [٣].

فينبغي للداعية أن يبين للمدعوين فضل ذكر الله تعالى وفضل العلم ويرغبهم في الثواب العظيم لذلك.

ثالثًا - من أساليب الدعوة: الترهيب والترغيب:

يظهر الترهيب في لعنه ﷺ الدنيا وما فيها ولا يلعن رسول الله ﷺ إلا كل قبيح، ففي ذلك ترهيب منها لتحذير الناس من الركون إليها والتعلق بها ونسيان الآخرة.

أما الترغيب فيظهر في قول رسول الله ﷺ: (إلا ذكر الله تعالى وما والاه وعالما ومتعلمًا)، حيث رغّب في ذكر الله والعلم والتعلم لأنه استثناهم من لعنه الدنيا وما فيها.

وأسلوب الترهيب من أساليب الدعوة التي تجعل المدعو يجتنب ما يُرهب منه فالترهيب يقصد به كل ما يخيف ويحذر المدعو من عدم الاستجابة أو رفض الحق أو عدم الثابت عليه بعد قبوله.

وأسلوب الترغيب يقصد به كل ما يشوق المدعو إلى الاستجابة وقبول الحق والثبوت عليه [٤].

رابعًا - من مهام الداعية: دلالة المدعوين على فعل ما ينفعهم من ذكر الله وتعلم العلم:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: (ألا إن الدنيا ملعونة... إلا ذكر الله تعالى... وعالمًا ومتعلمًا).

حيث دلّ رسول الله ﷺ أمته على ما ينفعهم في الدنيا مثل: ذكر الله تعالى وتعلم العلم.

---

(١) سورة طه، آية: ١١٤.

(٢) أخرجه البخاري ٧١، ومسلم ١٠٣٧.

(٣) أخرجه الترمذي ٢٦٤٦، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢١٣٤).

(٤) أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان، ص ٤٣٧.

فينبغي للداعية أن يعمل جاهدًا على دلالة المدعوين على ما ينفعهم من ذكر الله تعالى، وذلك لأن أفضل حال العبد حال ذكره رب العالمين، واشتغاله بالأذكار الواردة عن رسول الله ﷺ سيد المرسلين[1].

وكذلك تعلم العلم وتعليمه ويكفي العلم شرفًا أمره تعالى نبيه ﷺ أن يسأله المزيد منه، فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[2].

لذا فإن من المهام التي ينبغي للداعية أن يوليها اهتمامًا كبيرًا دلالة المدعوين على فعل ما ينفعهم من خلال كثرة ذكر الله تعالى، والحرص على تعلم العلوم النافعة وهذا باب عظيم من أبواب الدعوة إلى الله تعالى.

---

(١) انظر: الأذكار، النووي، ص ١٧.

(٢) سورة طه، آية: ١١٤.

الحديث رقم (٤٧٨)

٤٧٨ - وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ : ((**لاَ تَتَّخِذُوا الضَّيْعَةَ فَتَرْغَبُوا فِي الدُّنْيَا**)) رواه الترمذيُّ[١] ، وقال: (حديثٌ حسنٌ).

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

غريب الألفاظ:

الضَّيعُة: البستانُ والقرية والمزرعة[٢].

قوله ﷺ (لا تتخذوا الضيعة) نهي غرضه التحذير مما يمكن أن يشغل عن طاعة الله من أمور الدنيا، واتصال الفعل المنهي عنه بواو الجماعة يعطيه عموم ليشمل كل مسلم، وما أروع التعبير بالضيعة الذي يستصحب بمدلوله معنى الضياع، ضياع الطاعة، ضياع الأجر، ضياع الجنة، احذر أن تتخذ من الفاني ما يُضيِّع منك الباقي، ثم إنه أراد أن يحقق الإقناع القلبي؛ لأن النفس إذا اهتدت إلى العلة اقتنعت بالقضية، وسهل عليها اتيان الفعل، واجتناب النهي، فبيَّن العلة (فَتَرْغَبُوا فِي الدُّنْيَا) والتعبير بالرغبة يشير إلى المحبة، والميل الذي يأخذه عن الآخرة، وهو سبب النهي، وهذا النهي الذي انصب على اتخاذ الضيعة ينسحب على كل ما يشغل المؤمن عن فرائض الله - تعالى - .

فقه الحديث

حكم اتخاذ الضيعة:

قال القرطبي: (ولا ينكر أن يكون للوليّ مال وضيْعة يصون بها ماله وعياله وحسبُك بالصحابةِ وأموالهم مع ولايتهم وفضلِهم، وهم الحجةُ على غيرهم. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: ((بَيْنَا رَجُلٌ بِفَلاَةٍ مِنَ الأَرْضِ، فَسَمِعَ صَوْتًا

---

(١) برقم ٢٣٢٨. وقال الحاكم ٣٢٢/٤: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٨٥٥/٢.

فِي سَحَابَةٍ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلاَنٍ. فَتَنَحَّىٰ ذَلِكَ السَّحَابُ. فَأَفْرَغَ مَاءَهُ فِي حَرَّةٍ. فَإِذَا شَرْجَةٌ مِنْ تِلْكَ الشِّرَاجِ قَدِ اسْتَوْعَبَتْ ذَلِكَ الْمَاءَ كُلَّهُ. فَتَتَبَّعَ الْمَاءَ. فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ فِي حَدِيقَتِهِ يُحَوِّلُ الْمَاءَ بِمِسْحَاتِهِ. فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ مَا اسْمُكَ؟ قَالَ: فُلاَنٌ. لِلإِسْمِ الَّذِي سَمِعَ فِي السَّحَابَةِ. فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ لِمَ تَسْأَلُنِي عَنِ اسْمِي؟ فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ صَوْتًا فِي السَّحَابِ الَّذِي هَذَا مَاؤُهُ يَقُولُ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلاَنٍ. لاِسْمِكَ. فَمَا تَصْنَعُ فِيهَا؟ قَالَ: أَمَّا إِذْ قُلْتَ هَذَا، فَإِنِّي أَنْظُرُ إِلَىٰ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا، فَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثِهِ. وَآكُلُ أَنَا وَعِيَالِي ثُلُثًا، وَأَرُدُّ فِيهَا ثُلُثَهُ)) وفي رواية ((وَأَجْعَلُ ثُلُثَهُ فِي الْمَسَاكِينِ وَالسَّائِلِينَ وَابْنِ السَّبِيلِ))[1].

قلت: وهذا الحديثُ لا يناقضُه قولُه عليه الصلاة والسلام: ((لاَ تَتَّخِذُوا الضَّيْعَةَ فتركَنوا إلى الدُّنْيَا)) خرَّجه الترمذي[2] من حديث ابن مسعود وقال فيه: حديثٌ حسن؛ فإنَّه محمولٌ على من اتخذَها مستكثرًا أو متنعمًا ومتمتعًا بزهرتها، وأمَّا منِ اتخذَها معاشًا يصونُ بها دينَه وعيالَه؛ فاتخاذُها بهذه النيةِ من أفضلِ الأعمال، وهي من أفضلِ الأموال؛ قال عليه الصلاةُ والسلام: ((نِعْمَ المالُ الصَّالحُ للرَّجُلِ الصالحِ))[3])[4].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: النهي عن الاستكثار من الضياع.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: التحذير من الإخلاد إلى الدنيا والركون إليها.

ثالثًا: من صفات الداعية: الخوف والشفقة على المدعوين.

أولاً - من موضوعات الدعوة: النهي عن الاستكثار من الضياع:

يظهر ذلك في قوله ﷺ "لا تتخذوا الضيعة فترغبوا في الدنيا" فإذا كثر المال عند الناس نسوا الآخرة، ولهذا نهي رسول الله ﷺ عن اتخاذ الضياع يعني الحدائق

---

(١) أخرجه مسلم ٢٩٨٤.

(٢) أخرجه الترمذي ٢٣٢٨ وهو حديث الباب.

(٣) أخرجه أحمد ١٩٧/٤ رقم ١٧٧٦٣، وقال محققو المسند: إسناده صحيح ٢٩٩/٢٩.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٣٤٥/١٣-٣٤٦. وانظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير، عبدالرؤوف محمد المناوي ٥٠٢/٦.

والبساتين، فإن الإنسان يلهو عما هو أهم منها من أمور الآخرة[١].

ولما كانت الدنيا ليست بدار قرار فإنه محاولة الإنسان الإكثار منها والتمتع فيها ولو بالطيبات الحلال تجره إلى الحرام. إنها تعلق قلبه بها، وتميله إليها، وتجعل تركها عليه أليمًا، وتُبَغِّضُ إليه مشاق العبادة، وتحرمه من كثير من الفضائل كالصبر والرحمة وغيرها. ولا شك أن أشد ما يجذب الإنسان إلى الدنيا التوسع في امتلاك الأرض وبناء الدور واستخدام الكماليات، التي لا ينتهي التنافس فيها إلى غاية ولا يصل إلى نهاية[٢].

وقد نهى الله تعالى المؤمنين وحذرهم من أن تلههم الدنيا فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾[٣] حذر المؤمنين أخلاق المنافقين؛ أي لا تشتغلوا بأموالكم كما فعل المنافقون[٤]. وينهاهم أن تشغلهم أموالهم وأولادهم عن ذكر الله فإن محبة المال والأولاد مجبولة عليها أكثر النفوس، فتقدمها على محبة الله، وفي ذلك الخسارة العظيمة[٥].

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: التحذير من الإخلاد إلى الدنيا والركون إليها:

يظهر ذلك في قوله ﷺ "لا تتخذوا الضيعة فترغبوا في الدنيا" حيث حذر من الإخلاد إلى الدنيا والركون إليها فالحاصل أن الإنسان يجب أن يكون زاهدًا في الدنيا مقبلاً على الآخرة، وأن الله تعالى إذا رزقه مالاً فيجعله عونًا على طاعة الله، وليجعل الدنيا في يده لا في قلبه حتى يفوز بخيري الدنيا والآخرة[٦].

---

(١) شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين، ٧٩٩/١.

(٢) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم، ص ٣١٩.

(٣) سورة المنافقون، آية: ٩.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٢٩/١٨/٩.

(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٨٠١.

(٦) شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين، ٧٩٩/١.

لأن زخارف الدنيا ومتعها إلى زوال، والذي يبقى للإنسان هو العمل الصالح، قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾[١].

أما الذي يحرص على الإخلاد إلى الدنيا والركون إليها هم المشركون قال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[٢].

أما المؤمن فلا يحرص في الدنيا إلا على طاعة الله والعمل على مرضاته للاستعداد للآخرة ودخول الجنة قال رسول الله ﷺ ((وموضعُ سوطِ أحدِكُم من الجنةِ خيرٌ منَ الدنيَا وما عيهَا))[٣] من أجل ذلك ينبغي على المسلم ألا يخلد إلى الدنيا أو يركن إليها.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي، فقال: "كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل" وكان ابن عمر يقول: (إذا أمسيت، فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك)[٤].

قال ابن رجب: (وهذا الحديث أصل في قصر الأمل في الدنيا، وأن المؤمن لا ينبغي له أن يتخذ الدنيا وطنًا ومسكنًا، فيطمئن فيها ولكن ينبغي أن يكون فيها كأنه على جناح سفر: يهيء جهازه للرحيل.

وقد اتفقت على ذلك وصايا الأنبياء وأتباعهم، قال تعالى حاكيًا عن مؤمن آل فرعون أنه قال: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾[٥].

---

(١) سورة الكهف، آية: ٤٦.

(٢) سورة البقرة، آية: ٩٦.

(٣) أخرجه البخاري ٢٨٩٢، ومسلم ١٨٨١.

(٤) أخرجه البخاري ٦٤١٦.

(٥) سورة غافر، آية: ٣٩.

وكان النبي ﷺ يقول: ((مَالِي وَلِلدُّنْيَا، ما أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلاَّ كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا))[١].

ومن وصايا المسيح عليه السلام لأصحابه أنه قال لهم: اعبروها ولا تعمروها، ورُوي عنه أنه قال: من ذا الذي يبني على موج البحر دارًا، تلكم الدنيا، فلا تتخذوها قرارًا.

فينبغي للمؤمن أن يكون حاله فيها على أحد حالين: إما أن يكون كأنه غريب مقيم في بلد غربة، همه التزود للرجوع إلى وطنه، أو يكون كأنه مسافر غير مقيم البتة، بل هو ليله ونهاره، يسير إلى بلد الإقامة، فلهذا وصَّى النبي ﷺ ابن عمر أن يكون على أحد هذين الحالين)[٢].

ثالثًا - صفات الداعية: الخوف والشفقة على المدعوين:

يظهر ذلك في خوف وشفقة رسول الله ﷺ على أمته من أن يتخذوا الضياع ويرغبوا في الدنيا.

ورسول الله ﷺ كان يخاف على أمته ويحرص على هدايتهم فهو رحمة للعالمين كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٤] أي يحب لكم الخير ويسعى جهده في إيصاله إليكم، ويحرص على هدايتكم إلى الإيمان، ويكره لكم الشر، ويسعى جهده في تنفيركم عنه "بالمؤمنين رؤوف رحيم" أي: شديد الرأفة والرحمة بهم أرحم بهم من والديهم[٥].

---

(١) أخرجه الترمذي ٢٣٧٧ وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٩٣٦).

(٢) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢/٢٧٧-٢٧٨.

(٣) سورة الأنبياء، آية: ١٠٧.

(٤) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

(٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٣١٢.

فليعلم الداعية أن الشفقة على الخلق سبب النجاة قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝١٧ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾[1] قال السعدي: في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ أي: للخلق من إعطاء محتاجهم، وتعليم جاهلهم، والقيام بما يحتاجون إليه من جميع الوجوه، ومساعدتهم على المصالح الدينية والدنيوية، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه ويكره لهم ما يكره لنفسه[2].

وقال رسول الله ﷺ ((الرّاحِمونَ يَرْحَمُهُمْ الرّحمن، ارْحَمُوا من في الأرْضِ يَرْحَمْكُمْ من في السّماءِ))[3].

فإذا كان الداعية إلى الله يخاف على المدعوين ويشفق عليهم كان ذلك أدعى إلى محبتهم له وقبول دعوته.

(١) سورة البلد، الآيتان ١٧، ١٨.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٨٥٦.

(٣) أخرجه الترمذي ١٩٢٤، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٥٦٩).

الحديث رقم (٤٧٩)

٤٧٩ – وعن عبدِ الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، قَالَ: مَرَّ عَلَيْنَا رسولُ الله ﷺ وَنَحْنُ نعالِجُ خُصًّا لَنَا ، فَقَالَ: ((مَا هَذَا؟)) فَقُلْنَا : قَدْ وَهَى، فَنَحنُ نُصْلِحُهُ، فَقَالَ: ((مَا أرَى الأَمْرَ إلاَّ أعْجَلَ مِنْ ذَلِكَ)).

رواه أَبو داود والترمذيُّ[1] بإسناد البخاري ومسلم، وقال الترمذي: (حديثٌ حسنٌ صحيحٌ).

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمرو بن العاص: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٣٨).

غريب الألفاظ:

نعالج خُصًّا لنا: نصلح بيتًا لنا ، والخُصُّ: بيت من شجر أوْ قصب[2].

وهى: ضعف[3].

الأمرَ: الأجل[4].

أعجل من ذلك: أسرع من ذلك[5].

---

(١) أخرجه أبو داود ٥٢٣٦، والترمذي ٢٣٣٥ ولفظهما سواء. وصحّحه ابن حبان ٢٩٩٦. أورده المنذري في ترغيبه ٤٩٠١.

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٨٥٩/٢، والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (خ ص ص).

(٣) المرجع السابق ١٨٥٩/٢.

(٤) المرجع السابق ١٨٥٩/٢.

(٥) المرجع السابق ١٨٥٩/٢.

الشرح الأدبي

الحديث من باب الترغيب في قصر الأمل يعالج فيه الرسول ﷺ ظاهرة الانشغال بالدنيا، والتنافس فيها قبل استفحالها، رغم أن صحابته كانوا أقل الناس رغبة فيها، ولكنه كان يعدهم لحمل أمانة نشر الرسالة، وهذا يقتضي تفرغاً تاماً وتوجيهاً لكل طاقات النفس نحوه، ولذلك جاء استفهامه (ما هذا يا عبد الله ؟ !) تقليلاً وتحقيراً وإنكاراً لما انشغل به من إصلاح حائطه، انشغالا، ولو كان بسيطاً، ورغم أن الحائط من طين، وإصلاحه لن يبقيه طويلاً إلا أن الرسول ﷺ قال له في أسلوب قصر :(ما أرى الأمر إلا أعجل من ذلك) أسرع من إصلاح حائط وَهَي فما أقصر الأمل في عيني من رأي الحياة بعين البصيرة!، وما أطول الأمل في أبصارنا القصيرة !.

المضامين الدعوية

أولاً: من مهام الداعية: تفقد أحوال المدعوين والسؤال عنهم.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: بيان حال الصحابة رضي الله عنهم وما فيها من رقة وزهد.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: أهمية استحضار الموت.

أولاً – من مهام الداعية: تفقد أحوال المدعوين والسؤال عنهم:

يظهر ذلك في قول عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: "مر علينا رسول الله ﷺ...".

فعلى الداعية أن يكون عونًا للمدعو يقضي حاجته، ويعينه في أموره الشخصية، ويتفقد أحواله كما يتفقد أحوال نفسه، ويؤثره على نفسه ويسأل عنه إذا غاب فإذا كان مريضًا عاده، وإن كان مشغولاً أعانه، وإن كان ناسيًا ذكره، يرحب به إذا دنا، ويوسع له إذا جلس ويصغي إليه إذا حدث[1].

وقد ورد في القرآن الكريم في قصة سليمان عليه السلام قوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾[2].

---

(١) انظر: الأخوة الإسلامية، عبد رب النبي على أبو السعود، ص ١٦.

(٢) سورة النمل، آية: ٢٠

قال ابن عاشور في تفسيره لهذه الآية: (ومن واجبات ولاة الأمور تفقد أحوال الرعية، وتفقد العمال ونحوهم بنفسه كما فعل عمر رضي الله عنه في خروجه إلى الشام سنة سبع عشرة هجرية، أو بمن يكل إليه ذلك فقد جعل عمر محمد بن مسلمة الأنصاري يتفقد العمال)[١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٌ﴾[٢]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((وَاللّٰهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ))[٣].

فعلى الداعية أن يقف على ما يعترض المدعو من مشكلات محاولاً حلها قدر الإمكان لتصفو نفس المدعو وتكون قابلة لتلقي الدعوة، فإن المدعو ينظر إلى الداعية نظرة الاحترام والتقدير، وقد يكون أمره مطاعًا أكثر من أمر الوالدين، فليقدر الداعية هذه النظرة حق تقديرها ويشعره بقدر مسؤوليته[٤].

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: بيان حال الصحابة رضي الله عنهم وما فيها من رقة وزهد:

يظهر ذلك في قول عبدالله رضي الله عنهما: (ونحن نعالج خُصًا لنا...).

والخُص بالضم: البيت من القصب أو البيت يسقف بخشبة كالأزج[٥].

وهذا يدل على حال الصحابة رضي الله عنهم وما فيها من رقة وزهد في حياتهم، وزهد الصحابة ورقة حالهم ورد فيها الكثير من الآثار:

فهذا أبو بكر رضي الله عنه خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمير المؤمنين (لما بويع للخلافة أصبح وعلى ساعده أبراد وهو ذاهب إلى السوق، فقال عمر رضي الله عنه: أين تريد؟ قال: السوق، قال: تصنع ماذا وقد وُلِّيت أمر المسلمين؟ قال: فمن أين أطعم عيالي؟ فقال عمر: انطلق

---

(١) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤٥/١٩/٨.

(٢) سورة الحجرات، آية: ١٠.

(٣) أخرجه مسلم ٢٦٩٩.

(٤) انظر: أدب المؤمن، أحمد حمزة عبد الباقي، د. أمينة أحمد يحيى، مطبعة خالد بن الوليد: ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، ٢٢/١.

(٥) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ص ٢٢٢٤.

يفرض لك أبو عبيدة، فانطلقا إلى أبي عبيدة فقال: أفرض لك قوت رجل من المهاجرين ليس بأفضلهم ولا بأوكسهم، وكسوة الشتاء والصيف، إذا أخلقتَ شيئًا رددته وأخذت غيره ففرضا له كل يوم نصف شاة، وما كساه في الرأس والبطن)[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (رأيتُ سَبعينَ من أهلِ الصُّفَّةِ ما منهم رجُلٌ عليه رداء، إما إزارٌ وإما كِساءٌ قد رَبطوا في أعناقِهم، فمنها ما يَبلغُ نِصفَ الساقَينِ، ومنها ما يَبلُغُ الكَعْبَينِ، فيَجْمعهُ بيَدِه كراهِيةَ أن تُرَى عَورَتُه)[٢].

وعن أبي مسعود رضي الله عنه قال: ((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُ بِالصَّدَقَةِ. فَيَنْطَلِقُ أَحَدُنَا يَتَحَامَلُ حَتَّى يَجِيءَ بِالْمُدِّ. وَإِنَّ لأَحَدِهِمُ الْيَوْمَ مِائَةَ أَلْفٍ))[٣].

وهذه الآثار تدل على رقة حال الصحابة رضي الله عنهم وزهدهم في الدنيا.

ثالثًا - من موضوعات الدعوة: أهمية استحضار الموت:

يظهر ذلك في قول رسول الله ﷺ: (ما أرى الأمر إلا أعجل من ذلك)، إشارة إلى الموت وقد أوصى رسول الله ﷺ بذكر الموت، فقال: ((أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ)) - يعني الموت -[٤].

قال الطيبي: "شبه اللذات الفانية والشهوات العاجلة ثم زوالها ببناء مرتفع ينهدم بصدمات هائلة، ثم أمر المنهمك فيها بذكر الهادم لئلا يستمر في الركون إليها، ويشتغل كما يجب عليه من التزود إلى دار القرار وأنشد زين العابدين رضي الله عنه:

فيا عامر الدنيا ويا ساعيًا لها ... ويا آمنًا من أن يدور الدوائر

على خطر تمشي وتصبح لاهيًا ... أتدري بماذا لو عقلت تخاطر

تخرب ما يبقى وتعمر فانيا ... فلا ذاك موفور ولا ذاك عامر[٥]

---

(١) حياة الصحابة، الكاندهلوي، ص ٤٢٤.

(٢) أخرجه البخاري ٤٤٢.

(٣) أخرجه ابن ماجه ٤١٩٥، وصححه الألباني، (صحيح سنن ابن ماجه ٣٣٥١).

(٤) أخرجه الترمذي ٢٣٠٧، وقال الألباني: حسن صحيح (صحيح سنن الترمذي ١٨٧٧).

(٥) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٣/٣٢٩.

وعن أنس رضي الله عنه قال: خَطَّ رَسُولُ اللَّهِ خَطًّا، وَقَالَ: ((هذَا الإنْسَانُ))، وَخَطَّ إِلَى جَنْبِهِ خَطًّا وَقَالَ: ((هذَا أَجَلُهُ))، وَخَطَّ آخَرَ بَعِيدًا مِنْهُ فَقَالَ: ((هذَا الأَمَلُ)) فَبَيْنَمَا هُوَ كَذلِكَ إِذْ جَاءَهُ الأَقْرَبُ[1].

فينبغي استحضار الموت وقربه للإنسان حتى لا ينشغل عن الآخرة وهذا ما بينه رسول الله ﷺ، فعن البراء رضي الله عنه قال: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ فِي جِنَازَةٍ. فَجَلَسَ عَلَى شَفِيرِ الْقَبْرِ. فَبَكَى، حَتَّى بَلَّ الثَّرَى. ثُمَّ قَالَ: ((يَا إِخْوَانِي لِمِثْلِ هذَا فَأَعِدُّوا))[2].

---

(١) أخرجه البخاري ٦٤١٨.

(٢) أخرجه ابن ماجه ٤١٩٥، وحسنه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٣٣٨٣).

الحديث رقم (٤٨٠)

٤٨٠ - وعن كعب بن عياض رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ، يقول: (**إنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةً، وفِتْنَةُ أُمَّتِي: المَالُ**) رواه الترمذي[1]، وقال: (حديثٌ حسنٌ صحيحٌ).

ترجمة الراوي:

كعب بن عياض: هو كعب بن عياض الأشعري، له صحبة نزل الشام، له أربعة أحاديث أو أكثر، منها هذا الحديث.

وذكر ابن عبدالبر أن جابر بن عبدالله روى عنه. وقيل: روت عنه أم الدرداء. لكن الحافظ في الإصابة قال: فيه نظر، فإنما روى جابر وكذلك أم الدرداء عن كعب بن عاصم الأشعري[2].

غريب الألفاظ:

فتنة: أي ما يمتحنون ويختبرون به[3].

الشرح الأدبي

الحديث يبدأ بلافتة قصيرة تعجل بالحكم، وتمهد لما يريد أن يقرر، وفيه لون من التشويق، والتوكيد كما سيتبين (إنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةً) وهي تحمل حكماً عاماً مؤكداً بعدة مؤكدات يقرر اشتراك جميع الأمم في وجود الفتنة، وهو يرجع إلى فروق تميز كل أمة عن أختها، ثم ذكر خاصاً من هذا العام، يتعلق بالأمة المحمدية، وهو (وفِتْنَةُ

---

(١) برقم ٢٣٣٦. وصحّحه ابن حبان الإحسان ٣٢٢٣، وقال الحاكم ٣١٨/٢: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر ٦٢٧، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود ٤٥٩/٤ والإصابة في تمييز الصحابة، ابن علي العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ١١٢٦، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين ١٦٩/٦ والتهذيب ٤٧٠/٣.

(٣) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٧٢١.

أُمَّتِي: المَالُ) وفيها إيجاز بحذف المسند إليه لدلالة الكلام السابق عليه، وهو قوله: هي المال ؛لأنها آخر الأمم، ومن المعقول أن تطور الإنسان في الدنيا يزداد من عام إلى عام فيحصل تقدم، ورقي يترتب عليه زيادة المال، وتعدد أشكاله، ومن ثم التنافس فيه، والانشغال به عن الآخرة كما نرى حال الناس في زماننا من قلة القناعة، والشكر مع كثرة الخيرات.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد، والتحذير.

ثانيًا: من تاريخ الدعوة: افتتان الأمم السابقة.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: المال فتنة للأمة الإسلامية.

أولاً - من أساليب الدعوة: التوكيد، والتحذير:

١ - أسلوب التوكيد: يظهر أسلوب التوكيد في قول رسول الله ﷺ "إن لكل أمة فتنة" حيث أكد وجود الفتن.

وأسلوب التوكيد من الأساليب التي لها آثار إيجابية في الدعوة إلى الله تعالى، نظرًا لما يحدثه هذا الأسلوب من تأثير في نفس المدعو بالنسبة للأمر الذي تم التأكيد عليه.

٢ - أسلوب التحذير: يستنبط أسلوب التحذير من قوله ﷺ "... وفتنة أمتي المال" حيث حذر من فتنة أمته ﷺ بالمال.

وأسلوب التحذير من الأساليب الدعوية المفيدة التي تعمل على تنبيه المدعوين إلى مواطن الخطر التي يجب الابتعاد عنها أو الحذر منها، وقد حذر النبي ﷺ في هذا الحديث من الافتتان بالمال، نظرًا لخطورة ذلك على المسلم وعلى سائر الأمة الإسلامية.

ثانيًا - من تاريخ الدعوة: افتتان الأمم السابقة:

يظهر ذلك في قول رسول الله ﷺ "إن لكل أمة فتنة..." فذكر افتتان الأمم السابقة. وقد ورد ما يدل على ذلك في القرآن والسنة، قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ﴾[1].

---

(١) سورة العنكبوت، الآيتان: ٢، ٣.

وقد ذكر القرآن من الأفراد الذين افتتنوا من الأمم من قوم موسى عليه السلام قارون الذي أعطاه الله المال الكثير وكان هذا المال سببًا في افتتانه وسببًا في هلاكه قال تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾(١).

قال ابن عاشور: (كان من صنوف أذى أئمة الكفر النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين، ومن دواعي تصلبهم في إعراضهم عن دعوته اعتزازهم بأموالهم وقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾(٢) أي على رجل من أهل الثروة فهي عندهم سبب العظمة ونبذهم المسلمين بأنهم ضعفاء القوم، وقد تكرر في القرآن توبيخهم على ذلك كقوله: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾(٣) وقوله: ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ﴾(٤) الآية. روى الواحدي عن ابن مسعود وغيره بأسانيد: أن الملأ من قريش وسادتهم منهم عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والمطعم بن عدي والحارث بن نوفل. قالوا: أيريد محمد أن نكون تبعًا لهؤلاء، يعنون خبابًا، وبلالاً، وعمارًا، وصهيبًا. فلو طرد محمد عنه موالينا وعبيدنا كان أعظم له في صدورنا وأطمع له عندنا وأرجى لاتباعنا إياه وتصديقنا له

---

(١) سورة القصص، الآيات: ٧٦-٧٧.

(٢) سورة الزخرف، آية: ٣١.

(٣) سورة سبأ، آية: ٣٥.

(٤) سورة المزمل، آية: ١١.

فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾(١) إلى قوله ﴿بِٱلشَّـٰكِرِينَ﴾. وكان فيما تقدم من الآيات قريبًا قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾(٢) إلى قوله ﴿ٱلْمُحْضَرِينَ﴾.

وقد ضرب الله الأمثال للمشركين في جميع أحوالهم بأمثال نظرائهم من الأمم السالفة فضرب في هذه السورة لحال تعاظمهم بأموالهم مثلاً بحال قارون مع موسى وإن مثل قارون صالح لأن يكون مثلاً لأبي لهب ولأبي سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب قبل إسلامه في قرابتهما من النبي ﷺ وأذاهما إياه، وللعاصي بن وائل السهمي في أذاه لخباب بن الأرت وغيره، للوليد بن المغيرة من التعاظم بماله وذويه. قال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا﴾(٣) فإن المراد به الوليد بن المغيرة... وافتتاح الجملة بحرف التوكيد يجوز أن يكون لإفادة تأكيد خبر "إن" وما عطف عليه وتعلق به مما اشتملت عليه القصة وهو سوء عاقبة الذين تغرهم أموالهم وتزيدهم فلا يكترثون بشكر النعمة، ويستخفون بالدين، ويكفرون بشرائع الله)(٤).

وقد بين رسول الله ﷺ أول فتنة بني إسرائيل فقال: ((إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ. وَإِنَّ اللّٰهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ. فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ. فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ))(٥).

يظهر من ذلك تأكيد القرآن الكريم وكذلك أحاديث رسول الله ﷺ على افتتان الأمم السابقة وفي ذلك تنبيه لأخذ العبرة منهم وعدم الوقوع في أخطائهم.

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٥٢.

(٢) سورة القصص، آية: ٦٠.

(٣) سورة المدثر، الآيتان: ١١، ١٢.

(٤) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور ٢٠/٨/١٧٤.

(٥) أخرجه مسلم ٢٧٤٢.

ثالثًا – من موضوعات الدعوة: المال فتنة للأمة الإسلامية:

يظهر ذلك في قول رسول الله ﷺ "... وفتنة أمتي المال".

وقد بين القرآن الكريم أن المال فتنة فقال تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾(١).

أي اختبار وامتحان منه لكم، إذا أعطاكموها ليعلم أتشكرونه عليها وتطيعونه فيها، أو تشتغلون بها عنه، وتعتاضون بها منه(٢) كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾(٣).

فالمال زينة من زينات الدنيا كما قال تعالى: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾(٤) والنفس ضعيفة قد تفتن بهذه الزينة وتنشغل بها عن الآخرة؛ لذلك حذر رسول الله ﷺ أمته من فتنة المال. فقال ((فواللهِ ما الفقرَ أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تُبسطَ عليكم الدُّنيا كما بُسِطَت على من كان قبلكم، فتَنافسوها كما تَنافسوها، وتُهلككم كما أهلكَتهم))(٥).

قال ابن عثيمين: (وهذا هو الواقع، وانظر إلى حالنا نحن لما كان الناس إلى الفقر أقرب، كانوا لله أتقى، وأخشع، وأخشى، ولما كثر المال، كثر الإعراض عن سبيل الله، وحصل الطغيان، وصار الإنسان الآن يتشوق لزهرة الدنيا وزينتها.. سيارة، بيت، فرش، لباس، يباهي الناس بهذا ويعرض عما ينفعه في الآخرة.

وصارت الجرائد والصحف وما أشبهها لا تتكلم إلا عن الرفاهية وما يتعلق بالدنيا، وأعرضوا عن الآخرة، وفسد الناس إلا من شاء الله(٦). فكان في ذلك فتنة للأمة بالمال كما أخبر رسول الله ﷺ.

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٢٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٤٢/٤.

(٣) سورة التغابن، آية: ١٥.

(٤) سورة الكهف، آية: ٤٦.

(٥) أخرجه البخاري ٣١٥٨، ومسلم ٢٩٦١.

(٦) شرح رياض الصالحين ٧٩١/١.

وفتن الدنيا كثيرة الأنواع، واسعة الأرجاء، ويجمعها كل ما كان للإنسان فيه حظ عاجل أشغل عن طاعة الله ورسوله.

والأموال أعظمها فتنة، وأطمها محنة، وأعظم فتنة فيها أنه لا غنى لأحد عنها، وإذا وجدت فلا سلامة منها، وإذا فقد المال حصل منه الفقر الذي يكاد أن يكون كفرًا، وإذا وجد حصل فيه الطغيان الذي لا تكون عاقبة أمره إلا خسرًا كما قال سبحانه: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾[١].

والأموال بوجه عام لا تخلو من الفوائد والآفات، وفوائدها من المنجيات، وآفاتها من المهلكات، وتميز خيرها من شرها لا يدركه إلا ذو البصائر في الدين من العلماء الأبرار.

فالدنيا فتنها كثيرة، والمال بعض أجزاء الدنيا، والجاه بعضها، واتباع شهوة البطن والفرج بعضها، وأكل الحرام بعضها ونحو ذلك[٢].

أما آفات المال الدينية فثلاث:

الأولى: أن المال يجر إلى المعاصي غالبًا؛ لأن من استشعر القدرة على المعصية انبعثت دواعيه إليها.

والمال نوع من القدرة يحرك داعية الإنسان إلى المعاصي، فصاحب القدرة إن اقتحم ما يشتهي هلك، وإن صبر لقي شدة في معاناة الصبر مع القدرة، وفتنة السراء أعظم من فتنة الضراء.

الثانية: أن المال يحرك الإنسان إلى التنعم في المباحات حتى تصير له عادة وإلفًا فلا يصبر عنها، وربما لا يقدر على استدامتها إلا بكسب فيه شبهة فيقتحم الشبهات، ويترقى إلى الكذب والنفاق، ثم يدخل في المحرمات لتكميل شهواته، ثم يترقى إلى الكبائر كما قال سبحانه: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾[٣].

---

(١) سورة العلق، الآيتان: ٦، ٧.

(٢) موسوعة فقه القلوب ٤/٣٢٦٨-٣٢٦٩.

(٣) سورة مريم، آية: ٥٩.

الثالثة: أن يلهيه ماله عن ذكر الله عز وجل وعبادته، وهذا هو الداء العضال الذي لا ينفك عنه أحد، فإن أصل العبادات ذكر الله عز وجل، والتفكر في جلاله وعظمته، وذلك يستدعي قلبًا فارغًا يناجي ربه لا يشغله شيء عنه، وصاحب الضيعة يصبح ويمسي متفكرًا في أحوال ضيعته، وصاحب التجارة يمسي ويصبح متفكرًا في أحوال تجارته، وفي الخوف على ماله.

هذا سوى ما يقاسيه أرباب الأموال في الدنيا من الخوف والحزن، والهم والغم، والعناء والتعب، في متاع يفنى، وخير من ذلك لو كان الجهد في أرباح تبقى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (١).

وقال النبي ﷺ: ((قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ)) (٢). وقال الرسول ﷺ: ((اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا)) (٣).

والسنة فيمن وجد المال أن يستعمله في السخاء والإيثار، واصطناع المعروف، ومن فقد المال أن يستعمل القناعة والاقتصاد في المعيشة.

وإذا تيسر للإنسان في الحال ما يكفيه فلا يضطرب لأجل المستقبل، وإذا انسد عنه باب كان ينتظر منه الرزق فلا ينبغي أن يضطرب قلبه، فلن ينقص رزقه الذي قدره الله له: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ (٤).

وقال النبي ﷺ: ((أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ. فَإِنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٥.

(٢) أخرجه مسلم ١٠٥٤.

(٣) أخرجه البخاري ٦٤٦٠، ومسلم ١٠٥٥ واللفظ له.

(٤) سورة الطلاق، الآيتان: ٢، ٣.

حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا، وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ. خُذُوا مَا حَلَّ، وَدَعُوا مَا حَرُمَ))[1])[2].

لقد حذر النبي ﷺ أمته من الافتتان بالمال من خلال عدد من النصوص، ومن جملتها أن رسول الله ﷺ قال: ((إذا فُتِحَتْ عليكُمْ خُزائِنُ فارِسَ والرُّومِ، أيُّ قَوْمٍ أَنْتُمْ؟ قَالَ عبد الرحمن بن عوفٍ: نكونُ كما أَمَرَنَا اللَّهُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: تَتَنَافَسُونَ، ثُمَّ تَتَحَاسَدُونَ، ثُمَّ تَتَدابَرُونَ، ثُمَّ تَتَبَاغَضُونَ، ثُمَّ تَنْطَلِقُونَ إِلَى مَسَاكِينِ الْمُهَاجِرِينَ، فَتَحْمِلُونَ بَعضَهُمْ عَلَى رِقَابِ بَعْضٍ))[3].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ((سَيَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ يَحْسِرُ الفُرَاتُ عَنْ جَبَلٍ مِنْ ذَهَبٍ، فَيَقْتَتِلُ عَلَيْهِ النَّاسُ، فيُقتَلُ مِنْ كُلٍّ مِئَةٍ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ»، قالَ: يَا بُنَيّ، إِنْ أَدْرَكْتَهُ، فَلا تَكونَنَّ مِمَنْ يُقَاتِلُ عَلَيْهِ))[4] وهذا من معجزات رسول الله ﷺ ودلائل نبوته مما اطلع عليه من الغيوب المستقبلة وإخباره عنها[5].

---

(١) أخرجه ابن ماجه ٢١٤٤ وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ١٧٤٣).

(٢) انظر: موسوعة فقه القلوب ٤/٣٢٧٠-٣٢٧٢.

(٣) أخرجه مسلم ٢٩٦٢.

(٤) أخرجه مسلم ٢٨٩٤.

(٥) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن محمد بن ملوح ١/٥٤٢.

الحديث رقم (٤٨١)

٤٨١ - وعن أَبي عمرو، ويقالُ: أَبو عبدِ الله، ويقالُ: أَبو ليلى عثمان بن عفان رضي الله عنه: أنَّ النبي ﷺ، قَالَ: ((لَيْسَ لابْنِ آدَمَ حَقٌّ فِي سِوَى هذِهِ الخِصَالِ: بَيْتٌ يَسْكُنُهُ، وَثَوْبٌ يُوارِي عَوْرَتَهُ، وَجِلْفُ الخُبز وَالماء)) رواه الترمذيُّ[(١)]، وقال: (حديث صحيح).

ترجمة الراوي:

عثمان بن عفان: هو عثمان بن عفان بن أبي العاص القرشي.

ولد بمكة بعد عام الفيل بست سنين، وأسلم بعد البعثة بقليل وهو أمير المؤمنين، وثالث الخلفاء الراشدين، وأحد العشرة المبشرين بالجنة وأحد الستة الذين جعل "عمر رضي الله عنه الأمر شورى بينهم، وأحد الخمسة الذين أسلموا على يد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وأول من هاجر إلى الحبشة مع زوجته رقية بنت النبي ﷺ فعن شهاب: ((أن عثمان بن عفان رضي الله عنه وامرأته رقية بنت رسول الله ﷺ خرجا مهاجرين من مكة إلى الحبشة الأولى، ثم قدما على رسول الله ﷺ مكة ثم هاجرا إلى المدينة))[(٢)] فكان من السابقين إلى الإسلام، وممن صلى القبلتين، وهاجر الهجرتين، ولقب بذي النورين لزواجه من بنتي النبي ﷺ "رقية ثم أم كلثوم".

وقد عُدّ في البدريين وأثبت له النبي ﷺ في ذلك سهمًا على الرغم من تخلفه وما ذلك إلا لتمريض زوجته رقية التي كانت عليلة، فأمره النبي ﷺ بأن يمكث معها[(٣)] وعُدّ في أهل الحديبية، بعد أن بعثه النبي ﷺ إلى أهل مكة، لكونه أعزّ بيت

---

(١) برقم ٢٣٤١ وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ. قال الدارقطني في العلل ٢٦٥: كذا رواه حُريث بن السائب، عن الحسن، عن حمران بن عثمان، عن النبي ﷺ، ووهم فيه. والصواب: عن الحسن، عن حمران، عن بعض أهل البيت. أورده المنذري في ترغيبه ٤٧١٢.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٦٢٢/٢ رقم ٤٢٠٥، وقال قد اتفق الشيخان على إخراج حديث ابن أبي شيبة وغيره والزهري، عن عروة، عن عبيد الله بن عدي، عن المسور بن مخرمة في خروج عثمان بن عفان إلى أرض الحبشة.

(٣) أخرجه البخاري ٣٦٩٨.

بمكّة، فأشيع أنهم قتلوه، فكان ذلك سبب البيعة، فضرب النبي ﷺ بشماله على يمينه، وقال ((هذه يدُ عثمان))(١)، فقال الناس هنيئًا لعثمان وقد أقام بنفسه وماله في واجب النصرة، ثم جهز جيش العسرة بتسعمائة وخمسين بعيرًا وخمسين فرسًا!! كما اشترى بئر رومة بعشرين ألفًا، وتصدق بها كما ابتاع توسعة المسجد النبوي بخمسة وعشرين ألفًا.

وقد بويع للخلافة بعد وفاة عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة ٢٣هـ، فأتم جمع القرآن وتمت في خلافته فتوحات كثيرة في آسيا وأفريقيا.

وكان ﷺ شديد الحياء، قال فيه النبي ﷺ: ((ألا استحي من رجل تستحي منه الملائكة))(٢)، وهو الذي قال عن نفسه: ما تغنيت ولما تمنيتُ، ولا وضعتُ يدي اليمنى على فرجي منذ بايعتُ بها رسول الله ﷺ!! وما مرّتْ بي جمعة إلا وأعتق فيها رقبة!! ولا زنيت في جاهلية ولا إسلام، ولا سرقت!! وكان رجلاً شديد المتابعة لسنة النبي ﷺ، كثير قيام الليل، بل كان أول من ختم القرآن في ركعة!! وقد اهتز أُحدٌ يومًا وكان عليه النبي ﷺ، وأبو بكر وعمر وعثمان فقال النبي ﷺ اسْكُن أُحُدُ فليس عليك إلا نبيٌّ وصديق وشهيدان(٣)، وصدق الصادق الأمين فقد قتل عثمان شهيدًا بعد ما حوصِرَ أربعين يومًا وكان سبب ذلك أنه رضي الله عنه كان كَلِفًا بأقاربه، لين العريكة كثير الإحسان والحلم. وقد خص أقاربه بالولايات والأعمال، فأقبل عليه أهل مصر يشكون واليهم "عبدالله بن أبي السرح" فعزله وكتب له كتابًا بتولية محمد بن أبي بكر الصديق فرضوا بذلك، فلما كانوا في أثناء الطريق رأوا راكبًا على راحلته، ومعه كتابًا مفترى، إلى ابن أبي السرح يحرّضه ويحثه على قتلهم إذا قدموا عليه، فرجعوا به إلى عثمان رضي الله عنه، فحلف لهم أنه ما كتب، ولا أذن بذلك وصدق رضي الله عنه فهو أجل قدرًا وأنبل ذكرًا، فطلبوا منه أن يسلمهم كاتبه، فخشى عليه منهم القتل ولم

---

(١) أخرجه البخاري ٣٦٩٨.

(٢) أخرجه مسلم ٢٤٠١.

(٣) أخرجه البخاري ٣٦٩٩.

تقم بينة على أنه هو الذي أرسل الكتاب المفترى، وكان كاتبه مروان بن الحكم "ابن عمه" فغضبوا وحاصروه في داره -وكانوا من الكوفة والبصرة ومصر - يراودونه على أن يخلع نفسه فأبى "امتثالاً لقول النبي ﷺ ((يا عثمان، إن الله مقمِّصك قميصًا فإنْ أرادكَ الله عز وجل عسى أن يُلبسك قميصًا، فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه حتى تلقاني. يا عثمان إن الله عسى أن يلبسك قميصًا فإن أدرك المنافقون على خلعه، فلا تخلع حتى تلقاني... ثلاثًا))[١].

ورفض أن يقاتلهم وقال: إن رسول الله ﷺ عهد إليَّ عهدًا، فأنا صابرٌ عليه[٢].

وأراد الصحابة الأطهار أن يدافعوا عنه بحياتهم فأبى رضي الله عنه وقال لأبي هريرة رضي الله عنه عزمًا عليك يا أبا هريرة إلا رميت سيفك فإنما يراد نفسي، وسأقي المؤمنين بنفسي، قال أبو هريرة فرميت بسيفي فلا أدري أين هو حتى الساعة فتسوَّروا عليه من دار إلى دار، فدخلوا عليه فقتلوه، فعظم ذلك على أهل الخير من الصحابة وغيرهم.

فقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : والله ما أعنتَ على قتله ولا أمرتُ ولا رضيت، وقال: كان عثمان أوصلنا للرحم، وكان من الذين آمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين، وقالت عائشة لما بلغها مقتل عثمان: "قتلوه، وإنه لأوصلهم للرحم وأتقاهم للرب"، وبعد مقتله رضي الله عنه انفتح باب الفتنة الأولى في الإسلام.

وقد بلغت رواياته عن النبي ﷺ (١٤٦) حديثًا. وتوفي شهيدًا سنة ٣٥هـ وهو ابن تسعون أو ثمانون سنة[٣].

---

(١) أخرجه أحمد ٨٧/٦ رقم ٤٥٦٦، وقال محققو الإسناد: إسناده صحيح ١١٣/٤١.

(٢) أخرجه أحمد ٥٨/١ رقم ٤٠٧، وقال محققو الإسناد: إسناده حسن ٤٦٧/١.

(٣) طبقات ابن سعد ٥٣/٣-٨٤، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر ٥٤٤-٥٥١، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود ٥٧٨/٣-٥٨٥، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن علي العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ٨٩٠-٨٩١، والأعلام، خير الدين الزركلي ٢١٠/٤، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين ١٢٦/٥-١٣٠، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٧٢/٣، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك ٣١٠/١-٣٢٠.

غريب الألفاظ:

الخِصال: المراد هنا: ما يحصل للرجل ويسعى في تحصيله[(١)].

يواري: يستر[(٢)].

الجلفُ: قال الترمذي: سمعت أبا داود سليمان بن سالم البلخي يقول: سمعت النضر بن شميل يقول: الجِلْف: الخبز ليس معه إدام[(٣)]، وقال غيره: هو غليظ الخبز، وقال الهرويُّ: المراد به هنا: وعاء الخبز كالجوالق[(٤)] والخُرْج[(٥)].

الحديث يتناول الحد الذي يكفي الإنسان في حياته، ويبني قناعته عليه، وهذا يضمن للإنسان عدم الانشغال بالمال الذي يمكن أن يكون صنماً يستعبد القلب من دون الله (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ...)(البقرة ١٦٥) وقد بدأ الحديث بأسلوب النفي ليعزل عن المؤمن ما يضره مما زاد عن الحاجة، وفيه تقوية لجانب التكافل، والتعاون، (لَيْسَ لابْنِ آدَمَ حَقٌّ في سِوَى هذِهِ الخِصَالِ) وهذا إجمال فيه تشويق يتبعه تفصيل يحقق التوكيد بذكر الخصال، والتعبير بالحق يدل على أنه لازم ضروري، والتعبير بالخصال يشير إلى انفراد كل واحدة منها عن الأخرى، وأولها :بيت يسكنه، وذكر فعل السكن بعد ذكر البيت بيان للغاية منه، وهي السكن، وليس لغيره، والثانية: ثَوْبٌ يُوارِي عَوْرَتَهُ، والتعبير بمواراة العورة مبالغة في الاكتفاء بالضروري، وترك ما زاد، الثالثة: جِلْفُ الخُبزِ وَالماء، أي إناء الخبز، والماء، أو الجلف نوع غليظ من الخبز.

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٧٢٣.

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٨٦١/٢.

(٣) الإدام: هو ما يؤكل مع الخبز، أي شيء كان. النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (أ د م).

(٤) الجوالق: الغِرارة وهي وعاء من الخيش ونحوه يوضع فيه القمح ونحوه. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ج ل ق) و(غ ر ر).

(٥) وعاء من شعر أو جلد، ذو عدلين، يوضع على ظهر الدابة لوضع الأمتعة فيه. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (خ ر ج).

المضامين الدعوية[1]

أولاً: من أساليب الدعوة: النفي والإثبات.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الزهد في الدنيا والاقتصار على حد الكفاف.

ثالثًا: من مصادر الدعوة: القرآن الكريم.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: بيان حرص الإنسان على المال.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: بيان أن ما يحرص عليه الإنسان من حظوظ الدنيا فانٍ، وما يقدمه للآخرة باق.

أولاً - من أساليب الدعوة: النفي والإثبات:

قد ورد هذا الأسلوب في الحديث من قوله ﷺ: "ليس لابن آدم حق في سوى هذه الخصال... إلخ"، حيث نفى أن يكون لابن آدم حق ثم أثبت له الحق في ثلاث خصال ذكرها النبي ﷺ، والنفي والإثبات من الأساليب الدعوية التي تجعل المدعو على بينة من أمره فينتفع بما أُمر به ويتجنب ما نُهي عنه وفي ذلك عظيم الفائدة.

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: الزهد في الدنيا والاقتصار على حد الكفاف:

(الزهد هو عدم احتفال القلب بالدنيا والأموال وإن كانت في اليد)[2]، (وليس الزهد في الدنيا بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال، ولكن أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك، وأن تكون ثواب المصيبة - إذا أصبت بها - أرغب منك فيها لو لم تصبك)[3]، (فقد يكون الغني زاهدًا وقد يكون الفقير غير زاهد)[4].

(والزهد على ثلاثة أوجه. الأول: ترك الحرام، وهو زهد العوام. والثاني: ترك الفضول من الحلال، وهو زهد الخواص. والثالث: ترك ما يشغل عن الله، وهو زهد العارفين)[5]، (وقد كان القرآن مملوءًا من التزهيد في الدنيا، والإخبار بخستها وقلتها

---

(١) تم دمج المضامين الحديث لهذا الحديث -٤٨١- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (٤٨٢).

(٢) الفروق، القرافي ٤/٢٠٩.

(٣) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢/١٨٣.

(٤) الفروق، القرافي ٤/٢٠٩.

(٥) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢/١٨١.

وانقطاعها، وسرعة فنائها، والترغيب في الآخرة، والإخبار بشرفها ودوامها)[١]، قال تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾[٢] وقال: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[٣] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[٤] وقال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾[٥].

وهذا ما أكد عليه النبي ﷺ في هذين الحديثين من قوله "ليس لابن آدم حق في سوى هذه الخصال... الخ" وقوله ﷺ "وهل لك يا ابن آدم إلا ما أكلت فأفنيت، أو ما لبست فأبليت أو ما تصدقت فأمضيت".

قال الطيبي: (قال البيضاوي: أراد بـ "الحق" ما يستحقه الإنسان لافتقاره إليه وتوقف تعيشه عليه، وما هو المقصود الحقيقي من المال" اهـ، ومن شرع في سعي الدنيا والاستمتاع بها وبمستلذاتها ومباحاتها أوقع نفسه ودينه في خطر عظيم، فيجب عليه أن يحترز منها كل الاحتراز إلا ما لابد له منه، وهو هذه الخصال الثلاث)[٦]. وقال ابن عثيمين: (في قوله ﷺ: "وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضت" هكذا قال النبي ﷺ وهو كذلك فإن الإنسان ما له من ماله إلا هذه الأشياء، إما أن يأكل طعامًا وشرابًا، وإما أن يلبس من أنواع اللباس،

---

(١) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ١٧٨/٢.

(٢) سورة النحل، آية: ٩٦.

(٣) سورة الحديد، آية: ٢٠.

(٤) سورة طه، آية: ١٣١.

(٥) سورة الأعلى، آية: ١٦-١٧.

(٦) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٣٠٦/٩.

وإما أن يتصدق، والباقي له هو ما يتصدق به، أما ما يأكله وما يلبسه؛ فإن كان يستعين به على طاعة الله كان خيرًا له، وإن كان يستعين به على معصية الله وعلى الأشر والبطر كان محنة عليه والعياذ بالله)[١].

وفي بيان فضل الزهد في الدنيا والاقتصار على الكفاف، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ((دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، وَهُوَ عَلَى حَصِيرٍ. قَالَ: فَجَلَسْتُ فَإِذَا عَلَيْهِ إِزَارٌ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ. وَإِذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ. وَإِذَا أَنَا بِقَبْضَةٍ مِنْ شَعِيرٍ، نَحْوِ الصَّاعِ، وَقَرَظٍ فِي نَاحِيَةٍ فِي الْغُرْفَةِ. وَإِذَا إِهَابٌ مُعَلَّقٌ. فَابْتَدَرَتْ عَيْنَايَ. فَقَالَ: مَا يُبْكِيكَ يَا بْنَ الْخَطَّابِ فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَمَا لِي لاَ أَبْكِي؟ وَهـذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِكَ وَهـذِهِ خِزَانَتُكَ لاَ أَرَى فِيهَا إِلاَّ مَا أَرَى وَذٰلِكَ كِسْرَىٰ وَقَيْصَرُ فِي الثِّمَارِ وَالأَنْهَارِ. وَأَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَصَفْوَتُهُ، وَهـذِهِ خِزَانَتُكَ. قَالَ: يَا بْنَ الْخَطَّابِ أَلاَ تَرْضَىٰ أَنْ تَكُونَ لَنَا الآخِرَةُ وَلَهُمُ الدُّنْيَا؟ قُلْتُ: بَلَىٰ))[٢].

وقال الحسن البصري: (والله أدركت أقوامًا لو شاء أحدهم أن يأخذ هذا المال من حله أخذه فيقال لهم ألا تأتون نصيبكم من هذا المال فتأخذونه حلالاً؟ فيقولون لا، إنا لنخشى أن يكون أخذه فسادًا لقلوبنا، وقال: أدركت أقوامًا لا يفرحون بشيء من الدنيا أتوه، ولا يأسون على شيء منها فاتهم، وقال: لقد رأيت أناسًا تعرض لأحدهم الدنيا حلالاً فلا يتبعونها، يقولون: ما ندري ما حالنا فيها)[٣].

فيجب النظر إلى الدنيا بعين الزوال وقصر الأمل فيها وخلو القلب عنها وليس المراد الفقر الذي يضطر الإنسان إلى المسألة والذلة فذلك هو ما استعاذ منه النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ((اللَّهُمَّ إني أَعُوذُ بِكَ مِنَ الكُفْرِ و الفَقْرِ))[٤].

---

(١) شرح رياض الصالحين ١/ ٨٠٠.

(٢) أخرجه البخاري ٤٩١٣، ومسلم ١٤٧.

(٣) الزهد، الحسن البصري ٢٩.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك ١/ ٣٤ رقم ١٠٦، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

ثالثًا - من مصادر الدعوة القرآن الكريم:

يظهر ذلك في الحديث من قول الراوي: "أتيت النبي ﷺ، وهو يقرأ: ألهاكم التكاثر"، فالقرآن الكريم هو (كلام الله المعجز، المنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين بواسطة جبريل عليه السلام، المكتوب في المصاحف، المنقول إلينا بالتواتر، المتعبد بتلاوته، المبدوء بسورة الفاتحة، المختتم بسورة الناس)[١]، (أنزله الله تبارك وتعالى ليكون دستورًا للأمة، وهداية للخلق، وحجة قائمة إلى يوم الدين)[٢].

(فالقرآن للداعية هو حجته التي لا تضل وبينته التي لا تزول ورايته التي لا تتوارى يعطيه طلاوة وحلاوة، ويزيده بهاء ووضاءة ويمنحه إقناعًا وهداية واتباعًا... لسان من لا لسان له وفصاحة من لا فصاحة عنده وطريق من ضل الدرب وتاه عن الصراط المستقيم كما هو عقل وصواب، وعزم ومضاء، وإرادة وحكم، واستقامة وتقدم، وعدالة واستقرار وأمن وطمأنينة، ورحمة ورأفة، ومبدأ وفكرة، كما هو حياة بغير ضلال أو عوج أو شرور وآثام وفتن وأهواء)[٣]. ومنه يستمد الداعية مادته الدعوية فيستشهد بآياته ويلتمس شواهده وفي ذلك عظيم الأثر على المدعوين.

رابعًا - من موضوعات الدعوة: بيان حرص الإنسان على المال:

يظهر ذلك من قول عبدالله بن الشخير رضي الله عنه: أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ: "ألهاكم التكاثر" قال: "يقول ابن آدم مالي، مالي ... إلخ الحديث"، قال القرطبي: (وقوله: "ألهاكم التكاثر" يعني شغلكم الإكثار من الدنيا، ومن الالتفات إليها عما هو الأولى بكم من الاستعداد للآخرة، وهذا الخطاب للجمهور إذ جنس الإنسان مفطور، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾[٤] وكما قال: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ

---

(١) الاتقان في علوم القرآن، السيوطي، ١/١٨٨، والتبيان في علوم القرآن، محمد علي الصابوني، ٦.

(٢) انظر: بحث حفظ القرآن الكريم وتعليمه، د. حمد بن ناصر العمار، ص ٢.

(٣) الخطابة وإعدد الخطيب، د. توفيق الواعي، ١١٦.

(٤) سورة القيامة، الآيتان: ٢٠، ٢١.

ﭐلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ﴾[(١)] الآية. وقوله: "يقول ابن آدم مالي مالي" أي يغتر بنسبة المال إليه وكونه في يديه، حتى ربما يعجب به ويفخر به، ولعلّه تعب هو في جمعه، ويصل غيره إلى نفعه[(٢)].

(مما لا شك فيه أن المال هو قوام الحياة ووسيلة العيش لكنه ليس غاية العباد وقد ذم الإسلام عباد المال الذين يتخذون من جمع المال هدفًا لحياتهم وكسبهم كما ذم القرآن الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله، فكنزهم للمال دليل على أنهم اتخذوا المال غاية)[(٣)]، قال ابن الجوزي: (رأيت من أعظم حيل الشيطان ومكره، أن يحيط أرباب الأموال بالآمال، والتشاغل باللذات القاطعة عن الآخرة وأعمالها فإذا علقهم بالمال - تحريضًا على جمعه وحثًا على تحصيله - أمرهم بحراسته بخلاً به وحرصًا عليه)[(٤)]، وهذا ما أشار إليه نص الحديث في قوله ﷺ: "يقول ابن آدم: مالي، مالي" وهذا ما بينه الحق تبارك وتعالى في قوله: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا﴾[(٥)] وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ﴾[(٦)].

قال ابن كثير: (أي: وإنه لحب الخير - وهو المال - لشديد وفيه مذهبان: أحدهما: أن المعنى: وإنه لشديد المحبة للمال، والثاني: وإنه لحريص بخيل؛ من محبة المال، وكلاهما الصحيح)[(٧)].

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٤.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٧/١١٠-١١١.

(٣) انظر: نظام الإسلام الاقتصادي مبادئ وقواعد عامة، محمد المبارك ص ٢٦.

(٤) انظر: صيد الخاطر، ابن الجوزي، تحقيق: عبدالقادر عطا ٦٨.

(٥) سورة الفجر، آية: ٢٠.

(٦) سورة العاديات، آية: ٨.

(٧) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/٤٦٧.

(وقد أنذر الله تعالى من استحوذ عليه حب المال ورأى لنفسه حقًا وحرية في التصرف فيه، والضنَّ به، والحدب عليه، فقال: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[1])[2].

(وأنذر تعالى المسلمين كذلك بأن الحرص والاضراب عن الإنفاق في سبيل الله بسخاء وعلو همة، وبذل النفس والنفيس لله تعالى، وخذلان هذا الدين الذي به بقاؤهم وحياتهم، وانتصارهم، وازدهارهم سعي في هلاك النفس، ومرادف لما يسمونه اليوم "الانتحار" فقال: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[3])[4].

خامسًا - من موضوعات الدعوة: بيان أن ما يحرص عليه الإنسان من حظوظ الدنيا فان، وما يقدمه للآخرة باق:

هذا ما أشار إليه نص الحديث في قوله ﷺ "وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، وما ما لبست فأبليت، أو ما تصدقت فأمضيت". فبيّن ﷺ أن ما يحصل عليه الإنسان من مأكل وملبس سيزول أثره بمرور الأيام وبالموت، ويبقى حسابه، إن أسرف فيه أو حصّله من حرام، أما ما تصدق به على المحتاجين قاصدًا به وجه الله فنفعه باق في الآخرة عند الله عز وجل[5].

---

(١) سورة التوبة، آية: ٢٤.

(٢) الأركان الأربعة (الصلاة، الزكاة، الصوم، الحج)، أبو الحسن علي الحسني الندوي ص ١٠١.

(٣) سورة البقرة، آية: ١٩٥.

(٤) الأركان الأربعة: (الصلاة، الصيام، الزكاة، الحج)، أبو الحسن الندوي، ١٠١.

(٥) انظر: شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم، ص ٣٢٠.

قال تعالى: ﴿ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾(١) (فبين تعالى الفرق بين حال الدنيا وحال الآخرة؛ بأن هذه تنفد وتحول، وما عند الله من مواهب فضله ونعيم جنته ثابت لا يزول لمن وفى بالعهد، وثبت على العقد، ولقد أحسن من قال:

هب الدنيا تساق إليك عفوًا	أليس مصير ذاك إلى انتقال
وما دنياك إلا مثل فيءٍ	أظلك ثم آذن بالزوالِ)(٢)

وقد أكد النبي ﷺ على ذلك، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: ((أن رسولَ الله ﷺ أمرَ أن تذْبَح شاةٌ فيقسِّمها بين الجيران، فقسَّمَتها بين الجيران، ورفعَت الذِّراع إلى النبيِّ ﷺ، وكان أحبَّ الشاة إليه الذِّراعُ، فلما جاء النبي ﷺ قالت عائشة رضي الله عنها: ما بقي عِندنا منها إلاَّ الذراعُ، قال: كلُّها بَقِيَ إلاَّ الذِّراعُ))، وفي رواية ((ما بقي منها إلا كتفها))(٣) وفي ذلك دليل على أن ما عند الله خير وأبقى.

---

(١) سورة النحل، آية: ٩٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٧٣/١٠/٥.

(٣) أخرجه ابن ماجه ٤١٣٥، وحسنه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٣٣٥٠).

الحديث رقم (٤٨٢)

٤٨٢ - وعن عبدِ الله بن الشِّخِّيرِ - بكسر الشينِ والخاء المعجمتين - رضي الله عنه، أنه قَالَ: أتَيْتُ النَّبيَّ ﷺ، وَهُوَ يَقْرَأُ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ قَالَ: ((يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي، مالي، وَهَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إلاَّ مَا أكَلْتَ فَأفْنَيْتَ، أَو لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟!)) رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن الشِّخِّير: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤٥٠).

غريب الألفاظ:

أمضيتَ: أنْفَذْتَ فيه عطاءك ولم تتوقَّفْ فيه[٢].

الشرح الأدبي

الحديث من باب الترغيب في الزهد في الدنيا يبين ما للمال من فتنة، وما لابن آدم حقيقة من ماله وتعلقه به الذي عكسته كلمة (مالى) بإضافته إليه وتكرار الكلمة نفسها يؤكد شغفه به، وتكالبه على جمعه من الحرام، والحلال، ويعكس تمسكه به وظنه أنه خالد فيه بغفلته، ولذلك جاء استفهام النبي ﷺ (وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا....؟) نفي لأن يكون للمال فائدة حقيقية لابن آدم، إلا في هذه الأوجه الثلاثة. يقف بحسم أمام مشاعر الأثرة، فالتكالب على جمع المال من الحرام، والحلال التي أشاعتها عبارة (مالي مالي)، ويقرر خطأ التكاثر في الأموال من حلال، وحرام حتى يفكر الإنسان ملياً في طرق جمعه، وسبل إنفاقه، وأداة الاستفهام (هل) مثلت صحية الاحتجاج على مشاعر حب التملك، والتمسك بالمال، والتكالب على جمعه، ووقفت - لحظات - بالنفس الأمارة بالسوء أمام ضمير الإنسان الواعي، أمام داعي الله في قلب

---

(١) برقم ٢٩٥٨/٣. أورده المنذري في ترغيبه ٤٧٣١.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (م ض ى).

المؤمن؛ لترجع نفساً لوامة تقر بنفي ما نفاه الرسول ﷺ، وتقر بأنه ليس لها من المال إلا (ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت) وأن ما زاد فللورثة يتنعمون، والجامعون يحاسبون. هذا ما أفادته الأداة بالإضافة إلى معنى النفي مع ما بعثته من يقظة، وترقب حتى نهاية الحديث.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (٤٨٣)

٤٨٣ - وعن عبدِ الله بن مُغَفَّل رضي الله عنه ، قَالَ: قَالَ رجل للنبي صلى الله عليه وسلم : يَا رسولَ الله، وَاللهِ إنّي لأُحِبُّكَ، فَقَالَ: ((انْظُرْ مَاذَا تَقُولُ؟)) قَالَ: وَاللهِ إنّي لأُحِبُّكَ، ثَلاَثَ مَرَّات، فَقَالَ: ((إنْ كُنْتَ تُحِبُّنِي فَأَعِدَّ لِلْفَقْرِ تِجْفَافًا، فإنَّ الفَقْرَ أسْرَعُ إلَى مَنْ يُحِبُّنِي مِنَ السَّيْلِ إلَى مُنْتَهَاهُ)) رواه الترمذيُّ[1] ، وقال: (حديث حسن).

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مُغفَّل المزني: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٦٦).

غريب الألفاظ:

تِجفافًا: التجفاف: شيء يُلْبَسُهُ الفَرَسُ، ليتقي به الأذى، وقد يلبسه الإنسان[2].

مُنتهاه: أي مستقره[3].

عبارة الإنسان البليغ انعكاس صادق لمشاعره، وإذا نظرنا في عبارة هذا الرجل الذي جاء يخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بمشاعره، وأنه يحبه، وقد جاء نداؤه يحمل الإجلال، والتقدير حيث استخدم (يا) التي ينادى بها البعيد مع قربه إشارة إلى بعد مكانته، ثم ناداه بلقبه، وأضافه لربه، تشريفاً، ثم صدَّر خبره بالقسم بلفظ الجلالة (الله) ثم بحرف التوكيد، واسمية الجملة، واللام الداخلة على جملة خبر (إن) كما صاغ فعل المحبة في صورة المضارع للدلالة على الاستمرار، والتجدد، وكأن حب النبي في قلبه مع استمراره يتجدد بالزيادة، وهذه العبارة كثيفة المؤكدات التي تشع بالمحبة قابل بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له (انظر ماذا تقول ؟) الأمر(انظر) للتدبر، والتأمل ليراجع نفسه، والاستفهام (ماذا تقول ؟) للتنبيه، كأنه ينهاه عن الدعوة دون الاجتهاد في العبادة،

---

(١) برقم ٢٣٥٠ وقال: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ. وله شاهد من حديث أبي ذر، أخرجه الحاكم ٣٣١/٤ وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٢) رياض الصالحين ٢٣٠.

(٣) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٨٦٦/٢.

والعمل، وقوله (فَأَعِدَّ لِلْفَقْرِ تِجْفَافاً) استعار التجفاف للصبر؛ لأنه يستر الفقر كما يستر التجفاف البدن عن الضر، والتشبيه بالسيل يدل على سرعة البلايا المفهومة من سرعة السيل، كما يفيد تتابعها، واتصالها كتتابع الماء في السيل، واتصاله، كما يدل على القوة، لأن السيل يندفع بقوة تجرف ما يلاقيها كما يشير إشارة خفية إلى أنه تلك البلايا يتبعها تقريب من الله للعبد، وفيوضات، وتفريج كما يحدث بعد السيل من الخصب، والنماء، والري فينمو العشب، وتسقي الدواب، وحاصل الحديث أن من ادعى محبة الله ورسوله فعليه أن يجتهد في العبادة، وأن يصبر على البلاء، وأن يقتدي بالرسول ﷺ في الزهد في متاع الدنيا الزائل، وأن يعلم أن الابتلاء سنة الله في المؤمنين فإن أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل خصوصاً سيد الأنبياء فيكون بلاؤه أشد بلائهم، ويكون لأتباعه نصيب على قدر ولائهم.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النداء والقسم والتوكيد.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: مراجعة الداعية للمدعو وسؤاله للتأكد من حقيقة ما يقول.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: التكرار والشرط.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: نظرة الإسلام إلى الفقر.

خامسًا: من مهام الداعية: بيان أن حب النبي ﷺ مقدم على الدنيا وزينتها.

أولاً – من أساليب الدعوة: النداء والقسم، والتوكيد:

إن النداء من الأساليب الدعوية التي يكون بها لفت انتباه الداعية والمدعوين واستحضار أذهانهم، وهذا ما ورد في الحديث من قول "يا رسول الله"، فالنداء قد يستخدمه الداعية للفت انتباه المدعو واستحضار ذهنه وقد يسخدمه المدعو للفت انتباه الداعية إلى أنه يريد منه الإجابة على شيء أو توضيحه أو إبلاغه بشيء يريد معرفة حكمه وهو أسلوب دعوي مفيد في الدعوة لتحقيقه للفت الانتباه واستحضار الذهن. أما القسم فيقصد به الحلف واليمين، وهو من الأساليب التي أوردها العرب وعرفها الناس قديمًا واستعملوه تأكيدًا لخبر، أو تعظيمًا لشيء، أو جمع انتباه حول غاية، وقد أحسّ

العرب الجاهليون بأهدافه ومراميه فاستعملوه في كلامهم وجعلوه دليلاً على إثبات الحق. يقول زهير:

فإن الحق مقطعه ثلاث   يمين أو نفار أو جلاء[١]

وقد ورد هذا الأسلوب الدعوي في الحديث في قول الرجل: "والله إني لأحبك"، فالقسم أسلوب دعوي يستخدم من الداعية أو المدعو للتأكيد على كلامه، والتأكيد على هدفه وأهميته. أما التوكيد فيقصد به تقوية الكلام وإثباته في أذهان المدعوين وهذا ما ورد في الحديث من تأكيد الرجل على حب النبي ﷺ في قوله: "إني لأحبك"؛ حيث أُكد كلامه بـ "إن" وكرره ثلاثًا وفي ذلك زيادة تأكيد، ومن المعلوم أن العرب لا تؤكد إلا ما تهتم به؛ فإن من اهتم بشيء أكثر ذكره، وكلما عظم الاهتمام كثر التأكيد، فالتوكيد أسلوب دعوي يستخدم للتأكيد على الشيء وبيان أهميته[٢].

ثانيًا - من أساليب الدعوة: مراجعة الداعية للمدعو وسؤاله للتأكد من حقيقة ما يقول:

يظهر ذلك في الحديث من قوله ﷺ "انظر ماذا تقول" أي: رمت أمرًا عظيمًا وخطبًا خطيراً فتفكر فيه، فإنك توقع نفسك في خطر وأي خطر أعظم من أن يستهدفها غرضًا لسهام البلايا والمصائب[٣]. وفي ذلك بيان للأمر وإيضاحه على النحو الذي أراده المدعو، وفي ذلك عظيم الفائدة، لتقديم الإجابة المناسبة للمدعو.

ثالثًا - من أساليب الدعوة: التكرار والشرط:

وقد ورد التكرار في الحديث من قول "والله إني لأحبك، ثلاث مرات" وبالتكرار تعظم الفائدة في ترسيخ المعنى وتأكيده في الأذهان وبيان أهميته وإيضاحه للسامعين، ((وقد كَانَ النبي ﷺ إِذَا تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَعَادَهَا ثَلاَثًا حَتَّى تُفْهَمُ عَنْهُ))[٤]، أما الشرط فهو من الأساليب الدعوية التي يحصل بها استحضار انتباه المدعو في انتظار فعل الشرط

---

(١) الدعوة الإسلامية، د. أحمد غلوش ص ٣٢٩ - ٣٣٠.

(٢) محاسن التأويل، القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ص ٢٥٧.

(٣) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٨٦٦/٢.

(٤) أخرجه البخاري ٩٥.

وجواب الشرط وقد ورد ذلك في الحديث من قوله ﷺ "إن كنت تحبني فأعدَّ للفقر تجفافًا... إلخ".

رابعًا – من موضوعات الدعوة: نظرة الإسلام إلى الفقر:

مما لا شك فيه أن الأحاديث الواردة في مدح الزهد في الدنيا لا تعني مدح الفقر فإن الزهد يقتضي ملك شيء يزهد فيه، فالزاهدُ حقًا من ملك الدنيا فجعلها في يده ولم يجعلها في قلبه، والإسلام يجعل الغِنَى نعمة يمتن الله بها، ويطالب بشكرها، ويجعل الفقر مشكلة بل مصيبة يستعاذ بالله منها ويضع مختلف الوسائل لعلاجها.

وحسبنا أن نذكر هنا أن الله امتن على رسوله بالغنى فقال: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾[١]، وجعل إيتاء المال من عاجل مثوبته تعالى لعباده المؤمنين: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾[٢]، والأحاديث النبوية تعتبر الفقر آفة خطيرة يخشى سوء أثرها على الفرد وعلى المجتمع معًا، وعلى العقيدة والإيمان، وعلى الخلق والسلوك، وعلى الفكر والثقافة، وعلى الأسرة والأمة جميعًا[٣].

وقد أراد النبي ﷺ أن يتسامى بهمم الصحابة رضي الله عنهم، وأن يزهدهم في الدنيا حيث أراد أن يؤهلهم التأهل النفسي لتحمل ظروف الفقر وشظف العيش وقسوته، وأن يوطن كل منهم نفسه على تحمل ومكابدة تلك الظروف، ولذا قال النبي ﷺ لمن أخبره بأنه يحبه: (إن كنت تحبني فأعد للفقر تجفافًا فإن الفقر أسرع إلى من يحبني من السيل إلى منتهاه)، قال المباركفوري: (قوله: "إن كنت تحبني حبًا بليغًا كما تزعم "فأعد" أمرمخاطب من الإعداد، أي: درعًا وجنة. وفي القاموس: التجفاف بالكسر آلة الحرب يلبسه الفرس والإنسان ليقيه في الحرب فمعنى الحديث: إن كنت صادقًا في

---

(١) سورة الضحى، آية: ٨.

(٢) سورة نوح، الآيات: ١٠ – ١٢.

(٣) مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، د. يوسف القرضاوي، ص ١٧ – ١٨.

الدعوى ومحقًا في المعنى فهيء آلة تنفعك حال البلوى، فإن البلاء والولاء متلازمان في الخلا والملا. ومجمله أنه تهيأ للصبر خصوصًا على الفقر لتدفع به عن دينك بقوة يقينك ما ينافيه من الجزع والفزع، وقلة القناعة وعدم الرضا بالقسمة، وكنى بالتجفاف عن الصبر لأنه يستر الفقر كما ستر التجفاف البدن عن الضر. قال القاري: "من السبيل" أي إذا انحدر من علو "إلى منتهاه" أي مستقره في سرعة وصوله، والمعنى أنه لا بد من وصول الفقر بسرعة إليه، ومن نزول البلايا والرزايا بكثرة عليه، فإن أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل خصوصًا سيد الأنبياء فيكون بلاؤه أشد من بلائهم، ويكون لأتباعه نصيب على قدر ولائهم[1].

لأن من علامات حب النبي ﷺ اتباع منهجه والاقتداء به، ومن ذلك التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود.

ولا أدل على ذلك من ترك المهاجرين لديارهم وأموالهم والهجرة إلى المدينة مع النبي ﷺ ،ولقد عاش أصحاب رسول الله ﷺ تلك الظروف القاسية فهذا مصعب بن عمير رضي الله عنه الذي كان يعيش حياة حافلة بالمتع في مكة آثر شظف العيش، وهاجر إلى المدينة وأبلى بلاءًا حسنًا في الجهاد مع النبي ﷺ حتى إنه حينما استشهد لم يجدوا له الكفن الذي يكفيه وكفن في بردته وكانوا إذا غطوا بها رأسه بدت رجلاه، وإذا غطوا رجليه بدا رأسه وهناك الأمثلة الكثيرة على ذلك، لذا أراد النبي ﷺ أن يوطن أصحابه رضي الله عنهم على تحمل قسوة العيش، وكان من هذه الأمثلة:

أن صهيبًا حين أراد الهجرة، قال له أهل مكة: أَتَيْتَنَا صُعْلوكًا حقيرًا، فتغير حالُك! قال: أرأيتم إن تركت مالي، أمخلون أنتم سبيلي؟، قالوا: نعم. فخلع لهم ماله. فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ ، فقال: ((رَبِحَ صُهَيْبٌ، رَبِحَ صُهيبٌ))[2][3].

---

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٨٦٦/٢.

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٢٢٧/٣ ، ٢٢٨ من طريق هوذة بن خليفة عن عوف، عن أبي عثمان النهدي قال: (بلغني)، وقال محققو السير: ورجاله ثقات.

(٣) سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ٢٢/٢.

خامسًا - من مهام الداعية: بيان أن حب النبي ﷺ مقدم على الدنيا وزينتها:

إن محبة النبي ﷺ أصل عظيم من أصول الدين، فلا إيمان لمن لم يكن الرسول ﷺ أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين[(١)]، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[(٢)].

قال القاضي عياض: (فكفى بهذا حضًا وتنبيهًا ودلالة وحجة على إلزام محبته ﷺ ووجوب فرضها)[(٣)].

وهذا ما يوجب تقديم محبته ﷺ وأقواله وأوامره على من سواه وإن تعارض ذلك مع الدنيا وزينتها قدم حبه وأقواله وأوامره وإن كان ذلك يدفع بصاحبه إلى كدر العيش وضيق الدنيا، وهذا ما يستفاد من نص الحديث في قوله ﷺ: (إن كنت تحبني فأعد للفقر تجفافًا... إلخ).

وقد أكد النبي ﷺ على وجوب تقديم حبه على ما سواه فقال: ((لاَ يُؤمِنُ أَحَدَكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ))[(٤)]، وعن عبدالله بن هشام قال: ((كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: يَارَسُولَ اللهِ، لأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، إلاَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لاَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ، فَقَالَ لَه عُمَرُ: فَإِنَّهُ الآنَ، وَاللهِ، لأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: الآنَ يَاعُمَرُ))[(٥)]، وفي ذلك بيان على وجوب

---

(١) محبة النبي ﷺ وتعظيمه، عبداللطيف بن محمد الحسن، ضمن بحوث كتاب حقوق النبي ﷺ بين الإجلال والإخلال ص ٦٤.

(٢) سورة التوبة، آية: ٢٤.

(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢/٣٨١.

(٤) أخرجه البخاري ١٥، ومسلم ٤٤.

(٥) أخرجه البخاري ٣٦٩٤.

تقديم حب النبي ﷺ وأقواله وأوامره وإن أدى ذلك إلى ضيق الدنيا وفقرها. كما دل على ذلك الحديث الذي نحن بصدده، ولكن يلزم التنبيه على أن هذا الحديث لم يسلم بصحة وروده عن النبي ﷺ كثير من العلماء، قال ابن عثيمين: (ولكن هذا الحديث لا يصح عن النبي ﷺ، لأنه لا ارتباط بين الغنى ومحبة النبي ﷺ، فكم من إنسان غني يحب الرسول ﷺ، وكم من إنسان فقير أبغض ما يكون إليه الرسول عليه الصلاة والسلام، فهذا الحديث لا يصح عن النبي ﷺ.

فعلامة محبة الرسول ﷺ أن يكون الإنسان أشد اتباعًا له، وأشد تمسكًا بسنته كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[1]. فالميزان اتباع الرسول ﷺ، ومن كان للرسول أتبع فهو له أحب، وأما الفقر والغنى فإنه بيد الله عز وجل[2].

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٣١.

(٢) شرح رياض الصالحين ١/٨٠١.

الحديث رقم (٤٨٤)

٤٨٤ - وعن كعب بن مالك رضي الله عنه ، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ : ((مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلا فِي غَنَمٍ بِأفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ المَرْءِ عَلَى المَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ)) رواه الترمذيُّ[1] ، وقال: (حديث حسن صحيح).

ترجمة الراوي:

كعب بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢١).

غريب الألفاظ:

حِرصَ المرء: شدة اهتمامه ورغبته[2] .

الشرح الأدبي

أراد الرسول ﷺ أن يبيِّن خطر الحرص على المال، والجاه على دين المرء فاختار بعبقرية صورة واقعية من بيئة المخاطبين يستوي الجميع في فهمها ، وهي صورة الذئاب الجائعة في الغنم، وقد استخدم التشبيه لنقل هذه الصورة، وهذا التشبيه يوحي بعدة دلالات منها :

* شدة التأثير على دين المسلم يفهم ذلك من حال الذئب الجائع كما يفهم من التثنية الإحاطة التي تزيد من صعوبة إفلات الغنم من الذئبين، ويشير هذا في جانب المشبه إلى أن من اجتمع في قلبه حب المال، والشرف فهما أشد تضييعاً لدينه

* في التشبيه بالغنم في مواجهة الذئاب إشارة إلى ضعف النفس البشرية أمام إغراء المال، والمنصب.

* كما أنه اختار الغنم لضعفها ، وسرعة استسلامها للمفترس، وكذا نفس الإنسان التي جبلت على حب المال، والجاه.

---

(١) برقم ٢٣٧٦. وصحّحه ابن حبان، الإحسان ٣٢٢٨. أورده المنذري في ترغيبه ٢٥٥٣.

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ، والقاموس المحيط، الفيروز آبادي ، الفيروز آبادي في (ح ر ص).

* كما أن اختيار الذئب من سائر الوحوش، لخفة حركته، وتسلله إلى فريسته دون جلبة كما يحدث مع الأسد، أو غيره من الوحوش وهذا يشير إلى أن حب المال، والجاه يتسلل شيئاً، فشيئاً إلى النفس، ويظل ينمو مع نمو المال، وارتقاء المنصب، وإشارات الناس حتى يستعبد القلب من دون الله.

كما أن التعبير بالإرسال، يوحي بالنية الموجهة، والقصد، وهو ما يشير إلى الحديث الذي سبق في الباب بأن فتنة الأمة المحمدية في المال، والمال يؤذن بالجاه، فقلما يفترقان، كما أن الذئب حيوان قلما يهاجم منفرداً، والتعبير بأفعل التفضيل (أفسد) يشير إلى أنهما فاقا المشبه به في الإفساد، وفي هذا تأكيد على خطرهما، ووجوب الحرص عليهما وضرورة حراسة الدين منهما كما يحرس الراعي البصير غنمه.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: ضرب المثل.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: بيان خطورة الحرص على المال والجاه على الدين.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: التحذير من تفضيل الدنيا على الآخرة.

رابعًا: من واجبات الداعية: تحذير المدعوين مما قد يضر بدينهم.

أولاً - من أساليب الدعوة: ضرب المثل:

قد ورد هذا الأسلوب في الحديث من قوله ﷺ "ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه"، (فهذا مثل عظيم جدًا ضربه النبي ﷺ لفساد دين المسلم بالحرص على المال والشرف في الدنيا، وأن فساد الدين بذلك ليس بدون فساد الغنم بذئبين جائعين ضاريين يأتيان في الغنم، وقد غاب عنها رعاؤها ليلاً، فهما يأكلان في الغنم ويفترسان فيها، ومعلوم أنه لا ينجو من الغنم من إفساد الذئبين المذكورين والحالة هذه إلا قليل، فأخبر النبي ﷺ أن في حرص المرء على المال والشرف: إفسادَه لدينه وليس بأقل من إفساد الذئبين لهذه الغنم؛ بل إما أن يكون مساويًا وإما أكثر، يشير إلى أنه لا يسلم من دين المسلم مع حرصه على المال والشرف في الدنيا إلا القليل، كما أنه لا يسلم من الغنم مع إفساد الذئبين المذكورين

فيها إلا القليل، فهذا المثل العظيم يتضمن غاية التحذير من شر الحرص على المال والشرف في الدنيا)[١].

(وضرب المثل من الأساليب الدعوية الناجحة في الدعوة فهو يستخدم لتقريب المراد وتفهيم المعنى، وإيصاله إلى ذهن السامع وإحضاره في نفسه، بصورة المثال الذي مُثِّل به، فقد يكون أقرب إلى تعقله وفهمه، وضبطه، واستحضاره له، باستحضار نظيره، فإن النفس تأنس بالنظائر، والأشباه، الأنس التام وتنفر من الغربة والوحدة، وعدم النظير)[٢] وفي ذلك عظيم الفائدة.

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: بيان خطورة الحرص على المال والجاه على الدين:

(مما لاشك فيه أن حب المال والرياسة والحرص عليهما يُفسدُ دين المرء حتى لا يبقى منه إلا ما شاءَ الله، كما أخبر بذلك النبي ﷺ وأصل محبة المال والشرف: من حب الدنيا، وأصل حب الدنيا اتباع الهوى)[٣].

وهذا ما رهب منه النبي ﷺ وبين خطورته في قوله: "... بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه" وفي بيان خطورة ذلك قال الطيبي: (ومعناه ليس ذئبان جائعان أرسلا في جماعة من جنس الغنم بأشد إفسادًا لتلك الغنم من حرص المرء على المال والجاه...، وأما المال فإفساده أنه نوع من القدرة يحرك داعية الشهوات، ويجر إلى التنعم في المباحات فيصير التنعم مألوفًا، وربما يشتد أنسه بالمال ويعجز عن كسب الحلال فيقتحم في الشبهات مع أنها ملهية عن ذكر الله تعالى، وهذه لا ينفك عنها أحد. وأما الجاه فيكفي به إفسادًا أن المال يبذل للجاه ولا يبذل الجاه للمال وهو الشرك الخفي، فيخوض في المراءاة والمداهنة والنفاق وسائر الأخلاق الذميمة، فهو أفسد وأفسد)[٤]. وفي ذلك فساد لدين المسلم.

---

(١) شرح حديث ما ذئبان جائعان، ضمن مجموع رسائل ابن رجب، ٦٥/١.

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، تحقيق: رائد صبري بن أبي علفة ٢٣٩/١.

(٣) شرح حديث ما ذئبان جائعان، ضمن مجموع رسائل ابن رجب، ٨٩/١.

(٤) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٣٠٣/٩.

وهذا ما أكده ابن رجب: (في أن الحرص على المال يكون على نوعين: أحدهما مفسدة محبة المال مع شدة طلبه من وجوهه المباحة، والمبالغة في طلبه والجد في تحصيله واكتسابه من وجوهه مع الجهد والمشقة...، ولو لم يكن في الحرص على المال إلا تضييع العمر الشريف في الذي يفنى ولا قيمة له، وقد كان يمكن لصاحبه اكتساب الدرجات العلى والنعيم المقيم، فضيعه الحريص في طلب رزق مضمون، مقسوم لا يأتي منه إلا ما قدر وقسم، ثم لا ينتفع به؛ بل يتركه لغيره ويرتحل عنه، ويبقى حسابه عليه ونفعه لغيره، فيجمع لمن لا يحمده، ويقدم على من لا يعذره، لكفى بذلك ذمًا للحرص، فالحريص يضيع زمانه الشريف، ويخاطر بنفسه التي لا قيمة لها في الأسفار وركوب الأخطار لجمع مال ينفع به غيره...، والنوع الثاني: من الحرص على المال أن يزيد على ما سبق ذكره في النوع الأول، حتى يطلب المال من الوجوه المحرمة ويمنع الحقوق الواجبة، فهذا من الشح المذموم.

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1] وعن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((اتقوا الشُّحَّ، فإنَّ الشح أَهْلَكَ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ حملهم على أن سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ، واستحلوا محَارِمَهُمْ))[2]...، ومتى وصل الحرص على المال إلى هذه الدرجة، نقص بذلك الدين والإيمان نقصًا بينًا...، وأما حرص المرء على الشرف فهذا أشد هلاكًا من الحرص على المال فإن طلب شرف الدنيا والرفعة فيها، والرياسة على الناس والعلو في الأرض أضر على العبد من طلب المال، وضرره أعظم، والزهد فيه أصعب، فإن المال يبذل في طلب الرياسة والشرف...، قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾[3])... وأعلم أن الحرص على الشرف يستلزم شرًا عظيمًا قبل وقوعه في السعي في أسبابه، وبعد وقوعه بالخطر

(١) سورة الحشر، آية: ٩.

(٢) أخرجه مسلم ١٦٩٨.

(٣) سورة القصص، آية: ٨٣.

العظيم الذي يقع فيه صاحب الولاية من التظلم والتكبر وغير ذلك من المفاسد[١].

ثالثًا – من موضوعات الدعوة: التحذير من تفضيل الدنيا على الآخرة:

(إن من اتباع الهوى الرغبة في الدنيا، ومن الرغبة فيها حب المال والشرف ومن حب المال والشرف استحلال المحارم، ومن أجل ذلك عتب على صاحب المال والشرف الرغبة في الدنيا وتفضيلها على الآخرة)[٢].

هذا ما يستفاد من سياق الحديث، وفي ذلك قال تعالى محذرًا ومرهبًا من تفضيل الدنيا على الآخرة ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[٣]، وقال: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾[٤].

قال السعدي: (من كان يريد حرث الآخرة "أي أجرها وثوابها، فآمن بها وصدق وسعى لها سعيها" نزد له في حرثه بأن نضاعف عمله وجزاءه، أضعافًا كثيرة "ومن كان يريد حرث الدنيا" بأن كانت الدنيا هي مقصوده، وغاية مطلوبه فلم يقدم لآخرته، ولا رجا ثوابها، ولم يخش عقابها "نؤته منها"نصيبه الذي قسم له "وما له في الآخرة من نصيب" قد حرم الجنة ونعيمها، واستحق النار وجحيمها)[٥].

رابعًا – من واجبات الداعية: تحذير المدعوين مما قد يضر بدينهم:

حيث حذر النبي ﷺ أمته من الحرص على المال والشرف – الولاية والمناصب وبيّن

---

(١) شرح حديث ما ذئبان جائعان، ضمن مجموع رسائل ابن رجب، ٦٤/١-٧٢.

(٢) انظر: شرح حديث ما ذئبان جائعان، ضمن مجموع رسائل، ابن رجب، ٨٩/١.

(٣) سورة هود، آية: ١٥-١٦.

(٤) سورة الشورى، آية: ٢٠.

(٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٧٠٢-٧٠٣.

لهم أن ذلك يضر بدينهم ودين الإنسان هو رأس ماله الوحيد المطلوب المحافظة عليه وقد حذره النبي ﷺ من أمرين أسرع إلى فساده والقضاء عليه من الذئاب الجائعة في الغنم، وهي الحرص على تحصيل المال والإكثار منه، والحرص على الشرف والجاه، والتفاخر بهما لما في ذلك من بذل الدين والتحلل منه والتستر به والوقع في الشبهات بل المحرمات كما هو معلوم[1].

وإن مما يجب على الداعية القيامُ به تحذيرَ المدعوين مما يضر بدينهم واقتداؤه بحرص النبي ﷺ على ذلك، وقد كان النبي أشد الحرص على هداية الناس وتعليمهم وتحذيرهم مما قد يضر بدينهم، وقد بين الحق تبارك وتعالى ذلك في قوله: ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾[2] وقوله: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴾[3] وهذا ما ورد في الحديث من حرصه ﷺ على تحذير الناس من الحرص على الدنيا بما يضر بدينهم.

وقد أمر الحق تبارك وتعالى رسوله بذلك فقال: ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾[4] ((فأتى النبي ﷺ الصَّفَا، فصَعِدَ عليها، ثُمَّ نادى: يا صَبَاحاهُ، فاجتمعَ النَّاسُ إليهِ، فبين رجلٍ يجيءُ وبينَ رجلٍ يبعث رسولَهُ، فقالَ: يا بَني عَبْدِ المُطَّلِبِ، يا بني فِهْرٍ، يا بني عبدِ مَنَافٍ، يا بني، يا بني، أرَأَيْتُمْ لو أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلا بِسَفْحِ هذا الجَبَلِ تُرِيدُ أنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ، أَصَدَّقْتُموني»؟ قالوا: نعمْ، قالَ: فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شديد))[5].

فقد أراد النبي ﷺ أن يتوجه قومه وعشيرته وغيرهم من الناس إلى العبادة الخالصة لله تعالى بدلاً من الإقبال على الدنيا والحرص على الجاه لأن الحرص على

---

(١) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم ٣٢١.

(٢) سورة يونس، آية: ١٠٣.

(٣) سورة الكهف، آية: ٦.

(٤) سورة الشعراء، آية: ٢١٤.

(٥) أخرجه البخاري ٤٨٠١، ومسلم ٢٠٨.

جمع المال وعدم الاكتراث بالحلال والحرام يؤدي إلى فساد دين الإنسان، وكذلك الحرص على الجاه والتعصب للجنس والقبيلة وإحياء النعرات التي أماتها الإسلام وغير ذلك من الأمور التي تفسد دين المرء، لذا حذر النبي ﷺ من هذه الأمور ومن غيرها؛ فعلى الداعية أن يمتثل لأمر الله ورسوله في تحذير المدعوين مما قد يضر بدينهم.

الحديث رقم (٤٨٥)

٤٨٥ - وعن عبد الله بن مسعود ﷺ، قَالَ: نَامَ رسول الله ﷺ عَلَى حَصِيرٍ، فَقَامَ وَقَدْ أثَّرَ فِي جَنْبِهِ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، لَوْ اتَّخَذْنَا لَكَ وِطَاءً. فَقَالَ: ((**مَا لِي وَ[١] لِلدُّنْيَا؟ مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلاَّ كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا**)) رواه الترمذيُّ[٢]، وقال: (حديث حسن صحيح).

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

غريب الألفاظ:

حصير: هو البساط المنسوج من أوراق البردى أو الباريّ أو نحوهما[٣].

وطاءً: فراشًا لينًا وبساطًا حسنًا[٤].

الشرح الأدبي

الحديث يروي جانباً من حياة الرسول ﷺ المشرقة، وكل لحظة من حياته عبرة لأمته تتعلم منها كيف تعيش، وهذا الحديث الذي يرويه ابن مسعود ﷺ يعرض صوراً مجسدة من الزهد، والتواضع منها قول بن مسعود ﷺ (فَقَامَ وَقَدْ أثَّرَ فِي جَنْبِهِ)، وقوله ﷺ (مَا لِي وَلِلدُّنْيَا؟) وهواستفهام تعجب، وإنكار، واستبعاد لعلاقته بالدنيا فهو ليس من أهلها إنما هو ابن الآخرة، شفيعها، وقوله (مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلاَّ كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا) أسلوب قصر لحاله في الدنيا على كونه

---

(١) عند الترمذي زيادة: (ما).

(٢) برقم (٢٣٧٧). ورواه الحاكم (٤/٣١٠) شاهدا لحديث ابن عباس الذي قال فيه: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وقال الدارقطني في العلل (١٦٣/٥): حديث عمرو بن مرة: أصحّ. أورده المنذري في ترغيبه (٤٨٠٧).

(٣) المعجم المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية (ح ص ر).

(٤) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٨٧٨/٢.

كالراكب الذي استراح قليلا تحت شجرة ثم مضى، وهو تشبيه يؤكد فكرة الاغتراب التي تحدثنا عنها في حديثه (كن في الدنيا كأنك غريب) والذي سبق شرحه، وهذه الفكرة تذكّر المؤمن بأن موطنه الأصلي الجنة فيعيش في الدنيا وهدفه أن يعود إليه، ويتخذ كل السبل الموصلة إليه، ويتجنب العوائق التي تعترضه لأن الراكب له وجهة يقصد إليها وليس له، بقاء في الدنيا، والتعبير بالراكب يشير إلى انعدام نية الإقامة، والركون في الظل، كما يشير التعبير بالفعل (استظل) إلى أن وقت الإقامة محدود ببقاء الشمس كما أن بقاء الإنسان في الدنيا محدود، والربط بـ(ثم) يشير إلى فترة بقائه في الدنيا، والحديث فيه ترغيب في الزهد في الدنيا، والحذر من الركون إليها.

المضامين الدعوية

أولاً: من صفات الداعية: الزهد.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: عزوف النبي ﷺ عن ملذات الدنيا.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: التشبيه والتمثيل.

رابعًا: من واجبات المدعو: عدم الاغترار بالدنيا وأهمية قصر الامل.

أولاً - من صفات الداعية: الزهد:

(إن الزهد ليس تشعيث اللمة، ولا قشف الهيئة، ولكنه صرف النفس عن الشهوة، وهو حالة نفسية تنشأ في الضمير حين ينال المرء حظه من معرفة الله بالتفكر في الآيات، فإذا به سعيد بتلك المعرفة، مبتهج عزيز، غني، وتستفيض تلك الحالة حتى تعم ذهنه ووعيه كله، فلا يحس نحو الدنيا إلا إحساس الممتلئ الراغب فيما هو خير منها عند الله)[1].

وهذا ما أشار إليه نص الحديث في قول الراوي: "نام رسول الله ﷺ على حصير ... إلخ". (وحري بالداعية أن يعلم أن الله قد أراد له أن يحيى في حياتين، وأن يثبت وجوده المادي في حياة المادة، ووجوده الروحي فيما وراء المادة، عاملاً في الأولى بقوة بدنه

---

(١) تذكرة الدعاة، البهي الخولي، ١٧٤-١٧٥.

وملكاته، وعاملاً في الأخرى بقوة قلبه وملكاته، محاذرًا أن تتصرف عواطفه عما في يد الله، إلى متاع الدنيا، فيجب أن يأكل من الطيبات...، ويرتدي الجميل والنظيف من الثياب...، وأن يسعى في الأرض على أن يظل سعيه بقلبه في ملكوت ربه، أي مفكرًا في آيات الخلق...، وأن يعمل في دنياه، جامعًا للمال بما يكون عدة لتأييد دينه وحفظ نفسه. وبهذا يثبت الداعية وجوده في الحياتين، ويؤدي رسالته في الناحيتين، ويحقق معنى الزهد الذي تقاصرت عنه همم العاجزين من عباد الشهوات، فعابوه، وهو زينة الإنسانية، ونظامها الكامل)[(١)].

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: عزوف النبي ﷺ عن ملذات الدنيا:

(لم تكن دعوة الرسل إلى الآخرة وإيثارها على الدنيا والاستهانة بقيمة الدنيا ومتاعها دعوة باللسان فقط ودعوة لأمتهم فقط بل كان ذلك مبدءًا ومنهاجًا لحياتهم، وكانوا من أول المؤمنين بها، السائرين عليها في حياتهم)[(٢)]، وهذا ما بينه النبي ﷺ في زهده بالدنيا وإيثاره للآخرة عليها كما في قوله ﷺ "مالي وللدنيا" عندما رآه أصحابه رضي الله عنهم نائمًا على حصير قد أثر في جنبه فقالوا له يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاءً، فأبى ﷺ على أصحابه إشفاقهم عليه من آثار الحصير في جسمه، وبيّن لهم أن الدنيا بالنسبة إليه مرحلة عبور إلى حياة حقيقية جديرة بالاستعداد لها، وليس يهم المسافر إلا الوصول إلى مقصده مهما عانى في أثناء السفر[(٣)]. وقد بين المباركفوري ذلك فقال: (قال القاري: ما نافية أي: ليس لي ألفة ومحبة مع الدنيا ولا للدنيا ألفة ومحبة معي حتى أرغب إليها وأنبسط عليها وأجمع ما فيها ولذاتها، أو استفهامية أي: أي ألفة ومحبة لي مع الدنيا أو أي شيء لي مع الميل إلى الدنيا أو ميلها إلي فإني طالب الآخرة وهي ضرتها المضادة لها)[(٤)]، وفي ذلك تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ((كَانَ ضِجَاعُ رَسُولِ اللَّهِ

---

(١) المرجع السابق، ١٧٥-١٧٨.

(٢) النبوة والأنبياء في ضوء القرآن، أبو الحسن الندوي، ٦٨-٦٩.

(٣) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم، ص ٣٢٢.

(٤) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف، ١٨٧٨/٢.

أَدَمًا حَشْوُهُ لِيفٌ))[١]، وعن النعمان بن بشير، قال سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: ((رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَلْتَوِي، فِي الْيَوْمِ، مِنَ الْجُوعِ. مَا يَجِدُ مِنَ الدَّقَلِ مَا يَمْلأُ بِهِ بَطْنَهُ))[٢]، وفي ذلك بيان على عزوفه ﷺ عن ملذات الدنيا. وحسبنا من تقلله منها وإعراضه عن زهرتها، وقد سبقت إليه بحذافيرها وترادفت عليه فتوحها إلى أن توفي ودرعه مرهونة عند يهودي في نفقة عياله وهو يدعو ويقول: ((اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا))[٣])[٤].

ثالثًا - من أساليب الدعوة: التشبيه والتمثيل:

من الأساليب الدعوية المهمة التشبيه وضرب المثل، (ولم يكن ذلك مجرد عمل فني يقصد من ورائه الرونق البلاغي فحسب، بل إن له غايات نفسية تربوية ودعوية نتيجة لنبل المعنى، وسمو الغرض بالإضافة إلى الإعجاز البلاغي، وتأثير الأداء ومن أهم هذه الأهداف، تقريب المعنى إلى الأفهام؛ فقد ألف الناس تشبيه الأمور المجردة بالأشياء الحسية، ليستطيعوا فهم تلك الأمور المعنوية، أو الغيبية)[٥]، وهذا ظهر في الحديث من قوله ﷺ: "ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها" (ووجه التشبيه والتمثيل في ذلك سرعة الرحيل وقلة المكث ومن ثم خص الراكب)[٦].

رابعًا - من واجبات المدعو: عدم الاغترار بالدنيا وأهمية قصر الأمل:

مما لا شك فيه أن همة المؤمن متعلقة بالآخرة، فهي همه ونظره، فلا يغتر بالدنيا ولا يطيل الأمل فيها، وهذا ما يستفاد من نص الحديث في قوله ﷺ "ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها".

وقد تعجب ابن الجوزي فيمن اغتر بالدنيا وأطال الأمل فيها فقال: (أعجب الأشياء

---

(١) أخرجه ابن ماجه ٤١٥١، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٣٣٤٨).

(٢) أخرجه ابن ماجه ٤١٤٦، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٣٣٤٥).

(٣) أخرجه البخاري ٦٤٦٠، ومسلم ١٠٥٥.

(٤) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ، القاضي عياض، ص ١٩٨.

(٥) انظر: التربية على منهج أهل السنة والجماعة، أحمد فريد، ٣٣١.

(٦) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٨٧٨/٢.

إغترار الإنسان بالسلامة، وتأميله الإصلاح فيما بعد، وليس لهذا الأمل منتهى، ولا للإغترار حدٌّ، فكلما أصبح وأمسى زاد الإغترار، وطال الأمل وأي موعظة أبلغ من أن ترى ديار الأقران وأحوال الإخوان وقبور المحبوبين، فتعلم أنك بعد أيام مثلهم، ثم لا يقع انتباه حتى ينتبه الغير بك، هذا والله شأن الحمقى. حاشا من له عقل أن يسلك هذا المسلك بلى، والله إن العاقل ليبادر السلامة، فيدخر من زمنها للزمن، ويتزود عند القدرة على الزاد لوقت العسرة. خصوصًا لمن قد علم أن مراتب الآخرة إنما تعلو بمقدار علو العمل بها، وأن التدارك بعد الفوات لا يمكن)[1].

وهذا ما حذر الحق تبارك وتعالى منه فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾[2] أي: (فلا تغرنكم العيشة الدنية بالنسبة إلى ما أعد الله لأوليائه وأتباع رسله من الخير العظيم فلا تتلهو عن ذلك الباقي بهذه الزهرة الفانية)[3].

وقد بين ابن القيم حقيقة الدنيا في قوله: (إن الدنيا كامرأة بغي لا تثبت مع زوج، إنما تخطب الأزواج ليستحسنوا عليها ... فلا ترضى بالدياثة...

ميزت بين جمالها وفعالها فإذا القباحة بالملاحة لا تفي

حلفت لنا أن لا تخون عهودنا فكأنها حلفت لنا أن لا تفي

... ولما عرف الموفقون قدر الحياة الدنيا وقلة المقام فيها، أماتوا فيها الهوى؛ طلبًا لحياة الأبد. ولما استيقظوا من نوم الغفلة، استرجعوا بالجد ما انتهبه العدو منهم في زمن البطالة، فلما طالت عليهم الطريق، تلمحوا المقصد، فقرب عليهم البعيد. وكلما أمرَّت لهم الحياة حلى لهم تذكر ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[4])[5].

---

(١) صيد الخاطر، ابن الجوزي، تحقيق: عبدالقادر عطا ٤٢٦-٤٢٧.

(٢) سورة فاطر، آية: ٥.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٥٣٤/٦.

(٤) سورة الأنبياء، آية: ١٠٣.

(٥) الفوائد ٧١-٧٢، والدياثة هي اللين والهولة والديوث من الرجال الذي لا يغار على أهله، الوجيز في الأخلاق والآداب الشرعية، حماد بن عبدالله بن محمد الحماد في (د ي ث).

فعلى المدعو ألا يغتر بالدنيا ويطيل الأمل (فما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل)[١]، (فالمؤمن في الدنيا غريب لا يجزع ذلها ولا ينافس أهلها في عزها، الناس منه في راحة، ونفسه منه في شغل فطوبى لعبد كسب طيبًا، وقدم الفضل ليوم فقره وفاقته، وجهوا هذا الفضل حيث وجهه الله، ولا تلقوها هاهنا فيما يضركم)[٢].

(١) الزهد، الحسن البصري، جمع د. محمد عبدالرحيم محمد، ٨٢.

(٢) الزهد، أحمد بن حنبل، ٢٣٩.

الحديث رقم (٤٨٦)

٤٨٦ - وعن أَبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ : ((**يَدْخُلُ الفُقَرَاءُ الْجَنَّةَ قَبْلَ الأَغْنِيَاءِ بِخَمْسِمِئَةِ عَامٍ**)) رواه الترمذيُّ[1] ، وقال: (حديث صحيح).

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

المعنى في هذا الحديث يربِّت على قلوب الفقراء الذين حرموا من متع الدنيا ، وقد جاء في صورة خبرية خالية من المؤكدات قابل بها خالي الذهن عن المعنى ، والتعبير بالفعل المضارع يصور هؤلاء الفقراء الذين كان كثير من الأغنياء يزهو عليهم بماله ، ويستهزيء بهم يسيرون في صفوف نحو باب الجنة ، والأغنياء ينتظرون القرن بعد القرن حتى تنقضي خمسمائة عام، والطباق بين الأغنياء، والفقراء يستحضر في الذهن صورة النموذجين في الدنيا ، وحالهما ، وصورة النموذجين في الآخرة حيث بقي الأغنياء في الموقف الرهيب، وسار الفقراء إلى السلامة ، والرضى في الجنة.

المضامين الدعوية

أولاً : من أساليب الدعوة: البلاغ.

ثانيًا : من موضوعات الدعوة: منزلة الفقراء عند الله يوم القيامة.

ثالثًا : من موضوعات الدعوة: يسر حساب الفقراء يوم القيامة ، وشدته على الأغنياء.

رابعًا : من أصناف المدعوين: الأغنياء.

---

(١) برقم ٢٣٥٣ وزاد في آخره: (نصف يوم). وصحّحه ابن حبان، الإحسان ٦٧٦. أورده المنذري في ترغيبه ٤٦٦٠ وقال: رواته محتج بهم في الصحيح.

تنبيه: الحديث رواه الترمذي بإسنادين، الأول: بهذا اللفظ من طريق سفيان، عن محمد بن عمرو، وقال: هذا حديث حسنٌ صحيحٌ، والثاني: من طريق المحاربي، عن محمد بن عمرو، وقال: هذا حديث صحيحٌ.

أولاً - من أساليب الدعوة: البلاغ:

البلاغ والإخبار من الأساليب الدعوية المهمة التي تعين الداعية على تبليغ دعوته وإخبار المدعوين بالحقائق التي ينبغي عليهم معرفتها والإحاطة بها وهذا ما ورد في الحديث من إخباره ﷺ بفضل ومنزلة الفقراء يوم القيامة وذلك في قوله ﷺ "يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام"، وقد أمر الحق تبارك وتعالى نبيه بتبليغ الدعوة والإخبار بها فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾[1] وفي ذلك عظيم الفائدة في إيصال الدعوة إلى قلوب المدعوين لاسيما إن صادف ذلك صدقًا وإخلاصًا في قول الداعي.

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: منزلة الفقراء عند الله يوم القيامة:

إن من آداب الإسلام الإحسان إلى الفقراء واحترامهم وإشعارهم بقيمتهم ومكانتهم عند الله تعالى يوم القيامة، وهذا ما بينه النبي ﷺ في قوله: "يدخلُ الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام" (فالفقراء في تلك المدة لهم حسن العيش في العقبى مجازاة لما فاتهم من التنعيم في الدنيا كما قال تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾[2])[3] (ولكن لا يلزم من سبق الفقراء للأغنياء في دخول الجنة ارتفاع منازلهم عليهم بل قد يكون المتأخر أعلى منزلة وإن سبقه غيره في الدخول، والدليل على هذا أن من الأمة من يدخل الجنة بغير حساب - وهم السبعون ألفًا - وقد يكون بعض من يحاسب أفضل من أكثرهم، والغني إذا حوسب على غناه فوُجد قد شكر الله تعالى فيه وتقرب إليه بأنواع البر والخير والصدقة والمعروف كان أعلى درجة من الفقير الذي سبقه في الدخول ولم يكن له تلك الأعمال ولا سيما إذا شاركه الغني في أعماله وزاد عليه فيها، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، فالمزية مزيتان: مزية سبق ومزية رفعة

(١) سورة المائدة، آية: ٦٧.

(٢) سورة الحاقة، آية: ٢٤.

(٣) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٨٦٦/٢.

وقد يجتمعان وينفردان فيحصل لواحد السبق والرفعة)[1].

وقد بيّن النبي ﷺ عظم منزلة الفقراء عند الله يوم القيامة فقال ((اطَّلَعْتُ في الجنة فرأيتُ أكثرَ أهلِها الفقَراءَ، واطَّلعتُ في النار فرأيتُ أكثرَ أهلِها النساءَ))[2] وقال ﷺ ((هَلْ تَدْرُونَ مَنْ أوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الجنةَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ؟ قالُوا: اللَّهُ ورسولُهُ أعلَمُ، قالَ: أَوَّلُ مَنْ يدخُلُ الجنةَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ الفُقراءُ المُهاجرونَ الذينَ يُسَدُّ بهم الثّغورُ، وتُتّقى بهمُ المَكارِهُ، ويَمُوتُ أحدُهُمْ وحاجتُهُ في صَدْرِهِ لا يستطيعُ لها قضاءً، فيقولُ اللَّهُ لِمَنْ يشاءُ مِنْ ملائكتِهِ: ايتُوهُمْ فحَيُّوهُمْ، فيقولُ الملائكةُ: رَبَّنا نحنُ سكانُ سَماواتِكَ وخِيرتُكَ مِنْ خلقِكَ، أفتأمرُنا أنْ نأتيَ هؤلاءِ، فنُسَلِّمَ عليهم؟ قالَ إنَّهمْ كانُوا عبادًا يعبدُوني لا يُشْرِكُونَ بي شيئًا، وتُسَدُّ بهم الثُّغورُ، وتُتَّقَى بهمُ المَكارِهُ، ويموتُ أحدُهُمْ وحاجتُهُ في صدرِهِ لا يَستطيعُ لها قضاءً، قالَ: فتأتيهمُ الملائكةُ عندَ ذلكَ، فيدخُلُونَ عليهمْ مِنْ كُلِّ بابٍ ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾[3]))[4]. فأي منزلة أفضل من هذه المنزلة؟ وأي فضل أفضل من هذا الفضل؟ إنها منزلة عظيمة وتكريم كبير للفقراء من المسلمين من العلي العظيم، وملائكته المقربين مما يدل على عظيم منزلتهم وفضلهم عند الله عز وجل.

ثالثًا - من موضوعات الدعوة: يسر حساب الفقراء يوم القيامة، وشدته على الأغنياء:

مما لا شك فيه أن كل امرئ محاسب على ما قدم وأخر من عمله، ولما كان لأصحاب الغنى من النعيم ما لم يكن لغيرهم كان حسابهم في ذلك أشد وسؤالهم على ذلك أعظم، لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾[5] أي (لتسألن عن الذي تنعمتم

---

(١) حادي الأرواح، ابن القيم، ٩٢-٩٣.

(٢) أخرجه البخاري ٦٤٤٩، ومسلم ٢٧٣٧.

(٣) سورة الرعد، آية: ٢٤.

(٤) صحيح ابن حبان ٧٤٢١، وقال محققه: إسناده صحيح.

(٥) سورة التكاثر، آية: ٨.

به في دار الدنيا، هل قمتم بشكره وأديتم حق الله فيه...، أم اغتررتم به، ولم تقوموا بشكره)[١].

ومن أجل ذلك كان يسر الحساب يوم القيامة على الفقراء وشدته على الأغنياء وذلك ما ورد في الحديث من قوله ﷺ: "يدخل الفقراء قبل الأغنياء بخمسمائة عام" فالفقير المسلم حسابه يسير، إذ إنه لن يتجاوز التعرف على عباداته وهفواته ثم ينتهي إلى الجنة سريعًا. أما الغنى فحسابه عسير، إذ أن سيحاسب على ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وسيدور نقاش وادعاء ودفاع مما يستغرق وقتًا طويلاً يتمتع فيه الفقير بدخول الجنة والتنعم فيها، هذا الوقت بيّن الرسول ﷺ أنه خمسمائة عام[٢]. وقد بين النبي ﷺ أن الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء وأصحاب الوجاهة والولايات، فقال: ((قُمْتُ عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ. فَإِذَا عَامَّةُ مَنْ دَخَلَهَا الْمَسَاكِينُ. وَإِذَا أَصْحَابُ الْجَدِّ مَحْبُوسُونَ. إلاَّ أَصْحَابَ النَّارِ. فَقَدْ أُمِرَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ))[٣] وفي ذلك قال النووي: (قوله ﷺ: "وإذا أصحاب الجد محبوسون" المراد به أصحاب البخت والحظ في الدنيا والغنى والوجاهة بها، وقيل: المراد أصحاب الولايات ومعناه: محبوسون للحساب ويسبقهم الفقراء بخمسائة عام)[٤].

وقال ﷺ: ((تَجْتَمعونَ يَوْمَ القِيامةِ فيُقالُ: أينَ فُقراءُ هذهِ الأمةِ ومساكينُها؟ قالَ: فيقومونَ، فيُقالُ لهمْ: ماذا عَمِلْتُمْ؟ فيقولونَ: رَبَّنا ابتليتَنا فصَبَرْنا، وآتيتَ الأموالَ والسُّلطانَ غيرَنا، فيقولُ اللهُ: صَدَقْتُمْ، قالَ: فيَدْخُلونَ الجَنَّةِ قَبْلَ الناسِ، ويبقى شِدَّةُ الحسابِ على ذَوي الأموالِ والسُّلطانِ))[٥] وفي ذلك بيان يسر الحساب على الفقراء وشدته على الأغنياء.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٨٦٣.

(٢) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم، ص ٣٢٢.

(٣) أخرجه البخاري ٥١٩٦، ومسلم ٢٧٣٦.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٠٤.

(٥) صحيح ابن حبان ٧٤١٩، وقال محققو الصحيح: إسناده حسن.

رابعًا - من أصناف المدعوين: الأغنياء:

(إن الدعوة الإسلامية دعوة عالمية لا تفرق بين جنس وجنس، ولا تتحيز لطبقة على حساب أخرى، بل تدعو الشعوب والأجناس وتخاطب جميع الطبقات، فتخاطب الفقراء كما تخاطب الأغنياء، وهذا ما ورد في الحديث من قوله ﷺ: "... قبل الأغنياء..." والأغنياء هم البارزون في المجتمع وأصحاب النفوذ فيه الذين يعتبرهم الناس أشرافًا وسادة، أو يعتبرون حسب مفاهيم المجتمع وقيمه أشراف المجتمع وسادته، ومن ثم يستحقون -في عرف الناس - قيادة المجتمع والزعامة والرئاسة فيه،وقد يباشرون ذلك فعلاً)[1] وبناء على ذلك فهم من أهم أصناف المدعوين الذين يجب أن تشملهم الدعوة؛ لأن الأغنياء بحاجة ماسة إلى من يذكر بالله تعالى، ويرغّبهم، ويرهبهم، ويدعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة، ويحثهم على الاستعداد ليوم القيامة، وذلك من خلال التقرب إلى الله تعالى بأنواع القربات.

---

(١) أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان، ٣٨٠.

الحديث رقم (٤٨٧)

٤٨٧ - وعن ابن عباس وعِمْرَانَ بن الحُصَيْنِ رضي الله عنهم، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قَالَ: ((**اطَّلَعْتُ فِي الجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أكْثَرَ أهْلِهَا الفُقَرَاءَ، وَاطَّلَعْتُ فِي النَّارِ فَرَأَيْتُ أكْثَرَ أهْلِهَا النِّسَاءَ**)) متفقٌ عَلَيْهِ من رواية ابن عباس[1]، ورواه البخاريُّ أيضًا من رواية عِمْرَان بن الحُصَيْن[2].

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١).

عمران بن الحُصَيْن: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٢).

الشرح الأدبي

الحديث قريب من معنى سابقه يرغِّب في الفقر بدأه الرسول بالفعل الماضي (اطلعت) الذي يوحي بانكشاف أمر عظيم، والجار والمجرور (في الجنة) يحرك الشوق لما اطلع عليه والتعبير بأفعل التفضيل (أكثر) يزيد الشوق إلى المفضل، وإضافة الأهل لضمير الجنة تشريف، وفيه بشارة للفقراء، والطباق بين الجنة، وبين النار يبرز الفارق بين العاقبتين في المستقر، والتعبير ب(في) في الصورتين يشير إلى تمكن الرؤية حتى استطاع أن يرى الجنس الأغلب على كل دار، وهو ما يؤكده التعبير بفعل الرؤية الذي هو أقوى طرق العلم، والحديث ترغيب في الفقر، وتحذير للنساء من عادات السوء التي تغلب على طباعهن، وتتعلق بهن.

---

(١) أخرجه البخاري، عقب الحديث رقم ٦٤٤٩ معلقًا ولم يسق لفظه، ومسلم ٢٧٣٧/٩٤، وأورده الحميدي في جمعه ٦٢/٢، رقم ١٠٥٤ في المتفق عليه. أورده المنذري في ترغيبه ٤٦٥٠.

(٢) أخرجه البخاري ٣٢٤١، و٥١٩٨.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: خصوصية النبي ﷺ واطلاعه على أهل الجنة والنار.

ثانيًا: موضوعات الدعوة: فضل المؤمنين الفقراء.

ثالثًا: من أصناف المدعوين: النساء.

من أساليب الدعوة: الترهيب.

أولاً - من موضوعات الدعوة: خصوصية النبي ﷺ واطلاعه على أهل الجنة والنار:

تضمن هذا الحديث ذكر خصوصية من خصوصيات النبي ﷺ من خلال ما ورد في قوله ﷺ "اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء".

(واطلاعه ﷺ إلى الجنة والنار معًا كان بجسمه ونظره العيان تفضلاً من الله جَلَّ وعلا وفرق به بينه وبين سائر الأنبياء، فأما الأوصاف التي وصفَ أنه رأى أهل الجنة بها، وأهل النار بها، فهي أوصاف صورت له ﷺ ليعلم بها مقاصد نهاية أسباب أمته في الدارين جميعًا، ليرغب أمته بأخبار تلك الأوصاف لأهل الجنة ليرغبوا، ويرهبهم بأوصاف أهل النار ليرتدعوا عن سلوك الخصال التي تؤديهم إليها)[1].

وهذا ما أكده النبي ﷺ في قوله ((عُرِضَتْ عَلَيَّ الجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَلَمْ أرَ كَاليَوْمِ فِي الخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَلَوْ تَعْلَمُونَ مَا أعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً، وَلَبَكَيْتُم كَثِيرًا. قال: فَما أتَى على أصحابِ رسول الله ﷺ يومٌ أشدُّ منهُ، قال: غَطُّوا رؤوسَهم ولَهُم خَنِينٌ، فقامَ عُمَرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه فقال: يا رسول الله، رَضِينا بالله رَبًّا، وبالإسلامِ دِينًا، وبمحمَّدٍ نبيًّا...))[2].

قال النووي: (ومعنى الحديث: لم أر خيرًا أكثر مما رأيته اليوم في الجنة ولا شرًا أكثر مما رأيته اليوم في النار ولو رأيتم ما رأيت وعلمتم ما علمت مما رأيته اليوم وقبل

---

(١) صحيح ابن حبان ١٦/٤٩٥.

(٢) أخرجه البخاري ٦٤٨٥، ومسلم ٢٣٥٩.

اليوم لأشفقتم إشفاقًا بليغًا ولقل ضحككم وكثر بكاؤكم)[1]. وفي ذلك بيان لحكمة اطلاع النبي ﷺ على أهل الجنة والنار وهي حصول الترغيب في الجنة والترهيب من النار.

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: فضل المؤمنين الفقراء:

إن من فضل الله وكرمه على عباده مجازاة المؤمنين الفقراء بما صبروا على ذلك، بالجنة وحسن العيش في الآخرة، وهذا ما أشار إليه نص الحديث في قوله ﷺ "اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء" قال ابن حجر: (قال ابن بطال: ليس قوله أطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء يوجب فضل الفقير على الغني، وإنما معناه أن الفقراء في الدنيا أكثر من الأغنياء فأخبر عن ذلك، كما تقول: أكثر أهل الدنيا الفقراء إخبارًا عن الحال، وليس الفقر أدخلهم الجنة، وإنما بصلاحهم مع الفقر، فإن الفقير إذا لم يكن صالحًا لا يفضل، وتعقبه ابن حجر فقال: ظاهر الحديث التحريض على ترك التوسع من الدنيا، كما أن فيه تحريض النساء على المحافظة على أمر الدين لئلا يدخلن النار، وقد أطال ابن حجر قبل ذلك في تحقيق أفضلية الفقر على الغنى أو العكس، والحق أن المدار وإن كان على الأعمال الصالحة دون خصوص الفقر أو الغنى، ولكن الغنى، ربما بسبب المعصية والطغيان، والفقر يؤدي إلى الإنابة والعبادة والتواضع لله، فالأفضل أن لا يتوسع المرء في الغنى إلا بما لا بد منه لحاجته.

وقد جاء هذا الحديث ليدل على فضل المؤمنين الفقراء وأنهم أكثر أهل الجنة وهذا ما أكده النبي ﷺ في قوله: ((حوضي من عدن إلى عمان البلقاء، ماؤه أشد بياضًا من اللبن وأحلى من العسل وأكوابه عدد نجوم السماء، من شرب منه شربة، لم يظمأ بعدها أبدًا، أول الناس ورودًا عليه الفقراء المهاجرين الشعث رؤوسًا، الدنس ثيابًا، الذين لا ينكحون المتنعمات ولا يفتح لهم السدد))[2])[3].

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٤٤٤.

(٢) أخرجه الترمذي ٣٤٤٤، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٩٨٩).

(٣) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١/٢٧٨-٢٨١ وهذا الملخص منقول عن تكملة فتح الملهم، محمد تقي العثماني ١١/٤٦٩-٤٧٠.

ثالثًا - من أصناف المدعوين: النساء:

(قد اهتم الإسلام بالنساء واعتبرهن شقائق الرجال، وقد شملهن خطاب التكليف في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[١] وتاريخ الإسلام حافل بدور المرأة وجهدها وجهادها، ويكفي أن نقول: إن أول من آمن بالله وصدق النبي ﷺ هو امرأة "خديجة رضي الله عنها"، وإن أول من قدم ماله هو امرأة "خديجة رضي الله عنها" وإن أول من استشهد هو امرأة "سمية رضي الله عنها" وإن أسماء رضي الله عنها، كانت صاحبة النطاقين، ... وإزاء هذا كله فإن المرأة تحظى بدور كبير واحترام عال في شريعة الإسلام...، فهي أم الرجال وأخت الرجال... وإنها مربية الأجيال)[٢]، وما دام الأمر كذلك فلابد أن يوجه الدعاة جهدًا كافيًا واهتمامًا خاصًا في دعوتهم وبيان ما قد يقعن فيه من أخطار.

وهذا ما بينه النبي ﷺ في نص الحديث من قوله ﷺ "واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء". فلما كان النساء أكثر انسياقًا مع الهوى واندفاعًا مع المغريات وأخف تحملاً لمسؤوليات الحياة، حذرهن النبي ﷺ من ذلك وحرضهن على المحافظة على أمر الدين ليسلمن من هذا المصير[٣].

وقد كان ﷺ يأتي النساء ويعظهن، فعن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: ((شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللّهِ الصَّلاَةَ يَوْمَ الْعِيدِ. فَبَدَأَ بِالصَّلاَةِ قَبْلَ الْخُطْبَةِ. بِغَيْرِ أَذَانٍ وَلاَ إِقَامَةٍ. ثُمَّ قَامَ مُتَوَكِّئًا عَلَىٰ بِلاَلٍ. فَأَمَرَ بِتَقْوَى اللّهِ. وَحَثَّ عَلَىٰ طَاعَتِهِ. وَوَعَظَ النَّاسَ. وَذَكَّرَهُمْ. ثُمَّ مَضَىٰ. حَتَّىٰ أَتَى النِّسَاءَ. فَوَعَظَهُنَّ وَذَكَّرَهُنَّ. فَقَالَ: تَصَدَّقْنَ. فَإِنَّ أَكْثَرَكُنَّ حَطَبُ جَهَنَّمَ فَقَامَتِ امْرَأَةٌ مِنْ سِطَةِ النِّسَاءِ سَفْعَاءُ الْخَدَّيْنِ. فَقَالَتْ: لِمَ؟ يَا رَسُولَ اللّهِ قَالَ: لأَنَّكُنَّ تُكْثِرْنَ الشَّكَاةَ. وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ قَالَ: فَجَعَلْنَ يَتَصَدَّقْنَ مِنْ حُلِيِّهِنَّ. يُلْقِينَ فِي ثَوْبِ بِلاَلٍ مِنْ أَقْرِطَتِهِنَّ وَخَوَاتِمِهِنَّ))[٤].

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٠٤.

(٢) فقه الدعوة، د. بسام العموش، ٧٣.

(٣) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم، ص ٢٢٢.

(٤) أخرجه مسلم ٨٨٥.

قال ابن حجر: (قال القرطبي إنما كان النساء أقل ساكني الجنة لما يغلب عليهن من الهوى، والميل إلى عاجل زينة الدنيا، والإعراض عن الآخرة لنقص عقلهن وسرعة انخداعهن)[1].

فحري بالدعاة أن يوجهوا جهدًا كافيًا واهتمامًا خاصًا بالنساء في دعوتهن، وبيان ما قد يقعن فيه من أخطار.

رابعًا - من أساليب الدعوة: الترهيب:

(الترهيب هو وعيد وتهديد بعقوبة إزاء ارتكاب المرء معصية أو اقترافه سيئة منهيًا عنها أو التهاون في أمر من أمور الدين الذي أمر الله به، ويكون هذا التهديد والوعيد بالتخويف بالنار ووصف عذابها وشدته)[2]، وهذا ما ورد في الحديث من قوله ﷺ "..واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء". وقد أفاد التحذير في هذا الحديث أهمية إقبال النساء على الآخرة وطاعتهن لله ورسوله وبعدهن عن كل ما يغضب الله ورسوله، واستحضارهن لهول يوم القيامة.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٢٧/١١.

(٢) انظر: دراسة ناقدة لأساليب التربية المعاصرة في ضوء الإسلام، فتحية الحلواني، ١٣٩، ودراسات في وسائل الاتصال، عبدالله محمد العوشن ص ١١٦.

الحديث رقم (٤٨٨)

٤٨٨ - وعن أسامة بن زيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، عن النبي ﷺ، قَالَ: ((قُمْتُ عَلَى بَابِ الجَنَّةِ، فَكَانَ عَامَّةُ مَنْ دَخَلَهَا المَسَاكِينُ، وَأصْحَابُ الجَدِّ مَحبُوسُونَ، غَيْرَ أنَّ أصْحَابِ النَّارِ قَدْ أُمِرَ بِهِمِ إِلَى النَّارِ)) متفقٌ عَلَيْهِ[1].

وَ(الجَدُّ): الحَظُّ والغِنَى[2]. وقد سبق بيان هَذَا الحديث في باب فَضْلِ الضَّعَفَةِ.

ترجمة الراوي:

أسامة بن زيد: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٩).

غريب الألفاظ:

أصحاب الجِدِّ: ذوو الحظّ والغِنَى[3].

الفعل الماضي قمت يدل على أن الفعل سابق للحديث ثابت في الواقع، ودلالة القيام توحي بالوقف لمهم، والتعبير بعلى يفهم منه تمكن الرؤية، لأن الرؤية من أعلى تحيط بكل جوانب المرئي وإضافة الباب للجنة تعطيه خصوصية أجمل الأبواب، ووقوف الرسول ﷺ عليه يزيده جمالا، ولفظ (عامة)يشير إلى الغلبة أي: أكثر أهلها كما أشارت إليه الأحاديث السابقة، والتعبير بفعل الكينونة الماضي مع الفعل (دخل) العائد على الجنة يشير إلى تحقق الوقوع، وهذا النوع من التصرف في القول يوحي للمخاطب بأن ذلك قد وقع، والرسول ﷺ يخبرهم به، وهو كذلك لأنه ثابت في علم الله، وما هو ثابت في علم الله لا يفترق عن الواقع في الدنيا إلا في المعاينة عندما تقوم الساعة، والتعبير بالأصحاب في جانب الأغنياء فيه إشارة إلى أن هذا الجد سيفارقهم فالمال لا يدوم كما لا تدوم الصحبة بين الصاحبين، والتعبير بالحبس فيه تنفير من الحرص على سببه، وهو الجد وإضافة الأصحاب إلى النار فيها تخصيص، وبناء الفعل لما لم

---

(١) أخرجه البخاري ٥١٩٦، و٦٥٤٧، ومسلم ٢٧٣٦/٩٣، وتقدم تخريجه ٢٥٨. أورده المنذري في ترغيبه ٤٦٦٣.

(٢) بنصه في الترغيب ٤٢/٤.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ج د د).

يسم فاعله لتمام العلم به، وقوله (قَدْ أُمِرَ بِهِم إِلَى النَّارِ) كناية عن دخولهم فيها، والحديث يقسِّم الناس ثلاثة، مساكين هم أكثر أهل الجنة، ومن أمر بهم إلى النار من أهلها، ومحبوسون بينهما من أهل الجد، والحديث يرغب في الفقر، والمسكنة، ويحذر من الحرص على الغنى ويرهب من النار - والعياذ بالله - .

المضامين الدعوية[1]

(١) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (٢٥٨).

الحديث رقم (٤٨٩)

٤٨٩ - وعن أَبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قَالَ: ((أصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا شَاعِرٌ كَلِمَةُ لَبِيدٍ: الاَ كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلاَ اللهَ بَاطِلُ)) متفقٌ عَلَيْهِ[١].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

ما خَلا: من أدوات الاستثناء، أي: غير وعدا وإلا[٢].

الشرح الأدبي

البداية بأفعل التفضيل (أصدق) تحقق التشويق من حيث انشغال المستمع بالمفضل على، وإضافتها للفظ كلمة، يفيد التخصيص، وألا أداة استفتاح وتنبيه تحقق الإنصات لما بعدها ولفظ كل يلقي بمظلة الشمول الحكم وقوله (ما خلا الله باطل) استثناء من العموم أي كل شيء باطل إلا الله، وهو كلام صادق بليغ، وبين (أصدق) في أول الحديث، وبين (باطل) في آخره طباق يوضح المعنى، ويؤكده.

فقه الحديث

في هذا الحديث الشريف إشادة من النبي ﷺ ببيت أو شطْر بيت من شِعْر لبيد؛ فكان من المستحسن بيان ما يلي من أحكام تتعلق بالشعر:

إنشاء الشعر وإنشاده واستماعه:

قال ابن قدامة: (ليس في إباحة الشعر خلاف، وقد قاله الصحابة رضي الله عنهم والعلماء، والحاجة تدعو إليه لمعرفة اللغة العربية، والاستشهاد به في التفسير، وتعرف معاني كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ، ويستدل به أيضًا على النسب والتاريخ وأيام

---

(١) أخرجه البخاري ٣٨٤١، ومسلم ٢٢٥٦/٣.

(٢) القاموس المحيط، الفيروز آبادي ، الفيروز آبادي في (خ ل و).

العرب، ويقال: الشعر ديوان العرب)[١].

هذا هو الأصل في الشعر، وقد ذهب جمهور الفقهاء إلى أنه قد يكون واجبًا أو مندوبًا، أو مكروهًا أو حرامًا.

فقد يكون فرضًا كما نقل ابن عابدين عن الشهاب الخفاجي قال: معرفة شعر أهل الجاهلية والمخضرمين (وهم من أدرك الجاهلية والإسلام) والإسلاميين رواية ودراية فرض كفاية عند فقهاء الإسلام، لأن به تثبت قواعد العربية التي بها يعلم الكتاب والسنة المتوقف على معرفتهما الأحكام التي يتميز بها الحلال من الحرام، وكلامهم وإن جاز فيه الخطأ في المعاني فلا يجوز فيه الخطأ في الألفاظ وتركيب المباني[٢].

وقد يكون مندوبًا، وذلك إذا تضمن ذكر الله تعالى أو حمده أو الثناء عليه أو ذكر رسوله ﷺ أو الصلاة عليه أو مدحه أو الذبِّ عنه، أو ذكر أصحابه أو مدحهم أو ذكر المتقين وصفاتهم وأعمالهم أو كان في الوعظ أو الحكم والتحذير من المعاصي أو الحث على الطاعات ومكارم الأخلاق[٣].

وقد يكون حرامًا إذا كان في لفظه ما لا يحلّ كوصف الخمر المهيج لها أو هجاء مسلم أو ذميٍّ أو مجاوزة الحد والكذب في الشعر بحيث لا يمكن حمله على المبالغة، أو التشبيب بمعيّن من أمرد أو امرأة غير حليلة، أو كان مما يقال على الملاهي[٤].

---

(١) المغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ١٤/١٦٤.

(٢) رد المحتار على الدر المختار ابن عمر عابدين، تحقيق: علي محمد معوض ١/٣٢.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٥/٢٧٩، ١٦/٨٧، فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠ ٥٤٧ ، رد المحتار على الدر المختار، تحقيق: علي محمد معوض ١/٤٤٣، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي ٨/٢٨٣، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد الأنصاري ٤/٣٤٦، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٦/١١٦.

(٤) رد المحتار على الدر المختار، تحقيق: علي محمد معوض ١/٣٢، ٣٣، ٤٤٣، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٦/٩٠، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم النفراوي ٢/٤٠٨، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي ٨/٢٨٣، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد الأنصاري ٤/٣٤٦، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ١٤/١٦٥.

وقد يكون الشعر مكروهًا وللمذاهب في ذلك تفصيل: فعند الحنفية أن المكروه من الشعر ما داوم عليه الشخص وجعله صناعة له حتى غلب عليه وشغله عن ذكر الله تعالى وعن العلوم الشرعية وما كان من الشعر في وصف الخدود والقدود والشعور وكذلك تكره قراءة ما كان فيه ذكر الفسق والخمر(١).

وقال المالكية: يكره الإكثار من الشعر غير المحتاج إليه لقلة سلامة فاعله من التجاوز في الكلام لأنه غالبه مشتمل على مبالغات(٢).

وقال ابن العربي: من المذموم في الشعر التكلم من الباطل بما لم يفعله المرء رغبةً في تسلية النفس وتحسين القول(٣).

وقال الشافعية: يكره أن يشبب من حليلته بما حقه الإخفاء، وذلك ما لم تتأذ بإظهاره وإلا حرم(٤).

وقال الحنابلة: يكره من الشعر الهجاء والشعر الرقيق الذي يشبب بالنساء(٥).

وقد يكون الشعر مباحًا وهو الأصل في الشعر(٦).

---

(١) رد المحتار على الدر المختار، تحقيق: علي محمد معوض ٣٢/١، ٣٣، ٤٤٣.

(٢) الفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم النفراوي ٤٥٨/٢، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٩٢/١٦.

(٣) أحكام القرآن ١٤٤١/٣.

(٤) نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي ٢٨٣/٨، والجمل ٣٨٢/٥ (عن الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١١٦/٢٦).

(٥) الفروع، ابن مفلح ٥٧٥/٦ (عن الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية) ١١٦/٢٦.

(٦) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١١٦/٢٦-١١٧ ومراجعها: رد المحتار على الدر المختار، تحقيق: علي محمد معوض ٣٢/١، ٤٤٣، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم النفراوي ٤٥٨/٢، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي ٢٨٣/٨، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ١٦٤/١٤.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل لبيد بن ربيعة رضي الله عنه.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: الاستشهاد بالشعر.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: بيان هوان الدنيا.

رابعًا: من مهام الداعية: الإفادة من الشعر بما يحقق توضيح الفكرة للمدعوين.

أولاً - من موضوعات الدعوة: فضل لبيد بن ربيعة رضي الله عنه:

يظهر ذلك من قول النبي صلى الله عليه وسلم: "أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد..." إلخ الحديث.

قال النووي: (وفي هذه الحديث منقبة للبيد وهو صحابي وهو لبيد بن ربيعة رضي الله عنه)[١].

فهو لبيد بن ربيعة بن عامر بن مالك بن جعفر بن كلام بن ربيعة بن صعصعة الكلابي الجعفري أبو عقيل، وفد على النبي صلى الله عليه وسلم فأسلم وأحسن إسلامه، وكان من فحول شعراء الجاهلية، قال ابن حجر في ترجمته له: قال المرزباني في معجمه: كان فارسًا شجاعًا شاعرًا سخيًا، قال الشعر في الجاهلية دهرًا، ثم أسلم، ولما كتب عمر رضي الله عنه إلى عامله بالكوفة: سل لبيدًا والأغلب العجلي ما أحدثا من الشعر في الإسلام فقال لبيد: أبدلني الله بالشعر سورة البقرة وآل عمران فزاد عمر في عطائه. قال ويقال إنه قال في الإسلام بيتًا واحدًا:

ما عاتب المرء اللبيب كنفسه ... والمرء يصلحه الجليس الصالح

ويقال بل قوله:

الحمد لله إذا لم يأتني أجلي ... حتى لبست من الإسلام سربالا[٢]

وقال جمهور أصحاب السير والأخبار: لم يقل شعرًا منذ أسلم وكان شريفًا في

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٤٠٣.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة، ابن علي العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ١١٤٠.

الجاهلية والإسلام، وكان من المعمرين عاش مائة وأربعين سنة، وقيل إنه مات وهو ابن سبع وخمسين ومائة سنة في أول خلافة معاوية واختلفت الروايات في عمره ولكن اتفقت على إنه كان من المعمرين رضي الله عنه وعن سائر الصحابة أجمعين ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين[١].

ثانيًا - من أساليب الدعوة: الاستشهاد بالشعر:

(لقد كان الشعر على مرّ العصور حاضرًا في مسرح الأحداث، قريبًا من روح الأمة، فكان مُعبرًا عن نبضها، وضميرها، وواكب مسيرتها الطويلة، مواكبة فاعلة ومؤثرة، والشعر من الأساليب الدعوية الفريدة والمؤثرة، والتي يستطيع من خلالها الداعية أن يؤثر في المدعوين، وأن يبين المضامين الدعوية التي يريد بيانها وايضاحها)[٢]، وقد ورد الشعر كأسلوب دعوي في الحديث من قول لبيد "ألا كل شيء ما خلا الله باطلاً". وقد أثنى النبي صلى الله عليه وسلم على هذه الكلمة وقال فيها: "أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد".

(وقد خاض الشعر العربي معركة الإسلام ضد أعدائه على مر العصور. خاض معركة الإسلام ضد الجاهلية، واليهودية، والنصرانية في العهد النبوي الشريف، في بدر، وأحد، والخندق، وحنين، وخيبر، ومؤتة، وسواها، حيث لمعت أسماء شعراء مجاهدين كثر، وفي مقدمتهم: عبدالله بن رواحة، وكعب بن مالك، وحسان بن ثابت رضي الله عنهم...، وخاضها ضد المستعمرين في العصر الحديث، في مختلف أقطار العالم الإسلامي، وما يزال يخوضها ضد أعتى أشكال العداء بين الإسلام وأعدائه، في فلسطين، وكشمير، والبوسنة والهرسك، والشيشان، وأخيرًا العراق.

---

(١) انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر ص ٦٣٩-٦٤١، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن علي العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ١١٤٠-١١٤١، ودليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٧٣٢.

(٢) انظر: مظاهر الوعي في شعر الجهاد ضد الصليبيين، د. محمود بن عبدالله أبو الخير، بحث منشور في مجلة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد التاسع عشر، ١٤١٨هـ، ٤٢٥.

وبهذا يثبت الشعر أنه ليس ترفًا في حياة الإنسان، بل صياغة جديدة للحياة، وتطلعًا مستمرًا نحو التغيير، وتفاعلاً مع الأحداث، وتجسيدًا لمعاناة الأمة، يرمي إلى تعميق إحساسها بواقعها، بقصد تجاوز ذلك الواقع)[1]، لذا يجدر بالداعية الحصيف أن يحسن الاستشهاد بالشعر المناسب في معالجته لبعض القضايا الدعوية، لأنه لا يخفى الأثر الطيب للشعر الجيد.

ثالثًا - من موضوعات الدعوة: بيان هوان الدنيا:

(مما لا شك فيه أن الدنيا وسيلة وليست غاية، إنها وسيلة للآخرة، وإن الله تبارك وتعالى، قد كتب على الدنيا الفناء، وعلى الآخرة البقاء، فلا فناء لما كتب عليه البقاء، ولا بقاء لمن كتب عليه الفناء)[2] وهذا ما يستفاد من نص الحديث في قول لبيد: "ألا كل شيء ما خلا الله باطل"، قال ابن حجر: (... أو المراد في البيت بالبطلان الفناء لا الفساد، فكل شيء سوى الله جائز عليه الفناء لذاته حتى الجنة والنار، وإنما يبقيان بإبقاء الله لهما وخلق الدوام لأهلهما)[3].

وكل شيء ما عدا ما يقرب إلى الله تعالى ويحقق مرضاته لا قيمة له، لأنه الحق الثابت الموجود، أما غيره فقابل للهلاك والفناء، وعلى الإنسان أن لا ينشغل به عنه وهو موافق لقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[4] أي قابل للهلاك، وعلى الإنسان أن يمعن في التعلق به والاستناد إليه[5].

(فالمؤمن الفطن اللبيب في الدنيا كالغريب لا يجزع من ذلها ولا يأنس بقربها، ولا يأسى لبعدها ولا يأمن غيرها، للناس حال وله حال، وقد تعجب الحسن البصري من رجل يؤثر الدنيا على الآخرة فقال: ما عجبت من شيء كعجبي من رجل لا يحسب حب الدنيا من الكبائر، وأيمّ الله إن حبها لمن أكبر الكبائر وهل تشعبت الكبائر إلا من

---

(١) المرجع السابق، ٤٢٤-٤٢٥.

(٢) انظر: الزهد، الحسن البصري، جمع د. محمد عبدالرحيم محمد، ص ٤٧.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٨٨/٧.

(٤) سورة القصص، آية: ٨٨.

(٥) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم، ص ٣٢٣.

أجلها؟ وهل عبدت الأصنام، وعصي الرحمن إلا بحب الدنيا وإيثارها)[١]، فمن أجل ذلك هانت على الله، وهذا ما أكده النبي ﷺ، فعن جابر رضي الله عنه "أن رسول الله ﷺ مر بالسوق والناس كَنَفَتَيْهِ، فمر بِجَدْيٍ أَسَكَّ مَيِّتٍ، فتناوله فأخذ بأذنه ثم قال: (أيكم يحب أن هذا له بدرهم) فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء وما نصنع به قال: (أتحبون أنه لكم)؟، قالوا: والله لو كان حيًا كان عيبًا أنه أَسَكّ فكيف وهو ميت! فقال: (فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم)[٢]، أي: إن الدنيا أذل وأحقر عند الله تعالى من هوان هذا عندكم. وقال ﷺ: ((لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة، ما سقى كافرًا منها شربة ماء))[٣]، وما ذلك إلا دليل على هوان الدنيا عند الله.

رابعًا – من مهام الداعية: الإفادة من الشعر بما يحقق توضيح الفكرة للمدعوين:

لقد ظهر ذلك في الحديث من الإفادة من الشعر بما يحقق توضيح الفكرة وتوصيلها للمدعوين، "وقد أدرك الرسول ﷺ أهمية هذه الوسيلة التي يستخدمها أعداؤه لمهاجمة دعوته ويوجهون له من خلالها الاتهامات والدعاوى الباطلة فما كان منه ﷺ إلا أن جعل القصيدة الشعرية واحدة من الوسائل الفعالة لحمل رسالة الإسلام، وبرز من شعراء الإسلام من أسهم بفاعلية في نشر دعوة الحق وهؤلاء الذين وصفهم القرآن الكريم في أواخر هذه الآية من سورة الشعراء، بقوله: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[٤]"[٥].

---

(١) الزهد، الحسن البصري، جمع د. محمد عبدالرحيم محمد، ٤٤-٤٥.

(٢) أخرجه مسلم ٢٩٥٧.

(٣) أخرجه الترمذي ٢٣٢٠، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٨٨٩).

(٤) سورة الشعراء، الآيات: ٢٢٤-٢٢٧.

(٥) الدعوة الإسلامية الوسائل والأساليب، محمد خير رمضان، ٩٤.

فعلى الداعية بشكل عام أن يستفيد من العلوم بما يحقق توضيح الفكرة للمدعوين، وقد بيّن ﷺ ذلك، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «إنَّ الناس قالوا: يا رسولَ اللهِ، هل نَرَى رَبَّنا يومَ القيامةِ؟ قال: هل تُمارونَ في القمرِ ليلةَ البدرِ ليس دُونَهُ سحابٌ؟ قالوا: لا يا رسولَ اللهِ. قال: فهل تُمارونَ في الشمسِ ليس دَونَها سحابٌ؟ قالوا: لا. قال: فإنكم تَرَونَهُ كذلكَ... إلخ»[1]، وفي ذلك بيان على الإفادة من العلوم بما يحقق توضيح الفكرة للمدعوين.

(١) أخرجه البخاري ٨٠٦.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

للناس مع الدنيا اتجاهات ثلاثة: الأول الافتتان بها والعشق لها وتأليهها من دون الله، حتى ظنت هذه الطائفة أن الدنيا هي الوسيلة والغاية، وقد تحدث القرآن عن نظرتهم: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [سورة الجاثية:٢٤]، وهذه الفئة من الناس كانت ولا تزال ترى الحياة الدنيا هي الحياة، لا قبل ولا بعد ولهذا فتنوا بها وقعدوا لها ودعوا إليها إذا سمعوا الآذان لم يكرروه، وإذا سمعوا داعي الإقامة لم يجيبوه وإذا سمعوا عن مغنم هرولوا إليه، وما عملوا بهذه الآية: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾ [سورة الذاريات:٥٦ - ٥٧].

الثاني: كاره لها معرض عنها لا يلتمس فيها أسباب البقاء ولا يسعى لكسب قوت يومه، يحيا في ضوء ما يساق إليه، مغال في الزهد مفرط في العبادة، مخالف لنص الآية: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [سورة البقرة:٣٠].

الثالث: وسطي الاتجاه، لا هو طالب للدنيا بالكلية معرض عنها بالمرة، وإنما يعمل بقول الله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [سورة الجمعة:١٠]، إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث التي تدعو إلى عدم تناسي الدنيا بالكلية أو الانقطاع للآخرة بالمرة، ولهذا وجب التربية على هدي الإسلام، ومن المضامين التربوية في أحاديث الباب ما يلي:

أولاً - من سمات المربي التبسم في وجه المتربين:

من سمات المعلم والمربي تجاه من يعلمهم ويربيهم أن يبتسم أثناء تعليمه لهم، ومن الشواهد على ذلك في باب فضل الزهد في الدنيا.

عندما «بعث الرسول ﷺ أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه إلى البحرين يأتي بجزيتها، فقدم بمال من البحرين فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ فلما صلى رسول الله ﷺ انصرف، فتعرضوا له، فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم...».

فهذا شاهد تربوي على أهمية التبسم أثناء عملية التربية وليس أدل على ذلك من فعل الرسول مع الصحابة عندما تبسم، وهذا مما يجدر فعله من ناحية المعلم تجاه من يربيهم ويعلمهم، وذلك لأن البشاشة والتبسم مما يوثق العرى ويقوي الروابط بين الناس ويحدد علاقتهم مع بعضهم، وذلك لأن التبسم والبشاشة ركيزة نفسية هامة بها تقوي العلاقات، لأنها تأخذ بمجامع القلوب إذا ارتاحت إلى المتحدث واطمأنت إليه ورضيت به، والوجه السمح البشوش يظل حسنه وبهاؤه حتى مع تقدم العمر بصاحبه، لأن الشمائل الحلوة لا تذهبها السنون[1].

ثانيًا - التربية بالسؤال والجواب:

ومن أساليب التربية الإسلامية أسلوب السؤال والجواب لما له من أهمية كبيرة في عملية التربية، ومن الشواهد على ذلك في باب فضل الزهد في الدنيا.. قوله ﷺ: «أَظُنُّكُمْ سَمِعْتُمْ أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَدِمَ بِشَيْءٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ؟»، وقوله: «يا ابن آدم هل رأيت خيرًا قط؟...»، وقوله: وهل سمعته، قلت: نعم قال: «ذاك جبريل أتاني فقال:...»، وقوله: «فقال: يا رسول الله دلني على عمل إذا عملته أحبني الله...»، وقوله:... فقال: «ما هذا؟، فقلنا: قد وهي...» وقوله: «وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت...».

فهذه شواهد تربوية تدل على استخدام النبي ﷺ، أسلوب السؤال مع الصحابة رضوان الله عليهم، وذلك لعلمه أن له عدة فوائد تربوية كجذب الانتباه وشحذ الذهن وإعماله، وإبعاد المتعلمين والمتربين عن الانقياد الأعمى وتحقيق الإقناع والاقتناع العقلي، ثم تحقيق المغزى التربوي المراد تحقيقه من الموقف، ولأهمية السؤال والجواب كان علماء المسلمين يشجعون طلبتهم على المناقشة والمناظرة، ويوجبون عليهم التمرن عليها، وكانوا ينقذون الركود الذهني في بلاد المغرب العربي في القرن الرابع عشر الميلادي، وذلك لأنها أهملت السؤال والجواب في التعليم، وهم يرون أن السؤال في المسائل العلمية يساعد على فهمها وعلى التعبير عنها، وكانوا يرون، أن قضاء ساعة واحدة في المناقشة

---

(١) انظر: آداب المتعلمين د. أحمد بن عبدالله الباتلي، ص٧٥، موسوعة القيم ومكارم الأخلاق والإسلام، ٢٣/١١، ٢٤ مع تصرف بسيط.

والمناظرة أجدى على المتعلم من مكث شهر كامل في الحفظ والتكرار[١].

وعلى المربي أن يعود المتربين على السؤال والجواب ليشحذ أذهانهم، ويقوي الجهة لديهم، ويعودهم الارتجال والمواجهة والثقة بالنفس، كما أن عليه أن يكون واسع الصدر، فيرد على كل استفساراتهم وأسئلتهم بإجابات صحيحة حتى يكونوا على وعي واقتناع[٢].

ثالثًا - التربية بالتبشير:

من أساليب التربية الإسلامية التي استخدمها رسول الله ﷺ التبشير. والشاهد على ذلك في باب فضل الزهد: قوله ﷺ: "أبشروا وأملوا ما يسركم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى ..." وقوله ﷺ: "اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء ..." وقوله ﷺ: "قمت على باب الجنة فكان عامة من دخلها من المساكين..." فهذه شواهد تربوية تعلمنا منها صراحة أن التبشير سلوك إنساني رائع ومطلب اجتماعي محبب ولذا حرص النبي ﷺ على التبشير وذلك لأن في التبشير تيسيراً للأمور وتبسيطاً لها وعرضها دون تشدد أو تكلف، وفي هذا إشعار للبهجة أن تعم، وبعد ثقل التكاليف والواجبات، لأن التشدد يؤدي إلى ردود أفعال عكسية ومنفرة من الإسلام وأهله، ويؤدي في النتيجة إلى حفر خنادق عميقة بين المجتمع المراد هدايته وبين المسلمين يصعب الالتقاء عليها بل تصبح المفاهيم الإسلامية مثار سخرية واستهزاء؛ ولذا كان من هدي النبي ﷺ ((بشروا ولا تنفروا))[٣] وذلك لأن التبشير له تأثير على النفوس لأنه يكاد يخرج بأهله إلى عوالم أخرى من الفرحة والسرور، وتنقل المسلمين من جو الرتابة والسأم إلى جو السعادة عن طريق التبشير، من هنا نرى أن الرسول ﷺ كان يعرض الإسلام عرضًا سهلاً وبسيطًا دون تعقيد أو تكلف، مع الحرص الشديد على التبشير كوسيلة من وسائل التربية التي تدفع باتجاه الخير والسلوك الحسن[٤].

---

(١) التربية الإسلامية وفلاسفتها، محمد عطية الإبراشي، ص ٢٠٤.

(٢) أصول التربية الإسلامية، د. سعيد القاضي، ص١٨١.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢١٦/١١.

(٤) أساليب الدعوة والتربية، د. زياد العاني، ص ٢٣٣.

رابعًا - التربية بالتحذير:

من أساليب التربية الإسلامية التحذير: وهو أسلوب تربوي وقائي، كي لا يتم الوقوع في الخطأ: ومن الشواهد على ذلك في باب فضل الزهد قوله ﷺ... إن مما أخاف عليكم بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها...، وقوله ﷺ: «...واتقوا النساء ...» وقوله ﷺ: «تعس عبد الدينار والدرهم...»، وقوله ﷺ: «...لا تتخذوا الضيعة فترغبوا في الدنيا...»، وقوله ﷺ: «إن لكل أمة فتنة، وفتنة أمتي المال ...»، وقوله ﷺ: «واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء ...».

فهذه شواهد تربوية دلت بمنطوقها تارة وبمفهومها تارة أخرى على استخدام الرسول ﷺ أسلوب التحذير مع أصحابه من الوقوع في المنهيات التي نهى عنها الله ورسوله ﷺ، والنبي ﷺ كان دائم التحذير لأصحابه من اتيان فعل منهي عنه أو امتناع عن فعل مأمور به، وذلك خوفًا من غضب الله وعذابه، وخوفًا من إلحاق الضرر بالأمة والمجتمع المسلم مما يدفع هذا باتجاه الاستعداد والتأهب لتجنب حصول ذلك، وهذه التحذيرات تحمل في طياتها أسلوب تربوي توجيهي من خطر قادم يتضمن وعيدًا وزجرًا ينتج عنه خوف ورهبة، والتحذير هنا يمثل قوة صادة عن الانحراف إلى سبيل الشر التي ينهى عنها الإسلام، وذلك لأن التحذير فيه إثارة المخاوف من سلوك سبيل ما، أو القيام بعمل ما من شأنه أن يقلل من اندفاع الإنسان نحو ذلك السبيل أو ذلك العمل وأن يضعف من قوته وتجعله قلقًا حذرًا وعلى مقدار نمو الحذر من الجهات تخبو جذوة الأطماع والأهواء المتأججة نحوها[1].

خامسًا - التربية بالترغيب والترهيب:

من أساليب التربية الإسلامية أسلوب الترغيب والترهيب، ولقد استخدمه رسول الله ﷺ في تربية الصحابة لما له من أثر كبير في عملية التربية، ومن الشواهد التي تدل على ذلك في باب فضل الزهد، وقوله ﷺ: «يُؤْتَىٰ بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا، مِنْ أَهْلِ

---

(١) المرجع السابق ص٢٥٠.

النَّارِ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ. فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً: ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لاَ. وَاللّهِ يَا رَبِّ وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا، مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ. فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لاَ. وَاللّهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ. وَلاَ رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ».

فهذا شاهد تربوي استخدم الرسول ﷺ، فيه أسلوب الترغيب تارة والترهيب تارة أخرى.

والرسول استخدم أسلوب الترغيب في عملية تنشئة الصحابة، لأنه أسلوب فيه تحريك الدوافع على الخير، وتنشيطها فيما أعده الله تعالى لمن خاف مقام ربه، وهذا يكفل للفرد الاستقامة على طريق الجنة، وهذا ليس بغريب على التربية الترغيبية لأنها من الأسس التي يقوم عليها صلاح الفرد، كما استخدم الرسول ﷺ الترهيب من النار والأسباب التي تؤدي إليها، والرسول ذكر الترغيب والترهيب مقترنان لعلمه أن الإنسان لديه القدرة على التمييز بين ما يضره وما ينفعه كما أنه يستطيع أن يستجيب لأوامر الله فيمتنع عن ما نهى عنه ويعمل بما أمر به مما يجعل للترهيب أثراً في سلوكه ولولا هذه الخاصية الفطرية لما كان لهذا الأسلوب أثر تربوي ولقد بين الرسول ﷺ الكيفية التربوية التي ينبغي للمربين اتباعها في عملية التربية وهي الموازنة والاعتدال والموضوعية من الإفادة من الترغيب والترهيب فلا يغلب أحدهما على الآخر، وأن يستخدم كل واحد منهما بحسب الحاجة دون تشدد[(١)].

سادسًا - التربية بالتشبيه وضرب الأمثال:

من أساليب التربية الإسلامية أسلوب التشبيه وضرب الأمثال، ومن الشواهد على ذلك في باب فضل الزهد: قوله ﷺ: «مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إلاَّ مِثْلَ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَه فِي الْيَمِّ ...»، وعن جابر رضي الله عنه «أَنَّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ مَرَّ بالسُّوق، وَالنَّاسُ كَنَفَتَيْهِ، فَمَرَّ بِجَدْيٍ أَسَكَّ مَيِّتٍ، فَتَنَاوَلَهُ...»، وقوله ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»، وقوله ﷺ: «إِنْ كنْتَ تُحِبُّنِي فَأَعِدَّ لِلفَقْرِ تِجْفَافًا، فَإِنَّ الفَقْرَ أَسْرَعُ إِلَى مَنْ يُحِبُّنِي مِنَ السَّيْلِ إِلَى مُنْتَهَاهُ»، قال رسول الله ﷺ: «مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلاَ فِي غَنَمٍ

---

(١) انظر: التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي، ص٣٩٦، أصول التربية الإسلامية، د. محمد شحات، ص٨٤.

بأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِه»، وقوله ﷺ: «ما أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلاَّ كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا».

فهذه شواهد تربوية تدل على أن الرسول ﷺ استخدم التشبيه والتمثيل مع أصحابه أثناء عملية التربية، وذلك لأن التشبيه أوقع في النفس وأبلغ من الوعظ وأقوى من الزجر وأقوم في الإقناع والرسول ما أتى بالأمثال للتسلية بل أتى بها للتذكر والتدبر وأخذ العبرة، والمربي البارع الناجح يستطيع عن طريق ضرب المثل المساعدة في فهم الأشياء غير المحسوسة بتقريبها إلى فهمه بضرب الأمثال بالأشياء المحسوسة لديه - وليس أدل على ذلك من مثال الجدي الميت والذي ظهر منه حقارة الدنيا - وأسلوب التشبيه وضرب الأمثال من أحد أساليب التربية الناجحة والمؤثرة في تربية المسلم، فينبغي على المربين استعمال هذا الأسلوب التربوي المؤثر الذي يشد انتباه المتربي، ومن خلاله يوجه ضرب الأمثال إلى الأخلاق الفاضلة، والآداب الإسلامية الرفيعة لكن ينبغي على المربين استغلال الظروف المناسبة في استخدام هذا الأسلوب التربوي، وذلك لكي يحقق أسلوب التشبيه وضرب الأمثال الهدف المنشود من وراء استخدامه كأسلوب من أساليب التربية الإسلامية[١].

سابعًا - التربية بالتوجيه المباشر:

من أساليب التربية الإسلامية أسلوب التوجيه المباشر، ومن الشواهد على ذلك في باب فضل الزهد قوله ﷺ: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل..».

فهذا شاهد تربوي دل على أن الرسول ﷺ استخدم أسلوب التوجيه المباشر في تربية الصحابة رضوان الله عليهم لأنه أراد أن ينبه على أهمية ما يقول من توجيه مباشر عن الزهد في الدنيا والاقتصاد على ما لابد منه، ومن أراد ذلك كان كعابر سبيل، والرسول ما استخدم أسلوب التوجيه المباشر إلا لعلمه بأنه مؤثر في سلوك الفرد أثناء عملية التعلم، ولعلمه أنه بامتثال هذه التوجيهات تحقق له الفائدة والسعادة، وبنجاحه فإنه يغير مجرى حياة الإنسان لأنه يعقبه آثار تربوية منها تزكية النفس وتطهيرها،

---

(١) أساليب التربية الإسلامية، عبدالرحمن عبدالوهاب البابطين، ص٦٠.

وبهذا يسمو المجتمع ويبتعد عن المنكرات، ويرى المربون أن في أسلوب التوجيه مجالاً كبيرًا للمعلمين في تنشئة طلابهم على ما فيه خيرهم وصلاحهم، وتوجيههم إلى ما فيه رقي مجتمعهم وأمتهم ومن المفيد أن يبتعد المعلمون عن التوجيه، وهذا الأسلوب له عدة عوامل لنجاحه ينبغي مراعاتها: وهي إشعار الأفراد محل التوجيه بالعطف والاهتمام، وتخير وقت التوجيه حيث تكون النفس هادئة للتقبيل[(١)].

ثامنًا - التربية بالتكرار والتأكيد:

من أساليب التربية الإسلامية التكرار والتأكيد، ومن الشواهد على ذلك قول عبدالله بن مغفل رضي الله عنه، قال: قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم «يا رسول الله، والله إني لأحبك، فقال: انظر ماذا تقول؟، قال: والله إني لأحبك، ثلاث مرات، فقال:....».

فهذا شاهد تربوي ظهر منه التكرار كأسلوب تربوي استخدمه رسول الله صلى الله عليه وسلم في أثناء عملية التربية مع الصحابة رضي الله عنهم والتكرار من أهم الوسائل في تثبيت المعنى في القلوب وبثه في النفوس، وحملها على التصديق والإيمان به، ولا يكون التكرار والتأكيد لهما أثر إلا إذا دام تكراره ما أمكن، والأمر إذا ما أكد انتهى بالتكرار إلى الرسوخ في النفس على أنه حقيقة ثابتة، ولاشك في أن التكرار له أثر كبير في النفوس لأن للفطرة دخلاً في قبول هذا التكرار لما له من أثر في تثبيت المعاني وتأكيد الأفكار لديه، والرسول صلى الله عليه وسلم قد استخدم التكرار والتأكيد وسيلة تربوية تجعل من الأمر المكرر عند المرء عادة مستحكمة راسخة في أعماق قلبه ونفسه، وكان من عادته صلى الله عليه وسلم التكرار للأمور المهمة ثلاث مرات أو أكثر تأكيداً لينبه السامع على إحضار قلبه وفهمه للخير الذي يذكره[(٢)].

تاسعًا - التربية على ذكر الله عز وجل:

من أهداف التربية الإسلامية التنشئة على ذكر الله عز وجل، وذلك لأن الذكر من

---

(١) أساليب الدعوة والتربية، د. زياد العاني، ص٢٨٤، أصول التربية الإسلامية، د. محمد شحات الخطيب وآخرون، ص٨٤.

(٢) أساليب الدعوة والتربية، د. زياد العاني، ص٣٠٢، ٣٠١.

أعظم أسباب حياة القلب ونماء الإيمان فيه، ومن الشواهد على ذلك في باب فضل الزهد: قوله ﷺ: «إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلاَّ ذِكْرُ الله تَعالَى».

فهذا شاهد تربوي دل على أهمية ذكر الله وعلى أن كل ما في الدنيا فهو لعب ولهو إلا ذكر الله، وما كان سببًا في ذلك، والذكر للقلب كالماء للسمك، فكيف يكون حال السمك إذا أخرج من الماء، والذكر هو المنزلة الكبرى التي منها يتزود العارفون، وفيها يتجرون، وإليها دائمًا يترددون، وهو منشود الولاية الذي من أعطيه اتكل، ومن منعه عزل، وهو قوت قلوب العارفين التي متى فارقها صارت الأجساد لها قبورًا، والذكر دواء أسقامهم الذي متى فارقهم انتكست منهم القلوب، والسبيل الواصل والعلاقة التي كانت بينهم وبين علام الغيوب.

وقال ﷺ: «مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ والذي لا يَذْكُرُهُ، مَثَلُ الحَيِّ والمَيِّتِ»[(١)]، فهذا دليل على أن القلوب بور خراب، بدون ذكر الله عز وجل الذي هو جلاء للقلوب وصقالتها، وكلما ازداد الذاكر عند ذكره استغراقًا ازداد محبة إلى لقائه للمذكور واشتياقًا، وعليه فاللسان الغافل كالعين العمياء، والأذن الصماء، واليد الشلاء، قال الحسن البصري: تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة، وفي الذكر، وفي قراءة القرآن[(٢)].

عاشرًا - التربية على التعلم:

من أساليب التربية الإسلامية: التعلم، لأن التعلم أنفع ما يخلص النفوس من الرذائل ويصلحها، فالعلم الشرعي يعرف المرء الحلال من الحرام، ويعرف الفضيلة ومكانتها فيتخلق بها، وبالعلم يعرف شر الرذيلة فيهجرها، فالعلم هو مطية طالبي الأخلاق الكريمة، ومن الشواهد التي تدل على التعلم في باب فضل الزهد. قول النبي ﷺ: «الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ. مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلاَّ ذِكْرَ اللَّهِ وَمَا وَالاَهُ، وعَالِمًا ومُتَعَلِّمًا».

---

(١) أخرجه البخاري، ٦٤٠٧، ٢٠٨/١١، مسلم، ٧٧٩، ٦٨/٦.

(٢) التربية على منهج أهل السنة والجماعة، أحمد فريد، ص١٥٨.

فهذا شاهد تربوي دل بمنطوقه على بيان فضل العلم وأهله وطلابه، وفي هذا الشاهد حث على طلب العلم لأن به الرشد والنجاة وذلك لأن العلم الشرعي مفتاح الخير كله، وعنوان سعادته، لأنه محتاج إليه في عبادته، وفي جميع شؤون حياته الشخصية والاجتماعية، وأولى العلوم وأفضلها علم الدين لأن الناس بمعرفته يرشدون، وبالجهل به يضلون فالإنسان الجاهل بدينه جاهل بخير الدنيا والآخرة، والعالم بدينه عارف بما ينفعه في دار الدنيا والآخرة، فيكون للخير راغبًا به عامل، وللشر كارهًا ومفارقًا، وقال بعض البلغاء: تعلم العلم فإنه يقومك ويسددك صغيرًا ويقدمك ويسودك كبيرًا ويصلح زيفك وفاسدك، ويرغم عدوك وحاسدك، ويقوم ميلك وعوجك، ويصحح همتك وأملك والعلم طريق الجنة، وحياة ونور، والجهل موت وظلمة، والشر كله سببه عدم الحياة والنور، والخير كله سببه النور، وجدير بكل مسلم أن يأخذ حظه من العلم الذي يقربه إلى الله تعالى[1].

حادي عشر - التربية بالقدوة:

من أساليب التربية الإسلامية أسلوب التربية بالقدوة لما له من دور كبير وهام في عملية سير التربية الإسلامية، ومن الشواهد على ذلك في باب فضل الزهد، حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما، قال: ذكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما أصاب الناس من الدنيا فقال: «لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَظَلُّ الْيَوْمَ يَتَلوىَ مَا يَجِدُ مِنَ الدَّقَلِ مَا يَمْلأُ بِهِ بَطْنَهُ».

فهذا شاهد تربوي ظهر منه أن القدوة أسلوب تربوي اتخذه الصحابة من القدوة الأول الرسول ﷺ - وكيف كان قدوة في الزهد وهجر الدنيا - ، لذلك قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[2]، والتربية الإسلامية لا غنى لها عن وجود واقع تربوي يمثله إنسان مرب يحقق بسلوكه وأسلوبه التربوي كل الأسس والأساليب والأهداف التي يراد إقامة المنهج التربوي عليها، كذلك بعث الله

(١) أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي، ص٧٩، ٨٠، ٢٤٤.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

محمدًا ﷺ عبده ورسوله ليكون قدوة للناس يحقق المنهج التربوي الإسلامي، والرسول ﷺ بشخصه وشمائله وسلوكه وتعامله مع الناس، ترجمة عملية بشرية حية لحقائق القرآن وتعاليمه وآدابه وتشريعاته، ولقد فطر الله الناس على اتخاذ القدوة والبحث عنها لتكون نبراسًا يضيء سبيل الحق، ومثالاً حيًا يبين لهم كيف يطبقون شريعة الله، لذلك لم يكن لرسالات الله من وسيلة لتحقيقها على الأرض إلا إرسال الرسل يبينون للناس ما أنزل الله من شريعة، وعليه فالقدوة الصالحة مطلوبة.

وهكذا تظل القدوة في الإسلام، شاخصة ماثلة للعيان تتدفق حيويتها ولا تتحول إلى خيال مجرد تهيم في حبه الأرواح، دون تأثير واقعي ولعل الحكمة في ذلك ما أودعه الله في طبيعة النفس الإنسانية من استعداد للمحاكاة[1].

ثاني عشر: من مصادر التربية الإسلامية: القرآن الكريم:

القرآن الكريم أول مصدر من مصادر التربية الإسلامية، ومن الشواهد على ذلك في باب فضل الزهد، قول عبدالله بن الشخير أنه قال: «أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَقْرَأُ ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ قَالَ: «يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي. مَالِي قَالَ وَهَلْ لَكَ، يَا ابْنَ آدَمَ...».

فهذا شاهد تربوي ظهر منه أن النبي ﷺ استخدم القرآن كمصدر من مصادر التربية أثناء تعليمه للصحابة - رضوان الله عليهم - والرسول ما استخدم أسلوب التربية بالقرآن إلا لعمله أنه يوفر له الشمول في المحتوى والمنهجية ويحقق الموضوعية في التطبيق، وذلك لأن القرآن مشتمل على جميع العناصر الأساسية للأصول الدينية أصل الإنسان، ومن هنا يدخل القرآن الكريم - بوصفه دستور الحياة للمسلمين بالعديد من التصنيفات المنهجية لجوانب متعددة تتناول الحياة الدنيا وما بعدها، ومنها العقيدة الدينية الواضحة التي تعد منهج حياة للمسلمين والتي تتمثل هنا في حديث الباب بالإيمان بقدرك وحالك في هذه الحياة، وأن كل شيء مقسوم ومعد له، ولقد أثر القرآن في نفوس الصحابة والمسلمين تأثيرًا بالغًا، فقد اجتهدوا بتطبيق القرآن مع تعلمه كمنهج

---

(١) أصول التربية الإسلامية وأساليبها، عبدالرحمن النحلاوي، ص٢٠٥، ٢٠٧.

تربية لأن أسلوبه يستخدم الإقناع العقلي مقترنًا بإثارة العواطف والانفعالات الإنسانية مع التجارب السلوكية المشحونة بها والمصاحبة لموضوع معين، وكل هذا يمكن من القول بأن القرآن هو كتاب تربية قبل أن يكون أي شيء آخر[١].

ثالث عشر - التربية على البذل والإنفاق:

إن من أهداف التربية الإسلامية الحث على الإنفاق في سبيل الله، ومن الشواهد على ذلك في باب فضل الزهد: ما روي عن أبي ذر رضي الله عنه قال: «كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَرَّةٍ بِالْمَدِينَةِ، فَاسْتَقْبَلَنَا أُحُدٌ، فَقَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ» قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «مَا يَسُرُّنِي أَنَّ عِنْدِي مِثْلَ أُحُدٍ هذَا ذَهَبًا تَمْضِي عَلَيْهِ ثَالِثَةٌ وَعِنْدِي مِنْهُ دِينَارٌ إِلاَّ شَيْءٌ أَرْصُدُهُ لِدَيْنٍ...»، وقال ﷺ: «لَوْ كَانَ لِي مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَبًا لَسَرَّنِي أَنْ لاَ يَمُرَّ عَلَيَّ ثَلاَثٌ وَعِنْدِي مِنْهُ شَيْءٌ إِلاَّ شَيْءٌ أَرْصُدُهُ لِدَيْنٍ».

فهذه شواهد تربوية تبين أن النبي ﷺ ضرب أروع الأمثلة للصحابة رضوان الله عليهم على أهمية البذل والإنفاق في سبيل الله وفي وجوه الخير، وعدم كنز الأموال... وذلك لأن البذل والإنفاق يعد محمدة يجلب المودة وينفي العداوة ويكسب الذكر الجميل، وذلك لأن المنفق قريب من كل خير وبر، وإذا ما تربى المسلم على الإنفاق صفت نفسه ولانت شدته، وقاده ذلك إلى مكارم الأخلاق، والبذل والإنفاق من الصفات المحمودة التي تعد من مقومات الشخصية وأساسياتها. وقد كان العرب يعدون هذه الصفات من المفاخر التي يفاخرون بها غيرهم لكن جاء الإسلام لينمي هذه الصفة، ويوجهها التوجيه الصحيح، ويحث على اكتسابها، لكن دون مفاخرة، والبذل ينم عن طيب نفس وكرم، وإثبات عملي للمخاطب، والمراد تدريبه على أن هذه الدنيا فانية لا تستحق الكنز[٢].

---

(١) التربية الإسلامية، د. عماد محمد عطية، ص٢٥.

(٢) أساليب الدعوة والتربية، د. زياد العاني، ص٣٤٦، رسائل في التربية والأخلاق والسلوك، د. محمد بن إبراهيم الحمد، ص٥٢٤.

رابع عشر - التربية على غرس قيمة الزهد:

من أهداف التربية الإسلامية الحث على غرس قيمة الزهد، ومن الشواهد على ذلك في باب فضل الزهد. جملة شواهد، قوله ﷺ: «وَلَكِنْ أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ كما بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ...»، وقوله: «إنَّ مما أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي مَا يُفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِن زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا...»، وقوله: «إنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ. وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ. فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ»، وقوله: «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة»، قال: «يَتْبَعُ المَيتَ ثَلاَثَةٌ: أَهْلُهُ، وَعَمَلُهُ، وَمَالُهُ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى وَاحِدٌ، يَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَيَبْقَى عَمَلُهُ»، وقال رسول الله ﷺ: «مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إلاَّ مَثَلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ فِي الْيَمِّ. فَلْيَنْظُرْ بِمَ يَرْجِعُ؟»، قال: «فَوَاللَّهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ، مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ»، وقوله: «إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه في المال والخلق فلينظر إلى من هو أسفل منه»، وقوله: «لقد رأيت سبعين من أهل الصفة ما منهم رجل عليه رداء إما إزار وإما كساء قد ربطوا في أعناقهم، فمنها ما يبلغ نصف الساقين، ومنها ما يبلغ الكعبين، فيجمعه بيده كراهة أن ترى عورته»، وقوله ﷺ: «بمنكبي فقال: كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»، وقوله: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»، وقوله ﷺ: «ازهد في الدنيا يحبك الله»، وقوله: «لقد رأيت رسول الله ﷺ ظَلَّ يَتَلوىَ مَا يَجِدُ مِنَ الدَّقَلِ مَا يَمْلأُ بِهِ بَطْنَهُ »، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «توفي رسول الله ﷺ وَمَا فِي بَيْتِي مِنْ شَيْءٍ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ، إلاَّ شَطْرُ شَعِيرٍ، فِي رَفٍّ لِي...»، وقوله: «ما ترك رسول الله ﷺ عند موته دينارً، ولا درهما، ولا عبدًا...»، قوله: «قتل مصعب بن عمير ﷺ يوم أحد، وترك نمرة فكنا إذا غطينا بها رأسه بدت رجلاه، وإذا غطينا بها رجليه، بدا رأسه...»، وقال: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة، ما سقى كافراً منها شربة ماء...»، وقوله: «ليس لابن آدم حق في سوى هذه الخصال: بيت يسكنه، وثوب يواري عورته، وجلف الخبز، والماء...».

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: «نام رسول الله ﷺ على حصير... فقال ما لي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها...»، وقوله:

«يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام...»، قال: «أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد: إلا كل شيء ما خلا الله باطل».

فهذه شواهد تربوية دلت على أن الحياة الدنيا مصيرها الفناء والهلاك، كما دلت على زهد النبي ﷺ والصحابة ﷺ، كما دلت على أن ما عند الناس ينفد وما عند الله باق، وأن التعلق بالدنيا يفسد الدين، ويشغل عن الآخرة، فالزهد انصراف الرغبة في الشيء إلى ما هو خير منه شرط أن يكون المرغوب عنه مرغوبًا فيه، وذلك كاستصغار الدنيا ومحو آثارها من القلب، والزهد ليس مطلوبًا لذاته، إنما لما يترتب على وجوده من أمور تعد الميزان الصحيح للشخصية الإسلامية السوية، ذاك أن التكليف في الإسلام مبني على الثواب والعقاب فمن أخل بالزهد بقدر ولو بسيط، فإن ذلك يخل بآخرته على مقدار ذلك الخلل، وإن الحرص على أمر من الأمور المطلوب الزهد فيها، يعد خللاً في المواصفات الشخصية الإسلامية السوية، ومن هنا تكمن أهمية الزهد، وضرورة اعتماده وسيلة هامة من وسائل التربية والتوجيه في المجتمع الإسلامي.

ومن الفوائد التربوية لقيمة الزهد:

١ - الزهد: يدفع باتجاه التضحية والجهاد.

٢ - الزهد: ينقي النفس مما يعتريها من أمراض القلوب.

٣ - الزهد: صفاء للروح والنفس، وارتقاء لها.

٤ - الزهد: تهذيب للأخلاق وصلاح لها.

٥ - الزهد: يساعد على استحواذ المشاعر عند الناس.

فهذه فوائد تربوية دلت على أن غرس قيمة الزهد في نفوس المتربين أمر هام.

وعلى هذا ليس إخلالاً بالزهد من ملك الثروات الهائلة وكسب الأموال الطائلة، إذا كان زاهدًا فيها، معرضًا عنها، لم تدخل قلبه ولم تتجاوز يده، فليس من هو أزهد من الصحابة، وقد كان منهم من يملك الآلاف المؤلفة كعثمان، وأبي بكر، وعبدالرحمن بن عوف[(١)].

---

(١) أساليب الدعوة والتربية، د. زياد العاني، ص٣٤٣، ٣٣٤، ٣٣٦.

خامس عشر - من الأساليب التربوية:

ورد في أحاديث الباب كثير من الأساليب التربوية، ويمكن للمعلم أن يستفيد منها في العملية التعليمية، منها:

أ - الحوار والمناقشة: كحديث أبي ذر رضي الله عنه: كنت أمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم في حرّة بالمدينة، فاستقبلنا أُحدٌ فقال: يا أبا ذر" الحديث.

والحوار والمناقشة من الأساليب التي تفعل دور المتعلم في العملية التعليمية وتنقله من المتعلم السلبي إلى المشارك الإيجابي.

ب - الإلقاء كحديث يتبع الميت ثلاثة: أهله وماله وعمله فيرجع اثنان ويبقى معه واحد: يرجع أهله وماله ويبقى عمله" ويستخدم الإلقاء في بيان بعض الحقائق والمعلومات التي يريد المعلم أن يوضحها للمتعلمين. ويمكن من خلاله توجيه المتعلمين إلى بعض القيم النافعة لهم ولمجتمعهم.

ج - الإقناع العقلي: كما في حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ بالسوق والناس كَنَفَتَيْه فمرّ بجدي أسك ميت، فتناوله فأخذ بأُذُنه ثم قال: أيكم يحب أن يكون هذا له بدرهم؟ ..." الحديث.

فقد زهد النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه في الدنيا ونفرهم من التهافت عليها عن طريق الإقناع العقلي من خلال عرض القضية بالتدريج على المتعلمين ثم بيان بعض الأمور المرتبطة به. ويمكن للمتعلم استخدام هذا الأسلوب في الفصل ليبين للمتعلمين بعض الأمور المفضلة ويقنعهم بخطورة ما ترغب فيه نفوسهم.

د - العصف الذهني: كما في حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه السابق، وهذا الأسلوب يعتمد على طرح قضية معينة على المتعلمين ومعرفة رأيهم فيها ثم بيان الرأي النهائي في هذه القضية.

هـ - استخدام الأسئلة: كما في حديث جابر رضي الله عنه السابق كذلك، والأسئلة تستخدم في تقريب المعنى وفي شدّ انتباه المتعلمين وفي قياس ما يعرفونه عن بعض القضايا المعينة وفي معالجة بعض أفكار المتعلمين.

و – التلقين: كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما: "أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبي فقال: كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل" فالنفس تتأثر بما يلقى عليها من كلام يحرك الوجدان، والتربية بالتلقين من الأمور المتكررة، مما يميزها بالتثبيت في ذهن المتعلمين، مما يجعلها أطول بقاء، وهذا ما وضح في تأثر ابن عمر رضي الله عنه بما نصحه به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك.

ز – القصة: كما في حديث خباب بن الأرت رضي الله عنه عن مصعب بن عمير رضي الله عنه واستشهاده يوم أحد، وبيان زهده وانصرافه عن الدنيا وابتغاء رضوان الله، مع أنه كان قبل أن يسلم أكثر الناس تنعمًا وأشدهم ترفهًا.

ح – التربية بالمواقف: كما في حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: مرّ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعالج خصًا لنا. فقال: ما هذا؟ فقلنا: قد وَهَى فنحن نصلحه، فقال: ما أرى الأمر إلا أعجل من ذلك.

وغير ذلك من الأساليب التربوية التي يمكن للمعلم أن يفيد منها في حجرة الدراسة في عرض عناصر درسه، والاجتهاد في تنويع طرق شرحه، من أجل مراعاة الفروق الفردية بين المتعلمين.

٥٦ - باب فضل الجوع وخشونة العيش

والاقتصار علَى القليل من المأكول والمشروب والملبوس وغيرها من حظوظ النفس وترك الشهوات

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ۝ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم: ٥٩ - ٦٠]، وقال تَعَالَى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ۝ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾[القصص: ٧٩ - ٨٠]، وقال تَعَالَى: ﴿ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨]، وقال تَعَالَى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا﴾[الإسراء: ١٨] والآيات في الباب كثيرةٌ معلومةٌ.

الحديث رقم (٤٩٠)

٤٩٠ - وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قالت: مَا شَبعَ آلُ مُحَمّد ﷺ مِنْ خُبْزِ شَعِيرٍ يَوْمَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ حَتَّى قُبِضَ. متفقٌ عَلَيْهِ[1].

وفي رواية[2]: مَا شَبعَ آلُ محمّد ﷺ مُنْذُ قَدِمَ المَدِينَةَ مِنْ طَعَامِ البُرِّ[3] ثَلاثَ لَيَالٍ تِبَاعًا حَتَّى قُبِضَ.

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

---

(١) أخرجه البخاري ٥٤١٦، ومسلم ٢٢/٢٩٧٠ واللفظ له. أورده المنذري في ترغيبه ٤٧٧٧.

(٢) أخرجها البخاري ٦٤٥٤، ومسلم ٢٠/٢٩٧٠ ولفظهما سواء. أوردها المنذري في ترغيبه ٤٧٧٧.

(٣) عندهما: (بر) بدون أل التعريف.

غريب الألفاظ:

قبض: توفي رسول الله ﷺ[1].

الشرح الأدبي

الحديث يبين جانباً من زهد النبي ﷺ، وأهل بيته رضي الله عنهم وزهدهم في الدنيا، ورغبتهم في الآخرة، وقول: أم المؤمنين عائشة (مَا شَبِعَ آلُ مُحَمَّد ﷺ) أسلوب نفي ينفي الشبع لأنه ﷺ كان لا يأكل حتى يجوع، وإذا أكل لم يشبع وإضافة الآل لمحمد ﷺ تشريف ينبه لفضلهم، ويذكر بحقهم صلة لرسول الله ﷺ، وذكر الاسم الظاهر (محمد) من باب المحبة، لأنه الاسم المحبوب، وقولها (يومين متتابعين) توكيد للزمن، ودلالة على التواصل، وفي الرواية الثانية ذكرت (ثلاث ليال) وهي، وإن كانت تتضمن اليومين إلا أن ذكر الثلاث أدل على شدة الجوع لأن العدد المذكور أكبر، ثم إن الليل على الجائع أشد لضعف الأمل في وجود طعام، لأنه ليس وقت سعي على الرزق بالإضافة إلى أن الجوع يطرد نومه فيجتمع عليه مع الجوع قلة نوم، وغرض ذكر الخبر الذي جاء به الحديث الترغيب في الزهد.

المضامين الدعوية[2]

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: بيان عيش النبي ﷺ وآل بيته، وزهدهم في الدنيا.

ثالثًا: من صفات الداعية: الزهد في الدنيا.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل الأنصار رضي الله عنهم وحبهم للنبي ﷺ.

خامسًا: من واجبات المدعو: الإحسان والتواصل مع الجيران.

أولاً – من أساليب الدعوة: الإخبار:

والإخبار من الأساليب الدعوية التي تعين الداعية على تبليغ دعوة ربه وسنة نبيه،

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ق ب ض).

(٢) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث –٤٩٠– مع المضامين الدعوية للحديث رقم (٤٩١).

وهذا ما أمر الله به عباده بقوله: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾[١] وقد بين تعالى عظم فضل ذلك فقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[٢]، وقد ورد هذا الأسلوب في الحديثين من إخبار أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن حال آل محمد ﷺ في قولها رضي الله عنها: "ما شبع آل محمد ﷺ من خبز الشعير... إلخ". وقولها لعروة بن الزبير رضي الله عنهما: "والله يا ابن أختي، إن كنا ننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال ثلاثة أهلة في شهرين، وما أوقد في أبيات رسول الله ﷺ نار..." إلخ الحديث، فالإخبار أسلوب دعوي مهم جدًا للداعية ولا غنى له عنه بحال من الأحوال فعليه أن يستخدمه في ما ينفع المدعوين من إخبارهم بأحكام الدين وسنة خير المرسلين ﷺ.

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: بيان عيش النبي ﷺ وآل بيته:

(مما لا شك فيه أن دعوة الرسل إلى الإقبال على الآخرة وإيثارها على الدنيا والاستهانة بقيمة الدنيا ومتاعها لم تكن دعوة باللسان فقط أودعوة لأمتهم فقط، بل كانت منهج حياة حيث عاش النبي ﷺ هو وأزواجه رضي الله عنهن ذلك عمليًا. فقد قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[٣].

وكان من تأثير صحبته أن أزواجه رضي الله عنهن، كلهن آثرن الله ورسوله وآثرن الفقر والضيق مع الرسول على الرخاء وخفض العيش مع غيره)[٤]، وهذا ما أشار إليه الحديثان في قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها "ما شبع آل محمد ﷺ من خبز شعير... إلخ"

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٨٧.

(٢) سورة فصلت، آية: ٣٣.

(٣) سورة الأحزاب، الآيتان: ٢٨-٢٩.

(٤) انظر: النبوية والأنبياء في ضوء القرآن، أبو الحسن الندوي، ص ٦٨-٧٠.

وأيضًا في قولها: "... إن كنا ننظر إلى الهلال، ثم الهلال: ثلاثة أهله في شهرين، وما أوقد في أبيات رسول الله ﷺ نار... إلخ".

قال ابن عثيمين رحمه الله: (وذلك بيان في عيش النبي ﷺ، وأنه ما شبع من خبز الشعير ليلتين تباعًا؛ لقلة ذات يده ﷺ، وأنه كان يمضي عليه الشهران في ثلاثة أهله ما يوقد في بيته نار، وإنما هو الأسودان التمر والماء...)[١] ثم بين ابن علان: (أنه لم يضطره مولاه لذلك بل عرض عليه جبال مكة وبطحاءها تسير معه ذهبًا أينما سار فاختار إعراضه عن الدنيا وزهده فيها إعلامًا بحقارتها وأنها ليست بحيث ينظر إليها ﷺ تحريضًا لأمته على الزهد فيها والإعراض عما زاد على الحاجة منها)[٢].

وفي بيان ذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ((دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، وَهُوَ عَلَى حَصِيرٍ. قَالَ: فَجَلَسْتُ فَإِذَا عَلَيْهِ إِزَارٌ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ. وَإِذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ. وَإِذَا أَنَا بِقَبْضَةٍ مِنْ شَعِيرٍ، نَحْوِ الصَّاعِ، وَقَرَظٍ فِي نَاحِيَةٍ فِي الْغُرْفَةِ. وَإِذَا إِهَابٌ مُعَلَّقٌ. فَابْتَدَرَتْ عَيْنَايَ. فَقَالَ: «مَا يُبْكِيكَ يَا بْنَ الْخَطَّابِ» فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَمَا لِي لاَ أَبْكِي؟ وَهَذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِكَ وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ لاَ أَرَى فِيهَا إِلاَّ مَا أَرَى وَذَلِكَ كِسْرَى وَقَيْصَرُ فِي الثِّمَارِ وَالأَنْهَارِ. وَأَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَصَفْوَتُهُ، وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ. قَالَ: «يَا بْنَ الْخَطَّابِ أَلاَ تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَنَا الآخِرَةُ وَلَهُمُ الدُّنْيَا؟» قُلْتُ: بَلَى))[٣]، وفي ذلك بيان لعيشة النبي ﷺ وآله وما كانوا عليه من زهد في الدنيا.

ثالثًا - من صفات الداعية: الزهد في الدنيا:

(إن الزهد في الدنيا هو أن تعرف أن الله أراد لك أن تحيى في حياتين، وأن تثبت وجودك المادي في حياة المادة، ووجودك الروحي فيما وراء المادة عاملاً في الأولى بقوة بدنك وملكاته، وعاملاً في الأخرى بقوى قلبك وملكاته، محاذرًا أن تنصرف عواطفك عما في يد الله، إلى متاع الدنيا)[٤]. (فها هو ذا رسول الله ﷺ تنصب بين يديه أموال

---

(١) شرح رياض الصالحين ١/٨٠٣.

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٧٣٥-٧٣٦.

(٣) أخرجه ابن ماجه ٤١٥٣، وحسنه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٣٣٠٥).

(٤) تذكرة الدعاة، البهي الخولي، ١٧٥.

الجزيرة العربية وتأتيه أخماس الغنائم، وتؤول إليه فدك وغيرها فيئًا خالصًا له من دون المسلمين، فما وقف قلبه على شيء من هذا، بل كان يصرفه لفوره إلى وجوه البر، والمصالح العامة، وربما ربط الحجر على بطنه يثبت به قلق معدته الجائعة، فما كان جوعه عليه السلام من إقلال، بل عن غنى زهدت فيه نفسه)[(١)]، وهذا ما أشار إليه الحديثان؛حيث أن النبي ﷺ وآل بيته لما يشبعوا من خبز الشعير يومين متتالين،وكانوا يكتفون بالماء والتمر شهرين كاملين، وقد أمره ﷺ الحق تبارك وتعالى بذلك ليكون القدوة والأسوة الحسنة لأمته من بعده، فقال: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾[(٢)] وقال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ﴾[(٣)].

(فعلى الداعية أن يتخفف من الدنيا التي قد تكبله عن الدعوة)[(٤)] (ولكن الزهد في الدنيا وتجريد القلب من أهواء الجاه والملك والمال، ليس معناه الامتناع عن تحصيله بكل وسيلة مشروعة...، فهذا نبي الله سليمان عليه السلام، سأل ربه ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده، فاستجاب له، ووهب له الملك...، فهل طلبه شهوة فيه، ولأن نفسه نزعت إليه؟ وهل تصرف فيه تصرف المترفين من أهل الشهوات؟ كلا ... لم يطلبه لحاجة نفسه، وإنما طلبه في حاجة ربه وتصرف فيه على ما يحب الله... وهذا مثال واقعي، ساقه الله عز شأنه، يشرح به معنى الزهد، . وكيف يكون الإنسان الصالح، ملكًا محاطًا بالجاه وأسباب الترف والفتنة، ونفسه مع هذا ناظرة إلى ما هو أرفع... مسخرة كل ما تملك من جاه ومال وقوة في تأييد الحق، وإرضاء الله سبحانه...، فليس الدين دين تخلف عن حقائق الحياة فبعدًا لكل غافل أضله هواه، واستعبدته شهوته. اطلب المال، واطلب الملك، ولكن شتان من طلب وطلب... شتان من طلب يبعث عليه باعث الشهوة والرغبة

---

(١) المرجع السابق ١٩٤.

(٢) سورة الكهف، آية: ٢٨.

(٣) سورة طه، آية: ١٣١.

(٤) رياض الدعاة والمصلحين، بهاء الدين عقيل ود. عبدالعزيز مصطفى، ص ٥٢٢.

في التفاخر والتكاثر... وطلب يبعث عليه باعث الرغبة في تطهير الأرض من المنكر، وإقامة معالم الحق)[١].

رابعًا - من موضوعات الدعوة: فضل الأنصار وحبهم للنبي ﷺ:

(لقد كان الجيل الإسلامي الأول الذي أنشأته دعوة النبي ﷺ وأحكمت تربيته من أفضل الأجيال البشرية في تاريخ الإنسان كله وقد وصفه أحد أفراده، عبدالله بن مسعود رضي الله عنه ببلاغة نادرة وكلمات موجزة عميقة دقيقة، زاخرة بالمعاني الكبيرة البعيدة المدى)[٢]، فقال: (أبر الناس قلوبًا، وأعمقهم علمًا، وأقلهم تكلفًا، اختارهم الله لصحبة نبيه وإعزاز دينه)[٣] وكان من ذلك الجيل الأول "الأنصار" وهذا ما أشار إليه نص الحديث في قول عائشة رضي الله عنها "إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار، وكانت لهم منائح وكانوا يرسلون إلى رسول الله ﷺ من ألبانها فيسقينا".

(ولما كان الأنصار قد أسدوا إلى كل مسلم يدًا بيضاء،وفعلة زهراء، من حيث إنهم آووا رسول الله ﷺ، ونصروه، وصبروا على حرب الأحمر والأسود معه، فكانت الهجرة إليهم، ونزول الوحي عليه في دارهم،وود كل مؤمن أن يُقْدر له أن يحسن جزاءهم، فلما فاته ذلك عدل عنه إلى حبهم، فلا يحبهم إلا عن إيمان منه برسالة محمد ﷺ، كما أنه إذا أبغضهم دلّ ذلك على نفاقه، فكان حبهم ناشئًا عن محض الإيمان)[٤].

ولذلك قال ﷺ: ((حُبُّ الأَنْصَارِ آيَةُ الإِيمَانِ. وَبُغْضُهُمْ آيَةُ النِّفَاقِ))[٥].

وقد بين النبي ﷺ عظم فضل الأنصار ومكانتهم فقال: ((لو أنَّ الأنصارَ سَلكوا واديًا أو شِعبًا لَسَلكتُ في وادِي الأنصار، ولولا الهجرةُ لكنتُ امرَءًا منَ الأنصار. فقال

---

(١) تذكرة الدعاة، البهي الخولي، ١٩١- ١٩٣.

(٢) انظر: النبوة والأنبياء في ضوء القرآن، أبو الحسن الندوي، ١٦١.

(٣) أخرجه ابن عبدالبر في جامع بيان العلم وفضله، ١٨١٠. وقال محققو الجامع والأثر لا بأس به.

(٤) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٣٨٩/٦.

(٥) أخرجه مسلم ٧٤.

أبو هريرةَ: ما ظَلَمَ - بأبي وأُمي - آوَوهُ ونصروهُ. أو كلمةً أخرى))[١].

وفي بيان ذلك قال ابن حجر: (قال الخطابي: أراد ﷺ بذلك استطابة قلوب الأنصار حيث رضي أن يكون واحدا منهم لولا ما منعه من سمة الهجرة، وأطال بذلك بما لا طائل فيه.أ.هـ وقوله: (فقال أبو هريرة ما ظلم) أي ما تعدى في القول المذكور ولا أعطاهم فوق حقهم، ثم بين ذلك بقوله: "آووه ونصروه"، وقوله: "أو كلمة أخرى" لعل المراد وواسوه وواسوا أصحابه بأموالهم، وقوله: "لسلكت في وادي الأنصار" أراد بذلك حسن موافقتهم له لما شاهده من حسن الجوار والوفاء بالعهد، وليس المراد أنه يصير تابعا لهم، بل هو المتبوع المطاع المفترض الطاعة على كل مؤمن)[٢] وفي ذلك بيان لفضل الأنصار وحبهم للنبي ﷺ.

خامسًا - من واجبات المدعو الإحسان والتواصل مع الجيران:

قد ورد ذلك في الحديث من قول عائشة رضي الله عنها "إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار... إلخ" وقد أمر الحق تبارك وتعالى بذلك فقال: ﴿وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ﴾[٣].

وفي بيان ذلك قال السعدي: (... ثم بعدما أمر الله تعالى بعبادته والقيام بحقه،أمر بالقيام بحقوق العباد، الأقرب، فالأقرب، ثم ذكر الله تعالى من هذه الحقوق حق "الجار ذي القربى" أي الجار القريب،الذي له حقان، حق الجوار، وحق القرابة، فله على جاره حق وإحسان، راجع إلى العرف وكذلك "الجار الجنب" أي الذي ليس له قرابة، وكلما كان الجار أقرب بابًا، كان آكد حقًا. فينبغي للجار، أن يتعاهد جاره بالهدية الصدقة، والدعوة، واللطافة بالأقوال والأفعال، وعدم أذيته، بقول أو فعل)[٤] وفي ذلك

---

(١) أخرجه البخاري، ٣٧٧٩.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧/١٤٠.

(٣) سورة النساء، آية: ٣٦.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ١٤٣.

بيان لضرورة الإحسان والتواصل مع الجيران ومشاركتهم في مناسباتهم والتعاون معهم وتحقيق مبادئ التعاون والتكافل الاجتماعي وما أمر به النبي الكريم ﷺ من إحسان للجيران خاصة والناس عامة.

الحديث رقم (٤٩١)

٤٩١ - وعن عروة، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أنها كَانَتْ تقول: وَاللهِ، يَا ابْنَ أُخْتِي، إنْ كُنَّا نَنْظُرُ إِلَى الهِلاَلِ، ثُمَّ الهِلالِ[١]: ثَلاَثَةُ أهلَّةٍ فِي شَهْرَيْنِ، وَمَا أُوقِدَ فِي أبْيَاتِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَارٌ. قُلْتُ: يَا خَالَةُ، فَمَا كَانَ يُعِيشُكُمْ؟ قالت: الأَسْوَدَانِ التَّمْرُ وَالمَاءُ، إلاَّ أنَّهُ قَدْ كَانَ لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جِيرَانٌ مِنَ الأَنْصَارِ، وكَانَتْ لَهُمْ مَنَائِحُ وَكَانُوا يُرْسِلُونَ إِلَى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ ألْبَانِهَا فَيَسْقِينَاهُ. متفقٌ عَلَيْهِ[٢].

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

غريب الألفاظ:

المنائح: جمع منيحة وهي: عطية الناقة أو الشاة للانتفاع بلبنها ثم إعادتها وردها[٣].

الشرح الأدبي

بداية الكلام بالقسم لصرف الاهتمام، وتوفير العناية به، والقسم في بداية الكلام يحقق التشويق لما بعده، ونداؤها له بهذه الصيغة، وهذا التركيب يدل على التودد، والتلطف، والمحبة، وقولها (إنْ كُنَّا نَنْظُرُ إِلَى الهِلاَلِ، ثُمَّ الهِلالِ: ثَلاَثَةُ أهلَّةٍ فِي شَهْرَيْنِ) فيه تفصيل، وإجمال يؤكد المعنى زادته تأكيداً بذكر الشهرين، وقولها (وَمَا أُوقِدَ فِي أبْيَاتِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَارٌ) عدم ذكر الفاعل لعدم تقييده بمعين حتى يعم الجميع، وذكر الأبيات مبالغة في نفي إيقاد النار عنهم جميعاً، وقولها (الأسودان التمر، والماء) إطلاق الأسودين على التمر، والماء من باب التغليب، وهو أسلوب توشيع يحقق التوكيد، والتشويق، وقولها، وكانت لهم منائح هي جمع منيحة، وهي ناقة أو شاة، ينتفع بلبنها، ثم تعاد إلى أصحابها.

المضامين الدعوية[٤]

---

(١) عند مسلم: ثلاث مرات، وعند البخاري برقم ٢٥٦٧ مرتين.

(٢) أخرجه البخاري ٢٥٦٧، ومسلم ٢٨/٢٩٧٢ واللفظ له.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٣٦/٥، والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (م ن ح).

(٤) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (٤٩٢)

٤٩٢ - وعن أَبي سعيد المقبُريِّ، عن أَبي هريرة رضي الله عنه: أَنَّهُ مَرَّ بِقَومٍ بَيْنَ أيديهِمْ شَاةٌ مَصْلِيَّةٌ، فَدَعَوْهُ فَأبَى أنْ يأْكُلَ. وقال: خرج رسول الله ﷺ مِنَ الدُّنْيَا وَلَمْ يَشْبَعْ مِنْ خُبْزِ الشَّعيرِ. رواه البخاري[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

مَصْلِيَّة: مشويَّةٌ[2].

الشرح الأدبي

تربَّى أبو هريرة في مدرسة الرسول ﷺ، وكان من أكثر الصحابة ملازمة له، ومن أكثرهم رواية عنه، وقول الراوي (أَنَّهُ مَرَّ بِقَومٍ بَيْنَ أيديهِمْ شَاةٌ مَصْلِيَّةٌ) تنكير القوم يشير إلى أنه لم يكن قاصداً لهم بل كان مروره عرضاً، وقوله (فأبى) يشير إلى أنه رفض بشدة، وقوله (خرج رسول الله ﷺ مِنَ الدُّنْيَا) كناية موته، وقوله (وَلَمْ يَشْبَعْ مِنْ خُبْزِ الشَّعيرِ) عدم شبعه ﷺ زهد أكثر منه فقراً، وقد مرت به أوقات كان يملك فيه المال، ولكن كان يزهد فيه، وينفقه في المسلمين ويقدمهم على نفسه، وآل بيته، ولذلك أبى أبو هريرة ﷺ أن يأكل من الشاة المشوية، وزهد كما رأى رسول الله ﷺ يفعل.

---

(١) برقم ٥٤١٤. أورده المنذري في ترغيبه ٤٧٨٣.

(٢) رياض الصالحين ٢٣٢.

المضامين الدعوية[١]

أولاً: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على متابعة حال النبي ﷺ والتأسي به.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: إخبار الصحابة رضي الله عنهم بالحالة المعيشية للنبي ﷺ.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: النفي.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: التنعم في الدنيا ليس دليلاً على تكريم الله للإنسان.

أولاً - من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على متابعة حال النبي ﷺ والتأسي به:

(إن القرآن يدعو المؤمنين إلى اتباع الأنبياء، والأخذ بسيرتهم، والسير على نهجهم العام في الحياة والتشبه بهم ما أمكن، فيقول: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[٢] ويأمر المسلمين بأن يدعوا دائمًا بقولهم: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾[٣] وجعل هذا الدعاء في صلب الصلاة، ولا شك أن في مقدمة هؤلاء المنعم عليهم وعلى رأسهم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ، وكلما كان الإنسان أتبع لسننه، وأكثر تخلقًا بأخلاقه وأشبه به هديًا ودلاً وسمتًا كان أقرب إلى الله وأعلى منزلة عنده)[٤].

وهذا ما ورد في نص الحديث من فعل أبي هريرة رضي الله عنه في أنه مر بقوم بين أيديهم شاة مصلية، فدعوه فأبى أن يأكل، وقال: خرج رسول الله ﷺ من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير (وقد رأى أبو هريرة رضي الله عنه أن ذلك من الترفهات وشأن المحب أن يتبع آثار

---

(١) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -٤٩٢- مع مضامين الحديث رقم (٤٩٣، ٤٩٤، ٤٩٥).

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

(٣) سورة الفاتحة، الآيتان: ٦، ٧.

(٤) النبوة والأنبياء في ضوء القرآن، أبو الحسن الندوي، ١٠١-١٠٢.

محبوبه ويأتم بها، فلذا امتنع)[١].

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم أحرص ما يكون على متابعة حاله ﷺ والتأسي به. فها هو ذا أفضل هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر الصديق رضي الله عنه يقول: (لست تاركًا شيئًا كان رسول الله ﷺ يعمل به إلا عملت به، وإني لأخشى إن تركت شيئًا من أمره أن أزيغ)[٢]، وعن نافع أن ابن عمر رضي الله عنهما كان يتبع آثار رسول الله ﷺ كل مكان صلى فيه حتى إن النبي ﷺ نزل تحت شجرة فكان ابن عمر يتعاهد تلك الشجرة، فيصبُّ في أصلها الماء لكيلا تيبس، وكان رضي الله عنه يتبع أمر رسول الله ﷺ، وآثاره وحاله، ويهتم به، حتى كان قد خيف على عقله من اهتمامه بذلك)[٣]، وفي ذلك بيان على حرص الصحابة رضي الله عنهم على متابعه حاله ﷺ والتأسي به، وكيف لا وهو القدوة والأسوة الحسنة.

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: إخبار الصحابة رضي الله عنهم بالحالة المعيشية للنبي ﷺ:

(مما لاشك فيه أن النبي ﷺ هو القدوة الصالحة، والأسوة الحسنة لأمته، وللأجيال البشرية على اختلاف الزمان والمكان، وقد اتجهت عناية الله تعالى إلى حفظ أخباره وآثاره وصفاته، وأخلاقه وعاداته وتصرفاته، وكان من وسائل ذلك إخبار الصحابة رضي الله عنهم بما كان منه ﷺ في كل دقيق وجليل)[٤].

وهذا ما أشارت إليه الأحاديث من قول أبي هريرة رضي الله عنه "خرج رسول الله ﷺ من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير"، ومن قول أنس رضي الله عنه "لم يأكل النبي ﷺ على خوان حتى مات..."، وأخيرًا من قول سهل بن سعد رضي الله عنه ما رأى رسول الله ﷺ النقي حين ابتعثه الله تعالى حتى قبضه الله تعالى، وفي إخبارهم رضي الله عنهم عن حال معيشته ﷺ قال

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان، ٧٣٦.

(٢) أخرجه البخاري ٣٠٩٣.

(٣) سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ٢١٣، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود ٣٤١/٣.

(٤) انظر: النبوة والأنبياء، أبو الحسن الندوي، ١٨٠.

عمر رضي الله عنه: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَلْتَوِي، فِي الْيَوْمِ، مِنَ الْجُوعِ. مَا يَجِدُ مِنَ الدَّقَلِ مَا يَمْلأُ بِهِ بَطْنَهُ))(١) قال القرطبي: (هذه الأحاديث كلها، وإن اختلفت ألفاظها تدل على: أن النبي ﷺ لم يكن يديم الشبع،ولا الترفُّه في العيش، لا هو ولا من حوته بيوته، ولا آله. بل كانوا يأكلون ما خشن من المأكل العلق، ويقتصرون منه على ما يسدّ الرمق،معرضين عن متاع الدنيا مؤثرين ما يبقى على ما يفنى ثم لم يزل كذلك حالهم مع إقبال الدنيا عليهم واجتماعها بحذافيرها إلى أن وصلوا إلى ما طلبوا، وظفروا بما فيه رغبوا)(٢). وفي أهمية الإخبار بذلك قال ابن علان: (وفي ذلك إعلام بحقارة الدنيا، وأنها ليست بحيث ينظر إليها ﷺ، وفي ذلك تحريضٌ لأمته على الزهد فيها والإعراض عما زاد على الحاجة)(٣).

وفي بيان خشونة عيشه ﷺ قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ((كَانَ ضِجَاعُ رَسُولِ اللَّهِ أَدَمًا حَشْوُهُ لِيفٌ))(٤) وقال أنس رضي الله عنه سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ مِرَارًا: وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا أَصْبَحَ عِنْدَ آلِ مُحَمَّدٍ صَاعُ حَبَ وَلاَ صَاعُ تَمْرٍ. وَإِنَّ لَهُ، يَوْمَئِذٍ، تِسْعَ نِسْوَةٍ))(٥)، وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال ((أخرجَت إلينا عائشةُ كِساءً وإزارًا غليظًا فقالت: قُبِضَ روحُ النبيِّ ﷺ في هذين))(٦)، وفي ذلك بيان على خشونة العيش التي كان عليها رسول الله ﷺ، وفي ذلك قال ابن عثيمين (لو شاء ﷺ لصارت الجبال معه ذهبًا، ولكنه اقتصر من الدنيا على الضروري منها فقط، وادخر حظه في الآخرة)(٧).

---

(١) أخرجه ابن ماجه ٤١٤٦، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٣٣٤٥).

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ١٢٨/٧-١٢٩.

(٣) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٧٣٦.

(٤) أخرجه ابن ماجه ٤١٥١، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٣٣٤٨).

(٥) أخرجه ابن ماجه ٤١٤٧، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٣٣٤٦).

(٦) أخرجه البخاري ٥٨١٨.

(٧) شرح رياض الصالحين ٨٠٣/١.

وقد كان زهده ﷺ عن غنى زهدت فيه نفسه، وما كان جوعه من إقلال ولقد رأى عليه السلام جبل أحد مرة فعبر عن منهجه بقوله: ((ما يسُرُّني أن عندي مِثلَ أحد هذا ذَهبًا تمضي عليَّ ثالثةٌ وعندي منه دينار، إلا شيئًا أرصُدُهُ لِدَين، إلا أن أقولَ به في عبادِ الله هكذا وهكذا وهكذا عن يَمينهِ، وعن شِماله، ومِن خلفهِ ثم مشى ثم قال: إن الأكثرينَ همُ المقلونَ يومَ القيامة، إلا من قال هكذا وهكذا وهكذا عن يمينه وعن شِمالهِ ومن خلفهِ وقليلٌ ما هم))[1].

(وفي ذلك بيان على أن الزهد وتجريد القلب من أهواء المتاع الأدنى، ليس معناه أبدًا الامتناع عن تحصيله، والسعي إليه بكل الوسائل والأسباب الشريفة... إن تجريد القلب ينشئ في نفس صاحبه حاجات ومطالب لله، فينبعث نداء هذه المطالب إلى السعي والتحصيل، بهمة لا تقل عن همة المنهمكين في أمور الدنيا ثم بعد تحصيل المرء لهذه المطالب الدنيوية لا يأخذ منها إلا كفاية بدنه ثم يرصد سائر ذلك من أعراض الدنيا وأموالها لأحد أمرين أو لكليهما: الأول: تفريج كروب الناس، وتخفيف ما ينزل بهم، وتيسير مصالحهم، والثاني: أنه لابد للحق من قوة مادية تكون من أسباب حراسته ونصرته... والقوة مال، وسلاح، وجنود مدربون فليرصد المرء من ماله، لينفق في هذه الأغراض، وليعمل على الاستكثار من هذا المال واستخلاصه من أيدي أعوان الشر وجنوده، بكل ما يسعه من علم وحيلة ووسيلة...، فإذا جاز له أن يفرح بما جمع، فليفرح لا لنفسه بل لأنه استكثر للحق من أسباب العون والنصر)[2]، وهذا عين الزهد وحقيقته وفي ذلك كمال الدين ورفعته.

ثالثًا - من أساليب الدعوة: النفي:

قد ورد هذا الأسلوب الدعوي في الحديث من نفي الصحابة رضي الله عنهم تعلق النبي ﷺ بالدنيا، وإعراضه ﷺ عنها وتركه التنعم بها، وذلك في قول أبي هريرة رضي الله عنه "... ولم يشبع من خبز الشعير"، ومن قول أنس رضي الله عنه لم يأكل...، وما أكل "ومن قول

(١) أخرجه البخاري ٦٢٦٨.

(٢) تذكرة الدعاة، البهي الخولي، ١٩٥-١٩٦ بتصرف يسير.

سهيل رضي الله عنه: "ما رأى..." فالنفي من الأساليب الدعوية التي تعين الداعية على إظهار الحقائق وتوضيحها لدى المدعوين.

رابعًا – من موضوعات الدعوة: التنعم في الدنيا ليس دليلاً على تكريم الله للإنسان:

إن الدنيا دار ابتلاء والآخرة دار جزاء وبقاء، والتنعيم في الدنيا ليس دليلاً على تكريم الله للإنسان. وخير شاهد على ذلك ما ورد في الأحاديث مما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه من شدة العيش، فإن كان الإنسان قائمًا بمعصية الله تعالى، وهو مُنعَّمٌ في الدنيا فليس ذلك دليلاً على تكريم الله تعالى له، قال ﷺ: ((إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ، فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ، ثُمَّ تَلاَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾[1]))[2].

قال ابن كثير في قوله تعالى: ("فلما نسوا ما ذكروا به" أي: أعرضوا عنه وتناسوه وجعلوه وراء ظهورهم "فتحنا عليهم أبواب كل شيء" أي فتحنا عليهم أبواب الرزق من كل ما يختارون، وهذا استدراج منه تعالى وإملاء لهم؛ ولهذا قال "حتى إذا فرحوا بما أوتوا" أي من الأموال والأولاد والأرزاق "أخذناهم بغتة" أي: على غفلة "فإذا هم مبلسون" أي: آيسون من كل خير)[3]، فعلى المرء أن يعلم أن معصيته لله تعالى مع تنعمه في الدنيا ليس دليلاً على تكريم الله تعالى له بل هو استدراج لعذاب أليم.

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٤٤.

(٢) أخرجه أحمد ١٤٥/٤ رقم ١٧٣١١، وقال محققو الإسناد، حديث حسن ٥٤٧/٢٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢٥٦/٣.

الحديث رقم (٤٩٣)

٤٩٣ - وعن أنس ﷺ ، قَالَ: لَمْ يَأكُلِ النَّبيُّ ﷺ عَلَى خِوَانٍ حَتَّى مَاتَ، وَمَا أكَلَ خُبْزًا مُرَقَّقًا حَتَّى مَاتَ. رواه البخاري[1].

وفي رواية لَهُ[2]: وَلاَ رَأى شَاةً سَمِيطًا بعَيْنِهِ قَطُّ.

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

الخِوان: المائدة المعدة[3].

خبزًا مرقّقًا: قال القاضي عياض: أيْ ملينًا محسنًا[4].

شاةً سميطًا: السميط هو ما أزيل شعره بالماء المسخن وشُوي بجلده أو طبخ، وهو من فعل المترفين، وفي النهاية: شاةً سميطًا: مشويّة[5].

الشرح الأدبي

الحديث من جملة الأحاديث الوصفية التي تتبع أحوال النبي في مختلف شؤون حياته وقد جاء في أسلوب خبري لا يتوقع شكاً، أو معارضة، مع إقبال من المخاطبين، ولذلك لم يؤكد، وقد بدأ بأسلوب النفي الجازم المباشر لأكل الرسول ﷺ على خوان، وهي ما يوضع عليه الطعام، لأنه لم يكن يحفل بتلك المظاهر الدنيوية التي لا تقدم، ولا تؤخر، وعطف عليه نفياً آخر يؤكد النفي الأول، ويقرر نفي شيء آخر، وهو أكله

---

(١) برقم ٦٤٥٠. أورده المنذري في ترغيبه ٤٧٨٩.

(٢) أخرجها البخاري ٥٤٢١. أوردها المنذري في ترغيبه ٤٧٨٩.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٤١/٩ ، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٨٧٠/٢.

(٤) المرجع السابق ٤٤١/٩.

(٥) المرجع السابق ٤٤١/٩ ، والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (س م ط).

الخبز المرقق، وهذا النفي يثبت ضمناً أنه كان يأكل الخبز الغليظ لأن همه أعظم من النظر في نوع الطعام، وإنما كان يتناول منه ما يقيم صلبه مما لابد منه.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (٤٩٤)

٤٩٤ - وعن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُ نَبِيَّكُمْ ﷺ، وَمَا يَجِدُ مِنَ الدَّقَلِ مَا يَمْلأُ بِهِ بَطْنَهُ. رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

النعمان بن بشير: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٦٠).

غريب الألفاظ:

الدَّقَل: رديءُ التَّمْر[٢].

الشرح الأدبي

المعنى في الحديث مبني على الرؤية البصرية، وأسلوبه وصفي كسابقه، وقد أكد الفعل باللام الموطئة للقسم، وقد التي تفيد تحقيق الفعل الماضي ؛لأنها أحداث وقعت أراد أن ترسخ في قلوبهم، وتصير بين أعينهم لتكون مرجعاً لهم في الصبر على ما سيلاقون من شدائد الحياة، وتنسحب على كل مسلم في أي زمان، ومكان حتى لا ييئس من رحمة الله لعلمه أنها سنته فيمن يحب، وأضاف النبي لهم استمالة لقلوبهم مع ما فيه من تشريف لهم، والتعبير بالدقل، وهو رديء التمر يشير إلى ما مر بهم من الشدائد، وشظف العيش، ولو شأ الرسول ﷺ لجعل له الله أحداً ذهباً، ولكنه يرجو الآخرة، ويدخر ثوابه عند ربه.

المضامين الدعوية[٣]

---

(١) برقم ٢٩٧٧/٣٤. أورده المنذري في ترغيبه ٤٧٩٤.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (د ق ل).

(٣) تم دمج المضامين الدعوية لهذا -٤٩٤- مع مضامين الحديث رقم (٤٩٢، ٤٩٣، ٤٩٥).

الحديث رقم (٤٩٥)

٤٩٥ - وعن سهلِ بن سعد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: مَا رَأى رسول الله ﷺ النَّقِيَّ مِنْ حِين ابْتَعَثَهُ الله تَعَالَى حَتَّى قَبضَهُ الله تَعَالَى. فقِيلَ لَهُ: هَلْ كَانَ لَكُمْ فِي عَهدِ رسول الله ﷺ مَنَاخِلُ؟ قَالَ: مَا رَأى رسول الله ﷺ مُنْخُلاً مِنْ حِينَ ابْتَعَثَهُ اللهُ تَعَالَى حَتَّى قَبَضَهُ اللهُ تَعَالَى، فَقِيلَ لَهُ: كَيْفَ كُنْتُمْ تَأكُلُونَ الشَّعِيرَ غَيْرَ مَنْخُولٍ؟ قَالَ: كُنَّا نَطحَنُهُ وَنَنْفُخُهُ، فيَطيرُ مَا طَارَ، وَمَا بَقِيَ ثَرَّيْنَاهُ. رواه البخاري[1].

ترجمة الراوي:

سهل بن سعد الساعدي: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٧٥).

غريب الألفاظ:

النّقيَّ: الخبز الحواري، وهو: الدَّرمكُ، أي: المنخول دقيقُه[2].

مناخل: جمع منخل، وهو الغربال[3].

ثَرَّيناهَ: بلَّلْناهُ وعجنَّاهُ[4].

الشرح الأدبي

الحديث من نوعية سابقيه يعتمد الأسلوب الوصفي، ويقوم في بعض مراحله على الحوار خلال السؤال، والجواب، وقد بدأ بأسلوب النفي، وهو أسلوب خبري يقرر الحقائق في ثقة دون مؤكدات (مَا رَأى رسول الله ﷺ النَّقِيَّ)، وهو الخبز الحواري، ونفي الرؤية أكثر مبالغة في نفي الأكل من تسليط النفي على فعل الأكل المباشر، وقولهم) هَلْ كَانَ لَكُمْ فِي عَهدِ رسول الله ﷺ مَنَاخِلُ ؟) وهي الأداة التي كان ينقى

---

(١) برقم ٥٤١٣ وزاد في آخره: (فأكلناه). أورده المنذري في ترغيبه ٤٧٩١.

(٢) رياض الصالحين ٢٣٣ ، والدرْمك: الدقيق الأبيض. والخبز الحوّاري الخبز المتخذ من الدقيق الأبيض. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (د ر م ك)، ومعجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ١٦٦.

(٣) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٢/ ١٨٧٠.

(٤) رياض الصالحين ٢٣٣.

بها المطحون، وقوله (مَا رَأَى رسول الله ﷺ مُنْخُلاً) سلط النفي على فعل الرؤية، لأنه أبلغ في نفي الأكل مما استخدم فيه، وتنكير (منخلاً) للتعميم وهذا يشير إلى أنها كانت حالة عامة تشمل المجتمع كله، أو أكثر ؛لأنه لو كان شائعاً مستخدماً لرآه في مكان ما، وتكرار جملة (مِنْ حِينَ ابْتَعَثَهُ اللَّهُ تَعَالَى حَتَّى قَبَضَهُ اللَّهُ تَعَالَى) يشير إلى أن الدعوة استغرقت أقطار نفسه، فلم يكن له هم سواها، ولم ينشغل إلا بما يتعلق بها، والطعام آخر ما يفكر فيه، ولإتمام ما هو فيه .

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -٤٩٥- مع مضامين الحديث (٤٩٢، ٤٩٣، ٤٩٤).

الحديث رقم (٤٩٦)

٤٩٦ - وعن أَبي هريرة رضي الله عنه ، قَالَ: خرجَ رسولُ الله ﷺ ذاتَ يَوْمٍ أَوْ لَيْلَةٍ، فَإِذَا هُوَ بأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رضي الله عنهما ، فَقَالَ: ((مَا أخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُما هذهِ السَّاعَةَ؟)) قَالا: الجُوعُ يَا رسول الله. قَالَ: ((وَأنَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لأخْرَجَنِي الَّذِي أخْرَجَكُما، قُوما)) فقَامَا مَعَهُ، فَأَتَى رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ، فَإِذَا هُوَ لَيْسَ في بيْتِهِ، فَلَمَّا رَأَتْهُ المَرْأَةُ، قالت: مَرْحَبًا وَأهلاً. فقال لَهَا رسول الله ﷺ: ((أيْنَ فُلانٌ؟)) قالت: ذَهَبَ يَسْتَعْذِبُ لنا[(١)] المَاءَ. إذْ جَاءَ الأَنْصَارِيُّ، فَنَظَرَ إلَى رسول الله ﷺ وَصَاحِبَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: الحَمْدُ للهِ، مَا أَحَدٌ اليَوْمَ أكْرَمَ أضْيَافًا مِنِّي، فَانْطَلَقَ فَجَاءهُمْ بِعِذْقٍ فِيهِ بُسْرٌ وَتَمْرٌ وَرُطَبٌ، فَقَالَ: كُلُوا[(٢)]، وَأَخَذَ المُدْيَةَ، فَقَالَ لَهُ رسول الله ﷺ: ((إيَّاكَ وَالحَلُوبَ)) فَذَبَحَ لَهُمْ، فَأكَلُوا مِنَ الشَّاةِ وَمِنْ ذَلِكَ العِذْقِ وَشَرِبُوا. فَلَمَّا أنْ شَبِعُوا وَرَوُوا، قَالَ رسول الله ﷺ لأَبي بَكْر وَعُمَرَ رضي الله عنهما: ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ يَوْمَ القِيَامَةِ، أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمُ الجُوعُ، ثُمَّ لَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أصَابَكُمْ هَذَا النَّعِيمُ)) رواه مسلم[(٣)].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

يستعذب: أي يطلب الماء العذب[(٤)].

العِذق: بكسر العين وإسكان الذال المعجمة وهو الكِباسة، وهي الغُصْنُ[(٥)].

البسر: التمر قبل إرطابه[(٦)].

---

(١) عند مسلم زيادة: (من).

(٢) عند مسلم زيادة: (من هذه).

(٣) برقم (٢٠٣٨/١٤٠). أورده المنذري في ترغيبه (٤٨٢٢).

(٤) رياض الصالحين ٢٣٤.

(٥) رياض الصالحين ٢٣٤.

(٦) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٨٧٤/٢.

المُدْيَةَ: السكين[(١)].

الحلُوب: ذات اللبن[(٢)].

رووا: شربوا وشبعوا[(٣)].

والسؤال عن هذا النعيم: سؤال تعديد لا سؤال توبيخ وتعذيب[(٤)].

وهذا الأنصاري الذي أتوه هو أبو الهيثم بن التيِّهان، كذا جاء مبينًا في رواية الترمذي وغيره[(٥)].

الحديث يحكي موقفا من المواقف المعلمة للبشرية لنبي مرسل، حكم دولة مترامية الأطراف في موقف الجوع، والشدة التي دعتهم للخروج وقول الرسول ﷺ (مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُما هذِهِ السَّاعَةَ ؟) استفهام على حقيقته، وقوله في هذه الساعة يشير، إلى أنه ليس وقت خروج معتاد لهما، وقوله (وَأنَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ) قسم الرسول بهذه الصيغة مع تقديم الضمير (أنا) الدال على الاختصاص فيه إيناس لهما، وشد من أزرهما؛ لأنه إن كان النبي ﷺ في نفس الحال، وهو صاحب المكانة التي لا مطمح فيها لغيره، فالأمر بالنسبة لهما أهون، وبين قوله (أخرجني، وأخرجكما) جناس يؤكد المعنى الدافع للخروج المتفق في حالهم جميعا، وربط الأحداث بالفاء المؤذنة بالسرعة في قوله (قُوما) فقَامَا مَعَهُ، فَأتَى رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ، فَإذَا هُوَ لَيْسَ في بيْتِهِ) يدل على شدة الجوع التي تدفعهم إلى سرعة الاستجابة في البحث عما يطفيء نار الجوع، ولا يحرك أمثال هؤلاء العظماء إلا جوع بلغ المدى واستمر أياماً، وقوله (فَإذَا هُوَ لَيْسَ في بيْتِهِ) يوحي بالمفاجأة التي تهدد باستمرار ثورة الجوع، وقول الرجل بعد مجيئه (الحَمْدُ

---

(١) رياض الصالحين ٢٣٤.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ر و ى).

(٤) رياض الصالحين ٢٣٤.

(٥) المرجع السابق ٢٣٤

للهِ، مَا أَحَدٌ الْيَوْمَ أَكْرَمَ أَضْيَافاً مِنِّي) يدل على فرحه وسروره بضيوفه، وحقٌّ له يدل على ذلك تقديمه الحمد بين يدي الكلام علامة على النعمة، ثم النفي الداخل على النكرة الدالة على العموم (ما أحد) وأفعل التفضيل الدالة على اعتزازه بهم، والتعبير بالانطلاق، واستخدام الفاء في الربط بين الجمل في قوله (فَانْطَلَقَ فَجَاءهُمْ) يوحي بحفاوة الرجل برسول ﷺ وصاحبيه، وقوله (وَأَخَذَ الْمُدْيَةَ) يشير إلى نية الذبح إكراماً لهم، وقول الرسول ﷺ للرجل (إِيَّاكَ وَالْحَلُوبَ) أسلوب تحذير يحافظ على المصلحة العامة في أشد الظروف؛ لأن ذبح الحلوب قطع لمصدر من مصادر الطعام، وإن كانت الصورة تبدو بسيطة لكنها تعكس نظرة اقتصادية عظيمة، وقول الرسول: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ يَوْمَ القِيَامَةِ) قسم يعظِّم الخبر، ويؤكد المعنى، ويرفع درجة الترقب في نفس شخصيتين مؤثرتين في تاريخ البشرية ينمي في نفوسهما الإحساس بنعمة الله أكثر، وأكثر؛ لأنهما في القدر يُهيئان لمهمة عظمى، وقد صعَّد الإحساس بتوكيد الفعل باللام، ونون التوكيد (لتسألن) والإشارة لاستحضار النعمة، حتى ينظر كل مسلم ما بين يديه من نعم الله التي لا تعد، ولا تحصى، وذكر الظرف يوم، وإضافته للقيامة يعطي فعل السؤال أبعادا أخرى في الشدة، والصعوبة تنبع من طبيعة اليوم، وبين قوله أخرجكم، ورجعتم طباق يقرر النعمة ببيان المفارقة بين حالة الخروج في الجوع، وحالة الرجوع في الشبع، فتأمل حالهم في مرة شبعوا فكيف بمن يتقلب في نعم الله ليل نهار، وقد غفل عن شكره؟.

فقه الحديث

ذكر النووي لهذا الحديث من الفوائد ما يجدر أن نذكره هنا:

١ - جواز ذكر الإنسان ما يناله من ألم ونحوه، لا على سبيل التشكي وعدم الرضا، بل للتسلية والتصبر، كفعله ﷺ هنا، ولالتماس دعاء أو مساعدة على التسبب في إزالة ذلك العارض، فهذا كله ليس بمذموم، إنما يذم ما كان تشكيًا وتسخطًا وتجزعًا.

٢ - جواز الحلف من غير استحلاف.

٣ - جواز الإدلال على الصاحب الذي يوثق به، واستتباع جماعة إلى بيته.

٤ - استحباب إكرام الضيف بقول (مَرْحَبًا وأهلاً) وشبهه، وإظهار السرور بقدومه، وجعله أهلاً لذلك، كل هذا وشبهه إكرام للضيف، وقد قال ﷺ: ((من كان يُؤمن بالله واليوم الآخِرِ فلْيُكرِم ضَيفَه))(١).

٥ - جواز سماع كلام الأجنبية ومراجعتها الكلام للحاجة(٢).

٦ - جواز إذن المرأة في دخول منزل زوجها لمن علمت علمًا محققًا أنه لا يكرهه بحيث لا يخلو بها الخلوة المحرمة.

٧ - استحباب حمد الله تعالى عند حصول نعمة ظاهرة، وكذا يستحب عند اندفاع نقمة كانت متوقعة، وفي غير ذلك من الأحوال.

وقد قال النووي في الأذكار: (يستحب لمن تجددت له نعمة ظاهرة، أو اندفعت عنه نقمة ظاهرة، أن يسجد شكرًا لله تعالى، وأن يحمد الله تعالى أو يثني عليه بما هو أهله، والأحاديث والآثار في هذا كثيرة مشهورة، روينا في صحيح البخاري عن عمرو بن ميمون الأودي في مقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حديث الشورى الطويل: (أن عمر أرسل ابنه عبدالله إلى عائشة رضي الله عنها يستأذنها أن يدفن مع صاحبيه فلما أقبل عبدالله بن عمر، قال عمر: ما لديك؟ قال الذي تحب يا أمير المؤمنين، أذنت، قال: الحمد لله، ما كان شيء أهمّ إلي من ذلك)(٣).

وروينا في كتاب الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ((مَنْ رَأى مُبْتَلًى فَقَالَ الْحَمدُ لله الّذِي عَافَانِي مِمَّا ابْتَلاَكَ بِهِ وَفَضَّلَنِي عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلاً لَمْ يُصِبْهُ ذَلِكَ البَلاَءُ))(٤).

---

(١) أخرجه البخاري ٦٤٧٥، ومسلم ٤٧.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٣/١٩٥.

(٣) أخرجه البخاري ٣٧٠٠.

(٤) أخرجه الترمذي ٣٤٣٢، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٧٢٩).

قال النووي: (قال العلماء من أصحابنا وغيرهم: ينبغي أن يقول هذا الذكر سرًا بحيث يسمع نفسه ولا يسمعه المبتلى لئلا يتألم قلبه بذلك، إلا أن تكون بليته معصية فلا بأس أن يسمعه ذلك إن لم يخف من ذلك مفسدة)[1].

٨ - استحباب إظهار البشر والفرح بالضيف في وجهه وحمد الله تعالى، وهو يسمع، على حصول هذه النعمة، والثناء على ضيفه إن لم يخف عليه فتنة، فإن خاف لم يثن عليه في وجهه؛ وهذا طريق الجمع بين الأحاديث بجواز ذلك ومنعه[2].

٩ - استحباب تقديم الفاكهة على الخبز واللحم وغيرهما.

١٠ - استحباب المبادرة إلى الضيف بما تيسر، وإكرامه بعده بطعام يصنعه له لا سيما إن غلب على ظنه حاجته في الحال إلى الطعام، وقد يكون شديد الحاجة إلى التعجيل وقد يشق عليه انتظار ما يصنع له: لاستعجاله للانصراف.

حكم التكلف:

كره جماعة من السلف التكلف للضيف، وهو محمول على ما يشق على صاحب البيت مشقة ظاهرة؛ لأن ذلك يمنعه من الإخلاص وكمال السرور بالضيف، وربما ظهر عليه شيء من ذلك فيتأذى به الضيف، وقد يحضر شيئًا يعرف الضيف من حاله أنه يشق عليه، وأنه يتكلفه له فيتأذى لشفقته عليه، وكل هذا مخالف لقوله ﷺ: ((من كان يُؤمن بالله واليوم الآخِرِ فلْيُكرِم ضَيفَه)) لأن أكمل إكرامه، إراحة خاطره، وإظهار السرور به.

١١ - جواز الشبع، وما جاء في كراهة الشبع فمحمول على المداومة عليه، لأنه يقسي القلب وينسي أمر المحتاجين[3].

---

(١) الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار، الإمام النووي، تحقيق: محيي الدين مستو ٣٣٢، ٣٣٨.

(٢) انظر: الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار، الإمام النووي، تحقيق: محيي الدين مستو ٣٠٨-٣١١.

(٣) انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٧/١٣/١٧٧-١٨٣.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: معاناة النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم ألم الجوع.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: القسم.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: بيان فضل الأنصار رضي الله عنهم وإكرامهم للنبي ﷺ.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: السؤال عن النعيم.

أولاً - من أساليب الدعوة: الإخبار:

إن الإخبار من الأساليب الدعوية التي تعين الداعية على تبليغ دعوة ربه وسنة نبيه ﷺ قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾[2]، فبالإخبار تكون الدعوة إلى الله تعالى وهي أكرم الأعمال، وأشرف الغايات، وأنبل المقاصد.

وقد ورد هذا الأسلوب في الحديث من قول الراوي: (خرج رسول الله ﷺ ذات يوم... إلخ)، حيث أفاد الإخبار في هذا الحديث خروج النبي ﷺ وهو يعاني ألم الجوع؛ وصادف ذلك خروج أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فقد خرجا لنفس السبب الذي خرج النبي ﷺ لأجله، وقد أفاد ذلك تلك الحالة المعيشية التي كان النبي ﷺ وأصحابه الكرام رضي الله عنهم يعيشونها.

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: معاناة النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم ألم الجوع:

لقد كان نبي الإسلام ﷺ أعظم نبي وأفضل رسول، وكان الصحابة رضي الله عنهم أعظم جيل شهدته البشرية، فلم تشغلهم شهوة أو رغبة دنيوية عن نشر دينهم وتطبيق سنة نبيهم، وكأن لسان حالهم يقول:

دعوني أجدُّ السعي في طلب العلا ... فأدرك سؤلي أو أموت فأعذرا

---

(١) سورة فصلت، آية: ٣٣.

(٢) سورة المائدة، آية: ٦٧.

وقد عانوا من الجوع وشدته، لأنه لم يكن لهم غاية أو مقصد، وهذا ما ظهر جليًا في الحديث من قوله ﷺ لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما: (ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟، قالا: الجوع يا رسول الله، قال: وأنا، والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما... إلخ)، قال القرطبي: (قوله ﷺ لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما: "ما أخرجكما من بيوتكما؟" قالا: الجوع. قال: "وأنا أخرجني الذي أخرجكما" هذا يدل على شدة حالهم في أول أمرهم وسبب ذلك: أن أهل المدينة كانوا في شظف من العيش عندما قدم عليهم النبي ﷺ مع المهاجرين وكان المهاجرون فرُّوا بأنفسهم، وتركوا أموالهم، وديارهم، فقدموا فقراء على أهل شدة، وحاجة، مع أن الأنصار رضي الله عنهم واسوهم فيما كان عندهم، وشركوهم فيما كان لهم، ومنحوهم، وهادوهم، غير أن ذلك ما كان يسد خلاتهم، ولا يرفع فاقاتهم، مع إيثارهم الضراء على السراء، والفقر على الغنى. ولم يزل ذلك دأبهم إلى أن فتح الله عليهم وادي القرى، وخيبر، وغير ذلك؛ فردوا لهم منائحهم، واستغنوا بما فتح الله عليهم. ومع ذلك فلم يزل عيشهم شديدًا، وجهدهم جهيدًا حتى لقوا الله تعالى مؤثرين بما عندهم، صابرين على شدة عيشهم، معرضين عن الدنيا وزهرتها ولذاتها. مقبلين على الآخرة، ونعيمها، وكراماتها، فحماهم الله ما رغبوا عنه، وأوصلهم إلى ما رغبوا فيه. حشرنا الله في زمرتهم واستعملنا بسنتهم)[(١)].

وفي بيان معاناته ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم لألم الجوع، قال أنس بن مالك رضي الله عنه: (رَأَى أَبُو طَلْحَةَ رَسُولَ اللَّهِ مُضْطَجِعًا فِي الْمَسْجِدِ. يَتَقَلَّبُ ظَهْرًا لِبَطْنٍ. فَأَتَى أُمَّ سُلَيْمٍ فَقَالَ: إِنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ مُضْطَجِعًا فِي الْمَسْجِدِ. يَتَقَلَّبُ ظَهْرًا لِبَطْنٍ وَأَظُنُّهُ جَائِعًا، وفي رواية: وَقَدْ عَصَّبَ بَطْنَهُ بِعِصَابَةٍ فَهَلْ عندك مِنْ شَيْءٍ؟ فَقَالَتْ: نَعَمْ.. إلخ)[(٢)]، وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: (رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يظل اليوم يلتوي ما يجد دقلاً يملأ به بطنه)[(٣)]، أما في معاناة أصحابه رضي الله عنهم فقال أبو هريرة رضي الله عنه: (لقد رأيتني وإني لأخِرُّ

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٣٠٥/٥.

(٢) أخرجه مسلم ٢٠٤٠.

(٣) أخرجه مسلم ٢٩٧٨.

فيما بينَ مِنبرِ رَسول اللّه ﷺ إلى حُجرةِ عائشَةَ مَغشيًّا عليّ، فيجيء الجائي فيضَعُ رجلهُ عَلَى عنقي ويُرَى أني مجنون وما بي من جُنون، ما بي إلاّ الجوع)[1]، فقد كانت همة الجيل الأول همة عالية، لا ترمق إلا مجد الآخرة، فزهدوا في الدنيا تحقيرًا للذائذها فلم يشغلهم عن غايتهم جوع أو ضعف، فبلغوا غايتهم في إقامة دين ربهم وسنة نبيهم ﷺ فسادوا وملكوا.

ثالثًا - من أساليب الدعوة: القسم:

إن القسم بإيجازه وقصره يلائم الطبع العربي الفصيح الذي تكفيه الإشارة وتقنعه اللمحة ويستنتج بالهمسة، وقد عرفه الناس قديمًا واستعملوه تأكيدًا لخبر، أو تعظيمًا لشيء. أو جمع لانتباه حول غاية[2]، وهذا ما ورد في الحديث من قوله ﷺ: (والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما)، مؤكدًا ﷺ على خروجه من أجل دفع ألم الجوع.

رابعًا - من موضوعات الدعوة: بيان فضل الأنصار وإكرامهم للنبي ﷺ:

إن من المعجزات التي أكرم الله تعالى بها نبيه ﷺ أصحابه رضي الله عنهم فقد كانوا أشد الناس حبًا وإيثارًا للنبي ﷺ على أنفسهم وأموالهم، وهذا ما أشار إليه الحديث من فعل الأنصار في قول الراوي: (فأتى رجلاً من الأنصار.. إلخ).

قال القرطبي: (اسم هذا الرجل الأنصاري مالك بن التيهان، ويكنى أبا الهيثم، وفي هذه القصة يقول عبدالله بن رواحة يمدح بها أبا الهيثم بن التيهان:

فَلَمْ أرَ كالإسلامِ عِزًا لأمَّةٍ ... ولا مِثْلَ أضيافِ الإراشيِّ مَعْشَرَا
نبيّ وصِدِّيقٌ وفاروق أمّة ... وخير بني حوّاء فرْعًا وعُنْصُرا
فوافَوْا لِميقاتٍ وقَدْرِ قَضيةٍ ... وكان قضاء الله قَدْرا مُقَدَّرَا
إلى رجلٍ نَجْدٍ يُباري بجودِهِ ... شُموسَ الضُّحَى جودًا ومجدًا ومَفخرا
وفارِسِ خلقِ الله في كل غارةٍ ... إذا لبس القومُ الحديدَ المُسَمَّرَا

(١) أخرجه البخاري ٧٣٢٤.

(٢) الدعوة الإسلامية "أصولها ووسائلها"، د. أحمد غلوش، ص ٣٢٩ - ٣٣٠.

فَفَــدًّى وحَيّــا ثــم أَدْنَــى قِــراهُمُ فلَــمْ يَقْــرِهِمْ إلاَّ سَــمِينًا مُتَمَّــرَا [(١)]

وفي بيان فضل الأنصار وإكرامهم للنبي ﷺ، قال تعالى - مادحًا لهم، ومبينًا شرفهم وكرمهم وعدم حسدهم وإيثارهم مع الحاجة - : ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[(٢)].

قال ابن كثير: (أي: سكنوا دار الهجرة من قبل المهاجرين وآمنوا قبل كثير منهم..، ثم قال تعالى: يحبون من هاجر إليهم، أي: من كرمهم وشرف أنفسهم يحبون المهاجرين ويواسونهم بأموالهم)[(٣)]، وفي ذلك قال ﷺ: ((لو أنَّ الأنصارَ سَلكوا واديًا أو شِعبًا لَسَلكتُ في وادي الأنصار، ولولا الهجرةُ لكنتُ امرَءًا منَ الأنصار. فقال أبو هريرةَ: ما ظَلَمَ - بأبي وأُمي - آوَوهُ ونصروهُ. أو كلمةً أخرى))[(٤)]، قال ابن حجر: (فقال أبو هريرة رضي الله عنه: ما ظلم أي ما تعدى في القول المذكور ولا أعطاهم فوق حقهم، ثم بين ذلك بقوله: "آووه ونصروه"، وقوله: "أو كلمة أخرى" لعل المراد وواسوه وواسوا أصحابه بأموالهم)[(٥)]، وفي ذلك بيان لفضل الأنصار وإكرامهم للنبي ﷺ.

خامسًا – من موضوعات الدعوة: السؤال عن النعيم:

مما لا شك فيه أن كل امرئ موقوف بين يدي ربه ومسؤول عما قدم وآخر، وهذا ما أشار إليه نص الحديث في قوله ﷺ: "والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم"، وقد أكد الحق تبارك وتعالى على ذلك فقال: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[(٦)]، وقال: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[(٧)]، وقال:

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٤٥٨/٢٢.

(٢) سورة الحشر، آية: ٩.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٦٨/٨.

(٤) أخرجه البخاري ٣٧٧٩.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٤٠/٧.

(٦) سورة الإسراء، آية: ٣٦.

(٧) سورة يونس، آية: ٢٣.

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾[٢]، قال ابن كثير: (أي: ثم لتسألن يومئذ عن شكر ما أنعم الله به عليكم من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك، ما إذا قابلتم به نعمه من شكره وعبادته)[٣]، وقال القرطبي نقلاً عن الماوردي: (إن هذا السؤال يعم الكافر والمؤمن، إلا أن سؤال المؤمن تبشير بأن يجمع له بين نعيم الدنيا ونعيم الآخرة، وسؤال الكافر تقريع أن قابل نعيم الدنيا بالكفر والمعصية...، وقال القشيري: إن الكل يسألون، ولكن سؤال الكافر توبيخ؛ لأنه قد ترك الشكر. وسؤال المؤمن سؤال تشريف؛ لأنه شكر. وهذا النعيم في كل نعمة)[٤]، فعلى المرء أن يلتزم الجادة ويقدم لنفسه ما ينفعه بين يدي ربه يوم سؤاله وذلك بشكره تعالى على نعمه وآلائه، والشكر يكون بالقلب خضوعًا واستكانة، وباللسان ثناء واعترافًا، وبالجوارح طاعة وانقيادًا[٥].

---

(١) سورة الزلزلة، الآيتان: ٧ ، ٨.

(٢) سورة التكاثر، آية: ٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٤٧٤/٨.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٤٦٠/٢٢.

(٥) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٥٧٩/٢ - ٥٨٠.

الحديث رقم (٤٩٧)

٤٩٧ - وعن خالد بن عُمَيْر العَدَوِيِّ، قَالَ: خَطَبَنَا عُتْبَةُ بنُ غَزْوَانَ (وَكَانَ أمِيرًا عَلَى البَصْرَةِ) [١]، فَحَمِدَ الله وَأثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: أمَّا بَعْدُ، فَإنَّ الدُّنْيَا قَدْ آذَنَتْ بِصُرْمٍ، وَوَلَّتْ حَذَّاءَ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إلاَّ صُبَابَةٌ كَصُبَابَةِ الإنَاءِ يَتَصَابُّهَا صَاحِبُهَا، وَإنَّكُمْ مُنْتَقِلُونَ مِنْهَا إلَى دَارٍ لاَ زَوَالَ لَهَا، فَانْتَقِلُوا بِخَيرِ مَا بِحَضْرَتِكُمْ، فَإنَّهُ قَدْ ذُكِرَ لَنَا أنَّ الحَجَرَ يُلْقَى مِنْ شَفِيرِ [٢] جَهَنَّمَ فَيَهْوِي فِيهَا سَبْعِينَ عَامًا، لاَ يُدْرِكُ لَهَا قَعْرًا، وَاللهِ لَتُمْلأَنَّ أفَعَجِبْتُمْ؟! وَلَقدْ ذُكِرَ لَنَا أنَّ مَا بَيْنَ مِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ مَسيرَةُ أرْبَعِينَ عَامًا، وَلَيَأتِيَنَّ عَلَيْهَا يَوْمٌ وَهُوَ كَظِيظٌ مِنَ الزِّحَامِ، وَلَقَدْ رَأيْتُنِي سَابعَ سَبْعَةٍ مَعَ رسول الله ﷺ، مَا لَنَا طَعَامٌ إلاَّ وَرَقُ الشَّجَرِ، حَتَّى قَرِحَتْ أشْدَاقُنَا، فَالتَقَطْتُ بُرْدَةً فَشَقَقْتُهَا بَيْنِي وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ مَالِكٍ، فَاتَّزَرْتُ بِنِصْفِهَا، وَاتَّزَرَ سَعْدٌ بِنِصْفِهَا، فَمَا أصْبَحَ اليَوْمَ مِنَّا أحَدٌ إلاَّ أصْبَحَ أمِيرًا عَلَى مِصرٍ مِنَ الأَمْصَارِ، وَإنِّي أعُوذُ بِاللهِ أنْ أكُونَ فِي نَفْسِي عَظِيمًا، وَعِنْدَ اللهِ صَغِيرًا. رواه مسلم [٣].

ترجمة الراوي:

عتبة بن غَزْوان: وهو عتبة بن غَزْوان - بفتح المعجمة وسكون الزاي - بن جابر بن وهب المازني، حليف بني نوفل، وقيل بني عبد شمس، يكنى أبا عبدالله، وقيل أبو غزوان.

له صحبة ورواية، روى عن النبي ﷺ (٤) أحاديث، وروى له مسلم وأصحاب السنن.

وكان رضي الله عنه من السابقين الأولين إلى الإسلام، حدث عن نفسه قائلاً ((ولقد رأيتني سابع سبعة مع رسول الله ﷺ ما لنا طعام إلا ورق الشجر حتى قرحت أشداقنا - أي صار فيها قروح وجراح من خشونة الورق الذي نأكله وحرارته - فالتقطت بردة

(١) هذا من زيادة إسحاق بن عمر كما في الرواية التي بعدها.

(٢) لفظ مسلم: شفة.

(٣) برقم ٢٩٦٧/١٤ وزاد في آخره: (وإنها لم تكن نبوّة قط إلا تناسخت، حتى يكونَ آخر عاقبتها ملكا، فستخبرون وتجربون الأمراء بعدنا). أورده المنذري في ترغيبه ٤٨٤٦.

فشققتها بيني وبين سعد بن مالك، فاتّزرت بنصفها واتزر سعد بنصفها، فما أصبح اليوم منا أحد إلا أصبح أميرًا على مِصرٍ من الأمصار، وإني أعوذ بالله أن أكون في نفسي عظيمًا عند الله...)) الحديث الذي نحن بصدده.

وكان ممن هاجر الهجرتين، فهاجر إلى الحبشة، ثم قدم على النبي ﷺ وهو بمكة، وأقام معه حتى هاجر إلى المدينة رفيقًا للمقداد، وكان عتبة وقتها ابن (٤٠) سنة، وآخى الرسول ﷺ بينه وبين أبي دجانة، وكان رضي الله عنه من الرماة المذكورين المعدودين من أصحاب رسول الله ﷺ، شهد بدرًا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وشهد القادسية مع سعد بن أبي وقاص، وولاه عمر بن الخطاب في الفتوح، ومن بين هذه الفتوحات، البصرة، سيره عمر إلى أرضها وكانت تسمى الأُبلة أو أرض الهند، وكانت من فارس، واختط البصرة من جديد وكان هو أول من قصَّرها وعمّرها وأمر محجن بن الأدرع فاختط مسجد البصرة الأعظم، وبناه بالقصب، ولم يبن عتبة لنفسه فيها دارًا، أما عن صفاته الخَلْقِيّة فكان رجلاً طوالاً جميلاً وعن وفاته، قالوا إنه لما اختط البصرة وولاه عمرُ عليها، خرج حاجًا، وخلّف مجاشع بن مسعود، وأمره أن يسير إلى الفرات، وأَمَرَ المغيرة بن شعبة أن يُصلي بالناس، فلم ينصرف عتبة من سفره ذلك في حجته حتى مات، فأقر عمرُ المغيرة بن شعبة على البصرة، وكان عتبة قد استعفى عمرَ عن ولايتها فأبى أن يعفيه فقال: (اللهم لا تردني إليها)، فسقط عن راحلته، وقيل أصابه بطن، فمات، بموضع يُقال له مَعْدِنُ بني سليم، وقيل بمكان يسمى "الرّبَذة" وقيل بالمدينة المنورة، سنة (١٤) أو (١٥) أو (١٧) وقيل سنة (٢٠)، مات وهو ابن سبع وخمسين سنة، وقدم غلامه "سُويد" بمتاعه وتركته إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما جميعًا[١].

---

(١) طبقات ابن سعد ٩٨/٣، ٩٩، ٥/٧-٨، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر ٥٦٥، ٥٦٦، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود ٥٥٨/٣-٥٦٠، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن علي العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ٨٨٢، ٨٨٣، وسير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ٣٠٤/١-٣٠٦، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين ٩٧/٥، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٥٣/٣، والأعلام، خير الدين الزركلي ٢٠١/٤، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك ١٣٠٩/٢، ١٣١٠.

غريب الألفاظ:

آذنت: آذنت أعلَمَتْ. بصرم: بانقطاعها وفنائها[١].

حذَّاء: سريعة[٢].

الصُبابةُ: البقية اليسيرة[٣].

يتصابُّها: يجمعها[٤].

شفير جهنم: أي حرفها[٥].

قعرًا: القعر من كل شيء أجوف: منتهى عمقه[٦].

مصراعين: مصراع الباب: أحد جزايه، وهما مصراعان أحدهما إلى اليمين والآخر إلى اليسار[٧].

الكظيظ: الكثير الممتلئ[٨].

قرحت: هو بفتح القاف وكسر الراء، أي صارت فيها قروح[٩].

الأشداقُ: جوانب الفم[١٠].

بردة: كساء مخطط يلتحف به أو كساء مربع أسود صغير[١١].

---

(١) رياض الصالحين ٢٣٥.

(٢) المرجع السابق ٢٣٥.

(٣) المرجع السابق ٢٣٥.

(٤) المرجع السابق ٢٣٥.

(٥) المعجم المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ش ف ر).

(٦) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ق ع ر).

(٧) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ص ر ع).

(٨) رياض الصالحين ٢٣٥

(٩) المرجع السابق ٢٣٥.

(١٠) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ش د ق).

(١١) معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ٨٦.

فاتَّزرتُ: أي وضعته على النصف الأسفل من البدن من السرة إلى ما تحتها وهو يسمى إزار ومئزر[١].

المِصرُ: أي: البلد[٢].

الشرح الأدبي

قوله (فَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ آذَنَتْ بِصُرْمٍ وَوَلَّتْ حَذَّاءَ) كناية عن قرب نهاية الدنيا، واقتراب القيامة، وهو خبر أريد به لازم فائدته، وهو التحذير من الغرور بها، والتعبير بالإيذان توكيد للإعلام، والإخبار، والتعبير بالتولي يوحي بالإعراض لأن من لم يتركها تركته، والتعبير بالحذاء يشير إلى السرعة التي توجب الحذر من الغرور بها، والتشبيه في قوله (وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلاَّ صُبَابَةٌ كَصُبَابَةِ الإِنَاءِ يَتَصَابُّهَا صَاحِبُهَا) يشير إلى مقدار الدنيا الذي يصوره الفراغ الكبير مقابل الجزء القليل الممتلىء في قعر الإناء الذي عبر عنه بالصبابة، وأكدها الجناس بين الصبابة، وبين يتصابها، والتي تؤكد القلة؛ لأنها آخر ما يستخدمه الشخص مما في الإناء الصبابة، وإضافة الصبابة إلى الإناء يشير إلى أنه محدود بحدود تنبيء بمدى الغرور الذي يجعل جهلاء البشر يتنافسون فيها مع ترك الآخرة، وقوله: (وَإِنَّكُمْ مُنْتَقِلُونَ مِنْهَا إِلَى دَارٍ لاَ زَوَالَ لَهَا) وتوكيد الجملة بكل هذه المؤكدات تنزيل للمخاطبين منزلة المنكرين بسبب غفلتهم عن العمل بمضمون المعنى، والتمسك بضده وهو حب الدنيا، والغرور بها، وقوله (فَانْتَقِلُوا بِخَيرِ مَا بِحَضْرَتِكُمْ) أمر نصح، وإرشاد وتحذير منها وقوله (فَإِنَّهُ قَدْ ذُكِرَ لَنَا أنَّ الحَجَرَ يُلْقَى مِنْ شَفِيرِ جَهَنَّمَ فَيَهْوِي فِيهَا سَبْعِينَ عَاماً، لاَ يُدْرِكُ لَهَا قَعْراً، وَاللهِ لَتُمْلأَنَّ أَفَعَجِبْتُمْ ؟!) البداية بالتوكيد وتكثيفه في العبارة يحافظ على نبرة الكلام العالية في المعاني المقتحمة لجدار القلب الغافل، وعدم ذكر الفاعل في قوله (يلقى) يذهب بالنفس كل مذهب في تصور الفاعل، ولفظ (شفير) الذي يقف بالنفس على حافة الهول مع الإطلاع،

---

(١) معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ٣٥، ٣٦٦.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (م ص ر).

والمكاشفة لجهنم، والتعبير بـ(يهوي) الماضي الذي يصور السقوط دون أن يحدد له مدى، أو يصل به إلى إحدى الجهتين، وذكر العدد يؤكد طول الفترة التي تدل على بعد القعر، وقوله (لا يدرك لها قعراً) يزيد المسافة بعداً، ويوحي بالضياع الأبدي لمن ألقي فيها لأنه هول يفوق حجم المعقول البشري، ولا يصل إليه وهم العبقري، وقوله (وَاللهِ لَتُمْلأَنَّ أَفَعَجِبْتُمْ ؟!) القسم يقذف الهيبة في القلوب، والاستفهام بمعنى النهي أي لا تتعجبوا، ثم قابل الترهيب بالترغيب جرياً مع أسلوب القرآن في شفع الترهيب بالترغيب حتى يأخذ النفس من قطبيها بين الرغبة، والرهبة، (وَلَقَدْ ذُكِرَ لَنَا أنَّ مَا بَيْنَ مِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ مَسيرَةُ أرْبَعِينَ عَاماً) يقرب للأذهان مدى سعة الجنة، وقوله: (وَلَيَأتِيَنَّ عَلَيْهَا يَوْمٌ وَهُوَ كَظِيظٌ مِنَ الزِّحَامِ) يقرر أن الله خلق للجنة أهلها، وللنار أهلها،والتعبير بكظيظ يصور بجرس الكلمة ووزنها بعض معناها، وهو الممتلىء، ومن الجدير بالذكر أن الزحام في الأبواب دليل على كثرة الداخلين، أما في داخل الجنة فلكل واحد منهم ملكه الخاص، وأقلهم من له مثل ملك عشرة من ملوك الدنيا، وقوله (وَلَقَدْ رَأيْتُنِي سَابعَ سَبْعَةٍ مَعَ رسول الله ﷺ، مَا لَنَا طَعَامٌ إلاَّ وَرَقُ الشَّجَرِ) وما بعده يشير إلى تبدل الأحوال، وعدم ثباتها، ويشير إلى صبر الرسول، وصحابته على الشدة، وكذلك صبرهم في النعيم، لأن كلاهما يحتاج إلى ضبط النفس على حدود الشرع، والنظر فيه إلى ما يرضي الله تعالى.

المضامين الدعوية

أولاً: من وسائل الدعوة: الخطبة.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: النصح.

ثالثًا: من واجبات الداعية: تحذير المدعوين من الاغترار بالدنيا وبيان حقيقتها.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: الاستعداد للآخرة بالأعمال الصالحة.

خامسًا: من أساليب الدعوة: الترهيب والترغيب.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: بيان حال الصبر على خشونة العيش التي عاشها الصحابة رضي الله عنهم.

أولاً - من وسائل الدعوة: الخطبة:

إن الخطبة هي وسيلة من وسائل الدعوة الإسلامية لاستنهاض الهمم، والحث على الفضائل[١]، وهذا ما أشار إليه نص الحديث في قول الراوي: (خطبنا عتبة بن غزوان ... إلخ)، ومما لا شك فيه أن الخطابة من مستلزمات تبليغ الدعوة الإسلامية وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، فالدعوة يلزمها صوت قوي وفكر ذكي، وبيان ناصع وصوت داوٍ، والخطابة رسول ذلك وبلاغه وحامل هذا وسلطانه[٢]، وللخطابة ثمرات كثيرة فهي التي تهدئ النفوس الثائرة، وهي التي تثير حماسة ذوي النفوس الفاترة، وهي التي ترفع الحق، وتخفض الباطل، وتقيم العدل، وترد المظالم، وهي صوت المظلومين، وهي لسان الهداية. ولأمر ما قال موسى عليه السلام عندما بعثه ربه تعالت حكمته إلى فرعون: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾[٣]، والخطابة هي الدعامة التي قامت عليها الثورات الكبيرة التي نقضت بنيان الظلم؛ وهدمت قصور الباطل..، والخطابة قوة تثير حمية الجيوش، وتدفعهم إلى لقاء الموت وتزيد قواهم المعنوية[٤]، وقد استعمل النبي صلى الله عليه وسلم هذا النوع من الوسائل في نشر دعوته لكثرة فائدته وعظيم جدواه.. ولعل أكبر ما يدلنا على اهتمام النبي صلى الله عليه وسلم بالخطابة أنها أول وسيلة أبرزها بعد الجهر بالدعوة مباشرة حين صعد على الصفا[٥]، وتتنوع الخطبة حسب موضوعاتها، وحسب مناسبتها، وحسب المدعوين واختلاف ثقافتهم.

ثانيًا - من أساليب الدعوة: النصح:

إن النصح من الأساليب الدعوية التي يبنى عليها لب الدين وجوهر الإيمان، فبالنصح يكون الدعاء إلى ما فيه الصلاح والنهي عما فيه الفساد[٦]، وهذا ما ورد في

---

(١) انظر: الدعوة الإسلامية "الوسائل والأساليب" محمد خير رمضان يوسف، ص ١٠٦.

(٢) الخطابة وإعداد الخطيب، د. توفيق الواعي، ص ٣٠.

(٣) سورة طه، الآيات: ٢٥ - ٢٨.

(٤) الخطابة "أصولها، تاريخها في أزهر عصورها عند الغرب"، محمد أبو زهرة، ص ٢١ - ٢٢.

(٥) الدعوة الإسلامية "أصولها ووسائلها"، د. أحمد غلوش، ص ٤١٩ - ٤٢٠.

(٦) التعريفات، الجرجاني، ص ٢٩٦.

نص الحديث من نصح عتبة بن غزوان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وتحذيره من الدنيا وعدم الاغترار بها والاستعداد للآخرة بخير الأعمال وأفضل الأفعال.

وقد بيّن الحق تبارك وتعالى منزلة النصح وأهميته، وذلك في قسمه تعالى أن الإنسان في خسر وهلاك: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾[1]، وذلك في سورة العصر، وقد بيّن ابن كثير أن الله تعالى استثنى من جنس الإنسان عن الخسران الذين آمنوا بقلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم، (وتواصوا بالحق) وهو أداء الطاعات، وترك المحرمات، (وتواصوا بالصبر)، على المصائب والأقدار، وأذى من يؤذي مما يأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر[2]، وهذا ما أكد عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بيان عظم منزلة النصح كأسلوب من أساليب الدعوة في قوله: ((الدِّينُ النَّصِيحَةُ))[3]، "أي أن عماد الدين وقوامه النصيحة كقوله: (الحج عرفة) أي عماده ومعظمه عرفة"[4]، وفي ذلك بيان على أهمية وعظم أسلوب النصيحة في الدعوة إلى الله لما فيه من صلاح المجتمع والفرد معًا.

ثالثًا - من واجبات الداعية: تحذير المدعوين من الاغترار بالدنيا وبيان حقيقتها:

مما لا شك فيه أن الدنيا فانية، وفانٍ كل ما فيها، وأن الآخرة باقية وباقٍ كل ما فيها، فمن آثر دنياه على آخرته فلا دنيا له ولا آخرة، فالتحذير من الاغترار بالدنيا وذمها من أنفع الأمور وأجلّها، لما في ذلك من الاستعداد للآخرة بالأعمال الصالحة، وقد ورد التحذير من الاغترار بالدنيا في الحديث من قول عتبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : (فإن الدنيا قد آذنت بصرم وولت حذاء ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء يتصابها صاحبها)، وقد شدد الحق تبارك وتعالى في التحذير من الاغترار بالدنيا فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ

---

(١) سورة العصر، آية: ٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٨/٤٨٠.

(٣) أخرجه مسلم ٥٥.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٣٠.

﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾(٢).

قال ابن كثير: (يقول تعالى مُوهنًا أمر الحياة الدنيا ومحقرًا لها: "إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد" أي: إنما حاصل أمرها عند أهلها هذا، كما قال: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾(٣)، ثم ضرب تعالى مثل الحياة الدنيا في أنها زهرة فانية ونعمة زائفة فقال: "كمثل غيب" وهو المطر الذي يأتي بعد قنوط الناس...، وقوله: "أعجب الكفار نباته"، أي: يعجب الزراع نبات ذلك الزرع الذي نبت بالغيث؛ وكما يعجب الزراع ذلك كذلك تعجب الحياة الدنيا الكفار، فإنهم أحرص شيء عليها وأميل الناس إليها، "ثم يهيج فتراه مصفرًا ثم يكون حطامًا" أي: يهيج ذلك الزرع فتراه مصفرًا بعد ما كان خضرًا نضرًا ثم يكون بعد ذلك كله حطامًا، أي: يصير يبسًا متحطمًا، هكذا الحياة الدنيا تكون أولاً شابة، ثم تكتهل ثم تكون عجوزًا شوهًا، والإنسان كذلك يكون في أول عمره وعنفوان شبابه غضًا طريًا لين الأعطاف، بهي المنظر، ثم إنه يشرع في الكهولة فتتغير طباعه وينفد بعض قواه، ثم يكبر فيصير شيخًا كبيرًا ضعيف القوى، قليل الحركة، يعجزه الشيء اليسير...، ولما كان هذا المثل دالاً على زوال الدنيا وانقضائها وفراغها لا محالة، وأن الآخرة كائنة لا محالة، حذر من أمرها ورغب فيما

---

(١) سورة فاطر، آية: ٥.

(٢) سورة الحديد، آية: ٢٠.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٤.

فيها من الخير، فقال: وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور")[1].

فمن تفكر في عواقب الدنيا أخذ الحذر ومن أيقن بطول الطريق تأهب للسفر[2]، وفي ذلك قال الشاعر:

يسر الفتى ما كان قدم من تقى	إذا عرف الداء الذي هو قاتله
وما الدنيا بباقية لحي ولا	حي على الدنيا بباق

فالمؤمن الفطن اللبيب في الدنيا كالغريب لا يجزع من ذلها ولا يأنس بقربها، ولا يأسى لبعدها ولا يأمن من غيرها، للناس حال وله حال[3]، وهذا ما يجب على الداعية أن يبينه ويوضحه للمدعوين لما في ذلك من الفلاح والصلاح في الدنيا والآخرة.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: الاستعداد للآخرة بالأعمال الصالحة

إن من أهم ما يجب أن يتيقظ له المؤمن هو الاستعداد للآخرة، بجميل الأفعال وحسن الأقوال وهذا ما أشار إليه الحديث من قول عتبة رضي الله عنه: (... وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها فانتقلوا بخير ما بحضرتكم)، وفي ذلك قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾[4]، وقال تعالى آمرًا عباده بالتزود من الأعمال الصالحة: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾[5]، "أي: وتزودوا من التقوى للمعاد، فإن الإنسان لا بدّ له من سفر في الدنيا، ولا بد فيه من زاد، ويحتاج فيه إلى الطعام والشراب والمركب؛ وسفر من الدنيا إلى الآخرة، ولا بد فيه من زاد أيضًا

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢٤/٢.

(٢) صيد الخاطر، ابن الجوزي، تحقيق: عبدالقادر عطا، ص ٥٧.

(٣) انظر: الزهد، للحسن البصري، ص ٤٥ - ٤٩.

(٤) سورة الكهف، آية: ١١٠.

(٥) سورة البقرة، آية: ١٩٧.

وهو تقوى الله، والعمل بطاعته، واتقاء المحظورات..! وهذا الزاد أفضل من الزاد الأول، فإن زاد الدنيا يوصل إلى مراد النفس وشهواتها، وزاد الآخرة يوصل إلى النعيم المقيم في الآخرة... وفي هذا المعنى قال الأعشى:

إذا أنت لم ترحل بزادٍ من التقى ولاقيت بعد الموت من قد تزودا

ندمت على أن لا تكون كمثله وأنك لم تُرصد كما كان أرصدا..!

وثمَّتْ وجه آخر: وهو أن قوله تعالى: (وتزودوا) أمر باتخاذ الزاد هو طعام السفر، وقوله: (فإن خير الزاد التقوى) إرشاد إلى زاد الآخرة وهو استصحاب التقوى إليها بعد الأمر بالزاد للسفر في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾[1]، لما ذكر اللباس الحسي نبه مرشدًا إلى اللباس المعنوي وهو الخشوع والطاعة، وذكر أنه خير من هذا وأنفع"[2].

وقال السعدي: (وأما الزاد الحقيقي المستمر نفعه لصاحبه في دنياه وأخراه، فهو زاد التقوى الذي هو زاد إلى دار القرار)[3]، وقد حثّ النبي ﷺ على ذلك، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسولُ الله ﷺ بمنكبي فقال: ((كن في الدُّنيا كأنك غريبٌ أو عابرُ سَبيل))، وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: (إذا أمسيتَ فلا تنتَظِر الصباح، وإذا أصبحتَ فلا تنتظر المساء. وخُذْ من صحتِكَ لمرضِك، ومن حَياتِك لموتك)[4].

خامسًا - من أساليب الدعوة: الترهيب والترغيب:

وهما أسلوبان ناجحان للنفس الإنسانية التي يتنازعها الخير والشر، والتي جبلت على حب السعادة، والنفور من الضيق والعذاب، فهما يحركان النفس وينشطانها

---

(١) سورة الأعراف، آية: ٢٦.

(٢) محاسن التأويل، القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ١٥٤/٣/٢ - ١٥٥.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٧٤.

(٤) أخرجه البخاري ٦٤١٦.

للعمل، ويحذرونها من التفريط في حق الله [١]، وقد ورد أسلوب الترهيب في الحديث من قول عتبة رضي الله عنه: (فإنه قد ذكر لنا أن الحجر يلقى من شفير جهنم فيهوي فيها سبعين عامًا، لا يدرك لها قعرًا...)، أما أسلوب الترغيب فقد ورد في الحديث من قول عتبة رضي الله عنه: (ولقد ذكر لنا أن ما بين مصراعين من مصارع الجنة مسيرة أربعين عامًا، وليأتين عليها يوم وهو كظيظ من الزحام).

سادسًا - من موضوعات الدعوة: بيان حال الصبر على خشونة العيش التي عاشها الصحابة رضي الله عنهم:

لقد كانت الدعوة إلى الله تعالى والجهاد في سبيله، غاية جيل الإسلام الأول من الصحابة رضي الله عنهم، فلم يشغلهم عن ذلك طيب عيش أو ترف دنيا، وهذا ما ورد في الحديث من قول عتبة بن غزوان رضي الله عنه: (ولقد رأيتني سابع سبعة مع رسول الله ﷺ ما لنا طعام إلا ورق الشجر حتى قرحت أشداقنا.. إلخ)، حيث أخبر عتبة رضي الله عنه أنه قد بلغ به الجوع وشدة العيش هو وستة من الصحابة رضي الله عنهم مع رسول الله ﷺ في إحدى الغزوات إلى أكل أوراق الشجر حتى تقرحت أشداقهم [٢]. وفي بيان صبرهم رضي الله عنهم على ذلك قال جابر بن عبدالله رضي الله عنه: (بَعَثَنَا رَسُولُ الله وَنَحْنُ ثَلاثُمَائَةَ نَحْمِلُ زَادَنَا عَلَى رِقَابِنَا فَفَنِيَ زَادُنَا حَتَّى كَانَ يَكُونُ لِلرَّجُلِ مِنَّا كلَّ يَوْمٍ تَمْرَةٌ، فَقِيلَ لَهُ: يَا أَبَا عَبْدِ الله وَأَيْنَ كَانَتْ تَقَعُ التَّمْرَةُ مِنَ الرجُلِ؟ فقالَ: لَقَدْ وَجَدْنَا فَقْدَها حِينَ فَقَدْنَاهَا.... إلخ)[٣]، وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: (...وَلَقَدْ رَأَيْتُنِي أَغْزُو في العِصَابَةِ مِنْ أَصْحَابِ مُحمَّدٍ مَا نَأْكُلُ إلاَّ وَرَقَ الشَّجَرِ وَالْحُبْلَةَ، حَتَّى إِنَّ أَحَدَنَا لَيَضَعُ كَمَا تَضَعُ الشَّاةُ وَالبَعِيرُ..)[٤]، وغير ذلك الكثير من الأحاديث والآثار التي تدل على صبر الصحابة رضي الله عنهم على الجوع، وتحملهم لخشونة العيش وألم الحاجة.

---

(١) الدعوة الإسلامية "الوسائل والأساليب"، محمد خير رمضان يوسف ٩٧.

(٢) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم، ص ٣٢٨.

(٣) أخرجه ابن ماجة ٤١٥٩، وصححه الألباني، صحيح سنن ابن ماجة ٣٣٥٥.

(٤) أخرجه الترمذي ٢٣٦٥، وصححه الألباني، صحيح سنن الترمذي ١٩٢٨.

الحديث رقم (٤٩٨)

٤٩٨ - وعن أَبي [بردة عامر بن أبي][١] موسى الأشعري رضي الله عنه ، قَالَ: أخْرَجَتْ لَنَا[٢] عَائِشَةُ رضي الله عنها كِسَاءً وَإزارًا غَلِيظًا ، قالَتْ: قُبِضَ[٣] رسول الله ﷺ في هَذَيْنِ. متفقٌ عَلَيْهِ[٤].

ترجمة الراوي:

أبو موسى الأشعري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨).

غريب الألفاظ:

الكساء: اللباس، وجمعه: أكسية[٥].

إزار: ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن من السرة إلى ما تحتها، ويسمى كذلك المئزر[٦].

قبض: تُوُفِّيَ[٧].

الشرح الأدبي

الحديث الذي يرويه أبو موسى الأشعري رضي الله عنه يكشف جانبا من زهد النبي ﷺ وتقشفه، ورغبته فيما عند الله تعالى وقد روى الحديث في أسلوب خبري هادىء يناسب الجو النفسي للمعنى وقوله (أخرجت لنا عائشة رضي الله عنها) يشير إلى القصد منها لكي تعطيهم القدوة في الزهد من فعل رسول ﷺ وتعلمهم درسا ممن كانت الدنيا في يده

---

(١) الزيادة من الصحيحين.

(٢) عندهما بلفظ: (إلينا).

(٣) عند البخاري زيادة: (روح).

(٤) أخرجه البخاري ٥٨١٨ واللفظ له، ومسلم ٢٠٨٠/٣٥.

(٥) المعجم المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ك س و).

(٦) معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ٣٥، ٣٦٦.

(٧) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ق ب ض).

لم ينظر إليها، والآخرة في قلبه لم ينصرف عنها، وتقديم الجار، والمجرور (لنا) يقرر خصوصيتهم بالحدث دون غيرهم، وقولها (كساءً وَإزاراً غَلِيظاً، قالَتْ: قُبِضَ رسول الله ﷺ في هَذَيْنِ) يشير إلى حال ملبسه في نهاية حياة حافلة بالجهاد غيرت، وليوم القيامة وجهه الأرض وحالة الثياب، ونوع القماش يدلان على حال لابسهما في الزهد، وإغفال الدنيا بالتعلق الكلي بالآخرة .

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الزهد في الدنيا

أولاً - من أساليب الدعوة: الإخبار:

الإخبار من الأساليب الدعوية الهامة التي تعين الداعية على تبليغ دعوة ربه وبيان سنة نبيه، وقد حث تبارك وتعالى على ذلك فقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[1]، وقد أفاد الإخبار في هذا الحديث بيان زهد النبي ﷺ في الدنيا وإعراضه عنها؛ حيث أخبر أبو موسى الأشعري رضي الله عنه عن ذلك بأن عائشة رضي الله عنها أخرجت لهم كساءً وإزارًا غليظًا وقالت: "قبض رسول الله ﷺ في هذين".

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: الزهد في الدنيا:

(إن من مظاهر خلق علو الهمة الترفع عن محقرات الأمور وصغائرها، ونشدان معالي الأمور وكمالاتها فالتعلق بمحقرات الأمور من دناءة النفس وانحطاط همتها، ولا يفعله كبار القلوب والنفوس، لأن هؤلاء تكون نظراتهم آخذة في طريق صاعدة، ومتطلعة إلى آفاق المعالي)[2]، وليس هناك أعظم همة ولا أكبر غاية من همة وغاية رسول الله ﷺ فما وقف قلبه على شيء من الدنيا، وما كان زهده فيها عن إقلال،

---

(١) سورة فصلت، آية: ٣٣.

(٢) الوجيزة في الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبدالرحمن حبنكة، ٤٧٧.

بل كان عن غنى زهدت فيه نفسه، وقد أشار نص الحديث إلى كمال زهده ﷺ في الدنيا، وذلك من قول الراوي "أخرجت لنا عائشة رضي الله عنها كساءً وإزارًا غليظًا، قالت: "قبض رسول الله ﷺ في هذين".

فلم يكن ﷺ رغم كبر مكانته وكبر سنه مترفهًا يعيش عيش الناعمين، ويحفل بمظاهر الحياة، بل لقد أدركه الموت وهو يلبس ثيابًا غليظة ثخينة، لتبين إعراضه ﷺ عن الدنيا طول بقائه فيها حتى انتقل إلى الآخرة[1].

وقد بين ابن القيم (أن الزهد في الدنيا لا يستقيم إلا بعد نظرين صحيحين:

النظر الأول: النظر إلى الدنيا، وسرعة زوالها، وفنائها، واضمحلالها، ونقصها، وخستها، وألم المزاحمة عليها والحرص عليها. وما في ذلك من الغصص والنغص والأنكاد، وآخرُ ذلك الزوال والانقطاع، مع ما يعقب من الحسرة والأسف. فطالبها لا ينفك من هم قبل حصولها، وهم في حال الظفر بها، وغم وحزن بعد فواتها... فهذا أحد النظرين.

النظر الثاني: النظر في الآخرة، وإقبالها، ومجيئها ولابُدّ، ودوامها وبقائها، وشرف ما فيها من الخيرات والمسرَّات، والتفاوت الذي بينه وبين ما ههنا. فهي كما قال سبحانه: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾[2] فهي خيرات كاملة دائمة، وهذه خيالات ناقصة منقطعة مضمحلة.

فإذا تم له هذان النظران آثر ما يقتضي العقل إيثاره، وزهد فيما يقتضي الزهد فيه. فكل أحدٍ مطبوع على أن لا يترك النفع العاجل واللذة الحاضرة إلى النفع الآجل واللذة الغائبة المنتظرة، إلا إذا تبين له فضل الآجل على العاجل وقويت رغبته في الأعلى الأفضل...، وهذا تقسيم حاضر ضروري، لا ينفك العبد من أحد القسمين منه. فإيثار الدنيا على الآخرة إما من فسادٍ في الإيمان، وإما من فساد في العقل. وما أكثر ما يكون منهما. ولهذا نبذها رسول الله ﷺ وراء ظهره هو وأصحابه وصرفوا عنها قلوبهم،

---

(١) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم، ص ٣٢٩.

(٢) سورة الأعلى، آية: ١٧.

وطرحوها ولم يألفوها، وهجروها ولم يميلوا إليها، وعدُّوها سجنًا لا جنة. فزهدوا فيها حقيقة الزهد، ولو أرادوها لنالوا منها كل محبوب، ولوصلوا منها إلى كل مرغوب.

فقد عرضت عليه مفاتيح كنوزها فردّها، وفاضت على أصحابه فآثروا بها ولم يبيعوا حظهم من الآخرة بها، وعلموا أنها معبر وممر لا دار مقام ومستقر، وأنها دار عبور لا دار سرور، وأنها سحابة صيف تنقشع عن قليل، وخيال طيف ما استتم الزيارة حتى أذن بالرحيل)[١].

(ولكن ليس معنى الزهد المطلوب ترك السعي في عمران الدنيا، وإعلاء بنيانها الحضاري، وترقية وسائلها، والانتفاع من خيراتها، بل الزهد الذي يتطلبه الإيمان باليوم الآخر إنما هو عدم تعليق همة القلوب والنفوس بمتع الحياة الدنيا وزخارفها وزينتها، وهذا الزهد المطلوب يستلزم تسخير ما يصل إليه يد الإنسان منها في طاعة الله التي تحقق له يوم القيامة الثواب العظيم)[٢].

وليس أدل على ذلك من نبي الله يوسف عليه السلام. (فقد أخذ حظه من الملك، فدفع الله به شدة عن الناس، وكشف غممًا وكروبًا كثيرة، فكانت مصر في أشد أيام قحطها وجدبها، بمنجاة من خطر المجاعة المهلكة... أما هو فلم يفتنه المنصب ولم يعلق الترف بذرة من قلبه، وظلت بصيرته تهفو إلى ما عنده من مقامات الإحسان، فيناجي ربه قائلاً: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[٣])[٤].

(فهذا هو الزهد الحقيقي الذي يتفق والدين، أما ترك الدنيا وقطع الأسباب كلها فهذا جهل بالعلم، فإن النبي ﷺ دخل الغار وشاور الطبيب، ولبس الدرع، وحفر

---

(١) الفوائد ١٤٠-١٤١.

(٢) الوجيزة في الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبدالرحمن حبنكة، ٤٧٨.

(٣) سورة يوسف، آية: ١٠١.

(٤) تذكر الدعاة، البهي الخولي، ١٩٤.

الخندق، ودخل مكة في جوار المطعم بن عدي وكان كافرًا، وقال لسعد: ((لأَنْ تَدَعَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خيرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَدَعَهُمْ عالةً يتكَفَّفُونَ النَّاسَ))[1] وقال: ((نِعْمَّا المالُ الصَّالحُ للرَّجُلِ الصالحِ))[2])[3].

(١) أخرجه البخاري ٥٦٦٨، مسلم ١٦٢٨.

(٢) أخرجه أحمد ١٩٧/٤ رقم ١٧٧٦٣، وقال محققو المسند: إسناده صحيح ٢٩/٢٩٩.

(٣) انظر: صيد الخاطر، ابن الجوزي، تحقيق: عبدالقادر عطا، ١٣٠.

الحديث رقم (٤٩٩)

٤٩٩ - وعن سعد بن أَبي وقاص رضي الله عنه، قَالَ: إنِّي لأوَّلُ الْعَرَبِ رَمَى بِسَهْمٍ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَلَقَدْ كُنَّا نَغْزُو مَعَ رسول الله ﷺ مَا لَنَا طَعَامٌ إلاَّ وَرَقُ الْحُبْلَةِ[1]، وَهـذَا السَّمُرُ، حَتَّى إنْ كَانَ أحَدُنَا لَيَضَعُ كَمَا تَضَعُ الشَّاةُ، مَا لَهُ خَلْطٌ. متفقٌ عَلَيْهِ[2].

ترجمة الراوي:

سعد بن أبي وقاص: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٦).

غريب الألفاظ:

الحُبلة والسَّمُرُ: نوعان معروفان من شجر البادية[3].

ليضعُ: كناية عن الذي يخرج منه في حال التغوط[4].

ما له خلط: لا يختلط بعضه ببعض من شدة جفافه وتفتته[5].

الشرح الأدبي

هذا الحديث بيان لما كان عليه الصحابة من الزهد في الدنيا، والتقلل منها والصبر في طاعة الله تعالى على المشاق الشديدة، وقول سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه (إنِّي لأوَّلُ الْعَرَبِ رَمَى بِسَهْمٍ فِي سَبِيلِ اللهِ) البداية بتوكيد الخبر استشعار من المتكلم بعظمة الخبر - وهو كذلك - وأسلوب التفضيل يشير إلى الاعتزاز بفضل الله عليه، و(ال) في العرب للجنس المحمول على العهد الذهني، والفعل الماضي يدل على التحقق الذي يثبت نقطة التفوق، ويبين مدار الفضل، وقوله (وَلَقَدْ كُنَّا نَغْزُو مَعَ رسول الله ﷺ) يشير

---

(١) لفظ البخاري في هذه الرواية: (الشجر)، والمثبت لفظ الحميدي في جمعه ١/١٩٣، رقم ١٩٦.

(٢) أخرجه البخاري ٣٧٢٨ واللفظ له، ومسلم ٢٩٦٦/١٢. أورده المنذري في ترغيبه ٤٨٤٥.

(٣) رياض الصالحين ٢٣٥، ٢٣٦.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١/٢٩٥.

(٥) المرجع السابق ٧/١٠٦.

إلى أنهم كانوا على هذه الحال في كل غزوة، أو في أكثر الغزوات، وضمير الجمع يشير إلى وحدتهم على الضراء والسراء، وقوله (مع رسول الله ﷺ) يعطي الحدث صفة الشرعية، لأنه فعل نبي، أو إقراره، وقوله (مَا لَنَا طَعَامٌ إِلاَّ وَرَقُ الْحُبْلَةِ، وَهذَا السَّمُرُ) أسلوب قصر يقصر طعامهم على هذين النوعين من الشجر دون غيره، وأسلوب القصر ينفي المبالغة، ويؤكد المعنى وقوله: (حَتَّى إنْ كَانَ أحَدُنَا لَيَضَعُ كَمَا تَضَعُ الشَّاةُ مَا لَهُ خَلْطٌ) كناية عن ما يلاقيه أحدهم بسبب نوع الطعام غير الصالح بسبب الاضطرار.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على الجهاد في سبيل الله.

ثالثًا: من وسائل الدعوة: الغزو في سبيل الله.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: بيان ما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم من ضيق العيش وشدته.

أولاً - من موضوعات الدعوة: فضل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه:

هذا ما يظهر جليًا في نص الحديث من قول سعد رضي الله عنه "إني لأول العرب رمى بسهم في سبيل الله" قال النووي: (فيه منقبة ظاهرة له)[1] وقال ابن حجر: (قوله: "إني لأول العرب رمى" كان ذلك في سرية عبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب، وكان القتال فيها أول حرب وقعت بين المشركين والمسلمين، وهي أول سرية بعثها رسول الله ﷺ في السنة الأولى من الهجرة، بعث ناسًا من المسلمين إلى رابغ ليلقوا عيرًا لقريش فتراموا بالسهام ولم يكن بينهم مسابقة فكان سعد أول من رمى، ذكر ذلك الزبير بن بكار بسند له وقال فيه عند سعد إنه أنشد يومئذ:

ألا هل أتى رسول الله: أني حميت صحابتي بصدور نبلي)[2].

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٧١١.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠٦/٧.

(فهو صحابي جليل القدر كان من السابقين الأولين المهاجرين، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى)[١] قال فيه علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (ما سمعت النبي صلى الله عليه وسلم جمع أبويه لأحد من غير سعد بن أبي وقاص)[٢] وهو من دعا له النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ((اللَّهُمَّ استَجِبْ لِسَعْدٍ إذَا دَعَاكَ))[٣] وهو القائل رضي الله عنه: (ما أسلم أحد في اليوم الذي أسلمت، ولقد مكثت سبعة ليالٍ وإني لثلث الإسلام)[٤]. فهو صحابي جليل وكان فارسًا مغوارًا جاهد في سبيل الله ونصرة دينه حق جهاد فرضي الله عنه وأرضاه.

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على الجهاد في سبيل الله:

إن الجهاد في سبيل الله من كمال الإيمان وذروة سنام الإسلام، به تمحص القلوب وتختبر النفوس، وقد علم الصحابة رضي الله عنهم شرفه وعلو منزلته، فبذلوا أرواحهم وأنفسهم قبل أموالهم، وهذا ما أشار إليه نص الحديث في قول سعد رضي الله عنه: (ولقد كنا نغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم... إلخ)، وقد ضرب الصحابة رضي الله عنهم أروع الأمثلة في حرصهم على الجهاد في سبيل الله لنشر دعوته وإقامة دينه، فها هو ذا عمرو بن الجموح رضي الله عنه يقول يوم أحد: يا رسول الله، من قتل اليوم دخل الجنة؟ قال: (نعم) قال: فوالذي نفسي بيده، لا أرجع إلى أهلي حتى أدخل الجنة

فقال له عمر بن الخطاب: يا عمرو، لا تألَّ على الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((مَهْلا يا عُمَرُ، فإنَّ مِنهم مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ: مِنْهمْ عَمْرُو بنُ الجَمُوحِ، يَخُوضُ فِي الجَنَّةِ بعَرْجَتِهِ))[٥] (وقد كانت رجله رضي الله عنه عرجاء حينئذ)[٦]، وها هو ذا حنظلة بن

---

(١) موسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك، ٢/ ٨٨٠.

(٢) أخرجه الترمذي ٢٨٢٨، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٢٦٧).

(٣) أخرجه الترمذي ٣٧٥١، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٩٥٠).

(٤) أخرجه البخاري ٣٧٢٦، ٣٧٢٧، ٣٨٥٨.

(٥) أخرجه ابن حبان ٧٠٢٤، وقال محققه: إسناده جيد.

(٦) الإصابة في تمييز الصحابة، ابن علي العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ٩٦٤.

أبي عامر رضي الله عنه يجاهد في أحد حتى قتل فيقول رسول الله ﷺ لأصحابه رضي الله عنهم ((صاحِبَكُمْ حَنْظَلَةَ تُغَسِّلُهُ المَلائِكةُ، فَسَلُوا صاحِبَتَهُ، فقالتْ: خرجَ وهُو جنبٌ لَمّا سَمِعَ الهائعةَ، فقالَ رسولُ الله: فَذَاكَ قَدْ غسَّلَتْهُ المَلائِكةُ))(١). وغير ذلك الكثير ما يدل على حرص الصحابة رضوان الله عليهم على الغزو والجهاد في سبيل الله لعظيم شرفه وعلو منزلته.

ثالثًا – من وسائل الدعوة: الغزو في سبيل الله:

هذا ما ظهر جليًا في الحديث من قول سعد رضي الله عنه "ولقد كنا نغزو مع رسول الله ﷺ" (وعلاقة الغزوة أو الجهاد في سبيل الله بالدعوة إلى الله جيدة وقوية جدًا، ذلك أن الجهاد إنما فرض لإعلاء كلمة الله سبحانه وتعالى والدعوة هي كذلك، لأن هدفها نشر الإسلام وإبلاغ هذا الدين للناس أجمعين بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، بعدها يشرع القتال ضد المعاندين...، فالكثير من البشر لا ينقادون لأوامر الله سبحانه وتعالى إلا بالقوة، والقوة مرحلة من مراحل الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى كما هو معلوم لدى دعاة الإسلام)(٢).

(ولكن ينبغي التأكيد على أن دعوة الإسلام في الأساس تقوم على السلم والمسالمة، وتعتمد على المنطق والحجة: فلا يكره الإسلام أحدًا الدخول فيه، ولا يرضى إلا أن يوفر الأمن والسلام لمتبعيه ومخالفيه، وهو يطلب العدل حكمًا في أحوال الناس دون تأثر بحب أو بعض أو عداوة أو صلح: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(٣).

وأن مشروعية القتال في الإسلام لرد الاعتداء ودفع الظلم لتتوافر للناس حرياتهم

---

(١) أخرجه ابن حبان ٧٠٢٥، وقال محققه: حديث صحيح.

(٢) قواعد الدعوة الإسلامية، د. الشريف حمدان الهجاري، ٢٤٢.

(٣) سورة المائدة، آية: ٨.

وتسلم لهم مقدساتهم، فهو دفع لتأمين البيع والصلوات والمساجد، وتلك ليست أماكن للعبادة للمسلمين وحدهم.

وتأمين الناس ورفع الفتنة التي يمتد لهيبها إلى الإنسانية دون تفرقة قوة أمن ذاتية تقوم مع الإسلام بشكل طبيعي عادلة معتدلة، لتتحسر الفتنة وينكمش الفساد ﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾[(١)])[(٢)].

رابعًا - من موضوعات الدعوة: بيان ما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم من ضيق العيش وشدته:

إن المبادئ العظيمة والأهداف النبيلة لها رجالها الذين لا يشغلهم شيء آخر عن تحقيقها، مهما قابلوا في سبيل ذلك من متاعب ومشاق وعوائق وقد ضرب الصحابة رضي الله عنهم المثل الأعلى في هذا المضمار، فانشغلوا بنصر دين الله وإقامة سنة نبيه، ففتح الله على أيديهم قلوب العباد وأبواب البلاد.

وهذا ما ورد في نص الحديث من قول سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه "ولقد كنا نغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لنا طعام إلا ورق الحبلة، وهذا السمر حتى إن كان أحدُنا ليضع كما تضع الشاة ماله خلط".

وهذا ما أكد عليه أبو هريرة في بيان ما كان بهم من ضيق العيش وشدته فقال: ((كنت ألـزَمُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم لِشِبَع بطني، حينَ لا آكلُ الخَميرَ، ولا ألبَسُ الحرير، ولا يَخدُمُني فلانٌ ولا فلانة، وألْصقُ بطني بالحصباء، وأستقرىء الرَّجلَ الآية - وهي معي - كي يَنقلِبَ بي فيطعِمَني. وخيرُ الناسِ للمساكين جعفرُ بن أبي طالب: يَنقلِبُ بنَا فيطعِمُنا ما كان في بيتِهِ، حتَّى إنْ كان ليُخرِجُ إلينا العُكةَ ليس فيها شيء، فَنَشتقُّها، فنَلعقُ ما فيها))[(٣)] قال ابن حجر: في قوله "فنشتقها" أي: (أنهم لعقوا ما في العكة بعد

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٧٣.

(٢) الدعوة الإسلامية دعوة عالمية، محمد الراوي، ص ٥١٩.

(٣) أخرجه البخاري ٥٤٣٢.

أن قطعوها ليتمكنوا من ذلك)[1].

وقد ترفع الصحابة رضي الله عنهم عن محقرات الأمور وصغائرها فلم يشغلهم طيب العيش ولذته، وهم أقدر الناس على ذلك، بل آثروا ما عند الله من أجر عظيم في جنات النعيم.

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٦٩/٩.

الحديث رقم (٥٠٠)

٥٠٠ - وعن أَبي هريرة رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: ((**اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا**)) متفقٌ عَلَيْهِ[١].

قَالَ أهْلُ اللُّغَةِ وَالغَرِيبِ: مَعْنَى (**قُوتًا**) أيْ: مَا يَسُدُّ الرَّمَقَ.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

آل: أهل[٢].

الشرح الأدبي

الأحاديث السابقة أشارت بطرق مختلفة فعلية، وقولية إلى زهد النبي ﷺ ورغبته التامة في الآخرة، وهذا الدعاء النبوي يعكس رغبة قوية في دفع العوائق الدنيوية يدل على ذلك تصدير الدعاء بهذه الصيغة ذات الخصوصية في التذلل، والخضوع لله تعالى - ثم التعبير بالجعل، وهو التصيير، والتحويل إلى تلك الحالة التي فيها سلامة القلب، وهو تعليم لأمته؛ لأن قلبه ﷺ ليس فيه سوى محبة الله تعالى - كثر ماله، أو قل، وقوله (قوتاً) أي يوماً بيوم حتى لا يشغلهم شيء عن الله، وهم أسوة الأمة، وقدوتها، وإنما خص الدعاء بآل محمد، ولم يقل أمة محمد حتى لا يضيق عليهم، ولا يحملهم ما لا يطيقون بل أراد أن يكون هذا الزهد نابعا من قلب أحدهم حبا، واختيارا، وهذا من رحمته، وذوقه العالي ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري ٦٤٦٠، ومسلم ١٠٥٥/١٢٦ ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه ٤٧٢٥.

(٢) القاموس المحيط، الفيروز آبادي ، الفيروز آبادي ٩٦٣.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: بيان حال القناعة التي كان عليها رسول الله ﷺ.

ثانيًا: من آداب المدعو: التأسي بالنبي ﷺ في القناعة والرضا.

ثالثًا: من واجبات المدعو: سؤال الله تعالى واللجوء إليه.

أولاً - من موضوعات الدعوة: بيان حال القناعة التي كان عليها رسول الله ﷺ:

(إن القناعة من كمال الإيمان وحسن الإسلام بما تعزف نفس القانع عن حطام الدنيا رغبة فيما عند الله، وقد كانت معيشة النبي ﷺ وحياته وحياة أهل بيته معروفة بالقناعة في التاريخ، معروفة في السيرة النبوية تثير العجب وتسحر النفوس وتملأ القلوب عظمة ومهابة، وتنصب للدعاة والسائرين على منهاج النبوة منارًا عاليًا من نور، وكان شعارهم الدائم ((اللَّهمَّ لا عيشَ إلاّ عيشُ الآخِرة))[(١)])[(٢)].

وهذا ما أكده نص الحديث في قوله ﷺ "اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا" قال القرطبي: (وقوله: "اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا" أي: ما يقوتهم، ويكفيهم، بحيث لا يشوشهم الجهد، ولا ترهقهم الفاقة، ولا تذلهم المسألة والحاجة، ولا يكون أيضًا في ذلك فضول يُخرج إلى الترف والتبسط في الدنيا، والركون إليها، وهذا يدل على زهد النبي ﷺ في الدنيا وعلى تقلله منها)[(٣)]. وقد بين ابن حجر نقلاً عن ابن بطال أن في الحديث: (دليل على فضل الكفاف وأخذ البلغة من الدنيا والزهد فيما فوق ذلك رغبة في توفر نعيم الآخرة وإيثارًا لما يبقى على ما يفنى)[(٤)]، وقد كان رسول الله ﷺ يقول في دعائه: ((اللَّهُمَّ قَنِّعْنِي بِمَا رَزَقْتَنِي وَبَارِكْ لِي فِيهِ وَاخْلُفْ عَلَى كُلِّ غَائِبَةٍ لِي بِخَيْرٍ))[(٥)]

---

(١) أخرجه البخاري ٤٠٩٨، ومسلم ١٨٠٤.

(٢) انظر: النبوة والأنبياء في ضوء القرآن، أبو الحسن الندوي، ٧٠.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٣/١٠٠.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١/٢٩٩.

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/٣٥٥ رقم ٣٤١١، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وقال ﷺ ((لو كانَ لي مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَبًا ما يَسُرّني أن لا يَمُرّ عليّ ثلاثٌ وعندي منهُ شيءٌ، إلاّ شيءٌ أرصُدُهُ لِدَينٍ))(١).

وقد قنع النبي ﷺ واقتصر على ما سَنَحَ من العيش، ورضي بما تسهّل من المعاش، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: ((كان فِراشُ رسولُ الله ﷺ من أدَم وحَشْوُهُ لِيف))(٢) وقالت: ((لقد تُوفّيَ النبيُّ ﷺ وما في رفّي من شيءٍ يأكله ذو كبد، إلاّ شَطرُ شعيرٍ في رَفٍّ لي، فأكلت منه حتى طال عليَّ، فكِلْتُهُ فَفني))(٣) وعن قتادة رضي الله عنه قال: ((كنّا نأْتي أنسَ بن مالكٍ ﷺ وخبّازُهُ قائمٌ، وقال: كلوا، فما أعلمُ النبيَّ ﷺ رأى رغيفًا مُرققًا حتى لحقَ بالله، ولا رأى شاةً سَميطًا بعينِهِ قط))(٤). وفي ذلك بيان لحال القناعة التي كان عليها رسول الله ﷺ.

ثانيًا - من آداب المدعو: التأسي بالنبي ﷺ في القناعة والرضا:

إن مما يستفاد من نص الحديث هو التأسي بالنبي ﷺ في القناعة والرضا فقد كان يقول ﷺ: "اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا" قال ابن بطال: (فيه دليل على فضل الكفاف وأخذ البلغة من الدنيا والزهد فيما فوق ذلك رغبة في توفر نعيم الحياة وإيثارًا لما يبقى على ما يفنى فينبغي أن تقتدي به أمته في ذلك)(٥)، (والتأسي بالنبي ﷺ يعني: تجريد المتابعة لرسول الله ﷺ في كل دقيق وجليل من أمور الدين، ومبعث التأسي والاقتداء بالنبي ﷺ هو حبه حبًا يستحوذ على القلوب، ويلامس شغافها ويأخذ بمجامعها، وذلك لأنه رسول الله، اصطفاه الله للهداية وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وهذا الحب الصادق يستوجب اتباعه، والتأسي به، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ

(١) أخرجه البخاري ٢٣٨٩، ومسلم ٩٩١.

(٢) أخرجه البخاري ٦٤٥٦.

(٣) أخرجه البخاري ٦٤٥١، ومسلم ٢٩٧٣.

(٤) أخرجه البخاري ٦٤٥٧.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١/٢٩٩.

تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[١])[٢] فعلى المدعو أن يقتدي بالنبي ﷺ ويتأسى به في كفافه وقناعته.

وقد بين النبي ﷺ أن ذلك طريق الفلاح فقال: ((قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللّهُ بِمَا آتَاهُ))[٣] قال النووي: (الكفاف الكفاية بلا زيادة ولا نقص وفيه فضيلة هذه الأوصاف)[٤]، (ولا تنال القناعة إلا بمجاهدة النفس وبتوفيق من الله)[٥] فعنه ﷺ أنه قال: ((مَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفُّه اللّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللّهُ))[٦] وقد كان حكيم بن حزام رضي الله عنه يمتنع عن أخذ الفيء رغم إلحاح عمر بن الخطاب رضي الله عنه عليه، وقد فسر ابن حجر ذلك فقال: (وإنما امتنع حكيم من أخذ العطاء مع أنه حقه لأنه خشي أن يقبل من أحد شيئًا فيعتاد الأخذ فتتجاوز به نفسه إلى ما لا يريده ففطمها عن ذلك وترك ما يريبه إلى ما لا يريبه...)[٧] فعلى المدعو أن يتأسى بالنبي ﷺ في القناعة والرضا وأن يجاهد نفسه ممتثلاً في ذلك قول الشافعي:

رَأَيْتُ القَنَاعَةَ رَأْسَ الغِنَى ... فَصِرْتُ بِأَذيالِهَا مُمتَسِكْ

فَلا ذَا يَرانِي عَلَى بَابِهِ ... وَلاَ ذَا يَرَانِي بِهِ مُنْهَمِكْ

فَصِرْتُ غَنِيًّا بِلا درهم ... أَمُرُّ على النَاسِ شِبْهَ المَلِكْ)[٨]

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٣١.

(٢) صفات الداعية، عبدالرب نواب الدين، ٥٨-٦٠.

(٣) أخرجه مسلم ١٠٥٤.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦٦٣.

(٥) هذه أخلاقنا حين نكون مؤمنين حقًا، محمود محمد الخزندار، ص ٣٦٠.

(٦) أخرجه البخاري ١٤٦٩.

(٧) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣/٣٩٤.

(٨) ديوان الشافعي ٥١.

ثالثًا - من واجبات المدعو: سؤال الله تعالى واللجوء إليه:

(إن سؤال الله تعالى واللجوء إليه من أجل أنواع العبادة، إذ يلقي المرء فيه الهم على الرب لحسن الظن بالقرب)[(١)]، وهذا ما أشار إليه نص الحديث من سؤال النبي ﷺ ربه تعالى بقوله: "اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا" وقد أمر الحق تبارك وتعالى بسؤاله ودعائه فقال: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[(٢)]، وقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ﴾[(٣)] وقال: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۝ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[(٤)].

وقد بين النبي ﷺ فضل سؤال الله تعالى واللجوء إليه فقال ((مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ وَلا قَطِيعَةُ رَحِمٍ إِلاَّ أَعْطَاهُ الله بِهَا إِحْدَى ثَلاثٍ: إِمَّا أَنْ يُعَجِّلَ لَهُ دَعْوَتُهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا فِي الآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا))[(٥)] فينبغي على المسلم أن يحرص على اللجوء إلى المولى عز وجل وسؤاله.

---

(١) انظر: نضرة النعيم ١٩٤٤/٥.

(٢) سورة غافر، آية: ٦٠.

(٣) سورة البقرة، آية: ١٨٦.

(٤) سورة الأعراف، آية: ٥٥، ٥٦.

(٥) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٧١٠، (وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد ٥٤٧).

الحديث رقم (٥٠١)

٥٠١ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قَالَ: وَاللهِ الَّذِي لاَ إِلهَ إلاَّ هُوَ، إنْ كُنْتُ لأَعْتَمِدُ بِكَبِدِي عَلَى الأَرْضِ مِنَ الجُوعِ، وَإنْ كُنْتُ لأَشُدُّ الحَجَرَ عَلَى بَطنِي مِنَ الْجُوعِ. وَلَقَدْ قَعَدْتُ يَومًا عَلَى طَرِيقِهِمُ الَّذِي يَخْرُجُونَ مِنْهُ[١]، فَمَرَّ بي النبي ﷺ، فَتَبَسَّمَ حِيْنَ رَآنِي، وَعَرَفَ مَا فِي وَجْهِي وَمَا فِي نَفْسِي، ثُمَّ قَالَ: ((أَبَا هِرٍّ)) قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رسول الله، قَالَ: ((الْحَقْ)) وَمَضَى فَاتَّبَعْتُهُ، فَدَخَلَ فَاسْتَأذَنَ، فَأَذِنَ لِي فَدَخَلْتُ، فَوَجَدَ لَبَنًا فِي قَدَحٍ، فَقَالَ: ((مِنْ أَيْنَ هَذَا اللَّبَنُ؟)) قَالُوا: أهْدَاهُ لَكَ فُلانٌ - أَو فُلانَةٌ - قَالَ: ((أَبَا هِرٍّ)) قلتُ: لَبَّيْكَ يَا رسول اللهِ، قَالَ: ((الْحَقْ إِلَى أهْلِ الصُّفَّةِ فَادْعُهُمْ لِي)).

قَالَ: وَأَهْلُ الصُّفَّة أضْيَافُ الإِسْلاَمِ، لاَ يَأْوُونَ عَلَى أهْلٍ وَلاَ مَالٍ وَلاَ عَلَى أحَدٍ، وَكَانَ[٢] إِذَا أتَتْهُ صَدَقَةٌ بَعَثَ بِهَا إِلَيْهِمْ، وَلَمْ يَتَنَاوَلْ مِنْهَا شَيْئًا، وَإِذَا أتَتْهُ هَدِيَّةٌ أرْسَلَ إلَيْهِمْ، وَأَصَابَ مِنْهَا، وأشْرَكَهُمْ فِيهَا. فَسَاءنِي ذَلِكَ، فَقُلْتُ: وَمَا هَذَا اللَّبَنُ فِي أهْلِ الصُّفَّةِ! كُنْتُ أحَقُّ[٣] أنْ أُصِيبَ مِنْ هَذَا اللَّبَنِ شَرْبَةً أتَقَوَّى بِهَا، فَإِذَا جَاءُوا وَأَمَرَنِي فَكُنْتُ أنَا أُعْطِيهِمْ؛ وَمَا عَسَى أنْ يَبْلُغَنِي مِنْ هَذَا اللَّبَنِ. وَلَمْ يَكُنْ مِنْ طَاعَةِ اللهِ وَطَاعَةِ رسول الله ﷺ بُدٌّ.

فَأَتَيْتُهُم فَدَعَوْتُهُمْ، فَأَقْبَلُوا وَاسْتَأذَنُوا، فَأَذِنَ لَهُمْ وَأَخَذُوا مَجَالِسَهُمْ مِنَ الْبَيْتِ، قَالَ: ((يَا أَبَا هِرٍّ)) قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رسول الله، قَالَ: ((خُذْ فَأَعْطِهِمْ)) قَالَ: فَأَخَذْتُ القَدَحَ، فَجَعَلْتُ أُعْطِيهِ الرَّجُل فَيَشْرَبُ حَتَّى يَرْوَى، ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيَّ الْقَدَحَ، فَأُعْطِيهِ الرَّجُلَ فَيَشْرَبُ حَتَّى يَرْوَى، ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيَّ الْقَدَحَ، فَأُعْطِيهِ الرَّجُلَ فَيَشْرَبُ حَتَّى يَرْوَى، ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيَّ الْقَدَحَ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى النَّبيِّ ﷺ، وَقَدْ رَوِيَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ، فَأَخَذَ الْقَدَحَ فَوَضَعَهُ عَلَى يَدِهِ،

---

(١) عند البخاري زيادة: (فمرَّ أبو بكر، فسألته عن آية من كتاب الله، ما سألته إلا ليشبعني، فمرّ ولم يفعل. ثمَّ مرَّ بي عمرُ، فسألته عن آية من كتاب الله، ما سألته إلا ليشبعني، فمرَّ ولم يفعل)، وأظن أنها ساقطة من النسخ.

(٢) (كان) لا توجد عند البخاري.

(٣) عند البخاري زيادة: (أنا).

فَنَظَرَ إليَّ فتَبَسَّمَ، فَقَالَ: ((أَبَا هِرٍّ)) قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رسول الله، قَالَ: ((بَقِيتُ أنَا وَأَنْتَ)) قُلْتُ: صَدَقْتَ يَا رسول الله، قَالَ: ((اقْعُدْ فَاشْرَبْ)) فَقَعَدْتُ فَشَرِبْتُ، فَقَالَ ((اشْرَبْ)) فَشَرِبْتُ، فَمَا زَالَ يَقُولُ: ((اشْرَبْ)) حَتَّى قُلْتُ: لا، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ لاَ أجِدُ لَهُ مَسْلَكًا! قَالَ: ((فَأَرِنِي)) فَأعْطَيْتُهُ الْقَدَحَ، فَحَمِدَ الله تَعَالَى، وَسَمَّى وَشَرِبَ الفَضْلَةَ. رواه البخاري[(١)].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

لأعتمد بكبدي على الأرض: ألصق بطني بالأرض[(٢)].

لبيك: أي إجابة بعد إجابة[(٣)].

القدح: إناء يشرب فيه الماء ونحوه[(٤)].

أهل الصفة: الصفة مكان مظلل في مسجد رسول الله ﷺ في المدينة المنورة إبان العصر النبوي بعد الهجرة يأوي إليه فقراء المهاجرين ينامون فيه[(٥)].

يروى: يشبع[(٦)].

لا أجد له مسلكًا: أي مكانًا يسلك فيه منِّي[(٧)].

الفضلة: البقية[(٨)].

---

(١) برقم ٦٤٥٢. أورده المنذري في ترغيبه ٤٨٣٤.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١/٢٨٩.

(٣) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٧٥٤.

(٤) الكليات معجم المصطلحات والفروق الفردية، أبو البقاء الكفوي، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري ٧٣٣، ومعجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ٣٢٦.

(٥) أطلس الحديث النبوي، د. شوقي أبو خليل ٢٣٧.

(٦) القاموس المحيط، الفيروز آبادي ، الفيروز آبادي في (ر و ى).

(٧) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٧٥٧.

(٨) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١/٢٩٤.

الشرح الأدبي

قول أبي هريرة رضي الله عنه (إنْ كُنْتُ لأَعْتَمِدُ بِكَبِدِي عَلَى الأَرْضِ مِنَ الجُوعِ) يشير إلى المدى الذي بلغه الجوع منهم حتى صار لهيبا يحرق أمعائهم ويشوي أكبادهم، وقوله (، فَمَرَّ بِي النبي ﷺ ، فَتَبَسَّمَ حِيْنَ رَآنِي) تبسم الرسول ﷺ كناية عن رضاه، وهو من عادته عند لقاء أصحابه ﷺ وقول أبي هريرة (وَعَرَفَ مَا فِي وَجْهِي وَمَا فِي نَفْسِي) فيه إيجاز أي: عرف ما في وجهي من آثار الجوع، وما في نفسي من رغبة في الطعام (ثُمَّ قَالَ: (أَبَا هِرٍّ) وهذا النداء نداء رحمة، وتلطف، وإيناس وتأمل حركة أبي هريرة محمولا على أجنحة الجوع بعد أمر الرسول له (قَالَ: ((الْحَقْ)) وَمَضَى فَاتَّبَعْتُهُ، فَدَخَلَ فَاسْتَأْذَنَ، فَأَذِنَ لِي فَدَخَلْتُ، فَوَجَدَ لَبَنَاً فِي قَدَحٍ) والفاء تحكي سرعة الأحداث التي تعكس الرغبة في إطفاء نار الجوع، وقول أبي هريرة (: وَمَا هَذَا اللَّبَنُ فِي أَهْلِ الصُّفَّةِ !؟) استفهام تقليل يبين المفارقة التي أوقعته في حيرة لكثرة أهل الصفة المدعوين، وقلة اللبن مما يحرمه من رشفة يروي بها لهيب الجوع وقوله: (فَجَعَلْتُ أُعْطِيهِ الرَّجُل فَيَشْرَبُ حَتَّى يَرْوَى، ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيَّ الْقَدَحَ) يحكي تفاصيل المعجزة النبوية في شرب العدد الكبير من اللبن القليل، وقوله فيشرب يصور حال الشارب، وعين أبي هريرة معلقة بالإناء، ونفسه معلقة بما فيه يمني نفسه برشفة، والتعبير ب(حتى) يشير إلى غاية الشارب، وهي الري، والتعبير بـ(ثم) يشير إلى طول المدة حقيقة في فعل الشارب، أو في إحساس أبي هريرة الذي يمر عليه الوقت طويلا، وقول الرسول ﷺ له (اقْعُدْ فَاشْرَبْ) أمر تكريم طالما انتظره أبو هريرة، وتكرار الأمر توكيد لإعجازه ﷺ ، وطي الحديث عبر، ودروس تستلزم الوقوف في محرابها طويلا.

فقه الحديث

ذكر ابن حجر لحديث أبي هريرة رضي الله عنه فوائد نذكر منها ما يلي:

١ - استحباب الشرب من قعود.

٢ - إذا دار خادم القوم عليهم بما يشربون يتناول الإناء من كل واحد فيدفعه هو إلى الذي يليه ولا يدع الرجل يناول رفيقه لما في ذلك من نوع امتهان الضيف.

٣ - جواز الشبع عند الجوع، ولو بلغ أقصى غايته.

وذلك لمن وقع له ذلك نادرًا، ولا سيما بعد شدة جوع واستبعاد حصول شيء بعده عن قرب، أما ما ورد من أحاديث تزجر عن الشبع كقوله ﷺ ((إِنَّ أَكْثَرَهُمْ شِبعًا فِي الدُّنْيَا أَطْوَلُهُمْ جُوعًا يَوْمَ القِيَامَةِ))[1]، فيحمل على من يتخذ الشبع عادة، لما يترتب على ذلك من الكسل عن العبادة وغيرها.

٤ - سد الرجل خلة أخيه المؤمن إذا علم منه حاجة من غير أن يسأله ذلك.

٥ - كتمان الحاجة والتلويح بها أولى من إظهارها والتصريح بها.

٦ - أن المدعو إذا وصل إلى دار الداعي لا يدخل بغير استئذان.

٧ - جلوس كل أحد في المكان اللائق به.

٨ - دعاء الكبير خادمه بالكنية وترخيم الاسم.

٩ - استئذان الخادم على مخدومه إذا دخل منزله.

١٠ - سؤال الرجل عما يجده في منزله مما لا عهد له به ليرتب على ذلك مقتضاه.

١١ - قبول النبي ﷺ الهدية وتناوله منها وإيثاره ببعضها الفقراء، وامتناعه من تناول الصدقة ووضعه لها فيمن يستحقها.

١٢ - شرب الساقي آخرًا وشرب صاحب المنزل بعده.

١٣ - الحمد على النعم والتسمية عند الشرب.

١٤ - العمل بالفراسة[2].

ولا بأس أن نذكر هنا بإيجاز ما يتعلق باعتبار الفراسة وسيلة من وسائل الإثبات في القضاء أو عدم اعتبارها.

الفراسة في الاصطلاح: هي الاستدلال بالأمور الظاهرة على الأمور الخفية، وأيضًا هي ما يقع في القلب بغير نظر وحجة[3] وقد قسمها ابن الأثير إلى قسمين:

---

(١) أخرجه الترمذي ٣٤٧٨، وابن ماجه ٣٣٥٠، وحسنه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٢٧٠٥).

(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١/٢٨٨-٢٨٩، والفِراسة: المهارة في تعرف بواطن الأمور من ظواهرها، الوجيز في الأخلاق والآداب الشرعية، حماد بن عبدالله بن محمد الحماد في (ف ر س).

(٣) قواعد الفقه للبركتي عن الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٣٢/٧٧.

الأول: ما دلّ عليه ظاهر حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((اتَّقُوا فِرَاسَةَ المُؤْمِنِ، فإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ الله عزَّ وجلَّ))[١] وهو ما يوقعه الله تعالى في قلوب أوليائه فيعلمون أحوال بعض الناس بنوع من الكرامات وإصابة الظن والحدس.

الثاني: نوع يتعلم بالدلائل والتجارب والخلق والأخلاق فتعرف به أحوال الناس[٢].

وللمتفرس المؤمن الأخذ بفراسته في خاصة نفسه ما لم يؤدِ ذلك إلى محظور شرعي.

أما عما يتصل بحقوق العباد فقد اختلف الفقهاء في اعتبار الفراسة من وسائل الإثبات في القضاء أو عدم اعتبارها:

فذهب الطرابلسي من الحنفية وابن العربي وابن فرحون من المالكية إلى عدم جوازم الحكم بالفراسة، لأنه حكم بالظن والحزر والتخمين، ووصف الحاكم الذي يعتمد ذلك في أحكامه بالفسق والجُور. لأن الظن يخطئ ويصيب ولأن مدارك الأحكام معلومة شرعًا مدركة قطعًا، وليست الفراسة منها.

وذهب قاضي القضاة الشامي المالكي ببغداد إلى الأخذ بالفراسة والحكم بها، جريًا على طريقة إياس بن معاوية في قضائه، وذهب إلى هذا ابن القيم وقال: (ولم يزل حذاق الحكام والولاة يستخرجون الحقوق بالفراسة والأمارات، فإذا ظهرت لم يقدموا عليها شهادة تخالفها ولا إقرارًا)[٣].

---

(١) أخرجه الترمذي ٣١٢٧، وقال حديث غريب. كما ضعفه الألباني (ضعيف سنن الترمذي ٦٠٧).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في "ف ر س".

(٣) الطرق الحكمية ٢٤، تحقيق محمد حامد الفقي، وانظر: معين الحكام ص ٢٠٦، وتبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام، برهان الدين المالكي ١٠٣/٢، وأحكام القرآن، ابن العربي ١١٣١/٣، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢٣٦/١٢، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٣٢/٧٧-٧٩.

المضامين الدعوية[١]

أولاً : من أساليب الدعوة: القسم.

ثانيا: من موضوعات الدعوة: بيان شدة عيش الصحابة رضي الله عنهم.

ثالثًا: من صفات الداعية: الفطنة والفراسة.

رابعًا: من مهام الداعية: تفقد أحوال المدعوين.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: مواساة النبي صلى الله عليه وسلم لأهل الصفة.

سادسًا: من واجبات المدعو: الاستجابة والطاعة لله ولرسوله.

سابعًا: من موضوعات الدعوة: أهمية الاستئذان قبل الدخول.

ثامنًا: من أساليب الدعوة : الأمر.

تاسعًا: من موضوعات الدعوة: من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم تكثير اللبن.

عاشرًا: من صفات الداعية: التواضع.

أولاً - من أساليب الدعوة: القسم:

القسم من الأساليب الدعوية التي يراد بها تأكيد وتحقيق المقسم عليه، وهذا ما ورد في الحديث من قسم أبي هريرة رضي الله عنه وتأكيده على ما كان به من شدة الجوع وذلك في قوله: "والله الذي لا إله إلا هو، إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع" (والقسم كأسلوب دعوي قد عرفه الناس قديمًا واستعملوه تأكيدًا لخبر أو تعظيمًا لشيء أو جمع الانتباه حول غاية. وقد أحس العرب الجاهليون بأهدافه ومراميه فاستعملوه في كلامهم وجعلوه دليلاً على إثبات الحق)[٢].

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: بيان شدة عيش الصحابة رضي الله عنهم:

(إن التجافي عن الترف والنعيم من أعظم أسباب بلوغ المجد وعلو الهمة كما قيل:

فمن هجر اللذات نال المنى ... ومن أكبَّ على اللذات عضَّ على اليد

---

(١) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -٥٠١- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (٥٠٢).

(٢) الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها، د. أحمد غلوش، ٣٢٩.

ولهذا جرت العادة على أن من ينغمس في النعيم، ويغرق في الترف، تخور عزائمه وتقل همته، فيكون أشد كراهية للحروب، وأقلهم نبوغًا في العلم، وأبعدهم عن معاناة المشاق، وتحمل الصعاب)[(١)]، ولقد كان لنا في سلفنا الصالح أفضل القدوة وأمثل الأسوة، فلم يصرفوا هممهم إلى طيب العيش ولذته وقد كانوا أقدر الناس على ذلك، بل ترفعوا عن محقرات الأمور وصغائرها، وآثروا غايات قد ارتبطت بالسماء، فأقاموا الدعوة إلى الله حق إقامة، ولم يشغلهم عن ذلك ضيق العيش وشدته.

وهذا ما أشار إليه نص الحديث في بيان ما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم من ضيق العيش وذلك في قول أبي هريرة رضي الله عنه: "... إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع، وإن كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع..." وأيضًا في قوله رضي الله عنه: "لقد رأيتني وإني لأخر فيما بين منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ... وما بي إلا الجوع" وفي بيان شدة معيشة أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، قال عتبه بن غزوان رضي الله عنه: "لقد رأيتني سابع سبعة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لنا طعام نأكله إلا ورق الشجر حتى قرحت أشداقنا"[(٢)].

وقال جابر بن عبدالله: "بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن ثلاث مئة نحمل أزوادنا على رقابنا ففنى أزوادنا حتى يكون للرجل منا تمرة، فقيل: "يا أبا عبدالله وأين تقع التمرة من الرجل؟ فقال: لقد وجدنا فقدها حين فقدناها... الخ"[(٣)]، وفي ذلك بيان على شدة عيش الصحابة رضي الله عنهم وعدم اهتمامهم بمحقرات الأمور وسفسافها من أجل السعي في نشر الدعوة إلى الله.

ثالثًا - من صفات الداعية: الفطنة والفراسة:

يظهر ذلك في الحديث من قول أبي هريرة رضي الله عنه: "... فمر بي النبي صلى الله عليه وسلم فتبسم حين رآني، وعرف ما في وجهي وما في نفسي..." ومما لا شك فيه أن من أهم صفات الداعية التي يجب أن يتصف بها "أن يكون له من الفطنة والفراسة ما يتوسم بهما حال

---

(١) انظر: الهمة العالية، محمد إبراهيم الحمد، ١٥٥.

(٢) أخرجه ابن ماجه ٤١٥٦، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٣٣٥٢).

(٣) أخرجه ابن ماجه ٤١٥٩، وصححه الألباني، (صحيح سنن ابن ماجه ٣٣٥٥).

السامعين ليعرف مبلغ طاقتهم وقدر استحقاقهم وإقبالهم على الانتفاع ليعطيهم ما يتحملون، ويمسك عما لا يطيقون ويوجز إذا خشى الانصراف أو رأى عليهم مللاً وسآمة. ومن الحكم المأثورة، من لم ينشط لكلامك فارفع عنه مئونة الاستماع منك": وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه. "إذا أنا لم أعلم ما لم أرى فلا علمت ما رأيت"[١].

رابعًا - من مهام الداعية: تفقد أحوال المدعوين:

(إن من مهام الداعية الناجح أن يتعرف على أحوال الناس وأوضاعهم، ولا تغيب عنه كثيرًا من أمورهم الفكرية والاجتماعية والنفسية...، ومن جوانب المعرفة الضرورية والمفيدة معرفة أوضاع المدعو الاقتصادية، فإن كان فقيرًا معوزًا كانت مساعدته من أهم القضايا التي تهم الداعية)[٢]، وهذا ما ظهر جليًا في الحديث من قول أبي هريرة رضي الله عنه "فمر بي النبي صلى الله عليه وسلم فتبسم حين رآني، وعرف ما في وجهي وما في نفسي، ثم قال: "أبا هرّ" قلت: لبيك يا رسول الله... إلخ".

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم أحرص الناس على تفقد أحوال أصحابه رضي الله عنهم رحمة وشفقة بهم، وليس أدل على ذلك من قول أنس رضي الله عنه ((إنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم افْتَقَدَ ثابتَ بن قَيْس، فقال رجُلٌ يا رَسولَ الله أنا أعلمُ لكَ علمَهُ، فأتاهُ فوَجَده جالسًا في بيتِهِ مُنكِّسًا رأسَه، فقال له: ما شأنُكَ؟ فقال شرٌّ. كانَ يَرْفع صَوْته فوقَ صوتِ النّبيِّ صلى الله عليه وسلم فقد حَبطَ عَمَله وهو من أهل النار، فأتى الرَّجل النبيَّ صلى الله عليه وسلم فأخبرَه أنَّه قال كذا وكذا، فقال موسى، فرجع إليْه المرَّةَ الآخِرَة ببشارَةٍ عظيمة، فقال اذهبْ إليه فقلْ له: إنَّك لَسْتَ من أهل النَّار، ولكنَّك من أهلِ الجنَّة))[٣].

قال النووي: (وفيه أنه ينبغي للعالم وكبير القوم أن يتفقد أصحابه ويسأل عمن غاب منهم)[٤].

---

(١) هداية المرشدين إلى طريق الوعظ والخطابة، على محفوظ، ١٢١.

(٢) قواعد الدعوة إلى الله، د. همام عبدالرحيم سعيد ص ١٦٤-١٦٥.

(٣) أخرجه البخاري ٣٦١٣، ومسلم ١١٩.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٩.

خامسًا - من موضوعات الدعوة: مواساة النبي ﷺ لأهل الصفة:

(قد كان أهل الصفة من أكابر الصحابة رضي الله عنهم ورعًا وتوكلاً على الله عز وجل وملازمة لخدمة الله ورسوله ﷺ اختار الله تعالى لهم ما اختاره لنبيه ﷺ من المسكنة والفقر والتضرع لعبادة الله عز وجل وترك الدنيا لأهلها)[١]، وقد كان النبي ﷺ يواسيهم بالقليل والكثير، وهذا ما ورد في الحديث من قوله ﷺ "الحق إلى أهل الصفة فادعهم لي" قال: وأهل الصفة أضياف الإسلام، لا يأوون إلى أهل ولا مال ولا على أحد، وكان إذا أتته صدقة بعث بها إليهم، ولم يتناول منها شيئًا، وإذا أتته هدية أرسل إليهم، وأصاب منها، وأشركهم فيها"، وفي تأكيد مواساة النبي ﷺ لأهل الصفة قال حرب بن أبي الأسود: ((حدّثني طلحة البصري قال: كان الرجل منا إذا قدم المدينة فكان له بها عريف نزل على عريفه وإن لم يكن له بها عريف نزل الصفة، فقدمت فنزلت الصفة، فكان يجري علينا من رسول الله ﷺ كل يوم مدٌّ من تمر بين اثنين ويكسونا "الخنف"[٢]، فصلّى بنا رسول الله ﷺ بعض صلاة النهار، فلما سلّم ناداه أهل الصفة يمينًا وشمالاً: يا رسول الله أحرق بطوننا التمر وتخرقت عنا الخنف فمال رسول الله ﷺ إلى منبره فصعده فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر الشدة ما لقي من قومه حتى قال: وَلَقَدْ أَتَى عَلَيَّ وَعلَى صاحِبِي بِضْعَ عَشْرَةَ وَما لي وَلَهُ طَعامٌ إلا الْبرير، قال: قلت لأبي حرب: وأيّ شيء البرير؟ قال: طعام رسول الله ﷺ ثمر الأراك، فَقَدِمْنا عَلى إِخْوانِنا هؤُلاءِ مِنَ الأَنْصارِ وَعظمُ طعامِهِم التَّمْرُ فَواسونا فِيهِ وَاللهِ لَوْ أَجِدُ لَكُمْ الْخُبْزَ وَاللّحْمَ لأَشْبَعْتُكُمْ مِنْهُ وَلكِنْ عَسى أَنْ تُدرِكوا زَمانًا حَتّى يُغْدى عَلى أَحَدِكُمْ بِجَفْنَةٍ وَيُراحُ عَلَيْهِ بِأُخْرَى))[٣]. وفي ذلك بيان عظيم على مواساة النبي ﷺ لأهل الصفة.

---

(١) قاله الحاكم في المستدرك، ٥٥٣/٣.

(٢) وهو نوع غليظ من أردأ الكتّان، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، ص ٢٨٨.

(٣) أخرجه أحمد ٤٨٧/٣ رقم ١٥٩٨٨، وقال محققو المسند: حديث صحيح ٣٦٤/٢٥، كما أخرجه الحاكم، المستدرك ٤٣٤٧، وقال حديث صحيح الإسناد.

سادسًا - من واجبات المدعو: الاستجابة والطاعة لله ولرسوله:

إن طاعة الله ورسوله من صفات المؤمنين اللازمة لهم والواجبة عليهم لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾[1] وقد أشار الحديث إلى أهمية ووجوب طاعة الله ورسوله من قول أبي هريرة رضي الله عنه: "ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم بُدٌّ"، وقد أمر الحق تبارك وتعالى بذلك فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[2].

ثم بين عز وجل عظم فضل الاستجابة والطاعة في ذلك فقال: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[3]، أي انقادت قلوبهم للعلم والإيمان، وجوارحهم للأمر والنهى وصاروا موافقين لربهم فيما يريده منهم، فلهم "الحسنى" أي: الحالة الحسنة، والثواب الحسن، فلهم من الصفات أجلها ومن المناقب أفضلها ومن الثواب العاجل والآجل ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر"[4].

سابعًا - من موضوعات الدعوة: أهمية الاستئذان قبل الدخول:

(والاستئذان هو طلب الإذن في الدخول لمحل لا يملكه المستأذن)[5]، وهذا ما أشار إليه الحديث من قول أبي هريرة رضي الله عنه "فأقبلوا واستأذنوا، فأذن لهم وأخذوا مجالسهم من البيت" وقد أمر الحق تبارك وتعالى بذلك فقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ

---

(١) سورة النور، الآيتان: ٥١-٥٢.

(٢) سورة الأنفال، آية: ٢٤.

(٣) سورة الرعد، آية: ١٨.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٧٣٠

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١/٥.

بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا﴾[(١)] وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ﴾[(٢)] وقال: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا﴾[(٣)].

قال ابن كثير: (هذه آداب شرعية، أدَّب الله بها عباده المؤمنين، وذلك في الاستئذان، أمر الله المؤمنين ألا يدخلوا بيوتًا غير بيوتهم حتى يستأنسوا، أي: يستأذنوا قبل الدخول ويسلموا بعده. وينبغي أن يستأذن ثلاثًا، فإن أُذن وإلا انصرف)[(٤)]، وقد ثبت في الصحيح عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((الإِسْتِئْذَانُ ثَلاَثٌ. فَإِنْ أُذِنَ لَكَ. وَإِلاَّ فَارْجِعْ))[(٥)] وقد بين الشنقيطي ذلك فقال: (اعلم أن المستأذن إن تحقق أن أهل البيت سمعوه لزمه الانصراف بعد الثالثة؛ لأنهم لما سمعوه، ولم يأذنوا له دل ذلك على عدم الإذن، وقد بينت السنة الصحيحة عدم الزيادة على الثلاث خلافًا لمن قال من أهل العلم: إن له أن يزيد على الثلاث مطلقًا، وكذلك إذا لم يدر هل سمعوه أو لا؛ فإنه يلزمه الانصراف بعد الثالثة ثم قال: والذي يظهر لنا رجحانه من الأدلة، أنه إن علم أن أهل البيت لم يسمعوا استئذانه لا يزيد على الثالثة بل ينصرف بعدها لعموم الأدلة، وعدم تقييد شيء منها بكونهم لم يسمعوا خلافًا لمن قال: له الزيادة، ومن فصّل في ذلك، قال: والصواب - إن شاء الله تعالى - هو ما قدمنا من عدم الزيادة على الثلاث؛ لأنه ظاهر النصوص ولا يجوز العدول عن ظاهر النص إلا بدليل يجب الرجوع إليه)[(٦)].

وللاستئذان آداب منها: (أن يقف المستأذن عن يمين أو شمال الباب حتى لا يقع بصره على موضع لا يحل له النظر إليه، أو على شيء يكره رب الدار لأحد رؤيته)[(٧)]،

---

(١) سورة النور، آية: ٢٧.

(٢) سورة النور، آية: ٥٨.

(٣) سورة النور، آية: ٥٩.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٦/٣٦.

(٥) أخرجه البخاري ٦٢٤٥، ومسلم ٢١٥٣.

(٦) أضواء البيان ٦/١٧٥-١٧٥.

(٧) كتاب الآداب، فؤاد الشلهوب، ٦٣.

وقد أكد النبي ﷺ على ذلك فعن عبدالله بن بُسر رضي الله عنه صاحب النبي ﷺ ((أن النبي ﷺ كان إذا أتى بابًا يريد أن يستأذن لم يستقبله جاء يمينًا وشمالاً فإن أُذن له وإلا انصرف))(١)، ومن آداب الاستئذان عدم نظر الرجل في بيت غيره إلا بإذنه، فالاستئذان لم يشرع إلا من أجل البصر، فعن ثوبان مولى رسول الله ﷺ، أن النبي ﷺ قال: ((لا يحل لامرئ مسلم أن ينظر إلى جوف بيت حتى يستأذن فإن فعل فقد دخل))(٢).

ومن آداب الاستئذان أن يوضح ويبين المستأذن اسمه أو كنيته ولا يقل أنا، فعن جابر رضي الله عنه قال: ((أتيتُ النبيَّ ﷺ في دَين كان على أبي، فدقَقْتُ الباب، فقال: من ذا؟ فقلت: أنا. فقال: أنا أنا. كأنه كرِهَها))(٣)، وفي ذلك بيان على أهمية الاستئذان قبل الدخول ومراعاة آدابه.

ثامنًا - من أساليب الدعوة: الأمر:

قد ورد هذا الأسلوب الدعوي في الحديث من أمره ﷺ لأبي هريرة رضي الله عنه بإعطاء قدح اللبن لأهل الصفة وذلك في قوله ﷺ "خذ فأعطهم" قال: فأخذت القدح، فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى"، والأمر من الأساليب الدعوية التي يكون بها حمل المدعو وإرشاده إلى فعل الأمر والمدعو إليه.

تاسعًا - من موضوعات الدعوة: من معجزات النبي ﷺ تكثير اللبن:

(قد أجرى الله تبارك وتعالى على يدي أنبيائه ورسله من المعجزات الباهرات والدلائل القاطعات والحجج الواضحات ما يدل على صدق دعواهم أنهم رسل الله، وكي تقوم الحجة البالغة على الناس فلا يبقى لأحد عذر في عدم تصديقهم وطاعتهم. فقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾(٤))(٥).

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٠٧٨)، وصححه الألباني (صحيح الأدب المفرد ٨٢٢).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٠٩٣)، وصححه الألباني (صحيح الأدب المفرد ٨٣١).

(٣) أخرجه البخاري ٦٢٥٠، ٢١٥٥.

(٤) سورة الحديد، آية: ٢٥.

(٥) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن محمد بن ملوح ١/٥٢٠.

وهذا ما أكد عليه الحديث من تكثير اللبن ببركته ﷺ حتى أن أهل الصفة شربوا منه جميعًا وذلك من قوله ﷺ: "خذ فأعطهم" قال أبو هريرة رضي الله عنه: فأخذت القدح فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى، ثم يرد على القدح، فأعطيه الرجل فيشرب حتى يروى، ثم يرد عليَّ حتى انتهيت إلى النبي ﷺ، وقد روى القوم كلهم..."، قال ابن حجر: (وفيه معجزة عظيمة، ... من تكثير الطعام والشراب ببركته ﷺ)[1]، وفي ذلك بيان على نبوته ﷺ.

عاشرًا: من صفات الداعية: التواضع:

حيث لم يُؤثر النبي ﷺ نفسه على أهل الصفة بل كان ﷺ آخر من شرب، "والتواضع بالدعاة والمرشدين أليق، ولهم ألزم؛ لأن التواضع عطوف والعجب منفر وهو بكل أحد قبيح وبالمرشدين أقبح؛ لأن الناس بهم يقتدون وكثيرًا ما يداخلهم الإعجاب لتوحدهم بفضيلة العلم، ولو أنهم نظروا حق النظر وعملوا بموجب العلم لكان التواضع بهم أولى، ومجانبة العجب بهم أحرى، لأن العجب نقص ينافي الفضل"[2]، وفي ذلك قال ﷺ: ((مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ . وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلاَّ عِزًّا. وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلاَّ رَفَعَهُ اللَّهُ))[3].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٩٤/١١.

(٢) مستلزمات الدعوة، على بن صالح المرشد ، ٢١٥-٢١٦

(٣) أخرجه مسلم ٢٥٨٨.

الحديث رقم (٥٠٢)

٥٠٢ - وعن محمد بن سيرين، عن أَبي هريرة ﷺ، قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُنِي وَإِنِّي لأَخِرُّ فِيمَا بَيْنَ مِنْبَرِ رسولِ الله ﷺ إِلَى حُجْرَةِ عائِشَةَ ﷺ مَغْشِيًّا عَلَيَّ، فَيَجِيءُ الجَائِي، فَيَضَعُ رِجْلَهُ عَلَى عُنُقِي، وَيُرَى أنِّي مَجْنُونٌ وَمَا بِي مِنْ جُنُونٍ، مَا بِي إِلاَّ الْجُوعُ. رواه البخاري[(١)].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

لأخرُّ: لأسقط[(٢)].

الشرح الأدبي

يروي الحديث أبو هريرة ﷺ عن أحداث، وأحوال شخصية وقعت معه تعكس شدة الحال، وضيق المعيشة، وقلة الرزق، وقد بدأ بأسلوب خبري مؤكد، والتعبير بالرؤية ونسبة الفعل لنفسه (رأيتني) بضميري المتكلم، وهو من خصائص أفعال القلوب أي لقد رأيت نفسي ليعطي المخاطبين تصورا عن الحدث يقرب لهم الصورة، والتعبير بالفعل (أخرّ) يوحي بسقوط مع سرعة مؤذنة بفقدان السيطرة على النفس، وذكر ظرف الحدث المكاني (بَيْنَ مِنْبَرِ رسولِ الله ﷺ إِلَى حُجْرَةِ عائِشَةَ ﷺ) يشير إلى أنه لم يبرح مكانه في المسجد ملازما للرسول ﷺ رغم شدة جوعه، وذكر المنبر يشير إلى سبب لزوم المسجد، وهو الانشغال بنقل حديث الرسول ﷺ، ومن الثابت أن أبا هريرة ﷺ من أكثر الصحابة رواية عن رسول ﷺ، والتعبير بالغشي يشير إلى شدة وطأة الجوع التي أفقدته الحس مما يدل على أنه استمر أياما حتى بلغ به ما بلغ،

---

(١) برقم ٧٣٢٤. أورده المنذري في ترغيبه ٣٠٩٠.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (خ ر ر).

وقوله (فَيَجِيءُ الجَائِي) جناس يؤكد المعنى، ويقرره، وقوله (فَيَضَعُ رِجْلَهُ عَلَى عُنُقِي) كناية عن شدة الضعف التي أعجزته عن الدفع عن رقبته العضو الأقرب إليه، وقوله: (مجنون، وجنون) جناس يقرر شدة الالتباس على الناظر من شدة تأثير الجوع فيه، وحالة الضعف التي أحاطت به، وهو ما يعكس شدة ما لاقى الجيل الطاهر في سبيل أداء الأمانة، وتبليغ الأمة شرع الله، وسنة نبيه التي ضيعها كثير من الناس في هذا الزمان - ولا حول، ولا قوة إلا بالله - .

المضامين الدعوية[1]

---

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (٥٠٣)

٥٠٣ - وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: تُوُفِّي رسول الله ﷺ وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِي فِي ثَلاثِينَ صَاعًا مِنْ شَعِير. متفق عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

غريب الألفاظ:

الدرع: هو ما يلبسه المحارب من قميص. والجمع: دروع وأدراع[2].

صاعًا: وحدة من وحدات المكاييل[3].

الشرح الأدبي

الحديث يحمل أعظم الدلائل على أعلى أمثلة الزهد في الدنيا، والانشغال بالآخرة، وهو موت أعظم خلق الله، وأكرمهم عليه، وأحبهم عنده، ودرعه - أخص خصوصياته مرهونة عند يهودي - ولا ننسى أن الدرع عدة جهاد، وليس لمتاع الدنيا، ومرهونة في طعام، وأي طعام؟! طعام من شعير أي أنه لم يملك من الطعام ما يكفيه، وأهله، ولعله أطعم به الفقراء، والمساكين فقد كان يصبر، وأهله الأيام دون طعام، ولكن المحتاجين من المساكين، وأبناء السبيل لا يردهم بل يستدين، ويطعمهم فهو بابهم المقصود، وأملهم المنشود، والظرف عند، وإضافته لليهودي يشير إلى شدة الحال عند جميع من حوله من المسلمين؛ لأنهم جميعاً على قلب رجل واحد في البذل، والإنفاق، والانشغال بالآخرة، كما أن كون اليهودي هو المقرض للطعام يشير إلى النزعة المادية عند اليهود، والتركيز على السيطرة على ضروريات الناس للتحكم بهم إذا دعت الحاجة، كما تشير تلك

---

(١) أخرجه البخاري ٢٩١٦ واللفظ له، ومسلم ١٦٠٣/١٢٥. أورده المنذري في ترغيبه ٤٨٢١.

(٢) معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ١٨٥.

(٣) انظر: معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ٢٤١، ٤١٩.

الواقعة إلى سوء طبع اليهود الذين يحيون بالغدر حيث أن اليهودي لم يقرض الرسول ﷺ، وهو يعلم أمانته - وإن أنكر نبوته - إلا بعد أن أخذ رهنا، وهذه الواقعة تهيب بالأمة اليقظة لهم، والعمل على إبطال كيدهم، وقد عاش الرسول ﷺ ولم يمكنهم من تنفيذ مخطط مكر من مخططاتهم التي لا يكفون عنها.

فقه الحديث

في هذين الحديثين[١] من الأحكام الفقهية ما يلي:

١ - معاملة أهل الذمة وغيرهم من الكفار: قال النووي: (فيه [أي في حديث عائشة رضي الله عنها] جواز معاملة أهل الذمة ... وقد أجمع المسلمون على جواز معاملة أهل الذمة وغيرهم من الكفار إذا لم يتحقق تحريم ما معه لكن لا يجوز للمسلم أن يبيع أهل الحرب سلاحًا وآلة حرب ولا يستعينون به في إقامة دينهم ولا بيع مصحف ولا العبد المسلم لكافر مطلقًا)[٢]. وقال ابن حجر: (وفيه [أي في حديث أنس رضي الله عنه] جواز بيع السلاح ورهنه وإجارته وغير ذلك من الكافر ما لم يكن حربيًا)[٣].

٢ - ثبوت أملاك أهل الذمة في أيديهم: قال النووي: (فيه الحكم بثبوت إملاكهم على ما في أيديهم)[٤].

٣ - معاملة من أكثر ماله حرام: قال ابن حجر: (واستنبط منه جواز معاملة من أكثر ماله حرام)[٥] وقد ذكر السيوطي أن معاملة من أكثر ماله حرام إذا لم يعرف عينه لم يحرم ولكن تكره[٦].

---

(١) أي في الحديثين رقمي ٥٠٣، ٥٠٤.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦/١١/٣٣-٣٤، وانظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥/١٤١.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥/١٤١.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦/١١/٣٣، وانظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥/١٤١.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥/١٤١.

(٦) الأشباه والنظائر ١٠٥.

وقال ابن قدامة: (وإذا اشترى ممن في ماله حرام وحلال كالسلطان الظالم والمرابي، فإن علم أن المبيع من حلال ماله فهو حلال، وإن علم أنه حرام فهو حرام، ولا يقبل قول المشترى عليه في الحكم، لأن الظاهر أن ما في يد الإنسان ملكه، فإن لم يعلم من أيهما هو كَرِهْناه؛ لاحتمال التحريم فيه ولم يبطل البيع لإمكان الحلال، قلّ الحرام أو كثر)(١).

٤ - قول المرتهن في قيمة المرهون: قال ابن حجر: (فيه أن القول قول المرتهن في قيمة المرهون مع يمينه حكاه ابن التين)(٢).

٥ - حكم الرهن ورهن آلة الحرب والرهن في السفر:

قال النووي: (فيه جواز الرهن، وجواز رهن آلة الحرب عند أهل الذمة، وجواز الرهن في الحضر وبه قال الشافعي ومالك وأبو حنيفة وأحمد والعلماء كافة إلا مجاهدًا وداود [الظاهري] فقالا: لا يجوز إلا في السفر؛ تعلقًا بقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾(٣) واحتج الجمهور بهذا الحديث، وهو مقدم على دليل خطاب الآية)(٤). وقال ابن حجر: (إن التقييد بالسفر في الآية خرج للغالب فلا مفهوم له لدلالة الحديث على مشروعيته في الحضر وهو قول الجمهور، واحتجوا له من حيث المعنى بأن الرهن شرع توثقة على الدين لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ فإنه يشير إلى أن المراد بالرهن الاستيثاق، وإنما قيده بالسفر لأنه مظنة فقد الكاتب فأخرجه مخرج الغالب)(٥).

---

(١) المغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٣٧٢/٦.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٤١/٥.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٨٣.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٣٤/١١/٦.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٤٠/٥، و انظر: الجوهرة النيرة ٣٦٦/٢، وبداية المجتهد ٢٢٢/٢، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٧٧/١٣، والمغني، أبن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٤٤٤/٦، والمحلى، ابن حزم ٧٨/٨.

٦ - الشراء بالثمن المؤجل: قال ابن حجر: (فيه جواز الشراء بالثمن المؤجل)[١] قال القرطبي: (لا خلاف بين العلماء أن من باع معلومًا من السلع بثمن معلوم إلى أجل معلوم من شهور العرب أو إلى أيام معروفة العدد، أن البيع جائز، وكذلك قالوا في السلم إلى الأجل المعلوم)[٢].

المضامين الدعوية[٣]

أولاً : من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانيا: من موضوعات الدعوة: أهمية الزهد في الدنيا والتعلق بالآخرة.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: بيان شدة وخشونة العيش التي كان عليها النبي ﷺ وآله.

رابعًا: من واجبات الدعاة: الاقتداء بالنبي ﷺ في زهده في الدنيا وإقباله على الآخرة.

أولاً - من أساليب الدعوة: الإخبار:

قد ورد الإخبار كأسلوب دعوي في الحديث من قول عائشة رضي الله عنها "توفي رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة..."، ومن قول أنس رضي الله عنه "رهن النبي ﷺ درعه بشعير..."، ومن قول عائشة رضي الله عنها "كان فراش رسول الله ﷺ من أُدم..."، حيث أفاد الإخبار في هذه الأحاديث زهده ﷺ في الدنيا وإعراضه عنها، وقول أبي هريرة رضي الله عنه: "لقد رأيت سبعين من أهل الصفة، ما منهم رجل عليه رداء، إما إزار وإما كساء..." والإخبار من الأساليب الدعوية التي يكون بها تبليغ الدعوة إلى الله، وقد حث الحق تبارك وتعالى على ذلك بقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[٤].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٤١/٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢٣٢/٣.

(٣) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -٥٠٣- مع مضامين الأحاديث رقم (٥٠٤، ٥٠٥، ٥٠٦).

(٤) سورة فصلت، آية: ٣٣.

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: أهمية الزهد في الدنيا والتعلق بالآخرة:

(إن من تدبّر حقائق الأمور وجد الحياة الدنيا وما فيها من زينة ومتاع أمورًا صغيرة قليلة القيمة، لا تستحق الحرص عليها، وإيثارها على ما عند الله من أجر عظيم في جنات النعيم. فإذا دعاه الواجب الرباني إلى بذلها أو الزهد فيها بذلها في سبيل الله وزهد بها...، فإن أعظم ما في الحياة الدنيا من نعيم لا يعادل قطراتٍ من بحر نعيم الدار الآخرة، وأن أعظم ما في الدنيا من مصائب وشدائد يهون أمام نعيم دار الآخرة، ولا يُعادل مقدار شرارة صغيرة من عذاب جهنم...، فمن عرف هذه الحقائق وآمن بها فلابدّ أن يزهد بعرض الحياة الدنيا ويقطع علائق قلبه منه، ترفعًا إلى ما هو أجل وأعظم، وأكرم وأبقى)[1].

وهذا ما أشارت إليه نصوص الأحاديث في بيان زهد النبي ﷺ في الدنيا وإعراضه عنها، وقد أكد الحق تبارك وتعالى على ذلك فقال: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾[2]، (وقد توعَّد سبحانه أعظم الوعيد لمن رضي بالحياة الدنيا، واطمأن بها وغفل عن آياته، ولم يَرْجُ لقاءه؛ فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[3] وَعَيَّر سبحانه من رضي بالدنيا من المؤمنين؛ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْأَخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[4] وعلى قدر رغبة العبد في الدنيا ورضاه بها، يكون تثاقله عن طاعة الله وطلب الآخرة ويكفي للزهد في الدنيا قوله

---

(١) انظر: الوجيزة في الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبدالرحمن حسن حبنكة، ٤٧٧-٤٧٨.

(٢) سورة الرعد، آية: ٢٦.

(٣) سورة يونس، آية: ٧-٨.

(٤) سورة التوبة، آية: ٣٨.

تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ۝ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾[1])[2].

ولكن ليس معنى الزهد المطلوب ترك السعي في عمران الدنيا (فقد فهم بعض الناس الزهد فهمًا خاطئًا، إذ يرون أن الإسلام يحب الفقر للمسلمين ويدعوهم إلى تفضيله وإيثاره، فيجعلهم هذا التصور الخاطئ يبطّئون همتهم عن العمل والإنتاج وعمران الدنيا، ويرغبون في اللجوء إلى الزّوايا والتكايا والصوامع بزعم التفرغ للعبادة وإيثار عمل الآخرة ويصابون بعد ذلك بداء الكسل والإخلاد إلى الراحة...، وسبب خطئهم أنهم لم ينظروا إلى جملة النصوص الإسلامية التي يكمّل بعضها بعضًا، لقد تعلقوا بنصوص التزهيد في الدنيا وأساؤوا فهمها، ولم ينظروا إلى نصوص الحث على العمل والكسب وعمران الدنيا والأخذ بأسباب القوة، ونصوص الحث - بعد ذلك - على البذل في سبيل الله بعد الكسب الحلال زهدًا في الدنيا وابتغاءً لرضوان الله... فدعوة الإسلام إلى الزهد في الدنيا ليست دعوة إلى ترك العمل والإنتاج والاستثمار، وليست ترغيبًا في الفقر والضعف والمسكنة، بل هي تربية أخلاقية تدفع المسلم إلى فضائل البذل والعطاء، والبعد عن رذائل البخل والشح، ومسببات قسوة القلب...، فهي دعوة إلى أن يصرف المؤمن قلبه عن التعلق بالأشياء الدنيوية... كي يتوجه شطر الآخرة ومحبة الله وابتغاء مرضاته)[3].

ثالثًا - من موضوعات الدعوة: بيان شدة وخشونة العيش التي كان عليها النبي ﷺ وآله:

يظهر ذلك في الحديث من قوله ﷺ: "ما أصبح لآل محمد صاع ولا أمْسَى" وأيضًا في قول عائشة رضي الله عنها: "كان فراش رسول الله ﷺ من آدم حشوه ليف. وفي بيان شدة وخشونة العيش التي كان عليها النبي ﷺ وآله، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كَانَ رَسُولُ

(١) سورة الشعراء، الآيات: ٢٠٥-٢٠٧.

(٢) الفوائد، ابن القيم، ١٤٣.

(٣) الوجيزة في الأخلاق الإسلامية، عبدالرحمن حبنكة، ٤٨٢-٤٨٥.

اللهِ ﷺ، يبيتُ اللَّيَالِيَ المُتَتَابِعَةَ طَاوِيًا وَأَهْلُهُ لاَ يَجِدُونَ عَشَاءً، وَكَانَ أَكْثَرُ خُبْزِهِمْ خُبْزَ الشَّعِيرِ»(١).

وعن عروة عن عائشة رضي الله عنها، أَنَّهَا كَانَتْ تَقُولُ: وَاللّهِ يَا ابْنَ أُخْتِي. إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلَى الْهِلاَلِ ثُمَّ الْهِلاَلِ ثُمَّ الْهِلاَلِ. ثَلاَثَةَ أَهِلَّةٍ فِي شَهْرَيْنِ. وَمَا أُوقِدَ فِي أَبْيَاتِ رَسُولِ اللّهِ ﷺ نَارٌ. قَالَ: قُلْتُ: يَا خَالَةُ فَمَا كَانَ يُعَيِّشُكُمْ؟ قَالَتِ: الأَسْوَدَانِ التَّمْرُ وَالْمَاءُ. إِلاَّ أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللّهِ ﷺ جِيرَانٌ مِنَ الأَنْصَارِ. وَكَانَتْ لَهُمْ مَنَائِحُ. فَكَانُوا يُرْسِلُونَ إِلَى رَسُولِ اللّهِ ﷺ مِنْ أَلْبَانِهَا، فَيَسْقِينَاهُ(٢).

قال المباركفوري نقلاً عن الطبري: (إنه استشكل بعض الناس كون النبي ﷺ وأصحابه كانوا يطوون الأيام جوعًا مع ما ثبت أنه كان يرفع لأهله قوت سنة، وأنه قسم بين أربعة أنفس ألف بعير مما أفاء الله عليه، وأنه ساق في عمرته مائة بدنة فنحرها وأطعمها المساكين، وأنه أمر للأعرابي بقطيع من الغنم، وغير ذلك مع من كان معه من أصحاب الأموال كأبي بكر وعمر وعثمان وطلحة وعبدالرحمن بن عوف رضي الله عنهم وغيرهم، مع بذلهم أنفسهم وأموالهم بين يديه. وقد أمر بالصدقة فجاء أبو بكر بجميع ماله وعمر بنصف ماله، وحث على تجهيز جيش العسرة فجهزهم عثمان بألف بعير إلى غير ذلك.

والجواب: أن ذلك كان منهم في حالة دون حالة، لا لعوز وضيق، بل تارة الإيثار وتارة لكراهة الشبع ولكثرة الأكل)(٣).

رابعًا - من واجبات الدعاة: الاقتداء بالنبي ﷺ في زهده في الدنيا وإقباله على الآخرة:

هذا ما يستفاد من سياق الأحاديث الواردة، وفي بيان زهده ﷺ قال ابن عمر رضي الله عنهما: ((أخذ رسولُ اللّه ﷺ بمنكبي فقال: كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ))(٤)، وكان ﷺ يقول: ((لَوْ كَانَ عِنْدِي مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَبًا، لَسَرَّنِي أَنْ لاَ تَمُر

(١) أخرجه الترمذي ٢٣٦٠، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٩٢٣).

(٢) أخرجه البخاري٢٥٦٧، ومسلم ٢٩٧٢.

(٣) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٢/ ١٨٧٠.

(٤) أخرجه البخاري ٦٤١٦.

عَلَي ثَلاَثُ لَيَالٍ وَعِنْدِي مِنْهُ شَيْءٌ إِلاَّ شَيْئًا أَرْصُدُهُ لِدَيْنٍ))[١]. فعلى الدعاة أن يقتدوا بالنبي ﷺ في زهده في الدنيا وإعراضه عنها (فلا يطيلوا فيها الأمل ولا يتخذوها وطنًا ومسكنًا، فيطمئنوا فيها، ولكن ينبغي أن يكونوا فيها كأنهم على جناح سفر: يهيئُ المؤمن فيها جهازه للرحيل ...، ومن كان في الدنيا كذلك فلا همَّ له إلا في التزود بما ينفعه عند عودته إلى وطنه، فلا ينافس أهل البلد الذي هو غريب بينهم في عزِّهم...، قال الحسن: المؤمن في الدنيا كالغريب لا يجزع من ذلها، ولا ينافس في عزها، له شأن وللناس شأن)[٢].

(وهذا ما دعا إليه الإسلام، فقد دعا إلى العمل في الدنيا مع عدم التعلق بها، لأنها متاع قليل، ولأن الهدف الأسمى للإنسان أن يحيا الحياة الحقيقية في الآخرة، وأن يزهد في الدنيا، وأن يعيش فيها كأنه غريب عنها، أو عابر سبيل ليترفع عن أدرانه المادية، ويسمو إلى المثل العليا، والصلة الروحية مع رب العالمين)[٣].

وفي ذلك قال ابن عثيمين: (إن الإنسان لا ينبغي أن تتعلق نفسه بالدنيا، وأن تكون بيده لا بقلبه، حتى يُقبل بقلبه على الله ﷺ؛ فإن هذا هو كمال الزهد، وليس المعنى أنك لا تأخذ شيئًا من الدنيا، بل خذ من الدنيا ما يحل لك، ولا تنس نصيبك فيها، ولكن اجعلها في يدك ولا تجعلها في قلبك)[٤]. فحري بالدعاة أن يقتدوا بالنبي ﷺ في زهده في الدنيا وإقباله على الآخرة.

---

(١) أخرجه البخاري ٦٤٤٥، ومسلم، ٩٩١

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢/٣٧٧-٣٧٨.

(٣) العز بن عبدالسلام، د. محمد الزحيلي ص ٢١٢.

(٤) انظر: شرح رياض الصالحين ١/٧٩٦

الحديث رقم (٥٠٤)

٥٠٤ - وعن أنسٍ رضي الله عنه ، قَالَ: رَهَنَ النَّبيُّ ﷺ دِرْعَهُ بِشَعِيرٍ، وَمَشَيْتُ إِلَى النَّبيِّ ﷺ بخُبْزِ شَعِيرٍ وَإهَالَة سَنِخَةٍ، وَلَقَدْ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: ((**مَا أصْبَحَ لآلِ مُحَمَّدٍ [إلا]**[1] **صَاعٌ وَلاَ أمْسَى**)) وَإنَّهُمْ لَتِسْعَةُ أبيَات. رواه البخاري[2].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

الإهالةُ: بكسر الهمزة: الشحم الذائب[3].

السَّنِخَةُ: المتغيرة الريح[4].

الشرح الأدبي

هذا الحديث يشير إلى معنى سابقه، وهو زهد النبي ﷺ ، وآله ، والذي يدل عليه هذا الخبر الذي يرويه أنس رضي الله عنه دون مؤكدات مما يشير إلى أنه مشهور لا يتوقع له إنكارا ، وقول أنس رضي الله عنه (رَهَنَ النَّبيُّ ﷺ دِرْعَهُ بِشَعِيرٍ) الرهن يدل على مفارقة مؤقتة للمرهون مما يشير إلى عدم التفريط في وسيلة الجهاد؛ لأنه لم يبعه في أشد الظروف التي تضطر الإنسان إلى التصرف بأي وجه لينقذ من حوله من جوع قاتل، ولكن رهنه على نية استعادته في أقرب فرصة، وذكر الدرع، وإضافته للنبي ﷺ يشير إلى مدى الشدة التي اضطرتهم لذلك لأن الدرع آخر ما يمكن أن يفرط فيه العربي مما يشير إلى عدم وجود غيره والجار، والمجرور (بشعير) بيان لنوع الطعام الذي

---

(١) الزيادة من البخاري.

(٢) برقم ٢٥٠٨.

(٣) رياض الصالحين ٢٣٧.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (س ن خ).

رهن فيه الدرع يشي بجانب من التقشف الذي عاشوا فيه حيث لم يرهنه بقمح، أو لحم، أو غيره من الأطعمة الشهية، وإنما رهنه في أقل ما يدفع الجوع، وأردئ الأطعمة التي تمنع الموت جوعا، وقوله (وَمَشَيْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِخُبْزِ شَعِيرٍ وَإِهَالَة سَنِخَةٍ) كناية عن تقديمهما له ليأكل منهما، وخبز الشعير، أقل أنواع الطعام عندهم، ووصف الإهالة وهي الشحم المذاب بالسنخة تتميم بلاغي أفاد أنها متغيرة الرائحة مع ذلك، وقول الرسول ﷺ (مَا أَصْبَحَ لآلِ مُحَمَّدٍ صَاعٌ وَلاَ أَمْسَى) كناية عن كثرة الإنفاق، وعدم بقاء أي طعام مدة ليلة، أو مدة نهار إلا انفق على الفقراء، والمساكين، ورغم كثرة أبيات آل محمد فإنه لم يبق عندهم هذا القدر القليل من الطعام - رضوان الله عليهم جميعا - .

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (٥٠٥)

٥٠٥ - وعن أَبي هريرة رضي الله عنه، قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ الصُّفَّةِ، مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ عَلَيْهِ رِدَاءٌ، إمَّا إزَارٌ وَإمَّا كِسَاءٌ، قَدْ رَبَطُوا في أعْنَاقِهِم، مِنْهَا مَا يَبْلُغُ نِصْفَ السَّاقَيْنِ، وَمِنْهَا مَا يَبْلُغُ الكَعْبَيْنِ، فَيَجْمَعُهُ بِيَدِهِ كَرَاهِيَةَ أنْ تُرَى عَوْرَتُهُ. رواه البخاري[1].

ترجمة الراوي:

ابو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

أهل الصفة: فقراء المهاجرين، كانوا يأوون إلى مكانٍ مظلل في المسجد يُسَمَّى الصُّفَّة[2].

الشرح الأدبي

قول أبي هريرة رضي الله عنه : (لَقَدْ رَأَيْتُ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ الصُّفَّةِ) يؤكد الخبر من عدة وجوه منها التعبير بالفعل في الماضي المحقق، ودخول اللام الموطئة للقسم، وقد التي تفيد التحقق بدخولها على الماضي، ثم إنه عبر بفعل الرؤية وهي أقوى طرق العلم، ثم ذكر العدد سبعين الذي يؤكد التدقيق في العدد وذكر الأهل، وإضافتهم للصفة تحديد لهولاء المعروفين بشدة الفقر، وضيق الحال يدل على ذلك وصفه لهم (مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ عَلَيْهِ رِدَاءٌ، إمَّا إزَارٌ وَإمَّا كِسَاءٌ) وهو أسلوب نفي، مستغرق للسبعين عن طريق تسليط النفي على النكرة (رجل) وقبلها حرف الجر مع الضمير المجرور به، الذي ينفي أن يكون لأحد منهم رداء، وقوله (إمَّا إزَارٌ وَإمَّا كِسَاءٌ) إما تفصيلية، والرداء هو ما يستر النصف الأعلى من البدن، والإزار ما يكسو النصف الأسفل، قوله (قد ربطوا) أي الأكسية فحذف المفعول للعلم به قوله (فمنها) أي فمن الأكسية باعتبار أن الكساء جنس، وهذه الصورة تشير إلى انشغالهم بالآخرة،وترك المظاهر، والجري خلف المتاع الزائل رضي الله عنه.

المضامين الدعوية[3]

---

(١) برقم ٤٤٢، أورده المنذري في ترغيبه ٣٠٩١، وتقدم برقم ٤٦٨.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ص ف ف).

(٣) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -٥٠٥- مع مضامين الأحاديث رقم (٥٠٣، ٥٠٤، ٥٠٦).

الحديث رقم (٥٠٦)

٥٠٦ - وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: كَانَ فِرَاشُ رسول الله ﷺ مِنْ أُدْمٍ حَشْوُهُ لِيفٌ. رواه البخاري[(١)].

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

غريب الألفاظ:

الأَدمِ: الجلد المصبوغ[(٢)].

حشوه: محشوّة[(٣)].

الشرح الأدبي

الحديث يعرض مشهدا من بيت الرسول ﷺ لفراشه يدل على الزهد، وترك التلذذ بالمنام كما تركه في الشراب، وفي الطعام، وفي اللباس، وفي كل شيء، وقول عائشة رضي الله عنها (كَانَ فِرَاشُ رسول الله ﷺ مِنْ أُدْمٍ حَشْوُهُ لِيفٌ) التعبير بكان يشير إلى أنه كان فراشه الدائم لدلالة كان في الماضي على العادة في الشيء - غالبا - وهو عبارة عن نوع من القماش حشوه من ليف النخل، وهو حشو خشن ليس فيه ليونة، ولا يستغرق النائم عليه فيه،لأنه يريد من النوم ما يعينه على استكمال المهمة، وتبليغ الرسالة، واستئناف العبادة بأقل ما يمكن، وهذا الصورة، وغيرها من صور الزهد المشرقة من الرسول ﷺ تدعونا إلى ترك التكلف الفراش، وفي اللباس، وفي الطعام وغيره من صور التكلف البعيدة عن روح الإسلام الذي تعاني منه الأسر المسلمة،

---

(١) برقم ٦٤٥٦، وكذا مسلم ٢٠٨٢/٣٧ بلفظ: (وسادة) بدل: (الفراش)، وأورده الحميدي في جمعه ١٢٩/٤، رقم ٣٢٣٨ في المتفق عليه. أورده المنذري في ترغيبه ٣٠٨٠.

(٢) معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ٣١، وانظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٩٨/١١، ودليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٧٦٢.

(٣) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٧٦٢

وتستدين بسببه، تقليداً لغيرها من أهل الترف، والغرور بالدنيا لاسيما من غير المسلمين.

فقه الحديث

في هذا الحديث من الفقه: جواز اتخاذ الفرش والوسائد، والنوم عليها، والارتفاق بها، وجواز المحشو، وجواز اتخاذ ذلك من الجلود وهي الأدم[1].

المضامين الدعوية[2]

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٧/١٤/٥٠.

(٢) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -٥٠٦- مع مضامين الأحاديث رقم (٥٠٣، ٥٠٤، ٥٠٥).

الحديث رقم (٥٠٧)

٥٠٧ - وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا مَعَ رسول الله ﷺ، إِذْ جَاءَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، ثُمَّ أدْبَرَ الأَنْصَارِيُّ، فَقَالَ رسول الله ﷺ: ((**يَا أخَا الأنْصَارِ، كَيْفَ أخِي سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ؟**)) فَقَالَ: صَالِحٌ، فَقَالَ رسول الله ﷺ: ((**مَنْ يَعُودُهُ مِنْكُمْ؟**)) فَقَامَ وَقُمْنَا مَعَهُ، وَنَحْنُ بِضْعَةَ عَشَرَ، مَا عَلَيْنَا نِعَالٌ، وَلاَ خِفَافٌ، وَلاَ قَلاَنِسُ، وَلاَ قُمُصٌ، نَمْشِي في تِلك السِّبَاخِ، حَتَّى جِئْنَاهُ، فَاسْتَأْخَرَ قَوْمُهُ مِنْ حَوْله حَتَّى دَنَا رسول الله ﷺ وَأصْحَابُهُ الَّذِينَ مَعَهُ. رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

خفاف: جمع خُفٍّ: الحذاء الساتر للكعبين[٢].

قلانس: جمع قَلَنْسُوَة: نوع من ملابس الرأس ويكون على هيئات وأشكال متعددة[٣].

قُمُصُ: جمع قميصٍ[٤].

السباخ من الأرض: الذي ما لم يحرث ولم يعمر لملوحته[٥].

---

(١) برقم ٩٢٥/١٣.

(٢) معجم لغة الفقهاء، أ.د. محمد رواس قلعة جي ١٧٥.

(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ق ل س).

(٤) القاموس المحيط، الفيروز آبادي ، الفيروز آبادي ٦٢٩.

(٥) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (س ب خ).

الشرح الأدبي

قول ابن عمر رضي الله عنهما، (كُنَّا جُلُوساً مَعَ رسول الله ﷺ) يشير الفعل كان إلى حدث ثابت قبل زمن الحديث، ونسبته لناء الفاعلين يشير إلى الاجتماع، وهو يؤكد الحدث، وقوله (إِذْ جَاءَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ) يوحي بالمفاجأة وعدم توقع حضور أحد، أو عدم توقعه هو تحديداً، وقوله (يَا أَخَا الأَنْصَارِ، كَيْفَ أَخِي سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ؟) النداء تودد، وتكريم مع ما فيه من التنبيه لما يتلوه، والاستفهام على حقيقته مع ما يعكسه من شفقة، ومحبة يوحي بها التعبير بالأخ الذي يدل على تلك الرابطة الأبدية، وهي الأخوة، ثم إضافته لنفسه، وهو تشريف لسعد رضي الله عنه ثم استفهام العرض، والترغيب في الزيارة (مَنْ يَعُودُهُ مِنْكُمْ؟) وقول الراوي (فَقَامَ وَقُمْنَا مَعَهُ، وَنَحْنُ بضْعَةَ عَشَرَ) يشير إلى خفتهم إلى عمل الخير يدل على ذلك تكرار فعل القيام وإضافته لناء الفاعلين ثم ذكر العدد الموجود تحديداً وقوله (مَا عَلَيْنَا نِعَالٌ، وَلاَ خِفَافٌ، وَلاَ قَلاَنِسُ، وَلاَ قُمُصٌ) يشير إلى الحالة العامة، وشدة الفقر التي قصرت لباسهم على ما يستر العور فقط دون ما يكون للزينة زهدا في الدنيا، ورغبة فيما عند الله، وانشغالا به .

فقه الحديث

في هذا الحديث من الفقه: جواز المشي حافيًا[1]، وقال القرافي: (الحفاة الغالب مصادفتهم النجاسة، ولو في الطرقات ومواضع قضاء الحاجات، والنادر سلامتهم، ومع ذلك جوز الشرع صلاة الحافي كما جوز له الصلاة بنعله من غير غسل رجليه، وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يمشي حافيًا، ولا يعيب ذلك في صلاته لأنه رأى النبي ﷺ يصلي بنعله[2]، ومعلوم أن الحفاء أخف في تحمل النجاسة من النعال فقدم الشارع حكم النادر على الغالب، توسعة على العباد)[3].

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ٢٠١/٦/٣.

(٢) أخرج البخاري ٣٨٦، ومسلم ٥٥٥ عن أبي سلمة سعيد بن يزيد الأزدي، قال: سألت أنس بن مالك: "أكان النبي ﷺ يصلي في نعليه؟ قال: نعم".

(٣) الفروق ٢٠٦/٤.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على مجالسة النبي صلى الله عليه وسلم.

ثانيًا: من صفات الداعية: التواضع.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: عيادة المريض.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: بيان خشونة العيش ورقة الحال التي كان عليها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أولاً - من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على مجالسة النبي صلى الله عليه وسلم:

حرص الصحابة الكرام رضي الله عنهم على مجالسة النبي صلى الله عليه وسلم للاستفادة من علمه والتأدب بآدابه، والاقتداء به من خلال رصدهم الدقيق لما يقوم به صلى الله عليه وسلم من أفعال، ومن شواهد في الحديث: "كنا جلوسًا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم"، وهذا يدل على حرص الصحابة رضي الله عنهم على مجالسة النبي صلى الله عليه وسلم ذلك لأنه القدوة الطيبة لهم في كل أمور حياتهم بهذا أخبرهم الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾(١)، وفي مجالسة النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يتعلمون منه العلم، وأمور الحلال والحرام ويسألونه عما يعرض لهم من أمور، ويجعلونه حكمًا بينهم فيما ينشأ بينهم من منازعات، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾(٢)، وأيضًا في مجالسته كانوا يتبعون هديه فيما يأتي ويذر، ويفعل ويترك ففي الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس خاتمًا من ذهب فنبذه وقال: ((لا ألبسُهُ أبدًا فنبذَ الناسُ خواتيمَهم))(٣)، ومن ثم فقد كان الصحابة رضي الله عنهم حريصين على مجالسة النبي صلى الله عليه وسلم.

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

(٢) سورة النساء، آية: ٦٥.

(٣) أخرجه البخاري ٦٦٥١، ومسلم ٢٠٩١.

ثانيًا - من صفات الداعية: التواضع:

إن من عوامل التأثير في المدعوين واستمالة قلوبهم التواضع معهم، والسؤال عنهم وتفقد أحوالهم، ولذا كان من أهم الصفات التي ينبغي للداعية أن يتصف بها: التواضع وتفقد أحوال المدعوين، حيث جاء في الحديث: "كيف حال أخي"، "نمشي في تلك السباخ حتى جئناه"، قال ابن علان: "وفي قوله: كيف حال أخي فيه كمال تواضعه ومزيد فضله ﷺ إذا أطلق هذا اللفظ في حقه تشريفًا له، وفيه إيماء إلى صدق إيمانه فيكون فيه تلميح إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[1]، وظاهر عبارة نمشي في تلك السباخ، أنه ﷺ كان كذلك ليتأسوا به ويقتدوا بهديه"[2]، والتواضع من أهم صفات الداعية، قال تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[3]، (ولا شك أن الداعية إلى الله إذا تزود بالعلم، وتحلى بالحلم وتخلق بالتواضع يستطيع أن يقوم بدوره في الإصلاح والتغيير، ويستطيع أن يهدي أمة بأسرها، وأن يصلح مجتمعًا بأكمله)[4]، إن الله سبحانه علّم نبيه ﷺ كل ما يجعل منه الداعية الأول في العالم، ومن جملة ما أرشده إليه التواضع، (فإن التواضع فوق أنه تعبير دقيق عن العظمة الحقيقية - قليل التكلفة على المستوى الشعوري والعملي، فالمتواضع يبدو دائمًا أقل من حقيقته، وبذا فإنه يظل يكبر في أعين الناس دون جهد يبذل كلما كشفت لهم الأيام عن جواهره المخبوءة)[5].

ثالثًا - من موضوعات الدعوة: عيادة المريض:

إن المسلم يشارك إخوانه في أفراحهم وأتراحهم وهذا من شأنه أن يوطد العلاقات الاجتماعية، ومن صور هذه المشاركة عيادة المريض، حيث جاء في الحديث: "من يعوده منكم"، وعيادة المريض دلت النصوص الشرعية على فضلها وعظيم ثوابها فعن ثوبان مولى رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ((إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا عَادَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، لَمْ

---

(١) سورة الحجرات، آية: ١٠.

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٧٦٢.

(٣) سورة الحجر، آية: ٨٨.

(٤) أخلاقيات الداعية، عبدالله ناصح علوان، ص ٣٣.

(٥) مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي، د. عبد الكريم البكار، ص ١٣١.

يَزَلْ فِي خُرْفَةِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَرْجِعَ))، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا خُرْفَةُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ ((جَنَاهَا))[١]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((مَن عَادَ مَرِيضًا أَوْ زَارَ أَخًا لَهُ فِي اللهِ نَادَاهُ مُنَادٍ أَنْ طِبْتَ وَطَابَ مَمْشَاكَ وَتَبَوَّأْتَ مِنَ الْجَنَّةِ مَنْزِلاً))[٢].

وجاء في الحديث القدسي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي. قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ. قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلاَنًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ. أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي. قَالَ: يَا رَبِّ وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ. قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلاَنٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي؟ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي. قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ. قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلاَنٌ فَلَمْ تَسْقِهِ. أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي))[٣].

وفي ضوء هذه النصوص تتبين أهمية وفضل عيادة المريض وثوابها عند الله تعالى، (إن عيادة المريض مندوبة في الأصل وقد تصل إلى الوجوب في حق بعض الناس دون بعض، وعيادة المريض تذكرة ومحبة ومنفعة، فهي تذكر الإنسان بنعم الله عليه، وتعرفه قيمة الصحة التي يتمتع بها، فينطق بشكر مسديها، وهي تزرع المحبة بين المريض وعواده، بل بينهم وبين قرابته، وهي نافعة المريض تروّح عنه وتسليه، وربما وصف العائد دواء يذهب بالداء، أو أرشد إلى طبيب ماهر، وينبغي أن تكون العيادة في الأوقات المعتادة، وألا يطيل الجلوس حتى يضجر المريض، أو يشق على أهله، ما لم تدع ضرورة إلى ذلك)[٤]. وعلى الدعاة الهداة تذكير المدعوين بفضل عيادة المريض والحث عليها لأن النبي ﷺ بيّن لنا فضل عيادة المريض.

---

(١) أخرجه مسلم ٢٥٦٨.

(٢) أخرجه الترمذي ٢٠٠٨ وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٦٣٣).

(٣) أخرجه مسلم ٢٥٦٩.

(٤) الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي، ص ١٠٧.

رابعًا - من موضوعات الدعوة: بيان خشونة العيش ورقة الحال التي كان عليها أصحاب رسول الله ﷺ:

لقد ضرب صحابة النبي ﷺ المثل الرفيع في الزهد في الدنيا وعدم التطلع لها وهم مع خشونة عيشهم ورقة حالهم صابرين راضين غير ساخطين، ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في الحديث: (ما علينا نعال ولا خفاف ولا قلانس ولا قمص نمشي في تلك السباخ)، وما من شك أن الصحابة رضي الله عنهم تحملوا شدة الحال، وقلة الزاد من أجل الدعوة إلى الإسلام، ولقد كان الداعية الأول ﷺ في نفس الحال التي يعيشونها من الزهد وخشونة العيش ورقة الحال، ففي الصحيح ذكر عمر رضي الله عنه ما أصاب الناس من الدنيا فقال: (لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَظَلُّ الْيَوْمَ يَلْتَوِي، مَا يَجِدُ دَقَلاً يَمْلأُ بِهِ بَطْنَهُ)[1]، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: (قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ وَمَا شَبِعَ مِنَ الأَسْوَدَيْنِ: التَّمْرِ وَالْمَاءِ)[2]، ومن شدة ما كان يصيب الصحابة من شظف العيش كانوا يأكلون الجراد، فعن أبي أوفى رضي الله عنه قال: (غَزَونا مع النبيِّ ﷺ سبعَ غَزَوَات - أو سِتًّا - كنا نأكُلُ فيهن الجَرادَ)[3]، وحتى في الكساء، واللباس لم يجدوا ما يلبسونه فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (رأيتُ سَبعينَ من أهلِ الصُّفَّةِ ما منهم رجُلٌ عليه رداء، إما إزارٌ وإما كِساءٌ قد رَبطوا في أعناقِهم، فمنها ما يَبلغُ نِصفَ الساقَين، ومنها ما يَبلُغُ الكَعْبَين، فيَجْمعهُ بيَدِه كراهيةَ أن تُرَى عَورَتُه)[4]، إن هذه النصوص تدل على مدى شدة العيش التي كان فيها صحابة رسول الله ﷺ، وكيف أنهم لم يكونوا يتطلعون إلى الدنيا وزينتها وبهرجها وإنما جعلوها وراء ظهورهم، وأسكنوها خلف قلوبهم، وطرحوها بعيدًا عن عقولهم.

قال ابن القيم: (إن إيثار الدنيا على الآخرة إما من فساد في الإيمان، وإما من فساد في العقل، وما أكثر ما يكون منهما، ولهذا نبذها رسول الله ﷺ وراء ظهره هو

---

(١) أخرجه مسلم ٢٩٧٧.

(٢) أخرجه مسلم ٢٩٧٥.

(٣) أخرجه البخاري ٥٤٩٥، ومسلم ١٩٥٢.

(٤) أخرجه البخاري ٤٤٢.

وأصحابه رضي الله عنهم وصرفوا عنها قلوبهم، وطرحوها ولم يألفوها، وهجروها ولم يميلوا إليها وعدُّها سجنًا لا جنة، فزهدوا فيها حقيقة الزهد. ولو أرادوها لنالوا منها كل محبوب، ولوصلوا منها إلى كل مرغوب فقد عُرضتْ عليه مفاتيح كنوزها فردّها، وفاضت على أصحابه فآثروا بها ولم يبيعوا حظهم من الآخرة بها، وعلموا أنها معبر وممر لا دار مقام ومستقر، وأنها دار عبور لا دار سرور، وأنها سحابة صيف تنقشع عن قليل، وخيال طيف ما استتمّ الزيارة حتى أذَّن بالرحيل)(١).

وقال د. الحسيني عبدالمجيد هاشم: "إن الصحابة رضي الله عنهم ورائدهم في ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا متخففين في العيش واللباس صابرين على البأساء والضراء حيث ساروا حفاة في ثياب عادية لا قمص تحتها ولا لباس خاص للرأس، ومع ذلك احترمهم الأنصار أصحاب البلد وقاموا تكريمًا لهم وإعزازًا لشأنهم، وليأتنس بهم المريض ويذهب عنه بعض الكلام فالعبرة بالمخبر لا بالمظهر وبالإيمان لا بالحطام"(٢).

---

(١) الفوائد، القاضي عياض ١٤١.

(٢) شرح رياض الصالحين ٣٣٢.

الحديث رقم (٥٠٨)

٥٠٨ - وعن عِمْرَان بنِ الحُصَيْنِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ، عن النبي ﷺ ، أنه قَالَ: ((خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ)) قَالَ عِمْرَانُ: فَمَا أدْرِي قَالَ النبي ﷺ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاَثًا ((ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَهُمْ قَوْمٌ يَشْهَدُونَ وَلاَ يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَخُونُونَ وَلاَ يُؤْتَمَنُونَ، وَيَنْذِرُونَ وَلاَ يُوفُونَ، وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ)) متفقٌ عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

عمران بن الحُصْين: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٢).

غريب الألفاظ:

القرون: جمع قرن: أهل كل زمان، وهو مقدار التوسط في أعمار أهل كل زمان[2].

يشهدون ولا يُستشهدون: أي: يؤدون الشهادة بدون طلب لها[3].

السِّمنُ: أي يحبون التوسع في المأكل والمشارب[4].

الشرح الأدبي

الحديث يدور حول معنى الأفضلية، وعلاقتها بالقرب أو البعد من زمن النبوة وقوله (خيركم قرني) البداية بأفعل التفضيل من براعة الاستهلال التي تحقق السيطرة على انتباه المخاطب، وتوجهه للمتكلم، وإضافته إلى كاف الخطاب، وميم الجمع تعطي التفضيل عموماً يرتقي بأفضيلة قرن الرسول ﷺ كل القرون إلى يوم القيامة، وإضافة القرن إليه ﷺ فيها تشريف له؛ لأنه القرن المعلم لكل القرون، واستخدام ثم

---

(١) أخرجه البخاري ٦٤٢٨ واللفظ له، ومسلم ٢٥٣٥/٢١٤. أورده المنذري في ترغيبه ٤٤١٢.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ق ر ن).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير (ش هـ د)، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٢٣، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٠٧/٥.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٠٨/٥.

يشير إلى مساحة كبيرة بين الفضلين تشير إلى فضل منزلة الصحابي على التابعي، وفضل منزلة التابعي على تابع التابعي، وهذه المسافة صورها حرف العطف ثم الدال على التراخي في الترتيب بين القرون، وقوله (ثم يكون بَعْدَهُمْ قَوْمٌ يَشْهَدُونَ وَلاَ يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَخُونُونَ وَلاَ يُؤْتَمَنُونَ، وَيَنْذِرُونَ وَلاَ يُوفُونَ، وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السَّمَنُ) يعرض بعض صور الانحراف عن المنهج الأول ممن وليهم من القرون عن طريق الجناس في قوله (يَشْهَدُونَ وَلاَ يُسْتَشْهَدُونَ) والذي يصور الاندفاع في الباطل، والجرأة على الكذب، وارتكاب الموبقات، والخيانة، وانعدام الأمانة، وهو من علامات الساعة، وقوله (وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السَّمَنُ) هو كناية عن رغبتهم فى الدنيا، وإيثارهم شهواتها على الآخرة، وما أعد الله فيها لأوليائه من الشهوات التى تنفد، والنعيم الذى لا يبيد، فهم يأكلون فى الدنيا كما تأكل الأنعام، ولا يقتدون بمن كان قبلهم من السلف الذين كانت همتهم من الدنيا فى أخذ القوت والبلغة، وتوفير الشهوات إلى الآخرة.

فقه الحديث

هذا الحديث يشير إلى الأحكام الفقهية التالية:

١ - حكم تحمل الشهادة وأدائها: اتفق الفقهاء على أن تحمل الشهادة وأداءها فرض كفاية[١] لكن هناك خلافًا في أداء الشهادة قبل أن تطلب، وذلك بسبب وجود تعارض في الظاهر بين حديث عمران رضي الله عنه المذكور في الباب وفيه "قومٌ يشهدون ولا يُستشهدون" وبين حديث زيد بن خالد الجهني مرفوعًا: ((ألا أخبركم بخير الشهداء، الذي يأتي بشهادته قَبْل أن يُسألها))[٢] فذهب فريق من العلماء إلى الجمع بين هذين الحديثين بناءً على أن الأصل في أداء الشهادة عند الحاكم أن لا يكون إلا بعد الطلب من صاحب الحق، فأجابوا بعدة أجوبة: أحسنها أن المراد بحديث زيد من عنده شهادة

(١) تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ٢٠٨/٤، وحاشية الدسوقي على الشرح الكبير، محمد بن عرفة الدسوقي ١١٤/٦، ١١٥، ومغني المحتاج ٤٥٠/٤، ٤٥١، والمغني، أبن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٢١٥/١٠، ٢١٦.

(٢) أخرجه مسلم ١٧١٩.

لإنسان بحق لا يعلم بها صاحبها فيأتي إليه فيخبره بها، أو يموت صاحبها العالم بها ويخلف ورثة فيأتي الشاهد إليهم أو إلى من يتحدث عنهم فيعلمهم بذلك، قال ابن حجر: (وهذا أحسن الأجوبة وبهذا أجاب يحيى بن سعيد شيخ مالك ومالكٍ وغيرهما)[(١)].

(وذهب بعضهم إلى جواز أداء الشهادة قبل السؤال، على ظاهر عموم حديث زيد بن خالد، وتأولوا حديث عمران بتأويلات: أحدها: أنه محمول على شهادة الزور، أي يؤدون شهادة لم يسبق لهم تحملها، وهذا حكاه الترمذي عن بعض أهل العلم)[(٢)].

٢ - حكم النذر: أجمع الفقهاء على صحة النذر في الجملة ولزوم الوفاء به إن كان طاعة، كما أجمعوا على أنه لا يحل الوفاء بالنذر إن كان معصية كالقتل وشرب الخمر[(٣)].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: إخبار النبي ﷺ بخيرية القرون الثلاثة الأولى.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: إخباره ﷺ بحدوث النقص في القرون التالية للقرون الثلاثة التي ذكرها النبي ﷺ.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: التحذير.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: بيان النبي ﷺ لبعض الآفات والأمراض الاجتماعية من بعده.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥/٢٦٠.

(٢) السابق الموضع ذاته، وانظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٩/١٢/٦، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ١٧٢٥-١٧٢٦، وانظر كذلك: المغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٢١٠/١٤-٢١١، ورد المحتار على الدر المختار ابن عمر عابدين، تحقيق: علي محمد معوض ٣٧٠/٤، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن المغربي ١٦٥/٦، مغني المحتاج ٤٣٦/٤، ومطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، السيوطي ٤٩٤/٦، ٤٩٥.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٨٠٤/١١، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ٥٧٢/٨، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٩٢/١٠-٩٣، والاختيار ٢٥٧/٣، وبداية المجتهد ٥٥٨/١، والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢٦١/٧.

أولاً – من موضوعات الدعوة: إخبار النبي ﷺ بخيرية القرون الثلاثة الأولى:

إن ملاقاة رسول الله ﷺ وصحبته لا يعدلها شيء وكذلك صحبة أصحابه. وقد أخبر النبي ﷺ بخيرية القرون الثلاثة الأولى؛ حيث جاء في الحديث "خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم" قال النووي: (اتفق العلماء على أن خير القرون قرنه ﷺ والمراد أصحابه وتطلق على كل مسلم رأى النبي ﷺ ولو ساعة فهو من أصحابه، والقرن الثاني هم التابعون والثالث هم تابعوهم)[١].

وقال ابن حجر: (وقوله "خير أمتي قرني" أي أهل قرني والقرن أهل زمان واحد متقارب اشتركوا في أمر من الأمور المقصودة والمراد بقرنه: الصحابة رضي الله عنهم والذين بعدهم التابعون، ثم الذين يلونهم هم أتباع التابعين واقتضى هذا الحديث أن يكون الصحابة رضي الله عنهم أفضل من التابعين، والتابعون أفضل من أتباع التابعين، وفضيلة الصحبة لا يعدلها عمل لمشاهدة رسول الله ﷺ وأما من اتفق له الذبّ عنه والسبق إليه بالهجرة أو النصرة وضبط الشرع المتلقي عنه وتبليغه لمن بعده، فإنه لا يعدله أحد ممن يأتي بعده، لأنه ما من خصلة من الخصال المذكورة إلا وللذي سبق بها مثل أجر من عمل بها من بعده، فظهر فضلهم)[٢]. ولا أدل على فضل الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم من التابعين مما جاء عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((يأتي على الناس زمانٌ فَيغزو فِئَامٌ من الناس، فيقولون: فيكم مَن صاحبَ رسولَ اللّهِ ﷺ؟ فيقولون لهم: نعم، فيُفتَحُ لهم. ثمَّ يأتي على الناسِ زمانٌ فَيغزو فِئام منَ الناس فيقال: هل فيكم مَن صاحبَ أصحابَ رسولِ اللّه ﷺ؟ فيقولون: نعم، فيُفتَحُ لهم ثم يأتي على الناس زمان، فيغزو فئام من الناس، فيقال: هل فيكم من صاحب من صاحب أصحاب رسول الله ﷺ فيقولون: نعم، فيفتح لهم))[٣].

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٢٤.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٩/٧.

(٣) أخرجه البخاري ٣٦٤٩، ومسلم ٢٥٣٢.

إن الصحابة الكرام رضي الله عنهم بذلوا الغالي والنفيس في سبيل الدعوة، والجهاد مع رسول الله ﷺ ولذا استحقوا هذه الخيرية، واستحقها أيضًا من تشرف بصحبتهم.

قال أبو الحسن الندوي: (إن الصحابة رضي الله عنهم لما جاءتهم دعوة الإسلام فآمنوا بها، وصدقتها قلوبهم، ووضعوا أيديهم في يد الرسول ﷺ وهانت عليهم نفوسهم وأموالهم وعشيرتهم واستطابوا المرارات والمكاره في سبيل الدعوة إلى الله، وأفضى يقينها إلى قلوبهم وسيطر على نفوسهم وعقولهم، وصدرت عنهم عجائب الإيمان بالغيب، والحب لله والرسول والرحمة على المؤمنين، والشدة على الكافرين، وإيثار الآخرة على الدنيا، وإيثار الآجل على العاجل، والغيب على الشهود، والهداية على الجباية، والحرص على دعوة الناس، وإخراج خلق الله من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ومن ضيق الدنيا إلى سعتها والاستهانة بزخارف الدنيا وحطامها، والشوق إلى لقاء الله والحنين إلى الجنة وعلو الهمة وبعد النظر في نشر رفد الإسلام وخيراته في العالم وانتشارهم لأجل ذلك في مشارق الأرض ومغاربها وسهولها وحزونها وأغوارها وأنجادها حتى أقبلت القلوب إلى الله، ودخل الناس في دين الله أفواجًا)[١].

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: إخباره ﷺ بحدوث النقص في القرون التالية للقرون الثلاثة التي ذكرها ﷺ:

لقد أيد الله تعالى نبيه بالكثير من الدلائل والمعجزات التي تبرهن على صدقه في نبوته، وصحة رسالته ومن دلائل نبوته التي أعطاه الله إياها إخباره عن الغيوب المستقبلة. جاء في الحديث "ثم يكون بعدهم قوم يشهدون ولا يستشهدون ويخونون ولا يؤتمنون وينذرون ولا يوفون ويظهر فيهم السمن" قال النووي: (وفي هذا الحديث دلائل للنبوة، ومعجزة ظاهرة لرسول الله ﷺ فإن كل الأمور التي أخبر بها وقعت كما أخبر)[٢].

ومما لا شك فيه أن هذا من دلائل نبوته فإن الله عز وجل هو الذي يخبره قال تعالى:

(١) من مقدمة أبو الحسن الندوي لكتاب: حياة الصحابة لمحمد يوسف الكاندهلوي، ص ٧.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٢٤.

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[١] والنصوص الشرعية في هذا المعنى كثيرة فمن نصوص القرآن في الإخبار عن الأمور التي ستقع ووقعت بالفعل قوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾[٢] ومما جاء في السنة قوله ﷺ ((لاَ يَزَالُ هذَا الدينُ قَائِمًا حَتَّى يَكُونَ عَلَيْكُمْ اثْنَا عَشَرَ خَلِيفَةً مِنْ قُرَيْشٍ ثُمَّ يَخْرُجُ كَذَّابُونَ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ))[٣].

ومن الأحاديث أيضًا التي فيها من دلائل النبوة بإخبار النبي ﷺ بحدوث النقص في القرون التالية للقرون الثلاثة الأولى ما جاء في مسند أبي داود الطيالسي عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إنكم في النُّبُوَّةُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلاَفَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضًّا، فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا جَبْرِيَّةً، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلاَفَةً عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ))[٤].

ولا يُعد إخبار النبي ﷺ بحدوث النقص في القرون التالية للقرون الثلاثة الأولى من قبل علمه بالغيب من تلقاء نفسه فلقد علم الله نبيه أن ينفي عن نفسه علم الغيب قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾[٥] وإنما يخبر الرسول ﷺ عن ذلك بإخبار الله تعالى له، واطلاعه على بعض الغيوب وقد نص الله على ذلك في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن

---

(١) سورة النجم، آية: ٣، ٤.

(٢) سورة الروم، آية: ٢-٤.

(٣) أخرجه مسلم ١٨٢٢.

(٤) أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده رقم ٤٣٩، وقال محقق المسند: إسناده حسن. انظر: مسند أبي داود الطيالسي ١/٣٥٠.

(٥) سورة الأنعام، آية: ٥٠.

رَّسُولٍ﴾[١] ويأتي إعلام الله لنبيه ببعض الغيوب للدلالة على ثبوت نبوته وصدق رسالته.

ثالثًا - من أساليب الدعوة: التحذير:

يظهر هذا من سياق الحديث ومما هو معلوم أن أسلوب التحذير يبين للمدعو خطورة المحذر منه ومن ناحية أخرى يبين مدى حرص الداعي على المدعوين ولذا يحذرهم مما فيه شر ولقد قال الله تعالى عن نبيه ﷺ: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٢].

رابعًا - من موضوعات الدعوة: بيان النبي ﷺ لبعض الآفات والأمراض الاجتماعية من بعده:

إن المجتمع قد تصيبه بعض الآفات والأمراض الاجتماعية، وهنا يبرز دور الداعية في كشف هذه العلل، وإبراز هذه الأمراض ليحذر منها المسلم ويتوقاها وفي الحديث بعد أن بيّن النبي ﷺ خيرية القرون الثلاثة أبان عن صفات من يأتي بعدهم فقال: ثم يكون بعدهم قوم "يخونون ولا يؤتمنون ويشهدون ولا يستشهدون وينذرون ولا يوفون ويظهر فيهم السمن") قال ابن حجر: (والمعنى أنهم لا يثق الناس بهم ولا يعتقدونهم أمناء، بأن تكون خيانتهم ظاهرة، بحيث لا يبقى للناس اعتماد عليهم، وكونهم يشهدون ولا يستشهدون يحتمل أن يكون المراد التحمل بدون التحميل، أو الأداء بدون طلب، والثاني أقرب، وقيل هذا محمول على شهادة الزور أي: يؤدون شهادة لم يسبق لهم تحملها، وينذرون ولا يوفون ويظهر فيهم السمن أي يحبون التوسع في المأكل والمشرب، وهي من أسباب السمن، وقيل المراد يظهر فيهم كثرة المال، وإنما كان السمن مذمومًا لأن السمين غالبًا بليد الفهم ثقيل عن العبادة كما هو مشهور)[٣].

هذا ويجب على المدعو أن يتجنب هذه الآفات والأمراض الاجتماعية لأنها مذمومة وغير محمودة في الشرع، وواجب الدعاة تذكير الناس وتحذيرهم من تلك الآفات

---

(١) سورة الجن، آية: ٢٦.

(٢) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٠٨/٥.

والأمراض الاجتماعية التي قد تصيبهم، لأن الداعية أشبه بالطبيب الذي ينصح المرضى، ويحذرهم من العلل. ولقد كان النبي ﷺ - وهو إمام الدعاة - قدوة في هذا الأمر فعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ((مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَوْقَدَ نَارًا. فَجَعَلَ الْجَنَادِبُ وَالْفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهَا. وَهُوَ يَذُبُّهُنَّ عَنْهَا. وَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ. وَأَنْتُمْ تَفَلَّتُونَ مِنْ يَدِي))[1].

(١) أخرجه مسلم ٢٢٨٥.

الحديث رقم (٥٠٩)

٥٠٩ - وعن أَبي أُمَامَة رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((يَا ابْنَ آدَمَ، إنَّكَ أنْ تَبْذُلَ الفَضْلَ خَيرٌ لَكَ، وَأنْ تُمسِكَهُ شَرٌّ لَكَ، ولاَ تُلامُ عَلَى كَفَافٍ، وَابْدأ بِمَنْ تَعُولُ)) رواه الترمذيُّ[1]، وقال: (حديث حسن صحيح).

ترجمة الراوي:

أبو أُمامة الباهليُّ: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧٣).

غريب الألفاظ:

الفضلَ: ما زاد على قدر الحاجة[2].

الكفاف: قدر الحاجة[3].

من تعول: من يلزمك نفقته[4].

الشرح الأدبي

الحديث يبدأ بالنداء العام لكل بني آدم قال الطيبي (والخطاب العام: وهو ما يخاطب به غير معين للإيذان بأن الأمر لعظمه، وفخامته، حقيق بألا يختص بأحد دون أحد)[5] وبين يبذل، وتمسك طباق يقرر معنى أفضلية الإنفاق، وضرر الإمساك، والجار، والمجرور (لك) يقرر تعلق نتيجة الفعل بصاحبها في الحالتين، وقوله (ولاَ تُلاَمُ عَلَى كَفَافٍ)، ومعناه: إن بذلت الفاضل عن حاجتك وحاجة عيالك فهو خير لك لبقاء ثوابه وان أمسكته فهو شر لك؛ لأنه إن

---

(١) برقم ٢٣٤٣. أورده المنذري في ترغيبه ١٣٤٣.

تنبيه: الحديث أخرجه مسلم ١٠٣٦/٩٧ ولفظهما سواء. وزاد في آخره: (واليد العليا خير من اليد السفلى). وكذا عزاه المنذري في الترغيب إلى مسلم والترمذي.

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٨٦٢/٢.

(٣) المرجع السابق ١٨٦٢/٢.

(٤) المرجع السابق ١٨٦٢/٢.

(٥) التباين في علم المعاني والبديع والبيان للطيبي ص ٢٩٢.

أمسك عن الواجب استحق العقاب عليه وإن أمسك عن المندوب فقد نقص ثوابه، وفوت مصلحة نفسه في آخرته وهذا كله شر، ومعنى لا تلام على كفاف أن قدر الحاجة لا لوم على صاحبه، وقوله (ابدأ بمن تعول) أمر بمعنى التوجيه، والإرشاد ومعناه أن العيال، والقرابة أحق من الأجانب في البداية بالإنفاق.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النداء، والترغيب.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الحث على البذل وعدم الإمساك.

ثالثًا: من خصائص الدعوة: رفع الحرج.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: مراعاة الأولويات في الإنفاق.

أولاً: من أساليب الدعوة: النداء، والترغيب:

١ - **النداء:** حيث جاء في الحديث: "يا ابن آدم" وهذا نداء للإنسان وتذكيره بأنه ابن آدم حيث ينتسب الناس جميعًا إلى هذا الأصل، ولا شك أن أسلوب النداء من الأساليب الدعوية النافعة، وهو يُشعر المنادَى عليه بالقرب من المنادي واهتمامه به، وأسلوب النداء يلفت انتباه المدعو، ويشده إلى الموعظة، ومن صور استخدام القرآن الكريم لهذا الأسلوب قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٍ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾[2]، وقوله جلّ شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾[3].

٢ - **الترغيب:** حيث جاء في الحديث: "إنك إن تبذل الفضل خير لك"، وهذا ترغيب في إنفاق الفضل من المال، وبأن هذا الإنفاق خير للإنسان في الدنيا والآخرة، ويعتبر أسلوب الترغيب من أساليب الدعوة الناجحة حيث يحبب الخير إلى النفوس، ويشد

---

(١) سورة الأعراف، آية: ٣١.

(٢) سورة الحج، آية: ١.

(٣) سورة الانفطار، آية: ٦.

القلوب إلى الطاعة والرغبة والترغيب والترهيب يفيض بهما بحر الكتاب والسنة، ولا ريب أن غريزة حب الإنسان لنفسه تدفعه إلى أن يحقق لها كل خير، وأن يحميها من كل شر سواء ما كان فيهما من عاجل، وما كان من آجل، ومن هنا تحرص النفوس الموفقة على وعي هداية القرآن وهدي الرسول ﷺ، وتعمل جاهدة على أن تحفظ منهما ما وسعها الإمكان[١]، ومن صور استخدام القرآن الكريم لأسلوب الترغيب، قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾[٢]، وقوله جل شأنه: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[٣].

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: الحث على البذل وعدم الإمساك:

إن من الأخلاق الإسلامية الطيبة البذل والعطاء وعدم الإمساك، ولقد فاضت نصوص الكتاب والسنة في الحث على التزام هذا الخلق، ولقد جاء الحديث الذي معنا: "إنك إن تبذل الفضل خير لك وإن تمسكه شر لك"، قال النووي: (ومعناه إن بذلت الفضل عن حاجتك وحاجة عيالك فهو خير لك لبقاء ثوابه، وإن أمسكته فهو شر لك لأنه إن أمسك عن الواجب استحق العقاب عليه، وإن أمسك عن المندوب فقد نقص ثوابه وفوت مصلحة نفسه في آخرته وهذا كله شر)[٤]، وقال المباركفوري: (أي: إنفاق الزيادة على قدر الحاجة والكفاف خير لك أي في الدنيا والآخرة وإن تمسك ذلك الفضل وتمنعه فهو شر)[٥].

وقد دلت النصوص الشرعية على فضل الإنفاق والبذل في سبيل الله للفقراء والمساكين، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٦]، وقال سبحانه وتعالى:

---

(١) قواعد الدعوة الإسلامية، د. حمدان الهجاري، ص ٥٠٩.

(٢) سورة فاطر، آية: ٣٣.

(٣) سورة القمر، الآيتان: ٥٤ - ٥٥.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦٥٥.

(٥) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٨٦٢/٢.

(٦) سورة البقرة، آية: ٢٦٢.

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[١]، وقال جل شأنه: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾[٣]، وبينت الآيات أن الشح مرض خطير والمفلح من يتوقاه قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[٤]، واستنكرت الآيات على من يمسك ماله قال جلّ شأنه: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾[٥].

إن هذا الحديث الذي معنا يبين للمسلم أن عاقبة البذل والعطاء تعود على صاحبها بالنفع، وعاقبة الإمساك والشح الشر البوار، "إن الإنسان له الحق فيما يكف عن الحاجات ويدفع الضرورات والفاقات، ولا يلحق بأهل الترفيهات، وهذا أحسن الأحوال لسلامته من وصمة كل من الفقر والغنى. وما فضل عن ذلك فالإنسان إما أن يمسكه ويحرص عليه بأي ادعاء، وإما أن ينفقه في سبيل الله، إن أنفقه انتفع بثوابه، وإن أمسكه تحمل مسؤوليته، ويتدرج الإنفاق الواجب على الإنسان ابتداء ممن يعولهم ويقوم بتوفير متطلبات عيشتهم، ثم بالقريب الذي لا يعول، ثم بفقير الحي ثم البلدة، ثم أي فقير، وبهذا يتخلص المجتمع من التكالب على الماديات والتفاني في تحصيلها"[٦].

ثالثًا - من خصائص الدعوة: رفع الحرج:

إن الشريعة الإسلامية جاءت بالتيسير ورفع الحرج والمشقة والإصر، وهذا من أعظم

---

(١) سورة سبأ، آية: ٣٩.

(٢) سورة الحديد، آية: ١٨.

(٣) سورة المزمل، آية: ٢٠.

(٤) سورة التغابن، آية: ١٦.

(٥) سورة النساء، آية: ٣٩.

(٦) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني عبدالمجيد هاشم، ص ٣٣٣.

خصائصها، ومما يدل على ذلك من الحديث في قوله ﷺ: "ولا تلام على كفاف"، قال النووي: (والمراد أن قدر الحاجة لا لوم على صاحبه وهذا إذا لم يتوجه في الكفاف حق شرعي كمن كان له نصاب زكوي ووجبت الزكاة بشروطها وهو محتاج إلى ذلك النصاب لكفافه وجب عليه إخراج الزكاة ويحصل كفايته من جهة مباحة)(١).

ولا شك أن هذا من يسر الشريعة وسماحتها حيث لا يطالب المسلم بالبذل والإنفاق ما دام الذي عنده من مال على قدر حاجته، وقد دلت نصوص القرآن أن رفع الحرج من خصائص الإسلام، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾(٢)، وقال سبحانه: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾(٣)، أي: ما كلفكم ما لا تطيقون وما ألزمكم بشيء شقّ عليكم إلا جعل الله لكم فرجًا ومخرجًا(٤).

لذا كان الضيق والمشقة مما يتنافى مع روح الشريعة الإسلامية التي بنيت على التيسير والتخفيف عن الناس(٥)، ويظهر رفع الحرج في الفرائض والتكاليف التي أمر الله بها العباد، (فإن من مظاهر عدم الحرج في الشريعة الإسلامية: قلة التكاليف التي كلف الله بها عباده، إذ في كثرة التكاليف من الحرج ما يضعف النفس ويورثها الملل، والانقطاع عن الأعمال النافعة، وقد تكرم الله برفع ذلك)(٦)، إن الإسلام دين الفطرة، ولذا فهو يتواءم معها، (لأن فطرة الإنسان الطبيعية تأنف الإكراه، وتتأذى من المشقة وتضيق بالحرج، وربما دفعها هذا إلى خلع ربقة الطاعة، والسير في طريق المعصية وترك التكاليف الشرعية جملة، ولأن الإسلام يراعي الفطرة فقد راعى التيسير ورفع الحرج

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦٥٥.

(٢) سورة الحج، آية: ٧٨.

(٣) سورة المائدة، آية: ٦.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢/٨.

(٥) انظر: اليسر في القرآن الكريم، رأفت كامل عيد السيوري ص ٢٥.

(٦) مظاهر التيسير في التشريع الإسلامي، د. عبدالعزيز عزام، ص ٢٣.

عن الناس، ليسلموا لله قلوبهم وترضى بحكمه نفوسهم، ويزداد لله حبهم. وعلى العكس من ذلك فإن التعسير وطلب المشقة والتشدد والفهم الخاطئ لحقيقة هذا الدين يضع حواجز كبيرة بين الناس وبين الاستجابة لأمر الله)[١]، ويظهر من هذا أن من خصائص الدعوة رفع الحرج، وعلى الدعاة الهداة إبراز هذه المعاني للمدعوين، وبيان روح الشريعة وروح الدين الإسلامي.

رابعًا - من موضوعات الدعوة: مراعاة الأولويات في الإنفاق:

إن الإسلام يعلم المسلم مراعاة فقه الأولويات في حياته فيبدأ بالأهم ثم بالمهم، ويظهر هذا التوجيه من الحديث في قوله ﷺ: "وابدأ بمن تعول"، قال المباركفوري: (أي ابتدئ في إعطاء الزائد على قدر الكفاف بمن تعول أي بمن تمونه وتلزمك نفقته، وفي هذا تقديم نفقة النفس والعيال لأنها منحصرة فيه بخلاف نفقة غيرهم وفي الحديث الابتداء بالأهم فالأهم في الأمور الشرعية)[٢]، وقد بيّن الله هذا التدرج في الإنفاق فقال: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾[٣]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ﴾[٤]، وقد علمَّ رسول الله ﷺ أصحابه رضي الله عنهم مراعاة الأولويات في النفقة والبدء بمن تلزمه النفقة، فعن أبي مسعود البدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا أَنْفَقَ عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةً، وَهُوَ يَحْتَسِبُهَا، كَانَتْ لَهُ صَدَقَةً))[٥]، وعن ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها أنها أعتقت وليدة في زمان رسول الله ﷺ فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: ((لو أعطَيْتِها أخوالَكِ كانَ أعظمَ لأجرِكِ))[٦].

---

(١) التيسير ورفع الحرج، د. جمال عبدالستار محمد ص ٥٣ - ٥٤.

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٨٦٢/٢.

(٣) سورة الإسراء، آية: ٢٦.

(٤) سورة البقرة، آية: ١٧٧.

(٥) أخرجه البخاري ٥٥، ومسلم ١٠٠٢ واللفظ له.

(٦) أخرجه البخاري ٢٥٩٢، ومسلم ٩٩٩ واللفظ له.

ويتحصل من هذه النصوص أنه ينبغي مراعاة ترتيب الأولويات في النفقة، قال العز بن عبدالسلام: (ومن رفقه سبحانه وتعالى بنا أمرنا إذا اجتمع مصلحتان: قاصرتان أو متعديتان أن نحصلهما، فإن عجزنا عن تحصيلهما حصَّلنا أعلاهما، وإن اجتمعت مفسدتان: قاصرتان أو متعديتان، أن ندفعهما فإن تعذر دفعهما دفعنا أقبحهما وأكثرهما، فتُقدِّم الفرض على النفل، والمضيق على الموسع، والأوجب على الواجب، والأفضل على الفاضل، ونقدم الأرواح على الأعضاء والأبضاع، ونقدم النفقات على الديون، والديون على الهبات والصدقات وسائر التبرعات. وإن بذلنا الأموال أو شيئًا من أنواع قدَّمنا بالرحم والجوار والضعف والعجز وشدة الضرورة ومسيس الحاجة. ونقدم المستور الخامل على المستور السائل فإن اجتمع مضطرون لا تجب نفقتهم ومعنا كفاية أحدهم قدمنا الأفضل فالأفضل)[1].

---

(١) شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال ٣٥١ - ٣٥٢.

الحديث رقم (٥١٠)

٥١٠ - وعن عُبَيْدِ الله بنِ محْصن الأَنصَارِيِّ الخطميِّ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: ((مَنْ أصبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سربِهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا)) رواه الترمذيُّ[1]، وقال: (حديث حسن).

ترجمة الراوي:

عبيد الله بن مِحصَن الأنصاري: هو عبيدالله - ويقال: عبدالله - بن مِحصَن الأنصاريّ الخَطْمي، كنيته أبو سلمة.

مختلف في صحبته، روى عنه ابنه سلمة، وليس له في السنن إلا هذا الحديث الواحد المذكور. قال ابن عبدالبر: منهم من جعل هذا الحديث مرسلاً وأكثرهم يصحح صحبة عبيدالله بن مِحصَن هذا. فيجعل حديثه مسندًا[2].

غريب الألفاظ:

سربِهِ: نفسه، وقيل: قومه[3].

حِيزَتْ: جُمعت وضُمَّت[4].

---

(١) برقم (٢٣٤٦) وقال: حديث حسنٌ غريبٌ. وأخرجه العقيلي في الضعفاء الكبير (١٤٦/٢) وقال: وقد روي مثل هذا الكلام عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ بإسناد يشبه هذا في اللين، ولا أبعد أن يكون عبد الرحمن بن أبي شميلة هذا هو محمد بن سعيد المصلوب، لأن مروان بن معاوية يغيّر اسمه على أنواع كثيرة، فلعل سعيد هذا هو أبو شميلة، وجعله عبد الرحمن وهو كذلك، لأن الألفاظ في هذا الحديث تشبه ألفاظه. أورده المنذري في ترغيبه (١٢٢٤).

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر ٤٦٢ وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٥٢٥/٣) والإصابة في تمييز الصحابة، ابن علي العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ٨٧٤، والتاريخ الكبير للبخاري (٣٧٢/٥) وثقات ابن حبان (٢٤٨/٣) وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين (٢٦٤/٤)، والتهذيب (٤١٩/٢).

(٣) رياض الصالحين ٢٣٩.

(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ح ذ ف ر).

بحذافيرها: جمع حُذفور وحِذْفار: جانب الشيء، أي: بأسرها[1].

الشرح الأدبي

من اسم موصول بمعنى الذي يؤذن بتنبيه أهل العقل إلى الفضل، ومعنى أصبح أي أدرك الصباح، والجار، والمجرور (منكم) يفيد الشمول، والاستغراق، والتعبير بالأمن يوحي بالطمأنينة التي تؤذن بتمتع النفس ببقية النعم، وبدونها لا يتم للإنسان متاع بأي نعمة، وقوله :(في سربه) السرب الطريق، وبالكسر الطريق، والبال والقلب، والنفس، والجماعة، وبالتحريك جحر الوحشي، والحفير تحت الأرض، فيكون المراد من الحديث المبالغة في حصول الأمن ولو في بيت تحت الأرض ضيق كجحر الوحش، أو التشبيه به في خفائه، وعدم ضيائه، والمعافاة في الجسد تشير إلى سلامته من الأمراض، والتعبير بالظرف (عنده) يشير إلى الملك، والتعبير بالقوت إشارة إلى الضروري مما يقتات به الإنسان، وذكر الظرف يوم، وإضافته للضمير يشير إلى اليوم الذي هو فيه، وقوله (فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا) الفاء للترتيب، والتعقيب وكأن أداة تشبيه تدل على قوة الشبه بين الطرفين، وتشبيه من كانت هذه حاله بحال من جمع الدنيا من كل أطرافها، يشير إلى أنه نال كل ما يلزمه من نعم الله، ولزمه الشكر ووجه الشبه تمام تحقق المراد الذي يهيب بكل من تجمعت عنده هذه النعم الرضا، وحمد الله تعالى.

المضامين الدعوية

أولاً: من مهام الداعية: بيان الحقائق للمدعوين.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: أهمية استشعار نعمة الأمن والعافية وتوفر القوت.

ثالثًا: من واجبات المدعو: شكر الله تعالى والصبر على صعوبة العيش.

أولاً - من مهام الداعية: بيان الحقائق للمدعوين:

إن الداعية من شأنه أنه مبلغ لوحي الله كاشف لحقائق الدين مذكر للناس إذا غفلوا، معلم إذا جهلوا، ولذا كان من واجبات الداعية بيان الحقائق للمدعوين. وقد

---

(١) لسان العرب، ابن منظور في (ح ي ز).

جاء في الحديث "من أصبح منكم آمنًا في سربه معافى في جسده..." وهذا بيان للحقائق في حياة الناس التي يمكن أن يكونوا في غفلة عنها، ومن ثم تبرز واجبات الداعية لتأكد الضرورة الشرعية ببيان الحقائق للمدعوين حتى يستيقظ من كان منهم في غفلة، ويفيق من كان منهم في سبات عميق وبين الله عز وجل أن مهمة الرسل هي البلاغ والبيان للناس قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾(١) وقال سبحانه: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾(٢) وقال جل شأنه ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ﴾(٣) وفي بلاغ الرسل، وبيان حقائق الدين الذي يدعون إليه تقوم الحجة على الناس، قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ﴾(٤) وأرشد الله نبيه محمدًا ﷺ أنه أنزل عليه الذكر ليبينه للناس، قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٥).

قال الدكتور عبدالكريم البكار: (إن الوظيفة الأساسية للرسل عليهم الصلاة والسلام ليست إعمار الأرض ولا توفير الرفاهية للناس أو إطعام الفقراء، وإنما تبليغهم الرسالة التي حملهم الله تعالى إياها، والقيام بعملية التبليغ هو أكبر ضمان لتحجيم الثورات الاجتماعية التي تعصف بالصالح والطالح فمن خلال التذكير بالواجبات، والحث على ترك المنكرات، وبيان المبادئ الأساسية التي تبتغي مراعاتها ينشط التبادل الاجتماعي الذي يعلم الناس تحمل مسؤولياتهم تجاه أنفسهم ودينهم ومجتمعهم)(٦).

---

(١) سورة النور، آية: ٥٤.

(٢) سورة النحل، آية: ٣٥.

(٣) سورة الشورى، آية: ٤٨.

(٤) سورة النساء، آية: ١٦٥.

(٥) سورة النحل، آية: ٤٤.

(٦) مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي ١٤٨، ١٤٩.

والدعاة الهداة أحوج الناس إلى معرفة الطرق التي تعينهم على بيان الحقائق للمدعوين (إن الدعاة وعلماء الشريعة بحاجة إلى أن يكتسبوا ويتعلموا قواعد وأصول وأساليب الإقناع والبلاغ حتى يكونوا دعاة مؤثرين، يجتذبون الناس ويستقطبون الشباب، ويرشدون العامة والخاصة، وبدون معرفة فن الإبلاغ وكيفية إيصال العلم إلى المحتاجين إليه يظل العلم حبيسًا في أعماقهم)[1].

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: أهمية استشعار نعمة الأمن والعافية وتوفر القوت:

إن من أعظم النعم التي امتن الله بها على خلقه وعباده نعمة الأمن والعافية ولا يعرف قيمتها إلا من ابتلي بفقدها، ولذا ذكّر بها النبي ﷺ في الحديث فقال: "من أصبح منكم آمنًا في سربه معافى في جسده عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا" قال المباركفوري: (من أصبح منكم أيها المؤمنون آمنًا غير خائف من عدو في سربه أي في نفسه، وقيل: في أهله وعياله وقيل: في مسلكه وطريقه، وقيل: في بيته، فيكون المراد من الحديث المبالغة في حصول الأمن، ولو في بيت تحت الأرض ضيق، ومعافى أي صحيحًا سالمًا من العلل والأسقام في جسده ظاهرًا وباطنًا، عنده كفاية قوته من وجه الحلال، فكأنما جمعت وضمت له الدنيا، والمعنى فكأنما أعطي الدنيا بأسرها)[2].

ويتضح من هذا أهمية استشعار نعمة الله تعالى في الأمن والعافية والرزق، وواجب المسلم ألا يجعل نفسه تتطلع إلى زهرة الحياة الدنيا، فإن هذا يجعله يجحد نعمة الله عليه إذا ما فقد شيئًا من زينة الدنيا وزخرفها (والزهد عبارة عن الرغبة عن حظوظ النفس كلها إلى ما هو خير منها علمًا بأن المتروك حقير بالإضافة إلى المأخوذ، وعلى الإنسان أن يمرن نفسه أن لا تفرح بموجود ولا تحزن على مفقود، وأن يكون الإنسان أنسه بالله تعالى والغالب على قلبه حلاوة الطاعة)[3]. وقد امتن الله على قريش بنعمة

---

(١) رؤى على طريق الدعوة، د. عبدالقادر طاش ص ٢٠٠.

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٨٦٤/٢.

(٣) موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين، محمد جمال الدين القاسمي، دار الفكر، بدون ذكر التاريخ ورقم الطبعة ٣٦٤/٢.

الإطعام والأمن فقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾[١].

قال ابن كثير: (أرشدهم الله إلى شكر هذه النعمة العظيمة فرب البيت هو الذي أطعمهم من جوع وتفضل عليهم بالأمن فليفردوه بالعبادة وحده لا شريك له، ولهذا من استجاب لهذا الأمر جمع الله له بين أمن الدنيا وأمن الآخرة، ومن عصاه سلبهما منه)[٢].

ثالثًا - من واجبات المدعو: شكر الله تعالى والصبر على صعوبة العيش:

من الخصال الطيبة التي ينبغي أن يتحلى بها المؤمن شكر الله في السراء والضراء لأنه سبحانه مستحق للحمد والشكر على كل حال، ويتضح الإرشاد إلى ذلك من سياق الحديث وما من شك في أن نعم الله كثيرة ووفيرة، وواجب المسلم الشكر عليها لينال الزيادة منها، قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ﴾[٣] (إن شكر الله تعالى يتجلى في شهوده في نعمه ومعرفته في آلائه، كما يتجلى في حبه والثناء عليه، ولا يتحقق الشكر إلا إذا صرف المرء النعمة التي وهبها الله له فيما يرضاه وينفع الإنسان وينفع غيره، وفي المقابل الجحود ونكران الجميل شر ما يبتلى به الإنسان لأنه يحول النعمة إلى نقمة والمنحة إلى محنة، وتذهب الصحة والثروة وتضيع آلاء الله عبثًا)[٤].

وبين الله لنا نموذجًا لمن يجحد نعمته، ويكفر بآلائه فقال سبحانه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾[٥].

قال صاحب التفسير الواضح: (جعل الله القرية التي هذه حالها مثلاً لكل قوم أنعم الله عليهم بالنعم فأبطرتهم النعمة، وكفروا وتولوا فأنزل الله عليهم نقمته، وبدل

---

(١) سورة قريش، آية: ٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٤٩٢/٨.

(٣) سورة إبراهيم، آية: ٧.

(٤) إسلامنا، السيد سابق، ٧٣-٧٤.

(٥) سورة النحل، آية: ١١٢.

نعمتهم سوءًا وسرورهم ألمًا وحزنًا، وقد ضربها الله مثلاً لكل قرية خصوصًا مكة، وانظر إلى وصف الله أهل القرية بالأمن والطمأنينة فلا يزعجهم خوف، ولا قلق ثم بالرزق الرغد الواسع الكثير، ومع هذا قدم نعمة الأمن على نعمة الرزق لعل الناس يعتبرون بهذا، ولكنها لما قابلت النعمة بالكفر لا بالشكر أذاقها الله عاقبة عملها ذوقانًا عميقًا، يشبه تذوقهم طعم المر أو أشد)[1].

(١) التفسير الواضح، د. محمد محمود حجازي، ٢/١٤/٧٠.

الحديث رقم (٥١١)

٥١١ - وعن عبد الله بن عَمْرو بنِ العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن رسول الله ﷺ، قَالَ: ((قَدْ أفْلَحَ مَنْ أسْلَمَ، وَكَانَ رِزْقُهُ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللهُ بِمَا آتَاهُ)) رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمرو بن العاص: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٣٨).

غريب الألفاظ:

كَفافًا: بقدر الحاجة[2].

قَنَّعَه: رضَّاه[3].

الشرح الأدبي

قول الرسول ﷺ (قَدْ أفْلَحَ مَنْ أسْلَمَ) افتتاح بديع لأنه من جوامع الكلم فإن الفلاح غاية كل ساع إلى عمله، فالإخبار بفلاح من أسلم دون ذكر متعلّق بفعل الفلاح يقتضي في المقام الخطابي تعميم ما به الفلاح المطلوب، فكأنه قيل: قد أفلح من أسلم في كل ما رغب فيه، ولما كانت همة المسلم منصرفة إلى تمكن الإسلام والعمَلِ الصالح من نفسه كان ذلك إعلاماً بأنه نجح فيما تعلقت به همته من خير الآخرة ومن خيْر الدنيا، ويتضمن بشارة برضى الله عنه، ووعداً بأن الله مكمل له ما يتطلبه من خير، وأكد هذا الخبر بحرف (قد) الذي إذا دخل على الفعل الماضي أفاد التحقيق أي التوكيد، فحرف (قد) في الجملة الفعلية يفيد مفاد (إنّ واللام) في الجملة الاسميَّة، أي يفيد توكيداً قويّاً، لأن من يدخل في الإسلام يترقب بدخوله الفلاح والظفر، ويترقب البشارة بذلك، والإتيان بحرف التحقيق لتنزيل ترقبهم إياه لفرط الرغبة والانتظار منزلة الشك في حصوله،

---

(١) برقم ١٠٥٤/١٢٥. أورده المنذري في ترغيبه ١٢١٨.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ك ف ف).

(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ق ن ع).

وحُذِف المتعلق بفعل الفلاح يشير إلى أنهم أفلحوا فلاحاً كاملاً في كل شيء، والفلاح: الظفَر بالمطلوب من عمل العامل، وربط الفلاح بالإسلام للإشارة إلى أنه السبب الأعظم في الفلاح لتعلق قبول جميع الأعمال على دخوله (﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران٨٥)، وقوله (وكان رزقه كفافا) أي بقدر الكفاية لا يزيد عليها فيطغيه ولا ينقص عنها فيؤذيه فإن الغنى مبطرة مأشرة والفقر مذلة مأسرة، وقوله (وَقَنَّعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ) كناية عن رضاه بما قسم الله له، ونسبة الفعل لله تشير إلى أن القناعة نعمة من الله مما يستلزم على العبد شكرها.

المضامين الدعوية[1]

أولاً: من موضوعات الدعوة: الفلاح في الدنيا في كمال الدين والقناعة.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل الهداية إلى الإسلام.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الترغيب.

أولاً - من موضوعات الدعوة: الفلاح في الدنيا في كمال الدين والقناعة:

إن الفلاح الحقيقي ليس في جمع المال، والاستكثار من الدنيا، ولكن الفلاح في كمال الدين والقناعة برزق الله تعالى، وهذا المعنى يستنبط مما ورد في الحديث في قوله ﷺ: (قد أفلح من أسلم وكان رزقه كفافًا وقنعه الله بما آتاه) وفي التأكيد على ذلك جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: ((لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ))[2].

قال النووي: (والعرض هنا هو متاع الدنيا، ومعنى الحديث الغنى المحمود غنى النفس وشبعها وقلة الحرص عليها، لا كثرة المال مع الحرص على الزيادة، لأن من كان طالبًا للزيادة لم يستغن بما معه فليس له غنى)[3]، وقد وجهت نصوص الشرع الحنيف إلى ضرورة التطلع إلى ما عند الله في الآخرة وعدم الانبهار بزينة الحياة الدنيا،

---

(١) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -٥١١- مع مضامين الحديث رقم (٥١٢).

(٢) أخرجه البخاري ٦٤٤٦، ومسلم ١٠٥١.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦٦١.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾[2]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾[3]، وقال جلّ شأنه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[4].

قال ابن القيم: (والقرآن مملوء من التزهيد في الدنيا، والترغيب في الآخرة والإخبار بشرفها ودوامها، فإذا أراد الله بعبد خيرًا أقام في قلبه شاهدًا يعاين به حقيقة الدنيا والآخرة، ويؤثر منهما ما هو أولى بالإيثار، وقال الجنيد: الزاهد لا يفرح من الدنيا بموجود ولا يأسف منها على مفقود، وهو خلو القلب عما خلت منه اليد)[5].

والمسلم يقنع بما آتاه الله مع حسن إسلامه لله قال ابن قدامة: (وينبغي للفقير أن يكون قانعًا منقطع الطمع عن الخلق، غير ملتفت إلى ما في أيديهم، ولا حريص على اكتساب المال كيف كان، ولا يمكنه ذلك إلا بأن يقنع بقدر الضرورة من المطعم والملبس، وقال أبو حازم: ثلاث من كن فيه كمل عقله: من عرف نفسه، وحفظ لسانه، وقنع بما رزقه الله عز وجل، وقرأ بعض الحكماء أنت أخو العز ما التحفت بالقناعة)[6].

ثانيًا – من موضوعات الدعوة: فضل الهداية إلى الإسلام:

إن من أجل أنواع الهداية، هداية الله الإنسان للإسلام إذ به تكون السعادة في الدنيا والآخرة، وبه تكون النجاة من النار والفوز بالجنة، وبه تكون السعادة

---

(١) سورة النساء، آية: ٧٧.

(٢) سورة الأعلى، الآيتان: ١٦ – ١٧.

(٣) سورة الضحى، آية: ٤.

(٤) سورة طه، آية: ١٣١.

(٥) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢/١٧٨.

(٦) مختصر منهاج القاصدين ٢١٦ – ٢١٧.

والسكينة والطمأنينة، وقد جاء بيان فضل الهداية إلى الإسلام في الحديث في قوله ﷺ: "طوبى لمن هدي إلى الإسلام".

ونعمة الإسلام من نعم الله العظيمة على الإنسان، وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يلهج لسانه بذكر هذه النعمة، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا﴾[1]، والإسلام هو دين الفطرة قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2].

"وبناء على هذا فإن من هُدي إلى الإسلام فقد هُدي إلى صراط مستقيم، "ذلك لأن الإسلام وحده هو الذي وضحت معالمه، وكرمت مبادئه وثبتت مصادره وحفظت من التغيير والتبديل والتصحيف، والإسلام وحده كفيل بأن يحقق للإنسان ما ينشده من ارتقاء، وما يرجوه من كمال ورفعة.

والإسلام هو الذي استهدف قيام حياة إنسانية رفيعة، يتحرر فيها العقل والضمير، وتستقل فيها الإرادة والتفكير، ويشعر فيها كل فرد أنه سيد نفسه ومالك أمره، وأنه لا سلطان لأحد عليه سوى سلطان الحق الذي يعلو ولا يُعلى عليه[3]، والذي يهتدي للإسلام فقد اهتدى إلى الدين الذي ارتضاه الله لعباده: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾[4]، وقوله سبحانه: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[5]، ومن اهتدى للإسلام فقد استمسك بالعروة الوثقى، قال تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ

---

(١) سورة الأنعام، آية: ١٦١.

(٢) سورة الروم، آية: ٣٠.

(٣) إسلامنا، السيد سابق، ص ٨ – ٩.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٩.

(٥) سورة المائدة، آية: ٣.

بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾[١]، والذي يهتدي للإسلام فقد اهتدى إلى أسباب سعادته وسكينته"، إن أول أسباب السكينة لدى المؤمن أنه قد هدي بفطرته إلى الإسلام فإن في فطرة الإنسان فراغًا لا يملؤه علم ولا ثقافة ولا فلسفة، إنما يملؤه الإيمان بالله جلّ وعلا وستظل الفطرة الإنسانية تحس بالتوتر والجوع والظمأ حتى تجد الله وتؤمن به هناك تستريح من تعب وترتوي من ظمأ وتأمن من خوف وتحس بالهداية بعد الحيرة والاستقرار بعد التخبط والاطمئنان بعد القلق[٢].

ثالثًا - من أساليب الدعوة: الترغيب:

حيث جاء في الحديث قوله ﷺ: "قد أفلح"، وقوله: "طوبى لمن هدي"، وأسلوب الترغيب من أساليب الدعوة النافعة، حيث إن النفس تميل بطبعها إلى الأجر والثواب والمنفعة، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾[٣]، والمقصود بالترغيب هو: كل ما يشوق المدعو إلى الاستجابة وقبول الحق والثبات عليه، والأصل فيه أن يكون في نيل رضا الله ورحمته وجزيل ثوابه في الآخرة[٤].

والداعية الحصيف هو الذي يجعل من أسلوب الترغيب طريقًا إلى قلوب المدعوين لجذبهم إلى تعاليم الإسلام، واستمساكهم به.

وفي الحديث جاءت البشارة والترغيب بالفلاح والخير للفقراء إذا حسن إسلامهم ورزقهم الله القناعة، وهذا من قبيل التخفيف عليهم بأن يفتح الله لهم طرقًا موصلة إلى الخير كما جاءوا إلى الرسول الله ﷺ وقالوا: ذهب أهل الدثور بالأجور يصلون كما نصلي ويتصدقون بفضول أموالهم، فقال رسول الله ﷺ: ((أَوَ لَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ مَا تَصَدَّقُونَ بِهِ، إِنَّ بِكُلِ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً، وَبِكُلِ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً، وَبِكُلِ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً...))[٥].

---

(١) سورة لقمان، آية: ٢٢.

(٢) الإيمان والحياة، د. يوسف القرضاوي، ص ٧٧.

(٣) سورة العاديات، آية: ٨.

(٤) أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان، ص ٤٢٧.

(٥) أخرجه مسلم ١٠٠٦.

الحديث رقم (٥١٢)

٥١٢ - وعن أَبي محمدٍ فضَالَة بن عبيدٍ الأنصاريِّ رضي الله عنه : أنه سمع رسول الله ﷺ ، يقول: ((طُوبَى لِمَنْ هُدِيَ لِلإسْلاَمِ[١] ، وَكَانَ عَيْشُهُ كَفَافًا وَقَنِعَ)) رواه الترمذيُّ[٢] ، وقال: (حديث حسن صحيح).

ترجمة الراوي:

فَضَالة بن عُبيد الأنصاري: هو فَضَالة بن عُبيد بن نافذ بن قيس الأنصاري الأوسى، كنتيه: أبو محمد.

أسلم قديمًا لكنه لم يشهد بدرًا ، وشهد أحدًا وما بعدها من غزوات، وكان ممن بايع النبي ﷺ تحت الشجرة ، وقيل: إنه كان أصغر من شهدها. كان مشهورًا بسرعة العدو فكان يسبق الخيل، وظلّ على جهاده فشهد فتح مصر والشام. واستعمله معاوية نظرًا لكفاءته وتقواه، فكان يَسْتخلفه على دمشق إذا غاب عنها. وولاه القضاء بتزكية من أبي الدرداء وقال له: إني لم أحبُكَ بها ، ولكني استترت بك من النار. فاستتْر منها ما استطعت.

ثم ولاه أمر الغزو ، فعبر البحر وغزا الروم وانتصر عليهم.

كان من كبار القراء وله أقوال تدل على عقل راجح وفكر سديد ورأي صائب فضلاً عن تقوى الله وخشيته ، من ذلك قوله: لأن أعلم أن الله يقبل مني مثقال حبّة أحبّ إلي من الدنيا وما فيها ، لأنه تعالى يقول: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[٣].

ومن قوله كذلك: اخلطوا حديثكم بالاستغفار.

مات في خلافة معاوية ٥٣هـ وحمل معاوية جنازته وقال لابنه عبدالله بن

---

(١) لفظ الترمذي: (إلى الإسلام).

(٢) برقم ٢٣٤٩. وصحّحه ابن حبان، الإحسان ٧٠٥ ، وقال الحاكم ٣٤/١: هذا حديث صحيح على شرط مسلم. أورده المنذري في ترغيبه ١٢١٩.

(٣) سورة المائدة ، آية: ٢٧.

معاوية: تعال اعقبني، فإنك لن تحمل مثله أبدًا[1].

غريب الألفاظ:

طوبي: قيل من الطيب. والمعنى: العيش الطيب. وقيل: الحسن. وقيل: الخير. وأصلُها طيبى، فقلبت الياء واوًا لمجانسة الضمة[2].

كفافًا: قدر حاجته[3].

وَقَنِعَ: رضي بالقسم ولم تطمح نفسه لزيادة عليه[4].

الشرح الأدبي

الحديث في معنى سابقه عن القناعة مع الإسلام في قلب المسلم، وأسلوب الحديث فيه بعض الاختلاف في الأسلوب عن سابقه من وجوه منها أنه بدأ بلفظ (طوبى) وهو علم على البشارة في الخير، وقد تعددت فيه الأقوال فقال ابن عباس معناه: فرح وقرة عين لهم، وقيل: الحسنى لهم، وقيل: خير، وكرامة لهم، وقيل: اسم شجر في الجنة، وقيل معناه: أصيب خيرا على الكناية، لأن إصابة الخير مستلزمة لطيب العيش، ولأنه يقال: في حق المصيب طوبى لك فأطلق اللازم على الملزوم، وقيل طوبى تأنيث أطيب أي الراحة، وطيب العيش حاصل لمن كانت هذه صفته، ولذلك فهي تشويق لما بعدها ينتج عنه ترقب، ومتابعة للخبر، وبناء فعل الهداية لما لم يسم فاعله للعلم به، والتعبير بكان

(١) الطبقات الكبرى، ابن سعد ٤٠١/٧، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر ٥٩٩، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود ٣٤٦/٤ والإصابة في تمييز الصحابة، ابن علي العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ١٠٥٤، والسير ١١٣/٣ وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين ٢٨/٦، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٣٨٦/٣ والأعلام، خير الدين الزركلي ١٤٦/٥، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك ١٥٣١/٣.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٥٦٩، ودليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٧٦٦.

(٣) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٨٦٢/٢.

(٤) المرجع السابق ١٨٦٥/٢.

يشير إلى صيرورته عادة في حياته كفاف يمنعه الشر في قناعة تمنعه الضر، فيسلم في الدنيا، ويسعد في الآخرة، ولذلك بدأ الإخبار عنه بطوبى.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (٥١٣)

٥١٣ - وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ رسول الله ﷺ يَبِيتُ اللَّيَالِيَ الْمُتَتَابِعَةَ طَاوِيًا، وَأَهْلُهُ لاَ يَجِدُونَ عَشَاءً، وَكَانَ أَكْثَرُ خُبْزِهِمْ خُبزَ الشَّعِيرِ. رواه الترمذيُّ[1]، وقال: (حديث حسن صحيح).

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١).

غريب الألفاظ:

طاويًا: خالي البطن جائعًا[2].

الشرح الأدبي

تعبير ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بكان يدل على أنه نسق حياته وعادته، وقوله يبيت يصور اجتماع ظلام الليل مع شدة الجوع مع تعذر الرزق لأن لليل الذي يدل عليه فعل المبيت وقت سكن، وليس وقت سعي، وقوله الليالي يؤكد هذا المعنى وقوله المتتابعة تتميم بلاغي أفاد تواصل الجوع دون أن يتخلله قاطع وهو ما يجعل وطأة الجوع تستحكم، وهو ما صوره اسم الفاعل الذي جاء في صورة الحال (طاويا) ليصور الدوام في الطي، والأمعاء يطوي بعضها بعضاً، وما أقساه من إحساس! وقوله (وأهله) عطف على الضمير أكد ذلك بقوله (لا يجدون) أي الرسول وأهله (عشاءا) بالفتح عند العشاء بالكسر بمعنى آخر النهار يعني لا يجدون ما يتعشون به في الليل، وقد أفاد ذلك ما كان دأبه، وديدنه من التقلل من الدنيا، والصبر على الجوع، وتجنب السؤال رأسا كيف؟!، وهو أشرف الناس نفساً، وفيه فضل الفقر، والتجنب عن السؤال مع الجوع.

---

(١) برقم ٢٣٦٠.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ط و ي).

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: بيان خشونة العيش التي كان عليها النبي ﷺ وأهله.

ثالثًا: من صفات الداعية: الصبر على شدائد الحياة.

أولاً – من أساليب الدعوة: الإخبار:

حيث جاء في الحديث: "كان رسول الله ﷺ يبيت الليالي"، فقد أخبر عبدالله بن عباس رضي الله عنهما بأن النبي ﷺ كان يبيت الليالي طاويًا، وهذا إخبار عن حاله ﷺ، ومما لا شك فيه أن أسلوب الإخبار من الأساليب الدعوية المفيدة في تعريف المدعو بحقائق الدين وبسيرة سيد المرسلين ﷺ، وبالإخبار تقوم الحجة على المدعو في تبليغه وتعريفه، وبيّن الله في القرآن أن مهمة الرسول ﷺ هي الإخبار والبيان قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

ثانيًا – من موضوعات الدعوة: بيان خشونة العيش التي كان عليها النبي ﷺ وأهله:

ما كان رسول الله ﷺ إلى الدنيا متطلعًا، ولا فيها راغبًا، وإنما كان بما قسم الله راضيًا وعلى لأواء الحياة وشدتها صابرًا، ويتضح هذا المعنى من قول عبدالله بن عباس رضي الله عنهما في الحديث: (كان رسول الله ﷺ يبيت الليالي المتتابعة طاويًا وأهله لا يجدون عشاء وكان أكثر خبزهم خبز الشعير)، قال المباركفوري: "ومعنى طاويًا، أي: جائعًا والطاوي هو خالي البطن الجائع الذي لم يأكل، وكان أكثر خبز النبي ﷺ وأهله خبز الشعير فكانوا يأكلونه من غير نخيل"[2]، هذا ولقد كان من دعاء النبي ﷺ وأهله: ((اللّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا))[3]، وعن أبي حازم قال: رأيت أبا هريرة رضي الله عنه يشير بإصبعه مرارًا: (وَالَّذِي نَفْسُ أَبِي هُرَيْرَةَ بِيَدِهِ مَا شَبِعَ رَسُولُ اللّهِ وَأَهْلُهُ

---

(١) سورة النحل، آية: ٤٤.

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٨٦٩/٢.

(٣) أخرجه البخاري ٦٤٦٠، ومسلم ١٠٥٥.

ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ تِبَاعًا، مِنْ خُبْزِ حِنْطَةٍ، حَتَّى فَارَقَ الدُّنْيَا))[١]، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ((كان ضجاع النبيّ ﷺ ينام عليه بالليل من أدم محشوًّا ليفًا))[٢].

وعن قتادة قال: كنا نأتي أنسًا وخبَّازه قائم قال: فقال يومًا: (كُلُوا فَمَا أَعْلَمُ رَسُولَ اللَّهِ رَأَى رَغِيفًا مُرَقَّقًا، بِعَيْنِهِ، حَتَّى لَحِقَ بِاللَّهِ. وَلاَ شَاةً سَمِيطًا قَطُّ)[٣]، لقد كان رسول الله ﷺ زاهدًا في الدنيا، راغبًا عنها.

قال ابن القيم: (ولا تتم الرغبة في الآخرة إلا بالزهد في الدنيا، ولا يستقيم الزهد في الدنيا إلا بعد نظرين صحيحين: النظر الأول: النظر في الدنيا وسرعة زوالها وفنائها ونقصها وألم المزاحمة عليها، والنظر الثاني: النظر في الآخرة وإقبالها ومجيئها ولا بد، ودوامها وبقائها، وشرف ما فيها من الخيرات والمسرات، وهذا تقسيم حاضر ضروري، فإيثار الدنيا على الآخرة إما من فساد في الإيمان، وإما من فساد في العقل، وما أكثر ما يكون منهما، ولهذا نبذها رسول الله ﷺ وراء ظهره هو وأصحابه رضي الله عنهم وصرفوا عنها قلوبهم، وطرحوها ولم يألفوها، وهجروها ولم يميلوا إليها، فزهدوا فيها حقيقة الزهد، ولو أرادوها لنالوا منها كل محبوب، ولوصلوا منها إلى كل مرغوب، فقد عرضت عليه مفاتيح كنوزها فردَّها، وفاضت على أصحابه فآثروا بها ولم يبيعوا حظهم من الآخرة بها...)[٤].

إن في زهد النبي ﷺ وخشونة العيش التي كان عليها دليل على أنه كان يملك الدنيا ولا تملكه، حتى وإن كان الطعام والشراب مما تدعو إليه ضرورة الحياة فإن الفضل في قلته، (ولم تزل العرب والحكماء قديمًا تتمادح بقلة الغذاء والنوم وتذم بكثرتهما، لأن كثرة الأكل والشرب دليل على النهم والحرص والشره وغلبة الشهوة، وهو سبب لمضار الدنيا والآخرة، جالب لأدواء الجسد وخسارة النفس، وقلة الأكل دليل

---

(١) أخرجه البخاري٥٣٧٤، ومسلم ٢٩٧٦.

(٢) أخرجه البخاري ٦٤٥٦، ومسلم ٢٠٨٢.

(٣) أخرجه البخاري ٦٤٥٧.

(٤) الفوائد ص ١٤٠ - ١٤١.

على القناعة وملك النفس، وقمع الشهوة مسبب للصحة وصفاء الخاطر وحجة الذهن، كما أن كثرة النوم دليل على الفسولة والضعف، وعدم الذكاء والفطنة وسبب للكسل وعادة العجز وقساوة القلب وغفلته وموته، وكان ﷺ قد أخذ من الأكل والنوم بالأقل وحض عليه)[1].

ثالثًا - من صفات الداعية: الصبر على شدائد الحياة:

إن الداعية لا بد له من الابتلاء والتمحيص لأنه يحمل رسالة الأنبياء عليهم السلام، فحياته تسير بين عسر ويسر، وشدة وفرج ومنشط ومكره، ومن ثم فلا بد للداعي من أن يتحلى بالصبر، وله في رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة، يتضح هذا من سياق الحديث الذي يبين حال النبي ﷺ وخشونة العيش الذي كان فيه، وإذا كان رسول الله ﷺ هو الداعية الأول، والقدوة الأكمل لجميع الدعاة من بعده فمن صفات الداعي أن يصبر على شدائد الحياة ولأوائها وبؤسها وشقائها، كما صبر وتحمل الرسول الكريم ﷺ، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[2].

والداعية الفطن الحصيف هو الذي يستطيع الموازنة بين صعوبة الحياة وخشونة العيش والدعوة إلى الله على بصيرة، ولا يتحقق هذا إلا لمن استطاع أن ينظر إلى الدنيا على أنها دار بلاغ لا دار متاع، قال البهي الخولي: (إن الدنيا في منطق الفطرة دار بلاغ، ولكن تعليق الهمة بها جعلها في نظر أكثر الناس دار متاع، والفرق شاسع بين البلاغ والمتاع، فمن اتخذها بلاغًا فقد جعلها وسيلة يبلغ عليها ما يريد من ربه لحياة قلبه، ومن اتخذها متاعًا فقد جعلها غاية يدور حولها برغبات قلبه، وهمة نفسه وأهواء غرائزه، أي أنه يحشد قواه كلها لدنياه، ويجرد حياته الأخرى من كل قوة تسعى في عمارتها، فيذرها قاعًا صفصفًا لا ترى فيها عوجًا ولا أمتا، والخط الفاصل بين البلاغ والمتاع هو

---

(١) نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، محمد الخضري ص ١٧١.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

الحد الفاصل بين الرشد والهدى، هو الحد الذي يجب أن تقام عنده الحواجز بين حياة المادة وحياة الروح"[١].

ولقد أخبر الله عز وجل أنه يبتلى عباده المؤمنين بنقص الأموال والأنفس والثمرات ليظهر مدى صبرهم وتحملهم قال الله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[٢].

قال القاسمي: (هذا خطاب لمن آمن مع النبي ﷺ خُصّوا به، وإن شمل من ماثلهم؛ لأنهم المباشرون للدعوة والجهاد ومكافحة الفجار، وكل قائم بحق وداع إليه، معرض للابتلاء بما ذكر كله أو بعضه، والتنوين للتقليل أي: بقليل من كل واحد من هذه البلايا وطرف منه، وإنما قلل ليؤذن أن كل بلاء أصاب الإنسان، وإن جلّ، ففوقه ما يقل إليه. وليخفف عليهم ويريهم أن رحمته معهم في كل حال لا تزايلهم، وإنما أخبر به قبل الوقوع ليوطنوا عليهم نفوسهم، ويزداد يقينهم عند مشاهدتهم له حسبما أخبر به، وليعلموا أنه شيء يسير له عاقبة حميدة، وبشر الصابرين الذين يقولون عند وقوع البلاء "إنا لله" أي ملكًا وخلقًا فلا ينبغي أن نخاف غيره، لأنه غالب على الكل، أو نبالي بالجوع لأن رزق العبد على سيده، فإن منع وقتًا فلا بد أن يعود إليه، وأموالنا وأنفسنا وثمراتنا ملك له فله أن يتصرف فيها بما يشاء، وقولهم "إنا إليه راجعون" أي في الآخرة فيحصل لنا عنده ما فوّته علينا لأنه لا يضيع أجر المحسنين)[٣].

---

(١) تذكرة الدعاة ١٧٣.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٥٥.

(٣) محاسن التأويل، القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ٣٢٥/٢ - ٣٢٦.

الحديث رقم (٥١٤)

٥١٤ - وعن فُضَالَةَ بن عبيدٍ رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ كَانَ إذَا صَلَّى بالنَّاسِ، يَخِرُّ رِجَالٌ مِنْ قَامَتِهِمْ فِي الصَّلاةِ مِنَ الخَصَاصَةِ - وَهُمْ أصْحَابُ الصُّفَّةِ - حَتَّى يَقُولَ الأعْرَابُ: هؤُلاء مَجَانِينٌ[1]. فَإذَا صلَّى رسول الله ﷺ انْصَرَفَ إلَيْهِمْ، فَقَالَ: ((**لَوْ تَعْلَمُونَ مَا لَكُمْ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى، لأَحْبَبْتُمْ أنْ تَزْدَادُوا فَاقَةً وَحَاجَةً**)) رواه الترمذيُّ[2]، وقال: (حديث صحيح).

ترجمة الراوي:

فَضَالة بن عُبيد الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٥١٢).

غريب الألفاظ:

يخرُّ: يسقط[3].

الخصاصةُ: الفاقةُ والجوع الشديد[4].

أصحاب الصفة: الصُّفة مكان مظلل في مسجد رسول الله ﷺ في المدينة المنورة إبَّان العصر النبوي بعد الهجرة يأوي إليه فقراء المهاجرين ينامون فيه[5].

الفاقة: الفقر[6].

الشرح الأدبي

مر في أحاديث سابقة وصف لحال الناس، وما هم فيه من الشدة بصفة عامة في صدر الإسلام، ووصف أهل الصفة في لباسهم، وهذا الحديث يعرض لحالهم مع الجوع، وقوله: (يَخِرُّ رِجَالٌ مِنْ قَامَتِهِمْ فِي الصَّلاةِ مِنَ الخَصَاصَةِ) الخصاصة شدة الفقر،

---

(١) زاد الترمذي: (أو مجانون) بالشكّ.

(٢) برقم ٢٣٦٨. وصحّحه أيضًا ابن حبان، الإحسان ٧٢٤. أورده المنذري في ترغيبه ٤٨٣٧.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (خ ر ر).

(٤) رياض الصالحين ٢٣٩.

(٥) أطلس الحديث النبوي، د. شوقي أبو خليل ٢٣٧.

(٦) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ف و ق).

والحاجة، والعبارة صورة بالكناية عن أثر الجوع فيهم، والفعل (يخر) يصور سرعة السقوط مع غياب الوعي لسيطرة الضعف على الأركان، وعدم قدرتها على حمل صاحبها، وقوله (في الصلاة) يزيد صورة الجوع ضراوة؛ لأن المؤمن في الصلاة يكون أقوى على التحمل منه في غيرها كما يصور حالة التخبط التي أصابتهم بسبب سيطرته والتي صورها الراوي بقوله (حَتَّى يَقُولَ الأَعْرَابُ: هؤُلاء مَجَانِينٌ) والتعبير بحتى يشير إلى الغاية التي بلغها بهم الجوع، وتخصيص الأعراب لأنهم لا يعرفونهم فيحكمون عليهم بالظاهر الذي يوحي بالجنون، وقول الرسول ﷺ لهم (لَوْ تَعْلَمُونَ مَا لَكُمْ عِنْدَ اللّٰهِ تَعَالَى، لأَحْبَبْتُمْ أنْ تَزْدَادُوا فَاقَةً وَحَاجَةً) وهذا خبر أريد به لازم فائدته وهو المواساة، وتطييب النفوس، وشد الأزر، والتعالي على الغرائز باليقين بما عند الله .

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: الحث على المحافظة على الصلاة.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل أصحاب الصفة.

ثالثًا: من واجبات الداعية: مواساة المدعوين وتسليتهم.

رابعًا: من أساليب الدعوة: الترغيب.

أولاً - من موضوعات الدعوة: الحث على المحافظة على الصلاة:

من الشواهد على ذلك في هذا الحديث "كان إذا صلى بالناس" إن أساس الصلة بين العبد وربه تكون بالصلاة ففيها المناجاة والدعاء والتضرع إليه في السراء والضراء، ومن ثمّ عظمت مكانة الصلاة في الإسلام، فالصلاة لها شرف عظيم وفضل كبير، وقد جاء الأمر بإقامتها، قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾[2]، وجاء الأمر بالمحافظة عليها، قال سبحانه: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ

(١) سورة البقرة، آية: ٤٣.

(٢) سورة المزمل، آية: ٢٠.

وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾[١]، وقال جلّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[٢]، ومدح الخاشعين فيها فقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾[٣]، وتوعد الله من يضيع الصلاة ولا يؤديها قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾[٤]، وقال جلّ شأنه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾[٥]، وقال سبحانه عن أصحاب النار: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝٤٢ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾[٦].

والصلاة لها أثر كبير في حياة المؤمن، قال أبو الحسن الندوي: (إن الصلاة سر لسلامة الإيمان، وسلامة الدين، والاتصال بالله تعالى، والصلاة استجابة لغريزة البشر النوعية، غريزة الافتقار والضعف والطلب، وغريزة الالتجاء والاعتصام، والدعاء والمناجاة، والصلاة معقل المسلم وملجؤه، الذي يأوي إليه والعروة الوثقى التي يعتصم بها، والحبل المدود بينه وبين ربه الذي يتعلق به، ولقد كان شأن الصحابة رضي الله عنهم أن يفزعوا إلى الصلاة عند الملمات، وكان حنينهم إلى الصلاة وإيثارهم لها على كل ما حبب إلى النفس البشرية ومخاطرتهم بأنفسهم وحياتهم في سبيلها معروفة عند المشركين)[٧]، ولا شك أن الصلاة تشعر المرء بوجود الله وجودًا حقيقيًا يسمع دعاءه ويلبي نداءه ويستجيب له، (إن الصلاة انتزاع للنفس من ماديات الحياة وآلامها، وتوجيه

(١) سورة البقرة، آية: ٢٣٨.

(٢) سورة المعارج، آية: ٣٤.

(٣) سورة المؤمنون، آية: ٢.

(٤) سورة مريم، آية: ٥٩.

(٥) سورة الماعون، الآيتان: ٤ - ٥.

(٦) سورة المدثر، الآيتان: ٤٢ - ٤٣.

(٧) الأركان الأربعة، أبو الحسن الندوي ص ٢٩ -٣٠.

لها إلى الله بالذكر والدعاء والضراعة والخضوع لكبريائه وعظمته، وهذا من شأنه أن يضفي على النفس السكينة والرضا، ويجعلها تشعر بفيض من السعادة فتتجدد قواها، ويحفزها ذلك إلى العمل الجاد، والأمل في وجه الله الكريم، والصلاة هي وسيلة الإنسان للتطهر من الرذائل وسائر الصفات السيئة؛ لأن المواظبة عليها تربي في المصلي الضمير الحي الذي يبعث على الخير، ويحض عليه ويمنع الشر ويحذر منه)[(١)].

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: فضل أصحاب الصفة:

حيث جاء في الحديث: "يخر رجال من قامتهم في الصلاة من الخصاصة - وهم أصحاب الصفة - "، قال المباركفوري: (وأصحاب الصفة هم زهاد من الصحابة فقراء غرباء وكانوا سبعين، ويقلون حينًا، ويكثرون حينًا، ويسكنون صفة المسجد لا مسكن لهم ولا مال ولا ولد، وكانوا متوكلين ينتظرون من يتصدق عليهم بشيء يأكلونه ويلبسونه)[(٢)].

وقال ابن سيد الناس: (وأصحاب الصفة قوم فقراء لا منزل لهم غير المسجد، وجاء عن أبي هريرة ﵁ أنه قال: "رأيت ثلاثين رجلاً من أهل الصفة يصلون خلف رسول الله ﷺ ليس عليهم أردية"، وقد عُدّ منهم أبو هريرة وأبو ذر وواثلة بن الأسقع، وقيس بن طخفة الغفاري ﵃، وقد ذكر في عددهم أكثر من ذلك بكثير)[(٣)]، هذا وقد ثبت في صحيح البخاري ما يدل على حالهم ومبلغ فقرهم، فعن أبي هريرة ﵁ قال: ((رَأَيْتُ سَبْعِينَ مِنْ أَصْحَابِ الصُّفَّةِ، مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ عَلَيْهِ رِدَاءٌ، إِمَّا إِزَارٌ وَإِمَّا كِسَاءٌ، قَدْ رَبَطُوا فِي أَعْنَاقِهِمْ، فَمِنْهَا مَا يَبْلُغُ نِصْفَ السَّاقَيْنِ، وَمِنْهَا مَا يَبْلُغُ الْكَعْبَيْنِ، فَيَجْمَعُهُ بِيَدِهِ، كَرَاهِيَةَ أَنْ تُرَى عَوْرَتُهُ))[(٤)].

---

(١) إسلامنا، السيد سابق، ص ١١٦.

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٢/ ١٨٧٣.

(٣) عيون الأثر، ابن سيد الناس ٢/ ٣٨٥.

(٤) أخرجه البخاري ٤٤٢.

ثالثًا - من واجبات الداعية: مواساة المدعوين وتسليتهم:

إن الداعية الناجح قريب من المدعوين يشاركهم ويخالطهم فيما يعرض لهم من أمور حتى يؤثر فيهم بدعوته، ولقد كان ﷺ يحرص على مواساة أصحابه رضي الله عنهم ومشاركتهم، ومن ذلك ما جاء في الحديث: (فإذا صلى رسول الله ﷺ انصرف إليهم)، وتعتبر المواساة للمدعوين من أهم واجبات الداعية حيث تؤلف قلوبهم، وكان من هدي النبي ﷺ أن يواسي أصحابه بالقليل والكثير، فعن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه قال وهو يخطب: (إِنَّا وَاللهِ، قَدْ صَحِبْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي السَّفَرِ وَالْحَضَرِ، فَكَانَ يَعُودُ مَرْضَانَا، وَيَتْبَعُ جَنَائِزَنَا، وَيَغْزُو مَعَنَا، وَيُوَاسِينَا بِالْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ، وَإِنَّ نَاسًا يُعْلِمُونِي بِهِ، عَسَى أَلاَّ يَكُونَ أَحَدُهُمْ رَآهُ قَطُّ)[١]، ومدح ﷺ مواساة المسلمين بعضهم لبعض، فعن أبي موسى رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إِنَّ الأَشْعَرِيِّينَ، إِذَا أَرْمَلُوا فِي الْغَزْوِ، أَوْ قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ، جَمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَهُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ، بِالسَّوِيَّةِ. فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ))[٢]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((طَعَامُ الاِثْنَيْنِ كَافِي الثَّلاَثَةِ. وَطَعَامُ الثَّلاَثَةِ كَافِي الأَرْبَعَةِ))[٣].

قال ابن حجر: (وفي الحديث الإشارة إلى أن المواساة إذا حصلت، حصلت معها البركة فتعم الحاضرين)[٤].

قال ابن القيم: (المواساة للمؤمنين أنواع: مواساة بالمال، ومواساة بالجاه، ومواساة بالبدن والخدمة، ومواساة بالنصيحة والإرشاد، ومواساة بالدعاء والاستغفار لهم، ومواساة بالتوجع لهم. وعلى قدر الإيمان تكون هذه المواساة، فكلما ضعف الإيمان ضعفت المواساة، وكلما قوي قويت، وكان رسول الله ﷺ أعظم الناس مواساة

---

(١) أخرجه أحمد ١/٧٠ رقم ٥٠٤، وقال محققو المسند: إسناده حسن ١/٥٣٢.

(٢) أخرجه البخاري ٢٤٨٦، ومسلم ٢٥٠٠.

(٣) أخرجه البخاري ٥٣٩٢، ومسلم ٢٠٥٨.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٩/٤٤٦.

لأصحابه ﷺ بذلك كله، فلأتباعه من المواساة بحسب اتباعهم له، ودخلوا على بشر الحافي في يوم شديد البرد وقد تجرد وهو ينتفض فقالوا: ما هذا يا أبا نصر؟ فقال: ذكرت الفقراء وبردهم وليس لي ما أواسيهم فأحببت أن أواسيهم في بردهم)[1].

جاء في موسوعة نضرة النعيم: (ومن فوائد المواساة أنها تورث حب الله عز وجل ثم حب الخلق، وهي دليل حب الخير للآخرين، وتشيع روح الأخوة بين المسلمين، وتدخل السرور على المسلم وترفع من معنوياته، فيقبل على الحياة مسرورًا، والمواساة تجعل صاحبها من المسرورين يوم القيامة، وبالمواساة تدفع الغيظ وتذهب الغل وتميت الأحقاد، وتدعو إلى الألفة وتؤكد معنى الإخاء وتنشر المحبة)[2].

رابعًا – من أساليب الدعوة: الترغيب:

حيث جاء في الحديث: (لو تعلمون ما لكم عند الله تعالى لأحببتم أن تزدادوا فاقة وحاجة)، ومما لا شك فيه أن أسلوب الترغيب يعمل على إمالة النفس البشرية إلى حب الخير، وإلى الوعد بالأجر والثواب، والترغيب يحمل النفس على الطاعة لنيل المرغوب.

وفي الحديث الذي معنا رغبّ النبي ﷺ أهل الصفة ومن يأتي من بعدهم من أصحاب الحاجات ومن بهم فاقة فيما عند الله في الدار الآخرة لتتطلع نفوسهم إلى الأحسن والأكمل، وليجدوا عوضًا في الآخرة عما فقدوا في الدنيا، (إن طبيعة النفس البشرية أنها تتطلع لإشباع أعظم وأوسع مما عليه، وعلى أساس هذا يرتكز الدافع الأخروي، حيث يتم إغراء الإنسان، ووعده بأنواع العطاء والنعيم المطلقين كمًا وكيفًا، ويتم استثمار هذا التطلع المادي الأصيل لشده وإقناعه بالمتعة الأعظم والسعادة الأشمل، والملك الأكبر الذي لا يضاهيه ما في الدنيا، وذلك ما في الحياة الآخرة حيث النعيم العظيم المقيم)[3].

---

(١) الفوائد، القاضي عياض ص ٢٤٦.

(٢) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن محمد بن ملوح ٣٤٦٩/٨.

(٣) علم النفس الدعوي، د. عبدالعزيز بن محمد النغيمشي، ص ١٥٠.

الحديث رقم (٥١٥)

٥١٥ - وعن أَبي كريمة المقدام بن معد يكرِبَ رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ، يقول: ((مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، بِحَسْبِ ابنِ آدَمَ أُكُلاَتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فإنْ كانَ لا مَحالةَ فثُلُثٌ لِطَعَامِهِ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِه)) رواه الترمذيُّ[1]، وقال: (حديث حسن).

ترجمة الراوي:

المقدام بن معدي كرب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٨٣).

غريب الألفاظ:

بحسب ابن آدم: أي يكفيه[2].

أُكلاتُ: لُقم[3].

صُلبهُ: ظهره[4].

إن كان لا محالة: إن كان لا بد من التجاوز عما ذكر[5].

الشرح الأدبي

الحديث يبدأ بأسلوب النفي الذي يقرر أن شر وعاء يملؤه الإنسان هو البطن، وتنكير الوعاء يفيد التعميم لأنه في سياق النفي، وعدم إضافة البطن مع تنكيرها يفيد العموم أيضا ليشمل بطن الإنسان، وبطن من يعوله حتى ينصح لهم بما يعلم في التعامل

---

(١) برقم ٢٣٨٠، وابن ماجه ٣٣٤٩، وقال الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ. وصحّحه أيضًا ابن حبان، الإحسان ٦٧٤، وحسنه الحافظ ابن حجر في فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٢٨/٩. أورده المنذري في ترغيبه ٣١٥٧.

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٨٧٩/٢.

(٣) رياض الصالحين ٢٤٠.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ص ل ب)، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٨٧٩/٢.

(٥) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٨٧٩/٢.

مع هذا الوعاء؛ وقوله (بِحَسْبِ ابنِ آدَمَ أُكُلاَتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ) أي كافٍ في ابن آدم مبتدأ، والباء زائدة، وقوله (أكلات) خبره، والأكلة بالضم اللقمة وفي رواية لقيمات بالتصغير للإشارة إلى التحقير مع الدلالة على التقليل بالتنكير (يقمن صلبه) أي ظهره، والعبارة كناية عن القيام للطاعة، والقيام للمعيشة، وإسناد الإقامة إلى الأكلات مجازية سببية، وقوله (فإن كان لا محالة) أي لا بد وإن شرطية تشير إلى استبعاد الوقوع وهو الأكل الكثير الذي يتعدى إقامة الصلب، وهو حسن ظن بالتزام المؤمن للتوجيه النبوي، وقوله (فثُلُثٌ لِطَعَامِهِ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسه) فيه حسن تقسيم بديعي حيث تتبع أقسام المعنى، وأتى عليها، وحسن تقسيم طبي يضمن السلامة للبدن، والصحة لصاحبه، لأن فيها مكانا لكل شيء دون تخمة.

فقه الحديث

في هذا الحديث من الفقه: صفة الأكل بالنسبة للآكل:

إن الأكل قد يكون فرضًا، يثاب الإنسان على فعله ويعاقب على تركه، وذلك إذا كان للغذاء بقدر ما يدفع عنه الهلاك، لأن الإنسان مأمور بإحياء نفسه وعدم إلقائها إلى التهلكة.

وقد يكون واجبًا، وذلك بقدر ما يستطيع معه أداء الصلاة المفروضة عليه قائمًا، وأداء الصوم الواجب، لأنه من قبيل ما لا يتم الواجب إلا به.

ومنه مندوب، وهو ما يعينه على تحصيل رزقه وتحصيل العلم وتعلمه وتحصيل النوافل.

وقد يكون الأكل مباحًا يجوز للإنسان أن يتناوله، وذلك إلى حد الشبع الذي لا يضر معه الامتلاء.

وقد يكون حرامًا، وهو ما فوق الشبع، وكل طعام غلب على ظنه أنه يفسد معدته، لأنه إسراف منهي عنه، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾[1] إلا إذا كانت الزيادة على الشبع لا تضره، وقصد بالأكل القوة على صوم الغد، أو الزيادة في الطاعات، أو لئلا

---

(١) سورة الأعراف، آية: ٣١.

يستحيي الحاضر معه بعد إتمام طعامه. وقد قال النبي ﷺ: ((مَا مَلأَ آدمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، بِحَسْبِ ابنِ آدَمَ أُكُلاَتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فإِنْ كَانَ لاَ مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ وَثُلْثٌ لِنَفَسِهِ))[1].

ومن الأكل ما هو مكروه، وهو ما زاد على الشبع قليلاً، فإنه يتضرر به[2]، وقد قال البعض: إن الآكل لا ينبغي له أن يقصد به التلذذ والتنعم، فإن الله تعالى ذم الكافرين بأكلهم للتمتع والتنعم وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾[3]. وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: ((المؤمِنُ يَأكُلُ فِي مِعي وَاحِدٍ، والكَافِرُ يَأكُلُ فِي سَبْعَةِ أمْعَاءٍ))[4].

هذا، والتحقيق أنه يجوز للإنسان الأكل بقصد التمتع والتلذذ بما أنعم الله علينا به، لقصد التقوي على أعمال الخير لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَـٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ وأما الآية التي احتج بها هذا القائل فإن الله تعالى ينعي عليهم أنهم يتمتعون بالأطعمة التي رزقهم الله من غير أن يفكروا في المنعم، وأن يشكروه على نعمه.

وأما الحديث فليس فيه دلالة على ما احتجوا عليه، وإنما فيه النعي على من أكثر من الطعام[5].

---

(١) هو حديث الباب.

(٢) رد المحتار على الدر المختار ابن عمر عابدين، تحقيق: علي محمد معوض ٢١٥/٥.

(٣) سورة محمد، آية: ١٢.

(٤) أخرجه البخاري ٥٣٩٣، ومسلم ٢٠٦٠.

(٥) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١١٤/٦، وانظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٢٨/٥، والآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ١٨٣/٣.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: الترهيب من الشبع والبطر.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل القصد في الأكل والشرب.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الإعجاز العلمي في تقليل الطعام والشراب.

رابعًا: من آداب المدعو: الاستجابة لتوجيهات النبي ﷺ.

أولاً - من موضوعات الدعوة: الترهيب من الشبع والبطر:

إن المعدة بيت الداء، ولا شيء أخطر على المرء من بطنه وفي هذا الحديث يرهب النبي ﷺ من الشبع والبطر حيث جاء في الحديث: "ما ملأ آدمي وعاء شرًا من بطن"، قال المباركفوري: (جعل البطن أولاً وعاء كالأوعية التي تتخذ ظروفًا لحوائج البيت توهينًا لشأنه، ثم جعله شر الأوعية لأنها استعملت فيما هي له، والبطن خلق لأن يتقوم به الصلب بالطعام، وامتلاؤه يفضي إلى الفساد في الدين والدنيا فيكون شرًا منها)[1]، هذا وقد نهى الله تعالى عن السرف في الطعام والشراب فقال سبحانه: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[2]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((المُسْلِمُ يَأْكُلُ فِي مِعًى وَاحِدٍ، وَالْكَافِرِ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ))[3].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: تجشأ رجل عند النبي ﷺ فقال: ((كُفَّ عَنَّا جُشَاءَكَ فَإِنَّ أَكْثَرَهُمْ شِبعًا فِي الدُّنْيَا أَطْوَلُهُمْ جُوعًا يَوْمَ القِيَامَةِ))[4].

وقال أبو الحسن الماوردي: "وأما حال الإنسان في مأكله ومشربه فإن الشهوة فيه نوعان: شهوة في الإكثار والزيادة، وشهوة في تناول الألوان اللذيذة، فأما شهوة الزيادة على قدر الحاجة والإكثار على قدر الكفاية فهو ممنوع منه في العقل والشرع لأن تناول

---

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٨٧٩/٢.

(٢) سورة الأعراف، آية: ٣١.

(٣) أخرجه البخاري ٥٣٩٦، ومسلم ٢٠٦٢.

(٤) أخرجه الترمذي ٢٤٧٨، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٠١٥).

ما زاد على الكفاية، نهم معر، وشره مضر وقد قال علي رضي الله عنه: (إن كنت بطنًا فَعُد نفسك زمنًا)، وقال بعض البلغاء: أقلل طعامًا تحمد منامًا، وقال بعض الأدباء: الرغب لؤم والنهم شؤم، وقال بعض الشعراء:

فكم من لقمة منعت أخاها بلذة ساعة أكلات دهر

وكم من طالب يسعى لأمر وفيه هلاكه لو كان يدري

ورب أكلة هاضت الأكل، وحرمته مآكل، وأما شهوة الأشياء اللذيذة فالناس في تمكين النفس منها مذاهب)[1].

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: فضل القصد في الأكل والشرب:

إن خير علاج للترهل والشبع القصد في الأكل والشرب وهو ما أرشد إليه الحديث حيث جاء فيه: "بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه"، قال الطيبي: (قال أبو حامد: ومن فوائد الجوع: صفاء القلب وإيقاد القريحة ونفاذ البصيرة، فإن الشبع يورث البلادة ويعمي القلب، ومن فوائد الجوع رقة القلب وصفاؤه والانكسار والذل وزوال البطر والأشر والفرح الذي هو مبدأ الطغيان ولا تتكسر النفس لشيء ولا تذل كما تذل بالجوع فعنده تستكين لربها وتقف على عجزها، ومن فوائده تيسير المواظبة على العبادة فإن الأكل يمنع من كثرة العبادات ومن فوائده صحة البدن ودفع الأمراض فإن سببها كثرة الأكل وحصول فضلة الأخلاط في المعدة والعروق)[2].

وقال ابن القيم: (ويستفاد من قوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾[3]، أن الله أرشد عباده إلى إدخال ما يقيم البدن من الطعام والشراب عوض ما تحلل منه، وأن يكون بقدر ما ينتفع به البدن: في الكمية والكيفية فمتى تجاوز ذلك كان إسرافًا، وكلاهما مانع من الصحة جالب للمرض، أعني: عدم الأكل والشرب، أو الإسراف

---

(١) أدب الدنيا والدين، أبو الحسن الماوردي، تحقيق: مصطفى السقا ٣٣٥ - ٣٣٦.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٩/٣١٠.

(٣) سورة الأعراف، آية: ٣١.

فيه فحفظ الصحة كله في هاتين الكلمتين الإلهيتين ومن تأمل هدي النبي ﷺ وجده أفضل هدي يمكن حفظ الصحة به فإن حفظها موقوف على حسن تدبير المطعم والمشرب والملبس والمسكن والهواء)[١].

وقال ابن الجوزي: (إن العاقل يعطي بدنه من الغذاء ما يوافقه، ولا تظنن أني آمر بأكل الشهوات ولا بالإكثار من الملذوذ، إنما آمر بتناول ما يحفظ النفس، وأنهى عما يؤذي البدن فأما التوسع في المطاعم فإنه سبب النوم، والشبع يعمي القلب ويهزل البدن ويضعفه)[٢].

ولعل فيما ذكره ابن رجب من بيان سبب ورود الحديث، ما يوضح الصورة بشكل واضح وجلي، حيث قال: (فروى أبو القاسم البغوي في معجمه من حديث عبدالرحمن بن المرقع قال: فتح رسول الله ﷺ خيبر وهي مخضرة من الفواكه، فوقع الناس في الفاكهة فغشيتهم الحمى... فقال رسول الله ﷺ: "لم يخلق الله وعاء إذا ملئ شرًا من بطن، فإذا كان لا بد فاجعلوا ثلثًا للطعام، وثلثًا للشراب، وثلثًا للريح". قال ابن رجب: (وهذا الحديث أصل جامع لأصول الطب كلِّها... فهذا بعض منافع قليل الغذاء وترك التملؤ من الطعام بالنسبة إلى صلاح البدن وصحته، وأما منافعه بالنسبة إلى القلب وصلاحه فإن قلة الغذاء توجب رقة القلب، وقوة الفهم، وانكسار النفس، وضعف الهوى والغضب، وكثرة الغذاء يوجب ضد ذلك)[٣].

وفي الحديث ما يشير إلى وجوب أن يتحلى الإنسان بالقناعة بما رزقه الله تعالى، لأن حرص الإنسان على أن يشبع من كل شيء، أمر لا يمكن تحققه إلا بهلاك الإنسان نفسه، فهذا السلوك يجعل صاحبه يتصف بالنهم، مما يؤدي به إلى الانصراف عن الاهتمام عن الغاية التي خلق لأجلها الإنسان، فالتوجيه للإنسان أن يجعل ثلثًا لطعامه

---

(١) الطب النبوي، ابن القيم ص ١٧٥.

(٢) صيد الخاطر، ابن الجوزي، تحقيق: عبدالقادر عطا ٥٦٧.

(٣) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١/٤٦٧-٤٦٨.

وثلثًا لشرابه... كل هذا دعوة للاكتفاء بالقليل الذي يصلحه، ومن أجل ذلك سمي هذا البطن وعاء.

ثالثًا - من موضوعات الدعوة: الإعجاز العلمي في تقليل الطعام والشراب:

حيث جاء في الحديث: "فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه"، وهذا يعتبر من الإعجاز الطبي في السنة النبوية، "وهذا الحديث قمة من قمم الإعجاز الصحي والوقائي والغذائي فهو من معجزات الرسول ﷺ وجوامع كلمه ومن القوانين التي سنها الرسول ﷺ في الأكل لكي يعيش الإنسان معافى من الأمراض، ولم يذكر الرسول الكريم ﷺ شيئًا عما يجري في المعدة، إلا أنه اكتفى بذكر الثلث الثالث للنفس حيث إن الطعام بحاجة إلى هضم، والهضم لا يتم بدون مفرزات المعدة، فإذا امتلأت المعدة بالطعام فأين تجد العصارات الهاضمة مكانًا لها؟ فمن ملأ معدته بالطعام والشراب، ولم يدع فيها متنفسًا شعر بعد ذلك بالتخمة وعسر الهضم، وقد ابتكر العلماء في الولايات المتحدة الأمريكية طريقة جديدة لإنقاص الوزن وذلك بإدخال بالون إلى المعدة وينفخ بشكل يملأ ثلث المعدة ويبقى ثلثا المعدة الآخران فارغين للطعام والشراب، وقد وجد الباحثون أنها طريقة فعالة لإنقاص الوزن فهذا حديث رسول الله ﷺ تثبته تجارب الطب الحديث وأبحاثه العلمية التجريبية"[١].

إن في الحديث ما يدل على حقيقة علمية أخرى، فقوله ﷺ: "بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه"، والصلب - الناحية القطنية في أسفل الظهر - لا يستقيم استقامة كاملة إلا إذا كانت المعدة مستريحة، ولا يتم لها ذلك إذا هي أتخمت بالطعام، فالحديث أشار إلى أن ما يقيم الصلب أكلات أو لقيمات فقط[٢]، فامتلاء البطن بحيث يتخم بالطعام والشراب، أمر يتنافى مع حصول استقامة الصلب، الذي أشار إليه قوله ﷺ: "يقمن صلبه".

---

(١) الإعجاز العلمي في السنة النبوية، د. صالح بن أحمد رضا ٢٧٢/١.

(٢) الحقائق الطبية في الإسلام، عبدالرزاق أشرف الكيلاني ص ٢٣٣.

إن الأصل في أكل الإنسان الاكتفاء باللقم المعدودة فلو اكتفى بذلك فلن يصيبه ضرر في جسده أو صحته، ولا يتغير عن هذا الأصل إلا استثناء لقوله ﷺ: (فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه).

قال بعضهم: (إن ما ورد في الحديث ليس للتحديد ولكنه للتنبيه والتأديب، ولو أكل الإنسان حتى شبع ما كان عليه بأس... فإن قلل إنسان في طعامه حتى ضعف عن القيام بالمطلوب منه من أمور الدنيا والآخرة، فإن ذلك يعتبر خطأ وعدم فهم للدين، وبعيدًا عن المسلك الإسلامي الصحيح)(١).

رابعًا - من آداب المدعو: الاستجابة لتوجيهات النبي ﷺ:

إن من آداب المدعو المنوطة به الاستجابة لما يسمع من توجيهات النبي ﷺ لأنه لا يأمر إلا بخير ولا ينهى إلا عن شر، والذي يهتدي بهداه هو السعيد، والمعرض عن هديه هو الشقي التعيس، وقد أرشد النبي ﷺ في الحديث إلى ضرورة الإقلال من الطعام والشراب وعدم امتلاء المعدة، حيث يؤدي ذلك إلى أضرار وخيمة بالصحة والبدن، وخير الناس من يلتزم بهدي النبي ﷺ وإرشاده لأنه حريص على نفع أمته وإسداء النصح لها.

وفي هذا الحديث توجيه وترغيب من النبي ﷺ لأمته في الاكتفاء بالقليل من الطعام، وذلك لما في البطنة من الأذى، والضرر والأمراض والآلام، فلذلك كانت الوصية بأن يكون طعام ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، وقد وردت أحاديث شريفة كثيرة، كلها تحث على عدم الإسراف في الطعام أو الشراب، والاكتفاء بما يقيم الأود منه. فكل شيء في الدين الإسلامي له هدف يسعى إليه، ووظيفة يعمل من أجلها، فالإنسان ليس غايته من تناول الطعام الشعور باللذة فقط، وإنما من أجل حفظ صحته وقوته، لكي يستطيع أن يحيا، ويعمل، ويعبد الله سبحانه وتعالى.

إن صلاح بدن الإنسان وجسده إنما يكون في تناول ما يكفيه من الطعام، فلا يزيد على قدر حاجته، بمعنى أن يتوسط في غذائه، قال ابن القيم: (فإذا توسط في

---

(١) السلوك الاجتماعي في الإسلام، حسن أيوب ص ٣٤١.

الغذاء، وتناول منه قدر الحاجة، وكان معتدلاً في كميته وكيفيته، كان انتفاع البدن به أكثر من انتفاعه بالغذاء الكثير)[١].

إن التوجيه النبوي الوارد في الحديث له غاية أكثر أهمية، يتم الوصول إليها من خلال ما ذكر في الحديث، وذلك أن المسلم ينبغي عليه أن يعمر وقته بالطاعات، ولا يتيسر له ذلك إن هو ترك نفسه تبعًا لشهواته، بحيث يملأ بطنه بما لذ وطاب من المأكولات والمشروبات، لأن من هذا حاله سيكون مآله أن يكسل عن الطاعات، بل قد يؤدي به هذا الأمر إلى أن تجمح به شهواته، وهذا ما أشار إليه ابن القيم بعدما ذكر هذا الحديث حيث قال: وهذا أنفع للبدن والقلب، فإن البطن إذا امتلأ من الطعام، وضاق عن الشراب، فإذا أورد عليه الشراب، ضاق عن النفس وعرض له الكرب والتعب، وصار محمله بمنزلة حامل الحمل الثقيل، هذا إلى ما يلزم ذلك من فساد القلب، كسل الجوارح عن الطاعات، وتحركها في الشهوات التي يستلزمها الشبع)[٢].

وفي الحديث تفصيل لما أجملته الآية القرآنية: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[٣]، فالإنسان مطالب بأن يكون معتدلاً في مآكله ومشربه، فلا يسرف فيهما، وقد بيّن الحديث حد الاعتدال في الطعام والشراب.

وعلى الإنسان أن يعمل بجانب الوقاية، فهي خير من العلاج، لأن اتباع التوجيه النبوي الوارد في الحديث يقيه شرور امتلاء البطن.

إن في التقلل من الطعام ما يعين الإنسان على الطاعات والبعد عن المعاصي، قال ذو النون: ما شبعت قط إلا عصيت أو هممت بمعصية. ولعل أكبر المفاسد من وراء الشبع

(١) الطب النبوي، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن القيم (٧٥١ هـ)، إشراف عبدالمنعم العاني، دار مكتبة الحياة، بيروت: ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص ٢٢.

(٢) الطب النبوي ابن القيم ٢٢.

(٣) سورة الأعراف، آية: ٣١.

وامتلاء البطن ما ورد في كلام عائشة رضي الله عنها: أول بدعة حدثت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الشبع، إن القوم لما شبعت بطونهم جمحت بهم نفوسهم إلى الدنيا[1].

(١) سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، الصنعاني ٣٥٤/٤ - ٣٥٦.

الحديث رقم (٥١٦)

٥١٦ - وعن أَبي أُمَامَة إياسِ بن ثعلبةَ الأَنْصَارِيِّ الحارثي ﵁ ، قَالَ: ذَكَرَ أصْحَابُ رسول الله ﷺ يومًا عِنْدَهُ الدُّنْيَا ، فَقَالَ رسول الله ﷺ : **((ألاَ تَسْمَعُونَ؟ ألاَ تَسْمَعُونَ؟ إنَّ البَذَاذَةَ مِنَ الإيمَانِ، إنَّ البَذَاذَةَ مِنَ الإيمَانِ))** يَعْنِي: التَّقَحُّلَ. رواهُ أَبو داود[1].

ترجمة الراوي:

أبو أمامة بن ثعلبة الحارثي الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢١٤).

غريب الألفاظ:

البذاذة: رثاثةُ الهيئة وترك فاخر اللباس[2].

المُتَقحِّلُ: الرجل اليابسُ الجلد من خشونة العيش وترك الترفه[3].

الشرح الأدبي

قول الراوي (ذَكَرَ أصْحَابُ رسول الله ﷺ يَوماً عِنْدَهُ الدُّنْيَا) يشير إلى أن الذكر كان بمجمع من الصحابة، والموعظة في المجمع لها وضع خاص من حيث تقليب الذكر من جميع الوجوه؛ لأن كل واحد يستطيع أن يستفسر عن أي إشكال يعرض في نفسه مما يوسع أفق الحوار كما يعرض لمختلف الآراء التي تكشف خلفيات العقول فيصلح ما حاد عن الفهم الصحيح منها، ويقر الصواب، وأن الحكم الذي يُقَر في المجلس يأخذ حكم الخبر الموثوق بخلاف خبر الواحد الذي يكون أقل توكيداً منه، وذكر الظرف (عنده) المتصل بالضمير العائد على الرسول ﷺ يعطي الخبر صفة التشريع؛ لأنه في حضور الرسول ﷺ كما يشير إلى شرف المجلس، وقول الرسول ﷺ (ألاَ تَسْمَعُونَ؟ ألاَ تَسْمَعُونَ ؟) استفهام خرج عن معناه الحقيقي، وهو طلب الفهم إلى معنى الأمر أي

---

(١) برقم ٤١٦١ وقال الحافظ ابن حجر في الفتح ٣٦٨/١٠: هو حديث صحيحٌ. أورده المنذري في ترغيبه ٣٠٦٨.

(٢) رياض الصالحين ٢٤٠.

(٣) رياض الصالحين ٢٤٠.

اسمعوا ! وتكراره للتوكيد، وهو تنبيه بديع يحقق الترقب لما بعده، وقوله (إنَّ البَذَاذَةَ مِنَ الإيمَانِ، إنَّ البَذَاذَةَ مِنَ الإِيمَانِ) أي الرثاثة يقال رجل بذ الهيئة وباذ الهيئة أي رث اللبسة، والمراد من الحديث أن التواضع في اللباس، والتوقي عن الفائق في الزينة من أخلاق أهل الإيمان، والإيمان هو الباعث عليه والتكرار للتأكيد ففيه اختيار الفقر، وترك الفخر والزينة، والاهتمام الزائد بالأمور الفانية التي تستنفذ الوقت، والجهد، وتشغل قلبه عن الله تعالى فلبس الخلق من الثياب من خلق أهل الإيمان .

المضامين الدعوية

أولاً: من مهام الداعية: بيان الحقائق للمدعوين.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: التكرار.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الاقتصاد في حظوظ النفس.

رابعًا: من واجبات الداعية: تسلية المحتاجين والمعوزين ومواساتهم.

أولاً - من مهام الداعية: بيان الحقائق للمدعوين:

إن الداعية تقوم مهمته على البلاغ، ولا يتحقق البلاغ إلا ببيان الحقائق، ويظهر هذا من الحديث: "ذكر أصحاب رسول الله ﷺ يومًا عنده الدنيا فقال رسول الله ﷺ: ألا تسمعون إن البذاذة من الإيمان"، ومما لا شك فيه أن أولى واجبات الداعية بيان الحقائق فعلى البيان تقوم الدعوة، وبالبيان أمر الله نبيه في القرآن قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾[2].

قال محمد الغزالي: (إن العالم محتاج إلى أن يدرك جملة الحقائق التي جاء بها الإسلام من عقائد وعبادات وأخلاق ومعاملات، فإن هذه الحقائق هداية نافعة له،

---

(١) سورة النحل، آية: ٤٤.

(٢) سورة المائدة، آية: ٦٧.

وبالعمل بها - مجتمعة - يحصل خيرًا جزيلاً وينفي شرًا كثيرًا)[١].

وبالبيان تبلغ الدعوة إلى جميع الآفاق، وتقوم الحجة على العالمين قال الله تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾[٢].

ومن خلال ما سبق يتضح أن من المهام الأساسية للداعية بيان حقائق الإسلام للمدعوين وتعريفهم.

ثانيًا - من أساليب الدعوة: التكرار:

لقد تكرر في الحديث قوله: "ألا تسمعون ... ألا تسمعون"، وأسلوب التكرار يعمل على لفت انتباه المدعو إلى ما يقوله الداعية، والتكرار يفيد التوكيد ويدل على أهمية الشيء المكرر، وقد تعدد في السنة النبوية استخدام هذا الأسلوب، وفائدة التكرار في الحديث أن فيه إثارة لانتباههم، فينبغي لمن يريد أن يتحدث إلى قوم وهم منشغلون عنه، أن يصرف أسماعهم إليه قبل الشروع في الحديث، لأن ذلك مما يعين على فهم مقصد الكلام.

وفي القرآن الكريم أيضًا جاء استخدام هذا الأسلوب في غير ما موضع ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾[٣]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾[٤].

وعن السر في استخدام أسلوب التكرار في القرآن قال القاسمي: (وتكرير صفات الله دالّ على الاعتناء بمعرفتها والعمل بموجبها، وتكرير القصص دال على الاهتمام بالوعظ للإيقاظ والاعتبار، وفائدة تكرير القصص تطرئة المواعظ وتشديدها، لأن منها: ما يحث على الطاعة والإيمان، ومنها ما يزجر عن الكفر والعصيان، وكذلك

---

(١) مع الله "دراسات في الدعوة والدعاة ٢٧.

(٢) سورة النساء، آية: ١٦٥.

(٣) سورة الفجر، آية: ٢١.

(٤) سورة المؤمنون، آية: ٣٦.

تكرير الوعد والوعيد، وكذلك تكرير ذكر الأحكام، وكذلك تكرير المدح والذم، وما يترتب على المأمورات والمنهيات من المؤكدات المذكورات، وتكرير الأمثال يدل على الاعتناء بالإيضاح والبيان، وتكرير تذكر النعم يدل على الاعتناء بشكرها)(١).

ثالثًا - من موضوعات الدعوة: الاقتصاد في حظوظ النفس:

إن مغريات الحياة كثيرة وتتبع ملذاتها هلكة، والمسلم يقتصد في حظوظ نفسه في هذه الحياة، ويقتصر على ما يعينه على أمور معاشه وطاعته لله تعالى، وينأى بنفسه عن الركون إلى ملذات الحياة وزخارفها، ومما يدل على هذا ما جاء في الحديث: "إن البذاذة من الإيمان" قال العظيم آبادي: (قال الخطابي: البذاذة سوء الهيئة والتجوز في الثياب ونحوها، يقال: رجل باذ الهيئة إذا كان رث الهيئة واللباس، والتقحل تكلف اليبس والبلى والمتقحل الرجل اليابس الجلد السيئ الحال)(٢)، ودلت النصوص الشرعية على أن المسلم الحق يأخذ نفسه بالشدة، ولا يغريه متاع الحياة الدنيا، قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾(٣).

وجاء عن ابن المبارك عن مصعب بن سعد أن أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها قالت لعمر رضي الله عنه: (ألا تلبس ثوبا لينًا من ثوبك، وتأكل طعاما أطيب من طعامك هذا؟ فقد فتح الله عليك الأرض، وأوسع عليك من الرزق، قال سأخصمك إلى نفسك فذكر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وما كان يلقى من شدة العيش، ولم يزل يذكر حتى بكت، ثم قال عمر لأشركنهما في مثل عيشهما الشديد، لعلي أدرك معهما مثل عيشهما الرخي)(٤).

وجاء عن الحسن البصري أنه قال: (والله أدركت أقوامًا لو شاء أحدهم أن يأخذ هذا المال من حله أخذه فيقال لهم: ألا تأتون نصيبكم من هذا المال فتأخذونه حلالاً؟

(١) محاسن التأويل، القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ٢٥٧/١.

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١٧٨١.

(٣) سورة طه، آية: ١٣١.

(٤) كتاب الزهد، عبدالله بن المبارك المروزي، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي ص ١٩٢.

فيقولون: لا إنا لنخشى أن يكون أخذه فسادًا لقلوبنا، وأدركت أقوامًا لا يفرحون بشيء من الدنيا أتوه، ولا يأسون على شيء منها فاتهم)[(١)].

وينبغي على المؤمن أن لا تكون الدنيا أكبر همه، بحيث يبقى منشغلاً بها، بل الواجب عليه أن يجعل من دنياه مزرعة لآخرته؛ لأن هذه الدنيا زائلة، وكذلك نعيمها، ويدل على ذلك أن الرسول ﷺ لما رأى من أصحابه هؤلاء اهتمامًا بأمر من أمور الدنيا بحيث انشغلوا بالحديث عنها من خلال حديثهم الذي سمعه منهم، أنكر عليهم ما سمعه منهم بقوله: (ألا تسمعون؟ ألا تسمعون؟).

إن الإنسان إذا رأى من الناس إقبالاً على الدنيا وزينتها، فعليه أن يذكرهم بأن الدنيا شأنها أحقر من ذلك؛ لأن الإنسان لم يخلق للدنيا، وأنه يكفيه منها ما يعينه على أن يؤدي ما هو مطلوب منه، لا أن يكون منشغلاً بها بحيث تصير أكبر همه؛ لأن المؤمن ينبغي أن يكون متميزًا عن غير المؤمن، فإذا كان الكافر ليس له من أمره في دنياه، إلا بأن يتمتع ويأكل كما تأكل الأنعام، فإن المؤمن غير ذلك.

إنه ينبغي للمؤمن أن يتعاهد أصحابه وإخوانه بتذكيرهم بأمر الآخرة، والتنبيه عليهم بالحسنى، فإن ذلك مما ينفعهم؛ لأن الإنسان قد يغفل عن الحق، وليس هناك أفضل من إخراج الإنسان من غفلته إلا بتذكيره، ووعظه بالحسنى.

لقد بيّن الحديث أن البذاذة من الإيمان، بمعنى أن على الإنسان أن يكتفي بلباسه بما يؤدي المقصود إليه من اللباس ألا وهو ستر الجسد، لا أن يبالغ أو يحرص على اقتناء أغلى أصناف اللباس وأثمنها دائمًا، وفي كل حال؛ لأن هذه صفة من يكون حريصًا على دنياه، ومن يكون حريصًا على حب سماع مدح الناس له، والثناء عليه بهذا الأمر، وهذا قد يدفع المرء غالبًا إلى الشعور بالعجب والفخر، بل والتعالي على غيره بلباسه، أي أن الأمر يكون مدخلاً لما ينافي الإيمان، فلذلك أوصى النبي ﷺ هؤلاء لما سمع منهم ما سمع، وأرشدهم إلى نقيضه، وإلا فإن الإنسان المؤمن لو اعتنى بمظهره وحسن مظهره

---

(١) الزهد، الحسن البصري، تحقيق: د. محمد عبد الرحيم محمد، دار الحديث، القاهرة، دون ذكر التاريخ ورقم الطبعة، ص ٢٩.

فلا بأس عليه، وعليه أن لا ينسى سريرته، فيكون حسن المظهر والمخبر.

ولا شك أن الإنسان الذي يأخذ نفسه بالشدة ولا يتطلع إلى زهرة الحياة الدنيا إنما يحقق معنى الزهد المشروع، قال ابن تيمية: (والزهد المشروع هو ترك كل شيء لا ينفع في الدار الآخرة، وثقة القلب بما عند الله وأما في الظاهر فترك الفضول التي لا يستعان بها على طاعة الله من مطعم وملبس ومال وغير ذلك كما قال أحمد: إنما هو طعام دون طعام، ولباس دون لباس، وصبر أيام قلائل)[1].

والواجب على المسلم أن يفهم البذاذة على حقيقتها، وأن يعلم أن الزهد في الدنيا، وترك متاعها ليس على إطلاقه.

قال ابن قدامة: (قد سمع خلق كثير ذم الدنيا مطلقاً، فاعتقدوا أن الإشارة إلى هذه الموجودات التي خلقت للمنافع، فأعرضوا عما يصلحهم من المطاعم والمشارب.

وقد وضع الله في الطباع توقان النفس إلى ما يصلحها، فكلما تاقت منعوها، ظنًا منهم أن هذا هو الزهد المراد، وجهلاً بحقوق النفس وعلى هذا أكثر المهتدين، وإنما فعلوا ذلك لقلة العلم، ونحن نصدع بالحق من غير محاباة فنقول:

اعلم أن الدنيا عبارة عن أعيان موجودة للإنسان، فيها حظ، وهي الأرض وما عليها، فإن الأرض مسكن الآدمي، وما عليها ملبس ومطعم ومشرب ومنكح، وكل ذلك علف لراحلة بدنه السائر إلى الله عز وجل، فإنه لا يبقى إلا بهذه المصالح، فمن تناول منها ما يصلحه على الوجه المأمور يمدح، ومن أخذ منها فوق الحاجة يكتنفها الشره وقع في الذم، فالطريق السليم هي الوسطى، وهي أن يؤخذ من الدنيا قدر ما يحتاج إليه من الزاد للسلوك، وإن كان مشتهى، فإن إعطاء النفس ما تشتهيه عون لها وقضاء لحقها.

وقد كان سفيان الثوري يأكل في أوقات من طيب الطعام، ويحمل معه في السفر الفالوذج.

---

(١) الزهد والورع والعبادة، ابن تيمية، تحقيق: حماد سلامة ص ٧٣ - ٧٤.

وكان إبراهيم بن أدهم يأكل من الطيبات في بعض الأوقات، ويقول: إذا وجدنا أكلنا أكل الرجال، وإذا فقدنا صبرنا صبر الرجال.

ولينظر في سيرة رسول الله ﷺ وصحابته، فإنهم ما كان لهم إفراط في تناول الدنيا، ولا تفريط في حقوق النفس.

وينبغي أن يتلمح حظ النفس في المشتهى، فإن كان في حظها حفظها وما يقيمها ويصلحها وينشطها للخير، فلا يمنعها منه، وإن كان حظها مجرد شهوة ليست متعلقة بمصالحها المذكورة، فذلك حظ مذموم، والزهد فيه يكون)[١].

وقال أبو حامد الغزالي: (وإنما الناجي منها فرقة واحدة وهي السالكة ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، وهو أن لا يترك الدنيا بالكلية، ولا يقمع الشهوات بالكلية، أما الدنيا فيأخذ منها قدر الزاد، وأما الشهوات فيقمع منها ما يخرج عن طاعة الشرع والعقل، ولا يتبع كل شهوة، ولا يترك كل شهوة، بل يتبع العدل ولا يترك كل شيء من الدنيا، ولا يطلب كل شيء من الدنيا، بل يعلم مقصود كل ما خلق من الدنيا، وبحفظه على حد مقصوده، فيأخذ من القوت ما يقوى به البدن على العبادة، ومن المسكن ما يحفظ عن اللصوص والحر والبرد، ومن الكسوة كذلك)[٢].

رابعًا - من واجبات الداعية: تسلية المحتاجين والمعوزين ومواساتهم:

إن الفقير بحاجة إلى الإحسان، لأنه مهيض الجناح، والمفترض في الداعية أن الفقير والغني لديه سواء، ولذا كان من أهم واجباته أن يراعي الفقراء ويواسي المحتاجين، ويظهر هذا من سياق الحديث، حيث جعل النبي ﷺ هذه الصورة من هيئة الفقر لمن لا يجد غيرها من الإيمان، وفي هذا تخفيف من معاناة الفقراء، وبيان لفضلهم ومنزلتهم، والرسول ﷺ رحيم بالناس مشفق عليهم، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾، وقال عنه سبحانه وتعالى: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٣].

---

(١) انظر: منهاج القاصدين ٢١١ - ٢١٢.

(٢) إحياء علوم الدين، الإمام الغزالي ٢/١٦٠.

(٣) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

هذا وقد حثّ الإسلام على تسلية المحتاجين ومواساة المحرومين، فعن أنس رضي الله عنه قال: لَمَّا قَدِمَ النبيُّ المَدِينَةَ أَتَاهُ المُهَاجِرُونَ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ مَا رَأَيْنَا قَوْمًا أَبْذَلَ مِنْ كَثِيرٍ وَلاَ أَحْسَنَ مُوَاسَاةً مِنْ قَلِيلٍ مِنْ قَوْمٍ نَزَلْنَا بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ لَقَدْ كَفَوْنَا المُؤْنَةَ وَأَشْرَكُونَا فِي المَهْنَاءِ، حَتَّى لَقَدْ خِفْنَا أَنْ يَذْهَبُوا بِالأَجْرِ كُلِّهِ، فَقَالَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم: ((أَلاَ مَا دَعَوْتُمُ اللهَ لَهُمْ وَأَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِمْ))[1].

وجاء في موسوعة نضرة النعيم: "عن بكر بن عبدالله رضي الله عنه قال: (إني لأرجو أن أعيش عيش الأغنياء، وأموت موت الفقراء)، قال الذهبي: فكان كذلك يلبس كسوته ثم يجيء إلى المساكين، فيجلس معهم يحدثهم ويقول: لعلهم يفرحون بذلك، وقال ابن عيينة: كان سعيد بن العاص إذا قصده سائل وليس عنده شيء قال: اكتب عليّ سجلاً بمسألتك إلى الميسرة"[2]، فعلى الداعي إلى الله مراعاة الفقراء وتسليتهم ومواساتهم.

قال د. الحسيني هاشم: الدنيا بمظاهرها ومفاتنها وتصارع الأحياء في اقتنائها والتنعم بها لا قيمة لها في نظر الإسلام، وعلامة الإسلام بالنسبة للمسلم الرضا بما قسم الله له، وعدم الاعتناء الزائد بالمظهر، أو احترام مظاهر الناس دون النظر إلى شخصيتهم الدينية ومبادئهم في الحياة، وكلما ابتعد الإنسان عن الدنيا زاهدًا فيها عاملاً بما كُلِّف عمله كلما قرب من الله)[3].

---

(١) أخرجه الترمذي ٢٤٨٧، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٠٢٠).

(٢) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن محمد بن ملوح ٣٤٦٨/٨.

(٣) شرح رياض الصالحين ٣٣٦.

الحديث رقم (٥١٧)

٥١٧ - وعن أَبي عبد الله جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قَالَ: بَعَثَنَا رسول الله ﷺ، وَأمَّرَ عَلَيْنَا أَبَا عُبَيْدَةَ رضي الله عنه، نَتَلَقَّى عِيرًا لِقُرَيْشٍ، وَزَوَّدَنَا جِرَابًا مِنْ تَمْرٍ لَمْ يَجِدْ لَنَا غَيْرَهُ، فَكَانَ أَبو عُبيدَةَ يُعْطِينَا تَمْرَةً تَمْرَةً، فقيلَ: كَيْفَ كُنْتُمْ تَصْنَعُونَ بِهَا؟ قَالَ: نَمَصُّهَا كَمَا يَمَصُّ الصَّبي، ثُمَّ نَشْرَبُ عَلَيْهَا مِنَ الْمَاءِ، فَتَكْفِينَا يَوْمَنَا إِلَى اللَّيْلِ، وَكُنَّا نَضْرِبُ بِعِصِيِّنَا الخَبَطَ، ثُمَّ نَبُلُّهُ بالماءِ فَنَأكُلُهُ. قَالَ: وَانْطَلَقْنَا عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ، فَرُفِعَ لَنَا عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ كَهَيْئَةِ الكَثِيبِ الضَّخْمِ، فَأَتَيْنَاهُ فَإذَا هِيَ دَابَّةٌ تُدْعَى الْعَنْبَرَ، فَقَالَ أَبو عُبَيْدَةَ: مَيْتَةٌ، ثُمَّ قَالَ: لا، بَلْ نَحْنُ رُسُلُ رَسُول الله ﷺ، وفي سبيل الله وَقَدِ اضْطُرِرْتُم فَكُلُوا، فَأَقَمْنَا عَلَيْهِ شَهْرًا، وَنَحْنُ ثَلاثُمِئَةٍ حَتَّى سَمِنَّا، وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا نَغْتَرِفُ مِن وَقْبِ عَيْنِهِ بالقِلالِ الدُّهْنَ وَنَقْطَعُ مِنْهُ الفِدَرَ كالثَّوْرِ (أَوْ: كَقَدْرِ الثَّوْرِ)، وَلَقَدْ أَخَذَ مِنَّا أَبو عُبَيْدَةَ ثَلاثَةَ عَشَرَ رَجُلاً، فَأَقْعَدَهُمْ في وَقْبِ عَيْنِهِ، وَأَخَذَ ضِلْعًا مِنْ أَضْلاعِهِ فَأقَامَهَا، ثُمَّ رَحَلَ أَعْظَمَ بَعِيرٍ مَعَنَا فَمَرَّ مِنْ تَحْتِهَا وَتَزَوَّدْنَا مِنْ لَحْمِهِ وَشَائِقَ، فَلَمَّا قَدِمْنَا المَدِينَةَ أَتَيْنَا رسول الله ﷺ فَذَكَرْنَا ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: ((**هُوَ رِزْقٌ أخْرَجَهُ اللهُ لَكُمْ، فَهَلْ مَعَكُمْ مِنْ لَحْمِهِ شَيْءٌ فَتُطْعِمُونَا؟**)) فَأَرْسَلْنَا إِلَى رسول الله ﷺ مِنْهُ فَأَكَلَهُ. رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

جابر بن عبدالله الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

العيرُ: الإبلُ[٢].

جرابًا: وعاء من جلد[٣].

الخبط: ورق شجر معروف تأكله الإبل، وقيل: ما سقط من ورق الشجر بالخبط والنَّفض[٤].

---

(١) برقم ١٩٣٥/١٧.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٦٥٣.

(٣) رياض الصالحين ٢٤١.

(٤) رياض الصالحين ٢٤١، والمعجم المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢١٦.

الكثيب: التلُّ من الرمال[١].

العنبر: حيوان ثدييّ بحري من رتبة الحيتان[٢].

وَقْبُ عِينهِ: نُقرةُ العين[٣].

القلالُ: الجرار[٤].

الفِدرَ: القطع، مفردها: فِدْرَة[٥].

رَحَل البعير: جعل عليه الرحل[٦].

الوشائقُ: اللحمُ الذي اقتطعُ ليقدَّد منه، ومفردها: وشيقة[٧].

الشرح الأدبي

الحديث قصصي طويل يعتمد الحوار في بعض مراحله والأسلوب القصصي يجذب السامع لميل النفس الفطري لسماعه كما أنه يعلم بطريقة غير مباشرة، ويقرر الحقائق، ويصحح الأخطاء دون مواجهة للمخاطب قد لا تجد عنده قبولا إذا وجهت إليه مباشرة وقوله (قَالَ: بَعَثَنَا رسول الله ﷺ، وَأَمَّرَ عَلَيْنَا أَبَا عُبَيْدَةَ رضي الله عنه) ضمير الجماعة المتصل بالفعل يشير إلى أنهم كانوا عددا كبيرا، وهو المناسب للغرض وهو اعتراض عير قريش، ونسبة البعث للرسول ﷺ تقرر أنهم في مهمة شرعية خرجوا لله، والفعل (أمَّر) يضبط حركة البعث بالتنظيم الشرعي الذي ينظم حياة المسلم في جميع سلوكياته بما يحقق الغاية، ويمنع الشقاق وقوله (وَزَوَّدَنَا جِرَاباً مِنْ تَمْرٍ) هو من باب الأخذ بالأسباب بالقدر، وإفراد الجراب، وتنكيره يشير إلى قلته، ونقصه عن قدر

---

(١) رياض الصالحين ٢٤١.

(٢) المعجم المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٦٣٠.

(٣) رياض الصالحين ٢٤١.

(٤) المرجع السابق ٢٤١.

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ف د ر).

(٦) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (و ش ق).

(٧) المرجع السابق ٢٤١.

الحاجة، وقوله (لَمْ يَجِدْ لَنَا غَيْرَهُ) يشير إلى الاضطرار الذي يستلزم التصرف على قدر الموقف، وهو ما فعله أَبو عُبيدَةَ وصوره المضارع (يُعْطِينَا تَمْرَةً تَمْرَةً) مع المفعول الدال على حسن التصرف على قدر الحاجة، وقد أثار الخبر بعض المخاطبين فسأل(كَيْفَ كُنْتُمْ تَصْنَعُونَ بِهَا؟) وهو استفهام يحمل تعجبا أزالته إجابته (نَمَصُّهَا كَمَا يَمَصُّ الصَّبي، ثُمَّ نَشْرَبُ عَلَيْهَا مِنَ الْمَاءِ) ثم النتيجة التي حققتها (فَتَكْفِينَا يَوْمَنَا إِلَى اللَّيْلِ) وقوله (نَحْنُ رُسُلُ رَسُول الله ﷺ) فيه جناس يشير إلى المنطلق الذي يتحركون منه، ويتصرفون على أساسه، وقوله(وَقَدِ اضْطُرِرْتُمْ فَكُلُوا) يشير إلى اجتهاد أبي عبيدة رضي الله عنه في المسألة، وقوله (فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ أَتَيْنَا رسول الله ﷺ فَذَكَرْنَا ذَلِكَ لَهُ) التعبير بالإتيان للإشارة إلى المجيء بشيء، وقوله فذكرنا إشارة إلى مراجعة العمال للفصل بين الصواب، والخطأ عن طريق التقويم البناء، والفاء تدل على السرعة في عرض نتائج الرحلة على الرسول ﷺ، وقوله (هُوَ رِزْقٌ أَخْرَجَهُ اللهُ لَكُمْ) إقرار قولي من الرسول ﷺ لفعلهم) أكده بالاستفهام المؤذن بالإقرار الفعلي بالأكل معهم (فَهَلْ مَعَكُمْ مِنْ لَحْمِهِ شَيْءٌ فَتُطْعِمُونَا؟).

فقه الحديث

في هذا الحديث من الفقه ما يلي:

١ - تأمير الرفقة بعضهم عليهم: قال النووي: (فيه [أي هذا الحديث] أن الجيوش لا بدّ لها من أمير يضبطها وينقادون لأمره ونهيه وأنه ينبغي أن يكون الأمير أفضلهم أو من أفضلهم. قالوا: ويستحب للرفقة من الناس - وإنْ قلُّوا - أن يؤمروا بعضهم عليهم وينقادوا له)(١).

٢ - صد أهل الحرب: قال النووي: (في هذا الحديث جواز صد أهل الحرب واغتيالهم والخروج لأخذ مالهم واغتنامه)(٢).

٣ - خلط أزواد الرفقة: قال النووي: (قال العلماء: يستحب للرفقة من المسافرين

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٧/١٣/٧٢.

(٢) السابق، الموضع نفسه.

خلط أزوادهم، ليكون أبرك وأحسن في العشرة وأن لا يختص بعضهم بأكل دون بعض)[(١)].

٤ - سؤال الإنسان من مال صاحبه: قال النووي: (طلب النبي ﷺ من لحمه وأكله ذلك، في هذا دليل على أنه لا بأس بسؤال الإنسان من مال صاحبه ومتاعه إدلالاً عليه،وليس هو من السؤال المنهي عنه، إنما ذاك في حق الأجانب للتمول ونحوه. وأما هذه فللمؤانسة والملاطفة والإدلال)[(٢)].

٥ - الاجتهاد في الأحكام في زمن النبي ﷺ: قال النووي: (فيه جواز الاجتهاد في الأحكام في زمن النبي ﷺ، كما يجوز بعده)[(٣)].

٦ - تعاطي المفتي بعض المباحات التي يشك فيها المستفتي: قال النووي: (يستحبّ للمفتي أن يتعاطى بعض المباحات التي يشكّ فيها المستفتي إذا لم يكن فيه مشقة على المفتي وكان فيه طمأنينة للمستفتي)[(٤)].

٧ - حكم أكل ميتة السمك: ذهب جمهور الفقهاء إلى إباحة أكل ميتة السمك سواء أمات حتف أنفه أو بالاصطياد، بينما ذهب الحنفية إلى أنه لا يحل أكل ما مات حتف أنفه "وهو الطافي"[(٥)].

٨ - المباح من ميتات البحر غير السمك: ذهب الحنابلة والصحيح عند الشافعية أنه يباح جميع ميتات البحر إلا الضفدع والحية والتمساح، وقال المالكية: يحل الجميع

---

(١) السابق، ٧/١٣/٧٣.

(٢) السابق، الموضع نفسه.

(٣) السابق، الموضع نفسه.

(٤) السابق، ٧/ج١٣/٧٣-٧٤.

(٥) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ٤٧٠/٨، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٧/١٣/٧٤، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، علاء الدين الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ١٧٣/٦، وبداية المجتهد ٦١٢/١، ٦١٣، ومغني المحتاج ٢٩٧/٤، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٢٤٥/١٤.

سواء الضفدع وغيره، وذهب الحنفية والشافعية في وجه ثانٍ إلى أنه لا يحل غير السمك.

وذهب الشافعية في وجه ثالث إلى أن ما حرم نظيره في البر فهو حرام في البحر كذلك، ككلب الماء وخنزيره[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من وسائل الدعوة: البعوث.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل أبي عبيدة رضي الله عنه.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: بيان شدة الحالة التي كان عليها الصحابة رضي الله عنهم.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: رزق الله تعالى لعبادة المتوكلين الصادقين.

سادسًا: من آداب المدعو: استفتاء الداعية فيما يشغله من أمور.

سابعًا: من واجبات الداعية: البيان والتوضيح وإقرار المدعوين على الفعل الصواب.

أولاً - من وسائل الدعوة: البعوث:

حيث جاء في الحديث "بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم" قال الإمام النووي: (وفي الحديث جواز صدّ أهل الحرب واغتيالهم، والخروج لأخذ مالهم واغتنامه)[2] ومما هو معلوم أن البعوث والجهاد في سبيل الله من وسائل الدعوة قال تعالى: ﴿وَجَـٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[3] وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[4] ولما كان الجهاد من فرائض الإسلام عظمت به الوصية واشتدت الحاجة إليه (إن الجهاد من لوازم

---

(١) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ٨/٤٧١، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٧/١٣/٧٤، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، علاء الدين الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٦/١٧٣ وما بعدها، وبداية المجتهد ١/٦١٣، ومغني المحتاج ٤/٢٨٧، ٢٩٨، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ١٤/٢٤٥-٢٤٦.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢٣٣.

(٣) سورة التوبة، آية: ٢١.

(٤) سورة العنكبوت، آية: ٦٩.

الحياة الكريمة، حيث يبذل المسلم ماله ونفسه وجميع ما يملك لإعلاء كلمة الله، ونشر الدعوة إلى الله، وإبلاغ هذا الدين بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن)(١).

(إن المسلمين لمَّا أصبحت لهم دولة بالمدينة، ورضي أهلها جميعًا بالنبي ﷺ نبيًا رسولاً، ورئيسًا مسؤولاً عن أمنها وسلامتها، كان لابد من حماية هذا الوضع من العدوان ومن ثم حض القرآن على القتال لمقاومة الظلم وتحرير المستضعفين، ونصرة المظلوم، ومنع الفتنة في الدين، وكفالة حرية العبادة، ولذا فبعد الإذن بالقتال، بدأ الرسول ﷺ في بعث سرايا من أصحابه كمناورات على الحدود وذلك لتأمين المدينة، ومعرفة حركات أعدائه حتى لا يؤخذ على غرة وقد خرج بنفسه في عدد منها)(٢).

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: فضل أبي عبيدة رضي الله عنه:

إن الصحابة الكرام رضي الله عنهم لهم فضل عظيم، ومكانة كبيرة فقد جاهدوا وصبروا وأوذوا وتحملوا، ومن كوكبة الصحابة رضي الله عنهم أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه، حيث جاء في الحديث "وأمَّر علينا أبا عبيدة رضي الله عنه" وهو عامر بن عبدالله بن الجراح بن هلال مشهور بكنيته: أبو عبيدة بن الجراح، أحد العشرة السابقين إلى الإسلام، هاجر الهجرتين، وشهد بدرًا وما بعدها، وهو الذي انتزع حلقتي المغفر(٣) من وجه رسول الله ﷺ يوم أحد، فسقطت ثنيتاه رضي الله عنه(٤)، له من الفضائل والمناقب ما لم تحوز لغيره، فهو أمين الأمة، لقوله ﷺ: ((إن لكلِّ أمةٍ أمينًا، وإن أميننَا أيَّتُها الأمَّةُ أبو عُبيدةَ بنُ الجرّاح))(٥) وعن حذيفة رضي الله عنه قال: ((قال النبيُّ ﷺ لأهلِ نَجْرانَ: لأبعَثنَّ -

---

(١) قواعد الدعوة الإسلامية، د. حمدان الهجاري ٢٤٢.

(٢) الجهاد في الإسلام، أ. محمد شديد، ٩٢-٩٣.

(٣) المغفر: هو ما يلبسه الدارع على رأسه من الزَرَد ونحوه. النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (غ ف ر).

(٤) الإصابة في تمييز الصحابة، ابن علي العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ص ٦٤٤، ٦٤٥.

(٥) أخرجه البخاري ٣٧٤٤، ومسلم ٢٤١٩.

يعني عليكم - أمينًا حقَّ أمين. فأشرَفَ أصحابُهُ ﷺ، فبعثَ أبا عُبيدةَ ﷺ))[(١)].

وفي بيان عظم مناقبه ﷺ وفضله قال عمر بن الخطاب ﷺ لأصحابه: تمنوا فقال رجل: أتمنى لو أن لي هذه الدار مملوءة ذهبًا أنفقه في سبيل الله عز وجل. ثم قال: تمنوا فقال رجل: أتمنى لو أنها مملوءة لؤلؤًا وزبرجدًا أو جوهرًا أنفقه في سبيل الله عز وجل وأتصدق به ثم قال: تمنوا فقالوا: ما ندري يا أمير المؤمنين فقال عمر ﷺ: أتمنى لو أن هذه الدار مملوءة رجالاً مثل أبي عبيدة بن الجراح)[(٢)].

وكيف لا وهو القائل: ما من الناس من أحمر ولا أسود حر ولا عبد عجمي ولا فصيح، اعلم أنه أفضل مني بتقوى إلا أحببت أن أكون في مسلاخه[(٣)]، وقد أورد ابن حجر عن الحسن أن رسول الله ﷺ قال: ((ما من أحد من أصحابي إلا لو شئت لأخذت عليه في خلقه ليس أبا عبيدة بن الجراح))[(٤)]، ومات ﷺ في طاعون عمواس بالشام سنة ثمان عشرة.

ثالثًا - من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

حيث جاء في الحديث "كيف كنتم تصنعون بها؟ قال: نمصها كما يمص الصبي" و أسلوب السؤال والجواب من أساليب الدعوة المهمة وهو يفتح باب المحاورة بين الداعية والمدعو، وفيه زيادة إفهام للسائل حيث يسوق الداعية إليه الجواب مباشرة، ومن صور استخدام القرآن الكريم لأسلوب السؤال والجواب قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ ﴾[(٥)] وقوله ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ ﴾[(٦)].

---

(١) أخرجه البخاري ٣٧٤٥، ومسلم ٢٤٢٠.

(٢) صفة الصفوة ١/١٦٣-١٦٤.

(٣) المسلاخ: الجلد يقال في المدح: ملك في مسلاخ إنسان وهو كناية عن ملازمته له. انظر: المعجم المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٤٤٢.

(٤) الإصابة في تمييز الصحابة، ابن علي العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ٦٦٤، ٦٦٥، وقال ابن حجر: حديث مرسل، ورجاله ثقات.

(٥) سورة البقرة، آية: ٢٢٢.

(٦) سورة الأنفال، آية: ١.

رابعًا - من موضوعات الدعوة: بيان شدة الحالة التي كان عليها الصحابة رضي الله عنهم:

إن الصحابة رضي الله عنهم لم تفتنهم زينة الحياة الدنيا، ومرّت بهم الأيام الشداد التي لا يجدوا فيها ما يأكلون وهم صابرون محتسبون، ويتضح هذا من الحديث "كان أبو عبيدة يعطينا تمرة تمرة" "كنا نمصها كما يمص الصبي" "كنا نضرب بعصينا الخبط ثم نبله بالماء فنأكله" ولاشك أن كل هذا يبين مدى شدة الحالة التي كان عليها الصحابة رضي الله عنهم.

قال النووي: (وفي هذا بيان ما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم من الزهد في الدنيا والتقلل منها، والصبر على الجوع وخشونة العيش وإقدامهم على الغزو مع هذه الحال)[1].

وعن خالد بن عمير قال: خطبنا عتبة بن غزوان على المنبر فقال: ((وَلَقَدْ رَأَيْتُنِي سَابِعَ سَبْعَةٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ. مَا لَنَا طَعَامٌ نأكله إِلاَّ وَرَقُ الشَّجَرِ. حَتَّى قَرِحَتْ أَشْدَاقُنَا))[2].

ومن صور ذلك أيضًا ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ((خَرَجَ رَسُولُ اللّهِ ذَاتَ يَوْمٍ أَوْ لَيْلَةٍ. فَإِذَا هُوَ بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ. فَقَالَ مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَـٰذِهِ السَّاعَةَ؟ قَالاَ: الْجُوعُ. يَا رَسُولَ اللّهِ قَالَ: وَأَنَا. وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لأَخْرَجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا))[3].

وعن سعد رضي الله عنه قال: ((رأيتُني سابعَ سَبعةٍ معَ النبيِّ ﷺ ما لنا طعامٌ إلاَّ وَرَقُ الحُبْلَة[4] أو الحبَلة حتَّى يَضَعَ أحدُنا ما تَضَعُ الشاة، ثم أصبَحَتْ بنو أَسَدٍ تُعزِّرُني على الإسلام، خَسِرتُ إذن وضلَّ سَعيي))[5]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه: ((أنه مرَّ بقومٍ بينَ أيديهم شاةٌ مَصليَّة، فدَعوهُ، فأبى أن يأكل قال: خرجَ رسولُ الله ﷺ من الدنيا ولم يَشبَعْ من خبزِ الشعير))[6].

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢٣٤.

(٢) أخرجه مسلم ٢٩٦٧.

(٣) أخرجه مسلم ٢٠٣٨.

(٤) الحبلة: ثمرة فصيلة القطانيات كالفول والعدس والفاصوليا وغيرها وتكون ذات فلقتين وبضع بزرات، وهي تتفتح عندما تنضج. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ١٤٨، المعجم المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١٥٣.

(٥) أخرجه البخاري ٥٤١٢، ومسلم ٢٩٦٦.

(٦) أخرجه البخاري ٥٤١٤.

وعن أبي حازم قال: ((سَألتُ سهلَ بن سعدٍ فقلتُ : هل أكلَ رسولُ الله ﷺ النَّقِيَّ؟ فقال سهلٌ: ما رَأى رسول الله ﷺ النَّقيَّ مِن حِينِ ابتعَثهُ اللهُ حتى قَبضَه الله. قال: فقلت: هل كانت لكم في عهدِ رسولِ الله ﷺ مَناخِلُ؟ قال: ما رَأى رسولُ الله ﷺ مُنخُلاً من حينِ ابتَعَثَهُ الله حتى قبضَه الله. قال: قلت: كيف كنتم تأكلونَ الشعيرَ غيرَ منخولٍ؟ قال: كنَّا نَطحَنه ونَنفُخُه، فيطيرُ ما طار، وما بقي ثَرَّيْناه فأكلناه))[1]. وجاء عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (أنتم اليوم أطول اجتهادًا وأطول صلاة وأكثر صلاة من أصحاب محمد ﷺ وكانوا خيرًا منكم فقيل لم؟ قال: كانوا أزهد منكم في الدنيا وأرغب في الآخرة)[2].

خامسًا - من موضوعات الدعوة: رزق الله تعالى لعباده المتوكلين الصادقين:

إن فضل الله واسع ورزقه كبير لمن صدق في توكله عليه ولقد كان أصحاب رسول الله ﷺ أصدق الناس توكلاً وأشدهم يقينًا في الله ولذا رزقهم الله من حيث لم يحتسبوا؛ حيث جاء في الحديث "فانطلقنا على ساحل البحر فرفع لنا على ساحل البحر كهيئة الكثيب الضخم فإذا هي دابة تدعى العنبر" وما من شك في أن هذا يدل على رزق الله لمن يتوكل عليه قال الله سبحانه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[3] وقال سبحانه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾[4] وقال سبحانه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ﴾[5].

وقد جاء في الحديث أن حسن التوكل على الله من ثماره الرزق الكثير فعن عمر

---

(١) أخرجه البخاري ٥٤١٣.

(٢) كتاب الزهد، عبدالله بن مبارك المروزي، تحقيق وتعليق الشيخ: حبيب الرحمن الأعظمي ص ١٧٢.

(٣) سورة الطلاق، آية: ٢، ٣.

(٤) سورة هود، آية: ٦.

(٥) سورة العنكبوت، آية: ٦٠.

بن الخطاب ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: ((لَوْ أَنَّكُمْ كنتم تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا))[١].

قال ابن القيم: (التوكل نصف الدين، والنصف الثاني الإنابة ومنزلته أوسع المنازل وأجمعها، ولا تزال معمورة بالنازلين لسعة متعلق التوكل، وكثرة حوائج العالمين وعموم التوكل. ومن صدق توكله على الله في حصول شيء ناله فإن كان محبوبًا له مرضيًا كانت له فيه العاقبة المحمودة ولذا فإن التوكل أن ترد عليك موارد الفاقات، فلا تسمو إلا إلى من إليه الكفايات)[٢].

والإنسان عندما يقنع ويرضى بما قسمه الله له من الرزق يبارك له ويزاد له في رزقه قال ابن رجب الحنبلي: (والمتوكل حقيقة من يعلم أن الله قد ضمن لعبده رزقه وكفايته فيصدق الله فيما ضمنه، ويثق بقلبه، ويحقق الاعتماد عليه فيما ضمنه من الرزق من غير أن يخرج التوكل مخرج الأسباب في استجلاب الرزق به، والرزق مقسوم لكل أحد من بر وفاجر ومؤمن وكافر فما دام العبد حيًا فرزقه على الله وقال عمر ﵁ بين العبد وبين رزقه حجاب فإن قنع ورضيت نفسه أتاه رزقه وإن اقتحم وهتك الحجاب لم يزد فوق رزقه وقال بعض السلف: توكل تسق إليك الأرزاق بلا تعب ولا تكلف[٣].

سادسًا – من آداب المدعو: استفتاء الداعية فيما يشغله من أمور:

حيث جاء في الحديث: "فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله ﷺ فذكرنا ذلك له" وهذا من أهم آداب المدعو أن يستفتي الداعية في كل ما لا يعلم، وفيما يشغله من الأمور، وقد أمر الله بهذا في القرآن الكريم قال تعالى: ﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٤].

قال السعدي: (وهذه الآية وإن كان سببها خاصًا بالسؤال عن حالة الرسل المتقدمين من أهل الذكر وهم أهل العلم فإنها عامة في كل مسألة من مسائل الدين

---

(١) أخرجه الترمذي ٢٣٤٤، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٩١١).

(٢) انظر: مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢/٣٥١-٣٥٣.

(٣) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢/٥٠٨.

(٤) سورة الأنبياء، آية: ٧.

أصوله وفروعه إذا لم يكن عند الإنسان علم منها أن يسأل من يعلمها ففيه الأمر بالتعلم والسؤال لأهل العلم، ولم يؤمر بسؤالهم إلا أنه يجب عليهم التعليم والإجابة عما علموه وفي تخصيص السؤال بأهل الذكر والعلم نهي عن سؤال المعروف بالجهل وعدم العلم، نهي له أن يتصدى لذلك)[(١)].

وقال سبحانه: ﴿ٱلرَّحۡمَـٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾[(٢)] وحث النبي ﷺ على الاستفتاء والسؤال عند عدم العلم فقال لما أخبر عن المجروح الذي اغتسل فمات ((قَتَلُوهُ قَتَلَهُمُ اللّٰه ألاَّ سَأَلُوا إذْ لَمْ يَعْلَمُوا فإنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ))[(٣)].

سابعًا - من واجبات الداعية: البيان والتوضيح وإقرار المدعوين على الفعل الصواب:

حيث جاء في الحديث "هو رزق أخرجه الله لكم فهل معكم من لحمه شيء فتطعمونا" والبيان والتوضيح من أهم واجبات الداعية لأنه هو الذي يُرجع إليه في المسائل الشرعية فكان لابد من البيان والجواب وقد قال الله لنبيه ﷺ ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾[(٤)] قال الإمام النووي: (وأما طلب النبي ﷺ من لحمه وأكله ذلك فإنما أراد به المبالغة في تطييب نفوسهم في حله، وأنه لاشك في إباحته وأنه يرتضيه لنفسه ويستفاد من هذا أنه يستحب للمفتي أن يتعاطى بعض المباحات التي يشك فيها المستفتي إذا لم يكن فيه مشقة على المفتي وكان فيه طمأنينة للمستفتي)[(٥)].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٤٦٨.

(٢) سورة الفرقان، آية: ٥٩.

(٣) أخرجه أبو داود ٣٣٦، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٢٥).

(٤) سورة النحل، آية: ٤٤.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢٣٤.

الحديث رقم (٥١٨)

٥١٨ - وعن أسماء بنتِ يزيد رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قالت: كَانَ كُمُّ قَمِيصِ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الرُّصْغِ. رواه أَبو داود والترمذيُّ[١]، وقال: (حديث حسن).

ترجمة الراوي:

أسماءُ بنتُ يزيد بن السكن: هي أمُّ عامر الأنصاري الأشهلية، بنت عمّة معاذ بن جبل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وفدت على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في السنة الأولى للهجرة فبايعته وسمعت حديثه وكانت من أخطب نساء العرب وكان يُقال لها خطيبة النساء، حضرت بيعة الرضوان وبايعت يومئذ، وكانت من ذوات الشجاعة والإقدام، وقد شهدت اليرموك (سنة ١٣هـ) وكانت تسقي الظماء وتضمد جراح الجرحى فلما اشتدت الحرب أخذت عمود خيمتها وانغمرت في الصفوف فصرعت به تسعة من الروم، وقد روت عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحاديث صالحة.

وقد قالت: رأيتُ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مسجِدنا المغربَ فجئتُ منزلي فجئته بلحمٍ وأرغفةٍ، فقلت: تعَشَّ!! فقال لأصحابه: (كُلُوا)!! فأكل هو وأصحاب الذين جاؤوا ومن كان حاضرًا من أهل الدار، وإنَّ القومَ لأربعونَ رجلاً، والذي نفسي بيده لرأيتُ بعضَ العِرقِ لم يتعرّقْهُ وعامَّة الخُبْز قالت: وشربَ عندي في شَجْبٍ -أي قربة مقطوعة الفم، شبه الدلو - فأخَذْتُهُ فدهنتُهُ وطرّيتُهُ، فكنا نسقي فيه المرضى ونشربُ منه في الحين رَجَاءَ البركة[٢].

وقالت مرَّ بي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنا في نسوة فسلَّم علينا فردَدْنا عليه السَّلامَ[٣].

---

(١) أخرجه أبو داود ٤٠٢٧ واللفظ له، والترمذي ١٧٦٥ وقال: حديثٌ حسنٌ غريبٌ. فيه شهر بن حوشب وهو صدوق كثير الإرسال والأوهام، وقد تفرد به، ورواه النسائي في الكبرى ٩٦٦٧ عن بديل بن ميسرة فذكره مرسلًا. وسيكرره المؤلف برقم ٧٩٠.

(٢) ذكره ابن سعد في الطبقات، ٣١٩/٨.

(٣) الطبقات الكبرى، ابن سعد، ٣٢٠/٨.

وتوفيت بعد اليرموك بزمن طويل[(١)].

غريب الألفاظ:

الرُّصغُ: المِفْصَلُ بين الكفِّ والساعِدِ[(٢)].

الشرح الأدبي

هذا الحديث الذي ترويه أسماء بنت يزيد رضي الله عنها يشير إلى جانب من لباس رسول الله صلى الله عليه وسلم في القميص، وتقرر عن طريق الفعل الماضي (كان) تحققه لتشير إلى أنه الثابت عنه في هذا الصدد، والتعبير بفعل الكينونة الماضي يشير إلى أنه المعتاد في لبسه للقميص أن يكون كمه إلى الرصغ أو الرسغ، وكلاهما بمعنى واحد، وهُوَ المَفْصِلُ بَيْنَ الكفِّ، والسَّاعِدِ، وهذا الخبر منها بقصد بيان لازمه، وهو بيان الحد المسنون في كم القميص، وهذا يشير إلى قمة العناية من الصحابة رجالا، ونساء بكل ما يخص الرسول صلى الله عليه وسلم في عبادته، أو في عادته؛ لأنهم يعلمون أنهم ينقلون دينهم لمن بعدهم فاهتموا بكل حدث في حياته مهما صغر، ونقلوه عنه بكل دقة، وأمانة رضي الله عنهم.

فقه الحديث

في هذا الحديث من الفقه:

الحدّ الذي يكون عنده كمّ القميص: قال المباركفوري: (قال الجزري: فيه دليل على أن السنة أن لا يتجاوز كم القميص الرسغ. وأما غير القميص فقالوا: السنة فيه أن لا يتجاوز رؤوس الأصابع من جبة وغيرها)[(٣)].

---

(١) طبقات ابن سعد ٢١٩/٨-٢٢٠، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر ٨٧٣، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود ١٦/٧، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن علي العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ١٦٣٥، وسير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ٢٩٦/٢-٢٩٧، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين ٥١٨/٨، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٦٦٤/٤، والأعلام، خير الدين الزركلي ٣٠٦/١، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك ٢١٤٥/٣.

(٢) رياض الصالحين ٢٤١.

(٣) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٥٣٩/٢.

ولكن جاءت أحاديث فيها أن الكمّ أسفل الرسغ أو أنه يساوي أطراف الأصابع، فقد أخرج أبو الشيخ في "أخلاق النبي" بإسناده عن أسماء بنت يزيد: (كان قميص النبي ﷺ أسفل الرسغ)(١). وأخرج أبو الشيخ أيضًا والحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (كان النبي ﷺ يلبس قميصًا فوق الكعبين مستوى الكمين بأطراف أصابعه)(٢) وقال العزيزي: (أي مساويًا لها)(٣).

قال العظيم آبادي: (ويجمع بين هذه الروايات وبين حديث الباب إما بالحمل على تعدد القميص، أو بحمل رواية الكتاب على رواية التخمين(٤)، أو يحمل الرسغ على بيان الأفضل وحمل الرؤوس على بيان الجواز، وقيل يحتمل أن يكون الاختلاف باختلاف أحوال الكم، فعقيب غسل الكم لم يكن فيه تثنٍ فيكون أطول، وإذا بعد عن الغسل ورفع فيه التثني كان أقصر)(٥).

ومن الجدير بالذكر أن النووي قال في المجموع: (يستحب تقصير الكم واستدل بحديث أسماء رضي الله عنها)(٦).

---

(١) أخرجه أبو الشيخ ٢٤٨، والبغوي في شرح السنة ٧/١٢-٨.

(٢) أخرجه أبو الشيخ ٢٤٧، والحاكم ١٩٥/٤ رقم ٧٤٩٧. وإسناده ضعيف جدًا. قاله الألباني في ضعيف الجامع الصغير ٤٦٢٦.

(٣) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١٧٢٩.

(٤) كذا في المطبوع من عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف، ولم أهتد لفهم هذه العبارة، ويغلب على الظن أن هناك تصحيفاً وصواب العبارة "أو بحمل رواية الكتاب على رؤية التشمير" والله أعلم.

(٥) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١٧٢٩، وانظر: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٥٣٩/٢-١٥٤٠، وفيض القدير شرح الجامع الصغير، عبدالرؤوف محمد المناوي ١٧٣/٥.

(٦) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢٣٦/٤.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: بيان هدي النبي ﷺ في لبس القميص.

ثالثًا: من آداب المدعو: التأسي برسول الله ﷺ.

أولاً - من أساليب الدعوة: الإخبار:

لقد جاء في هذا الحديث: "كان كم قميص رسول الله ﷺ إلى الرسغ"، فقد أخبرت أسماء بنت يزيد أن كم قميص رسول الله ﷺ إلى الرسغ، وأسلوب الإخبار من أهم الأساليب الدعوية، إذ أن الدعوة تقوم على الإخبار في الأصل، وأهم ما يتميز به أسلوب الإخبار: الصدق حيث إن أخبار القرآن والسنة كلها صادقة، والصدق يحقق الثقة والقبول لدى المدعو، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾[2]، وبأسلوب الإخبار تقوم الحجة على المدعوين بالبلاغ والبيان ومن أجل هذا كانت مهمة الرسل عليهم السلام ما جاء في قوله تعالى: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾[3].

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: بيان هدي النبي ﷺ في لبس القميص:

إن هدي النبي ﷺ هو أكمل الهدى وأحسنه وأتمه، وهذا الحديث يبين هدي النبي ﷺ في لبس القميص وحجم كمه، حيث جاء فيه: (كان كم قميص رسول الله ﷺ إلى الرصغ)، قال المباركفوري: "قال في النهاية: الرسغ بالسين المهملة والصاد لغة فيه وهو مفصل ما بين الكف والساعد، قال الجزري: فيه دليل على أن

---

(١) سورة التوبة، آية: ١١٩.

(٢) سورة الزمر، آية: ٣٣.

(٣) سورة النساء، آية: ١٦٥.

السنة أن لا يتجاوز كم القميص الرسغ وأما غير القميص فقالوا: السنة فيه أن لا يتجاوز رءوس الأصابع من جبة وغيرها"[١].

وقال ابن علان: (وحكمة الاقتصار على كم القميص إلى الرسغ أنه متى تجاوز اليد شق على لابسه ومنعه سرعة الحركة والبطش، ومتى قصر عنه تأذى الساعد ببروزه للحر والبرد فكان جعله إليه أمرًا وسطًا، وخير الأمور أوساطها، والرسغ: هو من الإنسان مفصل ما بين الكف والساعد والقدم أي مشترك بينهما)[٢].

وقال د. الحسيني عبدالمجيد هاشم: (كان كم قميص الرسول ﷺ قصيرًا لا يغطي كل ساعده لتتحقق له حرية الحركة وليوفر من طول الثياب ما لا حاجة إليه، ولاعتنائه بالضرورات دون ما عداها مما لا حاجة إليه)[٣].

وجاء في عون المعبود: (الحديث يدل على أن السنة في الأكمام أن لا تجاوز الرسغ).

وأخرج ابن حبان أيضًا من طريق مسلم بن يسار عن مجاهد عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يلبس قميصًا فوق الكعبين، مستوى الكمين بأطراف أصابعه.

ثالثًا - من آداب المدعو: التأسي برسول الله ﷺ:

إن المؤمن الحق هو من يتأسى برسول الله ﷺ ويتبع سمته وهديه ودله في كل شيء ولذا كان من آداب المدعو التأسي برسول الله ﷺ، ويفهم هذا من سياق الحديث، وبيان هيئة كم قميص رسول الله ﷺ، ولقد كان من توجيهات القرآن للمسلم أن يهتدي بهدي النبي ﷺ ويتأسى به، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾[٤].

قال الطاهر بن عاشور: (الأسوة اسم لما يؤتسى به أي يقتدى به ويعمل مثل عمله

---

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٥٣٩/٢.

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٧٧٦.

(٣) شرح رياض الصالحين ٣٣٧

(٤) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

وحق الأسوة أن يكون المؤتسى به هو القدوة، وجعل متعلق الائتساء ذات الرسول ﷺ دون وصف خاص ليشمل الائتساء به في أقواله بامتثال أوامره، واجتناب ما ينهى عنه والائتساء بأفعاله من الصبر والشجاعة والثبات، وفي الآية دلالة على فضل الاقتداء بالنبي ﷺ وأنه الأسوة الحسنة لا محالة، واصطلاح أهل الأصول على جعل التأسي لقبًا لاتباع الرسول ﷺ في أعماله التي لم يطالب بها الأمة على وجه التشريع)[١].

قال ابن القيم: (ولبس ﷺ القميص وكان أحب الثياب إليه، وكان كمه إلى الرسغ، وكان قميصه من قطن وكان قصير الطول، قصير الكمين، وأما هذه الأكمام الواسعة الطوال التي هي كالأخراج فلم يلبسها النبي ﷺ ولا أحد من أصحابه ألبتة وهي مخالفة لسنته، وفي جوازها نظر فإنها من جنس الخيلاء، ولا شك أن الصواب في أن أفضل الطرق طريق رسول الله ﷺ التي سنها وأمر بها ورغب فيها، وداوم عليها)[٢].

---

(١) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور ٣٠٢/٢١/٨ - ٣٠٣.

(٢) زاد المعاد، ابن قيم الجوزية ١٣٧/١.

الحديث رقم (٥١٩)

٥١٩ - وعن جابر رضي الله عنه، قَالَ: إنَّا كُنَّا يَوْمَ الْخَنْدَقِ نَحْفِرُ، فَعَرَضَتْ كُدْيَةٌ شَدِيدَةٌ، فَجَاؤُوا إِلَى النبي ﷺ، فقالوا: هذِهِ كُدْيَةٌ عَرَضَتْ فِي الخَنْدَقِ. فَقَالَ: ((**أنَا نَازِلٌ**)) ثُمَّ قَامَ، وَبَطْنُهُ مَعْصُوبٌ بِحَجَرٍ، وَلَبِثْنَا ثَلاثَةَ أيَّامٍ لاَ نَذُوقُ ذَوَاقًا، فَأخَذَ النبي ﷺ المِعْوَلَ، فَضَرَبَ[1] فَعَادَ كَثِيبًا أهْيَلَ (أَو: أهْيَمَ)، فقلت: يَا رسول الله، ائْذَنْ لي إِلَى البَيْتِ، فقلتُ لامْرَأتِي: رَأيْتُ بالنَّبيِّ ﷺ شَيئًا مَا[2] فِي ذَلِكَ صَبْرٌ فَعِنْدَكِ شَيءٌ؟ فقالت: عِنْدي شَعِيرٌ وَعَنَاقٌ، فَذَبَحْتُ العَنَاقَ وَطَحَنْتُ الشَّعِيرَ حَتَّى جَعَلْنَا اللَّحْمَ فِي البُرْمَةِ، ثُمَّ جِئْتُ النبي ﷺ، وَالعَجِينُ قَدِ انْكَسَرَ، وَالبُرْمَةُ بَيْنَ الأثَافِيِّ قَدْ كَادَتْ[3] تَنْضِجُ، فقلتُ: طُعَيْمٌ لي، فَقُمْ أنْتَ يَا رسول اللهِ وَرَجُلٌ أَوْ رَجُلانِ، قَالَ: ((**كَمْ هُوَ؟**)) فَذَكَرْتُ لَهُ، فَقَالَ: ((**كَثيرٌ طَيِّبٌ، قُل لَهَا لا تَنْزَع البُرْمَةَ، وَلاَ الخبْزَ مِنَ التَّنُّورِحتى آتِي**)) فَقَالَ: ((**قُومُوا**))، فقام المُهَاجِرُونَ وَالأنْصَارُ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهَا فقلتُ: وَيْحَكِ قَدْ جَاءَ النبيُّ ﷺ وَالمُهَاجِرُونَ وَالأنْصَارُ ومن مَعَهُمْ! قالت: هَلْ سَألَكَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: ((**ادْخُلُوا وَلا تَضَاغَطُوا**)) فَجَعَلَ يَكْسرُ الخُبْزَ، وَيَجْعَلُ عَلَيْهِ اللَّحْمَ، وَيُخَمِّرُ البُرْمَةَ وَالتَّنُّور إِذَا أَخَذَ مِنْهُ، وَيُقَرِّبُ إِلَى أصحَابِهِ ثُمَّ يَنْزِعُ، فَلَمْ يَزَلْ يكْسِرُ[4] وَيَغْرِفُ حَتَّى شَبِعُوا، وَبَقِيَ مِنْهُ[5]، فَقَالَ: ((**كُلِي هَذَا وَأهدي، فَإنَّ النَّاسَ أصَابَتْهُمْ مَجَاعَةٌ**)) متفقٌ عَلَيْهِ[6].

وفي رواية[7]: قَالَ جابر: لَمَّا حُفِرَ الخَنْدَقُ رَأيْتُ بالنبيِّ ﷺ خَمَصًا، فَانْكَفَأْتُ إِلَى

---

(١) عند البخاري زيادة: (في الكدية)، وهي لا توجد عند الحميدي في جمعه ٢/٢٥٨، رقم ١٥٧٩.

(٢) عند البخاري زيادة: (كان).

(٣) عند البخاري زيادة: (أن).

(٤) عند البخاري زيادة: (الكسرة)، وهي لا توجد عند الحميدي في جمعه.

(٥) لفظ البخاري: (وبقي بقيّة) والمثبت لفظ الحميدي في جمعه.

(٦) أخرجه البخاري ٤١٠١ من حديث عبد الواحد بن أيمن، عن أبيه، ولم يخرجه مسلم بهذا اللفظ.

(٧) أخرجه البخاري واللفظ له ٤١٠٢، ومسلم: ٢٠٣٩/١٤١ عن سعيد بن ميناء، عن جابر.

تنبيه: الحديث باللفظ الأول، انفرد البخاري بإخراجه، وباللفظ الثاني متفق عليه، واللفظ للبخاري، أورده الحميدي في جمعه ٢/٣٥٧، رقم ١٥٧٩ في المتفق عليه، وساق أولًا لفظ المتفق عليه، ثمَّ ساق لفظ البخاري لفظ البخاري، فعكسه المؤلف، فانعكس معه العزو.

امْرَأَتِي، فقلت: هَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ؟ فَإِنِّي رَأَيْتُ برسول الله ﷺ خَمَصًا شَدِيدًا، فَأَخْرَجَتْ إِلَيَّ جِرَابًا فِيهِ صَاعٌ مِنْ شَعِيرٍ، وَلَنَا بَهِيمَةٌ دَاجِنٌ فَذَبَحْتُهَا، وَطَحَنَتِ الشَّعِيرَ، فَفَرَغَتْ إِلَى فَرَاغِي، وَقَطَّعْتُهَا فِي بُرْمَتِهَا، ثُمَّ وَلَّيْتُ إِلَى رسول الله ﷺ، فقالت: لاَ تَفْضَحْنِي برسول الله ﷺ وَمَنْ مَعَهُ، فَجِئْتُهُ فَسَارَرْتُهُ، فَقُلْتُ: يَا رسول الله، ذَبَحْنَا بهيمَةً لَنَا، وَطَحَنْتُ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ(١)، فَتَعَالَ أَنْتَ وَنَفَرٌ مَعَكَ، فَصَاحَ رسول الله ﷺ، فَقَالَ: ((**يَا أهلَ الخَنْدَقِ: إِنَّ جَابِرًا قَدْ صَنَعَ سُؤْرًا فَحَيَّهَلا بِكُمْ**)) فَقَالَ النبي ﷺ: ((**لاَ تُنْزِلُنَّ بُرْمَتَكُمْ وَلاَ تَخْبِزُنَّ عَجِينَكُمْ حَتَّى أَجِيءَ**)) فَجِئْتُ، وَجَاءَ النبي ﷺ يَقْدُمُ النَّاسَ، حَتَّى جِئْتُ امْرَأَتِي، فقالَتْ: بِكَ وَبِكَ! فقُلْتُ: قَدْ فَعَلْتُ الَّذِي قُلْتِ. فَأَخْرَجَتْ(٢) عَجِينًا، فَبسَقَ(٣) فِيهِ وَبَارَكَ، ثُمَّ عَمَدَ إِلَى بُرْمَتِنا فَبصَقَ وَبَارَكَ، ثُمَّ قَالَ: ((**ادْعِي خَابزَةً فَلْتَخْبِزْ مَعَكِ، وَاقْدَحِي مِنْ بُرْمَتِكُمْ، وَلاَ تُنْزِلُوها**)) وَهُم أَلْفٌ، فَأُقْسِمُ بِالله لأَكَلُوا حَتَّى تَرَكُوهُ وَانْحَرَفُوا، وَإِنَّ بُرْمَتَنَا لَتَغِطُّ كَمَا هِيَ، وَإِنَّ عَجِينَنَا لَيُخْبَزُ كَمَا هُوَ.

ترجمة الراوي:

جابر بن عبدالله الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

يوم الخندق: غزوة الأحزاب، في شوال ٥هـ(٤).

عَرَضتْ كُديةٌ: قطعة غليظة صُلبةٌ من الأرض، لا يعملُ فيها الفأسُ(٥).

لا نذوق ذوقًا: أي لا نطعم فيها شيئًا(٦).

المعوَل: الفأسُ(٧).

---

(١) عند البخاري ومسلم زيادة: (كان عندنا).

(٢) عند البخاري ومسلم زيادة: (له).

(٣) لفظ البخاري، ومسلم: (فبصق) بالصاد المهملة.

(٤) انظر: أطلس السيرة النبوية، د. شوقي أبو خليل ١٣٦.

(٥) رياض الصالحين ٢٤٣.

(٦) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ذ و ق).

(٧) المرجع السابق في (ع و ل).

كثيبًا: الكثيب: تل الرمال[١].

أهْيل: صار تُرابًا ناعمًا[٢].

عَناقٌ: هي الأنثى من المعز[٣].

البرمة: القِدر وجمعها برام[٤].

والعجين قد انكسر: أي لان ورطب وتمكن منه الخمير[٥].

الآثافيّ: الأحجار التي يكون عليها القِدْرُ[٦].

التنور: الفرن يخبز فيه[٧].

تضاغطوا: تزاحموا[٨].

ويخمر البرمة والتنور: يغطيهما[٩].

الخمصُ: الجوع[١٠].

انكفأتُ: انقلبتُ ورجعتُ[١١].

جرابًا: وعاءً من جلد[١٢].

---

(١) رياض الصالحين ٢٤٣.

(٢) رياض الصالحين ٢٤٣.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٥٩/٧.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ب ر م).

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٥٩/٧.

(٦) رياض الصالحين ٢٤٣.

(٧) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ت ف ر).

(٨) رياض الصالحين ٢٤٣.

(٩) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٥٩/٧.

(١٠) رياض الصالحين ٢٤٣.

(١١) المرجع السابق ٢٤٣.

(١٢) المرجع السابق ٢٤١.

الصاعُ: هو وحدة من وحدات المكاييل[١].

بُهيمةٌ: تصغير بهَمْة، وهي العناق[٢].

داجنٌ: هي التي ألفت البيتَ[٣].

فساررتُه: كتمته قولاً[٤].

السُؤرُ: الطعام الذي يدعى الناس إليه، وَهُو بالفارسية[٥].

حيهلا: تعالوا[٦].

بكَ وبكَ: أي خاصمتْهُ وَسَبَّتْهُ لأنها اعتقدت أن الذي عندها لا يكفيهم؛ فاستحيت وخفى عليها ما أكرم الله سبحانه وتعالى به نبيه ﷺ من هذه المعجزة الظاهرة والآية الباهرة[٧].

بسق: بصق، ويقال أيضًا: بزق، ثلاث لغات[٨].

عَمَدَ: بفتح الميم أي قصَدَ[٩].

اقدحي: اغرفي، والمقدحة: المغرفة[١٠].

انحرفوا: انصرفوا[١١].

لَتَغطّ: أي لغليانها صوتٌ[١٢].

---

(١) معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ٢٤١، ٤١٩.

(٢) رياض الصالحين ٢٤٣.

(٣) رياض الصالحين ٢٤٣.

(٤) انظر: القاموس المحيط، الفيروز آبادي، الفيروز آبادي ٤٠٦.

(٥) رياض الصالحين ٢٤٣.

(٦) المرجع السابق.

(٧) المرجع السابق.

(٨) المرجع السابق.

(٩) المرجع السابق.

(١٠) المرجع السابق.

(١١) المعجم المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ح ر ف).

(١٢) رياض الصالحين ٣٤٤.

الشرح الأدبي

هذا الحديث من الأحاديث القصصية الواقعية الطويلة التي اشتملت على عناصر القصة، وقول جابر ﵁، قَالَ: إنَّا كُنَّا يَوْمَ الْخَنْدَقِ نَحْفِرُ) يعرض تفاصيلها من الشخصيات التي دل عليها بضمير الجماعة المتصل بالفعل (كنا) والحدث، وزمانه، ومكانه؛ لأن لفظ اليوم يشير إلى الزمان، وإضافته للخندق تشير إلى المكان، والحدث هو الحفر، وناء الفاعلين تشير إلى فريق العمل الذي شمل الصحابة، والتعبير بكنا يشير إلى العودة إلى الماضي الذي وقعت فيه القصة، والعقدة التي أشار إليها قوله (فَعَرَضَتْ كُدْيَةٌ شَدِيدَةٌ) قطعة صعبة من الأرض مع قلة أدوات الحفر وعدم ملاءمتها كما عرض للحل في قوله (فَجَاؤُوا إِلَى النبي - ﷺ) وقوله (قَامَ، وَبَطْنُهُ مَعْصُوبٌ بِحَجَرٍ) كناية عن شدة الجوع، وقوله (وَلَبِثْنَا ثَلاَثَة أيَّامٍ لاَ نَذُوقُ ذَوَاقاً) يشير إلى الشدة التي ترفع مستوى العقدة في النص، والتعبير بنفي الذوق يفيد المبالغة في نفي الأكل، وقوله (فَأخَذَ النبي ﷺ المِعْوَلَ، فَضَرَبَ فَعَادَ كَثِيباً أهْيَلَ أَو أهْيَمَ) الفاء التي عطفت الأفعال الثلاثة تشير إلى تسارع الأحداث التي تعرض لوجه الإعجاز في الفعل لأن قوله (فعاد كثيبا) يشير إلى تفتت الأرض الصلبة كما يوحي بضخامتها التي دل عليها لفظ الكثيب، والتعبير بأهيل يشير إلى حل المشكلة لأنها صارت غير متماسكة وقوله (قُومُوا)، فقام المُهَاجِرُونَ وَالأنْصَارُ) الأمر العام شمل الجميع مع أن الطعام الذي دعي إليه قليل،وهو ما يسمى بالحبكة القصصية التي يتبعها بحث عن الحل، والذي تمثل في فعل الرسول ﷺ المعجز في قوله (فَجَعَلَ يَكْسِرُ الخُبْزَ، وَيَجْعَلُ عَلَيْهِ اللَّحْمَ، وَيُخَمِّرُ البُرْمَةَ وَالتَّنُّور إِذَا أخَذَ مِنْهُ) والتعبير بالجعل للإشارة إلى الشروع في الفعل، والأفعال المضارعة تصور حركة يد النبي ﷺ بين البرمة، والتنور، وقلب الصحابي يخفق خوفا من نفاد الطعام، مع بقاء بقية الضيفان وهو أمر ثقيل على نفس العربي أن يرد ضيفه، وقوله (فَلَمْ يَزَلْ يكْسِرُ وَيَغْرِفُ حَتَّى شَبِعُوا، وَبَقِيَ مِنْهُ) التعبير بالفعل زال المنفي يشير إلى الاستمرارية في الإطعام مع البركة في الطعام التي أحدثت توازنا بين كمية الطعام، وعدد المدعوين بل وفاضت عن حاجة أهل البيت ببركة الرسول ﷺ فأمرها بقوله (كُلِي هَذَا وَأهدِي) وهو أمر توجيه، وإرشاد رعاية لحالها، وحال الناس، علله بقوله

(فَإِنَّ النَّاسَ أَصَابَتْهُمْ مَجَاعَةٌ) لحملها على الامتثال للأمر حيث أكد الخبر بأكثر من مؤكد، وأشار إلى عمومه بالمفهوم من دلالة لفظ الناس، والتعبير بالإصابة الذي يشير إلى التحقق مع قوة الأثر مع لفظ المجاعة الذي يدل على المبالغة في حالة الجوع العامة، وهذا يستلزم مزيد البذل، والعطاء.

فقه الحديث

في هذا الحديث من الفقه ما يلي:

١ - جواز المسارة بالحاجة بحضرة الجماعة: قال النووي: ("قوله فجئته فساررته فقلت يا رسول الله" فيه جواز المسارة بالحاجة بحضرة الجماعة، وإنما "نهى أن يتناجى اثنان دون الثالث"[(١)])[(٢)].

٢ - جواز التكلم بألفاظ غير عربية: قال النووي: (قوله ﷺ "إن جابرًا قد صنع لكم سورًا فحي هلا بكم" أما السور -فبضم السين وإسكان الواو غير مهموز، وهو الطعام الذي يدعى إليه، وقيل: الطعام مطلقًا وهي لفظة فارسية وقد تظاهرت أحاديث صحيحة بأن رسول الله ﷺ تكلم بألفاظ غير العربية، فيدل على جوازه)[(٣)].

المضامين الدعوية[(٤)]

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: استشارة الصحابة رضي الله عنهم للنبي ﷺ.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: بيان الحالة التي كان عليها النبي ﷺ من الجوع.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: بيان كرم وجود الصحابة رضي الله عنهم وإيثارهم.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: من دلائل النبوة تكثير الطعام بين يديه.

---

(١) أخرج البخاري ٦٢٩٠، ومسلم ٢١٨٤ عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا: "إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر، حتى تختلطوا بالناس، من أجل أن يحزنه".

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي، ١٨٤/١٣/٧.

(٣) المرجع السابق، ١٨٤/١٣/٧-١٨٥.

(٤) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -٥١٩- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (٥٢٠).

سادسًا: من أساليب الدعوة: الأمر.

سابعًا: من واجبات المدعو: التضحية والإيثار خاصة عند اشتداد الأزمات.

أولاً - من أساليب الدعوة: التوكيد:

حيث جاء في الحديث "إنا كنا" ولاشك أن أسلوب التوكيد يبين للمدعو مدى صدق الداعية فيما يقول ووثوقه به، وهذا مما يساعد في إقناع المدعو، وقد تكرر في القرآن الكريم استخدام هذا الأسلوب ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾(١) وقوله جل شأنه: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾(٢). قال القاسمي: (واعلم أنه لا تؤكد العرب إلا ما تهتم به؛ فإن من اهتم بشيء أكثر ذكره، وكلما عظم الاهتمام كثر التأكيد وكلما خفّ، خفّ التأكيد، وإن توسط الاهتمام، توسط التأكيد فإذا قال القائل: زيد قائم فقد أخبر بقيامه فإن أراد تأكيد ذلك عند من شك فيه أو يكذبه أو ينازعه فيه أكده فقال: إن زيدًا قائم فإن زاد في التأكيد قال: إن زيدًا لقائم)(٣).

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: استشارة الصحابة رضي الله عنهم للنبي ﷺ:

إن الإنسان العاقل هو من يستشير الحكماء فيما يعرض له من أمور فكيف إذا كان المستشار هو رسول الله ﷺ، ولذا كان من ديدن الصحابة رضي الله عنهم الرجوع إلى النبي ﷺ ومشاورته لعلمهم بتنزل الوحي عليه، ويتضح هذا من الحديث "فجاءوا إلى النبي ﷺ فقالوا: هذه كدية عرضت في الخندق" ولقد كان مبدأ المشاورة مما علمه رسول الله ﷺ لأصحابه وبهذا أمره الله تعالى في القرآن قال تعالى: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾(٤) ومدح الله الجماعة المؤمنة بقوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾(٥).

---

(١) سورة الكوثر، آية: ١.

(٢) سورة النبأ، آية: ٣١.

(٣) محاسن التأويل، القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ٢٥٧/١.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

(٥) سورة الشورى، آية: ٣٨.

قال القرطبي: (أي يتشاورون في الأمور وقال الحسن: أي إنهم لانقيادهم إلى الرأي في أمورهم متفقون لا يختلفون فمدحوا باتفاق كلمتهم قال الحسن ما تشاور قوم قط إلا هدوا لأرشد أمورهم وقال ابن العربي: الشورى ألفة للجماعة ومسبار للعقول وسبب إلى الصواب.

فمدح الله المشاورة في الأمور بمدح القوم الذين كانوا يمتثلون ذلك)[1]. وقال الماوردي: (اعلم أن من الحزم لكل ذي لب ألا يبرم أمرًا، ولا يمضي عزمًا إلا بمشورة ذي الرأي الناصح ومطالعة ذي العقل الراجح فإن الله عز وجل أمر بالمشورة نبيه ﷺ مع ما تكفل به من إرشاده، ووعد به من تأييده قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الرجال ثلاثة: رجل ترد عليه الأمور فيسددها برأيه؛ ورجل يشاور فيما أشكل عليه وينزل حيث يأمره أهل الرأي، ورجل حائر بائر لا يأتمر رشدًا، ولا يطيع مرشدًا وقال عمر بن عبدالعزيز: إن المشورة والمناظرة بابا رحمة، ومفتاحا بركة لا يضل معهما رأي، ولا يفقد معهما حَزْم. وقال بعض البلغاء: من حق العاقل أن يضيف إلى رأيه آراء العقلاء، ويجمع إلى عقله عقول الحكماء، فالرأي الفذ ربما زلّ، والعقل الفرد ربما ضلّ وقال بشار بن برد:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن ... برأي نصيح أو نصيحة حازم

ولا تجعل الشورى عليك غضاضةً ... فإن الخوافي قوةٌ للقوادم)[2]

ولقد كان ديدن الصحابة رضي الله عنهم، مشاورة النبي والرجوع إليه فيما يعرض لهم من أمور صعاب وجسام، وذلك لما أكرمه الله به من النبوة وتنزل الوحي الكريم عليه.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ، ٣٦/١٦/٨، ٣٧، ومسبار العقول أي محل اختبارها وبيان ذكائها، انظر: الوجيز في الأخلاق والآداب الشرعية، حماد بن عبدالله بن محمد الحماد في (س ب ر) بتصرف يسير.

(٢) أدب الدنيا والدين، أبو الحسن الماوردي، تحقيق: مصطفى السقا ٢٨٩، ومعنى "بائر" أي رجل غير موفق لم يحقق المقصود المطلوب، الوجيز في الأخلاق والآداب الشرعية، حماد بن عبدالله بن محمد الحماد في (ب ا ر) بتصرف.

ثالثًا - من موضوعات الدعوة: بيان الحالة التي كان عليها النبي ﷺ من الجوع:

إن النبي ﷺ صبر وصابر وتحمّل، وجاهد؛ لأجل نشر الدعوة، ولم ترغب نفسه إلى التلذذ بأنواع الطعام والتمتع بصنوف الطيبات وسيرته ﷺ تشهد بما تحمَّل من الجوع أيامًا وما لاقى من الشدة ألوانًا ولا أدل على ذلك مما جاء في الحديث: "وبطنه معصوب بحجر ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقًا" وقوله "سمعت صوت رسول الله ﷺ ضعيفًا أعرف فيه الجوع" قال ابن حجر: (وفائدة ربط الحجر على البطن أنها تضمر من الجوع فيخشى على انحناء الصلب بواسطة ذلك فإذا وضع فوقها الحجر وشد عليها العصابة استقام الظهر وقال الكرماني: لعله لتسكين حرارة الجوع ببرد الحجر، ولأنها حجارة رقاق قدر البطن تشد الأمعاء فلا يتحلل شيء مما في البطن فلا يحصل ضعف زائد بسبب التحلل)[١]. ولا شك أن هذا يدلل على ما لقيه رسول الله ﷺ من الجوع فعن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا زوج النبي ﷺ قالت: ((لَقَدْ مَاتَ رَسُولُ اللّهِ، وَمَا شَبِعَ مِنْ خُبْزٍ وَزَيْتٍ، فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ، مَرَّتَيْنِ))[٢] وعن النعمان بن بشير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: ((أَلَسْتُمْ فِي طَعَامٍ وَشَرَابٍ مَا شِئْتُمْ؟ لَقَدْ رَأَيْتُ نَبِيَّكُمْ وَمَا يَجِدُ مِنَ الدَّقَلِ، مَا يَمْلأُ بِهِ بَطْنَهُ))[٣] وعن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: ((مَا أَكَلَ رَسُولُ الله عَلَى خِوَانٍ وَلاَ أَكَلَ خُبْزًا مُرَقَّقًا حَتَّى مَاتَ))[٤].

إن النبي ﷺ هو القدوة والأسوة الحسنة للمؤمنين، وإذا ما كان يدعو الجماعة المؤمنة إلى التقليل من الطعام، وعدم التشبع فإنه أول من يطبق ذلك على نفسه، وأول من يصيبه ما أصابهم من الجوع وعدم وجود الملذات والمطاعم والمشارب.

وفي هذا الحديث ما كان يتميز به الرسول ﷺ عندما يتحدث حيث كان يعطي الكلام حقه، بحيث يبدو ذلك على قسمات وجهه، وفي نبرة صوته كأنه النذير العريان... فلما كانت حاله هنا، كما بينها أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في الحديث، مخالفة لما هو

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٥٨/٧.

(٢) أخرجه مسلم ٢٩٧٤.

(٣) أخرجه مسلم ٢٩٧٧.

(٤) أخرجه الترمذي ٢٣٦٣، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٩٢٦).

مألوف منه في سائر أحواله، عرف أن سبب ذلك راجع إلى ضعفه في تلك الحال بسبب شدة الجوع، قال ابن حجر: (في حديث أنس عن أبي طلحة كان صوت النبي ﷺ ضعيفًا أعرف فيه الجوع، كأنه لم يسمع في صوته - لما تكلم إذ ذاك - الفخامة المألوفة منه، فحمل ذلك على الجوع بقرينة الحال التي كانوا فيها)(١).

كان من أحوال الرسول ﷺ أنه تمر عليه الأيام ولا يأكل فيها، فيصيبه الجوع، وتبدو آثاره ظاهرة على العيان، بالرغم مما ورد عنه من أن الله تعالى يطعمه ويسقيه، وذلك حتى يكون أسوة لأصحابه في كل حال). قال ابن حجر: (وفيه رد على دعوى ابن حبان أنه لم يكن يجوع، واحتج بحديث: ((أبيت يطعمني ربي ويسقيني))(٢). وتعقب بالحمل على تعدد الحال، فكان يجوع أحيانًا ليتأسى به أصحابه لا سيما من لا يجد مددًا وأدركه ألم الجوع صبر فضوعف له)(٣).

ويبين ما كان عليه القوم من المجاعة في ذلك الوقت، وقد ورد عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (لما فتحت خيبر قلنا الآن نشبع من التمر)، وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: (ما شبعنا حتى فتحنا خيبر)(٤).

ويؤخذ من قصة أبي طلحة: أن من أدب من يضيف أن يخرج مع الضيف إلى باب الدار تكرمة له، وهذا ما ورد عن أبي طلحة، أنه انطلق حتى لقي رسول الله ﷺ حتى دخلا.

قال ابن حجر: (قال ابن بطال في هذه الأحاديث جواز الشبع وأن تركه أحيانًا أفضل. وقد ورد عن سلمان وأبي جحيفة أن النبي ﷺ قال: إن أكثر الناس شبعًا في الدنيا أطولهم جوعًا في الآخرة، قال إن الشبع وإن كان مباحًا فإنه له حدًا ينتهي إليه وما زاد على ذلك فهو سرف، والمطلق منه ما أعان الآكل على طاعة ربه ولم يشغله ثقله عن أداء ما وجب عليه)(٥).

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٢٨/٩.

(٢) أخرجه الترمذي ٧٧٨.

(٣) المرجع السابق ٥٢٨/٩.

(٤) المرجع السابق ٥٢٧/٩.

(٥) المرجع السابق ٥٢٨/٩.

قال ابن حجر: (وفيه دليل على جواز الشبع وما جاء من النهي عنه محمول على الشبع الذي يثقل المعدة ويثبط صاحبه عن القيام للعبادة إلى البطر والأشر والنوم والكسل، وقد تنتهي كراهته إلى التحريم بحسب ما يترتب عليه من المفسدة وذكر الكرماني تبعًا لابن المنير أن الشبع المذكور محمول على شبعهم المعتاد منهم وهو أن الثلث للطعام والثلث للشراب والثلث للنفس)(١).

قال أبو الحسن الندوي: (ولم تكن دعوة الرسل إلى الآخرة وإيثارها على الدنيا والاستهانة بقيمة الدنيا ومتاعها دعوة باللسان فقط ودعوة لأمتهم فقط بل كان ذلك مبدأً ومنهاجًا لحياتهم وكانوا من أول المؤمنين بها، السائرين عليها في حياتهم وخواصهم وعشيرتهم وقد قيل لسيد الرسل ﷺ ما جاء في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(٢) وكان من تأثير صحبته أن أزواجه رضي الله عنهن كلهن آثرن الله ورسوله، وآثرن الفقر والضيق مع الرسول ﷺ على الرخاء وخفض العيش مع غيره، ومعيشة النبي ﷺ وحياته وحياة أهل بيته تثير العجب وتسحر النفوس، وتملأ القلوب عظمة ومهابة، وتنصب للدعاة والسائرين على منهاج النبوة منارًا عاليًا من نور)(٣).

رابعًا - من موضوعات الدعوة: بيان كرم وجود الصحابة رضي الله عنهم وإيثارهم:

إن الصحابة الكرام رضي الله عنهم بلغوا في الكرم والجود والإيثار درجة عالية ومكانة سامقة، ويتضح هذا من الحديث "فقلت يا رسول الله ائذن لي إلى البيت فقلت لامرأتي رأيت بالنبي شيئًا ما كان في ذلك صبر فعندك شيء فقالت عندي شعير وعناق" وقوله: "فأخرجت أقراصًا من شعير".

---

(١) المرجع السابق ٩/٥٢٨.

(٢) سورة الأحزاب، الآيتان: ٢٨ - ٢٩.

(٣) النبوة والأنبياء في ضوء القرآن الكريم ٦٩-٧٠.

ففي هذا الحديث بيان ما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ من توقير الرسول وتعظيمه، والشعور والإحساس بما يؤذيه أو يؤلمه، وحرصهم على سلامته، واقتدائه بأنفسهم، وبما يملكون، لئلا يصيبه أدنى أذى، وهذا ما نلحظه من قول جابر رضي الله عنه لرسول الله ﷺ: ائذن لي إلى البيت. وقوله بعد ذلك لامرأته: رأيت بالنبي ﷺ شيئًا ما في ذلك صبر فعندك شيء؟

ما كان يتصف به أصحاب رسول الله ﷺ من الإيثار، بحيث يجود أحدهم بكل ما عنده ليطعم غيره. وهذا نراه في قول جابر رضي الله عنه لامرأته: فعندك شيء؟ فقالت: عندي شعير وعناق، فذبح العناق وطحن الشعير، ولم يبق شيئًا عنده.

ويشير الحديث إلى التوكل على الله، وهذا من اليقين التام بأمر الله، حيث أنفق كل ما عنده دون أن يكون في حسبانه أن يبقى شيئًا بالرغم من شدة الحال، وقلة ذات اليد.

والصحابة رضي الله عنهم هم أجود الناس وأكرم الناس ولقد بلغوا الثريا في هذا الأمر حتى مدحهم الله بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1] قال الكاندهلوي: (ولقد كان النبي ﷺ وأصحابه ينفقون الأموال، وما أعطاهم الله تبارك وتعالى في سبيل الله ومواقع رضاه، وكان ذلك أحب إليهم من الإنفاق على أنفسهم ولقد كانوا يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة)[2] وقد أخرج البخاري ومسلم قصة الرجل الذي جاء إلى النبي ﷺ وطلب ضيافة فلم يجد النبي ﷺ في بيوت أزواجه إلا ماء فقال ﷺ ((مَنْ يُضِيفُ هذا، اللَّيْلَةَ، رَحِمَهُ اللهِ فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالَ: أَنَا. يَا رَسُولَ اللهِ فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى رَحْلِهِ. فَقَالَ لامْرَأَتِهِ: هَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ؟ قَالَتْ: لاَ. إلاَّ قُوتُ صِبْيَانِي. قَالَ: فَعَلِّلِيهِمْ بِشَيْءٍ. فَإِذَا دَخَلَ ضَيْفُنَا فَأَطْفِئِي السِّرَاجَ وَأَرِيهِ أَنَّا نَأْكُلُ. فَإِذَا أَهْوَى لِيَأْكُلَ فَقُومِي إِلَى السِّرَاجِ

---

(١) سورة الحشر، آية: ٩.

(٢) حياة الصحابة، محمد يوسف الكاندهلوي ٣٧١.

حَتَّىٰ تُطْفِئِيهِ. قَالَ: فَقَعَدُوا وَأَكَلَ الضَّيْفُ. فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا عَلَى النَّبِي. فَقَالَ: قَدْ عَجِبَ اللّهُ مِنْ صَنِيعِكُمَا بِضَيْفِكُمَا اللَّيْلَةَ))(١).

ولا شك أن في صنيع جابر رضي الله عنه وذهابه إلى بيته لإحضار طعام للنبي ﷺ دليل على كرم وجود الصحابة رضي الله عنهم وإيثارهم.

قال محمد الغزالي: (الإسلام دين يقوم على البذل والإنفاق ويضيق على الشح والإمساك، ولذلك حبب إلى نبيه أن تكون نفوسهم سخية وأكفهم ندية، ووصاهم بالمسارعة إلى دواعي الإحسان ووجوه البر، وأن يجعلوا تقديم الخير إلى الناس شغلهم الدائم، لا ينفكون عنه في صباح أو مساء، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٢).

ومن الواجب على المسلم أن يقتصد في مطالب نفسه حتى لا تستنفد ماله كله فإن عليه أن يشرك غيره فيما آتاه الله من فضله وأن يجعل في ثروته متسعًا يسعف به المنكوبين ويريح المتعبين. ومع النهي عن التبذير أمر الإسلام بالإنفاق على القرابة والمساكين فإن المبذر متلاف سفيه يضيع في شهواته الخاصة زبدة ماله فماذا يبقى بعد للحقوق الواجبة والعون المفروض؟ إن دعوة الإسلام إلى الجود والإنفاق مستفيضة مطردة، وحربه على الكزازة والبخل موصولة متقدة ولم يوجد في الدنيا - ولن يوجد - نظام يستغني البشر فيه عن التعاون والمواساة)(٣).

خامسًا - من موضوعات الدعوة: من دلائل النبوة تكثير الطعام بين يديه:

إن الله عز وجل أيّد نبيه بكثير من المعجزات والدلائل على نبوته، ومن ذلك تكثير الطعام بين يديه ﷺ، ويتضح هذا من الحديث "فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم ويخمر البرمة والتنور إذا أخذ منه" فقال الرسول ﷺ "هلمي ما عندك يا أم سليم

---

(١) أخرجه البخاري ٣٧٩٨، ومسلم ٢٠٥٤.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٧٤.

(٣) خلق المسلم ١١٥-١١٦.

ثم قال فيه رسول الله ما شاء الله أن يقول" قال الإمام النووي: (وفي الحديث أنواع من الفوائد وجمل من القواعد فيها الدليل الظاهر والعلم الباهر من أعلام نبوة رسول الله ﷺ وهو انخراق العادة بما أتى به ﷺ من تكثير الطعام القليل الكثرة الظاهرة، وقد تظاهرت أحاديث آحاد بمثل هذا حتى زاد مجموعها على التواتر، وحصل العلم القطعي بالمعنى الذي اشتركت فيه هذه الآحاد فلله الحمد على ما أنعم به على نبينا محمد ﷺ وعلينا بإكرامه ﷺ)[١].

والأحاديث الواردة في تكثير الطعام بين يديه كثيرة حتى قال الإمام البيهقي في الدلائل: (وأبواب دعوات نبينا ﷺ المستجابة في الأطعمة والأشربة وبركاته التي ظهرت فيما دعا فيه وغير ذلك من دعواته كثيرة ولذا سأنقلها باختصار فلا سبيل إلى نقلها جميعًا لما فيه من الإكثار)[٢].

ولا أدل على تكثير الطعام بين يديه من حديث أبي أنس بن مالك أن أبا طلحة صنع لرسول الله ﷺ طعامًا فقال الرسول ﷺ للناس: ((قُومُوا فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: يَا رَسُولَ اللّهِ إِنَّمَا صَنَعْتُ لَكَ شَيْئًا. قَالَ فَمَسَّهَا رَسُولُ اللّهِ . وَدَعَا فِيهَا بِالْبَرَكَةِ. ثُمَّ قَالَ: أَدْخِلْ نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِي، عَشَرَةً وَقَالَ: كُلُوا وَأَخْرَجَ لَهُمْ شَيْئًا مِنْ بَيْنَ أَصَابِعِهِ. فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا. فَخَرَجُوا. فَقَالَ: أَدْخِلْ عَشَرَةً فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا. فَمَا زَالَ يُدْخِلُ عَشَرَةً وَيُخْرِجُ عَشَرَةً حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلاَّ دَخَلَ، فَأَكَلَ حَتَّى شَبِعَ. ثُمَّ هَيَّأَهَا. فَإِذَا هِيَ مِثْلُهَا حِينَ أَكَلُوا مِنْهَا))[٣].

سادسًا - من أساليب الدعوة: الأمر:

وذلك حيث جاء في الحديث "قوموا" "ادخلوا" "كلي هذا" ومما لاشك فيه أن أسلوب الأمر من أساليب الدعوة، وهو يدل على زيادة الاهتمام بالمأمور به وأهميته وإذا جاءت صيغة الأمر من الأعلى للأدنى فهو أمر صريح وإذا جاءت من المساو للمساو فهو التماس

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢٩٠.

(٢) دلائل النبوة ٨٣/٦.

(٣) أخرجه مسلم ٢٠٤٠.

وإذا جاءت من الأدنى للأعلى فهو دعاء ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ﴾(١) ومن صور استعمال القرآن الكريم لأسلوب الأمر قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾(٢) وقوله جل شأنه: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾(٣).

سابعًا - من واجبات المدعو: التضحية والإيثار عند اشتداد الأزمات:

إن المسلم مشارك لإخوانه في السراء والضراء، وباذل ما عنده عند اشتداد البلاء، ومُؤثر لإخوانه على نفسه حين البأساء، وهكذا كان هدي النبي ﷺ وصحابته الكرام الأتقياء رضي الله عنهم، ويتضح هذا من الحديث في قوله ﷺ: "كلي هذا وأهدي فإن الناس أصابتهم مجاعة" والمسلمون يتعاونون فيما بينهم في كل وقت خاصة عند الأزمات والملمات قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾(٤).

وقال ﷺ في الحديث ((إن المؤْمِنَ للمؤمِنِ كالبنيانِ يَشُدُّ بَعضُهُ بَعضًا» وشَبَّكَ ﷺ أصابعَهُ))(٥) ومدح الله صنيع الأنصار مع إخوانهم المهاجرين لما أحسنوا استقبالهم وشاركوهم في الأموال والدور فقال الله سبحانه في حقهم: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(٦).

قال القرطبي: (الإيثار هو تقديم الغير على النفس وحظوظها الدنيوية، رغبة في

(١) سورة البقرة، آية: ٢٨٦.

(٢) سورة يوسف، آية: ١٠٨.

(٣) سورة الحجر، آية: ٨٥.

(٤) سورة المائدة، آية: ٢.

(٥) أخرجه البخاري ٤٨١، ومسلم ٢٥٨٥.

(٦) سورة الحشر، آية: ٩.

الحظوظ الدينية، وذلك ينشأ عن قوة اليقين وتوكيد المحبة والصبر على المشقة ومن ترك شيئًا لله لم يجد فقده، ومن وقى شح نفسه فقد أفلح فلاحًا لا خسارة بعده والإيثار بالنفس فوق الإيثار بالمال، وإن عاد إلى النفس، ومن الأمثال السائرة:

يجود بالنفس إذا ضن الجواد بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود

وأفضل الجود بالنفس الجود على حماية رسول الله ﷺ ففي الصحيح أن أبا طلحة ترَّس على النبي ﷺ يوم أحد وكان النبي ﷺ يتطلع ليرى القوم فيقول له أبو طلحة: ((لا تُشرف يا رسول الله لا يصيبونك نحري دون نحرك))[(١)]. قال أبو يزيد البسطامي: ما غلبني أحد ما غلبني شاب من أهل بَلْخ قدم علينا حاجًا فقال لي: يا أبا يزيد ما حد الزهد عندكم؟ فقلت إن وجدنا أكلنا وإن فقدنا صبرنا فقال: هكذا كلاب بَلْخ عندنا فقلت: وما حد الزهد عندكم؟ قال: إن فقدنا شكرنا وإن وجدنا آثرنا. وسئل ذو النون المصري: ما حد الزاهد المنشرح صدره؟ قال: ثلاث: تفريق المجموع، وترك طلب المفقود، والإيثار عند القوت)[(٢)].

وقال ابن القيم: (إن الإيثار ضد الشح فإن المؤثر على نفسه تارك لما هو محتاج إليه، والشحيح حريص على ما ليس بيده، فإذا حصل بيده شيء شحَّ عليه وبخل بإخراجه فالبخل ثمرة الشح، والشح يأمر بالبخل، فالبخيل من أجاب داعي الشح، والمؤثر: من أجاب داعي الجود، والناس على مراتب ثلاث فمن لا ينقصه البذل، ولا يصعب عليه فهو منزلة السخاء، ومن يعطي الأكثر ويُبْقي له شيئًا أو يبقى مثل أعطى فهو الجود، ومن يؤثر غيره بالشيء مع حاجته إليه فهو بمرتبة الإيثار)[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري ٣٨١١، ومسلم ١٨١١.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢٠/٣٦٥-٣٦٩.

(٣) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٣/٤٤-٤٥.

الحديث رقم (٥٢٠)

٥٢٠ - وعن أنسٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ أَبو طَلْحَةَ لأُمِّ سُلَيمٍ: قَدْ سَمِعْتُ صَوْتَ رسول الله ﷺ ضَعيفًا أعْرِفُ فيه الجُوعَ، فَهَلْ عِنْدَكِ مِنْ شَيْءٍ؟ فَقَالَتْ: نَعَمْ، فَأخْرَجَتْ أقْرَاصًا مِنْ شَعِيرٍ، ثُمَّ أخَذَتْ خِمَارًا لَهَا، فَلَفَّتِ الخُبْزَ بِبَعْضِهِ، ثُمَّ دَسَّتْهُ تَحْتَ ثَوْبِي وَرَدَّتْنِي بِبَعْضِهِ، ثُمَّ أرْسَلَتْنِي إِلَى رسولِ الله ﷺ، فَذَهَبتُ بِهِ، فَوَجَدْتُ رسول الله ﷺ، جَالِسًا فِي المَسْجِدِ، وَمَعَهُ النَّاسُ، فَقُمْتُ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ لي رسول الله ﷺ: ((**أرْسَلَكَ أبو طَلْحَةَ؟**)) فقلت: نَعَمْ، فَقَالَ: ((**ألِطَعَامٍ؟**)) فقلت: نَعَمْ، فَقَالَ رسولُ الله ﷺ[1]: ((**قُومُوا**)) فَانْطَلَقُوا[2] وَانْطَلَقْتُ بَيْنَ أيْدِيهِمْ حَتَّى جِئْتُ أبَا طَلْحَةَ فَأخْبَرْتُهُ، فَقَالَ أبو طَلْحَةَ: يَا أُمَّ سُلَيْمٍ، قَدْ جَاءَ رسول الله ﷺ بالنَّاسِ وَلَيْسَ عِنْدَنَا مَا نُطْعِمُهُمْ؟ فَقَالَتْ: الله وَرَسُولُهُ أعْلَمُ. فَانْطَلَقَ أبو طَلْحَةَ حَتَّى لَقِيَ رسولَ الله ﷺ، فَأقْبَلَ رسول الله ﷺ مَعَهُ حَتَّى دَخَلاَ، فَقَالَ رسولُ الله ﷺ: ((**هَلُمِّي مَا عِنْدَكِ يَا أُمَّ سُلَيْمٍ**)) فَأتَتْ بِذلِكَ الخُبْزِ، فَأمَرَ بِهِ رسول الله ﷺ فَفُتَّ، وَعَصَرَتْ عَلَيْهِ أمُّ سُلَيْمٍ عُكَّةً[3] فَآدَمَتْهُ، ثُمَّ قَالَ فِيهِ رسول الله ﷺ مَا شَاءَ اللهُ أنْ يَقُولَ، ثُمَّ قَالَ: ((**ائْذَنْ لِعَشْرَةٍ**)) فَأذِنَ لَهُمْ فَأكَلُوا حتى شَبِعُوا، ثُمَّ خَرَجُوا، ثُمَّ قَالَ: ((**ائْذَنْ لِعَشْرَةٍ**)) فَأذِنَ لهم حَتَّى أكَلَ القَوْمُ كُلُّهُمْ وَشَبِعُوا، وَالقَوْمُ سَبْعُونَ رَجُلاً أو ثَمَانُونَ. متفقٌ عَلَيْهِ[4].

وفي رواية[5]: فَمَا زَالَ يَدْخُلُ عَشرَة، وَيخرجُ عشرةٌ حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أحَدٌ إلاَّ دَخَلَ، فَأكَلَ حَتَّى شَبعَ، ثُمَّ هَيَّأهَا فَإذَا هِيَ مِثْلُهَا حِيْنَ أكَلُوا مِنْهَا.

وفي رواية[6]: (فَأكَلُوا عَشرَةً عَشرةً)[7]، حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ بِثَمَانِينَ رَجُلاً، ثُمَّ أكَلَ النبيُّ ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ وَأهْلُ البَيْتِ، وَتَرَكُوا سُؤْرًا.

---

(١) عند مسلم زيادة: (ومن معه).

(٢) لفظ مسلم: (وانطلق).

(٣) عند مسلم زيادة: (لها).

(٤) أخرجه البخاري ٦٦٨٨، ومسلم ٢٠٤٠/١٤٢ واللفظ له.

(٥) أخرجها مسلم ٢٠٤٠/١٤٣.

(٦) أخرجها مسلم بعد حديث ٢٠٤٠/١٤٣ بحديثين، بدون رقم من حديث عبد الرحمن بن أبي ليلى.

(٧) هذه الزيادة لا توجدُ عند مسلم.

وفي رواية[١]: ثُمَّ أفْضَلُوا مَا بَلَغُوا جيرانَهُمْ.

وفي رواية[٢]: عن أنس، قَالَ: جِئتُ رسولَ الله ﷺ يومًا، فَوَجَدْتُهُ جَالِسًا مَعَ أصْحَابِه، وَقَدْ عَصَبَ بَطْنَهُ بِعِصَابَةٍ[٣]، فقلتُ لِبَعْضِ أصْحَابِهِ: لِمَ عَصَبَ رسولُ الله ﷺ بَطْنَهُ؟ فقالوا: مِنَ الجوعِ، فَذَهَبْتُ إِلَى أَبي طَلْحَةَ، وَهُوَ زَوْجُ أُمِّ سُلَيْمٍ بِنْت مِلْحَانَ، فقلتُ: يَا أبتَاهُ، قَدْ رَأيْتُ رسول الله ﷺ عَصَبَ بَطْنَهُ بِعِصَابَةٍ، فَسَأَلْتُ بَعْضَ أصْحَابِهِ، فقالوا: من الجُوعِ. فَدَخَلَ أَبو طَلْحَةَ عَلَى أُمِّي، فَقَالَ: هَلْ مِنْ شَيءٍ؟ قالت: نَعَمْ، عِنْدِي كِسَرٌ مِنْ خُبْزٍ وتَمرَاتٌ، فَإنْ جَاءنَا رسول الله ﷺ وَحْدَهُ أشْبَعْنَاهُ، وَإنْ جَاءَ آخَرُ مَعَهُ قَلَّ عَنْهُمْ... وَذَكَرَ تَمَامَ الْحَدِيثِ.

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

الخمار: ثوب تغطي به المرأة رأسها[٤].

دسَّتْهُ: أخفته[٥].

وردَّتني ببعضه، المراد أنها لفت الخبز ببعض الخمار ولفت أنسًا بباقيه[٦].

هلُمي: أحضري ما عندك[٧].

(١) أخرجها مسلم بعد حديث ٢٠٤٠/١٤٣ بثلاثة أحاديث بدون رقم من حديث عبد الله بن عبد الله بن أبي طلحة.

(٢) عند مسلم زيادة: (قال أسامة: وأنا اشكُّ على حجر).

(٣) أخرجها مسلم بعد حديث ٢٠٤٠/١٤٣، بخمسة أحاديث، بدون رقم.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (خ م ر).

(٥) القاموس المحيط، الفيروز آبادي، الفيروز آبادي في (د س س).

(٦) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٧٨٦.

(٧) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦٨٣/٦، ودليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٧٨٧.

العُكّة: إناء من جلد مستدير يجعل فيه السمن غالبًا والعسل[١].

فآدمتهُ: أي جعلت فيه إدامًا، وهو ما يُستمْرَأُ به الخُبْزُ[٢].

هيأها: جمعها بعد الأكل[٣].

وتركوا سؤرًا: أي البقية[٤].

أفضلُوا: أبقوا. وفي رواية عند مسلم ١٤٣ - ٢٠٤٠: وفضلت فضلة فأهديناه لجيراننا[٥].

عَصَبَ بطنه: شد على بطنه[٦].

العصابة: الخرقة التي تُوضع على البطن من الجوع[٧].

الشرح الأدبي

قول أَبي طَلْحَةَ لأُمِّ سُلَيمٍ (قَدْ سَمِعْتُ صَوْتَ رسول الله ﷺ ضَعيفاً أعْرِفُ فيه الجُوعَ) يشير إلى محبتهم للرسول ﷺ ورفقهم به، وهو شيء تعلموه منه حيث كان يتفرسهم، ويعرف أحوالهم، ويتفاعل معهم تفاعلا بناءً وقد تفاعلوا معه بقدر ما استطاعوا يدل على ذلك قوله: (فَهَلْ عِنْدَكِ مِنْ شَيْءٍ ؟) وهو استفهام على حقيقته لسؤال الطعام وقوله (فَأخْرَجَتْ أقْرَاصاً مِنْ شَعِيرٍ) يدل على قلة الطعام يدل على ذلك جمع القلة (أقراصا) وتنكيره، واستفهام الرسول ﷺ (أرْسَلَكَ أَبو طَلْحَةَ ؟) فقلت: نَعَمْ، فَقَالَ: ((ألِطَعَامٍ؟) استفهام تقرير للتحقيق والتثبيت فلما أقرت له بذلك أمر الناس

---

(١) المرجع السابق.

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (أ د م).

(٣) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦/٦٨٤.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢٩٢.

(٥) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦/٦٨٣، ودليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٧٨٨.

(٦) القاموس المحيط، الفيروز آبادي في (ع ص ب).

(٧) انظر: المرجع السابق في (ع ص ب).

بالقيام، وقوله (فَانْطَلَقُوا وَانْطَلَقْتُ بَيْنَ أيْدِيهِمْ) الربط بالفاء، والتعبير بالانطلاق يشيران إلى السرعة في الحركة التي توحي بكرم المضيف، ورغبة الضيوف أو مسارعتهم إلى أمر رسول الله ﷺ، وقول الرسول ﷺ (هَلُمِّي مَا عِنْدَكِ يَا أُمَّ سُلَيْمٍ !) أي هات ما عندك، والنداء نداء تكريم، وقول الراوي (، ثُمَّ قَالَ فِيهِ رسول الله ﷺ مَا شَاءَ اللَّهُ أنْ يَقُولَ) كناية عن الدعاء، والذكر، وقول الرسول ﷺ (ائْذَنْ لِعَشَرَةٍ) فأذنَ لَهُمْ فَأكَلُوا حتى شَبِعُوا ثُمَّ خَرَجُوا) أي ادعو عشرة عشرة إلى الطعام، والتعبير بالفاء العاطفة في الإذن، والأكل إيذانا بالسرعة، وحتى بيان للغاية وهي الشبع، وعطف الخروج ب(ثم) يشير إلى فترة قضوها في الطعام تحقق معها الشبع مع قلة الطعام، ثم أذن لعشرة آخرين، وما زال يأذن لعشرة حتى أكل الجميع (حَتَّى أكَلَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ وَشَبِعُوا وَالقَوْمُ سَبْعُونَ رَجُلاً أَو ثَمَانُونَ)، والعدد المذكور يشير إلى أنها من معجزاته ﷺ لأن المعتاد في الواقع أن هذا العدد من الناس يستحيل أن يشبعه هذا القدر من الطعام، ولكنها معجزة من جملة معجزات النبي ﷺ يؤكد ذلك ما ورد في الرواية الثانية (مَا زَالَ يَدْخُلُ عَشَرَة، وَيخرجُ عشرةٌ حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أحَدٌ إلاَّ دَخَلَ، فَأكَلَ حَتَّى شَبعَ، ثُمَّ هَيَّأهَا فَإذَا هِيَ مِثْلُهَا حِيْنَ أكَلُوا مِنْهَا).

فقه الحديث

في هذا الحديث من الفقه ما يلي:

١ - استحباب بعث الهدية وإن كانت قليلة بالنسبة إلى مرتبة المبعوث إليه؛ لأنها وإن قلت فهي خير من العدم، ودليله: "فأخرجت أقراصًا من شعير ... ثم أرسلتني إلى رسول الله ﷺ".

٢ - جلوس العالم لأصحابه يفيدهم ويؤدبهم. واستحباب ذلك في المساجد. ودليله: "فوجدت رسول الله ﷺ جالسًا في المسجد ومعه الناس".

٣ - انطلاق صاحب الطعام بين يدي الضيفان وخروجه ليتلقاهم. دليله: "فانطلق أبو طلحة حتى لقي رسول الله ﷺ".

٤ - استحباب فت الطعام واختيار الثريد على الغمس باللقم. ودليله: "فأتت بذلك

الخبز فأمر به رسول الله ﷺ ففتّ".

٥ - يستحب لصاحب الطعام وأهله أن يكون أكلهم بعد فراغ الضيفان. دليله: (ثم أكل رسول الله ﷺ وأكل أهل البيت)[1].

المضامين الدعوية[2]

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٧/١٣/١٨٧.

(٢) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

الدنيا ليست غاية المسلم، بل هي وسيلة إلى غاية (الجنة) والرسول ﷺ قد ضرب المثل للزهد في الدنيا بنفسه، فهو قليل الطعام، كثير الصيام رافض للصدقة، مكثر للعطاء، يرضى بالأدنى من سبل العيش يكفيه تمر وماء وكسرة خبز ولبن، يطوى اليوم بلا طعام، وينوي كثيراً الصيام لعدم وجود ما يطعمه، فإن وجد ما يطعمه لم يكثر منه... وأهل بيته على شاكلته. إن هذا مدعاة إلى شكر المنعم على ما نحن فيه من نعم، فالأكل أنواع والشر أصناف والموائد فارهة، والأثاثات فاخرة، والثياب مبهرة، والحلي ظاهرة ورغد العيش عند كثيرين لا يحد، والمال لا يعد، والشكر لم يرد لزعم بعضهم القول: "إنما أوتيته على علم عندي".

إن هذه ليست الغاية والدنيا دار بداية لا دار نهاية، وإنها غاية غير المسلمين ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ﴾ [سورة محمد:١٢]، إن أحاديث هذا الباب تنبئ عن مفاهيم تربوية عدة منها:

أولاً - التربية على الزهد والتقلل من الدنيا:

إن مما ينبغي الاهتمام والتركيز عليه في أمور التربية الحث على الزهد في الدنيا والتقلل منها، وجعل الهمة عالية في تحصيل الثواب والأجر من الله تعالى.

وقد ورد في أحاديث الباب صور حية تطبيقية من الرسول ﷺ وأصحابه للتعالي على الدنيا وملذاتها، فلقد أراد رسول الله ﷺ أن يفهم الذين في قلوبهم مرض من منافقين وأعداء وكفار... أنه ما أراد من دعوته التي يدعو الناس إليها جمع المال ولا المظاهر الفانية ولا الدنيا الزائلة، ولا النعيم ولا الترف، وإنما مراده بذلك التماس الأجر من الله وحده، وشعاره وشعار الأنبياء من قبله: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾[1].

---

(١) سورة هود، آية: ٢٩.

لقد أراد ﷺ أن تتأسى الأجيال المسلمة بالعيش الكفاف القنوع... مخافة أن تقعدهم زهرة الحياة الدنيا وفتنتها عن واجب الدعوة وإعلاء كلمة الله، ومخافة أن تبسط عليهم الدنيا فتهلكهم كما أهلكت مَنْ كان قبلهم[(١)].

لقد كان ﷺ مشغولاً بالدعوة وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، ولاشتغاله بعظائم الأمور أعرض عن الدنيا وما فيها من مغريات ومفاتن فكان في غاية البساطة في عيشته، في ملبسه ومطعمه ومشربه، بل لقد كانت تمر عليه الليالي والأيام هو وأهله وما يُطْبَخ في بيوته ولا يوقد فيها نار، كما نرى ذلك في حديث عائشة رضي الله عنها في نقلها لصورة من صور حياة رسول الله ﷺ وأهله، فعن عروة عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول: «وَاللّهِ يَا ابْنَ أُخْتِي. إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلَىٰ الْهِلاَلِ ثُمَّ الْهِلاَلِ ثُمَّ الْهِلاَلِ. ثَلاَثَةَ أَهِلَّةٍ فِي شَهْرَيْنِ. وَمَا أُوقِدَ فِي أَبْيَاتِ رَسُولِ اللّهِ ﷺ نَارٌ.....»، وما كان هذا منه ﷺ ضعفًا أو عجزًا، وإنما كان إعراضًا منه ﷺ عن الدنيا وزهدًا فيها لانشغاله بما هو أكبر وأعظم وأسمى منها، ألا وهو انشغاله بالحقيقة الكبرى وهي الدعوة إلى توحيد الله تعالى وإخراج الناس من ظلمات الشرك والجهل إلى نور التوحيد والعلم.

إن التربية على الزهد والخشونة لا يقصد بها تعذيب النفس أو حرمان الجسد من متاع الدنيا، وإنما يقصد به ويراد من ورائه تمكين المتربي من تلك الشخصية القوية التي تتعالى على كل الشهوات والغرائز، "فإن المؤمن إذا زهد في الدنيا وعرف حقارتها وعرف الآخرة وخطرها فإنه يبادر ببذل نفسه وماله رغبة في رضا الله عز وجل والفوز بجنته ورضوانه"[(٢)].

وقد جاءت أحاديث الباب ضاربة لنا أروع المثل في تحمل خشونة العيش وغيره من حظوظ النفس وترك الشهوات والاستعلاء عليها "إلى تحقيق الآمال بالعلم والعمل لا إلى تحقيق الشهوات بالأكل والكسل، فإن قيمة الإنسان ليست بأكله وملبسه بل بعمله وقدرته على التحكم في نفسه ومواجهة مشاكل الحياة"[(٣)].

---

(١) انظر: تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، ٢/٦٣٩، ٦٤٠.

(٢) انظر: التربية على منهج أهل السنة والجماعة، أحمد فريد، ص٢٦٤.

(٣) انظر: شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم، ص٣٢٦.

فها هي أفضل أسرة في تاريخ البشرية على الإطلاق تتحمل الجوع وشظف العيش، حيث اختار قيِّمُها ﷺ "لنفسه وأهل بيته معيشة الكفاف لا عجزًا عن حياة المتاع، فقد عاش حتى فتحت له الأرض وكثرت غنائمها وعَمَّ فَيْؤُها، ومع ذلك كان يمضي الشهران ولا توقد في بيوته نار، مع جوده بالصدقات والهبات والهدايا[1]".

فعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت لابن أختها عروة بن الزبير رضي الله عنهما: «وَاللّٰهِ يَا ابْنَ أُخْتِي. إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلَىٰ الْهِلاَلِ ثُمَّ الْهِلاَلِ ثُمَّ الْهِلاَلِ. ثَلاَثَةَ أَهِلَّةٍ فِي شَهْرَيْنِ. وَمَا أُوقِدَ فِي أَبْيَاتِ رَسُولِ اللّٰهِ ﷺ نَارٌ.....»، وتوفي رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي في نفقة عياله، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «تُوُفِّيَ رَسُولُ اللّٰهِ ﷺ وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِيّ فِي ثَلاَثِينَ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ»، وكان فراشه ﷺ بسيطًا فهو لا يعدو كونه من جلد مدبوغ محشو بليف خشن، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان فِراشُ رسولُ الله ﷺ من أدم حَشْوُهُ لِيف»، كما كان ملبسه بسيطًا لا تكلف فيه، فعن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها قالت: «كَانَ كُمُّ قَمِيصِ رَسُولِ اللّٰهِ ﷺ، إِلَى الرُّصْغِ».

وكان ﷺ يدعو لنفسه ولأهله بالعيشة الكفاف التي بها يسد الرمق وتستر العورة ولا تدخل في عداد المظاهر والترف، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا».

إن الزهد وسيلة مهمة من وسائل التربية والتوجيه في المجتمع الإسلامي، لما له من فوائد تربوية جمة والتي منها:

أ - أن الزهد ينقي النفس مما يعتريها من أمراض القلوب، كالحسد والغرور والعجب والرياء، وحب الرياسة وذياع الصيت وحب المدح والتصدر، فالزهد حاجز بين المؤمن وهذه الأمراض، متى زال هذا الحاجز لم نأمن من تسربها إلى القلب فتفسده.

ب - في الزهد صفاء للروح والنفس، وارتقاء لها في سُلَّم الكمال الروحي، وفيه صلاح للقلب لخلوه من هم الدنيا وإقباله على هموم الآخرة، وطلب النجاة والانشغال بالعبادة وصالح الأعمال.

---

(١) انظر: أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد محمود العاني، ص٣٤٥، ٣٤٦.

ج - كما أن في الزهد تهذيباً للأخلاق وصلاحاً لها، لأن الزاهد رقيق المشاعر بعيد عن اهتمامات عوام الناس وتوجهاتهم، وعن الانتصار لنفسه وأذية غيره(١).

د - التربية على الرجولة والخشونة والبعد عن الترف، إذ أن من إفرازات الحضارة المعاصرة اليوم أن غدت بعض مجتمعات المسلمين تعاني من انتشار مظاهر الترف، مما وَلَّد جيلاً من المترفين لا يطيق العزيمة والجد، وهو جيل يبحث عن الراحة والكسل والتقاعس عن معالي الأمور.

ومن ثَمَّ أصبح على التربية عبء أكثر من ذي قبل، وصارت بحاجة إلى أن تجعل غرس معاني الرجولة والبعد عن حياة الترف والترهل هدفًا من أهدافها التربوية(٢).

ثانيًا - التربية على الخشونة والرجولة والجد والاجتهاد:

إن مما ينبغي على الآباء والمربين تعويد الأولاد على الخشونة والرجولة والجد والاجتهاد وتجنيبهم الكسل والبطالة والراحة والدَّعة، لأن للكسل والبطالة عواقب سوء ومغبة ندم، وللجد والتعب عواقب حميدة إما في الدنيا وإما في العقبى، وإما فيهما، فأروح الناس أتعب الناس، وأتعب الناس أروح الناس، فالسيادة في الدنيا والسعادة في العقبى لا يوصل إليها إلا على جسر من التعب والمشاق(٣).

وقد جاءت أحاديث الباب مبينة فضل خشونة العيش والاقتصار على القليل من المأكول والمشروب والملبوس وغيرها من حظوظ النفس وترك الشهوات والتحلي بالصبر والتغلب على متاعب الدنيا وآلام الحياة وما فيها من مصاعب ومشقات، ومن مظاهر ذلك ما جاء في أحاديث الباب من بيان لما ضربه الصحابة رضي الله عنهم من صبر وجَلَد وتحمل ورضا بالقليل إضافة إلى ما كان عندهم من الإيمان الذي أورثهم من القدرات التي مكنتهم من التغلب على كل المشاق والصعاب.

---

(١) انظر: المرجع السابق، ص٣٤٤، ٣٤٥.

(٢) تربية الشباب، محمد بن عبدالله الدويش، ١٦٢، ١٦٣.

(٣) انظر: رسائل في التربية والأخلاق والسلوك، محمد بن إبراهيم الحمد، ص١٣٩.

ومن تلك الصور حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: «بَعَثَنَا رَسُولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم وَأَمَّرَ عَلَيْنَا أَبَا عُبَيْدَةَ. نَتَلَقَّىٰ عِيرًا لِقُرَيْشٍ. وَزَوَّدَنَا جِرَابًا مِنْ تَمْرٍ لَمْ يَجِدْ لَنَا غَيْرَهُ. فَكَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ يُعْطِينَا تَمْرَةً تَمْرَةً. قَالَ فَقُلْتُ: كَيْفَ كُنْتُمْ تَصْنَعُونَ بِهَا؟ قَالَ: نَمَصُّهَا كَمَا يَمَصُّ الصَّبِيُّ. ثُمَّ نَشْرَبُ عَلَيْهَا مِنَ الْمَاءِ. فَتَكْفِينَا يَوْمَنَا إِلَى اللَّيْلِ. وَكُنَّا نَضْرِبُ بِعِصِيِّنَا الْخَبَطَ. ثُمَّ نَبُلُّهُ بِالْمَاءِ فَنَأْكُلُهُ.....»، وفي ذلك بيان لمدى "تحمل الصحابة رضي الله عنهم وتحملهم أعباء الحياة وتقديمهم رضا الله تعالى على آلام الدنيا وما قابلهم من المشقات"[(١)].

إن غرس معاني الرجولة والبعد عن حياة الترف والترهل هدف أصيل للتربية الإسلامية.

ومن وسائل الوصول إلى هذا الهدف وتحقيقه:

أ - غرس مفهوم الجدية وبيان مساوئ حياة الترف والبطالة.

ب - التقليل من مظاهر الترف في البرامج المقدمة للشباب مع مراعاة الاعتدال والتدرج في ذلك، ولتكن البداية في إيجاد فَرْق بين حياة الولد في المنزل وحياته في مثل هذه البرامج، بل الواجب على الأب أن يخفف من مظاهر الترف في تربيته لأبنائه.

ج - تنظيم بعض البرامج الجادة كالرحلات والبرامج العلمية التي تعوِّد الشباب والأولاد على الجدية والرجولة وعلى التخلي عن بعض ما اعتادوه من حياة مترفة منعمة[(٢)].

ثالثًا - التربية على الاعتدال في الطعام والشراب:

إن من أبرز ما تميزت به التربية الإسلامية الاعتدال في التوجيهات، ومن مظاهر ذلك العناية بأمور الطعام والشراب والتوسط في ذلك لأن الإسلام دين وسط لا يحرم الجسم من إشباع حاجته، وإنما يدعوه إلى التوسط والاعتدال بلا إفراط ولا تفريط[(٣)].

ومن مظاهر اهتمام التربية الإسلامية بصحة الإنسان في أحاديث الباب ما جاء في

---

(١) انظر: شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم، ص٣٣٧.

(٢) انظر: تربية الشباب، "الأهداف والوسائل"، محمد بن عبدالله الدويش، ١٦٢، ١٦٣.

(٣) انظر: النظرية التربوية، د. محمد سيف الدين فهمي ص٦٧.

حديث المقداد بن معد يكرب رضي الله عنه من الإرشاد إلى الاعتدال في المطعم والمشرب، وتوقي الجسد مضارَّ الشبع والإفراط فيه، فعن أبي كريمة المقداد بن معد يكرب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما مَلأ آدميٌّ وعاءً شرًا منْ بطنِه، بحسبِ ابن آدَم أُكُلاتٌ يُقمنَ صلبَه، فإنْ كانَ لا محالَةَ فثُلُثٌ لطعامه، وثُلثٌ لشرابه، وثُلثٌ لنفسه»، إذ أن الإفراط في المطاعم والمشارب مضرٌّ بصحة الإنسان وبأجهزته الهضمية والتنفسية وغيرهما.

وهكذا نجد أن الحديث تضمن نظامًا لتربية الجسد، ومن مظاهر ذلك تنظيم طعامه وشرابه والإرشاد إلى الاعتدال والتجافي عن الإفراط وكذلك التفريط.

"إنَّ الطعام وكل ما يتناوله الإنسان عن طريق الفم ويصل إلى المعدة هو وسيلة لحفظ الأود، فغاية الطعام هي بناء الجسد والمحافظة عليه قويًا سليمًا ينمو حسب الاستعدادات البيولوجية التي وهبها الله إياه وزوده بها ليقوم بمهامه الدنيوية والدينية، ويجب أن يربى الإنسان على اتباع الطرق الملائمة له في تناول طعامه وشرابه.

إن المسلم يأكل ليتقوى على تحصيل رزقه ومباشرة عمله وعبادة ربه، وقد وضع الرسول ﷺ آدابًا وضوابط للطعام والشراب والتي منها ما ورد في الحديث من الدعوة إلى الاعتدال في الطعام والشراب، كما في قوله ﷺ: «ما مَلأ آدميٌّ وعاءً شرًا منْ بطنٍ، بحسبِ ابن آدَم أُكُلاتٌ يُقمنَ صلبَه، فإنْ كانَ لا محالَةَ فثُلُثٌ لطعامه، وثُلثٌ لشرابه، وثُلثٌ لنفسه».

ومن خلال ما سبق يتضح أن التربية الإسلامية تؤكد على أن:

أ - الطعام له غايته، وهي بناء الجسد بالقدر الذي يحتاجه الجسد على أن لا يخضع الإنسان لشهوة الطعام ويصير عبدًا لها.

ب - الطعام له آدابه التي يتضافر العقل مع الجسم في التحكم فيها بناء على الضوابط التي يربى عليها الإنسان والتي حددها الإسلام[1].

---

(١) انظر: فلسفة التربية الإسلامية في الحديث الشريف، د. عبدالجواد سيد بكر، ص٢٧١-٢٧٦، وص٣٧٦.

رابعًا - غرس روح التعاون:

إن التعاون واجب ديني وضرورة اجتماعية، فلقد اقتضت سنة الله تعالى أن لا تقام هذه الحياة إلا على المعاونة والمشاركة، فالتعاون يعتبر بمثابة مستلزم ضروري لا يمكن أن يستغنى عنه الفرد، ولا المجتمع لأنه إذا كان هناك تعاون تمكن الإنسان من القيام بمهمة الاستخلاف وعمارة الأرض التي خلق من أجلها[(١)].

ومن مظاهر التعاون في أحاديث الباب ما جاء في حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما الذي نقل لنا تعاون الصحابة رضي الله عنهم وعلى رأسهم رسول الله ﷺ في حفر الخندق وكان ذلك من أسباب إنجاء الله لهم مما أحاط وأحدق بهم من أخطار، فعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: «كنا يوم الخندق نحفر فعرضت كدية شديدة، فجاءوا النبي ﷺ فقالوا: هذه كدية عرضت في الخندق ...».

إن التعاون سبب لبقاء المجموع، فالإنسان محتاج إلى المعاونة في جميع حاجاته، فإذا لم يكن هذا التعاون فلا يحصل له قوت ولا غذاء ولا تتم حياته، أما إذا كان التعاون حصل له القوت والسلاح للمدافعة، وتمت حكمة الله في بقائه وحفظ نوعه[(٢)].

وللتعاون فوائده التربوية العظيمة التي لا تنكر، والتي منها:

أ - إمكان إنجاز الأعمال الكبيرة التي لا يقدر عليها الأفراد.

ب - شعور الفرد بالقوة ونزع شعور العجز عن نفسه.

ج - دليل حب الخير للآخرين.

د - مواجهة الأخطار المحدقة بالإنسان ممن حوله.

هـ - التعاون ثمرة من ثمار الأخوة الإسلامية، كما أنه أساس التقدم والإنتاج والنجاح والتفوق.

و - التعاون يشعر بالمساواة في الإنسانية، كما أنه ينزع الحقد من القلوب الضعيفة

---

(١) انظر: القيم بين الإسلام والغرب، د. مانع بن محمد بن علي المانع ص٤٩.

(٢) انظر: المقدمة، لابن خلدون، ١٠١٢/٣، نقلاً عن: كتاب القيم بين الإسلام والغرب، د. مانع المانع، ص٤٨.

ويزيل أسباب الحسد.

ز - إن التعاون يحقق سنة الله في خلقه ويوافق طبيعة الأشياء، وفي هذا يقول الشاعر:

النّاسُ للنّاسِ من بَدْوٍ وحَاضِرة بعضٌ لبعضٍ، وإن لم يَشعُروا خدَمُ[1]

خامسًا: التربية على الكرم وحسن الضيافة وغيرها من مكارم الأخلاق:

إن الكرم والسخاء والجود من الصفات المحمودة التي تعد من مقومات الشخصية وأساسياتها، وقد كان العرب يعدون هذه الصفة من المفاخر التي يفاخرون بها غيرهم بل إنها عامل مهم من عوامل السيادة عندهم، وقد جاء الإسلام لينمي هذه الصفة ويوجهها التوجيه الصحيح، ويحث على اكتسابها لكن دون تفاخر ولا مباهاة.

إن الكرم يَنمُّ عن طيب نفس وبذل للموجود، وإثبات عملي للمخاطب، والمراد تربيته على الزهد بالقدوة في العَرَض الزائل وعلو همته واحتقاره للمتاع الفاني مما جعل الناس تقبل على الأخذ عنه والتلقي منه، لمطابقة فعله قوله، قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[2]، كما أن فيه استمالة للنفوس وكسبًا لودها، وتطهيرًا لنفس الكريم من الشح والبخل، وإعدادًا له على البذل والعطاء والإنفاق في سبيل الله تعالى[3].

وقد وردت صور كثيرة في أحاديث الباب تنقل لنا ما كان عليه رسول الله ﷺ من كريم الأخلاق وحميد الصفات، ومن ذلك:

أ - استضافته ﷺ لأبي هريرة وأهل الصفة جميعهم رضي الله عنهم، فعنه رضي الله عنه قال من حديث طويل: «... قال: «يَا أَبَا هِرٍّ» قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللّهِ، قالَ: «الْحَقْ إِلَى أَهْلِ الصُّفَّةِ

(١) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرون، ١٠٢٧/٣.

(٢) سورة آل عمران، آية: ٩٢.

(٣) أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد محمود العاني، ص٣٤٧.

فَادْعُهُمْ لِي»، قَالَ: وَأَهْلُ الصُّفَّةِ أَضْيَافُ الإِسْلَامِ لاَ يَأْوُونَ عَلَى أَهْلٍ وَلاَ مَالٍ وَلاَ عَلَى أَحَدٍ، وكَانَ إِذَا أَتَتْهُ صَدَقَةٌ بَعَثَ بِهَا إِلَيْهِمْ وَلَمْ يَتَنَاوَلْ مِنْهَا شَيْئًا، وَإِذَا أَتَتْهُ هَدِيَّةٌ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ، وَأَصَابَ مِنْهَا، وَأَشْرَكَهُمْ فِيهَا ...».

ب - وقد تربى الصحابة الكرام على هذه الأخلاق الكريمة ونشأوا عليها، ومن دلائل ذلك ما كان عليه الأنصار رضي الله عنهم من إكرام لرسول الله ﷺ، ومن دلائل ذلك قول عائشة رضي الله عنها: «... إِلاَّ أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللّهِ ﷺ جِيرَانٌ مِنَ الأَنْصَارِ. وَكَانَتْ لَهُمْ مَنَائِحُ. وَكَانُوا يُرْسِلُونَ إِلَىٰ رَسُولِ اللّهِ ﷺ مِنْ أَلْبَانِهَا، فَيَسْقِينَا».

كذلك ما كان من شأن جابر بن عبدالله وزوجته رضي الله عنهما في غزوة الخندق، قال رضي الله عنه: «فَقُلْتُ لامْرَأَتِي: رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ ﷺ شَيْئًا مَا كَانَ فِي ذَٰلِكَ صَبْرٌ، فَعِنْدَكِ شَيْءٌ؟ قَالَتْ: عِنْدِي شَعِيرٌ وَعَنَاقٌ، فَذَبَحَتِ الْعَنَاقَ، وَطَحَنَتِ الشَّعِيرَ، حَتَّى جَعَلْنَا اللَّحْمَ فِي الْبُرْمَةِ، ...».

كذلك ما كان من أبي طلحة وزوجته أم سليم رضي الله عنها، قال أبو طلحة لأم سليم: «قَدْ سَمِعْتُ صَوْتَ رَسُولِ اللّهِ ﷺ ضَعِيفًا. أَعْرِفُ فِيهِ الْجُوعَ. فَهَلْ عِنْدَكِ مِنْ شَيْءٍ؟ فَقَالَتْ: نَعَمْ ...» وبارك الله تعالى في طعام أم سليم حتى أكل منه ثمانون رجلاً وبقي منه الكثير لأهل البيت.

بل لقد كان الواحد منهم يفرح أشد الفرح إذا نزل به أضياف، لاسيما إذا كان بينهم رسول الله ﷺ، كما نرى ذلك واضحًا جليًا في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، فعنه أنه قال: «خَرَجَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ أَوْ لَيْلَةٍ. فَإِذَا هُوَ بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رضي الله عنهما. فَقَالَ «مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَـٰذِهِ السَّاعَةَ؟» قَالاَ: الْجُوعُ. يَا رَسُولَ اللّهِ قَالَ: «وَأَنَا. وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لأَخْرَجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا. قُومَا» فَقَامَا مَعَهُ. فَأَتَىٰ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ. فَإِذَا هُوَ لَيْسَ فِي بَيْتِهِ. فَلَمَّا رَأَتْهُ الْمَرْأَةُ قَالَتْ: مَرْحَبًا وَأَهْلاً فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللّهِ «أَيْنَ فُلاَنٌ؟» قَالَتْ: ذَهَبَ يَسْتَعْذِبُ لَنَا مِنَ الْمَاءِ. إِذْ جَاءَ الأَنْصَارِيُّ فَنَظَرَ إِلَىٰ رَسُولِ اللّهِ وَصَاحِبَيْهِ. ثُمَّ قَالَ: الْحَمْدُ للّهِ. مَا أَحَدٌ الْيَوْمَ أَكْرَمَ أَضْيَافًا مِنِّي ...».

إنها صورة رائعة من الجود والكرم إضافة إلى ما صاحبها من فرح لهذا الأنصاري فنجده قد هش وبش وحمد الله تعالى على ما أكرمه وتفضل به عليه من قصد رسول الله ﷺ وصاحبيه إليه وزيارتهم له.

إن الجود بالمال وبذله في وجوه البر والتي منها الهبة والهدية وإكرام الضيف والجار وغير ذلك محمود ومطلوب في التربية والتنشئة على مكارم الأخلاق، ونفيس الصفات، وهو أمر محمود ومطلوب، وهو من أعظم الأسس والأصول التي يبني عليها سلوك الإنسان المحمود[١].

سادسًا - التربية على التأدب بالآداب الإسلامية في الضيافة والتعامل مع الكبار:

إن مما ينبغي تعويد الأولاد وتربيتهم عليه تعليمهم الأمور المستحسنة، وتدريبهم عليها كتشميت العاطس وكتمان التثاؤب والأكل باليمين وآداب السلام ورده واستقبال الضيوف ونحو ذلك.

فإذا تدرب الولد على هذه الآداب والأخلاق والأمور المستحسنة منذ الصغر ألفها وأصبحت سجية له[٢].

وقد ورد في أحاديث الباب الإلماح إلى عدة آداب للمجالس والمطاعم منها:

أ - حسن استقبال الضيوف وإكرامهم، كما نرى في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وما كان من الرجل الأنصاري من ترحيب وهش وبش لاستضافة رسول الله ﷺ وصاحبيه: "إذا جاء الأنصاري فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه ثم قال: الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافًا مني، فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب ....".

ب - التأدب بآداب الطعام والشراب ككون ساقي القوم آخرهم والقيام على خدمة الأصحاب والإخوان، كما نرى في حديث أبي هريرة رضي الله عنه وَأمْرِ رسول الله ﷺ له بخدمة إخوانه من أهل الصفة: «فأتيتُهم فدَعَوتهم، فأقبَلوا فاستَأذنوا فأذِنَ لهم،

---

(١) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. خالد بن حامد الحازمي، ص١٦٠-١٦٣، ورسائل في التربية والأخلاق والسلوك، محمد بن إبراهيم الحمد، ص٦٦.

(٢) انظر: رسائل في التربية والأخلاق والسلوك، محمد بن إبراهيم الحمد، ص١٣٦.

وأخذوا مجالِسَهم من البيت. قال: يا أبا هرّ، قلت: لبيك يا رسولَ الله، قال: خذ فأعطهم، فأخَذتُ القدح فجعلتُ أعطيه الرجلَ فيَشرَبُ حتى يَروىَ، ...»، حتى انتهى أبو هريرة ﷺ من سقي القوم جميعًا ولم يبق إلا رسول الله ﷺ وهو «فأخذَ القدَحَ فوَضعهُ على يدهِ، فنظرَ إليَّ فتبسمَ فقال: أبا هرٍّ، قلت: لبيك يا رسول الله. قال: بَقيتُ أنا وأنت. قلتُ: صدَقتَ يا رسول الله، قال: اقعد فاشرَب، فقعدتُ فشربت، فقال: اشرَبْ، فشربت، فما زال يقول: اشرب، حتى قلتُ: لاوالذي بَعثك بالحق، ماأجدُ له مَسلكًا. قال: فأرني، فأعطيتُه القدح، فحمدَ الله وسمَّى وشربَ الفَضْلة».

ج - التأدب مع الأكابر في المجالس، كما نرى في حديث ابن عمر ﷺ الذي نقل لنا عيادة رسول الله ﷺ ونفر من أصحابه لسعد بن عبادة ﷺ، وإفساح قوم سعد بن عبادة لرسول الله ﷺ ومَنْ مَعه، ففي الحديث: «فَاسْتَأْخَرَ قَوْمُهُ مِنْ حَوْلِهِ. حَتَّىٰ دَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ الَّذِينَ مَعَهُ».

إنَّ للمجالس وما تحتويه من مطاعم ومشارب آداب لابد من رعايتها والاعتناء بها وتدريب الأولاد والمتربين عليها، فإنه مهما قام المربي بتوجيه مَنْ يربيه، وتعليمه آداب المجالس فإنه ما لم يشارك في هذه المجالس فيحضر فيها ويقول رأيه ويشارك في الحديث ... ما لم يُوضع أمام التجربة العملية فلن يكفي البناء المعرفي المجرد.

ولذا كان الصغار والشباب يحضرون مجالس النبي ﷺ، بل ويقتربون منه، ولم يُعُدَّ ذلك سوء أدب أو مدعاة له.

ومما يعين على ذلك أيضًا تدارس آداب المجالس والتعرف عليها، والاعتناء بالمجالس التي يجلسها الولد ولو مع زملائه وأقرانه، فتراعى فيها آداب المجالس ليكون ذلك سلوكًا وسمتًا لهم لا يحتاجون إلى تكلفة.

وربما أدت الخلطة وزوال الكلفة بينهم إلى الإخلال ببعض هذه الآداب، فلابد حينئذ من تصحيح ذلك، والتأكيد على أن الأدب لا ينبغي أن يتجاوز بحجة ذلك[1].

---

(١) انظر: تربية الشباب، محمد بن عبدالله الدويش، ص١٦١، ١٦٢.

سابعًا - التربية على التواضع:

إن من أهم الأخلاق التي تهتم التربية الإسلامية بغرسها خلق التواضع، "إذ أن التواضع مطلوب من المسلمين عامة ومن الموجهين والمرشدين والمربين خاصة، فالتكبر والتعالي على الآخرين والنظر إليهم بعين الاستصغار يعد عقبة كأداء بين المربي وتلميذه، إذ كيف يسمع الأخير لمن ميَّز نفسه عنه وتعالى عليه وتطاول حتى بدا وكأنه ليس من بني جنسه.

إن التواضع مطلوب من القدوة سواء كان حاكمًا أو عالمًا أو مربيًا أو عابدًا أكثر مما هو مطلوب من غيره"(١).

ولقد ضرب لنا رسول الله ﷺ وصحابته رضي الله عنهم أنبل الأمثلة وأعظمها تطبيقًا لخلق التواضع وتمثلاً به، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تُحصى، ومنها ما ورد في أحاديث الباب التي نقلت لنا تواضع رسول الله ﷺ في معيشته وحياته ومطعمه ومشربه ونحو ذلك، فكان ﷺ بسيطًا في ملبسه ومشربه وطريقة حياته، فما أكل ﷺ على خوان قط تواضعًا منه ﷺ، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «لَمْ يَأْكُلِ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى خِوَانٍ حَتَّى مَاتَ، وَمَا أَكَلَ خُبْزًا مُرَقَّقًا حَتَّى مَاتَ»، فقد كان ﷺ مثلاً حيًا لعدم التقيد بالمظاهر والأشكال.

كما كان صحبه الكرام رضي الله عنهم أرفع الأمثلة في التواضع، ومن مظاهر ذلك في أحاديث الباب ما قام به أبو هريرة رضي الله عنه من خدمة مَنْ كانوا معه من أهل الصفة في ضيافة رسول الله ﷺ، فعنه رضي الله عنه من حديث طويل: قال ﷺ: يا أبا هرّ، قلت: لبيك يا رسولَ الله، قال: خذ فأعطهم، فأخَذتُ القدح فجعلتُ أعطيه الرجلَ فيَشرَبُ حتى يَروىَ، ...».

إن التواضع وخدمة أهل الصلاح وسيلتان من وسائل تزكية النفس وتربيتها، وهما علامتان على أن النفس مزكاة، لذلك ندب الله تعالى رسوله ﷺ إلى التواضع، قال تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾(٢)(٣)، وجعله سبحانه شرطًا مهمًا في دخول الجنة

---

(١) انظر: أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد محمود العاني، ص٣٤٩، ٣٥٠.

(٢) سورة الحجر، آية: ٨٨.

(٣) انظر: المستخلص في تزكية الأنفس، سعيد حوَّى، ص١٣٥.

والفوز في الآخرة، فقال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(١).

إن التواضع دليل على كبر النفس، وعلو الهمة، وهو سبيل لاكتساب المعالي، والترقي في الكمالات، فهو خلق يرفع من قدر صاحبه، ويكسبه رضا أهل الفضل ومودتهم، ويبعثه على الاستفادة من كل أحد، وينأى عن الكبر والتعالي(٢).

ثامنًا - من صفات المربي: الفطنة والذكاء:

إن المعلم القدير هو الذي يتمتع بحضور البديهة وصحة القريحة وسرعة الخاطر والتفكير اللماح، وقد وردت الإشارة إلى ذلك في مواطن كثيرة في أحاديث الباب، ومن الدلائل على ذلك إدراك رسول الله ﷺ وتفطنه لجوع أبي هريرة رضي الله عنه وحاجته إلى الطعام، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: « وَالَّذِي لاَ إِلهَ إِلاَّ هُو إِنْ كُنْتُ لأَعْتَمِدُ بِكَبِدِي عَلَى الأَرْضِ مِنَ الجُوعِ، وَإِنْ كُنْتُ لأَشُدُّ الْحَجَرَ عَلَى بَطْنِي مِنَ الْجُوعِ وَلَقَدْ قَعَدْتُ يَوْمًا عَلَى طَرِيقِهِم الَّذِي يَخْرُجُونَ مِنْهُ، فَمَرَّ بِي أَبُو بَكْرٍ فَسَأَلْتُهُ عَنْ آيَةٍ في كِتَابِ اللَّهِ مَا سَأَلْتُهُ إلاَّ لِيُشْبِعَنِي فَمَرَّ فَلَمْ يَفْعَلْ، ثُمَّ مَرَّ عُمَرُ فَسَأَلْتُهُ عَنْ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَا سَأَلْتُهُ إلاَّ لِيُشْبِعَنِي، ثُمَّ مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ فَتَبَسَّمَ حِينَ رَآنِي، وَعَرفَ مَا فِي وَجْهِي وَمَا فِي نَفْسِي، ثُمَّ قَالَ: «يَا أَبَا هرّ»، قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «الحَقْ» وَمَضَى فَأَتْبَعْتُهُ، ...»، وفي ذلك من الدلالة الواضحة على ما كان يتمتع به ﷺ من حضورٍ للبديهة وسرعة الخاطر والتفكير اللماح.

إن مما يزيد في رصيد المعلم العلمي والفكري والتوجيهي فطنته وذكاؤه، وأن يحسن التصرف في كل الأمور مما يمكنه من اتخاذ القرار المناسب في المآزق والمشكلات الطارئة، والمواقف المفاجئة والأمور الآنية، التي لم تكن في الحسبان، ومعالجة الأمور بحكمة وروية وهدوء واتزان: مثل حدوث شجار بين الطلبة أو إصابة

---

(١) سورة القصص، آية: ٨٣.

(٢) رسائل في التربية والأخلاق والسلوك، محمد بن إبراهيم الحمد، ص٥٣١.

طالب ما بمرض مفاجئ، أو انطفاء التيار الكهربائي، أو ظهور حشرة سامة في الصف، أو سقوط السبورة من مكانها.

إن حسن تصرف المعلم دليل على ألمعيته وبراعته، مما يزيد من ثقة الطلبة فيه ويرغبهم فيه وفيما يعلمه، وبالتالي يكون أقدر على السيطرة على الموقف التعليمي[(١)].

تاسعًا - من أساليب التربية: التشبيه:

ورد استخدام أسلوب التشبيه في مواطن عدة من أحاديث الباب ومنها:

أ - تشبيه النبي ﷺ لبطن الإنسان بالوعاء بجامع احتواء الطعام في كلٍّ، فقال ﷺ: «مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، ...».

ب - تشبيه جابر بن عبدالله رضي الله عنهما ما رُفع لهم على ساحل البحر من دابة العنبر كهيئة الكثيب، فقال رضي الله عنهما: «... وَانْطَلَقْنَا عَلَىٰ سَاحِلِ الْبَحْرِ. فَرُفِعَ لَنَا عَلَىٰ سَاحِلِ الْبَحْرِ كَهَيْئَةِ الْكَثِيبِ الضَّخْمِ. فَأَتَيْنَاهُ فَإِذَا هِيَ دَابَّةٌ تُدْعَى الْعَنْبَرَ...».

وتأتي أهمية أسلوب التشبيه في التربية الإسلامية في تقريبه للصور وتبيينه للأفهام، إذ أن "الصورة المحسوسة أقرب تصورًا وأسرع فهمًا وأثبت بقاءً، لأنها تحدد الأبعاد وتبرز الأجزاء وتوضح منها ما يخفى، قد تراها بالعين أو تتخيلها بالخاطر أو تتحسسها باليد، أو تستوعبها بالأذن، وقد يشترك كل أولئك في التقاطها فترتسم واضحة المعالم محددة الأجزاء، زاهية الألوان، نابضة بالحركة.

ولهذا كان أسلوب التشبيه من أساليب البلاغة القرآنية والبلاغة النبوية.

إن الصورة التشبيهية تدع بين يديك، وأمام عينيك حالتين متشابهتين لتتفحص كل حالة وتدرسها وتحللها، فإذا حكمت بعد ذلك لإحداهما أو على إحداهما كان حُكْمُك بعيدًا عن الخطأ قريبًا من الصواب.

تسمع قائلاً يقول الكلمة الطيبة خفيفة الوقع على الأذن، والكلمة الخبيثة شديدة الوقع على الأذن، فلا تدرك إلا حقيقة محدودة لا تقف طويلاً عندها ولا تلتفت كثيرًا لما تحدثه من الأثر.

---

(١) انظر: المرشد النفيس إلى أسلمة التربية وطرق التدريس، د. محمد صالح بن علي جان، ص٥١، ٥٢.

وتسمع قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾[1]، فترتسم في مخيلتك صورة واضحة كل الوضوح، حولت المعنى المجرد إلى صورة قريبة منك تراها كل يوم، هي صورة شجرة من الأشجار المظلة المثمرة تتملاها العين لما يشيع فيها من الحياة ولما تتميز به من جذور ضاربة، تُقَوِّي صمودها، وأغصان وأوراق تفرش ظلالها، يتفيؤه الناس، وتخرج ثمارها يطعمونه، إنها عظيمة الفائدة بقيَّةُ الأثر، أو صورة لشجرة تشغل حيزًا وتعطل مساحة وتتغلغل جذورها هنا وهناك، تشارك النبات غذاءه وماءه، فيضعف عوده، ويقل نتاجه، وإنها لعقيمة لا تثمر أو تزهر فلا قيمة لها ولا نفع من وجودها فأولى أن تزول[2].

عاشرًا - التربية الاقتصادية:

إن الاعتناء بالتربية الاقتصادية والاهتمام بتحقيق قدر من الفهم للنواحي الاقتصادية والاجتماعية أمر له أثره في إعداد المتربين للعمل والحياة المادية[3].

وقد وردت في أحاديث الباب عدة إشارات اقتصادية من أظهرها ما يلي:

أ - الحفاظ على الأصول المنتجة:

ونرى ذلك واضحًا جليًا في قول رسول الله ﷺ لذلك الرجل الأنصاري الذي أراد أن يكرم ضيافة رسول الله ﷺ ومَنْ معه فأخذ السكين ليذبح لهم شيئًا، فقال له الرسول ﷺ: «إِيَّاكَ وَالْحَلُوبَ» وذلك لما تدره من خير ونفع ينقطع بذبحها.

ب - العدد والإحصاء:

---

(١) سورة إبراهيم، الآيات: ٢٤-٢٦.

(٢) انظر: التربية الإسلامية، دراسة مقارنة، د. محمد أحمد جاد صبح، ١٢٥/١، ١٢٦.

(٣) انظر: تربية الشباب "الأهداف والوسائل"، محمد بن عبدالله الدويش، ص١٨٥.

وقد تكررت الإشارة إلى ذلك في مواطن كثيرة من أحاديث الباب منها: «إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلَىٰ الْهِلاَلِ ثُمَّ الْهِلاَلِ ثُمَّ الْهِلاَلِ. ثَلاَثَةَ أَهِلَّةٍ فِي شَهْرَيْنِ».

في حديث عُتْبَةَ بْنُ غَزْوَانَ... «وَلَقَدْ رَأَيْتُنِي سَابِعَ سَبْعَةٍ مَعَ رَسُولِ اللّهِ ﷺ».

- حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «لَقَدْ رَأَيْتُ سَبْعِينَ مِنْ أَصْحَابِ الصُّفَّةِ ...».

- حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: «فَقَامَ وَقُمْنَا مَعَهُ، وَنَحْنُ بِضْعَةَ عَشَرَ، ...».

- حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما: «وَلَقَدْ أَخَذَ مِنَّا أَبُو عُبَيْدَةَ ثَلاَثَةَ عَشَرَ رَجُلاً...».

- حديث أنس بن مالك في الخندق: «فأكلوا عشرة عشرة حتى فعل ذلك بثمانين رجلاً، ...».

وغير ذلك من الإشارات إلى أهمية التربية الاقتصادية وضرورة الاعتناء بها، إذ أن الإسلام "ينظم شئون الحياة كلها على أساس من الفطرة والواقعية والعبودية لله، والنشاط الاقتصادي في الإسلام وسيلة لتحقيق استخلاف الإنسان في الأرض على وجهها الصحيح، وقد وضع الإسلام من المبادئ والقواعد التي توجه هذا النشاط وتسمو به من مجرد كونه نشاطًا ماديًا بحتًا يُطلب لذاته إلى مجال واسع من مجالات العبادة ووسيلة يتقرب بها العبد إلى ربه، وتبرز هذه المبادئ والقواعد في موقف الإسلام من العمل ورأس المال وتنمية الإنتاج ورفع الكفاية الإنتاجية وتحسين مستوى المعيشة.

إن الإسلام يرى أن المال في يد مالكه لا يخرج عن كونه مال الله، وأن الإنسان مستخلف فيه وأمين عليه ومأمور بالمحافظة عليه وإنمائه ومنهي عن إضاعته وتبديده، كما جعل الإسلام في المال وفي ثماره حقًا لأصحاب الحاجة والمصالح العامة، لذا أقر الإسلام مبدأ الملكية الفردية للمال ولمختلف وسائل الإنتاج وجعلها أساسًا للنظام الاقتصادي، وفي ذلك أكبر دافع للإنسان للعمل وإشباع حاجته للتملك إلا أنه في المقابل يضع حدودًا وقيودًا على هذا المبدأ حتى لا يتحول إلى معول هدم في يد المحتكرين وأصحاب المصالح الضيقة والنفوس الضعيفة.

لقد تضمن القرآن الكريم والسنة المطهرة قواعد أساسية وأوامر وتوجيهات تتعلق بالسلوك الواجب اتباعه في التعامل الاقتصادي ومنها: الأمر بإقامة القسط ورعاية العدل

في كافة المعاملات والأمر بالوفاء بالعهود والعقود وأداء الأمانات وتحريم أكل الأموال بالباطل وتحريم بخس الناس أشياءهم وتحريم الخيانة والغش والتطفيف في الميزان، هذا كله وكثير مثله، من شأنه أن يجعل التعامل الاقتصادي على اختلاف ضروبه مسألة محكومة بإطار مرجعي هو دائرة الحلال والحرام في الإسلام(١).

حادي عشر - التربية الصحية:

كما في حديث ((مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنِهِ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلاَتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ ...))الحديث، فقد تضمن هذا الحديث بعض جوانب التربية الصحية للمسلم من خلال بيان واستنباط بعض الأضرار الناجمة عن الإكثار في تناول الطعام، مع بيان كيفية حفاظ الإنسان على صحته من خلال تنظيمه لتناول الوجبات الغذائية المختلفة.

وقد وردت في أحاديث الباب عدة أساليب تربوية، يستفاد منها في العملية التعليمية، ومن هذه الأساليب ما يلي:

أ - القصة: وهي بكثرة في هذا الباب، ومنها حديث أبي هريرة رضي الله عنه: ((خَرَجَ رَسُولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم ذَاتَ يَوْمٍ أَوْ لَيْلَةٍ. فَإِذَا هُوَ بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رضي الله عنهما...)) الحديث. ويمكن للمعلم استخدام هذا الأسلوب في الفصل لتشويق المتعلمين إلى الموقف التعليمي واستثارة دافعيتهم ودفع الملل عنهم، لأن القصة أمر محبب للناس، وتترك أثرها في النفوس.

ب - الحوار والمناقشة: كحديث أبي هريرة رضي الله عنه: ((واللّه الّذِي لاَ إِلـهَ إِلاَّ هُـو إِنْ كُنْتُ لأَعْتَمِدُ بِكَبِدِي عَلَى الأَرْضِ مِنَ الجُوعِ، وَإِنْ كُنْتُ لأَشُدُّ الْحَجَرَ عَلَى بَطْنِي مِنَ الْجُوعِ ...)) الحديث. وهو من الأساليب التي تتميز بتفعيل دور المتعلم في العملية التعليمية وتدفع عنه الملل وتعمل على استثارة دافعيته للتعلم.

ج - الممارسة العملية: كقول أنس بن مالك رضي الله عنه: ((رَهَنَ النَّبيّ صلى الله عليه وسلم دِرعَهُ بِشَعِيرٍ، ومَشيتُ إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم بخُبزِ شعيرٍ...))الحديث. والممارسة العملية من الأساليب التي تُفَعِّل دور المتعلم في العملية التعليمية ويعد أسلوب الحوار والمناقشة والممارسة العملية من أبرز الاستراتيجيات الحديثة التي تنادي بها الاتجاهات التربوية المختلفة والتي من شأنها

(١) انظر: أصول التربية الإسلامية، محمد شحات الخطيب وآخرون، ص٢١١-٢١٤.

أن تفعل دور المتعلم في العملية التعليمية كما أنها تتميز بقوة بقاء أثر التعلم.

د - التربية بالأحداث والمواقف: كحديث أبي هريرة رضي الله عنه: ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمُ الْجُوعُ. ثُمَّ لَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أَصَابَكُمْ هَذَا النَّعِيمُ)) والمربي البارع لا يترك أحداث الحياة تمر أمامه دون أن يستفيد منها وإبراز ما فيها من عبر ومواعظ ودروس، وتمتاز التربية بالمواقف والأحداث بأنها تحدث في النفس أثرًا كبيرًا وتتفعل معها انفعالاً خاصًا، ولقد قامت التربية النبوية باستثمار الأحداث في التوجيه والتعليم وتصويب الأخطاء.

وتستطيع الوسائل التربوية المختلفة أن تستغل التربية بالمواقف والأحداث من خلال إبرازها بمصداقية تامة، فوسائل الإعلام لابد أن تقوم بدورها في هذا المجال، وعلى الأسرة أن تستخدم هذه الوسيلة في توجيه المتعلمين لما فيه النفع في دينهم ودنياهم.

هـ - استخدام الأسئلة: كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما: ((من يعوده منكم؟))، أي يعودون سعد بن عبادة رضي الله عنه، وهذا الأسلوب يستخدم في توجيه بعض أفكار المتعلمين وقياس مدى تعلم المتعلمين للنقاط المختلفة، وفي التعرف على مدى تحقق الأهداف التربوية.

و - الإلقاء: كما في حديث ((خيركم قرنى، ثم الذين يلونهم....))، وهذا أسلوب تربوي يمكن للمعلم استخدامه في حجرة الدراسة، وذلك بإلقاء بعض المعلومات على المتعلمين، ويقوم المعلم بدور المرسل والمتعلمون بدور المرسل إليه، وبينهما قناة اتصال تتمثل في المادة العلمية التي يقوم المعلم بتعليمهم إياها.

ز - الوصية: كما في حديث ((يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ أَنْ تَبْذُلَ الْفَضْلَ خَيْرٌ لَكَ. وَأَنْ تُمْسِكَهُ شَرٌّ لَكَ ...))الحديث، وأسلوب الوصية من الأساليب التي يمكن لكل من يقع على عاتقه مجال تربية الأبناء استخدامه في مواقف الحياة المختلفة، فالأب يمكن له استخدام الوصية في توجيه أبنائه لما فيه النفع لهم في دينهم ودنياهم، وكذلك الأمر للمعلم فإنه يمكن له استخدام الوصية مع طلابه في حجرة الدراسة وخارجها وخاصة في توجيههم إلى الأمور المهمة والتي تحتاج إلى تذكير واهتمام.

٥٧ - باب القناعة والعَفاف والاقتصاد في المعيشة والإنفاق وذم السؤال من غير ضرورة

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾[هود: ٦]، وقال تَعَالَى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَـٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾[البقرة: ٢٧٣]، وقال تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾[الفرقان: ٦٧]، وقال تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٧].

وَأَمَّا الأحاديث، فتقدم معظمها في البابينِ السابقين، ومما لَمْ يتقدم:

الحديث رقم (٥٢١)

٥٢١ - عن أَبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ، قَالَ: ((**لَيْسَ الغِنَى عَن كَثْرَةِ العَرَض، وَلكِنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ**)) متفقٌ عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

العَرَض: المَالُ[2].

الشرح الأدبي

هذا الحديث يقوم على النفي، والاستدراك لتقرير المعنى، لأنه يعمد إلى مفهوم راسخ في أذهان الناس فيبطله ثُم يقرر المفهوم الصحيح، وهو لون من ألوان تصحيح

---

(١) أخرجه البخاري ٦٤٤٦، ومسلم ١٠٥١/١٢٠ ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه ١٢١٤.

(٢) رياض الصالحين ٢٤٦.

المفاهيم في الحديث النبوي الشريف، والمعنى الذي نفاه (لَيْسَ الغِنَى عَن كَثْرَةِ العَرَض) نفى لكون الغنى عن كثرة العرض، والعرض هو مختلف أشكال المال، ثم استدرك لتصحيح المفهوم (وَلَكِنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ) والجناس يقرر أن الغنى إحساس نابع من داخل الفرد، قل ما معه أو كثر، وإن فقد هذا الإحساس وملك الدنيا فهو في نفسه فقير يدافع هذا الإحساس بمزيد من النهم في جمع المال فيصير كالعطشان الذي يشرب الماء المالح كلما ازداد شربا ازداد عطشاً.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النفي والإثبات.

ثانيًا: من مهام الداعية: تصحيح المفاهيم وبيان الحقائق.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الحث على القناعة والرضا.

رابعًا: من آداب المدعو: عدم التطلع إلى ما في أيدي الناس.

أولاً - من أساليب الدعوة: النفي والإثبات:

حيث جاء في الحديث: "ليس الغنى" وهذا نفي "ولكن الغنى" وهذا إثبات ومما لا شك فيه أن أسلوب النفي والإثبات من أساليب الدعوة، وهو يلفت انتباه المدعو، ويشد تركيزه إلى المنفي والمثبت من الحديث وهو من التنويع في عرض قضايا الدعوة.

ثانيًا - من مهام الداعية: تصحيح المفاهيم وبيان الحقائق:

إن المجتمع قد تظهر فيه بعض المفاهيم الخاطئة، والرؤى المخالفة للشرع، وهنا يبرز دور الداعية في إيضاح الحقائق وتصحيح المفاهيم، ويتضح هذا من الحديث في قوله ﷺ: "ليس الغنى عن كثرة العرض..."، حيث بين النبي ﷺ أن الغنى الحقيقي ليسَ في كثرة المال وعرض الحياة الدنيا، ولكن الغنى الحقيقي هو غنى النفس وقناعتها ورضاها، قال ابن حجر: (قال ابن بطال: معنى الحديث ليس حقيقة الغنى كثرة المال لأن كثيرًا ممن وسع الله عليه في المال لا يقنع بما أوتي فهو يجتهد في الازدياد، ولا يبالي من أين يأتيه، فكأنه فقير لشدة حرصه، وإنما حقيقة الغنى غنى النفس، وهو من استغنى

بما أوتي وقنع به ورضي ولم يحرص على الازدياد ولا ألح في الطلب فكأنه غني)[١].

ومن صور تغيير وتصحيح المفاهيم الخاطئة ما جاء في الحديث عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((مَا تَعُدُّونَ الرَّقُوبَ فِيكُمْ؟)) قَالَ قُلْنَا: الَّذِي لاَ يُولَدُ لَهُ. قَالَ: ((لَيْسَ ذَاكَ بِالرَّقُوبِ. وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ الَّذِي لَمْ يُقَدِّمْ مِنْ وَلَدِهِ شَيْئًا)) قَالَ: ((فَمَا تَعُدُّونَ الصُّرَعَةَ فِيكُمْ؟)) قَالَ: قُلْنَا: الَّذِي لاَ يَصْرَعُهُ الرِّجَالُ. قَالَ ((لَيْسَ بِذَلِكَ. وَلَكِنَّهُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ))[٢].

قال النووي: (ومعنى الحديث: إنكم تعتقدون أن الرقوب المحزون هو المصاب بموت أولاده، وليس هو كذلك شرعًا؛ بل هو من لم يمت أحد من أولاده في حياته فيحتسبه يكتب له ثواب مصيبته به وثواب صبره عليه، ويكون له فرطًا وسلفًا وكذلك تعتقدون أن الصرعة الممدوح القوي الفاضل هو القوي الذي لا يصرعه الرجال بل يصرعهم وليس هو كذلك شرعًا بل هو من يملك نفسه عند الغضب فهذا هو الفاضل الممدوح الذي قلّ من يقدر على التخلق بخلقه ومشاركته في فضيلته بخلاف الأول)[٣].

وقال ابن الأثير: (والرقوب في اللغة: الرجل والمرأة إذا لم يعش لهما ولد، لأنه يرقب موته يرصده خوفًا عليه فنقله النبي صلى الله عليه وسلم إلى الذي لم يقدم من الولد شيئًا، أي: يموت قبله تعريفًا أن الأجر والثواب لمن قدم شيئًا من الولد، وأن الاعتداد به أكثر، والنفع فيه أعظم، وأن فقدهم وإن كان في الدنيا عظيمًا فإن فقد الأجر والثواب على الصبر والتسليم للقضاء في الآخرة أعظم، وأن المسلم ولده في الحقيقة من قدمه واحتسبه، ومن لم يرزق ذلك فهو كالذي لا ولد له)[٤].

والداعية الموفق الحصيف هو الذي يستطيع القضاء على المفاهيم الخاطئة في المجتمع ويصححها، ويبين حقائق الدين الصحيحة للمدعوين دون أن يصطدم بهم وإنما يسلك سبيل الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٧٧/١١.

(٢) أخرجه مسلم ٢٦٠٨.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٥٤.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٣٦٩ - ٣٧٠.

ثالثًا – من موضوعات الدعوة: الحث على القناعة والرضا:

إن القناعة والرضا من الأمور الهامة التي ينبغي أن يتخلق بها المسلم حيث تولد لديه السكينة والطمأنينة النفسية والسعادة القلبية، ويأتي التوجيه إلى هذا من خلال الحديث في قوله ﷺ: (ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس)، قال النووي: (والعرض المراد به متاع الدنيا ومعنى الحديث: الغنى المحمود غنى النفس وشبعها وقلة حرصها لا كثرة المال مع الحرص على الزيادة؛ لأن من كان طالبًا للزيادة لم يستغن بما معه فليس له غنى)[١].

إن الغنى أنواع، وأن أفضله ما يثنى على الإنسان به ألا وهو غنى النفس، والمقصود بذلك أن يرزق الإنسان القناعة بما رزقه الله تعالى من الحلال، فهذا لا تدفعه نفسه إلى المطامع ، قال القرطبي: (معنى الحديث: إن الغنى النافع أو العظيم أو الممدوح هو غنى النفس وبيانه أنه إذا استغنت نفسه كفت عن المطامع فعزّت وعظمت وحصل لها من الحظوة والنزاهة والشرف والمدح أكثر من الغنى الذي يناله من يكون فقير النفس لحرصه)[٢].

وفي الحديث عدم اعتبار أن كثرة المال دائمًا هي الغنى، وذلك لأن كثيرًا ممن وسع الله عليه في المال لا يقنع بما أوتي فهو يجتهد في الازدياد ولا يبالي من أين يأتيه لحرصه فإنه يورطه في رذائل الأمور وخسائس الأفعال لدناءة همته وبخله ويكثر من يذمه الناس ويصغر قدره عندهم فيكون أحقر من كل حقير وأذل من كل ذليل[٣]، فهذه صفة فقير النفس، لكونه لا يقنع بما أعطي بل هو أبدًا في طلب الازدياد من أي وجه أمكنه، لأنه لم يستغن بما أعطي فكأنه ليس بغني.

وفي الحديث اعتبار أن الغنى غنى النفس دائمًا وفي كل حال، لأن غنى النفس هو من استغنى بما أوتي وقنع به ورضي ولم يحرص على الازدياد ولا ألح في الطلب، ولا ألحف في السؤال، بل يرضى بما قسم الله له، فكأنه غني.

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦٦١.

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٣٥/٧.

(٣) المرجع السابق ٣٥/٧.

أن على من كان يملك المال الإنفاق منه، لأن غنى النفس لمن كانت هذه حاله أن ينفق مما رزقه، قال ابن حجر: (فإن كان في نفسه غنيًا لم يتوقف في صرفه في الواجبات والمستحبات من وجوه البر والقربات، وإن كان في نفسه فقيرًا أمسكه وامتنع من بذله فيما أمر به خشية من نفاده، فهو في الحقيقة فقير صورة ومعنى، وإن كان المال تحت يده؛ لكونه لا ينتفع به لا في الدنيا ولا في الآخرة بل ربما كان وبالاً عليه)[١].

وهذا الحديث يحث المسلم أن يكون قانعًا راضيًا بما آتاه الله وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((انْظُرُوا إِلَى مَنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ. وَلاَ تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ. فَهُوَ أَجْدَرُ أَنْ لاَ تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللّهِ))[٢]، والقناعة من كمال الإيمان وحسن الإسلام، "والقانع تعزف نفسه عن حطام الدنيا رغبة فيما عند الله، والقنوع يحبه الله ويحبه الناس، ولو قنع الناس بالقليل لما بقي بينهم فقير ولا محروم وقد قيل في القناعة:

اضرع إلى الله ولا تضرع إلى الناس ... واقنع بيأس فإن العز في الياس

واستغن عن كل ذي قربى وذي رحم ... إن الغنيَّ من استغنى عن الناس[٣]

قال ابن القيم: (حقيقة غنى القلب: تعلقه بالله وحده، وحقيقة فقره المذموم تعلقه بغيره، وغنى النفس هو استقامتها على المرغوب، وسلامتها من الحظوظ وبراءتها من المراءاة)[٤].

وجاء عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: "ما يضر عبدًا يصبح على الإسلام ويمسي عليه ماذا أصاب من الدنيا"، وعن الحسن أنه قال: (ما من مسلم يرزق رزق يوم بيوم ولا يعلم أنه قد خير له: إلا عاجز أو قال غبي الرأي)[٥].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١/٢٧٢.

(٢) أخرجه البخاري ٦٤٦٠، ومسلم ٢٩٦٣ واللفظ له.

(٣) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن محمد بن ملوح ٨/٣١٧٤.

(٤) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٣/٣٠٥.

(٥) كتاب الزهد، عبدالله بن المبارك، ص ١٩٠.

وقال ابن القيم: (ومتى عرف العبد أن الله سبحانه هو الذي يتولى تدبير أمور العباد بموجب علمه وحكمته ورحمته سكن في الدنيا قبل الآخرة في جنة لا يشبه نعيمها إلا نعيم جنة الآخرة فإنه لا يزال راضيًا عن ربه، طيب النفس بما يجري عليها من المقادير التي هي عين اختيار الله له وطمأنينتها إلى أحكامه الدينية وهذا هو الرضا بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولاً)[١].

رابعًا - من آداب المدعو: عدم التطلع إلى ما في أيدي الناس:

إن النفس البشرية متى استشرفت وتطلعت إلى ما عند الغير من متع ومباهج فإنها لا تنفك تؤلب صاحبها، وتورثه الحزن والحسرة على ما لم يحصل، والمسلم الحق يربي نفسه على الرضا بعطاء الله، والزهد فيما في أيدي الناس، ويتضح هذا من عموم الحديث فإن كان الإنسان قانعًا راضيًا فإنه لا يتطلع لما في أيدي الناس بل يزهد فيه: (لقد كان محمد بن واسع يبل الخبز اليابس بالماء ويأكل ويقول: من قنع بهذا لم يحتج إلى أحد، وقال بعضهم: ازهد بما عند الناس يحبك الناس، وارغب فيما عند الله يحبك الله، وقيل لبعض الحكماء: ما الغنى؟ قال: قلة تمنيك، ورضاك بما يكفيك، وقيل لبعض الحكماء: ما مالك؟ فقال: التجمل في الظاهر والقصد في الباطن واليأس مما في أيدي الناس)[٢]، وقال السعدي: (وإذا علم العبد أن الله تعالى عنده جميع مطالب السائلين وبيده خزائن الخيرات من عرف هذا حق المعرفة اضطرته إلى تعليق الأمور كلها على الله، وتعلق القلب به وانقطاعه عن الخلق وعلم العبد أنه كلما تعلق بالله أتاه من الخير والبركة وطيب الحياة ما لا يخطر له على بال)[٣].

وقد علّم الله نبيه ﷺ أن لا يتطلع إلى زهرة الحياة الدنيا وزينتها، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[٤].

---

(١) الفوائد، القاضي عياض ص ١٣٩.

(٢) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن محمد بن ملوح ٨/٣١٧٣.

(٣) الرياض الناضرة، السعدي ص ١٨٨.

(٤) سورة طه، آية: ١٣١.

قال ابن كثير: (يقول تعالى لنبيه ﷺ: لا تنظر إلى هؤلاء المترفين وأشباههم ونظرائهم وما هم فيه من النعم فإنما هو زهرة زائلة، ونعمة حائلة، لنختبرهم بذلك، وقليل من عبادي الشكور، وقال مجاهد: "أزواجًا منهم"، يعني: الأغنياء فقد آتاك الله خيرًا مما آتاهم، وكذلك ما ادخره الله تعالى لرسوله ﷺ في الدار الآخرة أمر عظيم لا يُحد ولا يوصف، وفي الصحيح أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما دخل على رسول الله ﷺ في تلك المشربة التي كان قد اعتزل فيها نساءه حين آلى منهن، فرآه متوسدًا مضطجعًا على رمال حصير وليس في البيت إلا صُبْرة من قرظ[١] وأهب[٢] معلقة فابتدرت عينا عمر رضي الله عنه بالبكاء، فقال رسول الله ﷺ: ما يُبْكيكَ؟ فقال: يا رسولَ الله، إنَّ كِسْرى وقيصَرَ فيما هما فيه، وأنت رسولُ اللّهِ؟ فقال: ((أوَ فِي شَكٍّ أنْتَ يا ابنَ الخَطّابِ أولَئكَ قَوْمٌ عُجِّلَتْ لهُمْ طَيِّباتُهُمْ في الحَياةِ الدُّنْيا))[٣]، فكان صلوات الله وسلامه عليه أزهد الناس في الدنيا مع القدرة عليها، إذا حصلت له ينفقها هكذا وهكذا في عباد الله، ولم يدخر لنفسه شيئًا لغد)[٤].

---

(١) الصبرة: الطعام المجتمع كالكومة، والقرظ: الجلد، وصبرة من قرظ، أي: مجموعًا قد جعل صبرة كصبرة الطعام. انظر: النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير ص ٥٠٧.

(٢) أهب: جلد، انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٥٤.

(٣) أخرجه البخاري ٤٩١٣.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣٢٦/٥ - ٣٢٧.

الحديث رقم (٥٢٢)

٥٢٢ - وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله ﷺ، قَالَ: ((قَدْ أفْلَحَ مَنْ أسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافاً، وقَنَّعَهُ الله بِمَا آتَاهُ)) رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمرو بن العاص: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٣٨).

الشرح الأدبي والمضامين الدعوية[٢]

(١) برقم ١٠٥٤/١٢٥، أورده المنذري في ترغيبه ١٢١٨.

(٢) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (٥١١).

الحديث رقم (٥٢٣)

٥٢٣ - وعن حكيم بن حزام رضي الله عنه ، قَالَ: سألتُ رسول الله ﷺ فَأعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأعْطَانِي، ثُمَّ قَالَ: ((**يَا حَكِيم، إنَّ هَذَا المَالَ خَضِرٌ حُلْوٌ، فَمَنْ أخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أخَذَهُ بإشرافِ نَفسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، وَكَانَ كَالَّذِي يَأكُلُ وَلاَ يَشْبَعُ، وَاليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى**)).

قَالَ حكيم: فقلتُ: يَا رسول الله، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ لاَ أرْزَأُ أحَدًا بَعْدَكَ شَيْئًا حَتَّى أُفَارِقَ الدُّنْيَا، فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه يَدْعُو حَكيمًا لِيُعْطِيَه العَطَاء، فَيَأبَى أنْ يَقْبَلَ مِنْهُ شَيْئًا[1]، ثُمَّ إنَّ عُمَرَ رضي الله عنه دَعَاهُ لِيُعْطِيَه فَأَبَى أنْ يَقْبَلَهُ[2]. فقالَ: يَا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ[3]، أُشْهِدُكُمْ عَلَى حَكيمٍ أنّي أعْرِضُ عَلَيْهِ حَقَّهُ الَّذِي قَسَمَهُ اللهُ لَهُ فِي هَذَا الفَيءِ فَيَأبَى أنْ يَأخُذَهُ. فَلَمْ يَرْزَأْ حَكيمٌ أحَدًا مِنَ النَّاسِ بَعْدَ النبي ﷺ حَتَّى تُوُفِّي[4]. متفقٌ عَلَيْهِ[5].

ترجمة الراوي:

حكيم بن حزام: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٥٩).

غريب الألفاظ:

خَضِرٌ حلوٌ: محبوب مستلذ ومرغوب فيه[6].

بسخاوة نفس: بكرمٍ وجود، من غير طمع في الشيء[7].

---

(١) (شيئًا) لا توجد عند البخاري برقم ١٤٧٢، وإنما عنده برقم ٢٧٥٠.

(٢) هذا اللفظ عند البخاري برقم ٢٧٥٠، وفي ١٤٧٢: (أن يقبل منه شيئًا).

(٣) هذا في رواية الأوزاعي برقم ٢٧٥٠، وفي رواية يونس برقم ١٤٧٢: (إني أشهدكم يا معشر المسلمين على حكيم).

(٤) من بعد قوله: (يا حكيم) إلى هنا عند البخاري برقم ٢٧٥٠.

(٥) أخرجه البخاري ١٤٧٢، و٢٧٥٠، ومسلم ١٠٣٥/٩٦ والسياق للحميدي في جمعه ٣٨٤/٣، رقم ٢٨٦٥. أورده المنذري في ترغيبه ١١٩٩.

(٦) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦٥٥.

(٧) رياض الصالحين ٢٤٦، والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (س خ و).

إشراف النفسُ: تطلُّعها وطمعها في الشيء[1].

لم يرزأْ: لم يأخذ من أحد شيئًا، وأصل الرزء: النقصان، أي: لم ينقص أحدًا شيئًا بالأخذ منه[2].

العطاء: ما يستحقه من المغنم[3].

الفيء: الخراج والغنيمة تنالُ بلا قتال[4].

الشرح الأدبي

جاءت عبارته ﷺ: (وإن هذا المال خضر حلو) لتجلّي أبعاد أكثر مباهج الدنيا خطورة وهو المال وتبيّن وجه الانتفاع به فبدأ العبارة بأسلوب التوكيد بإن مع اسمية الجملة ولعل السبب في هذا التوكيد يرجع إلى تمكُّن الرغبة للمال وحبه في نفوس الناس وانشغالهم عن خطره فجاءت هذه المؤكدات عناية بالأمر وتنبيها إلى خطره، ولأن حكيم كرر السؤال كثيرا والرسول ﷺ كرر له العطاء كما ذكر(سألتُ رسول الله ﷺ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأعْطَانِي، ثُمَّ قَالَ) كما تشير ثم التي سبقت القول إلى فترة زمنية قبل أن يقول له هذا القول، وتعريف الرسول ﷺ للمسند إليه بالإشارة (هذا المال) لكمال العناية وتمييزه أكمل تمييز أو للتنبيه على أن المشار إليه المعقب بأوصاف جدير لأجل تلك الأوصاف التي وصفه بها من خضرة وحلاوة تبعثان الرغبة فيه، وقوله ﷺ: (المال خضر حلو) (ليس هو صفة المال، وإنما هو للتشبيه كأنه قال: المال كالبقلة الخضراء الحلوة) ووجه الشبه إقبال النفس عليه وسرورها به، وهو تشبيه بليغ حذف منه الوجه والأداة مما أعطى المعنى تأكيداً يفيد شدة التشابه في الصفة بين المشبه والمشبه به، وقد قابل بين قوله (فمن أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ

---

(١) المرجع السابق ٢٤٦.

(٢) المرجع السابق ٢٤٦.

(٣) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٧٩٥.

(٤) المعجم المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ف ي أ).

نَفسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ) وبين قوله: (وَمَنْ أخَذَهُ بإشرافِ نَفسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ) ليوضح أثر العامل النفسي، والإحساس القلبي على حدوث البركة في المال من عدمها حتى يبحث كل إنسان في نفسه عن شكل إحساسه به، ويحذر سيطرة المال على قلبه، وقوله (وَاليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى)قابل العليا بالسفلى، ليصور الفارق بين الاثنين بالمدى المحسوس بين الجهتين ارتفاعا في سمو بمحاسن الأفعال، وانخفاضا، وانحطاطا بذل السؤال، وحتى لا ينظر إنسان لعلو اليد، وانخفاضها من ناحية القوة، والضعف أو من ناحية الغنى، والفقر، وقد كان لهذه المعاني بالغ الأثر في نفس حكيم رضي الله عنه حتى قال للرسول ﷺ (وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ لاَ أرْزَأُ أحَداً بَعْدَكَ شَيْئاً حَتَّى أُفَارِقَ الدُّنْيَا) أي لا آخذ شيئا من أحد حتى أموت، وقد صدق رضي الله عنه، كما دل باقي الحديث .

فقه الحديث

في هذا الحديث من الفقه ما يلي:

١ - جواز تكرار السؤال ثلاثًا، وجواز المنع في الرابعة.

٢ - سؤال الأعلى ليس بعار، وأن رد السائل بعد ثلاث ليس بمكروه.

٣ - أن السائل إذا ألحف لا بأس برده وتخييبه وموعظته، وأمره بالتعفف وترك الحرص على الأخذ.

٤ - أنه لا يستحق أحد أخذ شيء من بيت المال إلا بعد أن يعطيه الإمام إياه، وأما قبل ذلك فليس ذلك مستحقًا له[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: جود وكرم النبي ﷺ.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: النداء، والكناية والتمثيل.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل الاستغناء والتعفف عن المسألة.

(١) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣/٣٣٧، وشرح ابن بطال ٦/٤٨.

أولاً - من موضوعات الدعوة: جود وكرم النبي ﷺ:

إن الله عز وجل منح نبيه ﷺ من كمالات الدنيا والآخرة ما لم يمنحه غيره، ومن ذلك ما حباه الله به من سخاء اليد، وكرم النفس، والجود بالقليل والكثير، وقد جاء في الحديث ما يبين هذه المعاني، ومن ذلك قول حكيم بن حزام رضي الله عنه: "سألت رسول الله ﷺ فأعطاني ثم سألته فأعطاني ثم سألته فأعطاني" ولقد كان ﷺ أجود الناس وأكرم الناس قال الكفوي: (الكرم يكون مسبوقًا باستحقاق السائل والسؤال منه والجود صفة ذاتية للجواد ولا يستحق بالاستحقاق والسؤال والجواد يطلق على الله تعالى دون السخي)[١].

ومما يدل على كرم وجود النبي ﷺ ما جاء عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال ((كَانَ رَسُولُ اللّهِ أَحْسَنَ النَّاسِ. وَكَانَ أَجْوَدَ النَّاسِ))[٢] وعن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: ((كانَ رسولُ اللَّهِ أجودَ النَّاسِ، وكانَ أجودَ ما يكونُ في شهرِ رمضانَ وحينَ يلقاه جبريلَ، وكانَ جبريلُ يلقاهُ في كُلِّ ليلةٍ مِنْ رمضانَ، فيُدارِسُهُ القرآنَ، فَلَرَسُولُ اللَّهِ حينَ يلقاهُ جبريلُ أجودُ بالخيرِ مِنَ الرِّيحِ المُرْسَلَةِ))[٣] وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: ((مَا سُئِلَ رَسُولُ اللّهِ شَيْئًا قَطُّ فَقَالَ: لاَ))[٤] وعن أنس رضي الله عنه ((أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ النَّبِيَّ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ. فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ. فَأَتَىٰ قَوْمَهُ فَقَالَ: أَيْ قَوْمِ أَسْلِمُوا. فَوَاللّهِ إِنَّ مُحَمَّدًا لَيُعْطِي عَطَاءً مَا يَخَافُ الْفَقْرَ))[٥] وعن صفوان رضي الله عنه قال: ((وَاللّهِ لَقَدْ أَعْطَانِي رَسُولُ اللّهِ مَا أَعْطَانِي، وَإِنَّهُ لأَبْغَضُ النَّاسِ إِلَيَّ. فَمَا بَرِحَ يُعْطِينِي حَتَّى إِنَّهُ لأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ))[٦] وعن

---

(١) الكليات معجم المصطلحات والفروق الفردية، أبو البقاء الكفوي، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري ٣٥٣.

(٢) أخرجه البخاري ٢٨٢٠، ومسلم ٢٣٠٧.

(٣) أخرجه البخاري ٥، ومسلم ٢٣٠٨.

(٤) أخرجه البخاري ٦٠٣٤، ومسلم ٢٣١١.

(٥) أخرجه مسلم ٢٣١٢.

(٦) أخرجه مسلم ٢٣١٣.

جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: ((بينما أسيرُ معَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ومعه الناسُ، مَقفَلَهُ من حُنَينٍ، فَعَلِقَتِ الناسُ يسألونَه حتّى اضطَرّوه إلى سَمُرَةٍ فخطِفَتْ رِداءه فوقفَ النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال: أَعْطونِي رِدائي، لو كان لي عدد هذهِ العِضاهِ نَعمًا لقَسمتهُ بينكم، ثمَّ لا تجدوني بَخيلاً ولا كذوبًا ولا جَبانًا))(١).

قال محمد الخضري: (وأما الجود والكرم والسخاء فكان صلى الله عليه وسلم لا يوازى في هذه الأخلاق الكريمة ولا يبارى، وصفه بهذا كل من عرفه. ولقد قالت خديجة رضي الله عنها في صفته صلى الله عليه وسلم مخاطبة له: ((إِنَّكَ تَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ))(٢). وحسبك شاهدًا في هذا الباب ما فعله مع هوازن من ردِّ السبي إليها، وما فعله يوم تقسيم السبي من إعطاء المؤلفة قلوبهم عظيم الأعطية، وحمل إليه عليه الصلاة والسلام تسعون ألفًا، فوضعها على حصير وأخذ يقسمها فما قام حتى فرغ منها. والأخبار بجوده وكرمه عليه الصلاة والسلام كثيرة)(٣).

ثانيًا - من أساليب الدعوة: النداء، والكناية والتمثيل:

١ - النداء: حيث جاء في الحديث "يا حكيم" وأسلوب النداء من أساليب الدعوة وهو يشعر المدعو بالقرب من الداعية لاختصاصه بالنداء وفيه شد لانتباه المدعو.

قال القاسمي: (والنداء تنبيه للمنادى ليسمع ما يلقى عليه بعد النداء من الكلام ليعمل بمقتضاه، ولذلك كثر النداء في القرآن والنداء بوصف الإيمان فيه الحث على ما يأمر به وينهى عنه بعد النداء، فإن الإيمان موجب للطاعة والإذعان وفيه أيضًا إكرام المؤمنين بندائهم بأشرف أوصافهم وأحبها فيحثهم ذلك الإكرام على لزوم الطاعة والإذعان)(٤).

٢ - الكناية والتمثيل: حيث جاء في الحديث "إن هذا المال خضرٌ حلوٌ" قال النووي: (شبه المال في الرغبة فيه والميل إليه، وحرص النفوس عليه بالفاكهة الخضراء الحلوة

---

(١) أخرجه البخاري ٢٨٢١.

(٢) أخرجه البخاري ٣، ومسلم ١٦٠.

(٣) نور اليقين في سيرة سيد المرسلين ١٧٤-١٧٥.

(٤) محاسن التأويل، القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ١/٢٥٥.

فإن الأخضر مرغوب فيه على انفراده والحلو على انفراه فاجتماعهما أشد)[١] وقال ابن حجر: (وفيه ضرب المثل لما لا يعقله السامع من الأمثلة لأن الغالب من الناس لا يعرف البركة إلا في الشيء الكثير، فبين بالمثال المذكور أن البركة هي خلق من خلق الله تعالى وضرب لهم المثل بما يعهدون)[٢]. ومما لاشك فيه أن أسلوب الكناية والتمثيل من أساليب الدعوة النافعة التي تقرب المعنى إلى الأذهان، وتجعل الصورة المعنوية واضحة لدى المدعو بالمثل المحسوس.

ثالثًا – من موضوعات الدعوة: فضل الاستغناء والتعفف عن المسألة:

إن مما يغرسه الإسلام في نفوس أتباعه ويربيهم عليه هو عزة النفس والأنفة والتعفف عما في أيدي الناس ويتضح هذا من الحديث "فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه وكان كالذي يأكل ولا يشبع واليد العليا خير من اليد السفلى، قال النووي: (وفي هذا الحديث الحث على التعفف والقناعة والرضا بما تيسر في عفاف وإن كان قليلاً، والإجمال في الكسب وأنه لا يغتر الإنسان بكثرة ما يحصل له بإشراف ونحوه فإنه لا يبارك له فيه)[٣].

وفي فضل الاستغناء والتعفف جاء عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ومَن يَستعفِفْ يُعِفّهُ اللهُ، ومَن يَستغنِ يُغنِهِ اللهُ))[٤] قال السعدي: (ومما يوجب للعبد الاستعفاف والاستغناء علمه بأن افتقاره إلى الخلق وتعلقه بهم واستشرافه لما بين أيديهم أو سؤالهم يجلب الهم والغم والأكدار والقلق وأن استغناءه عنهم وعدم تعلقه بهم يوجب راحة القلب وروحه وطمأنينته وكلما قوي طمع العبد بالله وقوي رجاؤه لربه يسر الله كل عسير وهون عليه كل صعب ورزقه من حيث لا يحتسب وكفاه الهموم كلها)[٥].

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦٥٥.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣/٣٩٤.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦٥٥.

(٤) أخرجه البخاري ١٤٦٩، ومسلم ١٠٥٣.

(٥) الرياض الناضرة، السعدي ص ١٩٠.

ولقد طبق الصحابة الكرام رضي الله عنهم هذا التعليم النبوي فشرفت نفوسهم وعزَّت، ولم تتطلع إلى ما في أيدي غيرهم ولا أدل على ذلك من موقف حكيم بن حزام رضي الله عنه من رفضه قبول العطاء من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما حيث جاء في الحديث "والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحدًا بعدك شيئًا حتى أفارق الدنيا". قال ابن حجر: (وإنما امتنع حكيم من قبول العطاء مع أنه حقه لأنه خشي أن يقبل من أحد شيئًا فيعتاد الأخذ فتتجاوز به نفسه إلى ما لا يريده ففطمها عن ذلك، وترك ما يريبه إلى ما لا يريبه وإنما أشهد عليه عمر لأنه أراد أن لا ينسبه أحد لم يعرف باطن الأمر إلى منع حكيم من حقه)[١]. ومما لا شك فيه أن هذا يدل على شرف نفسه رضي الله عنه وعلو همته. قال الماوردي: (وأما شرف النفس فإن به يكون قبول التأديب واستقرار التقويم والتهذيب، لأن النفس ربما جمحت عن الأفضل وهي به عارفة، ونفرت عن التأديب وهي له مستحسنة. وإذا شرفت النفس كانت للآداب طالبة وفي الفضائل راغبة فإذا مازجها صارت طبعًا ملائمًا، فنما واستقر وقال بعض الشعراء:

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها	هوانًا بها كانت على الناس أهونا
فنفسك أكرمها وإن ضاق مسكن	عليك لها فاطلب لنفسك مسكنا
وإياك والسكنى بمنزل ذلةٍ يُعَدُّ	مسيئًا فيه من كان مُحْسِنا[٢]

وفي الدروس المستفادة من الحديث قال ابن أبي جمرة: (ظاهر الحديث يدل على أن أخذ المال بسخاوة النفس بركة فيه، وأخذه بإشراف النفس عدم البركة فيه) أي أن المال تنزع البركة منه إذا أخذه الإنسان بإشراف النفس.

فعلى الإنسان أن يكون زاهدًا في أخذه للمال؛ لأنّ ذلك من أسباب البركة فيه، لأنّ سخاء النفس هو عين الزهد.

وعلى الإنسان أن يتجنّب الحرص الشديد على المال، لأنّه ينزع البركة منه ، وهو

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣/٣٩٤.

(٢) أدب الدنيا والدين، أبو الحسن الماوردي، تحقيق: مصطفى السقا ٣٠٧، ٣٠٨.

المقصود بإشراف النفس، لأنّ هذا الإشراف يورث التعب لصاحبه لعدم قناعته بما رزقه الله إياه، ولأنّه يولّد بين من هذه صفتهم الحسد والضغائن والغيبة والشح بمنع الحقوق كلها أو بعضها أو توفيتها.

الحديث رقم (٥٢٤)

٥٢٤ - وعن أَبي بردة، عن أَبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رسول الله صلى الله عليه وسلم في غَزاةٍ وَنَحْنُ سِتَّةُ نَفَرٍ بَيْنَنَا بَعِيرٌ نَعْتَقِبُهُ، فَنَقِبَت أقدامُنَا وَنَقِبَت قَدَمِي، وسَقَطت أظْفَاري، فَكُنَّا نَلُفُّ عَلَى أرْجُلِنا الخِرَقَ، فَسُمِّيَت غَزْوَةَ ذَاتِ الرِّقَاعِ لِمَا كُنَّا نَعْصِبُ عَلَى أرْجُلِنَا مِنَ الخِرَقِ، قَالَ أَبُو بُردَة: فَحَدَّثَ أَبُو مُوسَى بِهَذَا الحَدِيثِ، ثُمَّ كَرِهِ ذَلِكَ، (وقال: مَا كُنْتُ أصْنَعُ بِأنْ أذْكُرَهُ!)[1] قَالَ: كأنَّهُ كَرِهَ أنْ يَكُونَ شَيْئًا مِنْ عَمَلِهِ أفْشَاهُ. متفقٌ عَلَيْهِ[2].

ترجمة الراوي:

أبو موسى الأشعري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨).

غريب الألفاظ:

غزاة: غزوة[3].

نعتقبه: أي يركبه كل واحد منا نوبة[4].

فنقبت أقدامنا: قرحت من الحفاء[5].

الخِرقة: القطعة من الثوب الممزق، والجمع خرق[6].

غزوة ذات الرقاع: وهي التي كانت في محرم ٥هـ، وقد سار النبي صلى الله عليه وسلم في ٤٠٠ من أصحابه يريد بني محارب وبني ثعلبة من غطفان الذين تجمعوا لمحاربته وسميت ذات

---

(١) هذه الزيادة لا توجد عند مسلم، وهي في الجمع للحميدي ١/٣٠٤، رقم ٤٤٩ وكذا عند البخاري.

(٢) أخرجه البخاري ٤١٢٨، ومسلم ١٨١٦/١٤٩ واللفظ له، إلا الزيادة، فهي لفظ البخاري، وجمعه الحميدي في جمعه بين الروايتين، وتبعه عليه المؤلف.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٦٧١.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٧٩.

(٥) المرجع السابق.

(٦) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (خ ر ق).

الرقاع لعصب المسلمين أرجلهم بالخرق، ولقد كان كل ستة نفر على بعير يعتقبونه، فدميت أرجلهم وجرحت وهي عند نخل شمال خيبر. وقيل على بعد ١٠٠ كم فقط شمال المدينة المنورة[١].

نعصب على أرجلنا: أي نشد على أرجلنا[٢].

أفشاه: أي أظهره ولم يكتمه[٣].

الشرح الأدبي

الحديث يشير إلى ضيق الحال من جهة، ويشير من جهة أخرى إلى صلابة الصحابة رضوان الله عليهم، وقوة تحملهم في سبيل الله وقول الراوي (وَنَحْنُ سِتَّةُ نَفَرٍ بَيْنَنَا بَعِيرٌ نَعْتَقِبُهُ) يشير إلى قلة المؤن، وقلة العدد، وقلة السلاح، لكنهم كانوا على يقين بالله يستمدون القوة منه مع ما لديهم قل، أو كثر، والتعبير بالفعل (نعتقب) تصور تتابعهم على البعير يركب أحدهم مسافة، ويسير خمسة أو ستة أضعافها مما سبب لهم التعب، والمعاناة والذي صورها الفعل (نقبت) أي تشققت من وعورة الأرض وطول المسير، يزيده توكيدا أنه أضاف الأقدام إلى ضمير الجماعة (أقدامنا)، ثم فصَّل ما حدث له (وَنَقِبَت قَدَمِي، وسَقَطت أظْفَاري) ونسبة النقب والسقوط للأقدام، والأظافر من المجاز بنسبة الفعل لمفعوله مبالغة في قوة الأثر الذي نقب القدم وأسقط الأظافر، وقوله (فَكُنَّا نَلُفُّ عَلَى أرْجُلِنا الخِرَقَ، فَسُمِّيَت غَزْوَةَ ذَاتِ الرِّقَاعِ) والتعبير بضمير الجمع يدل على عموم الأثر الذي ضم الجميع مما يشير إلى قوته، وقول أبي موسى رضي الله عنه (مَا كُنْتُ أصْنَعُ بِأنْ أذْكُرَهُ ؟ !) استفهام لوم، وعتاب لنفسه مع ما يوحي به من ندم لأنه ذكره وقد فسَّره الراوي بقوله (كأنَّهُ كَرِهَ أنْ يَكُونَ شَيْئاً مِنْ عَمَلِهِ أفْشَاهُ) لأنهم كانوا أشد الناس إخلاصا، وأحرصهم على إخفاء أعمالهم .

---

(١) أطلس الحديث النبوي، د. شوقي أبو خليل ١٧٩. وهناك أقوال أخرى في تحديد تاريخ غزوة ذات الرقاع، انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٨١/٧ - ٤٨٢.

(٢) القاموس المحيط، الفيروز آبادي في (ع ص ب).

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٧٩.

فقه الحديث

من الفقه في هذا الحديث:

١ - جواز ركوب جماعة بالنوبة، بأن يركب هذا قليلاً ثم ينزل، فيركب الآخر بالنوبة، حتى يأتي على سائرهم، إذا لم يضر بالمركوب.

٢ - استحباب إخفاء الأعمال الصالحة، وما يكابده العبد من المشاق في طاعة الله تعالى، ولا يظهر شيئًا من ذلك إلا لمصلحة مثل بيان حكم ذلك الشيء، والتنبيه على الاقتداء به فيه ونحو ذلك. وعلى هذا يحمل ما وجد للسلف من الإخبار بذلك[(١)].

المضامين الدعوية

أولاً : من وسائل الدعوة: الغزو.

ثانيا: من موضوعات الدعوة: فضل الصحابة رضي الله عنهم وتحملهم للمشقة والعناء.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة : الصبر وتحمل الشدائد.

أولاً - من وسائل الدعوة: الغزو:

إن الدعوة الإسلامية دعوة عالمية، ولابد أن تنتشر في بقاع الأرض، وإذا اعترض مسيرة الدعوة معترض، أو وقف في طريق انتشار الإسلام أحد فلا مناص من الجهاد تحقيقًا لعالمية الدعوة، وتبليغًا للرسالة ومن هذه الغزوات التي غزاها رسول الله ﷺ غزوة ذات الرقاع حيث جاء في الحديث "خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزاة"، والمراد بالغزاة، غزوة ذات الرقاع قال ابن عبدالبر: (وفي السنة الرابعة من الهجرة غزا رسول الله ﷺ نجدًا يريد بني محارب وبني ثعلبة بن سعد بن غطفان، واستعمل على المدينة أبا ذر الغفاري، وسميت هذه الغزوة ذات الرقاع، لأن أقدامهم نقبت فكانوا يلفون عليها الخرق وقيل: لأنهم رقعوا راياتهم فيها، وقيل غير ذلك، وفي هذه الغزوة "جاء رجل من بني محارب ليفتك بالنبي ﷺ فأمسك السيف وقال: من يمنعك مني يا محمد؟ قال: الله، فرد السيف في غمده)[(٢)].

---

(١) انظر: شرح صحيح مسلم للنووي، ١٢/٦/١٦٥-١٦٦، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧/٤٢١.

(٢) الدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبدالبر ١٦٦، ١٦٧

ومما لا شك فيه أن الغزو والجهاد وسيلة من وسائل الدعوة لتبليغ كلمة الله إلى الناس أجمعين (ولما كان الجهاد من فرائض الإسلام فقد عظمت به الوصية واشتدت إليه الحاجة وأصبح من لوازم الحياة الكريمة، حيث يبذل المسلم ماله ونفسه وجميع ما يملك لإعلاء كلمة الله سبحانه وتعالى امتثالاً لأمره جل وعلا، والجهاد يضمن بقاء الأمة الإسلامية قوية مهابة الجانب، يحسب لها الطامعون ألف حساب، والجهاد له أثر فاعل في الدعوة إذ يفلح مع ممن لا ينقادون لأوامر الله سبحانه إلا بالقوة، والقوة مرحلة من مراحل الدعوة)[1]. والناظر المتأمل في غزوات الرسول ﷺ وجهاد الصحابة رضي الله عنهم يراها كلها دفاعًا عن بيضة الإسلام، والذبّ عن حياضه، وكف المناوئين له، المعادين لرسالته (فحقيقة موقف الإسلام من القتال إنما هو موقف معتدل شجاع لا هو إلى الجبن ولا هو إلى التهور، وإنما هو بين سلبية الدفاع ضد العدوان البادئ من العدو، وإيجابية نشر الدين البادئة من المسلمين، ومنه يبدو أن الإسلام قد يبدأ الحرب حينًا، وقد يكون مثنيًا حينًا على أنه مهما بدأ أو ثنى فقد أوجب على نفسه ألا يسترق الظفر أو ينتهب النصر، بل عليه أن يدعو عدوه أولاً إلى الإسلام وأغراضه الصالحة وكذلك يرى الإسلام أن يدعو قبل القتال، ولكنه بعد أن يكون قد استعد وقوي ثم يرسل دعوته، حتى لو كان على رؤوس القوم، ومن ثم صار الجهاد فريضة في الإسلام بغية الأمرين: نشر الدين ورد المعتدين، والأُهبة للأمرين على الدوام.

ومسؤولية المسلمين نحو دينهم من حيث إنه دين الكافة، ومن حيث إنهم مكلفون بالدعوة له ورد المعتدين عنه إلى يوم القيامة مسؤولية ذات خطر وبال، والعالم كله متدينه وعاطله مفطور على قبول الحجة القوية التي هي من صنع الداعي وحيلته، ولذا وجب على المسلمين متابعة ما بدأوا به من دعوة كل إنسان إلى ما دعا إليه الإسلام منذ البدء، فإما إلى الإسلام، وإما إلى السلام)[2].

---

(١) قواعد الدعوة الإسلامية، د. حمدان الهجاري، ص ٢٤١-٢٤٢

(٢) سماحة الإسلام، د. عمر بن عبدالعزيز قريشي، ص ١٤٨-١٤٩.

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: فضل الصحابة رضي الله عنهم وتحملهم للمشقة والعناء:

إن الدعوة إلى الله والجهاد والغزو بحاجة إلى مزيد من الجهد والمصابرة وتحمل المشقة والعناء، ولقد كان الصحابة رضي الله عنهم مثالاً عاليًا في التضحية والصبر على شدة الحياة في سبيل الدعوة وتبليغ كلمة الله، ويتضح هذا من الحديث "ونحن ستة نفرٍ بيننا بعيرٌ نَتعقبه، فنقِبت أقدامُنا ونقبت قدمايَ وسَقَطتْ أظفاري، فكنا نلفُّ على أرجُلِنا الخرَق". ولا شك أن كل هذا يدل على فضل الصحابة وجهادهم رضي الله عنهم.

قال د. سعيد البوطي: (وفي غزوة الرقاع صورة واضحة عن مدى ما كان يتحمله أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في تبليغ رسالة ربهم والجهاد في سبيله، ولقد تبين أنهم كانوا فقراء لا يجدون حتى الظهر الذي يمتطونه لجهادهم وغزواتهم، ولكن الفقر لم يعقهم عن أداء رسالتهم حيال دينهم والجهاد في سبيل نصرته، فقد تحملوا في سبيل ذلك كل النتائج، وكل ألوان المحن نقبت أقدامهم، وتساقطت أظافرهم، وتعرت أقدامهم، ومع ذلك فما ضعفوا وما استكانوا واستهانوا بكل ذلك في جنب عظم المسؤولية الملقاة على أعناقهم، منذ أن أصبحوا مسلمين)[1]، ولقد كان الصحابة الكرام يتمثلون قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَ ﴾[2]، ولا أدل على ذلك مما جاء عن سعيد بن جبير قال: قلت لعبدالله بن عباس رضي الله عنهما: أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم؟ قال: نعم والله إن كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوي جالسًا من شدة الضرِّ الذي به، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة[3].

---

(١) فقه السيرة، ص ٢٩٢-٢٩٣

(٢) سورة التوبة، آية: ١١١.

(٣) حياة الصحابة، محمد يوسف الكاندهلوي، ص ١٥٨.

ثالثًا - من موضوعات الدعوة : الصبر وتحمل الشدائد:

إن الصبر من الخِلال الطيبة للمؤمن والتي تعينه على مواجهة العقبات والشدائد وفي الحديث ما يدلل على تحمل الصحابة وصبرهم. ويتضح ذلك من مضمون الحديث وسياقه حيث يدل على صبر الصحابة رضي الله عنهم على المشقة والعناء، وقد جاء الأمر بالصبر في القرآن قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾[١]، وقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ﴾[٢]، وأثنى الله على الصابرين فقال جل شأنه: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[٣]، وأخبر أنه يحبهم فقال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[٤]، وأرشد أن الصبر خير فقال سبحانه: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾[٥]، وأطلق البشرى لهم فقال عز وجل: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[٦].

وعن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: "... والصبر ضياء..."[٧] وبين ﷺ أن الصبر خير فعن صهيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ. إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ. وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ. إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ. فَكَانَ خَيْرًا لَهُ. وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ))[٨].

قال ابن القيم: (والصبر نصف الإيمان فإن الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف

---

(١) سورة البقرة، آية: ٤٥.

(٢) سورة آل عمران، آية: ٢٠٠.

(٣) سورة البقرة، آية: ١٧٧.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٤٦.

(٥) سورة النحل، آية: ١٢٦.

(٦) سورة البقرة، آية: ١٥٥.

(٧) أخرجه مسلم ٢٢٣.

(٨) أخرجه مسلم ٢٩٩٩.

شكر، والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا إيمان لمن لا صبر له، كما أنه لا جسد لمن لا رأس له، قال ابن تيمية: بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين ثم تلا قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[(١)]، ولذا فالصبر حبس النفس عن الجزع والتسخط وحبس اللسان عن الشكوى وحبس الجوارح عن التشويش[(٢)].

إن (الصبر: خلق نفسي فطري أو مكتسب من آثاره القدرة على الدأب في الأعمال الظاهرة أو الباطنة، وعلى تحمل المشقات النفسية والجسدية مما يخالف أهواء النفس وشهواتها ورغباتها في فعل ما تكره فعله أو ترك ما تحب فعله، وهو خلق يمكن من يتحلى به ويضعه في المواضع الملائمة له من الظفر بأفضل النتائج التي يريد الحصول عليها، مما يقوم به من أعمال ظاهرة أو باطنة والصبر من أجل الصفات النفسية، ذوات الأثر في السلوك الباطن والظاهر، وذوات القيمة الثمينة مما يتحلى به العقلاء ذووا الإرادات القويات، والأنفس العاليات الزاكيات وهو من صفات الله جل جلاله فمن أسمائه تبارك وتعالى "الصبور" وهو يحب الصابرين، وهو مع الصابرين، وهو يبشر الصابرين بالنتائج التي يحبونها، وبالأجر العظيم عنده يوم الدين)[(٣)].

---

(١) سورة السجدة، آية : ٢٤.

(٢) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢/٤٢٤.

(٣) فقه الدعوة إلى الله تعالى، عبدالرحمن حبنكة الميداني، ١/١٢٥.

الحديث رقم (٥٢٥)

٥٢٥ - وعن عمرو بن تَغْلِبَ - بفتح التاء المثناة فوق وإسكان الغين المعجمة وكسر اللام - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : أنَّ رسول الله ﷺ أُتِي بمالٍ أَوْ سَبْيٍ فَقَسَّمَهُ، فَأعْطَى رِجَالاً، وَتَرَكَ رِجَالاً، فَبَلَغَهُ أنَّ الَّذِينَ تَرَكَ عَتَبُوا، فَحَمِدَ اللهَ، ثُمَّ أثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: ((**أمَّا بعْدُ، فَواللهِ إنِّي لأُعْطِي الرَّجُلَ وَأدَعُ الرَّجُلَ، وَالَّذِي أدَعُ أحَبُّ إلَيَّ مِنَ الَّذِي أُعْطِي، وَلَكِنِّي إنَّمَا أُعْطِي أقْوَامًا لِمَا أرَى فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الجَزَعِ وَالهَلَعِ، وَأكِلُ أقْوَامًا إلَى مَا جَعَلَ اللهُ فِي قُلُوبِهِم مِنَ الغِنَى وَالخَيْرِ، مِنْهُمْ**[1] **عَمْرُو بنُ تَغْلِبَ**) قَالَ عَمْرُو بنُ تَغْلِبَ: فَوَاللهِ مَا أُحِبُّ أنَّ لِي بِكَلِمَةِ رسول الله ﷺ حُمْرَ النَّعَم. رواه البخاري[2].

ترجمة الراوي:

عمرو بن تغلب: هو عمرو بن تغلب النَّمَري - بفتحتين - ويقال العبدي.

كان من أهل جُواثا - قرية من قرى البحرين - لما سمع بالإسلام قطع المسافات الطويلة وتحمل العناء والتعب الشديدين مهاجرًا إلى الله ورسوله، فأعلن إسلامه وحُسن وصدق فيه، لذا استحق ثناء الرسول ﷺ أمام أصحابه كما في الحديث المذكور.

نزل العراق فسكن البصرة وعاش إلى خلافة معاوية بن أبي سفيان، وروى عنه الحسن البصري[3].

---

(١) لفظ البخاري في هذه الرواية: (فيهم) والمثبت لفظه برقم (٧٥٣٥).

(٢) برقم (٩٢٣).

(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر ٥٠٠، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (١٨٨/٤)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن علي العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ٩٦١، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين (٣٩٦/٥)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٢٥٨/٣)، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك (١٤٠٠/٢).

غريب الألفاظ:

السبي: نساء وصغار الكفار المحاربين المأخوذون في الحرب[١].

عتبوا: العتاب: مخاطبة الإدلال ومذاكرة المَوْجِدة[٢].

الجزع: الخوف[٣].

الهلع: أشدُ الجزع وقيل: الضجر[٤].

وأكلُ: أترك[٥].

حمر النعم: هي الإبل الحمر، وهي أنفس أموال العرب، يضربون بها المثل في نفاسة الشيء وأنه ليس هناك أعظم منه[٦].

الشرح الأدبي

قوله (فَأَعْطَى رِجَالاً، وَتَرَكَ رِجَالاً) طباق يشير إلى المفارقة بين العطاء للبعض، ومنع البعض مما أثار حفيظة من لم تتكشف له الحكمة في فعل النبي ﷺ، وبداية الرسول ﷺ بـ(أما) التفصيلية التي تفيد توكيد ما بعدها ثم القسم بالله الذي يحقق الترهيب وحرف التوكيد (إن) واللام ليزيل ما في القلوب المعترضة من عتب وما تظن في تصرف الرسول، وأن العطاء ليس دليل محبة ولا المنع دليل كره، ولذلك (إنِّي لأُعْطِي الرَّجُلَ وَأَدَعُ الرَّجُلَ، وَالَّذِي أَدَعُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الَّذِي أُعْطِي) ويدل عليه تعبيره بـ(أدع) الذي يشير إلى ترك في لين، ثم تعبيره بأفعل التفضيل أحب التي تشير إلى حقيقة الدافع

(١) معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ٢١٤.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ع ت ب)، وانظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٧٩٨.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ج ز ع).

(٤) رياض الصالحين ٢٤٧.

(٥) القاموس المحيط، الفيروز آبادي في (و ك ل).

(٦) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٤٧١.

العطاء، والمنع، وأسلوب القصر الذي يقصر العطاء على أقوام صفتهم الجزع (إِنَّمَا أُعْطِي أقْوَاماً لِمَا أرَى فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الجَزَعِ وَالهَلَعِ)، وتنكير الأقوام للستر عليهم، وقول الرسول ﷺ (لما أرى في قلوبهم) يشير إلى نفاذ بصيرته ﷺ وتفقده لمن حوله حتى يعامل كل واحد منهم بما يصلح شأنه والتعبير بالهلع بعد الجزع يشير إلى نوع مسيطر من الخوف، ومزلزل للإيمان في قلوبهم مما ينتج عنه هلاكهم، ولذلك ألف قلوبهم، وسكن جزعهم بما أعطاهم من مال، وقد اتخذ موقفا مخالفا مع أصحاب الإيمان الراسخ في قوله (وَأَكِلُ أقْوَاماً إِلَى مَا جَعَلَ اللهُ فِي قُلُوبِهِم مِنَ الغِنَى وَالخَيْرِ) وقد رفع لهم من هؤلاء قدوة في هذا المجال فقال: (مِنْهُمْ عَمْرُو بنُ تَغْلِبَ) بينما ستر على أهل الجزع، والهلع، حتى يستقر الإيمان في قلوبهم، وبذلك يصلح الجميع، ويكون المال حماية لهم جميعا.

فقه الحديث

هذا الحديث يشير إلى الأحكام الفقهية التالية:

حكم التأليف على الإسلام: اختلف الفقهاء في ذلك، فذهب الحنابلة وبعض المالكية إلى أن أحكام المؤلفة باقية، فيجوز التأليف لمن لم يرسخ إيمانه، وذهب الحنفية والمالكية في الراجح والشافعية إلى أنه قد انقطع سهم المؤلفة بعد رسول الله ﷺ فلا يعطى أحد تأليفًا بحال، ورجح بعض المالكية أن التأليف جائز لبقاء حكمهم غير ألا يعطوا إلا وقت الحاجة[1].

---

(١) العناية على الهداية ١٨٩/٣، وحاشية الدسوقي على الشرح الكبير، محمد بن عرفة الدسوقي ٤٨١/٤، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد الأنصاري ١٩٧/٥، والمغني، أبن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٥٥٦/٢.

المضامين الدعوية

أولاً: من وسائل الدعوة: الخطبة.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: حكمة النبي ﷺ في إعطاء بعض الصحابة رضي الله عنهم وعدم إعطاء البعض.

ثالثًا: من وسائل الدعوة: تأليف القلوب.

رابعًا: من واجبات الداعية: تطييب قلوب المدعوين ومدحهم بما فيهم.

أولاً - من وسائل الدعوة: الخطبة:

إن وسائل الدعوة تتنوع وتتعدد، وتبقى الخطبة لها أثرها ودورها الفعال من بين الوسائل الدعوية لارتباطها بالجانب التعبدي في حياة المسلم، خاصة فيما يتعلق بخطبة الجمعة، وخطبة العيد، وخطبة عرفة، وقد أشار الحديث إلى وسيلة الخطبة في قول عمرو بن تغلب رضي الله عنه "فحمد الله ثم أثنى عليه ثم قال أما بعد" والخطبة وسيلة هامة من وسائل الدعوة قال محمد الغزالي: (ودعمًا للحق في أنحاء الجماعة جعل الله الخطابة من شعائر الإسلام ففي كل أسبوع يحتشد المسلمون في المسجد الجامع، ليسمعوا داعية إلى الله يذكر بربه ويعلم دينه، وفي كل عيد يجتمع المسلمون ليسمعوا التوجيه المناسب بعد صلاة العيد، وفي كل موسم جامع للحجيج تلتقي وفود الأمة الإسلامية لتستمع إلى خطاب عرفة، فالخطابة في الإسلام مظهر الحياة المتحركة فيه الحياة التي تجعل هذا الدين يزحف من قلب إلى قلب، ويثب من فكر إلى فكر، وينتقل مع الزمان من جيل إلى جيل، ومع المكان من قطر إلى قطر، وذاك هو السر في أن نبي الإسلام كان يخطب كل أسبوع وكل عيد ويخطب أو ينيب عنه أميرًا يخطب في وفود الحجيج عند جبل الرحمة)[1].

إن الخطبة كوسيلة من وسائل الدعوة يمكن أن يستغلها الداعية في الوعظ والتوجيه والوصايا والزواج وإصلاح ذات البين، ومعالجة المشكلات الاجتماعية،

---

(١) مع الله دراسات في الدعوة والدعاة ٣٠٧.

والقضايا الجماهيرية (ولما جاء الإسلام سارت الخطابة في ركاب الدعوة الجديدة تخدم أغراضها، وتنادي الناس إلى الدخول فيها، ففي كل مسجد خطبة، وعلى كل منبر خطيب، والجماهير تهوى هويًا إلى هذه المنابر التي كانت ولا تزال خطبة الجمعة فيها قبل الصلاة حتى لا يجد المصلون سببًا إلى التسلسل أو التخلص من سماعها لأي سبب من الأسباب ومن هنا كان تقدير الإسلام للخطابة الدينية تقديرًا مبنيًا على الوجوب، وربأ الإسلام بخطبة الجمعة أن تكون وعظًا معادًا مكرورًا ونغمة رتيبة فجعلها تدور حول ما يهم الجماعة الإسلامية ويشغل بالها من الأمور المستحدثة والمسائل الجارية والقضايا التي تتصل بمصالحهم)[(١)].

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: حكمة النبي ﷺ في إعطاء بعض الصحابة رضي الله عنهم، وعدم إعطاء البعض:

إن من يؤت الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا، ومَنْ غير الأنبياء أولى أن يتصف بالحكمة؟ ومن غير النبي ﷺ أولى أن تصطبغ تصرفاته بالحكمة؟ هكذا كان رسول الله ﷺ حكيمًا فيما يفعل، حكيمًا فيما يترك، ويتضح هذا مما جاء في الحديث من قول النبي ﷺ: "فو الله إني لأعطى الرجل وأدع الرجل والذي أدع أحب إلى من الذي أعطى" ولا شك أن هذا يدل على حكمة النبي ﷺ وحسن تقديره للأمور والأحوال، ودرايته بنفوس أصحابه رضي الله عنهم قال ابن حجر: (وأما في الدنيا فإنما تقع العطية والمنح على حسب السياسة الدنيوية، فكان ﷺ يعطي من يخشى عليه الجزع والهلع لو منع، ويمنع من يثق بصبره واحتماله وقناعته بثواب الآخرة ومن فوائد الحديث استئلاف من يخشى جزعه أو يرجى بسبب إعطائه طاعة من يتبعه والاعتذار إلى من ظن ظنًا والأمر بخلافه[(٢)]، ولا يخفى أن الحكمة من صفات الأنبياء قال تعالى عن داود عليه السلام: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾[(٣)] وإذا كانت الحكمة هي الإصابة في القول والسداد في الفعل (فإن الحكيم يعمل على وفق الشرع، ويصيب في القول والفعل

(١) قواعد الدعوة الإسلامية، د. حمدان راجح الهجاري ٥٦٢.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٣/٥٢٠.

(٣) سورة ص، آية: ٢٠.

والتفكير، ويسير على هدى من الله ونور، والحكمة دليل على كمال العقل ونفاذ البصيرة، وهي سمة من سمات الأنبياء الصالحين والعلماء العاملين)[١]. إن المتأمل في سيرة النبي ﷺ يظهر بجلاء لا يخفى لذي عينين ما فطر الله عليه نبيه ﷺ من الحكمة في جميع تصرفاته وأحواله، وجميع تعاملاته مع أصحابه رضي الله عنهم وغيرهم في العطاء والمنع، والفعل والترك، والإقدام والإحجام.

قال علي محفوظ: (لقد كان لسياسته الحكيمة ﷺ عظيم الأثر في نجاح دعوته، وإنشاء دولته، وقوة سلطانه، ورفعة مقامه، إذ لم يعرف في تاريخ السياسات البشرية أن رجلاً من الساسة المصلحين في أية أمة من الأمم كان له مثل هذا الأثر العظيم، ومَن مِن المصلحين المبرزين سواء أكان قائدًا محنكًا، أم مربيًا حكيمًا اجتمع لديه من رجاحة العقل وأصالة الرأي وقوة العزم وصدق الفراسة، ما اجتمع في رسول الله ﷺ؟ ولقد برهن على وفور ذلك كله فيه: صحة رأيه، وصواب تدبيره، وحسن تألفه، وأنه ما استغفل في مكيدة، ولا استعجز في شديدة، ومن شواهد سياسته الحكيمة تأليفه القلوب بالمال فكان يؤثر حديثي العهد بالإسلام بجانب من المال، للاحتفاظ بالبقاء على الهداية للإسلام، وهذا إذا ظهر له أن الإيمان لم يرسخ في قلوبهم رسوخًا لا تزلزله الفتن)[٢].

ثالثًا – من وسائل الدعوة : تأليف القلوب:

إن النفس البشرية جبلت على حب المنفعة وترقب الخير، ولذا كان تأليف القلوب من وسائل الدعوة للترغيب في الإسلام والثبات عليه، ويظهر هذا من قول النبي ﷺ في الحديث: "ولَكِني إِنَمَا أُعْطِي أقوامًا لِمَا فـي قلوبِهِمْ من الجَزَعِ والهَلَعِ"، ويعتبر تأليف القلوب من وسائل الدعوة الهامة ولذا جعل الله لهم سهمًا في مصارف الزكاة قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾[٣].

---

(١) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن محمد بن ملوح ١٧٠٥/٥.

(٢) هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة ٣٤-٣٥.

(٣) سورة التوبة، آية: ٦٠.

قال ابن كثير: (ومن المؤلفة قلوبهم من يعطي ليسلم كما أعطى النبي ﷺ صفوان بن أمية من غنائم حنين، ومنهم من يعطي ليحسن إسلامه ويثبت قلبه كما أعطى يوم حنين جماعة من صناديد الطلقاء وأشرافهم ومنهم من يعطي لما يرجى من إسلام نظرائه، ومنهم من يعطي ليدفع عن حوزة المسلمين الضرر من أطراف البلاد"[١].

وفي تأليف القلوب بالعطاء جاء عن عامر بن سعد عن أبيه قال: ((أَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَهْطًا وَأَنَا جَالِسٌ فِيهِمْ. قَالَ: فَتَرَكَ رَسُولُ اللَّهِ مِنْهُمْ رَجُلاً لَمْ يُعْطِهِ. وَهُوَ أَعْجَبُهُمْ إِلَيَّ. فَقُمْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ فَسَارَرْتُهُ. فَقُلْتُ: يا رَسُولَ اللَّهِ مَالَكَ عَنْ فُلاَنٍ؟ وَاللَّهِ إِنِّي لأَرَاهُ مُؤْمِنًا. قَالَ: أَوْ مُسْلِمًا فَسَكَتُّ قَلِيلاً. ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَعْلَمُ مِنْهُ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَالَكَ عَنْ فُلاَنٍ؟ فَوَاللَّهِ إِنِّي لأَرَاهُ مُؤْمِنًا. قَالَ: أَوْ مُسْلِمًا فَسَكَتُّ قَلِيلاً. ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَعْلَمُ مِنْهُ. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَالَكَ عَنْ فُلاَنٍ؟ فَوَاللَّهِ إِنِّي لأَرَاهُ مُؤْمِنًا. قَالَ: أَوْ مُسْلِمًا قَالَ: إِنِّي لأُعْطِي الرَّجُلَ وَغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ. خَشْيَةَ أَنْ يَكُبَّ فِي النَّارِ عَلَى وَجْهِهِ))[٢].

ومن التطبيقات العملية لاستخدام وسيلة تأليف القلوب في الدعوة ما جاء عن أنس رضي الله عنه أن رجلاً سأل النبي ﷺ غنمًا بين جبلين فأعطاه إياه فأتى قومه فقال: أي قوم أسلموا فوالله إن محمدًا ليعطي عطاء ما يخاف الفقر. فقال أنس رضي الله عنه: ((إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيُسْلِمُ مَا يُرِيدُ إِلاَّ الدُّنْيَا. فَمَا يُسْلِمُ حَتَّى يَكُونَ الإِسْلاَمُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا))[٣].

قال النووي: (وقد وقع في هذه الرواية "فما يسلم" وفي بعضها "فما يمسي" وكلاهما صحيح ومعنى الأول: فما يلبث بعد إسلامه إلا يسيرًا حتى يكون الإسلام أحب إليه. والمراد: أنه يظهر الإسلام أولاً للدنيا لا بقصد صحيح بقلبه ثم من بركة النبي ﷺ ونور الإسلام لم يلبث إلا قليلاً حتى ينشرح صدره بحقيقة الإيمان ويتمكن من قلبه فيكون حينئذٍ أحب إليه من الدنيا وما فيها)[٤].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١٦٧/٤.

(٢) أخرجه البخاري ١٤٧٨، ومسلم ١٥٠.

(٣) أخرجه مسلم ٢٣١٢.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٤٢٨.

ومن صور استخدام وسيلة تأليف القلوب في الدعوة ما قام به النبي ﷺ في عام الفتح عندما أعطى أهل مكة الكثير من الغنائم. قال د. محمد سعيد البوطي: (وفي إعطاء النبي ﷺ لأهل مكة الذين أسلموا عام الفتح مزيد من الغنائم عن غيرهم، دليل على أنه يجوز للإمام أن يزيد في عطاء من يتألف قلوبهم على الإسلام بالقدر الذي تدعو إليه مصلحة تألف قلوبهم، بل يجب عليه ذلك عندما تدعو إليه المصلحة، ولا مانع أن يكون العطاء من أصل الغنائم، ومن هنا كان لهؤلاء الناس سهم خاص باسمهم في الزكاة يجتمع تحت يد الحاكم ليعطي منه كلما دعت الحاجة لمن يرى أن المصلحة الإسلامية تدعو إلى تألف قلوبهم"[(١)].

رابعًا – من واجبات الداعية : تطييب قلوب المدعوين ومدحهم بما فيهم:

إن الدعوة إلى الله تحتاج في تبليغها إلى الرفق واللين ومجانبة الشدة والعنف، ومداواة قلوب الناس وبلسمة جراحاتهم ومن ثم فإن من أهم واجبات الداعية الناجح تطييب قلوب المدعوين ومدحهم بما فيهم، ويتضح هذا من الحديث "وأَكِلُ أقوامًا إلى ما جعل الله في قلوبهم من الغنى والخير" والداعية الذي يوفق إلى هذا يجعل القلوب تقبل إليه ولا تنفر منه قال ابن حجر: (وفي الحديث أن البشر جبلوا على حب العطاء وبغض المنع والإسراع إلى إنكار ذلك قبل الفكرة في عاقبته إلا من شاء الله رغم أن المنع قد يكون خيرًا للممنوع، ومن ثم قال الصحابي: ما أحب أن لي بتلك الكلمة حمر النعم)[(٢)].

ولما خص رسول الله ﷺ رجالاً من قريش بكثير من المال فَوَجَد الأنصار في نفوسهم ذلك فطيب رسول الله ﷺ خاطرهم ومدحهم وجمعهم وخاطبهم بلطيف الكلام، وجميل الحديث فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ((جَمَعَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ الأَنْصارَ. فَقَالَ: أَفِيكُمْ أَحَدٌ مِنْ غَيْرِكُمْ؟» فَقَالُوا: لاَ. إلاَّ ابْنُ أُخْتٍ لَنَا. فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: إِنَّ ابْنَ أُخْتِ الْقَوْمِ مِنْهُمْ فَقَالَ: إِنَّ قُرَيْشًا حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ وَمُصِيبَةٍ. وَإِنِّي

(١) فقه السيرة النبوية ٤٣٠.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٢١/١٣.

أَرَدْتُ أَنْ أَجْبُرَهُمْ وَأَتَأَلَّفَهُمْ. أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَرْجِعَ النَّاسُ بِالدُّنْيَا، وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ إِلَى بُيُوتِكُمْ؟ لَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِيًا، وَسَلَكَ الأَنْصَارُ شِعْبًا، لَسَلَكْتُ شِعْبَ الأَنْصَارِ))[1].

قال علي محفوظ: (وبمثل هذه المعاملة الحسنة اجتمعت قلوب أصحابه ﷺ حوله ﷺ فتفانوا في محبته والدفاع عن دعوته بمؤازرته ومناصرته، وليس ما يبدو من مخالفة الأصحاب إلا أمور نادرة صورية، يبعد كل البعد أن يقصد بها المخالفة بل مثارها على ما يظهر من فحواها، إنما هو الرأي والاجتهاد ثم تبين لهم حسن تصرف النبي ﷺ وصواب عمله فتابعوه وأثنوا عليه)[2].

ومن خلال هذه التطبيقات النبوية ينبغي للداعية الموفق أن يقتدي برسول الله ﷺ في الدعوة ويطيب قلوب المدعوين، ويثني عليهم بما فيهم جذبًا لنفوسهم، واستمالة لقلوبهم.

---

(١) أخرجه البخاري ٣١٤٦، ومسلم ١٠٥٩.

(٢) هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة ٣٧-٣٨.

الحديث رقم (٥٢٦)

٥٢٦ - وعن حكيم بن حزام رضي الله عنه: أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: ((اليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ، وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنىً، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفُّهُ الله، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغنهِ الله)) متفقٌ عَلَيْهِ[1]. وهذا لفظ البخاري، ولفظ مسلم أخصر.

ترجمة الراوي:

حكيم بن حزام: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٥٩).

غريب الألفاظ:

من تعول: من يلزمك نفقته[2].

ظهر غنى: يستبقي من ماله بعد صدقته قدْر الكفاية[3].

الشرح الأدبي

الطباق بين اليد العليا، واليد السفلى يوضح الفارق في التعامل مع الناس بين المفيد، والمستفيد بين اليد التي تمتد لتبني، وتعلو، وبين اليد التي سفلت تستجدي الناس وهو معنى يدور حوله الحديث، والأمر (وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ) أمر نصح، وإرشاد يحدد الأولويات في الأنفاق لأنه من المنطقي أن يبدأ بالأقرب لأنه أخص به، والتعبير بلفظ (خير) يقتضي الأفضلية، وإضافته للصدقة يوجه القلوب الصافية التي تحرك الأيدي العليا إلى قمة المستهدف من الصدقة وقوله (مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنىً) كناية عن الكفاية بعد الصدقة ومعناه: أَنْ يَبْقَى خَلْفَهَا غِنًى لِصَاحِبِهِ قَلْبِيٌّ كَمَا كَانَ لِلصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّه تَعَالَى عَنْهُ أَوْ قَالَبِيّ فَيَصِير الْغَنِيُّ لِلصَّدَقَةِ كَالظَّهْرِ لِلْإِنْسَانِ وَرَاء الْإِنْسَان فَإِضَافَة الظَّهْر إِلَى الْغِنَى

---

(١) أخرجه البخاري ١٤٢٧ واللفظ له، ومسلم ١٠٣٤/٩٥. أورده المنذري في ترغيبه ١٢١١.

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٨٦٢/٢.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٤٧/٣.

بَيَانِيَّة لِبَيَانِ أَنَّ الصَّدَقَة إِذَا كَانَتْ بِحَيْثُ يَبْقَى لِصَاحِبِهَا الْغِنَى بَعْدهَا إِمَّا لِقَوْةِ قَلْبه أَوْ لِوُجُود شَيْءٍ بَعْدَهَا يَسْتَغْنِي بِهِ عَمَّا تَصَدَّقَ فَهُوَ أَحْسَنُ وَإِنْ كَانَتْ بِحَيْثُ يَحْتَاج صَاحِبهَا بَعْدهَا إِلَى مَا أَعْطَى وَيُضْطَرّ إِلَيْهِ فَلَا يَنْبَغِي لِصَاحِبِهَا التَّصَدُّقُ بِهِ، وبين يستعفف، ويعفه جناس يؤكد المعني الذي يقوي خلق العزة، والكرامة الذي ترتقي به من السؤال إلى التعفف ثم من التعفف إلى الإنفاق متى تيسر لها ذلك، وقوله (ومن يستغن يغنه الله) هو أسلوب شرط كالجملة السابقة يربط طلب الاستغناء عن الناس بالغنى الذي يتحقق من الله، وفيه جناس كسابقه يؤكد عزة النفس وترك سؤال الناس.

فقه الحديث

من الفقه في هذا الحديث:

١ - وجوب النفقة على الأهل:

فقد أمر النبي ﷺ بالبدء بالإنفاق عليهم فقال: "وابْدأ بمن تعول" (أي بمن يجب عليك نفقته، يقال عال الرجل أهله، إذا مانهم: أي قام بما يحتاجون إليه من قوت وكسوة، وهو أمر بتقديم ما يجب على ما لا يجب)[١]. وقال ابن حجر: (قال الطبري ما ملخصه: الإنفاق على الأهل واجب، والذي يعطيه يؤجر على ذلك بحسب قصده، ولا منافاة بين كونها واجبة وبين تسميتها صدقة[٢]، بل هي أفضل من صدقة التطوع. وقال المهلب: النفقة على الأهل واجبة بالإجماع، وإنما سماها الشارع صدقة خشية أن يظنوا أن قيامهم بالواجب لا أجر لهم فيه؛ وقد عرفوا ما في الصدقة من الأجر فعرّفهم أنها لهم صدقة؛ حتى لا يخرجوها إلى غير الأهل إلا بعد أن يكفوهم، ترغيبًا لهم في تقديم الصدقة الواجبة قبل صدقة التطوع)[٣].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٩/٥٠٠.

(٢) كما في حديث أبي مسعود الأنصاري > مرفوعًا: "إذا أنفق المسلم نفقة على أهله وهو يحتسبها كانت له صدقة" أخرجه البخاري ٥٣٥١، ومسلم ١٠٠٢.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٩/٤٩٨.

النفقة على البالغين من الأولاد ولا مال لهم ولا كسب:

قال ابن حجر: (قال ابن المنذر: اختلف في نفقة من بلغ من الأولاد ولا مال له ولا كسب، فأوجبت طائفة النفقة لجميع الأولاد أطفالاً كانوا أو بالغين إناثًا وذكرانًا إذا لم يكن لهم أموال يستغنون بها. وذهب الجمهور إلى أن الواجب أن ينفق عليهم حتى يبلغ الذكر أو تتزوج الأنثى، ثم لا نفقة على الأب إلا إن كانوا زمنى، فإن كانت لهم أموال فلا وجوب على الأب وألحق الشافعي ولد الولد وإن سفل بالولد في ذلك)[1].

٢ - كراهة السؤال: قال ابن حجر: (فيه كراهة السؤال والتنفير عنه، ومحله إذا لم تدع إليه ضرورة من خوف هلاك ونحوه، وقد روى الطبراني من حديث ابن عمر بإسناد فيه مقال، مرفوعًا: "ما المعطي من سعةٍ بأفضل من الآخذ إذا كان محتاجًا"[2])[3].

٣ - الصدقة بجميع المال: قال النووي: (وقد اختلف العلماء في الصدقة بجميع ماله، فمذهبنا أنه مستحب لمن لا دين عليه ولا له عيال ولا يصبرون بشرط أن يكون ممن يصبر على الإضاقة والفقر، فإن لم تجتمع هذه الشروط فمكروه، قال القاضي[4]: جوز جمهور العلماء وأئمة الأمصار الصدقة بجميع ماله، وقيل: يردّ جميعها، وهو مروي عن عمر بن الخطاب وقيل: إن زاد على النصف ردت الزيادة، وهو محكي عن مكحول، قال أبو جعفر الطبري: ومع جوازه فالمستحب أن لا يفعله وأن يقتصر على الثلث)[5].

---

(١) السابق ٩/٥٠٠-٥٠١، وللمزيد من التفصيل. انظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٤١/٣٤، ٧٢-٧٤ ومراجعها ومصادرها.

(٢) كما عزاه له في المعجم الكبير، المنذري في الترغيب والترهيب ١٢٧١، وحكم عليه الألباني في ضعيف الترغيب ٥٠٤، بأنه ضعيف جدًا.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣/٢٩٨.

(٤) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٣/٥٦٧.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ، ٤/٧/١١١-١١٢، وانظر للمزيد من التفاصيل: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٦/٢٣٧ ومراجعها، رد المحتار على الدر المختار ابن عمر عابدين، تحقيق: علي محمد معوض ٢/٧٧، والاختيار لتعليل المختار ٣/٥٤، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم النفراوي ٢/٣٢٣، وكفاية الأخيار للحسيني ١/١٢٤، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد الأنصاري ١/٤٠٧، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٣/٨٣، ٨٤.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل الإنفاق والتصدق.

ثالثًا: من أولويات الدعوة : البدء بالأقرب في الدعوة والعطاء.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل التعفف والاستغناء عن مسألة الناس.

أولاً - من أساليب الدعوة: الإخبار:

لقد أخبر النبي ﷺ في الحديث أن اليد العليا خير من اليد السفلى، وأسلوب الإخبار من أساليب الدعوة، ومما تتميز به الدعوة الإسلامية أن جميع أخبار القرآن والسنة كلها صادقة لا يتطرق إليها كذب أو شك وهذا يعطيها مصداقية لدى المدعوين وصدق الله سبحانه وتعالى إذ قال جلّ شأنه: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾(١) وقال سبحانه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾(٢).

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: فضل الإنفاق والتصدق:

إن الإسلام دين يقوم على البذل والإنفاق، ويضيق على الشح والإمساك. ولذلك حبب إلى بنيه أن تكون نفوسهم سخية، وأكفهم ندية، ووصاهم بالمسارعة إلى دواعي الإحسان ووجوه البر، وأن يجعلوا تقديم الخير إلى الناس شغلهم الدائم، لا ينفكون عنه(٣).

لذا حث النبي ﷺ على الإنفاق في وجوه الطاعات(٤)، فقال: "اليد العليا خير من اليدِ السفلى" والمراد بالعلو هنا: علو الفضل والمجد ونيل الثواب(٥)، ولا يحصل هذا إلا

---

(١) سورة فصلت، آية: ٤٢.

(٢) سورة النجم، الآيتان: ٣-٤.

(٣) خلق المسلم، محمد الغزالي، ١١٥.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ، ٦٥٤.

(٥) المرجع السابق.

بالبذل والإنفاق، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعَفُ لَهُمۡ وَلَهُمۡ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾[٢]، وقال جل شأنه: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[٣].

ومما لا شك فيه أن في الإنسان نزعة اجتماعية غيرية، فطرية كذلك، ولكنها لا تقاوم نزعته الذاتية لو خليّت وشأنها. ومن هنا ترى الإنسان - كل إنسان - حريصًا على أن يجمع لنفسه من أسباب النعمة ما استطاع، حريصًا على الاستئثار به دون غيره، حتى أنه ليشيب ويهرم، ويشب معه الحرص والشح، ولذا وصفه خالقه بقوله: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا﴾[٤] ﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾[٥] وصور رسول الله ﷺ مبلغ حرص الإنسان على الدنيا وطمعه في متاعها فقال: ((لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى ثالثًا))[٦].

وإذا ترك الإنسان لهذه الأنانية تسيطر على نفسه، وتحكم سلوكه وتوجه علاقاته بالناس، فلن تجد فيه إلا إنسانًا جشعًا شحيحًا، كل همه أن ينتفع ولا ينفع، وأن يأخذ ولا يعطي، يريد أن يربح، ولا يريد أن يعمل، يقول دائمًا: لي ولا يقول يومًا عليّ، ضنين بكل ما عنده، شَره إلى ما عند غيره[٧]؛ لذا أتت السنة النبوية - كما في حديث الباب - تخضدُ شوكة الشُّح، وتبذرُ نبتة الإنفاق، بعد أن عظمت فضل البذل والصدقة في جعل صاحبها له العلو وعظم الثواب.

---

(١) سورة الحديد، آية: ١٨.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٨٠.

(٣) سورة الحشر، آية: ٩.

(٤) سورة الإسراء، آية: ١٠٠.

(٥) سورة النساء، آية: ١٢٨.

(٦) أخرجه البخاري ٦٠٧٢، ومسلم ١١٦.

(٧) الإيمان والحياة، د. يوسف القرضاوي، ٢٥٩-٢٦٠.

وكان من هذا الثواب محو الخطايا وغفران الذنوب، قال تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾(١) فإذا انزلق المسلم إلى ذنب وشعر بأنه باعد بينه وبين ربه، فإن الطهور الذي يعيد إليه نقاءه ويرد إليه ضياءه ويلفه في ستار الغفران والرضا، أن يجنح إلى مال عزيز عليه فينخلع عنه للفقراء والمساكين، زلفى يتقرب بها إلى أرحم الراحمين(٢).

وقد بين النبي ﷺ في نص الحديث أن أفضل الصدقة ما أبقت بعدها غنى يعتمده صاحبها ويستظهر به على مصالحه وحوائجه، وذلك في قوله ﷺ "وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنًى" والسبب في ذلك أن من تصدق بماله يندم إذا احتاج ويود أنه لم يتصدق بخلاف ما بقي من ماله بشيء مستغنيًا فإنه لا يندم عليها بل يسر بها(٣).

وقد يتعارض ذلك مع ورد في درجة الإيثار التي أثنى الله بها على الأنصار؛ إذ قال: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾(٤) وقد روي: أن هذه الآية نزلت بسبب رجل من الأنصار ضافه ضيف فنوَّم صبيته وأطفأ السراج، وآثر الضيف بقوتهم، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾(٥) أي على شدة الحاجة إليه والشهوة له، ولا شك أن صدقة من هذه الحاله أفضل. وفي حديث أبي ذر: ((أفضل الصدقة جهد مقل))(٦). وقد أفاد مجموع ما ذكرنا: أن صدقة المؤثر والمقل أفضل. وحينئذ يثبت التعارض بين هذا المعنى وبين قوله: "خير الصدقة ما كان عنى ظهر غنى"

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٧١.

(٢) خلق المسلم، محمد الغزالي، ١٢٠-١٢١.

(٣) انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي، ٦٥٥.

(٤) سورة الحشر، آية: ٩.

(٥) سورة النساء، آية: ٨.

(٦) أخرجه الدارمي ١٤٢٤، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٥٦٦.

وللجمع بين النصوص نبين أن معنى الغنى: أي حصول ما تُدفع به الحاجات الضرورية؛ كالأكل عند الجوع المشوِّش الذي لا صبر عليه، وستر العورة، والحاجة إلى ما يدفع به عن نفسه الأذى. وما هذا سبيله؛ فهذا ونحوه مما لا يجوز الإيثار به، ولا التصدق، بل يحرم. وذلك: أنه إن آثر غيره بذلك أدى إلى هلاك نفسه، أو الإضرار بها، أو كشف عورته، فمراعاة حقه أولى على كل حال. فإذا سقطت هذه الواجبات صحَّ الإيثار، وكأن صدقته هي الأفضل، لأجل ما يحمله من مضض الحاجة وشدة المشقة، والله تعالى أعلم[(١)].

ثالثًا - من أولويات الدعوة: البدء بالأقرب في الدعوة والعطاء:

إن الإسلام يعلم المسلم ترتيب الأولويات في النفقة والدعوة ويظهر هذا من الحديث "وابدأ بمن تعول"، قال النووي: (وفيه تقديم نفقة نفسه وعياله لأنها منحصرة فيه بخلاف نفقة غيرهم وفيه الابتداء بالأهم فالمهم من الأمور الشرعية"[(٢)].

وقال القرطبي: (وقوله "وابدأ بمن تعول" يعني أنه يبدأ بكفاية من تلزمه كفايته، ثم بعد ذلك يدفع لغيرهم، لأن القيام بكفاية العيال واجب، والصدقة على الغير مندوب إليها، ولا يدخل في ذلك ترفيه العيال الزائد على الكفاية، فإن الصدقة بما يرفه به العيال أولى، لأن من لم تندفع حاجته أولى بالصدقة ممن اندفعت حاجته في مقصود الشرع)[(٣)].

وإذا كان ما سبق في البدء بالأقرب من الزوجة والأولاد في النفقة فإنه أيضًا يجب البدء بهم في الدعوة قال تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾[(٤)]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ((لَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قُرَيْشًا. فَاجْتَمَعُوا. فَعَمَّ وَخَصَّ. فَقَالَ: يَا

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٣/٨٠، ٨١.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦٥٥.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٣/٨٠.

(٤) سورة الشعراء، آية: ٢١٤.

بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيَ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ. يَا بَنِي مُرَّةَ بْنِ كَعْبٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ. يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ. يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ. يَا بَنِي هَاشِمٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ. يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ. يَا فَاطِمَةُ أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنَ النَّارِ. فَإِنِّي واللهِ لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا. غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبِلاَلِهَا))(١).

قال المباركفوري: (هذه الصيحة العالية هى غاية البلاغ، فقد أوضح الرسول ﷺ لأقرب الناس إليه أن التصديق بهذه الرسالة هو حياة الصلات بينه وبينهم، وأن عصبية القرابة التي يقوم عليها العرب ذابت في حرارة هذا الإنذار الآتي من عند الله)(٢).

قال ابن كثير: (ودعا رسول الله ﷺ جهرةً على الصفا، وأنذر بطون قريش عمومًا وخصوصًا، حتى سمَّى من سمى من أعمامه وعماته وبناته لينبه بالأدنى على الأعلى، أي: إنما أنا نذير والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبدالواحد الدمشقي أنه قال: رأيت أبا الدرداء رضي الله عنه يحدث الناس ويفتيهم، وولده إلى جنبه، وأهل بيته جلوس في جانب المسجد يتحدثون فقيل له: ما بال الناس يرغبون فيما عندك من العلم، وأهل بيتك جلوس لاهين؟ فقال: لأني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "أزهد الناس في الدنيا الأنبياء، وأشدهم عليهم الأقربون" وذلك فيما أنزل الله عز وجل ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾(٣) ثم قال: "إن أزهد الناس في العالم أهله حتى يفارقهم ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾(٤))(٥).

---

(١) أخرجه مسلم ٢٠٤.

(٢) الرحيق المختوم ٨٠.

(٣) سورة الشعراء، آية: ٢١٤.

(٤) سورة الشعراء، آية: ٢١٤-٢١٦.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٦/١٧٠-١٧١.

وقال الطاهر بن عاشور: (وقوله تعالى: "وأنذر عشيرتك الأقربين" عطف على قوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [1] فهو تخصيص بعد تعميم للاهتمام بهذا الخاص، ووجه الاهتمام أنهم أولى الناس بقبول نصحه وتعزيز جانبه ولئلا يسبق إلى أذهانهم أن ما يلقيه الرسول من الغلظة في الإنذار وأهوال الوعيد لا يقع عليهم لأنهم قرابة هذا المنذر وخاصته ويدل على هذا قوله ﷺ في ندائه لهم "لا أغني عنكم من الله شيء" وأن فيه تعريضًا بقلة رعي كثير منهم حق القرابة إذ آذاه كثير منهم وعصوه مثل أبي لهب فلا يحسبوا أنهم ناجون في الحالتين وأن يعلموا أنهم لا يكتفي من مؤمنهم بإيمانه حتى يضم إليه العمل الصالح فهذا مما يدخل في النذارة ولذلك دعا النبي ﷺ عند نزول هذه الآية قرابته مؤمنين وكافرين)[2].

رابعًا – من موضوعات الدعوة: فضل التعفف والاستغناء عن مسألة الناس:

الأصل في المسلم أنه شريف النفس عفيف عن المسألة وذلها، فلا يسأل إلا الله، ولا يلوذ إلا بغناه، وهذا ما أكده نص الحديث في قوله ﷺ: "... ومن يستعفف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله".

فمن اجتهد في تحصيل العفة والاستغناء بحسب ما يقتدر عليه ويستطيعه من الأسباب وبذل جهده وجاهد نفسه على ذلك أعانه الله ووفقه ويسر له هذا الأمر فرزقه القناعة برزق الله والاستغناء بفضل الله، ومتى عزم الإنسان على قطع أمله من الناس وقطع استشراف قلبه وسؤاله لهم حصلت له العفة التامة والغنى التام[3].

فعلى المحتاج أن يطلب من الله العفة عن السؤال، ويحاول التخلق بهذه العفة بالصبر والتعود عليها والعمل والبحث عنها، وسوف يهيء الله تعالى له طريق ذلك. وعلى الإنسان مهما قلَّ دخله، وقل ما يرد إليه أن يحاول الاستغناء به عن الناس وسؤالهم والتطفل

---

(١) سورة الشعراء، الآيتان: ١٩٣ – ١٩٤.

(٢) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور ٨/١٩/٢٠٠-٢٠١.

(٣) الرياض الناضرة، السعدي، ١٨٦.

عليهم، وسوف يحقق الله ذلك وفي هذا إعزاز للمسلم ورفع لمستوى المسلم وإقامة للعلاقات بينهم على أساس التكافؤ والتوازن واحترام القيم والمثل والمبادئ[1].

(١) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم، ٢٤٤.

الحديث رقم (٥٢٧)

٥٢٧ - وعن أَبي عبد الرحمن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: ((لاَ تُلْحِفُوا فِي الْمَسْأَلَةِ، فَوَاللهِ لاَ يَسْأَلُنِي أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئًا، فَتُخْرِجَ لَهُ مَسْأَلَتُهُ مِنِّي شَيْئًا، وَأَنَا لَهُ كَارِهٌ، فَيُبَارَكَ لَهُ فِيمَا أَعْطَيْتُهُ)) رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو سفيان: صخر بن حرب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٥٦).

غريب الألفاظ:

لا تُلحفوا: لا تُلِحُّوا[2].

الشرح الأدبي

الحديث تصدره أسلوب إنشائي مفعم بالحركة في ثوب النهي الذي يحفظ ماء وجه المسلم (لاَ تُلْحِفُوا فِي الْمَسْأَلَةِ) نهياً عن الإلحاف الذي يريق ماء وجه المؤمن ويسبب الحرج للمسئول، وبين قوله (المسألة، ويسألني) جناس يقوي المعنى، ويؤكده، ويضع المسألة في حيز النهي المصور لقبحها من ذي المروءة المسلم، وقد صعّد النبرة العالية التي أثارها النهي عن طريق القسم في قوله (فَوَاللهِ لاَ يَسْأَلُنِي أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئاً) وتنكير (شيئا) يفيد التعميم ووصل حرف الجر بكاف الخطاب وميم الجمع شكل من أشكال تعميم الحكم ونسبة الإخراج إلى المسألة من نسبة الشيء لسببه على سبيل المجاز للمبالغة، وتقديم الجار، والمجرور (له) يفيد تخصيصهم بالإخراج أي يسألون لأنفسهم خاصة، وقوله (وأنا له كاره)، وتقديم الجار والمجرور (له) يخصصه دون غيره أي للشيء المخرج كاره، وقوله: (فَيُبَارَكَ لَهُ فِيمَا أَعْطَيْتُهُ)الفاء عاطفة في جواب النهي،والمعنى لا تجتمع بركة لشيء أخذه إنسان عن طريق المسألة دون رضا الرسول ﷺ، والحديث ترهيب من الإلحاف بالتهديد بنزع البركة، ومحق الخير.

---

(١) برقم ١٠٣٨/٩٩. أورده المنذري في ترغيبه ١٢٣٢.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٨٢٩.

فقه الحديث

في هذا الحديث من الفقه:

حرمة الإلحاح في المسألة مع الغنى: قال القرطبي: (الإلحاح في المسألة والإلحاف فيها مع الغنى عنها حرام لا يحلّ، قال رسول الله ﷺ: ((من سأل الناس أموالهم تكثرًا فإنما يسأل جمرًا، فليستقلّ أو ليستكثر))[١]. وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: ((لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس في وجهه مُزْعةُ لحم))[٢])[٣].

وقال ابن كثير في تفسير الإلحاف: ((إن من سأل وله ما يغنيه عن السؤال فقد ألحف في المسألة)[٤].

وجاء في الموسوعة الفقهية: (حرم الإسلام السؤال على من يملك ما يغنيه عنها من مال أو قدرة على التكسب، سواء كان ما يسأله زكاة أو تطوعًا أو كفارة، ولا يحلّ له أخذ ذلك إن أعطى بالسؤال أو إظهار الفاقة، قال الشبراملسي: لو أظهر الفاقة وظنه الدافع متصفًا بها لم يملك ما أخذه، لأنه قبضه من غير رضا صاحبه، إذ لم يسمح له إلا على ظن الفاقة، لحديث ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ: ((من سأل الناس وله ما يغنيه جاء يوم القيامة ومسألته خموش أو خدوش أو كدوح))[٥] قيل: يا رسول الله وما

---

(١) أخرجه مسلم ١٠٤١.

(٢) أخرجه البخاري ١٤٧٤، ومسلم ١٠٤٠.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٣٧٩/٤.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٤٧٨/٢، وانظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٣٧٦/٤-٣٧٩.

(٥) خمش وجهه: خمشًا وخموشًا: جرح بشرته. والخمْش: اسم لجرح البشرة، وهو أثر الخمش والجمع: خموش. وخدش الجلد ونحوه: خدشًا: قشره والخَدْش: الأثر في الجلد حين يخدش والجمع: خدوش، والكدْح: كل أثر من عضٍّ أو خدش. والجمع كدوح. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية "خدش، خمش، كدح".

يغنيه؟ قال: ((خمسون درهمًا أو قيمتها من الذهب))[1] وحديث حذيفة رضي الله عنه مرفوعًا: ((لا ينبغي للمؤمن أن يذلّ نفسه))[2].

أما إذا كان محتاجًا إلى الصدقة وممن يستحقونها لفقر أو زمانة أو عجز عن الكسب فيجوز له السؤال بقدر الحاجة، وبشرط أن لا يذل نفسه وأن لا يلحّ في السؤال أو يؤذي المسؤول، ولم يعلم أن باعث المعطي الحياء من السائل أو من الحاضرين، فإن كان شيء من ذلك فلا يجوز له السؤال وأخذ الصدقة، وإن كان محتاجًا ويحرم أخذها، ويجب ردها إلا إذا كان مضطرًا بحيث يخشى الهلاك إن لم يأخذ الصدقة، فإن خاف هلاكًا لزمه السؤال إن كان عاجزًا عن التكسب.

فإن ترك السؤال في هذه الحالة حتى مات، أثم لأنه ألقى بنفسه إلى التهلكة والسؤال في هذه الحالة في مقام التكسب، لأنها الوسيلة المتعينة لإبقاء النفس، ولا ذلك فيها للضرورة والضرورة تبيح المحظورات كأكل الميتة[3].

المضامين الدعوية

أولاً – من أساليب الدعوة: النهي، والقسم.

ثانيا – من موضوعات الدعوة: التحذير من الإلحاح في المسألة والعطاء.

ثالثًا – من واجبات الداعية : تبصير المدعوين بمواطن الخطر وإرشادهم لما فيه فلاحهم.

أولاً – من أساليب الدعوة: النهي، والقسم:

١ – النهي: حيث جاء في الحديث: "لا تلحفوا" وأسلوب النهي من أساليب الدعوة

---

(١) أخرجه أبو داود ١٦٢٦، والترمذي ٦٥٠، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ١٤٣٢).

(٢) أخرجه الترمذي ٢٢٥٤، وابن ماجه ٤٠١٦، وحسنه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٣٢٤٣).

(٣) نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي ١٦٩/٦، وكشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٢٧٣/٢، والاختيار لتعليل المختار ١٧٥/٤-١٧٦ (عن الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٩٧/٢٤-٩٨). وانظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٣/٧/٤-١١٤، وانظر كذلك: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٣٩/٣٤-٢٤١.

التي تشعر المدعوين بالخطورة والتحذير من المنهي عنه ومن صور استخدام القرآن الكريم لهذا الأسلوب قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾[1]، وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾[2].

جاء في البلاغة الواضحة: (والنهي هو طلب الكف عن الفعل على وجه الاستعلاء، وللنهي صيغة واحدة هي المضارع مع لا الناهية. وقد تخرج صيغة النهي معناها الحقيقي إلى معانٍ أخرى تستفاد من السياق وقرائن الأحوال كالدعاء والالتماس والتمني والإرشاد والتوبيخ والتيئيس والتهديد والتحقير)[3].

والداعية عندما يستخدم أسلوب النهي فإنما يزجر المدعوين عن الوقوع في محظور شرعي وقد أمر الله الجماعة المؤمنة بالاستجابة للأمر والنهي الذي أمرنا به الرسول ﷺ أو نهانا عنه قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾[4].

٢ - القسم: ويتضح هذا من الحديث: "فو الله لا يسألني أحد منكم شيئًا" ويعتبر أسلوب القسم من أساليب الدعوة المقنعة للمدعوين حيث تدلل على مدى صدق الداعية فيما يقوله، ومن صور استعمال القرآن لأسلوب القسم قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾[5]، وقوله جل شأنه: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾[6]، وقوله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾[7].

---

(١) سورة الأنعام، آية: ١٥١.

(٢) سورة الحجرات، آية: ١١.

(٣) البلاغة الواضحة، علي الجارم ومصطفى أمين، ص ٢٢٣.

(٤) سورة الحشر، آية: ٧.

(٥) سورة يونس، آية: ٥٣.

(٦) سورة التغابن، آية: ٧.

(٧) سورة الليل، الآيتان: ١-٢.

وأسلوب القسم عرفه الناس قديما وحديثًا واستعملوه تأكيدًا لخبر أو تعظيمًا لشيء أو جمعًا للانتباه حول غاية (وأسلوب القسم يبصر بالدعوة ويبين دعائمها الأساسية، وهو موعظة حسنة لأن القرآن دائمًا يقصد به الإقناع والإثارة فمن الناس من لا يقتنع ولا ينتفع بالبرهان الحقيقي بل ينتفع بالأشياء الإقناعية مثل القسم وهو أسلوب يناسب طبيعة البشر، وينطلق من بين فكرهم)[١].

ثانياً - من موضوعات الدعوة: التحذير من الإلحاح في المسألة والعطاء:

إن المسلم عالي الهمة كريم النفس لا يلح في السؤال حتى ولو كان محتاجًا، ومما يرشد إلى ذلك من الحديث قوله ﷺ: "لاَ تُلْحِفُوا فِي الْمَسْأَلَةِ. فَوَاللّهِ لاَ يَسْأَلُنِي أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئًا، فَتُخْرِجَ لَهُ مَسْأَلَتُهُ مِنِّي شَيْئًا، وَأَنَا لَهُ كَارِهٌ، فَيُبَارَكَ لَهُ فِيمَا أَعْطَيْتُهُ". قال القاضي عياض: (وفي هذا الحديث وغيره ذم الحرص وكثرة السؤال، وكثرة عطاء النبي ﷺ وأنه كان لا يرد سائلاً وفضل القناعة والإجمال في الطلب وأن البركة مع القناعة)[٢].

وقال القرطبي: (وقوله "لا تلحفوا في المسألة" معناه: لا تنزلوا بي المسألة الملحف فيها أي: لا تلحوا عليَّ في السؤال، والإلحاف: الإلحاح وإنما نهى عن الإلحاح لما يؤدي إليه من الإبرام واستثقال السائل، وإخجال المسؤول، حتى أنه إن أخرج شيئًا أخرجه عن غير طيب نفس، بل عن كراهة وتبرم، وما استخرج كذلك لم يبارك فيه؛ لأنه مأخوذ على غير وجهه، ولذلك قال: "فتخرج له المسألة شيئًا وأنا كارهٌ له" ثم قد كانوا - أعني المنافقين - يكثرون سؤال رسول الله ﷺ ليبخِّلوه، فكان يعطي العطايا الكثيرة بحسب ما يُسأل، لئلا يتمَّ لهم غرضهم من نسبته إلى البخل. كما قال: ((إِنَّهُمْ يُخَيِّرُونِي بَيْنَ أَنْ يَسْأَلُونِي بِالْفُحْشِ أَوْ يُبَخِّلُونِي وَلَسْتُ بِبَاخِلٍ))[٣])[٤].

---

(١) مستلزمات الدعوة في العصر الحاضر، علي صالح المرشد، ١٦٢.

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٣/٥٦٨.

(٣) أخرجه مسلم ١٠٥٦.

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٣/٨٣.

وقال صاحب فتح الملهم: (وفي هذا الحديث النهي عن السؤال، واتفق العلماء عليه إذا لم تكن ضرورة واختلف أصحابنا في مسألة القادر على الكسب على وجهين أصحهما: أنها حرام لظاهر الأحاديث. والثاني: حلال مع الكراهة بثلاث شروط: أن لا يذل نفسه ولا يلح في السؤال، ولا يؤذي المسؤول فإن فقد أحد هذه الشروط فهي حرام بالاتفاق والله أعلم)[1].

وقال ابن علان: (لا تلحوا في المسألة ومن وجد مني ما سأله بسبب إلحاحه وإشراف نفسه وحرصه على حصول مطلوبه وأنا كاره لدفعه ولكن دفعته له لنحو اتقاء فحشه فلا يبارك له فيه بوجه، ومن هنا غلبت الفاقة على كثير لاستشرافهم الأحوال وإخراجهم بالإلحاح في السؤال فإن من أخذ شيئًا على أمر أظهره وهو غير متصف به باطنًا فإنه لا بركة فيه)[2].

وهذا التحذير من الإلحاح في المسألة إنما لأن الرزق مقدر ومقسوم قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾[3]، وقال سبحانه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾[4]، وبدل الإلحاح في السؤال يجب على الإنسان أن يحسن التوكل على الله بمباشرة أسباب الرزق، قال ابن القيم: (والذي يحقق التوكل القيام بالأسباب المأمور بها، فمن عطلها لم يصح توكله، كما أن القيام بالأسباب المفضية إلى حصول الخير يحقق رجاءه فمن لم يقم بها كان رجاؤه تمنيًا.

كما أن من عطلها يكون توكله عجزًا وعجزه تواكلاً. وسر التوكل وحقيقته هو اعتماد القلب على الله وحده فلا يضره مباشرة الأسباب مع خلو القلب من الاعتماد

---

(١) فتح الملهم، شبير أحمد العثماني ١٢٥/٦.

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٨٠٠.

(٣) سورة هود، آية: ٦.

(٤) سورة العنكبوت، آية: ٦٠.

عليها والركون إليها كما لا ينفعه قوله : توكلت على الله مع اعتماده على غيره وركونه إليه وثقته به)[١].

ثالثًا - من واجبات الداعية : تبصير المدعوين بمواطن الخطر وإرشادهم لما فيه فلاحهم:

إن الداعية مصدر خير لمن حوله من الناس وهو في كل الأحوال حريص على المدعوين يأمرهم بالخير وينهاهم عن الشر ويتضح هذا من سياق الحديث ومورده ولا شك أن من أهم واجبات الداعية أن يبصر المدعوين بمواطن الخطر لما في ذلك من إشعارهم بالحرص عليهم، وتمني الخير لهم وقد قال الله تعالى عن إمام الدعاة ﷺ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٢]، والداعية دائمًا يرشد إلى الفلاح والخير قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[٣].

ولقد كان النبي ﷺ نموذجًا يحتذى في تبصير المدعوين وإرشادهم إلى ما فيه فلاحهم ولقد جاء في صحيح مسلم باب شفقته ﷺ على أمته ومبالغته في تحذيرهم مما يضرهم، فعن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللّهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَىٰ قَوْمَهُ. فَقَالَ: يَا قَوْمِ إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بِعَيْنَيَّ. وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ. فَالنَّجَاءَ. فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ. فَأَدْلَجُوا فَانْطَلَقُوا عَلَىٰ مُهْلَتِهِمْ. وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ. فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاحَهُمْ. فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي وَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ. وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ مَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ))[٤].

قال النووي: (وقوله ﷺ "وإني أنا النذير العريان" قال العلماء: أصله أن الرجل إذا أرد إنذار قومه وإعلامهم بما يوجب المخافة نزع ثوبه وأشار به إليهم إذا كان بعيدًا منهم

---

(١) الفوائد ١٣٠.

(٢) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

(٣) سورة الشورى، الآيتان: ٥٢-٥٣ .

(٤) أخرجه البخاري ٦٤٨٢، ومسلم ٢٢٨٣.

ليخبرهم بما دهمهم وأكثر ما يفعل هذا ربيئة القوم وهو طليعتهم ورقيبهم قالوا: وإنما يفعل ذلك لأنه أبين للناظر وأعزب وأشنع منظرًا فهو أبلغ في استحثاثهم في التأهب للعدو وقيل معناه: أنا النذير الذي أدركني جيش العدو فأخذ ثيابي فأنا أنذركم عريانًا. وقوله "فالنجاء" أي أنجوا النجاء أو اطلبوا النجاء)(١).

ومما يدل على الحرص على المدعوين وتبصيرهم والشفقة عليهم ما جاء عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَوْقَدَ نَارًا. فَجَعَلَ الْجَنَادِبُ وَالْفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهَا. وَهُوَ يَذُبُّهُنَّ عَنْهَا. وَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ. وَأَنْتُمْ تَفَلَّتُونَ مِنْ يَدِي))(٢).

قال النووي: (ومقصود الحديث أنه صلى الله عليه وسلم شبه تساقط الجاهلين والمخالفين بمعاصيهم وشهواتهم في نار الآخرة، وحرصهم على الوقوع في ذلك مع منعه إياهم وقبضه على مواضع المنع منهم بتساقط الفراش في نار الدنيا لهواه وضعف تمييزه، وكلاهما حريص على هلاك نفسه ساع في ذلك لجهله)(٣).

والداعية عندما يقوم بتبصير المدعوين بمواطن الخطر، وإرشادهم إلى ما فيه فلاحهم فإنه بذلك يقوم بواجب النصيحة فعن تميم الداري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((الدِّينُ النَّصِيحَةُ قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: لله وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ))(٤).

قال أبو الحسن الندوي: (والإيمان بالآخرة وتمثل مافيها من سعادة دائمة وشقاء دائم، وما أعد الله فيها لعباده المؤمنين المطيعين من جزاء وللكفار العصاة من عقاب هو الحافز الحقيقي إلى دعوتهم وبذل نصحهم، وهو الذي يقلقهم ويطير نومهم ويكدر صفو عيشهم ويجعلهم لا يهدأ لهم بال ولا يقر لهم قرار، وهو حافز أقوى وأعظم سلطانًا

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٤١٨.

(٢) أخرجه مسلم ٢٢٨٥.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٤١٨.

(٤) أخرجه مسلم ٥٥.

على نفوسهم مما يشاهدونه من اختلال النظام واضطراب الأحوال، وما يشعرون به من الأخطار المحيطة بهذا المجتمع إذا انتشر فيه الفساد، ويجعلون ذلك سببًا لدعوتهم وإنذارهم، وسببًا لقلقهم وإشفاقهم)[1].

(١) النبوة والأنبياء ٦٥-٦٦.

الحديث رقم (٥٢٨)

٥٢٨ – وعن أَبي عبدِ الرحمن عوف بن مالِك الأَشْجَعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رسول الله ﷺ تِسْعَةً أَوْ ثَمَانِيَةً أَوْ سَبْعَةً ، فَقَالَ: ((**أَلاَ تُبَايِعُونَ رسولَ الله ﷺ**)) وَكُنَّا حَدِيثِي عَهْدٍ بِبَيْعَةٍ ، فَقُلْنَا : قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رسولَ اللهِ ، ثُمَّ قالَ: ((**ألا تُبَايِعُونَ رسولَ اللهِ**[1])) فَبَسَطْنا أيْدينا ، وقلنا : قدْ بايعناكَ فَعَلامَ نُبَايِعُكَ؟ قَالَ: ((**عَلَى أنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَالصَّلَوَاتِ الخَمْسِ وَتُطِيعُوا اللهَ**)) وأَسَرَّ كَلِمَةً خَفِيفَةً ((**وَلاَ تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا**)) فَلَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَ أُولئِكَ النَّفَرِ يَسْقُطُ سَوطُ أحَدِهِمْ فَمَا يَسأَلُ أحَدًا يُنَاوِلُهُ إيّاهُ. رواه مسلم[2].

ترجمة الراوي:

عوف بن مالك الأشجعي: هو عوف بن مالك بن أبي عوف الأشجعي الغَطفاني كنيته: أبو عبدالرحمن وقيل غير ذلك.

أسلم عام فتح خيبر وشهدها مسلمًا وآخى النبي ﷺ بينه وبين أبي الدرداء، وشارك في غزوتي مؤتة وتبوك وشهد فتح مكة وكانت معه راية قومه أشجع.

كان من نبلاء الصحابة ورؤسائهم قال عنه أبو مسلم الخولاني [من كبار التابعين] حدثني الحبيب الأمين: أما هو إليّ فحبيب، وأما هو عندي فأمين: عوف بن مالك قال: كنا عند رسول الله ﷺ سبعة ... فذكر حديث الباب.

كان مُحبًّا لرسول الله ﷺ مُجّلاً له مُعظّمًا. قال: عرّس بنا رسول الله ﷺ ذات ليلة [نزل بنا آخر الليل للنوم والاستراحة] فافترش كلُّ رجل منا ذراع راحلته، فانتبهت في بعض الليل فإذا ناقة رسول الله ﷺ ليس قدّامها أحد، فانطلقت أطلب رسول الله ﷺ. فإذا معاذ بن جبل وعبدالله بن قيس [أبو موسى الأشعري] قائمان، فقلت: أين

---

(١) عند مسلم زيادة: (فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، ثمَّ قال: ألا تبايعون رسول الله)، وهذه الزيادة لا توجد عند الحميدي في جمعه ٣/٤٥١، رقم ٢٩٧٢ فتبعه عليه المؤلفُ، والمنذري، ولم يورداها.

(٢) برقم ١٨/١٠٤٣. أورده المنذري في ترغيبه ١١٩٤.

رسول الله؟ فقالا. لا ندري غير أنا سمعنا صوتًا بأعلى الوادي فإذا مثل هدير الرحى فلبثنا يسيرًا ثم أتانا رسول الله ﷺ فقال: إنه أتاني من ربي آتٍ فخيّرني بأن يَدخل نصفُ أمتي الجنة وبين الشفاعة. وإني اخترت الشفاعة. فقالوا: يا رسول الله نَنشُدك بالله والصحبة لما جعلتنا من أهل شفاعتك؟ قال: فأنتم من أهل شفاعتي.

فلما ركبوا قال: فإني أُشهد من حضر أن شفاعتي لمن مات لا يشرك بالله شيئًا من أمتي[(١)].

نزل الشام في خلافة أبي بكر الصديق واستقرّ هناك، وكان غيورًا على محارم المسلمين وحُرُماتهم، لما قدم عمر الشام شكى إليه يهودي أن عوف بن مالك قد ضربه وشجه فسأله عمر فقال: رأيته يسوق بامرأة مسلمة على حمار فنخس بها لتصرع فلم تصرع فدفعها فصرعت [سقطت] فغشيها أو أكبّ عليها. ففعلتُ به ما ترى فعاقب عمر اليهوديّ.

وظلّ على جهاده في سبيل الله، فشارك في غزو القسطنطينية أيام خلافة معاوية. ومسنده ٦٧ حديثًا، وعاش طويلاً وعُمِّر ومات ٧٣هـ في خلافة عبدالملك بن مروان[(٢)].

الشرح الأدبي

الحديث من باب الترغيب في التعفف والقناعة، والأكل من كسب يده جاء فيه عرض المبايعة من النبي ﷺ على الصحابة بطريق الاستفهام، وفيه من اللطف وجلب الامتثال، وتحريك كامنة المخاطب ما ليس في صيغة الأمر: بايعوني؛ لأنه يشعر

---

(١) أخرجه أحمد ٢٨/٦ رقم ٢٤٠٢ وابن حبان ٢١١ وقال محققو المسند: إسناده صحيح ٤٢٩/٣٩.

(٢) الطبقات الكبرى، ابن سعد ٢٨٠/٤ والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر ٥٧٣، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود ٣٠٠/٤. والإصابة في تمييز الصحابة، ابن علي العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ١٠٢٢، والسير ٤٨٩/٢، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين ٥٠٦/٥، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٢٣٧/٣ والأعلام، خير الدين الزركلي ٥٦/٥، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك ١٤٧٣/٢.

المخاطب بشخصيته، وأنه طرف حر السلوك والاختيار، خلافا لظاهر صورة الأمر الذي يوحي بالعلو والإلزام، وذلك التلطف في الطلب أولى بلباقة الداعي عليه السلام لأنه من معدن فصاحته، وقد كان الإسلام في مفترق الطرق.[(١)] وأضاف المبايعة للاسم الظهار (رسول الله) دون الضمير (ألا تبايعوني) إشعارا بقدسية البيعة، ولذلك أضاف الرسول ﷺ لله، وتكرير العرض (ألا تبايعون...) إعلاء لدرجة الترقب والتيقظ للاهتمام بما سيذكر وإثارة لمواطن الفضول لديهم وقد كانوا حديثي عهد ببيعة، ونرى اثر ذلك الأسلوب العالي في نفوس الصحابة المخاطبين فيما ذكره الراوي في نهاية الحديث قال (فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحدا يناوله إياه) والفضل في ذلك يرجع إلى طريقة عرض النبي ابتداءً، وتكرار العرض زيادة في التقرير، والتأكيد، وتلوين السياق وتنوع النبرة بين الارتفاع، والانخفاض، وما أجمل إسراره بالكلمة الخفية ﷺ والتي أوحت لهؤلاء النفر بأنها خصيصة من النبي ﷺ لهم فاحتضنتها قلوبهم . حتى أن سوط أحدهم يسقط فلا يسأل أحدا أن يناوله إياه حتى لا يخالف - ما رآه - سر رسول الله ﷺ له[(٢)].

المضامين الدعوية

أولاً : من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة على ملازمة ومجالسة النبي ﷺ.

ثانيًا: من وسائل الدعوة: البيعة.

ثالثًا: من فقه الداعية: ترتيب الأولويات.

رابعًا: من أساليب الدعوة: السؤال والنهي.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: فضل العفة وعدم السؤال.

---

(١) انظر: الحديث النبوي من الوجهة البلاغية، د. عز الدين علي السيد، ص ٣٤٩.

(٢) انظر: الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في صحيح الترغيب، والترهيب للحافظ المنذري، د. ناصر راضي الزهري، ١٠٤، مخطوطة بكلية اللغة العربية بأسيوط، جامعة الأزهر.

أولاً – من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة على ملازمة ومجالسة النبي ﷺ:

يتضح من هذا الحديث "كنا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة..." ومما لا شك فيه أن الصحابة رضوان الله عليهم كان عندهم حرص على ملازمة النبي ﷺ ومجالسته للاهتداء بهديه والاقتداء به في أقواله وأفعاله، قال ابن القيم: (وبحسب متابعة الرسول تكون العزة والكفاية والنصرة، كما أن بحسب متابعته تكونُ الهداية الفلاح والنجاة، فالله سبحانه علّق سعادة الدارين بمتابعته، وجعل شقاوة الدارين في مخالفته، فلأتباعه الهدى والأمن، والفلاح والعزة، والكفاية والنصرة، والولاية والتأييد، وطيب العيش في الدنيا والآخرة، ولمخالفيه الذلة والصغار، والخوف والضلال، والخذلان والشقاء في الدنيا والآخرة.

وقد أقسم ﷺ بأن "لا يؤمن أحدكم حتى يكون هو أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين"(١) وأقسم الله سبحانه وتعالى بأن لا يؤمن من لا يحكمه في كل ما تنازع فيه هو وغيره، ثم يرضى بحكمه، ولا يجد في نفسه حرجًا مما حكم به ثم يسلم له تسليمًا، وينقاد له انقيادًا(٢)، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾(٣).

فقطع سبحانه وتعالى التخيير بعد أمره وأمر رسوله، فليس لمؤمن أن يختار شيئًا بعد أمره ﷺ، بل إذا أمر، فأمره حتم، وإنما الخيرة في قول غيره إذا خفي أمره، وكان ذلك الغير من أهل العلم به وبسنته، فبهذه الشروط يكون قول غيره سائغ الاتباع، لا واجب الاتباع، فلا يجب على أحد اتباع قول أحد سواه، بل غايته أنه يسوغ له اتباعه،

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ١٥، ومسلم ٤٤.

(٢) وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ سورة النساء، آية: ٦٥.

(٣) سورة الأحزاب، آية: ٣٦.

ولو ترك الأخذ بقول غيره، لم يكن عاصيًا لله ورسوله. فأين هذا ممن يجب على جميع المكلفين اتباعه، ويحرم عليهم مخالفته، ويجب عليهم ترك كل قول لقوله؟ فلا حكم لأحد معه، ولا قول لأحد معه، كما لا تشريع لأحد معه، وكل من سواه، فإنما يجب اتباعه على قوله إذا أمر بما أمر به، ونهى عما نهى عنه، فكان مبلغًا محضًا ومخبرًا لا منشأ ومؤسسًا، فمن أنشأ أقوالاً، وأسس قواعد بحسب فهمه وتأويله، لم يجب على الأمة اتباعها، ولا التحاكم إليها حتى تعرض على ما جاء به الرسول ﷺ، فإن طابقته، ووافقته، وشهد لها بالصحة، قُبلّت حينئذ، وإن خالفته، وجب ردها واطراحها، فإن لم يتبين فيها أحد الأمرين جُعلت موقوفة، وكان أحسنُ أحوالها أن يجوز الحكم والإفتاء بها وتركه. وأما أنه يجب ويتعين، فكلا)[١].

وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[٢]، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يارسول الله إنك لأحب إليَّ من نفسي، وإنك لأحب إليَّ من ولدي وإني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتي أنظر إليك"[٣]، وحرص الصحابة رضي الله عنهم على ملازمة النبي ﷺ إنما لتطبيق أوامره واجتناب نواهيه قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾[٤].

ثانيًا - من وسائل الدعوة: البيعة:

حيث جاء في الحديث: "ألا تبايعون رسول الله" والبيعة من وسائل الدعوة الهامة فهي

---

(١) زاد المعاد ٣٧/١-٣٨.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

(٣) أخرجه الطبراني في الصغير ٥٢، والأوسط ورجاله رجال الصحيح غير عبدالله بن عمران العابدي وهو ثقة. قاله الهيثمي ٧/٧، وأخرجه أبو نعيم في "الحلية" ٢٤٠/٤، عن عائشة رضي الله عنها بهذا السياق والإسناد ونحوه وقال: هذا حديث غريب من حديث منصور وإبراهيم تفرد به فضيل وعنه العابدي كذا في حياة الصحابة للكاندهلوي ٤٥٢.

(٤) سورة الحشر، آية: ٧.

تعني العهد والميثاق، وقد أمر الله بالوفاء به قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾(١)، وقال جل شأنه: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾(٢).

ولأهمية البيعة كوسيلة من وسائل الدعوة باشرها النبي ﷺ بنفسه مع أصحابه (وتمثل البيعة منعطفات أساسية في تاريخ الإسلام فنحن ندرك أهمية بيعتي العقبة وأثرهما في النقلة الكبيرة بين مرحلتين من مراحل الدعوة، والعهود والمواثيق مع اليهود ثم مخالفتهم لها، ومن ثمَّ تطهير المدينة منهم مما كان عاملاً حاسمًا في انتصار الدولة الإسلامية أما صلح الحديبية - العهد مع المشركين - فقد سماه الله فتحًا مبينًا، وجاء فتح مكة أثرًا من آثار هذا العهد)(٣).

وعلق محمد الغزالي على بيعة العقبة الكبرى كوسيلة من وسائل الدعوة فقال: (تلكم بيعة العقبة، وما أبرم فيها من مواثيق، وما دار فيها من محاورات. إن روح اليقين والفداء والاستبسال سادت هذا الجمع وتمشت في كل كلمة قيلت، وبدا أن العواطف الفائرة ليست وحدها التي توجه الحديث أو تملي العهود كلا، فإن حساب المستقبل روجع مع حساب اليوم، والمغارم المتوقعة نظر إليها قبل المغانم الموهومة.

مغانم؟ أين موضوع المغانم في هذه البيعة؟ لقد قام الأمر كله على التجرد المحض والبذل الخالص.

هؤلاء السبعون مُثُل لانتشار الإسلام، عن طريق الفكر الحر والاقتناع الخالص.

فقد جاءوا من "يثرب" مؤمنين أشد الإيمان، وملبين داعي التضحية، مع أن معرفتهم بالنبي كانت لمحة عابرة؛ غبرت عليها الأيام؛ وكان الظن بها أن تزول.

لكننا لا يجوز أن ننسى مصدر هذه الطاقة المتأججة من الشجاعة والثقة؛ إنه

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٣٤.

(٢) سورة النحل، آية: ٩١.

(٣) العهد والميثاق في القرآن الكريم، د. ناصر بن سليمان العمر، ص ١٠٢.

القرآن!! لئن كان الأنصار قبل بيعتهم الكبرى لم يصحبوا الرسول إلا لمامًا فإن الوحي المشع من السماء أضاء لهم الطريق، وأوضح الغاية.

لقد نزل بمكة قريب من نصف القرآن، سال على ألسنة الحفاظ وتداولته صحائف السفرة الكرام البررة، والقرآن النازل بمكة صوَّر جزاء الآخرة رأي العين، فأنت توشك أن تمد يدك تقطف من أثمار الجنة، ويستطيع الأعرابي المتعشق للحق أن ينتقل في لحظة فداء من رمضاء الجزيرة إلى أنهار النعيم والرحيق المختوم!

وحكى القرآن أخبار الأولين وكيف أخلص المؤمنون لله فنجو مع رسلهم، وكيف طغى الكفار وأسكرهم الإمهال فتعنتوا وتجبروا، ثم حل العدل الإلهي، فذهب الظالمون بددًا، وتركوا وراءهم دنيا مدبرة، ودورًا خربة.

فأدبروا ووجوه الأرض تلعنهم كباطل من جلال الحق منهزم!!

ثم إن الرسول ﷺ جعل من هذا الإيمان بالحق رباطًا يعقد من تلقاء نفسه صلة الحب والتناصر بين أشتات المؤمنين في المشرق والمغرب.

فالمسلم في المدينة - وإن لم يرَ أخاه المستضعف في مكة - يحنو عليه، ويتعصب له ويغضب من ظالمه، ويقاتل دونه، وذلك ما استقدم الأنصار من يثرب تجيش في حناياهم مشاعر الولاء لمن أحبوهم بالغيب في ذات الله.

عن أبي مالك الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: ((يا أَيُّها النَّاسُ اسْمَعُوا واعْقِلُوا، واعْلَمُوا أَنَّ لله - عزّ وجلّ - عِبَادًا لَيْسُوا أنْبِيَاءَ ولا شُهَدَاء، يَغْبِطُهُمُ النَّبِيُّونَ والشُّهَدَاءُ عَلَى مَنَازِلِهِمْ وقُرْبِهِمْ مِنَ الله فجثا رجل من الأعراب من قاصية الناس وألوى بيده إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ناس من الناس ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء على مجالسهم وقربهم من الله؟! انعتهم لنا حلِّهم لنا - يعني: صفهم لنا - ، فسر وجه النبي ﷺ بسؤال الأعرابي، فقال رسول الله ﷺ: «هُمْ نَاسٌ مِنْ أَفْنَاءِ النَّاسِ ونَوَازِعِ القَبَائِلِ لَمْ تَصِلْ بَيْنَهُمْ أَرْحَامٌ مُتَقَارِبَةٌ، تَحَابُّوا في الله وتَصَافُوا، يَضَعُ الله لَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ فَيُجْلِسُهُمْ عَلَيْهَا، فَيَجْعَلُ وُجُوهَهُمْ نُورًا، وثِيَابُهُمْ نُورًا، يَفْزَعُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ ولا يَفْزَعُونَ، وَهُمْ أَوْلِيَاءُ الله الذينَ لا خَوْفَ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُونَ))(١).

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٣٤١/٥ رقم ٢٢٨٩٤، وقال محققو المسند: أصل الحديث صحيح لكن من حديث معاذ بن جبل، وحديث معاذ بن جبل رضي الله عنه أخرجه أحمد في المسند ٢٢٩/٥ برقم ٢٢٠٠٢ وقال

إن الإيمان بالله، والحب فيه، والأخوة على دينه، والتناصر باسمه، ذلك كله كان يتدافع في النفوس المجتمعة في ظلام الليل بجوار مكة السادرة في غيها، يتدافع ليعلن أن أنصار الله سوف يحمون رسوله كما يحمون أعراضهم، وسوف يمنعونه بأرواحهم فلا يخلص إليه أذى وهم أحياء.

إن مشركي مكة حسبوا أنهم حصروا الإسلام في نطاق لا يعدوه، وأرهقوا المسلمين حتى شغلوهم بأنفسهم، فناموا نومة المجرم الذي اغترف الإثم وأمن القصاص.

حسنّت ظنك بالأيام إذ حسنت ... ولم تخف سوء ما يأتي به القدر

وسالمتك الليالي فاغتررت بها ... وعند صفو الليالي يحدث الكدر

أجل، ففيه هذه الليلة تحالف جند الحق أن يقصموا ظهر الوثنية، وأن ينتهوا بالجاهلية ورجالها إلى الفناء)[1].

ثالثًا - من فقه الداعية : ترتيب الأولويات:

حيث جاء في الحديث:" على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا والصلوات الخمس وتطيعوا ..."، وما من شك في أن ترتيب الأولويات من فقه الداعية حيث يبدأ بالأهم من الأمور ثم المهم، ولا يخفى أن توحيد الله عز وجل وعدم الإشراك به هو أولى المطلوبات من المسلم وإلى ذلك كانت دعوة الرسل قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾[2].

إن على الداعية أن يعرف واقعه الذي يعيش فيه، والبيئة التي يدعو إلى الله فيها، (فلا يكفي الداعية أن يكون قد حصّل العلوم الإسلامية، وجال في مراجع الأدب والتاريخ، وأخذ بحظ وافر من العلوم الإنسانية والعلوم التجريبية، ولكنه مع هذا كلّه

محققو المسند: حديث صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح ٣٦/٣٢٦، وأخرجه الحاكم ٤/١٦٩-١٧٠ من طريق سعيد بن عامر عن شعبة به ٣٦/٣٢٧، وقال الألباني: حديث حسن في تخريجه لأحاديث كتاب فقه السيرة، محمد الغزالي، ص ١٥٢.

(١) فقه السيرة ١٥٠-١٥٢.

(٢) سورة الأنبياء، آية: ٢٥.

لا يعرف عالمه الذي يعيش فيه، وما يقوم عليه من مبادئ، وما يسوده من مذاهب، وما يصطرع فيه من قوى، وما يجري فيه من تيارات، وما يعاني أهله من متاعب.

إن الداعية لا ينجح في دعوته، ولا يكون موفقًا في تبليغه حتى يعرف من يدعوهم وكيف يدعوهم؟ وماذا يقدّم معهم؟ وماذا يؤخر؟ وما القضايا التي يعطيها أهمية وأولوية قبل غيرها؟ وما الأفكار الضرورية التي يطرحها ويبدأ بها؟

وهذه الطريقة في الدعوة هي طريقة الرسول ﷺ، وطريقة الذين اتبعوه بإحسان... أخرج الشيخان وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله لما بعث معاذًا إلى اليمن قال: ((إنك ستأتي قومًا من أهلِ الكتاب، فإذا جئتهم فادعُهم إلى أن يَشهَدُوا أن لا إله إلاّ اللّهُ وأَنَّ محمدًا رسولُ اللّه. فإنْ هم أطاعوا لك بذلك فأخبِرْهم أنّ اللّهَ قَد فَرَضَ عليهم خمسَ صلواتٍ في كل يومٍ وليلةٍ. فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبِرْهم أنَّ اللّهَ قد فرضَ عليهم صَدَقَةً تؤخذُ من أغنيائهم فتُرَدُّ على فُقرائهم. فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائمَ أموالهم، واتَّقِ دَعوةَ المظلوم فإنهُ ليسَ بينَه وبين اللّهِ حِجابٌ))[1].

من هذا النص يتبين أن على الداعية أن يبدأ بالأهم ثم المهم، أن يبدأ في الدعوة بالعقيدة قبل العبادة، وبالعبادة قبل مناهج الحياة، وبالكليات قبل الجزئيات، وبالتكوين الفردي قبل الخوض في الأمور العامة.

ومما يؤكد هذه الأهمية: دعوة النبي ﷺ إلى ما هو أهمّ عما هو مهم في الفترة المكية، ففي هذه الفترة بالذات كان صلوات الله وسلامه عليه يركز في الدعوة إلى الله على الإيمان بالله ووحدانيته، والتعرف على الله عن طريق الظواهر والآثار، ويركّز أيضًا في الرد على مزاعم الدهريين وإقامة الحجة عليهم، ومنكري البعث ودحض مفترياتهم؛ ويركز كذلك على إثبات الرسالة، وإظهار خصائصها، وفضح الجاهلية، وتجسيد عوارها ومفاسدها.

ولو لم يكن النبي ﷺ عالمًا بمعتقدات القوم، بصيرًا بأحوال الجاهلية، خبيرًا

---

(١) أخرجه البخاري ١٣٩٥، ومسلم ١٩.

بعادات البيئة. لما بدأ معهم بإصلاح العقيدة التي هي في نظره الأهم، ولما ركّز في دعوته على هذه القضايا التي تتصل بالإيمان بالله، ووحدانية الخالق، وترتبط بالاعتقاد بالمغيّبات، حتى إذا دخل القوم حظيرة الإسلام، وخالط الإيمان بشاشة قلوبهم، جاءت مرحلة المهم: ألا وهي التزام القوم الإسلام على أنه أصول معاملة، ومبادئ حكم، ومناهج حياة، وهذا ما ركّز عليه ﷺ في الفترة المدنية حين أقام النبي ﷺ معالم المجتمع الفاضل في المدينة المنورة بعد أن صلحت عقيدة الأمة، وترسّخ في أبنائها الإيمان بالمغيبات)[١].

رابعًا - من أساليب الدعوة : السؤال والنهي:

١ - السؤال: حيث جاء في الحديث: "فعلام نبايعك" والسؤال أسلوب من أساليب الدعوة التي بها يتوصل المدعو إلى معرفة ما يريد، والاستفسار عما يجهل من الأمور. وفي الحديث سأل الصحابة رضي الله عنهم النبي ﷺ عن الأشياء التي يبايعونه عليها.

٢ - النهي: وذلك حيث جاء في الحديث: "ولا تسألوا الناس شيئًا" وأسلوب النهي من أساليب الدعوة النافعة حيث يشعر المدعو بخطورة المنهي عنه وضرورة الحذر منه. وفي الحديث نهاهم الرسول ﷺ عن سؤال الناس شيئًا من حوائج الدنيا، وأن المسلم يجب أن يتعود على العفة.

خامسًا - من موضوعات الدعوة: فضل العفة وعدم السؤال:

حيث جاء في الحديث: "فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحدًا يناوله إياه"، قال النووي: "وفي الحديث التمسك بالعموم لأنهم نهوا عن السؤال فحملوه على عمومه وفيه الحث على التنزه عن جميع ما يسمى سؤالاً وإن كان حقيرًا"[٢]، وما من شك أن العفة مطلوبة ويجب على المسلم الابتعاد عن سؤال الناس إلا في أضيق الأمور".

قال القرطبي: (وأخذه ﷺ على أصحابه البيعة "ألا يسألوا أحدًا شيئًا" حَمْلٌ على

---

(١) كيف يدعو الداعية، عبدالله ناصح علوان، ص ٤٧-٤٩.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦٥٨.

مكارم الأخلاق، والترفع عن تحمل مِنن الخلق، وتعليم الصبر على مضض الحاجات، والاستغناء عن الناس، وعزة النفوس. ولما أخذهم بذلك التزموه في جميع الأشياء وفي كل الأحوال حتى فيما لا تلحق فيه مِنَّة، طردًا للباب وحسمًا للذرائع)[١].

والواجب على المسلم أن يتحلى بالعفة وعدم السؤال حتى وإن كان فقيرًا من المال؛ فالعاقل يرى أن الأموال والأشياء كلها في خزائن الله تعالى لا في يد نفسه، فلا يفرق بين أن تكون بيده أو بيد غيره، وكل رزق في الكون فهو من رزقه.

وللفقير إلى الله آداب في باطنه وظاهره، وآداب في مخالطته، وآداب في أفعاله.

فأما أدب باطنه، فأن لا يكون فيه كراهة لما ابتلاه الله تعالى به من الفقر، فالله أعلم بما يصلح له، وإن كان كارهًا للفقر، فهذا أقل درجاته وهو واجب، وأرفع من هذا أن لا يكون كارهًا للفقر بل يكون راضيًا به، وأرفع منه أن يكون طالبًا له وفرحًا به، لعلمه بغوائل الغنى، كما قال سبحانه: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾[٢].

وأما أدب ظاهره فأن يظهر التعفف والتجمل، ولا يظهر الشكوى والفقر، بل يستر فقره، ويستر أنه يستره، مستغنيًا بربه مفتقرًا إليه وحده، فهؤلاء الفقراء الأغنياء: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾[٣].

وأما في أعماله فأن لا يتواضع لغني لأجل غناه، فهذه رتبة، وأقل منها أن لا يخالط الأغنياء، ولا يرغب في مجالسهم؛ لأن ذلك من مبادئ الطمع وهو مذموم.

وأما أدبه في أفعاله فينبغي له أن لا يفتر بسبب الفقر عن العبادة، ولا يمنع بذل قليل

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين.ديب مستو وآخرين ٣/٨٦.

(٢) سورة العلق، آية: ٦، ٧.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٧٣.

ما يفضل عن حاجته، فإن ذلك جهد المقل، وفضله أكثر مما يبذل عن ظهر غني.

والسؤال محرم في الأصل، وإنما يباح لضرورة أو حاجة مهمة.

وإنما حرمه الشرع؛ لأنه لا ينفك عن ثلاثة أمور محرمة:

الأول: أنه إظهار لشكوى الله تعالى، إذ السؤال إظهار للفقر، وذكر لقصور نعمة الله تعالى عنه، وهو عين الشكوى لله.

وكما أن العبد المملوك لو سأل غير سيده لكان سؤاله تشنيعًا على سيده، فكذلك سؤال العباد تشنيع على الله تعالى، فهو محرم لا يحل إلا لضرورة كما تحل الميتة للمضطر.

الثاني: أنه فيه إذلال السائل نفسه لغير الله تعالى، وليس للمؤمن أن يذل نفسه لغير الله، بل عليه أن يذل نفسه لمولاه، فأما الخلق فإنهم عباد أمثاله، فلا ينبغي أن يذل لهم إلا لضرورة، وفي السؤال ذل للسائل، وظلم للمسؤول من الخلق.

الثالث: أن السؤال لا ينفك عن إيذاء المسؤول غالبًا؛ لأنه ربما لا تسمح نفسه بالبذل عن طيب نفس، فإن بذل حياء من السائل أو رياء فهو حرام على الآخذ، وإن منع ربما استحيا وتأذى في نفسه بالمنع. ففي المنع نقصان جاهه، وفي البذل نقصان ماله، وكلاهما مؤذيان، والسائل هو السبب في الإيذاء، وأذى المسلم محرم.

والفقراء أربعة:

فقير لا يسأل، وإن أعطي لا يأخذ، فهذا بأرفع المنازل.

وفقير لا يسأل، وإن أعطي أخذ، فهذا دونه.

وفقير يسأل عند الحاجة، فهذا دونه. وهؤلاء كلهم محمودون.

وفقير يسأل من غير حاجة وضرورة، فهذا مذموم، وصاحبه مأزور غير مأجور. قال النبي ﷺ: ((مَنْ سَأَلَ النَّاسَ أَمْوَالَهُمْ تَكَثُّرًا، فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْرًا. فَلْيَسْتَقِلَّ أَوْ لِيَسْتَكْثِرْ))[1].

وحب الدنيا رأس كل خطيئة، ومقاطعتها إما أن تكون بانزوائها عن العبد،

---

(١) أخرجه مسلم ١٠٤١.

ويسمى ذلك فقرًا، وإما بانزواء العبد عنها، ويسمى ذلك زهدًا. ولكل واحد منهما درجة في نيل السعادة.

والدنيا ليست محذورة لعينها، بل لكونها عائقة عن الوصول إلى الله تعالى. والفقر ليس مطلوبًا لعينه، بل لأن فيه فقد العائق عن الله تعالى، وعدم التشاغل به، وكم من غني شغله غناه عن ربه؟ وعن تنفيذ أوامره؟

وكم من فقير شغله فقره عن ربه، وعن امتثال أوامره، وصرفه عن حب الله والأنس به، وإنما الشاغل له حب الدنيا، والدنيا معشوقة الغافلين.

فالمحروم منها مشغول بطلبها. والقادر عليها مشغول بحفظها وجمعها والتمتع بها، وتنميتها والاستكثار منها)[1].

(١) موسوعة فقه القلوب، محمد بن إبراهيم التويجري ٢/١٩١٢-١٩١٥.

الحديث رقم (٥٢٩)

٥٢٩ - وعن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أنَّ النَّبيَّ ﷺ، قَالَ: ((**لاَ تَزَالُ الْمَسْأَلَةُ بأَحَدِكُمْ حَتَّى يَلْقَى الله تَعَالَى وَلَيْسَ فِي وَجْهِهِ مُزْعَةُ لَحْمٍ**)) متفقٌ عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

المُزعة: القطعة[2].

الشرح الأدبي

التعبير بفعل الزوالَ المنفي (لا تزال) الدال على الاستمرارية المؤذنة بالإصرار، والتمادي في الفعل المذموم وقوله (بأحدكم) يشمل كل من يسأل الناس من غير ضرورة، والتعبير ب(حتى) بيان للغاية، وقوله (يلقى الله) يصعِّد الرهبة من الموقف مع تعاطي الفعل، وهو سؤال الناس، وقوله (وَلَيْسَ فِي وَجْهِهِ مُزْعَةُ لَحْمٍ) قَالَ الْخَطَّابِيُّ: يَحْتَمِل وُجُوهًا أَنْ يَأْتِي يَوْم الْقِيَامَة ذَلِيلًا سَاقِطًا لَا جَاه لَهُ وَلَا قَدْر كَمَا يُقَال: لِفُلَانٍ وَجْه عِنْد النَّاس فَهُوَ كِنَايَة، وَأَنْ يَكُون قَدْ نَالَتْهُ الْعُقُوبَة فِي وَجْهه فَعُذِّبَ حَتَّى سَقَطَ لَحْمه عَلَى مَعْنَى مُشَاكَلَة عُقُوبَة الذَّنْب مَوَاضِع الْجِنَايَة مِنْ الْأَعْضَاء كَقَوْلِهِ ﷺ رَأَيْت لَيْلَة أُسْرِيَ بِي قَوْمًا تُقْرَض شِفَاههمْ: فَقُلْت يَا جِبْرِيل مَنْ هَؤُلَاءِ قَالَ هُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ وَأَنْ يَكُون ذَلِكَ عَلَامَة لَهُ وَشِعَارًا يُعْرَف بِهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ عُقُوبَة مَسَّتْهُ فِي وَجْهه وَقَالَ اِبْن بَطَّال: جَازَاهُ اللَّه مِنْ جِنْس ذَنْبه حِين بَذَلَ مَاء وَجْهه وَعِنْده الْكِفَايَة وَإِذَا لَمْ يَكُنْ اللَّحْم فِيهِ فَتُؤْذِيه الشَّمْس أَكْثَر مِنْ غَيْره وَأَمَّا مَنْ سَأَلَ مُضْطَرًّا فَيُبَاح لَهُ السُّؤَال وَيُرْجَى لَهُ أَنْ يُؤْجَر عَلَيْهِ إِذَا لَمْ يَجِد عَنْهُ بُدًّا[3].

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٧٤)، ومسلم (١٠٣/١٠٤٠) واللفظ له. أورده المنذري في ترغيبه (١١٧٤).

(٢) رياض الصالحين ٢٤٨.

(٣) انظر: حاشية السندي حديث (٢٥٣٨).

فقه الحديث

هذه الأحاديث تشير إلى الأحكام الفقهية التالية:

حكم السؤال من غير ضرورة: اتفق العلماء على كراهية السؤال والتنفير منه إذا لم تدع إليه ضرورة من خوف هلاك ونحوه، واختلفوا فيمن تحل له المسألة، فذهب الحنفية إلى أن من كان له قوت يومه لا يحل له السؤال، وذهب المالكية إلى أن من كان له أوقية من فضة "وهي أربعون درهم"[1] فالسؤال له مكروه، وذهب الشافعية إلى أنه إذا كان قادرًا على الكسب حرم عليه السؤال، وإن كان عاجزًا محتاجًا فليس بحرام، وذهب الحنابلة إلى أنه إذا كان له ما يكفيه حرم عليه السؤال[2].

المضامين الدعوية

أولاً : من أساليب الدعوة: الإخبار، والترهيب

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: خطر المسألة يوم القيامة

ثالثًا: من أهداف الدعوة : الترهيب من المسألة والحث على الاستعفاف

أولاً - من أساليب الدعوة: الإخبار، والترهيب:

١ - الإخبار: وذلك حيث جاء في الحديث: "لاتزال المسألة بأحدكم حتى يلقي الله تعالى"، ومما لا شك فيه أن أسلوب الإخبار من أساليب الدعوة التي تُعرِّف المدعوين عما خفى عليهم، وبالإخبار تقوم الحجة على الناس بالتبليغ وبالإخبار أمر الله المرسلين، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ﴾[3] وعلى الدعاة إلى الله تحري

---

(١) درهم الفضة يساوي ٢,٨١٢ جرامًا، وعلى هذا فأوقية الفضة تساوي ١١٢,٥١٢ جرامًا. معجم لغة الفقهاء ٧٧.

(٢) الاختيار ٣٦/٤، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن المغربي ٢٧٧/٦، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢٣٩/٦، ومطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، السيوطي ٣٢٠/٥.

(٣) سورة المائدة، آية: ٦٧.

الصدق في الخبر بالاعتماد على القرآن والسنة لأن جميع أخبارهما صادقة لا ريب فيها، وهذا الأمر مما تتميز به الدعوة الإسلامية.

٢ - الترهيب: حيث جاء في الحديث: "حتى يأتي يوم القيامة ليس في وجهه مزعة لحم" ولا شك أن في هذا ترهيب للمدعوين من خطورة المسألة، وأسلوب الترهيب يحمل النفس على سلوك الطريق السوي (والنفس البشرية بقدر ميلها لأساليب الترغيب لحرصها على ما ينفعها فإنها بحاجة إلى الترهيب لردعها عن غيها وانحرافها عن الطريق المستقيم لأن الترهيب فيه تخويف يحمل النفس وصاحبها على ترك المعاصي والآثام واجتناب الجرائم والذنوب، وبيان ما أعده الله تعالى من شديد العقاب، وأليم العذاب لمن طغى وبغى وعاند وعصى، فإذا ما أحسن الداعية في عرض ما لديه وإيراد ما عنده فإنه بلا شك سيؤثر في المتلقين أكبر التأثير وأعظمه لأن الإنسان لا يتحمل الزواجر مجرد سماع فكيف إذا كانت حقيقة، وكفى بالموت واعظًا)[1].

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: خطر المسألة يوم القيامة:

حيث جاء في الحديث: "يأتي يوم القيامة ليس في وجهه مُزْعةُ لحم"، قال القاضي عياض: (قيل: معناه: يأتي يوم القيامة ذليلاً ساقطًا لا وجه له عند الله، وقيل هو على ظاهره يحشر وجهه عظمًا دون لحم، عقوبة من الله، وتمييزًا له وعلامة بذنبه لما طلب المسألة بالوجه كما جاء في الأحاديث الأخرى من العقوبات في الأعضاء التي كان بها العصيان، وقيل: ليس على وجهه لحم يقيه حر شمس المحشر وهذا ضعيف، هذا فيمن سأل لغير ضرورة وتكثرًا إذ غر من نفسه، وأخذ باسم الفقر ما لا يحل له، أو يكون مجازًا من ذل السؤال، وبذل الوجه لغير فاقة مضطرة فاستعار لذلك احتراق الوجه بذلك، وأن الاحتطاب وتكلف صعب المعيشة ومشقة الكسب خير له وأصون لإراقة ماء وجهه ورونق محياه، وقد يكون الجمر على وجهه، أي يرد ما يأخذ جمرًا فيكوى به كما جاء في مانع الزكاة. وقد يكون عندي قوله "لقي الله وما في وجهه مزعة لحم"

---

(١) قواعد الدعوة الإسلامية، د. حمدان الهجاري، ص٥١٥.

على ضرب المثل والاستعارة لحاله في الدنيا من ذهاب الحرمة عن وجهه، والصون بذُلّ السؤال حتى مات ولم يبق له وجه عند الناس ولا قدر)[١].

وقال القرطبي: (وقوله في الحديث "وليس في وجهه مزعة لحم" أي قطعة لحم، ومنه: مزعت المرأة الصوف، إذا قطعته لتهيئه للغزل وتمزع أنفه أي تشقق وهذا محمول على كل من سأل سؤالاً لا يجوز له. وخص الوجه بهذا النوع، لأن الجناية به وقعت إذ قد بذل من وجهه ما أمر بصونه عنه، وتصرف به في غير ما سوِّغ له)[٢].

وقال ابن حجر: (قال الخطابي: يحتمل أن يكون المراد أنه يأتي ساقطًا لا قدر له ولا جاه أو يعذب في وجهه حتى يسقط لحمه لمشاكلة العقوبة في مواضع الجناية من الأعضاء لكونه أذل وجهه بالسؤال، أو أنه يبعث ووجهه عظم كله فيكون ذلك شعاره الذي يعرف به وقال ابن أبي جمرة: "معناه ليس في وجهه من الحسن شيء لأن حسن الوجه هو بما فيه من اللحم. والمراد به من سأل تكثرًا وهو غني لا تحل له الصدقة وأما من سأل وهو مضطر فذلك مباح له فلا يعاقب عليه)[٣].

وقال د. الحسيني هاشم: (طَبْع الإنسان الاستكثار من الدنيا، وقد يلجأ إلى تحصيله بالسؤال وإذلال النفس، والتحايل على الناس، فيلقى الله تعالى يوم القيامة ذليلاً حقيرًا ظاهرة عليه علامات ذلك، بتهري وجهه وذهاب لحم هذا الوجه وبقاء هيكله)[٤].

ثالثًا - من أهداف الدعوة: الترهيب من المسألة والحث على الاستعفاف:

يظهر هذا من سياق الحديث حيث: إن من أهداف الدعوة ترهيب المدعوين وتخويفهم من المسألة، وبيان لخطورتها، وحث للمدعوين على الاستعفاف، وقد مدح

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٣/٥٧٤-٥٧٥.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٣/٨٥.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣/٣٩٧

(٤) شرح رياض الصالحين ٣٤٥.

الله الذين يتعففون عن السؤال فقال: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾[١].

قال ابن كثير: (إن الجاهل بأمرهم وحالهم يحسبهم أغنياء من تعففهم في لباسهم وحالهم ومقالهم فهم لا يلحون في المسألة ويكلفون الناس مالا يحتاجون إليه فإن من سأل وله ما يغنيه عن السؤال فقد ألحف في المسألة)[٢].

وقال د. محمد محمود حجازي: (وهذه الآية في بيان صفات الفقراء الذين يستحقون الصدقة والإنفاق عليهم فهم يحسبهم الجاهل أغنياء من عفتهم وصبرهم وقناعتهم فعندهم عزة المؤمنين وتوكل المتوكلين، وتعرفهم بسيماهم وعلامتهم الضمور والنحول والضعف ورثاثة الثياب، وفي الواقع هذا متروك لفراسة المؤمن فرب فقير له مظهر، وغني رث الثياب ملحف في السؤال، ولا يسألون الناس أصلاً أو لا يسألون ملحين وملحفين. والسؤال في الإسلام محرم إلا لضرورة فالمسألة لا تحل إلا لذي فقر مدقع أو لذي غرم مفظع أو لذي دم موجع)[٣]. إن من الأمور التي يجب أن يوجه إليها الدعاة المدعوين العفة عن السؤال وتربية الجماعة المؤمنة على العزة والكرامة.

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٧٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١/٧٠٤.

(٣) التفسير الواضح، د. محمد محمود حجازي ، ١/٢/٢١-٢٢.

الحديث رقم (٥٣٠)

٥٣٠ - وعنه: أنَّ رسول الله ﷺ قَالَ وَهُوَ عَلَى المِنْبَرِ، وَذَكَرَ الصَّدَقَةَ وَالتَّعَفُّفَ عَنِ الْمَسْأَلَةِ: ((**اليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى، وَاليَدُ العُلْيَا هِيَ الْمُنْفِقَةُ، وَالسُّفْلَى هِيَ السَّائِلَةُ**)) متفقٌ عَلَيْهِ[١].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

الشرح الأدبي

الحديث يقرر أفضلية اليد المنفقة المتصدقة التي تواسي، وتعين، وتمسح دموع الحزن التي تفجرت من ينابيع الحاجة، وقد استخدم أسلوب المطابقة بين المعاني لتقرير الأفضلية بين اليد الممتدة بالعطاء، واليد الممتدة فقط لتأخذ حيث قابل العليا بالسفلى، ليصور الفارق بين الاثنين بالمدى المحسوس بين الجهتين ارتفاعا في سمو بمحاسن الأفعال، وانخفاضا، وانحطاطا بذل السؤال، وحتى لا ينظر إنسان لعلو اليد، وانخفاضها من ناحية القوة، والضعف أو من ناحية الغنى، والفقر، وقد جاء تفسيره للعلو، والانخفاض بقوله: (وَاليَدُ العُلْيَا هِيَ الْمُنْفِقَةُ، وَالسُّفْلَى هِيَ السَّائِلَةُ) في طباق بين المنفقة، والسائلة يقرر سبب الانخفاض، والارتفاع، حتى يحرص كل مؤمن على أن تكون يده عالية دائماً تقرباً لله تعالى.

فقه الحديث

إباحة الكلام للخطيب بكل ما فيه إصلاح:

قال ابن حجر: (قال ابن عبدالبر: في الحديث إباحة الكلام للخطيب بكل ما يصلح من موعظة وعلم وقربة)[٢].

المضامين الدعوية[٣]

---

(١) أخرجه البخاري ١٤٢٩، ومسلم ١٠٣٣/٩٤ ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه ١٢٠٨.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٩٨/٣.

(٣) هذا الحديث تقدم معظم معناه برقم ٢٩٦ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، و٥٢٦ من حديث حكيم ابن حزام رضي الله عنه.

الحديث رقم (٥٣١)

٥٣١ - وعن أَبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: ((مَنْ سَأَلَ النَّاسَ تَكَثُّرًا، فإنَّمَا يَسْأَلُ جَمْرًا ؛ فَلْيَسْتَقِلَّ أَوْ لِيَسْتَكْثِرْ)) رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

تكثرًا : ليكثر ويزيد ماله[٢].

جمرًا : يعاقب بالنار[٣].

الشرح الأدبي

فقول الرسول ﷺ (فليستقل أو ليستكثر) أمر للتهديد والوعيد عن طريق التخيير بعد أن أحال مال هذا المستكثر من المسألة إلى جمر يجمعه السائل، ثم ترك له بعد أن بيَّن له حقيقة المسألة حرية الاختيار في الكثرة، والقلة تهديدا ووعيداً، قال الأحوذي :(فمن شاء فليقل ومن شاء فليكثر) وهما أمرا تهديد ونظيره قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا﴾[٤][٥]، وقال الفخر الرازي: في تفسير الآية أيضاً أن الأمر يأتي كثيراً لغير الطلب في كتاب الله ثم نقل عن على بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال هذه الصيغة تهديد ووعيد وليست للتخيير)[٦] وعلى هذا

---

(١) برقم ١٠٤١/١٠٥. أورده المنذري في ترغيبه ١١٨٧.

(٢) القاموس المحيط، الفيروز آبادي في (ك ث ر).

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦٥٧.

(٤) سورة الكهف الآية ٢٩

(٥) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٢٥٦/٣.

(٦) انظر: التفسير الكبير (مفاتيح الغيب للرازي الإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن على التميمي الرازي الشافعي) ١٠٢/٢١.

القول ليس المقصود من الآية التخيير بل هي للتهديد، والوعيد، وذكر العلامة الألوسي أن قوله :(فمن شاء فليؤمن ....) من تمام القول المأمور به، فالفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها بطريق التهديد .. ونقل عن غيره: أن قوله :(فمن شاء فليؤمن....) الخ تهديد من جهته تعالى غير داخل تحت القول المأمور به فالفاء لترتيب ما بعدها من التهديد على نفس الأمر أي قل لهم ذلك، وبعد ذلك فمن شاء أن يؤمن به أن يصدقك، فليفعل ومن شاء أن يكفر أو أن يكذبك فيه فليفعل، وعلى الوجهين ليس المراد حقيقة الأمر والتخيير وهو ظاهر)[1]. وعلى ذلك ومن خلال تنظير العلامة الأحوذي بين الآية الكريمة والحديث الشريف :(فليستقل أو ليستكثر) يمكننا القول أن الأمر في الحديث للتهديد والوعيد عن طريق التخيير دون أن يكون المقصود التخيير بل كان هذا التخيير وسيلة للتهديد والوعيد لكل من تسول له نفسه الاسترسال في سؤال الناس ليستكثر، وهو في الحقيقة يستكثر من الجمر؛ وهذا من أبلغ التهديد وأبعده غوراً في النفس[2].

المضامين الدعوية

أولاً : من موضوعات الدعوة: التحذير من المسألة.

ثانيًا: من أساليب الدعوة : التشبيه والتحذير.

ثالثًا: من واجبات المدعو: الاستجابة لتوجيهات النبي ﷺ.

أولاً - من موضوعات الدعوة: التحذير من المسألة:

حيث جاء في الحديث: "من سأل الناس أموالهم تكثرًا فإنما يسأل جمرًا فليستقل أو ليستكثر" قال النووي: (قال القاضي: معناه أن يعاقب بالنار ويحتمل أن يكون على ظاهره وأن الذي يأخذه يصير جمرًا يكوي بها كما ثبت في مانع الزكاة)[3].

(١) تفسير (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني) للعلامة الألوسي البغدادي ٢٦٦/١٥.

(٢) انظر: الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في صحيح الترغيب، والترهيب للحافظ المنذري، د. ناصر راضي الزهري، ١٠٤، مخطوطة بكلية اللغة العربية بأسيوط، جامعة الأزهر.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦٥٧.

وقال القرطبي: (وقوله "من سأل الناس أمواله تكثرًا" أي استكثارًا منها من غير حاجة ولا ضرورة. وقوله "فإنما يسأل جمرًا" أي يعذب بحسب مسائله التي هي غير جائزة. وقوله "فليستكثر من ذلك أو ليستقلل" هو أمر على جهة التهديد أو على جهة الإخبار عن مآل حاله والمعنى: فإنه يعاقب عن القليل من ذلك والكثير)[(١)].

وقد دلت الأحاديث على التحذير من المسألة فعن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: ((مَنْ سَأَلَ وَلَهُ مَا يُغْنِيهِ جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ خُمُوشٌ أَوْ خُدُوَشٌ أَوْ كُدُوحٌ فِي وَجْهِهِ، فَقِيلَ يَا رسولَ الله وَمَا الْغِنَى؟ قَالَ خَمْسُونَ دِرْهَمًا أَوْ قِيمَتُهَا مِنَ الذَّهَبِ))[(٢)].

وعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((مَنْ يكفَّلَ لِي أَنْ لاَ يَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئًا وأَتَكَفَّلَ لَهُ بالْجَنَّةِ، فَقَالَ ثَوْبَانُ أَنَا فَكَانَ لاَ يَسْأَلُ أَحَدًا شَيْئًا))[(٣)].

وعن سمرة عن النبي ﷺ قال: ((المَسَائِلُ كُدُوحٌ يَكْدحُ بِهَا الرَّجُلُ وَجْهَهُ فَمَنْ شَاءَ أَبْقَى عَلَى وَجْهِهِ وَمَنْ شَاءَ تَرَكَ. إلاَّ أَنْ يَسْأَلَ الرَّجُلُ ذَا سُلْطَانٍ أَوْ فِي أَمْرٍ لاَ يَجِدُ مِنْهُ بُدًّا))[(٤)].

قال العظيم آبادي: (والمراد هنا سؤال أموال الناس وقوله "كدوح" مثل صبور للمبالغة من الكدح بمعنى الجرح أو هي آثار الخموش قال في المرقاة فالإخبار به عن المسائل باعتبار من قامت به، أي سائل الناس أموالهم جارح لهم بمعنى مؤذيهم أو جارح وجهه. وقوله "يكدح بها الرجل" أي يجرح ويشين بالسائل "وجهه" ويسعى في ذهاب عرضه بالسؤال يريق ماء وجهه فهي كالجراحة. فمن شاء الإبقاء على ماء وجهه من الحياء بترك السؤال والتعفف، ومن شاء عدم الإبقاء وقوله "إلا أن يسأل الرجل ذا سلطان" فيه دليل جواز سؤال السلطان من الزكاة أو بيت المال أو نحو ذلك فيخص به

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٨٥/٣.

(٢) أخرجه أبو داود ١٦٢٦ وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ١٤٣٢).

(٣) أخرجه أبو داود ١٦٤٣ وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ١٤٤٦).

(٤) أخرجه أبو داود ١٦٣٩ وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ١٤٤٣).

عموم أدلة تحريم السؤال وقوله "أو في أمر لا يجد منه بدًا" أي علاجًا آخر غير السؤال أو لا يجد من السؤال فراقًا وخلاصًا وفيه دليل على جواز المسألة عند الضرورة والحاجة التي لابد عندها من السؤال كما في الحمالة والجائحة والفاقة بل يجب حال الاضطرار في العري والجوع)(١).

وقال ابن علان: (من سأل الناس تكثرًا أي ليكثر ماله مما يجتمع عنده بسبب السؤال فإنما يسأل جمرًا فليستقل أو فليستكثر أو فيه للتخيير أي فهو مخير، إذ عرف مآل ذلك بين الاستكثار والاستقلال فيكثر عذابه أو يقل)(٢)، ومما لا شك فيه أن العفة عن السؤال من مطالب الشريعة قال الجرجاني: (العفة هي هيئة للقوة الشهوية متوسطة بين الفجور الذي هو إفراط هذه القوة والخمود الذي هو تفريطه فالعفيف من يباشر الأمور على وفق الشرع والمروءة)(٣).

وقال ابن الجوزى: (ودليل كمال صورة البدن حسن السمت واستعمال الأدب، ودليل كمال صورة الباطن حسن الطبائع والأخلاق. فالطبائع: العفة والنزاهة والأنفة من الجهل، ومباعدة الشره. والأخلاق: الكرم والإيثار وستر العيوب وابتداء المعروف، والحلم عن الجاهل فمن رزق هذه الأشياء رقته إلى الكمال، وظهر عنه أشرف الخلال، وإن نقصت خلة أوجبت النقص)(٤)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: شهدت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول: ((والله لأن يأتي أحدكم صيرًا ، ثم يحمله يبيعه فيستعف منه، خير له من أن يأتي رجلاً يسأله))(٥).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قَدْ كَانَ رَسُولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم يُعْطِينِي الْعَطَاءَ. فَأَقُولُ: أَعْطِهِ أَفْقَرَ إِلَيْهِ مِنِّي. حَتَّى أَعْطَانِي مَرَّةً مَالاً. فَقُلْتُ: أَعْطِهِ أَفْقَرَ إِلَيْهِ مِنِّي. فَقَالَ

(١) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ٧٤٧.

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٨٠٣.

(٣) التعريفات ١٥١.

(٤) صيد الخاطر، ابن الجوزي، تحقيق: عبدالقادر عطا ٢٨٩.

(٥) أخرجه أحمد في مسنده ٥١٣/٢، رقم ١٠٦٥٨، وقال محققو المسند: رجاله ثقات رجال الشيخين ٣٨٥/١٦.

رَسُولُ اللّهِ ﷺ : خُذْهُ. وَمَا جَاءَكَ مِنْ هذَا الْمَالِ وَأَنْتَ غَيْرُ مُشْرِفٍ وَلاَ سَائِلٍ، فَخُذْهُ. وَمَا لاَ ، فَلاَ تُتْبِعْهُ نَفْسَكَ))[١].

قال ابن مفلح: (كان يقال الشكر زينة الغني والعفاف زينة الفقر والصبر)[٢]. وما من شك في أن ترك المسألة وعفة النفس لها فوائد ومن ذلك: (أنها ركن من أركان المروءة التي ينال بها الحمد والشرف، وإشاعتها في المجتمع تجعله صالحاً وهي دليل كمال النفس وعزها، ودليل وفرة العقل ونزاهة النفس)[٣].

ثانيًا - من أساليب الدعوة : التشبيه والتحذير:

١ - التشبيه: حيث جاء في الحديث: "فإنما يسأل جمرًا" وفيه تشبيه المال المأخوذ عن طريق السؤال بالجمر ولا شك أن التشبيه من أساليب الدعوة التي تساعد على إيصال المعنى إلى المدعوين" إن إبراز المعاني باختصار في معرض التمثيل ابتداء أو مجيئه في أعقاب المعاني وعلى أثرها لإيضاحها وتقريرها آكد وقعًا في القلوب وأبلغ أثرًا في النفوس[٤].

٢ - التحذير: حيث جاء في الحديث: "من سأل الناس تكثرًا فإنما يسأل جمرًا" وأسلوب التحذير من أساليب الدعوة التي تلفت انتباه المدعوين إلى خطورة المحذر منه. وفي الحديث حذر النبي ﷺ من المسألة وجعل من يفعل هذا كأنما يسأل جمرًا.

ثالثًا - من واجبات المدعو: الاستجابة لتوجيهات النبي ﷺ:

يظهر هذا من دلالات الحديث ذلك لأن الرسول الكريم لا يحذر إلا من كل مكروه وسيئ، وقد دلت النصوص الشرعية على وجوب الاستجابة لتوجيهات الله ورسوله ﷺ قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا

---

(١) أخرجه البخاري ٧١٦٤ ، ومسلم ١٠٤٥ واللفظ له.

(٢) الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ٣١٠/٢

(٣) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن محمد بن ملوح ٢٨٨٨/٧.

(٤) هداية المرشدين، علي محفوظ، ١٧٨.

تُحۡيِيكُمۡ﴾[١]، وقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا﴾[٢]، فواجب المدعو أن يسارع إلى الاستجابة لتوجيهات النبي ﷺ. وذلك لأنه الأسوة والقدوة.

قال ابن حزم: (من أراد خير الآخرة، وحكمة الدنيا، وعدل السيرة، والاحتواء على محاسن الأخلاق كلها، واستحقاق الفضائل بأسرها - فليقتد بمحمد رسول الله ﷺ - وليستعمل أخلاقه وسيره ما أمكنه، أعاننا الله على الاتساء به بِمَنِّهِ آمين)[٣].

وقال الشاطبي: (وحاصل الأمر أن أصحابه رضي الله عنهم كانوا مقتدين به مهتدين بهديه، وقد جاء مدحهم في القرآن الكريم وأثنى على متبوعهم محمد ﷺ، وإنما خلقه ﷺ القرآن، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٤] فالقرآن إنما هو المتبوع على الحقيقة وجاءت السنة مبينة له، فالمتبع للسنة متبع للقرآن، والصحابة كانوا أولى الناس بذلك فكل من اقتدى بهم فهو من الفرقة الناجية الداخلة للجنة بفضل الله فالكتاب والسنة هما الطريق المستقيم، وما سواهما من الإجماع وغيره فناشئ عنهما)[٥].

وقد تكاثرت النصوص الشرعية في ضرورة الاستجابة لتوجيهات النبي ﷺ واتباع سنته وهديه. والسنة مصدر للتشريع، دل على هذا الكتاب بنصوصه الكثيرة وبأساليب مختلفة، من ذلك:

أ - التصريح بأن النبي ﷺ لا ينطق عن الهوى وإنما هو وحي من الله، وما كان من عند الله يلزم اتباعه، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾[٦].

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٢٤.

(٢) سورة النور، آية : ٥١.

(٣) الأخلاق والسير ٢٤.

(٤) سورة القلم، آية: ٤.

(٥) الاعتصام ٢/٤٤٣.

(٦) سورة النجم، الآيتان: ٣، ٤.

ب - الأمر بطاعة الرسول قال تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾(١).

ج - جعل طاعة الرسول طاعة لله قال تعالى: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾(٢).

د - الأمر باتباع ما يأتينا به الرسول قال تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾(٣).

هـ - وجوب رد المتنازع فيه إلى الله أي إلى كتابه وإلى الرسول أي إلى سنته، قال تعالى: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾(٤).

و - وجوب تحكيم الرسول ﷺ فيما يحصل فيه الاختلاف، وقبول ما يحكم به قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾(٥).

ز - لا خيار للمسلم فيما قضى به الله أو قضى به رسوله قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾(٦).

ح - التحذير بالعذاب الأليم من مخالفة الرسول ﷺ قال تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(٧).

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٣٢.

(٢) سورة النساء، آية: ٨٠.

(٣) سورة الحشر، آية: ٧.

(٤) سورة النساء، آية: ٥٩.

(٥) سورة النساء، آية: ٦٥.

(٦) سورة الأحزاب، آية: ٣٦.

(٧) سورة النور، آية: ٦٣.

ط - أعطى الله رسوله سلطة بيان أحكام القرآن، لأن في القرآن أحكامًا مجملة تحتاج إلى تفصيل وبيان حتى يصح بها التكليف، ولهذا بينها النبي ﷺ بما له من سلطة البيان قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[١]. فهذه النصوص وأمثالها تدل على أن السنة حجة وواجبة الاتباع ومتممة للكتاب ومصدر للتشريع[٢].

(١) سورة النحل، آية: ٤٤.

(٢) المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، د. عبدالكريم زيدان، ١٦٠-١٦١.

الحديث رقم (٥٣٢)

٥٣٢ - وعن سَمُرَةَ بنِ جُنْدبٍ ﷺ، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: ((**إنَّ المَسْأَلَةَ كَدٌّ يَكُدُّ بِهَا الرَّجُلُ وَجْهَهُ، إلاَّ أنْ يَسْأَلَ الرَّجُلُ سُلْطانًا أَوْ فِي أمْرٍ لاَ بُدَّ مِنْهُ**)) رواه الترمذيُّ[1]، وقال: (حديث حسن صحيح).

ترجمة الراوي:

سَمُرة بن جندب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٥٨).

غريب الألفاظ:

الكدُّ: الخدش ونحوه[2].

الشرح الأدبي

قول الرسول ﷺ (إنَّ المَسْأَلَةَ كَدٌّ) تشبيه للمسألة بالخدوش، والجروح بجامع التشويه، وإحداث الضرر في كل، والغرض منه التقبيح، والتنفير من السؤال ثم إن هذه الصورة توقع في نفس المخاطب الراغب في المسألة الإحساس بالرهبة من تمزيق وجهه مما يحدث الألم، ويشوه الوجه، وقد أكدها بقوله (يَكُدُّ بِهَا الرَّجُلُ وَجْهَهُ) وتخصيص الوجه؛ لأنه الذي يمتهن بذل السؤال وهو أكرم أعضاء الإنسان، ونسبة كد الوجه إلي صاحب الوجه تزيد الصورة تقبيحاً، وتنفيراً لأنه هو الذي فعل ذلك بنفسه، حتى لا يقدم عليه إلا شديد الحاجة الذي لا يجد منه بدا، ولذلك استثنى رحمة بذي الحاجة المضطر، في قوله (إلاَّ أنْ يَسْأَلَ الرَّجُلُ سُلْطاناً أَوْ فِي أمْرٍ لاَ بُدَّ مِنْهُ) فجعل المسألة في السلطان، أو عند الاضطرار.

---

(١) برقم ٦٨١. وصحّحه أيضًا ابن حبان، الإحسان ٣٣٨٦. أورده المنذري في ترغيبه ١١٧٥.

(٢) لسان العرب، ابن منظور في (ك د د).

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: خطورة المسألة.

ثالثًا: من صفات الداعية: البيان والتوضيح.

أولاً - من أساليب الدعوة: التوكيد:

ورد أسلوب التوكيد في الحديث في تأكيد كلامه ﷺ بـ"إن" فقال "إن المسألة كدّ يَكُدُّ بها الرجل وجهه... الحديث" وذلك تأكيدًا لشناعة المسألة وتأثيرها السلبي على صاحبها في الدنيا والآخرة، وأسلوب التوكيد من الأساليب الدعوية المؤثرة لما يوقعه في قلب المدعو من اقتناع وحمله على الامتثال لما دعي إليه.

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: خطورة المسألة:

إن من أخطر الأمراض الاجتماعية وأسوأ الأخلاق على المجتمع والأفراد المسألة ومد اليد للغير، وقد بين النبي ﷺ في الحديث خطورة المسألة على المستوى الفردي فقال "إن المسألة كد يَكُدُّ بها الرجل وجهه" قال ابن الأثير: الكد: الأتعاب، يقال كد يَكُدُّ في عمله كدًا إذا استعجل وتعب، وأراد بالوجه ماءه ورونقه[1] فالمسألة تذهب بحياء الرجل وعزته وكما قال ﷺ ((المَسْأَلة كُدُوحٌ يَكْدحُ بهَا الرَّجُلُ وَجْهَهُ فَمَنْ شَاءَ أَبْقَى عَلَى وَجْهِهِ وَمَنْ شَاءَ تَرَكَ))[2] أي من شاء أبقى على ماء وجهه من الحياء بترك السؤال والتعفف ومن شاء ترك[3] وقد لمح إلى هذا المعنى من قال:

إذا أظـمأتك أكـف اللئـام	كفتـك القناعـة شـبعًا وريـا
فكـن رجـلاً رجلـه في الثـرا	وهامـة همتـه في الثريـا
فـإن إراقـة مـاء الحيـاة	دون إراقـة مـاء المحيـا[4]

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، ص ٧٩٤.

(٢) أخرجه أبو داود ١٦٣٩، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ١٤٤٣).

(٣) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي، ص ٧٤٦.

(٤) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٨٠٣، ٨٠٤.

فنجد أن الإسلام منع وحذر أتباعه من المسألة وحضّهم على التعفف وأثنى على المتخلقين به، قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾[(١)] ولما نهى الإسلام عن التطلع إلى ما في يد الغير، وأمر بالعفة لفت الأنظار إلى ما عند الله من رزق هو خير وأبقى، وذلك من عناصر التربية القرآنية الحكيمة، وهي التربية بالتحويل والتصعيد[(٢)] قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[(٣)].

ثالثًا – من صفات الداعية: البيان والتوضيح:

إن من أهم ما ينبغي أن يتصف به الداعية البيان والتوضيح للمدعوين، وقد أمر الله نبيه بذلك فقال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[(٤)] وفي الحديث صورة تطبيقية لذلك، فالرسول ﷺ لم يحرم المسألة على إطلاقها وإنما بين أنها محرمة إلا ما اضطر عليها، فقال: "إن المسألة كد يَكُدُّ بها الرجل وجهه، إلا أن يسأل الرجل سلطانًا أو في أمر لابد منه" فاستثنى الرسول ﷺ أن يسأل الرجل السلطان، أو مَنْ على بيت المال حقه فيعطيه منه إن كان مستحقًا، أو في أمر لابد منه ولا فراق عنه كما في الحمالة والجائحة والفاقة[(٥)] وإن البيان لمن الأهمية بمكان ومن يتصفح آيات البلاغ في القرآن يجد أن معظمها وصفت البلاغ بالمبين قال تعالى: ﴿وَمَا

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٧٣.

(٢) الوجيزة في الأخلاق الإسلامية، عبدالرحمن حسن حبنكة، ص ٤٩٧.

(٣) سورة طه، آية: ١٣١.

(٤) سورة النحل، آية: ٤٤.

(٥) انظر: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٩٠٦/١، ودليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٨٠٤.

عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾[١] قال السعدي: (وما علينا إلا البلاغ المبين) أي البلاغ الذي يحصل به توضيح الأمور المطلوب بيانها[٢].

(١) سورة يس، آية: ١٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٦٤٠.

الحديث رقم (٥٣٣)

٥٣٣ - وعن ابن مسعود رضي الله عنه ، قَالَ: قَالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((مَنْ أصَابَتْهُ فَاقَةٌ فَأنْزَلَهَا بالنَّاسِ لَمْ تُسَدَّ فَاقَتُهُ، وَمَنْ أنْزَلَهَا باللهِ[1] ، فَيُوشِكُ اللهُ لَهُ بِرِزْقٍ عَاجِلٍ أوْ آجِلٍ)) رواه أَبُو داود والترمذيُّ[2] ، وقال: (حديث حسن).

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

غريب الألفاظ:

فاقة: أي حاجة شديدة[3].

فيوشكُ: فيُسرع[4].

الشرح الأدبي

الحديث في الترغيب في الاستعانة بالله، وسؤاله دون الناس، وقد بدأ بالموصول (من) المؤذن بخطاب العاقل المنوط بالحكم، والتكليف مع الرغبة في التزام التوجيه النبوي، والتعبير بالإصابة في صيغة الماضي يفيد التحقق، ونسبة الإصابة للفاقة من نسبة الفعل لمفعوله مبالغة في تمكن الفاقة منه، وشدتها عليه، والفاقة الحاجة الشديدة، وأكثر استعمالها في الفقر، وضيق المعيشة، وقوله (فأنزلها بالناس) أي أظهرها على وجه الشكاية شبه إظهارها للناس، وشكايتها إليهم بالإنزال الذي يتعلق بالمحسوسات، وهي أمر معنوي للمبالغة في إظهارها كالنازل بين الناس من حيث تمام ظهوره لهم، برؤيتهم له، والتعبير بالإنزال يفيد التمكن، لدلالة النزول على سبق العلو،

---

(١) إلى هنا اللفظ لأبي داود، والشطر الباقي اللفظ للترمذي.

(٢) أخرجه أبو داود ١٤٦٥، والترمذي ٢٣٢٦ وقال: حديث حسنٌ صحيحٌ غريبٌ. قال الحاكم ٤٠٨/١: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. أورده المنذري في ترغيبه ١٢٢٩.

(٣) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٨٥٤/٢.

(٤) رياض الصالحين ٢٤٩.

وبناء الفعل (تسد) المنفي لما لم يسم فاعله يعطي المعنى عموما أي لم يجد من يقضي حاجته من أي إنسان، التعبير بـ(يوشك) يدل على اقتراب الفرج منه، والطباق بين عاجل أو آجل يفيد توكيد تحقق الفرج بحصره بين زمانين لا بد من أن يقع في أحدهما .

المضامين الدعوية

أولاً : من موضوعات الدعوة: التحذير من سؤال الناس وعدم سؤال الله.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل اللجوء إلى الله - تعالى - في الشدائد.

ثالثًا: من أساليب الدعوة : الإنذار والتبشير.

رابعًا: من آداب المدعو : الاستعفاف واللجوء إلى الله تعالى.

أولاً - من موضوعات الدعوة: التحذير من سؤال الناس وعدم سؤال الله:

حذر النبي ﷺ في هذا الحديث من سؤال الناس، وبيّن أن ذلك من أسباب الفقر ودوام الفاقة إضافة إلى غضب الله تعالى، ورغّب في التوجه بالسؤال إلى الله تعالى "من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته، ومن أنزلها بالله فيوشك الله له برزق عاجل أو آجل" وقد قال تعالى: ﴿وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾[1] أي سلوا الله ما تتمنونه من النعم[2] وهذا يدل على أن الأمر بالسؤال لله تعالى واجب[3]، وترك سؤاله سبب لغضبه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ "أنه من لم يسأل الله يغضب عليه"[4] وقد أخذ بعض العلماء هذا المعنى فنظمه فقال:

لا تسألن بني آدم حاجة ... وسل الذي أبوابه لا تحجب

الله يغضب إن تركت سؤاله ... وبني آدم حين يسأل يغضب[5]

---

(١) سورة النساء، آية: ٣٢.

(٢) زاد المسير في علم التفسير، أبو الفرج ابن الجوزي، ٢/٧٠.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ، ٣/١٦٤.

(٤) أخرجه الترمذي ٣٦١٣، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٦٨٦).

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ، ٣/١٦٤.

وأمر الله باللجوء إليه بالسؤال والتضرع فقال تعالى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (١).

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: فضل اللجوء إلى الله تعالى في الشدائد:

في هذا الحديث أرشد النبي ﷺ الناس إلى اللجوء إلى الله لاسيما في الشدائد ومنها الفاقة التي ذكرت في الحديث فإن اللجوء إلى الله سبب للفرج، ولا يملك ذلك أحد غير الله، قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ (٢) وفي الحديث تطبيق لذلك: "من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته، ومن أنزلها بالله فيوشك له برزق عاجل أو آجل" فمن اعتمد على مولاه أسرع له بكفايته وغناه (٣). فالواجب على العاقل لزوم الالتجاء إلى الله والتوكل عليه، فهو سبحانه قد تكفل بالأرزاق، فالتوكل على الله هو نظام الإيمان وقرين التوحيد وهو السبب المؤدي إلى نفي الفقر ووجود الراحة، وما توكل أحد على الله جل وعلا من صحة قلبه حتى كان الله جل وعلا بما تضمن من الكفالة أوثق عنده بما حوته يده إلا لم يكله الله إلى عباده وآتاه رزقه من حيث لم يحتسب، قال الشاعر:

توكل على الرحمن في كل حاجة ... أردت فإن الله يقضي ويقدر

متى ما يرد ذو العرش أمرًا بعبده ... يصبه وما للعبد ما يتخير

وقد يهلك الإنسان من وجه أمنه ... وينجو بإذن الله من حيث يحذر (٤)

ثالثًا - من أساليب الدعوة: الإنذار والتبشير:

ورد هذان الأسلوبان في الحديث، فأنذر النبي ﷺ من ينزل بالناس فاقته ويسألهم من غير ضرورة ملحة بدوام فقره، وبشر من وكل أمره إلى الله واعتمد عليه بالفرج والغنى، فقال: "من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته، ومن أنزلها بالله فيوشك

---

(١) سورة غافر، آية: ٦٠.

(٢) سورة النمل، آية: ٦٢.

(٣) عون المعبود، العظيم آبادي، ص ٧٥١.

(٤) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، الحافظ ابن حبان البستي ص ١٥٥.

الله لـه بـرزق عاجـل أو آجـل" وأسـلوب التبـشير والإنـذار مـن الأسـاليب الدعويـة المفيـدة، فالتبشير بفضل الله عز وجل - وعظيم ثوابه وجزيل عطائه وسعة رحمته[١] له أثر كبير في هداية القلوب وتأليفها، وكذلك الإنذار لما فيه من الإعلام والتحذير[٢] قبل وقوع الجزاء ليأخذ الحذر، وبالتبشير والإنذار كان يدعو رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾[٣].

والمبشر: المخبر بالبشرى والبشارة، وهي الحادث المسر لمن يخبر به والوعد بالعطية، والنبي ﷺ مبشر لأهل الإيمان والمطيعين بمراتب فوزهم، وقد تضمن هذا الوصف ما اشتملت عليه الشريعة من الدعاء إلى الخير من الأوامر واجتناب المنهيات، وقدمت البشارة على النذارة لأن النبي ﷺ غلب عليه التبشير لأنه رحمة للعالمين، ولكثرة عدد أمته[٤].

رابعًا - من آداب المدعو: الاستعفاف واللجوء إلى الله تعالى:

شاء الله عز وجل أن يرفع من شأن المسلم، وأن يشعره بكرامته وعزته وذلك بالتحلي بخلق الاستعفاف، واللجوء إلى الخالق، وذلك ما أراد النبي ﷺ أن يغرسه في نفوس المؤمنين حيث قال: "من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته، ومن أنزلها بالله فيوشك الله له برزق عاجل أو آجل" وقد أثنى الله على من اتصفوا بالعفة في جوانب الحياة ومنها مجالات مغريات النفس المالية، وأوصانا بالبحث عنهم وتعهدهم بالعطاء، قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾[٥] وقد أمر الله رسوله ﷺ وهو في نفس الوقت أمر لأمته

---

(١) شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين، ص ٦٦٨.

(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ص ٩٠٩.

(٣) سورة الأحزاب، آية: ٤٥.

(٤) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ٥٣/٢٢/٩.

(٥) سورة البقرة، آية: ٢٧٣.

بالتعفف وعدم النظر والتطلع إلى ما لدى الغير من متاع الحياة الدنيا، ولفت الأنظار إلى ما عند الله من الرزق الذي هو خير وأبقى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[١].

قال ابن كثير في تفسير الآية: (يقول الله لنبيه محمد ﷺ لا تنظر إلى هؤلاء المترفين وأشباههم ونظرائهم وما فيه من النعيم فإنما هو زهرة زائلة ونعمة حائلة، أما رزق الله وما ادخره لرسوله وللمؤمنين في الدار الآخرة فهو أمر عظيم لا يُحدُّ ولا يوصف)[٢].

---

(١) سورة طه، آية: ١٣١.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: تحقيق: سامي بن محمد السلامة، ٣٢٦/٥.

الحديث رقم (٥٣٤)

٥٣٤ - وعن ثوبان رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: ((مَنْ تَكَفَّلَ لِي أنْ لاَ يَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئًا، وَأتَكَفَّلُ لَهُ بِالْجَنَّةِ؟)) فقلتُ: أنا، فَكَانَ لاَ يَسْأَلُ أحَدًا شَيْئًا. رواه أَبُو داود[١] بإسناد صحيح.

ترجمة الراوي:

ثوبان بن بُجْدُدٍ: تقدمت ترجمته في الحديث (١٠٧).

غريب الألفاظ:

تكفَّل: التزم وتعهَّد[٢].

الشرح الأدبي

الحديث من نوعية الأحاديث التي تربي المؤمن على العزة، والكرامة، وقد ورد المعنى في أسلوب الاستفهام بغرض العرض، والترغيب، وتقديم الجار، والمجرور (لي) يفيد التخصيص أي تعهد للرسول ﷺ عدم سؤال الناس، وتنكير (شيئا) للتعميم فتشمل ما قل، وما كثر، ولفظ الناس يعطي للحكم عموما لا يستثني أحدا منهم بحيث يجعل حاجته لله، وحده، وقوله وأتكفل أي أضمن والجار والمجرور(له) للتخصيص المقابل للتخصيص الأول (لي) وقوله (بالجنة) يشير إلى عظمة الأجر كما يلوِّح بصعوبة عدم سؤال الناس، ومشقة الصبر على ذلك مع عموم الحكم لجميع الناس، وعمومه لجميع الحاجات.

---

(١) برقم ١٦٤٣. أورده المنذري في ترغيبه ١٢٠٠ وقال: إسناده صحيح.

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ك ف ل)، ومعجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ١٢٢.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الشرط.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: أهمية الاستعفاف وعدم سؤال الناس.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل الاستغناء والتنزه عن المسألة.

رابعًا: من واجبات المدعو: الاستجابة لتوجيهات النبي ﷺ.

أولاً - من أساليب الدعوة: الشرط:

جاء أسلوب الشرط في الحديث حيث تكفل النبي ﷺ بالجنة للمسلم شريطة ألا يسأل أحدًا " من تكفل لي ألا يسأل الناس شيئًا وأتكفل له بالجنة" وأسلوب الشرط من الأساليب الدعوية المثمرة لما فيه من وضع النتيجة والعاقبة على الفعل نصب عين المدعو مما يجعله على بصيرة من الجزاء وذلك ما يدفعه إلى فعل أُمر به واجتناب ما نُهي عنه، وقد استخدم أسلوب الشرط كثيرًا من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، من ذلك قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾[1].

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: أهمية الاستعفاف وعدم سؤال الناس:

دعا النبي ﷺ في الحديث إلى التعفف والاستغناء عن الناس وعدم سؤالهم ورغّب في ذلك بالثواب العظيم فقال "من تكفل لي أن لا يسأل الناس شيئًا وأتكفل له بالجنة" (أي ضمن والتزم لي أن لا يسأل الناس وأضمن له الجنة[2] والتعفف من أسباب الكمال الباطني يقول ابن الجوزي: ودليل كمال صورة الباطن حسن الطبائع والأخلاق، فالطبائع: العفة والنزاهة والأنفة من الجهل ومباعدة الشره)[3] فالدناءة والنظر إلى ما في أيدي الناس والتعلق القلبي الزائد بزينة الحياة يستعبد المرء، وقد دعا رسول الله ﷺ

---

(١) سورة الشورى، آية: ٢٠.

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي، ص ٧٤٩.

(٣) صيد الخاطر، أبو الفرج ابن الجوزي، ص ٢٨٩.

على من اتصف بذلك بالتعاسة، فعن أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ قال ((تَعِسَ عبدُ الدِّينارِ وعبدُ الدِّرهمِ وعبدُ الخَميصةِ: إن أُعطِيَ رضيَ وإن لم يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وانتَكَسَ، وإذا شِيكَ فلا انتَقَشَ... الحديث))[1] والعفة إنما تنال بمجاهدة النفس وبتوفيق من الله، وصاحبها من عداد أهل الجنة، فجاء من حديث طويل عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ ((وَأَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلاَثَةٌ: ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ بِكُلِ ذِي قُرْبَى، وَمُسْلِمٌ عَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ))[2] إذ أنه يجاهد نفسه مع وجود الحاجة[3].

ثالثًا – من موضوعات الدعوة: فضل الاستغناء والتنزه عن المسألة:

صرح النبي ﷺ في هذا الحديث أن من فضل الاستغناء وعدم المسألة دخول الجنة فقال "من تكفل لي أن لا يسأل الناس شيئًا وأتكفل له بالجنة" كما أن العفة دليل كمال النفس وعزها، ودليل وفرة العقل ونزاهة النفس، وهي ركن من أركان المروءة التي ينال بها الحمد والشرف[4] وهي من أخلاق الأحرار وشمائل أهل العلا والارتقاء، فمن لم ير لنفسه قدرًا ويرى المال أعظم خطرًا فقد استعبدت نفسه المطامع، قال بعض الشعراء:

ومن كانت الدنيا مناهُ وهَمَّه ... سبته المُنى واستعبدته المطامع[5]

فالجزاء على جنس العمل وقدره، وكلما ألجم الإنسان نفسه عن الانحراف وفطمها عن الدنيا ارتفع ثوابه وعظم أجره، إضافة إلى ما في ذلك من حفاظ الإنسان على كرامته ورفعة منزلته أما من لجأ إلى الاستكثار من الدنيا ولجأ إلى تحصيله بالسؤال وإذلال النفس والتحايل على الناس فسيلقى الله تعالى يوم القيامة ذليلاً ظاهرة

---

(١) أخرجه البخاري ٢٨٨٦.

(٢) أخرجه مسلم ٢٨٦٥.

(٣) انظر: هذه أخلاقنا، محمود محمد الخزندار، ص ٣٦٠، ٣٦١.

(٤) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن محمد بن ملوح، ٧/٢٨٨٨.

(٥) انظر: أدب الدنيا والدين، أبو الحسن الماوردي، تحقيق: مصطفى السقا ص ٣١٤.

عليه علامات ذلك[١]، فضلاً عن تفويته الجزاء العظيم والذي جاء في الحديث "ومن تكفل لي أن لا يسأل الناس شيئًا وأتكفل له بالجنة".

رابعًا - من واجبات المدعو: الاستجابة لتوجيهات النبي ﷺ:

لقد ضرب الصحابة رضوان الله عليهم في ذلك أرفع المثل، وفي استجابة ثوبان لإرشاد النبي ﷺ في الحديث دليل على ذلك، فعن ثوبان رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ "من تكفل لي أن لا يسأل الناس شيئًا وأتكفل له بالجنة؟ فقلت أنا، فكان لا يسأل الناس شيئًا" وفي رواية ابن ماجه بيان ذلك تطبيقيًا ((فَكَانَ ثَوْبَانُ يَقَعُ سَوْطُهُ، وَهُوَ رَاكِبٌ، فَلاَ يَقُولُ لأَحَدٍ: نَاوِلْنِيهِ. حَتَّى يَنْزِلَ فَيَأْخُذَهُ))[٢] وقد أمرنا الله في كثير من آي القرآن بالاستجابة لتوجيهات النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾[٣] فإن ما دعا الله ورسوله إليه فيه الحياة، فأكمل الناس حياة أكملهم استجابة لدعوة الرسول ﷺ، إذ أن الحياة النافعة إنما تحصل بالاستجابة لله ولرسوله ﷺ، فمن لم تحصل له هذه الاستجابة فلا حياة له، وإن كانت له حياة بهيمية مشتركة بينه وبين أرذل الحيوانات[٤].

---

(١) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم، ص ٣٤٥.

(٢) أخرجه ابن ماجه ١٨٣٧، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ١٤٨٧).

(٣) سورة الأنفال، آية: ٢٤.

(٤) انظر: بدائع التفسير، ابن القيم، ٣٣١/٢.

الحديث رقم (٥٣٥)

٥٣٥ - وعن أَبي بِشْرٍ قَبيصَةَ بنِ المُخَارِقِ ﷺ، قَالَ: تَحَمَّلْتُ حَمَالَةً فَأَتَيْتُ رسولَ الله ﷺ أسأَلُهُ فِيهَا، فَقَالَ: ((أقِمْ حَتَّى تَأتِيَنَا الصَّدَقَةُ فَنَأمُرَ لَكَ بِهَا)) ثُمَّ قَالَ: ((يَا قَبيصةُ، إنَّ المَسْأَلَةَ لا تَحِلُّ إلاَّ لأَحَدِ ثلاثَةٍ: رَجُلٌ تحمَّلَ حَمَالَةً، فَحَلَّتْ لَهُ المَسْأَلَةُ حَتَّى يُصيبَهَا، ثُمَّ يُمْسِكُ، وَرَجُلٌ أصَابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَاحَتْ مَالَهُ، فَحَلَّتْ لَهُ المَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قواماً مِنْ عَيش (أَوْ قَالَ: سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ) وَرَجُلٌ أصَابَتْهُ فَاقَةٌ، حَتَّى يَقُولَ ثَلاثَةٌ مِنْ ذَوِي الحِجَى مِنْ قَوْمِه: لَقَدْ أصَابَتْ فُلانًا فَاقَةٌ. فَحلَّتْ لَهُ المَسْأَلَةُ حَتَّى يصيب قواماً من عيش (أَوْ قَالَ: سداداً من عيشٍ) فما سِوَاهُنَّ مِنَ المسألَةِ يَا قَبِيصَةُ سُحْتٌ، يَأكُلُهَا صَاحِبُهَا سُحْتًا)) رواه مسلم[1].

(الحَمَالَةُ) بفتح الحاءِ: أنْ يَقَعَ قِتَالٌ وَنَحْوُهُ بَيْنَ فَرِيقَيْنِ، فَيُصْلِحُ إنْسَانٌ بَيْنَهُمْ عَلَى مَالٍ يَتَحَمَّلُهُ وَيَلْتَزِمُهُ عَلَى نَفْسِهِ. وَ(الجَائحَةُ) الآفَةُ تُصيبُ مَالَ الإنْسَانِ. وَ(القَوَامُ) بكسر القاف وفتحهَا: هُوَ مَا يَقُومُ بِهِ أمْرُ الإنسَان مِنْ مَال ونحوِهِ. وَ(السِّدَادُ) بكسر السين: مَا يَسُدُّ حَاجَةَ المُعْوِزِ وَيَكْفِيهِ، وَ(الفَاقَةُ): الفَقْرُ. وَ(الحِجَى): العَقْلُ[2].

ترجمة الراوي:

قبيصة بن المخارق: هو قبيصة بن المخارق بن عبدالله بن شداد العامري الهلالي، كنيته: أبو بشر.

جاء إلى النبي ﷺ وافدًا فأعلن إسلامه وكان من أهل المرءوة والنجدة يسعى للصلح بين الناس وإصلاح ذات البين، فكن يصلح بين المقتتلين ويتحمل ما اصطلحوا عليه من مال. كما يتضح ذلك جليًا في حديث الباب، حقنًا للدعاء، وحفظًا للنفوس وصونًا للأعراض، وحفظًا للمال.

وكان حريصًا على تعلم ما ينفعه رغم كبر سنه، قال: أتيت رسول الله ﷺ فقال

---

(١) برقم ١٠٤٤/١٠٩. أورده المنذري في ترغيبه ١٢٠٣.

(٢) بنصه في الترغيب ٦٣٥/١- ٦٣٦.

لي: ((يا قبيصة ما جاء بك؟)) قلت: كبرت سني ورق عظمي، فأتيتك لتعلمني ما ينفعني الله عزّ وجلّ به قال: ((يا قبيصة ما مررت بحجر ولا شجر ولا مَدَرٍ إلا استغفر لك...))[١].

نزل العراق وسكن البصرة واختط دارًا بها[٢].

غريب الألفاظ:

حَمَالةً: بفتح الحاء أي يقع قتال ونحوه بين فريقين، فيصلحُ إنسان بينهم على مالٍ فيتحمُلهُ ويلتزمهُ على نفسه[٣].

جائحة: الآفةُ تصيب مال الإنسان[٤].

القوام: بكسر القاف وفتحها هو ما يقوم به أمر الإنسان من مال ونحوه[٥].

السِّدادُ: ما يَسُدُّ حاجة المعوز ويكفيه[٦].

فاقة: الفاقة: الفقر[٧].

الحجى: العقل[٨].

السحت: أي الحرام الذي لا يحل فعله[٩].

---

(١) أخرجه أحمد ٢٠٦٠٢/٣٤ وقال محققو المسند: إسناده ضعيف.

(٢) الطبقات الكبرى، ابن سعد ٣٠٩/١، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر ٦١٨، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود ٣٦٥/٤ والإصابة في تمييز الصحابة، ابن علي العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ١٠٦٤، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين ٥٨/٦، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٤٢٧/٣.

(٣) رياض الصالحين ٢٤٩.

(٤) المرجع السابق.

(٥) المرجع السابق.

(٦) المرجع السابق ٢٥٠.

(٧) المرجع السابق ٢٥٠.

(٨) المرجع السابق ٢٥٠.

(٩) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٤١٩.

الشرح الأدبي

قول أبي قبيصة رضي الله عنه (تَحَمَّلْتُ حَمَالَةً) جناس يبين سبب السؤال، وهو تحمل تبعات الصلح بين المتقاتلين، والتعبير بالإتيان يشير إلى مشقته على نفسه، وقول الرسول له (أقِمْ حَتَّى تَأتِيَنَا الصَّدَقَةُ فَنَأمُرَ لَكَ بِهَا) يشير إلى أنه لم يكن عنده شيء يعطيه إياه وقوله (يَا قَبِيصَةُ، إنَّ المَسْألَةَ لاَ تَحِلُّ إلاَّ لأَحَدِ ثلاثَةٍ) النداء تنبيه فيه تلطف، وتوكيد الكلام بعده تنبيه لأهمية الخبر، وأسلوب القصر في قوله (إنَّ المَسْألَةَ لاَ تَحِلُّ إلاَّ لأَحَدِ ثلاثَةٍ) نفي للحل عن كل أحد، وإثباته لأحد الثلاثة المذكورة، وفيه تشويق يحقق الترقب، ومتابعة الخبر بيقظة، واستشراف، وقوله (جَائِحَةٌ اجْتَاحَتْ مَالَهُ) جناس يؤكد المعنى، وينص على سبب من أسباب حل المسألة، وقوله (وَرَجُلٌ أصَابَتْهُ فَاقَةٌ) التعبير بالإصابة يفيد التحقق مع الإشارة إلى قوة الأثر، ونسبة الفعل للفاقة وهو في الحقيقة فعل الله به للمبالغة في شدة الفاقة، وقوله (حَتَّى يَقُولَ ثَلاَثَةٌ مِنْ ذَوِي الحِجَى مِنْ قَوْمِهِ: لَقَدْ أصَابَتْ فُلاناً فَاقَةٌ) كناية عن شدة ظهورها الذي لا لبس معه، ولا تردد فيه، وقد جعل لكل واحد من الثلاثة حدا يتوقف عنده عن المسألة مما يشير إلى أنه ليس هناك تسول دائم في الإسلام بل حاجة تعرض ثم تنقضي، ولذلك قال بعدها (فما سِوَاهُنَّ مِنَ المسألَةِ يَا قَبِيصَةُ سُحْتٌ، يَأكُلُهَا صَاحِبُهَا سُحْتاً) والنداء وسط الكلام لتوفير مزيد الانتباه لما يتلوه، والتعبير بالأكل عن عموم الاستعمال للتقبيح، والتعبير بالصاحب، ونسبته لضميره للذم، وتكرار كلمة سحت يؤكد الحرمة، وينفي وهم المبالغة .

فقه الحديث

في هذا الحديث من الفقه:

١ - دفع الزكاة لمن تحمل حمالة:

قال ابن قدامة: (ومن الغارمين صنف يعطون مع الغنى، وهو من غرم لإصلاح ذات البين، وهو أن يقع بين الحيين وأهل القريتين عداوة وضغائن يتلف فيها نفس أو مال، ويتوقف صلحهم على من يتحمل ذلك، فيسعى إنسان في الإصلاح بينهم ويتحمل الدماء

التي بينهم والأموال، فيسمى ذلك حمالة بفتح الحاء، وكانت العرب تعرف ذلك، وكان الرجل منهم يتحمل الحمالة ثم يخرج في القبائل فيسأل حتى يؤديها فورد الشرع بإباحة المسألة فيها، وجعل لهم نصيبًا من الصدقة، فروى قبيصة بن المخارق قال: "تحملت حمالة ... الحديث"[١].

٢ - اشتراط التيقظ في الشهادة:

قال النووي: (وإنما شرط الحجي في قوله ﷺ: "حتى يقوم ثلاثة من ذوي الحجى من قومه ..."] تنبيهًا على أنه يشترط في الشاهد التيقظ، فلا تقبل من مغفل)[٢].

٣ - عدد الشهود على الإعسار: قال النووي: (أما اشتراط الثلاثة [حتى يقوم ثلاثة من ذوي الحجى..." فقال بعض أصحابنا: هو شرط في بينة الإعسار، فلا يقبل إلا من ثلاثة لظاهر هذا الحديث، وقال الجمهور: يقبل من عدلين كسائر الشهادات غير الزنا، وحملوا الحديث على الاستحباب[٣]، وهذا محمول على من عرف له مال فلا يقبل قوله في تلفه والإعسار إلا ببينة، وأما من لم يعرف له مال فالقول قوله في عدم المال)[٤].

---

(١) المغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٣٢٤/٩، وانظر للمزيد في اختلاف الفقهاء في ذلك: روضة الطالبين وعمدة المفتين، الإمام النووي، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، وعلي محمد معوض ٣١٨/٢، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢٠٦/٦، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٨/٧/٤، وفتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني ١٧/٣، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٣٢٢/٢٣.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٩/٧/٤، وانظر: القوانين الفقهية ٣٠٣، وتبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام، برهان الدين المالكي ١٧٢/٢، ومغني المحتاج، ٤٣٦/٤، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٣٠/١٢ (عن الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٢٣/٢٦).

(٣) وانظر: المغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ١٢٦/١٤-١٢٨، والشرح الكبير ٨٤/١٢، وتبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام، برهان الدين المالكي ٢٦٥/١، وروضة الطالبين وعمدة المفتين، الإمام النووي، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، وعلي محمد معوض ٢٥٣/١١، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٢٧/٢٦.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٩/٧/٤.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: الأمر.

ثالثًا: من صفات الداعية: البيان والتوضيح.

رابعًا: من أساليب الدعوة: الترهيب.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: خطر المسألة في غير الأمور الثلاثة التي بينها رسول الله ﷺ.

سادسًا: من أهداف الدعوة: صيانة كرامة المسلم وحثه على العمل والإنتاج.

أولاً - من أساليب الدعوة: الإخبار:

لقد ورد أسلوب الإخبار في الحديث في قول قبيصة بن المخارق: (تحملت حمالة فأتيت رسول الله ﷺ)، وأسلوب الإخبار من الأساليب الدعوية المؤثرة إذ أنه يقوم على توصيل المعلومات وإبلاغ الحقائق، وإثارة اهتمام المدعوين، وتحفيزهم على الإقبال على الداعية وامتثال دعوته [١].

ثانيًا - من أساليب الدعوة: الأمر:

ورد أسلوب الأمر في الحديث في قوله ﷺ لقبيصة بن المخارق: (أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها)، وهو من الأساليب المفيدة لما فيه من توجيه الدعوة إلى المدعو وحمله عليها واستجابته لها خاصة إذا كان ممن أذعن للدعوة وأقبل عليها.

ثالثًا - من صفات الداعية: البيان والتوضيح:

إن من ألزم الصفات للداعية: التوضيح والبيان للمدعوين، ونرى ذلك في الحديث فالرسول ﷺ لم يكتف بإجابة قبيصة إلى حاجته من سداد دينه، وإنما بيّن له الأسباب التي تباح فيها المسألة فقال: "يا قبيصة إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل يحمل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك..." الحديث، وذلك أن أهم

---

(١) انظر: وظيفة الإخبار في سورة الأنعام، د. سيد محمد ساداتي الشنقيطي، ص ١١٦.

الصفات والواجبات على الداعي أن يبين للمدعوين ولا يكتم، وأن يوضح ولا يبهم، فإن بيان ما جاء به شرع الله الكتاب والسنة أمر واجب[١]، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٢].

رابعًا - من أساليب الدعوة: الترهيب:

ورد أسلوب الترهيب في الحديث، في ترهيب النبي ﷺ من المسألة من غير ضرورة: (يا قبيصة إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة... فما سواهن من المسألة يا قبيصة سحت يأكلها صاحبها سحتًا)، أي حرام لا يحل فعله لأنه يسحت البركة أي يذهبها، وأصل السحت الإهلاك[٣]، والترهيب من الأساليب الدعوية المفيدة لما فيه من حمل المدعو على ترك فعل واعتقاد أو تصور، والترهيب يقوم على وعيد بعقوبة أو حرمان من منفعة، إذا لم يلتزم بما أمر به أو نهي عنه، ولما كان الإنسان مفطور على الإحساس باللذة والألم، وهو بذلك ميال إلى كل ما يحقق له اللذة وعازف عن كل ما يسبب له الألم، لهذا كان لأسلوب الترغيب والترهيب تأثير كبير في تربية الإنسان وتقويم وتوجيه سلوكه[٤].

خامسًا - من موضوعات الدعوة: خطر المسألة في غير الأمور الثلاثة التي بينها رسول الله ﷺ:

لقد بيّن النبي ﷺ خطر المسألة في غير الضرورة والتي ذكر النبي ﷺ صورها في الحديث بأنها سحت يشقي الإنسان به نفسه، فقال ﷺ: يا قبيصة إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة.. فما سواهن من المسألة يا قبيصة سحت يأكلها صاحبها سحتًا)، والسحت هو الحرام الذي لا يحل كسبه[٥]،

---

(١) انظر: واجبات الداعي إلى الله، سعيد بن عوض الأسمري، ص ٢٥ - ٢٦.

(٢) سورة النحل، آية: ٤٤.

(٣) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٨٠٦.

(٤) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. خالد بن حامد الحازمي، ص ٣٩٣ - ٣٩٤.

(٥) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ١٨٣٧/٣.

إضافة إلى أن المسألة تصيب الإنسان في أخص مظهر لكرامته وإنسانيته، وهو وجهه[(١)]، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: ((مَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَسْأَلُ النَّاسَ، حَتَّى يَأْتِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَيْسَ فِي وَجْهِهِ مُزْعَةُ لَحْمٍ))[(٢)].

وما في المسألة من ظلم للنفس، فلأن السائل أراق ماء وجهه، وذل لغير خالقه وأنزل النفس أدنى المنزلتين، ورضى لها بأبخس الحالتين، ورضى بإسقاط شرف نفسه وعزة تعففه وباع صبره ورضاه وتوكله واستغناءه عن الناس بسؤالهم، وهذا عين ظلمه لنفسه[(٣)].

لا تحسبن الموت موت البلى	فإنما الموت سؤال الرجال
كلاهما موت ولكنَّ ذا	أشد من ذلك لذل السؤال[(٤)]

فالمسألة وامتهان التسول عمل دنيء تَمُجُّه الأذواق السليمة، ودليل على دناءة النفس وحقارتها فضلاً عن أنه يورث سفولاً وانحطاطًا في المجتمع ناهيك عن استحقاق الوعيد عليه في الآخرة[(٥)].

سادسًا - من أهداف الدعوة: صيانة كرامة المسلم وحثه على العمل والإنتاج:

إن من أبرز الأهداف العملية التي تهدف إليها الدعوة الإسلامية العفة وصيانة كرامة الإنسان وعزته، وقد أرشد الإسلام في ذلك إلى عدة سبل منها: العمل والإنتاج، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾[(٦)]، ونهى رسول الله ﷺ عن المسألة والعيش على حساب الآخرين كما في

---

(١) مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، د. يوسف القرضاوي ص ٥٤.

(٢) أخرجه مسلم ١٠٤٠.

(٣) انظر: مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢٣٢/١ - ٢٣٣.

(٤) الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ٢٨٠/٣.

(٥) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن محمد بن ملوح ٤١٧/٩.

(٦) سورة الملك، آية: ١٥.

الحديث: (إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة... الحديث)، وأرشد إلى العمل مبينًا أنه أفضل من المسألة مهما كانت نظرة الناس إليه وإلى العائد منه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((لأَنْ يَغْدُوَ أَحَدُكُمْ فَيَحْطِبَ عَلَى ظَهْرِهِ، فَيَتَصَدَّقَ بِهِ وَيَسْتَغْنِيَ بِهِ مِنَ النَّاسِ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ رَجُلاً، أَعْطَاهُ أَوْ مَنَعَهُ ذَلِكَ. فَإِنَّ الْيَدَ الْعُلْيَا أَفْضَلُ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى. وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ))[١]، بل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعطينا المثل التطبيقي في الإرشاد إلى العمل، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أَنَّ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ أَتَى النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَسْأَلُهُ، فَقَالَ: ((أَمَا فِي بَيْتِكَ شَيْءٌ؟)) قال بَلَى حِلْسٌ نَلْبَسُ بَعْضَهُ وَنَبْسُطُ بَعْضَهُ، وَقَعْبٌ نَشْرَبُ فِيهِ مِنَ المَاءِ. قال: ((ائْتِنِي بِهِمَا)). قالَ فَأَتَاهُ بِهِمَا فَأَخَذَهُمَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بِيَدِهِ وقال: ((مَنْ يَشْتَرِي هذَيْنِ؟)) قال رَجُلٌ أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمٍ، قال: ((مَنْ يَزِيدُ عَلَى دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ أو ثَلاَثًا)). قال رَجُلٌ أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمَيْنِ فَأَعْطَاهُمَا إِيَّاهُ وَأَخَذَ الدِّرْهَمَيْنِ فأَعْطَاهُمَا الأَنْصَارِيَّ وقال: ((اشْتَرِ بِأَحَدِهِمَا طَعَامًا فَانْبِذْهُ إِلَى أَهْلِكَ وَاشْتَرِ بالآخَرِ قَدُومًا فَأْتِنِي بِهِ))، فَأَتَاهُ بِهِ فَشَدَّ فِيهِ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عُودًا بِيَدِهِ ثُم قَالَ لَهُ: ((اذْهَبْ فَاحْتَطِبْ وَبِعْ وَلاَ أَرَيَنَّكَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا)). فَذَهَبَ الرَّجُلُ يَحْتَطِبُ وَيَبِيعُ فَجَاءَ وَقَدْ أَصَابَ عَشْرَةَ دَرَاهِمَ فَاشْتَرَى بِبَعْضِهَا ثَوْبًا وَبِبَعْضِهَا طَعَامًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: ((هذَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَجِيءَ المَسْأَلَةُ نُكْتَةً فِي وَجْهِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ المَسْأَلَةَ لاَ تَصْلُحُ إِلاَّ لِثَلاَثَةٍ لِذِي فَقْرٍ مُدْقِعٍ أَوْ لِذِي غُرْمٍ مُفْظِعٍ، أَوْ لِذِي دَمٍ مُوجِعٍ))[٢].

ففي هذا الحديث نجد النبي صلى الله عليه وسلم لم ير للأنصاري أن يأخذ من الزكاة وهو قوي على الكسب، ولا يجوز له ذلك إلا إذا ضاقت أمامه المسالك وأعيته الحيل، وقد أوجد النبي صلى الله عليه وسلم الحلول العملية البناءة التي يصون بها كرامة الإنسان، من خلال سعيه وعمله، وبهذا بين لكل فرد مسلم أن يسعى ويعمل ويجتهد ملتمسًا الرزق في خبايا الأرض وتحت أديم السماء، فهو بعمله يغني نفسه بنفسه ويسد حاجته وحاجة أسرته غير مفتقر إلى معونة[٣]، وبهذا نرى أن العمل في الإسلام له غايتان: منع البطالة والحث على

(١) أخرجه مسلم ١٠٤٢.

(٢) أخرجه أبو داود ١٦٤١، وضعفه الألباني (ضعيف سنن أبي داود ٣٦٠).

(٣) انظر: مشكاة الفقر وكيف عالجها الإسلام، د. يوسف القرضاوي، ص ٥٨ - ٦٠.

العمل والإنتاج[١].

فالمسلم الحق يخشى أن تنفلت الأيام من يديه خاوية من العمل والإنتاج، وهو كذلك حريص على أن يكون يومه خيرًا من أمسه وغده خيرًا من يومه وأن يطيل حياته - بعد موته - بطول أعماله، ويمد عمره بامتداد الجميل من آثاره، إنه يحرص أن يخلف وراءه علمًا نافعًا أو عملاً طيبًا أو مشروعًا مثمرًا أو صدقة جارية أو ذرية صالحة، وعلى قدر ما يمتد ويبقى الأثر الذي يخلفه وعلى قدر ما ينتفع الناس به تكون مثوبته عند الله تعالى[٢].

---

(١) نظام الإسلام: الاقتصاد مبادئ وقواعد عامة، محمد المبارك ص ٣٧.

(٢) الإيمان والحياة، د. يوسف القرضاوي، ص ٣٠٥.

الحديث رقم (٥٣٦)

٥٣٦ - عن أَبي هريرة رضي الله عنه : أنَّ رسول الله ﷺ ، قَالَ: ((لَيْسَ المسكينُ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَلكِنَّ المِسكينَ الَّذِي لاَ يَجِدُ غِنىً يُغْنِيهِ، وَلاَ يُفْطَنُ لَهُ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ، وَلاَ يَقُومُ فَيَسْأَلَ النَّاسَ)) متفقٌ عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

الحديث يتضمن تصحيح خطأ في التصور، وفي المفهوم الخاص بالمسكين وحقيقته، وقد بدأ بالنفي إزالة للمفهوم الخاطيء (لَيْسَ المسكينُ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ)، والفعل يطوف يصور حركة السائل المعتاد للسؤال ينتقل من باب إلى باب يجمع كل ما يستطيع وهو ما يشير إليه قوله (تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ) ونسبة الرد اللقمة مجاز مرسل يصور حقارة الغاية، وقبح الفعل، وأكده بقوله (وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ) ثم تبعه باستثناء يقرر المفهوم الصحيح بعد أن أزال المفهوم الخاطيء والذي قرره الجناس، وأكده في قوله (وَلكِنَّ المِسكينَ الَّذِي لاَ يَجِدُ غِنىً يُغْنِيهِ) وقوله (وَلاَ يُفْطَنُ لَهُ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ، وَلاَ يَقُومُ فَيَسْأَلَ النَّاسَ) يشير إلى غفلة الناس عنه مع حاجته، وفقره، وفي هذا إشارة إلى قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاء الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾(البقرة٢٧٣) .

المضامين الدعوية[2]

(١) أخرجه البخاري ١٤٧٩ واللفظ له، ومسلم ١٠٣٩/١٠١. أورده المنذري في ترغيبه ١٢١٧. وتقدم برقم ٢٦٤.

(٢) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (٢٦٤).

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

الشره مرض والقناعة صحة، فإذا ابتلي الإنسان بمرض الشره فإنه لن يشبع، وإن أعطي الدنيا بأسرها، ويشعر الشره أن ما معه أقل مما يتطلع إليه، وينظر دائماً إلى ما في يد غيره، ولا ينظر إلى ما في يده، يندرج حاله تحت الآية الكريمة: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِىَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة ص:٢٣].

هذا الصنف من الناس هم الذين وصفهم الرسول ﷺ بقوله: (ولو كان لابن آدم وادياً من ذهب لتمنى أن يكون له واديان، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب).

إن الشر يدفع صاحبه إلى:

١/ جمع المال من حلال أو حرام في غير مبالاة لأن الإكثار منه هو الغاية.

٢/ سؤال الآخرين ما في أيديهم ومحاولة تملكه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

٣/ الإلحاح في السؤال حال المنع حتى يتحقق الوصول إلى المراد.

٤/ يكرهون الآخرين على العطاء والدفع بسيف الحياء حتى إنهم ليعطونهم عن غير قناعة مما يدفعهم إلى أخذ المال بدون سخاوة نفس من المعطي فلا يبارك لهم فيه.

ومن المضامين التربوية في أحاديث الباب:

أولاً - غرس قيمة التعفف عن سؤال الناس:

إن من أهداف التربية الإسلامية غرس قيمة التعفف وعدم سؤال الناس والقناعة برزق الله تعالى، ومن الشواهد على ذلك في باب القناعة والعفاف قوله @: «ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس»، وقوله: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافًا وقنعه الله بما أتاه»، وقوله: «اليد العليا خير من اليد السفلى»، وقوله: «ولا تسألوا الناس شيئًا»، وقوله: «لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله تعالى، وليس في وجهه مزعة لحم»، وقوله: «من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته ...»، وقوله: «من تكفل لي أن لا يسأل الناس شيئًا وأتكفل له بالجنة ...»، وقوله ﷺ: «ليس

المسكين الذي يطوف على الناس... ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس».

فهذه جملة أحاديث أفادت أهمية التربية على غرس قيمة العفة عن السؤال، وكأنها رسالة إلى الأمة من الرسول ﷺ مفادها الرضا برزق الله تعالى دون سؤال أو إلحاح؛ أن العفة والاستغناء بالله تعالى مجلبة للرزق الحسن وطريق للكرامة، ولذلك مدحهم الرسول ﷺ في حديثه «وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللّهِ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللّهُ»[١]. فهذا نداء من الرسول ﷺ إلى عدم التعفف بغير الله تعالى في أي شيء من الرزق، بل يصبر الفقير حتى يحسبه الجاهل غنيًا من التعفف، قال تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾[٢].

والعفة من مكارم الأخلاق، والدناءة والخسة وكل ما ينافي العفة من رذائل الأخلاق، ولدى تحليل دوافع العفة نجدها ترجع إلى الكثير من أساس خلقي، وميزان ذلك القوة الضابطة التي تضبط النفس، فبمقدار ما لدى الإرادة من قدرة على الصبر تستطيع القيام بضبط النفس عن تلبية الدافع المثار، فتكون العفة عندئذ من مظاهر خلق الصبر وحين يكون الضبط بتأثير الخوف من العاقبة، أو بتأثير الطمع بالثواب، تكو العفة من مظاهر ذلك، وحين يكون الضبط بتأثير خلق حب الحق تكون العفة من مظاهره، وحين تجتمع كل هذه العوامل تكون العفة مظهرًا اشتركت فيه جملة أسس أخلاقية، والعفة لا تكون إلا إذا وجد الدافع النفسي إلى ما ينافيها، فإذا لم يكن في النفس دافع إلى ما ينافي العفة، أو لم يوجد ما يثير الدافع لم يكن للعفة وجودٌ أصلاً.

لكن هناك وقفة تتمثل في: أنه إذا جاء مال للمحتاج بغير سؤال ولا استشراف نفس فلا مانع من أخذه. لقوله ﷺ: «إِذَا جَاءَكَ مِنْ هـذَا الْمَالِ شَيْءٌ وَأَنْتَ غَيْرُ مُشْرِفٍ وَلاَ

---

(١) أخرجه البخاري ٦٤٧٠، ومسلم ١٠٥٣.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٧٣.

سَائِلٍ فَخُذْهُ، وَمَا لاَ فَلاَ تُتْبِعْهُ نَفْسَكَ»[١]. ومن يتعفف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله[٢].

ثانيًا - من مهام المربي: مراعاة الفروق الفردية:

من أهداف التربية الإسلامية مراعاة الفروق الفردية بين المتعلمين، ومن الشواهد على ذلك في باب القناعة والعفاف: قوله ﷺ: «فَوَاللَّهِ إني لأُعْطِي الرَّجُلَ وَأَدَعُ الرَّجُلَ، وَالَّذِي أَدَعُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الَّذِي أُعْطِي، وَلَكِنِي أُعْطِي أَقْوَامًا لِمَا أَرَىٰ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْجَزَعِ وَالْهَلَعِ، ...».

فهذا شاهد تربوي ظهر منه كيف راعى النبي ﷺ الفروق الفردية بين الصحابة رضي الله عنهم أثناء عملية التوزيع، ولذلك كانت الحكمة هي التأليف، وإنقاذها من الهلاك، والرسول ﷺ راعى الفروق الفردية لأنها تُراعى تباين الأفهام من شخص لشخص آخر وفق استعداداته، وإمكانته العقلية، وحريٌّ بعلماء التربية الإسلامية المحافظة على هذه المعاني لأنها من علامات نجاح المربي، والعناية بالفروق الفردية أمر لم تبتكره التربية المعاصرة بل أشار إليه أسلافنا الأوائل وأدركوه وأوصوا المسلم به، بأن يخاطب كل واحد على قدر درجته وبحسب فهمه وهمته، لأن الناس يختلفون فيما بينهم اختلافًا واضحًا من حيث الفهم والتحصيل والاستجابة والثبات وغير ذلك.

والتربية السليمة هي التي تأخذ في الاعتبار هذه الاختلافات وتوجه كل فرد نحو تحقيق أقصى درجة من النمو، كما أن الاهتمام بفرد دون آخر لا يتعارض مع مبدأ المساواة الذي تنادي به الفلسفة الديمقراطية، فالمساواة هي أن نتعامل مع كل فرد على أنه إنسان له إمكانات وطاقات خاصة تميزه عن غيره من الأفراد واحترام إنسانية الإنسان تقتضي منا أن نضعه في المكان الذي يتفق مع قدراته وإمكانته والتربية من أجل مراعاة الفروق الفردية تتطلب من انطلاقة جريئة نحو فهم جديد لمعنى المنهج ووظيفة التربية والأهداف التي تسعى التربية إلى تحقيقها، ولهذا فإن العمل من أجل

---

(١) أخرجه البخاري، ١٤٧٣، ومسلم، ١٠٤٥.

(٢) انظر: الوجيزة في الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبدالرحمن حسن حبنكة، ص٤٩١. موسوعة الآداب الإسلامية، عبدالله بن محمد المعتاز، ص٢٤١.

مراعاة الفروق الفردية يتطلب تغيرات جذرية تتناسب مع حجم المشكلة وأهميتها، وبقدر ما يكون استعدادنا للعمل من أجل هذه التغيرات بقدر ما نتوقع من نجاح في مواجهة صريحة للمشكلة، والتفاعل الجماعي معها[١].

ثالثًا - من مهام المربي: تبيان الحقائق:

إن من أهداف التربية الإسلامية ومهام المربي تبيان الحقائق للمتربين، ومن الشواهد على ذلك في باب القناعة والاقتصاد في المعيشة. قوله ﷺ: "ليس المسكين الذي يطوف على الناس ترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يفطن له، فيتصدق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس".

فهذا توجيه نبوي ظهر منه أن من مهام المربي تبيان الحقائق لأنه من السهل أن تحدث الناس دون أن تبين لهم الحقائق، ولنا في رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة في توجيهه للصحابة وبيانه في كل موطن وحال الحقائق ليسهل العملية التربوية ويساعد على تحقيق الأهداف وغرس الفضائل، وفي تبيان الحقائق فائدة وهي التوجيه الإيجابي الحسن والتأثير في السلوك إن المتربي يرى النتائج أمامه ويعايشها في نفس اللحظة، وهذا ما يذهب إليه المهتمون بالتربية باغتنام بيان الحقائق في وقتها من أفضل الأهداف التربوية، وإن مثل هذه التربية هي التي خَرَّجت الجيل الجاد العملي[٢].

رابعًا - التربية بالأحداث والمواقف:

من أساليب التربية الإسلامية: الأحداث والمواقف. والشاهد على ذلك في باب القناعة والاقتصاد عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزاة ونحن ستة نفر بيننا بعير نعتقبه فنقبت أقدامنا ونقبت قدمي، وسقطت أظفاري، فكنا نلف على أرجلنا الخرق، فسميت غزوة ذات الرقاع...».

فهذا توجيه تربوي ناتج عن تصرف حديث ومواقف جرت في غزوة ذات الرقاع، بين

---

(١) انظر: المدرس ومهارات التوجيه، محمد بن عبدالله الدويش، ص٣٤. المنهج والفروق الفردية، د. فتحي الديب، ص١١٢. نحو تربية إسلامية راشدة، محمد بن شاكر الشريف، ص١٠٨.

(٢) انظر: مجلة البيان، عدد ١٢٥، ص٣٣. أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي، ص٢٧٨.

الصحابة رضي الله عنهم، والمصطفى صلى الله عليه وسلم: والأحداث التي جرت مع الصحابة وقعت بسبب تصرفاتهم الخاصة وأسباب خارجة عن تقديرهم وخارجة عن إرادتهم، ولذا فإن المربي البارع لا يترك الأحداث تذهب سدى بغير عبرة وبغير توجيه، وإنما يستغلها لتربية النفوس وصقلها وتهذيبها، لأن من مزايا المواقف والأحداث أنها تثير النفس بكاملها وترسل فيها قدرًا من حرارة التفاعل والانفعال - وهذا ما حدث من معايشة أحداث غزوة ذات الرقاع وما حدث للصحابة رضي الله عنهم مما يعد زادًا لعلماء التربية الإسلامية للإفادة من أحداث هذه الغزوة لتربية النفوس على التضحية والبذل والصبر، وكانت الحكمة من الإفادة من هذه المواقف والأحداث، حتى لا تمر الحادثة بلا عبرة مستفادة وهي بيان ما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم من التقشف وخشونة العيش وصبرهم على ذلك مع الرضا، لأن هدفهم الأسمى هو إعلاء كلمة الله تعالى[1].

خامسًا - التربية بالتشبيه:

من أساليب التربية الإسلامية أسلوب التشبيه، ومن الشواهد على ذلك في باب القناعة والاقتصاد، قول حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: «سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاني ثم سألته فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال: ياحكيم، إن هذا المال خضر حلو، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه...».

فهذا شاهد تربوي ظهر منه التشبيه كأسلوب تربوي يستخدم في عملية التربية، وهذا ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم مع الصحابة رضي الله عنهم في قوله: المال خضرة حلوة. قال ابن الأنباري: ليس هو صفة المال وإنما هو تشبيه، كأنه قال: المال كالبقلة الخضراء الحلوة على اعتبار ما يشتمل عليه الحال من زهرة الدنيا، وفي هذا بيان لأهمية القناعة والرضا والتعفف عن المسألة، والرضا بما قسم الله عز وجل، والحديث ليس دعوة إلى الزهد في طيبات الحياة، ولكنه دعوة إلى الاعتدال والتوازن في مجالات الحياة الدنيوية المتعددة، ودعوة إلى تقوية الصلة بالله والرضا بما قسم الله تعالى والتعفف حتى لا

---

(١) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. سعيد إسماعيل القاضي، ص١٨٤.

تتهاوى النفوس، أمام زينة الثراء، ولا تفقد اعتدالها بالقيم العليا، وتبقى دائمًا تحس حرية الاستعلاء على الزخارف الباطلة التي تبهر الأنظار، كل هذا أتى عن طريق الصورة المحسوسة التي هي أقرب تصورًا وأسرع فهمًا، وأثبت بقاء لأنها تحدد الأبعاد وتضع الصورة بين يديك[1].

سادسًا - التربية بالحوار:

من أساليب التربية الإسلامية الحوار والرسول ﷺ كان حريصًا على تعليم الصحابة بطريقة الحوار من خلال ما يطرح من أسئلة: وما يدل على ذلك في أحاديث الباب: قول عبدالرحمن بن عوف مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: «كنا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال: ألا تبايعون رسول الله ﷺ، وكنا حديثي عهد بيعة، فقلنا قد بايعناك يا رسول الله، ثم قال: ألا تبايعون رسول الله....».

فهذا شاهد تربوي ظهر منه الحوار بين الصحابة رضي الله عنهم وبعضهم البعض وبينهم وبين رسول الله ﷺ فالحوار دار عن استحباب تجديد العهد مع الله عز وجل على صدق الإيمان به والإخلاص في عبادته والتزام شريعته، وكذلك البيعة ينبغي أن تكون واضحة غير عمية، وكذلك التنزه عن كل ما يسمى سؤالاً ولو في أمر تافه، ولقد اتسم هذا الحوار بالتدرج حيث بدأ بالسؤال فلما أنس منهم هذا الصحابي اللين والموافقة اتبع معهم البيان والحوار، وكان من فوائد هذا الحوار الذي دار: أنه جذب الانتباه وشحذ الأذهان، كما أنه أفاد فائدة هامة وهي إبعاد المتعلمين والمتربين عن الانقياد الأعمى وتحقيق الإقناع والاقتناع العقلي، ثم تحقيق المغزى التربوي المراد تحقيقه من الموقف. لكن يشترط في من يجري الحوار عدة شروط:

١ - الإلمام بالموضوع.

٢ - التحلي بالهدوء وسعة الصدر.

---

(١) انظر: دراسات تربوية في الأحاديث النبوية، د. محمد لقمان الأعظمي، ص٤٢٦، ٤٢٧. التربية الإسلامية، دراسة مقارنة، محمد أمجد جاد، ١٢٥.

٣ - مراعاة مستويات مَنْ يخاطبهم[١].

سابعًا - التربية بالتوجيه المباشر:

من أساليب التربية الإسلامية: أسلوب التوجيه المباشر ويعد من أهم أساليب التربية لما فيه من توجيه الكلام إلى الفرد المستهدف بالتربية عن طريق الخطاب المباشر: ومن الشواهد على ذلك في باب القناعة والاقتصاد قوله ﷺ وهو يوجه قبيصة قال: «يا قبيصة إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك. ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله، فحلت له.....».

فهذا توجيه يستفاد منه أن على الإمام والمربي توجيه المتربين على تعهد الرعية بالنصح والإرشاد وحثهم على التعاون، وسد حاجة المحتاج، وهذا ما أراده النبي ﷺ من توجيهه للصحابة رضي الله عنهم في هذا الحديث، وهذا هو دور المربي أن يقوم بتلقين المتربين التوجيه الذي يساعد على تغيير السلوك وتقويمه، في الحاضر والمستقبل، واستخدام التوجيه في هذا الحديث كان لحكمة هي أن التوجيه من وسائل العادة التعليمية كما يعد من أساليب الرسل والأنبياء المؤثرة التي اقترنت بالشعور والمحبة، وتجلى هذا في قوله ﷺ: "ياقبيصة"، فالتوجيه من مرب محب يساعد على تغير حياة الإنسان، ولذلك كان من الآثار التربوية لهذا التوجيه تزكية النفس، وتطهيرها وهو هدف من أسمى الأهداف التربوية التي تسعى التربية الإسلامية إلى تحقيقها. كما أن فيه مجالاً كبيرًا للمعلمين في تنشئة طلابهم على ما فيه خيرهم وصلاحهم وتوجيههم إلى ما فيه رقي مجتمعهم وأمتهم[٢].

ثامنًا - التربية بالتأكيد:

من أساليب التربية التأكيد، ومن الشواهد على ذلك في باب القناعة والاقتصاد قوله ﷺ: في حديث عمر بن ثعلب قال: «أما بعد: فوالله إني لأعطي الرجل وأدع

---

(١) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. سعيد القاضي، ص١٨٢. أصول التربية الإسلامية، أ.د. محمد شحات الخطيب وآخرون، ص٨٥.

(٢) أصول التربية الإسلامية، أ.د. محمد شحات الخطيب وآخرون، ص٨٣.

الرجل والذي أدع أحب إليَّ من الذي أعطى ...»، وقوله ﷺ: في حديث سفيان بن صخر: «فوالله لا يسألني أحد منكم شيئًا ...».

فهذه شواهد تربوية أفادت استخدام التأكيد كأسلوب تربوي في عملية التربية، ولقد استخدم الرسول ﷺ التوكيد ليجعل من الأمر المؤكد عند المرء عادة مستحكمة راسخة في أعماق قلبه ونفسه، وهذا ما فعله مع الصحابة رضي الله عنهم.

وكان من عادته ﷺ التأكيد على الأمور المهمة أكثر من مرة والمقصد من التنبيه على السامع على إحضار قلبه وفهمه للخير الذي يذكره، والسنة عندما استخدمت هذه الوسيلة التربوية أفادت من ذلك تثبيت المعنى في النفوس حتى يصبح عقيدة من عقائدهم، بل إن في التأكيد حملا للنفس على التصديق والإيمان ولا يكون التأكيد ذا نفوذ حقيقي إلا إذا ذكر في مَعرِض القسم كما فعل ﷺ مع الصحابة رضي الله عنهم لعدم وضوح المعنى لما في ذلك من أثر في تثبيت المعاني وتأكيد الأفكار لديها، واستقراره في مناطق اللاشعور العميقة حيث تتضح عوامل سيرنا[1].

تاسعًا – التربية بالتحذير:

من أساليب التربية الإسلامية التحذير، ولقد استخدم الرسول ﷺ هذا الأسلوب في توجيه الصحابة رضي الله عنهم: وفي أحاديث الباب ما يدل على ذلك: من تحذير من السؤال من غير حاجة وضرورة: قال ﷺ: «لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله تعالى وليس في وجهه مزعة لحم...»، وقوله ﷺ: «من سأل الناس تكثرًا فإنما يسأل جمرًا...»، وقوله ﷺ: «من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته ...».

فهذه تحذيرات من النبي ﷺ عن سؤال الناس من غير حاجة. لما في السؤال من ذل في الدنيا وعذاب في الآخرة، والرسول ﷺ ما استخدم هذا الأسلوب التربوي التوجيهي إلا لعلمه أن فيه ردعاً للسلوكيات الخاطئة – كالسؤال والذلة من غير ضرورة – التي

---

(١) انظر: أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد محمود العاني، ص١٠١، ١٠٢. آداب المتعلمين، د. أحمد بن عبدالله الباتلي، ص١٠٠.

قد توجد عند بعض الأفراد لأنه يوجد من يفعلها ويجترئ على فعلها بل وتكرارها - كما نشاهد الآن في شتى أنحاء البلاد - وهذا سلوك فيه فَقْدُ لِقَيم الخير والإيمان وفضائل الأعمال فكان لابد من تحذير شديد فيه زجر ووعيد يوقظ المجترئ الجاني مما يجعله بين خيارين لا ثالث له: إما غضب الله وعذابه ومقته عز وجل، وإما التوبة عن هذا السلوك الخاطئ. من هنا نتعلم أن التحذير له أكبر الأثر في استقامة المخاطبين[(١)].

عاشرًا - التربية بالتبشير:

من أساليب التربية الإسلامية التبشير، ويعد التبشير من أساليب التربية عند رسول الله ﷺ، وهذا ما ثبت في حديث الباب. فعن ابن مسعود > قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته، ومن أنزلها بالله فيوشك الله له برزق عاجل أو آجل».

إن الرسول ﷺ في هذا التوجيه يبشر صراحة من أعرض عن السؤال واعتمد على الله تعالى في سؤاله وشكواه بأن له رزقاً. كما أن فيه تربية على الاعتماد على الله تعالى وتفويض الأمر لله لأن من اعتمد على غير الله ضل، ومن اعتز بغير الله ذل، ومن فوض أمره إلى الله ما زل وما ضل، ولقد اصطحب هذا التوجيه تبشير من رسول الله ﷺ فيه تحفيز وتيسير الأمور يرافقها تبشيرٌ بالرزق، ولقد كان التبشير منهجاً ثابتاً عند رسول الله ﷺ، باعتباره خلق من أخلاق النبوة، لأن الرسل من شأنهم أن يكونوا مبشرين بالخير، وذلك لأن البشرى سلوك إنساني رائع ومطلب اجتماعي محبب ووسيلة للصلة يحترمها الناس ويحبونها، كما أنها خصلة حسنة يمدح بها المرء ويثاب عليها[(٢)].

وقد وردت في أحاديث الباب كثير من الأساليب التربوية التي يستطيع أن يفيد منها المربي في العملية التعليمية من هذه الأساليب ما يلي:

---

(١) انظر: أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد محمود العاني، ص٣٥٠، ٣٣٠.

(٢) انظر: موسوعة القيم ومكارم الأخلاق العربية والإسلامية، د. مرزوق بن صنيتان بن تنباك وآخرون، ٢٧/١١، ٢٨ بتصرف.

أ - التقويم: كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: ((ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس))، وكما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أيضًا المرفوع: ((ليس المِسْكينُ الذي يَطوفُ على الناسِ تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ واللُّقمتانِ ...)) الحديث، والتقويم يستخدم في معالجة بعض أفكار المتعلمين وتصحيحها إن اقتضى الأمر ذلك.

ب - المناقشة: كما في حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه، والمناقشة من شأنها تفعيل موقف المتعلم في العملية التعليمية وينقله من المتعلم السلبي إلى المتلقي الإيجابي والمشارك الفعّال في مقام التعليم والتعلم.

ج - القصة: كما في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن غزوة ذات الرقاع، ويمكن للمعلم الاستفادة من أسلوب القصة في تدريسه في عرض بعض الكلمات المألوفة لدى المستمعين. والتي يمكن أن تقرب إليهم المعاني المجردة وتوضحها في أذهانهم.

د - التربية بالأحداث والمواقف: كما في حديث عمرو بن تغلب رضي الله عنه: ((أن رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم أُتِيَ بمال - أو سَبْيٍ - فقسَمه، فأَعطى رِجالاً وتركَ رجالاً ...))الحديث، ويمكن للمعلم والتربويين الاستفادة من الحديث في كيفية الاستفادة من مواقف الحياة المختلفة في غرس القيم والمضامين التربوية المرغوبة في نفوس المتعلمين، فالحياة كلها مواقف وأحداث، والإنسان في تفاعل مستمر مع هذه الأحداث ما دام هو على قيد الحياة، والمربي البارع لا يترك أحداث الحياة المختلفة تمر أمام عينيه دون أن يستفيد منها في تقديم ما هو مرغوب. ولأسلوب التربية بالمواقف آثار تربوية تميزها عن غيرها ومنها أنها تُحدث في النفس تأثيرًا كبيرًا، وتنفعل معها النفس انفعالاً خاصًا.

كما يمكن للمنظمات التربوية الاستفادة من الأحداث المختلفة التي تقع في المحيطات العربية والإسلامية والدولية في توجيه فكر المتعلمين لما هو مطلوب منهم في كل الأمور.

هـ - الترهيب كما في قوله صلى الله عليه وسلم: ((لاَ تُلْحِفُوا فِي الْمَسْأَلَةِ. فَوَاللّهِ لاَ يَسْأَلُنِي أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئًا، فَتُخْرِجَ لَهُ مَسْأَلَتُهُ مِنِّي شَيْئًا، وَأَنَا لَهُ كَارِهٌ، فَيُبَارَكَ لَهُ فِيمَا أَعْطَيْتُهُ))،

ويمكن للمعلم استخدام هذا الأسلوب مع المتعلمين في تدريس الموضوعات التي تتضمن كثيرًا من القيم وفي توضيح بعض الأمور النافعة لهم في دينهم ودنياهم.

و - عملية التمهيد: ورد في حديث عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: ((كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللّهِ صلى الله عليه وسلم. تِسْعَةً أَوْ ثَمَانِيَةً أَوْ سَبْعَةً. فَقَالَ: «أَلا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللّهِ صلى الله عليه وسلم؟)) ورد في هذا الحديث ما يعرف في التربية الحديثة بعملية التمهيد من خلال إلقاء سؤال على الحضور وُيْطلب منهم ردٌ على ذلك السؤال سواء أكان الرد قوليًا أم فعليًا، ويمكن للمعلم استخدام التمهيد والاستفادة من الكيفية التي مهد بها النبي صلى الله عليه وسلم لما ذكره للصحابة رضي الله عنهم.

ز - استخدام الأسئلة كما في حديث ((مَنْ تَكَفَّلَ لِيَ أَنْ لاَ يَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئًا، وَأَتَكَفَّلُ لَهُ بِالْجَنَّةِ؟)) واستخدام الأسئلة يكون وسيلة لتقويم ومعالجة بعض أفكار المتعلمين.

٥٨- باب جواز الأخذ من غير مسألة وَلاَ تطلع إليه

الحديث رقم (٥٣٧)

٥٣٧- عن سالم بن عبد الله بن عمر، عن أبيه عبد الله بن عمر، عن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، قَالَ: كَانَ رسول الله ﷺ يُعْطيني العَطَاءَ، فَأقُولُ: أعطِهِ مَنْ هُوَ أفْقَرُ إلَيْهِ مِنّي. فقَالَ: **((خُذْهُ، إذَا جَاءكَ مِنْ هَذَا المَال شَيْءٌ وَأنْتَ غَيْرُ مُشْرِفٍ وَلاَ سَائِلٍ، فَخُذْهُ فَتَمَوَّلْهُ، فَإنْ شِئْتَ كُلْهُ، وَإنْ شِئْتَ تَصَدَّقْ بِهِ، وَمَا لا، فَلاَ تُتبعهُ نَفْسَكَ))** قَالَ سَالِمٌ: فَكَانَ عَبدُ الله لاَ يَسألُ أحَداً شَيْئاً، وَلاَ يَرُدُّ شَيْئاً أُعْطِيَه. متفقٌ عَلَيْهِ[١].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١).

غريب الألفاظ:

مشرف: متطلع إليه[٢].

فتموَّلْهُ: اجعلهُ لك مالاً[٣].

وما لا فلا تتبعه نفسك: أي ما لا يوجد فيه هذا الشرط لا تعلق النفس به[٤].

---

(١) أخرجه البخاري ١٤٧٣ واللفظ له، ومسلم ١٠٤٥/١١٠، وقول سالم: أخرجه مسلم عقب الحديث رقم ١٠٤٥/١١١.

تنبيه: الحديث أورده هكذا المنذريُّ في ترغيبه ١٢٣٧ وتبعه عليه المؤلف.

(٢) رياض الصالحين ٢٥٠.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (م و ل).

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٦٥٨، وانظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٨٠٩.

الشرح الأدبي

الحديث يروي موقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه تجاه ما يأتيه من مال، حيث كان يرفضه، والذي صوره، وأكده الجناس في قوله (يعطيني العطاء) وقوله (أعطِهِ مَنْ هُوَ أفْقَرُ إلَيْهِ مِنّي) المر للإيثار يصور الغاية النبيلة وراء رد المال، وذكر الضمير (هو) للاهتمام، والتعبير بأفعل التفضيل يجعل الأولوية للأكثر حاجةً، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم (خُذْهُ) أمر نصح، وإرشاد تبعه أسلوب الشرط يربط مجيء المال دون استشراف بالأمر بأخذه، وقوله (فخذه فتموله) والتمول هو صرف المال في وجوهه المختلفة بين الصدقة، والنفقة، وقوله (فَإنْ شِئْتَ كُلْهُ، وَإنْ شِئْتَ تَصَدَّقْ بِهِ) أسلوب شرط يعطيه حرية التصرف وفق ما يريد، وقوله (وما لا، فلا تتبعه نفسك) فيه إيجاز بالحذف أي، وما لم يأتك، وقوله (فلا تتبعه نفسك) كناية عن التعلق بالمال، ومحبته، والتصوير الكنائي يصور النفس المتعلقة بمحبة المال بحال محب مع محبوبه يسير حيث سار، ويقف حين يقف، وهذه الحال مذمومة للمؤمن في تعلقه بأي شيء سوى الله تعالى.

فقه الحديث

هذا الحديث يشير إلى الأحكام الفقهية التالية:

حكم قبول العطية من السلطان: الأصل أن للسلطان أو من في معناه أن يعطي بعض رعيته إذا رأى لذلك وجهاً، وإن كان غيره أحوج إليه منه.

أما موقف المُعطى وحكم قبوله فقد اختلف فيه الفقهاء: فذهب الحنفية إلى أنه لا يجوز قبول عطية أمراء الجور أو هداياهم، لأن الغالب في مالهم الحرمة إلا إذا علم أن أكثر المال حلال، أما من لم يعرف بالجور فقد اختلفوا في أخذها، فقال بعضهم: يجوز ما لم يعلم أنه يعطيه من حرام، قال محمد بن الحسن: وبه نأخذ ما لم نعرف شيئاً حراماً بعينه، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه.

وذهب الشافعية إلى أنه لا يحرم الأكل والمعاملة، ولا أخذ الصدقة، والهدايا، ممن أكثر ماله حرام، إلا ما علم حرمته، ولا يخفى الورع.

وقال المالكية: جوائز الخلفاء جائزة لاشك فيها لاجتماع الخلق على قبول العطية من الخلفاء ممن يُرضى منهم وممن لا يُرضى، وجل ما يدخل بيت المال مستقيم، وما يظلم فيه قليل في كثير.

وقال أحمد بن حنبل في جائزة السلطان: أكرهها، وكان يتورع عنها، ويمنع بنيه وعمه من أخذها، ويأمرهم بالصدقة بما أخذوه، وذلك لأن أموالهم تختلط بما يأخذونه من الحرام من الظلم وغيره فيصير شبهة[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: كرم النبي ﷺ وجوده.

ثانياً: من آداب المدعو: إيثار غيره من ذوي الحاجات.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: الانتفاع بالمال الذي جاء من طريق حلال من غير مسألة.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: يسر تعاليم الإسلام.

خامساً: من واجبات المدعو: ترك المسألة وعدم أخذ المال بغير حقه.

سادساً: من صفات المدعو الاستجابة لتوجيهات النبي ﷺ.

أولاً: من موضوعات الدعوة: كرم النبي ﷺ وجوده:

في الحديث إشارة إلى ذلك في قول عمر رضي الله عنه قال كان رسول الله ﷺ يعطيني العطاء" فكان رسول الله ﷺ مضرب المثل في الكرم والجود، فعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: ((كان رسولُ اللّهِ ﷺ أَجْوَدَ الناسِ، وكانَ أَجودَ ما يكونُ في رَمَضانَ حِينَ يلْقاهُ جبريلُ، وكانَ يلقاهُ في كلِّ ليلةٍ مِنْ رَمضانَ فَيُدارِسُه القُرآنَ. فلَرَسولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدُ بالخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ المُرْسَلَة))[2] فكان ﷺ في الجود والكرم والسخاء والسماحة وغير ذلك من الأخلاق الكريمة لا يُوازى ولا يبارى[3].

---

(١) الاختيار ٣٦/٤، ومنح الجليل ١٢٤/١٨، وحاشيتا قليوبي وعميرة ١٧١/١٦، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٢٤٠/٤.

(٢) أخرجه البخاري ٣٥٥٤.

(٣) نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، محمد الخضري ص ١٧٤.

والأمثلة على كرم وجود رسول الله ﷺ أكثر من أن تحصى فلقد كان ﷺ لا يرد سائلاً ويجود حتى بما قد يكون في حاجة إليه، روى عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: ((جاءتِ امرأةٌ إلى النبيِّ ﷺ ببُردةٍ - فقال سهلٌ للقوم: أتدرون ما البردةُ؟ فقال القوم: هي شَملةٌ فقال سهلٌ: هي شملة منسوجةٌ فيها حاشيتُها - فقالت: يا رسولَ الله، أكسوكَ هذهِ، فأخذَها النبيُّ ﷺ محتاجاً إليها فلبسَها، فرآها عليه رجلٌ من الصحابةِ فقال: يا رسولَ الله، ما أحسَنَ هذهِ، فاكسُنيها. فقال: نعم. فلما قامَ النبيُّ ﷺ لامَهُ أصحابهُ فقالوا: ما أحسَنتَ حينَ رأيتَ النبيَّ ﷺ أخذَها مُحتاجاً إليها ثم سألتَهُ إياها، وقد عرفتَ أنه لا يُسألُ شيئاً فيَمنَعُه. فقال: رجوتُ برَكتَها حين لَبِسَها النبيُّ ﷺ لعلّي أُكفَّنُ فيها))[1].

ووجب على الدعاة الاقتداء بالنبي ﷺ، في جوده وكرمه لما في ذلك من أثر نفسي في المدعويين.

ثانياً- من آداب المدعو: إيثار غيره من ذوي الحاجات:

جاء الإيثار في الحديث في قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه "كان رسول الله ﷺ يعطيني العطاء فأقول: أعطه من هو أفقر إليه مني" وتلك منقبة لعمر رضي الله عنه، وبيان فضله وزهده وإيثاره[2] والإيثار مرتبة راقية جداً من مراتب خُلُق حب العطاء، إذ هو تقديم الإنسان أخاه على نفسه في أمر هو بحاجة إليه، وقد سجل الله للأنصار فضيلة إيثارهم إخوانهم المهاجرين بكثير مما لهم به ضرورة أو حاجة، وفي ثنائه عليهم تحريض على الاقتداء بهم، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[3][4].

---

(١) أخرجه البخاري ٦٠٣٦.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٦٥٨.

(٣) سورة الحشر، آية: ٩.

(٤) انظر: الوجيزة في الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني ص ٤٢٥، ٤٢٦.

والإيثار هو تقديم الغير على النفس في حظوظها الدنيوية رغبة في الحظوظ الدينية وذلك ينشأ عن قوة اليقين وتوكيد المحبة والصبر على المشقة[١] شريطة أن لا ينقص ديناً ولا يضيع حقوقاً، قال ابن القيم مبيناً أن من درجات الإيثار (أن تؤثر الخلق على نفسك فيما لا يخرم عليك ديناً يعني أن تقدمهم على نفسك في مصالحهم، بحيث لا يؤدي إلى ارتكاب إتلاف لا يجوز في الدين، فكل سبب يعود عليك بصلاح قلبك ووقتك وحالك مع الله فلاتؤثر به أحداً، فإن آثرت به فإنما تؤثر الشيطان على الله وأنت لا تعلم)[٢].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: الانتفاع بالمال الذي جاء من طريق حلال من غير مسألة:

جاء في الحديث ما يدل على جواز الانتفاع بالمال الذي جاء من طريق حلال من غير مسألة، وذلك في قول رسول الله ﷺ لعمر رضي الله عنه "إذا جاءك من هذا المال شيء وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه فتموله فإن شئت كله وإن شئت تصدق به".

والإشراف: التعرض للشيء والحرص عليه والتطلع إليه من قوله أشرف على كذا إذا تطاول له والمعنى من أعطاه الله مع انتفاء القيدين المذكورين -الإشراف والمسألة- فليقبل[٣].

قال الدكتور الحسيني هاشم في شرحه لهذا الحديث "ما جاء إلى الإنسان أجراً أو هدية أو ما إلى ذلك لا حق له في رده لئلا يندم على ذلك أو يورط غيره في مثل فعله، أو يدفع المعطي إلى الإهمال في إعطائه وقد يكون محتاجاً، ثم إن أخذ الأجر على العمل أدعى إلى اتقانه والإخلاص فيه وإلى المحاسبة على ذلك، وهذا ما أرشد إليه الرسول ﷺ ابن عمر، حيث أرشده إلى وجوب الأخذ، فإذا تحصل عنده وأصبح في ملكه فله الحرية في إنفاقه على نفسه أو التصدق به على الغير، بشرط أن لا يكون المال المعطى له ناشئاً عن طمع منه فيه، أو توريط لغيره في دفعه، فإن كان شيء من ذلك فعليه أن يبتعد عنه ولا يدفع نفسه إلى محاولة تحصيل المال عن طريقه، حرصاً

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٩/١٨/٤٥.

(٢) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٣/٥٥-٥٧.

(٣) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣/٣٩٥، رياض الصالحين، النووي ص ٢٥٠.

على بقاء العزة الإسلامية واستمرار كرامة المسلمين)[١].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: يسر تعاليم الإسلام:

إن تعاليم الإسلام مبنية على التيسير والتخفيف على الناس في إطار الأمور المشروعة، والحديث فيه مظهر من مظاهر تيسير الإسلام حيث أباح النبي ﷺ أخذ العطية ما دامت لم تأت نتيجة استشراف أو سؤال، وتخيير الآخذين الانتفاع بها أو التصرف بها "إذا جاءك من هذا المال شيء وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه فتموله، فإن شئت فكله وإن شئت تصدق به" فالإسلام يتميز عن غيره من التشريعات بأنه دين اليسر ورفع الحرج واليسر أهم المبادئ التي راعاها الإسلام وقد خص الله الشريعة الإسلامية بالسماحة والسهولة واليسر لأنه أرادها رسالة للناس كافة والأقطار جميعاً، ورسالةٌ هذا شأنُها من العموم والخلود لابد أن يجعل الله الحكيم في أثنائها من التيسير والتخفيف والرحمة ما يلائم اختلاف الأجيال وحاجات العصور وشتى البقاع وهذا واضح في شريعة الإسلام، قال ﷺ ((إنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إلاّ غَلَبَه))[٢]،[٣].

خامساً- من واجبات المدعو: ترك المسألة وعدم أخذ المال بغير حقه:

جاء في الحديث النهي عن أخذ المال بغير حقه، وذكر من صور ذلك أخذه عن طريق السؤال، واستشراف النفس وتطلعها إليه "إذا جاءك من هذا المال شيء وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه فتموله، فإن شئت كله وإن شئت تصدق به ومالا فلا تتبعه نفسك" وقد أثنى القرآن على من لا يتعرضون الناس بالسؤال، والتعفف عن ذلك، قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَـٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾[٤] وبين ﷺ أن الله لا يبارك في مال

(١) شرح رياض الصالحين ٣٤٨.

(٢) أخرجه البخاري ٣٩.

(٣) انظر: اليسر في القرآن الكريم، رأفت كامل عيد السيوري ص ٨٩.

(٤) سورة البقرة، آية: ٢٧٣.

أُخِذ بإشراف نفس وسؤال له، فعن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: ((سألتُ النبيَّ ﷺ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سألتُهُ فأعطانِي، ثُمَّ سألتُهُ فأعطانِي، ثُمَّ قالَ: إنَّ هذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ. فَمَنْ أَخَذَهُ بِطِيبِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ. وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلاَ يَشْبَعُ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى))[(١)].

لذا كان من واجبات المدعو ترك السؤال لما فيه من انتزاع للبركة ولما يورثه من ذلٍ وهوان في الدنيا والآخرة وسفولاً وانحطاطاً في المجتمع إذ أن التسول وسؤال الناس عمل دنيء تمجه الأذواق السليمة ودليل على دناءة النفس وحقارتها[(٢)].

سادساً- من صفات المدعو: الاستجابة لتوجيهات النبي ﷺ:

جاء في الحديث مثل تطبيقي لما ينبغي أن يكون عليه الإنسان من استجابةً لتوجيهات النبي ﷺ، قال سالم: "فكان عبدالله لا يسأل أحداً ولا يرد شيئاً أعطيه" وذلك عملاً بالحديث، ووقوفاً عنده، وقد كان ابن عمر رضي الله عنهما شديد الاتباع، وقد أمر الله عباده بالطاعة والاستجابة له ولرسوله ﷺ وجعل ذلك فرضاً لازماً، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾[(٣)] فإن ذلك سبب للهدى والرحمة والفوز والسعادة، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[(٤)] وقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[(٥)]،[(٦)].

---

(١) أخرجه مسلم ١٠٣٥.

(٢) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين ٤١٧٣/٩.

(٣) سورة الأنفال، آية: ٢٠.

(٤) سورة الأحزاب، آية: ٧١.

(٥) سورة النساء، آية: ١٣.

(٦) انظر: محبة الرسول ﷺ بين الاتباع والابتداع، عبدالرؤوف محمد عثمان ص ١١١، ١١٢.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

أولاً- التربية على التكافل الاجتماعي:

إنَّ التربية والتنشئة على التكافل، تتضمن مبادئ تربوية عظيمة، لعل من أبرزها تأصيل هذه الروح في نفوس الناس، وتنمية عملية المشاركة الإيجابية في مساعدة الآخرين ومواساتهم والإحساس بحاجاتهم، ولقد ظهر هذا السلوك التربوي في التعامل مع الصحابة رضي الله عنهم الذي تجلى في عملية المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، ومن شواهد روح التكافل الاجتماعي الذي يربي عليه الصحابة رضي الله عنهم، ما جاء واضحًا في قول عمر رضي الله عنه للنبي صلى الله عليه وسلم: «أعطه من هو أفقر مني ...». فهذا نهج تربوي نتعلم منه الإيثار وعدم الأنانية وتطبيق السلوك التربوي الذي يحقق التكافل الاجتماعي والإيثار الذي هو أعلى منزلة في البذل[(١)].

ثانيًا- التربية الاقتصادية:

إن من أصول التربية الإسلامية التنشئة على التربية الاقتصادية، لأن الإسلام ينظم شئون الحياة، والنشاط الاقتصادي في الإسلام وسيلة لتخفيف استخلاف الإنسان في الأرض والإسلام أرسى مبادئ التربية الاقتصادية، وتبرز هذه المبادئ في موقف التربية الإسلامية من رأس المال، فإن جمع المال في الإسلام غير محرم ولا مذموم لأنه أصبح واضحًا عند مالك هذا المال أنه مستخلف فيه وأن كونه يملكه لا يخرجه عن كونه ملك لله تبارك وتعالى، ولذلك أمر بالمحافظة عليه، من هنا أقر الإسلام التربية على مبدأ الملكية الفردية للمال ولمختلف وسائل الإنتاج وجعلها أساسًا للنظام الاقتصادي. وظهر ذلك من النهج التربوي لرسول الله صلى الله عليه وسلم... "إذا جاءك من هذا المال شيء وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه فتموله فإن شئت كله..." فمن خلال هذا الهدي النبوي ندرك أن من مبادئ الإسلام التربوية التربية على التنمية الاقتصادية، فإذا تربى عليها الفرد المسلم

---

(١) انظر: الإيمان والحياة، د. يوسف القرضاوي، ص٢٥٩. تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، ٣٦٧/١. التدين والصحة النفسية، د. صالح عبداللطيف الصنيع، ص٣٠٢.

وطبقها في واقعه غدت هذه التنمية منسجمة مع الهدف الحقيقي لوجود الإنسان[1].

ثالثًا- التربية على ممارسة الحقوق المشروعة:

إن من أهم ما نادى به الإسلام من مبادئ تفوق بها على سائر الأديان والتشريعات هو: منهج إعطاء الإنسان حقه الكامل في ممارسة حريته المقننة ومباشرته لحقوقه دون أي ضغوط أو مؤثرات، ولا شك أن التربية على هذه المبادئ تؤدي إلى تكوين الشخصية الإسلامية المؤثرة والمنتجة والقادرة على اتخاذ القرار والمشاركة في دفع عجلة التنمية والإنتاج، لذا أراد النبي ﷺ أن يعمق هذا الفهم الواعي من خلال تربية أصحابه رضي الله عنهم على ذلك عمليًا ومن شواهد ذلك قوله ﷺ: «فإن شئت كله، وإن شئت تصدق به ...» إن هذه التوجيهات التربوية العظيمة تمنح الثقة في القدرة على التصرف واتخاذ القرار المناسب من إلغاء الشخصية، ولاشك أن ذلك توجيه تربوي عظيم من النبي ﷺ يعلمنا كيفية بناء الشخصية الإيجابية مما يعد زادًا للقائمين على التربية الإسلامية في كيفية صياغة الإنسان القادر على اتخاذ القرار وممارسة حقوقه دون تردد وعدم تنازله عن حقوقه دون تردد وعدم تنازله عن حقوقه المشروعة وتحمله المسؤوليات في اتخاذ القرار، ويعد ذلك من مميزات التربية الإسلامية.

رابعًا- من الأساليب التربوية: المناقشة والحوار:

وهذا واضح من قوله عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما كان النبي ﷺ يعطيه العطاء: أعطه من هو أفقر إليه مني، فيحاوره النبي ﷺ ويبين له الصواب ويقول له: ((خذه، إذا جاءك من هذا المال شيء وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه فتموله...)).

والمناقشة والحوار من الأساليب التربوية ذات الأهمية، لأنها تُفعِّل دور المتعلم وتجعله مشاركًا إيجابيًا في العملية التعليمية، كما تدفعه إلى مزيد من البحث والاطلاع، فضلاً عن أنها تدفع عنه الملل وغير ذلك.

(١) أصول التربية الإسلامية، أ.د. محمد شحات الخطيب وآخرون، ص٢١١. الوعي التربوي ومستقبل البلاد العربية، د.جورج شهلا وآخرون، ط دار العلم للملايين، بيروت، ص٦٩.

٥٩- باب الحث علَى الأكل من عمل يده والتعفف به عن السؤال والتعرض للإعطاء

قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾[الجمعة: ١٠].

الحديث رقم (٥٣٨)

٥٣٨- وعن أَبي عبد الله الزبير بن العَوَّام ﷺ، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: **((لأَنْ يَأخُذَ أحَدُكُمْ أحبُلَهُ ثُمَّ يَأتِيَ الجَبَلَ، فَيَأْتِيَ بحُزمَةٍ مِنْ حَطَب عَلَى ظَهْرِهِ فَيَبِيعَهَا، فَيكُفَّ اللهُ بِهَا وَجْهَهُ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أنْ يَسْألَ النَّاسَ، أعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ))** رواه البخاري[١].

ترجمة الراوي:

الزبير بن العوام: هو الزبير بن العوام بن خويلد القرشي.

حواريُّ رسول الله ﷺ، لقوله ﷺ ((لكل نبيٍّ حواريُّ، وحواريَّ الزبير))[٢]، وهو ابن عمة رسول الله ﷺ صفية بنت عبدالمطلب، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الستة أهل الشورى، وأول من سلّ سيفه في سبيل الله، فقد خرج يوماً وهو غلام ابن اثنتي عشرة سنة وبيده سيفه فلقيه النبي ﷺ فقال مالك؟ قال: أُخبرتُ أنك أُخذت، فقال له النبي ﷺ: ((فكنت صانعاً ماذا؟ فقال الزبير: كنت أضرب به من أخذك، فدعا له النبي ﷺ ولسيفه[٣]، وكان رجلاً طويلاً، إذا ركب خطت رجلاه الأرض، وكان خفيف اللحية والعارضين.

وقد أسلم على يد أبي بكر ﷺ وله اثنتا عشرة سنة وقيل ثمان سنين، وكان عمه يُعلّقه ويُدَخّنْ عليه ولكنه ﷺ يقول: لا أرجع إلى الكفر أبداً، وقد هاجر الهجرتين،

(١) برقم ١٤٧١ والسياق للحميدي في جمعه ١/١٨٥، ١٧٨. أورده المنذري في ترغيبه ١٢٢٦.

(٢) أخرجه البخاري ٣٧١٩، ومسلم ٢٤١٥.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ٥٦٠٥، قال محققو السير: رجاله ثقات.

وشهد بدراً، وكان على ميمنة النبي ﷺ يومئذ[(١)]، وشهد أحداً وغيرها.

وهو الذي جمع له النبي ﷺ أبويه يوم قريظة فقال بأبي وأمي[(٢)]، وقد تحرك حراء يوماً وكان عليه النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ: اسكن حراء! فما عليك إلا نبيٌّ أو صديقٌ، أو شهيد، وكان عليه أبوبكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير[(٣)].

وقالت فيه عائشة رضي الله عنها إنه من الذين استجابوا لله وللرسول من بعد ما أصابهم القرح، وكان موسراً، كثيراً المتاجر، كثير الصدقة.

وكان شجاعاً، وكان رضي الله عنه في صدره أمثالُ العيون من الطعن والرمي، قال عروة كان في الزبير ثلاث ضربات بالسيف إحداهن في عاتقه، إن كنت لأُدخِلُ أصابعي فيها، وقد ضُرب ثنتين يوم بدر، وواحدةً يوم اليرموك.

وقد روى عن النبي ﷺ أحاديث يسيرة، لخوفه من قول النبي ﷺ ((من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعدهُ من النار))[(٤)] وقد بلغت روايته لحديث النبي ﷺ ٣٨ حديثاً وتوفي شهيداً، قتله ابن جرموز غيلة يوم الجمل بوادي السباع (على ٧ فراسخ من البصرة).

وقال النبي ﷺ في ذلك لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: ((بشر قاتلُ ابن صفية بالنار))[(٥)].

وتوفي سنة ٣١هـ وله ست أو سبع وستون سنة[(٦)].

---

(١) أخرجه الطبراني ٢٣١ وذكره الهيثمي في المجمع ٨٣/٩.

(٢) أخرجه الترمذي، رقم ٣٧٤٣ وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي (٢٩٤٣).

(٣) أخرجه الترمذي، رقم ٣٦٩٦، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٩١٧).

(٤) أخرجه البخاري، رقم ١٢٩١.

(٥) أخرجه أحمد١٠٢/١ رقم ٧٩٩ وقال محققو المسند: إسناده حسن ١٨١/٢.

(٦) الطبقات الكبرى ابن سعد ١٠/٣-١١٤، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٢٦١-٢٦٤، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود ٣٠٧/٢-٣١٠، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ص ٤٢٥-٤٢٦، وسير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ٤١/١-٦٨، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين ١٧/٣-١٩، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٦٢٦/١-٦٢٧، والأعلام، خير الدين الزركلي ٤٣/٣، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك ٢٤٥/١-٣٥١.

غريب الألفاظ:

أحبلهُ: جمع حبل وهو الرّباطُ[١].

فيكف الله بها وجهه: أي فيمنع الله بها ذاته من الحاجة، وعبّر بالوجه عن اكلّ؛ لأنه أشرف الأجزاء الإنسانية أو لأن السؤال إنما يكون به غالباً[٢].

الشرح الأدبي

الحديث يضرب مثالا افتراضيا لشكل من أشكال التكسب الحلال التي يصون بها المرء وجهه من سؤال الناس، وينفع بها غيره في ما يقدم لهم من أعمال، وفيما ينفع به أهله من رزق حلال ينفقه عليهم، وما يتصدق به على الفقراء، والمساكين وقد بدأ الحديث بالتوكيد للخبر لتمهيد النفوس، وتعظيم الخبر، وإضافة لفظ أحد إلى كاف الخطاب، وميم الجمع في قوله (أحدكم) يجعل الجميع تحت مظلة الحكم، وجمع الحبل يشير إلى العزم في السعي وتقوية الأسباب، والربط بـ(ثم) يشير إلى مسافة يقطعها الساعي حتى يصل إلى غرضه، وهي تشير إلى أن الإنسان يجب أن يصبر حتى يثمر عمله، والتعبير بالإتيان يشير إلى مجيء في مشقة، وتكلف، والتعبير بقوله (على ظهره) يشير إلى التمكن في الحمل، وتتابع الفاءات يشير إلى سرعة تحقيق الثمرة المرجوة بعد فترة العناء في البحث، وقوله (فيكف الله بها وجهه) كناية عن صيانته عن الذل بسؤال الناس، وقد أكده بتقرير الخيرية، وتفضيلها على سؤال الناس، والطباق بين العطاء، والمنع يقرر أن الأمر في الحالين مرجوح بكسب اليد التي تضمن صيانة النفس .

---

(١) القاموس المحيط، الفيروزآبادي ٩٨٠، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٥٩/٤.

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٨١٠.

فقه الحديث

في هذا الحديث من الفقه: المفاضلة بين أنواع المكاسب المختلفة:

اختلف الفقهاء في أفضل المكاسب فمنهم من فضل الزراعة ومنهم من فضل التجارة ومنهم من فضل العمل باليد من الصنائع والحرف[١]. وقال ابن حجر: (والحق أن ذلك مختلف المراتب، وقد يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص)[٢].

وقال الشيخ البسام: (قال السعدي: وأحسن ما يقال في هذا الباب: أن الأفضل لكل أحد ما يناسب حاله، ولا بدّ في جميع المكاسب من النصح وعدم الغش والقيام بالواجب من جميع الوجوه)[٣].

المضامين الدعوية[٤]

أولاً: من أهداف الدعوة: إيجاد الحلول العملية لمشكلة الفقر.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: فضل الكسب من عمل اليد.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: الترغيب في العمل والتنفير من المسألة.

رابعاً: من مهام الداعية: توجيه المدعوين إلى العمل والإنتاج.

أولاً- من أهداف الدعوة: إيجاد الحلول العملية لمشكلة الفقر:

إن إيجاد الحلول العملية لمشلكة الفقر ظاهر بصريح الحديث "لأن يأخذ أحدكم أحبله ثم يأتي الجبل فيأتي بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها خير له من يسأل الناس

---

(١) انظر في ذلك: المبسوط ٢٥٨/٣٠-٢٥٩، والاختيار ١٧١/٤، والفتاوى الهندية، الشيخ نظام وجماعة من علماء الهند ٣٤٩/٥، وروضة الطالبين، الإمام النووي، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، وعلي محمد معوض ٢٨١/٣، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٥٩/٩، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٠٤/٤، وسبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، الصنعاني ٤٨٦ ط/ بيت الأفكار، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٣٨/٣٤-٢٣٩.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٠٤/٤.

(٣) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٤٠٨/٣.

(٤) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -٥٣٨- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (٥٣٩).

أعطوه أو منعوه" فقد أعلن الإسلام الحرب على الفقر وشدد عليه الحصار وقعد له كل مرصد درءاً لخطره على العقيدة وعلى الأخلاق والسلوك، وحفظاً للأسرة وصيانة للمجتمع وعملاً على استقراره وتماسكه، وسيادة روح الإخاء بين أبنائه، فأُمر كل إنسان في المجتمع الإسلامي بالعمل والمشي في مناكب الأرض، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾(١) فالعمل هو السلاح الأول لمحاربة الفقر، وهو السبب الأول في جلب الثروة، وهو العنصر الأول في عمارة الأرض التي استخلف فيها الإنسان وأمره أن يعمرها ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾(٢)(٣). والاستعمار: الإعمار، أي جعلكم عامرينها، فالسين والتاء للمبالغة كالتي في استبقى واستفاق، ومعنى الإعمار أنهم جعلوا الأرض عامرة بالبناء والغرس والزرع لأن ذلك يعد تعميراً للأرض(٤).

ثانياً- من موضوعات الدعوة: فضل الكسب من عمل اليد:

لقد أمر الله بطلب المعيشة، قال تعالى: ﴿وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾(٥)، (٦) والحديث بين أن العمل خير للنفس حيث يحفظ عليها كرامتها، وقد بين النبي ﷺ ذلك في الحديث فقال "لئن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره، خير له من أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه" وفي ذلك حضّ على العمل والتعفف عن المسألة والتنزه عنها، ولو امتهن المرء نفسه في طلب الرزق وارتكب المشاق في ذلك، ولولا قبح المسألة في نظر الشرع لما فضل عليها ذلك، وذلك لما يدخل على السائل من ذل السؤال، ومن الرداء إذا لم يعط(٧).

---

(١) سورة الملك، آية: ١٥.

(٢) سورة هود، آية: ٦١.

(٣) انظر: مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، د. يوسف القرضاوي ص ٤٣، ٤٤.

(٤) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ١٠٨/١٢/٥.

(٥) سورة الجمعة، آية: ١٠.

(٦) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٥٠٦/٢.

(٧) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٨١٠.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: الترغيب في العمل والتنفير من المسألة:

جاء في الحديث الترغيب في العمل والتنفير من المسألة "لئن يحتطب أحدكم حزمة خير له من أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه" وذلك حفاظاً على ماء وجه المسلم، لذا أمر الله تعالى المسلم بالسعي في الأرض والأخذ بالأسباب "هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا" أي مذللة سهلة لم يجعلها ممتنعة بالحزونة والغلظ[(١)] ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾[(٢)] فذكر الله في الآية نعمته على خلقه في تسخيره لهم الأرض وتذليله إياها لهم بأن جعلها قارة ساكنة لا تميد ولا تضطرب، بما جعل فيها من الجبال وأنبع فيها من العيون وسلك فيها من السبل وهيأ فيها من المنافع ومواضع الزروع والثمار، وأمر بالتردد في أقاليم الأرض وأرجائها في أنواع المكاسب والتجارات[(٣)]. قال بعض الحكماء: (لا تدع الحيلة في التماس الرزق بكل مكان فإن الكريم محتال والدني عيّال، وقال:

فسر في بلاد الله والتمس الغنى ... تعش ذا يسارٍ أو تموت فتعذرا
ولا ترض من عيش بدونٍ ولا تنم ... وكيف ينام الليل من كان معسرا[(٤)]

ففي العمل سعادة العبد في الدارين، وحفظٌ للكرامة وعفة للإنسان وصونٌ لماء وجه صاحبه من السؤال[(٥)].

رابعاً- من مهام الداعية: توجيه المدعوين إلى العمل والإنتاج:

إنَّ مما ينبغي على الداعية فعله والحرص عليه هو توجيه المدعوين إلى العمل

---

(١) زاد المسير، ابن الجوزي، ٣٢١/٨.

(٢) سورة الملك، آية: ١٥.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١٧٩/٨.

(٤) المحاسن والمساوئ، إبراهيم بن محمد البيهقي ص ٢٨٥.

(٥) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين، ٣٠٥١/٧.

والإنتاج كما في الحديث "لأن يأخذ أحدكم أحبله ثم يأتي الجبل... الحديث" وتلك دعوة من الرسول ﷺ للعمل الدؤوب والإعمال وتنمية الإنتاج لتحقيق مجتمع الرفاهية الذي يسعى إليه كل نظام اقتصادي على الأرض[١].

لذا جاء خطاب الرسول ﷺ لأصحابه محرضاً لهم على العمل قدر استطاعتهم وبأي وسيلة ممكنة، فعلى الإنسان أن يعمل ولا يبالي بنوع العمل أو ما يتطلبه من تحمل المشاق والمتاعب في سبيل التعفف عن الفقر والتخلص من ذل السؤال، فلأن يأخذ الإنسان أحبله فيصعد الجبل فيأتي بحزمة من الحطب بعد أن يتحمل مشاق قطعها حاملاً لها على ظهره أو دابة فيبيعها وينتفع بثمنها ويكتفي بما يحصله عن الناس ويستغني به عن غيره خير له من سؤال الناس والاحتياج إليهم وتوقف مصيره على ما يجودون به من إحسان[٢].

(١) انظر: عدالة توزيع الثروة في الإسلام، عبدالسميع المصري ص ٢٠.

(٢) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم ص ٣٤٨.

الحديث رقم (٥٣٩)

٥٣٩- وعن أَبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ((لأَنْ يَحْتَطِبَ أحَدُكُمْ حُزْمَةً عَلَى ظَهْرِهِ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أنْ يَسْأَلَ أحداً، فَيُعْطِيَهُ أَوْ يَمْنَعَهُ)) متفقٌ عَلَيْهِ[(١)].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

هذا الحديث في معنى سابقه يهيب بكل من ليس له عمل البحث، والتفكير فيما يمكن أن يفتح له باب رزق حلال دون النظر إلى حقارة العمل، أو أهميته، وإنما ينظر فيه إلى كونه حلالا، والتعبير بالفعل المضارع يصور معاناة المحتطب وصيغة الافتعال تدل على مشقة، وتكلف، ومعاناة في طلب العمل الحلال، والتعبير بالظهر؛ لأنه المختص بالحمل، والتعبير بـ(على) يفيد التمكن، وإضافته إليه للإشارة إلى مباشرته الحمل بنفسه مما يشير إلى قيمة العمل الذي يحقق عزة المسلم، وينمي في نفسه الثقة، والاعتزاز بالنفس، والإحساس بالكيان، وأنه عضو نافع في المجتمع مما يعمق الانتماء له، والمحافظة عليه.

المضامين الدعوية[(٢)]

---

(١) أخرجه البخاري ٢٠٧٤ واللفظ له، ومسلم ١٠٤٢/١٠٧. أورده المنذري في ترغيبه ١٢٢٧.

(٢) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (٥٤٠)

٥٤٠- وعنه، عن النبيِّ ﷺ، قَالَ: ((كَانَ دَاوُدُ عليه السلام لا يَأْكُلُ إلاَّ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ)) رواه البخاري[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

الحديث أسلوبه خبري يضرب في أعماق التاريخ عن طريق الماضي (كان) الذي يعود بالمخاطبين مع المتكلم لاستحضار نموذج فريد في فضيلة من الفضائل يكون قدوة للأمة حتى لا تتبع نماذج هدامة تقودها إلى الهاوية، واختيار نبي الله داود عليه السلام وحصر ما يأكله على عمل يده دون غيره، لأنه لم يكن محتاجاً للعمل من أجل الطعام، لأنه كان خليفة في الأرض، وإنما كان يحرص على أن يأكل من عمل يده، فيصنع الدروع، ويبيعها ثم إن عمله فيه صنع لآلة من آلات الحرب التي تحقق قوة لجند الله، وتشير إلى حرص القائد على قوة جنده الذين هم حماة دينه .

المضامين الدعوية[2]

أولاً: من تاريخ الدعوة: ذكر حال نبي الله داود وزكريا عليهما السلام.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: أهمية الحرفة في حياة الداعية والمدعو.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: فضل نبي الله زكريا.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: احتراف أنبياء الله لبعض الحرف الشريفة وكسبهم من عمل أيديهم.

أولاً- من تاريخ الدعوة: ذكر حال نبي الله داود وزكريا عليهما السلام:

ورد في الحديثين فيما حكاه النبي ﷺ عن داود وزكريا عليهما السلام من احترافهما

---

(١) برقم ٢٠٧٣. أورده المنذري في ترغيبه ١٢١.

(٢) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -٥٤٠- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (٥٤١).

وأكلهما من كسب أيديهما، فقال: (كان زكريا عليه السلام نجاراً)، وفي حكاية سير الأولين وذكر قصصهم، الوقوف على ما جرى لهم أخذاً للعبرة والعظة ولبعث وإحياء تلك المعاني والصفات الذي ينبغي الناس بها من سيرهم[١].

لذا ينبغي على الداعية الاهتمام بأخبار السابقين مما جاء في كتاب الله وصحيح سنة رسول الله ﷺ والعناية بها وما اشتملت عليه من عبر وعظات وأسرار وحكم بالغات، وليتبع في ذلك طريقة القرآن والسنة في سرد قصص الماضين غير معتمد على ذكر التفصيلات، إنما يهتم برؤوس العبر ورسم ملامح الشخصيات التاريخية واتجاهات الأحداث ونتائجها وذكر الحقائق والأسرار العلمية والتوجيهية والتشريعية، لتنفذ إلى النفس والعقل[٢]، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[٣].

إن من الدروس والعبر في تاريخ الدعوة ما كان من حال نبي الله داود عليه السلام من اعتماده على نفسه وأكله من كسب يده (كان داود عليه السلام لا يأكل إلا من عمل يده)، وقد ذكر القرآن عمله وإكرام الله به بإلانة الحديد، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ۝ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[٤]، فأعانه الله على عمل الدروع من الحديد ليحصن المقاتلة من الأعداء وأرشده إلى صنعتها وكيفيتها[٥]، مع ما آتاه الله مع الملك (وشددنا ملكه) فمع أنه كان من كبار الملوك ومع سعة ملكه هذا كان يتورع ولا يأكل إلا من عمل يده[٦]، وبذلك كان داود عليه السلام مضرب المثل في الاحتراف وطلب العيش عن

---

(١) القصة في القرآن الكريم، د. مريم عبد القادر السباعي ص ٣١.

(٢) انظر: ثقافة الداعية، د. يوسف القرضاي ص ٢٤ - ٢٥.

(٣) سورة يوسف، آية: ١١١.

(٤) سورة سبأ، الآيتان: ١٠ - ١١.

(٥) البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق: أحمد أبو مسلم وآخرون ٢/٣٠٢.

(٦) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٨١١.

طريق بعض الحرف والصناعات اليدوية دون حياء أو استكبار[١].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: أهمية الحرفة في حياة الداعية والمدعو:

للحرفة أهمية كبيرة في حياة الداعية؛ لأنها تعمل على صيانة كرامة الإنسان، وتجعله صاحب اليد العليا، وما أحوج الدعوة والداعية إلى المال الذي يذلل العقبات من طريق الدعوة، ويعمل فتح الآفاق الرحبة أمام الدعوة إلى الله، ومما يؤكد أهمية الحرفة أن الأنبياء عليهم السلام أنفسهم كانوا يحترفون، وفي الحديث مثال لذلك فيقول ﷺ: (كان داود عليه السلام لا يأكل إلا من عمل يده)، فبالعمل تبرز مكانة الإنسان في الحياة ويعلو شأنه وترفع منزلته، وبالعمل سعادة الإنسان في دنياه وأخره[٢]، وفي عمل الداعية دافع للمدعوين إلى الناس به، وقد ضرب النبي ﷺ أرفع الأمثلة في العمل ومشاركة الآخرين بغض النظر عن ماهية العمل، فعن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: ((كان النبيُّ ﷺ يَنقُلُ التُّراب يوم الخندق حتى أَغْتَمَر بطنَهُ - أو أغبرَّ بطنهُ))[٣].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: فضل نبي الله زكريا:

في الحديث إشارة إلى زكريا عليه السلام وفضله، وأنه مثل من الأمثلة الحية التي يحتذى بها فقال: (كان زكريا عليه السلام)، قال النووي: (فيه جواز الصنائع وأن النجارة لا تسقط المروءة وأنها صنعة فاضلة، وفيه فضيلة لزكريا عليه السلام فإنه كان صانعاً يأكل من كسبه)[٤]، وهكذا نرى أن رسول الله ﷺ كان دائماً يضرب الأمثال للصحابة رضي الله عنهم بالأنبياء عليهم السلام وأنهم كانوا يحترفون لأنفسهم ويطلبون العيش عن طريق بعض الحرف أو الصناعات اليدوية دون أن يأنفوا من ذلك[٥]، ومثل هذه التوجيهات تقوم بتعديل النظرة الخاطئة إلى بعض الحرف وأصحابها.

---

(١) الحرف والصناعات في الحجاز في عصر الرسول ﷺ، د. عبدالعزيز بن إبراهيم العمري ص ٤٦.

(٢) إصلاح الوعظ الديني، محمد عبد العزيز الخولي ص ٢٢٩.

(٣) أخرجه البخاري ٤١٠٤.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٤٥٣.

(٥) الحرف والصناعات في الحجاز في عصر الرسول ﷺ، د. عبد العزيز بن إبراهيم العمري ص ٤٦.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: احتراف أنبياء الله لبعض الحرف الشريفة وكسبهم من عمل أيديهم:

إن الأنبياء عليهم السلام لم يعيشوا عالة على غيرهم بل كانوا يكسبون قوتهم بأنفسهم ويأكلون من عمل أيديهم، بل احترف بعضهم وذلك كزكريا عليه السلام وكما في الحديث: (كان زكريا عليه السلام نجاراً)، ورسول الله ﷺ كباقي إخوانه الأنبياء عليهم السلام رعى الغنم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: ((ما بَعثَ اللهُ نبيّاً إلاّ رَعَى الغَنَمَ)). فقال أصحابهُ: وأنتَ؟ فقال: ((نعم، كنتُ أرعاها على قَرارِيطَ لأهلِ مكةَ))[1]، وكان الأنبياء يؤجرون أنفسهم إذا لم يجدوا طريقاً لكسب العيش غيرها[2]، وقد ذكر القرآن قصة موسى عليه السلام مع الشيخ الكبير: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ﴾[3]، وفي ذلك حث على العمل واكتساب المال عن طريق بعض الحرف اقتداء بالأنبياء عليهم السلام ومَنْ على شاكلتهم من الصالحين[4]. استشعاراً لقيمة العمل وتكريماً للعاملين، وإيثاراً للعمل على حب الراحة والدعة إضافة إلى ما في العمل (من الشغل بالأمر المباح عن البطالة واللهو وكسر النفس بذلك والتعفف عن ذلة السؤال والحاجة إلى الغير)[5].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب: الإجارة، باب: رعي الغنم على قراريط، رقم ٢٢٦٢ ص ٣٦٠.

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٥٠٦/٢.

(٣) سورة القصص، آية: ٢٧.

(٤) انظر: الحرف والصناعات في الحجاز، د. عبد العزيز بن إبراهيم العمري ص ٤٥.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٥٦/٤.

الحديث رقم (٥٤١)

٥٤١- وعنه: أنَّ رسول الله ﷺ، قَالَ: ((كَانَ زَكرِيّا عليه السلام نَجَّاراً)) رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

الحديث يشير إلى نموذج من النماذج العملية في تاريخ البشرية تقتدي به في وجه من وجوه الخير، وهو العمل باليد، واتخاذ الحرفة، والصنعة اليدوية التي تبني الأمة، وتمنع البطالة، والتكاسل، وقول النبي ﷺ (كَانَ زَكرِيّا عليه السلام نَجَّاراً) خبر خلى من المؤكدات أريد به الفائدة، وهي مضمون الخبر لكي يعلم كل سامع أنها سنة في أنبياء الله، وأن مزوالة العمل كرامة تحقق للإنسان صيانة وجهه من ذل السؤال، والتعبير بكان في صيغة الماضي يشير إلى أنها مهنته الدائمة التي اعتادها .

المضامين الدعوية[٢]

(١) برقم ١٦٩/٢٣٧٩.

(٢) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (٥٤٢)

٥٤٢- وعن المقدام بنِ مَعْدِ يكرِبَ ﵁، عن النبي ﷺ، قَالَ: ((مَا أكَلَ أحَدٌ طَعَاماً قَطُّ خَيْراً مِنْ أنْ يَأكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإنَّ نَبيَّ الله دَاوُدَ ﷺ كَانَ يَأكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ)) رواه البخاري[1].

ترجمة الراوي:

المقدام بن معدي كرب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٨٣).

الشرح الأدبي

الحديث يثمن غاليا سعي الإنسان لتحصيل معاشه، ويقرر أنه خير طعام يأكله الإنسان وهو ما ينمي العزة في نفس المؤمن، ويعوِّده الاعتماد على نفسه، والاستقلالية في تحقيق أسباب رزقه كما أنه بتقوية تلك الروح في نفوس المسلمين ينادي بهم لتحقيق أسباب التقدم، وعدم الاعتماد على غيرهم في شيء لاسيما في طعامهم، ولاسيما من أعدائهم، وقد بدأ الحديث بأسلوب النفي (مَا أكَلَ أحَدٌ طَعَاماً قَطُّ خَيْراً مِنْ أنْ يَأكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِه) وتنكير كلمة أحد يفيد العموم لكل أحد، وتنكير الطعام يفيد عموم كل طعام، وكلمة قط تأكيد للنفي، وأسلوب التفضيل المنفي يقرر أفضلية أكل الإنسان من عمل يده، ونسبة العمل إلى اليد مجاز؛ لأن اليد سبب فيه، وهذا المجاز يفيد المبالغة في تأكيد المعنى، وقد زاد المعنى توكيدا بإبراز النموذج الأعلى للبشر وهم الأنبياء فقدم منهم نموذجاً (وَإنَّ نَبيَّ الله دَاوُدَ ﷺ كَانَ يَأكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ)، وخص داود لكون اقتصاره في أكله على عمل يده لم يكن لحاجة، لأنه كان خليفة في الأرض بل أراد الأفضل، وكان يعمل عملا يشق على غيره، وهو من الأهمية بمكان، وهو صنع الدروع من الحديد لقوته، ولأن فيه تقوية لجند الله على أعدائهم، وفيه أن الكسب لا ينافي التوكل، وأن ذكر الشيء بدليله أوقع في النفس، والحديث يرغب في

---

(١) برقم (٢٠٧٢). أورده المنذري في ترغيبه (١٢٢٨).

أن يكون لكل إنسان عملا؛ لأن فيه إيصال النفع إلى الكاسب، وإلى غيره، والسلامة عن البطالة المؤدية إلى الفضول وكسر النفس، والتعفف عن ذل السؤال .

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: فضل الأكل من عمل اليد.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: أكل نبي الله داود من عمل يده.

رابعاً: من آداب المدعو: التعفف والأكل من عمل اليد.

خامساً: من أهداف الدعوة: الحث على العمل والإنتاج والأكل من كسب اليد.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار:

ورد الإخبار في الحديث ببيان أن الكسب من عمل اليد خير من مسألة الناس؛ لأن ذلك يحقق عفة الإنسان ويعمل على صيانة كرامته، ولذا كان نبي الله داود عليه السلام يأكل من عمل يده: (ما أكل أحد طعاماً خيراً من أن يأكل من عمل يده وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده)، وأسلوب الإخبار من الأساليب الدعوية المؤثرة لما فيه إطلاع المدعوين على الحقائق وحملهم على الالتزام بها والدعوة إليها.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: فضل الأكل من عمل اليد:

لقد أوضح الرسول ﷺ في الحديث فضل الأكل من عمل اليد، وأنه أفضل من الاتكال على الغير فقال: (ما أكل أحد طعاماً قط خير من أن يأكل من عمل يده)، والمراد من الحديث كما تدل عليه القواعد الشرعية كسب حلال خالص من الغش بسائر وجوهه، وترك الاتكال على الغير[1]، قال ابن حجر: "والمراد بالخيرية في الحديث: ما يستلزم العمل باليد من الغنى عن الناس"[2]، فالإسلام يحب لأهله أن يحيوا كأقوى ما تكون الحياة، وأن يناضلوا كأشد ما يكون النضال، وأن يكون لهم في كل ميدان جهاد، وفي كل مجال

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٨١٢.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٥٨/٤.

عمل، حتى تتحقق لهم السيادة والقيادة عن جدارة واستحقاق[١].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: أكل نبي الله داود من عمل يده:

لقد صرح الرسول ﷺ بذلك في الحديث فقال: (وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده)، وأورد النبي ﷺ قصته في الحديث في مقام الاحتجاج بها على ما قدمه من أن خير الكسب عمل اليد، وفضل العمل باليد وتقديم ما يباشره الشخص بنفسه على ما يباشره بغيره، والحكمة في تخصيص داود عليه السلام بالذكر أن اقتصاره في أكله على ما يعمله بيده لم يكن من الحاجة لأنه كان خليفة في الأرض كما قال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾[٢]، وإنما ابتغى الأكل من طريق الأفضل[٣]، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾[٤]، قال القرطبي: (هذه الآية أصل في اتخاذ الصنائع والأسباب، وهو قول أهل العقول والألباب، لا قول الجهلة الأغبياء القائلين بأن ذلك إنما شَرِّعَ للضعفاء، فالسبب سنة الله في خلقه، فمن طعن في ذلك فقد طعن في الكتاب والسنة ونسب مَنْ ذكرنا - أي داود عليه السلام- إلى الضعف وعدم المنعة"[٥]، وهكذا نرى أن رسول الله ﷺ كان يضرب المثل بالأنبياء عليهم السلام وأنهم كانوا يحترفون ويعملون بأيديهم دون أن يأنفوا، وفي ذلك حث للمخاطبين على الاستجابة لهذه التوجيهات[٦].

رابعاً- من آداب المدعو: التعفف والأكل من عمل اليد:

إن في الحديث حثًا على التعفف والأكل من عمل اليد (ما أكل أحد طعاماً خيراً

---

(١) عناصر القوة في الإسلام، السيد سابق ص ١٦٢.

(٢) سورة ص، آية: ٢٦.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٥٨/٤.

(٤) سورة الأنبياء، آية: ٨٠.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٣٢١/١١/١٦.

(٦) الحرف والصناعات في الحجاز، د. عبد العزيز بن إبراهيم العمري ص ٤٦.

من أن يأكل من عمل يده) وفي ذلك حث على العمل والأكل من ثمرته، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾(١)، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾(٢)، وبهذا أمر الإسلام بالمشي في مناكب الأرض لاكتساب الرزق والنأي بالنفس عن الاتكال على الغير تكريماً للمسلم عن المهانة والمذلة والضعة، وإعلاء لهمته وحفاظاً على كرامته(٣).

خامساً- من أهداف الدعوة: الحث على العمل والإنتاج والأكل من كسب اليد:

إن من أهم الأهداف للدعوة تحقيق الذاتية الإسلامية، ومن أهم العوامل التي تساعد على إيجادها العمل والإنتاج والاعتماد على النفس، كما أشار إلى ذلك الحديث (ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من يده)، وتلك دعوة من الإسلام إلى الكسب والتحصيل(٤).

وفي دعوة الإسلام إلى العمل والكسب استغلال للموارد البشرية والمادية الإسلامية حتى تتحقق الرفاهية العامة للشعوب الإسلامية، وبذلك تتحقق للمسلمين القوة والمنعة، فالإسلام ليس مجرد تراث بل هو طريق التنمية والإنتاج السليم(٥). قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾(٦).

---

(١) سورة الملك، آية: ١٥.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٦٧.

(٣) البطالة - العمالة - العمارة من منظور الاقتصاد الإسلامي، د. زيد بن محمد الرماني ص ٨٥ - ٨٦.

(٤) عناصر القوة في الإسلام، سيد سابق ص ١٠٨.

(٥) النظام الاقتصادي في الإسلام "خصائصه وأركانه ونظرته لبعض المشكلات الاقتصادية"، محمود بن إبراهيم الخطيب ص ٧٤.

(٦) سورة هود، آية: ٦١.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

يحرص الرسول ﷺ على عزة المسلم، والمسألة ذلة، والأكل من كسب اليد عزة وكرامة، ومن المضامين التربوية في أحاديث الباب:

أولاً- التربية على العمل والإنتاج:

إن السعي لتحصيل الرزق الحلال الطيب يعد غاية من غايات التربية الإسلامية للتنشئة على العمل والإنتاج الإبداعي لأجل مواجهة الفقر، وتوفير متطلبات الحياة وتحقيق الحياة الكريمة التي ينشأ الإنسان في كنفها عزيزًا كريمًا قويًا، يستطيع أن يسهم في بناء ورفعة أمته، ويحقق الغاية من استخلافه بعبادة الله تعالى وعمارة الأرض، واستثمار النعم التي أودعها الله تعالى في هذا الكون، وهذا لا يتأتى إلا من خلال تربية النفوس على العمل المثمر في شتى المجالات المشروعة، ومن ثمَّ فإنه ﷺ أمر بالعمل حتى ولو أن يأخذ الإنسان حبله ثم يأتي الجبل فيأتي بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها، ولا شك أن ذلك يعد نموذجًا للسعي في طلب الرزق، مما يؤكد على أهمية السعي في طلب الرزق، وبذل الجهد والكدّ في سبيل تحصيل الرزق، ويدخل في ذلك كل عمل شريف يجب على الإنسان مباشرته طمعًا في تحقيق المستوى الطيب في العيش، ويعد هذا الأمر النبوي بالسعي حتى لو كان بجمع الحطب، توجيه تربوي نبوي لتربية النفوس على الإفادة من كافة المقومات الاقتصادية للحياة، فلربما ناسب ذلك تلك البيئة آنذاك، وإنه لينسحب على سبيل الإفادة من إمكانات الحياة والبيئة في كل زمان ومكان، مما يرسخ في النفوس الرغبة الجادة في العمل والإنتاج.

ولقد رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه قومًا قابعين في ركن من المسجد بعد صلاة الجمعة فسألهم من أنتم؟، فقالوا نحن المتوكلون على الله، فعلاهم عمر بدرته، ونهرهم وقال لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة، وأن الله يقول: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾[1].

---

(١) سورة الجمعة، آية: ١٠.

هذا نموذج تربوي عملي من عمر رضي الله عنه حث على العمل والتربية على تحصيل الرزق، والأخذ بالأسباب والشروع في العمل لا ينافي التوكل على الله تعالى، مهما كانت طبيعة العمل فلا ينبغي الاستحياء منه، ولو كان يسيرًا صغيرًا، والتربية على العمل تعتبر سلاحًا لمحاربة الفقر لأن التنشئة على طلب الرزق تجلب الثروة[(١)].

ثانيًا- التربية على التعفف:

وقد أثنى الله تبارك وتعالى على الفقراء المتعففين عن المسألة، وأوصى الله تعالى بالبحث عنهم وتعهدهم بالعطاء، قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾[(٢)].

فهذا تعبير إلهي تربوي عن حال الفقراء الذين لا يسألون الناس مع شدة الفقر، فهم ما فعلوا ذلك لا لكونهم تربوا على التعفف وعدم السؤال، وقد أكد النبي صلى الله عليه وسلم على أهمية العفاف بقوله: «لأَنْ يَحْتَطِبَ أَحَدُكُمْ حُزْمَةً عَلَى ظَهْرِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ أَحَدًا فَيُعْطِيَهُ، أَوْ يَمْنَعَهُ». فهذا توجيه تربوي عظيم من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عدم المسألة وإلى الأكل من عمل اليد، ولنا في داود وزكريا عليهما السلام المثل التربوي للتربية بالقدوة في ذلك لأنهما كانا يأكلان من عمل أيديهما.

وهذا من النماذج التربوية الرائعة في تربية النفوس على العفاف والاستغناء عن الناس، مما يسهم في إرساء مناهج تربوية عملية على أن الأكل من عمل اليد أكرم وأفضل، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: «مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ»، فمن هذا الهدي التربوي النبوي نتعلم أن أطيب الطعام وأهنأ العيش ما كان نتيجته السعي، أسوة بالقادة التربويين الأنبياء عليهم السلام[(٣)].

---

(١) الإيمان والحياة، د. يوسف القرضاوي، ص٣٠٧، مشكلة الفقر، وكيف عالجها الإسلام، د. يوسف القرضاوي، ص٥٢. وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، عبدالعزيز بن ناصر الجليّل ٢/٣٥٥.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٧٣.

(٣) انظر: الوجيزة في الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، ص٤٩٥. وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، عبدالعزيز بن ناصر الجليل، ص٣٩٠. الهمة العالية معوقاتها ومقوماتها، محمد بن إبراهيم الحمد، ص١٦٢-١٦٧.

والرسول ﷺ قد رغب في العمل وإن كان عائده كفافًا، لأنه يكسب صاحبه العزة والكرامة، ويدرأ عنه الدونية والإهانية، وأشار إلى أشق الأعمال قيامًا وإلى أقلها أجرًا ماديًا، وهي جمع حزمة من حطب على ظهره ليبيعها، فيكف الله تعالى بها وجهه، خير من أن يسأل فيُعطي أو لا يُعطي.

والرسل في هذا الميدان هم مضرب المثل، بدءًا من آدم عليه السلام الذي أهبط إلى الأرض وأمر بالتماس أسباب الرزق، وذكر العلماء من شأنه أنه أول من خاط الثوب وفلح الأرض وسقى الزرع وأكل من كد يده بعد أن أهبط إلى الأرض، وتباعًا بنوحٍ الذي احترف النجارة، ومثل ذلك قيام إبراهيم بالتجارة وبنوه معه، وإسماعيل يرعى الغنم وموسى كذلك، ومحمد ﷺ، اتجر في مال غيره وكان لا يقتات إلا مما كسبت يداه وحرم الله عليه وعلى آل بيته الصدقة "إن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لآل محمد"(١).

وقد نص رسول الله ﷺ على بعض الحرف التي اشتغل بها الأنبياء عليهم السلام، فذكر داود وصرح بأنه كان يأكل من عمل يده، ولعله اكتفى بما ورد في القرآن بحقه ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(٢)، وتخصيص داود في الحديث للإشارة إلى أن ملكه وكونه جامعًا بين الرسالة والملك لم يَحُل دون قيامه بالعمل ليأكل من كسب يده، وهذا خطاب عام وهو إلى اليهود أقرب منه إلى غيرهم. كما نص على زكريا عليه السلام وصرح بأنه كان نجارًا.

إن الثقافة التي تسود العالم الإسلامي بشأن العمل، تستمد الكثير من التراث الجاهلي، لا من التشريع الإسلامي، فاحتقار بعض الأعمال والوظائف والنظرة الدون إلى بعض المهن، كل هذا مخالف لتعاليم الإسلام.

إن الطبيب بحاجة إلى عامل نظافة أكثر من حاجة عامل النظافة إلى الطبيب لأن الحاجة إلى النظافة يومية وقائمة ومستمرة والمرض مواسم، والمهندس بحاجة إلى النجار

---

(١) أخرجه مسلم ١٠٧٢.

(٢) سورة سبأ، الآيتان: ٩، ١٠.

أكثر من حاجة النجار إليه، وهكذا فالناس جميعًا يحتاج بعضهم إلى بعض، ولله دَرُّ القائل:

النـاس للنـاس مـن بـدو وحاضـرة بعـض لـبعض وإن لم يـشعروا خـدم

إن كثيرين في السنوات الأخيرة قد أعرضوا عن العمل لأسباب عدة منها:

١-عدم تناسب العمل مع مستواهم الاجتماعي أو موقعهم العائلي.

٢-توفر قدر من المال جعلوه في البنوك أو المؤسسات الاستثمارية ليدر عليهم دخلاً يكفيهم للعيش بلا مشقة.

٣-تقاضي معاش حكومي أو دخل شهري من طرق شتى يكفيهم العيش فيكون التقاعس والتخلي عن العمل.

٤-إعداد بنايات وإنشاء شركات وإقامة مصانع تدر عليهم من الدخل ما يكفيهم وزيادة فقعدوا عن العمل.

٥-التعود على الرفاهية مع الحرص على ترفيهها وصحبة أهل البطالة ورواد إهدار الأوقات والطاقات.

٦-عدم تناسب الأجر مع العمل المؤدى، فيكون الإعراض عنه، وما درى هؤلاء أن كل إنسان يبدأ بأجر قليل ثم يكون النماء حتى إذا قطع شوطًا في العمل كان الخير في الأجر وفيرًا والعطاء جزيلاً.

إن الإنسان ليعجب من فئة من شباب المسلمين حين يذهبون إلى الغرب لطلب الرزق فيعملون في المطابخ والمقاهي وورش الحدادة والنجارة، ومنهم من يعمل في جمع القمامة وأفران الخبز وجني الثمر ومحطات غسيل السيارات، ويجنون من وراء ذلك الخير الكثير، فإذا عادوا إلى ديارهم أنفوا أن يقوموا بهذا العمل، بل لا يأذنون لذويهم بالقيام به.

إن الشعور بالولاء من ناحية والانتماء من ناحية ثانية والرغبة في الأداء من ناحية ثالثة كل هذا ينبغي أن نغرسه في قلب وعقل الناشئة، في مراحل التعليم الأولى، حتى نسقط تراثًا ثقافيًا معاديًا للتقدم والحضارة والكسب المشروع ونحيي مشروعًا إسلاميًا لا تابعًا بل متبوعًا.

٦٠- باب الكرم والجود والإنفاق في وجوه الخير ثقةً بالله تعالى

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾[سبأ: ٣٩]، وقال تَعَالَى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾[البقرة: ٢٧٢]، وقال تَعَالَى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٧٣].

الحديث رقم (٥٤٣)

٥٤٣- وعن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: ((**لا حَسَدَ إلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالاً، فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ حِكْمَةً، فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا**)) متفقٌ عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

غريب الألفاظ:

الحسد: الغبطة، وهو أن يتمنى مثله[2].

هلكته في الحق: إنفاقه في الطاعات[3].

الحكمة: كل ما منع من الجهل وزجر عن القبيح[4].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣)، ومسلم (٢٦٨/٨١٦) ولفظهما سواء. وسيكرره المؤلف برقمي ٥٧٢، ٩٩٨. أورده المنذري في ترغيبه (١٢١).

(٢) رياض الصالحين ٢٥٢.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٥٤٢.

(٤) المرجع السابق ٥٤٣.

الشرح الأدبي

الحديث يبدأ بأسلوب القصر بطريق النفي، والاستثناء، وهو من الأساليب الخبرية التي تتضمن نوعا من توكيد الخبر عن طريق إثبات المعنى لمعنى آخر، ونفيه عن كل ما عداه، والذي يتضمن تأكيد الإثبات الأول بالمفهوم، وقوله (لا حسد إلا في اثنتين) المقصود بالحسد هنا الغبطة، وهي تمني مثل ما للغير، وليس هو بعينه بحيث يتمنى زوال النعمة عنه، وحصوله عليها، وأسلوب القصر نفى استحقاق الحسد عن كل شيء، وأثبته للاثنين دون غيرهم فقد تضمن إثباتاً ونفياً مما يؤكد المعنى، ثم إن ذكر العدد اثنين فيه نوع من التشويق؛ لأنه عدد مبهم بالنسبة للمخاطبين، وقد فسَّره بما بعده، وهو ما يحقق ترقب المخاطب وتنكير لفظ (رجل) يفيد التعميم، ونسبة فعل الإتيان لله يشير إلى أن الأمر ليس بمحض كسب الإنسان، وإنما هو سعي من العبد وتذلل للرب، وفضل من الله عليه بالتوفيق، والتعبير بالقيام يشير إلى الصلاة، والتلاوة، والتعلم، والتعليم، وحفظ الحدود، والعمل به، والطباق بين الليل، والنهار يشير إلى دوام العمل به تلاوة، وتحكيماً، وشيوع لفظ (آناء) في الحديث يشير إلى دوام العمل، وعدم الانقطاع في التلاوة، والتحكيم والعمل، وفي المال تشير إلى الإنفاق في كل سبيل للخير ينفتح له كما دل على ذلك استخدام صيغة المضارع الدال على التجدد، والاستمرار .

فقه الحديث

١- حكم الغبطة: (الغبطة إن كانت في الطاعة فهي محمودة، وإن كانت في المعصية فهي مذمومة، وإن كانت في الجائزات فهي مباحة)[١].

وقد تحرم كأن يكون عند غيره مال ينفقه في المعاصي، فيقول: لو أن لي مالاً مثل مال فلان لكنت أنفقته في مثل ما ينفقه في المعاصي[٢].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٠١/١.

(٢) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي ١٨٩/٣-١٩١. وانظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٢٧/٣١.

٢- التصدق بجميع المال: قال ابن حجر: (قال ابن المنير: في هذا الحديث حجة على جواز إنفاق المال وبذله في الصحة والخروج عنه بالكلية في وجوه البرّ، ما لم يؤدِ إلى حرمان الوارث ونحو ذلك مما منع منه الشرع)[(١)].

٣- الترغيب في ولاية القضاء: قال ابن حجر: (في الحديث الترغيب في ولاية القضاء لمن استجمع شروطه وقوى على إعمال الحق ووجد له أعوانًا؛ لما فيه من الأمر بالمعروف ونصر المظلوم وأداء الحق لمستحقه وكف يد الظالم والإصلاح بين الناس وكل ذلك من القربات، ولذلك تولاه الأنبياء ومن بعدهم من الخلفاء الراشدين ومن ثم اتفقوا على أنه من فروض الكفاية، لأن أمر الناس لا يستقيم بدونه ... واختلفوا هل يستحب لمن استجمع شرائطه وقوى عليه أو لا؟ والثاني قول الأكثر لما فيه من الخطر والغرر، ولما ورد فيه من التشديد، وقال بعضهم: إن كان من أهل العلم وكان خاملاً بحيث لا يحمل عنه العلم أو كان محتاجًا، وللقاضي رزق من جهة ليست بحرام، استحب له؛ ليرجع إليه في الحكم بالحق وينتفع بعلمه، وإن كان مشهورًا فالأول له الإقبال على العلم والفتوى، وأما إن لم يكن في البلد من يقوم مقامه فإنه يتعين عليه لكونه منْ فروض الكفاية لا يقدر على القيام به غيره فيتعين عليه، وعن أحمد: لا يأثم لأنه لا يجب عليه إذا أضرّ به نفعُ غيره ولا سيما من لا يمكنه عمل الحق؛ لانتشار الظلم)[(٢)].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٧/٣ ط/ السلفية. وقد سبق تناول هذه المسألة في الحديث ٥٢٦.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٢١/١٣، وانظر لمزيد من التفصيل: كشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٢٨٨/٦، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٣٦/٩، ورد المحتار على الدر المختار المسمى "حاشية ابن عابدين"، محمد امين بن عمر عابدين، تحقيق: علي محمد معوض ٣٦٦/٥، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٣٣/٤، ٣٧٤، وروضة الطالبين، الإمام النووي، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، وعلي محمد معوض ٩٣/١١، وحاشية الدسوقي على الشرح الكبير، وهو مطبوع مع الشرح الكبير للدردير، محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي ١٣٠/٤-١٣١، وتبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام، برهان الدين ابن فرحون المالكي ١٦/١، ١٧ (عن الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٨٧/٣٣).

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: دعوة النبي ﷺ إلى المنافسة الشريفة في الأعمال.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: فضل الإنفاق في أوجه الخير.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: فضل العلم النافع.

رابعاً: من واجبات الداعية: حث المدعوين على التنافس في الخيرات والأمور النافعة.

أولاً- من موضوعات الدعوة: دعوة النبي ﷺ إلى المنافسة الشريفة في الأعمال:

لقد وردت في الحديث دعوة ضمنية للتنافس الشريف في أعمال الخير، فقال ﷺ "لاحسد إلا في اثنين رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها" والمنافسة في الخير من الأمور التي رغب فيها الإسلام، قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[(١)] وقال: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾[(٢)] وقال: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾[(٣)] أي يستبق المستبقون[(٤)].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: فضل الإنفاق في أوجه الخير:

لقد أشار النبي ﷺ في الحديث إلى فضل الإنفاق في أوجه الخير مما يحمل الغير على المنافسة في ذلك ومن لم يمكنه يتمنى لو كان مثله "لا حسد إلا في اثنتين، رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق" فالله سبحانه يحب من عبده أن يكون جواداً سخياً مبسوط اليد بالعطاء، ولهذا يضاعف الله أجور المتصدقين، كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٣٣.

(٢) سورة الحديد، آية: ٢١.

(٣) سورة المطففين، آية: ٢٦.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣٥٣/٨.

﴿مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[١][٢] وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يتسابقون في الإنفاق في سبيل الله وممن كان لهم شرف فضل الإنفاق أبوبكر وعمر وعثمان وعلي وعبدالرحمن بن عوف وغيرهم من أصحاب رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم أجمعين.

قال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[٣] وسمى ذلك الإنفاق قرضاً حسناً حثاً للنفوس، وبعثاً لها على البذل، لأن الباذل متى علم أن عين ماله يعود إليه طوعت له نفسه، وسهل عليه إخراجه فإن علم أن المستقرض مليء وَفِيٌّ محسن كان أبلغ في طيب فعله وسماحة نفسه فإن علم أن المستقرض يتّجر له بما اقترضه وينمّيه له ويثمِّرُه حتى يصير أضعاف ما بذله كان بالقرض أسمح وأسمح، فإن علم أنه مع ذلك كله يزيده من فضله وعطائه أجراً آخر من غير جنس القرض، فإن ذلك القرض حظ عظيم وعطاء كريم[٤].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: فضل العلم النافع:

لقد بين النبي ﷺ فضل العلم النافع وإحسان العمل به مما يجعل صاحبه مثالاً يحتذى به فقال "لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها" ومن فضل العلم النافع ما جاء في الحديث في قوله ﷺ "فهو يقضي بها ويعلمها" أي يقضي ويفصل بين المتنازعين ويعلمه من يطلبه من الناس[٥] فالعلم نور يهتدي به صاحبه ويهتدي به الناس في أمور دينهم ودنياهم، وبه يرفع صاحبه في الآخرة وفي الدنيا، في الآخرة بأن يرفع الله درجات صاحبه بحسب ما قام به في الدعوة إلى الله

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٦١.

(٢) شرح الأسباب العشرة الموجبة لمحبة الله كما عدها ابن القيم، عبدالعزيز مصطفى ص ٤٧.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٤٥.

(٤) التفسير العظيم، ابن القيم، ١/١٥٠.

(٥) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٨١٤.

والعمل بعلمه، وفي الدنيا برفعه بين الناس بحسب ما قام به، قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[١][٢].

رابعاً- من واجبات الداعية: حث المدعوين على التنافس في الخيرات والأمور النافعة:

إن مهمة الداعية لا تقتصر على دعوة الناس والبيان والتوضيح لهم، بل لابد له أيضاً من حثهم على التسابق والتنافس في فعل الخيرات، كما هو مستفاد من قوله ﷺ في الحديث "لاحسد إلا في اثنتين، رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها" وحث المدعوين على التنافس من خلال تحريك الداعي لوجدان المدعوين وإثارة عواطفهم إلى الله[٣]، وبيان تفاضل الأجر بقدر التنافس والتشمير عن ساعد الجد. ولقد أمر الله بالمسارعة في الخيرات والمسابقة إلى فعل الطاعات، قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٤] وقال: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٥] وكان من شأن الأنبياء: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾[٦] ووصف المؤمنين بقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾[٧] والمسارعة في الخير ناشئة عن فرط الرغبة فيه، لأن من رغب في أمر بادر إليه وإلى القيام به وآثر الفوز على التراخي[٨].

---

(١) سورة المجادلة، آية: ١١.

(٢) كتاب العلم، محمد بن صالح العثيمين، إعداد فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان ص ٢٢.

(٣) الدعوة الإسلامية، الوسائل والأساليب، محمد خير رمضان يوسف ص ١٠٤.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٣٣.

(٥) سورة الحديد، آية: ٢١.

(٦) سورة الأنبياء، آية: ٩٠.

(٧) سورة المؤمنون، آية: ٦١.

(٨) البحر المحيط، ابن حيان، ٣٨/٣.

الحديث رقم (٥٤٤)

٥٤٤- وعنه، قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: ((أيُّكُم مَالُ وَارِثِهِ أحبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ؟)) قالوا: يَا رسولَ اللهِ، مَا مِنَّا أحَدٌ إلاَّ مَالُهُ أحَبُّ إِلَيْهِ. قَالَ: ((فإنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ وَمَالَ وَارِثِهِ مَا أخَّرَ)) رواه البخاري[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

الشرح الأدبي

الحديث نموذج فريد في استدراج النفس من محبة ما فيه هلاكها من الشح والبخل، إلى ما فيه صلاحها من الإنفاق، والبذل، وقد استخدم أسلوب التشويق بالاستفهام الذي يفتح آفاق العقل ليراجع الأفعال بعواقبها في قوله (أيُّكُم مَالُ وَارِثِهِ أحبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ ؟) وهو استفهام تشويقي تنبيهي يأخذ العقل تجاه شعاع النور المنبثق من الفكرة النبوية بالنافع من المال للإنسان، والنافع لغيره، وقد جاءت إجابتهم في اتجاه الفكرة المطروحة عن طريق أسلوب القصر لحب كل واحد لماله دون مال وارثه (مَا مِنَّا أحَدٌ إلاَّ مَالُهُ أحَبُّ إِلَيْهِ) ثم قرر الحقيقة واثقة بناءً على ما اقتنعوا به وتوصلوا إليه بأنفسهم موكداً بعدة مؤكدات لأنه قلب حقيقة ما يعتقدون في مسألة نفع المال (فإنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ وَمَالَ وَارِثِهِ مَا أخَّرَ) والطباق بين قدم، وأخر يؤكد المعنى النبوي في مسألة المال المدخر عند الله الذي أنفق في سبيله، والمال المتروك للورثة .

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

ثانياً: من مهام الداعية: استثارة اهتمام المدعوين وشد انتباههم.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: الحث على استثمار المال في النفع الأخروي.

---

(١) برقم ٦٤٤٢. أورده المنذري في ترغيبه ١٢٦٢.

أولاً- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

ورد أسلوب السؤال والجواب في الحديث في قوله ﷺ "أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟ قالوا يا رسول الله: ما منا أحد إلا ماله أحب إليه" والسؤال من الأساليب الدعوية المفيدة لما فيه من إثارة للانتباه وإيجاد نوع من التفاعل بين الداعية المدعو، لذا فإنه يحسن بالداعية أن يفيد من هذا الأسلوب في الدعوة إلى الله تعالى. وذلك أن إثارة اهتمام المدعو بطرح الأسئلة يحقق النتائج الطيبة والقيّمة ويؤدي إلى نشر المعرفة وتثبيتها وتناقلها بين الناس، بشرط أن تكون الإجابات واضحات جليات مفصَّلات لا غموض فيها ولا التباس[1] وكثيراً ما استفتح القرآن عرض قضاياه باستفهام تمهيدي لها لشدّ الأذهان وإثارة الانتباه. وذلك مثل قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾[2] وقوله: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾[3]، وقوله: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾[4].

ثانياً- من مهام الداعية: استثارة أذهان المدعوين وشد انتباههم:

من الشواهد على ذلك من الحديث الذي نحن بصدد دراسته دعوياً طرح النبي ﷺ السؤال على أصحابه رضي الله عنهم بقوله: "أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟ قالوا يا رسول الله مامنا أحد إلا ماله أحب إليه، قال: فإن ماله ما قدم ومال وارثه ما أخر" وتلك مهمة الداعي بيان الحقائق وتنبيه الغافل وإيقاظ القلوب الميتة والتذكير بحسن الأخلاق والاقتداء بالأنبياء والصالحين.. الخ[5].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: الحث على استثمار المال في النفع الأخروي:

لقد دعا النبي ﷺ في الحديث إلى استثمار المال في النفع الأخروي من خلال بيان

---

(١) انظر: فقه الدعوة إلى الله، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، ٦٢/٢.

(٢) سورة النبأ، آية: ١.

(٣) سورة النازعات، آية: ١٥.

(٤) سورة الغاشية، آية: ١.

(٥) الدعوة الإسلامية، الوسائل والأساليب، محمد خير رمضان يوسف ص ١٠٣.

أن المال الحقيقي الذي ينتفع به الإنسان هو ما قدمه لنفسه وتصدق به[١] وادخره عند ربه "فإن ماله ما قدم ومال وارثه ما أخر" قال ابن بطال وغيره: فيه التحريض على تقديم ما يمكن تقديمه من المال في وجوه القربة والبر لينتفع به في الآخرة، فإن كل شيء يخلفه المورث يصير ملكاً للوارث فإن عمل فيه بطاعة الله اختص بثواب ذلك وكان ذلك الذي تعب في جمعه ومنعه، وإن عمل فيه بمعصية الله فذلك أبعد لمالكه الأول من الانتفاع به إن سلم من تبعته[٢].

ففي هذا الحديث نجد دعوة الرسول ﷺ إلى تصحيح المفاهيم بين المسلمين، فإذا دعاهم الشيطان والهوى إلى الحرص على الأموال وكنزها والضنّ بها عن وجوه إنفاقها، فليسألوا أنفسهم لماذا الحرص ولمن الجمع؟ إن الوارث هو الذي سينتفع به في حين أنه في أمس الحاجة إلى الانتفاع بثوابه في الآخرة، فليقدم لنفسه ببذل المال ما لا يمكن تقديمه لها بعد الموت، فعلى الإنسان أن ينفق من ماله وأن يتغلب على الحرص والطمع ما استطاع، وسيبقى له في ظلال الإسلام وتعاليمه ما يحفظ على الورثة ماء الحياة[٣].

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٨١٤.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ٢٦٥/١١.

(٣) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم، ٣٥٠، ٣٥١.

الحديث رقم (٥٤٥)

٥٤٥- وعن عَدِيٍّ بن حَاتِمٍ رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ، قَالَ: ((**اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ**)) متفقٌ عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

عدي بن حاتم: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧٢).

الشرح الأدبي

الأمر (اتقوا النار) أمر تحذير، وترهيب وفي اتصاله بواو الجماعة عموم لجميع المخاطبين بالحكم يجعلهم في قلب الإنذار، ويجعل الجميع تحت مظلة المُنذَرين وهو مما يرفع درجة التنبيه، والتشويق، والاستشراف؛ وتعلق الأمر بالنار أكّد الإحساس بالخطر، وزاد الشعور بالرهبة المنبعثة من لفظ (النار) التي تستصحب إحراقها، ولظاها، دون إنارتها، ودفئها لوقوعها مفعولاً للفعل (اتقوا) وهو علم على التحذير، والترهيب، وهو بذلك يغرس في وجدانهم الشعور بالخوف الذي يقف سدا منيعا بينهم، وبين ما يغضب الله، كما يدفعهم للتحرك ضد الاتجاه المؤدي إلى النار، وهو عمل الصالحات، وقد فتح لهم النبي ﷺ الباب بعبقرية لا تترك لمتعلل بقلة ذات اليد حجة (ولو بشق تمرة) أي ولو كان المتصدق به شق تمرة، والتعبير بالشق مبالغة في القدر المتصدق به الذي يمنع النار، لأن أقل ما يطعم الإنسان التمرة فلو تصدق بنصفها لأدت الغرض ومنعته النار ما دام مخلصا فيها، والمفارقة العجيبة التي أثارها الافتراض الذي جاء في ثوب الشرط بين هول عظيم مصدره أعظم نار، وبين شيء بسيط قدّمه الإنسان فحجبه، ومنعه عن هذه النار.

المضامين الدعوية[2]

---

(١) أخرجه البخاري ١٤١٧، ومسلم ١٠١٦/٦٧ ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه ٥٢٤٧. وتقدم برقم ١٣٩.

(٢) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (١٣٩).

الحديث رقم (٥٤٦)

٥٤٦- وعن جابرٍ ﵁، قَالَ: مَا سُئِلَ رسول الله ﷺ شَيْئاً قَطُّ، فقالَ: لاَ. متفقٌ عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

جابر بن عبدالله الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

الشرح الأدبي

الحديث خبري قصير ينقل خبرا عن الرسول ﷺ يكون سنة يقتدي بها الصالحون في كل مكان، وزمان تصلح دينهم، ودنياهم، وتلك سمة بارزة في كل هديه ﷺ، وأسلوب النفي الذي صاغ فيه جابر ﵁ المعنى يقرر نفي قول الرسول ﷺ (لا) في كل ما سؤل عنه، وبناء الفعل (سئل) لما لم يسم فاعله شكل من أشكال التعميم التي تشمل جميع ما سُئل عنه، وتنكير كلمة (شيئا) يفيد العموم لأنه نكرة في سياق النفي فيشمل قليل المسئول عنه، وكثيره، وحاصل التعميم الأول، والثاني أنه كان لا يرد سائلا في قليل أو كثير، وقد أكد هذا النفي بلفظ (قط) الذي ينفي وهم المبالغة، ويقرر الحقيقة كما أثبتها.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: بيان جود وكرم النبي ﷺ.

ثالثاً: من آداب الداعية: السخاء مع المدعوين.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار:

جاء أسلوب الإخبار في الحديث في قول عائشة ﵂ "ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال لا" وأسلوب الإخبار من الأساليب الدعوية المفيدة لما فيه من إعلامٍ

---

(١) أخرجه البخاري ٦٠٣٤، ومسلم ٢٣١١/٥٦ واللفظ له.

للمدعو[١] وإيقافه على حقائق الأمور، وقد أفاد الإخبار في هذا الحديث ما كان عليه النبي ﷺ من الكرم والجود والسخاء، الذي كان من مظاهره أنه ما سئل فقال لا، مما يؤكد سعة كرم وجود النبي ﷺ.

وجاء في قول عائشة رضي الله عنها الإخبار عن جانب من جوانب شخصية رسول الله ﷺ، فشخصيته ﷺ هي الشخصية الأولى في حياة المسلمين وهي المثل والقدوة، والكشف عن حقائقها مما يحقق الاستجابة لدعوة الحق[٢]. فلأن الاستجابة للدعوة تتأثر إلى حد كبير بعناصر شخصية الداعية فإن شخصية الرسول ﷺ قد استحوذت على الكمال البشري وتمكنت منه. فقد جمعت شخصيته ﷺ الفضائل الخلقية والمكارم الإنسانية الرفيعة. وليس هناك وصف لشخصية رسول الله ﷺ أعظم قدراً وأفصح بياناً من قول الله له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٣].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: بيان جود وكرم النبي ﷺ:

جاء في الحديث بيان لمدى جود النبي ﷺ وكرمه لحد أنه ما قال لأحد سأله لا، فلقد منحه الله سبحانه من كمالات الدنيا والآخرة ما لم يمنحه غيره من قبله أو بعده، آتاه الله خزائن الدنيا ومفاتيح البلاد، وأحل له الغنائم وفتح عليه في حياته بلاد الحجاز واليمن وجميع جزيرة العرب، وما إلى ذلك من الشام والعراق وجلب إليه كثير من أخماسها وجزيتها وصدقاتها وهاداه جماعة من ملوك الأقاليم فما استأثر بشيء منه ولا أمسك منه درهماً بل صرفه مصارفه وأغنى به غيره وقوى به المسلمين[٤]، وهو ﷺ القائل ((ما يسُرُّني أن عندي مِثْلَ أحد هذا ذَهباً تمضي عليَّ ثالثةٌ وعندي منه دِينار، إلا شيئاً أرصُدُهُ لِدَين، إلا أن أقولَ به في عبادِ اللّه هكذا وهكذا وهكذا -عن يَمينهِ،

---

(١) وظيفة الإخبار في سورة الأنعام، د. سيد محمد ساداتي الشنقيطي ص ١١٥.

(٢) المرجع السابق ص ٣٧٣.

(٣) سورة القلم، آية: ٤.

(٤) نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، محمد الخضري ص ١٦٥، ١٧٢.

وعن شِماله، ومِن خلفهِ-))[١] فقد كان كرمه ﷺ مضرب الأمثال، فمن أراد أن يكتسب الأخلاق الفاضلة والتي منها الكرم فليتأسَّ برسول الله ﷺ إذ هو المثل الأعلى في باب الأخلاق يحمل المسلم على اكتساب الأخلاق الفاضلة ويدفعه إلى التجمل والتحلي بها ليكمل بها ويشرف عليها[٢].

ثالثاً- من آداب الداعية: السخاء مع المدعوين:

إن مما ينبغي على الداعية أن يتخلق به السخاء مع المدعوين والكرم والجود وأن تكون يده دائماً هي المعطية العليا، وليكن له في رسول الله ﷺ الأسوة الطيبة والتي حدثتنا عنه السيدة عائشة رضي الله عنها قائلة "ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال لا" فالدعوة الإسلامية تتطلب من أتباعها أن يصرفوا أنفس أوقاتهم، وأعز ما لديهم من جهد ووقت ومال في سبيل الله خدمة هذا الدين وخدمة أتباعه[٣] إضافة إلى ما في السخاء من تأليف القلوب وإقبالها على الدعوة وذلك من الأساليب التي انتهجها الإسلام؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه ((أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ النَّبِيَّ غَنَماً بَيْنَ جَبَلَيْنِ. فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ. فَأَتَى قَوْمَهُ فَقَالَ: أَيْ قَوْمِ أَسْلِمُوا. فَوَاللّهِ إِنَّ مُحَمَّداً لَيُعْطِي عَطَاءً مَا يَخَافُ الْفَقْرَ))[٤].

فالسخاء من الصفات التي غرسها الإسلام في نفوس أتباعه، فضلاً عن أنه ينبغي أن يكون من أبرز صفات الدعاة إلى الله عز وجل، لأن في ذلك دليلاً على كرم الداعية وعزة نفسه عما في أيدي غيره، قال ابن القيم، والسخاء نوعان فأشرفهما سخاؤك عما بيد غيرك والثاني: سخاؤك ببذل ما في يدك، فقد يكون الرجل من أسخى الناس وهو لا يعطيهم شيئاً لأنه سخا عما في أيديهم، وهذا معنى قول بعضهم: السخاء أن تكون بمالك متبرعاً وعن مال غيرك متورعاً[٥].

---

(١) رواه البخاري ٦٤٤٤.

(٢) هذا الحبيب محمد رسول الله ﷺ يا محب، أبوبكر الجزائري ص ٤١٠.

(٣) صفات الداعية، د. حمد بن ناصر بن عبدالرحمن العمار ص ٦١.

(٤) أخرجه مسلم ٢٣١٢.

(٥) الوابل الصيب، ابن القيم ص ٥٣.

الحديث رقم (٥٤٧)

٥٤٧- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه ، قَالَ: قَالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((**مَا مِنْ يَوْمٍ يُصبحُ العِبَادُ فِيهِ إلاَّ مَلَكَانِ يَنْزلانِ، فَيَقُولُ أحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أعْطِ مُنْفِقاً خَلَفاً، وَيَقُولُ الآخَرُ: اللَّهُمَّ أعْطِ مُمْسِكاً تَلَفاً**)) متفقٌ عَلَيْهِ[١].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

خَلَفًا: عِوَضًا[٢].

ممسكًا: بخيلاً[٣].

الشرح الأدبي

أراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقوِّم خطر الشح، والأثرة، والفردية، ويرغب في الإنفاق، والبذل فاستخدم عدة أساليب بلاغية منها: البداية بأسلوب القصر بالنفي، والاستثناء الذي يستخدم في الأمر الذي ينكره المخاطب، أو يشك فيه ففي قوله: (ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان...) قصر إصباح العباد في كل يوم على نزول الملكين قصر موصوف على صفة يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك نزول هذين الملكين كل صباح يوم جديد للدعاء للمنفق بالخلف، والدعاء للمسك بالتلف، وهذا التأكيد يترك في نفس المخاطب إحساساً يخالج نفسه كلما أشرقت شمس يوم جديد بملك يدعو له بالخير إذا ما أنفق، أو يدعو عليه ملك آخر بالتلف إن أمسك فتسخو نفسه،

---

(١) أخرجه البخاري ١٤٤٢، ومسلم ١٠١٠/٥٧ ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه ١٣٤١. وتقدم برقم ٢٩٥.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (خ ل ف).

(٣) الوسيط، مجمع اللغة العربية في (م س ك).

وتطيب للصدقة، ويهش لها، ومنها: أسلوب النداء المحكى على لسان الملائكة، وهو من الأساليب البلاغية التي استخدمها الرسول ﷺ في تقويم خطأ الإمساك لتصوير حال تأييد الله للعبد المنفق بدعاء الملك له بالخير كل يوم، والدعاء بالتلف، والخسران للممسك وذلك في قوله ﷺ (اللهم أعط منفقاً خلفاً) وفي الدعاء (اللهم) خصوصية في الحديث النبوي، فالنداء بها نداء تفخيم، وتعظيم، "وأصل الأسلوب يا الله ! حذفت أداة النداء، وعوض عنها الميم في آخر لفظ الجلالة"، فهم ألحقوها في آخر هذا الاسم الذي يسأل الله – سبحانه – به في كل حاجة، وكل حال إيذاناً بجميع أسمائه، وصفاته، فالسائل إذا قال: اللهم إني أسألك، كأنه قال: أدعوا الله الذي له الأسماء الحسنى، والصفات العليا، بأسمائه، وصفاته، فأتى بالميم المؤذنة بالجمع في آخر هذا الاسم إيذاناً بسؤاله تعالى بأسمائه كلها، والداعي مندوب إلى أن يسأل الله تعالى بأسمائه وصفاته كما في الاسم الأعظم[1]. وهذه الصيغة بتركيبها من أقرب صيغ الدعاء للإجابة، وأجدرها بالقبول لما اشتملت عليه من تفخيم، وتعظيم للمنادى يقابله شعور بالذلة، والانكسار من المنادي يرى فيها نفسه على حقيقتها حتى تتلاشى في هذه اللحظات حتى أنه لا يكاد يراها، وهذه الحالة من الدعاء لا يخطئها القبول خاصة إذا دعا بها ملك مقرب على علم يقيني بعظمة الله، وهو أشد خوفاً من سلطانه، وأكثر تفانياً في الدعاء، والطاعة[2]. لذا فإن هذه الحكاية لنداء الملك بهذه الصيغة تقع في نفس المخاطب موقعها من العناية، والاهتمام؛ لأنه يراها إن أمسك سهماً لا يخطئ يُصوَّب إليه عند مطلع شمس كل يوم، وهي في نفس اليوم يد الرحمة الحنون التي تقيه ريب المنون إذا ما ظل عطاؤه في سُبل الخير غير ممنون، والنداء في الجملة الدعائية الأولى (اللهم أعط منفقاً خلفاً) ترغيب في الإنفاق المطرد باطراد الأيام قدر المستطاع،

---

(١) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين ٥٧٦/١.

(٢) انظر: مواقع اللهم في الحديث النبوي في (دراسة الأساليب الإنشائية في صحيح الترغيب والترهيب للحافظ المنذري) مخطوط بكلية اللغة العربية بأسيوط للباحث ناصر راضي الزهري ص ٣٠٤.

والجملة الدعائية الثانية (اللهم أعط ممسكاً تلفاً) ترهيب من الإمساك، ومنها: أسلوب الأمر المحكي في حديث الرسول ﷺ تصويرا، وحكاية في قوله على لسان الملك (أعط منفقاً خلفاً) أمر بمعنى الدعاء لصدوره من الأدنى إلى الأعلى بغرض الإشادة بالفعل، وتنويه بالفاعل، وترغيب للسامع، والأمر في الجملة المقابلة لها، وهي قوله: (أعط ممسكاً تلفاً) الغرض منه التوبيخ، والذم للفاعل، والترهيب من الفعل مع ما يعكسه دعاء الملك في الأولى للمنفق من رضا، وما يعكسه في الثانية من سخط "والتعبير بلفظ العطية في هذه الجملة من قبيل المشاكلة ؛لأن التلف ليس بعطية"، ومنها: المقابلة، وهي من الأساليب البلاغية التي استخدمها الرسول ﷺ لتوضيح المعنى، وتقريره إذ من المعلوم أن الضد يظهر حسنه الضد، ووضع الحسن بإزاء القبيح يبيّن قبح القبيح كما يؤكد حسن الحسن، وفي الحديث قابل الرسول ﷺ بين قوله: (اللهم أعط منفقاً خلفاً) وبين قوله: (اللهم أعط ممسكاً تلفاً) فقابل بين الإمساك، والإنفاق، وبين عاقبتهما بين الخلف، والتلف، وهذه المقابلة في إطار تقويم الخطأ تضع أمام المخاطبين نموذجين واضحين على طريقين مختلفين ليختار كل منهم مسلكه، ويتحمل عاقبته ليحي من حي عن بينة، ويهلك من يهلك عن بينة[1].

المضامين الدعوية[2]

---

(١) انظر: بلاغة الرسول ﷺ في تقويم الأخطاء، د. ناصر راضي الزهري ص ٢٨٥.

(٢) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (٢٩٥).

الحديث رقم (٥٤٨)

٥٤٨- وعنه: أنَّ رسول الله ﷺ، قَالَ: ((قَالَ الله تَعَالَى: أنفِق يَا ابْنَ آدَمَ يُنْفَقْ عَلَيْكَ)) متفقٌ عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

قول أبي هريرة رضي الله عنه : (قال رسول الله ﷺ) ارتقاء من مستوى الكلام العادي إلى المستوى الكلام النبوي، وهي نقلة كبيرة في المعاني، والأساليب، وقول الرسول ﷺ: (قال الله تعالى) ارتقاء من مستوى الكلام البشري إلى مستوى الكلام الإلهي، وهي نقلة عظمى في المعاني؛ دون الأساليب؛ لأن لفظ الحديث القدسي من الرسول ﷺ، ومعناه من الله، وقول الله تعالى (أنفِق يَا ابْنَ آدَمَ يُنْفَقْ عَلَيْكَ) الأمر حث وترغيب في الإنفاق ربطه بالإنفاق عليه مما يعطي السامع شعورا بأنه بما ينفقه على الفقراء إنما ينفق على نفسه على نطاق أوسع؛ لأن الله هو الذي سينفق عليه والأثر يرتبط بالمؤثر قوة، وضعفا، وبناء الفعل لما لم يسم فاعله يعطي النفس في تصوره فرصة تتخيل تعدد المنفقين عليها من كل وجه مما يجعلها أكثر رغبة في الإنفاق، وإتباع الأمر بالنداء (يا ابن آدم) فيه تعميم للحكم، وذكر آدم في النداء تذكير بالأصل الذي عصى فغوى، ولما تاب تاب الله عليه، وكأنه ينادي بهم أن اعتبروا، وأطيعوني فيما أمرتكم به، ولا تستمعوا لتسبيط الشيطان، وهوى النفس، فتُأخذوا بالحرص الذي أخذ به أبوكم حين حرص على الخلود فخالف الأمر، والتعبير بالجار والمجرور (عليك) يشير إلى استعلاء العطاء من الله، والإنفاق عليه، وإحاطته به لما استعلى على الأثرة، وعلى نفسه الحريصة، والجزاء من جنس العمل.

---

(١) أخرجه البخاري ٥٣٥٢، ومسلم ٩٩٣/٣٦، والسياق للحميدي في جمعه ٢٢١/٣، رقم ٢٤٧٥. أورده المنذري في ترغيبه ١٣٤٢.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل الإنفاق في أوجه الخير.

ثانياً: من أساليب الدعوة: الترغيب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل الإنفاق في أوجه الخير:

لقد دعا الإسلام إلى الإنفاق وإلى البذل وحض على ذلك بأسلوب يستهوي الأفئدة، ويبعث في النفس الراحة والسكينة والأنس بعظيم فضل الله وكرمه(١)، حيث ورد في حديث الباب الحث على الإنفاق في وجوه الخير والتبشير بالخلف من فضل الله تعالى، وذلك في قوله ﷺ "قال الله تعالى: أنفق يا ابن آدم ينفق عليك" وهو معنى قوله عز وجل: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾(٢)(٣).

قال ابن كثير: (أي: مهما أنفقتم من شيء فيما أمركم به وأباحه لكم، فهو يخلفه عليكم في الدنيا بالبدل، وفي الآخرة بالجزاء والثواب)(٤).

فعلى المنفق أن يعلم ... أن يد الله بالخير ملأى، لا يغيضها الإنفاق، قال ﷺ: "يمين الله ملأى لا يغيضها سحاء الليل والنهار(٥)، أرأيتم ما أنفق مُذ خلق السماء والأرض، فإنه لم يغض ما في يمينه، وعرشه على الماء، وبيده الأخرى القبض أو الغيض، يرفع ويخفض"(٦). وذلك لئلا يتوهم متوهم أن كثرة عطاء الله وإنعامه يؤثر، فيقصر به المنة على مقدار مبلغ سؤاله، ومعنى سحاء: دائمة الليل والنهار فلا تعقب عطاياه للفقراء أبدًا، بل عطاء جامع بين التتابع والموالاة الليل والنهار.

---

(١) انظر: عناصر القوة في الإسلام، السيد سابق، ١٢٨.

(٢) سورة سبأ، آية: ٣٩.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٦٣٦.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٦/٥٢٣..

(٥) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، ٧/٢٥٨.

(٦) أخرجه البخاري ٧٤١٩، ومسلم ٩٩٣.

فيا أهل الإنفاق، لا تظنوا أن ما أعطيتم كان من شيء يقبل النقص، فيمسك أحدكم عن إنفاقه، فإنه بقدر ما ينفق يُنفق عليه لا أن يوكئ، فيحيئذ يُوكئ عليه؛ لأنه جنس مسيل العطاء من باب خرجه فانحبس من باب دَخْله، ولو لم يمسكه ههنا لما أمسك عليه من هناك، وإنما أمسك عنه الفضل من حيث إنه منع الإنفاق، وأن الله سبحانه بحبه للإنفاق، يبعث الفضل إلى من ينفقه لا إلى من يمسكه(١).

ثانيًا- من أساليب الدعوة: الترغيب:

إن حسن العاقبة وعظم الجزاء، مما يستميل النفس البشرية ويدفعها نحو اتقان العمل وحسن أدائه، وكان الترغيب من أهم الأساليب الدعوية في ذلك، حيث إثارة همم المدعوين نحو تحقيق عظم الأجر، وهذا ما ورد في نص الحديث من الترغيب في الإنفاق والوعد بالخير والتبشير بالخلف من فضل الله تعالى، وذلك في قوله تعالى: "أنفق يا ابن آدم ينفق عليك".

---

(١) الإفصاح، ابن هبيرة، ٦/٢٥٨-٢٥٩.

الحديث رقم (٥٤٩)

٥٤٩- وعن عبد اللهِ بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أنَّ رَجُلاً سَأَلَ رسول الله ﷺ: أيُّ الإسلامِ خَيْرٌ؟ قَالَ: ((تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلاَمَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ)) متفقٌ عَلَيْهِ(١).

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمرو بن العاص: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٣٨).

الشرح الأدبي

الحديث يرغب في خصال من الخير تدعم الصلات الاجتماعية، وتشيع المحبة بين المسلمين وقد ورد المعنى في صورة خبرية سيقت مساق الخبر المعظم بتوكيده دون مقابلة بإنكار، أو معارضة، وقد بدأ بقول الراوي (أَنَّ رَجُلا سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ)، وتنكير لفظ (رجل) للجهل به، أو لعدم تعلق فائدة بذكره، وسؤاله (أَيُّ الإِسْلامِ خَيْرٌ ؟) فيه إيجاز بالحذف أي: أيُّ أعمال الإسلام أكثر نفعاً، وقوله: (تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ) فيه إيجاز بحذف ما دل عليه السؤال أي: أعظم الأعمال أن تطعم، والتعبير بالفعل (تطعم) دون المصدر، لأن فيه ترغيباً بالفعل المضارع الذي يستحضر الصورة، ويجسِّد الحدث المرغب فيه، وفي قوله (تطعم الطعام)جناس يأثر السمع ويؤكد المعنى، وقوله (وَتَقْرَأُ السَّلامَ) أي تلقي التحية المعروفة بصيغتها، وبين هذه الجملة، والتي سبقتها سجع طبعي أحدث جرساً يستوقف السمع فيقر المعنى في القلب، وقوله (عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ) تتميم بلاغي أفاد عموم السلام، لأنه ينشر الألفة، والمحبة بين عامة المسلمين، وبين قوله (عرفت، لم تعرف) طباق سلب يؤكد عموم السلام وشموله.

---

(١) أخرجه البخاري ١٢، ومسلم ٦٣/٣٩ ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه ١٣٧٦.

فقه الحديث

إلقاء السلام: قال النووي: (معنى "تقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف" أي تسلم على كل من لقيته عرفته أم لم تعرفه، ولا نخصّ به من نعرفه كما يفعله كثيرون من الناس)[١].

وقال ابن حجر: (قوله "ومن لم تعرف" أي لا تخص به أحدًا تكبرًا أو تصنعًا، بل تعظيمًا لشعار الإسلام ومراعاة لأخوة المسلم، فإن قيل: اللفظ عام فيدخل الكافر والمنافق والفاسق، أجيب بأنه خص بأدلة أخرى أخرى أو أن النهي متأخر[٢]، وكان هذا عامًا لمصلحة التأليف، وأما من شك فيه، فالأصل البقاء على العموم حتى يثبت الخصوص)[٣].

ولا بأس هنا أن نذكر كلام النووي عن إلقاء السلام على من يظن أنه لا يرد.

قال النووي: (إذا مر على واحد أو أكثر، وغلب على ظنه أنه إذا سلم لا يرد عليه، إما لتكبر المرور عليه، وإما لإهماله المار أو السلام، وإما لغير ذلك، فينبغي أن يسلم ولا يتركه لهذا الظن، فإن السلام مأمور به، والذي أمر به المار أن يسلم، ولم يؤمر بأن يحصل الرد، مع أن المرور عليه قد يخطئ الظن فيه ويرد.

وأما قول من لا تحقيق عنده: إن سلام المار سبب لحصول الإثم في حق المرور عليه، فهو جهالة ظاهرة وغباوة بينة، فإن المأمورات الشرعية لا تسقط عن المأمور بها بمثل هذا الخيالات، ولو نظرنا إلى هذا الخيال الفاسد لتركنا إنكار المنكر على من فعله جاهلاً كونه منكرًا، وغلب على ظننا أنه لا ينزجر بقولنا، فإن إنكارنا عليه، وتعريفنا له قبحه يكون سببًا لإثمه إذا لم يقلع عنه، ولا شك في أنا لا نترك الإنكار

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٠/٢/١.

(٢) من ذلك حديث أبي هريرة مرفوعًا: "لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام، وإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروهم إلى أضيقه" أخرجه مسلم ٢١٦٧.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧٣/١.

بمثل هذا، ونظائر هذا كثيرة معروفة.

ويستحب لمن سلم على إنسان وأسمعه سلامه وتوجبه عليه الرد بشروطه فلم يرد أن يحلله من ذلك فيقول: أبرأته من حقي في رد السلام، أو جعلته في حل منه، ونحو ذلك، ويلفظ بهذا، فإنه يسقط به حق هذا الآدمي.

ويستحب لمن سلم على إنسان فلم يرد عليه أن يقول له بعبارة لطيفة: رد السلام واجب، فينبغي لك أن ترد علي ليسقط عنك الفرض)[١].

المضامين الدعوية

أولاً : من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة على معرفة أفضل الأعمال.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: فضل إطعام الطعام وإفشاء السلام.

رابعاً: من أساليب الدعوة: الترغيب.

خامساً: من واجبات المدعو: السؤال عما خفي عليه من أمور دينه.

أولاً- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

ورد هذا الأسلوب في الحديث في سؤال الرجل للنبي ﷺ "أي الإسلام خير" وأجابه النبي ﷺ بقوله " تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف" وأسلوب السؤال والجواب من أنجح الأساليب الدعوية لما فيه من لفت الأنظار وشد للأذهان وإثارة للانتباه.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة على معرفة أفضل الأعمال:

لقد اتسم الصحابة رضي الله عنهم بالحرص على معرفة ما يقربهم إلى الله تعالى من الأعمال الفاضلة ومن أمثلة ذلك ما ورد في سؤال الرجل للنبي ﷺ "أي الإسلام خير" فهذا مثل واضح لبيان ما كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم من الحرص على معرفة الأفضل

---

(١) الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار، الإمام النووي، تحقيق: محيي الدين مستو ٢٩١ ط/ مكتبة الصفا.

طلباً للأكمل والأفضل والأرفع درجة عند الله تبارك وتعالى[(١)]. يحملهم على ذلك ما غرسه رسول ﷺ فيهم من التطلع دائماً والحرص على الأرفع والأشرف، ومما يدل على ذلك ما روى عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((إنَّ في الجنةِ مائةَ درجةٍ أعدَّها الله للمجاهدينَ في سَبيلِ الله ما بينَ الدرجتين كما بينَ السماءِ والأرض فإذا سألتمُ اللهَ فاسألوهُ الفِردَوسَ فإنهُ أوْسَطُ الجنة وأعلى الجنة أُراهُ قال: وفوقَهُ عرشُ الرحمنِ ومنهُ تَفَجَّر أنهارُ الجنة))[(٢)].

قال ابن الجوزي: (فينبغي للعاقل أن ينتهي إلى غاية ما يمكنه، فلو كان يتصور للآدمي صعود السماوات لرأيت من أقبح النقص رضاه بالأرض، ولو كانت النبوة تحصل بالاجتهاد رأيت المقصر في تحصيلها في حضيض، غير إنه إذا لم يمكن ذلك فينبغي أن يطلب الممكن، والسيرة الجميلة عند الحكماء خروج النفس إلى غاية كمالها الممكن لها في العلم والعمل)[(٣)].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: فضل إطعام الطعام وإفشاء السلام:

إن صريح الحديث دال على أن إطعام الطعام وإفشاء السلام من أفضل الأعمال في الإسلام، حيث سأل الرجل النبي ﷺ بقوله أي الإسلام خير؟ فأجابه النبي ﷺ بقوله "تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف" وذلك لما فيهما من استئلاف للقلوب واستجلاب لودها[(٤)]. كما أنهما من أسس الذوق والأدب في الإسلام في جانب المعاملة والحقوق بين الناس[(٥)].

فالإسلام الحقيقي هو الذي يهذب النفس ويملؤها بالخير والرحمة والحب والحنان،

---

(١) انظر: الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة في القصائد والفنون المتنوعة الفاخرة، عبدالرحمن بن ناصر السعدي ص ١٩٦.

(٢) أخرجه البخاري ٢٧٩٠.

(٣) صيد الخاطر، ابن الجوزي، تحقيق: عبدالقادر عطا ص ٢٢٤.

(٤) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٨١٧.

(٥) انظر: الأخلاق الفاضلة، د. عبدالله بن ضيف الله الزحيلي ص ١٦٩.

فتحسن معاملة الناس وترحم ضعفهم وتجبر قصورهم ببذل ما تستطيع من خير مادي كالطعام وغيره أو معنوي كالسلام وبشاشة الوجه وحسن المعاملة، فالحديث فيه تربية المسلم على البذل والعطاء، واستخراج مكامن القوة في نفس المسلم والارتقاء بمستوى المسلمين(١).

رابعاً- من أساليب الدعوة : الترغيب:

ورد أسلوب الترغيب ضمنياً في الحديث، وذلك في بيانه ﷺ أن إطعام الطعام وإفشاء السلام من أفضل الأعمال في الإسلام "أي الإسلام خير؟ قال تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف" وأسلوب الترغيب من أنجح الأساليب الدعوية لما فيه من تشويق المدعو إلى الاستجابة وقبول الحق والثبات عليه(٢).

وبيان عطاء الله وفضله وما أعده لعباده المؤمنين من نعيم لا ينفد في جنات الخلد مما يجعل النفوس المؤمنة تتطلع لإدراك هذا الفضل ومن الأحاديث التي وردت في ذلك الشأن ما روي عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه: ((شَهِدْتُ مِنْ رَسُولِ اللّهِ ﷺ مَجْلِساً وَصَفَ فِيهِ الْجَنَّةَ. حَتَّىٰ انْتَهَىٰ. ثُمَّ قَالَ فِي آخِرِ حَدِيثِهِ: فِيهَا مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ» ثُمَّ اقْتَرَأَ هذِهِ الآيَةَ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝١٦ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾(٣)))(٤).

خامساً- من واجبات المدعو: السؤال عما خفي عليه من أمور دينه:

في الحديث أنموذج حي لما ينبغي أن يكون عليه المدعو من طلب للمعرفة وسؤال عما خفى عليه "أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ أي الإسلام خير؟" فالسؤال فيه طلب لعلم مالا يعلمه الإنسان كما أن فيه تصورًا للمعاني وإدراكًا لحقائقها إن خفيت عليه،

---

(١) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم ص ٣٥٢.

(٢) انظر: مستلزمات الدعوة في العصر الحديث، علي بن صالح المرشد ص ١٦٠.

(٣) سورة السجدة، آية: ١٦، ١٧.

(٤) أخرجه مسلم ٢٨٢٥.

وإن من أوجب الأمور على الإنسان أن يسأل عما خفي عليه من أمر دينه طالما أن باستطاعته معرفة الإجابة، ليتسنى له العمل بها، لأنه إن قصر في ذلك أو أهمل مع استطاعته فإنه لا يعذر بجهله لأنه تعالى أمر بسؤال أهل العلم فقال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

(١) سورة النحل، آية: ٤٣.

الحديث رقم (٥٥٠)

٥٥٠- وعنه، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: ((**أَرْبَعُونَ خَصْلَةً: أعْلاهَا**[١] **مَنِيحَةُ العَنْزِ، مَا مِنْ عَامِلٍ يَعْمَلُ بخَصْلَةٍ مِنْهَا؛ رَجَاءَ ثَوَابِهَا وَتَصْدِيقَ مَوْعُودِهَا، إلاَّ أدْخَلَهُ الله تَعَالَى بِهَا الجَنَّةَ**)) رواه البخاري[٢]. وقد سبق بيان هَذَا الحديث في باب بَيَانِ كَثْرَةِ طُرُقِ الخَيْرِ.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمرو بن العاص: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٣٨).

الشرح الأدبي

بداية الرسول ﷺ بذكر العدد تشويق لما بعده لأن المخاطب ينتظر ما يسفر عنه، وإضافته لخصلة خصصته، ولم تزل إبهامه، وفي الكلام إيجاز بالحذف يشحذ العقل، ويدمجه في عمق المعاني ليصل إلى من خلال السياق لأصل الكلام وتقديره بين اعتبار قوله (أربعون) خبرا يقدر له مبتدأ (هذه أربعون) أو مبتدأ يقدر له خبرا (أربعون خصلة أذكرها) ولكل تقدير أثره، ومذاقه في العبارة، وذكر العدد أربعون يقرر كثرة طرق الخير مع سهولتها الذي دلَّ عليه قوله (أعلاها منيحة العنز) والتعبير بأفعل التفضيل، وإضافتها إلى الضمير العائد على الأربعون يزيد التشويق إلى معرفتها لاسيما قمتها، والتعبير بالمنيحة وهي الشيء الممنوح المعطى، وإضافته للعنز يشير إلى بساطة هذه الخصال، وقدرة الجميع عليها حتي يشارك الفقراء في هذه الخصال التي تفتح لهم آفاق الخير لتكون لهم يدا عليا في العطاء تدفعهم للمزيد، وقوله (مَا مِنْ عَامِلٍ يَعْمَلُ بخَصْلَةٍ مِنْهَا رَجَاءَ ثَوَابِهَا وَتَصْدِيقَ مَوْعُودِهَا، إلاَّ أدْخَلَهُ الله تَعَالَى بِهَا الجَنَّةَ) الأسلوب قصر للعامل بخصلة منها بالشرط المذكور على دخول الجنة، وهو توكيد يدفع وهم المبالغة لأنها خصال يراها الناس بسيطة لكنها في أثرها عظيمة شريطة النية في تحصيل

(١) لفظ البخاري: (أعلاهنَّ) والمثبت لفظ الحميدي في جمعه ٣/ ٤٤٠ رقم ٢٩٤٧.

(٢) برقم ٢٦٣١. أورده المنذري في ترغيبه ٣٩٩٩. وتقدم برقم ١٣٨.

الثواب والإخلاص لله، وهو باب خير في العطاء، والإنفاق يفتحه الرسول ﷺ لاسيما للفقراء الذي لا يملكون الكثير، وتنكير (عامل) للتعميم، ومن لاستغراق الجنس، وبين عامل، ويعمل جناس يؤكد معنى الجدية في إتيان هذه الخصال، والتعبير بالإدخال في الماضي، ونسبته لله تحقيق للدخول يطمئن النفس المتعلقة بالجنة، والجار والمجرور (بها) معناه بسببها مما يقرر عظمة الجزاء المترتب عليها مع بساطتها.

فقه الحديث

قال النووي: (تستحب المنيحة، وهي أن تكون له ناقة أو بقرة ذات لبن فيدفعها إلى من يشرب لبنها ثم يردها إليه، لحديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما مرفوعًا: (أربعون خصلة أعلاها منيحة العنز ...) الحديث[١].

وجاء في الموسوعة الفقهية: (الهبة: تمليك العين بلا عوض، والعارية: تمليك المنفعة بلا عوض، والمنيحة: الشاة أو الناقة يعطيها صاحبها رجلاً ليشرب لبنها ثم يردها إذا انقطع اللبن)[٢].

المضامين الدعوية[٣]

(١) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٥٦/٦، وانظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٩٤/٧/٤، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٤٣/٥ وما بعدها.

(٢) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٩/٢٣.

(٣) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (١٣٨).

الحديث رقم (٥٥١)

٥٥١- وعن أَبي أُمَامَة صُدَيِّ بن عَجْلانَ رضي الله عنه ، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: ((**يَا ابْنَ آدَمَ، إنَّكَ أن تَبْذُلَ الفَضلَ خَيْرٌ لَكَ، وَأن تُمْسِكَه شَرٌّ لَكَ، وَلاَ تُلاَمُ عَلَى كَفَافٍ، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ، وَاليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى**)) رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

أبو أُمامة الباهليُّ: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧٤).

غريب الألفاظ:

اليد العليا: المتَعَفِّفةُ، وقيل: المعطية[٢].

الشرح الأدبي

الحديث يبدأ بالنداء العام لكل بني آدم قال الطيبي (والخطاب العام: وهو ما يخاطب به غير معين للإيذان بأن الأمر لعظمه، وفخامته، حقيق بألا يختص بأحد دون أحد)[٣] وبين يبذل، وتمسك طباق يقرر معنى أفضلية الإنفاق، وضرر الإمساك، والجار، والمجرور (لك) يقرر تعلق نتيجة الفعل بصاحبها في الحالتين، وقوله (ولاَ تُلاَمُ عَلَى كَفَافٍ)، ومعناه: إن بذلت الفاضل عن حاجتك وحاجة عيالك فهو خير لك لبقاء ثوابه وان أمسكته فهو شر لك؛ لأنه إن أمسك عن الواجب استحق العقاب عليه وإن أمسك عن المندوب فقد نقص ثوابه، وفوت مصلحة نفسه في آخرته وهذا كله شر، ومعنى لا تلام على كفاف أن قدر الحاجة لا لوم على صاحبه، وقوله (ابدأ بمن تعول) أمر بمعنى التوجيه، والإرشاد ومعناه أن العيال، والقرابة أحق من الأجانب في البداية بالإنفاق.

المضامين الدعوية[٤]

---

(١) برقم ١٠٣٦/٩٧. أورده المنذري في ترغيبه ١٢٤٣. وتقدم برقم ٥٠٩.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ع ل و).

(٣) التباين في علم المعاني والبديع والبيان للطيبي ص ٢٩٢.

(٤) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (٥٠٩).

الحديث رقم (٥٥٢)

٥٥٢- وعن أنسٍ ﷺ، قَالَ: مَا سُئِلَ رسول الله ﷺ عَلَى الإسْلاَمِ شَيْئاً إلاَّ أعْطَاهُ، وَلَقَدْ جَاءهُ رَجُلٌ، فَأعْطَاهُ غَنَماً بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَرجَعَ إِلَى قَوْمِهِ، فَقَالَ: يَا قَوْمِ، أسْلِمُوا فإنَّ مُحَمَّداً يُعطِي عَطَاءَ مَن[1] لا يَخْشَى الفَقْرَ[2]، [3].

وَإنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيُسْلِمُ مَا يُريدُ إلاَّ الدُّنْيَا، فَمَا يَلْبَثُ إلاَّ يَسِيراً حَتَّى يَكُونَ الإسْلاَمُ أحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا. رواه مسلم[4].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

الشرح الأدبي

المعنى الذي يدور حوله الحديث هو العطاء ممثلا في النموذج الأعلى في شخص النبي ﷺ، وفي إحدى المواقف الكثيرة التي تدلل على عظمة كرمه، والراوي صاغ المعنى في أسلوب القصر بالنفي، والاستثناء لقصر معنى سؤال الرسول ﷺ على العطاء دون المنع، وكلمة (شيئا) نكرة تفيد العموم فتشمل الإجابة ما قل، وما كثر، وقوله (أعطاه غنما بين جبلين) كناية عن كثرة الأغنام التي فاقت العد فحصرها بين الجبلين، وتنكير (غنما) للتعظيم، وقول الرجل (يَا قَوْمِ) النداء العام لقومه يعكس إحساسه بعظمة العطاء، ويعلن أهمية ما ناداهم من أجله وقوله: (أسْلِمُوا فإنَّ مُحَمَّداً

---

(١) (من) لا توجد عند مسلم.

(٢) لفظ مسلم: (الفاقه) والمثبت لفظ الحميدي في جمعه ٢/٦٣٦، رقم ٢٠٩٧.

(٣) أخرجه مسلم ٢٣١٢/٥٧.

(٤) هذا القول لأنس، أخرجه مسلم عقب الحديث رقم ٢٣١٢/٥٨.

تنبيه: فرّق مسلم في روايته بين هذين اللفظين لهذا الحديث، فاللفظ الأول، رواه مسلم عن حديث موسى بن أنس. واللفظ الثاني: رواه عن حمّاد بن سلمة، عن ثابت، وكذا فرّقه الحميدي في جمعه ٢/٢٠٩٧، رقم ٢٠٩٧، وجمع بينهما المؤلف، مما يوحي أن اللفظ الأخير يكون مرفوعًا، وليس كذلك بل هو موقوف عن أنس، كما بيّناه.

يُعطِي عَطَاءَ مَن لا يَخْشَى الفَقْـر) الأمـر للترغيب في الإسلام الذي يفتح لهم باب الخير وقول الراوي (وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيُسْلِمُ مَا يُرِيدُ إِلاَّ الدُّنْيَا) يحصر سبب الإسلام بداية في الدنيا، لا رغبة في الإسلام، مما يشير إلى أهمية تأليف القلوب على الإسلام، وقوله (فَمَا يَلْبَثُ إِلاَّ يَسِيراً حَتَّى يَكُونَ الإِسْلاَمُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا) يشير إلى سرعة التحول إلى الرغبة في الإسلام، ورسوخ الإيمان بعد أن كان الغرض دنيويا صرفا، وهو ما يدل على أن الإسلام هو الموافق للفطرة إذا ما أشربت النفس تعاليمه، وقرَّ الإيمان في القلوب صار أغلى قيمة في حياة الفرد يبذل دونها ماله، وروحه.

فقه الحديث

قال النووي: (لا خلاف في إعطاء مؤلفة المسلمين، لكن هل يعطون من الزكاة؟ فيه خلاف، الأصح عندنا أنهم من يعطون الزكاة ومن بيت المال، والثاني: لا يعطون من الزكاة بل من بيت المال خاصة، وأما مؤلفة الكفار فلا يعطون من الزكاة، وفي إعطائهم من غيرها خلاف، الأصح عندنا لا يعطون، لأن الله تعالى قد أعز الإسلام عن التآلف بخلاف أول الأمر ووقت قلة المسلمين)(١).

وقال ابن قدامة: (والمؤلفة قلوبهم ضربان: كفار ومسلمون وهم جميعًا السادة المطاعون في قومهم وعشائرهم، فالكفار ضربان: أحدهما من يرجى إسلامه، فيعطى [من الزكاة] لتقوى نيته في الإسلام وتميل نفسه إليه فيسلم... والضرب الثاني: من يخشى شره ويرجى بعطيته كف شره وكف غيره معه)(٢).

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٩/١٥/٨ ط/ دار الكتب العلمية.

(٢) المغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٣١٧/٩، وانظر اختلاف الفقهاء في ذلك في: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني ١٤/٢، وحاشية الدسوقي على الشرح الكبير، وهو مطبوع مع الشرح الكبير للدردير، محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي ٤٩٥/١، والقليوبي على شرح المنهاج ١٩٦/٣-١٩٨، والروضة ٣١٤/٢، والأحكام السلطانية ١٢٢، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٢١٦/٩-٣١٨ (عن الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٣١٩/٢٣-٣٢٠).

المضامين الدعوية

أولاً: من مهام الداعية: التفاعل مع المدعو ومساعدته.

ثانياً: من صفات الداعية: السخاء والجود والكرم.

ثالثاً: من وسائل الدعوة: المال.

رابعاً: من أصناف المدعوين: المشركون.

أولاً- من مهام الداعية: التفاعل مع المدعو ومساعدته:

إن من المهام الأساسية التي ينبغي أن يضطلع بها الداعية، التفاعل مع المدعوين ومساعدتهم لما لذلك من أثر بالغ في إيصال الدعوة للمدعوين واستجابتهم لها، لقد حكى لنا أنس بن مالك رضي الله عنه جانباً مما كان عليه رسول الله ﷺ من الكرم والجود الذي كان عليه ﷺ حيث قال: "ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئاً إلا أعطاه، ولقد جاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين ..." فالداعية لا يعيش لنفسه[1]، فلا بد وأن يكون كريماً جواداً مع نفسه ومع إخوانه من المدعوين.

ثانياً- من صفات الداعية: السخاء والجود والكرم:

إنه يجب على الداعية أن يطابق عمله قوله وأن يتحلى بمكارم الأخلاق بحيث يرى الإسلام في سلوكه شكلاً ومضموناً، أقوالاً وأفعالاً"[2].

وقد أعطانا رسول الله ﷺ في هذا الحديث مثالاً أعلى لما ينبغي أن يكون عليه الداعية من كرم وسخاء "ماسئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئاً إلا أعطاه، ولقد جاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين ..." فكان ﷺ أجود الناس جميعاً، وكان الخير يتدفق من بين يديه وفيراً يسابق الريح المرسلة فيما تأتي به من سحب تهطل منها الأمطار مدراراً، فيعم الرى والخصب البلاد والعباد[3].

---

(١) الأخلاق الفاضلة، د. عبدالله بن ضيف الله الرحيلي ص ١٥٤.

(٢) أخلاق الدعاة إلى الله تعالى، النظرية والتطبيق، د. طلعت محمد عفيفي ص ١٠٦

(٣) نبوة محمد ﷺ في القرآن، د. حسن ضياء الدين عتر ص ١٠٦.

فإن للسخاء أثرًا في ائتلاف القلوب وتأكيد رابطة الإخاء، ذلك أنه يبذر محبة المحسنين في قلوب ذوي الحاجات ثم إن من وجوه السخاء صرف المال في نحو ضيافة أو هدية ولو لغير ذي حاجة، وهذا مما يذهب الجفوة، ويجعل القلب من القلب قريباً[(١)]. وليكن شعار الداعي الكرم في كل شيء لأن هذه الصفة إلهية إضافة إلى أنها نبوية، والله عز وجل عم الجميع بعطائه وتفضل على الأغنياء بأن رزقهم من رزقه وأعان وحبب إلى من شاء منهم لصرفه فيما يرضيه، فهو سبحانه الكريم الذي أعان على الأعمال الصالحة وأثابهم عليها[(٢)].

ومن المعروف أن للكرم آثارًا هائلة في بناء المجتمع، وترابط أفراده، وهي آثار لا تعود على فرد بل تخص الجماعة، وتسهم في ربط المجتمع الإنساني ربطًا وثيقًا لا انفصام فيه، فالكرم قيمة تجمع ولا تفرّق، وتقرّب بين البشر ولا تبعد، وتحبب ولا تنفر، وتصل من غير فصل، وتتودد في غير نفور، وتعمل على لم الشعث، ورأب الصدع، في دعوة إلى التسامح والمحبة، وإلى التراحم والتواصل[(٣)].

ثالثاً- من وسائل الدعوة: المال:

إن من وسائل الدعوة التي لا يستهان بها المال، فهو وسيلة لتأليف القلوب لمن لم يدخل الإيمان وتثبيتٌ لمن يخاف على إيمانه واستجلاباً للمحبة والمودة، وتظهر أهمية المال كوسيلة دعوية من خلال الحديث: "وما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئاً إلا أعطاه ...". وقد يقول قائل "إن الاستجابة في الدعوة بالمال تكون للمال، وليست لما يدعى إليه، فما فائدة هذه الدعوة ؟ فنقرأ في الحديث ما قاله أنس لمعرفة الإجابة على هذا السؤال[(٤)].

---

(١) الهمة العالية، محمد بن إبراهيم الحمد ص ٣٢٠.

(٢) موسوعة فقه القلوب ٢٢٧/١.

(٣) موسوعة القيم والأخلاق ٦/٤٧.

(٤) ركائز الدعوة إلى الله تعالى، د. فضل الهي ص ٢٣٧

"وإن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا فما يلبث إلا يسيرا حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها". قال النووي: والمراد: أنه يظهر الإسلام أولاً للدنيا لا بقصد صحيح بقلبه ثم من بركة النبي ﷺ ونور الإسلام لم يلبث إلا قليلاً حتى ينشرح صدره بحقيقة الإيمان ويتمكن من قلبه فيكون حينئذ أحب إليه من الدنيا وما فيها(١).

إن المال يعمل على تأليف القلوب، ولذا ينبغي أن يستفاد منه في الدعوة إلى الله تعالى، فيعطي المال لكافر يُرجى إسلامه، ولمسلم يُرجى بعطيته قوة إيمانه، أو إسلام نظيره(٢)، بل أن الإسلام ليجعل تأليف القلوب مصرفاً من مصارف الزكاة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(٣).

وقد ضرب لنا رسول الله ﷺ أروع الأمثلة في تأليف القلوب بالمال، ولا سيما مع هؤلاء القوم الذين كانوا حديثى عهد بالإسلام، ولا شك أن ذلك، أسلوبًا عظيمًا من أساليب الدعوة إلى الله تعالى.

والأمثلة التي وردت عن رسول الله ﷺ على ذلك كثيرة، منها ما روي عن سعيد بن المسيب أن صفوان قال: ((وَاللّهِ لَقَدْ أَعْطَانِي رَسُولُ اللّهِ مَا أَعْطَانِي، وَإِنَّهُ لأَبْغَضُ النَّاسِ إِلَيَّ. فَمَا بَرِحَ يُعْطِينِي حَتَّى إِنَّهُ لأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ))(٤)، فما أعظم التحول الذي أوجده الله تعالى بسبب الإعطاء في قلب صفوان رضي الله عنه ومما لا شك فيه أن الداعي الذي يُعطى إذا صار أحب الناس إلى المدعو فإن كلامه يُسمع وأمره ينفذ ونهيه يحترم(٥).

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٤٢٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٤/١٦٧.

(٣) سورة التوبة، آية: ٦٠.

(٤) أخرجه مسلم ٢٣١٣.

(٥) ركائز الدعوة إلى الله تعالى، د. فضل إلهي ص ٢٣٦.

أ- القيام بالتنصير الصريح من خلال قيام مؤسسات تنصيرية ترعى الحملات التنصيرية وتمكن لها وتمدها بما تحتاجه من الموارد المالية والبشرية، وتتلقى الدعم المادي والمعنوي من الحكومات الغربية ومن المؤسسات والأفراد عن طريق المخصصات والتبرعات والهبات والأوقاف[١].

ب- التطبيب، فإن بعثات التطبيب التي يبدو من ظاهرها الإسهام في مجالات الإغاثة الطبية والصحية تعمل على خدمة النصرانية والتنصير من خلال إنشاء المستشفيات والمستوصفات والعيادات المتنقلة وتعمد إلى تشغيل فتيان المجتمع ممرضات ومشرفات اجتماعيات يتمشين مع سياسة هذه المؤسسات الطبية[٢].

ج- الإغاثة، فإن بعثات الإغاثة، حيث يَهبُّ الجميع رجالاً ونساءً، صغاراً وكباراً يجلبون معهم المؤن والملابس والخيام وغير ذلك ويقدمونها على أنها نعمة من عيسى بن مريم عليه السلام سواء أكان هذا الإيحاء واضحاً بالرموز والشعارات، أم بطريقة خفية يصلون إليها بحذر خشية الابتعاد عنهم أو التحريض عليهم من قِبل المتنبهين[٣].

لقد أفاد غير المسلمين من النصارى من توظيف المال في مجالات مختلفة -كالتعليم والطب والتمريض والإغاثة- لأجل الدعوة إلى دينهم ولذا فمن الواجب على المؤسسات والمنظمات الإسلامية والدعاة إلى الله وكافة العاملين في حقل الدعوة أن يفيدوا من توظيف المال في الدعوة إلى الله تعالى، خاصة وأن قطاعات كبيرة من غير المسلمين من الوثنيين في عدد من البلاد الأفريقية والآسيوية يعانون الفقر والجهل والمرض، مما يستوجب الإفادة من المال لعلاج مشكلات هذه الشرائح المختلفة، وتأليف قلوبهم وترغيبهم بالوسائل والأساليب المناسبة للدخول في الإسلام، هذا بالإضافة إلى توظيف المال في علاج مشكلات الأقليات المسلمة في أفريقيا وفي أوروبا وفي آسيا"[٤].

---

(١) الغارة على العالم الإسلام، أ. ل. شاتليه، لخصها ونقلها إلى العربية: محب الدين الخطيب ومساعد اليافي، مكتبة أسامة بن زيد، بيروت، بدون تاريخ ص ١٢ - ١٣.

(٢) التبشير في منطقة الخليج العربي، دراسة في التاريخ الاجتماعي والسياسي، عبدالمالك التميمي ص ٤٣ - ٤٤.

(٣) التنصير في المراجع العربية، علي بن إبراهيم النملة ص ٨١.

(٤) انظر بتوسع: موقف الدعوة الإسلامية من قضايا الأقليات الإسلامية في أفريقيا، د. محي الدين عفيفي أحمد ص ٣٩٠.

- الأقليات المسلمة في أوروبا "الواقع - التحديات - الحلول" د. محي الدين عفيفي أحمد ص ٣٧٩.

رابعاً- من أصناف المدعوين: المشركون:

ورد هذاالصنف في الحديث: (ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئاً إلا أعطاه، ولقد جاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين ...، وإن كان الرجل ليسلم -أى يدخل في الإسلام وينتظم في عداد المسلمين، ما يريد إلا الدنيا - لما يرى من مزيد بذله ﷺ تأليفاً على الإسلام وترغيباً فيه وذلك من كمال رحمته ﷺ ومزيد معرفته أن دواء كل داء بما يقطع مادته من أصلها لتقلب تلك الأمراض إلى ضدها[1].

فالمشركون من أصناف المدعوين الذين ينبغي أن تكثف الجهود لتعريفهم بالإسلام وهدايتهم إليه وذلك ما تقتضيه عموم دعوة الرسول ﷺ، فقد قام النبي ﷺ يدعو الناس، فقد دعا المشركين واليهود والنصارى والأطفال والمرضى والمنكوبين والتجار وأصحاب الصفة والأعراب وغيرهم[2]، وذلك استجابة لقول الله تعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾[3].

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٨١٩.

(٢) ركائز الدعوة إلى الله تعالى، د. فضل إلهي ص ١٢٢.

(٣) سورة الحجر، آية: ٩٤.

الحديث رقم (٥٥٣)

٥٥٣- وعن عمر رضي الله عنه ، قَالَ: قسم رسول الله ﷺ قَسْماً ، فَقُلْتُ: يَا رسولَ اللّه ، لَغَيْرُ هؤلاَءِ كَانُوا أحَقَّ بهِ مِنْهُمْ؟ فَقَالَ: ((إنَّهُمْ خَيرُونِي أنْ يَسألُونِي بالفُحْشِ، أوْ يُبَخِّلُونِي، ولَسْتُ بِبَاخِلٍ)) رواه مسلم(١).

ترجمة الراوي:

عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١).

غريب الألفاظ:

الفُحش: التعدي في القول والجواب، وقد يكون بمعنى الزيادة والكثرة(٢).

الشرح الأدبي

قول الراوي (قسم... قسما) فيه جناس يؤكد المعنى الذي فتح باب الحوار وأثار المسألة، واستفهام عمر رضي الله عنه (لَغَيْرُ هؤلاَءِ كَانُوا أحَقَّ بهِ مِنْهُمْ ؟) استفهام تعجب من إعطاء هؤلاء، وترك من هو أولى في نظر عمر رضي الله عنه وتقديم الجار والمجرور (لغير) يشير إلى أنهم أولى باختصاصهم بالعطاء ممن أعطوا لذلك أكده بأفعل التفضيل (أحق) قوله (إنَّهُمْ خَيرُونِي أنْ يَسألُونِي بالفُحْشِ، أوْ يُبَخِّلُونِي، ولَسْتُ بِبَاخِلٍ) كناية عن كثرة إلحاحهم وكثرة سؤالهم، و معناه أنهم ألحوا في المسألة لضعف إيمانهم، وألجأوني بمقتضى حالهم إلى السؤال بالفحش، أو نسبتي إلى البخل ولست بباخل، ولا ينبغي احتمال واحد من الأمرين ففيه مداراة أهل الجهالة، والقسوة، وتألفهم إذا كان فيهم مصلحة، وجواز دفع المال إليهم لهذه المصلحة، وقوله (يُبَخِّلُونِي، وَلَسْتُ بِبَاخِلٍ) فيه جناس يقرر المعنى، ويشير إلى عاقبة سؤالهم، ومعرفة الرسول ﷺ بكيفية علاج النفوس، وموازنة المصالح بما يحقق خدمة الإسلام، والتعبير عن فعلهم بالمضارع المفيد

---

(١) برقم ١٢٧/١٠٥٦.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ف ح ش).

للتجدد، والاستمرار يشير إلى تكرار سؤالهم وإلحاحهم في المسألة التي تعجز الكريم عن الوفاء بها إلا بعد تكلف، وعناء، وتعبير الرسول باسم الفاعل المنفي (بباخل) يشير إلى كرمه الدائم، وعدم ردهم مع كثرة سؤالهم.

فقه الحديث

قال النووي: (في الحديث [جواز] مدارة أهل الجهالة والقسوة وتألفهم إذا كان فيهم مصلحة وجواز دفع المال إليهم لهذه المصلحة)[1].

المضامين الدعوية

ثانياً: من موضوعات الدعوة: سؤال عمر رضي الله عنه للنبي صلى الله عليه وسلم.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: بيان الكرم الحسي والمعنوي للنبي صلى الله عليه وسلم.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار:

ورد ذلك في إخبار عمر رضي الله عنه عن قسم النبي صلى الله عليه وسلم لقَسْم ما "قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قسماً"، وفي إخبار النبي صلى الله عليه وسلم الصحابة رضي الله عنهم بالدافع الذي حمله على إعطاء قوم رأى الصحابة رضي الله عنهم أن هناك من هم أحق بهذا القسم منهم "إنهم خيَّروني أن يسألوني بالفحش فأعطيهم، أو يُبَخِّلوني ولست بباخل" والإخبار من الأساليب الدعوية الهامة لما فيه من نقل الحقائق وإزالة اللبس وإقناع المدعو وإقباله على الدعوة واستجابته لها.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: سؤال عمر رضي الله عنه للنبي صلى الله عليه وسلم:

جاء سؤال عمر للنبي صلى الله عليه وسلم ضمنياً في الحديث "عن عمر رضي الله عنه قال: قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قسماً فقلت يارسول الله لغير هؤلاء كانوا أحق به منهم" وعمر رضي الله عنه بهذا يعطينا أنموذجاً حياً لما ينبغي أن يكون عليه المدعو من السؤال وحب العلم والمعرفة والفهم لما أشكل عليه، قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[2]. قال ابن

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٣١/٧/٤ ط/ دار الكتب العلمية، وانظر: الفروق للقرافي ٣٤٨/٤-٣٤٩، الفرق ٢٦٤.

(٢) سورة الأنبياء، آية: ٧.

الحاج: (المقصود بأهل الذكر في الآية: العلماء فهم يسألون عن النوازل وبفتواهم يعبد الله ويطاع ويمتثل أمره ويجتنب نهيه)[١].

قال الماوردي: وليس كثرة السؤال فيما التبس إعناتاً، ولو امتنع المسؤول عن الإجابة لكان هذا منكر بين. ولا قبول ما صح في النفس تقليداً، وأنشد المبرد عن أبي سليمان الغنوي:

فسل الفقيه تكن فقيهاً مثله ... لا خير في علم بغير تدبر

وإذا تعسرت الأمور فأرجها ... وعليك بالأمر الذي لم يَعْسُرِ[٢]

ثالثاً- من آداب المدعو: عدم الإلحاح في السؤال والتأدب واحترام أهل الفضل:

إنَّ من جميل الآداب وأحسن الأخلاق: التأدب مع أهل الفضل واحترامهم، وعدم إيذائهم بأي صورة كالإلحاح في السؤال وما شاكله، وقد عاب النبي ﷺ في الحديث على أولئك الذين ألحوا عليه في السؤال، فقال "لأنهم خيروني بين أن يسألوني بالفحش فأعطيهم أو يبخلوني" أى ألحوا على في السؤال لضعف إيمانهم وألجأوني بمقتضى حالهم إلى السؤال بالفحش أو نسبتي إلى البخل[٣]. قال ابن عبدالبر في الاستذكار: (إن العالم إذا سئل عما لا يريد الجواب فيه إن سكت ولم يجب بنعم ولا بلا فيجب السكوت، كما أن فيه من الأدب أن على المتعلم ترك الإلحاح إذا سكت العالم عن الجواب كما أن فيه الندم على إيذاء العالم والإلحاح عليه خوفًا من غضبه وحرمان فائدته في المستقبل)[٤].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: بيان الكرم الحسي والمعنوي للنبي ﷺ:

لقد كان النبي ﷺ أجود الناس جميعهم وأكرمهم، أمضى عمره ينفق كل ما تصل إليه يداه من المال لا يدخر منه شيئاً خشية إملاق، بل يعطي عطاء من لا يخشى

---

(١) المدخل لمحمد بن محمد العبدري، الحاج ص ٩٨.

(٢) أدب الدنيا والدين، أبو الحسن الماوردي، تحقيق: مصطفى السقا ص ٧٨،٧٩

(٣) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٨١٩

(٤) الاستذكار ٢/٤٩٦.

فقراً[١]، وفي الحديث صورة من صور كرمه ﷺ بجانبيه الحسي والمعنوي، "إنهم خيروني أن يسألوني بالفحش فأعطيتهم، أو يبخلوني ولست بباخل" فمن حيث الجانب المادي فقد أعطاهم النبي ﷺ ومن الناحية المعنوية أنه ﷺ تغاضى عن سوء خلقهم وعدم تأدبهم معه لما كان عليه ﷺ من عظيم الخلق والصبر والحلم والإعراض عن الجاهلين[٢].

كما أمره الحق تبارك وتعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[٣].

فلقد منح رسول الله ﷺ من الكرم والجود ما لا يدانيه فيه غيره ولا يناوئه فيه أحد (فلقد جاد رسول الله ﷺ بكل موجود وآثر بكل مطلوب ومحبوب، ومات ودرعه مرهونة عند يهودي على آصُعٍ من شعير لطعام أهله. وقد ملك جزيرة العرب، وكان فيها ملوك وأقيال لهم خزائن وأموال يقتنونها ذخراً ويتباهون بها فخراً ويستمتعون بها أشراً وبطراً، وقد حاز ملك جميعهم فما اقتنى ديناراً ولا درهماً، لا يأكل إلا الخشن ولا يلبس إلا الخشن، ويعطي الجزل الخطير ويصل الجم الغفير ويتجرع مرارة الإقلال، ويصبر على سغب الاختلال، وكان يقول أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن ترك ديناً أو ضياعاً فعليَّ ومن ترك مالاً فلورثته، فهل مِثْل هذا الكرم والجود كرم وجود؟ أم هل لمثل هذا الإعراض والزَّهَادة إعراض وزُهد؟ هيهات)[٤].

---

(١) نبوة محمد ﷺ في القرآن، د. حسن ضياء الدين عنز ص ١٠٦

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٨١٩

(٣) سورة الأعراف، آية: ١٩٩.

(٤) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين ٤٤٦/١.

الحديث رقم (٥٥٤)

٥٥٤- وعن جبير بن مطعم رضي الله عنه ، قَالَ: بَيْنَمَا هُوَ يَسِيرُ مَعَ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم مَقْفَلَهُ مِنْ حُنَيْن، فَعَلِقَهُ الأعْرَابُ[1] يَسْأَلُونَهُ، حَتَّى اضْطَرُّوهُ إِلَى سَمُرَة، فَخَطِفَت رِدَاءهُ، فَوَقَفَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم ، فقال: ((**أعْطُوني رِدَائي، فَلَوْ كَانَ لِي عَدَدُ هذِهِ العِضَاهِ نَعَماً، لَقَسَمْتُهُ بَينَكُمْ، ثُمَّ لا تَجِدُونِي بَخِيلاً وَلاَ كَذّاباً[2] وَلاَ جَبَاناً**)) رواه البخاريُّ[3].

ترجمة الراوي:

جبير بن مطعم: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٤٤).

غريب الألفاظ:

مقفلةُ: حال قفوله: رُجُوعه[4].

حنين: واد بين الطائف ومكة المكرمة[5].

فعلقه، أي تعلقوا به[6].

سمرة: شجرة[7].

العضاه: شجرٌ له شوك[8].

نعماً: هي الإبل والشاة، وقيل الإبل خاصة. وقيل: السوائم من الإبل والبقر والغنم[9].

---

(١) لفظ البخاري في هذه الرواية رقم ٢٨٢١: (الناس)، والمثبت لفظ الحميدي في جمعه، وكذا البخاري برقم ٣١٤٨.

(٢) لفظ البخاري في الروايتين: (كذوبًا) والمثبت لفظ الحميدي في جمعه.

(٣) برقم ٢٨٢١، والسياق للحميدي في جمعه ٣٦٨/٣، رقم ٢٨٥٥.

(٤) رياض الصالحين ٢٥٤.

(٥) أطلس الحديث النبوي ١٥٦.

(٦) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ع ل ق).

(٧) رياض الصالحين ٢٥٤.

(٨) المرجع السابق ٢٥٤.

(٩) معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ٤٥٣.

الشرح الأدبي

تصدر الظرف (بين) المضاف لـ(ما) يوحي بالمفاجأة، وتوسط الضمير(هو) بينه وبين الفعل يفيد تخصيصه، وهو ما يعطي المعنى تحقيقا لأنه يحكي عن نفسه ثم إن رصده للأحداث يكون أكثر دقة، وينقل الحدث بما خالجه من شعور اعتراه عند وقوعه وقوله (مقفله من حنين) وهو المرجع من الغزوة المعروفة، والحديث يشير إلى شرف القصد لأنهم في سبيل الله وقوله (فَعَلِقَهُ الأعْرَابُ يَسْألُونَهُ) كناية عن تكاثرهم حوله يطلبون منهم حاجتهم، والأعراب هم أهل البادية وقوله (حتى اضطروه) لبيان الغاية التي وصلوا إليها في تكاثرهم عليه والتعبير بالاضطرار يشير إلى التضييق والتشديد وقوله (إِلَى سَمُرَةٍ، فَخَطِفَت رِدَاءهُ) يدل على ذلك، والسمرة نوع من الشجر له شوك علق به رداؤه ونسبة الخطف للسمرة مجاز بنسبة الفعل لسببه مبالغة في تمكن الأخذ كما أن التعبير بالخطف يوحي بالسرعة في الأخذ، وقوله (فَلَوْ كَانَ لِي عَدَدُ هذِهِ العِضَاهِ نَعَماً، لَقَسَمْتُهُ بَينَكُمْ) الفاء عاطفة، ولو للشرط وتقدي الجار، والمجرور (لي) يفيد التخصيص أي لي خاصة، وهو ما يؤكد الخصوصية، وعدم التحكم في أموال الناس، والعضاه شجر منتشر عندهم والتمثيل به للتكثير بيانا لرغبته في إعطائهم ما يتمنون وهو ما يؤكده جواب الشرط (لَقَسَمْتُهُ بَينَكُمْ) وقد زاده تأكيدا بذكر جملة الصفات المنفية التي يبغضها العربي لاسيما مؤمن لاسيما نبي (ثُمَّ لا تَجِدُونِي بَخِيلاً وَلاَ كَذّاباً وَلاَ جَبَاناً).

فقه الحديث

١- جواز وصف المرء نفسه بالخصال الحميدة: قال ابن حجر: (فيه جواز وصف المرء نفسه بالخصال الحميدة عند الحاجة كخوف ظن أهل الجهل به خلاف ذلك، ولا يكون ذلك من الفخر المذموم)[1].

٢- رضا السائل بالوعد: قال ابن حجر: (فيه رضا السائل للحق بالوعد إذا تحقق

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦/٢٥٤.

عن الواعد التنجيز)[١].

٣- التخيير في قسمة الغنائم: قال ابن حجر: (فيه أن الإمام مخير في قسمة الغنيمة إن شاء بعد فراغ الحرب وإن شاء بعد ذلك)[٢] وقال ابن حجر كذلك: (وقال الجمهور [جمهور الفقهاء] هو راجع إلى نظر الإمام واجتهاده)[٣].

المضامين الدعوية

ثانياً: من صفات النبي ﷺ: الحلم والكرم والجود.

أولاً- من آداب المدعو: التأدب واحترام أهل الفضل:

إن خلق الإنسان في التعامل مع الناس يأتي تبعاً لخلقه في تعامله مع الله، فإن المتأدب مع ربه لا يسعه إلا التأدب مع خلقه[٤]، وفي الحديث صورة من صور سوء الأدب التي ينبغي الاحتراز عنها مع أولي الفضل خاصة رسول الله ﷺ "فعلق الأعراب يسألونه حتى اضطروه إلى سمرة فخطفت رداءه" أي طفقوا يسألونه حتى ألجئوه إلى شجرة من شجر البادية ذات شوك فخطفت ردائه لذا ينبغي للمسلم أن يتأدب في التعامل مع سنة رسول الله ﷺ ويعمل على تطبيقها، وأن يتأدب مع أهل العلم والفضل[٥].

ثانياً- من صفات النبي ﷺ: الحلم والكرم والجود:

إن الأخلاق فضائل نفسية لا تعرف حقيقتها ومستوياتها إلا إذا شقت طريقها إلى الواقع العملي، فشوهدت ماثلة للعيان على بساط الطبيعة والعلاقات الاجتماعية ولقد مَثُل النبي ﷺ بأخلاقه أمام البشرية مثولاً وصل إلى درجة الكمال[٦]، وفي الحديث

---

(١) المرجع السابق ٢٥٤/٦.

(٢) المرجع السابق ٢٥٤/٦. وفي المسألة خلاف انظره في الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٣٠٦/٣١ ومراجعها.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٨١/٦-١٨٢.

(٤) الأخلاق الفاضلة، د. عبدالله بن ضيف الله الرحيلي ص ٨٨.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ٤٢/٦، دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٨٢٠.

(٦) نبوة محمد ﷺ في القرآن، د. حسن ضياء عنز، ص١٠٣، ١٠٢

صورة حية لما اتصف به النبي ﷺ من الحلم وسعة الصدر والكرم والجود وغير ذلك، تحمل إيذاء الأعراب له، وبين لهم مع ذلك أنه يعطي ما يستطاع إلى ذلك سبيلاً "فعلق الأعراب يسألونه حتى اضطروه إلى سمرة فخطفت رداءه فوقف النبي ﷺ فقال أعطوني ردائي، فلو كان لي عدد هذه العضاة نعماً لقسمته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذابا ولا جباناً". وما يدل على الكرم والجود أن النبي ﷺ ((كان أجود الناس بالخير من الريح المرسلة))(١).

ويكفي بيانًا لمنزلة الكرم أنه لا يوصف به إلا كل من سما قدره وشرفت منزلته وعلت همته وربت قيمته ومنه جاء التكريم والإكرام(٢).

والذي يدل على الحلم وسعة الصدر قوله ﷺ: ((تحلم عمن جهل عليك))(٣) فالحلم سكون النفس عن دواعي الغضب وأن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك(٤).

ثالثاً- من آداب الداعية: التعامل بالحلم والصفح والكرم مع الناس:

إن الداعية في دعوته يواجه صنوفاً شتى من الناس، وأخلاقاً متنوعة من فئات المجتمع، ولكي ينجح الداعية في التعامل مع شتى الطبقات وتحت كافة الظروف فلابد أن يتحلى بالرفق ولين الجانب والحلم والصفح والكرم وغير ذلك من كريم الأخلاق(٥)، وفي الحديث أعطانا النبي ﷺ صورة ومثالاً حياً للدعاة يُحْتذى به، فَصَبَرَ وحلم على إيذاء الأعراب له، وبين أنه لن يبخل عليهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا "فعلق الأعراب يسألونه حتى اضطروه إلى سمرة فخطفت ردائه فوقف النبي ﷺ فقال أعطوني ردائي..." قال ابن حجر: (وفيه ما كان في النبي ﷺ من الحلم وحسن الخلق

---

(١) أخرجه البخاري ١٨٠٣، ومسلم ٥٠.

(٢) موسوعة القيم ومكارم الأخلاق العربية والإسلامية ٢٢/٤٧.

(٣) أخرجه النسائي ٢٢٣٤، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢١٠٤، ٢١٠٥).

(٤) موسوعة القيم ومكارم الأخلاق العربية والإسلامية ٤٠/٢٤، ٤١.

(٥) أخلاق الدعاة إلى الله تعالى، د. طلعت محمد عفيفي سالم ص ١٨٥

وسعة الجود والصبر على جفاة الأعراب)[١]. ففي الحديث ذم للخصال المنفعية من البخل وغيره، وأن إمام المسلمين يجب أن يتجرد عنها، وما كان عليه الرسول ﷺ من الحلم وسعة الصدر، والصبر على جفاة الأعراب[٢] وذلك عملاً بمقتضى قول الله عز وجل: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[٣].

قال القرطبي: قال جعفر الصادق في تفسير الآية: أمر الله نبيه بمكارم الأخلاق في هذه الآية، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية، ولله در القائل:

كل الأمور تزول عنك وتنقضي إلا الثناء فإنه لك باقي

ولو أنني خيرت كل فضيلة ما اخترت غير مكارم الأخلاق[٤]

رابعاً- من صفات الداعية: تحمل الأذى:

إن الدعوة إلى الله تعالى تحتاج من أصحابها إلى البذل والتضحية، والصبر على ملاقاة المكاره في سبيلها وتحمل الأذى والتجمل بطول البال حتى تؤتي الدعوة ثمرتها وتحقق رسالتها[٥]، وليكن للداعية في رسول الله ﷺ الأسوة الطيبة والقدوة الحسنة في تحمل الأذى حتى من حمقى الناس وجهلائهم، كما هو مَرْئِيٌّ في الحديث "فعلق الأعراب يسألونه حتى اضطروه إلى سمرة، فخطفت ردائه فوقف النبي ﷺ فقال أعطوني ردائي...". وفي ذلك دعوة للداعية إلى التجمل بالصبر وتحمل الأذى - إن حصل - في سبيل تبليغ دعوته، فكما أن الداعية ينبغي عليه أن يصبر على طاعة الله وعن معصيته ويصبر على أقدار الله المؤلمة كذلك ينبغي عليه أن يصبر على المشكلات التي قد تعترضه في طريق دعوته، وذلك من عزائم الأمور[٦].

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ٢٩٣/٦.

(٢) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم.

(٣) سورة الأعراف، آية: ١٩٩.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٣٤٦/٧/٤.

(٥) أخلاق الدعاة إلى الله تعالى، د. طلعت محمد عفيفي سالم ص ١٧٠.

(٦) انظر: صفات الدعاة، د. عبدالرب نواب الدين ص ١١٧.

وإذا كان الصبر ضرورياً لكل مسلم فإن الداعية لا يستغني عنه لأن الداعية يعمل في ميدانين: ميدان نفسه يجاهدها ويحملها على الطاعة ويمنعها عن المعصية وميدان خارج نفسه، وهو ميدان الدعوة الفسيح، ومخاطبة الناس ومخالطتهم، لأن المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم[١] خير من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم ولقد ضرب رسول الله ﷺ أروع الأمثلة في صبره وشدة تحمله على ما أصابه في طريق الدعوة، فقد ألصقت به ﷺ عبارات السوء فقالوا عنه: شاعر، وكاهن، وساحر، ويعلمه بشر... الخ.

وقد كسرت رباعيته وشج وجهه يوم أحد، وصبر على ذلك ومن صور صبره ﷺ ما روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: ((يَا رَسُولَ اللَّهِ! هَلْ أَتَىٰ عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ فَقَالَ: لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ، وَكَانَ أَشَدُّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَا لِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلاَلٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَىٰ مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَىٰ وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلاَّ بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ. فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي. فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ. قَالَ: فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ. ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ! إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ، وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ. فَمَا شِئْتَ؟ إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ، لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً))[٢].

---

(١) الدعوة، قواعد وأصول، جمعة أمين عبدالعزيز ص ٦٠، ٦١.

(٢) أخرجه مسلم ١٧٩٥.

الحديث رقم (٥٥٥)

٥٥٥- وعن أبي هريرة رضي الله عنه : أنَّ رسول الله ﷺ ، قَالَ: ((مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللهُ عَبْداً بِعَفْوٍ إلاَّ عِزّاً، وَمَا تَوَاضَعَ أحَدٌ لله إلاَّ رَفَعَهُ اللهُ عز وجل)) رواه مسلم(١).

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

الحديث يتناول بالنفي أمورا رسخت في كثير من النفوس تطهيرا للمجتمع من توابعها التي تشعل الأحقاد، وتقطع الأرحام، وتنمي العداوة، والبغضاء، وقد عالج بحكمة جذورها في النفس فقرر أولا أن الصدقة طهرة للمال وطهرة للنفس من الشح، وتقوية لروابط الأخوة بين المسلمين، والله تبارك وتعالى يجازي بالحسنة أضعافها، وقوله ﷺ (مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَال) يؤكد هذا المعنى بأسلوب النفي لنقصان الصدقة من مال المال، والرسول ﷺ يعالج بهذا النفي أكبر المشاعر النفسية التي تمنع الإنسان من التصدق، وتنكير المال للتعميم لأن النقص يلاحظ في بعض المال، ولا يلاحظ في بعضه كالأموال الكثيرة غير المكيلة، وغير المعدودة فالتعميم يشير إلى أنه قد يكون هناك نقص في ظاهر بعض الأموال، ولكن في الحقيقة هو لم ينقص لأن الله يبارك في بتزكيته، وقول الرسول ﷺ (وَمَا زَادَ اللهُ عَبْداً بِعَفْوٍ إلاَّ عِزّاً) أسلوب قصر يقصر زيادة العبد بالعفو على العز، وينفي عنه الذله التي يعتقدها البعض إذا لم ينتصر لنفسه، وبذلك يطفيء النبي ﷺ نار الثورة التي يشعلها الشيطان بين الناس، ويوقعهم بها في المهالك، وقوله (وَمَا تَوَاضَعَ أحَدٌ لله إلاَّ رَفَعَهُ اللهُ - عز وجل) وهو كسابقه في أسلوب القصر الذي يقصر التواضع لله على الرفعة، وهذا القصر يعالج في النفس حب الظهور، والتعالي، والفخر المبغوض من الخلق، ومن الخالق.

---

(١) برقم ٢٥٨٨/٦٩. أورده المنذري في ترغيبه ١٢٥٧. وسيكرره المؤلف برقم ٦٠٣.

المضامين الدعوية

أولاً : من موضوعات الدعوة: بيان فضل الصدقة.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: منزلة العفو.

ثالثاً: من صفات الداعية: الجود والعفو والتواضع.

رابعاً: من أساليب الدعوة : الترغيب.

خامساً: من أهداف الدعوة: الحث على بذل الصدقة والعفو عن الناس والتواضع.

أولاً- من موضوعات الدعوة: بيان فضل الصدقة:

إنَّ الصدقة من الأعمال التي لها عظيم الفضل وجزيل الثواب فهي برهان على صحة الإيمان وطيب النفس بها علامة على وجود حلاوة الإيمان وطعمه[(١)]، وكما قال ﷺ: ((والصدقة برهان))[(٢)] ومن أوجه فضل الصدقة، ما جاء في الحديث ببيان أنها سبب للبركة والثواب، فقال ﷺ "ما نقصت صدقة من مال" وإن كان الظاهر عند الناس أن هذا مال ويختل منه على أساس أنه شيء محسوس، فإن المال المصّدَّق منه مال مبارك فيه ويدفع عنه المفسدات فيجبر النقص الصوري بالبركة الخفية، فضلاً عن الثواب المعد في الآخرة فإنه جابر لنقصه[(٣)].

ومن الشواهد القرآنية على ذلك قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[(٤)] وقال: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾[(٥)] ومن نظر إلى معاني الزكاة والصدقة يجد أنها تتلاقى وتتعانق

---

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢٣/٢.

(٢) أخرجه مسلم ٢٢٣.

(٣) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٨٢١، وعمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني ٣٣/٨.

(٤) سورة البقرة، آية: ٢٦١.

(٥) سورة الروم، آية: ٣٩.

في كون الزكاة زيادة في الأموال وحصن لها ونماء وكثرة وطهارة، كما أن الزكاة تستل الحقد والضغينة من قلوب الفقراء، وتدعو إلى التماسك فتذيب الطبقية وتمنع الأحقاد والضغائن، بل هي علاج هام وبلسم لجروح المجتمعات[١].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: منزلة العفو:

جاء في الحديث التصريح بعلو منزلة العافين عن الناس عند الله وعزتهم فقال ﷺ "وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً"، قال النووي: فيه وجهان أحدهما: أنه على ظاهره وأن من عرف بالعفو والصفح ساد وعَظُمَ في القلوب وزاده عزه وإكرامه، والثاني أن المراد أجره في الآخرة وعزه هناك[٢]، وإن العفو لمن أهم القواعد الأخلاقية وهو أقرب ما يكون إلى التقوى[٣]، قال تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[٤].

إن من يعفو عن المسيء يقدم له بالعفو وسيلة تربوية عظيمة لإصلاحه وتهذيبه ويهيئه بذلك لتقبل نصيحته، ولقد ضرب رسول الله ﷺ أروع المثل في الحلم والصفح، فلقد كان ﷺ أحلم الناس وأرغبهم في العفو مع المقدرة[٥]، ولقد جاءت سيرته ملأى بالأمثلة والأدلة على ذلك ومنها ما روي عن أنس خادم رسول الله ﷺ أنه قال: ((كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللّهِ ﷺ، وعَلَيْهِ رِدَاءٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ. فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ. فَجَبَذَهُ بِرِدَائِهِ جَبْذَةً شَدِيدَةً. ورجع نبي الله ﷺ في نحر الأعرابي حتى نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عُنُقِ رَسُولِ اللّهِ ﷺ وَقَدْ أَثَّرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ. مِنْ شِدَّةِ جَبْذَتِهِ. ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللّهِ الَّذِي عِنْدَكَ. فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللّهِ . فَضَحِكَ. ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ))[٦].

---

(١) انظر: جوانب تربوية في الفقه الإسلامي، د. مصطفى رجب ص ١٩٨، ١٩٩.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٤٦.

(٣) انظر: الأخلاق الفاضلة، د. عبدالله بن ضيف الله الرحيلي ص ٤٢.

(٤) سورة البقرة، آية: ٢٣٧.

(٥) أخلاق المسلم وآدابه، د. بدر عبدالرزاق الماص ص ١٣.

(٦) أخرجه مسلم ١٠٥٧.

ثالثاً- من صفات الداعية: الجود والعفو والتواضع:

إن تحلى الداعية بمكارم الأخلاق يجعله أقرب ما يكون إلى قلوب الناس ودعوته أنفذ إلى صدورهم، وقد أرشدنا النبي ﷺ في هذا الحديث إلى الجود والعفو والتواضع مبيناً الأثر الإيجابي لذلك فقال: "مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ. وَمَا زَادَ اللّهُ عَبْداً بِعَفْوٍ إِلاَّ عِزًّا" إذ أن الداعية قدوة، ومن ثم فهو يحتاج إلى عمق في العقيدة وقوة في الخلق، يحتاج إلى صفات تعطيه ثقة الناس واطمئنانهم وحبهم والميل إليه[1]، ومن هذه الصفات الجود والعفو والتواضع والتي أشار إليها الحديث. وهذه الصفات إذا اجتمعت في إنسان صار محبوباً في قومه وبيئته، لذا كان أمر الله للمؤمنين جميعاً في خطابه للرسول ﷺ ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[2]. قال ابن هبيرة: (قوله: "ما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًا" فإن العفو عز في وقته، وبعد ذلك، فما زاد به أحد إلا عزًا، وإذا وسوس الشيطان للمسلم بأن هذا يخرجه الناس مخرج الذل؛ فتلك خديعة منه، فكلام رسول الله ﷺ دواء لذلك الداء.

وأما قوله: "وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله" فقوله: "لله" يعني ألا يكون تواضعه لأهل الدنيا، ثم يتكبر على أهل الدين، ولكن يتواضع لله فيرفعه الله تعالى جل جلاله)[3].

رابعاً- من أساليب الدعوة : الترغيب:

جاء أسلوب الترغيب في الحديث ببيان الآثار الإيجابية والحسنة للصدقة والعفو والتواضع فقال ﷺ، ((مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ. وَمَا زَادَ اللّهُ عَبْداً بِعَفْوٍ إِلاَّ عِزًّا. وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلّهِ إِلاَّ رَفَعَهُ اللّه عز وجل)). والترغيب من أشد الأساليب الدعوية تأثيراً لما فيه من تشويق المدعو إلى الاستجابة وقبول الحق والثبات عليها[4].

---

(١) الخطابة وإعداد الخطيب، د. توفيق الواعي ص ١٨٨

(٢) سورة الأعراف، آية: ١٩٩.

(٣) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ١٧٥/٦.

(٤) مستلزمات الدعوة في العصر الحديث، علي بن صالح المرشد ص ١٦٠.

خامساً- من أهداف الدعوة: الحث على بذل الصدقة والعفو عن الناس والتواضع:

إن من أهداف الدعوة إشاعة المودة في المجتمع وتقوية أواصر المحبة بين أفراده، وفي الحديث أرشد النبي ﷺ إلى بعض روافد تلك المحبة من كرم وجود وعفو وتواضع فقال ﷺ: "مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ. وَمَا زَادَ اللّهُ عَبْداً بِعَفْوٍ إِلاَّ عِزًّا. وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلّهِ إِلاَّ رَفَعَهُ اللّهُ عز وجل". إضافة لما لهذه الصفات من تقوية لمبدأ الإخاء الذي يقوم عليه المجتمع الإيماني[١]، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[٢]. وفي ذلك دلالة قوية على تقرر وجوب الأخوة بين المسلمين والعمل بما تقتضيه هذه الأخوة من إحسان للمعاملة[٣] والتجمل والتعامل مع المسلمين بمكارم الأخلاق ورفيع الصفات من تواضع وعفو ومحبة وبذلك للمحتاج منهم وما شاكل ذلك.

---

(١) انظر: الخصائص العامة للإسلام، د. يوسف القرضاوي ص ٩٣.

(٢) سورة الحجرات، آية: ١٠.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ٢٤٥/٢٦/١٠.

الحديث رقم (٥٥٦)

٥٥٦- وعن أَبي كبشة عمرو بن سعد الأنماري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : أنّه سمع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، يقول: ((**ثَلاثَةٌ أُقْسمُ عَلَيْهِنَّ، وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثاً فَاحْفَظُوهُ: مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ، وَلاَ ظُلِمَ عَبْدٌ مَظْلَمَةً صَبَرَ عَلَيْهَا إلاَّ زَادَهُ اللهُ عِزّاً، وَلاَ فَتَحَ عَبْدٌ بَابَ مَسأَلَةٍ إلاَّ فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ بَابَ فَقرٍ -أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا- وَأُحَدِّثُكُمْ حَديثاً فَاحْفَظُوهُ، قَالَ: إنَّمَا الدُّنْيَا لأرْبَعَةِ نَفَرٍ: عَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ مَالاً وَعِلماً، فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَيَعْلَمُ للهِ فِيهِ حَقّاً، فَهذا بأفضَلِ المَنَازِلِ. وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ عِلْماً، وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالاً، فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ، يَقُولُ: لَوْ أنَّ لِي مَالاً لَعَمِلتُ بِعَمَلِ فُلانٍ، فَهُوَ بنيَّتِهِ، فأجْرُهُمَا سَوَاءٌ. وَعَبْدٍ رَزَقَهُ الله مَالاً، وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْماً، فَهُوَ يَخبطُ في مَالِهِ بغَيرِ عِلْمٍ، لاَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَلاَ يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَلاَ يَعْلَمُ للهِ فِيهِ حَقّاً، فَهذَا بأَخْبَثِ المَنَازِلِ. وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ اللهُ مَالاً وَلاَ عِلْماً، فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ أنَّ لِي مَالاً لَعَمِلْتُ فِيهِ بعَمَلِ فُلاَنٍ، فَهُوَ بنِيَّتِهِ، فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ**)) رواه الترمذيُّ[١] ، وقال: (حديث حسن صحيح).

ترجمة الراوي:

أبو كبشة الأنماري: هو أبو كبشة الأنماري المَذحجيُّ مختلف في اسمه: فقيل: سعد بن عمرو. وقيل: عمرو بن سعد. وقيل: عمر بن سعد وقيل: عامر بن سعد.

شهد مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غزوة تبوك. قال: لما كان في غزوة تبوك تسارع الناس إلى أهل الحِجْر يدخلون عليهم فبلغ ذلك رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فنادى في الناس: الصلاة جامعة. فأتيت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو مُمسكٌ بعيره وهو يقول: ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم؟[٢] وقال كذلك: خرجنا مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوةٍ من مغازيه فنزلنا منزلاً فأتيناه فيه ... الحديث[٣].

(١) برقم ٢٣٢٥. وله شاهد من حديث أبي هريرة أخرجه مسلم ٢٥٨٨/٦٩. أورده المنذري في ترغيبه ٢٠.

(٢) أخرجه أحمد ١٨٠٢٩/٢٥، وقال محققو المسند: هذا إسناد حسن.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير ٨٥٧/٢٢ وقال الهيثمي في المجمع ٥٦/١٠: ورجاله رجال الصحيح غير عروة بن رويم وهو ثقة.

وقد قدم الشام مع عمر بن الخطاب حين قدمها في خلافته، ونزل حمص وله رواية عن أبي بكر الصديق[١].

غريب الألفاظ:

نفر: النفر: الناس كلهم، والجماعة من الناس من ثلاثة إلى عشرة[٢].

يخبطُ في ماله: يصرفه في شهوات نفسه[٣].

وزرهما: ذنبهما[٤].

سواء: متساويان[٥].

الشرح الأدبي

والحديث من باب الترغيب في النفقة، والإخلاص والحث على الزهد وابتغاء ما عند الله، بدأه الرسول ﷺ بأسلوب خبري يشعر بالثقة، والهدوء فالرسول ﷺ ليس مواجها بالتكذيب فـ(الصحابة) رضوان يجزمون بصدق الرسول ﷺ في كل قول يقوله: فهو لا يقسم – وحاشاه- ليجتذب القلوب لتصديقه، وقد كان قبل الرسالة يوصف بالصادق الأمين، وإذا ينصرف وجه اليمين إلى أن المحلوف عليه من الأمور المهمة ذات البال التي ينبغي يستشرف لها السامع، ويتلقاها تلقى الاهتمام لما تعيه من مدلول ديني خطير في

(١) الطبقات الكبرى، ابن سعد ٤١٦/٧ والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٨٤٨، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود ٢٥٥/٦، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ص ١٥٤١، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين ٤٠٦/٨ وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٥٧٦/٤.

(٢) القاموس المحيط، الفيروزآبادي في (ن ف ر)، والكليات، معجم المصطلحات والفروق الفردية، أبو البقاء الكفوي، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري ٦٨٦، ومعجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ٤٥٤.

(٣) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٨٥٤/٢.

(٤) الوسيط، مجمع اللغة العربية في (و ز ر).

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (س و ي).

حياة الفرد والمجتمع، ومما يلاحظ في هذا الحديث أنه ذكر القسم بأسلوب الخبر وليس فيه ذكر للمقسم به، وذلك مما يفيدنا أن هذه صيغة من صيغ اليمين معتبرة يتأكد بها مدلول ما كان القسم من أجله، ومن الملاحظ أن هناك اختلافا في الموقف النفسي الذي يصاحب كل صيغة من هذه الصيغ ودرجة الانفعال إذ أننا نرى في القسم (والذي نفسي بيده أو الذي نفس محمد بيده) نجد درجة الانفعال ترتفع والموقف يعلوه الجلال، والهيبة بما توحي به عبارات القسم من انقباض، وخوف، واضطراب، والتي تصور هيئة روح الحالف في يد المحلوف به مسيطر عليه تمام السيطرة ولذلك كثر وروده في سياق الترهيب، والقسم بنحو (ورب الكعبة) فإن الانفعال أقل ودرجة التوتر منخفضة يشعر لفظ (رب) فيها بالرعاية والقرب ولفظ (الكعبة) بالأمان والسكينة ولذلك كثر وروده في الترغيب، والقسم بأسلوب خبري (أقسم) فإن الأسلوب الخبري يوحي بالثقة والهدوء في تقرير الخبر، وتثبيته، ومن الجدير بالذكر أن الصحابة رضوان كانوا يدركون الفرق بين هذه الصيغ في درجة القوة، والحالة النفسية للرسول ﷺ فيما رواه أَبو سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا اجْتَهَدَ فِي الْيَمِينِ قَالَ وَالَّذِي نَفْسُ أَبِي الْقَاسِمِ بِيَدِهِ[1] وأمر الرسول ﷺ في قوله (وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثاً فَاحْفَظُوهُ) يشير إلى أهمية ما فيه من معان لا يكاد يشعر بها الناس، وهي عظيمة التأثير وهي أن لعالم الأماني، والمشاعر، والعواطف ميزانا عند الله إن خلصت له، وتعلقت بإرضائه، وجرت في طريقه وصلت لمصب عطائه، وتفضله تأمل كيف أدرك ذلك المتمنى -في لحظة من اللحظات-، وهو في مكانه لم يتحرك، ولم يتكلم ثواب من كد من أجل المال، والتعب ثم أنفقه في مرضاة الله؟ في قوله: (لَوْ أَنَّ لِي مَالاً لَعَمِلتُ بِعَمَلِ فُلانٍ، فَهُوَ بنيَّتِهِ، فأجْرُهُمَا سَوَاءٌ) إنه عالم عجيب تتغير فيه مقاييس الأعمال، وتحكمه النية ويبلغه الإخلاص، وتأمل الوجه المقابل له وهو صاحب النية السيئة، والأمنية المحرمة (وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ اللَّهُ مَالاً وَلاَ عِلْماً، فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالاً لَعَمِلْتُ فِيهِ بعَمَلِ فُلاَنٍ، فَهُوَ بنِيَّتِهِ، فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ) إذن فعالم الأماني المتصلة بالله لو وزن عند الله يعدل ما أتى صاحب

(١) الحديث في فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٢/٥٣٤.

الفعل في الواقع مع أنها آمال علت نفسه واختلطت بوجدانه لكن قدرته وقفت به دون تحقيقها فصاغها أمنيات لله معبقة بالإخلاص فقبلها الله، وأثابه بمثل صاحبه والله أعلى، وأمنيات هذا العبد صدرت كاعتذار على قصر ذات اليد في حنان، واستعطاف كما قال ابن يعقوب: أن تمنى ما لا سبيل إليه قد يكون للاستعطاف أو للاعتذار أو ما شابه ذلك[(١)] أما أمنيات الآخر الذي رأي صاحب المال الذي يتخبط فيه، ولا يرعي حق الله فتمنى مثله فهو يتمنى المال ليفعل به مثل فعل هذا الآثم فلما عزَّ عليه أمله في الواقع صاغه أمنية لمجرد موافقة الخاطر والترويح عن النفس عن طريق المحرَّم فكان جزائه من جنس عمله أن يكون كصاحب المال الآثم لأن النية موجودة، والفارق بينهما أن هذا مَلَك فَفَعل، وهذا لم يملك، فتمنى ما لا سبيل إليه لمجرد موافقة الخاطر، والترويح عن النفس' وقد جاء التمنى بـ(لو) (التي تدخل في الأصل على الممنوع، والمحال، وهو المتمنى كثيرا' والغرض من استعمال لو "هنا في موضع (ليت) إظهار عزة المتمنى وندرته وإظهاره في صورة الأمر الذي لا يمكن حصوله، لأن (لو) في وصفها اللغوي حرف يفيد الامتناع")[(٢)]

المضامين الدعوية

أولاً- من أساليب الدعوة: القسم:

ورد أسلوب القسم في الحديث في قوله ﷺ "ثلاثة أقسم عليهن" وأسلوب القسم من أشد الأساليب الدعوية تأثيراً ونفوذاً إلى القلب لما فيه من تأكيد الخبر أو تعظيم لشيء أو جمع للانتباه حول غاية، ثم إن أسلوب القسم موعظة حسنة فالقرآن دائماً يقصر به الإقناع والإثارة بواسطة المقسم به[(٣)].

(١) انظر: مواهب الفتاح لابن يعقوب – ضمن شروح التلخيص، ٢/ ٢٤٠.

(٢) انظر: الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في صحيح الترغيب، والترهيب للحافظ المنذري، د. ناصر راضي الزهري، ١٠٤، مخطوطة بكلية اللغة العربية بأسيوط، جامعة الأزهر.

(٣) انظر: مستلزمات الدعوة في العصر الحديث، علي بن صالح المرشد ص ١٦٢ -١٦٣.

ثانياً- من مهام الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما ينبغي عليهم حفظه واستيعابه:

إن من مهام الداعية التي ينبغي العناية بها إرشاده للمدعوين لما ينبغي عليهم حفظه واستيعابه وتقديمه إليهم معالم توضح لهم طريق الحياة وتؤنسهم فيها وتعينهم على متاعبها[١]، وفي الحديث لفت الرسول ﷺ الناس إلى ما ينبغي أن يحفظوه ويجعلوه نصب أعينهم فقال: "ثلاثة أقسم عليهن وأحدثكم حديثاً فاحفظوه".

فإرشاد المدعوين إلى الخير ومعالم الحق والخير تبنى عليه الدعوة وحوله تدور، إذ أن الدعوة إلى الله: حث على فعل الخير واجتناب الشر وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر، والتحبيب بالفضيلة والتنفير من الرذيلة واتباعٌ للحق ونبذ للباطل[٢].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: فضل الصدقة:

جاء في الحديث بيان لجانب من جوانب فضل الصدقة، فقال ﷺ "ما نقص مال عبد من صدقة" وقال: "إِنَّمَا الدُّنْيَا لأَرْبَعَةِ نَفَرٍ: عَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ مَالاً وَعِلْمًا، فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَيَعْلَمُ لِلهِ فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ"، لتقواه في ماله وعمله بالصلة والصدقة من المال وبالإسعاف بجاه العلم ويعلم لله فيه حقاً من وقف وإقراء وإفتاء وتدريس فذلك العبد بأفضل الدرجات عند الله تعالى[٣].

ففي الحديث تأكيد وإثلاج لصدر المتصدق بأن الصدقة لا تؤول بماله إلى النقصان وإنما إلى البركة والنماء، قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾[٤] فالصدقة تحمل معاني: الطهارة والنماء والزيادة، فهي طهارة لنفس الغني من الشح البغيض[٥]، والبخل

---

(١) تذكرة الدعاة، البهى الخولي ص ٢٠٣.

(٢) مرشد الدعاة، محمد نمر الخطيب ص ٢٤.

(٣) تحفة الأحوزي، المباركفوري، ١٨٥٤/٢.

(٤) سورة الروم، آية: ٣٩.

(٥) العبادة في الإسلام، د. يوسف القرضاوي ص ٢٧٣.

والحقد وتغرس بذور المحبة في المجتمع وإرساء التضامن الاجتماعي بين أفراده(١).

قال ابن هبيرة: (هذا الحديث يدل على أن الصدقة لا تنقص من المال، والمراد بذلك أنها لا تنقص منه من حيث المعنى، أن الله يبارك في ذلك المال الذي تصدق به بما ينفع منه، ويوفر وجوهه في الخرج أضعاف تلك الصدقة، وقد يكون ذلك صدقة، فإنه حدثني والدي رحمه الله قال: قفلت من الحج، فلما وصلت إلى فيد وزنت ما كان في خرقتي، وكان مبلغه ثلاثة دنانير ودانقين، أو قال: ودانقاً، ثم قال: إني أنفقت من ذلك منذ كنت بفيد إلى أن جئت العراق، ثم وزنته فكان مثل ما وزنته بفيد من غير أن ينقص.

وأما أنا فحصل لي مرة مقدار من الحنطة، فأخرجت منها فيما أظن قريبًا من ربعها أو ثلثها، ثم كِلْتُ الباقي فلم ينقص شيئًا فيما أظن، فأما من حيث المعاني؛ فإن ذلك فيما لا أحصيه كثرة(٢).

قال أبو العباس القرطبي: ("ما نقصت صدقة من مال" فيه وجهان أحدهما: أنه قدر ما ينقص منه يزيد اللهُ فيه، وينميه، ويكثره، الثاني: أنه وإن نقص في نفسه ففي الأجر والثواب ما يجبر ذلك النقص بإضافة)(٣).

رابعاً- من موضوعات الدعوة: فضل الصبر على المظالم:

صرح النبي ﷺ في الحديث بجانب من جوانب فضل الصبر على المظالم وهو أن الصبر على المظالم سبب لإعزاز الإنسان في الدنيا والآخرة، فقال: "ولا ظلم عبد مظلمة صبر عليها إلا زاده الله عزاً" أي حبس نفسه على ألمها ولم ينتقم من ظالمه بشيء من الانتقام احتساباً، إلا زاده الله عزاً في الدنيا والآخرة"(٤)، وذلك من رفيع الأخلاق وعظام الأمور، قال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾(٥)، قال سعيد بن جبير:

---

(١) الزكاة تطبيق محاسبي معاصر، د. سلطان بن محمد علي السلطان ص ٥٦.

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ١٧٥/٦.

(٣) المفهم، القرطبي ٥٧٤/٦.

(٤) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٨٢٢

(٥) سورة الشورى، آية: ٤٣.

يعني لمن حق الأمور التي أمر الله بها، أي لمن الأمور المشكورة والأفعال الحميدة التي عليها ثواب جزيل وثناء جميل[١]. فالآية فيها ترغيب في الصبر على المظالم وحث على العفو والصبر على الأذى، وذلك بين الأمة الإسلامية ظاهر، وأما مع الكافرين فتعتريه أحوال تختلف بها أحكام الغفران، وملاكها أن تترجح المصلحة في العفو أو المؤاخذة[٢].

خامساً- من موضوعات الدعوة: خطر المسألة على الإنسان:

صرح النبي ﷺ في هذا الحديث بخطورة المسألة على الإنسان فقال: ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر" وذلك معاملة له بنقيض قصده[٣]، ولقد بالغ الإسلام في النهى عن مسألة الناس وحذر منها، لأنها لا تليق بشخصية المؤمن الكامل المبنية على السمو والشرف والابتعاد عن السفاسف وإراقة ماء الوجه[٤]، فقال ﷺ: ((مَنْ تَكَفَّلَ لِي أَنْ لاَ يَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئاً فَأَتَكَفَّلَ لَهُ بِالْجَنَّةِ، فَقَالَ ثَوْبَانُ أَنَا فَكَانَ لاَ يَسْأَلُ أَحَداً شَيْئاً))[٥].

ولخطورة المسألة منع الإسلام منها وحرمها إلا لضرورة لا تدفع إلا بها، قال أبو حامد الغزالي: (السؤال حرام في الأصل، وإنما يباح بضرورة أو حاجة مهمة قريبة من الضرورة، وإنما قلنا: إن الأصل فيها التحريم لأنه لا ينفك عن ثلاثة أمور محرمة:

أ- إظهار الشكوى من الله تعالى، إذ السؤال إظهار للفقر وذكر لقصور نعمة الله تعالى عنه وهو عين الشكوى.

ب- أن فيه إذلال السائل نفسه لغير الله تعالى، وليس للمؤمن أن يذل نفسه لغير الله بل عليه أن يذل نفسه لمولاه، فإن فيه عزة، فأما سائر الخلق فإنهم عباد أمثاله، فلا ينبغي أن يَذلّ لهم إلا لضرورة، وفي السؤال ذل للسائل بالإضافة إلى إيذاء المسؤول.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢١٣/٧

(٢) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ١٢٣/٢٥/١٠.

(٣) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٨٢٢.

(٤) دراسات تربوية في الأحاديث النبوية، د. محمد لقمان الأعظمي الندوي ص ٢٥١، ٢٥٢.

(٥) أخرجه أبو داود ١٦٤٣، والحديث صححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ١٤٤٦).

ج- أنه لا ينفك عن إيذاء المسؤول غالباً، لأنه ربما لا تسمح نفسه بالبذل عن طيب قلب منه، فإن بذل حياءً من السائل أو رياء فهو حرام على الآخذ وإن منع ربما استحيا وتأذى في نفسه بالمنع، إذ يرى نفسه في صورة البخلاء، ففي البذل نقصان ماله وفي المنع نقصان جاهه، وكلاهما مؤذيان، والسائل هو السبب في الإيذاء، والإيذاء حرام إلا بضرورة[1].

سادساً- من أساليب الدعوة: الأمر:

ورد أسلوب الأمر في الحديث في قوله ﷺ "وأحدثكم حديثاً فاحفظوه" وأسلوب الأمر من الأساليب الدعوية المفيدة لما فيه من توجيه للمدعوين إلى ما ينفعهم وحملهم عليه وسوقهم إليه. كما هو ظاهر في الحديث في توجيه النبي ﷺ للأمة وأمرهم وحملهم على الاستجابة لهذه الإرشادات ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

سابعاً- من آداب المدعو : إدراك حقيقة الدنيا:

ففي الحديث بين رسول الله ﷺ أصناف الناس في تعاملهم مع المال، وبين ﷺ أن أفضل ذلك كله من آتاه الله مالاً وعلماً فهو يتقي الله فيهما، ويؤدي ما عليه فيهما من حقوق، ويلحق به في الثواب من آتاه الله علماً ولم يرزقه مالاً ويتمنى أن لو كان مثله فيعمل بعمله فقال ﷺ إنما الدنيا لأربعة نفر عبد رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتقي فيه ربه، ويصل فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقاً فهذا بأفضل المنازل" لذا ينبغي على من يريد أن ينقل نفسه من أحطّ المنازل إلى أفضلها أن يدرك حقيقة الدنيا ويؤدي ما عليه من واجبات في المال والعلم بما على الإنسان من واجبات يهديه إلى الصواب بأداء الواجبات واجتناب المحظورات والإخلاص لله في عمله[2].

ثامناً- من موضوعات الدعوة: بيان أحوال الناس في الدنيا:

بيّن النبي ﷺ أحوال الناس مع الدنيا، وتشعبهم في التعامل معها واختلاف مقاصدهما فيها فقال ﷺ "إِنَّمَا الدُّنْيَا لأَرْبَعَةِ نَفَرٍ:

---

(١) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، ٤/٢٢٣.

(٢) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٨٢٣.

أ- عَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ مَالاً وَعِلْمًا ، فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ ، وَيَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا ، فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ" فهذه أفضل الحالات وأجملها وصاحبها بأفضل الدرجات عند الله تعالى[١] ، ومثل هذا الصنف مَنْ حمده الإسلام ووجه الهمم إلى الإتيان بفعله وتمني حاله لمن يقدر عليه فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((لا حَسَدَ إلاّ في اثْنتينِ: رَجلٌ آتاهُ اللّهُ مالاً فسُلِّطَ على هَلَكَتِهِ في الحقِّ، ورَجُلٌ آتاهُ اللّهُ الحكمةَ فهُوَ يَقْضي بها ويُعَلِّمُها))[٢].

ب- وهو النوع الآخر من المؤمنين "وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً" فلا يتمكن من مساعدة المحتاج ويتشوق للوقوف بجانبه فهو بهذه النية يؤجر وأجره لا يقل عن النوع الأول.

ج- "عبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً" فهو يخبط في ماله بغير علم ولا يتق فيه ربه ، لعدم علمه في أخذه وصرفه.

د- والصنف الأخير "عبد لم يرزقه الله مالاً ولا علماً فهو يقول : "لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان" أي من أهل الشر فهو يتمنى أن ينغمس في الملذات ويبتعد عن القيم الخلقية ويتودد إلى أصحاب المعاصي ويتمنى أن ينضم إليهم ويحذو حذوهم. "فهو بنيته فوزرهما سواء"[٣].

(١) دراسات تربوية ، الأحاديث النبوية ، د. محمد لقمان الأعظمي الندوي ص ١٧

(٢) أخرجه البخاري ٧٣ ، ومسلم ٨١٥ ، ٨١٦

(٣) انظر: تحفة الأحوزي ، المباركفوري ، ١٨٥٤/٢ ، دراسات تربوية في الأحاديث النبوية ، د. محمد لقمان الأعظمي الندوي ص ٢٢ ، ٢٣.

الحديث رقم (٥٥٧)

٥٥٧- وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: أَنَّهُمْ ذَبَحُوا شَاةً، فَقَالَ النبيُّ ﷺ: ((مَا بَقِيَ مِنْهَا؟)) قالت: مَا بَقِيَ مِنْهَا إِلاَّ كَتِفُها. قَالَ: ((بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرُ كَتِفِهَا)) رواه الترمذيُّ[1]، وقال: (حديث صحيح).

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

غريب الألفاظ:

بقى كلُّها غير كتفها: معناه: تصدقوا بها إلا كتفها. فقال: بقيت لنا في الآخرة إلا كتفها[2].

الشرح الأدبي

الرسول ﷺ يضع الأمور في نصابها بالنسبة للباقي، والفاني حتى ينظر إليها المسلمون خلال هذا المنظور الذي يضع الأمور في موضعها المناسب، وفي حجمها الحقيقي، والحديث يقرر بطريقة لطيفة شيقة في حوار عابر قيمة الصدقة في رصيد العبد عند ربه، وأنها هي الباقية حقيقة من ماله، واستفهام النبي ﷺ عما تبقى من الشاة (ما بقي منها؟) إرصاد للمعنى الذي يريد أن يقرره في الباقي حقيقة، وأنه هو ما عند الله فلما أجيب بأسلوب القصر الجازم الذي يقصر الباقي على الكتف لا يتعداه لغيره منها، وهو المفهوم الراسخ في أذهان الناس في قول أم المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنْهَا (مَا بَقِيَ مِنْهَا إِلاَّ كَتِفُها) جاء تقرير للمفهوم الصحيح للباقي حقيقة (بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرُ كَتِفِهَا) في إشارة إلى أن الصدقة صبغته بصبغة الخلود؛ لأنها خلصت لله دون حظ النفس.

---

(١) برقم ٢٤٧٠. أورده المنذري في ترغيبه ١٢٦٠.

(٢) رياض الصالحين ٢٥٥.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانياً: من صفات الداعية: بيان الحقائق وتصحيح المفاهيم.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: الحث على الصدقة.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار:

إن من أساليب الدعوة التي تستنبط من هذا الحديث أسلوب الإخبار، يظهر ذلك فيما ورد عن عائشة رضي الله عنها أنهم ذبحوا شاة فقال النبي ﷺ: "ما بقي منها؟..."، والإخبار من الأساليب الدعوية المهمة، حيث أفاد في هذا الحديث أهمية الكرم والجود والسخاء لأن ما يتصدق به الإنسان هو الذي يبقى، وأن ما يأكله أو يلبسه هو الذي يفنى.

ثانياً- من صفات الداعية: بيان الحقائق وتصحيح المفاهيم:

إن بيان الحقائق وتصحيح المفاهيم الخاطئة من الأمور التي ينبغي أن يحرص عليها الداعية، يظهر ذلك في قول رسول الله ﷺ: "بقي كلها غير كتفها"، فقد بيّن لها رسول الله ﷺ حقيقة الصدقة فصحح المفهوم الخاطئ بأن الصدقة تنقص الشيء، وهذا ما بيّنه في قوله ﷺ: ((مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ . وَمَا زَادَ اللّهُ عَبْداً بِعَفْوٍ إِلاَّ عِزًّا. وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلّهِ إِلاَّ رَفَعَهُ اللّهُ))[1].

فإن التصدق وإن كان ينقص الشيء ظاهراً ولكن بركته وحقيقته عند الله باقية، قال تعالى: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾[2].

أي: ثوابه لكم في الجنة باق لا انقطاع ولا نفاد له فإنه دائم لا يحول ولا يزول[3].

---

(١) أخرجه مسلم ٢٥٨٨.

(٢) سورة النحل، آية: ٩٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٦٠١/٤.

والله يخلف الصدقة خيراً منها، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾[(١)]، قال السعدي: (فلا تتوهموا أن الإنفاق مما ينقص الرزق، بل وعد بالخلف للمنفق، الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر وهو خير الرازقين)[(٢)].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: الحث على الصدقة:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "بقي كلها غير كتفها"، قال ابن علان: (هذا تحريض على الصدقة والاهتمام بها وأن لا يستكثر المرء ما أنفقه)[(٣)].

والصدقة من أفضل القربات وقد جعلها الله من أكثر الأعمال ثواباً في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾[(٤)].

وأثنى الله على المتصدقين فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[(٥)]، قال ابن عاشور: (هذه بشارة للمنفقين بطيب العيش في الدنيا فلا يخافون اعتداء المعتدين لأن الله أكسبهم محبة الناس إياهم، ولا تحل بهم المصائب المحزنة إلا ما يسلم منه ما هو معتاد في إبانة، أما انتفاء الخوف والحزن عنهم في الآخرة فقد علم من قوله: فلهم أجرهم عند ربهم)[(٦)].

وقال رسول الله ﷺ: ((إِنَّكَ لنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغي بها وجهَ اللّهِ إلاّ أُجِرْتَ عليها، حتى ما تَجعلُ في في امرأتِكَ))[(٧)].

---

(١) سورة سبأ، آية: ٣٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام الرحمن، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٦٢٨.

(٣) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٨٢٤.

(٤) سورة الحديد، آية: ١١.

(٥) سورة البقرة، آية: ٢٧٤.

(٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧٨/٣/٢.

(٧) أخرجه البخاري ٥٦، ومسلم ١٦٢٨.

وقال ﷺ: ((اتَّقُوا النارَ ولو بشِقِّ تمرةٍ، فمن لم يَجِدْ شقَّ تمرةٍ فبكلمةٍ طيِّبةٍ))[1].

لقد بيّن أن الصدقات وقاية من النار فمن بذل المال في سبيل الله للفقراء والمساكين والغارمين والمجاهدين، والمصالح العامة كان ما بذل سوراً منيعاً، وحاجزاً حصيناً، يقيه لهيب الجحيم[2].

(١) أخرجه البخاري ٦٠٢٣، ومسلم ١٠١٦.

(٢) الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي ص ١٢٤.

الحديث رقم (٥٥٨)

٥٥٨- وعن أسماء بنت أَبي بكرٍ الصديق رضي الله عنهما، قالت: قَالَ لي رسول الله ﷺ: ((لاَ تُوكِي فَيُوكى عَلَيْكِ)) [١].

وفي رواية: ((أنفقي (أَوِ انْفَحِي، أَوْ انْضَحِي)، وَلاَ تُحصي فَيُحْصِيَ اللهُ عَلَيْكِ، وَلاَ تُوعي فَيُوعي اللهُ عَلَيْكِ)) متفقٌ عَلَيْهِ [٢].

ترجمة الراوي:

أسماء بنت أبي بكر: تقدمته ترجمتها في الحديث رقم (٣٢٥).

غريب الألفاظ:

لا تُوكي: أي لا تدخري وتَشُدي ما عندك وتمنعي ما في يديك [٣].

فيوكي عليك: أي يقطع الله مادة الرزق عنك [٤].

انْفحي: أنفقي [٥].

انضحي: أنفقي [٦].

لا توعي: لا تجمعي وتشحي بالنفقة [٧].

الشرح الأدبي

قول أسماء رضي الله عنها (قال لي رسول الله ﷺ) يوحي بالاعتزاز، والسرور لأنها قدمت الجار، والمجرور: (لي) لتفيد اختصاص نفسها بهذا الحديث دون غيرها، ثم إنها

---

(١) أخرجه البخاري ١٤٣٣، ولم يخرجه مسلم بهذا اللفظ. أورده المنذري في ترغيبه ١٣٥١.

(٢) أخرجه البخاري ٢٥٩١، ومسلم ١٠٢٩/٨٨ واللفظ له. أورده المنذري في ترغيبه ١٣٥١.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (و ك ى).

(٤) المرجع السابق.

(٥) رياض الصالحين ٢٥٥.

(٦) المرجع السابق ٢٥٥.

(٧) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (و ع ى).

استخدمت صيغة الماضي دلالة على التحقق، وقول الرسول ﷺ لها (لا توكي فيوكى عليك) النهي نصح، وإرشاد تضمن تحذيرا بليغا عن طريق الجناس بين الكلمتين (توكي فيوكى) ومعناه لا تمنعي، ولا تحبسي فيمنع عنك، ويحبس عنك الرزق، والذي يوحي بأن الجزاء من جنس العمل، والذي يدل عليه للفظ بدلالته، وبظاهره وهو شعور يربي الإحساس في النفس بأن إمساكها المال عن الفقراء إمساك عن نفسها يفهم منه ضمنا أن إنفاقها على الفقراء إنفاق على نفسها والذي قررته الرواية الثانية عن طريق أسلوب الأمر (أنفقي أَوِ انْفَحِي، أَوْ انْضَحِي) وهو أمر توجيه، وإرشاد وترغيب في الإنفاق وتغاير الألفاظ (انفحي أو انضحي) تردد من الراوي وهي ذات معان متقاربة في الدلالة على الإنفاق ترتبط بظلال من البيئة التي يعيشون فيها تعطي الإنفاق ثباتا في الأذهان وإيحاءً مناسبا لمدلولها في الواقع.

فقه الحديث

قال ابن حجر: (بهذا الحكم [أي بالجواز] قال الجمهور: وخالف طاوس فمنع مطلقًا، وعن مالك لا يجوز لها أن تعطى بغير إذن زوجها ولو كانت رشيدة إلا من الثلث، وعن الليث لا يجوز مطلقًا إلا في الشيء التافه، وأدلة الجمهور من الكتاب والسنة كثيرة، واحتج لطاوس بحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رفعه: ((لا يجوز عطية امرأة في مالها إلا بإذن زوجها))[1].

وقال ابن بطال: (وأحاديث الباب أصح، وحملها مالك عن الشيء اليسير، وجعل حده الثلث فما دونه))[2].

---

(١) أخرجه أبو داود ٣٥٤٦، والنسائي ٣٧٨٧، وقال الألباني: حسن صحيح (صحيح سنن أبي داود ٣٠٢١).

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢١٨/٥، وانظر: الاختيار ٩١/٣، وحاشية الدسوقي على الشرح الكبير، وهو مطبوع مع الشرح الكبير للدردير، محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي ٣٠٨/٣، وجواهر الإكليل ١٠٢/٢، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٦٠٢/٦-٦٠٤، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٣٢٩/٢٦-٣٣٠.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النهي، والترهيب.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: الحث على الصدقة والجود وعدم البخل والمنع.

ثالثاً: من مهام الداعية: إرشاد المدعو إلى ما فيه نفعه وتحذيره مما قد يضره.

أولاً- من أساليب الدعوة: النهي، والترهيب:

١- **أسلوب النهي:** يظهر أسلوب النهي في قول رسول الله ﷺ لأسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما: (لا توكي فيوكى عليك لا تحصي فيحصى عليك، ولا توعي فيوعى عليك)، فقد نهاها عن منع ما في يدها.

قال ابن حجر: (والمعنى النهي عن منع الصدقة خشية النفاذ، فإن ذلك أعظم الأسباب لقطع مادة البركة، لأن الله يثيب على العطاء بغير حساب، ومن لا يحاسب عند الجزاء لا يحسب عليه عند العطاء، ومن علم أن الله يرزقه من حيث لا يحتسب فحقه أن يعطي ولا يحسب)[١].

وأسلوب النهي من أساليب الدعوة التي يستخدمها الداعية في نهي المدعوين عن الأشياء غير المقبولة أو التي تركها أفضل من فعلها وهو أسلوب يشعر المدعوين بأهمية اجتناب ما نهي عنه الداعية.

٢- أسلوب الترهيب: يظهر أسلوب الترهيب في قوله ﷺ: (لا توكي فيوكي الله عليك، ولا تحصي فيحصي الله عليك، ولا توعي فيُوعى عليك)، حيث رهّب رسول الله ﷺ من منع الصدقة لأن ذلك يكون سبباً في منع الرزق عن المانع.

وأسلوب الترهيب من أساليب الدعوة التي يقصد بها ترهيب المدعو من عدم الاستجابة، أو رفض الحق، أو عدم الثبات عليه بعد قبوله.

والإسلام يرهب من الكفر ولوازمه، من الآثام والمعاصي والفواحش، وسوء الأخلاق والزنا، والنفاق، والبخل، ومن غضب الله، والنار وإيثار الدنيا على الآخرة[٢].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣/٣٥٢.

(٢) انظر: الدعوة الإسلامية الوسائل والأساليب، محمد خير رمضان يوسف ص ٩٩ - ١٠٠.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: الحث على الصدقة والجود وعدم البخل والمنع:

يستنبط ذلك من عموم الحديث حيث نهى رسول الله ﷺ عن منع فضل ما عند الإنسان عن من هو محتاج إليه، وقصد من ذلك الحث على الإنفاق[(١)].

وقد حثّ الإسلام على الصدقة والجود وذم البخل والمنع نظراً لأهمية البذل والإنفاق، ولذلك حبب إلى بنيه أن تكون نفوسهم سخية، وأكفهم ندية، ووصاهم بالمسارعة إلى دواعي الإحسان ووجوه البر، وأن يجعلوا تقديم الخير إلى الناس شغلهم الدائم، لا ينفكون عنه في صباح أو مساء[(٢)]، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[(٣)]، وقال في ذم البخل: ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ...﴾[(٤)].

وقال رسول الله ﷺ مبيّناً فضل الصدقة وذم البخل والمنع: ((يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ أَنْ تَبْذُلَ الْفَضْلَ خَيْرٌ لَكَ. وَأَنْ تُمْسِكَهُ شَرٌّ لَكَ. وَلاَ تُلاَمُ عَلَىٰ كَفَافٍ. وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ. وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَىٰ))[(٥)].

قال النووي: (إن بذلت الفاضل عن حاجتك وحاجة عيالك فهو خير لك لبقاء ثوابه، وإن أمسكته فهو شر لك لأنه إن أمسك عن الواجب استحق العقاب عليه، وإن أمسك عن المندوب فقد نقص ثوابه وفوت مصلحة نفسه في آخرته وهذا كله شر)[(٦)].

وقال رسول الله ﷺ: ((مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ، إِلاَّ مَلَكَانِ يَنْزِلاَنِ. فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقاً خَلَفاً. وَيَقُولُ الآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكاً تَلَفاً))[(٧)].

---

(١) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٨٢٥.

(٢) خلق المسلم، محمد الغزالي ص ١٤٠.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٧٤.

(٤) سورة محمد، آية: ٣٨.

(٥) أخرجه مسلم ١٠٣٦.

(٦) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٦٥٥.

(٧) أخرجه البخاري ١٤٤٢، ومسلم ١٠١٠.

قال النووي: (قال العلماء: هذا في الإنفاق في الطاعات ومكارم الأخلاق وعلى العيال والضيفان والصدقات، ونحو ذلك، بحيث لا يذم ولا يسمى سرفاً والإمساك المذموم عن هذا)[1].

ثالثاً- من مهام الداعية: إرشاد المدعو إلى ما فيه نفعه وتحذيره مما قد يضره:

يظهر ذلك في إرشاد النبي ﷺ أسماء رضي الله عنها إلى ما فيه نفعها من الحث على الصدقة والجود وحذرها مما يضرها وهو البخل والمنع.

فإن هدف الداعية هو حب الخير للمدعوين إذ أن حقيقة الدعوة حب الخير للغير، والحرص على تحقيق المصلحة له، وظهور هذا الحرص يجعل الدعوة محل قبول وامتثال[2]، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[3].

ويظهر حرص الداعية على إرشاده المدعوين إلى ما ينفعهم وتحذيرهم مما يضرهم في نصح صاحب عيسى عليه السلام لقومه، قال تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[4].

فحرص الداعية على إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم وتحذيرهم مما يضرهم يجعل القلوب تلتف حوله وتقبل دعوته وترضى قوله.

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٦٤٣.

(٢) انظر: النصيحة وموقعها من أسلوب الحكمة ودورها في الدعوة إلى الله، الباز محمد عبد الفتاح الدميري ص ٦١.

(٣) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

(٤) سورة يس، آية: ٢٠.

الحديث رقم (٥٥٩)

٥٥٩- وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّه سمع رسول الله ﷺ، يَقولُ: ((مَثَل البَخيل وَالمُنْفِق، كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُنَّتَانِ[١] مِنْ حَديد مِنْ ثُدِيِّهِمَا إِلَى تَرَاقِيهِمَا، فَأَمَّا المُنْفِقُ فَلاَ يُنْفِقُ إِلاَّ سَبَغَتْ - أَوْ وَفَرَتْ - عَلَى جِلْدِهِ حَتَّى تُخْفِيَ بَنَانَهُ، وَتَعْفُو أثرَهُ، وأمَّا البَخِيلُ، فَلاَ يُرِيدُ أنْ يُنْفِقَ شَيْئاً إِلاَّ لَزِقَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا، فَهُوَ يُوسِّعُهَا فَلاَ تَتَّسِعُ)) متفقٌ عَلَيْهِ[٢].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

الجُنَّةُ: الدرع[٣].

ثُديِّهما: جمع ثدي، وهو النتوء في صدر الرجل والمرأة[٤].

تراقيهما: مفردها الترقوة: عظمة مشرفة بين ثغرة النحر والعاتق وهما ترقوتان والجمع تراق[٥].

سبغت: امتدت وغطت[٦].

---

(١) لفظ البخاري في المواضع الثلاثة: (جُبَّتان)، والمثبت لفظ الحميدي في جمعه ٣/١٣٧، رقم ٢٣٥٤ وأما مسلم فرواه برقم ١٠٢١/٧٥ بالشكِّ: (جبتان، أو: جنتان) وبرقم ١٠٢١/٧٧ والذي قبله بدون رقم: (جنتان) بدون الشكّ. قال الحافظ ابن حجر في الفتح ٤/٢٧١ قوله: (جبتان) كذا في هذه الرواية بضمّ الجيم بعدها موحدة، ومن رواه فيها بالنون، فقد صحّف، وكذا رواية الحسن بن مسلم ٥٧٩٧ ورواه حنظلة بن أبي سفيان الجُمحيّ عن طاوس بالنون، ورجّحت لقوله: (من حديد).

(٢) أخرجه البخاري ١٤٤٣ واللفظ له، ومسلم ١٠٢١/٧٥. أورده المنذري في ترغيبه ١٢٧٣.

(٣) رياض الصالحين ٢٥٦.

(٤) الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ث د ي).

(٥) الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ت ر ق).

(٦) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣/٢٥٩.

وفرت: اتسعت[١].

تعفو أثره: تستر أثره[٢]. ومعناه: أن المنفق كلّما أنْفق سبغت وطالت حتى تَجرّ وراءه. وتخفي رجليه وأثر مشيه وخطواته[٣].

لزقت: لصقت[٤].

الشرح الأدبي

بدأ ﷺ بأسلوب خبري يتسم بالتشويق، والطرافة حيث بدأ بكلمة (مثل) وهي من المفردات الثرية فمادة الكلمة تعني، الشبه، والمساوي، والصورة والأفضل، والمثل: هو قول سائر شبَّه به حال الثاني بالأول، والأصل فيه التشبيه، وإضافة الكاف لكلمة (مثل) تؤذن بتشبيه الهيئات، ، والأحوال حتى لا يتوهم أنه تشبيه الأفراد، وقد تضمن الحديث مثلا ضربه الرسول ﷺ للجواد والبخيل شبههما برجلين أراد كل منهما أن يلبس درعا يستجن بها، والدرع ما يلبس على موضع الصدر، والثديين إلى أن يسلك لابسها يديه في كميه، ويرسل ذيلها على أسفل بدنه فيستمر سفلا فجعل مثل المنفق مثل من لبس درعا سابغة فاسترسلت عليه حتى سترت جميع بدنه، وخصته، وجعل البخيل كرجل يداه مغلولتان ما دون صدره فإذا أراد لبس الدرع حالت يداه بينها، وبين أن تمر سفلا على البدن، واجتمعت في عنقه فلزمت ترقوته فكانت ثقلا، ووبالا عليه من غير وقاية له، وتحصين لبدنه، وحاصله أن الجواد إذا همَّ بالنفقة اتسع لذلك صدره، وطاوعت يداه فامتدتا بالعطاء، وأن البخيل يضيق صدره، وتنقبض يده عن الإنفاق، وقيل ضرب المثل بهما؛ لأن المنفق يستره الله بنفقته، ويستر عوراته في الدنيا، والآخرة كستر هذه الجبة لابسها، والبخيل كمن لبس جبة إلى ثدييه فيبقى مكشوفا ظاهر العورة مفتضحا في الدارين وقال ابن بطال يريد أن المنفق إذا أنفق كفرت

---

(١) الوسيط، مجمع اللغة العربية ١٠٤٦، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣/٢٥٩.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣/٢٥٩.

(٣) رياض الصالحين ٢٥٦.

(٤) معجم لغة الفقهاء، أ.د. محمد رواس قلعة جي ٣٦٠.

الصدقة ذنوبه ومحتها كما أن الجبة إذا أسبغت عليه سترته، ووقته، والبخيل لا تطاوعه نفسه على البذل فيبقى غير مكفر عنه الآثام كما أن الجبة تبقي من بدنه ما لا تستره فيكون معرضا للآفات(١).

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التمثيل.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: فضل الصدقة وثمراتها.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: خطر البخل.

رابعاً: من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب.

أولاً- من أساليب الدعوة: التمثيل:

إن من أساليب الدعوة التي تستنبط من الحديث أسلوب التمثيل، يظهر ذلك في قول رسول الله ﷺ: "مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جُنتان من ثُديهما إلى تراقيهما..."، حيث مثّل المنفق والبخيل برجلين عليهما درعان من حديد لتصوير معنى الانبساط والتقلص، والأسلوب من التشبيه المفرق فقد شبه السخي الموفق إذا قصد التصدق يسهل عليه ويطاوعه قلبه بمن عليه الدرع ويده تحت الدرع، فأراد أن يخرجها منها وينزعها يسهل عليه، والبخيل على عكسه(٢).

وأسلوب التمثيل به دوافع تحرك العواطف والوجدان، فيحرك الوجدان الإرادة ويدفعها إلى عمل الخيرات، واجتناب المنكرات، وبهذا تساهم الأمثال في تربية الإنسان على سلوك الخير وتهذيب نزعاته الشريرة، فتستقيم حياة الأفراد والمجتمعات، فعلى الداعية العمل على تحقيق هذا الجانب من تربية السلوك والإرادة الطيبة والنزوع إلى الخير؛ وذلك باستحضار الأمثال القرآنية والنبوية في المواقف المختلفة والتعقيب عليها بذكر نتائجها السلوكية والاجتماعية الطيبة(٣).

---

(١) انظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني حديث (٣٤٤١).

(٢) انظر: شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٤/٧٧.

(٣) انظر: التربية على منهج أهل السنة والجماعة، أحمد فريد ص ٣٢٣.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: فضل الصدقة وثمراتها:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت -أو وفرت- ..."، وهو تمثيل لنماء المال بالصدقة[١].

فالصدقة فضلها عظيم وثمراتها كثيرة وقد وعد الله المنفق ببركة المال، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾[٢]، أي: مهما أنفقتم من شيء فيما أمركم به وأباحه لكم فهو يخلفه عليكم في الدنيا بالبدل، وفي الآخرة بالجزاء والثواب[٣].

كما ثبت في الحديث أن النبي ﷺ قال: ((قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ))[٤].

وقال رسول الله ﷺ: ((ما مِن يومٍ يُصبحُ العِبادُ فيه إلاَّ مَلَكانِ يَنزِلانِ فيقولُ أحدُهما: اللَّهمَّ أعطِ مُنفِقاً خَلَفا، ويَقولُ الآخَرُ: اللّهمَّ أعطِ مُمسِكاً تلفاً))[٥]، والصدقة وإن كانت قليلة فضلها عظيم وثوابها جزيل، قال رسول الله ﷺ: ((مَن تَصَدَّقَ بعَدْلِ تمرةٍ من كسْبٍ طيّب -ولا يَقبلُ الله إلاّ الطيِّبَ- فإنَّ اللّهَ يتقبَّلُها بيمينِه، ثمَّ يُرَبِّيهَا لصاحبها كما يربِّي أحَدُكم فَلُوَّهُ، حتى تكونَ مِثل الجبلِ))[٦].

قال النووي: (قيل: عبر باليمين هنا عن جهة القبول والرضا إذ الشمال بضده في هذا... وقد قيل في تربيتها وتعظيمها حتى تكون أعظم من الجبل أن المراد بذلك تعظيم أجرها وتضعيف ثوابها، قال: ويصح أن يكون على ظاهره وأن تعظم ذاتها ويبارك الله

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٦٤٨.

(٢) سورة سبأ، آية: ٣٩.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٦/٥٢٣.

(٤) أخرجه البخاري ٤٦٨٤، ومسلم ٩٩٣.

(٥) أخرجه البخاري ١٤٤٢، ومسلم ١٠١٠.

(٦) أخرجه البخاري ١٤١٠، ومسلم ١٠١٤.

تعالى فيها ويزيدها فضله حتى تثقل في الميزان، وهذا الحديث نحو قول الله تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [1])[2].

فهذه الصدقة ولو كانت قليلة تكون وقاية من النار كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ: ((اتَّقوا النارَ ولو بشقِّ تَمرةٍ))[3].

فعلى الداعية أن يبين للمدعوين فضل الصدقة وثمراتها الدنيوية والأخروية.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: خطر البخل:

ويظهر ذلك في قوله ﷺ: "... وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقه مكانها، فهو يوسعها فلا تتسع"، فجعل البخيل كلما همّ بصدقة قلصت وأخذت كل حلقة مكانها... ولما كان البخيل محبوساً عن الإحسان ممنوعاً عن البر والخير كان جزاؤه من جنس عمله، فهو ضيق الصدر ممنوع من الانشراح، ضيق العطن، صغير النفس، قليل الفرح، كثير الهم والغم والحزن لا يكاد تقضى له حاجة ولا يعان على مطلوب.. فالبخيل بعيد من الله، بعيد من خلقه، بعيد من الجنة، قريب من النار[4]، والبخل أخطاره جسيمة على البخيل وعلى من حوله وقد ورد في ذلك الكثير من النصوص منها: قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[5].

قال السعدي: (ولا يظن الذين يبخلون، أي: يمنعون ما عندهم مما آتاهم الله من فضله من المال، والجاه، والعلم وغير ذلك مما منحهم الله، وأحسن إليهم به، وأمرهم ببذل ما لا يضرهم منه لعباده، فبخلوا بذلك وأمسكوه وضنوا به عن عباد الله، وظنوا

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٧٦.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٦٤٤.

(٣) أخرجه البخاري ٦٠٢٣، ومسلم ١٠١٦.

(٤) الوابل الصيب من الكلم الطيب، ابن القيم ص ٢٩٠ - ٢٩١، ضمن مجموعة الحديث ج/٢.

(٥) سورة آل عمران، آية: ١٨٠.

أنه خير لهم، بل هو شر لهم، في دينهم ودنياهم وعاجلهم وآجلهم (سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة)، أي: يجعل طوقاً يعذبون به)[١].

وإنه لعذاب أليم ينتظرهم عند الله، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾[٢].

والبخل كان سبباً في هلاك السابقين لذلك حذر منه رسول الله ﷺ فقال: ((وَاتَّقُوا الشُّحَّ. فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ. حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ))[٣].

فالبخل يجر الهلاك والشقاء للأفراد والشعوب لذلك كان خطره جسيم.

رابعاً- من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب:

يستنبط هذا من عموم الحديث حيث رغّب رسول الله ﷺ في الإنفاق ورهّب من البخل.

ويقصد بالترغيب كل ما يشوق المدعو إلى الاستجابة وقبول الحق والثبات عليه، ويقصد بالترهيب كل ما يخيف ويحذر المدعو من عدم الاستجابة أو رفض الحق أو عدم الثبات عليه بعد قبوله.

والأصل في الترغيب أن يكون في نيل رضى الله ورحمته وجزيل ثوابه في الآخرة، وأن يكون الترهيب بالتخويف من غضب الله وعذابه في الآخرة، وهذا هو نهج رسل الله الكرام عليهم السلام كما بينه القرآن الكريم وجاءت به السنة النبوية المطهرة[٤].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام الرحمن، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ١٢٥.

(٢) سورة التوبة، الآيتان: ٣٤ - ٣٥.

(٣) أخرجه مسلم ٢٥٧٨.

(٤) انظر: أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان ص ٤٣٧.

الحديث رقم (٥٦٠)

٥٦٠- وعنه، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: **((مَنْ تَصَدَّقَ بعَدلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلاَ يَقْبَلُ اللهُ إلاَّ الطَّيبَ، فَإنَّ اللهَ يَقبَلُهَا بيَمِينهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهَا كَمَا يُرَبِّي أحَدُكُمْ فَلُوَّهُ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الجَبَلِ))** متفقٌ عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

بعدل تمرة: أي بقيمتها[2].

يربيها: أي يُزيدها ويضاعفها[3].

الفَلُوُّ: بفتح الفاء وضمّ اللام وتشديد الواو. ويقال أيضاً: بكسر الفاء وإسكان اللام وتخفيف الواو، وهو المهر[4].

الشرح الأدبي

الحديث يقرر عظمة الصدقة، وحفاوة الله تعالى بها عن طريق الموصول المتضمن لمعنى الشرط، والذي يربط الصدقة الطيبة بقبول الله لها، ومضاعفتها، والذي صورها التشبيه التمثيلي بحال العربي مع مهره الصغير، وبالنظر في حال المشبه به في البيئة يتبين مدى عظمة صدقة المتصدق، وحفاوة الله بها يفهم ذلك من معاملة العربي لفلوه وهو المهر الصغير، وهو من كرائم ماله، ووسيلة رفاهيته، ودليل عزه، وحب الخيل في طبع البشر، وقصة سليمان عليه السلام فيها دليل على ذلك قال تعالى: (إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ، فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ)[5]

---

(١) أخرجه البخاري ١٤١٠ واللفظ له، ومسلم ١٠١٤/٦٤. أورده المنذري في ترغيبه ١٢٥٣.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٢٨/٣.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٦٤٤.

(٤) رياض الصالحين ٢٥٦.

(٥) سورة ص الآية ٣١ -٣٢.

وتشبيه حفاوة الله بصدقة المتصدق بها يقرر هذا المعنى، ويثمِّن غالياً قيمة الصدقة ترغيبا فيها لما تحققه من التكافل، والتحابب الذي يقرب بين طبقات المجتمع، وأفراده.

فقه الحديث

عدم إجزاء الصدقة بالمال الحرام: قال القرطبي: (الكسب الطيب في هذا الحديث، الحلال، ... وإنما لا يقبل الله الصدقة من المال الحرام، لأنه غير مملوك للمتصدق وهو ممنوع من التصرف فيه، والتصدق به تصرف فيه، فلو قبلت منه لزم أن يكون مأمورًا به، منهيًا عنه من وجه واحد، وهو محال)[١].

وقال النووي: (قال أصحابنا: تكره الصدقة بما فيه شبهة، ويستحب أن يختار أحلّ ماله وأبعده من الحرام، لحديث الباب وغيره)[٢].

وقال ابن رجب الحنبلي: (وقد اختلف العلماء في حجٍّ من حجّ بمال حرام، ومن صلّى في ثوب حرام. هل يسقط عنه فرض الصلاة والحج بذلك؛ وفيه عن الإمام أحمد روايتان، وهذه الأحاديث المذكورة[٣] تدل على أنه لا يتقبل العمل مع مباشرة الحرام، لكن القبول قد يراد به الرضا بالعمل، ومدحُ فاعله والثناء عليه بين الملائكة والمباهاة به، وقد يراد به حصول الثواب والأجر عليه، وقد يراد به سقوط الفرض به في الذمة، فإن كان المراد ههنا القبول بالمعنى الأول أو الثاني لم يمنع ذلك من سقوط الفرض به من الذمة، كما ورد أنه لا تقبل صلاة الآبق، ولا المرأة التي زوجها عليها ساخط، ولا من أتى كاهنًا ولا من شرب الخمر أربعين يومًا، والمراد -والله أعلم- نفي القبول بالمعنى الأول أو الثاني)[٤].

---

(١) المفهم ٥٨/٣-٥٩.

(٢) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٥٤/٦ .

(٣) انظر هذه الأحاديث في: جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢٥٨/١-٢٦٢ شرح الحديث العاشر.

(٤) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢٦٢/١.

المضامين الدعوية

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار، والترغيب:

يظهر أسلوب الإخبار في قول رسول الله ﷺ "من تصدق بعدل تمرة ..." فقد أخبر عن فضل الصدقة من كسب طيب، وأن الله تعالى يُنمّي هذه الصدقة ويضاعفها حتى يعظُم أجرها عند الله تعالى وذلك للحث على الصدقة ولو بالشيء القليل؛ لأن الله يضاعف لمن يشاء.

ويظهر أسلوب الترغيب في قول رسول الله ﷺ: "مَن تَصَدَّقَ بعَدْلِ تمرةٍ من كسْبٍ طيِّب -ولا يَقبلُ الله إلاّ الطيِّبَ- فإنَّ اللهَ يتقبَّلُها بيمينِه، ثمَّ يُرَبيِّهَا لصاحبها كما يربِّي أحَدُكم فَلُوَّهُ، حتى تكونَ مِثل الجبلِ".

فقد رغب رسول الله ﷺ في التصدق من كسب طيب وإن كان قليلاً.

وأسلوب الترغيب يقوم على وعد بتحقيق منفعة، مقابل الالتزام بأداء أمر، أو اجتناب نهي. ويبرز أثر الترغيب بحسب درجة المنفعة التي سوف تحقق للملتزم[1]. فعلى الداعية أن يرغب المدعوين فيما يحقق لهم الخير.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: فضل الصدقة من الكسب الطيب:

يظهر ذلك في قول رسول الله ﷺ: "مَن تَصَدَّقَ بعَدْلِ تمرةٍ من كسْبٍ طيِّب ولا يَقبلُ الله إلاّ الطيِّبَ فإنَّ اللهَ يتقبَّلُها بيمينِه، ثمَّ يُرَبيِّهَا لصاحبها كما يربِّي أحَدُكم فَلُوَّهُ، حتى تكونَ مِثل الجبلِ".

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾[2].

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. خالد بن حامد الحازمي ص ٣٩٣.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٦٧.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: (أمرهم بالإنفاق من أطيب المال وأجوده وأنفسه ونهاهم عن التصدق برذالة المال ودنيه -وهو خبيثه- فإن الله طيب لا يقبل إلا طيبا)[١].

قال القاسمي: (هذا بيان لحال ما ينفق منه، إثر بيان أصل الإنفاق وكيفيته أي أنفقوا من جياد ما كسبتم لقوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[٢] فمقتضى الإيمان الإنفاق من الجيد. لا سيما ما يطلب به رضا الله وتثبيت النفس. وفي الأمر إشعار بأنه يمثل بالزرع المنبت سبع سنابل، أو بالجنة بربوة، وما أنفق من الجيد "ومما" أي ومن طيبات ما "أخرجنا لكم من الأرض" من الحبوب والثمار "ولا تيمموا" أي لا تقصدوا "الخبيث" أي الرديء من أموالكم "منه تنفقون ولستم بآخذيه" أي بقابليه "يعني الرديء" إذا اهدي إليكم "إلا أن تغمضوا فيه" أي إلا بأن تتسامحوا في أخذه وتترخصوا فيه)[٣].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لاَ يَقْبَلُ الله صَدَقَةً مِنْ غُلُولٍ، ولا صَلاَةً بِغَيْرِ طُهُورٍ))[٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللّهَ طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّباً. وَإِنَّ اللّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ. فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾[٥] وَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾[٦]. ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلُ يُطِيلُ السَّفَرَ. أَشْعَثَ أَغْبَرَ. يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ. يَا رَبِّ يَا رَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ. فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟))[٧].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٦٩٧/١.

(٢) سورة آل عمران، آية: ٩٢.

(٣) محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ٣٤٢/٢.

(٤) أخرجه مسلم ٢٢٤

(٥) سورة المؤمنون، آية: ٥١.

(٦) سورة البقرة، آية: ١٧٢.

(٧) أخرجه مسلم ١٠١٥.

قال القاضي عياض: (قوله ﷺ "إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً" الطيب في صفة الله تعالى بمعنى المنزه عن النقائص وهو بمعنى القدوس وأصل الطيب الزكاة والطهارة والسلامة من الخبث)(١)، وقال النووي: (وهذا الحديث أحد الأحاديث التي هي قواعد الإسلام ومباني الأحكام...، وفيه الحث على الإنفاق من الحلال والنهي عن الإنفاق من غيره وفيه أن المشروب والمأكول والملبوس ونحو ذلك ينبغي أن يكون خالصاً لا شبهة فيه وأن من أراد الدعاء كان أولى بالاعتناء بذلك من غيره)(٢).

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: إثبات اليد لله تعالى:

إن من موضوعات الدعوة في هذا الحديث إثبات اليد لله تعالى، ويظهر ذلك في قول رسول الله ﷺ "... فإنَّ اللهَ يتقبَّلهُا بيمينِه ...".

قال تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾(٣). وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾(٤).

ومن السنة حديث أبي موسى الأشعري الذي رواه مسلم عن النبي ﷺ قال: (إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها)(٥)، (٦).

وكذا أيضاً ما أثبته الرسول ﷺ وجب تلقيه بالقبول ووجب إثباته على ما يليق بعظمة الله وكبريائه ومجده وعزته "ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

فالله جل وعلا في ثلاث عشرة آية أثبت لنفسه اليدين. وأحاديث الرسول ﷺ كثيرة وشهيرة في ذلك وأقوال السلف والخلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان في وصف الله باليدين كثيرة جداً.

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٣/٣٥٢.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٦٤٤.

(٣) سورة المائدة، آية: ٦٤.

(٤) سورة ص، آية: ٧٥.

(٥) أخرجه مسلم ٢٧٥٩.

(٦) كتاب أصول الإيمان، نخبة من العلماء ص ٨٨.

وقيام رسول الله ﷺ يوم القيامة عن يمينه وتخيير آدم بين ما في يديه فقال اخترت يمين ربي، وأخذ الصدقة بيمينه يربيها لصاحبها. وكتابته بيده على نفسه إن رحمته تغلب غضبه، وأنه مسح ظهر آدم بيده ثم قال له ويداه مفتوحتان اختر فقال: اخترت يمين ربي وكلتا يديه يمين مباركة.

وأن يمينه ملأى لا يغضيها نفقة سحاء الليل والنهار. وبيده الأخرى القسط يرفع ويخفض. وأنه خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، وأنه يطوي السماوات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يطوي الأرض باليد الأخرى. وأنه خط الألواح التي كتبها لموسى بيده[1].

رابعاً- من أساليب الدعوة : التشبيه:

إن التشبيه من أساليب الدعوة التي يستخدمها الداعية لتقريب المراد وتوضيح المعنى، يظهر ذلك في قوله ﷺ: (ثم يُرَبِّيها لِصاحِبِها كما يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فلوهُ). فقد شبه الصدقة بالمهر لأنه يفلى أي يفطم.. وضرب به المثل لأنه يزيد زيادة بينه، ولأن الصدقة نتاج العمل، وأحوج ما يكون النتاج إلى التربية إذا كان فطيماً، فإذا أحسن العناية به انتهى إلى حد الكمال، وكذلك عمل ابن آدم - لاسيما الصدقة - فإن العبد إذا تصدق من كسب طيب لا يزال نظر الله إليها يكسبها نعت الكمال حتى تنتهي بالتضعيف إلى نصاب تقع المناسبة بينه وبين ما قدم نسبة ما بين التمرة إلى الجبل[2].

وأسلوب التشبيه من الأساليب الدعوية الناجحة؛ لأنه يقوم بتقريب المراد وتفهيم المعنى وإيصاله إلى ذهن السامع، وإحضاره في نفسه بصورة المثال الذي شبه به فقد يكون أقرب إلى تعلقه وفهمه وضبطه واستحضاره له باستحضار نظيره، فإن النفس تأنس بالنظائر والأشباه، وتنفر من الغربة والوحدة وعدم النظير[3].

---

(١) عقيدة المسلمين والرد على الملحدين والمبتدعين، الشيخ صالح بن إبراهيم البليهي، ط١، ١٤٠١هـ، ٥٠١/٢-٥٠٣.

(٢) فتح الباري، ابن حجر، ٣٢٨/٣.

(٣) انظر: الأمثال في القرآن الكريم، ابن القيم، ص٢٢.

خامساً- من موضوعات الدعوة: فضل الله على المتصدق من الرزق الطيب:

يظهر ذلك في بيان النبي ﷺ: أن يقبل الصدقة من كسب طيب ولو كانت بقيمة تمرة فيربيها لصاحبها حتى تكون مثل الجبل. وهذا من فضل الله على عبده المتصدق من الرزق الطيب.

قال القاضي عياض: (لما كان الشيء الذي يرتضى ويعز يُتلَقى باليمين ويؤخذ بها استعمل في مثل هذا للقبول والرضى، كما قال: "تلقاها عرابة باليمين وقيل: وعناها هاهنا بنعمته"، يريد سرعة المبادرة ليعلمها فلما استعار بهذه الخصال والأفعال الجميلة من خصال المجد وأنه استعار للمبادرة لفعلها تلقى باليمين على العادة فيما تحرص عليه وتبادر إليه، ويقبلها تفضله الواسع، وقيل: عبر باليمين هاهنا عن جهة القبول والرضى إذ الشمال بضده في هذا وغيره. وقد فرق الله بين أصحاب اليمين والشمال، وقد قيل: إن المراد هنا بكف الرحمن ويمينه كف المتصدق عليه ويمينه، وإضافتها إلى الله إضافة ملك واختصاص بوضع هذه الصدقة لوجهه فيها، وقد قيل في تزكيتها وتعظيمها حتى تكون مثل الجبل، أن المراد بذلك تعظيم الأجر وتضعيف الثواب، وقد يصح أن يكون على وجهه، وأن تعظم ذاتها ويبارك الله فيها، ويزيدها من فضله لتعظم في الميزان وتثقل، ولعله يصح أن يكون المراد بالكف هنا كفة الميزان، وطرف كل شيء كفه وكفيه، وهذا الحديث يصدقه قوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾[1])[2].

وفضل الله على عباده عظيم فهو يضاعف لهم الحسنات: فيضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

فمضاعفة الحسنة بعشر أمثالها لازم لكل الحسنات وقد دل عليه قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[3].

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٧٦.

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٥٣٦/٣.

(٣) سورة الأنعام، آية: ١٦٠.

أما زيادة المضاعفة على العشر لمن شاء الله أن يضاعف له فدل عليه قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[١]، وفي صحيح مسلم[٢] عن أبي مسعود، قال: جاء رجل بناقة مخطومة فقال: يا رسول الله، هذه في سبيل الله فقال: (لك بها يوم القيامة سبع مئة ناقة)[٣] فعلى الداعية حث المدعوين على فعل الخير وبيان فضل الله على عباده في مضاعفة أجر المتصدق.

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٦١.

(٢) أخرجه مسلم ١٨٩٢.

(٣) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢/٢١٣.

الحديث رقم (٥٦١)

٥٦١- وعنه، عن النبيِّ ﷺ، قَالَ: ((بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي[١] بِفَلاَةٍ مِنَ الأَرْضِ، فَسَمِعَ صَوْتاً فِي سَحَابَةٍ، اسقِ حَدِيقَةَ فُلانٍ، فَتَنَحَّى ذَلِكَ السَّحَابُ فَأفْرَغَ مَاءهُ فِي حَرَّةٍ، فإذَا شَرْجَةٌ مِنْ تِلْكَ الشِّرَاجِ قَدِ اسْتَوْعَبَت ذَلِكَ المَاءَ كُلَّهُ، فَتَتَبَّعَ المَاءَ، فإذَا رَجُلٌ قَائمٌ فِي حَدِيقَتِهِ يُحَوِّلُ المَاءَ بِمسحَاتِهِ، فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ اللهِ، مَا اسمُكَ؟ قال: فُلانٌ، للاسم الذي سَمِعَ فِي السَّحابةِ، فقال له: يا عبدَ الله، لِمَ تَسْألُنِي عَنِ اسْمِي؟ فَقَالَ: إنِّي سَمِعْتُ صَوتاً فِي السَّحابِ الَّذِي هَذَا مَاؤُهُ، يقولُ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلاَنٍ لاسمِكَ، فَمَا تَصْنَعُ فِيهَا، فَقَالَ: أمَا إذ قلتَ هَذَا، فَإنِّي أنْظُرُ إِلَى مَا يَخْرُجُ مِنْهَا، فَأتَصَدَّقُ بِثُلُثِهِ، وَآكُلُ أنَا وَعِيَالِي ثُلُثاً، وَأردُّ فِيهَا ثُلُثَهُ)) رواه مسلم[٢].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

الفلاةُ: الأرض الواسعة المقفرة[٣].

فتنحى: أي قصد[٤].

الحرة: الأرضُ المُلبَّسَةُ حجارة سوداء[٥].

الشَّرْجَةُ: مسيل الماء[٦].

بمسحاته: هي المِجرفَة من الحديد[٧].

---

(١) (يمشي) لا توجد عند مسلم.

(٢) برقم ٢٩٨٤/٤٥. أورده المنذري في ترغيبه ١٢٦٣.

(٣) الوسيط، مجمع اللغة العربية / في (ف ل و).

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٧١٦.

(٥) رياض الصالحين ٢٥٦.

(٦) رياض الصالحين ٢٥٧.

(٧) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٨٦٩.

الشرح الأدبي

الحديث قصصي يقرر عن طريق القصة والحوار فضل الصدقة في تحقيق الخير، والبركة للعبد، وتيسير أسباب الرزق في الأرض، وفي السماء، والتي تبينت في أثناء الحوار بين الملك وبين السحاب، وبين الرجل، وصاحب البستان، فقول الملك الموكل بالسحاب (اسقِ حَدِيقَةَ فُلانٍ) أمر للتكريم، والإشادة بفضل المذكور الذي خصه بمزيد العطاء، وحكاية حركة السحاب، وتفصيلها تصور كيف تتحول الأسباب وتتيسر حتى تحقق مراد الله بالوصول إلى العبد الكريم المنفق تأمل تتابع الأحداث في قوله (فَتَنَحَّى ذَلِكَ السَّحَابُ فَأَفْرَغَ مَاءهُ فِي حَرَّةٍ) تجد الفاء تحكي تتابع الأحداث وسرعتها التي تمثل سرعة الخير إلى العبد المنفق، والتعبير بالتنحية التي تمثل تغيير الاتجاه قصدا إلى بستان هذا الكريم، ثم إشارة التعظيم (ذلك) التي تشير إلى أنه سحاب عظيم ثم إنه تسخير لجرم عظيم لسقي بستان عبد لا يملك أن يحرك فيه شيئا لو تخطاه، ثم التعبير بقوله (فأفرغ ماءه) الذي يشير إلى المبالغة في كثرة الماء عن طريق التعبير بالإفراغ، وتعريف الماء بالإضافة للضمير العائد على السحاب، وهو تسخير لأجرام السماء، وتأمل تسخير الأسباب في الأرض (فإِذَا شَرْجَةٌ مِنْ تِلْكَ الشِّرَاجِ قَدِ اسْتَوْعَبَت ذَلِكَ الماءَ كُلَّهُ، فَتَتَبَّعَ المَاءَ) تحكي تشكيلا صخريا بطريقة تجمع الماء ثم توجهه إلى بستانه، وهو أمر بالغ المشقة لا يستطيع أن يفعله صاحب البستان بنفسه؛ لأن الحرة حجارة سوداء صلبة، والتعبير بالاستيعاب يشير إلى احتواء الماء، والتعبير بـ(ذلك) تعظيم لهذا الماء لكثرته، والتوكيد بلفظ (كله) الذي يوحي بتوفيره على هذا البستان، والفعل تتبع الذي يحكي عدم تفلته ووحدة اتجاهه للهدف المقصود نحو بستان العبد الصالح، ثم إن هذا العبد أخذ بالأسباب، واجتهد (فإِذَا رَجُلٌ قَائمٌ فِي حَدِيقَتِهِ يُحَوِّلُ الماءَ بمسحَاتِهِ)، و سؤال الرجل له (يَا عَبْدَ اللهِ، ما اسمُكَ ؟)استفهام تحقيق، وتثبيت يحمل تعجبا من حاله يدفعه لمعرفة سر اجتماع تلك الأسباب في السماء، والأرض فكانت إجابته في نهاية القصة مقررة للمعنى الذي أراده الرسول ﷺ بداية بهذه القصة قال: (فَإنِّي أنْظُرُ إِلَى مَا يَخْرُجُ مِنْهَا) وهو كناية عن تجميعه لكل ثمارها

وقوله : (فَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثِهِ، وَآكُلُ أَنَا وَعِيَالِي ثُلُثاً، وَأَردُّ فِيهَا ثُلُثَهُ) حسن تقسيم يكشف سبب تكاتف أسباب التوفيق العليا في السماء، والسفلى في الأرض لتحقيق النماء، والبركة في هذا البستان الذي سقته الصدقة، وزكاه الإنفاق.

المضامين الدعوية

أولاً- من وسائل الدعوة: القصة:

يظهر هذا في قول رسول الله ﷺ: "بَيْنَا رَجُلٌ يمشي بِفَلاَةٍ مِنَ الأَرْضِ، فَسَمِعَ صَوْتاً فِي سَحَابَةٍ..."، فقد ذكر رسول الله ﷺ قصة هذا الرجل.

والاتصال عن طريق القصة محبب للنفس تميل إليه وتأخذ العبرة والعظة منه خاصة إذ أجاد القاص في سرد القصة وأحسن اختيار عناصرها والكتاب العزيز اشتمل على القصص، بل هناك سورة القصص، قال تعالى في سورة يوسف: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾[(١)] ويقول سبحانه وتعالى في نفس السورة: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾[(٢)].

القصة فن من فنون الأدب العربي التعبيرية تجسد الشخصيات التي تحتويها بشكل يقرب إلى الواقع فيعيشها المستمع لما تتميز من طريقة خاصة تعمل على جذب المستمع إلى أحداثها ووقائعها حتى النهاية.

وأحسن القصص وأفضله وأبلغه وأفصحه ما جاء في كتاب الله وسنة نبيه محمد ﷺ[(٣)]. ولاشك أن هذه القصة التي وردت في هذا الحديث اشتملت على المعاني العظيمة التي تؤثر تأثيراً إيجابياً في نفوس المدعوين، وتبين أهمية الصدقة وفضل الكرم والجود وأن ذلك من أسباب مضاعفة الحسنات، وزيادة الأرزاق، وتيسير أسباب الخير.

---

(١) سورة يوسف، آية: ٣.

(٢) سورة يوسف، آية: ١١١.

(٣) انظر: قواعد الدعوة الإسلامية د. الشريف حمدان الهجاري ص ٥١٨.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: تسخير الله للسحاب:

يظهر ذلك في قول رسول الله ﷺ "... فسمع صوتاً في سحابة: اسق حديقة فلان، فتنحى السحاب فأفرغ ماءه في حرة ...". وتسخير الله تعالى للسحاب أمر ثابت.

(فإن ما نشاهده من سير السحب وتنقلها من مكان إلى آخر قد يظن بعض الناس أن هذا من تلقاء نفسها، أو أن الطبيعة العمياء هي التي تصرفها وتوجهها ولكن الأمر غير ذلك، فإن هذا الأمر المشاهد والمنضبط بالسنن الربانية تسيره الملائكة بأمر خالقها سبحانه، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (أقبلت يهود إلى النبي ﷺ فقالوا ياأبا القاسم أخبرنا عن الرعد ما هو؟ قال ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله، فقالوا فما هذا الصوت الذي نسمع؟ قال: "زجرة بالسحاب إذا زجره حتى ينتهي إلى حيث أمر) قالوا صدقت"[1] [2].

قال تعالى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَـٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾[5].

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: فضل الإنفاق من كسب الإنسان

يستنبط هذا من عموم الحديث فقد بيّن رسول الله ﷺ فعل هذا الرجل من الإنفاق من حديقته وجزاء الله له على ذلك بتسخير السحاب لريّ حديقته.

قال النووي: وفي الحديث فضل الصدقة والإحسان إلى المساكين وأبناء السبيل وفضل أكل الإنسان من كسبه والإنفاق على العيال[6]. فإن المال نعمة من نعم الله التي

---

(١) أخرجه الترمذي ٣١١٧، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٤٩٢).

(٢) علم الإيمان، عبدالمجيد الزنداني، ٢/٣٧٧.

(٣) سورة البقرة، آية: ١٦٤.

(٤) سورة الرعد، آية: ١٢.

(٥) سورة فاطر، آية: ٩.

(٦) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٧١٦.

أنعم بها على عباده في هذه الحياة الدنيا، فالمال ينتفع به العباد في قضاء حوائجهم، وتوفير سبل الراحة المختلفة فكان المال زينة الحياة الدنيا[١]، قال: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾[٢].

فمن محاسن المال أن صاحبه ينفق منه على نفسه، وعلى من تجب عليه نفقتهم، ويعينه على أداء العبادات كالحج، والجهاد، وغيرها. كما أنه يمكن صاحبه من فعل أعمال الخير، والبر والإحسان، وإكرام الضيف، فينتفع العبد منه في حياته، وبعد مماته[٣].

وقال رسول الله ﷺ: (أفضل دينار ينفقه الرجل: دينار ينفقه على عياله. ودينار ينفقه الرجل على دابته في سبيل الله. ودينار ينفقه على أصحابه في سبيل الله)[٤].

رابعاً: من موضوعات الدعوة: الترغيب في الإنفاق والبذل

يستنبط ذلك من عموم القصة التي ذكرها رسول الله ﷺ فقد بيّن فيها إكرام الله وتسخيره السحاب لمن ينفق من حديقته وفي ذلك ترغيب في الإنفاق والبذل، وقد وعد الله في كتابه أن ما ينفقه الإنسان فإن الله يخلفه عليه، ويعطيه خلفاً عنه. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[٥].

قال ابن كثير: (أي مهما أنفقتم من شيء فيما أمركم به وأباحه لكم، فهو يخلفه عليكم في الدنيا بالبدل، وفي الآخرة بالجزاء والثواب، كما ثبت في الحديث: (قال الله عز وجل: أنفق أنفق عليك)[٦].

---

(١) العمل الخيري في الإسلام د. حمدان بن مسلم بن مكتوم المزروعي ص ٧٩.

(٢) سورة الكهف، آية: ٤٦.

(٣) انظر: مفيد العلوم ومبيد الهموم، الشيخ جمال الدين أبو بكر الخوارزمي، تحقيق عبدالله بن إبراهيم الأنصاري ص ١٣١.

(٤) أخرجه مسلم ٩٩٤.

(٥) سورة سبأ، آية: ٣٩.

(٦) أخرجه البخاري ٤٦٨٤، ومسلم ٩٩٣.

وفي الحديث: ((ما مِن يومٍ يُصبحُ العِبادُ فيه إلاَّ مَلَكانِ يَنزِلانِ فيقولُ أحدُهما: اللَّهمَّ أعطِ مُنفِقاً خَلَفاً، ويَقولُ الآخَرُ: اللَّهمَّ أعطِ مُمسِكاً تلَفاً))[1][2]. وقد بيّن المصطفى ﷺ شمول معنى الصدقة، فقال: ((نفقةُ الرجلِ على أهلهِ صدَقة))[3] وقال ((ما مِنْ مُسلمٍ يَغرِسُ غَرْساً، أو يَزْرَعُ زَرْعاً فيأكُلُ منه طَيْرٌ أو إنسانٌ أو بهيمةٌ، إلاَّ كان لهُ بهِ صَدَقة))[4].

فعلى الداعية أن يرغب المدعوين في الإنفاق والبذل ويحذرهم من الشح والبخل.

---

(١) أخرجه البخاري ١٤٤٢، ومسلم ١٠١٠.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٥٢٣/٦.

(٣) أخرجه البخاري ٤٠٠٦.

(٤) أخرجه البخاري ٢٣٢٠، ومسلم ١٥٥٣.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

الفقر والغنى من سنن الله في الوجود، والإسلام لا يبقي الفقراء على حالهم، ولا الأغنياء على يسارهم دون الشعور بإخوانهم، وإنما حرص الإسلام على مساعدة الفقراء على دفع غائلة الفقر ودرء شرهه، ومن السبل التي سلكها من أجل هذا ما يلي:

١/ سخاء الأغنياء.

٢/ زهد الفقراء.

٣/ الحقوق التي فرضها في الأموال.

٤/ الكفارات على اختلاف أشكالها وألوانها.

٥/ النذور والهبات والوقف الإسلامي.

ونظراً لأن الفقر يشكل مشكلة اجتماعية في سقها الاقتصادي فقد رأينا أحاديث تبلغ حداً في الكثرة تدعو إلى الصدقة - في غير فريضة - وتحث على العطاء بدءً بالقليل "ولو بشق تمرة" وانتهاءً بالكثير "رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق" ومن المضامين التربوية في أحاديث الباب ما يلي:

أولاً- إيجاد البديل التربوي:

إن من منهج التربية الإسلامية، منهج متكامل، ووحدة رصينة، إن هَدَمَ شيئًا من مرذول الأخلاق، وقبيح الأفعال، أقام البديل والعوض، في أنبل معانيه، وأحسن أوصافه.

"فالحسد خلق نفس ذميمة وضيعة ساقطة ليس فيها حرص على الخير فلعجزها ومهانتها تحسد من يكسب الخير والمحامد ويفوز بها دونها وتتمنى أن لو فاته كسبها حتى يساويها في العدم كما قال تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ

---

(١) سورة النساء، آية: ٨٩.

أنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾[(١)]، فالحسود عدو النعمة متمن زوالها عن المحسود كما زالت عنه هو"[(٢)].

ولكن... كيف عالج الإسلام -كمنهج تربوي فريد- هذه الوضاعة في النفس، والدناءة في الخلق!

نقول إنه:

عالجها بتربية النفس على التنافس في الخير، دون أدنى إثارة للشحناء والبغضاء، أي أوجد وأقام البديل التربوي عن مرذول خلق الحسد، بإيجاد وغرس خلق المنافسة في بناء النشء المسلم وهذا ما ترائى جليًا في حديث الباب من قوله ﷺ: «لاَ حَسَدَ إِلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ ...إلخ».

والمراد بالحسد هنا الغبطة: أي: لا يراد تمني زوال النعمة من الغير، بل المنافسة والتطلع لأن يكون للنفس من الخير ما للغير دون تمني زوال نعمته[(٣)].

وهذه اللفتة التربوية تكشف عن طبيعة تكامل هذا الدين، وتبين منهجه السامق في مراعاته لخلجات نفوس المتربين والمتعلمين، حيث الواقعية وعدم حرفية الأحكام، في منع أمور دون إيجاد بديلها، لذا وجب على القائمين بالتربية والتوجيه: مراعاة ذلك عند تربية النشء، فإن بينوا -مثلاً- حرمة الزنا والنظر المحرم، أوجدوا الدعوة إلى الزواج، أو الصيام لغير القادر، "وإن حذروا الأسر المسلمة من فساد البث الإعلامي، أوجدوا التوجيه والدعوة إلى الإعلام الإسلامي الهادف، كقناة المجد والفجر ...إلخ، حيث يأمن الآباء والأمهات على تربية أبنائهم لما يُبَثُ من هذه القنوات الفضائية، وكذلك مراعاة إيجاد البديل عن المواقع الإلكترونية المحرمة، كموقع: إسلام أون لاين وإسلام ويب، وموقع الإسلام لشركة حرف، وشبكة رينيم العربية[(٤)].

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٠٩.

(٢) التدين والصحة النفسية، د. صالح إبراهيم الصنيع، ٢٩٧.

(٣) إصلاح المجتمع، محمد سالم البيحاني، ١٠٣.

(٤) البدائل المشروعة وأهميتها في نجاح الدعوة الإسلامية، د. سالم محمد أبو الفتح البيانوني ص ١٦٠-١٦٤ بتصرف.

ثانيًا- غرس روح المنافسة:

إن المنافسة بين المتربين والمتعلمين من غير شحناء، تعدو بحق من أعظم طرق التربية الناجعة في حمل المتربين على الجد والاجتهاد، لبلوغ أوجه التربية الإسلامية.

وقد أشارت أحاديث الباب إلى مراعاة ذلك، لقوله ﷺ: «لاَ حَسَدَ إلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ ... إلخ»، وقوله ﷺ: «أربعون خصلة أعلاها منيحة العنز ... إلخ».

وقد ورد عن السلف الصالح ما يؤكد أهمية إثارة المنافسة بين المتربين من غير شحناء، فعن سعيد بن جبير «أن امرأة أتت ابن عباس رضي الله عنهما بكتاب بعد ما ذهب بصره، فدفعه إلى ابنه فتبرأ منه - أي أن القراءة قد استصعبت عليه فانقطع-فدفعه إليَّ فقرأته، فقال لابنه: ألا هذرمته -أي كنت سريع القراءة- كما هذرمه الغلام البصري»[1].

وغرس المنافسة في تربية النشء ليس قاصرًا على مرحلة تربوية بعينها بل يشمل جميع المراحل التربوية، وإنما الذي يختلف في هذه الحالة هو مضمون المنافسة، وقد ورد في السنة شيء كثير من ذلك[2]، والتي منها:

قوله ﷺ: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ صَائِمًا؟» قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: أَنَا. قَالَ: «فَمَنْ تَبِعَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ جَنَازَةً؟» قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: أَنَا. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَمَنْ أَطْعَمَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مِسْكِينًا؟» قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: أَنَا. قَالَ: «فَمَنْ عَادَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مَرِيضًا؟» قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: أَنَا. فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: «مَا اجْتَمَعْنَ فِي امْرِىءٍ، إلاَّ دَخَلَ الْجَنَّةَ»[3].

وهذه المنافسة التي أوجدها المربي الأول لجيل الإسلام هي التي حدت بعمر ابن الخطاب رضي الله عنه أن يقول: «أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ نَتَصَدَّقَ، فَوَافَقَ ذَلِكَ عِنْدِي مَالاً، فَقُلْتُ: الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا، قَالَ: فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي، فَقَالَ رَسُولُ

---

(١) التمهيد، ابن عبدالبر، ١٦/٩٠.

(٢) نحو تربية إسلامية راشدة، محمد شاكر الشريف، ٩١.

(٣) أخرجه مسلم ١٠٢٨.

اللهِ ﷺ: مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ؟ قُلْتُ: مِثْلَهُ، وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ؟ قَالَ: أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللهَ وَرَسُولَهُ، قُلْتُ: وَاللهِ، لاَ أَسْبِقُهُ إِلَى شَيْءٍ أَبَدًا»(١).

ولكن... التساؤل الذي يطرح نفسه هنا، هو كيف يستطيع المتربي أن يوجد لنفسه جو المنافسة حتى يبلغ آفاق ما يرجو؟!

وللإجابة على ذلك نقول:

إن المتربي والمتعلم إن طالت صحبتهما لسير السلف استوحش من أهل زمانه وأنكر أسلوب حياتهم، وتعلق بالآفاق العالية التي حلق فيه أولئك الرجال العظماء النبغاء الموهوبون، فهو في كل ساعة مشغول بمنافستهم ومزاحمتهم، وكلما حل بمنزلة من منازل السير: تراءت له أخرى أعلى، وكلما دهمه كسل أو فتور: تذكر أنه في حلبة سباق، وأي تهاون أو تباطؤ سيلقى به في مؤخرة المتنافسين، ويزيده تشجيعًا: أن الاجتماع بهؤلاء السلف الصالح هو في السير على نهجهم والتخلق بأخلاقهم، وإن الاقتباس من السير الناجحة والتجارب الموفقة هو ما يحدث للمتربي والمتعلم جو المنافسة المستمر، مما يدفعه إلى بلوغ كمال غايته وحسن مبتغاه(٢).

ثالثًا- التربية على حب البذل والإنفاق:

إن من الوقفات التربوية اللازمة، والتي تتعلق بحقائق النفس ومساربها البشرية، وقفة البذل والجود، وحب الإنفاق في وجوه الخير، فالشيطان يجري في الإنسان مجرى الدم، ويخوفه من الإنفاق في سبيل الله ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾(٣)(٤).

---

(١) أخرجه الترمذي ٣٦٧٥، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٩٠٢).

(٢) مقاصد التوبة، دعوة إلى السير في مدارج الكمال، د. محمد عز الدين توفيق، مجلة البيان، العدد ١٠٦، بسنة ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ص٢٧.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٦٨.

(٤) دراسات تربوية في الأحاديث النبوية، د. محمد لقمان الندوي ص ٢١.

والمتربي أو المتعلم الناظر في حال الناس، يجد أنهم لا يخرجون عن صورتين:

الأولى: صورة الحليم الرشيد الذي إذا رزقه الله مالاً وولداً، وسع عليه فيما وهب له، وعرف حق الله في ذلك، فأحسن التربية وعلم الأبناء، وأكل وشرب ولبس وركب وأنفق وتصدق وبرّ وأحسن في غير سرف ولا مخيلة، يفعل الخير وينتظر الجزاء عليه من الله في الدنيا بالخلق ويوم القيامة بالأجر العظيم.

الثانية: صورة البخيل الشحيح المأثوم المحروم لا يتمتع بماله، ولا ينفعه حقه حيًا ولا ميتًا، يسير حافيًا، ويأكل اليابس والناشف، ويلبس المخرَّق والبالي، ولو مرض وكان دواؤه بدرهمين ما اشتراه ولا استعمله إلا أن يأتيه مجانًا، أو يتصدق به عليه، ولو شاء لافترش الوثير، ولبس الريش، وأكل وشرب أطيب الطعام، وألذ الشراب، وأنى له ذلك وهو المسكين الحزين على ما فات، والحريص على ما هو آت؛ ومن بخل بشيء على نفسه فهو على غيره أبخل: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾[1][2].

وبعد عرض هاتين الصورتين، والتي تجسد حال مجموع الناس، يجدر بالمربي والمتعلم أن يلوذ بامتثال صورة الإنفاق والجود والكرم، خاصة إن علم أنها تجسد امتثال أمر الله تعالى ورسوله ﷺ، حيث قوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ۝٢٦ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ۝٢٧ وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا ۝٢٨ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا﴾[3].

أما السنة النبوية فقد استفاضت في ترسيخ هذا المعاني، وتأكيدها في تربية

(١) سورة الليل، الآيات: ٨-١١.

(٢) إصلاح المجتمع، محمد سالم البيحاني، ٢٢٧، ٢٢٨.

(٣) سورة الإسراء، الآيات: ٢٦-٢٩.

النشء، وهذا ما ترائى من مجمل أحاديث الباب، والتي من أبرزها، قوله ﷺ: «لاَ حَسَدَ إلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالاً، فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ ... إلخ»، وقوله ﷺ: «إن تبذل الفضل خير لك ... إلخ»، وقوله ﷺ: «ما نقصت صدقة من مال...إلخ»، وقوله ﷺ: «بقى كلها غير كتفها»، وقوله ﷺ: «من تصدق بعدل تمرة ... إلى قوله: حتى تكون مثل الجبل».

والمتربي الصالح يهيئ الله له أسباب الخير من كل ناحية، فنفسه طيبة تجود بالكثير، ولا تحتقر القليل، ويرى عليه حقًا لكل بائس فقير، وقد يرزقه الله مالاً يسع كثرة الإنفاق في سبيل الله، ولا تأتي على نفاده وجوه البر والإحسان، وله بطانة صالحة، وأسرة طيبة تعينه على الجود والسخاء، فيصبح بعد ذلك كريمًا لا يبالي بما أنفقت زوجته، وما تصدقت به من درهم أو ثوب أو لقمة خبز،....... فالمرأة الصالحة المتدينة تعين زوجها على ما يحبه الله ويرضاه، ومن ذلك أن تذكر له حاجة الجار والمسكين، فيرق له ويأمرها بمواساته، وأن ترضخ له ما تيسر ولو من قوته وقوت عياله[1].

وهذا ما بينه النبي ﷺ في أحاديث الباب من قوله ﷺ لأسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها «لاَ تُوكِي ... إلخ»، وقوله ﷺ: «أَنْفِقِي، أَوِ انْفَحِي أَوِ انْضَحِي، وَلاَ تُحْصِي ... إلخ».

وعلى المرأة إذا أنفقت أن تراعي حال زوجها، فلا تعتمد إلى كل شيء في البيت فتخرجه، ولا تأخذ شيئًا يعز عليه وتتصدق به، فإن ذلك يغضبه ويؤذيه، ويحمله على منعها من الخير؛ وليس بلازم أن تكون الصدقة بالكبير أو من الكثير، ولكنها بما تيسر[2].

وهذا ما أكده النبي ﷺ في أحاديث الباب -عند تربيته لأمته- وذلك في قوله «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ».

---

(١) إصلاح المجتمع، محمد سالم البيحاني، ٢٢٩، ٢٣٠.

(٢) المرجع السابق، ٢٣٠.

وعند تربية الناشئة على الإنفاق والبذل، يجدر بدعاة التربية والتوجيه مراعاة الآتي:

١-بيان أن الإنفاق من باب شكر النعمة، فإن لله عز وجل على عبده نعمًا في نفسه، وفي ماله، فالعبادات البدنية شكر لنعمة البدن، والمالية شكر لنعمة المال. وما أخسَّ من ينظر إلى الفقير، وقد ضُيِّق عليه الرزق وأُحوجَ إليه، ثم لا تسمح نفسه بأن يؤدي شكر الله تعالى على إغنائه عن السؤال وإحواج غيره إليه.

٢-الإسرار في الإنفاق؛ فإن ذلك أبعد عن الرياء والسمعة، وذلك لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[1].

وفائدة الإخفاء للمتربي والمتعلم تحقيق الخلاص من آفات الرياء والسمعة، وقد بالغ في فضل الإخفاء جماعة حتى اجتهدوا أن لا يعرف القابض المعطي، فكان بعضهم يلقيه في يد أعمى، وبعضهم يلقيه في طريق الفقير وفي موضع جلوسه حيث يراه ولا يرى المعطي، وبعضهم كان يصره في ثوب الفقير وهو نائم، وبعضهم كان يوصل إلى يد الفقير على يد غيره بحيث لا يعرف المعطي، وكان يستكتم المتوسط شأنه، ويوصيه بان لا يفشيه. كل ذلك احترازًا من الرياء والسمعة.

٣-إعلان المتربي للصدقة والإنفاق، إن كان في ذلك ترغيب للناس في الاقتداء بالإنفاق، لقوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾[2].

٤-أن لا يفسد المتربي والمتعلم، صدقته بالمن والأذى، لقوله تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾[3]، واختلفوا في حقيقة المن والأذى فقيل: المن أن يذكرها، والأذى: أن يظهرها، وقال سفيان: المن: هو ذكر الصدقة والتحدث بها والأذى أن يعيره بالفقر.

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٧١.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٧١.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٦٤.

٥- أن ينتقي المتربي من ماله أجوده وأحبه إليه وأحلّه وأطيبه فإن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبًا.

رابعًا- تعلم العلم ونشره:

إن استحكام الأهداف التربوية العليا، في قلوب المتربين والمتعلمين مما يحدو بالمجتمع نحو الصلاح العاجل، والفلاح الدائم، ومن أهم الأهداف التربوية المناط غرسها في بناء النشء، تعلم العلم ونشره.

وهذا ما يترائى جليًا في حديث الباب من قوله ﷺ: «لاَ حَسَدَ إِلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ»، ثم ذكر ﷺ: «ورجُلٍ آتاهُ اللَّهُ حِكْمَةً فهو يَقضِي بها ويُعلِّمها».

فالمربي عمله التربية، وهو يقوم بعملية بناء منظمة، لتنشئة من يربي تنشئة سوية متزنة، فلا ينتظر المربي وقوع الخلل والخطأ حتى يبدأ في معالجته، بل يكون هو البادئ بالتربية والتعليم[1].

ومن المسلمات التربوية الواجب ترسيخها في أذهان ووجدان القائمين على التربية والتوجيه، أن طفولة المتربي قد خُلقت لطلب العلم وقد أطالها الله تعالى أكثر من طفولة الحيوانات ليتسنى للصغار الاستمرار طويلاً في الدراسة، وإن مخالفة ذلك، بوضع الأطفال في العمل في سن مبكرة ينهك أجسامهم ويعرضهم لأخطار وآفات العمل، فضلاً عن جعلهم ينقمون في كبرهم على ذويهم وعلى مجتمعهم بسبب العقد النفسية التي تكونت لديهم من التعذيب الذي لاقوه في صغرهم[2].

ويجب على القائمين بالتربية والتعليم مراعاة الآتي في تعليمهم لأبنائهم وذويهم:

١- الرفق والرحمة وعدم الإثقال في التعليم:

فرغبة المربي والمعلم في الوصول بتلميذه إلى الدرجة العليا قد تدفعه إلى نسيان ما ينبغي عليه في ذلك، فيثقل كثيرًا على التلميذ، حتى يكاد التلميذ أن يملّ من ذلك، ولكن ينبغي أن يراعي أوضاعهم حتى تؤتي التربية ثمارها، وهذا رسولنا

---

(١) نحو تربية إسلامية راشدة، محمد شاكر الشريف، ١١٨.

(٢) نحو أسرة مسلمة، محمود مهدي الاستانبولي، ١٢٧.

الكريم ﷺ، وقد أتاه مجموعة من الشباب متقاربين في السن، فأقاموا عنده عشرين ليلة، فلما ظن أنهم قد اشتاقوا لأهلهم أمرهم بالرجوع إليهم وأوصاهم[(١)]، وهذا ما يخبرنا به مالك بن الحويرث رضي الله عنه يقول: «أتينا النبيَّ ﷺ ونحن شَبَبَةٌ متقاربون، فأقمنا عندَهُ عشرينَ ليلةً، وكان رسولُ اللّه ﷺ رحيمًا رفيقًا، فلما ظن أنا قد اشتهينا أهلَنا -أو قد اشتَقنا- سَأَلَنا عمن تركنا بعدَنا فأخبرناهُ، قال: ارجعوا إلى أَهْلِيكم فأقيموا فيهم، وعلموهم ومُرُوهم -وذكرَ أشياءَ أحفَظها ولا أحفَظها- وَصَلُّوا كما رأيتموني أصلِّي، ....إلخ»[(٢)].

لذا وجب على المعلم أن يتعاهد تلاميذه ويعرف احتياجهم، ويرفق بهم ولا يهمل النوازع الإنسانية، فلا يتعامل معهم على أنهم ملائكة، بل هم بشر من البشر[(٣)].

٢- ضرورة غرس همة الاقتداء بالسلف الصالح في تعلم العلم ونشره:

"تأملت نفسي بالإضافة إلى عشيرتي الذين أنفقوا أعمارهم في اكتساب الدنيا، وأنفقت زمن الصفوة والشباب في طلب العلم، فرأيتني لم يفتني مما نالوه إلا ما لو حصل لي لندمت عليه، ثم تأملت حالي: فإذا عيشي في الدنيا أجود من عيشهم، وجاهي بين الناس أعلى من جاههم، وما نلته من معرفة العلم لا يقاوم، وما طالت طريق أدت إلى صديق -كما يقال-، وقد كنت في حلاوة طلبي للعلم ألقى من الشدائد ما هو عندي أحلى من العسل؛ لأجل ما أرجو وأطلب".

وقال: "كنت في زمن الصبا آخذ معي أرغفة يابسة، فأخرج إلى طلب الحديث، وأقعد على نهر عيسى في ضواحي بغداد، فلا أقدر على أكلها إلا عند الماء، فكلما أكلت لقمة شربت عليها، وعين همتي لا ترى إلا تحصيل العلم ... إلخ"[(٤)].

وذكر أنه سار ماشيًا من الكوفة إلى بغداد مرات عديدة، ومن مكة إلى المدينة

---

(١) نحو تربية إسلامية راشدة، محمد شاكر الشريف، ١٥٣.

(٢) أخرجه البخاري، ٥٩٥.

(٣) نحو تربية إسلامية راشدة، محمد شاكر الشريف، ١١٨.

(٤) صيد الخاطر، ابن الجوزي، تحقيق: عبدالقادر عطا، ٥٩٧.

مرارًا، ومن البحر من قرب مدينة صلا إلى مصر ماشيًا، ومن مصر إلى الرملة، ومن الرملة إلى بيت المقدس، ومن الرملة إلى عسقلان، ومن الرملة إلى طبرية، ومن طبرية إلى دمشق، ومن دمشق إلى حمص، ومن حمص إلى أنطاكيا، ومن أنطاكيا إلى طرسوس، ثم من طرسوس إلى حمص، ومن حمص إلى بيسان، ومن بيسان إلى الرقة، وقبل ذلك من واسط إلى النيل، ومن النيل إلى الكوفة، كل ذلك ماشيًا في سفره الأول، وسنه عشرون عامًا"[1].

وقال: بعد أن نوزع مرة في النقل عن الوسيط - أتنازعوني وقد طالعته أربعمائة مرة.

وقال: فلما كان عمري تسع عشرة سنة، قد مر بي والدي إلى دمشق سنة تسع وأربعين، فسكنت المدرسة الرواحية، وبقيت نحو سنتين لم أضع جنبي إلى الأرض...، وحفظت التنبيه في أربعة أشهر ونصف، وحفظت ربع المهذب في باقي السنة[2].

وأخيرًا ... أختم بقول ابن عابدين في مقدمة حاشيته للرد على الدر المختار: "وقد كنت صرفت في معاناته برهة من الدهر، وبذلت له مع المشقة مشقة من جديد العمر، واقتنصت بشبكة الأفهام أجل شوارده، وقيدت بأوتاد الأقلام جليّ أوابده، وصرت في الليل والنهار سميره، حتى أسرّ إليّ سره وضميره وأطلعني على حوره المقصورة في الخيام، وكشف لي عن وجوه مخدّراته اللثام، فطفقت أوشي حواشي صحائف صحائفه اللطيفة، بما هو في الحقيقة بياض للصحيفة، ثم أردت جمع تلك الفوائد، وبسط سمط هاتيك الموائد، من متفرقات الحواشي والرقاع، خوفًا عليه من الضياع"[3].

فهذه هي همة العلماء التي أضاءت سبيل الطالبين وكشفت عن طريق المسترشدين لتعلم العلم وتحصيله.

---

(١) حوار مع فضيلة الشيخ/عبدالله بن عبدالرحمن الجبرين، ضمن مجلة البيان، العدد ١٣٢، شعبان ١٤١٩هـ، ديسمبر ١٩٩٨، ص٣٣.

(٢) المنهاج السوي في ترجمة النووي، جلال الدين السيوطي، مطبوع في مقدمة كتاب روضة الطالبين، الإمام النووي، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، وعلي محمد معوض ١/٥٤-٥٨، ٥٥.

(٣) رد المحتار على الدر المختار المسمى "حاشية ابن عابدين"، محمد امين بن عمر عابدين، تحقيق: علي محمد معوض ١/٦٩-٧٠.

٣- ضرورة بيان الأسباب المعينة على طلب العلم وتعلمه، والتي على النحو التالي:

أ/ تقوى الله: قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾[١].

وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾[٢].

ب/ كثرة الاستغفار والتوبة والدعاء، والانطراح بين يدي الله تعالى وسؤاله العلم النافع والعلم الصالح.

ج/ ذكر الموت والآخرة ليعين على شغل الوقت بالنافع.

د/ المحافظة على الأوقات، وحسن ترتيبها، والحرص على استغلالها، بحيث يُعطي كل ذي حق حقه، بدون غلو ولا جفاء، وهذا شرط لا يحصل العلم بدونه.

و/ سلوك الوسائل المباشرة للتعليم، مثل: ملازمة العلماء والمشايخ في المساجد والبيوت، والتلقي عنهم، والتعليم في المدارس، والمعاهد، والجامعات، والقراءة مع الزملاء والأصدقاء وطلاب العلم، وكثرة الاطلاع، والقراءات الخاصة المنتقاة المرتبة، وإعداد البحوث الدقيقة، والاستماع إلى الأشرطة النافعة[٣].

٤-وكان من أجلِّ مهام القائمين على التربية والتعليم، غرس الإخلاص في نفوس المتعلمين، حيث لا تستقيم طاعة ولا تقبل عبادة إلا بالإخلاص، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ الله لا يَتَعَلَّمُهُ إلاَّ لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - يَعني رِيحَهَا»[٤].

وكان من أعظم وسائل غرس الإخلاص في نفوس طلاب العلم، القراءة في أخبار العلماء المخلصين ومعرفة أحوالهم، ليكسب طالب العلم معرفة بهم، وقدوة في شمائلهم، حيث قال أبو حنيفة: الحكايات عن العلماء ومحاسنهم أحبُّ إلى من كثير

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٢٩.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٨٢.

(٣) أهمية العلم الشرعي، عبدالحكيم محمد بلال، ضمن بحوث مجلة البيان، العدد ١١١، ذو القعدة، ١٤١٧هـ، ابريل ١٩٩٧م، ص٦٥، ٦٦.

(٤) أخرجه أبو داود، ٣٦٦٤، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود، ٣١١٢).

من الفقه لأنها آداب القوم؛ قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾[(١)(٢)].

وقد كان من أخبار السلف في بيان الإخلاص:

قول الشافعي: لوددت أن الخلق يتعلمون مني، ولا ينسب إليَّ منه شيء[(٣)].

وقال الحسن البصري: إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به جاره، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزوار، وما يشعرون به، ولقد أدركنا أقوامًا ما كان على ظهر الأرض من عمل يقدرون على أن يعملوه في سر فيكون علانية أبدًا[(٤)].

خامسًا- السؤال والاستفهام:

إن مما يوجه المتربي نحو معالم التربية، السؤال والاستفهام، حيث توضيح ما خفي عنه، وكشف ما التبس عليه؛ لذا وجب على القائمين بالتربية والتوجيه، طرح الأسئلة على المتربين، وهذا ما ترائى جليًا في حديث الباب من سؤال النبي ﷺ للصحابة رضي الله عنهم: «أَيُّكُمْ مَالُ وَارِثِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ؟».

والسؤال والاستفهام كما يكون من المعلم والمربي، يكون كذلك من المتربي إن استعصى واستشكل عليه أمر، وهذا ما ظهر جليًا في حديث الباب من قوله عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: «إنَّ رَجُلاً سَأَلَ رَسُولَ اللّهِ ﷺ: أَيُّ الإِسْلاَمِ خَيْرٌ؟»، وهنا يجب على المتربي والمتعلم احترام العالم في ألا يسأل إلا فيما يعلم، فلا ينبغي في الأصل أن يوجه للعالم الأسئلة في غير تخصصه، خاصة إذا كانت مبتورة أو ملتوية، أو موجهة لتحصيل غرض مبيت، فهذا من التغرير بالعالم والتوريط له.

ومما يجب مراعاته أيضًا في ذلك، دقة السؤال وأمانة السائل: فليست الأمانة مطلوبة فقط من المسؤول، بل من السائل أيضًا، فمن الأمانة أن يحسن المتربي صياغة

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٩٠.

(٢) آداب المتعلمين، د. أحمد الباتلي ص ١٥-١٧ باختصار.

(٣) صفة الصفوة، ابن الجوزي، ٢/٢٥١.

(٤) الزهد، ابن المبارك ص ٤٥.

السؤال، ويجرده من الإيهام والإبهام، وقد عد العلماء حسن السؤال في أول مراتب العلم.

ومن أمانة السائل أيضًا: أن يتحرى أمانة المسؤول وصدقه وأهليته، قيل لعبدالله بن المبارك: كيف نعرف العالم الصادق؟ قال: الذي يزهد في الدنيا ويقبل على الآخرة.

وأخيرًا كان من الواجب بيان أن العالم الأمين لا يجيب على السؤال مجردًا، بل ينظر في القرائن المحيطة بالسائل، فلعله يستعين بالعلم على البطالة، أو يستخدم الفتوى في ضلالة، أو يبتغي الرفعة على صنعة الدين، أو يريد تسخيره لهدف دفين، ولهذا كان ديدن العلماء والمصلحين أن يتأسوا برسول الله ﷺ في النظر إلى حال السائل قبل إعطائه الجواب، وفي عدم التمكين كمن يريد أن يختل الدنيا بالدين[(١)].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ صَانُوا الْعِلْمَ وَوَضَعُوهُ عِنْدَ أَهْلِهِ لَسَادُوا بِهِ أَهْلَ زَمَانِهِمْ. وَلَكِنَّهُمْ وَضَعُوهُ عِنْدَ أَهْلِ الدُّنْيَا لِيَنَالُوا مِنْ دُنْيَاهُمْ. فَهَانُوا عَلَيْهِمْ»[(٢)]، وقال أحمد: «لِيَتَّقِ اللَّهَ عَبْدٌ وَلْيَنْظُرْ مَا يَقُولُ وَمَا يَتَكَلَّم، فَإِنَّه مَسْؤُولٌ»[(٣)].

سادسًا- التربية بالترغيب والترهيب:

إن الإنسان مفطور على الإحساس باللذة والألم، وهو بذلك ميال إلى كل ما يحقق له اللذة، وعازف عن كل ما يسبب له الألم، ولهذا العامل تأثير كبير في تربية الإنسان وتوجيه سلوكه من خلال الترغيب والترهيب.

والسنة النبوية تؤكد أهمية هذا الجانب بما تضمنه من ترغيب وترهيب، تستجيش قلب الإنسان نحو الخير وتوجهه لذلك، وتخوفه من الانحراف، وتحذره من ذلك[(٤)].

وهذا ما ترائى جليًا في مجمل أحاديث الباب، حيث ترغيب النبي ﷺ في الكرم والجود والإنفاق في وجوه الخير ثقة بالله تعالى، وترهيبه ﷺ من التقتير والبخل وعدم الإنفاق.

---

(١) كيف نحمي ثوابتنا، عبدالعزيز كامل، ضمن بحوث مجلة البيان، العدد ٩١، ربيع أول ١٤١٦هـ/أغسطس ١٩٩٥م، ٣٧، ٤٠.

(٢) الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ٢/٤٨.

(٣) المرجع السابق ٢/٥٩.

(٤) أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي ص ٣٩٣.

ومن شواهد الترغيب، التي تضمنتها أحاديث الباب، قوله ﷺ: «...اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا»، وقوله ﷺ: عن رب العزة: «أَنْفِقْ يا ابنَ آدمَ يُنفَقْ عليكَ»، وقوله ﷺ: «... مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ...إلخ»، وقوله ﷺ: «مَنْ تَصَدَّقَ بِعِدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ ... إلى قوله ...، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهَا كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ».

وقد اعتبر التربويون المسلمون الأوائل الثواب والمدح والثناء الأسلوب الأمثل، والحافز الأقوى للتعليم، ولذلك طالبوا المعلم والمربي المبادرة بالترغيب قبل غيره، وأن لا يلجأ إلى غيره إلا لحاجة ملحة قد تفرضها طبيعة المتربي، كأن يكون قليل الحياء مستخفًا بالكرامة قليل الألفة محبًا للكذب[(١)].

وقد جاء في وصية ابن سحنون لمعلم ولده: "لا تؤدبه إلا بالمدح ولطيف الكلام، وليس هو ممن يؤدب بالضرب والتعنيف"[(٢)].

وقد بين ابن خلدون سوء مخالفة البدء بالترغيب في تربية المتربي، فقال: "ومن كان مَرْباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم سطا به القهر، وضيَّق على النفس في انبساطها، وذهب بنشاطها، ودعاه ذلك إلى الكسل، وحمله على الكذب والخبث وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفًا من انبساط الأيدي بالقهر عليه، وعلمه المكر والخديعة لذلك، وصارت له هذه عادة وخلقًا، وفسدت معاني الإنسانية التي له من حيث الاجتماع والتمدن، وهي الحمية والمدافعة عن نفسه ومنزله، وصار عيالاً على غيره في ذلك، بل وكسلت النفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل؛ فانقبضت عن غايتها ومدى إنسانيتها، فارتكس وعاد في أسفل السافلين[(٣)].

---

(١) الثواب والعقاب في التربية، د. عمر النمري، ضمن بحوث مجلة البيان، العدد ١٣٧، المحرم ١٤٢٠هـ/يونيو ١٩٩٩، ص٢٧.

(٢) آداب المعلمين، محمد بن سحنون، ملحقة في كتاب التربية في الإسلام، أحمد فؤاد الأهواني، دار المعارف، ص ١٤٨.

(٣) مقدمة ابن خلدون، ١٢٥٣/٣، ١٢٥٤.

أما الترهيب والوعيد الشديد فهو مرحلة ثانية في تأديب المتربي إن لم يفلح الترغيب، وقد ظهر هذا الأسلوب التربوي في أحاديث الباب من ترهيبه ﷺ من التقتير والبخل وعدم الإنفاق، وكان من الشواهد في أحاديث الباب على ذلك:

قوله ﷺ: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»، وقوله ﷺ: «اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا»، وقوله ﷺ: «... وَأَمَّا الْبَخِيلُ فَلاَ يُرِيدُ أَنْ يُنْفِقَ شَيْئًا إِلاَّ لَزِقَتْ كُلُّ حَلَقَةٍ مَكَانَهَا فَهُوَ يُوَسِعُهَا فَلاَ تَتَّسِعُ».

فإذا لم ينفع مع المتربي أسلوب الترغيب يلجأ المربي والمعلم إلى أسلوب أشد في العقوبة المعنوية وهو أسلوب الترهيب والوعيد الشديد دون إيقاع الضرب ودون التبذل في العذل والتقريع في الكلام أو اللجوء إلى الشتم والسب. وقد جعل أبو الحسن القابسي هذا الأسلوب في العقوبة أعلى درجات العقوبة المعنوية، ويليه مباشرة إيقاع العقوبة البدنية بالمتربي إذا استأهل ذلك[1].

كذلك أشار الغزالي إلى أن المتربي إذا نُهي عن التخلق بسيئ الأخلاق فلم ينته، فينبغي أن يعاقب سرًا ويعظم الأمر فيه؛ فيقال له: إياك أن تعود بعد ذلك لمثل هذا وأن يطلع عليك في مثل هذا فتفضح بين الناس. فإن لم ينته المتربي عن ذلك يلجأ إلى العقاب الجهري والتغليظ في القول لينزجر السامع ومن معه ويتأدبوا بذلك؛ فإن لم ينفع معه ذلك يُلجأ إلى العقوبة البدنية[2].

إن الترغيب والترهيب يثير عند الإنسان عامل الخوف، وعامل الرجاء والأمل، وهما في الواقع يوجهان اتجاه الإنسان، ويعملان على تحديد أهدافه، وسلوكه، ومشاعره وأفكاره، وعلى قدر ما يخاف، ونوع ما يخاف، وعلى قدر ما يرجو ونوع ما يرجو، يكون التأثير في السلوك والاتجاه. ولذلك ينبغي أن يكون حجم الترغيب والترهيب يتوافق مع حجم ونوعية ما وضع من أجله[3].

---

(١) الثواب، والعقاب في التربية، د. عمر النمري، ضمن بحوث مجلة البيان، ٢٩.

(٢) انظر: إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي ٣/٧٣.

(٣) أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي ص ٣٩٥.

سابعًا- التربية الخلقية:

إن تربية الخلق في نفوس المتربين، من أهم ما يجب مراعاته من قِبل القائمين بالتربية والتوجيه، حيث امتثال قوله ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لأتَممَ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ»، وفي رواية «صَالِحَ الأَخْلاَقِ»[١]، وقد ترائى في أحاديث الباب، دعوة النبي ﷺ للتخلق بأخلاق الكرم والصدق والشجاعة، وذلك في قوله ﷺ: «... ثُمَّ لاَ تَجِدُوني بَخِيلاً وَلاَ كَذَّابًا وَلاَ جَبَانًا».

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[٢][٣].

وقد يجد المتربي أن من الناس من إذا رزقه الله مالاً أو جاهًا - يتهرب من صاحب الحاجة الفقير ولو كان قريبًا له، لا كبرًا عليه، وإنما خوفًا من أن يفتح الباب عليه من أقاربه، فيبدؤون بالاستدانة منه، ويكثرون الطلبات عليه، أو غير ذلك!.

وبدلاً من أن يفتح الباب لهم، ويستضيفهم، ويوسع عليهم ويقوم على خدمتهم بما يستطيع، أو يعتذر لهم عما لا يستطيع- إذا به يعرض عنهم، ويحرمهم، ويهجرهم، حتى لا يرهقوه بكثرة مطالبهم -كما يزعم-!!

وما فائدة المال أو الجاه إذا حرم منه الأقارب؟ قال: زهير بن أبي سلمى -وما أجمل ما قال-:

وَمَن يَكُ ذا فَضْلٍ فيَبْخَلْ بفضْلِهِ ... على قَوْمِهِ يُستَغْنَ عنهُ ويُذْمَمِ

وما أجمل قول البارودي:

فَلاَ تَحْسَبَنَّ الْمَال، ينْفَعُ رَبَّهُ ... إِذَا هُوَ لَمْ تَحْمَدْ قِرَاهُ الْعَشَائِرُ[٤]

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، ٢٧٣، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٤٥.

(٢) سورة التغابن، آية: ١٦.

(٣) انظر: خلق المسلم، محمد الغزالي، ١١٨.

(٤) ديوان البارودي ٢/٩٧.

ومما قيل في ذلك:

ومن ذا الذي ترجو الأباعد نفعه ... إذا كان لم يصلح عليه الأقارب[١]

لذا كان البخل خلقًا ذميمًا يتولد من سوء الظن وضعف النفس، ويمده وعد الشيطان حتى يصير هلعًا، فكان من الواجب على القائمين بالتربية والتوجيه تنقية أنفس المتربين من شر الشح وشؤم البخل.

وأما الخلق الثاني الذي حذر منه النبي ﷺ، هو الكذب وذلك في قوله ﷺ: «... ولا كذاب ... إلخ».

ولله درُّ القائل:

مَا أَقْبَحَ الْكَذِبَ الْمَذْمُومَ صَاحِبُهُ ... وَأَحْسَنَ الصِّدْقَ عِنْدَ اللَّهِ وَالنَّاسِ

وقال القائل:

عليْكَ بالصّدْقِ ولوْ أنّهُ ... أحرَقَكَ الصّدقُ بنارِ الوَعيدْ

وابْغِ رِضَى المَوْلى فأغْبى الوَرى ... مَنْ أسخَطَ المَوْلَى وأرضى العَبيدْ

وكلما أفرط المرء في الكذب والإخبار بما لم يقع عرف عند الله وخلقه بأنه كذاب، فلا يقام له وزن، ولا يأمنه أحد على شيء؛ فإن كان عالمًا اتهم في قلمه ولسانه، أو تاجرًا اتهم في مكياله أو ميزانه، أو صانعًا اتهم في قوته وإتقانه، أو طبيبًا اتهم في آلته ومعرفته، أو محاميًا اتهم في أمانته وقدرته. فالكاذب يجني على نفسه قبل أن يجني على أحد، ولاسيما إذا تحرى الكذب حتى يكتب كذابًا في السماء وكذابًا في الأرض[٢]، وبهذا التحذير تنفر النفوس الصادقة عند تربيتها من الكذب وقبحه.

أما الخلق الأخير الوارد ذمه في نص الحديث هو، الجبن، حيث قوله ﷺ: «... ولا جبانًا».

وليس أضيع لجيل الأمة من هذا الخلق المرذول، حيث سوء الظن ووسوسة النفس بالسوء[٣]، وقد كانت تربية أبناء السلف الصالح تربية قويمة استقت مشاربها من

(١) رسائل في التربية والأخلاق والسلوك، محمد إبراهيم الحمد، ٦٦، ٦٧.

(٢) إصلاح المجتمع، محمد سالم البيحاني، ٧١.

(٣) التدين والصحة النفسية، د. صالح إبراهيم الصنيع، ٢٩٥.

مدرسة النبوة، فمضى الآباء يربون أبناءهم منذ الصغر على الفروسية والشجاعة والرجولة والإقدام واقتحام الأخطار والشدائد... حتى إذا بلغوا سن الحركة والانطلاق - وهم لم يناهزوا الحلم بعد- مضوا في مواكب التحرير والجهاد وابتغاء الرزق دعاة صادقين، وأبطالاً مجاهدين، وطلابًا للكسب عاملين!!"[١].

ثامنًا- تحرير النية الصالحة:

إن من أعظم التوجيهات التربوية الواجب إدامتها في تربية النشء، تحرير النية لله في كل عمل وفعل، وهذا ما ظهر من حديث الباب في قوله ﷺ: «... وَعَبْدٍ رَزَقَهُ الله عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالاً فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِيَ مَالاً لَعمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلاَنٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ، ... إلخ».

وتحرير النية الصالحة للمتربي يشمل سائر الأعمال الحيوية.. فالأكل، والشرب، والنوم، والنزهة البريئة، والتمتع بسائر الطيبات.... إذا فعلها المتعلم أو المتربي أو أي مسلم آخر بنية الامتثال لأمر الله، والتعفف عن الحرام، وتقوية الجسم ليكون أقدر على حمل المسؤوليات والتكاليف.. يصبح العمل بهذه النية الصالحة عبادة يتقرب بها المؤمن إلى الله زلفى، وعلى هذا أخبر الصادق المصدوق ﷺ أن الإنسان يعد مثابًا ومأجورًا إذا رفع اللقمة إلى فم امرأته بنية إيناسها وإدخال السرور عليها، وأخبر أيضًا ﷺ أن الذي يضع شهوته في الحلال بنية الإحصان، وإنجاب الذرية الصالحة... فله ثواب وأجر. وعلى هذا استنبط فقهاء الشريعة من هذه الأحاديث المتقدمة هذا الحكم: "إن النية الصالحة تقلب العادة عبادة"[٢]، لذا وجب مراعاة ذلك أثناء توجيه المتربي والمتعلم نحو القيام بسائر أفعاله وأعماله.

---

(١) تربية الأولاد، عبدالله ناصح علوان ٣١٤/١.

(٢) تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان ٨٩٥/٢.

٦١- باب النهي عن البخل والشح

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾[الليل: ٨-١١]، وقال تَعَالَى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[التغابن: ١٦].

وأما الأحاديث فتقدمت جملة مِنْهَا في الباب السابق.

الحديث رقم (٥٦٢)

٥٦٢- وعن جابر رضي الله عنه: أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، قَالَ: ((**اتَّقُوا الظُّلْمَ؛ فَإنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ القِيَامَةِ. وَاتَّقُوا الشُّحَّ؛ فَإنَّ الشُّحَّ أهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أنْ سَفَكُوا دِمَاءهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ**)) رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

جابر بن عبدالله الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

الشرح الأدبي

الظلم: هو مجاوزة الحد، والتعدي بكل أشكاله، والشح أشد البخل، وأبلغ في المنع من البخل، وقيل هو البخل مع الحرص، وقيل البخل في أفراد الأمور والشح عام، وقيل: البخل في أفراد الأمور، والشح بالمال، والمعروف، وقيل الشح الحرص على ما ليس عنده، والبخل بما عنده، والشح بهذه المعاني مبعث كثير من الأخطاء، والآثام؛ لأنه يدعو إلى منع حق الله في المال والضن بالمعروف بل، ويدعو إلى منع الصدقة، وقطيعة الرحم وحرمان الانتفاع بالنعمة والتكالب على الدنيا، وأكل أموال الناس بالباطل، ونسيان الآخرة، وقد جاء تحذير الرسول صلى الله عليه وسلم منه معطوفاً على الظلم بتبعاته ؛لأنه طريق إليه لذلك جاء الأسلوب محذراً، ومبيناً علاقته بمختلف الشرور، وتأثيره على المجتمع بعدة ألوان بلاغية منها:

(١) برقم ٢٥٧٨/٥٦، وتقدم برقم ٢٠٣. أورده المنذري في ترغيبه ٣٢٧٩.

البداية بأسلوب إنشائي يتسم بالحركة التي تقاوم دفعاً حركة الظالم تقدماً وحركة الشحيح بما له تأخراً عن سبل البر، وهذا الأسلوب هو الأمر في قوله: (اتقوا الظلم...) بمعنى احذروه وانتهوا، والظلم يشمل كل ألوان التعدي على النفس وعلى الغير، وقوله: (فإن الظلم ظلمات) أكّد الجملة باسمية الجملة و(إن) قبلها إشارة إلى أهمية الخبر، وعنايته به حيث أنه لم يواجه بإنكار، والمقام لخال الذهن، فالتوكيد لأهمية الخبر، والتنبيه إلى خطره، أو لعله ﷺ نزّل المخاطبين غير المنكرين منزلة المنكرين لما استهانة من بعضهم بأمر الظلم، وغفلة عن خطره ؛فأكد الخبر بأكثر من مؤكد لدفع هذا التهاون، وبيان خطر الظلم يوم القيامة.

وما أروع تأثير الجناس في قوله (الظلم ظلمات) الذي يجذب الانتباه، ويؤكد المعنى وقوله: (فإن الظلم ظلمات يوم القيامة) تشبيه بليغ حيث شبه الرسول -ﷺ- (الظلم) وهو شيء معنوي بالظلمات، وهي شيء حسي يدرك بالبصر، ووجه الشبه هو التخبط، وعدم الاهتداء.

والتشبيه البليغ محذوف الوجه، والأداة يفيد شدة الشبه بين المشبه، والمشبه به حتى كأنهما شيء واحد لإثبات المشبه به في الظاهر للمشبه، وحذف الوجه، الذي يجعل نفسه تذهب في تخيله كل مذهب. وتشبيه الرسول ﷺ للظلم بالظلمات يوحي بعدة دلالات منها:

أ- الإشارة إلى ضلال الظالم، وعدم اهتدائه إلى طريق الحق كما أن السائر في الظلمات لا يهتدي إلى طريقه.

ب- كثرة عثرات الظالم، وتعرضه للأخطار الذي لا يدركها كما يقع للسائر في الظلمات دون نور يهتدي به يمكّنه من رؤية الطريق، والظالم عرضة لانتقام المظلوم ودعائه عليه، أو انتقام الله في الآخرة.

ج- إفراد المشبه، وجمع المشبه به يوحي بأن الظلم بأنواعه جنس واحد مهما اختلف ومصيره كذلك، وجمع الظلمات يوحي بسوء المصير الذي ينتظر هذا الظالم ويوحي بأن الظلم يولد بعضه بعضاً، وأن الظالم تدفعه شروره إلى

التمادي وعدم الوصول في ظلمه لغاية حتى يسلمه إلى مصيره الأسود كالظلمات المطبقة التي تحكي تتابع ظلام أفعاله.

د- حذف وجه الشبه بين الظلم والظلمات يوحي بتشابههما في كل من التعثر، وعدم الهداية، وعدم الوصول لغاية، أو تحقيق هدف مع سوء المصير المحتوم لمن اختار طريق الظلمات المطبقة من ظلم الناس.

والمتأمل لحديث الرسول ﷺ يجد أنه نداء منذر شفيق، وتحذير معذر رقيق رأى العاقبة، وأبان الحجة، وترك كل ذي قوة، ومال بعد أن وضَّح العاقبة والمآل ليتصرف في مال الله بمراد الله [1].

المضامين الدعوية[2]

---

(١) انظر: بلاغة الرسول ﷺ في تقويم الأخطاء د ناصر راضي الزهري ١٧٨.

(٢) تقدم ذكرها في الحديث رقم (٢٠٣).

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

إذا تجاوز الحرص المدى، أدى بصاحبه إلى الهلاك، فالبخيل يمسك على نفسه وعلى غيره، ويصير المال غايته، ومن المضامين التربوية في أحاديث الباب:

أولاً- التربية الوقائية:

ومن الشواهد على ذلك قول ﷺ: «اتَّقُوا الظُّلْمَ. فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَاتَّقُوا الشُّحَّ. فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ».

لقد عمل النبي ﷺ من خلال هذه التحذيرات على الوقاية من الأخطار الناجمة عن الظلم والشح، وهذا مما يؤكد أهمية الحرص على اجتناب مثل هذه الأمراض الاجتماعية الفتاكة.

إنها التربية الإسلامية الوقائية للفرد والمجتمع المسلم للبعد عن الأخطار المتوقعة والهلاك المحقق، وهذه التوجيهات تعد بمثابة جرعة وقائية وحمية يتقي بها من الأمراض المهلكة، والوقاية التي استخدمها رسول الله ﷺ تعد أسلوبًا تربويًا يهدف إلى قطع دابر الظلم والبخل لأن من شأنهما أن يؤديان إلى خلخلة الصف المسلم وتوهينه[1].

ثانيًا- التربية بالترهيب:

من أساليب التربية الإسلامية: الترهيب، ومن الشواهد على ذلك في باب النهي عن البخل والشح، قوله ﷺ: «اتَّقُوا الظُّلْمَ. فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَاتَّقُوا الشُّحَّ. فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ».

فهذا توجيه نبوي اشتمل على الترهيب من الظلم والشح، واعتبارهما من أكبر الذنوب التي تسبب الهلاك في الدنيا والكربات الشديدة يوم القيامة والبخل عدو لأهل الإيمان، لأن من صفات المؤمنين الكرم والجود، كما أن البخل والظلم من أسباب انتشار الجريمة، ولذا جاء الترهيب من هذين الأمبين الخطيرين على اعتبار أن الترهيب

---

(١) انظر: أساليب الدعوة والتربية، د. زياد العاني، ص٢٦٢.

يمثل القوة الصادرة من الانحراف إلى سبيل غير سبيل الله، والترهيب أسلوب تربوي لتصحيح مسار الإنسان وزجره عن كثير من السلوكيات الخاطئة والانحرافات السيئة[1].

١-أنه أحد الأساليب التربوية التي يقوم عليها المنهج الإسلامي.

٢-إن الإنسان مفطور على كره الشر والشقاء، والإسلام استخدم هذا الأسلوب فيما أعده الله تعالى للمفسدين والمنحرفين.

٣-إن الإنسان لديه القدرة على التمييز بين ما يضره وما ينفعه.

٤-إن الترهيب أسلوب تربوي وقائي لأنه يقوم على جانب من التحذير من المخالفة، مما يجعل له أهمية كبيرة في العملية التربوية[2].

---

(١) انظر: أساليب الدعوة والتربية، د. زياد العاني، ص

(٢) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي، ص٦٩.

٦٢- باب الإيثار والمواساة

قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[الحشر: ٩]، وقال تَعَالَى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾[الدهر: ٨].

الحديث رقم (٥٦٣)

٥٦٣- وعن أَبي هريرة ﷺ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النبيِّ ﷺ، فَقَالَ: إنِّي مَجْهُودٌ، فَأَرسَلَ إِلَى بَعْضِ نِسَائِهِ، فَقالت: وَالَّذي بَعَثَكَ بالحَقِّ مَا عِندي إلاَّ مَاءٌ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى أُخْرَى، فَقَالَتْ مِثلَ ذَلِكَ، حَتَّى قُلْنَ كُلُّهُنَّ مِثلَ ذَلِكَ: لا وَالَّذي بَعَثَك بالحَقِّ مَا عِندي إلاَّ مَاءٌ. فَقَالَ النبي ﷺ: ((مَنْ يُضيفُ هَذَا اللَّيْلَةَ؟[١])) فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأنْصَارِ: أنَا يَا رسولَ الله، فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى رَحْلِهِ، فَقَالَ لامْرَأَتِهِ: (أكرِمِي ضَيْفَ رسول الله ﷺ)[٢].

وفي روايةٍ[٣]: قَالَ لامْرَأَتِهِ: هَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ؟ فقَالَتْ: لاَ، إلاَّ قُوتَ صِبيَانِي. قَالَ: فَعَلِّليهم بشَيْءٍ، (وَإذَا أرَادُوا العَشَاءَ فَنَوِّمِيهمْ، وَإذَا دَخَلَ ضَيْفُنَا فَأطْفِئي السِّرَاجَ، وَأريهِ أنَّا نَأكُلُ. فَقَعَدُوا وَأكَلَ الضَّيْفُ)[٤] وَبَاتَا طَاوِيَيْنِ، فَلَمَّا أصْبَحَ غَدَا عَلَى النَّبيِّ ﷺ، فَقَالَ: ((لَقَدْ عَجبَ الله مِنْ صَنِيعِكُمَا بِضَيْفِكُمَا اللَّيْلَةَ)) متفقٌ عَلَيْهِ[٥].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

---

(١) عند مسلم زيادة: (رحمه الله)، وهي لا توجد عند الحميدي في جمعه.

(٢) هذه الزيادة عند البخاري برقم ٣٧٩٨.

(٣) أي في رواية جرير بن عبد الحميد عند مسلم برقم ٢٠٥٤/١٧٢.

(٤) هذه الزيادة في رواية أبي أسامة عند البخاري برقم ٤٨٨٩.

(٥) أخرجه البخاري ٣٧٩٨، ومسلم ٢٠٥٤/١٧٢، والسياق للحميدي في جمعه ١٨٠/٣، رقم ٢٤٠٩. أورده المنذري في ترغيبه ٣٨٠٥.

غريب الألفاظ:

مجهودٌ: أي أصابني الجهد وهو: المشقة والحاجة وسوء العيش والجوع[(١)].

رحله: منزله[(٢)].

فعلليهم بشيء: أي اشغليهم بشيء[(٣)].

السراج: المصباح[(٤)].

طاويين: جائعين[(٥)].

الشرح الأدبي

الحديث يحكي موقفا من المواقف التي تبين شدة الحال، وضيق الرزق الذي عاش فيه الصحابة رضي الله عنهم عامة، وما عاش فيه النبي صلى الله عليه وسلم، وآل بيته من هذه الشدائد خاصة، وقول الرجل السائل (إني مجهود) كناية عن التعب الناتج عن شدة الفقر من الجوع، والتعبير بالإرسال فيه عناية، واهتمام من الرسول صلى الله عليه وسلم بقضاء حاجة الرجل يؤكد ذلك العطف بالفاء الدالة على السرعة، وقول بعض نسائه (وَالَّذي بَعَثَكَ بِالحَقِّ مَا عِنْدِي إِلاَّ مَاءٌ) يشير توكيدها للخبر إلى تعظيمها لطلب النبي صلى الله عليه وسلم وعنايتها به لكنها لا تملك شيئا تجيبه، وقوله (ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى أُخْرَى فَقَالَتْ مِثْلَ ذَلِكَ، حَتَّى قُلْنَ كُلُّهُنَّ مِثْلَ ذَلِكَ) يشير إلى تطابق الحال في الشدة، وضيق المعيشة، وقلة الرزق لكثرة الصدقة، وإطعام المساكين، ولما لم يجد شيئا في بيوته عمم السؤال (مَنْ يُضيفُ هَذَا اللَّيْلَةَ ؟) وهو استفهام عرض يفتح أفقا أوسع لحل المشكلة، وقول الأنصاري (أنَا يَا رسولَ الله) فيه إيجاز بالحذف أي أنا أضيفه، وقوله: (فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى رَحْلِهِ) الفاء توحي بالسرعة، والتعبير بالانطلاق يؤكده، وقوله (فَقَالَ لامْرَأَتِهِ: أكرِمِي ضَيْفَ رسول الله صلى الله عليه وسلم)

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٣٠٠، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٤٩/٧.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٣٠٠.

(٣) الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ع ل ل).

(٤) المرجع السابق في (س ر ج).

(٥) المرجع السابق في (ط و ى).

الأمر للندب، وإضافة الضيف للرسول ﷺ فيها تشريف، وترغيب يقتضي مزيد العناية بالضيف، وإكرامه، والرواية الثانية تقرر هذا عن طريق تفصيل الأحداث، حيث قدما حاجة الضيف على الأبناء الصغار يدل على ذلك قول الرسول ﷺ (لَقَدْ عَجِبَ اللهِ مِنْ صَنِيعِكُمَا بِضَيْفِكُمَا اللَّيْلَةَ) وهو كناية عن رضاه عنهما بسبب حسن صنيعهما بالضيف.

فقه الحديث

قال النووي: (فيه [أي الحديث] فضيلة الإيثار والحث عليه، وقد اجتمع العلماء على فضيلة الإيثار بالطعام ونحوه من أمور الدنيا وحظوظ النفس، أما القربات فالأفضل أن لا يؤثر بها، لأن الحق منها لله تعالى)[١].

وذهب ابن عابدين إلى جواز الإيثار بالقرب بلا كراهة[٢].

قال النووي: (قوله: فقال لامرأته: هل عند شيء؛ قالت: لا إلا قوت صبياني قال: فعلليهم بشيء" هذا محمول على أن الصبيان لم يكونوا محتاجين إلى الأكل، وإنما تطلبه أنفسهم على عادة الصبيان من غير جوع يضرهم، فإنهم لو كانوا على حاجة بحيث يضرهم ترك الأكل لكان إطعامهم واجبًا ويجب تقديمه على الضيافة، وقد أثنى الله ورسوله على هذا الرجل وامرأته فدلَّ على أنهما لم يتركا واجبًا بل أحسنا وأجملا رضي الله عنهما)[٣].

قال ابن حجر: (قيل: في الحديث دليل على نفوذ فعل الأب في الابن الصغير وإن كان مطويًا على ضرر خفيف إذا كان في ذلك مصلحة دينية أو دنيوية، وهو محمول على ما إذا عرف بالعادة من الصغير الصبر على مثل ذلك، والعلم عند الله تعالى)[٤].

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢/١٤/٧، وانظر: المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٤٨/٦-١٤٩.

(٢) رد المحتار على الدر المختار المسمى "حاشية ابن عابدين"، محمد امين بن عمر عابدين، تحقيق: علي محمد معوض ٣٨٢/١-٣٨٣، وانظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٣٦٥/٢٠.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢/١٤/٧، وانظر: المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٤٨/٦، ١٤٩.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٢٠.

المضامين الدعوية

أولاً : من موضوعات الدعوة: بيان الحال التي كانت عليها بيوت النبي ﷺ من شدة العيش.

ثالثاً: من آداب المدعو: الاستجابة لدعوة النبي ﷺ.

أولاً- من موضوعات الدعوة: بيان الحال التي كانت عليها بيوت النبي ﷺ من شدة العيش:

إن من موضوعات الدعوة التي تستنبط من هذا الحديث بيان الحال التي كانت عليها بيوت النبي ﷺ من شدة، ويظهر ذلك في إرسال النبي ﷺ إلى نسائه فلم يجد إلا الماء. قال النووي: هذا الحديث مشتمل على فوائد كثيرة: منها ما كان عليه النبي ﷺ وأهل بيته من الزهد في الدنيا والصبر على الجوع وضيق حال الدنيا[1].

وقال ابن عثيمين: (... هذا الحديث العظيم العجيب، الذي يبين حال رسول الله ﷺ وأصحابه حيث جاءه رجل فقال : يا رسول الله إني مجهود... وهو ضيف رسول الله ﷺ فأرسل ﷺ إلى زوجاته الواحدة تلو الأخرى يسألها هل عندها شيء، فكانت كل واحدة تقول والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء، تسعة أبيات للرسول ﷺ ليس فيها إلا ماء مع أن النبي ﷺ لو شاء أن يسير الله الجبال معه ذهباً لسارت، لكنه ﷺ، كان أزهد الناس في الدنيا كل بيوته التسعة ليس فيها شيء إلا الماء وفي ذلك بيان حال رسول الله ﷺ وما كان عليه من شظف العيش وقلة ذات اليد)[2].

فرسول الله ﷺ كان في حياته مثالاً للزهد في الدنيا والإعراض عن ملذاتها. وزهده من الدلائل على صدق نبوته، فقد أقبلت عليه الدنيا -ولاسيما بعد فتح مكة- فلم يتحول عن سيرته في المأكل والملبس والأثاث.

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٣٠٠.

(٢) انظر: شرح رياض الصالحين ١/٨٢٣-٨٢٤.

ولندع الكلام إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها زوجه تصف حياته البسيطة ((إِنَّمَا كَانَ فِرَاشُ رَسُولِ اللّهِ ﷺ، الَّذِي يَنَامُ عَلَيْهِ، أَدَماً حَشْوُهُ لِيفٌ))[١]، ((مَا شَبِعَ آلُ مُحَمَّدٍ ﷺ، مُنْذُ قَدِمَ الْمَدِينَةَ، مِنْ طَعَامِ بُرٍّ، ثَلاَثَ لَيَالٍ تِبَاعاً. حَتَّى قُبِضَ))[٢].

ويُروى عن ابن عباس رضي الله عنهما انه قال: ((كَانَ رَسُولُ اللّه ﷺ، يَبِيتُ اللَّيَالِيَ الْمُتَتَابِعَةَ طَاوِياً وَأَهْلُهُ لاَ يَجِدُونَ عَشَاءً، وَكَانَ أَكْثَرُ خُبْزِهِمْ خُبْزَ الشَّعِيرِ))[٣].

وليس معنى هذا أنه اقتصر على هذه الأصناف من الطعام طيلة حياته، فقد رُوي أنه كان يحب الحلوى والعسل، وكان يأكل اللحم و الخضار والفواكه ولا يتناول من الطعام إلا ما يقيم أوده[٤].

ثانياً- من أساليب الدعوة: القسم:

من أساليب الدعوة التي تظهر من هذا الحديث أسلوب القسم، ويظهر ذلك في كل واحدة من قول زوجات النبي ﷺ: "والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء".

وأسلوب القسم من الأساليب الدعوية النافعة التي يمكن للداعية أن يفيد منها في دعوته وقد ورد القسم في آيات كثيرة من القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾[٥].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ۝١ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ﴾[٦].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡفَجۡرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ۝٢ وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾[٧].

---

(١) أخرجه مسلم ٢٠٨٢.

(٢) أخرجه البخاري ٥٤١٦، ومسلم ٢٩٧٠.

(٣) أخرجه الترمذي ٢٣٦٠، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٩٢٣).

(٤) مع الأنبياء في القرآن الكريم، عفيف عبدالفتاح طبارة ص ٤٣٩، ٤٤٠.

(٥) سورة الواقعة، الآيتان: ٧٥-٧٦.

(٦) سورة البروج، الآيات: ١-٣.

(٧) سورة الفجر، الآيات: ١-٤.

قال ابن حجر: (وأما ما وقع في القرآن من القسم بشيء من المخلوقات فقال الشعبي: فالخالق يقسم بما شاء من خلقه والمخلوق لا يقسم إلا بالخالق)[١].

قال رسول الله ﷺ: ((مَن كانَ حالِفاً فَلْيَحلِفْ باللهِ أو لِيَصْمُت))[٢]. فالحلف على الشيء يفيد توكيد المحلوف عليه باقترانه بما يعظم عند السامع والمتكلم. وفي هذا الحديث يعلمنا رسول الله ﷺ بمن نحلف ونؤكد أقوالنا إذا أردنا الحلف، ومن نعظم ويبين لنا أن نحلف بالله ولا نحلف بغيره، لأن التعظيم الحقيقي لا يكون إلا له سبحانه وتعالى وهو الجدير بالإجلال والإكبار[٣]. فأسلوب القسم من أساليب الدعوة التي يستخدمها الداعية في توكيد دعوته للمدعوين.

ثالثاً- من آداب المدعو: الاستجابة لدعوة النبي ﷺ:

على المدعو المسلم الاستجابة لتوجيهات النبي ﷺ، ويظهر ذلك في قول هذا الرجل الذي من الأنصار: أنا يا رسول الله عندما سأل النبي عمن يُضيف الرجل هذه الليلة.

فمن آداب المدعو أن يستجيب لدعوة النبي ﷺ، وقد جاءت الأحاديث الكثيرة عن النبي ﷺ في الدلالة على وجوب طاعته واتباع سنته منها قوله ﷺ: ((مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ. وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللّهَ. وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي. وَمَنْ عَصَىَ أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِي))[٤].

وقال رسول الله ﷺ: ((كلُّ أمتي يَدخلونَ الجنة إلا من أبى. قالوا: يا رسولَ الله ومن يأبى؟ قال: من أطاعني دخلَ الجنة، ومن عصاني فقد أبى))[٥].

وتواترت النصوص النبوية في الحث على اتباعه وطاعته، والاهتداء بهديه والاستنان

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١/٥٤٤.

(٢) أخرجه البخاري ٦٦٤٦، ومسلم ١٦٤٦.

(٣) انظر: الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي ص ٢٥٧.

(٤) أخرجه البخاري ٢٩٥٧، ومسلم ١٨٣٥.

(٥) أخرجه البخاري ٧٢٨٠.

بسنته، وتعظيم أمره ونهيه، ومن ذلك قول الرسول ﷺ: ((صلُّوا كما رَأَيْتُمُوني أُصَلِّي))[١] وقوله ﷺ: ((لِتَأْخُذُوا عَني مَنَاسِكَكُمْ))[٢].

فطاعة الرسول ﷺ هي المثال الحي الصادق لمحبته ﷺ، فكلما ازداد الحب، زادت الطاعات، ولهذا قال عز وجل: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٣][٤].

فاتباع رسول الله والاستجابة لدعوته أمر لازم على كل مسلم، وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يسارعون في الاستجابة لدعوة النبي ﷺ لهم في مواساة إخوانهم أو إكرامهم، واستضافتهم، أو إعانتهم أو غير ذلك من أوجه التعاون والتكافل، وذلك لحرصهم على تلبية دعوة النبي ﷺ وحبهم لإخوانهم.

رابعاً- من موضوعات الدعوة: فضل الإيثار والمواساة:

ويظهر ذلك في صنيع الأنصاري وزوجته بضيفهما وتقديمهما الطعام له رغم حاجتهما الشديدة هو وأطفالهما إلى ذلك حتى أن النبي ﷺ قال للأنصاري : (لقد عجب الله من صنيعكما الليلة).

ومعناه : الرضا من الله، فكأنه قال إن ذلك الصنيع حل من الرضا عند الله حلول العجب عندكم . والرضا من الله يستلزم الرحمة[٥].

ولعظم الإيثار والمواساة أثنى الله على فاعليهما وجعلهما من صفات أهل الإيمان فقال: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[٦] وقال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ

---

(١) أخرجه البخاري ٦٣١.

(٢) أخرجه مسلم ١٢٩٧.

(٣) سورة آل عمران، آية: ٣١.

(٤) محبة النبي ﷺ وتعظيمه، عبداللطيف بن محمد الحسن، بحث ضمن بحوث كتاب: حقوق النبي ﷺ بين الإجلال والإخلال ص ٨١-٨٢.

(٥) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٠١/٨.

(٦) سورة الحشر، آية: ٩.

ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾[١].

وقد كان من صفات النبي ﷺ "الإيثار"، وكان يدعو المسلمين إليه ومن الأمثلة التطبيقية من حياة النبي ﷺ في الإيثار، فعن سهل بن سعد رضي الله عنه ((قال: جاءَتِ امرأةٌ ببردةٍ - قال سَهلٌ: هل تدرون ما البردةُ؟ قال: نعم، هيَ الشملةُ منسوج في حاشيتها - قالت: يا رسولَ الله، إني نَسجتُ هذهِ بيدي أكسوكها، فأخذها رسولُ الله ﷺ محتاجاً إليها، فخرَجَ رسول الله ﷺ إلينا وإنها لإزارهُ، فجسها رجل منَ القوم فقال: يا رسولَ الله، اكسنِيها، قال: نعم: فجلسَ ما شاءَ اللهُ في المجلس، ثم رَجعَ فطواها، ثم أرسلَ بها إليه، فقال له القومُ: ما أحسنتَ، سألتها إياه وقد عَرَفتَ أنهُ لا يرُدُّ سائلاً، فقال الرجلُ: والله ما سألتها إلا لتكونَ كفني يومَ أموتُ. قال سهل: فكانت كفنَه))[٢].

فالإيثار والمواساة من صفات المؤمنين حقاً وثوابها عند الله عظيم. (ويتجلى أثر هذا الضمير الذي صنعه الإيمان بالله واليوم الآخر في مجال المواساة والإيثار بالمال والنفس بين الصحابة رضي الله عنهم فكان الرجل يحب، لأخيه ما يحب لنفسه، ويبذل له من ذات يده، ومن جهده ووقته ما يبذله لأعز بنيه عليه، وأحب أهليه إليه. وقد يرتقي الإيمان بأحدهم فيؤثر أخاه على نفسه فيجود له بالشيء، وهو أحوج ما يكون إليه كلي ذلك ولا قانون يلزمه، ولا حكومة تطالبه، ولا أجهزة تراقبه، ولا عقوبة تسلط عليه، إنما هو دافع الإيمان بين جنبيه، يحفزه على عمل الخير والتطوع بالبر، ابتغاء ما عند الله، وما عنده خير وأبقى)[٣].

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إنّ الأشْعَريينَ إذا أرملَوا في الغَزو أو قلّ طعامُ عِيالهم بالمدينةِ جَمعوا ما كان عندَهم في ثوبٍ واحد، ثمّ اقتَسَموهُ

---

(١) سورة الإنسان، الآيتان: ٨-٩.

(٢) أخرجه البخاري ١٢٧٧، ٥٨١٠، ٦٠٣٦.

(٣) الإيمان والحياة، د. يوسف القرضاوي ص ٢٤٤.

بينهم في إناءٍ واحدٍ بالسّوِيّةِ، فهم مِنّي وأنا منهم))[١].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ((قدم عبدُ الرحمن بن عوفٍ فآخى النبيُّ صلى الله عليه وسلم بينَه وبين سعدِ بن الرَّبيع الأنصاريّ، وعند الأنصاريِّ امرأتان، فعَرض عليهِ أن يُناصِفهَ أهلَه وماله. فقال: بارك الله لك في أهلكَ ومالك، دلُّوني على السُّوق، فأَتى السوقَ فَرَبحَ شيئاً مِن أقِط وشيئاً من سَمْن، فرآه النبيُّ صلى الله عليه وسلم بعدَ أيام وعليه وَضَرٌ من صُفْرَةٍ، فقال: مَهْيَمْ يا عبدَ الرحمن؟ فقال: تَزَوجتُ أنصاريةً. قال: فما سُقْتَ؟ قال: وزْنَ نَواةٍ من ذهَب. قال: أوْلِمْ ولَوْ بشاةٍ))[٢].

(١) أخرجه البخاري ٢٤٨٦، ومسلم ٢٥٠٠.

(٢) أخرجه البخاري ٥٠٧٢، ومسلم ١٤٢٧.

الحديث رقم (٥٦٤)

٥٦٤- وعنه، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: ((طَعَامُ الاثْنَيْنِ كَافِي الثَّلاَثَةِ، وَطَعَامُ الثَّلاَثَةِ كَافِي الأربَعَةِ)) متفقٌ عَلَيْهِ(١).

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

الحديث يعرض صورة من صور التكافل التي يُربِّي عليها الإسلام أفراده، كما يغرس خلق الإيثار، وينميه بالحث على مثل هذه الخصال، وقد ساق النبي ﷺ المعنى في صورة خبرية خالية من المؤكدات حقيقة مجردة، وكأن الخبر من الوضوح بحيث لا يتوقع وجود من يعارضه، وفي هذا إعلاء من شأن المعنى، وقوله: (طعام الاثنين كافي الثلاثة) قاعدة عامة تؤسس مبدأً عاماً في التكافل والإيثار، والتعبير باسم الفاعل (كافي) دون الفعل إشارة إلى ثبات الكفاية في كل حالة يطعم يتشارك فيها الثلاثة طعام الاثنين، والجملة الثانية (وَطَعَامُ الثَّلَاثَةِ كَافِي الْأَرْبَعَةِ) توكيد لمضمون معنى الجملة الأولى، وهي دعوة إلى المشاركة، والإيثار، ونهي ضمني بألا يضيق المسلم بأخيه في طعامه، وماله، وحسن خلقه ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

فقه الحديث

هذه الأحاديث تشير إلى:

استحباب الاجتماع على الطعام:

قال ابن حجر: (قال ابن المنذر: يؤخذ من حديث أبي هريرة استحباب الاجتماع على الطعام، وأن لا يأكل المرء وحده)(٢)، فيستحب تكثير الأيدي على الطعام، والأكل

---

(١) أخرجه البخاري ٥٣٩٢، ومسلم ٢٠٥٨/١٧٨ ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه ٣١٥٢. وسيكرره المؤلف برقم ٧٥٥.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٣٥/٩.

مـع جماعـة، لأنـه إذا اجتمعـت الأيـدي، وكانـت المواسـاة، وأكـل النـاس عظمـت البركة[١].

المضامين الدعوية[٢]

أولاً- من موضوعات الدعوة: الحث على الإيثار:

لقد بين النبي ﷺ أن طعام الواحد يكفي الاثنين، وأن طعام الاثنين يكفي الأربعة، وأن طعام الأربعة يكفي الثمانية، وهذا حث منه ﷺ على الإيثار، يعني أنك لو أتيت بطعامك الذي قدرت أنه يكفيك، وجاء رجل آخر فلا تبخل وتقول هذا طعامي وحدي، بل أعطه منه حتى يكون كافيًا للاثنين، وكذلك الاثنين والأربعة.

وإنما ذكر الرسول ﷺ هذا من أجل أن يعود الإنسان بفضل طعامه على أخيه[٣].

إن الإيثار مبدأ إسلامي قام النبي ﷺ بتربية أصحابه رضي الله عنهم عليه، ومن حكمة النبي ﷺ أنه لم يكتف بالتوجيهات النظرية في هذا المجال، بل إنه طبق ذلك عمليًا من خلال المواقف التي عاشها الصحابة رضى الله عنهم عمليًا، وكانوا نماذج رائعة ورائدة في الإيثار والتضحية، وكان ﷺ لا يفتأ يذكرهم ويحثهم على ذلك ومن قوله: ((مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لاَ ظَهْرَ لَهُ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لاَ زَادَ لَهُ))[٤].

ومن الصور العملية للإيثار ذلك الإيثار الذي حدث بين المهاجرين والأنصار حيث بلغت مشاعر الأخوة وتأثيراتها بين المهاجرين والأنصار أعلى درجات الأخوة ومشاعر الوحدة من الإيثار والسماحة والنبل؛ ولذلك شواهد عدة سجلها التاريخ وامتدحها الله

---

(١) المنتقى شرح الموطأ، سليمان بن خلف الباجي ٣٣٢/٤، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٢١٠/٤، وكشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٢٠٢/٥.

(٢) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -٥٦٤- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (٥٦٥).

(٣) انظر: شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين، ٨٣٦/١.

(٤) أخرجه مسلم ١٧٢٨.

عز وجل في محكم التنزيل وهي من الكثرة بمكان، تعج بها كتب السنة والسيرة والتاريخ والتراجم سواء ما كان منها في صفوف الرعيل الأول من المهاجرين والأنصار أو من جاء بعدهم وسار على نهجهم واقتفى أثرهم في فهم عقيدة الإسلام واعتناقها، وطبّق شريعته وارتبك بآصرة الأخوة الإسلامية ووحدة الأمة، ويكفي شاهدًا على ذلك قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَـٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[١].

ما ذكره الواقدي من أن الرسول ﷺ لما تحول من بني عمرو بن عوف (في قباء) إلى المدينة تحول أصحابه رضي الله عنهم من المهاجرين، فتنافست فيهم الأنصار أن ينزلوا عليهم حتى اقترعوا فيهم بالسهمان فما نزل أحد منهم على أحد إلا بقرعة سهم[٢].

أنزل الأنصار إخوانهم المهاجرين في منازلهم وأشركوهم في أموالهم وأحسنوا إليهم[٣]، وآووا رسول الله ﷺ، ومنعوه من الأحمر والأسود، وتبوؤوا دار الهجرة والإيمان حتى صارت موئلاً ومرجعًا يرجع إليه المؤمنون، ويلجأ إليه المهاجرون، ويسكن حماه المسلمون إذا كانت البلدان كلها بلدان حرب وشرك وشر، فلم يزل أنصار الدين يأوون إلى الأنصار، حتى انتشر الإسلام وقوي وجعل يزداد شيئًا فشيئًا[٤].

وقال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: "يحبون من هاجر إليهم" (أي: من كرمهم وشرف نفوسهم، يحبون المهاجرين ويواسونهم بأموالهم. وقوله: "ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا"، أي: ولا يجدون في أنفسهم حسدًا للمهاجرين فيما فضلهم الله به، من

---

(١) سورة الحشر، آية: ٩.

(٢) كتاب المغازي، الواقدي، تحقيق: مارسون جونس ٣٧٨/١.

- وانظر: دراسات في السيرة، عماد الدين خليل ص ١٥٣.

(٣) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني ٢٠١/٥.

(٤) تيسر الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٨٩.

المنزلة والشرف والتقديم في الذكر والرتبة)[١].

وقال القرطبي في معنى قوله تعالى: "ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة": (الإيثار هو تقديم الغير على النفس وحظوظها الدنيوية، ورغبة في الحظوظ الدينية، وذلك ينشأ عن قوة اليقيم وتوكيد المحبة، والصبر على المشقة، يقال: آثرته بكذا، أي: خصصته به وفضلته)[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ((قالتِ الأنصارُ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم: أقسِمْ بيننَا وبينَ إخوانِنا النَّخيلَ. قال: لا. فقالوا: تَكفونا المؤونةَ ونَشرَككم في الثمرةِ. قالوا: سمعنا وأطَعْنا))[٣]، فهذه صورة أخرى من الإيثار الذي اتصفت به الأنصار فقد أشركوا إخوانهم المهاجرين في أموالهم[٤].

فإن الإيثار الذي اتصف به الأنصار مع المهاجرين رضي الله عنهم من أروع الأمثلة وأعظمها في التاريخ الإنساني وهو من الأدلة الصادقة على كرم الأنصار وفضلهم، ومن الموضوعات المليئة بالعبر والعظات للمسلمين جميعًا.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: حصول البركة بالاجتماع على الطعام:

يظهر ذلك في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (طَعَامُ الاثْنَيْنِ كَافِي الثَّلاَثَةِ، وَطَعَامُ الثَّلاثَةِ كَافِي الأرْبَعَةِ، وَطَعَامُ الأرْبَعَةِ كَافِي الثَمَانِيَة) وذلك لحصول البركة بالاجتماع على الطعام).

قال النووي: (هذا فيه الحث على المواساة في الطعام وأنه وإن كان قليلاً حصلت منه الكفاية ووقعت فيه بركة تَعُم الحاضرين عليه)[٥].

فمن الآداب النبوية استحباب الاجتماع على الطعام، وأن اجتماعهم سبب لحلول

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٦٩/٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢٦/١٨/٩.

(٣) أخرجه البخاري ٣٥٧١.

(٤) انظر: تميز الأمة الإسلامية، د. إسحاق بن عبدالله السعدي ٥٣٤/١ - ٥٣٧.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٣٠٤.

البركة فيه، وكلما زاد عدد الآكلين زادت البركة[١].

وقد ورد عن وحشي بن حرب، عن أبيه عن جده: ((أنَّ أصْحَابَ النَّبيِّ ﷺ قالُوا: يَارَسُولَ الله إنَّا نَأْكُلُ وَلا نَشْبَعُ، قال: فَلَعَلَّكُم تَفْتَرِقُونَ؟ قالُوا: نَعَمْ، قال: فاجْتَمِعُوا عَلَى طَعَامِكُم وَاذْكُرُوا اسْمَ الله عَلَيْهِ يُبَارَكْ لَكُم فِيهِ))[٢].

ثالثًا- من أهداف الدعوة: حث المدعوين على الإيثار والكرم والمواساة:

فالإسلام يحث المسلمين فيما بينهم على التكافل والتناصر والمواساة امتثالاً لقول الله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[٣].

قال السعدي: (هذا عقد عقده الله بين المؤمنين أنه إذا وجد من أي شخص في مشرق الأرض ومغربها، الإيمان بالله، وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر، فإنه أخ للمؤمنين، أخوة توجب أن يحب له المؤمنون ما يحبون لأنفسهم ولهذا قال النبي ﷺ أمرًا بالأخوة الإيمانية «لاَ تَحَاسَدُوا، وَلاَ تَنَاجَشُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا، وَلاَ تَدَابَرُوا، وَلاَ يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ. وَكُونُوا، عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا. الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ. لاَ يَظْلِمُهُ، وَلاَ يَخْذُلُهُ، وَلاَ يَحْقِرُهُ. التَّقْوَى هَهُنَا))[٤].

وفيهما عن النبي ﷺ: ((المؤمنُ للمؤمنِ كالبُنيانِ يشُدُّ بعضُهُ بعضًا، وشَبَّكَ بينَ أصابعِهِ))[٥]، ولقد أمر الله ورسوله بالقيام بحقوق المؤمنين بعضهم لبعض، وما يحصل به التآلف والتواد والتواصل بينهم، كل هذا تأييد لحقوق بعضهم على بعض.... ثم أمر بالتقوى عمومًا، ورتب على القيام بالتقوى وبحقوق المؤمنين الرحمة فقال (لعلكم ترحمون) وإذا حصلت الرحمة حصل خير الدنيا والآخرة، ودل ذلك على أن عدم القيام بحقوق المؤمنين من أعظم حواجب الرحمة)[٦] فيكون بذلك من أهداف الدعوة

---

(١) كتاب الآداب، فؤاد عبدالعزيز الشلهوب ص ١٧١.

(٢) أخرجه أبو داود ٣٧٦٤ وحسنه الألباني، (صحيح سنن أبي داود ٣١٩٩).

(٣) سورة الحجرات، آية: ١٠.

(٤) أخرجه البخاري ٦٩٥١ ومسلم ٢٥٥٩.

(٥) أخرجه البخاري ٦٠٢٦.

(٦) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام الرحمن، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٧٤٤.

الإسلامية حث المدعوين على الإيثار والكرم والمواساة.

رابعًا- من أساليب الدعوة: الترغيب:

يظهر ذلك في قول النبي ﷺ "طَعَامُ الاثْنَيْنِ كَافِي الثَّلاَثَةِ ..." إلخ الحديث.

حيث رغّب رسول الله ﷺ في الاجتماع على الطعام وبين أن ذلك من أسباب بركته.

وأسلوب الترغيب من أساليب الدعوة التي تشوق المدعو إلى الاستجابة للدعوة وقبول الحق والثبات عليه، وذلك؛ لأن الأصل في الترغيب يكون في نيل رضى الله ورحمته وجزيل ثوابه في الآخرة[1].

فعلى الداعية استخدام أسلوب الترغيب مع المدعوين حتى يستثيرهم ويستنهض عزائمهم في التزام الإيثار في حياتهم، وإشاعته فيما بينهم، فتتحرر النفوس من الشح والبخل والأنانية، فيسعد الناس في حياتهم.

---

(١) انظر: الدعوة الإسلامية الوسائل والأساليب، محمد خير رمضان يوسف ص ٩٧.

الحديث رقم (٥٦٥)

٥٦٥- وفي رواية لمسلم عن جابر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قَالَ: ((طَعَامُ الوَاحِدِ يَكْفِي الاثْنَيْنِ، وَطَعَامُ الاثْنَيْنِ يَكْفِي الأَرْبَعَةَ، وَطَعَامُ الأَرْبَعَة يَكْفِي الثَّمَانِيَة)) [١].

ترجمة الراوي:

جابر بن عبدالله الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

المضامين الدعوية [٢]

---

(١) أخرجه مسلم ٢٠٥٩/١٧٩. أورده المنذري في ترغيبه ٣١٥٣. وسيكرره المؤلف برقم ٧٥٦.

(٢) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (٥٦٦)

٥٦٦- وعن أَبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ فِي سَفَرٍ مَعَ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذْ جَاءَ رَجُلٌ عَلَى رَاحِلَةٍ لَهُ، فَجَعَلَ يَصرِفُ بَصَرَهُ يَميناً وَشِمَالاً، فَقَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **((مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لا ظَهرَ لَهُ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ، فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لا زَادَ لَهُ))** فَذَكَرَ مِنْ أصْنَافِ المالِ مَا ذكر، حَتَّى رَأيْنَا أنَّهُ لاَ حَقَّ لأحَدٍ مِنَّا فِي فَضْلٍ. رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو سعيد الخدري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٠).

غريب الألفاظ:

الراحلةُ: الناقة التي تصلح لأن يُرحل عليها[2].

فضل ظهر: مركوب فاضل وزائد عن حاجته[3].

الشرح الأدبي

قوله (فجعل يصرف بصره يميناً، وشمالاً) كناية عن البحث والحيرة التي تدل على الحاجة، مما استلزم الدعوة للتكافل وقد بني الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حديثه في الدعوة للتكافل على أسلوب الشرط، وأسلوب الشرط يعلق الجزاء على الفعل، ويتميز بشدة الاتصال مع التشويق الذي يثيره فعل الشرط لمعرفة جوابه واستخدام(مَنْ) كأداة للشرط وهي لعموم من يعقل، وكأنها تنادي من له أدنى عقل بالاستجابة، وقوله: (فضل ظهر) المقصود به الدابة، وهو مجاز مرسل علاقته الجزئية؛ لأنه عبر بالجزء وهو الظهر، وأراد الكل وهو الدابة،وفضل المجاز على الحقيقة أن لفظ (الظهر) يعين نوع الفائدة المرادة

---

(١) برقم ١٧٢٨/١٨. وسيكرره المؤلف برقم ٩٧٠.

(٢) معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ١٩٣.

(٣) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٨٥٣، معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ٢٦٧، ٣١٦.

من الجنس ليوازي ما عطف على هذه الجملة من الزاد، وغيره، والظهر أيضاً أدل على شدة الحاجة إليه للركوب، أو الحمل، وتعبيره ﷺ بلفظ المعية (معه)، لأنه أعم من حروف الملكية والاختصاص، وأصدق وأولى في التآزر منها، وأشمل في بذل المنفعة، وأنفى للاستئثار، والشعور بالتملك في مواطن الإيثار، وتنكيره ﷺ لكلمة (ظهر) للتقليل إشارة إلى أن الشيء مهما قل ففيه المشاركة والتعاون، وتحقيق التكافل الذي أمر به الإسلام، وحتى لا يحقر إنسان فضل ما عنده، فيكون تنكيره أعود بالنفع على المؤمنين، فالتكافل شعور، وإحساس بحال الآخرين قبل أن يكون فعل، حتى يعم مبدأ التكافل بين الأغنياء، والفقراء، وبين الفقراء فيما بينهم كل بما يستطيع، وهو ذكاء شديد من النبي ﷺ وأسلوب عالٍ في تحقيق تماسك المجتمع بتعاون الجميع، وهذا ما حققه بأسلوبه حيث وضع كلمة (ظهر) و(زاد) وهما مركز الحديث، منكرتين لإفادة التقليل الذي يستوعب ما قل من فضل الظهر والزاد، حتى يشارك كل فرد في التكافل، ولا يَحْتَجَّ أحد بقلة ذات اليد، والأمر في قوله ﷺ: (فليعد به) في الجملتين بالعودة يشعر بانصراف الطبع عما ينبغي من حب النفس، وإيثارها بالمال إلى ما يليق بالرجوع إلى ما هو الأفضل في تماسك الفرد بالجماعة، وقد جعل الإسلام الضعيف أمير الركب حتى يحس بالعزة والكرامة فتقوى نفسه، ويزداد إيمانه بعدالة الإسلام ورحمة المجتمع فيرتفع عن الحقد، ويسمو عن الحسد، ولا يعرف الشماتة[(١)(٢)].

فقه الحديث

قال النووي: (فيه مواساة ابن السبيل والصدقة عليه إذا كان محتاجًا، وإن كان له راحلة وعليه ثياب، أو كان موسرًا في وطنه، ولهذا يعطى من الزكاة في هذه الحال)[(٣)].

---

(١) انظر: الحديث النبوى من الوجهة البلاغية ص ٣٠٤.

(٢) انظر: بلاغة الرسول ﷺ في تقويم الأخطاء د ناصر راضي الزهري ص ٥٩.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٣٠/١٢/٦.

المضامين الدعوية

ثانيا: من صفات النبي ﷺ: الفطنة والذكاء.

أولاً- من آداب المدعو: التعفف والترفع عن المسألة:

يظهر ذلك في قول أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: "بينما نحن في سفر مع النبي ﷺ إذ جاء رجل على راحلة له، فجعل يصرف بصره يميناً وشمالاً دون أن يسأل أحداً حاجته تعففاً وترفعاً عن المسألة".

فعن رسول الله ﷺ أنه قال: ((الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى. وَالْيَدُ الْعُلْيَا الْمُنْفِقَةُ. وَالسُّفْلَى السَّائِلَةُ))[1].

وقد بين رسول الله ﷺ أن السؤال ذل في الدنيا، وعذاب وفضيحة في الآخرة[2]، وفي ذلك يقول ﷺ: ((مَنْ سَأَلَ النَّاسَ أَمْوَالَهُمْ تَكَثُّراً، فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْراً. فَلْيَسْتَقِلَّ أَوْ لِيَسْتَكْثِرْ))[3]. وكذلك: مَنْ سَأَلَ وَعِنْدَهُ مَا يُغْنِيهِ فإِنَّمَا يَسْتَكْثِرُ مِنَ النَّارِ[4].

ومن تمام الاستعفاف أن بعض الصحابة رضي الله عنهم كانوا يبايعون رسول الله ﷺ على ألا يسألوا الناس شيئاً، ويصف الراوي حالهم بعد رسول الله فيقول: فَلَقَدْ كَانَ بَعْضُ أُولَئِكَ النَّفَرِ يَسْقُطُ سَوْطُهُ فَمَا يَسْأَلُ أَحَداً أَنْ يُنَاوِلَهُ إِيَّاهُ[5].

فالمسلم يتعفف ويترفع عن مسألة الخلق، فلا تكون مسألته إلا لله ينتظر الفرج منه سبحانه ففي الحديث: ((مَنْ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ. فَأَنْزَلَهَا بِالنَّاسِ لَمْ تُسَدَّ فَاقَتُهُ وَمَنْ أَنْزَلَهَا بِاللهِ أَوْشَكَ اللهُ لَهُ بِالْغِنَى إِمَّا بِمَوْتٍ عَاجِلٍ أو غِنًى عَاجِلٍ))[6].

---

(١) أخرجه مسلم ١٠٣٣.

(٢) انظر: هذه أخلاقنا، محمود محمد الخزندار ص ٣٦٤

(٣) أخرجه مسلم ١٠٤١.

(٤) أخرجه أبو داود ١٦٢٩، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ١٤٣٥).

(٥) أخرجه مسلم ١٠٤٣.

(٦) أخرجه أبو داود ١٦٤٥ وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ١٤٤٨).

ثانياً- من صفات النبي ﷺ: الفطنة والذكاء:

حيث فطن النبي ﷺ لحال الرجل: الذي يصرف بصره يميناً وشمالاً دون أن يتكلم وهذا من فطنته وذكاء عقله ﷺ. (وأما وفور عقله وذكاء لبه وقوة حواسه وفصاحة لسانه واعتدال حركاته وحسن شمائله فلا مرية أنه كان أعقل الناس وأذكاهم، ومن تأمل تدبير أمر بواطن الخلق وظواهرهم وسياسة العامة والخاصة مع عجيب شمائله وبديع سيره فضلاً عما أفاضه من العلم وقَدَّرَهُ من الشرع دون تعلم سبق ولا ممارسة تقدمت ولا مطالعة للكتب منه: لم يمتر في رجحان عقله وثقوب فهمه لأول بديهة، وهذا مما لا يحتاج إلى تقريره لتحققه، وقد قال وهب بن منبه قرأت في أحد وسبعين كتاباً فوجدت في جميعها أن النبي ﷺ أرجح الناس عقلاً وأفضلهم رأياً وفي رواية أخرى فوجدت في جميعها أن الله تعالى لم يعط جميع الناس من بدء الدنيا إلى انقضائها من العقل في جنب عقله ﷺ إلا كحبة رمل من بين رمال الدنيا)[1].

ورسول الله ﷺ اصطفاه الله تعالى لرسالته والله لا يصطفي لرسالته إلا من يتمتع بصفة الفطانة التامة والعقل الراجح.

ومما يدل على فطانة نبينا محمد ﷺ آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾[3].

فتحريك الرسول ﷺ لسانه بالقرآن لحفظه عند نزول الوحي من فطانته وذكائه، وكذلك تعجله بترديد آياته من قبل أن يقضي إليه وحيه من كمال فطانته وذكائه[4].

---

(١) الشفا بتعريف المصطفى ١٥٦/١.

(٢) سورة القيامة، الآيتان: ١٦-١٧.

(٣) سورة طه، آية: ١١٤.

(٤) انظر: العقيدة الإسلامية وأسسها، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني ص ٣٨٠.

ثالثاً- من واجبات الداعية: دعوة الناس إلى التعاون والمواساة والتكافل الاجتماعي:

يظهر ذلك في قول رسول الله ﷺ: "من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل من زاد، فليعد به على من لا زاد له". والداعية إلى الله له في رسول الله ﷺ أعظم قدوة، فما كان جناب الرسالة مانعاً له ﷺ من مشاركة أصحابه، وتقديم العون لهم، ومن ذلك مشاركته ﷺ أصحابه في بناء مسجده في المدينة، يقول أنس رضي الله عنه: وجعلوا ينقلون الصخر وهم يرتجزون والنبي معهم وهو يقول: اللهم لا خير إلا خير الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة[1]، ومن حديثه ﷺ: ((المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً وشبك بين أصابعه))[2].

(ذلك مثل المؤمن للمؤمن، فهو معه كالبنيان يشد بعضه بعضاً فالمؤمنون شأنهم التعاون والتناصر، والتظاهر والتكاتف على مصالحهم الخاصة والمصالح العامة: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾[3].

ولقد مثل الرسول ﷺ اتحاد المسلمين ومعونة بعضهم لبعض بالتشبيك بين أصابعه. وإدخال بعضها في خلال بعض، ولاشك أن ذلك يزيد من متانة كل إصبع ويعطي كل يد قوة إلى قوتها؛ كذلك المسلمون إذا تضامت أيديهم، وتظاهرت قواهم، وتحابّت نفوسهم؛ وتساندت أممهم، زادوا قوة، وخلقوا لهم عزة فدانت الأمم لسلطانهم وخضعت لأمرهم ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[4].

فيا أيها المسلمون ذلكم رسولكم، وأسوتكم وإمامكم، يرشدكم إلى سلاح ماضٍ وجيش غلاب، وعدة عتيدة تنفعكم في البأساء والضراء، وتدفع عنكم الأعداء وتزيل عنكم الاستعباد، وترد إليكم العزة الماضية، والكرامة الراحلة، وتبوئكم

---

(١) أخرجه البخاري ٤٢٨، ومسلم ٥٢٤.

(٢) أخرجه البخاري ٤٨١، ومسلم ٢٥٨٥.

(٣) سورة المائدة، آية: ٢.

(٤) سورة المنافقون، آية: ٨.

المكانة العالية ذلكم هو سلاح الائتلاف، والاتحاد والوفاق، سلاح ضم اليد إلى اليد. ومعونة الأخ للأخ، وترك النزاع جانباً، والعداء ظهرياً. فاستمعوا لإرشاده، واعملوا بنصحه فإنه من يطع الرسول أطاع الله، ومن يعصه عصاه واذكروا قوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾[1]، وقوله: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[2][3].

فالداعية يجب أن يدعو الناس إلى أن يتعاونوا فيما بينهم في سد خلة فقيرهم أو الشفاعة الحسنة في قضاء حاجة محتاجهم، أو غير ذلك من شتى صور التعاون[4]. (والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه)[5].

رابعاً- من أهداف الدعوة: تنمية روح التكافل والتعاون بين الناس:

يظهر ذلك في دعوة النبي ﷺ أصحابه إلى مساعدة وإعانة محتاجهم وفقيرهم وفي ذلك تنمية لروح التكافل والتعاون بين الناس، والتكافل صفة شاملة لصور كثيرة من التعاون والتآزر والمشاركة في سد الثغرات تتمثل في تقديم العون والحماية والنصرة والمواساة إلى أن تقضي حاجة المضطر، ويزول هم الحزين، ويندمل جرح المصاب، وغاية الإسلام من هذا كله أن يطهر المجتمع من الفقر الذي كاد يكون كفرًا، وأن يحفظ للفقراء قواهم البدنية بهذه الرعاية والكفالة؛ فإن لهم أفواهًا ومعًى وأجسادًا، ولهم قلوب ومشاعر وعواطف، ولهم كرامة، ولا بد من أن تصان هذه الأجسام، وأن تراعى هذه القلوب والمشاعر، وأن تحفظ هذه الكرامات.

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٠٣.

(٢) سورة الأنفال، آية: ٤٦.

(٣) الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي ص ٥٩-٦١.

(٤) انظر: كتاب الآداب، فؤاد عبدالعزيز الشلهوب، ٣٢٩، ٣٣٠.

(٥) أخرجه مسلم برقم ٢٦٩٩.

وما ينبغي أن تهدر كرامة فقير، والفقر هو أعظم مهدر للكرامة، ولا أن تضعف جسومهم، والفقر هو أعظم معول لهدم الجسم، ولا أن ينظر إلى الفقراء نظرة ازدراء واحتقار، فقد يكون لهم من الملكات والقدرات، ومن القوى العقلية ما يستطيعون بها أن يصلوا إلى القمة من السيادة، والقيادة، والعلم، والعمل[1].

وقد ضرب أنصار رسول الله ﷺ أكبر الأمثلة في التكافل مع إخوانهم المهاجرين، وكان منها أن أشاروا على رسول الله ﷺ يقسم النخل بينهم وبين المهاجرين فقال: لا، فقال الأنصار (تكفونا المؤونة ونشرككم في الثمرة)[2]. وبذلك عمل بعض المهاجرين في بساتين الأنصار، وقاسموهم الثمار، وحلت مشكلة البطالة والفقر، وكان من صور تكافلهم أن المهاجر كان يرث أخاه الأنصاري دون ذوي رحمة[3]. للأخوة التي آخى رسول الله ﷺ بينهما وكانت مرحلة استصفت النفوس، وأخلصتها لله، ثم نسخ ذلك، وهذا التكافل والتعاون لا يبرز بأسمى صوره، إلا كلما تعمقت معاني الأخوة والإيثار، واندثرت جذور الأنانية والاستئثار. فإن المجتمع الذي تنمو فيه روح التكافل والتعاون لهو المجتمع المتماسك الذي تسود فيه المحبة والفضيلة. وتتلاشى منه الكراهية والرذيلة، لا يضيع فيه عاجز ولا مسكين، والحد الأدنى في ذلك هو فريضة الزكاة -الركن الثالث في الإسلام- والتي يقوم عليها حراس ثلاثة: حارس من داخل ضمير الفرد المسلم، وهو الإيمان، وحارس من داخل المجتمع وهو الرأي العام المسلم، وحارس من قِبل الدولة وهو القانون والسلطان: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾[4].

وفي الحديث: ((ليس بمؤمن من بات شبعان وجاره إلى جانبه جائع))[5].

---

(١) هذه أخلاقنا، محمود محمد الخزندار ص ١٧٣، وعناصر القوة في الإسلام، السيد سابق ص ١٢٧.

(٢) أخرجه البخاري ٢٧١٩، والفتح ٣٨٠/٥

(٣) أخرجه البخاري ٤٥٨٠، الفتح ٩٦/٨.

(٤) سورة التوبة، آية: ١٠٣.

(٥) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١١٢، وصححه الألباني (صحيح الأدب المفرد ٨٢).

والتكافل الإسلامي يستوعب كل جوانب الحياة: مادية، ومعنوية، فهو تكافل معيشي وعلمي وأدبي وعسكري إلى غير ذلك من المجالات التي فصلها الدكتور مصطفى السباعي في كتابه "اشتراكية الإسلام"[1].

(١) هذه أخلاقنا، محمود محمد الخزندار ص ١٧٤، والإسلام حضارة الغد ص ١٨٩.

الحديث رقم (٥٦٧)

٥٦٧- وعن سهل بن سعدٍ رضي الله عنه: أنَّ أمْرَأَةً جَاءَتْ إِلَى رسول الله ﷺ بِبُرْدَةٍ مَنْسُوجَةٍ[١]، فَقَالَتْ: نَسَجْتُها بِيَدَيَّ[٢] لأَكْسُوكَهَا، فَأَخَذَهَا النَّبِيُّ ﷺ مُحْتَاجاً إِلَيْهَا، فَخَرَجَ إِلَيْنَا وَإِنَّهَا إِزَارُهُ[٣]، فَقَالَ فُلانٌ: اكْسُنِيهَا مَا أَحْسَنَهَا[٤]! فَقَالَ: ((نَعَمْ)) فَجَلَسَ النَّبِيُّ ﷺ في المَجْلِسِ، ثُمَّ رَجَعَ فَطَوَاهَا، ثُمَّ أرْسَلَ بِهَا إِلَيْهِ: فَقَالَ لَهُ الْقَوْمُ: مَا أحْسَنْتَ[٥]! لَبِسَهَا النَّبِيُّ ﷺ مُحتَاجاً إِلَيْهَا، ثُمَّ سَأَلْتَهُ وَعَلِمْتَ أنَّهُ لا يَرُدُّ سَائِلاً، فَقَالَ: إنّي وَاللهِ مَا سَأَلْتُهُ لأَلْبسَهَا، إنَّمَا سَأَلْتُهُ لِتَكُونَ كَفَنِي. قَالَ سَهْلٌ: فَكَانَتْ كَفَنَهُ[٦]. رواه البخاري[٧].

ترجمة الراوي:

سهل بن سعد الساعدي: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٧٥).

غريب الألفاظ:

البردة: كساء مخطط يُلتحفُ به[٨].

الإزار: ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن من السرة إلى ما تحتها ويسمى كذلك المئزر[٩].

فطواها: أي ضم بعضها على بعض[١٠].

---

(١) عند البخاري زيادة: (فيها حاشيتها، أتدرون ما البردة؟ قالوا: الشملة، قال: نعم).

(٢) عند البخاري زيادة: (جئت).

(٣) لفظ البخاري: (فحسنها فلان، فقال).

(٤) إلى هنا لفظ البخاري برقم ١٢٧٧.

(٥) إلى هنا لفظ البخاري برقم ٢٠٩٣.

(٦) إلى هنا رواية البخاري برقم ١٢٧٧.

(٧) برقم ١٢٧٧، و٢٠٩٣. وقد بيّن الزيادات في كل رواية الحميدي في جمعه ٥٥٦/١، رقم ٩٢٥ والمؤلف جمع بين الروايتين من دون توضيح.

(٨) الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ب ر د).

(٩) معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ٣٥، ٣٦٦.

(١٠) الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ط و ى).

الشرح الأدبي

الحديث يحكي موقفا من مواقف الإيثار التي كثرت في حياة النبي ﷺ حتى أنه كان لا يبقي في بيته مالا، ولا طعاما إلا أنفقه على الفقراء، والمحتاجين، وقول المرأة التي أهدت البردة للرسول ﷺ (نَسَجْتُها بِيَدَيَّ لأَكْسُوكَهَا) يدل على التقدير، والمحبة، والإكرام لرسول ﷺ دل عل ذلك نسبة فعل النسج لنفسها في قولها نسجتها، وتقديم الجار والمجرور (بيدي) لتأكيد الفعل واللام الدالة على السببية، والتعبير بالكسوة، وقوله (مُحْتَاجاً إِلَيْهَا) يشير إلى عدم وجود غيرها ويدل على ذلك سرعة استخدامها (فَخَرَجَ إِلَيْنَا وَإِنَّهَا إِزَارُهُ) والتوكيد على أنها صارت على جسده الشريف، وقول الرجل (اكْسُنِيهَا) لعلمه أنه لا يرد سائلا، وقوله (مَا أَحْسَنَهَا!) أسلوب تعجب يوهم إعجابه بها ليخفي غرضه الحقيقي، وهو رغبته في أن تكون كفنا له بعد أن مسَّت جسد النبي ﷺ، وانظر إلى إيثار الرسول ﷺ وحسن خلقه رغم حاجته إليها (فَقَالَ: ((نَعَمْ)) فَجَلَسَ النَّبيُّ ﷺ فِي المَجْلِسُ) أعلمه بقبوله حتى لا يظن أنه رده فيقع في الحرج ثم إنه لم يعطه إياها في المجلس لكي لا يقع الرجل في الحرج أمام الناس لأنه سأله ثوبه الذي على جسده (ثُمَّ رَجَعَ فَطَوَاهَا، ثُمَّ أَرْسَلَ بِهَا إِلَيْهِ) والطي يدل على حرصه أن تصله في السر، ولذلك أرسلها بعد فترة دلت عليها ثم بينما استخدم الفاء المؤذنة بالسرعة في عطف فعل الطي الذي يدل على العزم في إعطائها له، وقوله (فَقَالَ لَهُ الْقَوْمُ: مَا أَحْسَنْتَ! لَبِسَهَا النَّبيُّ ﷺ مُحتَاجاً إِلَيْهَا) يدل على دور الجماعة في تقويم الفرد إذا أخطأ، وبيان الصواب، ورده إليه، وإجابة الرجل تدل على حسن نيته، وأنه لم يرغب في البردة ذاتها، وإنما طمع فيها لمسها جسد رسول الله ﷺ فأراد أن تكون كفنه، وقد صدق كما سجل الراوي.

فقه الحديث

١-تحصيل ما لا بد للميت منه حال حياته:

قال ابن حجر: (يستفاد منه جواز تحصيل ما لا بد منه من كفن ونحوه في حال حياته، وهل يلتحق بذلك حفر القبر، قال ابن بطال: فيه جواز إعداد الشيء قبل وقت الحاجة إليه، قال: وقد حفر جماعة من الصالحين قبورهم قبل الموت، وتعقبه الزين بن

المنير بأن ذلك لم يقع من أحد من الصحابة، قال: ولو كان مستحبًا لكثر فيهم)[١].

٢-جواز استحسان الإنسان ما يراه على غيره من الملابس وغيرها:

قال ابن حجر: (فيه جواز استحسان الإنسان ما يراه على غيره من الملابس وغيرها إما ليعرفه قدرها وإما ليعرض له بطلبه منه حيث يسوغ له ذلك)[٢].

٣-مشروعية الإنكار ولو لم يبلغ المنكر درجة التحريم:

قال ابن حجر: (فيه مشروعية الإنكار عند مخالفة الأدب ظاهرًا وإن لم يبلغ درجة التحريم)[٣].

المضامين الدعوية

أولاً: من آداب المدعو: محبة النبي ﷺ.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على التبرك بآثار النبي ﷺ

أولاً- من آداب المدعو: محبة النبي ﷺ:

يظهر ذلك في قول المرأة التي أهدت البردة للنبي ﷺ: "نسجتها بيدي لأكسوكها" ففعلها وقولها دلا على محبتها الشديدة للنبي ﷺ.

وحب المسلم لرسول الله ﷺ أصل عظيم من أصول الإيمان يتوقف على وجوده وجود الإيمان، فلا يدخل المسلم في عداد المؤمنين الناجين حتى يكون رسول الله ﷺ أحب إليه من نفسه التي بين جنبيه بل ومن الناس أجمعين[٤].

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[٥].

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣/١٤٣-١٤٤ ط/ السلفية.

(٢) المرجع السابق ٣/١٤٤.

(٣) المرجع السابق ٣/١٤٤.

(٤) انظر: محبة الرسول ﷺ بين الاتباع والابتداع، عبدالرؤوف محمد عثمان ص ٤٢.

(٥) سورة التوبة، آية: ٢٤.

قال القاضي عياض في شرح الآية: (فكفى بهذا حضاً وتنبيهاً ودلالة وحجة على إلزام محبته، ووجوب فرضها، وعظم خطرها، واستحقاقه لها ﷺ، إذ قرَّعَ الله من كان ماله وأهله وولده أحب إليه من الله ورسوله، وتوعدهم بقوله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾، ثم فسقهم بتمام الآية، وأعلمهم أنهم ممن ضل ولم يهده الله)[1].

فألزم سبحانه وتعالى المسلم بتوجيه قلبه إلى الله وتعلق فؤاده برسول الله ﷺ حباً وودأ؛ وإجلالاً لمقامه واعترافاً بفضله، فهو الذي وصلك ووصل الإنسانية بحبل الله بعد انقطاعها عنه أمداً بعيداً. وقدم الله حب رسوله عليه السلام على أعز ما لدى الإنسان في حياته الدنيا من أهل وعشيرة وأموال ومساكن بل توعّد تعالى كل عبد تعز عنده هذه الأمور، حتى تصير أحب إليه من السعي لرضوان الله والجهاد في سبيله، ومن حب رسل الله ﷺ واتباع أمره، وتوعد من تردى إلى هذه الحال بعقاب في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما معاً. ووصفه تعالى بالفسق وأبان أنه ممن ضل فحرمه الله هدايته إلى تحقيق إيمانه.

وأنت ترى أي مكانة لرسول الله ﷺ عند ربه، حتى قدم حبه وما يستلزمه من طاعته على الجهاد في سبيل الله، فإن الجهاد لا يكون إلا بمحبة رسول الله ﷺ والتفاني في طاعته. فمن لوازم المحبة الطاعة. كقول الشاعر:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ... هذا لعمري في القياس بديع

لو كان حبك صادقاً لأطعته ... إن المحبّ لمن يُحب مطيع

عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإيمان: أَنْ يَكونَ اللّهُ ورسولُه أحبَّ إليهِ مِمَّا سِواهُما، وأنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إلاّ للّه، وأنْ يَكرَهَ أنْ يَعودَ في الكُفرِ كما يكرَهُ أنْ يُقذَفَ في النَّار))[2].

---

(١) الشفا ٣٨١.

(٢) أخرجه البخاري ١٦، ٢١، ٦٠٤١، ومسلم ٤٣.

فتذوق المسلم حلاوة الإيمان والالتذاذ بنعيمه موقوف على التحلي بخصال ثلاث، أولها وأجلّها حب الله ورسوله حباً جماً يهون في سبيله كل نفيس وعزيز. ولعمري هذا ركن في الدين ركين تتوقف عليه سعادة الدنيا والآخرة.

وعن أنس رضي الله عنه: ((أنَّ رجُلاً سأل النبيَّ ﷺ عن الساعةِ فقال: متى الساعةُ؟ قال: وماذا أعدَدْتَ لها؟ قال: لاشيء، إلاّ أني أحبُّ اللّهَ ورسوله ﷺ. فقال: أنتَ مع من أحببت))[1].

وفي رواية ابن مسعود رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال: ((المرءُ معَ من أحبَّ))[2].

وفي رواية لأنس رضي الله عنه عند البخاري أيضاً أن رسول الله ﷺ قال للرجل: ((إنكَ معَ من أحبَبْت. فقلنا: ونحنُ كذلك؟ قال: نعم. ففَرحنا يومئذ فرَحاً شديداً))[3].

فهنيئاً لمن بلغ تلك المنزلة وارتقى إلى تلك الرتبة وفاز بتلك الصحبة[4].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: قبول الهدية وإدخال الفرحة على مهديها:

يظهر ذلك من خلال قبول رسول الله ﷺ هدية المرأة التي أهدت إليه البردة، وكان ﷺ لا يرد هدية ويثيب عليها صلوات الله وسلامه عليه، وهذا من كرمه وحسن خلقه[5].

وقبول الهدية وإدخال السرور على مهديها أمر دعا إليه الإسلام، قال تعالى: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾[6] وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾[7]. ومن السنة ((يا نساءَ المسلماتِ، لا تَحقِرَنَّ جارةٌ لجارتها ولو

---

(١) أخرجه البخاري ٦١٧١، ومسلم ٢٦٣٩.

(٢) أخرجه البخاري ٦١٦٩، ومسلم ٢٦٤٠.

(٣) أخرجه البخاري ٦١٦٧، ومسلم ٢٦٣٩، ٢٩٥٣.

(٤) نبوة محمد ﷺ، د. حسن ضياء الدين العنزي ص ٣٤١ - ٣٤٣.

(٥) انظر: شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين ٨٣٦/١.

(٦) سورة النساء، آية: ٤.

(٧) سورة البقرة، آية: ١٧٧.

فِرْسَنَ شاةٍ))(١)، وقوله ﷺ: ((لو دُعيتُ إلى ذراعٍ أو كُراعٍ لأجَبتُ، ولو أُهدِيَ إليَّ ذراعٌ أو كُراعٌ لقَبِلتُ))(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ((كان رسولُ الله ﷺ يَقبلُ الهديةَ ويُثيبُ عليها))(٣)، وقال ﷺ: ((تَصافَحُوا يَذْهَبِ الغِلُّ. وَتَهادُوا تَحابُّوا، وَتَذْهَبِ الشَّحْنَاءُ))(٤).

ثالثاً-من صفات الداعية: الإيثار والمواساة للمدعوين:

يظهر هذا في إعطاء النبي ﷺ البردة لمن سأله إياها رغم حاجته إليها.

والإيثار والمواساة من الصفات التي ينبغي أن يتحلى بها الداعية في دعوته لأن الإسلام دعا إليها ومدح صنيعهما، قال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾(٥).

وقال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾(٦).

قال رسول الله ﷺ: "إن في الجنة غُرفاً يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها"، فقال أبو مالك الأشعري: لمن هي يا رسول الله، قال: "لمن أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وبات قائماً والناس نيام)(٧). فحري بالداعية أن يتصف بالإيثار والمواساة في تعامله مع المدعوين.

---

(١) أخرجه البخاري ٢٥٦٦، ومسلم ١٠٣٠.

(٢) أخرجه البخاري ٢٥٦٨.

(٣) أخرجه البخاري ٢٥٨٥.

(٤) أخرجه مالك في الموطأ ٣٨٨٠، وقال ابن عبدالبر في التمهيد: وهنا يتصل من وجوه شتى حسان كلها، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والمسانيد، ابن عبد البر، ضمن موسوعة شروح الموطأ، تحقيق د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١١٤/٢٢.

(٥) سورة الحشر، آية: ٩.

(٦) سورة الإنسان، الآيتان: ٨-٩.

(٧) أخرجه الحاكم في المستدرك، ٨٠/١ رقم ٢٧٨، وصححه على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

لأن الإيثار يوجد عند المؤمنين الصادقين، الذين يعاملون الله تعالى، ويبتغون رضوانه، ويرجون الأجر عنده. فهؤلاء هم الذين تتسع دائرة الإيثار عندهم، فحيثما وجدوا مرضاة الله في إيثار غيرهم على أنفسهم، توقد في قلوبهم الإيمان، فآثروا على أنفسهم ابتغاء مرضاة الرحمن، ولو كان بهم خصاصة: "أي ضرورة أو حاجة" وقَدَّموا مصالح أنفسهم الدنيوية ضحايا وقرابين لتذبح على مذبح ابتغاء الخير والفضيلة، جوداً بها، وعطاءً غير محدود، وقد يبلغ بهم جود الإيثار أن يقدموا أرواحهم وحياتهم ضحايا، فداء لغيرهم، ولكن ابتغاء مرضاة الله[1]. والإيثار أوسع أبواب العطاء وأكثر مجالات الإنفاق، وهو قيمة خلقية رفيعة تسود كل الخصال السامية التي تشكل بمجملها الإطار الكامل للأريحية المعطاءة الباذلة التي تسعد بالبذل مثلما يسعد الآخرن بالأخذ وهي أريحية تمم البناء النفسي الصحيح، وهو عنوان علو الهمة وشرف النفس، ودليل الكرم.

كما أن الإيثار علامة على المروءة لأن من المروءة أن يبذل الإنسان ماله عند الحاجة، ونفسه عند النكبة، ويحفظك عند المغيب[2].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على التبرك بآثار النبي صلى الله عليه وسلم:

إن من موضوعات الدعوة التي تستنبط من هذا الحديث حرص الصحابة رضي الله عنهم على التبرك بآثار النبي صلى الله عليه وسلم، ويظهر ذلك في قول الرجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: اكسنيها، وعندما أنكر عليه الصحابة رضي الله عنهم فعله قال: "إني والله ما سألته لألبسها إنما سألته لتكون كفني".

وقد اتفق العلماء على مشروعية التبرك بآثار النبي صلى الله عليه وسلم وأورد علماء السيرة والشمائل والحديث أخباراً كثيرة تمثل تبرك الصحابة الكرام رضي الله عنهم بأنواع متعددة من آثاره منها[3]: التبرك بوضوئه ونخامته صلى الله عليه وسلم. وفي ذلك قال عروة بن مسعود الثقفي حين فاوض النبي صلى الله عليه وسلم في صلح الحديبية لما رجع إلى قريش: ((فوالله ما تَنَخَّمَ رسولُ الله

---

(١) الوجيزة في الأخلاق الإسلامية، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني ص ٤٢٤.

(٢) إتمام فتح الخلاق في مكارم الأخلاق، للرجوي، تحقيق: علاء الدين زعتري ص ٦٣، ١٠٨.

(٣) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٠/٧٠.

نُخَامَةً إلاَّ وَقَعَتْ فـي كـفِّ رجلٍ مِنْهُمْ فَدَلَكَ بهَا وَجْهَهُ وجِلْدَهُ، وإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ علـى وُضُوئِهِ...))(١).

ومنها: تبرك الصحابة رضي الله عنهم بشعره ﷺ فقد كان رسول الله ﷺ يوزع شعره بين الصحابة عندما يحلق رأسه الشريف، وكان الصحابة رضي الله عنهم يحرصون على أن يحصلوا شيئاً من شعره ﷺ ويحافظون على ما يصل إلى أيديهم منه للتبرك به(٢).

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه ((أَنَّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ أَتَـىٰ مِنًـى. فَـأَتَى الْجَمْرَةَ فَرَمَاهَـا. ثُـمَّ أَتَىٰ مَنْزِلَهُ بِمِنًى وَنَحَرَ. ثُمَّ قَالَ لِلْحَلاَّقِ: خُذْ وَأَشَارَ إِلَىٰ جَانِبِهِ الأَيْمَـنِ. ثُـمَّ الأَيْسَرِ. ثُـمَّ جَعَلَ يُعْطِيهِ النَّاسَ))(٣).

وعنـه رضي الله عنه قـال: ((لَقَـدْ رَأَيْـت رَسُـولَ اللّـهِ ﷺ وَالْحَـلاَّقُ يَحْلِقُـهُ. وَأَطَـافَ بِـهِ أَصْحَابُهُ رضي الله عنهم. فَمَا يُرِيدُونَ أَنْ تَقَعَ شَعْرَةٌ إِلاَّ فِي يَدِ رَجُلٍ))(٤).

ومنهـا: تـبرك الـصحابة رضي الله عنهم بعرقـه ﷺ؛ فعـن أنـس بـن مالـك قـال: ((كَـانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْخُلُ بَيْتَ أُمِّ سُلَيْمٍ فَيَنَامُ عَلَىٰ فِرَاشِهَا وَلَيْسَتْ فِيهِ. قَالَ: فَجَاءَ ذَاتَ يَوْمٍ فَنَامَ عَلَىٰ فِرَاشِهَا. فَأُتِيتْ فَقِيلَ لَهَا: هذَا النَّبِيُّ نَامَ فِي بَيْتِكِ، عَلَـىٰ فِرَاشِكِ. قَالَ: فَجَاءَتْ وَقَدْ عَرِقَ، وَاسْتَنْقَعَ عَرَقُهُ عَلَىٰ قِطْعَةِ أَدِيمٍ، عَلَـىٰ الْفِرَاشِ. فَفَتَحَتْ عَتِيدَتَهَا(٥) فَجَعَلَتْ تُنَشِّفُ ذٰلِكَ الْعَرَقَ فَتَعْصِرُهُ فِي قَوَارِيرِهَا. فَفَزِعَ النَّبِيُّ فَقَالَ: «مَا تصْنَعِينَ؟ يَا أُمَّ سُلَيْمٍ» فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللّهِ نَرْجُو بَرَكَتَهُ لِصِبْيَانِنَا. قَالَ: أَصَبْتِ))(٦).

ومنهـا: تـبرك الـصحابة رضي الله عنهم بلباسـه ﷺ فقد ثبت كذلك أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يحرصون على اقتناء ملابسه وأوانيه للتبرك بها والاستشفاء؛ فعن أسماء بنت أبي

---

(١) أخرجه البخاري ٢٧٣١، ٢٧٣٢.

(٢) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٧١/١٠.

(٣) أخرجه مسلم ١٣٠٥.

(٤) أخرجه مسلم ٢٣٢٥.

(٥) عتيدها: هي كالصندوق الصغير تجعل المرأة فيه ما يعزّ من متاعها.

(٦) أخرجه البخاري ٦٢٨١، ومسلم ٢٣٣١.

بكر رضي الله عنهما: ((أنها أخرجَتْ جُبَّةَ طيالِسةٍ وقالت: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يلبَسُها، فنحنُ نغْسِلُها للمَرضى يستشفى بها))[1].

وغير ذلك الكثير في تبرك الصحابة رضي الله عنهم بآثار النبي صلى الله عليه وسلم وهذا التبرك خاص به صلى الله عليه وسلم فلا يجوز التبرك بآثار غيره من الخلق.

(١) أخرجه مسلم ٢٠٦٩.

الحديث رقم (٥٦٨)

٥٦٨- وعن أَبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: ((**إنَّ الأشْعَرِيِّينَ إِذَا أرْمَلُوا فِي الغَزْوِ، أَوْ قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بالمَدِينَةِ، جَمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَهُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إنَاءٍ وَاحدٍ بالسَّوِيَّةِ فَهُمْ مِنِّي وَأنَا مِنْهُمْ**)) متفقٌ عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

أبو موسى الأشعري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨).

غريب الألفاظ:

الأشعريون: هم قبيلة باليمن منهم أبو موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2].

أرملوا: فرغ زادُهم أو قارب الفراغ[3].

السَّوِيَّة: بالعدل والنصيفة[4].

الشرح الأدبي

هذا الحديث يرفع نموذجاً أعلى في التعاون، والتكافل بين المسلمين، وقد شرف هذا النموذج بأن الذي رفعه الرسول ﷺ، وأنه رفعه بين صحابته، وأنه صار نموذجاً للأمة كلها في التكافل، والتعاون زاده أهمية كونه في الغزو، وهو موقف شدة يحتاج إلى مزيد عناية نظرا للخافية التي يمثلها على سير الغزوة، والتي تؤثر على مستقبل الدعوة، وعلى الأمة بوجه من الوجوه، أو في وقت الشدة العامة التي تعظم فيها حاجة الناس، وهذا النموذج الذي اختاره الرسول للأشعريين، وهم قوم أبي موسى الأشعري لجميل فعلهم في الشدائد، وقوله (أرْمَلُوا فِي الغَزْوِ) فَرَغَ زَادُهُمْ أَوْ قَارَبَ الفَرَاغَ، والتعبير بالإرمال يوحي بسرعة النفاد وقوله: (جَمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَهُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ) وهي صورة

---

(١) أخرجه البخاري ٢٤٨٦، ومسلم ٢٥٠٠/١٦٧ ولفظهما سواء.

(٢) القاموس المحيط، الفيروزآبادي في (ر م ل).

(٣) رياض الصالحين ٢٥٩.

(٤) الوسيط، مجمع اللغة العربية في (س و ى).

الاتحاد التي تجعل كل ما لدى الفرد ملكا للجماعة، وما لدى الجماعة ملكا للفرد وفق منهج إسلامي وعلى سنن نبوي (ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ) وهو ما يحقق الغاية بكفالة الجميع مع وجه يحفظ كرامة الفقير الذي لا يملك شيئا، ويقوي الاتحاد والمحبة، ولذلك مدحهم النبي بقوله: (فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ) لأن هذا الفعل يشبه فعل النبي ﷺ، ويجري في طريق ما أرسل من أجله، وهو غرس التكافل، والتعاون، وروح المحبة بين جميع الناس إخلاصا لله – تعالى-.

فقه الحديث

١- جواز تحديث الرجل بمناقبه وفضائله: قال ابن حجر: (في الحديث [جواز] تحديث الرجل بمناقبه)[١].

٢- استحباب خلط الزاد: قال ابن حجر: (وفيه استحباب خلط الزاد في السفر وفي الإقامة أيضًا)[٢].

٣- جواز هبة المجهول: قال ابن حجر: (فيه جواز هبة المجهول)[٣].

المضامين الدعوية

أولاً- من أساليب الدعوة: التوكيد:

يظهر ذلك في قول النبي ﷺ: "إن الأشعريين..." حيث أكد قوله بـ"إن" وأسلوب التوكيد من الأساليب التي تفيد الداعية في دعوته، حيث يستطيع أن يؤكد على أهمية الدعوة وعلى الحقائق الواردة بها وكذلك يُشعر المدعوين بأهمية الموضوع أو القضية التي يتناولها الداعية.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٣٠/٥.

(٢) المرجع السابق، الموضع نفسه.

(٣) المرجع السابق، الموضع نفسه. وفي المسألة خلاف بين الفقهاء انظره في: بدائع الصنائع ١١٩/٦، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم بن سالم ابن مهنا النفراوي ٢١٦/٢، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٣٩٩/٢، وكشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٢٩٨/٤، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٢٦/٤٢-١٢٧.

والتأكيد من أهم الأساليب الدعوية في تثبيت المعنى في القلوب، وبثه في النفوس، وحملها على التصديق والإيمان به، والأمر إذا تم تأكيده انتهى إلى الرسوخ في النفس على أنه حقيقة ثابتة[١].

ولا شك أن التأكيد له أثر كبير في النفوس، وهذا شيء هديت إليه فطرة الإنسان، فلجأ إلى تأكيد كلامه للسامع فيما يريد نقله إليه، لما رأى أثر ذلك في تثبيت المعاني وتأكيد الأفكار لديه[٢].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: الحث على المواساة والتعاون:

يظهر ذلك في قول رسول الله ﷺ: "إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو، أو قل طعام عيالهم بالمدينة، جمعوا ما عندهم في ثوب واحد ثم اقتسموه بينهم في إناء." الحديث

فقد أثنى ﷺ على فعل الأشعريين وفي ذلك حث على المواساة والتعاون وفيه فضيلة الإيثار والمواساة، واستحباب خلط الزاد في السفر وفي الإقامة[٣].

والحث على المواساة والتعاون ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية: قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾[٤].

قال ابن كثير: (يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بالمعاونة على فعل الخيرات، وهو البر، وترك المنكرات وهو التقوى، وينهاهم عن التناصر على الباطل والتعاون على المآثم والمحارم)[٥].

وكل ما يخطر على البال من صور التعاون بين المؤمنين يعمه قول رسول الله ﷺ:

---

(١) انظر: أسلوب الدعوة القرآنية ص ٣٤، وروح الجماعات لجوستاف ليبون ١١٥، نقلاً عن أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد محمود العاني ص ٣٠١.

(٢) انظر: أسلوب الدعوة القرآنية بلاغة ومنهاجاً، د. عبد الغني محمد سعيد بركة ص ٣٤ نقلاً عن أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية ص ٣٠١.

(٣) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٥٥/٥، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥١٣.

(٤) سورة المائدة، آية: ٢.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١٢/٣-١٣.

((مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا، نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ. وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِماً، سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ. وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ))[1].

لذا ينبغي على الدعاة إلى الله تعالى أن يستحثوا المدعوين على إشاعة المواساة والتعاون فيما بينهم.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: فضل الأشعريين:

يظهر ذلك في قول رسول الله ﷺ: "... فهم مني وأنا منهم" قال ابن حجر: (وفي الحديث فضيلة عظيمة للأشعريين قبيلة أبي موسى الأشعري)[2].

وبيّن رسول الله ﷺ فضل الأشعريين في قوله ﷺ: ((إني لأعرفُ أصواتَ رُفقة الأشعريينَ بالقرآن حين يَدخلونَ بالليل، وأعرِفُ مَنازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل، وإن كنتُ لم أرَ مَنازِلهم حين نزَلوا بالنهار، ومنهم حكيمٌ، إذا لقِيَ الخيلَ - أو قال: العدوَّ - قال لهم: إنَّ أصحابي يأمُرونَكم أن تنظروهم))[3].

قال النووي: (فيه دليل لفضيلة الأشعريين وفيه أن الجهر بالقرآن في الليل فضيلة إذا لم يكن فيه إيذاء لنائم أو لمصل أو غيرهما ولا رياء)[4].

قال القرطبي: (إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو، أو قلّ طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم، ثم اقتسموا)، هذا الحديث يدلُّ على أن الغالب على الأشعريين الإيثار، والمواساة عند الحاجة، كما دلّ الحديث الثاني على أن الغالب عليهم القراءة والعبادة، فثبت لهم بشهادة رسول الله ﷺ: أنهم علماء عاملون، كرماء مؤثرون. ثم إنه ﷺ شرفهم بإضافتهم إليه، ثم زاد في التشريف بأن أضاف نفسه إليهم، ويمكن أن يَكون معنى: (هم مني): فعلوا فعلي من القراءة والعبادة والكرامة، (وأنا منهم):

---

(١) أخرجه مسلم ٢٦٩٩.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ١٥٥/٥

(٣) أخرجه البخاري ٤٢٣٣، ومسلم ٢٤٩٩.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥١٢.

أفعل من ذلك ما يفعلون، كما قال بعض الشعراء:

وقلتُ أخي، قالوا أخٌ وكرامةٌ فقلتُ ولكنَّ الشُّكولَ أقاربُ

نسيبيَ في عَزْمٍ ورأْيٍ ومَذْهَبِي وإنْ باعَدتْنا في الأُصُولِ المَنَاسِبُ[1]

رابعاً- من أساليب الدعوة: الترغيب:

يظهر ذلك في ترغيب النبي ﷺ في الإيثار والمواساة والتعاون بين المسلمين، وذلك في ثنائه على فعل الأشعريين ووصفه لهم بأنهم منه وهو منهم.

وأسلوب الترغيب يقصد به كل ما يشوق المدعو إلى الاستجابة وقبول الحق وذلك، لأن الأصل في الترغيب أن يكون في نيل رضى الله ورحمته وجزيل ثوابه في الآخرة[2]، وحصول الخير الكثير في الدنيا. فعلى الداعية ترغيب المدعوين في الدعوة وتحفيزهم إلى قبولها بما ترغب فيه النفس البشرية من مرغبات تتفق مع ما جاء به الشرع الحكيم.

خامساً- من أهداف الدعوة: تنمية روح المواساة والتعاون بين المسلمين:

يظهر ذلك من عموم الحديث فقد ذكر رسول الله ﷺ فعل الأشعريين واقتسامهم الطعام فيما بينهم وفي ذلك تنمية لروح المواساة والتعاون بين المسلمين.

وهذا هدف من الأهداف التي ترمي إليها الدعوة الإسلامية لأنها تهدف إلى التعاون والمواساة بين المسلمين بحيث يصبحوا كالجسد الواحد، قال رسول الله ﷺ: ((مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، مَثَلُ الْجَسَدِ. إِذَا اشْتَكَىٰ مِنْهُ عُضْوٌ، تَدَاعَىٰ لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّىٰ))[3]. فالأصل في مجتمع المسلمين أنه مجتمع تعاون وتكاتف وتعاضد، ولكن باتجاه الخير والبر والتقوى، وبعيداً عن الشر والإثم والعدوان.

وطالما يعيش الإنسان في المجتمعات البشرية فإنه مدفوع لا محالة إلى صور من التعاون تعبر عن ولائه لأبناء مجتمعه، ومحتاج لا محالة إلى صور من التعاون تعبر عن

---

(١) المفهم، القرطبي ٤٥٢/٦.

(٢) انظر: مستلزمات الدعوة، على بن صالح المرشد ص ١٦٠.

(٣) أخرجه البخاري ٦٠١١، ومسلم ٢٥٨٦.

ضعفه وعجزه وعدم استغنائه بنفسه عن معونة من يعيشون حوله من الصدقات التي يزكي بها المسلم يومه ويتصدق بها على نفسه أنه ((يعين ذا الحاجة الملهوف))[١] ((...ويعين الرجل على دابته فيحمل عليها أو يرفع عليها متاعه...))[٢].

إن مجتمعاً يفشو فيه التعاون والمواساة لا يضيع فيه أحد ولا يشتكي مخلوق، لأن كل واحد منهم عندئذ مقضي الحاجة، معان على الشدة، وينبغي التنبيه على أن التعاون خلق يشمل النواحي المادية والمعنوية من بذل للمال، وتعاون بالجاه، كما يكون التعاون في كل معاني الحياة وأكرم الناس عندهم من نفعهم وعم فضله فيهم وإن كان غريبًا عنهم أو بعيدًا منهم فينبغي تنمية هذه الجوانب. ويكون فيه ((المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً))[٣])[٤].

(١) أخرجه البخاري ١٤٤٥.

(٢) أخرجه البخاري ٢٩٨٩.

(٣) أخرجه البخاري ٦٠٢٦، ومسلم ٢٥٨٥.

(٤) هذه أخلاقنا، محمود محمد الخزندار ص ٢١٣-٢١٤.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

حب النفس والولد فطرة وتقديمهما على ما سواهما لا ينكر، ولكن الله تعالى رزق بعض الناس خلق الإيثار، وقد أثنى الله تعالى عليهم في كتابه حين قال: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾ [سورة الإنسان:٨-٩]، أي مع حاجتهم للطعام وإعدادهم له لتناوله ويطعمونه غيرهم ابتغاء وجه الله، أو يحبون الإنفاق في سبيل الله فلا يتوانون عنه ابتغاء مرضاته.

وقد ذكر القرآن حال أناس يجودون بما يملكون وإن كانوا أحوج إلى المجود به إلى المجاد عليه، وذلك لمقاومة شح النفس وتحقيقاً للفلاح، ومن المضامين التربوية في أحاديث الباب ما يلي:

أولاً- التربية بالقدوة:

من أساليب التربية الإسلامية: القدوة، حيث تؤثر تأثيرًا مباشرًا في السلوك، ومن الشواهد على ذلك في أحاديث الباب ما روي عن أبي هريرة ﷺ قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إِنِّي مَجْهُودٌ. فَأَرْسَلَ إِلَىٰ بَعْضِ نِسَائِهِ. فَقَالَتْ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا عِنْدِي إِلاَّ مَاءٌ ...».

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه: «أن امرأة جاءت إلى رَسُول اللّهُ ﷺ ببردة منسوجة فقالت: نسجتها بيدي لأكسوكها. فأخذها النبي ﷺ محتاجًا إليها فخرج إلينا وإنها لإزاره. فقال فلان: اكسنيها ما أحسنها! فقال: (نعم) ...».

فهذه تربية بالقدوة عن طريق الجود والكرم والإيثار، كما أن فيها تربية بالقدوة على استحباب عدم رد السائل.

إن رسول الله ﷺ هو المربي والمعلم الأول والقدوة الحسنة لجميع المسلمين في الإيثار والمواساة، وذلك من خلال الممارسات العملية التي تحمل النفوس على البذل والعطاء، وتحررها من الشح والأنانية، وهذا مما يشيع المودة والمحبة بين أفراد المجتمع الإسلامي.

ومن ثمرات القدوة: أنه تبرهن عمليًا على نجاح القيم والمثل والسجايا لأن الإنسان الذي يتحلى بجملة من الفضائل السلوكية يعطي غيره قناعة بأن بلوغها من الأمور التي هي في متناول القدرات الإنسانية[١].

وفي معرض التربية بالقدوة يوجه النبي ﷺ توجيهًا مباشرًا إلى التمسك بسنته، وسنة الخلفاء الراشدين من بعده؛ فعن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ عليه السلام، ذَاتَ يَوْمٍ، فَوَعَظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً وَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ. فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ. وَعَظْتَنَا مَوْعِظَةَ مُوَدِّعٍ. فَاعْهَدْ إِلَيْنَا بِعَهْدٍ. فَقَالَ: «عَلَيْكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ. وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا. وَسَتَرَوْنَ مِنْ بَعْدِي اخْتِلَافًا شَدِيدًا. فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ. عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ. وَإِيَّاكُمْ والأُمُورَ الْمُحْدَثَاتِ. فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»[٢].

فهذا حث على أهمية التربية بالقدوة في القول والفعل، حيث يقول "عليكم بسنتي" أي ضرورة الاقتداء والاتباع لها، وكذلك لسنة الخلفاء الراشدين المهديين رضي الله عنهم من بعده[٣]. من هنا يبرز دور القدوة التربوي في ترجمة المعاني السامية والمثل العليا إلى أفعال على أرض الواقع تدعو الجميع إلى الاقتداء بها[٤].

ثانيًا- التربية على الإيثار:

من الأهداف الخلقية للتربية الإسلامية غرس روح الإيثار، ومن الشواهد على ذلك في أحاديث الباب، قوله ﷺ: في حديث أبي هريرة "... من يضيف هذا الليلة..." وقوله: «طعام الاثنين كافي لثلاثة»، وقوله: «من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر

(١) انظر: أساليب التربية الإسلامية، عبدالرحمن البابطين، ص١٠. أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد العاني، ص٣٣٤.

(٢) أخرجه أبو داود ٤٦٠٧، والترمذي ٢٦٧٦، وابن ماجة، ٤٢، وصححه الألباني، انظر: (صحيح سنن ابن ماجة ٤٠).

(٣) أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد محمود العاني، ص٣٣٤.

(٤) أساليب التربية الإسلامية، البابطين، ص١١.

له» وقوله: «فقال فلان اكسنيها ما أحسنها! فقال نعم...» وقوله ﷺ: «إنّ الأشْعَريينَ إذا أرمَلوا في الغَزو أو قلّ طعامُ عِيالهم بالمدينةِ جَمعوا ما كان عندَهم في ثوبٍ واحد، ثمّ اقتَسَموهُ بينهم...».

فهذه توجيهات نبوية تربوية تدل على أهمية الإيثار، لأن الإيثار قيمة خلقية سامية فهو عماد البر الذي هو سبب الألفة، لما يوصل إلى القلوب من الراحة والتلاطف، ولذلك ندب الشرع إليه لما فيه من عموم المصلحة في الدنيا والآخرة، ولعلو من تحلوا بالإيثار مدحهم الله تعالى، فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1]. الآية أظهرت أن الإيثار هو غاية الجود وهو بذل المال مع الحاجة إليه، وهو من أوسع أبواب العطاء وأكثر مجالات الإنفاق، وهو قيمة خلقية رفيعة تسود كل الخصال السامية، ومن مؤكدات الإيثار: قوله ﷺ: «لا يُؤْمِنُ أَحدُكُمْ حتى يُحِبَّ لأَخِيه ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»[2]. لقد علمنا النبي ﷺ أن الإيثار من القيم الاجتماعية التي تتجاوز فاعليتها المدى الذاتي لتبلغ أوسع دوائر النفع الاجتماعي العام.

ونرى الآثار التربوية والمعنوية المترتبة على الإيثار، إذا صارت هذه القيمة الأخلاقية دعامة أساسية من دعائم المجتمع العربي والإسلامي، لأنها لم تعد مجرد قيمة سائدة بالمعنى المعتاد المألوف، بل صارت تتطور لتتولد عنها معاني مستجدة نابعة من طبيعتها الاجتماعية الإيجابية التي تؤدي إلى نشوء مثل تلك الظواهر الدالة على عافية المجتمع من الناحية الأخلاقية، ولعل علاقة المؤاخاة التي تنتفي فيها المصالح الشخصية من أهم تلك الظواهر السامية الناجمة عن قيمة الإيثار[3].

---

(١) سورة الحشر، آية: ٩.

(٢) أخرجه البخاري ١٣، ومسلم ٤٥.

(٣) موسوعة القيم ومكارم الأخلاق العربية والإسلامية، د. مرزوق بن صنيتان بن تنباك وآخرون، ٤٢/١٠، الموسوعة الأم في تربية الأولاد، د. أحمد مصطفى متولي، ٥٤١/١.

إن رسول الله ﷺ دعا أهل الخير ومن توفر عنده شيء من المال على اختلاف صوره أن يجود به، وقد ظهرت في الآونة الأخيرة -ولله الحمد- جماعات وجمعيات خيرية لتنزيل هذا الحديث على الواقع، فهي تجمع فائض الأثاث، وفائض الثياب وفائض الطعام، لتعيد توزيعه من جديد وعلى أهل الخير أن يوسعوا دائرة نشاط هذه الجمعيات، وعلى الحكومات أن تيسر لها المكان والإجراءات وتخفف من الأعباء التي تفرض عليها لأن في هذا من المنافع ما يلي:

أولاً: الخروج من دائرة التبذير لأن كثيرين من ميسوري الحال يلقون بهذا الفائض في صناديق القمامة.

ثانيًا: استثمار رأس مال مهدر لولا هذه الطريقة لكان مصيره إلى العدم.

ثالثًا: حل مشكلة الفقراء في بعض جوانبها، فكثيرون منهم يَلْقَون ما يتطلعون إليه من كساء أو غذاء أو أساس... إلخ من طريق هذه الأعمال.

رابعًا: ومما نحن بحاجة إلى إحيائه التصدق بالعلم على اختلاف صوره وأشكاله ألا ليت الطبيب يكشف يومًا بالمجان كل أسبوع والمدرس يعطي يومًا للفقراء والاستشاري يجود بمشورته على الفقراء ويلحق بهذا كل ذي فن في فنه لتسود روح الإيثار والعطاء.

إن الناس في بعض الأحيان يفتقرون إلى العطاء الأدبي أكثر من افتقارهم إلى العطاء المادي، فالمريض الذي لا يجد من يَصْدُقه القول، والسائل الحائر في الفتوى والتي لا تبذل في بعض البلدان إلا بأجر، وصاحب المصلحة الذي لا يعرف الطريق لحلها ولا السبيل لقضائها عندما ينهض هذا أو ذاك لمد يد العون له، كل هذا عطاء من جنس ما يملك الإنسان. وهو لون من المواساة يُحمد عليه الإنسان.

إن رسول الله ﷺ قد أثنى على جماعة من أهل المدينة تُعرف بالأشعريين كانوا إذا أصابهم قحط أو نزلت بهم فاقة أو قل طعامهم واستشعروا معه النفاد، جمعوا ما عندهم في ثوب واحد، ثم اقتسموه بينهم بالسوية، ولهذا نص عليه السلام أن هذا خلقه وأنهم قد تخلقوا بخلقه وأنه منهم فهل من محاكاة؟

ثالثًا- التربية بالتوجيه المباشر:

من أساليب التربية الإسلامية التوجيه المباشر، ومن الشواهد على ذلك في باب الإيثار والمواساة، حديث أبي هريرة ﷺ قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني مجهود... فقال ﷺ: من يضيف هذا الليلة» وقوله: «طعام الواحد يكفي الاثنين» وقوله ﷺ: «من كان معه فضل ظهرٍ فليعد به على من لا ظهر له...» فهذه توجيهات تربوية مباشرة أراد النبي ﷺ منها إبراز قيمة الإيثار والمواساة في نفوس الصحابة ﷺ. من خلال هذه التوجيهات.

لأن التوجيه المباشر من الأساليب التعليمية التطبيقية، وهو طلب المربي المباشر والصريح من طلابه القيام بعمل معين، وهو بمثابة ممارسة العمل للمتعلم أمام مربيه أو العكس قيام المربي بممارسة العمل أمام المتعلم، وإن اختيار المواقف واغتنام فرصها والأوقات المناسبة للتوجيه، يسهل العملية التربوية، ويساعد على تحقيق الأهداف وغرس الفضائل، وهذا ما يذهب إليه المهتمون بالتربية[1].

رابعًا- التربية على المواساة:

من أهداف التربية الاجتماعية، التربية على المواساة، ومن الشواهد على ذلك في باب الإيثار والمواساة قوله ﷺ: «... من يضيف هذا الليلة فقال رجل من الأنصار: أنا يارسول الله ...» وقوله ﷺ: «طعام الواحد يكفي الاثنين...»، وقوله ﷺ: «بينما نحن في سفر مع النبي ﷺ إذ جاء رجل على راحلة له، فجعل بصره يمينًا وشمالاً، فقال رسول الله ﷺ: من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له...»، وقوله ﷺ: «إِنَّ الأَشْعَرِيِّينَ، إِذَا أَرْمَلُوا فِي الْغَزْوِ، أَوْ قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ، جَمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَهُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ، بِالسَّوِيَّةِ. فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ»، فهذه شواهد تدل على المواساة بين الصحابة ﷺ.

---

(١) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي ص ٢٧٦، أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد محمود العاني، ص٢٨٥.

والذي معنا في الباب: المواساة بالمال وما يتبعه من طعام وشراب، وعلى قدر الإيمان تكون هذه المواساة، فكلما ضعف الإيمان ضعفت المواساة، وكلما قوي قويت، وكان رسول الله ﷺ أعظم الناس مواساة لأصحابه[١].

فحاجة المسلم تتنوع وتختلف من موقف إلى آخر، فهناك من تكون حاجته إلى المال وهناك من تكون حاجته إلى عمل أو وظيفة وهناك من تكون حاجته إلى كلمة طيبة، أو دفع ظلم، ولقد حفلت سير أعلام النبلاء بنماذج مشرفة في المواساة، ومن تأمل هذه الصفحات المشرقة التي حفلت بها سير هؤلاء يعلم قدر هذه القيمة عندهم[٢].

وقد ورد في أحاديث الباب عدة أساليب تربوية، منها:

أ-القصة: وهذا موجود في معظم أحاديث الباب، كحديث سهل بن سعد رضي الله عنه ((أن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ ببردة منسوجة ...)) الحديث.

ب-المناقشة والحوار: كما في حديث سهل بن سعد رضي الله عنه أيضًا، وأسلوب المناقشة والحوار من الأساليب التي تتميز بتفعيل دور المتعلم في العملية التربوية وتدفع عنه الملل وتستثير دافعيته للتعلم.

ج-التربية بالمواقف: كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: ((بينما نحن في سفر مع النبي ﷺ إذ جاء رجل على راحلة له فجعل يصرف بصره يمينًا وشمالاً، فقال رسول الله ﷺ: ((من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ...)) الحديث، والمربي البارع لا يترك أحداث الحياة تمر أمام عينيه دون أن يستفيد منها في تقديم ما هو مرغوب، ولأسلوب التربية بالمواقف آثار تربوية تميزها عن غيرها، فهو يحدث في النفس تأثيرًا كبيرًا وتنفعل معه انفعالاً كبيرًا.

---

(١) الفوائد، ابن القيم، ص٢٢٤.

(٢) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين ٢٤٩/٥.

٦٣- باب التنافس في أمور الآخرة والاستكثار مما يتبرك به

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾[المطففين: ٢٦].

الحديث رقم (٥٦٩)

٥٦٩- وعن سَهْلِ بن سَعدٍ رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ أُتِيَ بِشَرَابٍ، فَشَرِبَ مِنْهُ وَعَنْ يَمِينِهِ غُلَامٌ، وَعَنْ يَسَارِهِ الأَشْيَاخُ، فَقَالَ لِلغُلَامِ: **((أتَأذَنُ لِي أنْ أُعْطِيَ هؤُلاءِ؟))** فَقَالَ الغُلامُ: لاَ وَاللهِ يَا رسولَ الله، لا أُوْثِرُ بِنَصِيبِي مِنْكَ أحَدًا. فَتَلَّهُ رسولُ الله ﷺ في يَدِهِ. متفقٌ عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

سهل بن سعد الساعدي: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٧٥).

غريب الألفاظ:

غلام: هذا الغلام هو ابن عباس رضي الله عنهما[2].

لا أُوثِرُ: لا أفضل أحدًا على نفسي. فأعطيه نصيبي من الشراب[3].

تَلَّهُ: وضعه[4].

الشرح الأدبي

هذا الحديث يقرر بطريق عملية سنة فعلية، وهي التيمن، ويقرر أحقية صاحب الحق بحقه، وقد بدأ الصحابي الحديث بأسلوب خبري يتسم بالهدوء، والثقة تصدَّره حرف التوكيد (أن) مع اسمية الجملة لاستعظام الصحابة النقل عن الرسول ﷺ ثم

(١) أخرجه البخاري ٢٤٥١ واللفظ له، ومسلم ١٢٧/٢٠٣٠. وسيكرره المؤلف برقم ٧٦١.

(٢) رياض الصالحين ٢٦٠.

(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، والوسيط، مجمع اللغة العربية في (أ ث ر).

(٤) رياض الصالحين ٢٦٠.

رغبة منهم في نقل هذا التعظيم إلى المخاطبين بنفس الدرجة؛ ولذلك نجد أن أساليب التوكيد تتقدم تحديث الصحابة عن الرسول ﷺ كثيراً مع أنهم لا يواجهون بتكذيب، ولا إنكار، وقوله (وَعَنْ يَمِينِهِ غُلامٌ وَعَنْ يَسَارِهِ أَشْيَاخٌ) في العبارة طباق بين اليمين، والشمال، وبين لفظ غلام، وأشياخ يوضح المفارقة التي سببت هذا الموقف، لأن سنته ﷺ البدء باليمين، وعلى يمينه غلام، وعلى شماله أشياخ، فأراد النبي ﷺ أن يخرج من هذا الموقف دون أن يتعدى على حق الغلام، أو يجرح الأشياخ فقال للغلام ("أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أُعْطِيَ هَؤُلاءِ) وهو أسلوب استفهام قصد به طلب الإذن، تأمل هذا المشهد النبي ﷺ مع جلال قدره يطلب الإذن من صبي! أرأيت كيف يربي طفل الإسلام ؟ وكيف يبني شخصيته ويربي فيه ملكة التفكير وحرية اتخاذ القرار ؟ بما يجعله فرداً صالحاً ينفع أمته، ويخدم دينه، وتأمل ردَّه لِتَعلَم أثر التربية النبوية قال (وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لا أُوثِرُ بِنَصِيبِي مِنْك أَحَدًا) فقد بدأ بأسلوب القسم بلفظ الجلالة (الله) مما يدل على الجزم بما بعده، ثم إن اعتزازه بنفسه، وتمسكه بحقه لم ينسه مقام رسول ﷺ فجاء نداؤه (يا رسول الله) نداء تكريم، ومحبة حيث استخدم (يا) التي لنداء البعيد مع قرب النبي ﷺ منه إقراراً بعلو مكانته، ثم نداء الرسول ﷺ بلقبه دون اسمه، ثم إضافته لله تشريفاً وتكريماً، وتقديم الجار والمجرور (بنصيبي) يفيد إعتزازه، وتمسكه بحقه، وتقديم الجار والمجرور (منك) على المفعول (أحداً) يشير إلى أن سرَّ تمسكه به هو كونه من رسول الله ﷺ يريد أن ينال شرف الشرب من المكان الذي شرب منه رسول الله ﷺ، ولذلك احترم الرسول رغبته وأعطاه إياه (هذا الغلام أصبح حبر الأمة، ابن عباس رضي الله عنهما.

فقه الحديث

١- تقديم الأيمن في الشرب، ونحوه، وإن كان صغيرًا أو مفضولاً. وأما تقديم الأفاضل والكبار فهو عند التساوي في الحقوق في باقي الأوصاف[١].

٢- أن من وجب له شيء من الأشياء لا يصرف عنه، ولا يؤخذ منه إلا بإذنه، صغيرًا كان أو كبيرًا[٢].

٣- أن الجلساء شركاء في الهدية على جهة الأدب والفضل لا الوجوب، للإجماع على أن المطالبة بذلك لا تجب[٣].

المضامين الدعوية

أولاً- من صفات الداعية: التواضع والاحترام والتقدير للمدعوين.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على فعل ما ينفعهم.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: أهمية توقير الكبير ومراعاة حقوق الآخرين.

أولاً- من صفات الداعية: التواضع والاحترام والتقدير للمدعوين:

يظهر ذلك في قول رسول الله ﷺ للغلام: "أتأذن لي أن أعطي هؤلاء" وهذا يدل على تواضع النبي ﷺ واحترامه وتقديره للمدعوين، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه الداعية. فدعوة الداعية للمدعوين تستلزم خفض جناحه لهم وعدم تكبره عليهم، وأن يكون رحيمًا بهم شفيقًا عليهم مقدرًا لهم[٤].

---

(١) شرح الزرقاني على الموطأ، محمد بن عبدالباقي الزرقاني ٣٧٤/٤، والتمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبدالبر ١٢٤/٢١، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم بن سالم ابن مهنا النفراوي ٣١٩/٢.

(٢) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبدالبر ١٢٤/٢١.

(٣) المرجع السابق، الموضع نفسه، شرح الزرقاني على الموطأ، محمد بن عبدالباقي الزرقاني ٣٧٤/٤.

(٤) انظر: النصيحة وموقعها من أسلوب الحكمة ودورها في الدعوة إلى الله، الباز محمد عبدالفتاح الدميري، ١٥٨.

فالتواضع من صفات الإيمان التي تدل على القرب من الله، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[١].

قال ابن كثير: (من صفات المؤمنين الكُمَّل أن يكون أحدهم متواضعًا لأخيه ووليه متعززًا على خصمه وعدوه)[٢].

وقال رسول الله ﷺ: ((إِنَّ الله أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لا يَفْخَرْ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ وَلا يَبْغِ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ))[٣].

فالداعية إلى الله إذا تحلى بالتواضع واحترام وتقدير المدعوين كان ذلك حاملاً لهم على قبول دعوته وحبهم له.

وذلك لأن التواضع يؤلف القلوب النافرة، ويجمع النفوس الشاردة، وبذلك تصبح الأمة قوية الدين شديدة على الأعداء، رحيمة بالضعفاء[٤]. والتواضع دليل على كبر النفس، وعلو الهمة، وسبيل لاكتساب المعالي، والترقي في الكمالات، يرفع من قدر صاحبه يكسبه رضا أهل الفضل ومودتهم ويبعثه على الاستفادة من كل أحد، وينأى به عن الكبر، والاستنكاف عن قبول الحق والأخذ به.

قال ابن المبارك: (كان يقال: الغنى في النفس، والكرم في التقوى، والشرف في التواضع، وثمرة التواضع المحبة)[٥].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على فعل ما ينفعهم:

يظهر ذلك في حرص الغلام على الشرب وراء رسول الله ﷺ للتبرك بسؤره ﷺ.

---

(١) سورة المائدة، آية: ٥٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١٣٦/٣.

(٣) أخرجه مسلم ٢٨٦٥.

(٤) النصيحة وموقعها من أسلوب الحكمة، الباز الدميري ص ١٥٨-١٥٩.

(٥) غذاء الألباب شرح منظومة الآداب، السفاريني، ٢٣١/٢.

قال القاضي عياض: (الغلام هو ابن عباس واستأذنه النبي ﷺ ثقة منه بطيب نفسه باستئذانه بدفعه للأشياخ والكبراء من آله وقومه... فشح ابن عباس على نصيبه من النبي ﷺ، وفضل شرابه وبركته لا على نصيبه من المشروب)(١).

ويؤيد ذلك ما أخرجه الترمذي عن ابن عباس قال: ((دَخَلْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَا وَخَالِدُ بنُ الوَلِيدِ عَلَى مَيْمُونَةَ فَجَاءَتْنَا بِإِنَاءٍ فِي لَبَنٍ فَشَرِبَ رسولُ الله ﷺ وأنا عَنْ يَمِينِهِ وخَالِدٌ عَلَى شِمَالِهِ فقالَ: لِي الشَّرْبَةُ لَكَ فإِنْ شِئْتَ آثَرْتَ بِهَا خَالِدًا فَقُلْتُ مَا كُنْتُ أُوثِرُ عَلَى سُؤْرِكَ أَحَدًا))(٢).

فهذا يدل على حرص الصحابة رضي الله عنهم على ما ينفعهم من التبرك بآثار النبي ﷺ وقد ورد في صحيح البخاري عن عروة أنه: ((... رأى أصحاب النبي ﷺ زمن الحديبية. فَرَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: أَيْ قَوْمِ، وَاللهِ، لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى الْمُلُوكِ، وَوَفَدْتُ عَلَى قَيْصَرَ، وَكِسْرَى، وَالنَّجَاشِيِّ، وَاللهِ، إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعَظِّمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعَظِّمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ مُحَمَّدًا، وَاللهِ، إِنْ يَتَنَخَّمَ نُخَامَةً إِلاَّ وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمُ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ...))(٣).

وقد روى البخاري ومسلم صورًا كثيرة أخرى من تبرك الصحابة بآثار النبي ﷺ والتوسل بها للاستشفاء، أو العناية والتوفيق، وما شابه ذلك(٤).

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: أهمية توقير الكبير ومراعاة حقوق الآخرين:

يظهر ذلك في استئذان النبي ﷺ الغلام ليعطي الشيوخ وفي ذلك توقير للشيوخ ومراعاة لحقوق الغلام.

قال القاضي عياض: (واستأذن الغلام -وهو ابن عباس-... بدفعه للأشياخ والكبراء

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٦/٤٩٧-٤٩٨.

(٢) أخرجه الترمذي ٣٤٥٥، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٧٤٩).

(٣) أخرجه البخاري ٢٧٣١، ٢٧٣٢.

(٤) فقه السيرة النبوية، د. محمد سعيد البوطي، ٢٠٥.

من آله وقومه وفي بعض الروايات ((عمك وابن عمك أتأذن لي أن أعطيه؟))[١] يعني خالد بن الوليد، ولحمله عليه، وإدلاله لقرباه منه وصغر سنه واستئلاف الاشياخ أيضًا بهذا الاستئذان من تعريف الحكم في ذلك، بأن لا يصرف عنه إلا بإذنه لمن لم يكن علمه منهم.

وفيه أن مثل هذا من الحقوق إذا تميزت لأحدٍ أن صاحب الحق أولى به، لا يلتفت في ذلك إلى الأسن، ولا الأفضل كصاحب الدابة أولى بمقدمها، وإمامة صاحب الدار، وإنما يراعى الترجيح بالفضائل والمزايا مع استواء الأقدام في ذلك الحق وترك السبق إليه، كالبداية بالشرب، وغسل اليد وبالشهادة، والتقديم للصلاة، وغير ذلك)[٢].

وتوقير الكبير من الأشياء التي دعا إليها الإسلام، قالَ رَسُولُ الله ﷺ: ((لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيوقِّرْ كَبِيرَنَا))[٣].

وقال ﷺ: ((إِنَّ مِنْ إِجْلاَلِ الله إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ المُسْلِمِ وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَالجَافِي عَنْهُ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ المُقْسِطِ))[٤]. وقال ﷺ: ((ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف شرف كبيرنا))[٥].

فهذا أثر حمل في طياته أسلوبًا رائعًا يدل على كمال خلقه ﷺ وشدة اهتمامه بالأخلاق والآداب الشرعية التي ترشد إلى احترام الكبير.

وكان ﷺ يعلم أصحابه سلوك هذا المنهج في تصرفاتهم بحيث يعطي كل ذي فضل ومكانة وكبر سن ما يُناسب حاله[٦].

---

(١) أخرجه أحمد ٢٨٤/١ رقم ٢٥٦٩ بلفظ "أتأذن أن أسقي عمك؟" وقال محققو المسند: حديث حسن ٣٤٤/٤، ٣٤٥.

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٤٩٧/٦-٤٩٨.

(٣) أخرجه الترمذي ١٩١٩، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٥٦٥).

(٤) أخرجه أبو داود ٤٨٤٣، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤٠٥٣).

(٥) أخرجه أبو داود ٤٩٤٣، والترمذي ١٩١٩، ١٩٢٠، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٥٦٥، ١٥٦٦).

(٦) الوجيز في الأخلاق والآداب الشرعية، حماد بن الحماد ص ١٣٨، ١٣٩.

فإذا كان الإسلام يدعو إلى توقير الكبير واحترامه ولكن ذلك لا يكون على حساب أصحاب الحقوق فإن صاحب الحق مقدم على غيره وإن كان أكبر منه لذلك نجد رسول الله ﷺ يستأذن الغلام لأنه صاحب حق وهو أولى بحقه، وعندما لم يقبل الغلام التنازل عن حقه أعطاه رسول الله ﷺ الشراب دون إنكار عليه.

وهذا يؤكد على أهمية مراعاة أحقية الناس، وأن كل إنسان أولى بحقه وله مطلق الحرية في التنازل بعد ذلك عن جزء أو إيثار إخوانه لكن لا بد وأن تعطى الحقوق لأصحابها.

الحديث رقم (٥٧٠)

٥٧٠- وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قَالَ: ((بَيْنَا أيُّوبُ عليه السلام يَغْتَسِلُ عُرْيَاناً، فَخَرَّ عَلَيْهِ جَرَادٌ مِنْ ذَهَبٍ، فَجَعَلَ أيُّوبُ يَحْثِي فِي ثَوْبِهِ، فَنَادَاهُ رَبُّهُ عز وجل: يَا أيُّوبُ، ألَمْ أكُنْ أغْنَيْتُكَ عَمَّا تَرَى؟! قَالَ: بَلَى وَعِزَّتِكَ وَلَكِنْ لاَ غِنَى بِي عَنْ بَرَكَتِكَ)) رواه البخاريُّ[١].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

خَرَّ: سقط[٢].

الجراد: فصيلة من الحشرات المستقيمات الأجنحة[٣].

يَحْثِي: يأخذ بيديه جميعاً[٤].

الشرح الأدبي

البداية بالظرف (بين) من براعة الاستهلال التي تحقق التشويق لأنه يمثل منطقة وسطى بين زمانيين أو مكانين يرتبطان غالبا بحدث ذي دلالة يبشر بمفاجأة، وتعلقه بنبي يزيد الخبر تشويقا، ويزداد أكثر إذا كان نبي الله أيوب عليه السلام لعجيب ما حدث معه في بدنه، وأهله ثم إنه بالنسبة للصحابة من غيب الماضي، وقوله (يَغْتَسِلُ عُرْيَاناً) قوله عريانا تأكيد للفعل يغتسل لأنه من دلائله، وقوله (فَخَرَّ عَلَيْهِ جَرَادٌ مِنْ ذَهَبٍ) التعبير بالخرير يشير إلى الكثرة، والتتابع، وهي طبيعة عيش الجراد الحي أنه يحيا في جماعات كبيرة، والتعبير بالجار، والمجرور (عليه) يشير إلى الجهة التي جاء منها

---

(١) برقم ٢٧٩.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٨٤/٦.

(٣) الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ج ر د)، وانظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٨٣٩.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٨٥/٦.

ويؤكد فعل الخرير لأنه من جهته وقول الله لأيوب عليه السلام (يَا أيُّوبُ، ألَمْ أكُنْ أغْنَيتكَ عَمَّا تَرَى ؟!) استفهام تقرير لحمل المخاطب على الإقرار بمضمون الخبر، وقد أقر أيوب عليه السلام به (بَلَى وَعِزَّتِكَ) وأكده باليمين إشارة إلى أن أخذه هذا الذهب لم يكن عن حاجة، وإنما رغبة في نعم الله لا رغبة عنها، يصرفها في مرضاته - تعالى- وهو ما قرره صراحة بالاستدراك (وَلَكِنْ لاَ غِنى بي عن بَرَكَتِكَ).

فقه الحديث

قال ابن حجر: (قال ابن بطال: وجه الدلالة من حديث أيوب أن الله تعالى عاتبه على جمع الجراد، ولم يعاتبه على الاغتسال عريانًا فدلّ على جوازه)[1] لكن قيد أكثر الفقهاء هذا الجواز بالكراهة. وقالوا: يستحب التستر وإن كان خاليًا[2].

قال ابن حجر: (في الحديث جواز الحرص على الاستكثار من الحلال في حق من وثق من نفسه بالشكر عليه)[3].

قال ابن حجر: (واستنبط منه الخطابي جواز أخذ النثار في الإملاك، وتعقبه ابن التين، فقال: هو شيء خصّ الله به نبيه أيوب، وهو بخلاف النثار، فإنه من فعل الآدمي، فيكره لما فيه من السرف، ورد عليه بأنه أذن فيه من قبل الشارع إن ثبت الخبر[4]، ويستأنس فيه بهذه القصة، والله أعلم)[5].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٦١/١، وانظر: فتح الباري لابن رجب ٣٢٢/١-٣٢٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢٥٢/١٤، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٨٦/١ ، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٢٣٠/١-٢٣١ (عن الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٦٨/٣٠).

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٢١/٦ ط السلفية.

(٤) انظر: التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، ابن حجر العسقلاني ٢٠٠/٣-٢٠١.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٢١/٦، وفي المسألة خلاف بين الفقهاء. انظر: الفتاوى الهندية، الشيخ نظام وجماعة من علماء الهند ٣٤٥/٥، مواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن المغربي ٦/٤، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، شمس الدين الرملي ٣٧١/٦، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين أبو الحسن المرداوي ٣٤٠/٨، ٣٤١، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٢٠٨/١٠-٢١٠، (الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٧١/٤٠-٧٣).

المضامين الدعوية

ثانياً: من موضوعات الدعوة: حرص نبي الله أيوب ﷺ على الاستزادة من الفضل والبركة.

أولاً- من وسائل الدعوة: الحكاية:

يظهر ذلك حيث ذكر رسول الله ﷺ في هذا الحديث: "بَيْنَا أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ عُرْيَاناً خَرَّ عَلَيْهِ جَرَادٌ مِنْ ذَهَبٍ ..."، وقد كثر استخدام رسول الله ﷺ وسيلة الحكاية في أحاديثه من ذلك حديث صهيب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: ((كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ. وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ. فَلَمَّا كَبِرَ قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلاَماً أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ. فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلاَماً يُعَلِّمُهُ. فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ، إِذَا سَلَكَ، رَاهِبٌ. فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلاَمَهُ. فَأَعْجَبَهُ. فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ. فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ. فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ. فَقَالَ: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي. وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ. فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ. فَقَالَ: الْيَوْمَ أَعْلَمُ آلسَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمِ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ؟ فَأَخَذَ حَجَراً فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ. حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ. فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا. وَمَضَى النَّاسُ. فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ. فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ: أَيْ بُنَيَّ أَنْتَ، الْيَوْمَ، أَفْضَلُ مِنِّي. قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى. وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى. فَإِنِ ابْتُلِيتَ فَلاَ تَدُلَّ عَلَيَّ. وَكَانَ الْغُلاَمُ يُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الأَدْوَاءِ. فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ. فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ. فَقَالَ: مَا هَهُنَا لَكَ أَجْمَعُ، إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي. فَقَالَ: إِنِّي لاَ أَشْفِي أَحَداً. إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ. فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللَّهِ دَعَوْتُ اللَّهَ فَشَفَاكَ))(١).

والحكاية من وسائل الدعوة التي تفيد الداعية في دعوته بذكره حكايات السابقين عليه للمدعوين.

(١) أخرجه مسلم ٣٠٠٥.

ويلاحظ أن في الحكاية المحاكاة والوقوف على ما جرى فقط، بخلاف القصص فإنها تنقلك بنفسك وعقلك ووجدانك إلى الزمان الغابر لتعيش فيه فتأخذ العبرة والعظة[١].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: حرص نبي الله أيوب عليه السلام على الاستزادة من الفضل والبركة:

يظهر ذلك في قول رسول الله ﷺ: "بَينا أيُّوبُ ﷺ يَغتَسِلُ عُرياناً فَخَرَّ عليه جَرادٌ من ذَهبٍ، فجعَلَ أَيُّوبُ يَحتثي في ثوبِهِ، فناداه ربُّه ﷺ: يا أيُّوبُ ألم أكُنْ أَغْنَيْتُك عَمّا تَرى؟ قال: بَلَى وعزَّتِكَ، ولكنْ لاغِنى بي عن بَرَكتِكَ"... الحديث.

قال ابن حجر: وفي الحديث جواز الحرص على الاستكثار من الحلال في حق من وثق من نفسه بالشكر عليه، وفيه تسمية المال الذي يكون من هذه الجهة بركة، وفيه فضل الغني الشاكر[٢].

قال د. الحسيني هاشم: (كان أيوب عليه السلام شاكراً في حال غناه صابراً في حال ابتلائه وإفقاره، أظهر سبب فرحه بالجراد وسروره به، وهو أنه وإن أغناه الله عنه من حيث أنه مال، فإنه حريص على أخذه من حيث أنه بركة لكونه نعمة جديدة خارقة للعادة فينبغي تلقيها بالقبول، ولأنه ليس لأحد حق فيه أو طمع في أخذه ورده رد لنعم الله)[٣].

وأيوب عليه السلام من أنبياء الله الصابرين حيث ابتلاه الله في جسده وماله وولده فصبر وقد ورد ذكر قصته في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾[٤].

---

(١) انظر: القصة في القرآن الكريم، د. مريم عبدالقادر السباعي، ص٣١.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٨٥/٦.

(٣) شرح رياض الصالحين ٣٦١.

(٤) سورة ص، الآيات: ٤١-٤٤.

فأيوب عليه السلام أثنى عليه ربه فقال: "نعم العبد" الذي كمل مراتب العبودية، في حال السراء والضراء والشدة والرخاء، "وإنه أواب" أي كثير الرجوع إلى الله، في مطالبه الدينية والدنيوية، كثير الذكر لربه والدعاء، والمحبة والتأله[١]. من أجل ذلك كان حريصاً على الاستزادة من فضل الله وبركته.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: الترغيب في طلب فضل الله:

إن موضوعات الدعوة التي تستنبط من الحديث الترغيب في طلب فضل الله وعطائه والشعور بالحاجة إلى فضله تعالى. يظهر ذلك من عموم الحديث فذكر رسول الله ﷺ حرص أيوب عليه السلام على الاستزادة من فضل الله وعطائه فيه ترغيب في طلب فضل الله وعطائه والشعور بالحاجة إلى فضله.

قال ابن هبيرة: (في هذا الحديث من الفقه: جواز استكثار الغني من الغنى بنية الإنفاق.

وفيه أيضاً: أنه إذا رأى المؤمن فضل الله سبحانه وتعالى نازلاً عليه، فلا يقطع تناوله ما دام نازلاً ويكون ناوياً بذلك أنه لا يشبع من رحمة الله كما قال أيوب، فإن الله سبحانه لا يحب من عبده أن يرد عليه فضله)[٢]. فينبغي على الداعية ترغيب المدعوين في طلب فضل الله وعطائه والشعور بالحاجة إلى فضله تعالى.

وهذا كان شأن رسول الله ﷺ مع أصحابه رضي الله عنهم يرغبهم في طلب فضل الله وعطائه والشعور بالحاجة إلى فضله تعالى ويفعل ذلك بنفسه فيوم بدر قد بات ﷺ يصلي إلى جذم[٣] شجرة هناك، ويكثر في سجوده أن يقول "يا حي يا قيوم" يكرر ذلك

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام الرحمن، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٦٦١.

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٣١٥/٧.

(٣) جذم كل شيء: أصله.

ويلظ[١] به عليه الصلاة والسلام[٢].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر، نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين ... فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة، ثم مد يديه فجعل يهتف بربه (اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تُهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض) فما زال يهتف بربه، ماداً يديه، مستقبل القبلة، حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر، فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله كفاك منا شدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله ﷻ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[٣] فأمده الله بالملائكة[٤].

والترغيب في طلب فضل الله وعطائه والشعور بالحاجة إلى فضله تعالى من الأشياء التي ينبغي أن يحرص عليها الداعية، وذلك لأن الفضل بيد الله وكل مخلوق يحتاج إلى فضل الله وعطاءه فهو المنعم ومن بيده الخير كله.

رابعاً- من أساليب الدعوة: النداء والاستفهام:

يظهر أسلوب النداء في قول الله تعالى: يا أيوب. والاستفهام في قوله سبحانه، "ألم أكن أغنيتك عما ترى؟". وهو استفهام تقريري، قال ابن هبيرة: وأما قوله جل جلاله: (ألم أكن أغنيتك) فإنه فيما أرى إنما قيل له؛ ليقول أيوب ما قاله، فيهتدي به في غير ذلك[٥].

ولقد استخدم رسول الله ﷺ هذا الأسلوب بكثرة في تربية المخاطبين وتوجيههم

---

(١) يقال: ألظَّ بالشيء يُلظُّ إلظاظاً إذا لزمه وثابر عليه... وجاء في حديث الدعاء... ألظوا بياذا الجلال والإكرام، أي إلزموه واثبتوا عليه وأكثروا من قوله والتلفظ به في دعائكم. وألظ تأتي بمعنى ألحّ في سؤاله وألزمه إياه، انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ص ٨٣٦.

(٢) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق: أحمد أبو مسلم وآخرون، ٨١/٥.

(٣) سورة الأنفال، آية: ٩.

(٤) أخرجه مسلم ١٧٦٣.

(٥) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٣١٥/٧.

وإعدادهم إعدادًا إسلامياً صحيحاً، وهو أسلوب يدفع بالمتعلم إلى المشاركة بالأسئلة والاستماع والفهم، والتساؤل عما لا يدركه من حقائق، وهو طريقة لا يمكن أن يكون المتعلم فيها سلبياً أو مصدقاً لما يسمعه دون فهم وإدراك، وقد توجه الأسئلة من المربي إلى المتعلم بطريقة تقوده لأن يتوصل بنفسه إلى الحقيقة[١]، وذلك أن الاستفهام في أصل وضعه يتطلب جواباً يحتاج إلى تفكير يقع به هذا الجواب في موقعه، وهذا يحمل المخاطب إلى توجيه كل اهتمامه لما يلقى إليه، ليتمكن من فهمه، ثم الإجابة عليه فإذا كان الاستفهام تقريراً فمعنى ذلك أنه يحمل المخاطب على الاعتراف، وينزع منه الإجابة بعد التدبر والأناة التي يقتضيها أسلوب الاستفهام[٢].

---

(١) انظر: أسلوب الدعوة القرآنية بلاغة ومنهاجاً، د. عبدالغني محمد سعيد بركة ص ١٧٢.

(٢) انظر: فلسفة التربية في الحديث النبوي، د. عبدالجواد سيد بكر ص ٢٣٣.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

أولاً- التربية على علو الهمة:

إن الدعوة إلى التنافس في أمور الآخرة ترتقي بهمة المسلم، وتخلق لديه روح المسارعة إلى الأعمال الصالحة التي توصله إلى مرضاة الله عز وجل، وقد قال الله تعالى في بيان ضرورة التنافس على علو الهمة، والتحليق والتطلع إلى معالي الأمور وأشرف المنازل: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ﴾(١).

"وكان من هديه ﷺ المبارك أنه كان يرغب الصحابة رضي الله عنهم في الدرجات العالية والرتب السامية ويبعث فيهم الرغبة في التنافس في الخير، وهذا يوجب الارتفاع بهمَم مَنْ يقوم المربي بتربيتهم، وتنبيههم إلى المراتب العالية، وحثهم على التنافس والرغبة في الوصول إلى أعلى المراتب وأرفع الدرجات"(٢).

بلغنا السماء مجدًا وجودًا وسُؤددا ... وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرًا

إن عظيم الهمة لا يشغل بَالَه أمرٌ صغير، ولا يقلق فكره عمل يسير، بل يقوم بجلائل الأعمال فلا يتبرم ولا يقلق، ولا يشكو كثرة الأعباء، ولمَّا كان مجد الآخرة أعظم المجد كان ابتغاؤه أعظم الغايات، وكان هو الهمّ الأكبر للمؤمنين الصادقين ذوي الهمَم العلية، والنفوس الكبيرة الزكية، فالآخرة هي أولى بأن تُبْتغى، ويُسعى لها سعيها؛ فنعيمها خير وأبقى، وملكها ملك لا ينقطع ولا يبلى"(٣).

ثانيًا- تربية الصغير على ممارسة حقوقه المشروعة:

---

(١) سورة المطففين، الآيات: ٢٢-٢٦.

(٢) التربية على منهج أهل السنة والجماعة، أحمد فريد ص٢٧٧، ٢٧٨.

(٣) الهمة العالية معوقاتها ومقوماتها، محمد بن إبراهيم الحمد ص ١٠٨، ١١٤ بتصرف.

من المضامين التربوية التي يشير إليها الباب تعويد الصغير وتدريبه وتربيته على ممارسة حقوقه المشروعة، ويبدو هذا من قول النبي ﷺ للغلام: «أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أُعْطِيَ هَـٰؤُلَاءِ؟» فَقَالَ الْغُلَامُ: لاَ. وَاللّٰهِ لاَ أُوثِرُ بِنَصِيبِي مِنْكَ أَحَدًا.

لقد أقر الرسول ﷺ بالحق المشروع للغلام في الشرب قبل الأشياخ فاستأذنه، فلم يأذن الغلام وتمسك بأحقيته في الشرب فأقر له النبي ﷺ بذلك، ومن ثَمَّ يجب على المربين أن يقروا بالحقوق المشروعة للصغار ولا يهضمونهم إياها لكونهم صغارًا، ويعودوهم على ذلك. ويدربوهم على التعبير بحرية عما يريدون، لأن هذا سيكون له الأثر الطيب في تكوين شخصية هؤلاء الصغار، وتنمية قدراتهم ومواهبهم.

"إن إعطاء الصغير حقه، وقبول الحق منه، يغرس في نفسه شعورًا إيجابيًا نحو الحياة، ويتعلم أن الحياة أخذ وعطاء، كذلك فإنه تدريب للصغير على الخضوع للحق، فيرى أمامه قدوة صالحة، وإن تعوده العدل في قبول الحق، ورضوخه له، تتفتح طاقته لترسم طريقها في التعبير عن نفسه، ومطالبته بحقوقه، وعكس هذا يؤدي إلى كبتها وضمورها، ويولد لدى الصغير إحساسًا بالقهر، ومن ثَمَّ فإن رسول الله ﷺ استأذن غلامًا عن يمينه لكي يتنازل عن حقه ليعطيه للكبير الذي عن يساره، فإذا بالغلام لا يُؤْثِرُ أحدًا على نفسه بسُؤْر رسول الله ﷺ، فيعطيه رسول الله ﷺ الإناء ليشرب، ويهنأ في الاستمتاع بحقه، ولقد سار السلف الصالح على قبول الحق من الصغير مهما كان نوعه"[1].

ثالثًا- دور المجالس في التربية:

إن مجالس المربين ينبغي أن تكون وسيلة من وسائل تحقيق التربية، والتربية في وسط المجموع قد يكون لها أبلغ الأثر في تحقيق القدوة، وفي حديث الباب كان مجلس النبي ﷺ بمَنْ فيه من أشياخ وغلام أحد الوسائط التربوية التي من خلالها يوصل المربي ما يريد أن يغرسه من قيم في نفوس المتربين.

---

(١) انظر: المنهج التربوي في تربية الطفل، د. عبدالباسط محمد السيد ص٨٢.

"لقد استخدم المنزل كمكان لنشر العلم وللتعليم منذ الصدر الأول للإسلام، وذلك عندما اتخذ الرسول ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم مكانًا لتعليم مبادئ الإسلام، وفي بعض الأحيان كان يلتقي ﷺ بأصحابه في منزله أو في مجالسه بأي مكان ليرشدهم ويعلمهم أمور دينهم.

وكان بعض المربين يتخذون منازلهم مكانًا للتعليم يلتقون فيه بغيرهم من طلبة العلم فيفيدونهم، وليست مجالس العلماء هذه قاصرة على مجالس علماء الدين فحسب، ولكنها كل المجالس العلمية التي يقدم فيها أي نوع من أنواع العلوم النافعة كالمؤتمرات والندوات واللقاءات والمنتديات الشعرية والأدبية والعلمية والطبية والنفسية والتربوية... وغيرها من المجالس التي تقوم بدور أو بآخر في التربية الإسلامية" (1).

رابعًا- التربية بالقصة:

إن من الأساليب التربوية المهمة التربية بالقصة، وذلك لما تتركه من أثر حميد في نفس المتلقي، وفي هذا الباب جاء الحديث عن جزء من قصة أيوب عليه السلام ونزول الجراد عليه.

"والقصة التربوية هي الخبر الصادق المنقول لفظًا أو كتابة. أما ما يُخْتلق من أكاذيب، فليست من الصدق في شيء، وبالتالي لا ينبغي نقلها ولا استخدامها، وتبرز أهمية القصة من التأثير النفسي العميق الذي تتركه في ذهن المستمع أو القارئ، وتتجاوز ذلك إلى التأثير في سلوكه وأفكاره، فهي أحد أساليب التربية الإسلامية حيث تضمن القرآن الكريم الكثير من القصص، وتضمنت السنة النبوية العديد من القصص التي قَصَّهَا رسول الله ﷺ على أصحابه وحفظتها كتب الأحاديث النبوية"(2).

ومن ثَمَّ فيجب على المربين استعمال القصة في تربية النشء وغرس القيم الصحيحة

---

(1) أصول التربية الإسلامية، د. سعيد إسماعيل القاضي ص ١٥٦-١٥٧ بتصرف.

(2) أصول التربية الإسلامية، د. خالد حامد الحازمي ص٣٨٩.

في نفوس المتربين.

خامسًا- من الأساليب التربوية المناقشة والحوار:

كما في حديث سهل بن سعد رضي الله عنه ((أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بشراب فشرب منه وعن يمينه غلام، وعن يساره الأشياخ فقال للغلام: أتأذن لي أن أعطى هؤلاء..))الحديث.
وأسلوب المناقشة والحوار من الأساليب التي تتميز بتفعيل دور المتعلم في العملية التربوية وتدفع الملل عنه وتستثير دافعيته للتعلم. لذا كان من الأجدر أن يستخدمه المعلم في حجرة التدريس وخارجها.

٦٤- باب فضل الغَنِيّ الشاكر

وهو من أخذ المال من وجهه وصرفه في وجوهه المأمور بهَا

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾[الليل: ٥-٧]، وقال تَعَالَى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى وَمَا لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾[الليل: ١٧-٢١]، وقال تَعَالَى: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الفُقَراءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[البقرة: ٢٧١]، وقال تَعَالَى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾[آل عمران: ٩٢] والآيات في فضلِ الإنفاقِ في الطاعاتِ كثيرة معلومة.

الحديث رقم (٥٧١)

٥٧١- وعن عبدِ الله بن مسعود رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: **((لاَ حَسَدَ إلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالاً، فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ حِكْمَةً فَهُوَ يَقضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا))** متفقٌ عَلَيْهِ[1]. وتقدم شرحه قريبًا.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٧).

غريب الألفاظ:

هلكته: إنفاقه[2].

الشرح الأدبي

الحديث يوجه الطاقة الداخلية الهدامة في الإنسان إلى الاتجاه الذي يجعلها طاقة

(١) أخرجه البخاري ٧٣، ومسلم ٨١٦/٢٦٨ ولفظهما سواء، أورده المنذري في ترغيبه ١٢١. وتقدم برقم ٥٤٣.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (هـ ل ك).

نافعة في سبيل الله تسعى في الخير لا في الشر، والمقصود بالحسد هنا تلك الطاقة الشعورية الموجهة لتمني الخير الأخروي وهي على ذلك تقابل الغبطة التي تعني تمني مثل ما لغيره دون أن تتمنى زواله، وبذلك فهي تفارق معنى الحسد المذموم الذي يعني زوال نعمة غيره، وهي بهذه الدلالة خلق مذموم محرم أما شعور الغبطة: فَلَيْسَ بِحَرَامٍ، بَلْ هُوَ إِمَّا وَاجِبٌ أَوْ مَنْدُوبٌ أَوْ مُبَاحٌ، فَالْوَاجِبُ يَكُونُ فِي النِّعَمِ الدِّينِيَّةِ الْوَاجِبَةِ كَنِعْمَةِ الْإِيمَانِ وَالصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ وَالزَّكَاةِ، فَيَجِبُ أَنْ يُحِبَّ أَنْ يَكُونَ مِثْلَ الْقَائِمِ بِذَلِكَ، وَإِلَّا كُنْتَ رَاضِيًا بِالْمَعْصِيَةِ، وَالرِّضَا بِهَا حَرَامٌ، وَالْمَنْدُوبُ يَكُونُ فِي الْفَضَائِلِ: كَالْعُلُومِ، وَإِنْفَاقِ الْأَمْوَالِ فِي الْمَبَرَّاتِ، وَالْمُبَاحُ يَكُونُ فِي النِّعَمِ الْمُبَاحَةِ كَالنِّكَاحِ، نَعَمْ الْمُنَافَسَةُ فِي الْمُبَاحَاتِ تُنْقِصُ مِنْ الْفَضَائِلِ وَتُنَاقِضُ الزُّهْدَ وَالرِّضَا وَالتَّوَكُّلَ، وَتَحْجُبُ عَنْ الْمَقَامَاتِ الرَّفِيعَةِ مِنْ غَيْرِ إِثْمٍ، وقوله (لاَ حَسَدَ إِلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ) أسلوب قصر لقصر الحسد على الاثنين المذكورين، وهو أسلوب توكيد يقابل به المنكر والمتردد في وخاطبهم به لكثرة وقوعه بين الناس فصاروا كالمنكرين لحقيقة الخبر أو المترددين بين الفعل، والترك، وأطلق الحسد وأراد الغبطة من قبيل إطلاق اسم المسبب على السبب وقال الخطابي معنى الحسد ههنا شدة الحرص والرغبة كنى بالحسد عنهما لأنهما سببه، والداعي إليه، ولهذا سماه البخاري اغتباطا وقوله (رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً، فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ حِكْمَةً فَهُوَ يَقضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا) نكر (مالا) وعرف (الحكمة)؛ لأن المراد من الحكمة معرفة الأشياء التي جاء الشرع بها يعني الشريعة فأراد التعريف بلام العهد أو المراد منه القرآن، فاللام للعهد أيضا بخلاف المال فلهذا دخل صاحبه بأي قدر من المال أهلكه في الحق تحت هذا الحكم قوله (فسلط على هلكته) في هذه العبارة مبالغتان أحداهما التسليط فإنه يدل على الغلبة، وقهر النفس المجبولة على الشح البالغ، والأخرى: لفظ (على هلكته) فإنه يدل على أنه لا يبقي من المال شيئا ولما أوهم اللفظان التبذير وهو صرف المال فيما لا ينبغي ذكر قوله (في الحق) احتراساً يدفع ذلك الوهم وكذا القرينة الأخرى اشتملت على مبالغتين إحداهما: الحكمة فإنها تدل على علم دقيق محكم، والأخرى القضاء بين الناس، وتعليمهم

فإنها من خلافة النبوة ثم إن لفظ الحكمة إشارة إلى الكمال العلمي ويفضي إلى الكمال العملي وبكليهما إلى التكميل والفضيلة إما داخلية وإما خارجية وأصل الفضائل الداخلية العلم وأصل الفضائل الخارجية المال، ومعنى الحديث الترغيب في طلب العلم، وتعلمه، والتصدق بالمال.[1]

المضامين الدعوية[2]

(١) انظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني حديث (٧٣).

(٢) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (٥٤٣).

الحديث رقم (٥٧٢)

٥٧٢- وعن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، عن النبي ﷺ، قَالَ: ((**لاَ حَسَدَ إلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ القُرْآنَ، فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ مَالاً، فَهُوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ**)) متفقٌ عَلَيْهِ[١].

(**الآنَاء**): السَّاعَاتُ.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

الآناء: الساعات[٢].

الشرح الأدبي

الحديث يبدأ بأسلوب القصر بطريق النفي والاستثناء، وهو من الأساليب الخبرية التي تتضمن نوعا من توكيد الخبر عن طريق إثبات المعنى لمعنى آخر، ونفيه عن كل ما عداه، والذي يتضمن تأكيد الإثبات الأول بالمفهوم، وقوله (لا حسد إلا في اثنتين) المقصود بالحسد هنا الغبطة، وهي تمني مثل ما للغير، وليس هو بعينه بحيث يتمنى زوال النعمة عنه، وحصوله عليها، وأسلوب القصر نفى استحقاق الحسد عن كل شيء، وأثبته للاثنين دون غيرهم فقد تضمن إثباتاً ونفياً مما يؤكد المعنى، ثم إن ذكر العدد اثنين فيه نوع من التشويق؛ لأنه عدد مبهم بالنسبة للمخاطبين، وقد فسَّره بما بعده، وهو ما يحقق ترقب المخاطب وتنكير لفظ (رجل) يفيد التعميم، ونسبة فعل الإتيان لله يشير إلى أن الأمر ليس بمحض كسب الإنسان، وإنما هو سعي من العبد

---

(١) أخرجه البخاري ٥٠٢٥، ومسلم ٨١٥/٢٦٦ واللفظ له. أورده المنذري في ترغيبه ٢١١٢. وقد تقدم برقم ٥٤٣ وسيكرره المؤلف برقم ٩٩٨.

(٢) رياض الصالحين ٢٦١.

وتذلل للرب، وفضل من الله عليه بالتوفيق، والتعبير بالقيام يشير إلى الصلاة، والتلاوة، والتعلم، والتعليم، وحفظ الحدود، والعمل به، والطباق بين الليل، والنهار يشير إلى دوام العمل به تلاوة، وتحكيماً، وشيوع لفظ (آناء) في الحديث يشير إلى دوام العمل، وعدم الانقطاع في التلاوة، والتحكيم والعمل، وفي المال تشير إلى الإنفاق في كل سبيل للخير ينفتح له كما دل على ذلك استخدام صيغة المضارع الدال على التجدد، والاستمرار.

المضامين الدعوية

أولاً : من أساليب الدعوة: النفي والإثبات.

ثانيا: من موضوعات الدعوة: فضل تلاوة القرآن آناء الليل وآناء النهار.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل إنفاق المال وشكر النعم.

رابعًا: من أساليب الدعوة: الترغيب

أولاً- من أساليب الدعوة: النفي والإثبات:

ورد ذلك في قول رسول الله ﷺ "لا حسد إلا في اثنتين". حيث نفى الحسد وأثبته لاثنتين. واستخدم في ذلك أداة الاستثناء "إلا" والاستثناء يقصد: إخراج ما لولاه لدخل في الكلام، بإلا أو إحدى أخواتها.

والمراد بالإخراج: الطرح بإسقاط ما بعد أداة الاستثناء من المعنى الذي قبلها فيخالف ما بعدها ما قبلها فيما تقرر من حكم مثبت أو منفي[(١)].

وقد ورد استخدام الاستثناء في القرآن والسنة. قال تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾[(٢)] وقال تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا﴾[(٣)].

(١) انظر: شرح الورقات في أصول الفقه، عبدالله بن صالح الفوزان، تقديم أحمد بن عبدالله بن حميد ص ١٢٣-١٢٤.

(٢) سورة النساء، آية: ٢٩.

(٣) سورة مريم، آية: ٦٢.

وقال رسول الله ﷺ: ((الصُّلْحُ جَائِزٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ. إلاَّ صُلْحًا حَرَّمَ حَلاَلاً أوْ أحَلَّ حَرَامًا. والمُسْلِمُونَ عَلَى شُرُوطِهِمْ، إلاَّ شَرْطًا حَرَّمَ حَلاَلاً أوْ أحَلَّ حَرَامًا))(١). وقال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: ((إنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ اللّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ. فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللّهِ إلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَإنَّهُ لَمْ يَحِلَّ الْقِتَالُ فِيهِ لأَحَدٍ قَبْلِي. وَلَمْ يَحِلَّ لِي إلاَّ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ. فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللّهِ إلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ. لاَ يُعْضَدُ شَوْكُهُ. وَلاَ يُنَفَّرُ صَيْدُهُ. وَلاَ يَلْتَقِطُ إلاَّ مَنْ عَرَّفَهَا. وَلاَ يُخْتَلَىٰ خَلاَهَا فَقَالَ الْعَبَّاسُ: يَا رَسُولَ اللّهِ إلاَّ الإِذْخِرَ. فَإنَّهُ لِقَيْنِهِمْ وَلِبُيُوتِهِمْ. فَقَالَ: إلاَّ الإِذْخِرَ))(٢).

ثانيًا– من موضوعات الدعوة: فضل تلاوة القرآن آناء الليل وآناء النهار:

يظهر ذلك في قول رسول الله ﷺ "لا حسد إلا في اثنتين: رجل أتاه الله القرآن، فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار....". وفضل تلاوة القرآن آناء الليل وآناء النهار عظيم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾(٣).

قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾(٤).

قال ابن كثير: (يقول تعالى مخبرًا عن كتابه الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ وهو القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد إنه: "شفاء ورحمة للمؤمنين" أي: يذهب ما في القلوب من أمراض، من شك ونفاق، وشرك وزيغ وميل، فالقرآن يشفي من ذلك كله. وهو أيضًا رحمة يحصل فيها الإيمان والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه، وليس هذا إلا لمن آمن به وصدقه واتبعه، فإنه

---

(١) أخرجه الترمذي ١٣٥٢، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٠٨٩).

(٢) أخرجه البخاري ١٨٣٤، ومسلم ١٣٥٣ واللفظ له.

(٣) سورة فاطر، الآيتان: ٢٩ – ٣٠.

(٤) سورة الإسراء، آية: ٨٢.

يكون شفاء في حقه ورحمة. وأما الكافر الظالم نفسه بذلك، فلا يزيده سماعه القرآن إلا بعدًا وتكذيبًا وكفرًا)[١].

فالقرآن هو كلام رب العالمين، وهو النبراس العظيم، هو النور حقًا، هو النور الساطع والبرهان القاطع.

نور يتلألأ، نور لا كالأنوار، نور ياله من نور، نور لا أفول له ولا يعتريه اضمحلال، نور ينير الطريق للسالكين، نور يهتدي به كل تائه وحيران نور أطل من العلا على كل الملا، نور أشعته تشفي من أمراض الشهوات والشبهات[٢].

فينبغي على المسلم أن يحرص على قراءة القرآن في جميع الأوقات لان ذلك فضله عظيم قال رسول الله ﷺ: ((الذي يقرأ القُرآنَ وَهُوَ ماهِرٌ بِهِ مَعَ السَّفَرَةِ الكِرَامِ البرَرَةِ، وَالَّذِي يَقْرَؤُهُ وَهُوَ عَلَيْهِ شاقٌّ فله أَجْرانِ))[٣].

قال رسول الله ﷺ: ((مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الأُتْرُجَّةِ. رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ. وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لاَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ التَّمْرَةِ. لاَ رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ. وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الرَّيْحَانَةِ. رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ. وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لاَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ. لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ))[٤].

وينبغي على المسلم استذكار القرآن وتعاهده قال رسول الله ﷺ: ((إنما مَثَل صاحبِ القرآن كمثل صاحب الإبل المعقَّلة، إن عاهَدَ عليها أمسكها، وإن أطلَقها ذهَبَتْ))[٥]. واستذكار القرآن أي: المواظبة على التلاوة وطلب ذكره. والمعاهدة: أي: تجديد العهد به بملازمته وتلاوته... فإن الذي يداوم على ذلك يذل له لسانه ويسهل عليه

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١١٢/٥.

(٢) الهدي والبيان في أسماء القرآن، صالح بن إبراهيم البليهي ص ١٨٦.

(٣) أخرجه الترمذي ٢٩٠٤، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٣٢٥).

(٤) أخرجه البخاري ٥٠٢٠، ومسلم ٧٩٧ واللفظ له.

(٥) أخرجه البخاري ٥٠٣١.

قراءته فإذا هجره ثقلت عليه القراءة وشقت عليه[١].

وعن أبي إمامة الباهلي ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((اقْرَأُوا الْقُرْآنَ. فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لأَصْحَابِهِ))[٢].

وقال رسول الله ﷺ : (خيرُكم من تعلم القرآن وعلمهُ)[٣]، وعن رسول الله ﷺ قال: ((مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ فِيمَا بَيْنَهُمْ إلاَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ))[٤].

وقد بين ﷺ أن تلاوة القرآن بكل حرف منه حسنة فقال: ((مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا لاَ أَقُولُ آلم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْف ولامٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ))[٥].

فالقرآن كتاب الله العظيم أنزله الله على رسوله وجعل فضل تلاوته والتغني به عظيم.

قال السيوطي: (قال ابن الصلاح في فتاويه: قراءة القرآن كرامة أكرم الله بها البشر، فقد ورد أن الملائكة لم يعطوا ذلك، وأنها حريصة لذلك على استماعه من الأنس)[٦].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل إنفاق المال وشكر النعم:

يظهر ذلك في قول رسول الله ﷺ "... ورجل آتاه مالاً، فهو ينفقه آناء الله وآناء النهار". فبين أن الحسد يكون أيضًا في إنفاق المال، وذلك لأن إنفاق المال ابتغاء مرضاة

(١) فتح الباري، ابن حجر ٦٩٧/٨.

(٢) أخرجه مسلم ٨٠٤.

(٣) أخرجه البخاري ٥٠٢٧.

(٤) أخرجه مسلم ٢٦٩٩.

(٥) أخرجه الترمذي ٢٩١٠، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٣٢٧).

(٦) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي ٢٩١/١.

الله ثوابه عظيم . قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(١). قال ابن كثير: (هذا مدح منه تعالى للمنفقين في سبيله، وابتغاء مرضاته في جميع الأوقات من ليل أو نهار، والأحوال من سر وجهار)(٢).

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾(٣).

وقال رسول الله ﷺ: ((ما مِن يومٍ يُصبحُ العِبادُ فيه إلاَّ مَلَكانِ يَنزِلانِ فيقولُ أحدُهما: اللَّهمَّ أعطِ مُنفِقًا خَلَفا، ويَقولُ الآخَرُ: اللَّهمَّ أعطِ مُمسِكًا تلَفًا))(٤).

وقال ﷺ: (قال الله تعالى: أنفق يا ابن آدم ينفق عليك)(٥).

رابعًا- من أساليب الدعوة: الترغيب:

يظهر أسلوب الترغيب في قصر النبي ﷺ الحسد على تلاوة القرآن والإنفاق في الخير آناء الليل والنهار.

ولا ريب أنَّ هذين الصنفين من أنفع الناس لعيال الله، ولا يقوم أمر الناس إلا بهذين الصنفين ولا يعمر إلا بهما)(٦).

وفي ذلك ترغيب في تلاوة القرآن وإنفاق المال ابتغاء مرضاة الله ﷻ وأسلوب الترغيب من أساليب الدعوة التي ينبغي أن يحرص الداعية على استخدامها لما لها من أثر فعال في قبول الدعوة والحرص على القيام بها وذلك لأن الترغيب يقصد به كل ما يشوق المدعو إلى الدعوة وكذلك الترغيب في حصول الثواب وكثرة الخيرات.

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٧٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١/٧٠٧.

(٣) سورة سبأ، آية: ٣٩.

(٤) أخرجه البخاري ١٤٤٢.

(٥) أخرجه البخاري ٥٣٥٢. ومسلم ٩٩٣

(٦) طريق الهجرتين وباب السعادتين ٦٤٩.

الحديث رقم (٥٧٣)

٥٧٣- وعن أبي هريرة رضي الله عنه : أنَّ فُقَراءَ المُهَاجِرينَ أتَوْا رسول الله ﷺ ، فَقَالُوا : ذَهَبَ أهْلُ الدُّثُورِ بالدَّرَجَاتِ العُلَى، وَالنَّعِيم المُقيم، فَقَالَ: ((وَمَا ذَاك؟)) فَقَالوا : يُصلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصدَّقُونَ وَلاَ نَتَصدَّقُ، وَيَعْتِقُونَ وَلاَ نَعْتِقُ، فَقَالَ رسول الله ﷺ : **((أفَلا أُعَلِّمُكُمْ شَيْئًا تُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ، وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ، وَلاَ يَكُونُ أحَدٌ أفْضَلَ مِنْكُمْ إلاَّ مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ؟))** قالوا : بَلَى يَا رسول الله، قَالَ: **((تُسَبِّحُونَ وَتُكَبِّرُونَ وَتَحْمِدُونَ، دُبُرَ كُلِّ صَلاَةٍ ثَلاثًا وَثَلاثِينَ مَرَّةً))**.

فَرَجَعَ فُقَرَاء المُهَاجِرِينَ إلَى رسول الله ﷺ ، فقالوا : سَمِعَ إخْوَانُنَا أهلُ الأمْوالِ بِمَا فَعَلْنَا، فَفَعَلُوا مِثلَهُ؟ فَقَالَ رسول الله ﷺ : **((ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ))** متفقٌ عَلَيْهِ[١]، وَهَذا لفظ رواية مسلم.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

الدثور: الأموال الكثيرة[٢].

دُبر كل صلاة: أي بعد انتهائها[٣].

الشرح الأدبي

الحديث يعرض لصورة من صور التنافس في الخير بين المؤمنين، ويقوم المعنى فيه على الحوار بين فقراء المهاجرين، وبين الرسول ﷺ وقولهم (: ذَهَبَ أهْلُ الدُّثُورِ

(١) أخرجه البخاري ٨٤٣، ومسلم واللفظ له ٥٩٥/١٤٢. أورده المنذري في ترغيبه ٢٣٦٩.

(٢) رياض الصالحين ٢٦١ ، ٤٨٩.

(٣) انظر: معجم لغة الفقهاء، أ.د. محمد رواس قلعة جي ١٨٣.

بالدَّرَجَاتِ العُلَى) كناية عن تحصيلهم الأعمال الصالحة الكبيرة، والتعبير بالذهاب مبالغة في الحيازة كأنهم لم يبقوا لها أثرا وجمع الدرجات للتعظيم، ووصفها بالعلي مبالغة في العلو، وقول الرسول ﷺ (وَمَا ذَاك ؟) استفهام على حقيقته يضع على إثره الحل بعد الإحاطة بأبعاد المشكلة، وقولهم: (يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ) فيه جناس بين يُصَلُّونَ ونُصَلِّي، وبين يَصُومُونَ ونَصُومُ يؤكد المعنى، ويقرر التطابق في الفعل، والتساوي في العمل، وليس في هذا الجزء اعتراض والمفارقة في قوله (وَيَتَصَدَّقُونَ وَلاَ نَتَصَدَّقُ، وَيَعْتِقُونَ وَلاَ نَعْتِقُ) وفيه طباق سلب بين يَتَصَدَّقُونَ، وَلاَ نَتَصَدَّقُ، وَبين يَعْتِقُونَ وَلاَ نَعْتِقُ، لأنهم يملكون المال، والفقراء لا يملكون، وقول الرسول (أَفَلا أُعَلِّمُكُمْ شَيْئاً تُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ، وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ، وَلاَ يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلاَّ مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ ؟) وهو استفهام عرض وتشويق، وترغيب يسيطر على العقل حتى يتقرر المعنى وقد جعل لهم فيه ما يبحثون عنه من إدراك السابق، وفوت اللاحق، والتفرد في المنزلة، وهو ما تسعى خلفه النفوس المؤمنة الطامحة وقوله (تُسَبِّحُونَ وَتُكَبِّرُونَ وَتَحْمِدُونَ، دُبُرَ كُلِّ صَلاَةٍ ثَلاثاً وَثَلاثِينَ مَرَّةً)يدل على فضل الذكر وعظمة ثوابه مع عدم الكلفة، وقلة الجهد، وقولهم (سَمِعَ إِخْوَانُنَا أَهلُ الأَمْوالِ بِمَا فَعَلْنَا، فَفَعَلُوا مِثْلَهُ ؟) يشير إلى روح المنافسة في الخير السائدة في الجيل الطاهر والتي تشبه منافستنا اليوم، ولكن على الدنيا، وقول الرسول ﷺ (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ) يرد المسألة إلى أصلها، وهو توفيق الله، والإشارة (ذلك) للتعظيم، وإضافته لله تزيده تعظيماً مع التخصيص الذي يقرر أن مرد الأمر لمشيئة الله.

فقه الحديث

١- **الذكر عقب الصلاة:** ورد في هذا الحديث: (تسبحون وتكبرون وتَحْمدون دبر كل صلاة ثلاثًا وثلاثين مرة).

وعند مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: ((مَنْ سَبَّحَ اللَّهَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاَةٍ ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ، وَحَمِدَ اللَّهَ ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ، وَكَبَّرَ اللَّهَ ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ، فَتِلْكَ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ. وَقَالَ، تَمَامَ الْمِائَةِ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ

شَيْءٍ قَدِيرٌ، غُفِرَتْ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ))[(١)].

وعند مسلم من حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه: ((وأربع وثلاثون تكبيرة))[(٢)].

وفي رواية عند البخاري من حديث أبي هريرة: ((تُسَبِّحُوْنَ فِي دُبُرِ كُلِّ صلاةٍ عَشْرًا وتَحْمَدُوْنَ عَشْرًا وتُكَبِّرُوْنَ عَشْرًا))[(٣)].

وفي رواية عند مسلم من حديث أبي هريرة ((إِحْدَى عَشَرَةَ إِحْدَى عَشْرَةَ. فَجَمِيعُ ذَلِكَ كُلُّهُ ثَلاثَةٌ وَثَلاثُونَ))[(٤)].

قال ابن حجر: (وجمع البغوي في شرح السنة بين هذا الاختلاف باحتمال أن يكون ذلك صدر في أوقات متعددة أولها عشر عشرًا ثم إحدى عشرة إحدى عشرة ثم ثلاثًا وثلاثين ثلاثًا وثلاثين، ويحتمل أن يكون ذلك على سبيل التخيير أو يفترق بافتراق الأحوال)[(٥)].

وقال عبدالله البسام: (وما دام الأحاديث صحّت بهذه الأعداد فينبغي أن يفعل هذا مرة وتلك مرة أخرى، ولعل العدد القليل يؤتى به في الأزمنة الضيقة، حتى لا تفوت المصلي السنة والفضيلة والله لطيف بعباده، أما العمل بالروايات كلها أو بأكثر من واحدة في صلاة واحدة، فلا يستحب)[(٦)].

٢- الدعاء عقيب الصلاة: قال ابن حجر: (استدل به البخاري على فضل الدعاء عقيب الصلاة كما سيأتي في الدعوات[(٧)]. لأنه في معناها، ولأنها أوقات فاضلة يرتجى فيها إجابة الدعاء)[(٨)].

---

(١) أخرجه مسلم ٥٩٧، ١٤٦.

(٢) أخرجه مسلم ٥٩٦، ١٤٤، ١٤٥.

(٣) أخرجه البخاري ٦٣٢٩، وانظر: روايات أخرى في سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، الصنعاني ٢٢٦.

(٤) أخرجه مسلم ٥٩٥، ١٤٣.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢/٣٢٩ ط/ السلفية.

(٦) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٢/١٢٥.

(٧) بوّب البخاري على هذا الحديث في كتاب الدعوات، باب الدعاء بعد الصلاة، وساق تحته حديث الباب برقم ٦٣٢٩.

(٨) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢/٣٣١، وانظر: زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم ١/٢٥٧-٢٥٨، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٢٢/٤٩٢ ط/ ابن قاسم، ١١/٢٥٧-٢٥٨ ط/ العبيكان، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١/١٣٣-١٣٥.

المضامين الدعوية

أولاً : من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على تحصيل الأجر والثواب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة على تحصيل الأجر والثواب:

حيث جاء في الحديث: "إن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ، فقالوا ذهب أهل الدثور بالأجور"، وفيه أيضًا "سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا". وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على حرص الصحابة على تحصيل الأجر والثواب، قال ابن عثيمين: (وفي هذا الحديث دليل على أن الصحابة كانوا يتسابقون إلى الخير فالأغنياء، لما سمعوا بما أرشد إليه النبي الفقراء بادروا إليه وفعلوه والفقراء جاءوا يشكون أنهم لا يستطيعون فعل بعض العبادات المالية لقلة ذات أيديهم فأرشدهم النبي لما يدركون به من سبق، ويسبقون به من بعدهم ففعلوا ذلك ثم جاءوا يشكون أن إخوانهم الأغنياء لما سمعوا بذلك بادروا بفعله)[1]، وقال السيد سابق: (إن أسمى الغايات، وأنبل المقاصد، أن يحرص الإنسان على الخير، ويسارع إليه.

وبهذا تسمو إنسانيته، ويتشبه بالملائكة، ويتخلق بأخلاق الله البار بعباده، الرحيم بخلقه.

ومن ثم فإن الله سبحانه يأمر بفعل الخيرات، والمسابقة إليها، فيقول سبحانه: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2].

أما الإسلام فإنه يجعل وجهة المسلم متجهة إلى فعل الخير والمسابقة إليه دائمًا. وقد أكثر الله سبحانه من الدعوة إلى الخير، وجعله أحد عناصر الفلاح والفوز، فقال الله سبحانه: ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[3].

---

(١) شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين ٨٤٢/١.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٤٨.

(٣) سورة الحج، آية: ٧٧.

وأخبر أنه أوحى إلى أنبيائه ورسله فعل الخيرات فقال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾(١) والخير الذي ندب الله إليه، ينتظم كل بر، ويشمل كل عمل صالح فطاعة الله خير.

وممارسة الفضائل خير، والإخلاص والنية الطيبة خير، والإحسان إلى الناس خير، وبر ذوي القربى خير، والقول الجميل خير، وكل عمل ينهض بالفرد ويرقي الجماعة فهو خير.

والفطر السليمة تهتدي إلى الخير، وتشعر به، وتنجذب إليه، وقلما تحتاج إلى من يبصرها به، أويدلها عليه، إذ الخير هو الكمال الذي تنشده وتسعد به.

ومن أجل هذا تأتي الدعة إلى الخير في كتاب الله، وفي سنة نبيه ﷺ دون أن تُعرِّف ماهيته، وتضع له الحدود التي تكشف عن معالمه(٢). وما من شك أنه في ذلك فليتنافس المتنافسون ولمثل هذا فليعمل العاملون وقد مدح الله المؤمنين بقوله تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾(٣). وجعل ذلك من صفات أنبيائه فقال عن زكريا ويحيى عليهما السلام ما جاء في قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾(٤).

ثانيًا- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

حيث جاء في الحديث "وما ذاك؟" "إلا من صنع مثل ما صنعتم؟" وأسلوب السؤال والجواب من أساليب الدعوة التي تساعد على إفهام المدعوين، وتفتح باب الحوار والمناقشة بين الداعية والمدعو، وهى تعمل على فتح قنوات اتصال مع الداعية للسؤال

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ٧٣.

(٢) إسلامنا ١٣٣ ، ١٣٤.

(٣) سورة المؤمنون، آية: ٦١.

(٤) سورة الأنبياء، آية: ٩٠.

والاستفسار عن الأمور الهامة وقد أمر الله بالسؤال في القرآن فقال سبحانه: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[(١)].

ثالثًا- من واجبات الداعية : توجيه المدعوين إلى إدراك ما يحصل به نفعهم:

يظهر هذا من الحديث (أفلا أعلمكم شيئًا تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم" والداعي إلى الله هو منارة الهدى دائمًا إلى الخير والرشاد، "وعلى الدعاة أن يقتفوا أثر رسول الله ﷺ في دعوة الأمم إلى الخير، وهداية البشرية إلى الصراط السوي، وعلى الداعية أن يبذل كل ما يستطيع من جهد لاستمالة الآخرين وجذبهم إلى نداء الله لأن الدعاة هم المبلغون لدين الله). وقد بين الرسول الكريم ﷺ ثواب من يرشد إلى الخير فعن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((من دل على خير فله مثل أجر فاعله))[(٢)].

قال النووي: (فيه فضيلة الدلالة على الخير والتنبيه عليه والمساعدة لفاعله وفيه فضيلة تعليم العلم ووظائف العبادات لا سيما لمن يعمل بها من المتعبدين وغيرهم والمراد بمثل أجر فاعله أن له ثوابًا لذلك الفعل كما أن لفاعله ثوابًا، ولا يلزم أن يكون قدر ثوابهما سواء)[(٣)].

وقد قال تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾[(٤)] وقال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[(٥)].

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ٧.

(٢) أخرجه مسلم ١٨٩٣.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٢١٥.

(٤) سورة المائدة، آية: ٢.

(٥) سورة آل عمران، آية: ١٠٤.

وحثّ الرسول ﷺ المسلم أن يكون مفتاحًا للخير فعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أنه قال: ((إنَّ هذَا الْخَيْرَ والشَّر خَزَائِنُ، وَلِتِلْكَ الْخَزَائِنِ مَفَاتِيحُ، فَطُوبى لِمَن كَانَ مِفْتَاحًا لِلْخَيْرِ، مِغْلاَقًا لِلشَّرِّ، وَوَيْلٌ لِمَنْ كَانَ مِفْتَاحًا لِلشَّرِّ مِغْلاَقًا لِلْخَيْرِ))[1].

وضد ذلك عدم رغبة العبد في الخير يفوته خيرًا كثيرًا، فإن كان مع ذلك عادمًا للنصح للعباد، لا يقصد نفعهم بوجه من الوجوه، وربما قصد إضرارهم وغشهم لأغراض نفسية؛ أو عقائد فاسدة، فقد أتى بالسبب الأعظم لحصول المضرات وتفويت الخيرات، وكان هذا الذي يصدق عليه أنه مفتاح للشر، مغلاق للخير، فنعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا.

ومن أعظم الأصول فتحًا للخيرات وإغلاقًا للشرور الإيمان التام بالرسول ﷺ، فإذا آمن به إيمانًا تامًا، وفهم كلامه ومراده تحقق ما قاله قطعًا، وعلم أن ما ناقض ذلك أو خالفه فإنه باطل، فماذا بعد الحق إلا الضلال، فهذا يغلق على العبد أبوابًا من الشرور فتحها أهل الكلام الباطل عارضوا بها ما جاء به الرسول، ولكن الإيمان التام وفهم مراد الرسول تمامًا يرد كل ما ناقضه[2].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل التسبيح والتحميد والتكبير في دبر كل صلاة:

حيث جاء في الحديث: "تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثًا وثلاثين مرة"، قال الإمام ابن حجر: (والأولى البداءة بالتسبيح لأنه يتضمن نفى النقائض عن الباري سبحانه وتعالى، ثم التحميد لأنه يتضمن إثبات الكمال له إذ لا يلزم من نفى النقائض إثبات الكمال ثم التكبير، إذ لا يلزم من نفى النقائض وإثبات الكمال أن لا يكون هناك كبير آخر ثم يختم بالتهليل الدال على انفراده سبحانه وتعالى بجميع ذلك ومقتضى الحديث أن الذكر المذكور يقال عند الفراغ من الصلاة فلو تأخر عن الفراغ فإن كان يسيرًا بحيث لا يعد معرضًا أو كان ناسيًا أو متشاغلاً بما ورد أيضًا بعد

---

(١) أخرجه ابن ماجه ٢٣٨، وحسنه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ١٩٤).

(٢) الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة، عبدالرحمن السعدي، ٢١٣-٢١٥.

الصلاة كآية الكرسي فلا يضر)[1].

وقال ولي الله الدهلوي: والأدعية كلها بمنزلة أحرف القرآن، من قرأ منها شيئًا فاز بالثواب الموعود، والأولى أن يأتي بهذه الأذكار قبل الرواتب، فإنه جاء في بعض الأذكار ما يدل على ذلك نصًا، كقوله: "من قال قبل أن ينصرف ويثني رجليه من صلاة المغرب والصبح: لا إله إلا الله وحده... الخ" وكقول الراوي "كان إذا سلم من صلاته يقول بصوته الأعلى: "لا إله إلا الله... إلخ"، قال ابن عباس: "كنت أعرف انقضاء صلاة رسول الله ﷺ بالتكبير". وفي بعضها ما يدل ظاهرًا، كقوله: "دبر كل صلاة" وأما قول عائشة رضي الله عنها: "كان إذا سلم لم يقعد إلا مقدار ما يقول: اللهم أنت السلام..." إلخ، فيحتمل وجوهًا:

منها: أنه كان لا يقعد بهيئة الصلاة إلا هذا القدر، ولكنه يتيامن ويتياسر، أو يقبل على القوم بوجهه، فيأتي بالأذكار، لئلا يظن الظان أن الأذكار من الصلاة.

منها: أنه كان حينًا بعد حين يترك الأذكار غير هذه الكلمات، يعلمهم أنها ليست فريضة وإنما مقتضى "كان" وجود هذا الفعل كثيرًا، لا مرة ولا مرتين، ولا المواظبة، والأصل في الرواتب أن يأتي بها في بيته، والسر في ذلك كله أن يقع الفصل بين الفرض والنوافل بما ليس من جنسهما، وأن يكون فصلاً معتدًا به يدرك بادي الرأي، وهو قول عمر رضي الله عنه لمن أراد أن يشفع بعد المكتوبة: "اجلس فإنه لم يهلك أهل الكتاب إلا أنه لم يكن بين صلواتهم فصل" فقال النبي ﷺ: "أصاب الله بك يا ابن الخطاب" وقوله ﷺ: "اجعلوها في بيوتكم" انتهى كلامه.

قلت: فالإتيان بشيء من الأذكار والأدعية المأثورة بعد الفرائض متصلاً بها هو الراجح في نظري، فإنه يفيد فصلاً زمانيًا بين الفريضة والنافلة، كما أن التحول من موضع الفريضة يفيد فصلاً مكانيًا. والله أعلم)[2].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٨٢/٢.

(٢) فتح الملهم، شبير أحمد العثماني ١٨٤/٤-١٨٥ بتصرف.

وقد دلت الكثير من النصوص الشرعية على فضل هذه الأذكار قال تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾(١)، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾(٢)، وقال عن يونس عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾(٣)، وقال سبحانه: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾(٤).

خامسًا- من موضوعات الدعوة: العطاء فضل الله يؤتيه من يشاء:

حيث جاء في الحديث "سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله فقال رسول الله ﷺ: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء".

قال ابن علان: (ومراد الفقراء أن الأغنياء ساووهم في الفضل وزادوا عليهم بالعمل المالي فقال النبي ﷺ ذاك ثواب الله يعطيه من يشاء من فقير وغني، ويحتمل أن يكون المراد أن الله أنالهم ذلك، وقصره عليهم فلا سبيل لمشاركتهم فيه من غيرهم، ويحتمل أن يكون الثواب المرتب على هذا المذكور أنه فضل الله إن شاء خص به الفقراء فلا يلزم من إتيان الأغنياء به مساواة الفقراء فيه)(٥).

وقال القاضي عياض: (وقول النبي ﷺ في الحديث: "ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء". قال أبو القاسم بن أبي صفرة: فيه نص على فضل الغني نصًا لا تأويلاً إذا استوت أعمالهم بما فرض الله عليهم، فللغني حينئذ فضل أعمال البر المتعلقة بالأموال بما لا سبيل للفقير إليها، وإنما يفضل الفقر والغنى إذا فُضِل صاحبه بالعمل، فهذا ظاهر معنى قوله: (فضل الله يؤتيه من يشاء)، إنما الأشياء الزائدة على ما يقدر عليه الفقراء

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٤٢.

(٢) سورة طه، آية: ١٣٠.

(٣) سورة الصافات، الآيتان: ١٤٣-١٤٤.

(٤) سورة الإسراء، آية: ١١١.

(٥) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٨٤٤.

من أعمال البر المالية، ورأيت بعض المتكلمين ومن يحتج لتفضيل الفقر على الغنى أغرق في تأويله، وخالف ظاهره، وذهب أن هذا الفضل راجع إلى ثواب الفقراء على الأغنياء، وأنهم يختصون بما خاطبهم به النبي ﷺ، وأعلمهم من فضل ذكرهم وسبقهم به من بعدهم ودرك من سبقهم، وإن هذا الفضل لهم دون غيرهم من الأغنياء وإن قالوه، والفضائل ليست بقياس والأجور بفضل الله يؤتيها من يشاء، وهذا خلاف ظاهر الكلام ومفهومه، وقد قال في الحديث الآخر: "لا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع ما صنعتم" ولم يقل: "منكم" مطلقًا، وجعل الفضل لقائله كائنًا من كان)[1].

هذا وقد دلت النصوص الشرعية أن فضل الله واسع، وأنه يؤتيه من يشاء، وأنه يختص برحمته من يشاء، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[2]، وقال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[3]، وقال جل شأنه: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[4].

وكل هذا يدل على سعة فضل الله وواسع رحمته، وعظيم فضله ومنته على الخلق.

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٢/٥٤٦.

(٢) سورة الحديد، آية: ٢٩.

(٣) سورة البقرة، آية: ١٠٥.

(٤) سورة الجمعة، آية: ٤.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية على خلق الشكر:

"يقع على عاتق التربية الإسلامية غرس القيم الإسلامية السامية في نفوس النشء بخاصة، والمسلمين جميعًا بعامة، ولذا تسعى التربية الإسلامية بأقصى درجة ممكنة إلى غرس الخصال الحميدة والخلال الطيبة، كالصدق والأمانة والإخلاص والرفق والصبر والشكر ونحو ذلك في نفوس الناشئين، وتشريبهم إياها بأسلوب فاعل مؤثر، حتى تصبح صفات راسخة في نفوسهم أولاً، وأنماطًا سلوكية ثانيًا، ولابدّ من الحرص على غرس كراهية الصفات الذميمة في نفوسهم، والحيلولة دون تسربها إلى سلوكهم وذلك بعدم الغفلة، ودوام اليقظة تجاه الناشئ" (١).

ثانيًا- دور الحوار والمناقشة في التربية:

ومن خلال أحاديث الباب تبرز أهمية الحوار والمناقشة في التربية، ويتضح هذا جليًا في حوار فقراء المهاجرين مع الرسول ﷺ.

"إن أسلوب الحوار والمناقشة من أهم الأساليب التربوية، فالحوار أحد أركان الفهم والاقتناع، والاقتناع عن طريق العقل والمنطق يعد أحد أركان السلوك. ويستخدم أسلوب الحوار والمناقشة في تربية الصغار والكبار، وإن كانت نتائجه مثمرة مع الكبار، ومن الضروري أن نراعي في الحوار والمناقشة مستوى نضج مَنْ نحاوره أو نناقشه، وأن نخاطب هذا وذاك على قدر عقولهم ومستوى إدراكهم، وأن نبدأ بالبسيط الواضح المقنع، ثم نتدرج في المحاورة والمناقشة إلى أن نصل إلى غايتها.

وقد استخدم رسولنا الكريم ﷺ هذا الأسلوب في عديد من المواقف، لذا حرص المربون المسلمون على اتباع هذا الأسلوب والإشادة بأهميته وجدواه" (٢).

ومن ثَمَّ يجب على المربين والمشتغلين بالتربية استخدام هذا الأسلوب في تربية الناشئة، وتوجيه الناس إلى الخير.

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. أمين أبو لاوي ص ٥٨-٦٠.

(٢) أصول التربية الإسلامية، د. محمد شحات الخطيب وآخرون ص٨٥، ٨٦.

"إن أسلوب السؤال والحوار من الأساليب التربوية التي لا يستغنى عنها الإنسان الذي منحه الله القدرة على النطق والتفكير، وهو في حياته اليومية يجد نفسه في حوار أو سؤال مع جيرانه أو أصدقائه أو أهله أو غيرهم، والمرء في حياته العادية يحتاج إلى هذا الأسلوب كي يشعر بالراحة والطمأنينة. ومن ضمن وسائل الكشف عن المجهول السؤال، وللسؤال مزايا متعددة من توفيرٍ للجهد والوقت والمال، وفيه تحصيل منفعة ودفع مضرة في أمور الدنيا والدين، فلا ينبغي للعاقل التردد في السؤال حتى لا يحدث مالا تُحمد عقباه سواء في القريب العاجل أو في البعيد الآجل"(١).

ثالثًا- التربية بإثارة المنافسة والتحفيز:

إن من الأساليب التربوية الناجعة إثارة المنافسة والتحفيز في نفوس المتربين لما في ذلك من تشجيع لهم على ممارسة الأعمال الصالحة، ولعل الناظر في أحاديث الباب يلمس هذا في قول النبي ﷺ: «لاَ حَسَدَ إلاَّ فِي اثْنَتَيْن ...». وقوله ﷺ: «أَفَلاَ أُعَلِّمُكُمْ شَيْئًا تُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ؟ ...».

"إن من الأمور المهمة في التربية إثارة المنافسة من غير إثارة الشحناء، وهي تحمل على الجِدِّ والاجتهاد في التعلم أو التأدب أو التربية، وهذا الأسلوب ليس قاصرًا على مرحلة الطفولة فحسب بل هو صالح للمرحلة التي تسبقه والتي تليه، وإنما الذي يختلف في هذه الحالة هو مضمون المنافسة، وقد ورد في السنة شيء كثير من ذلك" (٢).

رابعًا- التربية على الإفادة من العمل الدنيوي في الجزاء الأخروي:

إن أحاديث الرسول ﷺ تجمع بين أمرين في وقت واحد:

إلا أن فئة من المسلمين في بعض الفترات التي تمر بهم، يلتمسون من السنة ما يطابق مقتضى الحال، وإن كانت الحال غير ما دعا إليه الرسول ﷺ بل إنهم ليطلبون مبررات للتقاعس عن الخروج مما هم فيه، معللين ذلك ببشارات أو إخبارات الرسول عليه السلام.

إن ما ذهب إليه البعض من ترجيح الفقير الصابر على الغني الشاكر مردود للأسباب الآتية:

---

(١) التربية الذاتية من الكتاب والسنة، هاشم على أحمد ص١٢٣، ١٢٤.

(٢) نحو تربية إسلامية راشدة، محمد بن شاكر الشريف ص٩١.

السبب الأول: أن حب التملك فطرة فطر الله تعالى الإنسان عليها، وآيات القرآن كثيرة في هذا الصدد، فكيف يكون التملك فطرة ويدعو الإسلام إلى تركه أو ينص على كونه تركه محمدة مع أنه مصادم -أي الترك- للفطرة.

السبب الثاني: الأغنياء الشاكرون محل ثناء القرآن والسنة، وكثيرة هي المواقف التي جاء فيها الأغنياء بمالهم فنالوا ثناء الله تعالى وثناء رسوله ﷺ، ففضل العطاء لا يخفى على أحد، وقد أثنى القرآن الكريم على أبي بكر رضي الله عنه لإنفاقه في سبيل الله تعالى وتحريره الأرقاء، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾[1] وقد أثنى الرسول عليه السلام على أبي بكر رضي الله عنه لكثرة عطائه ونصرته للإسلام بماله، وفي الحديث: ((ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافأناه بها إلا أبا بكر رضي الله عنه فإن له يدًا عندنا يكافئه الله عز وجل بها يوم القيامة))[2] وموقف عثمان بن عفان رضي الله عنه في غزوة العسرة غير غائب عن أحد، وبشارته إياه "ما على عثمان ما فعل بعد اليوم"[3] حين جهز ثلث جيش العسرة.

السبب الثالث: إن من الأجر الجاري للإنسان بعد وفاته أعمالاً تعتمد على المال بالدرجة الأولى، ومن هذه الأعمال (صدقة جارية، نهر أجراه، بيت لابن السبيل أواه، مصحف ورثه)[4].

السبب الرابع: وضع الإسلام بدائل يدرك الفقراء بها درجة الأغنياء في الثواب إذا قصروا عن الالتزام بخاصة وهذه البدائل هي: الإكثار من الذكر والشكر والتوبة والاستغفار، وأخصها بالذكر والتسبيح والتحميد والتكبير عقب كل صلاة ثلاثًا وثلاثين مرة.

---

(١) سورة الليل، آيات: ٤-٧.

(٢) أخرجه الترمذي ٣٦٦١، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه الترمذي ٣٧٠١، وحسنه الألباني.

(٤) أخرجه ابن ماجه ٢٤٢، وحسنه المنذري في الترغيب ص ٤٦.

٦٥- باب ذكر الموت وقصر الأمل

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[آل عمران: ١٨٥]، وقال تعَالَى: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ﴾[لقمان: ٣٤]، وقال تَعَالَى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[النحل: ٦١]، وقال تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[المنافقون: ٩-١١]، وقال تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَـٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ إلَى قَوْله تَعَالَى: ﴿... كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَـٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[المؤمنون: ٩٩-١١٥]، وقال تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟

كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾[الحديد: ١٦]، وَالآيات في الباب كثيرةٌ معلومة.

الحديث رقم (٥٧٤)

٥٧٤- وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قَالَ: أخذ رسول الله ﷺ بِمِنْكَبي، فَقَالَ: **((كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ))**.

وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما، يقول: إِذَا أَمْسَيْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ المَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ. رواه البخاري[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

عابرُ السَّبيل: المسافر[2].

الشرح الأدبي

الرسول ﷺ في هذا الحديث يغرس في نفس المؤمن فكرة الاغتراب ليحدث في وجدانه توازناً يجعله قادراً على رؤية حقيقة الدنيا وهي في الوقت نفسه – فكرة الاغتراب – تشير إلى أن له غاية أسمى ووطناً يجب أن يعود إليه في الجنة التي خرج منها في ركاب أبيه آدم عليه السلام، ولترسيخ هذا المفهوم استخدم الرسول ﷺ عدة أشكال بلاغية منها:

البداية بأسلوب الأمر، واختار صيغة الأمر (كن) الدالة على طلب إحداث أمر لم يكن موجوداً وهو أمر إرشاد وتوجيه لجميع المؤمنين في كل زمان ومكان في شخص عبد الله رضي الله عنه لما يجب أن تكون عليه علاقتهم بالدنيا فلا يستكثرون من متاعها بما

(١) برقم ٦٤١٦. أورده المنذري في ترغيبه ٤٨٩٩. وتقدم برقم ٤٧٠.

(٢) الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ع ب ر).

يشغلهم عن آخرتهم، ثم يأتي التصوير بالتشبيه لإخراج المألوف القريب (الدنيا) مخرج المستغرب البعيد حيث جعل الدنيا دار غربة الأمر الذي يدفع المؤمن إلى عدم التعلق بشيء فيها وعدم الاستكثار من متاعها فجاء قوله ﷺ (كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل) حيث شبه الحال التي يجب أن يكون عليها عبد الله رضي الله عنه – وكل فرد من الأمة – بالغريب، أو عابر السبيل بجامع عدم التعلق بما يثقل أو يشغل عن المقصود في كلٍ، وتشبيه الرسول ﷺ للحال التي يجب أن يكون عليها المؤمن في الدنيا بحال الغريب أو عابر السبيل، له عدة دلالات. منها: عدم الإكثار في الاختلاط المضيع للوقت والمشتت للهدف وهذا مفهوم من حال الغريب الذي يقتصر في اختلاطه بالناس على ما يحتاج إليه في سفره، ويوضح مقصوده، ومنها: عدم انشغال المؤمن بما يفسد قلبه من صراع مع الناس وما يتبعه من حقد، وحسد، ونفاق كما لا ينشغل الغريب بمثل هذه الأمور لعدم اختلاطه بالناس، وقلة معرفته بهم، ومنها: وحدة الهدف، وعدم تشعب الهموم بالمؤمن كما أن الغريب هدفه واحد وهو الرجوع إلى لوطنه، كما يدل على السعي الدائب الدائم الذي يجب أن يكون عليه المؤمن في الدنيا وعدم الاسترخاء، والركون حتى يلقى ربه كما أن الغريب أو عابر السبيل دائمان في سعيهما حتى يصلا إلى وطنهما، ومنها بث الشعور الوجداني بالحنين إلى الله، وما ادخره للمؤمن في الآخرة كما يشعر الغريب بحنينه إلى موطنه الأمر الذي يدفعه إلى قطع المسافات وعبور المفاوز يحدوه أمل مغداق، وقلب خفاق.

ثم يأتي أسلوب العطف المقرب للفكرة والموضح دلالة اللفظة حيث عطف قوله ﷺ: (أو عابر سبيل) على قوله: (كأنك غريب)، و(أو) للتنويع فإن قيل الغريب هو عابر سبيل فما وجه العطف؟ أجيب: بأن العبور يستلزم الغربة والمبالغة فيه أكثر؛ لأن تعلقاته أقل من تعلقات الغريب، وهو من عطف العام على الخاص)[1]، ومما تجدر الإشارة إليه في بلاغة الرسول ﷺ في هذا الحديث ما فيه من إيجاز القصر وإذا كان

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني ١٥/٥٠٠.

البلغاء يقولون (البلاغة لمحة دالة، فعبارة الرسول ﷺ: (كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل) تطوي معاني كثيرة من تحذير من الدنيا، والاغترار بها، والركون إليها، والتنافس فيها، وما يولده من أحقاد وحسد ونفاق وارتكاب لمختلف الخطايا جرياً وراء شهواتها، وفيها أيضاً توجيه للمؤمنين ممثلين في شخص ابن عمر رضي الله عنهما إلى الغاية العظمى والهدف الأسمى ولفت النظر إلى ما يجب التنافس فيه بالعطف المحقق للتنويع والمؤذن بالمنافسة لاختيار أفضل النوعين في طريق الآخرة.

ولا ننسى – اذكاء الرسول ﷺ الفطري في إعداد المخاطب فكرياً، وشعورياً، وهدهدة خواطره عن طريق الحركة السابقة لعبارته والتي حكاها عبد الله رضي الله عنه: (أخذ الرسول ﷺ بمنكبي وقال:...) وهذا الفعل الذي قد يبدو عفوياً يوحي للمخاطب بالمودة والقربى والحظوة من المتحدث إضافة إلى أنه يلفت انتباهه ويضمن إنصاته ويحقق متابعته؛ لذلك تجد الصحابي يحكي فعل الرسول -ﷺ- معه كما يحكي قوله، وكذا أكثر كلام النبي ﷺ وتوجيهاته تصدر بعد تهيئة ذهنية، وتمهيد فكري وتأثير شعوري، مفضٍ إلى الإقناع، ومن الجدير بالذكر أن الأسلوب عام يناقش قضية شاملة رغم توجيه الخطاب لشخص بعينه، ومما له اتصال بالموضوع، والخطاب فيه عاماً ما جاء في[1].

المضامين الدعوية[2]

(١) انظر: بلاغة الرسول ﷺ في تقويم الأخطاء د ناصر راضي الزهري ص ١٠٠.

(٢) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (٤٧٠).

الحديث رقم (٥٧٥)

٥٧٥- وعنه: أنَّ رسول الله ﷺ، قَالَ: ((مَا حَقُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، لَهُ شَيْءٌ يُوصِي فِيهِ، يَبِيتُ لَيْلَتَيْنِ إلاَّ وَوَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَهُ)) متفقٌ عَلَيْهِ، هَذَا لفظ البخاري[1].

وفي روايةٍ لمسلم[2]: ((يَبِيتُ ثَلاَثَ لَيَالٍ)) قَالَ ابن عمر: مَا مَرَّتْ عَلَيَّ لَيْلَةٌ مُنْذُ سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ قَالَ ذَلِكَ، إلاَّ وَعِنْدِي وَصِيَّتِي.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

الشرح الأدبي

الحديث أسلوبه خبري يقرر ضرورة أن يحافظ الإنسان على أداء الحقوق، الأمر الذي يستلزم أن يعد وصيته بما خلّف من أموال، وحقوق للناس عليه، أو على الناس له، وقد جاء المعنى في ثوب القصر الذي يصبغه بصبغة التوكيد، وهو قصر لصفة المبيت ليلتين على وجود وصية مكتوبة، والتعبير بالكتابة يفيد التوكيد ثم إن التعبير بالحق في بداية الحديث يشير إلى اللازم الضروري، وتنكير (شيء) يفيد التعميم ليشمل ما له قليل، وما له كثير، والتعبير بالجملة الاسمية (وَوَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَهُ) إشارة إلى الدوام، والثبوت، والظرف عنده يجعل مكانها في خصوصياته التي تقصد بعد موته.

فقه الحديث

هذا الحديث يشير إلى الأحكام الفقهية التالية:

١-حكم الوصية: اتفق الفقهاء على مشروعية الوصية، واختلفوا في حكمها، فذهب الجمهور إلى أنها مندوبة، وليس واجبة، إلا على من عليه دين، أو عنده وديعة، أو عليه واجب يوصي بالخروج منه، بينما ذهب إسحاق، وداود، والزهري، وغيرهم،

---

(١) أخرجه البخاري ٢٧٣٨ واللفظ له، ومسلم ١٦٢٧/١. أورده المنذري في ترغيبه ٥١٠٧.

(٢) برقم ١٦٢٧/٤. أورده المنذري في ترغيبه ٥١٠٧.

وحكاه البيهقي عن الشافعي في القديم، إلى وجوبها[1].

٢-كتابة الوصية: اتفق الفقهاء على أنه يستحب أن يكتب الموصي وصيته، لأن الإنسان لا يدري متى يفجؤه الموت، وهل تكفي الكتابة، أم لابد من الإشهاد عليها؟ خلاف بين الفقهاء: ذهب الحنفية، والمالكية، والشافعية، وأحمد في رواية "هي المذهب" إلى أنه لا يكفي الكتابة، ولا يعمل بها، إلا إذا كان أشهد عليها، لاحتمال رجوعه.

وذهب أحمد في رواية ثانية، إلى أنه يكفي الكتابة من غير إشهاد، إذا عرف خطه، وهو قول محمد بن نصر المروزي، أيضاً[2].

المضامين الدعوية

ثالثاً: من واجبات المدعو: المسارعة في الاستجابة لتوجيه النبي ﷺ في كتابة الوصية.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: فضل ابن عمر رضي الله عنهما.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الحث على المبادرة إلى كتابة الوصية:

إن من موضوعات الدعوة التي تستنبط من هذا الحديث الحث على المبادرة إلى كتابة الوصية. يظهر ذلك من قول رسول الله ﷺ: "مَا حَقُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَهُ شيء يُرِيدُ أَنْ يُوصِيَ فِيهِ يَبِيتُ لَيْلَتَيْنِ إلاَّ وَوَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَهُ". وفي رواية مسلم: يبيت ثلاث ليال، وفي ذلك حث على المبادرة إلى كتابة الوصية.

---

(١) بدائع الصنائع ٤٦٨/١٠ وما بعدها، وحاشية الصاوي ٤٩٣/١٠، والوسيط، مجمع اللغة العربية ٤١٠/٤، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٦٦/٤، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٧٦/٦، وكشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٤٠٩/٤.

(٢) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٣٢٤/٢٤، والمنتقى شرح الموطأ، سليمان بن خلف الباجي ٧٦/٤، وإعانة الطالبين ٢٣٥/٣، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ١٣٦/٦، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين أبو الحسن المرداوي ١٥٢/١٧.

قال القرطبي: (وقوله: "يبيت ليلتين" المقصود بذكر الليلتين، أو الثلاث: التقريب، وتقليل مدة ترك الوصية. ولذلك لـمَّا سمعه ابن عمر لم يبت ليلة إلا بعد أن كتب وصيته، والحزم المبادرة إلى كتبها أول أوقات الإمكان، لإمكان بغتة الموت التي لا يأمنها العاقل ساعة. ويحتمل: أن يكون إنما حصل الليلتين بالذكر فسحة لمن يحتاج إلى أن ينظر فيما له وما عليه، فيتحقق بذلك، ويُروِّي فيها ما يوصي به، ولمن يوصي، إلى غير ذلك)[1].

قال النووي: (قال الشافعي: معنى الحديث ما الحزم والاحتياط للمسلم إلا أن تكون وصيته مكتوبة عنده، ويستحب تعجيلها وأن يكتبها في صحته ويشهد عليه فيها ويكتب فيها ما يحتاج إليه، فإن تجدد له أمر يحتاج إلى وصية به ألحقه بها، قالوا: ولا يكلف أن يكتب كل يوم محقرات المعاملات وجزئيات الأمور المتكررة)[2].

وقال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[3].

وحكمة مشروعية الوصية تحصيل ذكر الخير في الدنيا، ونوال الثواب والدرجات العالية في الآخرة، لذا شرعها الشارع تمكيناً من العمل الصالح، ومكافأة لمن أسدى للمرء معروفاً، وصلة الرحم والأقارب غير الوارثين، وسد خلة المحتاجين وتخفيف الكرب عن الضعفاء والبؤساء والمساكين، وتجنب الإضرار في الوصية[4]. لقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾[5].

---

(١) المفهم، القرطبي ٥٤٢/٤.

(٢) انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٠٣٤.

(٣) سورة البقرة، الآيات: ١٨٠-١٨٢.

(٤) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٢٣/٤٣.

(٥) سورة النساء، آية: ١٢.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: أهمية قصر الأمل في الدنيا والإقبال على الآخرة:

إن من موضوعات الدعوة التي تستنبط من عموم الحديث أهمية قصر الأمل في الدنيا والإقبال على الآخرة بالاستزادة من العمل الصالح.

قال ابن حجر: (وفيه الندب إلى التأهب للموت والاحتراز قبل الفوت، لأن الإنسان لا يدري متى يفجؤه الموت، لأنه ما من سن يفرض إلا وقد مات فيه جمع جم؛ وكل واحد بعينه جائز أن يموت في الحال، فينبغي أن يكون متأهباً لذلك فيكتب وصيته، ويجمع فيها ما يحصل له به الأجر ويحبط عنه الوزر من حقوق الله وحقوق عباده)[١].

(فإن ذلك من أعظم الموقظات للهمة، ومن أكبر البواعث على الجد والاجتهاد، ذلك أن المرء إذا تذكر قصر الدنيا وسرعة زوالها، وأدرك أنها مزرعته للآخرة، وأنها فرصة لكسب الأعمال الصالحة، وتذكر ما في الجنة من النعيم المقيم، وما في النار من العذاب الأليم -زهد في متع الدنيا، وأقصر عن الاسترسال في الشهوات، وانبعثت همته للأعمال الصالحات.

قصر الآمال في الدنيا تفز   فدليل العقل تقصير الأمل[٢]

فالحث على المبادرة على الوصية يبين أهمية قصر الأمل في الدنيا، والإقبال عل الآخرة بالاستزادة من العمل الصالح، وقصر الأمل في الدنيا لحقارتها، والرغبة فيما هو خير منها فالفارق بين الدنيا والآخرة كبير قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[٤].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٢٤/٥.

(٢) انظر: الهمة العالية، محمد إبراهيم الحمد ص ١٩٨.

(٣) سورة النساء، آية: ٧٧.

(٤) سورة العنكبوت، آية: ٦٤.

قال ابن كثير: يقول تعالى مخبراً عن حقارة الدنيا وزوالها وانقضائها، وأنها لا دوام لها وغاية ما فيها لهو ولعب: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ﴾. أي: الحياة الدائمة الحق الذي لا زوال لها ولا انقضاء، بل هي مستمرة أبد الآباد، وقوله: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾. أي: لآثروا ما يبقى على ما يفنى[(١)].

ثالثاً- من واجبات المدعو : المسارعة في الاستجابة لتوجيه النبي ﷺ في كتابة الوصية:

يظهر ذلك من فعل ابن عمر رضي الله عنهما إذ قال : (ما مرت علي ليلة منذ سمعت رسول الله ﷺ قال ذلك إلا وعندي وصيتي). فيجب على المدعو إذا دعي لأمر نافع سرعة الاستجابة لتحصيل ثوابه لأنه لا يدري إذا أخره هل يمكنه القيام به بعد ذلك أم لا؟. وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يسارعون في الاستجابة لتوجيهات النبي ﷺ لما في ذلك من الثواب العظيم والخير العميم.

والمسارعة إلى الأعمال الصالحة من الأشياء التي أمرت بها الشريعة الإسلامية وبينت فضلها، قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[(٢)].

قال السعدي: (ثم أمرهم، بالمسارعة إلى مغفرته، وإدراك جنته، التي عرضها السموات والأرض، فكيف بطولها، التي أعدها للمتقين، فهم أهلها وأعمال التقوى هي الموصلة إليها)[(٣)].

ولما سقط مسطح بن أثاثه مع من سقط في حادثة الإفك بالافتراء والكذب على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها مع صفوان بن المعطل شق ذلك على أبي بكر رضي الله عنه وقال: والله لا

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢٩٤/٦.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٣٣.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام الرحمن، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ١١٥-١١٦.

أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال فأنزل الله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[١].

قال أبو بكر رضي الله عنه: (بلى والله إني أحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، قال: والله لا أنزعها منه أبداً)[٢]. فيجب على المدعو المسارعة إلىّ الاستجابة للأمور النافعة وعدم التسويف والتأجيل لأن ذلك من أشد الآفات.

قال بعض الحكماء: (التسويفُ لمن يعلم أن المنية تأتيه بغتة غرور)[٣].

ولهذا الأمر آثارٌ وخيمةٌ في الدنيا وفي الآخرة، فهو سبب للحسرة والندامة، والحرمان من الأجر والثواب، وهو سبب لتراكم الذنوب، وصعوبة التوبة، وتراكم الأعمال، وصعوبة الأداء[٤].

فانهض إذا ما لمحت الخير في عملٍ وخلّ "سوف" لعزمٍ خاملٍ واهي[٥]

رابعاً- من موضوعات الدعوة: فضل ابن عمر رضي الله عنهما:

ويظهر ذلك في قول ابن عمر رضي الله عنهما: ما مرت عليّ ليلة منذ سمعت رسول الله ﷺ قال: ذلك إلا وعندي وصيتي.

قال ابن حجر: وفي الحديث منقبة لابن عمر لمبادرته لامتثال قول الشارع ومواظبته عليه[٦].

وابن عمر أسلم مع أبيه وهاجر وعرض على النبي ﷺ ببدر فاستصغره، ثم

---

(١) سورة النور، آية: ٢٢.

(٢) أخرجه البخاري ٤٧٥٠ مطولاً في قصة الإفك.

(٣) عين الأدب والسياسة، وزين الحسب والرياسة لأبي الحسين علي بن عبدالرحمن ابن هذيل ص ٢٤٣.

(٤) انظر: آفات على الطريق، د. السيد محمد نوح، ٢/١٣١-١٥٣.

(٥) خواطر الحياة ص ٢٦١ نقلاً عن الهمة العالية، محمد بن إبراهيم الحمد ص ٥٢-٥٣.

(٦) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥/٤٢٤

بأحد، فكذلك بالخندق، فأجازه وهو يومئذ ابن خمسة عشر سنة[١].

وقال عنه رسول الله ﷺ: ((نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللّهِ لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ. فكان بعدُ لا يَنامُ مِنَ الليلِ إلاَّ قَليلاً))[٢].

فابن عمر رضي الله عنهما كان سريع الاستجابة لأمر الشارع وشديد الحرص على ما ينفعه.

عن ابن وهب: عن مالك عمن حدَّثه، أن ابن عمر كان يتبع أمر رسول الله ﷺ، وآثاره وحاله ويهتم به، حتى قد خيف على عقله من اهتمامه بذلك.

وعن خارجة بن مصعب: عن موسى بن عقبة عن نافع، قال: لو نظرت إلى ابن عمر إذا اتبع رسول الله ﷺ، لقلت: هذا مجنون[٣].

وعن نافع: ((أن ابن عمر كانَ يَتَّبِعُ آثارَ رسولِ الله ﷺ ويُصلِّي في كل مكان صلى فيه، حتَّى إنَّ النبيَّ ﷺ نَزلَ تحتَ شَجَرَةٍ، فكانَ ابنُ عُمَرَ يتعاهد تلك الشجرة، فيَصُبُّ في أصلها الماءَ لكيلا تَيْبَسَ))[٤].

وقال نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ((لَوْ تَرَكْنَا هَذَا الْبَابَ لِلنِّساءِ. قال نَافِعٌ: فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ ابنُ عُمَرَ حَتَّى مَاتَ))[٥] [٦].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: ((رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ كَأَنَّ فِي يَدِي قِطْعَةَ إِسْتَبْرَقٍ. وَلَيْسَ مَكَانٌ أُرِيدُ مِنَ الْجَنَّةِ إلاَّ طَارَتْ إِلَيْهِ. قَالَ: فَقَصَصْتُهُ عَلَى حَفْصَةَ. فَقَصَّتْهُ حَفْصَةُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ. فَقَالَ النَّبِيُّ: أَرَى عَبْدَ اللّهِ رَجُلاً صَالِحاً))[٧].

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ص ٨٠٩.

(٢) أخرجه البخاري ١١٥٧/١١٢٢، ومسلم ٢٤٧٩.

(٣) حلية الأولياء وطبقة الأصفياء، الأصبهاني ٣١٠/١.

(٤) أسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود ٣٣٨/٣.

(٥) أخرجه ابن سعد ١٦٢/٤ من طريق أبي الوليد الطيالسي عن أبي عوانة، عن أبي بشر عن يوسف بن ماهك...، ورجاله ثقات.

(٦) سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ٢١٣/٣.

(٧) أخرجه البخاري ١١٥٦، ومسلم ٢٤٧٨ واللفظ له.

قال النووي: (قوله ﷺ "أرى عبدالله رجلاً صالحاً" أي: أعلمه وأعتقده صالحاً والصالح هو القائم بحقوق الله وحقوق العباد)[١]. وعن أبي الزناد قال: اجتمع في الحجر مصعب وعروة وعبدالله بن الزبير وابن عمر فقالوا تمنوا. فقال عبدالله بن الزبير: أما أنا فأتمنى الخلافة. وقال عروة: أما أنا فأتمنى أن يؤخذ عني العلم، وقال مصعب: أما أنا فأتمنى إمرة العراق والجمع بين عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين. قال عبدالله ابن عمر: أما أنا فأتمنى المغفرة. قال: فنالوا ما تمنوا، ولعل ابن عمر غفر له.

وعن طاوس قال: ما رأيت رجلاً أورع من ابن عمر، ولا رأيت رجلاً أعلم من ابن عباس.

وقال سعيد ابن المسيب: لو كنت شاهداً لرجل من أهل العلم أنه من أهل الجنة لشهدت لعبدالله بن عمر[٢].

وفضائل ابن عمر كثيرة ومناقبه عظيمة فهو من الصحابة الأخيار الزاهدين العاملين الحريصين على مرضاة ربهم فرضي الله عنهم أجمعين.

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٠٣.

(٢) صفة الصفوة، ابن الجوزي، ٢٥٢/١.

الحديث رقم (٥٧٦)

٥٧٦- وعن أنس رضي الله عنه، قَالَ: خَطَّ النَّبِيُّ ﷺ خُطُوطاً، فَقَالَ: ((**هَذَا الإِنْسَانُ**[١]، **وَهَذَا أجَلُهُ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَ الخَطُّ الأَقْرَبُ**)) رواه البخاري[٢].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

الشرح الأدبي

خط النبي ﷺ على الأرض بطريقة معينة يلفت النظر، ويقرر العبارة بطريقة أوكد لأنه يستقبل المعنى بحاسة السمع مع حاسة البصر فيرسخ مضمون الحديث بتطاول الأمل للإنسان مع قصر العمر الذي يستوعب هذا الأمل والرسول ﷺ يستعين في تقرير المعاني، وتثبيتها بشتى الوسائل التي تضمن لها البقاء في النفوس والرسوخ في العقل، وإشارة الرسول ﷺ في بداية الحديث تميز المشار إليه أكمل تمييز، وتعريف الإنسان بلام الجنس يفيد الشمول للجميع، وقوله (وهذا أجله) يقرر المفارقة بين تعلق الإنسان بأمله الذي يتطاول، وعمره الذي يتقاصر حتى يدركه أكد ذلك الظرف (بين) المضاف لـ(ما) التي توحي بالمباغتة التي تفجأه على حاله دون سوابق إنذار مما يستلزم من الإنسان الحرص من غرور الأماني، والزهد في الدنيا.

المضامين الدعوية[٣]

أولاً- من موضوعات الدعوة: الحث على ذكر الموت والاستعداد له:

يظهر ذلك من حديث أنس رضي الله عنه في قوله: خط النبي ﷺ خطوطاً فقال: (هذا الإنسان، وهذا أجله، فبينما هو كذلك إذ جاء الخط الأقرب، وكذلك حديث ابن

---

(١) لفظ البخاري: (الأمل) والمثبت لفظ الحميدي في جمعه، وفي الجمع للحميدي ٦١٦/٢، رقم ٢٠٢٩ خطأ مطبعي، حيث دخل لفظ حديث في حديث، وما في الفهرس يؤكد هذا اللفظ.

(٢) برقم ٦٤١٨. أورده المنذري في ترغيبه ٤٩٠٣.

(٣) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -٥٧٦- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (٥٧٧).

مسعود رضي الله عنه في قوله: خط النبي ﷺ خطاً مربعاً... فقال: (هذا الإنسان وهذا أجله محيطاً به...) وفي ذلك حثٌّ من رسول الله ﷺ على ذكر الموت والتذكير به لأن الإنسان لا يدري ما بقي من عمره، قال تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾[١]. أي وما تدري نفس ماذا تكسب غدًا من كسب دينها ودنياها "وما تدري بأي أرض تموت" بل الله تعالى هو المختص بعلم ذلك جميعا "إن الله عليم خبير" محيط بالظواهر والبواطن والخفايا والجنايا والسرائر، ومن حكمته التامة أن أخفى علم هذه الأمور عن العباد؛ لأن في ذلك من المصالح ما لا يخفى على من تدبر ذلك[٢].

وقال رسول الله ﷺ في التذكير بالموت: ((أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ. يَعْنِي المَوْتَ))[٣]، وبيّن أن الموت أقرب ما يكون من الإنسان، فعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: ((مَرَّ بِي رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَنَا أُطَيِّنُ حَائِطاً لِي أَنَا وَأُمِّي فقَالَ: مَا هذَا يَا عَبْدَ اللهِ؟ فقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ شَيْءٌ أُصْلِحُهُ، فقَالَ: الأَمْرُ أَسْرَعُ مِنْ ذَاكَ))[٤]. أي مر بي رسول الله ﷺ وأنا أصلح حائطًا لي بالطين فقال: "الأمر أسرع من ذلك" أي: الموت أسرع من فساد ذلك الحائط الذي تخاف فساده وهدمه لو لم تصلحه[٥].

وقد أحسن من قال:

اذكر الموت هاذم اللذات ... وتجهز لمصرع سوف يأتي

وقال غيره:

---

(١) سورة لقمان، آية: ٣٤.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام الرحمن، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٦٠١.

(٣) أخرجه الترمذي ٢٣٠٧، وابن ماجة ٤٢٥٨، وقال الألباني حسن صحيح (صحيح سنن الترمذي ١٨٧٧).

(٤) أخرجه أبو داود ٥٢٣٥، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤٣٦١).

(٥) انظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ص ٢٢٢٤.

واذكـــر المـــوت تجـــد راحـــة ... في ادكـــار المـــوت تقـــصير الأمـــل

وأجمعت الأمة على أن الموت ليس له سن معلوم ولا زمن معلوم ولا مرض معلوم وذلك ليكون المرء على أهبة من ذلك مستعد لذلك[١].

ثانياً- من واجبات المدعو: قصر الأمل في الدنيا والاستعداد للآخرة:

يظهر ذلك في حديث ابن مسعود، قال رسول الله ﷺ: "هذا الإنسان، وهذا أجله محيطاً به -أو قد أحاط به- وهذا الذي هو خارج أمله...". وفي حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: ((خَطَّ النبيُّ ﷺ خَطاً مُرَبعاً، وخط خَطاً في الوسَطِ خارجاً منه، وخط خُططاً صغاراً إلى هذا الذي في الوسَط من جانبِهِ الذي في الوسط فقال: هذا الإِنسان؛ وهذا أجَلهُ محيطٌ به -أو قد أحاط به- وهذا الذي هو خارجٌ أمَله، وهذه الخُططُ الصغارُ الأعراض، فإن أخْطأهُ هذا نهشَهُ هذا، وإن أخطأهُ هذا نهشَهُ هذا))[٢]، قال ابن حجر العسقلاني: (والمراد بالأعراض الآفات العارضة له فإن سلم من هذا لم يسلم من هذا، وإن سلم من الجميع ولم تصبه آفة من مرض أو فقد مال أو غير ذلك بغته الأجل، والحاصل أن من لم يمت بالسبب مات بالأجل، وفي الحديث إشارة إلى الحض على قصر الأمل والاستعداد لبغتة الأجل، وعبر بالنهش وهو لدغ ذات السم مبالغة في الإصابة والإهلاك، والأحاديث والآثار كلها متوافقة على أن الأجل أقرب من الأمل)[٣].

يعمّـــر واحـــد فيغـــرُّ قومـــاً ... وينـــسى مـــن يمـــوت مـــن الـــشباب

فإنه لولا طول الأمل ما وقع إهمال أصلاً. وإنما يقدم المعاصي ويؤخر التوبة؛ لطول الأمل، وتبادر الشهوات، وتنسى الإنابة، لطول الأمل[٤]، وقال رسول الله ﷺ: (يهرم

---

(١) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، القرطبي ص ٨، ٩.

(٢) أخرجه البخاري ٦٤١٧.

(٣) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٤٢/١١.

(٤) انظر: صيد الخاطر، ابن الجوزي، تحقيق: عبدالقادر عطا ص ٢٧٤.

ابن آدم، وتبقى منه اثنتان: الحرص والأمل)[١]. فعلى المدعو أن يقصر أمله في الدنيا ويستعد للآخرة.

ثالثاً: من مهام الداعية: تنبيه وحث المدعوين على تذكر الموت والتزود للآخرة

وهذا يظهر من عموم الحديثين حيث نبه ﷺ وحث المسلمين على تذكر الموت وحثهم على التزود للآخرة.

وهذا ما يجب أن يكون عليه الداعية فإن هدف الداعية هو حب الخير للمدعو، إذ أن حقيقة الدعوة حب الخير للمدعوين، والحرص على تحقيق المصلحة لهم، وظهور هذا الحرص يجعل النصيحة محل قبول وامتثال[٢].

قال رسول الله ﷺ: ((مَنْ دَعَا إِلَىٰ هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لاَ يَنْقُصُ ذَٰلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً. وَمَنْ دَعَا إِلَىٰ ضَلاَلَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لاَ يَنْقُصُ ذَٰلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا))[٣].

ففيه ترغيب للدعاة إلى الله وحث لهم على مضاعفة جهودهم في دعوة الناس إلى الله، وإرشادهم إلى طريقه والمسارعة إلى مرضاته، ليكون خيرهم موفوراً، وسعيهم مشكوراً، كما فيه تحذير لذوي الأهواء والضلالة من أصحاب الدعوات الهدّامة، والبدع المضلّة التي يضلون بها أنفسهم ويضلون غيرهم فيحملون أوزارهم وأوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون[٤].

---

(١) أخرجه أحمد ١١٥/٣ رقم ١٢١٤٢، وقال محققو المسند: صحيح على شرط الشيخين ١٨٩/١٩.

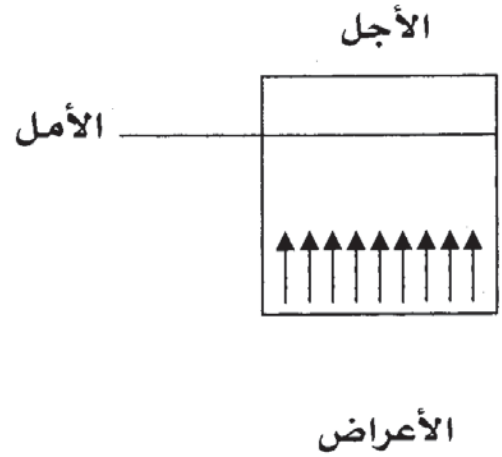
(٢) انظر: النصيحة وموقعها من أسلوب الحكمة ودورها في الدعوة إلى الله، الباز عبدالفتاح الدميري، ص ٦١.

(٣) أخرجه مسلم ٢٦٧٤.

(٤) نصوص دعوية من أحاديث خير البرية، د. حيدر أحمد الصّافح ص ٤١-٤٢.

الحديث رقم (٥٧٧)

٥٧٧- وعن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: خَطَّ النَّبيُّ ﷺ خَطّاً مُرَبَّعاً، وَخَطَّ خَطّاً فِي الوَسَطِ خَارِجاً مِنْهُ، وَخَطَّ خُطَطاً صِغَاراً إِلَى هَذَا الَّذِي فِي الْوَسَطِ مِنْ جَانِبِهِ الَّذِي فِي الوَسَط، فَقَالَ: ((**هَذَا الإنْسَانُ، وَهذَا أجَلُهُ مُحيطاً بِهِ - أَوْ قَدْ أحَاطَ بِهِ - وَهذَا الَّذِي هُوَ خَارِجٌ أمَلُهُ، وَهذِهِ الْخُطَطُ الصِّغَارُ الأَعْرَاضُ، فَإنْ أخْطَأَهُ هَذَا، نَهَشَهُ هَذَا، وَإنْ أخْطَأَهُ هَذَا، نَهَشَهُ هَذَا**)) رواه البخاري[١]. وَهذِهِ صُورَتُهُ:



ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

غريب الألفاظ:

الأعراضُ: جمع عرض، وهو ما ينتفع به في الدنيا في الخير وفي الشر[٢].

نَهشَهُ: أصابه[٣].

---

(١) برقم ٦٤١٧. أورده المنذري في ترغيبه ٤٩٠٢.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٤٢/١١.

(٣) المرجع السابق.

الشرح الأدبي

أراد الرسول ﷺ أن يقرر بطريقة فعلية قولية قرب أجل الإنسان، وبعد أمله وهو متردد بينهما معرض لأحداث الزمان، وهذا الرسم التوضيحي للمعنى في حديث الرسول ﷺ يؤكد بما لا يدع مجالا للشك ويقرر حقيقة واقعة لبعد أمل الإنسان وقصر الأجل إيقاظا للقلوب لتتنبه إلى ما يجب عليها من تقصير الأمل وترقب الآجل، والعمل للآخرة، وتشبيه الرسول ﷺ لحال الإنسان مع أجله، وأمله بالخط المربع، والخط الخارج في وسطه والخطوط الصغار حوله يقرر معنى طول أمل الإنسان وتقاصر الأجل عن استيعابه، والإنسان بينهما عرضة لنهش الأعراض إن نجا من عرض نهشه عرض آخر وإن نجا منها أدركه أجله لا محالة.واستخدام الرسول ﷺ للخط على الأرض يحقق مجموعة من الأغراض :

١- تقرير المعنى في ذهن المتلقي لاعتماده على حاستي البصر مع السمع.

٢- الوصول بالمعنى إلى مختلف الأفهام لاعتمادها على المشاهدة.

٣- تثبيت المعنى في ذهن المتلقي بالإضافة إلى التشويق الذي تحققه الرغبة في رؤية المرسوم والغرض منه.

٤- تشبيه الرسول ﷺ لحال الإنسان مع أمله وأجله بهذه الخطوط يشير إلى عدة معاني منها: أن الإنسان في خطر دائم لا ينفك عنه، ثم إنه محاط بأجله مما يؤكد استحالة الانفلات عن هذه الدائرة الأمر الذي يستلزم الجد وعدم الركون للدنيا، كما يؤكد قصر العمر مما يدعو إلى اليقظة وحسن استغلاله في الباقيات الصالحات.

واستعارة النهش، وهو لدغ ذات السم لحدوث الآفات التي تصيب الإنسان مبالغة في الإصابة، وشدة الألم، وسرعة القضاء على من أدركه هذا العرض لأن الملدوغ يتسارع إليه الفناء،والحديث بتركيبه يقرر المفارقة بين طول الأمل وقصر الأجل،وشدة الغفلة، وعظم الخطر وهو في جملته دعوة إلى الزهد، وعدم الركون إلى الدنيا[١].

المضامين الدعوية[٢]

---

(١) انظر: أثر البيئة في اتساع مدلول التشبيه النبوي د. ناصر راضي الزهري إبراهيم، بحث منشور في كلية الآداب جامعة سوهاج، العدد السادس والعشرين لسنة ٢٠٠٦م .

(٢) تم دمجها مع مضامين الحديث رقم (٥٧٦).

الحديث رقم (٥٧٨)

٥٧٨- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ ، قَالَ: ((**بَادِرُوا بِالأعْمَالِ سَبْعاً، هَلْ تَنْتَظِرُونَ إلاَّ فَقْراً مُنْسِياً، أَوْ غِنَىً مُطْغِياً، أَوْ مَرَضاً مُفْسداً، أَوْ هَرَماً مُفَنِّداً، أَوْ مَوْتاً مُجْهِزاً، أَوْ الدَّجّالَ، فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوْ السَّاعَةَ وَالسَّاعَةُ أدْهَى وَأمَرُّ؟!**)) رواه الترمذيُّ[1]، وقال: (حديث حسن).

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

بادروا: سابقوا وسارعوا[2].

هرمًا: كِبَرًا[3].

مفنّدًا: مخرفًا ومذهبًا للعقل[4].

مُجْهِزًا: يأتي بغتة من غير أن يُقدر معه على توبة ووصية[5].

الشرح الأدبي

الحديث ترغيب في قصر الأمل، والمبادرة بالعمل أتبع فيه الرسول ﷺ النبرة العالية في الأمر (بادروا) بالمفعول المنكر (سبعا) الذي يشيع حوله عدة معان كالتعظيم، والتحذير، والتشويق زاد هذه السبع تهويلا بالاستفهام (هل تنظرون إلا...؟)

---

(١) برقم ٢٣٠٦ وقال: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ، قال المنذري: فيه محرر، وهو واهٍ. أورده المنذري في ترغيبه ٤٩١٣. وتقدم برقم ٩٣.

(٢) المفصح المفهم لمعاني صحيح مسلم، ابن هبيرة ٥١.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير والقاموس المحيط، الفيروزآبادي في (هـ ر م).

(٤) المرجع السابق في (ف ن د).

(٥)المرجع السابق في (ج هـ ز).

وهو استفهام معناه النفى أي لا تنظرون إلا أحد هذه الأمور ثم بدأ يعدد هذه السبع، ويفصِّل ما أجمله بالعدد (سبعا) بعد أن أيقظ الأسماع وشوق النفوس للخبر بهذا الأسلوب، وأتبع كل نكرة بصفة تزيل إبهامها، وبدأ بـ(الفقر المنسي فقد يكون الفقر أصلح لبعض المؤمنين، ولذلك أتبعه بصفته "منسيا") وبدأ به دون باقي السبع؛ لأن الفقر كان أغلب على حال الناس آنذاك ثم تلاه بضده (غنى مطغيا)، واتبعه بصفة المطغى، لأن هناك غنى محموداً يؤدي صاحبه زكاته، ويصرفه في وجوه الخير، ثم أتبعه بـ (مرضاً مفسداً) ووصف المرض بالإفساد، لأن هناك نوعا من المرض يزيد المؤمن تعلقا بربه أما المفسد، والعياذ بالله فإنه يضيع الدنيا، ويضيع الدين بفساد حال العبد بينه وبين ربه، ثم تلاه بالهرم المفند، ووصف الهرم بالتفنيد؛ لأن بعض الهرم يكون سببا في لجوء العبد لربه لإحساسه بدنو أجله وقرب الرحيل إليه فيزيد من الطاعات، ويستكثر من عمل الخير ثم أتبعها بالموت المجهز، ووصف الموت بأنه مجهز إشارة إلى المباغتة التي لا تعطي مجالا للتوبة لسرعة القضاء، ثم إن الناجي من هذه – ولا ينجو منها أحد – ينتظره الدجال – ووصفه بأنه شر غائب ينتظر لما يتبعه من فساد، وإفساد في الدين، والدنيا ثم الساعة المؤذنة بانقضاء الدنيا، وزوال نعيمها، وما تحمل الساعة من أهوال أدهي، وأمر بصيغة (أفعل) التفضيل إشارة إلى ارتقاء هولها لكل ما سبق ذكره من أهوال، فقد ترقي النبي ﷺ في ذكره للأخطار التي تهدد دين المرء ودنياه من الأدنى إلى الأعلى ليعجل الإنسان بعمل الخير، ولا يسوِّف فيه إذا ما كان عرضة لإحدى هذه الدواهي، والاستفهام المتصدر لهذه الدواهي طرقه بعنف على أبواب القلوب الغافلة والعقول الآفلة تتفتح لها القلوب رغبة في التزود من العمل الصالح، ورهبة من مفاجأة إحدى هذه الدواهي بعد أن نفت عبارة الاستفهام (هل تنظرون إلا ....؟) كل خير ينتظر مع الغفلة عن مفاجأة الدواهي، وتقرر أيضاً قرب هذه الأمور وتجعلها بقليل من التدبر تجوس في حنايا القلوب تهديدا لها لتستفيق من غفلة الهوى ورقدة الأبدان رغبة في رحمة الرحمن أو رهبة من غضبة الديان.

وسياق الحديث سياق ترهيب بدا فيه أثر الاستفهام بمعنى النفى في معنى الحديث

ومغـزاه فيمـا سـبق الأداة ومـا تلاهـا فقـد جـاءت عبـارة الاسـتفهام(هـل تنظـرون إلا....؟)تأكيداً للأمر السابق لها (بادروا بالأعمال سبعا....؟) الذي حمل دفقة مركزة من الترهيب توحي من خلال النكرة (سبعاً) بهول عظيم، وربطت هذه الدفقة بموجات من التحذير تمثلت في النكرات التي تبعتها (فقرا منسيا)، (غنى مطغيا)، (هرما مفندا)، (موتا مجهزا) والتي فسرت كل منها صفة حددت نوعها وقد سرى الاستفهام المنفى خلالها سريانا خفيا ينتقل مع حرف العطف (أو) من خطر أصغر إلى خطر أكبر، فما ثمَّ شيء ينجى إلا التعجيل بصالح العمل لمبادرة هذه الأخطار ثم انتقل إلى الدواهى العامة التي تفاجئ البشر مجتمعين (أو الدجال فشر غائب ينتظر) أو(الساعة فالساعة أدهي وأمر) حتى إذا ما ارتقي النبي ﷺ بأصحابه –عن طريق الأسلوب- أعلى درجات الترهيب – وأنهى موجات التحذير تشعر بأثر الاستفهام (هل....؟) في نفس كل مخاطب ووجدانه يجيب عنه في عالم الشعور المتأجج بحسب حاله، فالذي يخشى الفقر يجيب بنعم لقد أنساني -أو كاد- خوفى من الفقر الإعداد لآخرتي، والغنى يتذكر إغراء ماله وشغله به عما أمر الله به، والذي يخشي المرض كذلك. تخاطب أداة الاستفهام(هل) كلاً منهم بحسب حاله، وهذا منتهى ما يمكن أن يصل إليه بشر في مطابقة الكلام لمقتضي الحال إيفاء بحق البلاغة[1].

المضامين الدعوية[2]

---

(١) انظر: الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في صحيح الترغيب، والترهيب للحافظ المنذري، د. ناصر راضي الزهري، ١٠٤، مخطوطة بكلية اللغة العربية بأسيوط، جامعة الأزهر.

(٢) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (٩٣).

الحديث رقم (٥٧٩)

٥٧٩- وعنه، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: ((أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ)) يَعْنِي: المَوْتَ. رواه الترمذيُّ[1]، وقال: (حديث حسن).

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

هذام اللذات: قاطعها بغتةً[2].

الشرح الأدبي

القلوب دائمة التقلب تحتاج إلى الذكرى من وقت لوقت حتى تلين، وتخشع، ومن الأمور التي تجلو عن القلوب صداها، وتذكرها بالمرجع إلى مولاها ذكر الموت لأن الجميع مقرون به مؤمنون، وكافرون، فإذا ما ذكر به المؤمن وجل قلبه، وأناب إلى ربه، ولذلك جاء توجيه الرسول ﷺ (أكثروا ذكر هاذم اللذات) أمر نصح، وإرشاد بكثرة ذكر الموت، وليس بمجرد الذكر يلين القلب بل الأمر يحتاج إلى أكثر من ذلك إلى تكثيف الذكر حتى يظل قريبا من ربه،وقوله (هازم اللذات) كناية عن الموت والتعبير بهذه الكناية يأتي على أكثر ما يشغل الناس فيصوره في صورة المهزوم بالموت حتى لا يغتر الإنسان بطيب الملذات، ولا يركن إلى الدنيا.

---

(١) برقم ٢٣٠٧ وقال: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ. وصحّحه أيضًا ابن حبان، الإحسان ٢٩٩٢، وقال الحاكم ٣٢١/٤: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. وقال الحافظ ابن حجر كما في الفتوحات الربانية ٥٠/٤: حسن. أورده المنذري في ترغيبه ٤٨٨١.

(٢) الوسيط، مجمع اللغة العربية في (هـ ذ م).

فقه الحديث

قال ابن علان: (ومن هذا [الحديث] وأمثاله أخذ أئمتنا قولهم: يسن لكل أحد من صحيح وغيره ذكر الموت بقلبه ولسانه وإلا فبقلبه والإكثار منه حتى يكون نصب عينيه، فإن ذلك أزجر عن المعصية وأدعى إلى الطاعة)[١].

وقال النووي: (يستحبّ لكل أحدٍ أن يكثر ذكر الموت، قال أبو حامد وغيره: وحالة المرض أشد استحباباً، لأنه إذا ذكر الموت رقّ قلبه وخاف فيرجع عن المظالم والمعاصي ويقبل على الطاعات ويكثر منها)[٢].

المضامين الدعوية

أولاً- من أساليب الدعوة: الأمر:

يظهر ذلك في قول رسول الله ﷺ: "أكثروا ذكر هاذم اللذات"، حيث أمر بكثرة ذكر الموت.

وأسلوب الأمر من أساليب الدعوة المهمة التي يستطيع أن يفيد منها الداعية في دعوته حيث إن الداعية يأمر بالمعروف وبعمل الطاعات، وقد أفاد الأمر في هذا الحديث أهمية تذكر المؤمن للموت وضرورة الاستعداد له بالأعمال الصالحة، وتحري مرضاة الله تعالى ورسوله ﷺ.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: الإكثار من ذكر الموت والاستعداد للآخرة:

إن من موضوعات الدعوة التي تستنبط من هذا الحديث الإكثار من ذكر الموت والاستعداد للآخرة. يظهر ذلك في قول رسول الله ﷺ: "أكثروا ذكر هاذم اللذات" فأمر ﷺ بكثرة ذكر الموت.

وأنشد زين العابدين رضي الله عنه:

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٨٥٣-٨٥٤، وانظر: المغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٣/ ٣٦٠.

(٢) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٥/ ٧٠.

فيا عامر الدنيا، ويا ساعياً لها	ويا آمناً من أن يدور الدوائر
على خطر تمشي، وتصبح لاهياً	أتدري بما ذا لو عقلت تخاطر
تخرب ما يبقى وتعمر فانياً	فلا ذاك موفور، ولا ذاك عامر[(١)]

وكان رسول الله ﷺ يكثر تذكير أصحابه رضي الله عنهم بالموت ويأمرهم بالاستعداد للآخرة، فعن البراء قال: كنا مع رسول الله في جنازة فجلس على شفير القبر فبكى حتى بلَّ الثرى، ثم قال: (يا إخواني لمثل هذا فأعدوا)[(٢)].

١-الاستعداد للموت وإعداد الأهبة له، إذ أن ذكر الموت يورث الإنسان استشعار الانزعاج عن هذه الدار الفانية والتوجه في كل لحظة إلى الدار الآخرة الباقية، ثم إن الإنسان لا ينفك عن حالتي ضيق وسعة ونعمة ومحنة، فإذا كان في حال ضيق ومحنة فذكر الموت يسهل عليه بعض ما هو فيه فإنه لا يدوم والموت أصعب منه أو في حال نعمة وسعة فذكر الموت يمنعه من الاغترار بها والسكون إليها لقطعه عنها[(٣)].

٢-الإتيان بأسباب حسن الخاتمة:

أ-صلاح المعتقد: فالواجب على كل من أراد أن يختم له بخاتمة حسنة عند الممات أن يصحح معتقده وأن يكون في ذلك على عقيدة أهل السنة والجماعة وأن يأخذ في أمور الاعتقاد بأقوال السلف الصالح وأن يحذر من مخالطة فاسدي الاعتقاد وأهل البدع والضلال حتى لا يكون من الذين قال الله فيهم: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[(٤)].

ب-الاستقامة: فإن تذكر الموت يحمل الإنسان على الاستقامة على المنهج القويم[(٥)]

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٣/٣٢٩.

(٢) أخرجه ابن ماجه ٤١٩٥، وحسنه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٣٣٨٣).

(٣) انظر: التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، القرطبي ص ٢٥، ٢٦.

(٤) سورة الكهف، الآيتان: ١٠٣، ١٠٤.

(٥) انظر: التوحيد وأثره على العبيد، خميس السعيد محمد ص ٥٢٦-٥٣٣.

والتي يجني ثمارها في الحياة وعند الموت وبعده، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾[(١)] حيث يخبر الله سبحانه عن أوليائه.

ومن ضمن ذلك تنشيطهم والحث على الاقتداء بهم فقال: "إن الذي قالوا ربنا الله ثم استقاموا" أي اعترفوا ونطقوا ورضوا بربوبية الله تعالى واستسلموا لأمره ثم استقاموا على الصراط المستقيم علمًا وعملاً فلهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة "تتنزل عليهم الملائكة" الكرام أي يتكرر نزولهم عليهم مبشرين لهم عند الاحتضار "ألا تخافوا" على ما يستقبل من أمركم "ولا تحزنوا" على ما مضى، فنفى عنهم المكروه الماضي والمستقبل "وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون" فإنها قد وجبت لكم وثبتت، وكان وعد الله مفعولا[(٢)].

ثالثاً- من مهام الداعية : تحذير المدعوين من الغفلة ودعوتهم لتذكر الموت:

يستنبط هذا من عموم الحديث حيث أمر رسول الله ﷺ أصحابه رضي الله عنهم بتذكر الموت، والإكثار من ذلك حتى لا يقعوا في الغفلة ويركنوا إلى الدنيا، لأن الدنيا تلهو الإنسان بمفاتنها فإذا انغمس في شهوات الدنيا غفل عن الآخرة، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾[(٣)]. فالداعية ينبغي عليه تحذير المدعوين من الانغماس في شهوات الدنيا

---

(١) سورة فصلت، الآيات: ٣٠-٣٢.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام الرحمن، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٦٩٤.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٤.

وتذكيرهم بالموت، قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[2]. حيث يخبر سبحانه إخبارًا عامًا يعم جميع الخليقة بأن كل نفس ذائقة الموت، وهذه الآية فيها تعزية لجميع الناس، فإنه لا يبقى أحد على وجه الأرض حتى يموت فإذا انقضت المدة وفرغت النطفة التي قدر الله وجودها من صلب آدم وانتهت البرية أقام الله القيامة وجازى الخلائق بأعمالها جليلها وحقيرها كثيرها وقليلها، كبيرها وصغيرها فلا يظلم أحدًا مثقال ذرة، "وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز" أي من جنب النار ونجا منها وأدخل الجنة فقد فاز كل الفوز "وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور" تصغيرًا لشأن الدنيا وتحقيرًا لأمرها وأنها دنيئة فانية قليلة زائلة[3]. وإنما وصف عيش الدنيا بذلك لما تمنِّيه لذاتها من طول البقاء وأهل الدوام فتخدعه ثم تصرعه، قال بعض السلف: الدنيا متاع متروك يوشك أن يضمحل ويزول فخذوا من هذا المتاع واعملوا فيه بطاعة الله ما استطعتم[4].

ما زال يلهج بالرحيل وذكره	حتى أناخ ببابه الجمال
فأصابه متيقظاً متمشراً	ذا أهبة لم تلهه الآمال

وكان يزيد الرقاشي يقول لنفسه: ويحك يا يزيد من ذا يصلي عنك بعد الموت من ذا يصوم عنك بعد الموت؟ من ذا يرضي عنك ربك بعد الموت، ثم يقول: يا أيها الناس ألا تبكون وتنوحون على أنفسكم باق حياتكم؟ من الموت طالبه والقبر بيته والتراب فراشه والدود أنيسه وهو مع هذا ينتظر الفزع الأكبر كيف يكون حاله؟ ثم يبكي

(١) سورة النساء، آية: ٧٧.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٨٥.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١/١٧٧، ١٧٨.

(٤) نظر: محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ٢/٤/٣١٦.

حتى يسقط مغشياً عليه... وكان عمر بن عبدالعزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يجمع العلماء فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة فيبكون حتى كأن بين أيديهم جنازة.

وقال أبو نعيم: كان الثوري إذا ذكر الموت لا ينتفع به أياماً فإن سئل عن شيء قال لا أدري... وقال الدقاق: من أكثر من ذكر الموت أكرم بثلاثة: تعجيل التوبة، وقناعة القلب ونشاط العبادة. ومن نسي الموت عوقب بثلاثة: تسويف التوبة، وترك الرضى بالكفاف والتكاسل في العبادة. فتفكر يا مغرور في الموت وسكرته وصعوبة كأسه ومرارته. فيا للموت من وعد ما أصدقه ومن حاكم ما أعدله، كفى بالموت مفزعاً للقلوب، ومبكياً للعيون، ومفرقاً للجماعات، وهادماً للذات[1].

(١) التذكرة في أحوال الموتى والآخرة، القرطبي ص ٩.

الحديث رقم (٥٨٠)

٥٨٠- وعن أُبَيِّ بن كعبٍ رضي الله عنه: كَانَ رسول الله ﷺ إذَا ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ قَامَ، فَقَالَ: ((يَا أَيُّهَا النَّاس، اذْكُرُوا اللهَ[1]، جَاءتِ الرَّاجِفَةُ، تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ، جَاءَ المَوْتُ بِمَا فِيهِ، جَاءَ المَوْتُ بِمَا فِيهِ)) قُلْتُ: يَا رسول الله، إنِّي أُكْثِرُ الصَّلاَةَ عَلَيْكَ، فَكَمْ أجْعَلُ لَكَ مِنْ صَلاَتِي؟ فَقَالَ: ((مَا شِئْتَ)) قُلْتُ: الرُّبُع، قَالَ: ((مَا شِئْتَ، فَإنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ)) قُلْتُ: فَالنِّصْفُ؟ قَالَ: ((مَا شِئْتَ، فَإنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ)) قُلْتُ: فالثُّلُثَيْنِ؟ قَالَ: ((مَا شِئْتَ، فَإنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ)) قُلْتُ: أجعَلُ لَكَ صَلاَتِي كُلَّهَا؟ قَالَ: ((إذاً تُكْفَى هَمَّكَ، وَيُغْفَر لَكَ ذَنْبُكَ)) رواه الترمذي[2]، وقال: (حديث حسن).

ترجمة الراوي:

أُبي بن كعب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٣٧).

غريب الألفاظ:

الراجفة: النفخة الأولى[3].

الرادفة: النفخة الثانية[4].

الشرح الأدبي

والحديث من باب (الترغيب في الصلاة على النبي ﷺ وفضلها) بدأه النبي ﷺ بهذا النداء (يا أيها) كثيف المؤكدات والتنبيهات الذي ينبئ بعظيم يتبعه ثم فعل الأمر (اذكروا) المتعلق بالمفعول لفظ الجلالة، وهو يوحي بعظيم حدث كعادة الإنسان يتذكر ربه عند الشدائد صعَّد معنى الترهيب الخبر الذي تلاه في جملة (جاء الراجفة)

---

(١) عند الترمذي مرّتين.

(٢) برقم ٢٤٥٧ وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ. وقال الحاكم ٥١٣/٢: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. أورده المنذري في ترغيبه ٢٤٨١.

(٣) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٩١٩/٢.

(٤) المرجع السابق ١٩٢٠/٢.

والراجفة النفخة الأولى وتتبعها الرادفة وهي النفخة الثانية التي يكون عندها البعث، وفي هذا السياق خصيصة تجدر الإشارة إليها وهي كثرة الكلمات الموحية بطبيعتها، والتي تتعامل مع الأرواح مباشرة، وهي عالقة دائما بالقلوب كلفظ (الله - الراجفة - الرادفة - الموت) بمجرد ذكرها تطرق الأسماع، وتسكت الألسنة، وتضطرب القلوب جلالاً وهيبة، ومن الملاحظ أن هذه الألفاظ من سمات الحديث النبوي، وعلامة جلية على صحته فكل سياق يحمل كلمة، أو كلمات من هذه النوعية تفيض جلالا، وقدسية تأتي في حديثه كواسطة العقد حسنا وبهاءً، وتَدَبَّر جملة (جاء الموت)، وتصويره حاضراً قد سعى إليهم، وتعلقه بالجار والمجرور (بما) (وفيه) وكثرة الضمائر، والظروف، وحروف الجر توحي بالوجل، والخوف، والاضطراب، وتكرار الجملة ذاتها الذي يلح على تحقق المجيء، وما أثاره التعميم في قوله (بما فيه) دون أن يقول بسكراته، أو آلامه من رؤية ملك الموت، وما يتبعه من عذاب في سؤال الملكين، وفي القبر أو رحمة، كل ذلك، وما يمكن أن يتصوره عقل، ويصل إليه خيال طي عباراته (بما فيه) مع إيجاز عباراته بالتعميم الذي لو أراد تفصيله لما وسعه المقام، ولو وسعهم لما استوعبه المخاطبون كما استوعبوه من هذه اللفظة الموجزة، لاختلاف درجات الفهم بينهم لكن هذه العبارات تعطى كل مستمع القدر الذي يمكن أن يصل إليه خياله في التصور، ولا شك أن ذلك هو عين البلاغة، ومقصدها بخطاب كل إنسان بقدر ما يفهم مع إيجاز واف، وجواب كاف، وعلاج شاف لتحقيق اليقظة المطلوبة للقيام بحق عبادة الله، وترك الغفلة، والكسل

نضيف طرفا من بلاغة النبي ﷺ مع رعاية المقام، ورعاية مقتضى حال المخاطبين وهو رعاية زمان الحديث فكما أخبر أبي بن كعب (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا ذَهَبَ ثُلُثَ اللَّيْلِ قَامَ فَقَالَ.....) وهو وقت السكينة، والسكون، والراحة من تعب النهار وكده والنفس بطبيعتها تميل إلى الراحة، والدعة فكان لزاما رعاية للظرف الزمانى – أن يكون الأسلوب مزلزلاً مدوياً يطرد النوم من الأجفان، ويبعث على الذكر، والصلاة ولذلك عبر بالماضي (جاءت الراجفة) عند نفخة الإماتة التي تشبه النوم (فهو موت

أصغر) إشارة إلى تحقيق الموت فهو مصير كل حي حتى يعد كل مستمع نفسه له، وعبر بالمضارع (تتبعها الرادفة) عند نفخة البعث والتي تشبه الاستيقاظ استحضارا للصورة المفزعة بخروج الأموات وهي مشاهد مفزعة تذر القلوب واجفة والأبدان راجفة لا تجد ملجأ إلا الله فتهوى إليه ذكرا، وشكرا، وتقربا رغبة في النجاة، [1] وقول الراوي: (فَكَمْ أجْعَلُ لَكَ مِنْ صَلاَتِي ؟) استفهام على حقيقته والمقصود بالصلاة الدعاء له، والصلاة عليه، وقد تدرج معه من الربع إلى الثلث إلى النصف إلى جعل الصلاة كلها دعاء للنبي، وصلاة عليه، وبذلك جوزي من جنس عمله بقوله (إذاً تُكْفى هَمَّكَ، وَيُغْفَر لَكَ ذَنْبكَ).

فقه الحديث

١-جواز ذكر الإنسان صالح عمله:

قال ابن علان: (قوله: "قلت: يا رسول الله إني أكثر الصلاة عليك"، فيه جواز ذكر الإنسان صالح عمله إذا أمن العجب لغرض، كالاستفتاء هنا، المدلول عليه بقوله "فكم أجعل لك من صلاتي؟")[2].

٢-مشروعية الصلاة على النبي ﷺ:

المقصود بالصلاة على النبي ﷺ: الدعاء له بصيغة مخصوصة والتعظيم لأمره[3].

ولا خلاف بين الفقهاء في مشروعية الصلاة على النبي ﷺ، للأمر بها قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾[4].

قال ابن كثير: (والمقصود من هذه الآية أن الله سبحانه أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملأ الأعلى، بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تصلي

(١) انظر: الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في صحيح الترغيب، والترهيب للحافظ المنذري، د. ناصر راضي الزهري، ٢٢٠، مخطوطة بكلية اللغة العربية بأسيوط، جامعة الأزهر.

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٨٥١.

(٣) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٧/٢٣٤، وانظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٧/٢١٤.

(٤) سورة الأحزاب، آية: ٥٦.

عليه، ثم أمر تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه؛ ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي جميعًا... وقد جاءت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ بالأمر بالصلاة عليه، وكيفية الصلاة عليه. قال البخاري عند تفسير هذه الآية حدثنا سعيد بن يحيى بن سعيد... فساق إسناده إلى كعب بن عجرة قال: قيل: يا رسول الله ﷺ أما السلام عليك فقد عرفناه، فكيف الصلاة؟ فقال: قولوا اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد"[(١)])[(٢)].

وأما ألفاظ الصلاة على النبي ﷺ فقال أبو إسحاق الشيرازي صاحب المهذب: (إن أفضل صيغ الصلاة على النبي ﷺ أن يقول المصلّي عليه "اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد" لما روى كعب بن عجرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال ذلك[(٣)]، وهناك صيغ أخرى، وأقل ما يجزي هو اللهم صلّ على محمد)[(٤)].

---

(١) أخرجه البخاري ٤٧٩٧، ومسلم ٤٠٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢١٠/١١-٢١١، .

(٣) قال النووي في الأذكار ٨٨-٨٩ ط/ مكتبة الصفا: وروينا هذه الكيفية في صحيح البخاري ومسلم عن كعب بن عجرة عن رسول الله ﷺ إلا بعضها، فهو صحيح من رواية غير كعب.

(٤) المهذب وشرحه المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٣٠٩/٢-٣١١ ، والأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار، الإمام النووي، تحقيق: محيي الدين مستو ٨٨، ١٤٢، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٣٧/٢٧-٢٣٨، وانظر في مواطن وجوب الصلاة على النبي ﷺ واستحبابها، انظر: رد المحتار ٣٤٣/١، وفتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني ٢٧٣/١، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن المغربي ٥٤٣/١، والمجموع الموضع السابق، وروضة الطالبين، الإمام النووي، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، وعلي محمد معوض ٢٦٣/١، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين أبو الحسن المرداوي ١٦٣/٢، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٥٤١/١، وجلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام ص ٢٥١ وما بعدها (عن الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٣٥/٢٧-٢٣٩)، وتفسير ابن كثير ٢١٤/١٤-٢٣٧. وسيأتي مزيد من التفصيل في ذلك في كتاب الصلاة على رسول الله ﷺ، وهو الكتاب رقم ١٤ من كتب رياض الصالحين وتحته الباب رقم ٢٤٣ بعنوان: باب الأمر بالصلاة عليه وفضلها وبعض صيغها، الأحاديث: ١٣٩٢-١٤٠٩.

المضامين الدعوية

ثانياً: من موضوعات الدعوة: أهمية ذكر الله تعالى.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: تحذير النبي ﷺ لأصحابه رضي الله عنهم وأمته من الغفلة.

رابعاً: من أساليب الدعوة: التكرار.

خامساً: من موضوعات الدعوة: فضل الصلاة والدعاء للنبي ﷺ.

أولاً- من أساليب الدعوة: النداء والأمر:

يظهر أسلوب النداء في قوله رسول الله ﷺ: "يا أيها الناس..." والأمر في قوله ﷺ: "اذكروا الله ...".

ثانياً- من موضوعات الدعوة: أهمية ذكر الله تعالى:

يظهر ذلك في قول رسول الله ﷺ: "يا أيها الناس ... اذكروا الله...". وذكر الله تعالى يحي ميت القلوب ويذكي فاتر الهمم، ويحوط المرء بسياج من العصمة، ويقيه نزغات الشيطان، ويباعد بينه وبين المعاصي[1]، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[2].

وقال سبحانه مدحاً لأصحاب العقول السليمة: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[3].

وقال رسول الله ﷺ مبيناً أهمية ذكر الله: ((مَثَلَ الذي يَذكرُ ربَّه والذي لا يَذْكرُ ربه مَثَلُ الحي والميِّت))[4].

---

(١) الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي ص ٢٠٤، ٢٠٥.

(٢) سورة العنكبوت، آية: ٤٥.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٩١.

(٤) أخرجه البخاري ٦٤٠٧.

وقال رسول الله ﷺ: ((أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أعمَالِكُمْ وأزْكَاها عِنْدَ مَلِيكِكُمْ وأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ وَخَيرٍ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ وَخَيرٍ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟ قالُوا بَلَى، قالَ ذِكْرُ اللهِ تَعَالَى» فقالَ مُعَاذُ بنُ جَبَلٍ رضي الله عنه ما شَيْءٌ أَنْجَى مِنْ عَذَابِ اللهِ مِنْ ذِكْرِ اللهِ))[1].

إن لذكر الله تعالى بين العبادات شأنًا عظيمًا إذ أمر الله تعالى، في غير ما آية من كتابه، قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[2] وقال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾[3] وأثنى على أهله بقوله: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾[4] ولا شك أن من وفقه الله تعالى وجعل لسانه رطبًا بذكر الله تبارك كان من الذاكرين الفائزين بولاية الله ومحبته ورضوانه.

وبين ابن القيم الفارق ما بين الذكر وباقي العبادات فيقول: وفي كل جارحة من الجوارح عبودية مؤقتة والذكر عبودية القلب واللسان وهي غير مؤقتة بل هم يؤمرون بذكر معبودهم ومحبوبهم في كل حال قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم، فكما أن الجنة قيعان وهو غراسها فكذلك القلوب بور خراب وهو عمارتها وأساسها وهو جلاء القلوب وصقالها ودواؤها إذ غشيها اعتلالها وكلما ازداد الذاكر في ذكره استغراقًا ازداد المذكور محبة إلى لقائه واشتياقًا، وبالذكر يزول الوقر عن الأسمال والبكم عن الألسن وتتقشع الظلمة عن الأبصار، زين الله به ألسنة الذاكرين، كما زين بالنور أبصار الناظرين، فاللسان الغافل كالعين العمياء والأذن الصماء واليد الشلاء، وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده ما لم يغلقه العبد بغفلته[5].

---

(١) أخرجه الترمذي ٣٣٧٧. وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٦٨٨).

(٢) سورة البقرة، آية: ١٥٢.

(٣) سورة الأحزاب، الآيتان: ٤١، ٤٢.

(٤) سورة الأحزاب، آية: ٣٥.

(٥) انظر: مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم، ٢/٤٤٠، ٤٤١.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: تحذير النبي ﷺ لأصحابه رضي الله عنهم وأمته الغفلة وطول الأمل:

ويظهر ذلك في قوله ﷺ: "يا أيها الناس اذكروا الله جاءت الراجفة..." أراد به النائمين من أصحابه الغافلين عن ذكر الله ينبههم عن النوم ليشتغلوا بذكر الله تعالى والتهجد(١).

فالغفلة من أخطر الآفات على الإنسان، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾(٣).

والإنذار قد ينفع ويوقظ الغافلين المستغرقين في الغفلة كما قال سبحانه: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾(٤).

والإنذار لا ينفع قلباً غير مهيأ للإيمان، مشدود عنه، محال بينه وبينه بالسدود والأغلال والأغشية، فالإنذار لا يخلق القلوب، إنما يوقظ القلوب الحية المستعدة للتلقي: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾(٥).

فعلينا أن نعيش في بيئة الذاكرين لربهم، المستقيمين على منهجه، ونصبر على ذلك؛ لننال الأجر والثواب من الله، ونحذر من أهل الأهواء والغفلة كما قال سبحانه:

---

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٩١٩/٢.

(٢) سورة الأعراف، آية: ١٧٩.

(٣) سورة يونس، آية: ٧.

(٤) سورة يس، آية: ٦.

(٥) سورة يس، آية: ١١.

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[1].

والإنسان كلما غفل قلبه عن ذكر الله، وجد الشيطان طريقه إليه، فيلزمه ويصبح له قرين سوء يوسوس له ويزين له السوء: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾[2].

ووظيفة قرناء السوء من الشياطين أن يصدوا قرناءهم عن سبيل الله، بينما هؤلاء يحسبون أنهم مهتدون، وهذا أسوأ ما يصنعه قرين السوء بقرينه: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾[3].

والإنسان إنما يقع في المعاصي بسبب الغفلة عن الله... والغفلة عن أوامر الله... والغفلة عن عقوبة المعصية في الدنيا والآخرة، وعلاج الغفلة بذكر الله كما قال سبحانه: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾[4].

والذين غفلوا عن الله وعن لقائه، ورضوا بالحياة الدنيا عن الآخرة وغفلوا عن آيات الله الكونية، وآياته القرآنية، هؤلاء مأواهم جهنم، لكفرهم وغفلتهم عن آيات ربهم كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[5])[6].

---

(١) سورة الكهف، آية: ٢٨.

(٢) سورة الزخرف، آية: ٣٦.

(٣) سورة الزخرف، آية: ٣٧.

(٤) سورة الأعراف، الآيتان: ٢٠٥، ٢٠٦.

(٥) سورة يونس، الآيتان: ٧، ٨.

(٦) موسوعة فقه القلوب، محمد إبراهيم التويجري ٤/٣٠٨٨-٣٠٩٣.

ورسول الله ﷺ أحرص الناس على نفع أصحابه وأمته، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1]، فيحب لكم الخير ويسعى جهده في إيصاله إليكم ويحرص على هدايتكم إلى الإيمان، ويكره لكم الشر ويسعى جهده في تنفيركم عنه (بالمؤمنين رؤوف رحيم) أي: شديد الرأفة والرحمة بهم، أرحم بهم من والديهم[2]. لذلك حذر أصحابه رضي الله عنهم وأمته من الغفلة وطول الأمل.

رابعاً- من أساليب الدعوة: التكرار:

يظهر ذلك في قول رسول الله ﷺ: "... جاء الموت بما فيه جاء الموت بما فيه".

وأسلوب التكرار من الأساليب الدعوية المهمة، لأن التكرار يوضح المعنى المراد من الدعوة، ويبين أهميتها، والدليل على ذلك قول أنس رضي الله عنه: أن النبي ﷺ: (أنه كان إذا تكلَّم بكلمةٍ أَعادَها ثلاثاً حتّى تُفهمَ عنه، وإذا أتى على قومٍ فسلَّمَ عليهم سَلَّم عليهم، ثلاثاً)[3].

فالتكرار أسلوب من أساليب البلاغة يؤكد المعاني في القلوب بمنهج عال شيق بليغ، واللفظ إن تكرر تقرر في نفس سامعيه، ومتى كانت المعاني الأصيلة المرادة حاصلة في الجُمل والألفاظ فلا يضر بعد ذلك ما يرى في هذه الألفاظ أو الجمل من اختلافات لفظية لا تسيء بأصول المعاني وجواهرها والمراد منها فلا تؤدي إلى تناقض أو اختلاف بل يمكن الجمع والتوفيق بينها، وما كان ذلك إلا للبلاغة، ومن أجل اعتبارات ومناسبات تختلف باختلاف السياق من ناحية إبرازها بوجوه متعددة ولكن الجوهر واحد... ويكرر اللفظ أو الجملة أو الموضوع على صور متعددة فغلب على جميع

---

(١) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام الرحمن، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٣١٣.

(٣) أخرجه البخاري ٩٥.

وجوهه المختلفة لإظهار ما فيه من عبر متنوعة وعظات متعددة تتأتى من ذلك التعدد، وتتضح في كل مناسبة[١].

وقد جاء أسلوب التكرار في كثير من سور القرآن وآياته وكذلك في أحاديث النبي ﷺ. ويذكر الرافعي وهو يوضح بلاغة القرآن وأسلوب التكرار وقيمته فيقول: (إذا كان أبلغ البلاغة في الشعر العبراني القديم أن تجتمع له رشاقة العبارة، وحسن العرض، ووضوح اللفظ، وفصاحة التركيب، وإبانة المعنى، وتكرار الكلام لكل ما يفيده التكرار توكيداً ومبالغة وإبانة وتحقيقاً ونحوها، ثم استعمال الترادف في اللفظ والمعنى، ومقابلة الأضداد وغيرها مما هو في نفسه تكرار آخر للمحسنات اللفظية، وتحسين التكرار المعنوي)[٢].

فالتكرار إذن يعد من الأساليب التي صدرت ممن يعلم كل خافية على عباده[٣].

خامساً- من موضوعات الدعوة: فضل الصلاة والدعاء للنبي ﷺ:

يظهر ذلك في قول أبي بن كعب رضي الله عنه: (يا رسول الله إني أكثر الصلاة عليك فكم أجعل لك من صلاتي؟ فقال: "ما شئت" ... قلت أجعل لك صلاتي كلها؟ قال: إذا تكفي همك، ويغفر لك ذنبك)، والصلاة على النبي ﷺ فضلها عظيم وقد أمر الله عباده بها فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾[٤].

قال أبو العالية: صلاة الله ثناؤه عليه عند الملائكة. وصلاة الملائكة الدعاء، وقال ابن عباس: (يصلون يُبَرِّكُون)[٥].

---

(١) القصة في القرآن الكريم، د. مريم عبدالقادر السباعي ص ٨٢.

(٢) إعجاز القرآن للرافعي، مصطفى صادق الرافعي ص ١٩٦.

(٣) القصة في القرآن الكريم، د. مريم عبدالقادر السباعي ص ٨٢.

(٤) سورة الأحزاب، آية: ٥٦.

(٥) علقة البخاري فوق الحديث ٤٧٩٧، قال ابن حجر: وصله الطبرى "في جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي" من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٨/٣٩٣.

قال ابن كثير: (والمقصود من هذه الآية: أن الله سبحانه أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملأ الأعلى، بأنه يثنى عليه عند الملائكة المقربين وأن الملائكة المقربين تصلي عليه، ثم أمر الله تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه، ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي جميعاً)(١).

وقال السعدي: ("إن الله" تعالى "وملائكته يصلون على النبي" أي: يثني الله عليه بين الملائكة، وفي الملأ الأعلى، لمحبته تعالى إياه، ويثني عليه الملائكة المقربون، ويدعون له ويتضرعون "يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما" اقتداء بالله وملائكته، وجزاء له على بعض حقوقه عليكم... وهذا الأمر بالصلاة والسلام عليه مشروع في جميع الأوقات، وأوجبه كثير من العلماء في الصلاة)(٢).

وقال ﷺ مبيناً فضل الصلاة عليه: (من صلى عليَّ صلاة، صلى الله عليه بها عشراً)(٣).

فالصلاة والدعاء للنبي ﷺ فضلها عظيم وفوائدها كثيرة عدّها ابن القيم في أربعين فائدة وثمرة منها: امتثال أمر الله سبحانه وتعالى، وموافقته سبحانه في الصلاة عليه ﷺ ... وموافقة ملائكته، وحصول عشر صلوات من الله على المصلي مرة، ويرفع له عشر درجات، ويكتب للمصلي عشر حسنات، ويمحى عنه عشر سيئات ... إلخ الفوائد والثمرات الحاصلة بالصلاة عليه ﷺ(٤).

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٤٥٧/٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام الرحمن، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٦١٨.

(٣) أخرجه مسلم ٤٠٨.

(٤) جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام، ابن القيم ص ٦١٢-٦٢٦.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

آفة الإنسان النيسان، وقد يؤدي النيسان إلى غفلة تورد صاحبها موارد الهلاك، ولهذا حرص الإسلام على تذكير الإنسان بمآله وتبصرته بحاله ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (٦) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا (١٢)﴾ [سورة الانشقاق:٦-١٢].

ورسول الله ﷺ قد حثّ على عدم تناسي الموت ودعا إلى عدم الركون إلى الدنيا ومن المضامين التربوية في أحاديث الباب ما يلي:

أولاً- أهمية التربية الإيمانية:

"إن مما يدفع الإنسان للعمل الصالح، ويزيده إقبالاً على الآخرة، وزهدًا في تذكر الموت والدار الآخرة ذكر الموت، لذا فقد حث النبي ﷺ على تذكر الموت والدار الآخرة ودعا إلى ذلك، ومن الوسائل التي تحقق ذلك التذكير به والحديث عن الدار الآخرة والاعتناء بتلاوة القرآن وقراءة أحاديث النبي ﷺ التي فيها الحديث عن الآخرة ووصف حال أهلها، ومن ذلك الصلاة على الجنائز وشهودها، واتباع السنة في اتباعها إلى المقبرة، وتذكر حال أهلها" (١).

"ومن هدية ﷺ أنه كان يربي الصحابة الكرام على الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، ولقد كان الصحابة رضي الله عنهم كذلك، كما قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه للتابعين: لأنتم أكثر عملاً من أصحاب رسول الله ﷺ، ولكنهم كانوا خيرًا منكم، كانوا أزهد في الدنيا وأرغب في الآخرة، وهذا الزهد في الدنيا هو الذي دفع الصحابة رضي الله عنهم إلى البذل والتضحية وطلب الآخرة، وعدم الاغترار بزينة الدنيا وزخرفها" (٢).

---

(١) تربية الشباب الأهداف والوسائل، محمد بن عبدالله الدويش ص٥٠.

(٢) التربية على منهج أهل السنة والجماعة، أحمد فريد، مرجع سابق، ص٢٨٥.

ثانيًا- استعمال الوسائل التوضيحية في التربية:

إن من الأمور المهمة في التربية استعمال الوسائل التوضيحية للمتربين من أجل إقناع المتربي وتفهيمه، وهذا ما يتضح في أحاديث الباب من قول النبي ﷺ: "خط النبي ﷺ خطوطًا..."، وقوله: خط النبي ﷺ خطًا مربعًا، وخط خطًا في الوسط خارجًا منه، وخط خططًا صغارًا إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط.." ورَسْم النبي ﷺ خطوطًا إنما هي بمثابة وسائل إيضاح.

"لقد كان ﷺ يخط أمام أصحابه خطوطًا ليوضح لهم بعض المفاهيم المهمة، ويقرّب إلى أذهانهم بعض التصورات المفيدة، وبين الرسول ﷺ بما رسم على الأرض كيف يُحَالُ بين الإنسان وبين آماله الواسعة بالموت المباغت أو الحوادث النازلة، أو الهرم المضني المقعد، وهذا توضيح جميل من المعلم الأول ﷺ"[(١)].

إن وسائل الإيضاح من الوسائل التعليمية المهمة في الميدان التربوي "لأنها تسهل عملية التعلم والتعليم وتوضح المعاني وتشرح الأفكار لعلاقتها بإثارة الحواس، والمعلم المسلم لابد أن يوظف الوسائل التعليمية في تدريس التربية الإسلامية لأنها توفر الجهد في التدريس وتخفف العبء عن كاهل المعلم وتسهم في رفع مستوى التعلم في أية مرحلة من المراحل التعليمية، ولقد استخدم النبي ﷺ كل وسيلة من شأنها أن تساعد على الفهم أو توضح صورة معينة رغم أن البيئة في عهده لم تكن لتساعد على توفير الكثير من وسائل التعليم، ومن هذه الوسائل الإشارة بالأصابع أو اليد الواحدة، أو باليدين أو باستخدام الحصى أو العصا أو الرسم على الأرض، أو ما شاكل ذلك"[(٢)].

ثالثًا- المبادرة بأداء الواجبات:

إن من القيم التربوية التي تتضح من أحاديث الباب أهمية التربية على المبادرة بأداء الواجبات، وخاصة في قول النبي ﷺ: "بادروا بالأعمال سبعًا..."، وقوله: "كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل"، وقول ابن عمر رضي الله عنهما: "إذا أمسيت فلا تنتظر

---

(١) تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، مرجع سابق، ٢/٧١٧.

(٢) انظر: طرق تدريس التربية الإسلامية، د. هدى علي جواد الشمري ص١٢٦-١٢٨، بتصرف.

الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ..."، ولاشك أن هذا يدلل على أهمية الوقت في حياة المسلم، وضرورة المبادرة والمسارعة إلى أداء الواجبات خشية العوارض والشواغل الطارئة التي قد تعوق الإنسان عن أداء المطلوب منه.

قال أحد الحكماء: "من أمضى يومًا من عمره في غير حق قضاه، أو فرض أداه أو مجد أثله "أي ورثه" أو حمد حصّله، أو خير أسسه، أو علم اقتبسه فقد عقّ يومه، وظلم نفسه". وقال يحيى بن معاذ: "الفوت أشد من الموت، لأن الفوت انقطاع عن الحق، والموت انقطاع عن الخلق"، وقال ابن الجوزي: "ينبغي للإنسان أن يعرف شرف زمانه، وقدر وقته فلا يضيع منه لحظة من غير قُربة، ويقدم الأفضل فالأفضل من القول والفعل" [١].

رابعًا- من الأساليب التربوية: الحوار والمناقشة:

وهذا واضح من حديث أُبيٍّ بن كعب رضي الله عنه: ((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا ذَهَبَ ثُلُثَ اللَّيْلِ قَامَ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا اللَّهَ، جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ، تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ، جَاءَ الْمَوْتُ بما فِيهِ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِي أُكْثِرُ الصَّلَاةَ عَلَيْكَ، فَكَمْ أَجْعَلُ لَكَ مِنْ صَلَاتي؟ قَالَ: مَا شِئْتَ، ...)) الحديث، والمناقشة والحوار من الأساليب التدريسية التي يمكن من خلالها تفعيل دور المتعلم وتهيئته لعملية التعليم.

۞ ۞ ۞

---

(١) الموسوعة الأم في تربية الأولاد في الإسلام، د. أحمد مصطفى متولي، مرجع سابق، ١/ ٦٠٠-٦٠٢.

٦٦- باب استحباب زيارة القبور للرجال وما يقوله الزائر

الحديث رقم (٥٨١)

٥٨١- عن بُرَيْدَة رضي الله عنه ، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ : ((كُنْتُ[1] نَهَيْتُكُمْ عن زِيَارَةِ القُبُورِ فَزُورُوها)) رواه مسلم[2].

ترجمة الراوي:

بُريدة بن الحُصيب الأسلمي: هو ابن عبدالله بن الحارث بن الأعرج.

من أكابر الصحابة أسلم قبل بدر، ولم يشهدها.

وقد أسلم حين اجتاز به النبي ﷺ مهاجراً، هو ومن معه، وكانوا زهاء ثمانين بيتاً، فصلى رسول الله ﷺ العشاء، فصلّوا خلفه. وقيل إنه أسلم بعد انصراف النبي ﷺ من بدر.

وقدم بُريدة على رسول الله ﷺ بعد أُحد، فشهد خيبر، وشهد الحديبية، فكان ممّن بايع بيعة الرضوان تحت الشجرة، وشهد فتح مكة، وكان معه لواء "أسلم" يومئذ، واستعمله النبي ﷺ على صدقات قومه، وكان يحمل لواء أسامة رضي الله عنه حين بعثه النبي ﷺ إلى أرض البلقاء، إثر وفاة رسول الله ﷺ.

وقد ثبت في الصحيحين عنه أنه غزا مع رسول الله ﷺ ست عشرة غزوة وكان من سكان المدينة، ثم تحول إلى البصرة، وكان من أمراء عمر بن الخطاب رضي الله عنه في نوبة سَرْغ - وهي أول الحجاز وآخر الشام- وقد غزا خراسان في زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه ، ثم نزل مرو، ونشر العلم بها.

---

(١) (كنت) لا توجد عند مسلم.

(٢) برقم ٩٧٧/١٠٦ اختصره المؤلف. أورده المنذري في ترغيبه ٥٢٠٤ وعزاه إلى الترمذي.

وقد روى عن النبي ﷺ، جُلَّة أحاديث بلغت ١٥٠ حديث، وقيل ١٦٧ حديث.

وقد توفي بمرو في خلافة يزيد بن معاوية سنة ٦٢هـ وقيل ٦٣هـ(١).

الشرح الأدبي

أمر الرسول ﷺ فزوروا إباحة لزيارة القبور بعد النهى السابق ارتقى بها أسلوبه الشريف من الإباحة إلى الترغيب بما لها من موعظة، وقوله (كنت نهيتكم) تذكير بالنهي السابق تمهيداً لإبطاله بتقرير الإباحة، واتصال فعل النهي بكاف الخطاب، وميم الجمع لتعميم النهي، ثم إن وصل الأمر بالزيارة بواو الجماعة تعميم للحكم يشمل المخاطبين، ومن بعدهم ليوم القيامة؛ لأن مشهد القبور يذكر الإنسان بمنزله الأخير، فإذا تذكر حاله فيه انقبض قلبه، وخشعت جوارحه، وأناب إلى ربه، ولذلك علل الرسول ﷺ الأمر في الرواية الثانية بقوله (فإنَّهَا تُذَكِّرُنَا الآخِرَةَ) وقول الرسول ﷺ (تذكرنا) بضمير الجماعة يوحي بأن التذكرة بزيارة القبورة تنفع المؤمنين خاصة، وليس عموم الزائرين.

فقه الحديث

هذه الأحاديث تشير إلى الأحكام الفقهية التالية:

١-حكم زيارة القبور: وهي مشروعة للرجال في قول أكثر أهل العلم، وقد حكى الحازمي والعبدري والنووي اتفاق أهل العلم على ذلك، وحكى الشربيني الخطيب الإجماع، وروي عن ابن سيرين والنخعي والشعبي أنها مكروهة مطلقاً.

أما بالنسبة للنساء فقد اختلف فيها الفقهاء: فذهب الحنفية إلى أنه لا بأس

---

(١) الطبقات الكبرى، ابن سعد ٢٤١/٤-٢٤٣ و٣٦٥/٧، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ص ١١٨، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٩٤، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود ٣٦٧/١-٣٧٠، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين ٣٣٦/١، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٢١٩/١، والأعلام، خير الدين الزركلي ٥٠/٢، وسير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ٤٦٩/٢-٤٧١.

بزيارتهن للقبور على الأصح، وذهب المالكية في الأصح إلى التفريق بين الشابة والمتجالة، فقالوا يباح للقواعد ويحرم على الشواب اللاتي يخشى منهن الفتنة، وذهب الشافعية، والحنابلة في المذهب إلى أنه تكره زيارتهن للقبور لما فيهن من رقة القلب وكثرة الجزع وقلة احتمال المصائب[١].

٢-أدب زيارة القبور: ينبغي لمن عزم على زيارة القبور أن يتأدب بآدابها، فيستحب له في قول العلماء جميعاً التسليم على أهلها والدعاء لهم بالعافية.

أما صفة السلام: فقد وردت فيه أحاديث بصيغ كثيرة منها ما أورده المصنف ومنها غيرها، والأمر واسع، والمقصود هو الاجتهاد لهم في الدعاء[٢].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: إذن الرسول ﷺ بزيارة القبور بعد النهى عن زيارتها.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: تحقيق الغاية من زيارة القبور بتذكر الآخرة والعمل بها.

أولاً- من موضوعات الدعوة: إذن الرسول ﷺ بزيارة القبور بعد النهى عن زيارتها:

لقد نهى النبي ﷺ المسلمين عن زيارة القبور أول الأمر، فلما تمكن الإيمان من قلوبهم ورسخت عقيدة التوحيد في قلوبهم أذن لهم. وهذا واضح من الحديث كله. قال القاضي عياض: (وقوله: "فزوروها" بين في نسخ النهي وفي علة الإباحة أن يكون زيارتها

---

(١) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٣٨٢/٥-٣٨٤، وحاشية الدسوقي على الشرح الكبير، وهو مطبوع مع الشرح الكبير للدردير، محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي ١٧٠/٤، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٣٦٥/١، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين أبو الحسن المرداوي ٣٧٦/٤.

(٢) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٣٨٢/٥، ٣٨٣، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن المغربي ٤٥٠/٥، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٣٦٥/١، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٤٧٠/٢، وكشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ١٧٥/١.

للتذكير والاعتبار لا للفخر والمباهاة ولا لإقامة النوح والمآتم)[١]، وقال ابن عثيمين: (كان النبي ﷺ نهى عن زيارتها، خوفاً من الشرك بأهل القبور، لأن الناس كانوا حديثي عهد بجاهلية، فنهى عنها رسول الله ﷺ سداً لذرائع الشرك، لأن الشرك لما كان أمره عظيماً سد النبي ﷺ كل ذريعة وكل باب يوصل إليه.

وكلما كانت المعصية عظيمة كانت وسائلها أشد منعاً. الزنا مثلاً فاحشة، فوسائله من النظر والخلوة وما أشبه ذلك محرمة. وكذلك فإن الشرك أعظم الظلم كما سئل النبي ﷺ: أي الذنب أعظم؟ قال: (أن تجعل لله نداً وهو خلقك)[٢]، فلما كان الناس يعظمون القبور نهاهم النبي ﷺ عن ذلك. فلما استقر الإيمان في قلوبهم أذن لهم فقال: ((كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكر الآخرة))[٣])[٤].

وقال ابن علان معللاً النهي ثم بعد ذلك الإذن "لقرب عهدهم بالجاهلية وكلماتها القبيحة التي كانوا يألفونها على القبور "فزورها" نسخ لذلك النهي لما تمهدت القواعد واتضحت الأحكام فعلموا ما ينفع وما يضر فحينئذٍ طلبها منهم وعللها كما في رواية أخرى بأنها تذكر الآخرة، أي لأنها ترق القلوب بذكر الموت وأحواله وما بعده، وأكد في تحفظهم على عادة الجاهلية كما صح ((ألا يقولوا هجراً))[٥] أي: باطلاً لأجل ما في ذلك من التذكير بالآخرة خلاف ما هنا، والقاعدة الأصولية أن الأمر بعد الحظر للإباحة على أنه اعتضد بتكرر زيارته ﷺ للأموات وبالإجماع على طلبها، بل حكى ابن عبدالبر عن بعضهم وجوبها)[٦].

وقال عبدالله البسام: (لما رسخت العقيدة في القلوب وفقهوا دينهم وعلموا معنى

---

(١) انظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٤٥٢/٣، ٤٥٣.

(٢) أخرجه البخاري ٦٠٠١، ومسلم ١٤٢، ٨٥.

(٣) أخرجه أحمد ٣٥٥/٥ رقم ٢٣٠٠٥، وقال محققو المسند: حديث صحيح ١١٤/٣٨.

(٤) شرح رياض الصالحين ٨٦٠/١.

(٥) أخرجه النسائي ٢٠٣٣، وصححه الألباني، (صحيح سنن النسائي ١٩٢٢).

(٦) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٨٥٦.

الزيارة نسخ تحريمها، ولم ينسخ إلى الإباحة، وإنما إلى الاستحباب وحكى النووي والموفق الإجماع على استحبابها للذكور دون الإناث)[(١)].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: تحقيق الغاية من زيارة القبور بتذكر الآخرة والعمل لها:

علل النبي ﷺ الإذن في زيارة القبور بعد النهى بـ "أنها تذكر الآخرة" وفي حديث أبي هريرة: ((فإنها تذكر الموت))[(٢)] قال ابن عثيمين: (فرفع النبي ﷺ النهى وأباح الزيارة بل رغب فيها لقوله: "فإنها تذكر الآخرة")[(٣)].

وقد قال النبي ﷺ: ((وكُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عن زيارةِ القبورِ ثم بَدَا لِي فَزُوْرُوْهَا فإنَّهَا تُرِقُّ القلبَ وتُدْمِعُ العَيْنَ وتُذَكِّرُ الآخرةَ فَزُوْرُوْا وَلاَ تَقُوْلُوا هُجْراً))[(٤)].

قال عبدالله البسام: (إن الأمر بالزيارة قارنها بيان الحكمة منها وهو تذكرة الآخرة والزهد في الدنيا، وهذان مطلبان أساسيان في الإسلام، فإن الاعتبار والاتعاظ والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة أكبر معين للعبد على تقوى الله تعالى)[(٥)].

وقال الصنعاني: (الحكمة من زيارة القبور أنها للاعتبار، فإنه في لفظ ابن مسعود فإنها عبرة وذكرى للآخرة والتزهيد في الدنيا، فإذا خلت من هذه لم تكن مرادة شرعاً)[(٦)].

قال ابن عثيمين: (إن الإنسان ينبغي له أن يزور القبور في كل وقت في الليل والنهار في الصباح والمساء في يوم الجمعة وفي غير يوم الجمعة، ليس لها وقت محدد، كلما غفل قلبك واندمجت نفسك في الحياة الدنيا فاخرج إلى القبور وتفكر في هؤلاء القوم الذين

---

(١) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٥٦٢/٢.

(٢) أخرجه مسلم ١٠٦-٩٧٦.

(٣) شرح رياض الصالحين ٨٦٠/١.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣٧٦/١ رقم ٣٤٣٤، وقال محققه: حديث حسن صحيح، والهجر -بالضم- أي الفحش، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ف ح ش).

(٥) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٥٦٢/٢.

(٦) سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، الصنعاني ص ٣٣٦ بتصرف.

كانوا بالأمس مثلك على الأرض يأكلون ويشربون ويتمتعون والآن: أين ذهبوا؟ صاروا مرتهنين بأعمالهم لم ينفعهم إلا ما قدموا، كما أخبر بذلك النبي ﷺ حيث قال: ((يَتْبَعُ الْمَيِّتَ ثَلاَثَةٌ. فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى وَاحِدٌ. يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ. فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ، وَمَالُهُ، وَيَبْقَى عَمَلُهُ))(١)(٢).

ثالثاً- من آداب المدعو: الحرص على مباشرة كل عمل يذكره بالآخرة:

بيّن النبي ﷺ الغاية من زيارة القبور وهى التذكير بالآخرة (والذي يذكّر الآخرة ينبغي للإنسان أن يعمل به، لأن القلب إذا نسى الآخرة غفل واشتغل بالدنيا، فأضاع الدنيا والآخرة، لأن من أضاع الآخرة فقد أضاع الدنيا والآخرة)(٣).

قال أبو عبدالله القرطبي: (قال العلماء: ليس للقلوب أنفع من زيارة القبور وخاصة إن كانت قاسية فعلى أصحابها أن يعالجوها بأمور:

أحدها: الإقلاع عما هي عليه بحضور مجالس العلم بالوعظ والتذكير والتخويف والترغيب وأخبار الصالحين، فإن ذلك مما يلين القلوب وينجع فيها.

الثاني: ذكر الموت فيكثر من ذكر هاذم اللذات ومفرق الجماعات، وميتم البنين والبنات. قال رسول الله ﷺ ((أكثروا ذكر هاذم اللذات))(٤).

قال العلماء: تذكر الموت يردع عن المعاصي ويلين القلب القاسي ويذهب الفرح بالدنيا ويهون المصائب فيها.

الثالث: مشاهدة المحتضَرين، فإن في النظر إلى الميت ومشاهدة سكراته ونزعاته وتأمل صورته بعد مماته مما يقطع عن النفوس لذاتها ويطرد عن القلوب مسراتها ويمنع الأجفان من النوم والأبدان من الراحة، ويبعث على العمل ويزيد في الاجتهاد والتعب.

فهذه ثلاثة أمور ينبغي لمن قسا قلبه ولزمه ذنبه أن يستعين بها على دواء دائه

---

(١) أخرجه البخاري ٦٥١٤ ومسلم ٢٩٦٠.

(٢) شرح رياض الصالحين ١/٨٦١.

(٣) شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين ١/٨٦٠.

(٤) أخرجه ابن ماجه ٤٢٥٨، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٣٤٣٤).

ويستصرخ بها على فتن الشيطان وإغوائه. فإن انتفع بها فذاك وإن عظم عليه ران القلب[١] واستحكمت فيه دواعي الذنب فزيارة قبور الموتى تبلغ في دفع ذلك ما لا يبلغه الأول والثاني والثالث)[٢].

رابعاً- من أساليب الدعوة: النهي والأمر والتعليل:

أما النهي فقوله ﷺ: (كنت نهيتكم عن زيارة القبور) وأما الأمر فقوله ﷺ: (فزوروها) فجاء الأمر ليلغي النهي السابق وينسخه، أما التعليل فقوله ﷺ: (فإنها تذكر بالآخرة) قال عبدالله البسام: (هذا هو العلة في مشروعية زيارة القبور، والعلة إذا نُصّ عليها فإنها تفيد ثلاث فوائد:

الثالثة: إمكان القياس على الحُكم المنصوص عليه بحُكم لم ينص عليه، بجامع العلة المشتركة بينهما، وفي هذا إثراء للفقه الإسلامي)[٣].

---

(١) ران القلب: الران: الغطاء والحجاب الكثيف. وما غطّى على القلب وركبه من القسوة للذنب بعد الذب. الوسيط، مجمع اللغة العربية ص ٣٨٦.

(٢) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، القرطبي ١٢ – ١٣ بتصرف يسير.

(٣) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٢/٥٦٣.

الحديث رقم (٥٨٢)

٥٨٢- وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قالت: كَانَ رسول الله ﷺ -كلَّما كَانَ لَيْلَتُهَا مِنْ رسول الله ﷺ- يَخْرُجُ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ إِلَى البَقِيعِ، فَيقولُ: ((**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَأَتَاكُمْ مَا تُوعَدُونَ، غَداً مُؤَجَّلُونَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لاَحِقُونَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لأَهْلِ بَقِيعِ الغَرْقَدِ**)) رواه مسلم(١).

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

غريب الألفاظ:

البقيع [بقيع الغرقد]: هو المكان المتسع فيه أشجار مختلفة، وهو: مقبرة أهل المدينة، وهي اليوم داخل المدينة بجوار المسجد النبوي الشريف شرقاً(٢).

مؤجلون: أي أتاكم ما مؤجلونه أنتم، والأجل: هو الوقت المضروب المحدد في المستقبل(٣).

الغرقد: هو ضرب من شجر العضاة وشجر الشوك(٤).

الشرح الأدبي

قول أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا (كَانَ رسول الله ﷺ) التعبير بكان يدل على أنه من عادته ﷺ زيارة القلوب في هذا التوقيت من الليل يؤكده قولها (كلما كان ليلتها) والفعل المضارع يدل على التجدد، والاستمرار واختيار آخر الليل للزيارة لأنه وقت السكينة، والخشوع، وقوله (السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ) دار قوم منصوب على النداء أي يا أهل فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، أو منصوب على

---

(١) برقم ٩٧٤/١٠٢. أورده المنذري في ترغيبه ٢٨٨ من رواية أبي هريرة.

(٢) أطلس الحديث النبوي، د. شوقي أبو خليل ٧٧.

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٤١٧/٣.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (غ ر ق د).

الاختصاص، ويكمن البعد النفسي لخطاب الموتى بإلقاء السلام عليهم بالشعور بالتواصل معهم، واستشعار عالمهم مما يوقع في النفس الإحساس بقربه الأمر الذي يستلزم الإعداد له، ولذلك ذكَّر بقوله (غَداً مُؤَجَّلُونَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لاَحِقُونَ)، والتعبير بالتأجيل يشير إلى موعد سبق تحديده وإيمان به يجب تجديده، والتقييد بالمشيئة على سبيل التبرك، وامتثال قول الله تعالى ﴿ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا إن يشاء الله﴾ أو أن المشيئة عائدة إلى الكون معهم في تلك التربة، ودعاؤه لهم رحمة بهم، واستشعارا لفقرهم وحاجتهم إلى حسنة تأتيهم بعد أن صاروا إلى دار الجزاء التي ليس فيها كسب، وفيه تذكير للأحياء بالاجتهاد في الصالحات الباقيات قبل الفوات.

المضامين الدعوية[1]

أولاً: من موضوعات الدعوة: حرص النبي ﷺ على زيارة القبور والدعاء لأهلها.

ثانيا: من آداب المدعو : زيارة القبور والالتزام بما جاء عن النبي ﷺ في ذلك.

أولاً- من موضوعات الدعوة: حرص النبي ﷺ على زيارة القبور والدعاء لأهلها:

كان البقيع مقبرة من مات من الصحابة رضي الله عنهم لذلك كان النبي ﷺ يكثر زيارته ويدعو لأهله من الموتى، وهذا واضح جليٌّ في الأحاديث. من ذلك قول عائشة رضي الله عنها : "كان رسول الله ﷺ، كلما كان ليلتها من رسول الله ﷺ، يخرج من آخر الليل إلى البقيع، فإن لفظ "كلما" يدل على التعميم[2].

وحديث بريدة رضي الله عنه "كان النبي ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقول قائلهم..." كل هذا يدل على حرص النبي ﷺ على زيارة القبور والدعاء لأهلها"، وفي حديث لعائشة رضي الله عنها عند مسلم: أن جبريل ﷺ جاء إلى النبي ﷺ بالليل وقال له: ((إِنَّ رَبَّكَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَأْتِيَ أَهْلَ الْبَقِيعِ فَتَسْتَغْفِرَ لَهُمْ))[3].

---

(١) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -٥٨٢- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (٥٨٣، ٥٨٤).

(٢) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٧٩٦.

(٣) أخرجه مسلم ٩٧٤.

قال عبدالله البسام: (إن كان السلام على أهل البقيع، فيدخل فيه اللحاق بهم في البقعة، فإن النبي ﷺ دعا لأهل البقيع فقال: (اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد)، والدعوة شاملة للأولين والآخرين)[١].

قال ابن القيم: (كان ﷺ إذا زار قبور أصحابه يزورها للدعاء لهم والترحم عليهم والاستغفار لهم، وهذه هي الزيارة التي سنها لأمته وشرعها لهم وأمرهم أن يقولوا إذا زاروها: "السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإن شاء الله بكم لاحقون، نسأل الله لنا ولكم العافية)[٢]. وكان هديه ﷺ أن يقول ويفعل عند زيارتها من جنس ما يقوله عند الصلاة على الميت من الدعاء والترحم والاستغفار، فأبى المشركون إلا دعاء الميت والإشراك به والإقسام على الله به، وسؤاله الحوائج، والاستعانة به، والتوجه إليه، بعكس هدية ﷺ، فإنه هدى توحيد وإحسان إلى الميت، وهدى هؤلاء شرك وإساءة إلى نفوسهم وإلى الميت وهم ثلاثة أقسام: إما أن يدعوا الميت، أو يدعوا به، أو عنده، ويرون الدعاء عنده أوجب وأولى من الدعاء في المساجد، ومن تأمل هدي رسول الله ﷺ وأصحابه، تبين له الفرق بين الأمرين)[٣].

ثانياً- من آداب المدعو: زيارة القبور والالتزام بما جاء عن النبي ﷺ في ذلك:

قال عبدالله البسام: (يدل الحديثان [أي حديث بريدة وحديث ابن عباس] على السلام على الموتى من المسلمين والمؤمنين، وسؤال الله تعالى لهم العافية من عذاب القبر وعذاب النار. وعلى استحباب هذا الدعاء والقول لزائر القبور، فإن النبي ﷺ دعا به لأهل البقيع وعلمه عائشة أن تقوله... قال الشيخ صديق بن حسن في السراج الوهاج: وحاصل المسألة أن الزيارة للقبور سنة ثابتة قائمة تذكر الزائر الموت والآخرة، وهذا معظم مقصودها وغاية فعلها، ومن زار قبراً اي قبر كان، وفعل عنده ما لم يرد به دليل من كتاب وسنة صحيحة فقد خالف السنة المطهرة وعكس القضية) اهـ كلامه.

---

(١) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٥٧٨/٢.

(٢) أخرجه مسلم ٩٧٥.

(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم ٥٢٦/١-٥٢٧.

والدعاء هنا مناسب للزائر وللموتى. أما الزائر فهو يسأل الله لنفسه العافية من أمراض الأبدان وأمراض القلوب التي هي أشد ضرراً من أمراض الأبدان. وأما الموتى فهو يدعو لهم بالسلامة والعافية من العذاب ويسأل الله تعالى لهم الرحمة والمغفرة[(١)].

وقال القرطبي: (أما زيارة القبور فوجودها أسرع والانتفاع بها أليق من الاعتبار بحال المحتضرين وأجدر، فينبغي لمن عزم على الزيارة أن يتأدب بآدابها ويحضر قلبه في إتيانها ولا يكون حظه منها الطواف على الأجداث فقط، فإن هذه حالة تشاركه فيها بهيمة.

ونعوذ بالله من ذلك بل يقصد بزيارته وجه الله تعالى وإصلاح فساد قلبه أو نفع الميت بما يتلوه عنده من القرآن... ويجتنب المشي على المقابر والجلوس عليها إذا دخل المقابر ويخلع نعليه كما جاء في أحاديث[(٢)]، ويسلم إذا دخل المقابر ويخاطبهم خطاب الحاضرين فيقول: السلام عليكم دار قوم مؤمنين، كذلك كان عليه الصلاة والسلام يقول: وكنى بالدار عن عمارها وسكانها، ولذلك خاطبهم بالكاف والميم، لأن العرب تعبر بالمنزل عن أهله، وإذا وصل إلى قبر ميته الذي يعرفه سلم عليه أيضاً فيقول: عليك السلام... وليأته من تلقاء وجهه في زيارته كمخاطبته حياً، ولو خاطبه حياً لكان الأدب استقباله بوجهه، فكذلك هنا)[(٣)].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: الاعتبار بزيارة القبور والاستعداد للموت:

إنما شرعت زيارة القبور للاعتبار والاستعداد للموت، وقد وضح النبي ﷺ ذلك بقوله فإنها "تذكر الآخرة"[(٤)] وقال ﷺ كذلك: "فإنها تذكر الموت"[(٥)].

---

(١) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٥٧٨/٢ - ٥٧٩.

(٢) ورد حديث الأمر بخلع النعال عند أبي داود ٣٢٣٠، وابن ماجه ١٥٦٨ من حديث بشير بن الخصاصية وحسنه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ١٢٧٤)، وهناك أحاديث يفهم منها جواز لبس النعلين وعدم خلعهما. انظر في الجمع بين هذه الأحاديث المجموع شرح المهذب للنووي، دار عالم الكتب، الرياض، ط ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م، ٢٠٥/٥.

(٣) التذكرة في أحوال الموتى والآخرة، القرطبي ص ١٣، وانظر: المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢٠٢/٥، ٢٠٥، والمغني لابن قدامة تحقيق الدكتور عبدالله بن عبدالمحسن التركي والدكتور عبدالفتاح محمد الحلو ٥١٧/٣-٥٢٣، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٨٨/٢٤-٩٠.

(٤) أخرجه أحمد ٣٥٥/٥ رقم ٢٣٠٠٥، وقال محققو المسند: حديث صحيح ١١٤/٣٨.

(٥) أخرجه مسلم ٩٧٦.

قال عبدالله البسام: (قوله: "وإنا إن شاء الله بكم لاحقون" يدل على أنه يستحب للإنسان أن يوطن نفسه على هذا المستقبل، وأنه لاحِقٌ بهؤلاء الأموات حتى يستعد، فإن في الموت موعظة وذكرى) [١].

قال أبو عبدالله القرطبي عن زائر القبور: (ثم يعتبر بمن صار تحت التراب وانقطع عن الأهل والأحباب بعد أن قاد الجيوش والعساكر، ونافس الأصحاب والعشائر وجمع الأموال والذخائر، فجاءه الموت في وقت لم يحتسبه، وهول لم يرتقبه فليتأمل الزائر حال من مضى من إخوانه ودرج من أقرانه الذين بلغوا الآمال وجمعوا الأموال كيف انقطعت آمالهم ولم تغن عنهم أموالهم ومحا التراب محاسن وجوههم وافترقت في القبور أجزاؤهم وترمل بعدهم نساؤهم وشمل ذل اليتم أولادهم واقتسم غيرهم طريقهم وبلادهم، وليتذكر ترددهم في المآرب، وحرصهم على نيل المطالب، وانخداعهم لمواتاة الأسباب وركونهم إلى الصحة والشباب، وليعلم أن ميله إلى اللهو واللعب كميلهم وغفلته عما بين يديه من الموت الفظيع والهلاك السريع كغفلتهم، وأنه لابد صائر إلى مصيرهم وليحضر بقلبه ذكر من كان متردداً في أغراضه وكيف تهدمت رجلاه، وكان يتلذذ بالنظر إلى ما حوله وقد سالت عيناه، ويصول ببلاغة نطقه وقد أكل الدود لسانه ويضحك لمواتاة دهره وقد أبلى التراب أسنانه وليتحقق أن حاله كحاله ومآله كمآله.

وعند هذا التذكر والاعتبار يزول عنه جميع الأغيار الدنيوية ويقبل على الأعمال الأخروية فيزهد في دنياه ويقبل على طاعة مولاه، ويلين قلبه وتخشع جوارحه) [٢].

وقال الحسن البصري: (كان رجل من المسلمين يبلغه موت أخ من إخوانه فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون كدت والله أن أكون أنا السواد [٣] المختطف فيزيده الله بذلك جداً واجتهاداً فيلبث بذلك ما شاء الله ثم يبلغه موت الأخ من أخوانه فيقول: إنا لله وإنا إليه

---

(١) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٥٧٩/٢.

(٢) التذكرة في أحوال الموتى والآخرة، القرطبي ص ١٣- ١٤.

(٣) السواد: الشخص. الوسيط، مجمع اللغة العربية ص ٤٦١.

راجعون كدت والله أن أكون أنا السواد المختطف، فيزيده الله بذلك جدًّا واجتهاداً. فردّد الحسن هذا الكلام غير مرّة فوالله ما زال كذلك حتى مات موتاً كيساً)[١].

رابعاً- من أساليب الدعوة : الإخبار:

أما الإخبار فقول عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله ﷺ ، كلما كان ليلتها من رسول الله ﷺ ، يخرج من آخر الليل إلى البقيع فيقول: ((السَّلامُ عَلَيْكُمْ دارَ قَومٍ مُؤمِنِينَ وأتانا ...))، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : مرّ رسول الله ﷺ بقبور بالمدينة فأقبل عليهم بوجهه فقال: ... وقد استخدم الإخبار كثيراً جداً في نقل أحوال النبي ﷺ من قِبل الصحابة رضي الله عنهم ، ليقتدي بها المدعوون ويطبقوها في حياتهم[٢].

خامساً- من وسائل الدعوة : التعليم:

التعليم من وسائل الدعوة التي يفيد منها الداعية في تعامله مع المدعوين، وهذا واضح من قول بريدة رضي الله عنه : كان النبي ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقول قائلهم: ((السلامُ عَلَيْكُمْ أهلَ الديارِ من المؤمنينَ والمسلمينَ، وإنَّا إنْ شاءَ الله بِكُمْ للاحقونَ، أسأل الله لنا ولكم العافيةَ)). وفي رواية لمسلم من حديث طويل أن رسول الله ﷺ قال لعائشة رضي الله عنها : فإن جبريل أتاني حين رأيت فناداني فأخفاه منك فأجبته فأخفيته منك، ولم يكن يدخل عليك وقد وضعت ثيابك وظننت أن قد رقدت فكرهت أن أوقظك وخشيت أن تستوحشي فقال: إن ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم، قالت: قلت: كيف أقول لهم يا رسول الله؟ قال: قولي: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون.

قال القاضي عياض: وفي الحديث تعليمه ﷺ لعائشة رضي الله عنها ما تدعو به لأهل القبور، وتعليمه ذلك للناس ما يجب امتثاله واختياره من الدعاء المنصوص لهم[٣].

---

(١) الزهد، أحمد بن حنبل، ٢٧٠.

(٢) انظر فهارس كتب الأحاديث، مثل فهرس مسند أحمد بن حنبل ٤٨/١٤٥-٢٤٧، وموسوعة أطراف الحديث النبوي ٦/٣-٣٨٥.

(٣) انظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٣/٤٤٩، ٤٥٠.

وقد استخدم النبي ﷺ وسيلة مرات ومرات، من ذلك التشهد في الصلوات. فقد قال ابن مسعود رضي الله عنه: علمني رسول الله ﷺ التشهد كفى بين كفيه، كما يعلمني السورة من القرآن[1]، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان رسول الله ﷺ يعلمنا التشهد كما يعلمنا السورة من القرآن"[2] ومن هذا القبيل أيضاً دعاء الاستخارة فعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كالسورة من القرآن"[3]، قال ابن حجر: (وفي الحديث شفقة النبي ﷺ على أمته وتعليمهم جميع ما ينفعهم في دينهم ودنياهم)[4].

---

(١) أخرجه البخاري ٦٢٦٥، ومسلم ٤٠٢.

(٢) أخرجه مسلم ٤٠٣.

(٣) أخرجه البخاري ٦٣٨٢.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١/١٩٠ وانظر: الدعوة الإسلامية: الوسائل والأساليب، محمد خير رمضان: ٧٥.

الحديث رقم (٥٨٣)

٥٨٣- وعن بريدة رضي الله عنه ، قَالَ: كَانَ النبيُّ ﷺ يُعَلِّمُهُمْ إِذَا خَرَجُوا إِلَى المَقَابِرِ أَنْ يَقُولَ قَائِلُهُمْ: ((السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أهلَ الدِّيَارِ مِنَ المُؤْمِنِينَ وَالمُسلمينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ[1] للاَحِقونَ، أسْألُ اللهَ لَنَا وَلَكُمُ العَافِيَةَ)) رواه مسلم[2].

ترجمة الراوي:

بُريدة بن الحُصيب الأسلمي: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٥٨٦).

غريب الألفاظ:

العافية: السلامة من البلايا[3].

الشرح الأدبي

هذا الحديث بيان عملي لكيفية التفاعل مع أهل العالم الآخر بما يجعلنا نشعر بهم ونشعر بعالمهم ذلك العالم المخيف الذي سيصير عالمنا بعد قليل فنشعر بالإنس بدعاء الصالحين، وهداياهم من الصالحات، وقوله (أن يقول قائلهم) فيه جناس يؤكد المعنى، ويشير إلى تجاوبهم مع إخوانهم الذين سبقوهم بالإيمان وقوله : (السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أهلَ الدِّيَارِ مِنَ المُؤْمِنِينَ وَالمُسلمينَ) وعموم الأموات بالسلام استشعار لحاجتهم، ودعاء بسلام روحي يعم المؤمنين، ويتدرج إلى المسلمين ليشمل قطاعا أكبر قد يكون أكثر حاجة إلى تلك الدعوة ممن أعلى منهم رتبة من المؤمنين، وقوله (وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ للاَحِقونَ) تقديم الجار والمجرور (بكم) يفيد التخصيص، وتوكيد العبارة تمهيد للنفس النافرة من الفكرة التي تنقبض منها النفوس التي ألفت الدنيا، وتعظيم للخبر بما يليق بجلال الموقف وقوله (أسْألُ اللهَ لَنَا وَلَكُمُ العَافِيَةَ) بدايته بالدعاء للأحياء وهو

---

(١) (بكم) لا توجد عند مسلم، وهي من الجمع للحميدي ١/٣٧٤، رقم ٦٠١.

(٢) برقم ٩٧٥/١٠٤.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ع ف و).

فيهم أقرب لإجابة الدعوة من تقديم الأموات، ويستحب أن يجمع الإنسان بينه، وبين إخوانه في الدعاء لأن صلاح بعضهم ينفع بعضاً، والتعبير بالعافية يستوعب السلامة من كل الآفات للأحياء ومن الذنوب وتبعاتها للأموات.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (٥٨٤)

٥٨٤- وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، قَالَ: مرَّ رسول الله ﷺ بِقُبورٍ بالمدِينَةِ فَأقْبَلَ عَلَيْهِمْ بِوَجْهِهِ، فَقَالَ: ((السَّلامُ عَلَيْكُمْ يَا أهْلَ القُبُورِ، يَغْفِرُ اللهُ لَنَا وَلَكُمْ، أنْتُمْ سَلَفُنَا وَنَحنُ بالأثَرِ)) رواه الترمذيُّ[1] ، وقال: (حديث حسن).

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١).

غريب الألفاظ:

سلف الإنسان: من تقدمه بالموت من الآباء وذوي القربى[2].

ونحن بالأثر: أي تابعون لكم من ورائكم لاحقون بكم[3].

الشرح الأدبي

يبدو أن السلام على الأموات في هذا الحديث كان عرضيا، ولم يكن يقصد الزيارة بل كان ماراً عليهم دون قصد يدل على ذلك التعبير بالمرور، وهو فعل السائر العابر كما أنه نكَّر كلمة قبور، وقوله (أقبل عليهم بوجهه) يشير إلى أنه لم يكن متوجها إليه أصلا، وإنما التفت بغرض السلام، كما أنه ناداهم بلفظ أهل، وأضافهم للقبور، ولم يضفهم للمؤمنين، وفي الحديث السابق ناداهم بأهل الديار، وأضافهم للمؤمنين، لأن من بالبقيع من المؤمنين معروفا للرسول ﷺ بعكس غيرهم، ثم إنه في هذا الحديث دعا لهم بالمغفرة، وهناك دعا لهم بالعافية، والعافية أكثر شمولا من المغفرة لأنها تستلزم النجاة من كل مخيف، وقوله (أنْتُمْ سَلَفُنَا وَنَحنُ بالأثَرِ) التعبير بالسالف تشير إلى عموم السابق وقوله (ونحن بالأثر) أي خلفكم دون تخصيص اللحوق

(١) برقم ١٠٥٣ وقال: حديثٌ حسنٌ غريبٌ.

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١١٢/١.

(٣) المرجع السابق ١١٢/١.

بهم هم خاصة، وفي الحديث السابق خصص اللحوق بهم في قوله (وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ) لما علم من حال هؤلاء من المؤمنين.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -٥٨٤- مع المضامين للحديث رقم (٥٨٢، ٥٨٣).

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

أحوال الناس في التعامل مع الموتى مختلفة، فمنهم المقدس لهم، ومنهم الجاحد لآثارهم ومنهم المتبع لهدي نبيه ﷺ، الذي لم يقدس لهم ولم يجحد ذكرهم وإنما جعلهم مصدر عبرة وعظة وأذن بزيارة القبورومن المضامين التربوية في أحاديث الباب ما يلي:

أولاً- التربية بالممارسة العملية:

إن من أهم الأساليب التربوية التربية بالممارسة العملية، ولقد كان النبي ﷺ نموذجًا حيًا في التطبيق والممارسة العملية، ففي هذا الباب -استحباب زيارة القبور- جاء في أحاديثه عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قال: كَانَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ كُلَّمَا كَانَ لَيْلَتُهَا مِنْ رَسُولِ اللّهِ يَخْرُجُ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ إِلَىٰ الْبَقِيعِ. فَيَقُولُ: «السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ دَارِ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ".

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مَرَّ رَسُولُ الله ﷺ بِقُبُورِ الْمَدِينَةِ. فَأَقْبَلَ عَلَيْهِمْ بِوَجْهِهِ فقَالَ «السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الْقُبُورِ ...». وهذا تطبيق عملي في زيارة القبور، وهذه الممارسة العملية تؤثر في نفس المتربي.

"إن أسلوب الممارسة العملية من الأساليب التربوية الناجحة، والذي له العديد من الآثار والفوائد التربوية، والدين الإسلامي دين عمل، شريطة أن يكون العمل قرينًا للعلم، وقائمًا على أساسه، ويطالب الدين الإسلامي كل معتنقيه بتطبيق تعاليمه تطبيقًا عمليًا سواء ما يتعلق بتكاليف العبادة وما يهيئ للآخرة أو ما يتعلق بشؤون الحياة الدنيا، ولقد اهتم الرسول ﷺ باستخدام أسلوب الممارسة العملية والتطبيق العملي لكل تعاليم الإسلام، على شخصه أولاً، وفي تربيته لصحابته ثانيًا"(١).

ثانيًا- أهمية التعليم والتلقين في التربية:

إن التعليم والتلقين من الأمور المهمة في مجال التربية، وفي أحاديث الباب ما يشير

---

(١) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. سعيد إسماعيل القاضي، مرجع سابق، ص١٧٧-١٧٩.

إلى أن النبي ﷺ كان يحرص على تعليم أصحابه وتلقينهم، فعن بريدة رضي الله عنه قال: "كان النبي ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقول قائلهم: السلام عليكم أهل الديار..."، وعلى المربي استصحاب التلقين في تربية النشء، وتعليمه ما يجهل.

"إن التربية بالموعظة والتلقين هي الطريقة التربوية التي يتحمل فيها الآباء والمربون وحدهم عبء الكلام، والأولاد مستمعون فقط لكنهم واعون لما يستمعون، يتلقون النصائح ويعملون بها، وهذه الطريقة في التربية قديمة قِدَم الإنسان نفسه فقد ارتبطت بالتعليم منذ أقدم العصور، على أساس أن المربي هو الشخص الذي يمتلك المعرفة، والمتعلمون ينتظرون أن يتلقوا بعضًا مما عنده، بهدف إفادتهم ونموهم السوي في كل جوانب حياتهم" [(١)].

❁ ❁ ❁

---

(١) تربية الطفل في الإسلام، د. أحمد محمود الحمد، ص١٩٥.

٦٧- باب كراهة تمنّي الموت بسبب ضُرّ نزل بِهِ وَلاَ بأس بِهِ لخوف الفتنة في الدين

الحديث رقم (٥٨٥)

٥٨٥- عن أَبي هريرة رضي الله عنه : أنَّ رسول الله ﷺ ، قَالَ: ((**لا يَتَمَنَّ**[١] **أحَدُكُمُ المَوْتَ، إمَّا مُحْسِناً فَلَعَلَّهُ يَزْدَادُ، وَإمَّا مُسِيئاً فَلَعَلَّهُ يَسْتَعْتِبُ**)) متفقٌ عَلَيْهِ[٢] ، وهذا لفظ البخاري.

وفي رواية لمسلم[٣] عن أَبي هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ ، قَالَ: ((**لاَ يَتَمَنَّ**[٤] **أَحَدُكُمُ المَوْتَ، وَلاَ يَدْعُ بِهِ مِنْ قَبْلِ أنْ يَأتِيَهُ؛ إنَّهُ إذَا مَاتَ**[٥] **انْقَطَعَ عَمَلُهُ، وَإنَّهُ لاَ يَزِيدُ المُؤْمِنَ عُمُرُهُ إلاَّ خَيْراً**)).

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

---

(١) لفظ البخاري: (لا يتمنى)، والمثبت لفظ المنذري في ترغيبه. قال الحافظ في الفتح ٨٢/١٧: كذا للأكثر بلفظ النفي، والمراد به النهي، أو هو للنهي، وأشبعت الفتحة، ووقع في رواية الكشميهني: (لا يتمنين) بزيادة نون التأكيد.

(٢) ليس هذا اللفظ متفق عليه، بل أخرجه البخاري ٧٢٣٥ وحده. قال الحميدي في جمعه ٢٠٨/٣، رقم ٢٤٥٦: كذا أخرجه البخاري من حديث أبي عبيد، عن أبي هريرة. أورده المنذري في ترغيبه ٤٩٣٢.

(٣) برقم ٢٦٨٢/١٣ من حديث همام بن منبه، عن أبي هريرة. أورده المنذري في ترغيبه ٤٩٣٢.

تنبيه: هذا الحديث أورده الحميدي في جمعه ٢٠٨/٣، رقم ٢٤٥٦ في المتفق عليه، وعزا اللفظ الأول إلى البخاري وحده، واللفظ الثاني إلى مسلم، ففهم المؤلف منه أن اللفظ الأول المتفق عليه، وليس كذلك. وقد يكون المؤلف تبع فيه المنذري في ترغيبه حيث قال: رواه البخاري واللفظ له، ومسلم، ثم قال: وفي رواية لمسلم، فذكره.

(٤) لفظ مسلم: (لا يتمنى) في المطبوع، وقال الحافظ ابن حجر في الفتح ٨٢/١٧ ووقع في رواية همام الذي أخرجها مسلم: (لا يتمنَّ).

(٥) عند مسلم زيادة: (أحدكم) وهي لا توجد عند الحميدي في جمعه.

الشرح الأدبي

الحياة هبة من الله وهبها للإنسان، وهو إذا شاء استردها، وليس لإنسان حق في إنهاء هذه الحياة بل، ولا تمنيها وقد جاء نهي النبي ﷺ (لاَ يَتَمَنَّ أَحَدُكُمُ المَوْتَ، وَلاَ يَدْعُ بِهِ مِنْ قَبْلِ أنْ يَأتِيَهُ) نهيا عاما عن تلك الأمنية التي تخالف ما قدر الله للعبد، وقد أخذ النهي عمومه من الفاعل (أحد) المضاف لكلف الخطاب، وميم الجمع التي تجعل الجميع تحت مظلة الحكم، كما نهى عن الدعاء بها لأن الأمنية حركة القلب بالرغبة، وإذا قويت تحولت إلى دعاء باللسان فتوافق مع القلب فيها، فإذا مات على هذه الحال مات على معصية لله بمخالفة رسوله ﷺ، وقد علل للنهي بقوله (إنَّهُ إذَا مَاتَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ، وَإنَّهُ لاَ يَزِيدُ المُؤْمِنَ عُمُرُهُ إلاَّ خَيْراً) وقد بدأ الخبر بالتوكيد بحرف التوكيد، وضمير الشأن المؤذن بتفخيم ما بعده تعظيماً له، وتأكيدا للنفس التي ضجرت من الحياة، وملت البقاء أنه قد يكون خيراً لها لأنه بموته انقطع عمله، والمؤمن يزداد خيرا بكل يوم يعيشه، وإن لم يستطع الحركة فإن الله يجري عليه أجره من العبادات التي كان يؤديها في صحته.

فقه الحديث

هذه الأحاديث تشير إلى الأحكام الفقهية التالية:

١- حكم تمني الموت والدعاء به: اتفق الفقهاء على أنه يكره للمرء تمني الموت لضر أصابه في بدنه، أو ضيق في دنياه، أو محنة من عدو، أو نحو ذلك، فإن خالف ولم يصبر على بلواه فيقل: (اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي).

كما اتفقوا على أنه لا يكره تمني الموت لخوف فتنة في دينه، أو لغرض أخروي كتمني الشهادة في سبيل الله، أو بمكان شريف نحو مكة المشرفة أو المدينة المنورة، بل يندب ذلك، وقد فعله كثير من السلف[1].

---

(١) الجوهرة النيرة ٣٩٩/١، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم بن سالم ابن مهنا النفراوي ٣٥٠/٣، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٠٦/٥-١٠٧، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٣٧٣/٢، وكشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٩٣/٢.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النهي.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: اغتنام الحياة ولحظات العمر في الاستزادة من الإحسان والتوبة والإنابة إلى الله تعالى.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الصبر واحتساب الأجر عند الله تعالى لكل ما يصيب الإنسان.

رابعًا: من مهام الداعية : توجيه المدعو وإرشاده إلى ما ينبغي عليه فعله عند الشدائد.

خامسًا: من أساليب الدعوة : الترغيب والتوكيد والقصر.

أولاً- من أساليب الدعوة : النهي:

وهذا واضح في قوله ﷺ "لا يتمن أحدكم الموت" وفي قوله "لا يتمنين أحدكم الموت". وذلك لينهى عن تمني الموت، وأكد ذلك بأن أدخل نون التوكيد على الفعل المنهي "لا يتمنين" والنهي أسلوب مباشر لطلب الامتثال والانقياد، وقد أفاد في هذا الحديث عدم تمني الموت لما في ذلك من مصلحة للمؤمن.

لأن الحياة هبة من الله تعالى، حدد سبحانه بدايتها ونهايتها، هو المتصرف فيها كيف يشاء، لذا فإن على الإنسان ألا يتمنى الموت بسبب لحقه إلا أن يكون خوفاً على دينه، وذلك واضح في قوله ﷺ: "لا يتمنين أحدكم الموت لضر أصابه"، قال ابن هبيرة: (في هذا الحديث من الفقه أنه لا يجوز أن يتمنى الموت أحدٌ من أجل ضيق نزل به، لأن طلبه الموت فرار من قدر الله)[1].

وقال النووي: (فيه التصريح بكراهة تمني الموت لضر نزل به من مرض أو فاقة أو محنة من عدو أو نحو ذلك من مشاق الدنيا، فأما إذا خاف ضرراً في دينه أو فتنة فيه فلا كراهة فيه لمفهوم هذا الحديث وغيره . وقد فعل هذا الثاني خلائق من السلف عند خوف الفتنة في أديانهم)[2].

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٥١/٥.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٨٥.

وقال ابن حجر: (لأن في التمني المطلق نوع اعتراض ومراغمة للقدر المحتوم... فإن وجد الضر الأخروي بأن خشي فتنة في دينه لم يدخل في النهي، ويمكن أن يؤخذ ذلك من رواية ابن حبان: "لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به في الدنيا")[١]. على أن "في" في هذا الحديث سببية: أي بسبب أمر من الدنيا[٢]. وقد ورد عن النبي ﷺ قوله: ((وإذا أردت فتنة في قوم فتوفني غير مفتون))[٣].

وقال أبو عبدالله القرطبي: (وروى عن سهل عن عبدالله التستري أنه قال: لا يتمنى الموت إلا ثلاثة: رجل جاهل بما بعد الموت أو رجل يفر من أقدار الله تعالى عليه أو مشتاق محب لله عز وجل)[٤].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: اغتنام الحياة ولحظات العمر في الاستزادة من الإحسان والتوبة والإنابة إلى الله تعالى:

إن الحياة هي دار العمل، فالعاقل من اغتنم لحظاتها وأوقاتها بالاستزادة من العمل الصالح أو التوبة من الذنوب، ولهذا نهى النبي ﷺ عن تمني الموت. وهذا واضح في قوله ﷺ: "لا يتمن أحدكم الموت إما محسناً فلعله يزداد وإما مسيئاً فلعله يستعتب"، وفي رواية أخرى: "وإنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيراً".

قال أبو عبدالله القرطبي: (قوله "لعله أن يستعتب": الاستعتاب طلب العتبى وهو الرضى، وذلك لا يحصل إلا بالتوبة والرجوع عن الذنوب، قال الجوهري: استعتب، طلب أن يعتب، تقول: استعتبته فأعتبني: أي استرضيته فأرضاني)[٥].

وقال ابن هبيرة: (ويستعتب: يستفعل من العتبى، فكأنه أشار إلى أنه حيث كان في الإساءة، فإن العتاب متوجه إليه، فلا ينبغي أن يتمنى الموت، فلعله يستعتب، اي يتوب

---

(١) صحيح ابن حبان ٢٩٦٦.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠/١٣٣ بتصرف، وانظر: التذكرة في أحوال الموتى، القرطبي ص ٤، ٥.

(٣) أخرجه الترمذي ٣٢٣٥، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٥٨٢).

(٤) التذكرة في أحوال الموتى والآخرة، القرطبي ص ٥.

(٥) المرجع السابق ٥.

إلى ربه ويعود إلى استعطاف المالك المقتدر للعبد الضعيف الجاهل)[(١)].

وقال ابن حجر: (فيه إشارة إلى أن المعنى في النهي عن تمني الموت والدعاء به هو انقطاع العمل بالموت، فإن الحياة يتسبب منها العمل، والعمل زيادة الثواب ولو لم يكن إلا استمرار التوحيد فهو أفضل الأعمال، ولا يرد على هذا أنه يجوز أن يقع الارتداد والعياذ بالله تعالى عن الإيمان، لأن ذلك نادر والأيمان بعد أن يخالط بشاشته القلوب لا يسخطه أحد، وعلى تقدير وقوع ذلك -وقد وقع لكن نادراً- فمن سبق له في علم الله خاتمة السوء فلا بد من وقوعها طال عمره أو قصر، فتعجيله لطلب الموت لا خير له فيه ... ووقع في رواية همام عن أبي هريرة عند أحمد ومسلم "وأنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيراً)[(٢)].

واستشكل بأنه قد يعمل السيئات فيزيد عمره شراً. وأجيب بأجوبة: أحدها: حمل المؤمن على الكامل وفيه بعد. والثاني: أن المؤمن بصدد أن يعمل ما يكفر ذنوبه إما من اجتناب الكبائر وإما من فعل حسنات أخر قد تقاوم بتضعيفها سيئاته. وما دام الإيمان باق فالحسنات بصدد التضعيف والسيئات بصدد التكفير. والثالث: يفيد ما أطلق في هذه الرواية بما وقع في رواية الباب من الترجي، حيث جاء بقوله "لعله" والترجي مشعر بالوقوع غالباً لا جزماً، فخرج مخرج تحسين الظن بالله وأن المحسن يرجو من الله الزيادة بأن يوفقه للزيادة من عمله الصالح وأن المسيء لا ينبغي له القنوط من رحمة الله ولا قطع رجائه. أشار إلى ذلك شيخنا (أي الحافظ العراقي) في "شرح الترمذي")[(٣)].

وقال ابن تيمية: (المؤمن دائماً في نعمة من ربه تقتضي شكراً، وفي ذنب يحتاج إلى استغفاره)[(٤)].

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٢٣٢/٨.

(٢) أخرجه مسلم ٢٦٨٢.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٣٦/١٠. وانظر: الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٥١/٥، ٢٣٢/٨.

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٣٦٩/٨.

وقال العز بن عبدالسلام: (الحرص على الحياة إن كان لإكثار الطاعات، فيا حبذا ذلك الحرص، لأن طول عمر المؤمن لا يزيده إلا خيراً، إما محسن فيستكثر، وإما مسيء فيستعتب، وإن كان لإكثار المخالفات فما أقبحه من حرص، وإن كان لنيل الشهوات المباحات، فهو شاغل عن تكثير الحسنات ورفع الدرجات)(١).

وقال ابن عثيمين: (والمؤمن يجب عليه الصبر إذا أصابته الضراء، فإذا صبر نال شيئين مهمين: الأول: تكفير الخطايا، فإن الإنسان لا يصيبه همٌّ ولا غم ولا أذى ولا شيء إلا كفّر الله به عنه حتى الشوكة يشاكها، فإنه يكفر بها عنه.

الثاني: إذا وفق لاحتساب الأجر من الله وصبر يبتغي بذلك رحمة الله، فإنه يثاب، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(٢).

أما كونه يتمنى الموت، فهذا يدل على أنه غير صابر على ما قضى الله عز وجل ولا راضٍ به، وبيّن الرسول ﷺ أنه إما أن يكون من المحسنين، فيزداد في بقاء حياته عملاً صالحاً. ومن المعلوم أن التسبيحة الواحدة في صحيفة الإنسان خير من الدنيا وما فيها، لأن الدنيا وما فيها تذهب وتزول والتسبيح والعمل الصالح يبقى. قال الله عز وجل: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾(٣) فأنت إذا بقيت ولو على أذى ولو على ضرر، فإنك ربما تزداد حسنات. وإما مسيئاً قد عمل شيئاً، فلعله يستعتب أي يطلب من الله العتبى أي الرضا والعذر، فيموت وقد تاب من سيئاته، فلا تتمن الموت لأن الأمر كله مقضيٌّ، وربما يكون في بقائك خير لك أو خير لك ولغيرك، فلا تتمن الموت، بل اصبر واحتسب، فإن الله سيجعل بعد عسر يسرا)(٤).

---

(١) شجرة المعارف والأحوال ١٢٣.

(٢) سورة الزمر، آية: ١٠.

(٣) سورة الكهف، آية: ٤٦.

(٤) شرح رياض الصالحين ١/٨٦٣-٨٦٤.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة : الصبر واحتساب الأجر عند الله تعالى لكل ما يصيب الإنسان:

إذا نزل بالمؤمن ضرٌّ، فإن عليه أن يصبر ويحتسب الأجر عند الله تعالى، وذلك واضح من قول النبي ﷺ "لا يتمن أحدكم الموت" وقوله ﷺ: "لا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ لِضُرٍّ أَصَابَهُ فَإِنْ كَانَ لا بُدَّ فَاعِلا فَلْيَقُلْ اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتْ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي وَتَوَفَّنِي إذَا كَانَتْ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي".

قال النووي: (فيه التصريح بكراهة تمنى الموت لضر نزل به من مشاق الدنيا ... وفيه أنه إن خالف ولم يصبر على حاله في بلواه بالمرض ونحوه فليقل: "اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتْ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي ...". والأفضل الصبر والسكون للقضاء)[١].

وقال ابن حجر: (وهذا يدل على أن النهى عن تمني الموت مقيد بما إذا لم يكن على هذه الصيغة، لأن في التمني المطلق نوع اعتراض ومراغمة للقدر المحتوم. وفي هذه الصورة المأمور بها نوع تفويض وتسليم للقضاء. وقوله: "فإن كان ..."، فيه ما يصرف الأمر عن حقيقته من الوجوب أو الاستحباب، ويدل على أنه لمطلق الإذن، لأن الأمر بعد الحظر لا يبقى على حقيقته)[٢].

قال عبدالله البسام: (يدل الحديث وأمثاله على وجوب الصبر وحكاه شيخ الإسلام إجماعاً، وقال: إن الثواب على المصائب معلق على الصبر عليها، وأما الرضا فمنزلة فوق الصبر، فإنه يوجب رضا الله عز وجل، والصبر حبس النفس عن الجزع، وحبس اللسان عن التشكي، وحبس الجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب ونحوها والشكوى إلى الله تعالى لا تنافي الصبر، وهي مطلوبة شرعاً مندوب إليها إجماعاً ومن شكا إلى الناس وهو في شكواه راضٍ بقضاء الله لم يكن ذلك جزعاً وجاز)[٣].

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٨٥.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١/١٣٢.

(٣) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٢/٤٦٨.

وقال السعدي في شرحه لحديث الباب: (هذا نهي عن تمني الموت للضر الذي ينزل بالعبد، من مرضٍ أو فقر أو خَوْف أو وقوع في شدة ومهلكة أو نحوها من الأشياء، فإن في تمني الموت لذلك مفاسد منها: أنه يؤذن بالتسخط والتضجر من الحالة التي أصيب بها، وهو مأمور بالصبر والقيام بوظيفته والصبر ينافي ذلك.

ومنها أنه يضعف النفس ويحدث الخور والكسل ويوقع في اليأس. والمطلوب من العبد مقاومة هذه الأمور والسعي في إضعافها وتخفيفها بحسب اقتداره، وأن يكون معه من قوة القلب وقوة الطمع في زوال ما نزل به. وذلك موجب لأمرين: اللطف الإلهي لمن أتى بالأسباب المأمور بها. والسعي النافع الذي يوجبه قوة القلب ورجاؤه.

ومنها أن تمنى الموت جهل وحمق، فإنه لا يدري ما يكون بعد الموت، فربما كالمستجير من الضرّ إلى ما هو أفظع منه، من عذاب البرزخ وأهواله.

ومنها أن الموت يقطع على العبد الأعمال الصالحة التي هو بصدد فعلها والقيام بها، وبقية عمر المؤمن لا قيمة له، فكيف يتمنى انقطاع عملٍ، الذرة منه خيرٌ من الدنيا وما عليها؟! وخصّ من هذا العموم قيامه بالصبر على الضرّ الذي أصابه، فإن الله يوفي الصابرين أجرهم بغير حساب)[1].

رابعًا- من مهام الداعية: توجيه المدعو وإرشاده إلى ما ينبغي عليه فعله عند الشدائد:

إن الداعية بما عنده من علمٍ يوجه المدعوين ويرشدهم إلى ما ينبغي عليهم فعله عند الشدائد والمصائب، وقد نهى النبي ﷺ عن تمني الموت بسبب ضر دنيوي فإنه كان لابد من تمني الموت فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي.

قال عبدالله البسام: (هذا هو الرخصة، ذلك أن الدنيا دار ممر والأخرى هي المقر، فلا يعلم المبتلى في بدنه أو ماله أو جاهه أو غير ذلك أن ذلك خير له في أخراه إذا صبر واحتسب... فهذا الدعاء لمن أراد تمني الموت تفويض الأمر إلى الله تعالى، فهو جلّ وعلا الذي يعلم مصالح العبد وما هو أولى به في الحياة أو الموت)[2].

---

(١) بهجة قلوب الأبرار للسعدي ص ٢٥١-٢٥٢، نقلاً عن الدعاء مفهومه وأحكامه ص ٧٠-٧١.

(٢) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٤٦٧/٢ - ٤٦٨.

ومن هذا القبيل ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه قال: مر النبي صلى الله عليه وسلم على امرأة تبكي عند قبر، فقال: اتقي الله واصبري، فقالت إليك عني، فإنك لم تصب بمصيبتي ولم تعرفه فقيل لها: إنه النبي صلى الله عليه وسلم فأتت باب النبي صلى الله عليه وسلم فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم أعرفك، فقال: إنما الصبر عند الصدمة الأولى"(١).

ومن هذا القبيل أيضاً ما رواه عطاء بن أبي رباح، قال: قال لي ابن عباس رضي الله عنهما: ((ألا أُرِيكَ امرأةً من أهل الجنة؟ قلت: بَلى. قال: هذهِ المرأة السوداءُ أتتِ النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقالت: إني أُصرَعُ وإني أتكشَّفُ، فادعُ اللّه لي. قال: إن شِئتِ صَبرتِ ولكِ الجنة، وإن شِئتِ دَعَوتُ اللّه أن يُعافِيكِ. فقالت: أصبرُ. فقالت: إني أتكشفُ، فادعُ اللّه لي أن لا أتكشفَ، فدعا لها))(٢).

قال ابن حجر: (في الحديث فضل من يصرع، وأن الصبر على بلايا الدنيا يورث الجنة، وأن الأخذ بالشدة، أفضل من الأخذ بالرخصة لمن علم من نفسه الطاقة ولم يضعف عن التزام الشدة)(٣).

وقد قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه: بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة، في العسر واليسر والمنشط والمكره وعلى أثرة علينا وعلى ألا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله تعالى فيه برهان، وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم)(٤).

خامساً- من أساليب الدعوة: الترغيب والتوكيد والقصر:

الترغيب في قول النبي صلى الله عليه وسلم: (لا يتمن أحدكم الموت إما محسناً فلعله يزداد وإما مسيئاً فلعله يستعتب). فقد رغب صلى الله عليه وسلم في عدم تمني الموت، نظراً لما في ذلك من خير للمسلم وقد أكّد هذا الترغيب بالتوكيد، "إنه إذا مات انقطع عمله"، وزاده توكيداً بأسلوب القصر: "وإنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيراً".

---

(١) أخرجه البخاري ١٢٨٣، ومسلم ٩٢٦.

(٢) أخرجه البخاري ٥٦٥٢، ومسلم ٢٥٧٦.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠/١٢٠.

(٤) أخرجه البخاري ٧١٩٩، ٧٢٠٠، ومسلم ١٧٠٩.

الحديث رقم (٥٨٦)

٥٨٦- وعن أنسٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ: ((لاَ يَتَمَنَّيَنَّ أحَدُكُمُ المَوْتَ لِضُرٍّ أصَابَهُ، فَإنْ كَانَ لاَ بُدَّ فَاعِلاً، فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ أحْيني مَا كَانَتِ الحَيَاةُ خَيْراً لي، وَتَوَفَّنِي إذَا كَانَت الوَفَاةُ خَيراً لي)) متفقٌ عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

الشرح الأدبي

هذا الحديث في معنى سابقه من حيث الموضوع مع اختلاف بسيط في المعنى، وفي الأسلوب حيث جاء الفعل المنهي عليه مؤكدا تشديدا في النهي، وذكر العلة الباعثة على تمني الموت (لضر أصابه) وقد وضع له علاجا نفسيا يستل من نفسه هذا الشعور اليائس، وهو حمل الأمر في الدعاء على علم الله بالخير الراجح في الحياة أو في الممات وقد صاغ المعنى في ثوب الشرط الذي يعلق الجزاء على الفعل، وقد استخدم أداة الشرط (إن) الدالة على عدم تحقق الشرط؛ لأن إقدام المسلم على هذا الأمر مستبعد لخوفه من الله، وقوله (لا بد) يشير إلى الاضطرار، والتعبير باسم الفاعل الدال على الثبوت، والدوام يؤكده، ويشير إلى أنه ليس له فكاك مما هو فيه إلا بالموت، وقوله (فليقل) أمر في جواب الشرط للتوجيه، والإرشاد إلى القول الذي يرضي الله تعالى ولا يخرج به إلى الحد المنهي عنه، وقوله (اللَّهُمَّ أحْيني مَا كَانَتِ الحَيَاةُ خَيْراً لي، وَتَوَفَّنِي إذَا كَانَت الوَفَاةُ خَيراً لي) وهو حمل للدعاء على ما في علم الله من الخير العاجل، والآجل، وتفويض له لا يخرج عن سمت الإيمان، وهو علاج نفسي يقرب العبد من ربه.

المضامين الدعوية[2]

---

(١) أخرجه البخاري ٥٦٧١ واللفظ له، ومسلم ١٠/٢٦٨٠، أورده المنذري في ترغيبه ٤٩٣٣. وتقدم برقم ٤٠.

(٢) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (٤٠).

الحديث رقم (٥٨٧)

٥٨٧- وعن قيسِ بن أَبي حازم، قَالَ: دَخَلْنَا عَلَى خَبَّاب (بن الأرَتِّ) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ نَعُودُهُ وَقَدِ اكْتَوَى سَبْعَ كَيَّاتٍ، فَقَالَ: إنَّ أَصْحَابَنَا الَّذِينَ سَلَفُوا مَضَوْا، وَلَمْ تَنْقُصْهُمُ الدُّنْيَا، وَإنَّا أصَبْنَا مَا لاَ نَجِدُ لَهُ مَوْضِعاً إلاَّ التُّرَابَ، وَلولا أنَّ النبي ﷺ نَهَانَا أنْ نَدْعُوَ بالمَوْتِ لَدَعَوْتُ بِهِ. ثُمَّ أتَيْنَاهُ مَرَّةً أُخْرَى، وَهُوَ يَبْنِي حَائِطاً لَهُ، فَقَالَ: إنَّ المُسْلِمَ لَيُؤْجَرُ فِي كُلِّ شَيْءٍ يُنْفِقُهُ إلاَّ فِي شَيْءٍ يَجْعَلُهُ فِي هَذَا التُّرَابِ. متفقٌ عَلَيْهِ[1]، وهذا لفظ رواية البخاري.

ترجمة الراوي:

خباب بن الأرت: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤١).

غريب الألفاظ:

سلفوا: تقدموا وسبقوا[2].

مضوا: ماتوا[3].

لم تنقصهم الدنيا: أي لم تنقص أجورهم بمعنى أنهم لم يتعجلوها في الدنيا بل بقيت موفرة لهم في الآخرة[4].

وإنا أصبنا ما لا نجد له موضعاً إلا التراب: أي الإنفاق في البنيان أو ما أصابوه من المال[5].

الشرح الأدبي

الحديث يروي قصة عملية في الصبر على قضاء الله في المرض عن خباب بن الأرت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقول الراوي (نعوده) يشير إلى أنهم مجموعة كما أن التعبير بالعيادة يشير إلى

---

(١) أخرجه البخاري ٥٦٧٢ واللفظ له، ومسلم ٢٦٨١/١٢ مختصرًا. أورده المنذري في ترغيبه ٢٧٩٩ من رواية الترمذي.

(٢) الوسيط، مجمع اللغة العربية في (س ل ف).

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٣٤/١٠.

(٤) المرجع السابق.

(٥) المرجع السابق، وانظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٨٦١.

معنى التكرار، والتفقد، وقوله (وَقَدِ اكْتَوَى سَبْعَ كَيَّاتٍ) يشير إلى مدى المعاناة التي عاناها هذا الصحابي في مرضه والتي أكدها الجناس بين قوله اكتوى، وكيات، وقوله (إِنَّ أَصْحَابَنَا الَّذِينَ سَلَفُوا مَضَوْا، وَلَمْ تَنْقُصْهُمُ الدُّنْيَا) يقصد بهم الصحابة، وما لاقوا في عهد النبي ﷺ من شدة، وعناء وفقر، وأنهم لم يتمتعوا كما تمتعوا هم بعد الفتوحات وقوله (وَإِنَّا أَصَبْنَا مَا لاَ نَجِدُ لَهُ مَوْضِعاً إِلاَّ التُّرَابَ) كناية عن كثرة المال، والمقصود بالتراب البناء، وقوله (وَلولا أَنَّ النبي ﷺ نَهَانَا أَنْ نَدْعُوَ بِالمَوْتِ لَدَعَوْتُ بِهِ) لولا حرف امتناع لوجود أي امتناع التمني لوجود النهي، والعبارة تعكس ما هو فيه من عناء وتعب، مع خوفه من الانشغال بالدنيا، وقول الراوي (ثُمَّ أَتَيْنَاهُ مَرَّةً أُخْرَى وَهُوَ يَبْنِي حَائِطاً لَهُ) التعبير بثم يشير إلى فترة زمنية فرقت بين الزيارة الأولى، والثانية، وبين قوله ندعوا، وقوله لدعوت جناس يؤكد المعنى المراد ويقرر وقوفه عند نهي رسول الله ﷺ، وعدم تخطيه وقوله (إِنَّ المُسْلِمَ لَيُؤْجَرُ فِي كُلِّ شَيْءٍ يُنْفِقُهُ إِلاَّ فِي شَيْءٍ يَجْعَلُهُ فِي هَذَا التُّرَابِ) أكد الكلام بكثير من المؤكدات لتعظيم الخبر، وصرف المخاطبين للعناية به، والعبارة تقرر أن المؤمن لا يؤجر في البناء الزائد عن الحاجة بينما يؤجر في كل نفقة ينفقها في غيره.

فقه الحديث

٢-حكم التداوي بالكي: اختلف الفقهاء في حكم التداوي بالكي بالنار، فذهب الجمهور إلى جواز ذلك إذا دعت إليه حاجة أو ضرورة، وكان يقول أهل الخبرة بينما ذهب المالكية في قول ورواية عن الحنابلة إلى كراهة ذلك، لأن الكي فيه تعذيب بالنار، ولا يعذب بالنار إلا رب النار تبارك وتعالى[1].

(١) شرح معاني الآثار ٤٨٢/٥ وما بعدها، وحاشية الصاوي ٢٩٨/٤، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد الأنصاري ٢٤١/٥، والفروع، ابن مفلح ١٧٧/٣. وانظر الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١١٨/١١.

المضامين الدعوية

ثانياً: من موضوعات الدعوة: بيان حال الصحابة رضي الله عنهم ممن ماتوا ولم يدركوا حظاً من الدنيا، ومن عاشوا وأدركوا حظهم منها.

ثالثاً: من آداب المدعو: عدم الدعاء بما نهى النبي صلى الله عليه وسلم من الدعاء به.

أولاً- من موضوعات الدعوة: عيادة المريض:

عيادة المريض من الآداب التي حضّ عليها الإسلام، وحثّ أتباعه على التخلق بها، ولهذا كان الصحابة رضي الله عنهم والتابعون يكثرون من عيادة المريض. يتضح هذا في قول التابعي: "دخلنا على خباب بن الأرت رضي الله عنه نعوده وقد اكتوى سبع كيات. وكذلك قوله: "ثم أتيناه مرة أخرى وهو يبني حائطاً له".

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يعود المرضى ويأمر الصحابة رضي الله عنهم بذلك؛ لأن عيادة المريض من الآداب الإسلامية التي ينبغي للمؤمن أن يحرص عليها.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما: "أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل على أعرابي يعوده قال: وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا دخل على مريض يعوده قال له: لا بأس، طهور إن شاء الله"[(١)].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: أطعموا الجائع وعودوا المريض وفكوا العاني[(٢)].

وقال البراء بن عازب رضي الله عنهما: ((أَمَرَنَا رَسُولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم بِسَبْعٍ . وَنَهَانَا عَنْ سَبْعٍ. أَمَرَنَا بِعِيَادَةِ الْمَرِيضِ، وَاتِّبَاعِ الْجَنَازَةِ))[(٣)].

وبوب البخاري على هذين الحديثين الأخيرين: باب وجوب عيادة المريض[(٤)]، وقال ابن حجر: (كذا جزم بالوجوب على ظاهر الأمر بالعيادة، وتقدم حديث أبي هريرة في الجنائز: حق المسلم على المسلم خمس[(٥)]، فذكر منها عيادة المريض، ووقع في رواية

---

(١) أخرجه البخاري ٥٦٥٦.

(٢) أخرجه البخاري ٥٦٤٩.

(٣) أخرجه البخاري ٥٦٥٠، ومسلم ٢٠٦٦.

(٤) من كتاب المرضى رقم ٧٥ والباب برقم ٤.

(٥) أخرجه البخاري ١٢٤٠، ومسلم ٢١٦٢.

مسلم "خمس تجب للمسلم على المسلم"[١] فذكرها منها. قال ابن بطال: يحتمل أن يكون الأمر على الوجوب بمعنى الكفاية كإطعام الجائع وفك الأسير، ويحتمل أن يكون للندب للحث على التواصل والألفة ... وقال الجمهور: هي في الأصل ندب، وقد تصل إلى الوجوب في حق بعض دون بعض ويلتحق بعيادة المريض تعهده وتفقد أحواله والتلطف به، وربما كان ذلك في العادة سبباً لوجود نشاطه وانتعاش قوته)[٢].

وقال ابن القيم: (وقد شاهد الناس كثيراً من المرضى تنتعش قواه بعيادة من يحبونه ويعظمونه ورؤيتهم لهم ولطفهم بهم ومكالمتهم إياهم، وهذا أحد فوائد عيادة المرضى التي تتعلق بهم، فإن فيها أربعة أنواع من الفوائد: نوع يرجع إلى المريض ونوع يعود على العائد ونوع يعود على أهل المريض، ونوع يعود على العامة)[٣].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: بيان حال الصحابة رضي الله عنهم ممن ماتوا ولم يدركوا حظاً من الدنيا، ومن عاشوا وأدركوا حظهم منها:

قال ابن حجر: (قوله "إن أصحابنا الذين سلفوا مضوا ولم تنقصهم الدنيا، زاد في الرقاق[٤]: "شيئاً" أي لم تنقص أجورهم، بمعنى أنهم لم يتعجلوها في الدنيا بل بقيت مؤخرة لهم في الآخرة، وكأنه عنى بأصحابه بعض الصحابة رضي الله عنهم ممن مات في حياة النبي ﷺ. فأما من عاش بعده فإنهم اتسعت لهم الفتوح، ويؤيده حديثه الآخر ((هاجرنا مع رسول الله ﷺ فوقع أجرنا على الله، فمنا من مضى لم يأكل من أجره شيئاً منهم مصعب بن عمير، قُتلَ يومَ أحُدٍ وتركَ نَمِرَةً، فكُنَّا إذا غطَّينا بها رأسَهُ بَدَتْ رِجلاهُ، وإذا غطَّينا رجلَيهِ بدا رأسُه، فأمَرَنا رسولُ اللَّهُ ﷺ أن نُغطي رأسَهُ ونجعلَ على رجلَيهِ شيئاً من إذخِر. ومِنَّا مَن أينَعَت له ثمرَتهُ فهوَ يَهدِبُها))[٥].

---

(١) صحيح مسلم ٤-٢١٦٢.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١٧/١٠، ١١٨.

(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم ١١٦/٤.

(٤) أي البخاري في كتاب الرقاق ٦٤٣١.

(٥) يهدبها: أي يجتنيها، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٦٠٥، والحديث أخرجه البخاري ١٢٧٦، وفي مواضع أخرى، ومسلم ٩٤٠.

ويحتمل أن يكون عنى جميع من مات قبله، وأن من اتسعت له الدنيا لم تؤثر فيه إما لكثرة إخراجهم المال في وجوه البر، وكان من يحتاج إليه إذ ذاك كثيراً فكانت تقع لهم الموقع، ثم لما اتسع الحال جداً وشمل العدل في زمن الخلفاء الراشدين استغنى الناس بحيث صار الغني لا يجد محتاجاً يضع برّه فيه، ولهذا قال خباب "وإن أصبنا ما لا نجد له موضعاً إلا التراب" أي الإنفاق في البنيان[(١)].

ثالثاً- من آداب المدعو: عدم الدعاء بما نهى النبي ﷺ من الدعاء به:

إن من آداب المدعو أن يتأسى بالنبي ﷺ ويقتدي به، في صلاته وصومه وحجه ودعائه ونحو ذلك، وهذا ما التزم به الصحابة رضي الله عنهم، وهم خير القرون، وهذا واضح في قول خباب: "ولولا أن النبي ﷺ نهانا أن ندعو بالموت لدعوت به".

قال عبدالله البسام: (يكره تمني الموت خشية الوقوع في محنة دنيوية أو خوف من عدو أو مرض نزل به أو فاقة حلّت به و نحو ذلك من مشاق الدنيا. والحكمة في هذا أنه منافٍ للصبر الذي أمرنا به. ووعدنا عليه الأجر العظيم، ولأنه يدل على الجزع وعدم الثبات والاحتساب على قضاء الله تعالى. فإن كان غير صابر ولا بد من الدعاء فليقل: "اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً وتوفني ما كانت الوفاة خيراً لي")[(٢)].

قال ابن القيم: (قال الفضيل بن عياض: العمل الحسن هو أخلصه وأصوبه، قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً -لم يقبل. وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً. والخالص ما كان لله، والصواب ما كان على السنة. وهذا هو المذكور في قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[(٣)]، وفي قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾[(٤)]، فلا يقبل الله من العمل إلا ما كان

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٣٤/١٠، وانظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني كذلك ٢٨٣/١١.

(٢) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٤٦٧/٢.

(٣) سورة الكهف، آية: ١١٠.

(٤) سورة النساء، آية: ١٢٥.

خالصاً لوجهه على متابعة أمره، وما عدا ذلك فهو مردود على عامله، يرد عليه أحوج ما هو إليه، هباءً منثوراً. وفي الصحيح من حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم "كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد"[1] وكل عمل بلا اقتداء فإنه لا يزيد عامله من الله إلا بعداً، فإن الله تعالى إنما يعبد بأمره لا بالآراء والأهواء[2].

رابعاً- من مهام الداعية : بيان الحقائق للمدعوين:

إن من مهام الداعية أن يبين الحقائق للمدعوين حتى يتصرفوا في ضوء هذه الحقائق فيأتي عملهم موافقاً للصواب مبتعداً عن الخطأ ومجانباً له، وقد بيّن خباب بن الأرت رضي الله عنه هذا، فقال: "إن المسلم ليؤجر في كل شيء ينفقه إلا في شيء يجعله في هذا التراب" قال ابن حجر: (أي الذي يوضع في البنيان، وهو محمول على ما زاد على الحاجة)[3].

قال ابن عثيمين: (المال الذي يجعل في البناء لا يؤجر الإنسان عليه، اللهم إلا بناء يجعله للفقراء يسكنونه أو يجعل غلته في سبيل الله أو ما أشبه ذلك، فهذا يؤجر عليه، لكن بناء يسكنه هذا ليس فيه أجر، بل ربما إذا زاد الإنسان فيه حصل له وزر مثل ما يفعل بعض الفقراء الآن. الآن عندنا فقراء يستدين الإنسان منهم إلى عشر سنين أو خمسة عشر وإن طال الأجل إلى عشرين سنة، من أجل أن يرصع بنيانه بالأحجار الجميلة ومن أجل أن يضع له أقواساً أو شرفات وهو مسكين يعمل هذا العمل المنهي ويستدين على نفسه الديون الكثيرة. وأما البنيان الذي يكون على حسب العادة، وليس فيه تفاخر ولا سرف ولا استدانة من أحد، فهذا لا بأس به وليس فيه إثم إن شاء الله)[4].

---

(١) أخرجه البخاري ٢٦٩٧، ومسلم ١٧١٨.

(٢) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ١/١٧٦ وانظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٥/٢٠٥. والذكر والدعاء والعلاج بالرقى من الكتاب والسنة، د. سعيد بن علي بن وهف القحطاني ص ٨٩٤ – ٨٩٥.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠/١٣٥.

(٤) شرح رياض الصالحين ١/٨٦٦.

وقد قال عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: ((مَرَّ بي رَسُولُ الله ﷺ وَأَنَا أُطَيِّنُ حَائِطاً لِي أَنَا وَأُمِّي فقَالَ: مَا هذَا يَا عَبْدَ الله؟ فقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله شَيْءٌ أُصْلِحُهُ، فقَالَ: الأمْرُ أَسْرَعُ مِنْ ذَاكَ))[1].

وأخرج ابن حبان هذا الحديث في صحيحه وجعله تحت عنوان: ذكر الزجر عن أن يطول المرء أمله في عمارة هذه الدنيا الزائلة الفانية"[2]. وقال ابن حجر: " وهذا كله محمول على ما لا تمس الحاجة إليه مما لا بد منه للتوطن وما يقي البرد والحر، وقد أخرج أبو داود[3] أيضاً من حديث أنس رفعه "أما إن كل بناء وبال على صاحبه إلا ما لا، إلا ما لا" أي إلا ما لا بد منه"[4].

ومن قبيل بيان الداعية الحقائق للمدعوين ما رواه المستور بن شداد قال: «كُنْتُ مَعَ الرَّكْبِ الذِينَ وَقَفُوا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ عَلَى السَّخْلَةِ المَيِّتَةِ، فقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: ((أَتَرَوْنَ هَذِهِ هَانَتْ عَلَى أَهْلِهَا حِينَ أَلْقَوْهَا؟ قَالُوا: مِنْ هَوَانِهَا أَلْقَوْهَا يَا رَسُولَ الله، قَالَ: فالدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى الله مِنْ هَذِهِ عَلَى أَهْلِهَا))[5].

---

(١) أخرجه أبو داود ٥٢٣٥، والترمذي ٢٣٣٥، وابن ماجه ٤١٦٠، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤٣٩١).

(٢) أخرجه ابن حبان ٢٩٩٦، وقال محققه: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٣) أخرجه أبو داود ٥٢٣٧، وصححه الألباني (السلسلة الصحيحة ٢٨٣٠) وكان قد ضعّفه في السلسلة الضعيفة ١٧٦، لكنّه انتهى إلى تصحيحه آخر الأمرين.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٩٥/١١.

(٥) أخرجه الترمذي ٢٣٢١، وابن ماجه ٤١١١، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٣٣١٩).

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

أولاً- تربية النفس على تحمل المكاره:

يأتي هذا الباب في بيان كراهة تمني الموت بسبب ضر نزل بالإنسان، وإن من أهم أهداف التربية الإسلامية تربية النفس على تحمل المكاره والصمود أمامها، وأن يعلم المتربي أن الحياة تسير بين عسر ويسر وشدة ورخاء، فلابد من توطين النفس على ذلك، "ومن هديه ﷺ أنه كان يربي الصحابة على الصبر على البلاء، ويعلمهم أن الابتلاء سُنَّةٌ ماضية، وأن أصحاب الدعوات لابد أن يبتلوا، فإذا صبروا واحتسبوا كانت لهم العاقبة في الدنيا والآخرة"[(١)].

ومن أحاديث الباب التي تؤكد هذا المعنى ما جاء في قوله ﷺ: «لا يَتَمَنَّى أَحَدُكُمُ المَوْتَ لِضُرٍّ أَصَابَهُ، فإنْ كانَ لا بُدَّ فاعِلاً فَلْيَقُلْ، اللّهُمَّ أَحْيني ما كانَتِ الحيَاةُ خَيْرًا لي، وَتَوَفَّني إذا كانَتِ الوفاةُ خَيْرًا لي».

"إن من أبرز مؤشرات التكيف السوي والصحة النفسية السوية هو قدرة الفرد على الصبر والصمود أمام الشدائد والأزمات، فالفرد يتعرض خلال مسيرته في سبيل تحقيق أهدافه ومطامحه، وإشباع حاجاته إلى كثير من الصعوبات، وقد يجد نفسه أمام مشكلات عسيرة الحل، أو يتعرض لأزمات مالية كأن يفقد ثروته أو بيته، أو بعض ممتلكاته أو يفقد عزيزًا أو صديقًا حميمًا، إن هذه المواقف صعبة يحتاج فيها المرء إلى كثير من الاتزان الانفعالي الذي يمكنه من مواجهة المواقف وتخطي الصعوبات والأزمات، لذلك نرى أن الله سبحانه وتعالى قد وعد الصابرين بمكانة عالية في الجنة لأن الصبر من بين أحسن الخصال التي ينبغي على المؤمن أن يتحلى بها، والفرد الذي لا يملك القدرة على التذرع بالصبر تجده يعاني من القلق والتذمر والشكوى لمجرد مواجهته أية صعوبة أو مشكلة"[(٢)].

---

(١) التربية على منهج أهل السنة والجماعة، أحمد فريد، ص٢٨٦.

(٢) مبادئ الصحة النفسية، د. محمد خالد الطحان ص١٨٦.

ثانيًا- أهمية التربية الصحية:

إن من أهداف التربية الإسلامية التربية الصحية للمتربي، وهي تتحقق بالاعتناء بالجسد والصحة العامة، والتداوي من المرض، وقد ورد في أحاديث الباب ما يبين اهتمام الصحابة رضي الله عنهم بالتداوي، فعن قيس بن أبي حازم قال: "دَخَلْنَا عَلَىٰ خَبَّابٍ وَقَدِ اكْتَوَىٰ سَبْعَ كَيَّاتٍ ..."، ولاشك أن الكي وسيلة من وسائل التداوي في عهدهم.

"وتكون تربية الجسد برعايته صحيًا، فالصحة قِيمة من القيم الإنسانية الأساسية، والعمل على ترقية الصحة الطيبة التزام من الالتزامات الخلقية الأساسية، والقيمة الخلقية لصحة الجسد والمحافظة عليه ترتبط بواجب وتكامل الأشخاص تكاملاً يجعل طاقاتهم الإنسانية تعمل وتتآزر إلى أقصى حد في توافق تام مع طبائعهم السليمة. وتهدف التربية الصحية إلى تنمية الثقة بالعلاج والدواء والاعتماد عليه، وتهدف إلى إعطاء الإنسان مقدرة على الوقاية من الأمراض والمعيشة الصحية والفهم الجيد لاستخدام الوسائل والخدمات الصحية"[(١)].

ثالثًا- التربية على الأمل في الحياة وعدم اليأس:

"إن تقوية الإرادة لا يمكن أن تتحقق بمجرد قرار يتخذه الفرد في نفسه، ولا يمكن أن نغرسه في نفوس أبنائنا بمجرد توجيه أو أمر نصدره إليهم فلابدَّ من تعويد وتدريب للنفس حتى يصبح هذا السلوك سلوكًا طبيعيًا للنفس تؤديه بتلقائية، ومما يعين على ذلك غرس الثقة في النفس؛ فنظرة الإنسان لنفسه تمثل عاملاً مهمًا في حفزه على العمل ورفع همته إليه، ومن ثَمَّ كان للثقة بالنفس أثرها الفعال في قوة الإرادة، فالواثق بنفسه هو الذي يتطلع للنجاح ويتجه للعمل خلافًا للمحبط واليائس. وشعور الإنسان بجوانب من النجاح في حياته، والتعامل مع الخطأ بحكمة مما يعزز ثقته بنفسه ويقوي إرادته"[(٢)].

وقد حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على غرس الأمل ونهى عن اليأس من الحياة وبين أن رأس المال الحقيقي هو عمر الإنسان، وعلى الإنسان أن لا يتعجل فناء عمره، بل يغتنم الوقت ويعبد ربه ويزداد.

---

(١) فلسفة التربية الإسلامية في الحديث الشريف، د. عبدالجواد سيد بكر، ص٢٧٦، ٢٧٧ بتصرف.

(٢) انظر: تربية الشباب "الأهداف والوسائل"، محمد بن عبدالله الدويش، ص٢٣١، ٢٣٢.

فأما خير الدنيا الذي غاب عن كثيرين ففي كونها دار عبادة ودار زيادة في العبادة ودار توبة ودار ابتلاء ودار نماء للحسنات وهي دار الزراعة ومن جنس الزرع يكون الحصاد، مراجعة النفس فيها ممكنة والإقلاع عن الذنوب، بل واستبدالها بالحسنات ممكن، قال تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[(١)].

وأما الفئة الأخرى فإنها تبكي على الدنيا ويتمنون العود إليها من لحظة الاحتضار، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[(٢)]، ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾[(٣)].

إن رسول الله ﷺ قد أذن له أن يفرج عن نفسه بكلمات فيها دلائل الإيمان، وذلك بتفويض الأمر لله تعالى ليختار للإنسان ما فيه الخير، وذلك بدعائه ربه بهذا الدعاء: ((اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي))[(٤)]، فلا جزع ولا تبرم بالقضاء ولا رفض له، بل تفويض وتسليم.

ولهذا كان أصحاب رسول الله ﷺ يكفون عن تمني الموت، مهما كان المرض الذي أصابهم أو الألم الذي نزل بهم، وها هو خباب بن الأرتّ رضي الله عنه يعالج بالكي سبع مرات ولا يُقْدم على تمني الموت أو طلبه، ويذكر علة عدم تمني الموت في كونه متبعًا لسنة الرسول ﷺ والذي نهى عن تمني الموت.

رابعًا- التربية على التزام سنة النبي ﷺ:

وهذا واضح من قول خباب بن الأرتّ رضي الله عنه: ((ولولا أن النبي ﷺ نهانا أن ندعو

---

(١) سورة الفرقان، آية: ٧٠.

(٢) سورة المؤمنون، الآيتان: ٩٩، ١٠٠.

(٣) سورة فاطر، آية: ٣٧.

(٤) أخرجه البخاري ٥٣٤٧، ومسلم ٢٦٨٠.

بالموت لدعوت به))، فإنه كان يريد أن يقدم على الدعاء بالموت، ولكن ما منعه وحجزه عن ذلك هو نهي النبي ﷺ عن الدعاء بالموت، وعلى ذلك ينبغي أن يتربى الناشئة والكبار على التزام سنة النبي ﷺ فما أمر به فعلوه وما نهى عنه اجتنبوه ودافعوا عنه، ولم يكتفوا بذلك فحسب وإنما بالدعوة إلى ذلك أيضًا بكل طريق ممكن وعلى سبيل متاح، وبيان أن في ذلك الصلاح والنفع للبشرية جمعاء، لأنه ﷺ ما جاء إلا ليرشد الناس إلى ما فيه نفعهم وخيرهم وينهاهم عما فيه ضررهم ومفسدتهم.

٦٨- باب الورع وترك الشبهات

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾[النور: ١٥]، وقال تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾[الفجر: ١٤].

الحديث رقم (٥٨٨)

٥٨٨- وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما، قَالَ: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ، يقول: **((إنَّ الحَلاَلَ بَيِّنٌ، وَإنَّ الحَرامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبَهَاتٌ لاَ يَعْلَمُهُنَّ كَثيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ، اسْتَبْرَأَ لِدِينهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى يُوشِكُ أنْ يَرْتَعَ فِيهِ، ألاَ وَإنَّ لكُلِّ مَلِكٍ حِمَىً، ألاَ وَإنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ، ألاَ وَإنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَت صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، ألاَ وَهِيَ القَلْبُ))** متفقٌ عَلَيْهِ[1]، وروياه مِنْ طرقٍ بألفَاظٍ متقاربةٍ.

ترجمة الراوي:

النعمان بن بشير: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٦٠).

غريب الألفاظ:

مشتبهات: التبس أمرهما فلا يدري أحلال أم حرام[2].

استبرأ: أي حصل له البراءة لدينه من الذم الشرعي وصان عرضه عن كلام الناس فيه[3].

عرضه: جانبه الذي يصونُه من نفسه وحسبه ويُحامي عنه أن يُنتقص ويُعاب[4].

يرتع فيه: يرعى فيه. وفي رواية عند البخاري (٥٢): كراع يرعى حول الحمى يوشك

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٠٧/١٥٩٩) واللفظ له. أورده المنذري في ترغيبه (٢٥٨٥).

(٢) الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ش ب هـ).

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص (١٠١٣).

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ع ر ض).

أن يواقعه[١].

الحمى: الموضع فيه كلأ يُحمى من الناس[٢].

مضغة: قطعة من اللحم[٣].

الشرح الأدبي

بدأ الحديث بأسلوب خبري يتسم بالهدوء والثقة خال من المؤكدات لأن المقام لخالي الذهن؛ ولأنه يقرر حقيقة من الظهور بمكان، بحيث لا يُتوقع لها منكر، وهي قضية ظهور الحلال وظهور الحرام، أيضاً بداية الحديث بجملة اسمية أعطت قضية ظهور الحلال وظهور الحرام ثباتاً دائماً حاصل ما تفيده الجملة الاسمية في قوله: (الحلال بين، والحرام بين)، واستخدم لفظ (بَيِّن) كمسند ولفظ (الحلال) كمسند إليه ثم تكرار لفظ (بيّن) مع كل جملة تأكيد للمعنى وتحقيق للاستقلالية في بيان كل من النقيضين مع ما أضافته المقابلة بين لفظ (الحلال) ولفظ (الحرام) من تأكيد للمعنى وتقريره، وقد وصل بين الجملتين؛ لأن بينهما مناسبة تامة في المعنى لاتفاقهما في الخبرية، وقوله: (وبينهما أمور مشبهات لا يعلمها كثير من الناس) الظرف (بين) المضاف للضمير المثنى العائد على الحلال والحرام يشير إلى مسافةٍ قد تطول، وقد تقصر بين الحلال والحرام يلفها الغموض وتخفى على كثير من الناس تستلزم الحذر هي منطقة الشبهات المحذورة، والمراد من (المشبهات): أي التي شُبِّهت بغيرها مما لم يتبين به حكمها على التعيين.[٤] وقوله: (فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه...) أسلوب شرط يربط العاقبة ويعلقها على الفعل ترغيباً في اتقاء الشبهات، وأداة الشرط (من) لعموم من يعقل، وهذا الشرط بتركيبه ينادي كل عاقل بالحذر من الشبهات والحرص على سلامة دينه وحفظ عرضه، وقوله ﷺ: (ومن وقع في

---

(١) الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ر ت ع)، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١/١٥٦.

(٢) الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ح م ى).

(٣) الوسيط، مجمع اللغة العربية في (م ض غ).

(٤) فتح الباري ١/٣٣٨.

الشبهات...) أسلوب شرط على اعتبار أن (من) شرطية ويكون جواب الشرط محذوفاً تقديره - وقع في الحرام - كما ثبت في رواية أخرى[١]، ولا يخفى أثر المطابقة بين أسلوبي الشرط في قوله: (فمن اتقى الشبهات...) وقوله (ومن وقع في الشبهات...) والتي أوضحت المعنى وقررته ووضعت الاتقاء وحسن عاقبته بإزاء الوقوع وسوء عاقبته، وتكررت (من) التي تنادي من لديه أدنى عقل ليختار فعلاً بعاقبته، وما أجمل المناسبة في المعاني والألفاظ بين فعل الشرط (اتقى) وجوابه (استبرأ)، وتعبيره في الصورة الثانية بالفعل (وقع) وجوابه المتوقع (وقع) التي توحي بالهبوط وتذكر بالهزيمة والخسران، وقوله: (كراع يراعي حول الحمى...) تشبيه تمثيلي لحال من يدخل في الشبهات بحال الراعي الذي يرعى حول المكان المحظور بحيث أنه لا يأمن من الوقوع فيه، وقيل: هو تشبيه ملفوف من حيث شبه المكلف بالراعي والنفس البهيمية بالأنعام، والمشبهات بما حول الحمى، والمحارم بالحمى، وتناول المشبهات بالرتع حول الحمى، ووجه التشبيه حصول العقاب بعدم الاحتراز عن ذلك، كما أن الراعي إذا جره رعيه حول الحمى إلى وقوعه في الحمى استحق العقاب بسبب ذلك فكذلك من أكثر من الشبهات وتعرض لمقدماتها وقع في الحرام فاستحق العقاب بسبب ذلك)[٢] قوله: (ألا وإن لكل ملك حمى) و(ألا) مفتوحة الهمزة واللام حرف استفتاح؛ وفائدة هذا الحرف توكيد مضمون الجملة كأنه مركب من همزة الإنكار، وحرف النفي، والإنكار نفي، ونفي النفي إثبات فركب الحرفان لإفادة التوكيد والتحقيق فصارا بمعنى (إن) وقد تكون حرف تنبيه إذا كان الغرض من إدخاله تنبيه المخاطب لئلا يفوت المقصود بغفلة عنه. وهي في قوله: (ألا وإن لكل ملك حمى...) حرف تنبيه على صحة ما بعدها[٣] مع ما توحي به من أهمية

---

(١) انظر: رواية الدارمى عن أبى نعيم شيخ البخارى فيه، فقال: ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعى يرعى، فتح البارى، ٢٣٠/١.

(٢) انظر: عون البارى ١٧٥/١، ١٧٨.

(٣) المجازات النبوية للشريف الرضى، تحقيق: طه محمد الزيني ص ١٢٨، ط. مؤسسة الحلبى، القاهرة، وعمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني، ٤٣٧/١.

ما يليها، وقوله: (وإن لكل ملك حمى) الواو عاطفة على كلام سابق في النفس طوته هذه الواو، وقامت دليلاً عليه، و(إن) أداة توكيد تزيد الأمر خطورة وتستبعد كل خواطر الشك وتقطع هواجس النفوس عما تسمع، وتقديم متعلق المسند وهو الجار والمجرور (لكل ملك) زيادة في الاهتمام وتربية للمهابة بذكر المضاف إليه، وتنكير كلمة (حمى) يفيد التفخيم.

قوله: (ألا إن حمى الله في أرضه محارمه) (ألا) أداة تنبيه على صحة ما بعدها، وفي إعادتها وتكريرها دليل على عظم شأن مدلولها، و(إن) حرف توكيد يعكس عناية المتكلم بالخبر واهتمامه به ورغبته في نقل هذه العناية وهذا الاهتمام إلى نفس المخاطب، وتنكير كلمة (حمى) للتفخيم وإضافتها (لله) إشعار بالجلال وتربية للمهابة إذ أن المتجرئ على هذا الحمى مرصود بعين لا تغفل ولا تنام، وقوله (ألا إن حمى الله في أرضه محارمه) استعارة تمثيلية حيث شبه المحرمات التي حرمها الله ومن يقع فيها فيستحق العقاب ومن قاربها بالدخول في الشبهات يوشك أن يقع فيها بحال حمى ملوك العرب – على عادتهم – في أنهم يحمون مراعي لمواشيها يتوعدون من يقربها، فالخائف من عقوبة السلطان يبعد بماشيته خوف الوقوع وغير الخائف يقرب منها ويرعى في جوانبها، فلا يأمن من أن يقع فيها من غير اختياره فيعاقب على ذلك[1] فاستعار الحالة الثانية للأولى بجامع استحقاق العقاب بسبب تفريط أو غفلة في ارتكاب محظور في كلٍ.

وهذه الاستعارة التمثيلية التي تصوّر المحرمات بحصن لملك ذي مهابة محاط بحرس لا يغفل تتخطف كل من تجرأ عليه أو حاول الاقتراب منه، تلك الحالة النفسية التي تبنيها العبارة النبوية في وجدان المخاطبين تصبح وتمسي سداً منيعاً بينهم وبين مواقعة حدود الله، ثم تناول الحديث عن القلب، ولعل حديث الرسول ﷺ عن القلب إثر حديثه عن حدود الله؛ لأن القلوب محل استقبال الأمر الإلهي ومنها صدور ردود الأفعال سلباً، أو إيجاباً، وهي محل النزاع بين الخير والشر وموطن الصراع بين الأهواء وتجاذب

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني ١/٤٣٨.

الرغبات ومنبت الأحلام والآمال، وقوله: (ألا وإن في الجسد مضغة...) (ألا) أداة تنبيه – كما سبق وأشرنا – تشير إلى أهمية ما يليها، وتكرارها في الحديث يؤكد هذه الأهمية وينادي بضرورة اليقظة والوعي من المخاطبين، وقوله (وإن) الواو عاطفة على كلام مقدر ووجه ذكر الواو في قوله: (ألا وإن في الجسد مضغة) بالنظر إلى وجود المناسبة بين جملتين نظراً إلى أن الأصل في الاتقاء والوقوع هو ما كان بالقلب؛ لأنه عماد الأمر وملاكه، وبه قوامه ونظامه وعليه تبنى فروعه وبه تتم أصوله، وتقديم الجار والمجرور (في الجسد) يفيد التخصيص إشارة إلى أنه ظرف حاو للقلب والمظروف دائماً أثمن من الظرف وتنكير كلمة: (مضغة) للتقليل، والكلام تعجيب من حال مضغة صغيرة في الجسم بها يتقرر صلاحه أو فساده يرتبط مصيره بمصيرها، والأسلوب بهذا النسق يثير الوجدان ويشوق النفوس لمتابعة الخبر، ولا يخفى جمال المقابلة بين قوله: (إذا صلحت صلح الجسد كله) وبين قوله: (وإذا فسدت فسد الجسد كله) التي توضح المعنى وتؤكده وتضع صورة القلب الصالح وأعضائه إزاء صورة القلب الفاسد وجوارحه حتى يتبين حسن الحسن بجوار قبح القبيح، ولذلك جاءت جملة الختام (ألا وهي القلب) تقرر تقريراً مباشراً حقيقة مبعث الخطأ والصواب حتى يعمل الإنسان على صلاح قلبه وتعهده بما يحفظه من ذكر وقراءة قرآن ودعاء وحسن توكل على الله، وهو بذلك يعالج القضية من جذورها ويصل إلى لبّها وهو القلب الذي بصلاحه يصلح - الجسد كله بل لا أكون مبالغاً إن قلت إن صلاح القلب صلاح المجتمع كله – أليس المجتمع مجموعة أجساد، داخل كل منها قلب إن صلح صلح...؟!

فقه الحديث

الشبهة في الاصطلاح: ما لم يتقين كونه حرامًا أو حلالاً، أو ما جهل تحليله على الحقيقة وتحريمه على الحقيقة أو ما يشبه الثابت وليس بثابت[1].

يدلّ لهذا حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن المعراض[2]،

---

(١) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٩٠/٤، ٣٣٨/٢٥.

(٢) المعراض: خشبة ثقيلة أو عصًا في طرفها حديدة. وقد تكون بغير حديدة هذا هو الصحيح في تفسيره. شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦٥/١٣/٧.

فقال: إذا أصاب بحدّه فكل وإذا أصاب بعرضه[١] فقتل فلا تأكل، فإنه وقذ[٢]، وسألت رسول الله ﷺ عن الكلب؟ فقال: إذا أرسلت كلبك وذكرت اسم الله فكل، فإن أكل منه فلا تأكل، فإنه إنما أمسك على نفسه. قلت: فإن وجدت مع كلبى كلبًا آخر، فلا أدري أيهما أخذه؟ قال: فلا تأكل، فإنما سميت على كلبك ولم تسم على غيره)[٣].

ويدل له كذلك حديث عقبة بن الحارث رضي الله عنه قال: ان امرأة سوداء جاءت فزعمت أنها أرضعتهما فذكر للنبي ﷺ فأعرض عنه وتبسم النبي ﷺ قال: كيف وقد قيل؟ وقد كانت تحته ابنة أبي إهاب التميمي[٤].

ووجه الدلالة من الحديث قوله ﷺ "كيف وقد قيل؟" مشعر بأنه أمره بفراق امرأته إنما كان لأجل قول المرأة إنها أرضعتهما فاحتمل أن يكون صحيحًا، فيرتكب الحرام فأمره بفراقها احتياطًا.

الثانية: ما أصله الإباحة كالطهارة إذا استوفيت لا ترفع إلا بتيقن الحدث، يدل له حديث عبدالله بن زيد رضي الله عنه قال: شكى إلى النبي ﷺ الرجل يجد في الصلاة شيئًا أيقطع الصلاة؟ قال: ((لا حتّى يَسْمَعَ صَوْتاً أَوَ يَجِدَ رِيحاً))[٥].

الثالثة: ما لا يتحقق أصله ويتردد بين الحظر والإباحة، فالأولى تركه، يدل له حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((إِنّي لأَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِي فَأَجِدُ التَّمْرَةَ سَاقِطَةً عَلَىٰ فِرَاشِي. ثُمَّ أَرْفَعُهَا لآكُلَهَا. ثُمَّ أَخْشَىٰ أَنْ تَكُونَ صَدَقَةً. فَأُلْقِيهَا))[٦] وإنما ترك ﷺ أكلها تورعًا وليس بواجب، لأن الأصل أن كل شيء في بيت الإنسان على الإباحة حتى يقوم دليل على التحريم.

---

(١) أي بغير المحدد منه، السابق مج٧/١٣/٦٧.

(٢) الوقذف والموقوذ: هو الذي يقتل بغير محدد من عصا أو حجر وغيرهما. فإنه وقيذ أي مقتول بغير محدد، والموقوذة المقتولة بالعصا ونحوها، وأصله من الكسر والرض. السابق ٧/١٣/٦٦.

(٣) أخرجه البخاري ١٧٥، ومسلم ٢٩٢٩.

(٤) أخرجه البخاري ٢٠٥٢.

(٥) أخرجه البخاري ١٣٧، ١٧٧، ٢٠٥٦، ومسلم ٣٦١.

(٦) أخرجه البخاري ٢٤٣٢، ومسلم ١٠٧٠، ١٦٣.

الخامسة: ما يكره اجتنابه: ومثاله الرخص الشرعية على سبيل التنطع[(١)].

قال ابن رجب الحنبلي: (واختلف العلماء: هل يطيع والديه في الدخول في شيء من الشبهة أم لا يطيعهما؟ فروى عن بشر بن الحارث قال: لا طاعة لهما في الشبهة. وعن محمد بن مقاتل العبَّاداني قال: يطيعهما. وتوقف أحمد في هذه المسألة، وقال: يداريهما وأبى أن يجيب فيها)[(٢)].

٣- المصيب في مسائل الحلال والحرام المشتبهة المختلف فيها، واحدٌ عند الله عز وجل:

قال ابن رجب: (كلام النبي ﷺ يدل على أن هذه المشتبهات من الناس من يعلمها، وكثير منهم لا يعلمها، فدخل فيمن لا يعلمها نوعان: أحدهما: من يتوقف فيها لاشتباهها عليه. والثاني: من يعتقدها على غير ما هي عليه.

ودل كلامه على أن غير هؤلاء يعلمها، ومراده أنه يعلمها على ما هي عليه في نفس الأمر من تحليل أو تحريم، وهذا من أظهر الأدلة على أن المصيب عند الله في مسائل الحلال والحرام المشتبهة المختلف فيها واحد عند الله عز وجلّ، وغيره ليس بعالم بها، بمعنى أنه غير مصيب لحكم الله فيها في نفس الأمر، وإن كان يعتقد فيها اعتقادًا يستند فيه إلى شبهة يظنها دليلاً، ويكون مأجورًا على اجتهاده، ومغفورًا له خطؤه لعدم اعتماده)[(٣)].

---

(١) رد المحتار على الدر المختار المسمى "حاشية ابن عابدين"، محمد امين بن عمر عابدين، تحقيق: علي محمد معوض ١٥١/٣-١٥٣، الإقناع ٨١/٢، وتحفة المحتاج ٣٠٤/٧، والاختيار ٩٠/٤، وفتح المبين ١١٢-١١٣، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٩٠/٤-٢٩٥، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن المغربي ٥٣٠/٢ (عن الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٣٤٢/٢٥-٣٤٣). وانظر للمزيد من التفصيل: جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١٩٧/١-٢٠٦ شرح الحديث السادس.

(٢) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢٠٦/١ ط الرسالة.

(٣) السابق ٢٠٣/١.

المضامين الدعوية

أولاً- من أساليب الدعوة: التوكيد:

لقد استخدم النبي ﷺ التوكيد في هذا الحديث فقال: "إن الحلال بين وإن الحرام بين وإن لكل ملك حمى ... وإن حمى الله محارمه. وإن في الجسد مضغة" وكثرة التوكيد في هذا الحديث تدل على أهمية ما ذكر فيه. قال ابن حجر: (وقد عظم العلماء أمر هذا الحديث فعدوه رابع أربعة تدور عليها الأحكام كما نقل عن أبي داود، وفيه البيتان المشهوران، وهما:

عمدة الدين عندنا كلمات	مسندات من قول خير البرية
اترك المشبهات وازهد ودع ما	ليس يعنيك واعملن بنية

وأشار ابن العربي إلى أنه يمكن أن ينتزع منه وحده جميع الأحكام، قال القرطبي[1]: لأنه اشتمل على التفصيل بين الحلال وغيره، وعلى تعلق جميع الأعمال بالقلب، فمن هنا يمكن أن ترد جميع الأحكام إليه[2].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: أهمية معرفة الحلال والحرام واتقاء الشبهات:

أحلّ الله الحلال وحرّم الحرام، والمؤمن يأتي الحلال ويجتنب الحرام، فإذا كانت أمور متشابهة فعليه أن يتقيها، وقد بيّن النبي ﷺ ذلك فقال: "إنَّ الْحَلاَلَ بَيِّنٌ وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لاَ يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ".

قال ابن رجب الحنبلي: (ومعنى استبرأ : طلب البراءة لدينه وعرضه من النقص والشين. والعرض هو موضع المدح والذم من الإنسان، وما يحصل له بذكره بالجميل

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ٤/٤٩٩-٥٠٠.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١/١٥٧، وقد ساقه النووي في الأربعين النووية الحديث السادس. انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١/١٩٣، وانظر كذلك: كلام النووي في شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٠١٣.

مدح وبذكره بالقبيح قدح، وقد يكون ذلك تارة في نفس الإنسان وتارة في سلفه أو في أهله، فمن اتقى الأمور المشتبهة واجتنبها فقد حصن عرضه من القدح والشين الداخل على من لا يجتنبها، وفي هذا دليل على أن من ارتكب الشبهات فقد عرض نفسه للقدح فيه والطعن. كما قال بعض السلف: من عرض نفسه للتهم فلا يلومن من أساء به الظن. وفي رواية للترمذي[(١)] في هذا الحديث: "فمن تركها استبرأ لدينه وعرضه فقد سلم" والمعنى: أنه يتركها بهذا القصد -وهو براءة دينه وعرضه من النقص- لا لغرض آخر فاسد من رياء ونحوه)[(٢)].

وقال النووي: (إن الأشياء ثلاثة أقسام: حلال بين واضح لا يخفى حله، كالخبز والفواكه والزيت والعسل ... وغير ذلك من المطعومات وكذلك الكلام والنظر والمشي وغير ذلك من التصرفات [فهي][(٣)] حلال بين واضح لا شك في حله.

وأما الحرام البين كالخمر والخنزير والميتة وكذلك الزنا والكذب والغيبة والنميمة والنظر إلى الأجنبية وأشباه ذلك. وأما المشتبهات فمعناه أنها ليست بواضحة الحل ولا الحرمة، فلهذا لا يعرفها كثير من الناس ولا يعلمون حكمها. وأما العلماء فيعرفون حكمها بنص أو قياس أو استصحاب أو غير ذلك. فإذا تردد الشيء بين الحل والحرمة ولم يكن فيه نص ولا إجماع اجتهد فيه المجتهد فألحقه بأحدهما بالدليل الشرعي، فإذا ألحقه به صار حلالاً [أو حراماً]، وقد يكون دليله غير خال عن الاحتمال البين فيكون الورع تركه ويكون داخلاً في قوله ﷺ: "فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه)[(٤)].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: خطر الوقوع في الشبهات:

إن الاجتراء على فعل الشبهات أمر خطير، فقد يؤدي ذلك إلى اقتراف الحرام، فقد قال النبي ﷺ: "وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى،

---

(١) سنن الترمذي ١٢٠٥.

(٢) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١/٢٠٣-٢٠٤.

(٣) في المطبوع: "فيها" وما أثبتناه هو الغالب على الظن أنه صحيح.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٠١٣.

يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمىً، أَلاَ وَإِنَّ حِمَى اللّهِ مَحَارِمُهُ".

قال النووي: (قال العلماء: وسبب عظم موقعه "أي الحديث" أنه ﷺ نبه فيه على إصلاح المطعم والمشرب والملبس وغيرها وأنه ينبغي ترك المشتبهات، فإنه سبب لحماية دينه وعرضه وحذّر من مواقعة الشبهات وأوضح ذلك بضرب المثل ثم بين أهم الأمور وهو مراعاة القلب)[(١)].

قال ابن حجر: (حاصل ما فسر به العلماء الشبهات أربعة أشياء : أحدها: تعارض الأدلة. ثانيها اختلاف العلماء. وهي منتزعة من الأولى. ثالثها أن المراد بها مسمى المكروه وأن يجتذبه جانبا الفعل والترك. رابعها أن المراد بها المباح. ولا يمكن لقائل هذا أن يحمله على متساوي الطرفين من كل وجه، بل يمكن حمله على ما يكون من قسم خلاف الأولى بأن يكون متساوي الطرفين باعتبار ذاته راجح الفعل أو الترك باعتبار أمر خارج. ونقل ابن المنير في مناقب شيخه "القباري" عنه أنه كان يقول: المكروه عقبة بين العبد والحرام فمن استكثر من المكروه تطرق إلى الحرام. والمباح عقبة بينه وبين المكروه. فمن استكثر منه تطرق إلى المكروه. وهو منزع حسن. ويؤيده رواية ابن حبان من طريق ذكر مسلم إسنادها ولم يسق لفظها فيها من الزيادة: "اجعلوا بينكم وبين الحرام سترة من الحلال، من فعل ذلك استبرأ لعرضه ودينه ومن أرتع فيه كان كالمرتع إلى جنب الحمى يوشك أن يقع فيه)[(٢)]. والمعنى أن الحلال حيث يخشى أن يؤول فعله مطلقاً إلى مكروه أو محرم ينبغي اجتنابه كالإكثار مثلاً من الطيبات، فإنه يحوج إلى كثرة الاكتساب الموقع في أخذ مالا يستحق أو يفضي إلى بطر النفس، وأقل ما فيه الاشتغال عن مواقف العبودية، وهذا معلوم بالعادة مشاهد بالعيان)[(٣)].

وقال عبدالله البسام: (وقد كان السلف رضي الله عنهم يتركون المباحات اليسيرة خوفاً من

---

(١) المرجع السابق ١٠١٣.

(٢) أخرجه ابن حبان ٥٥٦٩، وقال محققه: إسناده حسن.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٥٥/١.وانظر: توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٢٧٠/٦ - ٢٧١.

المكروه والحرام، ذلك أن من لم يتق الشبه في كسبه ومعاشه فقد عرض دينه وعرضه للطعن)[١].

رابعاً- من أساليب الدعوة : التشبيه والتمثيل:

يلجأ الداعية إلى التشبيه والتمثيل ليزيد المعنى وضوحاً وبياناً، وهذا واضح في قوله: "ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، إلا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه" ووقع عند ابن حبان، "وسأضرب لكم في ذلك مثلاً: إن الله حمى حمى ..."[٢].

وقال ابن حجر: (مثل لهم النبي ﷺ بما هو مشهور عندهم)[٣]. وقال عبدالله البسام: (وهو تصوير بديع ومثال قريب)[٤].

قال ابن رجب: (هذا مثل ضربة النبي ﷺ لمن وقع في الشبهات، وأنه يقرب وقوعه في الحرام المحض، وفي بعض الروايات أن النبي ﷺ قال: "وسأضرب لذلك مثلاً" ثم ذكر هذا الكلام، فجعل النبي ﷺ مثل المحرمات كالحمى الذي تحميه الملوك ويمنعون غيرهم من قربانه)[٥].

وقال القرطبي: (هذا مثلٌ ضربه النبي ﷺ لمحارم الله تعالى، وأصله: أنَّ ملوك العرب كانت تحمي مراعي لمواشيها الخاصة بها، وتُحرِّجُ بالتوعد بالعقوبة على من قربها. فالخائف من عقوبة السلطان يبعد بماشيته من ذلك الحمى، لأنه إن قرب منه فالغالب الوقوع وإن كثر الحذر؛ إذ قد تنفرد الفاذَّة[٦]، وتشذُّ الشاذَّةُ[٧] ولا تنضبط،

---

(١) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٦/٢٧١.

(٢) أخرجه ابن حبان ٧٢١.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١/١٥٦.

(٤) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٦/٢٧١.

(٥) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١/٢٠٧-٢٠٨.

(٦) أي: المنفردة. انظر: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الرافعي أحمد بن محمد الفيومي في (ف ذ ذ).

(٧) أي المنفردة أو الخارجة عن الجماعة. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ش ذ ذ).

فالحذرُ أن يجعل بينه وبين ذلك الحمى مسافة بحيث يأمنُ فيها من وقوع الشاذة والفاذَّة. وهكذا محارمُ الله تعالى، لا ينبغي أن يُحوِّمَ حولها مخافةَ الوقوع فيها على الطريقتين المتقدمتين)[١].

خامساً- من موضوعات الدعوة: بيان منزلة القلب:

للقلب منزلة عظيمة في الإسلام، ولذا فقد عُني الإسلام بسلامة القلب عناية كبيرة وحرص على سلامته من الآفات والعلل والأمراض التي تؤثر عليه كالنفاق والحسد والحقد، وغير ذلك،وما ذلك إلا لأن للقلب أثراً كبيراً جداً على صلاح الإنسان وفساده، وقد وضح النبي ﷺ ذلك فقال: "ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب".

قال النووي: "في هذا الحديث التأكيد على السعي في صلاح القلب وحمايته من الفساد... فإنه ﷺ جعل صلاح الجسد وفساده تابعاً للقلب"[٢] وقال ابن حجر: (وخص القلب بذلك لأنه أمير البدن، وبصلاح الأمير تصلح الرعية، وبفساده تفسد، وفيه تنبيه على تعظيم قدر القلب والحث على صلاحه، والإشارة إلى أن لطيب الكسب أثراً فيه)[٣].

وقال ابن رجب: (فيه إشارة إلى أن صلاح حركات العبد بجوارحه واجتنابه للمحرمات واتقاء الشبهات بحسب صلاح قلبه. فإن كان قلبه سليماً ليس فيه إلا محبة الله ومحبة ما يحبه الله وخشية الله وخشية الوقوع فيما يكرهه، صلحت حركات الجوارح كلها، ونشأ عن ذلك اجتناب المحرمات كلها، وتوقي الشبهات حذراً من الوقوع في المحرمات. وإن كان القلب فاسداً قد استولى عليه اتباع هواه وطلب ما يحبه ولو كرهه الله، فسدت حركات الجوارح كلها، وانبعثت إلى كل المعاصي

(١) المفهم ٤/٤٩٣. وانظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١/١٥٦، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٠١٣.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٠١٤.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١/١٥٦.

والمشتبهات بحسب اتباع هوى القلب، ولهذا يقال: القلب ملك الأعضاء وبقية الأعضاء جنوده، وهم مع هذا جنود طائعون له، منبعثون في طاعته وتنفيذ أوامره، لا يخالفونه في شيء من ذلك، فإن كان الملك صالحاً كانت هذه الجنود صالحة وإن كان فاسداً كانت جنوده بهذه المثابة فاسدة)[(١)].

وقال عبدالله البسام: (إن القلب هو السلطان المدير لملكة الأعضاء وما تأتي من أعمال فعلية مدار فسادها أو صلاحها. فإن صلح القلب فإنه لن يأمر إلا بما فيه الخير، وسيصلح الجسد كله، وإن فسد فسيأمر بالفساد والشر، وتكون الأعمال معكوسة منكوسة)[(٢)].

سادساً- من مهام الداعية: البيان والإرشاد:

إن من وظائف الداعية ومهامه بيان الحقائق للمدعوين وإرشادهم لما ينفعهم وتحذيرهم مما يضرهم، وهذا واضح من عموم الحديث، فقد بين النبي ﷺ وأرشد إلى أن الحلال بين وكذلك الحرام بين، وأرشد أن بينهما أموراً مشتبهة على المسلم أن يتقيها حتى يستبرئ لدينه وعرضه، كما أرشد ﷺ إلى وجوب صلاح القلوب. قال النووي: (أجمع العلماء على عظم وقع هذا الحديث وكثرة فوائده وأنه أحد الأحاديث التي عليها مدار الإسلام... قال العلماء: وسبب عظم موقعه أنه ﷺ نبه فيه على إصلاح المطعم والمشرب والملبس وغيرها، وأنه ينبغي ترك المشتبهات، فإنه سبب لحماية دينه وعرضه، وحذر من مواقعة الشبهات. وأوضح ذلك بضرب المثل بالحمى ثم بين أهم الأمور وهو مراعاة القلب... فبين ﷺ أن بصلاح القلب يصلح باقي الجسد وبفساده يفسد باقيه[(٣)]).

وقال أبو العباس القرطبي: (إنَّ الإنسان إنما شرفه الله تعالى على سائر الحيوان بهذا القلب، وأن هذا القلب لم يشرف من حيث صورته الشكلية، فإنها موجودةٌ لغيره

---

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢١٠/٦

(٢) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٢٧١/٢.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٠١٣.

من الحيوانات البهيمية، بل من حيث هو مقرٌّ لتلك الخاصية الإلهية؛ لذا فإنه أشرف الأعضاء، وأعزُّ الأجزاء؛ إذ ليس ذلك المعنى موجوداً في شيء منها. ثمَّ إنَّ الجوارح مسخَّرةٌ لهن ومطيعةٌ، فما استقرَّ فيه ظهر عليها، وعملت على مقتضاه؛ إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. وعند هذا انكشف لك معنى قوله: "إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله". ولمَّا ظهر ذلك وجبت العنايةُ بالأمور التي يصلحُ بها القلبُ، ليتَّصف بها، وبالأمور التي تفسد القلب ليتجنبها. ومجموع ذلك علومٌ، وأعمالٌ، وأحوال.

وأما الأحوال: فمراقبة الله تعالى في السرِّ والعلن، والتمكن من الاستقامة على السنن)[1].

وقال عبدالله البسام: (وبالجملة فهذا حديث عظيم جليل وقاعدة من قواعد الإسلام وأصل من أصول الشريعة عليه لوائح أنوار النبوة ساطعة ومشكاة الرسالة مضيئة، فهو من جوامع كلام النبي ﷺ ويحتاج استيفاء الكلام عليه إلى مصنِّف مستقلّ طويل)[2].

---

(١) المفهم، القرطبي ٤/٤٩٦.

(٢) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٦/٢٧١.

الحديث رقم (٥٨٩)

٥٨٩- وعن أنسٍ رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ وَجَدَ تَمْرَةً فِي الطَّرِيقِ، فَقَالَ: ((**لَوْلاَ أنِّي أخَافُ أنْ تَكُونَ مِنَ الصَّدَقَةِ لأَكَلْتُهَا**)) متفقٌ عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

الشرح الأدبي

أني أخاف) بيانا لامتناع أكل التمرة لوجود الخوف من أن تكون من الصدقة، والصدقة لا تحل للنبي ﷺ، ولا لآل بيته رضي الله عنهم، وتركه لأكل هذه التمرة التي منعه تورعه، وخوفه من أن تكون من الصدقة يحمل عدة دلالات منها شدة تورعه ﷺ الذي جعل أكل التمرة أمرا مستحيلا فاستخدم (لولا) التي تدل على امتناع الوجود مهما كانت بساطة الأمر تورعا يليق به، وأيضاً تواضعا جما عكسته رغبته في أكل تمرة وجدها في الطريق، وتركه للشبهة التي أشار إليها بامتناعه عن طريق (لولا التي هي في الأصل حرف امتناع لوجود.

فقه الحديث

هذا الحديث يشير إلى الأحكام الفقهية التالية:

١-حكم الصدقة على النبي ﷺ: ذهب جمهور الفقهاء إلى تحريم الصدقة على رسول لله ﷺ لا فرق بين صدقة الفرض والتطوع. وقد نقل الخطابي الإجماع على ذلك[2].

بينما ذهب الشافعية في وجه ورواية عن الإمام أحمد إلى أنه تحرم عليه صدقة الفرض دون التطوع[3].

---

(١) أخرجه البخاري ٢٤٣١ واللفظ له، ومسلم ١٠٧١/١٦٥. أورده المنذري في ترغيبه ٢٥٩٠.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٥٤/٣ ط السلفية.

(٣) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٨٥/٦، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن المغربي ٤٤/١٠، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد الأنصاري ٢٢٧/١٤، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٥٥١/٢، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين أبو الحسن المرداوي ٣٠٧/٥.

٢-حكم الصدقة على آل النبي ﷺ: أما الصدقة على آل النبي ﷺ فقد قال أكثر الحنفية، والشافعية في الصحيح، والحنابلة، يجوز صدقة التطوع لهم دون الفريضة على حين ذهب المالكية إلى جواز صدقة التطوع مع الكراهة.

وقال أبو يوسف وأبو العباس بن سريج، تحرم عليهم أيضاً، لأن الدليل لا يفصل[١].

المضامين الدعوية

أولاً: من صفات الداعية: الورع.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: من خصوصيات النبي ﷺ عدم الأكل من الصدقة.

أولاً- من صفات الداعية: الورع:

الورع من الصفات المهمة التي يجب أن يتحلى بها الداعية، لأن هذا يجعله يبتعد عن الأمور المشتبهة كما ينبئ عن إجلاله لله تعالى والخوف منه. وقد كان النبي ﷺ - وهو إمام الدعاة- أشد الناس ورعاً. وهذا واضح من قول النبي ﷺ: "لولا أني أخافُ أن تكونَ منَ الصدقةِ لأكلتُها".

قال النووي: (فيه استعمال الورع، وفيه أن التمرة ونحوها من محقرات الأموال لا يجب تعريفها بل يباح أكلها والتصرف فيها في الحال، لأنه ﷺ إنما تركها خشية أن تكون من الصدقة لا لكونها لقطة وهذا الحكم متفق عليه)[٢].

وقال الطيبي: (فيه تنبيه للمؤمن أن يجتنب عمّا فيه تردد واشتباه، لئلا يقع في الحرام)[٣].

وقال ابن هبيرة: (في هذا الحديث أن الشيء قد يجوز أن يكون مما لا يصلح فيترك احتياطاً)[٤].

---

(١) المراجع السابقة. وانظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٠٣/١.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٦٧٦، وانظر فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠٣/٥-١٠٤.

(٣) شرح الطيبي على مشكاةالمصابيح، الطيبي ٤٧/٤.

(٤) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٢٤٤/٥.

بل كان النبي ﷺ يجد التمرة على فراشه فلا يأكلها تورعاً، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((إني لأنقلب إلى أهلي فأجد التمرة ساقطة على فراشي فأرفعها لآكلها، ثم أخشى أن تكون صدقة فألقيها))(١).

قال ابن حجر: (قال المهلب: إنما تركها ﷺ تورعاً وليس بواجب، لأن الأصل أن كل شيء في بيت الإنسان على الإباحة حتى يقوم دليل على التحريم))(٢).

قال ابن القيم: (الورع أن يتوقى الحرام والشبه، وما يخاف أن يضره أقصى ما يمكنه التوقي... ويكون الباعث على الورع عن المحارم والشبه إما حذر حلول الوعيد وإما تعظيم الرب، وإجلالاً له أن يتعرض لما نهى عنه)(٣).

إن الورع هو أعلى درجات التقوى، وهو أرفع درجة من الزهد، فالزهد هو الامتناع عما لا ينفع إما لانتفاء نفعه أو كونه مرجوحًا لأنه مفوت لما هو أنفع منه أو محصل لما يربو ضرره على نفعه، أما الورع فإنه الإمساك عما قد يضر فتدخل فيه المحرمات والشبهات لأنها قد تضر، فإنه من اتقى الشبهات استبرأ لعرضه ودينه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي حول الحمى يوشك أن يواقعه.

كما أن الزهد من باب عدم الرغبة والإرادة في المزهود فيه، والورع من باب وجود النفرة والكراهة للمتورع عنه(٤).

وقد جمع النبي ﷺ معاني الورع كلها في نص واحد فقال ﷺ: ((من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه))(٥) فهذا يعم الترك لما لا يعني من كلام والنظر

---

(١) أخرجه البخاري ٢٤٣٢، ومسلم ١٠٧٠.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٤٥/٤، وانظر جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١٩٧/١-١٩٨.

(٣) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ١٩٧/٢-١٩٨ بتصرف يسير، وانظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٠٥/٤٣.

(٤) انظر: الزهد والورع والعبادة، ابن تيمية ص ٥٠-٥٢.

(٥) أخرجه الترمذي ٢٣١٧، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٨٨٧).

والاستماع والبطش والمشي والفكر وسائر الحركات الظاهرة والباطنة، فهذه الكلمة شافية في الورع[(١)].

وقال ابن رجب: (وإذا حسن الإسلام اقتضى ترك ما لا يعني كله من المحرمات والمشتبهات والمكروهات وفضول المباحات التي لا يحتاج إليها فإن هذا كله لا يعني المسلم إذا كمل إسلامه وبلغ إلى درجة الإحسان وهو أن يعبد الله تعالى كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإن الله يراه فمن عبد الله على استحضار قربه ومشاهدته بقلبه أو على استحضار قرب الله منه واطلاعه عليه فقد حسن إسلامه ولزم من ذلك أن يترك كل ما لا يعنيه في الإسلام ويشتغل بما يعنيه فيه فإنه يتولد من هذين المقامين الاستحياء من الله وترك كل ما يُستحى منه)[(٢)].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: من خصوصيات النبي ﷺ عدم الأكل من الصدقة:

إن مقام النبوة مقام عظيم، والنبي محمد ﷺ خاتم الأنبياء، لذا كان مقامه أعظم ومنزلته أكرم، ومن هذا الإكرام أن النبي ﷺ لا يأخذ الصدقة، وهذا واضح من الحديث "لولا أنى أخاف أن تكون من الصدقة لأكلتها".

قال ابن حجر: (وفيه تحريم قليلُ الصدقة على النبي ﷺ، ويؤخذ منه تحريمُ كثيرها من باب أولى)[(٣)].

وقال النووي: (فيه تحريم الصدقة عليه ﷺ وأنه لا فرق بين صدقة الفرض والتطوع، لقوله ﷺ "الصدقة" بالألف واللام، وهى تعم النوعين ولم يقل الزكاة)[(٤)].

جاء في الموسوعة الفقهية: (اتفق العلماء على أن الله تعالى قد حرم علي رسوله ﷺ أخذ شيء من صدقات الناس سواء أكانت مفروضة أو تطوعاً، كالزكاة والكفارة والنذر والتطوع؛ صيانة لمنصبه الشريف، ولأنها تنبئ عن ذل الآخذ وعز المأخوذ منه،

---

(١) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم، ١٩٥/٢.

(٢) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢٨٩/١.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٤٥/٤.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٦٧٥.

وقد أبدل الله تعالى رسوله بها الفيء الذي يؤخذ على سبيل الغلبة والقهر، المنبئ عن عز الآخذ وذل المأخوذ منه. وقال ﷺ: ((إِنَّ الصَّدَقَةَ لاَ تَنْبَغِي لآلِ مُحَمَّدٍ. إِنَّما هِيَ أَوْسَاخُ النَّاسِ))[1] هذا وإن تحريم الصدقات على آل البيت إنما هو لقرابتهم منه ﷺ)[2].

---

(١) أخرجه مسلم ١٠٧٢ من حديث عبدالمطلب بن ربيعة بن الحارث رضي الله عنه. وقال النووي: (ومعنى أوساخ الناس أنها تطهير لأموالهم ونفوسهم كما قال تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾[التوبة: ١٠٣] فهي كغسالة الأوساخ). شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٦٧٧.

(٢) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية، ٢/٢٦١-٢٦٢. وانظر: غاية السول في خصائص الرسول لابن الملقن، ١٢٥-١٢٧.

الحديث رقم (٥٩٠)

٥٩٠- وعن النَّواسِ بن سمعان رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ، قَالَ: ((**البِرُّ: حُسْنُ الخُلُقِ، وَالإِثْمُ: مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ، وَكَرِهْتَ أنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ**)) رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

النواس بن سمعان: هو النواس بن سمعان الكِلابي ويقال: الأنصاري، له ولأبيه صحبة.

قال ابن عبدالبر: يقال إن أباه سمعان بن خالد وفد على النبي ﷺ فدعا له رسول الله ﷺ وأعطاه نعليه، فقَبِلَهما رسول الله ﷺ وزَوَّجه أخته فلما دخلت على النبي ﷺ تعوَّذت منه فتركها وهي الكلابية.

وقد سكن الشام وروى عنه أبو إدريس الخولاني، وأهل الشام[٢].

وهو راوي حديث الدجال المطوّل، وفيه: ((قلنا: يا رسول الله ما لبثه في الأرض؟ قال: أربعون يوماً يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم. قلنا: يا رسول الله، فذلك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: لا. اقدروا قدره))[٣].

غريب الألفاظ:

حاك في صدرك: تردد فيه[٤].

---

(١) برقم ٢٥٥٣/١٤. أورده المنذري في ترغيبه ٢٥٨٧. وسيكرره المؤلف برقم ٦٢٤.

(٢) الطبقات الكبرى، ابن سعد ٤٣٠/٧، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٧٣١، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود ٣٤٥/٥ والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ص ١٣٤٥، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين ٣٦٤/٧، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٢٤٤/٤.

(٣) أخرجه مسلم ١١٠-٢١٣٧.

(٤) رياض الصالحين ٢٦٧.

الشرح الأدبي

الرسول ﷺ يوضح، ويحدد مفهوم البر، ومفهوم الإثم اللذين عليهما مدار الحسنة، والسيئة، واللام في لفظ (البر) للجنس حتى يشمل المفهوم جميع أنواع البر، وقد عرفه الرسول ﷺ بكلمة (حسن) واللفظ يوحي بجمال في جودة، وقبول، وإضافته للخلق تضبط حركة البار بميزان المعاملة مع الله، ومع الناس ببذل نفسه في تحمل أذاهم ورده بالمعروف، وقد قابله بالأثم الذي عرفه بأنه (مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ)والتعبير بالحياكة لبيان شدة الأثر في القلب مع ما يوحي به من حركة في حنايا النفس، وقوله (وكرهت) يشير إلى الشعور ببغضه، وقبحه، وتوقع رفضه، والتعبير بالإطلاع يوحي بأنه مستور، كما أنه يحتاج إلى تكلف، وتعب لمعرفته، وهذا التحديد للإثم يزيد مفهوم البر وضوحا؛ لأن النفس لا تردد فيه، ولا يكره الإنسان إطلاع الناس عليه، كما أن تعريف البر بالحسن، يتضمن وسم الإثم بالقبيح، ويترك كل مصطلح في تمام الوضوح بإزاء ضده، فإن كثيرا من أصحاب العقول الفاسدة يجد في تزييف المصطلحات، وتلبيسها على الناس سبيلا لتضليلهم، وحملهم على الباطل.

المضامين الدعوية[1]

أولاً: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على سؤال رسول الله ﷺ عن البر.

ثانياً: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: البر وعلاماته والإثم وعلاماته.

رابعاً: من مهام الداعية: دلالة المدعوين على معرفة الإثم بما يكتنفه من علامات.

خامساً: من مهام الداعية: تقديم الإجابة الواضحة الشافية للمدعو.

سادساً: من موضوعات الدعوة: من خصوصيات النبي ﷺ: جوامع الكلم.

---

(١) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -٥٩٠- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (٥٩١).

أولاً- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة ﭫ على سؤال رسول الله ﷺ عن البر:

إن البر من الكلمات الجامعة لمعاني الخير وأنواع الطاعات؛ لذا حرص الصحابة ﭫ أشد الحرص على سؤال النبي ﷺ عن البر وعن علاماته وعن حَدّه. يتضح ذلك من حديث وابصة بن معبد ﮓ: أتيت رسول الله ﷺ فقال: "جئت تسأل عن البر؟ "وفي رواية في مسند أحمد بن حنبل، قال: ((أتيت رسول الله ﷺ وأنا أريد أن لا أدع شيئاً من البر والإثم إلاّ سألته عنه وحوله عصابة[1] من المسلمين يستفتونه، فجعلت أتخطاهم، فقالوا: إليك يا وابصة عن رسول الله ﷺ، فقلت: دعوني فأدنو منه فإنه أحبّ الناس إليّ أن أدنو منه، قال: دعوا وابصة، ادن يا وابصة ـ مرتين أو ثلاثاً ـ قال: فدنوت منه حتى قعدت بين يديه، فقال: يا وابصة أخبرك أم تسألني؟ قلت: لا، بل أخبرني؟ فقال: جئت تسألني عن البر والإثم؟ فقال: نعم، فجمع أنامله فجعل ينكت بهن في صدري ويقول: يا وابصة استفت قلبك واستفت نفسك ـ ثلاث مرات ـ البر ما اطمأنت إليه النفس والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك))[2]. وفي حديث النواس بن سمعان: سألت رسول الله ﷺ عن البرِّ والإثم؟[3].

قال القرطبي: (أي عمّا يبرّ فاعله فيلحق بالأبرار وهم المطيعون لله تعالى، وعما يأثم فاعلُه فيلحق بالآثمين)[4].

وعن أبي أمامة ﮓ: ((أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ ما الإيمان؟ قال: إذا سرَّتْك حسنتك وساءتك سيئتك فأنت مؤمن، قال: يا رسول الله، فما الإثم؟ قال: إذا حاك في نفسك شيء فدعه))[5].

---

(١) العصابة: الجماعة من الناس. الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ع ص ب).

(٢) أخرجه أحمد ٢٢٨/٤ رقم ١٨٠٠٦، وقال محققو المسند: إسناده ضعيف جداً ٥٣٣/٢٩، وانظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٩٤/٢.

(٣) هذا هو أصل الحديث في صحيح مسلم ٢٥٥٣.

(٤) المفهم، القرطبي ٥٢٢/٦.

(٥) أخرجه أحمد ٢٥٢/٥ رقم ٢٢١٦٦، وقال محققو المسند: حديث صحيح ٤٩٧/٣٦، وانظر أحاديث أخرى في هذا المعنى في: جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٩٤/٢-٩٦

ثانياً- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

لقد أراد وابصة ﵁ أن يسأل رسول الله ﷺ عن البر فقال له النبي ﷺ بصيغة السؤال: "جئت تسأل عن البر؟" فقال: نعم. فأخبره النبي ﷺ عن البر وعن ضده وهو الإثم. وذلك للامتثال والانقياد والطاعة والفعل. فكان ذلك من أساليب الدعوة. قال القرطبي: (فأجابه النبي ﷺ بجواب جُمْليٍّ أغناه به عن التفصيل)[١].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: البر وعلاماته والإثم وعلاماته:

إن البر له علامات والإثم له علامات، ومن المهم جداً توضيح علامات كل قسم، حتى يعرف المدعو البرّ فيفعله ويعلم الإثم فيجتنبه. وقد قال النبي ﷺ عن البر "البر حسن الخلق" وقال عن علاماته: البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب.

قال القرطبي: (قوله ﷺ "البر حسن الخلق" يعني أن حسن الخلق أعظم خصال البر، ويعني بحسن الخلق: الإنصاف في المعاملة والرفق في المجادلة والعدل في الأحكام، والبذل والإحسان)[٢].

قال ابن رجب: (إن البر يطلق باعتبارين مُعيّنين:

أحدهما: باعتبار معاملة الخلق بالإحسان إليهم، وربما خص بالإحسان إلى الوالدين، فيقال: بر الوالدين، ويطلق كثيراً على الإحسان إلى الخلق عموماً... وكان ابن عمر ﵄ يقول: البر شيء هين: وجه طليق وكلام لين.

وإذا قرن البر بالتقوى كما في قوله عز وجل: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾[٣]، فقد يكون المراد بالبر معاملة الخلق بالإحسان. وبالتقوى معاملة الحق بفعل طاعته، واجتناب محرماته وقد يكون أريد بالبر فعل الواجبات، وبالتقوى اجتناب المحرمات...

والمعنى الثاني من معنى البر: أن يراد به فعل جميع الطاعات الظاهرة والباطنة

---

(١) المفهم، القرطبي ٦/٥٢٢.

(٢) المرجع السابق ٦/٥٢٢.

(٣) سورة المائدة، آية: ٢.

كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾(١).

فالبر بهذا المعنى يدخل فيه جميع الطاعات الباطنة كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، والطاعات الظاهرة كإنفاق الأموال فيما يحبه الله وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والوفاء بالعهد والصبر على الأقدار كالمرض والفقر، وعلى الطاعات كالصبر عند لقاء العدو. وقد يكون جواب النبي ﷺ في حديث النواس شاملاً لهذه الخصال كلها، لأن حسن الخلق قد يراد به التخلق بأخلاق الشريعة والتأدب بآداب الله التي أدب بها عباده في كتابه. كما قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(٢).

وقالت عائشة رضي الله عنها: "كان خلقه القرآن"(٣)، يعني أنه يتأدب بآدابه، فيفعل أوامره ويجتنب نواهيه، فصار العمل بالقرآن له خلقاً كالجبلة والطبيعة لا يفارقه، وهذا أحسن الأخلاق وأشرفها وأجملها، وقد قيل: إن الدين كله خلق.

وأما حديث وابصة فقال: "البر ما اطمأن إليه القلب واطمأنت إليه النفس"، وفي رواية: "ما انشرح إليه الصدر" وفسر الحلال بنحو ذلك في حديث أبي ثعلبة(٤) وغيره، وهذا يدل على أن الله فطر عباده على معرفة الحق والسكون إليه وقبوله وركز في

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٧٧.

(٢) سورة القلم، آية: ٤.

(٣) أخرجه مسلم ٧٤٦.

(٤) حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه نصه: "قلت يا رسول الله أخبرني بما يحل لي ويحرم عليّ. فقال: البر ما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما لم تسكن إليه النفس ولم يطمئن إليه القلب، وإن أفتاك المفتون" أخرجه أحمد ١٩٤/٤ رقم ١٧٧٤٢. وقال محققو المسند: إسناده صحيح ٢٧٩/٢٩.

الطباع محبة ذلك والنفور عن ضده ... فهذا يدل على أن الحق والباطل لا يلتبس أمرهما على المؤمن البصير بل يعرف الحق بالنور الذي عليه فيقبله قلبه وينفر عن الباطل فينكره ولا يعرفه. ومن هذا المعنى قول النبي ﷺ: ((سَيَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي أُنَاسٌ يُحَدِّثُونَكُمْ مَا لَمْ تَسْمَعُوا أَنْتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ، فَإِيَّاكُمْ وَإِيَّاهُمْ))[1].

يعني أنهم يأتون بما تستنكره قلوب المؤمنين ولا تعرفه. وفي قوله: "أنتم ولا آباؤكم" إشارة إلى أن ما استقرت معرفته عند المؤمنين مع تقادم العهد وتطاول الزمان فهو الحق، وأن ما أحدث بعد ذلك مما يستنكر فلا خير فيه. فدل حديث وابصة وما في معناه على الرجوع إلى القلوب عند الاشتباه فما إليه سكن القلب وانشرح إليه الصدر فهو البر والحلال، وما كان خلاف ذلك فهو الإثم والحرام)[2].

رابعاً- من مهام الداعية: دلالة المدعوين على معرفة الإثم وعلاماته لاجتنابه:

إن على الداعية أن يدل المدعوين على الإثم وعلى علاماته ودلائله حتى يجتنبوه ويبتعدوا عنه، وهذا ما بينه النبي ﷺ للصحابة رضي الله عنهم كما هو واضح في الحديثين.

قال القرطبي: (قوله: "والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلَّعَ عليه الناس" أي: الشيء الذي يؤثر نفرة وحزازة في القلب. يقال: حاك الشيءُ في قلبي: إذا رسخ فيه وثبت، ولا يحيك هذا في قلبي، أي: لا يثبتُ فيه، ولا يستقرّ. قال شمرٌ: الكلامُ الحائك: هو الراسخُ في القلب، وإنما أحاله النبي ﷺ على هذا الإدراك القلبيِّ، لما علم من جودة فهمه، وحسن قريحته، وتنوير قلبه، وأنه يدركُ ذلك من نفسه. وهذا كما قال في الحديث الآخر: "الإثم حزَّازُ القلوب"[3] يعني به القلوبَ المنشرحة للإسلام، المنوَّرة بالعلم

---

(١) أخرجه مسلم في المقدمة ٦.

(٢) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢/٩٧-١٠١.

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٧٢٧٧) عند عبدالله بن مسعود رضي الله عنه موقوفاً عليه. وقال ابن الأثير: هي الأمور التي تحزّ فيها، أي تؤثر كما يؤثر الحزّ في الشيء، وهو ما يخطر فيها أن تكون معاصي لفقد الطمأنينة إليها، ... ورواه شمر "الإثم حواز القلوب" -بتشديد الواو- أي يحوزها ويتملكها ويغلب عليها. النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ص ٢٠٤.

الذي قال فيه مالك: العلمُ نورٌ يقذفهُ اللّهُ تعالى في القلب، وهذا الجوابُ لا يصلح لغليظ الطبع قليل الفهم، فإذا سأل عن ذلك من قلَّ فهمه فصلّت له الأوامر والنواهي الشرعية)(١).

قال ابن رجب: (وقوله ﷺ في حديث النواس: "الإثم ما حاك في الصدر، وكرهت أن يطلع عليه الناس" إشارة إلى أن الإثم ما أثر في الصدر حرجاً وضيقاً وقلقاً واضطراباً فلم ينشرح له الصدر ومع هذا فهو عند الناس مستنكر، بحيث ينكرونه عند اطلاعهم عليه، وهذا أعلى مراتب معرفة الإثم عند الاشتباه، وهو ما استنكره الناس على فاعله وغير فاعله. ومن هذا المعنى قول ابن مسعود رضي الله عنه: ((ما رآه المؤمنون حسناً فهو عندَ اللّهِ حَسن، وما رآه المؤمنون قبيحاً فهو عند الله قبيح))(٢).

وقوله في حديث وابصة وأبي ثعلبة: "وإن أفتاك المفتون" يعني: أن ما حاك في صدر الإنسان فهو إثم وإن أفتاه غيره بأنه ليس بإثم. فهذه مرتبة ثانية وهو أن يكون الشيء مستنكراً عند فاعله دون غيره، وقد جعله أيضاً إثما، وهذا إنما يكون إذا كان صاحبه ممن شرح صدره بالإيمان، وكان المفتي يفتي له بمجرد ظن أو ميل إلى هوى من غير دليل شرعي، فأما ما كان مع المفتي به دليل شرعي فالواجب على المستفتي الرجوع إليه وإن لم ينشرح له صدره. وهذا كالرخص الشرعية مثل الفطر في السفر والمرض وقصر الصلاة في السفر ونحو ذلك مما لا ينشرح به صدور كثير من الجهال، فهذا لا عبرة به)(٣).

(وأما ما ليس فيه نص من الله ورسوله ولا عمن يقتدى بقوله من الصحابة وسلف الأمة فإذا وقع في نفس المؤمن المطمئن قلبه بالإيمان المنشرح صدره بنور المعرفة واليقين، منه شيء وحك في صدره لشبهة موجودة، ولم يجد من يفتى فيه بالرخصة إلا من يخبر عن رأيه، وهو ممن لا يوثق بعلمه وبدينه، بل هو معروف باتباع الهوى، فهنا يرجع المؤمن

---

(١) المفهم، القرطبي ٥٢٣/٦.

(٢) أخرجه أحمد ٣٧٩/١ رقم ٣٦٠٠، وقال محققو المسند: إسناده حسن ٨٤/٦.

(٣) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١٠١/٢-١٠٢.

إلى ما حك في صدره، وإن أفتاه هؤلاء المفتون)[١].

خامساً- من مهام الداعية: تقديم الإجابة الواضحة الشافية للمدعو:

إن الداعية عليه أن يقدم الإجابة الواضحة الشافية للمدعو، وذلك حتى يعرف المدعو ما الذي يفعله وما الذي يتركه، وهو إذ يفعل ذلك يقتدي بالنبي ﷺ كما هو واضح من عموم هذين الحديثين، فقد بيّن النبي ﷺ البر والإثم خير بيان وشفى وكفى.

قال النووي: (قال العلماء: البر يكون بمعنى الصلة وبمعنى اللطف والمبرة وحسن الصحبة والعشرة وبمعنى الطاعة. وهذه الأمور هى مجامع حسن الخلق، ومعنى "حاك في صدرك" أي تحرك فيه وتردد ولم ينشرح له الصدر وحصل في القلب منه الشك وخوف كونه ذنباً)[٢].

ومن هذا القبيل ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أوصني. قال: لا تغضب. فردد مراراً قال: لا تغضب"[٣] زاد أحمد عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ: قال الرجل: ففكرت حين قال النبي ﷺ، ما قال، فإذا الغضب يجمع الشر كله[٤].

قال ابن رجب الحنبلي: (وقول الصحابي: ففكرت فيما قال النبي ﷺ فإذا الغضب يجمع الشر كله. يشهد لما ذكرناه أن الغضب جماع الشر. قال جعفر بن محمد، الغضب مفتاح كل شر. وقيل لابن المبارك: اجمع لنا حسن الخلق في كلمة. قال: ترك الغضب)[٥].

سادساً- من موضوعات الدعوة: من خصوصيات النبي ﷺ: جوامع الكلم:

النبي ﷺ أفصح العرب وأبلغهم، آتاه الله تعالى جوامع الكلم، فكان كلامه ﷺ على وجازته يجمع الكثير من المعاني التي تحتاج إلى ألفاظ كثيرة

---

(١) السابق ١٠٣/٢.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٣٤.

(٣) أخرجه البخاري ٦١١٦.

(٤) أخرجه أحمد ٣٧٣/٥ رقم ٢٣١٧١ وقال محققو المسند: إسناده صحيح ٢٣٧/٣٨.

(٥) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٣٦٣/١

لشرحها، وذلك واضح في قوله ﷺ: "البر حسن الخلق والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس" وكذلك حديث وابصة.

(إن هذا الحديث من جوامع الكلم، لأن البر كلمة جامعة لجميع أفعال الخير، والإثم كلمة جامعة لجميع أفعال الشر)[١]، وقد جعل النووي هذا الحديث من الأحاديث الجوامع التي يقال: إن مدار الدين عليها وما كان في معناها من الكلمات الجامعة الوجيزة، فجعله في الأربعين النووية برقم (٢٧)[٢].

وقال القاضي عياض: (وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول فقد كان ﷺ من ذلك بالمحل الأفضل والموضع الذي لا يجهل، سلاسة طبع وبداعة منزع وإيجاز مقطع ونصاعة لفظ وجزالة قول وصحة معانٍ وقلة تكلف، وأوتي جوامع الكلم)[٣].

وقال الكفوي: (وأسدُّ عبارات الأدباء في حدّ البلاغة وأوفاها بالغرض قولهم: البلاغة هي التعبير عن المعنى الصحيح لما طابقه من اللفظ الرائق من غير مزيد على المقصد ولا انتقاص عنه في البيان. فعلى هذا فكلما ازداد الكلام في المطابقة للمعنى وشرف الألفاظ ورونق المعاني والتجنب عن الركيك المستغث كان بلاغته أزيد... ورجحان بلاغة النظم الجليل إنما هو بإبلاغ المعنى الجليل المستوعب إلى النفس باللفظ الوجيز، وإنما يكون الإسهاب أبلغ في كلام البشر الذين لا يتناولون تلك الرتبة العالية من البلاغة)[٤].

---

(١) تطريز رياض الصالحين: فيصل بن عبدالعزيز آل مبارك، تحقيق: عبدالعزيز بن عبدالله آل حمد ص ٣٩٢.

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٥٦/١، ٩٣/٢.

(٣) الشفا ١٥٨/١. وانظر: نضرة النعيم ٤٥٩/١-٤٦١.

(٤) الكليات، معجم المصطلحات والفروق الفردية، أبو البقاء الكفوي، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري ص ٢٣٦-٢٣٧.

الحديث رقم (٥٩١)

٥٩١- وعن وَابِصَةَ بن مَعبدٍ رضي الله عنه ، قَالَ: أتَيْتُ رَسُول الله ﷺ ، فَقَالَ: ((**جئتَ تَسْألُ عَنِ البِرِّ؟**)) قُلْتُ: نَعَمْ، فَقَالَ: ((**اسْتَفْتِ قَلْبَكَ، البرُّ: مَا اطْمَأنَّت إلَيْهِ النَّفسُ، وَاطْمأنَّ إلَيْهِ القَلْبُ، وَالإثْمُ: مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ، وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ، وَإنْ أفْتَاكَ النَّاسُ وَأفْتُوكَ**)) حديث حسن، رواه أحمد والدَّارمِيُّ في مُسْنَدَيْهِمَا[١].

ترجمة الراوي:

وابصة بن مَعبد: هو وابصة بن معبد بن عتبة الأسَدَي، قدم على رسول الله ﷺ في عشرة رهطٍ من قومه من بني أسد سنة تسعٍ، ورجع إلى بلاد قومه ثم نزل الجزيرة وسكن الرَّقة.

كان مكثراً من القراءة للقرآن الكريم متدبراً لآياته، كثير البكاء عند قراءته وعظيم الخشية عند تلاوته.

قال عنه أبو راشد الأزرق: كنت آتي وابصة بن معبد وقلّ ما أتيته إلا أصبت المصحف موضوعاً بين يدية ثم إنه كان يبكي حتى أرى دموعه قد بلّت الورق.

وقد قيل في وصفه كذلك: كان قارئاً، بكّاء لا يملك دمعه.

وقد روى أنه كان من أعوان الخليفة الراشد عمر بن عبدالعزيز، فقد ذُكر أن عمر بعث إليه بمالٍ يقسمه بين الناس، وقال له: لا تقسمه إلا على نهر جارٍ؛ فإني أخاف أن يعطشوا.

وقد ذكر ذلك أبو علي الحراني في كتابه تاريخ الرقة، ثم قال: ولا أظن هذا إلا وهماً، لأن وابصة ما عاش إلى خلافة عمر بن عبدالعزيز. وصوّب الحافظ ابن حجر في الإصابة قول أبي علي الحراني.

وقد مات وابصة في الرقة[٢].

---

(١) أخرجه أحمد ١٨٠٠١، والدارمي ٢٥٧٥ واللفظ له. أورده المنذري في ترغيبه ٢٥٨٨ وقال: رواه أحمد بإسناد حسن.

(٢) الطبقات الكبرى، ابن سعد ٤٧٦/٧ والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٧٥٦ وأسد الغابة في معرفة الصحابة ٣٩٨/٥ والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ص ١٣٧٢، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين ٤٤٦/٧، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٣٠/٤.

الشرح الأدبي

الحديث يحكي حوار طريفا بين الرسول ﷺ، وبين وَابِصَةَ بن مَعبدٍ رضي الله عنه يقرر في نهايته مفهوم البر، ومفهوم الإثم، وكيف يستطيع أن يفصل بينهما، وطرافة الحديث جاءت من إخبار الرسول ﷺ لوابصة رضي الله عنه بما جاء يسأل عنه قبل أن يتكلم فقال له (جِئتَ تَسْأَلُ عَنِ البِرِّ ؟) وهو استفهام تقريري، وأبرزه في حيز الاستفهام التقريري مبالغة في إيضاح إطلاعه عليه، وإحاطته به، وهو من معجزاته ﷺ لأنه أخبره بما في نفسه، فقال له نعم، وقول الرسول ﷺ (اسْتَفْتِ قَلْبَكَ، البِرُّ: مَا اطْمَأنَّت إِلَيْهِ النَّفسُ، وَاطْمأنَّ إِلَيْهِ القَلْبُ) الاستفتاء هو سؤال المفتي، والمقصود به هو استشعار ما في القلب تجاه الموضوع، والتعبير بالطمأنينة يوحي بالسكينة وعدم القلق وذكر النفس، والقلب يشير إلى تحقق الطمأنينة الكاملة التي تتمثل في الاقتناع العقلي مع الاقتناع القلبي ثم وضح نقيضه إمعانا في بيانه لأن الضد يصير أكثر تميزا بالمقارنة بضده وهو الإثم والتعبير بالتردد في جانبه يوحي بعدم الاستقرار، وعدم الاقتناع بالأمر وهو حال كثير من الناس في مسائل محرمة تشتهيها نفوسهم فيتردد الواحد بين الناس يسأل هذا، ويسأل ذاك، وإنما يريد أن يجد من يطيعه في هوى نفسه ويفتيه بالحل حتى أن بعضهم يلجأ إلى حكاية موضوع الفتوى بطريقة توهم المفتي حتى يحكم له بما يريد، فيذهب وفي صدره ما فيه مما يريب، وقد حذر الرسول ﷺ(وإن أفتاك الناس، وأفتوك) والجناس يؤكد المعنى، ويشير إلى كثرة المفتين لأنه نسب الإفتاء للمعرف بلام الجنس الشامل للجميع (الناس) وليس أهل العلم (خاصة) دلالة على التخبط الذي لا ينبىء عن الوصول لغاية، ولا يعتزم تحقيق الهداية.

فقه الحديث

حجية الإلهام:

الإلهام: أن يلقي الله في النفس أمرًا يبعث على الفعل أو الترك وهو نوع من الوحي يخص الله به من يشاء من عباده[1].

---

(١) شرح الكوكب المنير ص ٣٢٥ ط/ السنة المحمدية، وشرح جمع الجوامع ٣٣٩/٢، ٣٤١ (عن الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٨٨/٦).

ويتفق الأصوليون على أن الإلهام من الله تعالى لأنبيائه حق، وهو بالنسبة للنبي ﷺ حجة في حقه، كذلك هو في حق أمته، ويكفر منكر حقيقته، ويفسق تارك العمل به كالقرآن.

أما إلهام غير الأنبياء من المسلمين، فإنه ليس بحجة، لأنه من ليس معصومًا لا ثقة بخواطره، لأنه لا يأمن من دسيسة الشيطان فيها، وهو قول جمهور أهل العلم، وهو المختار عند الحنفية، ولا عبرة بما قاله قوم من الصوفية بأنه حجة في الأحكام(١).

المضامين الدعوية(٢)

(١) جمع الجوامع ٢/٣٥٦، والتقرير والتحبير ٣/٢٩٥، ٢٩٦ (عن الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٦/١٨٨). وانظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢/١٠٣-١٠٤ شرح الحديث ٢٧.

(٢) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (٥٩٢)

٥٩٢- وعن أَبي سِرْوَعَةَ -بكسر السين المهملة وفتحها- عُقبَةَ بنِ الحارِثِ رضي الله عنه: أنَّهُ تَزَوَّجَ ابنَةً لأبي إهَابِ بن عزيزٍ، فَأتَتْهُ امْرَأةٌ، فَقَالَتْ: إنّي قَدْ أرضَعْتُ عُقْبَةَ وَالَّتِي قَدْ تَزَوَّجَ بِهَا. فَقَالَ لَهَا عُقْبَةُ: مَا أعْلَمُ أنَّك أرضَعْتِنِي وَلاَ أخْبَرْتِني، فَرَكِبَ إلَى رسول الله صلى الله عليه وسلم بِالمَدِينَةِ، فَسَأَلَهُ: فَقَالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((كَيْفَ؟ وَقَد قِيلَ)) فَفَارَقَهَا عُقْبَةُ وَنَكَحَتْ زَوْجاً غَيْرَهُ. رواه البخاري(١).

ترجمة الراوي:

أبو سروعة النوفلي: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨٨).

الشرح الأدبي

الحديث يدور حول معنى ورع الصحابة، ويعرض صورة من صور هذا الورع حدثت مع عقبة بن الحارث رضي الله عنه عندما تزوج، وأتته امرأة فَقَالَتْ: (إنّي قَدْ أرضَعْتُ عُقْبَةَ وَالَّتِي قَدْ تَزَوَّجَ بهَا) وعبارة المرأة مؤكدة ب(إن) ونسبة الفعل لنفسها التي تنفي وهم الظن، أو الخطأ، وتحقيق الفعل بصياغته في الماضي، ودخول حرف التحقيق قد التي تزيده تأكيدا لتوقعها إنكار مضمون الخبر، وقول عقبة رضي الله عنه للمرأة (مَا أعْلَمُ أنَّك أرضَعْتِنِي وَلاَ أخْبَرْتِني) ظاهره إنكار قولها لعدم علمه، وقد أكده بنفي الإخبار قبل الزواج تبرئة لنفسه من التعدي (فَرَكِبَ إلَى رسول الله صلى الله عليه وسلم بِالمَدِينَةِ) كناية عن سفره للقاء الرسول صلى الله عليه وسلم، ويشير إلى مدى عنايته بالأمر، واهتمامه به، لأن الركوب عندهم يكون عند الخطب العظيم، وقوله (بالمدينة) يشير إلى تجشمه المصاعب للوقوف على الحقيقة، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم له: (كَيْفَ ؟ وَقَد قِيلَ) استفهام إنكاري بني على الإيجاز أي كيف تستمر في زواجك بها، وقد قيل أنكما أخوان من الرضاعة ؟، وقول الراوي (فَفَارَقَهَا عُقْبَةُ وَنَكَحَتْ زَوْجاً غَيْرَهُ) تشير فاء الربط إلى سرعة امتثاله للتوجيه

---

(١) برقم ٨٨.

النبوي المفهوم من الاستفهام، والتعبير بالفراق كناية عن الطلاق، ولكنه أعم منه، والطلاق مختص بفراق الزوجين، ولعله لم يعبر بالطلاق؛لأن الفراق لم يكن عن كراهة أو خلاف، وإنما مطلق فراق امتثالا لأمر الشارع وهو من شدة ورعهم رضي الله عنهم.

فقه الحديث

هذا الحديث يشير إلى الأحكام الفقهية التالية:

١-حكم شهادة المرأة الواحدة في الرضاع: اختلف الفقهاء في ذلك، فذهب الحنفية إلى أنه لا يقبل في الرضاع شهادة النساء منفردات، وإنما يثبت بما يثت به المال، وهو شهادة رجلين، أورجل وامرأتين ولا يقبل أقل من ذلك، ولا شهادة النساء بانفرادهن[١].

وذهب الشافعية إلى أنه يقبل في الرضاع شهادة النساء منفردات، ولا يقبل أقل من أربع نسوة، وتجوز شهادة رجلين، أو رجل وامرأتين[٢].

وقال المالكية: يثبت الرضاع بشهادة رجلين أو رجل وامرأتين مطلقاً قبل العهد وبعده، ويعمل قبل العقد في غير الرشيد بإقرار أحد الأبوين ولو أماً وأولى بإقرارهما معاً، فيفسخ إن وقع، ولا يعتبر إقرارهما بعده، وأما بعد العقد فيقبل شهادة رجل وامرأة أو شهادة امرأتين إن فشا قبل العقد، ولا يقبل شهادة أمرأة واحدة ولو فشا ذلك.

كما يثبت برجل وامرأتين ولا يشترط الفشو في ذلك، أما شهادة المرأة منفردة فلا يثبت بها الرضاع فشا أم لا، حتى لو كانت عدلاً على المشهور[٣].

---

(١) تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ١٤٠/٦، وشرح فتح القدير، ابن همام الحنفي ٤٣٧/٧.

(٢) مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٤٤٢/٤، والوسيط، مجمع اللغة العربية ٣٦٦/٧ وما بعدها.

(٣) حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، وهو مطبوع مع الشرح الكبير للدردير، محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي ٢٧٩/١٠.

أما المذهب عند الحنابلة فهو قبول شهادة المرضع المنفردة، وفي رواية: تحلف الشاهدة. وفي ثالثة لا يقبل فيه أقل من امرأتين[١].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الحوار.

ثانياً: من آداب المدعو: الاستفتاء والسؤال عما قد يعرض من الأمور.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: الأخذ بالورع.

أولاً- من أساليب الدعوة: الحوار:

هذا واضح من أن امرأة أتت عقبة بن الحارث رضي الله عنه فقالت: إني قد أرضعت عقبة والتي قد تزوّج بها، فقال لها عقبة: ما أعلم أنك أرضعتني ولا أخبرتني، ثم أرسل إلى آل أبي إهاب يسألهم فقالوا: ما علمنا أرضعت صاحبتنا[٢]، ثم ركب إلى رسول الله ﷺ بالمدينة فسأله: فقال رسول الله ﷺ: كيف وقد قيل؟ فكان الحوار من أساليب الدعوة التي استخدمت هنا لبيان الورع وترك الشبهات.

ثانياً- من آداب المدعو: الاستفتاء والسؤال عما قد يعرض له من الأمور:

إن المدعو يعرض له في حياته ما يحتاج معه إلى سؤال الداعية، ليوضح له الصواب في الأمر، ومن ثم يكون الامتثال والانقياد، وهذا واضح من أن عقبة بن الحارث رضي الله عنه ركب إلى رسول الله ﷺ بالمدينة يسأله عما أخبرته به المرأة من كونها أرضعته هو وزوجته، قال ابن حجر: (قوله: فركب، أي: من مكة؛ لأنها كانت دار إقامته)[٣].

وقد ساق البخاري هذا الحديث في عدة مواضع من صحيحه أولها في كتاب: العلم، وجعله تحت باب: الرحلة في المسألة النازلة وتعليم أهله[٤]، وفي رواية للبخاري:

---

(١) الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين أبو الحسن المرداوي ١٧/٣٧٣، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ١٠/٢٢٤ وما بعدها.

(٢) هذه رواية عند البخاري ٢٦٤٠.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١/٢٢٣.

(٤) أخرجه البخاري ٣، و ٨٨.

فَذَكَرْتُ ذلك لهُ، فأَعْرَضَ، فتَنَحَّيْتُ فَذَكَرْتُ ذلك لهُ، فقال: ((كيفَ وقَدْ زَعَمْتَ أَنَّهَا أَرْضَعَتْكُمَا)) فنهاه عنها[1]. قال ابن حجر: (وفي هذا الحديث جواز إعراض المفتي ليتنبه المستفتي على أن الحكم فيما سأله الكف عنه، وجواز تكرار السؤال لمن لم يفهم المراد والسؤال عن السبب المقتضي لرفع النكاح)[2].

ومن هذا القبيل - قبيل الاستفتاء والسؤال عما يعرض للمدعو من الأمور- ما روته زينب رضي الله عنها امرأة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قالت: قال رسول الله ﷺ: ((تَصَدَّقْنَ، يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ وَلَوْ مِنْ حُلِيِّكُنَّ)) قَالَتْ: فَرَجَعْتُ إِلَىٰ عَبْدِ اللّهِ فَقُلْتُ: إِنَّكَ رَجُلٌ خَفِيفُ ذَاتِ الْيَدِ. وَإِنَّ رَسُولَ اللّهِ قَدْ أَمَرَنَا بِالصَّدَقَةِ. فَأْتِهِ فَاسْأَلْهُ. فَإِنْ كَانَ ذٰلِكَ يَجْزِي عَنِّي وَإِلاَّ صَرَفْتُهَا إِلَىٰ غَيْرِكُمْ. قَالَتْ: فَقَالَ لِي عَبْدُ اللّهِ: بَلِ ائْتِيهِ أَنْتِ. قَالَتْ: فَانْطَلَقْتُ. فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ بِبَابِ رَسُولِ اللّهِ. حَاجَتِي حَاجَتُهَا. قَالَتْ: وَكَانَ رَسُولُ اللّهِ قَدْ أُلْقِيَتْ عَلَيْهِ الْمَهَابَةُ. قَالَتْ: فَخَرَجَ عَلَيْنَا بِلاَلٌ فَقُلْنَا لَهُ: ائْتِ رَسُولَ اللّهِ . فَأَخْبِرْهُ أَنَّ امْرَأَتَيْنِ بِالْبَابِ تَسْأَلاَنِكَ: أَتَجْزِي الصَّدَقَةُ عَنْهُمَا، عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمَا، وَعَلَىٰ أَيْتَامٍ فِي حُجُورِهِمَا؟ وَلاَ تُخْبِرْهُ مَنْ نَحْنُ. قَالَتْ: فَدَخَلَ بِلاَلٌ عَلَىٰ رَسُولِ اللّهِ. فَسَأَلَهُ. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللّهِ : ((مَنْ هُمَا؟)) فَقَالَ: امْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ وَزَيْنَبُ. فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ: ((أَيُّ الزَّيَانِبِ؟)) قَالَ: امْرَأَةُ عَبْدِ اللّهِ. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللّهِ : ((لَهُمَا أَجْرَانِ: أَجْرُ الْقَرَابَةِ وَأَجْرُ الصَّدَقَةِ))[3].

وقال د. فاروق حمادة: "وقد شرعت لنا السنة النبوية الشريفة إذا ما نزلت نازلة في مكان أو جهة ما أو شخص أو جماعة ما من الأمة، ولم تجد لها جواباً، فلا بد لها من تَكلُّف البحث والسعي في حلّ المشكل، ولو تكلف ذلك جهداً ومالاً، وقد بوّب البخاري في صحيحه، كما فعل ذلك غيره - باب الرحلة في المسألة النازلة، وساق حديث عقبة بن الحارث رضي الله عنه وركوبه من مكة إلى المدينة ليسأل رسول الله ﷺ عن نازلته التي حلّت به. إن المفكر المسلم وبتوجيه السنة الشريفة باحث عن الحكمة

---

(١) أخرجه البخاري ٢٦٥٩.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥/٢١٨.

(٣) أخرجه البخاري ١٤٦٦، ومسلم ١٠٠٠.

متطلع إلى آفاقها منقب عن مصادرها ومكامنها متشبع بهداها وآثارها ، ولن يشبع من الخير حتى يكون منتهاه الجنة... وإن الأمة التي تتشبع بروح البحث هذه وتعمل بذلك مهما حلّ بها من مشاكل أو ادلهم في طريقها من أحداث لن تتوقف مسيرتها ، ولن تعجز عن حلّها ، ولن تنزوي في ركن من أركان الحياة. بل ستبقى مسيطرة على مشاكلها ، مالكة لزمام أمرها ، نافذة في طريقها متجددة تجدد أيام الحياة، فإذا ما ضعفت هذه الروح خارت وتراجعت"[(١)].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: الأخذ بالورع:

إن الأخذ بالورع في موضعه يدل على صدق الإيمان وخشية الرحمن، كما يجنب الوقوع في الشبهات ومن ثم البعد عن الحرام والزلل، وقد أخذ بذلك عقبة بن الحارث رضي الله عنه ، ففي الحديث: (ففارقها عقبة)، قال ابن حجر عن هذا الحديث: "وجه الدلالة من قوله: كيف وقد قيل؟، فإنه يشعر بأن أمره بفراق امرأته إنما كان لأجل قول المرأة إنها أرضعتهما ، فاحتمل أن يكون صحيحاً فيرتكب الحرام فأمره بفراقها احتياطاً على قول الأكثر. وقيل: بل قبل شهادة المرأة وحدها على ذلك"[(٢)].

وقال البغوي: "وقوله صلى الله عليه وسلم : (كيف وقد قيل؟) إشارة منه صلى الله عليه وسلم إلى مفارقتها من طريق الورع، لا من طريق الحكم، أخذاً بالاحتياط في باب الفَرْج، وليس فيه دلالة على وجوب الحكم بقول المرأة الواحدة لأن سبيل الشهادات أن تقام عند الحكام ولم يوجد ههنا إلا إخبار امرأة عن فعلها في غير مجلس الحكم، والزوج مكذب لها ، وبمثل هذا لا يثبت الحكم حتى يكون دليلاً على جواز شهادة المرأة الواحدة"[(٣)].

وقد أخرج أبو عبيد القاسم بن سلام من طريق عمر والمغيرة بن شعبة وعلي بن أبي طالب وابن عباس أنهم امتنعوا من التفرقة بين الزوجين بذلك، فقال عمر: فرق بينهما إن

---

(١) أسس العلم وضوابطه في السنة النبوية ، د. فاروق حمادة ص ١٩ - ٢٠.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٤٣/٤.

(٣) شرح السنة ٨٧/٩ - ٨٨، وفي المسألة خلاف بين الفقهاء، انظر: سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، الصنعاني ص ٧١٨، وتوضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ١٢٦/٥.

جاءت بينة وإلا فخل بين الرجل وامرأته إلا أن يتنزها، ولو فتح هذا الباب لم تشأ امرأة أن تفرق بين الزوجين إلا فعلت[١]، فقوله: (إلا أن يتنزها)، هو معنى الورع"[٢].

وقال ابن حجر: (قال الخطابي: كل ما شككت فيه فالورع اجتنابه ثم هو على ثلاثة أقسام: واجب ومستحب ومكروه، فالواجب اجتناب ما يستلزمه ارتكاب المحرم، والمندوب اجتناب معاملة من أكثر ماله حرام، والمكروه اجتناب الرخص المشروعة على سبيل التنطع)[٣].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣١٨/٥.

(٢) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٠٨/٤٣، وانظر هناك: نصوص أخرى متعلقة بالموضوع نفسه.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٤٣/٤.

الحديث رقم (٥٩٣)

٥٩٣- وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما، قال: حفظتُ من رسول الله ﷺ: ((دَعْ مَا يريبُكَ إِلَى ما لاَ يَرِيبُكَ)) رواه الترمذيُّ[1]، وقال: (حديث حسن صحيح).

معناه: اتْرُكْ مَا تَشُكُّ فِيهِ، وَخُذْ مَا لاَ تَشُكُّ فِيهِ.

ترجمة الراوي:

الحسن بن علي بن أبي طالب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٥٥).

الشرح الأدبي

حديث الرسول ﷺ مبني على إيجاز القصر يحقق المحافظة على نشاط النفس؛ لأن الكلام الموجز غير المخل المؤدي للغرض، والموصل للمعنى بأقصر عبارة أدعى للمحافظة على نشاط نفس المتلقي في متابعته وإبعاد السأم، والملل عنها؛ ولذلك نجد البلاغيين يؤكدون على هذا البعد النفسي للإيجاز يقول أبو هلال العسكري: (للكلام غاية ولنشاط السامعين نهاية، وما فضل عن مقدار الاحتمال دعا إلى الاستثقال، وصار سبباً للملال) وحديث الرسول ﷺ قليل الألفاظ كثير المعاني لأن المعنى الذي يتناوله يصلح أن يكون قاعدة كلية يتعامل بها الإنسان في مختلف مناحي الحياة، وفي أمور الدين، وقوله: (دَعْ مَا يريبُكَ إِلَى ما لاَ يَرِيبُكَ) أمر توجيه، وإرشاد والتعبير بالفعل (دع) عن معنى الترك؛ لأنه ترك في هوادة لا تعلق للنفس به، ولا جلبة حوله لأن المريب تكثر حوله الشبهات، والعاقل يستل نفسه مبتعدا عنه من غير تعلق به، وتعريفه بالموصول (ما) للإشارة إلى أن ما يتبعه من صفات حقيق بها، والتعبير بالريبة يشير إلى خفي العواقب مخيفها، وقوله (إلى ما لا يريبك) توجيه لاختيار ما صفى في العادة، والعبادة، والاعتقاد يوفر على العبد طاقته العقلية، ويجنبه خطر المخالفة.

المضامين الدعوية[2]

---

(١) برقم ٢٥١٨، وقال: هذا حديث حسن صحيح. وصحّحه أيضًا ابن خزيمة ٢٣٤٨، وابن حبان، الإحسان ٧٢٢، وقال الحاكم ١٣/٢: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الذهبي في التلخيص ٩٩/٤: سنده قويٌّ. أورده المنذري في ترغيبه ٢٥٩١. وتقدم برقم ٥٥.

(٢) تقدم ذكرها في شرح الحديث برقم (٥٥).

الحديث رقم (٥٩٤)

٥٩٤- وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: كَانَ لأبي بَكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ غُلاَمٌ يُخْرِجُ لَهُ الخَرَاجَ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يَأكُلُ مِنْ خَرَاجِهِ، فَجَاءَ يَوْماً بِشَيءٍ، فَأكَلَ مِنْهُ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ لَهُ الغُلامُ: تَدْرِي مَا هَذَا؟ فَقَالَ أَبُو بكر: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: كُنْتُ تَكَهَّنْتُ لإنْسَانٍ في الجَاهِلِيَّةِ وَمَا أُحْسِنُ الكَهَانَةَ، إلاَّ أنّي خَدَعْتُهُ، فَلَقِيَنِي، فَأعْطَانِي لِذلِكَ، هَذَا الَّذِي أكَلْتَ مِنْهُ، فَأدْخَلَ أَبُو بَكْرٍ يَدَهُ فَقَاءَ كُلَّ شَيْءٍ فِي بَطْنِهِ. رواه البخاري[(١)].

(الخَرَاجُ): شَيْءٌ يَجْعَلُهُ السَّيِّدُ عَلَى عَبْدِهِ يُؤدِّيهِ كُلَّ يومٍ، وَباقِي كَسْبِهِ يَكُونُ لِلْعَبْدِ[(٢)].

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

غريب الألفاظ:

الخَرَاجَ: هو شيء يجعله السيد على عبده يؤديه كل يوم، وباقي كسبهِ يكونُ للعبد[(٣)].

تكهَّنت: أخبرت بالغيب؛ ادّعاءً لمعرفته[(٤)].

الشرح الأدبي

التعبير بفعل الكينونة الماضي يضرب في عمق الماضي ليسترد منه قصة واقعية من نماذج الورع العليا في تاريخ الإنسانية توافق غرضا عند المتكلم، وقول أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا (كَانَ لأبي بَكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ غُلاَمٌ) أي عبد بينت عمله بالجناس في قولها (يُخْرِجُ لَهُ الخَرَاجَ) أي يعمل، ويعطي سيده قدرا من المال متفقا عليه، ويأخذ الباقي لنفسه، وقول الغلام (تَدْرِي مَا هَذَا؟) استفهام تنبيه، وإعلام فأجابه بسؤال (ما هو؟) عن حقيقته، وقول الغلام (كُنْتُ تَكَهَّنْتُ لإنْسَانٍ في الجَاهِلِيَّةِ وَمَا أُحْسِنُ

---

(١) برقم ٣٨٤٢. أورده المنذري في ترغيبه ٢٥٩٢.

(٢) بنصه في الترغيب ٥٤٦/٢.

(٣) رياض الصالحين ٢٦٩.

(٤) الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ك هـ ن).

الكَهَانَةَ،) بين قوله تكهنت، وكهانة جناس يؤكد المعنى ويشير إلى موضع الخطأ، وقوله (وَمَا أُحْسِنُ الكَهَانَةَ) يشير إلى أنها حيلة وخداع أكدها صراحة بقوله (إلاَّ أنّي خَدَعْتُهُ، فَلَقِيَنِي، فَأعْطَانِي لِذلِكَ، هَذَا الَّذِي أكَلْتَ مِنْهُ) والإشارة للقريب تشير إلى الطعام الحاضر الذي تناوله أبو بكر رضي الله عنه وأكده تعريفه بالموصول وقوله (، فَأدْخَلَ أَبُو بَكْرٍ يَدَهُ) تعبيره بإدخال اليد مجاز للمبالغة في تصوير الفعل للخلاص من الطعام المشبوه وقوله (فَقَاءَ كُلَّ شَيْءٍ فِي بَطْنِهِ) التعبير بكل، وإضافته للنكرة (شيء) تفيد شدة التحري، والمبالغة في تجنب الحرام، وتطهير النفس، وهو نموذج في الورع، والتقوى يرتفع مثالا بين الشرفاء في كل زمان ومكان.

فقه الحديث

هذا الحديث يشير إلى الأحكام الفقهية التالية:

حكم التكهن وإتيان الكهانة وأخذ العوض عن ذلك: أجمع العلماء على أن التكهن، وإتيان الكهانة، والتنجيم، والضرب بالرمل، وبالشعير، والحصى، والشعوذة، حرام، تعليماً، وتعلماً، وفعلاً، وكذا إعطاء العوض أو أخذه عنها، بالنص الصحيح في حلوان الكاهن، وهو أنه صلى الله عليه وسلم (نهى عن ثمن الكلب، ومهر البغي، وحلوان الكاهن)[(1)]، والباقي بمعناه.

كما لا يحل لأحد تصديقه لأنه كفر[(2)]، لقوله صلى الله عليه وسلم: ((مَنْ أَتى كَاهِناً أوعَرَّافاً فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلى مُحَمَّدٍ))[(3)].

---

(١) أخرجه البخاري ٢٢٣٧، ومسلم ١٥٦٧ من حديث أبي مسعود البدري.

(٢) شروح مسلم للنووي ٥/١٠/٢٣٠، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤/٤٢٧، وسبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، الصنعاني ٤٨٨-٤٨٩، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ٩٧٦، وروضة الطالبين، الإمام النووي، ٣/٤٠٣، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ١٦/٢٤٥، ورد المحتار على الدر المختار المسمى "حاشية ابن عابدين"، محمد امين بن عمر عابدين، تحقيق: علي محمد معوض ٤/٤٢٨، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن المغربي ١٦/١٨٦، وكشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٦/١٣٥ وما بعدها، وشرح منتهى والإرادات ١١/٣٣٣ وما بعدها، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٣٥/١٧٢. الكفر المذكور في الحديث قال عنه السندي: هذا إن كان مستحلاً لذلك. وقيل: بل هو تغليظ وتشديد، أي عمل عَمَل من كفر. قاله السندي على حاشية مسند أحمد بن حنل ١٥/١٦٦.

(٣) أخرجه أحمد ٢/٤٢٩ رقم ٩٥٣٦، وقال محققو المسند: حديث حسن ١٥/٣٣١.

المضامين الدعوية

أولاً : من أساليب الدعوة: الحكاية.

ثانياً: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: ورع أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

رابعاً: من آداب المدعو : تحري الحلال والبعد عن الشبهات

أولاً- من أساليب الدعوة: الحكاية:

هذا واضح من قول عائشة رضي الله عنها: كان لأبي بكر الصديق رضي الله عنه غلام يخرج له الخراج... إلخ، فكانت الحكاية أسلوباً لبيان ورع الصديق رضي الله عنه.

وقد أُستخدم أسلوب الحكاية بكثرة في الدعوة[1]، ومن ذلك حديث الغلام والساحر والراهب وأوله: ((كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ...))[2]. والذي أفاد مدى صدق الغلام وتحمله الأذى من أجل تمسكه بدينه، حتى إنه دلّ عدوه على طريقة قتله من أجل نشر دين الله.

ثانياً- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

لقد وجه الغلام لأبي بكر رضي الله عنه سؤالاً: تدري ما هذا؟ فقال أبو بكر: وما هو؟ فأجابه الغلام بأنه أجر على كهانته في الجاهلية. فعرف أبو بكر رضي الله عنه عن طريق السؤال والجواب حقيقة ما أكله، فسارع بإخراجه من بطنه تنزهاً وتورعاً أو من باب الحرمة.

قال ابن هبيرة: (في هذا الحديث جواز أكل السيد من غلة المملوك وخراجه، وعلى أن أبا بكر رضي الله عنه لم يسأل عبده هذا، الوجه الذي جاء به حتى ابتدأ العبد فذكر ذلك، فيدل على جواز أكل الرجل من غلة عبده من غير أن يسأله، وعلى ذلك فإن العبد إذا ذكر لسيده الوجه الذي جاءه بذلك منه في المقام المشتبه عليه كهذه الحالة كان العبد بذلك مثاباً عند الله عز وجل)[3].

---

(١) انظر على سبيل المثال: فهارس مسند أحمد بن حنبل ٤٨/١٧٣-١٩٣ ط مؤسسة الرسالة.

(٢) أخرجه مسلم ٣٠٠٥.

(٣) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ١/٩١ - ٩٢.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: ورع أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

أبو بكر الصديق رضي الله عنه هو صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم لازمه منذ إسلامه حتى وفاته صلى الله عليه وسلم وكان معه في الغار، وهو خليفته، وهو أفضل الصحابة رضي الله عنهم، فلا عجب أن يشتهر بالورع. وهذا واضح من قول عائشة رضي الله عنها " فأدخل أبو بكر يده فقاء كل شيء في بطنه وقد وقع ذلك لأبي بكر رضي الله عنه غير مرة، قال ابن حجر: (ووقع لأبي بكر مع النعيمان أحد الأحرار من الصحابة قصة ذكرها عبدالرزاق[1] بإسناد صحيح: "أنهم نزلوا بماء، فجعل النعيمان يقول لهم: كذا وكذا فيأتونه بالطعام فيرسله إلى أصحابه، فبلغ أبا بكر خبره فقال: أراني آكل كهانة النعيمان منذ اليوم ثم أدخل يده في حلقه فاستقاءه" وفي الورع لأحمد[2] عن إسماعيل عن أيوب عن ابن سيرين "لم أعلم أحداً استقاء من طعام غير أبي بكر، فإنه أتى بطعام فأكل ثم قيل له: جاء به ابن النعيمان. قال فأطعمتموني كهانة ابن النعيمان. ثم استقاءه" ورجاله ثقات لكنه مرسل.

ولأبي بكر قصة أخرى في نحو هذا أخرجها يعقوب بن أبي شيبة في مسنده من طريق نبيح العنزي عن أبي سعيد قال: كنا ننزل رفاقاً، فنزلت في رفقة فيها أبو بكر على أهل أبيات فيهن امرأة حبلى ومعنا رجل. فقال لها: أبشرك أن تلدي ذكراً. قالت: نعم فسجع لها أسجاعاً، فأعطته شاة فذبحها وجلسنا نأكل، فلما علم أبو بكر بالقصة قام فتقيأ كل شيء أكله)[3].

وقد يكون من المناسب هنا ذكر ما كان عليه أبو بكر رضي الله عنه في الجاهلية من عفّة وصيانة نفس، فقد عنون السيوطي في ترجمته: فصل كان أبوبكر رضي الله عنه أعفّ الناس في الجاهلية، ساق تحته جملة من الأخبار منها: أخرج ابن عساكر بسند صحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: والله ما قال أبوبكر شعراً قط في جاهلية ولا إسلام، ولقد ترك هو وعثمان شرب الخمر في الجاهلية.

---

(١) مصنف عبدالرزاق ٢٠٣٤٦/١١.

(٢) الورع، أحمد بن حنبل: تحقيق د. مصطفى الذهبي، مكتبة نزار مصطفى الباز ص ٦٧.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٨٩/٧-١٩٠، والقصة بنحوها في الورع لأحمد بن حنبل ص ٦٧.

وأخرج أبو نعيم بسند جيد عنها قالت: لقد كان حرّم أبوبكر الخمر على نفسه في الجاهلية. وأخرج ابن عساكر عن عبدالله بن الزبير قال: ما قال أبوبكر شعراً قط[(١)].

رابعاً- من آداب المدعو : تحري الحلال والبعد عن الشبهات:

إن على المدعو أن يتحرى الحلال ويبتعد عن الأمور المشتبهة، فإن ذلك أسلم لدينه وأحفظ له، وهذا واضح من استقاءة أبي بكر الطعام، فهذا دعوة للغلام -وهو المدعو- أن يتحرى الحلال ويبتعد عن الشبهات أو المحرمات.

قال ابن حجر: (قال ابن التين: إنما استقاء أبو بكر تنزهاً لأن أمر الجاهلية وضع، ولو كان في الإسلام لغرم مثل ما أكل أو قيمته ولم يكفه القيء. كذا قال. والذي يظهر أن أبا بكر إنما قاء لما ثبت عنده من النهي على حلوان الكاهن[(٢)]. وحلوان الكاهن ما يأخذه على كهانته، والكاهن من يخبر بما سيكون من غير دليل شرعي، وكان ذلك قد كثر في الجاهلية خصوصاً قبل ظهور النبي ﷺ)[(٣)].

قال ابن هبيرة: (في هذا الحديث من الفقه ما يدل على ورع أبي بكر رضي الله عنه ولا سيما في هذه الصورة، فإن أخذ الأجر على الكهانة محرم، ثم الخديعة في ذلك محرمة، فتغلظ الأمر بأنه خدع في الحرام، فبادر أبو بكر رضي الله عنه إلى بذل جهده من كونه أخرج ما حصل في بطنه من ذلك... إلا أن هذا الحديث إن بلى بمثله مؤمن على مثل صورته، فخاف إن هو جاء على نفسه التلف، فلا يتعرض للقئ بل يستغفر الله

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ٣٠.

(٢) عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ نهى عن ثمن الكلب ومهر البغي وحلوان الكاهن. أخرجه البخاري ٢٢٣٧، ومسلم١٥٦٧. وجاء في الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية : (أجمع الفقهاء على أن التكهن والكهانة بمعنى ادعاء علم الغيب والاكتساب به حرام، كما أجمعوا على أن إتيان الكاهن للسؤال عن عواقب الأمور حرام، وأن التصديق بما يقوله كفر. ونهى عن أكل ما اكتسبه بالكهانة لأنه سحت، جاء عن طريق غير مشروع... وتشمل الكهانة كل ادعاء بعلم الغيب الذي استأثر الله بعلمه، ويشمل اسم الكاهن كل من يدعي ذلك من منجم وعراف وضراب بالحصباء ونحو ذلك، الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٧٢/٣٥.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٩٠/٧.

تعالى، إذ لا يجوز له التعرض لإتلاف نفسه)[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: أيها الناس، إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين. فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾[٢] وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾[٣]، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغير يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام فأنى يستجاب لذلك)[٤].

قال النووي: (وهذا الحديث أحد الأحاديث التي هي قواعد الإسلام ومباني الأحكام، وقد جمعت منها أربعين حديثاً في جزء. وفيه الحث على الإنفاق من الحلال والنهى عن الإنفاق من غيره، وفيه أن المشروب والمأكول والملبوس ونحو ذلك ينبغي أن يكون حلالاً خالصاً لا شبهة فيه، وأن من أراد الدعاء كان أولى بالاعتناء بذلك من غيره)[٥].

جاء في الموسوعة الفقهية: (اجتناب الشبهات على مراتب:

الأولى: ما ينبغي اجتنابه لأن ارتكابه يستلزم ارتكاب الحرام وهو ما يكون أصله التحريم كالصيد للشكوك في حل اصطياده فإنه يحرم أكله قبل ذكاته فإذا شك فيه بقي على أصل التحريم حتى يتيقن الحل.

يدل لهذا حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: ((سألتُ رسولَ الله ﷺ عنِ المِعْراضِ[٦]، فقال: إذا أصابَ بحَدِّهِ فكُلْ، وإذا أصابَ بعَرْضهِ فقَتَلَ فلا تأكُلْ، فإنه

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٩١/١.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٥١.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٧٢.

(٤) أخرجه مسلم ١٠١٥.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٦٤٤.

(٦) صيد المعراض: موت الحيوان بفعل ضغط الآلة على جسمه لا بالجرح. معجم لغة الفقهاء، أ.د. محمد رواس قلعة جي، ٤١٠.

وَقِيذ[1]. قلت: يا رسولَ الله أُرسِلُ كلبي وأُسَمِّي، فأجِدُ معَهُ على الصَّيدِ كلباً آخَرَ لم أُسَمِّ عليه، ولا أدْري أيُّهما أخَذَ. قال: لا تأكُلْ، إنما سمَّيتَ على كلبِكَ ولم تُسمِّ على الآخَرِ))[2].

ويدل له كذلك حديث أبي سروعة عقبة بن الحارث رضي الله عنه قال: ((أنَّ امرأةً سَوداءَ جاءت فزَعمَتْ أنها أرضعَتْهما، فذَكر للنبيِّ صلى الله عليه وسلم، فأعرَضَ عنهُ وتَبسَّمَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم قال: كيفَ وقد قِيلَ؟ وقد كانت تحتَهُ ابنةُ أبي إهابٍ التَّميميّ))[3]. ووجه الدلالة من الحديث قوله صلى الله عليه وسلم "كيف وقد قيل؟" مشعر بأنه أمره بفراق امرأته إنما كان لأجل قول المرأة إنها أرضعتهما فاحتمل أن يكون صحيحاً فيرتكب الحرام فأمره بفراقها احتياطاً.

الثانية: ما أصله الإباحة كالطهارة إذا استوفيت لا ترفع إلا بتيقن الحدث. يدل له حديث عبدالله بن زيد رضي الله عنه قال: ((شُكِيَ إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم الرَّجُلُ يَجدُ في الصلاةِ شيئاً أيَقْطَعُ الصلاةَ؟ قال: لا، حتّى يَسمَعَ صَوتاً أو يَجِدَ رِيحاً))[4]. ومن أمثلته من له زوجة وشك هل طلق فلا عبرة لذلك وهي باقية على عصمته.

الثالثة: ما لا يتحقق أصله ويتردد بين الحظر والإباحة فالأولى تركه. يدل له حديث أنس رضي الله عنه قال: ((مرَّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم بتمرةٍ مَسْقوطةٍ فقال: لولا أن تكونَ صَدَقةً لأكَلتُها))[5]. وإنما ترك صلى الله عليه وسلم أكلها تورعاً وليس بواجب لأن الأصل أن كل شيء في بيت الإنسان على الإباحة حتى يقوم دليل على التحريم.

الرابعة: ما يندب اجتنابه. ومثاله عند بعض الفقهاء اجتناب معاملة مَنْ الأقلُّ من ماله حرام.

الخامسة: ما يكره اجتنابه ومثاله: اجتناب الرخص الشرعية على سبيل التنطع[6].

---

(١) وقيذ: فعيل بمعنى مفعول، أي موقوذ، والموقوذة: المقتولة بالخشب، كانوا في الجاهلية يضربونها بالعصا. فإذا ماتت أكلوها. معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ٤٧٩.

(٢) أخرجه البخاري ٢٠٥٤، ومسلم ١٩٢٩.

(٣) أخرجه البخاري ٢٠٥٢.

(٤) أخرجه البخاري ٢٠٥٦، ومسلم ٣٦١.

(٥) أخرجه البخاري ٢٠٥٥، ومسلم ١٠٧١.

(٦) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٤٢/٢٥-٢٤٣ ومصادرها ومراجعها. والتنطع: تنطع في الشيء: غالى وتكلّف فيه وتعمق. الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ن ط ع).

الحديث رقم (٥٩٥)

٥٩٥- وعن نافِع: أن عُمَرَ بن الخَطّاب رضي الله عنه كَانَ فَرَضَ لِلمُهَاجِرينَ الأوَّلِينَ أرْبَعَةَ الآفٍ[١]، وَفَرَضَ لابْنِهِ ثَلاثَة آلافٍ وَخَمْسَمئَةٍ، فَقيلَ لَهُ: هُوَ مِنَ المُهَاجِرينَ فَلِمَ نَقَصْتَهُ[٢]؟ فَقَالَ: إنَّمَا هَاجَرَ بِهِ أبُوهُ[٣]. يقول: لَيْسَ هُوَ كَمَنْ هَاجَرَ بِنَفْسِهِ. رواه البخاري[٤].

ترجمة الراوي:

عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١).

غريب الألفاظ:

فرض: أي أوجب وقطع من العطاء[٥].

الشرح الأدبي

الحديث يعرض صورة من صور ورع أولى الأمر، وعدالتهم، وتحريهم الحق حتى مع أقرب الناس إليهم، وهذه القصة لعمر رضي الله عنه تؤكد ذلك عمليا حيث خالف في فرض ابنه ما فرض للناس نقصا، وليس زيادة، وهو ما أثار سؤال من حوله (هُوَ مِنَ المُهَاجِرينَ فَلِمَ نَقَصْتَهُ ؟) استفهام يبحث عن العلة، ويحمل تعجبا بسبب النقص، وقول عمر رضي الله عنه (إنَّمَا هَاجَرَ بِهِ أبُوهُ) أسلوب قصر يقصر الهجرة به على أبوه لا على نفسه، ويشير إلى أنه كان يوم الهجرة صغيرا دون البلوغ، وبذلك رأى أنه لا يستحق فرض المهاجر بنفسه، وهو ما وضحه بقوله (لَيْسَ هُوَ كَمَنْ هَاجَرَ بِنَفْسِهِ) لم يسو بين المهاجر بنفسه، والمهاجر تبعا لوالديه، وهذا النموذج في الورع، والتحري لكل من تولى أمرا من أمور المسلمين ألا يميز أولي القرابة عن غيرهم من المسلمين، فإنهم مسئولون عنهم في يوم لا يغني فيه والد عن ولده، ولا مولود عن والده.

---

(١) عند البخاري زيادة: (في أربعة)، وهي لا توجد عند الحميدي في جمعه ١٣٨/١، رقم ٧٦.

(٢) عند البخاري زيادة: (من أربعة آلاف).

(٣) لفظ البخاري: (أبواه) والمثبت لفظ الحميدي في جمعه.

(٤) برقم ٣٩١٢.

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ف ر ض).

فقه الحديث

يستحبّ للإمام أن لا يخص أحدًا من أهل بيته أو ممن ينتمي إليه بمنفعة من مال الله لمكانة منه. لأن هذا مما ينبغي أن يتورع منه الحاكم ويبالغ في التوقي منه[(١)].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل المهاجرين من الصحابة رضي الله عنهم.

ثانياً: من آداب المدعو: السؤال عما أشكل عليه من الأمور.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: منزلة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وورعه.

رابعاً: من صفات الداعية: العدل وعدم المحاباة في الحق.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل المهاجرين من الصحابة رضي الله عنهم:

المهاجرون هم الجيل الأول من الصحابة الذين أسلموا وتحملوا من الأذى ما تحملوا وثبتوا على إسلامهم ثبات الجبال، وضحوا بالأهل والمال من أجل نصرة دين الله، ومن ثم فلا عجب أن كانت لهم المكانة العالية والمنزلة الرفيعة عند الله وعند رسوله ﷺ وعند الخلفاء الراشدين من بعده، وعند المسلمين جميعاً. وهذا واضح من فرض عمر بن الخطاب رضي الله عنه للمهاجرين الأولين أربعة آلاف. وفي رواية عن أنس بن مالك رضي الله عنه: ((أَنَّ عُمَرَ بنَ الْخَطَّابِ رضي الله عنه كَتَبَ الْمُهَاجِرِينَ عَلَى خَمْسَةِ آلافٍ، وَالأَنْصَارَ عَلَى أَرْبَعَةِ آلافٍ، وَمَنْ لَمْ يَشْهَدْ بَدْراً مِنْ أَبْنَاءِ الْمُهَاجِرِينَ عَلَى أَرْبَعَةِ آلافٍ))[(٢)].

وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[(٣)]. وقال سعيد بن المسيب عن السابقين الأولين: هم الذي صلُّوا

---

(١) المنتقى شرح الموطأ، سليمان بن خلف الباجي ٣/٤٧٢.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ١٢/٣١١ برقم ١٢٩٢٦.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١٠٠.

القبلتين جميعاً، وهم أهل بدر[(١)].

وقد قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾[(٢)] قال السعدي: (قد هجروا المحبوبات والمألوفات من الديار والأوطان والأحباب والخلان والأموال رغبة في الله ومحبة لرسول الله ﷺ. فهؤلاء هم الصادقون الذين عملوا بمقتضى إيمانهم، وصدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة والعبادات الشاقة)[(٣)].

وجاء في الموسوعة الفقهية: (قال الشافعي: كان المسلمون مستضعفين بمكة زماناً، لم يؤذن لهم فيه بالهجرة منها، ثم أذن الله عز وجل بالهجرة منها...)[(٤)]. فكانت الهجرة في أول الإسلام مندوباً إليها غير مفروضة (ثم أذن الله تبارك وتعالى لرسوله ﷺ بالهجرة إلى المدينة، ولم يحرم في هذا على من بقي بمكة المقام بها وهي دار شرك، وإن قلّوا بأن يفتنوا، ولم يأذن لهم بجهاد، ثم أذن الله عز وجل لهم بالجهاد، ثم فرض بعد هذا عليهم أن يهاجروا من دار الشرك)[(٥)].

وقال البغوي: (فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة أمروا بالهجر والانتقال إلى حضرته ليكونوا معه، ويتظاهروا إن حزبهم أمر، وليتعلموا منه أمر دينهم، وقطع الله الولاية بين من هاجر من المسلمين وبين من لم يهاجر، كما قال جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي (٤٩٥/٧)، وعزاه لابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبي نعيم في المعرفة.

(٢) سورة الحشر، الآية: ٨.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام الرحمن، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٧٨٧، وانظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٦٨/٨.
وخدمة أتباعه إضافة إلى ما في السخاء من تأليف القلوب وإقبالها على الدعوة وذلك من الأساليب التي انتهجها الإسلام؛ فعن أنس

(٤) الأم، الإمام الشافعي ص ٧٦٠.

(٥) السابق: الموضع نفسه.

يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ﴾[١])[٢].

وقد أكد هذا المعنى أبو الوليد بن رشد حيث قال: فكانت الهجرة إلى النبي ﷺ قبل فتح مكة على من أسلم من أهلها واجبة مؤبدة، افترض الله عليهم فيها البقاء مع رسول الله ﷺ حيث استقرّ. والتحول معه حيث تحوّل، لنصرته ومؤازرته وصحبته، وليحفظوا عنه ما يشرعه لأمته. ويبلغوا ذلك عنه إليهم، ولم يرخص لأحد منهم في الرجوع إلى وطنه وترك رسول الله ﷺ ألا ترى أن رسول الله ﷺ قال في حجة الوداع: ((لا يُقيمَنَّ مُهَاجِر بِمَكَّةَ، بَعْدَ قَضَاءِ نُسُكِهِ، فوق ثَلاَث))[٣]، خص الله بهذا من آمن من أهل مكة بالنبي ﷺ وهاجر إليه، ليتم له بالهجرة إليه والمقام معه وترك العودة إلى الوطن الغاية من الفضل الذي سبق لهم في سابق علمه، وهم الذين سماهم الله بالمهاجرين، ومدحهم بذلك، فلا ينطلق هذا الاسم على أحدٍ سواهم)[٤].

ثانياً- من آداب المدعو: السؤال عما أشكل عليه من الأمور:

إن من طرق العلم السؤال، والمدعو عليه أن يسأل إذا عرض له أمر يشكل عليه ولا يعلم حقيقته، وهذا واضح من قول الراوي: فقيل له: هو من المهاجرين فلم نقصته؟ فقال: إنما هاجر به أبواه. يقول: ليس هو كمن هاجر بنفسه.

وبهذا السؤال زال الإشكال، ووضح عمر بن الخطاب رضي الله عنه الأساس الذي أَنقَص به ابنَه عبدالله رضي الله عنهما من العطاء. جاء في الموسوعة الفقهية: (السؤال على وجه التبيّن والتعلم عما تمس إليه الحاجة في أمور الدين أو الدنيا مأمور به، أو مباح بحسب حال المسؤول عنه)[٥].

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٧٢.

(٢) شرح السنة ١٠/٣٧٢.

(٣) أخرجه البخاري ٣٩٣٣، ومسلم ١٣٥٢ واللفظ له من حديث العلاء بن الحضرمي: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "للمهاجر إقامة ثلاث بعد الصدر بمكة" كأنه يقول لا يزيد عليها. وخدمة أتباعه إضافة إلى ما في السخاء من تأليف القلوب وإقبالها على الدعوة وذلك من الأساليب التي انتهجها الإسلام؛ فعن أنس

(٤) المقدمات الممهدات لابن رشد ٢/١٥٢، نقلاً عن الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٤٢/١٧٩-١٨٠.

(٥) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٤/٩٦.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: منزلة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وورعه:

عمر بن الخطاب رضي الله عنه هو الفاروق، له المناقب العظيمة والمواقف الشريفة، كان ورعاً أشد ما يكون الورع، أنقص ابنه عبدالله بن عمر عن بقية المهاجرين الأوائل في العطاء معللاً ذلك بقوله: "إنما هاجر به أبواه، يقول: ليس هو كمن هاجر بنفسه" قال ابن حجر: (المراد أنه كان حينئذ في كنف أبيه، فليس هو كمن هاجر بنفسه، وكان لابن عمر حين الهجرة إحدى عشرة سنة)[١].

قال ابن هبيرة: (في هذا الحديث ما يدل على ورع عمر رضي الله عنه وشدة محاسبته لنفسه في أمر الله عز وجل، فإنه نظر في ذلك من هاجر بنفسه فإن له فضلاً على من هاجر مع أبيه من حيث إنه قد كانت لهجرة أبيه مماسة أو حصة في هجرته فقد قدّرها بسهم من ثمانية... وقيمة ذلك خمسمائة)[٢].

وفي أثر أنس بن مالك رضي الله عنه السابق: ((أَنَّ عُمَرَ بنَ الخطابِ رضي الله عنه كَتَبَ المهاجرينَ على خَمْسَةِ آلافٍ، والأنصارَ على أربعةِ آلافٍ، ومَنْ لَمْ يَشْهَدْ بدراً من أبناءِ المهاجرينَ على أربعةِ آلافٍ، فكانَ مِنْهُمْ عُمَرُ بنُ أبي سَلَمَةَ بنِ عبدِ الأسد المخزوميُّ وأسامةُ بنُ زيدٍ ومحمدُ بنُ عبدِ الله بنِ جحشٍ الأَسَدِيُّ وعبدُ الله بنُ عُمَرَ، فقالَ عبدُ الرحمنِ بنُ عوفٍ: إنَّ عبدَالله ليسَ مثل هؤلاءِ، إن عبدالله من أمره من أمره! فقالَ عبدالله بنُ عُمَرَ لعمر: إنْ كانَ حقاً لِي فأَعْطِنِيهِ، وإلا فلا تعطنيه، فقال عمر لعبد الرحمن بن عوف: فاكتبني على أربعة آلاف وعبد الله على خمسة آلاف، والله لا يجتمع أنا وأنت على خمسة آلاف، فقال عبد الله ابن عمر: إن كان حقًا فأعطنيه وإلا فلا تعطنيه))[٣].

قال ابن الأثير عن عمر: (وأدرّ العطاء على الناس، ونزل نفسه بمنزلة الأجير وكآحاد المسلمين في بيت المال، ودوّن الدواوين، ورتب الناس على سابقتهم في العطاء

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٩٩/٧.

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ١٩٣/١ - ١٩٤.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة، ٣١١/١٢ رقم ١٢٩٢٦.

والإذن والإكرام، فكان أهل بدر أول الناس دخولاً عليه، وكان عليٌّ أولهم وكذلك فعل بالعطاء)[١].

قال السيوطي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (أسلم في السنة السادسة من النبوة، وله سبع وعشرون سنة قاله الذهبي: وقال النووي: ولد عمر بعد الفيل بثلاث عشرة سنة، وكان من أشراف قريش، وإليه كانت السفارة في الجاهلية، فكانت قريش إذا وقعت الحرب بينهم -أو بينهم وبين غيرهم- بعثوه سفيراً، أي رسولاً، وإذا نافرهم منافراً أو فاخرهم مفاخر بعثوه منافراً أو مفاخراً. وأسلم قديماً بعد أربعين رجلاً وإحدى عشرة امرأة... وهو أحد السابقين الأولين، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة وأحد الخلفاء الراشدين، وأحد أصهار النبي عليه الصلاة والسلام وأحد كبار علماء الصحابة وزهادهم)[٢].

رابعاً- من صفات الداعية: العدل وعدم المحاباة في الحق:

لقد أنقص عمر بن الخطاب ابنه رضي الله عنهما في العطاء ولم يساوه مع المهاجرين الأوائل، وعلل ذلك إنه لم يهاجر بنفسه وإنما هاجر به أبواه، فاعتنيا به وأنفقا عليه، بل رُوي عن عمر أنه فضل أسامة بن زيد في العطاء على ابنه عبدالله رضي الله عنهم، فقال له عبدالله: فرضت لأسامة ثلاثة آلاف وخمسمائة وما هو أقدم مني إسلاماً ولا شهد ما لم أشهد. فقال عمر: لأن زيد بن حارثة كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبيك وكان أسامة بن زيد أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منك، فذلك زدته عليك خمسمائة[٣].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: ((كَانَ عُمَرُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَنْهَى النَّاسَ عَنْ شَيْءٍ تَقَدَّمَ إِلَى أَهْلِهِ: فقال: لاَ أَعْلَمَنَّ أَحَداً وَقَعَ فِي شَيْءٍ مِمَّا نَهَيْتُ عَنْهُ إِلاَّ أَضْعَفْتُ لَهُ الْعُقُوبَةَ))[٤].

(١) أسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود ١٥٩/٤.

(٢) تاريخ الخلفاء ١٠١-١٠٢.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ٣١١/١٢ برقم ١٢٩٢٤ عن ابن جريج.

(٤) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٢٨٩/٣ بإسناد فيه الواقدي.

وقال علي بن أبي طالب ﷺ عن عمر بن الخطاب ﷺ: ((فأَمَّر [أي أبوبكر] علينا عمر، فقام فينا بأمر صاحبيه، لا ننكر منه شيئاً، نعرف فيه الزيادة كل يوم في الدين والدنيا، فتح الله به الأرضين، ومَصَّرَ به الأَمصار، لا تأْخذه في الله لومة لائم، البعيد والقريب سواءٌ في العدل والحق، وضرب الله بالحق على لسانه وقلبه، حتى إن كنا لنظن أَن السكينة تنطق على لسانه، وأَن ملكاً بين عينيه يُسَدِّده ويوفقه))[1].

قال الدكتور مصطفى السباعي: (ومع شدة عمر في الحق، كانت له رحمة بالشعب، من ضعفاء، وفقراء، وعطف على الرعية، قلَّ أن نجد له مثيلاً في التاريخ. ولما خاف المسلمون من أن يشتد عليهم في ولايته، خطب فيهم فكان مما قاله: اعلموا أن تلك الشدة قد أضعفت[2]، ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدي على المسلمين، فأما أهل السلامة والدين والقصد، فأنا ألين لهم من بعضهم لبعض، ولست أدع أحداً يظلم أحداً أو يعتدي عليه، حتى أضع خده على الأرض، وأضع قدمي على الخد الآخر حتى يذعن بالحق. وإني بعد شدتي تلك أضع خدي على الأرض لأهل العفاف وأهل الكفاف.

تلك هي رحمة عمر، رحمة القوي الحازم العادل، بمن يستحق الرحمة، رحمة الحاكم الناصح لأمته ودينه. وبذلك كان يعسُّ في الليل والناس نيام، يتفقد المنقطعين والمعوزين والبائسين. ولعلكم جميعاً تعرفون قصته مع المرأة التي كان تدق لأطفالها الجياع على الحصى، وتوهمهم أنها تطبخ لهم، حتى يسكتوا ويناموا، حتى إذا جاء عمر ورأى ما رأى حمل بنفسه الطحين والسمن، وطبخ بيده الطعام، وأطعم الأولاد حتى شبعوا ولعبوا.

ولعل أروع مآثر عمر في الرحمة بالشعب، موقفه عام الرمادة، وقد كان ذلك في سنة ١٨هـ، إذ أصاب الناس في الحجاز قحط عظيم دام تسعة أشهر، حتى كانت

(١) أخرجه ابن الأثير في أسد الغابة ٤/١٥٦-١٥٧.

(٢) تضاعفت وازدادت.

الوحوش تأوي إلى الناس، وكان الناس يحفرون نفق اليرابيع والجرذان، ليأكلوا ما فيها من حشرات. واستغاث عمر بولاة الأمصار أن يمدوه بالميرة والطعام، ففعلوا، وكانت سنة أصاب عمر من همها وبلائها وحزنها ما نحل معه جسمه، واسودَّ لونه، حتى قالوا: لو لم يرفع الله المحل وعام الرمادة، لظننا أن عمر يموت همًّا بأمر المسلمين.

ولقد كان يؤتى إليه من الأمصار بقوافل الطحين والسمن واللحوم، فيفرقها على المسلمين، ما يأكل منها شيئاً، وإنما كان يأكل الزيت والخبز الأسود، وكان يقول: لقد آليت على نفسي ألا آكل السمن واللحم حتى يشبع منهما المسلمون جميعا)[1].

(١) عظماؤنا في التاريخ، د. مصطفى السباعي ص ١٢٧-١٣٩.

الحديث رقم (٥٩٦)

٥٩٦- وعن عَطِيَّةَ بن عُروة السَّعْدِيِّ الصحابيِّ ﵁، قَالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ: ((**لاَ يَبْلُغُ العَبدُ أنْ يَكُونَ مِنَ المُتَّقِينَ حَتَّى يَدَعَ مَا لاَ بَأسَ بِهِ، حَذَراً مِمَّا بِهِ بَأسٌ**)) رواه الترمذيُّ[١]، وقال: (حديث حسن).

ترجمة الراوي:

عطية بن عروة السعدي: هو عطية بن عروة السعدي وقيل غير ذلك في اسم أبيه. وهو من بني سعد بن بكر وقيل غير ذلك.

أسلم ووفد مع قومه إلى المدينة وكان أصغرهم، ولاطفه النبي ﷺ، فكلمه بلغة قومه التي تقلب العين نوناً، فتقول في المعطية –المنطية. قال: قدمنا على رسول الله ﷺ في أناس من بني سعد بن بكر وكنت أصغر القوم، فخلفوني في رحالهم ثم أتوا رسول الله ﷺ فقضى حوائجهم ثم قال هل بقي منكم أحد؟ قالوا: يا رسول الله غلام منا خلفناه في رحالنا فأمرهم أن يبعثوا إليه، فأتوني فقالوا: أجب رسول الله ﷺ فأتيته فلما رآني قال: ما أغناك الله فلا تسأل الناس شيئاً، فإن اليد العليا هي المنطية واليد السفلى المنطاة وإن مال الله مسؤول ومنطي. فكلمني رسول الله بلغتنا[٢].

ولما حارب النبي ﷺ قبيلة هوازن في حنين وهزمهم وأسر منهم كلمه عطية في سبيهم أن يطلق سراحهم ويمنَّ عليهم.

نزل الشام، وله ثلاثة أحاديث، وهو جد عروة بن محمد بن عطية كان من ولاة عمر بن عبدالعزيز استعمله على اليمن، وكان من صالح الولاة[٣].

---

(١) برقم ٢٤٥١ وقال: حديثٌ حسنٌ غريبٌ، وقال ابن رجب في الفتح ١٦/١: في إسناده بعض مقال. أورده المنذري في ترغيبه ٢٥٩٣.

(٢) أخرجه ابن سعد وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني ١١٦٨ والطبراني في الكبير ٤٤٢/١٧ والحاكم ٣٢٧/٤ وابن عبدالبر في الاستيعاب، وحسّنه محقق الاستيعاب.

(٣) الطبقات الكبرى، ابن سعد (٤٣٠/٧)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٥٧٩، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٤٣/٤)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ص ٩١٥، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين (١٨٤/٥)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (١١٥/٣).

الشرح الأدبي

الحديث أسلوبه خبري يقرر معنى لا يتوقع له معارضا في هدوء، وثقة شأن أكثر الأساليب الخبرية، وهو حديث قصير بليغ قام على أسلوب النفي الذي يقرر أن منزلة المتقين لها أعمال ترتقي بها درجة غيرها من المنازل تستلزم درجة من الحساسية تجاه الحرام تجعله دائما تاركا لما فيه أدنى شك فهو لا يبتعد عن الحرام فقط، ولا عن المشتبه بالحرام، بل إنه قد يترك ما هو حلال إذا ظن أنه قد يؤدي إلى الحرام أو المشتبه به، وقد دل على ذلك بقوله (حَتَّى يَدَعَ مَا لاَ بَأسَ بِهِ، حَذَراً مِمَّا بِهِ بَأسٌ) قوله (ما لا بأس به) كناية عن الحلال البين، والتعبير بـ(حتي) لبيان المدي الذي يصل به العبد هذه الدرجة، وكلمة (حذرا) التي تصور التوجس، والخيفة من الحرام كما يخاف الإنسان وحوش الليل في البرية، قال الطيبي: إنما جعل المتقي من يدع ذلك لذلك لأن المتقي لغة اسم فاعل من وقاه فاتقى، والوقاية فرط الصيانة، وشرعا من يقي نفسه تعاطي ما يستوجب العقوبة من فعل، أو ترك، والحديث بإشارته إلى هذه المنزلة يقرر أن الناس درجات فليس كل الناس مسلمين، وليس كل المسلمين مؤمنين، وليس كل المؤمنين متقين، وليس كل المتقين أبرارا، وليس كل الأبرار مقربين، والمقربون منهم الشهداء، والصديقون، والأنبياء، وكل له مقام معلوم، فأين تتوقع أنت أن تكون منزلتك ؟!

المضامين الدعوية

أولاً: من صفات الداعية: بيان الحقائق للمدعوين.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: التقوى.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: الورع.

رابعاً: من أساليب الدعوة: الترغيب.

أولاً- من صفات الداعية: بيان الحقائق للمدعوين:

لقد بين النبي ﷺ درجة المتقين، وأن العبد لا يبلغ هذه الدرجة حتى (يترك فضول الحلال -كما قال المناوي- حذراً من الوقوع في الحرام)[1].

---

(١) كما في تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٩١٨/٢.

ومن هذا القبيل يمكن الاستشهاد كذلك بقوله ﷺ عن مكان التقوى: ((التَّقْوَى ههُنَا. وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ))(١) قال النووي: (معنى الرواية: أن الأعمال الظاهرة لا يحصل بها التقوى، وإنما تحصل بما يقع في القلب من عظمة الله تعالى وخشيته ومراقبته، ومقصود الحديث أن الاعتبار في هذا كله بالقلب)(٢).

ومن قبيل بيان النبي ﷺ للحقائق ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال النبي ﷺ: ((أصدَقُ كلمةٍ قالَها الشاعر كلمةُ لبيد: ألا كلُّ شيءٍ ما خَلا الله باطلُ))(٣).

قال أبو العباس القرطبي: (الباطل هنا: أراد به: المضمحلّ، المتغيِّر؛ الذي هو بصدد أن يهلك، ويتلف. هذا نحو من قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾(٤). ولا شكَّ في أنَّ هذه الكلمات أصدقُ ما يتكلَّم به ناظمٌ أو ناثرٌ؛ لأن مقدمتها الكليَّة مقطوعٌ بصحَّتها وشمولها عقلاً ونقلاً، ولم يخرج من كليتها شيءٌ قطعاً إلا من استثني فيها، وهو: الله تعالى؛ فإنَّه لم يدخل فيها قطعاً؛ فإنَّ العقلَ الصَّريح قد دل على أن كل ما نشاهده من هذه الموجودات ممكنٌ في نفسه، متغيِّرٌ في ذاته، وكل ما كان كذلك كان مفتقراً إلى غيره، وذلك الغير إن كان ممكناً متغيراً كان مثل الأول؛ فلابدَّ أن يستندَ إلى موجودٍ لا يفتقر إلى غيره، يستحيل عليه التغيُّر، وهو المعبَّر عنه في لسان النظَّار: بواجب الوجود. وفي لسان الشرع: بالصمد المذكور في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾(٥)، وبقوله: ﴿...ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾(٦). وعند الانتهاء إلى هذا المقام يفهم معنى قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾(٧)(٨).

---

(١) أخرجه مسلم ٢٥٦٤.

(٢) شرح النووي ١٥٣٨.

(٣) أخرجه البخاري ٣٨٤١، ومسلم ٢٢٥٦.

(٤) سورة القصص، الآية: ٨٨.

(٥) سورة الإخلاص، الآيتان: ١، ٢.

(٦) سورة النور، آية:٢٥.

(٧) سورة الرحمن، الآيتان: ٢٦، ٢٧.

(٨) المفهم ٥/٥٢٧-٥٢٨، وانظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧/١٨٨.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: التقوى:

إن منزلة التقوى منزلة لا ينالها إلا المؤمنون الصادقون المخلصون الورعون، الذين قد يدعون ويتركون بعض المباح خوفاً من الوقوع في الحرام، وهذا قد بينه النبي ﷺ بقوله: "لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع مالا بأس به حذراً مما به بأس".

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: (لا يبلغ العبدُ حقيقة التقوى حتى يدع ما حاك في الصدر)[1] وذكر ابن تيمية قول ابن عمر هذا بلفظ: (لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يجعل بينه وبين الحرام حاجزاً من الحلال)[2] قال ابن حجر: (المراد بالتقوى وقاية النفس عن الشرك والأعمال السيئة والمواظبة على الأعمال الصالحة... وقد أخرج ابن أبي الدنيا في كتاب التقوى عن أبي الدرداء قال: تمام التقوى أن تتقي الله حتى تترك ما ترى أنه حلال خشية أن يكون حراماً)[3].

قال الطيبي: (إنما جعل المتقي من يدع ما لا بأس به حذراً لما به بأس؛ لأن المتقي في اللغة اسم فاعل من قولهم: وقاه فاتقى، والوقاية فرط الصيانة ومنه فرس واقٍ. وهذه الدابة تقي من وجاها، إذا أصابها ضلع من غلظ الأرض ورقةِ الحافر، فهي تقي حافرها أن يصيبها أدنى شيء يؤلمه، وهو في الشريعة: الذي يقي نفسه تعاطي ما يستحق به العقوبة من فعل أو ترك.

وقيل: التقوى على ثلاث مراتب:

الأولى: التوقي عن العذاب المخلد بالتبري من الشرك كقوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾[4].

---

(١) علقه البخاري في صحيحه في أول باب في كتاب الإيمان ص ٢٥ وبعده الحديث رقم ٨. وقال الحافظ ابن حجر: ولم أره إلى الآن موصولاً.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٦٢/١٥ دون أن يعزوه لابن عمر.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦٣/١.

(٤) سورة الفتح، آية: ٢٦.

والثانية: التجنب عن كل ما يؤثم من فعلٍ أو تركٍ حتى الصغائر عند قوم، وهو المتعارف بالتقوى في الشرع. والمعنيُّ بقوله ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟﴾[١].

والثالثة: أن يتنزه عما يشغل سره عن الحق، ويتبتل بشراشره[٢] إلى الله. وهو التقوى الحقيقية المطلوبة بقوله: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾[٣] والحديث وإن استشهد به للمرتبة الثانية، فإنه يجوز أن ينزل على المرتبة الثالثة)[٤].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: الورع:

إن الورع من الوسائل الموصلة إلى التقوى، لذا بيّن الحديث أهمية الورع بأن جعل العبد لا يصل إلى درجة المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس، قال المناوي: (أي يترك فضول الحلال حذراً من الوقوع في الحرام)[٥].

وقال د. الحسيني عبدالمجيد هاشم: (من شرائط التقوى توقي الشبهات وترك الحلال المشتبه فيه إذا جرّ إلى الحرام، أو ارتبط به ارتباطاً وثيقاً، وذلك طريق الارتقاء والكمال. وفي الحديث الحث على كمال المراقبة والابتعاد عن الحرام وما يجرّ إليه)[٦].

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم والتابعون يفعلون ذلك: قال ابن عمر رضي الله عنهما: إني لأحب أن أدع بيني وبين الحرام سترة من الحلال ولا أخرمها[٧]. وقال سفيان بن عيينة: لا يصيب العبد حقيقة الإيمان حتى يجعل بينه وبين الحرام حاجزاً من الحلال، وحتى يدع الإثم وما تشابه منه[٨].

---

(١) سورة الأعراف، آية: ٩٦.

(٢) الشراشر: أطراف الأجنحة والجسم بجملته. الواحدة: شُرْشُرَة وقالوا: ألقى عليه شراشره: أعباءه وهمومه أو ألقى عليه نفسه حرصاً ومحبة. الوسيط، مجمع اللغة العربية ٤٧٨.

(٣) سورة آل عمران، آية:١٠٢.

(٤) شرح الطيبي على المشكاة ٢٤/٦.

(٥) كما في تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٩١٨/٢.

(٦) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني عبدالمجيد هاشم ص ٣٧٤.

(٧) كتاب الورع، أحمد بن حنبل ص ٤٨.

(٨) المرجع السابق ٤٧.

وقال الحسن البصري[١] : إن أيسر الناس حساباً يوم القيامة الذين حاسبوا أنفسهم لله في الدنيا فوقفوا عند همومهم وأعمالهم، فإن كان الذي همُّوا به لله مضوا فيه، وإن كان عليهم أمسكوا. وإنما يثقل الحساب يوم القيامة على الذين جازفوا الأمور في الدنيا، أخذوها على غير محاسبة فوجدوا الله قد أحصى عليهم مثاقيل الذر. ثم قرأ: ﴿ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[٢].

وقال ابنُ تيمية مبيناً فائدة ترك بعض الحلال للخروج من التعود على المعصية يقول: (وذلك لأن النفوس إذا اعتادت المعصية فقد لا تنفطم عنها انفطاماً جيداً إلا بترك ما يقاربها من المباح كما قيل: "لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يجعل بينه وبين الحرام حاجزاً من الحلال")[٣].

رابعاً– من أساليب الدعوة: الترغيب:

لقد رغب رسول الله ﷺ في التقوى والوصول إليها بأن جعل طريق ذلك ترك فضول الحلال حذراً من الوقوع في الحرام والإثم. ولاشك أن المتقين لهم عند الله مكانة كبيرة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[٤] وجعل الله جزاءهم الجنة: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴾[٥]. فكان الحديث حضاً وترغيباً على ترك بعض المباح من أجل الوصول إلى درجة المتقين الفائزين في الدنيا والآخرة.

---

(١) السابق ص ٢٩.

(٢) سورة الكهف، آية:٤٩.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٦٢/١٥.

(٤) سورة الحجرات، آية:١٣.

(٥) سورة الرعد ، آية:٣٥.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

أولاً- التربية على الورع وترك الشبهات:

إن التربية على الورع وترك الشبهات من أهم جوانب التربية الخلقية التي تعتني التربية الإسلامية بغرسها في نفوس المتربين،ومن ثَمَّ وجب على المشتغلين بالتربية من الدعاة والمعلمين والآباء الاهتمام بتعميق قيمة الورع وتأصيلها، وأحاديث الباب الذي معنا تؤكد على هذا الجانب، ومنها "إن الحلال بيّن وإن الحرام بيّن وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه..."، وحديث: "دع ما يريبك إلى مالا يريبك"، وحديث: «لاَ يَبْلُغُ الْعَبْدُ أَنْ يَكُونَ مِنَ المتَّقِينَ حَتَّى يَدَعَ مَالاَ بَأْسَ بِهِ حَذَرًا لِمَا بِهِ البَأْس». وغير ذلك.

"إن الورع هو ترك ما يريبك، ونفي ما يعيبك، والأخذ بالأوثق، وحمل النفس على الأشق، وقيل: هو ترك التسرع إلى تناول أعراض الدنيا.

وقال سفيان الثوري: عليك بالورع يُخفف اللهُ حسابك، ودع ما يريبك إلى مالا يريبك، وادفع الشك باليقين يسلم لك دينك، وقال يونس بن عبيد الله: الورع الخروج من كل شبهة ومحاسبة النفس في كل طرفة عين، وقال خالد بن معدان: من لم يكن له حِلْم يضبط به جهله، وورع يحجزه عما حرم الله عليه، وحسن صحابة عمن يصحبه فلا حاجة لله فيه" (١).

فالواجب على المربين أن يغرسوا في نفوس المتربين أن الورع وترك الشبهات إنما يكون لأجل الله تعالى، وتعظيمًا له، وخوفًا منه سبحانه.

قال ابن القيم: "والورع أن يتوقى الحرام والشُّبَه، وما يخاف أن يضره أقصى ما يمكنه من التوقي. والتوقي فعل الجوارح، والحذر فعل القلب، ويكون الباعث على الورع عن المحارم والشُّبَه: إما حذر الوعيد وإما تعظيم الرب -جلا جلاله- وإجلالاً له أن

---

(١) الموسوعة "الأم في تربية الأولاد في الإسلام"، د. أحمد مصطفى متولي، ص١/٧٣٥.

يتعرض لما نهي عنه، فقد يتوقى العبد شيئًا لا على وجه الحذر والخوف، ولكن لأمور أخرى، من إظهار نزاهة وعزة وتصوف أو اعتراض آخر كتوقي الذين لا يؤمنون بمعاد ولا جنة ولا نار ما يتوقونه من الفواحش والدناءة تصونًا عنها، ورغبة بنفوسهم عن مواقعتها، وطلبًا للمحمدة ونحو ذلك"(١).

ثانيًا- التربية عن طريق التشبيه:

إن من أساليب التربية المؤثرة في نفوس المتربين التربية عن طريق التشبيه، وفي أحاديث الباب استعمل النبي ﷺ أسلوب التشبيه في إيضاح المقصود، وبيان المراد، وذلك في قوله ﷺ: " وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ...".

وما من شك في "أن الصورة المحسوسة أقرب تصورًا وأسرع فهمًا، وأثبت بقاء لأنها تحدد الأبعاد وتبرز الأجزاء، وتوضح منها ما يخفى، قد تراها بالعين، أو تتخيلها بالخاطر أو تتحسسها باليد، أو تستوعبها بالأذن، وقد يشترك كل أولئك في التقاطها فترتسم واضحة المعالم محددة الأجزاء زاهية الألوان نابضة بالحركة، ولهذا كان أسلوب التشبه من أساليب البلاغة القرآنية أو البلاغة النبوية.

إن الصورة التشبيهية تدع بين يديك وأمام عينيك حالتين متشابهتين لتتفحص كل حالة وتدرسها وتحللها، فإذا حكمت بعد ذلك لإحداهما أو على إحداهما كان حكمك بعيدًا عن الخطأ قريبًا من الصواب" (٢).

ثالثًا- التربية بالقدوة والممارسة العملية:

يعتبر أسلوب القدوة والممارسة العملية من أنجح الأساليب التربوية المؤثرة في سلوك الآخرين، ومن أحاديث الباب التي تبين التربية على الورع وترك الشبهات من خلال أسلوب القدوة والممارسة العملية ما جاء عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ وجد تمرة في الطريق، فقال: لولا أني أخاف أن تكون من الصدقة لأكلتها".

---

(١) مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية، ٢/ ٢٣.

(٢) التربية الإسلامية "دراسة مقارنة"، د. محمد أحمد جاد صبح، ١/ ١٢٥.

"والتربية بالقدوة تطبيق عملي يثبت القدرة والاستطاعة الإنسانية على التخلي عن الانحرافات، والتحلي بفضائل الأعمال والأقوال، فهي تنقل المعروف من الحيز النظري إلى الجانب التطبيقي المؤثر فتلامس بها الأبصار والآذان والأفئدة، فيحصل الاقتناع والإعجاب ثم التأسي. والمشاهدة العينية للسلوك المراد تربية الإنسان عليه أقوى وأبلغ في التأثير من أسلوب المقال لأن مشاهدة السلوك تبين وتترجم إمكانية التطبيق وتعطي قناعة بذلك، وتؤكد أهمية الأخذ به" [(١)].

رابعًا- التربية بالقصة:

من وسائل التربية المؤثرة التربية من خلال القصة لما لها من أثر على النفوس، ومما جاء في أحاديث الباب التربية على الورع وترك الشبهات من خلال القصة، ما جاء عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: "كان لأبي بكر الصديق رضي الله عنه غلام يخرج له الخراج..." وما جاء عن نافع: "أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان فرض على المهاجرين الأولين...".

"إن التربية بالقصة لون آخر من التربية يستخدم الحادث، ولكنه حادث خارجي، يقع لأشخاص غير قارئي القصة أو مستمعيها، ومع ذلك فهو مؤثر في النفس كما لو كان يقع للقارئ أو المستمع ذاته، وقارئ القصة أو مستمعها يضع نفسه مع أشخاص القصة أو يضع نفسه إزاءهم ويظل طيلة القصة يعقد مقارنة خفية بينهم وبينه، ومنهج التربية الإسلامية يدرك الميل الفطري إلى القصة، ويدرك ما لها من تأثير ساحر على القلوب فيستغلها كوسيلة من وسائل التربية والتقويم"[(٢)].

ويجب على المربين استعمال القصة في توجيه المربين، وغرس القيم والفضائل في نفوس الناشئة، واستغلال تأثيرها على المتلقين.

خامسًا- من الأساليب التربوية:

وردت عدة أساليب تربوية، في أحاديث الباب يستفاد منها في التعليم والتربية، ما يلي:

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي، ٣٨٠، ٣٨١.

(٢) انظر: منهج التربية في التصور الإسلامي، د. علي أحمد مدكور ص٤٤١، ٤٤٢.

أ-الإلقاء: كقوله ﷺ: ((إنَ الْحَلاَلَ بَيِّنٌ، وَالْحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لاَ يَعْلَمُهَن كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ...)) الحديث، وأسلوب الإلقاء يمَكّن المعلم من عرض أكبر قدر من المعلومات على المتعلمين في وقت قصير، وهو يناسب المراحل العليا من التعليم، كالمرحلة الثانوية والمرحلة الجامعية.

ب-التربية بالمواقف: كما في حديث أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ وجد تمرة في الطريق، فقال: ((لَوْلاَ أني أَخَافُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الصَّدَقَةِ لأَكَلْتُهَا))، وقد استثمر النبي ﷺ هذا الموقف بأحسن ما يكون وعلّم أصحابه الورع وترك الشبهات. وكذلك على المربي البارع ألا يترك المواقف تمر من بين يديه دون أن يغرس قيمة تربوية مهمة أو يزرع سلوكًا طيبًا في نفوس المتعلمين، وما أكثر المواقف التي تقع في الحياة بصفة يومية، كما أن التربية بالمواقف يظل أثرها باقيًا في نفوس المتعلمين.

ج-المناقشة والحوار: كما في حديث أبي سِرْوعة عقبة بن الحارث رضي الله عنه((أنَه تَزوَّجَ ابنةً لأبي إهابِ بنِ عَزِيزٍ فأَتَتْهُ امرأةٌ فقالَتْ: إنِّي قد أرضَعتُ عُقبة والتي تَزوَّجَ بهَا...)) الحديث، والمناقشة والحوار من الأساليب التي يُفَعَّل فيها دور المتعلم كما أنه أسلوب يتميز بقوة بقاء أثر التعلم في نفوس المتعلمين.

٦٩- باب استحباب العزلة عند فساد الناس والزمان

أو الخوف من فتنة في الدين ووقوع في حرام وشبهات ونحوها

قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾[الذاريات: ٥٠].

الحديث رقم (٥٩٧)

٥٩٧- وعن سعد بن أَبي وقاص ﵁، قَالَ: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ، يقول: ((**إنَّ الله يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ الغَنِيّ الْخَفِيَّ**)) رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

سعد بن أبي وقاص: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٦).

غريب الألفاظ:

الغَنيّ: غَنيُّ النَّفسِ[٢]. وغنى المال كذلك.

الخفي: المعتزل عن الناس الذي يخفي عليهم مكانُه، فهو لا يُحبُّ الظهور والشُّهْرَة[٣]. وهو ينفق المال، حتى يتمنى أن لا تعلم شماله ما تنفق يمينه.

الشرح الأدبي

الحديث يتناول نوعا من العباد اختص بميزة في الدنيا خصته بمحبة الله، وهي أعظم ما يسعى إليه المحبون فكم من محب لحبيب لا يعيره نظرا !، وهؤلاء نالوا محبة الله تعالى التي تعني التوفيق، والتقريب، والحماية من كل ما يخشاه المؤمن في حياته، وبعد مماته وقول الرسول ﷺ (إنَّ الله يُحِبُّ) مؤكدة بحرف التوكيد، واسمية الجملة، تعظيما للخبر، وصرفا للمخاطبين للعناية به، ثم إن تصدر لفظ الجلالة

---

(١) برقم ٢٩٦٥/١١. أورده المنذري في ترغيبه ٤٠٢٩.

(٢) رياض الصالحين ٢٦٩.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (خ ف ي).

الكلام له وقع خاصة لاسيما في نفوس المؤمنين الذين توجل قلوبهم بذكره لأنه يبث في النفوس الهيبة والجلال بقدر صفاء هذه النفوس﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [سورة الحج:٣٥] هذا بالإضافة إلى ما يوفره لفظ الجلالة على الحوار من الخضوع، والإذعان، والإنصات المهيأ للقبول، ولهذا اللفظ الأجلّ من الإشعاع ما ليس للفظ غيره من كل ألفاظ كل لغات البشر، وقوله (العبد) اللام فيه للجنس فيشمل كل عبد كانت هذه صفته وجملة الصفات بعده تبين الخصوصية التي أوجبت له المحبة وهي جملة الصفات (التَّقِيَّ الغَنِيّ الْخَفِيَّ) وليست على انفرادها ؛ لأن التقوى تستلزم مراقبة الله تعالى فتضبط حركته، وسكنته بضابط الشرع، والغنى يستلزم ذله لله وحده، واستغنائه عن الناس، وهو شعور قلبي يجعله يستشعر أنه مالك للدنيا ؛ لأنه يتصرف بحول الله، وقوته فما عساه أن يحتاج من الناس ؟!، وقوله (الخفي) يستلزم الإخلاص، والخمول في الناس، لأنه مشغول بالله عن الناس، ولذلك استحق -تفضلا - هذه المحبة الغالية من ربه.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: محبة الله تعالى لعبده التقي غني النفس غني المال من حلال.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: فضل اعتزال الناس عند خوف الفتنة.

رابعاً: من أساليب الدعوة: الترغيب.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: كثرة الصفات الطيبة تجلب حب الله للإنسان المسلم.

أولاً- من أساليب الدعوة: التوكيد:

هذا واضح من استخدام النبي ﷺ: "إن" المؤكدة، وذلك ليؤكد حب الله تعالى لمن اتصف بالتقوى وبغنى النفس وجاد ببعض ما يملك.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: محبة الله تعالى لعبده التقي غني النفس غني المال من حلال:

من كرم الله على عباده أن أحبّ بعضهم، فمن هؤلاء الذين أنعم الله عليهم بتلك

المحبة من اتصفوا بالتقوى وغنى النفس ولم ينسوا عبادته، يتضح هذا من عموم الحديث.

قال الطيبي: (التقي قيل: هو الذي يتقي المحارم والشبهات ويتورع عن المشتهبات)[١].

وقال ابن هبيرة: (يعني بالتقي الورع عن محارم الله تعالى، والغني بالله سبحانه، والخفي يكون حريصاً على إخفاء فقره، فبذلك يكون خفياً، إذ لو كان مثل هؤلاء يظهرون السؤال لم يخف له حال)[٢].

وقال النووي: (المراد بالغنى غني النفس هذا هو الغنى المحبوب لقوله ﷺ: ((وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ))[٣]، وأشار القاضي [أي: عياض] إلى أن المراد: الغنى بالمال. وأما الخفي فمعناه: الخامل المنقطع إلى العبادة والاشتغال بأمور نفسه)[٤].

وقال ابن هبيرة: (أما الغني الحقيقي الذي لا فقر معه فإنه غنى النفس بربها سبحانه وتعالى، لأن النفس ههنا معرفة بالألف واللام لا يشار بها إلى النفس التي لا تحتاج إلى غير ربها، ومن استغنى بربه افتقر إليه كل شيء، فمتى استغنت نفس بربها عز وجلّ عن جميع خلقه، فذاك هو الغنى على الحقيقة، لا وجود شيء يوجب زيادة فقر)[٥].

وقال أبو العباس القرطبي: (الغنى يعنى به: من استغنى بالله، ورضى بما قسم الله له، وقيل يعنى به غنى النفس، والخفي يعنى به الخامل الذي لا يريد العلوّ فيها ولا الظهور في مناصبها)[٦].

وقال الطيبي: (إن الصفات الثلاث الجارية على العبد واردة على التفضيل والتمييز،

---

(١) شرح الطيبي على المشكاة ٣٥١/٩ - ٣٥٢.

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٣٥٠/١.

(٣) أخرجه البخاري ٦٤٤٦، ومسلم ١٠٥١.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٧١١. وانظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٥١٦/٨.

(٥) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٢٤٦/٧.

(٦) المفهم، القرطبي ١٢٠/٧.

فالتقي يخرج للعاصي والغني للفقير والخفي على الروايتين لما يضادهما، فإذا قلنا: إن المراد بـ (الغنى) غنى القلب، اشتمل على الفقير الصابر والغني الشاكر فعمّ وكان أولى وعلى هذا الخفي - بالخاء المعجمة- أنسب؛ لأن الغني حينئذ تكميل للتقي والخفي تتميم للغني، لأن غني القلب مستغن بالله عن الخلق ويؤثر العزلة استيناساً بالله تعالى)[1].

وقال د. عائض القرني عن فوائد العزلة: (وأقصد بها العزلة عن الشرّ وفضول المباح وهي مما يشرح الخاطر ويذهب الحزن، قال ابن تيمية: لابد للعبد من عزلة لعبادته وذكره وتلاوته ومحاسبته لنفسه ودعائه واستغفاره وبعده عن الشر ونحو ذلك.

ولقد عقد ابن الجوزي ثلاثة فصول في "صيد الخاطر"[2] ملخصها أنه قال: ما سمعت ولا رأيت كالعزلة راحة وعزاً وشرفاً. وبعداً عن السوء وعن الشرّ. وصوناً للجاه والوقت وحفظاً للعمر، وبعداً عن الحُسَّاد والثقلاء والشامتين وتفكراً في الآخرة واستعداداً للقاء الله - عز وجل - واغتناماً في الطاعة وجولان الفكر فيما ينفع وإخراج كنوز الحكم والاستنباط في النصوص. ونحو ذلك من كلامه الذي ذكره في العزلة، هذا معناه بتصرف)[3].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: فضل اعتزال الناس عند خوف الفتنة:

الحديث في صحيح مسلم نصه كالآتي: (كان سعد بن أبي وقاص في إبله فجاء ابنه عمر، فلما رآه سعد قال: أعوذ بالله من شر هذا الراكب فنزل فقال له: أنزلت في إبلك وغنمك وتركت الناس يتنازعون الملك بينهم؟ فضرب سعد في صدره فقال: اسكت سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي).

قال النووي: (وفي هذا الحديث حجة لمن يقول: الاعتزال أفضل من الاختلاط...، ومن قال بالتفضيل للاختلاط قد يتأول هذا الاعتزال وقت الفتنة ونحوها)[4]. لما فيه من

---

(١) شرح الطيبي على المشكاة ٣٥٢/٩.

(٢) صيد الخاطر، ابن الجوزي، تحقيق: عبدالقادر عطا ١٣٧، ٣٥٥، ٥١٣.

(٣) لا تحزن ١١٤-١١٥.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٧١١.

البعد عن الفتن والمحافظة على سلامة الدين وعدم الخوض مع الخائضين.

وفي الحديث: ((يُوشِكُ أن يكونَ خَيْرَ مالِ المُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بها شَعَفَ الجِبالِ، وَمَوَاقِعَ القَطْرِ، يَفِرُّ بدينِهِ مِنَ الفِتَنِ))(١).

قال ابن حجر: (والخبر دال على فضيلة العزلة لمن خاف على دينه، وقد اختلف السلف في أصل العزلة فقال الجمهور: الاختلاط أولى لما فيه من اكتساب الفوائد الدينية للقيام بشعائر الإسلام وتكثير سواد المسلمين وإيصال أنواع الخير إليهم، من إعانة وإغاثة وعيادة وغير ذلك، وقال قوم: العزلة أولى لتحقيق السلامة بشرط معرفة ما يتعين)(٢).

جاء في الموسوعة الفقهية: (تظاهرت نصوص الكتاب والسنّة على التحذير من الفتن والأمر بتجنبها واعتزالها وعدم الخوض فيها، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾(٣)، وما روته عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يدعو في الصلاة ((اللّهمَّ إني أعوذُ بكَ من عذاب القبرِ، وأَعوذ بكَ من فِتنةِ المسيحِ الدَجّالِ، وأَعوذُ بكَ من فتنةِ المحيا وفتنةِ المَماتِ. اللّهمَّ إني أعوذُ بكَ مِنَ المأْثمِ وَالمَغْرَمِ))(٤) قال ابن دقيق العيد(٥): فتنة المحيا ما يعرض للإنسان في مدة حياته من الافتتان بالدنيا والشهوات والجهالات وأعظمها والعياذ بالله أمر الخاتمة عند الموت)(٦).

رابعاً- من أساليب الدعوة: الترغيب:

لقد رغب النبي ﷺ في هذه الصفات: التقوى وغنى النفس والانقطاع إلى العبادة والاشتغال بأمور النفس، وحثّ على اكتسابها بأن أخبر أن الله يحب العبد المتصف

---

(١) أخرجه البخاري ٧٠٨٨.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٦/١٣.

(٣) سورة الأنفال، آية:٢٥.

(٤) أخرجه البخاري ١٣٧٧، ومسلم ٥٨٨.

(٥) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ابن دقيق العيد ص ١٦٦.

(٦) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٨/٣٢.

بهذه الصفات، وإذا أحب الله العبد أكرمه وجزاه خير الجزاء، فكان في هذا الحديث ترغيب للمدعوين أن يسارعوا إلى التحلي بهذه الصفات وتلك الشمائل حتى يكونوا ممن يحبهم الله فينعم عليهم بفضله ومنِّه.

خامساً- موضوعات الدعوة: كثرة الصفات الطيبة تجلب حب الله للإنسان المسلم:

إن التقوى تدفع إلى اتباع أوامر الله والغنى يجعل المال في يد العبد وإخراج الحق الشرعي يكون في السر لا في العلن، وذلك مما يكسب الإنسان الصفات الحميدة.

الحديث رقم (٥٩٨)

٥٩٨- وعن أَبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قَالَ رَجُلٌ: أيُّ النَّاسِ أفْضَلُ يَا رسولَ الله؟ قَالَ: ((**مُؤْمِنٌ مُجَاهِدٌ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فِي سَبيلِ اللهِ**)) قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ((**ثُمَّ رَجُلٌ مُعْتَزِلٌ**[1] **فِي شِعْبٍ مِنَ الشِّعَابِ يَعْبُدُ رَبَّهُ**))[2].

وفي روايةٍ[3]: ((**يَتَّقِي اللهَ، وَيَدَعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ**)) متفقٌ عَلَيْهِ[4].

ترجمة الراوي:

أبو سعيد الخدري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٠).

غريب الألفاظ:

شِعْبٍ: وهو الطريق في الجبل وما انفرج بين الجبلين، والجمع شِعاب[5].

الشرح الأدبي

الحديث يقرر فضل الجهاد، والعزلة للعبادة وتقوى الله يقوم على الحوار عن طريق السؤال، والجواب الذي يدل حيوية النص، والتواصل بين المتحاورين، وقد بدأ الحديث بسؤال من رجل (أيُّ النَّاسِ أفْضَلُ يَا رسولَ الله؟) والاستفهام ليس عن العمل بل عن صاحبه الذي نال به الأفضلية، وفي هذا تنويه بالعمل، وقول الرسول ﷺ (مُؤْمِنٌ مُجَاهِدٌ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فِي سَبيلِ اللهِ) الكلام فيه إيجاز بالحذف أي أفضل الناس مؤمن ...، وذكر الجهاد بعد الإيمان يشير إلى سبب الأفضلية على عامة المؤمنين، وتقييد الجهاد بالنفس، والمال يعطيه خصوصية يفضل بها كل المجاهدين، وتقييد الجهاد

---

(١) (معتزل) لا توجد عندهما، وهي من الجمع للحميدي ٤٣٢/٢، رقم ١٧٤٦.

(٢) أخرجه البخاري ٦٤٩٤، ومسلم ١٨٨٨/١٢٢. أورده المنذري في ترغيبه ١٩٥٢.

(٣) أخرجه البخاري ٢٧٨٦ عن شعيب، عن الزهريّ.

(٤) أخرجه البخاري ٢٧٨٦، و ٦٤٩٤، ومسلم ١٨٨٨/١٢٢ والسياق للحميدي في جمعه ٤٣٢/٢، رقم ١٧٤٦. وسيكرره المؤلف برقم ١٢٩١.

(٥) الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ش ع ب)، ودليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٨٧٤.

بالجار، والمجرور (في سبيل الله) ينص على صفة الإخلاص لله في إتيان العمل، وسؤال الرجل (ثُمَّ مَنْ ؟) سؤال عن مرتبة أسهل في أسبابها ، ولعله رأى فيما أجيب به مشقة لا يستطيعها فسئل غيرها كأنه يسأل عن خصوصية له يستطيع أن يأتيها فجاءت إجابة النبي ﷺ (ثُمَّ رَجُلٌ مُعْتَزِلٌ فِي شِعْبٍ مِنَ الشِّعَابِ يَعْبُدُ رَبَّهُ) والربط بـ (ثم) خاصة يشير إلى مسافة يعلمها الله بين الاثنين في الأفضلية، وتنكير (رجل) لعدم إرادة التخصيص لتشمل كل رجل على هذه الصفة، وقوله (فِي شِعْبٍ مِنَ الشِّعَابِ) جناس يؤكد معنى الاعتزال بانفصال المكان عن الناس، والفعل المضارع في قوله (يعبد الله) يصور التجدد في أنواع العبادات ما بين صلاة، وصيام، وذكر وهو الانقطاع الهادف الموصول بالله، وليس مطلق انقطاع بل إنه لتفريغ القلب، والجوارح للعبادة .

فقه الحديث

حكم العزلة: ذهب العلماء إلى أفضلية العزلة عند ظهور الفتن وفساد الناس، إلا أن يكون للإنسان قدرة على إزالة الفتنة ، فإنه يجب عليه السعي في إزالتها بحسب الحال والإمكان[1]. وأما في غير أيام الفتنة فقد اختلف العلماء في المفاضلة بين العزلة والاختلاط ولكلٍّ أدلته[2].

وذهب بعض العلماء إلى أن حكم العزلة والمخالطة يختلف باختلاف الأشخاص، فمنهم من يتحتم عليه أحد الأمرين، ومنهم من يترجّح في حقه أحدهما[3].

ونقل ابن حجر عن الخطابي: (أن العزلة والاختلاط يختلفان باختلاف متعلقاتهما

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني ١٦٣/١ ط المنيرية، وتفسير القرطبي ٤٨٧/٩، ٢١٦/١٣-٢١٩ ط/ الرسالة، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٨٣/٣٠.

(٢) انظر: العزلة للخطابي بتحقيق: ياسين محمد ياسين، ص ٥٣، نشر دار ابن كثير، وإحياءعلوم الدين ٢٢٣/٢، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٣٠/١٣/٧، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٢/١٣-٤٣، وعمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني ١٦٣/١، والآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ١١٨/٤-١٢٧، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٨٣/٣٠-٨٥.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٣/١٣، وانظر: الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ١٢٠/٤.

فتحمل الأدلة الواردة في الحضّ على الاجتماع على ما يتعلق بطاعة الأئمة وأمور الدين وعكسها في عكسه، وأما الاجتماع والاقتران بالأبدان، فمن عرف الاكتفاء بنفسه في حق معاشه ومحافظة دينه، فالأولى له الانكفاف عن مخالطة الناس، شرط أن يحافظ على الجماعة والسلام والرد، وحقوق المسلمين من العيادة وشهود الجنازة ونحو ذلك. والمطلوب إنما هو ترك فضول الصحبة، لما في ذلك من شغل البال وتضييع الوقت عن المهمات ويجعل الاجتماع بمنزلة الاحتياج إلى الغذاء والعشاء، فيقصر منه على ما لا بد له منه فهو أروح للبدن والقلب)[١].

المضامين الدعوية

أولاً: من آداب المدعو: السؤال عن أفضل الأعمال وأفضل المؤمنين.

ثانياً: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: فضل الجهاد بالنفس والمال في سبيل الله.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: فضل العزلة عند الفتن.

خامساً: من واجبات المدعو: كف الأذى عن الناس.

أولاً- من آداب المدعو: السؤال عن أفضل الأعمال وأفضل المؤمنين:

من علامات حرص المدعو على الامتثال والتسابق إلى الطاعات السؤال عن معالي الأمور وأحسن الأعمال وأفضل المؤمنين، وذلك ليفعل ما هو أحب إلى الله تعالى وأكثر ثواباً عنده. ولقد كان الصحابة رضي الله عنهم أحرص الناس على هذا، فقد سأل الرجل النبي ﷺ فقال: أي الناس أفضل يا رسول الله؟ ولما أجابه النبي ﷺ سأله عن المؤمن الذي يليه في الفضل.

وهكذا كان حال الصحابة، دوماً يسألون عن أفضل الأعمال وخير المسلمين، وقد اعتنى المحدثون بجمع الأحاديث التي تدل على ذلك، وخاصة مسلم بن الحجاج،

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١/٣٣٢-٣٣٣، ، وانظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٣٠/٨٥.

فقد ساق في كتاب الإيمان من صحيحه حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: ((سُئِلَ رَسُولُ اللّهِ: أَيُّ الأَعمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: إِيمَانٌ بالله قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: حَجٌّ مَبْرُورٌ))(١).

كما ساق أيضاً حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: ((قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللّهِ!، أَيُّ الأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: الإِيمَانُ بالله وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ قَالَ قُلْتُ: أَيُّ الرِّقَابِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: أَنْفَسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا، وَأَكْثَرُهَا ثَمَنا))(٢).

وساق كذلك حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: ((سَأَلْتُ رَسُولَ اللّهِ صلى الله عليه وسلم: أَيُّ الأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللّهِ؟ قَالَ: الصَّلاَةُ عَلَى وَقْتِهَا قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: ثُمَّ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللّهِ))(٣).

وقد بوّب النووي على هذه الأحاديث: باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال.

كما ساق الإمام مسلم حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما: ((أَنَّ رَجُلاً سَأَل رسولَ اللّهِ صلى الله عليه وسلم: أَيُّ الإِسْلاَمِ خَيرٌ؟ قال: تُطْعِمُ الطَّعَامَ وَتَقْرَأُ السَّلاَمَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لم تَعْرِفْ))(٤).

وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما: ((أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ رَسُولَ اللّهِ صلى الله عليه وسلم: أَيُّ الْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ؟ قَالَ: مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ))(٥).

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قلت: ((يا رسولَ اللّهِ، أيُّ الإسلام أفضلُ؟ قال: مَنْ سَلِمَ المسلمونَ مِنْ لِسانِهِ ويَدِهِ))(٦).

---

(١) أخرجه البخاري ٢٦، ومسلم ٨٣.

(٢) أخرجه البخاري ٢٥١٨، ومسلم ٨٤.

(٣) أخرجه البخاري ٥٢٧، ومسلم ٨٥.

(٤) أخرجه البخاري ١٢، ومسلم ٣٩.

(٥) أخرجه البخاري ١٠، ومسلم ٤٠.

(٦) أخرجه مسلم ٤٢.

وقد بوّب النووي لهذه الأحاديث: بباب بيان تفاضل الإسلام، وأي أموره أفضل وقد نقل النووي أن اختلاف جواب النبي ﷺ على أسئلة الصحابة على (حسب اختلاف الأحوال والأشخاص فإنه قد يقال: خير الأشياء كذا، ولا يراد به خير جميع الأشياء من جميع الوجوه، وفي جميع الأحوال والأشخاص، بل في حال دون حال أو نحو ذلك.

الوجه الثاني: أنه يجوز أن يكون المراد من أفضل الأعمال كذا أو من خيرها أو من خيركم من فعل كذا فحذفت من، وهي مرادة كما يقال: فلان أعقل الناس وأفضلهم ويراد أنه من أعقلهم وأفضلهم... وعلى هذا الوجه الثاني يكون الإيمان أفضلها مطلقاً، والباقيات متساوية في كونها أفضل الأعمال والأحوال، ثم يعرف فضل بعضها على بعض بدلائل تدل عليها وتختلف باختلاف الأحوال والأشخاص)[1].

قال ابن القيم مبيناً أثر الهمة العالية في جعل العبد يطلب المطالب العالية والأمور المهمة، قال: (المطلب الأعلى موقوف حصوله على همّة عالية ونية صحيحة. فمن فقدهما تعذّر عليه الوصول إليه، فإن الهمة إذا كانت عالية تعلقت به وحده دون غيره. وإذا كانت النية صحيحة سلك العبد الطريق الموصلة إليه. فالنية تفرد له الطريق والهمة تفرد له المطلوب. فإذا توحّد مطلوبه والطريق الموصلة إليه كان الوصول غايته. وإذا كانت همته سافلة تعلقت بالسفليات ولم تتعلق بالمطلب الأعلى. وإذا كانت النية غير صحيحة كانت طريقة غير موصلة إليه. فمدار الشأن على همة العبد ونيته وهما مطلوبه وطريقه، ولا يتم له إلا بترك ثلاثة أشياء:

الأول: العوائد والرسوم والأوضاع التي أحدثها الناس.

الثاني: هجر العوائق التي تعوقه عن إفراد مطلوبه وطريقه، وقطعها.

الثالث: قطع علائق القلب التي تحول بينه وبين تجريد التعلق بالمطلوب.

والفرق بينهما أن العوائق هي الحوادث الخارجية. والعلائق هي التعلقات القلبية بالمباحات ونحوها، وأصل ذلك ترك الفضول التي تشغل عن المقصود من الطعام

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٤٥.

والشراب والمنام والخلطة. فيأخذ من ذلك ما يعينه على طلبه. ويرفض منه ما يقطعه عنه أو يضعف طلبه)[١].

ثانياً- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

لقد سأل الرجل النبي ﷺ: أي الناس أفضل؟ فأجابه النبي ﷺ بقوله: مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله. ثم سأل الرجل مرة ثانية: ثم من؟ قال: ثم رجل معتزل في شعب من الشعاب يعبد ربه. وفي رواية: يتقي الله ويدع الناس من شرّه.

فكان السؤال والجواب أسلوباً من أساليب الدعوة لبيان فضل المجاهد بنفسه وماله في سبيل الله، وبيان أن الذي يليه في الفضل رجل معتزل في الشعاب يعبد ربه. وكان هذا البيان دعوة للمدعوين للامتثال والعمل والتطبيق.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: فضل الجهاد بالنفس والمال في سبيل الله:

إن المجاهد يجاهد بماله وبنفسه في سبيل الله، لذا كان من أفضل المسلمين وأعلاهم، ويتضح ذلك من قول النبي ﷺ جواباً لسؤال: أي: الناس أفضل؟ فقال: مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله.

وقد أخرج البخاري هذا الحديث في كتاب الجهاد تحت باب: أفضل الناس مؤمن بنفسه وماله في سبيل الله [٢].

قال ابن حجر: (كأن المراد بالمؤمن من قام بما تعين عليه القيام به ثم حصل هذه الفضيلة، وليس المراد من اقتصر على الجهاد وأهمل الواجبات العينية، وحينئذ فيظهر فضل المجاهد لما فيه من بذل نفسه وماله لله تعالى، ولما فيه من النفع المتعدي)[٣].

وجاء في الموسوعة الفقهية: (وأفضل ما يتطوع به الجهاد، وقد قال أحمد بن حنبل: لا أعلم شيئاً بعد الفرائض أفضل من الجهاد. وقد روى هذه المسألة عن أحمد جماعة من

---

(١) الفوائد، ابن القيم ٢١١-٢١٢.

(٢) كتاب: الجهاد رقم ٥٦، ورقم هذا الباب ٢، ورقم الحديث ٢٧٨٦.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ٩/٦.

أصحابه. قال أحمد: الذين يقاتلون العدو هم الذين يدافعون عن الإسلام وعن حريمه، فأي عمل أفضل منه؟ الناس آمنون وهم خائفون قد بذلوا مهج نفوسهم)(١).

ومن الآيات الدالة على فضل الجهاد بالنفس والمال قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾(٢).

قال د. صالح الفوزان: (شرع الله الجهاد في سبيله لإعلاء كلمته ونصرة دينه ودحر أعدائه، وشرعه ابتلاءً واختباراً لعباده ﴿ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝ سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ۝ وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ﴾(٣). والجهاد في سبيل الله له الأهمية العظيمة في الإسلام، فهو ذروة سنام الإسلام، وهو من أفضل العبادات، وقد عدّه بعض العلماء ركناً سادساً من أركان الإسلام)(٤).

رابعاً- من موضوعات الدعوة: فضل العزلة عند الفتن:

إن أهم ما يحافظ عليه المسلم دينه، فإنه يحافظ عليه بكل ما أوتي من قوة وبشتى الطرق والوسائل، ومن ذلك العزلة عند الفتن وتكاثرها، فتكون العزلة محمودة حينئذٍ، وهذا واضح من ترتيب النبي ﷺ المؤمن المعتزل بعد المؤمن المجاهد بماله ونفسه في سبيل الله، وذلك من ناحية الأفضلية، قال ابن حجر: (وإنما كان المؤمن المعتزل يتلوه في الفضيلة، لأن الذي يخالط الناس لا يسلم من ارتكاب الآثام فقد لا يفي

(١) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٦/١٢٧.

(٢) سورة الصف، الآيات: ١٠-١٢.

(٣) سورة محمد، الآيات: ٤-٦.

(٤) الملخص الفقهي ١/٤٥٩، وانظر: الفقه الميسر في ضوء الكتاب والسنة ص ١٩٩.

هذا بهذا، وهو مقيد بوقوع الفتن)[١].

قال أبو العباس القرطبي: (إنه أجابه بقوله: رجل مجاهد بنفسه وماله. ثم ذكر بعده من جاهد نفسه بالعزلة عن الناس، إذ كلٌّ واحد من الرجلين مجاهد. فالأول للعدوِّ الخارجيِّ والآخر للداخليِّ؛ الذي هو: النفس والشيطان، فجاهدهما بقطع المألوفات، والمستحسنات من الأهل، والقرابات، والأصدقاء، والأوطان، والشهوات المعتادات. وكلُّ ذلك فراراً بدينه، وخوفاً عليه. وهذا هو الجهادُ الأكبر؛ الذي من وصل إليه فقد ظفر بالكبريت الأحمر[٢]. غير أنَّ العزلة إنما تكون مطلوبةً إذا كفى المسلمون عدوهم، وقام بالجهاد بعضُهم. فأمَّا مع تعيُّن الجهاد؛ فليس غيرُه بمرادٍ؛ ولذلك بدأ النبي ﷺ بهذا الحديث بيان أفضلية الجهاد على العزلة)[٣].

قال النووي عن حديث الباب: (فيه دليل لمن قال بتفضيل العزلة على الاختلاط وفي ذلك خلاف مشهور، فمذهب الشافعي وأكثر العلماء أن الاختلاط أفضل بشرط رجاء السلامة من الفتن، ومذاهب طوائف أن الاعتزال أفضل. وأجاب الجمهور على هذا الحديث بأنه محمول على الاعتزال في زمن الفتن والحروب أو فيمن لا يسلم الناس منه ولا يصبر عليهم أو نحو ذلك من الخصوص. وقد كان الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم وجماهير الصحابة رضي الله عنهم والتابعين والعلماء والزهاد مختلطين، فيحصلون منافع الاختلاط كشهود الجمعة والجماعة والجنائز وعيادة المرضى وحلق الذكر وغير ذلك)[٤].

وعلى ذلك (فإن العزلة المحمودة في هذا الحديث ليست الرهبانية المذمومة في القرآن، لأن الرهبانية تتضمن إهمال الحقوق الواجبة للنفس والأهل والعباد بخلاف هذه

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٩/٦.

(٢) يقال: أعز من الكبريت الأحمر. هذا مثل يضرب في العزة. انظر: لسان العرب، ابن منظور مج١/٢/٣٨١ ٤٤٥/٦/٣، ومختار الصحاح ٥٦٢.

(٣) المفهم، القرطبي ٧٢٢/٣.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٢١٣.

العزلة، فإن المقصود منها ترك الاختلاط مع الناس مع أداء حقوق النفس والأهل في العزلة)(١).

خامساً- من واجبات المدعو: كف الأذى عن الناس:

إن الإنسان مدني بطبعه لا يعيش إلا في مجتمع من الناس، وهذا الاجتماع يصاحبه في العادة أذىً وإضرار من بعض الناس، لذا كان الواجب على المدعو ألا يكون مصدراً للأذى وإنما يكف أذاه عن الناس، وذلك واضح في قول النبي ﷺ في بيان أفضل الناس بعد منزلة المجاهد بنفسه وماله: ((مؤمنٌ في شِعبٍ منَ الشعابِ يَتَّقي اللهَ ويَدعُ الناسَ مِن شَرِّه))(٢)، وفي رواية مسلم: ((مُؤْمِنٌ فِي شِعْبٍ مِنَ الشِّعَابِ، يَعْبُدُ اللّهَ رَبَّهُ، وَيَدَعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ))(٣)، قال ابن حجر: (في الحديث فضل الانفراد لما فيه من السلامة من الغيبة واللغو ونحو ذلك)(٤).

وقال النبي ﷺ: ((مِنْ خيرِ معاشِ الناسِ رجلٌ مُمْسِكٌ بِعِنَانِ فَرَسِهِ في سبيلِ الله... الحديث)) وفيه: ((وَيَعْبُدُ رَبَّهُ حَتَّى يَأْتِيَهُ الْيَقِينُ. لَيْسَ مِنَ النَّاسِ إِلاَّ فِي خَيْرٍ))(٥).

وسأل أبو ذر رضي الله عنه النبي ﷺ: يَا رَسُولَ اللّهِ!، أَيُّ الأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: ((الإِيمَانُ بِالله وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ)) قَالَ قُلْتُ: أَيُّ الرِّقَابِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: ((أَنْفَسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا، وَأَعْلاَهَا ثَمَنا)) قَالَ قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ؟ قَالَ: ((تُعِينُ صَانِعا أَوْ تَصْنَعُ لأَخْرَقَ)) قَالَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللّهِ أَرَأَيْتَ إِنْ ضَعُفْتُ عَنْ بَعْضِ الْعَمَلِ؟ قَالَ: ((تَكُفُّ شَرَّكَ عَنِ النَّاسِ، فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ))(٦).

---

(١) تكملة فتح الملهم، محمد تقي العثمان ٢٤٨/٩.

(٢) هذه رواية البخاري ٢٧٨٦.

(٣) أخرجه مسلم ٢٣ - ١٨٨٨.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٩/٦.

(٥) أخرجه مسلم ١٨٨٩.

(٦) أخرجه البخاري ٢٥١٨، ومسلم ٨٤.

قال ابن حجر: (قوله: "تدع الناس من الشر"[١] فيه دليل على أن الكف عن الشر داخل في فعل الإنسان وكسبه حتى يؤجر عليه ويعاقب، غير أن الثواب لا يحصل مع الكف إلا مع النية والقصد لا مع الغفلة والذهول قاله القرطبي ملخصاً)[٢].

قال ابن هبيرة: (قوله: "فإنها صدقة منك على نفسك" في هذا من الفقه: أن الإنسان إذا أتى شيئاً من الشر فقد عرض نفسه لاحتمال العقوبة على ذلك الشر، فإذا كفّ عنه فقد تصدق على نفسه بإراحتها من احتمال تلك العقوبة حين لم يمكنه أن يسعى في أن يحصل لنفسه الفوائد والغنائم، فلا أقلّ من أن يتصدق عليها بألا يعرضها من البلاء لما لا تطيقه)[٣].

وقال ابن الجوزي عن فوائد العزلة النافعة: (ما أعرف نفعاً كالعزلة عن الخلق خصوصاً للعالم والزاهد، فإنك لا تكاد ترى إلا شامتاً بنكبة، أو حسوداً على نعمة، أو من يأخذ عليك غلطاتك.

فيا للعزلة ما ألذّها! سلمت من كدر[٤] غيبة، وآفات تُصنع[٥]، وأحوال المداجاة[٦]، وتضييع الوقت.

ثم خلا فيها القلب بالفكر، بعد ما كان مشغولاً عنه بالمخالطة، فدبر أمر دنياه وآخرته، فمثله كمثل الحِمْيَة يخلو فيها المِعَى بالأخلاط فيذيبها.

وما رأيت مثل ما يصنع المخالط، لأنه يرى حالته الحاضرة من لقاء الناس وكلامهم، فيشتغل بها عما بين يديه. فمثله كمثل رجل يريد سفراً قد أزف[٧]،

---

(١) هذه رواية البخاري ٢٥١٨.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٧٨/٥. وانظر: المفهم ٢٧٨/١.

(٣) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ١٧٢/٢.

(٤) الكدر: ضد الصفو. نقلاً عن محقق صيد الخاطر، د. عبدالرحمن البر، وما يلي ذلك من تفسيرات لغوية أخذناها عنه، وذلك في نطاق هذا النص المأخوذ من صيد الخاطر.

(٥) التصنع: تكلف حسن السّمت.

(٦) المداجاة: المداراة. يقال داجاه، أي داراه وساتره العداوة.

(٧) أزِف: دنا وقرب.

فجالس أقواماً، فشغلوه بالحديث، حتى ضرب البوق[١] وما تزود.

فلو لم يكن في العزلة إلا التفكير في زاد الرحيل، والسلامة من شر المخالطة- كفى.

ثم لا عزلة على الحقيقة إلا للعالم والزاهد، فإنهما يعلمان مقصود العزلة وإن كانا لا في عزلة.

أما العالم فعلمه مؤنسه، وكتابه محدثه، والنظر في سير السلف مقومه، والتفكر في حوادث الزمان السابق فرجته. فإن ترقى بعلمه إلى مقام المعرفة الكاملة للخالق سبحانه، وتشبث بأذيال محبته تضاعفت لذاته، واشتغل بها عن الأكوان وما فيها، فخلا بحبيبه، وعمل معه بمقتضى علمه.

وكذلك الزاهد تعبده أنيسه، ومعبوده جليسه، فإن كشف لبصره عن المعمول معه غاب عن الخلق، وغابوا عنه.

إنما اعتزلا ما يؤذي، فهما في الوحدة بين جماعة. فهذان رجلان قد سلما من شر الخلق، وسلم الخلق من شرورهما. بل هما قدوة للمتعبدين وعلم للسالكين، ينتفع بكلامهما السامع، وتجري موعظتهما المدامع، وتنتشر هيبتهما في المجامع.

فمن أراد أن يتشبه بأحدهما فليصابر الخلوة وإن كرهها؛ ليثمر له الصبر العسل.

وأعوذ بالله من عالِم مخالط للعالَم، خصوصاً لأرباب المال والسلاطين يَجتلب ويُجتلب، ويَخْتلب ويُختلَب[٢]، فما يحصل له شيء من الدنيا إلا وقد ذهب من دينه أمثاله.

ثم أين الأنفة من الذل للفساق؟

فالذي لا يبالي بذلك هو الذي لا يذوق طعم العلم، ولا يدري ما المراد به. وكأنه به وقد وقع في بادية جُرُزٍ[٣] وقفر أمل مهلك في تلك البراري.

---

(١) البوق: الذي ينفخ فيه فيصفر، وهو إشارة إلى نداء السفر والرحيل.

(٢) يَختِلب ويُختلَب: يَخْدَع، ويُخْدَع.

(٣) الأرض الجُرُز: التي لا نبات بها. والقَفْر: المفازة التي لا نبات بها.

وكذلك المتزهد إذا خالط وخلط، فإنه يخرج إلى الرياء والتصنُّع والنفاق، فيفوقه الحظان، لا الدنيا ونعيمها تحصل له، ولا الآخرة.

فنسأل الله عز وجل خلوة حلوة، وعزلة عن الشر لذيذة، يستصلحنا فيها لمناجاته، ويلهم كلاً منا طلب نجاته، إنه قريب مجيب)[١].

وجاء في الموسوعة الفقهية: (الأذى حرام وتركه واجب بالاتفاق، ما لم يعارض بما هو أشد، فعندئذٍ يرتكب الأذى عملاً بالقاعدة المتفق عليها: يرتكب أخف الضررين لاتقاء أشدهما)[٢].

---

(١) صيد الخاطر، ابن الجوزي، تحقيق: عبدالقادر عطا ٣٥٥-٣٥٦.

(٢) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢/٣٥٦.

الحديث رقم (٥٩٩)

٥٩٩- وعنه، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: ((**يُوشِكُ أنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ المُسْلِمِ غَنَمٌ يَتَّبِعُ بِهَا شَعَفُ الجِبَالِ، وَمَواقعَ الْقَطْرِ يَفِرُّ بِدينِهِ مِنَ الفِتَنِ**)) رواه البخاريُّ[1].

ترجمة الراوي:

أبو سعيد الخدري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٠).

غريب الألفاظ:

شَعَفُ الجبال: أعلاها[2].

مواقع القَطْر: بطون الأودية، القطر هو الغيث والمطر[3].

الفتن: ما ينال الإنسان من البلاء والاختبار[4].

الشرح الأدبي

التعبير بالفعل الدال على المقاربة (يوشك) يعطي الاستهلال خاصية يتفرد بها عن غيره، وتؤثر على المخاطبين لأنها تشعرهم بقرب طارق لا يعلمونه مما يحدث ترقبا يمهد لاستقبال المعنى، وذكر المسلم لأنه الحريص، والمَعْني بالآخرة، وَقَوْلُهُ ﷺ (خَيْرَ مَالِ المُسلِمِ غَنَمٌ) خَصَّ الْغَنَمَ بِذَلِكَ ؛ لأَنَّهُ أَعْلَمُ أَنَّ هَذَا إِنَّمَا يَكُونُ فِي صَاحِبِ غَنَمٍ، وَأَمَّا صَاحِبُ الإبلِ أَوْ الْخَيْلِ أَوْ غَيْرِهِمَا مِنْ أَنْوَاعِ الأَمْوَالِ فَلا يَتَأَتَّى ذَلِكَ فِيهَا، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ خَصَّهُمْ بِذَلِكَ ؛ لأَنَّ الْكَافَّ عَنْ الْفِتْنَةِ وَالْمُعْتَزِلَ لأَهْلِهَا مُقْتَصِرٌ عَلَى هَذَا النَّوْعِ مِنْ الْمَالِ ؛ لأَنَّهُ لا مَدْخَلَ لَهُ فِي الْفِتْنَةِ وَلا عَوْنَ مِنْهُ عَلَيْهَا وَمَا يَكَادُ أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَيْهَا إلاَّ مُتَقَلِّلٌ مِنْ الدُّنْيَا، فَأَرْعَنُ الْفِتْنَةِ مُقْتَصِرٌ عَلَى مَا يُبْعِدُهُ عَنْهَا، أَوْ يُضْعِفُهُ عَنْ التَّشَوُّفِ

---

(١) برقم ١٩. أورده المنذري في ترغيبه ٤٠٢١.

(٢) رياض الصالحين ٢٧٠.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٨٨/١، والوسيط، مجمع اللغة العربية ٧٤٤، وانظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٨٧٥.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ف ت ن)، وغريب القرآن ٣٧٢.

إِلَيْهَا، وقوله (يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ) كناية عن تتبع مواقع الكلأ، والماء، وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنْ الْفِتَنِ) التعبير بالفرار يشير إلى سرعة توحي بشدة الحرص على الدين، وجمع الفتن يشير إلى كثرتها التي تستلزم الفرار، والباء في (بدينه) للسببية، وكلمة من في قوله (من الفتن) ابتدائية تقديره يفر بسبب دينه، ومنشأ فراره الدين ويجوز أن تكون الباء للمصاحبة، والحديث يكشف جانبا من الغيب المنتظر في آخر الزمان، والتي تكشف أكثرها في زماننا .

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: من دلائل النبوة الإخبار عما يقع من أمور مستقبلة.

ثانياً: من واجبات الداعية: دلالة المدعوين على طرق النجاة.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: فضل العزلة عند الفتن وأهمية الورع والبعد عن الشبهات.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: أهمية طلب السلامة حفاظًا على الدين.

أولاً- من دلائل النبوة: الإخبار عما يقع من أمور مستقبلة:

بعث الله محمداً ﷺ نبياً ورسولاً بالمعجزات والآيات التي تدل على صدق نبوته، وكان من ذلك إخباره ﷺ عما يقع في الزمن المستقبل، كما هو الأمر في هذا الحديث، وقد أخرج البخاري هذا الحديث في صحيحه في عدة مواضع، منها كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام[1].

وقد ساق ابن كثير هذا الحديث في الفتن والملاحم من البداية والنهاية وساق بعض الأحاديث الأخرى التي في معناه، ثم قال: (وهذه الأحاديث المتقدمة على أنه يأتي على الناس زمان شديد لا يكون فيه للمسلمين جماعة قائمة بالحق، إما في جميع الأرض أو في بعضها)[2].

وقد أفرد الحافظ البيهقي في دلائل النبوة وتبعه ابن كثير في آخر السيرة النبوية

---

(١) الحديث ٣٦٠٠.

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق: أحمد أبو مسلم وآخرون ١٩/ ٤١.

هذه الأخبار تحت عنوان: جماع أبواب إخبار النبي ﷺ بالكوائن بعده وتصديق الله - جل ثناؤه - ورسوله ﷺ في جميع ما وعده[١].

وساقها ابن كثير تحت عنوان: (ومن كتاب دلائل النبوة في باب إخباره عليه الصلاة والسلام عن الغيوب المستقبلة)[٢]، فضلاً عن الكتب الكثيرة المؤلفة تحت عنوان (دلائل النبوة).

وقال ابن تيمية: (وآياته ﷺ قد استوعبت جميع أنواع الآيات الخبرية والفعلية. وإخباره عن الغيب الماضي والحاضر والمستقبل بأمور باهرة، لا يوجد مثلها لأحد من النبيين قبله، فضلاً عن غير النبيين. ففي القرآن من إخباره عن الغيوب شيء كثير وكذلك في الأحاديث الصحيحة، مما أخبر بوقوعه، فكان كما أخبر.

ففي الصحيحين عن حذيفة قال: ((قَامَ فِينَا رَسُولُ اللّهِ ﷺ مَقَاماً. مَا تَرَكَ شَيْئاً يَكُونُ فِي مقَامِهِ ذلِكَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ. إلاَّ حَدَّثَ بِهِ. حَفِظَهُ مَنْ حَفِظَهُ وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ. قَدْ عَلِمَهُ أَصْحَابِي هَـؤُلاَءِ. وَإِنَّهُ لَيَكُونُ مِنْهُ الشَّيْءُ قَدْ نَسِيتُهُ فَأَرَاهُ فَأَذْكُرُهُ. كَمَا يَذْكُرُ الرَّجُلُ وَجْهَ الرَّجُلِ إِذَا غَابَ عَنْهُ. ثُمَّ إِذَا رَآهُ عَرَفَهُ))[٣].

وفي صحيح مسلم عن أبي زيد عمرو بن أخطب قال: ((صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللّهِ ﷺ الْفَجْرَ. وَصَعِدَ الْمِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الظُّهْرُ. فَنَزَلَ فَصَلَّى. ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ. فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الْعَصْرُ. ثُمَّ نَزَلَ فَصَلَّى. ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ. فَخَطَبَنَا حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ. فَأَخْبَرَنَا بِمَا كَانَ وَبِمَا هُوَ كَائِنٌ. فَأَعْلَمُنَا أَحْفَظُنَا))[٤].

وفي صحيح البخاري عن عدي بن حاتم قال: ((بينا أنا عندَ النبيِّ ﷺ إذا أتاهُ رجُلٌ فشَكا إليهِ الفاقَةَ، ثمَّ أتاهُ آخَرُ فشكا إليه قَطعَ السبيل، فقال: يا عَديُّ، هل رأيتَ

---

(١) دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، البيهقي ٣١٢/٦ وما بعدها.

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق: أحمد أبو مسلم وآخرون ١٦١/٩ وما بعدها.

(٣) أخرجه البخاري ٦٦٠٤، ومسلم ٢٨٩١ بنحوه.

(٤) أخرجه مسلم ٢٨٩٢.

الحِيرةَ؟ قلت: لم أرَها، وقد أُنبِئتُ عنها. قال: فإن طالتْ بكَ حَياةٌ لتَرَيَنَّ الظَّعينةَ[١] تَرتحِلُ مِنَ الحِيرةِ حتى تَطوفَ بالكعبةِ لا تخافُ أحداً إلا اللهَ. قلتُ فيما بيني وبينَ نفسي فأين دُعّارُ طَيىء[٢] الذينَ قد سَعَّروا البلادَ؟[٣] ولئنْ طالَتْ بكَ حياةٌ لتُفتَحنَّ كُنوزُ كِسرَى، قلتُ: كِسرَى بن هُرمُزَ؟ قال: كِسرَى بنِ هُرمُزَ. ولئنْ طالت بكَ حياةٌ لَتَرينَّ الرجلَ يُخرجُ مِلْءَ كفِّهِ من ذهبٍ أو فضةٍ يَطلُبُ مَن يَقبلهُ منهُ فلا يَجِدُ أحداً يَقبلهُ منه. ولَيلقيَنَّ اللهَ أحدُكم يومَ يَلقاهُ وليسَ بينَهُ وبينهُ ترجمانٌ يُترجمُ لهُ، فيقولَنَّ: ألم أبعَثْ إليكَ رسولاً فيُبلِّغكَ؟ فيقول: بلى. فيقول: ألم أُعطِكَ مالاً وأُفْضِلْ عليك؟ فيقول: بلى. فيَنظرُ عن يَمينه فلا يَرى إلا جهنَّم، وينظرُ عن يَسارهِ فلا يَرى إلا جهنَم. قال عَديٌّ: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: اتَّقُوا النارَ ولو بشِقِّ تمرةٍ، فمن لم يَجِدْ شقَّ تمرةٍ فبكلمةٍ طيِّبةٍ. قال عديٌّ: فرأيتُ الظعينة ترتحلُ منَ الحِيرةِ حتى تطوفَ بالكعبةِ لا تخافُ إلا اللهَ، وكنتُ فيمن افتتحَ كنوزَ كسرَى بنِ هُرمُزَ، ولئنْ طالت بكم حياةٌ لَتَرَوُنَّ ما قال النبيُّ أبو القاسم ﷺ: يُخرجُ مِلءَ كفه))[٤].

قلت: [القائل ابن تيمية] وهذا الذي أخبر به من خروج الرجل بملء كفه من ذهب أو فضة فلا يجد من يقبله، ظهر كما أخبر، في زمن عمر بن عبدالعزيز)[٥].

ثانياً- من واجبات الداعية: دلالة المدعوين على طرق النجاة:

إن الفتن تكون كقطع الليل المظلم، يلتبس أمرها على كثير من المدعوين، الذين قد يلتبسون بها، فيكونون على خطر من أمر دينهم، ويحاولون النجاة بكل سبيل،

---

(١) أصل الظعينة: الراحلة التي يرحل عليها ويظعن عليها أي يسار بها. وقيل: للمرأة ظعينة لأنها تظعن مع الزوج حيثما ظعن. أو لأنها تحمل على الراحلة إذا ظعنت. النهاية في غريب الحديث في (ظ ع ن).

(٢) أي قطاع الطرق. وطيء قبيلة مشهورة، منها عدي بن حاتم المذكور وبلادهم مابين العراق والحجاز، وكانوا يقطعون الطريق على من مرّ بغير جوار، ولذا تعجب عدي كيف تمر المرأة عليهم وهي غير خائفة. النهاية في غريب الحديث ٣٠٦، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧٠٩/٦.

(٣) أي أوقدوا نار الفتنة. وملؤوا الأرض شراً وفساداً. فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧٠٩/٦.

(٤) أخرجه البخاري ٣٥٩٥ مطولاً بهذا اللفظ وهو عند مسلم ١٠١٦ مقتصراً على الحث على الصدقة فقط.

(٥) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ابن تيمية: أحمد بن عبدالحليم ٧٢٨هـ، تحقيق: د. علي بن حسن بن ناصر، ود. عبدالعزيز بن إبراهيم العسكر ود. حمدان بن محمد الحمدان ٨٠/٦-٨٣.

وهنا يأتي دور الداعية الذي يبين لهم طرق النجاة، وذلك يستفاد من عموم الحديث كله، وآخره (يفر بدينه من الفتن)، قال الطيبي: (إن المطلوب حينئذٍ الاعتزال وتحري الخير بأي وجه كان)[(١)]، وقال ابن حجر: (والخبر دال على فضيلة العزلة لمن خاف على دينه)[(٢)].

وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[(٣)].

قال القاسمي: (الفتنة إما بمعنى الذنب، كإقرار المنكر وافتراق الكلمة والتكاسل في الجهاد. وإما بمعنى العذاب، فإن أريد الذنب فإصابته بإصابة أثره وإن أريد العذاب فإصابته بنفسه "ولا تصيبن" جواب للأمر. أي: إن إصابتكم لا تختص إصابتها بمن يباشر الظلم منكم بل تشملهم وغيرهم بشؤم صحبتهم وتعدي رذيلتهم إلى من يخالفهم كقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ﴾[(٤)]. قاله القاشاني... قال الكرخي: "ولا يستشكل هذا بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[(٥)]، لأن الناس إذا تظاهروا بالمنكر فالواجب على كل من رآه أن يغيره إذا كان قادراً على ذلك، فإذا سكت فكلهم عصاة، هذا بفعله وهذا برضاه، وقد جعل تعالى الراضي بمنزلة العامل فانتظم في العقوبة.. انتهى"، وذكر القسطلاني: (أن علامة الرضا بالمنكر عدم التألم من الخلل الذي يقع في الدين بفعل المعاصي، فلا يتحقق كون الإنسان كارهاً له، إلا إذا تألم للخلل الذي يقع في الدين كما يتألم ويتوجع لفقد ماله أو ولده، فكل من لم يكن بهذه الحالة فهو راض بالمنكر، فتعمه العقوبة

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ١٠/٥٥.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٣/٤٦.

(٣) سورة الأنفال، آية: ٢٥.

(٤) سورة الروم، آية: ٤١.

(٥) سورة الأنعام، آية: ١٦٤، سورة الإسراء، آية: ١٥، سورة الزمر، آية: ٧.

والمصيبة بهذا الاعتبار)[١].

وقد حذّر النبي ﷺ من سكوت عامة المسلمين عن إنكار المنكر الذي تفعله خاصتهم، لأن ذلك يؤدي إلى عذاب العامة والخاصة، فعن عدي بن عميرة الكندي قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إن اللَّهَ لاَ يُعَذبُ الْعَامَّةَ بِعَمَلِ الْخَاصَّةِ حَتَّى يَرَوُا الْمُنْكَرَ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَى أَنْ يُنْكِرُوهُ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَذَّبَ اللهُ الْخَاصَّةَ وَالْعَامَّةَ))[٢].

كما أخبر النبي ﷺ بما يفعله المسلم في الفتن، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((سَتَكُونُ فِتَنٌ، الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ، وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي، وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي. مَنْ تَشَرَّفَ لَهَا تَسْتَشْرِفْهُ. وَمَنْ وَجَدَ فِيهَا مَلْجَأً فَلْيَعُذْ بِهِ))[٣]. وفي لفظ: ((تَكُونُ فِتْنَةٌ النَّائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْيَقْظَانِ. وَالْيَقْظَانُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ. وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي. فَمَنْ وَجَدَ مَلْجَأً أَوْ مَعَاذاً فَلْيَسْتَعِذْ))[٤].

وعن أبي بكرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: ((إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتَنٌ. أَلاَ ثُمَّ تَكُونُ فِتْنَةٌ الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي فِيهَا. وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي إِلَيْهَا. أَلاَ، فَإِذَا نَزَلَتْ أَوْ وَقَعَتْ، فَمَنْ كَانَ لَهُ إِبِلٌ فَلْيَلْحَقْ بِإِبِلِهِ. وَمَنْ كَانَتْ لَهُ غَنَمٌ فَلْيَلْحَقْ بِغَنَمِهِ. وَمَنْ كَانَتْ لَهُ أَرْضٌ فَلْيَلْحَقْ بِأَرْضِهِ. قَالَ: فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللّهِ أَرَأَيْتَ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ إِبِلٌ وَلاَ غَنَمٌ وَلاَ أَرْضٌ؟ قَالَ: يَعْمِدُ إِلَى سَيْفِهِ فَلْيَدُقَّ عَلَى حَدِّهِ بِحَجَرٍ. ثُمَّ لْيَنْجُ إِنِ اسْتَطَاعَ النَّجَاءَ. اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟ قَالَ: فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللّهِ أَرَأَيْتَ إِنْ أُكْرِهْتُ حَتَّى يُنْطَلَقَ بِي إِلَى أَحَدِ الصَّفَّيْنِ، أَوْ إِحْدَى الْفِئَتَيْنِ، فَضَرَبَنِي رَجُلٌ بِسَيْفِهِ، أَوْ يَجِيءُ سَهْمٌ فَيَقْتُلُنِي؟ قَالَ: يَبُوءُ بِإِثْمِهِ وَإِثْمِكَ. وَيَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ))[٥].

---

(١) محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ٣٦/٨ - ٣٧.

(٢) أخرجه أحمد ١٩٢/٤ رقم ١٧٧٢٠، وقال محققو المسند: حسن لغيره ٢٥٨/٢٩.

(٣) أخرجه البخاري ٧٠٨١، ومسلم ٢٨٨٦.

(٤) أخرجه البخاري ٧٠٨٢، ومسلم ٢٨٨٦.

(٥) أخرجه مسلم ٢٨٨٧.

قال ابن حجر: (فيه التحذير من الفتنة والحث على اجتناب الدخول فيها وأن شرها يكون بحسب التعلق بها، والمراد بالفتنة ما ينشأ عن الاختلاف في طلب الملك حيث لا يعلم المحق من المبطل. قال الطبري: اختلف السلف فحمل ذلك بعضهم على العموم وهم من قعد عن الدخول في القتال بين المسلمين مطلقاً كسعد وابن عمر ومحمد بن مسلمة وأبي بكرة وآخرين، وتمسكوا بالظواهر المذكورة وغيرها، ثم اختلف هؤلاء فقالت طائفة بلزوم البيوت، وقالت طائفة بل بالتحول عن بلد الفتن أصلاً. ثم اختلفوا فمنهم من قال: إذا هجم عليه شيء من ذلك يكف يده ولو قتل، ومنهم من قال: بل يدافع عن نفسه وعن ماله وعن أهله وهو معذور إن قتل أو قتل. وقال آخرون إذا بغت طائفة على الإمام فامتنعت من الواجب عليها ونصبت الحرب وجب قتالها، وكذلك لو تحاربت طائفتان وجب على كل قادر الأخذ على يد المخطئ ونصر المصيب، وهذا قول الجمهور، وفصل آخرون فقالوا: كل قتال وقع بين طائفتين من المسلمين حيث لا إمام للجماعة فالقتال حينئذ ممنوع، وتنزل الأحاديث التي في هذا الباب وغيره على ذلك وهو قول الأوزاعي.

قال الطبري: والصواب أن يقال إن الفتنة أصلها الابتلاء، وإنكار المنكر واجب على كل من قدر عليه، فمن أعان المحق أصاب ومن أعان المخطئ أخطأ، وإن أشكل الأمر فهي الحالة التي ورد النهي عن القتال فيها. وذهب آخرون إلى أن الأحاديث وردت في حق ناس مخصوصين، وأن النهي مخصوص بمن خوطب بذلك. وقيل إن أحاديث النهي مخصوصة بآخر الزمان حيث يحصل التحقق أن المقاتلة إنما هي في طلب الملك)[١].

وقال النووي: (وقال معظم الصحابة والتابعين وعامة علماء الإسلام: يجب نصر المحق في الفتن، والقيام معه بمقاتلة الباغين كما قال تعالى: ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبۡغِى﴾ الآية[٢]. وهذا هو الصحيح. وتَتَأوّل الأحاديث على من لم يظهر له المحق، أو على طائفتين

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٣/٣٤-٣٥.

(٢) سورة الحجرات، آية:٩.

ظالمتين لا تأويل لواحدة منهما. ولو كان كما قال الأولون لظهر الفساد واستطال أهل البغي والمبطلون)[١].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: فضل العزلة عند الفتن وأهمية الورع والبعد عن الشبهات:

إن العزلة في موضعها تكون مطلوبة حينما تقع الفتن، ويجد المدعو نفسه معرضاً للوقوع فيها والتلبس فيها، فيعتزلها حتى يحمي دينه ويحفظه من النقص والضياع، وهذا واضح من عموم الحديث. قال ابن حجر: (الخبر دال على فضيلة العزلة لمن خاف على دينه، وقد اختلف السلف في أصل العزلة)[٢]، وبوّب البخاري في كتاب الرقاق، باب العزلة راحة من خلاط السوء وساق تحته هذا الحديث[٣].

وقال ابن حجر: (قال ابن المبارك في "كتاب الرقائق" عن شعبة عن خبيب بن عبدالرحمن عن حفص بن عاصم قال: قال عمر: خذوا حظكم من العزلة، وما أحسن قول الجنيد: "مكابدة العزلة أيسر من مداراة الخلطة"، وقال الخطابي: (لو لم يكن في العزلة إلا السلامة من الغيبة ومن رؤية المنكر الذي لا يقدر على إزالته - لكان ذلك خيراً كثيراً. وفي معنى الترجمة ما أخرجه الحاكم[٤] من حديث أبي ذر مرفوعاً بلفظ: "الوحدة خير من جليس السوء"، وسنده حسن لكن المحفوظ أنه موقوف عن أبي ذر أو عن أبي الدرداء، وأخرجه ابن أبي عاصم)[٥].

قال د.عائض القرني: (للعزلة عزٌّ لا يعلمه إلا الله، ففي العزلة استثمار العقل وقطف جني الفكر وراحة القلب وسلامة العرض وموفور الأجر، والنهي عن المنكر واغتنام

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٦٧٥.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٦/١٣.

(٣) الحديث رقم ٦٤٩٥.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣٤٣/٣ رقم ٥٥١٧، وقال محققه: قال الذهبي: لم يصح ولا صححه الحاكم.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٣٩/١١.

الأنفاس في الطاعة، وتذكر الرحيم وهجر الملهيات والمشغلات والفرار من الفتن، والبعد عن مداراة العدوِّ، وشماتة الحاقد ونظرات الحاسد ومماطلة الثقيل والاعتذار إلى المعاتب، ومطالبة الحقوق ومداجاة المتكبر والصبر على الأحمق، وفي العزلة ستر للعورات عورات اللسان وعثرات الحركات وفلتات الذهن ورعونة النفس)[(١)].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: أهمية طلب السلامة حفاظًا على الدين:

إن أهم الأمور في هذه الحياة المحافظة على الدين وعدم التعرض لما يخلّ به أو يكون سبباً في ضعفه أو ذهابه في النفوس. وهذا يستفاد من عموم الحديث. قال ابن حجر: (وذكر الخطابي في "كتاب العزلة" أن - حكم - العزلة والاختلاط يختلف باختلاف متعلقاتها، فتحمل الأدلة الواردة في الحض على الاجتماع على ما يتعلق بطاعة الأئمة وأمور الدين وعكسها في عكسه. وأما الاجتماع والافتراق بالأبدان فمن عرف الاكتفاء بنفسه في حق معاشه ومحافظة دينه فالأولى الانكفاف عن مخالطة الناس بشرط أن يحافظ على الجماعة والسلام والرد وحقوق المسلمين من العيادة وشهود الجنازة ونحو ذلك، والمطلوب إنما هو ترك فضول الصحابة لما في ذلك من شغل البال وتضييع الوقت عن المهمات ويجعل الاجتماع بمنزلة الاحتياج إلى الغذاء والعشاء فيقتصر منه على ما لا بد منه فهو أروح للبدن والطلب)[(٢)].

وقال ابن كثير: (وقد اعتزل جماعة من السلف الناس والجمعة والجماعة - وهم أئمة كبار- كأبي ذر وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وسلمة بن الأكوع في جماعة من الصحابة، حتى اعتزلوا مسجد النبي ﷺ الذي الصلاة فيه بألف صلاة... وكذلك اعتزل سفيان الثوري وخلق من التابعين وتابعيهم لما شاهدوه من الظلم والشرور والفتن خوفاً على إيمانهم أن يسلب منهم)[(٣)].

---

(١) لا تحزن ١١٥.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١/٣٤٠.

(٣) البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق: أحمد أبو مسلم وآخرون ١٩/٤٠.

وقال ابن القيم: (طالب الله والدار الآخرة لا يستقيم له سيره وطلبه إلا بحبسين: حبس قلبه في طلبه ومطلوبه، وحبسه عن الالتفات إلى غيره. وحبس لسانه عما لا يفيد، وحبسه على ذكر الله وما يزيد في إيمانه ومعرفته. وحبس جوارحه عن المعاصي والشهوات، وحبسها على الواجبات والمندوبات.

فلا يفارق الحبس حتى يلقى ربه، فيخلصه من السجن إلى أوسع فضاء وأطيبه. ومتى لم يصبر على هذين الحبسين، وفرَّ منهما إلى فضاء الشهوات، أعقبه ذلك الحبس الفظيع عند خروجه من الدنيا؛ فكل خارج من الدنيا، إما متخلص من الحبس، وإما ذاهب إلى الحبس)[1].

وقال ابن القيم كذلك: (العبد من حين استقرت قدمه في هذه الدار فهو مسافرٌ فيها إلى ربه، ومدة سفره هي عمره الذي كتب له، فالعمر هو مدة سفر الإنسان في هذه الدار إلى ربه تعالى، ثم قد جعلت الأيام والليالي مراحل لسفره، فكلّ يوم وليلة مرحلة من المراحل، فلا يزالُ يطويها مرحلةً بعد مرحلةٍ حتى ينتهي السفر.

فالكيِّسُ الفطن هو الذي يجعلُ كل مرحلة نصب عينيه، فيهتم بقطعها سالماً غانماً، فإذا قطعها جعل الأخرى نصب عينيه، ولا يطول عليه الأمد فيقسو قلبه، ويمتد أمله، ويحصر بالتسويف والوعد والتأخير والمطل، بل يعد عمره تلك المرحلة الواحدة، فيجتهد في قطعها بخير ما بحضرته، فإنه إذا تيقن قصرها وسرعة انقضائها هان عليه العمل، فطوَّعت له نفسه الانقياد إلى التزود، فإذا استقبل المرحلة الأخرى من عمره ليستقبلها كذلك، فلا يزال هذا دأبه حتى تطوى مراحل عمره كلها فيحمد سعيه، ويبتهج بما أعدّه ليوم فاقته وحاجته. فإذا طلع صبحُ الآخرة وانقشع ظلام الدنيا فحينئذ يحمد سُرَاه، وينجاب عنه كِرَاه، فما أحسنَ ما يستقبل يومه وقد لاح صباحه واستبان فلاحه)[2].

---

(١) الفوائد ٨٣.

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين، ابن القيم: أبو عبدالله محمد بن أبي بكر ٧٥١هـ، تحقيق: يوسف علي بديوي ص ٣٣٧.

الحديث رقم (٦٠٠)

٦٠٠- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قَالَ: ((مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيّاً إلاَّ رَعَى الْغَنَمَ)) فَقَالَ أصْحَابُهُ: وأنْتَ؟ قَالَ: ((نَعَمْ، كُنْتُ أرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لأَهْلِ مَكَّةَ)) رواه البخاريُّ[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

القيراط: هو جزء من الدينار أو الدرهم[2].

الشرح الأدبي

الحديث يدور حول حرفة الرعي وعمل الأنبياء بها، ولعل ذلك يرجع إلى طبيعة هذه الحرفة التي تعلم الإنسان الصبر، والتأمل، والصفاء، والوضوح للتأثر بطبيعة المكان بين السماء، والأرض، كما أنها تعلم حسن التدبير، واختيار الأصلح، ورعاية الضعيف وسط الأقوياء، ثم إن كونها بهائم خرساء لا تستطيع أن تعبر عن حاجتها، احتاجت إلى مزيد تفقد، وتفرس لأفرادها ثم إنها ضعيفة تحتاج إلى من يدفع عنها الذئاب، ومراتع الهلاك، فهي مدرسة في صورة مهنة، ولا يدرك عظيم فوائدها إلا من مارسها، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم (مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيّاً إلاَّ رَعَى الْغَنَمَ) أسلوب قصر يقصر كل نبي مبعوث على صفة الاشتغال برعي الغنم، وتنكير (نبيا) يفيد العموم، واختيار الغنم لأنه أضعف، وتحتاج إلى مزيد عناية لكثرة الوحوش التي تستطيع افتراسها، ورِعاءُ الغنم وأربابها أرقُّ قلوباً، وأبعد من الفظاظة والغلظة، وأقرب للتواضع وقول الرسول ﷺ (نَعَمْ، كُنْتُ أرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لأَهْلِ مَكَّةَ) يقرر المعنى السابق، ويؤكده والتعبير بالرعاية

---

(١) برقم ٢٢٦٢. وسيكرره المؤلف برقم ٦٠٩.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤/٥١٦.

يشير إلى العناية، والحفظ، والحنو، والأنبياء رعاة الأمم فكان تدريبهم على الصبر، والرحمة، والتفقد، والاحتمال وغيرها من معان عن طريق تلك المهنة.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانياً: من صفات الداعية: التواضع.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: الحكمة من رعي الأنبياء الغنم.

رابعاً: من آداب المدعو: السؤال والتثبت.

خامساً: من موضوعات الدعوة: أهمية الحرفة لأجل الكسب الحلال.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار:

لقد قال النبي ﷺ: "ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم"، فأخبر ﷺ أن الأنبياء قد رعوا جميعاً الغنم وأنهم اشتغلوا بذلك وعالجوه. ومن قبيل الإخبار قوله ﷺ: ((ما مِنْ نبيٍّ إلا أنذرَ أمتَه الأعورَ الكذَّاب، ألا إنَّه أعورُ، وإنَّ ربَّكم ليسَ بأعوَرَ، مكتوبٌ بينَ عينيه كافر))[1].

ومن الملاحظ أن هذا الإخبار جاء بصيغة القصر، ليدل على أن جميع الأنبياء وقع منهم ذلك. وأن هذا أمر من الأمور المشتركة بينهم صلى الله عليهم وسلم.

ثانياً- من صفات الداعية: التواضع:

جبلت النفوس على حب من تواضع والنفور ممن تكبر وطغى، والداعية لا نجاح له إلا بحب الناس له، لذا كان التواضع من الصفات المهمة للداعية، ومحمد ﷺ وهو إمام الدعاة كان رأس المتواضعين، مع أنه ﷺ أفضل الخلق على الله. وذلك واضح في قوله ﷺ: "كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة"، قال ابن حجر: (وفي ذكر النبي ﷺ لذلك بعد أن علم كونه أكرم الخلق على الله بيان لما كان عليه من عظيم التواضع لربه والتصريح بمنته عليه وعلى إخوانه من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر الأنبياء)[2].

---

(١) أخرجه البخاري ٧١٣١، ومسلم.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥١٧/٤.

وقال الله تعالى مخاطباً رسوله: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾(١)، فالله سبحانه وتعالى (أمره أن يلين جانبه للمؤمنين وأن يعطف عليهم ويطايبهم ليرسخ الإيمان في قلوبهم ويسلموا من غائلة الردة فيما لو عُوملوا بالقسوة والشدة وهم في بداية الطريق إلى الله تعالى)(٢). وقال الطاهر بن عاشور: (وخفض الجناح مثل للمعاملة باللين والتواضع)(٣).

قال ابن القيم عن تواضع النبي ﷺ: (وكان ﷺ يخصف نعله ويرقع ثوبه ويحلب الشاة لأهله، ويعلف البعير ويأكل مع الخادم ويجالس المساكين، ويمشي مع الأرملة واليتيم في حاجتهما، ويبدأ من لقيه بالسلام، ويجيب دعوة من دعاه، ولو إلى أيسر شيء، وكان ﷺ هيّن المؤنة، ليّن الخلق، كريم الطبع، جميل المعاشرة، طلق الوجه، بساماً متواضعاً من غير ذلة، جواداً من غير سرف، رقيق القلب رحيماً بكل مُسلم، خافض الجناح للمؤمنين، ليّن الجانب لهم)(٤).

(إن التواضع من أخلاق الأنبياء، وهو من أسباب الرفعة والعزة وفي ترك التواضع وقوع التشاحن)(٥).

وقال ابن القيم عن الفرق بين التواضع والمهانة: (والفرق بين التواضع والمهانة أن التواضع يتولد من بين العلم بالله سبحانه ومعرفة أسمائه وصفاته ونعوت جلاله وتعظيمه ومحبته وإجلاله، ومن معرفته بنفسه وتفاصيلها وعيوب عملها وآفاتها، فيتولد من بين ذلك كله، خلقٌ هو التواضع. وهو انكسار القلب لله وخفض جناح الذل والرحمة بعباده فلا يرى له على أحد فضلاً ولا يرى له عند أحد حقاً بل يرى الفضل للناس عليه

---

(١) سورة الشعراء، آية: ٢١٥.

(٢) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، أبو بكر جابر الجزائري ٦٨٨/٣.

(٣) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور ٢٠٢/١٩.

(٤) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ١١٢/٣.

(٥) معالم في طريق طلب العلم، عبدالعزيز بن محمد بن عبدالله السدحان ص ١٦٦.

والحقوق لهم قبله وهذا خلق إنما يعطيه الله عز وجل من يحبه ويكرمه ويقربه.

وأما المهانة فهي: الدناءة والخسة وبذل النفس وابتذالها في نيل حظوظها وشهواتها كتواضع السفل في نيل شهواتهم، وتواضع المفعول به للفاعل، وتواضع طالب كل حظ لمن يرجو نيل حظه منه فهذا كله ضعة لا تواضع، والله سبحانه يحب التواضع ويبغض الضعة والمهانة. وفي الصحيح عنه ﷺ وأوحِي إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد)[١].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: الحكمة من رعي الأنبياء الغنم:

إن أهل الحق دائمون معرضون لأن يعاديهم كثير من الناس وأن ينفر عنهم خلق كثير، لذا كان من الصفات الواجب توافرها في أهل الحق الحلم والصبر على دعوة الناس وتبليغها لهم، والشفقة على المؤيدين منهم والمعارضين، ولاشك أن هاتين الصفتين تحتاجان في الأغلب إلى تمرين وتدريب، قبل أن يتوجهوا إلى الناس بدعوتهم، وهذا ما يفسر قول النبي ﷺ: "ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم"، قال ابن حجر: (قال العلماء: الحكمة في إلهام الأنبياء من رعي الغنم قبل النبوة أن يحصل لهم التمرن برعيها على ما يكلفونه من القيام بأمر أمتهم، ولأن في مخالطتها ما يحصل لهم الحلم والشفقة لأنهم إذا صبروا على رعيها وجمعها بعد تفرقها في المرعى ونقلها من مسرح إلى مسرح ودفع عدوها من سبع وغيره - كالسارق - وعلموا اختلاف طباعها وتفاوت عقولها فجبروا كسرها ورفقوا بضعيفها وأحسنوا التعاهد لها، فيكون تحملهم لمشقة ذلك أسهل، مما لو كلفوا القيام بذلك من أول وهلة لما يحصل لهم من التدريج على ذلك برعي الغنم. وخصت الغنم بذلك لكونها أضعف من غيرها، ولأن تفرقها أكثر من تفرق الإبل والبقر لإمكان ضبط الإبل والبقر بالربط دونها في العادة المألوفة. ومع أكثرية تفرقها فهي أسرع انقياداً من غيرها)[٢].

---

(١) الروح: ابن القيم: محمد بن أبي بكر ٧٥١هـ، مكتبة المتنبي، القاهرة، بدون تاريخ ص ٢٣٣. والحديث أخرجه مسلم ٦٤-٢٨٦٥.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥١٦/٤ - ٥١٧.

وقال الشيخ محمد أبو شهبة: (هذا إلى ما في رعي الغنم من قضاء نهاره وبعض ليله في البادية، فيتمتع بالسماء الصافية والشمس المشرقة والهواء النقي ويطيل التأمل والنظر في السماء ذات الأبراج، والأرض ذات الفجاج، والجبال ذات الألوان، وبذلك يصير التأمل والتدبر ملكة من ملكات النفس)[1].

وقال د. عبدالعزيز بن إبراهيم العمري: (ولقد امتاز رعاة الغنم عن غيرهم من الرعاة بالحساسية والخبرة، فقد كانت طبيعة الأغنام تتطلب من الرعاة نوعاً من الحذر المتمثل في معرفة أنواع الأعشاب التي ترعاها هذه الأغنام، فإن بعض الأعشاب سام ويقتل الغنم بمجرد أن تأكله، بل إن بعضاً منها يقتل الغنم بمجرد أن تشم رائحته... كما أن هنالك بعض الأعشاب تصيب الأغنام بأمراضٍ معينة أو تتسبب في رمي الحوامل منها لحملها. إضافة إلى ذلك فإن الأغنام لا تستطيع مقاومة السباع كالذئب وغيره بعكس الإبل، فالرعاة للأغنام دائماً يُجنّبُون أغنامهم المواطن التي تسكنها الذئاب خصوصاً في الليل... كما أن الغنم تحتاج إلى الماء باستمرار فراعي الغنم لا يستطيع أن يبتعد بها عن الماء كثيراً وإلا هلكت من العطش... إضافة إلى ذلك فإن راعي الغنم يجب أن تكون لديه القدرة على التصرف السريع في كثير من الحالات التي تواجهه)[2].

رابعاً- من آداب المدعو: السؤال والتثبت:

يحتاج المدعو أن يسأل الداعية عن بعض الأمور التي يريد أن يتأكد منها. هذا واضح في قول أصحابه ﷺ لما أخبرهم ﷺ بأن جميع الأنبياء قد رعَوَا الغنم - فقالوا له: وأنت؟ قال: نعم. ومن هذا القبيل ما كان من شأن الصحابي عُمير بن الحمام الأنصاري رضي الله عنه في غزوة بدر لما سمع النبي ﷺ يقول لأصحابه: ((قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ)) قَالَ: يَقُولُ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ الأَنْصَارِيُّ: يَا رَسُولَ اللّهِ جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ؟ قَالَ: «نَعَمْ» قَالَ: بَخٍ بَخٍ. فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ: ((مَا يَحْمِلُكَ عَلَى

---

(١) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد أبو شهبة ٢١٠/١.

(٢) الحرف والصناعات في الحجاز في عصر الرسول ﷺ ص ٦٩-٧٠.

قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ)) قَالَ: لاَ. وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلاَّ رَجَاءَةَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا. قَالَ: ((فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا)) فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرَنِهِ[1]. فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ. ثُمَّ قَالَ: لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ، إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ. قَالَ فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ التَّمْرِ. ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ[2].

فلما تأكد عمير بن الحمام من أن جزاء من يستشهد الجنة أقدم فقاتل حتى قُتل، وقد ذكر ابن جرير الطبري أن عميراً قاتل وهو يقول:

ركضا إلى الله بغير زاد ... إلا التقى وعمل المعاد

والصبر في الله على الجهاد ... فكل زاد عرضة النفاد

غير التقى والبر والرشاد[3]

خامساً: من موضوعات الدعوة: أهمية الحرفة لأجل الكسب الحلال

من المهم بمكان أن يعمل الإنسان عملاً يكتسب به قوته، لأن في ذلك من الفوائد ما لا يخفى، لذا كان الأنبياء صلوات الله عليهم يعملون بأيديهم، وكذلك كان أفضلهم محمد ﷺ يعمل. وذلك واضح في قول النبي ﷺ: (كُنت أرعاها على قراريط لأهل مكة)، وفي رواية ابن ماجه[4] عن سويد بن سعيد عن عمرو بن يحيى: (كنت أرعاها لأهل مكة بالقراريط، قال سويد: "يعني كل شاة بقيراط"، قال ابن حجر: (يعني القيراط الذي هو جزء من الدينار أو الدرهم)[5].

قال الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي: (أما إقباله على رعي الأغنام لقصد اكتساب القوت والرزق ففيه ثلاث دلالات هامة:

---

(١) جعبة النشاب والنبل. انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٢١٨.

(٢) أخرجه مسلم ١٩٠١.

(٣) تاريخ الأمم والملوك ٤٤٨/٢، وانظر: البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق: أحمد أبو مسلم وآخرون ١٠٧/٥، والمنتظم، قافية الدال ١٠٨/٣.

(٤) سنن ابن ماجه ٢١٤٩، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ١٧٤٥).

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥١٦/٤.

الأولى: الـذوق الرفيـع والإحـساس الـدقيق اللـذان جمّـل الله تعـالى بهمـا نبيـه محمداً ﷺ. لقد كـان عمـه يحوطـه بالعنايـة التامـة، وكـان لـه في الحنّـو والـشفقة كالأب الشفوق، ولكنـه ﷺ مـا إن آنس في نفسه القدرة على الكسب حتى أقبل يكتسب، ويجهد جهده لرفع بعض ما يمكـن رفعـه مـن مؤونـة الإنفـاق عـن عمـه. وربمـا كانت الفائدة التي يجنيهـا مـن وراء عملـه الـذي اختـاره الله لـه، فائـدة قليلـة غيرذات أهمية بالنسبة لعمه أبي طالب، ولكنه على كل تعبير أخلاقي رفيع عن الشكر، وبذل للوسع، وشهامة في الطبع، وبرّ في المعاملة.

الثانيـة: وتتعلق ببيـان نـوع الحيـاة الـتي يرتـضيها الله تعـالى لعبـاده الـصالحين في دار الدنيا. لقد كان سهلاً على القـدرة الإلهيـة أن تهيئ للنبي ﷺ، وهـو في صـدر حياتـه، مـن أسـباب الرفاهيـة ووسـائل العـيش مـا يغنيـه عـن الكـدح ورعايـة الأغنـام سـعياً وراء القوت.

ولكن الحكمة الإلهية تقتضي منا أن نعلم أن خير مال الإنسان مـا اكتسبه بكدّ يمينه ولقاء ما يقدمه من الخدمة لمجتمعه وبني جنسه، وشر المال ما أصابه الإنسان وهـو مستلق على ظهره دون أن يرى أي تعب في سبيله، ودون أن يبذل أي فائدة للمجتمع في مقابله.

الثالثة: إن صاحب أي دعوة، لن تقوم لدعوته أي قيمة في الناس إذا ما كان كسبه ورزقـه مـن وراء دعوتـه أو علـى أسـاس مـن عطايـا النـاس وصـدقاتهم. ولـذا فقـد كـان صـاحب الـدعوة الإسـلامية أحـرى النـاس كلـهم بـأن يعتمـد في معيـشته علـى جهـده الشخصي أو مورد شريف لا استجداء فيه حتى لا تكون عليه لأحد من الناس منة أو فضل في دنياه فيعوقه ذلك عن أن يصدع بكلمة الحق في وجهه غير مبال بالموقع الذي قد تقع من نفسه.

وهذا المعنى وإن لم يكن قد خطر في بال الرسول ﷺ في هـذه الفترة، إذ إنـه لم يكن يعلم بما سيوكل إليه من شأن الدعوة والرسالة الإلهية، غير أن هـذا المنهج الـذي هيـأه الله لـه ينطـوي علـى هـذه الحكمـة ويوضـح أن الله تعـالى قـد أراد أن لا يكـون في

شيء من حياة الرسول قبل البعثة ما يعرقل سبيل دعوته أو يؤثر عليها أي تأثير سلبي، فيما بعد البعثة)[١].

وقد قال النبي ﷺ: ((مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَاماً قَطُّ خَيْراً مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ))[٢].

قال ابن حجر: (المراد بالخيرية ما يستلزم العمل باليد من الغنى عن الناس. وفي الحديث فضل العمل باليد وتقديم ما يباشره الشخص بنفسه على ما يباشره بغيره والحكمة في تخصيص داود بالذكر أن اقتصاره في أكله على ما يعمله بيده لم يكن من الحاجة لأنه كان خليفة في الأرض كما قال الله تعالى، وإنما ابتغى الأكل من طريق الأفضل، ولهذا أورد النبي ﷺ قصته في مقام الاحتجاج بها على ما قدمه من أن خير الكسب عمل اليد)[٣].

قال ابن الجوزي: (إن كمال العز وبعد الرياء إنما يكون في البعد عن العمّال الظلمة، ولم نر من صح له هذا إلا في أحد رجلين: إما من كان له مال كسعيد بن المسيب، كان يتجر في الزيت وغيره، وسفيان الثوري كانت له بضائع وابن المبارك. وإما من كان شديد الصبر قنوعاً بما رزق وإن لم يكفه، كبشر الحافي وأحمد بن حنبل. ومتى لم يجد الإنسان كصبر هذين، ولا كمال أولئك، فالظاهر تقلبه في المحن والآفات، وربما تلف دينه. فعليك يا طالب العلم بالاجتهاد في جمع المال للغنى عن الناس، فإنه يجمع لك دينك. فما رأينا في الأغلب منافقاً في التدين والتزهد والتخشع ولا آفة طرأت على عالم إلا بحبّ الدنيا، وغالب ذلك الفقر)[٤]. (فأسعد الناس من له قوت دارٌ بقدر الكفاية، لا مِنْ مِنَنَ الناس وصدقاتهم وقد قنع به. وأما إذا لم يكن له قوت

---

(١) فقه السيرة، د. محمد بن عيد رمضان البوطي ٧٨.

(٢) أخرجه البخاري ٢٠٧٢.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٥٨/٤.

(٤) صيد الخاطر، ابن الجوزي، تحقيق: عبدالقادر عطا ٢٣٩.

يكفي فالهمُّ الذي يريد اجتماعه في تلك الأمور يتشتت ويصير طالباً للتحيل في جمع القوت، فيذهب العمر في تحصيل قوت البدن الذي يريد من بقائه غير بقائه. ويفوت المقصود ببقائه، وربما احتاج إلى الأنذال)[1].

(١) المرجع السابق ٤٠٣.

الحديث رقم (٦٠١)

٦٠١- وعنه، عن رسول الله ﷺ، أنَّه قَالَ: ((مِنْ خَيْرِ مَعَاشِ النَّاسِ لهم، رَجُلٌ مُمْسِكٌ عِنَانَ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ الله، يَطِيرُ عَلَى مَتْنِهِ كُلَّمَا سَمِعَ هَيْعَةً أَوْ فَزعَةً، طَارَ عَلَيْهِ يَبْتَغِي القَتْلَ، أَوْ المَوْتَ مَظَانَّه، أَوْ رَجُلٌ فِي غُنَيمَةٍ فِي رَأسِ شَعَفَةٍ مِنْ هذِهِ الشَّعَفِ، أَوْ بَطنِ وَادٍ مِنْ هذِهِ الأَوْدِيَةِ، يُقِيمُ الصَّلاَةَ، وَيُؤتِي الزَّكَاةَ، وَيَعْبُدُ رَبَّهُ حَتَّى يأتِيَهُ اليَقِينُ، لَيْسَ مِنَ النَّاسِ إلاَّ فِي خَيْرٍ)) رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

العنان: سَيرِ اللِّجَام الذي تُمسك به الدابة[2].

يَطيرُ: يُسْرِعُ[3].

متنه: ظَهْرُهُ[4].

الهيعةً: الصوت للحرب[5].

الفزعة: الصوت للحرب[6].

مظان الشيء: المواضعُ التي يُظِنُّ وجودُهُ فيها[7].

غُنَيمَةٍ: تصغير الغنم[8].

الشعفةُ: أعلى الجبل[9].

---

(١) برقم ١٨٨٩/١٢٥. وسيأتي برقم ١٣٠١، أورده المنذري في ترغيبه ١٨٤٥.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، والوسيط، مجمع اللغة العربية في (ع ن ن).

(٣) رياض الصالحين ٢٧٠.

(٤) رياض الصالحين ٢٧٠.

(٥) المرجع السابق ٢٧٠.

(٦) المرجع السابق ٢٧١.

(٧) المرجع السابق ٢٧١.

(٨) المرجع السابق ٢٧١.

(٩) المرجع السابق ٢٧١.

الشرح الأدبي

قول الرسول ﷺ (مِنْ خَيْرِ مَعَاشِ النَّاسِ لهم رجل) ورجل بالابتداء على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه أي معاش رجل هذا شأنه من خير معاش الناس وقوله (لهم) أي معاش الناس الكائن لهم لا عليهم أي هو من خير معاشهم النافع لهم، وقوله (مُمْسِكٌ عِنَانَ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ الله) كناية عن دوام الاستعداد للجهاد في سبيل الله في كل وقت، وذكر العنان يشير إلى تمام السيطرة، والفرس لتمام إعداد العدة ، وآلة الحرب، والتعبير بالطيران يشير إلى الخفة في إجابة الداعي الأمر الذي يوحي بمحبته للجهاد ، لأن النفس تخف إلى ما تحب وتثقل عندما تكره ، وقوله (على متنه) يشير إلى التمكن، والتعبير بـ(كلما) يشير إلى العادة في الفعل وقوله (هَيْعَةً أَوْ فَزعَةً، طَارَ عَلَيْهِ يَبْتَغِي القَتْلَ، أَوْ المَوْتَ مَظَانَّه) كناية عن شجاعته ، ورغبته فيه، والهيعة والفزع صوت المنادي للحرب ، والمستغيث، والتعبير بالماضي الدال على التحقق يؤكد السرعة في التلبية ، وتمام الاستعداد رغبة في الشهادة، ومظان الموت أماكن غلب الظن على وقوعه فيها ، (أَوْ رَجُلٌ فِي غُنَيمَةٍ فِي رَأسِ شَعَفَةٍ مِنْ هذِهِ الشَّعَفِ) والشعفة أعلى الجبل ، والإشارة (هذه) في هذه العبارة والتي تليها للتحقير ؛ لأنه لا يبحث عن ترف ، و تصغير غنيمة للتحقير الذي يوحي بأن الرجل لم يسع إلى طلب دنيا بل سعى إلى عزلة لتفريغ القلب للعبادة وهو ما صورته الأفعال في صورة المضارع الدال على التجدد ، والاستمرار (يُقِيمُ الصَّلاَةَ، وَيُؤتِي الزَّكَاةَ، وَيَعْبُدُ رَبَّهُ) إلى الغاية المنتظرة (حَتَّى يأتِيَهُ اليَقِينُ) لا يوذي الناس ، ولا يؤذونه .

المضامين الدعوية

أولاً : من موضوعات الدعوة: فضل الجهاد في سبيل الله.

ثانياً : من موضوعات الدعوة: فضل العزلة عند الفتنة وفساد الناس.

ثالثاً : من واجبات المدعو: إمساك الأذى عن الناس وجلب الخير لهم.

رابعاً : من أساليب الدعوة: الترغيب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل الجهاد في سبيل الله:

إن الجهاد في سبيل الله من أفضل الأعمال وأعلاها، فمن قام به فقد ضحّى بنفسه وماله، وهذا واضح في قوله ﷺ: "من خير معاش الناس رجل ممسك عنان فرسه في سبيل الله يطير على متنه كلما سمع هيعة أو فزعة طار عليه يبتغي القتل أو الموت مظانه"، قال النووي: (المعاش هو العيش وهو الحياة، وتقديره - والله أعلم - من خير أحوال عيشهم رجل ممسك [عنان فرسه] يسارع على ظهره وهو متنه، كلما سمع هيعة، وهي الصوت عند حضور العدو... والفزعة - بإسكان الزاي - النهوض إلى العدو... ومعنى "يبتغي القتل مظانه": يطلبه في مواطنه التي يرجى فيها لشدة رغبته في الشهادة، وفي هذا الحديث فضيلة الجهاد والرباط والحرص على الشهادة)(1).

وقد قال رسول الله ﷺ: ((مَثَلُ المُجَاهِدِ في سبيلِ الله مَثَلُ الصائم القائم الذي لا يَفْتُرُ مِنْ صلاةٍ ولا صِيَامٍ، حتى يَرْجِعَ))(2).

قال ابن عبدالبر: (هذا أفضل حديث وأجله في فضل الجهاد، لأنه مثله بالصلاة والصيام وهما أفضل الأعمال، وجعل المجاهد بمنزلة من لا يفتر عن ذلك ساعة؛ فأي شيء أفضل من الجهاد؟ يكون صاحبه راكباً، وماشياً، وراقداً، ومتلذذاً بكثير من حديث رفيقه وأكله وشربه، وغير ذلك مما أبيح له؛ وهو في ذلك كله كالمصلي التالي للقرآن في صلاته الصائم مع ذلك المجتهد، إن هذا لغاية في الفضل وفقنا الله برحمته.

ولهذا ومثله قلنا: إن الفضائل لا تدرك بقياس ونظر والله المستعان، وحسبك من فضل الجهاد بقول الله عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(3))(4).

(1) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٢١٣.

(2) أخرجه البخاري ٢٨٧٧، ومسلم ١٨٧٨.

(3) سورة الصف، آية:١٠-١١.

(4) فتح البر في الترتيب الفقهي لتمهيد ابن عبدالبر، رتبه محمد بن عبدالرحمن المغراوي ٣٣/١١.

جاء في الموسوعة الفقهية: (فضل الجهاد عظيم، وحاصله بذل الإنسان نفسه ابتغاء مرضاة الله تعالى، وتقرباً بذلك إليه سبحانه وتعالى... وأفضل ما يتطوع به الجهاد، وقد قال أحمد بن حنبل: لا أعلم شيئاً بعد الفرائض أفضل من الجهاد، وقد روى هذه المسألة عن أحمد جماعة من أصحابه، قال أحمد: الذين يقاتلون العدو هم الذين يدافعون عن الإسلام وعن حريمه، فأي عمل أفضل منه؟ الناس آمنون وهم خائفون قد بذلوا مهج أنفسهم. والأحاديث متظافرة بذلك"[1].

قال ابن القيم: (وأما الجهاد فناهيك به من عبادة هي سنام العبادات وذورتها وهو المحكّ والدليل المفرق بين المحب والمدعي، فالمحب قد بذل مهجته وماله لربه وإلهه متقرباً إليه ببذل أعز ما بحضرته يودّ لو أن له بكل شعرة نَفْساً يبذلها في حبه ومرضاته ويود أن لو قتل فيه ثم أحيي ثم قتل ثم أحيي ثم قتل فهو يفدي بنفسه حبيبه وعبده ورسوله، ولسان حاله يقول:

يفديك بالنفس صبٌّ لو يكون له أعز من نفسه شيء فداك به [2]

فهو قد سلّم نفسه وماله لمشتريها وعلم أنه لا سبيل إلى أخذ السلعة إلا ببذل ثمنها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ﴾[3])[4].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: فضل العزلة عند الفتنة وفساد الناس:

أعز ما يملك المسلم في هذه الدنيا دينه، يحافظ عليه بالغالي والنفيس، ويستعين على ذلك بكل الوسائل والطرق المشروعة، وقد تكون العزلة أفضل هذه الطرق كما هو واضح في قوله ﷺ: "من خير معاش الناس" ثم ذكر: "أو رجل في غنيمة في رأس

---

(١) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٢٧/١٦، وانظر: زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم ٥/٣.

(٢) محاضرات الأدباء ٥٨/٢، المستظرف قافية الحاء ٣٩٤/٢، ونسبه الشاعر الوأواء الدمشقي - العصر العباسي.

(٣) سورة التوبة، آية:١١١.

(٤) مفتاح دار السعادة ٤/٢.

شعفة من هذه الشعف أو بطن من هذه الأودية يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين".

ذكر الطيبي عن هذا الجزء من الحديث أنه جاء (وصفاً لقناعة هذا الرجل بأنه سكن في أحقر مكان ويجتزئ بأدنى قوت، واعتزال الناس بكفه شره عنهم ويستكفي شرهم عنه ويشتغل بعبادة ربه حتى يجيئه الموت. وعبّر عن الموت باليقين ليكون نصب عينيه مزيداً للتسلي فإن في ذكر هازم اللذات ما يعرضه عن أغراض الدنيا ويشغله عن ملاذها بعبادة ربه. ألا ترى كيف سلّى حبيبه صلوات الله عليه حين لقى ما لقى من أذى الكفار بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾[1].

... وفي تخصيص ذكر المعاش تلميح، فإن العيش المتعارف بين أبناء الدهر هو استيفاء اللذات والانهماك في الشهوات كما سميت البيداء المهلكة بالمفازة والمنجاة، واللديغ بالسليم، وتلميح إلى قوله ﷺ: ((اللّهمَّ لا عَيشَ إلا عَيشُ الآخرهْ))[2]، وفيه أن لا عيش ألذ وأمرأ وأشهى وأهنأ مما يجد العبد من طاعة ربه ويستروح إليها حتى يرفع تكاليفها ومشاقها عنه. بل إذا فقدها كان أصعب عليه مما إذا وتر أهله وماله... وجماع معنى الحديث: الحث على مجاهدة أعداء الدين، وعلى مجاهدة النفس والشيطان والإعراض عن استيفاء اللذات العاجلة)[3].

وجاء في الموسوعة الفقهية: (ذهب العلماء إلى أفضلية العزلة عند ظهور الفتن وفساد الناس، إلا أن يكون الإنسان له قدرة على إزالة الفتنة فإنه يجب عليه السعي في إزالتها بحسب الحال والإمكان. وأما في غير أيام الفتنة فقد اختلف العلماء في المفاضلة بين العزلة والاختلاط)[4].

---

(١) سورة الحجر، الآيات: ٩٧ - ٩٩.

(٢) أخرجه البخاري ٢٩٣٢، ومسلم ٥٢٤، وعندهما: (اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة).

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٧/٢٧١.

(٤) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٠/٨٣.

وقال د. عائض القرني: (للعزلة فوائد كثيرة ومنافع وفيرة، منها جمع القلب على طاعة الرب، وكف اللسان عن الغيبة واللغو ورديء القول والبعد عن الحاسد والشامت، ومتتبع السقطات، والفارح بالغلطات، والجامع للزلات ومفارقة الثقيل، والبعد عن سوء الظن، والسلامة من ضياع الزمان الذي هو أشرف العطايا، واليأس مما في أيدي الناس، وحبس الفكر على استجلاء الفكر، والبعد عن كل مشوش، والأمان من لدغ الأقران، ومنة الإخوان، وحقوق الخلان، ومطالب الجيران، والابتعاد عن النظر إلى زينة الدنيا والاستحسان لما ذمه الله من زخرفها وعابه من زبرجد غرورها، والنأي عن منافسة أهلها ومباراة خدامها ومعاداة أبنائها ومحاكات أخدانها في طمعهم وجشعهم.

وفي العزلة خلوة للقلب من الهموم، وحمية البال من الغموم، وسلامة الخاطر من الكدر، ومطالعة العقل للعبر.

وفي العزلة الاستعداد للموت، والتأهب للفوت، وتدبير أمر القوت، والنجاة من الغوغاء، وأقاويل الدهماء، وأراجيف الأعداء، وفضول الثقلاء.

وفي العزلة الأمان من حيف السلطان؛ لأن في الخلطة فرصة للنمام لنقل الكلام، وعدم التحرز من اللسان عن العوام، فرب كلمة سقط معها الرأي أو وقع على النفس منها بأس، سببها مجالسة الناس.

وفي العزلة التحفظ من الاسترسال في حال الغفلة والانبساط في أحاديث يطير بها الناس فتحمل على غير محملها، ويتأولونها على غير تأويلها وتجر على صاحبها الويلات والأمور المدلهمات.

وفي العزلة حفظ الأنفاس مع نفائس وتلقيح الفهوم بقطوف الحكمة وثمار المطالعة وأبكار الأفكار، ونتائج القراءة ودرر الاستنباط وبدائع التأمل، ومجالسة من سلف مع كتبهم وعلومهم وكنوز ميراثهم.

وفي العزلة الابتعاد عن أسباب قسوة القلب، من كثرة الكلام، وفضول النظر والخلطة، والمزاح، والتهتك في الضحك، ومجاراة السفهاء، ومداهنة الكبراء، ومنافسة الأغنياء، ومجادلة الأغبياء.

وفي العزلة حفظ الجاه، وصون العرض من التبذل.

وفي العزلة تعلو قيمة المرء كاختفاء الشمس حتى يعرف نفعها، واحتجاب القمر حتى تظهر فائدته، فما رفع الدر في النحور إلا لأنه اختفى في البحور.

وفي العزلة إقامة ناموس الهيبة، وإقامة دولة العز في النفس والناس، وحبس الطبع عن سرقة العادات، فإن الطبع لص يَسْرق والنفس تهوى التقليد، فمن جلس مع أبناء الزمان، وضيع العمر مع من يسمَّوْن بالإخوان، سرق منهم سقوط الهمم، وموت الذمم وبرود العزائم، وكثرة الأماني، وسماع الأراجيف، ونشر المعائب، والاشتغال بالتوافق، والإقبال على ما يشغل وترك المهمات وهجران الصالحات، وحب البطالة والكسل في العبادة، والإعراض عن العلم، وإزجاء الوقت في قيل وقال، وبيع الأيام في سوق الأماني، ومشاركتهم في مقاصدهم، ومصاحبتهم في مكاسبهم)(١).

ثالثاً- من واجبات المدعو: إمساك الأذى عن الناس وجلب الخير لهم:

ما أجمل أن يكون المدعو جالباً الخير للناس وممسكاً الشر عنهم، مفتاحاً للخير مغلاقاً للشر، فإن من تحلّى بذلك فإنه يكون ذا منزلة طيبة ومكانة عالية، وبهذا وصف النبي ﷺ الرجل المعتزل بأنه "ليس من الناس إلا في خير" وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رجل: أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ: ((رَجُلٌ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِمَالِهِ وَنَفْسِهِ)) قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ((مُؤْمِنٌ فِي شِعْبٍ مِنَ الشِّعَابِ، يَعْبُدُ اللّهَ رَبَّهُ، وَيَدَعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ))(٢).

قال ابن هبيرة عن حديث الباب: (هذا الحديث يدل على أن خير الكسب الجهاد، لأنه يكون فيه إرغام أعداء الله وإعزاز أوليائه، وعلى هذا القياس كل كسب يكون في فروض الكفايات وتحمل بعض أعباء الخلق، كالزراعة والتجارة في جلب الأشياء النافعة لعموم الناس وغير ذلك، فإنه تكون من أطيب الكسب الذي يجمع فيه

---

(١) هكذا حدثنا الزمان، د. عائض بن عبدالله القرني ص ٩-١١.

(٢) أخرجه البخاري ٢٧٨٦، ومسلم ١٨٨٨.

الكاسب بين الارتزاق ونفع الخلق)[١].

وقد قال النبي ﷺ: ((تَكُفُّ شَرَّكَ عَنِ النَّاسِ، فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ))[٢].

ويوضح النبي ﷺ أن المسلم جالب للخير لنفسه ولأهله ومجتمعه فيقول: ((كلُّ سُلامي[٣] منَ النَّاس عليه صدقةٌ كلَّ يومٍ تطلُعُ فيه الشَّمسُ: يَعْدِلُ بينَ الاثنَين صدقةٌ، ويُعينُ الرَّجلَ على دابَّتِه فيَحمِلُ علَيها أوْ يَرفعُ علَيها مَتاعَه صَدقةٌ، والكلمَةُ الطيِّبةُ صدقةٌ، وكلُّ خُطوَةٍ يَخطُوها إلى الصَّلاةِ صَدقةٌ، ويُميطُ الأذى عنِ الطريقِ صدقةٌ))[٤].

جاء في الموسوعة الفقهية: (ينبغي للعبد -إذا آثر العزلة- أن يعتقد باعتزاله عن الخلق سلامة الناس من شره. ولا يقصد سلامته من شر الخلق، فإن الأول نتيجة استصغار نفسه، والثاني شهود مزيته على الخلق، ومن استصغر نفسه فهو متواضع، ومن رأى لنفسه مزية على أحدٍ فهو متكبر)[٥].

رابعاً: من أساليب الدعوة: الترغيب

لقد رغّب النبي ﷺ في الجهاد في سبيل الله وحب الاستشهاد واعتزال الناس عند خوف الفتنة، بأن أخبر أن ذلك من خير معاش الناس وأشرفه[٦]، أي من خير أحوال عيشهم في الدنيا والآخرة، قال الطيبي: (وجماع معنى الحديث: الحث على مجاهدة أعداء الدين، وعلى مجاهدة النفس والشيطان والإعراض عن استيفاء اللذات العاجلة)[٧].

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ١٨٧/٨.

(٢) أخرجه البخاري ٢٥١٨، ومسلم ٨٤.

(٣) السلامي: المفصل، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٦٤١.

(٤) أخرجه البخاري ٢٨٩١، ٢٩٨٩، ومسلم ١٠٠٩.

(٥) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٨٥/٣٠.

(٦) انظر: المفهم، القرطبي ٧٢٣/٣.

(٧) شرح الطيبي على المشكاة ٢٧١/٧.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

الأصل في العلاقات الإنسانية التعارف والتآلف لا التباغض والتنافر، فإذا ترتب على ذلك ما لا يحمد فقد وجبت العزلة أحياناً وصارت مستحبة أحياناً أخرى، بحسب مقتضى الحال ومن المضامين التربوية في أحاديث الباب ما يلي:

أولاً- التربية الوقائية:

إن العزلة عن كل ما يشغل عن الخير والطاعة دواء عزيز جرّبه أطباء القلوب فنجح أيما نجاح. والاجتماع المحمود والاختلاط الممدوح في الصلوات والجُمَع ومجالس العلم والتعاون على الخير، أما مجالس البطالة والعطالة فحذارِ حذار، ولذا فالواجب عليك إقبالك على شأنك والانزواء في غرفتك إلا من قول الخير أو فعل خير حينها تجد قلبك عاد إليك، فسلم وقتك من الضياع، وعمرك من الإهدار، ولسانك من الغيبة، وقلبك من القلق، وأذنك من الخنا ونفسك من سوء الظن، ومن جَرَّب عرف" [١].

إن أحاديث الباب ترشد المسلم إلى اعتزال الفتن حفاظًا على الدين، والمتأمل لأحاديث الرسول ﷺ ومواقف السلف أيام الفتن يجد فيها التحذير الشديد من المشاركة فيها بأي نوع من أنواع المشاركة وضرورة اعتزالها وأهلها ففي ذلك النجاة بإذن الله تعالى، وفي ذلك العافية والسلامة في الدنيا والآخرة، ما نقل إلينا من مواقف السلف، ومَنْ بعدهم شاهدة بذلك، فما من أحد اختار لنفسه العزلة أيام الفتن إلا كان محمود العاقبة، قال ابن تيمية: ومن استقرأ أحوال الفتن التي تجرى بين المسلمين تبين له أنه ما دخل فيها أحد فحمد عاقبة دخوله لما يحصل له من الضرر في دينه ودنياه، ولهذا كانت من باب المنهي عنه والإمساك عنها من المأمور به" [٢].

ثانيًا- التربية بالعزلة والمخالطة:

"إن العزلة تعني اعتزال الفرق الضالة وعدم ألفة الفاسدين، وهي دواء للنفس والقلب

---

(١) لا تحزن، د. عائض القرني، ٣٠، ٣١.

(٢) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، عبدالعزيز بن ناصر الجُلَيِّل، ٥٦١/٣.

ونجاة للإنسان من الشرور والآثام، ووسيلة للحفاظ على القلب من الضياع، ومعايير العزلة ألا تكون على حساب الوقت وآدابه، ولا تؤدي إلى تضييع حق، أو ضياع علم أو ضياع رزق، ومن لزم العزلة والخلوة يكون أقل عرضة لفضيحته في الدنيا. والعزلة نوعان فريضةٌ، وهي الاعتزال عن الشر وأهله، وفضيلةٌ وهي العزلة عن الفضولِ وأهله والفتنِ لا تظهر إلا بالخلطة" [(١)].

ومن فوائد العزلة في التربية الذاتية "التفرغ للعبادة والتفكر والاستئناس بمناجاة الله تعالى عن مناجاة الخلق، وكذلك اعتزال أهل الفسق والباطل ومفاصلتهم وخاصة أثناء مقارفتهم للمعاصي والمنكرات كي يسلم المرء من أذاهم وباطلهم، ومن فوائد العزلة الابتعاد عن المعاصي التي يتعرض لها الإنسان غالبًا بالمخالطة مثل الغيبة والنميمة والرياء والتربية للناس، وإذا تخلصت الذات من شرورها وسلبياتها أصبحت قوة فعّالة واتجهت للبناء والتنمية والسمو بالذات إلى مراتب الكمال، ومن فوائدها الخلاص من الفتن والخصومات وصيانة الدين والنفس عن الخوض فيها والتعرض لأخطارها" [(٢)].

وجماع ذلك: أن «المخالطة» إن كان فيها تعاون على البر والتقوى فهي مأمور بها، وإن كان فيها تعاون على الإثم والعدوان فهي منهي عنها، فالاختلاط بالمسلمين في جنس العبادات كالصلوات الخمس والجمعة والعيدين وصلاة الكسوف والاستسقاء ونحو ذلك هو مما أمر الله به ورسوله ﷺ.

فاختيار المخالطة مطلقا خطأٌ، واختيار الانفراد مطلقا خطأٌ. وأما مقدار ما يحتاج إليه كل إنسان من هذا وهذا وما هو الأصلح له في كل حال فهذا يحتاج إلى نظر خاص" [(٣)].

لقد حثت نصوص السنة على الترابط الاجتماعي، وعلى فعل الخير بأسلوب مطلق ففي الحديث: ((الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ والْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى

---

(١) محاضرات ودراسات في أصول التربية الإسلامية، د. محمد علي عزب، ص٧١.

(٢) انظر: التربية الذاتية من الكتاب والسنة، هاشم علي أحمد، ص١٢٩، ١٣٠.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم، ١٠/٤٢٥ بتصرف.

دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ))[1]، كل ذلك يدل على التفاعل الاجتماعي بين المسلم وغيره ومن السنن النبوية ما يؤكد قوة الرابطة بين المسلم وغيره، فلا يوجد نص يدعو إلى العزلة مطلقًا إلا لضرورة تقدر بقدرها.

فمما أمرنا به: اتباع الجنائز وعيادة المريض ورد السلام وتشميت العاطس وبذل المعروف وإلقاء السلام وإغاثة الملهوف وإعانة الآخرين على دوابهم والأخذ بيد العاجز والإقراض للفقير والإنساء للمدين المعسر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، فهل يكون ذلك كله إلا في إطار العلاقات الاجتماعية.

إن الارتباط والاختلاط هو الأصل في الإسلام، وإن حقوق الوالدين أو الزوجة والأولاد والجيران والرحم المحرم وذوي القربى والمسلمين لتوجب هذا الارتباط والاختلاط.

إن أداء التكاليف الشرعية مدعاة إلى إحياء هذه الروح، فالصلاة في جماعة وشهود الجنائز وصلاة العيدين والاستسقاء والخسوف والكسوف فضلاً عن الجمعة كل هذا داعٍ إلى الاختلاط والارتباط.

كما أن الصبر على أذى الآخرين، وتحمل المكاره، والعفو عن الزلات والهفوات كل هذا مما يكسب أجرًا ويعلي قدرًا.

إن العزلة في الإسلام مقيدة بالخوف على الدين، وذلك عند اليقين من كون الاختلاط مفسدة، ويفضي إلى غير محمدة.

وقد وردت في الأحاديث بعض الأساليب التربوية التي يمكن أن يستفاد منها في العملية التعليمية، منها:

١- الإلقاء: كما في حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه مرفوعًا: ((إِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ الْغَنِيَّ الْخَفِيَّ)) والإبقاء يكون بقيام المعلم بعرض معلومات أمام المتعلمين، في وقت وجيز، فَضْلاً عن كونه مناسبًا لمن تقدم في التعليم كالمتعلمين في المدارس

---

(١) أخرجه البخاري، ١٠، ٦١١٩، ومسلم، ٤١.

الثانوية والجامعات.

٢- الحوار والمناقشة: كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: ((ما بَعثَ اللهُ نبيًّا إلاّ رَعَى الغَنَمَ. فقال أصحابهُ: وأنتَ؟ فقال: نعم...)) والحوار والمناقشة من الأساليب التي تتميز بتفعيل دور المتعلم التعليمية وتتميز بقوة بقاء أثر التعلم.

٣- التربية على إتيان أفضل الأعمال: وهذا واضح من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: ((قال رجل أي الناس أفضل؟ قال: مُؤْمِنٌ مُجَاهِدٌ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ. قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟...)). وقوله صلى الله عليه وسلم: ((مِنْ خيرِ معاشِ الناسِ رجلٌ مُمْسِكٌ عِنَانِ فَرَسِهِ في سبيلِ الله يطيرُ على مَتْنِهِ كلَّما سَمِعَ هَيْعَةً أو فَزْعَةً طارَ...)) الحديث.

٧٠- باب فضل الاختلاط بالناس وحضور جُمَعِهم وجماعاتهم، ومشاهد الخير، ومجالس الذكر معهم، وعيادة مريضهم، وحضور جنائزهم، ومواساة محتاجهم، وإرشاد جاهلهم، وغير ذلك من مصالحهم لمن قدر عَلَى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقمع نفسه عن الإيذاء وصبر عَلَى الأذى

اعْلَم: أنَّ الاختلاط بالنَّاسِ عَلَى الوجهِ الَّذِي ذَكَرْتُهُ هُوَ المختارُ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ رسول الله ﷺ وسائر الأنبياء صلواتُ اللهِ وسلامه عَلَيْهِمْ، وكذلك الخُلفاءُ الرَّاشدون، ومن بعدَهُم مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، ومن بَعدَهُم من عُلَماءِ المُسلمين وأَخْيَارِهم، وَهُوَ مَذْهَبُ أكثرِ التَّابعينَ وَمَنْ بَعدَهُمْ، وبه قَالَ الشافعيُّ وأحمدُ وأكثرُ الفقهاءِ رضي اللهُ عنهم أجمعين. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢٠] والآيات فِي معنى مَا ذكرته كثيرة معلومة.

٧١- باب التواضع وخفض الجناح للمؤمنين

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥]، وقال تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال تَعَالَى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢]، وقال تَعَالَى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٨-٤٩].

الحديث رقم (٦٠٢)

٦٠٢- وعن عيَاضِ بنِ حمارٍ ﵁، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: ((**إنَّ الله أوْحَى إلَيَّ أنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لاَ يَفْخَرَ أحَدٌ عَلَى أحَدٍ، وَلاَ يَبْغِي أحَدٌ عَلَى أحَدٍ**)) رواه مسلم[(١)].

ترجمة الراوي:

عياض بن حِمار: هو عياض بن حِمار بن أبي حمار بن ناجية المجاشعي التميمي.

كان صديقًا قديمًا لرسول الله ﷺ قبل أن يبعث. وكان إذا قدم مكة لا يطوف إلا في ثياب رسول الله ﷺ، لأنه كان من الذين لا يطوفون إلا في ثوب أحمسي[(٢)].

ولما بعث النبي ﷺ ظل عياض على شركه وأهدى للنبي ﷺ هدية فلم يقبلها منه وقال له: إنا لا نقبل زَبْد المشركين؟ فاستفسر فقال: وما زَبْد المشركين؟ قال: رِفْدُهُم، هديتهم[(٣)]. ثم أنعم الله عليه بالإسلام، وقد سأل النبي ﷺ عن الرجل من قومه يشتمه وهو أقل منه مكانةً: هل عليه من بأس إن رد عليه وانتصر لنفسه؟ فقال ﷺ (المستبَّان شيطانان يتهاذيان ويتكاذبان)[(٤)].

نزل العراق فسكن البصرة وتوفي في خلافة علي بن أبي طالب أو ما بعدها[(٥)].

غريب الألفاظ:

لا يبغي: لا يعتدي[(٦)].

---

(١) برقم ٦٤/٢٨٦٥. أورده المنذري في ترغيبه ٤٢٦٥.

(٢) الأحمسي من الحُمْس وهم أهل قريش، سموا لذلك لأنهم تحمسوا في دينهم أي تشددوا. النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ح م س).

(٣) أخرجه أحمد ١٦٢/٤ رقم ١٧٤٨٢ وقال محققو المسند: حديث صحيح ٢٩/٢٩-٣٠. وهناك خلاف في قبول هدايا المشركين، انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٧١/٥.

(٤) أخرجه أحمد ١٦٢/٤ رقم ١٧٤٨٣ وقال محققو المسند: إسناده صحيح ٢٩/٣٠-٣١.

(٥) الطبقات الكبرى، ابن سعد ٣٦/٧، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٥٧١، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود ٣١١/٤ والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ص ١٠٢٦، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين ٥٣٦/٥، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٣٥٢/٣.

(٦) الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ب ع ي).

الشرح الأدبي

الحديث يتناول نوعا من العباد اختص بميزة في الدنيا خصته بمحبة الله، وهي أعظم ما يسعى إليه المحبون فكم من محب لحبيب لا يعيره نظرا !، وهؤلاء نالوا محبة الله تعالى التي تعني التوفيق، والتقريب، والحماية من كل ما يخشاه المؤمن في حياته، وبعد مماته وقول الرسول ﷺ (إنَّ الله يُحِبُّ) مؤكدة بحرف التوكيد، واسمية الجملة، تعظيما للخبر، وصرفا للمخاطبين للعناية به، ثم إن تصدر لفظ الجلالة الكلام له وقع خاصة لاسيما في نفوس المؤمنين الذين توجل قلوبهم بذكره لأنه يبث في النفوس الهيبة والجلال بقدر صفاء هذه النفوس﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [سورة الحج: ٣٥]. هذا بالإضافة إلى ما يوفره لفظ الجلالة على الحوار من الخضوع، والإذعان، والإنصات المهيأ للقبول، ولهذا اللفظ الأجلّ من الإشعاع ما ليس للفظ غيره من كل ألفاظ كل لغات البشر، وقوله (العبد) اللام فيه للجنس فيشمل كل عبد كانت هذه صفته وجملة الصفات بعده تبين الخصوصية التي أوجبت له المحبة وهي جملة الصفات (التَّقِيَّ الغَنِيّ الْخَفِيَّ) وليست على انفرادها؛ لأن التقوى تستلزم مراقبة الله تعالى فتضبط حركته، وسكنته بضابط الشرع، والغنى يستلزم ذله لله وحده، واستغنائه عن الناس، وهو شعور قلبي يجعله يستشعر أنه مالك للدنيا؛ لأنه يتصرف بحول الله، وقوته فما عساه أن يحتاج من الناس؟!، وقوله (الخفي) يستلزم الإخلاص، والخمول في الناس، لأنه مشغول بالله عن الناس، ولذلك استحق - تفضلا - هذه المحبة الغالية من ربه.

فقه الحديث

بوّب النووي على هذا الحديث في الأذكار: باب النهي عن الافتخار[1].

---

(١) الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار، الإمام النووي، تحقيق: محيي الدين مستو ٣٩٠.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل التواضع وعدم التعالي.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الأمر والتعليل.

رابعًا: من آداب المدعو: التواضع وعدم الكبر والبغي.

خامسًا: من أهداف الدعوة: تعميق المحبة والمودة بين الناس.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار:

لقد أخبر النبي ﷺ عن أن الله عز وجل "أوحى إليّ" أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغى أحد على أحد. فأخبر ﷺ أن الله عز وجل أمر بالتواضع، لأن ذلك يؤدي إلى ألا يظلم أحد أحدًا، ولا يفخر إنسان على غيره.

وهذا الحديث في صحيح مسلم مطول، قد جاء بصيغة الإخبار: أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: ((أَلاَ إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي، يَوْمِي هَذَا. كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلاَلٌ. وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ. وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ. وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ...)) الحديث[1].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل التواضع وعدم التعالي:

خلق الله الناس سواسية لا فضل لأحد على أحدٍ إلا بالتقوى والعمل الصالح، لذا أمر سبحانه وتعالى بالتواضع وعدم التعالي، كما أخبر بذلك النبي ﷺ فقال: "إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد". قال القرطبي: (وقوله: "إن الله أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد" التواضع نقيض التكبر، والتكبر: هو الترفع على الغير، فالتواضع: هو الانخفاض للغير، وحاصله أن المتكبر يرى لنفسه مزيَّةً على الغير تحمله على احتقاره، والمتواضع لا يرى لنفسه مزية، بل يراها لغيره بحيث يحمله ذلك على الانخفاض له مراعاة لحقه. ولاشك أن الكبرَ مذموم، فمنه

---

(١) أخرجه مسلم ٦٣ - ٢٨٦٥.

كفر، وهو الكبر على الله، وعلى أنبيائه، وماعداه من الكبائر. والتواضع أيضًا منه أعلى وأدنى، والأعلى: هو التواضع لله تعالى، ولكتابه، ولرسوله، والأدنى ما عداه والله أعلم)[١].

وقال ابن عثيمين: (قوله ﷺ: "إن الله أوحى إلى أن تواضعوا" يعني أن يتواضع كل واحد للآخر ولا يترفع عليه، بل يجعله مثله أو يكرمه أكثر، وكان من عادة السلف أن الإنسان منهم يجعل من هو أصغر منه مثل ابنه، ومن هو أكبر منه مثل أبيه، ومن هو مثله مثل أخيه، فينظر إلى من هو أكبر منه نظرة إكرام وإجلال، وإلى من هو دونه نظرة إشفاق ورحمة، وإلى من هو مثله نظرة مساواة، فلا يبغي أحد على أحد وهذا من الأمور التي يجب على الإنسان أن يتصف بها، أي بالتواضع لله عز وجل ولإخوانه من المسلمين)[٢]. فلا يفخر أحد على أحد مما امتحنه الله به من المال الوافر أو الحسب الفاخر أو المنصب العريض، ولا يظلم الناس أو يعتدي عليهم مستندًا إلى ذلك، فأما التذلل لأهل الدنيا والتدلي عن العزة الإسلامية والركون إلى الجبن والخور في مواقف الجد والحزم فليس من قبيل التواضع في نظر الإسلام. والتواضع هو الاستسلام للحق وترك الاعتراض في الحكم وإظهار الذل لمن يراد تعظيمه وقبول الحق من كل من قاله ولو خالف الهوى ورفعة المنصب[٣].

لذا كان التواضع من صفات عباد الرحمن، قال الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾[٤].

قال القاسمي: (أي هينين أو مشيًا هينًا، أي بسكينة وتواضع لا يضربون بأقدامهم ولا يخفقون نعالهم أشرًا وبطرًا، "وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا"، أي إذا خاطبهم

---

(١) المفهم، القرطبي ١٤٠/٧-١٤١.

(٢) شرح رياض الصالحين ٨٨٨/١.

(٣) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم ص ٣٧٧.

(٤) سورة الفرقان، آية:٦٣.

السفهاء بالقول السيئ لم يقابلوهم بمثله بل قالوا كلامًا فيه سلام من الإيذاء والإثم سواء كان بصيغة السلام كقولهم: "سلام عليكم"، أو غيرها مما فيه لطف في القول أو عفو أو صفح وكظم للغيظ، دفعًا بالتي هي أحسن)[١].

وقال ابن القيم: (إن الله سبحانه مدح عباده الذين ذكرهم في هذه الآيات بأحسن أوصافهم وأعمالهم فقال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ فـ"سلامًا" هنا صفة لمصدر محذوف هو القول نفسه أي قالوا قولاً سلامًا، أي سدادًا وصوابًا وسليمًا من الفحش والخنا، ليس مثل قول الجاهلين الذين يخاطبونهم بالجهل. فلو رفع السلام هنا لم يكن فيه المدح المذكور بل كان يتضمن أنهم إذا خاطبهم الجاهلون سلّموا عليهم، وليس هذا معنى الآية ولا مدح فيه، وإنما المدح في الإخبار عنهم بأنهم لا يقابلون الجهل بجهل مثله بل يقابلونه بالقول السلام فهو من باب دفع السيئة بالتي هي أحسن التي لا يلقاها إلا ذو حظ عظيم، وتفسير السلف وألفاظهم صريحة بهذا المعنى.

وتأمل كيف جمعت الآية وصفهم في حركتي الأرجل والألسن بأحسنها وألطفها وأحكمها وأوقرها فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أي بسكينة ووقار. والهون بفتح الهاء من الشيء الهين وهو مصدر هان هونًا أي "سهل"، ومنه قولهم: يمشي على هينته، ولا أحسبها إلا مولدة. فوصف مشيهم بأنه مشيُ حلم ووقار وسكينة لا مشي جهل وعنف وتبختر ووصف نطقهم بأنه سلام فهو نطق حلم وسكينة ووقار لا نطق جهل وفحش وخنا وغلظة فلهذا جمع بين المشي والنطق في الآية فلا يليق بهذا المعنى الشريف العظيم الخطير أن يكون المراد منه: سلام عليكم. فتأمله)[٢].

وقال ابن القيم كذلك: (قال الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾[٣] أي سكينة ووقارًا متواضعين، غير أشرين ولا مرحين ولا متكبرين، قال

---

(١) محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي مج٧/١٢/٢٧٢ - ٢٧٣.

(٢) بدائع الفوائد ٢/١٥٨-١٥٩.

(٣) سورة الفرقان، آية:٦٣.

الحسن: علماء حلماء.

وقال محمد بن الحنفية: أصحاب وقار وعفة لا يسفهون. وإن سفه عليهم حلموا. "والهون" بالفتح في اللغة الرفق واللين. و"الهُون" بالضم: الهوان. فالمفتوح منه: صفة أهل الإيمان. والمضموم: صفة أهل الكفران وجزاؤهم من الله النيران)[١].

ثالثًا- من أساليب الدعوة: الأمر والتعليل:

أما الأمر فقوله ﷺ: "أوحى إليّ أن تواضعوا"، فالحديث أوله في صحيح مسلم: ((إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي))[٢]. أما التعليل فقوله ﷺ "حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد" فقد علل النبي ﷺ الأمر بالتواضع؛ لمنع الفخر والظلم والعدوان.

وينبغي على الداعية أن يقتدي بالقرآن والسنة في تعليل الأحكام، وبيان حكمها وثمراتها في الأنفس والحياة وربطها بالفلسفة العامة للإسلام، حتى تقع من النفس موقع القبول.

وقد وجدنا القرآن الكريم يذكر الحكم والمنافع من وراء العبادات ذاتها مع أن الأصل فيها التعبد والامتثال لأمر الله تعالى لقوله في الصلاة: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[٣] وفي الزكاة: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[٤] وفي الصيام: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٥] وفي الحج: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾[٦].

---

(١) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ١٠٨/٣.

(٢) صحيح مسلم ٦٣ - ٢٨٦٥.

(٣) سورة العنكبوت، آية: ٤٥.

(٤) سورة التوبة، آية: ١٠٣.

(٥) سورة البقرة، آية: ١٨٣.

(٦) سورة الحج، آية: ٢٨.

فإذا كان هذا في الأمور التعبدية، فكيف بغيرها من المعاملات وشؤون الحياة؟ فهذا مطلوب في كل حين، ولكن لبه في عصرنا ألزم، والحاجة إليه أوكد، لأن كثيرًا من الناس لم يعد يغلب عليهم التسليم، وإنما يغلب عليهم البحث والتساؤل لمعرفة الأسرار والعلل، ورحم الله امرءًا عرف زمانه، وخاطب أهله بما يعرفون[(١)].

رابعًا- من آداب المدعو: التواضع وعدم الكبر والبغي:

إن التواضع خلق جميل يقرب صاحبه من الناس ومن قلوبهم، لأنه يحمله على عدم الظلم والبغي والافتخار. وهذا واضح من الحديث كله، وقد قال الله تعالى حكاية عن لقمان وهو يوصي ابنه: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[(٢)].

قال القاسمي: (ولا تصعر خدك للناس"، أي: لا تعرض بوجهك عنهم إذا كلمتهم أو كلموك احتقارًا منك لهم واستكبارًا عليهم، ولكن ألن جانبك وابسط وجهك إليهم كما جاء في الحديث: ((وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ وَوَجْهُكَ مُنْبَسِطٌ))[(٣)]، "ولا تمش في الأرض مرحًا"، أي خيلاء متكبرًا "إن الله لا يحب كل مختال"، أي معجب في نفسه "فخورًا" أي على غيره)[(٤)].

قال ابن القيم: (التواضع انكسار القلب لله، وخفض جناح الذل والرحمة بعباده، فلا يرى له على أحدٍ فضلاً، ولا يرى له عند أحدٍ حقًا بل يرى الفضل للناس عليه والحقوق لهم قبله، وهذا خلق إنما يعطيه الله عز وجل من يحبه ويكرمه ويقربه)[(٥)].

---

(١) ثقافة الداعية، د. يوسف القرضاوي ص ٨٣.

(٢) سورة لقمان، آية: ١٨.

(٣) أخرجه الترمذي ١٩٧٠، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه مرفوعًا: (كل معروف صدقة وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق، وأن تفرغ من دلوك في إناء أخيك)، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٦٠٥).

(٤) محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي مج٨/١٣/٢٠٢.

(٥) الروح ٢٣٣.

وقال عبدالله البسام: (التواضع هو التذلل والاستسلام للحق فيما بين العبد وبين ربه، وفيما بينه وبين الناس، وبهذا فهو أعمّ من الخشوع الذي لا يكون إلا لله. وإذا اتصف الناس بهذا الخلق الكريم، فإنه لن يتكبر أحد على أحد، لأن التواضع ضد الكبر، ولن يبغى أحد على أحد، لأن المتواضع لا يرى لنفسه مزية على أحد فيتكبر عليه أو يبغى عليه، وإنما البغي والكبر ينشآن ممن يرى نفسه فوق الناس، وله ميزة عليهم تحمله على الكبر عليهم والبغي عليهم)[1].

وقد قال رسول الله ﷺ رؤيا عن ربه: ((الْعِزُّ إِزَارُهُ. وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ. فَمَنْ يُنَازِعُنِي عَذَّبْتُهُ))[2]. قال ابن هبيرة: (كذا فيما رأيناه في نسخ كتاب مسلم، وأخرجه البرقاني "يقول الله: العز إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني شيئًا منهما عذبته").

قال الخطابي: (معنى هذا الحديث أن الكبرياء والعظمة صفتان لله عز وجل اختص بهما لا يشركه فيهما أحد، ولا ينبغي لمخلوق أن يتعاطاهما لأن صفة المخلوق التواضع والتذلل، وإنما ضرب الرداء والإزار مثلاً، يقول: -والله أعلم- كما لا يشرك الإنسان في ردائه وإزاره أحد فلا يشركني في الكبرياء والعظمة مخلوق)[3].

وأقول: إن متن الحديث قوله: "العز إزاره، والكبرياء رداؤه" وهذا العز معرفة، يعني أنه العز الذي لا ينبغي لغيره. فأما العزُّ فإن المؤمن إذا اعتز بالله كان في الحسن على نحو الخضوع لهيبة الله، وليس الاعتزاز بالله منازعة له سبحانه في العز، بل إيمان بأن العزة له، وثقةً بأنه يُعزُّ حِزْبَهُ، وينصر عباده، قال الله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[4]. وأما قوله: "والكبرياء رداؤه" فإن ذلك مما ينبغي لكل أحد أن يخرج الكبرياء من جميع أجزائه؛ لأن العبودية منافية للكبرياء، بل يخضع العبد لربه ويذل لسيده)[5].

---

(١) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٦/٢٨٠.

(٢) أخرجه مسلم ٢٦٢٠.

(٣) معالم السنن للخطابي ٦/٥٣-٥٤.

(٤) سورة المنافقون، آية: ٨.

(٥) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٨/٥٢-٥٣.

خامسًا- من أهداف الدعوة: تعميق المحبة والمودة بين الناس:

هذا واضح من الأمر بالتواضع وعدم التعالي، وذلك منعًا للظلم والبغي والعدوان، وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[١].

قال ابن القيم: (لما كان الذل منهم رحمة وعطف وشفقة وإخبات عدّاه بأداة "على" تضمينًا لمعاني هذه الأفعال، فإنه لم يرد به ذل الهوان الذي صاحبه ذليل، وإنما هو ذل اللين والانقياد الذي صاحبه ذلول؛ فالمؤمن ذلول كما في الحديث: ((المؤمن كالجمل الذلول والمنافق والفاسق ذليل))[٢]. وأربعة يعشقهم الذل أشد العشق: الكذاب والنمام والبخيل والجبار، وقوله "أعزة على الكافرين"، هو من عزة القوة والمنعة والغلبة، قال عطاء رضي الله عنه: "للمؤمنين كالوالد لولده، وعلى الكافرين كالسبع على فريسته"، كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾[٣].

فالشريعة الإسلامية تدعو إلى كل ما يعمق المحبة والمودة بين المسلمين؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا. وَلاَ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا. أَوَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلاَمَ بَيْنَكُمْ))[٤].

قال النووي: (فيه الحث العظيم على إفشاء السلام وبذله للمسلمين كلهم من عرفت ومن لم تعرف. والسلام أول أسباب التآلف ومفتاح استجلاب المودة. وفي إفشائه

---

(١) سورة المائدة، آية: ٥٤.

(٢) قال محقق مدارج السالكين: لم أقف عليه بهذا اللفظ، وقد ورد بلفظ: (... فإنما المؤمن كالجمل الأنف، حينما قيد انقاد...) رواه أحمد ١٧١٤٢/٢٨، وابن ماجه ٤٣، من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٤١).

(٣) سورة الفتح، آية: ٢٩. والنص من مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ١٠٨/٣ - ١٠٩.

(٤) أخرجه مسلم ٥٤.

تكمن ألفة المسلمين بعضهم لبعض، وإظهار شعارهم المميز لهم من غيرهم من أهل الملل، مع ما فيه من رياضة النفس ولزوم التواضع وإعظام حرمات المسلمين... وفيها لطيفة أخرى وهي أنها تتضمن رفع التقاطع والتهاجر والشحناء وفساد ذات البين التي هي الحالقة، وأن سلامه لله لا يتبع فيه هواه ولايخص أصحابه وأحبابه به)[1].

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٣٠.

الحديث رقم (٦٠٣)

٦٠٣- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ، قَالَ: ((مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ،وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بعَفْوٍ إلاَّ عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أحَدٌ للهِ إلاَّ رَفَعَهُ اللهُ)) رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

الحديث يقرر فضل الجهاد، والعزلة للعبادة وتقوى الله يقوم على الحوار عن طريق السؤال، والجواب الذي يدل حيوية النص، والتواصل بين المتحاورين، وقد بدأ الحديث بسؤال من رجل (أيُّ النَّاسِ أفْضَلُ يَا رسولَ اللهِ؟) والاستفهام ليس عن العمل بل عن صاحبه الذي نال به الأفضلية، وفي هذا تنويه بالعمل، وقول الرسول ﷺ (مُؤْمِنٌ مُجَاهِدٌ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فِي سَبيلِ اللهِ) الكلام فيه إيجاز بالحذف أي أفضل الناس مؤمن...، وذكر الجهاد بعد الإيمان يشير إلى سبب الأفضلية على عامة المؤمنين، وتقييد الجهاد بالنفس، والمال يعطيه خصوصية يفضل بها كل المجاهدين، وتقييد الجهاد بالجار، والمجرور (في سبيل الله) ينص على صفة الإخلاص لله في إتيان العمل، وسؤال الرجل (ثُمَّ مَنْ؟) سؤال عن مرتبة أسهل في أسبابها، ولعله رأى فيما أجيب به مشقة لا يستطيعها فسئل غيرها كأنه يسأل عن خصوصية له يستطيع أن يأتيها فجاءت إجابة النبي ﷺ (ثُمَّ رَجُلٌ مُعْتَزِلٌ فِي شِعْبٍ مِنَ الشِّعَابِ يَعْبُدُ رَبَّهُ) والربط بـ (ثم) خاصة يشير إلى مسافة يعلمها الله بين الاثنين في الأفضلية، وتنكير (رجل) لعدم إرادة التخصيص لتشمل كل رجل على هذه الصفة، وقوله (فِي شِعْبٍ مِنَ الشِّعَابِ) جناس يؤكد معنى الاعتزال بانفصال المكان عن الناس، والفعل المضارع في قوله (يعبد الله) يصور التجدد في أنواع العبادات ما بين صلاة، وصيام، وذكر وهو الانقطاع الهادف الموصول بالله، وليس مطلق انقطاع بل إنه لتفريغ القلب، والجوارح للعبادة.

المضامين الدعوية[2]

---

(١) برقم ٢٥٨٨/٦٩. وتقدم برقم ٥٥٥.

(٢) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (٥٥٥).

الحديث رقم (٦٠٤)

٦٠٤- وعن أنس رضي الله عنه: أَنَّهُ مَرَّ عَلَى صبيَانٍ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ، وقال: كَانَ النبيُّ ﷺ يفعله. متفقٌ عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

الشرح الأدبي

التعبير بالفعل الدال على المقاربة (يوشك) يعطي الاستهلال خاصية يتفرد بها عن غيره، وتؤثر على المخاطبين لأنها تشعرهم بقرب طارق لا يعلمونه مما يحدث ترقبا يمهد لاستقبال المعنى، وذكر المسلم لأنه الحريص، والمَعْني بالآخرة، وَقَوْلُهُ ﷺ (خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ) خَصَّ الْغَنَمَ بِذَلِكَ؛ لأَنَّهُ أَعْلَمُ أَنَّ هَذَا إِنَّمَا يَكُونُ فِي صَاحِبِ غَنَمٍ، وَأَمَّا صَاحِبُ الإِبِلِ أَوْ الْخَيْلِ أَوْ غَيْرِهِمَا مِنْ أَنْوَاعِ الأَمْوَالِ فَلا يَتَأَتَّى ذَلِكَ فِيهَا، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ خَصَّهُمْ بِذَلِكَ؛ لأَنَّ الْكَافَّ عَنْ الْفِتْنَةِ وَالْمُعْتَزِلَ لأَهْلِهَا مُقْتَصِرٌ عَلَى هَذَا النَّوْعِ مِنْ الْمَالِ؛ لأَنَّهُ لا مَدْخَلَ لَهُ فِي الْفِتْنَةِ وَلا عَوْنَ مِنْهُ عَلَيْهَا وَمَا يَكَادُ أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَيْهَا إِلاَّ مُتَقَلِّلٌ مِنْ الدُّنْيَا، فَأَرْعَنُ الْفِتْنَةِ مُقْتَصِرٌ عَلَى مَا يُبْعِدُهُ عَنْهَا، أَوْ يُضْعِفُهُ عَنْ التَّشَوُّفِ إِلَيْهَا، وقوله (يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ) كناية عن تتبع مواقع الكلأ، والماء، وَقَوْلُهُ ﷺ (يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنْ الْفِتَنِ) التعبير بالفرار يشير إلى سرعة توحي بشدة الحرص على الدين، وجمع الفتن يشير إلى كثرتها التي تستلزم الفرار، والباء في (بدينه) للسببية، وكلمة من في قوله (من الفتن) ابتدائية تقديره يفر بسبب دينه، ومنشأ فراره الدين ويجوز أن تكون الباء للمصاحبة، والحديث يكشف جانبا من الغيب المنتظر في آخر الزمان، والتي تكشف أكثرها في زماننا.

---

(١) أخرجه البخاري ٦٢٤٧ واللفظ له، ومسلم ٢١٦٨/١٥. وسيكرره المؤلف برقم ٨٦٣.

فقه الحديث

قال النووي: (فيه استحباب السلام على الصبيان المميزين ... واتفق العلماء على استحباب السلام على الصبيان... ولو سلم الصبي على رجل لزم الرجَل ردُّ السلام)(١).

قال ابن حجر: (ويستثنى من السلام على الصبي ما لو كان وضيئًا وخشي من السلام عليه الافتتان فلا يشرع، ولا سيما إن كان مراهقًا منفردًا)(٢).

المضامين الدعوية

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل أنس بن مالك رضي الله عنه.

ثانيًا- من وسائل الدعوة: إفشاء السلام.

ثالثًا- من آداب المدعو: التأسي بالنبي صلى الله عليه وسلم.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل أنس بن مالك رضي الله عنه:

كان أنس بن مالك رضي الله عنه من أعلام الصحابة رضي الله عنهم، صحب النبي صلى الله عليه وسلم وجاهد معه وروى حديثه، وكان مثل كل الصحابة متبعًا لسنته. فقد مرّ أنس رضي الله عنه على صبيان فسلّم عليهم وقال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعله، قال الذهبي عنه: (الإمام المفتي المقرئ المحدث راوية الإسلام أبو حمزة الأنصاري الخزرجي النجاري المدني، خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم، آخر أصحابه موتًا، روى عن النبي صلى الله عليه وسلم علمًا جمًا... وكان أنس يقول: (قَدِمَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم الْمَدِينَةَ وَأَنَا ابْنُ عَشْرٍ. وَمَاتَ وَأَنَا ابْنُ عِشْرِينَ. وَكُنَّ أُمَّهَاتِي يَحْثُثْنِي عَلَى خِدْمَتِهِ)(٣)، فصحب أنس نبيه صلى الله عليه وسلم أتم الصحبة، ولازمه أكمل الملازمة منذ هاجر إلى أن مات وغزا معه غير مرة وبايع تحت الشجرة)(٤).

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢٥/١٤/٧ ط/ دار الكتب العلمية، وانظر: الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار، الإمام النووي، تحقيق: محيي الدين مستو ٢٨٨ ط/ مكتبة الصفا، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٣٢٥/٤-٣٢٦.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٣/١١ ط/ السلفية.

(٣) أخرجه مسلم ٢٠٢٩.

(٤) سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ٣٩٥/٣ - ٣٩٧.

ودعا النبي ﷺ له فقال: ((اللّهمَّ ارزُقْهُ مالاً ووَلدًا، وبارِكْ لهُ))، فقال أنس رضي الله عنه: (فإني لمن أكثر الأنصار مالاً)[١].

قال عبدالحميد طهماز: (هو أحد كبار رواة الإسلام من الصحابة الكرام، الذين قام بهم صرح السنة المطهرة، والذين شرفُوا بتلقيها من النبي ﷺ، فحفظوها وعلموها تلاميذهم من علماء التابعين، كانت قلوبُهم الأرضَ الطيبةَ التي بذر فيها النبيُ ﷺ بذور الخير بيده المباركة، فأعطت بعد زمن يسير عطاء خيّرًا طيبًا لم تعرف الإنسانية أنبل وأطيب منه، ولا زالت وستبقى إلى قيام الساعة تنتشي بعبيره وتستضيء بنوره.

وقد كان أنس رضي الله عنه من هؤلاء الحفظة النقلة، الذين اختارهم الله سبحانه ليكونوا أساتذة الإسلام، والأمناء عليه بعد رسول الله ﷺ، بل كان رضي الله عنه من كبار حفاظهم، فلم يسبقه في رواية السنّة سوى اثنين منهم، وهما: أبو هريرة وعبدالله بن عمر رضي الله عنهما، فهو ثالث الصحابة حفظًا للسنة ورواية لها.

ووراء كثرة روايته للسنة عاملان هامان:

أولهما: ملازمته للنبي ﷺ أثناء خدمته له مدة عشر سنوات، مما ساعده على أن يتلقى الكثير من السنة عنه ﷺ مباشرة.

وثانيهما: امتداد عمره رضي الله عنه بعد وفاة النبي ﷺ الذي أعطاه فسحة زمنية كبيرة لتعليم السنة وتحفيظها للناس، فقد عاش بعد النبي ﷺ نيفًا وثمانين سنة، قضى العشرين الأولى منها متنقلاً في ميادين الجهاد أثناء حروب الردة والفتح، ثم استقر بعد ذلك في البصرة، فمكث فيها مدة تزيد على ستين سنة، وهويعلم الناس سنة رسول الله ﷺ. وتمكن خلال هذه المدة من تكوين طبقة من العلماء في البصرة يعتبرون سادة علماء التابعين! كان لهم أثر كبير في تاريخ الإسلام الفكري منهم، الحسن

---

(١) أخرجه البخاري١٩٨٢، ومسلم ٢٤٨٠، وعنده: (فوالله إن مالي لكثير وإن ولدي وولد ولدي ليتعادّون على نحو المائة يوم).

البصري، وسليمان التيمي، وثابت البُناني، ومحمد بن سيرين، وحُميد الطويل، وغيرهم)[(١)].

ثانيًا- من وسائل الدعوة: إفشاء السلام:

قد مرّ أنس رضي الله عنه على صبيان فسلّم عليهم وقال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعله. قال ابن حجر: (قال ابن بطال: في السلام على الصبيان تدريبهم على آداب الشريعة، وفيه طرح الأكابر رداء الكبر وسلوك التواضع ولين الجانب، قال أبو سعيد المتولي في التتمة: من سلم على صبي لم يَجْب عليه الرد، لأن الصبي ليس من أهل الفرض، وينبغي لوليه أن يأمره بالرد ليتمرن على ذلك)[(٢)].

وقال ابن هبيرة: (وفي هذا الحديث دليل على استحباب تسليم الرجل على الصبيان إذا مرّ عليهم، وإذا سلم عليهم قال: سلام عليكم يا صبيان، والمراد من التسليم عليهم أنه لا يحقر الصبي، ربما خرج عالمًا أو عابدًا، وكأن المسلم رأى بعين إيمانه منتهى أحدهم، ثم إن ذلك يكون سببًا لتعلم الصبي ذلك، فكأنه أودع تلك السنة من يغلب على ظنه أنهم أطول منه عمرًا)[(٣)].

وقال عمار بن ياسر رضي الله عنهما: ((ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان: الإنصافُ من نفسك، وبذلُ السلام للعالَمِ، والإنفاقُ من الإقتار))[(٤)].

قال النووي: (قد جمع في هذه الكلمات الثلاث خيرات الآخرة والدنيا، فإن الإنصاف يقتضي أن يؤدي إلى الله تعالى جميع حقوقه وما أمره به، ويجتنب جميع ما نهاه عنه، وأن يؤدي إلى الناس حقوقهم ولا يطلب ما ليس له، وأن ينصف أيضًا نفسه فلا يوقعها في قبيح أصلاً، وأما بذل السلام للعالَم فمعناه لجميع الناس فيتضمن أن لا

---

(١) أنس بن مالك الخادم الأمين والمحب العظيم، عبدالحميد طهماز، سلسلة أعلام المسلمين رقم ٧ ص ١٠٨-١٠٩.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٥/١١.

(٣) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٢٠٤/٥.

(٤) علقه البخاري في كتاب الإيمان: باب إفشاء السلام من الإسلام، فوق الحديث ٢٨، وانظر من وصله في: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠٤/١.

يتكبر على أحد، وأن لا يكون بينه وبين أحدٍ جفاء يمتنع من السلام عليه بسببه. وأما الإنفاق من الإقتار، فيقتضي كمال الوثوق بالله تعالى، والتوكل عليه والشفقة على المسلمين إلى غير ذلك)[١].

وجاء في الموسوعة الفقهية: (ومن معاني السلام السلامة والأمن والتحية، ولذلك قيل للجنة: دار السلام لأنها دار السلامة من الآفات كالهرم والأسقام والموت. قال تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[٢] والسلام اسم من أسماء الله تعالى.

والسلام يطلق عند الفقهاء على أمور منها: التحية التي يحيى بها المسلمون بعضهم بعضًا، والتي أمر الله سبحانه وتعالى بها في كتابه حيث قال: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾[٤] ذلك أن للعرب وغيرهم تحيات خاصة بهم، فلما جاء الإسلام دعا المؤمنين إلى التحية الخاصة وهي قول: "السلام عليكم" وقصرهم عليه وأمرهم بإفشائه.

والسلام أيضًا تحية أهل الجنة قال سبحانه: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾[٥].

وقد اختير هذا اللفظ دون غيره، لأن معناه الدعاء بالسلامة من الآفات في الدين والنفس، ولأنه في تحية المسلمين بعضهم لبعض بهذا اللفظ عهدًا بينهم على صيانة دمائهم وأعراضهم وأموالهم)[٦].

---

(١) الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار، الإمام النووي، تحقيق: محيي الدين مستو ٢٧٤، وانظر: زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم ٤٠٧/٢ - ٤١٠، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠٤/١.

(٢) سورة الأنعام، آية: ١٢٨.

(٣) سورة النساء، آية: ٨٦.

(٤) سورة النور، آية: ٦١.

(٥) سورة الرعد، آية: ٢٣-٢٤.

(٦) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٥٥/٢٥-١٥٦ ومراجعها ومصادرها.

ثالثًا- من آداب المدعو: التأسي بالنبي ﷺ:

بعث الله محمدًا نبيًا ورسولاً، وأمر بطاعته واتباعه، وهذا لا يكون إلا بالتأسي والاقتداء به، وقد كان الصحابة رضي الله عنهم أحرص الناس على هذا، كما يتضح في هذا الحديث. فقد سلّم أنس رضي الله عنه على الصبيان لأن النبي ﷺ كان يفعل ذلك. وقد قال أبو هريرة رضي الله عنه عن أنس: (ما رأيت أحدا أشبه صلاة برسول الله من ابن أم سليم يعني أنس بن مالك)(١).

وقد بلغ من شدة اتباع الصحابة النبي ﷺ وتأسيهم به ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما قال: (اتخذَ النبيُّ ﷺ خاتمًا من ذَهبٍ فاتخذَ الناس خَوَاتيم من ذهب، فقال النبيُّ ﷺ: إني اتخذتُ خاتمًا من ذهبٍ فنَبَذَه وقال: إني لن ألبَسَهُ أبدًا، فنَبذَ الناسُ خواتيمهم)(٢).

قال النووي: (فيه بيان ما كانت الصحابة رضي الله عنهم عليه من المبادرة إلى امتثال أمره ونهيه ﷺ والاقتداء بأفعاله)(٣).

(ولقد كان اقتداء الأمة الإسلامية بنبيها ﷺ بعد عصر الصحابة النابع من أحكام دينها، وتأثرها بشخصيته وأخلاقه الكريمة، دافعًا كبيرًا لها إلى الاستقامة على أمر الدين على بصيرة من أمرها.

ولم تزل سيرة نبيها ﷺ تمثّل لها أنبل الصفات والأعمال والأخلاق. وتجسّم المثل والمبادئ الإسلامية أمام أنظارها، فتعمل بدينها حق العمل، اقتداء بتلك السيرة العطرة.

ولم تزل تلك السيرة تبدع في الأمة أجيالاً من البطولات. تحقق القدوة بالنبي ﷺ بدرجة عالية، في صبرها وبلائها ويقينها بالله، وفي تواضعها وزهدها وصدقها مع الله، وفي معاملة الناس، مع الصدق في العمل بدين الله وإيصال منافعه إلى البشر.

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٧/٢٠ - ٢١، وقال محققو السير ٣/٤٠٠: رجاله ثقات.

(٢) أخرجه البخاري ٧٢٩٨، ومسلم ٢٠٩١.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٣٢٣.

وقد كان لتلك الشخصيات العظيمة الأثر البعيد في جذب الناس إلى الإسلام، واقتناعهم به، ورغبتهم في الدخول فيه والعمل به، ما لم تؤثره الخطب والمواعظ والأقوال البليغة. لأنهم يرون بأعينهم، ويلمسون بأيدهم، مدى الإخلاص والتفاني في حب الله، ومقدار النفع الحاصل بتلك الشموس المضيئة)(١).

وقال الشافعي مبينًا فضل النبي ﷺ على أمته الواجب عليها اتباعه: (فصلّى الله على نبينا كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون، وصلّى عليه في الأولين والآخرين أفضل وأكثر وأزكى ما صلّى على أحد من خلقه، وزكانا وإياكم بالصلاة عليه أفضل ما زكّى أحدًا من أمته بصلاته عليه، والسلام عليه ورحمة الله وبركاته، وجزاه الله عنا أفضل ماجزى مرسلاً عمن أرسل إليه، فإنه أنقذنا من الهلكة وجعلنا في خير أمة أخرجت للناس، دائنين بدينه الذي ارتضى واصطفى به ملائكته ومن أنعم عليه من خلقه فلم تمس بنا نعمة ظهرت ولا بطنت نلنا بها حظًا في دين ودنيا أو دفع بها عنّا مكروه فيهما وفي واحدٍ منهما إلا ومحمد ﷺ سببها القائد إلى خيرها والهادي إلى رشدها الذائد عن الهلكة وموارد السوء في خلاف الرشد، المنبه للأسباب التي تورد الهلكة القائم بالنصيحة في الإرشاد والإنذار فيها، فصلّى الله على محمد وعلى آل محمد، كما صلّى على إبراهيم وآل إبراهيم إنه حميد مجيد)(٢).

---

(١) أفعال الرسول ﷺ ودلالتها على الأحكام الشرعية، د. محمد سليمان الأشقر ٧٥/٢.

(٢) الرسالة، الشافعي: محمد بن إدريس ٢٠٤هـ، تحقيق: خالد السبع العلمي، وزهير شفيق الكبّي ص ٤٥.

الحديث رقم (٦٠٥)

٦٠٥- وعنه، قَالَ: إن كَانَتِ الأَمَةُ مِنْ إمَاءِ أهل المَدينَةِ لَتَأْخُذُ بِيَدِ النَّبيِّ ﷺ، فَتَنْطَلِقُ بِهِ حَيْثُ شَاءتْ. رواه البخاري[١].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

الأَمَةُ: أي المرأة المملوكة خلاف الحرة[٢].

الشرح الأدبي

هذا الحديث يدل دلالة قطعة على مدى تواضع النبي ﷺ ودماثة خلقه، ومحبته، ورحمته بالصغار، وقوله (إن كَانَتِ الأَمَةُ مِنْ إمَاءِ المَدينَةِ) الفعل الماضي يدل على ما وقع، وثبت، واللام في لفظ (الأمة) للجنس أي أمة شاءت وتكرار لفظ الأمة يحدث جناسا مع الفظة السابقة التي تقرر المعنى، ولفظ الجارية يدل على حداثة السن، مما يشير قمة التواضع من النبي ﷺ ثم إن إقدام الأطفال على مثل هذه الأفعال يشير إلى أنهم عرفوا الرحمة في خلق النبي، وأحبوه، وقد كان أهل الجاهلية من قريب يمر الواحد في طريق فيسلك الصبيان طريقا آخر من الخوف منهم، أو من بغضهم فتأمل الموقفين، وتأمل قوله (لتأخذ بيد) والتعبير بالأخذ باليد دلالة على شدة القرب، وعلى السيطرة، وسهولة الحركة لما كان يبديه ﷺ معهم من لين يشجعهم على ذلك، وقوله (فتنطلق) يصور سرعة حركة الجارية مع سهولة الحركة، والسلاسة في الانقياد من النبي ﷺ مع هذه الصغيرة، وتأمل التعبير بفعل المشيئة المسبوق بالظرف حيث الذي يحرر الحركة حتى تنقاد خلف مشيئة الصغيرة، وهو خير خلق الله ﷺ إنه مثال للتواضع، والرحمة يرغم أنوف المتكبرين في كل زمان، ومكان.

---

(١) برقم ٦٠٧٢ معلقاً. راجع: تغليق التعليق ٩٥/٥، والفتح ٤٩٠/١٠.

(٢) الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢٨.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: تواضع النبي ﷺ.

ثانيًا: من صفات الداعية: لين الجانب والتباسط مع المدعو.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: السعي في قضاء حوائج الناس.

أولاً- من موضوعات الدعوة: تواضع النبي ﷺ:

لقد كان النبي ﷺ رأس المتواضعين، فكان يتواضع مع جميع المسلمين، الضعفاء وعلية القوم، ذلك واضح من قول أنس بن مالك رضي الله عنه: "إن كانت الأمة من إماء المدينة لتأخذ بيد النبي ﷺ فتنطلق به حيث شاءت". قال ابن حجر: (قوله "فتنطلق به حيث شاءت"، في رواية أحمد[1]، فتنطلق به في حاجتها، وله[2] من طريق علي بن زيد عن أنس إن كانت الوليدة من ولائد أهل المدينة لتجيء فتأخذ بيد رسول الله ﷺ فما ينزع يده من يدها حتى تذهب به حيث شاءت، وأخرجه ابن ماجه[3] من هذا الوجه.

والمقصود من الأخذ باليد لازمه وهو الرفق والانقياد، وقد اشتمل على أنواع من المبالغة في التواضع لذكره المرأة دون الرجل، والأمة دون الحرة وحيث عمم بلفظ الإماء أي أمة كانت، وبقوله: "حيث شاءت"، أي من الأمكنة، والتعبير بالأخذ باليد إشارة إلى غاية التصرف حتى لو كانت حاجتها خارج المدينة، والتمست منه مساعدتها في تلك الحاجة لساعد على ذلك، وهذا دال على مزيد تواضعه وبراءته من جميع أنواع الكبر ﷺ)[4].

قال عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني: (وإذْ حرَّمَتِ النصوص الإسلامية الاستكبار بغير حق، وأبانت أن الكبر من قبائح أخلاق الإنسان، حثّت على التواضع

---

(١) مسند أحمد ٣/٩٨ رقم ١١٩٤١.

(٢) مسند أحمد ٣/١٧٤ رقم ١٢٧٨٠.

(٣) سنن ابن ماجه ٤١٧٧.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٩/٥٠٥ - ٥٠٦، وانظر: مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٣/١١١ - ١١٣.

ابتغاء مرضاة الله ورغبت فيه، وأبانت أن من تواضع الله كافأه الله على تواضعه بالرفعة: ((وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله))[١]. وهذا من سنن الله في عباده، كما أن من استكبر وتعالى على خلق الله أذلّه الله.

ومن الملاحظ أن الناس يحبون المتواضع ويألفونه، ويكرهون المستكبر ويأنفون عنه ولا يألفونه، والسر في ذلك أن المتواضع ينزل نفسه إلى مستوى جلسائه فيعيش معهم بوداعة وانطلاق، ويعيشون معه بمثل ذلك، فيتم بينه وبينهم الإلف والوئام، وذلك يولد المحبّة، بخلاف المستكبر، فإنه يرفع نفسه فوق مستوى جلسائه، فيعيش وحده في جوّه النفسي المتعاظم، ويحيط نفسه بسياج شائك، لا وداعة فيه ولا انطلاق، وحين يرى جلساؤه ومعاشروه ذلك منه يبتعدون عنه بنفوسهم فلا يألفونه، ويرونه يضع نفسه فوقهم فيكرهونه، فكلتا الثمرتين من النتائج الطبيعية لكلا العملين.

يضاف إلى ذلك أن المتواضع لا يثير في الناس دافع المنافسة فيكون مألوفًا محبوبًا، بخلاف المستكبر فهو يثير في الآخرين دافع المنافسة بقوة، فيكون مكروهًا غير مألوف للنفوس، ولا سيما إذا كان هو في نظرهم دون المكانة التي يرفع نفسه إليها.

ولما كان التواضع من الأخلاق التي تملك القلوب بالمحبة، أمر الله رسوله بأن يخفض جناحه للمؤمنين، مع أنه ﷺ رفيع المكانة في نفسه، عظيم المنزلة عند الله فقال الله له: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[٢].

فكان صلوات الله وسلامه عليه يخفض جناحه للمؤمنين، فلا يتعاظم عليهم ولا يستكبر، ويجلس بينهم كواحد منهم، حتى يدخل عليه وهو في أصحابه من لا يعرفه فيقول: أيُّكم محمد؟

وربما كانت توقفه الأمة وتأخذ بيده ليقضي حاجة لها؛ روى البخاري عن أنس قال: إن كانت الأمة من إماء المدينة لتأخذ بيد النبي ﷺ لتنطلق به حيث شاءت.

---

(١) أخرجه مسلم ٢٥٨٨.

(٢) سورة الحجر، آية: ٨٨.

وكان من تواضعه تحبُّبه إلى الصغار بالسلام عليهم والمسح على رؤوسهم ووجوههم، روى البخاري ومسلم عن أنس، أنه مرّ على صبيان فسلّم عليهم وقال: كان النبي ﷺ يفعله[1].

وروى مسلم عن جابر بن سمرة قال: ((صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلاَةَ الأُولَى "أي الظهر" ثُمَّ خَرَجَ إِلَى أَهْلِهِ وَخَرَجْتُ مَعَهُ. فَاسْتَقْبَلَهُ وِلْدَانٌ. فَجَعَلَ يَمْسَحُ خَدَّيْ أَحَدِهِمْ وَاحِدًا وَاحِدًا. قَالَ: وَأَمَّا أَنَا فَمَسَحَ خَدِّي. قَالَ: فَوَجَدْتُ لِيَدِهِ بَرْدًا أَوْ رِيحًا كَأَنَّمَا أَخْرَجَهَا مِنْ جُؤْنَةِ عَطَّارٍ))[2]. من جؤنة عطار: أي من السلّة التي يضع فيها متاعه وعطره.

ولما للتواضع من أثر اجتماعي كبير أوحى الله إلى رسوله بأن يأمر المسلمين بأن يتواضعوا. روى مسلم عن عياض قال: قال رسول الله ﷺ: ((إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لاَ يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلاَ يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ))[3][4].

ثانيًا- من صفات الداعية: لين الجانب والتباسط مع المدعو:

إن لين الجانب من قبل الداعية من الأسباب التي تقربه إلى المدعوين وتجعل العلاقة بينه وبينهم عامرة، فيستطيع الداعية أن ينقل دعوته إلى المدعوين الذين يتقبلونها ويؤمنون بها، كما أن لين الجانب يجعل المدعوين يقصدون الداعية لقضاء حوائجهم كما هو واضح في هذا الحديث. وقد قال ابن القيم عن تواضع النبي ﷺ ولين جانبه - وهو إمام الدعاة-: (وكان ﷺ يخصف نعله ويرقع ثوبه، ويحلب الشاة لأهله، ويعلف البعير، ويأكل مع الخادم ويجالس المساكين، ويمشي مع الأرملة واليتيم في حاجتهما ويبدأ من لقيه بالسلام، ويجيب دعوة من دعاه ولو إلى أيسر شيء، وكان ﷺ هين المؤنة، لين الخلق، كريم الطبع، جميل المعاشرة، طلق الوجه، بسامًا متواضعًا من غير ذلة، جوادًا من غير سرف، رقيق القلب، رحيمًا بكل مسلم

---

(١) أخرجه البخاري ٦٢٤٧، ومسلم ٢١٦٨.

(٢) أخرجه مسلم ٢٣٢٩.

(٣) أخرجه مسلم ٢٨٦٥.

(٤) الوجيز في الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني ٢٩٧ - ٣٠١.

خافض الجناح للمؤمنين، لين الجانب لهم... وكان ﷺ يعود المريض ويشهد الجنازة ويركب الحمار، ويجيب دعوة العبد. وكان يوم قريظة على حمار مخطوم بحبل ليف عليه إكاف[1] من ليف)[2].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: ((كَانَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ إِذَا صَلَّى الْغَدَاةَ جَاءَ خَدَمُ الْمَدِينَةِ بِآنِيَتِهِمْ فِيهَا الْمَاءُ. فَمَا يُؤْتَى بِإِنَاءٍ إِلاَّ غَمَسَ يَدَهُ فِيهَا. فَرُبَّمَا جَاءُوهُ فِي الْغَدَاةِ الْبَارِدَةِ فَيَغْمِسُ يَدَهُ فِيهَا))[3].

قال النووي: (في هذه الأحاديث بيان بروزه ﷺ للناس وقربه منهم ليصل أهل الحقوق إلى حقوقهم ويرشد مسترشدهم، ليشاهدوا أفعاله وحركاته فيقتدى بها وهكذا ينبغي لولاة الأمور، وفيها صبره ﷺ على المشقة في نفسه لمصلحة المسلمين وإجابته من سأله حاجة أو تبريكًا بمس يده وإدخالها في الماء كما ذكروا)[4].

وقد رغّب النبي ﷺ في لين الجانب مع الناس، فقال: ((حُرِمَ عَلَى النَّارِ كُلُّ هَيِّنٍ لَيِّنٍ سَهْلٍ قَرِيبٍ مِنَ النَّاسِ))[5] وقد بوّب ابن حبان على هذا الحديث: ذكر البيان بأن المرء إذا كان هينًا لينًا قريبًا سهلاً قد يرجى له النجاة من النار بها[6]. كما أخرج قبله حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ، فَلاقِ النَّاس وَوَجْهُكَ إِلَيْهِمْ مُنْبَسِطٌ))[7] وبوّب عليه: ذكر الأمر بالملاينة للناس في

---

(١) الإكاف: البردعة، الوسيط، مجمع اللغة العربية ص ٢٢.

(٢) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ١١٢/٣، وانظر: تخريج ما في هذا النص من أحاديث في حواشي المحقق على مدارج السالكين.

(٣) أخرجه مسلم ٢٣٢٤.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٤٣٢.

(٥) أخرجه أحمد ٤١٥/١ رقم ٣٩٣٨، وقال محققو المسند: حسن بشواهده، وانظر هناك تتمة تخريجه ٥٢/٧-٥٣.

(٦) صحيح ابن حبان ٢١٥/٢ الحديث ٤٦٩.

(٧) أخرجه ابن حبان ٤٦٨ وقال محققه: حديث صحيح.

القول مع بسط الوجه لهم[١]. وقال السندي: (قوله "كل هين": يريد حسن الأخلاق حميد الخصال مقبولاً عند الناس محبوبًا لديهم كذلك)[٢].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: السعي في قضاء حوائج الناس:

إن السعي لقضاء حوائج الناس من معالي الأخلاق ومحاسنها، والنبي ﷺ أكمل الناس خلقًا وأحسنهم أدبًا، لذاكان يسارع إلى قضاء حوائج الناس، هذا واضح من الحديث، وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: إن امرأة كان في عقلها شيء، فقالت: يا رسول الله إن لي إليك حاجة، فقال: ((يَا أُمَّ فُلاَنٍ انْظُرِي أَيَّ السِّكَكِ شِئْتِ، حَتَّى أَقْضِيَ لَكِ حَاجَتَكِ» فَخَلاَ مَعَهَا فِي بَعْضِ الطُّرُقِ[٣]. حَتَّى فَرَغَتْ مِنْ حَاجَتِهَا))[٤].

وقد قال النبي ﷺ: ((مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا، نَفَّسَ اللّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ. وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ. وَاللّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ))[٥].

قال العز بن عبدالسلام: (هذا أمر بصيغة الإخبار، لينزل المؤمن نفسه في الشدِّ من أخيه في النوائب بمنزلة البنيان الذي يدعم بعضه بعضًا، فلا يتماسك بعضه إلا ببعض، وفيه أمر بالمساعدة والمعاضدة من الطرفين)[٦].

قال ابن حبان: (الواجب على المسلمين كافة نصيحة المسلمين والقيام بالكشف عن همومهم وكربهم، لأن من نفس كربة من كرب الدنيا عن مسلم نفس الله عنه

---

(١) صحيح ابن حبان ٢/٢١٤.

(٢) حاشية السندي على مسند أحمد ٧/٥٣-٥٤.

(٣) قال النووي: "أي وقف معها في طريق مسلوك ليقضي حاجتها ويفتيها في الخلوة، ولم يكن ذلك من الخلوة بالأجنبية، فإن هذا كان في ممر الناس ومشاهدتهم إياه وإياها لكن لا يسمعون كلامها، لأن مسألتها مما لا يظهره -والله أعلم-، شرح مسلم ١٤٣٢.

(٤) أخرجه مسلم ٢٣٢٦.

(٥) أخرجه مسلم ٢٦٩٩ مطولاً.

(٦) شجرة المعارف والأحوال ٢٢٤.

كربة من كرب يوم القيامة، ومن تحرّى قضاء حاجته ولم يُقضَ قضاؤها على يديه فكأنه لم يقصر في قضائها، وأيسر ما يكون في قضاء الحوائج استحقاق الثناء. والإخوان يعرفون عند الحوائج. كما أن الأهل تختبر عند الفقر، لأن كل الناس في الرخاء أصدقاء، وشر الإخوان الخاذل لإخوانه عند الشدة والحاجة كما أن شر البلاد بلدة ليس فيها خصب ولا أمن)[١].

قال محمد بن إبراهيم النعيم: (إن بعض الناس من يتأفف من لجوء الناس إليه لقضاء حوائجهم خاصة إذا كان ذا وجاهة أو سعة من المال. ولا يدري أن من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، وأن الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه. فلئن تقضي لأخيك حاجة كأن تعلمه أو ترشده أو تحمله أو تقرضه أو تشفع له في خير أفضل عند الله من ثواب اعتكافك شهرًا في المسجد النبوي فكيف لو كنت تسعى لحاجة والديك؟

فعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: ((أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ وَأَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا أَوْ تَطْرُدَ عَنْهُ جُوعًا، وَلأَنْ أَمْشِيَ مَعَ أَخِي الْمُسْلِمِ فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هذَا الْمَسْجِدِ شَهْرًا، وَمَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمْضِيَهُ أَمْضَاهُ مَلأَ اللَّهُ قَلْبَهُ رِضىً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ فِي حَاجَتِهِ حَتَّى يُثْبِتَهَا لَهُ أَثْبَتَ اللَّهُ تَعَالَى قَدَمَيْهِ يَوْمَ تَزِلُّ الأَقْدَامُ، وَإِنَّ سُوءَ الْخُلُقِ لَيُفْسِدُ الْعَمَلَ كَمَا يُفْسِدُ الْخَلُّ الْعَسَلَ))[٢].

إن مجرد أن تقضي لأخيك حاجة قد لا يستغرق أداؤها أحيانًا نصف ساعة، فإنه يسجل لك بها ثواب شهر واحد. فتخيل لو أردت اعتكاف شهر كامل كم ستحتاج من مجاهدة للنفس بترك أعمالك الخاصة وبقائك في المسجد ثلاثين يومًا ذاكرًا لله وساجدًا وقارئًا للقرآن؟ ولكن خلال دقائق معدودة تنجز فيها لأخيك حاجته أو تسعى

---

(١) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ٢٤٦-٢٤٧.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير ١٣٦٤٦/١٣ وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة ٩٠٦.

فيها لأرملة، يسجل في صحيفتك كأنك اعتكفت شهرًا كاملاً، فكم سَنَةً لم تُحيها في الواقع سيسجل لك ثوابُها إذا سخرت جزءًا من وقتك لخدمة إخوانك المسلمين؟

إن جلوس الموظف الذي يقابل الجمهور على مكتبه ليخدم إخوانه وينجز لهم معاملاتهم لو استحضر هذا الحديث واحتسب عمله، فكم من السنوات سيسجل له ثواب اعتكافها يا ترى؟ إن بعض هؤلاء الموظفين تجدهم يشغلون أنفسهم عن المراجعين بأحاديث جانبية مع زملائهم في الوظيفة أو يتغيبون عن مكاتبهم، وبعضهم يتعمد تعطيل المراجعين وتأخير معاملاتهم، ولو علم بمثل هذه الأحاديث النبوية لما بدر منه مثل هذه التصرفات.

فاحرص أخي القارئ على قضاء حوائج إخوانك المسلمين، وبادر بذلك للذين تصيبهم جوائح الحروب والكوارث، ولا تدعهم عرضة لفتن المنظمات المعادية للإسلام التي تتسابق فيما بينها على تقديم المساعدات الإنسانية لأولئك المنكوبين وذلك لتكسب ودهم وتستدرجهم إلى دينها تحت وطأة الجوع والمرض والحاجة، وعليك أن تتعلم حسن مساعدة الناس وقضاء حوائجهم وليس فن التفلت من ذلك. واعلم أنه كلما كانت العبادة يتعدى نفعها إلى غيرك كان أجرها أعظم إذا احتسبتها عند الله.

رحم الله حكيم بن حزام كان يحزن على اليوم الذي لا يجد فيه محتاجًا ليقضي له حاجته حيث قال: ما أصبحت وليس ببابي صاحب حاجة إلا علمت أنها من المصائب التي أسأل الله الأجر عليها. وقضى ابن شبرمة حاجة كبيرة لبعض إخوانه فجاء يكافئه بهديه. فقال ما هذا؟ قال لما أسديته إلي، فقال خذ مالك عافاك الله. إذا سألت أخاك حاجة فلم يجهد نفسه في قضائها فتوضأ للصلاة وكبر عليه أربع تكبيرات وعده من الموتى)[1].

---

(١) كيف تطيل عمرك، محمد بن إبراهيم النعيم ص ٧١-٧٣ بتصرف. وانظر: مراجعه ومصادره.

الحديث رقم (٦٠٦)

٦٠٦- وعن الأَسْوَدِ بن يَزِيدَ، قَالَ: سُئِلَتْ عائشةُ ﵂ مَا كَانَ النَّبيُّ ﷺ يَصْنَعُ فِي بَيْتِهِ؟ قالت: كَانَ يَكُون فِي مِهْنَةِ أهْلِهِ -تعني: خِدمَة أهلِه- فإذا حَضَرَتِ الصَّلاَةُ، خَرَجَ إِلَى الصَّلاَةِ. رواه البخاري[1].

ترجمة الراوي:

عائشة بنت أبي بكر: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

الشرح الأدبي

بناء الفعل (سئلت) لما لم يسم فاعله إما للجهل باسمه، أو عدم تعلق غرض بذكره، وأم المؤمنين عائشة ﵂ من أعلم الناس بأحواله، وأكثرهم فقها بكلامه ﷺ. وهذا السؤال المطروح لا يستطيع أن يجيب عنه إلا أحد من آل بيته

يحيا معه لأن السؤال عن حاله في بيته ما كان يصنع؟ ومن الواضح من السؤال أنه لا يسأل عن عبادته، لأن دلالة كلمة (يصنع) تشير إلى عمله في حاجة أهل بيته، ولذلك كانت الإجابة (كَانَ يَكُون فِي مِهْنَةِ أهْلِهِ - يعني: خِدمَة أهلِه -) والتعبير بـ (كان) قبل (يكون) للدلالة على العادة الغالبة، وقولها (في مهنة أهله) يشير إلى تواضع النبي ﷺ، ورحمته، وحسن خلقه، وتعاونه البناء الذي يدعم المحبة الأسرية، ويجعل أفراد الأسرة في تعاون، ومحبة، مهما كانت الأعمال بسيطة فإن لها فرقة كبيرا في تنمية المودة بين الزوجين، وهو درس غال لكل زوج يتكبر على إعانة أهله، وقولها (فإذا حَضَرَتِ الصَّلاَةُ، خَرَجَ إِلَى الصَّلاَةِ) يشير إلى قضاء غالب وقته في البيت في مساعدة أهله لا يتركهم في عمل لأنه ساعد في آخر بل إنه في عونهم ما بقي في المنزل، وهذه منتهى الرحمة، والمودة التي تشعر المرأة بقرب زوجها، ومحبته.

---

(١) برقم ٦٧٦.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل عائشة رضي الله عنها.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: بيان تواضع النبي صلى الله عليه وسلم.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: المحافظة على أداء الصلاة جماعة في المسجد.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل عائشة رضي الله عنها:

عائشة رضي الله عنها من أعلم الصحابيات وأفقههن وزوج النبي صلى الله عليه وسلم، لذا كان الصحابة رضي الله عنهم وكثير من التابعين يسألونها من أجل معرفة أحوال النبي صلى الله عليه وسلم كما في هذا الحديث. قال الذهبي: (بنت الإمام الصديق الأكبر، خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبي بكر رضي الله عنه... القرشية التيمية المكية النبوية، أم المؤمنين، زوجة النبي صلى الله عليه وسلم، أفقه نساء الأمة على الإطلاق... هاجر بعائشة أبواها، وتزوجها نبي الله صلى الله عليه وسلم قبل مهاجره بعد وفاة الصديقة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، وذلك قبل الهجرة ببضعة عشر شهرًا، وقيل: بعامين. ودخل بها في شَوّال سنة اثنتين، مُنصَرفه - عليه الصلاة والسلام - من غزوة بدر وهي ابنة تسع، فروت عنه علمًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه. وكانت امرأة بيضاء جميلة ومن ثم يقال لها: الحميراء، ولم يتزوج النبي صلى الله عليه وسلم بكرًا غيرها ولا أحب امرأة حبها، ولا أعلم في أمة محمد صلى الله عليه وسلم بل ولا في النساء مطلقًا امرأة أعلم منها... نشهد أنها زوجة نبينا صلى الله عليه وسلم في الدنيا والآخرة فهل فوق ذلك مفخر؟... وكان تزويجه صلى الله عليه وسلم بها إثر وفاة خديجة رضي الله عنها، فتزوج بها وبسودة رضي الله عنها في وقت واحد، ثم دخل بسودة، فتفرد بها ثلاثة أعوام حتى بنى بعائشة في شوال بعد وقعة بدر. فما تزوج بكرًا سواها وأحبها حبًا شديدًا كان يتظاهر به، بحيث إن عمرو بن العاص رضي الله عنه وهو ممن أسلم سنة ثمان من الهجرة سأل النبي صلى الله عليه وسلم: أي الناس أحبّ إليك يا رسول الله؟ قال: (عَائِشَةُ. قُلْتُ: مِنَ الرِّجَالِ؟ قَالَ: أَبُوهَا)[1]. وحبه عليه السلام لعائشة رضي الله عنها كان أمرًا

---

(١) أخرجه البخاري ٣٦٦٢، ومسلم ٢٣٨٤.

مستفيضًا، ألا تراهم كيف كانوا يتحرون بهداياهم يومها تقربًا إلى مرضاته)[(١)].

وقال ابن كثير عنها: (ولم يتزوج بكرًا سواها، ولم يأته الوحي في لحاف امرأة من نسائه سواها، ولم يحب أحدًا من النساء مثلها وقد كانت لها مآثر وخصائص ذكرت في القرآن والسنة، ولا يعلم في هذه الأمة امرأة بلغت من العلم مبلغها، وتوفيت سنة سبع وقيل ثمانٍ وخمسين)[(٢)].

ثانيًا- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

لقد سأل الأسود بن يزيد عما كان النبي ﷺ يصنع في بيته، وذلك ليُعرف فعل النبي ﷺ في منزله، وذلك من باب الاقتداء والاتباع، فأجابت عائشة رضي الله عنها بأنه "كان يكون في مهنة أهله -يعني: خدمة أهله- فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة"، فعن طريق السؤال والجواب عرفنا ما الذي يصنعه النبي ﷺ في بيته، فكان هذا دعوة لأن يقتدي به المدعوون ويتخذونه مثلاً لهم في بيوتهم.

لذا كان السؤال والجواب من أساليب الدعوة التي تفيد العمل الدعوي إفادة بالغة، إذ أنه يساعد على إثارة الأسئلة من قبل المدعو وإجابة الداعية لها، كما أن السؤال قد يكون من الداعية حتى يتضح له الأمر، وتكون دعوته على صواب.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: بيان تواضع النبي ﷺ:

إن منزلة النبوة منزلة عظيمة، ومحمد ﷺ هو أفضل الأنبياء وأعلاهم قدرًا، ومع ذلك لم تمنعه مهام النبوة وأعباؤها الجسام من أن يخدم أهله، وقد بينت ذلك عائشة رضي الله عنها بقولها: "يكون في مهنة أهله -يعني خدمة أهله- فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة"، وقد ورد هذا الحديث بروايات أخرى: فعن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها أنها سُئِلَتْ: (مَا كَانَ النبيُّ يَعْمَلُ فِي بَيْتِهِ؟ قالتْ: كان يَخِيطُ ثَوْبَهُ، ويَخْصِفُ نَعْلَهُ، ويَعْمَلُ ما يَعْمَلُ الرِّجالُ فِي بُيوتِهِمْ)[(٣)].

---

(١) سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ٢/١٣٥-١٤٢.

(٢) الفصول في سيرة الرسول ﷺ، ابن كثير، تحقيق: د. محمد العيد الخطراوي ود. محيي الدين مستو ص ٢٤٤.

(٣) أخرجه أحمد ٦/١٢١ رقم ٢٤٩٠٣، وقال محققو المسند: حديث صحيح ٤١/٣٩٠.

وعن الزهري عن عروة قال: (قُلْتُ لِعائشة: يا أمَّ المؤمنين أيَّ شيءٍ كان يَصْنَعُ رسول الله إذا كانَ عِندَك؟ قالتْ: ما يَفْعَلُ أَحَدُكُمْ فِي مِهْنَةِ أهلهِ يَخْصِفُ نَعْلَهُ، ويَخِيطُ ثَوْبَهُ، ويَرْقَعُ دَلْوَهُ)(١).

وعن عمرة عن عائشة أنها سئلت ما كان عمل رسول الله ﷺ في بيته؟ قالت: (ما كانَ إلا بَشَرًا مِنَ البَشَرِ، كانَ يَفْلِي ثَوْبَهُ، ويَحْلُبُ شَاتَهُ، ويَخْدِمُ نَفْسَهُ)(٢). قال ابن حجر: (وفيه الترغيب في التواضع وترك التكبر وخدمة الرجل أهله)(٣).

وقال الطيبي: (قولها: "كان بشرًا" تمهيدًا لما تقوله بعده، لأنه لما رأت اعتقاد الكفار أن النبي ﷺ لا يليق بمنصبه أن يفعل ما يفعل غيره من عامة الناس، وجعلوه كالملوك فإنهم يترفعون عن الأفعال العادية الدنية تكبرًا، كما حكى الله تعالى عنهم في قوله: ﴿مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾(٤) فقالت: إنه ﷺ كان خلقًا من خلق الله تعالى، وواحدًا من أولاد آدم شرفه الله بالنبوة، وكرمه بالرسالة، وكان يعيش مع الخلق بالخلق، ومع الحق بالصدق فيفعل مثل ما فعلوا ويعينهم في أفعالهم تواضعًا وإرشادًا لهم إلى التواضع ورفع الترفع، وتبليغ الرسالة من الحق إلى الخلق كما أمر تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾(٥))(٦).

ونقل ابن حجر عن ابن بطال قوله: (من أخلاق الأنبياء التواضع والبعد عن التنعم وامتهان النفس ليستن بهم، ولئلا يخلدوا إلى الرفاهية المذمومة، وقد أشير إلى ذمها بقوله تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾(٧))(٨). وقال الشيخ عبدالرحمن

---

(١) أخرجه أحمد ١٦٧/٦ رقم ٣٥٢٤١، وقال محققو المسند: حديث صحيح ٢٠٩/٤٢.
(٢) أخرجه ابن حبان ٥٦٧٥، وقال محققه: إسناده قوي على شرط مسلم.
(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٩١/٢.
(٤) سورة الفرقان، آية: ٧.
(٥) سورة فصلت، آية: ٦.
(٦) شرح الطيبي على المشكاة ٣٧/١١.
(٧) سورة المزمل، آية: ١١.
(٨) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٧٦/١٠.

حسن حبنكة الميداني: (ومن تواضع الرسول وسماحة نفسه صلوات الله عليه أنه كان يشارك أهله في البيت مهنتهن وأعمالهن)(١).

رابعًا- من موضوعات الدعوة: المحافظة على أداء الصلاة جماعة في المسجد:

إن إقامة الصلاة والمحافظة عليها من علامات صدق الإيمان، وقد كان النبي ﷺ - وهو أعبد العابدين- أشد ما يكون حرصًا على أداء الصلاة في أوقاتها جماعة في المسجد مع كامل الخشوع والخضوع، وهذا واضح من قول عائشة رضي الله عنها: "فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة".

قال د. صالح الفوزان: (شعيرة عظيمة من شعائر الإسلام، هي صلاة الجماعة في المساجد، فقد اتفق المسلمون على أن أداء الصلوات الخمس في المساجد من أوكد الطاعات وأعظم القربات، بل هي أعظم وأظهر شعائر الإسلام، فقد شرع الله لهذه الأمة الاجتماع في أوقات معلومة، منها ما هو في اليوم والليلة كالصلوات الخمس، فإن المسلمين يجتمعون لأدائها في المساجد كل يوم وليلة خمس مرات، ومن هذه الاجتماعات ما هو في الأسبوع مرة كالاجتماع لصلاة الجمعة، وهو اجتماع أكبر من الاجتماع للصلوات الخمس... وإنما شرعت هذه الاجتماعات العظيمة في الإسلام لأجل مصالح المسلمين ليحصل التواصل بينهم بالإحسان والعطف والرعاية ولأجل التوادد والتحابب بينهم في القلوب ولأجل أن يعرف بعضهم أحوال بعض... ومن فوائد صلاة الجماعة: تعليمُ الجاهل ومضاعفة الأجر والنشاط على العمل الصالح عندما يشاهد المسلم إخوانه المسلمين يزاولون الأعمال الصالحة فيقتدى بهم)(٢).

وقد قال الله تعالى: ﴿ حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴾(٣) وقال ابن كثير: (يأمر الله تعالى بالمحافظة على الصلوات في أوقاتها وحفظ حدودها

(١) الوجيزة في الأخلاق الإسلامية وأسسها ٣٠٠.

(٢) الملخص الفقهي، د. صالح بن فوزان الفوزان ١/١٩١-١٩٢، وانظر: توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٢/١٣١.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٣٨.

وأدائها في أوقاتها)[١].

وقال الطاهر بن عاشور: (والمحافظة عليها هي المحافظة على أوقاتها من أن تؤخر عنها والمحافظة تؤذن بأن المتعلق بها حق عظيم يخشى التفريط فيه. والمراد: الصلوات المفروضة وهي الصلوات الخمس المتكررة، لأنها التي تطلب المحافظة عليها)[٢].

وقال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: (لَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنِ الصَّلاَةِ إِلاَّ مُنَافِقٌ قَدْ عُلِمَ نِفَاقُهُ. أَوْ مَرِيضٌ. إِنْ كَانَ الْمَرِيضُ لَيَمْشِي بَيْنَ رَجُلَيْنِ حَتَّى يَأْتِيَ الصَّلاَةَ. وَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللّهِ عَلَّمَنَا سُنَنَ الْهُدَى. وَإِنَّ مِنْ سُنَنِ الْهُدَى الصَّلاَةَ فِي الْمَسْجِدِ الَّذِي يُؤَذَّنُ فِيهِ)[٣]، وفي رواية: (مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى الله غَدًا مُسْلِمًا فَلْيُحَافِظْ عَلَى هؤُلاءِ الصَّلَوَاتِ حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ. فَإِنَّ الله شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ سُنَنَ الْهُدَى وَإِنَّهُنَّ مِنْ سُنَنِ الْهُدَى. وَلَوْ أَنَّكُمْ صَلَّيْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ كَمَا يُصَلِّي هذَا الْمُتَخَلِّفُ فِي بَيْتِهِ لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ. وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ. وَمَا مِنْ رَجُلٍ يَتَطَهَّرُ فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ ثُمَّ يَعْمِدُ إِلَى مَسْجِدٍ مِنْ هذِهِ الْمَسَاجِدِ إِلاَّ كَتَبَ الله لَهُ بِكُلِّ خَطْوَةٍ يَخْطُوهَا حَسَنَةً. وَيَرْفَعُهُ بِهَا دَرَجَةً. وَيَحُطُّ عَنْهُ بِهَا سَيِّئَةً. وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلاَّ مُنَافِقٌ، مَعْلُومُ النِّفَاقِ. وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يُهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ)[٤].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٦٤٥/١، وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٠٧/١٢/٦ ٢٩٢/١٨/٩.

(٢) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشورمج١/٢/٤٦٦-٤٦٧.

(٣) أخرجه مسلم ٢٥٦ - ٦٥٤.

(٤) أخرجه مسلم ٢٥٧ - ٦٥٤.

الحديث رقم (٦٠٧)

٦٠٧- وعن أَبي رِفَاعَةَ تَميم بن أُسَيْدٍ ﷺ ، قَالَ: انْتَهَيْتُ إلَى رَسولِ الله ﷺ وَهُوَ يخطب، فقلت: يَا رسول الله، رَجُلٌ غَريبٌ جَاءَ يَسْأَلُ عن دِينهِ لا يَدْرِي مَا دِينُهُ؟ فَأقْبَلَ عَلَيَّ رسولُ اللهِ ﷺ ، وتَرَكَ خُطْبَتَهُ حَتَّى انْتَهَى إلَيَّ، فَأُتِيَ بِكُرْسيٍّ[1]، فَقَعَدَ عَلَيْهِ، وَجَعَلَ يُعَلِّمُنِي مِمَّا عَلَّمَهُ اللهُ، ثُمَّ أَتَى خُطْبَتَهُ فَأَتَمَّ آخِرَهَا. رواه مسلم[2].

ترجمة الراوي:

تميم بن أسيد: هو أبو رفاعة العدوي، تميم بن أسيد بن عدي بن عبد مناة بن أدٍّ بن طابخة المضري من فضلاء الصحابة.

وكان ذا تعبُّد وتهجد، وكان يقول: ما عَزَبَتْ عني سورةُ البقرة منذ علّمنيها رسول الله ﷺ ، وأخذت معها ما أخذتُ من القرآن، وما وُجعَ ظهري من قيام الليل قط.

وكان إذا صلّى ففرغ من صلاته ودعائه كان آخر ما يدعو به اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي فإذا كانت الوفاة فتوفني وفاة طاهرة طيبة يغبطني بها من سمع بها من إخواني المسلمين من عفتّها وطهارتها وطيبها، واجعل وفاتي قتلاً في سبيلك، فخرج في جيش عليهم عبدالرحمن بن سُمرة، فبات تحت حصن يُصلي ليلة، ثم توسد تُرْسه، فنام، وركب أصحابه وتركوه نائمًا، فبصُر به العدوُّ، فنزل ثلاثةُ أعلاجٍ[3]، فذبحوه ﷺ وكان ذلك في كابل عندما غزا سجستان.

وكانت وفاته سنة ٤٤هـ[4].

---

(١) عند مسلم زيادة: (حسبت قوائمه من حديد).

(٢) برقم ٦٠/٨٧٦.

(٣) العلج في لغة العرب: من ليس بعربي (مادة: ع ل ج).

(٤) الطبقات الكبرى، ابن سعد ٦٨/٧-٦٩، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٩٧-٩٨، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود ٤٢٧/١، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ص ١٤٧١، وسير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ١٤/٣، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين ٣٠٩/٨، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٥٢٢/٤.

الشرح الأدبي

قول الراوي (انتهيت إلى) يوحي ببلوغه غايته كما يوحي بأنه جاء قاصدا النبي ﷺ، ولعله جاء من مسافة بعيدة أشار إليه التعبير بالانتهاء المسبوق بابتداء يتخلله قصد، وعزم، ويؤكدها قوله (رَجُلٌ غَريبٌ جَاءَ يَسْأَلُ) وقوله (وهو يخطب) يشير إلى أنه لم ينتظر، وقاطعه في أثناء الخطبة، وقوله (يَسْأَلُ عن دِينِهِ لا يَدْرِي مَا دِينُهُ؟) يفصح عن غرضه، وغايته التي حركته من موطنه وقوله (فأقبل عليَّ رسول الله ﷺ) يشير إلى سرعة استجابته، والتعبير بالإقبال يشير إلى القبول، والبشاشة ما لم يقيد بما يعطي دلالة مخالفة، وقوله (وترك خطبته حتى انتهى إليَّ) يشير إلى اهتمامه به، وعنايته بتحقيق غرضه والتعبير بالانتهاء إليه يؤكد حفاوته به، وأهمية ما جاء يسئل عنه، وقوله: (فأتى بكرسي فقعد عليه) يشير إلى تواضعه ومودته، وتقريبه لهذا السائل الغريب؛ لأنه مسلم جاء يسأل عن دينه فهو قريب حبيب للرسول ﷺ فلما اقترب الرجل بغايته من الرسول ﷺ قربه الرسول ﷺ في مكانه، واحتفى به، وعلمه ما يريد، والربط بالفاء بين الجمل يشير إلى هذه الحفاوة، والتقريب الذي يحتاج إليه طالب العلم، وقوله (يعلمني.. مما علمه) جناس يؤكد تحقيق المعنى الذي جاء ساعيا إليه.

فقه الحديث

١- استحباب تلطف السائل في عبارته وسؤاله العالم: قال النووي: (قوله: "رجل غريب يسأل عن دينه لا يدري ما دينه"، فيه استحباب تلطف السائل في عبارته وسؤاله العالم)[(١)].

٢- إجابة من سأل عن الإيمان وكيفية الدخول في الإسلام على الفور: قال النووي: (فيه المبادرة إلى جواب المستفتي وتقديم أهم الأمور، فأهمها ولعله كان سأل عن الإيمان وقواعده المهمة، وقد اتفق العلماء على أن من جاء يسأل عن الإيمان وكيفية الدخول في الإسلام وجب إجابته وتعليمه على الفور)[(٢)].

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٤٤/٦/٣.

(٢) المرجع السابق، الموضع نفسه.

٣- وقوع الفصل في الخطبة: قال النووي: (يحتمل أن هذه الخطبة التي كان النبي ﷺ فيها خطبة أمر غير الجمعة، ولهذا قطعها بهذا الفصل الطويل، ويحتمل أنها كانت الجمعة واستأنفها، ويحتمل أنه لم يحصل فصل طويل، ويحتمل أن كلامه لهذا الغريب كان متعلقًا بالخطبة فيكون منها، ولا يضر المشي في أثنائها)[١].

المضامين الدعوية

أولاً: من واجبات المدعو: السؤال عن أمور دينه.

ثانيًا: من آداب الداعية: الإقبال على المدعو.

ثالثًا: من فقه الداعية: مراعاة الأولويات.

رابعًا: من وسائل الدعوة: التعليم.

خامسًا: من وسائل الدعوة: الخطبة.

أولاً- من واجبات المدعو: السؤال عن أمور دينه:

إن السؤال المباشر من أسرع الوسائل التي يستخدمها المدعو وأنجحها لمعرفة أمور دينه، وقد وقع السؤال من الصحابة رضي الله عنهم كثيرًا من أجل هذه الغاية النبيلة. وهذا واضح من قول أبي رفاعة تميم بن أسيد رضي الله عنه: (يا رسول الله رجل غريب جاء يسأل عن دينه لا يدري ما دينه؟).

قال النووي: (فيه استحباب تلطف السائل في عبارته وسؤاله العالم)[٢]، وقد قال الله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٣].

وعن أبي جمرة قال: كنت أترجم بين يديْ ابن عباس وبين الناس، فأتته امرأة تسأله عن نبيذ الجرّ. فقال: إن وفد عبد القيس أتوا رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: من الوفد؟ أو من القوم؟ قالوا: ربيعة. قال: مرحبًا بالقوم، أوْ بالوفد غير

---

(١) المرجع السابق، الموضع نفسه.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٥٧٠.

(٣) سورة النحل، آية: ٤٣، وسورة الأنبياء، آية: ٧.

خزايا ولا الندامى. قال: فقالوا: يا رسول الله إنا نأتيك من شقة بعيدة وإن بيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر، وإنا لا نستطيع أن نأتيك إلا في شهر الحرام. فمرنا بأمر فصل نخبر به من وراءنا، ندخل به الجنة. قال: فأمرهم بأربع ونهاهم عن أربع قال: أمرهم بالإيمان بالله وحده...) الحديث[١].

قال النووي: (أما الجرّ فبفتح الجيم وهو اسم جمع الواحدة: جرة. ويجمع أيضًا على جرار وهو هذا الفخار المعروف. وفي هذا دليل على جواز استفتاء المرأة الرجال الأجانب وسماعها صوتهم وسماعهم صوتها للحاجة... وفي حديث الباب من الفوائد أنه لا عتب على طالب العلم والمستفتي إذا قال للعالم: أوضح لي الجواب ونحو هذه العبارة)[٢].

وقالت عائشة رضي الله عنها: (نعم النِّسَاءُ نِسَاء الأنْصَارِ، لَمْ يَكُنَّ يَمْنَعْهُنَّ الْحَيَاءُ أنْ يَسْأَلْنَ عن الدِّينِ وَأنْ يَتَفَقَّهْنَ فِيهِ)[٣].

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (زيادة العلم الابتغاء ودرك العلم السؤال، فتعلم ما جهلت واعمل بما علمت)[٤].

وقال الزهري: (العلم خزانة مفتاحها المسألة)[٥].

ثانيًا- من آداب الداعية: الإقبال على المدعو:

من آداب الداعية أن يقدم دعوته بما يجعل المدعو يقبل دعوته ويستجيب له ومن الصفات التي تعينه على ذلك أن يُقبل على المدعو ويهتم به ويوليه العناية التي تلائمه وتناسبه وهذا يؤخذ من قول الصحابي أبي رفاعة رضي الله عنه: (فأقبل عليّ رسول الله ﷺ وترك خطبته حتى انتهى إليّ فأتى بكرسي فقعد عليه وجعل يعلمني مما علمه الله).

قال النووي: (فيه تواضع النبي ﷺ ورفقه بالمسلمين وشفقته عليهم وخفض جناحه

---

(١) أخرجه البخاري ٥٣، ومسلم ١٧ واللفظ له.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٩٣، ٩٦.

(٣) أخرجه مسلم ٦١-٣٣٢، وأبو داود ٣١٦، وهذا لفظه.

(٤) جامع بيان العلم وفضله ١/٣٧٤ رقم ٥٢٣.

(٥) المرجع السابق ٥٢٤.

لهم، وفيه المبادرة إلى جواب المستفتي)[١].

وقال عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني عن هذا الحديث: (ومن تواضع الرسول ﷺ أنه قطع خطبته مرة لتعليم جاهل غريب، وأقبل عليه، حتى إذا انتهى منه عاد إلى ما كان فيه)[٢].

ومن هذا القبيل حديث معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه قال: بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ. إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللهُ فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ. فَقُلْتُ: وَاثُكْلَ أُمِّيَاهْ! مَا شَأْنُكُمْ؟ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ. فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي، لَكِنِّي سَكَتُّ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ. فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلاَ بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، فَوَاللهِ مَا كَهَرَنِي وَلاَ ضَرَبَنِي وَلاَ شَتَمَنِي. قَالَ: ((إِنَّ هَذِهِ الصَّلاَةَ لاَ يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلاَمِ النَّاسِ. إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ))[٣].

قال النووي: (قوله: "فبأبي هو وأمي ما رأيت معلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه" فيه بيان ما كان عليه رسول الله ﷺ من عظيم الخلق الذي شهد الله تعالى به ورفقه بالجاهل ورأفته بأمته وشفقته عليهم، وفيه التخلق بخلقه ﷺ في الرفق بالجاهل وحسن تعليمه واللطف به وتقريب الصواب إلى فهمه)[٤].

(لأن طالب العلم [ومثله الداعية] كالمورد يرد الناس عليه وعنه يصدرون، فلابد أن يوطّن نفسه على حسن مقابلتهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. وليحذر من تنفيرهم وإظهار التضجر والملل، فإن ذلك يحملهم على البعد عن أهل العلم، بل وإلى تعميم الحكم عليهم جميعًا. ولذا كان سلفنا الصالح أرحب الناس صدرًا لعوام المسلمين، فنفع الله بهم القاصي والداني. والأمر يسير على من يسّره الله عليه)[٥].

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٥٧٠.

(٢) الوجيزة في الأخلاق الإسلامية وأسسها ٣٠٠.

(٣) أخرجه مسلم ٥٣٧.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٤٠٩.

(٥) معالم في طريق طلب العلم، عبدالعزيز بن محمد السدحان، ١٧٢.

ثالثًا- من فقه الداعية: مراعاة الأولويات:

عندما تتزاحم الأمور أوتتعارض فإن حسن الفهم يقتضي تقديم الأهم فالأهم، وهذا واضح من ترك النبي ﷺ الخطبة وإقباله على تعليم الصحابي أمور دينه.

قال النووي: (وفيه المبادرة إلى جواب المستفتي وتقديم أهم الأمور فأهمها. ولعله قد سأل عن الإيمان وقواعده المهمة. وقد اتفق العلماء على أن من جاء يسأل عن الإيمان وكيفية الدخول في الإسلام وجب إجابته وتعليمه على الفور وقعوده ﷺ على الكرسي ليسمع الباقون كلامه ويروا شخصه الكريم ﷺ ويحتمل أن هذه الخطبة التي كان النبي ﷺ فيها خطبة أمر غير الجمعة، ولهذا قطعها بهذا الفصل الطويل، ويحتمل أنها كانت الجمعة واستأنفها، ويحتمل أنه لم يحصل له فصل طويل، ويحتمل أن كلامه لهذا الغريب كان متعلقًا بالخطبة فيكون منها ولا يضر المشي في أثنائها)(١).

(فيحسن بالداعية أن يعنى بالأهم فالمهم فالأقل أهمية، وينبغي أن يعنى الداعية بتقديم ما هو أصل على ما هو فرع، فيقنع الناس به ويحملهم على قبوله، فإذا استقر في القلوب واستجابت له النفوس انتقل إلى ما هو دون ذلك من أمور)(٢).

قال ابن القيم عن أهمية حفظ مراتب الأعمال ومعرفتها: (فهذا أصل نافع جدًا يفتح للعبد باب معرفة مراتب الأعمال وتنزيلها منازلها، لئلا يشتغل بمفضولها عن فاضلها فيربح إبليس الفضل الذي بينهما، أو ينظر إلى فاضلها فيشتغل به عن مفضولها إن كان ذلك وقته، فتفوته مصلحته بالكلية لظنه أن اشتغاله بالفاضل أكثر ثوابًا وأعظم أجرًا. وهذا يحتاج إلى معرفة بمراتب الأعمال وتفاوتها ومقاصدها. وفقه في إعطاء كل عمل منها حقه. وتنزيله في مرتبته وتفويته لما هو أهم منه. أو تفويت ما هو أولى منه وأفضل لإمكان تداركه والعود إليه، وهذا المفضول إن فات لا يمكن تداركه، فالاشتغال به أولى. وهذا كترك القراءة لرد السلام وتشميت العاطس. وإن كان القرآن أفضل، لأنه يمكنه الاشتغال بهذا المفضول والعود إلى الفاضل. بخلاف ما إذا اشتغل بالقراءة فاتته مصلحة رد السلام وتشميت العاطش. وهكذا سائر الأعمال إذا تزاحمت)(٣).

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٥٧٠.

(٢) صفات الداعية، د. حمد بن ناصر العمار ص ١٠٩.

(٣) الوابل الصيب من الكلم الطيب ٣٧٢/٢ (مجموعة الحديث).

رابعًا- من وسائل الدعوة: التعليم:

هذا واضح من قول الصحابي: "وجعل يعلمني مما علمه الله"، وقد كان التعليم من وسائل الدعوة التي استخدمها النبي ﷺ بكثرة[١]. وقد بوّب النووي على هذا الحديث باب حديث التعليم في الخطبة[٢].

من ذلك حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، إن رسول الله ﷺ خطبنا فبيّن لنا سنتنا وعلمنا صلاتنا فقال: ((إِذَا صَلَّيْتُمْ فَأَقِيمُوا صُفُوفَكُمْ. ثُمَّ لْيَؤُمَّكُمْ أَحَدُكُمْ. فَإِذَا كَبَّرَ فَكَبِّرُوا. وَإِذَا قَالَ: غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ. فَقُولُوا: آمِينَ. يُجِبْكُمُ اللّه. فَإِذَا كَبَّرَ وَرَكَعَ فَكَبِّرُوا وَارْكَعُوا. فَإِنَّ الإِمَامَ يَرْكَعُ قَبْلَكُمْ وَيَرْفَعُ قَبْلَكُمْ)) فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ: ((فَتِلْكَ بِتِلْكَ. وَإِذَا قَالَ: سَمِعَ الله لِمَنْ حَمِدَهُ. فَقُولُوا: اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ. يَسْمَعُ الله لَكُمْ...))[٣].

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾[٤] قال: علموا أنفسكم وأهليكم الخير وأدبوهم[٥].

جاء في الموسوعة الفقهية: (قال النووي: تعليم الطالبين فرض كفاية، فإن لم يكن هناك من يصلح إلا واحد تعين عليه. وإن كان جماعة يصلحون، فطلب ذلك من أحدهم فامتنع فهل يأثم؟ يجري في ذلك وجهان. والأصح: لا يأثم.

هذا ويلزم تعليم العلم اللازم تعليمه، كاستعلام كافر يريد الإسلام عن الإسلام، أو استعلام حديث عهد بالإسلام عن صلاة حضر وقتها، وكالمستفتي في الحلال

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، إعداد: مجموعة من المستشرقين ٤/٢٢١ - ٢٢٢.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٥٧٠.

(٣) أخرجه مسلم ٤٠٤.

(٤) سورة التحريم، آية:٦.

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢٣/١٠٣، والحاكم في المستدرك ٢/٤٩٤ رقم ٣٨٧٩، وصححه على شرط الشيخين. ولتتمة تخريجه انظر: الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٤/٥٩٠.

والحرام فإنه يلزم في هذه الأمور الإجابة، ومن امتنع كان آثمًا.

وليس كذلك الأمر في نوافل العلم التي لا ضرورة بالناس إلى معرفتها.

قال ابن الحاج: ينبغي للعالم، أو يتعين عليه: إذا رأى الناس قد أعرضوا عن العلم أن يعرض نفسه عليهم، لتعليمهم وإرشادهم وإن كانوا معرضين.

وقد حث الشرع على تعليم العلوم التي تحتاجها الأمة في دينها ودنياها، وجاءت الآيات والأحاديث والأخبار بذلك)(١).

خامسًا- من وسائل الدعوة: الخطبة:

هذا واضح من قول الصحابي عن الرسول ﷺ: (وهو يخطب.. وترك خطبته... ثم أتى خطبته فأتمّ آخرها).

قال د. توفيق الواعي: (تظهر أهمية الخطابة الدينية من تتبعنا لتاريخ الإنسانية حيث نشاهد صرعى الأهواء والشهوات وقتلى الظلم والبغي وهلكى الضياع والعصيان لتنكب هذه الإنسانية طريق الصواب وبعدها عن الخالق الباري جل وعلا.

كما نجد أن الرواد الذين قاموا بتغيير هذا الدمار كانوا خطباء دينيين أخذوا العقول والنفوس إلى رحاب الله وإلى هديه وصراطه المستقيم، لهذا ترجع أهمية الخطابة الدينية في الإسلام إلى ما يلي:

١- الدعوة إلى الإسلام وإلى تعاليمه ومبادئه، وإلى سيادته في الأرض لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى.

٢- الدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإلى إنشاء المجتمع الذي يمثل تعاليم الإسلام حية عملية واقعية في دنيا الناس.

٣- تغذية الشعور وإنارة الحماس وبعث الهمم حتى تستطيع الإنسانية أن تحقق أشواقها ورغباتها في هذه الحياة)(٢).

---

(١) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٣/٧ ومراجعها ومصادرها.

(٢) الخطابة وإعداد الخطيب، د. توفيق الواعي ص ٤٢-٤٣.

الحديث رقم (٦٠٨)

٦٠٨- وعن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ كَانَ إِذَا أكَلَ طَعَامًا، لَعِقَ أصَابِعَهُ الثَّلاَثَ. قَالَ: وقال: ((**إِذَا سَقَطَتْ لُقْمَةُ أَحَدِكُمْ فَلْيُمِط عنها الأذى، وليأكُلْها وَلاَ يَدَعْها لِلشَّيْطان**)) وأمرَ أن تُسلَتَ القَصْعَةُ، قَالَ: ((**فإنَّكُمْ لاَ تَدْرُونَ فِي أيِّ طَعَامِكُمُ البَرَكَة**)) رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

لعق أصابعه: لحس أصابعه[2].

يُميط: يزيل وينحى[3].

تسلت القصعة: أي تلعق[4].

القصعة: وعاء يؤكل فيه[5].

الشرح الأدبي

ذكرنا مرارا أن قول الراوي عن الرسول ﷺ (كان) يشير إلى العادة الغالبة وقوله (كَانَ إِذَا أكَلَ طَعَاماً، لَعِقَ أصَابِعَهُ الثَّلاَثَ) يشير إلى أنه اعتاد لعق أصابعه بعد الأكل كما يؤكد ذلك أسلوب الشرط الذي يدل على التلازم بين الفعل، الجزاء أي بين الأكل، واللعق، وقوله (إذا وقعت لقمة) نسب فعل الوقوع إلى اللقمة وهي في الحقيقة مفعولاً والفاعل هو الآكل الذي أوقعها إشارة إلى أن المسلم لا يلقي بطعامه وإن لم

---

(١) برقم ٢٠٣٤/١٣٦. وسيكرره المؤلف برقم ٧٥١.

(٢) الوسيط، مجمع اللغة العربية ٨٢٨.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٢٨٦.

(٤) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٨٨٧.

(٥) الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ق ص ع).

يكن له به حاجة، فلابد أن أحد إخوانه في حاجة إليه، ولذلك رتب الرسول ﷺ على وقوع اللقمة بالفاء المؤذنة بالسرعة أخذها، ثم إصلاحها، ثم استخدامها مرة أخرى، انظر كيف يعلمنا الرسول ﷺ المحافظة على أموالنا، وألا نترك منها قليلاً، ولا كثيراً يضيع هباءً، ثم إن في المسألة بُعداً آخر، وهو عدم تركها للشيطان ليتقوى بها علينا، ألا يعلمنا ذلك أن إهدار مال المسلمين إضعاف لهم، وقوة لأعدائهم؟ لذلك جاء نهي الرسول ﷺ (ولا يدعها للشيطان) إشارة إلى ذلك، وقوله (فَإِنَّهُ لا يَدْرِي فِي أَيِّ طَعَامِهِ تَكُونُ الْبَرَكَةُ) الفاء للتعليل، والجملة تعليل للأمر السابق بسلت القصعة، وتتبع بقايا الطعام فيها، وترغيب فيه. وجملة السنن التي يتناولها هذا الحديث، وإن كانت تبدو سهلة بسيطة في تنفيذها إلا أن أثرها عظيم، إذا طُبقت، وصارت سلوكاً في مختلف التعاملات في الحفاظ على نعمة الله التي سنسئل عنها.

فقه الحديث

هذا الحديث يشير إلى الأحكام الفقهية التالية:

١-الأكل بثلاثة أصابع: السنة الأكل بثلاثة أصابع، ويكره الأكل بأكثر منها، لأنه من الشره، وسوء الأدب، ولأنه غير مضطر لذلك لجمعه اللقمة، وإمساكها من جهاتها الثلاث، إلا أن يضطر إلى الأكل بأكثر من ثلاثة أصابع، لخفة الطعام مثلاً، وعدم تلفيقه بالثلاث، فيدعمه بالرابعة أو الخامسة[(١)]. هذا إن أكل بيده، ولا بأس باستعمال الملعقة ونحوها[(٢)].

---

(١) الفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم بن سالم ابن مهنا النفراوي ٤١٣/٢، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٢٥٠/٣، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٤٣٢/٩، وكشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ١٩٧/٥. وانظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٢١٦/١٣/٧، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ١٦٣٧، ١٦٣٩.

(٢) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٢١/٦.

٢-أكل اللقمة الساقطة: يستحب عند جمهور الفقهاء إذا وقعت اللقمة أن يميط الآكل عنها الأذى، ويأكلها، ما لم تتنجس، ولا يدعها للشيطان، لأنه لا يدري موضع البركة في طعامه، وقد يفوّت تركها على المرء بركة الطعام. فإن تنجست غسلها، فإن تعذر أطعمها حيوانًا ولا يتركها للشيطان.

بينما ذهب ابن حزم إلى وجوب ذلك(١).

٢-لَعْق الإناء والأصابع: ذهب جمهور الفقهاء إلى أنه من السنة للآكل لعق أصابعه قبل غسلها، أو مسحها، تحصيلاً لبركة الطعام، وكذلك يسن له لعق الإناء وتتبع ما بقي فيه من طعام(٢). وذهب ابن حزم إلى وجوب لعق الأصابع ولعق الصحفة(٣).

وهل لِلعْق الأصابع صفة واردة؟

ورد عند الطبراني في الأوسط من حديث كعب بن عجرة قال: رأيت رسول الله ﷺ يأكل بأصابعه الثلاث، الإبهام والتي تليها والوسطى، ثم رأيته يلعق أصابعه الثلاثة قبل أن يمسحها، ويلعق الوسطى ثم التي تليها ثم الإبهام(٤).

---

(١) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٩٢/٢٢، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم بن سالم ابن مهنا النفراوي ٤١٣/٢، وكشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ١٩٣/٥، وشرح منتهى الإرادات، منصور بن يوسف البهوتي ٦٨/٩، والمحلى، ابن حزم ١١٧/٦. وانظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٢١٦/١٣/٧، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ١٦٣٧.

(٢) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٩٢/٢٢، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم بن سالم ابن مهنا النفراوي ٤١٣/٢، وكشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ١٩٣/٥، وشرح منتهى الإرادات، منصور بن يوسف البهوتي ٦٨/٩.

(٣) المحلى، ابن حزم ١١٧/٦ ص ٩٢٨.

(٤) المعجم الأوسط ١٦٩/٤ ح ١٧٠٩. وقال الهيثمي في المجمع فيه الحسين بن إبراهيم الأذني ومحمد بن كعب بن عجرة، ولم أعرفهما وبقية رجاله ثقات. مجمع الزوائد ٢٩/٥.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على بيان هدي النبي ﷺ في أكل الطعام.

ثانيًا: من صفات الداعية: التواضع وصيانة النعم.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الإخبار والشرط والأمر والتعليل.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: أهمية التأسي بالنبي ﷺ.

أولاً: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على بيان هدي النبي ﷺ في أكل الطعام:

لقد حرص الصحابة رضي الله عنهم على نقل أحوال النبي ﷺ أشد ما يكون الحرص، وذلك للاقتداء والتأسي به، فنقلوا جميع أحواله كلها حتى آداب قضاء الحاجة، ومن ذلك حرصهم على نقل هديه في الطعام، وهذا واضح في قول الصحابي أنس بن مالك رضي الله عنه: (إن رسول الله ﷺ كان إذا أكل طعامًا لعق أصابعه الثلاثة..).

ومن هذا القبيل ما ذكره ابن مفلح المقدسي في الآداب الشرعية من أحاديث فصل آداب الأكل والشراب[1].

من ذلك حديث عمر بن أبي سلمة رضي الله عنهما: كُنْتُ فِي حِجْرِ رَسُولِ اللَّهِ. وَكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ. فَقَالَ لِي: ((يَا غُلَامُ سَمِّ اللَّهَ. وَكُلْ بِيَمِينِكَ. وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ)). فما زالت تلكَ طِعمتي بعدُ))[2].

قال النووي: (في هذا الحديث بيان ثلاث سنن من سنن الأكل وهي: التسمية، والأكل باليمين، والثالثة الأكل مما يليه، لأن أكله موضع يد صاحبه سوء عشرة وترك مروءة فقد يتقذره صاحبه لا سيما في الأمراق وشبهها، وهذا في الثريد والأمراق وشبهها، فإن كان تمرًا أو أجناسًا فقد نقلوا إباحة اختلاف الأيدي في الطبق ونحوه،

---

(١) الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ١٥٩/٣ - ٢٢٨.

(٢) أخرجه البخاري ٥٣٧٦، ومسلم ٢٠٢٢.

والذي ينبغي تعميم النهي حملاً للنهي على عمومه حتى يثبت دليل مخصص)[١].

ولقد بلغ الأمر أن رأي بعض العلماء من زواج النبي ﷺ بأكثر من امرأة أن الحكمة من ذلك هو نقل جميع أحوال النبي ﷺ.

قال محمد سليمان الأشقر: (قال السبكي في ترشيح التوشيح عن والده: إن السر في نكاح النبي ﷺ أكثر من أربعة نسوة، أن الله أراد نقل بواطن الشريعة وظواهرها، وما يُستحيا من ذكره وما لا يُستحيا. وكان رسول الله ﷺ أشد الناس حياء. فجعل الله له نسوة ينقلن من الشرع ما يرينه من أفعاله، ويسمعنه من أقواله التي قد يستحيا من ذكرها بحضرة الرجال، فيكتمل نقل الشريعة. وكثر عدد النساء كتكثير الناقلين لهذا النوع. ومنهن عرف غالب مسائل الغسل والحيض والعدة وغيرها. وأيضًا فقد نقلن ما لم ينقله غيرهن مما رأينه في منامه وحالة خلوته، من الآيات البينات على نبوته)[٢].

ثانيًا- من صفات الداعية: التواضع وصيانة النعم:

إن تواضع الداعية لا يكون مع الناس فقط، بل يكون أيضًا بتعامله مع النعم التي أنعم الله عليه بها، فيكون محافظًا عليها ولا يحاول أن يضيع جزءًا منها ولو بسيطًا، وهذا يستفاد من الحديث.

قال ابن هبيرة: "في لعق الأصابع معانٍ منها: زوال الكبر وحفظ بعض أجزاء الزاد وإن قلّ، لأن الكثير يجتمع من القليل، ومتى لم يلعق الأصابع ويمسح القصعة ضاع ما فيها، وقد نهى عن إضاعة المال[٣]. وقوله في اللقمة: (فيلمط عنها الأذى)، وذلك لئلا يكون مضيعًا للمال من جهة أن تلك اللقمة قد تكون سادة جوع مسلم أو مثقلة للميزان.

---

(١) شرح مسلم ١٢٨١.

(٢) قال د. الأشقر: نقله عبدالحي الكتاني في الترتيبات الإدارية ٢/٢٣٦، ومنه نقلناه. أفعال الرسول ﷺ ودلالتها على الأحكام الشرعية ١/٧٢، وانظر: هذا الكتاب فإنه قيّم في بابه.

(٣) أخرج البخاري ٥٩٧٥، ومسلم ٥٩٣ كتاب الأقضية، من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه مرفوعًا: إن الله حرّم عليكم عقوق الأمهات ووأد البنات ومنعًا وهات. وكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال.

ميزان متصدق بها أو ببعضها، فلا معنى في إضاعتها، فربما تكون ميزانه في القيامة قد وقفت على أن ترجح تلك اللقمة. وإذا رجحت بها دخل الجنة. وإن لم تكن اللقمة فرجحت سيئاته دخل النار. فيكون إهماله لتلك اللقمة تكبره عن أن يزيل عنها الأذى قد أدخله النار، ولو فعل لأدخله الجنة. وهذه اللقمة أمر ظاهر وميزانها مكشوف والوزن فيها بيّن وكم فيها من ذرة. وقد قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[(١)]"[(٢)].

وقال القرطبي: (قوله: "ليأكلها" أمر على جهة الاحترام لتلك اللقمة، فإنها من نعم الله تعالى، لم تصل للإنسان حتى سخر الله فيها أهل السماوات والأرض. وقوله: "ولا يدعها للشيطان" يعني أنه إذا تركها ولم يرفعها فقد مكّن الشيطان منها. إذ قد تكبّر عن أخذها ونسي حق الله تعالى فيها، وأطاع الشيطان في ذلك، وصارت تلك اللقمة مناسبة للشيطان، إذ تُكبر عليها، وهو متكبر فصارت طعامه. وهذا كله ذم لحال التارك وتنبيه على تحصيل غرض الشيطان من ذلك"[(٣)]، وقال ابن القيم في منزلة التواضع من مدارج السالكين: (وكان النبي ﷺ يمر على الصبيان فيسلم عليهم، وكانت الأمة تأخذ بيده ﷺ فتنطلق به حيث شاءت، وكان ﷺ إذا أكل لعق أصابعه...)[(٤)].

ولا يمنع الإسلام من استخدام الوسائل الحديثة لنظافة الأيدي، ويبقى عدم إضاعة شيء من الطعام أمرًا وجوبيًا يسأل عنه المسلم.

ثالثًا- من أساليب الدعوة: الإخبار والشرط والأمر والتعليل:

لقد أخبر أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا أكل طعامًا لعق أصابعه الثلاثة، قال ابن هبيرة: (في لعق الأصابع معانٍ منها: زوال الكبر وحفظ بعض أجزاء

---

(١) سورة الزلزلة، الآيتان: ٧ - ٨.

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٥/ ٢٧٠.

(٣) المفهم، القرطبي ٥/ ٣٠١ - ٣٠٢.

(٤) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٣/ ١١١.

الزاد وإن قلّ)[1]، وأما الشرط فقوله ﷺ: "إذا سقطت لقمة أحدكم فليمط عنها الأذى"، قال ابن هبيرة: (وذلك لئلا يكون مضيعًا للمال من جهة أن تلك اللقمة قد تكون سادة جوع مسلم أو مثقلة للميزان)[2]، وأما الأمر فقوله ﷺ: "وليأكلها"، قال القرطبي: (أمر على جهة الاحترام لتلك اللقمة)[3]، وكذلك الأمر في قول أنس رضي الله عنه: "وأمر أن تسلت القصعة"، وقد اتبع هذا الأمر بالتعليل: "فإنكم لا تدرون في أي طعامكم البركة"، قال ابن هبيرة: (وهذا لأن البركة ربما تكون في الجزء الملقى)[4]. فهذه الأساليب الدعوية تفيد الداعية في دعوته إذ هي بمثابة أدواته التي يبلغ بها الدعوة، ويثير بها رغبة المدعوين في قبولها والعمل على تحقيقها.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: أهمية التأسي بالنبي ﷺ:

لقد ساق مسلم في صحيحه عدة أحاديث أخرى في معنى هذا الحديث، وقال النووي: (في هذه الأحاديث أنواع من سنن الأكل منها: استحباب لعق اليد، محافظة على بركة الطعام، وتنظيفًا لها، واستحباب الأكل بثلاثة أصابع ولا يضم إليها الرابعة والخامسة إلا لعذر، بأن يكون مرقًا وغيره مما لا يمكن بثلاثة، وغير ذلك من الأعذار، واستحباب لعق القصعة وغيرها، واستحباب أكل اللقمة الساقطة بعد مسح أذى يصيبها، هذا إذا لم تقع على موضع نجس، فإن تعذر أطعمها حيوانًا ولا يتركها للشيطان)[5].

ولا يمنع الإسلام من استخدام الوسائل الحديثة في تناول الطعام، بل هي الأولى، سلامة ليده وصونًا لشعور غيره من الأذى.

هذا في جانب آداب الطعام وسننه، ويتعدى هذا إلى أفعاله ﷺ وأقواله الأخرى،

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٣٦٩/٥.

(٢) المرجع السابق ٣٧٠/٥.

(٣) المفهم، القرطبي ٣٠١/٥.

(٤) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٣٧٠/٥.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٢٨٥.

وتكمن أهمية التأسي به ﷺ في سبب هذا التأسي ومبعثه، (فمبعث التأسي بالنبي ﷺ هو حبه حبًا يستحوذ على القلوب، ويلامس شغافها ويأخذ بمجامعها، وذلك لأنه رسول الله ﷺ اصطفاه الله للهداية وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وهذا الحب الصادق يستوجب اتباعه والتأسي به واقتفاء آثاره، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[١]، وحبه ﷺ على هذا الوجه المقدم على حب الولدان والوالدين والناس أجمعين أمارة بينة على كمال الإيمان، وفي هذا يقول النبي ﷺ: ((لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حتى أكونَ أَحَبَّ إليهِ مِنْ والِدِهِ وَوَلَدِهِ والنَّاس أَجْمَعين))[٢].

والسبب في هذا الحب العظيم الذي يوليه المسلم لنبيه المصطفى ﷺ هو أنه رسول يوحي إليه)[٣].

قال د. مصطفى السباعي: (إن محمدًا عبد الله ورسوله، أما محمد الرسول ﷺ فلن يفكر أحدٌ أن يكون مثله أو قريبًا منه، في إشراق روحه واتصاله بالملأ الأعلى، يتلقى الوحي ويتنزل عليه الهدى آيات بينات، لن يصل أحد إلى هذا ولا قريب منه، لأن الله ختم بنبوته النبوات وبشريعته الشرائع. وأما محمد الإنسان فهو الذي يحرص كل مسلم على أن يكون ظله في الأرض، يتخلق بخلقه ويهتدي بهديه، ويتأسى[٤] به في صبره وجهاده وزهده وعبادته وتضحيته وإيثاره، ومأكله وملبسه. وما أعتقد أن الله أكرم رسوله الإنسان بمدح أعلى من هذا المديح: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٥])[٦].

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٣١.

(٢) أخرجه البخاري ١٥، ومسلم ٤٤.

(٣) صفات الدعاة، د. عبد الرب بن نواب الدين ص ٥٩ - ٦٠.

(٤) في المطبوع: ويأتي. وما أثبتناه أوضح.

(٥) سورة القلم، آية: ٤.

(٦) عظماؤنا في التاريخ ٤٩.

الحديث رقم (٦٠٩)

٦٠٩- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبيِّ ﷺ ، قَالَ: ((مَا بَعَثَ الله نَبيًّا إلاَّ رَعَى الغَنَمَ)) قَالَ أصْحَابُهُ: وَأنْتَ؟ فَقَالَ: ((نَعَمْ، كُنْتُ أرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لأَهْلِ مَكَّةَ)) رواه البخاري[١].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

قراريط: جمع قيراط، جزءٌ من الدرهم[٢].

الشرح الأدبي والمضامين الدعوية[٣]

---

(١) برقم ٢٢٦٢ ، وتقدم برقم ٦٠٠.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥١٦/٤.

(٣) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (٦٠٠).

الحديث رقم (٦١٠)

٦١٠- وعنه، عن النبيِّ ﷺ، قَالَ: ((لَوْ دُعِيتُ إِلَى كُرَاعٍ أَوْ ذِرَاعٍ لأَجَبْتُ، ولو أُهْدِيَ إِلَيَّ ذراعٌ أَوْ كُرَاعٌ لَقَبِلْتُ)) رواه البخاري[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

كُراعٍ: هي قوائم الدابة أو ما دون الركبة إلى الكعب[2].

الشرح الأدبي

الحديث يشير إلى خلق التواضع ممثلا في شخص النبي ﷺ يبدو خلف عبارته التي تربِّت على قلوب الفقراء الذي لا يجدون مالاً يقيم عظيم الولائم، ثم إنه يعلم أمته ألا ينظر الإنسان إلى الداعي من حيث الشرف، والوضاعة فيلبي دعوة الشريف، ولا يعير غيره اهتماما؛ لأن هذا يجعل الأمة طبقات تشتعل بينه البغضاء بينما أراد الله بما وضع لها في منهجها أن تكون طبقة واحدة متحابة متكافلة على قلب رجل واحد أغنياء، وفقراء شرفاء، ووضعاء، والافتراض الذي فرضه الرسول ﷺ بـ (لو) وهو أشرف الأمة يقدم النموذج العملي لذلك، ويغرس البذرة المباركة لشجرة الخلق الكريم لتستظل بها الأمة، وتقتدي به في فعله فنجد دعوة المسلم تجمع كل إخوانه دون نظر لغنى، أو فقر، أو شرف، وغيره، وكذلك دعوة الفقراء تجمع الأمة في صورة مصغرة بكل فئاتها، وبناء الفعل في الحديث للمجهول (دعيت - أهدي) يشير إلى عدم النظر لشخص الداعي مادام مسلما تقياً، وقوله (كراع، أو ذراع) يشير إلى عدم النظر إلى المدعو إليه من حيث نوع الطعام، كما يشير اتصال الفعلين (لأجبت - لقبلت) إلى العزيمة الماضية،

---

(١) برقم ٢٥٦٨.

(٢) الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ك ر ع).

والنية الصادقة لذلك، وهو لون من راعية أحاسيس الناس ليس غريبا على أعظم القلوب، ولكنها دعوة للأمة كلها لتنمية الروابط الأخوة، والمحبة بينهم.

فقه الحديث

هذا الحديث يشير إلى الأحكام الفقهية التالية:

١-الحكم التكليفي لدعوة الآخرين إلى طعام: ذهب الحنفية إلى أنها سنة، وذهب المالكية إلى أنها مندوبة، وذهب الشافعية في الأصح إلى أنها مستحبة، وذهب الحنابلة إلى أنها جائزة، إلا وليمة العرس فهي سنة مؤكدة، والعقيقة فهي سنة، والوضيمة[١] فإنها مكروهة[٢].

٢-حكم إجابة الدعوة: ذهب الجمهور إلى أن الدعوة إذاكانت إلى وليمة عرس فهي واجبة، أما ما عداها، كما لو كانت لبناء أو ولادة أو ختان أو غير ذلك، فقد اختلفوا فيها: فذهب الحنفية والشافعية والحنابلة: إلى أن إجابتها سنة مستحبة، إن لم يكن هناك مانع من منكر أو بدعة، فلا يستحب إجابتها حينئذ. وذهب المالكية إلى أن إجابة الدعوة لغير العرس مباحة، إلا العقيقة فهي مندوبة[٣].

٣-الحكم التكليفي لتقويم الهدية: اتفق الفقهاء على أن الهدية مندوب إليها[٤]،

(١) الوضيمة: طعام المأتم. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (و ض م).

(٢) مجمع الأنهر، داماد أفندي ٢٠٢/٨، وحاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني، علي بن أحمد العدوي ١٩٠/٨، وروضة الطالبين، الإمام النووي، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، وعلي محمد معوض ٦٤/٣، وكشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ١٨٥/٥، ١٨٨.

(٣) الاختيار ٣٦/٤، ٣٧، وحاشية الدسوقي على الشرح الكبير، وهو مطبوع مع الشرح الكبير للدردير، محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي ٤١٣/٨، وروضة الطالبين، الإمام النووي، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، وعلي محمد معوض ٦٤/٣، وكشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ١٨٥/٥.

(٤) بدائع الصنائع ٩٢/٨، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم بن سالم ابن مهنا النفراوي ٢١٦/٢، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٣٩٦/٢، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٥٣١/٦.

لأنها خلق من أخلاق الإسلام، تؤلف القلوب وتنفي سخائم الصدور، حث عليها المصطفى بقوله ﷺ ((تهادوا تحابوا))(١).

٤-حكم قبول الهدية وردها: اتفق الفقهاء أيضًا على أنه يكره رد الهدية وإن قلّت، ويندب قبولها لغير الحاكم، لأن القصد من قبولها تأليف القلوب، وإحكام المحبة، وبالرد يحدث النفور والعداوة(٢).

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: تواضع النبي ﷺ.

ثانيًا: من آداب الداعية: إجابة الدعوة.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: قبول الهدية.

رابعًا: من أهداف الدعوة: نشر الود والتآلف بين الناس.

أولاً- من موضوعات الدعوة: تواضع النبي ﷺ:

لقد بلغ من تواضع الرسول ﷺ أنه ما كان يستكبر عن طعام يُدعى إليه مهما قلّت قيمته، تألفًا لقلوب المؤمنين وتكريمًا لهم وتربية لهم على فضيلة التواضع، وتعظيمًا لنعمة الله(٣)، وهذا واضح من عموم الحديث، قال ابن حجر: (وفي الحديث دليل على حسن خلقه ﷺ وتواضعه وجبره لقلوب الناس وعلى قبول الهدية وإجابة من يدعو الرجل إلى منزله ولو علم أن الذي يدعوه إليه شيء قليل)(٤).

ونقل الطيبي القول في معنى الحديث: (يعني لو دعاني أحد إلى ضيافة كراع غنم لأجبته، هذا إظهار للتواضع وتحريض عليه)(٥).

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٥٩٤، وحسنه الألباني (صحيح الأدب المفرد ٤٦٢).

(٢) المبسوط ٧٢/١٦، والقوانين الفقهية ٣١٥، والبيجرمي على الخطيب ٤٤٥/١٣، وكشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٢٨٨/٤.

(٣) انظر: الوجيزة في الأخلاق الإسلامية وأسسها ٣٠١.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٥٤/٩.

(٥) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٥٠/٤.

وقال ابن هبيرة: (هذا الحديث يتضمن الندب إلى إجابة الدعوة، ويدل على حسن أخلاق رسول الله ﷺ وتواضعه ويندب إلى قبول الهدية)[١]، (إن الله تعالى علّم نبيه ﷺ كل ما يجعل منه الداعية الأول في العالم، وكان من جملة ما أرشده إليه قوله: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[٢]، إن التواضع - فوق أنه تعبير دقيق عن العظمة الحقيقية- قليل التكلفة على المستوى الشعوري والعملي، فالمتواضع يبدو دائمًا أقل من حقيقته، وبذا فإنه يظل يكبر في أعين الناس دون جهد يبذل، كلما كشفت لهم الأيام عن جواهره المخبوءة)[٣].

"ومما يروع[٤] في سيرة رسول الله ﷺ أنّه ظل هو الإنسان المتواضع تواضع الأنبياء العظماء في مختلف مراحل دعوته حين كان مضطهدًا، وحين كان منتصرًا، وحين كان وحيدًا، وحين كان سيد الجزيرة العربية المطاع، حين كان في أشد المحن وحين كان في أوج المجد والانتصار،وما عهدنا بمثل هذا في تاريخ العظماء وما كان محمد عظيمًا فحسب ولكنه رسول الله أيضًا... وظلّ رسول الله ﷺ يستمع إلى العبد والعجوز والأرملة والمسكين، يقف في الطريق لكل من يستوقفه، ويصافح كل من يلقاه، فلا يترك يده حتى يكون الذي استوقفه هو الذي يترك يده، يتفقد أصحابه ويزور مرضاه ويشهد جنائزهم، ويستمع إلى مشاكلهم ويشاركهم أحزانهم وأفراحهم"[٥].

ثانيًا- من آداب الداعية: إجابة الدعوة:

حضّ الإسلام على إجابة الدعوة لما في ذلك من فوائد ومنافع، كما أن الداعية

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٣٦٥/٧.

(٢) سورة الحجر، آية: ٨٨.

(٣) مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي، د. عبدالكريم بكّار ص ١٢٥.

(٤) يقال: راع الشيء فلانًا: أعجبه. يقال: راعني جماله وراعني كلامه فهو رائع. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ص ٣٨٢.

(٥) عظماؤنا في التاريخ، د. مصطفى السباعي ص ٦١ - ٦٢.

يجني من وراء هذه الإجابة ما يقربه ويقرب دعوته إلى المدعوين، ولهذا حثّ النبي ﷺ على الإجابة، وهذا واضح من الحديث: "لأجبت"، قال ابن حجر: (في الحديث دليل على قبول الهدية وإجابة من يدعو الرجل إلى منزله ولو علم أن الذي يدعوه إليه شيء قليل، قال المهلب: لا يبعث على الدعوة إلى الطعام إلا صدق المحبة وسرور الداعي بأكل المدعو من طعامه والتحبب إليه بالمؤاكلة وتوكيد الذمام(١) معه بها، فلذلك حض النبي ﷺ على الإجابة ولو نزر(٢) المدعو إليه)(٣).

وعن نافع مولى ابن عمر قال: سمعت عبدالله بن عمر رضي الله عنهما يقول: قال رسول الله ﷺ: ((أَجِيبُوا هَذِهِ الدَّعْوَةَ إِذَا دُعِيتُمْ لَهَا)) قَالَ: وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ يَأْتِي الدَّعْوَةَ فِي الْعُرْسِ وَغَيْرِ الْعُرْسِ. وَيَأْتِيهَا وَهُوَ صَائِمٌ(٤).

وقال النبي ﷺ: ((إِذَا دُعِيَ أَحَدُكُمْ إِلَى طَعَامٍ فَلْيُجِبْ فَإِنْ شَاءَ طَعِمَ، وَإِنْ شَاءَ تَرَكَ))(٥).

ولذا كان النبي ﷺ يجيب الدعوة، قال أنس بن مالك رضي الله عنه: (إِنَّ خَيَّاطًا دَعَا رسولَ اللهِ ﷺ لطَعَامٍ صَنَعَهُ، قال أنسُ بنُ مالكٍ: فذهَبتُ مع رسولِ اللهِ ﷺ فرأيتُ النبيَّ ﷺ يَتتبَّعُ الدُّبَّاءَ(٦) مِن حَوالَي القَصعةِ. قال: فلم أزَلْ أُحِبُّ الدُّبَّاءَ مِن يومِئذٍ)(٧).

قال ابن حجر: (في الحديث جواز أكل الشريف طعام من دونه من محترف وغيره وإجابة دعوته، ومؤاكلة الخادم، وبيان ما كان في النبي ﷺ من التواضع واللطف بأصحابه وتعاهدهم بالمجيء إلى منازلهم، وفيه الإجابة إلى الطعام ولو كان قليلاً... وفيه

---

(١) الذمام: العهد والأمان والكفالة والحق والحرمة، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ص٣١٥.

(٢) نزر الشيء: قلّله. ونزر فلانًا: احتقره واستقلّه، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ص٩١٢.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٩/١٥٤.

(٤) أخرجه البخاري ٥١٧٩، ومسلم ١٠٢ - ١٤٢٩.

(٥) أخرجه مسلم ١٤٣٠.

(٦) الدُّباء: القرع. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢٦٨.

(٧) أخرجه البخاري ٥٣٧٩ واللفظ له، ومسلم ٢٠٤١.

الحرص على التشبه بأهل الخير والاقتداء بهم في المطاعم وغيرها، وفيه فضيلة ظاهرة لأنس لاقتفائه أثر النبي ﷺ حتى في الأشياء الجبلية، وكان يأخذ نفسه باتباعه فيها رضي الله عنه)[١].

وجاء في الموسوعة الفقهية: (لا ينبغي أن يكون فقر الداعي أو خفة شأنه أو قلّة الطعام مانعًا من إجابة الدعوة، فإن ذلك من الكبر، والدعوة مشروعة لإحياء المودة بين المسلمين ومزيد التآلف)[٢].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: قبول الهدية:

إن التهادي وقبول الهدية من الوسائل التي تنشر المودة والتآلف بين أفراد المجتمع لذا حث النبي ﷺ على قبول الهدية، وهذا واضح من عموم الحديث، قال ابن حجر: (وفيه الحض على المواصلة والتحاب والتآلف وإجابة الدعوة لما قلّ أو كثر وقبول الهدية كذلك)[٣].

ونقل ابن حجر قول ابن بطال: (أشار ﷺ بالكراع والفرسن إلى الحض على قبول الهدية ولو قلت؛ لئلا يمتنع الباعث من الهدية لاحتقار الشيء فحض على ذلك لما فيه من التألف)[٤].

والإشارة إلى الفرسن وردت في حديث النبي ﷺ: ((يَا نِسَاءَ الْمُسْلِمَاتِ لاَ تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِهَا. وَلَوْ فِرْسِنَ شَاةٍ))[٥].

قال ابن حجر: (وفي الحديث الحض على التهادي ولو باليسير، لأن الكثير قد لا يتيسر كل وقت، وإذا تواصل اليسير صار كثيرًا، وفيه استحباب المودة وإسقاط التكلف)[٦].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٣٦/١٠.

(٢) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٣٣٨/٢٠.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٥٤/٣ - ١٥٥.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٣٦/٥.

(٥) أخرجه البخاري ٢٥٦٦، ومسلم ١٠٣٠.

(٦) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٣٥/٥.

وقال أبو عبدالله القرطبي: (الهدية مندوب إليها، وهي مما تورث المودة وتذهب العداوة؛ وعلى الجملة: فقد ثبت أن النبي ﷺ كان يقبل الهدية، وفيه الأسوة الحسنة. ومن فضل الهدية مع اتباع السنة أنها تزيل حزازات النفوس، وتكسب المهدي والمهدَى إليه رنّة[١] في اللقاء والجلوس. ولقد أحسن من قال:

هدايا الناس بعضهم لبعض ... تُولّد في قلوبهمُ الوِصَالاَ

وتزرعُ في الضمير هَوًى ووُدًّا ... وتُكسبهمْ إذا حضروا جَمَالاَ[٢]

وآخر:

إنّ الهدايا لها حظٌّ إذا وَرَدتْ ... أحظى من الابن عند الوالد الحدب[٣]

وجاء في الموسوعة الفقهية: "لا خلاف بين الفقهاء في مشروعية الهدية بل ولا خلاف في استحبابها في الأصل إلا لعارض، ودليل مشروعيتها الكتاب والسنة المطهرة وإجماع المسلمين.. وصرفها إلى الجيران والأقارب أفضل منه إلى غيرهم. ولا يحتقر المُهْدِي والمُهْدَى إليه القليل فيمتنع الأول من إهدائه والثاني من قبوله)[٤].

رابعًا- من أهداف الدعوة: نشر الود والتآلف بين الناس:

إن الإسلام جاء لصلاح المجتمع الإنساني، ومن طرقه في ذلك نشر الود والتآلف بين الناس، وهذا مستفاد من الحديث، قال ابن حجر: (وفيه الحض على المواصلة والتحاب والتآلف)[٥]، وقد قال النبي ﷺ: ((تهادُوا تَحَابُّوا))[٦]، قال الطيبي: (إن السخط جالب للضغينة والحقد، والهدية جالبة للرضا، فإذا جاء سبب الرضا ذهب سبب السخط)[٧].

---

(١) قال محققو تفسير القرطبي: هكذا في النسخ. ولم يتضح لنا معناها، ولعلها: رغبة.

(٢) الشعر: تاريخ دمشق ٢٥٦/١٧، قافية الألف.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٦١/١٦.

(٤) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٥٤/٤٢ - ٢٥٥.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٥٤/٩.

(٦) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٥٩٤، وصححه الألباني (صحيح الأدب المفرد ٤٦٢).

(٧) شرح الطيبي، على مشكاة المصابيح، الطيبي ١٨٧/٦.

قال العز بن عبد السلام مبينًا الإحسان في الهدايا وغيرها من الهبات إعطاء وقبولاً مما ينعكس على المجتمع كله بالمودة والتآلف وذلك بأن يوليها الأبرار الصلحاء والأعِفّاء من الأقارب والأجانب مقدمًا لمن اشتدت فاقته وعظمت ضرورته خلية من العيوب والشبهات غير مكدرة بمنة ولا أذية ولا إظهار ولا طلب مكافأة... وإحسان القابل لذلك بأن يكافئه بمثله أو أفضل منه، فإن عجز عن ذلك فبالدعاء له"(١).

وقد قال النبي ﷺ: ((تَرَى المُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ، وَتَوادِّهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ، كَمَثَلِ الْجَسَدِ. إِذَا اشْتَكَى عضْوًا، تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ والحُمَّى))(٢).

قال النووي: (هذه الأحاديث صريحة في تعظيم حقوق المسلمين بعضهم على بعض وحثهم على التراحم والملاطفة والتعاضد في غير إثم ولا مكروه)(٣).

وقال ابن حجر: (قال ابن أبي جمرة: الذي يظهر أن التراحم والتوادد والتعاطف وإن كانت متقاربة في المعنى لكن بينها فرق لطيف، فأما التراحم فالمراد به أن يرحم بعضهم بعضا بأخوة الإيمان لا بسبب شيء آخر، وأما التوادد فالمراد به التواصل الجالب المحبة كالتزاور والتهادي، وأما التعاطف فالمراد به إعانة بعضهم بعضا كما يعطف الثوب عليه ليقويه)(٤).

وقال ابن تيمية: (من طريقة أهل السنة والجماعة: اتباع آثار رسول الله صلى الله عليه وسلّم باطنًا وظاهرًا، واتباع سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ... الذين كانوا يأمرون بالصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء والرضا بمر القضاء، ويدعون إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، ويندبون إلى أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك؛ ويأمرون ببر الوالدين وصلة الأرحام، وحسن الجوار،

---

(١) شجرة المعارف والأحوال ١٥٦.

(٢) أخرجه البخاري ٦٠١١، ومسلم ٢٥٨٦.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٤٥.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠/٤٥٣ - ٤٥٤.

والإحسان إلى اليتامى والمساكين وابن السبيل، والرفق بالمملوك؛ وينهون عن الفخر والخيلاء والبغي، والاستطالة على الخلق بحق أو بغير حق؛ ويأمرون بمعالي الأخلاق، وينهون عن سفسافها. وكل ما يقولونه، أو يفعلونه من هذا أو غيره: فإنما هم فيه متبعون للكتاب والسنة)[١].

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ١٠٣/٢ - ١٠٥ بتصرف.

الحديث رقم (٦١١)

٦١١- وعن أنس رضي الله عنه، قَالَ: كَانَتْ نَاقَةُ رسول الله ﷺ العضْبَاءُ لاَ تُسْبَقُ، أَوْ لاَ تَكَادُ تُسْبَقُ، فَجَاءَ أعْرَابِيٌّ عَلَى قَعُودٍ لَهُ، فَسَبَقَهَا، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ حَتَّى عَرَفَهُ، فَقَالَ: ((**حَقٌّ عَلَى اللهِ أنْ لا يَرْتَفِعَ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا إلاَّ وَضَعَهُ**)) رواه البخاري[(١)].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

العضباء: هو اسم ناقة للنبي ﷺ. قال ابن الأثير: هو علم لها منقول من قولهم: ناقة عضباء، مشقوقة الأذن، ولم تكن مشقوقة الأذن[(٢)].

القعود من الدواب: ما يَقْتَعِده الرجل للركوب والحمل ولا يكون إلا ذَكَرًا[(٣)].

حتى عَرَفَهُ: عرف أثر المشقة[(٤)].

وَضَعَهُ: خفضه[(٥)].

الشرح الأدبي

الحديث يدور حول معنى عميق في حوار بسيط هادف قرر خلاله الرسول ﷺ معنى ارتباط البداية بالنهاية فكل شيء من متاع الدنيا له بداية، ولابد، وأن تكون له نهاية، وما حدث في القصة من سبق قعود الأعرابي، وهو الجمل الذكر للعضباء ناقة الرسول ﷺ يشير إلى تصرف عفوي خال من الرياء، والتملق في سباق هو ترفيه مشروع

---

(١) برقم ٢٨٧٢.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ع ض ب)، وانظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٨٨٨.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ق ع د)، وانظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٨٧/٦.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٨٧/٦.

(٥) الوسيط، مجمع اللغة العربية في (و ض ع).

من جهة، وهو تقوية لأسباب القوة التي تتصدى به الأمة لأعدائها وقت الخطر، كما أنه ينمي روح التنافس الشريف في قلوب المؤمنين بغض النظر عن الرابح، أو غيره، وقول الرسول ﷺ (حَقٌّ عَلَى اللهِ أنْ لاَ يَرْتَفِعَ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا إلاَّ وَضَعَهُ) أسلوب قصر يقصر ارتفاع الشيء في الدنيا على وضعه لا يتعداه للبقاء على حال الرفعة، وهو توكيد للمعنى سبقه توكيد بقوله (حق) أي لازم حتم، والجار، والمجرور (على الله) الذي يشير إلى استحالة تخلف هذا الحق لتعلقه بالله ثم الطباق بين الارتفاع، والوضع الذي يؤكد تبدل الأوضاع وتغير الأحول فيعلم كل من على حال من الشر، أو الخير أنها إلى تحول فيستعد لما بعدها، وأن الشيء إذا ما بلغ التمام فقد بدأ النقصان، وقد صاغه الأديب الشهير أبي البقاء صالح بن شريف الرندي في قوله:

لكـــل شيء إذا ما تم نقصان ... فلا يغر بطيب العيش إنسان

هـي الأمور كما شاهدتها دول ... مـــن ســـره زمن ساءته أزمان

وهـــذه الدار لا تبقي على أحد ... ولا يـدوم عـلـى حـال لها شان

فقه الحديث

هذا الحديث يشير إلى الأحكام الفقهية التالية:

١-الحكم التكليفي للمسابقة: أجمع المسلمون على جواز المسابقة في الجملة، لأنها ليست من العبث بل من الرياضة المحمودة الموصلة إلى تحصيل المقاصد في الغزو، والانتفاع بها عند الحاجة.

٢-ما تقع عليه: إن كانت بغير عوض فقد وقع اتفاق الفقهاء على جوازها مطلقًا من غير تقييد بشيء معين.

أما إن كانت بعوض، فقد اختلفوا فيما تجوز المسابقة عليه، فذهب المالكية والحنابلة والشافعية في وجه إلى أنها لا تجوز إلا في النصل والخف والحافر لا غير، وذهب الحنفية والشافعية في الأظهر إلى أنها تجوز في كل شيء، هذه الثلاثة. وعلى الأقدام، والمصارعة، ورفع الأحجار ليعرف الأشد، وغير ذلك أيضًا.

٣-حكم بذل العوض فيها: لا يخلو الحال أن يكون العوض من المتسابقين أو من

غيرهما، فإن كان من غيرهما فقد اختلف الفقهاء في ذلك، فذهب الحنفية والشافعية والحنابلة إلى أنه إذا كان العوض من غير المتسابقين جاز، سواء أكان الباذل له الإمام أم غيره، وذهب المالكية إلى أنه لا يجوز بذل العوض من غير الإمام.

أما إن شرط من المتسابقين فهو قمار حرام بالإجماع، إلا أن يكون بينهما محلل لا يبذل عوضًا، وإنما بفرس كفء لفرسيهما، أو ببعير كفء لبعيريهما، أو كان يكافئ رميه رميهما، فهو جائز في قول الجمهور، وذهب المالكية إلى أنه لا يجوز بذل المال منهما وإن دخل محلل.

فإن كان العوض من أحد المتسابقين فقط دون صاحبه، كأن يقول إن سبقتني فلك مائة درهم، وإن سبقتك فلا شيء عليك، فذهب الجمهور إلى جوازه، وذهب المالكية إلى أنه لا يجوز أيضًا لأنه قمار[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: أهمية ترك المفاخرة والتعصب.

ثالثًا: من واجبات الداعية: بيان الحقائق للمدعوين.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: تواضع النبي ﷺ وحرصه على تطييب نفوس الصحابة رضي الله عنهم.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار:

لقد أخبر الصحابي عن ناقة النبي ﷺ وأن اسمها العضباء ومن صفتها أنها لا تُسْبَق ثم حدث بعد ذلك أن سُبِقَتْ وأن ذلك شق على المسلمين، وظهر منهم ذلك للنبي ﷺ فبين لهم رسول الله ﷺ سنة من سنن الله الكونية في خلقه وهي: عدم

---

(١) الاختيار ٤/٢٦ وما بعدها، والقوانين الفقهية ١٣٧، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٤/٣١١ وما بعدها، المغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٩/٤٦٦ وما بعدها، وكشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٤/٥٦ وما بعدها.

دوام الحال فإذا ارتفع شيء وعلا فإنه معرض حتمًا للنزول والهبوط وعلو غيره عليه.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: أهمية ترك المفاخرة والتعصب:

إن المفاخرة والمباهاة والتعصب من الصفات التي تدل على الإقبال على الدنيا وعدم الانشغال بالآخرة وهذا نقص في التدين والتفقه في الدين، لذا حض النبي ﷺ على ترك المفاخرة وعدم الوقوع في شرك التعصب. وذلك واضح في قول النبي ﷺ "حق على الله أن لا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه".

قال ابن حجر: (فيه إشارة إلى الحث على عدم الترفع والحث على التواضع والإعلام بأن أمور الدنيا ناقصة غير كاملة، قال ابن بطال: فيه هوان الدنيا على الله والتنبيه على ترك المباهاة والمفاخرة، وأن كل شيء هان على الله فهو محل الضعة فحق على كل ذي عقل أن يزهد فيه ويقل منافسته في طلبه. قال الطبري: في التواضع مصلحة الدين والدنيا، فإن الناس لو استعملوه في الدنيا لزالت بينهم الشحناء ولاستراحوا من تعب المباهاة والمفاخرة)[1].

وقال ابن قدامة عن الكبر: (واعلم أن العلماء والعباد في آفة الكبر على ثلاث درجات" ثم ذكر الدرجة الثالثة وهي: "أن يظهر الكبر بلسانه كالدعاوى والمفاخر وتزكية النفس وحكايات الأحوال في معرض المفاخرة لغيره، وكذلك التكبر بالنسب، فالذي له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب وإن كان أرفع منه عملاً. قال ابن عباس رضي الله عنهما: يقول الرجل للرجل: أنا أكرم منك، وليس أحد أكرم من أحد إلا بالتقوى قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[2] وكذلك التكبر بالمال والجمال والقوة وكثرة الأتباع ونحو ذلك)[3].

وقال ابن القيم: (وأما الكبر فأثر من آثار العجب والبغي من قلب قد امتلأ بالجهل

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٤٩/١١.

(٢) سورة الحجرات، آية: ١٤.

(٣) مختصر منهاج القاصدين ٢٤٩/١.

والظلم ترحلت منه العبودية ونزل عليه المقت فنظره إلى الناس شزر[١] ومشيه بينهم تبختر ومعاملته لهم معاملة الاستئثار لا الإيثار ولا الإنصاف ذاهب بنفسه تيهًا لا يبدأ من لقيه بالسلام وإن ردّ عليه رأى أنه قد بالغ في الإنعام عليه، لا ينطلق لهم وجهه ولا يسعهم خلقه ولا يرى لأحد عليه حقًا ويرى حقوقه على الناس ولا يرى فضلهم عليه ويرى فضله عليهم لا يزداد من الله إلا بعدًا ومن الناس إلا صغارًا أو بغضًا)[٢].

وقال ابن الجوزي: (الكبر تعظيم شأن النفس واحتقار الغير وذلك يكون بسبب الترفع على من هو دونه إما في النسب أو المال أو العلم أو العبادة أو غير ذلك. وعلامة الكبر: الأنفة ممن يتكبر عليه والاختيال والفخر ومحبة تعظيم الناس له، وعلاج ذلك نوعان: جملي وتفصيلي: فأما الجملي فنوعان: علمي وعملي: فالعلمي في الأدلة السمعية والعقلية على رذائل الكبر، وأما العملي فصحبة المتواضعين وسماع أخبارهم، وأما التفصيلي فإنه ينظر إلى رذائل النفس وأن يعلم أن ما يتكبر به، إن كان مالاً فهو مأخوذ منه عن قريب. والفضل إنما يكون في الغنى عن الشيء لا به، لأن الغني بالشيء فقير إليه، وإن كان علمًا فقد سبقه خلق كثير أعلم منه ثم علمه ينهاه عن حالته فهو حجة عليه، كذلك إن كان عملاً ثم رؤيته للعمل بعين التمام نقصية)[٣].

ثالثًا- من واجبات الداعية: بيان الحقائق للمدعوين:

إن الداعية بما عنده من علم يبين الحقائق للمدعوين حتى تتضح لديهم، ومِن ثمَّ تأتي أفكارهم وأعمالهم في ضوئها. وقد وضح النبي ﷺ حقيقة أن الله قدر أنه ما من شيء في الدنيا ارتفع إلا قد وضعه الله وأنزل مكانته. وهذه سنة من سنن الله في كونه وخلقه ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلاً﴾[٤].

---

(١) الشزر نظرة الإعراض أو الغضب أو الاستهانة. يقال نظر إليه شزرًا. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ش ز ر).

(٢) الروح، ابن القيم، مكتبة المتنبي، القاهرة، بدون تاريخ ص ٢٣٤.

(٣) الطب الروحاني، ابن الجوزي، تحقيق: محمد السعيد زغلول ص ٣١-٣٢.

(٤) سورة الفتح، آية:٢٣.

قال ابن هبيرة: (فيه دليل على أن كل شيء يرتفع من الدنيا فإن حقًا على الله أن يضعه. يرتفع في كلام العرب يفتعل. ولم يقل في هذا الحديث: ما رفع الله شيئًا إلا وضعه. لأن ما رفعه الله فلا واضع له في الدنيا ولا في الآخرة)(١).

وقد قال النبي ﷺ: ((إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ. وإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ))(٢).

قال ابن حجر: (فيه الاعتبار بأحوال من مضى من الأمم ولا سيما من خالف أمر الشرع)(٣).

ومن أعلى درجات بيان الحقائق بيان السنن الربانية، لما في ذلك من أهمية كبيرة، (لأنه من خلال السنن في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ نفهم التاريخ على حقيقته ونعرف عوامل البناء والأمن والاستقرار والتقدم وعوامل الهدم والخوف والانحطاط والتخلف. على أن هذه السنن مرتبطة بالأمر والنهي، والطاعة والمعصية والإيمان والكفر والتوحيد والشرك، فالإنسان إذا أتى الأمر واجتنب النهي ووقف عند حدود الله، أصاب خير السنة الربانية، وإذا أهمل الأمر وخالفه وارتكب المنهي عنه ووقع في حدود الله أصاب شر السنة الربانية)(٤).

ومن هذا القبيل -قبيل بيان الحقائق للمدعوين- ما رواه المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: ((انكسفتِ الشمسُ يومَ ماتَ إبراهيمُ، فقال الناسُ انكسفَتْ لموتِ إبراهيمَ، فقال رسولُ الله ﷺ: إنَّ الشمسَ والقمرَ آيتانِ من آياتِ الله، لا ينكسِفانِ لموتِ أحدٍ ولا لحياته، فإذا رأيتموهما فادعوا الله وصلوا حتى يَنجليَ))(٥).

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٣٠٩/٥.

(٢) أخرجه البخاري ٦٧٨٨، ومسلم ١٦٨٨.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٩٨/١٢.

(٤) العلم بالسنن الربانية، د. محمد أمحزون، مجلة البيان، العدد ١١٥ ص ٥١.

(٥) أخرجه البخاري ١٠٦٠، ومسلم ٩١٥.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: تواضع النبي ﷺ وحرصه على تطييب نفوس الصحابة رضي الله عنهم:

بعث محمد ﷺ إلى العالم كافة، فبعث إلى الحضري والأعرابي، والغني والفقير والسيد والمسود، والأشراف والأتباع، وكان في تعامله ﷺ معهم، المثل الأعلى للتواضع والحرص على تطييب نفوس أصحابه.

ذلك واضح من أنه لما شق على المسلمين أن يسبق أعرابي ناقة رسول الله ﷺ قال لهم ﷺ "حق على الله ألا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه" والحديث رواه أبو الشيخ بلفظ: ((كانت ناقة رسول الله ﷺ تسمى العَضْباء وكانت لا تسبق، فجاء أعرابي على قعود له فسبق، فشقّ ذلك على المسلمين، فقال: ما لكم؟ فقالوا: سبقت العضباء. فقال: إنه حق على الله عز وجل ألا يرتفع شيء في الدنيا إلا وضعه))(١). قال ابن حجر: (وفيه الحث على التواضع، وفيه حسن خلق النبي ﷺ وتواضعه وعظمته في صدور أصحابه)(٢).

وقال كذلك: (وفيه أيضًا حسن خلق النبي ﷺ وتواضعه، لكونه رضي أن أعرابيًا يسابقه)(٣).

ومن هذا القبيل ما رواه أبو مسعود رضي الله عنه قال: ((أَتَى النَّبِيَّ رَجُلٌ. فَكَلَّمَهُ. فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ(٤). فَقَالَ لَهُ: هَوِّنْ عَلَيْكَ. فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ. إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ))(٥).

---

(١) أخرجه أبو الشيخ في أخلاق النبي ﷺ وآدابه ٤٦٤ ومن طريقه البغوي في شرح السنة ٢٦٥٢/١٠. وقال محققا شرح السنة: إسناده صحيح.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٨٧/٦.

(٣) المرجع السابق ٣٤٩/١١.

(٤) الفرائص: المفرد: الفريصة: لحمة بين الكتف والصدر ترتعد عند الفزع وهما فريصتان. الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ف ر ص).

(٥) أخرجه ابن ماجه ٣٣١٢، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٢٦٧٧).

(والقديد: اللحم المملوح المجفف في الشمس، فعيل بمعنى مفعول)[١].

وعن الصعب بن جثامة رضي الله عنه ((أنهُ أهدَى لرسولِ اللهِ ﷺ حِمارًا وَحشيًا وهوَ بالأبْواءِ - أو بوَدّانَ - فردَّهُ عليهِ، فلما رأى ما في وَجهه قال: إنا لَمْ نَرُدَّهُ عليكَ إلا أنّا حرُم))[٢].

قال ابن حجر: (في حديث الصعب الاعتذار عن رد الهدية تطييبًا لقلب المهدي)[٣].

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ق د د).

(٢) أخرجه البخاري ١٨٢٥، ومسلم ١١٩٣.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٩/٤.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

حفلت أحاديث الباب بعدد من المضامين التربوية ومن أبرزها ما يلي:

أولاً- غرس خلق التواضع:

إن من أهم أهداف التربية الإسلامية تأصيل التربية الخلقية في نفوس المتربين، ومن موضوعات التربية الخلقية خلق التواضع، وأحاديث الباب تؤكد هذا المعنى، وتدعو إلى غرس خلق التواضع، ومن شواهد ذلك قوله ﷺ: "إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا..."، وقوله ﷺ: "... وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله".

"إن التواضع دليل على كِبَر النفس وعلو الهمة، وهو -في الوقت نفسه- سبيل لاكتساب المعالي، والترقي في الكمالات، فهو خلق يرفع من قدر صاحبه، ويكسبه رضا أهل الفضل ومودتهم، ويبعثه على الاستفادة من كل أحد، وينأى به عن الكِبْر، والاستنكاف عن قبول الحق والأخذ به، ومن هنا يكمل السُّؤْدد، ويعلو القدر، ويتناهى الفضل. والمتواضع يرفع من أقدار الناس، وينزلهم منازلهم، ويشعر النوابغ بقيمتهم واستعدادهم كي يكونوا من ذوي الشرف والمروءات:

وأحسن أخلاق الفتى وأتمُّها ... تواضعه للناس وهو رفيع"[1]

"إن المعلم القدير هو الذي يتواضع للطلبة ولا يتعالى أو يتكبر عليهم، ويعاملهم بالرفق والملاطفة ولين الجانب ويسعى للتقرب إليهم ومحادثتهم خارج الصف، وهذا ما يجعلهم يثقون به ويتقبلون منه النصح والإرشاد، ويبادلونه الوُدَّ والاحترام ويقبلون على الدرس برغبة ورضا وسعادة، أما المعلم المتعالي المتكبر فإنه لا يحظى باحترام طلبته ولا بثقتهم فيه"[2].

ثانيًا- التربية بالترغيب:

إن من أساليب التربية النافعة التربية بالترغيب، ومن أحاديث الباب التي ترغب في

---

(١) الهمة العالية، محمد بن إبراهيم الحمد، ص١٨٦، ١٨٧.

(٢) المرشد النفيس إلى أسلمة التربية وطرق التدريس للآباء والدعاة والمعلمين ومن يهمه تربية أبناء المسلمين، د. محمد بن صالح بن علي جان، ص١١٧، ١١٨.

التواضع قوله ﷺ: "... وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله"، والتربية بالترغيب تحفظ المتربي إلى الإقدام على فعل الصالحات، وترك المنهيات.

"إن لاستخدام أسلوب الثواب في التربية الإسلامية مسوغات تجعل من الضروري المصير إليه في العملية التربوية المستمرة، لما له من الآثار الإيجابية الفاعلة في تحقيق تربية إسلامية مستدامة لدى الفرد المسلم لاسيما وأن مفردات الثواب في التربية الإسلامية مستمدة من النصوص الشرعية والهدي النبوي الشريف، ومنهج السلف الصالح، ترتبط لدى المربي برضا الله عز وجل، وترتبط لدى الناشئ بحصول الأجر ثم المصلحة"(١).

ثالثًا- التربية بالممارسة العملية:

إن من أساليب التربية الناجحة التربية بالممارسة العملية، وذلك لأن المربي يطبق عمليًا ما يدعو المتربي إليه، وفي أحاديث الباب جاء ما يثبت الممارسة العملية لخُلُق التواضع، ومن ذلك ما جاء عن أنس رضي الله عنه قال: إن كانت الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد النبي ﷺ فتنطلق به حيث شاءت، وقول عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها لما سئلت ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: كان يكون في مهنة أهله..."، وقول أبي رفاعة رضي الله عنه "... فأقبل عليّ رسول الله ﷺ وترك خطبته حتى انتهى إليّ فأتى بكرسي فقعد عليه وجعل يعلمني مما علمه الله ..."، وقول أنس رضي الله عنه إن رسول الله ﷺ كان إذا أكل طعامًا لعق أصابعه الثلاثة ...".

"إن الإسلام يرى أن القدوة هي أعظم طرق التربية، ويقيم منهجه التربوي على هذا الأساس، فلابد للطفل من قدوة في والديه ومدرسته كي يتشرب المبادئ الإسلامية ويسير على نهجها، ولابد للناس من قدوة في مجتمعهم تطبعهم بطابع الإسلام وتقاليده النظيفة، ولابد للمجتمع من قدوة في قيادته بحيث يتطلع إليها ويسير على منوالها، ولابد أن تكون قدوة الجميع هي شخصية الرسول ﷺ التي تتمثل فيها كل مبادئ الإسلام وقيمه وتعاليمه"(٢).

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. أمين أبو لاوي، ص١٩٥.

(٢) منهج التربية في التصور الإسلامي، د. علي أحمد مدكور، ص٤٣٠.

إن التواضع في الإسلام قلبي وليس شكليًا، والأحاديث قد دعت المسلمين إلى التواضع ورسمت بعض السبل التي تحققه وبينت الآثار المترتبة عليه، وضرب الرسول ﷺ المثل بنفسه في تحقيق هذا الخلق.

١) التصريح بوحدة المنشأ والأصل الإنساني، والنص على ذلك في كثير من آي القرآن وأحاديث النبي ﷺ.

٢) النص على أن المصدر الأول والثاني، مما يزدري أو يحتقر، ولم يعرف البشر لهما ثقل في المعيار أو الثمن، فالمصدر الأول "تراب" والثاني "ماء مهين".

٣) بيان معيار الفضل ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[(١)].

٤) التصريح بالأخوة الإنسانية بالنسبة للبشرية جمعاء أو الأخوة في الدين بالنسبة للعلاقة بين المسلمين، وكلاهما لا يأذن بالتعالي أو التكبر.

٥) النص على الأوامر الإلهية الصادرة بحق المسلمين من قِبَل الحق "أن تواضعوا" وأن لا يكتفى بالقول بل بتحريم الاعتداء والتفاخر بالأموال.

٦) تصحيح مفهوم التواضع، والدعوة إلى نتائجه "وما تواضع أحد إلا رفعه الله".

٧) الحرص على الاقتداء بالرسول ﷺ فمع سمو مكانته وعلو منزلته كان مضرب المثل في التواضع ومن مظاهر ذلك:

أ. تسليمه على صغار السن، وهو أمر يأنفه العرب ويأنفه كثيرون الآن لأنه من وجهة نظرهم يشكل ضياع هيبة الرجال، ويدعو إلى إسقاط الرهبة فكان فعله ﷺ دليلاً عمليًا على استحباب ذلك.

ب. سَيْره مع مَنْ تسأله وإتباعه إما حلاً لمشكلة أو إجابة على سؤال أو رعاية لمصلحة، والتعبير بأمَةٍ فيه دلالة على وضعها الاجتماعي والذي لم يأخذ به الرسول ﷺ من أجل إحياء روح التواضع.

جـ. قيامه ببعض الأعمال المنزلية، لمساعدة أهل بيته، وهو أمر لو قام به

---

(١) سورة الحجرات، آية: ١٣.

أحد في هذا الزمان لأنكره الناس عليه، لأن هذا خارج عن سمة الرجولة بمفاهيم الجاهلية، وهو لون من ألوان ائتلاف القلب وتقوية المودة والمحبة.

د. إخباره ﷺ عن نفسه أنه كان يرعى الغنم، ومثل هذا الإخبار يدل على الثقة في الله تعالى والثقة في النفس، لأن كثيرين إذا أعطاهم الله تعالى تنكروا لتاريخهم وتناسوا ماضيهم ونظروا إلى زمن الفقر ومرحلة العوز على أنها عار ينبغي ستره، وأما الواثق في ربه الواثق في نفسه فإنه لا يخجل إلا مما خالف الشرع فإن لم تكن مخالفة فلا حرج، بل هو تحدث بنعمة الله تعالى. وبخاصة أن مهنة الرعي مما يقوم بها الأُجراء، وقد نص ﷺ على قلة الأجر الذي كان يتقاضاه "قراريط" أو المسافة التي يرعى الغنم فيها، فالكل محتمل.

هـ. ومن باب التبسط في العيش، وعدم إجهاد المُكرِمِ لغيره، أعلن ﷺ أنه لا يفاضل في الأطعمة ولا يفاوت في المقدم إليه، بل إنه ليقبل الهدية من الذراع أو الكراع، وإن دعي إلى تناول طعام أعد منهما ما تردد عن قبول الدعوة، ومثل هذا النوع من الأطعمة كان العرب يأنفون تناوله "الكراع" وإنما يأكلون من صفوة الطعام.

و. ومن هديه ﷺ دخوله السَّبق بنفسه أو بدابته، فقد سابق عائشة رضي الله عنها فسبقته وسابقها ثانية فسبقها، وكانت ناقته العضباء لا تُسبق، حتى جاء أعرابي بقعود -فتى الإبل- فسابقها فسبقها، وعز ذلك على المسلمين، فقال ﷺ: (حق على الله أن لا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه)، والنص عام فكأن كل من رأى في نفسه ما لم ير في غيره، حق على الله تعالى أن يذهب ما به في يوم ما.

ز. ومن تواضعه ﷺ أنه كان يلقي درسًا، فجاء أعرابي فقطع عليه درسه وأعلن عن رغبته في تعلم الدين، فتوجه الرسول ﷺ إليه، وأُتِيَ له بكرسي ليجلس عليه وبدأ يعلم الأعرابي.

رابعًا- تدريب الصبيان على آداب الشريعة:

من أبرز الأهداف التربوية تدريب الصبيان على آداب الشريعة وغرس قيم الإسلام في نفوسهم وتنشئتهم عليها، ومن أحاديث الباب التي تؤكد هذا المعنى "ما جاء عن أنس ﷺ أنه مر على صبيان فسلّم عليهم، وقال: كان النبي ﷺ يفعله".

ومن الأمور التي درّب رسول الله ﷺ الأطفال عليها سنة إلقاء السلام وإفشائه.

"إن السلام هو التحية الإسلامية بين المسلمين، والطفل يتعرض للقاء الناس على اختلاف مستوياتهم فهو يحتاج لمعرفة مفتاح الكلام معهم، لذلك فإن النبي ﷺ كان يعلم الصبيان السلام بطريق غير مباشر، وذلك أن يبادئهم بالسلام حتى يتعودوه، واقتدى الصحابة رضي الله عنهم بذلك، وكذلك وجّه رسول الله ﷺ الأطفال إذا دخلوا بيوتهم أن يُسلّموا على أهليهم، وذلك زيادة في حصول البركة، وبالجملة فالتوجيه الخاص للطفل أن يُعلّم السلام، وأن يبدأ من هو أكبر منه تمثلاً لأمر رسول الله ﷺ"[(١)].

إن مرحلة الطفولة هي المرحلة الملائمة لغرس الكثير من آداب الشريعة في نفوس الناشئة لتكوين شخصية مسلمة بناءة نافعة.

"إنه لا تغيير للواقع الفاسد المنحرف عن منهج الله تعالى من غير قوة، ولا قوة من غير بناء، ولا بناء من غير إعداد وتكوين وتربية، وإن أخصب مجال للبناء التربوي مرحلة الطفولة، وتتميز الطفولة البشرية بالمرونة والصفاء والفطرية، وهي تمتد زمنًا طويلاً يستطيع المربي خلال هذه الفترة الطويلة أن يغرس في نفس الطفل ما يريد، وأن يوجهه حسبما يرسم له من خطة، ويتعرف إلى إمكاناته، ويتنبأ بمستقبله قدر المستطاع، وكلما تدعم بناء الطفولة بالرعاية والإشراف والتوجيه كانت أثبت وأرسخ أمام الهزات المستقبلية التي ستعترض الطفل في مستقبل شبابه، ومن ثَمَّ فإن فكرة استصغار الطفل وإهمال توجيهه تعتبر باطلة، وإنما من بداية الفطام يبدأ التوجيه والإرشاد والأمر والنهي والترغيب والترهيب والتحبيب والتقبيح وهكذا"[(٢)].

---

(١) انظر: بناء شخصية الطفل المسلم، محمد عثمان جمال، ص٦٩، ٧٠.

(٢) المنهج النبوي في تربية الطفل، د. عبدالباسط محمد السيد، ص١٧٩، ١٨٠.

خامسًا- من الأساليب التربوية: الإلقاء والأسئلة والمناقشة والحوار:

وردت في أحاديث الباب عدة أساليب تربوية، يمكن أن يستفاد منها في التعليم والتربية، منها:

أ-الإلقاء: كحديث: ((إنَّ اللّهَ أَوحى إليَّ أَنْ تواضَعُوا حتى لا يَفْخر أَحدٌ على أحدٍ ولا يَبْغي أَحدٌ على أَحدٍ)) والإلقاء أسلوب تعليمي يستخدم مع المتعلمين الكبار السن، والمتعلمين في المراحل السنية المتقدمة، كالتعليم الثانوي والجامعي، وهو يناسب الموضوعات التي تتناول القيم والعلوم الإنسانية، ولا يحول صغر السن دون ذلك.

ب-استخدام الأسئلة: كما في حديث أبي رفاعة تميم بن أُسيد رضي الله عنه وفيه: ((يَا رَسُولَ اللّهِ رَجُلٌ غَرِيبٌ. جَاءَ يَسْأَلُ عَنْ دِينِهِ. لاَ يَدْرِي مَا دِينُهُ)) والأسئلة تستخدم في طلب تعلم المعارف المختلفة التي تخص المسلم في دينه ودنياه، وفي التقويم وفي معالجة بعض السلوكيات غير السليمة التي تصدر من المتعلمين.

ج-المناقشة والحوار كما في حديث أبي رفاعة تميم بن أُسيد رضي الله عنه: ((فقد سأل النبي صلى الله عليه وسلم وأجابه صلى الله عليه وسلم)).

د-التلقين: وهو موجود أيضًا في حديث أبي رفاعة تميم بن أُسيد رضي الله عنه: ((فَأُتِيَ صلى الله عليه وسلم بِكُرْسِيَ، فَقَعَدَ عَلَيْهِ. وَجَعَلَ يُعَلِّمُنِي مِمَّا عَلَّمَهُ اللّه)) والتلقين من الأساليب التي تناسب المتعلمين عند دراستهم للجديد من المعارف والعلوم، كما أنها تكون مناسبة في تعليم العلوم التي تحتاج إلى التلقين، مثل قراءة القرآن الكريم.

سادسًا- التربية الصحية:

كما في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: ((أَنَّ رَسُولَ اللّهِ صلى الله عليه وسلم كَانَ إِذَا أَكَلَ طَعَامًا لَعِقَ أَصَابِعَهُ الثَّلاَثَة ...)) الحديث، وهذا يدخل في نطاق التربية الصحية للمسلم، فلقد أثبتت بعض الدراسات الحديثة في مجال الصحة أن لِلَعق الأصابع كثيرًا من الفوائد الصحية، ولكن لابد من المحافظة على السلوكيات الإسلامية في النظافة من حيث غسل اليدين قبل تناول الطعام وبعده، وكذلك الحرص على سنن الفطرة والتي من جملتها تقليم الأظافر، وهذا هدي نبوي رائع في مجال التربية الوقائية، لأن إطالة

الأظافر وعدم تقليمها يساعد على تكوّن الجراثيم والميكروبات، ويضر بالإنسان ضررًا بالغًا فلا يُمْكن لإنسان بهذا الشكل المزري من عدم النظافة أن يلعق أصابعه.

وهذا من المباح الذي لا يجب فعله ولا يحرم تركه، وقد استخدم الرسول ﷺ السكين في قطع اللحم، واستعان ببعض الوسائل التي تستخدم في الموائد الآن.

٧٢- باب تحريم الكبر والإعجاب

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[القصص: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ﴾[الإسراء: ٣٧]، وقال تَعَالَى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[لقمان: ١٨].

ومعنى (تُصَعِّر خَدَّكَ لِلنَّاسِ): أيْ تُميلُهُ وتُعرِضُ بهِ عَنِ النَّاسِ تَكَبُّرًا عَلَيْهِمْ. وَ(المَرَحُ): التَّبَخْتُرُ. وقال تَعَالَى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾[القصص: ٧٦]، إلَى قَوْله تَعَالَى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ الآيات.

الحديث رقم (٦١٢)

٦١٢- وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قَالَ: ((**لاَ يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّة مِنْ كِبْرٍ!**)) فَقَالَ رَجُلٌ: إنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا، ونَعْلُهُ حَسَنَةً؟ قَالَ: ((**إنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ، الكِبْرُ: بَطَرُ الحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ**)) رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

غريب الألفاظ:

مثقال ذرة: مقدار ذرة، والذرة: ما يُرى في شعاع الشمس الداخل في النافذة[2]، والمراد: أقلّ الكبر. ويضرب بها المثل في أصغر الأوزان.

---

(١) برقم ٩١/١٤٧. أورده المنذري في ترغيبه ٤٢٩٥.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ذ ر ر).

بَطَرُ الحق: دفعُهُ وردُّهُ على قائِلِهِ[١].

غمط الناس: احتقارهم[٢].

الشرح الأدبي

وقد استخدم الرسول ﷺ عدة أساليب بلاغية منها: بداية الحديث بأسلوب النفي في قوله ﷺ: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر) حيث قدم المسند المنفي الذي يشكل الحكم على المسند إليه هنا، وكون هذا المسند فعلاً مضارعاً له أثره في تمكين الحكم، والتأثير به تأثيراً قوياً يلفت الذهن إلى خطورته، ولعل ذلك ما دعا إلى الاستفسار عنه، ثم دفع إيهام ما قد يتصور من وجوه غير داخلة في معناه، ثم البلوغ في نهاية الأمر إلى وضع دلالة لغوية موضحة لدقائق هذا المعنى في أسلوب محدد، ثم جاءت أساليب التوكيد لتمهد النفس وتلفت الانتباه وتثير الاهتمام لتصحيح خطأ التصور وتحديد المفاهيم، وتعريفها كما جاء في الرد على السائل بقول الرسول ﷺ (إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق، وغمط الناس)، فقد أكدَّ الجملة بـ (إن) مع اسمية الجملة لدفع شك السامع، وتردده في فهم المعنى، وإجابته بأسلوب يتساوق مع أسلوبه حيث قال: (إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً) فرد عليه ﷺ بنفس درجة التأكيد (إن الله جميل) تصحيحاً لتصوره الخاطئ بأن محبة الثوب الحسن والنعل الحسن من الكبر وبيَّن له أن الكبر ليس بالتجمل واتخاذ الزينة من الثياب، بل هو أمر نفسي يرجع إلى أحوال النفوس وصفات القلوب، فهو التكبر على الحق، فيزهو بأصله، أو بجنسه، أو يتيه بمنصبه، وجاهه، أو يصعِّر خده للناس بقوته وماله، أو يحتقر من سواه من خلق الله ممن لا يساوونه، أو غير ذلك من مظاهر الكبر[٣]، وهذا ما بيَّنه بقوله: (الكبر بطر الحق، وغمط الناس) موضحاً ومحدداً لمفهوم الكبر، وقد فصَّل هذه الجملة عن سابقتها وهي جملة: (إن الله جميل يحب

---

(١) رياض الصالحين ٢٧٥.

(٢) المرجع السابق ٢٧٥.

(٣) أحاديث نبوية شريفة، د. محمود فرج العقدة صـ٨٥.

الجمال)، لأن الثانية وقعت إجابة لسؤال مقدر نتج عن الأولى، فكأنه لما سمع قول الرسول ﷺ: (إن الله جميل يحب الجمال) سأل: فما الكبر إذن؟ فجاء قوله ﷺ (الكبر بطر الحق وغمط الناس)، وهو ما يسمى بشبه كمال الاتصال، وهذا النوع من الفصل يعطي النص حيوية، ويوثق الصلة بين المتكلم والمخاطب، ويشعر بالتواصل بينهما، والحديث في مجمله تحديد بليغ ودقيق لمفهوم الكبر، وبيان لشدة عقابه، وأنه يحرم صاحبه من كل خير بحرمانه من الجنة، وفيه عقاب لما يؤدي إليه الكبر من بطر الحق وغمط الناس مما يستجلب كراهية الناس لهذا المتكبر، الأمر الذي يحدث التصدع في وحدة المجتمع المسلم[(١)].

فقه الحديث

تحريم الكبر:

اتفق العلماء على أن الكبر من الكبائر، ذكر ذلك الذهبي[(٢)] وقال ابن العربي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾[(٣)] قال: (من ضرب بنعله إن فعل ذلك عجبًا[(٤)] حرم، فإن العجب كبيرة)[(٥)] وذلك لقوله ﷺ: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر) وقوله ﷺ: "مثقال ذرة" يشمل القليل والكثير منه، فلا يرخص بالكبر مهما كان قليلاً. قال الشوكاني: (والحديث يدل على أن الكبر مانع من دخول الجنة وإن بلغ في القلة إلى الغاية، ولهذا ورد التحديد بمثقال ذرة)[(٦)].

---

(١) ينظر بلاغة الرسول ﷺ في تقويم الأخطاء د. ناصر راضي الزهري، ١٥٧.

(٢) الكبائر، الذهبي ٧٦.

(٣) سورة النور، آية: ٣١.

(٤) وفي تفسير القرطبي: تعجبًا. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٥/٢٢٧.

(٥) أحكام القرآن، ابن العربي ٣/١٣٧٦.

(٦) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ٣٠٢.

وإذا كان الكبر هو الصفة النفسية، وهي قصد الاستعلاء على الغير في مكرمة من المكارم، فإن هذا الكبر - أي التكبر- إما أن يحتاج إليه أو لا يحتاج إليه.

فإن احتيج إليه كان محمودًا كالتكبر على الظَّلَمة وعلى أعداء الله من الكفار المحاربين ونحوهم، ولذلك جاز الاختيال في الحرب إرهابًا للعدو[١].

وإن لم يكن من شعار المتكبرين كالأكل متكئًا وتشمير الأكمام، ونحو ذلك لم يكن به بأس، قال في الفتاوى الهندية: (والحاصل أن كل ما كان على وجه التكبر يكره، وإن فعل لحاجة أو ضرورة لا -أي لا يكره-)[٢]. وعلى هذا فإن من لبس الثياب الجميلة الرفيعة من غير نية التكبر فلا إثم عليه، قال الشوكاني: (وهذا مما لا خلاف فيه فيما أعلم)[٣] بل إن لبس رفيع الثياب من غير نية التكبر، بل بنية أن يكون له وقع في قلوب سامعيه وهو يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر كان مثابًا، قال الشوكاني: (إن الأعمال بالنيات، فلبس المنخفض من الثياب تواضعًا وكسرًا لسورة النفس التي لا يؤمن عليها من التكبر إن لبست غالي الثياب، من المقاصد الصالحة الموجبة للمثوبة من الله ولبس الغالي من الثياب عند الأمن على النفس من التسامي المشوب بنوعٍ من التكبر، لقصد التوصل بذلك إلى تمام المطالب الدينية من أمرٍ بمعروف أو نهي عن منكر عند من لا يلتفت إلا إلى ذوي الهيئات، ومن الجدير بالذكر أن النووي بوَّب على هذا الحديث وغيره في الأذكار باب تحريم احتقار المسلمين والسخرية منهم. وقال: وإجماع الأمة منعقد على تحريم ذلك)[٤]. لا شك أنه من الموجبات للأجر، لكنه لا بدّ من تقييد ذلك بما يحل لبسه شرعًا)[٥].

---

(١) الروض المربع بحاشية ابن قاسم العاصمي النجدي ٥١٥/١

(٢) الفتاوى الهندية، الشيخ نظام وجماعة من علماء الهند ٣٥٩/٥.

(٣) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ٣٠٢ ط/ بيت الأفكار.

(٤) الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار، الإمام النووي، تحقيق: محيي الدين مستو ٣٩٠.

(٥) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ٣٠٣ ط/ بيت الأفكار، وانظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٦٦/٣٤-١٦٨.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: شناعة الكبر وخطره.

ثالثًا: من آداب المدعو: الاستفسار عما يجهله.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل النظافة والتجمل.

خامسًا: من أساليب الدعوة: الترغيب.

اولاً- من اساليب الدعوة: الإخبار:

حيث جاء في الحديث: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر)، ولا شك أن أسلوب الإخبار من أساليب الدعوة الذي يعرف المدعوون من خلاله مآل حال المؤمنين ومآل العاصين والمتكبرين، وتتميز أخبار الدعوة الإسلامية بالصدق، ذلك لأنها مستقاة من معين القرآن الكريم والسنة النبوية، وبالإخبار تقوم الحجة على الناس في البلاغ، قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[1].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: شناعة الكبر وخطره:

إن الإسلام يحث أتباعه على التواضع وخفض الجناح، ولذا شدد النكير على المتكبرين، وبين شناعة ما هم عليه ويتضح هذا مما جاء في الحديث في قوله ﷺ: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر".

قال النووي: (والمراد بالكبر غمط الناس، أي: احتقارهم، وبطر الحق دفعه وإنكاره ترفعًا وتجبرًا، قال القاضي عياض وغيره من المحققين: "إنه لا يدخل الجنة دون مجازاة إن جازاه وهذا جزاؤه أنه لا يدخل الجنة دون مجازاة إن جازاه الله تعالى بكبره، وقيل: هذا جزاؤه لو جازاه، وقد يتكرم بأنه لا يجازيه، بل لا بد أن يدخل كل الموحدين الجنة إما أولاً وإما ثانيًا بعد تعذيب أصحاب الكبائر الذين ماتوا مصرين عليها، وقيل: لا يدخلها مع المتقين أول وهلة)[2].

(١) سورة النور، آية: ٥٤.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥١ - ١٥٢، وانظر: إكمال المعلم، للقاضي عياض ١/٣٥٩ - ٣٦٠.

قال القرطبي: (الكبر والكبرياء في اللغة: هو العظمة. يقال فيه: كبر الشيء، بضم الباء، أي: عظم، فهو كبير وكبار، فإذا أفرط قيل: كبّار بالتشديد، وعلى هذا فيكون الكبر والعظمة اسمين لمسمى واحد، وقد جاء في الحديث ما يُشعر بالفرق بينهما، وذلك أن الله تعالى قال: "الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدًا منهما قصمته"[1]، فقد فرق بينهما بأن عبر عن أحدهما بالإزار وعن الآخر بالرداء وهما مختلفان، ويدل أيضًا على ذلك قوله: "فمن نازعني واحدًا منهما" إذ لو كانا واحدًا لقال: فمن نازعنيه فالصحيح إذن الفرق، ووجهه: أن جهة الكبرياء يستدعي مُتكبرًا عليه؛ ولذلك لما فسر الكبر قال: "الكبر: بطر الحق وغمط الناس" وهو احتقارهم، فذكر المتكبر عليه وهو الحق أو الخلق، والعظمة لا تقتضي ذلك، فالمتكبر يلاحظ ترفع نفسه على غيره بسبب مزية كمالها، فيما يراه، والمعظم يلاحظ كمال نفسه من غير ترفع لها على غيره، وهذا التعظيم هو المعبر عنه بالعجب في حقنا إذا انضاف إليه نسيان منة الله تعالى علينا فيما خصنا به من ذلك الكمال، وإذا تقرر هذا فالكبرياء والعظمة من أوصاف كمال الله تعالى، واجبان له، إذ ليست أوصاف كمال الله وجلاله مستفادة من غيره، بل هي واجبة الوجود لذواتها، بحيث لا يجوز عليه العدم ولا النقص، ولا يجوز عليه تعالى نقيض شيء من ذلك فكماله وجلاله حقيقة له، بخلاف كمالنا، فإنه مستفاد من الله تعالى ويجوز عليه العدم وطروء النقيض والنقص، وإذا كان هذا فالتكبر والتعاظم خرق منا ومستحيل في حقنا، ولذلك حرمهما الشرع، وجعلهما من الكبائر؛ لأن من لاحظ كمال نفسه ناسيًا منة الله تعالى فيما خصّه به، كان جاهلاً بنفسه وبربه، مغترًا بما لا أصل له، وهي صفة إبليس الحاملة له على قوله: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾[2]، وصفة فرعون الحاملة له على قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾[3]، ولا أقبح مما صارا إليه، فلا جرم كان فرعون وإبليس أشد أهل النار عذابًا، نعوذ بالله من الكبر والكفر.

---

(١) أخرجه مسلم ٢٦٢٠، وأبو داود ٤٠٩٠.

(٢) سورة الأعراف، آية: ١٢.

(٣) سورة النازعات، آية: ٢٤.

وأما من لاحظ من نفسه كمالاً، وكان ذاكرًا فيه منة الله تعالى عليه به؛ وأن ذلك من تفضله تعالى ولطفه، فليس من الكبر المذموم في شيء، ولا من التعاظم المذموم، بل هو اعتراف بالنعمة وشكر على المنة، والتحقيق في هذا: أن الخلق كلهم قوالب وأشباح تجري عليهم أحكام القدرة، فمن خصه الله تعالى بكمال، فذلك الكمال يرجع للمكمل الجاعل لا القالب القابل، مع ذلك فقد كمل الله الكمال بالجزاء والثناء عليه، كما قد نقص النقص بالذم والعقوبة عليه، فهو المعطي، والمثني والمبلي، والمعافي.

ولما تقرر أن الكبر يستدعي متكبرًا عليه، فالمتكبر عليه إن كان هو الله تعالى، أو رسوله، أو الحق الذي جاءت به رسله، فذلك الكبر كفر، وإن كان غير ذلك فذلك الكبر معصية وكبيرة، يخاف على المتلبس بها، المصر عليها أن تفضي به إلى الكفر، فلا يدخل الجنة أبدًا، فإن سلم من ذلك، نفذ عليه الوعيد، وعوقب بالإذلال والصغار، أو بما شاء الله من عذاب النار، حتى لا يبقى في قلبه من ذلك الكبر مثقال ذرة، وخلص من خُبث كبره حتى يصير كالذرة، فحينئذ يتداركه الله برحمته، ويخلصه بإيمانه وبركته، وقد نص على هذا المعنى النبي ﷺ في المحبوسين على الصراط لما قال: "حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة"(١)، والله تعالى أعلم)(٢).

وقال الطيبي: (وقوله: "مثقال" مأخوذ من الثقل والمراد وزن حبة وهذا تمثيل للقلة والكبر من صفات الكافرين المتمردين فيجب أن يجتنب عنه، وبالكبر لمح إلى أن التواضع من سمات المؤمنين المحسنين فينبغي أن يرغب فيه"(٣)، وقال الكفوي: "التكبر هو أن يرى المرء نفسه أكبر من غيره والاستكبار طلب ذلك التشبع وهو التزين بأكثر مما عنده)(٤).

---

(١) أخرجه البخاري ٦٥٣٥.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ١/٢٨٦ - ٢٨٨.

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٩/٢٥٠.

(٤) الكليات، معجم المصطلحات والفروق الفردية، أبو البقاء الكفوي، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري ٢٨.

وقال الغزالي: (مفتاح السعادة التيقظ والفطنة، ومنبع الشقاوة الكبر والغفلة فالكبر آفة عظيمة هائلة، وفيه يهلك الخواص من الخلق، وقلما ينفك عنه العباد والزهاد والعلماء فضلاً عن عوام الخلق، ومن عظم آفته أنه صار حجابًا دون الجنة لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها، وتلك الأخلاق هي أبواب الجنة، والكبر يغلق تلك الأبواب كلها، لأنه لا يقدر على أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه، وفيه شيء من الكبر فما من خلق ذميم إلا وصاحب الكبر مضطر إليه ليحفظ كبره، وما من خلق محمود إلا وهو عاجز عنه خوفًا من أن يفوته عزه فمن هذا لم يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة منه، والأخلاق الذميمة متلازمة، والبعض منها داع إلى البعض لا محالة، وشر أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم وقبول الحق والانقياد له)[١].

وقد دلت النصوص الشرعية على شناعة الكبر وخطره فالكبر من صفات الكافرين، قال تعالى عن فرعون وجنوده: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾[٢]، والمتكبرون مأواهم النار، قال تعالى: ﴿فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾[٣].

وبشر رسول الله ﷺ من يتبرأ من الكبر بدخول الجنة فعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((مَنْ فَارَقَ الرُّوحُ الْجَسَدَ وَهُوَ بَرِيءٌ مِنْ ثَلاَثٍ: الكبر وَالغُلُولِ والدَّيْنِ دَخَلَ الجَنَّةَ))[٤]، والمتكبر لا ينال رضا الله ولا يكلمه الله يوم القيامة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِمُهُمُ اللّهُ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: شَيْخٌ زَانٍ وَمَلِكٌ كَذَّابٌ. وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ))[٥].

---

(١) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي ٣٤٥/٣.

(٢) سورة القصص، آية: ٣٥.

(٣) سورة النحل، آية: ٢٩.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده ٢٧٦/٥، رقم ٢٢٣٦٩، وقال محققو المسند: إسناده صحيح على شرط مسلم ٥٣/٣٧.

(٥) أخرجه مسلم ١٠٧.

ثالثًا- من آداب المدعو: الاستفسار عما يجهله:

إن الإسلام يحث المسلم على السؤال والتطلع للمعرفة حتى يعبد الله عن علم، لا عن جهل ولذا كان من أهم آداب المدعو: أن يستفسر عما يجهل ويسأل عما لا يعلم ويتضح هذا من الحديث: "فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة"، وقد أمر الله الجماعة المؤمنة بالسؤال عند عدم العلم، قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(١)، وأنكر الرسول ﷺ على من لم يسأل عند جهله وعدم علمه فقال: ((قَتَلُوهُ قَتَلَهُمُ الله ألاَ سَأَلُوا إذْ لَمْ يَعْلَمُوا فإنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ))(٢).

ومن هذا يظهر حاجة المدعو إلى العلم والاستفسار دائمًا، قال ابن القيم: (إن حاجة العباد إلى العلم ضرورية فوق حاجة الجسم إلى الغذاء، لأن الجسم يحتاج إلى الغذاء في اليوم مرة أو مرتين، وحاجة الإنسان إلى العلم بعدد الأنفاس لأن كل نفس من أنفاسه فهو محتاج فيه إلى أن يكون مصاحبًا لإيمان أو حكمة، فإن فارقه الإيمان أو الحكمة في نفس من أنفاسه فقد عطب، وقرب هلاكه، وليس إلى حصول ذلك سبيل إلا بالعلم فالحاجة إليه فوق الحاجة إلى الطعام والشراب. وفضيلة الشيء وشرفه يظهر من عموم منفعته، وشدة الحاجة إليه وعدم الاستغناء عنه، وظهور النقص والشر بفقده، وحصول اللذة والسرور والبهجة بوجوده وهذه الوجوه بأسرها حاصلة للعلم)(٣).

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل النظافة والتجمل:

إن من المعاني السامية، والآداب العالية التي يغرسها الإسلام في نفس المسلم الحرص على الطهارة والنظافة والتجمل، ذلك لأن المسلم ينبغي أن يكون شامة في الناس، وقد جاء في الحديث ما يشير إلى حب الإسلام للنظافة والتجمل حيث قال رجل لرسول الله ﷺ: "إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة، قال: إن الله

---

(١) سورة النحل، آية: ٤٣.

(٢) أخرجه أبو داود ٣٣٦، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٢٥).

(٣) فضل العلم والعلماء ٣٦ - ٣٧.

جميل يحب الجمال"، ومما هو معلوم أن النظافة من الإيمان.

قال المباركفوري: (أي: إن الله حسن الأفعال كامل الأوصاف، وقيل: مالك النور والبهجة، وقال المناوي: أي: إن الله له الجمال المطلق، جمال الذات وجمال الصفات وجمال الأفعال يحب الجمال أي التجمل منكم في الهيئة أو في قلة إظهار الحاجة لغيره والعفاف عن سواه)[١]، ولقد كان من توجيهات النبي ﷺ لأصحابه رضي الله عنهم دائمًا مراعاة النظافة والتجمل، فعن أبي الأحوص عن أبيه قال: كنت جالسًا عند رسول الله ﷺ فرآني رثّ الثياب فقال: ((أَلَكَ مَالٌ؟)) قُلْتُ: نَعَمْ يَا رَسُولَ الله مِنْ كُلِّ الْمَالِ قَالَ: ((إِذَا آتَاكَ الله مَالاً فَلْيُرَ أَثَرُهُ عَلَيْكَ))[٢].

قال ابن القيم: (إن الله سبحانه يحب ظهور أثر نعمته على عبده، فإنه من الجمال الذي يحبه، وذلك من شكره على نِعَمه، وهو جمال باطن، فيجب أن يرى على عبده الجمال الظاهر بالنعمة، والجمال الباطن بالشكر عليها، ولمحبته سبحانه للجمال أنزل على عباده لباسًا وزينة تُجمِّل ظواهرهم، وتقوى تُجمِّل بواطنهم فقال سبحانه: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾[٣]، وقال سبحانه في أهل الجنة: ﴿وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ۝ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا﴾[٤]، فجمّل وجوههم بالنضرة، وبواطنهم بالسرور، وأبدانهم بالحرير. وهو سبحانه كما يحب الجمال في الأقوال والأفعال واللباس والهيئة يبغض القبيح من الأقوال والأفعال والثياب والهيئة فيبغض القبيح وأهله، ويحب الجمال وأهله)[٥].

---

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٦٦٠/٢.

(٢) أخرجه النسائي ٥٢٢٣، وصححه الألباني (صحيح سنن النسائي ٤٨٨٨).

(٣) سورة الأعراف، آية: ٢٦.

(٤) سورة الإنسان، الآيتان: ١١ - ١٢.

(٥) الفوائد ٢٦٢ - ٢٦٣.

قال ابن كثير: (لقد قال الله تعالى في حق إبراهيم ﷺ: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾[(١)]، قالوا: وفّى جميع ما أمر به وقام بجميع خصال الإيمان وشعبه، وكان لا يشغله مراعاة الأمر الجليل عن القيام بمصلحة الأمر القليل، ولا ينسيه القيام بأعباء المصالح الكبار عن الصغار فكان لا يشغله الإخلاص بالله عز وجل وخشوع العبادة العظيمة عن مراعاة مصلحة بدنه، وإعطاء كل عضو ما يستحقه من الإصلاح والتحسين، وإزالة ما يشين من زيادة شعر أو ظُفر، أو وجود قلح أو وسخ فهذا من جملة المدح العظيم في حقه)[(٢)].

(ومما هو معلوم أن الأنبياء عليهم السلام كمّل الله بواطنهم وظاهرهم فإن الهيئة الحسنة تدعو إلى القرب منها والاستماع إليها، وقد ينفر المدعو ممن يدعوه بسبب هيئته، وكان النبي ﷺ يدعو أصحابه رضي الله عنهم إلى الاهتمام بمظهرهم وهيئتهم، وكان إذا أرسل رسولاً جعله حسن الهيئة والصورة، وكان يدعو أصحابه رضي الله عنهم إلى نظافة الشعر والثياب وعدم إهمال الهيئة الظاهرة)[(٣)].

ومن خلال ما سبق يتضح أهمية وفضل النظافة والتجمل، وأن ذلك من خلال المسلم التي ينبغي ألا ينفك عنها، لأن الإسلام دين النظافة والهيئة الحسنة، والمسلم عنوان الإسلام ولذا فيجب عليه أن يتعاهد بدنه وملبسه وحاله بالنظافة والتجمل، (إن صحة الأجسام وجمالها ونضرتها من الأمور التي وجّه الإسلام إليها عناية فائقة واعتبرها من صميم رسالته ولن يكون الشخص راجحًا في ميزان الإسلام محترم الجانب إلا إذا تعهد جسمه بالتنظيف والتهذيب وكان في مطعمه ومشربه وهيئته الخاصة بعيدًا عن الأدران المكدرة والأحوال المنفرة، وليست صحة الجسد وطهارته صلاحًا ماديًا فقط، بل إن أثرها عميق في تزكية النفس، وتمكين الإنسان من النهوض لأعباء الحياة)[(٤)].

---

(١) سورة النجم، آية: ٣٧.

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق: أحمد أبو مسلم وآخرون ١/٣٩٦ - ٣٩٧.

(٣) هيئة الداعية، د. عبدالله بن إبراهيم اللحيدان، بحث منشور بمجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد: ٣٢، شوال ١٤٢١هـ ص ١٦٢ - ١٦٣.

(٤) خلق المسلم، محمد الغزالي ص ١٤٨.

خامسًا- من أساليب الدعوة: الترغيب:

حيث جاء في الحديث: "إن الله جميل يحب الجمال" وأسلوب الترغيب من أساليب الدعوة النافعة الناجعة في تحبيب الناس في فعل الطاعات، وترغيبها في الصالحات، (ويقصد بالترغيب كل ما يشوق المدعو إلى الاستجابة وقبول الحق والثبات عليه من خلال ترغيبه في نيل رضى الله ورحمته وجزيل ثوابه في الآخرة)[١].

وفي الحديث الشريف رغّب النبي ﷺ في الجمال والتجمل بأن أخبر بأن الله جميل، وأنه يحب الجمال مما يعطي دافعًا للمسلم لأن يحرص على جمال الظاهر والباطن، ومراعاة حسن النظافة والهيئة حتى يكون ممن يحبهم الله.

---

(١) أصول الدعوة، د. عبد الكريم زيدان ص ٤٣٧.

الحديث رقم (٦١٣)

٦١٣- وعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه: أنّ رَجُلاً[١] أكَلَ عِنْدَ رسول الله ﷺ بشمالِهِ، فَقَالَ: ((كُلْ بيَمِينِكَ)) قَالَ: لاَ أسْتَطِيعُ! قَالَ: ((لا اسْتَطَعْتَ)) مَا مَنَعَهُ إلاَّ الكِبْرُ. قَالَ: فما رفَعها إلَى فِيهِ. رواه مسلم[٢].

ترجمة الراوي:

سلمة بن عمرو بن الأكوع: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٥٩).

الشرح الأدبي

هذا الحديث فيه بيان لأهمية اتباع السنة، وخطر مخالفتها، بدأه الراوي بأسلوب التوكيد بإن مع اسمية الجملة لغرابة القصة التي يتضمنها وقوله (أن رجلا أكل) بيان للحدث الذي تدور حوله القصة، و الظرف (عند رسول ﷺ) فيه إشارة إلى شرف الموضع الذي يلزم منه توقيره، وطاعته، وقوله (بشماله) فيه بيان لموضع الخطأ، والباء فيه للاستعانة، وقول الرسول ﷺ (كل بيمينك) أمر توجيه وإرشاد وفيه تصويب للخطأ وقول الرجل: (لا أستطيع) فيه تكبر وتعالٍ ورفض لأمر رسول الله ﷺ وقول الراوي (مامنعه إلا الكبر) احتراس بليغ ينص على هذا المعنى وقد جاء في ثوب القصر حيث يقصر سبب رفضه لأمر رسول الله ﷺ على الكبر، وينفيه عن غيره من الأسباب كالعجز، والمرض، ونحوه، وقول الرسول ﷺ (لا استطعت) جملة خبرية لفظاً إنشائية معنى؛ لأنها دعائية، وقول الراوي (فما رفعها إلى فيه) إشارة إلى استجابة دعوة النبي ﷺ ودليل على أن الرجل كان كاذباً متكبراً وفيه تهديد لكل من يخالف سنن رسول ﷺ كبراً وبطراً في كل زمان ومكان فقد قال ﷺ (... فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي)[٣].

المضامين الدعوية[٤]

---

(١) هو: بسر بن راعي العير، كذا في آداب العباد لابن المنذر، وفي أمالي السلفي، قاله ابن بشكوال، وقال ابن طاهر: إنه من أشجع، وأنه قيل فيه: بشر بالمعجمة. تنبيه المعلم ٨٣٩.

(٢) برقم ٢٠٢١/١٠٧، تقدم برقم ١٥٩، وسيكرره المؤلف برقم ٧٤١.

(٣) صحيح البخاري حديث (٤٦٧٥).

(٤) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (١٥٩).

الحديث رقم (٦١٤)

٦١٤- وعن حارثة بن وهْبٍ رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ، يقول: ((ألا أُخْبِرُكُمْ بِأهْلِ النَّار: كلُّ عُتُلٍ جَوّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ)) متفقٌ عَلَيْهِ[١]، وتقدم شرحه في باب ضعفةِ المسلمين.

ترجمة الراوي:

حارثة بن وهب الخزاعي: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٥٢).

غريب الألفاظ:

عُتُلّ: الغليظُ الجافي من الرجال[٢].

جَوّاظ: الكثير اللحم المختال في مشيته[٣].

الشرح الأدبي

الحديث يحمل لافتة قصيرة يتصدرها أداة العرض (ألا) (ألا أخبركم بأهل النار) وهو استفهام عرض، وتشويق يحقق اليقظة، والترقب، وذكر الأهل، وإضافتها للنار يملأ القلوب رهبة تزيده تشويقا، واستشرافا لمعرف صاحبها وهو (كل عتل جواظ مستكبر) والعتل هو الغليظ الجافي، والجواظ هو الجموع المنوع المتكبر، ، ويبدو من معنى الكلمتين سبب الكره، وانظر إلى معنى لفظ (العتل - الجواظ) - وتأمل معناهما - إذ تحكي كلمة (الجواظ) ثقلاً غير متناهي يحكي جسامة الموصوف؛ والثقل والطول في اللفظ يصور الثقل، وامتداده في الموصوف، وجاءت كلمة الجواظ على صيغة المبالغة مضعف العين ممتد المطي مختوما بالظاء التي ينتهي لديها إفراط الغلظ فحكت اللفظة معنى الذات، وصورتها.

المضامين الدعوية[٤]

---

(١) أخرجه البخاري ٤٩١٨، ومسلم ٢٨٥٣/٤٦ ولفظهما سواء، وتقدم برقم ٢٥٢.

(٢) الصحاح في (ع ت ل).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ج و ظ).

(٤) تقدم ذكرها في شرح شطر الحديث رقم (٢٥٢).

الحديث رقم (٦١٥)

٦١٥- وعن أَبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قَالَ: ((احْتَجّتِ الجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: فيَّ الْجَبَّارُونَ والْمُتَكَبِّرُونَ. وقالتِ الجَنَّةُ: فيَّ ضُعفاءُ النَّاس ومساكينُهُم، فقضى اللهُ بَينهُما: إنكِ الجنَّةُ رَحْمَتِي ارْحَمُ بِكِ مَنْ اشَاءُ، وَإِنَّكِ النَّارُ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ اشَاءُ، وَلِكِلَيْكُمَا عَلَيَّ مِلْؤُهَا)) رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو سعيد الخدري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٠).

الشرح الأدبي

الحديث يبين صفات أهل الجنة، ، ويبين صفات أهل النار من خلال الحوار الطريف بين الجنة، والنار، وفي نسبة المحاجة للجنة، والنار تشويق للخبر يجذب المخاطب ليعرف ما تسفر عنه هذه المحاجة، والقول المحكي على لسان النار (فيَّ الجبارون) قد يكون على الحقيقة، بكيفية خلقها الله فيها فتكلمت، وقد يكون كناية عن اختصاصها بهم، وتقديم الجار، والمجرور (فيَّ) للاختصاص أي في الْجَبَّارُونَ والْمُتَكَبِّرُونَ، وليسوا في الجنة، وكذلك في قول الجنة: أي في ضُعفاءُ النَّاس، ومساكينُهُم، وليسوا في النار، وقوله (فقضى اللهُ بَينهُما) كناية عن الفصل بينهما في الحجاج، والجناس بين (رحمتي أرحم) يقرر ما اختصها الله به وخلقها من أجله وتعلق الجار والمجرور (مَنْ أشَاءُ) بالفعل أرحم يشير إلى طلاقة القدرة في فعل الرحمة، وقوله (عَذَابِي أُعَذِّبُ) جناس يقرر

---

(١) برقم ٢٨٤٧ ولم يسق منه إلا قوله: (احتجت الجنة والنار) ثمَّ قال: فذكر نحو حديث أبي هريرة، إلى قوله: (ولكليكما عليَّ ملؤها) ولم يذكر ما بعده من الزيادة. والسياق للحميدي في جمعه ٤٦٤/٢، رقم ١٨٠٢ حيث أورده بتمامه، ثمَّ قال: أدرجه أيضًا مسلمٌ على حديث قبله لأبي هريرة في نحو معناه، ولم يذكر من أوله إلا قوله: (احتجت الجنّة والنار) فقط ٢٨٤٧، وهذا الذي أوردنا هو لفظ حديث أبي سعيد على ما بيّنه أبو بكر البرقانيّ، وأبو مسعود الدمشقيّ. وتبعه عليه المؤلفُ والمنذريُّ. أورده المنذري في ترغيبه ٤٢٨٥.

وظيفة النار، وما اختصها الله به، وتعلق الجار والمجرور (مَنْ أشَاءُ) بالفعل أعذب يشير إلى طلاقة القدرة في فعل التعذيب، وتقديم الخبر على المبتدأ في جملة الختام يفيد اختصاص كل واحدة بملئها، لا تنقص، والحديث يحمل تهديدا، ووعيدا لكل متكبر بنار تشتعل غيظا على من فيها، وبشرى للضعفاء، والمساكين بجنة اختصت بهم لها منهم ملؤها.

المضامين الدعوية[1]

---

(١) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (٢٥٤).

الحديث رقم (٦١٦)

٦١٦- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه : أنَّ رسول الله ﷺ ، قَالَ: ((لاَ يَنْظُرُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ إِلَى مَنْ جَرَّ إِزَارَهُ بَطَرًا)) متفقٌ عَلَيْهِ[١].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

الإزار: ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن من السرة إلى ما تحتها ويسمى كذلك المئزر[٢].

البَطَر: أي جرّه تكبرًا وطغيانًا. وأصل البطر: الطغيان عند النعمةِ وطولِ الغنى[٣]. وفي حديث ابن عمر مرفوعًا: "لا ينظر الله إلى من جرّ ثوبه خيلاء"[٤]. قال العلماء: الخيلاء بالمد والمخيلة والبطر والكبر والزهو والتبختر كلها بمعنى واحدٍ وهو حرام[٥].

الشرح الأدبي

الحديث يشير إلى خطأ يقع فيه كثير من الناس ،وهو التكبر بأي شكل من الأشكال أو في أي صورة من الصور، والحديث يعرض لإحدى تلك الصور كنموذج يقيس عليه المؤمن الحريص أفعاله حتى لا يقع في مثلها، وقوله (لاَ يَنْظُرُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ) أسلوب نفي لحرمان من كان على هذه الصفة من نظر الله يبين خطر هذا الفعل الذي

---

(١) أخرجه البخاري ٥٧٨٨ واللفظ له، ومسلم ٢٠٨٧/٤٨. أورده المنذري في ترغيبه ٣٠١٤. وسيكرره المؤلف برقم ٧٩٢.

(٢) معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ٣٥، ٣٦٦.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٧٠/١٠، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٨١.

(٤) أخرجه البخاري ٥٧٨٣، ومسلم ٢٠٨٥.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٣٢٠.

قد يظنه الإنسان بسيطاً لكن ارتباطه بحركة القلب فجعله بهذه المثابة لأنه عكس كبرا رمز إليه بهذا الفعل ،وارتباط الحرمان بيوم القيامة يشير إلى شدة خطر هذا الذنب الذي يوجب الحرمان من رحمة الله في يوم لا قوة فيه لغيره ، والتعبير بالجر يشير إلى الإسبال ،ولفظ بطر يوحي بالظلم ،والتجاوز والغرور ،المفضي للعجب بارتباطه بالجر.

فقه الحديث

قال النووي: (قال العلماء: الخيلاء بالمد والمخيلة والبطر والكبر والزهو والتبختر كلها بمعنًى واحد، وهو حرام ... وقد ورد الحديث الصحيح أن الإسبال يكون في الإزار والقميص والعمامة، فعن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا: ((الإِسْبَالُ فِي الإِزَارِ وَالْقَمِيصِ وَالْعِمَامَةِ. مَنْ جَرَّ مِنْهَا شَيْئًا خُيَلاَ لَمْ يَنْظُرِ الله إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))[1]. وأنه لا يجوز إسباله تحت الكعبين إن كان للخيلاء، فإن كان لغيرها فهو مكروه، وظواهر الأحاديث في تقييدها بالجر خيلاء، تدل على أن التحريم مخصوص بالخيلاء، وهكذا نصّ الشافعي على الفرق، وأجمع العلماء على جواز الإسبال للنساء، وقد صحّ عن النبي صلى الله عليه وسلم الإذن لهن في إرخاء ذيولهن ذراعًا[2]. والله أعلم، وأما القدر المستحب فيما ينزل إليه طرف القميص والإزار فنصف الساقين كما في حديث ابن عمر[3] وفي حديث أبي سعيد [الخدري] رضي الله عنه ((إِزْرَةُ الْمُؤْمِنِ إِلَى أَنْصَافِ سَاقَيْهِ. لاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَعْبَيْنِ.

---

(١) أخرجه أبو داود ٤٠٩٤، وابن ماجه ٣٥٧٦، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٤٥٠).

(٢) أخرج الترمذي ١٧٣١، والنسائي ٥٣٣٨، وابن ماجه ٣٥٨٠ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من جر ثوبه من الخيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة، فقالت أم سلمة: فكيف يصنع النساء بذيولهن؟ قال: يرخين شبرًا، فقالت: إذًا تنكشف أقدامهن. قال: فيرخينه ذراعًا لا يزدن عليه). وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٤١٥).

(٣) أخرج مسلم ٢٠٨٦ عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: مررت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي إزاري استرخاء، فقال: يا عبدالله، ارفع إزارك، فرفعته، ثم قال: "زد" فزدت، فما زلت أتحراها بعد. فقال بعض القوم: إلى أين؟ فقال: أنصاف الساقين.

وَمَا أَسْفَلَ مِنَ الْكَعْبَيْنِ فِي النَّارِ))[١] فالمستحب نصف الساقين والجائز بلا كراهة ما تحته إلى الكعبين فما نزل عن الكعبين فهو ممنوع، فإن كان للخيلاء فهو ممنوع منع تحريم وإلا فمنع تنزيه، وأما الأحاديث المطلقة بأن ما تحت الكعبين في النار فالمراد بها ما كان للخيلاء، لأنه مطلق فوجب حمله على المقيد، والله أعلم، قال القاضي[٢]: (قال العلماء: وبالجملة يكره كل ما زاد على الحاجة والمعتاد من اللباس من الطول والسعة، والله أعلم)[٣].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار، والترهيب.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: تحريم الكبر.

ثالثًا: من آداب المدعو: التواضع والبعد عن مظاهر الكبر.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار، والترهيب:

١- **الإخبار:** حيث جاء في الحديث: (لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره بطرًا)، ويعتبر أسلوب الإخبار من أساليب الدعوة الهامة، حيث يعرف المدعو الكثير من الأمور الغيبية عن طريق الإخبار، ومما لا شك فيه أن أخبار القرآن والسنة كلها صادقة

---

(١) أخرجه أبو داود ٤٠٩٣، وابن ماجه ٣٥٧٣، وصححه الألباني (صحيح أبي داود ٣٤٥٠).

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٦٠١/٦.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٩٩/٢/١ ٥٣/١٤/٧ ط/ دار الكتب العلمية، بتصرف يسير، وانظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٥٨/١٠-٢٦٤، وسبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، الصنعاني ٩٣٤-٩٣٥ ط/ بيت الأفكار، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ٣٠٣-٣٠٥ ط/ بيت الأفكار، و انظر كذلك: الزواجر عن اقتراف الكبائر، ابن حجر الهيتمي ٤١٠/١، ومجمع الأنهر، داماد أفندي ١٤٨/٨، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم بن سالم ابن مهنا النفراوي ٤٠٦/٢، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٤٥٤/٤، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٨٠٥/١، وكشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٣٢٩/١.

وواجب الدعاة أن يجعلوا مصادر أخبارهم التي ينقلوها للمدعوين من معين القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، قال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[1]، وقال جلّ شأنه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[2].

وفي الحديث أخبر النبي ﷺ أن من جر إزاره بطرًا لا ينظر الله إليه يوم القيامة، وهذا من شأنه أن يعرف المدعو بمصير وعاقبة المتكبر.

٢- الترهيب: حيث جاء في الحديث: "لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره بطرًا"، وأسلوب الترهيب من أساليب الدعوة التي تكبح النفس عن المعاصي والمخالفات الشرعية ذلك لأن النفس بطبيعتها تخشى البطش والعقاب، (والترهيب هو التخويف للحمل على ترك فعل أو اعتقاد أو تصور، والترهيب يقوم على وعيد بعقوبة أو حرمان منفعة، إذا لم يلتزم بما أمر به أو نهى عنه، والإنسان مفطور على الإحساس باللذة والألم، وهو بذلك ميال إلى كل ما يحقق له اللذة وعازف عن كل ما يسبب له الألم)[3].

وفي الحديث رهّب النبي ﷺ من الكبر والتكبر، بأن المتكبر لا ينال رضا الله ولا يفوز برحمة الله ونظره إليه، وهذا من شأنه أن يخوّف المدعو من سوء الكبر.

ومن صور استعمال القرآن لأسلوب الترهيب قوله تعالى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾[5].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: تحريم الكبر:

إن الكبر والاستعلاء من الصفات الذميمة التي ينبغي أن ينأى المسلم بنفسه عن

---

(١) سورة فصلت، آية: ٤٢.

(٢) سورة النجم، الآيتان: ٣ - ٤.

(٣) أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي ٢٩٣.

(٤) سورة محمد، آية: ١٥.

(٥) سورة فاطر، آية: ٣٦.

الاتصاف بها، ولذا جاء هذا الحديث محذرًا منه مبينًا لخطورته وذلك في قوله ﷺ: "لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره بطرًا"، قال النووي: (والبطر هو الكبر والزهو والتبختر ومعنى لا ينظر الله إليه: أي لا يرحمه ولا ينظر إليه نظر رحمة)[١]، وقال ابن حجر: (وقوله: "بطرًا" أي جره تكبرًا وطغيانًا وأصل البطر الطغيان عند النعمة واستعمل بمعنى التكبر، ومعنى "لا ينظر الله إليه": أي: لا يرحمه أو لا ينظر إليه نظر رحمة، وقوله "يوم القيامة": أشارة إلى أنه محل الرحمة المستمرة، بخلاف رحمة الدنيا فإنها قد تنقطع بما يتجدد من الحوادث)[٢]، وقال الماوردي: (والكبر يكسب المقت ويلهي عن التألف ويوغر صدور الإخوان، وحسبك بذلك سوءًا عن استقصاء ذمه، وقد وصف بعض الشعراء الإنسان فقال:

يا مظهر الكبر إعجابًا بصورته ... انظر خلاك فإن النتن تثريب

لو فكر الناس فيما في بطونهم ... ما استشعر الكبر شبان ولا شيب

يا ابن التراب ومأكول التراب ... أقصر فإنك مأكول ومشروب[٣]

وقال الحسن البصري: "حدثنا أبو الأشهب عن الحسن قال: يا ابن آدم، كيف تتكبر وأنت خرجت من سبيل البول مرتين، وقيل: رأى الحسن نعيم بن رضوان يمشي مشية المتكبر فقال: انظروا إلى هذا ليس فيه عضو إلا ولله تعالى فيه نعمة وللشيطان لعنة)[٤].

وقال الغزالي: (قال المسيح عليه السلام: "إن الزرع ينبت في السهل، ولا ينبت على الصفا كذلك الحكمة تعمل في قلب المتواضع، ولا تعمل في قلب المتكبر ألا ترون أن من شمخ برأسه إلى السقف شجّه ومن طأطأ أظله وأكنّه"، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن الرجل إذا تواضع رفع الله حكمته، وقال: انتعش نعشك الله فهو في نفسه صغير وفي

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٣٢٠.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٧٠/١٠.

(٣) أدب الدنيا والدين، أبو الحسن الماوردي، تحقيق: مصطفى السقا ص ٢٣٣.

(٤) الزهد، الحسن البصري، تحقيق: د. محمد عبدالرحيم محمد ص ٩٠.

أعين الناس كبير وإذا تكبر وعدا طوره رهقه الله في الأرض، وقال: أفأخسأك الله فهو في نفسه كبير وفي أعين الناس حقير حتى إنه لأحقر عندهم من الخنزير. وقال النعمان بن بشير رضي الله عنهما على المنبر: إن للشيطان مصالي وفخوخًا، وفخوخه البطر بأنعم الله والفخر بإعطاء الله والكبر على عباد الله واتباع الهوى في غير ذات الله، وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أنه رأى رجلاً يختال في مشيته ويجر إزاره فقال: "إن للشيطان إخوانًا")[1].

ثالثًا- من آداب المدعو: التواضع والبعد عن مظاهر الكبر:

يظهر هذا من سياق الحديث، وإذا كان المتكبر لا ينظر الله إليه فأحرى بالإنسان أن يتواضع، قال ابن القيم: (سئل الفضيل بن عياض عن التواضع؛ فقال: يخضع للحق وينقاد له ويقبله ممن قاله، وقيل: التواضع أن لا ترى لنفسك قيمة فمن رأى لنفسه قيمة فليس له في التواضع نصيب، وقال الجنيد: هو خفض الجناح ولين الجانب، وقال ابن عطاء: هو قبول الحق ممن كان، والعز في التواضع فمن طلبه في الكبر فهو كتطلب الماء من النار)[2].

(إن من حمل قلبًا لئيمًا وصدرًا ذميمًا وخلقًا رذيلاً فكان جافي الطبع غليظ القلب مختالاً سمينًا، لدودًا في المخاصمة فظًا عنيدًا متكبرًا على الخلق، معرضًا عن الحق، إذا سمع آيات الله تتلى عليه ولى مستكبرًا كأن لم يسمعها، يستنكف أن يكون لله عبدًا، وبوحدته مقرًا، ولرسوله متبعًا، ويتعالى بما لا يعليه، ويستكبر بما ليس فيه، من كان كذلك فهو إلى الله بغيض قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾[3]، مأواه الجحيم، ومسكنه السعير، وإن كان ضخمًا بدينًا وجبارًا عنيدًا. فلا تغتر أخي بقوتك وتسخرها في التجبر على الضعفاء الذين يحملون نفوسًا عظيمة، وقلوبًا رحيمة، فإنهم

---

(١) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي ٣/٣٥٨ - ٣٥٩.

(٢) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢/١١٣ - ١١٤.

(٣) سورة النحل، آية: ٢٣.

عباد الله المقربون، وجنده المخلصون لا يرد عليهم دعاء، ولا يخيب لهم رجاء)[١].

ومن خلال هذا يظهر أن المدعو من أهم آدابه أن يتحلى بالتواضع، ويجانب الكبر والاستعلاء فإنه ليس من أخلاق المؤمن.

(١) الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي ص ١٤٣.

الحديث رقم (٦١٧)

٦١٧- وعنـه، قَـالَ: قَـالَ رسـول الله ﷺ: ((ثَلاَثَـةٌ لاَ يُكَلِّمُهُـمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَـة، وَلاَ يُزَكِّيهِمْ، وَلاَ يَنْظُرُ إلَيْهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ ألِيمٌ: شَيْخٌ زَانٍ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ)) رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

العائلُ: الفقيرُ[٢].

الشرح الأدبي

بدأ الحديث بأسلوب التوشيع في قولـه ﷺ: (ثلاثة لا يكلمهم الله، ...)، ولـهذا الأسلوب أثر ينسحب على السياق كله فيحقق اليقظة والترقب والاستشراف إلى بقية الخبر؛ فإن أسلوب التوشيع فيه نوع من الإبهام يتبعه توضيح يزيل غموضه فالمخاطب إذا سمع قول الرسول ﷺ (ثلاثة...) وهو لفظ نكرة مبهم يحتاج إلى تفسير استشرفت نفسه، وتطلعت إلى معرفة حقيقته، فإذا جاء التفسير تمكَّن في النفس فضل تمكُّن؛ لأنه صادف نفساً مهيأة، وتنكير كلمة (ثلاثة) بغرض التحقير إلى درجة الحرمان من كل خير، والمتأمل لأسلوب الفصل، والوصل بين الجمل الثلاث التي وصفت بها النكرة في قوله: (لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم، ولا ينظر إليهم، ولـهم عذاب أليم) يجد أن الجمل الثلاث الأولى جاءت بالسلب منفية بـ (لا) تُجرِّد النكرة من أجر الثواب، وصالح العمل، ثم تقرر الجملة الاسمية الأخيرة (ولـهم عذاب أليم) وهي للدوام والثبوت المفاد من اسميتها تقرر بتقديم المسند وهو الجار والمجرور على المسند إليه، ثم بوصف

---

(١) برقم ١٧٢/١٠٧. أورده المنذري في ترغيبه ٣٥٣٢. وسيكرره المؤلف برقم ١٨٥٤.

(٢) رياض الصالحين ٢٧٥.

المسند إليه وصفاً على المبالغة قطع كل وهم يستبقي لهم شيئاً قليلاً من الأمل، وتقييد الكلام والنظر بيوم القيامة تتميم جيء به لنكتة وهي زيادة الترهيب والتخويف لهؤلاء الثلاثة، والجمل الثلاث وصلت بالواو للتناسب، وعدم المانع، وإذا كان العطف يقتضي المغايرة، فهي حاصلة بالتنويع، لأنها ألوان ما بين الألم النفسي والمعنوي والحسي، ثم جاء التكرار لهذه الجمل ثلاثاً كما - حكى الصحابي - فصعَّد الوعيد والإنذار، وبلغ به أعظم درجة في أنفس المخاطبين، وقرر المعنى تقريراً لا يترك للمخاطب تعلة أو تحلة، يتحلل بها من تبعات ما ألقي إليه، أو يتعلل بها حين تكون استجابته غير متكافئة لما عليه موقف الرسول ﷺ من عناية واهتمام' فهذا التكرار بهذه الجمل الثلاث ارتقى بإحساس المتلقين لدرجة الخطر المحدق بكل متكبر أو منان أو كذاب، وصوَّر فِعالهم شبحاً يطارد في النفوس الإحساس بالعجب، أو الرغبة في المن، أو الجرأة على الحلف كذباً مما يقوِّم الخطأ ويصلح النفوس نضيف إلى ذلك الامتزاج بين التكرار المعنوي المطبق لألوان الحرمان من كلام الله، ثم نظره، ثم تزكيته، ثم المآل إلى العذاب الأليم مع التكرار اللفظي الذي يصفع هؤلاء المخطئين، ويزلزل بنيان الرغبة في الشر، ويزيله من نفوسهم، ثم بدأ في ذكرهم (شَيْخٌ زَانٍ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ) وعندما يكشف السياق عنهم تدرك السر وراء هذا الهول لأنهم أصحاب ظروف خاصة، الأول شَيْخٌ زَانٍ وتجد بين الوصفين تنافراً طبعيا تخطاه هذا المتصابي ليواقع الكبيرة مع تقدم سنه، وتأخر توبته، وإصراره على معصيته، (وَمَلِكٌ كَذَّابٌ) لأن كذبه مما تعم به البلوى، ويعظم به الخطب والكذب كبيرة على الأفراد فما بالك بمن يكذب على الأمم؟!، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ وهو الفقير ذو الحاجة، والعيال، وتكبره اعتراض على أمر له، ورفض لأحكامه، والكبر مذموم في أصغر صوره فما بالك بمن يتكبر على قدر الله ويضيع من يعول؟!.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإجمال والتفصيل.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: حرمة الزنا والكذب والكبر.

ثالثًا: من واجبات الداعية: تحذير المدعوين من الآفات والأمراض الاجتماعية الخطيرة.

رابعًا: من أساليب الدعوة: الترهيب.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإجمال والتفصيل:

حيث جاء في الحديث: "ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة"، هذا إجمال ثم التفصيل: "شيخ زان - ملك كذاب وعائل مستكبر"، ولا شك أن أسلوب الإجمال والتفصيل من أساليب الدعوة التي تشد المدعو وتلفت انتباهه، ومن جانب آخر تركز المعلومة لدى المدعو زيادة في إفهامه، ومن صور استخدام القرآن لهذا الأسلوب قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾[1].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: حرمة الزنا والكذب والكبر:

إن الإسلام يبني المجتمعات على شيوع الفضيلة ومجانبة الرذيلة. والزنا والكذب والكبر من أخطر الرذائل التي تدمر المجتمعات، وتقوّض بنيانها، ومن ثم حرّم الإسلام هذه الرذائل وحذر منها، وتوعد من يقع فيها ويسقط في حبائلها، ومما يدل على ذلك ما جاء في الحديث: (ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر)، ومما لا شك فيه حرمة هذه الأمور الثلاثة وعن تخصيصها بالوعيد في حالة وقوعها من المذكورين الثلاثة.. كان الذنب أعظم.

---

(١) سورة فاطر، آية: ٣٢.

قال القاضي عياض: (وسببه أن كل واحد منهم التزم المعصية المذكورة مع بعدها منه وعدم ضرورته إليها وضعف دواعيها عنده، وإن كان لا يعذر أحد بذنب، لكن لما لم يكن إلى هذه المعاصي ضرورة مزعجة ولا دواعي معتادة، أشبه إقدامهم عليها المعاندة والاستخفاف بحق الله تعالى وقصد معصيته لا لحاجة غيرها، فإن الشيخ لكمال عقله، وتمام معرفته بطول ما مر عليه من الزمان، وضعف أسباب الجماع والشهوة للنساء، واختلال دواعيه لذلك، عنده ما يريحه من دواعي الحلال في هذا ويخلي سره منه فكيف بالزنا الحرام؟ وإنما دواعي ذلك الشباب والحرارة الغريزية وقلة المعرفة وغلبة الشهوة، لضعف العقل وصغر السن، وكذلك الإمام لا يخشى من أحد من رعيته ولا يحتاج إلى مداهنته ومصانعته، فإن الإنسان إنما يداهن ويصانع بالكذب، وشبهه من يحذره ويخشى أذاه ومعاتبته، أو يطلب عنده بذلك منزلة أو منفعة وهو غني عن الكذب مطلقًا، وكذلك العائل الفقير قد عدم المال، وإنما سبب: الفخر، والخيلاء، والتكبر والارتفاع على القرناء، والثروة في الدنيا لكونه ظاهرًا فيها وحاجات أهلها إليه، فإذا لم يكن عنده أسبابها فلماذا يستكبر ويحتقر غيره؟ فلم يبق فعله وفعل الشيخ الزاني والإمام الكاذب إلا لضرب من الاستخفاف بحق الله تعالى ومعاندة نواهيه، وأوامره، وقلة الخوف من وعيده إذ لم يبق ثم حامل لهم على سواه، مع سبق القدر لهم بالشقاء"(١).

هذا وقد دلت النصوص الشرعية على حرمة هذه الأمور. فأما الزنا فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلاً﴾(٢)، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((لاَ يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ١/٣٨٣ - ٣٨٤.

(٢) سورة الإسراء، آية: ٣٢.

(٣) سورة الأنعام، آية: ١٥١.

مُؤْمِنٌ))[١]، وعن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: ((لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، إِلاَّ بِإِحْدَى ثَلاَثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِ، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ، الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ))[٢]، وأما الكذب فقد جعله النبي ﷺ من علامات النفاق، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاَثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ. وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ. وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ))[٣]، وحذر منه النبي ﷺ وبيّن خطورته، فعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ. وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ. وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا))[٤].

وأما الكبر فقد جاء ذمه في مواضع متعددة من القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[٥]، وقال على لسان موسى عليه السلام: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾[٦]، وعن حارثة بن وهب أنه سمع النبي ﷺ قال: ((أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟ قَالُوا: بَلَى. قَالَ: كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ))[٧]. فإذا كانت حرمة الزنا، والكذب والكبر مطلقة، فهي في حق من لم نتوقع منه كالشيخ في الزنا، والمَلِك أو الإمام في الكذب، والفقير في الكبر أشد حرمة كما دل على ذلك الحديث.

---

(١) أخرجه البخاري ٢٤٧٥، ومسلم ٥٧.

(٢) أخرجه البخاري ٦٨٧٨، ومسلم ١٦٧٦.

(٣) أخرجه البخاري ٣٣، ومسلم ٥٩.

(٤) أخرجه البخاري ٦٠٩٤، ومسلم ٢٦٠٧.

(٥) سورة غافر، آية: ٣٥.

(٦) سورة غافر، آية: ٢٧.

(٧) أخرجه البخاري ٦٠٧١، ومسلم ٢٨٥٣ واللفظ له.

ثالثًا- من واجبات الداعية: تحذير المدعوين من الآفات والأمراض الاجتماعية الخطيرة:

إن واجب طبيب الجسم السهر على مرضاه، وبلسمة جراحاتهم، وعلاج المجتمع من أمراضه الاجتماعية هو واجب الدعاة إلى الله للنهوض به إلى العيش الأمثل والحياة الأفضل، ويؤخذ هذا من سياق الحديث وبيان النبي ﷺ لجزاء من يفعل هذه الآفات ومما لا شك فيه أن الداعية حريص على المدعوين، وعلى هدايتهم وإرشادهم إلى الخير، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[(١)]، والداعية الناجح هو الذي يعالج الأمراض الاجتماعية ويحذر من الآفات والمعاصي حتى يعيش المدعوون في مجتمع آمن مطمئن.

قال د. مصطفى السباعي: "إن رسالة العالم فهم الشريعة وتفهيمها، وحفظها على الناس من تحريف المبطلين وعدوان الظالمين، وموجز خلق العالِم أنه: خشية من الله، وإشفاق على الناس، ونصح لأولي الأمر، وتجرد عن حظوظ النفس وشهواتها، ويقظة في مداخل الأمور ومخارجها، ولقد كان سلفنا الصالح منذ عصر الصحابة رضي الله عنهم والتابعين فمن بعدهم تغلب في علمائهم هذه الصفات فكانوا مبعث خير، ومصابيح هداية وأدلة طريق، وكانوا كالشمس للدنيا وكالعافية للبدن، وما بلغوا هذا المبلغ في أمتهم إلا لأنهم كانوا كما قال خالد بن صفوان في الحسن البصري: أشبه الناس علانية بسريرة، وسريرة بعلانية. والعلماء عند الجهل هم ألسنة الحق التي تكشف الشبهات، وتزيح المفتريات، وعند العدوان هم ألسنة الصدق التي تضع الأمور في مواضعها"[(٢)].

ومن هذا يتبين أن من واجبات الدعاة الأولى حراسة الفضيلة، ومقاومة الرذيلة فهذا هوالدور الرئيس المنوط بهم الذي ينبغي أن يقوموا به، ولا يتأتى لهم ذلك إلا بكشف

---

(١) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

(٢) أخلاقنا الاجتماعية ١٩٩.

الأمراض الاجتماعية، والتحذير من الآفات الخلقية وذلك لما للأخلاق الفاضلة من مكانة في نهوض الأمم والجماعات.

قال الميداني: (لقد دلت التجارب الإنسانية، والأحداث التاريخية على أن ارتقاء القوى المعنوية للأمم والشعوب ملازم لارتقائها في سلم الأخلاق الفاضلة ومتناسب معه، وأن انهيار القوى المعنوية للأمم والشعوب ملازم لانهيار أخلاقها ومتناسب معه، وذلك لأن الأخلاق الفاضلة في أفراد الأمم والشعوب تمثل المعاقد الثابتة التي تعقد بها الروابط الاجتماعية، ومتى انعدمت هذه المعاقد أو انكسرت في الأفراد لم تجد الروابط الاجتماعية مكانًا تنعقد عليه، ومتى فقدت الروابط الاجتماعية صارت الملايين في الأمة المنحلة عن بعضها مزودة بقوة الأفراد فقط لا بقوة الجماعة، بل ربما كانت القوى المبعثرة فيها بأسًا فيما بينها، مضافًا إلى قوة عدوها)[١].

رابعًا- من أساليب الدعوة: الترهيب:

حيث جاء في الحديث: "ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم"، وأسلوب الترهيب من أساليب الدعوة، حيث إن النفس البشرية بطبيعتها تخشى العقاب، (ويقصد بالترهيب هو كل ما يخيف المدعو ويحذره من عدم الاستجابة أو رفض الحق أو عدم الثبات عليه بعد قبوله، والترهيب يكون بالتخويف من غضب الله وعذابه في الآخرة، والقرآن الكريم مملوء بما يرغب الناس في قبول دعوة الإسلام والتحذير من رفضها)[٢].

وفي الحديث: جاء الترهيب للشيخ الزان والملك الكذاب والعائل المتكبر، بأن الله عز وجل لا يكلمهم ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، وفي هذا ترهيب شديد ووعيد أكيد لمن يقارف هذه المنكرات فأحرى بالنفس أن تستقيم على الطاعات، وتسارع إلى الخيرات وفعل الصالحات حتى تنجو من هذه العقبات في يوم لا تنفع فيه الحسرات ولا الندم على ما فات.

---

(١) الوجيزة في الأخلاق الإسلامية ٣٤، ٣٥.

(٢) أصول الدعوة، د. عبد الكريم زيدان ص ٤٣٧.

الحديث رقم (٦١٨)

٦١٨- وعنه، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: ((قَالَ الله ﷻ: العِزُّ إِزَارِي، والكبرياءُ رِدائي، فَمَنْ يُنَازِعُنِي فِي وَاحِدٍ منهما فَقَد عَذَّبْتُهُ)) رواه مسلم[(١)].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

ضرب الإزار: والرداء في انفراده بصفة العظمة والكبرياء، أي ليْسَتا كسائر الصفات التي قد يَتَّصفُ بها الخلق مجازًا كالرَّحمة والكروم وغيرهما، وشَبَّهَهُما بالإزار والرِّداء لأن المتَّصف بهما يشملانه كما يشمل الرداء الإنسان؛ ولأنه لا يشاركه في إزاره وردائه أحد، فكذلك الله تعالى لا ينبغي أن يشركه فيهما أحد[(٢)].

الرداء في اللغة: هو ما يوضع على المنكبين وفوق الكتفين من ثوب وبُرد ونحوهما[(٣)].

ينازعني: أي يتخلق بذلك فيصير في معنى المشارك[(٤)].

---

(١) لم يخرجه مسلم بهذا اللفظ، بل أخرجه بهذا اللفظ أبوبكر البرقاني في مستخرجه، قال الحميدي في جمعه ٢٧٥/٣، رقم ٢٦٢١ وأخرجه أبو بكر البرقاني في كتابه من حديث عمر بن حفص بن غياث الذي أخرجه مسلم ٢٦٢٠/١٣٦ من حديثه، وبذلك الإسناد إلى أبي مسلم الأغرّ، عن أبي هريرة، وأبي سعيد أنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: (يَقُولُ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ: الْعِزُّ إِزَارِي، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، فَمَنْ نَازَعَنِي مِنْهُمَا شَيْئًا عَذَّبْتُهُ) وهكذا أخرجه أبو مسعود في كتابه. قلتُ: وأشار إلى ذلك أيضًا المنذري في ترغيبه عقب حديث أبي سعيد ٤٢٧٧ ورواه البرقاني من الطريق الذي أخرجه مسلم ولفظه: (يَقُولُ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ: الْعِزُّ إِزَارِي، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، فَمَنْ نَازَعَنِي شَيْئًا مِنْهُمَا عَذَّبْتُهُ).

تنبيه: حديث أبي هريرة أورده المنذري في ترغيبه ٤٢٧٨ وعزاه إلى أبي داود، وابن ماجه، وابن حبان في صحيحه، وفي آخره: (قذفته بالنار) بدل: (فقد عذبته).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (أ ز ر).

(٣) معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ١٩٨.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٥٩.

الشرح الأدبي

بدأ الحديث بأسلوب خبري قصد منه إفادة الخبر مع إثارة مشاعر الإجلال والرهبة حول المقول في قوله (قال الله - عز، وجل) لصدوره عن الذات الإلهية، ، وإسناد الرسول ﷺ الكلام لله تعالى في قوله (قال الله - عز وجل -) ارتقاء بمستوى الكلام البشري إلى مستوى الكلام الإلهي، وهذه النقلة تعطي الخبر صفة القدسية التي توفر عليه اهتماماً، وعناية، وقبولاً، لأن الفرق بين كلام الله، وكلام خلقه كالفرق بين الله وخلقه، بالإضافة إلى أن إسناد القول لله زاد الأمر توكيداً لصدق الخبر وقبول المخاطبين له، وقوله (العِزُّ إزَاري، والكبرياءُ رِدائي) كناية عن اختصاصهما بالله تعالى، وحرمتهما على غيره، لأن الكبرياء والعظمة صفتان لله اختص بهما لا يشركه فيهما أحد، ولا ينبغي لمخلوق أن يتعاطاهما، لأن صفة المخلوق التواضع، والتذلل، وضرب الرداء، والإزار مثلا يقول - والله أعلم كما لا يشرك الإنسان في ردائه، وإزاره أحد فكذلك لا يشركه في الكبرياء والعظمة مخلوق، وقوله (فَمَنْ يُنَازِعُنِي فِي وَاحِدٍ منهما فَقَد عَذَّبْتُهُ) والتعبير بالمنازعة يوحي بمحاولة الإنسان الحصول على ما لا يخصه ونسبة المنازعة لله تجعل المنازع له هالك لا محالة، والتعبير بالماضي (عذبته) يفيد التحقيق وقد أكده بقد إشارة إلى أنه محقق الهلاك.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: من صفات الله العز والكبرياء.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: الترهيب.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: حرمة الكبر والتعالي وفضل التواضع.

أولاً- من موضوعات الدعوة: من صفات الله العز والكبرياء:

حيث جاء في الحديث: "العز إزاري والكبرياء ردائي"، قال النووي: (قال المازري: معناه: صفته العز والكبرياء، ومعنى الاستعارة هنا أن الإزار والرداء يلصقان بالإنسان ويلزمانه وهما جمال له، قال: فضرب ذلك مثلاً لكون العز والكبرياء بالله تعالى أحق

وله ألزم واقتضاهما جلاله)[١]، وقال العظيم آبادي: (قال الخطابي: معنى هذا الكلام أن الكبرياء والعظمة صفتان لله سبحانه واختص بهما لا يشركه أحد فيهما ولا ينبغي لمخلوق أن يتعاطاهما لأن صفة المخلوق التواضع والتذلل، وضرب الرداء وإزاره مثلاً في ذلك، ومعنى نازعني: "تخلق بذلك فيصير في معنى المشارك فمن يفعل ذلك عذبته)[٢].

قال أبو بكر البيهقي: (والمراد أن العز والكبرياء صفتان له سبحانه، يقال: اتزر فلان بالصلاح وارتدى بالورع، على معنى أنه اتصف بهما. والعزة إن كانت بمعنى الشدة، وهي القوة فمعناها يرجع إلى صفة القدرة، وكذلك إن كانت بمعنى الغلبة فمعناها يعود إلى القدرة، وإن كانت بمعنى نفاسة القدر فإنها ترجع إلى استحقاق الذات تلك العزة، وأما الجلال والجبروت والكبرياء والعظمة والمجد فهذه صفات يستحقها بذاتها)[٣].

وقال محمد خليل هراس: (والعزة صفة أثبتها الله عز وجل لنفسه، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[٤]، وأقسم بها سبحانه كما في حديث الشفاعة من حديث أنس رضي الله عنه: ((وَعِزَّتِي وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي لأُخْرِجَنَّ مَنْ قَالَ: لاَ إِلهَ إِلاَّ اللَّه))[٥]، والعزة تأتي بمعنى الغلبة والقهر من عزَّ يُعزُّ يقال: عزَّه إذا غلبه. وتأتي بمعنى القوة والصلابة من عزّ يَعزُّ ومنه أرض عزاز للصلبة الشديدة. وتأتي بمعنى علو القدر والامتناع عن الأعداء من عزَّ يَعزّ، وهذه المعاني كلها ثابتة لله عز وجل)[٦].

وقال ابن تيمية: (ومذهب السلف أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٥٩.

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١٧٥٧.

(٣) الأسماء والصفات، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، تحقيق: عماد الدين أحمد حيدر ٢٢١/١ - ٢٢٣.

(٤) سورة إبراهيم، آية: ٤.

(٥) أخرجه البخاري ٧٥١٠، ومسلم ١٩٣.

(٦) شرح العقيدة الواسطية، محمد خليل هرّاس ص ١٦٠ - ١٦١.

به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، ونعلم أن ما وصف الله به من ذلك فهو حق ليس فيه لغز ولا أحاجي، بل معناه يعرف من حيث يعرف مقصود المتكلم بكلامه لا سيما إذا كان المتكلم أعلم الخلق بما يقول، وأفصح الخلق في بيان العلم، وأفصح الخلق في البيان والتعريف والدلالة والإرشاد. وهو سبحانه مع ذلك ليس كمثله شيء لا في نفسه المقدسة المذكورة بأسمائه وصفاته ولا في أفعاله، فكما تيقن أن الله سبحانه له ذات حقيقةً، وله أفعال حقيقة، فكذلك له صفات حقيقة، وهو ليس كمثله شيء لا في ذاته، ولا في صفاته ولا في أفعاله)[١].

وقال الطيبي: (والعزيز: الغالب ومرجعه إلى القدرة المتعالية عن المعارضة. وقيل: إنما يعرف الله عز وجل عزيزًا من أعز أمرهُ طاعته فأما من استهان بأوامره فمن المحال أن يكون متحققًا بعزته. وقيل: العزيز: من ضلّت العقول في بحار عظمته، وحارت الألباب دون إدراك نعمته، وكلّت الألسن عن استيفاء مدح جلاله ووصف جماله، ومن آداب من عرف أنه العزيز: أن لا يعتقد لمخلوق إجلالاً، وإذا عرف أنه المعز لم يطلب العز إلا منه ولا يكون العز إلا في طاعته)[٢].

هذا وقد وصف الله سبحانه نفسه بأن له العزة، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾[٣]، وقال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٤].

ثانيًا- من أساليب الدعوة: الترهيب:

حيث جاء في الحديث: "فمن ينازعني عذبته"، فقد جاء الترهيب من الكبر والاستعلاء بأن من يفعل هذا يعذبه الله، ومما لا شك فيه أن أسلوب الترهيب من أساليب الدعوة النافعة في تهذيب النفس وحملها على الطاعة والاستقامة، وعلى الدعاة

(١) مجموعة الفتاوى، ابن تيمية ٣/ ٢٠.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٥/ ١٩ - ٢٠.

(٣) سورة فاطر، آية: ١٠.

(٤) سورة المنافقون، آية: ٨.

إلى الله استخدام هذا الأسلوب والموازنة بينه وبين أسلوب الترغيب إذ يجب أن يستخدم كلاً في موطنه وموضعه، (لأن الترغيب والترهيب يثيران عند الإنسان عامل الخوف وعامل الرجاء والأمل، وهما في الواقع يوجهان اتجاه الإنسان ويعملان على تحديد أهدافه وسلوكه ومشاعره وأفكاره، وعلى قدر ما يخاف ونوع ما يخاف، وعلى قدر ما يرجو ونوع ما يرجو يكون التأثير في السلوك والاتجاه، ولذلك ينبغي أن يكون حجم الترغيب والترهيب متوافقًا مع حجم ونوعية ما وضع من أجله)[١].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: حرمة الكبر والتعالي وفضل التواضع:

إن الكبر والتعالي من الأخلاق الذميمة التي ينبغي أن يتجافى عنها المسلم، وهذا في حق البشر، لأن من يفعل هذا ينازع الله تعالى في عزته وكبريائه ويظهر هذا من سياق الحديث ومورده، قال ابن عثيمين: (فمن نازع الله في عزته، وأراد أن يتخذ سلطانًا كسلطان الله، أو نازع الله في كبريائه وتكبر على عباد الله فإن الله يعذبه، يعذبه على ما صنع ونازع الله تعالى فيما يختص به)[٢].

وقد توعد الله المتكبرين بالنار فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾[٣]، وصوّر القرآن حالة قارون في تكبره وعجبه فقال سبحانه: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[٤]، وبيّن عاقبة تكبره وعتوه، فقال جل شأنه: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾[٥].

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي ص ٣٩٥.

(٢) شرح رياض الصالحين ٩٠٣/١.

(٣) سورة الأعراف، آية: ٣٦.

(٤) سورة القصص، آية: ٧٩.

(٥) سورة القصص، آية: ٨١.

وقد جاء الحديث عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((يَطْوِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى. ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ. أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي الأَرَضِينَ بِشِمَالِهِ. ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ. أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟))(١).

وإذا كان الله تعالى توعد المتكبرين بالعذاب فحري بالمسلم أن يتواضع ويلين جانبه، فعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: "من تواضع لله تخشعًا رفعه الله يوم القيامة، ومن تطاول تعظمًا وضعه الله يوم القيامة، وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه رأى رجلاً يختال في مشيته ويجر إزاره، فقال: إن للشيطان إخوانًا"، وقال الأحنف بن قيس: "عجبًا لابن آدم يتكبر وقد خرج من مجرى البول مرتين"، وقال محمد بن الحسين بن علي: "ما دخل قلب امرئ شيء من الكبر قط إلا نقص من عقله بقدر ما دخل من ذلك قل أو كثر"، وقال الحسن: (السجود يذهب بالكبر، والتوحيد يذهب بالرياء)(٢)، وقال الماوردي: (والكبر والإعجاب يسلبان الفضائل ويكسبان الرذائل وليس لمن استوليا عليه إصغاء لنصح ولا قبول لتأديب لأن الكبر يكون بالمنزلة والعجب يكون بالفضيلة)(٣).

---

(١) أخرجه البخاري ٧٤١٢ ومسلم ٢٧٨٨ واللفظ له.

(٢) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين ٥٢٧٦/١١.

(٣) أدب الدنيا والدين، أبو الحسن الماوردي، تحقيق: مصطفى السقا ٢٣١.

الحديث رقم (٦١٩)

٦١٩- وعنه: أنَّ رسول الله ﷺ، قَالَ: ((بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمشِي فِي حُلَّةٍ تُعْجِبُهُ نَفْسُهُ، مُرَجِّلٌ (رَأسَهُ) [(١)]، (يَخْتَالُ فِي مَشْيَتِهِ) [(٢)]، إذْ خَسَفَ اللهُ بِهِ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِي الأَرضِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ)) متفقٌ عَلَيْهِ [(٣)].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

الحلة: ثوبان أحدهما فوق الآخر، وقيل إزار ورداء وهو الأشهر [(٤)].

مرجِّل رأسه: أي ممشِّطه [(٥)]. وترجيل الشعر: تسريحه ودهنه [(٦)].

يختال: يتكبر [(٧)].

خسف الله به: غيَّبَه في الأرض [(٨)].

يتجلجلُ: يغوص وينزل [(٩)].

الشرح الأدبي

أراد الرسول ﷺ أن يبيّن خطر العُجب والخيلاء وشدة عقابهما بأساليب متعددة بحسب ما يقتضيه المقام وفي هذا الحديث اختار أسلوب القصة لتقرير هذا المعنى لما للقصة في النفوس من ميل فطري، وما تؤديه من تربية للقيم، وغرس للفضيلة، وتحقيق

(١) عندهما بلفظ: (جمته).

(٢) قوله: (يختال في مشيته) لا يوجد عندهما.

(٣) أخرجه البخاري ٥٧٨٩، و٥٧٩٠، ومسلم ٢٠٨٨/٤٩.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٧٢/١٠.

(٥) المرجع السابق ٢٧٢/١٠.

(٦) المرجع السابق ورياض الصالحين ٢٧٦.

(٧) الوسيط، مجمع اللغة العربية في (خ ي ل).

(٨) الوسيط، مجمع اللغة العربية في (خ س ف).

(٩) رياض الصالحين ٢٧٦.

للعظة، والعبرة دون اللجوء للأساليب التعليمية المباشرة التي قد لا تتقبلها بعض النفوس، وبالنظر في بنية القصة من جهة البلاغة نرى أنها بدأت بأسلوب تشويقي يثير الانتباه ويحقق الترقب والتطلع لمتابعته حيث بدأ بالظرف (بينما) الذي يوحي بطارق يحدث، ومفاجأة تنتظر، لأن أصلها (بين) زيدت فيها (ما) وتضاف لجملة وتحتاج لخبر، ثم تنكيره لكلمة (رجل) المبهمة التي تزيد النفوس شوقاً لتوضيحها، الأمر الذي يربط المخاطب بالمتكلم حتى نهاية الحديث ثم الفعل المضارع (يمشي) الذي يستحضر صورة رجل في حلة معجب بنفسه يخطو باختيال نحو مصير مرتقب، ثم الجار والمجرور (في حلة) التي توحي بالزهو، والعجب، وتمهد لهذا المصير، ثم جملة (تعجبه) التي تؤكد الخيلاء، وتنص على موضع الخطأ قبل أن يقع عليه العقاب بسبب إعجابه بنفسه، وإعجاب المرء بنفسه هو ملاحظته لها بعين الكمال مع نسيان نعمة الله، فإن احتقر غيره مع ذلك فهو الكبر المذموم، ثم تأتي (إذ) الفجائية التي توحي بسرعة الأخذة، وعجلة الانتقام ثم لفظ (خسف) وروده في صيغة الماضي دلالة على تحقق الخسف، وهو الأخذ في الأرض مقابلة لخيلائه، وتكبره، ثم شبه جملة: (إلى يوم القيامة) التي تشير إلى طول العذاب مع ما تضيفه كلمة (القيامة) بإضافتها لليوم من هول، لأنها من الألفاظ الموحية بطبيعتها، وما تثيره في العقول من مشاهدها، والمتأمل لنسق للعبارات يجد أنها جاءت متناهية الانسجام في فقرات متقاربة (يمشي في حلة، تعجبه نفسه، مرجل جمته، يختال في مشيته) مما أعطى القصة في الأسماع جمال تناغم ترتاح له النفوس، وتستلذه الأسماع، أيضاً هناك التناسب بين الألفاظ والمعاني فمشية المختال المعجب يناسبها ترجيل الشعر، والاختيال في المشية كذلك، والخسف يناسبه التجلجل، أيضاً صياغة الفعل يتجلجل على (تفعلل) يوحي بالاضطراب المشعر بشدة الأخذة، وألم الخسف، وصياغة كل أفعال القصة (يمشي - تعجبه - يختال - يتجلجل) على صورته المضارعية ما عدا الفعل (خسف) على صورة الماضي؛ لأن الفعل المضارع في هذه القصة له عدة فوائد منها: إفادة التجدد، والحدوث، وهي في جانب الرجل تؤكد على تكرار فعله واعتياده لهذه العادات السيئة في المشي اختيالاً، وإعجابه بنفسه، وغروره بزينته، وكذا في الفعل الذي يصوِّر عقابه وما أوقعه فيه من عذاب (يتجلجل) الذي يوحي

بتكرار العذاب وتجدده إلى يوم القيامة ومنها: استحضار الصورة فمن طبيعة الفعل المضارع أن يستحضر الصورة ساعة الحديث، وكأن المخاطب يراها الآن مما يجعله في قلب الحدث فيكون أكثر تفاعلاً مع الأحداث، وانفعالاً بالموقف، ومنها: الحركة، والحيوية التي يُضْفيها على النص فالفعل (يمشي) يعطي حركة المتمطي في مشيته كبراً، والفعل (تعجبه) الذي يحكي حركة النفس زهواً، والفعل (يختال) الذي يحكي حركة الأعضاء الموافقة لحركة النفس زهواً، والثياب زينة. والفعل (يتجلجل) الذي يصوِّر بدلالته حركة المتكبر هبوطاً في الأرض ويصوِّر بوزنه حركته المضطربة من هول الأخذة، وقد استخدم في الحديث جملة اسمية واحدة في التصوير بالوصف في قوله: (مرجل جمته) التي تدل على الثبات والدوام في إشارة إلى أن هذا التزين فخراً صار طبيعة راسخة في نفسه وهو داعيه إلى الكبر[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من وسائل الدعوة: الحكاية.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: حرمة الكبر وعاقبة المتكبرين.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الترهيب.

أولاً- من وسائل الدعوة: الحكاية:

إن وسائل الدعوة متعددة ومتنوعة، ومن هذه الوسائل: الحكاية بما لها من جذب للمدعو، ويتضح هذا مما جاء في الحديث: "بينما رجل يمشي في حلة" والحكاية من وسائل الدعوة التي تشد انتباه المدعوين وتعطيهم العظة والعبرة من حكايات السابقين، قال الشيخ علي محفوظ: (والداعي يعظ الناس بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد بأن يذكرهم نعم الله عليهم وعلى من قبلهم ممن آمن بالرسل في سائر ما سلف من الأيام، ويذكرهم عذاب الله وانتقامه ممن كذب بالرسل من الأمم فيما سلف من الأيام كالذي نزل بعاد وثمود ليزداد الطائع ويقلع العاصي، فهذا محمود لأن فيه عبرة لمعتبر

(١) ينظر بلاغة الرسول ﷺ في تقويم الأخطاء د ناصر راضي الزهري، ١٦٣.

وعظة لمزدجر)[١]، وقد نص الله تعالى في القرآن على أن القصص والحكاية جاءت للعبرة والعظة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[٢]، ومن هنا كانت القصة والحكاية وسيلة هامة من وسائل الدعوة تناسب حالة أي مدعو سواء أكان من عِلْية القوم أو من الضعفاء أو من الأغنياء أو من الفقراء، أو من أصحاب المعاصي والأهواء.

(وإذا كانت القصة أو الحكاية من غير القرآن والسنة فعلى الداعية إلى الله تعالى أن ينتقي من هذه القصص الشيء الصالح المفيد والذي يحوي على العبر التي يقف الناس عندها أما القصص الخيالي أو الكاذب أو الذي ليس فيه خير أو نفع فعلى الداعية أن يضرب صفحًا عنه)[٣].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: حرمة الكبر وعاقبة المتكبرين:

حيث جاء في الحديث: "بينما رجل يمشي في حلة تعجبه نفسه مرجل رأسه يختال في مشيته إذ خسف الله به"، قال ابن حجر: (والحلة ثوبان أحدهما فوق الآخر، وقيل: إزار ورداء وهو الأشهر وخص الإزار بالذكر لأنه هو الذي يظهر به الخيلاء غالبًا، قال القرطبي: إعجاب المرء بنفسه هو ملاحظته لها بعين الكمال مع نسيان نعمة الله فإن احتقر غيره مع ذلك فهو الكبر المذموم)[٤]، ولقد دلت النصوص الشرعية على حرمة الكبر، فلقد كان الكبر سببًا في تمرد وعصيان إبليس، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[٥]، وقال سبحانه: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾[٦].

---

(١) هداية المرشدين ٨٠ - ٨١.

(٢) سورة يوسف، آية: ١١١.

(٣) وسائل الدعوة، د. عبدالرحيم المغذوي ص ١٢٢.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠/٢٧٢.

(٥) سورة البقرة، آية: ٣٤.

(٦) سورة الأعراف، آية: ١٣.

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: ((لاَ يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَىٰ مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلاَءَ))[١]، وقد جاء عن يحيى بن جعدة قال: (من وضع جبينه لله ساجدًا فليس بمتكبر وقد برئ من الكبر، وعن عبد الله بن هبيرة أن سليمان سئل عن السيئة التي لا تنفع معها حسنة؟ قال: الكبر)[٢]، وقال ابن القيم: (أركان الكفر أربعة: الكبر والحسد والغضب والشهوة)[٣]، وجاء في القرآن من وصايا لقمان لابنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾[٤].

وقد جاء في الحديث ما يبين عاقبة المتكبرين في قوله ﷺ: (إذ خسف الله به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة)، وهذا بيان لعاقبة المتكبرين يجعل المدعو في حذر دائم من سوء هذه العاقبة، وقد بين القرآن أن مآلهم النار، قال تعالى: ﴿فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾[٥]، وقال سبحانه: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾[٦]، وجاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((احْتَجَّتِ النَّارُ وَالْجَنَّةُ. فَقَالَتْ هَٰذِهِ: يَدْخُلُنِي الْجَبَّارُونَ وَالْمُتَكَبِّرُونَ. وَقَالَتْ هَٰذِهِ: يَدْخُلُنِي الضُّعَفَاءُ وَالْمَسَاكِينُ))[٧].

ثالثًا- من أساليب الدعوة: الترهيب:

إن الداعية الناجح يستخدم من الأساليب الدعوية ما يستطيع أن يبلغ به دعوته

---

(١) البخاري ٥٧٨٣، ومسلم ٢٠٨٥.

(٢) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين ٥٣٧٨/١١.

(٣) الفوائد، ابن القيم ٢٠٦.

(٤) سورة لقمان، آية: ١٨.

(٥) سورة النحل، آية: ٢٩.

(٦) سورة الزمر، آية: ٦٠.

(٧) أخرجه البخاري ٧٤٤٩، ومسلم ٢٨٤٦ واللفظ له.

ويصل برسالته إلى قلوب المدعوين، ومن هذه الأساليب أسلوب الترهيب حيث جاء في الحديث: "إذا خسف الله به فهو يتجلجل في الأرض يوم القيامة"، حيث رهّب النبي ﷺ من الكبر والاستعلاء والفخر والخيلاء بأن من يفعل هذا يخسف به، ويتجلجل في النار إلى يوم القيامة جزاء لفخره وخيلائه واستعلائه، وهذه الصورة والعاقبة السيئة ترهب المدعو من الوقوع في هذا الأمر، والحذر من الولوج فيه، ومن ثم فإن أسلوب الترهيب من أساليب الدعوة التي تردع المدعو عن مقارفة الآثام والمخالفات الشرعية، "إن النفوس البشرية مختلفة الطباع منها ما يجلبه الترغيب، ومنها ما يخيفه الترهيب، ولهذا جاء القرآن الكريم والسنة النبوية بالأسلوبين، والدعاة إلى الله مطالبون بانتهاج الأسلوبين مع الناس كل حسب ما يناسبه"[١]، ومن استعمال القرآن لأسلوب الترهيب قوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾[٢]، وقوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾[٣].

---

(١) فقه الدعوة، د. بسام العموش ص ٨٦.

(٢) سورة القصص، آية: ٨١.

(٣) سورة فاطر، آية: ٣٦.

الحديث رقم (٦٢٠)

٦٢٠- وعن سَلَمَةَ بنِ الأكْوَعِ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: ((لاَ يَزَالُ الرَّجُلُ يَذْهَبُ بِنَفْسِهِ حَتَّى يُكْتَبَ فِي الجبَّارِين، فَيُصيبَهُ مَا أصَابَهُمْ)) رواه الترمذيُّ[1]، وقال: (حديث حسن).

ترجمة الراوي:

سلمة بن عمرو بن الأكوع: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٥٩).

غريب الألفاظ:

يذهب بنفسِهِ: يرتفع ويتكبر[2].

الشرح الأدبي

الحديث تهديد، ووعيد لأهل الكبر بمصير أسود في الجبارين، - والعياذ بالله - والحديث قصير أسلوبه خبري دون مؤكدات بدأ بجملة تعطي الحدث دلالة الاستمرارية التي تمثل الإصرار، والتمادي في الذنب (لاَ يَزَالُ الرَّجُلُ يَذْهَبُ بِنَفْسِهِ) وقوله (يَذْهَبُ بِنَفْسِهِ) كناية عن العجب بالنفس والتعالي، والتكبر، فالباء للتعدية أي يعلي نفسه، ويرفعها، ويبعدها عن الناس في المرتبة، ويعتقدها عظيمة القدر أو للمصاحبة أي يرافق نفسه في ذهابها إلى الكبر، ويعززها، ويكرمها كما يكرم الخليل الخليل حتى تصير متكبرة، و (حتى) تشير إلى الغاية التي وصل به الكبر إليها، وقوله (يكتب في الجبارين) التعبير بالكتابة يفيد توكيد الإثبات (في الجبارين) أي في ديوان الظالمين، والمتكبرين، أو معهم في أسفل السافلين وقوله (فيصيبه ما أصابهم) جناس يؤكد المطابقة في العقاب كما كانت المطابقة في الفعل وهو الذهاب بالنفس فينالهم من بليات الدنيا، وعقوبات العقبى ما أصاب الجبارين كفرعون، وهامان، وقارون.

---

(١) برقم ٢٠٠٠ وقال: حديثٌ حسنٌ غريبٌ، انتهى. في إسناده: عمر بن راشد، وهو ضعيفٌ. أورده المنذري في ترغيبه ٤٣٠٦.

(٢) رياض الصالحين ٢٧٦.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار والترهيب.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: تحريم الكبر وخطورته.

ثالثًا: من آداب المدعو: الحذر من الكبر ومظاهره.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار والترهيب:

١- **الإخبار:** حيث جاء في الحديث: "لا يزال الرجل يذهب بنفسه"، وأسلوب الإخبار من أساليب الدعوة التي تعرِّف المدعوين بالأمور الشرعية وعاقبة اقتراف المنهيات، وبالإخبار تقوم الحجة على الناس بتبليغهم وتعريفهم أمور الحلال والحرام، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1]، وفي إقامة الحجة على أهل النار قال تعالى: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾[2].

٢- **الترهيب:** حيث جاء في الحديث: "حتى يكتب في الجبارين فيصيبه ما أصابهم"، والترهيب من أساليب الدعوة التي ترد جماح النفس، وأسلوب الترهيب يخوف النفس عاقبة المعصية، "والنفس البشرية بقدر ميلها لأساليب الترغيب لحرصها على ما ينفعها فإنها بحاجة إلى الترهيب لردعها عن غيها وانحرافها عن الطريق المستقيم، لأن الترهيب فيه تخويف يحمل النفس وصاحبها على ترك المعاصي والآثام واجتناب الجرائم والذنوب وما أعده الله من شديد العقاب وأليم العذاب لمن طغى وبغى وعاند وعصى"[3]، ومن صور استعمال القرآن لأسلوب الترهيب قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ۝١٩ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ۝٢٠ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾[4].

---

(١) سورة النحل، آية: ٤٤.

(٢) سورة فاطر، آية: ٣٧.

(٣) قواعد الدعوة الإسلامية، د. حمدان الهجاري ص ٥١٥.

(٤) سورة الحج، الآيات: ١٩ - ٢١.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: تحريم الكبر وخطورته:

إن الكبر بجانب كونه حرامًا؛ فإنه خطر على الإنسان حيث يورده المهالك والمهاوي ويجني الإنسان ثماره المرة يوم القيامة، ويتضح هذا من سياق الحديث ومما لا شك فيه حرمة الكبر والترفع، (لأن الكبر والعظمة لا يليق إلا بالملك القادر، فأما العبد المملوك الضعيف العاجز الذي لا يقدر على شيء، فمن أين يليق بحاله الكبر واستعظام النفس واستحقار الغير، فمهما تكبر العبد فقد نازع الله تعالى في صفة لا تليق إلا بجلاله، ومما هو معلوم أنه لا يتكبر إلا من استعظم نفسه، ولا يستعظمها إلا وهو يعتقد لها صفة من صفات الكمال، وجماع ذلك إلى كمال ديني أو دنيوي، فالديني هو العلم والعمل والدنيوي هو النسب والجمال والقوة والمال وكثرة الأنصار)[1]، والكبر آفة عظيمة كبيرة وفيه يهلك الكثير من الناس، "ويح المتكبرين ما أعظم حمقهم وما أضلهم وأجهلهم بأي وصف يتكبرون، وبأي عمل يتجبرون، من علم أنه مخلوق فقير ناقص من كل وجه فبأي شيء يتكبر، مَنْ فهم أن أوله نطفة مذرة وآخره جيفة قذرة وهو بين ذلك يحمل العذرة فبأي شيء يعجب ويفتخر، تا الله إن الفخر كل الفخر بالتواضع لله ولعباد الله)[2].

ومما هو معلوم: خطورة الكبر على الإنسان حيث يورده المهلكات ويصده عن قبول الحق، (إن المتكبر يجل نفسه عن رتبة المتعلمين، والمعجب يستكثر فضله عن استزادة المتأدبين، فلذلك وجب تقويم القول فيهما بإبانة ما يكسبانه من ذم، ويوجبانه من لوم فلو تصور المعجب المتكبر ما فطر عليه من جبلة، وبلي به من مَهْنة لخفض جناح نفسه، واستبدل لينًا من عتوه، وسكونًا من نفوره)[3]، وإذا كان الكبر بهذه الخطورة وعاقبته وخيمة فواجب الدعاة إلى الله أن يبينوا للناس خطورة الكبر ليحذروه ويجانبوه.

---

(١) موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين، جمال الدين القاسمي ص ٢٩٣.

(٢) الرياض الناضرة، عبد الرحمن السعدي ص ١٠٩.

(٣) أدب الدنيا والدين، أبو الحسن الماوردي، تحقيق: مصطفى السقا ص ٢٣٣.

ثالثًا- من آداب المدعو: الحذر من الكبر ومظاهره:

يتضح هذا من سياق الحديث، وإذا ثبت للمدعو خطورة الكبر فيجب عليه أن يحذر منه ومن مظاهره حتى لا يتخلق ولا يتشبه بأفعال المتكبرين، قال ابن قدامة: (واعلم أن التكبر يظهر في شمائل الإنسان كصعر وجهه ونظره شزرًا وإطراق رأسه وجلوسه متربعًا ومتكئًا وفي أقواله وصيغة إيراده الكلام، ويظهر ذلك أيضًا في مشيه وتبختره وقيامه وقعوده وحركاته وسكناته وسائر تقلباته)[1].

وهذه سمات المتكبرين في عصره، وفي زمننا عدم القاء السلام والرد بأنفة والحرص على صدارة المجلس، فضلاً عن أسلوب كلامه.

وقد بين ابن قدامة درجات الكبر فقال: (اعلم أن العلماء والعُبّاد في آفة الكبر على ثلاث درجات: الأولى: أن يكون الكبر مستقرًا في قلب الإنسان منهم فهو يرى نفسه خيرًا من غيره، إلا أنه يجتهد ويتواضع فهذا في قلبه شجرة الكبر مغروسة إلا أنه قد قطع أعضائها.

الثانية: أن يظهر لك بأفعاله من الترفع في المجالس، والتقدم على الأقران والإنكار على من يقصر في حقه فترى العالم يصعر خده للناس كأنه معرض عنهم، والعابد يعيش ووجهه كأنه مستقذر لهم، وهذان قد جهلا ما أدب الله به نبيه ﷺ حين قال: ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[2].

الثالثة: أن يظهر الكبر بلسانه كالدعاوى والمفاخرة وتزكية النفس، وحكايات الأحوال في معرض المفاخرة لغيره، وكذلك التكبر بالنسب فالذي له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب، وإن كان أرفع منه عملاً. وكذلك التكبر بالمال والجمال والقوة وكثرة الأتباع ونحو ذلك، وفي الجملة فكل ما يمكن أن يعتقد كمالاً فإن لم يكن في نفسه كمالاً أمكن أن يتكبر به حتى إن الفاسق قد يفتخر بكثرة

---

(١) مختصر منهاج القاصدين، ابن قدامة المقدسي ص ٢٥٠.

(٢) سورة الشعراء، آية: ٢١٥.

شرب الخمر والفجور لظنه أن ذلك كمالاً)[١]، قال الميداني: (يرجع الكبر في جذوره النفسية إلى شعور المغرور بالاستعلاء الذاتي على الأقران والنظراء وإلى المكانة التي يجد المستكبر نفسه فيها داخل مجتمعه، ويرجع إلى الرغبة بإشعار الآخرين بالامتياز عليهم، ولو لم يكن لهذا الامتياز وجود في الواقع فهو انتفاخ بغير حق، وتطاول بغير حق)[٢].

وقال ابن حجر الهيثمي: (للكبر أنواع ثلاثة:

الأول: الكبر على الله تعالى وهو أفحش أنواع الكبر، وذلك مثل تكبر فرعون ونمرود حيث استنكفا أن يكونا عبدين لله.

الثاني: الكبر على رسول الله ﷺ بأن يمتنع المتكبر من الانقياد له تكبرًا وجهلاً وعنادًا كما فعل كفار مكة.

الثالث: الكبر على العباد بأن يستعظم نفسه ويحتقر غيره ويزدريه فيتأبى عن الانقياد له ويترفع عليه وهذا وإن كان دون الأولين إلا أنه عظيم إثمه أيضًا، لأن الكبرياء والعظمة إنما يليقان بالله تعالى وحده)[٣].

فعلى المدعو أن يحذر الكبر ويجتنبه، فإن خطره عظيم، وإثمه كبير، وعاقبته الخسران، والغضب من العلي الجليل في يوم لا تنفع فيه توبة ولا ندم.

---

(١) مختصر منهاج القاصدين ٢٤٩ - ٢٥٠.

(٢) الوجيزة في الأخلاق الإسلامية ٢٨٦.

(٣) الزواجر عن اقتراف الكبائر، ابن حجر الهيثمي ص ٩٠.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

اشتمل هذا الباب على عدد من المضامين التربوية التي ترمي إلى البعد عن الكبر والتحلي بالتواضع، ومن أبرز هذه المضامين ما يلي:

أولاً- التربية على مجانبة الكبر:

إن من الأمور المهمة في التربية التدريب والتنشئة على مجانبة الكبر والعجب لما له من آثار سلبية على تصرفات صاحبه، ولما له من أثر في شرخ العلاقات الاجتماعية بين الناس، وما ينتظر صاحبه من وعيد في الآخرة، ومن ثمَّ أورد الإمام النووي في باب تحريم الكبر والإعجاب عددًا من الأحاديث تكشف عن خطورة الكبر وما يحيق بصاحبه، ومنها: "لايدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر..."، وقوله: "ألا أخبركم بأهل النار، كل عتل جواظ مستكبر"، وقوله: "لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره بطرًا"، وغير ذلك من أحاديث الباب، وعلى هذا فواجب المربين الاهتمام بالتربية على مجانبة الكبر والعجب، واستئصال هذا السلوك السيئ وبيان خطره.

"ومن الممكن أن نتصور خطورة الكبر على الحياة البشرية من خلال تصورنا أن هذا المرض قد عم كل الناس فكيف يكون الحال؟ تصوروا أن كل إنسان قد ازدرى كل الناس فماذا يكون؟ لا يبقى في هذه الحالة احترام لأحد ولا هيبة لأحد ولا حرمة لأحد ولا أدب مع أحد، وتصوروا حياة بشرية ليس فيها احترام ولا هيبة ولا حرمة ولا أدب. ثم تصوروا أن كل إنسان في هذا العالم إذا عرض عليه الحق رفضه، فكيف يكون أمر هذا العالم؟ عندئذٍ لا يستطيع اثنان أن يتفاهما على شيء إلا بالقهر على الباطل، فما لم يجتمع الناس على حق يجتمعون على باطل، وعندئذٍ فالقوي هو الذي ينفذ أمره، ويترتب على هذا الظلم والغصب والإرهاب والإرهاق والعدوان، وإهدار الكرامات والحقوق، وإذا عُلم هذا عرف كم يجب على الدعاة والمربين أن يمتلكوا ناصية علم التزكية كطريق لابد منه لإيجاد جماعة صالحة ومجتمع صالح"(١).

---

(١) المستخلص في تزكية الأنفس، سعيد حوَّى، ص١٩٥.

إن الناس في كثير من الأحيان يعجزون عن التفرقة بين عزة المؤمن والكبر، والمسلمون أحيانًا يعجزون عن التفرقة بين التواضع والمظهر الحسن، وهذا اللبس دفع كثيرين إلى الخلط في الأمور، وهو ما يتطلب جلاءً وإيضاحًا نقول: "المسلم مطالب بإظهار العزة والتظاهر بها، أخذًا من الآية الكريمة: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، وتتأكد هذه العزة إذا لاقى المسلم غير المسلم، وأدرك أن التواضع سيفهم على غير وجهه فلا بد من إظهار العزة في هذه الحالة.

وشراح الحديث قالوا: إنما نهى الرسول ﷺ عن بدء اليهود والنصارى بالسلام حتى يظهروا عزة الإسلام، ولا يفهم السلام ابتداء على أنه ضعف أو تواضع ولين.

ومع عزة الإسلام فالمسلم متواضع كل التواضع في صيغ الخطاب مع المسلمين، أخذًا من الآية الكريمة ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[2]، ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾[3]. ولهذا كان النهي عن تكبر المسلم على المسلم وكان الأمر بالتواضع.

وهل التكاليف الشرعية في الصلاة إلا داعية إلى المظهر الحسن بالدرجة الأولى إن الكبر في القلب قبل أن يكون على اللسان، وإنه في الجوهر قبل المظهر، ولهذا بيّن الرسول ﷺ أن مثقال ذرة من كبر في قلب الإنسان تمنع من دخوله الجنة، وإذا برجل يسأل: يا رسول الله إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنةً، فقال له الرسول ﷺ: إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس.

١) أن يرى الإنسان نفسه فوق غيره من سائر خلق الله في المنزلة والمكانة.

٢) أن يحتقر الآخرين لنسبهم أو فقرهم أو مرضهم أو جهلهم.

٣) أن يرد على الناصحين نصحهم وعلى المرشدين إرشادهم لأنه أكبر من أن ينصح.

---

(١) سورة المنافقون، آية: ٨.

(٢) سورة المائدة، آية: ٥٤.

(٣) سورة الشعراء، آية: ٢١٥.

٤) أن يمشي مختالاً تعجبه نفسه، يرى أنه سيدٌ والناس له خدم، يشعر بعلية ويرى الآخرين في دونية.

وأما التواضع فإنه سمة الأنبياء والمرسلين، فقد رأيناهم على سمو مكانتهم وعلو منزلتهم يحيون كما يحيا غيرهم، يجلسون معهم ويأكلون مما يأكلون، بل هم دونهم في العيش، يعتمدون على كسب اليد وإن كانوا ملوكًا، كما ورد بحق داود وسليمان عليهما السلام.

ثانيًا- التربية بالترهيب:

إن من أساليب التربية أسلوب التربية بالترهيب، وهو يزجر النفس ويخوفها من مغبة الوقوع في المنهي عنه، وقد جاء الترهيب في أحاديث الباب في مواضع متعددة منها قوله ﷺ: "ألا أخبركم بأهل النار..."، ومنها: "احتجت الجنة والنار فقالت النار: فيَّ الجبارون والمتكبرون..." ومنها: "لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين فيصيبه ما أصابهم" وغير ذلك من الأحاديث التي جاءت ترهب من الكبر.

"إن أسلوب الترهيب أسلوب تربوي ضروري لا يمكن الاستغناء عنه في مجال التربية وخاصة تربية الطفل، وهو من أساليب التربية الإسلامية المهمة، ولأهميته ورد ذكره في عدة مواضع من القرآن الكريم، ولأهميته في العملية التربوية فقد استخدمه رسول الله ﷺ في المواقف التي تحتاج إلى بيان الوعيد أو التهديد بالعقوبة لمن يعمل عملاً لا يوافق الشريعة الإسلامية ويُغضب الله تعالى، فكان رسول الله ﷺ يربي الصحابة رضي الله عنهم على تجنب المنكرات والوقوع فيها" [1].

ثالثًا- التربية بالمراقبة والملاحظة:

من وسائل التربية النافعة التربية بالمراقبة والملاحظة وهي تشمل الكبار والصغار، ومن أحاديث الباب التي تبين التربية بالمراقبة والملاحظة ما جاء عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه أن رجلاً أكل عند رسول الله ﷺ بشماله فقال: كل بيمينك....".

---

(١) أساليب التربية الإسلامية في تربية الطفل، عبدالرحمن بن عبدالوهاب البابطين، ص٣٦-٣٨.

وهذا يدلل على مراقبة الرسول ﷺ وملاحظته لهذا الرجل، وأكله بيده الشمال، وتوجيهه وإرشاده إلى تعديل سلوكه، وأن يأكل باليمين.

"ومن الأمور التي لا يختلف فيها اثنان أن ملاحظة الولد ومراقبته لدى المربي هي من أفضل أسس التربية وأظهرها... ذلك لأن الولد دائمًا موضوع تحت مجهر الملاحظة والملازمة، حيث المربي يرصد عليه جميع تحركاته وأقواله وأفعاله واتجاهاته، فإن رأى خيرًا أكرمه وشجعه عليه، وإن رأى منه شرًا نهاه عنه وحذّره منه، وبيّن له عواقبه الوخيمة، ونتائجه الخطيرة وتطبيقات النبي ﷺ للملاحظة والمراقبة لأفراد المجتمع تَخُطُّ للمربين جميعًا المنهج العملي في التربية، والطريقة المجدية المؤثرة في الإصلاح وتهيب بكل من كان في عنقه حق التربية، ومسؤولية التوجيه أن يبذل قصارى جهده وأن يوجه غاية اهتمامه في سبيل إسعاد الولد وإصلاحه، والرفع من مستواه العقلي والنفسي والأخلاقي"[(١)].

رابعًا- التربية الجمالية:

إن من أهداف التربية الإسلامية التي تهدف إلى غرسها في نفوس المتربين التربية الجمالية، والمتأمل في أحاديث الباب يلمس هذا الجانب التربوي الجمالي، وذلك في الحديث: "... فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة؟ قال: إن الله جميل يحب الجمال...".

والأشياء الجمالية هي كل ما يسر العين، ويسري في النفس إحساس بالراحة والمتعة سواء كان في الشكل أو اللون أو السلوك أو الحقائق أو الأصوات، ولذا كان الهدف الأول للتربية الإسلامية هو تكوين الشخصية المتكاملة بجوانبها المختلفة، فإن الجانب الجمالي يعتبر في نظر المربين لا يقل أهمية في تكوين الشخصية عن أي جانب آخر كالعقلي أو الجسمي أو الاجتماعي أو الروحي"[(٢)].

---

(١) انظر: تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان ص ٢/٧٢٩-٧٣٤.

(٢) فلسفة التربية الإسلامية، د. عبدالجواد سيد بكر ص٢٤٢، ٢٤٣.

خامسًا- من الأساليب التربوية: المناقشة والحوار والتمهيد:

وردت في الباب عدة أساليب تربوية، يجدر أن يستفاد منها في التعليم والتربية، من ذلك:

أ-المناقشة والحوار: كما في حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ، فقَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنا، وَنَعْلُهُ حَسَنَة))، والمناقشة والحوار من الأساليب التي يجدر بالمعلم أن يفعلها في تعليمه وفي تربيته لمن يقوم بتربيتهم، لأنها تتيح للمتعلم أن يشارك وأن يكون إيجابيًا، وأن تنمو لديه الدافعية للتعلم والاطلاع والرغبة في المعرفة.

ب-التمهيد: كما في حديث حارثة بن وهب رضي الله عنه ((سمعت رسول الله ﷺ يقول: أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟))، ويمكن للمعلم أن يمهد للدراسة بسؤال أو نحو ذلك؛ ليجذب انتباه المتعلمين نحو الدرس.

❁ ❁ ❁

٧٣- باب حسن الخلق

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم: ٤]، وقال تَعَالَى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١٣٤] الآية.

الحديث رقم (٦٢١)

٦٢١- وعن أنس رضي الله عنه، قال: كَانَ رسولُ الله ﷺ أحْسَنَ النَّاس خُلُقاً. متفقٌ عَلَيْهِ(١).

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

الشرح الأدبي

الحديث قصير موجز يتناول في إجمال أخلاق النبي ﷺ والتعبير بكان إشارة إلى حالة واقعة ثابتة في زمن قبل زمن الحدث معتادة للمُتحدَث عنه، والتعبير بأفعل التفضيل (أحسن) ترتقي بالصفة رؤوس جميع الموصفين، وبكونها وصفا لرسول الله ﷺ تتخطى حدود الزمان، والمكان لترتقي بالصفة رؤوس العالمين في حسن خلقه يدل على ذلك تعريف الناس بلام الجنس التي تشمل الجميع بحكم التفضيل عليهم في هذه الصفة، والشواهد على حسن خلق النبي ﷺ أكثر من أن تحصى في موضع وليس أدل على ذلك من شهادة علام الغيوب (وإنك لعلى خلق عظيم)، قال الشيخ سيد قطب في تفسير الآية: وتتجاوب أرجاء الوجود بهذا الثناء الفريد على النبي الكريم؛ ويثبت هذا الثناء العلوي في صميم الوجود! ويعجز كل قلم، ويعجز كل تصور، عن وصف قيمة هذه الكلمة العظيمة من رب الوجود، وهي شهادة من الله، في ميزان الله، لعبد الله، يقول له فيها: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾. ومدلول الخلق العظيم هو ما هو عند الله مما لا

---

(١) أخرجه البخاري ٦٢٠٣، ومسلم ٥٥/٢٣١٠ ولفظهما سواء.

يبلغ إلى إدراك مداه أحد من العالمين! ودلالة هذه الكلمة العظيمة على عظمة محمد ﷺ تبرز من نواح شتى: تبرز من كونها كلمة من الله الكبير المتعال، يسجلها ضمير الكون، وتثبت في كيانه، وتتردد في الملأ الأعلى إلى ما شاء الله، وتبرز من جانب آخر، من جانب إطاقة محمد ﷺ لتلقيها. وهو يعلم من ربه هذا، قائل هذه الكلمة. ما هو؟ ما عظمته؟ ما دلالة كلماته؟ ما مداها؟ ما صداها؟ ويعلم من هو إلى جانب هذه العظمة المطلقة، التي يدرك هو منها ما لا يدركه أحد من العالمين، والله أعلم حيث يجعل رسالته. وما كان إلا محمد ﷺ بعظمة نفسه هذه من يحمل هذه الرسالة الأخيرة بكل عظمتها الكونية الكبرى. فيكون كفئاً لها، كما يكون صورة حية منها، إن هذه الرسالة من الكمال والجمال، والعظمة والشمول، والصدق والحق، بحيث لا يحملها إلا الرجل الذي يثني عليه الله هذا الثناء. فتطيق شخصيته كذلك تلقي هذا الثناء. في تماسك وفي توازن، وفي طمأنينة. طمأنينة القلب الكبير الذي يسع حقيقة تلك الرسالة وحقيقة هذا الثناء العظيم. ثم يتلقى بعد ذلك عتاب ربه له ومؤاخذته إياه على بعض تصرفاته، بذات التماسك وذات التوازن وذات الطمأنينة. ويعلن هذه كما يعلن تلك، لا يكتم من هذه شيئاً ولا تلك.. وهو هو في كلتا الحالتين النبي الكريم. والعبد الطائع. والمبلغ الأمين(١).

المضامين الدعوية(٢)

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: بيان كمال خلق النبي ﷺ.

ثالثاً: من آداب الداعية: التأسي بالنبي ﷺ في حسن الخلق.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: البعد عن الفحش والتفحش.

خامساً: من موضوعات الدعوة: الحث على حسن الخلق.

سادساً: من أساليب الدعوة: الترغيب.

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، تفسير سورة القلم.

(٢) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -٦٢١- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (٦٢٥).

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار:

قد ورد هذا الأسلوب في الحديثين من إخبار أنس ﷺ بكمال خلق النبي ﷺ، وذلك في قوله ﷺ "كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً" وقول عبدالله بن عمرو بن العاص ﷺ: "لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً... إلخ" والإخبار من الأساليب الدعوية التي تعين الداعية على تبليغ دعوته وبيان سنة نبيه وهذا ما ورد في نص الحديث وفي ذلك عظيم الفائدة.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: بيان كمال خُلُق النبي ﷺ:

(إن حسن الخلق لا يؤسس في المجتمع بالتعاليم المرسلة، أو الأوامر والنواهي المجردة، إذ لا يكفي في طبع النفوس على الفضائل أن يقول المعلم لغيره: افعل كذا، أولا تفعل كذا، فالتأديب المثمر يحتاج إلى تربية طويلة، ويتطلب تعهداً مستمراً، ولن تصلح تربية إلا إذا اعتمدت على الأسوة الحسنة، فالرجل السيء لا يترك في نفوس من حوله أثراً طيباً، وإنما يتوقع الأثر الطيب ممن تمتد العيون إلى شخصه، فيروعها أدبه ويسبيها نبله، وتقتبس -بالاعجاب المحض- من خلاله، وتمشي بالمحبة الخالصة في آثاره، بل لابد -ليحصل التابع على قدر كبير من الفضل- أن يكون في متبوعه قدر أكبر، وقسط أجل، وقد كان رسول الإسلام بين أصحابه مثلاً أعلى للخلق الذي يدعو إليه فهو يغرس بين أصحابه هذا الخلق السامي، بسيرته العاطرة، قبل أن يغرسه بما يقول من حكم وعظات)[(١)].

وهذا ما أشار إليه الحديثان: الأول من قول أنس ﷺ "كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً" والثاني من قول عبدالله بن عمرو ﷺ "لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً...الخ"، وقد شهد الحق تبارك وتعالى لنبيه بكمال خلقه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[(٢)] أي: "عليٌّ به مُستَعلٍ بخُلُقِك الذي منّ الله عليك به وحاصل خلقه

(١) خلق المسلم، محمد الغزالي، ١٤.

(٢) سورة القلم، آية:٤.

العظيم، ما فسرته به أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لمن سألها عنه فقالت: ((كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ))[١]، فكان ﷺ سهلاً ليناً، قريباً من الناس مجيباً لدعوة من دعاه، قاضياً لحاجة من استقضاه، جابراً لقلب من سأله، لا يحرمه، ولا يرده خائباً، وإذا أراد أصحابه منه أمراً، وافقهم عليه، وتابعهم فيه، وإذا لم يكن فيه محذور، وإن عزم على أمر، لم يستبد به دونهم، بل يشاورهم، ويؤامرهم، وكان يقبل من محسنهم، ويعفو عن مسيئهم ولم يكن يعاشر جليساً إلا أتم عِشْرةً وأحسنَها، فكان لا يعبس في وجهه، ولا يغلظ عليه في مقاله، ولا يطوي عنهِ بِشْرَهُ، ولا يمسك عليه فلتات لسانه، ولا يؤاخذه بما يصدر منه، من جفوة، بل يحسن إليه غاية الإحسان، ويحتمله غاية الاحتمال"[٢].

وفي ذلك قال القاضي عياض: (وأما الخصال المكتسبة من الأخلاق الحميدة والآداب الشريفة التي اتفق جميع العقلاء على تفضيل صاحبها وتعظيم المتصف بالخلق الواحد منها فضلاً عما فوقه وأثنى الشرع على جميعها وأمر بها ووعد السعادة الدائمة للمتخلق بها ووصف بعضها بأنه من أجزاء النبوة، وهي المسماة بحسن الخلق وهو الاعتدال في قوى النفس وأوصافها، والتوسط فيها دون الميل إلى منحرف أطرافها؛ فجميعها قد كانت خلق نبينا ﷺ على الانتهاء في كمالها. والاعتدال إلى غايتها)[٣]. وليس أدل على ذلك من قول أنس بن مالك رضي الله عنه: ((خَدمتُ النبيَّ ﷺ عشر سنينَ، فما قال لي أُفّ، ولا: لمَ صَنَعتَ؟ ولا ألا صنعت))[٤].

وعنه رضي الله عنه أنه قال: ((كانتِ الأَمَةُ من إماء أهلِ المدينة لَتَأخُذُ بيد رسولِ الله ﷺ فتنطَلِقُ به حيث شاءت))[٥] (والمقصود من الأخذ باليد وهو الرفق والانقياد. وقد اشتمل

---

(١) أخرجه مسلم ٧٤٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٨١٤.

(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض ١٧٣/١.

(٤) أخرجه البخاري ٦٠٣٨، مسلم ٢٣٠٩.

(٥) أخرجه البخاري ٦٠٧٢.

على أنواع المبالغة في التواضع لذكره المرأة دون الرجل، والأمة دون الحرة وحيث عمم بلفظ الإماء أي أمة كانت. والتعبير بالأخذ باليد إشارة إلى غاية التصرف حتى لو كانت حاجتها خارج المدينة والتمست منه مساعدتها في تلك الحاجة لساعد على ذلك، وهذا دال على مزيد تواضعه وبراءته من جميع أنواع الكبر ﷺ)[١]، وما ذلك إلا لكمال خلقه ﷺ، وعن أنس رضي الله عنه قال: ((مَا رَأَيْتُ رَجُلاً الْتَقَمَ أُذُنَ رسول الله ﷺ فَيُنَحِّي رَأْسَهُ حَتَّى يَكُونَ الرَّجُلُ هُوَ الَّذِي يُنَحِّي رَأْسَهُ، وَمَا رَأَيْتُ رَجُلاً أَخَذَ بِيَدِهِ فَتَرَكَ يَدَهُ حَتَّى يَكُونَ الرَّجُلُ هُوَ الَّذِي يَدَعُ يَدَهُ))[٢]. وفي ذلك بيان لعظم وكمال خلق النبي ﷺ.

ثالثاً- من آداب الداعية: التأسي بالنبي ﷺ في حسن الخلق:

إن الداعية إلى الله بحاجة إلى أن يتأسى بالنبي ﷺ في كافة أموره التي من جملتها حسن الخلق، وقد أمر الحق تبارك وتعالى بالتأسي بالنبي ﷺ في عموم أمره فقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[٣]، قال القرطبي في قوله تعالى: "أسوة": (الأسوة القدوة، والأسوة ما يتأسى به؛ أي: يُتعزى به فيقتدي به في جميع أفعاله ويتعزّى به في جميع أحواله)[٤]، فعلى الداعية أن يتأسى بالنبي ﷺ في عظم وكمال أخلاقه ﷺ لما في ذلك من الفلاح في الدنيا والآخرة حيث قال ﷺ: ((إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِساً يَوْمَ القِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلاَقاً...))[٥]. فالداعية خليفة رسول الله ﷺ وهو قدوته التي يجب أن يتأسى بها، فعليه أن يلتزم بحسن الخلق تأسيًا بالنبي ﷺ.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر، ٥٠٦/١٠.

(٢) أخرجه أبو داود ٤٧٩٤، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤٠٠٩).

(٣) سورة الأحزاب، آية:٢١.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٥٥/١/٧.

(٥) أخرجه الترمذي ٢٠١٨، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٦٤٢).

رابعاً- من موضوعات الدعوة: البعد عن الفحش والتفحش:

هذا ما أشار إليه نص الحديث الثاني في قول الراوي: لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً. قال الجرجاني: (والفحش هو ما ينفر عنه الطبع السليم ويستنقصه العقل السليم)[١]. وقال ابن حجر: (والفحش كل ما خرج عن مقداره حتى يستقبح، ويدل في القول والفعل والصفة...، والمتفحش بالتشديد الذي يتعمد ذلك ويكثر منه ويتكلفه)[٢].

وقد نهى النبي ﷺ عن ذلك فعن عائشة رضي الله عنها: ((أن يَهودَ أتَوُا النبيَّ ﷺ فقالوا: السّامُ عليكم، فقالت عائشة: عليكم، ولعنَكُم الله وغضِبَ الله عليكم. قال: مهلاً يا عائشة، عليكِ بالرِّفق، وإياكِ والعنفَ والفُحش. قالت: أولم تَسمع ما قالوا؟ قال: أَوَلم تسمعي ما قلتُ؟ ردَدتُ عليهم، فيُستجابُ لي فيهم، ولا يُستجاب لهم فيَّ))[٣].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ((استأذَنَ رجلٌ على رسولِ الله ﷺ، فقال: ائذَنوا له، بئسَ أخو العشيرة أو ابن العشيرة. فلما دَخلَ ألانَ له الكلام. قلت يا رسول الله قلتَ الذي قلتَ ثم ألَنتَ له الكلام. قال: أي عائشة رضي الله عنها، إنَّ شر الناس مَن تركه الناس - أو وَدَعهُ الناس - اتقاءَ فُحشِهِ))[٤]. وفي ذلك قال ابن حجر الهيتمي: (إن ملازمة الشر والفحش من الكبائر...، وإن الفحش والتفحش ليس من الإسلام في شيء، وإن أحسن الناس إسلاماً أحسنهم خلقاً)[٥]. وهذا ما أكده النبي ﷺ في قوله: ((لَيْسَ المُؤْمِنُ بالطَّعَّانِ ولاَ اللَّعَّانِ ولا الفَاحِشِ ولا البَذِيِّ))[٦] والله دَرُّ القائل:

---

(١) التعريفات ٢١٢.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠/٤٦٧.

(٣) البخاري، ٦٠٣٠.

(٤) أخرجه البخاري ٦٠٥٤، ومسلم ٢٥٩١.

(٥) الزواجر عن اقتراف الكبائر، أبو العباس أحمد بن محمد الهيتمي، ط/٢، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٩٩٣م، ١٥٢-١٥٣.

(٦) أخرجه أحمد ١/٤٠٥ رقم ٣٨٣٩، وقال محققو المسند: إسناده صحيح ٦/٣٩٠.

أحب مكارم الأخلاق جهدي وأكره أن أعيب وأن أعابا
وأصفح عن سباب الناس حلماً وشرُّ الناس من يهوى السبابا [(١)]

خامساً- من موضوعات الدعوة: الحث على حسن الخلق:

هذا مما يستنبط من الحديث الأول حيث أخبر أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ كان أحسن الناس خلقًا، وهو القدوة والأسوة الحسنة لجميع المسلمين وفي هذا حث على التحلي بحسن الخلق، وكذا ما أشار إليه نص الحديث الثاني في قوله ﷺ "إن من خياركم أحسنكم أخلاقاً" قال النووي: (فيه الحث على حسن الخلق وبيان فضيلة صاحبه وهو صفة أنبياء الله تعالى وأوليائه قال الحسن البصري: حقيقة حسن الخلق بذل المعروف وكف الأذى وطلاقة الوجه، قال القاضي عياض: هو مخالطة الناس بالجميل والبشر والتودد لهم والإشفاق عليهم واحتمالهم والحلم عنهم والصبر عليهم في المكاره وترك الكبر والاستطالة عليهم ومجانبة الغلظ والغضب والمؤاخذة قال: وحكى الطبري خلافاً للسلف في حسن الخلق هل هو غريزة أم مكتسب؟ قال القاضي: والصحيح أن منه ما هو غريزة ومنه ما يكتسب بالتخلق والاقتداء بغيره)[(٢)].

وقد حث النبي ﷺ على حسن الخلق ببيان عظيم فضله فقال: ((إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ))[(٣)] قال صاحب عون المعبود (... وإنما أعطى صاحب الخلق الحسن هذا الفضل العظيم لأن الصائم والمصلي في الليل يجاهدان أنفسهما في مخالفة حظهما، وأما من يحسن خلقه مع الناس مع تباين طبائعهم وأخلاقهم فكأنه يجاهد نفوساً كثيرة فأدرك ما أدركه الصائم القائم فاستويا في الدرجة بل ربما زاد)[(٤)].

---

(١) مكارم الأخلاق. قافية الباء ص ٣١، العقد الفريد. قافية الألف ١٣٢/٢، كتاب السحر الحلال. قافية الباء ١٣/١.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٤٣٠.

(٣) أخرجه أبو داود ٤٧٩٨، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤٠١٣).

(٤) عون المعبود على سنن أبي داود، شرف الحق بن العظيم آبادي، ٢٠٨٣.

سادساً- من أساليب الدعوة: الترغيب:

ورد الترغيب في حسن الخلق في الحديث في قول أنس ﵁ "كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خُلقًا" وهذا من أعظم المرغبات، وكيف لا؟ وقد تحلى القدوة العظمى، وصاحب الصفات العليا بحسن الخلق، فهل يوجد مسلم يرجو الهداية و الثواب، ولا يرغب أن يتخلق بما اتصف به خير الخلق محمد ﷺ، كما ورد الترغيب في الحديث الثاني من قوله ﷺ "إن من خياركم أحسنكم أخلاقاً" (والترغيب من الأساليب الدعوية الهامة التي ينبغي للداعية استخدامها في دعوته مما يشوق نفس المدعو إلى ما رغبت فيه، فيحملها ذلك على الانقياد والقبول، والأصل في الترغيب أن يكون في نيل رضى الله ورحمته وجزيل ثوابه في الآخرة)[1]. وهذا ما ورد في الحديث من ترغيبه ﷺ في حسن الخلق.

---

(١) انظر: أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان، ٤٢١.

الحديث رقم (٦٢٢)

٦٢٢- وعنه، قَالَ: مَا مَسِسْتُ دِيبَاجاً وَلاَ حَرِيراً أَلْيَنَ مِنْ كَفِّ رسولِ اللهِ ﷺ، وَلاَ شَمَمْتُ رَائِحَةً قَطُّ أَطْيَبَ مِنْ رَائِحَةِ رسولِ اللهِ ﷺ (1).

لَقَدْ خدمتُ رسول اللهِ ﷺ عَشْرَ سنين، فما قَالَ لي قَطُّ: أُفٍّ، وَلاَ قَالَ لِشَيءٍ فَعَلْتُهُ: لِمَ فَعَلْتَه؟ وَلاَ لشَيءٍ لَمْ أفعله: ألاَ فَعَلْتَ كَذا؟ متفقٌ عَلَيْهِ (2).

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

ديباجاً: الثوب المصنوع من الحرير (3).

أُفٍّ: كلمة تضجُّر وتكرُّه (4).

الشرح الأدبي

الحديث يتصدره أسلوب نفي (مَا مَسِسْتُ دِيبَاجاً وَلاَ حَرِيراً أَلْيَنَ مِنْ كَفِّ رسولِ اللهِ ﷺ) يقرر جانبا من جماله الظاهري ﷺ، وهو لين كفه ﷺ وطيب رائحته، ويقرر الراوي عن طريق أفعل التفضيل (ألين - أطيب) أنه فاق الجميع في لين يده، وطيب رائحته، وتنكير كلمة ديباج، وحرير يفيد التعميم ويفضلها على رمز النعومة مما هو معروف عندهم من أنواع الثياب، وتأكيد النفي بلفظ (قط) يؤكد طيب النشر تأكيدا ينفي وهم المبالغة، ويقرر التفوق على كل ريح طيب شمها أنف أنس ﷺ، وقوله (وَلَقَدْ خدمتُ رسول اللهِ ﷺ عَشْرَ سنين) أكد الخبر باللام الموطئة للقسم، وقد التي

---

(1) أخرجه البخاري ٣٥٦١ واللفظ له، ومسلم ٢٣٣٠/٨١.

(2) أخرجه البخاري ٦٠٣٨، ومسلم ٢٣٠٩/٥١ واللفظ له.

تنبيه: الحديثان جمعهما المؤلف، وفرّقهما البخاري ومسلم، وكذا الحميدي في جمعه، وجميع من أخرج رياض الصالحين، لم ينتبه إلى أنهما حديثان فاعتبروه حديثًا، وهذا قصورٌ في التخريج.

(3) اللسان في (د ب ج).

(4) الوسيط في (أ ف ف).

تفيد التحقيق بدخولها على الماضي، ثم بالماضي الدال بصيغته على سبق التحقق، وذكر المدة يفيد تأكيد طول الملازمة، ومعرفة الأحوال التي تهيأ صواب الحكم، والخبر بمؤكداته غرضه لازم فائدته، وهي التمهيد، والتأكيد لحسن خلقه المتمثل في عدم نطقه بقول نابٍ يجرح، ويدل على الضجر، أو يفيد مجرد الاعتراض، وهو ما قرره في قوله (فما قَالَ لي قَطُّ: أُفٍّ، وَلاَ قَالَ لِشَيءٍ فَعَلْتُهُ: لِمَ فَعَلْتَه؟ وَلاَ لشَيءٍ لَمْ افعله: الاَ فَعَلْتَ كَذا؟) وكلمة (أف) الأف كل مستقذر من وسخ كقلامة الظفر، وما يجري مجراها، ويقال ذلك لكل مستخف به، ويقال أيضا عند كره الشيء، وعند التضجر من الشيء، وهي أقل ما يقوله المتضجر، وفي ذكرها مبالغة في نفي قوله أي كلمة قبيحة لأن نفي الأقل يستلزم نفي الأكثر، ونفي قوله (ألا فعلت كذا؟) الذي يشير إلى التحضيض على إتيان فعل دون فعل، والذي يوحي بشيء من الرفض للفعل الأول دليل على لون من الأخلاق لا يتكرر مع طول الزمان، واتساع المكان مما يدل عل عظيم حلمه، وخلقه ﷺ.

فقه الحديث

التسامح في حظوظ الإنسان:

قال ابن حجر: (يستفاد من هذا فائدة تنزيه اللسان عن الزجر والذم واستئلاف خاطر الخدم بترك معاتبته، وكل ذلك في الأمور التي تتعلق بحظ الإنسان، وأما الأمور اللازمة شرعًا فلا يتسامح فيها، لأنها من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من صفات النبي ﷺ: طيب رائحته ولين مسه.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: بيان حسن معاملة النبي ﷺ للناس.

ثالثاً: من مهام الداعية: التأسي بالنبي ﷺ في حسن معاملة الناس.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٦٠/١١.

أولاً- من صفات النبي ﷺ: طيب رائحته ولين مسه:

هذا ما ظهر جلياً من قول أنس رضي الله عنه: "ما مسست ديباجاً ولا حريراً ألين من كف رسول الله ﷺ، ولا شممت رائحة قط أطيب من رائحة رسول الله ﷺ"، قال النووي: (وفيه بيان طيب ريحه ﷺ وهو مما أكرمه الله تعالى، قال العلماء: كانت هذه الريح الطيبة صفته ﷺ وإن لم يمس طيباً ومع هذا فكان يستعمل الطيب في كثير من الأوقات، مبالغة في طيب ريحه لملاقاة الملائكة وأخذ الوحي الكريم ومجالسة المسلمين)[١]، وهذا ما أكده أنس بن مالك رضي الله عنه في قوله: دَخَلَ عَلَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ عِنْدَنَا فَعَرِقَ. وَجَاءَتْ أُمِّي بِقَارُورَةٍ. فَجَعَلَتْ تَسْلُتُ الْعَرَقَ فِيهَا. فَاسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: ((يَا أُمَّ سُلَيْمٍ، مَا هذَا الَّذِي تَصْنَعِينَ؟)) قَالَتْ: هذَا عَرَقُكَ نَجْعَلُهُ فِي طِيبِنَا. وَهُوَ مِنْ أَطْيَبِ الطِّيبِ[٢]. وفي رواية: قَالَتْ: (عَرَقُكَ أَدُوفُ بِهِ طِيبِي)[٣].

(وقد كانت أم سليم ذات محرم من النبي ﷺ من الرضاعة، وفي ذلك جاز الخلوة مع المحارم، والنوم عندهن...، وقولها أدوف به طيبي: أي أخلطه)[٤]، وفي ذلك بيان على طيب ريحه وعرقه ﷺ ونزاهته عن الأقذار وعورات الجسد فكان قد خصه الله تعالى في ذلك بخصائص لم توجد في غيره ثم تممها بنظافة الشرع وخصال الفطرة[٥].

وقد أشار الحديث إلى لين مسه ﷺ، وهذا ما أكده جابر بن سمرة رضي الله عنه في قوله: (صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ صَلاَةَ الأُولَى. ثُمَّ خَرَجَ إِلَى أَهْلِهِ وَخَرَجْتُ مَعَهُ. فَاسْتَقْبَلَهُ وِلْدَانٌ. فَجَعَلَ يَمْسَحُ خَدَّيْ أَحَدِهِمْ وَاحِداً وَاحِداً. قَالَ: وَأَمَّا أَنَا فَمَسَحَ خَدِّي. قَالَ: فَوَجَدْتُ لِيَدِهِ بَرْداً أَوْ رِيحاً كَأَنَّمَا أَخْرَجَهَا مِنْ جُؤْنَةِ عَطَّارٍ)[٦]. قال القاضي عياض:

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٤٣٣.

(٢) أخرجه مسلم ٢٣٣١.

(٣) أخرجه مسلم ٢٣٣٢.

(٤) انظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٢٩٧/٧ - ٢٩٨.

(٥) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض ص ١٥٢.

(٦) أخرجه مسلم ٢٣٢٩.

(والجؤنة، بضم الجيم، كالسقط يجعل فيه العطار متاعه)[١]، وقال ابن حجر: (وفيه أنه ﷺ كان على أكمل الصفات خلقاً وخلقاً فهو كل الكمال وجل الجلال وجملة الجمال عليه أفضل الصلاة والسلام)[٢]. وقال د. الحسيني هاشم في حديث الباب: (ضم الرسول ﷺ إلى جانب الجمال المعنوي بحسن الخُلُق الجمال الحسي بحسن الخلق، فهذا أنس رضي الله عنه يجد راحة في مس يد النبي ﷺ لما فيها من حنو ورقة وطيبة ونعومة، وهي اليد التي طالما مارست الشؤون الدنيوية، وأمسكت بآلات الحرب وخاضت حامي المعارك، ويستنشق من رائحة الرسول ﷺ ما لا تدانيه رائحة العطور)[٣].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: بيان حسن معاملة النبي ﷺ للناس:

قد كان من مقاصد البعثة المحمدية إتمام محاسن الأخلاق لقوله ﷺ: ((إِنَّمَا بُعِثْتُ لأتَمِّمَ صَالِحَ ألاخْلاَقِ))[٤]، فكما كان النبي ﷺ يدعو الناس بلسان مقاله، فإنه أيضاً كان يدعوهم بأخلاقه وكريم فعاله)[٥]، وهذا ما ورد في نص الحديث من قول أنس رضي الله عنه: "... ولقد خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي قط: أف ولا قال لشيء فعلته: لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلت كذا".

وفي بيان ذلك قال ابن عثيمين: (يقول ولقد خدمت النبي ﷺ عشر سنين، فما قال لي أفٍّ، يعني ما تضجر منه أبدًا، عشر سنوات يخدمه ما تضجر منه، والواحد منا إذا خدمه أحد وصاحبه أحد لمدة أسبوع أو نحوه لا بد أن يجد منه تضجرًا، لكن الرسول ﷺ عشر سنوات وهذا الرجل يخدمه، ومع ذلك ما قال له أفٍّ قط.

ولا قال لشيء فعلته لما فعلت كذا؟ حتى الأشياء التي يفعلها أنس اجتهادًا منه ما كان الرسول ﷺ يؤنبه أو يوبخه أو يقول لما فعلت كذا، مع أنه خادم، وكذلك ما

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٢٩٥/٧.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٥٥/٤.

(٣) شرح رياض الصالحين ٣٨٥.

(٤) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٢٧٣، وصححه الألباني (صحيح الأدب المفرد ٢٠٧).

(٥) انظر: مكارم الأخلاق، محمد بن عثيمين ص ١١.

قال لشيء لِمَ لَمْ تفعل كذا وكذا فكان ﷺ يعامله بما أرشده الله سبحانه وتعالى إليه في قوله: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[١].

أتدرون ما العفو؟ ما عفا من أخلاق الناس وما تيسر، يعني خذ من الناس ما تيسر، ولا تريد أن يكون الناس لك على ما تريد في كل شيء، من أراد أن يكون الناس له على ما يريد في كل شيء فاته كل شيء، ولكن خذ ما تيسر، عامل الناس بما إن جاءك قبلت، وإن فاتك لم تغضب، ولهذا قال: ما قال لشيء لم أفعله لِمَ لمْ تفعل كذا وكذا، وهذا من حسن خلقه ﷺ)[٢].

وفي بيان حسن معاملته ﷺ للناس قالت عائشة رضي الله عنها: ((ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادماً له قط ولا امرأة، ولا ضرب رسول الله ﷺ بيده شيئاً قط إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا خُيِّرَ بين أمرين قط إلا كان أحبهما إليه أيسرهما حتى يكون إثماً فإذا كان إثما كان أبعد الناس من الإثم، ولا انتقم لنفسه من شيء يؤتى إليه حتى تنتهك حرمات الله عز وجل فيكون هو ينتقم لله عز وجل))[٣]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إنَّ أَعْرَابياً بالَ في المَسْجِدِ، فَثَارَ إِلَيْهِ أُناسٌ لِيَقَعُوا بِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهُ ﷺ: ((دَعُوهُ وَأَهْرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ دَلْواً مِنْ مَاءٍ، أَوْ سَجْلا مِنْ مَاءٍ، فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ، وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ))[٤]، (فالنبي ﷺ لم يوبخ هذا الأعرابي ولم يأمر بضربه، بل إنه تركه حتى قضى بوله، ثم أعلمه أن المساجد لا تصلح لما فَعَل، إنما هي للصلاة والذكر وقراءة القرآن)[٥]، وهذا من كمال خلق النبي ﷺ وحسن معاملته للناس، وقد شمل حسن خلقه ﷺ الأطفال، فكان يلاطفهم ويلاعبهم، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ((إن كان النبيُّ ﷺ ليخالِطُنا حتى يقولَ لأخ لي صغير: يا أبا عُمَير،

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٩٩.

(٢) شرح رياض الصالحين ٩٠٧/١.

(٣) أخرجه أحمد ٢٣٢/٦ رقم ٢٥٩٥٦، وقال محققوا المسند: إسناده صحيح على شرط الشيخين ١٠٩/٤٣.

(٤) أخرجه البخاري ٦١٢٨، ومسلم ٢٨٤.

(٥) مكارم الأخلاق، محمد بن عثيمين ص ٥٤.

ما فَعلَ النغَير؟))[1]، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ((كنتُ ألعَبُ بالبنات عندَ النبي ﷺ، وكان لي صَواحبُ يَلعبنَ معي، فكان رسولُ الله ﷺ إذا دخل يَتَقمَّعْنَ منه، فيُسَرِّبهنَّ إليَّ فيلعَبْنَ معي))[2].

قال ابن عثيمين: (ولم يتخلق أحد بمثله ﷺ، في كل شيء، خُلق مع الله، خُلق مع عباد الله، في الشجاعة والكرم وحسن المعاملة، وفي كل شيء، وكان عليه الصلاة والسلام خلقه القرآن يتأدب بآدابه، يمتثل أوامره ويجتنب نواهيه)[3]، فكان ﷺ أحسن الناس معاملة مع عباد الله.

ثالثاً- من مهام الداعية: التأسي بالنبي ﷺ في حسن معاملة الناس:

هذا ما يستفاد من سياق الحديث، والتأسي بالنبي ﷺ يعني: تجريد المتابعة لرسول الله ﷺ في كل دقيق وجليل من أمور الدين، وإذا كان هذا مطلب عامة المسلمين لا يسعهم إلا ذلك كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[4]، (فهو في حق الدعاة ألزم وأوجب، ذلك أن الدعاة إنما يدعون إلى هدي النبي ﷺ، ومنهجه، وطريقته، وهديه هو سبيل النجاة من كل شر والفوز بكل خير وبر، والنبي ﷺ هو المثل الأعلى للدعاة في حياتهم الخاصة والعامة، يترسمون خطاه ويستضيئون بهديه، ويقتفون أثره؛ لأن الدعاة يدعون بالأقوال والأفعال، بالبيان والقدوة، والناس يرون في أفعال الدعاة وسيرتهم تطبيقاً حياً لما يدعون إليه، فإذا لم يكونوا مقتفين أثر النبي ﷺ متتبعين منهجه مقتدين به، مترسمين خطاه فقد ضلوا وأضلوا)[5].

---

(١) أخرجه البخاري ٦١٢٩.

(٢) أخرجه البخاري ٦١٣٠.

(٣) شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين ١/٩٠٥.

(٤) سورة الأحزاب، آية: ٣٦.

(٥) صفات الدعاة، د. عبد الرب نواب الدين ص ٥٨ - ٥٩.

وقد بين ابن القيم منهج النبي ﷺ في حسن معاملة الناس فقال: (وكان النبي ﷺ يمر على الصبيان فيسلم عليهم، وكانت الأمة تأخذ بيده ﷺ فتنطلق به حيث شاءت...، وكان ﷺ يكون في بيته في خدمة أهله، ولم يكن ينتقم لنفسه قط، وكان ﷺ يحلب الشاة لأهله، ويعلف البعير، ويأكل مع الخادم ويجالس المسكين، ويمشي مع الأرملة واليتيم في حاجتهما، ويبدأ من لقيه بالسلام، ويجيب دعوة من دعاه، ولو إلى أيسر شيء، وكان ﷺ هين المؤنة، ليّن الخلق، كريم الطبع، جميل المعاشرة، طلق الوجه بساماً، متواضعاً من غير ذلة، جواداً من غير سرف، رقيق القلب رحيماً بكل مسلم خافض الجناح للمؤمنين، لين الجانب لهم...، وكان ﷺ يعود المريض، ويشهد الجنازة... ويجيب دعوة العبد")[1]، وفي ذلك بيان كمال خلقه ﷺ وحسن عشرته ومعاملته للناس، فعلى الدعاة أن يجعلوا ذلك لهم منهاجاً وطريقاً، وفي ذلك عظيم الفائدة وكمالها في إنفاذ الدعوة ووصولها إلى قلوب المدعوين.

(١) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٣/١١١ - ١١٢.

الحديث رقم (٦٢٣)

٦٢٣- وعن الصعب بن جَثَّامَةَ رضي الله عنه، قَالَ: أهديتُ رسولَ الله ﷺ حِمَاراً وَحْشِياً[1]، فَرَدَّهُ عَلَيَّ، فَلَمَّا رأى مَا فِي وجهي، قَالَ: ((**إنَّا لَمْ نَرُدَّهُ عَلَيْكَ إلاَّ لأنَّا حُرُمٌ**)) متفقٌ عَلَيْهِ[2].

ترجمة الراوي:

الصَّعْب بن جثّامة: واسمه يزيد بن قيس بن ربيعة بن يعمر اللّيثي الحجازي، وكان حليفاً لقريش، هاجر إلى النبي ﷺ وكان الصعب ينزل ودّان، والأبواء من أرض الحجاز، كان له صحبة ورواية، روى عن النبي ﷺ وروى له الجماعة.

آخى رسول الله ﷺ بينه وبين عوف بن مالك. وكان رضي الله عنه فيمن شهد فتح فارس.

أما عن وفاته فجاء في معظم كتب الرجال أنه توفي في خلافة أبي بكر، وخطّأ ابن حجر والسندي هذا القول، إذ أن الصعب بن جَثَّامة شهد فتح فارس وعاش إلى خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنهم جميعاً[3].

غريب الألفاظ:

حرم: محرمون بالحج أو العمرة[4].

---

(١) هذا لفظ حديث الليث، ومعمر، وصالح، عن الزهري، عند مسلم ١١٩٣/٥١.

(٢) أخرجه البخاري ١٨٢٥، ومسلم ١١٩٣/٥٠.

تنبيه: الشطر الأول من الحديث، هو لفظ مسلم برقم ١١٩٣/٥١، والشطر الأخير عند مسلم أيضًا برقم ١١٩٣/٥٠.

(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٣٤٨، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود ١٩/٣، ٢٠، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ٦٠٨، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين ٤٥٢/٣، ٤٥٣، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٢١٠/٢، والسندي ٣٥١/٢٦.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ح ر م).

الشرح الأدبي

قول الراوي (أهديتُ رسولَ الله ﷺ) يشير إلى المحبة، والتودد منه لرسول ﷺ، كما يبشر بالقبول لما هو معروف عنه ﷺ أنه يقبل الهدية، ويأكل منها، ولا يقبل الصدقة على نفسه، وآل بيته بل ينفقها على الفقراء، وقوله (حِمَاراً وَحْشِيّاً) يبين موضع الخلاف وسبب الرد الذي ترتب عليه (فرده عليَّ) كناية عن رفضه قبوله منه وقوله (فَلَمَّا رأى مَا فِي وجهي) كناية عن علامات الحرج والحياء، والكآبة - وكانوا ﷺ في قمة الحرص على رضاه - وقول الرسول ﷺ (إنّا لَمْ نَرُدَّهُ عَلَيْكَ إلاَّ لأنَّا حُرُمٌ) احتراس ينفي وهم كره لشخص المهدي أو الطعن فيه، ويبين السبب وراء الرد بما يذهب كآبة الرجل، وحزنه، ويزيل سبب الحرج، وهو من رعايته لمشاعر الناس، ورقته في معاملتهم ﷺ.

فقه الحديث

١-أَكْلُ المُحْرِم من صيد غير المحرم "الحلال":

قال ابن حجر: (واستدل بهذا الحديث على تحريم الأكل من لحم الصيد على المحرم مطلقاً، لأنه اقتصر في التعليل على كونه محرمًا، فدل على أنه سبب الامتناع خاصة، وهو قول عليٍّ وابن عباس وابن عمر والليث والثوري وإسحاق؛ لحديث الصعب هذا، ولما أخرجه أبو داود وغيره من حديث عليٍّ أنه قال لناس من أشجع: أتعلمون أن رسول الله ﷺ أهدى له رجلٌ حمار وحشٍ وهو محرم فأبى أن يأكله؟ قالوا: نعم[1]، لكن يعارض هذا الظاهر ما أخرجه مسلم من حديث طلحة أنه أُهْدي طير وهو محرم، وطلحة راقد فمنا من أكل ومنا من تورع فلما استيقظ طلحة وفّق من أكله، وقال: أكلناه مع رسول الله ﷺ[2] وحديث أبي قتادة: (فلما أتوا رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله، إنا كنا أحرمنا، وقد كان أبو قتادة لم يحرم، فرأينا حمر وحش، فحمل

---

(١) أخرجه أبو داود ١٨٤٩، وصححه الألباني (صحيح سنن ابي داود ١٦٣١).

(٢) أخرجه مسلم ١١٩٧.

عليها أبو قتادة فعقر منها أتانًا، فنزلنا فأكلنا من لحمها ثم قلنا: أنأكل لحم صيد ونحن محرمون؟ فجعلنا ما بقي من لحمها، قال: منكم أحد أمره أن يحمل عليها أو أشار إليها؟ قالوا: لا قال: فكلوا ما بقي من لحمها)[1]... وبالجواز مطلقًا قال الكوفيون [الحنفية] وطائفة من السلف، وجمع الجمهور بين ما اختلف من ذلك بأن أحاديث القبول محمولة على ما يصيده الحلال لنفسه ثم يهدي منه للمحرم، وأحاديث الردّ محمولة على ما صاده الحلال لأجل المحرم. قالوا: والسبب في الاقتصار على الإحرام عند الاعتذار للصعب أن الصيد لا يحرم على المرء إذا صيد له إلا إذا كان محرمًا، فبين الشرط الأصلي وسكت عمّا عداه فلم يدل على نفيه. وقد بينه في الأحاديث الأخر، ويؤيد هذا الجمع حديث جابر مرفوعًا: ((صيد البر لكم حلال ما لم تصيدوه أو يصاد لكم))[2])[3].

٢-الحكم بالعلامة: قال ابن حجر: (وفي حديث الصعب الحكم بالعلامة؛ لقوله "فلما رأى ما في وجهي")[4].

٣-جواز رد الهدية لعلة: قال ابن حجر: (فيه جواز رد الهدية لعلة، وترجم له المصنف [التجاري] (من ردّ الهدية لعلة)[5])[6].

٤-ملك الهبة لا يكون إلا بالقبول: قال ابن حجر: (وفيه أن الهبة لا تدخل في الملك

---

(١) أخرجه البخاري ١٨٢٤، ومسلم ١١٩٦.

(٢) أخرجه أبو داود ١٨٥١، والترمذي ٨٤٦، والنسائي ٢٨٣٠، وضعفه الألباني (ضعيف سنن أبي دود ٤٠١).

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٣/٤-٣٤. وانظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٨٥/٨/٤-٨٦، وانظر كذلك: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، الإمام محمد بن علي الشوكاني ٢٧٤/٢، وشرح الزرقاني على الموطأ، محمد بن عبدالباقي الزرقاني ٢١٧/٢، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٣٣٠/٧، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، شمس الدين الرملي ٤٦٦/٢، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٣١١/٣.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٤/٤.

(٥) الباب رقم ١٧ من كتاب الهبة من صحيح البخاري، الحديث ٢٥٩٦.

(٦) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٤/٤.

إلا بالقبول، وأن قدرته على تملكها لا تصيره مالكًا لها)[١].

٥-استحباب اعتذار من أهديت له هدية فردّها لمعنى شرعي: بوّب النووي على هذا الحديث في كتاب الأذكار: باب استحباب اعتذار من أهديت له هدية فردّها لمعنى شرعي بأن يكون قاضيًا أو واليًا أو كان فيها لون شبهة أو كان له عذر غير ذلك)[٢].

٦-إرسال المحرم ما في يده من الصيد الممتنع عليه اصطياده: قال ابن حجر: (وفيه أن على المحرم أن يرسل ما في يده من الصيد الممتنع عليه اصطياده)[٣].

٧-قبول الهدية: قال ابن حجر: (مفهوم قوله ﷺ: "لم نرده عليك إلا أنا حرم" مفهومه [أي مفهوم المخالفة] أنه لو لم يكن محرمًا لقبله منه، وفيه أنه لا يجوز قبول ما لا يحلّ من الهدية)[٤]، وقال ابن حجر كذلك: (واستنبط المهلب رد هدية من كان ماله حرامًا أو عرف بالظلم)[٥].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على الإهداء للنبي ﷺ.

ثانياً: من صفات الداعية: الحرص على تطييب نفس المدعو.

ثالثاً: من آداب المدعو: التأسي بالنبي ﷺ في حسن تعامله مع أصحابه رضي الله عنهم.

أولاً- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على الإهداء للنبي ﷺ:

لقد كان الصحابة رضي الله عنهم أكثر الناس حباً وتعظيماً وإجلالاً لرسول الله ﷺ ،وقد كان ما يدل على حبهم رضي الله عنهم لرسول الله ﷺ إهداءه والحرص عى

---

(١) المرجع السابق ٣٤/٤، وفي المسألة خلاف بين الفقهاء. انظر: البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٣١٠/٧، والشرح الكبير ١٠٠/٤، وروضة الطالبين، الإمام النووي، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، وعلي محمد معوض ٣٧٥/٥، والمبدع في شرح المقنع، ابن مفلح ٢٧٧/٥.

(٢) الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار، الإمام النووي، تحقيق: محيى الدين مستو ٣٤٧.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٤/٤.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٠٣/٥

(٥) المرجع السابق ٢٣١/٥.

ذلك، وهذا ما أشار إليه الحديث من قول الصعب بن جثامة رضي الله عنه: "أهديت رسول الله ﷺ..." إلخ، قال النووي: (فيه جواز قبول الهدية للنبي ﷺ بخلاف الصدقة)(١).

وفي بيان حرص الصحابة رضي الله عنهم على إهداء النبي ﷺ قالت عائشة رضي الله عنها: ((إنَّ النـاسَ كـانوا يَتحـرَّونَ بهـداياهُم يـومَ عائـشةَ يَبتَغـونَ بهـا -أو يَبتَغـونَ بـذلكَ- مَرْضـاةَ رسـولِ اللَّه ﷺ))(٢)، والمقصود بالتحري: أي: "القصد والاجتهاد في الطلب، والعزم على تخصيص الشيء بالفعل والقول"(٣).

وقالت عائشة رضي الله عنها: ((إنَّ نِسَاءَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كُنَّ حِزْبَيْنِ فَحِزْبٌ فِيهِ عَائِشَةُ وَحَفْصَةُ وَصَفِيَّةُ وَسَوْدَةُ، وَالْحِزْبُ الاخَرُ أم سَلَمَةَ وَسَائِرُ نِسَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ قَدْ عَلِمُوا حُبَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَائِشَةَ، فَإِذَا كَانَتْ عِنْدَ أَحَدِهِمْ هَدِيَّةٌ يُرِيدُ أَنْ يُهْدِيَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَخَّرَهَا، حَتَّى إِذَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي بَيْتِ عَائِشَةَ بَعَثَ صَاحِبُ الْهَدِيَّةِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي بَيْتِ عَائِشَةَ، فَكَلَّمَ حِزْبُ أم سَلَمَةَ، فَقُلْنَ لَهَا: كَلِّمِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُكَلِّمُ النَّاسَ، فَيَقُولُ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُهْدِيَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ هَدِيَّةً فَلْيُهْدِهِ إِلَيْهِ حَيْثُ كَانَ مِنْ بُيُوتِ نِسَائِهِ، فَكَلَّمَتْهُ أم سَلَمَةَ بِمَا قُلْنَ، فَلَمْ يَقُلْ لَهَا شَيْئاً، فَسَأَلْنَهَا. فَقَالَتْ: مَا قَالَ لِي شَيْئاً. فَقُلْنَ لَهَا فَكَلِّمِيهِ. قَالَتْ فَكَلَّمَتْهُ حِينَ دَارَ إِلَيْهَا أَيْضاً، فَلَمْ يَقُلْ لَهَا شَيْئاً، فَسَأَلْنَهَا. فَقَالَتْ: مَا قَالَ لِي شَيْئاً. فَقُلْنَ لَهَا: كَلِّمِيهِ حَتَّى يُكَلِّمَكِ. فَدَارَ إِلَيْهَا فَكَلَّمَتْهُ. فَقَالَ لَهَا: لا تُؤْذِينِي فِي عَائِشَةَ، فَإِنَّ الْوَحْيَ لَمْ يَأْتِنِي، وَأَنَا فِي ثَوْبِ امْرَأَةٍ إِلاَّ عَائِشَةَ.... إلخ))(٤).

وعنها رضي الله عنها قالت: ((....، إلاَّ أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ جِيرَانٌ مِنَ الأَنْصَارِ. وَكَانَتْ لَهُمْ مَنَائِحُ. فَكَانُوا يُرْسِلُونَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ مِنْ أَلْبَانِهَا، فَيَسْقِينَاهُ))(٥)، وعن

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٧٤٤.

(٢) أخرجه البخاري ٢٥٧٤.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ص ٢٠٣.

(٤) أخرجه البخاري ٢٥٨١.

(٥) أخرجه البخاري ٢٥٦٧، ومسلم ٢٥٨١.

جابر رضي الله عنه: ((أَنَّ أُمَّ مَالِكٍ كَانَتْ تُهْدِي لِلنَّبِيِّ فِي عُكَّةٍ لَهَا سَمْناً...))(١)، وفي ذلك بيان الحرص من الصحابة رضي الله عنهم على الإهداء إلى النبي ﷺ حباً وتعظيماً وإجلالاً وإكرامًا له ﷺ.

ثانياً- من صفات الداعية: الحرص على تطييب نفس المدعو:

قد ورد ذلك في الحديث من قول الراوي: (فلما رأى ما في وجهي قال: إنا لم نرده عليك إلا أنا حرُم)، قال النووي: (وفيه أنه يستحب لمن امتنع من قبل هدية ونحوها أن يعتذر بذلك إلى المهدي تطيباً لقلبه)(٢)، وقال ابن حجر: (وفيه الاعتذار عن رد الهدية تطييباً لقلب المهدي)(٣).

(فعلى الداعية أن يتأسى بالنبي ﷺ في حرصه على تطييب نفس الصحابة رضي الله عنهم، فإن من أعظم معايير نجاح الداعية في دعوته: أن تجتمع عليه القلوب بالحب والمودّة وأن يجد الناس في قربه الأنس والطمأنينة، وارتياح النفس، وانشراح الصدر)(٤)، وهذا لا يكون إلا بالحرص على تطييب نفوس المدعوين، وليس أدلّ على ذلك من قول أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: (لَمَّا أَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا أَعْطَى مِنْ تِلْكَ الْعَطَايَا فِى قُرَيْشٍ وَقَبَائِلِ الْعَرَبِ وَلَمْ يَكُنْ فِى الأَنْصَارِ مِنْهَا شَىْءٌ وَجَدَ هَذَا الْحَىُّ مِنَ الأَنْصَارِ فِى أَنْفُسِهِمْ حَتَّى كَثُرَتْ فِيهِمُ الْقَالَةُ، حتى قال قائلهم: لقي رسول الله ﷺ قومه، فدخل عليه سعد بن عبادة، فقال يا رسول الله إن هذا الحي من الأنصار وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يك في هذا الحي من الأنصار شيء قال: ((فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يا سَعْدُ؟)) قال: يا رسول الله، ما أنا إلا امرؤ من قومي، وما أنا؟. قال: ((فَاجْمَعْ لي قَوْمَكَ في هَذِهِ الحَظِيرَةِ)). (قال: فخرج سعد فجمع الأنصار في تلك الحظيرة). قال: فجاء رجل من

---

(١) أخرجه مسلم ٢٢٨٠.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٧٤٤.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤١/٤.

(٤) انظر: ركائز دعوية من هدي النبي ﷺ في العلاقات الاجتماعية، د. عبد المجيد البيانوني ص ١٣٢.

المهاجرين فتركهم، فدخلوا، وجاء آخرون فردَّهم، فلما اجتمعوا أتاه سعد فقال: قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار قال: فأتاهم رسول الله ﷺ، فحمد الله، وأثنى عليه بالذي هو له أهل، ثم قال: ((يا مَعْشَرَ الأنصار مَا قَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ، وَجْدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ، أَلَمْ آتكم ضُلاَّلاً فَهَدَاكُمُ الله؟، وعَالَةً فأغْنَاكُمُ الله؟ وَأَعْدَاءً فألَّفَ الله بَيْنَ قُلُوبِكُمْ؟)) قالوا: بَلْ الله ورسوله أمنّ وأفضل، قال: ((أَلاَ تُجِيبُونني يا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ؟)) قالوا: وبماذا نجيبك يا رسول الله، ولله ولرسوله المنّ والفضل؟ قال: ((أَمَا والله لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ، فَلَصَدَقْتُمْ، وَصُدِّقْتُمْ، أَتَيْتَنَا مُكَذَّباً فَصَدَّقْنَاكَ، ومَخْذُولاً فَنَصَرْنَاكَ، وطَرِيداً فَآوَيْنَاكَ، وعَائِلاً فَآسَيْنَاكَ، أَوَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ - يا مَعْشَرَ الأنْصَارِ - فِي لُعَاعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا؟ أَلَّفْتُ قَوْماً لِيُسْلِمُوا؟ وَوَكَلْتُكُمْ إِلى إِسْلاَمِكُمْ؟ أَفَلاَ تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ فِي رِحَالِكُمْ؟ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلاَ الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْباً، وَسَلَكَتِ الأَنْصَارُ شِعْباً لَسَلَكْتُ شِعْبَ الأَنْصَارِ اللَّهُمَّ ارْحَمِ الأَنْصَارَ، وَأَبْنَاءَ الأَنْصَارِ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الأَنْصَارِ)). قَالَ: فَبَكَى الْقَوْمُ حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ وَقَالُوا: رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ قِسْماً وَحَظّاً. ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَتَفَرَّقُوا[1]. وهذا أعظم دليل على أهمية تطييب نفوس المدعوين لما في ذلك من أثر في قبول الدعوة ونفاذها.

ثالثاً- من آداب المدعو: التأسي بالنبي ﷺ في حسن تعامله مع أصحابه رضي الله عنهم:

قد ورد حسن تعامل النبي ﷺ مع أصحابه رضي الله عنهم في الحديث من تطييب النبي ﷺ لقلب الصعب بن جثامة رضي الله عنه عندما رد النبي ﷺ عليه هديته وذلك في قوله ﷺ: "إنا لم نرد عليك إلا أنا حرم"، قال ابن عثيمين: (إنه ينبغي للإنسان أن يجبر خاطر أخيه إذا فعل معه ما لا يحب، ويبين السبب لأجل أن تطيب نفسه، ويطمئن قلبه، فإن هذا من هدي النبي ﷺ)[2]. وقد أمر الحق تبارك وتعالى بالتأسي بالنبي ﷺ في حسن تعامله مع أصحابه رضي الله عنهم، وفي كل دقيق وجليل من أمور حياته ﷺ فقال:

(١) مسند أحمد ٣/٧٦-٧٧ رقم ١١٧٣٠، وقال محققوا المسند: إسناده حسن ١٨/٢٥٣-٢٥٥.

(٢) شرح رياض الصالحين ١/٩٠٨.

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[١]، وقد كان النبي ﷺ أحسن الناس خلقاً مع أصحابه رضي الله عنهم، (فالسير على نهجه ﷺ وترسم طريقه، والاقتداء به، من أمر الله، وطاعة لله جل وعلا، وامتثالاً لأمره سبحانه وتعالى)[٢].

وقد كان النبي ﷺ أحسن الناسُ خُلقاً مع أصحابه رضي الله عنهم، وليس أدل على ذلك من قول أبي هريرة رضي الله عنه: ((قَالُوا يا رسولَ الله إِنَّكَ تُداعِبُنا؟ قالَ: إِنِّي لاَ أَقُولُ إِلاَّ حَقًّا))[٣].

وعن أنس رضي الله عنه قال: ((كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وعَلَيْهِ رِدَاءٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ. فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ. فَجَبَذَهُ بِرِدَائِهِ جَبْذَةً شَدِيدَةً. نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عُنُقِ رَسُولِ اللَّهِ وَقَدْ أَثَّرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ. مِنْ شِدَّةِ جَبْذَتِهِ. ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ. فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ. فَضَحِكَ. ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ))[٤].

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: ((جاءتِ امرأةٌ إلى النبيِّ ﷺ ببُردةٍ - فقال سهلٌ للقوم: أتدرون ما البردةُ؟ فقال القوم: هي شَملةٌ فقال سهلٌ: هي شملة منسوجةٌ فيها حاشيتُها - فقالت: يا رسولَ الله، أكسوكَ هذهِ، فأخذَها النبيُّ صلى الله عليه وسلم محتاجاً إليها فلبِسَها، فرآها عليه رجلٌ من الصحابةِ فقال: يا رسولَ الله، ما أحسَنَ هذهِ، فاكسُنيها. فقال: نعم... إلخ))[٥].

وفي ذلك بيان على حسن تعامل النبي ﷺ مع أصحابه رضي الله عنهم وكمال خلقه، وفي تأسي المدعو بذلك يكون الفلاح والقرب من النبي ﷺ يوم القيامة لقوله ﷺ: ((إنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِساً يَوْمَ القِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلاَقاً... إلخ))[٦].

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

(٢) قواعد الدعوة الإسلامية، الشريف حمدان الهجاري ص ٢٧٣.

(٣) أخرجه الترمذي ١٩٩٠، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٦٢١).

(٤) أخرجه البخاري ٦٠٨٨، ومسلم ١٠٥٧.

(٥) أخرجه البخاري ٦٠٣٦.

(٦) أخرجه الترمذي ٢٠١٨، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٦٤٢).

الحديث رقم (٦٢٤)

٦٢٤- وعن النَّوَاس بنِ سمعان رضي الله عنه ، قَالَ: سألتُ رسولَ الله ﷺ عن البِرِّ وَالإثم، فَقَالَ: ((البِرُّ: حُسنُ الخُلقِ، والإثمُ: مَا حاك في نفسك، وكَرِهْتَ أن يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ)) رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

النواس بن سمعان: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٥٩٠).

غريب الألفاظ:

حاك: أثَّر ورسَخَ[2].

الشرح الأدبي

الرسول ﷺ يوضح، ويحدد مفهوم البر، ومفهوم الإثم اللذين عليهما مدار الحسنة، والسيئة، واللام في لفظ (البر) للجنس حتى يشمل المفهوم جميع أنواع البر، وقد عرفه الرسول ﷺ بكلمة (حسن) واللفظ يوحي بجمال في جودة، وقبول، وإضافته للخلق تضبط حركة البار بميزان المعاملة مع الله، ومع الناس ببذل نفسه في تحمل أذاهم ورده بالمعروف، وقد قابله بالأثم الذي عرفه بأنه (مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ، وَكَرِهْتَ أنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ) والتعبير بالحياكة لبيان شدة الأثر في القلب مع ما يوحي به من حركة في حنايا النفس، وقوله (وكرهت) يشير إلى الشعور ببغضه، وقبحه، وتوقع رفضه، والتعبير بالإطلاع يوحي بأنه مستور، كما أنه يحتاج إلى تكلف، وتعب لمعرفته، وهذا التحديد للإثم يزيد مفهوم البر وضوحا؛ لأن النفس لا تردد فيه، ولا يكره الإنسان إطلاع الناس عليه، كما أن تعريف البر بالحسن، يتضمن وسم الإثم بالقبيح، ويترك كل مصطلح في تمام الوضوح بإزاء ضده، فإن كثيرا من أصحاب

---

(١) برقم ٢٥٥٣/١٤، وتقدم برقم ٥٩٠. أورده المنذري في ترغيبه ٢٥٨٧.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ح ي ك).

العقول الفاسدة يجد في تزييف المصطلحات، وتلبيسها على الناس سبيلا لتضليلهم، وحملهم على الباطل.

المضامين الدعوية [١]

(١) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (٥٩٠).

الحديث رقم (٦٢٥)

٦٢٥- عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قَالَ: لَمْ يكن رسولُ الله ﷺ فَاحِشاً وَلاَ مُتَفَحِّشاً، وكان يَقُولُ: ((إنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ أحْسَنَكُمْ أخْلاَقاً)) متفقٌ عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمرو بن العاص: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٣٨).

غريب الألفاظ:

الفاحش: ذُو الفحش في كلامه وفعاله، والمتفحش الذي يتكلف ذلك ويتعمّده[2].

الشرح الأدبي

الحديث يقدم نموذجا حيا في حسن الخلق يُرفع للمؤمنين يقتدون به في كل زمان، ومكان، وقد استخدم الراوي أسلوب النفي الصريح الواقع على فعل الكينونة الذي يقرر عدم التلبس بالصفات المذكورة، وهي الفحش، والتفحش، وأصله الزيادة بالخروج عن الحد قوله (ولا متفحشا) أي ولا متكلفا في الفحش، وحاصله أنه لم يكن الفحش له لا جبليا، ولا كسبيا، ونفي هذه الصفات يثبت ضمنا عكسها، وقول الرسول ﷺ (إنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ أحْسَنَكُمْ أخْلاَقاً) توكيد قولي للتأكيد السابق العملي الذي كان عليه الرسول ﷺ، والتعبير بالخيار يشير إلى جماع الخير منهم في الدنيا مع الناس، ومن الله معهم في الآخرة، والتعبير بالأحسن يشير إلى مجموعة الصفات التي تجعل العبد قريبا من عباد الله الصالحين، وقريبا من رب العالمين، وجمع الأخلاق يشير إلى ذلك.

المضامين الدعوية[3]

---

(١) أخرجه البخاري ٣٥٥٩ واللفظ له، ومسلم ٢٣٢١/٦٨. أورده المنذري في ترغيبه ٣٩٠٠.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٦٩٣.

(٣) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -٦٢٥- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (٦٢١).

الحديث رقم (٦٢٦)

٦٢٦- وعن أَبي الدرداءِ ﵁: أن النبي ﷺ، قَالَ: ((مَا مِنْ شَيْءٍ أثْقَلُ في مِيزَانِ العبدِ المُؤْمِنِ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ حُسْنِ الخُلُقِ، وَإنَّ الله يُبْغِضُ الفَاحِشَ البَذِيَّ)) رواه الترمذيُّ[1]، وقال: (حديث حسن صحيح).

ترجمة الراوي:

أبو الدرداء: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٧٢).

غريب الألفاظ:

البَذيُّ: الذي يتكلم بالفُحْشِ، ورديء الكلام[2].

الشرح الأدبي

تأكيد الراوي الخبر عن النبي ﷺ إحساس منه بعظمة من يحدِّث عنه، وإحساس بعظمة الخبر، وقول الرسول (مَا مِنْ شَيْءٍ أثْقَلُ في مِيزَانٍ) أسلوب نفي مستغرق شامل لكل شيء، والتعبير بأفعل التفضيل (أثقل) يشير إلى خاصية في الوزن، لأنه متعلق بقوله (في ميزان)، وإضافته للعبد يعطي الميزان خصوصية تحقق مزيدا من التشويق، والترقب للخبر، واللام في لفظ العبد للجنس، ووصفه بالمؤمن تخصيص بطائفة عنيت بالتنافس في الخيرات، وتحصيل الصالحات، وتقييده بالظرف (يوم) وإضافته للقيامة يعطي الصورة أبعادا أخرى من حيث طبيعة الموزون، وأهميته في تحقيق الفلاح وقوله (مِنْ حُسْنِ الخُلُقِ) بيان للراجح في ميزان العبد بكل شيء، وفيه تنويه على فضل وعظمة ثواب حسن الخلق، مما يرغب في التخلق بالأخلاق الحسنة.

---

(١) برقم ٢٠٠٢. وصحّحه ابن حبان، الإحسان ٥٦٩٣. أورده المنذري في ترغيبه ٣٩٠١.

(٢) رياض الصالحين ٢٧٧.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: الإخبار.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: بيان فضل الخلق الحسن يوم القيامة.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: بغض الله تعالى لأصحاب الخلق السيئ.

رابعاً: من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الإخبار:

الإخبار من الأساليب الدعوية التي تستعمل في تبليغ الدعوة إلى الله، وقد أمر الحق تبارك وتعالى نبيه ﷺ بالإخبار عنه فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾[1]، وقال: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾[2]، وقد حثّ تعالى على ذلك فقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[3]، وقد ورد هذا الأسلوب في الحديث من إخباره ﷺ بعظم وأهمية حسن الخلق في إثقال ميزان العبد يوم القيامة، وبيان بغض الله تعالى لسوء الخلق.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: بيان فضل الخلق الحسن يوم القيامة:

(إن الخلق الحسن من الخصال الحميدة التي سعى الإسلام إليها، حثاً وتأييداً ودعا إليها تخلقاً وعملاً، ورغّب فيها بالأجر وحسن النتيجة)[4]، وهذا ما أشار إليه نص الحديث في قوله ﷺ: (ما من شيء أثقل في ميزان العبد المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق)، قال المباركفوري: (قوله: "ما من شيء" أي ثوابه أو صحيفته أو عينه المجسد "من خلق حسن" فإن الله تعالى يحبه ويرضى عن صاحبه)[5].

---

(١) سورة المائدة، آية: ٦٧.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٨٧.

(٣) سورة فصلت، آية: ٣٣.

(٤) سوء الخلق "مكانته وحقيقته"، د. محمد بن سعد الشويعر ص ٢٢.

(٥) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٢/١٦٦١.

قال ابن عثيمين: (وفي الحديث الحث على حسن الخلق، وأنه من أثقل ما يكون في الميزان يوم القيامة وهذا من باب الترغيب فيه)[(١)]، (وحسن الخلق أن يكون المرء سهل العريكة، لين الجانب، طلق الوجه، قليل النفور، طيب الكلمة)[(٢)].

(ولحسن الخلق مكانة عظيمة فهو تربية ربانية، ومنهج سماوي، اختاره الله للأنبياء والرسل عليهم السلام وهم صفوة الخلق، كجزء من مهمتهم في تبليغ رسالة الله إلى خلقه... ومن حكمة الله جلّت عظمته أن جعل حسن الخلق في الكلام، وحسن الخلق في المعاملة، من البراهين المعينة على تقبل الدعوة، ومعرفة حقيقتها؛ لأن الفؤاد لا يصفو، والعقل لا يتبصّر، والأعصاب لا تهدأ، والنفس لا تتقبل إلا مع الخلق الحسن، والاستمالة اللينة في الحديث، والرقة في المعاملة)[(٣)].

ومن أجل ذلك عظّم الشرع مكانة ومنزلة حسن الخلق يوم القيامة فقال النبي ﷺ: ((أَتَى اللَّهُ بِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِهِ آتَاهُ اللَّه مَالاً، فَقَالَ لَهُ: مَاذَا عَمِلْتَ فِي الدُّنْيَا؟ قَالَ: ﴿وَلاَ يَكْتُمُونَ اللَّه حَدِيثاً﴾. قَالَ يَا رَبِّ: آتَيْتَنِي مَالاً، فَكُنْتُ أُبَايِعُ النَّاسَ، وَكَانَ مِنْ خُلُقِي الْجَوَازُ، فَكُنْتُ أُيَسِّرُ عَلَى الْمُوسِرِ، وَأُنْظِرُ الْمُعْسِرَ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا أَحَقُّ بِذلِكَ مِنْكَ، تَجَاوَزُوا عَنْ عَبْدِي))[(٤)]. وقال ﷺ: ((أَنَا زَعِيمُ بَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقّاً، وَبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحاً، وَبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسُنَ خُلُقُهُ))[(٥)]، بل إن حسن الخلق لا يقل درجة عن بقية العبادات بل يرتقي بصاحبه إلى مصاف العباد الزهاد؛ فعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم))[(٦)] قال

---

(١) شرح رياض الصالحين ١/١٩٠.

(٢) أدب الدنيا والدين، أبو الحسن الماوردي، تحقيق: مصطفى السقا ٢٣٧.

(٣) حسن الخلق "مكانته وحقيقته"، د. محمد الشويعر ص ٢٦ – ٢٨.

(٤) أخرجه مسلم ١٥٦٠.

(٥) أخرجه أبو داود ٤٨٠٠، وحسنه الألباني (صحيح سنن ابي داود ٤١٠٥).

(٦) أخرجه أبو داود ٤٧٩٨، وصححه الألباني (صحيح سنن ابي داود ٤٠١٣).

العظيم آبادي: (أي إن المؤمن ليبلغ بحسن خلقه درجة صائم النهار قائم الليل، وإنما أعطي صاحب الخلق الحسن هذا الفضل العظيم لأن الصائم والمصلي في الليل يجاهدان أنفسهما في مخالفة حظهما وأما من يحسن خلقه مع الناس مع تباين طبائعهم وأخلاقهم فكأنه يجاهد نفوسًا كثيرة فأدرك ما أدركه الصائم القائم فاستويا في الدرجة بل ربما زاد)[1]. وفي ذلك بيان لفضل الخلق الحسن يوم القيامة.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: بغض الله تعالى لأصحاب الخلق السيئ:

(إن سوء الخلق عمل مرذول، ومسلك دنيء، به يُبذل القبيح، ويكف الجميل فضلاً عن التحلي بالرذائل، والتخلي من الفضائل، يمقته الله عز وجل ويبغضه الرسول ﷺ)[2]، وهذا ما ورد في نص الحديث من قوله ﷺ: (... وإن الله يبغض الفاحش البذيء)، أي: إن الله يبغض الفاحش يتكلم بما يكره سماعه أو من يرسل لسانه بما لا ينبغي)[3]، (والبذيء في النهاية من البذاء بالمد ويعني الفحش في القول)[4]، وفي ذلك قال الأحنف بن قيس: (ألا أخبركم بأدوأ الداء؟ قالوا: بلى. قال: الخلق الدني، واللسان البذيء)[5]، بل إن سوء الخلق من أسباب دمار الأمم، وانهيار الحضارات وصدق شوقي إذ يقول:

وإذا أصيب القوم في أخلاقهم فأقم عليهم مأتماً وعويلاً [6]

وقد بين ابن القيم: (أن منشأ جميع الأخلاق السافلة، وبناؤها على أربعة أركان: الجهل، والظلم، والشهوة، والغضب.

---

(١) عون المعبود شرح سنن ابي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ٢٠٨٢، ٢٠٨٣.

(٢) انظر: مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٧٣/٣، وسوء الخلق، محمد بن إبراهيم الحمد ص ١٢.

(٣) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٦٦١/٢.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ص ٦٩.

(٥) أدب الدنيا والدين، أبو الحسن الماوردي، تحقيق: مصطفى السقا ص ٢٣٦٠.

(٦) سوء الخلق، محمد إبراهيم الحمد ص ١٣.

فالجهل: يريه الحسن في صورة القبيح، والقبيح في صورة الحسن، والكمال نقصاً والنقص كمالاً.

والظلم: يحمله على وضع الشيء في غير موضعه، فيغضب في موضع الرضى، ويرضى في موضع الغضب، ويجهل في موضع الأناة، ويبخل في موضع البذل، ويبذل في موضع البخل، ويحجم في موضع الإقدام، ويقدم في موضع الإحجام، ويلين في موضع الشدة، ويشتد في موضع اللين، ويتواضع في موضع العزة، ويتكبر في موضع التواضع.

والشهوة: تحمله على الحرص والشح والبخل، وعدم العفة والنَّهمة والجشع، وإفراط النفس في الذل والدناءات كلها.

والغضب: يحمله على الكبر والحقد والحسد، والعدوان والسفه، ويتركب من بين كل خلقين من هذه الأخلاق أخلاق مذمومة. وملاك هذه الأربعة أصلان: إفراطا في الضعف وإفراطها في القوة فيتولد من إفراطها في الضعف: المهانة، والبخل، والخسة، واللؤم، والذل، والحرص، والشح، وسفاسف الأمور والأخلاق، ويتولد من إفراطها في القوة: الظلم والغضب والحدة، والفحش والطيش)[(1)].

ومن أجل ذلك نجد أن النبي ﷺ قد رهّب من سوء الخلق ببيان سوء عاقبة صاحبه يوم القيامة في قوله: ((وإِنَّ مِنْ أَبْغَضِكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدِكُمْ مِنِّي يَوْمَ القِيَامَةَ الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ وَالْمُتَفَيْهِقُونَ، قالُوا: يا رسولَ الله قَدْ عَلِمْنَا الثَّرْثَارِينَ وَالْمُتَشَدِّقِينَ فَمَا الْمُتَفَيْهِقُونَ؟ قال الْمُتَكَبِّرُونَ))[(2)]، وقال ﷺ: ((لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ الْجَوَّاظُ وَلاَ الْجَعْظَرِيُّ))[(3)].

والجواظّ: الغليظ الفظ، بتشديد الظاء، أي: سيء الخلق...، وقد قيل: الجواظ كثير اللحم المختال في مشيه، وقيل: الجموع المنوع، وقيل: القصير البطيء الجافي القلب، وقيل: الفاجر، وقيل: الأكول، والجعظري: الفظ الغليظ المتكبر وقيل: هو

---

(١) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٣/٧٥ - ٧٦.

(٢) أخرجه الترمذي ٢٠١٨، وقال الألباني: حديث حسن، (صحيح سنن الترمذي ١٦٤٢).

(٣) أخرجه أبو داود ٤٨٠١، وصححه الألباني، (صحيح سنن أبي داود ٤٠١٦).

الذي لا يصدع رأسه، وقيل: هو الذي يتمدح وينفخ بما ليس عنده وفيه قصر[١]، وفي ذلك بيان على بغض الله تعالى لأصحاب الخلق السيء.

رابعاً- من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب:

قد ورد أسلوب الترغيب في الحديث من قوله ﷺ: (ما من شيء أثقل في ميزان العبد المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق)، قال ابن عثيمين: (وفيه أيضاً الحث على حسن الخلق...، وهذا من باب الترغيب فيه)[٢]، أما الترهيب فقد ورد في الحديث من قوله ﷺ: "... وإن الله يبغض الفاحش البذيء"، (فالنفوس البشرية مختلفة الطباع، منها ما يجلبه الترغيب، ومنها ما يخيفه الترهيب، ولهذا جاء القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة بالأسلوبين...، والدعاة مطالبون بانتهاج الأسلوبين مع الناس، كل حسب ما يناسبه...)[٣].

والأصل في الترغيب أن يكون في نيل رضى الله ورحمته وجزيل ثوابه في الآخرة، وأن يكون الترهيب بالتخويف من غضب الله وعذابه في الآخرة، وهذا هو نهج رسل الله الكرام كما بينه القرآن الكريم وجاءت به السنة النبوية المطهرة[٤].

---

(١) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ٢٠٨٣.

(٢) شرح رياض الصالحين ١/ ٩١٠.

(٣) فقه الدعوة، د. بسام العموش ص ٨٦.

(٤) انظر: أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان ص ٤٢١.

الحديث رقم (٦٢٧)

٦٢٧- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه ، قَالَ: سُئِلَ رسولُ الله ﷺ عَنْ أكثرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ؟ قَالَ: ((تَقْوَى اللهِ وَحُسنُ الخُلُقِ))، وَسُئِلَ عَنْ أكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ، فَقَالَ: ((الفَمُ وَالفَرْجُ)) رواه الترمذيُّ[1] ، وقال: (حديث حسن صحيح).

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

السؤال عن الجنة سؤال عن الطريق إلى الغاية العظمى في موطن الخلود، وعن المطلوب الأكبر لجماعة العقلاء الذين فتح الله بصائرهم، وقوله (عَنْ أكثرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ؟) فيه خصوصية في السؤال اكتسبها من استخدام أفعل التفضيل (أكثر) وهي خصيصة تجعل المراد من السؤال هو المقدم على الجميع في إدخال الناس الجنة، وهو سؤال ذكي، والتعبير بالفعل المضارع يصور تجدد الفعل بتتابع الداخلين بالعمل المذكور، وقول الرسول ﷺ (تَقْوَى اللهِ وَحُسنُ الخُلُقِ) مبني على إيجاز يستلزمه مقام السؤال، والجواب، والتقدير: أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله..، وتقوى الله، تحدد المعاملة مع الله وهي: اسم جامع لكل ما يحقق تنفيذ أوامره، واجتناب نواهيه، وحسن الخلق اسم جامع لكل ما يحقق المودة، والتراحم، والتلاحم بين جموع المسلمين من وجهين: الأول: تحمل أذاهم، والرد بالحسنى، والثاني: بذل ما يحقق المحبة من طلاقة الوجه، والتهادي والصلات وغيرها؛ ولذلك كان لها عظيم الأثر في إدخال الناس الجنة، والسؤال المقابل لهذا السؤال هو قوله: (وَسُئِلَ عَنْ أكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ؟) ومقابلة الضد بضده تجعله في أتم الوضوح، وقوله (الفم والفرج) يقرر خطرهما، وما يمكن أن يبلغا بالعبد في دركات الهلاك مما يستلزم الحرص منهما، والحذر المؤدي للسلامة.

---

(١) برقم ٢٢٠٤ وقال: هذا حديثٌ صحيحٌ غريبٌ. وصحّحه ابن حبان، الإحسان ٤٧٦، وقال الحاكم ٤/٣٢٤: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. أورده المنذري في ترغيبه ٣٩٠٢.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: فضل التقوى وحسن الخلق.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: الحذر من آفات اللسان والفرج.

رابعاً: من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب.

أولاً- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

لقد ورد ذلك في الحديث من قول الراوي: "سُئل رسول الله ﷺ...؟ قال: ..."، والسؤال والجواب من الأساليب الدعوية الهامة التي تعين الداعية على استحضار أذهان المدعوين، فضلاً عن وضعهم في حالة استعداد فكريّ ونفسي لمعرفة أجوبة أسئلتهم التي طرحوها، فيجب على الداعية أن يستثمر هذا الاستعداد إلى أقصى حد ممكن[1]، وقد أفاد السؤال والجواب في هذا الحديث أهمية حرص المدعو على معرفة الأمور التي تكون سبباً في دخول الجنة، ومعرفة الأمور التي تكون سبباً في دخول النار.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: فضل التقوى وحسن الخلق:

قد جمع النبي ﷺ بين تقوى الله وحسن الخلق؛ لأن تقوى الله تصلح ما بين العبد وبين ربه، وحسن الخلق يصلح ما بينه وبين خلقه. فتقوى الله توجب محبة الله، وحسن الخلق يدعو الناس إلى محبته)[2]، وهذا ما رغّب فيه النبي ﷺ من الحديث في قوله - عندما سئل عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ - قال: (تقوى الله وحسن الخلق)، "وتقوى الله كلمة جامعة لفعل ما أمر الله به وترك ما نهى عنه، فيكون بها اتخاذ الوقاية والاحتراز بطاعة الله عن عقوبته، وهو صيانة النفس عما تستحق به العقوبة من فعل أو ترك، وتقوى الله في الطاعة: يراد بها الإخلاص، وفي المعصية يراد بها الترك والحذر،

---

(١) انظر: فقه الدعوة إلى الله، عبدالرحمن حبنكة، ٢/٥٩.

(٢) الفوائد، ابن القيم ص ٨٤ - ٨٥.

وقيل: أن يتقي العبد ما سوى الله تعالى، وقيل: محافظة آداب الشريعة[١].

وللتقوى ثمرات عظيمة، وفضائل عميمة، فبها تكون محبة الله تعالى، وهي الغاية لقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[٢]، وهي طريق معية الله سبحانه وتعالى لقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[٣]، وقد جعلها الله تعالى طريق الفلاح فقال: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٤]، وبها تكون الكرامة عند الله تعالى لقوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[٥]، وقد جعل الله الفوز والنجاة وحسن الجزاء لصاحبها فقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾[٦]، وقال: ﴿لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾[٧].

ولله درُّ القائل:

وإذا تناسبت الرجال فما أرى ... نسباً يقاس لصالح الأعمالِ

إذا بحثت عن التقى وجدته ... رجلاً يُصدِّق قوله بفعالِ

وإذا اتقى الله امرؤ وأطاعه ... فتراه بين مكارم ومعالِ

وعلى التقيِّ إذا ترسخ في التقى ... تاجان سكينةٍ وجلالِ[٨]

---

(١) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ٩٤، وانظر: فقه الدعوة إلى الله، عبدالرحمن حبنكة ٢/٥٩.

(٢) سورة آل عمران، آية: ٧٦.

(٣) سورة البقرة، آية: ١٩٤.

(٤) سورة المائدة، آية: ١٠٠.

(٥) سورة الحجرات، آية: ١٣.

(٦) سورة النور، آية: ٥٢.

(٧) سورة الزمر، آية: ٢٠.

(٨) التقوى، صلاح الدين مارديني ص ١٦٢.

أما حسن الخلق، فهو خلق فاضل عظيم، أساسه الصبر، والحلم والرغبة في مكارم الأخلاق، وآثاره العفو، والصفح عن المسيئين، وإيصال المنافع إلى الخلق أجمعين، فهو احتمال الجنايات، والعفو عن الزلات ومقابلة السيئات بالحسنات، وقد جمع الله ذلك في آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[1][2].

وقد كان لحسن الخلق فضائل عظيمة في الدنيا والآخرة، فبه يكمل الإيمان لقوله ﷺ: ((أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إيمَاناً أَحْسَنُهمْ خُلُقاً . وَخيَارُكُمْ خيَارُكُمْ لنِسَائِهِمْ خُلُقاً))[3]. وهو سبب رفع الدرجات لقوله ﷺ: ((إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ))[4].

(وهو سبب لكسب القلوب في الدعوة إلى الله، فهو يحبب صاحبه للبعيد والقريب وبه ينقلب العدو صديقًا، ويصبح البغيض حبيباً، ويصير البعيد قريباً، وبحسن الخلق يتقرب المرء للناس، ويتمكن من إرضائهم على اختلاف مشاربهم، وطبقاتهم، فكل من جالس حَسَن الخلق أحبه، ورغب في مجلسه وفي ذلك عظيم الفائدة في الدعوة إلى الله)[5].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: الحذر من آفات اللسان والفرج:

يظهر ذلك في الحديث من قوله ﷺ عندما سُئل عن أكثر ما يدخل الناس النار؟ فقال لهم: الفم والفرج، ويقصد من الفم اللسان، واللسان من نعم الله العظيمة، ولطائف صنعه الغريبة فإنه صغير حجمه، عظيم طاعته وجرمه... وهو رحب الميدان ليس له مرد،

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٩٩.

(٢) الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة، عبدالرحمن السعدي ص ٧٤.

(٣) أخرجه الترمذي ١١٦٢، وقال الألباني: حسن صحيح (صحيح سنن الترمذي ٩٢٨).

(٤) أخرجه أبو داود ٤٧٩٨، وقال الألباني: حسن صحيح (صحيح سنن أبي داود ٤٠١٣).

(٥) سوء الخلق، محمد إبراهيم الحمد ص ٣٨.

ولا لمجاله منتهى وحد، له في الخير مجال رحب، وله في الشر ذيل سحب فمن أطلق عذبه اللسان، وأهمله مرخى العنان، سلك به الشيطان في كل ميدان، وساقه إلى شفا جرف هار إلى أن يضطره إلى البوار، ولا يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم ولا ينجو من شر اللسان إلا من قيده بلجام الشرع، فلا يطلقه إلا فيما ينفعه في الدنيا والآخرة، ويكفه عن كل ما يخشى غائلته في عاجله وآجله...، ومن أخطر الأعضاء على الإنسان اللسان فإنه لا تعب في إطلاقه، ولا مؤنة في تحريكه قد تساهل الخلق في الاحتراز عن آفاته وغوائله، والحذر من مصائده، وحبائله، وأنه أعظم آلة للشيطان في استغواء الإنسان)[١].

ولذلك قال النبي ﷺ: ((أَكْثَرُ خَطَايَا ابْنِ آدَمَ فِي لِسَانِهِ))[٢].

وقال ﷺ: ((لَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الْجَسَدِ إلاَّ يَشْكُو إلى الله اللِّسَانِ عَلَى حِدَّتِهِ))[٣].

ولذلك كان اللسان سبباً من أسباب دخول النار لقوله ﷺ: ((وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ، أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ، إلاَ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ))[٤]، وقوله ﷺ: ((إنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يَرَى أَنْ تَبْلُغَ حَيْثُ بَلَغَتْ يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفاً))[٥].

(أما الفرج فله شهوة هي أغلب الشهوات على الإنسان، وأعصاها عند الهيجان على العقل، إلا أن مقتضاها قبيح يستحيا منه، ويخشى من اقتحامه، وامتناع أكثر الناس عن مقتضاها إما لعجز، أو لخوف أو لحياء، أو لمحافظة على جسمه، وليس في شيء من ذلك ثواب، فإنه إيثار حظ من حظوظ النفس على حظ آخر..وإنما الفضل والثواب الجزيل في تركه خوفاً من الله تعالى مع القدرة وارتفاع الموانع وتيسر الأسباب)[٦].

---

(١) إحياء علوم الدين، الإمام الغزالي ١٥٤٢/٣ - ١٥٤٣.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت، وحفظ اللسان ط/٢، دار الاعتصام: ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ١٨/٤١، وصححه الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة ٥٣٤.

(٣) المرجع السابق ١٣/٣٩، وصححه الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة ٥٣٥.

(٤) أخرجه الترمذي ٢٦١٦، وصححه الألباني، صحيح سنن الترمذي ٢١١٠.

(٥) أخرجه البخاري ٦٤٧٧، ومسلم ٢٩٨٨.

(٦) إحياء علوم الدين، الإمام الغزالي ١٥٣٤/٣.

(ولهذا سدّ النبي ﷺ كل باب يكون سبباً لهذه الفاحشة فمنع خلو الرجل بالمرأة فقال ﷺ: ((لا يَخلُوَنَّ رجلٌ بامرأةٍ، ولا تُسافِرَنَّ امرأةٌ إلا ومعَها مَحْرَم))[١]، ونهى المرأة أن تخضع بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾[٢]، إلى غير ذلك من السياج المنيع الذي جعله النبي ﷺ حائلاً دون فعل الفاحشة؛ لأن هذه الفاحشة تدعو إليها النفس، فلهذا أكثر ما يدخل الناس النار: أعمال اللسان وأعمال الفرج، ومن أجل ذلك عظّم النبي ﷺ جزاء من حفظ لسانه وفرجه فقال: ((اضمَنُوا لي ستاً، أَضمَنْ لَكُمُ الجَنَّةَ: اصْدُقُوا إذا حَدَّثْتُمْ، وأَوْفُوا إذَا وَعَدْتُمْ، وأدُّوا إذَا ائْتُمِنْتُمْ، واحفَظُوا فُروجَكُم، وغُضُّوا أبْصَارَكُم، وكُفُّوا أيْدِيَكُم))[٣]، وقال ﷺ: ((مَنْ يَضمَنْ لِي مَا بَيْنَ لِحيَيْهِ وما بينَ رِجلَيْهِ، أَضمَنْ لَهُ الجَنَّةَ))[٤]، قال ابن حجر: (أي: من أدى الحق الذي على لسانه من النطق بما يجب عليه أو الصمت عما لا يعنيه وأدى الحق الذي على فرجه من وضعه في الحلال وكفه عن الحرام، ضمن النبي ﷺ له الجنة)[٥].

رابعاً- من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب:

الترغيب والترهيب أسلوبان ناجعان للنفس الإنسانية التي يتنازعها الخير والشر، والتي جبلت على حب السعادة، والنفور من الضيق والعذاب، فهما يحركان النفس وينشطانها لعمل، ويحذرانها من التفريط في حق الله[٦]، وقد رد هذا الأسلوب الدعوي

---

(١) أخرجه البخاري ٥٢٣٣.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٣٢.

(٣) أخرجه أحمد ٣٢٣/٥ رقم ٢٢٧٥٧، وقال محققو المسند: حديث حسن لغيره، وهذا إسناد رجاله ثقات ٤١٧/٣٧.

(٤) أخرجه البخاري ٦٤٧٤.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣١٥/١١.

(٦) الدعوة الإسلامية "الوسائل والأساليب"، محمد خير رمضان يوسف ص ٩٧.

في الحديث من ترغيبه ﷺ في تقوى الله وحسن الخلق، وترهيبه من سلبيات الفم والفرج، وذلك عندما سئل عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ فقال: (تقوى الله وحسن الخلق، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار، فقال: الفم والفرج).

الحديث رقم (٦٢٨)

٦٢٨- وعنه، قال: قَالَ رسول الله ﷺ: ((أكْمَلُ المُؤمنينَ إيمَاناً أحسَنُهُمْ خُلُقاً، وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ)) رواه الترمذيُّ[1]، وقال: (حديث حسن صحيح).

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

الحديث في حسن الخلق له خصوصية في التركيب لأنه عمد إلى تمييز أهل الأفضلية من الطائفة الطاهرة ذات الطموح في منازل الجنة العليا؛ لذلك اختار المؤمنين، وأضاف لهم أفعل التفضيل أكمل ليرتقي بهم قمة المتصفين بالإيمان، لخصيصة تميزوا بها، وإن وجدت في بقية المؤمنين وهي حسن الخلق، ولكن هؤلاء ارتقوا قمة حسن الخلق، وحازوا السبق فيه فاستحقوا درجة الكمال واستقروا على أعلاها، وقوله (وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ) جناس يقرر أن الخيرية المطلقة ترتبط بالخيرية في الأهل لأنهم أولى الناس بها، وهم أكثر من يحتاج لذلك لكثرة احتكاكهم ببعضهم لاسيما النساء لطبيعة خلقتهن، وحاجتهن للرحمة، والمودة مع كثرة ما يقعن فيهن من خطأ، وتقصير يستلزم مزيد صبر من الرجال عليهن.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: بيان التلازم والصلة بين كمال الإيمان وحسن الخلق.

ثانياً: من أساليب الدعوة: الترغيب.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: حسن معاملة النساء وإكرامهن.

---

(١) برقم ١١٦٢ وزاد: (خلقًا). وصحّحه ابن حبان، الإحسان ٤٧٩، وقال الحاكم ٣/١: هذا حديث صحيح لم يخرج في الصحيحين، وهو صحيح على شرط مسلم بن الحجاج. أورده المنذري في ترغيبه ٢٨٧٦. وتقدم برقم ٢٧٨.

أولاً- من موضوعات الدعوة: بيان التلازم والصلة بين كمال الإيمان وحسن الخلق:

لقد أشار الحديث إلى ذلك في قوله ﷺ: "أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خُلقًا"، لأن كمال الإيمان يوجب حسن الخلق والإحسان إلى كافة الناس[1]، وفي بيان هذا التلازم والصلة بين كمال الإيمان وحسن الخلق، قال ابن عثيمين: (وفي هذا دليل على أن الإيمان يتفاوت، وأن الناس يختلفون فيه فبعضهم في الإيمان أكمل من بعض بناء على الأعمال، وكلما كان الإنسان أحسن خلقًا كان أكمل إيماناً، وهذا حث واضح على أن الإنسان ينبغي له أن يكون حسن الخلق بقدر ما يستطيع)[2]، وقال ابن علان: (فكلما كان العبد أحسن أخلاقًا كان أكمل إيمانًا، وفيه دليل على زيادة الإيمان ونقصانه)[3]، وفي ذلك بيان على الصلة والتلازم بين كمال الإيمان وحسن الخلق.

ثانياً- من أساليب الدعوة: الترغيب:

إن النفس البشرية مطبوعة على الخير وفعله، الأمر الذي يجعل صاحبها -ذكراً كان أو أنثى صغيراً كان أم كبيراً- يتقبل كل ما يحقق له ذلك، والداعية المتمكن الحكيم يكثر من المرغبات، وبيان أن المرء إذا قام بما أوجبه الله عليه سينال أجر ذلك العمل في الدنيا والآخرة، في الدنيا حيث الحياة الطيبة السعيدة الهانئة، والحفظ من كل مكروه، والسلامة من كل ما يخاف، وقد ورد ذلك في قول الحق تبارك وتعالى في كتابه العزيز: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[4][5]، وقد ورد هذا الأسلوب الدعوي في الحديث من ترغيبه ﷺ في حسن الخلق، ببيان أن أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً، وبيان أن خير الناس خيرهم لأهله.

---

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١١٨٤/١.

(٢) شرح رياض الصالحين ٩١١/١.

(٣) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٩٠٥.

(٤) سورة النحل، آية: ٩٧.

(٥) قواعد الدعوة الإسلامية، الشريف حمدان الهجاري ص ٤٤١.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: حسن معاملة النساء وإكرامهن:

لقد أشار الحديث إلى ذلك من قوله ﷺ: "... وخياركم خياركم لنسائهم"، وذلك بالبشاشة وطلاقة الوجه وكف الأذى وبذل الندى والصبر إلى إيذائها[١]، فينبغي للإنسان أن يكون مع أهله خير صاحب وخير محب، وخير مربي لأن الأهل أحق بحسن خلقك من غيرهم[٢]، لأنهن محل الرحمة لضعفهن[٣]. وقد أمر الحق تبارك وتعالى بذلك فقال: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[٤]، أي: (طيبوا أقوالكم لهن وحسنُوا أفعالكم وهيئاتكم بحسب قدرتكم، كما تحب ذلك منها فافعل أنت بها مثله...)[٥]، وقال رسول الله ﷺ: ((خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ. وَأَنَا خَيْرُكُمْ لأَهْلِي))[٦]، (وكان من أخلاقه ﷺ أنه جميل العشرة دائم البشر، يداعب أهله، ويتلطف بهم، ويوسعهم نفقته، ويضاحك نساءه، حتى إنه كان يسابق عائشة أم المؤمنين يتودد إليها بذلك)[٧]، قالت: ((سَابَقَنِي النَّبِيُّ ﷺ فَسَبَقْتُهُ))[٨].

(ومما يدخل في حسن العشرة وجميلها أن يترفق الزوج بزوجته ولا يؤذيها، وأن يغض طرفه عمّا قد يكون من نقص أو تقصير ما لم يكن في ذلك إخلال بشرع الله، وإلى هذا أرشد النبي ﷺ بقوله: ((لاَ يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً. إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقاً رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ))[٩]، وعلى الزوج ألا يؤذي زوجته بفعل ولا بقول لقوله ﷺ لما سأله أحد

---

(١) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٩٠٥.

(٢) شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين ٩١١/١.

(٣) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١١٨٤/١.

(٤) سورة النساء، آية: ١٩.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢٤٢/٢.

(٦) أخرجه ابن ماجة ١٩٧٧، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجة ١٦٠٨).

(٧) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢٤٢/٢.

(٨) أخرجه ابن ماجة ١٩٧٩، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجة ١٦٠٨).

(٩) أخرجه مسلم ١٤٦٩.

الصحابة رضي الله عنهم: ما حق زوجة أحدنا عليه؟ قال ﷺ: ((أَنْ تُطْعِمَهَا إِذَا طَعِمْتَ، وَتَكْسُوَهَا إِذَا اكْتَسَيْتَ أو اكْتَسَبْتَ وَلا تَضْرِبِ الْوَجْهَ، وَلا تُقَبِّحْ، وَلا تَهْجُرْ إِلاَّ فِي الْبَيْتِ))[1] [2].

وقال ﷺ: ((أَلاَ واسْتَوْصُوا بالنِّسَاءِ خَيراً، فإِنَّمَا هُنَّ عَوانٌ عِنْدَكمْ لَيْسَ تَمْلِكُونَ مِنْهُنَّ شَيْئاً غَيْرَ ذلِكَ، إلاَّ أَنَّ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ فَإِنْ فَعَلْنَ فَاهجُرُوهُنَّ فِي المضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْباً غَيْرَ مُبَرِّحٍ. فَإِنْ أَطَعْنكُمْ فَلاَ تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً. أَلاَ إنّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُم حَقّاً. ولِنِسَائِكمْ عَلَيْكُمْ حَقاً. فَأَمَّا حَقكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ فَلاَ يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ مَنْ تَكْرَهُونَ ولاَ يَأْذَنَّ فِي بُيُوتِكُمْ لِمَنْ تَكْرَهُونَ. أَلاَ وحَقهُنَّ عَلَيْكُمْ أَنْ تُحسِنُوا إِلَيْهِنَّ فِي كِسْوَتِهِنَّ وطَعَامِهِن))[3]. وفي ذلك بيان عظيم على أهمية وضرورة حسن معاملة النساء وإكرامهن، وكانت هذه الوصية إحدى البنود الرئيسة في حجة الوداع التي جمع فيها النبي ﷺ معظم الفوائد والقواعد التي تبنى عليه حياة المسلمين، ومنها قوله ﷺ: "فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله..."[4] وفي ذلك الحث على مراعاة حق النساء والوصية بهن ومعاشرتهن بالمعروف[5].

---

(١) أخرجه أبو داود ٢١٤٢، وقال الألباني: حديث صحيح (صحيح سنن أبي داود ١٨٧٥).

(٢) انظر: فقه الزوج في ضوء الكتاب والسنة، د. صالح بن غانم السدلان، ط/٢ دار بلنسية، الرياض: ١٤١٦هـ ص ١٢٧.

(٣) أخرجه الترمذي ١١٦٣، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٩٢٩).

(٤) من حديث طويل أخرجه مسلم ١٢١٨.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٧٧٥.

الحديث رقم (٦٢٩)

٦٢٩- وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ، يقول: ((إنَّ المُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بحُسْنِ خُلُقِه دَرَجَةَ الصَّائِمِ القَائِمِ)) رواه أَبُو داود[1].

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

الشرح الأدبي

يتميز هذا الحديث بإيجاز القصر حيث تضمن معاني كثيرة في عبارة قصيرة موجزة صدرت في أسلوب خبري مؤكد بكثير من المؤكدات منها حرف التوكيد، ثم تقرير الثبات، والدوام المفهوم من اسمية الجملة ثم لام التوكيد الداخلة على جملة الخبر (ليدرك) وتخصيص المؤمن لأنه المَعْنِيّ بتحصيل الدرجات العلى، وقوله (بحسن خلقه) الباء للسببية، أي بسبب حسن خلقه، وقوله (دَرَجَةَ الصَّائِمِ القَائِمِ) أي مثل درجة الصائم القائم، وقيل عن سر ذلك أن الصائم، والقائم يجاهدان أنفسهما؛ لأن الصيام والقيام مخالفة النفس، إذ النفس حظها، واستمتاعها بالمطاعم، والشراب والنكاح، والصائم يمنع عن هذه الأشياء، والنفس أمارة بالسوء، تدعو إلى هذه، وبهذه الأشياء تتقوى هذه النفس، بالنوم تربو، وتنمو، والقيام يمنع النوم، والصائم، والقائم يجاهدان كل واحد منهما نفسه، ومن جمعهما فإنما يجاهد نفسا واحدة، فيعظم قدره، وتعلو رتبته بمجاهدته نفسه، ومن حسن خلقه، فإنما يجاهد نفسه في تحمل أثقال مساوئ أخلاق الناس؛ لأن الحسن الخلق هو الذي لا يحمل غيره ثقله، ويتحمل أثقال غيره، وهو جهاد كبير، فأدرك هذا بحسن خلقه درجة الصائم القائم؛ لأنه يجاهد نفسه كما يجاهدها الصائم القائم، فاستويا في الرتبة لاستوائهما في الفعل الذي هو مجاهدة النفس.

---

(١) برقم ٤٧٩٨. وصحّحه ابن حبان، الإحسان ٤٨٠، وقال الحاكم ٦٠/١: صحيح على شرط مسلم. أورده المنذري في ترغيبه ٣٩٠٤.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: منزلة حسن الخلق.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: فضل الصيام والقيام.

رابعاً: من أساليب الدعوة: الترغيب.

أولاً- من أساليب الدعوة: التوكيد:

التوكيد من الأساليب الدعوية التي يستعملها الداعية لبيان أهمية وتأكيد الأمر المدعو إليه وهذا ما أكده النبي ﷺ في بيان فضل حسن الخلق فقال في الحديث: "إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم".

ثانياً- من موضوعات الدعوة: منزلة حسن الخلق:

(إن حسن الخلق له مكانة عالية في نماء المجتمعات وسعادتها، لأنه يدعو إلى التآلف والترابط، ويحث على الأعمال الفاضلة التي هي جزء من تعاليم الإسلام، فهو يشدّ القلوب، ويأسر النفوس، ويربطها بوشائج التقارب، ويباعدها عن المؤثرات بما يدعو إليه من التسامح والتحمل...، ولأهمية حسن الخلق في قوام المجتمعات، وتمكين روابط المحبة بين الأفراد، جاء حث الإسلام عليه)[(١)].

وهذا ما أشار إليه النبي ﷺ في الحديث من قوله: (إنّ المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم)، أي: "قائم الليل في الطاعة وإنما أعطى صاحب الخلق الحسن هذا الفضل العظيم لأن الصائم والمصلي في الليل يجاهدان أنفسهما في مخالفة حظهما، وأما من يحسن خلقه مع الناس مع تباين طبائعهم وأخلاقهم فكأنه يجاهد نفوساً كثيرة فأدرك ما أدركه الصائم القائم فاستويا في الدرجة بل ربما زاد"[(٢)].

وقال ابن علان في شرح الحديث: (أي: ليبلغ بحسن خلقه الداعي له إلى التحلي

---

(١) حسن الخلق "مكانته - حقيقته"، د. محمد بن سعد الشويعر ص ٧ - ٨.

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ٢٠٨٢ - ٢٠٨٣.

بالمحامد والتخلي عن المذام "درجة الصائم القائم" أي: أعلى الدرجات فإن أعلى درجات الليل درجات القائم في التهجد، وأعلى درجات النهار درجات الصائم في حر الهواجر)[١].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: فضل الصيام والقيام:

يظهر ذلك في الحديث من قوله ﷺ: "إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم"، وقد بيّن النبي ﷺ عظم فضل الصيام والقيام، فقال في فضل الصيام: ((إنَّ في الجنَّةِ باباً يُقالُ لهُ الرَّيّانُ، يَدخُلُ منهُ الصائمونَ يومَ القِيامةِ لا يَدخُلُ منه أحدٌ غيرُهم، يقال: أينَ الصائمون؟ فيقومونَ، لا يَدخلُ منهُ أحدٌ))[٢]، وقال: ((مَا مِنْ عَبْدٍ يَصُومُ يَوْماً فِي سَبِيلِ اللَّهِ. إِلاَّ بَاعَدَ اللَّهُ، بِذَلِكَ الْيَوْمِ، وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفاً))[٣].

قال النووي: (فيه فضيلة الصيام في سبيل الله وهو محمول على من لا يتضرر به ولا يفوت به حقاً ولا يختل به قتاله ولا غيره من مهمات غزوه ومعناه: المباعدة عن النار والمعافاة منها والخريف السنة والمراد سبعين سنة)[٤].

وفي ذلك بيان على عظم فضل الصيام، أما القيام فبين ﷺ عظيم فضله فقال: ((إنَّ في الجنَّةِ غُرَفاً يُرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا، وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِمَنْ أَطعَمَ الطَّعَامَ، وَأَفْشَى السَّلامَ، وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ))[٥].

وقال ﷺ: ((عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ فإِنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ وَإِنَّ قِيَامَ اللَّيْلِ قُرْبَةٌ إلى ربكم مكفرة للسيئات وَمَنْهَاةٌ عَنِ الإِثْمِ))[٦]، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: (شرف المؤمن قيامه بالليل)، وقال وهب بن منبه: (قيام الليل يشرف به الوضيع ويعز به الذليل)، وقيل للحسن: (ما بال المتهجدين من أحسن الناس وجوهاً؟ قال: لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٩٠٥.

(٢) أخرجه البخاري ١٨٩٦.

(٣) أخرجه البخاري ٢٨٤٠، ومسلم ١١٥٣.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٧١٤.

(٥) صحيح ابن حبان ٥٠٩، وقال محققوه: إسناده قوي.

(٦) أخرجه الترمذي ٣٥٤٩، وقال الألباني: حديث حسن صحيح (صحيح سنن الترمذي ٢٨١٤).

من نوره نوراً، وقال: ما عمل الناس من عمل أثبت في خير من صلاة في جوف الليل)، وعن سعيد بن جبير قال: (قال ابن عمر رضي الله عنهما حين حضرته الوفاة: ما آسي على شيء من الدنيا إلا على ظمأ الهواجر ومكابدة الليل...)[1]، وفي ذلك بيان على عظيم فضل القيام. إضافة إلى ما ينعم به مُقيم الليل من أسباب السكينة النفسية، فالصلاة عامة -وقيام الليل خاصة- لحظات ارتقاء روحي يفرغ المرء فيها من شواغله في الدنيا ليقف بين يدي ربه ومولاه ويثني عليه بما هو أهله ويفضي إليه بذات نفسه داعيًا راغبًا ضارعًا، وفي ذلك قوة للنفس ومدد للعزيمة وطمأنينة للروح.

لهذا جعل الله الصلاة سلاحًا للمؤمن يستعين بها في معركة الحياة ويواجه بها كوارثها وآلامها[2]، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[3].

رابعاً- من أساليب الدعوة: الترغيب:

(الترغيب يقصد به كل ما يشوق المدعو إلى الاستجابة وقبول الحق والثبات عليه)[4]، وقد استعمل النبي ﷺ هذا الأسلوب للترغيب في حسن الخلق وشحذ الهمم لبلوغه، وذلك في قوله: "... ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم".

إن أسلوب الترغيب هو القوة المحرضة الدافعة لفعل الخير، ووظيفته دغدغة المطامع الإنسانية في اتجاه طرق الخير التي قد تدفع عن الإنسان الصوارف النفسية التي تصرفه عنه إذ تستعطف شهواته مغريات أخرى واقفة في اتجاه سبل الشر المختلفة[5].

---

(١) مختصر قيام الليل، محمد المروزي ص ٥٨، ٦٢ - ٦٣.

(٢) الإيمان والحياة، د. يوسف القرضاوي ص ١٢٧.

(٣) سورة البقرة، آية: ١٥٣.

(٤) أصول الدعوة، د. عبد الكريم زيدان ص ٤٣٧.

(٥) انظر: أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها، عبدالرحمن حسن حبنكة ص ٢٥٣.

الحديث رقم (٦٣٠)

٦٣٠- وعن أَبي أُمَامَة الباهِلِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: ((أنَا زَعِيمٌ بِبَيتٍ فِي رَبَضِ الجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ المِرَاءَ، وَإنْ كَانَ مُحِقّاً، وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الكَذِبَ، وَإنْ كَانَ مَازِحاً، وَبِبَيْتٍ فِي أعلَى الجَنَّةِ لِمَنْ حَسُنَ خُلُقُهُ)). حديث صحيح، رواه أَبُو داود[(١)] بإسناد صحيح.

ترجمة الراوي:

أبو أُمامة الباهليُّ: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧٣).

غريب الألفاظ:

الزَّعِيمُ: الضامن[(٢)].

ربض الجنة: ما حولها خارجاً عنها، تشبيهاً بالأبنية التي تكون حول المدن وتحت القلاع[(٣)].

المراء: الجدال[(٤)].

الشرح الأدبي

الحديث من باب حسن الخلق يبين مكانة حسن الخلق في الجنة، وقول الرسول ﷺ ((أنَا زَعِيمٌ بِبَيتٍ فِي رَبَضِ الجَنَّةِ)) كون المسند إليه الرسول ﷺ والمسند الزعامة وهي الضمان، والكفالة يشير إلى تأكيد تحقق المضمون، والتعبير بالبيت يشير إلى السكن، والطمأنينة، والراحة، والربض هو ما حول البيت مما اتصل به والمراد فِي طَرَف الْجَنَّة دَاخِلهَا لا خَارِجًا عَنْهَا، وإضافته للجنة تعطيه أبعادا إيحائية

---

(١) برقم (٤٨٠٠). أورده المنذري في ترغيبه (٣٩١٢).

(٢) رياض الصالحين ٢٧٨.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ر ب ض).

(٤) الوسيط في (م ر ي).

ينطلق فيه الخيال حتى يتصور ما يستطيع من جمال، وكمال لقصر في الجنة، وقوله (لمن ترك المراء) أي للذي ترك المراء وقيل: حد المراء الاعتراض على كلام الغير بإظهار خلل فيه إما لفظا، أو معنى، أو في قصد المتكلم، وترك المراء بترك الاعتراض، والإنكار، فكل كلام سمعته، فإن كان حقا فصدق به، وإن كان باطلا، ولم يكن متعلقا بأمور الدين فاسكت عنه، وقوله (وَإِنْ كَانَ مُحِقّاً) جملة شرطية محذوفة الجواب لدلالة السابق لبيان ضرورة الترك، ولو كان صاحب حق لأن التمادي في المراء يذهب الدين، وينقص المروءة، ويضيع اللذة، ويشغل القلب وقوله (وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الكَذِبَ، وَإِنْ كَانَ مَازِحاً) ارتقى بالمنزلة من الربض وهو الطرف، والجانب إلى الوسط ترغيبا في ترك الكذب، وقوله (وَبِبَيْتٍ فِي أعلَى الجَنَّةِ لِمَنْ حَسُنَ خُلُقُهُ) ارتقى بالمنزلة من وسط الجنة إلى أعلاها؛ لأن حسن الخلق يجمع ما سبق مع شمول لجملة الأخلاق المحمودة من الله، ومن الناس، وهو يشير إلى قيمة حسن الخلق، وينبه إلى ضرورة تحسينه لمن لا يجد ذلك في نفسه، وليجعل هذا التحسين قربة لله يسكن بها أعلى الجنة، ويكون بها قريبا من رسوله ﷺ.

فقه الحديث

قال النووي: (ومما يذم من الألفاظ: المراء والجدال والخصومة: قال أبو حامد الغزالي: المراء: طعنك في كلام الغير لإظهار خلل فيه، لغير غرض سوى تحقير قائله وإظهار مزيتك عليه، قال: وأما الجدال: فعبارة عن أمر يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها. قال: وأما الخصومة فلجاج في الكلام يستوفي به مقصوده من مالٍ أو غيره، وتارة يكون ابتداءً وتارة يكون اعتراضًا، والمراء لا يكون إلا اعتراضًا، هذا كلام الغزالي)(١).

والجدل قسمان: ممدوح ومذموم:

فأما الممدوح فهو الذي قصد به تأييد الحق أو إبطال الباطل، أو أفضى إلى ذلك

(١) الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار، الإمام النووي، تحقيق: محيى الدين مستو ص ٤١٣، ٤١٤.

بطريق صحيح، وقد يكون فرض عين إذا تعين على شخص ما الدفاع عن الحق. وقد يكون فرض كفاية بأن يكون في الأمة من يدافع عن الحق بالأسلوب السليم، والأصل في ذلك قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[2] والجدل المذموم هو كل جدل بالباطل أو يستهدف الباطل أو يفضي إليه، أو كان القصد منه التعالي على الخصم والغلبة عليه، فهذا ممنوع شرعًا. ويتأكد تحريمه إذا قلب الباطل حقًا أو الحق باطلاً. وقد يكون الجدل مكروهًا إذا كان القصد منه مجرد الظهور والغلبة في الخصومة.

وعلى ذلك فالنصوص الشرعية الآمرة بالجدل محمولة على النوع الأول كقوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وأما النصوص الشرعية التي ذمت الجدل فمحمولة على النوع الثاني كقوله تعالى: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾[4])[5].

الكذب في المزاح: قال النووي: (قد تظاهرت نصوص الكتاب والسنة على تحريم الكذب في الجملة، وهو من قبائح الذنوب وفواحش العيوب، وجماع الأمة منعقد على

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٠٤.

(٢) سورة النحل، آية: ١٢٥.

(٣) سورة الكهف، آية: ٥٦.

(٤) سورة غافر، آية: ٤.

(٥) استخراج الجدال من القرآن لناصح الدين بن الحنبلي ص ٥٢-٥٣، والسيرة النبوية لابن كثير ١٢٠/٣، ٢٠٢، ٣١٩، ٣٢٠، والرد على المنطقيين ص ٤٦٧-٤٦٨، وجامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر، ١٢٠/٢-١٢٣، ودرء تعارض العقل والنقل ٣٥٧/١٠، والإحكام في أصول الأحكام لابن حزم ٢٥/١ (عن الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٢٦/١٥-١٢٧)، وانظر كذلك: الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار، الإمام النووي، تحقيق: محيى الدين مستو ٤١٤ ط/ مكتبة الصفا.

تحريمه مع النصوص المتظاهرة: ... قال أبو حامد الغزالي: الكلام وسيلة إلى المقاصد، فكل مقصود محمود يمكن التوصل إليه بالصدق والكذب جميعًا، فالكذب فيه حرام لعدم الحاجة إليه، وإن أمكن التوصل إليه بالكذب ولم يكن بالصدق فالكذب فيه مباح إن كان تحصيل المقصود مباحًا، وواجب إن كان المقصود واجبًا، فإذا اختفى مسلم من ظالم وسأله عنه، وجب الكذب بإخفائه ... وكذلك لو كان مقصود حرب أو إصلاح ذات البين أو استمالة قلب المجني عليه في العفو عن الجناية لا يحصل إلا بكذب، فالكذب ليس بحرام، وهذا إذا لم يحصل الغرض إلا بالكذب، والاحتياط في هذا كله أن يورّي... وينبغي أن يقابل بين مفسدة الكذب والمفسدة المترتبة على الصدقة، فإن كانت المفسدة في الصدق أشد ضررًا فله الكذب، وإن كان عكسه أو شكّ حرم عليه الكذب، والحزم تركه في كل موضع أبيح إلا إذا كان واجبًا)[1].

وأما الكذب في المزاح فحرام كالكذب في غيره[2] لحديث أبي هريرة مرفوعًا: ((لا يؤمن العبدُ الإيمان كلّه حتى يترك الكذب في المزاح ويترك المراء وإن كان صادقًا))[3] وحديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا: (إني لأمزح ولا أقول إلا حقًا))[4].

---

(١) الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار، الإمام النووي، تحقيق: محيى الدين مستو ٤٢١-٤٢٢ ط/ مكتبة الصفا، وانظر: إحياء علوم الدين، الإمام الغزالي ١٥٨٨/٩، والآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعمر القيام ٤٥/١ وما بعدها، ط/٣، مؤسسة الرسالة، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٣٠/١٦/٨، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٠٠/٥.

(٢) الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعمر القيام ٥٢/١.

(٣) أخرجه أحمد ٣٥٢/٢-٣٥٣، رقم ٨٦٣٠، وقال محققو المسند: إسناده ضعيف ٢٧٨/١٤.

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير ٢٩٩/١١، ١٣٤٤٣، وقال الهيثمي في المجمع ٨٩/٨، إسناده حسن.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: أهمية ترك المراء والجدال.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: أهمية البعد عن الكذب.

رابعاً: من أساليب الدعوة: الترغيب.

خامساً: من آداب المدعو: التمسك بالخلق الحسن.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار:

إن الدعوة إلى الله تعالى من أكرم الأعمال عند الله، وأشرف الغايات، وأنبل المقاصد، وقد حثّ الحق تبارك وتعالى على تبليغها والإخبار بها فقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[1]، فالإخبار من أهم الأساليب الدعوية التي تعين الداعية على تبليغ دين ربه وسنة نبيه ﷺ، وقد ورد هذا الأسلوب الدعوي في الحديث من إخباره ﷺ وبيانه لدرجات الجنة وكيفية بلوغها وذلك في قوله: (أنا زعيم بيت في الجنة في ربض لمن ترك المراء وإن كان محقاً، وببيت في وسط الجنة... إلخ).

ثانياً- من موضوعات الدعوة: أهمية ترك المراء والجدال:

إن من أهم أصول الدين تحقيق الجماعة ونبذ الفرقة، فالجماعة من لب الدين، والفرقة من صميم الشرك، وإن من أهم ما يضرب بجذوره في القضاء على الجماعة هو المراء والمجادلة، ومن أجل ذلك عظّم النبي ﷺ جزاء من ترك المراء والجدال وإن كان محقاً بأن ضمن له بيتاً في ربض الجنة، وهذا ما ورد في نص الحديث، والبيت كما قال الخطابي: (هو القصر، وهو كائن في ربض الجنة، أي: ما حولها خارجاً عنها تشبيهاً بالأبنية التي تكون حول المدن وتحت القلاع، وكل ذلك لمن ترك المراء أي الجدال)[2]،

---

(١) سورة فصلت، آية: ٣٣.

(٢) انظر: عون المعبود على سنن أبي داود، محمد أشرف الحق بن العظيم آبادي ص ٢٠٨٢.

(وحد المراء هو كل اعتراض على كلام الغير، بإظهار خلل فيه، إما في اللفظ، وإما في المعنى، وإما في قصد المتكلم)[١]، وقيل: (هو المخاصمة بما يشغل عن ظهور الحق، ووضوح الصواب)[٢]، (وترك المراء بترك الإنكار والاعتراض، فكل كلام سمعته فإن كان حقاً فصدق به وإن كان باطلاً أو كذباً ولم يكن متعلقاً بأمور الدين، فأسكت عنه)[٣]، (والجدال والمراء روح خبيث شرير، شديد الأثر في مَحْق المحبة، وهدم الجماعة، فضلاً عن توريث البغضاء والكراهية)[٤]، وقد شدد النبي ﷺ في ذمه والنهي عنه بقوله: ((مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلاَّ أُوتُوا الْجَدَلَ، ثُمَّ تَلاَ رَسُولُ اللَّه ﷺ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾[٥]))[٦].

(والجدال قد يكون محموداً إذا تعلق بإظهار الحق وقد أمر بذلك النبي ﷺ في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[٧]، وقد يكون مذموماً إذا شغل عند ظهور الحق ووضوح الصواب)[٨]، وهذا ما عدّه الذهبي من الكبائر في قوله: (إن كان الجدال للوقوف على الحق وتقريره كان محموداً، وإن كان الجدال في مدافعة الحق، أو كان بغير علم كان مذموماً، وعلى هذا التفصيل تنزل النصوص الواردة في إباحته وذمه)[٩].

---

(١) إحياء علوم الدين، الإمام الغزالي ١٥٦٠/٣.

(٢) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الرافعي أحمد بن محمد الفيومي ١١٤.

(٣) إحياء علوم الدين، الإمام الغزالي ١٥٦٠/٣.

(٤) انظر: تذكرة الدعاة، البهي الخولي ص ٢٦٥.

(٥) سورة الزخرف، آية: ٥٨.

(٦) أخرجه الترمذي ٣٢٥٣، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٥٩٣).

(٧) سورة النحل، آية: ١٢٥.

(٨) انظر: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الرافعي أحمد بن محمد الفيومي ١١٤، موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين ٤٣٣٩/٩.

(٩) الكبائر، ط/٢، مؤسسة الريان للتوزيع والنشر، لبنان: ١٤١٧هـ ص ٢١.

وقد حذر من ترك المراء والجدال الصالحون وأوصى بتركه العالمون، فعن مسعر ابن كدام يوصي ابنه كداماً قائلاً:

إنّـي منحتُـكَ يـا كِـدَامُ نَـصيحَتي فاسْـمَعْ مَقَـالَ أَبٍ عَلَيْـكَ شَـفِيْقِ

أَمَّـا المُزَاحـةُ والمِـراءُ، فـدَعْهُما خُلُقَـانِ لا أَرْضَـاهُما لِـصديقِ

إِنّـي بَلَوْتُهُمـا فَلَـمْ أَحْمَـدْهُما لِمُجَـاوِرٍ جَـاراً ولا لِرَفيـقِ (1)

وقال مصعب بن عبدالله:

أأقعُـدُ بعـدَما رَجَفَـتْ عِظَـامي وكـانَ الـموتُ أقـربَ مـا يَلِينـي

أُجَـادِلُ كـلَّ معـترضٍ خَـصيمٍ وأجعَـلُ دينَـه غرضـاً لدِينـي

وأتـرُك مـا عَلِـمْت لـرأي غـيري ولـيسَ الـرأيُ كالعِلْـمِ اليَقِـينِ (2)

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: أهمية البعد عن الكذب:

(إن الكذب من دلائل خسة النفس، ودناءتها، فهو جماع كل شر، وأصل كل ذم لسوء عواقبه، وخبث نتائجه)(3)، وقد رغب النبي ﷺ في البعد عنه ولو كان المرء مازحاً، وهذا ما أشار إليه نص الحديث من قوله ﷺ: "... وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً"، والكذب: (هو الإخبار بخلاف الواقع، والمراد ترك المذموم منه وهو ما لا مصلحة راجحة فيه فيكون عاماً مخصوصاً بما عدا ذلك...، وفي قوله ﷺ: "وإن كان مازحاً" أي: بكذبه غير قاصد به الجد)(4).

وقد توعد الحق تبارك وتعالى لمن كان الكذب مسلكه ونهجه فقال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ

---

(1) جامع بيان العلم وفضله، ابن عبدالبر ٩٥٢/٢، والأبيات: حلية الأولياء وطبقة الأصفياء، أبو نعيم الأصبهاني ٢٢١/٧، وسير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ١٧٠/٧.

(2) المرجع السابق ٩٣٦/٢ - ٩٣٧.

(3) انظر: أدب الدنيا والدين، أبو الحسن الماوردي، تحقيق: مصطفى السقا ص ٢٥٣، والأبيات: بغية الطلب قافية الياء ١٣٨٢/٣.

(4) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٩٠٦.

﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾[١]، وبيّن النبي ﷺ أن الكذب من علامات النفاق فقال: ((آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاَثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ. وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ. وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ))[٢]، وقد توعد النبي ﷺ من اتخذ الكذب وسيلة لإضحاك الناس فقال: ((وَيْلٌ لِلَّذِي يُحَدِّثُ بِالْحَدِيثِ لِيُضْحِكَ بِهِ الْقَوْمَ فَيَكْذِبُ، وَيْلٌ لَهُ وَيْلٌ لَهُ))[٣].

وقد بين ابن القيم أضرار الكذب فقال: (إياك والكذب فإنه يفسد عليك تصوُّر المعلومات على ما هي عليه، ويفسد عليك تصويرها وتعليمها للناس. فإن الكاذب يصور المعدوم موجوداً، والموجود معدوماً، والحق باطلاً والباطل حقاً، والخير شراً والشر خيراً، فيفسد عليه تصوره وعلمه عقوبة له. ثم يصور ذلك في نفس المخاطب والمغتر به الراكن إليه فيفسد عليه تصوره وعلمه. ونفس الكاذب مُعْرِضة عن الحقيقة الموجودة، نزَّاعة إلى العدم، مؤثرة للباطل. وإذا فسدت عليه قوة تصوره علمه التي هي مبدأ كل فعل إرادي، فسدت عليه تلك الأفعال، وسرى حكم الكذب إليها، فصار صدورها عنه كصدور الكذب عن اللسان؛ فلا ينتفع بلسانه ولا بأعماله.

ولهذا كان الكذب أساس الفجور، كما قال النبي ﷺ: ((وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ))[٤].

وأول ما يسري الكذب من النفس إلى اللسان فيفسده، ثم يسري إلى الجوارح فيفسد عليها أعمالها كما أفسد على اللسان أقواله؛ فيعمّ الكذب أقواله وأعماله وأحواله؛ فيستحكم عليه الفساد، ويترامى داؤه إلى الهلكة، إن لم يتداركه الله بدواء الصدق يقلع تلك المادة من أصلها"[٥].

---

(١) سورة المرسلات، آية: ١٥.

(٢) أخرجه البخاري ٣٣، ومسلم ٥٩.

(٣) أخرجه الترمذي ٢٣١٥، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٨٨٥).

(٤) أخرجه البخاري ٦٠٩٤، ومسلم ٢٦٠٧.

(٥) الفوائد ١٩٩.

رابعاً- من أساليب الدعوة: الترغيب:

الترغيب من الأساليب الدعوية التي تشتاق النفس فيها إلى فعل الأمر المرغب إليه والثبات عليه، وقد ورد هذا الأسلوب الدعوي في الحديث من ترغيبه ﷺ في ترك المراء وترك الكذب والتحلي بمكارم الأخلاق، وذلك في قوله ﷺ: "أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء، وإن كان محقاً وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه".

خامساً- من آداب المدعو: التمسك بالخلق الحسن:

هذا ما أشار إليه نص الحديث في قوله ﷺ: "... وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه"، وقد بين ابن القيم: (أن النبي ﷺ جعل البيت العلوي جزاءً لأعلى المقامات الثلاثة، وهي حسن الخلق. والأوسط لأوسطها، وهو ترك الكذب، والأدنى لأدناها، وهو ترك المماراة، وإن كان معه حق، ولا ريب أن حسن الخلق مشتمل على هذا كله)[(١)].

وقد حض النبي ﷺ على التحلي بحسن الخلق في كثير من الأحاديث منها ما أخرجه الترمذي عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن))[(٢)] وجعله النبي ﷺ أكمل خصال الإيمان؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا))[(٣)] وأخبر النبي ﷺ أن حسن الخلق أثقل ما يوضع في الميزان؛ فعن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((ما من شيء أثقل في الميزان من حسن خلقه))[(٤)].

إن حسن الخلق صفة سامية بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى فهي تطهر صاحبها من آفات اللسان وترتقي به إلى مراتب الإحسان مع خالقه ومع سائر الناس[(٥)].

---

(١) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٣/٧٢.

(٢) أخرجه الترمذي ١٩٨٧، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٦١٨).

(٣) أخرجه أبو داود ٤٦٨٢، قال الألباني: حسن صحيح (صحيح سنن أبي داود ٣٩١٦).

(٤) أخرجه أبو داود ٤٧٩٩، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤٠١٤).

(٥) انظر: كيف تطيل عمرك، د. محمد ن إبراهيم النعيم ص ٢٥.

وقد وصف الله رسوله محمدًا ﷺ بأنه على خلق عظيم ووجه له الوصف على سبيل الخطاب الذي يمدحه ويثني عليه فيه؛ فقال تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1]، فهذا النص القرآني يثبت أن محمداً ﷺ على خلق عظيم، أي: فهو متمكن من أخلاقه العظيمة المثلى قابض على ناصيتها... وإذا وصف الله رسوله بأنه على خلق عظيم، وجّه المؤمنين إلى الاقتداء به واتخاذه أسوة حسنة فقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[2]، فعلى المدعو أن يتمسك بالخلق الحسن لما في ذلك من الاقتداء بالنبي ﷺ[3]، فضلاً عن بلوغ عظم الأجر والثواب.

---

(١) سورة القلم، آية: ٤.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

(٣) الوجيزة في الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبدالرحمن حسن حبنكة ص ١٩٨.

الحديث رقم (٦٣١)

٦٣١- وعن جابر رضي الله عنه : أنَّ رسول الله ﷺ ، قَالَ: ((إنَّ مِنْ أحَبِّكُمْ إلَيَّ، وَأقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِساً يَوْمَ القِيَامَةِ، أحَاسِنَكُم أخْلاَقاً، وَإنَّ أبْغَضَكُمْ إلَيَّ وَأبْعَدَكُمْ مِنِّي يَوْمَ القِيَامَةِ، الثَّرْثَارُونَ وَالمُتَشَدِّقُونَ وَالمُتَفَيْهِقُونَ)) قالوا: يَا رسول الله، قَدْ عَلِمْنَا (الثَّرْثَارُونَ وَالمُتَشَدِّقُونَ)، فمَا المُتَفَيْهِقُونَ؟ قَالَ: ((المُتَكَبِّرُونَ)) رواه الترمذيُّ[1]، وقال: (حديث حسن).

ترجمة الراوي:

جابر بن عبدالله الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

الثرثار: كثير الكلام تكلفاً[2].

المتشدِّقُ: المتطاول على الناس بكلامه، ويتكلم بملء فيه تفاصُحاً وتعظيماً لكلامه[3].

المتفيهق: أصله من الفهق وهو الامتلاء، وهو الذي يملأُ فَمَهُ بالكلام، ويتوسَّعُ فيه، ويغرب به تكبراً وارتفاعاً، وإظهاراً للفضيلة على غيره[4].

الشرح الأدبي

التعبير عن المعنى بأفعل التفضيل له خصوصية الرتبة، وصدارتها ارتفاعا في الصفة، أو انخفاضا، وهي بذلك تحقق التشويق للخبر للحاجة إلى معرفة الفاضل، والمفضول، والتعبير بفعل المحبة يشير إلى خصوصية وجدانية لها تعلق بالقلب، وحرف الجر المتصل بضمير المتكلم العائد على الرسول ﷺ (إليَّ) يعطي بُعدا آخر لفعل المحبة لا يتساوى فيه مع غيره؛ لأن محبة الرسول ﷺ لا تعدلها محبة ثم إن تكرار أفعل

---

(١) برقم ٢٠١٨ وقال: حديثٌ حسنٌ غريبٌ. أورده المنذري في ترغيبه ٢٩١٤. وسيكرره المؤلف برقم ١٧٤٠.

(٢) رياض الصالحين ٢٧٨.

(٣) المرجع السابق.

(٤) المرجع السابق.

التفضيل في حديث واحد يدل على أعالي طبقات الأعمال، وأعالي طبقات العاملين، ويحافظ على درجة الترقب، والانتباه إلى نهاية الحديث، وقوله (وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِساً يَوْمَ القِيَامَةِ) قول الرسول ﷺ (مني) يشير إلى شرف هذا المجلس وتنكير لفظ (مجلسا) للتعظيم، وتقييده بيوم القيامة يشير إلى أهمية المجلس، وحاجة كل مؤمن بل كل إنسان إليه لأنه حتما سيكون مجلسا في أعلى الجنة في قلب النعيم، بينما من لم يدرك هذا المجلس من الناس فهو مرهون بعمله وقوله (أَحَاسِنَكُم أَخْلاَقاً) جمع أحسن، ويشير الجمع إلى التكثير، والعبارة تبين فضل حسن الخلق في الموقف العظيم، ثم إن مقابلة البغض بالمحبة، والبعد بالقرب في الصورة المقابلة بيان بليغ لتفاضل ما بين الخلقين، ومدى تفاوت العاقبتين بينهما في قوله (وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي يَوْمَ القِيَامَةِ) والنوعية المذكورة في الجانب المقابل للرسول ﷺ، وأصحابه البعيدة عن منزلة الزلفى هم أهل الجدل والكبر (الثَّرْثَارُونَ وَالمُتَشَدِّقُونَ وَالمُتَفَيْهِقُونَ) والتعبير بالثرثرة يوحي بالخبط في الحديث دون تعقل يمنع من تجنب الخطأ، والتعبير بالتشدق يدل على محاولة الرياء بالفصاحة أو تمويه الحق بالخداع اللفظي، والتفيهق التكبر كما أجاب الرسول ﷺ السائل، وفي الحديث مع الترغيب في حسن الخلق ترهيب من هذه الصفات التي تجعل صاحبها في الجهة المقابلة للرسول ﷺ وصحبه، وكلنا نعلم أين - أعاذنا الله -.

فقه الحديث

قال النووي: (يكره التقعر في الكلام بالتشدق وتكلف السجع والفصاحة والتصنع بالمقدمات التي يعتادها المتفاصحون وزخارف القول، فكل ذلك من التكلف المذموم، وكذلك تكلف السجع، وكذلك التحري في دقائق الإعراب ووحشي اللغة في حال مخاطبة العوام، بل ينبغي أن يقصد في مخاطبته لفظًا يفهمه صاحبه فهمًا جليًا ولا يستثقله؛ وما في معناه [1]، كحديث الباب، عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول

(١) ستأتي هذه الأحاديث بنصّها في الباب رقم ٢٢٨ من رياض الصالحين، وهو بعنوان: باب كراهة التقعر في الكلام والتشدق فيه وتكلف الفصاحة واستعمال وحش اللغة ودقائق الإعراب في مخاطبته العوام ونحوهم، الأحاديث ١٧٣٨-١٧٤٠.

الله ﷺ: ((إِنَّ الله عز وجل يَبْغضُ الْبَلِيغَ مِنَ الرِّجَالِ الَّذِي يَتَخَلَّلُ بِلِسَانِهِ تَخَلُّلَ الْبَاقِرَةِ بِلِسَانِهَا))[١].

ولا يدخل في الذم تحسين ألفاظ الخطب والمواعظ إذا لم يكن فيها إفراط وإغراب، لأن المقصود منها تهييج القلوب إلى طاعة الله عز وجل، ولحسن اللفظ في هذا أثر ظاهر)[٢].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: فضل حسن الخلق.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: خطر كثرة الكلام والتشدق به والكبر.

رابعاً: من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب.

أولاً- من أساليب الدعوة: التوكيد:

إن التوكيد من الأساليب الدعوية التي تعين الداعية على تأكيد الأمر وبيانه في أذهان المدعوين، وقد ورد هذا الأسلوب في الحديث من تأكيده ﷺ على أن حسن الخلق هو سبب القرب من مجلسه يوم القيامة، وأن سوء الخلق هو سبب البعد عن مجلسه يوم القيامة. فقال ﷺ: (إن من أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة، أحسانكم أخلاقًا، وإن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني يوم القيامة، الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون... إلخ).

ثانياً- من موضوعات الدعوة: فضل حسن الخلق:

إن من أجلّ العبادات وأفضلها حسن الخلق، "فبه يبذل الندى، ويكف الأذى، ويتحلى بالفضائل، ويتخلى من الرذائل"[٣]، وقد عظّم النبي ﷺ فضل صاحب الخلق الحسن بأن جعله أقرب الناس منه مجلساً يوم القيامة وهذا ما أكد عليه نص الحديث

---

(١) أخرجه أبو داود ٥٠٠٥، والترمذي ٢٨٥٣، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤١٨٥).

(٢) الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار، الإمام النووي، تحقيق: محيى الدين مستو ٤١٥، ٤١٦.

(٣) مدارج السالكين، ابن القيم ٧٣/٣.

في قوله ﷺ: (إن من أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة، أحسنكم أخلاقاً).

قال ابن علان: (إن من أحبكم إليّ، أي: أكثركم حباً إليّ؛ أي: اتباعاً لسنتي وقوله: "وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة"، أي: في الجنة، أحسنكم أخلاقاً"[١]، "وليس أدلّ على فضل حسن الخلق من أنه يراد به التخلق بأخلاق الشريعة والتأدب بآداب الله التي أدّب بها عباده في كتابه كما قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٢])[٣].

وقد بين ابن القيم: (أن حسن الخلق يقوم على أربعة أركان، ولا يتصور قيام ساقه إلا عليها: الصبر، والعفة، والشجاعة، والعدل. فالصبر يحمله على الاحتمال وكظم الغيظ، وكف الأذى، والحلم والأناة والرفق، وعدم الطيش والعجلة. والعفة تحمله على اجتناب الرذائل والقبائح من القول والفعل، وتحمله على الحياء؛ وهو رأس كل خير، وتمنعه من الفحشاء، والبخل، والكذب، والغيبة والنميمة. والشجاعة تحمله على عزة النفس، وإيثار معالي الأخلاق والشيم، وعلى البذل والندى الذي هو شجاعة النفس وقوتها على إخراج المحبوب ومفارقته، وتحمله على كظم الغيظ والحلم؛ فإنه بقوة نفسه وشجاعتها يمسك عنانها، ويكبحها بلجامها عن النزغ والبطش؛ كما قال النبي ﷺ ((لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ. إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ))[٤]، "وهو حقيقة الشجاعة، وهي ملكة يقتدر بها العبد على قهر خصمه، والعدل يحمله على اعتدال أخلاقه، وتوسطه فيها بين طرفي الإفراط والتفريط، فيحمله على خلق الجود والسخاء الذي هو توسط بين الإمساك والإسراف والتبذير وعلى خلق الحياء الذي

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٩٠٧.

(٢) سورة القلم، آية: ٤.

(٣) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢٢١.

(٤) أخرجه البخاري ٦١١٤، ومسلم ٢٦٠٩.

هو توسطا بين الجبن والتهور؛ وعلى خلق الحلم، الذي هو توسط بين الغضب والمهانة وسقوط النفس)[١].

وقد بيّن النبي ﷺ عظم فضل حسن الخلق فقال: ((إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ))[٢]، وقال ﷺ: ((مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ))[٣]، وقال الماوردي في فضل حسن الخلق: (إذا حسنت أخلاق الإنسان كثر مُصافوه، وقلّ مُعادوه، فتسهلت عليه الأمور الصعاب، ولانت له القلوب الغضاب)[٤]، وفي ذلك بيان على فضل حسن الخلق.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: خطر كثرة الكلام والتشدق به والكبر:

لقد أشار الحديث إلى ذلك من قوله ﷺ: ".. وإن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون.. إلخ" وفي بيان ذلك قال ابن عثيمين: (... وأبعد الناس منزلة من رسول الله ﷺ الثرثارون والمتشدقون، والمتفيهقون، والثرثارون: الذين يكثرون الكلام ويأخذون المجالس عن الناس)[٥].

وقال ابن علان: (هم الذين يتعمقون في الكلام، والتشدق تكلف السجع والفصاحة والتصنع بالمقامات)[٦].

وورد في النهاية أن معنى الثرثارون والمتشدقون، أي: المتوسعون في الكلام من غير احتياط واحتراز، وقيل: أراد بالمتشدق: المستهزئ بالناس يلوي شدقه بهم وعليهم، وقال ابن القيم: (والمتشدق هو المتكلم بملء فيه تفاصحاً وتعاظماً وتطاولاً، وإظهاراً لفضله على غيره)[٧]، والمتفيهقون هم الذين يتوسعون في الكلام، ويفتحون به أفواههم، مأخوذ

---

(١) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٧٣/٣ - ٧٤.

(٢) أخرجه أبو داود ٤٧٩٨، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤٠١٣).

(٣) أخرجه الترمذي ٢٠٠٢، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٦٢٩).

(٤) أدب الدنيا والدين، أبو الحسن الماوردي، تحقيق: مصطفى السقا ص ٢٣٧.

(٥) شرح رياض الصالحين ٩١٢/١.

(٦) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٩٠٧.

(٧) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٧٢/٣ - ٧٣.

من الفهق وهو الامتلاء والاتساع[(١)]، وقيل: (هذا من الكبر والرعونة)[(٢)]، وهذا لا شك خلق ذميم، ويجب على الإنسان أن يحذر منه، ولهذا جاء في الحديث: من الذين لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم: ((عائل مستكبر))[(٣)(٤)]، وفي ذلك بيان على الحذر من كثرة الكلام والتشدق به والكبر؛ إذ إن هذه الصفات السلبية من أسباب الشقاء المورِدة لصاحبها موارد الهلكة وأكبر جرمًا الكبر والتعالي، قال الغزالي: (مفتاح السعادة التيقظ والفطنة ومتبع الشقاوة الكبر والغفلة، فلا نعمة لله على عباده أعظم من الإيمان والمعرفة، ولا وسيلة إليه سوى انشراح الصدر بنور البصيرة ولا نقمة أعظم من الكفر والمعصية ولا داعي إليهما سوى عمي القلب بظلمة الجهالة، فالأكياس هم الذين أراد الله أن يهديهم فشرح صدورهم للإسلام والهدي، والمتكبرون هم الذين أراد الله أن يضلهم فجعل صدرهم ضيقًا حرجًا كأنما يصعد في السماء، فالمتكبر هو الذي لم تنفتح بصيرته ليكون بهداية نفسه كفيلاً وبقي في العمى فاتخذ الهوى قائدًا والشيطان دليلاً.

فالكبر آفة عظيمة هائلة، فما من خلق ذميم إلا وصاحب الكبر مضطر إليه ليحفظ كبره وما من خلق محمود إلا وهو عاجز عنه خوفًا من أن يفوته عزه، والأخلاق الذميمة متلازمة والبعض منها داع إلى البعض لا محالة، وشر أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم وقبول الحق والانقياد له[(٥)].

رابعاً- من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب:

(الترغيب من الأساليب التي ينبغي للداعية أن يسلكها في إرشاد المدعوين وحملهم على التشمير عن ساعد الجد في طاعة الله تعالى لنيل السعادة في الدنيا والآخرة)[(٦)]،

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ص ٤٧٠، ٧٢٢.

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ص ١٧٦٠.

(٣) أخرجه مسلم ١٠٧.

(٤) شرح رياض الصالحين ٩١٣/١.

(٥) إحياء علوم الدين، الإمام الغزالي ٣٤٥/٣.

(٦) هداية المرشدين، علي محفوظ ص ١٩٢.

وهذا ما ورد في الحديث من ترغيبه ﷺ في التحلي بمحاسن ومكارم الأخلاق وذلك في قوله: (إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة، أحسنكم أخلاقاً).

(أما الترهيب فهو وعيد وتهديد بعقوبة تترتب على اقتراف إثم أو ذنب مما نهى الله عنه أو التهاون في أداء فريضة مما أمر الله به، أو هو تهديد من الله يقصد به تخويف عباده وإظهار صفة من صفات الجبروت والعظمة الإلهية ليكونوا دائماً على حذر من ارتكاب الهفوات والآثام)[1]، وقد ورد هذا الأسلوب الدعوي في الحديث من ترهيبه ﷺ من كثرة الكلام والتشدق به والكبر، وذلك في قوله ﷺ: (وإن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني يوم القيامة، الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون... إلخ)، والترغيب والترهيب أسلوبان ناجعان للنفس الإنسانية التي يتنازعها الخير والشر، والتي جبلت على حب السعادة، والنفور من الضيق والعذاب، فهما يحركان النفس وينشطانها للعمل، ويحذرانها من التفريط في حق الله[2].

---

(١) أصول التربية الإسلامية وأساليبها، د. النحلاوي ص ٢٥٧.

(٢) الدعوة الإسلامية "الوسائل والأساليب"، محمد خير رمضان ص ٩٧.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

اشتمل هذا الباب على عدد من المضامين التربوية التي تبرز حسن الخلق، ومن أبرز هذه المضامين ما يلي:

أولاً- التربية الخلقية:

إن من أهم جوانب التربية الإسلامية التربية الخلقية، ويتضح هذا من باب حسن الخلق الذي أورد الإمام النووي تحته جملة من الأحاديث ترغب في حسن الخلق ومنها "كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقًا"، ومنها: "ما من شيء أثقل في ميزان العبد المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق..."، وهذه الأحاديث وغيرها تنمي في المسلم، وتربي فيه مَلَكَة الأخلاق الحميدة الحسنة.

"إن حقيقة التربية الأخلاقية في الإسلام هي تنشئة الشخصية الإنسانية منذ الصغر، وتكوينها تكوينًا متكاملاً من الناحية الأخلاقية بحيث تكون سباقة إلى كل خير وفضيلة، ومتوقفة عن كل شر ورذيلة، والقرآن الكريم تضمن كثيرًا من القواعد الخلقية، وتحلي الشخصية الإنسانية بالأخلاق والتأدب بآداب النبي ﷺ يعتبر مصدر السعادة لها، لأن هذه الأخلاق والآداب تحمل في طياتها أسباب السعادة التي تجلب لها الصحة الكاملة وتقيها شر الأمراض النفسية، والعقلية، والخلقية، فعن طريق التربية الأخلاقية يتم تحسين الأخلاق التي هي السبب في سعادة الشخصية دنيا وآخرة"[1].

ثانيًا- التربية بالقدوة:

إن من أساليب التربية الناجعة التربية بالقدوة لما لها من أثر فعال في إقناع المتربي، ومن أحاديث الباب التي تبرز التربية بالقدوة في مجال الأخلاق ما جاء عن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقًا"، وقوله: "خدمت النبي ﷺ عشر سنين، فما قال لي قط: أف، ولا قال لشيء فعلته لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلت كذا؟"، وما جاء عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: "لم يكن رسول الله ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا...".

---

(١) انظر: الشخصية ومنهج الإسلام في بنائها ورعايتها، د. ناصر بن عبدالله التركي ص ٥٩٠-٥٩٦.

وهذه الأحاديث تبرز كيف كان رسول الله ﷺ قدوة لغيره في الأخلاق الحسنة.

"إن الأخلاق تعتبر المجال الثاني من مجالات التربية بالقدوة في نطاق التربية الإسلامية، ولا يخفى أن كثيراً من القيم الأخلاقية تكتسب عن طريق القدوة والأسوة الصالحة، لأن السلوك الأخلاقي من أكثر القيم السلوكية تأثرًا بالمخالطة والصحبة. ومهما يكن من أمر فإن الأصل في التربية بالقدوة الصالحة في مجال الأخلاق التأسي بطريقته ﷺ في تربيته أصحابه الكرام رضي الله عنهم على قيم الدين الحنيف في مجال الأخلاق، فالمربي القدوة يتمثل أخلاق الرسول الكريم ﷺ ابتداءً ويترجمها إلى سلوك عملي أصيل بحيث يكون نابعًا من ذاته، ولا مكان للتكلف فيه، لأن الناشئ أو الشخص المستهدف بالتربية يدرك مدى صدق المربي، وقناعته بسلوكه" (1).

ولا شك أن التربية بالقدوة لها أثر فاعل في بناء الشخصية، ويرجع ذلك إلى "أن القدوة الحسنة تحتل مكانة مرموقة في المجتمع وتحظى بالاحترام والتقدير من غالب المجتمع، وهذا يكون حافزًا قويًا لمحاكاتها، وتقليدها في السلوك الحسن، ومن هنا: يكتسب الفرد شخصية متحلية بالفضائل، ونجد أن القدوة الحسنة ذات الفضائل الخلقية الرفيعة تكوِّن لدى الأفراد ممن حولها الاقتناع الكامل بأن الوصول إلى هذه الفضائل والتحلي بها ممكن وغير مستحيل، والإنسان مفطور على المحاكاة والتقليد، وهذا مما يسهل عليه اكتساب الفضائل والسلوك الإسلامي إذا جعل أمام عينيه قدوة حسنة يقتدى بها والمنهج الإسلامي اتخذ من القدوة الحسنة وسيلة من وسائله لترقية الإنسان في سلم الكمال السلوكي"(2).

ثالثًا- مراعاة مشاعر الآخرين:

إن من القيم التربوية المهمة التي ينبغي أن ينشأ عليها المتربون مراعاة مشاعر الآخرين، وعدم إحراجهم، وفي أحاديث الباب ما يشير إلى ذلك، ففي حديث الصعب

---

(1) أصول التربية الإسلامية، د. أمين أبو لاوي ص ٧٩، ٨٠.

(2) الأخلاق الإسلامية وأسسها عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني ٢٠٣/١، ٢٠٤.

ابن جثامة رضي الله عنه قال: أهديت رسول الله ﷺ حمارًا وحشيًا، فردّه عليّ، فلما رأى ما في وجهي قال: إنّما لم نرده عليك إلا أنا حُرُم". ففي الحديث لما رأى النبي ﷺ في وجه الصعب التغير لعدم قبول هديته بيّن له النبي ﷺ السبب في ذلك وهو أنه مُحْرِمٌ، وفي هذا مراعاة لخاطره ومشاعره، "ولما كان الإسلام هداية للناس جميعًا على اختلاف خصائصهم وقدراتهم الفكرية والنفسية والجسدية الطبيعية، ولم يكن لفئة منهم دون فئة، اقتضت الواقعية في أسسه أن يراعى كل صنف من أصناف الناس بإعطائه ما يناسبه من بياناته التعليمية وأساليبه التربوية، وأن يراعى فروق الاستعدادات والقدرات والخصائص الفردية لدى محاسبة كل منهم؛ لذا سبق الجميع في اهتماماته بالجوانب النفسية للأفراد، وعدم إهمالها عند إرادة التربية أو التوجيه له، والرسول ﷺ كان يراعي الجوانب النفسية عند المسلمين ويحسب لذلك حسابًا، ويعامل كل فرد بما يناسب استعداده النفسي"[1].

إن الأخلاق هي المظهر الجمالي للإسلام وللإنسان، وقد حرص الإسلام على صبغ المسلمين بهذه الصبغة، ليكون المظهر الجمالي للمجتمع، ومع أن رسول الله ﷺ قد جمع من الفضل الشيء الكثير إلا أن القرآن قد أثنى على حسن خلقه بأسلوب الإجمال في قول الحق سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[2]، وبأسلوب التفصيل من خلال وصفه بالرأفة والرحمة ونفي الغلظة والفظاظة وتطبيقه للشورى وخفضه الجناح لأتباعه فضلاً عن صدقه وإخلاصه وأمانته وكل ما يمدح به إنسان.

ومما أظهره رسول الله ﷺ من حسن خلق عملي ما يلي:

أولاً: تعامله مع الأجراء برفق ولين ورحمة، وهذا الخلق غاب عن كثيرين في هذا الزمان، إن كثيرين يظنون أنهم مالكي هؤلاء الأجراء، ومنهم من يطلب من هؤلاء ما حرم شرعًا، ومنهم من يكلفه بما هو فوق الطاقة دون إعانة، ومنهم من يضرب وجهه ويسب دهره.. إلخ.

---

(١) أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد محمود العاني ص ٤٥٦، ٤٥٧.

(٢) سورة القلم، آية: ٤.

إن رسول الله ﷺ لم يقل يومًا لخادمه قط "أف" وهي أقل كلمات التضجر ولم يعتب عليه شيئًا فعله ولم ينكر عليه شيئًا لم يفعله، إنها أقصى درجات ضبط النفس. ولا يعني هذا ترك الخطأ دون تنبيه، وترك الفساد دون عتاب، حتى لا يستمريء هؤلاء ما يتأتى، وأظن أننا لو وجدنا خادمًا مثل أنس فلن نجد مخدومًا مثل رسول الله ﷺ.

ثانيًا: مراعاة مشاعر الآخرين من باب حسن الخلق، فإذا أراد الإنسان الإعراض عن أمر من الأمور فعليه أن يبين السبب وبخاصة إذا كان في الإعراض إيلام نفسي للمعرض عنه، والبصير من يدرك الانفعالات على وجه الآخرين، ويتعامل معها حسب ما تبدي من أمر صاحبها.

إن جرح الشعور لا يقل عن جرح السهام، وإن جراح السهام تلتئم ولكن جرح المشاعر لا يندمل، إلا إذا أبان الإنسان عن علة التصرف حتى تفهم الأمور صوابًا.

ثالثًا: إن ضبط الانفعالات مطلوب شرعًا وبخاصة إذا كان رد الفعل غير حميد.

رابعًا: إن الكلمة الملقاة أمانة، واختيار اللفظة مسؤولية شرعية، وكل لفظة تخدش الحياء العام لا يتأتى النطق بها، وكم حذر رسول الله ﷺ من إساءة استخدام الكلمة وامتدح حسن الاختيار، كما ورد في الحديث الشريف: ((إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سُخْطِ اللَّهِ. لاَ يَرَى بِهَا بَأْسًا. فَيَهْوِي بِهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ سَبْعِينَ خَرِيفًا))[1].

خامسًا: سوء الخلق يضيع ثواب العمل، وفي الحديث الشريف: ((أتدرونَ مَنِ المُفْلِسُ»؟ قالوا: المُفْلِسُ فينا يا رسولَ اللَّهِ مَنْ لا دِرْهَمَ لهُ ولا مَتَاعَ لهُ، فقال: «المُفْلِسُ مِن أُمتي يَأْتي يَوْمَ القيامةِ بصَلاتِهِ وصيامهِ وزَكاتِهِ، فيأتي وقَدْ شَتَمَ هذا، وأكلَ مالَ هذا، وسَفَكَ دمَ هذا، وضَرَبَ هذا، فيَقْعُدُ، فيُعْطَى هذا من حَسناتِهِ، وهذا من حسناتِهِ، فإن فَنِيَتْ حسناتُهُ قَبْلَ أنْ يُعْطِيَ ما عليهِ، أُخِذَ من خطاياهُمْ، فَطُرِحَ عليهِ، ثُم طُرِحَ في النارِ))[2].

(١) أخرجه البخاري ٦٤٧٨، ومسلم ٢٩٨٨.

(٢) أخرجه مسلم ٢٥٨١.

سادسًا: والخلق الحسن مردوده غير قاصر على صاحبه في الدنيا، بل له من الإيجابيات في الآخرة ما لا يحد، ومن هذه الإيجابيات ما يلي:

١) إنه من أثقل موازين الخير يوم القيامة.

٢) أنه أكثر ما يدخل الجنة بعد تقوى الله.

٣) يدرك به المسلم درجة الصائم القائم.

٤) ضمان بيت في أطراف الجنة لمن ترك المراء، ووسط الجنة لمن ترك الكذب، وأعلى الجنة لمن حسن خلقه.

٥) جوار رسول الله ﷺ في الجنة مضمون لمن حسن خلقه، وعلى النقيض من هذا من ساء خلقه وكثر كلامه بالثرثرة وتكلف الكلام فيما لا قبل له به ومن تكبر فهل بعد جوار الرسول ﷺ جوار؟ وهل بعد الجنة دار؟

رابعًا- التربية بالترغيب:

من أساليب التربية الإسلامية التربية بالترغيب حيث يولد في نفس المتربي الحماس على الإقدام على الأعمال الصالحة، والفضائل الخلقية، وفي أحاديث الباب ورد ما يدل على الترغيب في حسن الخلق من خلال قوله ﷺ: "ما من شيء أثقل في ميزان العبد المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق...". وقوله لما سئل عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ قال: تقوى الله وحسن الخلق...، وقوله: "أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا..."، وقوله: "إن المؤمن ليدرك بحسن الخلق درجة الصائم القائم"، وقوله: "أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء، وإن كان محقًا... وبيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه".

وما من شك في أن هذه الأحاديث وغيرها ترغيب في حسن الخلق، وتحفيز للمؤمن أن ينال هذه البُشْريات والدرجات من خلال حسن الخلق.

"والترغيب تحبب وإغراء بمصلحة أو لذة أو منفعة آجلة مؤكدة خيرة خالصة من الشوائب مقابل القيام بعمل صالح أو الامتناع عن لذة ضارة أو عمل شيء ابتغاء مرضاة الله تعالى، ولما كان الإسلام هداية للناس جميعًا وواقعيًا في جوانبه العملية كانت الواقعية فيه تتطلب إيجاد عنصر الترغيب في وسائله التربوية للناس، وذلك في كل ما

يهديهم إليه من خير، ويدعوهم إليه من فضيلة، وما ذاك إلا لكي يكفل استقامة النشء على طريق الإيمان ودلهم على ما يجب عليهم في هذا السبيل، ومن ثمَّ كانت التربية الترغيبية هي الأساس والعنصر الذي يقوم عليه الإصلاح الإسلامي في الأسرة وفي المدرسة وفي المجتمع الكبير مجتمع الأمة الإسلامية، والتربية الترغيبية أسلوب رائع يساعد على نشر مكارم الأخلاق"[1].

(١) تربية الأبناء والبنات في ضوء الكتاب والسنة، خالد عبدالرحمن العك ص ١٨٦، ١٨٧.

٧٤- باب الحلم والأناة والرفق

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[آل عمران: ١٣٤]، وقال تَعَالَى: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾[الأعراف: ١٩٩]، وقال تَعَالَى: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ۝٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾[فصلت: ٣٤-٣٥]، وقال تَعَالَى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾[الشورى: ٤٣].

الحديث رقم (٦٣٢)

٦٣٢- وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قَالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ لأَشَجِّ عَبْدِ القَيْسِ: ((إنَّ فيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الْحِلْمُ وَالأَنَاةُ)) رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١).

غريب الألفاظ:

الأناة: التَّمهُّل والتَّرفُّق[2].

الشرح الأدبي

قول الرسول ﷺ للأشج عبد القيس ما قال يشير إلى أنه كان يبني في نفوس أصحابه حب الخير، والتخلق بمحاسن الأخلاق، ويرفع من أخلاق بعضهم الحسنة نموذجا يقتدون به في فضائل الخير لأنهم يرون أنه مثلهم لا يتميز عنهم كما يتميز

---

(١) برقم ١٧/٢٥. أورده المنذري في ترغيبه ٣٩٦٠.

(٢) معجم لغة الفقهاء، أ.د. محمد رواس قلعة جي ٧١.

النبي ﷺ بخصائصه مما يقوي الرغبة في تحصيل هذه الخصال الممدوحة من الرسول ﷺ، وقوله (إنَّ فيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الْحِلْمُ وَالأَنَاةُ) قدَّم الجار والمجرور فأفاد الاختصاص أي فيك خاصة، وقوله (خصلتين) أسلوب توشيع ولهذا الأسلوب أثر ينسحب على السياق كله فيحقق اليقظة، والترقب، والاستشراف إلى بقية الخبر؛ فإن أسلوب التوشيع فيه نوع من الإبهام يتبعه توضيح يزيل غموضه فالمخاطب إذا سمع قول الرسول ﷺ (خصلتين...) وهو لفظ نكرة مبهم يحتاج إلى تفسير استشرفت نفسه، وتطلعت إلى معرفة حقيقته، فإذا جاء التفسير تمكَّن في النفس فضل تمكُّن؛ لأنه صادف نفساً مهيأة، وقد صعَّد التشويق بجملة (يُحِبُّهُمَا اللهُ) لما لمحبة الله تعالى من قيمة في قلب كل مؤمن، وقوله (الحلم، والأناة) يفسر المثنى السابق، ويكشف عن قيمة هذين الخلقين، ويرغب في التخلق بهما.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: حب الله للحِلْم والأناة.

ثالثاً: من آداب الداعية: مدح المدعو بما فيه من الخصال الطيبة إذا أمن عليه من الغرور.

رابعاً: من أساليب الدعوة: المدح.

خامساً: من واجبات الداعية: تنمية جوانب الخير في نفوس المدعوين.

أولاً- من أساليب الدعوة: التوكيد:

ورد أسلوب التوكيد في الحديث في قوله ﷺ لأشج عبد القيس: "إن فيك خصلتين"، وأسلوب التوكيد من أبرز الأساليب الدعوية أثراً لما فيه من اقناع المخاطب وحمله على قبول الدعوة والاستجابة لها، ولا شك أن التأكيد له أثر كبير في النفوس، وهذا شيء هديت إليه فطرة الإنسان، فلجأ إلى تأكيد كلامه للسامع وتكرار ما يريد نقله إليه لما رأى أثر ذلك في تثبيت المعاني وتأكيد الأفكار لديه(١).

---

(١) انظر: أسلوب الدعوة القرآنية بلاغة ومنهاجًا، د. عبدالغني محمد سعيد بركة ص ٣٤.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: حب الله للحلم والأناة:

جاء الحديث صريحاً بحب الله لصفتي الحلم والأناة، فقال ﷺ لأشج عبد القيس: (إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة)، وذلك لما في الحلم من عقل، بل هو العقل ذاته، قال أبو العباس القرطبي: (والحلم هنا هو العقل، والأناة الرفق والتثبت في الأمور، وقد يقال الحلم على الأناة وقد ظهر من حديث أبي داود أن نبي الله ﷺ إنما قال ذلك للأشج لما ظهر له منه من رفقه وترك عجلته)[(١)] "فعن زراع وكان في وفد عبدالقيس" قال لما قدمنا المدينة فجعلنا نتبادر من رواحلنا فنقبل يد رسول الله ﷺ، قال: وانتظر المنذر الأشج حتى أتى عيته فلبس ثوبيه ثم أتى النبي ﷺ فقال له: "إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة"[(٢)]، وقال النووي: (وفي الأناة من التثبت وترك العجلة وهاتان الصفتان إذا اجتمعتا في إنسان دلتا على صحة عقله ونظره للعواقب)[(٣)].

والحلم من صفات الله عز وجل، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[(٤)]، ومعناه: الصبور، وقيل: هو الذي لا يستخفه عصيان العصاة، ولا يستفزه الغضب عليهم، ولكنه جعل لكل شيء مقداراً فهو مُنته إليه[(٥)]، وقيل: حلم الله: هو تأخيره العقوبة عن المستحق لها، فيؤخر العقوبة عن بعض المستخفين ثم قد يعذبهم وقد يتجاوز عنهم، وقد يعجِّل العقوبة لبعضهم[(٦)]، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾[(٧)]، فالحلم من أشرف الأخلاق وأحقها بذوي الألباب لما فيه من سلامة العِرض وسلامة الجسد واجتلاب الحمد[(٨)].

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو، وآخرين ١٧٨/١.

(٢) أخرجه ابو داود ٥٢٢٥، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤٣٥٣).

(٣) انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٩٤.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٥٥.

(٥) لسان العرب، ابن منظور ٢١٠/١١/٦.

(٦) موسوعة الأسماء الحسنى، أحمد الشرباصي ١٨٢/١.

(٧) سورة النحل، آية: ٦١.

(٨) أدب الدنيا والدين، أبو الحسن الماوردي، تحقيق: مصطفى السقا ص ٣٠٣.

ثالثاً- من آداب الداعية: مدح المدعو بما فيه من الخصال الطيبة إذا أمن عليه من الغرور لإثارة التنافس في الخير:

إن من آداب وفقه الداعية استخدامه الحوافز للمدعوين، وذلك استثماراً لميولهم العاطفية والانفعالية والاجتماعية، ومن ذلك مدح المدعو بما فيه من الخصال الطيبة شريطة أمن الفتن والغرور[١]، ونجد في الحديث مدحه لأشج عبدالقيس والتنويه بخصاله فخاطبه بقوله: (إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة). قال أبو العباس القرطبي: (وفيه: جواز مدح الرجل مشافهة بما فيه إذا أمنت عليه الفتنة)[٢].

رابعاً- من أساليب الدعوة: المدح:

لقد كان رسول الله ﷺ يُسر إذا لاحظ في بعض أصحابه خلقًا فاضلاً وسلوكًا حسنًا، ويثني به عليه ويشجعه على التمسك به لاستخراج عناصر الخير من النفوس وتدعيمها وتقويتها[٣]، ومن الأمثلة على ذلك ما نراه في الحديث من تنويه الرسول ﷺ بخصال الأشج والثناء عليها وبيان محبة الله لها فقال: (إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة)، وأسلوب المدح من الأساليب الدعوية الهادفة لما فيه من تحفيز المدعوين على الإقبال على الدعوة والاستمساك بها، وكان رسول الله ﷺ يمدح ويثني لظهور خصال أو أعمال تستحق التنويه والإشادة مما ينبغي الاستمرار عليه[٤]، كما هو بيّنٌ في الحديث.

إن المدح والثناء من أبرز الأساليب لجذب المدعوين وإقبالهم عليه، وذلك من المعالم البارزة في دعوة الرسول ﷺ، ومن دلائل ذلك ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ فقال: من أسعد الناس بشفاعتك؟ فقال ﷺ: ((لَقَدْ ظَنَنْتُ أَنْ لاَ يَسْأَلَنِي عَنْ هذَا الحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلَ مِنْكَ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الحَدِيثِ))[٥]، فلنتخيل موقف

---

(١) علم النفس الدعوي، د. عبد العزيز بن محمد النغيمشي ص ١٠٩.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو، وآخرين ١٧٩/١.

(٣) انظر: شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم ص ٣٩٠.

(٤) المرجع السابق ١٠٩.

(٥) أخرجه البخاري ٩٩.

أبي هريرة رضي الله عنه وهو يسمع هذا الثناء وهذه الشهادة من النبي صلى الله عليه وسلم بحرصه على العلم، بل وتفوقه على الكثير من أقرانه، ولنتصور كيف يكون أثر هذا الشعور دافعاً لمزيد من الحرص والاجتهاد والعناية[1]، وحين سأل أُبيّ بن كعب أبا المنذر: أي آية في كتاب الله أعظم فقال أبي: آية الكرسي، فقال له صلى الله عليه وسلم: ((وَاللهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ))[2].

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُسرُّ إذا لاحظ في بعض أصحابه رضي الله عنهم خلقاً فاضلاً وسلوكاً حسناً، ويثني به عليه ويشجعه على التمسك به لاستخراج عناصر الخير من النفوس وتدعيمها وتقويتها[3].

خامساً- من واجبات الداعية: تنمية جوانب الخير في نفوس المدعوين:

إن الإنسان غالباً ما يكون مفطوراً على الخير، ولكن قد يحتاج في بعض الأحيان إلى من يلفت نظره وانتباهه إليه لينمّيه فيه، وذلك ما ينبغي على الداعية أن يضطلع به، وإن ذلك فيه من الإثارة القوية، وحث الهمة إلى الفضيلة[4]، كما رأينا في الحديث كيف لفت النبي صلى الله عليه وسلم نظر الأشج إلى ما فيه من خصال حميدة قائلاً له: "إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة).

---

(١) المدرس ومهارات التوجيه، حمد بن عبدالله الدويش ص ٢٣.

(٢) أخرجه مسلم ٨١٠.

(٣) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم ص ٣٩٠.

(٤) تذكرة الدعاة، البهي الخولي ص ١٣٠.

الحديث رقم (٦٣٣)

٦٣٣- وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: قَالَ رسول الله ﷺ: ((**إنَّ اللهَ رفيقٌ، يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّه**)) متفقٌ عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

ام المؤمنين عائشة بنت ابي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

الشرح الأدبي

الرفق خلق كريم من شأنه أن يزلل العقبات بين الناس، ويمنع كثيرا من تبعات العنف المقابل له، والتي تؤدي إلى تعقيد الأمور، والقطيعة بين المسلمين، وقول الرسول ﷺ (إن الله رفيق) خبر مؤكد تعظيما لصرف الانتباه إلى فضله، وأريد به بيان لازمه، وهو الترغيب فيه عن طريق الإخبار به لحرص المؤمن على ما يرضي ربه، وعلى أن يتخلق بأخلاق الله، وقوله (يحب) يوحي بالرضا، والقبول، وبين (رفيق، ويرفق) جناس يؤكد المعنى الذي يدور حوله الحديث، وقوله (في الأمر كله) اللام في الأمر للجنس فتشمل كل شؤون الحياة التي يصادفها الإنسان، و (كله) توكيد لهذا الشمول يعمم الحكم حتى يصطبغ بحياة المؤمن، وتصبغ به، ويصير ثمة غالبة على جميع المؤمنين.

فقه الحديث

حكم الرفق:

حكم الرفق على وجه العموم الاستحباب، فهو مستحب في كل شيء، لأحاديث الباب، وقد يخرج عن الاستحباب كالرفق بالوالدين فإنه واجب، والرفق بالكفار الحربيين فإنه ممنوع لقوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾[2][3].

---

(١) أخرجه البخاري ٦٩٢٧ واللفظ له، ومسلم ٢١٦٥/١٠.

(٢) سورة الفتح، آية: ٢٩.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٤٩/١٠، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٢/٢٩١-٢٩٢.

المضامين الدعوية[1]

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: فضل الرفق.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: الحث على التحلي بالرفق واستصحابه.

رابعاً: من أساليب الدعوة: الرفق.

خامساً: من موضوعات الدعوة: أثر الرفق على النفوس.

أولاً- من أساليب الدعوة: التوكيد:

ورد أسلوب التوكيد في الأحاديث في قوله ﷺ: "إن الله رفيق يحب الرفق" وقوله: "إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه"، والتوكيد من الأساليب الدعوية المفيدة لما فيه من تأكيد الكلام وإيقاعه في قلب المدعو موقع القبول والاستجابة.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: فضل الرفق:

يظهر فضل الرفق واضحاً جلياً ببيان رسول الله ﷺ أنه من صفات الله تعالى ومحبته له فقال: "إن الله رفيق يحب الرفق"، والرفيق هو الكثير الرفق وهو اللّين والتسهيل وضده العنف والتشديد والتصعيب، وقد يجيء الرفق بمعنى الإرفاق، وهو: إعطاء ما يرتفق به، قال أبو زيد: يقال رفقت به وأرفقته بمعنى نفعته، وكلاهما صحيح في حق الله تعالى، إذ هو الميسر والمسهّل لأسباب الخير والمنافع كلها، والمعطي لها، فلا تيسير إلا بتيسيره ولا منفعة إلا بإعطائه وتقديره، وقد يجيء الرفق أيضًا بمعنى: التمهل في الأمر والتأني فيه، يقال منه: رفقت الدابة أرفقها رفقًا: إذا شددت عضدها بحبل لتبطئ في مشيها وعلى هذا فيكون الرفيق في حق الله تعالى بمعنى الحليم فإنه لا يعجل بعقوبة العصاة، بل: يمهل ليتوب من سبقت له السعادة ويزداد إثمًا من سبقت له الشقاوة، وقوله: "إن الله رفيق يحب الرفق" أي يأمر به ويحض عليه، وحب الله للطاعة شرعه لها وترغيبه فيها، وحب الله لمن أحبه من عباده: إكرامه له[2].

---

(١) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -٦٣٣- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (٦٣٤، ٦٣٥).

(٢) انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو، وآخرين ٥٧٦/٦، ٥٧٧.

وتتجلى أهميته وآثاره في أنه ما كان في شيء إلا زانه، ولا نزع من شيء إلا شانه[١]، فقال ﷺ: "إِنَّ الرِّفْقَ لاَ يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلاَّ زَانَهُ، وَلاَ يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ شَانَهُ".

والرفق من الخلال الحميدة والصفات الرفيعة.

قال السعدي: (ومن أسمائه تعالى "الرفيق" في أفعاله وشرعه، ومن تأمل ما احتوى عليه شرعه من الرفق وشرع الأحكام شيئاً بعد شيء وجريانها على وجه السداد واليسر ومناسبة العباد وما في خلقه من الحكمة إذ خلق الخلق أطواراً ونقلهم من حالة إلى أخرى بحِكَم وأسرار لا تحيط بها العقول، وهو تعالى يحب من عباده أهل الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، والرفق من العبد لا ينافي الحزم، فيكون رفيقاً في أموره متأنياً، ومع ذلك لا يُفوِّت الفرص إذا سنحت ولا يهملها إذا عرضت)[٢].

وقد أمر الله الأنبياء بانتهاج الرفق واللين في دعوتهم بالمدعوين ومن الأمثلة على ذلك ما قاله تعالى لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾[٣].

وبين الحق سبحانه أن اللين والرفق سبب لتأليف القلوب وإقبال الناس على الدعوة، وذلك ما غلب على منهج رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾[٤].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: الحث على التحلي بالرفق واستصحابه:

في بيان رسول الله ﷺ بأن الرفق من صفات الله ومحبة الله له وبيان الأثر الإيجابي للرفق وبيان الأثر السلبي لفقدانه حَثٌّ على التحلي بالرفق واستصحاب الإنسان

---

(١) شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين، ٩١٧/١.

(٢) توضيح الكافية الشافية ١٢٣.

(٣) سورة طه، الآيتان: ٤٣، ٤٤.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

له في شئونه وأحواله جميعها، رفيقا في معاملة أهله وإخوانه وأصدقائه ومعاملة عامة الناس، ما لم تدع حاجة إلى المخاشنة، والإنسان إذا عامل الناس بالرفق يجد لذة وانشراحاً بخلاف ما لو عاملهم بعنف وغلظة(١).

وقد جاءت الأحاديث النبوية حاثّة على الرفق وذلك في كل شيء، ففي ولاية الأمور أرشد الرسول ﷺ إلى الرفق ودعا الله بأن يرفق به كما رفق بمن ولى أمره، فعن عائشة رضي الله عنها قالت سمعت من رسول الله ﷺ يَقُولُ فِي بَيْتِي هَذَا: ((اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئاً فَشَقَّ عَلَيْهِمْ، فَاشْقُقْ عَلَيْهِ. وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئاً فَرَفَقَ بِهِمْ، فَارْفُقْ بِهِ))(٢). ولا يقتصر ذلك على مواطن القيادة وزمام الأمور وإنما يمتد ليشمل كافة مناحي الحياة، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ في مسير له فحدا الحادي فقال رسول الله ﷺ: ((ارْفقْ يا أَنجَشةُ -ويحك- بالقَوارِير))(٣).

وقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالرفق، فقال تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾(٤) فهذه الآية من ثلاث كلمات تضمنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات، فقوله: "خذ العفو" دخل فيه صلة القاطعين والعفو عن المذنبين والرفق بالمؤمنين وغير ذلك من أخلاق المطيعين(٥). وقال تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾(٦) فكان رسول الله ﷺ مثلاً أعلى في الامتثال، بالرفق في الأمور عامة والدعوة إلى الإسلام وعرضه على الناس، فعن معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه قال: ((بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللهِ .

---

(١) انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٣٥٧، وشرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين، ٩١٧/١.

(٢) أخرجه مسلم ١٨٢٨.

(٣) أخرجه البخاري ٦٢٠٩.

(٤) سورة الأعراف، آية: ١٩٩.

(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣٤٤/٧/٤.

(٦) سورة الشعراء، آية: ٢١٥، ٢١٦.

إذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ فَقُلْتُ : يَرْحَمُكَ الله فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ. فَقُلْتُ: وَاثُكْلَ أُمِّيَاهْ! مَا شَأْنُكُمْ؟ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ. فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَىٰ أَفْخَاذِهِمْ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي، لَكِنِّي سَكَتُّ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللّهِ ﷺ. فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي مَا رَأَيْتُ مُعَلِّماً قَبْلَهُ وَلاَ بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيماً مِنْهُ، فَوَاللّه مَا كَهَرَنِي وَلاَ ضَرَبَنِي وَلاَ شَتَمَنِي. قَالَ: إِنَّ هَذِهِ الصَّلاَةَ لاَ يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلاَمِ النَّاسِ. إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ))[(١)]، قال النووي: (قوله: "فبأبي هو وأمي ما رأيت معلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه" فيه بيان ما كان عليه رسول الله ﷺ من عظيم الخلق الذي شهد الله تعالى له به ورفقه بالجاهل ورأفته بأمته وشفقته عليهم، وفيه التخلق بخلقه ﷺ من الرفق بالجاهل وحسن تعليمه واللطف به وتقريب الصواب إلى فهمه)[(٢)].

فلو أن المسلمين تمسكوا بهذا الخلق الرفيع من الرفق في الدعوة وحسن النصح والإرشاد لعاشوا سعداء ولما كانت بينهم مشاحنات ولوصلوا إلى الغاية المنشودة من أقرب طريق.

وهكذا يكون أسلوب الدعوة وأسلوب النصح والتذكير خاصة مع الجاهل، فلله ما ألطف أخلاق الرسول ﷺ وما أروع تربيته وما أحوج المسلمين إلى مثل هذه التربية الحميدة الرشيدة التي تخرج العظماء والأبطال[(٣)].

رابعاً- من أساليب الدعوة: الرفق:

وردت الإشارة إلى الرفق كأسلوب في الدعوة ومنهج حياة في الأحاديث ببيان محبة الله وعطاء الله عليه فقال ﷺ "إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطى على العنف وما لا يعطى على سواه"، والرفق من أعظم الأساليب الدعوية لما فيه من جذب لقلوب المدعوين، ورد الإنسانية إلى الدين الحق، فبالرفق تساس الطباع ويعرف مكمن الداء، ويعطي الدواء لتستقيم الأنفس على الخير وتقبل دعوة الله،

---

(١) أخرجه مسلم ٥٣٧.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٤٠٩.

(٣) انظر: من كنوز السنة، محمد علي الصابوني ص ١٣٧، ١٣٨.

ويزول ما في الصدور ما حلّ فيها من عوارض البغض، وأسباب الشحناء[(١)].

وليكن لنا في رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة الذي كان الرفق عنواناً لأفعاله وسلوكه كما هو وارد في أقواله، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى منها ما روى عن أبي هريرة رضي الله عنه: «أنَّ أعرابياً بال في المسجد، فثار إليه الناسُ ليَقَعوا به، فقال لهم رسولُ الله ﷺ: دَعوهُ وأهريقوا على بولهِ ذَنوباً من ماء أو سَجْلاً من ماء - فإنما بُعِثتم مُيسِّرين ولم تُبعثوا مُعسرين»[(٢)].

خامساً- من موضوعات الدعوة: أثر الرفق على النفوس:

جاء في الأحاديث التي معنا التصريح بعظيم الأجر وجزيل الثواب على الرفق، وأن الله يعطي عليه ما لا يعطى على غيره، فقال ﷺ: "إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطى على العنف، وما لا يعطى على ما سواه" فاللين والرفق صورة من صور الرحمة يضعها الله في قلب العبد، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾[(٣)]، والهين اللين يحظى بمحبة الله تعالى[(٤)]، كما صرح بذلك الحديث "إن الله رفيق يحب الرفق".

إضافة إلى ما في الرفق من حوز للخير وما في التجافي من الحرمان من الخير، روى عن جرير رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((من يحرم الرفق يحرم الخير))[(٥)]. فدلت النصوص على أن الرفق في الأمور والرفق بالناس واللين والتيسير من جواهر عقود الأخلاق الإسلامية وأنه من صفات الكمال، وأن الله تعالى من صفاته أنه رفيق وأنه يحب من عباده الرفق، فهو يوصيهم به ويرغبهم فيه ويعدهم عطاء لا يعطيه على شيء آخر، فالواجب على المسلم لزوم الرفق في الأمور كلها وترك العجلة والخفة فيها، إذ أن الرفق

---

(١) كيف يدعو الداعية، عبدالله ناصح علون ص ٦١ ص ٧٤، ٧٥.

(٢) أخرجه البخاري ٦١٢٨

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

(٤) انظر: أخلاقنا حين نكون مؤمنين حقاً، محمود محمد الخزندار ص ٤٦٤، ٤٦٥.

(٥) أخرجه مسلم ٢٥٩٢.

يصلح النفوس ويؤثر فيها تأثيراً لطيفاً حسناً ويستعطفها إلى المطلوب منها أفضل استعطاف، ومن شأنه أن يلين عريكتها وإن كانت صلبة جافة قاسية بخلاف معاملتها بالعنف، فإنه يولد لديه صلابة التحدي والعناد وعدم الاستجابة للمطلوب منها، فالرفق يؤلف قلوب الناس ويمتلك مودتهم ويطوعهم، أما العنف في معاملة الناس فإنه يورث العداوات والأحقاد ورغبات الانتقام متى سنحت الفرصة لتنفيذه[١].

(١) أخلاق المسلم وآدابه، د. بدر عبدالرزاق الماص ص ٨٩، ٩٠.

الحديث رقم (٦٣٤)

٦٣٤- وعنها: أنَّ النبيَّ ﷺ، قَالَ: ((إنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفقَ، وَيُعْطي عَلَى الرِّفق، مَا لاَ يُعْطِي عَلَى العُنْفِ، وَمَا لاَ يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ)) رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

الشرح الأدبي

الحديث في معنى سابقه يدور حول الترغيب في الرفق، وبيان فضله كما اتفق مع سابقه في الأسلوب، وقد زاد عليه في المعنى بزيادة في المبنى، وهي قوله (وَيُعْطي عَلَى الرِّفق، مَا لاَ يُعْطِي عَلَى العُنْفِ) وفي العبارة فضل ترغيب لم يرد في الحديث السابق عن طريق التعبير بالعطاء في جانب الرفق، وسلب العطاء في جانب العنف، وهو طباق يؤكد المعنى، والفرق بين الرفق، وبين العنف ليوضح الفارق بين الخلقين تمام الوضوح، كما طابق بين يعطي، ولا يعطي، وهو طباق سلب يبين أن الرفق يفتح باب العطاء، وأن العنف يغلق باب العطاء، وهو أمر مشاهد في تعاملات الناس فيما بينهم، وحذف مفعول العطاء في الجملتين يفيد التوسع في الدلالة الإيحائية: في تخيل مفعول العطاء، وهو من الأبعاد النفسية التي تفيدها ظاهرة الإيجاز، ويتمثل في فتح باب التخيل، والاحتمال على مصراعيه أمام المتلقي ليفيد منه بحسب خبرته، ويتخيل من الصور والمعاني بحسب ما يمكن أن يوحي به النص، وينسجم معه.

المضامين الدعوية[2]

---

(١) برقم ٢٥٩٣/٧٧. أورده المنذري في ترغيبه ٣٩٤٥.

(٢) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (٦٣٥)

٦٣٥- وعنها: أنَّ النبيَّ ﷺ، قَالَ: ((**إنَّ الرِّفْقَ لاَ يَكُونُ فِي شَيْءٍ إلاَّ زَانَهُ، وَلاَ يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إلاَّ شَانَهُ**)) رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

غريب الألفاظ:

زانه: حسّنه[2].

شانه: عابه وقبحه[3].

الشرح الأدبي

الحديث في معنى سابقه مع اختلاف في بسيط في الألفاظ، والأسلوب حيث قام المعنى في هذا الحديث على أسلوب القصر مع المقابلة، فقد قصر معنى وجود الرفق على الزين، وقصر نزع الرفق عن الشيء على الشين وهذ الأسلوب يفيد توكيد المعنى لأن فيه توكيدا من طريق النفي ثم بالإثبات عن طريق الاستثناء، وفيه مقابلة بين يكون، وينزع، وبين زانه، وشانه، ليضع الرفق، وعاقبته، إزاء العنف، وعاقبته في صورة واحدة ليتضح بحسن الحسن قبح القبيح، ويتضح بقبح القبيح حسن الحسن ويترك الصورة في تمام الوضوح للمؤمن ليختار فعلا بعاقبته.

المضامين الدعوية[4]

---

(١) برقم ٢٥٩٤/٧٨. أورده المنذري في ترغيبه ٣٩٤٦.

(٢) القاموس المحيط، الفيروزآبادي في (ز ي ن).

(٣) القاموس المحيط، الفيروزآبادي في (ش ي ن).

(٤) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -٦٣٥- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (٦٣٣، ٦٣٤).

الحديث رقم (٦٣٦)

٦٣٦- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه، قَالَ: بَال أعْرَابيٌّ في المسجدِ، فَقَامَ النَّاسُ إلَيْهِ لِيَقَعُوا فِيهِ، فَقَالَ النبيُّ ﷺ: ((دَعُوهُ وَأرِيقُوا[1] عَلَى بَوْلِهِ سَجْلاً مِنْ مَاءٍ، أَوْ ذَنُوباً مِنْ مَاءٍ، فَإنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ وَلَم تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ)) رواه البخاري[2].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

ليقعوا فيه: يقال: وقع فلان في فلان وقيعة ووقوعاً: سبّه واغتابه وعابه[3].

أراقهُ: صبَّه[4].

سَجْلاً: دلوًا ممتلئةً[5].

الذنوب: وهي أيضاً الدلو الممتلئةُ ماءً[6].

الشرح الأدبي

الحديث يتناولا تطبيقا عمليا لخلق الرفق يبين لهم كيفية تعاطيه لأن التطبيق العملي من أقوى أسباب تثبيت المعنى النظري، وقوله (بَال أعْرَابيٌّ في المسجدِ) يصور الحدث الذي أثار حفيظة الحاضرين لأنهم يرون للمسجد قدسية لا يجب أن تمس بفعل خارج عن الأدب منجس للموضع الواجب تطهيره وقد صوَّر الراوي رد فعلهم (فَقَامَ النَّاسُ

---

(١) لفظ البخاري برقم ٢٢٠ (هريقوا)، وفي ٦١٢٨ (أهريقوا). والمثبت لفظ الحميدي في جمعه، وتبعه عليه المنذريُّ والمؤلفُ.

(٢) برقم ٢٢٠ والسياق للحميدي في جمعه ٢/٢٤٠، رقم ٢٥٠٧. أورده المنذري في ترغيبه ٣٩٥٥.

(٣) الوسيط في (و ق ع)، وينظر دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٩١٢.

(٤) القاموس المحيط، الفيروزآبادي في (ر و ق).

(٥) رياض الصالحين (٢٨٠).

(٦) المرجع السابق.

إِلَيْهِ لِيَقَعُوا فيهِ) الفاء التي تفيد السرعة في القيام، والجمع الذي يوحي به لفظ (الناس) واللام التي تشير للعلة مع الفعل المبين لها (ليقعوا فيه) والعبارة كناية عن رغبتهم في عقابه، والتعبير بالوقوع مع الجار، والمجرور (فيه) يشير شدة تمكنهم منه، وقد جاء رد النبي ﷺ سريعا في الرفق سرعتهم في العقاب بقوله (دعوه) أمر بترك في وداعة يدل الرفق، تبعه بالتصرف اللائق بالرفيق المصحح للخطأ في يسر (وَأَرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ سَجْلاً مِنْ مَاءٍ، أَوْ ذَنُوباً مِنْ مَاءٍ) ثم يتبع الأمر بالعلة المحققة للإقناع القلبي بعد الإقناع العقلي المنبعث من يقينهم بوجوب طاعة رسول الله ﷺ (فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ) وأسلوب القصر يتعاضد في العبارة مع أسلوب الطباق في التأكيد على معنى كونهم أمة التيسير، وليسوا أمة التعسير، ويدعوهم ضمنا إلى العمل بموجب هذا الأمر الذي يستلزم الرفق في كل الأمور.

فقه الحديث

هذا الحديث يشير إلى الأحكام الفقهية التالية:

١-نجاسة بول الآدمي: أجمع الفقهاء على نجاسة بول الآدمي[1].

٢-دفع أعظم المفسدتين بارتكاب أيسرهما[2]: قال النووي: (قال العلماء: كان قوله ﷺ "دعوه" لمصلحتين: إحداهما: أنه لو قطع عليه بوله تضرر، وأصل التنجيس قد حصل، فكان احتمال زيادته أولى من إيقاع الضرر به، والثانية أن التنجيس قد حصل في جزء يسير من المسجد، فلو أقاموه في أثناء بوله لتنجست ثيابه وبدنه ومواضع كثيرة من المسجد)[3].

---

(١) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي بن محمد الشوكاني ٣٦، ومجمع الأنهر ١٤٨/١، والقوانين الفقهية ص ٣٤، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٧٩/١، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٧٢/٢.

(٢) الأشباه والنظائر في قواعد وفروع الشافعية، جلال الدين السيوطي ١٦١/١، والمنثور في القواعد ٤٠٠/١، وغمز عيون البصائر ١١٩/٢.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي مج١٩٤/٣/٢ ط/ دار عالم الكتب، وإحكام الأحكام لابن دقيق العيد، ٥٨، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٧٢/١.

هل يتعين الماء لإزالة النجاسة؟ ذهب الحنفية عدا زفر إلى أن الأرض إذا أصابها نجس، فجفت بالشمس أو الهواء أو غيرهما وذهب أثره طهرت وجازت الصلاة عليها، لقوله ﷺ: ((أَيُّمَا أَرْضٍ جَفَّتْ فَقَدْ ذَكَتْ))[١].

وذهب المالكية والحنابلة، والشافعية في الأصح عندهم، وزفر من الحنفية إلى أنها لا تطهر بغير الماء، لأمره ﷺ أن يصبّ على بول الأعرابي ذَنُوب ماء، ولو كفى ذلك لما حصل التكليف بطلب الماء[٢].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: بيان حلم ورفق النبي ﷺ بالمدعوين.

ثانياً: من آداب الداعية: التأسي بالنبي ﷺ.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: التيسير وعدم التعسير.

رابعاً: من وسائل الدعوة: التعليم.

أولاً- من موضوعات الدعوة: بيان حلم ورفق النبي ﷺ بالمدعوين:

في هذا الحديث بيان لصورة من صور حلمه ﷺ ورفقه بأمته[٣]، فلم يعنف النبي ﷺ ذلك الأعرابي الذي بال في المسجد بل رفق به وعلمه وأنكر على من أراد أن يقع به، كما هو واضح في الحديث "فقام الناس إليه ليقعوا فيه، فقال النبي ﷺ دعوه وأريقوا على بوله سجلاً من ماء أو ذنوباً من ماء، فإنما بعثتم ميسرين" وذلك من

---

(١) هذا الحديث ذكرته كتب الحنفية، لكن لم نعثر عليه في كتب الأحاديث، كما ذكروا الحديث بلفظ: "زكاة الأرض يبسها" قال ابن حجر في التلخيص الحري ٣٧/١: احتج به الحنفية ولا أصل له في المرفوع، نعم ذكره ابن أبي شيبة ٥٧/١ موقوفاً على أبي جعفر محمد بن علي الباقر، ورواه عبدالرزاق لوابن أبي شيبة ٥٧/١] عن أبي قلابة من قوله.

(٢) الاختيار ٤٦/١، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، محمد بن عبدالرحمن المغربي ١٦/٢، وروضة الطالبين، الإمام النووي، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، وعلي محمد معوض ٨/١، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٧٩/٢.

(٣) انظر: أخلاق النبي وآدابه، الأصفهاني ص ٦١، دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٩١٢.

رحمته بالمؤمنين، وكما وصفه الله بقوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(١).

فلقد كان الرفق ديدن دعوة الأنبياء السابقين، فقد دعا نوح عليه السلام قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً قبل أن يغرقهم الطوفان، استخدم معهم أنواعاً من الأساليب ليقبلوا على دعوته ويقبلوا منه، لكن المحصلة كانت قليلة، وكذلك عاش إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء على لأواء أقوامهم يدعونهم إلى الله برفق وعدم عجلة، حتى نص القرآن الكريم على وجه من توجيهات الله تعالى لموسى وأخيه هارون عليهما السلام في دعوتهما لفرعون ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾(٢)،(٣). (فهذه الآية فيها عبرة عظيمة وهو أن فرعون في غاية العتو والاستكبار، وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أمر ألا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين، فكانت دعوة موسى وهارون عليهما السلام بكلام رقيق لين قريب سهل ليكون أوقع في النفوس وأبلغ وأنجع، كما قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾(٤))(٥).

فما أحرى بالدعاة أن يكون الرفق عنوان رسالتهم وديدن أخلاقهم، فبالرفق تُساس الطباع ويعرف مكامن الداء، ويعطي الدواء لتستقيم الأنفس على الخير وتقبل دعوة الله عزوجل ويزول من الصدور ما حلَّ فيها من عوارض البغض وأسباب الشحناء، ولاشك أن الدواء لهذا كله بلسمُ الرفق(٦).

---

(١) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

(٢) سورة طه، الآيتان: ٤٣، ٤٤.

(٣) صفات الداعية، د. حمد العمار ص ٥٤.

(٤) سورة النحل، آية: ١٢٥.

(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢٩٤/٥.

(٦) كيف يدعو الداعية، عبدالله ناصح علوان ص ٧٤.

ثانياً- من آداب الداعية: التأسي بالنبي ﷺ:

إن من أهم الآداب اللازمة للداعية التي ينبغي ألا تنفك عنه بأى حال من الأحوال تأسيه برسول الله ﷺ في شئونه كلها خاصة في عَرْض دعوته على المدعوين، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[١]، ومن الصفات التي يقتدى بها ما ورد في الحديث من رفق النبي ﷺ بالأعرابي، فلقد كان من خلق نبينا محمد ﷺ الذي اشتهر وعرف به: الرفق في دعوته للناس ومعرفة أحوالهم ومراعاة شؤونهم وعدم المشقة عليهم بأي وجه من الوجوه وتلمس العذر لهم[٢]. فلكي ينجح الداعية في التعامل مع شتى الطبقات فلابد من التحلي بالرفق في الدعوة إلى الله، وأن يتصف بلين الجانب وسهولة المعاشرة حتى يفتح لدعوته مغاليق القلوب، وينفذ بنصحه إلى أعماق النفوس[٣].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: التيسير وعدم التعسير:

ورد ذلك في الحديث بلسان حال النبي ﷺ من الرفق والتيسير بالأعرابي وعدم نهره وبلسان مقاله، فقال ﷺ: فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين" وإن من يتتبع أحكام الشريعة الإسلامية، والنصوص التي استنبطت منها، فسوف يجد لا محالة أنه قد روعى فيها التخفيف والتيسير على العباد، وأن مظاهر رفع الحرج واضحة جلية، وذلك مما يدل على أن مبدأ اليسر ودفع الحرج والمشقة أصل من أصول التشريع الإسلامي[٤]، بل إنَّ الدين قوامه اليسر، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((إنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إلاَّ غَلَبَه، فسَدِّدوا وقارِبوا، وأبْشِروا، واسْتَعِينوا بالغدْوَةِ والرَّوْحةِ وشيءٍ منَ الدُّلْجة))[٥].

---

(١) سورة الأحزاب، الآية : ٢١.

(٢) انظر: الأصول العلمية للأمر المعروف والنهي عن المنكر، د. عبدالرحيم المغذوي ص ٣٣٦.

(٣) أخلاق الدعاة إلى الله تعالى، د. طلعت محمد عفيفي سالم ص ١٨٥.

(٤) مظاهر التيسير في التشريع الإسلامي، د. عبدالعزيز محمد عزام ص ٨.

(٥) صحيح البخاري، ٣٩.

قال ابن حجر: والمعنى لا يتعمق أحد في الأعمال الدينية ويترك الرفق إلا عجز وانقطع فيُغْلَب، قال ابن المنير في هذا الحديث علم من أعلام النبوة، فقد رأينا ورأى الناس قبلنا أن كل متنطع في الدين ينقطع، وليس المراد منع طلب الأكمل في العبادة فإنه من الأمور المحمودة، بل منع الإفراط المؤدي إلى الملل أو المبالغة في التطوع المفضي إلى ترك الأفضل أو إخراج الغرض عن وقته -إلى أن قال- وقد يستفاد من هذا الإشارة إلى الأخذ بالرخصة الشرعية فإن الأخذ بالعزيمة في موضع الرخصة تَنَطّع[(١)]، وإنما الواجب السداد والمقاربة وذلك بين الإفراط والتفريط فلا غلو ولا تقصير[(٢)].

رابعاً- من وسائل الدعوة: التعليم:

ورد في الحديث التعليم كوسيلة من وسائل تبليغ الدعوة وذلك في تعليم النبي ﷺ لذلك الأعرابي لما بنيت من أجله المساجد، كما جاء في رواية ابن ماجه: ((إن هذا المسجد لا يبال فيه، وإنما بنى لذكر الله وللصلاة))[(٣)]، وذلك التعليم الذي ورد في الحديث الممزوج بالتيسير والرحمة، إشارة إلى أنه ينبغي على الداعية التيسير على المدعوين، والتعامل معهم بما يناسبهم، وذلك ما يدفع المدعوين إلى حرصهم ومتابعتهم وعنايتهم بالدعوة، ومن ثمَّ إحداث الأثر الدعوى المناسب[(٤)].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١/١٧٧.

(٢) انظر: شرح مسلم، النووي، ٥١٦.

(٣) أخرجه ابن ماجه ٥٢٩، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجة ٤٢٨).

(٤) انظر: علم النفس الدعوى، د. عبدالعزيز بن محمد النغيمشي ص ٢٩٩، ٣٠١.

الحديث رقم (٦٣٧)

٦٣٧- وعن أنس رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ، قَالَ: ((يَسِّرُوا وَلاَ تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا وَلاَ تُنَفِّرُوا)) متفقٌ عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

انس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

ولا تنفروا: لا تلقوا النّاسَ بما يحملهم على النفور من الغلظة والشدة[2].

الشرح الأدبي

الحديث قصير يقوم على الأساليب الإنشائية بين الأمر، والنهي يدعمهما الطباق في تقرير المعنى فقوله (يسروا) أمر ندب، وإرشاد تبعه بنهي يعضده (وَلاَ تُعَسِّرُوا) تدعيما لخلق الرفق، وقوله (وبشروا) أمر بالبشارة التي تدخل السرور على الناس وتجعلهم يقبلون على ما يرضي الله، وقد دعمه بنهي عن ضده (وَلاَ تُنَفِّرُوا) قال الإمام النووي (جمع في هذه الألفاظ بين الشيء، وضده؛ لأنه قد يفعلهما في وقتين فلو اقتصر على (يسروا) لصدق ذلك على من يسر مرة أو مرات، وعسر في معظم الحالات فإذا قال (ولا تعسروا) انتفى التعسير في جميع الأحوال من جميع وجوهه وهذا هو المطلوب، وكذا يقال في بشروا، ولا تنفروا وفي هذا الحديث الأمر بالتبشير بفضل الله، وعظيم ثوابه، وجزيل عطائه، وسعة رحمته، والنهي عن التنفير بذكر التخويف، وأنواع الوعيد محضة من غير ضمها إلى التبشير[3].

---

(١) أخرجه البخاري ٦٩ واللفظ له، ومسلم ١٧٣٤/٨. أورده المنذري في ترغيبه ٣٩٥٦.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ن ف ر).

(٣) شرح النووي علي صحيح مسلم حديث (١٧٣٤) بتصرف.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: التيسير وعدم التعسير.

ثانياً: من أساليب الدعوة: التبشير وعدم التنفير.

ثالثاً: من أهداف الدعوة: التيسير والتبشير.

أولاً- من موضوعات الدعوة: التيسير وعدم التعسير:

إن من أهم الأسس التي بنى عليها الإسلام التيسير، وقد جاءت النصوص متضافرة بالأمر بالتيسير والنهى عن التعسير، ومنها هذا الحديث الذي يقول فيه النبي ﷺ "يسروا ولا تعسروا"، قال القاضي عياض: (وفيه ما يجب الاقتداء به من التيسير في الأمور والرفق بالناس وتحبيب الإيمان إليهم وترك الشدة و التنفير لقلوبهم لا سيما فيمن كان قريب العهد به)(١)، وفي ذلك بيان لما أراده الله تعالى من التيسير، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾(٢)، وقال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾(٣)، وقد التزم النبي ﷺ بمبدأ التيسير ولم يفارقه، ودليل ذلك ما روى عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قالت: "ما خُيِّرَ رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس عنه"(٤) وكان ينهى أصحابه عن التشدد، ويأمرهم بالأخذ بما هو أيسر وأسهل عليهم في الدين والدنيا(٥). كما في الحديث "يسروا ولا تعسروا" وقد اتبع العلماء الحاذقون هذا الأسلوب في فتاويهم وعرضهم الدعوة على الناس كابن تيمية الذي كان يرى أن أمور التشريع تؤخذ بالاستطاعة، ويراعى فيها تحصيل المصالح وتعطيل المفاسد(٦).

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٣٧/٦.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٨٥.

(٣) سورة النساء، آية: ٢٨.

(٤) أخرجه البخاري ٣٥٥٩.

(٥) مظاهر التيسير في التشريع الإسلامي، د. عبدالعزيز محمد عزام ص ١٤، ١٥.

(٦) منهج شيخ الإسلام، ابن تيمية في الدعوة، د. عبدالله بن رشيد الحوشاني ٦٦٥/٢.

ثانياً- من أساليب الدعوة: التبشير وعدم التنفير:

ورد التصريح في الحديث باتباع أسلوب التبشير طريقاً ومنهاجاً فقال ﷺ: "وبشروا ولا تنفروا" لما في ذلك من تأليف القلوب، لذا ينبغي التبشير والتلطف مع المدعوين، ليكون أدعى إلى القبول، وكذا تعليم العلم ينبغي أن يكون بالتدريج لأنَّ الشيء إذا كان في ابتدائه سهلاً حبب إلى من يدخل فيه وتلقاه انبساطاً، وكانت عاقبته غالباً الازدياد بخلاف ضده[(١)]، وكان التبشير أحد أساليب النبي ﷺ في الدعوة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾[(٢)].

فالتبشير يكسب الداعية حب المدعوين واستئناسهم به[(٣)]، وإقبالهم عليه، فالتبشير أمر محبوب إلى النفوس وهو ذات قيمة تأثيرية عظيمة، لذا ينبغي على الداعية أن يلج إلى قلوب المدعوين من خلال أسلوب التبشير بغية التأثير فيهم وتأليف قلوبهم وكسبها، فضلاً عن أن التبشير ينبغي أن تصبغ به أحوال المسلمين عامة، قال ابن عثيمين: (ينبغي للإنسان إدخال السرور على إخوانه المسلمين ما أمكن بالقول أو بالفعل ليحصل له بذلك خير كثير وراحة وطمأنينة قلب وانشراح صدر)[(٤)].

ثالثاً- من أهداف الدعوة: التيسير والتبشير:

قَعَّد الحديث القاعدة التي ينبغي أن يتعامل بها الداعية مع الآخرين، والتي يجب أن تحكم أسلوب الدعوة والداعية، وهي قاعدة التيسير والتبشير[(٥)]، فقال ﷺ: "يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا" لذا كان من أهداف الدعوة التبشير، والبعد عن كل ما يجلب المشقة حتى يقبل الناس على الدعوة وتتحقق استجابتهم لتوجيهات الإسلام.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر، ١٩٧/١.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٤٥.

(٣) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين، ٨١١/٣.

(٤) القول الحفيد على كتاب التوحيد، محمد بن عثيمين، ط/١، دار العاصمة، الرياض: ١٤١٥هـ، ٥٤/١.

(٥) صفات الداعية، د. حمد بن ناصر بن عبدالرحمن العمار ص ٧٥.

فإن علاج الأمور باليسر والتيسير لا بالعسر والتعسير من الصفات التي تساعد الدعاة على تحقيق الأهداف الدعوية بين الناس، وهذا ما ينبغي أن يحرص عليه الداعية.

ولقد كان من سماحة الإسلام أن جعل أحكامه وتشريعاته مبنية على التيسير ورفع المشقة والحرج عن الأمة [1]، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[2]، ويسر الله الأخذ بتعاليم الإسلام فجعلها مقدورة من جهة، ويتفاوت التكليف عند حدوث المشقة، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[3].

وعن أبي هريرة ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((ما نَهَيْتُكُمْ عَنْه فَاجْتَنِبُوهُ، وَما أَمَرْتُكُمْ به فَأْتُوا مِنْهُ مَا استَطَعْتُمْ، فَإِنَّمَا أهلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَثْرَةُ مسائِلِهِمْ وَاخْتِلافِهِمْ عَلَىٰ أَنْبِيَائِهِمْ))[4]. وإن من يتتبع أحكام الشريعة الإسلامية والنصوص التي استنبطت منها فسوف يجد لا محالة أن هذه الأحكام قد روعي فيها التخفيف والتيسير على العباد، وأن مظاهر رفع الحرج واضحة جلية في ابتدائها ودوامها[5].

والأدلة على ذلك من التشريع الإسلامي كثيرة، فمثلاً أوجب الله الصلاة على المكلف في اليوم خمس مرات، وأوجب عليه أن يؤديها من قيام، وهذا تكليف يسير لا حرج فيه ومع ذلك فقد رخص أن يؤديها من قعود، أو كما يقدر إذا لم يستطع القيام، وكذلك الصيام فرضه الله شهراً في السنة فالمشقة فيه لا تصل إلى درجة العسر والحرج ومع هذا فقد أباح له الفطر في حالات تعظم فيها المشقة، فأباح الفطر للمسافر والمريض والحامل والمرضع، وقد حرم الله الميتة ولكن أباحها عند المخمصة، وشرع التيمم عند

---

(١) المرجع السابق ٧٥، ٧٦.

(٢) سورة الحج، آية: ٧٨.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٨٦.

(٤) أخرجه البخاري، ٧٢٨٨، ومسلم١٣٣٧.

(٥) انظر: الفقه الإسلامي أساس التشريع، محمد مصطفى شلبي ص ١٢٨.

فقد الماء، والقصر في الصلاة، وشرع الكفارات لتمحو آثار الذنوب، إلى غير ذلك مما يدل على أن مبدأ اليسر ودفع الحرج والمشقة في الأحكام الشرعية أصل من أصول التشريع الإسلامي سواء أكان الحكم منصوصاً عليه صراحة في الشريعة أم مستنبطاً بواسطة الفقهاء والمجتهدين[1].

---

(١) تفسير آيات الأحكام، محمد علي السايس ١٩٧/٢.

الحديث رقم (٦٣٨)

٦٣٨- وعن جرير بن عبد الله ﷺ، قَالَ: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ، يقولُ: ((مَنْ يُحْرَمِ الرِفْقَ، يُحْرَمِ الخَيْرَ كلَّهُ)) رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

جرير بن عبدالله البجلي: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٧١).

الشرح الأدبي

الحديث في فضل الرفق ورد في أسلوب الخبر القصير الذي يصدر كلافتة قصيرة تعجل بالحكم وتعتمد الإجمال في تقرير المعنى المراد حيث قرر أن فقدان الرفق فقدان لكل خير، عن طريق الموصول (من) بمعنى الذي، وصلته (يحرم) الواقع على الرفق مع بناء الفعل (يحرم) لما لم يسم فاعله وبهذا التركيب فإن الحكم يصدق على كل من كانت هذه صفته بغض النظر عن زمانه، ومكانه، وجملة (يحرم الخير كله) تقرر أهمية الرفق، وفضله في التأثير على فتح أبواب الخير له لأن المفهوم ضمنا من العبارة أن من يعطى الرفق يعطى الخير كله، ولفظ كله في الحديث ينفي المبالغة، ويمنع الشك؛ لأنه يؤكد الشمول المفهوم من لام الجنس في كلمة الخير مما يوجب على العاقل مراجعة نفسه في تعامله مع خلق الله لأنه بذلك يفتح لنفسه باب الخير، أو يغلقه.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الترهيب.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: خطورة الحرمان من الرفق.

ثالثاً: من آداب المدعو: الحرص على الأمور النافعة.

---

(١) برقم ٢٥٩٢/٧٤ بدون قوله: (كله). أورده المنذري في ترغيبه ٣٩٤٧ وقال: ورواه مسلم وأبو داود مختصراً: (من يحرم الرفق يحرم الخير)، وزاد أبو داود: (كلّه). وجمع المؤلف بين اللفظين من دون ان يشير إلى ذلك.

أولاً- من أساليب الدعوة: الترهيب:

جاء أسلوب الترهيب في الحديث، حيث رهَّب النبي ﷺ من مجانبة اللين والرفق والميل إلى العنف مبيناً أن ذلك سببًا للحرمان من الخير فقال ﷺ: "من يحرم الرفق يحرم الخير كله"، وأسلوب الترهيب من أشد أساليب الدعوة تأثيراً في جذب الناس حول الحق خوفاً من العقاب وخوفاً من فقدان الخير والسلامة والأمن(١).

إن الحرمان من الخير من أشد أساليب الترهيب، فإن بيان النتائج على الأعمال من نعيم وعذاب تحدث في النفس التطلع إلى فعل الخير والاتصال بالفضيلة، ومجانبة الذنوب والمعاصي ولزوم التوبة والإنابة إلى الله عز وجل(٢).

ثانياً- من موضوعات الدعوة: خطورة الحرمان من الرفق:

إن خطورة الحرمان من الرفق والتجافي عنه تكمن في حرمان الإنسان من الخير كما صرح بذلك رسول الله ﷺ فقال: ((من يحرم الرفق يحرم الخير كله))، أي يفض به ذلك إلى أن يُحرم خيرَ الدنيا والآخرة(٣). وقال النووي: (وفي هذا فضل الرفق والحث على التخلق به وذم العنف، والرفق سبب كل خير)(٤)، والعنف سبب للحرمان من كل خير، ثم إن صورة الإنسان الشديد الغليظ العنيف، صورة مشينة معيبة تنفر منها الطباع البشرية، بينما صورة السهل الرفيق اللين اللطيف، صورة تزين صاحبها، وترتاح إليها النفوس، وتأنس إليها القلوب(٥)، وهذه المعاني وغيرها ضَمَّنها النبي ﷺ في قوله: ((إِنَّ الرِّفْقَ لاَ يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلاَّ زَانَهُ، وَلاَ يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ شَانَهُ))(٦).

لذا جاءت النصوص الكثيرة في ذم العنف والنهي عنه، ومن ذلك ما روى عن عائشة رضي الله عنها أن يهوداً أتوا النبي ﷺ فقالوا: "السام عليكم" فقالت عائشة رضي الله عنها:

---

(١) الترهيب في الدعوة، د. رقية بنت نصر الله بن محمد نياز ص ٣١.

(٢) دستور الأخلاق في القرآن، دراسة مقارنة للأخلاق النظرية في القرآن، د. محمد عبدالله دراز ص ٣٨٨.

(٣) إكمال المعلم، القاضي عياض، ٥٧٨/٦.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي، ص ١٥٤٧.

(٥) هذه أخلاقنا حين نكون مؤمنين حقاً، محمود محمد الخزندار ص ٤٦٥

(٦) أخرجه مسلم، ٢٥٩٤.

"عليكم ولعنكم الله وغضب عليكم"، قال: ((مهلاً ياعائشة، عليك بالرفق وإياك والعنف والفحش، قالت: أو لم تسمع ما قالوا؟ قال: أو لم تسمعي ما قلت؟ رددت عليهم فيستجاب لي فيهم ولا يستجاب لهم فيّ))[1]. إضافة إلى ما ينم عن العنف من سوء الخلق، فترى صاحبه فظاً غليظاً لا يتراخى ولا يتألف ولا يلذّ إلا المهاترة والأقذاع، ولا يتكلم إلا بالعبارات النابية التي تحمل في طياتها الخشونة والشدة والغلظة والقسوة، وذلك كله مدعاة للفرقة والعداوة ونزغ الشيطان وعدم قبول الحق.

فهذا النبي ﷺ مع انه مرسل من الله ومؤيد بالوحي، ومع أنه جاء بالهدى ودين الحق، قال ربه عز وجل في حقه: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾[2]،[3]. قال البغوي: (قوله تعالى: "فبما رحمة من الله" أي فبرحمة من الله، و"ما" صلة وقوله: "لنت لهم" أي سهلت لهم أخلاقك وكثرة احتمالك "ولو كنت فظًا" يعني جافيًا سيء الخلق قليل الاحتمال "غليظ القلب" قال الكلبي: فظا في القول غليظ القلب في الفعل "لانفضوا من حولك" أي لنفروا وتفرقوا عنك ولكن الله جمعهم عليك وألان جانبك لهم تأليفًا لقلوبهم)[4].

إن الإنسان الكَيِّس الفطن يحرص على معرفة أبواب الخير والولوج إليها، ويبتعد عن أسباب الحرمان من الخير، وفي هذا الحديث بيان لمغلاق من مغاليق الخير ألا وهو العنف، والحرمان من الرفق، فقال ﷺ: "من يحرم الرفق يحرم الخير كله"، فالواجب الحرص على ملازمة خلق الرفق لأن به انتظام خير الدارين واتساق أمرهما وفي العنف ضد ذلك، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾[5].

---

(١) أخرجه البخاري ٦٠٣٠ واللفظ له، ومسلم ٢٥٩٣.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

(٣) سوء الخلق، مظاهره، أسبابه، علاجه، محمد إبراهيم الحمد ص ١٤.

(٤) انظر: معالم التنزيل ١٢٣/٤/٢.

(٥) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

قال ابن عثيمين عن أثر الرفق في الواقع والحياة العملية: (وهذا الشيء مجرب ومشاهد، إن الإنسان إذا صار يتعامل بالعنف والشدة، فإنه يحرم الخير ولا يناله، وإذا كان يتعامل بالرفق والحلم والأناة وسعة الصدر، حصل على خير كثير، وعلى هذا فينبغي للإنسان الذي يريد الخير أن يكون دائماً رفيقاً حتى ينال الخير)[1].

(١) شرح رياض الصالحين ١/٩٢٤.

الحديث رقم (٦٣٩)

٦٣٩- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رَجُلاً قَالَ للنبيِّ ﷺ: أوْصِني. قَالَ: ((لاَ تَغْضَبْ))، فَرَدَّدَ مِرَاراً، قَالَ: ((لاَ تَغْضَبْ)) رواه البخاري[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

الرسول ﷺ بفراسته، وبنور الله في قلبه يدرك بواطن المخاطبين، وطبائعهم تتكشف له في حوراهم فيجيب كل سائل بما يصلح حاله، ويناسب طبيعته، والحديث يروي قصة هذا السائل الذي جاء يطلب وصية رسول الله ﷺ بقوله (أوصني) وهو أمر قصد به طلب الاسترشاد والنصيحة، وقول الرسول ﷺ (لا تغضب) نهي عن الاسترسال مع الغضب بأن يسيطر على نفسه ويكبح جماحها حتى لا تتساق مع الغضب إلى الانتقام، وقوله (فردد مرارا) كأنه يريد شيئا آخر غير هذه الوصية، فكرر له الرسول ﷺ نفس النهي (لا تغضب) ولعله كان عيبه الذي يمكن أن يهلكه في الدنيا بالتسبب له في عقوبة مهلكة، أو يهلكه في الآخرة بأن يتسبب في ضياع حسناته إذا ما حمله الغضب على أذى الناس فالغضب جمرة تشتعل في قلب الغضبان فتعمي بصره بغشاوة الانتقام ويسيطر عليه الشيطان، وعلاجها أن يترك الاسترسال مع الغضب، ويسيطر على نفسه.

المضامين الدعوية[2]

---

(١) برقم ٦١١٦، أورده المنذري في ترغيبه ٤٠٤٦. وتقدم برقم ٤٨.

(٢) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (٤٨).

الحديث رقم (٦٤٠)

٦٤٠- وعن أَبي يعلى شَدَّاد بن أوسٍ ﷺ، عن رسول الله ﷺ، قَالَ: ((إنَّ الله كَتَبَ الإحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُم فَأحْسِنُوا القِتْلَة، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأحْسِنُوا الذِّبْحَةَ[١]، وَلْيُحِدَّ أحَدُكُمْ شَفْرَتَه، وَلْيُرِحِ ذَبِيحَتَهُ)) رواه مسلم[٢].

ترجمة الراوي:

شداد بن أوس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٦٦).

غريب الألفاظ:

القِتْلة: هيئة القتل وحالته[٣].

الذبحة: هيئة الذبح[٤].

وَلْيُحِدَّ: ليشحذ، وذلك لتكون أقطع وأمضى إذا حَدَّ سنها[٥].

شفرته: سكينه التي سيذبح بها[٦].

الشرح الأدبي

الرسول ﷺ رحمة للعالمين تخطت رحمته حدود البشر إلى الحيوان بل إلى الجماد، وقصة حنين الجزع دليل على ذلك، وهذا الحديث يعرض صورة من صور هذه الرحمة في الرفق بالحيوان، وقوله (إن الله كتب الإحسان على كل شيء...) مقدمة عامة شملت الحكم المراد تقريره، وتوكيد الخبر لتفخيمه والتعبير بالكتابة يفيد تأكيد الثبوت أيْ أَوْجَبَ عَلَيْكُمْ الإِحْسَانَ فِي كُلِّ شَيْءٍ فَكَلِمَةُ عَلَى بِمَعْنَى فِي وَمُتَعَلَّق الْكِتَابَة

---

(١) لفظ مسلم: (الذبح).

(٢) برقم ١٩٥٥/٥٧. أورده المنذري في ترغيبه ١٦٣٠.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢٤٢، ودليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٩١٥.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢٤٣، ودليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٩١٥.

(٥) الوسيط في (ح د د).

(٦) الوسيط في (ش ف ر).

مَحْذُوف، ولفظ الشمول (كل) وإضافته إلى النكرة (شيء) أفاد عموماً يجعل الإحسان مبدأ عاما يحكم كل تصرفات المسلم، وقوله (فَإِذَا قَتَلْتُم فَأَحْسِنُوا القِتْلَة، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ) أسلوبي شرط يربطان القتل، والذبح بالإحسان وهما من ذكر الخاص بعد العام تنبيهاً إليها لغفلة الناس عنها؛ لأنها أفعال لا يعتبرها الإنسان موطن رحمة، وهي من أهم المواطن التي تحتاج إلى رحمة لشدة ما يلاقيه المشرف على الموت من الألم، وقد لفت الرسول ﷺ برحمته المسلمين إلى هذه المواطن رفقا بالمذبوح، أو المقتول، ولأن قتل الإنسان يكون في أوقات، وظروف محددة كالحروب، والحدود، وغيرها، وقتل الحيوان، والطير للأكل كثير مستمر نبه إليه الرسول ﷺ بالأمر بحد الشفرة، وإراحة الذبيحة في قوله: (وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَه، وَلْيُرِحِ ذَبِيحَتَهُ) رحمة، وإحسانا بها.

فقه الحديث

هذا الحديث يشير إلى الأحكام الفقهية التالية:

آداب الذبح: يستحب في الذبح أمور:

أ-إحسان الذبح: وهو بالإجماع، ويتحقق ذلك بإحداد السكين، ونحوه، وسرعة القطع، وأن يوجِّه الذبيحة للقبلة، وأن يسمي عليها، ويكبر.

ومن إحسان الذبح أن يحد السكين، قبل أن يضجع الذبيحة، ويكره له في قول الجمهور أن يحدها بين يدي الذبيحة، أو يذبح واحدة أمام أخرى، أو يجرها إلى مذبحها.

ب-إضجاع الذبيحة: وهو بالإجماع، لأنه أرفق بها، ويكون الإضجاع على الجانب الأيسر، لأنه أيسر للذابح في أخذ السكين باليمنى، وإمساك رأس الذبيحة باليسرى، ولا يتعين ذلك، بل كيفما تيسر له فعل(١).

---

(١) مراتب الإجماع ١٧٨، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٢٩/٢٢، وحاشية الصاوي ١٢٥/٤، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٨٠/٩ وما بعدها، وشرح منتهى الإرادات، منصور بن يوسف بن إدريس البهوتي ٣٩٠/١١، ٣٩٤.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد.

ثانياً: من أساليب الدعوة: الترغيب

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: أهمية الإحسان وفضله.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: مظاهر الإحسان.

أولاً- من أساليب الدعوة: التوكيد:

ورد أسلوب التوكيد في الحديث في قوله ﷺ: "إن الله كتب الإحسان على كل شيء" وأسلوب التوكيد من أساليب الدعوة المؤثرة لما فيه من إقناع المدعو بما يلقي إليه وإقراراه به ووقعه في قلبه موقع القبول. فإن تأكيد الكلام يعطيه قوة في نفس السامع، وقد استخدم القرآن التوكيد في تقرير كثير من القضايا والأحكام، قال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[(١)].

ثانياً- من أساليب الدعوة: الترغيب:

ورد أسلوب الترغيب ضمنياً في الحديث بإحسان القتل والذبح، فقال ﷺ: "إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة" ولا يجازي الله على الإحسان إلا إحسانا". قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾[(٢)]. وأسلوب الترغيب من الأساليب الدعوية المفيدة لما فيه من تشويق المدعو إلى الاستجابة وقبول الحق والثبات عليه[(٣)].

والترغيب من أبرز أساليب الدعوة شيوعاً في القرآن والسنة قال الزرقاني: (الترغيب والترهيب يفيض بهما بحر الكتاب والسنة، ولا ريب أن غريزة حب الإنسان لنفسه تدفعه إلى أن يحقق لها كل خير وأن يحميها من كل شر، سواء ما كان فيهما من عاجل وما كان من آجل، وشواهد الترغيب والترهيب كثيرة في الكتاب والسنة

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٩٥.

(٢) سورة الرحمن، آية: ٦٠.

(٣) مستلزمات الدعوة في العصر الحديث، علي بن صالح المرشد ص ١٦٠

فمددهما فياض بأوفى ما عرف العلم من ضرورة الترغيب والترهيب وفنون الوعد والوعيد وأساليب التبشير والإنذار على وجوه مختلفة)[١]، ومن نماذج ترغيبات القرآن ما ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٢].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: أهمية الإحسان وفضله:

إن مما يزيد من أهمية الإحسان ويرفع من شأنه أنه ليس من قبيل المباحات أو المندوبات، وإنما هو أمر واجب كما في الحديث "إن الله كتب الإحسان على كل شيء" قال ابن رجب الحنبلي: فهذا الحديث في وجوب الإحسان في كل شيء من الأعمال[٣]، وقد أمر الله تعالى به فقال: ﴿وَأَحْسِنُوا ۛ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[٤]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾[٥]، والإحسان يدخل في جميع الأقوال والأفعال ومع سائر الأصناف إلا ما حرم الإحسان بحكم الشرع، وإلى حقيقة الإحسان ترجع أصول وفروع الآداب والأخلاق[٦].

ولأهمية الإحسان أمر الله به بني آدم، فعندما نشر الله أبناء آدم فوق الثرى وناط بهم رسالة الحياة كلفهم أن يحسنوا العمل وأن يبلغوا به درجة الكمال، وإذا غلبتهم طباعهم الضعيفة فلم يصلوا إلى هذا الشأن كرروا المحاولات ولم يستريحوا إلى نقص

---

(١) مناهل العرفان، ٣٠٨/١، ٣٠٩.

(٢) سورة السجدة، الآيات: ١٥-١٧.

(٣) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٣٨١/١.

(٤) سورة البقرة، آية: ١٩٥.

(٥) سورة النحل، آية: ٩٠.

(٦) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ٢٥٥/١٤/٦، ٢٥٦.

أو قصور، وعليهم أن يجاهدوا حتى يبلغوا بأعمالهم درجة الكمال المستطاع كما جاء في الحديث: "إن الله كتب الإحسان على كل شيء"، وذلك يقتضي من المسلم إتقان العمل المنوط به، إتقان من يعلم علم اليقين أن الله عز وجل ناظر إليه مطلع على عمله وبهذا الإتقان تنهض الأمم وترقى المجتمعات[١]، فالإحسان يثمر الرقي لأنه يعني التفضل والعطاء دون مقابل من الجزاء أو الشكر، ويؤدي إلى توثيق الروابط وتوفير التعاون[٢]؛ فإن المؤمن إذا أراد أن يكون من أهل الإحسان فعليه أن يشعر قلبه أن عين الله ترقبه في كل زمان ومكان، وأنه لا يخفى على الله منه خافية، فإذا أشعر المؤمن نفسه بمراقبة الله له، فإنه ولا شك سيراقب الله بقلبه وفكره في جميع الأعمال التي يقوم بها، والأحوال التي يكون عليها، وبذلك يجني ثمار الإحسان[٣].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: مظاهر الإحسان:

إن مظاهر الإحسان متعددة متنوعة كالإحسان إلى الوالدين والأرحام، والإحسان في الإتيان بالمأمورات على وجه كمال واجباتها، والإحسان في ترك المحرمات والصبر على المقدورات، وغير ذلك ومنها ما ورد في الحديث"فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة" والإحسان في قتل ما يجوز قتله من الناس والدواب: إزهاق نفسه على أسرع الوجوه وأسهلها وأوحاها من غير زيادة في التعذيب[٤]. وذلك مثال للإحسان، فإنه ما من شعبة من شعب الإيمان ولا ركن من أركان الإسلام إلا وقد قرن به إحسان لائق به بدليل عموم قوله ﷺ: "إن الله كتب الإحسان على كل شيء"[٥].

والإحسان إلى المخلوقات حتى فيما جاء في الحديث من صور الإحسان بإحسان الذبح يأتي تبعاً لحال التعامل مع الله تعالى، فمن كان لله أقرب كان من ظلم هذه

---

(١) المحاور الخمسة للقرآن الكريم، محمد الغزالي ص ١٩٢.

(٢) فلسفة التربية الإسلامية، د. عبدالجواد سيد بكر ص ١٤٤.

(٣) انظر: المختار من كنوز السنة، شرح أربعين حديثًا، د. محمد عبدالله دراز ص ٢٣٢، ٢٣٣.

(٤) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس، ١/٣٨١، ٣٨٢.

(٥) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٩١٥.

المخلوقات أبعد، ومن كان متأدباً مع الله تعالى كان لنفسه مؤدباً تجاه مخلوقات الله، والإحسان إلى المخلوقات يعتمد على أصول منها:

أ- الالتزام نحوها بما شرعه الله من الأدب تجاهها وعدم ظلمها.

ب- استثمارها والانتفاع بها وفق ما أباحه الله له وشرعه، والبعد عن التعدي في ذلك او التقصير فيه.

ج- التعرف على ما شرعه الله له في التعامل معها بحسب ما تدعو إليه حاجة التعامل نحوها.

د- استشعار الإنسان بكونها مخلوقة لله تعالى، عابدة له، قال تعالى ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[1]،[2].

هـ - تقدير كل ذي روح ورعايته حقه من مطعم ومشرب إن كان محبوسًا له، يقوم بذلك بنفسه أو غيره، مع مراعاة عدم التعذيب ل، وذلك كالحبس للمصارعة بين الحيوان والطيور وما شاكل ذلك.

و - الإحسان إلى الأرض التي يقيم عليها الإنسان وذلك بإماطة الأذى ودفع الروى وتيسير السبل ورعاية حق الطريق.. إلخ.

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٤٤.

(٢) الأخلاق الفاضلة، د. عبدالله بن ضيف الله الرحيلي ص ٩١، ٩٢.

الحديث رقم (٦٤١)

٦٤١- وعن عائشة رضي الله عنها ، قالت: مَا خُيِّرَ رسول الله ﷺ بَيْنَ أمْرَيْنِ قَطُّ إلاَّ أَخَذَ أيْسَرَهُمَا ، مَا لَمْ يَكُنْ إثماً ، فَإنْ كَانَ إثماً ، كَانَ أبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ. وَمَا انْتَقَمَ رسول الله ﷺ لِنَفْسِهِ فِي شَيْءٍ قَطُّ، إلاَّ أن تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ الله، فَيَنْتَقِمَ[1] للهِ تَعَالَى. متفقٌ عَلَيْهِ[2].

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

غريب الألفاظ:

تنتهك حرمة الله: تُخرق وتؤتى[3].

الشرح الأدبي

يقرر الحديث تطبيق الرسول ﷺ مبدأ اليسر في كل الأمور المباحة تطبيقا عمليا أشارت إليه أم المؤمنين رضي الله عنها بقوله (مَا خُيِّرَ رسول الله ﷺ بَيْنَ أمْرَيْنِ قَطُّ إلاَّ أَخَذَ أيْسَرَهُمَا) وهو أسلوب قصر لمعنى التخيير على اختيار الأيسر، والتعبير بالأخذ أقوى في الدلالة على الاختيار ووقوع الأخذ على أفعل التفضيل يشير إلى التطبيق العملي لمبدأ اليسر، وقوله (مَا لَمْ يَكُنْ إثماً) احتراس يخرج المحرم من فعله ﷺ ، وأسلوب الشرط يقرر أنه أبعد الناس عن الإثم، والجناس بين (انتقم.. فينتقم) يؤكد معنى كونه لا ينتقم إلا عندما تنتهك حرمة من حرمات الله وبذلك يكون انتقام النبي ﷺ لله تعالى وينفي انتقامه لنفسه لأن الفعل الأول منفي وهو انتقامه لنفسه، والثاني مثبت يؤكد سمو الرسول ﷺ ، وتعاليه على حظوظ النفس، وملاحظتها عند إتيان كل عمل قلبي أو بدني، كما يقرر وقوفه على أمر الله - عز وجل -.

---

(١) عند البخاري زيادة: (بها).

(٢) أخرجه البخاري ٦١٢٦ واللفظ له، ومسلم ٧٧/٢٣٢٧. أورده المنذري في ترغيبه ٣٩٥٧.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ن هـ ك)، وانظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٩١٦.

فقه الحديث

في هذا الحديث من الفقه ما يلي:

١-استحباب الأخذ بالأيسر والأرفق ما لم يكن حرامًا أو مكروهًا[١]:

وقال ابن حجر: (وفي الحديث الحث على ترك الأخذ بالشيء العُسْر، والاقتناع باليسر، وترك الإلحاح فيما لا يضطر إليه، ويؤخذ من ذلك الندب إلى الأخذ بالرخص ما لم يظهر الخطأ)[٢].

٢-أنه يستحبّ للأئمة والقضاة وسائر ولاة الأمور التخلق بالعفو والحلم واحتمال الأذى فلا ينتقم لنفسه ولا يهمل حق الله تعالى[٣]. قال القاضي عياض: (وقد أجمع العلماء على أن القاضي لا يقضي لنفسه ولا لمن لا يجوز شهادته له)[٤].

وقال ابن حجر: (وفيه ترك الحكم للنفس وإن كان الحاكم متمكنًا من ذلك بحيث يؤمن الحيف على المحكوم عليه، لكن لحسم المادة)[٥].

٣-الندب إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومحلّ ذلك ما لم يفض إلى ما هو أشد منه[٦].

المضامين الدعوية

أولاً: من صفات النبي ﷺ: اليسر والحلم والعفو.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: يسر الإسلام.

ثالثاً: من صفات الداعية: التيسير على المدعوين.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: الغضب عند انتهاك محارم الله.

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦٨/١٥/٨.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٧٦/٦.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦٨/١٥/٨.

(٤) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٢٩٤/٧.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٧٦/٦.

(٦) المرجع السابق ٥٧٦/٦.

أولاً- من صفات النبي ﷺ: اليسر والحلم والعفو:

لقد منح الله سبحانه نبينا ﷺ من كمالات الدنيا والآخرة ما لم يمنحه غيره ممن قبله أو بعده، وجمع له محاسن الصفات وأحاسن الآداب[١]، ومنها اليسر والحلم والعفو كما أخبرتنا بذلك السيدة عاشة رضي الله عنها، فوصفت ميوله لليسر ومجانبته للعنف والمشقة قائلة: "ما خُيِّرَ رسولُ الله ﷺ بينَ أمرَين قطُّ إلاّ أخذَ أيسَرَهما، ما لم يَكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعدَ الناس منه"، وعن حلمه وعفوه قالت: " وما انتقمَ رسولُ الله ﷺ لنفسِهِ في شيء قطُّ، إلا أن تُنتَهَكَ حُرمة الله، فيَنتقمُ لله تعالى». فقد اشتهر النبي ﷺ بالسماحة والعفو عند المقدرة على إنزال العقاب، فلقد طرح حظوظ الذات، وأعرض عن مطالب الأنا، فليس له غرض في التشفي أو الانتقام لحقوقه، فلقد تحلى ﷺ بأخلاق القرآن المحضة فلم ينطق أو يتصرف في الرضا والغضب والسخط إلا حقاً وخيراً ومن هنا جاء تنازله ﷺ عن حقوقه الشخصية عجيباً مدهشاً، وإغضاؤه عن إساءة الآخرين فوق تحمل البشر العاديين وطاقتهم، مما لا يقدر عليه إلا إنسان مؤيد بمدد إلهي عظيم[٢].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: يسر الإسلام:

إن الإسلام هو دين اليسر، فمع وفائه بكل مقومات الحياة، فهو تشريع سهل سمح ليس فيه ما يشق على الناس فهمه أو يصعب عليهم العمل به، وهو تشريع مرن يتسع لكل ما فيه مصلحة وعدل، فحيثما توجد المصالح فثم شرع الله[٣]، قال تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾[٤]. ولقد أعطانا النبي ﷺ أنموذجاً تطبيقياً ليسر الإسلام وسماحته. وكما قالت عائشة رضي الله عنها في الحديث: " ما خُيِّرَ رسولُ

---

(١) نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، محمد الخضري ص ١٦٥.

(٢) نبوة محمد ﷺ في القرآن، د. حسن ضياء الدين عنز ص ١١٣.

(٣) عناصر القوة في الإسلام، السيد سابق ص ١٧٨.

(٤) سورة البقرة، آية: ١٨٥.

الله ﷺ بينَ أمرَين قطُّ إلاّ أخذَ أيسرَهما، ما لم يَكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعدَ الناس منه".

قال ابن حجر: وفيه الحث على ترك الشيء لعسر، والاقتناع باليسر[١]، ما لم يؤد ذلك إلى الوقوع في الإثم.

وبهذا يتبين أن اليسر من أهم وأبرز ما يتميز به الإسلام "فلقد جمع الله عز وجل، شريعة الإسلام بين كونها حنيفية وكونها سمحة فهي حنيفية في التوحيد سمحة في العمل[٢]، فإن الله سبحانه لم يكلف النفس إلا ما يتسع فيه طوقها ويتيسر عليها دون مدى غاية الطاقة والمجهود[٣]، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[٤]، وقال قتادة: قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[٥]، فأريدوا لأنفسكم الذي أراد الله لكم[٦].

ثالثاً- من صفات الداعية: التيسير على المدعوين:

إن الداعية في دعوته متأسٍ برسول الله ﷺ ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[٧] ومما يجب التأسي به التيسير على المدعوين الذي ندب إليه القرآن: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[٨] وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦٦٦/٦.

(٢) إغاثة اللهفان، ابن القيم، ١٥٨/١.

(٣) الكشاف، الزمخشري، ٢٠٤/١.

(٤) سورة البقرة، آية: ٢٨٦.

(٥) سورة البقرة، آية: ١٨٥.

(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢٥٦/١.

(٧) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

(٨) سورة البقرة، آية: ١٨٥.

حَرَجٍ﴾[1] فلا يجشمهم صعباً ولا يكلفهم عسراً يتأذون به، أو تتململ منه نفوسهم، فإذا صلى بهم إماماً لا يطيل في صلاته بل يخفف كتخفيف رسول الله ﷺ فإن فيهم المريض والضعيف وذا الحاجة، وإذا أراد نهيهم عن قبيح، وإقلاعهم عن باطل سلك بهم في الزجر سبيلاً سهلاً خالياً من الغلظة في القول، والقسوة في الموعظة[2]، وليكن التيسير شأنه والتبشير ديدنه.

فإن التيسير من الصفات التي تساعد الدعاة على الإيغال بدعوتهم بين الناس، فالقاعدة النبوية في التعامل تبدو واضحة جلية في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ: ((يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا))[3].

إن سماحة الداعية ولينه وسهولة معشره هى التي تفتح مغاليق القلوب وتنفذ به إلى أعماق النفوس، يلامسها بالهداية فتقبل، ويدعوها إلى الخير فتستجيب، وهذا الخلق يجب أن يغطى مساحة حياة الداعية كلها، وأن يكون ملازماً في كل شأن من شئون دعوته، وفي حياته اليومية وفي حياته العامة[4].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: الغضب عند انتهاك محارم الله:

إن من كمال الإيمان الغضب عند انتهاك محارم الله، كما هو حال النبي ﷺ، كما قالت عائشة رضي الله عنها: "وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه في شيء قط إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله تعالى"، وفي ذلك ما كان عليه الصلاة والسلام من الحلم والصبر والقيام بالحق والصلابة في الدين، ونضرب مثالين أحدهما في بيان حلمه وعفوه والآخر في غضبه لمحارم الله تبارك وتعالى، فأما عن حلمه وعفوه، فقد ورد عن أنس بن مالك ﷺ قال: ((كنتُ أمشي مع رسولِ الله ﷺ وعليه بُرْدٌ نَجْرانيّ غليظ الحاشية، فأدركه أعرابيٌّ فجبَذَه بردائهِ جَبذَةً شديدة، فنظرتُ إلى صفحة عاتقِ

---

(١) سورة الحج، آية: ٧٨.

(٢) الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي ص ١٠٢، ١٠٣.

(٣) أخرجه البخاري ٦٩، ومسلم ١٧٣٤.

(٤) صفات الداعية، د. حمد العمار ص ٧٥، ٧٦.

النبيُّ ﷺ وقد أثرَت فيها حاشيةُ البردِ من شدَّة جَبْذته، ثم قال: يامحمد، مُرْ لي من مالِ الله الذي عندَك. فالتفتَ إليه فضحك، ثم أمرَ له بعطاء))(١).

وأما عن غضبه لمحارم الله إذا ما انتهكت، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: ((أنَّ قريشاً أهمَّهم شأنُ المرأةِ المخزوميةِ التي سَرقَت، فقالوا: ومَن يكلِّمُ فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: ومَن يَجترئ عليه إلا أسامةُ بنُ زيد حِبُّ رسول الله ﷺ؟ فكلمهُ أسامةُ، فقال رسول الله ﷺ: أتَشفَعُ في حدٍ من حُدودِ الله ؟ ثم قام فاختطَبَ ثم قال: إنما أهلكَ الذين قبلَكم أنهم كانوا إذا سرَقَ فيهمُ الشريفُ تَركوه، وإذا سرقَ فيهمُ الضعيفُ أقاموا عليهِ الحدَّ. وأيمُ اللهِ لو أنَّ فاطمةَ بنت محمدٍ سَرقَت لقَطعتُ يدَها))(٢).

فإن الغضب لانتهاك حرمات الله غضب محمود، وقد أثبت القرآن ذلك للرسل الكرام في مواضع عديدة كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾(٣)، وقوله: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾(٤).

وبهذا يكون المسلم سمحًا سهلاً لينًا هاديًا مهديًا لا يثور ولا يغضب إلا إذا رأى حقًا يُضاع أو ظلمًا يقع فيغضب لله دون سواه، وأولى الناس بهذا هم الدعاة.

---

(١) أخرجه البخاري ٣١٤٩، ومسلم ١٠٥٧.

(٢) أخرجه البخاري ٣٤٧٥، ومسلم ١٦٨٨.

(٣) سورة الأعراف، آية: ١٥٤.

(٤) سورة طه، آية: ٨٦.

الحديث رقم (٦٤٢)

٦٤٢- وعن ابن مسعود رضي الله عنه ، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ : ((ألا أخْبِرُكُمْ بِمَنْ يَحْرُمُ عَلَى النَّارِ؟ أَوْ بِمَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِ النَّارِ؟ تَحْرُمُ عَلَى كُلِّ قَرِيبٍ، هَيِّنٍ (لَيِّنٍ) [(١)]، سَهْلٍ)) رواه الترمذي [(٢)]، وقال: (حديث حسن).

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

الشرح الأدبي

قوله (ألا أخْبِرُكُمْ بِمَنْ يَحْرُمُ عَلَى النَّارِ؟) استفهام عرض، وتشويق، وترهيب، يفهم العرض من دلالة الأداة (ألا) التي تفيد العرض، والتنبيه، ويفهم التشويق من عرض الخبر الصادر من رسول يوحى إليه مع تعميم الخطاب المفهوم من اتصال الفعل بكاف الخطاب، وميم الجمع، ويفهم الترهيب من ذكر لفظ النار، وهو من الألفاظ التي وضعت علما للألم، والعذاب، والهول، وقوله (بمن يَحْرُمُ عَلَى النَّار) من اسم موصول بمعنى الذي، والفعل (يحرم) منسوب إليه أي هو لا يقرب منها، وفي قوله (تَحْرُمُ عَلَيْهِ النَّار) أي النار لا تقربه، ويفهم من حرمته على النار أو حرمة النار عليه ضمنا أنه من أهل الجنة، وقوله (تَحْرُمُ عَلَى كُلِّ قَرِيبٍ، هَيِّنٍ، لَيِّنٍ، سَهْلٍ) إعادة الفعل لتوكيده، لأنه مدار الفلاح قال تعالى: (... فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ) (آل عمران١٨٥)، والصفات المذكورة صفات تجاوب، وتفاعل مع الناس في المعاملات، والعادات، وقضاء حوائج الناس، والصفح، والعفو، وغيرها، وهو ترغيب للمسلمين في لين الجانب وحسن المعاملة، وصفاء القلب.

---

(١) (ليّن) لا توجد عند الترمذي، وهذه الزيادة عند أحمد في المسند ٣٩٣٨، وابن حبان، الإحسان ٤٦٩.

تنبيه: المؤلفُ تبع فيه المنذريَّ في ترغيبه ٣٩٥٨، حيث أورده بهذه الزيادة.

(٢) برقم ٢٤٨٨ وقال: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ، وصحّحه ابن حبان، الإحسان ٤٦٩.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانياً: من أساليب الدعوة: الترغيب.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: فضل التعامل الحسن مع الناس.

رابعاً: من آداب المدعو: التحلي بالحلم والخلق الحسن.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار:

ورد أسلوب الإخبار في الحديث في قوله ﷺ: "ألا أخبركم بمن يحرم على النار أو بمن تحرم عليه النار؟" وأسلوب الإخبار من الأساليب الدعوية المفيدة لما فيه من نقل الحقائق للمدعوين وحملهم على الاستجابة لما فيها.

فإن الإخبار عن أحوال الناس يوم القيامة ومصائر المكلفين وتباينها، والإيمان بذلك على الوجه الصحيح يفضي إلى سلامة النفس ورشد التصور واستقامة السلوك ورقي الحياة، وهو ضمان ليقظة القلب وعلو الهمة واستعلاء النفس [1]، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ [2].

ثانياً: من أساليب الدعوة: الترغيب:

ورد أسلوب الترغيب في الحديث في التجمل بمكارم الأخلاق وسامي الآداب بالتحريم على النار فقال ﷺ: "ألا أخبركم بمن يحرم على النار أو بمن تحرم عليه النار؟ تحرم على كل قريب هين لين سهل"، وأسلوب الترغيب من آكد الأساليب الدعوية استخداماً لما فيه من تشويق المدعو إلى الاستجابة وقبول الحق والثبات عليه [3].

---

(١) وظيفة الإخبار في سورة الأنعام، د. محمد ساداتي الشنقيطي ص ٣٠٨.

(٢) سورة الروم، الآيات: ١٤-١٦.

(٣) مستلزمات الدعوة في العصر الحديث، علي بن صالح المرشد ص ١٦٠.

والترغيب يتخذ صورًا متعددة، منها الترغيب بالوعد بالخير في العاجل والآجل، فمما لا شك فيه أن لكل أجير أجره، ولكل عامل أجر على عمله، ورب العزة والجلال أعطى عباده العمال الأجر العظيم على إيمانهم، واستقامتهم على طاعته والتزامهم بمنهجه سبحانه وتعالى، وهذا في الدنيا حيث السعادة والاطمئنان النفسي وراحة النفس واستقرارها(١)، وفي الآخرة حيث الجنة وكريم الأجر وحسن الثواب، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾(٢).

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: فضل التعامل الحسن مع الناس:

لقد أخبرنا رسول الله ﷺ بوجوب الإحسان مع كل شيء فقال ﷺ: ((إِنَّ اللّٰهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ))(٣). ومنه الإحسان في معاملة الخلق ومعاشرتهم(٤)، وقد بين النبي ﷺ في الحديث ألواناً من إحسان المعاملة مع الناس والصفات الواجب التحلي بها فقال: "كل قريب هين لين سهل" أى كل قريب إلى الناس سهل طلق حليم لين الجانب سهل الخلق كريم الشمائل(٥) وحسن الخلق والتعامل مع الناس دلالة على كون صاحبه كريما محموداً(٦) وسبب لجلب محبة الله تعالى للإنسان، كما قال رسول الله ﷺ لأشج عبدالقيس: ((إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الْحِلْمُ وَالأَنَاةُ))(٧).

وقد أمر الله عز وجل بحسن المعاملة وسعة دائرة الإحسان لتضم المجتمع الذي

---

(١) قواعد الدعوة الإسلامية، د. حمدان الهجاري ص ٥١١.

(٢) سورة النحل، آية: ٩٧.

(٣) أخرجه مسلم، ١٩٥٥.

(٤) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس، ٣٨٢/١.

(٥) تحفة الأحوزي، المباركفوري، ١٩٣٥/٢.

(٦) أخلاقنا، د. محمد ربيع محمد جوهري ص ٥٥.

(٧) أخرجه مسلم، ١٧، ١٨.

يعيش فيه الإنسان[١]، قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾[٢]. فمن قام بهذه المأمورات فهو الخاضع لربه المتواضع لعباد الله المنقاد لأمر الله وشرعه الذي يستحق الثواب الجزيل والثناء الجميل.

ومن لم يقم بذلك فإنه عبد معرض عن ربه غير منقاد لأوامر ولا متواضع للخلق، بل هو متكبر على عباد الله معجب بنفسه فخور بقوله[٣].

رابعاً- من آداب المدعو: التحلي بالحلم والخلق الحسن:

إن التحلي بمكارم الأخلاق والتجمل بأحاسن الآداب علاج للمفاسد[٤] ودعامة المجتمع الصحي الآمن،لذا كان التخلق بها من الواجب على الداعية والمدعو على حد سواء، وكما ذكر الرسول ﷺ في الحديث جانباً من صفات الشخصية الإسلامية السوية ومن تحرم عليه النار، فقال: "كل قريب هين لين سهل"، وفي ذلك بيان لفضل لين الجانب، وسهولة الأخلاق، وقرب المأخذ، والتواضع[٥] فالمؤمن ليس بجاف ولا فظ ولا غليظ[٦]، وقد وصف الله نبيه ﷺ بقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾[٧]، وعباده المؤمنين بقوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ

---

(١) فلسفة التربية الإسلامية، ماجد الكيلاني ص ١٤١.

(٢) سورة النساء، الآية: ٣٦.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ١٤٢.

(٤) أخلاقنا، د. محمد ربيع محمد جوهري ص ٦.

(٥) مكارم الأخلاق، ابن أبي الدنيا ص ٣١٧.

(٦) أخلاق العلماء، الآجري، تحقيق: أمنية عمر الخراط ص ٥٨.

(٧) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

﴿ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾[١]، فتلك الصفات تَحَلٍّ بالكمالات الدينية وفعل الخيرات[٢].

ولقد ضرب لنا رسول الله ﷺ أعظم المثل في حسن الخلق والمعاملة الحسنة فلقد كان ﷺ مطبوعاً على الحلم والعفو مع القدرة على الانتقام أو المحاسبة، متمثلاً أوامر ربه ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾[٣]، وحلمه ﷺ أوسع من أن يحاط بجوانبه، ولولا هذا الحلم بعد توفيق الله تعالى له ما استطاع أن يسوس شعباً كالعرب، يأنف أن يطاع أو ينصاع[٤]، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾[٥].

لقد جاءت النصوص الإسلامية توجه الاهتمام العظيم والعناية الكبرى لقيمة حسن الخلق في الإسلام، وتَذْكر الخلق الحسن بتمجيد كبير، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: ((أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا))[٦].

فربط رسول الله ﷺ الارتقاء في مراتب الكمال الإيماني بالارتقاء في درجات حسن الخلق، وذلك لأن السلوك الأخلاقي النابع من المنابع الأساسية للخلق النفسي في الإنسان موصول هو والإيمان وظواهره وآثاره في السلوك ببواعث نفسية واحدة.

فصدق العبادة لله تعالى عمل أخلاقي كريم لأنه وفاء بحق الله على عبيده.

وحسن المعاملة مع الناس وفاء بحقوق الناس المادية والأدبية، فهي بهذا الاعتبار من الأعمال الاخلاقية الكريمة.

---

(١) سورة الفرقان، آية: ٦٣.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ٦٨/٨/٣، ٦٩.

(٣) سورة الأعراف، آية: ١٩٩.

(٤) الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري ص ٣٩٠.

(٥) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

(٦) أخرجه الترمذي ١١٦٢، وقال الألباني: حسن صحيح (صحيح سنن الترمذي ٩٢٨).

فإذا تعمقنا أكثر من ذلك فكشفنا أن الإيمان إذعان للحق واعتراف به، رأينا أن الإيمان أيضًا هو عمل أخلاقي كريم بخلاف الكفر بالحق فهو دناءة خلقية.

فإذا ضممنا هذه المفاهيم إلى المفهوم الإسلامي العام الذي يوضح لنا أن كل أنواع السلوك الإنساني الفاضل فرع من فروع الإسلام والإسلام التطبيقي آثار للإيمان وثمرات عملية له.

إذا جمعنا كل هذه المفاهيم وجدنا أن أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا كما قال رسول الله ﷺ فأحسن الناس خلقًا لابد أن يكون أصدقهم إيمانًا وأخصلهم نية وأكثرهم التزامًا بما يجب على العباد نحو ربهم من عبادة وحسن توجه له وصلة به وأكثرهم التزامًا بحقوق الناس المادية والأدبية[1].

---

(١) انظر: الوجيزة في الأخلاق الإسلامية، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني ص ٤٩، ٥٠.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

يحرص الإسلام على الحد من الاندفاع والعجلة والحدة، ومن أجل هذا سلك السبل التالية:

أولاً- غرس قيمتي الرفق والتيسير:

إن من القيم الرئيسة التي تحرص التربية الإسلامية على غرسها في نفوس المتربين الرفق والحلم والتيسير، لما لها من أثر طيب في العلاقات بين الأفراد والجماعات.

وفي هذا الباب -باب الحلم والأناة والرفق- أورد النووي جملة من الأحاديث تغرس في نفوس المتربين الرفق والتيسير والحلم والأناة، ومن هذه الأحاديث "إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله"، وقوله: "إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه"، وقوله" إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه"، وقوله" فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين" وقوله "يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا"، وقوله "من يحرم الرفق يحرم الخير كله"، وفي هذه الأحاديث وغيرها دعوة إلى هذه القيم النبيلة.

"إن من أخطر الأمور على المسلم أيام الفتن عجلته وتسرعه وتركه الرفق والأناة والتودد، فكم من الذين تورطوا في الفتن أيًا كان نوع هذه الفتن، قد أقروا بندمهم على تسرعهم وتعجلهم في أمر كان لهم فيه أناة، ولكن حين لا ينفع الندم في بعضها، وإذا كان الحلم والأناة والرفق صفات محمودة في كل آن وحال فإنها في أيام الفتن واضطراب الأحوال تكون محمودة بشكل أكبر والحاجة إليها تكون أشد" [١].

ولاشك أن الرفق والأناة والتيسير والحلم كلها قيم مطلوبة في حياتنا وتصرفاتنا، ويجب أن نربى على ذلك أبناءنا.

"إن حياتنا تحتاج إلى رفق نرفق بأنفسنا ونرفق بإخواننا، ونرفق بالمرأة، فالرفق

---

(١) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، د. عبدالعزيز بن ناصر الجُلَيِّل، ٥٣٧/٣.

شفيع لا يُرَدُّ في طلب الحاجات، قال بعض السلف: إن من فقه الرجل رفقه في دخوله منزله وخروجه منه، وارتداء ثوبه، وخلع نعليه وركوب دابته. إن العجلة والهوج والطيش في أخذ الأمور وتناول الأشياء كفيلة بحصول الضرر وتفويت المنفعة، لأن الخير بني على الرفق، وإن الرفق في التعامل تُذعن له الأرواح، وتنقاد له القلوب، وتخشع له النفوس. إن الرفيق من البشر مفتاح لكل خير، تستسلم له النفوس المستعصية، وتثوب إليه القلوب الحاقدة:

ترفق أيها القمر المنير ولاتك كالرياح لها زئيرُ

فإنك بالسناء ملأت وجهي ووجهك في دياجينا نضيرُ

وتلك الريح هاجت في عتوٍّ فزلزلت المنازل والقصورُ [1]

إن الإنسان مطبوع على العجلة، قال تعالى: ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾[2]، وفيه من الحدة والشدة الشيء الكثير، ولهذا حرص الإسلام على دعوة المسلم إلى التأني في الأمور، والرفق في التصرف، وهو لون من مجاهدة النفس لا يرقى إليه إلا الصفوة من المسلمين.

إن الهدوء في التصرف يؤدي إلى ائتلاف القلوب، وإن الشدة تؤدي إلى النفرة والقسوة، والهدوء في ذاته يكسب الإنسان راحة نفسية ويحول دون الانفعال الذي يفضي إلى الموت أو الهلكة.

كما أن عدم العجلة في اتخاذ القرار يؤدي إلى دراسة الأمر كما ينبغي، ويمكن الإنسان من تجنب رد الفعل السريع الشديد والذي لا يحمد في كثير من الأحيان، لأن الصدمة الأولى قد تفقد الإنسان القدرة على اتخاذ القرار، ومثل ذلك البشارات المفاجئة قد تدفع إلى التصرف فيما لا يحمد.

---

(١) لا تحزن، د. عائض القرني ص ٤٦٨-٤٧١.

(٢) سورة الأنبياء، آية: ٣٧.

ورسول الله ﷺ قد اتسم بهذه الأخلاق في كثير من المواطن، فكم هوجم فصبر وكم أوذي فاحتمل، وكم قال له الأعراب ما لا يحمد فكان لا يقابل السيئة بالسيئة بل يقابلها بالحسنة والعفو، قال له أعرابي: إنكم قوم مطل، وكان عمر حاضرًا فهم أن يضربه فمنعه الرسول ﷺ وقال له: أنا وهو أحوج إلى غير هذا منك تأمره بحسن الطلب وتأمرني بحسن الأداء.

والرفق في الإسلام يشمل كل صور التعامل، لأن العنف يفضي إلى الهلاك وخير الرفق ما كان مع الإنسان، لأنه يؤدي إلى الألفة ويحمل على الاستجابة ويستبقي المودة، وهو مظهر جمالي في كل صور التعامل.

إن العنف سبيل للهلكة، والرفق كذلك في الفتاوى مطلوب، فالأصل في الإسلام اليسر ورفع الحرج ورسول الله ﷺ كان يدع بعض الأمور حتى لا يشق على الصحابة الالتزام بها، مثل ترك صلاة التراويح في رمضان في جماعة، وعندما واصل في الصيام بين العلة وذكر النهي بحق المسلمين.

وكثيرًا ما كانت تصدر عنه البدائل القائمة على الرفق بالسائل أو السائلين مثل النص على كون التسبيح والتحميد والتكبير عقب الصلاة يكسب أجر الصدقات وزيادة..

ورفق الإنسان بنفسه مطلوب، وليس للإنسان أن يبالغ في العبادة حتى يفضي إلى قتل نفسه، ورسول الله ﷺ قد أقر سلمان الفارسي على تقسيم الحقوق مع الدعوة إلى القيام بها، حين قال لأبي الدرداء: إن لبدنك عليك حقًا وإن لزوجك عليك حقًا وإن لربك عليك حقًا وإن لأهلك عليك حقًا، فاعط كل ذي حق حقه.

إن الأمة كلها مطالبة بإظهار هذه الجوانب في تعاملها، إن قوله عليه السلام (إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين)[1] فيه دلالة على أن هذه الأمة مكلفة بإظهار الإسلام بصورة سمحة وأن التشدد في الأقوال والأفعال منهي عنه.

---

(١) أخرجه البخاري ٢١٧.

ثانيًا- الثناء على المتربي وتشجيعه:

إن من أساليب التربية الرئيسة الثناء على المتربي وتشجيعه ليستمر على ما هو عليه من خير، ويتشجع للمداومة عليه، ومن أحاديث الباب التي تبين هذا الأسلوب قول الرسول ﷺ لأشج عبدالقيس رضي الله عنه: "إن فيك خصلتين يحبها الله: الحلم والأناة".

"ومن هديه ﷺ في التربية أنه كان يثني على مَنْ ظهر منه ما يستحق الثناء ويبشره بالخير والرفعة فيكون ذلك دافعًا له ولغيره إلى طاعة الله عز وجل" (١).

إن الثناء والمدح يقوي العزيمة، وينمي الموهبة، ويندب الباقين للقيام بما قام به الممدوح أو المثنى عليه، وهذا أسلوب تربوي هام يجب استصحابه مع المتربيين.

"لقد استخدم الرسول ﷺ التشجيع مع أصحابه رضي الله عنهم لأن المعرفة لا تكفي في إلزام الإنسان بالفضائل، بل لابد معها من وسائل أخرى للتهذيب والتربية، تحفز الإرادة، وتبعث الهمة على الالتزام في السلوك بما توجبه المعرفة من عمل الخير والبعد عن الشر، كما أن النفوس تتفاوت في الاستعداد للتأثر، فلابد من تنويع وسائل التربية مهما بلغ الإنسان من الحضارة والرقي والتشجيع الذي استخدمه الرسول ﷺ إما: لفعل لم يقع، أو لفعل قد وقع" (٢).

ثالثًا- التربية على النظافة والطهارة:

إن من القيم التي تحرص التربية الإسلامية على غرسها في نفوس المتربين التربية على النظافة والطهارة، ومن أحاديث الباب التي تبرز هذا الجانب ما وجه إليه النبي ﷺ أصحابه عندما بال أعرابي في المسجد فقال: "دعوه وأريقوا على بوله سجلاً من ماء أو ذنوبًا من ماء"، وفي هذا الإرشاد ملمح تربوي إلى ضرورة الحرص على نظافة المكان وطهارته من النجاسات.

"إن ديننا الحنيف يهتم بالنظافة والطهارة اهتمامًا بالغًا، إلى الحد الذي يجعلها جزءًا من الإيمان، ومطلبًا تقوم عليه العبادة فمن العبادات ما يقوم على الطهارة ولا تقبل بدونها، وديننا الإسلامي الذي هو حريص على صحة وسلامة المسلم، لا يقصر النظافة على نظافة البدن، بل يتعدى ذلك إلى نظافة كل ما من شأنه أن يجلب نفعًا أو يدفع

---

(١) التربية على منهج أهل السنة والجماعة، أحمد فريد ص ٢٨٢.

(٢) أساليب الدعوة والتربية د. زياد محمود العاني ص ٢٢٥.

ضررًا، فنظافة الظاهر ونظافة الباطن، ونظافة المأكل والمشرب، ونظافة الملبس والبدن، ونظافة المكان والبيئة والمجتمع، ونظافة الجو واليابسة والماء، ونظافة كل شيء كبر أو صغر كل ذلك أمر يطالبنا به ديننا الإسلامي ويحثنا عليه؛ لما لذلك من انعكاسات إيجابية صحية وجمالية على المستوى الفردي والجماعي والإنساني" [(١)].

رابعًا- التربية بالمواقف:

كما في حديث أبي هريرة ﷺ في بول الأعرابي في المسجد، فقد قال النبي ﷺ لأصحابه، وقد أراد أن يقعوا في الأعرابي، قال لهم: ((دَعُوهُ وَأَرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ سَجْلاً مِنْ مَاءٍ، أَوْ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ، فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ، وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ))، فقد ربى أصحابه ﷺ في هذا الموقف على الرفق بالناس، ليكون ذلك سجية لهم فيما بعد ذلك.

خامسًا- التربية بالتمهيد:

كما في قوله ﷺ: ((أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِمَنْ يَحْرُمُ عَلَى النَّارِ، أو بِمَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِ النَّارُ؟))، فقد مهد النبي ﷺ لما يلقيه على أصحابه بهذا السؤال الذي جذب انتباههم وشد أسماعهم.

سادسًا- من موضوعات التربية: الجودة والاعتماد التربوي:

وهذا واضح في حديث شدّاد بن أوس ﷺ مرفوعًا: ((إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ. فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ. وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَة...)).

فقد تناول الحديث الشريف قضية الإحسان، والإحسان في تأدية الأعمال، وهو من الأمور التي تعرف الآن بأنظمة الجودة في التعليم، حيث تتمحور الأبحاث التربوية الآن وتلهث المؤسسات التعليمية وراء أفكار الغرب التي تنادي بالجودة في العملية التعليمية، وقد تناسوا أن الإسلام جاء بكل مضامين الجودة، بل فاقها في كل الأمور من حيث إن بعض المفاهيم كالإتقان والإحسان من المفاهيم التي تتضمن العمليات التي يقوم بها الإنسان، وتفوق ما تنادي به أنظمة الجودة الغربية.

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. سعيد إسماعيل القاضي ص ٥٤.

٧٥- باب العفو والإعراض عن الجاهلين

قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[الأعراف: ١٩٩]، وقال تَعَالَى: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾[الحجر: ٨٥]، وقال تَعَالَى: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾[النور: ٢٢]، وقال تَعَالَى: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[آل عمران: ١٣٤]، وقال تَعَالَى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[الشورى: ٤٣] والآيات في الباب كثيرة معلومة.

الحديث رقم (٦٤٣)

٦٤٣- وعن عائشة رضي الله عنها: أنها قالت للنبي ﷺ: هَلْ أتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ قَالَ: ((لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ، وَكَانَ أشَدُّ مَا لَقيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيْلَ بْنِ عَبْدِ كُلاَلٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إلَى مَا أرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أسْتَفِقْ إلاَّ وأنَا[1] بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فإذَا أنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإذَا فِيهَا جبريلُ عليه السلام، فَنَادَانِي، فَقَالَ: إنَّ الله تَعَالَى قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَد بَعَثَ الله إلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ. فَنَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ، فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إنَّ اللهَ قَدْ سَمِع قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأنا مَلَكُ الجبالِ، وَقَدْ بَعَثَنِي رَبِّي[2] إلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ، فَمَا شِئْتَ، إنْ شئْتَ أطْبَقْتُ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ)). فَقَالَ النبي ﷺ: ((بَلْ أرْجُو أنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً)) متفقٌ عَلَيْهِ[3].

---

(١) (وأنا) لفظ البخاري، وليس عند مسلم، وهو كذلك في الجمع للحميدي ٧٤/٤، رقم ٣١٨٤.

(٢) لفظ مسلم: (ربك).

(٣) أخرجه البخاري ٣٢٣١، ومسلم ١١١/١٧٩٥ واللفظ له.

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

غريب الألفاظ:

أُحُد: الجبل الذي كانت عنده غزوة أحد التي وقعت سنة ٣هـ[١].

ليلة العقبة: ليلة عرض النبي ﷺ الإسلام على اثني عشر رجلاً من الأنصار في موسم الحج عند العقبة فآمنوا به وبايعوه وهذه هي العقبة الأولى، أما الثانية فقد حدثت في الموسم التالي وكان عدد الأنصار ٧٣ رجلاً وامرأتين[٢].

قرْن الثعالب: ويسمى قرْن المنازل وهو: اسم موضع يحرم منه أهل نجد ويبعد ٨٠ كم عن مكة المكرمة[٣].

أطبقت: جمعتُ، أي: هدمت هذين الجبلين عليهم[٤].

الأخشبان: الجبلان المحيطان بمكة. والأخشب: هو الجبل الغليظ[٥].

أصلابهم: جمع صلب، وهو الظهر والمراد من ذريتهم[٦].

الشرح الأدبي

الحديث يعرض نموذجا من الرحمة البشرية في أعظم صورها وقد بدأ الحديث على إثر سؤال من أم المؤمنين عائشة تستدرج به ذكريات النبي ﷺ عن الحدث (هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟) وقوله (وَكَانَ أَشَدُّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ) أفعل التفضيل تشير إلى أنه كان أشد عليه من يوم أحد لأنه كان يوم العقبة وحيدا غلق

(١) أطلس الحديث النبوي، د. شوقي أبو خليل ٢٣، أطلس السيرة النبوية، د. شوقي أبو خليل ١١٩.

(٢) أطلس الحديث النبوي، د. شوقي أبو خليل ٢٧١، وأطلس السيرة النبوية، د. شوقي أبو خليل ٧٢.

(٣) أطلس الحديث النبوي، د. شوقي أبو خليل ٣٠٥، والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ق ر ن).

(٤) اللسان في (ط ب ق).

(٥) رياض الصالحين ٢٨٢.

(٦) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ص ل ب).

الناس دونه أبوابهم جاءهم بكل الخير، فقابلوه بكل شرورهم، يدل على ذلك قوله (إذْ عَرَضْتُ نَفْسِي) الذي يوحي بضعفه بالقياس العادي لفرد يحمل دينا يخالف بلدا كاملا بل يخالف أهل الأرض جميعا وقوله: (فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ) الذي يقرر رد دعوته، وتبدد أمله، وقوله: (فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ) الذي يوحي باستمرار حالة الضعف بل زيادتها، وقوله (عَلَى وَجْهِي) كناية عن سيره دون قصد اتجاه محدد، وإنما سير المهموم ينفس عن نفسه بسيره، ويؤكده قوله (فَلَمْ أَسْتَفِقْ إلاَّ وأنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ) وهو ميقات لأهل نجد وقوله (فَرَفَعْتُ رَأْسِي، وَإِذَا أنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإذَا فِيهَا جبريلُ عليه السلام، فَنَادَانِي، فَقَالَ) يشير إلى بداية التحول السريع للأحداث والتي توالت في سرعة دل عليها الربط بالفاء في الجمل ثم تتابع العطايا بداية بظل السحابة ثم رؤيته جبريل عليه السلام، وندائه إياه ثم عرضه للتفويض الذي جاء به بهلاكهم (لِتَأْمُرَهُ بمَا شِئْتَ فِيهِمْ) ومعه قوة ملك يستطيع أن يهلكهم بكلمة، ولا يبقي لهم أثرا، وقول الملك (أنا ملك الجبال) استعراض للقوة المطلقة في مواجهة القوة المحدودة حتى تحقق الطمأنينة القلبية للرسول ﷺ وقد جعل نفسه بأمر الله رهن أمره (وَقَدْ بَعَثَنِي رَبِّي إلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ) وهذا الجناس بين (لِتَأْمُرَنِي) وبين (بِأَمْرِكَ) يؤكد التفويض، ثم عرضه عليه نموذجا مما يسيطيع فعله بهم (، إنْ شِئْتَ أطْبَقْتُ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ) وهما الجبلان المحيطان بمكة، وهو ما لا يبقي لهم أثرا، وقول الرسول ﷺ (بَلْ أرْجُو أنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً) بل للإضراب عن السابق وهو ما عرضه الملك من هلاكهم، والتعبير بالرجاء يشير إلى إمكان تحقق المرجو وقوله (أنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أصْلاَبِهِمْ) كناية عن إسلام أبنائهم، والتعبير بالصلب إشارة إلى الأصل الذي يستلزم الحفاظ على هؤلاء، وإن كانوا مشركين رحمة بزراريهم فتأمل بعد نظره ﷺ مع رحمته التي أربت على كل نماذج الرحمة البشرية.

المضامين الدعوية

أولاً: من وسائل الدعوة: القصة.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: بيان تحمل النبي ﷺ وصبره على الأذى والشدائد في سبيل الدعوة.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: مؤازرة الله لنبيه ﷺ.

رابعاً: من صفات النبي ﷺ: العفو والصفح.

خامساً: من آداب الداعية: التأسي بالنبي ﷺ.

أولاً- من وسائل الدعوة: القصة:

يظهر ذلك في قول النبي ﷺ لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: "لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ..." إلخ الحديث.

فقص إيذاء المشركين له ﷺ، ومؤازرة الله له بإرسال جبريل عليه السلام له وملك الجبال وعفوه وصفحه ﷺ.

إن القصة وسيلة دعوية لا يستغنى عنها الداعية، وخاصة إذا كان القصص من القرآن أو السنة النبوية، وذلك راجع إلى أثر القصة في النفس البشرية وما تحدثه فيها من إقناع العقل، وإمتاع العاطفة. والقرآن الكريم والسنة النبوية مليئان بالقصص الذي يجد فيه الداعية طريقاً ووسيلة هامة من وسائل الدعوة إلى الله تعالى تناسب حالة كل مدعو، سواء أكان من علية القوم أو من الضعفاء أو من الأغنياء أو من الفقراء. من أجل ذلك كانت القصة في القرآن والسنة ركيزة هامة من ركائز الدعوة الإسلامية القائمة على اليقين والإقناع العقلي والاطمئنان القلبي، بما تدعو إليه من الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر، وبالقدر، وبما تحمل من مثل في مجال الجهاد والكفاح والبذل والتضحية والفداء في سبيل الدعوة إلى الحق، والتوجيه إلى الخير والهدى والتنكر للباطل والضلال، والصمود في وجه الظلم والطغيان[(١)].

---

(١) انظر: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، عبدالكريم الخطيب ص ٨، نقلاً عن وسائل الدعوة، د. عبدالرحيم المغذوي، ص ١٢٩.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: بيان تحمل النبي ﷺ وصبره على الأذى والشدائد في سبيل الدعوة:

يظهر ذلك في قوله ﷺ لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: عندما سألته: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ لأن يوم أحد كان شديداً على رسول الله ﷺ[(١)].

فقال النبي ﷺ "نعم"، وذكر لها قصة ذهابه إلى الطائف، لأن النبي ﷺ لما دعا قريشاً في مكة ولم يستجيبوا له خرج إلى الطائف لنشر دعوة الإسلام، ودعا أهل الطائف. لكن كانوا أسفه من أهل مكة، حيث اجتمعوا هم وسفهاؤهم وجعلوا يرمونه بالحجارة والحصى حتى أَدْمُوا عَقِبه ﷺ، وخرج مغموماً مهموماً، ولم يفق إلا وهو في قرن الثعالب، فأظلته غمامة فرفع رأسه فإذا في الغمامة جبريل ﷺ فقال له: هذا ملك الجبال يقرؤك السلام، فسلم عليه، وقال: إن ربي أرسلني إليك فإن شئت أطبق عليهم - يعني الجبلين- فعلت[(٢)].

ولكنه رفض وقال: (لا بل أرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً، وتحمل وصبر على الأذى في سبيل الدعوة. ومن يتأمل هذا الحديث ينكشف له من حاله ﷺ معنى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[(٣)])[(٤)].

ومن أعظم ما كان: أنه كان ذات يوم ساجداً عند الكعبة يصلي لله فقال أبو جهل وناس من قريش.. وقد نحرت جزور بناحية مكة من يأت بلاها؟ فأرسلوا، فجاءوا من سلاها وطرحوا عليه، فجاءت فاطمة فألقته عنه، فعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه ((أن النبي ﷺ كان يصلي عند البيت وأبو جهل وأصحاب له جلوس إذ قال بعضهم لبعض: أيكم يجيء بسلى جزور فلان فيضعه على ظهر محمد إذا سجد؟ فانبعث أشقى

---

(١) انظر: الأحاديث الواردة عن غزوة أحد في صحيح البخاري في المغازي من الحديث رقم ٤٠٤١، ٤٠٨٢

(٢) انظر: شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين، ٩٣٠/١، ٩٣١.

(٣) سورة الأنبياء، آية: ١٠٧.

(٤) انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو، وآخرين ٦٥٤/٣.

القوم فجاء به فنظر حتى سجد النبي ﷺ ووضعه على ظهره بين كتفيه وأنا أنظر لا أغير شيئًا لو كان لي منعة قال: فجعلوا يضحكون ويحيل بعضهم على بعض ورسول الله ﷺ ساجد لا يرفع رأسه حتى جاءته فاطمة فطرحت عن ظهره، فرع رأسه، ثم قال: "اللهم عليك بقريش" ثلاث مرات فشق عليهم إذا دعا عليهم، قال: وكانوا يرون أن الدعوة في ذلك البلد مستجابة، ثم سمى "اللهم عليك بأبي جهل وعليك بعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأمية بن خلف وعقبة بن أبي معيط" وعد السابع فلم نحفظه قال: فو الذي نفسي بيده لقد رأيت الذين عد رسول الله ﷺ صرعى في القليب قليب بدر))(١).

فقد أوذي رسول الله ﷺ كثيراً ولكنه تحمل وصبر في سبيل تبليغ دعوة الحق ودين الإسلام.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: مؤازرة الله لنبيه ﷺ:

يظهر ذلك في تظليل الغمامة له ﷺ وإرسال جبريل ﷺ وملك الجبال، ليرد عليهم أذيتهم له إن شاء وفي ذلك مؤازرة من الله لنبيه في شدته ولا غرو في ذلك فهو نبيه الذي اصطفاه لتبليغ رسالته وحبيبه الذي اجتباه. ووعده بالنصر فقال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾(٢).

ووعده المؤمنين معه بالمدد منه تعالى بالملائكة فقال سبحانه: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾(٣).

ووعده بالحفظ فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾(٤)، أي: بلغ أنت رسالتي، وأنا حافظك وناصرك ومؤيدك على أعدائك ومظفرك بهم، فلا تخف ولا تحزن، فلن يصل أحد منهم إليك بسوء يقتلك عليه(٥).

---

(١) أخرجه البخاري ٢٤٠، ومسلم ١٧٩٤.

(٢) سورة التوبة، آية: ٤٠.

(٣) سورة الأنفال، آية: ٩.

(٤) سورة المائدة، آية: ٦٧.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣/١٥١/ ١٥٢.

قال القاضي عياض: لا خفاء على من مارس شيئاً من العلم، أو خص بأدنى لمحة من الفهم، بتعظيم الله قدر نبينا ﷺ، وخصوصه إياه بفضائل ومحاسن ومناقب لا تنضبط لزمام، وتنويهه من عظيم قدره بما تكل عنه الألسنة والأقلام، فمنها ما صرح به تعالى في كتابه، ونبه به على جليل نصابه، وأثنى عليه من أخلاقه وآدابه، وحض العباد على التزامه...، فكان جل جلاله هو الذي تفضل وأولى، ثم طهر وزكى، ثم مدح بذلك وأثنى، ثم أثاب عليه الجزاء الأوفى، فله الفضل بدءاً وعودا، والحمد أولى وأخرى، ومنها ما أبرزه للعيان من خلقه على أتم وجوه الكمال، والجلال، وتخصيصه بالمحاسن الجميلة والأخلاق الحميدة...، والفضائل العديدة، وتأييده بالمعجزات الباهرة، والبراهين الواضحة، والكرامات البينة التي شاهدها من عاصره، ورآها من أدركه، وعلمها علم يقين من جاء بعده، حتى انتهى علم حقيقة ذلك إلينا، وفاضت أنواره علينا، "ﷺ كثيراً"[(١)].

رابعاً- من صفات النبي ﷺ: العفو والصفح:

يظهر ذلك من رفضه ﷺ عقاب من آذوه وقوله: "بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً". إن هذا الحديث ليبين بوضوح الأخلاق والعفو والحلم الذي جُبل عليه الرسول ﷺ يأتي ملك الجبال في ساعة ضيق وحرج ويأتي إليه لكي ينتصر له وأي نصر إنه هلاك القوم، ولكنه يعفو ويصفح[(٢)].

إن الحلم والاحتمال، والعفو مع القدرة، والصبر على ما يكرهه. مما أدب الله تعالى به نبيه ﷺ، فقال تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[(٣)] وقد سأل عليه الصلاة والسلام جبريل عن تأويلها، فقال: يا محمد، إن الله يأمرك أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك، وقال له: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ

---

(١) الشفا ١١٨ بتصرف.

(٢) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، د. عبدالعزيز أحمد المسعود، ١/ ٣٠٠.

(٣) سورة الأعراف، آية: ١٩٩.

أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[١]، ولقد تضافرت الأخبار على اتصافه عليه الصلاة والسلام بهذه الأوصاف، فما من حليم إلا عرفت منه زلة، وحفظت عنه هفوة، ونبينا ﷺ لا يزيد مع كثرة الإيذاء، إلا صبراً، وعلى إسراف الجاهل إلا حلماً[٢].

خامساً- من آداب الداعية: التأسي بالنبي ﷺ:

يظهر هذا من عموم الحديث فالنبي ﷺ هو المثل الأعلى للدعاة في حياتهم الخاصة والعامة، يترسمون خطاه ويستضيئون بهديه، ويقتفون أثره[٣]، لذا ينبغي للداعية أن يقتدي بالرسول ﷺ بالحلم والعفو ولا ينظر إلى الساعة التي هو فيها. الانتقام من المدعو أو الذي حصل لديه رد فعل جراء دعوته، بل يعفو ويحلم ويصفح فلعل الله سبحانه وتعالى أن يجعل سبب عفوه ومسامحته وكلمته الطيبة هداية لا ضلال بعدها[٤].

وقد ندب الله تعالى المسلمين إلى العفو والصفح، ومقابلة الإساءة بالإحسان، فقال تعالى واصفاً المتقين من أهل الجنة بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾[٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[٧]، وقال تعالى: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾[٨].

---

(١) سورة لقمان، آية: ١٧.

(٢) انظر: نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، محمد الخضري ص ١٧٣-١٧٤.

(٣) انظر: صفات الدعاة: عبدالرب نواب ص ٩.

(٤) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، د. عبدالعزيز أحمد المسعود، ١/٣٠٠.

(٥) سورة آل عمران، آية: ١٣٤.

(٦) سورة الشورى، آية: ٤٠.

(٧) سورة البقرة، آية: ٢٣٧.

(٨) سورة الحجر، آية: ٨٥.

والعفو يدل على نبل الأخلاق ودماثتها، وطيب سجايا العافين، وانتصارهم على هوى النفس وحمية الانتقام، والعفو له وقع كبير في نفس المعفو عنه، بل قد تنقلب عداوته إلى مودة حميمة كما قال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾[1].

والعفو والسماحة لا يسكنان إلا قلباً خالياً من الأحقاد والأضغان، ومن يعمل ليقود الخلق إلى الحق لا بد أن يكون نظره إلى ما هو أمامه، ولا ينظر إلى الوراء.

والأحقاد والأضغان، ومحاسبة كل امرئٍ على ما كان منه، إنما تشد بصاحبها إلى الوراء. فلا يكون تفكيره إلى ما يجب عليه القيام به في المستقبل، بل يكون تفكيره في شفاء غيظه من أسقامه التي كانت في الماضي، ومن يأتي برسالة داعيا إلى الحق لا يكون دبري النفس، يشغله الماضي عن الحاضر، بل يكون عاملاً للمستقبل[2]، فلا غرابة إذن أن يكون الرسول ﷺ القدوة الحسنة والأسوة المثلى في عفوه عن الناس، لكمال خُلقه، ولما للعفو من أثر كبير في قلوب الناس واستمالتهم نحو العافي الذي ما أرسل إلا ليكون القدوة في ذلك، والرحمة للعالمين[3].

---

(١) سورة فصلت، آية: ٣٤.

(٢) خاتم النبيين، محمد أبو زهرة ١/ ٢٥٠.

(٣) أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد محمود العاني ص ٣٥٣ - ٣٥٤.

الحديث رقم (٦٤٤)

٦٤٤- وعنها ، قالت: مَا ضَرَبَ رسولُ الله ﷺ شَيْئاً قَطُّ بِيَدِهِ، وَلاَ امْرَأَةً وَلاَ خَادِماً ، إلاَّ أنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ، إلاَّ أن يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللهِ تَعَالَى، فَيَنْتَقِمُ للهِ تَعَالَى. رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

غريب الألفاظ:

نيل منه شيء: أصيب بأذى من قولٍ أو فعل[2].

ينتهك: تُخرَق وتُؤتَى[3].

الشرح الأدبي

الحديث يبدأ بأسلوب النفي؛ لأن أم المؤمنين رضي الله عنها تريد أن تقرر معنى عدم استخدام الرسول ﷺ يده في الضرب، ولذلك أوقعت الفعل المنفي على المفعول النكرة في سياق النفي (شيئا) وبذلك ضم تحته كل الكائنات، وليس الآدمي فقط، ثم إنها أرادت أن تقول أن هذا الكلام ليس على وجه المقاربة أو المبالغة، بل هو على سبيل الحقيقة، والواقع فاستخدمت لفظ (قط) لتأكيد النفي؛ لأن من يعرف بيئتهم يرى أن عدم استخدام الإنسان يده في الضرب، لكائن ما كان أمر مستحيل أو مستبعد جداً، والباء في (بيده) للاستعانة (وَلاَ امْرَأَةً وَلاَ خَادِماً) من باب ذكر الخاص بعد العام تنبيها على خصوصية فيه، وهي أن أكثر ما يحتك بالرجل احتكاكا يوميا هي المرأة، والخادم، وقوله (إلاَّ أنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللهِ) استثناء من النفي السابق لأن الجهاد مفروض ليس فيه اختيار، وقولها (وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ) كناية عن

---

(١) برقم ٢٣٢٨/٧٩.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٤٣٣.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ن هـ ك).

خلق الحلم، والعفو، ومعناه أنه لم ينتقم لنفسه من أحد (إِلاَّ أن يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللَّهِ تَعَالَى) استثناء من حكم النفي السابق؛ لأنه كان يغضب لله، ويرضى لله، ويعاقب لله، ويصفح لله، أما فيما يخصه فقد كان أكثر الناس حلما، وعفوا ومواقف صفحه، وعفوه حفلت بها كتب السيرة.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النفي والإثبات.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: الجهاد في سبيل الله.

ثالثاً: من صفات الداعية: الرفق والعفو والغضب لمحارم الله.

أولاً- من أساليب الدعوة: النفي والإثبات:

يظهر ذلك في قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: "ما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قط بيده، ولا امرأة ولا خادماً، إلا أن يجاهد في سبيل الله وما نيل منه... إلا أن ينتهك...".

وأسلوب النفي والإثبات من أساليب الدعوة التي تستخدم في نفي شيء أو فعله وكذلك إنكاره. والإثبات في إثبات هذا الشيء في موضع آخر أو جزء منه وهذا يسمى بالقصر من أساليب الدعوة التي تجذب الانتباه إلى الدعوة وإلى كلام الداعية.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: الجهاد في سبيل الله:

إن من موضوعات الدعوة في هذاالحديث الجهاد في سبيل الله، ويظهر ذلك في قولها رضي الله عنها: إلا أن يجاهد في سبيل الله.

قال د. الحسيني هاشم: الجهاد ثلاثة أضرب: مجاهدة العدو الظاهر، ومجاهدة الشيطان، ومجاهدة النفس، وتدخل ثلاثتها في قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[2] وقوله تعالى:

---

(١) سورة الحج، آية:٧٨.

(٢) سورة التوبة، آية:٤١.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[١].

والمجاهدة تكون بالمال واليد واللسان قال ﷺ: ((جاهدوا المشركينَ بأموالِكُم وأنفسِكُم وألسِنَتِكُم))[٢][٣].

ورسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم جاهدوا في سبيل الله للذود عن الإسلام ونشره؛ وقد وجههم الله إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٤]. ويقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةًۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[٥].

وقد أمر الله رسوله بالجهاد فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[٦].

قال السعدي: يأمر الله تعالى نبيه ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين، والإغلاظ عليهم في ذلك، وهذا شامل لجهادهم بإقامة الحجة عليهم ودعوتهم بالموعظة الحسنة، وإبطال ما هم عليه من أنواع الضلال وجهادهم بالسلاح والقتال لمن أبى أن يجيب دعوة الله، وينقاد لحكمه، فإن هذا، يُجاهد ويغلظ عليه[٧]. والجهاد في سبيل الله من أفضل الأعمال وأعظمها أجراً.

---

(١) سورة الأنفال، آية:٧٢.

(٢) أخرجه النسائي ٣٠٩٦، وصححه الألباني (صحيح سنن النسائي ٢٩٠٠).

(٣) انظر: شرح رياض الصالحين ٣٩٥.

(٤) سورة التوبة، آية: ٤١.

(٥) سورة التوبة، آية: ١٢٣.

(٦) سورة التحريم، آية: ٩.

(٧) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٨٠٩.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[١].

وقال رسول الله ﷺ ((إنَّ في الجنةِ مائةَ درجةٍ أعدَّها الله للمجاهدينَ في سَبيلِ الله ما بينَ الدرجتين كما بينَ السماءِ والأرض))[٢].

ثالثاً- من صفات الداعية: الرفق والعفو والغضب لمحارم الله:

يظهر ذلك في قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: ما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قط بيده، ... إلا أن ينتهك شيء من محارم الله تعالى، فينتقم لله تعالى.

لم يستخدم الرسول ﷺ طاقته البدنية إلا في طاعة الله والدفاع عن الدين، ولم ينتقم لنفسه مما أصابه عن جهل أو شراسة من صاحبها -كما حدث من الكفار وبعض جهلة المسلمين- رغم قدرته على الانتقام، ما دام الأمر لم يتعد شخصه الكريم إلى أمور دينية كارتكاب ما يوجب حداً أو عقوبة أو الاستهتار بالسنة أو التلاعب بالدين[٣].

وهذا يدل على رفق النبي ﷺ وعفوه في الأمور كلها إلا في حدود الله ومحارمه.

قال القاضي عياض: (وقولها: "وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحب إلا أن ينتهك شيئاً من محرام الله تعالى، فينتقم لل تعالى": فيه ما كان عليه ﷺ من الحلم والصبر. وما كان عليه من القيام بالحق والصلابة فيه، وهذا هو الخلق الحسن المحمود، فإنه لو كان يترك ذلك كله في حق الله تعالى وفي حق غيره كان ضعفاً ومهانة، ولو كان ينتقم أيضاً لنفسه في كل شيء لم يكن ثمَّ صبر ولا حلم ولا احتمال، وكان هذا الخلق بطشاً وانتقاماً، فانتفى عنه الطرفان المذمان، وبقي وسطها، وخير الأمور أوسطها، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم.

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٦٩.

(٢) أخرجه البخاري ٢٧٩٠.

(٣) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم ٣٩٥.

ويحتمل قوله: "ينتهك شيء من محارم الله" استثناء مما تقدم في حقه من أذاه ﷺ فيما فيه غضاضة عن الدين، فذلك من انتهاك حرمات الله.

قال بعض علمائنا: لا يجوز أن يؤذى النبي بفعل مباح ولاغيره، وأما غيره من الناس فتجوز إذايته بما يباح للإنسان فعله، ولا يباح أن يمنع من إذايته، واحتج بقول النبي ﷺ في مراده على تزويج بنت أبي جهل، أي لا أحرم ما أحل الله، ((وأن فاطمة يؤذيني ما آذاها، ولا تجتمع بنت رسول الله ﷺ وبنت عدو الله عند رجل أبداً))[1]. وبقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾[2] فأطلق وعمم، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾[3]. فقيد وشرط: ﴿بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾.

قال مالك: كان النبي ﷺ يعفو عن شتمه، وقد عفا عن الذي قال له: إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله، وهذا وإن كان فيه غضاضة على الدين فقد يكون عفوه عنه لأنه لم يقصد الطعن عليه في الميل عن الحق، بل اعتقد أنه من رأي مصالح الدنيا الذي يصح الخطأ فيه والصواب، أو كان هذا استئلافاً لمثله كما استألفهم بماله ومال الله رغبة في إسلام مثله، أو تثبيت قومه[4]، لكن ينبغي أن يفهم أن صفحه عمن آذاه كان مخصوصاً به وبزمانه وأما بعد ذلك فلا يعفى عنه بوجه)[5].

قال القاضي عياض: (وأجمع العلماء أن من سب النبي كفر. واختلفوا هل حكمه حكم المرتد يستتاب؟ أو حكم الزنديق ليقتل ولا يستتاب! ولا تقبل توبته؟ وهو مشهور مذهب مالك، وقول الليث والشافعي وأحمد وإسحاق ورأوا أن قتله وإن تاب للحد، وأن حد من سب النبي ﷺ القتل لا يدفعه التوبة، كما لا يدفع التوبة حد قذف غيره من

---

(١) انظر ما أخرجه البخاري ٥٢٣٠، ومسلم ٢٤٤٩.

(٢) سورة الأحزاب، آية:٥٧.

(٣) سورة الأحزاب، آية: ٥٨.

(٤) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٢٩٢/٧-٢٩٣.

(٥) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو، وآخرين ١١٩/٦.

المسلمين، وسواء كانت توبته عندهم بعد القدرة عليه، أو جاء معترفاً تائباً من قبل نفسه. لكن هذا تنفعه توبته عند الله ولا يسقط حد القتل عنه. كذا بينه شيوخنا رحمهم الله. وقال أبوحنيفة والثوري: هي كفر وردة ويُقبل توبته إذا تاب، وهي رواية الوليد بن مسلم عن مالك.

واختلفوا إذا سبه بغير الوجه الذي كفر، فعامة العلماء على أنه يقتل لحق النبي كالمسلم. وأبو حنيفة والثوري والكوفيون لا يرون قتله، قالوا: وما هو عليه من الكفر أشد.

واختلف أهل المدينة وأصحاب مالك في قتله إذا كان سبه بالوجه الذي كفر به من تكذيبه أو جَحْد بنبوته، والأصح والأشهر قتله. وقد اختلفوا في إسلام الكافر بعد سبه، هل يسقط ذلك القتل عنه؟ فالأشهر عندنا سقوطه؛ لأن الإسلام يجب ما قبله. وحكى أبو محمد بن نصر في درء القتل عنه بإسلامه روايتين.

وقد يكون قوله: "إلا أن ينتهك شيء من محارم الله تعالى فينتقم لله منها" استثناءً منقطعاً أيضاً، أي لا ينتقم لنفسه وحقوقه الذي له العفو عنها، وإنما ينتقم لحقوق الله وحدوده التي لا خيار له في تركها ولا رخصة.

وهذا الحديث أصل مما يجب للحكام وأولي الأمر والقدرة امتثاله بترك الانتقام لأنفسهم، والتجافي عمن أذاهم تأسياً بالنبي ﷺ، وأخذاً بالفضل والخلق الحسن. وقد أجمع العلماء أن القاضي لا يقضي لنفسه ولا لمن لايجوز شهادة له[(١)].

فينبغي للداعية أن يتأسى برسول الله ﷺ في رفقه بالمدعوين. قال رسول الله ﷺ ((إِنَّ الرِّفْقَ لاَ يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلاَّ زَانَهُ، وَلاَ يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ شَانَهُ))[(٢)].

وقد دعا رسول الله لمن رفق بأمته فقال ﷺ: ((اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئاً فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ))[(٣)].

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٢٩٣/٧-٢٩٤.

(٢) أخرجه مسلم ٢٥٩٤.

(٣) أخرجه مسلم ١٨٢٨.

أما الغضب لانتهاك محارم الله فهذا ما كان يفعله ﷺ، أنه كان لا يغضب إلا إذا انتهكت محارم الله، قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾(٢).

أي التعظيم خير له عند ربه من التهاون بشيء منها(٣).

فيجب على الداعية أن يتأسى بالنبي ﷺ في رفقه وعفوه وغضبه لانتهاك محارم الله.

فالمحمود من الغضب هو: الغضب الذي ينتظر إشارة العقل والدين، فينبعث حيث تجب الحمية، وينطفئ حيث يحسن الحلم، وحفظه على حد الاعتدال هوالاستقامة التي كلف الله بها عباده، وهو الوسط بين الطرفين.

فمن مال غضبه إلى الفتور، حتى أحس من نفسه بضعف الغيرة، وخسة النفس في احتمال الذل والضيم في غير محله، فينبغي أن يعالج نفسه حتى يقوى غضبه.

ومن رقا غضبه إلى الإفراط حتى جره إلى التهور، واقتحام الفواحش، فينبغي أن يعالج نفسه ليُنْقِص من سَوْرة الغضب، ويقف على الوسط الحق بين الطرفين، فهو الصراط المستقيم، وهو أدق من الشعرة، وأحد من السيف، فإن عجز عنه فليطلب القرب منه؛ كما قال النبي ﷺ: ((ليس الشديدُ بالصُّرَعة، إنما الشديدُ الذي يملكُ نفسَه عندَ الغضب))(٤).

فليس من عجز عن الإتيان بالخير كله ينبغي أن يأتي بالشر كله، ولكن بعض الشر أهون من بعض، وبعض الخير أرفع من بعض.

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٢٩.

(٢) سورة الحج، آية: ٣٢.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٥٤/١٢/٦.

(٤) أخرجه البخاري ٦١١٤، ومسلم ٢٦٠٩.

والإنسان إذا أُخذ منه محبوبه غضب لا محالة، وإذا قُصد بمكروه غضب لا محالة، فمن قُصد بدنه بالضرب والجرح فلا بد وأن يغضب، وكذلك إذا أخذ منه ثوبه أو ماله أو طعامه فلابد أن يغضب.

وكذلك المسلم يغضب إذا انتهكت محارم الله فهذه ضرورات لا يخلو الإنسان من كراهة زوالها، ومن غضب على من يتعرض لها[1].

---

(١) انظر: موسوعة فقه القلوب، محمد إبراهيم التويجري ٤/٢١٧٢-٢١٧٣.

الحديث رقم (٦٤٥)

٦٤٥- وعن أنس ﷺ ، قَالَ: كُنْتُ أمشي مَعَ رسول الله ﷺ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الحَاشِيَةِ، فأدْرَكَهُ أعْرَابِيٌّ فَجَبذَهُ بِرِدَائِهِ جَبْذَةً شَدِيدةً، فَنَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ النَّبيِّ ﷺ، وَقَدْ أثَّرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ مِنْ شِدَّةِ جَبْذَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي عِنْدَكَ. فَالتَفَتَ إِلَيْهِ رسول الله ﷺ، فَضَحِكَ ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ. متفقٌ عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

برد نجراني: هو كساء أسود مربع فيه صور تلبسه الأعراب، يُنسب إلى نجران[2].

غليظ الحاشية: غليظ الطرف والجانب[3].

فجبذه: فجذبه[4].

صفحة العاتق: وجهه وجانبه. والعاتق: ما بين المنكب والعنق[5].

الشرح الأدبي

والحديث من نفس باب سابقه فيه دلالة على السمو النفسي للنبي ﷺ حيث صبر، وحلم على تطاول هذا الأعرابي الذي تعدى على ذي السلطان في مقر سلطانه بهذا الأسلوب العنيف فقد آثرت جذبته في صفحة عنق النبي ﷺ والتي صورها الجناس في قوله (فَجَبذَهُ بِرِدَائِهِ جَبْذَةً) التي توحي بالسرعة، والمفاجأة والقوة التي أكدها قوله

(١) أخرجه البخاري ٥٨٠٩ واللفظ له، ومسلم ١٠٥٧/١٢٨. أورده المنذري في ترغيبه ٣٩٦٣.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٨٨/١٠، وأطلس الحديث النبوي، د. شوقي أبو خليل ٣٥٧.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ح ش ى).

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٢٢/١٠.

(٥) انظر الوسيط في (ص ف ح) و (ع ت ق)، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٢٢/١٠.

(وَقَدْ أَثَّرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ مِنْ شِدَّةِ جَبْذَتِهِ) ثم ناداه (يا محمد) نداء متعجرف متكبر حيث ناداه باسمه الصريح دون صفة الرسالة، أو النبوة، وهو لا يقل في غلظته عن جذبته، ثم الأمر المتعالى (مر لى) وعلى قدر ما حملت عبارات الأعرابي، وأفعاله من سوء الأدب، والغلظة على قدر ما حمل تصرف الرسول ﷺ من حسن الخلق، وطلاقة الوجه فقد قابل جفاء الأعرابي في جذبته بالالتفات إليه إقبالا عليه بوجهه الشريف مع ضحك يعكس دماثة خلق ن ولين عريكة، وسمو نفس، وقابل نداءه الفظ، وأمره المتعالى بأن أمر له بعطاء، فهل رأيت سماحة كسماحته، ونبلا كنبله؟!، وهل تستطيع أن تقتدي بنبيك في حسن الخلق، وتحمل أذى الناس؟

المضامين الدعوية

أولاً: من وسائل الدعوة: القصة.

ثانياً: من صفات النبي ﷺ: العفو والصفح.

ثالثاً: من صفات الداعية: الإعراض عن الجاهلين.

رابعاً: من آداب الداعية: الصبر على الأذى في سبيل الدعوة إلى الله تعالى.

أولاً- من وسائل الدعوة: القصة:

يظهر ذلك في قول أنس رضي الله عنه "كنت أمشي مع رسول الله ﷺ، وعليه برد نجراني..." فقد ذكر أنس قصة الأعرابي مع النبي ﷺ وما حدث فيها. وتمتاز القصة بأنها تصور نواحي الحياة، فتعرض لك الأشخاص وحركاتهم، وأخلاقهم، وأفكارهم واتجاهات نفوسهم، وبيئتهم ونقاشهم، فإذا رأيت هذه التصرفات والأعمال، ومضيت مع الحوار والنقاش، عرفت ما يَستكِنُّ في النفوس من طباع وما يهجس فيها من خواطر وانشرح صدرك لأهل الخير، وضقت ذرعاً بأهل الشر.

وتمتاز القصة كذلك بأن النفس تميل إليها، فغريزة حب الاستطلاع، تعلق عين السامع وأذنه وانتباهه بنسق القصص البارع استشرافاً لمعرفة ما خفي من بقية الأنباء.

والقصة بهاتين الميزتين من خير الوسائل التي يتوسل بها الداعية لإبلاغ تعاليمه إلى أعماق القلوب[1]، وقد أفادت القصة في هذا الحديث بيان حلم النبي ﷺ وصفحه

---

(١) انظر: تذكرة الدعاة، البهي الخولي ص ٤٤، ٤٥.

وعفوه عن الجهلاء، وسعة صدره ﷺ، وما ينبغي أن يكون عليه الداعية من الحلم والعفو.

ثانياً- من صفات النبي ﷺ: العفو والصفح:

يظهر ذلك في قول أنس رضي الله عنه ... فأدركه أعرابي فجَبَذه بردائه جَبْذَةً شديدة، فنظرت إلى صفحة عاتق النبي ﷺ وقد أثرت بها حاشية الرداء، من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك. فالتفت إليه فضحك ثم أمر له بعطاء.

وهذا يدل على حسن خلق النبي ﷺ وعفوه وصفحه؛ فانظر إلى هذا الخلق الرفيع؛ لم يوبخه النبي ﷺ ولم يضربه ولم يكفهر في وجهه، ولم يعبس؛ بل ضحك ﷺ ومع هذا أمر له بعطاء[1] فهذا الرسول الذي قال الله فيه ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[2].

قال القرطبي: (وهذا الحديث يدلُّ على ما وصف الله به نبيه ﷺ: أنه على خُلُق عظيم، وأنه رؤوف رحيم. فإنَّ هذا الجفاء العظيم الذي صدر من هذا الأعرابي، لا يصبرُ عليه، ولا يحلم عنه مع القدرة عليه إلا مثله، ثم ضحكه ﷺ عند هذه الجبذة الشديدة التي انشق البردُ لها، وتأثر عُنُقِه بسببها حتى انفلت عن وجهته، ورجع إلى نحر الأعرابي، دليلٌ على أن الذي تم له من مقام الصبر والحلم ما تم لأحد، وهذا نظيرُ صبره وحلمه يوم أحد؛ حيث كسرت رباعيته، وشُجَّ في وجهه، وصُرِع على جنبه، وهو في هذا الحال يقول: ((اللّهمَّ اغفرْ لقومي فإنهم لا يَعلمون))[3]، ﷺ، وشرَّف وكرَّم[4].

ثالثاً- من صفات الداعية: الإعراض عن الجاهلين:

يظهر ذلك في مقابلة فعل الأعرابي وجبذه له بالضحك من النبي ﷺ وأمره له

---

(١) انظر: شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين ٩٣٢/١.

(٢) سورة القلم، آية: ٤.

(٣) أخرجه الطبراني ٥٦٩٤، وابن حبان ٩٧٣، وقال شعيب الأرنؤوط إسناده حسن.

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو، وآخرين ١٠١/٣-١٠٢.

بالعطاء وهذا من حلمه ورفقه بالجهال وإعراضه عن جهالاتهم.

وقد أمره الله تعالى بذلك فقال: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾(١)، قال ابن عاشور: (فأمر الرسول ﷺ بأن يعفو ويصفح وذلك بعدم المؤاخذة بجفائهم وسوء خلقهم، فلا يعاقبهم ولا يقابلهم بمثل صنيعهم كما قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾(٢))(٣).

وقد ورد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ((جاء أعرابيٌّ فبالَ في طائفةِ المسجدِ، فزجَرَهُ الناسُ، فنَهاهُمُ النبيُّ ﷺ. فلمّا قَضَى بَولَهُ أمرَ النبيُّ ﷺ بذَنوبٍ مِن ماءٍ فأُهْرِيقَ عليه))(٤).

فالداعية يجب أن يقتدي برسول الله ﷺ في عفوه عن الجاهلين ومقابلة جهلهم بالحلم ويصبر على صفاتهم حتى يحتضنهم ويدعوهم بالحسنى.

والإعراض عن الجاهلين سبب لعلو الهمة، ورفعة المنزلة، ووفور الكرامة، والبعد عن موجبات الذلة.

فمن أعرض عن الجاهلين حمى عرضه، وأراح نفسه، وسلم من سماع ما يؤذيه.

فبالإعراض يحفظ الرجل على نفسه عزتها؛ إذ يرفعها عن مجاراة الطائفة التي تلذ الإقذاع والمهاترة.

قال الشافعي:

أعرض عن الجاهل السفيه ... فكل ما قال فهو فيه

ما ضر نهر الفرات يوماً ... لو خاض بعض الكلاب فيه(٥)

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٩٩.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

(٣) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور ٢٢٦/٩/٤، ٢٢٧.

(٤) أخرجه البخاري ٢٢١.

(٥) ديوان الشافعي ٢٢١. قافية الهاء. بحر.

وقال:

إذا سبّني نذلٌ تزايدتُ رفعةً	وما العيبُ إلا أن أكونَ مسابِبَه
ولو لم تكنْ نفسي عليّ عزيزةً	لمكنْتُها من كل نذلٍ تحاربُه[1]

وقال الأصمعي: بلغني أن رجلاً قال لآخر: والله لئن قلت واحدة لتسمعن عشراً.

فقال له الآخر: لكنك إن قلت عشراً لم تسمع واحدة.

(وشتم رجل الحسن وأربى عليه، فقال له: أما أنت فما أبقيت شيئاً، وما يعلم الله أكثر)[2].

وقال ابن المقفع: (واعلم أنك ستبتلى من أقوام بسفه سيطلع منك حقداً. فإن عارضته أو كافأته بالسفه فكأنك رضيت ما أتى به، فأحببت أن تحتذي مثاله. فإن كان ذلك عندك مذموماً فحقق ذمك إياه بترك معارضته. فأما أن تذمه وتمتثله فليس في ذلك سداد)[3] [4].

رابعاً- آداب الداعية: الصبر على الأذى في سبيل الدعوة إلى الله تعالى:

يظهر ذلك في صبر النبي ﷺ على الأعرابي الذي آذاه بَجبْذه هذه الجَبْذَة الشديدة.

والصبر على الأذى من أهم الصفات التي ينبغي أن يتحلى بها الداعية، قال تعالى في صفات المتقين: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[5].

قال السعدي: أي: إذا حصل لهم من غيرهم أذية، توجه غيظهم -وهو امتلاء قلوبهم من الحنق الموجب للانتقام بالقول والفعل- هؤلاء لا يعملون بمقتضى الطباع البشرية، بل يكظمون ما في القلوب من الغيظ ويصبرون عن مقابلة المسيء إليهم.

"والعافين عن الناس" يدخل في العفو ترك المؤاخذة، مع السماحة عن المسيء، وهذا

---

(١) المرجع السابق.

(٢) عيون الأخبار ٣/٢٨٥، ٢٨٧.

(٣) الأدب الصغير والأدب الكبير ١٥٥.

(٤) الهمة العالية، محمد إبراهيم الحمد ص ١٨٢-١٨٤.

(٥) سورة آل عمران، آية: ١٣٤.

إنما يكون ممن تحلى بالأخلاق الجميلة، وتخلى عن الأخلاق الرذيلة، وممن تاجر مع الله، وعفا عن عباد الله رحمة بهم، وإحساناً إليهم، وكراهة لحصول الشر عليهم، وليعفو الله عنه، ويكون أجره على ربه الكريم، لا على العبد الفقير، كما قال تعالى: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [(١)] [(٢)]. فينبغي على الداعية أن يتحلى بصفة الصبر مع المدعوين.

وترجع أهمية الصبر في حياة الدعاة إلى عدة عوامل من أبرزها ما يلي:

١-أن الناس تأنس بالدعاة، وترى فيهم الإنقاذ والخلاص من كثير مما ينوبهم، ولذا يلجأون إليهم سائلين، ويفصحون لهم عن دواخلهم شاكين، على أمل أن يجدوا لديهم ما يزيل همومهم ويعيد الطمأنينة إلى نفوسهم، ويستلزم ذلك: أن يكثر المترددون على بيت الداعية، والمقتحمون عليه أوقات راحته.

وإزاء هذا لابد للداعية من التحلي بالصبر، والتجمل بطول البال حتى تؤتي الدعوة ثمرتها، وتحقق رسالتها.

٢-أن الداعية سيواجه جيوشاً جرارة من أصحاب العقائد الباطلة تتفانى في سبيل إقرارها ودعوة الناس إليها، وتبذل في سبيل ذلك المليارات في كل يوم.

فإذا طمع الداعية في التغلب على أولئك المفسدين من غير بذل من ماله ووقته وجهده فقد أعرب عن فشله، وذهبت جهوده سدى[(٣)].

لأن الذي يحمل هدي الله للدنيا وما فيها ما لم يكن له حظ من الصبر يفوق حظ المتربصين به المعاندين له كان عمله في الناس شبيها بالمصل الضعيف أمام الجراثيم المدمرة، لا يلبث أمامها طويلاً حتى تأتي عليه[(٤)].

---

(١) سورة الشورى، آية: ٤٠.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ١١٦.

(٣) انظر: أخلاق الدعاة إلى الله تعالى، د. طلعت محمد عفيفي سالم ص ١٧٠-١٧١.

(٤) انظر: في موكب الصبر والصابرين، د. يحيى إسماعيل، عدد رقم (٥) من سلسلة نحو النور، دار التوزيع والنشر الإسلامية ص ٢٩.

ومن الضروري أيضاً ألا تُعْجِب جهودُ الدعاة أصحاب هذه العقائد الباطلة أو من يتأثر بهم، فتبدأ المضايقات والمناوشات للدعاة، مما يترتب عليه تعرضهم للأذى أحياناً، وملاقاتهم للمكاره في سبيل إحقاق الحق.

ويستلزم هذا من الداعية أن يوطن نفسه على تحمل مثل هذه المكاره، والتي أشار القرآن الكريم على أنها قرينة التمسك بالحق والدعوة إليه، فقال تعالى على لسان لقمان الحكيم: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾[1].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية (عَلِمَ - أي لقمان - أن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر لابد أن يناله من الناس أذى فأمره بالصبر. وقوله "إن ذلك من عزم الأمور" أي: إن الصبر على أذى الناس لمن عزم الأمور)[2].

---

(١) سورة لقمان، آية: ١٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٦/٣٣٨.

الحديث رقم (٦٤٦)

٦٤٦- وعن ابن مسعود ﵁، قَالَ: كأني أنظر إِلَى رسول الله ﷺ يَحْكِي نَبِيّاً مِنَ الأنبياءِ، صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُه عَلَيْهِمْ، ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأدْمَوْهُ، وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ، ويقول: ((اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي؛ فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ)) متفقٌ عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

غريب الألفاظ:

أدموه: أسالوا دمه من أثر ضربهم[2].

الشرح الأدبي

الحديث من باب الترغيب في الرفق، والحلم، والأناة يحكى فيه الصحابي الجليل تجريته الشعورية كما انطبعت في نفسه، والمشهد ما زال قائما بين عينيه (كأني انظر) والتعبير بأداة التشبيه (كأن) والتي تعكس شدة الشبة في الموقف المحكي بالموقف المشاهد من قبل، وكلمة (أنظر) بصيغة المضارع التي تفيد التجدد، والاستمرار فكأنه يعاد في نفسه من خلال تداعى الذكريات بكل انطباعاته الوجدانية لكي ينقل إلينا من خلال هذه الانطباعات النفسية حجم الموقف بكل أبعاده صورة نبي من الأنبياء ضربه قومه فأدموه، وهو يمسح الدم عن وجهه، والصورة إلى هنا ترسم في الخيال هيئة الوقار في شخص النبي ﷺ الذي جاء يحمل إلى قومه خيري الدنيا، والآخرة؛ فقابله قومه بالإهانة، والضرب حتى أدموا وجهه الشريف، قمة التناقض الخلقي في مقابلة الإحسان بالإساءة من القوم، وباقي الحديث يحمل موقف الرسول الذي جاء بمنتهي الخير، وقوبل بمنتهي الشر قد مسح الدم عن وجهه الشريف، ودعا لقومه لا عليهم، وإذا تتبعنا سمو نفسه خلال ألفاظه لوجدناها تحمل الصدق المطلق في الشعور المفعم

(١) أخرجه البخاري ٦٩٢٩ واللفظ له، ومسلم ١٧٩٢/١٠٥، تقدم برقم ٣٦. أورده المنذري في ترغيبه ٣٩٦٤.

(٢) اللسان في (د م و).

بكل التسامح الذي علا حتى فاض رحمة، وشفقة حتى على من آذوه، تجد ذلك ابتداء من لفظ النداء (اللهم) التي تتصدر كل عظيم في دعاء النبي ﷺ إعلانا للتوجه إلى الله في كامل تفخيمه وكمال إجلاله - لا ليدعو على قومه - بل يدعو لهم ثم يأتي أسلوب الأمر دعاءً (اغفر) طلبا لستر ذنوبهم يعكس مدى السمو النفسي، أضف إلى ذلك ما ليس فوقه مطمح لمتسامح، وهو التماس العذر في دعائه لقومه، وكأنه لا يريد أن يحمِّلهم خطأ إيذائه فيقول: (فإنهم لا يعلمون) وانظر إلى إصرار النفس الذكية على تأكيد العذر بـ (إن) تنزيلا للمخاطب منزلة المتردد، وهو - وحاشاه لا يقصد إزالة التردد في ندائه لربه - ولكنه انعكاس صدى نفسه المشفقة على من آذوه، وسلوكا بالأسلوب كل مسلك للإقناع تأكيدا على ما يضمن نجاتهم من انتقام الله ممن آذوا نبيه إن حق عليهم القول، إن الموقف الوجداني يحمل أعظم مواقف البشرية تناقضا بين أسمى صور البشرية في الرحمة المحيطة، والتسامح المطلق من جانب رسول ضُرب وأُدمي وجهه - وهو يمسح الدم عن وجهه ويدعو لقومه- لا عليهم بأعظم صيغ الدعاء مع التماس الأعذار، والتأكيد، والإصرار على الدفاع عنهم، وبين قوم جاءهم بشير خير يحمل لهم أعظم الخيرات فيقابلونه بالإهانة، والضرب يمكنك أن تتخيل قمة الوقار، والعظمة الخاشعة في شخصه المهيب، وهيئة سفهاء القوم يقذفونه بالحجارة، ومن يقذفون نبي الله ﷺ؟ وهو يستطيع أن ينتقم - لكنه توجه إلى الله بقلب مفعم بالتسامح، والرحمة وهو يمسح الدم عن وجهه، وكأنه يمسح آثار جريمتهم، وجنايتهم عليه قبل أن يطلب لهم المغفرة من الله - لكنه؛ قد علم أن الله مطلع على سيئ فعلهم؛ فبحث لهم عن عذر بعدم العلم وصدره بـ (إن) ؛ لأنه يريد أن ينفي من نفسه كل شك في براءتهم يمكن أن يكون سببا في دعائه عليهم فيكون فيه هلاكهم، إن نداءه (اللهم) ودعاءه (اغفر) بما حمل من خلجات نفسية - مثال ماثل في أعين الدهر - وباقة من التسامح فواحة بأعبق الزهر.. رجع حديث يتردد ونبع عطاء يتجدد... به استحق أن يكون خير الخلق عند الخالق[1].

---

(١) ينظر الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في صحيح الترغيب، والترهيب للحافظ المنذري، د. ناصر راضي الزهري، ٥٠٤، مخطوطة بكلية اللغة العربية بأسيوط – جامعة الأزهر.

المضامين الدعوية

أولاً: من وسائل الدعوة: الحكاية.

ثانياً: من صفات الأنبياء: الصبر والصفح والعفو.

ثالثاً: من آداب الداعية: التماس الأعذار للمدعوين رحمة بهم.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: أثر الصفح والعفو على الدعوة إلى الله تعالى.

أولاً- من وسائل الدعوة: الحكاية:

يظهر ذلك في قول ابن مسعود رضي الله عنه: "كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء...".

قال د. الحسيني هاشم: "لا ندري مم نتعجب؟ أمن قوة تأثير الرسول ﷺ، أو من استيعاب أصحابه رضي الله عنهم لتعاليمه طول حياتهم؟ فهذا ابن مسعود رضي الله عنه يستحضر حكاية الرسول ﷺ حتى كأنه يعاينها رغم مرور زمن على سماعها، حيث حكى الرسول ﷺ مدى صبره على أذى قومه "دون تصريح بذلك" وهو يدعو لهم بالمغفرة، لعلمه أن ذلك من جهلهم وسوء تقديرهم وعدم معرفتهم بعلو مرتبته، إذ لو عرفوه لقدروه حق قدره"[1].

"والحكاية من قولك: حكيت فلاناً وحاكيته فعلت مثل فعله أو قلت مثل قوله سواء لم أجاوزه، وحكيت عنه الحديث حكاية، وحكيت عنه الكلام حكاية"[2].

فالحكاية يلاحظ فيها المحاكاة والوقوف على ما جرى فقط"[3].

والحكاية من وسائل الدعوة التي ورد استخدامها في كثير من أحاديث رسول الله ﷺ، منها ما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: ((بينا أيُّوبُ عليه السلام

---

(١) شرح رياض الصالحين ص ٢٩٦.

(٢) اللسان في (ح ك ى).

(٣) الوحدة الموضوعية، د. محمد محمود حجازي، نقلاً عن القصة في القرآن الكريم، د. مريم عبدالقادر السباعي ص ٣١.

يَغتَسِلُ عُرياناً فَخَرَّ عليه جَرادٌ من ذَهبٍ، فجعَلَ أيُّوبُ يَحتثي في ثوبهِ، فناداه ربُّه: يا أيُّوبُ ألم أكُنْ أغْنَيْتُكَ عمَّا ترى؟ قال: بَلَى وعِزَّتِكَ، ولكنْ لاغِنى بي عن بَرَكتِكَ))[1]، فالحكاية من وسائل الدعوة التي يحكي بها الداعية ما رآه أو سمعه للمدعوين كما هو.

ثانياً- من صفات الأنبياء: الصبر والصفح والعفو:

يظهر ذلك في قول ابن مسعود ﷺ: (كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء ضربه قومه حتى أدموا وجهه فجعل يمسح الدم عن وجهه، ويقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون).

قال النووي: (فيه ما كانوا عليه -صلوات الله وسلامه عليهم- من الحلم والتصبر والعفو والشفقة على قومهم ودعائهم لهم بالهداية والغفران وعذرهم في جنايتهم على أنفسهم بأنهم لا يعلمون، وهذا النبي المشار إليه من المتقدمين، وقد جرى لنبينا ﷺ يوم أحد مثل ذلك)[2].

وقال ابن عثيمين: (هذا من حلم الأنبياء وصبرهم على أذى قومهم، وكم نال الأنبياء من أذى قومهم؟)[3]، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾[4]، قال ابن كثير: (... وهذا أَمْرٌ له بالصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل، وَوَعْد له بالنصر كما نُصِرُوا، وبالظفر حتى كانت لهم العاقبة بعد ما نالهم من التكذيب من قومهم والأذى البليغ)[5].

إن رسل الله السابقين عليهم السلام تحملوا كثيراً من أذى قومهم وصبروا عليها وشأن الرسول ﷺ هو شأنهم وها هي قضيتهم تعرض عليه ليكون مثلهم صبراً وتحملاً.

---

(١) أخرجه البخاري ٧٤٩٣.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٥٩.

(٣) شرح رياض الصالحين ٩٣٢/١.

(٤) سورة الأنعام، آية: ٣٤.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢٥٢/٣.

وقد أمره بذلك فقال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾(١).

فشأن الرسل عليهم السلام أنهم ذوو عزم دائم وقوة صلبة يتحملون بهما تكذيب القوم وأذاهم وفي النهاية يأتي نصر الله لرسوله ﷺ وتقع الهزيمة على أعدائه لا محالة. هكذا مع كل رسول بلا تخصيص ومن هنا يرجح أن تكون "من" في قوله: "من الرسل" في الآية الأولى بيانية. وضعف أن تكون تبعيضية، وأيضاً فإن الرسل عليهم السلام جميعاً كُذبوا وجميعهم تحمل وصبر ولم يتحدث القرآن عن نبي وصل إلى النصر بلا عناء ومشقة أو استقبله قومه بالتصديق والإيمان لأول وهلة.

فلزم أن يتخلق كل رسول بالعزم والقوة. وإن تفاوت الرسل فيهما فإن تملك الجميع لأصل هاتين الصفتين مؤكد وضروري حيث لا يختار الله من الناس إلا الكفء للرسالة. ومن الكفاءة في الرسول أن يكون قوياً ذا عزم وجلد(٢).

ولم يكتف القرآن بمجرد ذكر صبر الرسل عليهم السلام وتحملهم ولا بمجرد أمر الرسول ﷺ بذلك، وإنما أخذ يبين للرسول حقيقة من الحقائق الثابتة التي تدفع إلى الصبر والتحمل، هذه الحقيقة أن النصر الإلهي حتمي، وعلى الرسول أن يصبر حتى ينتصر، وهذا النصر سوف يأتيه بلا ريب حتى يكون التأميل في النصر مُسلّماً هو الآخر، يذكر القرآن أن النصر واضح من انتصار الرسل ودعواتهم بعد كل ما تحملوه، يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾(٣).

وهكذا الشأن مع كل الرسل السابقين حيث نصرهم الله وجعل جندهم غالباً وهزم المعارضين المعاندين، والدعوة تبين ثبات هذه الحقيقة فمع نوح عليه السلام نقرأ قوله

---

(١) سورة الأحقاف، آية: ٣٥.

(٢) الدعوة الإسلامية، د. أحمد أحمد غلوش ص ١٨٦ - ١٨٧.

(٣) سورة الصافات، الآيات: ١٧١ - ١٧٣.

تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾(١).

ومع هود عليه السلام نقرأ: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴾(٢).

ومع صالح عليه السلام نقرأ: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴾(٣).

ومع شعيب عليه السلام نقرأ: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴾(٤).

وهكذا اتبع القرآن في تثبيت قلب النبي صلى الله عليه وسلم من خلال ذكره للدعوات السابقة ما سبق من أمره بالصبر والتحمل كالرسل السابقين. والتأميل في النصر بعد الصبر. وتسهيل كل المشاق عليه بسبب هذه المشابهة بينه وبين إخوانه السابقين.

ولئن كان هذا درساً للرسول فهو درس كذلك للدعاة، يبين الطريق ويعرف بالنصر ويؤكد أن الفوز بالصبر، والنجاح بالتحمل والعمل، ولا مبدل لكلمات الله، ولقد جاءك من نبأ المرسلين(٥).

ثالثاً- من آداب الداعية: التماس الأعذار للمدعوين رحمة بهم:

إن من آداب الداعية التماس الأعذار للمدعوين رحمة بهم، يظهر ذلك في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون"، قال أبو العباس القرطبي: (وقوله صلى الله عليه وسلم: "اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون"، وإذا تأمل الفطن هذا الدعاء في مثل

---

(١) سورة هود، آية: ٤٩.

(٢) سورة هود، آية: ٥٨.

(٣) سورة هود، آية: ٦٦.

(٤) سورة هود، آية: ٩٤.

(٥) الدعوة الإسلامية، د. أحمد غلوش ص ١٨٨.

تلك الحال علم معنى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1]، فإنه ﷺ لم يدع عليهم فينتصر، ولم يقتصر على العفو حتى دعا لهم، ولم يقتصر على الدعاء لهم حتى أضافهم لنفسه على جهة الشفقة، ولم يقتصر على ذلك حتى جعل لهم جهلهم بحاله كالعذر، وإن لم يكن عذراً.

وهذا غاية الفضل والكرم التي لا يُشارك فيها ولا يوصل إليها)[2]. وهذا يدل على شفقة النبي ﷺ على قومه فرغم إيذائهم له نجده لا يَدْعُ عليهم للانتصار لنفسه، بل يلتمس لهم الأعذار ويدعو لهم بالمغفرة رحمة بهم، ويظهر ذلك في رده ﷺ على إيذاء قومه له فالتمس لهم ﷺ عُذْرَ عدم العلم بمكانته وفضله ووجوب تكريمه وتوقيره ودعا لهم.

وهذا من آداب الداعية وذلك لما كانت مخالطة الناس ومعاشرتهم - لا بد - وأن يعتريها شيء من التقصير والتفريط والتعدي من بعضهم على بعض إما بقول أو فعل[3].

فيستحب للداعية أن يلتمس الأعذار للمدعوين رحمة بهم، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾[4].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: أثر الصفح والعفو على الدعوة إلى الله تعالى:

يستنبط هذا من عموم الحديث حيث بيّن صفح وعفو رسول الله ﷺ عمن ضربوه وآذوه.

وقد كان عفو رسول الله ﷺ وصفحُه عمن أساء إليه سبباً في انتشار الدعوة الإسلامية، والتفاف الناس حوله وقبولهم دعوته، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾[5]، أي: برحمة الله لك ولأصحابك،

---

(١) سورة القلم، آية: ٤.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو، وآخرين ٦٥٠/٣.

(٣) انظر: كتاب الآداب، فؤاد عبد العزيز الشلهوب ص ٢٣٥.

(٤) سورة الشورى، آية: ٣٧.

(٥) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

منّ الله عليك أن ألنت لهم جانبك، وخفضت لهم جناحك، وترفقت عليهم وحسنت لهم خلقك، فاجتمعوا عليك وأحبوك وامتثلوا أمرك"[١].

والعفو عن الزلات والهنات والمظلمات ليس ضعفاً ولا نقصاناً، بل هو رفعة لصاحبها وعزاً. قال رسول الله ﷺ: ((مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ. وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْداً بِعَفْوٍ إِلاَّ عِزًّا. وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلاَّ رَفَعَهُ اللَّهُ))[٢].

فالعفو والصفح من الداعية للمدعوين يزيد المحبة بينهم ويعمل على نشر الدعوة فيما بينهم.

والداعية الذي يهدف إلى استمالة القلوب وهدايتها لا يقسو لأن "القسوة التي استنكرها الإسلام جفاف في النفس لا يرتبط بمنطق ولا عدالة، إنها نزوة فاجرة تتشبع من الإساءة والإيذاء، وتمتد مع الأثرة المجردة والهوى الأعمى"[٣]، ومن أعظم مواقف العفو عفو النبي ﷺ عن المشركين يوم فتح مكة[٤].

وهكذا فإن برحابة الصدر وسماحة النفس تنتظم الرحمة التي تدعو إلى الحلم الذي يقود إلى العفو، فيكون من وراء ذلك التأثير التلقائي؛ لأن الإنسان يتأثر بالإحسان كما في قوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾[٥].

وهذا أمر مشاهد، حيث نرى أن من كان سمح النفس يستطيع أن يظفر بأكبر قسط من محبة الناس له، وثقة الناس به؛ لأنه يعاملهم بالسماحة والبشر ولين الجانب، والتغاضي عن السيئات والنقائص، فإذا دعاه الواجب إلى تقديم النصح كان في نصحه رقيقاً ليناً، سمحاً هيناً، يسر بالنصيحة، ولا يريد الفضيحة، يسد الثغرات ولا ينشر

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ١٢١.

(٢) أخرجه مسلم ٢٥٨٨.

(٣) خلق المسلم، محمد الغزالي ص ٢٠٧.

(٤) انظر: الرحيق المختوم، المباركفوري ص ٤٨٠ – ٤٨١.

(٥) سورة فصلت، آية: ٣٤.

الزلات والعثرات[(١)].

وإن سيرة المصطفى ﷺ كلُّها دلالات وآيات بينات على سماحته التي وسعت كل الناس، ورحمته التي ظللتهم في مواقف الشدة، وحلمه الذي آواهم به إلى كنفه بعيداً عن الغضب والحدة، وعفوه الذي استمال نفوسهم بالتسامي عن الانتصار للنفس، ولقد كانت سيرته كلُّها مثلاً عظيماً للدعاة لتأليف القلوب وتحبيب النفوس، وتطييب الخواطر، كان منه الصبر على بعض الأعراب القُساة، واللين في النصح للآخرين، وتأليف قلوب بعضهم بالمال ونحوه، والتوجه بالتجاوز عن عثرات ذوي الهيئات، وتقدير منازل الناس وإنزالهم إياها مراعاة لطبائع النفوس، وإفساح الصدر للآراء المخالفة، مع أنه ﷺ نبي مرسل، ودعوة الناس إلى الشورى، والإبانة لهم عما هو رأي له ﷺ وما هو وحي يوحى لفتح المجال أمام بسط الآراء المخالفة في الموقف[(٢)]، ونحو ذلك مما يؤصل ويؤكد هذه السمة ويبين أهميتها.

إننا نريد الداعية ذا الصدر الرحب، والسماحة الفياضة حتى يقول الناس عنه:

قد عهدناك تُوسِعُ الناسَ حِلْماً	وعهدناك تُوسِع الناسَ زجراً
وعهدناك كلما اتسع الخطبُ	حواليك كنتَ أوسعَ صدراً [(٣)]

---

(١) الأخلاق الإسلامية، عبدالرحمن حسن حبنكة ٢/٤٤٣.

(٢) مسافر في قطار الدعوة، نقلاً عن مقومات الداعية الناجح د. علي بن عمر بادحدح ص ١٢٢.

(٣) ديوان اليازجي ص ٤٤، نقلاً عن مقومات الداعية الناجح، د. علي بن عمر بادحدح ص ١٢٢ - ١٢٣.

الحديث رقم (٦٤٧)

٦٤٧- وعن أَبي هريرة ﷺ: أنَّ رسول الله ﷺ، قَالَ: ((لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ)) متفقٌ عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

ابو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

الصُّرَعَة: المبالغ في الصِّراع، الذي لا يُغلبُ[2].

الشرح الأدبي

سلك الرسول ﷺ في هذا الحديث مسلكاً لطيفاً في بيان أثر الغضب، وشدته باستخدام أسلوب الإحلال والتجديد لتصحيح المفاهيم؛ فنفي بداية مفهوم الصرعة المعهود في ذهن العربي بأن الصرعة: هو الذي يقهر الرجال، ولا يقهرونه، ويطرحهم، ولا يطرحونه، وإنما الشديد حقاً الذي يملك نفسه عند ثوران الغضب، فيقهرها بحلمه، ويصرعها بثباته، ولا يمكنها من أن تسترسل مع تيار الغضب فتشتم وتسب، وتضرب وتقتل... تلبية لداعي الانتقام، وقد استخدم الرسول لتحريك المفهوم القديم للصرعة وتأكيد المعنى الجديد بغرض التنبيه على خطر الغضب حيث ثورة الانفعال وسيطرة الشيطان وغياب العقل استخدم عدة أساليب بلاغية، فقد بدأ بأسلوب التشويق والإثارة بذكر الخبر الغريب حيث نفى مفهوماً راسخاً في أذهان المخاطبين (ليس الشديد بالصرعة...) مما أثار دهشتهم وحقق استشرافهم لمعرفة ما يتلوه، وبذلك حقق الرسول ﷺ ما يريد من ضمان الإنصات، وتحقيق الترقب، وتحريك المفهوم في

---

(١) أخرجه البخاري ٦١١٤، ومسلم ٢٦٠٩/١٠٧ ولفظهما سواء، وتقدم برقم ٤٥. أورده المنذري في ترغيبه ٤٠٥٢.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ص ر ع).

الأذهان، ثم يأتي أسلوب القصر في قوله ﷺ: (إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب) وهو قصر موصوف (الشديد) على صفة (الذي يملك نفسه عند الغضب) وهو قصر قلب ؛لأنه ﷺ قلب المفهوم الراسخ في أذهان المخاطبين عن الصرعة وأنه الذي يطرح غيره، وجعل الصرعة الذي يطرح غضبه وهو جزء من انفعالاته فكأنه يطرح نفسه الغضبية، ومن الملاحظ في أسلوب القصر في الحديث أنه استخدم طريق القصر بـ (إنما) وهي تستخدم في الخبر الذي لا يجهله المخاطب ولا ينكره، أو لما ينزل هذه المنزلة كما قال الإمام عبد القاهر: "اعلم أن موضوع (إنما) على أن تجيء لخبر لا يجهله المخاطب ولا يدفعه أو لما ينزل هذه المنزلة، وعلى ذلك نرى في استخدام الرسول ﷺ لـ (إنما) طريقاً للقصر تنزيلاً لمفهوم الصرعة الجديد والذي يملك نفسه عند الغضب تنزيل الأمر المجهول منزله المعلوم الذي لا ينكره المخاطب إشارة إلى تمام وضوحه، وقوله ﷺ (يملك نفسه) استعارة حيث شبه النفس بشيء مادي وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الملك على سبيل الاستعارة المكنية ليصور شدة التمكن في السيطرة على النفس، وهو ما يجب أن يكون عليه المؤمن[(١)].

المضامين الدعوية[(٢)]

(١) انظر: بلاغة الرسول ﷺ في تقويم الأخطاء د ناصر راضي الزهري، ١٤٤.

(٢) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (٤٥).

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

"العَفُوّ" اسم من أسماء الله، والعَفو صفة من صفاته، والمسلم مطالب بالتخلق بأخلاق الله، والسبيل إلى ذلك يكون بـ:

أولاً- التربية على خلق العفو والتسامح:

إن من أهم أهداف التربية الإسلامية غرس التربية الخلقية في نفوس المتربين، ويعتبر خلق العفو والتسامح من أبرز الجوانب الخلقية التي ينبغي على المؤمن أن يجعلها واقعًا في سلوكه وتصرفاته، وفي هذا الباب -باب العفو والإعراض عن الجاهلين- أورد النووي جملة من الأحاديث كلها تغرس في نفوس الناشئة والمتربين خلق العفو، وتبين تطبيقاته العملية من سنة النبي ﷺ، ومن ذلك ما قاله عندما جاءه ملك الجبال يأتمر بأمره "بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا" وقول عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: "... وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شيء من محارم الله فينتقم لله تعالى"، وقوله ﷺ عندما حكى إيذاء قومه له: "اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون"، وقوله: ((ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب)).

وما من شك في أن صاحب العفو والتسامح دليل على تمتع صاحبه بالصحة النفسية "إن الحلم والصفح والعفو هو خلق المسلم المتمتع بالصحة النفسية حيث تكون نفسه حليمة مع تصرفات الآخرين عافية عن حقها الذي اعتدى عليه من قِبَل الآخرين، وذلك ابتغاء وجه الله تعالى، والعفو من صفات المتقين، ودعا الله المؤمنين إلى التزامه، وقد كان من أخلاق الأنبياء الحلم والصفح"[1].

إن العفو من الأصول النفسية التي يسعى الإسلام لغرسها في نفوس أتباعه "وهو شعور نفسي نبيل يترتب عليه التسامح والتنازل عن الحق مهما كان المعتدى ظالمًا

---

(١) انظر: التدين والصحة النفسية، د. صالح بن إبراهيم الصنيع ص ٤٩٣، ٤٩٤.

وجائزًا.. بشرط أن يكون المعتدى عليه قادرًا على الانتقام، وأن لا يكون الاعتداء على كرامة الدين، ومقدسات الإسلام... وإلا... كان العفو ذلة ومهانة واستسلامًا وخضوعًا... والعفو بهذا المعنى، وبهذه الشروط شيمة أصيلة تدل على إيمان راسخ، وأدب إسلامي رفيع، ومن المعلوم بداهة أن نفسية المؤمن حينما تكون متخلقة بأخلاق الحلم والعفو والتسامح... فإنه يكون مثلاً يحتذى في الملاطفة وسمو الخلق، ولين الجانب وحسن المعشر.... بل يكون كالمَلَك يمشي على الأرض نبلاً وطهرًا وصفاءً" [(١)].

إن الانتصار من النفس خير من الانتصار لها، لأن الإنسان إذا أراد أن ينتصر من نفسه، فهو أمام ذات واحدة، يعرفها ويعرف قدراتها ويعرف مواطن القوة والضعف فيها، فإمكانية الانتصار متاحة، وما أشبهها صاحبها بفرس له لجام في يده، فإن أمسك باللجام دائمًا، لم تتفلت منه، وإن ترك لها اللجام أو ألقى الحبل على الغارب، فقد يتعذر عليه التحكم فيها.

إن البوصيري كان حكيمًا حين وصف النفس بقوله:

والنفس كالطفل إن تهمله ... شب على حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

وخير مواطن التحكم في النفس إذا يسرت السبل للانتقام لها، بعد إساءة إليها ونزول أذى بها، وكان الانتقام محققًا حال قبوله، وكان الإعراض مؤلمًا إلا أنه يحقق إشباعًا في الانتصار على الذات.

إن هذا ما حدث مع الرسول ﷺ حين لاقى من قومه ما لاقى، وأتاه ملك الجبال سامعًا مطيعًا، وعرض عليه كيفية إبادة مكذبيه، رأي العين، أطبق عليهم الأخشبين، وأمام هذا كله قال ﷺ: (بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا)[(٢)].

إننا في هذا الزمان نسعى إلى هذا وذاك من المعارف، والأصدقاءن لننتقم لأنفسنا

---

(١) تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان ص ١/ ٢٧٠.

(٢) أخرجه البخاري ٣٠٥٩، ومسلم ١٧٩٥.

ولغيرنا في كثير من الأحيان، وكم نسعى لإيذاء أناس لم يؤذونا ولكنهم لم يقدرونها كما نتصور نحن، فكان لا بد من إثبات من نحن؟ بطريق الأذى المباشر أو غير المباشر، وكم يعتذر المخطئون فيكون التعنت في قبول الاعتذار، وفرض قيود وشروط ما أنزل الله بها من سلطان، كم نطلب مالاً وكم نطلب مطالب فيه ذلة وإهانة لراغب الاعتذار، وما درينا أن العفو يكسب الإنسان قوة ويعلي الإنسان قدرًا.

إنه ليس بإمكان الإنسان أن ينتصر لنفسه من الآخرين دومًا، فمنهم أصحاب المنعة ومنهم - بمقياس الدنيا- أهل الرفعة، ومنهم من آذى وتفلت، ومنهم من فرّ وكم يتردد، ومنهم من فرضت عليه الضرورة سوء الخلق ومنهم من دعته الحاجة إلى رفع الصوت، ومنهم المريض الذي رأى التفريج عن نفسه في كلمة يقولها أو إشارة يبديها أو نميمة يخفيها.

إن الإنسان ليتعامل مع آلاف البشر في هذه الحياة، وخير ما يأتلف قلوبهم الحلم والأناة والإحسان.

ثانيًا- التربية بالمواقف والأحداث:

إن من أساليب التربية الناجعة التربية بالمواقف والأحداث، وفي أحاديث الباب ما يشير إلى هذا الأسلوب، ومن ذلك موقف النبي ﷺ يوم العقبة عندما عرض نفسه على ابن عبديا ليل بن عبد كلال فلم يجبه ... ثم مجيء مَلَك الجبال له لينظر بما يأمر، وأن يطبق عليهم الأخشبين فكان جواب النبي ﷺ "بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا" فكان هذا الموقف والحدث أسلوبًا عمليًا في بيان العفو والإعراض عن الجاهلين، ومن ذلك أيضًا ما جاء عن ابن مسعود ﷺ قال: كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبيًا من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: "اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون".

"إن من طرق التربية الفعالة التربية بالأحداث، أي استغلال حدث معين لإعطاء توجيه أو تغيير سلوك معين. وميزة هذا التوجيه وهذا التغير في السلوك أنه يجيء في

أعقاب حدث يهز النفس كلها هزًا فتكون أكثر قابلية للتأثير، ويكون التوجيه والتغير في السلوك أفعل وأعمق وأطول أمدًا في التأثير من تلك التوجيهات والتغيرات العابرة التي تأتي بغير انفعال ولا حدث يهز المشاعر، والمربي البارع لا يترك الأحداث - تلقائية، كانت أم مخططة- تذهب سُدَىً بغير عبرة توجيهية في الاتجاه المرغوب" [(١)].

ثالثًا- التربية بالقدوة:

من أساليب التربية المؤثرة في نفوس المتربين التربية بالقدوة حيث يقدم المربي للمتربين التطبيق العملي لما يدعو إليه من قيم وأخلاق، ومن شواهد أحاديث الباب التي تبين التربية بالقدوة ما جاء عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: ما ضرب رسول الله ﷺ شيئًا قط بيده ولا امرأة لا خادمًا إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شيء من محارم الله فينتقم لله تعالى، ومنها ما جاء عن أنس رضي الله عنه قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذة شديدة... فالتفت إليه رسول الله ﷺ فضحك، ثم أمر له بعطاء"، وما جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبيًا من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه، ويقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون".

"إن القدوة الصالحة هي إحدى الطرق لاكتساب الفضائل بأنواعها والكمال السلوكي، ولذا اتخذها الإسلام وسيلة من وسائله لبناء الشخصية الإسلامية وترقيتها في سلم الكمال السلوكي فالقدوة الصالحة هي من أنجح الوسائل لبناء الشخصية الإسلامية خصوصًا في مرحلة الاكتساب، وهذه القدوة إما أن تكون مشاهدة ملموسة أمامه فيقتدي بها، أو تكون مثالاً في ذهنه من الأخبار والسير الصالحة التي يسمعها، ولذا حرص الإسلام أشد الحرص على إيجاد القدوة الصالحة والمثل الطيب للإنسان لأن المحاكاة غريزة كامنة في النفس"[(٢)].

---

(١) منهج التربية في التصور الإسلامي، د. علي أحمد مدكور ص ٤٤٦، ٤٤٧.

(٢) انظر: الشخصية ومنهج الإسلام في بنائها ورعايتها، د. ناصر بن عبدالله التركي ص ١٧٧، ١٧٨.

وإذا كان الأمر كذلك فواجب القائمين على التربية الاهتمام بإيجاد القدوة الحسنة أمام المتربين ليجدوا الترجمة العملية، والتطبيقات الفعلية للقيم والأخلاق، والسلوكيات الصالحة.

رابعًا- التربية على عدم الاستجابة لنوازع الغضب:

وهذا يتضح من فعل النبي ﷺ وقوله: ما فعله ﷺ عندما لقي من فوق ما لقيه يوم العقبة، فقال عن نفسه: ((فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلاَّ وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي ...)) الحديث، فالنبي ﷺ قد أصابه الهمّ لإعراض قومه عن الاستجابة لما يدعوهم إليه مما فيه نفعهم وخيرهم، فانطلق على وجهه، وانتقل من المكان الذي وقع فيه الهمّ والغضب إلى مكان آخر ليس فيه ذلك، وهذا مما لاشك يخفف عنه شدة الغضب والهمّ، فإن الإنسان -كما تشهد التجربة- إذا كان مهمومًا فإن غادر مكان الهمّ وخرج إلى مكان فسيح يتأمل فيه خلق الله من أشجار وخضرة وأزهار أو جبال ووديان وسهول، فإن ذلك يسري عنه كثيراً مما يحس به من غضب وضيق. وهذا ما تنادي به التربية الحديثة، وهو الخروج إلى المنتزهات عند وقوع غضب أو نحو ذلك.

وما سبق كان من فعله ﷺ، أما قوله ﷺ فهو ((لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ. إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ))، فبيّن ﷺ: أن القوي الشديد هو من تحكم في نفسه وكظمها عن الاستجابة لنوازع الغضب وبلغ غيظه وضيقه ولم يفسح المجال لغضبه بل أغلق الطريق أمامه وجعل سدًا منيعًا بينه وبين أن يؤثر عليه في التصرفات والأفعال الظاهرة على الأقل.

والمقصود أنه ينبغي أن تكون التربية على عدم الاستجابة لنوازع الغضب من الأساسيات في التربية والتنشئة.

٧٦- باب احتمال الأذى

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[آل عمران: ١٣٤]، وقال تَعَالَى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[الشورى: ٤٣] وفي الباب: الأحاديث السابقة في الباب قبله.

الحديث رقم (٦٤٨)

٦٤٨- وعن أَبي هريرة رضي الله تَعَالَى عنه: أنَّ رَجُلاً، قَالَ: يَا رسول الله، إنّ لي قَرَابةً أصِلُهم وَيَقْطَعُوني، وَأُحْسِنُ إلَيْهِمْ وَيُسيئُونَ إلَيَّ، وَأحْلُمُ عَنهم وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ! فَقَالَ: ((**لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ، فَكأنَّمَا تُسِفُّهُمُ المَلَّ، وَلاَ يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللهِ تَعَالَى ظَهيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ**)) رواه مسلم[1].

وقد سَبَقَ شَرْحُهُ في بَابِ صلة الأرحام.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

تسفهم: تطعمهم[2].

المَلّ: الرمادُ الحارُّ، وهو تشبيه لما يلحقهم من الإثم بما يلحَق آكل الرماد الحار من الألم[3].

ظهير: ناصر ومعين[4].

---

(١) برقم ٢٢/٢٥٥٨، وتقدم برقم ٣١٨. أورده المنذري في ترغيبه ٣٧١٦.

(٢) الوسيط في (س ف ف).

(٣) اللسان في (م ل ل).

(٤) الوسيط في (ظ هـ ر).

الشرح الأدبي

أسلوب النبي ﷺ قائم على أسلوب الشرط ثم التشبيه في قوله ﷺ (لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ الْمَلَّ) وأسلوب الشرط بهذه الصياغة له فائدتان: الأولى: تعميم الحكم حتى لا يقيد بشخص معين، وإنما يشمل كل من كانت هذه حاله كل زمان ومكان - إذ لو قال ﷺ للرجل (إنك تسفهم المل) لاحتمل أن يكون خاصاً به لكن تعليق الرسول ﷺ للجواب على الشرط يعطي الحكم شمولية يندرج تحتها كل من كانت هذه حاله، وهذه إحدى فوائد أسلوب الشرط الثانية: تعليق الجواب على الشرط من الرسول ﷺ لكونه لا ينطق عن الهوى، ولو قال ﷺ: إنك تسفهم المل لكان حكماً بصدق الرجل، وإشارة إلى أنه قد استوفى ما عليه تجاه قرابته ولعله ﷺ لم يرد إثباته، وأراد الجواب معلقاً على الشرط (إن كنت كما قلت) حتى يبحث الرجل في نفسه، ويتأكد من أنه لم يقصر في حقهم، ويبحث أوجه التقصير فيما فعل فيتمه، ثم جاء التشبيه في جواب الشرط مرتبطاً بالفاء (فكأنما تسفهم المل) والمل: هو الرماد الحار، ومعناه كأنما تطعمهم الرماد الحار، وهو تشبيه لما يلحقهم من الألم بما يلحق آكل الرماد الحار من الألم، ولا شئ على هذا المحسن بل ينالهم الإثم العظيم في قطيعته، وإيذائه، والحديث يحث على تحمل الأذى، والرد الجميل، والإحسان لأولي القربى في حال إحسانهم، وفي حال إساءتهم[1].

المضامين الدعوية[2]

(١) ينظر بلاغة الرسول ﷺ في تقويم أخطاء الناس دراسة في الصحيحين، د: ناصر راضي الزهري، ٢٥٥.

(٢) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (٣١٨).

المضامين التربوية في أحاديث الباب

اشتملت أحاديث الباب على عدد من المضامين التربوية التي تربي المؤمن على الخلق الحسن وتحمل الأذى، ومن أبرز هذه المضامين ما يلي:

أولاً- التربية بالحوار والمناقشة:

من أساليب التربية الإسلامية التربية بالحوار والمناقشة، حيث إن هذا الأسلوب يعطي مساحة للأخذ والرد، والسؤال والجواب، وفي حديث الباب دار الحوار والنقاش بين الرجل السائل ورسول الله ﷺ: "إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني وأحسن إليهم ويسيئون إليّ ... فقال ﷺ: لئن كنت كما قلت فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ الْمَلَّ...".

"لقد استخدمت التربية الإسلامية أسلوب الحوار والمناقشة، والذي له عدة فوائد تربوية كجذب الانتباه وشحذ الذهن وإعماله، وإبعاد المتعلمين والمتربين عن الانقياد الأعمى والتقليد المجرد من الإقناع، وتحقيق الإقناع والاقتناع العقلي، ثم تحقيق المغزى التربوي المراد تحقيقه من الموقف، والقرآن الكريم مليء بالآيات التي قامت على المحاورة وطَرْحِ الأسئلة والاستفسارات. ولقد كان علماء المسلمين يشجعون طلبتهم على المناقشة والمناظرة، ويوجبون عليهم التمرُّن عليها، فعلى المعلم المسلم أن يعود طلابه الحوار والمناقشة ليشحذ أذهانهم ويقوي الحجة لديهم ويُعوّدهم الارتجال والمواجهة والثقة بالنفس" [(١)].

ثانيًا- التربية على تحمل الأذى وسعة الصدر:

إن من أهداف التربية الإسلامية تدريب المسلم وتعويده على تحمل الأذى وسعة الصدر خصوصًا مع الأقارب والأهل، ويتضح هذا من حديث الباب، وفيه قوله ﷺ للرجل الذي يشكو من إيذاء قرابته "لئن كنا كما قلت فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ الْمَلَّ ولا يزال معك من الله تعالى ظهيرٌ عليهم ما دمت على ذلك".

فالواجب على المسلم "ألا يحزن من أذية الآخرين له ويعفو عمن أساء إليه، فإن ثمن القصاص الباهظ، هو الذي يدفعه المنتقم من الناس الحاقد عليهم، يدفعه من قلبه ومن

---

(١) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. سعيد إسماعيل القاضي ص ١٨١، ١٨٣.

لحمه ودمه، من أعصابه ومن راحته، وسعادته وسروره، إذا أراد أن يتشفى، أو غضب عليهم أو حقد. إنه الخاسر، بلاشك وقد أخبرنا الله سبحانه بدواء ذلك وعلاجه، فقال سبحانه: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾[1]، وقال جل شأنه: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾[3][4].

إن التربية على تحمل الأذى تساعد على توطيد العلاقات الاجتماعية، وإدامة الحب والصلة بين الأهل والأقارب والجيران، "واحتمال الأذى يكون بعدم مقابلة الإساءة بمثلها، وإنما يكون بأحد وجهين:

فأولاً: مقابلة الإساءة بالعفو والإعراض عنها، وقد رغب الله تعالى في العفو حيث قال تبارك وتعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[5]. فشرع تعالى العدل وهو القصاص، وندب إلى الفضل، وهو العفو ولا يضيع ذلك عند الله تعالى.

وثانيًا: مقابلة الإساءة بالحسنة، وقد رغب الإسلام في ذلك وحث عليه، وصلة القاطع تكون بالسلام والإكرام، والدعاء له، والاستغفار له والثناء عليه والزيارة له، وأن تَعْطِيَ مَنْ حَرَمَك، ويكون ذلك بالتعليم والمنفعة والمال، وأن تعفو عمن ظلمك فيكون ذلك في دم أو عرض، وبعض هذا واجب وبعضه مستحب، والواجب مثل أن تصل من قطعك من الأرحام، والمستحب مثل أن تعفو عمن ظلمك"[6].

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٣٤.

(٢) سورة الأعراف، آية: ١٩٩.

(٣) سورة فصلت، آية: ٣٤.

(٤) لا تحزن، د. عائض القرني ص ٩٢.

(٥) سورة الشورى، آية: ٤٠.

(٦) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي ص ١٦٩-١٧٠.

ولا شك أن عدم احتمال الأذى يزيد من القطيعة والجفاء، ويؤدي إلى الخصام والعناد، ويضعف حبال المودة والتواصل، والوئام.

"ومن الأمور التي تؤدي إلى قطيعة الرحم قلة تحمل الأقارب والصبر عليهم، فبعض الناس لا يتحمل أدنى شيء من أقاربه، فبمجرد أي هفوة، أو زلة، أو عتاب من أحد من أقاربه يبادر إلى القطيعة والهجر"(١).

وواجب المشتغلين بالتربية في جميع المراحل أن يهتموا بغرس هذه القيمة، وأن يدربوا المتربين على احتمال الأذى ابتغاء وجه الله تعالى ورضوانه وطمعًا في ثوابه وغفرانه.

قد يتقبل الإنسان الصدمة من الآخرين ويبرر ذلك لنفسه أنه ليس كل الناس أسوياء في التصرف ولا محبين لغيرهم، وكم دفعت النعم بأصحابها إلى النقم، حيث جلبت عليهم حقد الحاقدين ومكر الماكرين وغيرة الغيورين، الذين يتمنون زوال النعمة ويكيدون لصاحبها ويحرصون على آذاه في غير ذنب جنته يداه، إلا أن الله امتن عليه وأعطاه.

وأشد ما يؤلم الإنسان ويؤذيه أن يكون الإيذاء من ذويه، وبخاصة الذين يعطيهم فلا يشكرون، ويمد يده إليهم فيجحدون، ومع هذا يقابلون الصلة بالقطيعة والحسنة بالإساءة والحلم بالجهل.

إن الإنسان يصبح في حيرة من أمره أمام هؤلاء، ماذا يفعل معهم، لقد حدث هذا في حياة الرسول ﷺ وجاءه صحابي يشكو حاله من أهله، فبين الرسول ﷺ أن صنيعه هذا يكسبه أمرين:

الأمر الأول: أنه ألزمهم الحجة وأقام عليهم البرهان وكأنما جعلهم يسفون التراب الحار.

الأمر الثاني: أن الله سيمده بعون من عنده يظل ناصرًا له ما بقي على هذه الحال وكم احتمل ﷺ الأذى من غير المسلمين كما احتمله من الأعراب المسلمين واحتمله كذلك من المنافقين، وما كان ينتصر لنفسه قط.

---

(١) رسائل في التربية والأخلاق والسلوك، محمد بن إبراهيم الحمد ص ٦٩.

إن الانتصار للنفس في الإسلام مقيد إن وقع وتركه أولى، أما الترك الأولى ففي قول الحق سبحانه: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾[1]، وقول الحق: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[2]، وقول الحق: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[3]، وأما الانتقام لها ففي قول الحق سبحانه: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾[5]، ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾[6].

وهذا الانتصار للنفس مقيد، قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾[7]، إذن فالإنسان أمام المظالم التي تقوم به بين خيارات ثلاثة:

١) العفو المطلق أو بلا مقابل.

٢) العفو بمقابل.

٣) الأخذ بالحق.

وأما انتهاك حرمات الله والخروج على الشرع أو الازدراء به، وتعمد المخالفة الشرعية كل هذا مما يوجب الانتصار لدين الله، رأينا ذلك واضحًا في كثير من المواقف، التي استوجبت غضب الرسول ﷺ سواء التي أطال فيها الإمام الصلاة حتى آذى المصلين، أو قطعة القماش التي فيها صور قد تؤدي إلى الشرك، أو شفاعة أحد

---

(١) سورة الشورى، آية: ٤٠.

(٢) سورة الأعراف، آية: ١٩٩.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٣٤.

(٤) سورة الشورى، آية: ٤٠.

(٥) سورة الشورى، آية: ٤١.

(٦) سورة النساء، آية: ١٤٨.

(٧) سورة النحل، آية: ١٢٦.

الصحابة في تعطيل حد، أو في تصرف غير حميد، حين بصق إنسان في المسجد، كل هذا ومثله قد حرك غريزة الغضب عند الرسول ﷺ انتصارًا لدين الله.

إن المسلمين لو طبقوا ذلك في حياتهم لتبدلت أحوالهم.

إن أرض الإسلام تُسلب وإن دماء المسلمين تُسفك وإن أعراض المسلمات تنتهك وما تحرك ساكن ولا بعث كامن، بل حكمنا على كل من يقاوم بأحكام ما أنزل الله بها من سلطان.

إن موائد القمار أصبحت تدار في عدد من ديار الإسلام، منها ما هو بترخيص رسمي ومنها ما هو بتجاهل عمدي، وما هو ناتج عن غض الطرف.

إن بيوت الدعارة وشقق العهر وعصابات الاتجار فيها قد وجدت لها موطئ قدم في ديار الإسلام.

إن الفطر في رمضان أصبح في كثير من بلدان الإسلام جهارًا نهارًا، وإن البارات والحانات والمطاعم والمقاهي لتفتح أبوابها في نهار رمضان كغيره من شهور العام في بعض بلاد المسلمين.

إن ترك الفرائض داخل الأسرة الواحدة، قد بدا في السنوات الأخيرة، وإن حمل الأبناء على الطاعة قد قلّ، وإن المراقبة قد ضعفت، وفي بعض الأحيان تلاشت، فكان من آثارها ما كان. إن المجاهرة بحقوق الإنسان وحقوق المرأة بخاصة في ضوء مؤتمر بكين والقاهرة وغيرهما من المؤتمرات ليبشر بشر مستطير، دون أن نسنهض لدين الله. إن المصطلحات الأجنبية التي حلت محل المصطلحات الإسلامية فأبعدتها عن الساحة، وأقصتها عن الاستعمال، وحلت محلها دون وقفة من أهل العلم الشرعي لدليل على التهاون في الانتصار للحق، لقد سمى أعداء الإسلام الجهاد إرهابًا، ودعوا المقاومة بالتطرف، والمتمسكين بالدين بالراديكاليين، والمتحللين منه بالليبراليين.

إن أفراد الأمة مطالبون بالانتصار لدين الله على النحو التالي:

١- الانتصار لدين الله بإحيائه في نفس الإنسان قولاً وعملاً ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾(١).

٢- الانتصار لدين الله بإحيائه في أهل الإنسان قولاً وعملاً ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾(٢).

٣- الانتصار لدين الله بإحيائه في المحيط الذي يعيش فيه الإنسان ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾(٣).

٤- الانتصار لدين الله بإحيائه في المجتمع الذي يعيش فيه الإنسان ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾(٤).

٥- الانتصار لدين الله بإحيائه في حال الاعتداء على الأمة ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟﴾(٥).

٦- الانتصار لدين الله بإحيائه بالنصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم.

٧- الانتصار لدين الله بإحيائه بمراعاة آداب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ثالثًا- من الأساليب التربوية: التشبيه والتربية بالمواقف:

ورد في حديث الباب من الأساليب التربوية ما يلي:

أ-التشبيه: وهذا واضح من قول النبي ﷺ: ((لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ، فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ الْمَلَّ))، والتشبيه يستخدم لتقريب المعاني المجردة باستخدام معاني حسية يشترك في معرفتها المتعلمون.

---

(١) سورة النساء، آية: ١٣٥.

(٢) سورة طه، آية: ١٣٢.

(٣) سورة العصر، كاملة.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١١٠.

(٥) سورة البقرة، آيات: ١٩٠، ٢٤٤.

ب-التربية بالمواقف: فقد استثمر النبي ﷺ موقف الرجل مع ذوي رحمه، وموقفهم معه، وعلّمه التصرف الصحيح الذي يسلكه والمنهج السليم الذي ينهجه معهم، وهذا يبين حرص النبي ﷺ على تعليم صحابته في المواقف الحياتية المختلفة التي يمرون بها.

٧٧- باب الغضب إذا انتهكت حرمات الشّرع والانتصار لدين الله تعالى

قَالَ اللَّه تَعَالَى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾[الحج: ٣٠]، وقال تَعَالَى: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[محمد: ٧].

وفي الباب حديث عائشة السابق في باب العفو[(١)].

الحديث رقم (٦٤٩)

٦٤٩- وعن أَبي مسعود عقبة بن عمرو البدري رضي الله عنه، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النبيِّ ﷺ، فَقَالَ: إنِّي لأَتَأَخَّرُ عَن صَلاةِ الصُّبْحِ مِنْ أَجْلِ فلانٍ مِمَّا يُطِيلُ بِنَا ! فَمَا رَأيْتُ النَّبيَّ ﷺ غَضِبَ في مَوْعِظَةٍ قَطُّ أَشَدَّ مِمَّا غَضِبَ يَوْمَئذٍ؛ فَقَالَ: ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ، فَأَيُّكُمْ أَمَّ النَّاسَ فَلْيُوجِزْ؛ فَإنَّ مِنْ وَرَائِهِ الكَبِيرَ (وَالصَّغِيرَ)[(٢)] وَذَا الحَاجَةِ)) متفقٌ عَلَيْهِ[(٣)].

ترجمة الراوي:

أبو مسعود البدري الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١٠).

غريب الألفاظ:

مُنَفِّرين: جمع مُنَفِّر: من يلقى الناس بالغلظة والشدة، فينفرهم من الإسلام والدين[(٤)].

فليوجز: فليخفف[(٥)].

---

(١) تقدم برقم ٦٤٣.

(٢) لفظ البخاري ومسلم: (والضعيف)، والمثبت لفظ الحميدي في جمعه ١/٤٩٣، رقم ٧٩١.

(٣) أخرجه البخاري ٧٠٤، ومسلم ١٨٢/٤٦٦ واللفظ له.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ن ف ر).

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢/٢٣٦.

الشرح الأدبي

قول الرجل (إِنِّي لأَتَأَخَّرُ عَن صَلاةِ الصُّبْحِ مِنْ أَجْلِ فلانٍ مِمَّا يُطِيلُ بِنَا !) أكده بعدة مؤكدات تعكس إصراره على بيان سبب التأخير بسبب إطالة الإمام، وأنه السبب في التأخير لا غيره مما استثار غضب النبي ﷺ والذي صوره الراوي بأسلوب النفي في قوله (فَمَا رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ غَضِبَ فِي مَوْعِظَةٍ قَطُّ أَشَدَّ مِمَّا غَضِبَ يَوْمَئِذٍ)، وقد بدا هذا الغضب في بناء عبارته حيث صدَّر عبارته بالنداء العام الذي يتصدر العظائم، ثم توكيد العبارة بأكثر من مؤكد بيانا لخطر الأمر ثم الأمر المصحح للخطأ المبين للصواب في قوله: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ، فَأَيُّكُمْ أَمَّ النَّاسَ فَلْيُوجِزْ)، وقوله: (فَإِنَّ مِنْ وَرَائِهِ الكَبِيرَ وَالصَّغِيرَ وَذَا الحَاجَةِ) الفاء للتعليل وإن حرف توكيد، ونصب تشير إلى عنايته ﷺ بالخبر، واهتمامه به، وتقريره، وتأكيده لمضمونه، والظرف (وراءه) يرصد حال المصلين، وقد طال وقوفهم ما بين كبير خارت قواه يراوح بين قدميه، وضعيف يئن، وذي حاجة تمزقه الرغبات، وكل من كانت هذه حاله، فهو قلق مضطرب فاقد للخشوع منقطع عن الذكر مشغول بحاله، وهو ما يفرغ الصلاة من مضمونها، وهذا ما يفسر سر انفعال الرسول ﷺ في تقويمه لخطأ الإطالة رغم أن الذي أطال مجتهد في العبادة راغب في التقرب.

فقه الحديث

هذا الحديث يشير إلى:

حكم التطويل في الصلاة: يستحب لمن صلى إماماً ألا يطيل على وجه يمل منه القوم؛ لأنه يصير سبباً للتنفير وذلك مكروه، إلا إذا طلبت منه الجماعة ذلك، أو فهم منه[1].

---

(١) المبسوط ٤٧٣/١، وحاشية الخرشي ٣٨٥/٣، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٢٣٢/١، وكشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٦٥٠/٢.

وهل يعتبر التطويل عذراً يرخص في ترك الجماعة؟ نعم، هو كذلك عند المالكية، والشافعية، والحنابلة إذا كان المأموم لا يصبر على التطويل لضعف أو شغل، مثلاً[١].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على سؤال النبي ﷺ عما يشغلهم.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: غضب النبي ﷺ وإنكاره الإطالة في الصلاة.

ثالثاً: من أساليب الدعوة: النداء، والموعظة.

رابعاً: من صفات الداعية: التيسير والتخفيف على الناس.

أولاً- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على سؤال النبي ﷺ عما يشغلهم:

يظهر ذلك في قول أبي مسعود عقبة بن عمرو البدري رضي الله عنه: (جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني لأتأخر عن صلاة الصبح من أجل فلان مما يطيل بنا؟) وهذا سؤال للنبي ﷺ واستفتاء عن فعله، وقد كان صحابة رسول الله ﷺ حريصين على سؤاله واستفتاءه في أمور دينهم لأنه معلم الأمة وهاديها إلى شرع ربها، وقد ورد الكثير من الأحاديث والآثار التي تدل على حرص الصحابة رضي الله عنهم على سؤال رسول الله ﷺ فيما يشغلهم من أمور دينهم ودنياهم، منها ما ورد عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما، قالت: قدمت عليَّ أمي وهي مشركة في عهد رسول الله ﷺ، فاستفتيت رسول الله ﷺ قالت: قدمت عليَّ أمي وهي راغبة أَفَأَصِلُ أمي؟ قال: ((نعم، صِلِي أُمَّك))[٢].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله إن لي جارين فإلى أيهما أهدي؟ قال:

---

(١) حاشية الدسوقي ٤٣٠/٢، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٢٥٩/١، وكشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٦٥٠/٢.

(٢) أخرجه البخاري ٢٦٢٠، ومسلم ١٠٠٣.

((إلى أقرَبِهما منكِ باباً))[١]، وعن أبي مليكة: أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ كانت لا تسمع شيئاً لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه وأن النبي ﷺ قال: ((مَنْ حُوسِبَ عُذِّبَ))[٢]، وغيرها من الأحاديث التي لا حصر لها، وهذا يدل على حرص الصحابة رضي الله عنهم على تعلم أصول الدين من رسول الله ﷺ والإتيان بالعمل بما يتفق وشرع الله عز وجل.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: غضب النبي ﷺ وإنكاره الإطالة في الصلاة:

يظهر ذلك في قول أبي مسعود: "فما رأيت النبي ﷺ غضب في موعظة قط أشد مما غضب يومئذٍ"، قال ابن حجر: (قوله: "أشد"، بالنصب نعت لمصدر محذوف، أي غضباً أشد وسببه إما لمخالفة الموعظة أو للتقصير في تعلم ما ينبغي تعلمه، كذا قال ابن دقيق العيد... قال: ويحتمل أن يكون ما ظهر من الغضب لإرادة الاهتمام بما يلقيه لأصحابه ليكونوا من سماعه على بال لئلا يعود من فعل ذلك إلى مثله، وأقول: هذا أحسن في الباعث على أصل إظهار الغضب)[٣].

وقال النووي: (فيه الغضب لما ينكر من أمور الدين والغضب في الموعظة)[٤]، وغضب رسول الله ﷺ لأنه يريد لأمته التيسير عليهم وليس المشقة، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[٥].

فغضب رسول الله ﷺ حرصاً منه على الرحمة بأمته والشفقة عليهم فهو يريد التخفيف على أمته في أمور دينهم ودنياهم ومن ذلك ما ورد في صحيح مسلم عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أنه قال: صلى معاذ بن جبل الأنصاري رضي الله عنه لأصحابه العشاء، فطوّل

---

(١) أخرجه البخاري ٢٢٥٩، ٢٥٩٥، ٦٠٢٠.

(٢) أخرجه البخاري ١٠٣.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ٢٣٢/٢ - ٢٣٣.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٣٧٩.

(٥) سورة الحج، آية: ٧٨.

عليهم، فانصرف رجل منا فصلى، فأخبر معاذ عنه، فقال إنه منافق، فلما بلغ ذلك الرجل، دخل على رسول الله ﷺ فأخبره ما قال معاذ، فقال له النبي ﷺ: ((أَتُرِيدُ أَنْ تَكُونَ فَتَّاناً يَا مُعَاذُ؟ إِذَا أَمَمْتَ النَّاسَ فَاقْرَأْ ﴿الشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾. و﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾. و﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾. ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾))[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: ((إِذَا أَمَّ أَحَدُكُمُ النَّاسَ فَلْيُخَفِّفْ. فَإِنَّ فِيهِمُ الصَّغِيرَ وَالْكَبِيرَ، وَالضَّعِيفَ، وَالْمَرِيضَ، فَإِذَا صَلَّى وَحْدَهُ فَلْيُصَلِّ كَيْفَ شَاءَ))[2].

وقد دعا رسول الله ﷺ على من شقّ على أمته، ودعا لمن رفق بأمته فقال: ((اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئاً فَشَقَّ عَلَيْهِمْ. فَاشْقُقْ عَلَيْهِ. وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئاً فَرَفَقَ بِهِمْ، فَارْفُقْ بِهِ))[3].

وغضبُ رسول الله ﷺ كان دائماً لانتهاك حرمات الله، فكان ﷺ مثالاً يُحتذى في غضبه عند انتهاك محارم الله[4].

ثالثاً- من أساليب الدعوة: النداء والموعظة:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "يا أيها الناس! إن منكم منفرين، فأيكم أم الناس فليوجز"، فالنداء في قوله ﷺ: "يا أيها الناس..."، وأسلوب النداء من أساليب الدعوة التي يفيد منها الداعية في لفت انتباه المدعوين، وتركيزهم، وذلك بتوجيه النداء إليهم. والموعظة في وعظه ﷺ المطيل في الصلاة بأنه منفر، وتوجيه العظة لمن يؤم الناس بالتخفيف، ولا ريب أن للموعظة الحسنة أهمية كبرى في مجال الدعوة إلى الله تعالى، سواء اتخذت صفة النصح، أو التذكير أو الترغيب والترهيب، وغير ذلك من صفات وأساليب الموعظة الحسنة.

---

(١) أخرجه مسلم ٤٦٥.

(٢) أخرجه البخاري ٧٠٣، ومسلم ٤٦٧.

(٣) أخرجه مسلم ١٨٢٨.

(٤) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، د. عبدالعزيز بن أحمد المسعود ٣٠٦/١.

وتتضح أهمية الموعظة في احتفاء القرآن الكريم والسنة المطهرة بها، واعتناء سلف الأمة الصالح وأخذه بها[(١)].

فمن القرآن قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ﴾[(٢)]، ومن السنة: عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (كان النبيُّ ﷺ يَتَخَوَّلُنا بالمَوْعِظةِ في الأيامِ، كَرَاهةَ السَّآمةِ علينا)[(٣)].

رابعاً- من صفات الداعية: التيسير والتخفيف على الناس:

إن من صفات الداعية التي تستنبط من هذا الحديث: التيسير والتخفيف على الناس، يظهر ذلك من عموم الحديث فقد أنكر وغضب رسول الله ﷺ على من أطال بالناس وأمر من يؤم الناس بالتخفيف والتيسير على المدعوين، وهذا ما ينبغي أن يتصف به الداعية؛ لأن التيسير من الصفات التي تساعد الدعاة على الإيغال بدعوتهم بين الناس ومعالجة الأمور باليسر والتيسير لا بالعسر والتعسير، إن القاعدة النبوية في التعامل مع الآخرين والتي يجب أن تحكم أسلوب الدعوة والداعية تبدو واضحة جلية[(٤)] في حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ: ((يَسِّروا ولا تُعَسِّروا، وبَشِّروا ولا تُنَفِّروا))[(٥)].

والتيسير والتبشير من أساليب التربية عند الرسول ﷺ، كما مرّ في الحديث أعلاه. وهو من وسائل التحفيز للإنسان، لا سيما إذا كان في بداية إسلامه أو هدايته، فلا بد من تيسير الأمور عليه وتبسيطها وعرضها دون تشدد أو تكلف، يرافقها التبشير، حتى تغمر قلبه الفرحة وتعم نفسه البهجة ولا تشعر بثقل التكاليف والواجبات عليها، وهي ما زالت تنوء بحمل كبير من العادات السيئة التي يجب التخلص منها. لأن

---

(١) وسائل الدعوة، د. عبدالرحيم المغذوي ص ٧١.

(٢) سورة النحل، آية: ١٢٥.

(٣) أخرجه البخاري ٦٨.

(٤) صفات الداعية، د. حمد بن ناصر العمار ص ٧٥.

(٥) أخرجه البخاري ٦٩، ومسلم ١٧٣٤.

التشدد وعدم التيسير والتبشير يؤديان إلى ردود أفعال عكسية ومُنفّرة من الإسلام وأهله، تؤدي في النتيجة إلى حفر خنادق عميقة بين المجتمع المراد هدايته وبين المسلمين يصعب الالتقاء عليها، بل تصبح المفاهيم الإسلامية مثار سخرية واستهزاء، ومسوغاً واضحاً للمتصيدين في الماء العكر لمحاربة الإسلام وأهله وإبعاد الناس عنه"[1].

ومن هنا نرى أن الرسول ﷺ كان يعرض الإسلام عرضاً سهلاً وبسيطاً دون تعقيد أو تكلف، فحين سأله رجل فقال: يا رسول ما الإسلام؟ قال: ((لاَ تُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلاَةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ))[2].

وكان يختار أيسر الأمور وأسهلها، كما أخبرت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: ((ما خُيِّرَ رسولُ اللهِ ﷺ بينَ أمرين إلا أخذَ أيسَرَهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعدَ الناسِ منه))[3].

ذلك أن الإسلام جاء بالتيسير ورفع الحرج، فليست العبادة فيه انقطاعاً عن الدنيا وأهلها، بل هي تفاعل مع الدنيا وأهلها، وفقاً لمنهج الله الذي أراده ديناً للناس كافة، ملائماً لكل الأزمان والأجيال والعصور، فالعبادة في الإسلام معتدلة ومقدورة لكل إنسان بكل سهولة ويُسر، ومن أراد التطوع في مزيد منها فلا مانع في ذلك، والباب مفتوح أمامه[4].

والحكمة من التيسير في التكاليف أن الإسلام يراعي طبيعة الإنسان وتفاوت الناس في مدى استعدادهم لبلوغ المستوى الرفيع الذي يرسمه لهم، في ضوء هذا النظر الواقعي، جعل الإسلام حدًّا أدنى أو مستوى أدنى من الكمال لا يجوز الهبوط عنه، لأن هذا المستوى ضروري لتكوين شخصية المسلم على نحو معقول، ولأنه أقل ما يمكن

---

(١) انظر: منهاج الشاب المسلم في أسرته، د. محسن عبدالحميد ص ١١.

(٢) أخرجه البخاري ٥٠، ٤٤٧٧، ومسلم ٩.

(٣) أخرجه البخاري ٣٥٦٠، ٦١٢٦.

(٤) النظم الإسلامية، د. منير حميد البياتي، وفاضل شاكر النعيمي ص ٥٤ – ٥٥.

قبوله من المسلم ليكون في عداد المسلمين، ولأنه وضع على نحو يستطيع بلوغه أقل الناس قدرة على الارتفاع إلى مستوى الكمال[(١)(٢)].

(١) أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان ص ٨٤.

(٢) انظر: أساليب الدعوة والتربية، د. زياد محمود العاني ص ٢٣٣ - ٢٣٥.

الحديث رقم (٦٥٠)

٦٥٠- وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: قَدِمَ رسولُ الله ﷺ مِنْ سَفرٍ، وَقَدْ سَتَرْتُ سَهْوَةً لِي بِقِرَامٍ فِيهِ تَمَاثِيلُ، فَلَمَّا رَآهُ رسول الله ﷺ هتكَهُ وَتَلَوَّنَ وَجهُهُ، وقال: ((يَا عائِشَةُ، أشَدُّ النَّاسِ عَذَاباً عِنْدَ اللهِ يَوْمَ القِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهُونَ بِخَلْقِ اللهِ!)) متفقٌ عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

غريب الألفاظ:

السهوة: كالصُفَّة تكون بين يدي البيت[2].

القِرام: سِتر رقيق[3].

هتكه: أفسد الصورة التي فيه[4].

تماثيل: جمع تمثال: وهي الشيء المصوّر سواء ما نحت من حجر أو صنع من نحاس ونحوه أو الصورة في الثوب ونحوه[5].

يضاهون بخلق الله: يشبهون ما يصنعون بما يصنعه الله[6].

الشرح الأدبي

قول أم المؤمنين رضي الله عنها: (قَدِمَ رسولُ الله ﷺ مِنْ سَفرٍ) يشير إلى أنه لم يكن حاضرا عند اتخاذ أم المؤمنين لهذا الثوب سترا يدل على ذلك قولها (فَلَمَّا رَآهُ رسول الله ﷺ هتكَهُ) الذي يوحي بالمفاجأة، وتعبيرها بالهتك يعكس شيئا من شدة الغضب

---

(١) أخرجه البخاري ٥٩٥٤، ومسلم ٢١٠٧/٩٢، والسياق للحميدي في جمعه ٢٢/٤، رقم ٣١٤٩. أورده المنذري في ترغيبه ٤٤٨٣. وسيكرره المؤلف برقم ١٦٨١.

(٢) رياض الصالحين ٢٨٤.

(٣) رياض الصالحين ٢٨٤.

(٤) رياض الصالحين ٢٨٤.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٠١/١٠، والمعجم الوسيط في (م ث ل).

(٦) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٠١/١٠.

ويؤكده التصوير بالكناية عن شدة الغضب في قولها (وَتَلَوَّنَ وَجهُهُ) كما أكده بناء عبارته التي حملت قدرا كبيرا من الترهيب في قوله (يَا عائِشَةُ، أشَدُّ النَّاسِ عَذَاباً عِنْدَ اللهِ يَوْمَ القيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهُونَ بخَلْقِ اللهِ !) والنداء تنبيه يشير إلى أهمية ما بعده تلته أفعل التفضيل (أشد) المضافة للعذاب الذي بلغ معها المدى بالهالك الموعود زادها ترهيبا بالظرف (عند) المضاف لله مما يجعل للعذاب بُعدا خاصا يفارق به كل تصور بشري، ويفوق به وَهْم كل عبقري، ثم صعَّده بذكر الظرف (يوم) المضاف للقيامة الذي يعطي العذاب صفة الخلود ثم عرَّفهم بالمسند إليه (الذي) للذم، والتعبير بالمضاهاة يشير إلى ارتباط العمل اليدوي بالتصوير، والتمثيل بغطرسة، وكبر، ومناظرة لله فيما خلق مما استوجب هذا المصير الأسود الذي حاق بهم، - والعياذ بالله -.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: أهمية تغيير المنكر.

ثانياً: من واجبات الداعية: الغضب لانتهاك محارم الله.

ثالثاً: من فقه الداعية: بيان عِلّة إنكار المنكر.

أولاً- من موضوعات الدعوة: أهمية تغيير المنكر:

يظهر ذلك في فعل النبي ﷺ الذي ذكرته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في قولها: قدم رسول الله ﷺ من سفر، وقد ستَرْت سَهوَة لي بقرَام فيه تماثيل، فلما رآه رسول الله ﷺ هتكه وتلون وجهه. وهذا يدل على أهمية تغيير المنكر وهذا ما حثّ عليه رسول الله ﷺ في قوله: ((مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرا فَلْيُغَيِّرْهُ بيَدِهِ. فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ. فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ. وَذَٰلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ))[1].

فتغيير المنكر من الأشياء ذات الأهمية، خاصة مع انتشار المنكرات في هذا العصر انتشاراً ذريعاً.. وتغلغلها في المجتمعات الإسلامية، مما يؤدي إلى ابتعاد المسلمين عن التمسك بدينهم، فهي تنازعهم من كل جانب، وتلاقيهم من كل منتدى وموضع،

---

(١) أخرجه مسلم ٤٩.

فيجب التصدي لهذه المنكرات والسعي إلى إزالتها، سواء كانت مشاهدة في الواقع، أو متغلغلة في العقول والقلوب والأفكار"[١].

ثانياً- من واجبات الداعية: الغضب لانتهاك محارم الله:

إن من واجبات الداعية التي يجب أن يقوم بها: الغضب لانتهاك محارم الله، يظهر ذلك في قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: فلما رآه رسول الله ﷺ هتكه وتلون وجهه.

وذلك لأن الداعية لا بد أن يظهر الاعتزاز بالإسلام وقواعده ومحارمه، وتظهر صفة انتماء الداعية لدينه بارزة من صفاته واضحة جلية في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[٢]، فهذه الآية تبين قدر الداعية من خلال انتمائه للإسلام فتعلي قدره، وتجعله عزيزًا على غيره، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[٣].

إن الداعية قد تجاوز درجة التدين الشخصي والذاتي إلى درجة الدعوة إلى هذا الدين بالقدوة، والقول، والفعل ولذلك الشرف وهذه المكانة فالإسلام يعلو ولا يعلى عليه.

والداعية الحق هو الذي اقتنع بفكرته وقضيته التي يدعو إليها، فهو يدافع عنها، ويتحمس لها لأنه يعتز بالانتساب إليها ويفخر ويتشرف بالانتماء إليها[٤].

فإذا كان الداعية مأموراً بالحلم والرفق في دعوته فينبغي ألا يكون حلمه وعفوه عن ضعف وخوف وجبن. وأيضاً لا يكون ذلك عند انتهاك حرمات الله تعالى. فيغض الطرف عن ذلك ويعتبره من الحلم والعفو المشروع، لا، فالله سبحانه وتعالى أثنى على من يعظم حرمات الله. ولقد كان الرسول ﷺ مثالاً يحتذى في غضبه عند انتهاك محارم الله.

---

(١) انظر: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر "أصوله وضوابطه وآدابه"، خالد بن عثمان السبت ص ٥٤.

(٢) سورة فصلت، آية: ٣٣.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٩.

(٤) صفات الداعية، د. حمد بن ناصر العمار ص ٤٨ - ٤٩.

يقــول تعــالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾[(١)]، أي: ومــن يجتنــب معاصيه ومحارمه ويكون ارتكابها عظيماً في نفسه فله على ذلك خير كثير وثواب جزيل[(٢)].

وعن أبي مسعود عقبة بن عمرو البدري رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إني لأتأخر عن صلاة الصبح من أجل فلان مما يطيل بنا فما رأيت النبي صلى الله عليه وسلم غضب في موعظة قط أشد مما غضب يومئذ فقال: ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ، فَأَيُّكُمْ أَمَّ النَّاسَ فَلْيُوجِزْ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِهِ الْكَبِيرَ وَالضَّعِيفَ وَذَا الْحَاجَةِ))[(٣)].

والشاهد هو تغير وجه الرسول صلى الله عليه وسلم وتأثره عند انتهاك حرمة الله تعالى فليتبين ذلك الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر[(٤)].

ثالثاً- من فقه الداعية: بيان علة إنكار المنكر:

يظهر ذلك في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا عائشة: أشد الناس عذاباً عند الله يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله)، فبيّن علة إنكاره اتخاذ السترة التي بها التماثيل وهذا كان شأنه صلى الله عليه وسلم في بيان علة إنكاره للشيء حتى يزيل اللبس عن الذي أنكر عليه فعله فهذا أسامة بن زيد رضي الله عنه عندما كلمه في أمر المرأة المخزومية التي سرقت ليشفع لها عنده فأنكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك وقال: ((أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟)). وبيّن علة إنكاره على أسامة بقوله صلى الله عليه وسلم: ((أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ، تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ، أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ))[(٥)]، فبيّن علة إنكاره عليه.

---

(١) سورة الحج، آية: ٣٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٤١٩/٥.

(٣) أخرجه البخاري ٦١١٠، ومسلم ٤٦٦.

(٤) انظر: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، د. عبدالعزيز أحمد المسعود ٣٠٦/١ - ٣٠٧.

(٥) أخرجه البخاري ٣٤٧٥، ٦٧٨٨، ومسلم ١٦٨٨.

وهذا من فقه الداعية في دعوته حتى يبين للمدعوين أن إنكاره مستندًا إلى دليل من كتاب الله أو سنة الرسول ﷺ فهو لا ينكر بالهوى، ولا يقول بغير علم، لأن هذا من أكبر الكبائر لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

فينبغي على الداعية أن يقتدي بالقرآن والسنة في تعليل الأحكام، وبيان حكمها وثمراتها في الأنفس والحياة، وربطها بالفلسفة العامة للإسلام، حتى تقع من النفس موقع القبول.

وقد وجدنا القرآن الكريم يذكر الحكمة والمنافع من وراء العبادات ذاتها، مع أن الأصل فيها التعبد والامتثال لأمر الله تعالى، كقوله في الصلاة: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾[2]، وفي الزكاة: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[3]، وفي الصيام: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[4]، وفي الحج: ﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾[5].

فإذ كان هذا في الأمور التعبدية، فكيف بغيرها من المعاملات وشؤون الحياة؟ فهذا مطلوب في كل حين، ولكن طلبه في عصرنا ألزم، والحاجة إليه أوكد، لأن كثيراً من الناس لم يعد يغلب عليهم التسليم، وإنما يغلب عليهم البحث والتساؤل لمعرفة الأسرار والعلل، ورحم الله امرءاً عرف زمانه، وخاطب أهله بما يعرفون. وحتى يكون

---

(١) سورة الأعراف، آية: ٣٣.

(٢) سورة العنكبوت، آية: ٤٥.

(٣) سورة التوبة، آية: ١٠٣.

(٤) سورة البقرة، آية: ١٨٣.

(٥) سورة الحج، آية: ٢٨.

تعليل الداعية للأحكام صحيحاً"[١].

فلا بد أن يكون الداعية على دراية بعلم أصول الفقه، حتى يعرف الأدلة المتفق عليها بين فقهاء الأمة وهي الكتاب والسنة، والتي اتفق عليها جمهورهم، وهي: الإجماع والقياس والتي اختلفوا فيها بعد ذلك بين مثبت ونافٍ، ومضيق وموسع ومتوسط، وهي أدلة ما لا نص فيه من الاستحسان والاستصلاح والاستصحاب، وشرع من قبلنا، وقول الصحابي وما إلى ذلك مما اختلفت فيه وجهات النظر.

وإذا كان الكتاب والسنة هما الأصلين والمصدرين الأساسيين، فكيف تستنبط منهما الأحكام؟ ومن يجوز له الاستنباط أو يجب عليه؟ ومن يحل له التقليد أو يحرم عليه؟

هنا نجد مسائل كثيرة، بعضها اتفقوا عليه، وبعضها اختلفوا فيه (ولكل وجهة هو موليها)، ولا بد للداعية أن يعرف الراجح من المرجوح ليأخذ بالراجح،ويعذر الآخذين بالمرجوح، أو يقنعهم إذا استطاع[٢].

وحتى يستطيع ربط الأحكام بأدلتها من الكتاب والسنة، وما أرشد إليه من اعتبارات أخرى، كالإجماع والقياس والاستصلاح والاستحسان وغيرها من أدلة ما لا نص فيه... وذلك لأن الدليل يكسو الحكم أو الفتوى نوراً وجمالاً"[٣].

---

(١) ثقافة الداعية، د. يوسف القرضاوي.

(٢) انظر: ثقافة الداعية، د. يوسف القرضاوي ص ٩١ - ٩٢.

(٣) المرجع السابق ٨١.

الحديث رقم (٦٥١)

٦٥١- وعنها: أن قريشاً أهَمَّهُمْ شَأنُ المَرأةِ المخزوميَّةِ الَّتي سَرَقَتْ، فقالوا: مَنْ يُكَلِّمُ فيهَا رسول الله ﷺ؟ فقالوا: مَنْ يَجْتَرِئ عَلَيْهِ إلاَّ أُسَامَةُ بنُ زَيْدٍ حِبُّ رسول الله ﷺ؟ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ، فَقَالَ رسول الله ﷺ: ((أتَشْفَعُ في حَدٍّ مِنْ حُدُودِ الله تَعَالَى؟!)) ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ، ثُمَّ قَالَ: ((إنَّمَا أهْلَكَ مَنْ قَبْلَكُمْ أنَّهُمْ كَانُوا إذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ، وَايْمُ الله، لَوْ أنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعتُ يَدَهَا)) متفقٌ عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

غريب الألفاظ:

أهمَّهم: أجلب إليهم الهمَّ وأقلقهم[2].

يجتريء عليه: من الجرأة وهي الإقدام على الأمر بإدلال[3].

حِبُّ: محبوب[4].

أتشفع: من الشفاعة وهي: السؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم بينهم، وتكون فيما يتعلق بأمور الدنيا والآخرة[5].

---

(١) أخرجه البخاري ٣٤٧٥، ومسلم ١٦٨٨/٨ ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه ٢٤٦٣. وسيكرره المؤلف برقم ١٧٧٢.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٩٠/١٢.

(٣) المرجع السابق ٩٥/١٢.

(٤) المرجع السابق ٩٦/١٢.

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ش ف ع).

الحد: الذنب الذي يُوجب العقوبة المكتوبة كالسَّرقة والزنا[١].

فاختطب: فخطب[٢].

وايمْ الله: هو حلف وقسم أصله: أَيْمُنُ جمع: يمين[٣].

الشرح الأدبي

حارب الرسول ﷺ السرقة بكل صورها، كما تصدى لخطأ التفريق في إقامة الحدود بين الناس على أساس الشرف، والضعف، الأمر الذي يوغر صدور الضعفاء، وهم الأكثرية، ويولد في نفوسهم كراهية إخوانهم بل، وكراهية المجتمع، ويذهب بانتمائهم، ويجعلهم في أوطانهم بلا هوية مما يفضى إلى تدمير المجتمع، و قد حقق الرسول ﷺ ذلك باستخدام عدة أساليب بلاغية اتسمت بالانفعال والنبرة العالية التي تتساوق مع عظم الخبر، وخطره منها:

١- أسلوب الاستفهام: في قوله ﷺ (أتشفع في حد من حدود الله؟) وهذا الاستفهام في إطار تقويم خطأ في حد من حدود الله، وقد خرج عن حقيقته إلى معنى الإنكار أي لا ينبغي أن يكون ذلك منك، وقول الرسول ﷺ (في حد من حدود الله) ومعلوم أن الحدود حدود الله، وإنما نصَّ رسول الله ﷺ على هذا المعلوم ليبيِّن أنه ﷺ لا يملك هذه الحدود، ولا أملك قبول شفاعتك، وحدود الله إذا بلغت الحاكم فليس لها مترك.

٢- أسلوب القصر في قوله ﷺ: (إنما ضل من قبلكم) والمتأمل لبلاغة هذه الجملة في إطار تقويم الخطأ يجد أنها تناولت الموضوع من عدة جهات منها: دقة اختيار هذه الصياغة بهذا الأسلوب، وإثارتها دون غيرها ليس في مبناها فحسب؛

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ح د د)، وانظر: معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ٥٤.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٢/٩٧.

(٣) انظر: المفصح المفهم لمعاني صحيح مسلم، ابن هبيرة ٤٥٠، ومعجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ٧٩. وهمزته همزة وصل لا قطع (مادة: أي. م) المعجم الوجيز.

لأنه ﷺ لم يقل مثلاً: إن أسامه تشفع إليَّ، وقد رفضت شفاعته لأن الحدود حدود الله، وأنه ضاد الله في أمره، أو في ملكه، أو يذكر العقوبة المترتبة على ذلك كما قال في حديث ابن اللتبية(١).بل ترك رسول الله ﷺ ذلك وما يشبهه، واستخرج من الموقف أمراً بعيد المغاص، ونبه إلى أن التفريق بين الناس في تطبيق الأحكام، وقبول المجتمع لوجود فئة تعاقب على ذنبها، وتقطع يدها إذا سرقت، وفئة لا تقطع يدها؛ لأن وجود هذا في المجتمع خطر يفضي إلى تدمير المجتمع(٢).

ومنها: استخدام الرسول ﷺ لأسلوب القصر الإدعائي وهو قصر صفة على موصوف حيث قصر صفة إهلاك الأمم السابقة على موصوف هو الفعل المؤدى إلى التفريق بين أفراد المجتمع من حيث النباهة، والخمول، والشرف، والضعف ونفاه عن كل ما سوى هذا الفعل مبالغة في بيان شدة خطره حتى يلفت الأذهان إلى مبدأ مهم يحقق الانتماء، ويعمق الشعور بالعدل، والأمن، وهذا المبدأ هو مبدأ المساواة في الحقوق، والواجبات، ومنها: استخدم الرسول ﷺ (إنما) دون غيرها من طرق القصر، ومن المعلوم أن (إنما) تجيء لخبر لا يجهله المخاطب، ولا يدفع صحته، أو لما ينزل هذه المنزلة. والرسول ﷺ بذلك يجعل أمر هلاك الأمم لغياب مبدأ المساواة والتفريق بين أبناء المجتمع الواحد في الحقوق، والواجبات هو السبب في ذلك دون غيره لكمال صفة الهلاك في هذا الأمر، ويجعله من الوضوح بحيث لا ينكر، ومن العلم بحيث لا يجهل إمعاناً في تأكيده.

٣- أسلوب التوكيد: وقد وردت عدة أشكال من التوكيد في إطار تقويم خطأ الطبقية، والتفريق في إقامة الحدود، وتنبيهاً إلى خطر الأمر، ودفعا للتساهل أو الاستهانة، وذلك في قوله (وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد)، وليس المراد بالقسم إزالة الشك عند المخاطبين، أو لغرابة الخبر كما يقول البلاغيون في غير هذا المقام؛ لأن الأمة تأخذ عن رسول الله ﷺ وتتلقف ما يقول بالقبول، والإذعان، ورسول الله ﷺ يعلم

---

(١) انظر: حديث ابن اللتبية في صحيح مسلم، كتاب: الإمارة، حديث رقم ١٨٣٢.

(٢) انظر: شرح أحاديث من صحيح البخارى ص ٣٢٤، ٣٢٥ بتصرف.

ذلك، وإنما أراد بالقسم بيان مزيد العناية بالأمر المقسم عليه، وهو ضرورة إنفاذ أمر الله في القريب، وفي البعيد، وفي الصغير، وفي الكبير لا يستثنى من ذلك أحد، لأن الحد حد الله، والخلق خلق الله لا فرق بين خلقه في إنفاذ حده.[1] أضف إلى ذلك ما يُضْفيه القسم الشريف على السياق من شعور بالهيبة والإجلال اللذين يمهدان القلب بالخشوع، والعقل بتأكيد الإقناع، والقبول.

كما استخدم من أساليب التوكيد في الحديث ما يعالج خواطر النفس، وتحافظ على توازن الأسلوب العالي النبرة ليمضى على نفس الدرجة من الجزالة، والقوة مع نبرة الانفعال الموازية لحجم الخطأ المقوَّم استخدامه ﷺ (أن) في قوله (لو أن فاطمة بنت محمد) والجملة تحتاج لهذا التوكيد لما سبق ذكره، ولغرابة الخبر المذكور بعدها، وهو الفرض المستحيل مبالغة في إقامة حد الله، ولو على أقرب الناس، وأحبهم إليه.

٤- أسلوب الشرط، والشرط معناه، وقوع الشيء لوقوع غيره[2] فيوجد بوجوده، وينتفي بانتفائه، الأمر الذي يجعل أسلوب الشرط شديد الاتصال، قال الإمام عبد القاهر: "ووزان هذا أن الشرط، والجزاء جملتان، ولكنا نقول أن حكمهما حكم جملة واحدة من حيث دخل في الكلام معنى يربط إحداهما بالأخرى حتى صارت الجملة لذلك بمنزلة الاسم المفرد في امتناع أن تحصل الفائدة"[3]، وعلى ذلك، فإن المخاطب إذا سمع جملة الشرط استشرف إلى معرفة الجزاء بما يحقق الترقب، واليقظة، ويحقق متابعة المخاطب حتى نهاية الحديث، وتمام المعنى، وقول الرسول ﷺ (أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد) أسلوب شرط فعله (سرق) وفاعله (الشريف) وجواب الشرط تركوه، واستخدام الرسول ﷺ لأداة الشرط (إذا) فيه إشارة إلى أن هذا الفعل كان من عادة هؤلاء القوم ؛لأن (إذا) من بين أدوات الشرط تستعمل في مواضع الشرط الواجب الذي

---

(١) شرح أحاديث من صحيح البخارى صـ ٣٢٨، ٣٢٩.

(٢) انظر: المقتضب للمبرد ٢/ ٤٦.

(٣) أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر صـ ١١١.

لابد أن يتحقق، وكذا في قوله ﷺ (وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد) وهذا الفعل منهم هو الذي عجل بهلاكهم، لأنه جعل المجتمع طبقات يحقد بعضها على بعض ويحتقر بعضهم بعضاً شرفاؤهم ينغمسون في ملذاتهم اعتماداً على نفوذهم، وضعفاؤهم يثبطهم الإحساس بالظلم والإحباط، فيفقدون الانتماء، والرغبة في خدمة مجتمعهم، فيصير المجتمع دون أبناء مخلصين يذودون عنه.

وقوله ﷺ (وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها) و (لو) أداة شرط غير جازمة تدل على الزمن الماضي، والمتأمل لمعنى (لو) في الحديث الشريف يجد أنها توحي بمعانٍ أكثر عمقاً بحسب السياق التي ترد فيه، وهذا الشرط الافتراضي من الرسول ﷺ له عدة دلالات منها: تعظيم أمر إقامة الحدود على الجميع دون أي اعتبار لشخص المحدود من ناحية الشرف، أو عدمه، ومنها: ضرورة تأسيس مبدأ المساواة في الحقوق، والواجبات، ومنها: أن على القائد أن يكون أول المطبقين لشرائع الأمة على نفسه، وخاصته، ومنها: بيان غَيْرة الرسول ﷺ، وحرصه على أمته، ومنها: ضرورة أن يعتبر القادة، وغيرهم بدروس التاريخ، وأسباب اضمحلال الأمم لاجتنابها، وأسباب ازدهارها للاستفادة منها.

٥- الكناية: وقد وردت في قوله ﷺ (في حد من حدود الله) ومعلوم أن الحدود حدود الله، وإنما نص رسول الله ﷺ على هذا المعلوم ليبيِّن أنه ﷺ لا يملك هذه الحدود، ولا يملك قبول شفاعته، فالكلام كناية عن صفة عدم الملك لقبول الشفاعة، وعدم القدرة على التصرف فيها.

٦- أسلوب المقابلة: وقد وردت المقابلة في إطار تقويم الخطأ بغرض توضيح المفارقة في إقامة الحدود بين طبقات المجتمع في الأمم السابقة، والذي أودى بها وأوردها موارد الهلكة، وذلك في قوله ﷺ (إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد) حيث قابل الشرط الأول، وجزاءه بالشرط الثاني وجزائه بياناً للخطأ وتوضيحاً لأبعاده بغرض التحذير منه.

وقوله (لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها) هذه الجملة معطوفة على ما قبلها من باب عطف المعنى على المعنى لاختلافهما خبراً، وإنشاءً، وقد وقعت هذه الجملة من القلوب والعقول موقعاً حميداً، وذلك لجزالة اللفظ، وقربه، وعذوبته، وخفته، ولأنها تعلم الناس أنبل مبادئ السيادة، والشرف، وأصدق أصول السياسية، ،وأرشد أصول العمران، وهل ترى أصدق في سياسية الناس من أن يطبق الحاكم على نفسه، وولده ما يطبقه على أضعف طبقات الناس الذين يسوس أمرهم، وأن يقطع هو بيده يد أحب الناس إليه؟ وهل تفيض القلوب بالحب لأوطانها، وشعوبها بدافع أفضل من هذا الدافع؟[1][2].

فقه الحديث

هذا الحديث يشير إلى الأحكام الفقهية التالية:

١-حكم الشفاعة في الحدود: اتفق الفقهاء على حرمة الشفاعة في الحدود، إذا بلغت الإمام، فإذا رفعت إليه فلا شفاعة، ووجب عليه إقامتها.

فترك الحدود، والمداهنة فيها، وإسقاطها عن الأكابر من أسباب الهلاك، وإقامتها على كل أحد، من غير فرق بين شريف، ووضيع من أسباب الحياة، يقول ﷺ: ((حَدٌّ يُعْمَلُ بِهِ فِي الأَرْضِ، خَيْرٌ لأَهْلِ الأَرْضِ مِنْ أَنْ يُمْطَرُوا -ثلاثين- أَرْبَعِينَ صَبَاحاً))[3]. أما قبل ذلك، فيجوز العفو، ويكون الستر هو الأفضل وفي الحديث: "تعافوا الحدود بينكم فما بلغ من حد وجب"[4].

٢-هل شرع من قبلنا شرع لنا؟ ذهب الحنفية، والمالكية، والحنابلة، إلى أنه شرع

---

(١) ينظر: شرح أحاديث من صحيح البخاري، د. أبو موسى ص ٣٢٩، ٣٣٠.

(٢) بلاغة الرسول ﷺ في تقويم أخطاء الناس دراسة في الصحيحين، د. ناصر راضي الزهري ٣٢١.

(٣) أخرجه أحمد ٣٦٣/٢ رقم ٨٧٣٨، وضعّف إسناده محققو المسند، وانظر تتمة تخريجه في المسند ٣٥١/١٤.

(٤) شرح فتح القدير، ابن همام الحنفي ٣٢٠/١١، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، محمد بن عبدالرحمن المغربي ١٣٢/١٨، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٩٧/٢٠، وشرح منتهى الإرادات، منصور بن يوسف بن إدريس البهوتي ٧٤/١١، والحديث في المستدرك ٤٢٤/٤.

لنا ما لم يرد ناسخ، وذهب الشافعية في الصحيح إلى أنه لا يعد شرعاً لنا[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: بيان منزلة أسامة بن زيد رضي الله عنهما عند النبي ﷺ.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: غضب رسول الله ﷺ وإنكاره على أسامة رضي الله عنه لشفاعته في حد من حدود الله.

ثالثاً: من وسائل الدعوة: الخطبة.

رابعاً: من تاريخ الدعوة: هلاك الأقوام السابقين بسبب تركهم إقامة الحد على الشريف وإقامته على الضعيف.

خامساً: من أساليب الدعوة: الترهيب والقسم.

أولاً- من موضوعات الدعوة: بيان منزلة أسامة بن زيد رضي الله عنهما عند النبي ﷺ:

يظهر ذلك في قول قريش: "من يجترئ عليه إلا أسامة وأباه زيد حِبُّ رسول الله ﷺ، قال النووي: وفي هذا منقبة ظاهرة لأسامة رضي الله عنه"[2]. وأسامة بن زيد بن حارثة رضي الله عنهما صحابيان جليلان لهما منزلة عظيمة عند رسول الله ﷺ، ويدل على ذلك قوله ﷺ فيه وفي أبيه، فعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: ((بعثَ النبيُّ ﷺ بَعثاً وأمَّرَ عليهم أسامةَ بنَ زيدٍ، فطَعن بعضُ الناسِ في إمارتهِ، فقال النبيُّ ﷺ إن تَطعنوا في إمارتِه فقد كنتم تطعنونَ في إمارةِ أبيهِ من قبلُ. وايمُ اللَّهِ إنْ كان لَخليقاً للإمارة، وإنْ

---

(١) رد المحتار ٢٢٣/١، وشرح فتح القدير، ابن همام الحنفي ١٦٣/١٦، والتاج والإكليل شرح مختصر خليل للحطاب، محمد بن يوسف المواق ٢١٩/٧، وحاشية الخرشي ١٦/١، وروضة الطالبين، الإمام النووي، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، وعلي محمد معوض ٤٩٨/٣، وإعانة الطالبين ٣٠٤/١، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٣٦٠/٥، وكشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٥٠٤/٢، والتقرير والتحبير ٣٠٧/٤ وما بعدها، والبحر المحيط ٢٩٨/٧.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٠٨٣

كان لَمن أحبِّ الناسِ إليَّ، وإنَّ هذا لَمن أحبِّ الناس إليَّ بَعدَه))[١]. وقوله ﷺ "وإن كان لخليقًا للإمارة" أي: حقيقًا بها[٢].

وقد ورد في صحيح البخاري عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما: حدَّث عن النبي ﷺ أنه كان يأخذه والحسن فيقول: ((اللَّهُمَّ أَحِبَّهُمَا فَإِنِّي أُحِبُّهُمَا))[٣].

قال ابن حجر: قوله: (اللهم أحبهما فإني أحبهما) هذا يشعر بأنه ﷺ ما كان يحب إلا لله وفي الله، ولذلك رتب محبة الله على محبته، وفي ذلك أعظم منقبة لأسامة والحسن رضي الله عنهما[٤].

قال الذهبي: كان أسامة أكبر من الحسن بأزيد من عشر سنين. وكان شديد السواد، خفيف الروح، شاطراً، شجاعاً، رباه النبي ﷺ، وأحبه كثيراً[٥].

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: ((لا يَنْبَغِي لأحَدٍ أَنْ يَبْغَضَ أُسامة بَعْدَ مَا سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "مَنْ كَانَ يُحِبُّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَرَسُولَهُ فَلْيُحِبَّ أُسامة))[٦].

وعنها رضي الله عنها قالت: ((أَرَادَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُنَحِّيَ مُخَاطَ أُسامة، قَالَتْ عَائِشَةُ: دَعْنِي حتَّى أنَا الَّذِي أفْعَلُ. قَالَ: يَاعَائِشَةُ أحِبِّيهِ، فَإِنِّي أُحِبُّهُ))[٧].

فمنزلة أسامة بن زيد رضي الله عنهما عند رسول الله ﷺ عظيمة وكان الصحابة رضي الله عنهم يعرفون هذه المنزلة، وكانوا يسمون أسامة رضي الله عنه: حِبُّ رسول الله ﷺ بكسر المهملة أي محبوبه لما يعرفون من منزلته عنده ﷺ، وليس أدل على محبة النبي ﷺ لأسامة من فعله ﷺ عند موته، فعن محمد بن أسامة بن زيد، قال: ((لما ثقل رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري ٣٧٣٠.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي، ١٤٧٨.

(٣) أخرجه البخاري ٣٧٣٥

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١١/٧

(٥) سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ٤٩٨/٢.

(٦) أخرجه أحمد ١٥٦/٦ رقم ٢٥٢٣٤، وقال محققو المسند: صحيح لغيره.

(٧) أخرجه الترمذي ٨١٣٨، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٣٠٠١).

هبطت وهبط الناس المدينة، فدخلت على رسول الله ﷺ وقد أصمت فلم يتكلم، فجعل رسول الله ﷺ يضع يده عليَّ ويرفعها فأعرف أنه يدعو لي))[1].

ثانياً: من موضوعات الدعوة: غضب رسول الله ﷺ وإنكاره على أسامة رضي الله عنه لشفاعته في حد من حدود الله

يظهر ذلك في إنكار رسول الله ﷺ على أسامة رضي الله عنه شفاعته، وقال له: "أتشفع في حد من حدود الله".

ورسول الله ﷺ، غضب لشفاعة أسامة بن زيد رضي الله عنهما في حد من حدود الله، فالغضب لله محمود، وهو من هدى الرسول ﷺ، ودليل على غيرة الإنسان على محبته لإقامة شريعة الله[2]. وقد كان رسول الله ﷺ يغضب عند الموعظة لانتهاك حرمات الله، قال جابر رضي الله عنه: "كان النبي ﷺ إذا خطب يوم الجمعة احمرت عيناه وعلا صوته، واشتد غضبه، حتى كأنه منذر جيش يقول صبحكم ومساكم"[3].

أي أن الغضب يكون محموداً إذا كان لله عز وجل عندما تنتهك حرماته وقد أثبت القرآن ذلك للرسل الكرام في مواضع عديدة[4] منها: قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا...﴾ الآيات إلى قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾[5]. ومنها قوله تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ

---

(١) أخرجه الترمذي ٣٨١٧، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٣٠٠).

(٢) انظر: شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين، ٩٤٠/١.

(٣) أخرجه مسلم ٨٦٧.

(٤) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين ٥٠٧٩/١١.

(٥) سورة الأعراف، الآيات: ١٤٨-١٥٤.

غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴾(١).

ومنها قوله تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(٢).

قال القرطبي: والمعنى: مغاضباً من أجل ربه، كما تقول: غضبت لك أي من أجلك. والمؤمن يغضب لله عز وجل إذا عُصي(٣).

كما أن النبي ﷺ كان يغضب في بعض الأحيان لله عز وجل لا لنفسه(٤)، في أحاديث عديدة منها:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: رخص رسول الله ﷺ في أمر، فتنزه عنه ناس من الناس، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فغضب، حتى بان الغضب في وجهه، ثم قال: «ما بال أقوام يرغبون عما رُخِصَ لي فيه، فو الله لأنا أعلمهم بالله وأشدهم له خشية»(٥).

ومنها عن عائشة رضي الله عنها قالت: ((قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ لأَرْبَعٍ مَضَيْنَ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ، أَوْ خَمْسٍ. فَدَخَلَ عَلَيَّ وَهُوَ غَضْبَانُ. فَقُلْتُ: مَنْ أَغْضَبَكَ، يَا رَسُولَ اللَّهِ أَدْخَلَهُ اللَّهُ النَّارَ. قَالَ: أَوَمَا شَعَرْتِ أَنِّي أَمَرْتُ النَّاسَ بِأَمْرٍ فَإِذَا هُمْ يَتَرَدَّدُونَ قَالَ الْحَكَمُ: كَأَنَّهُمْ يَتَرَدَّدُونَ أَحْسِبُ وَلَوْ أَنِّي اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ، مَا سُقْتُ الْهَدْيَ مَعِي حَتَّى أَشْتَرِيَهُ، ثُمَّ أَحِلُّ كَمَا حَلُّوا))(٦).

---

(١) سورة طه، آية: ٨٦.

(٢) سورة الأنبياء، آية: ٨٧.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٣٢٩/١١/٦.

(٤) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين ٥٠٧٩/١١.

(٥) أخرجه البخاري ٦١٠١، ومسلم ٢٣٥٦ واللفظ له.

(٦) أخرجه مسلم ١٢١١.

قال النووي: (قولها: فدخل علي وهو غضبان فقلت: من أغضبك يارسول الله أدخله الله النار، قال: أوما شعرت أني أمرت الناس بأمر فإذا هم يترددون) أما غضبه ﷺ فلانتهاك حرمة الشرع وترددهم في قبول حكمه، وقد قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾(١)، فغضب ﷺ لما ذكرناه من انتهاك حرمة الشرع، والحزن عليهم في نقص إيمانهم بتوقفهم، وفيه دلالة لاستحباب الغضب عند انتهاك حرمة الدين)(٢).

ثالثاً- من وسائل الدعوة: الخطبة:

يظهر ذلك في قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: ثم قام فاختطب.

والخطابة هى أداة الدعوة الإسلامية الأولى لاستنهاض الهمم والحث على الفضائل، وجمع الشمل وإرهاب الأعداء، وقد كانت الخطبة وسيلة الرسول عليه الصلاة والسلام في الدعوة إلى سبيل الله، لإيقاظ الضمائر، وتدبر الكون والإيمان بالله الواحد الأحد، ومعرفة أوامر الدين ونواهيه التي تحقق سعادة البشرية.

فعلى الداعية أن يصور الحدث أو الفكرة بكل دقة ووضوح في خطبته حتى ينسجم معه المستمع ويشاركه في انفعالاته.... ويكون متمكناً من علمه وثقافته... عارفًا بأبعاد فكرته، ومستوعباً عناصر الموضوع كله(٣).

رابعاً- من تاريخ الدعوة: هلاك الأقوام السابقين بسبب تركهم إقامة الحد على الشريف وإقامته على الضعيف:

يظهر ذلك في قول رسول الله ﷺ: "إنما أهلك من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد" فذكر من تاريخ الدعوة هلاك بني إسرائيل بسبب إقامة الحد على الضعفاء وترك إقامته على الشرفاء،

---

(١) سورة النساء، آية: ٦٥.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٧٦٤.

(٣) انظر: الدعوة الإسلامية، الوسائل والأساليب، محمد خير رمضان يوسف ص ١٠٦-١٠٧.

وهذا ما بينه في قوله ﷺ: ((إنَّ بَنِي إسْرَائِيلَ كَانُوا إذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ الْوَضِيعُ قَطَعُوهُ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُهَا))[١].

قال ابن حجر: (قال ابن دقيق العيد: الظاهر أن هذا الحصر ليس عاماً، فإن بني إسرائيل كان فيهم أمور كثيرة تقتضي الإهلاك، فيحمل ذلك على حصر مخصوص وهو الإهلاك، بسبب المحاباة في الحدود فلا ينحصر في حد السرقة، قال ابن حجر قلت: يؤيد هذا الاحتمال ما أخرجه أبو الشيخ في (كتاب السرقة) من طريق زاذان عن عائشة مرفوعاً، (أنهم عطلوا الحدود عن الأغنياء وأقاموها على الضعفاء)[٢].

خامساً- من أساليب الدعوة: الترهيب، والقسم:

يظهر الترهيب في قوله ﷺ: "إنما أهلك من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد".... حيث رهب من ترك إقامة الحد وبين أن ذلك كان سبباً في هلاك السابقين.

وأسلوب الترهيب له أهمية كبيرة في الدعوة إلى الله لأن بعض الناس لا يجدى فيهم الترغيب والوعود الجميلة، وإنما ينفع معهم التقريع والتضييق وكسر حدة النفس ونتوئها وإعراضها عن الحق وإلزامها كلمة التقوى والمتابعة، فكان الترهيب والتخويف مناسباً لذلك. وذلك لأن غرس الخوف من غضب الله وعقابه العاجل والآجل في النفوس مطلوب لكي يحمل النفوس على اتقائه بتجنب ما يسخط الله ﷻ[٣].

ويظهر أسلوب القسم في قوله ﷺ: وايم الله، ويعد القسم من الأساليب الدعوية: وذلك لبيان أهمية الأمر ولفت انتباه المدعوين إليه. وقد أقسم النبي وهو الصادق المصدوق لبيان أهمية الأمر، وحثهم على تجنبه.

---

(١) أخرجه البخاري ٣٧٣٣، والنسائي ٤٩٠٠ واللفظ له.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٢/ ٩٧.

(٣) انظر: وسائل الدعوة: د. عبدالرحيم المغذوي ص ١٩٤-١٩٥

قال النووي: (قوله ﷺ: (وَايْمُ الله لو أن فاطمة) فيه دليل لجواز الحلف من غير استحلاف وهو مستحب إذا كان فيه تفخيم لأمر مطلوب كما في الحديث)[1].

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٠٨٢.

الحديث رقم (٦٥٢)

٦٥٢- وعن أنس ﷺ: أنَّ النبيَّ ﷺ رأى نُخَامَةً في القبلَةِ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ حَتَّى رُؤِيَ فِي وَجْهِهِ؛ فَقَامَ فَحَكَّهُ بِيَدِهِ، فَقَالَ: ((إن احدكُمْ إذَا قَامَ فِي صَلاَتِهِ فَإنَّهُ يُنَاجي رَبَّهُ، وَإنَّ رَبَّهُ بَيْنَهُ وَبيْنَ القِبلْةِ، فَلاَ يَبْزُقَنَّ احَدُكُمْ قِبَلَ الْقِبْلَةِ، وَلَكِنْ عَنْ يَسَارِهِ، أوْ تَحْتَ قَدَمِهِ)) ثُمَّ أخَذَ طَرَفَ رِدَائِهِ فَبَصَقَ فيهِ، ثُمَّ رَدَّ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ، فَقَالَ: ((أوْ يَفْعَلُ هكذا)) متفقٌ عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

النخامة: البزقة التي تخرج من أقصى الحلق أو من الصدر[2].

فشق ذلك عليه: كره ذلك كرهاً شديداً حتى ظهر ذلك على وجهه[3].

يبزقن: البزاق: البصاق وهو: إلقاء النخامة إلى خارج الفم[4].

الشرح الأدبي

الحديث يدور حول أمور من الأدب في المسجد، وقوله (حَتَّى رُؤِيَ فِي وَجْهِهِ) كناية عن كراهيته لهذا الفعل، وقوله (فَقَامَ فَحَكَّهُ بِيَدِهِ.....) حتى يزيل أثر العادة السيئة بالفعل، ويمنع غيرها بالقول عن طريق الترهيب تهديدا بإعراض الله عمن يبصق قبل وجهه؛ لما ينم عنه من سقم في الذوق وسوء في الأدب، وعدم تقدير للموقف بين يدي الله، وهو مقبل عليه، وقوله (إن أحدَكُمْ) يشمل الجميع بالحكم (إذَا قَامَ فِي صَلاَتِهِ

---

(١) أخرجه البخاري ٤٠٥ واللفظ له، ومسلم ٥٥١/٥٤.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ن خ م)، فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦٠٥/١.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ش ق ق).

(٤) المعجم الوسيط في (ب ز ق)، وقال النووي: والأمر بالبصاق عن يساره أو تحت قدمه هو فيما إذا كان غير المسجد. فأما المسجد فلا يبصق إلا في ثوبه. رياض الصالحين ٢٨٥.

فَإِنَّهُ يُنَاجِي رَبَّهُ) أسلوب شرط ينوه على شرف الموضع، ورفعة المقام التي تستلزم مزيد أدب، والتعبير بالمناجاة يوحي بالقرب، والمحبة التي لا تتناسب مع فعل البصق، وذكر لفظ رب، وإضافته للضمير العائد على المصلي يشير إلى ضرورة أن يقدر له قدره بما يليق من أقوال، وأفعال وقوله (وَإِنَّ رَبَّهُ بَيْنَهُ وَبيْنَ القِبلْةِ) كناية عن شدة قربه الذي يستلزم مزيد الخشوع، والتذلل، والأدب، وقوله لاَ يَبْزُقَنَّ أحَدُكُمْ قِبَلَ الْقِبْلَةِ، وَلَكِنْ عَنْ يَسَارِهِ، أَوْ تَحْتَ قَدَمِهِ) نهي عن هذا الفعل الذي يؤذي الملائكة، ويؤذي المصلين، ويحدث نفورا من المكان، في حين أنه مكان خشوع، وسكينة، وقد أتبع البيان القولي للحكم بالبديل لمن اضطره البصاق (ثُمَّ أخَذَ طَرَفَ رِدَائِهِ فَبَصَقَ فِيهِ، ثُمَّ رَدَّ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ، فَقَالَ: ((أَوْ يَفْعَلُ هكذا)) وهو تصرف فيه أدب، ولا يسبب الاستقذار، ولا النفور لأن لم يظهر.

فقه الحديث

هذا الحديث يشير إلى:

التنخم في المسجد: ذهب جمهور الفقهاء إلى أنه يحرم إلقاء النخامة ونحوها في أرض المسجد وعلى جدرانه وعلى حصيره، بل يجب أن يصان المسجد عن كل قذر وقذارة وإن لم تكن نجساً كالنخامة ونحوها. جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ: ((البزاق خطيئة وكفارتها دفنها))[1]. وكتب الخطيئة بمجرد البصاق يدل دلالة واضحة على أنها حرام، ولكنها تزول بالدفن وتبقى بعدمه[2]، وإن كانت على حائطه وجب إزالتها وتطييب موضعها لفعله عليه الصلاة والسلام. وقال المالكية: إن البصق في أرض المسجد مكروه مع حكّه وعن الإمام مالك أنه قال: إن كان محصباً فلا بأس أن يبصق بين يديه، وعن يساره وتحت قدمه، ويدفنه، وإن كان لا يقدر على دفنه فلا يبصق في المسجد بحال، سواء كان مع ناس أو كان وحده[3].

---

(١) أخرجه البخاري ٤١٥، ومسلم ٥٥٢.

(٢) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي بن محمد الشوكاني ٤٦٠.

(٣) بدائع الصنائع ٨١/٢، والتاج والإكليل شرح مختصر خليل للحطاب، محمد بن يوسف المواق ١٩/٢، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٢٠٢/١، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ١٢/٢، وكشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٤٦٠/١.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: تغيير النبي ﷺ للمنكر باليد.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: غضب النبي ﷺ لانتهاك حرمة قبلة المسجد وعدم نظافتها.

ثالثاً: من وسائل الدعوة: التعليم.

رابعاً: من آداب الداعية: حث المدعوين على نظافة المساجد والحفاظ عليها.

أولاً- من موضوعات الدعوة: تغيير النبي ﷺ للمنكر باليد:

يظهر ذلك في قول أنس رضي الله عنه: "أن النبي ﷺ رأى نخامة في القبلة فشق عليه ... فقام فحكه بيده"، أي: تولى ذلك بنفسه وقام بإزالة النخامة بيده، وفي ذلك تعليم منه ﷺ لأمته وللدعاة بأهمية أن يغير الإنسان المنكر بيده، إذا رآه وكان يستطيع تغييره، ولا ينتظر لأن الأمة الإسلامية من خير الأمم وقد جعل الله تعالى من صفاتها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[1].

والداعية عندما يغير المنكر بيده يكون قدوة لغيره، ويكون عمله مطابقًا لقوله فهو ينهي عن المنكر بلسانه ويغيره بيده، وله في ذلك الأسوة والقدوة الحسنة في إمام الدعاة محمد ﷺ.

والأصل في تغيير المنكر باليد، الكتابُ والسُنة وإجماعُ المسلمين على ذلك.

يقول تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ۝٥٧ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾[2]، فإبراهيم عليه السلام كسر الأصنام بيده.

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١١٠.

(٢) سورة الأنبياء، الآيتان: ٥٧، ٥٨.

وقال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾[1].

فأخبر سبحانه وتعالى عن كليمه موسى عليه السلام أنه أحرق العجل الذي عبد من دون الله ونسفه في اليم.

ويقول تعالى آمراً نبيه أن يقول: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[2].

وذلك حينما دخل مكة عام الفتح فأخذ يطعن الأصنام بعود بيده وهو يتلو هذه الآية.

ورد عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب فجعل يطعنها بعود في يده. ويقول: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾»[3][4].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده»[5] الحديث.

فهذا نص صريح من الرسول صلى الله عليه وسلم بتغيير المنكر باليد.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمُ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا مُقْسِطًا. فَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلُ الْخِنْزِيرَ، وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ، وَيَفِيضُ الْمَالُ حَتَّى لاَ يَقْبَلَهُ أَحَدٌ))[6].

---

(١) سورة طه، آية: ٩٧.

(٢) سورة الإسراء، آية: ٨١.

(٣) سورة الإسراء، آية: ٨١.

(٤) أخرجه البخاري ٤٧٢٠.

(٥) أخرجه مسلم ٤٩.

(٦) أخرجه البخاري ٢٢٢٢.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ((كنت أسقي أبا عبيدة وأبا طلحة وأبيَّ بن كعب من فضيخ زَهوٍ وتمر، فجاءهم آتٍ فقال: إنَّ الخمرَ قد حُرِّمت. فقال أبو طلحة: قم يا أنسُ فهرِقها، فهرَقتها))[١].

وفي رواية لمسلم: فقال أبو طلحة: ((يا أنس قم إلى هذه الجرة فاكسرها فقمت إلى مهراس لنا فضربتها بأسفله حتى تكسرت))[٢].

فهذه الأحاديث دليل واضح بالقول والفعل من الرسول ﷺ وصحابته على تغيير المنكر باليد[٣].

قال أبو العباس القرطبي في شرحه لحديث: ("من رأى منكم منكراً فليغيره بيده"[٤]، هذا الأمر على الوجوب، لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من واجبات الإيمان ودعائم الإسلام، بالكتاب والسنة وإجماع الأمة...

ولوجوبه شرطان:

أحدهما: العلم بكون ذلك الفعل منكراً أو معروفاً.

والثاني: القدرة على التغيير.

فإذا كان كذلك تعين التغيير باليد إن كان المنكر مما يحتاج في تغييره إليها مثل كسر أواني الخمر، وآلات اللهو كالمزامير والأوتاد والكبر، وكمنع الظالم من الضرب والقتل وغير ذلك. فإن لم يقدر بنفسه استعان بغيره فإن خاف من ذلك ثوران فتنة، وإشهار سلاح، تعين رفع ذلك، فإن لم يقدر بنفسه على ذلك غير بالقول المرتجى نفعه من لين أو إغلاظ حسب ما يكون أنفع وقد يبلغ بالرفق والسياسة ما لا يبلغ بالسيف والرياسة، فإن خاف من القول القتل أو الأذى، غير بقلبه)[٥].

---

(١) أخرجه البخاري ٥٥٨٢

(٢) أخرجه مسلم ١٩٨٠.

(٣) درجات تغيير المنكر د. عبدالعزيز أحمد المسعود ص ١٧-٢٠.

(٤) أخرجه مسلم ٤٩.

(٥) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو، وآخرين ٢٣٣/١ - ٢٣٤.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: غضب النبي ﷺ لانتهاك حرمة قبلة المسجد وعدم نظافتها:

يظهر ذلك في قول أنس رضي الله عنه: "أن النبي ﷺ رأى نخامة في القبلة، فشق ذلك عليه، حتى رؤى في وجهه، فقام فحكه بيده، فقال: (إن أحدكم إذا قام في صلاته فإنه يناجي ربه وإن ربه بينه وبين القبلة، فلا يبزقن أحدكم قبلة القبلة).

قال المازري: (وكأن تلك الجهة علامة على أن قاصدها موحد وأنها عَلَمُ على التوحيد ولها حرمة لكون المصلي متقرباً بتوجيهه إليها إلى الله سبحانه)[١].

وقال النووي: قوله ﷺ: (فلا يبصق قبل وجهه فإن الله قبل وجهه) أي: الجهة التي عظمها، وقيل فإن قبلة الله، وقيل ثوابه ونحو هذا، فلا يقابل هذه الجهة بالبصاق الذي هو الاستخفاف بمن يبزق إليه وإهانته وتحقيره)[٢].

وقال العيني: (ولا يصح هذا الكلام على ظاهره، لأن الله تعالى منزه عن الحلول في المكان، فالمعنى على التشبيه، أي: كأنه بينه وبين القبلة)[٣].

قال ابن حجر: قال الخطابي: (معناه أن توجهه إلى القبلة مفض بالقصد منه إلى ربه، فصار التقدير كأن مقصوده بينه وبين قبلته، قيل على حذف مضاف أي عظمة الله أو ثواب الله).

قال ابن عبدالبر: هو كلام خرج على التعظيم لشأن القبلة[٤].

قال القرطبي: (وهذا يدل على تحريم البُصاق في جدار القبلة، وعلى أنه لا يتكفر بدفنه، ولا بحكه، كما قال في حلة المسجد: "البصاق في المسجد خطيئة، وكفارتها دفنها"[٥]، فلو يكفر البزاق في القبلة بالحك لما غضب، إذ قد كان تكفي الكفارة

---

(١) المعلم بفوائد مسلم ١/١٧٩.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٤١٦.

(٣) موسوعة فتح الملهم، ٤/٨٩.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١/٦٠٦.

(٥) أخرجه البخاري ٤١٥، ومسلم ٥٥٢، والنسائي ٧٢٣ واللفظ له.

في ذلك، وهي الحك، كما اكتفى بها في حديث الأعرابي الذي وطىء في نهار رمضان، ولم يذمه ولا غضب عليه. وقد ظهرت خصوصية جهة القبلة حيث نزلها منزلة الرب تعالى، كما تقرر. وظهر أيضاً التخفيف في ساحة المسجد، كما قد ضرب رسول الله ﷺ فيه خيمة لسعد بن معاذ بعدما رُمي في أكحله، فكان الدم يسيل من خيمته إلى جهة الغفاريين، هذا مع ما قيل: إن هذا كان لضرورة داعية إلى ذلك وقد ذكر مسلم في حديث جابر الطويل(١): أن النبي ﷺ جعل مكان النخامة عنبراً، وروى النسائي الحديث الأول من طريق أنس(٢)، فقال: غضب حتى احمر وجهه، فقامت امرأة من الأنصار فحكّتها، وجعلت مكانها خلوقاً، فقال رسول الله ﷺ ((ما أحسن هذا)). ويصح الجمع بين هذه الأحاديث، بأن يقال: كان ذلك في أوقات مختلفة: ففي وقت حكها ﷺ وطيبها بيده، ومرة أخرى فعلت هذه المرأة ما ذكر. ويمكن أن يقال: نسب الحك والطيب للنبي ﷺ من حيث الأمر به، والمرأة من حيث المباشرة(٣).

فالقبلة يتوجه المسلم إليها قبل وجه ربه فحرص رسول الله على تنزيهها ورهب من البصاق إليها وقد ورد في ذلك عنه الكثير من الأحاديث الدالة على ذلك منها: قوله ﷺ: «مَنْ تَفِلَ تُجَاهَ الْقِبْلَةِ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَفْلُهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ)).(٤)

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ يَخْطُبُ يَوْماً إِذْ رَأَى نُخَامَةً فِي قِبْلَةِ الْمَسْجِدِ فَتَغَيَّظَ عَلَى النَّاسِ، ثُمَّ حَكَّهَا قَالَ: وَأَحْسِبُهُ قَالَ: فَدَعَا بِزَعْفَرَانٍ فَلَطَّخَهُ بِهِ وَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قِبَلَ وَجْهِ أَحَدِكُمْ إِذَا صَلَّى فَلاَ يَبْصُقْ بَيْنَ يَدَيْهِ))(٥). وغيره من الأحاديث التي تبين حرص النبي ﷺ على تعظيم القبلة وغضبه إذا انتهكت حرمتها.

---

(١) أخرجه مسلم ٣٠٨.

(٢) أخرجه النسائي ٧٢٨، وصححه الألباني (صحيح سنن النسائي ٧٠٣).

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو، وآخرين ٢/١٥٨.

(٤) أخرجه ابو داود ٣٨٢٤، وصححه الألباني (صحيح سنن ابي داود ٣٢٣٩).

(٥) أخرجه البخاري ٤٠٦، ومسلم ٥٤٧.

ثالثاً- من وسائل الدعوة: التعليم:

يظهر ذلك في تعليمه ﷺ أمته تغيير المنكر إذا رأوه باليد إن استطاعوا.

والتعليم من وسائل الدعوة التي حث عليها الإسلام ودعا إليها رسول الله ﷺ بأقواله وأفعاله.

فلم تعرف البشرية دينا رفع مكانة العلم، وأعلى من شأنه مثل الإسلام ويكفي أن نعلم أن الله تعالى جعل شهادة أولي العلم بعد شهادة الحق سبحانه، وشهادة الملائكة المقربين، فقال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[1]، ولقد كانت تربية النبي ﷺ لأصحابه تقوم على الاعتناء بالعلم غاية الاعتناء، وحث الأمة على التعلم والتعليم[2]. فينبغي الاهتمام بالتعليم كوسيلة من وسائل الدعوة المؤثرة.

رابعاً- من آداب الداعية: حث المدعوين على نظافة المساجد والحفاظ عليها:

يظهر ذلك في قول أنس رضي الله عنه: أن النبي ﷺ رأى نخامة في القبلة، فشق ذلك عليه حتى رؤى في وجهه فقام لحكه بيده فقال: (إن أحدكم إذ قام في صلاته ... الحديث)، قال النووي: وفي هذا الحديث تعظيم المساجد وتنزيهها من الأوساخ ونحوها وفيه استحباب تطييبها[3].

والمسجد له أهمية عظمى في المجتمع الإسلامي، وذلك لما يؤديه من وظائف سامية في إعلاء كلمة الله والدعوة إلى دين الله، ولذا فقد أولى الإسلام للمسجد المكانة اللائقة به عمارة واعتناء بكل ما يحتاجه ويتطلبه، فالمسجد بيت الله، وفي هذا دلالة على قدسية المسجد ونزاهته، وخلوه من الأغراض والمقاصد الدنيوية، والأشياء المستقذرة، فمن يدخله لابد أن يكون عمله خالصاً لله وحده[4].

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٨.

(٢) انظر: ركائز دعوية من هدي النبي ﷺ، عبدالمجيد البيانوني ص ١٥٤.

(٣) شرح مسلم، ١٧٢٥.

(٤) انظر: وسائل الدعوة، د. عبدالرحيم المغذوي ص ٢١٧.

قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾(١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ((بَيْنَمَا نَحْنُ فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ، فَقَامَ يَبُولُ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ: مَهْ مَهْ. قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «لاَ تُزْرِمُوهُ. دَعُوهُ» فَتَرَكُوهُ حَتَّى بَالَ. ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ: «إِنَّ هذِهِ الْمَسَاجِدَ لاَ تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هذَا لِلْبَوْلِ وَالْقَذَرِ. إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالصَّلاَةِ، وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ»، أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ. قَالَ فَأَمَرَ رَجُلاً مِنَ الْقَوْمِ، فَجَاءَ بِدَلْوٍ مِنْ مَاءٍ، فَشَنَّهُ عَلَيْهِ))(٢).

قال النووي: (قوله ﷺ: "إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر إنما هي لذكر الله وقراءة القرآن" أو كما قال رسول الله ﷺ فيه صيانة المساجد وتنزيهها عن الأقذار والقذى والبصاق ورفع الأصوات والخصومات، والبيع والشراء وسائر العقود وما في معنى ذلك) (٣).

وقد حث رسول الله ﷺ على نظافة المساجد والحفاظ عليها فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: "أمر رسول الله ﷺ ببناء المساجد في الدور، وأن تنظف وتطيب"(٤).

فعلى الداعية حث المدعوين على الاهتمام بنظافة المساجد والحفاظ عليها وهذا من واجبات جميع المسلمين نحو بيوت الله.

---

(١) سورة الجن، آية: ١٨.

(٢) أخرجه البخاري ٢١٩، ٢٢١، ومسلم ٢٨٥.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٢٨٧.

(٤) أخرجه أبو داود ٤٥٥، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود، ٤٣٦).

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

ما لم تتحرك غريزة الغضب لحرمات الشرع، ضاعت القيم وغابت الأخلاق وانتهكت الحرمات وساد الفساد وعمت الفوضى، وقد اشتمل هذا الباب على عدد من المضامين التربوية وبيانها كالتالي:

أولاً- توجيه انفعال الغضب إلى أن يكون لله تعالى:

إن من أهداف التربية الإسلامية توجيه انفعال الغضب إلى أن يكون لله تعالى، وليس من أجل الانتصار للنفس، والانتقام من الآخرين، وذلك من أجل ضبط علاقات الأفراد بعضهم ببعض والسمو والارتقاء بها، ومن أجل تغيير المنكر عندما تنتهك حرمات الله تعالى، وقد أورد الإمام النووي تحت هذا الباب جملة أحاديث تبين مشروعية الغضب، وذلك عندما تنتهك حرمات الشرع والانتصار لدين الله تعالى، ومن ذلك حديث عائشة أم المؤمنين ﵂: "وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ. فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ. إِلاَّ أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللَّهِ. فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ تَعَالَى". وفي حديث ابن مسعود وعقبة بن عمرو البدري ﵁: «... إِنِّي لأَتَأَخَّرُ عَنْ صَلاَةِ الصُّبْحِ مِنْ أَجْلِ فُلاَنٍ، مِمَّا يُطِيلُ بِنَا، فَمَا رَأَيْتُ النَّبِيَّ غَضِبَ فِي مَوْعِظَةٍ قَطُّ أَشَدَّ مِمَّا غَضِبَ يَوْمَئِذٍ».

وفي حديث عائشة أم المؤمنين ﵂: «... وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا». وفي حديث أنس ﵁: «أنَّ النبيَّ ﷺ رأى نُخامَةً في القِبلةِ فشقَ ذلكَ عليهِ حتى رُؤي في وجههِ». ففي جملة هذه الأحاديث بيان أن النبي ﷺ لم يغضب لنفسه إنما كان غضبه لله تعالى، ومن أجل تغيير المنكر، وانتصارًا لدين الله تعالى.

"والغضب من أمراض الباطن التي يغفل عنها بعض الناس فيكون سببًا في اختلال صحتهم النفسية، وإن كان مما ركب في الإنسان إلاّ أن لديه القدرة على التحكم فيه، والتقليل من آثاره على سلوكه، والغضب إنما ركب في طبع الآدمي لدفع الأذى عنه والانتقام من المؤذي له، وإنما المذموم إفراطه، فإنه حينئذ يزيل التماسك ويخرج عن الاعتدال، فيحمل على تجاوز الصواب، وربما كانت مكانته في الغضبان أكثر من

مكانته في المغضوب عليه والغضب حرارة تنتشر عند وجود ما يغضب فيغلي عندها دم اللذات طلبًا للانتقام وربما أثر الحمى"[١].

إن الإنسان لا يخلو عن غضب "فأصل الغضب لا يعتبر عيبًا ولا يعتبر وجوده مرضًا، ولكن هناك غضب في الباطل لا يصح، وهناك غضب ظالم لا يجوز، وإن الغضب في غير محله لا تستقيم معه حياة اجتماعية ولا علاقات صحيحة، فغضبة واحدة قد تفسد جماعة بأسرها فتصدع صفّها أو تعرقل أعمالها أو تشل نموها، وإذا أصبح الغضب جزءً من حياة الإنسان عندئذٍ يكون ما يخربه أكثر مما يعمره، لذلك كان لا بد من السيطرة على الغضب من أجل الدنيا والآخرة، فقد يدخل الغضب صاحبه النار، وقد يفسد عليه أمر دنياه، ونموذج الكمال البشري في الرضا والغضب هو رسول الله ﷺ، وكان من أخلاقه أنه لا يغضب لنفسه، وكان من وصفه أنه لا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلما، وكان ﷺ يغضب إذا انتهكت حرمات الله فلا يقوم لغضبه شيء وهذا الذي يطالب به كل الخلق للقضاء على المنكر" [٢].

ثانيًا- التربية بالممارسة العملية:

من أساليب التربية الإسلامية الناجعة أسلوب الممارسة العملية حيث يبين للمتربي إمكانية تطبيق الفعل المأمور به، ويسوق ترجمة عملية للمتربي، ومن أحاديث الباب التي تبين هذا الأسلوب ما جاء عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: «قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ سَفَرٍ وَقَدْ سَتَرْتُ سَهْوَةً لِي بِقِرَامٍ فِيهِ تَمَاثِيلُ، فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَتَكَهُ وَتَلَوَّنَ وَجْهُهُ، ....».

ففي هذا الحديث قام النبي ﷺ بالممارسة العملية بهتك القِرَام وإفساد الصورة التي فيه، وأيضًا ما جاء في أحاديث الباب عن أنس رضي الله عنه «أن النبي ﷺ رأى نخامة في القبلة، فشق ذلك عليه حتى رؤى في وجهه فقام فحكه بيده...».

---

(١) التدين والصحة النفسية، د. صالح بن إبراهيم بن عبداللطيف الصنيع ص ٢١٥.

(٢) المستخلص في تزكية الأنفس، سعيد حوّي ص ٢٣١، ٢٣٢.

والممارسة العملية للمتربي تتضح في حَكّ النبي ﷺ النخامة التي في القبلة بيده "ولقد كان من أساليب النبي ﷺ الموعظة بالفعل التطبيقي حيث يعطي لأصحابه الأنموذج الحي في أسلوب التعليم والتربية والتكوين"(١).

إن أسلوب الممارسة العملية له العديد من الآثار والفوائد التربوية "كإتقان العمل وتعوُّد الدقة وتَوخِّي صحة النتائج وشعور الإنسان بالمسئولية عن صحة العمل وحب العمل واستبعاد الغرور، وترك الكسل والتواكل، ويعد أسلوب الممارسة العملية من أهم أساليب التربية الإسلامية، وذلك لأن الدين الإسلامي دين عمل شريطة أن يكون العمل قرينًا للعلم وقائمًا على أساسه، ويطالب الدين الإسلامي كل معتقيه بتطبيق تعاليمه تطبيقًا عمليًا سواء ما يتعلق بتكاليف العبادة، وما يهيئ للآخرة أو ما يتعلق بشئون الحياة الدنيا، والرسول ﷺ اهتم باستخدام أسلوب الممارسة العملية والتطبيق العملي لكل تعاليم الإسلام على شخصه أولاً وفي تربيته لصحابته ثانيًا (٢).

ثالثًا- التربية بالمواقف والأحداث:

من أساليب التربية الإسلامية التربية بالمواقف والأحداث حيث يستثمر المربي أي فرصة للتوجيه والإرشاد من خلال الحدث والموقف، ومن أحاديث الباب التي تبين هذا ما جاء عن أبي مسعود عقبة بن عمرو البدري رضي الله عنه قال: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللّهِ ﷺ فَقَالَ: إِنِّي لأَتَأَخَّرُ عَنْ صَلاَةِ الصُّبْحِ مِنْ أَجْلِ فُلاَنٍ، مِمَّا يُطِيلُ بِنَا، فَمَا رَأَيْتُ النَّبِيَّ غَضِبَ فِي مَوْعِظَةٍ قَطُّ أَشَدَّ مِمَّا غَضِبَ يَوْمَئِذٍ، فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ، فَأَيُّكُمْ أَمَّ النَّاسَ فَلْيُوجِزْ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِهِ الْكَبِيرَ وَالضَّعِيفَ وَذَا الْحَاجَةِ».

وفي موقف المرأة المخزومية ربىّ النبي ﷺ أصحابه من خلال هذا الموقف كما جاء في الحديث"... ثم قام فاختطب، ثم قال: إنما أهلك من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها".

إن المربي الناجح يستغل المواقف والأحداث في إيصال القيم التربوية والتنشئة عليها.

---

(١) تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، ٧١٨/٢.

(٢) أصول التربية الإسلامية، د. سعيد إسماعيل القاضي ص ١٧٧.

إذ "أن الحياة أحداث ومواقف متتالية، والأحداث والمواقف لها عواملها وأسبابها ولها كذلك نتائجها ومخرجاتها، وفي كل حدث أو موقف يكمن درس ينبغي أن نعيه، والتربية بالأحداث والمواقف الواقعية من أهم أساليب التربية الإسلامية، فقد استخدم الرسول ﷺ من الأحداث والمواقف العملية دروسًا لقنها المسلمين، وهكذا كان الرسول ﷺ لا يدع فرصة أو حدثًا أو موقفًا يمر دون أن يجعل منه درسًا وموعظة، ففي حادثة المرأة المخزومية كان لابد من درس يُثْبت ويُبْرز معنى المساواة في العقوبات كما هي ثابتة في التكاليف، ويزيل أوهام الفوارق الطبقية بين الناس، لذا جاء الدرس التربوي في حينه" وموضعه فقال الرسول ﷺ لأسامة "أتشفع في حد من حدود الله" ثم قام فخطب ثم قال: "إنما أهلك الذين قبلكم..."، وهكذا تكون التربية بالحدث ومن خلال الحدث"[1].

رابعًا- من أهداف التربية الإسلامية: تحقيق الأمن الاجتماعي:

وهذا واضح من قول النبي ﷺ: ((أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللّهِ تعالى؟». ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ ثُمَ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ، تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ، أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَايْمُ اللّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا))، فهذا الحديث يدل دلالة واضحة على حرص النبي ﷺ على تطبيق حدود الله تعالى في أرضه، وعلى حرصه ﷺ على عدم التفرقة بين الناس في ذلك بسبب شرف أو نسب، كما كانت تفعل في الأمم السابقة فكان سببًا من أسباب هلاكهم؛ لكون ذلك أدى إلى اختفاء الأمن الاجتماعي فيما بينهم، أما الإسلام فكان حريصًا أشد الحرص على تحقيق الأمن الاجتماعي ومنع كل السبل المؤدية إلى زعزعته أو خلخلته.

خامسًا- التربية بتعليل الأحكام:

لما رأى النبي ﷺ النخامة في القبلة- كما في حديث أنس رضي الله عنه- قام فحكها بيده ثم قال: ((إنَّ أحدَكُمْ إذا قامَ في صلاتِهِ فإنَّهُ يُنَاجي رَبَّهُ، أو إنَّ رَبَّهُ بينَهُ وبينَ

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. محمد شحات الخطيب وآخرون ص ٨٧.

القِبْلَةِ، فلا يَبْزُقَنَّ أحدُكُم قِبَلَ القِبْلَة))، فقد بيّن ﷺ سبب غضبه لوجود النخامة في القبلة، ومما لاشك فيه أن بيان أسباب الأحكام والتصرفات - إن اقتضى الأمر ذلك- من الأساليب التربوية المهمة، التي تجعل التعليم أشد أثرًا، فضلاً عن أنها تزيد اقتناع المتعلم بما يأمر به أو ينهي عنه.

سادسًا- من مهام المربي: بيان البدائل المشروعة للفعل غير المشروع:

وهذا واضح من قوله ﷺ: ((فَلاَ يَبْزُقَنَّ أحدُكُم قِبَلَ القِبْلَة، وَلَكِنْ عَنْ يَسَارِهِ، أو تَحْتَ قَدَمَيْه، ثم أخذ طرف ردائه وبصق فيه ثم ردَّ بعضه عَلى بعض، فقال: أَوَ يَفْعَلُ هكَذا))، فقد بيّن ﷺ البدائل المتاحة لمن أراد أن يتنخم بعد أن نهى عن النخامة قِبل القبلة، وبناء على ذلك كان على المربي الفطن إنه إذا منع من يقوم بتربيتهم من شيء دلّهم على الأفعال المقبولة والمباحة، وفي ذلك توسيع عليهم وعدم تضييقه.

❁ ❁ ❁

٧٨- باب أمر وُلاة الأمور بالرفق برعاياهم ونصيحتهم والشفقة عليهم والنهي عن غشهم والتشديد عليهم وإهمال مصالحهم والغفلة عنهم وعن حوائجهم

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[الشعراء: ٢١٥]، وقال تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾[النحل: ٩٠].

الحديث رقم (٦٥٣)

٦٥٣- وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قَالَ: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ، يقول: ((كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ: الإمَامُ رَاعٍ وَمَسؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ في أهلِهِ وَمَسؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ في بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْؤُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالخَادِمُ رَاعٍ في مال سيِّدِهِ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ)) متفقٌ عَلَيْهِ(١).

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

الشرح الأدبي

المتأمل لبنية الحديث يجد أنها تشير إلى أقوى معاني الترابط والتماسك بين طبقات المجتمع، وتحيط أفراده بمظلة الرعاية المنسوجة من أفراده أنفسهم كل في إطار المهمة المنوط بها تجد ذلك إجمالاً في أمور منها: استهلال الرسول ﷺ لحديثه بلفظ (كل) الذي يفيد التعميم الذي جعل الجميع تحت مظلة الحكم المراد ككتلة واحدة، ثم ختام الحديث بنفس المعنى وكأنه مبدأ يريد تأكيده، ومنها: بداية الحديث بجملة اسمية، تفيد الثبوت والدوام، وهو في تمام المطابقة لمقتضى الحال والوفاء بالمعنى حيث يشير إلى أن هذه المسئولية، والرعاية المذكورة ثابتة لكل فرد في جميع الأحوال،

---

(١) أخرجه البخاري ٢٥٥٨، ومسلم ١٨٢٩/٢٠، وتقدم برقم ٢٨٣، ٣٠٠. أورده المنذري في ترغيبه ٢٨٧٥.

ودائمة على مر الأزمان، ومنها: شدة التشابك والتلاحم بين جمل الحديث والتي جعلته كجملة واحدة، وهي في مجملها تأكد المعنى العام في وحدة المجتمع، وهو كلية الرعاية، وكلية المسئولية التي بني عليها معنى الحديث، وإذا نظرنا إلى بنية الحديث تفصيلاً نجد أنها تؤكد على ضرورة الترابط والتواصل والرعاية المتبادلة ففي قوله ﷺ (كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته) جملة خبرية تؤذن بثقة المتكلم، وشعوره بصلاحية القابل، واستعداده لتلقي مضمون الخبر، وأن الخبر من الظهور بحيث لا يتأتى لمنكر إنكاره؛ لذا لم يؤكد الخبر بأي مؤكدات، ولأن المخاطب خالي الذهن من الخبر، والجملة تقرر مبدأ عاماً يشمل كل أفراد المجتمع المسلم فلفظ (كل) يفيد الشمول بمعناه وإضافته لكاف المخاطب وميم الجمع تؤكد على هذه الشمولية، وقوله: (راع) هو الحافظ المؤتمن الملتزم صلاح ما أؤتمن عليه حفظه، فهو المطلوب بالعدل فيه والقيام بمصالحه في دينه، ودنياه، ومتعلقاته، فإن وَفَّى ما عليه من الرعاية حصل له الحظ الأوفر، والجزاء الأكبر، وإن كان غير ذلك طالبه كل أحد من رعيته بحقه.

وقوله: (راع) مسند وقع اسماً فأفاد ثبوت الصفة ودوامها وأما تنكير (راع) فلإرادة عدم الحصر، والعهد، والتعيين في المسند حيث يقتضي المقام ذلك؛ لأن كل فرد راع فيما يخصه؛ فالمرعي متعدد بحسب تعدد مسئوليات كل راع وجملة: (وكلكم مسئول عن رعيته) عطفت على ما قبلها بالواو لاتفاقهما من حيث الخبرية، وتناسبهما مع اتحاد المسند إليه فيهما، ولفظ (كل) المضاف لكاف الخطاب وميم الجمع - كما ذكرنا سابقاً - يؤكد عموم المسئولية كما سبق، وأكد عموم الرعاية، وقوله: (رعيته) والرعية كل من شمله حفظ الراعي ونظره' وقوله: (الإمام راع) فصلت عما قبلها (كلكم راع) لكمال الاتصال حيث وقعت الثانية من الأولى موقع البدل من المبدل منه وهو بعض من كل؛ لأن الإمام وما عطف عليه بعض من قوله: (كلكم راع)، وقوله: (الإمام راع) بعد قوله: (كلكم راع) من ذكر الخاص بعد العام للتنبيه على فضله حتى كأنه ليس من جنس هذا العام، تنزيلاً للتغاير في الوصف منزلة التغاير في الذات، وكأنه امتاز عن سائر أفراد العام بما له من الأوصاف الشريفة جعل كأنه شيء آخر

مغاير للعام لا يشمله العام، ولا يعرف حكمه منه' ونص الرسول على ذكر المسند (راع) والمسند (مسئول) وتكراره مع كل مسند إليه مع إمكانية تركه لدلالة السابق عليه، فقد كرره مع الإمام والرجل والمرأة والخادم، وذلك ليتقرر المعنى، ويتأكد في النفس مع إفادة الثبوت والدوام لصفة الرعاية والمسئولية لكل فرد ممن ذكر على حدا، وحتى لا نظن أن الحكم الخاص فقط بالأئمة، أو الأمراء، أو فئة دون فئة، أو شخص دون شخص بل الجميع واقع تحت الحكم، والبداية بالإمام تدرج من الأعلى إلى الأدنى ؛لأن رعايته تشمل الجميع، ومسئوليته أكبر.

والمتأمل لحديث رسول الله ﷺ يجد أنه تدرج بمظلة الرعاية والمسئولية من الدائرة العظمى التي تشمل الجميع ابتداءً بالإمام، ومروراً بالرجل، والمرأة والعبد، وكل أفراد المجتمع حتى من ليس له شيء، فهو راعٍ لجوارحه، ومسئول عنها أمام الله، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنّ السّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلّ أُولـَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾[1]، هذه المسئولية، والرعاية التي حددها الرسول ﷺ تجعل في عنق كل فرد من أفراد المجتمع أمانة يجب أن يؤديها، وتقرر أنه مسئول عنها أمام الله، هذا الإحساس الذي يبثه الحديث يجعل المخاطب يفتش في نفسه، ويحاسبها عمن يرعاهم ومسئوليته تجاههم مما يجنبه خطأ التقصير في حقوقهم، أو ظلمهم ويجعله عنصراً إيجابياً في المجتمع، وقوله في جملة الختام: (وكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته) رد للعجز على الصدر وسماه بعض المتأخرين بـ (التصدير) ومن مزاياه أنه نوع من الدلالة فيه تقرير وبيان وتدليل؛ وأن فيه نوعاً من زيادة المعنى، حاصلاً من إيحاء اللفظ الأول بالثاني الذي هو تكرار له، وأن الأول كما أوحي بالثاني فإنه يذكر به... فهو رابط من روابط التذكر، وفيه فوق كل ما تقدم رونق من حسن السبك في الصناعة ومائية وطلاوة من جمال العرض[2].

المضامين الدعوية[3]

(١) سورة الإسراء، الآية ٣٦.

(٢) ينظر بلاغة الرسول ﷺ في تقويم الأخطاء د ناصر راضي الزهري، ٥٦.

(٣) تقدم هذا الحديث برقم (٢٨٣).

الحديث رقم (٦٥٤)

٦٥٤- وعن أَبي يعلى مَعْقِل بن يَسارٍ ﵁، قَالَ: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ، يقول: ((مَا مِنْ عَبْدٍ يَستَرْعِيهِ اللهُ رَعِيَّةً، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ، إلاَّ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ)) متفقٌ عليه[1].

وفي رواية[2]: ((فَلَمْ يَحُطْهَا بِنُصْحِهِ لَمْ يَجِدْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ)).

وفي رواية لمسلم[3]: ((مَا مِنْ أميرٍ يلي أمور[4] المُسْلِمينَ، ثُمَّ لا يَجْهَدُ لَهُمْ وَيَنْصَحُ لَهُمْ[5]، إلاَّ لَمْ يَدْخُلْ مَعَهُمُ الْجَنَّةَ)).

ترجمة الراوي:

معقل بن يسار: هو معقل بن يسار بن عبدالله المزني البصري، أسلم قبل الحديبية وشهد بيعة الرضوان، فكان من أهل البيعة. قال: لقد رأيتني يوم الشجرة والنبي ﷺ يبايع الناس وأنا رافعٌ غصناً من أغصانها عن رأسه ونحن أربع عشرة مائة[6].

نزل العراق فسكن في البصرة وبنى بها داراً، وهو الذي حفر نهر معقل بالبصرة بأمر عمر، فنسب إليه.

قال يونس بن عبيد: ما كان هاهنا - يعني بالبصرة- أحد من أصحاب النبي ﷺ أهنأ من معقل بن يسار.

---

(١) أخرجه البخاري ٧١٥١، ومسلم ١٤٢/٢٢٧.

(٢) أخرجها البخاري ٧١٥٠ عن أبي نعيم. أوردها المنذري في ترغيبه ٣٢٦٠.

(٣) أخرجها مسلم بعد حديث ١٤٢/٢٢٩، بدون رقم من حديث أبي المليح عامر بن أسامة، عن معقل. أوردها المنذري في ترغيبه ٣٢٦١.

(٤) لفظ مسلم: (أمر) والمثبت لفظ الحميدي في جمعه ٣٨٣/١، رقم ٦١٥.

(٥) (لهم) لا توجد عند مسلم، والمثبت لفظ الحميدي في جمعه.

(٦) أخرجه مسلم (٧٦-١٨٥٨).

مات في آخر خلافة معاوية، وقيل: في خلافة يزيد. ذكره البخاري في التاريخ الأوسط فيمن مات بين الستين إلى السبعين، حديثه في الصحيحين والسنن[١].

غريب الألفاظ:

يسترعيه: يستحفظه[٢].

رعية: كل من شمله حفظ الراعي ونظره[٣].

يحطها: يكلؤها ويصنها[٤].

لا يَجْهَد لهم: لا يستفرغ ما في الوسع والطاقة من قول أو فعل في رعاية مصالح الرعية[٥].

الشرح الأدبي

الحديث يدور حول ترهيب من ولي أمور الناس ثم قصَّر فيها، أو ضيعها، وقد جاء في أسلوب القصر بالنفي، والاستثناء لقصر الراعي الغاش على تحريم الجنة مما يعني ضمنا أنه من أهل النار، وقوله (مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللَّهُ رَعِيَّةً) أسلوب نفي مستغرق للجنس عن طريق وقوع النكرة (عبد) في سياق النفي وسبقها بحرف الجر (من)، والتعبير بالعبد للتذكير بالأصل حتى لا يغريه المنصب فيظن نفسه أفضل منهم فيتكبر على رعايتهم، والقيام بأمورهم، والتعبير بالفعل (يسترعي) أي يطلب منه رعايته، ونسبته لله إشارة إلى أن الله هو الذي ولاه، رعايتهم وبالمنطق العقلي سيحاسبه على ما

---

(١) الطبقات الكبرى، ابن سعد ١٤/٧ والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٦٧٤ وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود ٢٢٤/٥ والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ١٢٧٣، والسير ٥٧٦/٣ وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين ١٧٦/٧ وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ١٢١/٤ والأعلام، خير الدين الزركلي ٢٧١/٧، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك ١٨١٥/٣.

(٢) القاموس المحيط، الفيروزآبادي ١٢٨٩.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٣٦٤.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٣٦/١٣.

(٥) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ١٧٥.

ولاه، وقوله (يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ) أي يدركه الموت وهو على حالة الغش، والتعبير باسم الفاعل (غاش) للدلالة على الثبوت، والدوام في الغش، وتكرار الفعل (يموت) في صورة المضارع يصور الوالي الغاش في لحظة الفراق بين الدنيا، والآخرة، يصارع الموت، وما غش الناس من أجله من ملك، أو جاه، ومال لا يغني عنه شيئا، بل يكون حسرات عليه، وهو يرى ما ضيع فيه عمره، ودينه وهو يفارقه دون رجعة، إلى نار دون خروج لأنه حرم نفسه جنة لا تزول بسبب غشه لرعيته، مما يجعل كل مسئول عن قليل، أو كثير يفكر في من تحت يده ما حالي معهم؟!

فقه الحديث

قال النووي: (في هذا الحديث وجوب النصيحة على الوالي لرعيته والاجتهاد في مصالحهم والنصيحة لهم في دينهم ودنياهم، وفي قوله ﷺ: "ويموت يوم يموت وهو غاش" دليل على أن التوبة قبل حالة الموت نافعة)[1].

وقال الصنعاني: (والأحاديث دالة على تحريم الغش وأنّه من الكبائر لورود الوعيد عليه بعينه)[2].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: عظم المسؤولية في الإسلام.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: النصح للمسلمين والإخلاص في ذلك.

ثالثاً: من أساليب الدعوة: الترهيب.

رابعاً: من أهداف الدعوة: بيان مسئولية ولي الأمر.

أولاً- من موضوعات الدعوة: عظم المسؤولية في الإسلام:

إن من المعاني العظيمة التي يغرسها الإسلام في نفوس أتباعه حاكمين ومحكومين مبدأ التبعة والمسؤولية عن التصرفات والأعمال، ويتضح هذا مما جاء في الحديث "ما من عبد يسترعيه الله رعية، يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته، إلا حرم الله عليه الجنة".

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٨١/١٢/٦.

(٢) سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، الصنعاني ٩٦٨، وانظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٢٨/١٣.

قال ابن حجر: قال ابن بطال هذا وعيد شديد على أئمة الجور فمن ضيع من استرعاه الله أو خانهم أو ظلمهم، فقد توجه إليه الطلب بمظالم العباد يوم القيامة فكيف يقدر على التحلل من ظلم أمة عظيمة، ومعنى حرم الله عليه الجنة، أي أنفذ الله عليه الوعيد، ولم يُرْض المظلومين عنه، وقد جاء في هذه الرواية وهو غاش لرعيته، وفي رواية أخرى فلم يحطها بنصحه، والحاصل فيهما أنه أثبت الغش في إحداهما، ونفى النصيحة في الأخرى، فكأنه لا واسطة بينهما، ويحصل ذلك بظلمه لهم بأخذ أموالهم أو سفك دمائهم، أو انتهاك أعراضهم وحبس حقوقهم، وترك تعريفهم ما يجب عليهم في أمر دينهم ودنياهم، وبإهمال إقامة الحدود فيهم، وردع المفسدين منهم وترك حمايتهم[١]، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على عظم المسئولية في الإسلام، وقد جاء في الحديث الشريف عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: ((كلُّكم راعٍ، وكلكم مَسؤولٌ عن رَعيَّتِهِ: الإمامُ راعٍ ومَسؤولٌ عن رَعيَّتهِ))[٢].

ولعظم المسئولية، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾[٣]، وحذر الله من خيانة الأمانة فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٤]، قال الدكتور دراز: "إن المسئولية تفترض الإلزام سلفاً، وإن ذلك ينتج عنه من ناحية أن الحساب يجب أن يكون موضوعه الطريقة التي تم بها أداء عمل إلزامي، أو إهماله وسواء كان الإنسان مسئولاً أمام نفسه أم أمام الإنسان أم أمام الله سبحانه، فإنه يبقى مسئولاً"[٥].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٣/١٣٧.

(٢) أخرجه البخاري ٢٥٥٤، ومسلم ١٨٢٩.

(٣) سورة الأحزاب، آية: ٧٢.

(٤) سورة الأنفال، آية: ٢٧.

(٥) دستور الأخلاق في القرآن، د. محمد عبدالله دراز، تحقيق وتعريب، د. عبدالصبور شاهين ١٤٠-١٤١.

وقد جاء في موسوعة نضرة النعيم: "من المبادئ التي قررها الإسلام قصر المسؤولية على المسئول وحده، فلا يؤخذ بريء بجريرة مذنب، ولا يشترك أهله فيما اقترفت يداه، أو نسب إليه. وقد كان التشريع اليوناني القديم يقضي بالإعدام على المجرم نفسه، وعلى جميع أفراد أسرته في الخيانة العظمى وفي انتهاك الأشياء المقدسة، وحماية للإمام المسلم من الانزلاق في الظلم جاء قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[1]، والراعي والرعية يَدان تتعاونان على خير الأمة ورعاية مصالحها وكفالة الأمن على حياة الناس وأعراضهم وأموالهم، ولا يستقيم أمر الأمة، ولا تتسق شئونها إلا إذا قام كل من الحاكم والمحكوم بمسئولياته، وأخلص المعاونة لصاحبه، ولكي تنجح الأمة في مسيرتها، وتحقق غايتها لابد من أن ينهض كل بمسئولياته"[2].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: النصح للمسلمين والإخلاص في ذلك:

إن الإسلام يدعو أفراد المجتمع المسلم إلى التناصح فيما بينهم، وتقديم المشورة لمن يستشير، ويتضح هذا من الحديث مما جاء في رواية "فلم يحطها بنصحه" وفي رواية: "ثم لا يجهد لم وينصح لهم" قال الطيبي: يعني أن الله تعالى إنما ولاه واسترعاه على عباده ليديم النصيحة لهم، لا ليغشهم فيموت عليه، فلما قلب القضية استحق أن لا يجد رائحة الجنة، قال القاضي عياض: (من قلده الله تعالى شيئاً من أمور المسلمين، واسترعاه عليهم ونصبه لمصلحتهم في دينهم أو دنياهم، فإذا خان فيما اؤتمن عليه فلم ينصح فيما قلده إما بتضييع حقوقهم، وما يلزمه من أمور دينهم أو دنياهم، أو غير ذلك فقد غشهم. وتحريم دخول الجنة عليه إما أنه محمول على المستَحِلّ أو أنه محرم عليه دخولها مع الفائزين السابقين)[3].

---

(١) سورة الإسراء، آية: ١٥.

(٢) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين ٣٤٠٤/٨.

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ١٩٤/٧.

وما من شك في أن النصيحة واجبة وقد جاء في الحديث عن تميم الداري رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: ((الدِّينُ النَّصِيحَةُ قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: للهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ))[١]. وجعل الرسول ﷺ النصيحة من حقوق المسلم لأخيه المسلم فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ. قِيلَ: مَا هُنَّ؟ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: إِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ. وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ. وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ. وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ اللَّهَ فَشَمِّتْهُ. وَإِذَا مَرِضَ فَعُدْهُ. وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبِعْهُ))[٢].

قال النووي: (وقوله ﷺ: "إذا استنصحك" فمعناه طلب منك النصيحة فعليك أن تنصحه، ولا تداهنه ولا تغشه، ولا تمسك عن بيان النصيحة والله أعلم)[٣].

وقال ابن رجب: (وأما النصيحة للمسلمين فأن يحب لهم ما يحب لنفسه ويكره لهم ما يكره لنفسه ويشفق عليهم ويرحم صغيرهم ويوقر كبيرهم، ويحزن لحزنهم ويفرح لفرحهم، وإن ضره ذلك في دنياه كرخص أسعارهم، ويحب صلاحهم وإلفتهم ودوام النعم عليهم ونصرهم على عدوهم، ودفع كل أذى ومكروه عنهم)[٤].

وقال ابن حجر: (والنصيحة لأئمة المسلمين إعانتهم على ما حملوا القيام به، وتنبيههم عند الغفلة، وسد خلتهم عند الهفوة، وجمع الكلمة عليهم، ورد القلوب النافرة إليهم، ومن أعظم نصيحتهم دفعهم عن الظلم بالتي هي أحسن، ومن جملة أئمة المسلمين أئمة الاجتهاد، وتقع النصيحة لهم ببث علومهم ونشر مناقبهم وتحسين الظن بهم. والنصيحة لعامة المسلمين الشفقة عليهم، والسعي فيما يعود نفعه عليهم، وتعليمهم ما ينفعهم، وكف وجوه الأذى عنهم، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه)[٥].

---

(١) أخرجه مسلم ٥٥.

(٢) أخرجه مسلم ٢١٦٢.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٣٥٥.

(٤) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢٢٢/١

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٦٧/١.

ثالثاً- من أساليب الدعوة: الترهيب:

حيث جاء في الحديث "إِلاَّ حَرَّمَ الله عَلَيْهِ الْجَنَّةُ"، وفي رواية "لم يجد رائحة الجنة"، وفي رواية "إلا لم يدخل الجنة معهم"، وما من شك في أن أسلوب الترهيب من أساليب الدعوة النافعة الناجعة في رد النفس إلى الحق، وكبح جماحها عن المعصية والرزيلة، (ومن الملاحظ أن الله سبحانه وتعالى فطر النفوس الإنسانية على الحرص الشديد على السعي لما تصيب منه لذة أو منفعة، وعلى الحرص الشديد على الابتعاد عما ينالها منه ألم أو مضرة أو خسارة، أو شيء مما تكرهه وتنفر منه، والمطلوب من الداعية إيصال المدعو إلى الوثوق بصدق ما يقدم له من وعد مؤجل بثواب عظيم، والوثوق بصدق ما ينذر به من وعيد عظيم على المعصية ومخالفة الأوامر والنواهي)[1].

ومن صور استعمال القرآن الكريم لهذا الأسلوب قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ۝٣٢ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ۝٣٣ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾[2].

رابعاً- من أهداف الدعوة: بيان مسئولية ولي الأمر:

إن الإمارة أمانة ومن ثم كان ولي الأمر مسئولاً عن رعيته وعن النصح لهم، ويتضح هذا من سياق الحديث ورواياته فولى الأمر مسئول عن رعيته وهذا هدف رئيس من أهداف الدعوة الإسلامية.

قال القاضي عياض: (وهذا الحديث وما في معناه بيِّن في التحذير من غش المسلمين لمن قلّده الله شيئاً من أمرهم، واسترعاه عليهم ونصبه خليفة لمصلحتهم، وجعله واسطة بينه وبينهم في تدبير أمورهم في دينهم ودنياهم، فإذا خان فيما اؤتمن عليه، ولم ينصح فيما قلّده واستخلف عليه إما بتضييع لتعريفهم ما يلزمهم من دينهم وأخذهم به والقيام بما يتعين عليه من حفظ شرائعهم والذب عنها لكل مُتصد لإدخال داخلة فيها، أو

---

(١) فقه الدعوة إلى الله، عبدالرحمن حسن حنبكة الميداني ٦٣٥/١.

(٢) سورة الحاقة، الآيات: ٣٠-٣٤.

تحريف لمعانيها، أو إهمال حدودهم، أو تضييع حقوقهم، أو ترك حماية حوزتهم، ومجاهدة عدوهم، أو ترك سيرة العدل فيهم - فقد غشهم. وقد نبه ﷺ أن ذلك من كبائر الذنوب الموبقة المبعدة عن الجنة إذا دخلها السابقون والمقربون، إن أنفذ الله عليه وعيده الموجب لعذابه بالنار، أو إيقافه بالبرزخ والأعراف المدة التي يشاء الله تعالى، أو يحرم الجنة رأساً إن فعل ذلك مستحلاً)[١].

قال ابن تيمية: (والواجب على الوالي المسلم أن يجتهد في القيام بمسئولياته حسب وسعه، فمن ولى ولاية يقصد بها طاعة الله، وإقامة ما يمكنه من دينه ومصالح المسلمين، وأقام فيها ما يمكنه من الواجبات واجتناب ما يمكنه من المحرمات بما يؤاخذ بما يعجز عنه، فإن تولية الأبرار خير للأمة من تولية الفجار)[٢].

قال أبو يعلي الفراء: (ومما يلزم الإمام من أمور الأمة حفظ الدين على الأصول التي أجمع عليها سلف الأمة، فإن زاغ ذو شبهة عنه بين له الحجة، وأوضح له الصواب، وأخذه بما يلزمه من الحقوق والحدود ليكون الدين محروساً من خلل، والأمة ممنوعة من زلل. ويلزمه تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين وقطع الخصام بينهم حتى تظهر النصفة فلا يتعدى ظالم ولا يضعف مظلوم، وحماية البيضة والذب عن الحوزة ليتصرف الناس في المعايش وينتشروا في الأسفار آمنين، ويلزمه إقامة الحدود لتصان محارم الله تعالى عن الانتهاك، وتحفظ حقوق عباده من إتلاف واستهلاك ويلزمه استكفاء الأمناء وتقليد النصحاء فيما يفوضه إليهم من الأعمال، ويكله إليهم من الأموال، لتكون الأعمال مضبوطة والأموال محفوظة، ويلزمه أن يباشر بنفسه مشارفة الأمور وتصفح الأحوال ليهتم بسياسة الأمة وحراسة الملة، ولا يعول على التفويض تشاغلاً بلذة أو عبادة فقد يخون الأمين ويغش الناصح. ويلزمه تحصين الثغور بالعدة المانعة، والقوة الدافعة، حتى لا تظفر الأعداء بغرة ينتهكون بها محرماً، ويسفكون فيها دماً لمسلم أو معاهد)[٣].

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ١/٤٤٦ - ٤٤٧.

(٢) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية ص ١٤٢.

(٣) الأحكام السلطانية، القاضي أبو يعلي محمد بن الحسين الفراء، تصحيح وتعليق: محمد حامد الفقي ص ٢٧، ٢٨.

الحديث رقم (٦٥٥)

٦٥٥- وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ، يقول في بيتي هَذَا: ((اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ امْرِ أُمَّتِي شَيْئاً فَشَقَّ عَلَيْهِمْ، فاشْقُقْ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئاً فَرَفَقَ بِهِمْ، فَارفُقْ بِهِ)) رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

غريب الألفاظ:

فشق عليهم: من المشقة وهي الشدة والثقل والجهد[2].

الشرح الأدبي

في الحديث التالي يسلك الرسول ﷺ في تقويمه للخطأ مسلكاً خاصاً يتسم بالعموم، و ينزع في علاجه منزعاً نفسياً بحتاً من خلال أساليب بلاغية بلغت القمة في الترهيب، والترغيب ببراعة، ودقة، وهو بصدد تقويم خطأ المشقة على الناس ممن تولى أمراً من أمورهم، وصارت حاجة الناس إليه، ومصالحهم في يده، وقد استخدم الرسول ﷺ عدة أساليب بلاغية منها:

١- أساليب النداء، وقد جاء بصيغة خاصة هي (اللهم) وهذه الصيغة لها خصوصية علي غيرها حيث أنها - دائما- تتصدر العظائم، وإذا كان النداء عامة يتصدر الأمور المهمة علي اختلاف المنادَي والمنادي فإن صيغة (اللهم) تتصدر أعظم ما ينادى من أجله، وتختص بأعظم منادًى، وليدة لحظات القرب، والتعلق بالله خوفاً من ضر، أو رجاءً في خير، وقوله الرسول ﷺ (اللهم من ولي من أمر أمتي) بصيغته هذه للتوجه إلي الله توحي بعظم ما سيليها وأنه يستحق الاهتمام والإنصات وتحقق للأسلوب عدة فوائد: تحقيق اللفت، والتنبيه، و تحقيق الإنصات الممهد لبلوغ الخبر لأسماع المخاطبين،

---

(١) برقم ١٨٢٨/١٩. أورده المنذري في ترغيبه ٣٢٥٦.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ش ق ق).

وتحقيق الترقب، والتشويق الباعث علي متابعة الخبر حتى النهاية، وتبعث مشاعر الوجل، والرهبة، والإشفاق بمعونة باقي السياق، وهذا النداء في إطار تقويم الخطأ سوط مشهر يدوى خلف كل من ولي شيئا من أمور الناس يحميه من نفسه الأمارة بالسوء، ويحمى الناس من جوره عليهم.

٢- أسلوب الشرط في قول (من ولى من أمر أمتي شيئا فشق عليهم فاشقق عليه) وجملة الشرط هي قوله (من ولى من أمر أمتي شيئا) بما عطف عليها في قوله (فشق عليهم) وهى توجه جملة الترهيب، وقذفة الوعيد المنبعثه من النداء الخاص في (اللهم) وما تبعها إلى ولاة الأمور، وساسة الناس، وهذا التوجيه من الرسول ﷺ يجعل الأسماع تطرق، والقلوب تخشع لمعرفة خبرهم، أو وجلاً من إدراك سهم الدعاء المنطلق من كنانة مَنْ لا تخطيء له رمية صوب من هذه صفتهم، وهذا الترقب، والإشفاق مبعثه أسلوب الشرط علاوة على ما حملت جملة الشرط من ألفاظ تدل علي المشقة المتداركة بالعذاب من الله.

ثم إضافة الرسول ﷺ الأمة لنفسه، والذي يوحي بشمول الحكم لكل من انطبقت عليه الصفة لكونهم جميعا من أمته ﷺ حتى إذا جاءت جملة الجواب (فاشقق عليه) معطوفة علي سابقتها (فشق عليهم) جزاء من جنس العمل غير أن مشقة الله عذاب لا يتصور، ولعنة تطاردهم في كل موقف حتى تسلمهم في قيد المشقة لزبانية جهنم- أو ما شاء الله.

وعلي النقيض من السهم المنطلق من كنانة الرسول ﷺ تجاه الوالي الذي يشق علي رعيته في جملة الشرط الأولى تجد الصورة الثانية طي جملة الشرط (ومن ولى من أمر أمتي شيئا فرفق بهم فارفق به) تتبعث ورودا هفافة ومشاعر رفرافة، وعبقاً يحيط بالوالي الرفيق ينبعث من دعوة الرسول ﷺ في كل مكان وزمان، حتى يستقر في ظل عرش الرحمن معه بطاقة مكتوب فيها (وإمام عادل).

١- التنكير، وهو في إطار تقويم الخطأ يسوى كل صغير وكبير في الحكم في كلمة (شيئاً) وتنكيرها يفيد التقليل الإشارة إلي أن الحكم ينال كل من ولي من

أمر المسلمين قليلاً أو كثيراً، ورغم بساطة هذه اللمسة البلاغية في التركيب إلا أنها كانت في استيعابها أعظم مما يتصور، فلم تدع هذه اللمحة شخصاً ذا رتبة، أو منصب في المجتمع المسلم يباشر من خلاله أمراً صغر، أو كبر إلا، وجعلت دعوة الرسول ﷺ سيفاً علي رقبته إن شق؛ أو نبع حنان إن رق، واستخدام كلمة من في قوله (من أمر) استغراق للعمل الصغير، والكبير.

٤- الطباق بين مادة (الشق) في قوله (من ولي من أمر أمتى شيئاً فشق عليهم فاشفق عليه) وبين مادة (الرفق) في قوله (ومن ولى من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به) تبدو فيه براعة الرسول ﷺ في وضع الضد بإزاء الضد حتى يتضح مدى الفارق بين والٍ تطارده المشقة أينما حل بمشقته على رعيته وبين والٍ تحيط به رحمة الله برفقه على من وليهم، وهذا الأسلوب له بُعد نفسي يتمثل في مراجعة الوجدان مرة بعد مرة لكلتا الصورتين يرى من خلالها المخاطب المنوط بالحكم دعوة الرسول ﷺ لعنة تطارده إن شق في ولايته بينما يرى الرفيق دعوة الرسول ﷺ رحمة تغمر قلبه وترضى ربه كلما رَق.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: اهتمام النبي ﷺ وشفقته على أمر أمته.

ثالثاً: من أهداف الدعوة: رفع الحرج ودفع المشقة.

رابعاً: من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب.

خامساً: من صفات الداعية: الرفق.

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد:

حيث جاء في الحديث " يقول في بيتي هذا"، وأسلوب التوكيد من أساليب الدعوة التي تقنع المدعوين، وتبين مدى ثقة الداعي فيما يقول وتمكنه منه ومن صور استعمال القرآن الكريم لهذا الأسلوب قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾[1]، وقوله سبحانه:

---

(١) سورة النبأ، آية: ٣١.

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾(١).

قال ابن عثيمين: (والتوكيد معناه: التقوية والتثبيت فيقال مثلاً: وكّد الحديث أو أكّد الحديث، ويقال وكّد الخبر أو أكّد الخبر وما أشبه ذلك. إذن هو التقوية وله ألفاظ مخصوصة ومعينة في اللغة العربية وتعيينه علم بالتتبع والاستقراء)(٢).

ثانياً- من موضوعات الدعوة: اهتمام النبي ﷺ وشفقته على أمر أمته:

إن الرسول الكريم ﷺ شفيق رحيم بأمته ويظهر هذا من الحديث في قول النبي ﷺ: "اللهم من ولى من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه، ومن ولى من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به"، ومما لاشك فيه أن النبي ﷺ رحيم بأمته قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(٣).

قال السيوطي: (قال قتادة: جعله الله من أنفسهم فلا يحسدونه على ما أعطاه من النبوة والكرامة، عزيز عليه عنت مؤمنهم، حريص على ضالهم أن يهديه الله، بالمؤمنين رءوف رحيم، وعن ابن عباس قال: شديد عليه ما شق عليكم حريص عليكم أن يؤمن كفاركم)(٤).

وبيّن الله تعالى شفقة النبي ﷺ ورحمته فقال سبحانه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾(٥)، ومما يدل على شفقة النبي ﷺ واهتمامه بأمته ما جاء عن مالك بن الحويرث قال: أَتَيْنَا رسولَ الله ﷺ ونحن شَبَبَةٌ متقاربونَ فَأَقَمْنَا عِنْدَهُ عشرينَ ليلةَ، وكانَ رسولُ

---

(١) سورة الفجر، آية: ٢١.

(٢) شرح الأجرومية، محمد بن صالح العثيمين ص ٢٦٣.

(٣) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

(٤) الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٦١٤/٧.

(٥) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

الله ﷺ رَحيماً رَقِيقاً، فَلَمَّا ظَنَّ أَنَّا قد اشْتَهَيْنَا أَهْلِينَا واشْتَقْنَا، سأَلَنَا عمن تَرَكْنَا بعدنَا، فأخبرناهُ فقالَ: ((ارجعُوا إلى أهاليكُمْ فأقيمُوا فيهمْ وعلِّمُوهمْ ومروهُمْ))[1].

ومما يدل على شفقته وحرصه ﷺ على أمته ما جاء عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((إنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمَهُ. فَقَالَ: يَا قَوْمِ إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بِعَيْنَيَّ. وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ. فَالنَّجَاءَ. فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ. فَأَدْلَجُوا فَانْطَلَقُوا عَلَى مُهْلَتِهِمْ. وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ. فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاحَهُمْ. فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي وَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ. وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ مَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ))[2]. وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَوْقَدَ نَاراً. فَجَعَلَ الْجَنَادِبُ وَالْفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهَا. وَهُوَ يَذُبُّهُنَّ عَنْهَا. وَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ. وَأَنْتُمْ تَفَلَّتُونَ مِنْ يَدِي))[3]. أما يوم العرض فكامل شفقته ﷺ بأمته، لقوله ﷺ: "لكل نبي دعوة مستجابة يدعو بها، وأريد أن أختبئ دعوتي شفاعة لأمتي في الآخرة"[4].

ثالثاً- من أهداف الدعوة: رفع الحرج ودفع المشقة:

إن الشريعة الإسلامية جاءت برفع الحرج ودفع المشقة عن الناس والتيسير عليهم، ومما يدل على ذلك ما جاء في الحديث "فشق عليهم فاشقق عليه"، قال النووي: (وهذا الحديث من أبلغ الزواجر عن المشقة على الناس وأعظم الحث على الرفق بهم وقد تكاثرت وتظاهرت النصوص الشرعية على هذا)[5].

ولا شك أن من أهم أهداف الدعوة رفع الحرج عن الناس، ودفع المشقة عنهم قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[6]، قال ابن كثير: (أي: ما كلفكم ما لا

(١) أخرجه البخاري ٦٢٨، ومسلم ٦٧٤.

(٢) أخرجه البخاري ٦٤٨٢، ومسلم ٢٢٨٣.

(٣) أخرجه مسلم ٢٢٨٥.

(٤) أخرجه البخاري ٦٣٠٤.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٨٥

(٦) سورة الحج، آية: ٧٨.

تطيقون، وما ألزمكم بشيء فشق عليكم إلا جعل الله لكم فرجاً ومخرجاً، ومما يدل على ذلك الرخص والتخفيفات في سائر الفرائض والواجبات)[١].

وقال: ابن عاشور: (بين سبحانه تفضيل هذا الدين المستتبع تفضيل أهله بأن جعله ديناً لا حرج فيه لأن ذلك يسهل العمل به مع حصول مقصد الشريعة من العمل فيسعد أهله بسهولة امتثاله، وقد امتن الله بهذا المعنى في آيات كثيرة من القرآن)[٢].

وفي بيان رفع الحرج وتيسير الشرع قال سبحانه وتعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾[٣]، وقال جل شأنه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[٤]، ولهذا (كان من مظاهر عدم الحرج في الشريعة الإسلامية، ونتيجة له قلة التكاليف التي كلف الله بها عباده، إذ في كثرة التكاليف من الحرج ما يضعف النفس ويورثها الملل والانقطاع عن الأعمال النافعة، وقد تكرم الله برفع ذلك)[٥].

رابعاً- من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب:

حيث جاء في الحديث "فاشقق عليه" وهذا ترهيب، "فارفق به" وهذا ترغيب، وأسلوب الترغيب والترهيب من أساليب الدعوة النافعة التي تكون سبباً في حمل المدعوين على الخير وبعدهم عن الشر، "والترغيب هو كل ما يشوق المدعو إلى الاستجابة وقبول الحق والترهيب كل ما يخيف المدعو ويحذره من عدم الاستجابة أو رفض الحق، والقرآن الكريم مملوء بما يرغب الناس في قبول دعوة الإسلام والتحذير من رفضها مما يدل دلالة قاطعة على أهمية هذا الأسلوب وعدم إهماله من قبل الداعي المسلم"[٦].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، ٤٥٥/٥.

(٢) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور ٣٤٩/١٧/٧.

(٣) سورة المائدة، آية : ٦.

(٤) سورة البقرة، آية: ١٨٥.

(٥) مظاهر التيسير في التشريع الإسلامي، د. عبدالعزيز عزام، ١٣.

(٦) مستلزمات الدعوة في العصر الحاضر، علي صالح المرشد، ١٦٠.

خامساً- من صفات الداعية: الرفق:

يتضح هذا من سياق الحديث ورفق النبي ﷺ بأمته، وقد جاء في الحديث عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: ((إِنَّ الرِّفْقَ لاَ يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلاَّ زَانَهُ، وَلاَ يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ شَانَهُ))(١)، وفي الحديث أيضاً عن جرير بن عبدالله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ، يُحْرَمِ الْخَيْرَ))(٢). والدعاة أحوج الناس إلى أن يتصفوا بالرفق (فالناس في حاجة إلى كنف رحيم وإلى رعاية فائقة، وإلى بشاشة سمحة وإلى ود يسعهم وحلم لا يضيق بجهلهم وضعفهم ونقصهم، في حاجة إلى قلب كبير يعطيهم ولا يحتاج منهم إلى عطاء ويحمل همومهم ولا يعنيهم بهمه، ويجدون عنده دائماً الاهتمام والرعاية والعطف والسماحة، وهكذا كان قلب رسول الله ﷺ)(٣).

قال أبو حامد الغزالي: (اعلم أن الرفق محمود ويضاده العنف والحدة. والعنف نتيجة الغضب والفظاظة، والرفق واللين نتيجة حسن الخلق والسلامة. فالرفق في الأمور ثمرة لا يثمرها إلا حسن الخلق، ولا يحسن الخلق إلا بضبط قوة الغضب وقوة الشهوة وحفظهما على حد الاعتدال، ولأجل هذا أثنى رسول الله ﷺ على الرفق وبالغ فيه. قال سفيان الثوري لأصحابه: أتدرون ما الرفق؟ قالوا: قل يا أبا محمد قال: أن تضع الأمور مواضعها: الشدة في موضعها واللين في موضعه والسيف في موضعه والسوط في موضعه، وهذه إشارة إلى أنه لابد من مزج الغلظة باللين والفظاظة بالرفق كما قيل:

وَوَضْعُ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السيفِ ... مُضِرٌّ كوضعِ السيف في موضع ...(٤)

فالمحمود وسط بين العنف واللين، كما في سائر الأخلاق، ولكن لما كانت الطباع إلى العنف والحدة أميل كانت الحاجة إلى ترغيبهم في جانب الرفق أكثر، فلذلك كثر ثناء الشرع على جانب الرفق دون العنف)(٥).

---

(١) أخرجه مسلم ٢٥٩٤.

(٢) أخرجه مسلم ٢٥٩٢.

(٣) المصفى من صفات الدعاة، عبدالحميد البلالي، ٤٨.

(٤) خزانة الأدب. قافية الأدب ٢٠٠/١، نفح الطيب ٢٨٧/١، يتيمة الدهر ٢٥١/١.

(٥) إحياء علوم الدين، الإمام الغزالي ١٨٤/٣-١٨٥.

الحديث رقم (٦٥٦)

٦٥٦- وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: ((كَانَتْ بَنُو إسرَائِيلَ تَسُوسُهُم الأَنبِيَاء، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ، وَإنَّهُ لاَ نَبِيَّ بَعْدِي، وَسَيكُونُ بَعْدِي خُلَفَاءُ فَيَكثُرُونَ))، قالوا: يَا رسول الله، فَمَا تَأْمُرُنَا؟ قَالَ: ((أَوْفُوا بِبَيْعَةِ الأَوَّل فَالأَوَّل، ثُمَّ اعْطُوهُمْ حَقَّهُمْ (وَاسْأَلُوا الله الَّذِي لَكُمْ)[(١)]، فَإنَّ اللهَ سَائِلُهُمْ عَمَّا اسْتَرْعَاهُمْ)) متفقٌ عليه[(٢)].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

تسوسهم: من السياسة وهي القيام على الشيء بما يصلحه والمراد: يتولون أمورهم كما تفعل الأمراء والولاة بالرعية[(٣)].

البَيْعة: المعاقدة والمعاهدة والتولية وبذل العهد على الطاعة والنصرة. كما أنها عقد بين الأمة والحاكم يرتب على كل منهما تجاه الآخر حقوقاً وواجبات[(٤)].

استرعاهم: استحفظهم[(٥)].

الشرح الأدبي

البداية بالفعل الماضي كان عودة في الزمن لنقل خبر محقق الوقوع سابق للحديث وتعلقه ببني اسرائيل يعطيه طرافة تجذب المخاطبين لعجيب ما أحدثوا مع أنبيائهم، وقوله (تسوسهم الأنبياء) أي تحكمهم وتتولى إمرتهم وقوله (كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ)

---

(١) هذه الزيادة ليست عندهما، وإنما هي عند إسحاق بن راهويه في مسنده ٢٥٦/١، رقم ٢٢٢.

(٢) أخرجه البخاري ٣٤٥٥، ومسلم ١٨٤٢/٤٤ ولفظهما سواء، بدون الزيادة.

(٣) شرح مسلم ١١٩٣.

(٤) معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ٩٥.

(٥) القاموس المحيط، الفيروزآبادي ١٢٨٩.

أسلوب شرط يربط هلاك نبي بخلف نبي، وبين الهلاك والخلاف طباق يؤكد تتابع الأنبياء على حكمهم دون فترة يتخللها حكم غيرهم وقوله (وَإِنَّهُ لاَ نَبِيَّ بَعْدِي) أسلوب نفي مؤكد بحرف التوكيد وضمير الشأن الذي يؤذن بتفخيم ما بعده، وهو خبر انقطاع النبوة بموت الرسول ﷺ (وَسَيَكُونُ بَعْدِي خُلَفَاءُ فَيَكْثُرُونَ) السين المتصلة بالفعل تدل على المستقبل القريب، وهو من معجزاته ﷺ حيث أخبر بما كان في الماضي وما يكون بعده في المستقبل يدل على ذلك الظرف المضاف لياء المتكلم (بعدي) والخلفاء جمع خليفة وهو ما يتلو السابق، وقول الصحابة: (فَمَا تَأْمُرُنَا؟) يشير إلى أنهم فهموا أنه سيكون هناك خلاف، وهو ما دل عليه قوله (فيكثرون) وقوله (أَوْفُوا بِبَيْعَةِ الأَوَّلِ فَالأَوَّلِ، ثُمَّ أَعْطُوهُمْ حَقَّهُمْ) التعبير بالوفاء يشير إلى الطاعة وتسليم الحق لأهله والترتيب، والتعقيب المفهوم من الربط بالفاء في قوله (الأَوَّلِ فَالأَوَّلِ) يشير إلى عدم مبايعة خليفة في وجود خليفة؛ لأن ذلك شق مباشر لوحدة الأمة التي تضعف كيانها، وتضيع البلاد، والعباد كما حدث بعد، وبين قوله (وَاسْأَلُوا... سَائِلُهُمْ) جناس يؤكد المعنى الذي يخص كل فرد بما يسأل عنه بعد الوفاء بما عليه.

فقه الحديث

١- جواز القول هلك فلان (قال النووي في هذا الحديث جواز قول هلك فلان إذا مات، وقد كثرت الأحاديث به، وجاء في القرآن العزيز قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾[1])[2].

٢- تقديم أمر الدين على أمر الدنيا، لأنه ﷺ أمر بتوفية حق السلطان لما فيه من إعلاء كلمة الدين وكف الفتنة والشر، وتأخير أمر المطالبة بحقه لا يسقطه، وقد وعده الله أنه يخلصه ويوفيه إياه ولو في الدار الآخرة[3].

---

(١) سورة غافر، آية: ٣٤.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٩٤/١٢/٦.

(٣) المرجع السابق ١٩٤/١٢/٦، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٩٧/٦.

٣- حكم بيعة الأول:

إذا بويع الخليفة بعد خليفة فبيعة الأول صحيحة يجب الوفاء بها وبيعة الثاني باطلة، قال النووي: (سواءً عقدوا للثاني عَالِمين بعقد الأول أم لا، سواءً كانوا في بلد واحد أو أكثر. سواء كانوا في بلد الإمام المنفصل أم لا. هذا هو الصواب الذي عليه أصحابنا وجماهير العلماء، وقيل: تكون لمن عقدت له في بلد الإمام دون غيره، وقيل: يقرع بينهما، قال: وهما قولان فاسدان.

واتفق العلماء على أنه لا يجوز أن يعقد لخليفتين في عصر واحد سواء اتسعت دار الإسلام أم لا، وقال إمام الحرمين في كتابه الإرشاد: قال أصحابنا: لا يجوز عقدها لشخصين، قال: وعندي أنه لا يجوز عقدها لاثنين في صقع واحد، وهذا مجمع عليه. قال: فإن بعد ما بين الإمامين وتخللت بينهما شسوع فللاحتمال فيه مجال، قال: وهو خارج من القواطع، وحكى المازري هذا القول عن بعض المتأخرين من أهل الأصل، وأراد به إمام الحرمين، وهو قول فاسد مخالف لما عليه السلف والخلف، ولظواهر إطلاق الأحاديث)[1].

وجاء في الموسوعة الفقهية: (وذهب المالكية إلى أنه إذا تباعدت البلاد وتعذرت الاستنابة، جاز تعدد الأئمة بقدر الحاجة، وهو قول عند الشافعية)[2].

المضامين الدعوية

أولاً: من تاريخ الدعوة: سياسة الأنبياء لبني إسرائيل.

ثانياً: من وسائل الدعوة: البيعة وأهمية الوفاء بها.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: السمع والطاعة لولاة الأمر المسلمين.

رابعاً: من حقوق المدعو: مناصحة الحاكم المسلم بالحسنى والرفق.

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٩٤/١٢/٦.

(٢) جواهر الإكليل ٢٥١/١، وروضة الطالبين، الإمام النووي، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، وعلي محمد معوض ٤٧/١٠، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ١٣٢/٤ (عن الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٢٦/٦).

أولاً- من تاريخ الدعوة: سياسة الأنبياء لبني إسرائيل:

حيث جاء في الحديث "كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء"، وهذا يعتبر من تاريخ الدعوة الذي يجب أن يستفيد منه الدعاة إلى الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١)، قال النووي: (كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء" أى يتولون أمورهم كما تفعل الأمراء والولاة بالرعية. والسياسة القيام على الشيء بما يصلحه)(٢)، وقال ابن حجر: (تسوسهم الأنبياء، أى أنهم كانوا إذا ظهر فيهم فساد بعث الله لهم نبياً يقيم لهم أمرهم، ويزيل ما غيروا من أحكام التوراة، وفيه إشارة إلى أنه لابد للرعية من قائم بأمورها يحملها على الطريق الحسنة، وينصف المظلوم من الظالم)(٣).

ولعل من أبرز الأنبياء الذين ساسوا بني إسرائيل وجمعوا بين النبوة والملك فيهم هو نبي الله داود وابنه سليمان، وقد أنعم الله عليه أيضاً بالنبوة والملك وآتاه الحكمة. ولقد صور القرآن الكريم سياسة الأنبياء لبني إسرائيل فيما جاء في قصة طالوت وجالوت، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٤)، وفي هذه المعركة كان طالوت قائدًا عليهم ومعه داود عليه السلام وهو الذي قتل جالوت.

قال عفيف عبدالفتاح طبارة: (اجتاز طالوت النهر مع الذين صبروا على العطش والتعب. وقال الفريق المؤمن منهم كم حدث أن جماعة قليلة غلبت جماعة كثيرة العدد

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٧٦.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٩٣.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ٥٧٣/٦.

(٤) سورة البقرة، آية: ٢٤٦.

بإذن الله فلنصبر على لقاء العدو فإن الله مع الصابرين بالنصر والتأييد. ولما خرج المؤمنون لقتال جالوت وجيشه اتجهوا إلى الله ضارعين أن ينصرهم على أعدائهم فاستجاب الله دعاءهم، وقتل داود جالوت، وأعطاه الله ملك بني إسرائيل وعلّمه ما شاء من علم وحكمة)[١].

ثانياً- من وسائل الدعوة: البيعة واهمية الوفاء بها:

إن وسائل الدعوة متعددة ومتنوعة، ومن هذه الوسائل البيعة حيث جاء في الحديث "أوفوا ببيعة الأول فالأول" وإن البيعة وسيلة هامة من وسائل الدعوة، قال ابن الأثير: (والبيعة عبارة عن المعاقدة والمعاهدة على أمرٍ كأن كل واحد منهما باع ما عنده من صاحبه وأعطاه خالصة نفسه وطاعته ودخيلة أمره)[٢].

وقد دلت النصوص الشرعية على وجوب الوفاء بالبيعة التي هي العهد والوعد، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾[٣]. وقال سبحانه: ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾[٤]. وإذا كانت البيعة معاهدة ومعاقدة على أمر فإن الله تعالى قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾[٥].

قال أبو بكر الجزائري: (يأمر الله المؤمنين بأمر عظيم هو الوفاء بالعهود والعقود وأولها الوفاء بالعهود التي بينهم وبينه سبحانه ومثلها في وجوب الوفاء بها عهود الناس فيما بينهم، إذ الكل أمر الله تعالى بالوفاء به لاسيما العهود الموثقة بالأيمان وما كان متعلقاً بحقوق الناس)[٦].

---

(١) مع الأنبياء في القرآن ٢٨٠.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٩٨.

(٣) سورة النحل، آية: ٩١.

(٤) سورة الإسراء، آية: ٣٤.

(٥) سورة المائدة، آية: ١.

(٦) نداءات الرحمن لأهل الإيمان ص ٧٦.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: السمع والطاعة لولاة الأمر المسلمين:

إن من الأمور الهامة التي تستقيم بها الدول السمع والطاعة لولاة الأمر المسلمين وعدم المنازعة ويتضح هذا مما جاء في الحديث "ثم أعطوهم حقهم"، قال ابن حجر: (أي أطيعوهم وعاشروهم بالسمع والطاعة، فإن الله يحاسبهم على ما يفعلونه بكم)(١). وقد دلت النصوص الشرعية على وجوب السمع والطاعة لولاة الأمر، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾(٢).

قال ابن كثير: (فهذه أوامر بطاعة العلماء والأمراء ولهذا قال: "أطيعوا الله" أي اتبعوا كتابه، "وأطيعوا الرسول" أي خذوا بسنته، "وأولي الأمر منكم" أي فيما أمروكم به من طاعة الله لا في معصية الله فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الله)(٣). وقد جاء في الحديث الشريف: ((السمعُ والطاعةُ على المرءِ المسلم فيما أحب وكره، ما لم يُؤمرْ بمعصية، فإذا أُمِرَ بمعصيةٍ فلا سمعَ ولا طاعة))(٤).

وجاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللّه . وَمَنْ يَعْصِنِي فَقَدْ عَصَى اللّهَ. وَمَنْ يُطِعِ الأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي. وَمَنْ يَعْصِ الأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي))(٥).

قال القاضي عياض: (إن الله تعالى أمر بطاعة رسوله فمن عصاه فقد عصى أمر الله، وأمر الرسول بطاعة أميره فمن عصاه فقد عصى أمر رسوله. ولا خلاف في وجوب طاعة الأمراء فيما لا يخالف أمر الله وما لم يأمر بمعصية. وقد جاء في الأحاديث السمع والطاعة في المنشط والمكره، وهذا يدل على وجوبها فيما يشق ويكره في باب الدنيا لا

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٧٤/٦

(٢) سورة النساء، آية: ٥٩.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣٤٥/٢.

(٤) أخرجه البخاري ٧١٤٤، ومسلم ١٨٣٩.

(٥) أخرجه مسلم ١٨٣٥.

فيما يخالف أمر الله، وقد جاء في الأحاديث: السمعُ والطاعةُ وإن كان عبداً حبشياً مجدع الأطراف، وإنما أشار بهذا الوصف إلى أدنى العبيد السود، ووحشهم ووغدهم لاستعمالهم في الرعية للإبل وغليظ الخدمة، فقد تتقطع أصابع أرجلهم من خشونة الأرض وشديد الأعمال، على طريق المبالغة في طاعة الأمراء كيف ما كانوا من شرف أوضعة. والطاعة تكون فيما لم يخالف أمر الله)[١].

وقال محمد تقي العثماني: (ومن مبادئ السياسة الإسلامية العظيمة مبدأ طاعة الأمير، وأن المسلم يجب عليه أن يطيع أميره في الأمور المباحة فإن أمر الأمير بفعل مباح، وجبت مباشرته، وإن نهى عن أمر مباح حرم ارتكابه لأن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[٢]. فلو كان المراد من إطاعة أولي الأمر إطاعتهم في الواجبات الشرعية فحسب لما كان هناك داع لاستقلالهم بالذكر في هذه الآية لأن إطاعتهم في الواجبات الشرعية ليست إطاعة لأولي الأمر وإنما هي إطاعة لله ورسوله، فلما أفردهم الله سبحانه بالذكر ظهر أن المراد إطاعتهم في الأمور المباحة. ومن هنا صرح الفقهاء بأن طاعة الإمام فيما ليس بمعصية واجبة. وهذه الطاعة كما أنها مشروطة بكون أمر الحاكم غير معصية، فإنها مشروطة بكون الأمر صادراً عن مصلحة لا عن هوى أو ظلم، لأن الحاكم لا يطاع لذاته، وإنما يطاع من حيث كونه متولٍ لمصالح العامة)[٣].

رابعاً- من حقوق المدعو: مناصحة الحاكم المسلم بالحسنى والرفق:

إن المجتمع الإسلامي يقوم على التناصح والتواصي فيما بين أفراده حكاماً ومحكومين ورؤساء ومرءوسين، ومن حقوق المدعو مناصحة ولي الأمر، ولكن ينبغي أن يكون ذلك بالحسنى والرفق، ويتضح هذا من الحديث في قوله ﷺ: "واسألوا الله الذي لكم" هذا، وقد جعل الرسول الكريم أمر الدين يقوم على النصيحة، فعن تميم

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٢٤٠/٦-٢٤٢.

(٢) سورة النساء، آية: ٥٩.

(٣) تكملة فتح الملهم ٢٦٨/٩، ٢٦٩

الداري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ((الدِّينُ النَّصيحةُ» ثلاثاً، قُلْنا: لمنْ يا رسولَ اللّهِ؟ قال: ((للَّه ولكتابه ولرسوله ولأئِمَّةِ المُسْلمين وعامَّتِهِمْ))[1].

قال ابن رجب الحنبلي: (وأما النصيحة لأئمة المسلمين فحُب صلاحهم ورشدهم وعدلهم وحب اجتماع الأمة عليهم وكراهة افتراق الأمة عليهم، والتدين بطاعتهم في طاعة الله عز وجل، والبغض لمن رأى الخروج عليهم وحب إعزازهم في طاعة الله عز وجل. ومن نصيحتهم - كما قال أبو عمرو ابن الصلاح- معاونتهم على الحق، وتذكيرهم به وتنبيههم في رفق ولطف ومجانبة الوثوب عليهم والدعاء لهم بالتوفيق وحث الأغيار على ذلك)[2].

(ومن الأمور الهامة الرفق في نصيحة ولاة الأمر. "فمن أراد أن ينصح لذي سلطان فلا يُبْدِ له علانية، ولكن يأخذ بيده فيخلوا به فإن قبل منه فذاك وإلا كان قد أدى الذي عليه، وقد قال الله تعالى خطاباً لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾[3]، وإذا كان الرفق في النصيحة واجباً مع العامة فهو مع الحكام أوجب، لما لهم من حقوق، الاحترام والتوقير، ولما نتوخى منهم ويرجى لهم من القبول والاستجابة)[4].

قال ابن مفلح: (ولا ينكر أحد على سلطان إلا وعظاً له وتخويفاً أو تحذيراً من العاقبة في الدنيا والآخرة. قال ابن الجوزي: الجائز من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع السلاطين التعريف والوعظ، فأما تخشين القول نحو: ياظالم، يامن لا يخاف الله، فإن كان ذلك يحرك فتنة يتعدى شرها إلى الغير، لم يجز، وإن لم يخف إلا على نفسه فهو جائز عند جمهور العلماء. قال: والذي أراه المنع من ذلك لأن المقصود إزالة المنكر،

---

(١) أخرجه مسلم ٥٥.

(٢) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢٢٢/١، ٢٢٣.

(٣) سورة طه، الآيتان: ٤٣-٤٤.

(٤) النصيحة، الباز محمد عبدالفتاح الدميري، ١٣٦.

وحمل السلطان بالانبساط عليه على فعل المنكر أكثر من فعل المنكر الذي قصد إزالته. وأما ما جرى للسلف من التعرض لأمرائهم فإنهم كانوا يهابون العلماء فإذا انبسطوا عليهم احتملوهم في الأغلب. وقال سفيان: ينبغي لمن وعظ أن لا يعنف، ولمن وعظ أن لا يأنف، ويذكر من يعظه ويخوفه ما يناسب الحال، وما يحصل به المقصود، ولا يطيل ولكل مقام مقال، ولكل فن رجال. ولقد وعظ شبيب بن شيبة المنصور فقال له: إن الله عز وجل لم يجعل فوقك أحداً فلا تجعل فوق شكرك شكراً)[1].

(١) الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعمر القيام ١/١٩٧، ١٩٨.

الحديث رقم (٦٥٧)

٦٥٧- وعن عائِذ بن عمرو رضي الله عنه : أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى عُبَيْد اللهِ بن زيادٍ، فَقَالَ لَهُ: أي بُنَيَّ، إنِّي سَمِعْتُ رسول الله ﷺ، يقول: ((إنَّ شَرَّ الرِّعَاء الحُطَمَةُ)) فإيَّاكَ أن تَكُونَ مِنْهُمْ. متفقٌ عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

عائذ بن عمرو: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٩٢).

غريب الألفاظ:

الرِّعاء: جمع راعٍ.

الحُطمة: العنيف برعاية الإبل في السَّوق والإيراد والإصدار، ويُلقى بعضها على بعضٍ ويسعفها، ضربَه مثلاً لوليّ السُّوء[2].

الشرح الأدبي

قوله (: أيْ بُنَيَّ) نداء تودد، وشفقة، وعطف ينبيء عن محبته له، وقوله (إنِّي سَمِعْتُ رسول الله ﷺ، يقول) يشير إلى توثيق الخبر؛ لأنه سمع من الرسول بنفسه فهو أوثق ممن نقله عن غيره، وقول الرسول ﷺ (إنَّ شَرَّ الرِّعَاء الحُطَمَةُ) أي: الذي يحطم الماشية أي يكسرها، ويضربها إذا ساقها بعنف، وإذا أسامها قصَّر في إسامتها، ولم يراع ضعيفها بين قويها، وصغيرها بين كبيرها، ولم يختر لها المرتع الصالح، وتركها ترتع فيما فيه هلاكها، وهو مثل يضرب في سوء السياسة، لأنه ينبغي أن يحرص الرعي على رعايتها، والنظر فيما يصلحها في معاشها، ومعادها، وقوله (فإيَّاكَ أن تَكُونَ مِنْهُمْ) أسلوب تحذير من حال الرعاة الذين يهلكون رعيتهم بالمشقة، وتحميلهم فوق ما يطيقون، وعدم النصح لهم، والعمل على ما فيه صلاحهم معاشهم، ومعادهم.

المضامين الدعوية[3]

---

(١) أخرجه مسلم ١٨٣٠/٢٣ فقط، ولم يخرجه البخاري، ذكره الحميدي في جمعه ٣٧٦/١، رقم ٦٠٦ في أفراد مسلم، تقدم برقم ١٩٢.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ح ط م).

(٣) تقدم ذكرها في شرح جزء من الحديث رقم (١٩٢).

الحديث رقم (٦٥٨)

٦٥٨- وعن أَبي مريم الأزديِّ ﷺ: أنَّه قَالَ لِمعاوية ﷺ: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ، يقول: ((مَنْ وَلاَّهُ اللهُ شَيْئاً مِنْ أُمُورِ المُسْلِمِينَ، فَاحْتَجَبَ دُونَ حَاجَتِهِمْ وَخَلَّتِهِمْ وَفَقْرِهِمْ، احْتَجَبَ اللهُ دُونَ حَاجَتِهِ وَخَلَّتِهِ وَفَقْرِهِ (يَوْمَ القِيَامَةِ) [١])) فجعل معاوية رجلاً عَلَى حوائج النَّاسِ. رواه أَبُو داود، والترمذيُّ[٢].

ترجمة الراوي:

ابو مريم الأزْدي: هو أبو مريم الأزدي الفلسطيني، وقيل إنه يقال له: عمرو بن مرة الجهني.

وفد على النبي ﷺ فأسلم، وسكن فلسطين.

شارك في الغزوات والفتوحات، وكان قائماً بالنصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر.

قدم دمشق على معاوية، وروى له هذا الحديث فاستجاب له معاوية وجعل رجلاً لقضاء حوائج الناس كما في الحديث. وفي رواية لابن عساكر: فقال معاوية: ادعوا لي سعداً -يعني حاجبه- فقال: اللهم إني أخلع هذا من عنقي وأجعله في عنق سعد، من جاء يستأذن عليّ فائذن له. يقضي الله على لساني ما شاء.

وأثنى معاوية على أبي مريم وقال: ما أنعمنا بك يا أبا مريم.

له حديث واحد وهو هذا الحديث[٣].

---

(١) قوله: (يوم القيامة) لا يوجد عندهما، وهذه الزيادة عند الطبراني في الكبير ٢٢/٣٣١، رقم ٨٣٢، والحاكم في المستدرك ٤/٩٣.

(٢) أخرجه أبو داود ٢٩٤٨ واللفظ له، والترمذي ١٣٣٢، وصححه الحاكم في المستدرك ٤/٩٤ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وإسناده شامي صحيحٌ. أورده المنذري في ترغيبه ٣٢٦٤.

(٣) أسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود ٦/٢٧٩، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ١٥٥٢، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين ٨/٤٢٥ وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٤/٥٨٦.

غريب الألفاظ:

فاحتجب: امتنع من الخروج أو من الإمضاء عند احتياجهم إليه[(١)].

خَلَّتهم: حاجتهم الشديدة والمعنى: منع أرباب الحوائج أن يدخلوا عليه ويعرضوا حوائجهم[(٢)].

الشرح الأدبي

الحديث يدور حول معنى الترهيب لمن ولي أمرا من أمور المسلمين ثم قصَّر فيما ولاه الله، ومنع نفسه عنهم، وقد جاء المعنى في ثوب الشرط الذي يقرر أن الجزاء من جنس العمل لأنه يربط عمل العبد بجزائه عطاءً بعطاء، أو منعاً بمنع في قوله: (مَنْ وَلاَّهُ اللَّهُ شَيْئاً مِنْ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ، فَاحْتَجَبَ دُونَ حَاجَتِهِمْ وَخَلَّتِهِمْ وَفَقْرِهِمْ، احْتَجَبَ اللَّهُ دُونَ حَاجَتِهِ وَخَلَّتِهِ وَفَقْرِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) ومن اسم موصول متضمن معنى الشرط، وجملة الشرط هي قوله: (وَلاَّهُ اللَّهُ شَيْئاً مِنْ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ، فَاحْتَجَبَ) ونسبة التولية لله إشارة إلى أنه عطاء الله له، وتكليف منه يلزم عنه أنه يحاسبه عليه، وتنكير (شيئا) يفيد العموم حتى يدخل تحت الحكم من ولي قليلا، أو كثيرا من أمور المسلمين وحتى لا يظن ظآن أن الوعيد مختص، بالخلفاء، والأمراء فقط دون من ولي ما هو أقل من شؤون المسلمين، وجملة الجواب قوله: (احْتَجَبَ اللَّهُ دُونَ حَاجَتِهِ وَخَلَّتِهِ وَفَقْرِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) وهو جزاء من جنس عمله له بعد نفسي يجعل الوالي إذا ما فكر في منع الناس عنه يرى أنه يمنع عن نفسه رحمة الله، وعطائه، وجنته، وتقييد الاحتجاب بيوم القيامة يرفع درجة الترهيب لأنه يوم لا ينفع فيه غير الله فماذا يفعل إذا احتجب عنه.

فقه الحديث

اتخاذ القاضي أو الأمير حاجبًا:

لا يجوز للقاضي أن يحتجب عن الناس من غير عذر إلا في أوقات استراحته، لحديث الباب.

---

(١) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١٢٥٣.

(٢) المرجع السابق ١٢٥٣.

وكره الشافعية والحنابلة أن يتخذ القاضي حاجبًا، لأن حاجبه ربما قدم المتأخر وأخر المتقدم، فإن دعت حاجة إلى ذلك اتخذ أمينًا بعيدًا من الطمع.

وأجاز المالكية والحنفية أن يتخذ القاضي حاجبًا لمنع دخول من لا حاجة له وتأخير من جاء بعد، حتى يفرغ السابق من قضيته.

أما الأمير فإنه يجوز له أن يتخذ حاجبًا، لأنه ينظر في جميع المصالح، فتدعوه الحاجة إلى أن يجعل لكل مصلحة وقتًا لا يدخل فيه أحد[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الترهيب.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: مسؤولية الراعي عن حاجات رعيته.

ثالثاً: من صفات النبي ﷺ: الشفقة والحرص على مصالح أمته.

رابعاً: من واجبات المدعو: الاستجابة لتوجيهات الرسول ﷺ.

أولاً- من أساليب الدعوة: الترهيب:

إن الداعية الناجح هو الذي يستفيد من الأساليب الدعوية في هداية المدعوين وإرشادهم، ومن أساليب الدعوة الترهيب، حيث جاء في الحديث "احتجب الله دون حاجته وخلته وفقره يوم القيامة"

وأسلوب الترهيب من أساليب الدعوة التي تجعل المدعو يحذر من الوقوع في المخالفات الشرعية، باعتبار أن النفس البشرية بطبيعتها تخاف العقاب وتخشاه، ولابد

---

(١) أدب القضاء لابن أبي الدم ٦٠-٦١، وحاشية الدسوقي ١٣٨/٤، وجواهر الإكليل ٢٢٣/٢، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، محمد بن عبدالرحمن المغربي ١١٤/٦، والمهذب ١٣٩/١١، وروضة الطالبين، الإمام النووي، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، وعلي محمد معوض ١٣٩/١١، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، شمس الدين الرملي ٢٤١/٨، وكشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٣١٣/٦، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٤٦/٩ (عن الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٤٤/١٦-٢٤٦، ٩/١٧).

للنفس من الثواب والعقاب والترغيب والترهيب، حتى تستقيم على الطاعة وتثبت على الحق "ولما كان الترهيب أسلوباً من أساليب الدعوة إلى الله، كان لابد أن يكون مبنياً على الكتاب والسنة، وما أجمعت عليه الأمة، وعلى الداعية إذا أراد أن يرهب من معصية أن يلجأ إلى بحر الكتاب والسنة الصحيحة، فمددهما فياض بأوفى ما عرف العلم من ضروب الترهيب، وفنون الوعيد وأساليب الإنذار على وجوه مختلفة واعتبارات متنوعة، وعلى الداعية أن يجمع بين الترغيب والترهيب، ذلك لأن من طبيعة النفس الإنسانية أن تتحرك تحت عاملين متضادين، عامل الرغبة وعامل الرهبة، وكلاهما يؤثر على النفس تأثيراً تربوياً مباشراً" [1].

ومن صور استعمال القرآن الكريم لأسلوب الترهيب قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ۝ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ۝ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾[2]، وقوله سبحانه: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾[3].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: مسؤولية الراعي عن حاجات رعيته:

إن الحاكم في النظام السياسي في الإسلام مسئول عن رعيته وعن قضاء مصالحها وأحوالها ويتضح هذا من قول النبي ﷺ في الحديث: ((مَنْ وَلَّاهُ اللَّهُ شَيْئاً مِنْ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ فَاحْتَجَبَ دُونَ حَاجَتِهِمْ وَخَلَّتِهِمْ وفَقْرِهِمْ احْتَجَبَ اللَّهُ دُونَ حَاجَتِهِ وَخَلَّتِهِ وفَقْرِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)).

ولا شك أن هذا يبين مدى مسئولية الراعي في قضاء حاجات رعيته، قال المباركفوري: (قال القاضي: والمراد باحتجاب الوالي أن يمنع أرباب الحوائج والمهمات أن يدخلوا عليه فيعرضوها له ويعسر عليهم إنهاؤها، واحتجاب الله تعالى أن لا يجيب دعوته، ويخيب آماله، وقيل: أبعده الله ومنعه عما يبتغيه من الأمور الدينية والدنيوية،

---

(١) الترهيب في الدعوة، د. رقية بنت نصر الله بن محمد نياز، ٤٠.

(٢) سورة الدخان، الآيات: ٤٣-٤٨.

(٣) سورة المطففين، الآيتان: ١٥-١٦.

فلا يجد سبيلاً إلى حاجة من حاجاته الضرورية)[١]، (فإن من تولى شيئاً من أمور المسلمين - أي شيء- ولو كان مالاً موروثاً فمنعه عن فقرائهم واشتغل بنفسه عنهم، وتقوقع في أنانيته القاسية، منع الله عنه الرحمة ولم يجب دعاءه ولم يحقق آماله يوم القيامة، ولما سمع معاوية هذا التحذير، عين رجلاً على حوائج الناس لإيصالها إليه وإبلاغه إياها لتخف عنه المؤنة فلا يصعب عليه الأمر، ومسارعة في تنفيذ ما يعلم من أمور الإسلام)[٢].

وقد عدّ أبو الحسن الماوردي ما يجب على الإمام فعله وما يلزمه من الأمور في عشرة أشياء، منها أن عليه: (استكفاء الأمناء وتقليد النصحاء فيما يفوض إليهم من الأعمال ويكله إليهم من الأموال لتكون الأعمال بالكفاءة مضبوطة والأموال بالأمناء محفوظة، كما أن عليه أيضًا أن يباشر بنفسه مشارفة الأمور وتصفح الأحوال لينهض بسياسة الأمة وحراسة الملة، ولا يعول على التفويض تشاغلاً بلذة أو عبادة فقد يخون الأمين، ويغش الناصح، قال تعالى: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[٣]. (فلم يقتصر الله سبحانه على التفويض دون المباشرة، ولا عذره في الاتباع حتى وصفه بالضلال، وهذا وإن كان مستحقاً عليه بحكم الدين ومنصب الخلافة فهو من حقوق السياسة لكل مسترع)[٤].

ثالثاً- من صفات النبي ﷺ: الشفقة والحرص على مصالح أمته:

إن النبي ﷺ فطره الله على معاني جليلة، وأخلاق كريمة، ومن ذلك الحرص والشفقة على مصالح الأمة، يظهر هذا من سياق الحديث ومورده، وقد بينت نصوص القرآن الكريم مدى شفقة النبي ﷺ وحرصه على مصالح أمته، قال تعالى: ﴿لَقَدْ

---

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١/١٢٨٦.

(٢) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم، ٤٠٢.

(٣) سورة ص، آية: ٢٦.

(٤) الأحكام السلطانية ١٦.

جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾[١].

قال السعدي: (يمتن الله تعالى على عباده المؤمنين بما بعث فيهم النبي الأمي الذي من أنفسهم يعرفون حاله، ويتمكنون من الأخذ عنه، ولا يأنفون عن الانقياد له، وهو ﷺ في غاية النصح لهم، والسعي في مصالحهم، ويشق عليه الأمر الذي يشق عليكم ويعنتكم، وهو حريص عليكم فيحب لكم الخير ويسعى جهده في إيصاله لكم، ويحرص على هدايتكم إلى الإيمان، ويكره لكم الشر، ويسعى جهده في تنفيركم عنه. وهو شديد الرأفة والرحمة بهم، أرحم بهم من والديهم، ولذا كان حقه مقدماً على سائر حقوق الخلق، وواجب على الأمة الإيمان به وتعظيمه وتوقيره وتعزيره)[٢].

وقال الله سبحانه: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾[٣]. جاء في الدر المنثور: (يقول: "فبما رحمة من الله لنت لهم" أي والله لطهره الله من الفظاظة والغلظة، وجعله قريباً رحيماً رءوفاً بالمؤمنين، وذُكر لنا أن نعت محمد ﷺ في التوراة: ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ولا يجزي بالسيئة مثلها ولكن يعفو ويصفح. وعن الحسن أنه سئل عن هذه الآية فقال: هذا خلق محمد ﷺ نعته الله)[٤].

رابعاً- من واجبات المدعو: الاستجابة لتوجيهات الرسول ﷺ:

حيث جاء في الحديث "فجعل معاوية رجلاً على حوائج الناس"، ولا شك في أن أهم

---

(١) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٣١٣.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

(٤) الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ٨٦/٤.

واجبات المدعو الاستجابة للتوجيهات النبوية لأن فيها الصلاح والخير، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾(1). وقال جل شأنه: ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ ١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾(2). وقال تعالى: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾(3) وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾(4) ولم يبح الله تعالى لمؤمن ولا مؤمنة مخالفة حكم الرسول ﷺ أو أمره، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا﴾(5) وقد كان المسلمون الأوائل ملتزمين حدود أمره ونهيه ومتبعين له في عبادتهم ومعاملاتهم، وقد بلغ من طاعتهم للرسول ﷺ واقتدائهم به أنهم كانوا يفعلون ما يفعل، ويتركون ما يترك، ولم يجز واحد منهم لنفسه مراجعة الرسول ﷺ إلا إذا كان هناك أمر غريب عن عقولهم فيناقشونه ليعرفوا الحكمة فيه فقط كما لم يجز واحد منهم مراجعته في أمر إلا إذا كان فعله، أو قوله اجتهادًا منه في أمر دنيوي كما في غزوة بدر حين راجعه الحباب بن المنذر(6).

وإذا كان الحال هكذا في حياة الرسول ﷺ فإنه أيضًا تجب طاعته واتباع سنته بعد وفاته، لأنه ﷺ حث المسلمين أن يطيعوه ويتبعوه في حياته وبعد وفاته إلى يوم

---

(1) سورة الأنفال، آية: ٢٤.

(2) سورة الزمر، الآيتان: ١٧-١٨.

(3) سورة آل عمران، آية: ٣٢.

(4) سورة النساء، آية: ٥٩.

(5) سورة الأحزاب، آية: ٣٦.

(6) السنة ومكانتها في التشريع، د. مصطفى السباعي، ٦٦.

القيامة تمسكًا بالكتاب والسنة، وسيرًا على نهجهما فقال ﷺ: ((فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين تمسكوا بها وعَضُّوا عليها بالنواجذ))(١).

ولقد أمر الله بالتأسي بالنبي ﷺ ومتابعته، والاستجابة لأمره، قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾(٢). قال الإمام ابن كثير: (هذه الآية أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله، وأحواله، ولهذا أمر الله تبارك وتعالى الناس بالتأسي بالنبي ﷺ يوم الأحزاب في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظار الفرج من ربه عز وجل)(٣).

ولقد تواترت النصوص الشرعية في الحث على اتباعه وطاعته والاهتداء بهديه والاستنان بسنته، وتعظيم أمره ونهيه.

---

(١) أخرجه أحمد ٤/١٢٦ رقم ١٧١٤٤، وقال محققو المسند: حديث صحيح ٢٨/٣٧٥.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣/٤٧٥.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

الإمامة العظمى مما يستقيم به أمر المجتمع، حيث تصان الحقوق والحدود، وترعى الحرمات وتطبق العقوبات، كل هذا أوجبه الدين وأقره العقل، إلا أنهم بشر، يقع منهم ما يقع من بعض البشر، ولهذا كثرت وصايا الرسول ﷺ لهم، وبين ما عليهم وما لهم، وقد اشتمل هذا الباب على عدد من المضامين التربوية أبرزها ما يلي:

أولاً- التربية على تحمل المسئولية:

إن من أهم أهداف التربية الإسلامية غرس وتدريب المتربين على تحمل المسئولية، والقيام بالواجبات، وتحت هذا الباب أورد النووي جملة من الأحاديث التي تؤكد على هذا الجانب، ومن ذلك حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالإِمَامُ رَاعٍ وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، ...». وحديث معقل بن يسار رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللّهُ رَعِيَّةً، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ، إلاَّ حَرَّمَ الله عَلَيْهِ الْجَنَّةَ». وحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "... فإن الله سائلهم عما استرعاهم".

فيجب على المربي الاهتمام بتدريب المتدربين على تحمل المسئولية، إذ "أن أساس المسؤولية هو شعور الشخص المسؤول بأهليته لتحمل أعباء المسؤولية، وقدرته على الالتزام بواجباته الأخلاقية، وتحمل نتائجها، فلا يمكن للمرء أن يكون ملتزمًا بالقيم متمثلاً بها في واقع حياته ما لم يكن عنده شعور عام بالمسؤولية، ولهذا كان هذا الموضوع جديرًا بجعله أساسًا من أسس القيم، فالشعور بالمسؤولية أمر على جانب كبير من الأهمية في بناء الأفراد والمجتمعات، والشعور بالمسؤولية لفظًا مجردًا له ميادينه فهناك شعور الفرد بالمسؤولية نحو المجتمع ونحو أسرته ونحو نفسه وهناك الشعور بالمسؤولية نحو مهنته ونحو فكره، فالشخص الذي يشعر بالمسؤولية ويحس بها إحساسًا متزنًا هو شخص سعيد في حياته، لأنه يهتم بنفسه ويحترمها كما يهتم بغيره من الناس ويحترمهم، ويرغب في تحمل نصيبه من العمل وينجز التزاماته ويعتمد على

نفسه دون أن يسبب لغيره متاعب لا داعي لها، يعرف قدر نفسه ويتحمل مسؤولية آرائه وشعوره وتصرفاته"[١].

إن كل إنسان لو قام بتحمل مسؤولياته والوفاء بها لاستقامت أحوال الناس، فإن المطلوب أن يكون كل واحد تحت رعاية من يرعاه ويسأل عنه في الدنيا والآخرة.

"إن من أبرز مميزات هذا الدين أنه وزع المسؤولية توزيعًا دقيقًا لتنظيم الحياة الاجتماعية ومحاسبة المسؤولين والمكلفين كلٍ حسب مهمته وواجباته، فبدأ بالإمام "الإمام راع ومسؤول عن رعيته"، والإمام هو المسؤول الأول في الدولة الإسلامية، وقد أوجب الإسلام عليه أن يقوم بواجبات تمثيل الأمة والوكالة عنها، وفي مقابل ذلك أوجب الإسلام على الأمة تجاهه بعض الواجبات هي كالحقوق له عليهم لأن كل واجب لابد أن يقابله حق والعكس، ومسؤولية الإمام مسؤولية ضخمة وأمانة ثقيلة فيجب على كل من وَلِيَ شيئًا من أمر المسلمين أن يستعمل فيما تحت يده في كل موضع أَصْلَح مَنْ يقدر عليه" [٢].

إن للحاكم العادل من المنزلة الشيء الكثير عند الله، وإنه في الدنيا لسعيد، وإن رسول الله ﷺ قد دعا لكل من ولي من أمر الأمة شيئًا فرفق بهم وعدل بينهم وكان أمينًا على رعاية مصالحهم مجهدًا نفسه من أجل إسعادهم.

وكما دعا لهؤلاء فقد دعا لمن خالف ذلك وبخاصة من ظلمهم أو غشهم أو لم يعدل بينهم أو شق عليهم أو خانهم، والعاقل من هؤلاء من اختار من بين ما سبق..

والرسول ﷺ قد وزع المسؤوليات من خلال أحاديثه النبوية الشريفة، ولم يجعل كل شيء منوطًا بالحاكم بل جعل كل فرد في موقع مسؤولاً عن هذا الموقع، وعبر عنه بأنه "راع" كما عبر عن الأمر كذلك، ثم فصل ما أجمل، ليتحمل كل فرد تبعته فالرجل مسؤول عن البيت من ناحيتين: الدينية والأدبية، والمرأة مسؤولة عن بيتها أو بيت زوجها من ناحية حسن التدبير وعدم التبذير والقيام بحق الزوج والولد ورعاية مشاعر

---

(١) القيم بين الإسلام والغرب، د. مانع بن محمد بن علي المانع ص ١٠٠، ١٠١.

(٢) دراسات تربوية في الأحاديث النبوية، د. محمد لقمان الأعظمي الندوي ص ٢٩٨.

الزوج وعدم الإذن في بيته إلا بإذنه، وعدم الإنفاق خارج البيت إلا بعلمه فضلاً عن رعاية ولده وصيانة عرضه والنزول على قسمه.

والخادم راع من مال سيده، لأنه لا رقيب عليه إال الله، وقد عادت ظاهرة الخدم وتبدلت من كونها قاصرة على الإبل والغنم إلى كونها قائمة على مكونات الأمم "البنين والبنات" وبخاصة في الدول ذات اليسار، فليتق الله هؤلاء فيما ائتمنوا عليه فإنهم وإن كانوا أجراء إلا أنهم على هؤلاء أمناء، لا يجوز فتنهم في دين، ولا ذبحهم بالسكين، ولا تصفية حسابات الوالدين من هؤلاء.

وإذا كان الرسول ﷺ قد ذكر حالات من شرائح المجتمع (الإمام -الرجل - المرأة - الخادم) فإن صدر الحديث قد جاء بصيغة العموم (كلكم) فالمدرس والمهندس والطبيب والمحاسب والسائق والصانع والخائط والحائك والحداد والحارس والضابط وكل من هو في موقع هو راع له ومسؤول عنه.

ثانيًا- التربية بالترهيب:

من أساليب التربية النافعة التربية بالترهيب لما يتركه من أثر في نفوس المتربين. وذلك لأن من الأنفس من لا ترجع إلا بالزجر، وإذا كانت النعم تسبب الغفلة، فإن الترهيب يبعث اليقظة في كثير من الأحيان، وكم يفكر الناس في أشياء، ثم يتذكرون النتائج السلبية المترتبة عليها فيقلعون عنها مباشرة، وقد استخدم النبي ﷺ في كثير من أحاديثه أسلوب الترهيب كوسيلة لردع النفس عن الغواية واتباع خطوات الشيطان[(١)].

ومن أحاديث الباب التي تبرز هذا الأسلوب حديث معقل بن يسار رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللَّهُ رَعِيَّةً، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ، إلاَّ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ». وفي رواية: "... لم يجد رائحة الجنة"، وفي رواية "... إلا لم يدخل معهم الجنة"، وفي حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: "اللهم من ولى من أمر أمتي شيئًا فشق عليهم فاشقق عليه..."، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه "... فإن الله سائلهم عما

(١) انظر: دعوة الرسل، د. بكر زكي عوض ص ١٤٢.

استرعاهم"، وفي حديث أبي مريم الأزدى رضي الله عنه: «مَنْ وَلاَّهُ اللَّهُ شَيْئًا مِنْ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ فَاحْتَجَبَ دُونَ حَاجَتِهِمْ وَخَلَّتِهِمْ وفَقْرِهِمْ احْتَجَبَ اللَّهُ دُونَ حَاجَتِهِ وَخَلَّتِهِ وفَقْرِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، وحديث عائذ بن عمرو رضي الله عنه: «إن شَرَّ الرِّعَاءِ الْحُطَمَةُ. فَإِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ» ففي هذه الأحاديث ترهيب لولاة الأمور من عدم الرفق بالرعية، وعدم السعي على مصالحهم ونصيحتهم، وقضاء حاجتهم.

"والترهيب وعيد وتهديد بعقوبة تترتب على اقتراف إثم أو ذنب مما نهى الله عنه أو على التهاون في أداء فريضة مما أمر الله به، أو هو تهديد من الله يقصد به تخويف عباده، وإظهار صفة من صفات الجبروت والعظمة الإلهية ليكونوا دائمًا على حذر من ارتكاب الهفوات والمعاصي، ويقوم الترهيب القرآني والنبوي على إثارة الانفعالات وتربية العواطف الربانية، وهذه التربية الوجدانية مقصد من مقاصد الشريعة الإسلامية، فكل من خاف ربه كان إنسانًا فاضلاً عادلاً في سلوكه ومعاملاته، ومن لم يستح من ربه يفعل ما يشاء بلا ضابط ولا وازع، له قلب كالحجارة أو هو أشد قسوة"[1].

ثالثًا- غرس قيمة الرفق في نفوس المسئولين:

من القيم التربوية النبيلة قيمة الرفق، وإذا كان أفراد المجتمع بحاجة شديدة للالتزام فإن حاجة المسؤولين وولاة الأمر إليها أشد، ومن ثَمَّ تهتم التربية الإسلامية بقيمة الرفق لما في وجودها والتخلق بها من إصلاح للعلاقات بين الأفراد، والراعي والرعية.

ومن أحاديث الباب التي تؤكد على قيمة الرفق والوصية به ما جاء في حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: "... ومن ولى من أمر أمتي شيئًا فرفق بهم فارفق به"، وفي حديث عائذ بن عمرو رضي الله عنه «إن شَرَّ الرِّعَاءِ الْحُطَمَةُ. فَإِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ».

والمسئولون وولاة الأمر عندما يتعاملون بالرفق مع الرعية وينصحون لهم ويسدون حاجتهم فإنهم يهتدون بهَدي النبي صلى الله عليه وسلم فعلى الرغم من كونه نبيًا كان في غاية الرحمة والشفقة واللين مع أتباعه ومحبيه.

---

(١) أصول التربية الإسلامية وأساليبها، د. عبدالرحمن النحلاوي ص ٢٣٢، ٢٣٣.

"فالناس بحاجة إلى كَنَفٍ رحيم، وإلى رعاية فائقة، وإلى بشاشة سمحة وإلى ود يسعهم، وحِلم لا يضيق ذرعًا بجهلهم، وضعفهم ونقصهم، في حاجة إلى قلب كبير يعطيهم ولا يحتاج منهم إلى مقابل، ويحمل همومهم، ولا يعنيهم بهمه، ويجدون عنده دائمًا الاهتمام والرعاية، والعطف والسماحة، والود، والرضا، وهكذا كان قلب رسول الله ﷺ وهكذا كانت حياته مع الناس، ما غضب لنفسه قط، ولا ضاق صدره بضعفهم البشري، ولا احتجز لنفسه شيئًا من أعراض هذه الحياة، بل أعطاهم كل ما ملكت يداه في سماحة ندية، ووسعهم حلمه وبره وعطفه ووده الكريم، وما من واحد عاشره، أو رآه إلا امتلأ قلبه بحبه نتيجة لما أفاض عليه ﷺ من نفسه الكريمة الرحيمة" (١).

رابعًا- التربية على الاستجابة لأوامر الشرع:

من أهداف التربية الإسلامية تدريب وتعويد المتربين على الاستجابة لأوامر الشرع، وتنفيذ المأمور فالاستجابة هي ثمرة التربية الحقيقية، وهي الغاية التي يسعى ويطمح إليها المربون على اختلاف مناهجهم واتجاهاتهم وأساليبهم.

ومن أحاديث الباب التي تبين الاستجابة لأوامر الشرع حديث أبي مريم الأزدى رضي الله عنه أنه قال لمعاوية رضي الله عنه: «سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: مَنْ وَلاَّهُ الله عَزَّوَجَلَّ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ المُسْلِمِينَ فَاحْتَجَبَ دُونَ حَاجَتِهِمْ وَخَلَّتِهِمْ وَفَقْرِهِمْ احْتَجَبَ الله عَنْهُ دُونَ حَاجَتِهِ وَخَلَّتِهِ وَفَقْرِهِ قالَ فَجَعَلَ معَاوِيَة رَجُلاً عَلَى حَوَائِجِ النَّاسِ».

ففي هذا الحديث الاستجابة السريعة من معاوية رضي الله عنه لما سمع الحديث الشريف بأن جعل رجلاً على حوائج الناس، وهذه الاستجابة إنما هي دليل على تعظيم أوامر الله سبحانه وأوامر رسوله ﷺ. "والأساس الذي تتفرع منه سائر فروع الاعتقاد هي تقوية تعظيم الله تعالى في النفوس، فحين يستقر تعظيم الله تبارك وتعالى في النفس ويملك صاحبه العلم الصحيح، فإنه يسلم له اعتقاده، وتنضبط حياته بشرع الله تبارك وتعالى،

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ١١٨/٢، نقلاً عن أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد محمود العاني ص ٣٦٨، ٣٦٩.

فالذي يعظم الله تعالى لا يقدم بين يدي قوله وقول رسوله ﷺ ولا يتردد في تصديق الأخبار والتزام الأوامر وترك المنهيات، ولا يتعلق قلبه بغير الله ولا يتجه لمخلوق فيصفو اعتقاده ويستقيم عمله، ويضع للمخلوقين منزلتهم التي يستحقونها"(١).

خامسًا- من الأساليب التربوية: الدعاء والحوار والمناقشة:

وردت في أحاديث الباب عدة أساليب تربوية، منها:

أ-الدعاء: كما في قوله ﷺ: ((اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ. فَاشْقُقْ عَلَيْهِ. وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ، فَارْفُقْ بِهِ))، والدعاء من الأساليب التربوية التي ترغب في فعل الطيب، وترهب من فعل الشر والقبيح.

ب- الحوار والمناقشة: كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((كانتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسوسُهُم الأَنْبِيَاءُ كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ وَإِنَّهُ لاَ نَبِيَّ بَعْدِي وَسَيَكُونُ بَعْدِي خُلفَاءُ فَيَكْثُرُونَ، قالُوا فَمَا تَأْمُرُنَا، قَالَ أَوْفُوا بَيْعَةَ الأَوَّلِ فالأَوَّلِ...)) الحديث.

والحوار والمناقشة من الأساليب التي تفعّل دور المعلم في العملية التعليمية وتدفعه إلى أن يكون مشاركًا إيجابيًا فيها.

❁ ❁ ❁

---

(١) تربية الشباب "الأهداف والوسائل"، محمد بن عبدالله الدويش ص ٥٤.

٧٩- باب الوالي العادل

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾[النحل: ٩٠] الآية، وقال تَعَالَى: ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[الحجرات: ٩].

الحديث رقم (٦٥٩)

٦٥٩- وعن أَبي هريرة ﷺ، عن النبيِّ ﷺ، قَالَ: ((سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ الله في ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إلاَّ ظِلُّهُ: إمَامٌ عادِلٌ، وَشَابٌ نَشَأ في عِبادة الله تَعَالَى، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ في المَسَاجِدِ، وَرَجُلانِ تَحَابَّا في اللهِ اجتَمَعَا عَلَيْهِ، وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذاتُ مَنْصِبٍ وجَمالٍ، فَقَالَ: إنّي اخافُ اللهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأخْفَاهَا حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ الله خَالِياً فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ)) متفقٌ عَلَيْهِ[١].

ترجمة الراوي:

ابو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

في الحديث براعة استهلال تحقق سيطرة المتكلم على سمع، وبصر المخاطب منشؤها البداية بنكرة موصوفة تشير إلى معنى الاجتماع تحت ظل الله، وأعظم به من ظل !؛ لأن هؤلاء السبعة اجتمعوا تحت مظلة الطاعة لله، وربط بينهم الإخلاص له، وجملة (يُظِلُّهُمُ اللهُ في ظِلِّهِ) تصعّد التشويق، ووقوع الفعل على ضمير الجمع شمول لهم بهذه النعمة، وكون الله هو الفاعل يؤكد التحقق، وتقييد الفعل بالجار والمجرور تخصيص للظل يقرر عظمته، وإضافة الظل للضمير العائد على الله تشريف، وتعظيم، وقد صعَّد شوق المخاطب حتى صار لهفة بجملة القصر التي تقرر أنه الظل الأوحد في يوم تدنوا فيه الشمس من الرؤوس (يَوْمَ لاَ ظِلَّ إلاَّ ظِلُّهُ)، ثم بدأ بتفصيل هؤلاء السبعة بعد أن بلغ المخاطبون ذروة الاستشراف إلى معرفتهم، وقد ذكر كل واحد منهم بقيد خاص،

---

(١) أخرجه البخاري ١٤٢٣، واللفظ له، ومسلم ٩١/١٠٣١، وتقدم برقم ٣٧٦. أورده المنذري في ترغيبه ٤٨٦.

فذكر الإمام بقيد العدل، وذكر الشاب بقيد النشوء في عبادة الله، وذكر الرجل بقيد تعلق قلبه بالمساجد، وهو كناية عن حبه للصلاة والمحافظة عليها، وكثرة النوافل، ولذلك جمع المساجد، وذكر الرجلان بقيد التحابب في الله، وقوله (اجْتَمَعَا عَلَيهِ وتَفَرَّقَا عَلَيهِ) تضاد يوضح المعنى، ويقرره، وهو كناية عن الإخلاص في التعامل بينهما، وملازمة هذه المحبة لهما، ودوامها، وذكر الخامس بقيد الصبر على المحرمات مهما قويت الدواعي لذلك وصف الداعية بأنها (ذات حسن، وجمال) وذكر السادس بقيد الإخلاص في الصدقة (، فَأَخْفَاهَا حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ) كناية عن شدة الإخلاص، والطباق بين شماله، ويمينه، يؤكد شدة الإخلاص في الإنفاق حتى عن أقرب المقربين، وذكر السابع بقيد شدة الخشية لله، ونلاحظ في أعمال السبعة أنها يربطها جميعاً خيط واحد، وهو الإخلاص، ولها ارتباط بالقلب بشكل من الأشكال.

المضامين الدعوية[1]

(١) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (٣٧٦).

الحديث رقم (٦٦٠)

٦٦٠- وعن عبدِ اللهِ بن عَمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ: ((إنَّ المُقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ[١]: الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِم وَمَا وَلُوا)) رواه مسلم[٢].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمرو بن العاص: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٣٨).

غريب الألفاظ:

المقسطين: العادلين[٣].

ما وَلُوا: الذي كانت لهم عليه ولاية[٤].

الشرح الأدبي

بداية الحديث بمؤكدات متتابعة دون أن يواجه المتكلم بإنكار، أو شك تشير إلى أهمية الخبر، ورغبة المتكلم في نقل هذا الاهتمام إلى المتكلم مع تفخيم للخبر يحقق مزيد الإنصات، وقوله (إنَّ المُقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ) والمقسطين جمع مقسط، وهو العادل، وقوله (عند الله) يوحي بشرف المجلس، وحسن العاقبة المبشرة بالخير، وقوله (على منابر) يوحي بالظهور، والعلو، والرفعة، وسمو المكانة، دل على ذلك حرف الاستعلاء على، والذي يفيد مع العلو التمكن، كما يدل عليه كون الاستعلاء، والتمكن على المنبر الذي يوضع أصلا للعلو، والرفعة وقوله: (من نور) يوحي مع شدة الظهور بالبهاء ولما وصف منزلتهم هذا الوصف البالغ تطلعت النفوس لمعرفة

---

(١) عند مسلم زيادة: (عن يمين الرحمن عزَّ وجلَّ وكلتا يديه يمين).

(٢) برقم ١٨٢٧/١٨. أورده المنذري في ترغيبه ٢٩١٣.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٨٥.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٨٥.

حالهم وما بلغ به هذه المنزلة، وحقق هذا الفضل فزادهم وضوحا، وبيانا، بقوله (الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِم وَمَا وَلُوا) والتعريف بالموصول للمدح لهم العدالة في الحكم على الناس، وذكر الأهل تخصيص لهم، وقوله (وما ولوا) يشمل كل ما يقومون بهم من العمال.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: فضل العدل بين الرعية ومنزلة المقسطين يوم القيامة.

ثالثاً: من أهداف الدعوة: إقامة العدل بين الناس.

رابعاً: من أساليب الدعوة: الترغيب.

أولاً- من أساليب الدعوة: التوكيد:

حيث جاء في الحديث "إن المقسطين" وأسلوب التوكيد من أساليب الدعوة التي تقنع المدعوين حيث إن التوكيد من أساليب الإقناع؛ وهو أسلوب يدلل على مدى اقتناع الداعية أيضاً بما يقول ووثوقه منه. قال القاسمي: (واعلم أنه لا تؤكد العرب إلا ما تهتم به، فإن من اهتم بشيء أكثر ذكره، وكلما عظم الاهتمام كثر التأكيد. وكلما خفَّ، خف التأكيد، وإن توسَّط الاهتمام، توسط التأكيد)[(١)].

وقد أفاد التوكيد في هذا الحديث المنزلة العظيمة التي بوأها الله للمقسطين في الجنة. ومن صور استعمال القرآن لهذا الأسلوب، قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾[(٢)]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾[(٣)]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾[(٤)].

---

(١) محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ٢٢٧/١.

(٢) سورة القمر، آية: ٥٤.

(٣) سورة الانفطار، آية: ١٣.

(٤) سورة النبأ، آية: ٣١.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: فضل العدل بين الرعية ومنزلة المقسطين يوم القيامة:

إن الإسلام يحث على إقامة العدل بين الناس، ومن ثم وعد المقسطين بالمنزلة العالية بكونهم على منابر من نور. ومما يدل على هذا ما جاء في الحديث "إن المقسطين عند الله على منابر من نور، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم". قال القاضي عياض: (المقسطون: العادلون، وقد فسره آخر الحديث بقوله: "الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا" فدل هذا الفضل لكل من عدل فيما تقلده من خلافة وإمارة، أو ولاية يتيم أو صدقة أو غير ذلك، أو فيما يلزمه من حقوق أهله أو من يقوم به والأقساط والقسط العدل، وقوله: "على منابر من نور" أصل تسمية المنبر لارتفاعه فيحتمل أن يكون "منابر" كما ذكر على وجهها، أو منازل رفيعة وأماكن عالية)[(١)].

وقال النووي: (والمنابر جمع منبر سمى به لارتفاعه، والظاهر أنهم على منابر حقيقية يوم القيامة على ظاهر الحديث ويكون متضمناً للمنازل الرفيعة، فهم على منابر حقيقية ومنازلهم رفيعة وهذا الفضل إنما هو لمن عدل فيما تقلده، من خلافة، أو إمارة، أو قضاء، أو حسبة، أو نظر على يتيم، أو صدقة، أو وقف. وفيما يلزمه من حقوق أهله وعياله والمقسطون في الحديث هم العادلون)[(٢)].

وقد نص الله تعالى على وجوب العدل بين الرعية، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ﴾[(٣)]، وأخبر سبحانه أنه خاطب نبيه داود عليه السلام فقال له: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾[(٤)].

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٢٢٧/٦.

(٢) انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٨٥.

(٣) سورة النساء، آية: ٥٨.

(٤) سورة ص، آية: ٢٦.

قال السيد سابق: (وإذا كان هذا الخطاب موجهاً إلى داود عليه السلام فهو في الواقع موجه إلى ولاة الأمور في هذه الأمة، ولا شك أن العدل في الحكم يمكن للحاكم ويبقى عليه، فإذا تحول عن العدل إلى الظلم والجور، فقد أذن الله بذهابه وزوال ملكه، ويتحقق العدل في الحكم بإيصال كل حق إلى مستحقه، والحكم بمقتضى ما شرع الله من أحكام وبتجنب الهوى، وبالقسمة بين الناس بالسوية"[١]. والعدل مما أمر الله به، قال تعالى: ﴿إن ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾[٢]، وقد جعل الرسول ﷺ الإمام العادل من الذين يظلهم الله فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ: الإِمَامُ الْعَادِلُ ...))[٣].

ثالثاً- من أهداف الدعوة: إقامة العدل بين الناس:

إن من المعاني السامية والأهداف الرئيسة التي تحث عليها الدعوة، وتسعى لتحقيقها إقامة العدل بين الناس ويتضح هذا من سياق الحديث ومورده ويعتبر إقامة العدل بين الناس من الأهداف الرئيسة للدعوة الإسلامية، قال الماوردي: "إن مما تصلح به حال الدنيا قاعدة العدل الشامل الذي يدعو إلى الألفة، ويبعث على الطاعة، وتعمر به البلاد، وتنمو به البلاد والأموال ويكبر معه النسل، ويأمن به السلطان، وليس شيء أسرع في خراب الأرض ولا أفسد لضمائر الخلق من الجور، لأنه ليس يقف على حد ولا ينتهي إلى غاية، ولكل جزء منه قسط من الفساد حتى يستكمل"[٤].

وقد أمر الله المؤمنين بإقامة العدل فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْ﴾[٥]. وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ

---

(١) عناصر القوة في الإسلام ١٥٠.

(٢) سورة النحل، آية: ٩٠.

(٣) البخاري ١٤٢٣، ومسلم ١٠٣١.

(٤) أدب الدنيا والدين، أبو الحسن الماوردي، تحقيق: مصطفى السقا ص ١٤١-١٤٢.

(٥) سورة النساء، آية: ١٣٥.

ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[1].

قال القاسمي: (والعدل هو القسط والتسوية في الحقوق فيما بينكم، وترك الظلم، وإيصال كل ذي حق إلى حقه. وعن ابن مسعود: إن أجمع آية في القرآن لخير وشر هذه الآية. ولما تليت هذه الآية على أكثم بن صيفي قال لقومه: إني أراه يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن ملائمها فكونوا في هذا الأمر رؤساء، ولا تكونوا فيه أذناباً)[2]، وقد دلت الأحاديث على العدل وأهميته فعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: ((بينما رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يَقسِمُ غنيمةً بالجِعْرانةِ إذ قال له رجل: اعدل. فقال له: لقد شَقيت إن لم أعدلْ))[3]. وعن بريدة بن الحصيب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((الْقُضَاةُ ثَلاثَةٌ: وَاحِدٌ فِي الْجَنَّةِ وَاثْنَانِ فِي النَّارِ، فَأَمَّا الَّذِي فِي الْجَنَّةِ فَرَجُل عَرَفَ الْحَقَّ فَقَضَى بِهِ، وَرَجُل عَرَفَ الْحَقَّ فَجَارَ فِي الْحُكْمِ فَهُوَ فِي النَّارِ وَرَجُل قَضَى لِلنَّاسِ عَلَى جَهْلٍ فَهُوَ فِي النَّارِ))[4]. قال ابن حزم: (أفضل نعم الله تعالى على المرء أن يطبعه على العدل وحبه وعلى الحق وإيثاره)[5].

إن العدل إذا ساد في مجتمع كان له الأثر العظيم في كافة نواحي الحياة، في القضاء وفي الحكم وفي مختلف النواحي الاجتماعية بحيث تتاح الفرص المتساوية لأبنائه في طرق الكسب المادي وفي الوضع المعنوي فلا يهضم حق فرد أو فئة فيه، كلٌّ يحصل على حقه دون زيادة أو نقصان؛ فحين نبحث عن الأسس العامة لأحكام الشرائع الربانية يتبين لنا أن العدل أحد هذه الأسس، ولا سيما ما يتعلق من أحكام الشرائع بتنظيم علاقات الناس المادية والأدبية والسياسية لضمان حقوقهم ومصالحهم[6].

---

(١) سورة النحل، آية: ٩٠.

(٢) محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ١٥٠/١٠

(٣) أخرجه البخاري ٣١٣٨، ومسلم ١٠٦٣.

(٤) أخرجه أبو داود، ٣٥٧٣، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود، ٣٠٥١).

(٥) مداواة النفوس، لابن حزم، ٩٠.

(٦) انظر: الوجيزة في الأخلاق الإسلامية، عبدالرحمن حسن حبنكة ص ٢٦٨.

ونُقل عن بعض البلغاء قوله: إن العدل ميزان الله وضعه للخلق ونصبه للحق فلا تخالفه في ميزان ولا تعارضه في سلطانه واستعن على العدل بخلتين: قلة الطمع وكثرة الورع، فإذا كان العدل من إحدى قواعد الدنيا التي لا انتظام لها إلا به ولا صلاح فيها إلا معه، وجب أن يُبدأ بعدل الإنسان في نفسه ثم بعدله في غيره[1].

رابعاً- من أساليب الدعوة: الترغيب:

حيث جاء في الحديث "إن المقسطين عند الله تعالى على منابر من نور"، وأسلوب الترغيب من أساليب الدعوة التي ترغب المدعو في الطاعة (والترغيب هو كل ما يشوق المدعو إلى الاستجابة وقبول الحق والثبات عليه، والأصل في الترغيب أن يكون في نيل رضى الله ورحمته وجزيل ثوابه في الآخرة)[2]، وفي الحديث رغب النبي ﷺ في العدل والقسط من خلال بيان منزلة المقسطين عند الله يوم القيامة بأنهم على منابر من نور في درجات عالية ومنزلة رفيعة.

---

(١) انظر: أدب الدنيا والدين، أبو الحسن الماوردي، تحقيق: مصطفى السقا ص ١٤١.

(٢) أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان ٤٣٧.

الحديث رقم (٦٦١)

٦٦١- وعن عوفِ بن مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ، يقول: ((خِيَارُ أئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ، وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ[١]. وشِرَارُ أئِمَّتِكُم الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ!))، قَالَ: قُلْنَا: يَا رسول اللهِ، أفَلاَ نُنَابِذُهُم؟ قَالَ: ((لاَ، مَا أقَامُوا فِيكُمُ الصَّلاَةَ. لاَ، مَا أقَامُوا فِيكُمُ الصَّلاَةَ)) رواه مسلم[٢].

ترجمة الراوي:

عوف بن مالك الأشجعي: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٥٢٨).

غريب الألفاظ:

أئمتكم: جمع إمام وهو: من يؤتم به من رئيس أو غيره، وإمام المسلمين: الخليفة ومن جرى مجراه[٣].

تُصلُّون عليهم: تدعون لهم[٤].

تنابذهم: نخالفهم بترك الطاعة لهم[٥].

الشرح الأدبي

الحديث يضع علامات تميز أهل الخيرية من الأئمة من أهل الشر وقد اتخذ من أسلوب المقابلة طريقاً إلى ذلك حيث قابل بين خيار أئمتكم، وبين شرار أئمتكم حتى ينظر كل إمام في نفسه، ويسألها من أي طائفة أنا؟ كما قابل بين (تحبونه،

---

(١) لفظ مسلم في هذه الرواية: (ويصلون عليكم، وتصلون عليهم)، والمثبت لفظ الحميدي في جمعه ٤٥٣/٢، رقم ٢٩٧٦، وكذا عند مسلم برقم ١٨٥٥/٦٦.

(٢) برقم ١٨٥٥/٦٥ وزاد في آخره: (وإذا رأيتم من ولاتكم شيئًا تكرهونه، فاكرهوا عمله، ولا تنزعوا يدًا من طاعة).

(٣) القاموس المحيط، الفيروزآبادي في (أ ي م)، ومعجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ٦٨.

(٤) رياض الصالحين ٢٨٧.

(٥) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٩٣٧، وانظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٨٩٦.

ويحبونكم)، وبين (تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ) ليشير إلى طبيعة العلاقة القلبية بين النوعين، والتي يترتب عليها طبيعة المعاملة، والتعاون بينهم، كما قابل بين رد الفعل المترتب على الشعور القلبي لكل طائفة فقابل بين (وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ) وبين قوله (وَتَلعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ) وهو تصوير لتطور العلاقة من المحبة إلى الدعاء لهم، أو عليهم، ولا ننسى العلاقة التبادلية بالتجاوب في الشعور محبة أو بغضا، والتي صورتها الأفعال المضارعة (تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ) و (وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ) في جانب الإمام الخير ورعيته، وقوله (تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ!) في جانب الإمام الموصوف بالشر وهذه الصورة الجلية لأئمة الخير في مقابلة أئمة الشر لا تعني أن يشتعل المجتمع المسلم من داخله فيقتل بعضه بعضا دل على ذلك جواب الرسول ﷺ علي سؤال السائلين (أفَلاَ نُنَابِذُهُم؟ قَالَ: ((لاَ، مَا أقَامُوا فِيْكُمُ الصَّلاَةَ. لاَ، مَا أقَامُوا فِيكُمُ الصَّلاَةَ) وقوله (لا) أي لا تنابذوهم، وتكرارها يؤكد المعنى، ويحذر من المخالفة حفاظا على وحدة الأمة في وجه أعدائها، وحتى لا تتآكل الأمة من داخلها، فتحقق لأعدائها ما يريدون دون أن يبذلوا أي عناء.

فقه الحديث

الخروج على الإمام: أجمع العلماء على أن الإمام إذا كان عادلاً تجب طاعته، ويحرم الخروج عليه، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾[1]. وأما الخروج على الإمام الجائر فذهب الجمهور إلى أنه لا يجوز الخروج على أئمة الجور، ولا القيام عليهم، ولا خلعهم، بمجرد الظلم أو الفسق، ما لم يغيروا شيئًا من قواعد الإسلام، ككفرهم بعد الإيمان، وتركهم إقامة الصلوات، وأما دون ذلك من الجور فلا يجوز الخروج عليهم إذا استوطأ أمرهم وأمر الناس معهم؛ لأن في ترك الخروج عليهم تحصين الفروج والأموال وحقن الدماء، وفي القيام عليهم تفرق الكلمة وتشتت الألفة.

---

(١) سورة النساء، آية: ٥٩.

وكذلك لا يجوز القتال معهم لمن خرج عليهم عن ظلم صدر منهم؛ لحديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا: ((فإذا أُمِرَ بمعصيةٍ فلا سمعَ ولا طاعةِ))[1] ولحديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه مرفوعًا: ((لاَ طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ عز وجل))[2][3].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: أهمية التآلف والمودة بين الأئمة والرعية.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: عدم الخروج على ولاة الأمر وعدم منابذتهم.

ثالثاً: من أهداف الدعوة: إقامة العدل بين الناس والحفاظ على شعائر الإسلام.

أولاً- من موضوعات الدعوة: أهمية التآلف والمودة بين الأئمة والرعية:

إن من الأمور الهامة أن تقوم العلاقة بين أفراد المجتمع على المودة والتآلف والتآخي،وخاصة بين الأئمة والرعية؛ لأن هذا يجنب الأمة شر كبير، ومما يدل على ذلك من الحديث قوله ﷺ: "خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم" أي تدعون لهم في المعونة على القيام بالحق والعدل ويدعون لكم في الهداية والإرشاد وإعانتكم على الخير، وكل فريق يحب الآخر لما بينهم من المواصلة والتراحم والشفقة والقيام بالحقوق، ونقيض ذلك في الشرار لترك كل فريق منهما القيام بما يجب عليه من الحقوق للآخر ولاتباع الأهواء والجور والبخل والإساءة، فينشأ عن ذلك التباغض والتلاعن وسائر المفاسد[4]. ومما لا شك فيه أهمية التآلف والمودة بين الأئمة والرعية، وقد نص الله على ذلك في القرآن، قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ

---

(١) أخرجه الخاري ٧١٤٤، ومسلم ١٨٣٩.

(٢) أخرجه البخاري ٧٢٥٧، ومسلم ١٨٤٠.

(٣) شرح ابن بطال ١٦٨/٩، والأحكام السلطانية للماوردي ص ١٧، ورد المحتار على الدر المختار المسمى، محمد أمين بن عمر عابدين، تحقيق: علي محمد معوض ٣٦٨/١، وحاشية الدسوقي ٢٩٩/٤، وروضة الطالبين، الإمام النووي، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، وعلي محمد معوض ٥٠/١٠.

(٤) انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو، وآخرين ٦٥/٤.

وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾[١]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[٢]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾[٣]، ونهى الله عن التفرق والاختلاف، فقال جل شأنه: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾[٤]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾[٥].

وحث الرسول الكريم ﷺ على التآلف والمودة ونهى عن التباغض والتناجش فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((لاَ تَبَاغَضُوا، وَلاَ تَدَابَرُوا، وَلاَ تَنَافَسُوا. وَكُونُوا عِبَادَ اللّهِ إِخْوَاناً))[٦]، وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: ((المسلمُ أخو المسلمِ لا يَظلمُه ولا يُسلِمُه، ومَن كان في حاجةِ أخيهِ كان الله في حاجتِهِ، ومَن فَرَّجَ عن مُسلمٍ كُربَةً فرَّجَ الله عنهُ كُربةً من كُرباتِ يومِ القيامةِ، ومَن سَتَرَ مُسلِماً سَتَرَهُ اللهُ يومَ القيامة))[٧].

قال السعدي: (ومتى امتثل المسلمون لما جاء في القرآن من الالتزام بكل ما يقوي الألفة ويزيد في المحبة ويدفع العداوة والبغضاء، ومتى سعوا في حصول الاتفاق وإزالة العداوات وأسبابها وكانوا يداً واحدة في السعي في مصالحهم المشتركة ومقاومة الأعداء، وبتحصيل القوة المادية بكل مقدور ومستطاع متى عملوا على ذلك كله،

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٠٣.

(٢) سورة الأنفال، آية: ٤٦.

(٣) سورة الحجرات، آية: ١٠.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٠٥.

(٥) سورة الشورى، آية: ١٣.

(٦) أخرجه البخاري ٦٠٦٥، ومسلم ٢٥٥٩.

(٧) أخرجه البخاري ٢٤٤٢، ٦٩٥١، ومسلم ٢٥٨٠.

حصل لهم قوة عظيمة يستدفعون بها الأعداء، ويستجلبون بها المصالح والمنافع وعاد صلاح ذلك إلى دينهم وجماعتهم وأفرادهم ولم يزالوا في رقي مطرد في دينهم ودنياهم)[١].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: عدم الخروج على ولاة الأمر وعدم منابذتهم:

إن من دعائم استقرار المجتمع عدم الخروج على ولاة الأمر، وعدم منابذتهم، ومما يدل على هذا ما جاء في الحديث: "قلنا يا رسول الله: أفلا ننابذهم؟ قال: لا ما أقاموا فيكم الصلاة"، قال أبو العباس القرطبي: (وقوله: "أفلا ننابذهم؟" أي أفلا ننبذ إليهم عهدهم أي: ننقضه، كما قال تعالى: ﴿فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾[٢] ونخرج عليهم بالسيف، فيكون المجرور متعلقًا بمحذوف دل عليه المعنى وحذف إيجازًا واختصارًا.

وقوله: "لا ما أقاموا الصلاة" ظاهره: ما حافظوا على الصلوات المعهودة بحدودها وأحكامها وداموا على ذلك وأظهروه، وقيل معناه: ما داموا على كلمة الإسلام، والأول أظهر)[٣]. ومما لا شك فيه أن قيام الولاية والإمامة من أهم الواجبات ولا يتحقق ذلك إلا بعدم الخروج على الولاة ومنابذتهم، قال ابن تيمية: (يجب أن يُعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين، بل لا قيام للدين ولا للدنيا إلا بها، فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض، ولا بد لهم عند الاجتماع من رأس ولهذا كان السلف - كالفضيل بن عياض وأحمد بن حنبل وغيرهما يقولون: لو كان لنا دعوة مجابة لدعونا بها للسلطان- فالواجب اتخاذ الإمارة ديناً وقربة يتقرب بها إلى الله فإن التقرب إليه فيها بطاعته وطاعة رسوله ﷺ من أفضل القربات، وإنما يفسد فيها حال أكثر الناس لابتغاء الرياسة أو المال بها)[٤].

---

(١) الرياض الناضرة ٥٩.

(٢) سورة الأنفال، آية: ٥٨.

(٣) انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو، وآخرين ٤/٦٥، ٦٦.

(٤) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية ١٣٧ - ١٣٨.

قال ابن حجر: (قد أجمع الفقهاء على وجوب طاعة السلطان المتغلب والجهاد معه، وأن طاعته خير من الخروج عليه، لما في ذلك من حقن الدماء وتسكين الدهماء، ولم يستثنوا من ذلك إلا إذا وقع من السلطان الكفر الصريح، فلا تجوز طاعته في ذلك، بل تجب مجاهدته لمن قدر عليها)[1].

ومما يدل على عدم منابذة ولاة الأمر ما جاء في الحديث عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: دعانا رسول الله ﷺ فبايعناه فكان فيما أخذ علينا، أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله. قال: ((إلاَّ أَنْ تَرَوْا كُفْراً بَوَاحاً عِنْدَكُمْ مِنَ اللّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ))[2].

قال النووي: (ومعنى الحديث: لا تنازعوا ولاة الأمور في ولايتهم، ولا تعترضوا عليهم إلا أن تروا منهم منكراً محققاً تعلمونه من قواعد الإسلام، فإذا رأيتم ذلك فأنكروه عليهم وقولوا بالحق حيث ما كنتم، وأما الخروج عليهم وقتالهم فحرام بإجماع المسلمين وإن كانوا فسقة ظالمين، وقد تظاهرت الأحاديث بمعنى ما ذكرته وأجمع أهل السنة أنه لا ينعزل السلطان بالفسق)[3].

ثالثاً- من أهداف الدعوة: إقامة العدل بين الناس والحفاظ على شعائر الإسلام:

إن الإسلام جاء بالعدل والمساواة، وحثّ الناس على التحاكم بالعدل، ونشر العدل فيما بينهم، ولذا كان من أهداف الدعوة إقامة العدل، يتضح هذا من الحديث: "ما أقاموا فيكم الصلاة"، ومن سياق الحديث ومورده تعتبر إقامة العدل والشعائر من الأهداف الرئيسة للدعوة الإسلامية، بهذا أمر الله تعالى، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ ﴾[4]، وقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧/١٣.

(٢) أخرجه مسلم ١٧٠٩.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٩٢.

(٤) سورة النحل، آية: ٩٠.

بِٱلْقِسْطِ﴾[(١)]، وقال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾[(٢)].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: بينما رسولُ الله ﷺ يَقسِمُ غنيمةً بالجِعْرانةِ إِذ قال له رجل: اعدل. فقال له: ((لقد شَقيت إن لم أَعدلْ))[(٣)]، وجاء في الحديث أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((إِنَّمَا الإِمَامُ جُنَّةٌ. يُقَاتَلُ مِنْ وَرَائِهِ. وَيُتَّقَى بِهِ. فَإِنْ أَمَرَ بِتَقْوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَعَدَلَ، كَانَ لَهُ بِذَلِكَ أَجْرٌ. وَإِنْ يَأْمُرْ بِغَيْرِهِ، كَانَ عَلَيْهِ مِنْهُ))[(٤)]، وإقامة العدل من وظائف الرسول ﷺ التي كلفه الله بها، قال تعالى: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾[(٥)].

ولقد كان الصحابة رضي الله عنهم يستصحبون معنى إقامة العدل في الأرض في الفتوحات الإسلامية، فكان مما قاله ربعي بن عامر رضي الله عنه لرستم قائد الفرس لما سأله: ما جاء بكم؟ قال: (الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبي قاتلناه أبداً حتى نفئ إلى موعود الله. قال: وما موعود الله؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي)[(٦)].

قال ابن القيم: (إن من له ذوق في الشريعة وإطلاع على كمالها وتضمنها لغاية مصالح العباد في المعاش والمعاد ومجيئها بُغية العدل الذي يسع الخلائق يجد أنه لا عدل فوق عدلها، ولا مصلحة فوق ما تضمنته من المصالح، تبين له أن السياسة العادلة جزء من أجزائها، وفرع من فروعها، وأن من أحاط علماً بمقاصدها ووضعها موضعها وحسن فهمه فيها لم يحتج معها إلى سياسة غيرها ألبتة. فإن السياسة نوعان: سياسة ظالمة،

---

(١) سورة المائدة، آية: ٨.

(٢) سورة الحج، آية: ٣٢.

(٣) أخرجه البخاري ٣١٣٨ واللفظ له، ومسلم ١٠٦٣.

(٤) أخرجه البخاري ٢٩٥٧ واللفظ له، ومسلم ١٨٤١.

(٥) سورة الشورى، آية: ١٥.

(٦) البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق: أحمد أبو مسلم وآخرون ٤٠/٧.

فالشريعة تحرمها. وسياسة عادلة تخرج الحق من الظالم الفاجر فهي من الشريعة عَلِمها مَنْ علمها وجهلها من جهلها)[١].

(١) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، ابن القيم، تحقيق: محمد حامد الفقي ص ٤ - ٥.

الحديث رقم (٦٦٢)

٦٦٢- وعن عِياضِ بن حِمارٍ رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ، يقول: ((أهلُ الجنَّةِ ثَلاثَةٌ: ذُو سُلطانٍ مُقْسِطٌ[1] مُوَفَّقٌ، وَرَجُلٌ رَحيمٌ رَقِيقُ القَلْبِ لكُلِّ ذي قُرْبَى ومُسْلِمٍ، وعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذو عِيالٍ)) رواه مسلم[2].

ترجمة الراوي:

عياض بن حِمار: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٦٠٢).

غريب الألفاظ:

مقسط: عادل[3].

متعفف: كافٌّ عن الحرام والسؤال من الناس[4].

الشرح الأدبي

قول الراوي سمعت رسول الله ﷺ يؤكد الخبر لأنه خبر سماع مباشر من الرسول ﷺ، وقول الرسول ﷺ (أهل الجنة ثلاثة) أسلوب تشويق يضمن إنصات المخاطب، وقد جاء التشويق من تركيب العبارة حيث بدأ بكلمة (أهل) التي توحي بالدفء الأسري، والطمأنينة زادها تشويقا بإضافتها للجنة، وهي علم على النعيم الذي يخفق له القلب، ثم ذكر النكرة (ثلاثة) وهي إجمال يحتاج إلى تفصيل تبعه بأولها وهو (ذُو سُلطانٍ مُقْسِطٌ مُوَفَّقٌ) لأن اقتران السلطان بالعدل لا يتأتى إلا لمن جاهد نفسه لله تعالى، وقوله (موفق) يوحي بتوالي أفعاله على وفق ما يرضي الله تبارك وتعالى، وكونه على صيغة المفعول يشير إلى توفيق الله له للعدل، وقوله: (وَرَجُلٌ رَحيمٌ رَقِيقُ القَلْبِ لكُلِّ ذي قُرْبَى ومُسْلِمٍ) واجتماع الرحمة مع الرقة يشير إلى خصوصية في الرحمة، وهي

(١) عند مسلم زيادة: (مُتصدِّق).

(٢) برقم ٢٨٦٥/٦٣. أورده المنذري في ترغيبه ٣٢٢٦.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٨٥، ١٦٦٦.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ع ف ف).

التفاعل مع كل ذي شدة لاسيما مع أقاربه، ومع المسلمين، وهو ما يشير إلى أنه واصل لرحمه بار بالمسلمين، وقوله: (وعَفيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذو عيالٍ) جناس يؤكد المدلول الذي جعله ضمن النماذج الثلاثة في الجنة ومعناه أنه عفيف عما لا يحل له متعفف عن سؤال غيره، وقوله (ذو عيال) تكميل بلاغي أفاد تمكن صفة العفة في نفسه، لأن الإنسان قد يصبر ويتعفف عن حاجة نفسه، وقد لا يصبر عن حاجة عياله لاسيما إذا كانوا صغارا، أو نساءً، والحديث ترغيب في التخلق بهذه الأخلاق بجعلها بطاقة الدخول للجنة.

المضامين الدعوية

أولاً: من واجبات الداعية: بيان الحقائق للمدعوين.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: بيان منزلة الوالي العادل.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: فضل الرحمة والشفقة.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: فضل العفة والتعفف.

خامساً: من أساليب الدعوة: الترغيب.

أولاً- من واجبات الداعية: بيان الحقائق للمدعوين:

إن من أبرز واجبات الداعية بيان وإبراز حقائق الإسلام، وقد بين النبي ﷺ حقائق الدين أوضح بيان وأتمه، ويستنبط هذا مما جاء في الحديث "أهل الجنة ثلاثة" ويعتبر بيان الحقائق للمدعوين من أهم واجبات الداعية، ذلك لأن رسالة الداعية تقوم على البيان، وقد قال الله لنبيه ﷺ ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1] وبالبيان للحقائق تقوم الحجة على المدعوين قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾[2].

قال السعدي: (هذا أمر من الله لرسوله محمد ﷺ بأعظم الأوامر وأجلها وهو:

---

(١) سورة النحل، آية: ٤٤.

(٢) سورة المائدة، آية: ٦٧.

التبليغ لما أنزل الله إليه، ويدخل في هذا، كل أمر تلقته الأمة عنه ﷺ من العقائد والأعمال والأقوال والأحكام الشرعية والمطالب الإلهية، ودَعَا وأنذر، وبشر ويسَّر وعلَّم الجهال الأميين حتى صاروا من العلماء الربانيين. وبلغ بقوله وفعله وكتبه ورسله فلم يبق خير إلا دل أمته عليه، ولا شر إلا حذرها منه، وشهد له بالتبليغ أفاضل الأمة من الصحابة فمن بعدهم من أئمة الدين ورجال المسلمين)[١].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: بيان منزلة الوالي العادل:

إن الإسلام يحث على العدل؛ ومن ثم بيّن الحديث منزلة الوالي العادل وأنه من أهل الجنة وهذا يدل على عناية الإسلام بإقامة العدل، ويتضح هذا مما جاء في الحديث "أهل الجنة ثلاثة ذو سلطان مقسط موفق" وهذا يدل على فضل ومنزلة الوالي العادل وقد جعله الرسول الكريم من الذين يظلهم الله في ظله ففي الحديث، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((سَبعةٌ يُظلُّهمُ اللّهُ تعالى في ظِلّهِ يومَ لا ظِلَّ إلاّ ظِلّهُ: إمامٌ عَادلٌ))[٢].

قال القاضي عياض: (وإضافة الظل هنا إلى الله إضافة ملك، وكل ظل فهو لله ومن خلقه وملكه وسلطانه وهو ظل العرش، والمراد بذلك يوم القيامة إذا قام الناس لرب العالمين، ودنت منهم الشمس، ويشتد عليهم الحر ويأخذهم العرق، ولا ظل هناك لشيء إلا ظل العرش. وقد يراد به هنا ظل الجنة أو ظل طُوبى - اسم من أسماء الجنة - وهو نعيمها والكون في دارها. والإمام العادل: هو كل من إليه نَظَرٌ في شيء من أمور المسلمين من الولاة والحكام)[٣].

وقال ابن حجر: (والإمام العادل: اسم فاعل من العدل وقد جاء في رواية بلفظ "العدل" وهو أبلغ لأنه جعل المسمى نفسه عدلاً، والمراد به صاحب الولاية العظمى،

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٢٠١.

(٢) أخرجه البخاري ١٤٢٣، ومسلم ١٠٣١.

(٣) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٢٦٢/٣.

ويلتحق به كل من ولي شيئاً من أمور المسلمين فعدل فيه. والعادل هو الذي يتبع أمر الله بوضع كل شيء في موضعه من غير إفراط ولا تفريط، وقدمه في الذكر لعموم النفع به)[١].

والإمام العادل لا ترد دعوته ففي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((ثَلاَثَ لا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ: الصَّائِمُ حِينَ يُفْطِرُ، وَالإِمَامُ العَادِلُ، وَدَعْوَةُ المَظْلُومِ))[٢]. وفي رسالة بعث بها الحسن البصري لعمر بن عبدالعزيز قال: (اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل، وقصد كل جائر، وصلاح كل فاسد، وقوة كل ضعيف، ونَصَفَة كل مظلوم، ومفزع كل ملهوف، والإمام العادل كالقلب بين الجوارح تصلح الجوارح بصلاحه، وتفسد بفساده، والإمام العادل هو القائم بين الله وبين عباده يسمع كلام الله ويسمعهم، وينظر إلى الله ويريهم وينقاد إلى الله ويقودهم، والإمام العادل كالأب الحاني على ولده، يسعى لهم صغاراً، ويعلمهم كباراً، يكتسب لهم في حياته ويدخر لهم بعد مماته)[٣].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: فضل الرحمة والشفقة:

إن المسلم رقيق القلب جياش العاطفة، وقد جعل الإسلام الرحمة والشفقة سببًا لدخول الجنة، ويتضح هذا من الحديث "ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم" ولا شك أن هذا يدل على فضل الرحمة والشفقة، قال تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٤] ووصف الله نبيه وأصحابه بالرحمة فقال جل شأنه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[٥] وأمر الجماعة

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢/١٦٩-١٧٠.

(٢) أخرجه الترمذي ٢٥٢٦، وصححه الألباني دون قوله في نص الحديث: (مم خلق الخلق...)، (صحيح سنن الترمذي ٢٠٥٠).

(٣) موسوعة الحقوق الإسلامية، سعد يوسف أبو عزيز ٧٤٠.

(٤) سورة الشعراء، آية: ٢١٥.

(٥) سورة الفتح، آية: ٢٩.

المؤمنة بالتواصي بالرحمة فقال عز وجل: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾(١).

ومن ضروب رحمة النبي وشفقته ما جاء في الحديث عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إني لأقومُ في الصلاةِ أُريدُ أن أطوِّلَ فيها، فأَسمعُ بكاءَ الصبيِّ فأتجوَّزُ في صلاتي كراهيةَ أن أشُقَّ على أُمِّهِ))(٢).

لقد جعل الإسلام رحمة الناس بعضهم بعضًا سببًا لرحمة الله إياهم، فقال رسول الله ﷺ ((الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء))(٣).

وقد كان رسول الله ﷺ أرحم البشر، كان مثالاً للرحمة والرفق ورقة القلب، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾(٤)

قال السعدي: (أي برحمة الله لك ولأصحابك منَّ الله عليك أن ألنت لهم جناحك، وترفقت عليهم وحسنت لهم خلقك فاجتمعوا عليك وأحبوك وامتثلوا أمرك "ولو كنت فظًّا" أي سيء الخلق "غليظ القلب" أي قاسي "لانفضوا من حولك" لأن هذا ينفرهم ويبغضهم لمن قام به هذا الخلق السيء.

فالأخلاق الحسنة مع الرئيس في الدنيا تجذب الناس إلى دين الله وترغبهم فيه مع ما لصاحبه من المدح والثواب الخاص، والأخلاق السيئة مع الرئيس في الدين تنفر الناس عن الدين وتبغضهم إليه مع ما لصاحبها من الذم والعقاب الخاص فهذا الرسول المعصوم يقول الله له ما يقول فكيف بغيره.

أليس من أوجب الواجبات وأهم المهمات الاقتداء بأخلاقه الكريمة ومعاملة الناس

---

(١) سورة البلد، آية: ١٧.

(٢) أخرجه البخاري ٧٠٧ واللفظ له، ومسلم ٤٧٠.

(٣) أخرجه الترمذي ١٩٢٤، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٥٦٩).

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

بما كان يعاملهم به ﷺ من اللين وحسن الخلق والتأليف امتثالاً لأمر الله وجذبًا لعباد الله إلى دين الله تعالى)[(١)].

(إن الرحمة فضيلة والقسوة رذيلة، وهي تكون للناس جميعاً فتحب لهم ما تحب لنفسك، وتكره له ما تكره لها، فإن كانت الرحمة خليقتك رحمك الناس كما رحمتهم، وكانوا لك كما كنت لهم ورحمك الرحمن الرحيم: فأسْبَغَ عليك نعمه ظاهرة وباطنة، وإن تركتها إلى القساوة قست عليك الخليقة فإن نابتك نائبة، أو حلت بك ضائقة أغضوا عنك وفرُّوا منك فتجرعت وحدك صابها، وصليت نارها، وكذلك يصنع الله بك، يرفع عنك رحمته، فإذا أنت في الدنيا في معيشة ضنك لا تنعم بعزة أو هناءة، وفي الآخرة لا ينظر الله إليك، ولا يكلمك، ولك العذاب الهون جزاء بما اكتسبت فارحم تُرْحم وكن للناس يكونوا لك وتخلق بخلق الله يرفع شأنك، ويُعْل نفسك والله لا يضيع أجر المحسنين)[(٢)].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: فضل العفة والتعفف:

إن المسلم عفيف النفس، لا يمد يده إلى الناس يستجديهم ويطلب منهم، ومن ثم مدح الرسول ﷺ المسلم العفيف، وجعله من أهل الجنة حيث جاء في الحديث "وعفيف متعفف ذو عيال" والعفة والتعفف مما مدحه الله في القرآن قال الله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾[(٣)].

قال ابن كثير: (أي الجاهل بأمرهم وحالهم يحسبهم أغنياء من تعففهم في لباسهم وحالهم ومقالهم، وهم لا يلحون في المسألة ويكلفون الناس ما لا يحتاجون إليه، فإن من سأل وله ما يغنيه عن السؤال، فقد ألحف في المسألة)[(٤)].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ١٢١، ١٢٢.

(٢) الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي، ١٢٢-١٢٣.

(٣) سورة البقرة، آية:٢٧٣.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١/٧٠٤، ٧٠٥.

وقال القرطبي: (والمراد أنهم من ترك المسألة والتوكل على الله بحيث يظنهم الجاهل بهم أغنياء. والتعفف تفعّل وهو بناء مبالغة من عفّ عن الشيء إذا أمسك عنه وتنزه عن طلبه. وكونهم "لا يسألون الناس إلحافاً" أي لا يسألون ألبتة وهذا على أنهم متعففون عن المسألة عفة تامة، وعلى هذا جمهور المسلمين، ويكون التعفف صفة ثابتة لهم، أي لا يسألون إلحاحاً ولا غير إلحاح قال إبراهيم بن أدهم: سؤال الحاجات من الناس هي الحجاب بينك وبين الله تعالى، فأنزل حاجتك بمن يملك الضر والنفع، وليكن مفزعك إلى الله تعالى يكفيك الله ما سواه وتعيش مسروراً)[١].

وقد بين الرسول الكريم ﷺ صورة هذا التعفف فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((لَيْسَ الْمِسْكِينُ بِهذَا الطَّوَّافِ الَّذِي تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ واللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ. ولكِنِ الْمِسْكِينُ الَّذِي لاَ يَجِدُ غِنىً يُغْنِيهِ. وَلاَ يُفْطَنُ لَهُ، فَيُتَصَدَّقَ عَلَيْهِ. وَلاَ يَسْأَلُ النَّاسَ شَيْئاً))[٢]. أي أن المسكين الكامل المسكنة الذي هو أحق بالصدقة وأحوج إليها ليس هو هذا الطَّوَّاف، بل هو الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن له ولا يسأل الناس[٣]، وبين ﷺ أن من يستعفف يعفه الله فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((ومَن يَستعفِفْ يُعِفّهُ اللهُ، ومَن يَسْتغنِ يُغنِهِ اللهُ))[٤].

قال السعدي: (ومن استغنى بالله وبرزقه وما قسم له الله وأعطاه ولم يلتفت إلى غير ربه وغير فضله وإحسانه استعف عن الخلق ولم يعلق بهم قلبه لا خوفاً ولا رجاءً ولا طمعاً ولا رغبة وهذه المرتبة أعلى المراتب وأشرفها)[٥].

وقال الماوردي: (والنفس الشريفة تطلب الصيانة وتراعي النزاهة، وتحتمل من الضر ما احتملت ومن الشدة ما أطاقت، فيبقى تحملها، ويدوم تصونها فتكون كما قال

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢/٣/٢٤١-٢٤٥.

(٢) أخرجه البخاري ٤٥٣٩، ومسلم ١٠٣٩.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٦٥٦.

(٤) أخرجه البخاري ١٤٦٩، ومسلم ١٠٥٣ واللفظ له.

(٥) الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة ١٨٦.

الشاعر:

وقد يَكْتَسِي المرءُ خَزَّ الثياب ومن دونها حالةٌ مُضْنِيهْ

كما يكتسي خدُّه حُمْرةً وعِلَّتُه ورم في الرِّيَهْ

فلا يرى أن يتدنس بمطالب الشؤم، ومطالع اللؤم، فإن البهائم الوحشية تأبى ذلك وتأنف منه، قال الشاعر:

وليس الليثُ من جوعٍ بغادٍ على جيفٍ يطوف بها الكلابُ [(١)]

فكيف بالإنسان الفاضل الذي هو أكرم الحيوان جنساً، وأشرفه نفساً، هل يحسن به أن يرى لوحش البهائم عليه فضلاً وقد قال الشاعر:

على كل حال يأكل المرء على البؤس والضراء

وقد قيل لبعض الزهاد: لو سألت جارك؟ فقال: والله ما أسأل الدنيا من يملكها فكيف ممن لا يملكها. فأما من يسأل من غير ضرورة مَسَّت، ولا حاجة دعت فذلك صريح اللؤم، ومحض الدناءة وقلما تجد مثله ملحوظاً، أو ممولاً محفوظاً، لأن الحرمان قاده إلى أضيق الأرزاق، واللؤم ساقه إلى أخبث المطاعم، فلم يبق لوجهه ماء إلا أراقه ولا ذلاً إلا ذاقه)[(٢)].

خامساً- من أساليب الدعوة: الترغيب:

حيث جاء في الحديث "أهل الجنة ثلاثة" ومما لا شك فيه أن أسلوب الترغيب من أساليب الدعوة التي تدفع بالمدعو إلى الإقبال على الخير، لأن النفس بطبيعتها تحب وتميل إلى الثواب والأجر ومن صور استعمال القرآن لهذا الأسلوب قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ﴾[(٣)]. وفي الحديث رغب النبي ﷺ ببيان ثلاثة أنواع من

---

(١) يتيمة الدهر. قافية الباء ٣/٦٠.

(٢) أدب الدنيا والدين، أبو الحسن الماوردي، تحقيق: مصطفى السقا ص ١٩٢-١٩٣.

(٣) سورة الزمر، آية:٧٣.

الناس يدخلون الجنة، وجعلهم من أهلها وهم ذو سلطان مقسط موفق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم، وعفيف متعفف ذو عيال. وفي هذا ترغيب لهؤلاء الثلاثة وبشارة لهم بدخول الجنة.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

إن الولي فرد من أفراد الأمة، يتولى أمرها وفق صور عدة أقرها الشرع، وإن تربية أفراد الأمة على قيم الإسلام ومبادئه، ومن أهم غايات التربية الإسلامية ومن أبرز المضامين التربوية في أحاديث الباب ما يلي:

أولاً- التربية بالترغيب:

من أساليب التربية الإسلامية الناجعة التربية بالترغيب، لما له من أثر في تحفيز النفس وحثها على فعل المرغّب فيه، ومن أحاديث الباب التي تبرز هذا الأسلوب ما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ...»، وحديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: «إِنَّ الْمُقْسِطِينَ، عِنْدَ اللّهِ، عَلَىٰ مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ. عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَٰنِ عَزَّ وَجَلَّ. وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا»، وحديث عوف بن مالك رضي الله عنه: «خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم...»، وحديث عياض بن حمار رضي الله عنه: «أهل الجنة ثلاثة...». ففي هذه الأحاديث ترغيب في الاستظلال بظل الله تعالى يوم القيامة وترغيب في الجنة لمن يحقق العدل.

"ولما كان الإسلام هداية للناس جميعًا وواقعيًا في جوانبه العملية كانت الواقعية فيه تتطلب إيجاد عنصر للترغيب في وسائله التربوية للناس، وذلك في كل ما يهديهم إليه من خير، ويدعوهم إليه من فضيلة، وما ذاك إلا لكي يكفل استقامة النشء على طريق الإيمان، ويدلهم على ما يجب عليهم في هذا السبيل، وليس بغريب أن تكون التربية الترغيبية هي الأساس والعنصر الذي يقوم عليه الإصلاح الإسلامي في الأسرة وفي المدرسة وفي المجتمع الكبير مجتمع الأمة الإسلامية فهي تعتبر أساسًا محددًا لبناء شخصية الفرد، تلك الشخصية التي تهب نفسها لله تعالى في قيامها وجلوسها، في نومها ويقظتها، في غضبها ورضاها، في صداقتها، وعداوتها، في بيعها وشرائها في عملها وراحتها، في أفكارها وآرائها، في توجيهها وإرشاداتها، في نصائحها وتحذيراتها، وتبرز أهمية التربية الترغيبية في كونها أسلوباً رائعاً يساعد على نشر مكارم الأخلاق

وبثها بين الناس ليصبحوا قادرين على تطبيق حقائق ومفاهيم وتشريعات الدين الإسلامي تطبيقًا عمليًا واقعيًا لكونها خطوة حتمية لتنفيذ الشريعة في المجتمع الإسلامي، وذلك لأن أساس الأوامر والنواهي في الإسلام هو جلب المصلحة ودفع المضرة" (١).

ثانيًا- غرس قيمة العدل:

تعتبر قيمة العدل من القيم الإسلامية ذات الأهمية في مجال التربية الإسلامية، ومن ثمَّ كان من أهداف التربية الإسلامية غرس قيمة العدل، وجعلها مظهرًا من مظاهر الجماعة المسلمة، ومن أحاديث الباب التي تؤكد على قيمة العدل، حديث أبي هريرة ﷺ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ الله في ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إلاَّ ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ ....».

فجاء على رأس السبعة الذي يظلهم الله في ظله: الإمام العادل لما للعدل من أهمية كبرى في المجتمع المسلم، ومن أحاديث الباب أيضًا حديث عبدالله بن عمرو بن العاص ﷺ: «إنَّ الْمُقْسِطِينَ، عِنْدَ اللّهِ، عَلَىٰ مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ. عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَٰنِ عَزَّ وَجَلَّ. وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ الّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا»، وحديث عياض بن حمار: «أهلُ الجنةِ ثَلاثةٌ: ذو سُلطانٍ مُقْسِطٌ مُوَفَّق ....».

"ومن المثل العليا في الإسلام تكليف متبعيه بأن يكونوا قائمين بالعدل بين الناس مع صرف النظر عن جميع الاعتبارات التي تحد من سلطانه، والقرآن الكريم أمر المؤمنين أن يكونوا مبالغين في تحري العدل، ومراعاة قواعد العدل حتى مع الأعداء، وبين الله سبحانه أن العدل تُبعُث الرسلُ لأجله ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ (٢)، فهذه الآية بينت أن الله أراد بإرسال الرسل إقامة العدالة الاجتماعية على أساس ما أنزله عليهم من الكتب المتضمنة للأحكام وشرائع الدين، وما أمرهم به من استعمال الميزان، لأن به يتميز الحق من

---

(١) تربية الأبناء والبنات في ضوء الكتاب والسنة، خالد عبدالرحمن العك ص ١٨٧.

(٢) سورة الحديد، آية:٢٥.

الباطل، وبه يحصل الناس على حقوقهم"[١].

وإذا كانت العدالة مطلوبة من كل أحد فإنها من ولاة الأمر أولى، ولذا جاء في أحاديث الباب البشارة للولي العادل بالجنة، لذلك لأن العدل هو أساس الحكم الصالح.

"والعدل هو تنفيذ حكم الله، أي أن يحكم الناس وفقًا لما جاءت به الشرائع السماوية. ولما كانت الشريعة الإسلامية هي كمال هذه الشرائع فإن العمل بها إذن هو تحقيق للعدل الذي أمر الله به، ونظام الحكم الإسلامي يقوم على العدل من الحكام، وهو فرض لا يقوم الحكم الإسلامي به، وفي مقابل ذلك فإن الطاعة من المحكومين للحكام واجبة، إذا سار الحكام وفق منهج الله تعالى وشريعته، وحكموا بالعدل المفروض عليهم. ومن ثَمَّ كان العدل واجبًا حتى على الأنبياء، والعدل واجب حتى للأعداء وهذه من أعظم فضائل الإسلام"[٢].

ثالثًا- تعميق معاني الإيمان باليوم الآخر:

من أهداف التربية الإسلامية تعميق معاني الإيمان باليوم الآخر، وما يكون فيه من جزاء وحساب وثواب وعقاب، حيث يتكون لدى المتربي اليقين في أحداث اليوم الآخر، وفي أحاديث الباب جاء الحديث عن الجنة وأصحابها وحال أهلها، ومن ذلك قوله ﷺ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ الله فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ:...»، وقوله: «إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ، عَلَىٰ مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ...»، وقوله: «أهل الجنة ثلاثة...». والتصديق باليوم الآخر، والثقة فيما أعدّه الله في الجنة لمن أطاعه يولد داخل المتربي الهمة العالية والتطلع لنيل هذا الثواب.

"إن تذكر الإنسان لليوم الآخر له العديد من الآثار التربوية منها تربية الشعور الحقيقي بالمسئولية إذ أن الإيمان باليوم الآخر هو المحرك الأساسي لشعور الإنسان بالمسئولية الحقيقية، وهذا الإحساس يبني على الخوف من يوم الحساب، ومنها تحقيق

---

(١) روح الدين الإسلامي، عفيف عبدالفتاح طبارة ص ٣٠٠، ٣٠١.

(٢) منهج التربية في التصور الإسلامي، د. علي أحمد مدكور ص ١٩٥، ١٩٦.

الهدف الأسمى من وجود الإنسان حيث إن الإحساس بالمسئولية يمكّن الإنسان من أن يكون عبدًا صالحًا لأن العبودية هي جوهر الإنسانية، ومنها: تحقيق الأخلاق الفاضلة، فالإيمان باليوم الآخر وما يترتب عليه من خشية المؤمن من الجزاء يوم الحساب يحقق في الإنسان الأخلاقيات الفاضلة في السلوكيات الحياتية بحيث تأتي هذه الأخلاقيات مراعية لشرع الله"[1].

ومن ثمَّ يجب على المربين تعميق معاني الإيمان باليوم الآخر حتى يمكن غرس الكثير من القيم التربوية "إذ أن الإيمان بالحياة الآخرة والمسئولية العظمى أمام الله وجزاء الأعمال يكّون في أعماق النفس دافعًا قويًا إلى عمل الخير ومكافحة الشر، ويكون هذا الشعور النفسي القوي ضامنًا تنفيذ قواعد الأخلاق والتشريع أقوى من الجزاء الدنيوي، ومن قواعد الزجر والعقاب، ومن آثار هذا الإيمان أيضًا أنه يسبب الإخلاص في العمل فلا يكون عمل المؤمن ترقبًا لمكافأة أو شكراً ينتظرهما من الناس ومن المجتمع فإنه يعمل لوجه الله تعالى وابتغاء مرضاته وانتظارًا لِحُسْن العاقبة في الحياة الأبدية" [2].

رابعًا- التربية الاجتماعية:

وهذا واضح من قوله ﷺ ((سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ الله في ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إلاَّ ظِلُّهُ منهم: وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللّهِ، اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ))، ففي هذا تربية اجتماعية للفرد والمجتمع عن طريق تقوية المحبة والمودة بين المسلمين، فيظللّ أفراد المجتمع حبٌّ بعضهم لبعض، لا لحاجة من حاجات الدنيا، وإنما حبٌّ يقصد به وجه الله تعالى، فمحبة المسلم لأخيه المسلم -حينئذ- تكون نابعة من حبه لله ولرسوله ﷺ ولدينه، فالحب في الله يدوم كما أن المحبة في الله من كمال الإيمان.

كما أن الأمن الاجتماعي ينشر في المجتمع المسلم إذا تحققت المحبة بين المسلمين في الله، وحينئذ يسود الأمن والاطمئنان في المجتمع، لأن الجميع سوف يسعى في صلاح من

(١) التربية الإسلامية مصادرها وتطبيقاتها، د. عماد محمد محمد عطية ص ٧٢، ٧٣.

(٢) نظام الإسلام: العقيدة والعبادة، د. محمد المبارك ص ١٥٦.

يحب وجلب الخير له، ودفع ما يضره عنه، كل واحد منهم آمن على نفسه وأهله وماله وعرضه.

خامسًا- من الأساليب التربوية الإلقاء والحوار والمناقشة:

وردت في أحاديث الباب عدة أساليب تربوية منها:

أ- الإلقاء: كما في حديث ((سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ)) كما أن في هذا الحديث ترغيبًا، ويمكن للمعلم أن يمزج بين الإلقاء والترغيب بهدف استثارة انتباه المتعلمين وتشويقهم للموقف التعليمي، هذا من جانب، ومن جانب آخر ضمان وصول المعلومة إلى أذهان المتعلمين.

ب- الحوار والمناقشة: كما في حديث عوف بن مالك رضي الله عنه ((خِيَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ...)) الحديث، والحوار والمناقشة من الأساليب التي تسمح للمتعلم أن يعرض ما في نفسه من أفكار وآراء، مما يفعل دوره في العملية التعليمية ويزيد من استفادته منها بدرجة كبيرة.

❁ ❁ ❁

٨٠- باب وجوب طاعة ولاة الأمر في غير معصية وتحريم طاعتهم في المعصية

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩].

الحديث رقم (٦٦٣)

٦٦٣- وعن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبيِّ ﷺ، قَالَ: ((عَلَى المَرْءِ المُسْلِمِ السَّمْعُ والطَّاعَةُ فِيمَا أحَبَّ وكَرِهَ، إلاَّ أنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيةٍ، فَإذَا أُمِرَ بِمَعْصِيةٍ فَلاَ سَمْعَ وَلاَ طَاعَةَ)) متفقٌ عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

الشرح الأدبي

الحديث يقرر قواعد عامة تنظم العلاقة بين الرئيس، والمرؤوس وبين الحاكم، والرعية بما يضمن منع الخلاف وتحقيق الترابط الذي يصب في مصلحة الأمة، وبداية الحديث بقوله (عَلَى المَرْءِ المُسْلِمِ) يدخل الجميع تحت مظلة الحكم مما يستلزم إنصاتهم؛ لأن (ال) في لفظ المسلم للجنس فيشمل كل المسلمين، والتعبير بـ (على) يشير إلى الوجوب، والإلزام لأن على تشير إلى تمكن الأمر، وعلوه، وأنه تشريع من الله، وذكر المرء للتوكيد، وتخصيص المسلم لأنه المعني بتنفيذ أمر الله، ورسوله، وقد استخدم أسلوب الطباق بين المعاني حيث طابق بين أحب، وكره الذي يقرر أن طاعة ولي الأمر مقدمة على رغبة النفس رعاية لوحدة المسلمين، كما أنه طابق بين السمع، والطاعة، وبين قوله فلا سمع، ولا طاعة وهو طباق سلب يقرر أنه لا طاعة مطلقة إلا

---

(١) أخرجه البخاري ٧١٤٤، ومسلم ١٨٣٩/٣٨ واللفظ له.

لله، ولرسوله ﷺ ولذلك استثنى بقوله: (إِلاَّ أنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيةٍ) وبناء الفعل (يؤمر) للمجهول ليشمل كل ولي أمر أو نائب عنه يأمر بمعصية عندها يتوقف عن الطاعة، ولا يسمع، ولا يطيع.

فقه الحديث

هذه الأحاديث تشير إلى الأحكام الفقهية التالية:

١-حكم انعقاد الإمامة: أجمعت الأمة على وجوب عقد الإمامة[١].

٢-حكم طاعة ولاة الأمور: لا خلاف بين الفقهاء أن طاعة ولي الأمر إنما تكون في المعروف، ولا تجوز في معصية، فإذا أمر ولي الأمر بما يخالف الشرع، حرم على المكلفين طاعته، أو تنفيذ أمره، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق[٢].

٣-حكم الخروج على ولي الأمر العادل: لا خلاف بين الفقهاء أن من اتفق المسلمون على مبايعته، ثبتت إمامته، ووجبت طاعته، فمن خرج عليه كان باغياً وجب قتاله[٣].

٤-حكم الخروج على ولي الأمر الجائر: اختلف الفقهاء في ذلك، فذهب الحنفية والمالكية والحنابلة إلى حرمة الخروج عليه، ولو كان ذلك بقصد منعه من جوره، إذ لا يعزل السلطان بالظلم والفسق وتعطيل الحقوق بعد انعقاد إمامته، وإنما يجب موعظته.

---

(١) مراتب الإجماع ١٤٤، رد المحتار ٢٠٤/٤، كشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٢٠١/٦.

(٢) مراتب الإجماع ١٤٥، وشرح فتح القدير، ابن همام الحنفي ٩٩/٦ وما بعدها، وحاشية الخرشي ٦٠/٨، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، شمس الدين الرملي ٢٠٤/٧، المغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٤٨/١٠.

(٣) رد المحتار على الدر المختار المسمى، محمد أمين بن عمر عابدين، تحقيق: علي محمد معوض ٤٣٠/٣، وحاشية الدسوقي ٢٩٨/٤ وما بعدها، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، شمس الدين الرملي ٣٨٢/٧، المغني والشرح الكبير ٥٢/١٠ وما بعدها.

بينما ذهب بعض المالكية، وبعض الشافعية إلى جواز الخروج على الإمام الجائر، إذا كان الخروج من عادل، وحينئذ تجب معاونته[1].

٥-العدد المعتبر خروجاً: يرى المالكية أن الواحد. والعدد القليل يعد خروجاً، بينما ذهب الشافعية إلى أن العبرة بوجود شخص مطاع بين الخارجين قلة كانوا أم كثرة، وقال الحنابلة والحنفية: إن الواحد والعشرة ليسوا خارجين، بل الكثرة التي تعتبر قوتهم، بما يحتاج معهم الإمام إلى إعداد وترتيب لمواجهتهم[2].

٦-تعدد الأئمة: ذهب جمهور الفقهاء إلى أنه لا يجوز كون إمامين في دولة مسلمة في وقتٍ واحد، ولا يجوز إلا إمام واحد، لحرمة التفرق والتنازع بين المسلمين، وإذا كان إمامان فقد حصل التفرق المحرم، ووقعت المعصية لله تعالى.

فإن عقدت لاثنين معاً بطلت فيهما، أو مرتباً فهي للسابق منهما، ويُعزَّر الثاني ومبايعوه. وإن جهل السابق منهما بطل العقد فيهماعند الشافعية، لامتناع تعدد الأئمة، وعدم المرجّح لأحدهما.

وعن الإمام أحمد روايتان: إحداهما: بطلان العقد، والثانية: استعمال القرعة، قال القاضي: هذا قياس المذهب كالأذان.

وذهب المالكية إلى أنه إذا تباعدت البلاد، وتعذرت الاستتابة، جاز تعدد الأئمة بقدر الحاجة، وهو قول عند الشافعية[3].

---

(١) رد المحتار على الدر المختار المسمى، محمد أمين بن عمر عابدين، تحقيق: علي محمد معوض ٤٢٩/٣، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، محمد بن عبدالرحمن المغربي ٢٧٧/٦، وحاشية الخرشي ٦٠/٨، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، شمس الدين الرملي ٣٨٢/٧، وكشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٩٥/٤، والمحلى، ابن حزم ٥٢٦/٨.

(٢) بدائع الصنائع ١٤٠/٧، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، محمد بن عبدالرحمن المغربي ٢٧٧/٦، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، شمس الدين الرملي ٣٨٣/٧، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٤٩/١٠، وكشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٦٦/٤.

(٣) الأشباه والنظائر في قواعد وفروع الشافعية، جلال الدين السيوطي ٥٩/٣، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم النفراوي ١٢٥/١، وأسنى المطالب في صلة الأقارب، ابن حجر الهيتمي، تحقيق: د. حسن عبدالحميد حسن ٣٦١/١٩، ٣٦٢، وكشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٢٠٣/٦، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين المرداوي ٦٠/١٦. وانظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٢٦/٦.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: السمع والطاعة لولاة الأمر في غير معصية لله.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: أهمية المحافظة على حرمات الله.

ثالثاً: من آداب المدعو: الاستجابة لما دعا إليه رسول الله ﷺ.

أولاً- من موضوعات الدعوة: السمع والطاعة لولاة الأمر في غير معصية لله:

إن طاعة ولاة الأمر مشروطة بأن تكون في المعروف، فإن أمروا بمعصية فلا سمع ولا طاعة، لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وهذا ما ينص عليه الحديث، حيث قال ﷺ: "على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة" قال النووي: (قال العلماء: معناه: تجب طاعة ولاة الأمر فيما يشق وتكرهه النفوس وغيره مما ليس بمعصية، فإن كانت في معصية فلا سمع ولا طاعة، وهذه الأحاديث في الحث على السمع والطاعة في جميع الأحوال وسببها اجتماع كلمة المسلمين، فإن الخلاف سبب لفساد أحوالهم في دينهم ودنياهم)[1].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: (نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾[2]، في عبدالله بن حذافة بن قيس بن عدي السهمي بعثه النبي ﷺ في سرية)[3].

وقصته ما رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بَعَثَ رسولَ اللَّهِ علقمةَ بن مُجَزِّزٍ المُدْلِجِي على بَعْثٍ أنا فيهم، فخرجنا حتَّى إذا كُنا على رأسِ غزاتِنا، أو في بعضِ الطَّريقِ استأذَنَتْهُ طائفةٌ، فأذِنَ لهم، وأمَّرَ عليهم عَبْدَ اللَّه بنَ حُذافةَ السَّهمي، وكان من أصحابِ بدرٍ، وكانتْ فيهِ دُعَابَةٌ، فكنتُ فيمَنْ رَجَعَ معهُ، فبينا نحنُ في الطريقِ نزلنا منزلا، وأوقدَ القومُ ناراً يَصْطَلُونَ بها، أو يصنعون عليها صنيعاً لهم، إذ قال لَهُمْ عَبْدُ

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٩٠.

(٢) سورة النساء، آية: ٥٩.

(٣) أخرجه البخاري ٤٥٨٤، ومسلم ١٨٣٤.

اللّٰه بنُ حُذافة: أليسَ لي عليكمُ السَّمْعُ والطاعةُ؟ قالوا: بلى، قالَ: فأنا آمُرُكُمْ بشيءٍ ألا فعلتموهُ؟ قالوا: بلى، قالَ: فإني أَعْزِمُ عَلَيْكُمْ بحقِّي وطاعتي إلا تواثَبْتُمْ في هذه النار، قالَ: فَقَامَ ناسٌ حتى إذا ظَنَّ أنَّهم واثبونَ فيها، قالَ: أَمْسِكُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ، إنما كُنْتُ أضحكُ مَعَكُمْ، فلما قَدِمُوا على رسولِ اللّٰهِ ذكروا ذلك لَهُ، فقالَ رَسُولُ اللّٰهِ: ((مَنْ أمركُمْ بمعصيةٍ، فلا تُطيعُوهُ))[١].

قال السعدي في تفسير قوله تعالى: (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) قال: (أمر الله بطاعته وطاعة رسوله، وذلك بامتثال أمرهما الواجب والمستحب واجتناب نهيهما، وأمر بطاعة أولي الأمر، وهم الولاة على الناس من الأمراء والحكام والمفتين، فإنه لا يستقيم للناس أمر دينهم ودنياهم إلا بطاعتهم والانقياد لهم، طاعة لله ورغبة فيما عنده. ولكن بشرط أن لا يأمروا بمعصية الله، فإن أمروا بذلك، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ولعل السر في حذف الفعل عند الأمر بطاعتهم، وذكره مع طاعة الرسول، فإن الرسول ﷺ لا يأمر إلا بطاعة الله، ومن يطعه فقد أطاع الله، وأما أولو الأمر فشرط الأمر بطاعتهم أن لا يكون معصية"[٢].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: أهمية المحافظة على حرمات الله:

إن حرمات الله هي محارمه، وعدم الجرأة على انتهاكها من علامات الإيمان الصادق، لذا حذّر النبي ﷺ من الطاعة في المعصية، وذلك واضح من تقييد النبي ﷺ طاعة أولي الأمر بألا تكون في معصية، وإلا فلا سمع ولا طاعة.

ومن هذا القبيل حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: دَعَانَا رَسُولُ ﷺ اللّٰهِ فَبَايَعْنَاهُ. فَكَانَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا، أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا، وَأَثَرَةٍ عَلَيْنَا. وَأَنْ لاَ نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ. قَالَ: ((إلاَّ أَنْ تَرَوْا كُفْراً بَوَاحاً عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ))[٣].

---

(١) أخرجه ابن ماجه ٢٨٦٣، وحسنه الألباني ص حيح سنن ابن ماجه ٢٣١٢.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ١٤٨.

(٣) أخرجه البخاري ٧٠٥٥، ٧٠٥٦، ومسلم ٤٢ - ١٧٠٩.

قال النووي: (قوله ﷺ: "إلا أن تروا كفراً بواحاً"، وفي بعضها "بداحاً" - والباء مفتوحة فيهما، ومعناهما: كفراً ظاهراً، والمراد بالكفر هنا المعاصي، ومعنى عندكم من الله فيه برهان: أي تعلمونه من دين الله تعالى، ومعنى الحديث: لا تنازعوا ولاة الأمور في ولايتهم ولا تعترضوا عليهم إلا أن تروا منهم منكراً محققاً تعلمونه من قواعد الإسلام، فإذا رأيتم ذلك فأنكروه عليهم وقولوا بالحق حيث كنتم)(١)، قال ابن حجر: (وقال غيره -أي: غير النووي-: المراد بالإثم هنا المعصية والكفر فلا يعترض على السلطان إلا إذا وقع في الكفر الظاهر)(٢).

وقال ابن هبيرة: (تجوز طاعة الأمير إلى الحد الذي لا ينتهي إلى معصية الله عز وجل، فإذا انتهى إليها فحينئذ لا طاعة له ولا لغيره.

وأن المأمورين إذا رأوا أميرهم قد أمرهم بما يتحققون أنه معصية لله عز وجل فواجبٌ عليهم أن لا يطيعوه وأن طاعة الأمير إنما هي فرع على طاعة الله عز وجل التي هي الأصل، فإذا انتهت المراعاة لحفظ فرع من الفروع إلى أن ينتقض ذلك الأصل الذي بنيت الفروع عليه بناء في الحكم فبطل من أصله)(٣).

وقال البغوي: (وحكي أن عمر بن هُبيرة كان على العراق، قال لعدة من الفقهاء منهم الحسن والشعبي: إن أمير المؤمنين يكتب إلي في أمور أعمل بها فما تريان؟ قال الشعبي: أنت مأمور، والتبعة على آمرك، فقال للحسن: ما تقول؟ قال: قد قال هذا، قال: قل، قال: اتق الله يا عمر، فكأنك بملك قد أتاك، فاستنزلك عن سريرك هذا، فأخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك، فإياك أن تعرض لله بالمعاصي، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الله.

وروي عن أبي برزة أنه مرّ على أبي بكر وهو يتغيظ على رجل من أصحابه، وقيل: إن الرجل كان يسب أبا بكر، فقال أبو برزة: قلت: يا خليفة رسول الله من هذا الذي

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٩٢.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١/١٣.

(٣) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٢٥٨/١.

تتغيظ عليه؟ قال: فلِمَ تسأل عنه؟ قلتُ: لأضرَب عنقه. وفي رواية قال أبو بكر لأبي برزة: لو قلت لك ذلك أكنت تفعله؟ قال: نعم. فقال: ما كان ذلك لأحد بعد رسول الله ﷺ. فهذا يؤيد ما قلنا، وهو أن أحداً لا يجب طاعته في قتل مسلم إلا بعد أن يعلم أنه حق إلا رسول الله ﷺ، فإنه لا يأمر إلا بحق ولا يحكم إلا بعدل، وقد يتأول هذا أيضاً على أنه لا يجب القتل في سب أحد إلا في سب رسول الله ﷺ)[١].

ثالثاً- من آداب المدعو: الاستجابة لما دعا إليه رسول الله ﷺ:

لقد أمر رسول الله ﷺ بالسمع والطاعة لأولي الأمر ما لم يأمروا بمعصية وإلا فلا سمع ولا طاعة. وهذا الحديث يوضح العلاقة بين أولي الأمر والرعية، فإذا استجابت الرعية لذلك كان في هذا فلاحها وصلاحُها وإلا انتشرت الفتن والاضطرابات. وقد تمثل أبو بكر الصديق رضي الله عنه هذا المعنى في خطبته التي خطبها عندما بايعه المسلمون خليفة عليهم، فقال: (أيها الناس فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة والكذب خيانة والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه[٢] إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا خذلهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله)[٣].

وقد أجاب ابن عثيمين على سؤال نصه: (إذا ندب الله عز وجل إلى أمر من الشريعة ندباً عاماً، كالدعوة إلى الله مثلاً، ومنع من إيقاعه ولي الأمر مثلاً، فهل يستجاب لولي الأمر في هذا مع قول الرسول ﷺ: ((إنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ))[٤]، مع الضابط إذا تيسر جزاك الله خيراً؟

---

(١) شرح السنة ١٠/٤٤ - ٤٥.

(٢) أي: أرده إليه، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ر و ح).

(٣) أخرجه ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام ٢١٢/٤، وقال ابن كثير: هذا إسناد صحيح. البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق: أحمد أبو مسلم وآخرون ٩٠/٨، ٤١٥/٩.

(٤) أخرجه البخاري ٤٣٤٠، ومسلم ١٨٤٠.

فأجابه الشيخ بقوله: (إذا قال ولي الأمر لشخص مثلاً: لا تدعُ إلى الله، فإن كان لا يقوم أحد سواه بهذه المهمة، فإنه لا يطاع ولي الأمر في ذلك، لأنها تكون فرض عين على هذا الشخص، ولا طاعة لولي الأمر في ترك فرض عين.

أما إذا كان يقوم غيره مقامه نظرنا: إذا كان ولي الأمر نهاه لأنه يكره دعوة الناس، فهنا يجب أن يناصح ولي الأمر في هذا، ويقال: اتق الله، لا تمنع من إرشاد عباد الله، أما إذا كان نهيه هذا الشخص لسبب آخر يحدث من جراء كلام هذا الرجل، ورأى ولي الأمر أن المصلحة إيقافه، وغيره قائم بالواجب فإنه لا يحل لهذا أن ينادد ولي الأمر، وقد كان عمار بن ياسر رضي الله عنهما مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه في سفر، فأجنب عمار -أصابته جنابة- فجعل يتمرغ في الصعيد كما تتمرغ الدابة، يعني يتقلب ليشمل التراب جميع بدنه، ثم عاد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعمار: ((إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيك أَنْ تَقُولَ بِيَدِك هَكَذَا))، وأراه التيمم، ثم جاءت خلافة عمر، وصار عمار يحدث بذلك، فاستدعاه عمر رضي الله عنه يوماً من الأيام وقال: كيف تحدث بهذا الحديث؟ لأن عمر يرى أن الجنب لا يتيمم، وأن التيمم في الحدث الأصغر فقط، وأن من عليه جنابة ينتظر حتى يجد الماء ثم يغتسل ويصلي، هذا رأيه. فقال له عمار: يا أمير المؤمنين أما تذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال كذا وكذا، فكأن عمر نسي هذا، فقال له: يا أمير المؤمنين إن شئت بما جعل الله لك علي من الطاعة ألا أحدث به فعلت، فقال عمر: لا، نوليك ما توليت[1]، يعني فحدث به، والشاهد أنه ما أنكر عليه قوله: (إن شئت بما جعل الله لك علي من الطاعة ألا أحدث به، فعلت).

أما لو قال ولي الأمر مثلاً: لا تصل النافلة، فنقول: صلها، لكن بدون منابذة، صلها في بيتك، لأن منابذة ولي الأمر يترتب عليها مفاسد كثيرة، لا بالنسبة لك أنت أيها المنابذ، لأنك أنت أيها المنابذ ربما تؤخذ وتؤذي وأنت تعتقد أنك أوذيت في الله، لكن غيرك أيضاً يصاب بهذه المنابذة، وربما يقتدي بك غيرك ممن لا يعرف ما عرفت، ينابذ بدون علم، وربما تتحسس الأخبار من حولك ويؤتى بكل إنسان حولك، ويؤذى

---

(١) أخرجه البخاري ٣٤٦ ومسلم ٣٦٨.

بدون جريمة ثم إن الحط من قدر ولاة الأمور من العلماء أو الأمراء في أعين الناس له ضرر كبير، لأن قدر ولاة الأمور إذا سقط من أعين الناس تمرد الناس على ولي الأمر، ولم يروا لأمره قيمة، وصاروا يرونه كسائر الناس، وإذا انحط قدر العلماء في أعين الناس لم يكن لما يقولونه للناس من شريعة الله قيمة، ولم يهتم الناس بأقوالهم، وخُربت الشريعة من هذا الجسر، لأن قدرهم هون في أعين الناس، فصار الناس لا يبالون بهم، ولا يأخذون بأقوالهم، يذهبون يأخذون من فلان وفلان ممن هو دونهم في فقه شريعة الله عز وجل.

فهذه الأمور لا ينبغي لنا أن ننظر إلى ظاهرها وسطحها؛ لأن لها غوراً بعيداً عميقاً، وقد سئل النبي ﷺ عن ولاة الأمور الذي يطالبون بحقهم، ويضيعون حق الله في رعيتهم فقال ﷺ: ((اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا. فإِنَّمَا عَلَيْهِمْ مَا حُمِّلُوا وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ))(١)، نحن نعطيهم ما لهم علينا، ونسأل الله سبحانه وتعالى حقنا، وذلك بأن يهديهم الله حتى يقوموا به.

فينبغي لنا أيها الإخوة ألا ننظر إلى الأمور من سطحيتها فقط؛ بل ننظر لما يترتب عليها من المفاسد العظيمة، والأمن حتماً له قيمة، فالدنيا كلها تبذل في سبيل الأمن، ويضحي الإنسان من نفسه بأشياء كثيرة من أجل الأمن، ولا يعرف قدر الأمن إلا من ابتلي بالخوف، اسألوا آباءكم الأولين، ماذا كانت عليه هذه البلاد من الخوف فيما سبق؟

كان الناس لا يذهبون من بريدة إلى عنيزة، أو من عنيزة إلى بريدة إلا مسلحين، وعلى خوف شديد، بل قال بعض الكبار: كنا -والله- نخرج في رمضان من بيوتنا بعد العشاء، بل بعد المغرب ونحن نحمل السلاح يخافون على أنفسهم من عدو يدخل البلد، أو غير ذلك. فنعمة الأمن والرخاء لا يساويها نعمة بعد الدين، فيجب علينا أن نتجنب كل ما يثير الناس، ونحن لا نبرئ ولاة الأمور من الخطأ، ولاة الأمور من العلماء والأمراء عندهم خطأ كثير، لكن جاء في الأثر: (كما تكونون يولى عليكم)(٢)،

---

(١) أخرجه مسلم ١٨٤٦.

(٢) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي بكرة كما في المقاصد الحسنة ص ٣٨٥ وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة ٣٢٠.

انظروا إلى أحوال الناس، فمن حكمة الله أن الولي والمولى عليه يكونون متساوين، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ (١).

كذلك يولي الله على الصالحين صلحاء، وإذا نظرنا إلى أحوال الرعية وجدنا أنفسنا نحن الرعية عندنا تفريط في الواجبات وإخلال وتهاون، وتهافت على المحرمات؛ نجد الغش في المعاملات، والكذب، والتزوير، وشهادة الزور، وأشياء كثيرة، فلو أن الإنسان تعمق وسلط الأضواء على حال المجتمع الإسلامي اليوم، لعرف القصور والتقصير، فالمجتمع الإسلامي صدق ووفاء وأمانة، وكل هذه مفقودة الآن إلا ممن شاء الله.

فإذا أضعنا نحن الأمانة فيما نحن أمناء فيه، وليس عندنا ولاية كبيرة، فكيف من له ولاية كبيرة، قد يكون أشد منا إضاعة للأمانة، لكن استقيموا يول الله عليكم من يستقيم.

ثم إن الواجب أيضاً أن ندعو لولاة الأمور سراً وعلناً، أن ندعو لهم بالتوفيق والصلاح والإصلاح، لأنهم ولاة أمورنا، أعطيناهم البيعة، فلا بد أن نسأل لهم الصلاح حتى يصلح الله بهم، ويذكر أن أحمد قال: "لو أعلم أن لي دعوة مستجابة لصرفتها للسلطان"، لأنه إذا صلح السلطان صلحت الأمة، وهذا صحيح.

فالواجب علينا يا إخواني ألا نيأس، وأن ندعو لولاة أمورنا أن يصلح الله لهم الأمور، وأن يعينهم على ما حملهم، وأن يبعد عنهم كل بطانة سوء، لأن ولي الأمر ليس وحده، فله أعوان، وله وزراء، وله جلساء فإن وفق بجليس صالح ومعين صالح، ووزير صالح، فهو من توفيق الله له وللرعية، وإن كان الأمر بخلاف ذلك فهو من شؤمه وشؤم الرعية، ولهذا يجب أن ندعو الله لولاتنا أن يوفقهم للصلاح والإصلاح، وأن ييسر لهم البطانة الصالحة، ونسأل الله لنا ولكم التوفيق"(٢).

---

(١) سورة الأنعام، آية: ١٢٩.

(٢) نقلاً عن كتاب: ابن عثيمين الإمام الزاهد، د. ناصر بن مسفر الزهراني، ط/١، دار ابن الجوزي، الدمام: ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م ص ١١٦ - ١١٩.

الحديث رقم (٦٦٤)

٦٦٤- وعنه، قَالَ: كُنَّا إِذَا بَايَعْنَا رسولَ الله ﷺ عَلَى السَّمعِ والطَّاعَةِ، يَقُولُ لَنَا: ((فِيمَا اسْتَطَعْتُمْ)) متفقٌ عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

بايعنا: من البيعة وهي المُعَاقَدة والمُعاهَدة: أي أعطى غيره، خالصةَ نفسه وطاعته ودخيلة أمره[2].

الشرح الأدبي

قول الراوي (كنا إذا بايعنا الرسول ﷺ) يقرر عدة أمور منها أن التعبير بكان يشير إلى أنه عادة غالبة في الفعل أي عند كل مبايعة يقول هذا القول، ومنها أنه عبَّر بضمير الجمع الذي يشير إلى تأكيد الخبر؛ لأنه فعل جماعة، وليس فعل شخص واحد ثم إنه عبر بالماضي الدال على التحقق وقوله (السمع، والطاعة) أي السماع منه والمقصود منه لازمه، وهو التنفيذ للأمر، والانتهاء بالنهي والطاعة في الأقوال، والأفعال وقول الرسول ﷺ (فِيمَا اسْتَطَعْتُمْ) احتراس رقيق من النبي ﷺ يحرس به أمته من العجز، والتقصير مما يدل على عظيم محبته لهم وحرصه عليهم.

المضامين الدعوية

أولاً: من أهداف الدعوة: مراعاة طاقات وإمكانات الناس في السمع والطاعة.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: أهمية الشفقة والرفق بالناس.

ثالثاً: من صفات الداعية: الرفق والشفقة.

---

(١) أخرجه البخاري ٧٢٠٢ واللفظ له، ومسلم ٩٠/١٨٦٧.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ب ي ع).

أولاً- من أهداف الدعوة: مراعاة طاقات وإمكانات الناس في السمع والطاعة:

جاء الإسلام باليسر ورفع الحرج والمشقة عن المكلفين، ومن مظاهر ذلك أنه راعى الطاقة البشرية في امتثال التكاليف وفعلها، وهذا واضح من قول الصحابي: (كنا إذا بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة يقول لنا: فيما استطعتم).

ومن ذلك حديث جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه: (بايعتُ النبيَّ ﷺ على السمع والطاعة، فلقنَني: فيما استطعتُ، والنُّصح لكل مسلم)[1].

قال ابن حجر: (قوله: فيما استطعت، المقصود بهذا التنبيه على أن اللازم من الأمور المبايع عليها هو ما يطاق، كما هو المشترط في أصل التكليف، ويشعر الأمر بقول ذلك اللفظ حال المبايعة بالعفو عن الهفوة وما يقع من خطأ وسهو)[2].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[3]، قال: هم المؤمنون وسع عليهم أمر دينهم، فقال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[4]، وقال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[5]، وقال: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾[6][7].

وقال ابن تيمية: (ففي الجملة أهل السنة يجتهدون في طاعة الله ورسوله بحسب الإمكان كما قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾[8]، وقال النبي ﷺ: ((إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ))[9])[10].

---

(١) أخرجه البخاري ٧٢٠٣، ومسلم ٥٩.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٦٨/١.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٨٦.

(٤) سورة الحج، آية: ٧٨.

(٥) سورة البقرة، آية: ١٨٥.

(٦) سورة التغابن، آية: ١٦.

(٧) أخرجه ابن جرير الطبري ١٥٣/٥، وابن المنذر وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٤٢٣/٣.

(٨) سورة التغابن، آية: ١٦.

(٩) أخرجه البخاري ٧٢٨٨، ومسلم ١٣٣٧.

(١٠) منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، ابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، ط/٢ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية: ١٤١١هـ/١٩٩١م، ٥٢٧/٤.

قال النووي: (قوله ﷺ: "فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم" هذا من قواعد الإسلام المهمة ومن جوامع الكلم التي أعطيها ﷺ، ويدخل فيه ما لا يحصى من الأحكام كالصلاة بأنواعها، فإذا عجز عن بعض أركانها أو بعض شروطها أتى بالباقي، وإذا عجز عن بعض أعضاء الوضوء أو الغسل غسل الممكن، وإذا وجد بعض ما يكفيه من الماء لطهارته أو لغسل النجاسة فعل الممكن، وإذا وجبت إزالة منكرات، أو فطرة[1] جماعة من تلزمه نفقتهم أو نحو ذلك وأمكنه البعض فعل الممكن، وإذا وجد ما يستر بعض عورته أو حفظ بعض الفاتحة أتى بالممكن، وأشباه هذا غير منحصرة وهي مشهورة في كتب الفقه والمقصود التنبيه على أصل ذلك.

وهذا الحديث موافق لقول الله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[2] وأما قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾[3] ففيها مذهبان: أحدهما أنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ والثاني وهو الصحيح أو الصواب وبه جزم المحققون أنها ليست منسوخة بل قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ مفسرة لها ومبينة للمراد بها، قالوا: وحق تقاته هو امتثال أمره واجتناب نهيه، ولم يأمر سبحانه وتعالى إلا بالمستطاع، قال الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[4]. وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[5])[6].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: أهمية الشفقة والرفق بالناس:

إن الرفق والرأفة من الأخلاق التي حضّ الإسلام عليهما وحثّ أتباعه أن ينشروهما

---

(١) الفطرة: زكاة الفطر. معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ص ٣١٧.

(٢) سورة التغابن، آية: ١٦.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٠٢.

(٤) سورة البقرة، آية: ٢٨٦.

(٥) سورة الحج، آية: ٧٨.

(٦) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٨٣٧.

فيما بينهم، حتى لا يقع بعضهم في حرج ومشقة وعنت، وهذا واضح من الحديث، قال النووي: (قوله: "فيما استطعت"، أي: قل فيما استطعت، وهذا من كمال شفقته ﷺ ورأفته بأمته، يلقنهم أن يقول أحدهم: فيما استطعت؛ لئلا يدخل في عموم بيعة ما لا يطيقه، وفيه: أنه إذا رأى الإنسان من يلتزم ما لا يطيقه ينبغي أن يقول له: لا تلتزم ما لا تطيق في ترك بعضه، وهو من نحو قوله ﷺ: ((عَلَيْكُمْ مِنَ الأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ))[1].

والحديث الذي ذكره النووي فيه قصة تدل على الشفقة والرفق بالناس، قالت عائشة رضي الله عنها: كَانَ لِرَسُولِ اللّهِ حَصِيرٌ. وَكَانَ يُحَجِّرُهُ مِنَ اللَّيْلِ فَيُصَلِّي فِيهِ. فَجَعَلَ النَّاسُ يُصَلُّونَ بِصَلاَتِهِ. وَيَبْسُطُهُ بِالنَّهَارِ. فَثَابُوا ذَاتَ لَيْلَةٍ. فَقَالَ: ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيْكُمْ مِنَ الأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ. فَإِنَّ اللهَ لاَ يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا. وَإِنَّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إِلَى اللهِ مَا دُووِمَ عَلَيْهِ وَإِنْ قَلَّ))[2].

قال النووي: (وفي هذا الحديث كمال شفقته ﷺ ورأفته بأمته لأنه أرشدهم إلى ما يصلحهم وهو ما يمكنهم الدوام عليه بلا مشقة ولا ضرر، فتكون النفس أنشط والقلب منشرحاً فتتم العبادة بخلاف من تعاطى من الأعمال ما يشق فإنه بصدد أن يتركه أو بعضه أو يفعله بكلفة وبغير انشراح القلب فيفوته خير عظيم)[3].

وجاء في الموسوعة الفقهية: (يتضح رفق الله تعالى بعباده المكلفين فيما شرعه لهم من الأحكام، فإنه سبحانه وتعالى لم يكلفهم إلا بما يدخل تحت قدرتهم وطاقتهم بلا مشقة، فقد أمرهم بالصلاة وبصوم رمضان إلا أنه شرع لهم الرخص التي تخفف عنهم المشقة الحاصلة من تلك العبادات، فرخص لهم الفطر والقصر والجمع في المرض والسفر، وأباح لهم المحظور عند الضرورة، إن كانت تلك الضرورة مساوية للمحظور أو تزيد عليه. كإباحة الميتة للمضطر، ولم يوجب عليهم من العبادات إلا ما هو يسير عليهم، وأمرهم أن يأخذوا من النوافل ما يطيقون وألا يتحملوا منها ما فيه مشقة زائدة

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢٠٣.

(٢) أخرجه البخاري ٥٨٦١، ومسلم ٧٨٢.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٣٠.

عليهم رفقا بهم، لأن تلك المشقة تؤدي إلى عدم المداومة على تلك الأعمال،وقد نهى رسول الله ﷺ عن التنطع والتكلف[١]... فإن الشارع الحكيم لم يقصد من التكاليف التي فرضها على عباده العنت والمشقة)[٢].

ثالثاً- من صفات الداعية: الرفق والشفقة:

إن الداعية للمدعوين كالأب الشفيق على أولاده، فيبعدهم عن مواطن المشقة عليهم، وإذا أخذت الحماسة بأحدهم مبلغها، فإنه يدله على ما يهذّب حماسته، فتكون في موضعها الصحيح، فلا تؤدي به إلى الإخلال أو العجز عما التزم به، وذلك واضح في قول النبي ﷺ لمن بايعه من الصحابة رضي الله عنهم: (فيما استطعت) وذلك واضحٌ أيضاً في حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه: فلقنني: (فيما استطعت) . قال النووي: (وتلقينه من كمال شفقته ﷺ إذ قد يعجز في بعض الأحوال، فلو لم يقيده بما استطاع لأخلّ بما التزم به في بعض الأحوال)[٣].

وقد قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾[٤].

قال الطاهر بن عاشور: (أُرسِل محمَّدٌ ﷺ مفطوراً على الرحمة، فكان لينه رحمة من الله بالأمَّة في تنفيذ شريعته بدون تساهل وبرفق وإعانة على تحصيلها، فلذلك جعل لينه مصاحباً لرحمةٍ من الله أودعها الله فيه، إذ هو قد بُعِث للنَّاس كافَّة، ولكن اختار الله أن تكون دعوته بين العرب أولَ شيء لحكمةٍ أرادها الله تعالى في أن يكون العرب هم مبلغي الشَّريعة للعالم. والعرب أمَّة عُرفت بالأنفة، وإباء الضيم، وسلامةِ

---

(١) أخرج مسلم ٢٦٧٠ عن عبدالله بن مسعود مرفوعاً: (هلك المتنطعون) قال النووي: (هم المتمعقون المشددون في غير موضع التشديد). رياض الصالحين ١٠٥.

(٢) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٢/٢٩٢.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٣٢.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

الفطرة. وسرعةِ الفهم. وهم المتلقّون الأوّلون للدين فلم تكن تليق بهم الشّدة والغلظة، ولكنّهم محتاجون إلى استنزال طائرهم في تبليغ الشريعة لهم، ليتجنّبوا بذلك المكابرةَ الّتي هي الحائل الوحيد بينهم وبين الإذعان إلى الحقّ. وورد أن صفح النبي ﷺ وعفوه ورحمته كان سبباً في دخول كثير في الإسلام، كما ذكر بعض ذلك القاضي عياض في كتاب الشفاء. فضمير "لَهُمْ" عائد على جميع الأمّة كما هو مقتضى مقام التّشريع وسياسة الأمّة، وليس عائداً على المسلمين الّذين عصوا أمر الرسول يوم أُحُد)[١].

وجاء في الموسوعة الفقهية: (ينبغي لمن يتصدى لتغيير المنكر أن يأخذ نفسه بما يحمد قولاً وفعلاً، وأن يتحلى بمكارم الأخلاق حتى يكون عمله مقبولاً وقوله مسموعاً، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾[٢]، ومن وسائل تغيير المنكر التعريف باللطف والرفق، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ. فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ. فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ. وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ))[٣]، وخصوصاً مع من يُخاف شرُّه كالظالم المتسلط والجاهل إذا لم يكن معانداً. ويدل على ذلك حديث بول الأعرابي في المسجد، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن أعرابياً بال في المسجد فتناوله الناس، فقال لهم النبي ﷺ: ((دَعوهُ، وهَريقوا على بَولهِ سَجْلاً من ماءٍ ـ أو ذَنوباً منْ ماءٍ ـ فإنَّما بُعِثْتم مُيَسِّرِينَ، ولم تُبعثوا مُعَسِّرين))[٤]، وفيه الرفق بالجاهل وتعليمه ما يلزمه من غير تعنيف ولا إيذاء إذا لم يأت بالمخالفة استخفافاً أو عناداً)[٥].

---

(١) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور ٢/٤/١٤٥.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

(٣) أخرجه مسلم ٤٩.

(٤) أخرجه البخاري ٢٢٠.

(٥) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٢/٢٩٤ ومصادرها ومراجعها.

الحديث رقم (٦٦٥)

٦٦٥- وعنه، قَالَ: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ، يقول: ((مَنْ خَلَعَ يَداً مِنْ طَاعَةٍ لَقِيَ اللهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ حُجَّةَ لَهُ، وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً)) رواه مسلم[1].

وفي رواية لَهُ[2]: ((وَمَنْ مَاتَ وَهُوَ مُفَارِقٌ لِلجَمَاعَةِ، فَإنَّهُ يَمُوتُ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً)).

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

الشرح الأدبي

الحديث يقوم على أسلوب الشرط في سياق ترهيبي يزلزل أركان النفس الجامحة التي تميل إلى المخالفة، والانفراد عن جماعة المسلمين في قوله (مَنْ خَلَعَ يَداً مِنْ طَاعَةٍ لَقِيَ اللهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ حُجَّةَ لَهُ) وهو أسلوب شرط يربط ترك الطاعة بلقاء الله دون حجة أي دون مدافع عنه، وقوله (مَنْ خَلَعَ يَداً مِنْ طَاعَةٍ) كناية عن نقض البيعة لما كان وضع اليد كناية عن العهد، وإنشاء البيعة لجري العادة بوضع اليد على اليد حال المعاهدة كنى عن النقض بخلع اليد، ونزعها يريد من نقض، وخلع نفسه عن بيعة الإمام لقي الله تعالى يوم القيامة، ولا حجة له أي آثما، ولا عذر له، وقوله (وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ) التعبير بالعنق من المجاز بعلاقة الجزئية، ولفظ العنق يشير إلى التقييد بها، أي: ومن مات، وليس مبايعا لإمام مات ميتة جاهلية.

---

(١) برقم ١٨٥١/٥٨. عن ابن عمر، وبرقم ١٨٤٨/٥٣ عن أبي هريرة.

(٢) قال الحميدي في جمعه ٢٩٧/٢، رقم ١٤٩٨ ومن حديث أسلم مولى عمر، عن ابن عمر، أن النبي ﷺ قال: ((من نزع من طاعة فإنه يأتي يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وهو مفارق للجماعة، فإنه يموت ميتة جاهلية)). قلتُ: حديث زيد بن أسلم، عن أبيه، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ أخرجه مسلم عقب الحديث رقم ١٨٥١/٥٨ بحديث واحد، بدون رقم. ولم يسق لفظه، وإنما قال: بمعنى حديث نافع، عن ابن عمر. ولم يبين الحميدي كذلك كعادته من أين أتى بهذا اللفظ، هل من مستخرج البرقاني أو غيره. والحديث بهذا اللفظ أخرجه أحمد في المسند ٥٧١٧، وابن حبان في صحيحه (الإحسان ٤٥٧٨).

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الترهيب.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: مبايعة ولي الأمر.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: خطر نقض العهد في البيعة ومخالفة المسلمين ومفارقتهم.

رابعاً: من أهداف الدعوة: الحرص على توحيد المسلمين وجمع كلمتهم.

أولاً- من أساليب الدعوة: الترهيب:

لقد رهّب النبي ﷺ من الخروج على الإمام بأن أخبر أن من فعل ذلك لقى الله لا حجّة له في فعله، ولا عذر له ينفعه، وأن من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية، ولا شك أن هذا لترهيب المدعوين من هذين الفعلين وعدم الاقتراب منهما.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: مبايعة ولي الأمر:

إن مبايعة ولي الأمر من الأمور ذات الأهمية بمكان في الدعوة الإسلامية، لما في ذلك من جمع للكلمة وسدٍ للفرقة ومنع للمدعو أن يلحق به الضرر في دنياه وآخرته، وهذا واضح من قوله ﷺ: (ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية).

وهذا ما فعله عبدالله بن عمر رضي الله عنهما فالحديث في صحيح مسلم: جاء عبدالله بن عمر إلى عبدالله بن مطيع حين كان في أمر الحرة[1] ما كان زمن يزيد بن معاوية فقال: اطرحوا لأبي عبدالرحمن وسادة، فقال: إني لم آتك لأجلس، أتيتك لأحدثك حديثاً سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((مَنْ خَلَعَ يَداً مِنْ طَاعَةٍ، لَقِيَ اللّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لاَ حُجَّةَ لَهُ. وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً))[2]، قال أبو العباس

---

(١) كانت وقعت الحرّة سنة ٦٣هـ وكان سببها أن أهل المدينة خلعوا يزيد بن معاوية، فوجه إليهم جيشاً لحربهم، فهزموا أهل المدينة وقتلوهم واستباحوها ثلاثة أيام، وقتل فيها عدة من بقية الصحابة من أبناء المهاجرين والأنصار وعطلت الصلاة والأذان في مسجد النبي ﷺ تلك الأيام. انظر: البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق: أحمد أبو مسلم وآخرون ٦١٤/١١، والمفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو، وآخرين ٦١/٤.

(٢) أخرجه مسلم ١٨٥١.

القرطبي: (وتحديث ابن عمر ابن مطيع بالحديث الذي سمعه من النبي ﷺ إنما كان ليبيّن له: أنه لم ينكث بيعة يزيد ولم يخلعها من عنقه مخافة هذا الوعيد الذي تضمنه هذا الحديث. والله تعالى أعلم)[1]. وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾[2].

أبو عبدالله قال القرطبي: (قد قيل: إنها نزلت في بيعة النبي ﷺ على الإسلام)[3].

وقال الطاهر بن عاشور: (ذكرهم الله سبحانه وتعالى بالعهد الذي عاهدوا الله عليه عندما أسلموا، وهو ما بايعوا عليه النبي ﷺ مما فيه: ألا يعصوه في معروف، وقد كان النبي ﷺ يأخذ البيعة على كل من أسلم من وقت ابتداء الإسلام في مكة، وتكررت البيعة قبيل الهجرة وبعدها على أمور أخرى مثل: النصرة التي بايع عليها الأنصار ليلة العقبة، ومثل بيعة الحديبية، والخطاب للمسلمين في الحفاظ على عهدهم بحفظ الشريعة، وإضافة العهد إلى الله، لأنهم عاهدوا النبي ﷺ على الإسلام الذي دعاهم الله إليه)[4].

وقال ابن الأثير عن المبايعة على الإسلام: (هو عبارة عن المعاقدة عليه والمعاهدة، كأن كل واحد منهما باع ما عنده من صاحبه وأعطاه خالصة نفسه وطاعته ودخيلة أمره)[5].

وقال ابن خلدون: (البيعة هي العهد على الطاعة، كأن المبايع يعاهد أميره على أنه يسلّم له النظر في أمر نفسه وأمور المسلمين، لا ينازعه في شيء من ذلك ويطيعه فيما يكلفه به من الأمر على المنشط والمكره. وكانوا إذا بايعوا الأمير وعقدوا عهده جعلوا أيديهم في يده تأكيداً للعهد. فأشبه ذلك فعل البائع والمشتري فسمي بيعة مصدر باع. وصارت البيعة مصافحة بالأيدي. هذا مدلولها في عرف اللغة ومعهود الشرع. وهو المراد

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو، وآخرين ٦١/٤.

(٢) سورة النحل، آية: ٩١.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٦٨/١٠/٥.

(٤) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور ٢٦٠/١٣ - ٢٦١.

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ب ا ع).

في الحديث في بيعة النبي ﷺ ليلة العقبة وعند الشجرة وحيثما ورد هذا اللفظ. ومنه بيعة الخلفاء. ومنه أيمان البيعة فقد كان الخلفاء يستحلفون على العهد ويستوعبون الأيمان كلها. فسمي هذا الاستيعاب أيمان البيعة)[١].

جاء في الموسوعة الفقهية: (وقد استفاض عن رسول الله ﷺ أن الناس كانوا يبايعونه تارة على الهجرة والجهاد. وتارة على إقامة أركان الإسلام، وتارة على الثبات والقرار في معركة الكفار، وتارة على التمسك بالسنة واجتناب البدعة والحرص على الطاعات)[٢].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: خطر نقض العهد في البيعة ومخالفة المسلمين ومفارقتهم:

جاء الإسلام بجمع الكلمة ومنع الفرقة، لذا كان نقض البيعة والخروج على الجماعة عملاً يترتب عليه العقوبة الكبيرة والجزاء العظيم، وذلك واضح من نص الحديث، قال الطيبي: (قوله: "من طاعة" أي طاعة كانت قليلة أو كثيرة، ولما كان وضع اليد كناية عن العهد وإنشاء البيعة لجري العادة على وضع اليد على اليد حال المعاهدة، كنى عن النقيض بخلع اليد ونزعها، يريد من نقض العهد وخلع نفسه عن بيعة الإمام، لقي الله آثماً لا عذر له)[٣].

قال أبو العباس القرطبي: (وقوله: "لا حجة له"، أي: لا يجد حجة يحتج بها عند السؤال، فيستحق العذاب والنكال، لأن رسول الله ﷺ قد أبلغه ما أمره الله بإبلاغه من وجوب السمع والطاعة لأولي الأمر في الكتاب والسنة)[٤].

ومن هذا القبيل حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ عَنِ الْخَيْرِ. وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ. مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا فِي

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٩، وص ١٠٧.

(٢) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٧٤/٩.

(٣) شرح الطيبي على المشكاة ١٨٧/٧.

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو، وآخرين ٦٢/٤.

جَاهِلِيَّةٍ وَشَر. فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ. فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ شَرٌّ؟ قَالَ: «نَعَمْ» فَقُلْتُ: هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: ((نَعَمْ. وَفِيهِ دَخَنٌ)) قُلْتُ: وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ: ((قَوْمٌ يَسْتَنُّونَ بِغَيْرِ سُنَّتِي، وَيَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي. تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ)). فَقُلْتُ: هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: ((نَعَمْ. دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ. مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا)). فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا. قَالَ: ((نَعَمْ. قَوْمٌ مِنْ جِلْدَتِنَا. وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا)) قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَمَا تَرَى إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ: ((تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ)) فَقُلْتُ: فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلاَ إِمَامٌ؟ قَالَ: ((فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا. وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ عَلَى أَصْلِ شَجَرَةٍ، حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ، وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ))[(١)].

وقد عنون النووي لهذا الحديث في صحيح مسلم العنوان التالي: (باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة)[(٢)].

وجاء في الموسوعة الفقهية: (يختلف حكم المبايعة باختلاف المبايعين، فأهل الحلّ والعقد [وهم العلماء وجماعة الرأي والتدبير الذين اجتمع فيهم العلم بشروط الأمانة والعدالة والرأي] يجب عليهم بيعة من يختارونه للإمامة ممن استوفى الشروط الشرعية لها، وأما سائر الناس فالأصل وجوب البيعة على كل واحد منهم، بناء على بيعة أهل الحلّ والعقد؛ لقول النبي ﷺ: "من مات وليس في عنقه بيعة لإمام مات ميتة جاهلية"، ويحرم المسلم إذا بايع الإمام أن ينقض بيعته أو يترك طاعته، إلا لموجب شرعي يقتضي انتقاض البيعة، كردة الإمام... فإن نقض البيعة لغير ذلك فهو حرام.

وقد ورد النهي عنه في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا

---

(١) أخرجه البخاري ٧٠٨٤، ومسلم ١٨٤٧.

(٢) صحيح مسلم وشرحه ١١٩٥، وانظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٣/٤٠ - ٤١.

عَظِيمًا﴾[١]، وقول النبي ﷺ: ((مَنْ بايَعَ إماماً، فأعطاهُ صفقةَ يده، وثمرةَ قلبه، فلْيُطِعْهُ إنِ استطاعَ))[٢])[٣].

رابعاً- من أهداف الدعوة: الحرص على توحيد المسلمين وجمع كلمتهم:

يد الله مع الجماعة، والخير في الاجتماع والائتلاف، والشر في الافتراق والاختلاف، لذا كان من أهداف الدعوة: توحيدُ المسلمين والعملُ على جمع كلمتهم وهذا واضح من الحديث بروايتيه، ومن ذلك قول النبي ﷺ: ((إِنَّهُ سَتَكُونُ هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ. فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُفَرِّقَ أَمْرَ هذِهِ الأُمَّةِ، وَهِيَ جَمِيعٌ، فَاضْرِبُوهُ بِالسَّيْفِ، كَائِناً مَنْ كَانَ))[٤]، وفي رواية: ((مَنْ أَتَاكُمْ، وَأَمْرُكُمْ جَمِيعٌ، عَلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ، يُرِيدُ أَنْ يَشُقَّ عَصَاكُمْ، أَوْ يُفَرِّقَ جَمَاعَتَكُمْ، فَاقْتُلُوهُ))[٥]، قال النووي: "قوله ﷺ: "يريد أن يشق عصاكم" معناه: يفرق جماعتكم كما تفرق العصاة المشقوقة، وهو عبارة عن اختلاف الكلمة وتنافر النفوس، وقوله ﷺ: (فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهي جميع فاضربوه بالسيف كائناً من كان)، فيه الأمر بقتال من خرج على الإمام أو أراد تفريق كلمة المسلمين، ونحو ذلك، وينهى عن ذلك فإن لم ينته قوتل، وإن لم يندفع شره إلا بقتله فقتل كان هدراً"[٦].

وقد قال النبي ﷺ: ((إِنَّ اللّهَ يَرْضَىٰ لَكُمْ ثَلاَثاً: أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا))[٧].

قال النووي: (وأما قوله ﷺ: "ولا تفرقوا" فهو أمر بلزوم جماعة المسلمين وتألف

---

(١) سورة الفتح، آية: ١٠.

(٢) أخرجه مسلم ١٨٤٤.

(٣) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٧٥/٩، ٢٧٨، ٢٨٠.

(٤) أخرجه مسلم ٥٩ - ١٨٥٢.

(٥) أخرجه مسلم ٦٠ - ١٨٥٢.

(٦) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٩٧، وانظر: شرح الطيبي على المشكاة ١٨٩/٧.

(٧) أخرجه مسلم ١٧١٥.

بعضهم ببعض، وهذه إحدى قواعد الإسلام)[١].

وقال ابن تيمية: (إن من القواعد العظيمة التي هي من جماع الدين: تأليف القلوب، واجتماع الكلمة وصلاح ذات البين، فإن الله تعالى يقول: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾[٢]، ويقول: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾[٣]، ويقول: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[٤]، وأمثال ذلك من النصوص التي تأمر بالجماعة والائتلاف وتنهى عن الفرقة والاختلاف. وأهل هذا الأصل هم أهل الجماعة كما أن الخارجين عنه هم أهل الفرقة)[٥].

وجاء في الموسوعة الفقهية: (ذهب جمهور الفقهاء إلى أنه لا يجوز كون إمامين في دولة مسلمة في وقت واحد. ولا يجوز إلا إمام واحد. واستدلوا بخبر: ((إذَا بُويِعَ لِخَلِيفَتَيْنِ، فَاقْتُلُوا الآخَرَ مِنْهُمَا))[٦]، وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا﴾[٧]، ووجه الاستدلال: أن الله سبحانه وتعالى حرّم على المسلمين التفرق والتنازع، وإذا كان إمامان فقد حصل التفرق المحرم، فوجد التنازع ووقعت المعصية لله تعالى. فإن عقدت لاثنين معاً بطلت فيهما أو مرتباً فهي للسابق منهما ويعزر الثاني ومبايعوه، لخبر: (إذَا بُويِعَ لِخَلِيفَتَيْنِ، فَاقْتُلُوا الآخَرَ مِنْهُمَا).. وذهب المالكية إلى أنه إذا تباعدت البلاد وتعذرت الاستنابة جاز تعدد الأئمة بقدر الحاجة، وهو قول عند الشافعية)[٨].

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٠٣.

(٢) سورة الأنفال، آية: ١.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٠٣.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٠٥.

(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ١٤/٢٩٩.

(٦) أخرجه مسلم ١٨٥٣.

(٧) سورة الأنفال، آية: ٤٦.

(٨) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٦/٢٢٦.

الحديث رقم (٦٦٦)

٦٦٦- وعن أنسٍ رضي الله عنه ، قَالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ : ((اسْمَعُوا وأطِيعُوا، وَإنِ استُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشيٌّ، كأنَّ رأْسَهُ زَبِيبةٌ)) رواه البخاري[١].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

زبيبة: واحدة الزبيب المأكول المعروف الكائن من العنب إذا جف، وإنما شبه رأس الحبش بالزبيبة لتجمعها ولكون شعره أسود[٢].

الشرح الأدبي

بدأ الحديث بأسلوب إنشائي وهو الأمر المتصل بواو الجماعة الذي يوجه الأمر للأمة في كل زمان، ومكان بطاعة الإمام والسمع له أي الأخذ عنه ما يراه في صالح الأمة من توجيهات لا تتعارض من شرع الله، وقوله (وَإنِ استُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشيٌّ) أسلوب شرط محذوف الجواب أي: اسْمَعُوا وأطِيعُوا، ووصف العبد بالحبشي يشير إلى سواد الوجه وقوله (كأنَّ رأْسَهُ زَبِيبةٌ) يريد سوادها، وقيل يريد قصر شعرها، واجتماع بعضه، وتفرقه حتى يصير كالزبيب، وقال الكرماني كأن رأسه زبيبة أي حبة من العنب يابسة سوداء، وهذا تمثيل في الحقارة، وسماجة الصورة، وعدم الاعتداد بها، وقيل معناه صغيرة، وذلك معروف في الحبشة، والمقصود المبالغة في طاعة الإمام الذي لم يأمر بمعصية مهما كان شكله، وجنسه ما دام مقيما للصلاة كما مرَّ سابقا حفاظا على دماء المسلمين، وأموالهم التي يهدرها نقض البيعة، والشقاق بين المسلمين.

---

(١) برقم ٧١٤٢.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٣/١٣١.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الأمر.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: وجوب السمع والطاعة لولاة الأمر ما لم يأمروا بمعصية.

ثالثاً: من أهداف الدعوة: جمع كلمة المسلمين والعمل على ما يحقق وحدة المجتمع الإسلامي.

أولاً- من أساليب الدعوة: الأمر:

لقد كان الأمر في قول النبي ﷺ: "اسمعوا وأطيعوا..." وقد جاء الأمر هنا لخطورة أمر طاعة الإمام، لأن الأمر أسلوب مباشر لطلب الامتثال والفعل والإذعان، ومن هذا النحو قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ ﴾[1].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: وجوب السمع والطاعة لولاة الأمر ما لم يأمروا بمعصية:

لقد حث الإسلام على طاعة ولاة الأمر والتزام الجماعة. وهذا واضح من نص الحديث وقد جاءت أحاديث أخرى في هذا المعنى، منها قول النبي ﷺ لأبي ذر رضي الله عنه: ((اسمعْ وَأَطِعْ ولو لِحَبشيٍّ كأَنَّ رأْسَهُ زَبيبةٌ))[2]. قال ابن تيمية: (قد أمر النبي ﷺ بطاعة ولي الأمر، وإن كان عبداً حبشياً)[3].

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: ((إِنَّ خَلِيلِي أَوْصَانِي أَنْ أَسْمَعَ وَأُطِيعَ. وَإِنْ كَانَ عَبْداً مُجَدَّعَ الأَطْرَافِ))[4] قال النووي: (أي مقطع الأطراف، والمجدع أردأ العبيد لخسته وقلة قيمته

---

(١) سورة النساء، آية: ٥٩.

(٢) أخرجه البخاري ٦٩٦.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ١١/١٨.

(٤) أخرجه مسلم ٦٤٨.

ومنفعته ونفرة الناس منه. وفي هذا الحث على طاعة ولاة الأمور ما لم تكن معصية)[١].

وقال ابن هبيرة: (وهذا يدل على أن طاعة الأمير متعينةٌ، لا لأجل شوكته، ولا لأجل قوته، ولكن لأنه ولاه الإمام)[٢].

وفي حديث أم الحصين رضي الله عنها: ((إِنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ مُجَدَّعٌ أَسْوَدُ، يَقُودُكُمْ بِكِتَابِ اللّهِ تَعَالَى، فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا))[٣].

قال النووي: (أمر ﷺ بطاعة ولي الأمر ولو كان بهذه الحالة ما دام يقودنا بكتاب الله تعالى. قال العلماء: معناه ما داموا متمسكين بالإسلام والدعوة إلى كتاب الله تعالى على أي حال كانوا في أنفسهم وأديانهم وأخلاقهم ولا يشق عليهم العصا بل إذا ظهرت منهم المنكرات وعظوا وذكروا)[٤].

قال ابن تيمية: (وقد استفاض وتقرر ما قد أمر به ﷺ من طاعة الأمراء في غير معصية الله، ومناصحتهم، والصبر عليهم في حكمهم، وقسمهم، والغزو معهم، والصلاة خلفهم، ونحو ذلك، من متابعتهم في الحسنات التي لا يقوم بها إلا هم، فإنه من "باب التعاون على البر والتقوى" وما نهى عنه من تصديقهم بكذبهم، وإعانتهم على ظلمهم وطاعتهم في معصية الله ونحو ذلك؛ مما هو من "باب التعاون على الإثم، والعدوان".

وما أمر به - أيضاً - من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لهم ولغيرهم على الوجه المشروع، وما يدخل في ذلك من تبليغ رسالات الله إليهم؛ بحيث لا يترك ذلك جبناً، ولا بخلاً، ولا خشية لهم، ولا اشتراء للثمن القليل بآيات الله، ولا يفعل أيضاً للرئاسة عليهم، ولا على العامة، ولا للحسد، ولا للكبر ولا للرياء لهم، ولا للعامة.

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٤٦٢.

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ١٩٢/٢.

(٣) أخرجه مسلم ١٢٩٨، ١٨٣٨.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٨١٥. وقد استبدلنا كلمة الحالة بكلمة الخساسة لأن الإسلام لا يزن الناس بألوانهم بل بأعمالهم.

ولا يزال المنكر بما هو أنكر منه، بحيث يخرج عليهم بالسلاح؛ وتقام الفتن، كما هو معروف من أصول أهل السنة والجماعة كما دلت عليه النصوص النبوية؛ لما في ذلك من الفساد الذي يَرْبَى على فساد ما يكون من ظلمهم، بل يطاع الله فيهم وفي غيرهم، ويفعل ما أمر به، ويترك ما نهى عنه)[1].

إن السمع والطاعة لولاه أمور المسلمين فيها سعادة الدنيا وبها تنظيم مصالح العباد في معايشهم وبها يستعينون على إظهار دينهم وطاعة ربهم، قال الحسن في الأمراء: هم يَلُون من أمورنا خمسًا: الجمعة والجماعة والعيد والثغور والحدود، والله ما يستقيم الدين إن جاروا وظلموا، والله لما يصلح الله بهم أكثر مما يفسدون مع أن - والله- طاعتهم لغيظ وإن فرقتهم لكفر[2].

وإنما وجب لزوم طاعة ولاة الأمر وإن جاروا (لأنه يترتب على الخروج عن طاعتهم من المفاسد أضعاف ما يحصل من جَوْرِهم بل في الصبر على جورهم تكفير السيئات ومضاعفة الأجور فإن الله تعالى ما سلطهم علينا إلا لفساد أعمالنا والجزاء من جنس العمل فعلينا الاجتهاد في الاستغفار والتوبة وإصلاح العمل، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٌ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾[6]، فإذا أراد الرعية أن يتخلصوا من ظلم الأمير الظالم فيتركوا الظلم[7].

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ١٥/١٨.

(٢) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس، ١١٧/٢.

(٣) سورة الشورى، آية: ٣٠.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٦٥.

(٥) سورة النساء، آية: ٧٩.

(٦) سورة الأنعام، آية: ١٢٩.

(٧) شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي، ٥٤٢/٢، ٥٤٣.

ثالثاً- من أهداف الدعوة: جمع كلمة المسلمين والعمل على ما يحقق وحدة المجتمع الإسلامي:

إن الإسلام ينشد مجتمعاً موحداً لا مفرقاً تكون فيه الأيدي والقلوب على اجتماع واتحاد لا على تفرق واختلاف، وهذا واضح من حديث الباب والأحاديث التي في معناه مما ذكر في العنصر السابق. قال الطيبي: (هذا وأمثال ذلك حث على المداراة والموافقة والتحرز عما يثير الفتن، ويؤدي إلى اختلاف الكلمة)[1] قال ابن حجر: (واستدل به على المنع من القيام على السلاطين وإن جاروا، لأن القيام عليهم يفضي غالباً إلى أشد مما ينكر عليهم، ووجه الدلالة منه أنه أمر بطاعة العبد الحبشي والإمامة العظمى إنما تكون بالاستحقاق في قريش فيكون غيرهم متغلباً، فإذا أمر بطاعته استلزم النهي عن مخالفته والقيام عليه، ورده ابن الجوزي بأن المراد بالعامل هنا من يستعمله الإمام لا من يلي الإمامة العظمى، وبأن المراد بالطاعة الطاعة فيما وافق الحق. انتهى، ولا مانع من حمله على أعم من ذلك، فقد وجد من ولي الإمامة العظمى من غير قريش من ذوي الشوكة متغلباً)[2].

وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾[3] قال ابن تيمية: (فالله تعالى قد أمر المؤمنين كلهم أن يعتصموا بحبله جميعاً ولا يتفرقوا، وقد فسّر حبله بكتابه وبدينه وبالإسلام وبالإخلاص وبأمره وبعهده وبطاعته وبالجماعة. وهذه كلها منقولة عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين. وكلها صحيحة، فإن القرآن يأمر بدين الإسلام، وذلك هو عهده وأمره وطاعته والاعتصام به جميعاً إنما يكون في الجماعة ودين الإسلام حقيقته الإخلاص لله... والله تعالى قد حرّم ظلم المسلمين، أحيائهم

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ١٧٩/٧.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢١٩/٢.

(٣) سورة آل عمران، آية:١٠٣.

وأمواتهم وحرّم دماءهم وأموالهم وأعراضهم، وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال في حجة الوداع: ((إنَّ دماءَكم وأموالَكم عليكم حرامٌ كحُرْمةِ يومِكم هذا في شهرِكم هذا في بَلدِكم هذا، ألا هل بلغتُ؟ ألا ليُبَلِّغِ الشاهدُ الغائبَ، فرُبَّ مُبلَّغٍ أوعى من سامِعٍ))(١).

وقد قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾(٢). فمن آذى مؤمناً حياً أو ميتاً بغير ذنب يوجب ذلك فقد دخل في هذه الآية. ومن كان مجتهداً لا إثم عليه فآذاه مؤذٍ فقد آذاه بغير ما اكتسب. ومن كان مذنباً وقد تاب من ذنبه أو غفر له بسبب آخر بحيث لم يبق عليه عقوبة فآذاه مؤذٍ فقد آذاه بغير ما اكتسب)(٣).

---

(١) أخرجه البخاري ١٠٥، ومسلم ١٦٧٩.

(٢) سورة الأحزابن آية:٥٨.

(٣) منهاج السنة النبوية ١٣٤/٥-١٣٥.

الحديث رقم (٦٦٧)

٦٦٧- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه ، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: ((عَلَيْكَ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِي عُسْرِكَ وَيُسْرِكَ، وَمَنْشَطِكَ وَمَكْرَهِكَ، وَأثَرَةٍ عَلَيْكَ)) رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

مَنْشَطِك: الأمر الذي تنشط له وتؤثر فعله[2].

مكرهك: ما يشقُّ عليك فعله ولا تحبُّه[3].

الأَثَرَةُ: الاستئثار والاختصاص بأمور الدنيا[4].

الشرح الأدبي

الحديث كسابقه يقرر ضرورة طاعة الإمام في المحبوب للنفس، والمكروه، وقوله (عَلَيْكَ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ) أسلوب أمر بمعنى الزم عن طريق اسم الفعل (عليك) والتعبير به يشير إلى الإلزام كما أنه يوحي باستعلاء الأمر، وتمكنه، والجمع بين السمع، والطاعة دلالة على الإصغاء، والتنفيذ، والطباق بين العسر، واليسر يؤكد المعنى ويشير إلى ضرورة التحامل على النفس في تنفيذ الأمر طاعة لله، وحرصا على أمن المسلمين، وقوله (منشطك، ومكرهك) مفعل من النشاط، والكره، وهما أسماء زمان، أو مكان، أي فيما يوافق طبعك، وما لا يوافقه (وأثرة عليك) وهو الإيثار يعني إذا فضل ولي أمرك أحدا عليك بلا استحقاق، ومنعك حقك فاصبر ولا تخالفه وإنما قال، وأثرة عليك، وإن شمله مكرهك إشارة لشدة تلك الحالة.

---

(١) برقم ١٨٣٦/٣٥.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ن ش ط).

(٣) المرجع السابق في (ك ر هـ).

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٩٠.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الأمر.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: وجوب السمع والطاعة في جميع الأحوال إلا حال الأمر بالمعصية.

ثالثاً: من أهداف الدعوة: تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة.

أولاً- من أساليب الدعوة: الأمر:

هذا واضح من قوله ﷺ "عليك السمع والطاعة"، فعليك اسم فعل بمعنى: الزم، تقول: عليك زيداً أي الزمه[١]، ومنه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾[٢].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: وجوب السمع والطاعة في جميع الأحوال إلا حال الأمر بالمعصية:

طاعة أولي الأمر واجبة في جميع الأحوال سواء في ذلك حال الرضا أو حال الغضب، وحال أخذ الحقوق أو حال منعها والاستئثار بها من قبل الولاة، لكن لا تجوز إلا في حالة واحدة، وهي حالة المعصية، وذلك واضح في الحديث، قال النووي: (قال العلماء: معناه تجب طاعة ولاة الأمر فيما يشق وتكرهه النفوس وغيره مما ليس بمعصية، فإن كانت لمعصية فلا سمع ولا طاعة كما صرح به في الأحاديث الباقية، فتحمل هذه الأحاديث المطلقة لوجوب طاعة ولاة الأمور على موافقة تلك الأحاديث المصرحة بأنه لا سمع ولا طاعة في المعصية)[٣].

جاء في الموسوعة الفقهية: (أجمع العلماء على وجوب طاعة أولي الأمر من الأمراء والحكام، وقد نقل النووي عن القاضي عياض وغيره هذا الإجماع[٤]. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

---

(١) شرح ألفية ابن مالك لابن عقيل ٣٠٢/٢.

(٢) سورة المائدة، آية: ١٠٥.

(٣) شرح صحيح مسلم ١١٩٠، وانظر: شرح الطيبي على المشكاة ١٨١/٧.

(٤) شرح صحيح مسلم، للنووي ص ١١٨٩، وإكمال المعلم، للقاضي عياض ٢٤٠/٦ - ٢٤٦.

ﭐلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾[1] وقد ذهب جمهور الفقهاء والمفسرين إلى أن المقصود بأولي الأمر في الآية الأمراء وأهل السلطة والحكم، وهناك قول بأن المقصود بأولي الأمر في الآية هم العلماء، قال الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: هم الأمراء والولاة لصحة الأخبار عن رسول الله ﷺ بالأمر بطاعة الأئمة والولاة فيما كان طاعة لله وللمسلمين مصلحة... وهذه الأحاديث في الحث على السمع والطاعة في جميع الأحوال وسبب اجتماع كلمة المسلمين، فإن الخلاف سبب لفساد أحوالهم في دينهم ودنياهم)[2].

وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ۝٥٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾[3].

قال ابن تيمية: (قال العلماء: نزلت هذه الآية الأولى في ولاة الأمور، عليهم أن يؤدوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل، ونزلت الثانية في الرعية من الجيوش وغيرهم عليهم أن يطيعوا أولى الأمر الفاعلين لذلك في قسمهم وحكمهم ومغازيهم وغير ذلك، إلا أن يأمروا بمعصية الله، فإذا أمرو بمعصية الله فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فإن تنازعوا في شيء ردوه إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وإن لم تفعل ولاة الأمر ذلك، أطيعوا فيما يأمرون به من طاعة الله ورسوله، لأن ذلك من طاعة الله ورسوله، وأديت حقوقهم إليهم كما أمر الله ورسوله. لأن ذلك من طاعة الله ورسوله)[4]، وقال أيضاً: (وما أمر الله به ورسوله من طاعة ولاة

---

(١) سورة النساء: ٥٩.

(٢) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٨/٣٢٣-٣٢٤.

(٣) سورة النساء، الآيتان: ٥٨، ٥٩.

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ١٤/٤٠٤ ط/ العبيكان، ٢٨/٢٤٥ ط/ ابن قاسم.

الأمور ومناصحتهم واجب على الإنسان، وإن لم يعاهدهم عليه وإن لم يحلف لهم بالأيمان المؤكدة، كمايجب عليه الصلوات الخمس والزكاة والصيام وحج البيت وغير ذلك مما أمر الله به ورسوله من الطاعة)[١].

ثالثاً- من أهداف الدعوة: تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة:

إن الأصل الجمع بين المصلحة العامة والمصلحة الخاصة، لكن إذا تعارضتا أو تزاحمتا قدمت المصلحة العامة على الخاصة، لأن نفعها يناله أكبر عدد ممكن بخلاف الخاصة فإنها تكون قاصرة على عدد محدود. وذلك واضح في قول النبي ﷺ "وأثرة عليك" قال ابن الأثير: (أراد أنه يستأثر عليكم فيفضل غيركم في نصيبه من الفيء)[٢].

وقال النووي: (وهي الاستئثار والاختصاص بأمور الدنيا عليكم أي: اسمعوا وأطيعوا وإن اختص الأمراء بالدنيا ولم يوصلوكم حقكم مما عندهم)[٣]. وقال ابن تيمية: (ومعنى قوله "وأثرة عليك" أي وإن استأثر ولاة الأمور عليك فلم ينصفوك، ولم يعطوك حقك)[٤].

ومن ذلك حديث ابن مسعود قال لنا رسول الله ﷺ: ((إنكم سَتَرونَ بعدي أثَرةً وأموراً تُنكرونها. قالوا: فما تأمرُنا يا رسولَ الله؟ قال: أَدُّوا إليهم حقَّهم، وسَلوا اللَّهَ حقكم))[٥].

قال النووي: (فيه الحث على السمع والطاعة وإن كان المتولي ظالماً عسوفاً فيعطى حقه من الطاعة ولا يخرج عليه ولا يخلع، بل يتضرع إلى الله تعالى في كشف أذاه ودفع شره وإصلاحه)[٦].

---

(١) المرجع السابق ٩/١٨.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢٥.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٩٠.

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٩/١٨.

(٥) أخرجه البخاري ٧٠٥٢، ومسلم ١٨٤٣.

(٦) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٩٣.

وقال الطيبي: (وأجمع أهل السنة على أن السلطان لا ينعزل بالفسق، لتهييج الفتن في عزله وإراقة الدماء وتفريق ذات البين، فتكون المفسدة في عزله أكثر منها في بقائه)[١].

وجاء في كتاب أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة: (لقد دلّ الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة على وجوب طاعة الإمام وإن جار في حدود طاعة الله تعالى، ما لم يأمر بمعصية، فإن أمر بمعصية فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

كما تجب الصلاة خلفه والحج والجهاد معه، ويطاع في مواضع الاجتهاد، وليس عليه أن يطيع أتباعه في موارد الاجتهاد بل عليهم طاعته في ذلك، وترك رأيهم لرأيه، فإن مصلحة الجماعة والائتلاف وتجنب مفسدة الفرقة والاختلاف، أعم من أمر المصالح الخاصة، كما تجب النصيحة له بالطرق المشروعة وترك منازعته وعدم الخروج عليه. قال الإمام الطحاوي: (ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا وإن جاروا ولا ندعو عليهم، ولا ننزع يداً من طاعتهم ونرى طاعتهم من طاعة الله عز وجل فريضة، ما لم يأمروا بمعصية وندعو لهم بالصلاح والمعافاة)[٢] والأدلة على ذلك كثيرة من الكتاب والسنة)[٣].

ومن صور تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة في الشريعة الإسلامية:

أ- منع الاحتكار. وتعريفه: (هو حبس ما يضرّ بالناس بقصد إغلاء السعر أو نشر البلبلة، ويتحقق الاحتكار بحبس كل ما يضر بالناس حبسه من الأقوات واللباس والأدوية والوقود ونحو ذلك)[٤]، والحكمة في تحريم الاحتكار (رفع الضرر عن عامة الناس، ولذا فقد أجمع العلماء على أنه لو احتكر إنسان شيئاً واضطر الناس إليه ولم يجدوا غيره أُجبر على بيعه، دفعاً للضرر عن الناس، وتعاوناً على حصول العيش. وهذا

---

(١) شرح الطيبي ١٨٢/٧.

(٢) العقيدة الطحاوية مع شرحها ٥٤٠/٢.

(٣) أصول الإيمان ٢٨٨.

(٤) الموسوعة الفقهية الميسرة، الدكتور محمد رواس قلعة جي ٧٣/١.

ما يستفاد مما نقل عن مالك من أن رفع الضرر عن الناس هو القصد من التحريم. إذ قال:إن كان ذلك لا يضر بالسوق فلا بأس وهو ما يفيده كلام الجميع)(١).

ب- التسعير: (وهو - كما قال محمد رواس قلعة جي- فرض السلطان أسعاراً محددة لسلع الناس وإجبار الناس على التبايع بها. ويشرع التسعير لتحقيق مصالح التجار وحمايتهم من الخسائر الكبيرة أو من الإفلاس، حيث يمنع السلطان أحدهم أن يبيع ما يبيعون بأقل من أسعارهم، يريد بذلك الإضرار بهم، وحماية المشترين من جشع التجار الذين لا يقنعون بالربح العادل، حيث يأخذون أكثر من حقهم، فيزيد ذلك الفقير فقراً. والأصل في التسعير التحريم ويكون واجباً حماية للناس ورعاية لمصلحة الفقير -فيما رأى- في أحوال ثلاث:

١- إذا كثر جشع التجار ولم يعودوا يقنعون بالربح العادل.

٢- إذا كان بيع سلعة معينة محصوراً بشخص واحد أو أشخاص معينين لا يبيعها غيرهم.

٣- إذا خرج جماعة من التجار يبيعون ما يبيعه جماهير التجار بأرخص من أسعارهم يريدون بذلك الإضرار بهم)(٢).

---

(١) الموسوعة الفقهية الصادرة من وزارة الأوقاف الكويتية ٢/٩١-٩٢.

(٢) الموسوعة الفقهية الميسرة ١/٤٨٠-٤٨١.

الحديث رقم (٦٦٨)

٦٦٨- وعن عبدِ اللهِ بن عمرو رضي الله عنهما، قَالَ: كنا مَعَ رسول الله ﷺ في سَفَرٍ، فَنَزَلْنَا مَنْزِلاً، فَمِنَّا مَنْ يُصلِحُ خِبَاءهُ، وَمِنّا مَنْ يَنْتَضِلُ، وَمِنَّا مَنْ هُوَ في جَشَرِهِ، إذْ نَادَى مُنَادي رسولِ اللهِ ﷺ: الصَّلاةَ جَامِعَةً. فَاجْتَمَعْنَا إِلَى رسولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: ((إنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبيٌّ قَبْلِي إلاَّ كَانَ حَقّاً عَلَيْهِ أنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَيُنْذِرَهُم شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ. وَإنَّ أُمَّتَكُمْ هذِهِ جُعِلَ عَافِيَتُهَا في أوَّلِهَا، وَسَيُصيبُ آخِرَهَا بَلاَءٌ وَأُمورٌ تُنْكِرُونَهَا، وَتَجِيءُ فِتَنٌ يُرَقِّقُ بَعْضُهَا بَعْضاً، وَتَجِيءُ الفتنَةُ فَيقُولُ المُؤْمِنُ: هذه مُهلكتي، ثُمَّ تنكشفُ، وتجيء الفتنةُ فيقولُ المؤمنُ: هذِهِ هذِهِ. فَمَنْ أحَبَّ أنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ، ويُدْخَلَ الجَنَّةَ، فَلْتَأتِهِ منيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ، وَلْيَأتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ. وَمَنْ بَايَعَ إمَاماً فَأعْطَاهُ صَفْقَةَ يَدِهِ، وَثَمَرَةَ قَلْبِهِ، فَلْيُطِعْهُ إن استَطَاعَ، فإنْ جَاءَ آخَرُ يُنَازِعُهُ فَاضْرِبُوا عُنُقَ الآخَرِ)) رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمرو بن العاص: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٣٨).

غريب الألفاظ:

خِبَاءه: البيت من وبر أو شعر أو صوف يكون على عمودين أو ثلاثة[٢].

ينتضل: يُسَابِق بالرمي بالنَّبل والنُّشَّاب[٣].

جَشَرِهِ: الدواب التي ترعى وتبيت مكانها[٤].

عافيتها: العافية: أن تسلم من الأسقام والبلايا[٥].

---

(١) برقم ١٨٤٤/٤٦.

(٢) المعجم الوسيط في (خ ب أ).

(٣) رياض الصالحين ٢٨٩.

(٤) رياض الصالحين ٢٨٩.

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ع ف ي).

يرقق بعضها بعضاً: أي: يُصيِّر بعضها بعضاً رقيقاً: أي خفيفاً لعظم ما بعده، فالثاني يرقق الأول. وقيل: معناه يُشَوِّق بعضها إلى بعض بتحسينها وتسويلها، وقيل يشبه بعضها بعضاً[١].

يُزَحْزَح: يُبْعد ويُنَحَّى[٢].

صَفْقَةَ يده: عهده وميثاقه؛ لأن المتعاهدين يضع أحدهما يده في يد الآخر[٣].

الشرح الأدبي

الحديث اشتمل على جملة من الأخبار المستقبلية التي تدل على صدق الرسول ﷺ والتي تنبه إلى فتن آخر الزمان، وتنص على بعض المبادىء التي تنظم العلاقة بين الراعي، والرعية، وقوله: (الصَّلاة جَامِعَة) جملة خبرية لفظا إنشائية معنى أَيْ إِئْتُوا الصَّلاة بِنَصْبِ الصَّلاة عَلَى الإِغْرَاء وَنَصْب جَامِعَة عَلَى الْحَال أَيْ أُحْضُرُوا الصَّلاة حَال كَوْنهَا جَامِعَة لِلْجَمَاعَةِ، وفي العبارة إشارة إلى أهم خصوصيات الصلاة، وهي صفة الجمع للمسلم مع إخوانه يتفقد كل واحد منهم الآخر، وجمع للمسلمين مع ربهم في اتصال لا يخترقه عدو، وقوله (يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ) فيه مقابلة مع قوله (وَيُنْذِرَهُم شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ) تشير إلى شمول تبليغه لكل ما يهم المسلم من خير، أو شر، ويمهد لما بعده من الحديث عن فتن آخر الزمان، وقد استخدم أسلوب المقابلة بين المعاني لتوضيحها حيث قابل بين جملة (جُعِلَ عَافِيَتُهَا فِي أَوَّلِهَا) أي سلامتها في دينها، وبين جملة (وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلاَءٌ) وقوله: (وَأمُورٌ تُنْكِرُونَهَا) كناية عن الفتن العظيمة التي لم يعرفها سلفهم، وقوله: (وَتَجِيءُ فِتنَةٌ يُرَقِّقُ بَعْضُهَا بَعْضاً) كناية عن تتابع الفتن، وتعاظمها بحيث يَجْعَل بَعْضهَا بَعْضًا رَقِيقًا وَالْحَاصِل أَنَّ الْمُتَأَخِّرَة مِنْ الْفِتْنَة أَعْظَم مِنْ الْمُتَقَدِّمَة فَتَصِير الْمُتَقَدِّمَة عِنْدهَا رَقِيقَة وقوله (وَتَجِيءُ الفتنَةُ) وتكرارها يؤكد

---

(١) رياض الصالحين ٢٩٠.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ز ح ز ح).

(٣) المرجع السابق في (ص ف ف).

تتابعها، وتخصيص المؤمن بالذكر عند تتابع الفتن لأنها فتن في الدين، والمؤمن هو الذي يكترث لها، وغيرها لا تعنيه، وربما لا يراها لانشغاله بالدنيا فلا يرى فتنة إلا فيما يخصها، وقوله: (أَنْ يُزَحْزَح) عَلَى بِنَاء الْمَفْعُول للعلم بالفعل وقوله (فَلْتَأْتِهِ منيَّتُهُ) أمر أريد به لزوم الإيمان واستمراره حتى الموت (وَلْيَأْتِ إِلَيَّ النَّاس) أمر نصح، وإرشاد أَيْ لِيُؤَدِّ إِلَيْهِمْ وَيَفْعَل بِهِمْ مَا يُحِبّ أَنْ يُفْعَل بِهِ والتعبير بالإتيان فيه دلالة على أن الأمر لا يخلو من جهد ومشقة، وتكلف وقوله: (فَأَعْطَاهُ صَفْقَة يَمِينه) كناية عن عَهْده، وَمِيثَاقه؛ لأَنَّ الْمُتَعَاقِدَيْنِ يَضَع أَحَدهمَا يَده فِي يَد الآخَر كَمَا يَفْعَلهُ الْمُتَبَايِعَانِ، وَهِيَ الْمَرَّة مِنْ التَّصْفِيق بِالْيَدِ، وقوله: (وَثَمَرَة قَلْبه) استعارة للإخلاص في العَهْد لما كان أعظم ما يبذله الإنسان لأخيه شبه بالثمرة، وهي خير ما يرجى في الشجرة، وفيه إشارة إلى ضرورة العمل بإخلاص معه لتحقيق مصلحة الأمة، وجملة الشرط التي ختم بها الحديث تبين أن الأمر جد خطير فهو مما يعظم به الخطب، وتعم به البلوى، ولذلك قال (فَإِنْ جَاءَ آخَرُ يُنَازِعُهُ فَاضْرِبُوا عُنُقَ الآخَرِ) لأن قتل واحد هنا يعصم دماء أمة هناك.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانياً: من وسائل الدعوة: جمع الناس المدعوين في مكان واحد.

ثالثاً: من مهام الداعية: البيان ودلالة الناس على الخير.

رابعاً: من أساليب الدعوة: القصر والتوكيد.

خامساً: من موضوعات الدعوة: دلائل نبوته ﷺ، وإخباره عن بعض ما يحدث في أمته من فتن.

سادساً: من واجبات الداعية: بيان سبل النجاة عند ظهور الفتن.

سابعاً: من آداب المدعو: معاملة الناس بما يحب أن يعامل به.

ثامناً: من موضوعات الدعوة: وجوب السمع والطاعة والحذر من الخروج على ولاة الأمر.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار:

لقد أخبر الصحابي عن حال الصحابة رضي الله عنهما في سفرهم وما حدث بعد ذلك من خطبة النبي ﷺ فيهم، وذلك بقوله: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فنزلنا منزلاً فمنا من يصلح خباءه... إلخ. وقد استخدم أسلوب الإخبار كثيراً في الدعوة[1]، ومن ذلك حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما: ((كنا إذا صعدنا كبرنا وإذا تصوبنا سبحنا))[2].

ثانياً- من وسائل الدعوة: جمع الناس في مكان واحد:

من الوسائل المهمة لنشر الدعوة جمع الناس في مكان واحد؛ لأن ذلك يجعل الداعية يبلغ دعوته إلى أكبر عدد ممكن، ومن ثم تزداد احتمالات الاستجابة والامتثال للدعوة، وقد استخدم النبي ﷺ هذه الوسيلة كما هو واضح في قول الصحابي: "إذ نادى مناد رسول الله ﷺ: "الصلاةُ جامعة".

قال ابن حجر: (هو بالنصب فيهما على الحكاية، ونصب الصلاة في الأصل على الإغراء، وجامعة على الحال، أي: احضروا الصلاة في حال كونها جامعة. وقيل برفعها على أن الصلاة مبتدأ وجامعة خبره، ومعناه: ذات جماعة. وقيل: جامعة صفة والخبر محذوف تقديره: فاحضروها)[3]. وقالت فاطمة بنت قيس رضي الله عنها في حديث الدجال الطويل: ((فَنُودِيَ فِي النَّاسِ: إِنَّ الصَّلاَةَ جَامِعَةً. قَالَتْ: فَانْطَلَقْتُ فِيمَنِ انْطَلَقَ مِنَ النَّاسِ. قَالَتْ: فَكُنْتُ فِي الصَّفِّ الْمُقَدَّمِ مِنَ النِّسَاءِ. وَهُوَ يَلِي الْمُؤَخَّرَ مِنَ الرِّجَالِ))[4].

وقال ابن عثيمين: (قوله: إذ نادى منادي رسول الله ﷺ: الصلاة جامعة، هذا

---

(١) انظر على سبيل المثال فهارس مسند أحمد بن حنبل ٤٨/٢٦٥-٢٧٥، وفهارس زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم ص ١٦٧-١٦٨.

(٢) أخرجه البخاري ٢٩٩٤.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢/٦١٩.

(٤) أخرج مسلم ١٢٠-٢٩٤٢.

النداء ينادى به لصلاة الكسوف، وينادى به إذا أراد الإمام أو الأمير أن يجتمع بالناس، بدلاً من أن يقول: يا أيها الناس هلموا إلى المكان الفلاني. فاجتمع الناس، فخطبهم النبي ﷺ)[١].

وجاء في الموسوعة الفقهية: (اتفق الفقهاء على أن الأذان إنما شرع للصلوات المفروضة ولا يؤذن لصلاة غيرها كالجنازة والوتر والعيدين وغير ذلك، لأن الأذان للإعلام بدخول وقت الصلاة، والمكتوبات هي المخصصة بأوقات معينة.... أما كيفية النداء لهذه الصلوات التي لا أذان لها فقد ذكر الشافعية أنه بالنسبة للعيدين والكسوف والاستسقاء والتراويح إذا صليت جماعة... وفي وجه للشافعية بالنسبة لصلاة الجنازة فإنه ينادى لها: الصلاة جامعة، هو رأي الحنابلة بالنسبة للعيد والكسوف والاستسقاء. وهو مذهب الحنفية والمالكية بالنسبة لصلاة الكسوف، وعند بعض المالكية بالنسبة لصلاة العيدين. واستحسن عياض ما استحسنه الشافعي وهو أن ينادي لكل صلاة لا يؤذن لها: الصلاة جامعة. ومما استدل به الفقهاء حديث عائشة رضي الله عنها قالت: ((خَسَفَتْ الشَّمْسُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَبَعَثَ مُنَادِيًا يُنَادِي بِالصَّلَاةُ جَامِعَةٌ))[٢])[٣].

وقد كان الأنبياء عليهم السلام أحرص ما يكونون على عرض دعوتهم في مجتمع الناس وملتقاهم، ولعل ما يوضح هذا خير توضيح قصة موسى عليه السلام مع فرعون. قال تعالى: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٥٧ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ

(١) شرح رياض الصالحين ٩٦٠/١، وقال أبو العباس القرطبي: "الصلاة جامعة: خبر بمعنى الأمر، كأنه قال: اجتمعوا للصلاة، وكأنه كان وقت صلاة، فلما جاءوا وصلوا معه، وسكت الراوي عن ذلك، وإلا فمن المحال أن ينادي منادي الصادق بالصلاة ولا صلاة، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو، وآخرين ٥١/٤، وأياً ما كان الأمر فإن النبي ﷺ خطبهم بعد هذا النداء. والصواب أنه كان شعاراً لجمع الصحابة إلى المسجد لأمر جلل وأما صلاة الفريضة فينادى لها بالأذان.

(٢) أخرجه مسلم ٤-٩٠١.

(٣) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٣٧١/٢.

مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴾[1].

قال ابن كثير: (يقول تعالى مخبراً عن فرعون أنه قال لموسى حين أراه الآية الكبرى، وهى إلقاء عصاه فصارت ثعباناً عظيماً ونزع يده من تحت جناحه فخرجت بيضاء من غير سوء فقال: هذا سحر، جئت به لتسحرنا وتستولى به على الناس، فيتبعونك وتكاثرنا بهم، ولا يتم هذا معك، فإن عندنا سحراً مثل سحرك، فلا يغرنك ما أنت فيه ﴿ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا ﴾ أي: يوماً نجتمع: تجمع نحن وأنت فيه، فنعارض ما جئت به بما عندنا من السحر في مكان معين ووقت معين فعند ذلك ﴿ قَالَ ﴾ لهم موسى ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ ﴾ وهو يوم عيدهم ونُورُوزهم وتفرغهم من أعمالهم واجتماعهم جميعًا؛ ليشاهد الناس قدرة الله على ما يشاء، ومعجزات الأنبياء، وبطلان معارضة السحر لخوارق العادات النبوية، ولهذا قال: ﴿ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ﴾ أى: جميعهم ﴿ ضُحًى ﴾ أي ضحوة من النهار ليكون أظهر وأجلى وأبين وأوضح، وهكذا شأن الأنبياء، كل أمرهم واضح، بين، ليس فيه خفاء ولا ترويج؛ ولهذا لم يقل "ليلاً" ولكن نهاراً ضحى. قال ابن عباس: وكان يوُم الزينة يومَ عاشوراء. وقال السدى، وقتادة، وابن زيد: كان يوم عيدهم. وقال سعيد بن جبير: يوم سوقهم، ولا منافاة)[2].

ولم يكن هذا مسلك الأنبياء - صلى الله عليهم وسلم - فحسب، وإنما كان أيضاً مسلك الدعاة إلى الله من غيرهم، ففي حديث الغلام والراهب والساحر، قال الغلام للملك الذي كان يريد قتله؛ لأنه آمن بالله وترك عبادة هذا الملك «فقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به قال: ما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد وتصلبني على جذع، ثم خذ سهماً من كنانتي ثم ضع السهم في كبد القوس ثم قل: بسم الله رب الغلام، ثم ارمني، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني، فجمع الناس في صعيد

---

(١) سورة طه، الآيات: ٥٧-٥٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٥/٢٩٩-٣٠٠.

واحد وصلبه على جذع ثم أخذ سهماً من كنانته. ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال: بسم الله رب الغلام. ثم رماه فوقع في صدغه فوضع يده في صدغه فمات فقال الناس آمنا برب الغلام. فأتى الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر قد والله نزل بك حذرك. قد آمن الناس»[١].

ثالثاً- من مهام الداعية: البيان ودلالة الناس على الخير:

هناك تلازم بين الداعية وبين دلالة الناس على الخير، لأن من أبرز صفات الداعية دلالة الناس على الخير وذلك واضح في قوله ﷺ: إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم وينذرهم شر ما يعلمه لهم"، قال القرطبي: "أي حقاً واجباً، لأن ذلك من طريق النصيحة والاجتهاد في التبليغ والبيان"[٢].

وقال ابن عثيمين: (أخبرهم ﷺ أنه ما من نبي بعثه الله إلا دل أمته على خير ما يعلمه لهم وأنذرهم شر ما يعلمه لهم، كل الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - كان منهم النصيحة لأقوامهم يعلمونهم الخير ويدلونهم عليه ويحثونهم عليه، ويبينون الشر ويحذرونهم منه، وهكذا يجب على أهل العلم وطلبة العلم أن يبينوا للناس الخير ويحثوهم عليه ويبينوا الشر ويحذروهم منه؛ لأن علماء هذه الأمة ورثة الأنبياء. فإن النبي ﷺ ليس بعده نبي ختمت النبوة به. فلم يبق إلا العلماء الذين يتلقون شرعه ودينه، فيجب عليهم ما يجب على الأنبياء من بيان الخير والحث عليه ودلالة الناس إليه، وبيان الشر والحذر منه"[٣]. (فالرسول في أمته هادٍ ومعلم لا يألوهم نصحاً ودلالة على الخير"[٤]، قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ

---

(١) أخرجه مسلم ٣٠٠٥.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو، وآخرين ٥١/٤.

(٣) شرح رياض الصالحين ٩٦٠/١.

(٤) العقيدة الإسلامية، وأسسها، عبدالرحمن حسن حبنكة، ٣١١.

لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾(١).

قال ابن القيم: (إنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا من جهتهم، ولا ينال رضى الله البتة إلا على أيديهم، فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلا هديهم، وما جاءوا به، فهم الميزان الراجح الذي على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم توزن الأقوال والأخلاق والأعمال، وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلال)(٢).

رابعاً- من أساليب الدعوة: القصر والتوكيد:

أما القصر فقوله ﷺ: "إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم وينذرهم شر ما يعلمه لهم". وقد أفاد القصر في هذا الحديث أهمية اقتداء الدعاة بالرسل عليهم السلام وبرسولنا الكريم ﷺ في دلالة الأمة على كل خير وإنذارهم وتحذيرهم من كل شر.

وأما التوكيد فقوله ﷺ: "إن أمتكم هذه جعل عافيتها في أولها ...".

خامساً- من موضوعات الدعوة: دلائل نبوته ﷺ، وإخباره عن بعض ما يحدث في أمته من فتن:

بعث الله محمداً ﷺ نبياً ورسولاً وأيده بالمعجزات والآيات التي تدل على صدقه وأنه رسول من قبل رب العالمين ومن هذا القبيل إخباره ﷺ بما سيقع من فتن، وهذا واضح من قوله ﷺ: ((وَإِنَّ أُمَّتَكُمْ هَذِهِ جُعِلَ عَافِيَتُهَا فِي أَوَّلِهَا. وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلَاءٌ وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا. وَتَجِيءُ فِتْنَةٌ فَيُرَقِّقُ بَعْضُهَا بَعْضاً ...)).

قال القرطبي: "يعني بأول الأمة زمانه وزمان الخلفاء الثلاثة إلى قتل عثمان، فهذه الأزمنة كانت أزمنة اتفاق هذه الأمة واستقامة أمرها وعافية دينها. فلما قتل عثمان

---

(١) سورة نوح، الآيات: ١-٤.

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم ٦٩/١.

ماجت الفتن كموج البحر، وتتابعت كقطع الليل المظلم، ثم لم تزل ولا تزال متوالية إلى يوم القيامة، وعلى هذا فأول آخر هذه الأمة المعنى في هذا الحديث - مقتل عثمان، وهو آخر بالنسبة إلى ما قبله من زمان الاستقامة والعافية، وقد دلّ على هذا قوله: "وأمور تنكرونها" والخطاب لأصحابه. فدلّ على أن منهم من يدرك أول ما سماه آخراً، وكذلك كان"[١].

ومن هذا القبيل قوله ﷺ: ((إِنَّهَا سَتَكُونُ بَعْدِي أَثَرَةٌ وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا))[٢].

قال النووي: (هذا من معجزات النبوة، وقد وقع هذا الإخبار متكرراً، ووجد مخبره متكرراً)[٣].

وقال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: ((لقد خَطَبنا النبيُّ ﷺ خطبةً ما ترك فيها شيئاً إلى قيام الساعةِ إلا ذكره، عَلِمهُ من عَلمه وجَهِله من جهلهِ، إنْ كنتُ لأرى الشيءَ قد نسيتهُ، فأعرفهُ كما يعرف الرجلُ الرجلَ إذا غابَ عنه فرآهُ فعرَفه))[٤].

وفي صحيح ابن حبان باب إخباره ﷺ عما يكون في أمته من الفتن والحوادث، وذلك في كتاب التاريخ، أخرج فيه جملة كبيرة من الأحاديث[٥]، وساق ابن كثير هذه الأحاديث وغيرها في آخر السيرة النبوية تحت عنوان: ومن كتاب دلائل النبوة في باب إخباره - عليه الصلاة والسلام - عن الغيوب المستقبلة[٦].

وقال ابن تيمية: (وكان ﷺ يأتيهم بالآيات الدالة على نبوته ﷺ ومعجزاته تزيد على ألف معجزة، مثل انشقاق القمر وغيره من الآيات، ومثل القرآن المعجز، ومثل أخبار أهل الكتاب قبله، وبشارة الأنبياء به، ومثل أخبار الكهان والهواتف به، ومثل

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو، وآخرين ٤/٥١.

(٢) أخرجه البخاري ٣٦٠٣، ومسلم ١٨٤٢.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٩٣.

(٤) أخرجه البخاري ٦٦٠٤، ومسلم ٢٨٩١.

(٥) صحيح ابن حبان ١٥/ الأحاديث، ٦٦٣٦-٦٨٥٣.

(٦) البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق: أحمد أبو مسلم وآخرون ٩/١٦١-٣٠٥.

قصة الفيل التي جعلها الله آية عام مولده، وما جرى عام مولده من العجائب الدالة على نبوته، ومثل امتلاء السماء ورميها بالشهب التي ترجم بها الشياطين، بخلاف ما كانت العادة عليه قبل مبعثه وبعد مبعثه، ومثل أخباره بالغيوب التي لا يعلمها أحد إلا بتعليم الله عز وجل، من غير أن يعلمه إياها بشر.

فأخبرهم بالماضي مثل قصة آدم ونوح وهود وإبراهيم وموسى والمسيح وصالح وشعيب وغيرهم، وبالمستقبلات، وكان قومه يعلمون أنه لم يتعلم من أهل الكتاب ولا غيرهم، ولم يكن بمكة أحد من علماء أهل الكتاب ممن يتعلم هو منه، بل ولا كان يجتمع بأحد منهم يعرف اللسان العربي، ولا كان هو يحسن لساناً غير العربي، ولا كان يكتب كتاباً ولا يقرأ كتاباً مكتوباً.

ولا سافر قبل نبوته إلا سفرتين: سفرة وهو صغير مع عمه أبي طالب لم يفارقه، ولا اجتمع بأحد من أهل الكتاب ولا غيرهم، وسفرة أخرى وهو كبير مع ركب من قريش لم يفارقهم، ولا اجتمع بأحد من أهل الكتاب.

وأخبر من كان معه بإخبار أهل الكتاب بنبوته مثل إخبار بَحِيرَي الراهب بنبوته، وما ظهر لهم منه مما دلهم على نبوته، ولهذا تزوجت به خديجة قبل نبوته لما أخبرت به من أحواله.

وهذه الأمور مبسوطة في موضع آخر، ولكن المقصود هنا التنبيه بأن محمداً ﷺ له معجزات كثيرة، مثل نبع الماء من بين أصابعه غير مرة، ومثل تكثير الطعام القليل حتى أكل منه الخلق العظيم، وتكثير الماء القليل حتى شرب منه الخلق الكثير.

وهذا قد جرى غير مرة له، ولأمته من الآيات ما يطول وصفه، فكان بعض أتباعه يحيي الله له الموتى من الناس والدواب، وبعض أتباعه يمشي بالعسكر الكثير على البحر حتى يعبروا إلى الناحية الأخرى[1].

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ١/٣٩٩-٤٠٢.

سادساً- من واجبات الداعية: بيان سبل النجاة عند ظهور الفتن:

اقتضت حكمة الله تعالى ظهور الفتن التي يخشى على المسلمين منها، وكان من رحمته سبحانه أن جعل الرسول ﷺ يبين طرق النجاة منها عند ظهورها، لأن أولى ما يخاف المدعو عليه هو دينه، لذا فإن عمل الدعاة أن يبينوا للناس سبل الوقاية من الفتن وهم إذ يفعلون هذا يقتدون بالنبي ﷺ الذي يبيّن للأمة طريق نجاتها من الفتن، وهذا واضح من قوله ﷺ: ((وَتَجِيءُ فِتْنَةٌ فَيُرَقِّقُ بَعْضُهَا بَعْضاً. وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ مُهْلِكَتِي. ثُمَّ تَنْكَشِفُ. وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ هَذِهِ. فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ، فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ. وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ)).

قال السندي: (والحاصل أن المتأخرة من الفتن أعظم من المتقدمة فتصير المتقدمة عندها دقيقة رقيقة)[١].

ومن هذا القبيل قوله ﷺ: ((ستكونُ فتنٌ القاعدُ فيها خيرٌ من القائم، والقائم خيرٌ منَ الماشي، والماشي فيها خيرٌ منَ الساعي، مَن تَشرَّفَ لها تَستَشرِفْه، فمن وَجَدَ ملجأً أو معاذاً فلْيَعذْ به))[٢].

وفي حديث آخر عند مسلم: ((فَإِذَا نَزَلَتْ أَوْ وَقَعَتْ، فَمَنْ كَانَ لَهُ إِبِلٌ فَلْيَلْحَقْ بِإِبِلِهِ. وَمَنْ كَانَتْ لَهُ غَنَمٌ فَلْيَلْحَقْ بِغَنَمِهِ. وَمَنْ كَانَتْ لَهُ أَرْضٌ فَلْيَلْحَقْ بِأَرْضِهِ». قَالَ: فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ إِبِلٌ وَلاَ غَنَمٌ وَلاَ أَرْضٌ؟ قَالَ: «يَعْمِدُ إِلَى سَيْفِهِ فَلْيَدُقَّ عَلَى حَدِّهِ بِحَجَرٍ. ثُمَّ لْيَنْجُ إِنِ اسْتَطَاعَ النَّجَاءَ))[٣].

قال ابن حجر: (فيه التحذير من الفتنة، والحث على اجتناب الدخول فيها، وأن شرها يكون بحسب التعلق بها)[٤].

---

(١) حاشية السندي على سنن النسائي ١٧٢/٧.

(٢) أخرجه البخاري ٧٠٨٢، ومسلم ٢٨٨٦.

(٣) أخرجه مسلم ٢٨٨٧.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٤/١٣، وانظر شرح مسلم ١٦٧٤.

(إن المنجيات من الفتن: أن تتنازل عن حقك في الدنيا، وإن كان الصبر على ذلك شاقاً على النفس، كما جاء في سنن أبي داود: ((إن السعيد لمن جنب الفتن -ثلاثاً- ولمن ابتلى فصبر فواهاً))[١]. ومن كانت الفتنة تحيط به ولا منجي له منها فليفر بدينه من الفتن أو ليكثر من العبادة كما في الحديث: ((العبادة في الفتنة كالهجرة إليّ))[٢].

والتزود بالأعمال الصالحة مطلوب للوقاية من الفتنة قبل وقوعها، قال ﷺ: ((بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنًا ويمسى كافرًا أو يمسى مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع دينه بعرض من الدنيا))[٣].

يقول النووي في شرح الحديث: (معنى الحديث الحث على المبادرة إلى الأعمال قبل تعذرها، والاشتغال عنها بما يحدث من الفتن الشاغلة المتراكمة المتكاثرة)[٤].

ومن كان يملك أسباب الفتنة فليتخلص منها كما جاء في الحديث: ((كسروا فيها قسيكم))[٥]. حتى إن كعب بن مالك رضي الله عنه يذكر في قصة الثلاثة الذين خُلفوا؛ كيف جاءه كتاب من ملك غسان وفيه (.. قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك) يقول كعب: (فقلت لما قرآتها: وهذا أيضاً من البلاء فتيممت التنور فسجرته بها)[٦].

وحاول في الفتنة الا تكون أميراً فإن أسامة رضي الله عنه كان يقول: (ما أنا بالذي أقول لرجل - بعد أن يكون أميراً على رجلين -: أنت خير)[٧]، يقول ابن حجر: (فكان أسامة

---

(١) أخرجه أبو داود، ٤٢٦٣، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود، ٣٥٨٥). أما قوله ﷺ "فواهاً" فقد يحمل على التعجب: أي من ابتلى وصبر فطوبى له. انظر شرح الطيبي على المشكاة، ١٠/٦٨.

(٢) أخرجه أحمد ٢٠٣١١/٣٣، وقال محققو المسند: حديث صحيح.

(٣) أخرجه مسلم ١١٨، كتاب: الإيمان، باب: الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٨.

(٥) أخرجه الترمذي ٢٢٠٤، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٧٩٥).

(٦) أخرجه البخاري ٤٤١٨، ومسلم ٢٧٦٩.

(٧) أخرجه البخاري ٧٠٩٨، ومسلم ٢٩٨٩.

يرى أنه لا يتأمر على أحد، وإلى ذلك أشار بقوله: لا أقول للأمير: إنه خير الناس)[(١)].

والدعاء بالحماية من شرور الفتن سبب من أسباب النجاة ففي الحديث: ((وإذا أردت بعبادك فتنة أن تقبضني إليك غير مفتون))[(٢)]. وفي دعاء عمر رضي الله عنه: ((نعوذ بالله من شر الفتن))[(٣)].

وينجيك عند الله أن تنكر الفتنة، ولا ترضى بها، ولا تعين عليها، قال ﷺ: ((..وأي قلب أنكرها نكتت فيه نُكتة بيضاء حتى يصير القلب أبيض مثل الصفا لا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض))[(٤)].

وأهم المنجيات أن يفقه المرء دينه، وأن يميز حدود الشرع -دون التباس- فقد نقل ابن حجر عن ابن أبي شيبة حديثاً عن حذيفة يقول فيه: (لاتضر الفتنة ما عرفت دينك، إنما الفتنة إذا اشتبه عليك الحق والباطل)[(٥)].

ورغم كل هذه الأسباب المنجية وغيرها، لابد للقلب من أن يبقى معلقاً بالله، وحقاً: إن السعيد لمن جنب الفتن) فاجتناب الفتن حفظ رباني، أكثر من كونه كسباً بشرياً، فخذ بالأسباب واستعن بالله.

والخلاصة أن: من أسباب الوقوع في الفتنة:

- استعداد القلب لقبولها.
- الخوض بالألسنة واعتقاد الأوهام.
- تقديم الرأي على حكم الشرع.
- استلام إمارة لا يعان عليها.
- الانشغال بالقول عن العمل.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٧/١٣.

(٢) أخرجه الترمذي ٣٢٣٣، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٥٨٠).

(٣) أخرجه البخاري ٧٠٨٩، ومسلم ٢٣٥٩.

(٤) أخرجه مسلم ١٤٤.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٣/١٣.

من آثار الفتنة:

- تُنسى الناس حقائق يعرفونها.
- تُرقق الدين.
- تُذهب العقل.
- تعدم التأثر بالموعظة.

من المنجيات من الفتن:

- التنازل عن حقك في الدنيا.
- الفقه في الدين.
- التخلص من وسائل الفتنة وأسبابها.
- عدم تولي إِمرة في الفتنة.
- الدعاء بالحماية من شرها.
- إنكار القلب للفتنة.
- التزود بالعمل الصالح.

اجتناب الفتن حفظ رباني أكثر من كونه كسباً بشرياً)[١].

سابعاً- من آداب المدعو: معاملة الناس بما يحب أن يعامل به:

من يزرع الخير يحصد الخير، ومن زرع غير الخير فلا يلومن إلا نفسه إن حصد الشر، لذا فمن أراد دخول الجنة فليعامل الناس كما يحب أن يعاملوه مع الإيمان بالله. لذا قال النبي ﷺ فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه، قال السندي: (أي ليؤدى إليهم ويفعل بهم ما يحب أن يفعل به)[٢].

قال النووي: (إن هذا من جوامع كلمه ﷺ، وبديع حِكَمه، وهذه قاعدة مهمة،

---

(١) هذه أخلاقنا حتى نكون مؤمنين حقاً، محمود محمد الخزندار ص ٢٧٦ -٢٧٩.

(٢) حاشية السندي على النسائي ١٧٢/٧

فينبغي الاعتناء بها وأن الإنسان يلزم ألا يفعل مع الناس، إلا ما يحب أن يفعلوه معه)[١].

ويمكن الاستئناس هنا بحديث حذيفة ﵁ عن النبي ﷺ: ((لا تَكُونُوا إِمَّعَةً تَقُولُونَ إن أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا، وإنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا، وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ، إنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا، وإنْ أسَاءُوا فَلاَ تَظْلِمُوا))[٢].

قال الطيبي: (ومعنى الحديث: أوجبوا على أنفسكم الإحسان بأن تجعلوها وطناً للإحسان، والتقدير: وطنوا أنفسكم على الإحسان إن أحسن الناس فأحسنوا وإن أساؤوا فلا تظلموا، لأن عدم الظلم إحسان)[٣].

إن معاملة المرء للناس بما يحب أن يعاملوه به من الأسس الأخلاقية المهمة التي تقوم عليها حياة الفرد والمجتمع، فإذا التزم الفرد بذلك فإنّه سوف يكتسب إخواناً صالحين له، يحرصون على معاملته بالأخلاق الفاضلة التي يعاملهم بها، ومن ثم يزداد هو وهم فضائل ومكارم وخلالاً طيبة وتشيع بينهم روح الودّ والمحبة، وهذا ولاشك يزيد من حسناتهم ويقلل من سيئاتهم. أما الذين أصروا على معاملته بعكس ما يعاملهم به، فيقابلون إحسانه بالإساءة والخير والشر والمحبة بالعداوة فإن نسبة كبيرة من هؤلاء ستغير من معاملته بعد فترة إن رأت تمسكه بالمعاملة الطيبة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[٤].

كلُّ هذا يجعل العلاقة بين معظم الأفراد تقوم على التوادد والتحابّ والتعاطف، مما يكون له أبلغ الأثر على سلامة المجتمع وتماسكه الاجتماعي بسبب انتشار

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٩٤، وانظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو، وآخرين ٥٢/٤.

(٢) أخرجه الترمذي ٢٠٠٧، وضعفه الألباني (ضعيف سنن الترمذي ٣٤٥).

(٣) شرح الطيبي على المشكاة ٢٦٥/٩.

(٤) سورة فصلت، الآيتان: ٣٤، ٣٥.

الأخلاق الطيبة والفضائل الكريمة وشيوعها حتى أصبحت هي الأسس التي يتحاكم إليها الأفراد.

والخلاصة: أن التزام كل فرد بأن يعامل الناس كما يحبّ أن يعاملوه، من الأسباب الحيوية التي تحفظ للمجتمع قيمه ومبادئه وتعمل على ترسيخ الأخلاق الفاضلة في نفوس الأفراد، مما يكون له أكبر النفع على الفرد والمجتمع معاً. يقول الشيخ عبدالرحمن حسن حبنكة: (إن أي مجتمع من المجتمعات الإنسانية لا يستطيع أفراده ان يعيشوا متفاهمين متعاونين سعداء ما لم تربط بينهم روابط متينة من الأخلاق الكريمة. ولو فرضنا احتمالاً أنه قام مجتمع من المجتمعات على أساس تبادل المنافع المادية فقط، من غير أن يكون وراء ذلك غرض أسمى فإنه لابد لسلامة هذا المجتمع من خلق الثقة والأمانة على أقل التقادير.

فمكارم الأخلاق ضرورة اجتماعية لا يستغنى عنها مجتمع من المجتمعات، ومتى فقدت الأخلاق التي هي الوسيط الذي لابد منه لانسجام الإنسان مع أخيه الإنسان، تفكك أفراد المجتمع، وتصارعوا وتناهبوا مصالحهم ثم أدى بهم ذلك إلى الانهيار ثم إلى الدمار ... لقد دلت التجارب الإنسانية والأحداث التاريخية على أن ارتقاء القوى المعنوية للأمم والشعوب ملازم لارتقائها في سلم الأخلاق الفاضلة. ومتناسب معه وأن انهيار القوى المعنوية للأمم والشعوب ملازم لانهيار أخلاقها، ومتناسب معه، فبين القوى المعنوية والأخلاق تناسب طردي دائماً صاعدين وهابطين)[١].

ثامناً- من موضوعات الدعوة: وجوب السمع والطاعة والحذر من الخروج على ولاة الأمر:

(إن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين، بل لا قيام للدين ولا للدنيا إلا بها، فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع، لحاجة بعضهم إلى بعض. ولابد لهم عند الاجتماع من رأس)[٢]. لذا أوجب الإسلام طاعة أولي الأمر وحذر من الخروج عليهم ومنازعتهم كما هو واضح من قول النبي ﷺ: "ومن بايع إماما فأعطاه صفقةَ يده

(١) الوجيزة في الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني ٣٣-٣٥.

(٢) السياسة الشرعية لابن تيمية ٤٤٩.

وثمرة قلبه فلْيُعطِه، إن استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر"، قال ابن الأثير: (هو أن يعطي الرجل عهده وميثاقه، لأن المتعاهدين يضع أحدهما يده في يد الأخر كما يفعل المتبايعان وهي المرة من التصفيق باليدين)(١).

ومن ذلك قول ﷺ: ((إنهُ لا نبيَّ بعدي، وسيكونُ خُلَفاءُ فيَكثُرون. قالوا: فما تأمُرنا؟ قال: فُوا ببيعةِ الأولِ فالأوَّلِ، أعطوهم حقَّهم، فإنَّ الله سائلُهم عمّا استرعاهم))(٢).

قال ابن حجر: ("أعطوهم حقهم" أي أطيعوهم وعاشروهم بالسمع والطاعة، فإن الله يحاسبهم على ما يفعلونه بكم)(٣).

وقال ابن رجب: (وأما الطاعة لولاة أمور المسلمين ففيها سعادة الدنيا، وبها تنتظم مصالح العباد في معايشهم، وبها يستعينون على إظهار دينهم وطاعة ربهم، كما قال علي رضي الله عنه: (إن الناس لا يصلحهم إلا إمام، برٌّ أو فاجر، إن كان فاجراً عبد المؤمن فيه ربه وحُمل الفاجر فيها إلى أجله)(٤)، وقال الحسن في الأمراء: (هم يلون من أمورنا خمساً: الجمعة والجماعة والعيد والثغور والحدود، والله ما يستقيم الدين إلا بهم، وإن جاروا وظلموا، والله لَمَا يصلح الله بهم أكثر مما يفسدون، مع أن - والله - إن طاعتهم لغيظ وإن فرقتهم لكفر)(٥).

(وقد علم بالضرورة من دين الإسلام أنه لا دين إلا بجماعة، ولا جماعة إلا بإمامة ولا إمامة إلا بسمع وطاعة. وأن الخروج على طاعة ولي الأمر والافتيات عليه من أعظم أسباب الفساد في البلاد والعباد والعدول عن سبيل الهدى والرشاد)(٦).

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٥٢٠.
(٢) أخرجه البخاري ٣٤٥٥، ومسلم ١٨٤٢.
(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٧٤/٦.
(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف، ٣٢٨/١٥ بنحوه.
(٥) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١١٧/٢.
(٦) نصيحة مهمة في ثلاث قضايا: كتبها أصحاب الفضيلة العلماء: محمد بن عبداللطيف آل الشيخ، ومحمد بن إبراهيم آل الشيخ، وسعد بن حمد بن عتيق، وعمر بن محمد بن سليم، وعبدالله بن عبدالعزيز العنقري، تحقيق عبدالسلام بن برجس آل عبدالكريم ص ٤١.

الحديث رقم (٦٦٩)

٦٦٩- وعن أَبي هُنَيْدَةَ وَائِلِ بن حُجرٍ ﵁ ، قَالَ: سَأَلَ سَلَمَةُ بن يَزِيدَ الجُعفِيُّ رسولَ الله ﷺ ، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ الله، أرأيتَ إنْ قامَت عَلَيْنَا أُمَرَاءُ يَسألُونا حَقَّهُم، وَيمْنَعُونَا حَقَّنَا، فَمَا تَأْمُرُنَا؟ فَأعْرَضَ عنه، ثُمَّ سَألَهُ[١]، فَقَالَ رسولُ الله ﷺ: ((اسْمَعْوا وَأَطِيعُوا، فإنَّمَا عَلَيْهِمْ مَا حُمِّلُوا، وَعَلَيْكُمْ مَا حملْتُمْ)) رواه مسلم[٢].

ترجمة الراوي:

وائل بن حُجْر: هو وائل بن حجر الحضرمي القطحاني أحد الأشراف كان سيد قومه، وبقية أولاد الملوك بحضرموت، فقد كان أبوه من الأقبال لوهم ملوك حمير دون الملك الأعظم] لما بلغه ظهور أمر النبي ﷺ وانتشاره في أنحاء الجزيرة أقبل مسلماً تاركاً وراءه ملكاً كبيراً ورعية كثيرة يقول عن إسلامه: بلغني ظهور النبي ﷺ فتركت ملكاً عظيماً وطاعة عظيمة فهبطت إلى النبي ﷺ فأخبرني أصحابه فقالوا: بشرنا النبي ﷺ بمقدمك قبل أن تقدم بثلاثة أيام. ثم لقيته فقرب مجلسي وأدناني وبسط لي رداءه وأجلسني معه وقَبل إسلامي. ثم هبط إلى منبره فصعد وأصعدني معه فقمت دونه، فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على النبيين وقال: هذا وائل بن حجر أتاكم من أرض بعيدة من حضرموت طائعاً غير مكره راغباً في الله عز وجل وفي رسوله وفي دينه، بقية أبناء الملوك، اللهم بارك في وائل بن حجر وفي ولده وولد ولده.

ثم أنزلني معه، فبعث معاوية بن أبي سفيان وأمره أن يعطيني أرضاً فيدفعها إلي وكتب لي كتاباً خاصاً يفضلني فيه على قومي وكتاباً لي ولأهل بيتي بمالنا وكتاباً لي ولقومي[٣].

---

(١) عند مسلم زيادة: (في الثانية أو في الثالثة، فجذبه الأشعث بن قيس).

(٢) برقم ١٨٤٦/٤٩.

(٣) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير ١٧٥/٨-١٧٦ وانظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، الحافظ نور الدين أبي بكر الهيثمي ٣٧٣/٩ والطبقات الكبرى، ابن سعد، والثقات لابن حبان ٤٢٤/٣-٤٢٥.

وقد شارك في الفتوح واستوطن الكوفة، ويقال: إنه كان على راية قومه يوم صفين مع علي بن أبي طالب. فلما استقر الأمر لمعاوية بايعه عندما دخل الكوفة. ومات في خلافته ٤٤هـ.

وانتقل أحد أحفاده خالد المعروف بـ "خلدون بن عثمان" إلى الأندلس فكان من ولده بنو خلدون بإشبيلية، ومنهم المؤرخ وعالم الاجتماع عبدالرحمن بن محمد بن خلدون (٨٠٨هـ)[1].

الشرح الأدبي

الحديث يدور حول العلاقة بين الحاكم، والمحكوم قائم على حوار يدل على الحيوية، ويبنى على سؤال، وجواب وهو سؤال الراوي بعد نداء التكريم، والتودد (أرأيتَ إنْ قامَت عَلَيْنَا أُمَرَاءُ يَسألُونا حَقَّهُم، وَيمْنَعُونا حَقَّنَا، فَمَا تَأْمُرُنَا؟) استفهام بمعنى أخبرني ماذا أفعل، والطباق بين قوله يَسألُونا حَقَّهُم، وَيمْنَعُونا حَقَّنَا يشير إلى المفارقة في الفعل التي سببت الحيرة، وقوله (فَأعْرَضَ عنه) الإعراض كناية عن الرفض أو الكراهية للخوض في المعنى، وقوله (اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا) اسمعوا أي ظاهرا، وأطيعوا باطنا، أو اسمعوا قولا، وأطيعوا فعلا، وقوله (فإنَّمَا عَلَيْهِمْ مَا حُمِّلُوا، وَعَلَيْكُمْ مَا حملْتُمْ) الجناس بين حملوا، وحملتم يؤكد معنى مسئولية كل منهم عن ما كلف به دون أن يتحمل مسئولية غيره يدل على ذلك صياغة المعنى في أسلوب القصر الذي يدل على التخصيص، والذي أكده بالتخصيص بتقديم الجار والمجرور على عامله أي ليس على الأمراء إلا ما حملهم الله وكلفهم به من العدل والتسوية فإذا لم يقوموا بذلك فعليهم الوزر، والوبال، وأما أنتم فعليكم ما كلفتم به من السمع، والطاعة، وأداء

---

(١) الطبقات الكبرى، ابن سعد ٢٦/٦، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٧٥٦، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود ٤٠٥/٥، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ١٣٧٢، والسير ٥٧٣/٢، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين ٤٥١/٧، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٣٠٤/٤، والأعلام، خير الدين الزركلي ١٠٦/٨، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك ١٩٥٩/٣.

الحقوق فإذا قمتم بما عليكم فالله تعالى يتفضل عليكم ويثيبكم به، وفي الحديث إشارة إلى قول الله تعالى ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ (النور٥٤).

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

ثانياً: من حقوق المدعو: السؤال عما خفي عليه واحتاج إليه.

ثالثاً: من واجبات الداعية: بيان الحقائق للمدعو.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: وجوب السمع والطاعة لولاة الأمر.

خامساً: من موضوعات الدعوة: مسؤولية كل إنسان عما اكتسب.

أولاً- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

هذا واضح من سؤال الصحابي رسول الله ﷺ عن الأمراء يمنعون حق الرعية على حين يأخذون حقهم، فكيف يكون حال الرعية وقتئذ، ثم سأله مرة ثانية فأخبره النبي ﷺ بالواجب على الرعية في هذا الحال وهو السمع والطاعة وعدم منازعة الأمر أهله، فأفاد هذا الأسلوب أهمية الامتثال لولاة الأمر والسمع والطاعة، وأكدَّ النبي ﷺ أن على الولاة ما حُمِّلوا، وعلى الرعية ماحملوا.

ثانياً- من حقوق المدعو: السؤال عما خفي عليه واحتاج إليه:

لقد سأل الصحابي رضي الله عنه عما يشغله فأجابه النبي ﷺ ووضح له الأمر الذي سأله عنه، فدل هذا على أن من حق المدعو أن يسأل عما خفي عليه واحتاج إليه في دينه ودنياه.

ومن هذا القبيل حديث أبي رفاعة تميم بن أسيد رضي الله عنه قال: ((انْتَهَيْتُ إِلَى النَّبِيِّ وَهُوَ يَخْطُبُ. قَالَ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ رَجُلٌ غَرِيبٌ. جَاءَ يَسْأَلُ عَنْ دِينِهِ. لاَ يَدْرِي مَا دِينُهُ. قَالَ فَأَقْبَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ. وَتَرَكَ خُطْبَتَهُ حَتَّى انْتَهَىٰ إِلَيَّ. فَأُتِيَ بِكُرْسِيَ، حَسِبْتُ قَوَائِمَهُ حَدِيداً. قَالَ فَقَعَدَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ. وَجَعَلَ يُعَلِّمُنِي مِمَّا عَلَّمَهُ اللَّه. ثُمَّ أَتَىٰ خُطْبَتَهُ فَأَتَمَّ آخِرَهَا))[1].

---

(١) أخرجه مسلم ٨٧٦.

قال النووي: (فيه المبادرة إلى جواب المستفتي وتقديم أهم الأمور فأهمها)[١].

ثالثاً- من واجبات الداعية: بيان الحقائق للمدعو:

من الأهمية بمكان أن يبين الداعية الحقائق للمدعو حتى يكون على بينة وتتضح له الأمور، فيأتي الصواب ولا يفعل الخطأ. يتضح ذلك من قول النبي ﷺ "فإنما عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم".

قال أبو العباس القرطبي: (يعني أن الله تعالى كلّف الولاة العدل وحسن الرعاية وكلف المُولّى عليهم الطاعة وحسن النصيحة، فأراد أنه إن عصى الأمراءُ اللهَ فيكم ولم يقوموا بحقوقكم، فلا تعصّوا اللهَ أنتم فيهم. وقوموا بحقوقهم، فإن الله مجازٍ كل واحدٍ من الفريقين بما عمل)[٢].

ومن قبيل بيان الحقائق للمدعو ما رواه عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: ((أَتَيْتُ النَّبِيَّ فَقُلْتُ: ابْسُطْ يَمِينَكَ فَلأُبَايِعْكَ. فَبَسَطَ يَمِينَهُ. قَالَ فَقَبَضْتُ يَدِي. قَالَ: «مَا لَكَ يَا عَمْرُو؟» قَالَ قُلْتُ: أَرَدْتُ أَنْ أَشْتَرِطَ. قَالَ: «تَشْتَرِطُ بِمَاذَا؟» قُلْتُ: أَنْ يُغْفَرَ لِي. قَالَ: «أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الإِسْلاَمَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟ وَأَنَّ الْهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا؟ وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ»؟))[٣].

قال النووي: (قوله "الإسلام يهدم ما كان قبله" أي يسقطه ويمحو أثره... ففيه عظم موقع الإسلام والهجرة والحج وأن كل واحد منها يهدم ما كان قبله من المعاصي)[٤].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: وجوب السمع والطاعة لولاة الأمر:

إن من (أعظم المسؤوليات مسؤولية الإمام والحاكم ومن ينيبه في بعض مسؤولياته، ولعظم هذه المسؤولية جعل الإسلام للإمام حقوقاً يجب على المسلم أن يتعرف عليها، كما يجب على الأمة أن تقوم بها؛ ليصلح شأنها وتستقيم حياتها.

وأول هذه الحقوق - أعني حقوق الإمام-: السمع والطاعة بالمعروف، والمراد بها:

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٧٠.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو، وآخرين ٤/٥٥.

(٣) أخرجه مسلم ١٢١.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٣٩/٢/١ ط/ دار عالم الكتب.

الانقياد له والتنفيذ لأمره، وترك ما ينهى عنه ما لم يكن بمعصية الله، وهذا الحق أعظم الحقوق وأظهرها على الرعية، وقد تواترت النصوص من الكتاب والسنة على إيجاب هذا الحق على أعيان المسلمين)[١]. ومنها هذا الحديث كما هو واضح في قول النبي "اسمعوا وأطيعوا".

وقد قال النبي ﷺ: ((ثَلاَثٌ لاَ يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُؤْمِنٍ: إِخْلاَصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَالنَّصِيحَةُ لِوُلاَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ. فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ))[٢].

وعن عوف بن مالك الأشجعي قال: ((خِيَارُكُمْ وخِيَارُ أئمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ ويُحِبُّونَكُمْ، ويُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ، وتُصَلُّونَ عليهمْ، وشِرَارُكُمْ وشِرَارُ أئمَّتِكُمُ الذينَ تُبْغِضُونَهُمْ ويُبْغِضُونَكُمْ، وتَلْعَنُونَهُمْ ويَلْعَنُونَكُمْ قِيلَ: أفلا نُنَابِذُهُمْ يا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال: لا ما أَقَامُوا الصَّلَواتِ الخَمْسَ؛ ألا ومَنْ لَهُ وَالٍ فَيَرَاهُ يأتي شيئاً مِن معصيةِ اللَّهِ فَلْيَكْرَهْ ما يأتي مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، ولا يَنْزِعْ يداً مِنْ طَاعَتِهِ))[٣].

قال النووي: (فيه معنى أنه لا يجوز الخروج على الخلفاء بمجرد الظلم أو الفسق ما لم يغيروا شيئاً من قواعد الدين)[٤].

قال الماوردي: (إذا قام الإمام بحقوق الأمة فقد أدى حق الله تعالى فيما لهم وعليهم ووجب عليهم حقان: الطاعة والنصرة ما لم يتغير حاله)[٥].

جاء في شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي: (فقد دل الكتاب والسنة على وجوب طاعة أولي الأمر، ما لم يأمروا بمعصية، فتأمل قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[٦] كيف قال: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾، ولم يقل: وأطيعوا أولي

---

(١) دروس في الحقوق الواجبة على المسلم، إعداد الدكتور فالح بن محمد بن فالح الصغير ص ٩١.

(٢) أخرجه ابن ماجه ٣٠٥٦، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٢٤٨٠).

(٣) أخرجه مسلم ١٨٥٥.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٥٨.

(٥) الأحكام السلطانية ١٧.

(٦) سورة النساء، آية: ٥٩.

الأمر منكم؟ لأن أولي الأمر لا يفردون بالطاعة، بل يطاعون فيما هو طاعة لله ورسوله، وأعاد الفعل مع الرسول لأنه من يطع الرسول، فقد أطاع الله، فإن الرسول لا يأمر بغير طاعة الله، بل هو معصوم في ذلك، وأما ولي الأمر، فقد يأمر بغير طاعة الله، فلا يطاع إلا فيما هو طاعةٌ لله ورسوله.

وأما لزوم طاعتهم وإن جارُوا، فلأنه يترتب على الخروج عن طاعتهم من المفاسد أضعاف ما يحصل من جورهم، بل في الصبر على جورهم تكفير السيئات، ومضاعفة الأجور، فإن الله تعالى ما سلطهم علينا إلا لفساد أعمالنا، والجزاء من جنس العمل، فعلينا الاجتهاد في الاستغفار والتوبة وإصلاح العمل، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٌ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ﴾[2] وقال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾[3] وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾[4]. فإذا أراد الرعية أن يتخلصوا من ظلم الأمير الظالم، فليتركوا الظلم)[5].

خامساً- من موضوعات الدعوة: مسؤولية كل إنسان عما اكتسب:

الإسلام دين العدل، لذا فإن من مبادئه الأساسية أن كل إنسان مسؤول عما اكتسب. وهذا واضح من قوله ﷺ: "اسمعوا وأطيعوا فإنما عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم".

قال الطيبي: (قوله ﷺ "فإنما عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم" قدم الجار

---

(١) سورة الشورى، آية: ٣٠.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٦٥.

(٣) سورة النساء، آية: ٧٩.

(٤) سورة الأنعام، آية: ١٢٩.

(٥) شرح العقيدة الطحاوية ٢/٥٤٢-٥٤٣.

والمجرور على عامله للاختصاص، أي ليس على الأمراء إلا ما حمله الله عليهم من العدل والتسوية. فإذا لم يقيموا بذلك فعليهم الوزر والوبال، وأما أنتم فعليكم ما كلفتم به من السمع والطاعة، وأداء الحقوق، فإذا قمتم بما عليكم فالله تعالى يتفضل عليكم ويثيبكم به)(١).

وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾(٢) قال أبو عبدالله القرطبي: (أي مرتهنة بكسبها مأخوذة بعملها، إما خلّصها وإما أوبقها، والمعنى: كل نفس رهن بكسبها عند الله)(٣).

لذا فإن (من المبادئ التي قررها الإسلام قصر المسؤولية على المسؤول وحده. قال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٤) ﴿قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾(٥).

فلا يؤخذ بريء بجريرة مذنب، ولا يشترك أهله فيما اقترفت يداه، أو نسب إليه.

وقد كان التشريع اليوناني القديم يقضي بالإعدام على المجرم نفسه، وعلى جميع أفراد أسرته في الخيانة العظمى، وفي انتهاك الأشياء المقدسة)(٦).

وقال د. محمد عبدالله دراز: (أول ما يجب ذكره هو أن المسؤولية الأخلاقية والدينية شخصية محضة. ولسوف يكون من باب الإطالة أن نذكر جميع النصوص القرآنية التي تقر هذا المبدأ الأساسي، ولذا نجتزئ بعضها، وهي التي تنص على هذه الحقيقة في ألفاظ تامة الوضوح، قوله تعالى في آيات: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٧/١٨٦-١٨٧.

(٢) سورة المدثر، آية: ٣٨.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٩/١٠/٨٦.

(٤) سورة البقرة، آية: ١٤١.

(٥) سورة سبأ، آية: ٢٥.

(٦) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين ٨/٣٤٠٤.

ٱكْتَسَبَتْ﴾[١]، ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾[٢]، ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[٣]، ﴿لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾[٤]، ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾[٥]، ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾[٦]، ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[٧].

وينتج من هذا كله بوضوح، أن الثواب والعقاب لايمكن أن يتأتى فيهما أي تحويل، أو امتداد، أو اشتراك، أو التباس، حتى بين الآباء والأبناء؛ وإذا كان آباؤنا وأجدادنا مسؤولين مثلاً عن الأمثلة التي لقنوها لنا، والعادات التي أخذناها عنهم. وإذا كنا مسؤولين عن الطريقة التي استعملنا بها هذه التركة، فلا يجب مطلقاً أن نتحمل معهم وزر ما عملوا: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[٨])[٩].

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٨٦.

(٢) سورة النساء، آية: ١١١.

(٣) سورة الإسراء، آية: ١٥.

(٤) سورة لقمان، آية: ٣٣.

(٥) سورة غافر، آية: ١٧.

(٦) سورة الأحقاف، آية: ١٩.

(٧) سورة النجم، آية: ٣٩.

(٨) سورة البقرة، الآيتان: ١٣٤، ١٤١.

(٩) دستور الأخلاق في القرآن ١٤٨-١٤٩. وانظر: التربية الروحية والاجتماعية في الإسلام، د. أكرم ضياء العمري، ٢١٤-٢١٨.

الحديث رقم (٦٧٠)

٦٧٠- وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ: ((إِنَّهَا سَتَكُونُ بَعْدِي اثَرَةٌ وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا!)) قالوا: يَا رسول الله، كَيْفَ تَأمُرُ مَنْ أدْرَكَ مِنَّا ذَلِكَ؟ قَالَ: ((تُؤَدُّونَ الحَقَّ الَّذِي عَلَيْكُمْ، وَتَسْأَلُونَ اللهَ الَّذِي لَكُمْ)) متفقٌ عَلَيْهِ[١].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

غريب الألفاظ:

الأثرة: الاختصاص بحظ دنيوي[٢].

الشرح الأدبي

البداية بأسلوب التوكيد مع ضمير الشأن يؤذن بأهمية الخبر، وينادي بالعناية به لأنه جد خطير، وقوله (إنَّهَا سَتَكُونُ بَعْدِي أثَرَةٌ) والسين للمستقبل القريب والظرف (بعد) المضاف للرسول ﷺ يؤكد غياب النبي ﷺ مما يزيد الأمر شدة لغياب الحصن، والمرشد، والخبر من معجزاته ﷺ وقوله: (وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا) كناية عن الفتن التي لم يعرفها سلفهم، وقد أثار خبره عن فتن المستقبل سؤال (كَيْفَ تَأمُرُ مَنْ أدْرَكَ مِنَّا ذَلِكَ؟) وهو استفهام حائر عن كيفية التصرف في هذه الفتن، وقد أجاب عن سؤالهم عن طريق المقابلة بين قوله: (تُؤَدُّونَ الحَقَّ الَّذِي عَلَيْكُمْ) وبين قوله (وَتَسْأَلُونَ اللهَ الَّذِي لَكُمْ) وهي تقرر أن عليهم أن يؤدوا الحق الذي كلفوا به أولا ثم يسألون الله الذي لهم.

---

(١) أخرجه البخاري ٣٦٠٣، ومسلم ١٨٤٣/٤٥ واللفظ له، تقدم برقم ٥١.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٨/١٣.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: من دلائل نبوته ﷺ: إخباره ببعض ما يحدث من تغير أحوال الأمة.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على سؤال النبي ﷺ.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: وجوب السمع والطاعة.

أولاً- من أساليب الدعوة: التوكيد:

التوكيد واضح من قوله ﷺ: "إنها ستكون بعدي أثره وأمور تنكرونها"، فاستخدم النبي ﷺ أداة التوكيد "إن" ليؤكد وقوع هذه الأمور، وحتى يكون المسلمون على استعداد للتعامل مع تلك المتغيرات بما يوافق منهج الإسلام، وفي هذا توجيه إلى معالجتها والتغلب عليها دون أن تضيع طاقتهم في الحزن والأسى والأسف لوقوعها.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: من دلائل نبوته ﷺ: إخباره ببعض ما يحدث من تغير أحوال الأمة:

لقد كانت الدلائل على نبوة النبي ﷺ كثيرة ومتنوعة، ومن ذلك إخباره بأمور تقع في حياته وبعدها، فوقعت طبق ما أخبر به. قال ابن كثير: (وهذا باب عظيم لا يمكنه استقصاء جميع ما فيه من آيات لكثرتها)(١)، وحديث الباب من هذا القبيل، وذلك في قوله ﷺ: "إِنَّهَا سَتَكُونُ بَعْدِي أَثَرَةٌ وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا". قال النووي: (هذا من معجزات النبوة، وقد وقع هذا الإخبار متكرراً ووجد مخبره متكرراً)(٢).

وقد أخرج البخاري هذا الحديث في موضعين من صحيحه، أحدهما في كتاب المناقب: باب علامات النبوة في الإسلام(٣).

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق: أحمد أبو مسلم وآخرون ١١٤/٩.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٩٣.

(٣) الحديث ٣٦٠٣.

قال ابن حجر: قوله: ("باب علامات النبوة في الإسلام" العلامات: جمع علامة، وعبر بها المصنف "أي البخاري" لكون ما يورده من ذلك أعم من المعجزة والكرامة، والفرق بينهما أن المعجزة أخص لأنه يشترط فيها أن يتحدى النبي ﷺ من يكذبه بأن يقول إن فعلت كذلك أتصدق بأني صادق؟ أو يقول من يتحداه، لا أصدق حتى تفعل كذا. ويشترط أن يكون المتحدي به مما يعجز عنه البشر في العادة المستمرة، وقد وقع النوعان للنبي ﷺ في عدة مواطن)(١).

وقال ابن تيمية: (ولما كان محمد ﷺ رسولاً إلى جميع الثقلين: جنّهم وإنسهم عربهم وعجمهم وهو خاتم الأنبياء -لا نبي بعده- كان من نعمة الله على عباده، ومن تمام حجته على خلقه. أن تكون آيات نبوته، وبراهين رسالته، معلومة لكل الخلق الذي بعث إليهم، وقد يكون عند هؤلاء من الآيات والبراهين على نبوته ما ليس عند هؤلاء)(٢).

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على سؤال النبي ﷺ:

لقد كان الصحابة رضي الله عنهم أحرص ما يكونون على سؤال النبي ﷺ، حتى يعلموا ويتعلموا، وهذا واضح من قول الصحابة للنبي ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ تَأْمُرُ مَنْ أَدْرَكَ مِنَّا ذَلِكَ؟ .

ومن ذلك قول حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: ((كان الناسُ يسألونَ رسولَ الله ﷺ عنِ الخير، وكنتُ أسأله عن الشرِّ مخافة أنْ يُدركني))(٣).

قال أبو العباس القرطبي: (يعني أنه كانت أكثر مسائل الناس عن الخير، وكانت أكثر مسائله عن الشر، وإلا فقد سأل غيره رسول الله ﷺ عن كثير من الشر، وقد كان حذيفة أيضاً يسأل رسول الله ﷺ عن كثير من الخير. والخير والشر المعنيان في

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦٧٣/٦.

(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ٤٠٥/٥.

(٣) أخرجه البخاري ٧٠٨٤، ومسلم ١٨٤٧.

هذا الحديث إنما هما استقامة أمر دين هذه الأمة، والفتن الطارئة عليها بدليل باقي الحديث، وجواب النبي ﷺ له بذلك)[١].

قال ابن حجر: (قال ابن أبي جمرة: في الحديث حكمة الله في عباده كيف أقام كلا منهم فيما شاء؛ فحبب إلى أكثر الصحابة السؤال عن وجوه الخير ليعلموا بها ويبلغوها غيرهم، وحبب لحذيفة السؤال عن الشر ليجتنبه ويكون سببا في دفعه عمن أراد الله له النجاة)[٢].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: وجوب السمع والطاعة:

لا تنتظم مصالح العباد إلا بوجود ولاة الأمر يديرون شؤون البلاد والعباد ويقومون على حفظها، ولا سبيل إلى ذلك إلا بطاعة ولاة الأمر وعدم الخروج عليهم حتى لو جاروا أو ظلموا، وهذا واضح في قول النبي ﷺ: "تؤدون الحق الذي عليكم، وتسألون الله الذي لكم"، قال ابن هبيرة: (في هذا الحديث دليل على أن الأمير إذا أتى ما ينكر لم يمنع ذلك الحق الذي له بل يعطاه، وأن يسأل الحق الذي عليه من الله عز وجل ولا ينازع ولا يقاتل)[٣]، وقال النووي: (وفيه الحث على السمع والطاعة، وإن كان المتولي ظالماً عسوفاً فيعطى حقه من الطاعة ولا يخرج عليه ولا يخلع، بل يتضرع إلى الله تعالى في كشف أذاه ودفع شره وإصلاحه)[٤].

قال الطيبي: (والمراد بالأمور أشياء أخر لا تستحسنونها، وسلوا الله حقكم أي لا تكافئوا استيثارهم باستيثاركم، ولا تقاتلونهم لاستيفاء حقكم، بل وفروا إليهم من السمع والطاعة وحقوق الوالدين، واسألوا الله من فضله أن يوصلوا إليكم حقكم من الغنيمة والفيء ونحوهما، وكلوا إليه أمركم)[٥].

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو، وآخرين ٥٥/٤.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤١/١٣

(٣) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٤٧/٢.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٩٣

(٥) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ١٨٦/٧.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الأَنْبِيَاءُ، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ، وَإِنَّهُ لاَ نَبِيَّ بَعْدِي. وَسَتَكُونُ خُلَفَاءُ فَتَكْثُرُ قَالُوا: فَمَا تَأْمُرُنَا؟ قَالَ: فُوا بِبَيْعَةِ الأَوَّلِ فَالأَوَّلِ. وَأَعْطُوهُمْ حَقَّهُمْ. فَإِنَّ اللَّهَ سَائِلُهُمْ عَمَّا اسْتَرْعَاهُمْ))[1].

قال القرطبي: (قوله: "أعطوهم حقهم": يعني به السمع والطاعة والذب عرضاً ونفساً والاحترام والنصرة له على من بغى عليه)[2].

وقال ابن هبيرة: (المعنى: لا تكونوا أنتم الذين تحاسبونهم، وإنما عليكم إعطاؤهم الحق، وحسابهم على الله، وهذا دليل على شرف الخلافة، لكونها نزهت أن يكون عليها مشرف أو معارض، بل الله تعالى هو المتولي لذلك، بل يجب على الناس طاعتهم وفاءً بحقهم، ومن حقهم طاعتهم سراً وجهراً)[3].

وقال ابن تيمية: (ما أمر الله به ورسوله من طاعة ولاة الأمور ومناصحتهم واجب على المسلم، وإن استأثروا عليه، وما نهى الله عنه ورسوله من معصيتهم محرم عليه، وإن أكره عليه. وما أمر الله به ورسوله من طاعة ولاة الأمور ومناصحتهم واجب على الإنسان وإن لم يعاهدهم عليه، وإن لم يحلف لهم الأيمان المؤكدة، كما يجب عليه الصلوات الخمس، والزكاة، والصيام، وحج البيت، وغير ذلك مما أمر الله به ورسوله من الطاعة، فإذا حلف على ذلك كان ذلك توكيداً وتثبيتاً لما أمر الله به ورسوله من طاعة ولاة الأمور ومناصحتهم. فالحالف على هذه الأمور لا يحل له أن يفعل خلاف المحلوف عليه، سواء حلف بالله أو غير ذلك من الأيمان التي يحلف بها المسلمون؛ فإن ما أوجبه الله من طاعة ولاة الأمور ومناصحتهم واجب وإن لم يحلف عليه، فكيف إذا حلف عليه؟! وما نهى الله ورسوله عن معصيتهم وغشهم محرم وإن لم يحلف على ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري ٣٤٥٥، ومسلم ١٨٤٢.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو، وآخرين ٥٠/٤.

(٣) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ١٦٢/٧ - ١٦٣.

وهذا كما أنه إذا حلف ليصلين الخمس، وليصومن شهر رمضان، أو ليقضين الحق الذي عليه، ويشهدن بالحق، فإن هذا واجب عليه وإن لم يحلف عليه، فكيف إذا حلف عليه؟! وما نهى الله عنه ورسوله من الشرك، والكذب، وشرب الخمر، والظلم، والفواحش، وغش ولاة الأمور، والخروج عما أمر الله به من طاعتهم هو محرم، وإن لم يحلف عليه، فكيف إذا حلف عليه؟!.

ولهذا من كان حالفاً على ما أمر الله به ورسوله من طاعة ولاة الأمور ومناصحتهم، أو الصلاة، أو الزكاة، أو صوم رمضان، أو أداء الأمانة، والعدل ونحو ذلك، لا يجوز لأحد أن يفتيه بمخالفة ما حلفوا عليه، والحنث في أيمانهم، فهو مفتر على الله الكذب، مفت بغير دين الإسلام، بل لو أفتى في آحاد العامة بأن يفعل خلاف ما حلف عليه من الوفاء في عقد بيع، أو نكاح، أو إجارة، أو غير ذلك مما يجب عليه الوفاء به من العقود، التي يجب الوفاء بها وإن لم يحلف عليها، فإذا حلف كان أوكد. فمتى أفتى مثل هذا بجواز نقض هذه العقود، والحنث في يمينه، كان مفترياً على الله الكذب، مفتياً بغير دين الإسلام، فكيف إذا كان ذلك في معاقدة ولاة الأمور التي هي أعظم العقود التي أمر الله بالوفاء بها.

وهذا كما أن جمهور العلماء يقولون: يمين المكره بغير حق لا ينعقد سواء كان بالله، او النذر، أو الطلاق، أو العتاق، وهذا مذهب مالك والشافعي وأحمد. ثم إذا أكره ولي الأمر الناس على ما يجب عليهم من طاعته، ومناصحته، وحلفهم على ذلك، لم يجز لأحد أن يأذن لهم في ترك ما أمر الله به ورسوله من ذلك، ويرخص لهم في الحنث في هذه الأيمان؛ لأن ما كان واجباً بدون اليمين فاليمين تقويه، لا تضعفه، ولو قدر أن صاحبها أكره عليها.

ومن أراد أن يقول بلزوم المحلوف مطلقاً في بعض الأيمان؛ لأجل تحليف ولاة الأمور أحياناً، قيل له: وهذا يرد عليك فيما تعتقده في يمين المكره؛ فإنك تقول: لا يلزم وإن حلف بها ولاة الأمور. ويرد عليك في أمور كثيرة تفتى بها في الحيل، مع ما فيه من معصية الله تعالى ورسوله وولاة الأمور.

وأما أهل العلم والدين والفضل فلا يرخصون لأحد فيما نهى الله عنه من معصية ولاة الأمور، وغشهم، والخروج عليهم بوجه من الوجوه، كما قد عرف من عادات أهل السنة والدين قديماً وحديثاً، ومن سيرة غيرهم»[1].

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٩/١٨ -١٠.

الحديث رقم (٦٧١)

٦٧١- وعن أَبي هريرة ﷺ ، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ : ((مَنْ أطَاعَنِي فَقَدْ أطَاعَ اللهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقدْ عَصَى اللهَ، وَمَنْ يُطِعِ الأَمِيرَ فَقَدْ أطَاعَنِي، وَمَنْ يَعصِ الأمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي)) متفقٌ عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

ابو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

الحديث يدور حول بيان وجوب طاعة الأمير حيث ربط الرسول ﷺ طاعة الله بطاعته وربط طاعته بطاعة الأمير مما يوثق الصلة بين الثلاثة؛ لأن الرسول ﷺ مكلف برعاية الأمة من قبل الله، والأمير مكلف برعاية الأمة من قبل الرسول ﷺ وإن لم يفوضه تفويضا مباشرا، وإنما مفوض بصفته التي صار إليه، أو صارت إليه مما يعطي الحكم قوة في التنفيذ ترتبط بقوة تنفيذ أمر النبي ﷺ إذا أمر المؤمن ثم إنه أكد هذا الاتصال في الطاعة بالمقابل له في حالة المعصية فربط معصيته بمعصية الله، وربط معصية الأمير بمعصية الرسول ﷺ، وينتج عن ذلك أن طاعة الأمير طاعة لله، ومعصية الأمير معصية لله تلزم كل مؤمن بلزوم أميره مما يجعل الأمة كلها متحدة لا تمزقها الصراعات على الكراسي، والعروش فيضيع دين الناس، ودنياهم وفي الحديث إشارة بلاغية إلى قول تعالى: ﴿مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً﴾ (النساء٨٠).

---

(١) أخرجه البخاري ٢٩٥٧ واللفظ له، ومسلم ١٨٣٥/٣٢.

المضامين الدعوية

أولاً: من مهام الداعية: البيان والإيضاح.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله.

ثالثاً: من آداب المدعو: طاعة ولاة الأمر.

رابعاً: من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب.

أولاً- من مهام الداعية: البيان والإيضاح:

لقد بين الرسول ﷺ أن طاعته من طاعة الله وعصيانه من معصية الله، و طاعة الأمير من طاعته، وكذلك عصيان الأمير من عصيانه ﷺ .

قال الخطابي: (كانت قريش ومن يليهم من العرب لا يعرفون الإمارة، ولا يدينون لغير رؤساء قبائلهم، فلما كان الإسلام وولي عليهم الأمر أنكرته نفوسهم وامتنع بعضهم من الطاعة، وإنما قال لهم ﷺ هذا القول، لتعليمهم أن طاعتهم مربوطة بطاعته، وليطاوعوا الأمراء الذين كان النبي ﷺ يوليهم فلا يستعصوا عليهم)[١].

وقال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٢].

(وقد اقتضت حكمة الله العظيمة أن يجعل للنصوص التي ينزلها للناس صفة الشمول والعموم والكليات الدستورية، فهي إذن بحاجة إلى بيان وتوضيح، ولذلك جعل من وظائف الرسول أن يبين للناس معاني هذه النصوص المنزلة للناس، ويوضح لهم مدلولاتها وإشارتها)[٣].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله:

بعث الله محمداً ﷺ نبياً ورسولاً وأمر بطاعته، وجعل طاعته من طاعة الله،

---

(١) نقلاً عن شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ١٧٨/٧.

(٢) سورة النحل، آية: ٤٤.

(٣) العقيدة الإسلامية وأسسها، عبدالرحمن حسن حبنكة، ٣١١.

وكذلك الأمر في معصيته، وذلك واضح من قول النبي ﷺ: "من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله".

قال ابن هبيرة: (في هذا الحديث ما يدل على أن طاعة الله عز وجل في طاعة رسوله ﷺ وعصيان الله في عصيان رسوله ﷺ)[١].

وقال أبو العباس القرطبي: (قوله: "من أطاعني فقد أطاع الله"، هذا منتزع من قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ وذلك أنه ﷺ لمّا كان مبلغاً أمر الله وحكمه وأمر الله بطاعته، فمن أطاعه فقد أطاع أمر الله، ونفذ حكمه).

وقال سبحانه: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[٢]. (فجعل الله تعالى طاعة رسوله من طاعته وقرن طاعته بطاعته)[٣].

قال القاضي عياض: (قال المفسرون والأئمة: طاعة الرسول في التزام سنته والتسليم لما جاء به وقالوا: ما أرسل الله من رسول إلا فرض طاعته على من أرسله إليه وقالوا: من يطع الرسول في سنته يطع الله في فرائضه، ثم أخرج حديث الباب، ثم قال: "فطاعة الرسول من طاعة الله، إذ الله أمر بطاعته، فطاعته امتثال لما أمر الله به وطاعة له"[٤].

(ومن حقه ﷺ - بل هو ثمرة الحقوق العملية- تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، فهو المبلغ عن ربه، وهو المبعوث بالرسالة للعالمين، قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾[٥]، وقال سبحانه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾[٦]، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ١٧٥/٦.

(٢) سورة النساء، آية: ٨٠.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو، وآخرين ٣٥/٤.

(٤) الشفا ٣٦٩/٢-٣٧٠.

(٥) سورة النساء، آية: ٥٩.

(٦) سورة الحشر، آية: ٧.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾[٢]، وقال جل شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾[٣]، وقال سبحانه: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[٤]، وقال جل وعلا: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾[٥].

وبين الله سبحانه أن ثمرة هذه الطاعة عظيمة وكبيرة في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[٦]، وقال جل وعلا: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[٧].

فهذه الآيات وأمثالها تبين هذا الحق العظيم، الذي هو: طاعته واتباعه ﷺ فيما بلّغ به عن ربه عز وجل، فإن طاعته طاعة لله سبحانه وتعالى، كما قال سبحانه: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[٨]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٩])[١٠].

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٢٤.

(٢) سورة الأنفال، آية: ٢٠.

(٣) سورة محمد، آية: ٣٣.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٣٢.

(٥) سورة النور، آية: ٥٤.

(٦) سورة الأحزاب، آية: ٧١.

(٧) سورة النساء، آية: ١٣.

(٨) سورة النساء، آية: ٨٠.

(٩) سورة آل عمران، آية: ٣١.

(١٠) دروس في الحقوق الواجبة على المسلم، د. فالح بن محمد الصغير، ٤٣-٤٥.

ثالثاً- من آداب المدعو: طاعة ولاة الأمر:

إن طاعة ولاة الأمر لها أهمية كبرى ومنزلة خطيرة في الإسلام، يوضح ذلك قول النبي ﷺ: ((ومن يطع الأمير فقد أطاعني، ومن يعص الأمير فقد عصاني)).

قال ابن هبيرة: (في الحديث أن طاعة الأمير من جانب رسول الله ﷺ، وكل أمير ولايته من شرع رسول الله ﷺ، فإنه من جانب رسول الله ﷺ، فطاعته طاعة لرسول الله ﷺ)[1]، وقال القاضي عياض: (وأمر الرسول بطاعة أميره، فمن عصاه فقد عصى أمر رسوله، ولا خلاف في وجوب طاعة الأمراء فيما لا يخالف أمر الله وما لم يأمر بمعصيته)[2].

ونقل ابن حجر القول أنه: (كانت قريش ومن يليها من العرب لا يعرفون الإمارة فكانوا يمتنعون على الأمراء، فقال هذا القول يحثهم على طاعة من يؤمرهم عليهم والانقياد لهم إذا بعثهم في السرايا وإذا ولاهم البلاد فلا يخرجوا عليهم لئلا تفترق الكلمة ... ووقع عند أحمد وأبي يعلي والطبراني من حديث ابن عمر: ((قال كان رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه فقال: ألستم تعلمون أن من أطاعني فقد أطاع الله وإن من طاعة الله طاعتي؟ قالوا: بلى نشهد، قال فإن من طاعتي أن تطيعوا أمراءكم. وفي لفظ "أئمتكم")) [3]، وفي الحديث: وجوب طاعة ولاة الأمور وهي مقيدة بغير الأمر بالمعصية. والحكمة في الأمر بطاعتهم المحافظة على اتفاق الكلمة لما في الافتراق من الفساد)[4].

ومما يؤيد ذلك ما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((آمركم بثلاث، وأنهاكم عن ثلاث: آمركم أن تعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئًا، وتعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تتفرقوا، وتطيعوا لمن ولاه الله أمركم، وأنهاكم عن قيل وقال،

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ١٧٥/٦.

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٢٤٠/٦.

(٣) أخرجه أحمد ٩٣/٢ رقم ٥٦٧٩، وأبو يعلي ٥٤٥٠، وابن حبان ٢١٠٩، والطبراني في الكبير ١٣٢٣٨، وقال محققو المسند: إسناده صحيح ٤٩١/٩.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٢٠/١٣.

وكثرة السؤال وإضاعة المال))[(١)].

قال ابن حبان: (وتطيعوا لمن ولاه الله أمركم لفظه عام له تخصيصان:

أحدهما: أن يؤمر المرء بما له فيه رضى.

والثاني: إذا أُمِرَ بما استطاع دون ما لا يستطيع)[(٢)].

وقد بين رسول الله ﷺ أن طاعة الأمير أو الإمام إنما هي فيما يرضي الله ورسوله، وليس فيما فيه معصية فقال ﷺ: ((إنما الطاعة في المعروف))[(٣)].

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: ((السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أُمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة))[(٤)].

وهذا واضح في قوله تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[(٥)] فأمر عباده المؤمنين بطاعته، وطاعة رسوله، وأولي الأمر فأفاد أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

لأنه إذا أمر بمعصية فأطعناه، لم نحقق طاعة الله وطاعة الرسول، فكانت الآية شاهد ما قال الرسول ﷺ وأنه لا طاعة لأولياء الأمور فيما فيه مخالفة الله أو الرسول.

وينبغي التنويه إلى أن أولي الأمر هم الذين وكل إليهم القيام بالشؤون العامة والمصالح المهمة، فيدخل فيهم كل من ولي أمرًا من أمور المسلمين من ملك ووزير ورئيس ومدير، ومأمور وعمدة، وقاضٍ ونائب وضابط وجندي وقد أوجب الرسول ﷺ على كل مسلم السمع لأوامر هؤلاء. والمبادرة إلى تنفيذها، سواءٌ كانت محبوبة له أم بغيضة إليه ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[(٦)] فإذا دعونا إلى الحرب. وبذل المال

---

(١) أخرجه ابن حبان ٤٥٦٠، وقال محققه: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٢) صحيح ابن حبان ٤٢٥/١٠.

(٣) أخرجه البخاري ٧١٤٥، ومسلم ١٨٤٠.

(٤) أخرجه البخاري ٧١٤٤، ومسلم ١٨٣٩.

(٥) سورة النساء، آية: ٥٩.

(٦) سورة البقرة، آية: ٢١٦.

في سبيلها لبيّنا الطلب. وإذا طالبونا بالضرائب المشروعة دفعناها. وإن طلبوا منا المساعدة على حفظ الشواطئ والمزارع من المياه الطاغية أجبنا. وإن رغبوا في معونتنا لأهل بلد اجتاحهم حريق أو نابتهم نائبة حققنا رغبتهم. وهكذا نسمع كل ما أمروا به وننفذه، سواء وافق رغباتنا وميولنا أو خالفها، وسواء شق علينا أم سهل ما دام في المصلحة العامة، وما دام في دائرة الحلال المشروع، أما إن أمرونا بمعصية كاتهام بريء، أو حبسه، أو إيذائه، أو مصادرة ماله ظلمًا وعدوانًا، أو رغبوا إلى القضاء أن يحيد عن الحق ويحكم بالباطل، أو أرادوا مالنا وحيواننا ورجالنا لمساعدة عدونا. أو أرادوا أن نخط بيدنا صك الاستعباد لنا ولأبنائنا وأحفادنا، أو طلبوا أن نرخص لمن يرغبن في الاتجار بأعراضهن، أو من يتجرون في الخمور، أو يفتحون ناديًا للميسر -إن أمرنا بشيء من ذلك، أطعنا الله وعصيانهم وأرضيناه وإن أغضبناهم، فطاعتهم محرمة، ومخالفتهم واجبة [1].

رابعاً- من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب:

لقد رغب رسول الله ﷺ في طاعته بأن أخبر أن ذلك من طاعة الله، قال ابن حجر: (أي لأني لا آمر إلا بما أمر الله به، فمن فعل ما آمره به فإنما أطاع من أمرني أن آمره، ويحتمل أن المعنى: لأن الله أمر بطاعتي فمن أطاعني فقد أطاع أمر الله له بطاعتي، وفي المعصية كذلك)[2]. كما رغب ﷺ في طاعة الأمير بأن جعل ذلك من طاعته ﷺ، كما رهب من معصية الرسول بأن أخبر بأن من يفعل ذلك فقد عصى الله، ورهب أيضاً من معصية الأمير بأن جعل ذلك من معصيته ﷺ.

قال أبو العباس القرطبي: (ووجهه: أن أمير رسول الله ﷺ إنما هو منفذ أمره، ولا يتصرف إلا بأمره، فمن أطاعه فقد أطاع أمر رسول الله ﷺ، وعلى هذا: فكل من أطاع أمير رسول الله ﷺ فقد أطاع الرسول، ومن أطاع الرسول فقد أطاع الله. فينتج: أن من أطاع أمير رسول الله فقد أطاع الله. وهو حق، صحيح. وليس هذا الأمر خاصاً

---

(١) الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي ص ٩٧.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٣/١٢٠.

بمن باشره رسول الله ﷺ بتولية الإمارة، بل هو عام في كل أمير للمسلمين عدل، ويلزم منه نقيض ذلك في المخالفة والمعصية)[١].

وأسلوب الترغيب والترهيب من أساليب الدعوة ذات الأهمية الكبيرة في الدعوة نظرًا لما يحدثه في نفوس المدعوين من تأثير.

ويقصد بالترغيب كل ما يشوق المدعو إلى الاستجابة وقبول الحق والثبات عليه، ويقصد بالترهيب كل ما يحيف المدعو من عدم الاستجابة أو رفض الحق أو عدم الثبات عليه بعد قبوله[٢].

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو، وآخرين ٣٦/٤.

(٢) انظر: أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان ص ٤٣٧.

الحديث رقم (٦٧٢)

٦٧٢- وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ، قَالَ: ((مَنْ كَرِه مِنْ أمِيرِهِ شَيْئاً فَلْيَصْبِرْ، فَإنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ السُّلطَانِ شِبْراً مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً)) متفقٌ عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١).

غريب الألفاظ:

شبراً: الشِّبر: ما بين طرفي الخنصر والإبهام بالتفريج المعتاد.

والمراد: الكناية عن معصية السلطان ومحاربته ولو بأدنى شيء فكنى عنها بمقدار الشبر[2].

الشرح الأدبي

معنى الحديث ورد في أسلوب الشرط الذي اشتمل على خصوصيات تجعله أنسب الأساليب للسياق، وأوفاها للمعنى لأنها تعطي الخبر حكم العموم، وبذلك يكون صالحاً لكل زمان، ومكان، مع ربطه الجزاء بالفعل، وجعل المخاطب طرفاً حرَّ الاختيار بعد توضيح العاقبة، وهو قوله (مَنْ كَره مِنْ أمِيرِهِ شَيْئاً فَلْيَصْبِرْ) حيث ربط كره شيء من الأمير بالأمر بالصبر حتى لا يتزعزع المجتمع المسلم باضطراب أفراده أمام ما يقررهم أميرهم فيرضى هذا، ولا يرضى ذاك، ويحدث الشقاق لأنه من المعلوم أن إرضاء الناس جميعا غاية صعبة المنال، فحمَّل الفرد مسئولية الصبر عندما يقع أمرا على غير رضاه ضمانا لسلامة المجتمع، وقوله (فَإنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ السُّلطَانِ شِبْراً مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً) الفاء للتعليل الذي يحمل المؤمن على امتثال الأمر يدل على ذلك توكيد الخبر بحرف التوكيد، وتفخيمه، وتعظيمه بضمير الشأن، والتعبير بالماضي الدال على

---

(١) أخرجه البخاري ٧٠٥٣ واللفظ له، ومسلم ١٨٤٩/٥٥.

(٢) المعجم الوسيط في (ش ب ر)، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٩/١٣.

التحقق، والتعبير بالسلطان يوحي بالسيطرة، والسطوة، وحوزة الملك، واستخدام حرف الجر (من) قبلها يشير إلى ذلك، ويوحي بأن السلطان كالحصن الذي يحمي صاحبه من عدوه وخروجه منه خروج من حصنه، وذكر المسافة (شبرا) يؤكد المعنى وقوله (مات ميتة) جناس يؤكد خاتمة السوء بمفارقة الجماعة، والخروج عن السلطان، ووصف الميتة بالجاهلية تنفير من هذه العاقبة وهو تشبيه بليغ حذف منه، وجه الشبه، وأداته كدليل على شدة الشبه بين الميتتين أي مات كما يموت أهل الجاهلية من الضلال، والفرقة، والغرض منه التنفير من هذا الفعل المؤدي لتلك العاقبة.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: الصبر على ما يُكْره من ولي الأمر.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: الترهيب من الخروج على ولي الأمر.

ثالثاً: من واجبات الداعية: العمل على جمع كلمة المسلمين والتحذير من التفرق والخروج على ولاة الأمر.

رابعاً: من أساليب الدعوة: الترهيب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الصبر على ما يُكْره من ولي الأمر:

إن الخروج على ولي الأمر يترتب عليه مفاسد كثيرة، لذا حضّ الإسلام على طاعته ولو رأى المدعو منه ما يكرهه فليتمسك بالصبر، وهذا واضح في قوله ﷺ "من كره من أميره شيئاً فليصبر" ومن ذلك قول الزبير بن عدي قال: ((أتينا أنسَ بن مالك فشكَونا إليه ما يلْقونَ منَ الحَجاج، فقال: اصبروا، فإنه لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده أشرُّ منه حتى تَلقوا ربكم؛ سمعته من نبيكم ﷺ))[1].

وفي حديث حذيفة رضي الله عنه: ((تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلأَمِيرِ. وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ. وَأُخِذَ مَالُكَ. فَاسْمَعْ وَأَطِعْ))[2].

---

(١) أخرجه البخاري ٧٠٦٨.

(٢) أخرجه مسلم ٥٢-١٨٤٧.

وقال النبي ﷺ ((عَلَيْكَ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ. فِي عُسْرِكَ وَيُسْرِكَ. وَمَنْشَطِكَ وَمَكْرَهِكَ. وَأَثَرَةٍ عَلَيْكَ))[1].

(وهذه الأحاديث في الحث على السمع والطاعة في جميع الأحوال، وسببها اجتماع كلمة المسلمين، فإن الخلاف سبب لفساد أحوالهم في دينهم ودنياهم)[2].

وقال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: (إذا كان الإمام عادلاً فله الأجر وعليك الشكر، وإذا كان جائراً فعليه الوزر، وعليك الصبر)[3].

وقال ابن عثيمين: (مذهب السلف الصالح، السمع والطاعة للأمراء وعدم عصيانهم فيما تجب الطاعة فيه، وعدم إثارة الضغائن عليهم، وعدم إثارة الأحقاد عليهم، هذا مذهب أهل السنة والجماعة، حتى الإمام أحمد يضربه السلطان، يضربه ويجره بالبغال، يُضرب بالسياط حتى يغمى عليه في الأسواق، وهو إمام أهل السنة رحمه الله ورضي عنه، ومع ذلك يدعو للسلطان ويسميه أمير المؤمنين، حتى إنهم منعوه ذات يوم، قالوا له: لا تحدث الناس، فسمع وأطاع ولم يحدث الناس جهراً، بدأ يخرج يميناً وشمالاً ثم يأتيه أصحابه يحدثهم بالحديث)[4].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: الترهيب من الخروج على ولي الأمر:

إن الخروج على ولاة الأمر شيء على درجة كبيرة من الخطورة، لذا رهّب النبي ﷺ من ذلك، فقال: "فإنه من خرج من السلطان شبراً مات ميتة جاهلية".

وفي ذلك أيضاً حديث أبي هريرة رضي الله عنه: قال قال رسول الله ﷺ: ((مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ، وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ، ثُمَّ مَاتَ، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً. وَمَنْ قُتِلَ تَحْتَ رَايَةٍ عُمِّيَّةٍ، يَغْضَبُ لِلْعَصَبَةِ، وَيُقَاتِلُ لِلْعَصَبَةِ، فَلَيْسَ مِنْ أُمَّتِي. وَمَنْ خَرَجَ مِنْ أُمَّتِي عَلَى أُمَّتِي، يَضْرِبُ بَرَّهَا

---

(١) أخرجه مسلم ١٨٣٦.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٩٠.

(٣) بذل النصائح الشرعية فيما على السلطان وولاة الأمور وسائر الرعية، محب الدين، تحقيق سالم بن طعمة بن مطر الشمري، رسالة ماجستير مخطوطة ص ١٢٣.

(٤) شرح رياض الصالحين ٩٦٢/١.

وَفَاجِرَهَا ، لاَ يَتَحَاشَ مِنْ مُؤْمِنِهَا ، وَلاَ يَفِي بِذِي عَهْدِهَا ، فَلَيْسَ مِنِّي))[(١)].

قال الطيبي: (قوله "ميتة جاهلية" الميتة والقِتْلة بالكسر، الحالة التي يكون عليها الإنسان من الموت أو القتل، والمعنى أن من خرج عن طاعة الإمام وفارق جماعة الإسلام وشذ عنهم، وخالف إجماعهم ومات على ذلك، فمات على هيئة كان يموت عليها أهل الجاهلية، لأنهم ما كانوا يرجعون إلى طاعة أمير، ولا يتبعون هدى إمام، بل كانوا مستنكفين عنها مستبدين في الأمور لا يجتمعون في شيء ولا يتفقون على رأي)[(٢)].

وقال أبو العباس القرطبي: (ويعني بميتة الجاهلية: أنهم كانوا فيها لا يبايعون إماماً ولا يدخلون تحت طاعته، فمن كان من المسلمين لم يدخل تحت طاعة إمام فقد شابههم في ذلك، فإن مات على تلك الحالة مات على مثل حالهم مرتكباً كبيرة من الكبائر، ويخاف عليه بسببها ألا يموت على الإسلام)[(٣)].

وقد قال النبي ﷺ: ((وَأَنَا آمُرُكُمْ بِخَمْسٍ اللهُ أَمَرَنِي بِهِنَّ: السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَالْجِهَادِ وَالْهِجْرَةِ وَالْجَمَاعَةِ، فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ قِيْدَ شِبْرٍ، فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الإِسْلاَمِ مِنْ عُنُقِهِ إِلاَّ أَنْ يَرجِعَ))[(٤)].

قال الطيبي: (قال البيضاوي: قوله: "قيد شبر" أي قدره، يريد به قدر خالف وانحرف عن الجماعة وخرج عن موافقتهم، و"الرِبْق" بالكسر: حبل فيه عدة عرىً يشد به البهم، الواحدة من تلك العرى رِبْقَة. شبه ذمة الإسلام وعهده بالربقة التي تجعل في أعناق البهائم من حيث إنه يقيده فيمنعه أن يتخطى حدود الله ويرتع مراتع حرماته. والمعنى أن من فارق الجماعة بترك السنة وارتكاب البدعة ولو بشيء يسير، نقض عهد الإسلام ونزع اليد عن الطاعة)[(٥)].

---

(١) أخرجه مسلم ١٨٤٨.

(٢) شرح الطيبي ١٨٣/٧، وانظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٩/١٣.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو، وآخرين ٥٩/٤.

(٤) أخرجه الترمذي ٢٨٦٣ من حديث الحارث الأشعري، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٢٩٨).

(٥) شرح الطيبي على المشكاة ٢٠١/٧.

ثالثاً- من واجبات الداعية: العمل على جمع كلمة المسلمين والتحذير من التفرق والخروج على ولاة الأمر:

إن الداعية يدرك ببصيرته الفوائد الجمة من جمع كلمة المسلمين وطاعة ولاة الأمر، كما يدرك أيضاً المفاسد العظيمة الناشئة عن التفرق والخروج على ولاة الامر، لذا فإنه يبذل جهده ووسعه في جمع كلمة المسلمين والتحذير من الافتراق والاختلاف، كما يستفاد من هذا الحديث. قال ابن حجر: (قال ابن بطال: في الحديث حجة في ترك الخروج على السلطان ولو جار، وقد أجمع الفقهاء على وجوب طاعة السلطان المتغلب والجهاد معه وأن طاعته خير من الخروج عليه لما في ذلك من حقن الدماء وتسكين الدهماء، وحجتهم هذا الخبر وغيره مما يساعده، ولم يستثنوا من ذلك إلا إذا وقع من السلطان الكفر الصريح، فلا تجوز طاعته في ذلك، بل تجب مجاهدته لمن قدر عليها)[1].

ولهذا كان الصحابة رضي الله عنهم يحثون على طاعة أولي الأمر ولزوم الجماعة، ذكر د. مصطفى السباعي أنه دخل أبو قتادة ورجل آخر على عثمان وهو محصور فاستأذناه في الحج فأذن لهما، فقالا له: إن غلب هؤلاء القوم "أي دعاة الفتنة" مع من نكون؟ قال عليكم بالجماعة، قالوا فإن كانت الجماعة هي التي تغلب عليك! مع من نكون؟ قال: فالجماعة حيث كانت.

ثم علق د. مصطفى السباعي فقال: (هذا هو الفقه بدين الله وهذا هو الإسلام الذي حمله صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم لنا، لا كإسلام بعض الناس الذين يفرقون الصفوف وينبذون الجماعة. وهم يزعمون أنهم على الحق وما آذى الحق شيء كاختلافهم وتمردهم وخداع الشيطان لهم بأنهم وحدهم على الحق والجماعة كلها ضالة منحرفة نعوذ بالله من الخذلان وركوب الهوى)[2].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٩/١٣.

(٢) عظماؤنا في التاريخ ١٦٢.

قال ابن مسعود: ((أيها الناس عليكم بالطاعة والجماعة فإنهما حبل الله الذي أمر به))[١].

وعن سماك بن الوليد الحنفي أنه لقي ابن عباس فقال: ((ما تقول في سلطان علينا يظلمونا ويشتمونا ويعتدون علينا في صدقاتنا ألا نمنعهم؟ قال: لا. أعطهم، الجماعة الجماعة إنما هلكت الأمم الخالية بتفرقها أما سمعت قول الله: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾))[٢].

رابعاً- من أساليب الدعوة: الترهيب:

لقد رهب النبي ﷺ من الخروج على ولاة الأمر حين جعل جزاء من فعل ذلك بأنه يموت ميتة جاهلية (والمراد بالميتة الجاهلية حالة الموت كموت أهل الجاهلية على ضلال وليس له إمام مطاع، لأنهم كانوا لا يعرفون ذلك، وليس المراد أنه يموت كافرا بل يموت عاصيا، ويحتمل أن يكون التشبيه على ظاهره ومعناه أنه يموت مثل موت الجاهلي وإن لم يكن هو جاهليا، أو أن ذلك ورد مورد الزجر والتنفير وظاهره غير مراد)[٣]. وكل ذلك يدل على الترهيب من الخروج على ولاة الأمر، وأسلوب الترهيب من أساليب الدعوة المهمة، ذلك لأن النفس البشرية يقدر ميلها لأساليب الترغيب لحرصها على ما ينفعها، فإنها بحاجة إلى الترهيب لردعها عن غيها وانحرافها عن الطريق المستقيم؛ لأن الترهيب فيه تخويف يحمل النفس وصاحبها على ترك المعاصي والآثام، واجتناب الجرائم والذنوب، وبيان ما أعده المولى جل وعلا من شديد العقاب وأليم العذاب لمن طغى وبغى وعاند وعصى وهو من الأساليب كثيرة الاستخدام في الكتاب والسنة.

---

(١) أخرجه الطبري ٦٤٨/٥، وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٧١٢/٣.

(٢) سورة آل عمران، آية:١٠٣، والأثر أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٧١٢/٣.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٩/١٣.

والداعية المسلم لا بد له من إتقان هذا الأسلوب من أساليب الدعوة واستحضار الأدلة وبيان ذلك من الكتاب والسنة ليصل إلى قلوب المدعوين فيضعها على الطريق الصحيح لتسير بأصحابها إلى رضوان الله ومغفرته بالقيام بما أوجب والابتعاد عما حرم ونهى[١].

(١) انظر: قواعد الدعوة الإسلامية، د. الشريف حمدان راجع المهدي الهجاري ص ٥١٥، ٥١٧.

الحديث رقم (٦٧٣)

٦٧٣- وعن أَبي بكرة رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ، يقول: ((مَنْ أهانَ السُّلطَانَ[1] أَهَانَهُ اللهُ)) رواه الترمذي[2]، وقال: (حديث حسن).

وفي الباب أحاديث كثيرة في الصحيح. وَقَدْ سبق بعضها في أبواب سابقة.

ترجمة الراوي:

أبوبكرة الثقفي: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٩).

الشرح الأدبي

الحديث صدر كلافتة قصيرة تعجل بالحكم في ثوب الشرط الذي يربط إهانة السلطان برد الله عليه بنفس العقاب، وهو الإهانة، غير أن إهانة الله أشد، وأعظم لما هو معلوم من ارتباط الأثر بالمؤثر قوة، وضعفا مما يعني الوعيد الشديد لمن أقدم على هذا الفعل، والحديث ترهيب من كل أشكال السخرية من السلطان في الخفاء أو العيان؛ لأن العقاب مختص بالله، وهو مطلع على العبد في كل حال وسيدركه أينما كان بإهانة لا يعلم مداها، ولا يتوقع مكانها مما يجعله على خطر عظيم.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التحذير.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: وجوب طاعة واحترام ولاة الأمر.

ثالثاً: من أهداف الدعوة: حفظ الأمن والاستقرار في المجتمع المسلم.

أولاً- من أساليب الدعوة: التحذير:

لقد حذر النبي ﷺ من إهانة ولاة الأمر بأن جعل عاقبة ذلك أن الله يهينه ويذلّه، وقد أفاد التحذير في هذا الحديث أهمية احترام ولاة الأمر وتقديرهم لما في ذلك من جمع كلمة المسلمين، وسد منافذ الفتن.

---

(١) لفظ الترمذي: (سلطان الله في الأرض).

(٢) برقم ٢٢٢٤ وقال: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: وجوب طاعة واحترام ولاة الأمر:

لم يكتف الإسلام بالأمر بطاعة أولي الأمر فحسب، بل طلب أيضاً توقيرهم واحترامهم وإنزالهم منازلهم وحذر من إهانتهم. وهذا واضح من نص الحديث، وقد أخرجه الترمذي وفيه قصة: فعن زياد بن كسيب العدوي قال: كنت مع أبي بكرة تحت منبر ابن عامر وهو يخطب وعليه ثياب رقاق، فقال أبو بلال: انظروا إلى أميرنا يلبس ثياب الفسّاق. فقال أبوبكرة: اسكت، سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من أهان سلطان الله في الأرض أهانه الله".

قال الطيبي: (يحتمل أن تكون ثياباً محرمة من الحرير والديباج لأن الغالب منها أن تكون رقاقاً، وألا تكون محرمة لكن لما كان لبس ثياب الرقاق من دأب المتنعمين لا المتقشفين، نسبه إلى الفسق تغليظاً. لأن أبا بكرة رده بقوله: من أهان سلطان الله يعني: تفسيقك إياه بسبب لبسه هذه الثياب التي يصون بها عزته، ليس بحق، لأن المعنى من أهان من أعزه الله وألبسه خُلَع السلطنة أهانه الله. "وفي الأرض" متعلق بـ"سلطان الله" تعلقها بقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ﴾[1] والإضافة في "سلطان" إضافة تشريف كَبَيْت الله)[2].

وقال حذيفة: ((ما مشى قوم إلى سلطان الله في الأرض ليذلوه إلاّ أذلهم الله قبل أن يموتوا))[3].

قال ابن تيمية مبيناً أهمية ولاية أمر الناس: (يجب أن يُعْرَف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين؛ بل لا قيام للدين ولا للدنيا إلا بها؛ فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع، لحاجة بعضهم إلى بعض، ولابد لهم عند الاجتماع من رأس، حتى قال النبي ﷺ: ((إذَا خَرَجَ ثَلاَثَةٌ فِي سَفَرٍ فَلْيُؤَمِّرُوا أَحَدَهُمْ))[4].

---

(١) سورة ص، آية: ٢٦.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٢٠٢/٧.

(٣) شرح السنة، البغوي ٥٤/١٠.

(٤) أخرجه أبو داود ٢٦٠٨، ٢٦٠٩، وصححه الألباني (صحيح سنن ابي داود ٢٢٧٢، ٢٢٧٣).

وروى أحمد في المسند عن عبدالله بن عمرو، أن النبي ﷺ قال: ((ولا يَحِلُّ لِثَلاَثَةٍ يَكُونُونَ بِأَرْضٍ فَلاَةٍ إِلاَّ أَمَّرُوا عَلَيْهِمْ أَحَدَهُمْ))(١).

فأوجب ﷺ تأمير الواحد في الاجتماع العارض في السفر، تنبيهاً على سائر أنواع الاجتماع، ولأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يتم إلا بقوة وإمارة.

وكذلك سائر ما أوجبه من الجهاد والعدل وإقامة الحج والجمع والأعياد ونصر المظلوم، وإقامة الحدود لا تتم إلا بالقوة والإمارة.

ولهذا كان السلف؛ كالفضيل بن عياض، وأحمد بن حنبل وغيرهما يقولون: لو كان لنا دعوة مستجابة لدعونا بها للسطان)(٢).

لذا فإن من حق الإمام إكرامه وتوقيره، (روى ابن أبي عاصم بإسناد صحيح إلى معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما قال: لما خرج أبو ذر إلى الربذة لقيه ركب من أهل العراق، فقالوا: يا أبا ذر، قد بلغنا الذي صنع بك، فاعقد لواءً يأتيك رجال ما شئت، قال: مهلاً مهلاً يا أهل الإسلام، فإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((سَيَكُونُ بَعْدِي سُلْطَانٌ فَأَعِزُّوهُ، مَنْ التمس ذله ثغر ثغرة فِي الإِسْلاَمِ، ولم يقبل لَهُ تَوْبَةٌ حتى يعيدها كما كانت))(٣).

وأخرجه أحمد وغيره بأسانيد يقوي بعضها بعضاً عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((مَنْ أَكْرَمَ سُلْطَانَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي الدُّنْيَا، أَكْرَمَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ أَهَانَ سُلْطَانَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي الدُّنْيَا، أَهَانَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))(٤).

وأخرج أيضاً عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((خَمْسٌ، مَنْ فَعَلَ

---

(١) أخرجه أحمد ١٧٧/٢ رقم ٦٦٤٧، وقال محققو المسند: صحيح لغيره ٢٢٧/١١.

(٢) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية ٤٤٧-٤٥١.

(٣) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة ١١١٣ وقال محققه: إسناده صحيح.

(٤) أخرجه أحمد ٤٢/٥ رقم ٢٠٤٣٣، ٢٠٤٩٥، وقال محققو المسند: إسناده ضعيف. وانظر فيه: تتمة تخريجه ٧٩/٣٤.

مِنْهُنَّ كَانَ ضَامِنًا على اللهِ: مَنْ عَادَ مَرِيضًا، أَوْ خَرَجَ مَعَ جِنَازَةٍ، أَوْ خَرَجَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللهِ، أَوْ دَخَلَ على إِمَامٍ يُرِيدُ بِذَلِكَ تَعْزِيزَهُ وَتَوْقِيرَهُ، أَوْ قَعَدَ فِي بَيْتِهِ، فَيَسْلَمُ النَّاسُ مِنْهُ وَسَلِمَ))(١).

فدلت هذه النصوص الكريمة على وجوب توقير الإمام وإكرامه وتعزيزه، الذي هو في الحقيقة إكرام وتوقير للإسلام الذي حثّ على هذا التقدير والتبجيل للقائم بأمر الأمة؛ تقديراً لما يتحمله من أعباء عظيمة ومهام جسيمة. وقد ربط الله تعالى إجلاله بإكرام الإمام المقسط، كما في حديث أبي موسى رضي الله عنه مرفوعاً: ((إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَالجَافِي عَنْهُ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ))(٢)، وقال سهل التُّسْتَري: (لا يزال الناس بخير ما عظموا السلطان والعلماء، فإن عظّموا هذين أصلح الله دنياهم وأخراهم، وإن استخفوا بهذين أفسدوا دنياهم وأخراهم)(٣).

ثالثاً- من أهداف الدعوة: حفظ الأمن والاستقرار في المجتمع المسلم:

إن الدعوة الإسلامية تهدف إلى أن تحفظ على المجتمع أمنه واستقراره وجمع كلمته، واستخدمت لهذه الغاية وسائل كثيرة منها: احترام ولاة الأمر وعدم إهانتهم. يقول ابن مسعود رضي الله عنه: (عليكم بالطاعة والجماعة فإنهما حبل الله الذي أمر به، وإنّ ما تكرهون في الجماعة خير مما تحبون في الفرقة)(٤).

وقال سفيان الثوري: (لا يأمر السلطان بالمعروف إلا رجلٌ عالمٌ بما يأمر وينهى، رفيق بما يأمر وينهى، عدل)(٥).

ويمكن أن يستأنس هنا أيضاً بما رواه الشعبي قال: (خرج ناس من أهل الكوفة

(١) أخرجه أحمد ٢٤١/٥ رقم ٢٢٠٩٣، وقال محققو المسند: حديث حسن ٤١٢/٣٦.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٨٤٣)، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤٠٥٣).

(٣) دروس في الحقوق الواجبة على المسلم، د. فالح بن محمد بن فالح الصغير، ١٠١-١٠٣.

(٤) شرح السنة للبغوي، ٥٤/١٠.

(٥) المرجع السابق ٥٤/١٠.

إلى الجبانة يتعبدون، واتخذوا مسجداً وبنوا بنياناً فأتاهم عبدالله بن مسعود فقالوا: مرحباً بك يا أبا عبدالرحمن لقد سرّنا أن تزورنا. قال: ما أتيتكم زائراً، ولست بالذي أنزل حتى يهدم مسجد الجبان، إنكم لأهدى من أصحاب رسول الله ﷺ؟ أرأيتم لو أن الناس صنعوا كما صنعتم، من كان يجاهد العدو، ومن كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ومن كان يقيم الحدود، ارجعوا فتعلموا ممن هو أعلم منكم، وعلموا من أنتم أعلم منهم قال: واسترجع فما رجع حتى قلع أبنيتهم وردّهم)[(١)].

لذا (فإن السمع والطاعة لولي الأمر من مقررات عقيدة أهل السنة والجماعة، فقد ذكر اللالكائي عدة مقالات لأئمة السلف الصالح رحمهم الله تعالى، تُقرر هذا الأمر، فقد ذكر عن عبدالله بن المبارك قوله: (وصَلِّ العيدين وعرفات، والجماعات، مع كل إمام، بر أو فاجر).

وذكر عن علي بن المديني قوله: (ثم السمع والطاعة للأئمة وأمراء المؤمنين، البر والفاجر) إلى أن قال: (لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيت ليلة إلا وعليه إمام، براً كان أو فاجراً، فهو أمير المؤمنين).

وذكر عن أحمد بن حنبل: (أصول السنة عندنا: التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ والاقتداء بهم، والسمع والطاعة للأئمة، وأمير المؤمنين البر والفاجر).

وقال: (وتسمع وتطيع ولا تنكث بيعة، فمن فعل ذلك فهو مبتدع مخالف مفارق للجماعة).

وقال ابن أبي حاتم: (سألت أبي وأبا زرعة عن مذاهب أهل السنة في أصول الدين، فقالا: أدركنا العلماء في جميع الأمصار، حجازاً وعراقاً ومصراً وشاماً ويمناً، فكان من مذهبهم: الإيمان قول وعمل، ونسمع ونطيع لمن ولاه الله عز وجل أمرنا، ولا ننزع يداً من طاعة، ونتبع السنة والجماعة، ونتجنب الشذوذ والخلاف والفرقة)[(٢)].

---

(١) شرح السنة ١٠/٥٤-٥٥.

(٢) دروس في الحقوق الواجبة على المسلم، د. فالح بن محمد بن فالح الصغير، ٩٥-٩٦.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

الحاكم ظل مأمور بتطبيق شرع الله والسير على منهج الإسلام، والقيام على أمور الشرعية يسعى لهم صغاراً ويرعاهم كباراً إن استقام استقامت رعيته، وإن اعوج اعوجت، ولما كانت مسؤوليات الحاكم تبلغ حداً في الكثرة، فقد أوجب الإسلام على الرعية ألا تكون عقبة في مسيرته، ومن المضامين التربوية في أحاديث الباب ما يلي:

أولاً- احترام ولي الأمر وتوقيره وطاعته:

من الأمور التي تهدف التربية الإسلامية إلى غرسها في نفوس المتربين احترام ولاة الأمور وتوقيرهم وطاعتهم في غير معصية، ومن أحاديث الباب التي تبرز هذا الجانب قول النبي ﷺ: «عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ. فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ. إلاَّ أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ. فَإِنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَلاَ سَمْعَ وَلاَ طَاعَةَ». وحديث ابن عمر رضي الله عنهما: "كنا نبايع رسول الله ﷺ على السمع والطاعة...". وحديث أنس رضي الله عنه: «اسمعوا وأطيعوا وإنِ استعملَ عليكم عبدٌ حبشيٌّ ...». وحديث أبي هريرة رضي الله عنه: "عليك السمع والطاعة في عسرك ويسرك..."، وحديث أبي بكرة رضي الله عنه: «مَنْ أَهَانَ السُّلْطَانَ أَهَانَهُ اللَّهُ».

وهذه الأحاديث تؤكد على معنى احترام ولاة الأمر وتوقيرهم والسمع والطاعة لهم في غير معصية.

"ومن هديه ﷺ التربوي أنه كان يربيهم على الطاعة المطلقة لله عز وجل ولرسوله ﷺ، أما طاعة ولي الأمر أو طاعة الولد لأبيه أو الزوجة لزوجها فهي مقيدة؛ فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق إنما الطاعة في المعروف، وقد تقررت هذه المعاني في نفوس الصحابة الكرام؛ فلما استُخلِف أبو بكر رضي الله عنه خطب الناس، وقال: «أطيعوني ما أطعتُ الله فيكم، فإذا عصيتُ الله، فلا طاعة لي عليكم»، وقال عمر بن عبدالعزيز: يا أيها الناس من أطاع الله وجبت طاعته، ومن عصى الله فلا طاعة له، أطيعوني ما أطعت الله، فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم"(١).

---

(١) التربية على منهج أهل السنة والجماعة، أحمد فريد ص ٢٨١، ٢٨٢.

وما من شك في أن هذا الاحترام والتوقير والطاعة في غير معصية إنما هو من حقوق ولي الأمر على رعيته فهي في غاية الأهمية، ويجب القيام بها وعدم التقصير فيها.

"إن حق ولاة الأمر توقيرهم واحترامهم وإجلالهم وتنزيلهم منازلهم التي يستحقونها، قال طاووس: من السنة أن يوقر أربعة: العالم وذو الشيبة، والسلطان، والوالد، ويقول سهل بن عبدالله التستري: لا يزال الناس بخير ما عظموا السلطان والعلماء فإن عظموا هذين أصلح الله دنياهم وأخراهم، وإن استخفوا بهذين أفسدوا دنياهم وأخراهم، ومن توقيره واحترامه: رد القلوب النافرة عنه إليه، وجمع محبة الناس عليه، قال ابن جماعة: لما في ذلك من مصالح الأمة وانتظام أمور الملة، ولاشك أن هذا يقتضي النهي عن سبهم، أو الوقيعة بهم أو غشهم، ومن حقوق ولاة الأمر: السمع والطاعة لهم في غير معصية، إذ به يحصل التلاحم بين الراعي والرعية، وتتحقق وحدة الأمة وتنتظم أمور الدولة وأحوالها ويستتب الأمن والاستقرار في ربوعها وتظهر بمظهر القوة والعزة" (١).

إن طاعة ولي الأمر في الإسلام لا تقوم على أساس من الرهبة أو الرغبة أو المنفعة أو المضرة إنما تقوم على أساس الأمر الإلهي "يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم"، وأحاديث الرسول ﷺ في هذا الصدد تبلغ حدًا في الكثرة، والرسول عليه السلام بين أن طاعته ليست لذاته بل لم أمر الله بإطاعته، وكذلك إطاعة الأمير إطاعة لأمر الرسول ﷺ والذي أمر بإطاعته، فهي سلسلة من الطاعة درجات بعضها فوق بعض.

ومما حذر منه الرسول عليه السلام الفتن في هذه الأمة وبين أن الفتن درجات وأن بعضها أقوى من بعض، حتى إن فتنة لتقع فيعجب لها الناس، فتأتي التي بعدها أشق منها وأقسى، حتى إنها لتجعل التي سبقتها كأنها عارض من أذى، إلى أن تمحى الجديدة بفتنة أكبر وأشد. أو لسنا نرى ابتلاءات تعتري الأمة على المستوى السياسي والاقتصادي والاجتماعي وكل ابتلاء نراه عظيمًا، فيأتي الذي بعده فنرى السابق هينًا. في العصر الحاضر دمرت دولة الخلافة ومصدر العلوم والمعارف، ألم تخرج مدارس الحديث والفقه

---

(١) انظر: طاعة ولي الأمر وأثرها في تحقيق أمن الوطن، د. أحمد بن يوسف بن أحمد الدريويش ص ٥٠-٥٥.

والنحو من العراق، ألم تنهض الحركة العلمية سنين عددًا منها.

ومن الفتن الاقتصادية غلبت المادية وغياب الروحية، حتى صارت المعايير بالدرهم والدينار، وغابت الأخلاق في بعض الديار، وأصبح الإنسان بقدر ما يملك لا ما يسلك من الخير، وكان لهذا السلوك كبير الأثر في فتنة كثيرين في هذا الزمن، حتى إننا لنرى بعض الأفراد يملكون من الأرصدة ما يفوق خزينة بعض الدول، مليارات تتلوها مليارات، والعجب كل العجب أن الكثير منها مدخر خارج ديار الإسلام. إن العلاقة بين الحاكم والمحكوم في الإسلام تقوم على الاحترام المتبادل والمحبة المشتركة وهؤلاء هم خيرة الرعاة، وإن شر الولاة من كره الناس وكرهه الناس، فليكن الصبر والنصح وتحميل المسؤولية لأهل الحل والعقد.

ثانيًا: التربية بالترغيب والترهيب:

من أساليب التربية الإسلامية المهمة التربية بالترغيب والترهيب لما لهما من أثر في نفس المتربي، ومن أحاديث الباب التي تبرز هذا الأسلوب حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «مَنْ خَلَعَ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ، لَقِيَ اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لاَ حُجَّةَ لَهُ. وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً». وحديث أبي هريرة رضي الله عنه: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ. وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ. وَمَنْ أَطَاعَ الأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي. وَمَنْ يَعْصِ الأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي». وحديث ابن عباس رضي الله عنهما: "من كره من أميره شيئًا فليصبر، فإنه من خرج من السلطان شبرًا مات ميتةً جاهلية"، وحديث أبي بكرة رضي الله عنه: «مَنْ أَهَانَ السُّلْطَانَ أَهَانَهُ اللَّهُ».

وهذه الأحاديث بما فيها من ترغيب في السمع والطاعة في غير معصية وترهيب من معصيته، وخلع بيعته وإهانته تَحْمِلُ المتربي على الاستجابة لأوامر الشرع: "إن الإنسان مفطور على الإحساس باللذة والألم وهو بذلك ميال إلى كل ما يحقق له اللذة، وعازف عن كل ما يسبب له الألم، ولهذا العامل تأثير كبير في تربية الإنسان وتوجيه سلوكه من خلال الترغيب والترهيب في القرآن الكريم وكذلك السنة النبوية التي تؤكد أهمية هذا الجانب بما تضمنته من ترغيب وترهيب تستجيش قلب الإنسان نحو الخير وتوجهه لذلك وتخوفه من الانحراف وتحذره منه"[1].

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. خالد بن حامد الحازمي ص ٣٩٣.

ثالثًا- التربية بالموعظة:

تعتبر الموعظة من أساليب التربية المؤثرة، وفيه حرص على الموعوظ، ورجاء الخير له، ومن أحاديث الباب التي تبرز هذا الأسلوب حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: "كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ. فَنَزَلْنَا مَنْزِلاً. فَمِنَّا مَنْ يُصْلِحُ خِبَاءَهُ. وَمِنَّا مَنْ يَنْتَضِلُ، وَمِنَّا مَنْ هُوَ فِي جَشَرِهِ. إِذْ نَادَىٰ مُنَادِي رَسُولِ اللّهِ ﷺ: الصَّلاَةَ جَامِعَةً. فَاجْتَمَعْنَا إِلَىٰ رَسُولِ اللّهِ ﷺ. فَقَالَ: «إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلاَّ كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَىٰ خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ ...".

وهذه الدعوة من الرسول ﷺ لصحابته أن يجتمعوا، ووقوفه بينهم واعظًا وناصحًا إنما يدل على أثر التربية بالموعظة. "إن أسلوب التوجيه والموعظة الحسنة من أساليب الرسل والأنبياء عامة، وهو من الأساليب المؤثرة في سلوك الصغار والكبار معًا، ولكي تحدث الموعظة أثرها في نفوس الأبناء فإنه ينبغي أن تقترن بالشعور بالمحبة والعطف فالنصح والوعظ والبر من والد محب أو أم حانية أو أخ كبير أو صديق مخلص أو معلم عطوف أو شيخ وقور، قد يغير مجرى حياة الإنسان، ومن الآثار التربوية التي تترتب على التربية بأسلوب التوجيه والموعظة تزكية النفس وتطهيرها، وهو هدف أسمى من أهداف التربية الإسلامية وبه يسمو المجتمع ويبتعد عن المنكرات وعن الفحشاء ويسلك الجميع وفق منهج الله تبارك وتعالى وشرعته"[(١)].

رابعًا- الحوار والمناقشة:

من أساليب التربية الإسلامية الحوار والمناقشة، والتربية الناجحة تعتمد على الحوار بين المربي والمتربي، ومن أحاديث الباب التي تبرز هذا الأسلوب حديث أبي هنيدة وائل بن حُجْر رضي الله عنه قال: سأل سلمة بن يزيد الجعفي رسول الله ﷺ فقال: يانبي الله أرأيت إن قامت علينا أمراء يسألونا حقهم..."، وحديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إنها ستكون بعدي أثرة وأمور تنكرونها قالوا: يارسول الله كيف تأمر

---

(١) المرجع السابق ص ٨٣، ٨٤.

من أدرك منا ذلك؟ قال: تؤدون الحق الذي عليكم وتسألون الله الذي لكم".

ففي هذين الحديثين يبرز أسلوب الحوار والمناقشة بين الرسول ﷺ وصحابته الكرام يسألون ويجيبهم ويستفسرون ويوضح لهم.

"لقد استخدم الرسول ﷺ أسلوب الحوار والمناقشة في التربية في الحلقات التربوية التي كان يعقدها لتربية أجيال المسلمين وهي طريقة تدفع بالمتعلم إلى المشاركة بالأسئلة والاستماع والفهم والتساؤل عما لا يدركه من حقائق، وهي طريقة لا يمكن أن يكون المتعلم فيها سلبيًا أو مصدقًا فقط دون الفهم والإدراك العقلي، وقد توجه الأسئلة من المربي إلى المتعلم بطريقة تقوده لأن يتوصل بنفسه إلى الحقيقة، وعن طريق الحوار كان الرسول ﷺ يعلم المسلمين شتى أمور دينهم ودنياهم" [(١)].

خامسًا- من أهداف التربية: تنمية روح الجماعة:

إن من أهداف التربية الإسلامية تنمية روح الجماعة في نفوس المتربين وحثهم على التوحد ونبذ الفرقة والاختلاف، ومن أحاديث الباب التي تبين هذا الجانب ما جاء في روايات حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: «وَمَنْ مَاتَ وهو مُفارِقٌ لِلْجَمَاعَةِ، فَإنَّهُ يَمُوتُ ميتَةً جاهليَّةً»، وحديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: «... وَمَنْ بَايَعَ إمَامًا، فَأَعْطَاهُ صَفْقَةَ يَدِهِ وَثَمَرَةَ قَلْبِهِ، فَلْيُطِعْهُ إنِ اسْتَطَاعَ. فَإنْ جَاءَ آخَرُ يُنَازِعُهُ فَاضْرِبُوا عُنُقَ الآخَرِ».

وروح أحاديث الباب تنمي وتحث على الاجتماع وعدم الفرقة ونبذ التنازع واطراح أسباب الشقاق والاختلاف.

"لقد كان الصحابة رضي الله عنهم من أحرص الناس على أسباب الرفعة والنصر والعزة، ولاشك أن من أسباب النصر والرفعة والعزة الوحدة والاجتماع ونبذ الفرقة والخلاف، قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [(٢)]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [(٣)]، ومن ذلك ما جاء عن علي رضي الله عنه قال: «اقْضُوا كَمَا كُنْتُمْ

(١) فلسفة التربية الإسلامية في الحديث الشريف، د. عبدالجواد سيد بكر ص ٣٣٣.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٠٣.

(٣) سورة الأنفال، آية: ٤٦.

تَقْضُونَ فَإِنِّي أَكْرَهُ الاخْتِلافَ حَتَّى يَكُونَ لِلنَّاسِ جَمَاعَةٌ أَوْ أَمُوتَ كَمَا مَاتَ أَصْحَابِي».

وسأل ابن الكواء عليًا ﵁ عن السنة والبدعة والجماعة والفرقة، فقال: يا ابن الكواء حفظت المسألة فافهم الجواب: السنة والله سنة محمد ﷺ، والبدعة ما فارقها، والجماعة والله مجامعة أهل الحق، والفرقة مجامعة أهل الباطل، وإن كثروا"[1].

سادسًا- من الأساليب التربوية: الإلقاء والبيعة والوصية:

أ-الإلقاء: كما في حديث ابن عمر ﵄ مرفوعًا: ((عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ. فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ. إلاَّ أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ. فَإِنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَلاَ سَمْعَ وَلاَ طَاعَةَ))، والإلقاء يكون بالعرض الشفهي للمعلومات على المتعلمين في المراحل العليا كالمرحلة الثانوية والمرحلة الجامعية، ويمكن لإلقاء المعلمين من عرض أكبر قدر من المعلومات في أقصر وقت ممكن على أكبر عدد من الطلاب.

ب-البيعة: كما في حديث ابن عمر ﵄ مرفوعًا: ((كُنَّا إذَا بَايَعْنَا رسولَ الله ﷺ على السَّمْعِ والطاعةِ، يَقُولُ لَنَا: فِيما اسْتَطَعْتُمْ)).

ج-الوصية: كما في حديث أنس بن مالك ﵁ مرفوعًا: ((اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَإِنِ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ)).

والوصية من الأساليب التربوية شائعة الاستخدام في ميادين الحياة المختلفة، فتستخدم في البيت، وفي المسجد، وفي الشارع، وفي كل مكان في المجتمع المسلم.

---

(١) التربية على منهج أهل السنة والجماعة، أحمد فريد ص ٦٢.

٨١- باب النهي عن سؤال الإمارة واختيار ترك الولايات إذا لَمْ يتعين عليه أوْ تدْعُ حاجة إليْهِ

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[القصص: ٨٣].

الحديث رقم (٦٧٤)

٦٧٤- وعن أَبي سعيدٍ عبدِ الرحمنِ بن سَمُرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ لي رسول الله ﷺ: **((يَا عَبْدَ الرَّحمن بن سَمُرَةَ، لاَ تَسْأَلِ الإمَارَةَ؛ فَإنَّكَ إن أُعْطِيتَهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا، وَإنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إلَيْهَا، وَإذَا حَلَفْتَ عَلَى يَمِينٍ، فَرَأيْتَ غَيْرَهَا خَيْراً مِنْهَا، فَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَكَفِّرْ عَنْ يَمِينكَ))** متفقٌ عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

عبدالرحمن بن سمرة: هو عبدالرحمن بن سَمُرة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف بن قُصَيٍّ، وكان اسمه عبد كُلال أو عبد كلوب أو عبدالكعبة، فغيّر النبي ﷺ اسمه فسماه عبدالرحمن، وكان يكنى بأبي سعيد، وكان أحد الأشراف، أسلم يوم الفتح على المشهور، وقيل قبل الفتح على قول من قال إنه شهد مؤتة، صحب النبي ﷺ فله صحبة ورواية، له في كتب الحديث ١٤ حديثاً.

سكن البصرة، وكانت له بدمشق دارٌ، وكان ﷺ من المجاهدين في سبيل الله، ومن القادة والولاة، فشهد غزوة تبوك مع النبي ﷺ ثم شهد فتوح العراق، وغزا خراسان، استعمله عبدالله بن عامر لما كان أميراً على البصرة على جيشٍ فافتتح سِجِسْتان سنة ٣٣، وصالح صاحب الرُّخَّج، وأقام بها حتى اضطرب أمر عثمان بن عفان فسار عنها، واستخلف رجلاً من بني يشكر، فأخرجه أهل سِجِسْتان، ثم لما استعمل

---

(١) أخرجه البخاري ٧١٤٦، ومسلم ١٦٥٢/١٩ والسياق للحميدي في جمعه ٣٥٨/١، رقم ٥٦٨. أورده المنذري في ترغيبه ٣٢٢١.

معاويةُ عبدالله بن عامر على البصرة، سيرّ عبدالرحمن بن سمرة إلى سجستان أيضاً سنة ٤٢، ثم عزله معاوية سنة ٤٦ عن سجستان، فلما عُزل عاد إلى البصرة، فتوفي بها سنة (٥٠)، وإليه تنسب سكة سَمُرة بالبصرة، أما عن صفاته الخلقية، منها أنه اتصف بالتواضع، فيذكر أنه إذا كان اليوم المطير لبس بُرْنُساً[1]، وأخذ المسحاة يكنس الطريق.

مات رضي الله عنه بالبصرة سنة (٥٠) وقيل (٥١) وصلى عليه زياد بن أبي سفيان، وقيل مات بمَرْو[2].

غريب الألفاظ:

وُكِلْتَ إليها: صرفت إليها، ومن وكل إلى نفسه هلك[3].

وكَفّر: من الكفارة: وهي الفَعْلة والخَصلة التي من شأنها أن تكفر الخطيئة أي تسترها وتمحوها[4].

الشرح الأدبي

نداء الرسول ﷺ (يا عبد الرحمن بن سمرة) نداء تنبيه فيه تخصيص؛ لأنه ناداه باسمه، واسم أبيه، وهو يستلزم منه مزيد إنصات، وقوله (لاَ تَسْأَلِ الإمَارَةَ) نهي للنصح، والإرشاد علل له بقوله (فَإِنَّكَ إن أُعْطِيتَهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا، وَإِنْ

---

(١) البُرْنُس: لباس للرأس مختلف الأشكال والأنواع. انظر: لسان العرب، ابن منظور في (ب ر ن س).

(٢) الطبقات الكبرى، ابن سعد ٤٥/٥، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٤٤٧، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود ٤٥٠/٣، ٤٥١، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ٧٠٢، وسير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ٥٧١/٢، ٥٧٢، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين ٤١٣/٤، ٤١٤، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك ١٢٩٣/٢، ١٢٩٤.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٣٣/١٣.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ك ف ر)، وانظر: معجم لغة الفقهاء، أ.د. محمد رواس قلعة جي ٣٥٠.

أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا) والمطابقة بين أعنت عليها، ووكلت بها تبين أثر الحرص على الإمارة في عدم التوفيق، والذي صوره طباق السلب بين: (مسألة، غير مسألة) ؛ لأن حرصه عليها قد يحمله على التعدي، والظلم للمحافظة عليها، وهو أمر مشاهد في الواقع في أهل المناصب، والكراسي ممن تمكنت الدنيا من قلوبهم فحرصوا على الدنيا أكثر من حرصهم على الآخرة فظلموا، وبغوا للحفاظ عليها، أما من أسندت إليه، وهو راغب عنها؛ فإنه يتقي الله فيها ويعمل فيها بما يرضي الله تعالى فيعان بذلك على القيام بأعبائها، وبناء لفعل يعان لما لم يسم فاعله يجعل مصدر العون مفتوح للخيال يتصوره من ربه، ومن الصالحين، ومن كل ما يخطر بباله، وقوله (وَإِذَا حَلَفْتَ عَلَى يَمِينٍ) أسلوب شرط يضع حلولا مستقبلية لمسائل متوقعة، وقوله (فرأيت) رأى هنا ظنية أي اعتقدت، وقوله (فأت) أمر نصح، وإرشاد واقع في جواب الشرط، والتعريف بالموصول (الذي) للمدح والحديث ترغيب في الزهد في الإمارة، وفعل الخير.

فقه الحديث

هذه الأحاديث تشير إلى الأحكام الفقهية التالية:

حكم سؤال الحكم والإمارة ونحو ذلك: اتفق الفقهاء على أن الأصل، أنه يكره للمرء سؤال الإمارة، أو الحرص عليها، أو طلب تولي الحكم،أو القضاء، أو ما شابه ذلك، إن كان هناك من هو أولى منه، فإن كان غير صالح لها حرم عليه طلبها.

أما إن كان لا يصلح لها إلا شخصه وجب عليه أن يطلبها، ووجب على أهل الحل والعقد أن يبايعوه.

وإن كان يصلح لها جماعة صح أن يطلبها واحد منهم، ووجب اختيار أحدهم، وإلا أجبر أحدهم على قبولها جمعاً لكلمة الأمة[1].

---

(١) شرح فتح القدير، ابن همام الحنفي ٢٣٢/١٦، ومنح الجليل ٢٩٧/١٧، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني الفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٣٧٣/٣، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ١٣٣/١٠.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النداء.

ثانياً: من أساليب الدعوة: النهي.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: النهي عن طلب الإمارة، والحرص عليها.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: إعانة الله تعالى لمن قبل الإمارة من غير سؤال لها.

خامساً: من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب.

سادساً: من موضوعات الدعوة: سماحة الإسلام ويسر شريعته.

أولاً- من أساليب الدعوة: النداء:

ورد أسلوب النداء في الحديث في قوله ﷺ "يا عبدالرحمن بن سمرة" ناداه باسمه واسم أبيه من أجل أن ينتبه لما يلقى إليه، لأن الموضوع ليس بالهين: (لا تسأل "لا تسأل الإمارة" يعني لا تطلب أن تكون أميرًا[1]. وأسلوب النداء من الأساليب الدعوية المفيدة، لما فيه من لفت انتباه المدعو إلى الإقبال على الدعوة، فضلاً عما يستشعره المدعو بمكانته لدى الداعي وتخصيصه بالنداء. ولقد استخدم القرآن أسلوب النداء في كثير من الآيات فنادى أمة النبي ﷺ بأجمل ما وصفت به وهو الإيمان، وجاء النداء بـ "يا أيها الذين آمنوا" تسعين مرة، فالله سبحانه إذا نادى عباده المؤمنين ناداهم بعنوان الإيمان، لأن المؤمن حيٌّ بإيمانه مُكرَّمٌ باستجابته[2].

ثانياً- من أساليب الدعوة: النهي:

ورد أسلوب النهي في الحديث "لا تسأل الإمارة" وأسلوب النهي من أشد الأساليب الدعوية تأثيراً، لما فيه من لفت الانتباه بمكامن الخطورة، وأخذ الحذر والحيطة من الانزلاق والاندفاع إليها. كما جاء في الحديث النهي عن طلب الإمارة والحرص عليها، اللهم إلا إذا وجد في نفسه الأهلية التامة لهذا الأمر وافتقادها في غيره، فإن هذاالوقت لا

---

(١) شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين، ٩٦٧/١.

(٢) انظر: نداءات الرحمن لأهل الإيمان، أبو بكر الجزائري ص ٥-٧.

كراهة في طلبه رعاية لمصالح المسلمين، والقرآن ضرب لنا مثلاً على ذلك بطلب يوسف عليه السلام من ملك مصر ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾[1].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: النهي عن طلب الإمارة والحرص عليها:

جاء الحديث بالتصريح في النهي والمنع من سؤال الإمارة، فقال ﷺ "يا أبا عبدالرحمن بن سمرة لا تسأل الإمارة" قال القرطبي: (قوله: "لا تسأل الإمارة" هو نهي، وظاهره التحريم، وعلى هذا يدل قوله ﷺ: "إنا والله لا نولي على هذا العمل أحدًا سأله ولا أحدًا حَرَصَ عليه"[2]، وسببه: أنَّ سؤالها والحرص عليها، مع العلم بكثرة آفاتها، وصعوبة التخلص منها، دليلٌ على أنه يطلبها لنفسه، ولأغراضه. ومن كان هكذا أوشك أن تغلب عليه نفسه، فيهلك، وهذا معنى قوله: "وُكلت إليها".

وقال الطيبي: (قوله: "وكلت إليها" معناه أن الإمارة أمر شاق لا يخرج عن عهدتها إلا الأفراد من الرجال، فلا تسألها عن تشرف النفس، فإنك إن سألتها تركت معها: فلا يعينك الله عليها، وإن أوتيتها عن غير مسألة أعانك الله عليها)[3].

وقال النووي: (وفي هذا الحديث فوائد، منها كراهة سؤال الولاية، سواء ولاية الإمارة والقضاء والحسبة وغيرها، ومنها بيان أن من سأل الولاية لا يكون معه إعانة من الله تعالى، ولا تكون فيه كفاية به لذلك العمل، فينبغي أن لا يولى)[4].

ولكن ينبغي بيان، هل أن النهي عن طلب الإمارة على إطلاقه، أم أن هناك حالات يجوز فيها طلب الإمارة؟

لقد فصل القول في ذلك محمد تقي العثماني، ونقل مجموعة من آراء العلماء فيه.

فقال: واستدل بهذا الحديث - حديث الباب - من منع طلب الإمارة والقضاء

---

(١) سورة يوسف، آية: ٥٥.

(٢) أخرجه البخاري ٧١٤٩، ومسلم ١٧٣٣. واللفظ لمسلم.

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ٢٤/٧.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٠٥٢.

مطلقًا، ويدل على خلاف ذلك قول الله تعالى حكاية ليوسف عليه السلام: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾[١].

وقوله ﷺ: ((من طلب قضاء المسلمين حتى يناله، ثم غلب عدله جوره فله الجنة، ومن غلب جوره عدله فله النار))[٢]. وكذلك قوله ﷺ: ((لا حسد إلا في اثنتين، رجل آتاه الله مالاً فسلّطه على هلكته في الحق، وآخر آتاه الله حكمة، فهو يقضي بها ويعلمها))[٣].

ومن أجل هذه الدلائل اختار أكثر الفقهاء التفصيل، فإن كان الطالب غير أهل لذلك المنصب من الإمامة أو القضاء، فإن طلبه محظور مطلقًا، وكذلك إذا كان الطلب لحب المال والرئاسة والشرف، فإنه منهي عنه على الاطلاق، وأما إذا كان للإصلاح بين الناس وإقامة العدل فليس بمنهي عنه.

قال أبو يعلى في الأحكام السلطانية[٤]: (فإن كان "طالب الولاية" من غير أهل الاجتهاد كان تعرّضه لطلبه محظورًا، وكان بذلك مجروحًا، وإن كان من أهله ووممن يجوز له النظر فيه نظر، فإن كان القضاء في غير مستحقه، إما لنقص علمه، أو لظهور جوره، فيخطب القضاء دفعًا لمن لا يستحقه، ليكون فيمن هو بالقضاء أحق، ففيه روايتان: إحداهما: يكره له طلب القاضي، وأصل هذا من كلام أحمد، ...ما قاله في رواية ابنه عبدالله في الرجل يكون في بلد لا يكون فيه أحد أولى بالقضاء منه، لعلمه ومعرفته، فقال: لا يعجبني أن يدخل الرجل في القضاء، هو أسلم له ... والثانية: لا يكره. وأصل هذا من كلامه ما قاله في رواية المروزي: لا بد للمسلمين من حاكم، أفتذهب حقوق الناس؟ والوجه فيه أن هذا رفع منكر.

(١) سورة يوسف، آية: ٥٥.

(٢) أخرجه أبو اداود ٣٥٧٥، وضعفه الألباني (ضعيف سنن أبي داود).

(٣) أخرجه البخاري ٥٠٢٥، ٧٥٢٩، ومسلم ٨١٦ واللفظ له.

(٤) الأحكام السلطانية ٧٠.

فعلى هذه الرواية ينظر، فإن كان أكثر قصده به إزالة غير المستحق، كان مأجورًا، وإن كان أكثره اختصاصه بالنظر فيه كان مكروهًا، أو مباحًا.

وإن كان القاضي في مستحقه، وهو من أهله، ويريد أن يعزله عنه إما لعداوة بينهما، أو ليجرّ بالقضاء إلى نفسه نفعًا، فهذا الطلب محظور، وهو مجروح بذلك. وإن لم يكن في القضاء ناظر، نظرت، فإن كان له رغبة في إقامة الحق، وخوفه من أن يتعرض له غير مستحق، تخرج على الروايتين اللتين تقدمتا.

وإن قصد بطلبه المنزلة والمباهاة كره له ذلك، رواية واحدة، لأن طلب المباهاة في الدنيا مكروه، قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1] وذهب قوم إلى نفي الكراهة، لأن نبيّ الله يوسف عليه السلام رغب إلى العزيز في الولاية والخلافة، فقال: ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[2]. وهذا لا يدل على جواز الطلب من غيره، لأن يوسف عليه السلام كان نبيًا معصومًا من الظلم والجور فيما يليه من الأعمال، وهذا المعنى غير مأمون في حق غيره. انتهى كلام أبي يعلى وبمثله ذكر الماوردي في الأحكام السلطانية[3].

وقال العثماني التهانوي[4]: (ولا يبعد أن يقال إن طلب الإمارة والحكومة لحب المال والرئاسة والشرف منهي عنه مطلقًا، سواء كان بالقلب وحده، أو باللسان أيضًا، لكونه من ناحية الدنيا لا الدين. وأما طلبها لا من حيث الإمارة، بل لإرادة الإصلاح بين الناس، وإقامة العدل فيهم، والقضاء بالحق، لما في العدل من الأجر الجزيل، فليس بمنهي عنه، لا بالقلب ولا باللسان، بدليل قوله ﷺ: "لا حسد إلا في اثنتين" الحديث. ولما كان الغالب في العادة، أن طلب الولاية وإرادتها والرغبة فيها، لا تكون إلا من

(١) سورة القصص، آية: ٨٣.

(٢) سورة يوسف، آية: ٥٥.

(٣) الأحكام السلطانية، الماوردي ص ٧٤.

(٤) إعلاء السنن ٤٤/١٥.

حيث الولاية والإمارة لحب المال والشرف، والرئاسة وطلبها لمصلحة الناس وحاجتهم لا لحظ النفس نادرًا أشد الندرة، ومبنى الأحكام إنما هو الغالب من أحوال الناس دون النادر منها، نهى رسول الله ﷺ عن سؤالها وإرادتها والحرص عليها، وحضهم على أن لا يدخلوا فيها إلا كارهين مكرهين، وقال: إنا والله لا نولّي هذا العمل أحدًا يسأله، أو أحدًا حرص عليه، وليس معناه أن سؤالها والحرص عليها محظور مطلقًا، وبهذا تجتمع الآثار في الباب ولا يبقى بينها تضاد، والله الملهم الحق والصواب).

(ومع ذلك، فلا يخفى أن من تعاطى أمرًا، وسولت له نفسه أنه قائم بذلك الأمر، فإنه يخذل فيه في أغلب الأحوال، لأن من سأل الإمارة لا يسألها إلا وهو يرى نفسه أهلاً لها إلا من عصمه الله، ومن دعى إلى عمل أو إمامة في الدين، فقصر نفسه عن تلك المنزلة وهاب أمر الله، رزقه الله المعونة. قال النبي ﷺ: ((ما تواضع لله أحد إلا رفعه الله))(١). فمن كان على قدم التواضع لله مع سؤاله الإمارة، كما هو شأن الأنبياء والكمل من الأولياء، يجوز له سؤالها وطلبها، ومن لم يقدر على الجمع بينهما لم يجز له إرادتها، ولا طلبها، ولا الحرص عليها، فضلاً عن سؤالها باللسان، والاستعانة عليها بالشفعاء.

فتبيّن بهذا أن ما يفعله الناس اليوم في الانتخابات الديمقراطية من ترشيخ أنفسهم لشتى المناصب، ودعوة الناس إلى التصويت في حقهم ليس من الإسلام في شيء، لأن المقصود به في الغالب هو طلب المنصب والرئاسة والشرف، على ما يصحبه من مدح الرجل نفسه، والنيل من أعراض مخالفيه، واشتراء الأصوات بالرشوة، وما إلى ذلك من المفاسد الظاهرة.

فينبغي إن عُقدت الانتخابات بطريقة شرعية أن لا يكون الرجل مُرشّحًا لنفسه، ولا داعيًا إلى ترشيحه أو التصويت في حقه، والله سبحانه وتعالى أعلم(٢).

---

(١) أخرجه مسلم ٢٥٨٨.

(٢) تكملة فتح الملهم ٩/٢٤٣-٢٤٦.

فالواجب اتخاذ الإمارة دينًا وقربة يتقرب بها إلى الله، وإنما يفسد فيها حال أكثر الناس لابتغاء الرياسة أو المال بها، فعن كعب بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: ((مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلا فِي غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ المَرْءِ على المالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ))(١) فأخبر أن حرص المرء على المال والرياسة يفسد دينه، مثل أو أكثر من فساد الذئبين الجائعين للغنم(٢).

رابعاً- من موضوعات الدعوة: إعانة الله تعالى لمن قبل الإمارة من غير سؤال لها:

إنّ ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين، بل لاقيام للدين ولا للدنيا إلا بها، فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض، ولابد لهم عند الاجتماع من رأس، حتى قال النبي ﷺ ((إذَا خَرَجَ ثَلاثَةٌ فِي سَفَرٍ فَلْيُؤَمِّرُوا أَحَدَهُمْ))(٣) والإمارة لون من ألوان التقرب إلى الله تعالى(٤)، فإذا ما نظر إليها الإنسان بهذه الرؤية، وجاءت إليه الإمارة ولم يطلبها، فليوقن بإعانة الله كما صرح بذلك رسول الله ﷺ في الحديث فقال "فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها، وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها". قال ابن عثيمين: (وإن أعطيتها من غير مسألة، بل الناس هم الذين اختاروك وهم الذين طلبوك، فإن الله تعالى يعينك عليها، يعني فاقبلها وخذها)(٥). وذلك لأن من جاءته من غير طلب، أباها لعلمه بآفاتها، ولخوفه من التقصير في حقوقها، وفرّ منها، ثم ابتلي بها، فيرجى له ألا تغلب عليه نفسه، للخوف الغالب عليه، فيتخلص من آفاتها، وهذا معنى قوله: "أعنت عليها"(٦).

---

(١) أخرجه الترمذي ٢٤٩٥، والحديث صححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٩٣٥).

(٢) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، ابن تيمية ص ١٣٩.

(٣) أخرجه أبو داود ٢٦٠٨، والحديث صححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢٢٧٢).

(٤) انظر: السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، ابن تيمية ص ١٣٧-١٣٩.

(٥) شرح رياض الصالحين، ٩٦٧/١.

(٦) انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو، وآخرين ١٦/٤.

خامساً- من أساليب الدعوة الترغيب والترهيب:

ورد أسلوب الترغيب والترهيب في الحديث، حيث رهّب النبي ﷺ من سؤال الإمارة حباً للمال والرياسة، وأنه إن أعطيها وكل إليها، فلا يلق إعانة من الله تعالى، ولا تكون فيه كفاية لذلك العمل[1] وإن جاءته من غير طلب، وقصد بها نية التقرب إلى الله تعالى، أعين عليها فقال ﷺ "فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها، وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها" وأسلوب الترغيب والترهيب من آكد الأساليب الدعوية، لما فيهما من تشويق المدعو إلى الاستجابة، وقبول الحق والثبات عليه، وتحذير من عدم الاستجابة أو رفض الحق، أو عدم الثبات عليه بعد قبوله[2].

سادساً- من موضوعات الدعوة: سماحة الإسلام ويسر شريعته:

ورد في الحديث جانب من جوانب التيسير في الشريعة الإسلامية في قوله ﷺ (وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فأت الذي هو خير وكفر عن يمينك)، قال ابن عثيمين: (يعني إذا حلفت ألا تفعل شيئًا، ثم تبين لك أن الخير في فعله، فكفر عن يمينك وافعله، وإذا حلفت أن تفعل شيئًا ثم بدا لك أن الخير في تركه، فاتركه وكفر عن يمينك.

وإنما قال له النبي ﷺ ذلك، لأنه إذا كان الإنسان أميرًا، فحلف على شيء، فربما تملي عليه أنفة الإمارة ألا يتحول عن حلفه، ولكن ينبغي -وإن كان أميرًا- إذا حلف على شيء ورأى الخير في تركه أن يتركه، أو حلف ألا يفعل شيئًا ورأى الخير في فعله أن يفعله، وهذا شامل للأمير وغيره.

وإذا حلفت على شيء ورأيت الخير في خلافه، فكفر عن يمينك وافعل الخير. مثال ذلك: رجل حلف ألا يزور قريبه؛ لأنه صار بينه وبينه شيء فقال: والله لا أزوره؛ فهذا حلف على قطع الرحم؛ وصلة الرحم خير من القطيعة، فنقول: يجب عليك أن تكفر عن يمينك وأن تزور قريبك، لأن هذا من الصلة والصلة واجبة.

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٠٥٢.

(٢) انظر: مستلزمات الدعوة في العصر الحديث، علي بن صالح المرشد ص ١٦٠.

مثال آخر: رجل حلف ألا يكلم أخاه المسلم ويهجره نقول: هذا غلط، كفر عن يمينك وكلمه. وهكذا كل شيء تحلف عليه، ويكون الخير بخلاف ما حلفت، فكفر عن يمينك وافعل الخير، وهذه قاعدة في كل الأيمان، ولكن الذي ينبغي للإنسان ألا يتسرع في الحلف؛ فإن كثيرًا من الناس يتسرعون في الحلف أو في الطلاق أو ما أشبه ذلك، ويندمون بعد ذلك، فنقول: لا تتعجل ولا تتسرع، إذا كنت عازمًا على الشيء فافعله أو اتركه بدون يمين وبدون طلاق، ثم إن ابتليت بكثرة الحلف فاقرن حلفك بقولك: إن شاء الله، فإنك إن حلفت وقلت: إن شاء الله، فأنت في حل، حتى لو خالفت ما حلفت عليه فإنه لا يضر.

فلو قلت: والله إن شاء الله لا أفعل هذا الشيء، ثم فعلته فليس عليك شيء، لأن من قال في يمينه إن شاء الله، فلا حنث عليه)[١]، ولكن إذا حلف، فمن فضل الله علينا أنه شرع لنا التكفير عن الأيمان المنعقدة، فذلك أبوبكر رضي الله عنه لما حلف ألا ينفق على مسطح بن أثاثة بعد الذي قال في حق عائشة رضي الله عنها في حادثة الإفك، فنزل قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٢] فرجع إليه النفقة وكفر عن يمينه[٣] وإذا كانت نعم الله كثيرة على الإنسان فإن هذه النعم تظهر بصورة أقوى وأشد في مظاهر التيسير، ففي كل تصرف وتعاون وتبادل يبرز التيسير ملازماً لروح الشريعة[٤]، وصدق الله العظيم ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ﴾[٥]. وفي هذا المعنى كثير من آيات الكتاب العزيز مثل قوله تعالى:

---

(١) شرح رياض الصالحين ٩٦٨/١.

(٢) سورة النور، آية: ٢٢.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣١/٦.

(٤) مظاهر التيسير في الشريعة الإسلامية، د. محمد عبدالعزيز عزام ص ٤٣٠.

(٥) سورة الحج، آية: ٧٨.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[١] وقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾[٢] وقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[٣] وهي آيات تدل دلالة واضحة على أن الله شرع الأحكام سهلة ميسرة على العباد، فما من عمل من أعمال القلب أو الجوارح إلا وهو في وسع المكلف وفي مقتضى إدراكه[٤]. وهذا ما تميزت به شريعة الإسلام عن بقية الشرائع السماوية.

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٨٥.

(٢) سورة النساء، آية:٢٨.

(٣) سورة البقرة، آية:٢٨٦.

(٤) تهذيب الفروق في الأسرار الفقهية والقواعد السنية، محمد بن علي بن الحسين، بهامش الفروق، دار إحياء الكتب العربية: ١٣٤٧هـ، ١٣١.

الحديث رقم (٦٧٥)

٦٧٥- وعن أَبي ذرٍّ ﵁، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: ((يَا أَبَا ذَرٍّ، إنِّي أرَاكَ ضَعِيفاً، وَإنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي. لاَ تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ، وَلاَ تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ)) رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو ذر الغفاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٦١).

غريب الألفاظ:

تأمَّرَنَّ: لا تتأمرن أي تصير أميراً[2].

تَوَلَّيَنَّ: أي لا تتولين، وتولَّى الأمر: تقلده وقام به، ومنه ولي اليتيم: الذي يلي أمره ويقوم بكفايته[3].

الشرح الأدبي

هذا الحديث قريب من معنى سابقه في المضمون مع اختلاف في الأسلوب، وقوله (يَا أَبَا ذَرٍّ، إنِّي أرَاكَ ضَعِيفاً، وَإنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي) أسلوب تشويق، وتنبيه يفيض بالمحبة، والرحمة بدا ذلك من نداء التودد (يَا أَبَا ذَرٍّ) ثم الخبر الذي أريد به لازم فائدته، وهو إظهار الشفقة، والرحمة، وعبارة الإشادة والتكريم، والمحبة، والتخصيص (وَإنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي) ولك أن تتخيل من يسمع الرسول ﷺ بعظيم قدره يخصه بهذه العبارة لابد، وأنها ذهبت بعقله كل مذهب في الحبور، والسرور يكاد بها - لو يحلق الإنسان من فرح - أن يمسك النجوم، ثم جاء نهيه بعد أن وطن نفسه لاستقباله بفيض غامر من المحبة يجعله يستقبل النهي بقلبه قبل عقله وبعقله قبل سمعه (لاَ تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ، وَلاَ تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ) نهي إرشاد، ونصح، لما للجاه، والسلطان من سيطرة على النفس لا تلبس أن تحملها بعد أن تتعلق بها على التعدي، والظلم.

---

(١) برقم ١٧/١٨٢٦. أورده المنذري في ترغيبه ٣٢١٨.

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٩٤٩، والمعجم الوسيط في (أ م ر).

(٣) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٩٤٩، والمعجم الوسيط في (و ل ي).

المضامين الدعوية[١]

أولاً: من أساليب الدعوة: النداء.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: بيان محبة الرسول ﷺ لأبي ذر ﷺ.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: الحذر من الولاية على مال اليتيم.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: الولاية على المسلمين مسؤولية كبيرة.

أولاً- من أساليب الدعوة: النداء:

جاء أسلوب النداء في الحديثين[٢] في قوله ﷺ: "يا أبا ذر" وأسلوب النداء من أرجى الأساليب الدعوية نفعاً لما فيه من لفت الانتباه للمدعو، فضلاً عما يستشعره من مكانة لدى الداعية. وقد أفاد النداء في هذا الحديث إشفاق النبي ﷺ على أبي ذر رضي الله عنه.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: بيان محبة الرسول ﷺ لأبي ذر رضي الله عنه:

جاء في الحديث تصريح رسول الله ﷺ لأبي ذر بما يكنه له من حب ورحمة، فقال: (يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً، وإني أحب لك ما أحب لنفسي)، وذلك من تلطف النبي ﷺ[٣]، وحسن خلقه، والمعنى: لم أقل لك ذلك، إلا أني أحب لك ما أحب لنفسي[٤]، فبين له مبلغ حبه له وكفاه بذلك فخرًا[٥]. وتُبيِّنَ حب رسول الله ﷺ لحرصه عليه، وإرادته إبعاد العنت والمشقة عنه، وصدق الله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٦].

---

(١) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -٦٧٥- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (٦٧٦).

(٢) الحديث رقم ٦٧٥، ٦٧٦.

(٣) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٩٤٩.

(٤) شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين ٩٦٩/١.

(٥) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم ص ٤١٠.

(٦) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

وفي ذلك تنويه بصفات رسول الله ﷺ الجامعة للكمال، ومن أخصها حرصه على هداية الناس، ورغبته في إيمانهم ودخولهم في جامعة الإسلام، وذلك بالنسبة للناس عامة أما بالنسبة للمسلمين، فهو أحرص الناس على إيصال الخير إليهم في الدنيا والآخرة[١].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: الحذر من الولاية على مال اليتيم:

في الحديثين حذر النبي ﷺ من التطلع للإمارة حباً للمال والرياسة[٢]، خاصة إن وجد في نفسه ضعفاً لا يقوم معه بحقوقها، وذلك لا يقتصر على الإمارة العامة، وإنما يتطرق ذلك الحكم إلى كل ما فيه ولاية، حتى ولو على مال يتيم، فقال ﷺ: (لا تأمَّرن على اثنين ولا تولين مال يتيم)، واليتيم هو الذي مات أبوه، فنهاه الرسول ﷺ أن يتولى على مال اليتيم؛ لأن مال اليتيم يحتاج إلى عناية ويحتاج إلى رعاية، وأبو ذر ضعيف لا يستطيع أن يرعى هذا المال حق رعايته[٣]. ومال اليتيم أمر خطير إذ أن عدم القيام بالواجب فيه، أو ضعف النفس أمامه، والتطاول عليه من موارد الردى والتهلكة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾[٤].

أي: إذا أكلوا أموال اليتامى بلا سبب، فإنما يأكلون ناراً تأجج في بطونهم يوم القيامة[٥]، وهذا أعظمُ وعيد ورد في الذنوب، يدل على شناعة أكل أموال اليتامى وقبحها، وأنها موجبة لدخول النار، فدلّ ذلك أنها من أكبر الكبائر[٦]، وقد جاءت

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور ٧٢/١١/٥.

(٢) انظر: السياسة الشرعية، ابن تيمية ص ١٣٩.

(٣) شرح رياض الصالحين ٩٦٩/١.

(٤) سورة النساء، آية: ١٠.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢٢٢/٢.

(٦) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ١٣٢.

الأحاديث المصرحة بذلك، ومنها ما روي عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: ((اجتنبوا السَّبعَ الموبقات)). قالوا: يا رسولَ اللهِ، وما هُنَّ؟ قال: ((الشِّركُ باللهِ، والسِّحرُ، وقتْلُ النَّفسِ التي حَرَّمَ اللهُ إلاّ بالحقّ؛ وأكلُ الرِّبا، وأكلُ مالِ اليَتيم، والتَّولِّي يوم الزَّحفِ، وقذفُ المُحصناتِ المؤمناتِ الغافلاتِ))[1].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: الولاية على المسلمين مسؤولية كبيرة:

لقد دلت سنة رسول الله ﷺ على أن الولاية أمانة[2]، وكما هو واضح صريح في الحديث: "يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة"، قال ابن تيمية: وينبغي أن يعرف الأصلح في كل منصب، فإن الولاية لها ركنان: القوة، والأمانة[3]، كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾[4]، وقال صاحب مصر ليوسف عليه السلام: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾[5]، والقوة في كل ولاية بحسبها، فالقوة في إمارة الحرب ترجع إلى شجاعة القلب، وإلى الخبرة بالحروب، والمخادعة فيها؛ فإن الحرب خدعة، وإلى القدرة على أنواع القتال، من رمي وطعن وضرب، وركوب، وكر، وفر، ونحو ذلك؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[6]، وقال ﷺ: ((من علم الرمي ثم تركه فليس منا، أو قد عصى))[7].

والقوة في الحكم بين الناس ترجع إلى العلم بالعدل الذي دل عليه الكتاب والسنة،

---

(١) أخرجه البخاري ٢٧٦٦ واللفظ له، ومسلم ١٤٥.

(٢) سورة النساء، آية: ١٠.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٢٨/ ٢٥٠.

(٤) سورة القصص، آية: ٢٦.

(٥) سورة يوسف، آية: ٥٤.

(٦) سورة الأنفال، آية: ٦٠.

(٧) أخرجه مسلم ١٩١٩.

وإلى القدرة على تنفيذ الأحكام[١].

والأمانة ترجع إلى خشية الله، وألا يشتري بآياته ثمنًا قليلاً، وترك خشية الناس، وهذه هي الخصال الثلاث التي أخذها الله على كل من حكم على الناس، في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[٢] ولهذا قال النبي ﷺ: ((القضاة ثلاثة: واحد في الجنة واثنان في النار، فأما الذي في الجنة فرجل عرف الحق فقضى به، ورجل عرف الحق فجار في الحكم فهو في النار، ورجل قضى للناس على جهل فهو النار))[٣].

والقاضي اسم لكل من قضى بين اثنين وحكم بينهما، سواء كان خليفة، أو سلطانًا، أو نائبًا، أو واليًا، أو كان منصوبًا ليقضي بالشرع، أو نائبًا له، حتى يحكم بين الصبيان في الخطوط إذا تخايروا، هكذا ذكر أصحاب رسول الله ﷺ وهو ظاهر.

واجتماع القوة والأمانة في الناس قليل، فالواجب في كل ولاية الأصلح بحسبها[٤]، وعلى من يقوم بالاختبار، أن يختار من هو أصلح لأمر الإمارة أو المنصب المطلوب شغله بأمانة وعدل. إذ أن مسؤولية الإسلام والمسلمين تقع على الولاة، ولن ينجوا من الإثم إن قصروا في جنب الإسلام وأهملوا جانب الدعوة إليه[٥]، وإلى ذلك أشار النبي ﷺ في الحديث: (وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها).

إن المراد أن تسند إلى ذوي الكفاءات القادرين على القيام بأعبائها، "فإن ولاية أمر المسلمين من أقوى الأسباب التي يصلح بها أمور الخلق والعباد، فإذا صلح ذوو السلطان

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٢٥٣/٢٨.

(٢) سورة المائدة، آية: ٤٤.

(٣) أخرجه أبو داود ٣٥٧٣، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود).

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٢٥٤/٢٨، ٢٥٥.

(٥) الإسلام بين العلماء والحكام، عبد العزيز البدري ص ١٤.

صلحت أمور الناس، وإذا فسد فسدت بحسب فساده، ومن تولى على الناس وساسهم بعلم وعدل فعمله من أعظم العبادات وأرفع المنازل، فإن الراعي وولاة الأمر إذا اجتهدوا في إصلاح دينهم ودنياهم بحسب الإمكان، كانوا من أفضل أهل زمانهم[1]، وكانوا في مقدمة من يستظلون بظل عرش الرحمن يوم القيامة، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((سَبعةٌ يُظِلُّهم اللهُ في ظِلِّهِ يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ: الإمامُ العادلُ، وَشابٌّ نَشأَ في عِبادةِ ربِّه، ورجلٌ قلبُه مُعَلَّقٌ في المساجد، وَرجُلانِ تَحابّا في اللهِ اجتَمَعا عليهِ وتَفَرَّقا عليه، ورجلٌ طَلَبَتهُ امرأةٌ ذاتُ مَنصِبٍ وجمال فقال: إني أخافُ اللهَ، ورجلٌ تَصدَّقَ أخفىٰ حتى لا تَعلمَ شِمالُه ما تُنفِقُ يمينُه، ورَجُلٌ ذكرَ اللهَ خالياً ففاضَتْ عَيناه))[2].

---

(١) مجموع فتاوى ومقالات متنوعة، عبدالعزيز بن باز ٢/٣٦٨.

(٢) أخرجه البخاري ١٤٢٣ واللفظ له، ومسلم ١٠٣١.

الحديث رقم (٦٧٦)

٦٧٦- وعنه، قَالَ: قُلْتُ: يَا رسول الله، ألا تَسْتَعْمِلُني؟ فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي، ثُمَّ قَالَ: ((يَا أبَا ذَرٍّ، إنَّكَ ضَعِيفٌ، وإنَّها أمانةٌ، وَإنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ، إلاَّ مَنْ أخَذَهَا بِحَقِّهَا، وَأدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا)) رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو ذر الغفاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٦١).

غريب الألفاظ:

المنكب: مجتمع رأس العضد والكتف[2].

الخِزْيُ: الهلاك والوقوع في بلية[3].

الشرح الأدبي

معنى الحديث قريب من سابقه من ناحية الموضوع، ومن ناحية سبب الحديث، وهو طلب الإمارة، ومن ناحية أطراف الحوار، ويختلف من حيث البداية بالاستفهام بغرض الحث، والتحضيض (ألا تستعملني؟) ثم في الحركة التعبيرية التي سبقت رد الرسول القولي في قوله: (فضرب بيده على منكبي) والتي جاءت بمثابة التنبيه، والإيقاظ للمعنى؛ لأنها تستولي على المخاطب بكل حواسه، وتقسرها على المتكلم حتى ينتهي مما يريد مع تثبيت المعنى، وترسيخه في ذهنه، وهي كناية عن المودة، والاهتمام يدل على ذلك نداؤه الصحابي باسمه، ثم تحذيره من الإمارة، ، ثم إخباره بمآلها يوم القيامة، (وَإنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ) ثم الاستثناء الذي يخرج أهل الصلاح، والتقوى من المؤمنين، وتأمل عبقرية المزج بين الحال الدالة، والسياق اللفظي حيث ترك مهلة بعد

---

(١) برقم ١٨٢٥/١٦. أورده المنذري في ترغيبه ٣٢١٧.

(٢) المعجم الوسيط في (ن ك ب).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢٦٣.

هذه الحركة يهيئ فيها المخاطب نفسه، ويصفي له ذهنه، ويفرغ له قلبه تُفهم هذه المهلة من ربط الراوي بـ (ثـم) في قوله (ثم قال) بعد ضربه على منكبه، والحديث ترغيب في الزهد في الإمارة.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (٦٧٧)

٦٧٧- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ، قَالَ: ((إنَّكُمْ سَتَحْرِصُونَ عَلَى الإمَارَةِ، وَسَتَكونُ نَدَامَةً يَوْمَ القِيَامَةِ)) رواه البخاري[1].

ترجمة الراوي:

ابو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

توكيد أبي هريرة للخبر الذي ينقله عن الرسول ﷺ مع عدم مواجهته بالتكذيب أو الشك، تعظيم للخبر، وبيان لأهميته، وتوكيد الخبر النبوي من الرسول ﷺ في قوله: (إنَّكُمْ سَتَحْرِصُونَ عَلَى الإمَارَةِ) تعظيم لخطر الأمر، وهو الحرص المهلك على الإمارة، واتصال حرف التوكيد بكاف الخطاب يأخذ بجميع المخاطبين من بداية الحديث لتجعلهم في قلب الحدث، والسين في الفعل (ستحرصون) للمستقبل القريب، والسين في قوله (ستكون) تشير إلى المستقبل القريب في علم الله لأنها من أحداث القيامة، واستخدام السين بدل سوف لذلك كما أنه يشير إلى أن الأمر جد قريب، وتقييد تحولها لندامة بيوم القيامة تصعيد للترهيب المفهوم من التعبير بالندامة، لأنها تدل على فوت خير، ووقوع شر، والحديث من أعلام نبوة النبي ﷺ لأن ما قاله وقع كما أخبر.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: دلائل نبوته ﷺ.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: التحذير من الإمارة.

أولاً- من أساليب الدعوة: التوكيد:

ورد أسلوب التوكيد في الحديث في قوله ﷺ "إنكم ستحرصون على الإمارة"، وأسلوب التوكيد من أنفذ الأساليب الدعوية إلى قلوب المدعوين لما فيه من تأكيد ما

---

(١) برقم ٧١٤٨. أورده المنذري في ترغيبه ٢٢١٩.

يُدعى إليه، وإيقاعه في القلب موقع الاستجابة والقبول[١]؛ لأن هذا ما هديت إليه الفطرة الإنسانية، وبه يكون التوجيه أبلغ.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: دلائل نبوته ﷺ:

هذا الحديث تضمن دليلاً من دلائل نبوة رسول الله ﷺ، حيث أخبر ﷺ بحرص الناس على الإمارة، فقال: "إنكم ستحرصون على الإمارة"، قال ابن علان: (وهذا من جملة معجزاته ﷺ من الإخبار عن المغيب قبل وقوعه فوقع كما أخبر)[٢]، وقال القاضي عياض: والأحاديث في هذا الباب بحر لا يدرك قعره ولا ينزف غمره، وهذه المعجزة من جملة معجزاته المعلومة على القطع الواصل إلينا، وقد خرَّج أهل الصحيح والأئمةُ ما أعلم به أصْحَابَهُ مما وعدهم به من الظهور على أعدائه، وفتح مكة وبيت المقدس واليمن والشام والعراق، وظهور الأمن حتى تظعن المرأة من الحيرة إلى مكة لا تخاف إلا الله، وغير ذلك[٣].

فعن الخباب بن الأرتِّ ﷺ قال: ((شَكَونا إلى رسولِ الله ﷺ وهو مُتَوَسِّدٌ بُردَةً لَهُ في ظِلِّ الكعبةِ قلنا له: ألا تَستنصِرُ لنا، ألا تَدعو اللهَ لنا ؟ قال: كان الرَّجلُ فيمن قبلَكمُ يُحفَرُ له في الأرضِ فيُجعَلُ فيه، فيُجاء بالمنشارِ فيوضعُ على رأسِهِ فيُشَقُّ باثنتَينِ، . وما يَصُدُّهُ ذلك عن دينه، ويُمشَطُ بأمشاطِ الحديدِ ما دُونَ لحمهِ من عظمٍ أو عَصَب، وما يَصدُّهُ ذلكَ عن دينه. والله لَيتمَّنَّ هذا الأمرَ حتى يَسيرَ الراكبُ من صنعاءَ إلى حَضرَمَوتَ لا يخافُ إلاّ اللهَ، أوِ الذِّئبَ على غَنَمه، ولكنَّكم تَستَعجِلون))[٤].

وهكذا وقع، فقد عم وظهر الدين، وغلب وعلا على سائر الأديان في مشارق الأرض ومغاربها، وعلت كلمته في عهد الصحابة ومن بعدهم، وذلت لهم سائر البلاد، ودان لهم جميع أهلها على اختلاف أصنافهم وألوانهم، وصار الناس إما مؤمن داخل في الدين،

---

(١) أساليب الدعوية والتربية، د. زياد محمود العاني، ٣٠٢.

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٩٥٠.

(٣) كتاب الشفا، بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض ١/٢٢٩-٢٣٦.

(٤) أخرجه البخاري ٢٨٩٨، ومسلم ١١٢.

وإما مهادن باذل الطاعة والمال، وإما محارب خائف وجل[١].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: التحذير من الإمارة:

لقد لفت النبي ﷺ الأنظار إلى خطورة الإمارة وسوء مآلها إن لم تُرْعَ حقوقها، كما جاء في الحديث "إنكم ستحرصون على الإمارة، وستكون ندامة يوم القيامة"، وهذا أصل عظيم في اجتناب الولاية، ولاسيما لمن كان فيه ضعف، وهو في حق من دخل فيها بغير أهلية ولم يعدل، فإنه يندم على ما فرط منه، إذا جوزى بالخزى يوم القيامة، وأما من كان أهلاً وعدل فيها فأجره عظيم، ولكن في الدخول فيها خطر عظيم ولذلك امتنع الأكابر منها[٢]، إذ أن جميع الحقوق المشروعة للمحكومين أمانة في عنق الولاة، وهم مسئولون عن حمايتها وتمكينها، وذلك من أخطر الوظائف على الإطلاق[٣].

وكما جاء في الحديث فيما روى عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «كلُّكم راعٍ، وَكلكم مَسؤولٌ عن رَعيَّتِهِ: الإمامُ راعٍ وَمَسؤولٌ عن رَعيَّتهِ، والرَّجُلُ راعٍ في أهلهِ وَهوَ مَسؤولٌ عن رعيَّتهِ، وَالمرأةُ راعيةٌ في بيتِ زَوجِها وَمَسؤولةٌ عن رَعيَّتِها، والخادمُ راعٍ في مالِ سيِّدِهِ وَمَسؤولٌ عن رَعيَّتهِ - قال: وَحَسِبتُ أنَّه قال: وَالرجلُ راعٍ في مالِ أَبيهِ وَمَسؤولٌ عن رعيَّتهِ، وَكلُّكم راعٍ وَمَسؤولٌ عن رَعيَّتهِ»[٤]. فولاة الأمر مسئولون عن الأمن واستتبابه والمحافظة عليه، حتى يأمن كل فرد على نفسه ودينه، وعرضه وماله، وحريته وكرامته، إضافة إلى الوظائف الأساسية من إقامة العدالة، والتسوية بين الناس في الحقوق، حتى يأخذ كل ذي حق حقه، وتنفيذ الشريعة وإقامة حدود الله، وتوحيد الكلمة وجمع الشمل، وتوحيد كيان الأمة،

---

(١) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين ٥٤٦/١.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ١٣٤/١٣.

(٣) عناصر القوة في الإسلام، السيد سابق ص ٢٠٠- ٢٠٢.

(٤) أخرجه البخاري ٨٩٣ واللفظ له، ومسلم ١٨٢٩.

وإيجاد رباط بين المسلمين في مختلف الشئون السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، كي تستطيع الأمة مواجهة الأحداث، ورد عدوان المعتدين ومنع إغارات المغيرين[1].

(١) انظر: عناصر القوة في الإسلام، السيد سابق، ٢٠٠-٢٠٢.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

غريزة الأنا أو حب الاستعلاء والسيطرة لها سبل شتى أخصها بالذكر: السلطان أو الولاية أو التسلط على رقاب العباد، وهذا الاتجاه له سبيلان:

السبيل الأول: تحقق الولاية أو الإمارة من طريق ولي الأمر على أساس من الكفاءة والأهلية للعمل دون أي اعتبار لحسب أو نسب أو واسطة...

السبيل الثاني: التسلط على الولاية أو الإمارة وتحقق الغلبة للمتسلط، فإن كان فعله هذا لقطع ظلم وإحقاق عدل ونشر سلام وإقامة توازن اجتماعي بين أفراد الأمة فهو محمود، وإن كانت الأخرى فعليه التبعة، وقد اشتمل هذا الباب على عدد من المضامين التربوية من أبرزها ما يلي:

أولاً- مراعاة الفروق الفردية:

إن من الأمور المهمة التي ينبغي أن يفطن إليها ويراعيها المربي في العملية التربوية مراعاة الفروق الفردية بين المتربين، ومراعاة القدرات والاستعدادات، ومن أحاديث الباب التي تشير إلى هذه النقطة، حديث عبدالرحمن بن سَمُرة رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يَا عَبْدَ الرَّحمنِ بْنَ سَمُرَةَ: لاَ تَسْأَلِ الإمَارَةَ، فَإنَّكَ إنْ أُعْطِيتَهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا، وَإنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إلَيْهَا»، وحديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قالَ لِي رَسُول الله ﷺ: «يَا أبَا ذَرَ إنّي أرَاكَ ضَعِيفاً وَإنّي أُحِبُّ لَكَ ما أُحِبُّ لِنَفْسِي فَلاَ تَأمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ وَلاَ تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ»، وعنه رضي الله عنه قال: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ ألاَ تَسْتَعْمِلُنِي؟ قَالَ: فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَىٰ مَنْكِبِي. ثُمَّ قَالَ: «يَا أَبَا ذَرَ إنَّكَ ضَعِيفٌ. وَإنَّهَا أَمَانَةٌ. وَإنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ...».

ففي هذه الأحاديث خصّص النبي ﷺ عبدالرحمن بن سَمُرة وأبا ذر رضي الله عنهما بالنهي عن الإمارة وطلبها مما يبين أنهما غير مستعدين لها، وقد قال النبي ﷺ لأبي ذر: إنك ضعيف، وبهذا راعى النبي ﷺ الفروق الفردية بين أصحابه.

"ورغم اشتراك الناس في كثير من الخصائص إلا أنهم يفترقون في بعضها، بل إن

الفروق تكون حتى بين الأشقاء، وحتى بين التوائم، وأبرز ما تكون فيه الفروق الفردية الاستعدادات والقدرات، قال ابن تيمية: إن الناس متباينون في نفس عَقْلِهِمُ الأشياء من بين كامل وناقص، وفيما يعقلونه من بين قليل وكثير، وجليل ودقيق وغير ذلك. وحيث إن الناس يختلفون في درجة الاستعداد والميول فإنه ينبغي للمعلم أن لا يشير عليه بشيء حتى يجرب ذهنه ويعلم حاله، ولهذا فإن المعلم يحتاج إلى معرفة استعدادات كل متعلم ومدى تقبله للتوجيهات، ولا ينبغي تكليف المتربين بما لا يطيقون، ولا بأعمق مما يدركون ويفهمون فإن في ذلك إحباطًا لقدراتهم"(١).

وإذا راعى المربي الفروق الفردية بين المتربين، وعلم مدى استعدادهم وقدراتهم فإنه يضع كل واحد منهم في مكانه المناسب وموضعه الملائم الذي يجيد فيه ويتقن.

ثانيًا- التربية بالترهيب:

من أساليب التربية التي تؤثر في المتربين التربية بالترهيب، حيث إن الترهيب يحمل نفس المتربي على الاستجابة لما يؤمر به وينهى عنه، ومن أحاديث الباب التي تبين التربية بالترهيب، حديث أبي ذر ﵁: "... وإنها أمانة وإنها يوم القيامة خزي وندامة ..."، وقوله ﷺ: «إنكم ستحرِصونَ على الإمارة، وستكون ندامةً يومَ القيامة». ففي هذين الحديثين رهَّب النبي ﷺ من تَحمُّل الإمارة لمن لم يقم بحقها بأنها تكون يوم القيامة خزياً وندامة، وفي هذا الترهيب ردع للمتربي من الإقدام عليها طالما أنه ليس لها أهلاً، ولا يمكنه القيام بها.

"إن أسلوب الترهيب أو العقاب يتماشى مع طبيعة البشرية، ولا يستغنى عنه المربي في كل زمان ومكان ولا يمكن أن تُجْدي التربية وتحقق أهدافها ما لم يعرف الطفل أو الإنسان أن هناك نتائج مسرة أو مؤلمة وراء عمله وسلوكه فإن عمل خيرًا نال السرور والحلاوة، وإن عمل شرًا ذاق الألم والمرارة، مما يجعل الإنسان يتحكم في سلوكه، ويعدل فيه بمقدار معرفته بنتائج ذلك السلوك، وما يترتب عليه من منفعة أو ضرر،

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. خالد بن حامد الحازمي ص ٢٦٨.

ولا تُستخدم التربيةُ الإسلاميةُ الترهيبَ والعقوبةَ إلا إذا لم يفلح الترغيب والثواب، وحين لا تفلح القدوة ولا تفلح الموعظة، ولا غير ذلك من أساليب تربوية ساعتها لابد إذًا من علاج حاسم يضع الأمور في وضعها الصحيح والعلاج الحاسم هو العقوبة"[١].

ثالثًا- التربية بالتوجيه المباشر:

من أساليب التربية الإسلامية الناجعة التربية بالتوجيه المباشر ويراد به توجيه الأمر أو الطلب أو النصح أو التوجيه إلى المتربي مباشرة، ومن أحاديث الباب التي تبرز التوجيه المباشر قول النبي ﷺ: "يا عبدالرحمن بن سمرة، لا تسأل الإمارة..."، وقوله ﷺ: "يا أبا ذر، إني أراك ضعيفًا، وإني أحب لك ما أحب لنفسي..."، وقوله ﷺ: "يا أبا ذر، إنك ضعيف وإنها أمانة..."، وقوله ﷺ: "إنكم ستحرصون على الإمارة..."، ففي هذه الأحاديث توجيه مباشر من النبي ﷺ بعدم سؤال الإمارة والحرص عليها لمن لم يقدر على تكاليفها.

"والتربية بالتوجيه المباشر من الأساليب التي تعتمد على توجيه الكلام إلى الفرد المستهدف بالتربية عن طريق الخطاب المباشر حيث يقوم المربي بتلقين الفرد المراد تغيير سلوكه أو تقويمه أو تعزيزه تلقينًا مباشرًا بإلقاء الكلام إلى السامع (الشخص المستهدف بالتربية) مباشرة بصيغة الأمر أو بصيغة النهي، وفي كلا الحالين يقوم المربي بإلقاء الأمر أو النهي بصورة جلية على ألا يكون هذا الأسلوب هو الأغلب لدى المربي"[٢].

ومن خلال التوجيه المباشر يتم تقويم سلوكيات المتربي، وتصحيح مساره، وتوظيف طاقاته وقدراته وجهده في جوانب الخير: "إن في كل نفس استعدادًا للخير أو الشر وحين يُترك الناس بلا توجيه معين فقد تنحرف فِطَرُهم ذات اليمين، وذات الشمال، والتوجيه المباشر وسيلة من وسائل العادة التعليمية التطبيقية، وهو طلب المربي المباشر والصريح من المتربين القيام بعمل معين، وهو بمثابة ممارسة العمل للمتعلم أمام مربيه أو العكس قيام المربي بممارسة العمل أمام المتعلم ثم يتابعه المتعلم يتخلل ذلك أحيانًا مناظرة من

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. سعيد إسماعيل القاضي ص ١٨٦، ١٨٧.

(٢) أصول التربية الإسلامية، د. أمين أبو لاوي ص ١٥٤، ١٥٥.

المعلم يرافقها تصحيح لأخطائه"[(١)].

ومن خلال التوجيه المباشر يفهم المتربي عِظَم مسئولية الحكم، ومتطلباته، ومعرفة معاني الأمانة والإخلاص، والتدريب على أن يضع الإنسان نفسه في المكان المناسب له، والعمل الملائم لقدراته وإمكانياته.

رابعًا- من الأساليب التربوية: الحوار والمناقشة واستخدام الحركات المعبِّرة:

وردت في أحاديث الباب عدة أساليب تربوية، منها:

أ-الحوار والمناقشة: كما في حديث أبي ذر ﵁: ((يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلاَ تَسْتَعْمِلُنِي؟، فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَىٰ مَنْكِبِي. ثُمَّ قَالَ: «يَا أَبَا ذَرَ إِنَّكَ ضَعِيفٌ ...)) الحديث، والحوار والمناقشة من الأساليب التربوية التي تتيح للمتعلم أن يفصح عمَّا في نفسه وعمَّا بداخلها، ومن ثم يشعر بالفائدة التي تعود عليه من التعليم والتربية.

ب-استخدام الحركات المعبِّرة: كما في حديث أبي ذر السابق: ((فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَىٰ مَنْكِبِي)) فهذا الضرب باليد يعبِّر عن معانٍ يمكن استنباطها من جواب النبي ﷺ، فيمكن أن يحمل على معنى الشفقة عليه من تبعات الإمارة أو يحمل على معنى لفت الانتباه إلى جسامة مسؤوليات الإمارة، ويمكن حمله على إشعاره بحبه ونحو ذلك ويمكن حمله على جميع ما سبق.

ونحن نظن أن وضع النبي ﷺ يده على منكب أبي ذر ﵁ سهَّلت كثيرًا من تقبل أبي ذر لما أرشده إليه النبي ﷺ، والله أعلم.

خامسًا- من مهام المربي: التبصير بحقائق الأمور:

وهذا واضح من قول النبي ﷺ لأبي ذر ﵁: ((يَا أَبَا ذَرَ إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا. وَإِنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي))، و((يَا أَبَا ذَرَ إِنَّكَ ضَعِيفٌ. وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ. وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ. إِلاَّ مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا))، فرغم حب النبي ﷺ لأبي ذر "إني أحب لك ما أحب لنفسي"، رغم حبِّه ﷺ له، إلا أنه بصّره بما فيه ولا يجعله صالحًا لتولي أمر الإمارة والقيام بمسؤولياتها، فنصحه بالابتعاد عن الإمارة لكونها قد

---

(١) انظر: أساليب الدعوة والتربية، د. زياد محمود العاني ص ٢٨١-٢٨٤.

تجعله يقف يوم القيامة موقف الخزي والندامة، وأبو ذر رضي الله عنه صحابي جليل جاهد في الله حق جهاده وأبلى في الإسلام بلاءً حسنًا وصدع بما رآه حقًا وجاهد في ذلك جهادًا كثيرًا، لكن الأمر أمر قدرات ومواهب يعطيها الله لمن يشاء. والمهم أن يعرف المربي ما يصلح لكل واحد من المتعلمين وما لا يصلح له حتى يدله على طريق الصلاح والنجاح.

٨٢- باب حث السلطان والقاضي وغيرهما من ولاة الأمور عَلَى اتخاذ وزير صالح وتحذيرهم من قرناء السوء والقبول منهم

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۢ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾[الزخرف: ٦٧].

الحديث رقم (٦٧٨)

٦٧٨- وعن أَبي سعيدٍ، وأبي هريرة رضي الله عنهما: أنَّ رسولَ الله ﷺ، قَالَ: ((مَا بَعَثَ اللهُ مِنْ نَبيٍّ، وَلاَ اسْتَخْلَفَ مِنْ خَلِيفَةٍ إلاَّ كَانَتْ لَهُ بِطَانَتَانِ: بِطَانَةٌ تَأمُرُهُ بالمَعْرُوفِ وتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، وَبِطَانَةٌ تَأمُرُهُ بالشَّرِّ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، وَالمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَ اللهُ)) رواه البخاريُّ[1].

ترجمة الراوي:

أبو سعيد الخدري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٠).

غريب الألفاظ:

بطانة: بطانة الرجل: صاحب سره وداخلة أمره الذي يشاوره في أحواله[2].

الشرح الأدبي

الحديث تحذير بليغ لكل من ولى شيئا من أمور المسلمين لكي يفتش فيمن حوله حتى يميز بطانة السوء من بطانة الخير فيسمع للمخلصين، ويصم أذنه عن أهل الشر، والمعنى ورد في ثوب القصر (مَا بَعَثَ اللهُ مِنْ نَبيٍّ، وَلاَ اسْتَخْلَفَ مِنْ خَلِيفَةٍ إلاَّ كَانَتْ لَهُ بِطَانَتَانِ) حيث قصر بعث النبي، واستخلاف الخليفة على وجود البطانتين، وقوله (بطانتان) أسلوب توشيع يحقق التشويق؛ لأنه مثنى مجمل يحتاج المخاطب إلى معرفة تفصيله وهو قوله: (بِطَانَةٌ تَأمُرُهُ بالمَعْرُوفِ وتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، وَبِطَانَةٌ تَأمُرُهُ بالشَّرِّ وَتَحُضُّهُ

(١) برقم ٧١٩٨. أورده المنذري في ترغيبه ٣٣٩٠.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ب ط ن).

عَلَيْهِ) وهو أسلوب مقابلة بين الصورتين يوحي بصراع بينهما على السيطرة على فكر الخليفة، وتوجيهه بما يخدم رغباتهم في الشر أو في الخير صوَّر ذلك الصراع بالفعل المضارع (تأمره) الذي يصور التزيين القولي، وقوله (تحضه) الذي يصور الدفع ناحية مقصد البطانة، وقوله (وَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَ اللَّهُ) تكميل بلاغي يقرر مع ضرورة الانتباه لمن حوله أن يتوكل على الله في الاستعانة على أداء ما كلفه به من أعباء قد تهلكه، والجناس بين (المعصوم – وعصم) يؤكد المعنى، ويشير إلى أثر العصمة، ومصدرها.

فقه الحديث

اتخاذ البطانة الصالحة:

لما كانت الشورى من قواعد الشريعة، ومن لوازم الحكم في الإسلام، وأن العادة جارية بأن الإنسان يطمئن إلى بطانته، فإنه يجب على ولاة المسلمين أن يتخذوا بطانة صالحة من أهل التقوى والأمانة، وممن يخشى الله.

وجاء في كتاب "الأحكام السلطانية" للماوردي في معرض عد واجبات الإمام: (استكفاء الأمناء، وتقليد النصحاء فيما يفوضه إليهم من الأعمال، ويكله إليهم من الأموال، لتكون الأعمال بالكفاءة مضبوطة، والأموال بالأمناء محفوظة)[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانياً: من مهام الداعية: بيان الحقائق للمدعوين.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: وجوب اختيار المستشارين من ذوي التقوى والأمانة.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: الحذر من بطانة السوء.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار:

ورد أسلوب الإخبار في الحديث، حيث أخبر النبي ﷺ عما يكون للأنبياء والخلفاء من بطانة وبين أصنافها، فقال ﷺ: «ما بَعثَ اللَّه من نبيٍّ ولا استخلَفَ من

---

(١) الأحكام السلطانية للماوردي ١٢-١٣، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٠٣/٨.

خَليفةٍ إلا كانت له بطانتان...))، والإخبار من أساليب الدعوة المفيدة، لما فيه من إيقاف المدعو على الحقائق وتوجيهه لكيفية التعامل معها.

ثانياً- من مهام الداعية: بيان الحقائق للمدعوين:

ويستفاد هذا من عموم الحديث، ومن قوله ﷺ: "ما بعث الله من نبي، ولا استخلف من خليفة ..." إن أهم ما ينبغي أن يضطلع به الدعاة هو القيام ببيان الحقائق للناس، ولقد كلف الله نبيه ﷺ بذلك، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1]، وأوصى الأمة بتخصيص فئة منهم للتفقه في الدين للقيام بالبيان للناس، ليتفقهوا في دينهم وليأخذوا حذرهم، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[2]، وفي هذا الحديث بيان للبطانة وأصناف أصحابها[3]، وذلك ليأخذ الولاة هذا على وجه الاعتبار، فيقربوا الصالحين إليهم، وينأون بأنفسهم عن غيرهم طلباً للسلامة والنجاة.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: وجوب اختيار المستشارين من ذوي التقوى والأمانة:

وظهر هذا في قوله وحثه ﷺ: "بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه" وفي بيان رسول الله ﷺ في الحديث للبطانة وأصناف أصحابها، وتأثيرهم على الولاة، أمر ضمني بوجوب اختيار المستشارين من أهل التقوى وذوي الأمانة، وقد ضرب القرآن لنا مثلاً في طلب واختيار البطانة الصالحة، وذلك في طلب موسى ﷺ من ربه ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ۝٢٩ هَـٰرُونَ أَخِى﴾[4]، وإنما خص هارون لفرط ثقته به، ولأنه كان

(١) سورة النحل، الآية: ٤٤.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٢٢.

(٣) انظر: شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين، ١/ ٩٧٠-٩٧١.

(٤) سورة طه، الآيتان: ٢٩-٣٠.

فصيح اللسان مقوالاً، فكونه من أهله، وممن تيقن صلاحهم، مظنة النصح له، ولذا سأل الله أن يجعله معيناً له في أعماله[١]، قال الشيخ ابن عثيمين: (وإذا كان هذا في الأمراء ففتش نفسك أنت، فأنت بنفسك، إذا رأيت من أصحابك أنهم يدلونك على الخير ويعينونك عليه، وإذا نسيت ذكروك، وإذا جهلت علموك، فاستمسك بحجزهم وعض عليهم بالنواجذ)[٢].

وأولى الناس بالتقريب هم أهل العلم والصلاح، ولذلك فقد كانت بطانة عمر رضي الله عنه من القراء، روي عن ابن عباس أنه قال: (كان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته)[٣]. وكلما كانوا من أهل العلم والتقوى كان ولي الأمر أبعد عن الزلل. فالمقياس صلاح دين الرجل وأمانته وتقواه، وليست معايير الطين والمادة والذوبان في شخصية الصاحب، لذا ينبغي على أولي الأمر أن يعمدوا إلى التحري والاصطفاء البعيد عن الهوى، حتى يجد المرء من يأمنه ومن يطمئن لصحبته[٤]. وقد وصف أشهب بطانة الحاكم بقوله: (وليكن ثقة مأموناً فطناً عاقلاً، لأن المصيبة إنما تدخل على الحاكم المأمون من قبول قوله من لا يوثق به، إذا كان هو حسن الظن به، فيجب عليه أن يتثبت في مثل ذلك)[٥].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: الحذر من بطانة السوء:

حذر النبي ﷺ من طرف خفي من بطانة السوء، حيث بين أنها تأمر بالشر وتحضّ عليه، فقال ﷺ: "وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه"، وقد نهانا الله عن اتخاذ البطانة السوء خاصة من غير المسلمين، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالاً﴾[٦]، فالحذر الحذر من بطانة السوء، فكثيراً ما نرى من

---

(١) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ٢١٢/١٦/٧.
(٢) شرح رياض الصالحين ٩٧٢/١.
(٣) أخرجه البخاري ٤٦٤٢.
(٤) هذه أخلاقنا حين نكون مؤمنين حقاً، محمود محمد الخزندار ص ٢٦٠.
(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٠٢/١٣.
(٦) سورة آل عمران، آية: ١١٨.

أهل الصلاح من يزل زلات، إنما استدرجته إليها بطانة فاسدة، زينت له الباطل، وحجبت الحق عن عينيه[1].

فإن خطورة البطانة إذا فسدت أنها قد تُحَسِّنُ القبيح أو تُقَبِّحُ الحسن بالوسوسة والتظاهر بالإخلاص. لذا كانت وصايا السلف الصالح لولاة الأمر وللناس عامة باصطفاء البطانة الصالحة واجتناب الطالحة[2]، ومن ذلك ما كتبه قاضي القضاة أبو يوسف في مقدمة كتابه الخراج الذي وجهه إلى أمير المؤمنين هارون الرشيد، جاء فيه: (وإن الله بمنه ورحمته وعفوه جعل ولاة الأمر خلفاء في أرضه، وجعل لهم نوراً يضيء للرعية ما أظلم عليهم من الأمور، فيما بينهم وبين ما اشتبه من الحقوق عليهم، وإضاءة نور ولاة الأمر، إقامة الحدود، ورد الحقوق إلى أهلها بالتثبت والأمر البين، وإحياء السنن التي سنها القوم الصالحون أعظم موقعاً، فإن إحياء السنن من الخير الذي يحيا ولا يموت، وجور الراعي هلاك الرعية، واستعانته لغير أهل الثقة والخير هلاك العامة)[3].

---

(١) هذه أخلاقنا، حين نكون مؤمنين حقاً، محمود محمد الخزندار ص ٢٥٩

(٢) انظر: الإسلام بين العلماء والحكام، عبدالعزيز البدري ص ٤٦.

(٣) الخراج، القاضي أبو يوسف، دار المعرفة، بيروت: ١٩٧٩م ص ٦.

الحديث رقم (٦٧٩)

٦٧٩- وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: قَالَ رسولُ الله ﷺ: ((إِذَا أرَادَ اللهُ بالأَمِيرِ خَيْراً، جَعَلَ لَهُ وَزِيرَ صدقٍ، إنْ نَسِيَ ذَكَّرَهُ، وَإنْ ذَكَرَ اعَانَهُ، وَإِذَا أرَادَ بِهِ غَيْرَ ذَلِكَ جَعَلَ لَهُ وَزِيرَ سُوءٍ، إنْ نَسِيَ لَمْ يُذَكِّرْهُ، وَإنْ ذَكَرَ لَمْ يُعِنْهُ)) رواه أَبُو داود[1] بإسنادٍ جيدٍ عَلَى شرط مسلم.

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

الشرح الأدبي

الحديث قائم على أسلوب الشرط الذي يربط الخير، وغيره بمشيئة الله، واللام في الأمير للجنس لتشمل كل أمير، وتنكير (خير) للتعظيم لأنه أعُين به على آخرته وقوله (جعل له) أي صير له وسخر، وتقديم الجار والمجرور على المفعول به يفيد التخصيص أي له خاصة لا لغيره، ووصف الوزير بالصدق يبشر بالعون الصالح على هذا العبأ الثقيل، وكون الوصف على صيغة المصدر (صدق) خاصة يفيد المبالغة في الصفة وهو ما يجب على كل أمير أو مسئول أن يبحث عنه فيمن حوله لأن نصيحته له ستكون خالصة لله تعالى مجردة عن هوى النفس والطباق بين (نسي، وذكر) يؤكد المعنى ويبين الفارق بين النموذجين وقد وضع النموذج المقابل له في الصورة حتى تتضح صفاته، وأعماله، ومآله (وَإِذَا أَرَادَ بِهِ غَيْرَ ذَلِكَ جَعَلَ لَهُ وَزِيرَ سُوءٍ)، وقوله (أَرَادَ بِهِ غَيْرَ ذَلِكَ) كناية عن الشر، وعبَّر بالكناية تأدبا مع الله بعدم نسبة الشر إليه، وإن كان كل شيء بقدره - تعالى - والتعبير بالمصدر (سوء) مبالغة في الصفة تقرر قوة الضرر للرعية من ناحية، وللأمير من ناحية، وتأمل سوء فعله في معاملة أميره (إنْ نَسِيَ لَمْ يُذَكِّرْهُ، وَإنْ ذَكَرَ لَمْ يُعِنْهُ) يبخل بالفكرة، ويعطل الحركة ويضر الجميع.

---

(١) برقم ٢٩٣٢. وصحّحه ابن حبان (الإحسان ٤٤٩٤). أورده المنذري في ترغيبه ٣٣٨٧.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: أهمية اختيار الوزير الصادق الأمين.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: دور المستشار في حياة ولى الأمر.

ثالثاً: من أصناف المدعوين: ولاة الأمر.

رابعاً: من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب.

خامساً: من واجبات الداعية: بيان الحقائق للمدعوين.

اولاً- من موضوعات الدعوة: اهمية اختيار الوزير الصادق الأمين:

إن اختيار الحكام والولاة للوزير الصادق الأمين من الأهمية بمكان، ومن إرادة الله الخير بهم، فقال ﷺ: "إذا أراد الله بالأمير خيراً جعل له وزير صدق"، ولذا وجب تحري الدقة في اختيار الوزير ما استطاع الوالي إلى ذلك سبيلاً، وأن يراعى فيه مكارم الأخلاق، ومحاسن الآداب، وحسن الرأى، ونفاذ البصيرة، "حكى أن المأمون كتب في اختيار وزير: إني التمست لأموري رجلاً جامعاً لخصال الخير، ذا عفة في خلائقه واستقامة في طرائقه، قد هذبته الآداب وأحكمته التجارب، إن اؤتمن على الأسرار قام بها، وإن قلد مهمات الأمور نهض بها، له صولة الأمراء وأناة الحكماء، وتواضع العلماء، وفهم الفقهاء، إن أُحسن إليه شكر، وإن ابتلى بالإساءة صبر، لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده، يسترق قلوب الرجال بخلابة لسانه وحسن بيانه"(1).

إن من علامات التسديد والتوفيق للحكام والرؤساء، الحاشية الصالحة المعينة على الخير بالرأي والقول والفعل، لذا ينبغي لولاة الأمر حسن اختيار البطانة والعاملين والتفويض إلى الله تعالى بعد ذلك، إذ على الإنسان أخذ الاحتياط، وممارسة الأسباب، ثم الاعتماد على الله وحده دون سواه، وقياس الناس بمواهبهم واستعداداتهم، لا بأقاربهم ومعارفهم(2).

---

(1) الأحكام السلطانية، الماوردي ص ٢٢.

(2) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم ص ٤١١.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: دور المستشار في حياة ولي الأمر:

إن أية صحبة لا تخلو من تأثير وتأثر، إذ أن النفوس المتماثلة تتجاذب فيما بينها، كما بين رسول الله ﷺ، ذلك بقوله: ((المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل))[1]، [2]، وقد بين رسول الله ﷺ في الحديث دور المستشار، وأثره في حياة ولي الأمر إيجاباً وسلباً فقال: ((إِذَا أَرَادَ اللهُ بِالأَمِيرِ خَيْراً جَعَلَ لَهُ وَزِيرَ صِدْقٍ، إِنْ نَسِيَ ذَكَّرَهُ وَإِنْ ذَكَرَ أَعَانَهُ، وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِهِ غَيْرَ ذَلِكَ جَعَلَ لَهُ وَزِيرَ سُوءٍ، إِنْ نَسِيَ لَمْ يُذَكِّرْهُ وَإِنْ ذَكَرَ لَمْ يُعِنْهُ)).

لذا ينبغي أن يكون أولى الناس بالتقريب إلى الولاة هم أهل العلم والصلاح، لذلك فقد كانت بطانة عمر رضي الله عنه من القراء، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: "وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهولاً كانوا أو شباناً"[3]، فكلما كانت البطانة من أهل العلم والتقوى كان وليُّ الأمر أبعد عن الزلل، قال الإمام ابن حجر العسقلاني: (وكانت الأئمة بعد النبي ﷺ يستشيرون الأمناء من أهل العلم)[4]. ومهمة المستشار: أن يشير بالنصيحة المحضة وأنه ينبغي له أن يستفصل من مستشيره ليُدله على ما هو أفضل، وذلك لأن المستشار مؤتمن. فلا ينبغي أن يخون المستشير بكتمان مصلحته[5].

ثالثاً- من أصناف المدعوين: ولاة الأمر:

إن الدعوة إلى الله لا تقتصر على فئة بعينها وإنما تمتد لتشمل جميع فئات المجتمع وشرائح الناس، ومنهم ولاة الأمر، والذي جاء الحديث في الأصل موجهاً لهم إلى اختيار البطانة الحسنة، والتجافي عن سيئها وبيان أثرهما، فقال ﷺ: "إذا أراد الله بالأمير

---

(١) أخرجه أبو داود، ٤٨٣٣، والحديث حسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود، ٤٠٤٦).

(٢) هذه أخلاقنا حين نكون مؤمنين، محمود محمد الخزندار ص ٢٥٩.

(٣) أخرجه البخاري ٤٦٤٢.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٣٩/٣.

(٥) سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، الصنعاني ٤٦١/٢، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٢٨/٣١.

خيراً، جعل له وزير صدق، إن نسى ذكره، وإن ذكر أعانه...."، لذا يحرص العلماء دائماً على إبداء النصيحة والموعظة الحسنة للحكام حرصاً جعلهم يتحملون كل مشقة وأذى في هذا السبيل، ويبذلون جهدهم لتحقيق هذا المطلب الشرعي الكريم(١)، ولكن لابد من مراعاة مكانة ولاة الأمر ومنزلتهم الرفيعة بين الناس، فيجب التلطف في دعوتهم وإلانة القول معهم، ومخاطبتهم بالأسلوب الذي يليق بهم، واختيار الزمان والمكان المناسب لدعوتهم، لأن ذلك أدعى إلى استجابتهم. والواجب في نصحه: أن يبين أن الإمار تتخذ قربة إلى الله ودينًا، فإن التقرب إلى الله بها بطاعته وطاعة رسوله من أفضل القربات، وإنما يفسد فيها حال أكثر الناس، لابتغاء الرياسة أو المال بها، كما هو مشاهد في عصرنا(٢).

رابعاً- من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب:

ورد أسلوب الترغيب والترهيب في الحديث، حيث رغب النبي ﷺ في البطانة الحسنة، ورهب من نقيضها ببيان أثرهما، فقال ﷺ: «إِذَا أَرَادَ الله بِالأَمِيرِ خَيْراً جَعَلَ لَهُ وَزِير صِدْقٍ، إِنْ نَسِيَ ذَكَّرَهُ وَإِنْ ذَكَرَ أَعَانَهُ، وَإِذَا أَرَادَ الله بِهِ غَيْرَ ذَلِكَ جَعَلَ لَهُ وَزِيرَ سُوءٍ، إِنْ نَسِيَ لَمْ يُذَكِّرْهُ وَإِنْ ذَكَرَ لَمْ يُعِنْهُ». وأسلوب الترغيب والترهيب من آكد الأساليب الدعوية تأثيراً، لما فيهما من تشويق للمدعو إلى الاستجابة، وقبول الحق والثبات عليه، وتحذيره من عدم الاستجابة أو رفض الحق، أو عدم الثبات عليه بعد قبوله(٣).

خامساً- من واجبات الداعية: بيان الحقائق للمدعوين:

إن من أهم الواجبات على الداعية بيان الحقائق للمدعوين، حتى يكونوا على بصيرة من أمرهم، وتبيين الحقائق من أهم الوظائف التي كلف بها الأنبياء "وظيفة التبيين" قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٤).

---

(١) الإسلام بين العلماء والحكام، عبدالعزيز البدري ص ١٠٤.

(٢) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، ابن تيمية ص ٢١٩.

(٣) مستلزمات الدعوة الإسلامية، علي بن صالح المرشد ص ١٦٠.

(٤) سورة النحل، آية: ٤٤.

وفي الحديث صورة من صور تبيين النبي ﷺ للحقائق وتبصير الناس بها، فقال: "إذا أراد الله بالأمير خيراً، جعل له وزير صدق، إن نسى ذكره، وإن ذكر أعانه ..."، فالدعوة الإسلامية منهج يقوم على بيان الحق والخير والهدى، وكشف وسائل الباطل وأساليبه، ومنهج الزيغ فيه، بكل الطرق والأساليب والوسائل والمناهج التي يجمعها قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[1][2].

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

(٢) فقه الدعوة والإعلام، د. عمارة نجيب، مكتبة المعارف، الرياض: ١٩٨٧م ص ١٩.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

مساعدوا المسؤولين هم الأعين التي يرون بها الآخرين، فإن كانوا أمناء نقلوا الصورة صحيحة وإن كانوا خائنين، فقد ضلوا وأضلوا، كما أن طباع الصحبة تؤثر على الصاحب، وقد اشتملت أحاديث الباب على عدد من المضامين التربوية من أبرزها ما يلي:

أولاً- اتخاذ الرفقة الصالحة وتجنب قرناء السوء:

إن من أهم الأهداف التربوية التي تسعى التربية الإسلامية لغرسها في نفوس المتربين الحرص على اتخاذ الرفقة الصالحة وتجنب قرناء السوء، ذلك لأن الرفيق له أثر ليس بالهين على صاحبه وقرينه من ناحية تفكيره وسلوكه وعاداته وغير ذلك، يزداد الأمر أهمية في حق ولاة الأمر والقضاة وأصحاب الولايات، لأن الأثر يتعدى إلى الغير بما يتخذونه من قرارات وأمور تخص الرعية، ومن ثمَّ فيلزم هؤلاء الحرص على اتخاذ الرفقة الصالحة التي تعين على الخير وتدل عليه، وتجنب الرفقة الفاسدة التي تحرض على الشر وترشد إليه، ومن أحاديث الباب التي تبرز هذا الجانب قوله ﷺ: «مَا بَعَثَ اللَّهُ مِنْ نَبِيٍّ، وَلاَ اسْتَخْلَفَ مِنْ خَلِيفَةٍ إلاَّ كَانَتْ لَهُ بِطَانَتَانِ: بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، وَبِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالشَّرِّ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، وَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ»، وقوله ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِالأَمِيرِ خَيْرًا جَعَلَ لَهُ وَزِيرَ صِدْقٍ، إِنْ نَسِيَ ذَكَّرَهُ، وَإِنْ ذَكَرَ أَعَانَهُ، وَإِذَا أَرَادَ بِهِ غَيْرَ ذَلِكَ جَعَلَ لَهُ وَزِيرَ سُوءٍ، إِنْ نَسِيَ لَمْ يُذَكِّرْهُ وَإِنْ ذَكَرَ لَمْ يُعِنْهُ»، فمن خلال هذين الحديثين يبرز أهمية اتخاذ الرفقة الصالحة، ووجود المعين على الخير، ولقد كان الصحابة رضي الله عنهم حريصين كل الحرص على اصطفاء البطانة الصالحة.

"فعمر رضي الله عنه كان مربيًا بطبعه وفطرته، كان أستاذ التربية في المدينة، يربي في المسجد وفي السوق وكان على كل حالاته مربيًا، وتاريخه حافل بحوادث الزجر والتوجيه والتربية. وقف على المنبر يومًا وقال: "ماذا تقولون لو مِلت برأسي إلى الدنيا؟ فقام إليه رجل فسلّ سيفه، وقال: نقوّمك بهذا، قال عمر: إياي تعني بقولك، قال: نعم

إياك أعني، فقال: عمر: رحمك الله... الحمد لله الذي جعل في رعيتي من إذا تعوّجت قوّمني، وقال حذيفة: دخلت على عمر فرأيته مهمومًا حزينًا، فقلت له: ما يهمك يا أمير المؤمنين؟ فقال: إني أخاف أن أقع في منكر فلا ينهاني أحد تعظيمًا لي، فقال حذيفة: والله لو رأيناك خرجت عن الحق لنهيناك، فإن لم تنته ضربناك بالسيف، ففرح عمر رضي الله عنه وقال: الحمد لله الذي جعل لي أصحابًا يقوموني إذا اعوججت"(١).

وما من شك في أن قرناء السوء يزينون للإنسان الخطأ والشر، "ومن وسائل المنهج الإسلامي في علاجه لأمراض الشخصية التحذير من مجالسة قرناء السوء والحث على قطع الصلة بهم، لما لهم من تأثير كبير في إفساد الشخصية الإنسانية وتحطيم أخلاقها. ولأنها إذا استمرت في علاقتها فإنها لن تتغير حالها، ولن تجدي فيها مختلف الأدوية، وقال الله عز وجل محذرًا من مخالطة قرناء السوء: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾(٢)، فيجب البعد عن مجالسة الدنيء والسخيف والفاسق والمرائي، وكل متهم في دينه وعرضه، وقد نفى الله سبحانه الإيمان عن الإنسان الذي يجالس أصحاب السوء الذين يحادُّون الله ورسوله، حتى لو كانوا من أقرب الناس إليه، فقال سبحانه: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ...﴾(٣)، وهذا يدل على مدى الخطورة التي تلحق بالإنسان من جرّاء مجالسته لهم"(٤).

ثانيًا- غرس روح التناصح:

من أهداف التربية الخلقية غرس روح التناصح بين أفراد المجتمع رؤساء ومرءوسين وحكام ومحكومين لما في التربية على التناصح والتواصي من صلاح البلاد والعباد،

---

(١) منهج القرآن في التربية، محمد شديد ص ٤٥، ٤٦.

(٢) سورة الكهف، الآية:٢٨.

(٣) سورة المجادلة، الآية:٢٢.

(٤) الشخصية ومنهج الإسلام في بنائها ورعايتها، د. ناصر بن عبدالله التركي ص ٥٧٩، ٥٨٠.

واستقامة الأمور وكثرة الخير للحاضر والباد، وفي حديثي الباب نلمح هذه التربية الخلقية، وضرورتها للمجتمع، ففي حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما: «... إلاَّ كَانَتْ لَهُ بِطَانَتَانِ: بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، وَبِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالشَّرِّ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، وَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ»، وفي حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِالأَمِيرِ خَيْرًا جَعَلَ لَهُ وَزِيرَ صِدْقٍ، إِنْ نَسِيَ ذَكَّرَهُ، وَإِنْ ذَكَرَ أَعَانَهُ، وَإِذَا أَرَادَ بِهِ غَيْرَ ذَلِكَ جَعَلَ لَهُ وَزِيرَ سُوءٍ، إِنْ نَسِيَ لَمْ يُذَكِّرْهُ وَإِنْ ذَكَرَ لَمْ يُعِنْهُ».

فمن خلال هذين الحديثين يتبين ضرورة اهتمام واعتناء المربين بغرس روح التناصح والتواصي على ذلك.

"إن التذكير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتواصي من أساليب التربية الإسلامية التي بدت خلالها أحاديث المربي الرسول ﷺ، وفي طريقة التواصي دعوة كل مسلم إلى أن يكون مربيًا يعلم أخاه المسلم والتذكير بالخير والحق، والدعوة إليهما، والتنبيه إلى الشر والضرر والنهي عنهما هو من صميم الأساليب التربوية الإسلامية للإنسان المسلم والتي يحتاجها أي إنسان في كل زمان، وفي كل مكان في العالم الذي نعيش فيه"(١).

وعلى المشتغلين بالتربية، تدريب وتعويد المتربين على النصيحة والتواصي تحقيقًا لأهداف التربية الخلقية، فالدين النصيحة.

"والنصيحة تكون للغير وللنفس، فالذي ينصح نفسه تُكرم، والذي يتشاغل عن نصيحتها تهون نفسه عليه، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر يوصل إلى الغاية المنشودة من التربية الخلقية، والنصيحة أمر واجب لأن الأئمة فعلوا ذلك أي نصحوا للخلق كما أن الصحابة رضي الله عنهم بايعوا الرسول ﷺ على النصيحة، ويتصل بالنصيحة الأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر وهو من طرق التربية الخلقية المباشرة، وهو القطب الأعظم في الدين، ولو طوى بساط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأُهْمِل لفشت الضلالة

---

(١) فلسفة التربية الإسلامية في الحديث الشريف، د. عبدالجواد سيد بكر ص ٣٣٢، ٣٣٣.

وشاع الجهل واستشرى الفساد وخربت البلاد، وهلك العباد فله دور هام في التربية الخلقية أو التهذيب الخلقي، وهو دليل الصدق في الله والدين، ولابد أن يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالشفقة والرأفة واللين في القول، وذلك حتى يؤتي ثماره في إحداث الغاية المرجوة من تهذيب الأخلاق وتطهيرها"[١].

(١) محاضرات ودراسات في أصول التربية الإسلامية، د. محمد علي عزب ص ٢٦١.

٨٣- باب النهي عن تولية الإمارة والقضاء وغيرهما من الولايات لمن سألها أو حرص عليها فعرَّض بها

الحديث رقم (٦٨٠)

٦٨٠- عن أَبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه، قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَا وَرَجُلانِ مِنْ بَنِي عَمِّي، فَقَالَ أحَدُهُمَا: يَا رسول الله، أمِّرْنَا عَلَى بَعْض مَا ولاَّكَ اللهُ عز وجل، وقال الآخَرُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَقَالَ: ((إنَّا وَاللهِ لاَ نُوَلِّي هَذَا العَمَلَ أحَداً سَألَهُ، أَوْ أحَداً حَرَصَ عَلَيْهِ)) متفقٌ عَلَيْهِ(١).

ترجمة الراوي:

أبو موسى الأشعري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨).

الشرح الأدبي

الحديث يعرض المعنى في ثوب القصة التي يحكيها أحد أفرادها، وهو أبو موسى الأشعري رضي الله عنه والمعنى الذي يعرضه الحديث قاعدة عامة يجب أن تراعى عند اختيار من يلي عملا من أعمال المسلمين، وهو ألا يولاه من طلبه، وسعى إليه، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم لمن سألوه الولاية قرَّر ذلك (إنَّا وَاللهِ لاَ نُوَلِّي هَذَا العَمَلَ أحَداً سَألَهُ، أَوْ أحَداً حَرَصَ عَلَيْهِ) ونلاحظ طبيعة التوكيد القوية في بداية الكلام حيث أكده بإن مع اسمية الجملة، والقسم بلفظ الجلالة تلاه بأسلوب النفي ليقطع من نفوسهم كل رغبة تستبقي لهم أملا فيها، ولفظ (أحد) نكرة في سياق النفي تفيد التعميم، وقوله (أَوْ أحَداً حَرَصَ عَلَيْهِ) لأن الأول طلبه بالقول، والثاني عنده الرغبة، والحرص، وإن لم يطلبها مما يشير إلى ضرورة التدقيق فيمن يلي هذه النوعية من الأعمال، وتحري الدقة حتى لا تخدعهم الرغبة المتسترة بلباس الزهد حتى إذا تمكن مما أراد تهتكت تلك سترة النفاق، وكشفت عن وجه قبيح يفوق الآخر شرا، وما ابتلي المسلمين بأشر من ذلك بلية، حيث

---

(١) أخرجه البخاري ٧١٤٩، ومسلم ١٧٣٣/١٤، كتاب الإمارة، باب ٣ واللفظ له.

تصدر المنافقون كثيرا من أعمال الأمة فلبّسوا على الناس الحقائق، واتخذوا من هذه المناصب وسيلة يتاجرون فيها بدين الناس، ودنياهم.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: النهى عن طلب تولي الإمارة.

ثانياً: من أساليب الدعوة: القسم.

ثالثاً: من أهداف الدعوة: تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة.

رابعاً: من واجبات الداعية: عدم المجاملة على حساب مصلحة المسلمين.

أولاً- من موضوعات الدعوة: النهى عن طلب تولي الإمارة:

لقد تضافرت النصوص النبوية على النهى عن طلب تولى الإمارة، بل إن النبي ﷺ بيّن ذلك عملياً بعدم الاستجابة لذينك الرجلين اللذين طلبا منه توليتهما الإمارة، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: دخلتُ على النبيِّ ﷺ أنا ورجلانِ من بني عمي. فقالَ أحدُهما: يا رسولَ اللّهِ! أمِّرْنا على بعضِ ما ولاَّكَ اللّهُ عز وجل. وقال الآخر مثلَ ذلكَ فقال: "إنَّا واللّهِ لا نُوَلِّي على هذا العملِ أحداً سأله، ولا أحداً حرَصَ عليه"، فإن الحرص على طلب الإمارة، والحرص على الشرف، يستلزم ضرراً عظيماً قبل وقوعه، في السعى في أسبابه، وبعد وقوعه، بالحرص العظيم الذي قد يقع فيه صاحب الولاية من الظلم والتكبر وغير ذلك من المفاسد[١].

وقال ابن عثيمين في شرح الحديث: (لا ينبغي لولي الأمر إذا سأله أحد أن يؤمره على بلد أو على قطعة من الأرض فيها بادية أو ما أشبه ذلك أن يؤمره، وذلك لأن الذي يطلب أو يحرص على ذلك ربما يكون غرضه بهذا أن يجعل لنفسه سلطة، لا أن يصلح الخلق، فلما كان قد يُتهم بهذه التهمة منع النبي ﷺ أن يولي من طلب الإمارة "إنا والله لا نولي هذا الأمر أحداً سأله أو أحدًا أحرص عليه" فإن قال قائل: كيف تجيبون عن قول يوسف عليه السلام للعزير ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾[٢].

---

(١) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، عبدالعزيز بن ناصر الجليل، ٣/٣٥٦.

(٢) سورة يوسف، آية: ٥٥.

فإننا نجيب بأحد جوابين:

أ) إما أن يقال إن شرع من قبلنا إذا خالفه شرعنا، فالعمدة على شرعنا، بناء على القاعدة المعروفة عند الأصوليين، وشرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه"، وورد شرعنا بخلافه أننا لا نولي الأمر أحداً طلب الولاية عليه.

ب) أو يقال إن يوسف عليه السلام رأى أن المال ضائع، وأنه يُفَرطُ فيه ويُلْعَبُ فيه، فأراد أن ينقذ البلاد من هذا التلاعب، ومثل هذا يكون الغرض منه إزالة سوء التدبير وسوء العمل، ويكون هذا لا بأس به)(١).

ثانياً- من أساليب الدعوة: القسم:

ورد أسلوب القسم في الحديث في قوله ﷺ: "إِنَّا واللَّهِ لا نُوَلِّي على هذا العملِ..."، وأسلوب القسم من أبلغ الأساليب الدعوية تأثيراً، إذ أن القَسَم أحد أسباب ثبوت الحق، ويبصر المدعوين بالدعوة ويبين دعائمها الأساسية(٢)، ولقد عرف أسلوب القسم واستعمله العرب تأكيداً لخبر، أو تعظيماً لشيء، أو جمع الانتباه حول غاية.

ثالثاً- من أهداف الدعوة: تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة:

لقد كان النبي ﷺ حريصاً على تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، وحثّ أصحابه رضي الله عنهم على ذلك يظهر ذلك، في هذا الحديث، حيث منع الرسول ﷺ الولاية عمن يضعف عن القيام بها أو بالتقصير فيها، أو طلبه لها حباً للرياسة والمال، فقال ﷺ: ((إِنَّا واللَّهِ لا نُوَلِّي على هذا العملِ أحداً سأله، ولا أحداً حرَصَ عليه)). وفي ذلك تقديم للمصلحة العامة على المصلحة الخاصة، بتعطيل الخاصة، حفاظاً على العامة، إذ أنه مما يجب على الراعي أن يكون تصرفه منوطًا بالمصلحة وتعظيم هذه المصلحة، إذا كانت تتعلق بالعموم(٣).

---

(١) انظر: شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين، ٩٧٣/١، ٩٧٤.

(٢) انظر: الدعوة الإسلامية، أصولها ووسائلها، د. أحمد أحمد غلوش ص ٢٢٩-٢٣٦.

(٣) شرح القواعد الفقهية، أحمد بن محمد الزرقا ص ٣٠٩.

فيقدَّم في كل ولاية أعرف الناس بمعالجتها ومفاسدها، وأقوامهم بجلب المصالح ودفع المفاسد، فيقدم في كل موقع مسئولية أكمل الناس في أوصافه وأقوامهم بأعبائه(١)، وذلك وغيره يندرج تحت القاعدة الأصولية المشهورة، تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، بل إنه ليتحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام. من هنا لا بد أن يُعلم الداعي المدعو أن رتب المصالح والمفاسد متفاوتة، وعلى رتب المصالح تترتب الفضائل في الدنيا، والأجور في العقبى، وعلى رتب المفاسد تترتب الصغائر والكبائر، وعقوبات الدنيا والآخرة(٢).

رابعاً- من واجبات الداعية: عدم المجاملة على حساب مصلحة المسلمين:

إن من واجبات الداعية أن يلزم الإخلاص في كافة الأمور، ويراعي مصلحة عموم المسلمين، فلا مجال في الدعوة للمجاملة والمحاباة، وكما هو واضح في الحديث من منع الولاية ممن طلبها، حرصاً على مصلحة المسلمين، فقال: "إِنَّا واللَّهِ لا نُوَلِّي على هذا العملِ أحداً سأله، ولا أحداً حرَصَ عليه". فنجد أن الرسول ﷺ منعهما الولاية، مؤكداً لامتناعه لهما، ولمثلهما بقوله: "إنا والله ..." وذلك لأن سؤاله لذلك وحرصه عليه، يشعر أنه لم يسع في ذلك لنفع الإسلام والمسلمين، وإنما سعى لجمع الدنيا وتكثيرها له، وفي ذلك إفساد لأمر الناس دنيا وأخرى وإهلاك له(٣).

لذا وجب على ولاة الأمور والقادة كل حسب موقعه، أن يجعلوا إقامة شرع الله والمحافظة على مصالح المسلمين نصب أعينهم، وألا يدعو ثغرة للمجاملة والمحاباة، خاصة في تقليد الأمور وإسناد الأعمال، فيجب حسن اختيار الأعوان والعمال من الأمناء المخلصين ذوي الدراية والكفاية، مما يحقق الغايات والأهداف، ويزيل من دنيا الناس

---

(١) انظر: شجرة المعارف والأحوال، العز بن عبدالسلام ص ٣٥٢.

(٢) انظر: شرح القواعد الفقهية، أحمد بن محمد الزرقا ص ١٩٧، ١٩٨، وقواعد الأحكام في مصالح الأنام، العز بن عبدالسلام، ٢٩/١.

(٣) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٩٥٣، شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين، ٦٣٠/١.

الوساطة والمحسوبية[1]، وذلك رعاية لمصالح المسلمين، واستبراءً للذمة أمام الله عز وجل.

دخل أعرابي على سليمان بن عبدالملك فقال: تكلم يا أعرابي، فقال يا أمير المؤمنين إني مكلمك بكلام فاحتمله، وإن كرهته فإن وراءه ما تحبه إن قبلته، فقال يا أعرابي إنا نجود بسعة الاحتمال على من لا نرجو نصحه ولا نأمن غشه، فكيف بمن نأمن غشه ونرجو نصحه؟ فقال الأعرابي يا أمير المؤمنين، إنه قد تكنّفك رجال أساءوا الاختيار لأنفسهم، ابتاعوا دنياهم بدينهم، ورضاك بسخط ربهم، خافوك في الله تعالى ولم يخافوا الله فيك، فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه، فإنهم لم يألوا في الأمانة تضييعاً، وفي الأمة خسفاً وعَسْفاً، وأنت مسئول عما اجترحوا، وليسوا بمسئولين عما اجترحت، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك، فإن أعظم الناس غبناً من باع آخرته بدنيا غيره[2].

---

(١) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين ٣٤٠٥/٨.

(٢) انظر: كلمات في الأخلاق الإسلامية، كمال محمد عيسى ص ١٢٩.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

طالب الإمارة إما أن يكون كفؤا لها أو دونها بمراحل، فمن طلبها وليس من أهلها فقد نهاه الإسلام عن ذلك، وحرم على ولي الأمر الاستجابة له، ومن كان أهلاً لها وجب أن يعطاها كما في قصة يوسف عليه السلام، ومن المضامين التربوية في أحاديث الباب ما يلي:

أولاً- التربية بالمواقف والأحداث:

من الأساليب التربوية الناجعة التربية بالمواقف والأحداث، فالمربي الناجح يغتنم الموقف والحدث ليبرز من خلاله القيم التربوية التي يريد غرسها في نفوس المتربين، وحديث الباب الذي معنا تتضح فيه التربية من خلال المواقف والأحداث في قول أبي موسى الأشعري رضي الله عنه : "دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم أَنَا وَرَجُلَانِ مِنْ بَنِي عَمِّي. فَقَالَ أَحَدُ الرَّجُلَيْنِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمِّرْنَا عَلَىٰ بَعْضِ مَا وَلَّاكَ اللَّهُ ..." استغل النبي صلى الله عليه وسلم هذا الحدث والموقف وأبرز من خلاله أن مثل هذه الأمور لا توكل لمن يطلبها، ويحرص عليها لأن ذلك دليلٌ على إرادته نفع نفسه، وجمع الدنيا إليه، ولا يبتغي من ذلك نفع الإسلام والمسلمين.

"إن الحياة أحداث ومواقف متتالية، والأحداث والمواقف لها عواملها وأسبابها، ولها كذلك نتائجها ومخرجاتها، وفي كل حدث أو موقف يَكْمُن درس ينبغي أن نعيه، والتربية بالأحداث والمواقف الواقعية من أهم أساليب التربية الإسلامية، فقد استخدم الرسول صلى الله عليه وسلم من الأحداث والمواقف العملية دروسًا لقنها المسلمين، وهكذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يدع فرصة أو حدثًا أو موقفًا يمر دون أن يجعل منه درسًا وموعظة" (١).

إن المربي الأريب لا يترك الأحداث أو المواقف دون أن يعطي منها درسًا تربويًا يصحح مسار الإنسان، ويوجه سلوكه وتصرفه إلى الأفضل.

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. محمد شحات الخطيب وآخرون ص ٨٧.

"إن من طرق التربية الفعّالة التربية بالأحداث أي استغلال حدث معين لإعطاء توجيه أو تغيير سلوك معين وميزة هذا التوجيه وهذا التغير في السلوك يجيء في أعقاب حدث يهز النفس كلها هزًا فتكون أكثر قابلية للتأثير، ويكون التوجيه والتغير في السلوك أفعل وأعمق وأطول أمدًا في التأثير من تلك التوجيهات والتغيرات العابرة التي تأتي بغير انفعال ولا حدث يهز المشاعر والأحداث إما أن تكون تلقائية تحدث بسبب التصرفات الخاصة للناس أو لأسباب خارجة عن إرادتهم وتقديرهم، وإما أن تكون منظمة ومخططة مسبقًا كي يمر بها الصغير أو الكبير بقصد إثارة مشاعره وانفعاله، ولقد قام الإسلام بتربية الأمة من منشئها باستغلال الأحداث"(١).

ثانيًا- انتقاء القيادات:

من الأمور التي ينبغي أن يحرص عليها المربي انتقاء القيادات، ولاشك أن ذلك من الأمور المهمة في العملية التربوية فليس كل أحد مؤهلاً للقيادة، وتقلد المناصب، ففي حديث الباب رفض رسول الله ﷺ أن يمنح القيادة لمن طلبها وسألها، "... إنا والله لا نولي هذا العمل أحدًا سأله، أو أحدًا حرص عليه"، فيبدو من هذا السائل للولاية أنه أراد نفع نفسه بجمع الدنيا، ومن ثَمَّ أعرض عنه رسول الله ﷺ فإن الجدير بالولاية والمنصب مَنْ يسعى لنفع الإسلام والمسلمين، ويحرص على أن يوظف خبراته وما يمتلك من قدرات وإمكانات لصالح إخوانه المسلمين.

إن عملية الانتقاء للقيادات على جميع المستويات والوظائف والأعمال من الأهمية بمكان، "والانتقاء هو اختيار نماذج من طبقات المجتمع المختلفة تتمتع بميزات عالية في سلم الكمال السلوكي، يمكن الاعتماد عليها في المهمات الصعبة، ولابد لمن يريد أن يقيم بنيانًا شامخًا من أن يهتم بالأعمدة والركائز التي ستتحمل ثقل البنيان وتبعاته، وأن يقيمه على أرض صُلْبة قد جرى اختبارها ومعرفة قوة تماسكها وإلا تداعى بنيانه عند تعرضه لأدنى اهتزاز، ولذا فينبغي التشدد في الانتقاء وعدم التساهل فيه، وأن

---

(١) منهج التربية في التصور الإسلامي، د. علي أحمد مدكور ص ٤٤٧.

تكون شروط الانتقاء متكاملة شاملة غير ناقصة خاصة لأولئك الذين "يتَوقع منهم أن يتبوءوا مكانًا رفيعًا" [(١)].

وأشد ما تكون إليه الحاجة في عملية الانتقاء في اختيار الوزراء والأمراء لأنهم المباشرون للأعمال، المخالطون لأنواع الرجال.

"والوزارة يُحتاج فيها إلى شرط زائد على شروط الإمامة وهو أن يكون من أهل الكفاية، فلا يصل إلى استتابة الكفاءة إلا أن يكون منهم، كما لا يقدر على المباشرة إذا قصر عنهم وعلى هذا الشرط مدار الوزارة، وبه تنتظم السياسة.

حكي أن المأمون كتب في اختيار وزير:

إني التمست لأموري رجلاً جامعًا لخصال الخير ذا عِفَّةٍ في خلائقه واستقامة في طرائقه قد هذبته الآداب وأحكمته التجارب، إن اؤتمن على الأسرار قام بها، وإن قلد مهمات الأمور نهض فيها، يسكته الحلم، وينطقه العلم، وتكفيه اللحظة، وتغنيه اللمحة، له صولة الأمراء وأناة الحكماء وتواضع العلماء، وفهم الفقهاء إن أُحسن إليه شكر، وإن ابتلي بالإساءة صبر، لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده، يسترق قلوب الرجال بخلابة لسانه وحسن بيانه، فهذه الأوصاف إذا أكملت في الزعيم المدبر، وقل ما تكمل فالصلاح بنظره عام وما يناط برأيه وتدبيره تام، وإن اختلت فالصلاح بِحَسَبِها يختل والتدبير على قدرها يَعْتَلُّ ولئن لم يكن هذا من الشروط الدينية المحضة فهو من شروط السياسة الممازجة لشروط الدين لما يتعلق بها من مصالح الأمة واستقامة الملة"[(٢)].

❁ ❁ ❁

(١) انظر: أساليب الدعوة والتربية، د. زياد محمود العاني ص ١٠٩-١١٤.

(٢) الأحكام السلطانية، أبو الحسن الماوردي ص ٢٢، ٢٣.